الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الثاني عشر

الاجزاء من ٢١٣ الى ٢٣١

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
213	سورة المائدة	الآية 90 الى الآية 94	2
214	=	الآية 95	466
215	=	الآية 96	794
216	=	الآية 97 الى الآية 102	999
217	=	الآية 103 الى الآية 104	1324
218	=	الآية 105 الى الآية 108	1627
219	=	الآية 109 الى الآية 115	2227
220	=	الآية 116 الى الآية 118	2661
221	=	الآية 119 الى الآية 120	2891
222	سورة الانعام	فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة	3279
223	=	تابع معاني السورة الكريمة	3692
224	=	ذكر قراءات السورة كاملة	3962
225	=	فصل في تخريج الاحاديث	4395
226	=	الآية 1 الى الآية 3	4585
227	=	الآية 4 الى الآية 12	4891
228	=	الآية 13 الى الآية 20	5327
229	=	الآية 21 الى الآية 29	5779
230	=	الآية 30 الى الآية 32	6085
231	=	الآية 33 الى الآية 41	6310

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث عشر بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث عشر بعد المائتين

من الآية ﴿ 90 ﴾ من سورة المائدة

وحتى الآية ﴿ 94 ﴾ من نفس السورة

(4/213)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تم بيان حال المأكل وكان داعية إلى المشرب ، احتيج إلى بيانه ، فبين تعالى المحرم منه . فعلم أن ما عداه مأذون في التمتع به ، وذلك محاذٍ في تحريم شيء مقترن باللازم بعد إحلال آخر لما في أول السورة من تحريم الميتة وما ذكر معها بعد إحلال بهيمة الأنعام وما معها ، فقال تعالى مذكراً لهم بما أقروا به من الإيمان الذي معناه الإذعان : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أقروا به .

(5/213)

ونبههم على ما يريد العدو بهم من الشر بقوله تعالى : ﴿ إنما الخمر ﴾ وهي كل ما أسكر سواء فيه قليله وكثيره ، وأضاف إليها ما واخاها في الضرر ديناً ودنيا وفي كونه سبباً للخصام وكثرة اللغط المقتضي للحلف والإقسام تأكيداً لتحريم الخمر بالتنبيه على أن الكل من أفعال الجاهلية ، فلا فرق بين شاربها والذابح على النصب والمعتمد على الأزلام فقال : ﴿ والميسر ﴾ أي الذي تقدم ذكره في البقرة ﴿ والأنصاب والأزلام ﴾ المتقدم أيضاً ذكرُهما أول السورة ، والزلم : القدح لا ريش له – قاله البخاري ؛ وحكمة ترتيبها هكذا أنه لما كانت الخمر غاية في الحمل على إتلاف المال ، قرن بها ما يليها في ذلك وهو القمار ، ولما كان الميسر مفسدة المال ، قرن به مفسدة الدين وهي الأنصاب ، ولما كان تعظيم الأنصاب شركاً جلياً إن عبدت ، وخفياً إن ذبح عليها دون عبادة ، قرن بها نوعاً من الشرك الخفي وهو الاستقسام بالأزلام : ثم أمر باجتناب الكل إشارة وعبارة على أتم وجه فقال : ﴿ رجس ﴾ أي قذر أهل لأن يبعد عنه بكل اعتبار حتى عن ذكره سواء كان عيناً أو معنى ، وسواء كانت الرجسية في الحس أو المعنى ، ووحد الخبر للنص على الخمر والإعلام بأن أخبار الثلاثة حذفت وقدرت ، لأنها أهل لأن يقال في كل واحد منها على حدتها كذلك ولا يكفي عنها خبر واحد على سبيل الجمع ؛ ثم زاد في التنفير عنها تأكيداً

لرجسيتها بقوله : ﴿ من عمل الشيطان ﴾ أي المحترق البعيد ، ثم صرح بما اقتضاه السياق من الاجتناب فقال : ﴿ فاجتنبوه ﴾ أي تعمدوا أن تكونوا عنه في جانب آخر غير جانبه .

(6/213)

وأفرد لما تقدم من الحِكَم ، ثم علل بما يفهم أنه لا فوز بشيء من المطالب مع مباشرتها فقال : ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي تظفرون بجميع مطالبكم ، روى البخاري في التفسير عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " لقد حرمت الخمر وما بالمدينة منها شيء " وفي رواية : " نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ما فيها شراب العنب " وفي رواية عنه : " سمعت عمر على منبر النبي صلى الله عليه وسلم يقول : أما بعد أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب – وفي رواية : من الزبيب – والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل " وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا ، وإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال : حرمت الخمر ، قالوا : أهرق هذه القلال يا أنس ! فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل " وفي رواية عنه : " حرمت علينا الخمر حين حرمت وما نجد خمر الأعناب إلا قليلاً ، وعامة خمرنا البسر والتمر " قال الأصبهاني : وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 535.536 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الأحكام المذكورة في هذا الموضع ، ووجه اتصاله بما قبله أنه تعالى قال فيما تقدم ﴿ لاَ تُحَرِّمُواْ طيبات مَا أَحَلَّ الله لَكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حلالا طَيِّباً ﴾ [المائدة : 87 ، 88] ثم لما كان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر لا جرم أنه تعالى بيّن أنهما غير داخلين في المحللات ، بل في المحرمات .

واعلم أنا قد ذكرنا في سورة البقرة معنى الخمر والميسر وذكرنا معنى الأنصاب والأزلام في أول هذه السورة عند قوله ﴿ وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ [المائدة : 3] فمن أراد الاستقصاء فعليه بهذه المواضع .

(7/213)

وفي اشتقاق لفظ الخمر وجهان : الأول : سميت الخمر خمراً لأنها خامرت العقل ، أي خالطته فسترته ، والثاني : قال ابن الأعرابي : تركت فاختمرت ، أي تغير ريحها ، والميسر هو قمارهم في الجزور ، والأنصاب هي آلهتهم التي نصبوها يعبدونها ، والأزلام سهام

مكتوب عليها خير وشر .

واعلم أنه تعالى وصف هذه الأقسام الأربعة بوصفين : الأول : قوله ﴿ رِجْسٌ ﴾

والرجس في اللغة كل ما استقذر من عمل .

يقال : رجس الرجل رجساً ورجس إذا عمل عملاً قبيحاً ، وأصله من الرجس بفتح الراء ، وهو شدة الصوت .

يقال : سحاب رجاس إذا كان شديد الصوت بالرعد فكان الرجس هو العمل الذي يكون قوي الدرجة كامل الرتبة في القبح .

الوصف الثاني : قوله ﴿ مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ وهذا أيضاً مكمل لكونه رجساً لأن الشيطان نجس خبيث لأنه كافر والكافر نجس لقوله ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] والخبيث لا يدعو إلا إلى الخبيث لقوله ﴿ الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ ﴾ [النور : 26]

وأيضاً كل ما أضيف إلى الشيطان فالمراد من تلك الإضافة المبالغة في كمال قبحه .

قال تعالى : ﴿ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ قَالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ [القصص : 15] ثم إنه تعالى لما وصف هذه الأربعة بهذين الوصفين قال ﴿ فاجتنبوه ﴾ أي كونوا جانباً منه ، والهاء عائدة إلى ماذا – فيه وجهان : الأول : أنها عائدة إلى الرجس ، والرجس واقع على الأربعة المذكورة ، فكان الأمر بالاجتناب متناولاً للكل .

الثاني : أنها عائدة إلى المضاف المحذوف ، كأنه قيل : إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما

أو ما أشبه ذلك ، ولذلك قال : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 66.67 ﴾

(8/213)

وقال أبو حيان :

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما أمر تعالى بأكل ما رزقهم حلالاً طيباً ونهاهم عن تحريم ما أحله لهم مما لا إثم فيه وكان المستطاب المستلذ عندهم الخمر والميسر وكانوا يقولون الخمر تطرد الهموم وتنشط النفس وتشجع الجبان وتبعث على المكارم ، والميسر يحصل به تنمية المال ولذة الغلبة بيَّن تعالى تحريم الخمر والميسر لأن هذه اللذة يقارنها مفاسد عظيمة في الخمر إذهاب العقل وإتلاف المال ولذلك ذم بعض حكماء الجاهلية إتلاف المال بها وجعل ترك ذلك مدحاً فقال :

أخي ثقة لا تتلف الخمر ماله . . .

ولكنه قد يهلك المال نائله

(9/213)

وتنشأ عنها مفاسد أخر من قتل النفس وشدّة البغضاء وارتكاب المعاصي لأن ملاك هذه كلها العقل فإذا ذهب العقل أتت هذه المفاسد ، والميسر فيه أخذ المال بالباطل ، وهذا الخطاب للمؤمنين والذي منعوا منه في هذه الآية هي شهوات وعادات ، فأما الخمر فكانت لم تحرم بعد وإنما نزل تحريمها بعد وقعة أحد سنة ثلاث من الهجرة ، وأما الميسر ففيه لذة وغلبة ، وأما الأنصاب فإن كانت الحجارة التي يذبحون عندها وينحرون فحكم عليها بالرجس دفعاً لما عسى أن يبقى في قلب ضعيف الإيمان من تعظيمها وإن كانت الأنصاب التي تعبد من دون الله فقرنت الثلاثة بها مبالغة في أنه يجب اجتنابها كما يجب اجتناب الأصنام ، وأما الأزلام التي كان الأكثرون يتخذونها في أحدها لا وفي الآخر نعم ، والآخر غفل وكانوا يعظمونها ومنها ما يكون عند الكهان ومنها ما يكون عند قريش في الكعبة وكان فيها أحكام لهم ، ومن هذا القبيل الزجر بالطير وبالوحش وبأخذ الفأل في الكتب ، ونحوه مما يصنعه الناس اليوم وقد اجتمعت أنواع من التأكيد في الآية منها التصدير بإنما وقران الخمر والميسر بالأصنام إذا فسرنا الأنصاب بها وفي الحديث " مدمن الخمر كعابد وثن " والإخبار عنها بقوله رجس وقال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ ووصفه بأنه من عمل الشيطان والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت ، والأمر بالاجتناب وترجية

الفلاح وهو الفوز باجتنابه فالخيبة في ارتكابه ، وبدىء بالخمر لأن سبب النزول إنما وقع بها من الفساد ولأنها جماع الإثم .

(10/213)

وكانت خمر المدينة حين نزولها الغالب عليها كونها من العسل ومن التمر ومن الزبيب ومن الحنطة ومن الشعير وكانت قليلة من العنب ، وقد أجمع المسلمون على تحريم القليل والكثير من خمر العنب التي لم تمسها نار ولا خالطها شيء والأكثر من الأمة على أن ما أسكر كثيره فقليه حرام ، والخلاف فيما لا يسكر قليه ويسكر كثيره من غير خمر العنب مذكور في كتب الفقه ، قال ابن عطية : وقد خرّج قوم تحريم الخمر من وصفها برجس ، وقد وصف تعالى في آية أخرى الميتة والدم ولحم الخنزير بأنها رجس فيجيء من ذلك أن كل رجس حرام وفي هذا نظر والاجتناب أن تجعل الشيء جانباً وناحية انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(11/213)

وقال السمرقندى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ نزلت هذه الآية في شأن سعد بن أبي وقاص ، لأنهم كانوا يشربونها ، وكانت لهم حلالاً .

فجرى بين سعد وبين رجل من الأنصار افتخار في الأنساب ، فاقتتلا ، فشج رأس سعد ، فدعا عمر بن الخطاب ، فقال : اللهم أرنا رأيك في الخمر ، فإنها متلفة للمال ، مذهبة للعقل ، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ومنافع لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : 219] فقال عمر : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ يعني : حرام ، وهو من تزيين الشيطان ، ﴿ فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يعني : فاتركوا شربها ، ولم يقل : فاجتنبوها ، لأنه انصرف إلى المعنى ، ومعناه : اجتنبوا ما ذكرنا ونهيناكم عن ذلك ، قوله : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ [الأنعام : 141] ولم يقل : من ثمرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(12/213)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾

في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن سعد بن أبي وقاص أتى نفراً من المهاجرين والأنصار ، فأكل عندهم ، وشرب الخمر ، قبل أن تحرم ، فقال : المهاجرون خير من الأنصار ، فأخذ رجل لَحْي جمل فضربه ، فجدع أنفه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فنزلت هذه الآية ، رواه مصعب بن سعد عن أبيه .

وقال سعيد بن جبير : صنع رجل من الأنصار صنيعاً ، فدعا سعد بن أبي وقاص ، فلما أخذت فيهم الخمرة افتخروا واستبُّوا ، فقام الأنصاري إلى لحي بعير ، فضرب به رأس سعد ، فإذا الدم على وجهه ، فذهب سعد يشكو إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل تحريم الخمر في قوله : ﴿ إنما الخمر والمسر ﴾ إلى قوله : ﴿ تفلحون ﴾ .

والثاني : أن عمر بن الخطاب قال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافيا ، فنزلت التي في (البقرة) فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت التي في النساء ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو ميسرة عن عمر .

والثالث : أن أُناساً من المسلمين شربوها ، فقاتل بعضهم بعضاً ، وتكلموا بما لا يرضاه الله

من القول ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أن قبيلتين من الأنصار شربوا ، فلما ثَمِلوا عبث بعضهم ببعض ، فلما صحَوْا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه وبلحيته ، فيقول : صنع بي هذا أخي فلان ! ! والله لو كان بي رؤوفاً ما صنع بي هذا ، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن ، وكانوا إِخوة ليس في قلوبهم ضغائن ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

وقد ذكرنا الخمر والميسر في (البقرة) وذكرنا في "النصب" في أوّل هذه السورة قولين ، وهما اللذان ذكرهما المفسرون في الأنصاب .

(13/213)

وذكرنا هناك "الأزلام" فأما الرجس ، فقال الزجاج : هو اسمٌ لكل ما اسْتُقْذِرَ من عمل ، يقال : رَجُس الرَّجل يرجُس ، ورَجِس يَرْجَسُ : إِذا عمل عملاً قبيحاً ، والرَّجس بفتح الراء : شدّة الصوت ، فكأن الرِّجسَ ، العملُ الذي يقبح ذكره ، ويرتفع في القبح ، ويقال : رعدٌ رجّاس : إِذا كان شديد الصوت .

قوله تعالى : ﴿ من عمل الشيطان ﴾ قال ابن عباس : من تزيين الشيطان .

فإن قيل : كيف نُسِبَ إِليه ، وليس من فعله ؟ فالجواب : أن نسبته إِليه مجاز ، وإِنما نسب

إليه ، لأنه هو الداعي إليه ، المزيّن له ، ألا ترى أن رجلاً لو أغرى رجلاً بضرب رجل ، لجاز أن يقال له : هذا من عملك .

قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوه ﴾ قال الزجاج : اتركوه .

واشتقاقه في اللغة : كونوا جانباً منه .

فإن قيل : كيف ذكر في هذه الآية أشياء ، ثم قال : فاجتنبوه ؟ فالجواب : أن الهاء عائدةٌ على الرجس ، والرجس واقعٌ على الخمر ، والميسر ، والأنصاب ، والأزلام ، ورجوع الهاء عليه بمنزلة رجوعها على الجمع الذي هو واقعٌ عليه ، ومنبئٌ عنه ، ذكره ابن الأنباري .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(14/213)

وقال ابن عطية :

الخطاب للمؤمنين جميعاً ، لأن هذه الأشياء شهوات وعادات قد تلبس بها في الجاهلية وغلبت على النفوس فكان بقي منها في نفوس كثير من المؤمنين ، فأما ﴿ الخمر ﴾ فكانت لم تحرم بعد وأما ﴿ الميسر ﴾ ففيه قمار ولذة للفارغ من النفوس ونفع أيضاً بوجه ما ، وأما ﴿ الأنصاب ﴾ وهي حجارة يذكون عندها لفضل يعتقدونه فيها ، وقيل هي الأصنام

المعبودة كانوا يذبحون لها وعندها في الجاهلية . فإن كانت المرادة في هذه الآية الحجارة التي يذبح عندها فقط فذلك لأنه كان في نفس ضعفة المؤمنين شيء من تعظيم تلك الحجارة ، وهذا كما قالت امرأة الطفيل بن عمرو الدوسي لزوجها : أتخاف على الصبية من ذي الشرى شيئاً ؟ وذو الشرى صنم لدوس ، وإن كانت المرادة في هذه الآية الأصنام فإنما قرنت بهذه الأمور ليبين النقص في هذه إذ تقرن بالأصنام ، ولا يتأول أنه بقي في نفس مؤمن شيء من تعظيم الأصنام والتلبس بها حتى يقال له اجتنبه ، وأما ﴿ الأزلام ﴾ فهي الثلاثة التي كان أكثر الناس يتخذونها في أحدها " لا " وفي الآخر " نعم " ، والآخر " غفل " ، وهي التي حبسها سراقة بن جعشم حين اتبع النبي صلى الله عليه وسلم في وقت الهجرة ، فكانوا يعظمونها ، وبقي منها في بعض النفوس شيء ومن هذا القبيل هو الزجر بالطير وأخذ الفأل منها في الكتب ونحوه مما يصنعه الناس اليوم ، وقد يقال لسهام الميسر أزلام ، والزلم السهم وكان من الأزلام أيضاً ما يكون عند الكهان وكان منها سهام عند الأصنام وهي التي ضرب بها على عبد الله بن عبد المطلب أبي النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان عند قريش في الكعبة أزلام فيها أحكام ذكرها ابن إسحاق وغيره ، فأخبر الله تعالى أن هذه الأشياء ﴿ رجس ﴾ ، قال ابن زيد : الرجس الشر .

(15/213)

قال القاضي أبو محمد : كل مكروه ذميم ، وقد يقال للعذاب ، وقال ابن عباس في هذه الآية ﴿ رجس ﴾ سخط ، وقد يقال للنتن وللعذرة والأقذار رجس ، والرجز العذاب لا غير ، والركس العذرة لا غير ، والرجس يقال للأمرين ، وأمر الله تعالى باجتناب هذه الأمور واقترنت بصيغة الأمر في قوله ﴿ فاجتنبوه ﴾ نصوص الأحاديث وإجماع الأمة ، فحصل الاجتناب في رتبة التحريم ، فبهذا حرمت الخمر بظاهر القرآن ونص الحديث وإجماع الأمة ، وقد تقدم تفسير لفظة ﴿ الخمر ﴾ ومعناها . وتفسير ﴿ الميسر ﴾ في سورة البقرة ، وتقدم تفسير ﴿ الأنصاب ﴾ والاستقسام بالأزلام في صدر هذه السورة ، واختلف الناس في سبب نزول هذه الآيات فقال أبو ميسرة : نزلت بسبب عمر بن الخطاب فإنه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم عيوب الخمر وما ينزل بالناس من أجلها ودعا إلى الله في تحريمها ، وقال : اللهم بين لنا فيها بياناً شافياً ، فنزلت هذه الآيات ، فقال عمر انتهينا ، انتهينا وقال مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد قال : صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا الأنصار لحي جمل فضرب به أنف سعد ففزره ، فكان سعد أفزر الأنف ، قال سعد ففيّ نزلت الآية إلى آخرها ، وقال ابن عباس : نزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار شربوا حتى إذا ثملوا عربدوا فلما صحوا جعل كل واحد منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته وجسده ، فيقول هذا فعل فلان بي ، فحدث بينهم في ذلك ضغائن ، فنزلت هذه الآيات في ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وأمر الخمر إنما كان بتدريج ونوازل كثيرة ، منها قصة حمزة حين جبَّ الأسنمة ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم : وهل أنتم إلا عبيد لأبي ، ومنها قراءة علي بن أبي طالب في صلاة المغرب " قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون " فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] الآية ، ثم لم تزل النوازل تحزب الناس بسببها حتى نزلت هذه الآية ، فحرمت بالمدينة وخمر العنب فيها قليل ، إنما كانت خمرهم من خمسة أشياء من العسل ومن التمر ومن الزبيب ومن الحنطة ومن الشعير ، والأمة مجمعة على تحريم القليل والكثير من خمر العنب التي لم تمسها نار ولا خالطها شيء ، وأكثر الأمة على أن ما أسكر كثيره فقليله حرام ولأبي حنيفة وبعض فقهاء الكوفة إباحة ما لا يسكر مما يسكر كثيره من غير خمر العنب ، وهو مذهب مردود ، وقد خرج قوم تحريم الخمر من وصفها برجس وقد وصف تعالى في آية أخرى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير بأنها رجس ، فيجيء من ذلك أن كل رجس حرام .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر ، والاجتناب أن يجعل الشيء جانباً أو ناحية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر ﴾ وهو المسكر المتخذ من عصير العنب أو كل ما يخامر العقل ويغطيه من الأشربة .

وروي هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿ والميسر ﴾ وهو القمار وعدوا منه اللعب بالجوز والكعاب ﴿ والأنصاب ﴾ وهي الأصنام المنصوبة للعبادة ، وفرق بعضهم بين الأنصاب والأصنام بأن الأنصاب حجارة لم تصور كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها ، والأصنام ما صور وعبد من دون الله عز وجل ﴿ والأزلام ﴾ وهي القداح وقد تقدم الكلام في ذلك على أتم وجه ﴿ رِجْسٌ ﴾ أي قذر تعاف عنه العقول ، وعن الزجاج الرجس كل ما استقذر من عمل قبيح .

وأصل معناه الصوت الشديد ولذا يقال للغمام رجاس لرعده والرجز بمعناه عند بعضهم .

وفرق ابن دريد بين الرجس والرجز والركس فجعل الرجس الشر والرجز العذاب والركس العذرة والنتن ، وإفراد الرجس مع أنه خبر عن متعدد لأنه مصدر يستوي فيه القليل والكثير ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] وقيل : لأنه خبر عن

الخمر وخبر المعطوفات محذوف ثقة بالمذكور .

وقيل : لأن في الكلام مضافاً إلى تلك الأشياء وهو خبر عنه أي إنما شأن هذه الأشياء أو تعاطيها رجس .

وقوله سبحانه : ﴿ مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ في موضع الرفع على أنه صفة ﴿ رِجْسٌ ﴾ أي كائن من عمله لأنه مسبب من تزيينه وتسويله ، وقيل : إن من للابتداء أي ناشىء من عمله .

وعلى التقديرين لا ضير في جعل ذلك من العمل وإن كان ما ذكر من الأعيان .

ودعوى أنه إذا قدر المضاف لم يحتج إلى ملاحظة علاقة السببية ولا إلى القول بأن من ابتدائية لا يخلو عن نظر ﴿ فاجتنبوه ﴾ أي الرجس أو جميع ما مر بتأويل ما مر أو التعاطي المقدر أو الشيطان ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي راجين فلاحكم أو لكي تفلحوا بالاجتناب عنه وقد مر الكلام في ذلك ، ولقد أكد سبحانه تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بفنون التأكيد حيث صدرت الجملة بأنما وقرنا بالأصنام والأزلام وسميا رجساً من عمل الشيطان تنبيهاً على غاية قبحهما وأمر بالاجتناب عن عينهما بناء على بعض الوجوه وجعله سبباً يرجى منه الفلاح فيكون ارتكابهما خيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾

(18/213)

استئناف خطاب للمؤمنين تقفية على الخطاب الذي قبله ليُنْظَم مضمونه في السلك الذي انتظم فيه مضمون الخطاب السابق ، وهو قوله : ﴿ ولا تعتدوا ﴾ [المائدة : 87] المشير إلى أنّ الله ، كما نَهى عن تَحريم المباح ، نهَى عن استحلال الحرام وأنّ الله لمّا أحلّ الطّيبات حرّم الخبائث المفضية إلى مفاسد ، فإنّ الخمر كان طيّباً عند الناس ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتّخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ [النحل : 67] .

والميسر كان وسيلة لإطعام اللحم من لا يقدرون عليه .

فكانت هذه الآية كالاحتراس عمّا قد يُساء تأويله من قوله ﴿ لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ﴾ [الأنعام : 87] .

وقد تقدّم في سورة البقرة أنّ المعوّل عليه من أقوال علمائنا أنّ النهي عن الخمر وقع مدرّجاً ثلاث مرات : الأولى حين نزلت آية ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع

للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [البقرة : 219] ، وذلك يتضمّن نهياً غير جازم ، فترك شرب الخمر ناس كانوا أشدّ تقوى .

فقال عمر : اللّهمّ بَيّن لنا في الخمر بياناً شافياً .

ثم نزلت آية سورة [النساء : 43] ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى حتّى تعلموا ما تقولون ﴾ ، فتجنّب المسلمون شربها في الأوقات التي يظنّ بقاء السكر منها إلى وقت الصلاة ؛ فقال عمر : اللّهم بيِّن لنا في الخمر بَيَاناً شافياً .

ثم نزلت الآية هذه .

فقال عمر : انتهينا .

والمشهور أنّ الخمر حرمت سنة ثلاث من الهجرة بعد وقعة أحُد ، فتكون هذه الآية نزلت قبل سورة العقود ووضعت بعد ذلك في موضعها هنا .

وروي أنّ هذه الآية نزلت بسبب ملاحاة جرَت بين سعد بن أبي وقاص ورجلٍ من الأنصار .

(19/213)

روى مسلم عن سعد بن أبي وقّاص قال : أتيتُ على نفر من الأنصار ، فقالوا : تعالَ نطعِمْك ونُسقك خمراً وذلك قبل أن تحرّم الخمر فأتيتهم في حُشّ ، وإذا رأسُ جَزور مشوي وزقّ من خمر ، فأكلت وشربت معهم ، فذكرتُ الأنصار والمهاجرين عندهم ، فقلتُ : المهاجرون خير من الأنصار ، فأخذ رجل من الأنصار لَحْيَ جَمَل فضربني به فجَرح بأنفي فأتيت رسول الله فأخبرته ، فأنزل الله تعالى فِيّ إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ .

وروى أبو داود عن ابن عبّاس قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] و ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للنّاس ﴾ [البقرة : 219] نسختهما في المائدة ﴿ إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ﴾ .

فلا جرم كان هذا التحريم بمحلّ العناية من الشارع متقدّماً للأمّة في إيضاح أسبابه رفقاً بهم واستئناساً لأنفسهم ، فابتدأهم بآية سورة البقرة ، ولم يسفّههم فيما كانوا يتعاطون من ذلك ، بل أنبأهم بعذرهم في قوله : ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [البقرة : 219] ، ثم بآية سورة النساء ، ثم كرّ عليها بالتحريم بآية سورة المائدة فحصر أمرهما في أنّهما رجس من عمل الشيطان ورجا لهم الفلاح في اجتنابهما بقوله : ﴿ لعلّكم تفلحون ﴾ ، وأثار ما في الطباع من بغض الشيطان بقوله : ﴿ إنّما يريد الشيطان أن يوقع

بينكم العداوة والبغضاء ﴾ .

ثم قال ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ ، فجاء بالاستفهام لتمثيل حال المخاطبين بحال من بيَّن له المتكلّم حقيقة شيء ثم اختبر مقدار تأثير ذلك البيان في نفسه .

وصيغة : هل أنت فاعل كذا .

تستعمل للحثّ على فعل في مقام الاستبطاء ، نبّه عليه في "الكشاف" عند قوله تعالى : ﴿ وقيل للنّاس هَلْ أنتم مُجتمعون ﴾ في سورة [الشعراء : 39] ، قال : ومنه قول تأبّط شرّاً :

(20/213)

هل أنتَ باعثُ دينار لحاجتنا . . .

أو عَبْدِ ربّ أخَا عَوْنِ بنِ مِخْرَاقِ

(دينار اسم رجل ، وكذا عبد ربّ .

وقوله : أخا عون أو عوف نداء ، أي يا أخا عون) .

فتحريم الخمر متقرّر قبل نزول هذه السورة ، فإنّ وفد عبد القيس وفدوا قبل فتح مكة في سنة ثمان ، فكان ممّا أوصاهم به رسول الله أن لا ينتبذوا في الحَنتم والنقير والمُزَفَّت والدّبَّاءِ

، لأنَّها يسرع الاختمار إلى نبيذها .

والمراد بالأنصاب هنا عبادة الأنصاب .

والمراد بالأزلام الاستقسام بها ، لأنّ عطفها على الميسر يقتضي أنّها أزلام غير الميسر .

قال في الكشاف ﴾ : ذكر الأنصاب والأزلام مع الخمر والميسر مقصود منه تأكيد التحريم للخمر والميسر .

وتقدّم الكلام على الخمر والميسر في آية سورة البقرة ، وتقدم الكلام على الأنصاب عند قوله تعالى : ﴿ وما ذُبح على النّصُب ﴾ [المائدة : 3] ، والكلام على الأزلام عند قوله : ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ في أول هذه السورة [3] .

وأكّد في هذه الآية تحريم ما ذُبح على النُصب وتحريم الاستقسام بالأزلام وهو التحريم الوارد في أوّل السورة والمقرّر في الإسلام من أوّل البعثة .

والمرادُ بهذه الأشياء الأربعة هنا تعاطيها ، كلّ بما يُتعاطى به من شُرْب ولعب وذَبح واستِقسام .

والقصرُ المستفاد من إنّما ﴾ قصرُ موصوف على صفة ، أي أنّ هذه الأربعة المذكورات مقصورة على الاتّصاف بالرجس لا تتجاوزه إلى غيره ، وهو ادّعائي للمبالغة في عدم الاعتداد بما عدا صفة الرجس من صفات هذه الأربعة .

ألا ترى أنّ الله قال في سورة [البقرة : 219] في الخمر والميسر ﴿ قل فيهما إثم كبير

ومَنَافع للناس ﴾ ، فأثبت لهما الإثم ، وهو صفة تساوي الرجس في نظر الشريعة ، لأنّ الإثم يقتضي التباعد عن التلبّس بهما مثل الرجس .

وأثبت لهما المنفعة ، وهي صفة تساوي نقيض الرجس ، في نظر الشريعة ، لأنّ المنفعة تستلزم حرصَ الناس على تعاطيهما ، فصحّ أنّ للخمر والميسر صفتين .

(21/213)

وقد قُصر في آية المائدة على ما يساوي إحدى تينك الصفتين أعني الرجس ، فما هو إلاّ قَصْر ادّعائي يشير إلى ما في سورة [البقرة : 219] من قوله : ﴿ وإثمُهما أكبر من نفعهما ﴾ ، فإنّه لمّا نبّهنا إلى ترجيح ما فيهما من الإثم على ما فيهما من المنفعة فقد نبّهنا إلى دحض ما فيهما من المنفعة قُبالة ما فيهما من الإثم حتّى كأنّهما تمحّضا للاتّصاف ب ﴿ فيهما إثم ﴾ [البقرة : 219] ، فصحّ في سورة المائدة أن يقال في حقّهما ما يفيد انحصارهما في أنّهما فيهما إثم ، أي انحصارهما في صفة الكون في هذه الظرفية كالانحصار الذي في قوله : ﴿ إنْ حسابُهم إلاّ على ربِّي ﴾ [الشعراء : 113] ، أي حسابهم مقصور على الاتّصاف بكونه على ربّي ، أي انحصر حسابهم في معنى هذا الحرف .

وذلك هو ما عبّر عنه بعبارة الرجس .

والرجس الخبث المستقذر والمكروه من الأمور الظاهرة ، ويطلق على المذمّات الباطنة كما في قوله : ﴿ وأمّا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 125] ، وقوله : ﴿ إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ﴾ [الأحزاب : 33] .

والمراد به هنا الخبيث في النفوس واعتبارِ الشريعة .

وهو اسم جنس فالإخبار به كالإخبار بالمصدر ، فأفاد المبالغة في الاتّصاف به حتّى كأنّ هذا الموصوف عين الرجس .

ولذلك أيضاً أفرد (رجس) مع كونه خبراً عن متعدّد لأنّه كالخبر بالمصدر .

ومعنى كونها من عمل الشيطان أن تعاطيَها بما تُعاطى لأجله من تسويله للناس تعاطيها ، فكأنّه هو الذي عملها وتعاطاها ، وفي ذلك تنفير لمتعاطيها بأنّه يعمل عمل الشيطان ، فهو شيطان ، وذلك ممّا تأباه النفوس .

والفاء في ﴿ فاجتنبوه ﴾ للتفريع وقد ظهر حُسن موقع هذا التفريع بعد التقدّم بما يوجب النفرة منها .

والضمير المنصوب في قوله ﴿ فاجتنبوه ﴾ عائد إلى الرجس الجامع للأربعة .

و ﴿ لعلّكم تفلحون ﴾ رجاء لهم أن يفلحوا عند اجتناب هذه المنهيات إذا لم يكونوا قد استمرّوا على غيرها من المنهيات .

وتقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتّقون ﴾ [البقرة : 21] .

وقد بيّنت ما اخترته في محل (لعلّ) وهو المطّرد في جميع مواقعها ، وأمّا المحامل التي تأوّلوا بها (لعلّ) في آية سورة البقرة فبعضها لا يتأتّى في هذه الآية فتأمّله .

واجتناب المذكورات هو اجتناب التلبّس بها فيما تقصد له من المفاسد بحسب اختلاف أحوالها ؛ فاجتناب الخمر اجتناب شربها ؛ والميسر اجتناب التقامر به ، والأنصاب اجتناب الذبح عليها ؛ والأزلام اجتناب الاستقسام بها واستشارتها .

ولا يدخل تحت هذا الاجتناب اجتناب مسّها أو إراءتها للناس للحاجة إلى ذلك من اعتبار ببعض أحوالها في الاستقطار ونحوه ، أو لمعرفة صورها ، أو حفظها كآثار من التاريخ ؛ أو ترك الخمر في طور اختمارها لِمن عَصَر العنب لاتّخاذه خلاً ، على تفصيل في ذلك واختلاف في بعضه .

فأمّا اجتناب مماسّة الخمر واعتبارها نجسة لمن تلطّخ بها بعض جسده أو ثوبه فهو ممّا اختلف فيه أهل العلم ؛ فمنهم من حملوا الرجس في الآية بالنسبة للخمر على معنييه المعنوي

والذاتي ، فاعتبروا الخمر نجس العين يجب غسلها كما يجب غسل النجاسة ، حملاً للفظ الرجس على جميع ما يحتمله .

وهو قول مالك .

ولم يقولوا بذلك في قداح الميسر ولا في حجارة الأنصاب ولا في الأزلام والتفرقة بين هذه الثلاث وبين الخمر لا وجه لها من النظر .

وليس في الأثر ما يحتجّ به لنجاسة الخمر .

ولعلّ كون الخمر مائعة هو الذي قرّب شبهها بالأعيان النجسة ، فلمّا وُصفت بأنّها رجس حُمل في خصوصها على معنييه .

(23/213)

وأمّا ما ورد في حديث أنس أنّ كثيراً من الصحابة غسلوا جرار الخمر لما نودي بتحريم شربها لذلك من المبالغة في التبرّىء منها وإزالة أثرها قبل التمكّن من النظر فيما سوى ذلك ، ألا ترى أنّ بعضهم كسر جرارها ، ولم يَقُل أحد بوجوب كسر الإناء الذي فيه شيء نجس .

على أنّهم فعلوا ذلك ولم يُؤمروا به من الرسول صلى الله عليه وسلم

وذهب بعض أهل العلم إلى عَدم نجاسة عين الخمر .

وهو قول ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، والليث بن سعد ، والمُزني من أصحاب الشافعي ، وكثير من البغداديين من المالكية ومن القيروانيين ؛ منهم سعيد بن الحَدّاد القيرواني .

وقد استدلّ سعيد بن الحدّاد على طهارتها بأنّها سُفِكت في طرق المدينة ، ولو كانت نجساً لنهوا عنه ، إذ قد ورد النهي عن إراقة النجاسة في الطرق .

وذكر ابن الفرس عن ابن لبابة أنّه أقام قولاً بطهارة عين الخمر من المذهب .

وأقول : الذي يقتضيه النظر أنّ الخمر ليستْ نَجَس العين (1) ، وأنّ مسَاق الآية بعيد عن قصد نجاسة عينها ، إنّما القصد أنّها رجس معنوي ، ولذلك وصفه بأنّه من عَمَل الشيطان ، وبيّنه بعدُ بقوله : ﴿ إنّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة ﴾ ، ولأنّ النجاسة تعتمد الخباثة والقذارة وليست الخمر كذلك ، وإنّما تنزّه السلف عن مقاربتها لتقرير كراهيتها في النفوس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

---

(1) هذا الكلام فيه نظر .

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي ولله دره :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ ﴾ الآية .

يفهم مِن هذه الآية الكريمة أن الخمر نجسة العين ، لأن الله تعالى قال : إنها رجس ، والرِّجْس في كلام العرب كل مستقذر تعافه النفس .

وقيل : إن أصله من الركس ، وهو العذرة والنتن . قال بعض العلماء : ويدل لهذا مفهوم المخالفة في قوله تعالى في شراب أهل الجنَّة ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] ، لأن وصفه لشراب أهل الجنة بأنه طهور يفهم منه ، أن خمر الدنيا ليستْ كذلك ، ومما يؤيِّد هذا أن كل الأوصاف التي مدح بها تعالى خمر الآخرة منفية عن خمر الدنيا ، كقوله : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : 47] ، وكقوله : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : 19] ، بخلاف خمر الدنيا ففيها غَوْل يغتال العقُول وأهلها يصدَّعون . أي يصيبهم الصداع الذي هو وجع الرأس بسببها ، وقوله ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ على قراءة فتح الزاي مبنياً للمفعول ، فمعناه : أنهم لا يسكرون ، والنزيف السكران ، ومنه قول حميد بن ثور :

نزيف ترى ردع العبير بجيبها . . . كما ضرج الضاري النزيفُ المكلما

يعني أنها في ثقل حركتها كالسكران ، وأن حمرة العبير الذي هو الطيب في جيبها كحمرة الدم

على الطريد الذي ضرجه الجوارح بدمه : فأصابه نزيف الدم من جرح الجوارح له ، ومنه أيضاً قول امرئ القيس :

وإذ هي تمشي كمشّي النزيف . . . يصرعه بالكثِيب البهر

وقوله أيضاً :

نزيف إذا قامتْ لوجه تمايلت . . . تراشى الفؤاد الرخص ألا تخترا

وقول ابن أبِي ربيعة أو جميل :

فلثمتُ فاها آخذاً بقرونِها . . . شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وعلى قراءة ﴿ يُنزِفُونَ ﴾ بكسر الزاي مبنياَ للفاعل ، ففيه وجهان من التفسير للعلماء :

(25/213)

أحدهما : أنه من أنزف القوم إذا حان منهم النزف وهو السكر . ونظيره قولهم : أحصد الزرع إذا حان حصاده وأقطف العنب إذا حان قطافه ، وهذا القول معناه راجع إلى الأول .

والثاني : أنه من أنزف القوم إذا فنيت خمورهم ، ومنه قول الحَطيئة :

لعمري لئن أنزفتموا أو صحوتموا . . . لَبِئس الندامى أنتم آل ابجرا

وجماهير العلماء على أن الخمر نجسة العين لما ذكرنا ، وخالف في ذلك ربيعة واللَّيث ، والمزني صاحب الشافعي ، وبعض المتأخِّرين من البغدادِيِّين والقرويِّين ، كما نقله عنهم القرطبي في تفسيره .

واستدلُّوا لطهارة عينها بأن المذكورات معها في الآية من مال ميسر ، ومال قِمار وأنصاب وأَزلام ليست نجسة العين ، وإن كانت محرَّمة الاستعمال .

وأُجيب من جهة الجمهور بأن قوله ﴿ رِجسٌ ﴾ يقتضي نجاسة العين في الكل ، فما أخْرجه إجماع ، أو نصّ خرج بذلك ، وما لم يخْرجه نصّ ولا إجماع ، لزم الحكم بنجاسته ، لأن خروج بعض ما تناوله العام بمخصّص من المخصصات ، لا يسقط الاحتجاج به في الباقي ، كما هو مقرر في الأصول ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود :

وهو حجّة لدى الأكثر إن . . . مخصّص له معيناً يبِن

وعلى هذا ، فالمسكر الذي عمت البلوى اليوم بالتطيُّب به المعروف في اللِّسان الدارجي بالكولانيا نجس لا تجوز الصلاة به ، ويؤيده أن قوله تعالى في المسكر ﴿ فاجتنبوه ﴾ يقتضي الاجتناب المطلق الذي لا ينتفع معه بشيء من المُسكر ، وما معه في الآية بوجه من الوجوه ، كما قاله القرطبي وغيره .

(26/213)

قال مُقيّده عفا الله عنه : لا يخفَى على منصف أن التضمخ بالطِّيب المذكور والتلذذ بريحه واستطابته . واستحسانه مع أنه مسكر ، والله يصرح في كتابه بأن الخمر رجس فيه ما فيه ، فليس للمسلم أن يتطيب بما يسمع ربَّه يقول فيه : إنه ﴿ رِجْسٌ ﴾ كما هو واضح ، ويؤيده " أنه صلى الله عليه وسلم أمر بإراقة الخمر " فلو كانت فيها منفعة أخرى لبينها ، كما بين جواز الانتفاع بجلود الميتة ، ولما أراقها .

واعلم أن ما استدل به سعيد بن الحداد القروي على طهارة عَين الخمر بأن الصحابة أراقوها في طرق المدينة ، ولو كانت نجسة ، لما فعلوا ذلك ولَنهاهم النَّبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، كما نهاهم عن التخلي في الطرق ، لا دليل له فيه ، فإنها لا تعم الطرق ، بل يمكن التحرز منها ، لأن المدينة كانت واسِعة ، ولم تكُن الخمر كثيرة جداً بحيث تكون نَهراً أو سيلاً في الطرق يَعمُّها كلها ، وإنما أُرِيقت في مواضع يسيرة يمكن التحرز منها ، قاله القرطبي ، وهو ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(27/213)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) ﴾

فيه سبع عشرة مسألة :

الأُولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ ﴾ خطاب لجميع المؤمنين بترك هذه الأشياء ؛ إذ كانت شهوات وعادات تلبسوا بها في الجاهلية وغلبت على النفوس ، فكان نَفِيٌّ منها في نفوس كثير من المؤمنين .

قال ابن عطية : ومن هذا القبيل هَوَى الزجر بالطير ، وأخذ الفأل في الكتب ونحوه مما يصنعه الناس اليوم .

وأما الخمر فكانت لم تُحرّم بعد ، وإنما نزل تحريمها في سنة ثلاثٍ بعد وقعة أُحُد ، وكانت وقعة أحد في شوّال سنة ثلاث من الهجرة .

وتقدّم اشتقاقها .

وأما "الميسر" فقد مضى في "البقرة" القول فيه .

وأما الأنصاب فقيل : هي الأصنام .

وقيل : هي النَّرْد والشَّطْرَنْج ؛ ويأتي بيانهما في سورة "يونس" عند قوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا

بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ [يونس : 32] .

وأما الأزلام فهي القِداح ؛ وقد مضى في أوّل السورة القول فيها .

ويقال : كانت في البيت عند سَدَنَة البيت وخُدّام الأصنام ؛ يأتي الرجل إذا أراد حاجة فيقبض منها شيئاً ؛ فإن كان عليه أمرني ربي خرج إلى حاجته على ما أحب أو كره .

الثانية تحريم الخمر كان بتدريج ونوازل كثيرة ؛ فإنهم كانوا مولعين بشربها ، وأول ما نزل في شأنها ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 219] أي في تجارتهم ؛ فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا : لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير ، ولم يتركها بعض الناس وقالوا : نأخذ منفعتها ونترك إثمها فنزلت هذه الآية ﴿ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى ﴾ [النساء : 43] فتركها بعض الناس وقالوا : لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة ، وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة حتى نزلت : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ ﴾ الآية فصارت حراماً عليهم حتى صار يقول بعضهم : ما حرم الله شيئاً أشدّ من الخمر .

وقال أبو مَيْسرة : نزلت بسبب عمر بن الخطاب ؛ فإنه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم عيوب الخمر ، وما ينزل بالناس من أجلها ، ودعا الله في تحريمها وقال ؛ اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآيات ، فقال عمر : انتهينا انتهينا .

وقد مضى في "البقرة" و"النساء".

وروى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى ﴾ و﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ ﴾ نسختها التي في المائدة ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب ﴾.

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت فيّ آيات من القرآن؛ وفيه قال: وأتيت على نَفَرَ من الأنصار؛ فقالوا: تَعالَ نُطعمْك ونسقيك خمراً، وذلك قبل أن تُحرَّم الخمر؛ قال: فأتيتهم في حشٍّ والحَشُّ البستان فإذا رأس جَزُور مشويّ عندهم وزِقٌّ من خمر؛ قال: فأكلتُ وشربتُ معهم؛ قال: فذكرتُ الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت: المهاجرون خير من الأنصار؛ قال: فأخذ رجل لَحْيَى جمل فضربني به فجرح أنفي وفي رواية فَفَزَره وكان أنف سعد مَفْزُوراً فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته؛ فأنزل الله تعالى فيّ يعني نفسَه شأنَ الخمر ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه ﴾.

الثالثة هذه الأحاديث تدل على أن شرب الخمر كان إذ ذاك مباحاً معمولاً به معروفاً عندهم بحيث لا يُنكَر ولا يُغيَّر، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عليه، وهذا ما لا خلاف فيه؛ يدل عليه آية النساء ﴿ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى ﴾ على ما تقدّم.

وهل كان يباح لهم شرب القَدْر الذي يُسكر ؟ حديثُ حمزة ظاهر فيه حين بَقَر خواصر ناقتي عليّ رضي الله عنهما وجَبَّ أسنمتَهما ، فأخبر علي بذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فجاء إلى حمزة فصدر عن حمزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم من القول الجافي المخالف لما يجب عليه من احترام النبيّ صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتعزيره ، ما يدل على أن حمزة كان قد ذهب عقله بما يُسكر ؛ ولذلك قال الراويّ : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ثَمِلٌ ؛ ثم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُنكر على حمزة ولا عَنَّفه . لا في حال سكره ولا بعد ذلك ، بل رجع لَمَّا قال حمزة : وهل أنتم إلا عبيد لأبي على عقبيه القَهْقَري وخرج عنه .

وهذا خلاف ما قاله الأُصوليون وحَكَوه فإنهم قالوا : إن السكر حرام في كل شريعة ؛ لأن الشرائع مصالح العباد لا مفاسدهم ، وأصل المصالح العقل ، كما أن أصل المفاسد ذهابه ، فيجب المنع من كل ما يذهبه أو يشوشه ، إلا أنه يحتمل حديث حمزة أنه لم يقصد بشربه السكر لكنه أسرع فيه فغلبه .

والله أعلم .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ رِجْسٌ ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية : "رِجْسٌ" سخط وقد يقال للنَّتْن والعَذِرة والأقذار رجسٌ .

والرِّجز بالزاي العذاب لا غير ، والرِّكْسُ العَذِرة لا غير .

والرِّجسُ يقال للأمرين .

ومعنى ﴿ مِّنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ أي بحمله عليه وتزيينه .

وقيل : هو الذي كان عَمِل مبادىء هذه الأُمور بنفسه حتى اقتدى به فيها .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوه ﴾ يريد أبعدوه واجعلوه ناحية ؛ فأمر الله تعالى باجتناب هذه الأُمور ، واقترنت بصيغة الأمر مع نصوص الأحاديث وإجماع الأُمة ، فحصل الاجتناب في جهة التحريم ؛ فبهذا حرّمت الخمر .

(30/213)

ولا خلاف بين علماء المسلمين أن سورة "المائدة" نزلت بتحريم الخمر ، وهي مدنية من آخر ما نزل ، وورد التحريم في الميتة والدم ولحم الخنزير في قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ [الأنعام : 145] وغيرها من الآي خبراً ، وفي الخمر نَهْيا وزَجْراً ، وهو أقوى التحريم وأوكده .

روى ابن عباس قال : لما نزل تحريم الخمر ، مشى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم إلى بعض ، وقالوا حُرِّمت الخمر ، وجعلت عدلاً للشِّرك ؛ يعنى أنه قرنها بالذبح للأنصاب وذلك شِرْكٌ .

ثم علق ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فعلق الفلاح بالأمر ، وذلك يدل على تأكيد الوجوب .

والله أعلم .

السادسة فَهِمَ الجمهورُ من تحريم الخمر ، واستخباث الشرع لها ، وإطلاق الرِّجس عليها ، والأمر باجتنابها ، الحكم بنجاستها .

وخالفهم في ذلك ربيعة والليث بن سعد والمُزَنيّ صاحب الشافعي ، وبعض المتأخرين من البغداديين والقرويين فرأوا أنها طاهرة ، وأن المحرم إنما هو شربها .

وقد استدل سعيد بن الحداد القرويّ على طهارتها بسفكها في طرق المدينة ؛ قال : ولو كانت نجسة لما فعل ذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، ولنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه كما نهى عن التخلي في الطرق .

والجواب ؛ أن الصحابة فعلت ذلك ؛ لأنه لم يكن لهم سُرُوب ولا آبار يريقونها فيها ، إذ الغالب من أحوالهم أنهم لم يكن لهم كُنُف في بيوتهم .

وقالت عائشة رضي الله عنها إنهم كانوا يتقذرون من اتخاذ الكُنُف في البيوت ، ونقلها إلى خارج المدينة فيه كلفة ومشقة ، ويلزم منه تأخير ما وجب على الفور .

وأيضاً فإنه يمكن التحرز منها ؛ فإن طرق المدينة كانت واسعة ، ولم تكن الخمر من الكثرة بحيث تصير نهراً يعم الطريق كلها ، بل إنما جرت في مواضع يسيرة يمكن التحرّز عنها هذا مع ما يحصل في ذلك من فائدة شهرة إراقتها في طُرق المدينة ، ليشيع العمل على مقتضى تحريمها من إتلافها ، وأنه لا ينتفع بها ، وتتابع الناس وتوافقوا على ذلك .

(31/213)

والله أعلم .

فإن قيل ؛ التَّنجِيس حكم شرعيّ ولا نص فيه ، ولا يلزم من كون الشيء محرّماً أن يكون نجساً ؛ فكم من محرّم في الشرع ليس بنجس ؛ قلنا : قوله تعالى : "رِجْسٌ" يدل على نجاستها : فإن الرّجس في اللسان النجاسة ، ثم لو التزمنا ألاّ نحكم بحكم إلا حتى نجد فيه نصّاً لتعطلت الشريعة ؛ فإن النصوص فيها قليلة ؛ فأيُّ نص يوجد على تنجيس البول والعَذِرة والدّم والميتة وغير ذلك ؟ وإنما هي الظواهر والعمومات والأقيسة .

وسيأتي في سورة "الحج" ما يوضح هذا المعنى إن شاء الله تعالى .

السابعة قوله : ﴿ فاجتنبوه ﴾ يقتضي الاجتناب المطلق الذي لا ينتفع معه بشيء بوجه من الوجوه ؛ لا بشرب ولا بيع ولا تخِليل ولا مداواة ولا غير ذلك .

وعلى هذا تدل الأحاديث الواردة في الباب .

روى مسلم عن ابن عباس : " أن رجلاً أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم رَاوِية خمر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل علمت أن الله حرّمها" قال : لا ، قال : فسَارَّ رجلاً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بِم سَارَرْتَه" قال ؛ أمرته ببيعها ؛ فقال : "إن الذي حَرّم شربها حَرّم بيعها" قال : ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها "

؛ فهذا حديث يدل على ما ذكرناه ؛ إذ لو كان فيها منفعة من المنافع الجائزة لبيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال في الشاة الميتة : " هلاّ أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به " الحديث .

الثامنة أجمع المسلمون على تحريم بيع الخمر والدم ، وفي ذلك دليل على تحريم بيع العَذِرات وسائر النجاسات وما لا يحل أكله ؛ ولذلك والله أعلم كره مالك بيع زِبل الدواب ، ورخص فيه ابن القاسم لما فيه من المنفعة ؛ والقياس ما قاله مالك ، وهو مذهب الشافعي ، وهذا الحديث شاهد بصحة ذلك .

(32/213)

التاسعة ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخمر لا يجوز تخليلها لأحد ، ولو جاز تخليلها ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع الرجل أن يفتح المزادة حتى يذهب ما فيها ؛ لأن الخلّ مال وقد نهى عن إضاعة المال ، ولا يقول أحد فيمن أراق خمراً على مسلم أنه أتلف له مالاً .

وقد أراق عثمان بن أبي العاص خمراً ليتيم ، واستؤذن صلى الله عليه وسلم في تخليلها فقال : " لا " ونهى عن ذلك .

ذهب إلى هذا طائفة من العلماء من أهل الحديث والرأي ، وإليه مال سُحْنُون بن سعيد .

وقال آخرون : لا بأس بتخليل الخمر ولا بأس بأكل ما تخلل منها بمعالجة آدمي أو غيرها ؛ وهو قول الثوريّ والأُوزاعيّ والليث بن سعد والكوفيين .

وقال أبو حنيفة : إن طرح فيها المِسك والملح فصارت مُرَبَّى وتحوّلت عن حال الخمر جاز .

وخالفه محمد بن الحسن في المربَّى وقال : لا تُعالَجَ الخمر بغير تحويلها إلى الخلّ وحده .

قال أبو عمر : احتج العراقيون في تخليل الخمر بأبي الدرداء ؛ وهو يُروى عن أبي إدريس الخولانيّ عن أبي الدرداء من وجه ليس بالقويّ أنه كان يأكل المربَّى منه ، ويقول : دبغته الشمس والملح .

وخالفه عمر بن الخطاب وعثمان بن أبي العاص في تخليل الخمر ؛ وليس في رأي أحد حجة مع السنة .

وبالله التوفيق .

وقد يحتمل أن يكون المنع من تخليلها كان في بدء الإسلام عند نزول تحريمها ؛ لئلا يستدام حبسها لقرب العهد بشربها ، إرادة لقطع العادة في ذلك .

وإذا كان كذلك لم يكن في النهي عن تخليلها حينئذٍ ، والأمر بإراقتها ما يمنع من أكلها إذا خُلّلت .

وروى أشهب عن مالك قال : إذا خلّل النصرانيّ خمراً فلا بأس بأكله ، وكذلك إن خَلّلها مسلم واستغفر الله ؛ وهذه الرواية ذكرها ابن عبد الحكَم في كتابه .

والصحيح ما قاله مالك في رواية ابن القاسم وابن وهب أنه لا يحل لمسلم أن يعالج الخمر حتى يجعلها خَلاًّ ولا يبيعها ، ولكن ليُهرِيقها .

(33/213)

العاشرة لم يختلف قول مالك وأصحابه أن الخمر إذا تخللت بذاتها أن أكل ذلك الخلّ حلال .

وهو قول عمر بن الخطاب وقَبِيصة وابن شهاب وربيعة وأحد قولي الشافعي ، وهو تحصيل مذهبه عند أكثر أصحابه .

الحادية عشرة ذكر ابن خُوَيْزِمَنْدَاد أنها تُملك ، ونزع إلى ذلك بأنه يمكن أن يزال بها الغَصَص

، ويطفأ بها حريق ؛ وهذا نقل لا يعرف لمالك بل يُخرّج هذا على قول من يرى أنها طاهرة .

ولو جاز ملكها لما أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بإراقتها .

وأيضاً فإن الملك نوع نفع وقد بطل بإراقتها .

والحمد لله .

الثانية عشرة هذه الآية تدل على تحريم اللعب بالنّرد والشّطْرَنج قماراً أو غير قمار ؛ لأن الله تعالى لما حرم الخمر أخبر بالمعنى الذي فيها فقال : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(34/213)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ ﴾

ساعة تسمع كلمة : " إنما " فاعلم أنهم يسمونها في اللغة " أداة قصر " كقولنا : إنما زيد مجتهد ، وهذا يعني أننا قَصِرْنَا زيداً على الاجتهاد . لكن إذا قلنا : إنما المجتهد زيد ، فنحن في هذه الحالة قَصَرْنا الاجتهاد على زيد . وساعة تقصر إنساناً على وصف فذلك

يسمونه : " قصر موصوف على صفة " ، وعندما نقول : إنما زيد شاعر . فهذا يعني أن زيداً شاعر فقط وهو ليس بكاتب أو خطيب . أما إن قلت : إنما الشاعر زيد ، فهذا يعني أنه لا يوجد شاعر إلا زيد ؛ فكأنك نفيت عن الآخرين أنهم شعراء ، وأن زيداً فقط هو الشاعر ويحتمل أن يكون كاتباً وخطيباً وعالماً مع كونه شاعراً . إذن فساعة ترى " إنما " فاعرف أنها أداة من أدوات القصر .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : 90] .

أي أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام كلها رجس من عمل الشيطان . والرجس هو الشيء الرديء الخبيث القذر . والقذارة والخبث هما من الأمور التي قد تكون حسية مثل الخمر ، وقد تكون معنوية كالأنصاب والأزلام ؛ وجمع الحق سبحانه في هذه الآية الأمرين معاً . ولم يقل إن الخمر هي عصير العنب أو عصير التفاح ، إنما جاء بالخمر التي تشمل كل ما يخامر العقل ويستره . وتعجب بعض العلماء من أن هذه الآية نزلت في البلاد التي ليس فيها شيء من عصير العنب ، ذلك أنهم ظنوا أن عصير العنب فقط هو الذي يستر العقل ، لكن الحق جاء بالتحريم الشامل لكل ما يستر العقل . لماذا إذن تكون الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجساً من عمل الشيطان ؟

إنّ الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض وسخر له كل شيء في الوجود وطلب منه أن يعبده وحده وأن يعمر هذه الأرض . وأراد الحق أن يضمن للإنسان سلامة أشياء متعددة ؛ سلامة نفسه فلا يُعتدي عليها بالقتل أو غير ذلك ، وسلامة عقله فلا يُجنى عليه بما يستر آلية الاختيار بين البدائل ، وسلامة عرضه فلا يَلغ فيه أحد وحتى تأتي الأنسال التي تعمر الكون وهي أنسال طاهرة ، وسلامة ماله حتى يحفظ على الإنسان أثر حركته في الحياة وحتى لا يأخذ غيره أثر حركته ، وذلك حتى لا يزهد العامل في العمل ولا يعود الطاقات أن تأخذ من غير عملها فتكسل وتتواكل ، فالإنسان إذا ما اعتاد أن يأخذ من غير عمل صار العمل صعباً عليه ، وهكذا كانت صيانة المال لا تبدد طاقة ولا تهدر حقا ، ولا تعطي غير ذي حق حقا لغيره ، وهكذا حتى لا يشيع العجز الاصطناعي في الكون .

ولذلك قال الحق وهو مانح كل مال : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ [البقرة : 245] .

أي أنه – وهو المانح سبحانه وتعالى – قد احترم حركة الإنسان فلا يستمرئ أحد البطالة . وعندما تنتشر البطالة في الإسلام يعالج الأمر بحكمة بالغة ؛ فهو يطلب من الوالي أن يسبب لهم الأسباب ليعملوا . وذلك حتى لا يتعودوا على الأخذ بغير عمل لئلا تكون

مصيبة على المجتمع . وأراد سبحانه بالشريعة السمحاء أن يحمي الإنسان من كل ما يبدده ، فحينما حرم الخمر ، أي منع عن الإنسان ستر العقل ، ذلك أن ميزة الإنسان على الحيوان هي العقل .

إن الإنسان يختلف عن الحيوان بأنه يحفظ حياته بالعقل ، أما الحيوان فيحفظ حياته بالغريزة . ولذلك فالحيوان لا يملك إلا رداً واحداً إذا ما تم الاعتداء عليه ؛ الكلب يعض المعتدي والقطة تخمش المعتدي ، أما الإنسان فعندما يعتدي عليه أحد فهو يختار بين بدائل للرد على العدوان ، إما أن يضرب وإما يقتل وإما أن يسامح .

(36/213)

ومثال لذلك نراه في الريف ، عندما يحاول راكب الحمار أن يجبر الحمار على القفز على قناة صغيرة فيها مياه يرفض الحمار ذلك تماماً ومهما ضربه راكبه فهو يرفض القفز ؛ لأن غريزته تمنعه من ذلك . أما الإنسان فقد ينتابه الغرور ويظن أنه قادر على القفز فوق القناة فيقفز لكنه قد يقع في المياه . وتوجد المجازفة عند الإنسان ، لكنها لا توجد عند الحيوان بمقتضى الغريزة .

ومثال آخر من عالم الحيوان . نجد ذكر الجاموس يقترب من الأنثى ليشمها فإن وجدها

حاملاً لا يقربها ، هكذا الحيوان . أما الإنسان فلا . والحمار يتناول طعامه من البرسيم مثلا ما يشبعه ولا يزيد أبداً في الطعام مهما ضربه صاحبه ؛ لأنه محكوم بالغريزة ، أما الإنسان فقد يأكل فوق طاقته .

وهكذا نجد الغريزة هي التي تعصم الحيوان ، والعقل هو الذي يعصم الإنسان . ولذلك لا يملك الحيوان القدرة على الاختيار ، ولكن ميزان غرائزه لا يختل أبداً . أما ميزان الغرائز عند الإنسان فقد يختل .

لقد ميز الله الإنسان عن الحيوان بالاختيار بين البدائل بالعقل ، ولذلك لا يصح ولا يستقيم من الإنسان أن يطمس هذه القدرة بالخمر . فإن طمس قدرة الاختيار ، فإن غرائزه في هذه الحالة لا تنفعه لأنها غير مؤهلة لحمايته ، ولذلك نجد الذي يطمس عقله يضع نفسه في مرتبة أقل من الحيوان ؛ لأن الحيوان تحميه الغريزة ، والإنسان يحفظه عقله ، وهو في هذه الحالة قد طمسه وغطاه ، وقد حرم الله الخمر لأنها تستر العقل . وكل ما يستر العقل خمر ولو كان أصله حلالاً ؛ وذلك لأن العقل هو مناط التكليف . وكذلك حرم الله الميسر .

(37/213)

ولنر دقة الاسم الذي اختاره الله للقمار ، إنه " الميْسر " ولم يسمه " المعسر " ذلك أن أحداً لا يقبل على الميسر وهو يظن أنه سوف يخسر ، وكل من يلعبون القمار إنما يفعلون ذلك على أمل الكسب ؛ لذلك جاء بالاسم الذي يعبر عن حالة اللاعب للقمار إنه يلعب على وهم الكسب ، وإن كسب فالمكسب يُغْريه بالمزيد من اللعب .

والخسران يغري باللعب أكثر لعل كسباً يعرض الخسارة التي مني بها ، وقد يبيع اللاعب للميسر كل ما يملك كي يعوض خسارته ومع ذلك فالكسب من الميسر هين على النفس تبدده وتنفقه فيما لا ينفع بل قد ينفقه فيما يضر ، فالمكسب ليس له والخسارة محسوبة عليه . والذين يلعبون الميسر مع بعضهم لا تربطهم صداقة أو محبة . فكل منهم حريص على أن يأخذ ما في جيب الآخر . وهذا اللون من اللعب يعطل القدرة على الكسب الحلال ؛ لأن الكسب الحلال يحتاج إلى حركة في الكون . والميسر يشل حركة الكاسب لأنه يزهد في العمل . والخسران يشل حركة الخاسر لأنه مهما سعى في الأرض فقد لا يستطيع أن يسدد ديونه .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للناس ألا ينتفع أحد بشيء إلا نتيجة كده وعمله . والحق يريد أن يكون جسد كل إنسان من ناتج عرقه في عمل مشروع وكذلك أجساد من يعول . وأبلغنا أيضاً أن الأنصاب رجس من عمل الشيطان . والأنصاب ثلاثة قداح كانت توجد عند الكاهن ؛ قدْح مكتوب عليه أمرني ربي ، والقدح الثاني : مكتوب عليه نهاني

ربي ، والقدح الثالث : غفل من الكتابة أي خال منها فلا علامة فيه . فإن كان في نية إنسان السفر أو الزواج أو التجارة فهو يذهب إلى الكاهن ليضرب له هذه القداح . فإن خرج القدح المكتوب عليه أمرني ربي فعل .

(38/213)

وإن خرج نهاني ربي لم يفعل . أما أن خرج القدح الغفل فهو يعيد ضرب القداح حتى يخرج أحد القدحين : إما الذي يحمل الأمر ، وإما الذي يحمل النهي . ولم يتساءل أحد لماذا عندما يخرج القدح الغفل لا يعتبر أن هذا أمر خارج عن نطاق التحريم . ويؤخذ على أنه إباحة واختيار يعمل أو لا يعمل . لقد أنساهم الحق ذلك حتى يدلنا على أن ذلك أمر كاذب جاء به الكهنة من عندهم . فإن سألهم سائل : من الإله الذي أمر ونهى ؟ هنا يقول القائل منهم : الله هو الذي أمر وهو الذي نهى . (والله يعلم إنهم لكاذبون) .

والحق سبحانه وتعالى حين ينهانا عن تلك الأمور فهو يريد للإنسان أن ينمي ملكة الاختيار بين البدائل . وعلى الإنسان أن يستنبط وأن يحلل وأن يعرف المقدمات فيدرسها ويحلل الخطوات ليصل إلى النتائج . لا أن يعطل القوة المدركة التي تختار بين البديلات ، فالخمر تستر العقل ، وكذلك الميسر يضع الإنسان بين فكي الوهم ، وكذلك الأنصاب تعطل القدرة على

السعي والرضوخ للكهنة . وعندما تسأل شارب الخمر : لماذا تشربها ؟ يجيب : إنني أريد أن أستر همومي . وستر الهموم .

لا يعني إنهاءها . ولكن مواجهة الهموم هي التي تنهي الهموم بالأسباب المتاحة للإنسان . فإن لم تقو أسبابك فالجأ إلى المسبب في إطار قول الحق : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : 62] .

وعندما تستنفد أسبابك وتلجأ إلى الله فهو يعينك على الأمر الشاق المسبب للهموم . ولنا في الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة . فقد كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى " حزبه " أي خرج عن نطاق أسبابه . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى رب الأسباب . وقد نجد من يقول : إنني أدعو الله كثيراً ولكنه لا يستجيب لي .

(39/213)

ونقول : إما لأنك قد دعوت في غير اضطرار ، وإما لأنك لم تلفت إلى الأسباب ، وأنت حين تتجنب الأسباب فأنت ترفض يد الله الممدودة لك بالأسباب . وأنا أتحدى أن يوجد مضطر أنهى الأسباب ، ولا يأتي له الفرج . وأنت حين تدعو بحاجة وتتأخر عليك ، نقول لك : إنك دعوت بغير اضطرار .

وكثيراً ما أضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى المنزه دائماً – وأقول : هب أن تاجراً من تجار الجملة الكبار يجلس أمام المخازن التي يملكها وجاءت السيارات الشاحنة بصناديق بضائعه . والعمال يحملون البضائع ليضعوها في المخازن . وفجأة رأى عاملاً من عماله يكاد يقع بالصندوق الذي يحمله ، هنا نجد التاجر يهب بلا شعور لنجدة العامل . فما بالنا بالحق الذي خلق لنا الأسباب ؟ إنك إن استنفدت الأسباب فإن الله يعينك مصداقاً لقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السواء ﴾ [النمل : 62] .

إذن فالخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . والأزلام هي نوع من الميسر ؛ فقد كانوا يحضرون الناقة أو الجزور ويذبحونها ويقسمونها إلى ثمانية وعشرين قسماً ويخصصون لإنسان نصيباً وللثاني نصيبين وللثالث ثلاثة أنصبة ، وللرابع أربعة أنصبة وللخامس خمسة أنصبة ، وللسادس ستة أنصبة ، والسابع له سبعة أنصبة . وكانوا يأتون بالقِداح السبعة . قدح اسمه " الفذ " ويأخذ الفائز به نصيباً ، والقدح الثاني : " التوأم " ويأخذ نصيبين ، والقدح الثالث اسمه " الرقيب " يأخذ ثلاثة . والقدح الرابع اسمه " المُسْبِل " ويأخذ ستة . والسابع اسمه " المُعَلَّى " ويأخذ سبعة أنصبة . وهناك ثلاثة قداح هي المنيح والسفيح والوَغْد ، وهؤلاء الثلاثة لا يأخذون شيئاً بل يدفعون ثمن الذبيحة . وذلك رجس من عمل الشيطان .

إن النفس العاقلة لا تقبل على مثل هذه الأعمال ، بل لا بد أن يحرك أحد تلك الأطماع ، ذلك أن المخالفات إنما تنشأ من أمرين ؛ إما أن تكون من النفس ، وإما أن تكون من الشيطان . والمخالفة التي تكون من النفس هي التي تحقق شهوة من نوع خاص بحيث إذا زحزحت النفس عنها فهي تريدها . والمخالفة التي من نزغ الشيطان تختلف ، فقد يوعز الشيطان لإنسان بالسرقة ، فيرفض ، فيعرف الشيطان أن لهذا الإنسان مناعة ضد هذه المعصية ، فيوعز بمعصية أخرى ، فإذا وجد مناعة انتقل إلى معصية ثالثة ؛ لأن وسوسة الشيطان تطلب الإنسان عاصياً على أي لون من الألوان .

فإذا وقفت عند معصية بذاتها فاعلم أن ذلك من عمل نفسك ، وإن انتقلت بالوسوسة من معصية عزت على الشيطان إلى معصية أخرى فاعلم أنها من عمل الشيطان ولا دخل للنفس بها . والعاقل الذي يتمعن في كل تلك المسائل المحرمة يرى أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام هي أمور لا تستطيبها النفس غير المنزوعة من الشيطان ، فكأن قوله الحق : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ يدلنا على أن العاقل لا يمكن أن يصنع هذه الأشياء .

ويذيل الحق الآية : ﴿ فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . ويأمرنا سبحانه باجتناب الرجس الذي جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، والاجتناب هو أن يعطي الإنسان الشيء

المجْتَنَب جانَبَه ، أي المنع للذرائع والأسباب والسد لها ؛ لأنك إن لم تجتنبها فمن الجائز أن قربك منها يغريك بارتكابها . وبعض الناس يظنون أن الخمر لم يأت لها تحريم وإنما جاء الأمر فيها بالاجتناب .

ونقول لهم : إن التحريم هو النص بعدم احتسائها ، وأما الاجتناب فهو أقوى من التحريم لأنه أمر بعدم الوجود في مكانها . فإذا كان الحق قد قال في قمة العقائد : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] .

(41/213)

فقد قال هنا اجتنبوا الرجس الذي يجمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام . والحق سبحانه وتعالى واجه العادات التي شاعت قبل الإسلام ليخلع الفاسد منها ولم يجابهها دفعة واحدة وذلك لتعليق النفس بها والإلف لها ، وإنما كان التحريم لها بالتدريج . لقد حزم الإسلام الأمر أولاً في مسائل العقائد ، أما الأمور التي تترتب على إلف العادة فكان تحريمها على مراحل .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى عن شيء إنه : " رجس " ، فذلك حكم الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ونحن نقبل هذا الحكم حتى ولو لم نفهم نحن معنى

الرجس ، أو لم نتأكد مادياً من أن الشيء المحرم هو من الرجس ، ذلك أنه يكفي في ذلك حكم الله الذي يرضخ له العبد المؤمن الذي قبل التكليف من ربه ؛ لأن ربه مُؤتمن على كل مصالحه . وما دام الحق قد قال عن شيء إنه رجس ، فهو رجس ولا جدال في ذلك . أقول ذلك لأن بعضاً يظل متصيداً لأي ثغرة مفتعلة متسائلا : كيف يكون ذلك العمل أو ذلك الشيء من الرجس ؟ ونقول : إننا نرضخ لحكم الله تعالى وننفذ ما أمر به ، فهو إله مأمون على كل الخلق ، وتثبت لنا الأيام دائماً صدق قول الحق في أن الأشياء التي قال عنها سبحانه إنها رجس ، هي من الرجس فعلاً ، فحين يقول سبحانه لخلقه : افعلوا كذا ، لا نسأله : وما علة ذلك التكليف ، ولكننا ننفذ أمر الحق ، ونكتشف في أعماقنا فائدة ذلك التكليف .

(42/213)

أما عندما يكلفنا عبد مساوٍ لنا بشيء فلا بد أن نسأل : لماذا ؟ والعبد المساوى لنا عليه أن يقدم لنا العلة لأي فعل يطلب منا القيام به ، ولكننا لا نسأل الله عن علة التكليف لنا ؛ لأننا نؤمن بأنه إله حكيم ، والأيام ستثبت لنا أن قول الله حق . ومثال على ذلك نجد أن الذي لا يشرب الخمر امتثالاً لنهي الله عن ذلك الفعل ، هو إنسان مستقيم السلوك ، طاهر

القصد ، ولا يتأتى منه نشاز في الكون . أما الذي يشرب الخمر فهو معوج السلوك ، غير طاهر القصد ، ويتأتى منه نشاز في الكون . وقد أثبتت التجربة أن شارب الخمر إنما يصاب بأمراض في الكبد ويعاني من ارتباك في إدارة حياته وكلماته . نحن نقرأ قول الله سبحانه : ﴿ واتقوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله ﴾ [البقرة : 282] .

والتقوى – كما علمنا – أن نجعل بيننا وبين غضب الله وقاية ؛ لذلك نفعل ما أمرنا به . وحين نفعل أوامر الإله الحق فإننا نتعلم حكم الله في الفعل . ومثال ذلك قوله الحق : ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] .

ونحن نعرف كيف تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؛ لأننا نسلم وجوهنا وقلوبنا الله فننفذ ما أمر به . وكذلك نجد في الزكاة نماء . ونجد الحج يصفي النفس من أي كبر ويغسل الذنوب . وكل فعل أمر به الحق نجد له الأثر في نفوسنا بعد أن نقوم به . أما إن فعلت الحكم للعلة فذلك يبعد بك عن مرتبة الإيمان .

(43/213)

ونجد أن الطبيب يأتي لشارب الخمر بصورة ملتقطة للكبد بواسطة الموجات الصوتية أو الأشعة فيجد شارب الخمر صورة كبده وقد امتلأت بالتهرؤ وصارت عرضة لأمراض

كثيرة ثقيلة وربما تعطلت وظائف الكبد في بعض الأحيان ، وهنا يأمر الطبيب شارب الخمر أن يمتنع عن شرب الخمر . فهل امتناع شارب الخمر في مثل هذه الحالة هو امتناع بسبب الإيمان أو بسبب الأمر الطبي ؟ إنه امتناع بسبب الأمر الطبي ، ويستوي في ذلك المسلم العاصي والكافر . ولكن المؤمن الذي يمتنع عن شرب الخمر ابتداءً ، فهو قد امتنع لا لعلة الأمر ولكن لأن الأمر من الله ، وهو يتبع أوامر الحق دون سؤال عن العلة . والمؤمن يأخذ الحكم من الله دون طلب تعليل منه ليشرح له أسباب المنع في سلوكه .

والحق سبحانه قال : ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه ﴾ والعداوة المسبقة بين الشيطان وأبينا آدم عليه السلام بينها – سبحانه – بقوله للملائكة : ﴿ اسجدوا لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة : 34] .

وكان الشيطان موجوداً مع الملائكة ، وكان الأولى أن يسجد هو ؛ لأن الأمر إذا كان للجنس الأعلى وهو الملائكة ، فيجب أن ينسحب على الأدنى ، لكنه عصى وقال : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [البقرة : 61] .

إذن فالعداوة مسبقة بين آدم والشيطان ، فكيف إذن نقبل نحن أبناء آدم وسوسته ؟ وكيف نقبل نزغه ؟ وكيف نقبل إغراءه ؟ لا بد إذن أن نتجنب ذلك لأنه رجس ومن عمل الشيطان ، حتى ننجو من كل سوء ، ويأتي لنا كل فلاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " رجسٌ " : خبرٌ عن هذه الأشياء المتقدّمة ، فيقال : كيف أخبر عن جَمْع بمفردٍ ؟ فأجاب الزمخشريُّ بأنه على حَذْف مضافٍ ، أي : إنما شأنُ الخَمْرِ ، وكذا وكذا ، ذكر ذلك عند تعرُّضِه للضَّميرِ في " فاجْتَنِبُوهُ " كما سيأتي ، وكذا قدَّره أبو البقاء ، فقال : " لأنَّ التقدير : إنما عَمَلُ هذه الأشياء " .

قال أبو حيان بعد حكايته كلامَ الزمخشريِّ : ولا حاجة إلى هذا ، بل الحكم على هذه الأربعة نفسها أنَّها رِجْسٌ أبلغُ من تقدير هذا المضاف ؛ كقوله : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] ، وهو كلامٌ حسن ، وأجاب أبو البقاء أيضاً بأنه يجوزُ أن يكونَ " رِجْسٌ " خبراً عن " الخَمْر " ، وحُذِفَ خبرُ المعطوفاتِ ؛ لدلالةِ خبر الأولِ عليها ، قال شهاب الدين : وعلى هذا : فيجوزُ أن يكونَ خبراً عن الآخر ، وحُذِفَ خبرُ ما قبله ؛ لدلالةِ خبر ما بعده عليه ؛ لأنَّ لنا في نحو قوله تعالى : ﴿ واللهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] هذين التقديرين ، وقد تقدَّم تحقيقُهما مراراً .

والرجسُ قال الراغب : " هو الشيْءُ القَذِرُ ، رجلٌ رِجْسٌ ، ورِجَالٌ أَرْجَاسٌ " ، ثم قال : " وقيل : رِجْسٌ ورِجْزٌ للصَّوْت الشديد ، يقال : بَعِيرٌ رَجَّاسٌ : شديدُ الهدير ، وغمامٌ راجِسٌ ورجَّاسٌ : شديدُ الرعْد " ، وقال الزجَّاج : هو اسمٌ لكلِّ ما استُقْذِرَ من عمل قبيحٍ ، يقال : رَجِسَ ورَجَسَ بكسر الجيم وفتحها يَرْجُسُ رِجْساً إذا عمل عملاً قبيحاً ، وأصله من الرَّجْسِ بفتح الراء ، وهو شدة صوت الرعد ؛ قال : [الرجز]

2051 - وكُلُّ رَجَّاسٍ يَسُوقُ الرَّجْسَا . . .

وفرَّق ابن دُرَيْدٍ بين الرِّجْسِ والرِّجْزِ والرِّكْسِ ، فجعل الرِّجْسَ : الشرَّ ، والرِّجْزَ : العذابَ ، والرِّكْسَ : العَذِرَةَ والنَّتْنَ ، ثم قال : " والرِّجْسُ يقال للاثْنَيْنِ " ، فتحصَّلَ من هذا ؛ أنه اسمٌ للشيءِ القَذِرِ المنتنِ ، أو أنه في الأصل مصدرٌ .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ في محلِّ رفعٍ ؛ لأنه صفةٌ لـ " رِجْس " .

(45/213)

وهذا أيضاً مُكَمِّلٌ لكونِهِ رجْساً ؛ لأنَّ الشَّيطان نَجْسٌ خَبيثٌ ؛ لأنه كَافِرٌ ، والكَافِرُ نَجسٌ لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] والخبيث لا يَدْعُو إلاَّ إلى الخَبيثِ لقوله تعالى : ﴿ الخبيثات لِلْخَبِيثِينَ ﴾ [النور : 26] والهاء في " فَاجْتَنِبُوهَ " تعودُ على

الرِّجْس ، أي : فاجتنبُوا الرِّجْسَ الذي أخْبَرَ به مما تقدَّم من الخَمْر وما بعدها ، وقال أبو البقاء : " إنها تعود على الفِعْلِ " ، يعني الذي قدَّره مضافاً إلى الخَمْر وما بعدها ، وإلى ذلك نحا الزمخشريُّ أيضاً ، قال : " فإنْ قلتَ : إلامَ يَرْجِعُ الضميرُ في قوله : فاجتنبُوهُ ؟ قلت : إلى المضافِ المحذوفِ ، أو تعاطيهمَا ، أو ما أشبه ذلك ، ولذلك قال : رِجْسٌ من عَمَلِ الشَّيْطَانِ " ، وقد تقدَّم أن الأحْسَنَ : أن هذه الأشياء جُعِلَتْ نفسَ الرِّجْسِ مبالغةً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 505 . 506 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) ﴾

الخمر ما خامر العقول ، والخمر حرام .

والإشارة فيه أنه يزيد نَفَادَ العقل بما يوجب عليه من الالتباس .

ومَنْ شَرِبَ من خمر الغفلة فسُكْرُه أصعب ؛ فشرابُ الغفلةِ يوجب البعد عن الحقيقة .

وكما أن من سَكِرَ من خمر الدنيا ممنوعٌ عن الصلاةِ فمن سَكِرَ من خمر الغفلة فهو محجوبٌ عن المواصلاتِ .

وكما أنَّ مَنْ شَرِبَ من خمر الدنيا وجبَ عليه الحدُّ فكذلك من شَرِبَ شرابَ الغفلة فعليه الحَدُّ إذ يُضْرَبُ بسياط الخوف .

(46/213)

وكما أنَّ السكرانَ لا يُقامُ عليه الحدُّ ما لم يُفِقْ فالغافل لا ينجح فيه الوعظُ ما لم ينته .

وكما أن مفتاحَ الكبائر شربُ الخمر (فالغفلة) ، أصل كُلِّ زلَّة ، وسببُ كلِّ ذِلَّة وبدءُ كل بُعْد وحجبة عن الله تعالى .

ويقال لم يحرم عليه الشرابَ في الدنيا إلا وأباح له شرابَ القلوب ؛ فشراب الكبائر محظور وشراب الاستئناس مبذول ، وعلى حسب المواجد حظى القوم بالشراب . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 446 ﴾

(47/213)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت حكمة النهي عن الأنصاب والأزلام قد تقدمت في أول السورة ، وهي أنها فسق ، اقتصر على بيان علة النهي عن الخمر والميسر إعلاماً بأنهما المقصودان بالذات ، وإن كان الآخرينَ ما ضما إلا لتأكيد تحريم هذين – كما تقدم ، لأن المخاطب أهل الإيمان ، وقد كانوا مجتنبين لذينك ، فقال مؤكداً لأن الإقلاع عما حصل التمادي في المرون عليه يحتاج إلى مثل ذلك : ﴿ إنما يريد الشيطان ﴾ أي بتزيين الشرب والقمار لكم ﴿ أن يوقع بينكم العداوة ﴾ .

ولما كانت العداوة قد تزول أسبابها ، ذكر ما ينشأ عنها مما إذا استحكم تعسر أو تعذر زواله ، فقال : ﴿ والبغضاء في الخمر والميسر ﴾ أي تعاطيهما لأن الخمر تزيل العقل ، فيزول المانع من إظهار الكامن من الضغائن والمناقشة والمحاسدة ، فربما أدى ذلك إلى حروب طويلة وأمور مهولة ، والميسر يذهب المال فيوجب ذلك الإحنة على من سلبه ماله ونغص عليه أحواله .

ولما ذكر ضررهما في الدنيا ، ذكر ضررهما في الدين فقال : ﴿ ويصدكم عن ذكر الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا إله لكم غيره ولا كفوء له ، وكرر الجار تأكيداً للأمر وتغليظاً في التحذير فقال : ﴿ وعن الصلاة ﴾ أما في الخمر فواضح ، وأما في الميسر فلأن الفائز ينسى

ببطر الغلبة ، والخائب مغمور بهمه ، وأعظم التهديد بالاستفهام والجملة الاسمية الدالة على الثبات بعد التأكيد بالحصر والضم إلى فعل الجاهلية وبيان الحِكَم الداعية إلى الترك والشرور المنفرة عن الفعل فقال : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ أي قبل أن يقع بكم ما لا تطيقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 536. 537 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنا نشرح وجه العداوة والبغضاء أولاً في الخمر ثم في الميسر :

أما الخمر فاعلم أن الظاهر فيمن يشرب الخمر أنه يشربها مع جماعة ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم ، فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الألفة والمحبة إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب إلى الضد لأن الخمر يزيل العقل ، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل ، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب ، وتلك المنازعة ربما أدت إلى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش ، وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء ، فالشيطان يسول أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد الألفة والمحبة ، وبالآخرة انقلب الأمر وحصلت نهاية العداوة والبغضاء .

وأما الميسر ففيه إيزاء التوسعة على المحتاجين الأجحاف بأرباب الأموال ، لأن من صار مغلوباً في القمار مرة دعاه ذلك إلى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالباً فيه ، وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك إلى أن لا يبقى له شيء من المال ، وإلى أن يقامر على لحيته وأهله وولده ، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيراً مسكيناً ويصير من أعدى الأعداء لأولئك الذين كانوا غالبين له فظهر من هذا الوجه أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس ، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن ، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم .

فإن قيل : لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام ثم أفردهما في آخر الآية .

قلنا : لأن هذه الآية خطاب مع المؤمنين بدليل أنه تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر ﴾ [المائدة : 90] والمقصود نهيهم عن الخمر والميسر وإظهار أن هذه الأربعة متقاربة في القبح والمفسدة ، فلما كان المقصود من هذه الآية النهي عن الخمر والميسر وإنما ضم الأنصاب والأزلام إلى الخمر والميسر تأكيداً لقبح الخمر والميسر ، لا جرم أفردهما في آخر الآية بالذكر .

أما النوع الثاني : من المفاسد الموجودة في الخمر والميسر : المفاسد المتعلقة بالدين ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة ﴾ فنقول : أما أن شرب الخمر يمنع عن

ذكر الله فظاهر ، لأن شرب الخمور يورث الطرب واللذة الجسمانية ، والنفس إذا استغرقت في اللذات الجسمانية غفلت عن ذكر الله تعالى ، وأما أن الميسر مانع عن ذكر الله وعن الصلاة فكذلك ، لأنه إن كان غالباً صار استغراقه في لذة الغلبة مانعاً من أن يخطر بباله شيء سواه ، ولا شك أن هذه الحالة مما تصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

(49/213)

فإن قيل : الآية صريحة في أن علة تحريم الخمر هي هذه المعاني ، ثم إن هذه المعاني كانت حاصلة قبل تحريم الخمر مع أن التحريم ما كان حاصلاً وهذا يقدح في صحة هذا التعليل : قلنا : هذا هو أحد الدلائل على أن تخلف الحكم عن العلة المنصوصة لا يقدح في كونها علة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 67.68 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء ﴾ الآية .

فكل لهو دعا قليله إلى كثير ، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه ، وصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة فهو كشرب الخمر ، وأوجب أن يكون حراماً مثله .

فإن قيل : إنّ شرب الخمر يورث السكر فلا يقدر معه على الصلاة وليس في اللعب بالنَّرد

والشِّطْرَنج هذا المعنى ؛ قيل له : قد جمع الله تعالى بين الخمر والميسر في التحريم ، ووصفهما جميعاً بأنهما يوقعان العداوة والبغضاء بين الناس ، ويصدّان عن ذكر الله وعن الصلاة ؛ ومعلوم أن الخمر إن أسكرت فالميسر لا يسكر ، ثم لم يكن عند الله افتراقهما في ذلك يمنع من التسوية بينهما في التحريم لأجل ما اشتركا فيه من المعاني .

وأيضاً فإن قليل الخمر لا يسكر كما أن اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنج لا يسكر ثم كان حراماً مثل الكثير ، فلا ينكر أن يكون اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنج حراماً مثل الخمر وإن كان لا يسكر .

وأيضاً فإن ابتداء اللعب يورث الغَفْلة ، فتقوم تلك الغَفْلة المستولية على القلب مكان السكر ؛ فإن كانت الخمر إنما حرّمت لأنها تسكر فتصدّ بالإسكار عن الصلاة ، فليحرم اللعب بالنَّرد والشِّطْرَنْج لأنه يُغفِل ويُلهي فيصدّ بذلك عن الصلاة . والله أعلم .

فصل :

(50/213)

مُهدى الراوية يدل على أنه كان لم يبلغه الناسخ ، وكان متمسكاً بالإباحة المتقدّمة ، فكان ذلك دليلاً على أن الحكم لا يرتفع بوجود الناسخ كما يقوله بعض الأُصوليين بل ببلوغه كما دل عليه هذا الحديث ، وهو الصحيح ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوبخه ، بل بيّن له

الحكم ؛ ولأنه مخاطب بالعمل بالأوّل بحيث لو تركه عصى بلا خلاف ، وإن كان الناسخ قد حصل في الوجود ، وذلك كما وقع لأهل قُبَاء ؛ إذ كانوا يُصلّون إلى بيت المقدس إلى أن أتاهم الآتي فأخبرهم بالناسخ ، فمالوا نحو الكعبة .

وقد تقدّم في سورة "البقرة" والحمد لله ؛ وتقدّم فيها ذكر الخمر واشتقاقها والميسر .

وقد مضى في صدر هذه السورة القول في الأنصاب والأزلام .

والحمد لله .

فصل :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر ﴾ .

الآية .

أعلم الله تعالى عباده أن الشيطان إنما يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بيننا بسبب الخمر وغيره ، فحذّرنا منها ، ونهانا عنها .

روى أن قبيلتين من الأنصار شربوا الخمر وانتشوا ، فعبث بعضهم ببعض ، فلما صَحَوا رأى بعضهم في وجه بعض آثار ما فعلوا ، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن ، فجعل بعضهم يقول : لو كان أخي بي رحيماً ما فعل بي هذا ، فحدثت بينهم الضغائن ؛ فأنزل الله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء ﴾ الآية .

الخامسة عشرة قوله تعالى : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصلاة ﴾ يقول : إذا سكِرتم لم تذكروا الله ولم تصلوا ، وإن صليتم خلط عليكم كما فعل بعليّ ، وروى : بعبد الرحمن كما تقدّم في "النساء" .

وقال عبيد الله بن عمر : سئل القاسم بن محمد عن الشِّطْرَنج أهي ميسر ؟ وعن النّرد أهو ميسر ؟ فقال : كلّ ما صدّ عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر .

قال أبو عبيد : تأوّل قوله تعالى : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصلاة ﴾ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

(51/213)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فروى أبو ميسرة أن عمر بن الخطاب قال : اللهم بيِّن لنا في الخمر والميسر بياناً شافياً فنزلت الآية في سورة البقرة : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾ الآية فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بيِّن لنا في الخمر والميسر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في سورة النساء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم

سكارى ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه ثم قال : اللهم بين لنا في الخمر والميسر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه فقال انتهينا انتهينا أخرجه الترمذي من طريقين : وقال رواية أبي ميسرة هذه أصح وأخرجه أبو داود والنسائي .

(52/213)

وروى مصعب بن سعيد عن أبيه قال : صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فشربنا وذلك قبل أن تحرم زاد حتى انتشينا فتفاخرت الأنصار وقريش فقالت الأنصار نحن أفضل منكم فقال سعد بن أبي وقاص : المهاجرون خير منكم فأخذ رجل من الأنصار لحى جمل فضرب به أنف سعد ففزره فأتى سعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فنزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ وقال ابن عباس : نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا حتى ثملوا وعبث بعضهم ببعض فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول فعل بي هذا فلان أخي وكانوا أخوة ليس في قلوبهم ضغائن فأنزل الله تعالى تحريم الخمر في هذه الآية ﴿ يا أيها

الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ وأما تفسير الآية فقوله تعالى إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر يعني إنما يزين لكم الشيطان شرب الخمر والقمار بالقداح وهو الميسر ويحسن ذلك لكم إرادة أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء بسبب شرب الخمر لأنها تزيل عقل شاربها فيتكلم بالفحش وربما أفضى ذلك إلى المقاتلة وذلك سبب إيقاع العداوة والبغضاء بين شاربيها .

وأما الميسر ، فقال قتادة : كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقمر فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره فيورثه ذلك العداوة والبغضاء فنهى الله عن ذلك وتقدم ما فيه والله أعلم بما يصلح خلقه فظهر بذلك أن الخمر والميسر سببان عظيمان في إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس وهذا فيما يتعلق بأمر الدنيا وفيهما مفاسد تتعلق بأمر الدين وهي قوله تعالى : ﴿ ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ﴾ لأن شرب الخمر يشغل عن ذكر الله وعن فعل الصلاة وكذلك القمار يشغل صاحبه عن ذكر الله وعن الصلاة .

(53/213)

وقد صح من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل شراب أسكر فهو حرام" أخرجاه في الصحيحين وزاد الترمذي وأبو داود : ما أسكر الفرق منه فملء الكف

منه حرام .

الفرق بالتحريك إناء يسع ستة عشر رطلاً ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد لن يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد لن يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً فإن تاب تاب الله عليه فأن عاد الرابعة لم يقبل الله له أربعين صباحاً فإنه تاب لم يتب الله عليه وسقاه الله من نهر الخبال " قالوا يا أبا عبد الرحمن وما نهر الخبال ؟ قال : صديد أهل النار أخرجه الترمذي .

وقال : حديث حسن وأخرجه النسائي وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه " أخرجه أبو داود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾ .

باختصار يسير .

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء فِى الخمر والميسر ﴾ وهو إشارة إلى مفاسدهما الدنيوية ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة ﴾ إشارة إلى مفاسدهما الدينية ، وتخصيصُهما بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال للتنبيه على أن المقصود بيانُ حالهما ، وذكرُ الأصنام والأزلام للدلالة على أنهما مثلُهما في الحرمة والشرارة لقوله عليه

الصلاة والسلام : " شارب الخمر كعابد الوثن " وتخصيصُ الصلاة بالإفراد مع دخولها في الذكر للتعظيم والإشعار بأن الصادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمان لما أنها عِمادُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(54/213)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء فِى الخمر والميسر ﴾ أي بسبب تعاطيهما لأن السكران يقدم على كثير من القبائح التي توجب ذلك ولا يبالي وإذا صحا ندم على ما فعل ، والرجل قد يقامر حتى لا يبقى له شيء وتنتهي به المقامرة إلى أن يقامر بولده وأهله فيؤدي به ذلك إلى أن يصير أعدى الأعداء لمن قمره وغلبه وهذه إشارة إلى مفاسدهما الدنيوية .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة ﴾ إشارة إلى مفاسدهما الدينية . ووجه صد الشيطان لهم بذلك عما ذكر أن الخمر لغلبة السرور بها والطرب على النفوس والاستغراق في الملاذ الجسمانية تلهي عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة وإن الميسر إن كان اللاعب به غالباً انشرحت نفسه ومنعه حب الغلب والقهر والكسب عما ذكر وإن كان

مغلوباً حصل له من الانقباض والقهر ما يحثه على الاحتيال لأن يصير غالباً فلا يكاد يخطر بقلبه غير ذلك .

وقد شاهدنا كثيراً ممن يلعب بالشطرنج يجري بينهم من اللجاج والحلف الكاذب والغفلة عن الله تعالى ما ينفر منه الفيل وتكبو له الفرس ويصوح من سمومه الرخ بل يتساقط ريشه ويحار لشناعته بيذق الفهم ويضطرب فرزين العقل ويموت شاه القلب وتسود رقعة الأعمال ، وتخصيص الخمر والميسر بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة كما يشعر بذلك ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح من الأخبار "الصادحة" بمزيد ذمهما والحط على مرتكبهما .

(55/213)

وخص الصلاة من الذكر بالإفراد بالذكر مع أن الذي يصد عنه يصد عنها لأنه من أركانها تعظيماً لها كما في ذكر الخاص بعد العام وإشعاراً بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان لما أنها عماده والفارق بينه وبين الكفر إذ التصديق القلبي لا يطلع عليه وهي أعظم شعائره المشاهدة في كل وقت ولذا طلبت فيها الجماعة ليشاهدوا الإيمان ويشهدوا به ، ففي

الكلام إشارة إلى أن مراد اللعين ومنتهى آماله من تزيين تعاطي شرب الخمر واللعب بالميسر الإيقاع في الكفر الموجب للخلود معه في النار وبئس القرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ إنّما يريد الشيطان ﴾ بيان لكونها من عمل الشيطان .

ومعنى يريد يحبّ وقد تقدّم بيان كون الإرادة بمعنى المحبّة عند قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلّوا السبيل ﴾ في سورة [النساء : 44] .

وتقدّم الكلام على العداوة والبغضاء عند قوله تعالى : ﴿ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء ﴾ في هذه السورة [64] .

وقوله : في الخمر والميسر ﴾ أي في تعاطيهما ، على متعارف إضافة الأحكام إلى الذوات ، أي بما يحدث في شرب الخمر من إثارة الخصومات والإقدام على الجرائم ، وما يقع في الميسر من التحاسد على القامر ، والغيظ والحسرة للخاسر ، وما ينشأ عن ذلك من التشاتم والسباب والضرب .

على أنّ مجرّد حدوث العداوة والبغضاء بين المسلمين مفسدة عظيمة ، لأنّ الله أراد أن يكون المؤمنون إخوة إذ لا يستقيم أمْر أمّة بين أفرادها البغضاء .

وفي الحديث : " لا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً "

و(في) من قوله ﴿ في الخمر والميسر ﴾ للسببية أو الظرفية المجازية ، أي في مجالس تعاطيهما .

وأمّا الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة فلِما في الخمر من غيبوبَة العقل ، وما في الميسر من استفراغ الوقت في المعاودة لتطلّب الربح .

(56/213)

وهذه أربع علل كلّ واحدة منها تقتضي التحريم ، فلا جرم أن كان اجتماعها مُقتضياً تغليظ التحريم .

ويلحق بالخمر كلّ ما اشتمل على صفتها من إلقاء العداوة والبغضاء والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة .

ويلحق بالميسر كلّ ما شاركه في إلقاء العداوة والبغضاء والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وذلك أنواع القمار كلّها أمّا ما كان من اللهو بدون قِمار كالشطرنج دون قِمار ، فذلك دون الميسر ، لأنّه يندر أن يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، ولأنّه لا يوقع في العداوة والبغضاء غالباً ، فتدخل أحكامه تحت أدلّة أخرى .

والذّكر المقصود في قوله : ﴿ عن ذكر الله ﴾ يحتمل أنّه من الذكر اللسان فيكون المراد به القرآن وكلام الرسول عليه الصلاة والسلام الذي فيه نفعهم وإرشادهم ، لأنّه يشتمل على بيان أحكام ما يحتاجون إليه فإذا انغمسوا في شرب الخمر وفي التقامر غابوا عن مجالس الرسول وسماعِ خُطبه ، وعن ملاقاة أصحابه الملازمين له فلم يسمعوا الذكر ولا يتلقّوه من أفواه سامعيه فيجهلوا شيئاً كثيراً فيه ما يجب على المكلّف معرفته .

فالسيء الذي يصدّ عن هذا هو مفسدة عظيمة يستحقّ أن يحرّم تعاطيه ، ويحتمل أنّ المراد به الذكر القلبي وهو تذكّر ما أمر الله به ونهَى عنه فإنّ ذكر ذلك هو ذكر الله كقول عمر بن الخطاب : أفضلُ من ذكر الله باللسان ذِكرُ الله عند أمره ونهيه .

فالشيء الذي يصدّ عن تذكّر أمر الله ونهيه هو ذريعة للوقوع في مخالفة الأمر وفي اقتحام النهي .

وليس المقصود بالذكر في هذه الآية ذكر الله باللسان لأنّه ليس شيء منه بواجب عدا ما هو من أركان الصلاة فذلك مستغنى عنه بقوله : ﴿ وعن الصلاة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾

قال الفخر :

ولما بيّن تعالى اشتمال شرب الخمر واللعب بالميسر على هذه المفاسد العظيمة في الدين .

قال تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ روي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنتُمْ سكارى ﴾ [النساء : 43] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اللّهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، فلما نزلت هذه الآية قال عمر : انتهينا يا رب .

واعلم أن هذا وإن كان استفهاماً في الظاهر إلا أن المراد منه هو النهي في الحقيقة ، وإنما حسن هذا المجاز لأنه تعالى ذم هذه الأفعال وأظهر قبحها للمخاطب ، فلما استفهم بعد ذلك عن تركها لم يقدر المخاطب إلا على الاقرار بالترك ، فكأنه قيل له : أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر فصار قوله ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ جارياً مجرى تنصيص الله تعالى على وجوب الانتهاء مقروناً بإقرار المكلف بوجوب الانتهاء .

واعلم أن هذه الآية دالة على تحريم شرب الخمر من وجوه : أحدها : تصدير الجملة بإنما ، وذلك لأن هذه الكلمة للحصر ، فكأنه تعالى قال : لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا هذه الأربعة وثانيها : أنه تعالى قرن الخمر والميسر بعبادة الأوثان ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " شارب الخمر كعابد الوثن " وثالثها : أنه تعالى أمر بالاجتناب ، وظاهر الأمر للوجوب ، ورابعها : أنه قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ جعل الاجتناب من الفلاح ، وإذا كان

الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبة ، وخامسها : أنه شرح أنواع المفاسد المتولدة منها في الدنيا والدين ، وهي وقوع التعادي والتباغض بين الخلق وحصول الإعراض عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة .

وسادسها : قوله ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ وهو من أبلغ ما ينتهي به كأنه قيل : قد تلي عليكم ما فيها من أنواع المفاسد والقبائح فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف ؟ أم أنتم على ما كنتم عليه حين لم توعظوا بهذه المواعظ .

وسابعها : أنه تعالى قال بعد ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 68 ﴾

(58/213)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ لما علم عمر رضي الله عنه أن هذا وعيد شديد زائد على معنى انتهوا قال : انتهينا .

وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم مناديه أن ينادي في سكك المدينة ، ألاَ إنّ الخمر قد حُرّمت ؛ فكسرت الدِّنان ، وأُريقت الخمر حتى جرت في سِكك المدينة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الآلوسى :

ثم إنه سبحانه أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام الإنكاري مع الجملة الاسمية مرتباً على ما تقدم من أصناف الصوارف فقال جل شأنه : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ إيذاناً بأن الأمر في الردع والمنع قد بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت بالكلية حتى إن العاقل إذا خلي ونفسه بعد ذلك لا ينبغي أن يتوقف في الانتهاء .

ووجه تلك التأكيدات أن القوم رضي الله تعالى عنهم كما قيل كانوا مترددين في التحريم بعد نزول آية البقرة (912) ولذا قال عمر رضي الله تعالى عنه : "اللهم بين لنا في ذلك بياناً شافياً" فنزلت هذه الآية ، ولما سمع عمر رضي الله تعالى عنه ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ قال : "انتهينا يا رب" ، وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : أول ما نزل في تحريم الخمر ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر ﴾ [البقرة : 219] الآية ، فقال بعض الناس : نشربها لمنافعها التي فيها ، وقال آخرون : لا خير في شيء فيه إثم ثم نزل ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنتُمْ سكارى ﴾ [النساء : 43] الآية فقال بعض الناس : نشربها ونجلس في بيوتنا ، وقال آخرون لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة مع المسلمين فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر ﴾ الآية فانتهوا .

وأخرج عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية لنا نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله سبحانه قد حرم الخمر فمن كان عنده شيء فلا يطعمه ولا تبيعوها " فلبث المسلمون زمانا يجدون ريحها من طرق المدينة مما أهراقوا منها .

وأخرج عن الربيع أنه قال لما نزلت آية البقرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ربكم يقدم في تحريم الخمر " ثم نزلت آية النساء فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن ربكم يقدم في تحريم الخمر " ثم نزلت آية بالمائدة فحرمت الخمر عند ذلك .

وقد تقدم في آية البقرة شيء من الكلام في هذا المقام فتذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ الفاء تفريع عن قوله : ﴿ إنّما يريد الشيطان ﴾ الآية ، فإنّ ما ظهر من مفاسد الخمر والميسر كاف في انتهاء الناس عنهما فلم يبق حاجة لإعادة نهيهم عنهما ، ولكن يستغنى عن ذلك باستفهامهم عن مبلغ أثر هذا البيان في نفوسهم ترفيعاً بهم إلى مقام الفَطن الخبير ، ولو كان بعد هذا البيان كلّه نهاهم عن تعاطيها لكان قد أنزلهم منزلة الغبي ، ففي هذا الاستفهام من بديع لطف الخطاب ما بلغ به حد الإعجاز .

ولذلك اختير الاستفهام بـ ﴿ هل ﴾ التي أصل معناها (قد) .

وكثر وقوعها في حيّز همزة الاستفهام ، فاستغنوا بـ ﴿ هل ﴾ عن ذكر الهمزة ، فهي لاستفهامٍ مضمَّن تحقيقَ الإسناد المستفهَم عنه وهو ﴿ أنتم منتهون ﴾ ، دون الهمزة إذ لم يقل : أتنتهون ، بخلاف مقام قوله ﴿ وجَعَلنا بعضَكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ [الفرقان : 20] .

وجعلت الجملة بعد ﴿ هل ﴾ اسمية لدلالتها على ثبات الخبر زيادة في تحقيق حصول المستفهم عنه ، فالاستفهام هنا مستعمل في حقيقته ، وأريد معها معناه الكنائي ، وهو التحذير من انتفاء وقوع المستفهم عنه .

ولذلك روي أنّ عمر لمّا سمع الآية قال : "انتهينا انتهينا" .

(60/213)

ومن المعلوم للسامعين من أهل البلاغة أنّ الاستفهام في مثل هذا المقام ليس مجرّداً عن الكناية .

فما حكي عن عمرو بن معد يكرب من قوله "إلاّ أنّ الله تعالى قال ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ فقلْنا : لا" إن صحّ عنه ذلك .

ولي في صحته شكّ ، فهو خطأ في الفهم أو التأويل .

وقد شذّ نفر من السلَف نقلت عنهم أخبار من الاستمرار على شرب الخمر ، لا يُدرى مبلغها من الصحّة .

ومحملها ، إنْ صحّت ، علَى أنّهم كانوا يتأوّلون قوله تعالى ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ على أنّه نهي غير جازم .

ولم يَطُل ذلك بينهم .

قيل : إنّ قُدامَة بن مظْعون ، مِمَّن شهد بدراً ، ولاّه عُمر على البحرين ، فشهد عليه أبو هريرة والجارود بأنّه شرب الخمر ، وأنكر الجارود ، وتمّت الشهادة عليه برجل وامرأة .

فلمّا أراد عمر إقامة الحدّ عليه قال قدامة : لو شربتُها كما يقولون ما كان لك أن تجلدني .

قال عُمر : لِمَ ، قال : لأنّ الله يقول : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعَملوا الصالحات جُناح فيما طعموا إذا ما اتّقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [المائدة : 93] ، فقال عمر : أخطأت التأويل إنّك إذا اتّقيت الله اجتنبت ما حَرّم عليك" .

ويروى أنّ وحشياً كان يشرب الخمر بعد إسلامه ، وأنّ جماعة من المسلمين من أهل الشام شربوا الخمر في زمن عمر ، وتأوّلوا التحريم فتلوا قوله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ [المائدة : 93] ، وأنّ عمر استشار عليّاً في شأنهم ، فاتّفقا على أن يستتابوا وإلاّ قُتلوا .

وفي صحة هذا نظر أيضاً .

وفي كتب الأخبار أنّ عُيينة بنَ حِصن نزل على عمرو بن معد يكرب في محلّة بني زُبيد بالكوفة فقدّم له عَمْرو خَمراً ، فقال عيينةُ : أو ليس قد حرّمها الله .

قال عَمْرو : أنتَ أكبَرُ سِنّاً أم أنا ، قال عيينة : أنتَ .

قال : أنتَ أقدَمُ إسلاماً أم أنا ، قال : أنتَ .

(61/213)

قال : فإنّي قد قرأتُ ما بين الدفتين ، فوالله ما وجدت لها تحريماً إلاّ أنّ الله قال : فهل أنتم منتهون ، فقلنا : لا" .

فبات عنده وشربَا وتنادما ، فلمّا أراد عيينة الانصراف قال عيينة بن حصن:

جُزيت أبَا ثَوْر جَزَاء كرامةٍ . . .

فِنعْم الفتى المُزْدَار والمُتَضَيّف

قَرَيْتَ فأكْرَمتَ القِرى وأفدْتَنَا . . .

تَحِيَّةَ عِلْم لم تَكن قبلُ تُعرف

وقلتَ : حلال أن ندِير مُدامة . . .

كَلَوْن انعِقَاقِ البَرْقِ والليل مُسدف

وقَدّمْتَ فيها حُجَّة عربيَّة . . .

تَرُدّ إلى الإنصاف مَن ليس يُنْصِفُ

وأنتَ لنا واللّهِ ذي العرش قُدوَة . . .

إذا صدّنا عن شُرْبها المُتكَلِّفُ

نَقُول : أبو ثَوْر أحَلّ شَرَابَهَا . . .

وقول أُبي ثَوْر أسَدّ وأعْرف

وحذف متعلّق ﴿ منتهون ﴾ لظهوره ، إذ التقدير : فهل أنتم منتهون عنهما ، أي عن الخمر والميسر ، لأنّ تفريع هذا الاستفهام عن قوله : ﴿ إنّما يريد الشيطان ﴾ يعيّن أنّهما المقصود من الانتهاء .

واقتصار الآية على تبيين مفاسد شرب الخمر وتعاطي الميسر دون تبيين ما في عبادة الأنصاب والاستقسام بالأزلام من الفساد ، لأنّ إقلاع المسلمين عنهما قد تقرّر قبل هذه الآية من حين الدخول في الإسلام لأنّهما من مآثر عقائد الشرك ، ولأنّه ليس في النفوس ما يدافع الوازع الشرعي عنهما بخلاف الخمر والميسر فإنّ ما فيهما من اللذات التي تزجي بالنفوس إلى تعاطيهما قد يدافع الوزاع الشرعي ، فلذلك أكّد النهي عنهما أشدّ ممّا أكّد النهي عن الأنصاب والأزلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : المقصود هو النهي عن كل ما يصد عن الله أو يشغل العبد عن شهود مولاه ، وخص هذه الأربعة ، لأنها أمهات الخطايا ومنبع الغفلة والبلايا ، فالخمر فيه فساد العقل الذي هو محل الإيمان ، والميسر فيه فساد المال وفساد القلب بالعداوة ، والشحناء ، وفساد الفكر لاستعماله في الهوى ، والأنصاب فيه فساد الدين الذي هو رأس المال ، والأزلام فيه الفضول والاطلاع على علم الغيب ، الذي هو سر الربوبية ، وهو موجب للمقت والعطب ، والعياذ بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المديد حـ 2 صـ 74﴾

(63/213)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾

لم يأت الحق هنا بالأنصاب أو الأزلام ؛ لأن المؤمنين لا يعتقدون فيها وانتهوا منا ، والخطاب

هنا موجه للمؤمنين .

إذن لماذا قرن الحق التكليف بالنهي عن الخمر والميسر – من قبل – بالأنصاب والأزلام ؟

قال سبحانه ذلك ليبشع لنا الأمر ، فوضع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام ، ولنفهم أن الحكم بالنهي عن الخمر والميسر جاء ليقرنهما بالأنصاب والأزلام ، وما داموا مؤمنين فلا بد أنهم قد انتهوا عن الأنصاب والأزلام .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء ﴾ . والإرادة هي تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، وتتعلق الإرادة بمريد ، فهل يقدر على إنفاذ ما يريد أم لا يقدر ؟ إن كان يقدر على إنفاذ ما يريد ، فالقدرة تكون من بعد الإرادة .

وحينما يريد سبحانه وتعالى فالقدرة تبرز المراد ، فقدرته لا تتخلف ولا مراده يتخلف ؛ لأن كل شيء منفعل له سبحانه وتعالى ، وتختلف المسألة عند الإنسان والشيطان ، فالإنسان يريد ، ولكن أله القدرة على إنفاذ ذلك ؟ أحياناً تكون له بعض من القدرة على إنفاذ ما يريد ، وأحياناً لا .

والشيطان يريد ، لكن أيقدر على إنفاذ ما يريد ؟ إنه يقدر في حالة إطاعة الإنسان له .

وهكذا تكون إرادة الشيطان ، وهو يحب أن تحدث المعصية من الإنسان ، ويتمنى الشيطان ذلك ، ويخطط لذلك . لكن الفعل لا يأتي إلى الوجود إلا إذا وافق الإنسان على طاعة الشيطان .

إذن فالإرادة إن كانت ممن يقدر على الإرغام والإبراز فهي تظهر العمل فوراً ، والقادر المطلق هو الله ، وهو يحكم ما يريد ، ولذلك يأتي قوله الحق : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

لكن خلقه حين يريدون فالأشياء لا تنفعل لهم انفعالها لخالقها ؛ لأن إرادة المخلوقات تقتضي أن ينفذ الإنسان على قدر طاقته ، وهي مهما زادت محدودة . وإرادة الشيطان تحتال على الإنسان حتى يفعل ما يتمناه ، ولا يستطيع الشيطان أن يُكره الإنسان قهراً على فعل ما ، ولكنه يزين له الفعل . فليس للشيطان سلطة الإكراه ليقهر الإنسان على فعل ، وليس للشيطان قدرة على الإقناع أو الإتيان بأدلة تجعل الإنسان يفعل مراد الشيطان وهو راضٍ عن عمله . ولذلك يقول الشيطان في الآخرة للمذنبين : إن الذنب ذنبهم . ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم : 22] .

هكذا يعلن الشيطان أنه غير قادر على البشر ، لا بالقهر ولا بالحجة ، إنّه فقط زين لهم الأمر ، فمن كانت له شهوة فالشيطان يزينها له فيرتكب الذنب . ويعلن الشيطان : ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : 22] .

ويعترف الشيطان أنه مهما صرخ مستغيثاً – يوم القيامة – فلن يجد من يغيثه ، وكذلك أصحاب الذنوب الذين اتبعوه سيصرخون ولن يجدوا من الشيطان عوناً ينجيهم من العذاب .

و" أصرخ فلان فلانا " أي ذهب ليزيل صراخه وينجده .

(65/213)

إذن فقول الحق : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء ﴾ يشرح لنا أن إرادة الشيطان هي إرادة تزيين ، لا إرادة قدرة على القهر أو الإقناع . وإذا سمعت كلمة " يوقع " ، فافهم أن هناك شيئين الأصل فيهما الالتحام ، وهناك من يريد أن يجعل بينهما يفصل هذا الالتحام . ولذلك يقال : " فلان مشى بالوقعية " أي أنه أراد أن يصنع فجوة وشرخاً بين اثنين الأصل فيهما الالتحام .

وكلمة " بينكم " تفيد الانفصال . وهذا الانفصال هو الذي توضع فيه الوقيعة . لماذا ؟ لأن المؤمنين إخوة ، ولأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، والشيطان يسعى بالخمر والميسر بأن يمشي بالوقيعة بين المؤمنين . ونجد مجالس الخمر فيها هذا ؛ فالشاربون معاً كثيراً ما تقوم بينهم المعارك ويدور بينهم السباب . ولاعبو الميسر يأخذ

بعضهم مال بعض ، وهكذا يتحولون من وحدة كالبنيان إلى فرقة وتحدث بينهما العداوة والبغضاء .

وما الفرق بين العداوة والبغضاء ؟ العداوة هي انفصال متلاحمين حدثت بينهما عداوة وبغضاء . والبغضاء هي انفعال القلب بشيء مكروه .

كأن البغضاء توجد في الصدور بعد حصول العدوان ، فكأن العداوة تكون هي المنطقة الوسط التي باعدت بين هذين الشخصين بعد أن استسلما لنزغ الشيطان . وهذان الاثنان كان يجمعهما من قبل الصفاء والمودة والحب والأخوة الإيمانية .

(66/213)

والعداوة في هذه الحالة تأخذ من مشاعر كل طرف ؛ لأن العداوة إن كانت من طرف واحد فعمرها قصير ، ولكنها تطول إن كانت بين طرفين . ولذلك تكون المعركة حامية بين عدوين يستشعر كل منهما العداوة للآخر . وهي تكون عداوة مؤججة وملتهبة إن لم يتدخل طرف ثالث ليحسم بالحق بين الاثنين ، فيخزي الذي على الباطل ويأخذ الحق منه ويعطيه لصاحبه ، وهنا يحس صاحب الحق أن هناك من ينصره . وبهذا تحسم العداوة وتنقضي . لكن إن لم يجد الطرفان رادّاً ولا رادعاً ، تظل العداوة متوهجة . ولذلك حينما

عرض الحق أمر موسى عليه السلام وأمر فرعون ، قال عن موسى : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص : 8] .

والتقطوا موسى لماذا ؟ ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] .

فهل عرفوا هم من البداية أنه عدو ؟ لا ، لقد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الله أفسد مرادهم . فاللام في قوله : " ليكون " هي لام الغاية والعاقبة وليست لام العلة الفاعلة ، وقد أثبت سبحانه بذلك أن فرعون ليس إلهاً ، وأن أتباعه كانوا قوماً مغفلين لا فطنة لهم . فلو كان فرعون إلهاً لعرف أن هذا الوليد الذي سيربيه سيكون عدواً له .

والعداوة هنا هل هي من ناحية موسى فقط تجاه فرعون ؟ لا . إنها عداوة بين الله وموسى كطرف ، وفرعون كطرف . لذلك قال : ﴿ فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [طه : 39] .

ولم تنته هذه العداوة إلا بغرق فرعون . والحق ينبهنا : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر ﴾ و" في " هنا هي للسببية كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت " .

ونقول في حياتنا اليومية : أُخذ فلان إلى الحبس لمدة أعوام في قطعة مخدرات . أي أنه أوقع نفسه في المكروه بسبب شيء ما . وقوله الحق : ﴿ فِي الخمر والميسر ﴾ دلت على أن العداوة والبغضاء مظروفة في الخمر والميسر . ويقول بعد ذلك : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ .

إن ذكر أي أمر يعني أن يكون هذا الأمر في بؤرة الشعور دائماً ، فكل معلومة يذكرها الإنسان تكون في بؤرة شعوره ، ومن بعد ذلك تتحرك لتحل محلها معلومة أخرى . وعندما يكون بال الإنسان مشغولاً بشيء فهذا الشيء لا يتزحزح من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلا بعد أن يأتي أمر آخر يشغل البال .

ولذلك نقول : إياكم أن تعتقدوا أن الذهن يفهم أي أمر من مرة واحدة أو من مرتين أو من ثلاث مرات . لا ، بل يفهم الذهن من مرة واحدة كآلة التصوير ، والمهم أن يكون ساعة التقاط المعلومة خالياً من غيرها ؛ ولذلك كنا نعرف أن إخواننا المكفوفين الدارسين معنا أقدر على الاستيعاب الحفظي منا نحن المبصرين ؛ لأن المبصر عندما يكون بصدد مسألة قد تنشغل عيناه بشيء ، فتكون بؤرة شعوره مشتتة . أما الأعمى فبؤرة شعوره تذكر فقط ما يسمعه .

وهكذا نعرف ما هو " الذكر " . والخمر تطمس العقل وتستره فكيف يذكر الله إذن ؟

وكذلك الصلاة ، وهي الذكر ، تسترها الخمر عنا . وكذلك الميسر الذي يلوح فيه الوهم بالكسب كالسراب ، فيلهث اللاعب خلف اللعب لعله يكسب ، ويفقد القدرة على ذكر الله والصلاة .

ولأن العداوة مسبقة بين الإنسان والشيطان ، نجد الشيطان قد قال فيما يحكيه الحق عنه : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] .

(68/213)

قد عرف الشيطان كيف يقسم ؟ أقسم بعزة الله أن يغوي خلقه ، فلو أن الله أراد عباده لما أخذهم الشيطان . ويذيل الحق أمر الخمر والميسر بقوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ . هذا استفهام ، وهو طلب فهم الشيء ، هذا ما نعرفه عندما يكون الاستفهام من البشر ، ولكن عندما يصدر هذا الاستفهام من الله لنا ، فهذا أمر الأمر سبحانه وتعالى . كيف ؟ إن هناك أمراً من الآمر هو حكم لازم . وهناك أمر يريده الله من المأمور ليأمر به نفسه . وهي ثقة من الآمر الأعلى في الإنسان المؤمن الذي يتلقى مثل هذا الأمر . ومثال ذلك – والله المثل الأعلى – يقول الأب لأحد أبنائه : إن إهمالك لدروسك سيجعلك تنال غضبي واحتقار زملائك لك وتتأخر عن غيرك ، فهل ستنتهي من اللعب واللهو أو لا ؟ ولم يقل : انته

عن اللعب ؛ لأن الأب أراد أن يأتي بالحيثيات حتى يحكم الابن بنفسه ، وحتى يدير المسألة بمقابلها ، ولا يجد إلا أن يقول : لقد انتهيت عن اللعب .

وهنا جاءت المسألة أيضا على هذا الشكل ، فبدلاً من أن تكون حكماً من الله أصبحت حكماً من العبد المأمور . وهذا أبلغ أنواع الحكم ؛ لأن المتكلم يلقي بالأمر في صيغة سؤال ، ليدير المسئول كل جواب فلا يجد إلا الجواب الذي يريده السائل . ومثال ذلك عندما فتر الوحي عن حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وقال أهل قريش : إن رب محمد قد قلاه وأبغضه وكرهه ، ثم نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] .

ويتابع الوحي : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى ﴾ [الضحى : 6] .

وعندما يستقرئ النبي صلى الله عليه وسلم هذه المسألة يجيب : نعم يا رب أنت وجدتني يتيماً فآويتني . وهذا يسمونه مشاركة المأمور في علة الأمر . وهذه أبلغ أنواع الأمر .

(69/213)

وعندما يقول الحق : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ يعلم المخاطبون ماذا يريده الله ، فيقولون : نعم انتهينا يا ربنا . وبالغوا كثيراً في هذا الانتهاء ، فالإمام عليّ – كرم الله وجهه – يقول : لو

وقعت قطرة منها في بحر ثم جف البحر ، ونبت فيه الكلأ واندلع لساني من الجوع ما قربته .

ولم يكن هذا أمراً مفروضاً ، ولكنها المبالغة في الانتهاء على أقصى صورة .

وها هوذا سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول : لو وقعت قطرة منها على يدي لحرمتها على نفسي . وهكذا كان رد فعل قول الحق : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ .

وبذلك تم حسم مسألة الخمر . ونعرف أن التكليف في تحريم الخمر جاء متدرجاً ، والتكاليف الإيمانية إنما تأتى على لسان رسول ، والرسول لا يأتي إلا إذا عم الفساد في المجتمع ، وفي ذوات البشر في آن واحد . فلا نجد من يلوم نفسه ، أو يتدخل ليرد آخر عن فساده ؛ هنا تتدخل السماء بإرسال رسول ، ولا تصب السماء كل أحكامها في أول الأمر ، ولكنها تدعو خلال الرسول بالإيمان بالله الواحد حتى يتلقوا منه الحكم . فالأيمان بوحدانية الله هو قمة العقيدة التي لا هوادة فيها .

لكن في الأمور التي تتعلق بالأحكام ، فالأحكام تُغيِّر أوضاعاً عرفية وأوضاعاً اجتماعية متداولة بين الناس . فإذا أراد الله أن يغير عادة بحكم فهو يأتي بهذه المسألة تدريجا ؛ لأنه سبحانه وتعالى يتلطف مع خلقه برحمته .

ومثال ذلك : كان الرجل يملك المال فلا يعطي أباه ولا أمه ، إنما يعطي المال لأولاده ؛ لأنه يعرف أن والده منته وسيموت قريبا ، وأن الابن هو الذي يستقبل الحياة ، ولذلك فالابن يأخذ كُلَّ المال . هنا قال الحق : لا ، إنك أنت يا صاحب المال قد تموت قبل أبيك فاترك له

شيئاً . ﴿ إِن تَرَكَ خَيْراً الوصيةِ لِلْوَالِدَيْنِ ﴾

[البقرة : 180] .

(70/213)

لقد أراد أن يخرجهم من عدم العطاء إلى الوصية التي تكون منهم . وبعد أن استقرت الأحكام ، قرر الحق للوالدين نصيباً من الميراث . إذن جاء الأمر أولاً بتلطف في الخروج عن حكم الإلف والعادة والعرف ؛ حتى لا يخرجهم إخراجاً قسرياً . والحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يجعل المال دُولة بين الأغنياء فحسب أي يتداولوه دون غيرهم ، بل يريد أن يجعل المال دولة بين الناس . لذلك جاء الميراث .

إننا عندما نحسب ميراث ألف فدان مثلا نجده قد ذاب وتقلص وتناثر خلال ثلاثة أجيال إلى فدانين وخمسة أفدنة . وهذا تدرج أجيالي لا قسري . حتى يرتب الإنسان حياته وحياة أبنائه ، فيترك المالك لأولاده ميراثاً وخيراً ليديروا العمل فيه . أما الذي لا يملك فهو يعطي لأبنائه حرفة أو وظيفة . لذلك يذيب الدِّين المسألةَ المالية والعقارية أو الإقطاع كما يقولون ، لا بالقسر حتى لا تحدث للمجتمع هزة حقد أو هزة توتر ؛ لأن الذي جمع ماله من عرقه ومن اجتهاده ساعة يرى المال قد خرج منه إلى من لم يعرق ومن لم يجد ، فهو يحقد ،

والحق يقول : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ [محمد : 36-37] .

وساعة يحدث الضغن في المجتمع فإن كل استقرار وود ينتهي . وهذا هو منتهى التلطف في رعاية العادات . وكانت الخمر ومجالسها عادة موجودة عند العرب ، وكان من الصعب أن يخرجهم منها مرة واحدة . لذلك جاء تحريمها بتدرج وبتلطف والذكي والفطن عندما يسمع الآية التالية يعرف أن الله قد بيت للخمر تبييتاً محكما للقضاء عليها وذلك بتحريمها ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ [النحل : 67] .

(71/213)

فسبحانه يقول : " ورزقاً حسناً " ، ولم يصف السكر بأنه حسن . ومعنى هذا أن أخذ الرزق وتخميره واتخاذه سكراً هو إتلاف للحسن . وجاء الحق ب (السكر) أولاً ليخبرنا أنهم كانوا يأخذون منه الرزق أولاً النصيب الذي يجعلونه خمراً . ومن بعد ذلك يطرح الحق الأمر كعظة من الواعظ للموعوظ ، والعظة ليست إلزاماً ، إنما هي إبداء رأي حكيم لغيره ، وهذا أول التبيت للدخول إلى تحريمها ، ثم يقول الحق : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ

فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : 219] .

وهكذا رجح الحق جانب الإثم على جانب المنفعة . ومن بعد ذلك يأتي للصلاة ، ولم يكن هناك حكم جازم بعدم شرب الخمر قبل الصلاة إلى أن قام واحد للصلاة وهو سكران ، ونعوذ بالله مما قال ، قال : قل أيها الكافرون أعبد ما تعبدون . لقد اضطرته الخمر أن يخطيء في القمة العقدية ، لذلك جاء الأمر : ﴿ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى ﴾ [النساء : 43] .

ونعلم أن المسلم يصلي خمسة فروض في اليوم ، وحتى لا يقرب الإنسان الصلاة وهو سكران فهذا يقتضي أن يمر النهار كله تقريبا دون خمر إلى ما بعد العشاء .

وبذلك أطال الحق المسافة الزمنية التي يمتنع فيها عن تعاطي الخمر . وفي ذلك حبس للنفس عن المعتاد عليه حتى يألف الشخص المعتادُ تركَ ما اعتادَهُ . ومن بعد ذلك يطلبون من الرسول رأياً شافياً في الخمر فيأتي قوله الحق : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] .

لقد كان هذا هو التدرج الذي يخرجهم من الإلف والعادة في أعمالهم ، فيأتي الأمر بالتحريم وكأنه صادر منهم . ويردف الحق سبحانه وتعالى ذلك الحكم الجزئي في الخمر والميسر فكأنه يقول : ما دامت المسألة كما علمتم مني بأن هذا رجس ومن عمل الشيطان فلا تعينوا الشيطان على نفوسكم وأخلصوا في عبادة الحق وحده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(73/213)

ومن فوائد الإمام الجصاص فى الآيتين

قال رحمه الله :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) ﴾

اقْتَضَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : قَوْلُهُ : ﴿ رِجْسٌ ﴾ لِأَنَّ الرِّجْسَ اسْمٌ فِي الشَّرْعِ لِمَا يَلْزَمُ اجْتِنَابُهُ ؛ وَيَقَعُ اسْمُ الرِّجْسِ عَلَى الشَّيْءِ الْمُسْتَقْذَرِ النَّجِسِ ، وَهَذَا أَيْضًا يَلْزَمُ اجْتِنَابُهُ فَأَوْجَبَ وَصْفُهُ إِيَّاهَا بِأَنَّهَا رِجْسٌ لُزُومَ اجْتِنَابِهَا .

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ وَذَلِكَ أَمْرٌ وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ ، فَانْتَظَمَتْ الْآيَةُ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ .

وَالْخَمْرُ هِيَ عَصِيرُ الْعِنَبِ النِّيِّ الْمُشْتَدِّ ، وَذَلِكَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَمْرٌ .

وَقَدْ سُمِّيَ بَعْضُ الْأَشْرِبَةِ الْمُحَرَّمَةِ بِاسْمِ الْخَمْرِ تَشْبِيهًا بِهَا مِثْلُ الْفَضِيخِ وَهُوَ نَقِيعُ الْبُسْرِ وَنَقِيعُ التَّمْرِ وَإِنْ لَمْ يَتَنَاوَلْهُمَا اسْمُ الْإِطْلَاقِ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي مَعْنَى الْخَمْرِ آثَارٌ مُخْتَلِفَةٌ ، مِنْهَا مَا رَوَى مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : " لَقَدْ حُرِّمَتْ الْخَمْرُ وَمَا بِالْمَدِينَةِ مِنْهَا شَيْءٌ " وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ نَقِيعُ التَّمْرِ وَالْبُسْرِ وَسَائِرُ مَا يُتَّخَذُ مِنْهُمَا مِنْ الْأَشْرِبَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ ابْنُ عُمَرَ مِمَّنْ يَخْفَى عَلَيْهِ الْأَسْمَاءُ اللُّغَوِيَّةُ ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَشْرِبَةَ النَّخْلِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ تُسَمَّى خَمْرًا .

(74/213)

وَرَوَى عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَهُوَ الْفَضِيخُ " ، فَأَخْبَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الْفَضِيخَ خَمْرٌ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سَمَّاهُ خَمْرًا مِنْ حَيْثُ كَانَ شَرَابًا مُحَرَّمًا .

وَرَوَى حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : " كُنْت أَسْقِي أَبَا عُبَيْدَةَ وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ وَسُهَيْلَ ابْنَ بَيْضَاءَ فِي نَفَرٍ فِي بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ ، فَمَرَّ بِنَا رَجُلٌ فَقَالَ : إنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ، فَوَاَللَّهِ مَا

قَالُوا حَتَّى نَتَبَيَّنَ حَتَّى قَالُوا :

أَهْرِقْ مَا فِي إِنَائِك يَا أَنَسُ ثُمَّ مَا عَادُوا فِيهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِنَّهُ الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ وَهُوَ خَمْرُنَا يَوْمَئِذٍ " .

فَأَخْبَرَ أَنَسٌ أَنَّ الْخَمْرَ يَوْمَ حُرِّمَتْ الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ ، وَهَذَا جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَمَّا كَانَ مُحَرَّمًا سَمَّاهُ خَمْرًا ، وَأَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجْرُونَهُ مَجْرَى الْخَمْرِ وَيُقِيمُونَهُ مَقَامَهَا ، لَا أَنَّ ذَلِكَ اسْمٌ لَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ قَتَادَةَ رَوَى عَنْ أَنَسٍ هَذَا الْحَدِيثَ ، وَقَالَ : " إنَّمَا نَعُدُّهَا يَوْمَئِذٍ خَمْرًا " فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعُدُّونَهَا خَمْرًا عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ يُجْرُونَهَا مَجْرَى الْخَمْرِ .

وَرَوَى ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : " حُرِّمَتْ عَلَيْنَا الْخَمْرُ يَوْمَ حُرِّمَتْ وَمَا نَجِدُ خُمُورَ الْأَعْنَابِ إلَّا الْقَلِيلَ وَعَامَّةُ خُمُورِنَا الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ " وَمَعَ هَذَا أَيْضًا مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجْرُونَهُ مَجْرَى الْخَمْرِ فِي الشُّرْبِ وَطَلَبِ الْإِسْكَارِ وَطَيِّبَةِ النَّفْسِ ، وَإِنَّمَا كَانَ شَرَابُ الْبُسْرِ وَالتَّمْرِ .

(75/213)

وَرَوَى الْمُخْتَارُ بْنُ فُلْفُلٍ قَالَ : سَأَلْت أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ عَنْ الْأَشْرِبَةِ فَقَالَ : " حُرِّمَتْ الْخَمْرُ وَهِيَ مِنْ الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ وَالْعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالذُّرَةِ ، وَمَا خُمِّرَتْ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ خَمْرٌ "

فَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ مِنْ الْبُسْرِ وَالتَّمْرِ ، وَذَكَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهَا مِنْ سِتَّةِ أَشْيَاءَ ؛ فَكَانَ عِنْدَهُ أَنَّ مَا أَسْكَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْرِبَةِ فَهُوَ خَمْرٌ ، ثُمَّ قَالَ : " وَمَا خُمِّرَتْ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ خَمْرٌ " وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إنَّمَا سَمَّى ذَلِكَ خَمْرًا فِي حَالِ الْإِسْكَارِ ، وَأَنَّ مَا لَا يُسْكِرُ مِنْهُ فَلَيْسَ بِخَمْرٍ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : " إنَّ الْخَمْرَ حُرِّمَتْ وَهِيَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ : مِنْ الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ وَالْعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ، وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ " وَهَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إنَّمَا سَمَّاهُ خَمْرًا

فِي حَالِ مَا أَسْكَرَ إذَا أَكْثَرَ مِنْهُ ، لِقَوْلِهِ : " وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ " .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ السِّرِّيِّ بْنِ إسْمَاعِيلَ عَنْ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ مِنْ الْحِنْطَةِ خَمْرًا ، وَإِنَّ مِنْ الشَّعِيرِ خَمْرًا وَإِنَّ مِنْ الزَّبِيبِ خَمْرًا وَإِنَّ مِنْ التَّمْرِ خَمْرًا وَإِنَّ مِنْ الْعَسَلِ خَمْرًا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ إنَّ جَمِيعَ مَا يَكُونُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ خَمْرٌ ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ أَنَّ مِنْهَا خَمْرًا .

(76/213)

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ مَا يُسْكِرُ مِنْهُ فَيَكُونُ مُحَرَّمًا فِي تِلْكَ الْحَالِ ، لَمْ يُرِدْ بِذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ اسْمٌ لِهَذِهِ الْأَشْرِبَةِ الْمُتَّخَذَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْهُ بِأَسَانِيدَ أَصَحَّ مِنْ إِسْنَادِ هَذَا الْحَدِيثِ مَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ الْخَمْرُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ ، وَهُوَ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبَانُ قَالَ : حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي كَثِيرٍ الْعَنْبَرِيِّ وَهُوَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ : النَّخْلَةِ وَالْعِنَبِ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ عَمَّارٍ الْمُوصِلِيِّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ : النَّخْلِ وَالْعِنَبِ ﴾ .

وَهَذَا الْخَبَرُ يَقْضِي عَلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِصِحَّةِ سَنَدِهِ ، وَقَدْ تَضَمَّنَ نَفْيَ اسْمِ الْخَمْرِ عَنْ الْخَارِجِ مِنْ غَيْرِ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : " الْخَمْرُ " اسْمٌ لِلْجِنْسِ ، فَاسْتَوْعَبَ بِذَلِكَ جَمِيعَ مَا يُسَمَّى خَمْرًا ، فَانْتَفَى بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْخَارِجُ مِنْ غَيْرِهِمَا مُسَمًّى بِاسْمِ الْخَمْرِ .

وَاقْتَضَى هَذَا الْخَبَرُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْمُسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ مِنْ الْخَارِجِ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ ، وَهُوَ عَلَى أَوَّلِ الْخَارِجِ مِنْهُمَا مِمَّا يُسْكِرُ مِنْهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْعَصِيرُ النِّيُّ الْمُشْتَدُّ وَنَقِيعُ التَّمْرِ وَالْبُسْرِ قَبْلَ أَنْ تُغَيِّرَهُ النَّارُ لِأَنَّ قَوْلَهُ : " مِنْهُمَا " يَقْتَضِي أَوَّلَ خَارِجٍ مِنْهُمَا مِمَّا يُسْكِرُ .

وَالَّذِي حَصَلَ عَلَيْهِ الِاتِّفَاقُ مِنْ الْخَمْرِ هُوَ مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ النِّيِّ الْمُشْتَدِّ إذَا غَلَا وَقَذَفَ بِالزَّبَدِ ، فَيَحْتَمِلُ عَلَى هَذَا إذَا كَانَ الْخَمْرُ مَا وَصَفْنَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ ﴾ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّهَا مِنْ إحْدَاهُمَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ وَإِنَّمَا الرُّسُلُ مِنْ الْإِنْسِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ أَحَدِهِمَا .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخَمْرَ هُوَ مَا ذَكَرْنَا وَأَنَّ مَا عَدَاهَا لَيْسَ بِخَمْرٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ اتِّفَاقُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى تَكْفِيرِ مُسْتَحِلِّ الْخَمْرِ فِي غَيْرِ حَالِ الضَّرُورَةِ وَاتِّفَاقُهُمْ عَلَى أَنَّ مُسْتَحِلَّ مَا سِوَاهَا مِنْ هَذِهِ الْأَشْرِبَةِ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِسِمَةِ الْكُفْرِ ، فَلَوْ كَانَتْ خَمْرًا لَكَانَ مُسْتَحِلُّهَا كَافِرًا خَارِجًا عَنْ الْمِلَّةِ كَمُسْتَحِلِّ النِّيِّ الْمُشْتَدِّ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اسْمَ الْخَمْرِ فِي الْحَقِيقَةِ إنَّمَا يَتَنَاوَلُ مَا وَصَفْنَا .

(78/213)

وَزَعَمَ بَعْضُ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ مِنْ الْوَرَعِ إلَّا تَشَدُّدُهُ فِي تَحْرِيمِ النَّبِيذِ دُونَ التَّوَرُّعِ عَنْ أَمْوَالِ الْأَيْتَامِ وَأَكْلِ السُّحْتِ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْأَحَادِيثَ الصِّحَاحَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ تَفْسِيرِ الْخَمْرِ مَا هِيَ وَاللُّغَةُ الْقَائِمَةُ الْمَشْهُورَةُ وَالنَّظَرُ وَمَا يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ بِعُقُولِهِمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ أَسْكَرَ فَهُوَ خَمْرٌ فَأَمَّا كِتَابُ اللَّهِ فَقَوْلُهُ : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ السُّكْرَ مِنْ الْعِنَبِ مِثْلُ السُّكْرِ مِنْ النَّخْلِ .

(79/213)

فَادَّعَى هَذَا الْقَائِلُ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا أَسْكَرَ فَهُوَ خَمْرٌ ، ثُمَّ تَلَا الْآيَةَ ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ أَنَّ السُّكْرَ مَا هُوَ وَلَا أَنَّ السُّكْرَ خَمْرٌ ؛ فَإِنْ كَانَ السُّكْرُ خَمْرًا عَلَى الْحَقِيقَةِ فَإِنَّمَا هُوَ الْخَمْرُ الْمُسْتَحِيلَةُ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ﴾ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْآيَةَ مُقْتَضِيَةٌ لِإِبَاحَةِ السُّكْرِ الْمَذْكُورِ فِيهَا لِأَنَّهُ تَعَالَى اعْتَدَّ عَلَيْنَا فِيهَا بِمَنَافِعِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ كَمَا اعْتَدَّ بِمَنَافِعِ الْأَنْعَامِ وَمَا خَلَقَ فِيهَا مِنْ اللَّبَنِ ، فَلَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ إذًا

عَلَى تَحْرِيمِ السُّكْرِ وَلَا عَلَى أَنَّ السُّكْرَ خَمْرٌ ، وَلَوْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ السُّكْرَ خَمْرٌ لَمَا دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْخَمْرَ تَكُونُ مِنْ كُلِّ مَا يُسْكِرُ ؛ إذْ فِيهَا ذِكْرُ الْأَعْنَابِ الَّتِي مِنْهَا تَكُونُ الْخَمْرُ الْمُسْتَحِيلَةُ مِنْ عَصِيرِهَا ، فَكَانَتْ دَعْوَاهُ عَلَى الْكِتَابِ غَيْرَ صَحِيحَةٍ .

وَذَكَرَ مِنْ الْأَحَادِيثِ فِي ذَلِكَ مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ السَّلَفِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَهُ ، وَذَكَرْنَا مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ ﴾ وَ ﴿ كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ ﴾ وَ ﴿ مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ ﴾ وَنَحْوَهَا مِنْ الْأَخْبَارِ .

(80/213)

وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ حَالَ وُجُودِ الْإِسْكَارِ دُونَ غَيْرِهَا الْمُوَافِقِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ الْأَخْبَارِ النَّافِيَةِ لِكَوْنِهَا خَمْرًا وَمَا ذَكَرْنَا مِنْ دَلَالَةِ الْإِجْمَاعِ .

وَقَدْ تَوَاتَرَتْ

الْآثَارُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ السَّلَفِ شُرْبُ النَّبِيذِ الشَّدِيدِ ، مِنْهُمْ عُمَرُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ وَبُرَيْدَةُ ، فِي آخَرِينَ قَدْ ذَكَرْنَاهُمْ فِي كِتَابِنَا فِي الْأَشْرِبَةِ ؛ وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ شَرِبَ مِنْ النَّبِيذِ الشَّدِيدِ ، فِي أَخْبَارٍ أُخَرَ ، فَيَنْبَغِي عَلَى قَوْلِ هَذَا الْقَائِلِ أَنْ

يَكُونُوا قَدْ شَرِبُوا خَمْرًا .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مَطِينٌ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ﴾ فَقُلْنَا : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ إنَّ هَذَا النَّبِيذَ الَّذِي نَشْرَبُ يُسْكِرُنَا قَالَ : لَيْسَ هَكَذَا ، إنْ شَرِبَ أَحَدُكُمْ تِسْعَةَ أَقْدَاحٍ لَمْ يُسْكِرْ فَهُوَ حَلَالٌ ، فَإِنْ شَرِبَ الْعَاشِرَ فَأَسْكَرَهُ فَهُوَ حَرَامٌ .

(81/213)

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى قَالَ : حَدَّثَنَا هَوْذَةُ قَالَ : حَدَّثَنَا عَوْفُ بْنُ سِنَانٍ عَنْ أَبِي الْحَكَمِ عَنْ بَعْضِ الْأَشْعَرِيِّينَ عَنْ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : ﴿ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُعَاذًا إلَى الْيَمَنِ ، فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّك تَبْعَثُنَا إلَى أَرْضٍ بِهَا أَشْرِبَةٌ مِنْهَا الْبِتْعُ مِنْ الْعَسَلِ وَالْمِزْرُ مِنْ الشَّعِيرِ وَالذُّرَةِ يَشْتَدُّ حَتَّى يُسْكِرَ ؛ قَالَ : وَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ جَوَامِعَ الْكَلِمِ فَقَالَ : إنَّمَا حُرِّمَ الْمُسْكِرُ الَّذِي يُسْكِرُ عَنْ الصَّلَاةِ ﴾ .

فَأَخْبَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُحَرَّمَ مِنْهُ مَا يُوجِبُ السُّكْرَ دُونَ غَيْرِهِ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا الْعَلَائِيِّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ بَكَّارٍ قَالَ

: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ بَشِيرٍ الْغَطَفَانِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : سَأَلْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْأَشْرِبَةِ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، فَقَالَ ﴿ حُرِّمَ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا وَالسُّكْرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ ﴾ .

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَيْضًا بَيَانُ مَا حُرِّمَ مِنْ الْأَشْرِبَةِ سِوَى الْخَمْرِ وَهُوَ مَا يُوجِبُ السُّكْرَ .

(82/213)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ الْمُثَنَّى قَالَ : حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ قَالَ : حَدَّثَنَا سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ نِيَارٍ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ اشْرَبُوا فِي الظُّرُوفِ وَلَا تَسْكَرُوا ﴾ ، فَقَوْلُهُ : (اشْرَبُوا فِي الظُّرُوفِ) مُنْصَرِفٌ إلَى مَا كَانَ حَظَرَهُ مِنْ الشُّرْبِ فِي الْأَوْعِيَةِ ، فَأَبَاحَ الشُّرْبَ مِنْهَا بِهَذَا الْخَبَرِ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُرَادَهُ مَا يُسْكِرُ كَثِيرُهُ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : (اشْرَبُوا الْمَاءَ وَلَا تَسْكَرُوا) ؛ إذْ كَانَ الْمَاءُ لَا يُسْكِرُ بِوَجْهٍ مَا ؟ فَثَبَتَ أَنَّ مُرَادَهُ إبَاحَةُ شُرْبِ قَلِيلِ مَا يُسْكِرُ كَثِيرُهُ .

وَأَمَّا مَا رُوِيَ عَنْ الصَّحَابَةِ مِنْ شُرْبِ النَّبِيذِ الشَّدِيدِ فَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهُ طَرَفًا فِي كِتَابِ الْأَشْرِبَةِ

، وَنَذْكُرُ هَهُنَا بَعْضَ مَا رُوِيَ فِيهِ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ جَعْفَرٍ الْقَتَّاتُ قَالَ : حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ مِهْرَانَ الْخَبَّازُ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ أَبِي حُصَيْنٍ وَالْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ وَالْأَسْوَدُ قَالَ : (كُنَّا نَدْخُلُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَيَسْقِينَا النَّبِيذَ الشَّدِيدَ) .

(83/213)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ الْكَرْخِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عَوْنٍ الْفَرْضِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ الرَّمَادِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ بِالْكُوفَةِ وَهُوَ يُحَدِّثُنَا فِي تَحْرِيمِ النَّبِيذِ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : اسْكُتْ يَا صَبِيُّ حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ : شَرِبْنَا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ نَبِيذًا صُلْبًا آخِرُهُ يُسْكِرُ ؛ وَحَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ : شَهِدْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حِينَ طُعِنَ وَقَدْ أُتِيَ بِالنَّبِيذِ فَشَرِبَهُ ، قَالَ : عَجِبْنَا مِنْ قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ لِيَحْيَى : (اسْكُتْ يَا صَبِيُّ) .

(84/213)

وَرَوَى إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ سَعِيدٍ وَعَلْقَمَةَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا شَرِبَ مِنْ شَرَابِ عُمَرَ ، فَجَلَدَهُ عُمَرُ الْحَدَّ ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : إنَّمَا شَرِبْت مِنْ شَرَابِك فَدَعَا عُمَرُ شَرَابَهُ فَكَسَّرَهُ بِالْمَاءِ ثُمَّ شَرِبَ مِنْهُ وَقَالَ : (مَنْ رَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ شَيْءٌ فَلْيُكَسِّرْهُ بِالْمَاءِ) ، وَرَوَاهُ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ عَنْ عُمَرَ نَحْوَهُ ، وَقَالَ فِيهِ : إنَّهُ شَرِبَ مِنْهُ بَعْدَمَا ضَرَبَ الْأَعْرَابِيَّ

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْمَعْمَرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي الشَّوَارِبِ قَالَ : حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ قَالَ : حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي مَيْمُونَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ ﴿ أُمِّ سُلَيْمٍ وَأَبِي طَلْحَةَ : أَنَّهُمَا كَانَا يَشْرَبَانِ نَبِيذَ الزَّبِيبِ وَالتَّمْرِ يَخْلِطَانِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : يَا أَبَا طَلْحَةَ إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ هَذَا فَقَالَ : إنَّمَا نَهَى عَنْهُ لِلْعَوَزِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَمَا نَهَى عَنْ الْإِقْرَانِ ﴾ .

وَمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرٌ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهُ طَرَفًا فِي كِتَابِنَا (الْأَشْرِبَةِ) وَكَرِهْت التَّطْوِيلَ بِإِعَادَتِهِ هُنَا .

وَمَا رُوِيَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَحْرِيمُهُ الْأَشْرِبَةَ الَّتِي يُبِيحُهَا أَصْحَابُنَا فِيمَا نَعْلَمُهُ ، وَإِنَّمَا رُوِيَ عَنْهُمْ تَحْرِيمُ نَقِيعِ الزَّبِيبِ وَالتَّمْرِ وَمَا لَمْ يُرَدَّ مِنْ الْعَصِيرِ إلَى الثُّلُثِ ؛ إلَى

أَنْ نَشَأَ قَوْمٌ مِنْ الْحَشْوِ تَصَنَّعُوا عِنْدَ الْعَامَّةِ بِالتَّشْدِيدِ فِي تَحْرِيمِهِ وَلَوْ كَانَ النَّبِيذُ مُحَرَّمًا لَوَرَدَ النَّقْلُ بِهِ مُسْتَفِيضًا لِعُمُومِ الْبَلْوَى كَانَتْ بِهِ ؛ إذْ كَانَتْ عَامَّةُ أَشْرِبَتِهِمْ نَبِيذَ التَّمْرِ وَالْبُسْرِ ، كَمَا وَرَدَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَقَدْ كَانَتْ بَلْوَاهُمْ بِشُرْبِ النَّبِيذِ أَعَمَّ مِنْهَا بِشُرْبِ الْخَمْرِ لِقِلَّتِهَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مُوجِبِي تَحْرِيمِهِ .

وَقَدْ اسْتَقْصَيْنَا الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ وُجُوهِهِ فِي (الْأَشْرِبَةِ) .

وَأَمَّا الْمَيْسِرُ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ : (الشَّطْرَنْجُ مِنْ الْمَيْسِرِ) وَقَالَ عُثْمَانُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ : (النَّرْدُ) .

وَقَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : (الْقِمَارُ كُلُّهُ مِنْ الْمَيْسِرِ) .

وَأَصْلُهُ مِنْ تَيْسِيرِ أَمْرِ الْجَزُورِ بِالِاجْتِمَاعِ عَلَى الْقِمَارِ فِيهِ ، وَهُوَ السِّهَامُ الَّتِي يُجِيلُونَهَا ، فَمَنْ خَرَجَ سَهْمُهُ اسْتَحَقَّ مِنْهُ مَا تُوجِبُهُ عَلَامَةُ السَّهْمِ ، فَرُبَّمَا أَخْفَقَ بَعْضُهُمْ حَتَّى لَا يَحْظَى بِشَيْءٍ وَيَنْجَحَ الْبَعْضُ فَيَحْظَى بِالسَّهْمِ الْوَافِرِ ؛ وَحَقِيقَتُهُ تَمْلِيكُ الْمَالِ عَلَى الْمُخَاطَرَةِ .

وَهُوَ أَصْلٌ فِي بُطْلَانِ عُقُودِ التَّمْلِيكَاتِ الْوَاقِعَةِ عَلَى الْأَخْطَارِ ، كَالْهِبَاتِ وَالصَّدَقَاتِ وَعُقُودِ الْبَيَّاعَاتِ وَنَحْوِهَا ، إذَا عُلِّقَتْ عَلَى الْأَخْطَارِ ، بِأَنْ يَقُولَ : (قَدْ بِعْتُك إذَا قَدِمَ زَيْدٌ) وَ (وَهَبْته لَك إذَا خَرَجَ عَمْرٌو) لِأَنَّ مَعْنَى إيسَارِ الْجَزُورِ أَنْ يَقُولَ : مَنْ خَرَجَ سَهْمُهُ اسْتَحَقَّ مِنْ الْجَزُورِ كَذَا ، فَكَانَ اسْتِحْقَاقُهُ لِذَلِكَ السَّهْمِ مِنْهُ مُعَلَّقًا عَلَى الْخَطَرِ .

وَالْقُرْعَةُ فِي الْحُقُوقِ تَنْقَسِمُ إلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : تَطْيِيبُ النُّفُوسِ مِنْ غَيْرِ إحْقَاقِ وَاحِدٍ مِنْ الْمُقْتَرِعِينَ وَلَا بَخْسِ حَظٍّ مِمَّا اقْتَرَعُوا عَلَيْهِ ، مِثْلُ الْقُرْعَةِ فِي الْقِسْمَةِ وَفِي قَسْمِ النِّسَاءِ وَفِي تَقْدِيمِ الْخُصُومِ إلَى الْقَاضِي .

وَالثَّانِي : مِمَّا ادَّعَاهُ مُخَالِفُونَا فِي الْقُرْعَةِ بَيْنَ عَبِيدٍ أَعْتَقَهُمْ الْمَرِيضُ وَلَا مَالَ لَهُ غَيْرُهُمْ ، فَقَوْلُ مُخَالِفِينَا هُنَا مِنْ جِنْسِ الْمَيْسِرِ الْمَحْظُورِ بِنَصِّ الْكِتَابِ لِمَا فِيهِ مِنْ نَقْلِ الْحُرِّيَّةِ عَمَّنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ إلَى غَيْرِهِ بِالْقُرْعَةِ ، وَلِمَا فِيهِ أَيْضًا مِنْ إحْقَاقِ بَعْضِهِمْ وَبَخْسِ حَقِّهِ حَتَّى لَا يَحْظَى مِنْهُ بِشَيْءٍ وَاسْتِيفَاءِ بَعْضِهِمْ حَقَّهُ وَحَقَّ غَيْرِهِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَيْسِرِ فِي الْمَعْنَى .

وَأَمَّا الْأَنْصَابُ فَهِيَ مَا نُصِبَ لِلْعِبَادَةِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ حَجَرٍ غَيْرِ مُصَوَّرٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ مَا يُنْصَبُ لِلْعِبَادَةِ .

(87/213)

وَأَمَّا الْأَزْلَامُ فَهِيَ الْقِدَاحُ ، وَهِيَ سِهَامٌ كَانُوا يَجْعَلُونَ عَلَيْهَا عَلَامَاتِ (افْعَلْ) وَ (لَا تَفْعَلْ) وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَيَعْمَلُونَ فِي سَائِرِ مَا يَهْتَمُّونَ بِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ عَلَى مَا تُخْرِجُهُ تِلْكَ السِّهَامُ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَوْ إثْبَاتٍ أَوْ نَفْيٍ ، وَيَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْأَنْسَابِ أَيْضًا إذَا شَكُّوا فِيهَا ، فَإِنْ خَرَجَ (لَا) نَفَوْهُ ، وَإِنْ خَرَجَ (نَعَمْ) أَثْبَتُوهُ ؛ وَهِيَ سِهَامُ الْمَيْسِرِ أَيْضًا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ فَإِنَّ الرِّجْسَ هُوَ الَّذِي يَلْزَمُ اجْتِنَابُهُ إمَّا لِنَجَاسَتِهِ وَإِمَّا لِقُبْحِ مَا يُفْعَلُ بِهِ مِنْ عِبَادَةٍ أَوْ تَعْظِيمٍ ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ (رِجْسٌ نَجِسٌ) فَيُرَادُ بِالرِّجْسِ النَّجِسُ ، وَيَتْبَعُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ ، كَقَوْلِهِمْ : (حَسَنٌ بَسَنٌ) وَ (عَطْشَانُ نَطْشَانَ) وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ .

وَالرِّجْزُ قَدْ قِيلَ فِيهِ إنَّهُ الْعَذَابُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَئِنْ كَشَفْت عَنَّا الرِّجْزَ ﴾ أَيْ الْعَذَابَ .

(88/213)

وَقَدْ يَكُونُ فِي مَعْنَى الرِّجْسِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ لِأَنَّهُ يَدْعُو إلَيْهِ وَيَأْمُرُ بِهِ ، فَأَكَّدَ بِذَلِكَ أَيْضًا حُكْمَ تَحْرِيمِهَا ؛ إذْ كَانَ الشَّيْطَانُ لَا يَأْمُرُ إلَّا بِالْمَعَاصِي وَالْقَبَائِحِ وَالْمُحَرَّمَاتِ ، وَجَازَتْ نِسْبَتُهُ إلَى الشَّيْطَانِ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ ؛ إذْ كَانَ هُوَ الدَّاعِي إلَيْهِ

وَالْمُزَيِّنَ لَهُ ، أَلَا تَرَى أَنَّ رَجُلًا لَوْ أَغْرَى غَيْرَهُ بِضَرْبِ غَيْرِهِ أَوْ بِسَبِّهِ وَزَيَّنَهُ لَهُ جَازَ أَنْ يُقَالَ لَهُ هَذَا مِنْ عَمَلِك ؟ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ الْآيَةُ ؛ فَإِنَّمَا يُرِيدُ بِهِ مَا يَدْعُو الشَّيْطَانُ إلَيْهِ وَيُزَيِّنُهُ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ حَتَّى يَسْكَرَ مِنْهَا شَارِبُهَا فَيُقْدِمُ عَلَى الْقَبَائِحِ وَيُعَرْبِدُ عَلَى جُلَسَائِهِ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إلَى الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ؛ وَكَذَلِكَ الْقِمَارُ يُؤَدِّي إلَى ذَلِكَ ، قَالَ قَتَادَةُ : (كَانَ الرَّجُلُ يُقَامِرُ فِي مَالِهِ وَأَهْلِهِ فَيُقْمَرُ وَيَبْقَى حَزِينًا سَلِيبًا فَيُكْسِبُهُ ذَلِكَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ) .

(89/213)

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى تَحْرِيمِ النَّبِيذِ إذْ كَانَ السُّكْرُ مِنْهُ يُوجِبُ مِنْ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ مِثْلَ مَا يُوجِبُهُ السُّكْرُ فِي الْخَمْرِ ؛ وَهَذَا الْمَعْنَى لَعَمْرِي مَوْجُودٌ فِيمَا يُوجِبُ السُّكْرَ مِنْهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِيمَا لَا يُوجِبُهُ ، وَلَا خِلَافَ فِي تَحْرِيمِ مَا يُوجِبُ السُّكْرَ مِنْهُ ، وَأَمَّا قَلِيلُ الْخَمْرِ فَلَيْسَتْ هَذِهِ الْعِلَّةُ مَوْجُودَةً فِيهِ فَهُوَ مُحَرَّمٌ لِعَيْنِهِ ، وَلَيْسَ فِيهِ عِلَّةٌ تَقْتَضِي تَحْرِيمَ قَلِيلِ النَّبِيذِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(90/213)

ومن فوائد ابن العربى فى الآيتين

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ قَالَ : " اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا فَإِنَّهَا تُذْهِبُ الْعَقْلَ وَالْمَالَ " فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ : ﴿ يَسْأَلُونَك عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ .

فَدُعِيَ عُمَرُ ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : " اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا " فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ ؛ فَدُعِيَ عُمَرُ ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : " اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا " فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ مُنْتَهُونَ ﴾ ؛ فَدُعِيَ عُمَرُ ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : " انْتَهَيْنَا .

انْتَهَيْنَا " .

وَرُوِيَ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مُلَاحَاةٍ جَرَتْ بَيْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ .

وَهُمَا عَلَى شَرَابٍ لَهُمَا ، وَقَدْ انْتَشَيَا ، فَتَفَاخَرَتْ الْأَنْصَارُ وَقُرَيْشٌ ، فَأَخَذَ الْأَنْصَارِيُّ لِحْيَيْ جَمَلٍ فَضَرَبَ بِهِ أَنْفَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ فَفَزَرَهُ ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ .

(91/213)

وَرُوِيَ أَنَّ ذَلِكَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَ عِتْبَانُ بْنُ مَالِكٍ ، رَوَى ذَلِكَ الطَّبَرِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا .

وَهَذَا لَيْسَ بِمُتَعَارِضٍ ؛ لِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَجْرِيَ بَيْنَ سَعْدٍ وَبَيْنَ عِتْبَانَ مَا يُوجِبُ نُزُولَ الْآيَةِ كَمَا رَوَى الطَّبَرِيُّ ، فَيُدْعَى عُمَرُ فَتُقْرَأُ عَلَيْهِ ، كَمَا رَوَى التِّرْمِذِيُّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي تَحْقِيقِ اسْمِ الْخَمْرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ : وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَصَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ .

وَأَمَّا الْمَيْسِرُ : فَهُوَ شَيْءٌ مُحَرَّمٌ لَا سَبِيلَ إلَى عَمَلِهِ ، فَلَا فَائِدَةَ فِي ذِكْرِهِ ؛ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَمُوتَ ذِكْرُهُ وَيُمْحَى رَسْمُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ رِجْسٌ ﴾ : وَهُوَ النَّجَسُ ، وَقَدْ رُوِيَ فِي صَحِيحِ حَدِيثِ الِاسْتِنْجَاءِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِحَجَرَيْنِ وَرَوْثَةٍ ، فَأَخَذَ الْحَجَرَيْنِ وَأَلْقَى الرَّوْثَةَ ، وَقَالَ : إنَّهَا رِكْسٌ ﴾ أَيْ نَجَسٌ .

وَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ إلَّا مَا يُؤْثَرُ عَنْ رَبِيعَةَ أَنَّهُ قَالَ : إنَّهَا مُحَرَّمَةٌ ، وَهِيَ طَاهِرَةٌ ،

كَالْحَرِيرِ عِنْدَ مَالِكٍ مُحَرَّمٌ ، مَعَ أَنَّهُ طَاهِرٌ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، الرِّجْسِ النَّجِسِ ، الْخَبِيثِ الْمُخْبِثِ ﴾ .

(92/213)

وَيُعَضِّدُ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْمَعْنَى أَنَّ تَمَامَ تَحْرِيمِهَا وَكَمَالَ الرَّدْعِ عَنْهَا الْحُكْمُ بِنَجَاسَتِهَا حَتَّى يَتَقَذَّرَهَا الْعَبْدُ ، فَيَكُفَّ عَنْهَا ، قُرْبَانًا بِالنَّجَاسَةِ وَشُرْبًا بِالتَّحْرِيمِ ، فَالْحُكْمُ بِنَجَاسَتِهَا يُوجِبُ التَّحْرِيمَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ يُرِيدُ أَبْعِدُوهُ ، وَاجْعَلُوهُ نَاحِيَةً ؛ وَهَذَا أَمْرٌ بِاجْتِنَابِهَا ، وَالْأَمْرُ عَلَى الْوُجُوبِ لَا سِيَّمَا وَقَدْ عُلِّقَ بِهِ الْفَلَاحُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : نَزَلَتْ فِي قَبِيلَتَيْنِ مِنْ الْأَنْصَارِ شَرِبُوا الْخَمْرَ وَانْتَشَوْا ، فَعَبَثَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، فَلَمَّا صَحَوْا ، وَرَأَى بَعْضُهُمْ فِي وَجْهِ بَعْضٍ آثَارَ مَا فَعَلُوا ، وَكَانُوا

إِخْوَةً لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ضَغَائِنُ ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقُولُ : لَوْ كَانَ أَخِي بِي رَحِيمًا مَا فَعَلَ هَذَا بِي ، فَحَدَثَتْ بَيْنَهُمُ الضَّغَائِنُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ ﴾ الْآيَةَ .

(93/213)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ كَمَا فُعِلَ بِعَلِيٍّ ، وَرُوِيَ : بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي الصَّلَاةِ حِينَ أَمَّ النَّاسَ ، فَقَرَأَ : قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ فَقَالَ عُمَرُ : انْتَهَيْنَا .

حِينَ عَلِمَ أَنَّ هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ ، ﴿ وَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَادِيَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ : أَلَا إنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ؛ فَكُسِرَتْ الدِّنَانُ ، وَأُرِيقَتْ الْخَمْرُ حَتَّى جَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ ، وَمَا كَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ إلَّا مِنْ الْبُسْرِ وَالتَّمْرِ ﴾ ، وَهَذَا ثَابِتٌ صَحِيحٌ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾ وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِلتَّحْرِيمِ ، وَتَشْدِيدٌ فِي الْوَعِيدِ .

قَالَ : فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .
أَمَّا عِقَابُ التَّوْلِيَةِ وَالْمَعْصِيَةِ فَعَلَى الْمُرْسِلِ لَا عَلَى الرَّسُولِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(94/213)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ . . . الآية ﴾

أخرج أحمد عن أبي هريرة قال " حرمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما ؟ فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ [البقرة : 219] الآية . فقال الناس ما حرم علينا ، إنما قال إثم كبير ، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين ، أمّ أصحابه في المغرب ، خلط في قراءته ، فأنزل الله أغلظ منها ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [النساء : 43]

وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مغتبق ، ثم نزلت آية أغلظ من ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ قالوا : انتهينا ربنا ، فقال الناس : يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان ؟ فأنزل الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ﴾ إلى آخر الآية . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم " .

(95/213)

وأخرج الطيالسي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال : " نزل في الخمر ثلاث آيات ، فأوّل شيء نزل ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ [البقرة : 219] الآية . فقيل حرمت الخمر فقالوا : يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله ، فسكت عنهم . ثم نزلت هذه الآية ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] فقيل : حرمت الخمر . فقالوا : يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ، ثم نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر . . . ﴾ الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت الخمر " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والنحاس في ناسخه عن سعد بن أبي وقاص قال : " فيَّ نزل تحريم الخمر ، صنع رجل من الأنصار طعاماً ، فدعانا فأتاه ناس ، فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر . وذلك قبل أن تحرم الخمر . فتفاخروا فقالت الأنصار : الأنصار خير وقالت قريش : قريش خير . فأهوى رجل بلحي جزور فضرب على أنفي ففزره ، فكان سعد مفزور الأنف ، قال : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له ، فنزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ إلى آخر الآية " .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن شهاب أن سالم بن عبد الله حدثه . أن أول ما حرمت الخمر أن سعد بن أبي وقاص وأصحاباً له شربوا فاقتتلوا فكسروا أنف سعد ، فأنزل الله ﴿ إنما الخمر والميسر . . . ﴾ الآية .

وأخرج الطبراني عن سعد بن أبي وقاص قال

" نزلت فيَّ ثلاث آيات من كتاب الله نزل تحريم الخمر ، نادمت رجلاً فعارضته وعارضني ، فعربدت عليه فشججته ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ إلى قوله

﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ ونزلت فيَّ ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ [العنكبوت : 8] حملته أمه كرهاً إلى آخر الآية ونزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ [المجادلة : 12] فقدمت شعيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لزهيد ، فنزلت الآية الأخرى ﴿ أأشفقتم أن تقدموا . . . ﴾ [المجادلة : 13] الآية " .

وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار ، شربوا فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته ، فيقول : صنع بي هذا أخي فلان ، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن ، والله لو كان بي رؤوفاً ما صنع بي هذا ، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ فقال ناس من المتكلفين : هي رجس ، وهي في بطن فلان قتل يوم بدر ، وفلان قتل يوم أحد ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن بريدة قال " بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر جلاء ، إذ قمت حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر ﴿

يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ إلى قوله ﴿ منتهون ﴾ فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم ، قال : وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطيتهم ، فقالوا : انتهينا ربنا " .

(97/213)

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " يا أهل المدينة إن الله يعرض عن الخمر تعريضاً لا أدري لعله سينزل فيها أمر ، ثم قام فقال : يا أهل المدينة إن الله قد أنزل إليَّ تحريم الخمر ، فمن كتب منكم هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشربها " .

وأخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن سابط قال : زعموا أن عثمان بن مظعون حرم الخمر في الجاهلية ، وقال : لا أشرب شيئاً يذهب عقلي ، ويضحك بي من هو أدنى مني ، ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد ، فنزلت هذه الآية في سورة المائدة في الخمر ، فمر عليَّ رجل فقال : حرمت الخمر ، وتلا هذه الآية فقال : تباً لها قد كان بصري فيها ثابتاً .

(98/213)

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال " لما نزلت في البقرة ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ [البقرة : 219] شربها قوم لقوله منافع للناس وتركها قوم لقوله إثم كبير منهم عثمان بن مظعون ، حتى نزلت الآية التي في النساء ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] فتركها قوم وشربها قوم ، يتركونها بالنهار حين الصلاة ويشربونها بالليل ، حتى نزلت الآية التي في المائدة ﴿ إنما الخمر والميسر . . . ﴾ الآية . قال عمر : أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام بعداً لك وسحقاً ، فتركها الناس ووقع في صدور أناس من الناس منها ، فجعل قوم يمر بالراوية من الخمر فتخرق فيمر بها أصحابها فيقولون : قد كنا نكرمك عن هذا المصرع ، وقالوا : ما حرم علينا شيء أشد من الخمر ، حتى جعل الرجل يلقى صاحبه فيقول : إن في نفسي شيئاً . فيقول له صاحبه : لعلك تذكر الخمر . فيقول : نعم . فيقول : إن في نفسي مثل ما في نفسك ، حتى ذكر ذلك قوم واجتمعوا فيه فقالوا : كيف نتكلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد ، وخافوا أن ينزل فيهم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعدوا له حجة ، فقالوا : أرأيت حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وعبد الله بن جحش أليسوا في الجنة ؟ قال : بلى . قالوا : أليسوا قد مضوا وهم يشربون الخمر ؟ فحرم علينا شيء دخلوا الجنة وهم يشربونه . فقال : قد سمع الله ما قلتم ، فإن شاء أجابكم ، فأنزل الله ﴿ إنما يريد الشيطان

أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ قالوا : انتهينا ، ونزل في الذين ذكروا حمزة وأصحابه ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا . . . ﴾ الآية " .

(99/213)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ قال : الميسر . هو القمار كله ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ قال : فذمهما ولم يحرمهما وهي لهم حلال يومئذ ، ثم أنزل هذه الآية في شأن الخمر وهي أشد منها فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] فكان السكر منها حراماً ، ثم أنزل الآية التي في المائدة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام . . . ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ فجاء تحريمها في هذه الآية ، قليلها وكثيرها ، ما أسكر منها وما لم يسكر .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : أول ما نزل تحريم الخمر ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير . . . ﴾ [البقرة : 219] الآية . فقال بعض الناس : نشربها لمنافعها التي فيها ، وقال آخرون لا خير في شيء فيه إثم ، ثم نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا

تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] الآية . فقال بعض الناس : نشربها ونجلس في بيوتنا ، وقال آخرون : لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة مع المسلمين ، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر .

. . ﴾ الآية . فانتهوا فنهاهم فانتهوا .

وأخرج عبد بن حميد " عن قتادة في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] قال : كان القوم يشربونها حتى إذا حضرت الصلاة أمسكوا عنها قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال حين أنزلت هذه الآية : قد تقرَّب الله في تحريم الخمر ، ثم حرمها بعد ذلك في سورة المائدة بعد غزوة الأحزاب ، وعلم أنها تسفِّه الأحلام ، وتجهد الأموال ، وتشغل عن ذكر الله وعن الصلاة " .

(100/213)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ قال : فانتهى القوم عن الخمر وأمسكوا عنها قال : وذكر لنا أن هذه الآية لما أنزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أيها الناس إن الله قد حرم الخمر فمن كان عنده شيء فلا يطعمه ولا تبيعوها ، فلبث المسلمون زماناً يجدون ريحها من طرق المدينة لكثرة ما أهرقوا منها " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس . أن الشراب كانوا يضربون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأيدي والنعال والعصي حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : لو فرضنا لهم حداً ، فتوخى نحو ما كانوا يضربون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى توفي ، ثم كان عمر من بعده يجلدهم كذلك أربعين ، حتى أتى برجل من المهاجرين الأولين وقد شرب ، فأمر به لن يجلد فقال : لم تجلدني ؟ بيني وبينك كتاب الله . قال : وفي أي كتاب الله تجد أن لا أجلدك ؟ قال : فإن الله تعالى يقول في كتابه ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ فإنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً وأحداً والخندق والمشاهد . فقال عمر : ألا تردون عليه ؟ فقال ابن عباس : هؤلاء الآيات نزلت عذراً للماضين وحجة على الباقين ، عذراً للماضين لأنهم لقوا الله قبل أن حرم عليهم الخمر ، وحجة على الباقين لأن الله يقول ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴾ حتى بلغ الآية الأخرى ، فإن كان من ﴿ آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ فإن الله نهى أن يشرب الخمر . فقال عمر : فماذا ترون ؟ فقال علي بن أبي طالب : نرى أنه إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، وعلى المفتري ثمانون جلدة ، فأمر عمر فجلد ثمانين .

وأخرج ابن مردويه عن أنس عن أبي طلحة زوج أم أنس قال " لما نزلت تحريم الخمر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتفاً يهتف : ألا أن الخمر قد حرمت فلا تبيعوها فمن كان عنده منه شيء فليهرقه .

قال أبو طلحة : يا غلام حل عُزّلى تلك المزاد ، ففتحها فأهرقها وخمرنا يومئذ البسر والتمر ، فأهرق الناس حتى امتنعت فجاج المدينة " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : "كنا نأكل من طعام لنا ونشرب عليه من هذا الشراب ، فأتانا فلان من نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تشربون الخمر وقد أنزل فيها . قلنا ما تقولون ؟ قال : نعم ، سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم الساعة ومن عنده أتيتكم ، فقمنا فأكفينا ما كان في الإناء من شيء " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال "كان عند أبي طلحة مال ليتيم ، فاشترى به خمراً ، فلما حرمت الخمر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اجعله خلاً ؟ فقال : لا ، أهْرِقْهُ " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس . أن الآية التي حرم الله فيها الخمر نزلت وليس في المدينة شراب يشرب إلا من تمر .

وأخرج أبو يعلى عن أنس قال : لما نزل تحريم الخمر فدخلت على ناس من أصحابي وهي بين أيديهم فضربتها برجلي ، وقلت : انطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد نزل تحريم الخمر ، وشرابهم يومئذ البسر والتمر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كانوا يشربون الخمر بعد ما أنزلت التي في البقرة ، وبعد التي في سورة النساء ، فلما نزلت التي التي في سورة المائدة تركوه .

وأخرج مسلم وأبو يعلى وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " يا أيها الناس إن الله أعرض بالخمر ، فمن كان عنده منها شيء فليبع ولينتفع به ، فلم نلبث إلا يسيراً ثم قال : إن الله قد حرم الخمر ، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء فلا يبع ولا يشرب . قال : فاستقبل الناس بما كان عندهم منها فسفكوها في طرق المدينة " .

(102/213)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها ، والمسكر من كل شراب .

وأخرج ابن مردويه عن وهب بن كيسان قال : قلت لجابر بن عبد الله متى حرمت الخمر ؟

قال : بعد أحد صبحنا الخمر يوم أحد حين خرجنا إلى القتال .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : حرمت الخمر يوم حرمت ، وما كان شراب الناس إلا التمر والزبيب .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال "كان رجل عنده مال أيتام ، فكان يشتري لهم ويبيع ، فاشترى خمراً فجعله في خوابي ، وإن الله أنزل تحريم الخمر ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله إنه ليس لهم مال غيره فقال : أهرقه . فأهرقه" .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : حرمت الخمر وما بالمدينة منها شيء ، وما خمرهم يومئذ إلا الفضيخ .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : حرمت الخمر يوم حرمت ، وما بالمدينة خمر إلا الفضيخ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن عبد الله بن عمرو قال : إن هذه الآية التي في القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ هي في التوراة ، إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ويبطل به اللعب والزفن والمزامير والكبارات . يعني البرابط ، والزمارات ، يعني الدف ، والطنابير والشعر والخمر مرة لمن طعمها ، وأقسم ربي بيمينه وعزة حيله لا يشربها عبد بعد ما حرمتها عليه إلا عطشته يوم القيامة ، ولا يدعها بعد ما حرمتها إلا سقيته إياها

من حظيرة القدس .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " حرم الله الخمر ، وكل مسكر حرام " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : لقد أنزل الله تحريم الخمر ، وما بالمدينة زبيبة واحدة .

(103/213)

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن الجارود وابن مردويه عن أبي سعيد قال " كان عندنا خمر ليتيم ، فلما نزلت الآية التي في المائدة سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : ليتيم ؟ فقال : اهريقوها " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : حرمت الخمر وهي تخمر في الجراري .

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : نزل تحريم الخمر وما في أسقيتنا إلا الزبيب والتمر ، فأكفأناهما .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : من التمر خمر ، ومن العسل خمر ، ومن الزبيب خمر ، ومن العنب خمر ، ومن الحنطة خمر ، وأنهاكم عن كل

مسكر" .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر . . . ﴾ [البقرة : 219] الآية . كرهها قوم لقوله ﴿ فيهما إثم كبير ﴾ وشربها قوم لقوله ﴿ ومنافع للناس ﴾ حتى نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] فكانوا يَدَعونها في حين الصلاة ، ويشربونها في غير حين الصلاة . حتى نزلت ﴿ إنما الخمر والميسر . . . ﴾ الآية ، فقال عمر : ضيعة لك اليوم قرنت بالميسر .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : نزلت في الخمر أربع آيات ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر . . . ﴾ الآية . فتركوها ، ثم نزلت ﴿ تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ [النحل : 67] فشربوها ، ثم نزلت الآيتان في المائدة ﴿ إنما الخمر والميسر . . . ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ .

(104/213)

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : نزلت هذه الآية ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر . . . . ﴾ الآية . فلم يزالوا بذلك يشربونها حتى صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً ، فدعانا ساقيهم وعلي بن أبي طالب يقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] فلم يفهمها ،

فأنزل الله يشدد في الخمر ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ فكانت حلالاً يشربونها من صلاة الغداة حتى يرتفع النهار ، فيقومون إلى صلاة الظهر وهم مصحون ، ثم لا يشربونها حتى يصلوا العتمة ، ثم يقومون إلى صلاة الفجر وقد صحوا ، فلم يزالوا بذلك يشربونها حتى صنع سعد بن أبي وقاص طعاماً ، فدعا ساقيهم رجل من الأنصار ، فشوى لهم رأس بعير ثم دعاهم عليه ، فلما أكلوا وشربوا من الخمر سكروا ، وأخذوا في الحديث ، فتكلم سعد بشيء ، فغضب الأنصاري ، فرفع لحي البعير فكسر أنف سعد ، فأنزل الله نسخ الخمر وتحريمها ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : نزل تحريم الخمر في سورة المائدة بعد غزوة الأحزاب ، وليس للعرب يومئذ عيش أعجب إليهم منها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الربيع قال : لما نزلت آية البقرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن ربكم يقدم في تحريم الخمر ، ثم نزلت آية النساء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن ربكم يقرب في تحريم الخمر ، ثم نزلت آية المائدة ، فحرمت الخمر عند ذلك " .

(105/213)

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي قال " نزلت أربع آيات في تحريم الخمر أولهن التي في البقرة ، ثم نزلت الثانية ﴿ من ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ [النحل : 67] ، ثم أنزلت التي في النساء ، بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بعض الصلوات إذ غنى سكران خلفه ، فأنزل الله ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . . ﴾ [النساء : 43] الآية . فشربها طائفة من الناس وتركها طائفة ، ثم نزلت الرابعة التي في المائدة ، فقال عمر بن الخطاب ، انتهينا يا ربنا " .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن قيس قال " لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه الناس وقد كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوه عن ذلك ؟ فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [البقرة : 216] فقالوا : هذا شيء قد جاء فيه رخصة ، نأكل الميسر ونشرب الخمر ونستغفر من ذلك ، حتى أتى رجل صلاة المغرب فجعل يقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ [الكافرون : الآيات الثلاث] فجعل لا يجوّد ذلك ولا يدري ما يقرأ ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] فكان الناس يشربون الخمر حتى يجيء وقت الصلاة فيدعون شربها ، فيأتون الصلاة وهم يعلمون ما يقولون ، فلم يزالوا كذلك حتى أنزل الله ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ فقال : انتهينا يا رب " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يموت مدمن خمر إلا لقي الله كعابد وثن ، ثم قرأ ﴿ إنما الخمر والميسر . . . ﴾ الآية " .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله حرم الخمر ، والميسر ، والكوبة ، والغبيراء ، وكل مسكر حرام " .

(106/213)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله حرم عليكم الخمر ، والميسر ، والكوبة ، وكل مسكر حرام " .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن ابن عمر قال : نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ، ما فيها شراب العنب .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح " إن الله حرَّم بيع الخمر ، الأنصاب ، والميتة ، والخنزير ، فقال بعض الناس : كيف ترى ، في شحوم الميتة يدهن بها السفن والجلود ، ويستصبح بها الناس ؟ فقال : لا ، هي حرام ، ثم قال عند ذلك : قاتل الله

اليهود ، إن الله لما حرم عليهم الشحوم ، جملوه فباعوه وأكلوا ثمنه " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال " قدم رجل من دوس على النبي صلى الله عليه وسلم براوية من خمر أهداها له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل علمت أن الله حرمها بعدك ؟ فأقبل الدوسي على رجل كان معه فأمره ببيعها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل علمت أن الذي حرَّم شربها حرم بيعها وأكل ثمنها ؟ وأمر بالمزاد فأهريقت حتى لم يبق فيها قطرة " .

وأخرج ابن مردويه عن تميم الداري أنه " كان يهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل عام راوية من خمر ، فلما كان عام حرمت الخمر جاء براوية ، فلما نظر إليها ضحك وقال : هل شعرت أنها قد حرمت ؟ فقال : يا رسول الله أفلا نبيعها فننتفع بثمنها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعن الله اليهود ، انطلقوا إلى ما حرم الله عليهم من شحوم البقر والغنم ، فأذابوه اهالة فباعوا منه ما يأكلون ، والخمر حرام ثمنها حرام بيعها " .

(107/213)

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة والطحاوي وابن أبي حاتم وابن حبان والدارقطني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن

عمر . أنه قام على المنبر فقال : أما بعد فإن الخمر نزل تحريمها يوم نزل ، وهي من خمسة . من العنب ، والتمر ، والبر ، والشعير ، والعسل ، والخمر ، ما خامر العقل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر قال : إن هذه الأنبذة تنبذ من خمسة أشياء . من التمر ، والزبيب ، والعسل ، والبر ، والشعير ، فما خمرته منها ثم عتقته فهو خمر .

وأخرج الشافعي وابن أبي شيبة والبيهقي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام " .

وأخرج الحاكم وصححه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الزبيب والتمر هو الخمر ، يعني إذا انتبذا جميعاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والنحاس في ناسخه والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من الحنطة خمراً ، ومن الشعير خمراً ، ومن الزبيب خمراً ، ومن التمر خمراً ، ومن العسل خمراً ، وأنا أنهاكم عن كل مسكر " .

وأخرج الحاكم وصححه عن مريم بنت طارق قالت : "كنت في نسوة من المهاجرات ، حججنا فدخلنا على عائشة ، فجعل نساء يسألنها عن الظروف ؟ فقالت : إنكم لتذكرون ظروفاً ما كان كثير منها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتقين الله واجتنبن ما يسكركن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل مسكر حرام ، وإن

أسكرها ماء حبها فلتجتنبه " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن المنذر والنحاس في ناسخه عن أبي هريرة " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنبة " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي عن الحسن قال : الميسر . القمار .

(108/213)

وأخرج البيهقي في سننه عن نافع . أن ابن عمر كان يقول : الميسر . القمار .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في سننه عن مجاهد قال : الميسر كعاب فارس ، وقداح العرب ، وهو القمار كله .

وأخرج البيهقي عن مجاهد قال : الميسر القمار كله ، حتى الجوز الذي يلعب به الصبيان .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر بها زجراً فإنها من الميسر " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الشعب عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إياكم وهذه الكعاب الموسومة التي تزجر زجراً فإنها من الميسر " .

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إياكم وهاتين اللعبتين الموسومتين اللتين يزجران زجراً فإنهما ميسر العجم " .

وأخرج وكيع وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : إياكم وهذه الكعاب الموسومة التي تزجر زجراً فإنها ميسر العجم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : كل القمار من الميسر ، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : النرد والشطرنج من الميسر .

وأخرج عبد بن حميد عن علي قال : الشطرنج ميسر الأعاجم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن القاسم بن محمد . أنه سئل عن النرد أهي من الميسر ؟ قال : كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي في الشعب عن القاسم . أنه قيل له : هذه النرد تكرهونها فما بال الشطرنج ؟ قال : كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وأبو الشيخ والبيهقي في الشعب من طريق ربيعة بن كلثوم عن أبيه قال : خطبنا ابن الزبير فقال : يا أهل مكة بلغني عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها النرد شير ، وإن الله يقول في كتابه ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ ، وإني أحلف بالله لا أوتى بأحد لعب بها إلا عاقبته في شعره وبشره ، وأعطيت سلبه من أتاني به .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لعب بالنرد شير فقد عصى الله ورسوله " .

وأخرج أحمد عن أبي عبد الرحمن الخطمي " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي ، مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمرو قال : اللاعب بالنرد قماراً كآكل لحم الخنزير ، واللاعب بها من غير قمار كالمدهن بودك الخنزير .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن مجاهد قال : اللاعب بالنرد قماراً من الميسر ، واللاعب بها

سفاحاً كالصابغ يده في دم الخنزير ، والجالس عندها كالجالس عند مسالخه ، وإنه يؤمر بالوضوء منها ، والكعبين والشطرنج سواء .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن يحيى بن أبي كثير قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم يلعبون بالنرد ، فقال : " قلوب لاهية ، وأيد عاملة ، وألسنة لاغية " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن قال : النرد ميسر العجم .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك بن أنس قال : الشطرنج من النرد ، بلغنا عن ابن عباس أنه ولي مال يتيم فأحرقها .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبيد الله بن عمير قال : سئل ابن عمر عن الشطرنج فقال : هي شر من النرد .

(110/213)

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر أنه سئل عن الشطرنج فقال : تلك المجوسية لا تلعبوا بها . وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن عمير قال : رأى رجل من أهل الشام أنه يغفر لكل مؤمن في كل يوم اثنتي عشرة مرة ، إلا أصحاب الشاه يعني الشطرنج .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن قتادة قال : الميسر القمار ، كان

الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد سليباً حزيناً ينظر إلى ماله في يد غيره ، وكانت تورث بينهم العداوة والبغضاء فنهى الله عن ذلك ، وتقدم فيه وأخبر إنما هو رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق ليث عن عطاء وطاوس ومجاهد قالوا : كل شئ فيه قمار فهو من الميسر ، حتى لعب الصبيان بالكعاب والجوز .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين . أنه رأى غلماناً يتقامرون في يوم عيد فقال : لا تقامروا فإن القمار من الميسر .

وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن سيرين قال : ما كان من لعب فيه قمار ، أو قيام ، أو صياح ، أو شر ، فهو من الميسر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن شريح . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ثلاث من الميسر : الصفير بالحمام ، والقمار ، والضرب بالكعاب " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يتبع حمامة ، فقال : شيطان يتبع شيطانة " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن قال : شهدت عثمان وهو يخطب ، وهو يأمر بذبح الحمام ، وقتل الكلاب .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن خالد الحذاء عن رجل يقال له أيوب قال : كان ملاعب آل فرعون الحمام .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن إبراهيم قال : من لعب بالحمام الطيارة لم يمت حتى يذوق ألم الفقر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب بن قال : كان من ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين .

(111/213)

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي في الميسر قال : كانوا يشترون الجزور فيجعلونها أجزاء ، ثم يأخذون القداح فيلقونها ، وينادي : يا ياسر الجزور يا ياسر الجزور ، فمن خرج قدحه أخذ جزءاً بغير شيء ، ومن لم يخرج قدحه غرم ولم يأخذ شيئاً .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس . أنه كان يقال : اين ايسار الجزور ؟ فيجتمع العشرة ، فيشترون الجزور بعشرة فصلان إلى الفصال ، فيجيلون السهام فتصير بتسعة حتى تصير إلى واحد ، ويغرم الآخرون فصيلاً فصيلاً إلى الفصال ، فهو الميسر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأنصاب حجارة كانوا يذبحون لها ، والأزلام

قداح كانوا يقتسمون بها الأمور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانت لهم حصيات ، إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ والأزلام ﴾ قال : هي كعاب فارس التي يقتمرون بها ، وسهام العرب .

وأخرج أبو الشيخ عن سلمة بن وهرام قال : سألت طاوساً عن الأزلام ؟ فقال : كانوا في الجاهلية لهم قداح يضربون بها قدح معلم يتطيرون منه ، فإذا ضربوا بها حين يريد أحدهم الحاجة فخرج ذلك القدح لم يخرج لحاجته ، وإن خرج غيره خرج لحاجته ، وكانت المرأة إذا أرادت حاجة لها لم تضرب بتلك القداح ، فذلك قوله الشاعر :

إذا جددت أنثى لأمر خمارها . . . أتته ولم تضرب له بالمقاسم

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ رجس ﴾ قال : سخط .

(112/213)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق سعيد بن جبير في قوله ﴿ رجس ﴾ قال : إثم ﴿ من عمل الشيطان ﴾ يعني من تزيين الشيطان ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ﴾ يعني حين شج الأنصاري رأس سعد بن أبي وقاص ﴿ ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ فهذا وعيد التحريم ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ يعني في تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴿ فإن توليتم ﴾ يعني أعرضتم عن طاعتهما ﴿ فاعلموا أنما على رسولنا ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ البلاغ المبين ﴾ يعني أن يبين تحريم ذلك .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : لما نزل تحريم الخمر قالوا : يا رسول الله فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فنزلت ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح . . . ﴾ الآية .

وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء بن عازب قال : مات ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم يشربون الخمر ، فلما نزل تحريمها قال أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟ فنزلت ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال " بينا أدير الكاس على أبي طلحة ، وأبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وسهيل بن بيضاء ، وأبي دجانة ، حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر ، فسمعنا منادياً ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت . قال : فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب ، وكسرنا القلال ، وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ، وأصبنا من طيب أم سليم ، ثم خرجنا إلى المسجد وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ إلى قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ فقال رجل : يا رسول الله فما منزلة من مات منا وهو يشربها ؟ فأنزل الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا .

. . ﴾ الآية " .

وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة ، فنزل تحريم الخمر ، فنادى مناد ، فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت ؟ فخرجت فقلت : هذا مناد ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت . فقال لي : اذهب فأهرقها . قال : فجرت في سكك المدينة ، قال : وكانت خمرهم يومئذ

الفضيخ البسر والتمر ، فقال بعض القوم : قتل قوم وهي في بطونهم ، فأنزل الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا . . . ﴾ الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال : اصطبح ناس الخمر يوم أحد ، ثم قتلوا شهداء .

وأخرج الطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : " لما نزل تحريم الخمر قالت اليهود : أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها ؟ فأنزل الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح . . . ﴾ الآية . فقال النبي صلى الله عليه وسلم قيل لي : أنت منهم " .

(114/213)

وأخرج الدارقطني في الأفراد وابن مردويه عن ابن مسعود قال : " لما نزل تحريم الخمر قالوا : يا رسول الله كيف بمن شربها من إخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم ؟ فأنزل الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ ليس على الذين آمنوا . . . ﴾ الآية . يعني بذلك رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ماتوا وهم يشربون

الخمر قبل أن تحرم الخمر ، فلم يكن عليهم فيها جناح قبل أن تحرم ، فلما حرمت قالوا : كيف تكون علينا حراماً وقد مات إخواننا وهم يشربونها ؟ فأنزل الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا . . . ﴾ يقول ليس عليهم حرج فيما كانوا يشربون قبل أن أحرمها إذ كانوا محسنين متقين ، والله يحب المحسنين .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : نزلت ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ فيمن كان يشربها ممن قتل ببدر وأحد مع النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : لما أنزل الله تحريم الخمرة في سورة المائدة بعد سورة الأحزاب ، قال في ذلك رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصيب فلان يوم بدر ، وفلان يوم أحد ، وهم يشربونها فنحن نشهد أنهم من أهل الجنة ، فأنزل الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾ يقول : شربها القوم على تقوى من الله وإحسان ، وهي لهم يومئذ حلال ، ثم حرمت بعدهم فلا جناح عليهم في ذلك .

(115/213)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ﴾ قال : قالوا : يا رسول الله ما نقول لإخواننا الذين مضوا كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ؟ فأنزل الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ من الحرام قبل أن يحرم عليهم ﴿ إذا ما اتقوا وأحسنوا ﴾ وأحسنوا بعد ما حرم عليهم ، وهو قوله

﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ [البقرة : 275] .

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود قال : " لما نزلت ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا . . . ﴾ الآية . قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " قيل لي : أنت منهم " .

وأخرج الدينوري في المجالسة وابن مردويه وأبو نعيم عن ثابت بن عبيد قال : جاء رجل من آل حاطب إلى علي ، فقال : يا أمير المؤمنين إني أرجع إلى المدينة ، وإنهم سائلي عن عثمان ، فماذا أقول لهم ؟ قال : أخبرهم أن عثمان كان من ﴿ آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن محارب بن دثار " أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم شربوا الخمر بالشام ، فقال لهم يزيد بن أبي سفيان : شربتم الخمر ؟ فقالوا : نعم ، لقول الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ حتى فرغوا من الآية . فكتب فيهم إلى عمر ، فكتب إليه إن أتاك كتابي هذا نهاراً فلا تنظر بهم الليل ، وإن أتاك ليلاً فلا تنظر بهم النهار ، حتى تبعث بهم إليَّ لا يفتنوا عباد الله ، فبعث بهم إلى عمر ، فلما قدموا على عمر قال : شربتم الخمر ؟ قالوا : نعم . فتلا عليهم ﴿ إنما الخمر والميسر . . . ﴾ إلى آخر الآية . قالوا : اقرأ التي بعدها ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ قال : فشاور فيهم الناس ، فقال لعلي : ما ترى ؟ قال : أرى أنهم شرَّعوا في دين الله ما لم يأذن الله فيه ، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم فقد أحلوا ما حرم الله ، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين ثمانين فقد افتروا على الله الكذب ، وقد أخبرنا الله بحد ما يفتري به بعضنا على بعض . قال : فجلدهم ثمانين ثمانين .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم " إن الله لعن الخمر ، ولعن غارسها ، ولعن شاربها ، ولعن عاصرها ، ولعن مؤويها ، ولعن مديرها ، ولعن ساقيها ، ولعن حاملها ، ولعن آكل ثمنها ، ولعن بائعها " .

وأخرج وكيع والبخاري ومسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة إلا أن يتوب " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب ، لم يشربها في الآخرة وإن أُدخل الجنة " .

(117/213)

وأخرج مسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله . " أن رجلاً قدم من اليمن ، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المزر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أو يسكر هو ؟ قالوا : نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل مسكر حرام ، إن الله عهد لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال . قالوا : يا رسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار " " .

وأخرج عبد الرزاق والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عمرو . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ،

وإن شربها الثالثة لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن شربها الرابعة لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ، فإن تاب لم يتب الله عليه وكان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال . قيل : وما طينة الخبال ؟ قال : صديد أهل النار " .

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من شرب الخمر شربة لم تقبل صلاته أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل توبته أربعين صباحاً ، فلا أدري أفي الثالثة أو في الرابعة ؟ قال : فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن عبد الله بن عمر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من ترك الصلاة سكراً مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ، ومن ترك الصلاة سكراً أربع مرات كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال . قيل : وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : عصارة أهل النار " .

وأخرج ابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي عن عبد الله بن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وشاربها ، وآكل ثمنها " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " أتاني جبريل فقال : يا محمد إن الله لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ، وساقيها ، ومسقيها " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عثمان . سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " اجتنبوا أم الخبائث ، فإنه كان رجل فيمن كان قبلكم يتعبد ويعتزل النساء ، فعلقته امرأة غاوية فأرسلت إليه خادمها ، فقالت : إنا ندعوك لشهادة ، فدخل فطفقت كلما دخل عليها باب أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة عندها غلام ، وباطية فيها خمر ، فقالت : أنا لم أدعك لشهادة ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام ، أو تقع عليَّ ، أو تشرب كأساً من هذا الخمر ، فإن أبيت صحت وفضحتك ، فلما رأى أنه لا بد من ذلك قال : اسقني كأساً من هذا الخمر ، فسقته كأساً من الخمر ، ثم قال : زيديني ، فلم يرم حتى وقع عليها ، وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنه – والله – لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر في صدر رجل أبداً ، ليوشكن أحدهما أن يخرج صاحبه " وأخرجه عبد الرزاق في المصنف عن عثمان موقوفا .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر " .

وأخرج ابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن أبي الدرداء قال " أوصاني أبو القاسم صلى الله عليه وسلم أن لا تشرك بالله شيئاً ، وإن قطّعت أو حرِّقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً فمن تركها متعمداً برئت منه الذمة ، وأن لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر " .

وأخرج البيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله تبارك وتعالى بنى الفردوس بيده ، وحظره على كل مشرك وكل مدمن الخمر سكير " .

(119/213)

وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ثلاثة لا تقبل لهم صلاة ولا يرفع لهم إلى السماء عمل : العبد الآبق من مواليه حتى يرجع فيضع يده في أيديهم ، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى ، والسكران حتى يصحو " .

وأخرج البيهقي عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقعد على مائدة يشرب عليها الخمر " .

وأخرج البيهقي عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من كان يؤمن بالله

واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر " .

وأخرج البخاري في التاريخ عن سهل بن أبي صالح عن محمد بن عبيد الله عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لقي الله وهو مدمن خمر لقيه كعابد وثن " .

وأخرج البخاري في التاريخ والبيهقي من طريق سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً مثله ، وقال البخاري ولا يصح حديث أبي هريرة .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من مات مدمن خمر لقي الله وهو كعابد وثن " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من شرب شراباً يذهب بعقله فقد أتى باباً من أبواب الكبائر " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن عبد الله بن عمرو قال : لأن أزني أحب إليَّ من أن أسكر ، ولأن أسرق أحب إليَّ من أن أسكر ، لأن السكران يأتي عليه ساعة لا يعرف فيها ربه .

(120/213)

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربه في الآخرة ، ومن شرب في آنية الذهب والفضة لم يشرب بها في الآخرة ، ثم قال : لباس أهل الجنة ، وشراب أهل الجنة ، وآنية أهل الجنة " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي موسى . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن خمر ، وقاطع الرحم ، ومصدِّق بالسحر ، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة ، قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر يخرج من فروج المومسات ، يؤذي أهل النار ريح فروجهم " .

وأخرج الحاكم وصححه " عن ابن عمر : أن أبا بكر ، وعمر ، وناساً جلسوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكروا أعظم الكبائر فلم يكن عندهم فيها علم ، فأرسلوني إلى عبد الله بن عمرو أسأله ، فأخبرني أن أعظم الكبائر شرب الخمر . فأتيتهم فأخبرتهم ، فأنكروا ذلك ووثبوا جميعاً حتى أتوه في داره ، فأخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أخذ رجلاً فخيره بين أن يشرب الخمر ، أو يقتل نفساً ، أو يزني ، أو يأكل لحم خنزير ، أو يقتلوه . فاختار الخمر ، وإنه لما شربه لم يمتنع من شيء أرادوه منه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من أحد يشربها فتقبل له صلاة أربعين ليلة ، ولا يموت وفي مثانته منه شيء إلا حرمت عليه بها الجنة ، فإن مات في

أربعين ليلة مات ميتة جاهلية " " .

وأخرج الحاكم وصححه " عن أبي مسلم الخولاني . أنه حج ، فدخل على عائشة ، فجعلت تسأله عن الشام وعن بردها ، فجعل يخبرها فقالت : كيف تصبرون على بردها ؟ قال : يا أم المؤمنين ، إنهم يشربون شراباً لهم يقال له الطلا . قالت : صدق الله وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول " إن ناساً من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها " " .

(121/213)

وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " بعثني الله رحمة وهدى للعالمين ، وبعثني بمحق المعازف والمزامير وأمر الجاهلية ، ثم قال : من شرب خمراً في الدنيا سقاه الله كما شرب منه من حميم جهنم ، معذب بعد أو مغفور له " .

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله بعثني رحمة وهدى للعالمين ، بعثني لأمحق المعازف والمزامير وأمر الجاهلية والأوثان ، وحلف ربي عز وجل بعزته لا يشرب الخمر أحد في الدنيا إلا سقاه الله مثلها من الحميم يوم القيامة مغفور له أو معذب ، ولا يدعها أحد في الدنيا إلا

سقيته إياها في حظيرة القدس حتى تقنع نفسه " .

وأخرج الحاكم عن ثوبان قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا حلفت على معصية فدعها واقذف ضغائن الجاهلية تحت قدمك ، وإياك وشرب الخمر فإن الله لم يقدس شاربها " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الملاهي عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ . قيل : يا رسول الله ، متى ؟ قال : إذا ظهرت المعازف والقينات ، واستحلت الخمر " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يكون في أمتي قذف ومسخ وخسف . قيل : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومتى ذلك ؟ قال : إذا ظهرت المعازف ، وكثرت القينات ، وشربت الخمر " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يكون في أمتي خسف ومسخ وقذف . قلت : يا رسول الله ، وهم يقولون لا إله إلا الله ؟ قال : إذا ظهرت القيان ، وظهر الزنا ، وشرب الخمر ، ولبس الحرير ، كان ذا عند ذا " .

(122/213)

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الترمذي عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا عملت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء ، قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : إذا كان المغنم دولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، وأطاع الرجل زوجته ، وعقّ أمه ، وبرّ صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذوا القيان والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ثلاثاً : ريحاً حمراء ، وخسفاً ، ومسخاً " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " تمسخ طائفة من أمتي قردة ، وطائفة خنازير ، ويخسف بطائفة ، ويرسل على طائفة الريح العقيم بأنهم شربوا الخمر ، ولبسوا الحرير ، واتخذوا القيان ، وضربوا بالدفوف " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليكونن في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ ، وذلك إذا شربوا الخمر ، واتخذوا القينات ، وضربوا بالمعازف " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يمسخ قوم من هذه الأمة في آخر الزمان قردة وخنازير . قالوا : يا رسول الله ، أليس يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؟ قال : بلى ، ويصومون ويصلون ويحجون . قال : فما

بالهم ؟ قال : اتخذوا المعازف والدفوف والقينات ، فباتوا على شربهم ولهوهم ، فأصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ . قالوا : متى ذلك يا رسول الله ؟ قال : إذا أظهروا المعازف ، واستحلوا الخمور ، ولبس الحرير " .

(123/213)

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الغازي بن ربيعة رفع الحديث قال " ليمسخن قوم وهم على أريكتهم قردة وخنازير بشربهم الخمر وضربهم بالبرابط والقيان " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن صالح بن خالد رفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال " ليستحلن ناس من أمتي الحرير والخمر والمعازف ، وليأتين الله على أهل حاضرتهم بجبل عظيم حتى ينبذه عليهم ، ويمسخ آخرون قردة وخنازير " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليبيتن رجال على أكل وشرب وعزف ، يصبحون على أرائكهم ممسوخين قردة وخنازير " .

وأخرج ابن عدي والحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال " والذي بعثني بالحق لا تنقضي هذه الدنيا حتى يقع بهم الخسف والمسخ والقذف . قالوا : ومتى ذاك يا رسول الله ؟ قال : إذا رأيتم النساء ركبن السروج ، وكثرت المعازف ، وفشت شهادات الزور ، وشربت الخمر لا يستخفى به ، وشربت المصلون في آنية أهل الشرك من الذهب والفضة ، واستغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال ، فإذا رأيتم ذلك فاستدفروا واستعدوا ، واتقوا القذف من السماء " .

وأخرج البيهقي وضعفه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا استعملت أمتي خمساً فعليهم الدمار : إذا ظهر فيهم التلاعن ، ولبس الحرير ، واتخذوا القينات ، وشربوا الخمر ، واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء " .

(124/213)

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب ، فيصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير ، وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس ، فيقولون : قد خسف الليلة ببني فلان ، وخسف الليلة بدار فلان ، وليرسلن عليهم حاصباً من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها وعلى دور ، وليرسلن عليهم

الريح العقيم التي أهلكت عاداً على قبائل فيها ، وعلى دور بشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات ، وأكلهم الربا ، وقطيعتهم الرحم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجة والبيهقي عن أبي مالك الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، وتضرب على رؤوسهم المعازف والمغنيات ، يخسف الله بهم الأرض ، ويجعل منهم القردة والخنازير " .

وأخرج البيهقي عن معاذ وأبي عبيدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوّة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكاً عضوضاً ، ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الأرض ، يستحلون الحرير والخمور والفروج ، يرزقون على ذلك وينصرون ، حتى يلقوا الله عز وجل " .

وأخرج البيهقي عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من حبس العنب أيام قطافه حتى يبيعه من يهودي أو نصراني أو ممن يعلم أنه يتخذ خمراً فقد تقدم في النار على بصيرة " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر : أنه كان يكره أن تسقى البهائم الخمر .

وأخرج البيهقي عن عائشة : أنها كانت تنهى النساء أن يمتشطن بالخمر .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن معاوية بن أبي

سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من شرب الخمر فاجلدوه . قالها ثلاثاً ، فإن شربها الرابعة فاقتلوه " .

(125/213)

وأخرج عبد الرزاق عن أبي موسى الأشعري " أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن سأله قال : إن قومي يصنعون شراباً من الذرة يقال له المزر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أيسكر ؟ قال : نعم ، قال : فانههم عنه . قال : نهيتهم ولم ينتهوا . قال : فمن لم ينتهِ في الثالثة منهم فاقتله " .

وأخرج عبد الرزاق عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من شرب الخمر فاضربوه ، ثم قال في الرابعة : من شرب الخمر فاقتلوه " .

وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا شربوا فاجلدوهم . قالها ثلاثاً ، فإذا شربوا الرابعة فاقتلوهم "

قال معمر : فذكرت ذلك لابن المنكدر فقال : قد ترك القتل ، قد أتى النبي صلى الله عليه وسلم بابن النعيمان فجلده ، ثم أتى به فجلده ، ثم أتى به فجلده ، ثم أتى به فجلده الرابعة أو أكثر .

وأخرج عبد الرزاق عن الزهري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا شربوا فاجلدوهم ، ثم إذا شربوا فاجلدوهم ، ثم إذا شربوا فاقتلوهم ، ثم قال : إن الله قد وضع عنهم القتل ، فإذا شربوا فاجلدوهم ، ثم إذا شربوا فاجلدوهم ، ذكرها أربع مرات " .

وأخرج عبد الرزاق عن عمرو بن دينار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من شرب الخمر فحدُّوه ، فإن شرب الثانية فحدُّوه ، فإن شرب الرابعة فاقتلوه " ، قال : فأتى بابن النعيمان قد شرب فضرب بالنعال والأيدي ، ثم أتى به الثانية فكذلك ، ثم أتى به الرابعة فحدَّه ووضع القتل .

وأخرج عبد الرزاق عن قبيصة بن ذؤيب " أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب رجلاً في الخمر أربع مرات ، ثم أن عمر بن خطاب ضرب أبا محجن الثقفي في الخمر ثمان مرات " .

وأخرج الطبراني عن أبي الرمد البلوي " أن رجلاً منهم شرب الخمر ، فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربه ، ثم شرب الثانية فأتوا به فضربه ، فما أدري قال في الثالثة أو الرابعة ، فجعل على العجل فضربت عنقه " .

(126/213)

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا يدخل الجنة عاق ، ولا منان ، ولا مدمن خمر " ، قال ابن عباس : فذهبنا ننظر في كتاب الله ، فإذا هم فيه في العاق ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ [محمد : 22] إلى آخر الآية . وفي المنان ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 262] وفي الخمر ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ إلى قوله ﴿ من عمل الشيطان ﴾ .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن الديلمي قال " وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، إنا نصنع طعاماً وشراباً فنطعمه بني عمنا ، فقال : هل يسكر ؟ قلت : نعم . فقال : حرام . فلما كان عند توديعي إياه ذكرته له ، فقلت : يا نبي الله ، إنهم لن يصبروا عنه . قال : فمن لم يصبر عنه فاضربوا عنقه " .

وأخرج ابن سعد وأحمد عن شرحبيل بن أوس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " من شرب الخمر فاجلدوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد فاقتلوه " .

وأخرج أحمد والطبراني عن أم حبيبة بنت أبي سفيان " أن ناساً من أهل اليمن قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلمهم الصلاة والسنن والفرائض ، ثم قالوا : يا رسول الله ، إن لنا شراباً نصنعه من التمر والشعير ، فقال : الغبيراء ؟ قالوا : نعم . قال : لا تطعموه . قالوا : فإنهم لا يدعونها . قال : من لم يتركها فاضربوا عنقه " .

وأخرج ابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الذين يشربون الخمر وقد حرم الله عليهم لا يسقونها في حظيرة القدس " .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عمر قال " من شرب الخمر لم يقبل الله منه صلاة أربعين صباحاً ، فإن مات في الأربعين دخل النار ولم ينظر الله إليه " .

(127/213)

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يلقى الله شارب الخمر يوم القيامة وهو سكران ، فيقول : ويلك ، ما شربت . . . ؟ ! فيقول : الخمر . قال : أو لم أحرمها عليك ؟ فيقول : بلى . فيؤمر به إلى النار " .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " والذي نفسي بيده ليبيتن أناس من أمتي على أشر وبطر ولعب ولهو ، فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم ، واتخاذهم القينات ، وشربهم الخمر ، وبأكلهم الربا ، ولبسهم الحرير " .

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الله بن عمرو قال : إنه في الكتاب مكتوب : أن خطيئة الخمر

تعلو الخطايا كما تعلو شجرتها الشجر .

وأخرج عبد الرزاق عن مسروق بن الأجدع قال : شارب الخمر كعابد الوثن ، وشارب الخمر كعابد اللات والعزى .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن جبير قال : من شرب مسكراً لم يقبل الله منه ما كانت في مثانته منه قطرة ، فإن مات منها كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال ، وهي صديد أهل النار وقيحهم .

وأخرج عبد الرزاق عن أبي ذر قال : من شرب مسكراً من الشراب فهو رجس ، ورجس صلاته أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن شرب أيضاً فهو رجس ، ورجس صلاته أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لها قال : في الثالثة أو الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال .

وأخرج عبد الرزاق عن أبان رفع الحديث قال : إن الخبائث جعلت في بيت فأغلق عليها ، وجعل مفتاحها الخمر ، فمن شرب الخمر وقع بالخبائث .

وأخرج عبد الرزاق عن عبيد بن عمير قال : إن الخمر مفتاح كل شر .

(128/213)

وأخرج عبد الرزاق عن محمد المنكدر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من شرب الخمر صباحاً كان كالمشرك بالله حتى يمسي ، وكذلك إن شربها ليلاً كان كالمشرك بالله حتى يصبح ، ومن شربها حتى يسكر لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، ومن مات وفي عروقه منها شيء مات ميتة جاهلية " .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " حلف الله بعزته وقدرته لا يشرب عبد مسلم شربة من خمر إلا سقيته بما انتهك منها من الحميم معذب بعد أو مغفور له ، ولا يتركها وهو عليها قادر ابتغاء مرضاتي إلا سقيته منها فأرويته في حظيرة القدس " .

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : يجيء يوم القيامة شارب الخمر مسوداً وجهه ، مزرقّة عيناه ، مائلاً شقه .

أو قال : شدقه مدلياً لسانه ، يسيل لعابه على صدره ، يقذره كل من يراه .

وأخرج أحمد عن قيس بن سعد بن عبادة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من شرب الخمر أتى عطشان يوم القيامة ، ألا وكل مسكر خمر ، وإياكم والغبيراء " .

وأخرج أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من شرب الخمر لم يقبل الله له صلاة أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد كان مثل ذلك ، فما أدري في الثالثة أم في الرابعة قال : فإن عاد كان حتماً على الله أن يسقيه من طينة الخبال . قالوا :

يا رسول الله ، ما طينة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النار " .

وأخرج ابن أبي سعد وابن أبي شيبة عن خلدة بنت طلق قالت : قال لنا أبي : " جلسنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء صحار ، فسأله ما ترى في شراب نصنعه من ثمارنا ؟ قال : تسألني عن المسكر ، لا تشربه ولا تسقه أخاك ، فوالذي نفس محمد بيده ما شربه رجل قط ابتغاء لذة سكر فيسقيه الله الخمر يوم القيامة " .

(129/213)

وأخرج أحمد عن أسماء بنت يزيد . أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من شرب الخمر لم يرضَ الله عنه أربعين ليلة ، فإن مات مات كافراً ، وإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال . قلت : يا رسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : صديد أهل النار " .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال " الريب من الكفر ، والنوح عمل الجاهلية ، والشعر من أمر إبليس ، والغلول جمر من جهنم ، والخمر جامع كل إثم ، والشباب شعبة من الجنون ، والنساء حبائل الشيطان ، والكبر شر من الشر ، وشر المآكل مال اليتيم ، وشر المكاسب الربا ، والسعيد من وُعِظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن أمه " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن علي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لم يزل جبريل ينهاني عن عبادة الأوثان وشرب الخمر وملاحاة الرجال " .

وأخرج البيهقي عن أم سلمة . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " كان في أول ما نهاني عنه ربي وعهد إليَّ بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر لملاحاة الرجال " والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(130/213)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " فِي الخَمْرِ " : فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه متعلق بـ " يُوقِعَ " ، أي : يُوقِعَ بينكم هذين الشيئَيْنِ في الخمر ، أي : بسبب شرْبها ، و " في " تفيد السببيةَ ؛ كقوله عليه السَّلام : " إنَّ امرأةً دخلتِ النَّارَ في هِرَّةٍ " .

الثاني : أنها متعلِّقة بالبغضاء ؛ لأنه مصدر معرف بـ " أل " .

الثالث : أنه متعلقٌ بـ " العداوة " ، وقال أبو البقاء : " ويجوز أن تتعلَّق " في " بالعداوة ، أو بـ " البَغْضَاء " ، أي : [أنْ] تَتَعادَوْا وأنْ تَتَبَاغَضُوا بسبَبِ شُرْبِ الخَمْرِ " ؛ وعلى هذا الذي

ذكره : تكونُ المسألةُ من باب التنازعِ ، وهو الوجهُ الرابع ، إلاَّ أنَّ في ذلك إشكالاً ، وهو أنَّ من حقِّ المتنازعين ؛ أن يصلُحَ كلٌّ منهما للعملِ ، وهذا العاملُ الأولُ ، وهو العداوة ، لو سُلِّط على المتنازعِ فيه ، لزم الفصلُ بين المصدر ومعموله بأجنبيٍّ وهو المعطوف ، وقد يقال : إنه في بعضِ صُورِ التنازعِ يُلْتَزَمُ إعمالُ الثاني ، وذلك في فِعْلَي التعجُّبِ ، إذا تنازعا معمولاً فيه ، وقد تقدَّمَ مُشْبَعاً في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 506 . 507 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) ﴾

طال بُعْدُهم عن الحقيقة فقاسوا الهوان في مطارح الغربة ، وصاروا سخرة للشيطان ؛ فبقوا عن الصلاة التي هي محل النجوى وكمال الراحة ، وفَسَدَتْ ذاتُ بَيْنِهم بما تولد من الشحناء والبغضاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 447 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك مألوفاً لهم محبوباً عندهم ، وكان ترك المألوف أمرّ من ضرب السيوف ، أكد دعوتهم إلى اجتنابه محذراً من المخالفة بقوله عاطفاً على ما تقديره : فانتهوا : ﴿ وأطيعوا الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا شريك له ولا أمر لأحد سواه ، أي فيما أمركم به من اجتناب ذلك ، وأكد الأمر بإعادة العامل فقال : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي الكامل في الرسلية في ذلك ، وزاد في التخويف بقوله : ﴿ واحذروا ﴾ أي من المخالفة ، ثم بلغ الغاية في ذلك بقوله : ﴿ فإن توليتم ﴾ أي بالإقبال على شيء من ذلك ، وأشار بصيغة التفعل إلى أن ذلك إنما يعمل بمعالجة من النفس للفطرة الأولى ، وعظم الشأن في ابتداء الجزاء بالتنبيه بالأمر بالعلم فقال : ﴿ فاعلموا ﴾ أنكم لم تضروا إلا أنفسكم ، لأن الحجة قد قامت عليكم ، ولم يبق على الرسول شيء لأنكم علمتم ﴿ أنما على رسولنا ﴾ أي البالغ في العظمة مقداراً يجل عن الوصف بإضافته إلينا ﴿ البلاغ المبين ﴾ أي البين في نفسه الموضح لكل من سمعه ما يراد منه لا غيره ، فمن خالف فلينظر ما يأتيه من البلاء من قِبَلنا ، وهذا ناظر إلى قوله : ﴿ بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ [المائدة : 67] فكأنه قيل : ما عليه إلا ما

تقدم من إلزامنا له به من البلاغ ، فمن اختار لنفسه المخالفة كفر ، والله لا يهدي من كان مختاراً لنفسه الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 537 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول واحذروا ﴾

ظاهره أن المراد وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فيما تقدم ذكره من أمرهما بالاجتناب عن الخمر والميسر ، وقوله ﴿ واحذروا ﴾ أي احذروا عن مخالفتها في هذه التكاليف .

وثامنها : قوله :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ وهذا تهديد عظيم ووعيد شديد في حق من خالف في هذا التكليف وأعرض فيه عن حكم الله ، وبيانه ، يعني أنكم إن توليتم فالحجة قد قامت عليكم والرسول قد خرج عن عهدة التبليغ والاعذار والانذار ، فأما ما وراء ذلك من عقاب من خالف هذا التكليف وأعرض عنه فذاك إلى الله تعالى ، ولا شك أنه تهديد شديد ، فصار كل واحد من هذه الوجوه الثمانية دليلاً قاهراً وبرهاناً

باهراً في تحريم الخمر .

واعلم أن من أنصف وترك الاعتساف علم أن هذه الآية نص صريح في أن كل مسكر حرام ، وذلك لأنه تعالى لما ذكر قوله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضاء فِى الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة ﴾ [المائدة : 91] قال بعده ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ فرتب النهي عن شرب الخمر على كون الخمر مشتملة على تلك المفاسد ، ومن المعلوم في بدائه العقول أن تلك المفاسد إنما تولدت من كونها مؤثرة في السكر وهذا يفيد القطع بأن علة قوله ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ هي كون الخمر مؤثراً في الإسكار ، وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن كل مسكر حرام ، ومن أحاط عقله بهذا التقدير وبقي مصراً على قوله فليس لعناده علاج ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 69 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول واحذروا ﴾ تأكيد للتحريم ، وتشديد في الوعيد ، وامتثال للأمر ، وكفّ عن المنهيّ عنه ، وحَسُن عطف "وَأَطِيعُوا اللَّهَ" لما كان في الكلام المتقدّم معنى انتهوا .

وكرر "وَأَطِيعُوا" في ذكر الرسول تأكيداً ؛ ثم حذر في مخالفة الأمر ، وتوعد من تولى بعذاب الآخرة ؛ فقال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي خالفتم ﴿ أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ في تحريم ما أمر بتحريمه وعلى المرسِل أن يعاقب أو يثيب بحسب ما يُعصَى أو يطاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ عطف على "اجتنبوه" أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به ونهيا عنه ويدخل فيه أمرهما ونهيهما في الخمر والميسر دخولاً أولياً ﴿ واحذروا ﴾ أي مخالفتهما في ذلك وهذا مؤكد للأمر الأول ، وجوز أن يكون المراد أطيعوا فيما أمرا واحذروا عما نهيا فلا تأكيد .

وجوز أيضاً أن لا يقدر متعلق للحذر أي وكونوا حاذرين خاشين وأمروا بذلك لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي أعرضتهم ولم تعملوا بما أمرتم به ﴿ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ أي ولم يأل جهداً في ذلك فقامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار وانقطعت العلل ولم يبق بعد ذلك إلا العقاب .

وفي هذا كما قال الطبرسي وغيره من التهديد وشدة الوعيد ما لا يخفى ، وقيل : إن المعنى فاعلموا أنكم لن تضروا بتوليتكم الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه ما كلف إلا البلاغ المبين

بالآيات وقد فعل وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه وليس بشيء إذ لا يتوهم منهم ادعاء الضرر بتوليتهم حتى يرد عليهم .

ومثل ذلك ما قيل : إن المعنى فإن توليتم فلا تطمعوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يهملكم لأن ما على الرسول إلا البلاغ المبين فلا يجوز له ترك البلاغ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعاني حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) ﴾

(134/213)

عطفت جملة ﴿ وأطيعوا ﴾ على جملة ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة : 91] ، وهي كالتذييل ، لأنّ طاعة الله ورسوله تعمّ ترك الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وتعمّ غير ذلك من وجوه الامتثال والاجتناب .

وكرّر ﴿ وأطيعوا ﴾ اهتماماً بالأمر بالطاعة .

وعطف ﴿ واحذَروا ﴾ على ﴿ أطيعوا ﴾ أي وكونوا على حذر .

وحذف مفعول ﴿ احذروا ﴾ لِيُنَزّلَ الفعلُ منزلة اللازم لأنّ القصد التلبّس بالحذر في أمور الدين ، أي الحذر من الوقوع فيما يأباه الله ورسوله ، وذلك أبلغ من أن يقال واحذروهما ، لأنّ الفعل اللازم يقرُب معناه من معنى أفعال السجايا ، ولذلك يجيء اسم الفاعل منه على زِنة فَعِلٍ كفَرِحٍ ونَهِمٍ .

وقوله : ﴿ فإن تولّيتم ﴾ تفريع عن ﴿ أطيعوا واحذروا ﴾ .

والتولّي هنا استعارة للعصيان ، شُبّه العصيان بالإعراض والرجوع عن الموضع الذي كان به العاصِي ، بجامع المقاطعة والمفارقة ، وكذلك يطلق عليه الإدبار .

ففي حديث ابن صياد "ولَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّك الله" أي أعرضتَ عن الإسلام .

وقوله : ﴿ فاعلموا ﴾ هو جواب الشرط باعتبار لازم معناه لأنّ المعنى : فإن تولّيتم عن طاعة الرسول فاعلموا أن لا يضرّ تولّيكم الرسولَ لأنّ عليه البلاغ فحسب ، أي وإنّما يضرّكم تولّيكم ، ولولا لازم هذا الجواب لم ينتظم الربط بين التولّي وبين علمهم أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام ما أمر إلاّ بالتبليغ .

وذكر فعل ﴿ فاعلموا ﴾ للتنبيه على أهمية الخبر كما بيّنّاه عند قوله تعالى : ﴿ واتّقوا الله واعلموا أنّكم ملاقوه ﴾ في سورة البقرة (223) .

وكلمة أنّما ﴾ بفتح الهمزة تقيّد الحصر ، مثل (إنّما) المكسورةِ الهمزة ، فكما أفادت المكسورة الحصر بالاتّفاق فالمفتوحتها تفيد الحصر لأنّها فرع عن المكسورة إذ هي أختها .

ولا ينبغي بقاء خلاف من خالف في إفادتها الحصر ، والمعنى أنّ أمره محصور في التبليغ لا يتجاوزه إلى القدرة على هدي المبلّغ إليهم .

(135/213)

وفي إضافة الرسول إلى ضمير الجلالة تعظيم لجانب هذه الرسالة وإقامة لمعذرته في التبليغ بأنّه رسول من القادر على كلّ شيء ، فلو شاء مُرسله لهَدَى المرسَلَ إليهم فإذا لم يهتدوا فليس ذلك لتقصير من الرسول .

ووصفُ البلاغ بـ ﴿ المُبين ﴾ استقصاء في معذرة الرسول وفي الإعذار للمعرضين عن الامتثال بعد وضوح البلاغ وكفايته وكونه مُؤَيّداً بالحجّة الساطعة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(136/213)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين " وفى سورة التغابن : "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين " ، فورد فى الأولى زيادة : "واحذروا " وزيادة : "فاعلموا " مع اتحاد ما تضمنته الآيتان من الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله والتحذير من التنكب عن ذلك والتولى .

فيسأل عن ذلك ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم : أن آية المائدة لما أعقب بها آية الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها ، ثم اتبع بعد ذلك بذكر العلة فى تحريمها فقال تعالى : "إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر . . .

"الآية إلى قوله : "فهل أنتم منتهون " فختمت من التهديد بما يشعر بشديد الوعيد ناسب ذلك قوله تأكيدا لما تقدم من الاشعار بمخوف الجزاء قوله "فاحذروا " وقوله "فإن توليتم فاعلموا " لما فى ذلك من التأكيد لما تقدم .

أما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعى هذا التأكيد ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى : "ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شئ عليم " فلما لم يرد هنا نهى عن محرم متأكد التحريم بما اتبع النهى من التهديد والتأكيد لم يرد هنا من الزيادة المحرزة

لمعنى التأكيد ما ورد هناك فجاء كل على ما يجب ويناسب وليس عكس الوارد بمناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 136 . 137 ﴾

(137/213)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾

لقد نقل الله الحكم بعد ما انتهى من هذه الجزئية إلى حكم عام هو طاعة الله وطاعة الرسول . وأنت ساعة تستقرئ أمر الله بالطاعة فأنت تجدها في صور متعددة . فمرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [المائدة : 92] .

فقد كرر الأمر بالطاعة لله وللرسول ، فالإطاعة لله في الحكم العام ، وإطاعة الرسول في تفصيله ، ومرة يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ الله والرسول ﴾ [آل عمران : 32] .

إنه هنا لا يكرر أمر الطاعة ، فهناك أمر للطاعة ، وهناك مطاع ، وهناك مطيع والمطيع ، هم المخاطبون ، فهو هنا يوجد أمر الطاعة ، والمطاع هنا هو الله ، والرسول يأتي معطوفا على لفظة الجلالة .

ومرة يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 56] .

نحن إذن أمام حالات للطاعة : الأولى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، والثانية : أطيعوا الله والرسول ، والثالثة : أطيعوا الرسول ، ومرة واحدة فقط يعطف على ذلك " أولي الأمر " فيقول جل وعلا : ﴿ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] .

وحين قال الحق : ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [المائدة : 92] .

فهو يكرر الأمر بالطاعة عند الله وعند الرسول ، لكن عند أولي الأمر لم يأت سبحانه بأمر : " وأطيعوا " ؛ ذلك أن طاعة أولي الأمر تكون من باطن الطاعتين : طاعة الله ، وطاعة الرسول ؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وإذا قال الحق : ﴿ وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ تكون طاعة الله في الحكم العام ، وطاعة الرسول في تفصيل الحكم . والمثال قوله الحق : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] .

(138/213)

هنا نطيع الله في الحكم العام ، ونطيع الرسول في تفصيل الحج . لأن التفصيل لم يأت في القرآن ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال : " خذوا عني مناسككم " وعندما يتوحد الأمران :

" وأطيعوا الله والرسول " فهذا يعني أن هناك أمراً واحداً قد صدر من الله ، وصدور وحصول الفعل من الرسول يكون للقدوة والأسوة وتوكيدا للحكم .

وإذا كان لله أمر بالإجمال وللرسول أمر بالتفصيل فسبحانه يقول : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ . وإذا كان الأمر للرسول فقط ولم يرد فيه شيء من الله فهو أمر صدر بتفويض من الله بناء على قوله الحق : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

وهكذا نجد أنه لا تلتبس طاعة بطاعة ولا تتناقض طاعة مع طاعة . والحق هنا يقول : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول واحذروا ﴾ . لماذا هذا التحذير ؟ يأتي هذا التحذير ليعلمنا الله أن الشيطان لن يدعنا ندخل في مجال طاعة الله وطاعة الرسول ، وسيحاول جاهداً أن يُلبّس علينا الأمر . فعندما يعرف الشيطان ميلاً في نفس إنسان إلى لون من الشهوات ، يدخل إليه من باب المعاصي . وإن كان الإنسان قد أوصد بعض السبل أمام الشيطان فلا يستطيع مثلا إغراءه بالسرقة أو شرب الخمر ، لا يتركه بل يدخل إليه من باب الطاعة ، فيأتي الشيطان إلى الإنسان لحظة الوضوء وينسيه هل غسل هذه اليد أو تلك ، وهل أسبغ الوضوء أم لا ؟ أو يأتي الشيطان إلى المؤمن لحظة الصلاة فينسيه عدد الركعات أو عدد السجدات ، وهكذا يدخل الشيطان للمؤمن من ناحية الطاعة .

ومعنى قوله سبحانه : ﴿ واحذروا ﴾ أي احذروا أن يحتال الشيطان عليكم ؛ لأنه سيحاول أن يدخل لكم من كل مدخل ، يدخل على المسرف على نفسه بالمعصية ، وأشد أعمال الشيطان على المؤمنين هي أن يدخل عليهم من باب الطاعة . ولذلك قال الحق : ﴿ واحذروا ﴾ وكثيراً ما نجد الإنسان منا ينسى موضوعاً ما ، وحين يأتي إلى الصلاة فهو يتذكر هذا الموضوع . والشيطان لا يترك الإنسان في مثل هذه الحالة ، فقد أقسم الشيطان فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] .

وقال الحق سبحانه : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] .

إنه أقسم أن يقف على الطريق المستقيم لا على الطريق المعوج . ومثال ذلك عندما يتصدق إنسان بصدقة قد يعلنها ويقول : لقد تصدقت أكثر من فلان . وهكذا يضيع منه الأجر . الشيطان يحاول – إذن – أن يدخل علينا من باب لا نفطن إليه وهو باب الطاعة .

وأروي لكم هذه القصة حتى تعرفوا مدى تَدَخُّل الشيطان ، وقد حدثت مع الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه . فقد جاء إليه من يسأله الفتوى في أمر غريب ؛ قال السائل : ضاعت مني نقودي ، فقد دفنتها في مكان من الأرض ، ونزل السيل فطمس مكان النقود وأزال الحجر الذي وضعته علامة على مكانها . فقال الإمام أبو حنيفة : اذهب الليلة بعد

صلاة العشاء وقف أمام ربك إلى أن يطلع الفجر ، وقل لي ماذا سوف يحدث . وعندما جاءت صلاة الفجر جاء الرجل متهللاً إلى أبي حنيفة وقال : وجدت مالي .

(140/213)

فسأله أبو حنيفة "كيف ؟ قال الرجل : بينما أنا أقف للصلاة تصورت مكان وضع النقود ، ومتى نزل السيل ، وكيف سار ، وهكذا قست المسافة وقدرتها إلى أن عرفت موقع النقود . فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تتم ليلتك مع ربك . هكذا ترى كيف يدخل الشيطان من باب الطاعة . ولذلك قال الحق : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول واحذروا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ [المائدة : 92] .

أي فإن أعرضتم عمّا كلفتكم به فاعلموا أنكم بتوليكم وإعراضكم لن تضروا الرسول ؛ لأن الرسول ما كلف إلاّ أن يقوم بالبلاغ المبين ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم به . إن الحق يعلم أزلاً أن بعضاً من عباده قد يقول : إن هذا الحكم لم يَرِد في القرآن ؛ لذلك جاء بالأمر بطاعة الرسول . وهكذا صارت للرسول طاعة مستقلة ، وأرادها الله حتى يَرُدّ مقدماً على الذين يسألون عن نص فيه كل تفصيل . بينما نجد هذه التفاصيل في السنة

النبوية الشريفة .

ومثال ذلك عدد ركعات كل صلاة ، إنها لم تَرِدْ في القرآن ، ولكننا عرفناها تفصيلاً من الرسول . وفَوَّض الحق رسوله في التشريع : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] .

فسبحانه قد علم أزلاً أن هناك من سيدَّعي أنه لن يطيع إلا القرآن . ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله عزوجل ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله "

أي أن الرسول هو المبلغ عن ربه ، وأن علينا أن نحذر الشيطان إذا أراد أن يدخل علينا من باب الطاعة . ولكن لماذا قال الحق : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ ؟ وعن أي شيء يكون التولي ؟

(141/213)

قال الحق ذلك ليوضح لنا أن الإنسان له الاختيار في أن يذهب إلى الطاعة ، وله الاختيار في أن يذهب إلى المعصية ، وإن تولى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية ، وعن الإيمان الذي جاء به الرسول الذي بلغ عن الله إلى البقاء في الكفر ، فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد

أوفى مهمته وأداها . فالمطلوب من الرسول أن يبلغ المنهج ، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم بلاغاً مبيناً ، محيطاً ، واضحاً ومستوعباً لكل أقضية الحياة .

لقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم مطلوب الله منا أن نؤمن بإله واحد ، قادر ، حكيم ، له كل صفات الكمال ، ذلك هو الأمر الأول في العقيدة . وأبلغنا صلى الله عليه وسلم أن نبتعد عما كان عليه العرب من الأنصاب ، ومن الأوثان ، ومن الأصنام . وبلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منا إيماناً ، وعملاً ، والعمل ينقسم إلى قسمين : عمل إيجابي ، وعمل سلبي . ويتركز العمل الإيجابي في " افعل كذا " ، إذا لم تكن تفعله ، أما العمل السلبي فهو أن تكف عما نهاك عنه الله ، ونهاك عنه الرسول صلى الله عليه وسلم .

إذن أول مطلوب الإيمان هو الاعتقاد في الإله الواحد ، وأن نكف عن عبادة الأوثان والأصنام ، والطلب – كما نعرف – هو أن تنشيء كلاماً تطلب به من مخاطبك أن يفعل شيئاً لم يكن مفعولاً وقت طلبه . فإذا أوضح الحق : لا تعبد الأوثان ، فهذا طلب الفعل ، وهو أن نكف عن عبادة الأوثان . وحين يأمرنا الحق بالصلاة والصوم والزكاة وحج البيت ، فهذا طلب لأفعال . وطلب الفعل يقال له : " أمر " . وطلب الكف عن فعل يقال له : " نَهْي " .

وأنت إذا نظرت إلى كل التكاليف في الإسلام ، تجدها لم تأت مرة واحدة ، وإنما جاءت على مدار ثلاثة وعشرين عاماً . فعندما جاء الإسلام آمن به أناس ، ولم يكن قد صدر إليهم تنفيذ أي من الأحكام التي وردت على مدار سنوات الرسالة ، وإنما كان المطلوب منهم بعضاً يسيراً منها ، وكانوا يؤدونها ، منهم من بلغه فقط ضرورة الإيمان بالإله الواحد ، وآمن بذلك ثم وافاه الأجل وكانت له الجنة .

ومنهم من امتدت حياته ، فزادت عليه أحكام جديدة فنفذها ، وكان إسلامه بذلك إسلاماً تاماً .

إذن ، فالتمام في الإسلام هو تنفيذ كل عمل جاء في الأحكام التي أدركها المسلم . فإن لم يكن المسلم قد أدرك إلا حكماً واحداً ونفذه فله كل ما وعد الحق به . ومثال ذلك " مخيريق اليهودي " الذي أسلم وأوصى بماله للنبي صلى الله عليه وسلم . فلما كان يوم أُحُد ، وقف في قومه قائلاً : يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لَحَقٌّ . فلم يجيبوه ، فأخذ سيفه وعدته وقال : إن أُصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء . ثم خرج إلى القتال فقاتل حتى استشهد . ولم يكن قد نفذ أي حكم من أحكام الإسلام ، لكنه قاتل فنال شرف الشهادة ، وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مُخَيْريق خير يهود "

ولا بد لنا أن نفرق دائماً بين " أركان الإسلام " والمطلوب من المسلم . ونعلم جميعاً أن

الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " بني الإسلام على خمس : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان "

(143/213)

هذه هي أركان الإسلام . أما المسلم فقد يختلف المطلوب منه ، فالمطلوب من المسلم أن يشهد مرة واحدة في حياته أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومطلوب منه دائماً أن يقيم الصلاة مهما تكن حالته . لكن فرض الزكاة قد يسقط عنه إن كان لا يملك مالاً . وقد يسقط عنه الصوم إن كان مريضاً مرضا لا يرجى شفاؤه أو كان كبير السن لا يقدر على الصوم وعليه فدية طعام مسكين ، أما المريض الذي يرجى شفاؤه وكذلك المسافر فيقضيان الصوم بعد زوال العذر ومثلهما الحائض والنفساء . وقد يسقط عنه الحج لأنه لا يملك المال الكافي . هكذا تختلف أركان الإسلام من مسلم لآخر ، وهكذا نعرف أن من عاش في بدايات الإسلام ونفذ القليل من الأحكام التي نزلت حتى مات أو استشهد ، فقد أدى مطلوب الإسلام منه .

وعندما نزلت مسألة النهي عن الخمر ، والميسر ، ذهب أناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن مصير زملائهم وإخوتهم في الإيمان الذين ماتوا أو استشهدوا قبل أن

ينزل تحريم الخمر والميسر . ومجرد السؤال هو دليل على اليقظة الإيمانية ، فالإنسان لا يكون مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(144/213)

من روائع الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾

[4] كفارة اليمين وتحريم الخمر والميسر

التحليل اللفظي

﴿ عَقَّدتُّمُ ﴾ : عقّدتم من العقد وهو على ضربين : حسّي كعقد الحبل ، ومعنوي كعقد البيع ، فاليمين المنعقدة هي اليمن التي انعقد عليها العزم بالفعل أو الترك .

ومعنى عقدّتم الأيمان أي وكّدتموها ووثّقتموها بذكر اسم الله تعالى .

﴿ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ : التحرير الإخراج من الرق ، ويستعمل في الأسر ، والمشقات ، وتعب الدنيا ونحوها ومنه قول مريم ﴿ نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران : 35]

وقال الفرزدق :

أبني غُدانة إنني حرّرتكم . . . فوهبتكم لعطيّة بن جِعَال

أي حررتكم من الهجاء ، وخصّ الرقبة من الإنسان لأنها موضع الملك فأضيف التحرير إليها .

﴿ رِجْسٌ ﴾ : أي قذر تعافه العقول قال الزجاج : الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل ، يقال رَجُسَ الرجل يرجُس إذا عمل عملاً قبيحاً . ويقال للنتن والعذِرة والأقذار رجسٌ لأنها قذارة ونجس .

﴿ فاجتنبوه ﴾ : يعني أبعدوه واجعلوه في ناحية ، فالاجتناب في اللغة : الابتعاد وقد أمر تعالى باجتناب هذه الأمور المحرمة ، واقترنت بصيغة الأمر فكان ذلك على جهة التحريم القطعي .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ : أي راجين الفوز والفلاح بهذا الاجتناب .

المعنى الإجمالي

(145/213)

يقول الله جل ثناؤه ما معناه : لا يؤاخذكم الله – أيها المؤمنون – بما جرى على ألسنتكم من لغو اليمين ، الذي لم تتقصدوا فيه الكذب ، أو لم تتعمد قلوبكم العزم على الحلف به ، ولكن يؤاخذكم بما وثّقتموه من الأيمان فكفارة هذا النوع من الأيمان أن تطعموا عشرة مساكين من

الطعام الوسط الذي تُطعمون منه أهليكم ، أو تكسوهم بكسوة وسط ، أو تعتقوا عبداً مملوكاً أو أمة لوجه الله ، فإذا لم يقدر الشخص على الإطعام أو الكسوة أو الإعتاق ، فليصم ثلاثة أيام متتابعة ، ذلك كفارة أيمانكم أيها المؤمنون فاحفظوا أيمانكم عن الابتذال وأقلوا من الحلف لغير الضرورة .

ثم أخبر تعالى في الآية الثانية بأن الخمر ، والقمار ، والذبح للأصنام ، والاستقسام بالأزلام (الأقداح) كل ذلك رجسٌ مستقذر لا يليق بالمؤمن فعله وهو من تزيين الشيطان للإنسان ، فيجب اجتنابه والبعد عنه ، لأن غرض الشيطان أن يوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، ويمنعهم عن ذكر الله وأداء الصلاة ، بسبب هذه المنكرات والفواحش التي يزينها للناس ، فانتهوا أيها المؤمنون عن ذلك . ثم ختم تعالى الآيات بالأمر بطاعته وطاعة رسوله ، والحذر من مخالفة أوامر الله تعالى ، فإذا لم ينته الإنسان عن مقارفة المعاصي فقد استحق الوعيد والعذاب الشديد يوم القيامة .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : التعبير بقوله تعالى : ﴿ فاجتنبو ﴾ أبلغ في النهي والتحريم من لفظ (حُرّم) لأن معناه البعد عنه بالكلية فهو مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزنى ﴾ [الإسراء : 32] لأن القرب منه إذا كان حراماً فيكون الفعل محرماً من باب أولى فقوله ﴿ فاجتنبو ﴾ معناه كونوا في جانبٍ آخر منه ، وكلّما كانت الحرمة شديدة جاء التعبير بلفظ الاجتناب

كما قال تعالى :

﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] ومعلوم أنه ليس هناك ذنب أعظم من الإشراك بالله فتنبه له فإنه دقيق .

(146/213)

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ ؟ استفهام ومعناه الأمر أي انتهوا ، فقد خرج عن صيغته الأصلية إلى معنى الأمر أي انتهوا عن ذلك .

قال الفرّاء : ردّد عليّ أعرابي : هل أنتَ ساكتٌ ؟ وهو يريد : اسكت ، اسكت . أقول : ومما يدل على ذلك قول عمر رضي الله عنه لما سمع الآية : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا .

اللطيفة الثانية : لم يُذكر في القرآن الكريم تعليلُ الأحكام إلاّ بالإيجاز ، أمّا هنا فقد ذكر بالإطناب والتفصيل ، وذكرت فيه الأسباب لتحريم الخمر والميسر بالإسهاب ، منها : إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، والصدّ عن ذكر الله ، وشغل المؤمنين عن الصلاة ، كما وصفت الخمر والميسر بأنها رجس ، وأنها من عمل الشيطان إلخ وكل ذلك ليشير إلى الضرر العظيم ، والخطر الجسيم ، من جراء اقتراف هاتين الرذيلتين (جريمة القمار) و (جريمة تناول المسكرات) استمع إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ

العداوة والبغضاء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ ؟

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ ظاهر اللفظ الإخبار ، وحقيقته الوعيد والتهديد ، فكأنه تعالى يقول : ليس على رسولي إلا أن يبلّغكم وحسابكم عليّ يوم الدين ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا آيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : 25-26] .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هي أنواع اليمين ؟

قسم العلماء اليمين إلى ثلاثة أقسام : (لغو ، ومنعقدة ، وغموس) .

فأما اللغو : فهي اليمين التي لا يتعلق بها حكم ، وقد ورد عن عائشة أنها قالت : اللغو هو كلام الرجل : لا والله ، وبلى والله ، روي ذلك عنها مرفوعاً .

(147/213)

وروي عن ابن عباس في لغو اليمين أن تحلف على الأمر أنه كذلك وليس كذلك ، أي أن يحلف على ظنه واعتقاده فيتبيّن الأمر خلافه ، وقد تقدم هذا في سورة البقرة .

وأمّا المنعقدة : فهي أن يحلف على أمرٍ في المستقبل بأن يفعله أو لا يفعله ثم يحنث في يمينه ، فهذه يجب فيها الكفارة كما فصّلها القرآن الكريم .

وأما الغموس : فهي اليمين التي يتعمد فيها الإنسان الكذب كقوله : والله ما فعلت كذا وقد فعله ، أو والله لقد فعلتُ كذا ولم يفعله ، وسمّي غموساً لأنه يغمس صاحبه في نار جهنم ، وذنبه أعظم من أن يكفّر ؛ لأنه استهان بعظمة الله جلّ وعلا حين حلف كاذباً . روى الدارقطني في « سننه » عن علقمة عن عبد الله أنه قال : الأيمان أربعة : يمينان يُكفّران ، ويمينان لا يُكفّران ، فاليمينان اللذان يُكفّران فالرجلُ الذي يحلف والله لا أفعل كذا وكذا فيفعل ، والرجل الذي يقول : والله لأفعلنّ كذا وكذا فلا يفعل ، واليمينان اللذان لا يُكفّران فالرجل يحلف والله ما فعلتُ كذا وكذا وقد فعل ، والرجل يحلف لقد فعلتُ كذا وكذا ولم يفعله .

قال القرطبي : وقد اختلف في اليمين الغموس ، فالذي عليه الجمهور أنها يمين مكرٍ وخديعةٍ وكذب فلا تنعقد ، ولا كفارة فيها .

وقال الشافعي : هي يمين منعقدة لأنها مكتسبة بالقلب ، معقودة بخبر ، مقرونة باسم الله تعالى وفيها الكفارة . والصحيح الأول ، قال ابن المنذر : وهذا قول مالك ومن تبعه من أهل المدينة ، وبه قال أحمد : وأصحاب الحديث ، وأصحاب الرأي من أهل الكوفة .

أخرج البخاري في « صحيحه » « أن أعرابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما

الكبائر ؟ قال : الإشراك بالله ، قال : ثم ماذا ؟ قال : عقوق الوالدين ، قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس ، قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : التي يقتطع بها مال امرئ مسلمٍ هو فيها كاذب » .

الحكم الثاني : هل تصح الكفارة قبل الحنث في اليمين ؟

(148/213)

ذهب الشافعية إلى جواز إخراج الكفارة قبل الحنث إذا كانت مالاً ، وأمّا إذا كانت صوماً فلا يجوز حتى يتحقق السبب بالحنث ، واستدلوا بظاهر هذه الآية ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ . . . ﴾ حيث ذكر الكفارة مرتبة على اليمين من غير ذكر الحنث ، واستدلوا كذلك بقوله تعالى : ﴿ ذلك كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ وقاسوها أيضاً على إخراج الزكاة قبل الحول .

وأما الصوم فلا ينتقل إليه إلا بعد العجز عن الخصال الثلاثة قبله ، ولا يتحقق العجز إلاّ بعد الحنث ووجوب التكفير ، واستدلوا بحديث « لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفّرتُ عن يميني وأتيتُ الذي هو خير » وهذا القول هو مشهور مذهب مالك رحمه الله .

وذهب الحنفية إلى عدم جواز إخراج الكفارة قبل الحنث ، وقالوا : إن في الآية إضمار الحنث فكأنه تعالى يقول : فكفارته إذا حنثتم ، وهو على حد قوله تعالى : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : 184] أي إذا أفطر في رمضان ، واستدلوا بما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيراً منها ، فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه » .

واستدلوا أيضاً بالمعقول فقالوا : إن الكفارة إنما تجب لرفع الإثم ، وإذا لم يحنث لم يكن هناك إثم حتى يرفع فلا معنى للكفارة .

واستدلوا أيضاً بأن كل عبادة فعلت قبل وجوبها لم تصحّ اعتباراً بالصلوات وسائر العبادات ، وهذا القول في رواية أشهب عن مالك رحمه الله .

الحكم الثالث : هل يشترط التتابع في صيام كفارة اليمين ؟

نصت الآية الكريمة على جواز الصيام عند العجز عن الإطعام ، وقد اختلف الفقهاء في الصيام هل يشترط فيه التتابع أم يجزئه التفريق ؟

أ- فذهب الحنفية إلى اشتراط التتابع لقراءة ابن مسعود (فصيامُ ثلاثة أيام متتابعات) وهو مروي عن عباس ومجاهد .

ب – وذهب الشافعية إلى عدم اشتراط التتابع ، وأنه يجزئ التفريق فيها وهو قول مالك .

قال القرطبي : « فإذا لم يجد الإطعام أو الكسوة أو عتق الرقبة صيام لقوله تعالى : ﴿ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ﴾ قرأها ابن مسعود (متتابعات) فيقيّد بها المطلق ، وبه قال أبو حنيفة والثوري ، وهو أحد قولي الشافعي . واختاره المزني قياساً على الصوم في (كفارة الظهار) .

وقال مالك والشافعي في قوله الآخر : يجزئه التفريقُ ، لأن التتابع صفة لا تجب إلاّ بنص ، أو قياس منصوص وقد عُدما » .

الحكم الرابع : هل الخمر تتناول جميع المسكرات .

الخمر اسم لما خامر العقل وغطّاه من الأشربة هذا رأي جمهور الفقهاء ، وقال الحنفية : الخمر خاصٌ بما كان من ماء العنب النِيء إذا غلا واشتد وقذف بالزبد ، فالخمر عندهم اسم لهذا النوع فقط ، وما وجد فيه مخامرة للعقل من غير هذا النوع لا يسمى خمراً وإن كان حراماً . والجمهور على أن الخمر ليست خاصة بعصير العنب ، فغير ماء العنب حرام بالنص ، وكل مسكر خمر لما روي عن أنس أنه قال : « حرمت الخمر وهي من العنب ، والتمر ، والعسل ، والحنطة ، والشعير ، والذرة » والجميع متفقون على حرمة كل مسكر والخلاف يكاد يكون شكلياً وقد تقدم في سورة البقرة .

الحكم الخامس : هل الخمر نجسة أم أنها حرام فقط ؟

فهم العلماء من تحريم الخمر ، واستخباث الشرع لها ، وإطلاق الرجس عليها ، والأمر باجتنابها ، الحكم بنجاستها ، وخالفهم في ذلك (المزني) صاحب الشافعي ، وبعض المتأخرين من فقهاء الحنفية فرأوا أنها طاهرة ، وأن المحرّم إنما هو شربها ، وقالوا لا يلزم من كون الشيء محرماً أن يكون نجساً ، فكم من محرم في الشرع ليس بنجس !

(150/213)

والصحيح ما ذهب إليه الجمهور ، لأن قوله تعالى : ﴿ رِجْسٌ ﴾ يدل على نجاستها ، فإن الرجس في اللغة القذر والنجاسة ، وقد دلّ على نجاستها أيضاً ما روي أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله : إنّا نمر في سفرنا على أهل كتاب يطبخون في قدورهم الخنزير ، ويشربون في آنيتهم الخمر فماذا نصنع ؟ فأمرهم عليه السلام بعدم الأكل أو الشرب منها ، فإن لم يجدوا غيرها غسلوها ثم استعملوها .

فالأمر بالغسل يدل على عدم الطهارت إذ لو كانت طاهرة غير متنجسة لما أمرهم بغسلها

.

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

1 – اليمين اللغو لا كفارة فيها وإنما تجب في اليمين المنعقدة .

2 – لا تصح الكفارة بالصيام إلا عند العجز عن الإطعام أو الكسوة أو العتق .

3 – الخمر والميسر من أخطر الجرائم الإجتماعية ولهذا قرنا بالأنصاب والأزلام .

4 – العداوة والبغضاء تتولدان من جريمتي (الخمر) و (القمار) .

5 – القمار مرض اجتماعي خطير يهدّم البيوت ويخرّب الأسر ويقضي على الاقتصاد .

6 – وجوب الابتعاد عن كل ما حرّمه الله عز وجل وخاصة الكبائر كالخمر والميسر .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

شدّد المولى جل وعلا في الآية الكريمة النكير على أمر (الخمر) و (الميسر) تشديداً بالغاً يضرف النفوس عنهما إلى غير عودة ، وقرنهما بالأنصاب والأزلام – وهما من أشنع المنكرات ، وأقبح الفواحش في نظر الإسلام – ليشير إلى ما في الخمر والميسر من ضررٍ بالغ ، وخطورة عظيمة ، تهدّد الأمة والمجتمع ، وتقوّض دعائم الحياة .

أما الخمر فإنها تذهب العقل ، وتُنهك الصحة ، وتُضيع المال ، ومتى ذهب العقل جاء الإجرام ، وكانت العربدة ، وأفعال الطيش والجنون ، وحسبُ السكران ألاّ يفرّق بين النافع والضار ، ولا يميّز بين الجواهر والأقذار ، لفقدان العقل .

وأما الميسر (القمار) فإنه يفقد الإنسان الإحساس والشعور حال انشغاله باللعب ، حتى لا يبالي بالمال يخرج من يده إلى غير رجعة ، طمعاً في أن ينال أكثر منه ، فإذا رجع خاسراً أكل قلبَه الحسدُ ، وامتلأت نفسه حقداً وغيظاً على من سلبه المال ، وربما أداه ذلك إلى قتل من كان سبباً في خسارته ، أو عزم على قتل نفسه بطريق الانتحار ، وكم من أسرةٍ تهدّمت ، وكم من عائلةٍ تشرّدت ، بسبب (القمار) وأصبحت في ذل وفاقة ، بعد أن كانت في عزّ ورفاهية ، والحوادث التي نسمعها كل يوم أصدق شاهد على ما يجره (القمار) من ويلاتٍ ونكبات على الأشخاص والأسر التي بليت في بعض أفرادها بأناسٍ مقامرين . دعْ ما يتخذه المقامرون من وسائل خسيسة وأيمان كاذبة يستعملونها في سبيل تحقيق أطماعهم وصدق الله حيث يقول : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روائع البيان حـ 1 صـ 559.568 ﴾

(152/213)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) ﴾

كما كان العبد أعرفَ بربه كان أخوفَ من ربه ، وإنما ينتفي الحذر عن العبد عند تحقيق الموعد بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ ﴾ [الأنعام : 82] وذلك عند دخول الجنة . وحقيقةُ الحذر نهوضُ القلب بدوام الاستغاثة مع مجاري الأنفاس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 447 ﴾

(153/213)

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانوا قد سألوا عند نزول الآية عما من شأن الأنفس الصالحة الناظرة للورع المتحرك للسؤال عنه ، وهو من مات منهم وهو يفعلهما ، قال جواباً لذلك السؤال : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا ﴾ أي تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات جناح ﴾ فبين سبحانه أن هذا السؤال غير وارد لأنهم لم يكونوا منعوا منهما ، وكانوا مؤمنين عاملين للصالحات متقين لما يسخط الرب من المحرمات ، وقد بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " حرمت الخمر ثلاث مرات : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ يسئلونك عن الخمر والميسر ﴾ [البقرة : 219] ، فقال الناس : لم يحرم علينا ، إنما قال : إن فيهما إثماً ، وكانوا يشربون الخمر حتى إذا كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين المغرب فخلط في قراءته ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [النساء : 43] فكانوا يشربونها حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق ، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴾ [المائدة : 90] ، فقالوا : انتهينا يا رب ! وقال الناس : يا رسول الله ! ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجساً من مل الشيطان ! فأنزل الله ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ﴾ [المائدة : 93] ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو

حرمت عليهم لتركوها كما تركتم " ولا يضر كونه من رواية أبي معشر وهو ضعيف لأنه موافق لقواعد الدين ، وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : "كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة رضي الله عنه وما شرابهم إلا الفضيخ : البسر والتمر ، وإذا منادٍ ينادي : ألا ! إن الخمر قد حرمت ، فقال لي أبو

(154/213)

طلحة رضي الله عنه : اخرج فاهرقها ، فهرقتها ، فقال بعض القوم : قد قتل فلان وفلان وهي في بطونهم ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ﴾ على أنه لو لم يرد هذا السببُ كانت المناسبة حاصلة ، وذلك أنه تعالى لما أباح الطيب من المأكل وحرم الخبيث من المشرب ، نفى الجناح عمن يأكل ما أذن فيه أو يشرب عدا ما حرمه .

فأتى بعبارة تعم المأكل والمشرب فقال : ﴿ فيما طعموا ﴾ أي مأكلاً كان أو مشرباً ، وشرط ذلك عليهم بالتقوى ليخرج المحرمات فقال : ﴿ إذا ما اتقوا ﴾ أي أوقعوا جميع التقوى التي تطلب منهم فلم يطعموا محرماً .

ولما بدأ بالتقوى وهي خوف الله الحامل على البعد عن المحرمات ، ذكر أساسها الذي لا

تقبل إلا به فقال : ﴿ وآمنوا ﴾ ولما ذكر الإقرار باللسان ، ذكر مصداقه فقال : ﴿ وعملوا ﴾ أي بما أداهم إليه اجتهادهم بالعلم لا اتفاقاً ﴿ الصالحات ثم اتقوا ﴾ أي فاجتنبوا ما جدد عليهم تحريمه ﴿ وآمنوا ﴾ أي بأنه من عند الله ، وأن الله له أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وهكذا كلما تكرر تحريم شيء كانوا يلابسونه .

(155/213)

ولما كان قد نفى الجناح أصلاً ورأساً ، شرط الإحسان فقال : ﴿ ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ أي لازموا التقوى إلى أن أوصلتهم إلى مقام المراقبة ، وهي الغنى عن رؤية غير الله ، فأفهم ذلك أن من لم يبلغ رتبة الإحسان لا يمتنع أن يكون عليه جناح مع التقوى والإيمان ، يكفر عنه بالبلايا والمصائب حتى ينال ما قدر له مما لم يبلغه عمله من درجات الجنان ، ومما يدل على نفاسة التقوى وعزتها أنه سبحانه لما شرطها في هذا العموم ، حث عليها عند ذكر المأكل بالخصوص – كما مضى فقال " واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون " ، وهذا في غاية الحث على التورع في المأكل والمشرب وإشارة إلى أنه لا يوصل إلى مقام الإحسان إلا به – والله الموفق ؛ ولما كان التقدير : فإن الله يحب المتقين المؤمنين ، عطف عليه قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ يحب المحسنين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 538 .

﴿ 539

فصل

قال الفخر :

روي أنه لما نزلت آية تحريم الخمر قالت الصحابة : إن إخواننا كانوا قد شربوا الخمر يوم أحد ثم قتلوا فكيف حالهم ، فنزلت هذه الآية والمعنى : لا إثم عليهم في ذلك لأنهم شربوها حال ما كانت محللة ، وهذه الآية مشابهة لقوله تعالى في نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] أي إنكم حين استقبلتم بيت المقدس فقد استقبلتموه بأمري فلا أضيع ذلك ، كما قال : ﴿ فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ [آل عمران : 195] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 12 صـ 69 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الطعام في الأغلب من اللغة خلاف الشراب ، فكذلك يجب أن يكون الطُّعْمُ خلاف الشرب ، إلا أن اسم الطعام قد يقع على المشروبات ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّى ﴾ [البقرة : 249] وعلى هذا يجوز أن يكون قوله ﴿ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ ﴾ أي شربوا الخمر ، ويجوز أن يكون معنى الطُّعْمُ راجعاً إلى التلذذ بما يؤكل ويشرب ، وقد تقول العرب : تطعم تطعم أي ذق حتى تشتهي وإذا كان معنى الكلمة راجعاً إلى الذوق صلح للمأكول والمشروب معاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 70 ﴾

فصل

قال الفخر :

زعم بعض الجهال أنه تعالى لما بيّن في الخمر أنها محرّمة عندما تكون موقعة للعداوة والبغضاء وصادة عن ذكر الله وعن الصلاة ، بيّن في هذه الآية أنه لا جناح على من طعمها إذا لم يحصل معه شيء من تلك المفاسد ، بل حصل معه أنواع المصالح من الطاعة والتقوى ، والإحسان إلى الخلق .

قالوا : ولا يمكن حمله على أحوال من شرب الخمر قبل نزول آية التحريم ، لأنه لو كان المراد ذلك لقال : ما كان جناح على الذين طعموا ، كما ذكر مثل ذلك في آية تحويل القبلة فقال ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [البقرة : 143] ولكنه لم يقل ذلك ، بل قال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ ﴾ إلى قوله ﴿ إذا ما اتقوا وآمنوا ﴾ ولا شك

أن إذا للمستقبل لا للماضي .

واعلم أن هذا القول مردود بإجماع كل الأمة وقولهم : إن كلمة إذا للمستقبل لا للماضي .

فجوابه ما روى أبو بكر الأصم : أنه لما نزل تحريم الخمر ، قال أبو بكر : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار وكيف بالغائبين عنا في البلدان لا يشعرون أن الله حرّم الخمر وهم يطعمونها ، فأنزل الله هذه الآيات ، وعلى هذا التقدير فالحل قد ثبت في الزمان المستقبل عن وقت نزول هذه الآية لكن في حق الغائبين الذين لم يبلغهم هذا النص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 70 ﴾

فصل

(157/213)

قال الفخر :

إنه تعالى شرط لنفي الجناح حصول التقوى والإيمان مرتين وفي المرة الثالثة حصول التقوى والإحسان واختلفوا في تفسير هذه المراتب الثلاث على وجوه قال الأكثرون : الأول : عمل الاتقاء ، والثاني : دوام الاتقاء والثبات عليه ، والثالث : اتقاء ظلم العباد مع ضم الإحسان إليه .

القول الثاني : أن الأول اتقاء جميع المعاصي قبل نزول هذه الآية ، والثاني : اتقاء الخمر والميسر وما في هذه الآية .

الثالث : اتقاء ما يحدث تحريمه بعد هذه الآية وهذا قول الأصم ، القول الثالث : اتقاء الكفر ثم الكبائر ثم الصغائر ، القول الرابع : ما ذكره القفال رحمه الله تعالى قال : التقوى الأولى عبارة عن الاتقاء من القدح في صحة النسخ وذلك لأن اليهود يقولون النسخ يدل على البداء فأوجب على المؤمنين عند سماع تحريم الخمر بعد أن كانت مباحة أن يتقوا عن هذه الشبهة الفاسدة والتقوى الثانية الإتيان بالعمل المطابق لهذه الآية وهي الاحتراز عن شرب الخمر والتقوى الثالثة عبارة عن المداومة على التقوى المذكورة في الأولى والثانية ثم يضم إلى هذه التقوى الإحسان إلى الخلق .

والقول الخامس : أن المقصود من هذا التكرير التأكيد والمبالغة في الحث على الإيمان والتقوى .

فإن قيل : لم شرط رفع الجناح عن تناول المطعومات بشرط الإيمان والتقوى مع أن المعلوم أن من لم يؤمن ومن لم يتق ثم تناول شيئاً من المباحات فإنه لا جناح عليه في ذلك التناول ، بل عليه جناح في ترك الإيمان وفي ترك التقوى ، إلا أن ذلك لا تعلق له بتناول ذلك المباح فذكر هذا الشرط في هذا المعرض غير جائز .

قلنا : ليس هذا للاشتراط بل لبيان أن أولئك الأقوام الذين نزلت فيهم هذه الآية كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمداً لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان ، ومثاله أن يقال لك : هل على زيد فيما فعل جناح ، وقد علمت أن ذلك الأمر مباح فتقول : ليس على أحد جناح في المباح إذا اتقى المحارم وكان مؤمناً محسناً تريد أن زيداً إن بقي مؤمناً محسناً فإنه غير مؤاخذ بما فعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 70 . 71 ﴾

قوله تعالى ﴿ واللهُ يُحِبُّ المحسنين ﴾

قال الفخر :

المعنى أنه تعالى لما جعل الإحسان شرطاً في نفي الجناح بيَّن أن تأثير الإحسان ليس في نفي الجناح فقط ، بل وفي أن يحبه الله ، ولا شك أن هذه الدرجة أشرف الدرجات وأعلى المقامات ، وقد تقدم تفسير محبة الله تعالى لعباده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 71 ﴾

(159/213)

لطيفة

قال ابن جزى :

قيل : كرر التقوى مبالغة ، وقيل : الرتبة الأولى : اتقاء الشرك ، والثانية اتقاء المعاصي ، والثالثة : اتقاء ما لا بأس به حذراً مما به البأس ، وقيل : الأولى للزمان الماضي والثانية للحال ، والثالثة للمستقبل ﴿ وَّأَحْسَنُواْ ﴾ يحتمل أن يريد الإحسان إلى الناس أو الإحسان في طاعة الله وهو المراقبة ، وهذا أرجح لأنه درجة فوق التقوى ، ولذلك ذكر في المرة الثالثة وهي الغاية ، ولذلك قالت الصوفية : المقامات ثلاثة : مقام الإسلام ثم مقام الإيمان ثم مقام الإحسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 1 صـ 187 ﴾

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : المقامات التي يقطعها المريد ثلاث : مقام الإسلام ، ومقام الإيمان ، ومقام الإحسان ، فما دام المريد مشتغلاً بالعمل الظاهر ؛ من صلاة وصيام وذكر اللسان ، سُمي مقام الإسلام ، فإذا انتقل لعمل الباطن من تخلية وتحلية وتهذيب وتصفية ، سُمي مقام الإيمان ، فإذا انتقل لعمل باطن الباطن من فكرة ونظرة وشهودة وعيان سمي مقام الإحسان ، وهذا اصطلاح الصوفية ؛ سموا ما يتعلق بإصلاح الظواهر : إسلامًا ، وما يتعلق بإصلاح القلوب والضمائر ، إيمانًا ، وما يتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر : إحسانًا . وجعل

الساحلي في البغية كل مقام مركبًا من ثلاثة مقامات ، فالإسلام مركب من التوبة والتقوى والاستقامة ، والإيمان مركب من الإخلاص والصدق والطمأنينة ، والإحسان مركب من مراقبة ومشاهدة ومعرفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 75 ﴾

(160/213)

فائدة

قال فى روح البيان :

حكى أنه وقع القحط فى بنى إسرائيل فدخل فقير سكة من السكك وكان فيها بيت غنى فقال تصدقوا على لأجل الله فأخرجت إليه بنت الغنى خبزا حارا فاستقبله الغنى فقال من دفع إليك هذا الخبز فقال ابنة من هذا البيت فدخل وقطع يد ابنته اليمنى فحول الله حاله فافتقر ومات فقيرا ثم إن شابا غنيا استحسن الابنة لكونها حسناء فتزوجها وأدخلها داره فلما جن الليل أحضرت مائدة فمدت اليد اليسرى فقال الفتى سمعت أن الفقراء يكونون قليلى الأدب فقال مدى يدك اليمنى فمدت اليسرى ثانيا وثالثا فهتف بالبيت هاتف أخرجى يدك اليمنى فالرب الذى أعطيت الخبز لأجله رد عليك يدك

اليمنى فأخرجت يدها اليمنى بأمر الله تعالى وأكلت معه كذا فى الروضة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 2 صـ 526. 527 ﴾

(161/213)

فصل الآثار المهلكة للخمر والميسر :

قال فى الأمثل:

على الرغم من أننا أشرنا في تفسير الآية (219) من سورة البقرة في المجلد الثّاني من هذا التّفسير إشارة موجزة أضرار هاتين الآفتين الإجتماعيتين ، إلاّ أنّنا لتوكيد الأمر ـ إقتداء بالقرآن الكريم ـ نضيف هنا أُموراً أُخرى هي مجموعة من الإحصاءات المختلفة كل واحدة منها تعتبر شهادة وافية تدل على عظم تلك الأضرار وعمق تأثيرها .

1 ـ في إحصائية صدرت في بريطانيا بشأن الجنون الكحولي ومقارنته بالجنون العادي ، جاء أنّه في مقابل (2249) مجنوناً بسبب الإدمان على الخمر

هناك (53) مجنوناً فقط لأسباب مختلفة أُخرى .

2 ـ وفي إحصاء آخر من أمريكا أنّ 85% من المصابين بأمراض نفسية هم من المدمنين على الخمر .

3 ـ يقول عالمٍ إنجليزي اسمه (بنتام) : أنّ المشروبات الكحولية تحول أهالي الشمال إلى أناس حمقى وبله ، وأهالي الجنوب إلى مجانين ، ثمّ يضيف: إنّ الدين الإسلامي يحرم جميع أنواع المسكرات ، وهذا واحد من مميزات الإسلام .

4 ـ لو أجري إحصاء عن السكارى الذين إنتحروا ، أو ارتكبوا الجرائم وحطموا العوائل ، لكان لدينا رقم رهيب .

5 ـ في فرنسا يموت كلّ يوم 440 شخصاً ضحية للخمور .

6 ـ تقول إحصائية أُخرى من أمريكا : أنّ عدد المرضى النفسانيين خلال سنة واحدة بلغ ضعف قتلاها في الحرب العالمية الثّانية ، ويرى العلماء الأمريكان أنّ السببين الرئيسيين لهذا هما المشروبات الكحولية والتدخين .

7 ـ جاء في إحصائية وضعها عالم يدعى (هوكر) نشرها في مجلة (العلوم) بمناسبة عيد تأسيسها العشرين ، قال فيها : أنّ 60٪ من القتل المتعمد ، 75٪ من الضرب والجرح و30٪ من الجرائم الأخلاقية (بما فيها الزنا بالمحارم !) و20٪ من جرائم السرقة ، سببها المشروبات الكحولية ، وعن هذا العالم نفسه أنّ 40٪ من الأطفال المجرمين قد ورثوا آثار الكحول .

8 ـ إنّ الخسائر التي تصيب الإقتصاد البريطاني من جراء تغيب العمال عن العمل بسبب إدمانهم على الخمر تبلغ سنوياً نحو 50 مليون دولار ، وهو مبلغ يكفي لإنشاء الآلاف من رياض الأطفال والمدارس الإبتدائية والثانوية .

9 ـ الإحصاءات التي نشرت عن خسائر الإدمان على الكحول في فرنسا تقول: أنّ الخزينة الفرنسية تتحمل سنوياً مبلغ (137) مليارد فرنك ، إضافة إلى الأضرار الأُخرى كما يلي:

60 مليار فرنك للصرف المحاكم والسجون .

40 مليار فرنك للصرف على الإعانات العامّة والمؤسسات الخيرية .

10 مليارات من الفرنكات للصرف على المستشفيات الخاصّة لمعالجة المدمنين على المسكرات .

70 مليار فرنك للصرف على الأمن الإجتماعي .

وهكذا يتّضح أنّ عدد المرضى النفسانيين ومصحات الأمراض العقلية وجرائم القتل والمخاصمات الدموية والسرقة والإغتصاب وحوادث المرور ، تتناسب تناسباً طردياً مع عدد حانات الخمور .

10 ـ أثبتت الدوائر الإحصائية في أمريكا أنّ القمار كان السبب المباشر في 30% من الجرائم ، وفي إحصائية أُخرى عن جرائم القمار نرى وللأسف الشديد أن 90% من جرائم

السرقة و50٪ من الجرائم الجنسية و10٪ من فساد الأخلاق و30٪ من الطلاق و40٪ من الضرب والجرح و5٪ من حوداث الإِنتحار إِنما هي بسبب القمار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ 4 صـ 141.143 ﴾

(163/213)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ سبب نزولها : أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ماتوا وهم يشربون الخمر ، إِذ كانت مباحة ، فلما حرِّمت ، قال ناس : كيف بأصحابنا وقد ماتوا وهم يشربونها ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله البراء بن عازب .

و"الجناح" : الإِثم .

وفيما طعموا ثلاثة أقوال .

أحدها : ما شربوا من الخمر قبل تحريمها ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

قال ابن قتيبة : يقال : لم أطعم خُبْزاً وأدماً ولا ماءً ولا نوماً .

قال الشاعر :

فإن شئتِ حرَّمتُ النّساء سِواكُم . . .

وإن شئتِ لم أطْعَمْ نُقَاخاً ولا بَرْدَا

النقاخ : الماء [البارد] الذي ينقخ الفؤاد ببرده ، والبرد : النوم .

والثاني : ما شربوا من الخمر وأكلوا من الميسر .

والثالث : ما طعموا من المباحات .

وفي قوله : ﴿ إذا ما اتقوا ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : اتقوا بعد التحريم ، قاله ابن عباس .

والثاني : اتقوا المعاصي والشرك .

والثالث : اتقوا مخالفة الله في أمره .

وفي قوله : ﴿ وآمنوا ﴾ قولان .

أحدهما : آمنوا بالله ورسوله .

والثاني : آمنوا بتحريمها .

﴿ وعملوا الصالحات ﴾ قال مقاتل : أقاموا على الفرائض .

قوله تعالى : ﴿ ثم أتقوا ﴾ في هذه التقوى المعادة أربعة أقوال .

أحدها : أن المراد خوف الله عز وجل .

والثاني : أنها تقوى الخمر والميسر بعد التحريم .

والثالث : أنها الدوام على التقوى .

والرابع : أن التقوى الأولى مخاطبة لمن شربها قبل التحريم ، والثانية لمن شربها بعد التحريم .

قوله تعالى : ﴿ وآمنوا ﴾ في هذا الإِيمان المُعاد قولان .

أحدهما : صدّقوا بجميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

والثاني : آمنوا بما يجيء من الناسخ والمنسوخ .

قوله تعالى : ﴿ ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ في هذه التقوى الثالثة أربعة أقوال .

أحدها : اجتنبوا العودَ إِلى الخمر بعد تحريمها ، قاله ابن عباس .

(164/213)

والثاني : اتقوا ظلم العباد .

والثالث : توقوا الشبهات .

والرابع : اتقوا جميع المحرّمات .

وفي الإِحسان قولان .

أحدهما : أحسنوا العمل بترك شربها بعد التحريم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أحسنوا العمل بعد تحريمها ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾

سبب هذه الآية فيما قال ابن عباس والبراء بن عازب وأنس بن مالك : أنه لما نزل تحريم الخمر ، قال قوم من الصحابة : يا رسول الله ، كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر ونحو هذا من القول ؟ فنزلت هذه الآية .

(165/213)

قال القاضي أبو محمد : وهذا نظير سؤالهم عمن مات على القبلة الأولى ، ونزلت ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] ولما كان أمر القبلة خطيراً ومعلماً من معالم الدين تخيل قوم نقص من فاته ، وكذلك لما حصلت الخمر والميسر في هذا الحد العظيم من الذم ، أشفق قوم وتخيلوا نقص من مات على هذه المذمات ، فأعلم تعالى عباده أن الذم والجناح إنما يلحق من جهة المعاصي ، وأولئك الذين ماتوا قبل التحريم لم يعصوا في ارتكاب

محرم بعد بل كانت هذه الأشياء مكروهة لم ينص عليها بتحريم ، والشرع هو الذي قبحها وحسن تجنبها ، و" الجناح " الإثم والحرج ، وهو كله الحكم الذي يتصف به فاعل المعصية والنسبة التي تترتب للعاصي و﴿ طعموا ﴾ معناه ذاقوا فصاعداً في رتب الأكل والشرب وقد يستعار للنوم وغيره وحقيقته في حاسة الذوق والتكرار في قوله ﴿ اتقوا ﴾ يقتضي في كل واحدة زيادة على التي قبلها وفي ذلك مبالغة في هذه الصفات لهم ، وذهب بعض المفسرين إلى أن يعين المراد بهذا التكرار فقال قوم : الرتبة الأولى هي اتقاء الشرك والكبائر والإيمان على كماله وعمل الصالحات ، والرتبة الثانية هي الثبوت والدوام على الحالة المذكورة ، والرتبة الثالثة هي الانتهاء في التقوى إلى امتثال ما ليس بفرض من النوافل في الصلاة والصدقة وغير ذلك ، وهو الإحسان ، وقال قوم الرتبة الأولى لماضي الزمن ، والثانية للحال ، والثالثة للاستقبال ، وقال قوم : الاتقاء الأول هو في الشرك والتزام الشرع ، والثاني في الكبائر ، والثالث في الصغائر .

(166/213)

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وليست هذه الآية وقفاً على من عمل الصالحات كلها ، واتقى كل التقوى . بل هو لكل مؤمن وإن كان عاصياً أحياناً إذا كان قد عمل من

هذه الخصال الممدوحة ما استحق به أن يوصف بأنه مؤمن عامل للصالحات متق في غالب أمره محسن ، فليس على هذا الصنف جناح فيما طعم مما لم يحرم عليه ، وقد تأول هذه الآية قدامة بن مظعون الجمحي من الصحابة رضي الله عنه ، وهو ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه عثمان وعبد الله ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وعمرّ ، وكان ختن عمر بن الخطاب خال عبد الله وحفصة ، ولاه عمر بن الخطاب على البحرين ثم عزله لأن الجارود سيد عبد القيس قدم على عمر بن الخطاب فشهد عليه بشرب الخمر ، فقال له عمر : ومن يشهد معك ؟ فقال : أبو هريرة ، فجاء أبو هريرة فقال له عمر بم تشهد ؟ قال لم أره يشرب ولكن رأيته سكران يقيء ، فقال له عمر : لقد تنطعت في الشهادة ، ثم كتب عمر إلى قدامة أن يقدم عليه ، فقدم ، فقال الجارود لعمر : أقم على هذا كتاب الله ، فقال له عمر : أخصم أنت أم شهيد ، قال : بل شهيد : قال : قد أديت شهادتك ، فصمت الجارود ثم غدا على عمر ، فقال أقم على قدامة كتاب الله ، فقال له عمر : ما أراك إلا خصماً وما شهد معك إلا رجل واحد ، قال الجارود : إني أنشدك الله ، قال عمر : لتمسكن لسانك أو لأسوأنك ، فقال الجارود : ما هذا والله يا عمر بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوءني ، فقال أبو هريرة : إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فسلها ، وهي امرأة قدامة ، فبعث عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها الله ، فأقامت الشهادة على زوجها ، فقال عمر لقدامة إني حادك ، فقال : لو شربت كما يقولون لم يكن لك أن تحدني ، قال عمر لم ؟ قال :

لأن الله تعالى يقول ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ﴾ الآية ، فقال له عمر : أخطأت التأويل ، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم عليك ، ثم حده عمر وكان

(167/213)

مريضاً فقال له قوم من الصحابة لا نرى أن تجلده ما دام مريضاً ، فأصبح يوماً وقد عزم على جلده ، فقال لأصحابه : ما ترون في جلد قدامة ؟ قالوا : لا نرى ذلك ما دام وجعاً ، فقال له عمر لأن يلقى الله وهو تحت السياط أحب إليَّ من أن ألقاه وهو في عنقي ، وأمر بقدامة فجلد ، فغاضب قدامة عمر وهجره إلى أن حج عمر وحج معه قدامة مغاضباً له ، فلما كان عمر بالسقيا نام ثم استيقظ فقال : عجلوا عليَّ بقدامة ، فقد أتاني آت في النوم فقال : سالم قدامة فإنه أخوك ، فبعث في قدامة فأبى أن يأتي فقال عمر جروه إن أبي فلما جاء كلمه عمر واستغفر له فاصطلحا ، قال أيوب بن أبي تميمة لم يحد أحد من أهل بدر في الخمر غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(168/213)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

فيه تسع مسائل :

الأُولى قال ابن عباس والبَرَاء بن عازب وأنس بن مالك إنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة : كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر ؟ ونحو هذا فنزلت الآية .

روى البخاريّ عن أنس قال : كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة فنزل تحريم الخمر ، فأمر منادياً ينادي ، فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت ! قال : فخرجت فقلت : هذا منادٍ ينادي أَلَا إنّ الخمر قد حُرّمت ؛ فقال : اذهب فأَهرِقها وكان الخمر من الفَضِيخ قال : فجرت في سِكك المدينة ؛ فقال بعض القوم : قُتِل قوم وهي في بطونهم فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ فِيمَا طعموا ﴾ الآية .

(169/213)

الثانية هذه الآية وهذا الحديث نظير سؤالهم عمن مات إلى القبلة الأُولى فنزلت ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة: 143].

ومن فعل ما أُبيح له حتى مات على فعله لم يكن له ولا عليه شيء؛ لا إثم ولا مؤاخذة ولا ذم ولا أجر ولا مدح؛ لأن المباح مستوي الطرفين بالنسبة إلى الشرع؛ وعلى هذا فما كان ينبغي أن يُتخوّف ولا يُسأل عن حال من مات والخمر في بطنه وقت إباحتها، فإما أن يكون ذلك القائل غَفَل عن دليل الإباحة فلم يخطر له، أو يكون لغلبة خوفه من الله تعالى، وشفقته على إخوانه المؤمنين تَوهَّم مؤاخذةً ومعاقبةً لأجل شرب الخمر المتقدّم؛ فرفع الله ذلك التوهم بقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ فِيمَا طعموا ﴾ الآية.

الثالثة هذا الحديث في نزول الآية فيه دليل واضح على أن نبيذ التمر إذا أسكر خَمْر؛ وهو نصٌّ ولا يجوز الاعتراض عليه؛ لأن الصحابة رحمهم الله هم أهل اللسان، وقد عَقَلوا أن شرابهم ذلك خمر إذ لم يكن لهم شراب ذلك الوقت بالمدينة غيره؛ وقد قال الحَكَميّ:

لنا خَمرٌ وليست خمر كَرْمٍ . . .
ولكن مِن نتاجِ الباسِقاتِ
كِرامٌ في السماءِ ذهبن طُولا . . .
وفات ثِمارها أيدِي الجناةِ

ومن الدليل الواضح على ذلك ما رواه النَّسائي : أخبرنا القاسم بن زكريا ، أخبرنا عبيد الله عن شيبان عن الأعمش عن مُحارِب بن دِثار عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الزبيب والتمر هو الخمر " وثبت بالنقل الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحسبك به عالماً باللسان والشرع خطب على منبر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ؛ أَلَا إنه قد نزل تحريم الخمر يوم نزل ، وهي من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ؛ والخمر ما خامر العقل .

(170/213)

وهذا أبين ما يكون في معنى الخمر ؛ يخطب به عمر بالمدينة على المنبر بمحضر جماعة الصحابة ، وهم أهل اللسان ولم يفهموا من الخمر إلا ما ذكرناه .

وإذا ثبت هذا بطل مذهب أبي حنيفة والكوفيين القائلين بأن الخمر لا تكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمراً ولا يتناوله اسم الخمر ، وإنما يسمى نبيذاً ؛ وقال الشاعر :

تركتُ النَّبيذ لأهل النبيذِ . . .

وصِرتُ حلِيفاً لِمن عابَه

شَرابٌ يُدنِّس عِرْضَ الفتَى . . .

ويَفتحُ للشَّر أبوابَه

الرابعة قال الإمام أبو عبد الله المازَرِيّ : ذهب جمهور العلماء من السلف وغيرهم إلى أنّ كل ما يسكر نوعه حرم شربه ، قليلاً كان أو كثيراً نِيئًا ، كان أو مطبوخاً ، ولا فرق بين المستخرج من العنب أو غيره ، وأنّ من شرب شيئاً من ذلك حُدَّ ؛ فأما المستخرج من العنب المسكر النِّيء فهو الذي انعقد الإجماع على تحريم قليله وكثيره ولو نقطة منه . وأما ما عدا ذلك فالجمهور على تحريمه .

وخالف الكوفيون في القليل مما عدا ما ذكر ، وهو الذي لا يبلغ الإسكار ؛ وفي المطبوخ المستخرج من العنب ؛ فذهب قوم من أهل البصرة إلى قصر التحريم على عصير العنب ، ونقيع الزّبيب النِّيء ؛ فأما المطبوخ منهما ، والنِّيء والمطبوخ مما سواهما فحلال ما لم يقع الإسكار .

وذهب أبو حنيفة إلى قصر التحريم على المعتصَر من ثمرات النخيل والأعناب على تفصيل ؛ فيرى أن سُلاَفة العنب يحرم قليلها وكثيرها إلا أن تطبخ حتى ينقص ثلثاها ، وأما نقيع الزّبيب والتمر فيحل مطبوخهما وإن مسّته النَّارُ مسّاً قليلاً من غير اعتبار بحدّ ؛ وأما النِّيء منه فحرام ، ولكنه مع تحريمه إياه لا يوجب الحدّ فيه ؛ وهذا كله ما لم يقع الإسكار ، فإن وقع الإسكار استوى الجميع .

قال شيخنا الفقيه الإمام أبو العباس أحمد رضي الله عنه : العجب من المخالفين في هذه المسألة ؛ فإنهم قالوا : إن القليل من الخمر المعتصَر من العنب حرام ككثيره ، وهو مجمع عليه ؛ فإذا قيل لهم : فلم حرم القليل من الخمر وليس مذهباً للعقل ؟ فلا بدّ أن يقال : لأنه داعية إلى الكثير ، أو للتعبد ؛ فحينئذ يقال لهم : كلّ ما قدّرتموه في قليل الخمر هو بعينه موجود في قليل النبيذ فيحرم أيضاً ، إذ لا فارق بينهما إلا مجرّد الاسم إذا سلم ذلك .

وهذا القياس هو أرفع أنواع القياس ؛ لأن الفرع فيه مساوٍ للأصل في جميع أوصافه ؛ وهذا كما يقوله في قياس الأمة على العبد في سراية العتق .

ثم العجب من أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله ! فإنهم يتوغلون في القياس ويرجحونه على أخبار الآحاد ، ومع ذلك فقد تركوا هذا القياس الجليّ المعضود بالكتاب والسنة وإجماع صدور الأُمة ، لأحاديث لا يصح شيء منها على ما قد بيّن عِلَلها المحدّثون في كتبهم ، وليس في الصحاح شيء منها .

وسيأتي في سورة "النحل" تمام هذه المسألة إن شاء الله تعالى .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ طعموا ﴾ أصل هذه اللفظة في الأكل ؛ يقال : طَعِمَ الطّعامَ وشَرِب الشّرَاب ، لكن قد تجوّز في ذلك فيقال : لم أطعم خُبزاً ولا ماء ولا نوماً ؛ قال الشاعر :

نَعَاماً بِوَجْرة صُعْر الخُدو . . .

دِ لا تَطْعَمُ النومَ إلاّ صِيَامَا

وقد تقدّم القول في "البقرة" في قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ بما فيه الكفاية .

السادسة قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : تضمنت هذه الآية تناول المباح والشهوات ، والانتفاع بكل لذيذ من مَطْعَم ومَشْرَب ومَنْكَح وإن بولغ فيه وتنوهي في ثمنه .

وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ ﴾ ونظير قوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق ﴾ [الأعراف : 32] .

(172/213)

السابعة قوله تعالى : ﴿ إِذَا مَا اتقوا وَآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ واللّهُ يُحِبُّ المحسنين ﴾ .

فيه أربعة أقوال : الأوّل أنه ليس في ذكر التقوى تكرار ؛ والمعنى اتقوا شربها ، وآمنوا بتحريمها ؛ والمعنى الثاني دام اتقاؤهم وإيمانهم ؛ والثالث على معنى الإحسان إلى الاتقاء .

والثاني اتقوا قبل التحريم في غيرها من المحرّمات ، ثم اتقوا بعد تحريمها شربَها ، ثم اتقوا فيما بقي من أعمالهم ، وأحسنوا العمل .

الثالث اتقوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله ، والمعنى الثاني ثم اتقوا الكبائر ، وازدادوا إيماناً ،

ومعنى الثالث ثم اتقوا الصغائر وأحسنوا أي تَنَفَّلُوا .

وقال محمد بن جَرير : الاتقاء الأوّل هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول ، والتصديق والدينونة به والعمل ، والاتقاء الثاني الاتقاء بالثبات على التصديق ، والثالث الاتقاء بالإحسان ، والتقرّب بالنوافل .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ واللهُ يُحِبُّ المحسنين ﴾ دليل على أن المتقي المحسن أفضل من المتقي المؤمن الذي عمل الصالحات ؛ فضله بأجر الإحسان .

التاسعة قد تأوّل هذه الآية قُدَامة بن مَظْعون الجُمَحِيّ من الصحابة رضي الله عنهم ، وهو ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه عثمان وعبد الله ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بَدْراً وعُمِّر .

وكان خَتَن عمر بن الخطاب ، خال عبد الله وحفصة ، وولاّه عمر بن الخطاب على البَحْرَين ، ثم عزله بشهادة الجَارُود سيّد عبد القيس عليه بشرب الخمر .

(173/213)

روى الدّارَقُطْنيّ قال حدّثنا أبو الحسن عليّ بن محمّد المصري حدّثنا يحيى بن أيوب العلاّف حدّثني سعيد بن عُفَير حدّثني يحيى بن فُلَيْح بن سليمان قال حدّثني ثورْ بن زيد عن

عِكْرمة عن ابن عباس : أن الشُّرَّاب كانوا يُضربون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأيدي والنِّعال والعِصيّ حتى تُوفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا في خلافة أبي بكر أكثر منهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى تُوفّى ، ثم كان عمر من بعده يجلدهم كذلك أربعين حتى أُتي برجل من المهاجرين الأوّلين وقد شرب فأمر به أن يجلد ؛ فقال لِم تجلدني ؟ بيني وبينك كتاب الله ! فقال عمر : وفي أيّ كتاب الله تجد ألا أجلدك ؟ فقال له : إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ فِيمَا طعموا ﴾ الآية .

فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ؛ شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدْراً وأُحُداً والْخَندق والمشاهد كلها ؛ فقال عمر : أَلاَ تردون عليه ما يقول ؛ فقال ابن عباس : إنّ هؤلاء الآيات أنزلن عذراً لمن غَبَر وحُجّة على الناس ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر ﴾ الآية ؛ ثم قرأ حتى أنفذ الآية الأُخرى ؛ فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، الآية ؛ فإن الله قد نهاه أن يشرب الخمر ؛ فقال عمر : صدقت ماذا ترون ؟ فقال عليّ رضي الله عنه : إنه إذا شرب سَكر وإذا سَكر هَذَى ، وإذا هَذَى افترى ، وعلى المفتري ثمانون جلدة ؛ فأمر به عمر فجلد ثمانين جلدة .

وذكر الحميديّ عن أبي بكر البَرْقانيّ عن ابن عباس قال : لما قدم الجارُود من البحرين قال : يا أمير المؤمنين إنّ قُدَامة ابن مَظْعون قد شرب مُسْكِرا ، وإني إذا رأيت حقاً من حقوق الله حق عليّ أن أرفعه إليك ؛ فقال عمر : من يشهد على ما تقول ؟ فقال : أبو هريرة ؛ فدعا عمر أبا هريرة فقال : عَلاَمَ تشهد يا أبا هريرة ؟ فقال : لم أره حين شرب ، ورأيته سكران يَقيء ، فقال عمر : لقد تَنَطَّعتَ في الشهادة ؛ ثم كتب عمر إلى قُدَامة وهو بالبَحْرَين يأمره بالقدوم عليه ، فلما قدم قُدَامة والجَارُود بالمدينة كلّم الجارود عمر ؛ فقال : أقم على هذا كتاب الله ؛ فقال عمر للجارود : أشهيد أنت أم خَصْم ؟ فقال الجارود : أنا شهيد ؛ قال : قد كنتَ أديتَ الشهادة ؛ ثم قال لعمر : إني أَنْشُدك الله ! فقال عمر : أَمَا والله لتملكنّ لسانك أو لأسوءنّك ؛ فقال الجارود : أما والله ما ذلك بالحق ، أن يشرب ابن عمك وتسوءني ! فأوعده عمر ؛ فقال أبو هريرة وهو جالس : يا أمير المؤمنين إن كنت في شك من شهادتنا فسل بنت الوليد امرأة ابن مَظْعون ، فأرسل عمر إلى هند يَنْشدها بالله ، فأقامت هند على زوجها الشهادة ؛ فقال عمر : يا قُدامة إني جالدك ؛ فقال قُدامة : والله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدني يا عمر .

قال : ولم يا قُدامة ؟ قال : لأن الله سبحانه يقول : ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ فِيمَا طعموا ﴾ الآية إلى "الْمُحْسِنِينَ" .

فقال عمر : أخطأت التأويل يا قُدامة ؛ إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله ، ثم أقبل عمر على القوم فقال : ما ترون في جلد قُدامة ؟ فقال القوم : لا نرى أن تجلده ما دام وَجِعا ؛ فسكت عمر عن جلده ثم أصبح يوماً فقال لأصحابه : ما ترون في جلد قُدَامة ؟ فقال القوم : لا نرى أن تجلده ما دام وَجِعا ، فقال عمر : إنه والله لأن يلقى الله تحت السوط ، أحب إليّ أن ألقى الله وهو في عنقي ! واللَّهِ لأجلدنه ؛ ائتوني بسوط ، فجاءه مولاه أسلم بسوط رقيق صغير ، فأخذه عمر فمسحه بيده ثم قال لأسلم : أخذتك دِقْرارة أهلك ؛ ائتوني بسوط غير هذا ، قال : فجاءه أسلم بسوط تام ؛ فأمر عمر بقُدَامة فجلد ؛ فغاضب قُدَامة عمر وهجره ؛ فحجَّا وقُدَامة مهاجر لعمر حتى قَفَلوا عن حجهم ونزل عمر بالسُّقْيَا ونام بها فلما استيقظ عمر قال : عجلوا عليّ بقُدَامة ، انطلقوا فأتوني به ، فوالله لأرى في النوم أنه جاءني آت فقال : سالم قُدامة فإنه أخوك ، فلما جاءوا قُدامة أَبَى أن يأتيه ، فأمر عمر بقُدامة أن يجر إليه جَرّاً حتى كلمه عمر واستغفر له ، فكان أوّل صلحهما .

قال أيوب ابن أبي تميمة : لم يحدّ أحد من أهل بدر في الخمر غيره .

قال ابن العربيّ : فهذا يدلك على تأويل الآية ، وما ذُكِر فيه عن ابن عباس من حديث الدّارقطنيّ ، وعمر في حديث البَرْقَاني وهو صحيح ؛ وبسطه أنه لو كان من شرب الخمر واتقى الله في غيره ما حُدّ على الخمر أحد ، فكان هذا من أفسد تأويل ؛ وقد خفي على قُدامة ؛ وعرفه من وفقه الله كعمر وابن عباس رضي الله عنهما ؛ قال الشاعر :

وإنّ حراماً لا أرى الدهر باكياً . . .

على شَجْوه إلاّ بكيتُ على عُمر

وروي عن عليّ رضي الله عنه أن قوماً شربوا بالشام وقالوا : هي لنا حلال وتأوّلوا هذه الآية ، فأجمع عليّ وعمر على أن يستتابوا ، فإن تابوا وإلا قتلوا ؛ ذكره الكِيَا الطَّبَري . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(176/213)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَيْسَ عَلَى الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ ﴾ أي إثم وحرج ﴿ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتقوا وَءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ثُمَّ اتَّقَواْ وَءامَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ والله يُحِبُّ المحسنين

﴿ قيل : لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم : كيف بمن شربها من إخواننا الذين ماتوا وهم قد شربوا الخمر وأكلوا الميسر ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقيل : إنها نزلت في القوم الذين حرموا على نفوسهم اللحوم وسلكوا طريق الترهب كعثمان بن مظعون وغيره والأول هو المختار ، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأنس بن مالك والبراء بن عازب ومجاهد وقتادة والضحاك وخلق آخرين .

وللمفسرين في معنى الآية كلام طويل الذيل فنقل الطبرسي والعهدة عليه عن تفسير أهل البيت أن (ما) عبارة عن المباحات ، واختاره غير واحد من المتأخرين .

وتعقب بأنه يلزم عليه تقييد إباحتها باتقاء ما عداها من المحرمات لقوله سبحانه : ﴿ إِذَا مَا اتقوا ﴾ واللازم منتف بالضرورة فهي سواء كانت موصولة أو موصوفة على عمومها وإنما تخصصت بذلك القيد الطارىء عليها ، والطعم كالطعام يستعمل في الأكل والشرب كما تقدمت إليه الإشارة .

والمعنى ليس عليهم جناح فيما تناولوه من المأكول والمشروب كائناً ما كان إذا اتقوا أن يكون في ذلك شيء من المحرم واستمروا على الإيمان والأعمال الصالحة وإلا لم يكن نفي الجناح في كل ما طعموه بل في بعضه ، ولا محذور في هذا إذ اللازم منه تقييد إباحة الكل بأن لا يكون فيه محرم لا تقييد إباحة بعضه باتقاء بعض لآخر منه كما هو اللازم مما عليه الجماعة .

و ﴿ اتقوا ﴾ الثاني عطف على نظيره المتقدم داخل معه في حيز الشرط .

(177/213)

والمراد اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحاً فيما سبق ، والمراد بالإيمان المعطوف عليه إما الإيمان بتحريمه وتقديم الاتقاء عليه إما للاعتناء به أو لأنه الذي يدل على التحريم الحادث الذي هو المؤمن به ، وإما الاستمرار على الإيمان بما يجب الإيمان به ومتعلق الاتقاء ثالثاً ما حرم عليهم أيضاً بعد ذلك مما كان مباحاً من قبل على أن المشروط بالاتقاء في كل مرة إباحة ما طعموه في ذلك الوقت لا إباحة ما طعموه قبله لانتساخ إباحة بعضه حينئذ وأريد بالإحسان فعل الأعمال الحسنة الجميلة المنتظمة بجميع ما ذكر من الأعمال القلبية والقالبية .

(178/213)

وليس تخصيص هذه المراتب بالذكر لتخصيص الحكم بها بل لبيان التعدد والتكرار بالغاً ما بلغ ، والمعنى أنهم إذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة وكانوا في طاعة الله تعالى ومراعاة أوامره ونواهيه بحيث كلما حرم عليهم شيء من

المباحات اتقوه ثم وثم فلا جناح عليهم فيما طعموه في كل مرة من المآكل والمشارب إذ ليس فيها شيء محرم عند طعمه قاله مولانا شيخ الإسلام ، ثم قال : وأنت خبير بأن ما عدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة لا دخل لها في انتفاء الجناح وإنما ذكرت في حيز إذا شهادة باتصاف الذين سئل عن حالهم بها ومدحاً لهم بذلك وحمداً لأحوالهم ، وقد أشير إلى ذلك حيث جعلت تلك الصفات تبعاً للاتقاء في كل مرة تميزاً بينها وبين ما له دخل في الحكم فإن مساق النظم الكريم بطريق العبارة وإن كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعوت فيما سيأتي من الزمان بقضية ﴿ إِذَا مَا ﴾ لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لإثبات الحكم في حقهم ضمن التشريع الكلي على الوجه البرهاني بطريق دلالة النص بناء على كمال اشتهارهم بالاتصاف بها فكأنه قيل : ليس عليهم جناح فيما طعموه إذا كانوا في طاعته تعالى مع ما لهم من الصفات الحميدة بحيث كلما أمروا بشيء تلقوه بالامتثال ، وإنما كانوا يتعاطون الخمر والميسر في حياتهم لعدم تحريمهما إذ ذاك ولو حرما في عصرهم لاتقوهما بالمرة انتهى .

(179/213)

ومما يدل على أن الآية للتشريع الكلي ما أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن مسعود قال : لما نزلت ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين ءامَنُواْ ﴾ الآية قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قيل لي أنت منهم " وقيل : إن ما في حيز الشرط من الاتقاء وغيره إنما ذكر على سبيل المدح والثناء للدلالة على أن القوم بتلك الصفة لأن المراد بما المباحات ، ونفي الجناح في تناول المباح الذي لم يحرم لا يتقيد بشرط ، وقال علي بن الحسين النقيب المرتضى : إن المفسرين تشاغلوا بإيضاح الوجه في التكرار الذي تضمنته هذه الآية وظنوا أنه المشكل فيها وتركوا ما هو أشد إشكالاً من ذلك وهو أنه تعالى نفى الجناح عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيما يطعمونه بشرط الاتقاء والإيمان والعمل الصالح مع أن المباح لو وقع من الكافر لا إثم عليه ولا وزر .

ولنا في حل هذه الشبهة طريقان ، أحدهما أن يضم إلى المشروط المصرح بذكره غيره حتى يظهر تأثير ما شرط فيكون تقدير الآية ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا وغيره إذا ما اتقوا الخ لأن الشرط في نفي الجناح لا بد من أن يكون له تأثير حتى يكون متى انتفى ثبت الجناح ، وقد علمنا أن باتقاء المحارم ينتفي الجناح فيما يطعم فهو الشرط الذي لا زيادة عليه ، ولما ولى ذكر الاتقاء الإيمان والعمل الصالح ولا تأثير لهما في نفي الجناح علمنا أنه أضمر ما تقدم ذكره ليصح الشرط ويطابق المشروط لأن من اتقى الحرام فيما يطعم لا جناح عليه فيما يطعم ولكنه قد يصح أن يثبت عليه الجناح فيما أخل به من واجب

وضيعه من فرض فإذا شرطنا الإيمان والعمل الصالح ارتفع عنه الجناح من كل وجه ، وليس بمنكر حذف ما ذكرناه لدلالة الكلام عليه فمن عادة العرب أن يحذفوا ما يجري هذا المجرى ويكون قوة الدلالة عليه مغنية عن النطق به ، ومنه قول الشاعر

: تراه كأن الله يجدع أنفه . . .

وعينيه إن مولاه بات له وفر

(180/213)

فإنه لما كان الجدع لا يليق بالعين وكانت معطوفة على الأنف الذي يليق الجدع به أضمر ما يليق بالعين من البخص وما يجري مجراه .

الطريق الثاني أن يجعل الإيمان والعمل الصالح ليس شرطاً حقيقياً وإن كان معطوفاً على الشرط فكأنه تعالى لما أراد أن يبين وجوب الإيمان وما عطف عليه عطفه على ما هو واجب من اتقاء المحارم لاشتراكهما في الوجوب وإن لم يشتركا في كونهما شرطاً في نفي الجناح فيما يطعم وهذا توسع في البلاغة يحار فيه العقل استحساناً واستغراباً انتهى .

ولا يخفى ما في الطريق الثاني من البعد وإن الطريق الأول حزن فإن مثل هذا الحذف مع ما زعمه من القرينة لا يكاد يوجد في الفصيح في أمثال هذه المقامات ، وليس ذلك كالبيت

الذي ذكره فإنه من باب

علفتها تبنا وماء باردا . . .

وهو مما لا كلام لنا فيه وأين البيض من الباذنجان .

وقيل في الجواب أيضاً عن ذلك : إن المؤمن يصح أن يطلق عليه بأنه لا جناح عليه والكافر مستحق للعقاب مغمور به يوم الحساب فلا يطلق عليه ذلك ، وأيضاً إن الكافر قد سد على نفسه طريق معرفة التحليل والتحريم فلذل يخص المؤمن بالذكر ولا يخفى ما فيه .

وقال عصام الملة : الأظهر أن المراد أنه لا جناح فيما طعموا مما سوى هذه المحرمات إذا ما اتقوا ولم يأكلوا فوق الشبع ولم يأكلوا من مال الغير ، وذكر الإيمان والعمل الصالح للإيذان بأن الاتقاء لا بد له منهما فإن من لا إيمان له لا يتقي وكذا من لا عمل صالح له فضمهما إلى الإيمان لأنهما ملاك الاتقاء ، وتكرير التقوى والثبات على الإيمان للإشارة إلى أن ثبات نفي الجناح فيما يطعم على ثبات التقوى ، وترك ذكر العمل الصالح ثانياً للإشارة إلى أن الإيمان بعد التمرن على العمل لا يدع أن يترك العمل .

وذكر الإحسان بعد للإشارة إلى أن كثرة مزاولة التقوى والعمل الصالح ينتهي إلى الإحسان وهو أن تعبد الله تعالى كأنك تراه إلى آخر ما في الخبر انتهى .

وفيه الغث والسمين .

وكلامهم الذي أشار إليه المرتضى في إيضاح وجه التكرير كثير فقال أبو علي الجبائي : إن الشرط الأول : يتعلق بالزمان الماضي .

الثاني : يتعلق بالدوام على ذلك والاستمرار على فعله .

والثالث : يختص بمظالم العباد وبما يتعدى إلى الغير من الظلم والفساد .

واستدل على اختصاص الثالث بذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُواْ ﴾ فإن الإحسان إذا كان متعدياً وجب أن تكون المعاصي التي أمروا باتقائها قبله أيضاً متعدية وهو في غاية الضعف إذ لا تصريح في الآية بأن المراد بالإحسان الإحسان المتعدي ولا يمتنع أن يراد به فعل الحسن والمبالغة فيه وإن خص الفاعل ولم يتعد إلى غيره كما يقولون لمن بالغ في فعل الحسن أحسنت وأجملت ، قم لو سلم أن المراد به الإحسان المتعدي فلم لا يجوز أن يعطف فعل متعد على فعل لا يتعدى .

ولو صرح سبحانه فقال : اتقوا القبائح كلها وأحسنوا إلى الناس لم يمتنع وذلك ظاهر ، وقيل : إن الاتقاء الأول هو اتقاء المعاصي العقلية التي تخص المكلف ولا تتعداه .

والإيمان الأول الإيمان بالله تعالى وبما أوجب الإيمان به والإيمان بقبح هذه المعاصي ووجوب تجنبها والاتقاء الثاني هو اتقاء المعاصي السمعية والإيمان الثاني هو الإيمان بقبحها ووجوب تجنبها .

والاتقاء الثالث يختص بمظالم العباد وهو كما ترى ، وقيل : المراد بالأول اتقاء ما حرم عليهم أولاً مع الثبات على الإيمان والأعمال الصالحة إذ لا ينفع الاتقاء بدون ذلك .

وبالثاني اتقاء ما حرم عليهم بعد ذلك من الخمر ونحوه والإيمان التصديق بتحريم ذلك .

وبالثالث الثبات على اتقاء جميع ذلك من السابق والحادث مع تحري الأعمال الجميلة .

(182/213)

وهذا مراد من قال : إن التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة ، وقيل : إنه باعتبار المراتب الثلاث للتقوى المبدأ والوسط والمنتهى وقد مر تفصيلها ، وقيل : باعتبار الحالات الثلاث بأن يتقي الله تعالى ويؤمن به في السر ويجتنب ما يضر نفسه من عمل واعتقاد ويتقي الله تعالى ويؤمن به علانية ويجتنب ما يضر الناس ويتقي الله تعالى ويؤمن به بينه وبين الله تعالى بحيث يرفع الوسائط وينتهي إلى أقصى المراتب .

ولما في هذه الحالة من الزلفى منه تعالى ذكر الإحسان فيها بناء على أنه كما فسره صلى الله عليه وسلم في الخبر الصحيح " أن تعبد الله تعالى كأنك تراه " وقيل : باعتبار ما يتقي فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات توقياً من الوقوع في الحرام .

وبعض المباحات حفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة ، وقيل : المراد

بالأول اتقاء الكفر وبالثاني اتقاء الكبائر وبالثالث اتقاء الصغائر ، وقيل : إن التكرير لمجرد التأكيد ويجوز فيه العطف بثم كما صرح به ابن مالك في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : 3 ، 4] ولا يخفى أن أكثر هذه الأقوال غير مناسبة للمقام ، وذكر العلامة الطيبي أن معنى الآية أنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات وإنما المطلوب منهم الترقي في مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص واليقين ومعارج القدس والكمال وذلك بأن يثبتوا على الاتقاء عن الشرك وعلى الإيمان بما يجب الإيمان به وعلى الأعمال الصالحة لتحصل الاستقامة التامة التي يتمكن بها إلى الترقي إلى مرتبة المشاهدة ومعارج أن تعبد الله تعالى كأنك تراه وهو المعني بقوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُواْ ﴾ الخ وبها يمنح الزلفى عند الله تعالى ومحبته سبحانه المشار إليها بقوله عز وجل : ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ .

(183/213)

وفي هذا النظم نتيجة مما رواه الترمذي وابن ماجه من قوله صلى الله عليه وسلم : " ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهد أن تكون بما بيد الله تعالى أوثق منك بما في يدك انتهى " .

وهو ظاهر جدا على تقدير أن تكون الآية في القوم الذين سلكوا طريق الترهب وهو قول مرجوح فتدبر .

وجملة ﴿ واللهُ يُحِبُّ المحسنين ﴾ على سائر التقادير تذييل مقرر لمضمون ما قبله أبلغ تقرير ، وذكر بعضهم أنه كان الظاهر والله يحب هؤلاء فوضع المحسنين موضعه إشارة إلى أنهم متصفون بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

هذه الآية بيان لما عرض من إجمال في فهم الآية التي قبلها ، إذ ظنّ بعض المسلمين أنّ شرب الخمر قبل نزول هذه الآية قد تلبّس بإثم لأنّ الله وصف الخمر وما ذكر معها بأنّها رجس من عمل الشيطان .

فقد كان سببُ نزول هذه الآية ما في "الصحيحين" وغيرهما عن أنس بن مالك ، والبراء بن عازب ، وابن عبّاس ، أنّه لمّا نزل تحريم الخمر قال ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كيفَ بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمرَ أوْ قال وهي في بطونهم وأكلوا الميسر .

فأنزل الله : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ الآية .

وفي تفسير الفخر روى أبو بكر الأصمّ أنّه لمّا نزل تحريم الخمر قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القِمار ، وكيف بالغائبين عنّا في البلدان لا يشعرون أنّ الله حرّم الخمر وهم يَطعَمُونها .

فأنزل الله هذه الآيات .

(184/213)

وقد يَلُوح ببادىء الرأي أنّ حال الذين تُوُفُّوا قبل تحريم الخمر ليس حقيقاً بأن يَسأل عنه الصحابةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم للعلم بأنّ الله لا يؤاخذ أحداً بعمل لم يكن محرّماً من قبل فعله ، وأنّه لا يؤاخذ أحداً على ارتكابه إلاّ بعد أن يعلم بالتحريم ، فالجواب أنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا شديدي الحذر ممّا ينقص الثواب حريصين على كمال الاستقامة فلمّا نزل في الخمر والميسر أنّهما رجس من عمل الشيطان خَشُوا أن يكون للشيطان حظّ في الذين شربوا الخمر وأكلوا اللحم بالميسر وتُوفُّوا قبل الإقلاع عن ذلك أوْ ماتوا والخمر في بطونهم مخالطة أجسادهم ، فلم يتمالكوا أن سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حالهم لشدّة إشفاقهم على إخوانهم .

كما سأل عبد الله بن أمّ مكتوم لمّا نزل قوله تعالى : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدُون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾ [النساء : 95] فقال : يا رسول الله ، فكيف وأنا أعمَى لا أبصر فأنزل الله ﴿ غيرَ أولِي الضّرر ﴾ [النساء : 143] .

وكذلك ما وقع لمّا غُيّرت القبلة من استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة قال ناس : فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يستقبلون بيت المقدس ، فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان الله ليُضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] ، أي صلاتَكم فكان القصد من السؤال التثبّت في التفقّه وأن لا يتجاوزُوا التلقّي من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور دينهم .

ونفيُ الجناح نفي الإثم والعصيان .

و(مَا) موصولة .

و﴿ طَعموا ﴾ صلة .

وعائد الصلة محذوف .

وليست (ما) مصدرية لأنّ المقصود العفو عن شيء طعموهُ معلومٍ من السؤال ، فتعليق ظرفية ما طعموا بالجُناح هو على تقدير : في طَعْم ما طعموه .

وأصل معنى ﴿ طَعِموا ﴾ أنّه بمعنى أكلوا ، قال تعالى : ﴿ فإذا طعِمتم فانتشروا ﴾ [الأحزاب : 259] .

وحقيقة الطعم الأكل والشيء المأكول طَعام .

وليس الشراب من الطعام بل هو غيره ، ولذلك عُطف في قوله تعالى ﴿ فانظُر إلى طعامك وشَرابك لم يَتَسَنَّهْ ﴾ [البقرة : 259] .

ويدلّ لذلك استثناء المأكولات منه في قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرّماً على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنّه رجس أو فسقاً أهلّ لغير الله به ﴾ [الأنعام : 145] .

ويقال : طَعِم بمعنى أذَاق ومصدره الطُّعْم بضمّ الطاء اعتبروه مشتَقّاً من الطَّعْم الذي هو حاسّة الذوق .

وتقدّم قوله تعالى ﴿ ومن لم يطْعَمه فإنّه منّي ﴾ [البقرة : 249] ، أي ومن لم يذقه ، بقرينة قوله ﴿ فمن شرب منه ﴾ [البقرة : 249] .

ويقال : وجَدت في الماء طعْم التراب .

ويقال تغيّر طعم الماء ، أي أسِنَ .

فمن فصاحة القرآن إيراد فعل ﴿ طَعِمُوا ﴾ هنا لأنّ المراد نفي التَّبِعَة عمَّن شربوا الخمر وأكلوا لحم المَيْسر قبل نزول آية تحريمهما .

واستعمل اللفظ في معنييه ، أي في حقيقته ومجازه ، أو هو من أسلوب التغليب .

وإذ قد عبّر بصيغة المضي في قوله ﴿ طعموا ﴾ تعيّن أن يكون ﴿ إذا ﴾ ظرفاً للماضي ، وذلك على أصحّ القولين للنحاة ، وإن كان المشهور أنّ (إذا) ظرف للمستقبل ، والحقّ أنّ (إذا) تقع ظرفاً للماضي .

وهو الذي اختاره ابن مالك ودرج عليه ابن هشام في "مغني اللبيب" .

وشاهده قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ [التوبة : 92] ، وقوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ [الجمعة : 11] ، وآيات كثيرة .

فالمعنى لا جناح عليهم إذ كانوا آمنوا واتّقوا ، ويؤوّل معنى الكلام : ليس عليهم جناح لأنّهم آمنوا واتّقوا فيما كان محرّماً يومئذٍ وما تناولوا الخمر وأكلوا الميسر إلاّ قبل تحريمهما .

هذا تفسير الآية الجاري على ما اعتمده جمهور المفسّرين جارياً على ما ورد في من سبّب نزولها في الأحاديث الصحيحة .

ومن المفسّرين من جعل معنى الآية غير متّصل بآية تحريم الخمر والميسر .

وأحسب أنّهم لم يلاحظوا ما روي في سبب نزولها لأنّهم رأوا أنّ سبب نزولها لا يقصرها على قضيَّة السبب بل يُعمل بعموم لفظها على ما هو الحقّ في أنّ عموم اللفظ لا يخصّص بخصوص السبب ، فقالوا : رَفَع الله الجناح عن المؤمنين في أي شيء طعموه من مستلذّات المطاعم وحلالها ، إذا ما اتّقوا ما حَرّم الله عليهم ، أي ليس من البرّ حرمانُ النفس بتحريم الطيّبات بل البرّ هو التقوى ، فيكون من قبيل قوله تعالى : ﴿ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّ من اتّقى ﴾ [البقرة : 189] .

وفَسَّر به في "الكشاف" مبتدئاً به .

وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية متّصلاً بآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ﴾ ، فتكون استئنافاً ابتدائياً لمناسبة ما تقدّم من النهي عن أن يحرّموا على أنفسهم طيّباتِ ما أحلّ الله لهم بنذرٍ أو يمينٍ على الامتناع .

وادّعى بعضهم أنّ هذه الآية نزلت في القوم الذين حَرّموا على أنفسهم اللحوم وسلكوا طريق الترهّب .

ومنهم عثمان بن مظعون ، ولم يصحّ أنّ هذا سبب نزولها .

وعلى هذا التفسير يكون ﴿ طعِموا ﴾ مستعملاً في المعنى المشهور وهو الأكل ، وتكون كلمة (إذا) مستعملة في المستقبل ، وفعل ﴿ طعِموا ﴾ من التعْبير عن المستقبل بلفظ الماضي بقرينة كلمة (إذا) ، كما في قوله تعالى : ﴿ ثمّ إذَا دَعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم

تخرجون ﴾ [الروم : 25] .

ويعكّر على هذا التفسير أنّ الذين حرّموا الطيّبات على أنفسهم لم ينحصر تحريمهم في المطعوم والشراب بل يشمل اللباس والنساء ، اللهمّ إلاّ أن يقال : إنّ الكلام جرى على مراعاة الغالب في التحريم .

(187/213)

وقال الفخر : زعم بعض الجهّال أنّ الله تعالى لمّا جعل الخمر محرّمة عندما تكون موقعة للعداوة والبغضاء وصادّة عن ذكر الله وعن الصلاة بيّن في هذه الآية أنّه لا جناح على من طعِمها إذا لم يحصل معه شيء من تلك المفاسد ، بل حصل معه الطاعة والتقوى والإحسان إلى الخلق ، ولا يمكن حمله على أحوال من شرب الخمر قبل نزول آية التحريم لأنّه لو كان ذلك لقال ما كان جناح على الذين طعموا ، كما ذكر في آية تحويل القبلة ، فقال ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] ولا شكّ أنّ (إذا) للمستقبل لا للماضي .

قال الفخر : وهذا القول مردود بإجماع كلّ الأمّة .

وأمّا قولهم (إذا) للمستقبل ، فجوابه أنّ الحلّ للمستقبل عن وقت نزول الآية في حقّ الغائبين .

والتقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، ولذلك فعطْف ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ على ﴿ اتَّقَوْا ﴾ من عطل الخاصّ على العامّ ، للاهتمام به ، كقوله تعالى : ﴿ مَن كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائل ﴾ ، ولأنّ اجتناب المنهيات أسبق تبادرا إلى الأفهام في لفظ التقوى لأنّها مشتقّة من التوقّي والكفّ .

وأمّا عطف ﴿ وآمَنُوا ﴾ على ﴿ اتّقوا ﴾ فهو اعتراض للإشارة إلى أنّ الإيمان هو أصل التقوى ، كقوله تعالى ﴿ فَكّ رقبةٍ أو أطعام ﴾ إلى قوله ثُمّ كان من الذين آمنوا .

والمقصود من هذا الظرف الذي هو كالشرط مجردّ التنويه بالتقوى والإيمانِ والعملِ الصالح ، وليس المقصود أنّ نفي الجناح عنهم قيَّد بأن يتّقوا ويؤمنوا ويعملوا الصالحات ، للعلم بأنّ لكلّ عمل أثراً على فِعْله أو على تركه ، وإذ قد كانوا مؤمنين من قبلُ ، وكان الإيمان عَقداً عقلياً لا يقبَل التجدّد تعيّن أنّ المراد بقوله : ﴿ وآمنوا ﴾ معنى ودَاموا على الإيمان ولم ينقضوه بالكفر .

(188/213)

وجملة ﴿ ثمّ اتَّقوا وآمنوا ﴾ تأكيد لفظي لجملة ﴿ إذا ما اتّقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وقُرن بحرف ﴿ ثمّ ﴾ الدالّ على التراخي الرتبي ليكون إيماءاً إلى الازدياد في التقوى

وآثارِ الإيمان ، كالتأكيد في قوله تعالى : ﴿ كلاّ سيعلمون ثمّ كلاّ سيعلمون ﴾ [النبأ : 4 ، 5] ولذلك لم يكرّر قوله : ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ لأنّ عمل الصالحات مشمول للتقوى .

وأمّا جملة ﴿ ثمّ اتّقوا وأحسنوا ﴾ فتفيد تأكيداً لفظياً لجملة ﴿ ثمّ اتّقوا ﴾ وتفيد الارتقاء في التقوء بدلالة حرف ﴿ ثمّ ﴾ على التراخي الرتبي .

مع زيادة صفة الإحسان .

وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم الإحيان بقوله : " أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك " وهذا يتضمَّن الإيمان لا محالة فلذلك استغني عن إعادة ﴿ وآمنوا ﴾ هنا .

ويشمل فعل ﴿ وأحسنوا ﴾ الإحسانَ إلى المسلمين ، وهو زائد على التقوى ، لأنّ منه إحساناً غير واجب وهو ممّا يَجلب مرضاة الله ، ولذلك ذيّله بقوله : ﴿ والله يحبّ المحسنين ﴾ .

وقد ذهب المفسّرون في تأويل التكرير الواقع في هذه الآية طرائق مختلفة لا دلائل عليها في نظم الآية ، ومرجعها جعل التكرير في قوله : ﴿ ثمّ اتّقوا ﴾ على معنى تغاير التقوى والإيمان باختلاف الزمان أو باختلاف الأحوال .

وذهب بعضهم في تأويل قوله تعالى ﴿ إذا ما اتّقوا ﴾ وما عطف عليه إلى وجوه نشأت عن حمله على معنى التقييد لنفي الجناح بحصول المشروط .

وفي جلبها طول .

وقد تقدّم أنّ بعضاً من السلف تأوّل هذه الآية على معنى الرخصة في شرب الخمر لمن اتّقى الله فيما عدّ ، ولم يكن الخمر وسيلة له إلى المحرّمات ، ولا إلى إضرار الناس .

وينسب هذا إلى قدامة بن مظعون ، كما تقدّم في تفسير آية تحريم الخمر : وأنّ عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب لم يقبلاه منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(189/213)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) (2 : 219) أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْخَمْرَ بِالتَّدْرِيجِ ، وَصَدَّرْنَا الْكَلَامَ هُنَاكَ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي ذَلِكَ ، كَمَا رَوَاهُ السُّيُوطِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ مُخْتَصَرًا ، وَرُوِيَ فِي سَبَبِ نُزُولِ آيَاتِ الْمَائِدَةِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ : " فِيَّ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ صَنَعَ رَجُلٌ

مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا فَدَعَانَا فَأَتَاهُ نَاسٌ فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا حَتَّى انْتَشَوْا مِنَ الْخَمْرِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ فَتَفَاخَرُوا فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : الْأَنْصَارُ خَيْرٌ ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ : قُرَيْشٌ خَيْرٌ ، فَأَهْوَى رَجُلٌ بِلَحْيِ جَزُورٍ فَضَرَبَ عَلَى أَنْفِي فَفَزَرَهُ فَكَانَ سَعْدٌ مَفْزُورَ الْأَنْفِ قَالَ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) الْآيَةَ ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَابْنُ النَّحَّاسِ فِي نَاسِخِهِ ، وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ عَنْهُ " أَنَّهُ نَادَمَ رَجُلًا فَعَارَضَهُ فَعَرْبَدَ عَلَيْهِ فَشَجَّهُ فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ فِي ذَلِكَ " .

(190/213)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّمَا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ فِي قَبِيلَتَيْنِ مِنْ قَبَائِلِ الْأَنْصَارِ شَرِبُوا فَلَمَّا أَنْ ثَمِلَ الْقَوْمُ عَبَثَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، فَلَمَّا أَنْ صَحَوْا جَعَلَ يَرَى الرَّجُلُ مِنْهُمُ الْأَثَرَ بِوَجْهِهِ وَبِرَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ ، فَيَقُولُ : صَنَعَ بِي هَذَا أَخِي فُلَانٌ وَكَانُوا إِخْوَةً لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ضَغَائِنُ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ رَءُوفًا رَحِيمًا مَا صَنَعَ بِي هَذَا ، حَتَّى وَقَعَتِ الضَّغَائِنُ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) إِلَى قَوْلِهِ (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) فَقَالَ نَاسٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ : هِيَ رِجْسٌ وَهِيَ فِي بَطْنِ فُلَانٍ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَفِي بَطْنِ فُلَانٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ :

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا) الْآيَةَ ، رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ .

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى : " اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا ، فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْبَقَرَةِ قَرَأَهَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَظَلَّ عَلَى دُعَائِهِ ، وَكَذَلِكَ لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ النِّسَاءِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْمَائِدَةِ دُعِيَ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) قَالَ : انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا " .

(191/213)

وَالْحِكْمَةُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ بِالتَّدْرِيجِ : أَنَّ النَّاسَ كَانُوا مَفْتُونِينَ بِهَا حَتَّى إنَّهَا لَوْ حُرِّمَتْ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ لَكَانَ تَحْرِيمُهَا صَارِفًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُدْمِنِينَ لَهَا عَنِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ عَنِ النَّظَرِ الصَّحِيحِ الْمُؤَدِّي إلَى الِاهْتِدَاءِ بِهِ ، لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ يَنْظُرُونَ إلَيْهِ بِعَيْنِ السُّخْطِ فَيَرَوْنَهُ بِغَيْرِ صُورَتِهِ الْجَمِيلَةِ ، فَكَانَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ وَبَالِغِ حِكْمَتِهِ أَنْ ذَكَرَهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِهَا دَلَالَةً ظَنِّيَّةً فِيهَا مَجَالٌ لِلِاجْتِهَادِ ، لِيَتْرُكَهَا مَنْ لَمْ تَتَمَكَّنْ فِتْنَتُهَا مِنْ نَفْسِهِ ، (رَاجِعْ ص255 270ج2ط الْهَيْئَةِ) ، وَذَكَرَهَا فِي سُورَةِ النِّسَاءِ بِمَا يَقْتَضِي تَحْرِيمَهَا فِي الْأَوْقَاتِ الْقَرِيبَةِ مِنْ وَقْتِ الصَّلَاةِ ، إذْ نَهَى عَنْ قُرْبِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ ، فَلَمْ يَبْقَ لِلْمُصِرِّ

عَلَى شُرْبِهَا إِلَّا الِاغْتِبَاقُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَضَرَرُهُ قَلِيلٌ ، وَكَذَا الصَّبُوحُ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْفَجْرِ لِمَنْ لَا عَمَلَ لَهُ وَلَا يَخْشَى أَنْ يَمْتَدَّ سُكْرُهُ إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، وَكَانَ شَيْخُنَا يَرَى أَنَّ آيَةَ النِّسَاءِ نَزَلَتْ قَبْلَ آيَةِ الْبَقَرَةِ ، ثُمَّ تَرَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْحَالِ زَمَنًا قَوِيَ فِيهِ الدِّينُ ، وَرَسَخَ الْيَقِينُ ، وَكَثُرَتِ الْوَقَائِعُ الَّتِي ظَهَرَ لَهُمْ بِهَا إِثْمُ الْخَمْرِ وَضَرَرُهَا ، وَمِنْهُ كُلُّ مَا ذُكِرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ .

(192/213)

أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : لِمَا نَزَلَتْ فِي الْبَقَرَةِ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) (2 : 219) شَرِبَهَا قَوْمٌ لِقَوْلِهِ : (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) وَتَرَكَهَا قَوْمٌ لِقَوْلِهِ : (إِثْمٌ كَبِيرٌ) مِنْهُمْ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ ، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النِّسَاءِ (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) (4 : 43) فَتَرَكَهَا قَوْمٌ وَشَرِبَهَا قَوْمٌ يَتْرُكُونَهَا بِالنَّهَارِ حِينَ الصَّلَاةِ وَيَشْرَبُونَهَا بِاللَّيْلِ ، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) الْآيَةَ قَالَ عُمَرُ : " أَقُرِنَتَ بِالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ ؟ بُعْدًا لَكِ وَسُحْقًا ، فَتَرَكَهَا النَّاسُ ، وَوَقَعَ فِي صُدُورِ أُنَاسٍ مِنَ النَّاسِ مِنْهَا ، فَجَعَلَ قَوْمٌ يَمُرُّ بِالرِّوَايَةِ مِنَ الْخَمْرِ فَتُخْرَقُ فَيَمُرُّ بِهَا أَصْحَابُهَا فَيَقُولُونَ : قَدْ كُنَّا نُكْرِمُكِ عَنْ هَذَا الْمَصْرَعِ ، وَقَالُوا : مَا حُرِّمَ عَلَيْنَا شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْخَمْرِ

حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَلْقَى صَاحِبَهُ فَيَقُولُ : إِنَّ فِي نَفْسِي شَيْئًا ، فَيَقُولُ صَاحِبُهُ : لَعَلَّكَ تَذْكُرُ الْخَمْرَ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : إِنَّ فِي نَفْسِي مِثْلَ مَا فِي نَفْسِكَ ، حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ قَوْمٌ وَاجْتَمَعُوا فِيهِ ، فَقَالُوا : كَيْفَ نَتَكَلَّمُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدٌ (أَيْ حَاضِرٌ) وَخَافُوا أَنْ يَنْزِلَ فِيهِمْ (أَيْ قُرْآنٌ) فَأَتَوْا رَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أَعَدُّوا لَهُ حُجَّةً فَقَالُوا : أَرَأَيْتَ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

(193/213)

وَمُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ جَحْشٍ أَلَيْسُوا فِي الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالُوا : أَلَيْسُوا قَدْ مَضَوْا وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ ؟ فَحُرِّمَ عَلَيْنَا شَيْءٌ دَخَلُوا الْجَنَّةَ وَهُمْ يَشْرَبُونَهُ ؟ فَقَالَ : قَدْ سَمِعَ اللهُ مَا قُلْتُمْ فَإِنْ شَاءَ أَجَابَكَ فَأَنْزَلَ اللهُ : (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) فَقَالُوا : انْتَهَيْنَا ، وَنَزَلَ فِي الَّذِينَ ذَكَرُوا حَمْزَةَ وَأَصْحَابَهُ (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا) الْآيَةَ ، وَلِأَصْحَابِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ رِوَايَاتٌ أُخْرَى فِي سَبَبِ النُّزُولِ وَمَا كَانَ مِنَ اجْتِهَادِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ فِي آيَتَيِ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ وَمِنْهُ حَدِيثٌ لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَآثَارٌ سَيَأْتِي بَعْضُهَا فِي سِيَاقِ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)
الْخَمْرُ كُلُّ شَرَابٍ مُسْكِرٍ ، وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ لُغَوِيَّةٌ وَشَرْعِيَّةٌ ، وَقِيلَ : شَرْعِيَّةٌ فَقَطْ

وَهُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ وَقِيلَ : إنَّ الْخَمْرَ مَا اعْتُصِرَ مِنْ مَاءِ الْعِنَبِ إذَا اشْتَدَّ ، وَهَذَا أَضْعَفُ مِمَّا قَبْلَهُ وَلَا دَلِيلَ عَلَى هَذَا الْعَصْرِ مِنَ اللُّغَةِ وَلَا مِنَ الشَّرْعِ وَقَدْ بَيَّنَا ذَلِكَ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ (رَاجِعْ ص 257 وَمَا بَعْدَهَا ج2ط الْهَيْئَةِ) .

(194/213)

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا رَدَّ بِهِ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ وَأَخْصَرِهِ قَوْلُ الْقُرْطُبِيِّ : الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ عَنْ أَنَسٍ وَغَيْرِهِ عَلَى صِحَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا تُبْطِلُ مَذْهَبَ الْكُوفِيِّينَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْخَمْرَ لَا يَكُونُ إلَّا مِنَ الْعِنَبِ ، وَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِهِ لَا يُسَمَّى خَمْرًا وَلَا يَتَنَاوَلُهُ اسْمُ الْخَمْرِ لَا يَكُونُ إلَّا مِنَ الْعِنَبِ ، وَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِهِ لَا يُسَمَّى خَمْرًا وَلَا يَتَنَاوَلُهُ اسْمُ الْخَمْرِ . وَهُوَ قَوْلٌ مُخَالِفٌ لِلُغَةِ الْعَرَبِ وَلِلسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ وَلِلصَّحَابَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ فَهِمُوا مِنَ الْأَمْرِ بِالِاجْتِنَابِ تَحْرِيمَ كُلِّ مَا يُسْكِرُ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ مَا يُتَّخَذُ مِنَ الْعِنَبِ وَبَيْنَ مَا يُتَّخَذُ مِنْ غَيْرِهِ ، بَلْ سَوَّوْا بَيْنَهُمَا وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا يُسْكِرُ نَوْعُهُ ، وَلَمْ يَتَوَقَّفُوا وَلَمْ يَسْتَفْصِلُوا وَلَمْ يَشْكُلْ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ بَادَرُوا

إلى إتْلَافِ مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ عَصِيرِ الْعِنَبِ ، وَهُمْ أَهْلُ اللِّسَانِ ، وَبِلُغَتِهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ ، فَلَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ تَرَدُّدٌ لَتَوَقَّفُوا عَنِ الْإِرَاقَةِ حَتَّى يَسْتَفْصِلُوا وَيَتَحَقَّقُوا التَّحْرِيمَ ، وَقَدْ أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مِنَ الْحِنْطَةِ خَمْرٌ وَمِنَ الشَّعِيرِ خَمْرٌ ، وَمِنَ التَّمْرِ خَمْرٌ وَمِنَ الزَّبِيبِ خَمْرٌ وَمِنَ الْعَسَلِ خَمْرٌ " وَرَوَى أَيْضًا " أَنَّهُ خَطَبَ عُمَرُ عَلَى الْمِنْبَرِ وَقَالَ : أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ وَهِيَ مِنْ خَمْسَةٍ ، مِنَ الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ

(195/213)

وَالْعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ، وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ " وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا وَهُوَ (أَيْ عُمَرَ) مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ اهـ .

وَقَدْ تَعَقَّبَ هَذَا بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِلِاسْمِ الشَّرْعِيِّ لَا اللُّغَوِيِّ ، وَهَذَا التَّعْقِيبُ ضَعِيفٌ لَا يُغْنِي عَنِ الْحَقِيقَةِ شَيْئًا ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ إِنَّ الْمُسْكِرَ مِنْ غَيْرِ عَصِيرِ الْعِنَبِ خَمْرٌ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ الْآيَةِ شَرْعًا ، وَوَجْهُ ضَعْفِهِ أَنَّ لَفْظَ الْخَمْرِ لَيْسَ اسْمًا لِعَمَلٍ شَرْعِيٍّ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا قَبْلَ الشَّرْعِ فَلَمَّا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ أَطْلَقَ عَلَيْهِ كَلِمَةً مِنَ اللُّغَةِ تَنَاوَلَهُ بِطَرِيقِ الْمَجَازِ بَلْ هُوَ اسْمٌ لِنَوْعٍ مِنَ الشَّرَابِ يَمْتَازُ عَنْ سَائِرِ الْأَشْرِبَةِ بِالْإِسْكَارِ وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ مَعْرُوفَةٌ عَنْهُمْ قَبْلَ نُزُولِ مَا نَزَلَ مِنْ آيَاتِ الْخَمْرِ ، وَقَدْ نَزَلَتْ آيَةُ الْبَقَرَةِ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ سَأَلُوهُ عَنِ الْخَمْرِ ،

وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ وَلَا الْخَلَفِ وَلَا خَطَرَ عَلَى بَالِ أَحَدٍ أَنَّهُ سَأَلُوهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ خَمْرِ عَصِيرِ الْعِنَبِ خَاصَّةً وَأَنَّهَا هِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالْجَوَابِ بِأَنَّ فِيهَا إثْمًا كَبِيرًا وَمَنَافِعَ لِلنَّاسِ ، وَأَنَّ غَيْرَهَا أُلْحِقَ بِهَا فِي التَّحْرِيمِ

بِطَرِيقِ الْقِيَاسِ أَوْ تَفْسِيرِ النَّبِيِّ وَالصَّحَابَةِ لِلْخَمْرِ الشَّرْعِيَّةِ .

(196/213)

وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا أَوْرَدْنَاهُ آنِفًا مِنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ أَنَّهُ لَمْ يَشُقَّ عَلَيْهِمْ تَحْرِيمُ شَيْءٍ كَمَا شَقَّ عَلَيْهِمْ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَوَدُّ لَوْ يَجِدُ مَخْرَجًا مِنْ تَحْرِيمِهَا كَمَا وُجِدَ الْمَخْرَجُ مِنْ آيَةِ الْبَقَرَةِ الدَّالِّ عَلَى تَحْرِيمِ الْخَمْرِ بِتَسْمِيَتِهَا إثْمًا مَعَ تَصْرِيحِ الْقُرْآنِ قَبْلَ ذَلِكَ بِتَحْرِيمِ الْإِثْمِ ، وَلِأَجْلِهِ تَرَكَهَا بَعْضُهُمْ وَتَفَصَّى مِنْهُ آخَرُونَ بِتَخْصِيصِ الْإِثْمِ بِمَا كَانَ ضَرَرًا مَحْضًا لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ وَالنَّصُّ قَدْ أَثْبَتَ أَنَّ فِي الْخَمْرِ مَنَافِعَ ، وَقَدْ أَهْرَقُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْخَمْرِ عِنْدَ الْجَزْمِ بِالنَّهْيِ عَنْهَا كَمَا رَأَيْتَ وَكَمَا تَرَى بَعْدُ ، وَقَلَّمَا كَانَ يُوجَدُ عِنْدَهُمْ مِنْ خَمْرِ الْعِنَبِ شَيْءٌ ، فَلَوْ كَانَ مُسَمَّى الْخَمْرِ فِي لُغَتِهِمْ مَا كَانَ سُكْرًا مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ فَقَطْ لَمَا بَادَرُوا إلَى إهْرَاقِ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ .

(197/213)

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : " نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَإِنَّ بِالْمَدِينَةِ يَوْمَئِذٍ لَخَمْسَةَ أَشْرِبَةٍ ، مَا فِيهَا مِنْ شَرَابِ الْعِنَبِ شَيْءٌ " وَرَوَى أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ : "كُنْتُ أَسْقِي أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ وَسُهَيْلَ بْنَ بَيْضَاءَ وَنَفَرًا مِنْ أَصْحَابِهِ عِنْدَ أَبِي طَلْحَةَ (هو زَوْجُ أُمِّ أَنَسٍ) حَتَّى كَادَ الشَّرَابُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ فَأَتَى آتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : أَمَا شَعَرْتُمْ أَنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ؟ فَقَالُوا : حَتَّى نَنْظُرَ وَنَسْأَلَ ، فَقَالُوا : يَا أَنَسُ اسْكُبْ مَا بَقِيَ فِي إِنَائِكَ ، فَوَاللهِ مَا عَادُوا فِيهَا ، وَمَا هِيَ إِلَّا التَّمْرُ وَالْبُسْرُ ، وَهِيَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ " هَذَا لَفْظُ أَحْمَدَ ، وَزَادَ أَنَسٌ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : " أَبَا دُجَانَةَ وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ فِي رَهْطٍ مِنَ الْأَنْصَارِ " وَفِي رِوَايَةِ الصَّحِيحَيْنِ : " أَنَّهُ كَانَ يَسْقِيهِمُ الْفَضِيخَ ، وَهُوَ شَرَابُ الْبُسْرِ وَالتَّمْرِ يُفْضَخَانِ أَيْ يُشْدَخَانِ وَيُنْبَذَانِ فِي الْمَاءِ ، فَإِذَا اشْتَدَّ وَاخْتَمَرَ كَانَ خَمْرًا وَكَانَ هَذَا أَكْثَرَ خَمْرِ الْمَدِينَةِ ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ أَنَسٌ ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْهُ "كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ يَوْمَ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ فِي بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ وَمَا شَرَابُهُمْ إِلَّا الْفَضِيخَ – الْبُسْرَ وَالتَّمْرَ – فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي ، فَقَالَ : اخْرُجْ فَانْظُرْ ، فَخَرَجْتُ فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي : أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ قَالَ : فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : اخْرُجْ

فَأَهْرِقْهَا ، فَهَرَقْتُهَا " الْحَدِيثَ .

نَعَمْ قَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا " حُرِّمَتِ الْخَمْرُ قَلِيلُهَا وَكَثِيرُهَا وَالْمُسْكِرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ " وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي وَصْلِهِ وَانْقِطَاعِهِ وَفِي رَفْعِهِ وَوَقْفِهِ ، وَبَيَّنَ النَّسَائِيُّ عِلَلَهُ وَمَنْ خَالَفَ فِيهِ ، وَمَعْنَاهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ وَالِاحْتِجَاجِ بِهِ أَنَّ الْأَشْرِبَةَ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يُسْكِرَ قَلِيلُهَا وَكَثِيرُهَا مُحَرَّمَةٌ لِذَاتِهَا بِالنَّصِّ ، سَوَاءٌ كَانَتْ مِنَ الْعِنَبِ أَوِ الزَّبِيبِ أَوِ التَّمْرِ أَوِ الْبُسْرِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَمَّا سَائِرُ الْأَشْرِبَةِ الَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا الْإِسْكَارُ كَالنَّبِيذِ الَّذِي لَمْ يَشْتَدَّ وَلَمْ يُخَمَّرْ ، وَهُوَ مَا يُنْبَذُ مِنْ تَمْرٍ أَوْ زَبِيبٍ أَوْ غَيْرِهِمَا فِي الْمَاءِ حَتَّى يَنْضَجَ وَيَحْلُوَ مَاؤُهُ فَشُرْبُهُ حَلَالٌ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الْإِسْكَارِ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَنْبِذَةَ يُسْرِعُ إِلَيْهَا الِاخْتِمَارُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ كَالْحَارَّةِ

(199/213)

وَبَعْضِ الْأَوَانِي : كَالْقَرْعِ وَالْمُزَفَّتِ ، وَأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْكَرُ بِهَا عِنْدَ أَدْنَى تَغَيُّرٍ يَعْرِضُ لَهَا ، أَوْ إِذَا أَكْثَرَ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ تَخْتَمِرْ ، وَلِأَجْلِ هَذَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي النَّبِيذِ ، فَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا صَارَ يُسْكِرُ الْكَثِيرُ مِنْهُ فَشُرْبُ الْقَلِيلِ مِنْهُ يَكُونُ حَرَامًا لِسَدِّ ذَرِيعَةِ السُّكْرِ ، وَهُوَ

إنَّمَا يُسْكِرُ كَثِيرُهُ إذَا تَغَيَّرَ وَلَوْ بِحُمُوضَةٍ قَلِيلَةٍ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلَى أَنَّهُ لَا يَحْرُمُ مِنْهُ حِينَئِذٍ إلَّا الْمِقْدَارُ الْمُسْكِرُ ، لِأَنَّهُ لَا يُسَمَّى خَمْرًا فَيَتَنَاوَلُهُ النَّصُّ ، فَإِذَا كَانَ مَا يُشْرَبُ مِنْهُ لَمْ يُسْكِرْ فَلَا وَجْهَ لِقِيَاسِهِ عَلَى الْخَمْرِ ، فَإِنْ صَارَ بِحَيْثُ يُسْكِرُ فَهُوَ خَمْرٌ لُغَةً وَشَرْعًا ، كَمَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ فَهْمِ الصَّحَابَةِ لِلْآيَةِ ، وَمِنْ تَعْلِيلِ عُمَرَ فِي خُطْبَتِهِ لِتَسْمِيَةِ الْخَمْرِ بِأَنَّهَا مَا خَامَرَ الْعَقْلَ ، أَوْ شَرْعًا فَقَطْ وَدَلَالَةُ الْحَقِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ أَقْوَى مِنْ دَلَالَةِ الْحَقِيقَةِ اللُّغَوِيَّةِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ" رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ وَالدَّارَقُطْنِيِّ "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ" .

(200/213)

وَقَدْ غَلِطَ ابْنُ سِيدَهْ فِي اقْتِصَارِهِ عَلَى قَوْلِ صَاحِبِ الْعَيْنِ : الْخَمْرُ عَصِيرُ الْعِنَبِ إذَا أَسْكَرَ ، وَلَعَلَّ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ خَمْرَ الْعِنَبِ كَانَتْ كَثِيرَةً فِي زَمَنِ تَدْوِينِ اللُّغَةِ ، فَظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْإِطْلَاقَ يَنْصَرِفُ إلَيْهَا لِكَثْرَتِهَا وَجَوْدَتِهَا ، وَنَقْلُ الصَّحِيحَيْنِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ بَيَانَ مَعْنَى الْخَمْرِ عَنِ الصَّحَابَةِ أَصَحُّ مِنْ نَقْلِ جَمِيعِ اللُّغَوِيِّينَ لِلُّغَةِ .

وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ مَنِ اطَّلَعَ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ عَلَى الْأَحَادِيثِ السَّابِقَةِ وَنَحْوِهَا تَفَصِّيًا مِنْهَا لِلِاتِّفَاقِ عَلَى

صِحَّةِ الْكَثِيرِ مِنْهَا حَمَلُوا إطْلَاقَ لَفْظِ الْخَمْرِ فِيهَا عَلَى الْمُسْكِرِ مِنْ غَيْرِ الْعِنَبِ عَلَى مَجَازِ التَّشْبِيهِ كَمَا فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ

(201/213)

عُمَرَ قَالَ : " لَقَدْ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ وَمَا بِالْمَدِينَةِ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ مُبْهَمَةٌ لَا يُعْرَفُ لِمَنْ قَالَهَا وَبِأَيِّ مُنَاسَبَةٍ قَالَهَا ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ النَّاسِ قَدْ ذَكَرَ خَمْرَ الْعِنَبِ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ مَا مَعْنَاهُ : إنَّ الْخَمْرَ لَمَّا حُرِّمَتْ لَمْ يَكُنْ يُوجَدُ فِي الْمَدِينَةِ شَيْءٌ مِنْ خَمْرِ الْعِنَبِ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ خُمُورُ أَهْلِهَا مِنَ التَّمْرِ وَالْبُسْرِ فِي الْغَالِبِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى كَلَامِهِ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْخَمْرَ وَلِأَجْلِ هَذَا لَا يُوجَدُ فِي الْمَدِينَةِ مِنْهَا شَيْءٌ بِهَذَا يُجْمَعُ بَيْنَ سَائِرِ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ الَّتِي تَقَدَّمَ بَعْضُهَا حَتَّى عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ وَإِلَّا كَانَتْ مُتَعَارِضَةً ، وَلَمَّا كَانَتِ الْعِبَارَةُ مُحْتَمِلَةً لِعِدَّةِ وُجُوهٍ سَقَطَ الِاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى مَا قَالُوهُ وَلَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا عَارَضَهَا بِحَمْلِ مَا خَالَفَهَا عَلَى الْمَجَازِ ، لِأَنَّ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ تَأْبَى أَنْ تَكُونَ تَشْبِيهًا كَقَوْلِ عُمَرَ فِي خُطْبَتِهِ : " وَنَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَهِيَ مِنْ خَمْسَةٍ الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ وَالْعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ " فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : نَزَلَ تَحْرِيمُ خَمْرَةِ الْعِنَبِ وَهِيَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ إلَخْ ؟ أَمْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : نَزَلَ تَحْرِيمُ مَا يُشْبِهُ الْخَمْرَ فِي

(202/213)

الْإِسْكَارِ وَهُوَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ : الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ ؟ إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ يَفْهَمُ الْعَرَبِيَّةَ وَإِنْ كَانَ يُجِيزُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ وَهُوَ مَا لَا يُجِيزُهُ الْحَنَفِيَّةُ .

أَطَلْنَا هَذِهِ الْإِطَالَةَ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الْخَمْرِ لِأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ فِي النَّاسِ مِنْ عَهْدٍ بَعِيدٍ مِصْدَاقُ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنِ اسْتِحْلَالِ أُنَاسٍ لِشُرْبِ الْخَمْرِ بِتَسْمِيَتِهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا ، وَقَدِ اخْتَرَعَ النَّاسُ بَعْدَ زَمَنِ التَّنْزِيلِ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنَ الْخُمُورِ أَشَدَّ مِنْ خَمْرِ الْعِنَبِ ضَرَرًا فِي الْجِسْمِ وَالْعَقْلِ بِاتِّفَاقِ الْأَطِبَّاءِ ، وَأَشَدَّ إِيقَاعًا فِي الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، وَصَدًّا عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ لَا يَحْرُمُ مِنْهَا قَطْعًا إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْرُمُ الْقَدْرُ الْمُسْكِرُ مِنْهُ فَقَطْ يُجَرِّئُ النَّاسَ عَلَى شُرْبِ الْقَلِيلِ مِنْ تِلْكَ السُّمُومِ الْمُهْلِكَةِ ، وَالْقَلِيلُ يَدْعُو إِلَى الْكَثِيرِ ، فَالْإِدْمَانِ فَالْإِهْلَاكِ ، فَفِي هَذَا الْقَوْلِ مَفْسَدَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلَيْسَ فِي تَضْعِيفِهِ وَتَرْجِيحِ قَوْلِ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَيْهِ إِلَّا الْمَصْلَحَةُ الرَّاجِحَةُ وَسَدُّ ذَرَائِعِ شُرُورٍ كَثِيرَةٍ .

(203/213)

وَأَمَّا الْمَيْسِرُ فَهُوَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْقِمَارُ بِالْقِدَاحِ فِي كُلِّ شَيْءٍ كَمَا نَقَلَ لِسَانُ الْعَرَبِ عَنْ عَطَاءٍ ثُمَّ غَلَبَ فِي كُلِّ مُقَامَرَةٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا الْأَقْوَالَ فِي اشْتِقَاقِهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ (ص 258 وَمَا بَعْدَهَا ج2ط الْهَيْئَةِ) وَبَيَّنَّا هُنَالِكَ مَعْنَى الْقِدَاحِ الَّتِي كَانُوا يَتَقَامَرُونَ بِهَا وَهِيَ الْأَزْلَامُ وَالْأَقْلَامُ وَالسِّهَامُ ، وَلِذَلِكَ عُدْنَا إلَى بَيَانِهَا وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْقِدَاحِ الْعَشْرِ الَّتِي يَتَقَامَرُونَ بِهَا وَبَيْنَ مَا كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهِ لِلتَّفَاؤُلِ وَالتَّشَاؤُمِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (ص 122 وَمَا بَعْدَهَا ج6ط الْهَيْئَةِ) .

(204/213)

كُلُّ قِمَارٍ مَيْسِرٌ مُحَرَّمٌ بِالنَّصِّ إلَّا مَا أَبَاحَهُ الشَّرْعُ مِنَ الْمُرَاهَنَةِ فِي السِّبَاقِ وَالرِّمَايَةِ ، وَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ : الشِّطْرَنْجُ مِنَ الْمَيْسِرِ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ عَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ أَوِ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ قَالُوا : كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْقِمَارِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ حَتَّى لَعِبُ الصِّبْيَانِ بِالْجَوْزِ ، وَرُوِيَ عَنْ رِشْدِينَ بْنِ سَعْدٍ وَضَمْرَةَ بْنِ حَبِيبٍ قَالَا : " حَتَّى الْكِعَابُ وَالْجَوْزُ وَالْبَيْضُ الَّتِي تَلْعَبُ بِهَا الصِّبْيَانُ " وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ : الْمَيْسِرُ هُوَ الْقِمَارُ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : الْمَيْسِرُ هُوَ الْقِمَارُ ، كَانُوا يَتَقَامَرُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إلَى مَجِيءِ الْإِسْلَامِ فَنَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْقَبِيحَةِ ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ : كَانَ

مَيْسِرُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بَيْعَ اللَّحْمِ بِالشَّاةِ وَالشَّاتَيْنِ (أَيْ مِنْ مَيْسِرِهِمْ) ذَكَرَ ذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ .

ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ " اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْكِعَابَ الْمَرْسُومَةَ الَّتِي يُزْجَرُ بِهَا زَجْرًا فَإِنَّهَا مِنَ الْمَيْسِرِ " وَقَالَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ وَفَسَّرَ الْكِعَابَ بِالنَّرْدِ ، وَأَقُولُ : الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ وَهُوَ مِنْ طَرِيقِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاتِكَةِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ ، وَعَلِيٌّ هَذَا ضَعِيفٌ وَضَعَّفُوا عُثْمَانَ فِي رِوَايَتِهِ عَنْهُ .

(205/213)

ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ الْأَسْلَمِيِّ " " مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي تَشْبِيهِ اللَّعِبِ بِهِ بِمَا ذُكِرَ أَنَّ الْمُقَامَرَةَ بِهِ كَالْمُقَامَرَةِ عَلَى لَحْمِ الْخِنْزِيرِ لَا عَلَى لَحْمِ الْأَنْعَامِ الَّذِي كَانَتِ الْعَرَبُ تُقَامِرُ عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَيَّدَ هَذَا بِحَدِيثِ أَبِي مُوسَى عِنْدَ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ وَأَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَهْ " مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ " وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا عَلَى أَبِي مُوسَى مِنْ قَوْلِهِ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ فِي الشِّطْرَنْجِ إِنَّهُ مِنَ النَّرْدِ وَأَنَّ عَلِيًّا قَالَ : إِنَّهُ مِنَ الْمَيْسِرِ قَالَ : وَنَصَّ عَلَى تَحْرِيمِهِ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَدُ وَكَرِهَهُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى :

أَقُولُ : إِنَّ مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَهُوَ الَّذِي بَيَّنَ لَنَا وَجْهَ مَا وَرَدَ فِي النَّرْدِ (وَهُوَ الْمُسَمَّى الْآنَ بِالطَّاوِلَةِ) مِنَ الْحَدِيثِ ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ لَعِبِ الْقِمَارِ ، وَيُؤَيِّدُهُ التَّشْبِيهُ الَّذِي بَيَّنَّا حِكْمَتَهُ فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَنْ حَرَّمَ الشِّطْرَنْجَ حَرَّمَهُ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ قِمَارًا ، وَمَنْ كَرِهَهُ لِكَوْنِهِ مَدْعَاةَ الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، لِأَنَّ أَكْثَرَ لَاعِبِيهِ يُفْرِطُونَ فِي الْإِكْثَارِ مِنْهُ ، وَسَنَزِيدُ الْمَسْأَلَةَ بَيَانًا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ التَّالِيَةِ .

(206/213)

وَأَمَّا الْأَنْصَابُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : هِيَ حِجَارَةٌ كَانُوا يَذْبَحُونَ قَرَابِينَهُمْ عِنْدَهَا ، ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ أَيْضًا ، وَرَوَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ (وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ) فِي أَوَّلِ السُّورَةِ (ص121 ، 123 ج6ط الْهَيْئَةِ) .

وَأَمَّا الْأَزْلَامُ فَهِيَ قِدَاحٌ أَيْ قِطَعٌ رَقِيقَةٌ مِنَ الْخَشَبِ بِهَيْئَةِ السِّهَامِ كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِأَجْلِ التَّفَاؤُلِ أَوِ التَّشَاؤُمِ ، وَقَدْ شَرَحْنَا مَعْنَاهَا وَطَرِيقَةَ الِاسْتِقْسَامِ بِهَا فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ (ص122 127 ج6ط الْهَيْئَةِ) وَبَيَّنَّا الْفَرْقَ بَيْنَ خُرَافَةِ الِاسْتِقْسَامِ وَسُنَّةِ الِاسْتِخَارَةِ فَيُرَاجَعُ هُنَالِكَ .

وَأَمَّا الرِّجْسُ فَهُوَ الْمُسْتَقْذَرُ حِسًّا أَوْ مَعْنًى ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الرِّجْسُ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِكُلِّ مَا اسْتُقْذِرَ مِنْ عَمَلٍ ، فَبَالَغَ اللَّهُ فِي ذَمِّ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ فَسَمَّاهَا رِجْسًا أَقُولُ : وَقَدْ ذُكِرَ فِي تِسْعِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعٌ يَظْهَرُ فِيهَا مَعْنَى الْقَذَارَةِ الْحِسِّيَّةِ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ) 6 : 145) قَوْلُهُ : (فَإِنَّهُ رِجْسٌ) عَائِدٌ إِلَى جَمِيعِ مَا ذُكِرَ ، أَيْ فَإِنَّ ذَلِكَ أَوْ مَا ذُكِرَ رِجْسٌ ، وَمِثْلُهُ : (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ 36 : 34 ، 35) ;

أَيْ مِنْ ثَمَرِ ذَلِكَ أَوْ مَا ذُكِرَ ، وَاسْتَشْهَدَ الزَّمَخْشَرِيُّ لِهَذَا الْأَخِيرِ بِقَوْلِ رُؤْبَةَ :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ . . . كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ .

وَذُكِرَ أَنَّ رُؤْبَةَ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : أَرَدْتُ كَأَنَّ ذَلِكَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِالرِّجْسِ أَنَّهُ قَذَرٌ مَعْنَوِيٌّ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ ضَارًّا وَمُحْتَقَرًا تَعَافُهُ الْأَنْفُسُ ، وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُهُمُ الرِّجْسَ فِي الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا بِالْمَأْثَمِ وَهُوَ مَا كَانَ ضَارًّا ، وَقَدْ بَيَّنَّا ضَرَرَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ عِدَّةِ وُجُوهٍ .

وَقَالَ الرَّاغِبُ : الرِّجْسُ الشَّيْءُ الْقَذِرُ ، يُقَالُ : رَجُلٌ رَجِسٌ ، وَرِجَالٌ أَرْجَاسٌ ، قَالَ تَعَالَى : (رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) وَالرِّجْسُ يَكُونُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ : إمَّا مِنْ حَيْثُ الطَّبْعِ ، وَإِمَّا مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ ، وَإِمَّا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ ، وَإِمَّا مِنْ كُلِّ ذَلِكَ كَالْمَيْتَةِ ، فَإِنَّ الْمَيْتَةَ تَعَافُ طَبْعًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا ، وَالرِّجْسُ مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ، وَقِيلَ : إنَّ ذَلِكَ رِجْسٌ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ ، وَعَلَى ذَلِكَ نَبَّهَ بِقَوْلِهِ : (وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) (2 : 219) لِأَنَّ كُلَّ مَا يُوفَّى إثْمُهُ عَلَى نَفْعِهِ فَالْعَقْلُ يَقْتَضِي تَجَنُّبَهُ ، وَجَعَلَ الْكَافِرِينَ رِجْسًا مِنْ حَيْثُ إنَّ الشِّرْكَ بِالْعَقْلِ أَقْبَحُ الْأَشْيَاءِ ، قَالَ تَعَالَى : (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلَى رِجْسِهِمْ) (9 : 125) إلَخْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) نَصٌّ فِي كَوْنِ الرِّجْسِ مَعْنَوِيًّا ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى جَمِيعِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) (22 : 30) وَكَانَتِ الْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ مِنْ لَوَازِمِ الْأَوْثَانِ وَأَمَّا رِجْسُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ فَبَيَانُهُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ .

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِالْآيَةِ عَلَى كَوْنِ الْخَمْرِ نَجِسَةَ الْعَيْنِ فَتَكَلَّفُوا كُلَّ التَّكَلُّفِ إِذْ زَعَمُوا أَنَّ (رِجْسٌ) خَبَرٌ عَنِ الْخَمْرِ وَخَبَرُ مَا عُطِفَ عَلَيْهَا مَحْذُوفٌ ، وَلَوْ سَلِمَ لَهُمْ هَذَا لَمَا كَانَ مُفِيدًا لِنَجَاسَةِ الْخَمْرِ نَجَاسَةً حِسِّيَّةً ، فَإِنَّ نَجِسَ الْعَيْنِ مَا كَانَ شَدِيدَ الْقَذَارَةِ كَالْبَوْلِ وَالْغَائِطِ ، وَالْخَمْرُ لَيْسَتْ قَذِرَةَ الْعَيْنِ ، وَالصَّوَابُ أَنَّ (رِجْسٌ) خَبَرٌ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ كَمَا قُلْنَا تَبَعًا لِلْجُمْهُورِ ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ إِلَى الْفَهْمِ مِنَ الْعِبَارَةِ ، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ فِي الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُبْتَدَأِ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ فِي الْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ يُوَافِقُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) وَأَمَّا إِفْرَادُهُ مَعَ كَوْنِهِ خَبَرًا عَنْ مُتَعَدِّدٍ فَلِأَنَّهُ مَصْدَرٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) (9 : 28) أَوْ لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ مُضَافًا تَقْدِيرُهُ أَنَّ تَعَاطِيَ مَا ذَكَرَهُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) تَفْسِيرٌ وَإِيضَاحٌ لِكَوْنِ مَا ذَكَرَ رِجْسًا ، وَمَعْنَى كَوْنِهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ أَنَّهَا مِنَ الْأَعْمَالِ

الَّتِي زَيَّنَ لِأَعْدَائِهِ

بَنِي آدَمَ ابْتِدَاعَهَا وَإِيجَادَهَا ، ثُمَّ هُوَ يُوَسْوِسُ لَهُمْ بِأَنْ يَعْكُفُوا عَلَيْهَا ، وَيُزَيِّنُهَا لَهُمْ لِمَا فِيهَا مِنْ شِدَّةِ الضَّرَرِ بِهِمْ .

(210/213)

(فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أَيْ فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَاجْتَنِبُوا هَذَا الرِّجْسَ كُلَّهُ أَوْ فَاجْتَنِبُوا مَا ذُكِرَ كُلَّهُ ، أَيِ ابْعُدُوا عَنْهُ وَكُونُوا فِي جَانِبٍ غَيْرِ الْجَانِبِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، رَجَاءَ أَنْ تُفْلِحُوا وَتَفُوزُوا بِمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ تَزْكِيَةِ أَنْفُسِكُمْ ، وَتَحْلِيَتِهَا ، بِذِكْرِ رَبِّكُمْ ، وَمُرَاعَاةِ سَلَامَةِ أَبْدَانِكُمْ وَالتَّوَادِّ وَالتَّآخِي فِيمَا بَيْنَكُمْ ، وَتَعَاطِي مَا ذَكَرَ يَصُدُّ عَنْ ذَلِكَ وَيَحُولُ دُونَهُ كَمَا بَيَّنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ :

(211/213)

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) بَيَّنَ حَظَّ الشَّيْطَانِ مِنَ النَّاسِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ دُونَ مَا قَرَنَ بِهِمَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنَ الْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ ، لِأَنَّ بَيَانَ تَحْرِيمِهِمَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ (أَيْ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْهَا) تَحْرِيمُ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَالِاسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ وَكَوْنُ ذَلِكَ فِسْقًا ، وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ تَرَكُوهُمَا ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ أَعْمَالِ

الْجَاهِلِيَّةِ وَخُرَافَاتِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَالْخِطَابُ هُنَا لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ طَهَّرَهُمُ التَّوْحِيدُ مِنْ خُرَافَاتِ الشِّرْكِ كُلِّهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ عِنْدَ نُزُولِ الْآيَةِ : " أَقُرِنْتِ بِالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ ؟ بُعْدًا لَكِ وَسُحْقًا ، فَعُلِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ذِكْرَ الْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ وَهُمَا مِنَ الْخُرَافَاتِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَلَزِمَهُمَا مَعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَهُمَا مِنَ الرَّذَائِلِ الْمَالِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ قَدْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ رِجْسِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ شَيْءٌ مِنْهُ بِأَهْلِ الْحَنِيفِيَّةِ .

(212/213)

وَالْعَدَاوَةُ ضَرْبٌ مِنَ التَّجَاوُزِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ مَعْنَى مَادَّةِ (عَدَا يَعْدُو) وَهُوَ تَجَاوُزُ الْحَقِّ إِلَى الْإِيذَاءِ ، قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ : وَالْعَادِي الظَّالِمُ ، يُقَالُ : لَا أَشْمَتَ اللَّهُ بِكَ عَادِيَكَ ، أَيْ عَدُوَّكَ الظَّالِمَ لَكَ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُ الْعَرَبِ فُلَانٌ عَدُوُّ فُلَانٍ : مَعْنَاهُ فُلَانٌ يَعْدُو عَلَى فُلَانٍ بِالْمَكْرُوهِ وَيَظْلِمُهُ اهـ . وَقَالُوا أَيْضًا : الْعَدُوُّ ضِدُّ الصَّدِيقِ وَضِدُّ الْوَلِيِّ أَيِ الْمُوَالِي ، فَعُلِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعَدَاوَةَ سَيِّئَةٌ عَمَلِيَّةٌ ، وَالْبَغْضَاءَ انْفِعَالٌ فِي الْقَلْبِ وَأَثَرٌ فِي النَّفْسِ فَهُوَ ضِدُّ الْمَحَبَّةِ ، فَالْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ يَجْتَمِعَانِ وَيُوجَدُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ .

أَمَّا كَوْنُ الْخَمْرِ سَبَبًا لِوُقُوعِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ ، حَتَّى الْأَصْدِقَاءِ مِنْهُمْ فَمَعْرُوفٌ وَشَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ ، وَعِلَّتُهُ أَنَّ شَارِبَ الْخَمْرِ يَسْكَرُ فَيَفْقِدُ الْعَقْلَ الَّذِي يَعْقِلُ الْإِنْسَانَ

أَيْ يَمْنَعُهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ الَّتِي تَسُوءُ النَّاسَ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِ حُبُّ الْفَخْرِ الْكَاذِبِ ، وَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْغَضَبُ بِالْبَاطِلِ ، وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ مُحِبِّي الْخَمْرِ عَلَى الِاجْتِمَاعِ لِلشُّرْبِ ، فَقَلَّمَا تَكُونُ رَذَائِلُهُمْ قَاصِرَةً عَلَيْهِمْ ، غَيْرَ مُتَعَدِّيَةٍ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَكَثِيرًا مَا تَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِ مَنْ يَشْرَبُ

(213/213)

مَعَهُمْ كَالْأَهْلِ وَالْجِيرَانِ ، وَالْخُلَطَاءِ وَالْعُشَرَاءِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَسْبَابِ نُزُولِ الْآيَاتِ بَعْضُ الشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ ، وَمِنْ أَغْرَبِ أَخْبَارِ شُذُوذِ السُّكْرِ الَّذِي يُفْضِي مِثْلُهُ عَادَةً إِلَى الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْهَرْجِ وَالْقِتَالِ ، حَدِيثُ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ مَعَ عَمِّهِ حَمْزَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وَمُلَخَّصُهُ " أَنَّهُ كَانَ لَهُ شَارِفَانِ (نَاقَتَانِ مُسِنَّتَانِ) أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ عَلَيْهِمَا الْإِذْخِرَ (نَبَاتٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ) مَعَ صَائِغٍ يَهُودِيٍّ وَيَبِيعَهُ لِلصَّوَّاغِينَ لِيَسْتَعِينَ بِثَمَنِهِ عَلَى وَلِيمَةِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عِنْدَ إِرَادَةِ الْبِنَاءِ بِهَا ، وَكَانَ عَمُّهُ حَمْزَةُ يَشْرَبُ الْخَمْرَ مَعَ بَعْضِ الْأَنْصَارِ وَمَعَهُ قَيْنَةٌ تُغَنِّيهِ فَأَنْشَدَتْ شِعْرًا حَثَّتْهُ بِهِ عَلَى نَحْرِ النَّاقَتَيْنِ وَأَخْذِ أَطَايِبِهِمَا لِيَأْكُلَ مِنْهَا الشَّرَبَ ، فَثَارَ حَمْزَةُ وَجَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا وَأَخَذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا ، فَلَمَّا رَأَى عَلِيٌّ ذَلِكَ تَأَلَّمَ ، وَلَمْ يَمْلِكْ عَيْنَيْهِ وَشَكَا حَمْزَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ عَلَى حَمْزَةَ وَمَعَهُ

عَلِيٌّ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَطَفِقَ يَلُومُهُ ، وَكَانَ حَمْزَةُ ثَمِلًا قَدِ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ : وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبِيدٌ لِأَبِي ؟ فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ثَمِلٌ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ الْقَهْقَرَى وَخَرَجَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ "

وَالْحَدِيثُ

(214/213)

فِي الصَّحِيحَيْنِ ، وَلَوْلَا حِلْمُ الرَّسُولِ وَعِصْمَتُهُ وَعَقْلُهُ وَأَدَبُ عَلِيٍّ وَفَضْلُهُ ، وَبَلَاءُ حَمْزَةَ فِي إِقَامَةِ الْإِسْلَامِ وَقُرْبُهُ لَمَا وَقَفَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ عِنْدَ الْحَدِّ الَّذِي وَقَفَتْ عِنْدَهُ .

وَإِنَّ حَوَادِثَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ الَّتِي يُثِيرُهَا السُّكْرُ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ وَالْعُدْوَانِ وَالسَّلْبِ ، وَالْفِسْقِ وَالْفُحْشِ ، وَمِنْ إِفْشَاءِ الْأَسْرَارِ ، وَهَتْكِ الْأَسْتَارِ ، وَخِيَانَةِ الْحُكُومَاتِ وَالْأَوْطَانِ ، قَدْ سَارَتْ بِأَخْبَارِهَا الرُّكْبَانُ ، وَمَا زَالَتْ حَدِيثَ النَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

وَأَمَّا الْمَيْسِرُ فَهُوَ مَثَارٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ أَيْضًا وَلَكِنْ بَيْنَ الْمُتَقَامِرِينَ ، فَإِنْ تَعَدَّاهُمْ فَإِلَى الشَّامِتِينَ وَالْعَائِبِينَ ، وَمَنْ تَضِيعُ عَلَيْهِمْ حُقُوقُهُمْ مِنَ الدَّائِنِينَ وَغَيْرِ الدَّائِنِينَ ، وَإِنَّ الْمُقَامِرَ لَيُفَرِّطُ فِي حُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَالزَّوْجِ وَالْوَلَدِ ، حَتَّى يُوشِكَ أَنْ يَمْقُتَهُ كُلُّ أَحَدٍ .

(215/213)

قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ : وَأَمَّا الْمَيْسِرُ فَفِيهِ إِيزَاءِ التَّوْسِعَةِ عَلَى الْمُحْتَاجِينَ الْإِجْحَافُ بِأَرْبَابِ الْأَمْوَالِ ، لِأَنَّ مَنْ صَارَ مَغْلُوبًا فِي الْقِمَارِ مَرَّةً دَعَاهُ ذَلِكَ إِلَى اللَّجَاجِ فِيهِ عَنْ رَجَاءِ أَنَّهُ رُبَّمَا صَارَ غَالِبًا فِيهِ ، وَقَدْ يَتَّفِقُ أَلَّا يَحْصُلَ لَهُ ذَلِكَ إِلَى أَلَّا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ ، وَإِلَى أَنْ يُقَامِرَ عَلَى لِحْيَتِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ! ! وَلَا شَكَّ أَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَصِيرُ فَقِيرًا مِسْكِينًا وَيَصِيرُ مِنْ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا غَالِبِينَ لَهُ ، اهـ .

وَأَمَّا كَوْنُ كُلٍّ مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ يَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ وَهُوَ مَفْسَدَتُهَا الدِّينِيَّةُ فَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كَوْنِهِمَا مَثَارًا لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَهُوَ مَفْسَدَتُهَا الِاجْتِمَاعِيَّةُ لِأَنَّ كُلَّ سَكْرَةٍ مِنْ سَكَرَاتِ الْخَمْرِ ، وَكُلَّ مَرَّةٍ مِنْ لَعِبِ الْقِمَارِ ، تَصُدُّ السَّكْرَانَ وَاللَّاعِبَ وَتَصْرِفُهُ

(216/213)

عَنْ ذِكْرِ اللهِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الدِّينِ ، وَعَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ عِمَادُ الدِّينِ ، إِذِ السَّكْرَانُ لَا عَقْلَ لَهُ يَذْكُرُ بِهِ آلَاءَ اللهِ وَآيَاتِهِ ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، أَوْ يُقِيمُ بِهِ الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ ذِكْرُ

اللهِ ، وَزِيَادَةُ أَعْمَالٍ تُؤَدِّي بِنِظَامٍ لِغَرَضٍ وَقَصْدٍ ، وَلَوْ ذَكَرَ السَّكْرَانُ رَبَّهُ ، وَحَاوَلَ الصَّلَاةَ لَمْ تَصِحَّ لَهُ ، وَالْمُقَامِرُ تَتَوَجَّهُ جَمِيعُ قُوَاهُ الْعَقْلِيَّةِ إِلَى اللَّعِبِ الَّذِي يَرْجُو مِنْهُ الرِّبْحَ وَيَخْشَى الْخَسَارَةَ فَلَا يَبْقَى لَهُ مِنْ نَفْسِهِ بَقِيَّةٌ يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى بِهَا ، أَوْ يَتَذَكَّرُ أَوْقَاتَ الصَّلَاةِ وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا ، وَلَعَلَّهُ لَا يُوجَدُ عَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ يَشْغَلُ الْقَلْبَ وَيَصْرِفُهُ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَيَحْصُرُ هَمَّهُ فِيهِ مِثْلَ هَذَا الْقِمَارِ ، حَتَّى إِنَّ الْمُقَامِرَ لَيَقَعُ الْحَرِيقُ فِي دَارِهِ وَتَنْزِلُ الْمَصَائِبُ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، وَيُسْتَصْرَخُ وَيُسْتَغَاثُ فَلَا يُصْرِخُ وَلَا يُغِيثُ ، بَلْ يَمْضِي فِي لَعِبِهِ ، وَيَكِلُ أَمْرَ الْحَرِيقِ إِلَى جُنْدِ الْإِطْفَاءِ ، وَأَمْرَ الْمُصَابِينَ مِنَ الْأَهْلِ إِلَى الْمُوَاسِينَ أَوِ الْأَطِبَّاءِ ، وَمَا زَالَ النَّاسُ يَتَنَاقَلُونَ النَّوَادِرَ فِي ذَلِكَ عَنِ الْمُقَامِرِينَ ، مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْمُعَاصِرِينَ .

(217/213)

عَلَى أَنَّ الْمُقَامِرَ إِذَا تَذَكَّرَ الصَّلَاةَ أَوْ ذَكَّرَهُ غَيْرُهُ بِهَا ، وَتَرَكَ اللَّعِبَ لِأَجْلِ أَدَائِهَا ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُؤَدِّي مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ الْبَدَنِيَّةَ بِدُونِ أَدْنَى تَدَبُّرٍ أَوْ خُشُوعٍ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعُودَ إِلَى اللَّعِبِ ، نَعَمْ إِنَّهُ قَدْ يَأْتِي بِأَفْعَالِ الصَّلَاةِ تَامَّةً فَيَفْضُلُ السَّكْرَانَ بِهَذَا إِذْ لَا يَكَادُ يَأْتِي مِنْهُ ضَبْطُ أَفْعَالِهَا ، وَلَكِنَّ السَّكْرَانَ قَدْ يَفْضُلُهُ بِأَعْمَالِ الْقَلْبِ وَالْخُشُوعِ وَلَوْ بِغَيْرِ عَقْلٍ ، فَكَمْ مِنْ سَكْرَانٍ يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى وَيَذْكُرُ ذُنُوبَهُ حَتَّى سُكْرَهُ وَيَبْكِي ، وَيَدْعُو

(218/213)

اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ ، لَقِيتُ مَرَّةً سَكْرَانًا فِي أَحَدِ شَوَارِعِ الْقَاهِرَةِ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ يُقَبِّلُ يَدِي وَيَبْكِي وَيَقُولُ : ادْعُ اللهَ لِي أَنْ يَتُوبَ عَلَيَّ مِنَ السُّكْرِ وَيَغْفِرَ لِي ، أَنْتَ ابْنُ الرَّسُولِ ، وَدُعَاؤُكَ مَقْبُولٌ ، وَأَمْثَالُ هَذَا الْكَلَامِ ، وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ صَلَاةَ السَّكْرَانِ لِأَنَّهُ لَا يَعْقِلُ مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ ، فَهُوَ بِالْأَوْلَى لَا يَقْبَلُ صَلَاةَ الْمُقَامِرِ الَّذِي يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَلْبُهُ مَشْغُولٌ عَنْهُ بِمَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَلَا يَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ ، وَلَا يَخْشَعُ لِلرَّحْمَنِ ، وَهُوَ عَاقِلٌ مُكَلَّفٌ قَادِرٌ عَلَى مُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ ، وَتَوْجِيهِهَا إِلَى مُرَاقَبَةِ رَبِّهِ وَلَا يُفِيدُ مِثْلَ هَذَا الْمُصَلِّي السَّاهِي عَنْ صَلَاتِهِ إِفْتَاءُ الْفُقَهَاءِ بِصِحَّتِهَا ، إِذَا كَمُلَتْ شُرُوطُهَا وَفُرُوضُهَا ، فَمَا كُلُّ صَحِيحٍ عِنْدَ عُلَمَاءِ الرُّسُومِ بِمَقْبُولٍ (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) (107 : 4 ، 5) .

(219/213)

قَدْ يُقَالُ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عِلَّتَيْنِ لِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ إِحْدَاهُمَا اجْتِمَاعِيَّةٌ وَالْأُخْرَى دِينِيَّةٌ تَصْدُقُ عَلَى الْأَلْعَابِ الَّتِي اشْتَدَّ وُلُوعُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ بِهَا ؛ كَالشِّطْرَنْجِ

فَالظَّاهِرُ أَنْ تُعَدَّ بِذَلِكَ مُحَرَّمَةً كَالْمَيْسِرِ ؛ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، وَإِنْ كَانَ اللَّعِبُ بِهَا عَلَى غَيْرِ مَالٍ ؟ قَالَ السَّيِّدُ الْآلُوسِيُّ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنْ تَفْسِيرِهِ (رُوحِ الْمَعَانِي) : وَقَدْ شَاهَدْنَا كَثِيرًا مِمَّنْ يَلْعَبُ بِالشِّطْرَنْجِ يَجْرِي بَيْنَهُمْ مِنَ اللَّجَاجِ الْحَلِفُ الْكَاذِبُ وَالْغَفْلَةُ عَنِ اللهِ تَعَالَى

وَمَا يَنْفِرُ مِنْهُ الْفِيلُ ، وَتَكْبُو لَهُ الْفَرَسُ وَيَصْحُو مِنْ هُمُومِهِ الرُّخُّ بَلْ يَتَسَاقَطُ رِيشُهُ ، وَيَحَارُ لِشَنَاعَتِهِ بَيْذَقُ الْفَهْمِ ، وَيَضْطَرِبُ فِرْزِينُ الْعَقْلِ ، وَيَمُوتُ شَاهُ الْقَلْبِ ، وَتَسْوَدُّ رُقْعَةُ الْأَعْمَالِ ، اهـ .

(220/213)

وَأَقُولُ : إِنَّ اللَّعِبَ بِالشِّطْرَنْجِ إِذَا كَانَ عَلَى مَالٍ دَخَلَ فِي عُمُومِ الْمَيْسِرِ وَكَانَ مُحَرَّمًا بِالنَّصِّ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَا وَجْهَ لِلْقَوْلِ بِتَحْرِيمِهِ قِيَاسًا عَلَى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ إِلَّا إِذَا تَحَقَّقَ فِيهِ كَوْنُهُ رِجْسًا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، مُوقِعًا فِي الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، صَادًّا عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، بِأَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَ مَنْ يَلْعَبُ بِهِ دَائِمًا أَوْ فِي الْغَالِبِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى إِثْبَاتِ هَذَا وَإِنَّنَا نَعْرِفُ مِنْ لَاعِبِي الشِّطْرَنْجِ مَنْ يُحَافِظُونَ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ وَيُنَزِّهُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ اللَّجَاجِ وَالْحَلِفِ الْبَاطِلِ ، وَأَمَّا الْغَفْلَةُ عَنِ اللهِ تَعَالَى فَلَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِ الشِّطْرَنْجِ وَحْدَهُ ، بَلْ

كُلِّ لَعِبٍ وَكُلِّ عَمَلٍ فَهُوَ يَشْغَلُ صَاحِبَهُ فِي أَثْنَائِهِ عَنِ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ فِيمَا عَدَاهُ إِلَّا قَلِيلًا ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ مُبَاحٌ وَمَا هُوَ مُسْتَحَبٌّ أَوْ وَاجِبٌ ، كَلَعِبِ الْخَيْلِ وَالسِّلَاحِ وَالْأَعْمَالِ الصِّنَاعِيَّةِ الَّتِي تُعَدُّ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ ، وَمِمَّا وَرَدَ النَّصُّ فِيهِ اللَّعِبُ; لَعِبُ الْحَبَشَةِ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَضْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا عِيبَ الشِّطْرَنْجُ مِنْ أَنَّهُ أَشَدُّ الْأَلْعَابِ إِغْرَاءً بِإِضَاعَةِ الْوَقْتِ الطَّوِيلِ ، وَلَعَلَّ الشَّافِعِيَّ كَرِهَهُ لِأَجْلِ هَذَا ، وَنَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي عَافَانَا مِنَ اللَّعِبِ بِهِ وَبِغَيْرِهِ ، كَمَا نَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا أَنْ عَافَانَا مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ ، بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ .

(221/213)

وَلَمَّا بَيَّنَ جَلَّ جَلَالُهُ عِلَّةَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَحِكْمَتَهُ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ : (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) فَهَذَا اسْتِفْهَامٌ يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ بِالِانْتِهَاءِ ، قَالَ الْكَشَّافُ : مِنْ أَبْلَغِ مَا يُنْهَى بِهِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ قَبْلُ قَدْ تُلِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الصَّوَارِفِ وَالْمَوَانِعِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مَعَ هَذِهِ الصَّوَارِفِ مُنْتَهُونَ أَمْ أَنْتُمْ عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كَأَنْ لَمْ تُوعَظُوا وَلَمْ تُزْجَرُوا ؟ .

قَالَ هَذَا بَعْدَ بَيَانِ مَا أَكَّدَ اللَّهُ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ سَبْعَةِ وُجُوهٍ وَتَبِعَهُ فِي ذَلِكَ الرَّازِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَنَحْنُ نُبَيِّنُ الْمُؤَكِّدَاتِ بِأَوْضَحَ مِمَّا بَيَّنُوهَا بِهِ وَأَوْسَعَ فَنَقُولُ :

(أَحَدُهَا) أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ رِجْسًا ، وَكَلِمَةُ الرِّجْسِ تَدُلُّ عَلَى مُنْتَهَى الْقُبْحِ وَالْخُبْثِ ، وَلِذَلِكَ أُطْلِقَتْ عَلَى الْأَوْثَانِ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَهِيَ أَسْوَأُ مَفْهُومًا مِنْ كَلِمَةِ الْخَبِيثِ وَقَدْ عُلِمَ مِنْ عِدَّةِ آيَاتٍ أَنَّ اللهَ أَحَلَّ الطَّيِّبَاتِ وَحَرَّمَ الْخَبَائِثَ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " الْخَمْرُ أُمُّ الْخَبَائِثِ " رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ وَقَالَ : " الْخَمْرُ أُمُّ الْفَوَاحِشِ وَأَكْبَرُ الْكَبَائِرِ " وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ تَرَكَ الصَّلَاةَ وَوَقَعَ عَلَى أُمِّهِ وَخَالَتِهِ وَعَمَّتِهِ " رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ وَكَذَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِلَفْظِ " مَنْ شَرِبَهَا وَقَعَ عَلَى أُمِّهِ " إلَخْ ، وَلَيْسَ فِيهِ تَرْكُ الصَّلَاةِ ، وَقَدْ عَلَّمَ السُّيُوطِيُّ عَلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي جَامِعِهِ بِالصِّحَّةِ .

(ثَانِيهَا) أَنَّهُ صَدَّرَ الْجُمْلَةَ : بِـ (إنَّمَا) الدَّالَّةِ عَلَى الْحَصْرِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ذَمِّهَا ، كَأَنَّهُ قَالَ : لَيْسَتِ الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ إلَّا رِجْسًا فَلَا خَيْرَ فِيهَا الْبَتَّةَ .

(ثَالِثُهَا) أَنَّهُ قَرَنَهَا بِالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْمَالِ الْوَثَنِيَّةِ وَخُرَافَاتِ الشِّرْكِ وَقَدْ أَوْرَدَ الْمُفَسِّرُونَ هُنَا حَدِيثَ " مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ " رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي سَنَدِهِ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَصْبَهَانِيُّ صَدُوقٌ يُخْطِئُ ، ضَعَّفَهُ النَّسَائِيُّ .

(223/213)

(رَابِعُهَا) أَنَّهُ جَعَلَهُمَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُمَا مِنَ الشُّرُورِ وَالطُّغْيَانُ وَهَلْ يَكُونُ عَمَلُ الشَّيْطَانِ إلَّا مُوجِبًا لِسَخَطِ الرَّحْمَنِ .

(خَامِسُهَا) أَنَّهُ جَعَلَ الْأَمْرَ بِتَرْكِهِمَا مِنْ مَادَّةِ الِاجْتِنَابِ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ التَّرْكِ ، لِأَنَّهُ يُفِيدُ الْأَمْرَ بِالتَّرْكِ مَعَ الْبُعْدِ عَنِ الْمَتْرُوكِ بِأَنْ يَكُونَ التَّارِكُ فِي جَانِبٍ بَعِيدٍ عَنْ جَانِبِ الْمَتْرُوكِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلِذَلِكَ نَرَى الْقُرْآنَ لَمْ يُعَبِّرْ بِالِاجْتِنَابِ إلَّا عَنْ تَرْكِ الشِّرْكِ وَالطَّاغُوتِ الَّذِي يَشْمَلُ الشِّرْكَ وَالْأَوْثَانَ وَسَائِرَ مَصَادِرِ الطُّغْيَانِ ، وَتَرْكِ الْكَبَائِرِ عَامَّةً ، وَقَوْلِ الزُّورِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَكْبَرِهَا ، قَالَ تَعَالَى : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) (22 : 30) وَقَالَ : (وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (16 : 36) كَمَا قَالَ : (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا) (39 : 17) وَقَالَ : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلَّا اللَّمَمَ) (53 : 32) .

(224/213)

(سَادِسُهَا) أَنَّهُ جَعَلَ اجْتِنَابَهُمَا مَعَدًّا لِلْفَلَاحِ، وَمَرْجَاةً لَهُ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ ارْتِكَابَهُمَا مِنَ الْخُسْرَانِ وَالْخَيْبَةِ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. (سَابِعُهَا) أَنَّهُ جَعَلَهُمَا مَثَارًا لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ، وَهُمَا شَرُّ الْمَفَاسِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمُتَعَدِّيَةِ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعَاصِي فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَنْفُسِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْخَمْرُ أُمَّ الْخَبَائِثِ وَأُمَّ الْفَوَاحِشِ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ امْرَأَةً فَاسِقَةً رَاوَدَتْ رَجُلًا صَالِحًا عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ فَسَقَتْهُ الْخَمْرَ فَزَنَى بِهَا، وَأَغْرَتْهُ بِالْقَتْلِ فَقَتَلَ، حَكَوْا هَذِهِ عَنْ بَعْضِ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ، وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْفُسَّاقِ فِي مِصْرَ: إِنَّهُ لَوْلَا السُّكْرُ لَقَلَّ أَنْ يُوجَدَ فِي النَّاسِ مَنْ يَقْرُبُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْبَغَايَا الْعُمُومِيَّاتِ، وَقَدْ عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ هَاتَيْنِ مَفْسَدَتَانِ مُنْفَصِلَتَانِ، لِأَنَّ الْعَدَاوَةَ غَيْرُ الْبَغْضَاءِ فَيَجْتَمِعَانِ وَيَفْتَرِقَانِ.

(تَاسِعُهَا وَعَاشِرُهَا) أَنَّهُ جَعَلَهُمَا صَادَّيْنِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ وَهُمَا رُوحُ الدِّينِ وَعِمَادُهُ، وَزَادُ الْمُؤْمِنِ وَعَتَادُهُ، وَقَدْ عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَيْضًا أَنَّ الصَّدَّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ غَيْرُ الصَّدِّ عَنِ الصَّلَاةِ.

(حَادِي عَشَرَهَا) الْأَمْرُ بِالِانْتِهَاءِ عَنْهَا بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ الْمَقْرُونِ بِفَاءِ السَّبَبِيَّةِ، وَهَلْ

يَصِحُّ الْفَصْلُ بَيْنَ السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ ؟ وَفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ ثَلَاثُ مُؤَكِّدَاتٍ أُخْرَى نُورِدُهَا مَعْدُودَةً مَعَ مَا قَبْلَهَا :

(ثَانِي عَشَرَهَا) قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) أَيْ أَطِيعُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ اجْتِنَابِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَغَيْرِهِمَا ، كَمَا تَجْتَنِبُونَ الْأَنْصَابَ وَالْأَزْلَامَ أَوْ أَشَدَّ اجْتِنَابًا فِي كُلِّ شَيْءٍ ، أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِيمَا بَيَّنَهُ لَكُمْ مِمَّا نَزَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ : "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ" وَقَدْ تَقَدَّمَ قَرِيبًا .

(ثَالِثَ عَشَرَهَا) قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَاحْذَرُوا) أَيِ احْذَرُوا عِصْيَانَهُمَا أَوْ مَا يُصِيبُكُمْ إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُمَا مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا يَضُرُّكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ ، قَالَ تَعَالَى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (24 : 63) .

(رَابِعَ عَشَرَهَا) الْإِنْذَارُ وَالتَّهْدِيدُ فِي قَوْلِهِ : (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) أَيْ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ وَأَعْرَضْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ دِينَنَا وَشَرْعَنَا ، وَقَدْ بَلَّغَهُ وَأَبَانَهُ وَقَرَنَ حُكْمَهُ بِأَحْكَامِهِ وَعَلَيْنَا نَحْنُ الْحِسَابُ وَالْعِقَابُ وَسَتَرَوْنَهُ فِي إِبَّانِهِ ، كَمَا قَالَ : (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) (13 : 40) وَإِنَّمَا الْحِسَابُ لِأَجْلِ الْجَزَاءِ .

لَمْ يُؤَكَّدْ تَحْرِيمُ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ مِثْلَ هَذَا التَّأْكِيدِ لَا قَرِيبًا مِنْهُ ، وَحِكْمَتُهُ شِدَّةُ افْتِتَانِ النَّاسِ بِشُرْبِ الْخَمْرِ ، وَكَذَا الْمَيْسِرُ ، وَتَأَوُّلُهُمْ كُلَّ مَا يُمْكِنُ تَطَرُّقُ الِاحْتِمَالِ إلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِ الْأَدْيَانِ الَّتِي تُخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ ، كَمَا أَوَّلَتِ الْيَهُودُ أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ فِي تَحْرِيمِ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ كَالرِّبَا وَغَيْرِهِ ، وَكَمَا اسْتَحَلَّ بَعْضُ فُسَّاقِ الْمُسْلِمِينَ شُرْبَ بَعْضِ الْخُمُورِ بِتَسْمِيَتِهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا ، إذْ قَالُوا هَذَا نَبِيذٌ لَا يُسْكِرُ إلَّا الْكَثِيرُ مِنْهُ ، وَقَدْ أَحَلَّ مَا دُونَ الْقَدْرِ الْمُسْكِرِ مِنْهُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ يَقُولُونَ ذَلِكَ فِيمَا هُوَ خَمْرٌ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنْ شُرْبِهِ إلَّا السُّكْرُ .

بَلْ تَجَرَّأَ بَعْضُ غُلَاةِ الْفُسَّاقِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ لَا تَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ : (فَاجْتَنِبُوهُ) وَلَمْ يَقُلْ : حَرَّمْتُهُ فَاتْرُكُوهُ ، وَقَالَ : (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) وَلَمْ يَقُلْ فَانْتَهُوا عَنْهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : سَأَلْنَا هَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ فَقُلْنَا : لَا ، ثُمَّ سَكَتَ وَسَكَتْنَا وَيَصْدُقُ عَلَى هَؤُلَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا) (7 : 51) وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : إنَّ هَذَا الْغُلُوَّ قَلَّمَا يَصْدُرُ عَمَّنْ كَانَ صَحِيحَ الْإِيمَانِ فَمَا قَالَهُ تَعَالَى أَبْلَغُ مِنْ تَحْرِيمِهِ مِمَّا قَالُوا .

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَقَدْ قَالُوا انْتَهَيْنَا رَبَّنَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ : انْتَهَيْنَا أَكَّدُوا الِاسْتِجَابَةَ

وَالطَّاعَةَ كَمَا أَكَّدَ عَلَيْهِمُ التَّحْرِيمَ ، وَكَانَ فِيهِمُ الْمُدْمِنُونَ لِلْخَمْرِ مِنْ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِمْ تَحْرِيمُهَا ،

فَكَانَ أَشَدَّ مِنْ جَمِيعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَكَانُوا قَدِ اجْتَهَدُوا فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ ، لِأَنَّ الدَّلَالَةَ عَلَى التَّحْرِيمِ فِيهَا ظَنِّيَّةٌ غَيْرُ قَطْعِيَّةٍ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الْحَقُّ الْيَقِينُ وَالتَّحْرِيمُ الْجَازِمُ انْتَهَوْا وَأَهْرَقُوا جَمِيعَ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْخُمُورِ فِي الشَّوَارِعِ وَالْأَزِقَّةِ حَتَّى ظَلَّ أَثَرُهَا وَرِيحُهَا زَمَنًا طَوِيلًا ، وَقَدْ قَدَحَ بَعْضُ أَذْكِيَائِهِمْ زِنَادَ الْفِكْرِ عَسَى أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى شَيْءٍ يَجِدُونَ فِيهِ بَعْضَ الرُّخْصَةِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنَّ مَنْ قَدْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ ، كَسَيِّدِ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةَ عَمِّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرِهِ مَاتُوا وَهُمْ دَائِبُونَ عَلَى شُرْبِهَا ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ شَيْئًا ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ النَّاسَ الْعَمَلَ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ قَبْلَ نُزُولِهَا وَهَاكَ بَعْضَ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ زَائِدًا عَلَى مَا أَوْرَدْنَا مِنْ قَبْلُ :

(228/213)

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : " قَامَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ : يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، إِنَّ اللَّهَ يُعَرِّضُ عَنِ الْخَمْرِ تَعْرِيضًا لَا أَدْرِي لَعَلَّهُ سَيَنْزِلُ فِيهَا أَمْرٌ " أَيْ قَاطِعٌ ثُمَّ قَامَ فَقَالَ : " يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ إِلَيَّ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ ، فَمَنْ كَتَبَ مِنْكُمْ هَذِهِ الْآيَةَ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ

فَلَا يَشْرَبْهَا " .

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو يَعْلَى وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ عَرَّضَ بِالْخَمْرِ ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَبِعْهُ وَلْيَنْتَفِعْ بِهِ ، فَلَمْ نَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى قَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ الْخَمْرَ فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَا يَشْرَبْ وَلَا يَبِعْ ، قَالَ فَاسْتَقْبَلَ النَّاسُ بِمَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْهَا فَسَفَكُوهَا فِي طُرُقِ الْمَدِينَةِ .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الرَّبِيعِ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْبَقَرَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ رَبَّكُمْ يُقَدِّمُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ، ثُمَّ نَزَلَتْ آيَةُ النِّسَاءِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنْ رَبَّكُمْ يُقَرِّبُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ " ثُمَّ نَزَلَتْ آيَةُ الْمَائِدَةِ فَحُرِّمَتِ الْخَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ .

(229/213)

وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ : أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ) (2 : 219) الْآيَةَ فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ : نَشْرَبُهَا لِمَنَافِعِهَا وَقَالَ آخَرُونَ : لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ فِيهِ إِثْمٌ ثُمَّ نَزَلَتْ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ

وَأَنْتُمْ سُكَارَى) (4 : 34) الْآيَةَ ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ : نَشْرَبُهَا وَنَجْلِسُ فِي بُيُوتِنَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الصَّلَاةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَنَزَلَتْ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) الْآيَةَ ، فَنَهَاهُمْ فَانْتَهَوْا ، وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ قَتَادَةَ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةِ النِّسَاءِ أَنَّهُ قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : " إِنَّ اللهَ قَدْ تَقَرَّبَ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ، ثُمَّ حَرَّمَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ بَعْدَ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ وَعُلِمَ أَنَّهَا تُسَفِّهُ الْأَحْلَامَ وَتُجْهِدُ الْأَمْوَالَ وَتَشْغَلُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ " .

(230/213)

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : " حُرِّمَتِ الْخَمْرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ نُزُولَ الْآيَاتِ ، وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، وَقَالَ فِي آيَةِ النِّسَاءِ : ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ آيَةً أَغْلَظَ مِنْهَا ، أَيْ مِنْ آيَةِ الْبَقَرَةِ ، وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ وَبَيَانُهُ أَنَّ الْأُولَى تَحْرِيمٌ ظَنِّيٌّ ، وَالثَّانِيَةَ تَحْرِيمٌ قَطْعِيٌّ فِي مُعْظَمِ الْأَوْقَاتِ ، وَالثَّالِثَةَ قَطْعِيٌّ مُسْتَغْرِقٌ لِكُلِّ زَمَنٍ " .

فَهَذِهِ الْأَخْبَارُ وَالْآثَارُ وَغَيْرُهَا فِي التَّصْرِيحِ بِالْقَطْعِ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ تَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصُّحْبَةَ كَافَّةً فَهِمُوا مِنْ آيَةِ الْمَائِدَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْخَمْرَ تَحْرِيمًا بَاتًّا لَا هَوَادَةَ فِيهِ ، وَأَنَّ الْخَمْرَ عِنْدَهُمْ كُلُّ شَرَابٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُسْكِرَ شَارِبَهُ ، وَقَدْ

صَرَّحُوا فِيهَا بِلَفْظِ التَّحْرِيمِ ، وَأَنَّهُ كَانَ تَعْرِيضًا ، فَجَعَلَتْهُ آيَةُ الْمَائِدَةِ تَصْرِيحًا أَوْ أَنَّ آيَتِي الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ كَانَتَا مُقَدِّمَةً لِتَحْرِيمِهَا أَوْ مُفِيدَتَيْنِ لَهُ إفَادَةً ظَنِّيَّةً ، كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ أَهْرَقُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْخُمُورِ عِنْدَ نُزُولِ الْآيَةِ ، وَكَانَ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مِنْ خَمْرِ التَّمْرِ وَالْبُسْرِ الَّذِي يَكْثُرُ فِي الْمَدِينَةِ ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مَخْرَجًا مِنْ ذَلِكَ بِتَأَوُّلٍ وَلَا رُخْصَةٍ .

(231/213)

نَعَمْ إنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بَعْضَ الْأَنْبِذَةِ بِأَسْمَاءٍ خَاصَّةٍ ، وَقَدْ سَأَلُوا عَنْهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا حُكْمُهَا إذَا صَارَ يُسْكِرُ كَثِيرُهَا أَوْ مُطْلَقًا ، قَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ : " قُلْتُ يَا رَسُولَ

اللَّهِ أَفْتِنَا فِي شَرَابَيْنِ كُنَّا نَصْنَعُهُمَا بِالْيَمَنِ : الْبِتْعِ وَهُوَ مِنَ الْعَسَلِ يُنْبَذُ حَتَّى يَشْتَدَّ ، وَالْمِزْرِ ، وَهُوَ مِنَ الذُّرَةِ وَالشَّعِيرِ يُنْبَذُ حَتَّى يَشْتَدَّ ، قَالَ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ بِخَوَاتِمِهِ فَقَالَ : كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ ، وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَاهُمْ عَنِ الْجِعَةِ " رَوَاهُ دَاوُدُ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمَا ، وَالْجِعَةُ بِكَسْرٍ فَفَتْحٍ نَبِيذُ الشَّعِيرِ وَتُسَمَّى بِالْإِفْرِنْجِيَّةِ " بِيرَا " .

وَالْأَصْلُ فِي النَّبِيذِ أَنْ يُنْقَعَ الشَّيْءُ فِي الْمَاءِ حَتَّى يَنْضَحَ ، فَيُشْرَبَ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ ، وَلَمْ يُقْصَدْ بِهِ أَنْ يُتْرَكَ لِيَخْتَمِرَ وَيَصِيرَ سَكَرًا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَنَزِيدُ عَلَيْهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(232/213)

نَهَى عَنِ النَّبْذِ فِي الْأَوَانِي الَّتِي يُسْرِعُ إِلَيْهَا الِاخْتِمَارُ لِعَدَمِ تَأْثِيرِ الْهَوَاءِ فِيهَا كَالْحَنْتَمِ ، أَيْ جِرَارِ الْفَخَّارِ الْمَطْلِيَّةِ ، وَالنَّقِيرِ أَيْ جُذُوعِ النَّخْلِ الْمَنْقُورِ ، وَالْمُزَفَّتِ وَهُوَ الْمُقَيَّرُ أَيِ الْمَطْلِيُّ بِالْقَارِ وَهُوَ الزِّفْتُ ، وَالدُّبَّاءُ ، وَهُوَ الْقَرْعُ الْكَبِيرُ ثُمَّ يُبَيِّنُ أَنَّ الظُّرُوفَ لَا تُحَلُّ وَلَا تُحَرِّمُ ، وَأَذِنَ بِالنَّبْذِ فِي كُلِّ وِعَاءٍ مَعَ تَحْرِيمِ كُلِّ مُسْكِرٍ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُنْبَذُ لَهُ الزَّبِيبُ فَيَشْرَبُهُ الْيَوْمَ وَالْغَدَ وَبَعْدَ الْغَدِ إِلَى مَسَاءِ الثَّالِثَةِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِهِ فَيُسْقَى الْخَادِمَ أَوْ يُهَرَاقُ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ ، أَيْ يَصِيرُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مَظِنَّةَ الْإِسْكَارِ ، فَهَذِهِ نِهَايَةُ الْمُدَّةِ الَّتِي يَحِلُّ فِيهَا النَّبِيذُ غَالِبًا وَفِي آخِرِهَا كَانَ يَحْتَاطُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَشْرَبُهُ ، بَلْ وَلَا يَسْقِيهِ الْخَادِمَ أَوْ يُرِيقُهُ لِئَلَّا يَخْتَمِرَ وَيَشْتَدَّ فَيَصِيرَ خَمْرًا ، وَالْعِبْرَةُ بِالْإِسْكَارِ وَعَدَمِهِ .

(233/213)

(فَائِدَةٌ تَتْبَعُهَا قَاعِدَةٌ) عُلِمَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا آنِفًا أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ فَهِمَ مِنْ آيَتَيِ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ فَتَرَكَهَا ، وَلَكِنَّ عُشَّاقَهَا وَجَدُوا مِنْهَا مَخْرَجًا بِالِاجْتِهَادِ ، وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَعْذُرَ الْمُجْتَهِدِينَ فِي اجْتِهَادِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ مُخْطِئًا فِيهِ ، وَقَدْ يُجِيزُهُ لَهُ إذَا كَانَ قَاصِرًا عَلَيْهِ " أَجْنَبَ رَجُلٌ فَأَخَّرَ الصَّلَاةَ إذْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَصَبْتَ " وَ " أَجْنَبَ آخَرُ فَتَيَمَّمَ وَصَلَّى إذْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ فَذَكَرَهُ لَهُ كَالْأَوَّلِ ، قَالَ لَهُ مَا قَالَ لِلْأَوَّلِ : أَصَبْتَ " رَوَاهُ النَّسَائِيُّ ، وَأَجَازَ عَمَلَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ إذْ تَيَمَّمَ لِلْجَنَابَةِ مَعَ وُجُودِ الْمَاءِ خَوْفًا مِنَ الْبَرْدِ وَصَلَّى إمَامًا ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلَى التَّهْلُكَةِ) (2 : 195) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ تَعْلِيقًا وَأَبُو دَاوُدَ وَالدَّارَقُطْنِيُّ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَاعْتَذَرَ بِالْجَنَابَةِ وَفَقْدِ الْمَاءِ : " عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ .

(234/213)

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَمِنْ تِلْكَ أَنَّ التَّحْرِيمَ الَّذِي كَلَّفَهُ جَمِيعَ النَّاسِ هُوَ مَا كَانَ نَصًّا صَرِيحًا ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُكَلِّفِ النَّاسَ إِرَاقَةَ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْخَمْرِ إِلَّا عِنْدَمَا نَزَلَتْ آيَةُ الْمَائِدَةِ الصَّرِيحَةُ بِذَلِكَ ، مَعَ كَوْنِهِ فَهِمَ مِنْ آيَتَيِ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ بِالتَّعْرِيضِ ، وَالْمُرَادُ مِنَ التَّعْرِيضِ عَيْنُ الْمُرَادِ مِنَ التَّصْرِيحِ ، إِلَّا أَنَّ التَّعْرِيضَ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ فَهِمَهُ خَاصَّةً ، وَالتَّصْرِيحُ حُجَّةٌ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ كَافَّةً ، وَمِنْ هُنَا تَعْرِفُ سَبَبَ مَا كَانَ مِنْ تَسَاهُلِ السَّلَفِ فِي الْمَسَائِلِ الْخِلَافِيَّةِ ، وَعَدَمِ تَضْلِيلِ أَحَدٍ مِنْهُمْ لِمُخَالِفِهِ ، وَتَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ مَا قَالَ الْعُلَمَاءُ بِتَحْرِيمِهِ اجْتِهَادًا مِنْهُمْ لَا يُعَدُّ شَرْعًا يُعَامَلُ النَّاسُ بِهِ ، وَإِنَّمَا يَلْتَزِمُهُ مَنْ ظَهَرَ لَهُ صِحَّةُ دَلِيلِهِمْ مِنْ قِيَاسٍ أَوِ اسْتِنْبَاطٍ مِنْ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ دَلَالَتُهَا عَلَيْهِ غَيْرُ صَرِيحَةٍ ، وَإِنَّ فِي تَعْرِيضِ كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ حُكْمًا ، وَسَيَأْتِي لِهَذَا الْمَبْحَثُ تَتِمَّةٌ فِي تَفْسِيرِ : (لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (5 : 101)

(235/213)

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) وَرَدَ فِي عِدَّةِ رِوَايَاتٍ تَقَدَّمَ بَعْضُهَا أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ اسْتَشْكَلُوا عِنْدَ نُزُولِ هَذَا التَّشْدِيدِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

حَالَ مَنْ مَاتَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَأْكُلُونَ الْمَيْسِرَ ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ حَضَرَ مِنْهُمْ غَزْوَتَيْ بَدْرٍ وَأُحُدٍ ، وَكَانَ أَمْرُ الْخَمْرِ عِنْدَهُمْ أَهَمَّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُمْ سَأَلُوا عَمَّنْ مَاتُوا وَعَنِ الْغَائِبِينَ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ آيَةُ الْقَطْعِ بِالتَّحْرِيمِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا لَهُمْ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيمَنْ كَانُوا يُشَدِّدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي الطَّيِّبَاتِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ خَتْمًا لِلسِّيَاقِ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِحَالِ مَنْ بُدِئَ بِهِمْ وَالرِّوَايَاتُ الْمَأْثُورَةُ عَلَى الْأَوَّلِ .

الطَّعَامُ مَا يُؤْكَلُ ، وَالطَّعْمُ (بِالْفَتْحِ) مَا يُدْرَكُ بِذَوْقِ الْفَمِ مِنْ حَلَاوَةٍ وَمَرَارَةٍ وَغَيْرِهِمَا يُقَالُ : طَعِمَ (كَعَلِمَ وَغَنِمَ) فُلَانٌ بِمَعْنَى أَكَلَ الطَّعَامَ وَطَعِمَ الشَّيْءَ يَطْعَمُهُ ذَاقَ طَعْمَهُ أَوْ ذَاقَهُ فَوَجَدَ طَعْمَهُ مِنْهُ ، اسْتُعْمِلَ فِي ذَوْقِ طَعَامِ الشَّيْءِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ

(236/213)

يُؤْخَذُ قَلِيلٌ مِنْهُ بِمُقَدَّمِ الْفَمِ ، وَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا) (33 : 53) أَيْ أَكَلْتُمْ ، وَمِنَ الثَّانِي : (فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي) (2 : 249) أَيْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ مَائِهِ .

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الطَّعْمُ بِالْفَتْحِ مَا يُؤَدِّيهِ الذَّوْقُ ، يُقَالُ : طَعْمُهُ مُرٌّ أَوْ حُلْوٌ ، وَقَالَ طَعِمَ يَطْعَمُ

طُعْمًا (بِالضَّمِّ) فَهُوَ طَاعِمٌ إذَا أَكَلَ أَوْ ذَاقَ مِثْلَ غَنِمَ يَغْنَمُ غُنْمًا فَهُوَ غَانِمٌ فَالطُّعْمُ بِالضَّمِّ مَصْدَرٌ ، وَأَنْشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ :

فَأَمَّا بَنُو عَامِرٍ بِالنِّسَارِ . . . غَدَاةَ لَقُونَا فَكَانُوا نَعَامًا

نَعَامًا بِخَطْمَةِ صُعْرِ الْخُدُو . . . دِ ، لَا تَطْعَمُ الْمَاءَ إلَّا صِيَامًا

شَبَّهَهُمْ بِالنَّعَامِ الَّتِي لَا تَرِدُ الْمَاءَ وَلَا تَذُوقُهُ ، وَصَرَّحَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ بِأَنَّ طَعِمَ بِمَعْنَى أَكَلَ الطَّعَامَ ، وَأَنَّهُ إذَا جُعِلَ بِمَعْنَى الذَّوْقِ جَازَ فِيمَا يُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ ، وَاسْتَشْهَدَ الْمُفَسِّرُونَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ . . . وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا وَلَا بَرْدًا .

النُّقَاخُ بِالضَّمِّ الْمَاءُ الْبَارِدُ ، وَالْبَرْدُ النَّوْمُ ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : أَلَا تَرَى كَيْفَ عَطَفَ عَلَيْهِ الْبَرْدَ وَهُوَ النَّوْمُ ، وَيُقَالُ : مَا ذُقْتُ غِمَاضًا . اه .

(237/213)

وَقَالَ الْآلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : وَأَمَّا اسْتِعْمَالُهُ (أَيْ طَعِمَ الْمَاءَ) بِمَعْنَى شَرِبَهُ وَاتَّخَذَهُ طَعَامًا فَقَبِيحٌ إلَّا أَنْ يَقْتَضِيَهُ الْمَقَامُ ، كَمَا فِي حَدِيثِ : " زَمْزَمُ طَعَامُ طُعْمٍ وَشِفَاءُ سُقْمٍ " فَإِنَّهُ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهَا تُغَذِّي بِخِلَافِ سَائِرِ الْمِيَاهِ ، وَلَا يَخْدِشُ هَذَا مَا حُكِيَ أَنَّ خَالِدًا الْقَسْرِيَّ قَالَ عَلَى

مِنْبَرِ

الْكُوفَةِ وَقَدْ خَرَجَ عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ بْنُ سَعِيدٍ : أَطْعِمُونِي مَاءً ، فَعَابَتْ عَلَيْهِ الْعَرَبُ ذَلِكَ وَهَجَوْهُ بِهِ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى شِدَّةِ جَزَعِهِ ، وَقِيلَ فِيهِ :

بَلَّ الْمَنَابِرَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ وَهَلٍ . . . وَاسْتَطْعَمَ الْمَاءَ لَمَّا جَدَّ فِي الْهَرَبِ

وَأَلْحَنُ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ قَاطِبَةً . . . وَكَانَ يُولَعُ بِالتَّشْدِيقِ فِي الْخُطَبِ

لِأَنَّ ذَلِكَ إنَّمَا عِيبَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ صَدَرَ عَنْ جَزَعٍ ، فَكَانَ مَظِنَّةَ الْوَهْمِ وَعَدَمَ قَصْدِ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ ، وَإِلَّا فَوَقَعَ مِثْلُهُ فِي كَلَامِهِمْ مِمَّا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُشَكَّ فِيهِ : اهـ .

أَقُولُ : أَمَّا الْحَدِيثُ فَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالْبَزَّارُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ ، وَهُوَ عَلَى تَشْبِيهِ مَائِهَا بِالْغِذَاءِ فَلَيْسَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ ، وَأَمَّا كَلَامُ خَالِدٍ فَهُوَ لَحْنٌ إلَّا أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَذِيقُونِي طَعْمَ الْمَاءِ مُبَالَغَةً فِي طَلَبِ الْقَلِيلِ مِنْهُ أَوْ إرَادَةِ تَرْطِيبِ اللِّسَانِ ، لِأَنَّ الْكَلَامَ يُجَفِّفُ

(238/213)

الرِّيقَ ، لَا يَقَعُ مِثْلُهُ فِي كَلَامِ الْفُصَحَاءِ إلَّا بِهَذَا الْمَعْنَى ، فَإِذَنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ " طَعِمَ " فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى الشُّرْبِ مُطْلَقًا ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُفِيدَ هَذَا الْمَعْنَى إلَّا بِالتَّبَعِ لِمَعْنَى الْأَكْلِ تَغْلِيبًا لَهُ ، فَيُجْعَلَ " طَعِمُوا " هُنَا بِمَعْنَى أَكَلُوا الْمَيْسِرَ وَشَرِبُوا الْخَمْرَ ، كَتَغْلِيبِ الْأَكْلِ فِي كُلِّ اسْتِعْمَالٍ

فِي مِثْلِ النَّهْيِ عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَلَمْ أَرَ أَحَدًا هُدِيَ إِلَى هَذَا الْإِيضَاحِ بِهَذَا التَّدْقِيقِ .

وَالْجُنَاحُ مَا فِيهِ مَشَقَّةٌ أَوْ مُؤَاخَذَةٌ ، أَنْشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ :

وَلَاقَيْتُ مِنْ جُمْلٍ وَأَسْبَابِ حُبِّهَا . . . جُنَاحَ الَّذِي لَاقَيْتُ مَنْ تِرْبِهَا قَبْلُ .

وَقَالَ ابْنُ حِلِّزَةَ :

أَعَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغْـ . . . نَمَ غَازِيهُمْ وَمِنَّا الْجَزَاءُ

وَيُفَسِّرُونَهُ غَالِبًا بِالْإِثْمِ وَهُوَ مَا فِيهِ الضَّرَرُ ، وَالضَّرَرُ يَكُونُ دِينِيًّا وَدُنْيَوِيًّا ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي حَيِّزِ النَّفْيِ بِمَعْنَى رَفْعِ الْحَرَجِ وَالْمُؤَاخَذَةِ .

(239/213)

وَمَعْنَى الْآيِ عَلَى رَأْيِ الْجُمْهُورِ : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) مِنَ الْأَحْيَاءِ وَالْمَيِّتِينَ وَالشَّاهِدِينَ وَالْغَائِبِينَ (جُنَاحٌ) إِثْمٌ وَلَا مُؤَاخَذَةٌ (فِيمَا طَعِمُوا) أَكَلُوا مِنَ الْمَيْسِرِ أَوْ شَرِبُوا مِنَ الْخَمْرِ فِيمَا مَضَى قَبْلَ تَحْرِيمِهَا وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا ثُمَّ حُرِّمَ (إِذَا مَا اتَّقَوْا) أَيْ إِذَا هُمُ اتَّقَوْا فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِمْ وَمِنْهُ الْإِسْرَافُ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ مِنَ الْمُبَاحِ (وَآمَنُوا) بِمَا كَانَ قَدْ نَزَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) الَّتِي كَانَتْ قَدْ

شُرِعَتْ ، كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْجِهَادِ (ثُمَّ اتَّقَوْا) مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَ الْعِلْمِ بِهِ (وَآمَنُوا) بِمَا نَزَلَ فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ كَمَا قَالَ : (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ) (9 : 124 ، 125)

(240/213)

وَكَمَا قَالَ : (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا) (74 : 31) وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ ، (ثُمَّ اتَّقَوْا) أَيِ ارْتَقَوْا عَنْ ذَلِكَ فَاتَّقُوا الشُّبُهَاتِ تَوَرُّعًا وَابْتِعَادًا عَنِ الْحَرَامِ ، (وَأَحْسَنُوا) أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَاتِ بِأَنْ أَتَوْا بِهَا عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ ، وَتَمَّمُوا نَقْصَ فَرَائِضِهَا بِنَوَافِلِ الطَّاعَاتِ (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فَلَا يَبْقَى فِي قُلُوبِهِمْ أَثَرًا مِنَ الْآثَارِ السَّيِّئَةِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ مِنَ الْإِيقَاعِ فِي الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالصَّدِّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، وَهُمَا صِقَالُ الْقُلُوبِ وَزَيْتُهَا الَّذِي يَمُدُّ نُورَ الْإِيمَانِ .

(241/213)

وَطَالَمَا اسْتَشْكَلَ الْمُفَسِّرُونَ اشْتِرَاطَ مَا اشْتَرَطَتْهُ الْآيَةُ لِنَفْيِ الْجُنَاحِ مِنَ التَّقْوَى الْمُثَلَّثَةِ وَالْإِيمَانِ الْمُثَنَّى وَالْإِحْسَانِ الْمُوَحَّدِ ، وَطَالَمَا ضَرَبُوا فِي بَيْدَاءِ التَّأْوِيلِ وَاسْتِنْبَاطِ الْآرَاءِ ، وَطَالَمَا رَدَّ بَعْضُهُمْ مَا قَالَهُ الْآخَرُونَ فِي ذَلِكَ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُؤَاخِذُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدًا بِعَمَلٍ عَمِلَهُ قَبْلَ تَحْرِيمِهِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مُحَرَّمَاتِ النِّكَاحِ : (إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) فَقِيلَ : إِنَّمَا ذَكَرَ لَيْسَ بِشَرْطِ رَفْعِ الْجُنَاحِ ، بَلْ لِبَيَانِ حَالِ مَنْ نَزَلَتْ فِيهِمُ الْآيَةُ ، أَمَّا تَكْرَارُ التَّقْوَى فَقِيلَ : إِنَّهُ لِمُجَرَّدِ التَّأْكِيدِ أَوْ لِلْأَزْمِنَةِ الثَّلَاثَةِ ، أَوْ لِاخْتِلَافِ مَنْ يُتَّقَى مِنَ الْكُفْرِ وَالْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ أَوْ مِنْ مُطْلَقٍ وَمُقَيَّدٍ ، أَوْ بَعْضُهَا لِلثَّبَاتِ وَالدَّوَامِ . وَغَفَلَ هَؤُلَاءِ عَنْ مَعْنَى الشُّبْهَةِ الَّتِي وَقَعَتْ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ وَنَزَلَتِ الْآيَةُ جَوَابًا عَنْهَا ، وَبَيَانُهَا مِنْ وَجْهَيْنِ :

(242/213)

(أَحَدُهُمَا) أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَبَيَّنَ فِي الثَّانِيَةِ عِلَّةَ التَّحْرِيمِ مِنْ وَجْهَيْنِ ، وَهَذِهِ الْعِلَّةُ لَازِمَةٌ لَهَا ، فَإِذَا لَمْ تَكُنْ مُطَّرِدَةً فِي الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، فَهِيَ مُطَّرِدَةٌ فِي الصَّدِّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، وَنَاهِيكَ بِمَا يَنْقُصُ مِنْ دِينِ مَنْ صَدَّ عَنْهُمَا ، وَإِنَّمَا كَانَ الدِّينُ وَمَنَاطُ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ مَا يَكُونُ مِنْ تَأْثِيرِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ

الصَّالِحِ فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ ، وَإِنَارَةِ الْقَلْبِ .

(ثَانِيهُمَا) أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ عَرَّضَ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ قَبْلَ نُزُولِ آيَاتِ الْمَائِدَةِ بِمَا يُبَيِّنُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ وَاللَّبِيبُ تَكْفِيهِ الْإِشَارَةُ فَكَانَ مَنْ لَمْ يَفْطَنْ لِذَلِكَ مُقَصِّرًا فِي اجْتِهَادِهِ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِإِيثَارِ الْهَوَى أَوِ الشَّهْوَةِ .

هَذَا وَجْهُ الشَّبَهِ ، وَتَلْخِيصُ الْجَوَابِ عَنْهَا : أَنَّ مَنْ صَحَّ إِيمَانُهُ ، وَصَالِحُ عَمَلِهِ ، وَعَمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالنُّصُوصِ الْقَطْعِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ ، وَبِحَسَبِ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ فِي الظَّنِّيَّةِ ، وَاسْتَقَامَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى ارْتَقَى إِلَى مَقَامِ الْإِحْسَانِ فَلَا يَحُولُ دُونَ تَزْكِيَةِ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ ، وَصَقْلِهِ لِقَلْبِهِ ، مَا كَانَ قَدْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ مِمَّا لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا عَلَيْهِ بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْإِثْمِ مَا حُرِّمَ بَعْدُ لِأَجْلِهِ .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مَا حَرَّمَ شَيْئًا إِلَّا لِضَرَرِهِ فِي الْجِسْمِ أَوِ الْعَقْلِ أَوِ الدِّينِ أَوِ

الْمَالِ أَوِ الْعِرْضِ ، وَالضَّرَرُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالِ ، وَقَدْ يَتَخَلَّفُ أَحْيَانًا ، إِذْ يَكْفِي التَّحْرِيمُ أَنْ يَكُونَ ضَارًّا فِي الْغَالِبِ ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا مِنْ شَأْنِهِ الضَّرَرُ فِي الْجِسْمِ فَرُبَّمَا يَنْجُو مِنْ ضَرَرِهِ بِقُوَّةِ مِزَاجِهِ إِذَا هُوَ لَمْ يُسْرِفْ فِيهِ ، وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا مِنْ شَأْنِهِ

نَقْصُ الدِّينِ وَهُوَ غَيْرُ مُحَرَّمٍ عَلَيْهِ عَالِمٌ بِتَحْرِيمِهِ فَرُبَّمَا يَنْجُو مِنْ سُوءِ تَأْثِيرِهِ الذَّاتِيِّ بِقُوَّةِ إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ وَكَثْرَةِ أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ بِحَيْثُ يَكُونُ ذَلِكَ الضَّرَرُ كَنُقْطَةٍ مِنَ الْقَذَرِ وَقَعَتْ فِي الْبَحْرِ أَوِ النَّهْرِ ، وَلَكِنَّ قُوَّةَ الْإِيمَانِ وَرُسُوخَ الدِّينِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ يُنَافِي الْإِقْدَامَ عَلَى ارْتِكَابِ الْمُحَرَّمِ ، إِلَّا مَا يَكُونُ مِنَ اللَّمَمِ وَالْهَفَوَاتِ الَّتِي لَا يُصِرُّ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا ، فَالْجُنَاحُ الْعَظِيمُ وَالْخَطَرُ الْكَبِيرُ مِنَ ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ بَعْدَ الْعِلْمِ بِتَحْرِيمِهَا لَيْسَ فِيمَا عَسَاهُ يُصِيبُ مُرْتَكِبُهَا مِنْ ضَرَرِهَا الذَّاتِيِّ الَّتِي حُرِّمَتْ لِأَجْلِهِ فَقَطْ ، لِأَنَّ هَذَا قَدْ يَتَخَلَّفُ أَوْ يَكُونُ ضَعِيفًا أَوْ مَغْلُوبًا ، بَلِ الْجُنَاحُ وَالْخَطَرُ الدِّينِيُّ فِي الْإِقْدَامِ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى تَرْجِيحُ هَوَى النَّفْسِ عَلَى مُقْتَضَى الْإِيمَانِ وَالِاعْتِقَادِ ، وَهَذَا شَيْءٌ قَدْ حَفِظَ اللهُ مِنْهُ مَنْ كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ ، بَلْ حَفِظَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ ضَرَرِ الْخَمْرِ الِاجْتِمَاعِيِّ الدُّنْيَوِيِّ أَيْضًا لِأَنَّهُمْ لَمْ يُسْرِفُوا فِيهَا وَلَا

(244/213)

سِيَّمَا بَعْدَ نُزُولِ آيَةِ سُورَةِ النِّسَاءِ الَّتِي لَمْ تُبْقِ لَهُمْ إِلَّا وَقْتًا ضَيِّقًا لِشُرْبِهَا ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَنْفَسَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَكَانُوا بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، بَلْ كَانَ ذَلِكَ شَأْنَ الصَّحَابَةِ عَامَّةً : كَانَ يَكَادُ الشِّقَاقُ يَقَعُ بَيْنَهُمْ كَمَا مَرَّ فِي أَسْبَابِ نُزُولِ الْآيَاتِ ، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ

أَنْ يَغْلِبَهُ الْإِيمَانُ ، فَكَانُوا مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (7 : 201) فَالْمَعْصِيَةُ لَا تُفْسِدُ الرُّوحَ إِلَّا إِذَا كَانَ فَاعِلُهَا غَيْرَ مَيَّالٍ بِحُرْمَةِ الشَّرْعِ ، وَلَا يَكُونُ تَأْثِيرُهَا الذَّاتِيُّ قَوِيًّا إِلَّا بِالْإِسْرَافِ فِيهَا وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا .

وَقَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ الْبَاحِثِينَ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ وَفَلْسَفَةِ الِاجْتِمَاعِ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ عَنِ السَّبَبِ فِي سُوءِ تَأْثِيرِ الزِّنَا فِي إِفْسَادِ أَخْلَاقِ فُسَّاقِ الْمِصْرِيِّينَ ، وَإِذْلَالِ أَنْفُسِهِمْ وَإِضْعَافِ بَأْسِهِمْ ، وَعَدَمِ تَأْثِيرِهِ فِي الْيَابَانِيِّينَ مِثْلَ هَذَا التَّأْثِيرِ ، فَأَجَبْتُهُ عَلَى الْفَوْرِ : إِنَّ الْيَابَانِيِّينَ لَا يَدِينُونَ اللَّهَ بِحُرْمَةِ الزِّنَا كَالْمِصْرِيِّينَ ، فَمُعْظَمُ ضَرَرِهِ فِيهِمْ بَدَنِيٌّ ، وَأَقَلُّهُ اجْتِمَاعِيٌّ ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ ضَرَرٌ رُوحِيٌّ فِيهِمْ ، وَأَمَّا الْمِصْرِيُّونَ فَمُعْظَمُ ضَرَرِهِ فِيهِمْ رُوحِيٌّ ، لِأَنَّهُمْ يُقْدِمُونَ عَلَى شَيْءٍ يَعْتَقِدُونَ دِينًا وَعُرْفًا بِقُبْحِهِ وَفُحْشِهِ ، فَهُمْ بِذَلِكَ يُوَطِّنُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى دَنِيئَةِ الْفُحْشِ ،

(245/213)

وَالِاتِّصَافِ بِالْقُبْحِ ، فَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَهَانَةِ وَالْفَسَادِ فِيهِمْ فَأُعْجِبَ بِالْجَوَابِ وَأَذْعَنَ لَهُ .

(شُبْهَةٌ لِعُشَّاقِ الْخَمْرِ وَدَحْضُهَا) .

قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ : زَعَمَ بَعْضُ الْجُهَّالِ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ فِي الْخَمْرِ أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عِنْدَمَا تَكُونُ مُوقِعَةً فِي الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، وَصَادَّةً عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ طَعِمَهَا إِذَا لَمْ يَحْصُلْ مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْمَفَاسِدِ بَلْ حَصَلَ مَعَهُ أَنْوَاعُ الْمَصَالِحِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ قَالُوا وَلَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى أَحْوَالِ مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ التَّحْرِيمِ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ ذَلِكَ لَقَالَ : " مَا كَانَ جُنَاحٌ عَلَى الَّذِينَ عَمِلُوا " كَمَا ذَكَرَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي آيَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) (2 : 143) لَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بَلْ قَالَ : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ) إِلَى قَوْلِهِ : (إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا) وَلَا شَكَّ أَنَّ (إِذَا) لِلْمُسْتَقْبَلِ لَا الْمَاضِي وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَرْدُودٌ بِإِجْمَاعِ كُلِّ الْأَئِمَّةِ .

(246/213)

وَقَوْلُهُمْ : عَنْ كَلِمَةِ " إِذَا " لِلْمُسْتَقْبَلِ لَا لِلْمَاضِي ، فَجَوَابُهُ مَا رَوَى أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ بِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَقَدْ شَرِبُوا الْخَمْرَ وَفَعَلُوا الْقِمَارَ ؟ وَكَيْفَ بِالْغَائِبِينَ عَنَّا فِي الْبُلْدَانِ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْخَمْرَ وَهُمْ

يَطْعَمُونَهَا " ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ (الصَّوَابُ الْآيَةَ) وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَالْحِلُّ قَدْ ثَبَتَ فِي الزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ عَنْ وَقْتِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، لَكِنْ فِي حَقِّ الْغَائِبِينَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغْهُمْ هَذَا النَّصُّ : انْتَهَى كَلَامُ الرَّازِيِّ بِحُرُوفِهِ .

وَأَقُولُ إنَّ جَوَابَهُ ضَعِيفٌ فِيمَا أَقَرَّهُ وَفِيمَا رَدَّهُ إلَّا نَقْلَ الْإِجْمَاعِ ، وَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى سَعَةِ اطِّلَاعِهِ فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ غَيْرَ دَقِيقٍ فِي الْبَلَاغَةِ وَأَسَالِيبِ اللُّغَةِ حَتَّى إنَّ عِبَارَتَهُ نَفْسَهَا ضَعِيفَةٌ ، فَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ فِي الرَّدِّ عَلَى احْتِجَاجِ أَصْحَابِ هَذَا التَّحْرِيفِ :

(أَوَّلًا) إنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) إلَخْ ، لَيْسَ خَبَرًا عَمَّنْ نَزَلَتِ

(247/213)

الْآيَةُ بِسَبَبِ السُّؤَالِ عَنْهُمْ ، وَإِنَّمَا هِيَ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ إنْشَائِيَّةُ الْمَعْنَى ، يُعْلَمُ مِنْهَا حُكْمُ مَنْ مَاتَ قَبْلَ الْقَطْعِ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ ، وَحُكْمُ مَنْ نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي عَهْدِهِمْ وَتُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ، وَحُكْمُ غَيْرِهِمْ مِنْ عَصْرِهِمْ إلَى آخِرِ الزَّمَانِ ، وَهَذَا أَبْلَغُ وَأَهَمُّ فَائِدَةً مِنْ بَيَانِ حُكْمِ الْمَسْئُولِ عَنْهُمْ خَاصَّةً .

(ثَانِيًا) إنَّ قَوْلَ الْمُشْتَبِهِينَ : لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ بَيَانُ حُكْمِ الَّذِينَ مَاتُوا لَقَالَ : " مَا كَانَ

جُنَاحٌ عَلَى الَّذِينَ طَعِمُوا " بَاطِلٌ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) الَّذِي احْتَجُّوا بِهِ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا زَعَمُوا ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا التَّرْكِيبِ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الشَّأْنِ لَا عَلَى نَفْيِ حَدِيثٍ مَضَى ، فَمَعْنَاهُ : مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ تَعَالَى وَلَا مِنْ مُقْتَضَى سُنَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا مِنْ قَبْلُ غَيْرَ مَرَّةٍ وَنَقَلْنَاهُ عَنِ الْكَشَّافِ فَهُوَ يَعُمُّ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلَ وَمِثَالُهُ : (مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ) (12 : 38) وَيُشْبِهُ الْعِبَارَةَ الَّتِي قَالُوهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ) (33 : 38) وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّهَا لِنَفْيِ الْحَرَجِ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي بَلْ تَعُمُّ نَفْيَهُ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْفَائِدَةِ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا .

(248/213)

(ثَالِثًا) لَوْ كَانَ مَعْنَى الْآيَةِ مَا ذَكَرُوهُ لَأَخَذَ بِهِ مَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ كَانَ يَمِيلُ إِلَيْهِمْ بَعْدَهُمْ .

نَعَمْ إِنَّهُ لَوْلَا مَا وَرَدَ مِنْ سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ لَكَانَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ مَعْنَاهَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ تَضْيِيقٌ وَإِعْنَاتٌ فِيمَا أَكَلُوا (وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ أَوْ شَرِبُوا) مِنَ اللَّذَائِذِ كَمَا تَوَهَّمَ الَّذِينَ كَانُوا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مُبَالَغَةً فِي النُّسُكِ إِذَا كَانُوا

مُعْتَصِمِينَ بِعُرَى التَّقْوَى فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالِ ، رَاسِخِينَ فِي الْإِيمَانِ مُتَحَلِّينَ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ مُحْسِنِينَ فِيهَا ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ; كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ وَالْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ إِنَّمَا الْجُنَاحُ الْحَرَجُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يُسْرِفُونَ فِيهِمَا ، وَيَجْعَلُونَهَا أَكْبَرَ هَمِّهِمْ مِنْ حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَجْتَنِبُونَ الْخَبِيثَ مِنْهُمَا ، فَالْعِبْرَةُ فِي الدِّينِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِحْسَانِ فَذَلِكَ هُوَ النُّسُكُ كُلُّهُ ، لَا بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَتَعْذِيبِ النُّفُوسِ وَإِرْهَاقِهَا ، وَلَعَلَّ شَيْخَنَا لَوْ فَسَّرَ الْآيَةَ لَجَزَمَ بِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْمُرَادُ ، وَأَنَّ مَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا إِذَا صَحَّ يُؤْخَذُ الْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ

(249/213)

فَحْوَى الْآيَةِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا لِأَنَّ الْعُمْدَةَ فِي الدِّينِ هُوَ التَّقْوَى لَا أَمْرَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الَّذِي لَا يُحَرَّمُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا لِضَرَرِهِ .

وَإِذَا لَمْ يُرَاعَ سَبَبُ النُّزُولِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ مَعْنَاهُ " لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِثْمٌ فِيمَا يَشْرَبُونَ مِنَ الْخَمْرِ " بَعْدَ الْقَطْعِ بِتَحْرِيمِهَا وَتَأْكِيدِهِ بِمَا فِي سِيَاقِ آيَاتِ التَّحْرِيمِ مِنَ الْمُؤَكِّدَاتِ ، لِأَنَّ كَلِمَةَ (طَعِمُوا) لَا مَدْلُولَ لَهُ فِي اللُّغَةِ إِلَّا أَكْلُ الطَّعَامِ

فِي الْمَاضِي أَوْ تَذَوُّقُ كُلِّ مَا لَهُ طَعْمٌ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ يُقَدَّمُ لِلْفَمِ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي أَيْضًا ، وَلَوْ صَحَّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْآيَةِ مَا ذَكَرُوهُ لَكَانَ نَسْخًا لِتَحْرِيمِ شُرْبِ الْخَمْرِ مُتَّصِلًا بِالتَّحْرِيمِ الْمُؤَكَّدِ ، أَوْ تَخْصِيصًا لَهُ بِغَيْرِ أَهْلِ التَّقْوَى الْكَامِلَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ، وَلَيْسَ لِهَذَا نَظِيرٌ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَا فِي غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَدْيَانِ ، وَلَا يَتَّفِقُ مَعَ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ الْأَفْعَالَ الْمَاضِيَةَ إِذَا وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ الْأَحْكَامِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَالْقَوَاعِدِ الْعِلْمِيَّةِ تُفِيدُ التَّكْرَارَ الَّذِي يَعُمُّ الْمُسْتَقْبَلَ ، بِمَعْنَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ كُلَّمَا وَقَعَ كَانَ حُكْمُهُ كَذَا فَلِمَ

(250/213)

لَا يَجُوزُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْآيَةِ رَفْعَ الْحَرَجِ وَالْمُؤَاخَذَةِ عَنِ الْمُؤْمِنِ إِذَا شَرِبَ قَلِيلًا مِنَ الْخَمْرِ بِالشُّرُوطِ الشَّدِيدَةِ الْمُبَيَّنَةِ فِيهَا ، وَيَدْخُلُ فِي عُمُومِ التَّقْوَى مِنْهَا أَلَّا يُسْكِرَ وَلَا يَكُونَ بِحَيْثُ تُوقِعُ الْخَمْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بُغْضًا وَلَا عَدَاوَةً ، وَلَا بِحَيْثُ تَصُدُّهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ؟

قُلْتُ : إِنَّ الطُّعْمَ فِي اللُّغَةِ لَا يَدُلُّ عَلَى الشُّرْبِ الْقَلِيلِ وَلَا الْكَثِيرِ بَلْ عَلَى ذَوْقِ الْمَشْرُوبِ بِمُقَدَّمِ الْفَمِ ، أَوْ إِدْرَاكِ طَعْمِهِ مِنْ ذَوْقِهِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، كَمَا حَرَّرَهُ الْجَوْهَرِيُّ وَتَبِعَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النِّهَايَةِ ، وَقَدْ مَرَّ بَيَانُ ذَلِكَ ، وَأَنْتَ تَرَى الْفَرْقَ الْجَلِيَّ بَيْنَ الشُّرْبِ الْكَثِيرِ وَالشُّرْبِ الْقَلِيلِ

وَبَيْنَ طَعَامِ الْمَاءِ بِتَذَوُّقِهِ فِي قِصَّةِ طَالُوتَ : (قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ) (2 : 249) فَقَدْ جَعَلَ هَذَا الِابْتِلَاءَ عَلَى ثَلَاثَةِ مَرَاتِبَ : الْأُولَى الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ شَرِبَ حَتَّى رَوِيَ وَالثَّانِيَةُ الِاتِّحَادُ التَّامُّ بِمَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَهُ الْبَتَّةَ ، وَالثَّالِثَةُ بَيْنَ بَيْنَ ، وَهِيَ لِمَنْ أَخَذَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَكَسَرَ بِهَا سُورَ الظَّمَأِ وَلَمْ يَكْرَعْ فَيَرْوِهِ ، هَذَا مَا جَرَيْنَا عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (ص : 386 وَمَا بَعْدَهَا ج2ط الْهَيْئَةِ) وَهُوَ مَا تُغَطِّيهِ

(251/213)

اللُّغَةُ وَجَرَى عَلَيْهِ جَهَابِذَتُهَا فِي تَفْسِيرِ اللَّفْظِ كَالزَّمَخْشَرِيِّ وَتَبِعَهُ الْبَيْضَاوِيُّ وَأَبُو السُّعُودِ وَالرَّازِيُّ وَالْآلُوسِيُّ وَغَيْرُهُمْ ، وَقَالُوا إِنَّ قَوْلَهُ : (إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً) اسْتِثْنَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ : (فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ) إِلَّا أَنَّ بَعْضَهُمْ خَلَطَ ، وَأَدْخَلَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُهَا ، تَبَعًا لِلرِّوَايَاتِ أَوْ لِاصْطِلَاحَاتِ الْفُقَهَاءِ فِيمَا يَحْنَثُ بِهِ مَنْ حَلَفَ أَنَّهُ لَا يَشْرَبُ مِنْ هَذَا النَّهْرِ مَثَلًا ، وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ مَعْنَى طَعِمُوا فَلَا فَائِدَةَ مِنْ إِبَاحَةِ تَذَوُّقِ طَعْمِ الْخَمْرِ بِمُقَدَّمِ الْفَمِ لِأَحَدٍ ، فَيَكُونُ لَغْوًا يُنَزَّهُ كِتَابُ اللَّهِ عَنْهُ .

وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ مَا ذَكَرُوهُ لَكَانَ نَصُّهَا : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

جُنَاحٌ فِي شُرْبِ الْقَلِيلِ مِنَ الْخَمْرِ أَوْ مَا لَا يُسْكِرُ وَلَا يَضُرُّ مِنَ الْخَمْرِ إِذْ مَا اتَّقَوْا إِلَخْ ، وَلَكِنَّ أَجْدَرَ النَّاسِ بِفَهْمِ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ خُوطِبُوا بِهَا أَوَّلًا مِنْ فُصَحَاءِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يُؤْثَرْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ ذَلِكَ بَلْ صَحَّ عَنْهُمْ ضِدُّهُ .

(252/213)

رَوَى أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَا أَسْكَرَ الْفَرَقُ مِنْهُ فَمِلْءُ الْكَفِّ مِنْهُ حَرَامٌ " الْفَرَقُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَسُكُونِهَا مِكْيَالٌ يَسَعُ سِتَّةَ عَشَرَ رَطْلًا ، وَقِيلَ : إِنَّ سَاكِنَ الرَّاءِ مِكْيَالٌ آخَرُ يَسَعُ 120 رَطْلًا ، وَرُوَاةُ هَذَا الْحَدِيثِ كُلُّهُمْ مُحْتَجٌّ بِهِمْ فِي الصَّحِيحَيْنِ إِلَّا أَبُو عُثْمَانَ عُمَرُ أَوْ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ قَاضِي مَرْوٍ التَّابِعِيُّ ، فَهُوَ مَقْبُولٌ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ فِي تَقْرِيبِ التَّهْذِيبِ ، وَنُقِلَ فِي أَصْلِهِ تَوْثِيقُهُ عَنْ أَبِي دَاوُدَ وَابْنِ حِبَّانَ .

وَرَوَى أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ " وَرَوَى مِثْلَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ : رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ ، فِي إِسْنَادِهِ دَاوُدُ بْنُ بَكْرِ بْنِ

أَبِي الْفُرَاتِ قَالَ فِي التَّقْرِيبِ : صَدُوقٌ ، وَلَكِنْ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ : لَا بَأْسَ بِهِ لَيْسَ بِالْمَتِينِ ، وَسُئِلَ عَنْهُ ابْنُ مَعِينٍ فَقَالَ : ثِقَةٌ .

(253/213)

وَرَوَى النَّسَائِيُّ وَالدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " أَنْهَاكُمْ عَنْ قَلِيلِ مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ " وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ قَلِيلِ مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ " وَأَكْثَرُ رِجَالِ هَذَا الْحَدِيثِ قَدِ احْتَجَّ بِهِمُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ ، وَفِيهِمُ الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ احْتَجَّ بِهِ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا شَيْخُ النَّسَائِيِّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَّارٍ نَزِيلُ الْمَوْصِلِ ، قَالَ الْحَافِظُ فِي تَقْرِيبِ التَّهْذِيبِ : ثِقَةٌ حَافِظٌ فَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ لَا مَطْعُونٌ فِيهِ ، وَلَا عِبْرَةَ بِمَا يُوهِمُهُ كَلَامُ مِثْلِ الْعَيْنِيِّ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَتَحْرِيمُ قَلِيلِ كُلِّ مُسْكِرٍ وَكَثِيرِهِ صَحَّ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ وَثَبَتَ بِالْإِجْمَاعِ .

قَالَ الْحَافِظُ النَّسَائِيُّ بَعْدَ رِوَايَةِ حَدِيثِ سَعْدٍ وَمَا فِي مَعْنَاهُ : وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ الْمُسْكِرِ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، وَلَيْسَ كَمَا يَقُولُ الْمُخَادِعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِتَحْلِيلِهِمْ آخِرَ الشَّرْبَةِ وَتَحْلِيلِهِمْ مَا تَقَدَّمَهَا الَّذِي يُشْرَبُ فِي الْفَرَقِ قَبْلَهَا ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ السُّكْرَ بِكُلِّيَّتِهِ لَا يَحْدُثُ عَنِ الشَّرْبَةِ الْآخِرَةِ دُونَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ بَعْدَهَا وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ اه . أَيْ أَنَّ السُّكْرَ

يَكُونُ مِنْ مَجْمُوعِ مَا يَشْرَبُ لَا مِنَ الشَّرْبَةِ الَّتِي تَعْقُبُهَا النَّشْوَةُ .

(شُبْهَةٌ أُخْرَى عَلَى تَحْرِيمِ قَلِيلِ الْمُسْكِرِ وَعِلَّةِ تَحْرِيمِهِ) .

(254/213)

وَيُعْلَمُ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فَسَادُ قَوْلِهِ مَنْ عَسَاهُ يَقُولُ : إنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْخَمْرِ لَا تَتَحَقَّقُ فِيهِ عِلَّةُ التَّحْرِيمِ ، وَالْقِيَاسُ أَنَّ الْحُكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وُجُودًا وَعَدَمًا ، وَمَتَى فُقِدَتِ الْعِلَّةُ كَانَ إثْبَاتُ الْحُكْمِ مُنَافِيًا لِلْحِكْمَةِ ، وَوَجْهُ فَسَادِهِ : أَنَّهُ لَا قِيَاسَ مَعَ النَّصِّ وَأَنَّ قَاعِدَةَ سَدِّ ذَرَائِعِ الْفَسَادِ الثَّابِتَةِ فِي الشَّرِيعَةِ تَقْتَضِي مَنْعَ قَلِيلٍ مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ لِكَثِيرِهِ ، وَلَعَلَّهُ لَا يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا مَا يُشَابِهُهُمَا فِي ذَلِكَ .

بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ التَّعْلِيلَ لِكَوْنِ قَلِيلِ الْخَمْرِ يَدْعُو إلَى كَثِيرِهَا كَذَلِكَ الْمَيْسِرِ وَكَوْنِ مُتَعَاطِيهِمَا قَلَّمَا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِهِمَا (ص267 وَمَا بَعْدَهَا ج2ط الْهَيْئَةِ) وَلِهَذَا يَقِلُّ أَنْ يَتُوبَ مُدْمِنُ الْخَمْرِ ، لِأَنَّ مَا يَبْعَثُهُ عَلَى التَّوْبَةِ مِنْ وَازِعِ الدِّينِ أَوْ خَوْفِ الضَّرَرِ يُعَارِضُهُ تَأْثِيرُ سُمِّ الْخَمْرِ الَّذِي يُسَمَّى لُغَةً " الْغَوْلَ " بِالْفَتْحِ وَاصْطِلَاحًا الْكُحُولَ فِي الْعَصَبِ الدَّاعِي بِطَبْعٍ إلَى مُعَاوَدَةِ الشُّرْبِ ، وَهُوَ أَلَمٌ يَسْكُنُ بِالشُّرْبِ مُؤَقَّتًا ثُمَّ يَعُودُ كَمَا كَانَ أَوْ أَشَدَّ .

(255/213)

وَمَتَى تَعَارَضَتِ الِاعْتِقَادَاتُ وَالْوُجْدَانَاتُ الْمُؤْلِمَةُ أَوِ الْمُسْتَلَذَّةُ فِي النَّفْسِ رُجِّحَتْ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ الثَّانِيَةُ عَلَى الْأُولَى ، وَإِنَّمَا يُرَجِّحُ الِاعْتِقَادُ عِنْدَ الْخَوَاصِّ وَهُمْ أَصْحَابُ الدِّينِ الْقَوِيِّ وَالْإِيمَانِ الرَّاسِخِ ، وَأَصْحَابُ الْحِكْمَةِ وَالْعَزِيمَةِ الْقَوِيَّةِ ، وَهَذَا الْأَلَمُ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّجْرِبَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ .

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ . . . وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا .

(256/213)

وَإِنَّنَا نَرَى جَمِيعَ الْمُتَعَلِّمِينَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَدَنِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَأَكْثَرَ النَّاسِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي تُنْشَرُ فِيهَا الْجَرَائِدُ وَالْمَجَلَّاتُ الْعِلْمِيَّةُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْخَمْرَ شَدِيدَةُ الضَّرَرِ فِي الْجِسْمِ وَالْعَقْلِ وَالْمَالِ وَآدَابِ الِاجْتِمَاعِ ، وَلَمْ نَرَ هَذَا الِاعْتِقَادَ بَاعِثًا عَلَى التَّوْبَةِ مِنْهَا إِلَّا لِلْأَفْرَادِ مِنْهُمْ ، حَتَّى إِنَّ الْأَطِبَّاءَ مِنْهُمْ وَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَضَارِّهِمْ كَثِيرًا مَا يُعَاقِرُونَهَا وَيُدْمِنُونَهَا ، وَإِذَا عُذِلُوا فِي ذَلِكَ أَجَابُوا بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ لِسَانِ الْمَقَالِ بِمَا أَجَابَ بِهِ طَبِيبٌ عَذَلَهُ خَطِيبٌ عَلَى أَكْلِهِ

طَعَامًا غَلِيظًا كَانَ يَنْهَى عَنْ أَكْلِهِ إِذْ قَالَ : إِنَّ الْعِلْمَ غَيْرُ الْعَمَلِ فَكَمَا أَنَّكَ أَيُّهَا الْخَطِيبُ تَسْرُدُ عَلَى الْمِنْبَرِ خُطْبَةً طَوِيلَةً فِي تَحْرِيمِ الْغِيبَةِ وَالْخَوْضِ فِي الْأَعْرَاضِ ثُمَّ يَكُونُ جُلُّ سَمَرِكَ فِي سَهَرِكَ اغْتِيَابَ النَّاسِ ، كَذَلِكَ يَفْعَلُ الطَّبِيبُ فِي نَهْيِهِ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَنْتَهِي عَنْهُ إِذَا كَانَ يَسْتَلِذُّهُ وَأَنْكَرْتَ ذَلِكَ عَلَى طَبِيبٍ فَقَالَ : لَأَنْ أَعِيشَ عَشْرَ سِنِينَ مُنَعَّمًا آثَرُ عِنْدِي مِنْ عِشْرِينَ ، قُلْتُ : وَهَذَا مَرْدُودٌ عَلَى قَوَاعِدِكُمْ وَتَجَارِبِكُمْ لِأَنَّ السُّكْرَ يُحْدِثُ الْأَمْرَاضَ وَالْأَدْوَاءَ وَقَدْ يَعِيشُ صَاحِبُهَا طَوِيلًا وَصَحَّ قَوْلِي هَذَا فِيهِ .

(257/213)

وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ تَكُونَ قُوَّةُ تَأْثِيرِ الدِّينِ عَلَى أَشُدِّهَا وَأَكْمَلِهَا فِي نَشْأَتِهِ الْأُولَى كَمَا يُفِيدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (57 : 16) وَلِهَذَا تَرَكَ جُمْهُورُ الْمُؤْمِنِينَ الْخَمْرَ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ وَلَكِنْ بَقِيَ مِنَ الْمُدْمِنِينَ مَنْ لَمْ يَقْوَ عَلَى احْتِمَالِ آلَامِ الْخِمَارِ وَمَا يَعْتَرِي الشَّارِبَ بَعْدَ تَنَبُّهِ الْعَصَبِ بِنَشْوَةِ السُّكْرِ ، مِنَ الْفُتُورِ وَالْخُمُودِ الدَّاعِي إِلَى طَلَبِ ذَلِكَ التَّنْبِيهِ ، فَكَانَ أَفْرَادٌ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ فَيُجْلَدُونَ وَيُضْرَبُونَ بِالْجَرِيدِ وَكَذَا بِالنِّعَالِ ، ثُمَّ يَعُودُونَ رَاضِينَ بِأَنْ يَكُونَ هَذَا الْحَدُّ الَّذِي يُحَدُّونَهُ ، أَوِ التَّعْزِيرُ الَّذِي يُعَزَّرُونَهُ ، مُطَهِّرًا مِنَ الذَّنْبِ الدِّينِيِّ عِنْدَ

اللهِ تَعَالَى ، لَا يُبَالُونَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا تَحَمَّلُوا فِي سَبِيلِ الْخَمْرِ مِنْ إِيذَاءٍ وَإِهَانَةٍ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُدْمِنِينَ أَبُو مِحْجَنٍ الثَّقَفِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَلَمَّا أُبْلِيَ فِي وَقْعَةِ الْقَادِسِيَّةِ مَا أُبْلِيَ ، وَكَانَ نَصْرُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى يَدِهِ ، وَتَرَكَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِقَامَةَ الْحَدِّ

عَلَيْهِ ، وَكَانَ قَدِ اعْتَقَلَهُ لِسُكْرِهِ ، تَابَ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَعَلَّلَ تَوْبَتَهُ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ بِأَنَّهُ كَانَ يَشْرَبُ عَالِمًا أَنَّ الْعِقَابَ الشَّرْعِيَّ يُطَهِّرُهُ ، وَإِذْ حَابَوْهُ بِهِ كَمَا ظَنَّ

(258/213)

تَابَ إِلَى اللهِ تَعَالَى خَوْفًا مِنْ عِقَابِ الْآخِرَةِ ، وَلَمْ يَتْرُكْ سَعْدٌ عِقَابَهُ مُحَابَاةً كَمَا ظَنَّ بَلْ لِأَنَّ الْحُدُودَ لَا تُقَامُ فِي حَالِ الْغَزْوِ ، وَلَا فِي دَارِ الْحَرْبِ ، وَالتَّعْزِيرُ يَرْجِعُ إِلَى الِاجْتِهَادِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ عِقَابَ السُّكْرِ تَعْزِيرٌ وَأَنَّ سَعْدًا أَدَّاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى تَرْكِ تَعْزِيرِ أَبِي مِحْجَنٍ بَعْدَ أَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَبْلَى يَوْمَئِذٍ مَا أَبْلَى ، وَلَا مُطَهِّرَ مِنَ الذَّنْبِ أَقْوَى مِنْ هَذَا . وَهَلْ يُوجَدُ فِي هَذَا الْعَصْرِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُشَابِهُونَ أَبَا مَحْجَنٍ فِي قُوَّةِ إِيمَانِهِ وَقُوَّةِ عَزِيمَتِهِ فِي دِينِهِ ؟

(بَعْضُ الْعِبَرِ فِي الْخَمْرِ) .

مِنْ آيَاتِ الْعِبْرَةِ أَنَّ الْإِفْرِنْجَ الَّذِي يَسْتَبِيحُونَ شُرْبَ الْخَمْرِ دِينًا ، وَيَسْتَحْسِنُونَهُ أَدَبًا وَمَدَنِيَّةً ، وَيَصْنَعُونَ مِنْهُ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً يَرْبَحُونَ مِنْهُ أُلُوفَ الْأُلُوفِ مِنَ الدَّنَانِيرِ فِي كُلِّ عَامٍ قَدْ أَلَّفُوا جَمْعِيَّاتٍ لِلنَّهْيِ عَنِ الْخُمُورِ وَالسَّعْيِ لِإِبْطَالِهَا ، وَأَقْوَى هَذِهِ الْجَمْعِيَّاتِ نُفُوذًا وَتَأْثِيرًا فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ وَمِنْ عَجَائِبِ وَقَائِعِ تَقْلِيدِ مُتَفَرْنِجِي الْمُسْلِمِينَ لِلْإِفْرِنْجِ مَيْلُ بَعْضِهِمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي هَذِهِ الْجَمْعِيَّاتِ وَتَأْلِيفِ الْفُرُوعِ لَهَا فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا أَغْنَى الْمُسْلِمِينَ عَنْ تَقْلِيدِ غَيْرِهِمْ فِي هَذَا ، وَمَا أَجْدَرَهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا هُمُ الْأَئِمَّةَ الْمَتْبُوعِينَ .

(259/213)

وَمِنْ آيَاتِ الْعِبْرَةِ فِيهَا : أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَعُدُّونَ مِنْ مَنَافِعِ الْخَمْرِ الْحَمَاسَةَ فِي الْحَرْبِ وَقُوَّةَ الْإِقْدَامِ فِيهَا وَقَدْ ثَبَتَ عِنْدَ الْإِفْرِنْجِ أَنَّ السُّكْرَ يُضْعِفُ الْجُنُودَ عَنِ الْقِيَامِ بِأَعْبَاءِ الْحَرْبِ وَاحْتِمَالِ أَثْقَالِهَا ، فَقَرَّرَتْ بَعْضُ الدُّوَلِ إِبْطَالَ الْخُمُورِ الْوَطَنِيَّةِ الشَّدِيدَةِ الرَّوَاجِ فِي بِلَادِهَا – وَأَكْثَرُ انْتِفَاعِهَا الْمَالِيِّ مِنْهَا – مُدَّةَ الْحَرْبِ ، وَلَعَلَّ الدُّوَلَ كُلَّهَا تُجْمِعُ عَلَى هَذَا بَعْدُ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَا يَزَالُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الْجُغْرَافِيِّينَ يَتَمَلْمَلُونَ مِنْ تَحْرِيمِ الْإِسْلَامِ لِلْخَمْرِ (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

(41 : 53) .

(اسْتِدْرَاكَانِ)

الِاسْتِدْرَاكُ الْأَوَّلُ : الْخَمْرُ نَوْعَانِ نَوْعٌ يُخَمَّرُ تَخْمِيرًا ، وَنَوْعٌ يُقَطَّرُ تَقْطِيرًا ، وَأَقْوَى الْخُمُورِ سُمًّا وَأَشَدُّهَا ضَرَرًا مَا كَانَتْ مُقَطَّرَةً ، وَيُعَبِّرُونَ عَنْهَا بِالْأَشْرِبَةِ الرُّوحِيَّةِ وَهَذَا مِنْ مُرَجِّحَاتِ اخْتِيَارِنَا لِقَوْلِ سَيِّدِنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَةِ الْخَمْرِ ، وَأَنَّهُ مُخَامَرَتُهَا الْعَقْلَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا جَمِيعَ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ (ص257 وَمَا بَعْدَهَا ج2ط الْهَيْئَةِ) وَالْمُرَجِّحُ الثَّانِي كَوْنُ هَذَا الْقَوْلِ لِإِمَامٍ مِنْ أَفْصَحِ الْعَرَبِ الْخُلَّصِ ، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَهُوَ مِمَّا اسْتَنْبَطَهُ الْمُوَلَّدُونَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَالثَّالِثُ أَنَّ نَقْلَهُ أَصَحُّ ، فَهُوَ مَرْوِيٌّ فِي الصَّحِيحِ وَكُتُبِ السُّنَنِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(260/213)

وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى كَوْنِ الْخَمْرِ مِمَّا يُعْصَرُ ، أَيْ لَا مِمَّا يُنْبَذُ وَيُقَطَّرُ ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ أَحَدِ صَاحِبَيْ يُوسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السِّجْنِ (إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا) (12 : 36) وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ ضَعِيفٌ وَسَخِيفٌ ، فَإِنَّ اتِّخَاذَ الْخَمْرِ مِنَ الْعَصِيرِ لَا يُنَافِي اتِّخَاذَهَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَيْسَ فِي الْعِبَارَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ ، دَعْ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ مِنْ أَنَّ هَذَا

الْقَوْلَ حِكَايَةٌ عَنْ أَعْجَمِيٍّ فِي بَيَانِ رَآهُ فِي نَوْمِهِ مِمَّا هُوَ مَعْهُودٌ فِي بِلَادِهِ ، فَلَيْسَ بِحُجَّةٍ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَلَا صِنَاعَتِهِمْ وَصِنَاعَةِ غَيْرِهِمْ لِلْخَمْرِ ، وَبِالْأَوْلَى لَا يَكُونُ حُجَّةً فِي الشَّرْعِ .

(261/213)

وَقَدْ اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مَا طُبِخَ مِنَ الْعَصِيرِ قَبْلَ وُصُولِهِ إلَى حَدِّ الْإِسْكَارِ أَوْ بَعْدَهُ ، هَلْ يُسَمَّى خَمْرًا أَمْ لَا ؟ كَمَا اشْتَبَهَ عَلَى الْكَثِيرِينَ أَمْرُ النَّبِيذِ ، مِنَ الْمَطْبُوخِ الطِّلَاءِ وَهُوَ الدِّبْسُ ، وَيُسَمَّى الْمُثَلَّثُ إذِ اشْتَرَطُوا أَنْ يَغْلِيَ الْعَصِيرُ حَتَّى يَبْقَى ثُلُثُهُ ، وَمِنْهُ الْبَاذَقُ وَهُوَ مَا طُبِخَ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ أَدْنَى طَبْخٍ حَتَّى صَارَ شَدِيدًا ، وَهُوَ اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ ، وَقِيلَ : أَوَّلُ مَنْ صَنَعَهُ وَسَمَّاهُ بِذَلِكَ بَنُو أُمَيَّةَ وَإِنَّهُ مُسْكِرٌ ، وَأَظُنُّ أَنَّهُ يَكُونُ قَبْلَ الطَّبْخِ مُسْكِرٌ فَلَا يُزِيلُ الطَّبْخُ الْقَلِيلُ إسْكَارَهُ ، أَوْ يَتْرُكُ فِيهِ الْمَاءَ بَعْدَ طَبْخِهِ فَيَخْتَمِرُ كَمَا يَخْتَمِرُ الْعَسَلُ ، وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ بِالدِّبْسِ ، وَلَوْ جَاءَ الْإِسْكَارُ مِنْ طَرِيقَةِ الطَّبْخِ لَكَانَ نَوْعًا ثَالِثًا مِنَ الْخَمْرِ ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنِ الْبَاذَقِ فَقَالَ : " سَبَقَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَاذَقَ فَمَا أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ " أَيْ إنَّ الْعِبْرَةَ بِمَا يُسْكِرُ مِنَ الشَّرَابِ وَلَا عِبْرَةَ بِالْأَسْمَاءِ ، فَالْعَسَلُ حَلَالٌ وَلَكِنَّهُ يُمْزَجُ بِالْمَاءِ وَيُتْرَكُ حَتَّى يَخْتَمِرَ وَيُسْكِرَ فَيَصِيرَ خَمْرًا وَكُلٌّ مِنْ عَصْرِ الْعِنَبِ وَنَبِيذِ الزَّبِيبِ وَغَيْرِهِ حَلَالٌ ، فَإِذَا اخْتَمَرَ وَصَارَ مُسْكِرًا

حَرُمَ قَطْعًا وَسُمِّيَ خَمْرًا ، لَا عَصِيرًا وَلَا نَبِيذًا ، وَمَتَى عُلِمَ أَنَّهُ صَارَ مُسْكِرًا حَرُمَ شُرْبُ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ لَا قَبْلَ ذَلِكَ .

(262/213)

عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ : " إنَّ الْخَمْرَ هُوَ الْمُسْكِرُ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ " إطْلَاقًا لِمَا هُوَ الْغَالِبُ أَوِ الْأَهَمُّ فِي عَصْرِ تَدْوِينِ اللُّغَةِ لَمْ يَمْنَعْهُمْ ذَلِكَ وَلَا تَسْمِيَتُهُمْ لِبَعْضِ الْخَمْرِ مِنْ غَيْرِهَا بِأَسْمَاءٍ أُخْرَى أَنْ يُطْلِقُوا اسْمَ الْخَمْرِ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْرِبَةِ الْمُسْكِرَةِ ، فَهَذَا ابْنُ سِيدَهْ نَقَلَ ذَلِكَ الْإِطْلَاقَ فِي الْمُخَصَّصِ عَنْ صَاحِبِ كِتَابِ الْعَيْنِ ، كَمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ ، وَأَطَالَ فِي بَيَانِ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ بِحَسَبِ صِفَاتِهَا ، ثُمَّ عَقَدَ بَابًا لِلْأَنْبِذَةِ الَّتِي تُتَّخَذُ مِنَ التَّمْرِ وَالْحَبِّ وَالْعَسَلِ قَالَ فِيهِ مَا نَصُّهُ :

" أَبُو حَنِيفَةَ (أَيِ الدِّينَوَرِيُّ اللُّغَوِيُّ) : فَأَمَّا خُمُورُ الْحُبُوبِ فَمَا اتُّخِذَ مِنَ الْحِنْطَةِ فَهُوَ الْمِزْرُ ، وَمَا اتُّخِذَ مِنَ الشَّعِيرِ فَهُوَ الْجِعَةُ ، وَمِنَ الذُّرَةِ السُّكْرُكَةُ وَالسُّقْرُقَةُ عَجَمِيٌّ ، أَبُو عُبَيْدٍ : الْغُبَيْرَاءُ السُّكْرُكَةُ إلَى أَنْ قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ : الْبِتْعُ ضَرْبٌ مِنْ شَرَابِ الْعَسَلِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهَا الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا " أَشَارَ إلَى قَوْلِهِ فِي بَابِ الْخَمْرِ : " أَبُو عَلِيٍّ عَنِ الْعَسْكَرِيِّ : الْبِتْعُ : الْخَمْرُ يَمَانِيَةٌ ، وَقَدْ بَتَعْنَا بَتْعًا خَمَّرْنَا خَمْرًا ، الْبَتَّاعُ الْخَمَّارُ " اهـ .

(فَائِدَةٌ لُغَوِيَّةٌ) ذَكَرْنَا فِيمَا سَبَقَ مِنَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْخَمْرِ وَالنَّبِيذِ أَنَّ أَهْلَ بِلَادِ الشَّامِ يُسَمُّونَ النَّبِيذَ ، نَقُوعًا " وَأَنَّ الصَّوَابَ أَنْ يُقَالَ نَقِيعٌ ، ثُمَّ رَأَيْتُ فِي الْمُخَصَّصِ نَقْلًا عَنْ صَاحِبِ الْعَيْنِ : النَّقُوعُ وَالنَّقِيعُ (بِفَتْحِ النُّونِ فِيهَا) شَيْءٌ يُنْقَعُ فِيهِ الزَّبِيبُ وَغَيْرُهُ ثُمَّ يُصَفَّى مَاؤُهُ وَيُشْرَبُ .

(الِاسْتِدْرَاكُ الثَّانِي) يَحْتَجُّ الْقَائِلُونَ بِكَوْنِ الْخَمْرِ الْمُحَرَّمَةِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ هِيَ مَا كَانَ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ بِأَنَّهُ هُوَ الْقَطْعِيُّ الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ ، وَغَيْرُهُ ظَنِّيٌّ مُخْتَلَفٌ فِيهِ ، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ قَدْ تُذْكَرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ وَشُرُوحِ الْحَدِيثِ مُسَلَّمَةً مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ ، وَفِيهَا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ (مِنَ الْكُوفِيِّينَ) لَا حُجَّةَ لَهُ فِيهِ ، فَإِنَّ أَهْلَ الْإِجْمَاعِ الَّذِينَ لَا خِلَافَ فِي إِجْمَاعِهِمْ هُمُ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي تَحْرِيمِ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ خَمْرِ الْبُسْرِ وَالتَّمْرِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَغَيْرِهَا ، وَقَدْ خَطَبَ عُمَرُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَضْرَةِ كِبَارِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَجُمْهُورِهِمْ فَقَالَ : " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ

نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَهِيَ مِنْ خَمْسَةٍ مِنَ الْعِنَبِ وَالتَّمْرِ وَالْعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ، وَالْخَمْرُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ " فَصَرَّحَ بِأَنَّ الْخَمْرَ كَانَتْ مِنْ هَذِهِ الْخَمْسَةِ عِنْدَهُمْ ، وَأَنَّ مُرَادَ الشَّرْعِ تَحْرِيمُ مَا كَانَ مِنْ غَيْرِهَا أَيْضًا ، وَأَنَّ حَقِيقَةَ الْخَمْرِ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ ، أَيْ خَالَطَهُ فَأَفْسَدَ عَلَيْهِ إدْرَاكَهُ وَحُكْمَهُ ، وَمِنْهُ الدَّاءُ الْمُخَامِرُ ، وَمَنْ قَالَ : خَامَرَهُ غَطَّاهُ ; فَقَدْ رَاعَى أَصْلَ مَعْنَى خَمَرَ الشَّيْءَ وَالْمُرَادُ وَاحِدٌ ، وَالْحَدِيثُ مُتَّفِقٌ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَقُلْ إنَّ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْكَرَ عَلَى عُمَرَ قَوْلَهُ هَذَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْأُصُولِ : إنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَهُ حُكْمُ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَيْثُ هُوَ تَفْسِيرٌ لِحُكْمٍ شَرْعِيٍّ لَا يَقُولُهُ الصَّحَابِيُّ بِرَأْيِهِ ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَهُ بِاعْتِبَارِ فَهْمِهِ لِلْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، قُلْنَا : إذَا كَانَ هَذَا مَا فَهِمَهُ هَذَا الْإِمَامُ فِي اللُّغَةِ وَالدِّينِ وَوَافَقَهُ عَلَيْهِ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ أَنَّهُ خَالَفَهُ فِيهِ فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَجِدَ لِنَصٍّ شَرْعِيٍّ تَفْسِيرًا أَصَحَّ وَأَقْوَى مِنْ تَفْسِيرٍ يُصَرِّحُ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مِنْبَرِ الرَّسُولِ وَيُوَافِقُهُ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الصَّحَابَةِ وَعَامَّتُهُمْ ؟ وَهَلْ نُقِلَ عَنِ الصَّحَابَةِ إجْمَاعٌ مُسْتَنِدٌ أَيْ دَلِيلُهُ أَقْوَى مِنْ هَذَا الْإِجْمَاعِ ؟ فَظَهَرَ بِهَذَا أَنَّ كَوْنَ كُلِّ شَرَابٍ مِنْ شَأْنِهِ الْإِسْكَارُ

(265/213)

خَمْرًا ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ الْمُقِرِّينَ بِدَلِيلِهِ وَبِالْقِيَاسِ ، فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ هَذَا مِنَ الْإِجْمَاعِ السُّكُوتِيِّ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ قُلْنَا : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ إِذِ السُّكُوتِيُّ عِبَارَةٌ عَنْ قَوْلِ مُجْتَهِدِي عَصْرِهِ فَلَا يُنْقَلُ عَنْهُمْ مُوَافَقَةٌ لَهُ وَلَا إِنْكَارٌ وَإِنَّ إِقْرَارَ جُمْهُورِ الصَّحَابَةِ لِقَوْلِ عُمَرَ فِي حُكْمِ الْمُوَافَقَةِ الْقَوْلِيَّةِ ، وَقَوْلُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ جَدِيرٌ بِأَنْ يُنْقَلَ وَيَشِيعَ ، وَأَنْ يُرَاجِعَهُ فِيهِ الْبَعِيدُ إِذَا بَلَغَهُ كَالْقَرِيبِ ، وَلَوْ رَاجَعَهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ لَعَادَ إِلَى ذِكْرِ الْمَسْأَلَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ كَمَا فَعَلَ عِنْدَ مَا أَنْكَرَتْ عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ مَا كَانَ أَرَادَهُ مِنَ الْأَمْرِ بِتَحْدِيدِ الْمَهْرِ ، ثُمَّ إِنَّ إِجْمَاعَهُمُ الْعَمَلِيَّ عَلَى تَرْكِ جَمِيعِ الْمُسْكِرَاتِ مُنْذُ نَزَلَتِ الْآيَةُ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِثْلَ هَذَا إِجْمَاعًا فَلَا سَبِيلَ إِلَى ثَبَاتِ إِجْمَاعٍ قَوْلِيٍّ قَطُّ .

فَالْحَاصِلُ : أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ فِي الْخَمْرِ لَا حُجَّةَ لَهُ فِيهِ ، بَلْ هُوَ مَنْ جَعَلَ الدَّلِيلَ عَيْنَ الْمَدْلُولِ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْمُخَالِفُ وَحْدَهُ ، فَكَيْفَ تَكُونُ دَعْوَاهُ الْخِلَافَ حُجَّةً لِخِلَافِهِ ؟ هَذِهِ مُصَادَرَةٌ بَدِيهِيَّةٌ ، نَعَمْ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ هَذِهِ شُبْهَةٌ عَرَضَتْ لِمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّقْلُ عَنِ الصَّحَابَةِ ، فَهُوَ مَعْذُورٌ فِيهَا إِلَى أَنْ يَبْلُغَهُ النَّقْلُ ، فَمَتَى بَلَغَهُ زَالَتِ الشُّبْهَةُ بِالْحُجَّةِ .

(266/213)

وَأَمَّا مِنْ جَاءَ بَعْدَ الْمُخَالِفِ الْأَوَّلِ وَبَلَغَهُ خِلَافُهُ فَشُبْهَتُهُ أَقْوَى عِنْدَ أَهْلِ التَّقْلِيدِ ، وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْحُجَّةِ وَالْبَصِيرَةِ فِي الدِّينِ ، فَالْكَلَامُ مَعَهُمْ لَغْوٌ مَا لَمْ يُحْكِمُوا الدَّلِيلَ وَيَرْضَوْا بِحُكْمِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) (4 : 59) الْآيَةَ ، فَإِنْ رَضُوا بِهِ بَيَّنَّا لَهُمْ مَا صَحَّ مِنْ فَهْمِ الصَّحَابَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى وَعَمَلِهِمْ بِهِ بِغَيْرِ خِلَافٍ ، وَمَا صَحَّ مِنْ قَوْلِ رَسُولِهِ : "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ" وَلَفْظُ الْمُسْكِرِ اسْمُ جِنْسٍ .

(تَشْدِيدُ السُّنَّةِ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ) .

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ إلَّا التِّرْمِذِيَّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ" زَادَ مُسْلِمٌ فِي رِوَايَةٍ "فَلَمْ يَسْقَهَا" .

قِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيَشْرَبُهُ فِيهَا ، وَقِيلَ : لَا يَشْرَبُهَا فِيهَا وَإِنْ مَاتَ مُؤْمِنًا وَدَخَلَهَا ، لِأَنَّهُ اسْتَعْجَلَ شَيْئًا فَجُوزِيَ بِحِرْمَانِهِ ، وَقِيلَ : إلَّا أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عَنْهُ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ لَا يَصِحُّ إلَّا بِالْحَمْلِ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ لِشُرْبِهَا ، لِأَنَّهُ رَادٌّ لِلشَّرِيعَةِ غَيْرُ مُذْعِنٍ لَهَا ، وَرِوَايَةُ مُسْلِمٍ "فَلَمْ يَسْقَهَا" ظَاهِرَةٌ فِي رَدِّهِ .

(267/213)

وَرُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ بِلَفْظِ "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا فَمَاتَ وَهُوَ يُدْمِنُهَا لَمْ يَتُبْ لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ " وَقَدْ عَزَاهُ الْحَافِظُ الْمُنْذِرِيُّ إلَى الشَّيْخَيْنِ وَأَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَالْبَيْهَقِيِّ قَالَ وَلَفْظُهُ فِي إحْدَى رِوَايَاتِهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ وَإِنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ " وَهَذَا يَرُدُّ ذَلِكَ التَّأْوِيلَ أَيْضًا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَمْنَعِ الْمُنْذِرِيُّ مِنْ حِكَايَتِهِ كَغَيْرِهِ .

وَرَوَى أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ " وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ تُقَدَّمُ الْخَمْرُ عَلَى السَّرِقَةِ ، قِيلَ : هَذَا فِي الْمُسْتَحَلِّ ، وَقِيلَ : النَّفْيُ لِكَمَالِ الْإِيمَانِ : وَقِيلَ : وَهُوَ خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ ، وَقِيلَ : إنَّ الْإِيمَانَ يُفَارِقُ مُرْتَكِبَ أَمْثَالِ هَذِهِ الْكَبَائِرِ مُدَّةَ مُلَابَسَتِهِ لَهَا وَقَدْ يَعُودُ إلَيْهِ بَعْدَهَا ، وَحَقَّقَ الْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِ التَّوْبَةِ مِنَ الْإِحْيَاءِ أَنَّ مُرْتَكِبَ ذَلِكَ لَا يَكُونُ

(268/213)

حَالَ ارْتِكَابِهِ مُتَّصِفًا بِالْإِيمَانِ الْإِذْعَانِيِّ بِحُرْمَةِ ذَلِكَ ، وَكَوْنِهِ مِنْ أَسْبَابِ سَخَطِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ ، لِأَنَّ هَذَا الْإِيمَانَ يَسْتَلْزِمُ اجْتِنَابَ الْعِصْيَانِ .

وَرَوَى أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَالْحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْخَمْرَ وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَشَارِبَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَسَاقِيَهَا وَمُسْقِيَهَا " وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ عَنِ ابْنِ عُمَرَ حَدِيثًا بِمَعْنَاهُ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ جِبْرِيلَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ " لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخَمْرِ عَشْرًا : عَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَشَارِبَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَسَاقِيَهَا ، وَبَائِعَهَا ، وَآكِلَ ثَمَنِهَا ، وَالْمُشْتَرِي لَهَا ، وَالْمُشْتَرَى لَهُ " قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ غَرِيبٌ .

(حِكْمَةُ تَشْدِيدِ الْإِسْلَامِ فِي الْخَمْرِ دُونَ الْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ) .

(وَرَدُّ شُبْهَةٍ عَلَى تَحْرِيمِهَا) .

(269/213)

إذَا قِيلَ : إنَّ دِينَ اللهِ فِي حَقِيقَتِهِ وَجَوْهَرِهِ وَالْحِكْمَةِ مِنْهُ وَاحِدٌ لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الرُّسُلِ الْمُبَلِّغِينَ لَهُ ، وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُ بَعْضُ الشَّرَائِعِ فِي أَمْرَيْنِ أَصْلَيْنِ (أَحَدُهُمَا) : مَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَأَحْوَالِ الشُّعُوبِ وَالْأَجْيَالِ ، (وَثَانِيهُمَا) : مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ اللهِ تَعَالَى مِنْ سَيْرِ أُمُورِ الْبَشَرِ كُلِّهَا عَلَى سُنَّةِ التَّرَقِّي التَّدْرِيجِيِّ الَّذِي مِنْ مُقْتَضَاهُ أَنْ يَكُونَ الْآخِرُ أَكْمَلَ مِمَّا قَبْلَهُ ، بِهَذِهِ السُّنَّةِ أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى دِينَهُ الْعَامَّ ، بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ قُلْتُ : إنَّ فِي الْخَمْرِ مِنَ الضَّرَرِ الذَّاتِيِّ ، مَا كَانَ سَبَبًا لِلْقَطْعِ بِتَحْرِيمِهَا وَمَا ذَكَرْتُ مِنَ التَّشْدِيدِ فِيهَا ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ مُحَرَّمَةً عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْفُسِهِمْ كَانُوا يَشْرَبُونَهَا هَذِهِ شُبْهَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ الْخَمْرِ تَحَدَّثَ بِهَا الْمُحِبُّونَ لَهَا ، وَاسْتَدَلَّ بِهَا بَعْضُهُمْ عَلَى حِلِّ مَا دُونُ الْقَدْرِ الْمُسْكِرِ مِمَّا سِوَى خَمْرَةِ الْعِنَبِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّ نَصَّ الْقُرْآنِ قَاصِرًا عَلَيْهَا تَعَبُّدًا ، كَمَا نَقَلَ ذَلِكَ صَاحِبُ الْعِقْدِ الْفَرِيدِ وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْأُدَبَاءِ الَّذِينَ يَعْنُونَ بِتَدْوِينِ أَخْبَارِ الْفُسَّاقِ وَالْمُجَّانِ

(270/213)

وَغَيْرِهِمْ ، وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ أَقْوَى مِنْ شُبْهَةِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ وَلَا يَدْفَعُهَا جَوَابُكَ عَنْهَا ، بَلْ زَعَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرِبَ مِنْ نَبِيذٍ مُسْكِرٍ

وَلَكِنَّهُ مَزَجَهُ فَلَمْ يَسْكَرْ بِهِ ، فَمَا قَوْلُكَ فِي ذَلِكَ ؟

فَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ نَقْلَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَيْسَ بِحُجَّةٍ عِنْدَنَا ، وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدَنَا فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ مَا ذَكَرُوهُ ، وَإِذَا كَانَ قَدْ وُجِدَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ حَاوَلَ إثْبَاتَ أَنَّ شُرْبَ مَا دُونَ الْقَدْرِ الْمُسْكِرِ مِنَ الْخُمُورِ كُلِّهَا حَلَالٌ إلَّا مَا اتُّخِذَ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ وَهُوَ أَقَلُّهَا ضَرًّا وَشَرًّا مَعَ نَقْلِ الْقُرْآنِ بِالتَّوَاتُرِ ، وَحِفْظِ السُّنَّةِ وَسِيرَةِ أَهْلِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ بِضَبْطٍ وَإِتْقَانٍ لَمْ يَتَّفِقْ مِثْلُهُ لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي نَقْلِ دِينِهَا أَوْ تَارِيخِهَا ، فَهَلْ يَبْعُدُ أَنْ يَدَّعِيَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَى وَيَنْسُبُونَهَا إلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِعِصْمَتِهِمْ ؟

(271/213)

(الْوَجْهُ الثَّانِي) أَنَّا إذَا سَلَّمْنَا مَا يَنْقُلُونَهُ فِي الْعَهْدَيْنِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ مِنَ الْأَخْبَارِ الدَّالَّةِ عَلَى حِلِّ الْخَمْرِ وَعَدَمِ التَّشْدِيدِ إلَّا فِي السُّكْرِ ، نَقُولُ (أَوَّلًا) إنَّ هَذَا التَّحْرِيمَ مِنْ إكْمَالِ الدِّينِ بِالْإِسْلَامِ ، وَقَدْ مَهَّدَ الْأَنْبِيَاءُ لَهُ مِنْ قَبْلُ بِتَقْبِيحِ السُّكْرِ وَذَمِّهِ ، وَلَمْ يُشَدِّدُوا فِي سَدِّ ذَرِيعَتِهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْقَلِيلِ مِنَ الْخَمْرِ لِمَا كَانَ مِنَ افْتِتَانِ الْبَشَرِ بِهَا وَمَنَافِعِهِمْ مِنْهَا ، كَمَا فَعَلَ الْإِسْلَامُ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ . (وَثَانِيًا) إنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَكْمَلَ دِينَهُ الْعَامَّ بِالْإِسْلَامِ إلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْبَشَرَ سَيَدْخُلُونَ فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ تَتَضَاعَفُ فِيهِ مَفَاسِدُ السُّكْرِ ، وَأَنَّ مَصْلَحَتَهُمْ وَخَيْرَهُمْ أَنْ

يَتَسَلَّحَ الْمُؤْمِنُونَ بِأَقْوَى السِّلَاحِ الْأَدَبِيِّ لِاتِّقَاءِ شُرُورِ مَا يُسْتَحْدَثُ مِنْ أَنْوَاعِ الْخُمُورِ الشَّدِيدَةِ الْفَتْكِ بِالْأَجْسَادِ وَالْأَرْوَاحِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يُوجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ فِي صُوَرِ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا سَدُّ ذَرِيعَةِ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ بِتَحْرِيمِ قَلِيلِ الْخَمْرِ وَكَثِيرِهَا .

وَهَاكَ بَعْضُ مَا يُؤْثَرُ عَنْ كُتُبِهِمْ فِي ذَمِّهَا :

(272/213)

جَاءَ فِي نُبُوَّةِ أَشَعْيَا عَلَيْهِ السَّلَامُ (5 : 11 وَيْلٌ لِلْمُبَكِّرِينَ صَبَاحًا يَتَّبِعُونَ الْمُسْكِرَ لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْقِمَّةِ تُلْهِبُهُمُ الْخَمْرُ 12 وَصَارَ الْعُودُ وَالرَّبَابُ وَالدُّفُّ وَالنَّاسُ وَالْخَمْرُ وَلَائِمَهُمْ ، وَإِلَى فِعْلِ الرَّبِّ يَنْظُرُونَ ، وَعَمَلِ يَدَيْهِ لَا يَرَوْنَ 13 لِذَلِكَ سُبِيَ شَعْبِي لِعَدَمِ الْمَعْرِفَةِ ، وَتَصِيرُ شُرَفَاؤُهُ رِجَالَ جُوعٍ وَعَامَّتُهُ يَابِسَيْنِ مِنَ الْعَطَشِ 14 لِذَلِكَ وَسَّعَتِ الْهَاوِيَةُ نَفْسَهَا وَفَغَرَتْ فَاهَهَا بِلَا حَدٍّ) يُشِيرُ إِلَى مَا اسْتَحَقُّوهُ بِذُنُوبِهِمْ تِلْكَ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ (28 : 1 وَيْلٌ لِإِكْلِيلِ فَخْرِ سُكَارَى أَفْرَايِمَ وَلِلزَّهْرِ الذَّابِلِ جَمَالُ بَهَائِهِ الَّذِي عَلَى رَأْسِ وَادِي سَمَائِنِ الْمَضْرُوبِينَ بِالْخَمْرِ إِلَى أَنْ قَالَ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ ضَلُّوا بِالْخَمْرِ وَتَاهُوا بِالْمُسْكِرِ ، الْكَاهِنُ وَالنَّبِيُّ تَرَنَّحَا بِالْمُسْكِرِ ، ابْتَلَعَتْهُمَا الْخَمْرُ ، تَاهَا مِنَ الْمُسْكِرِ ، ضَلَّا فِي

الرُّؤْيَا) وَاعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ عِنْدَهُمْ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مُوحًى إِلَيْهِ .

وَمِنْ شَوَاهِدَ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ بُولُسَ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى أَهْلِ أَفْسِسْ (5 : 18 وَلَا تَسْكَرُوا بِالْخَمْرِ الَّذِي فِيهِ الْخَلَاعَةُ) وَنَهْيُهُ عَنْ مُخَالَطَةِ السِّكِّيرِ (1 كو 5 : 11) وَجَزَاهُ بِأَنَّ السِّكِّيرِينَ لَا يَرِثُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ (غلاه : 21و 1 كو 6 : 9 ، 10) .

نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَشْرَبِ الْخَمْرَ :

(273/213)

أَمَّا نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَكُنْ يَشْرَبُ الْخَمْرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا الْإِسْلَامِ كَمَا صَرَّحُوا بِهِ فِي سِيرَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَشْرَبُ النَّبِيذَ ، قَبْلَ تَحْرِيمِهَا وَبَعْدَهُ ، فَإِذَا اشْتَبَهَ فِي وَصْلِهِ إِلَى حَدِّ الْإِسْكَارِ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَدْ رَوَى الْحُمَيْدِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاوِيَةَ خَمْرٍ فَأَهْدَاهَا إِلَيْهِ عَامًا وَقَدْ حُرِّمَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّهَا قَدْ حُرِّمَتْ فَقَالَ الرَّجُلُ : أَفَلَا أَبِيعُهَا ؟ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا : قَالَ : أَفَلَا أُكَارِمُ بِهَا الْيَهُودَ ؟ قَالَ : إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ أَنْ يُكَارِمَ بِهَا الْيَهُودَ ، قَالَ : فَكَيْفَ أَصْنَعُ ؟ قَالَ : شِنَّهَا عَلَى الْبَطْحَاءِ " وَهَذَا حَدِيثٌ يَدُلُّ عَلَى شُرْبِهِ لَهَا ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ هَكَذَا ، وَلَكِنَّ لَهُ أَصْلًا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَسُنَنِ النَّسَائِيِّ

مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " إِنَّ رَجُلًا أَهْدَى لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاوِيَةَ خَمْرٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَهَا ؟ قَالَ : لَا ، فَسَارَّ (أَيِ الرَّجُلُ) إِنْسَانًا ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بِمَا سَارَرْتَهُ ؟ قَالَ : أَمَرْتُهُ بِبَيْعِهَا ، فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا ، قَالَ فَفَتَحَ الْمَزَادَ حَتَّى ذَهَبَ مَا فِيهَا " وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ

(274/213)

صَاحِبَ الْمُنْتَقَى أَوْرَدَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَتَرَكَ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ الصَّحِيحِ ، وَأَنَّ الشَّوْكَانِيَّ لَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَى سَنَدِهِ .

(275/213)

وَمَا رُوِيَ فِي الْمُسْنَدِ مِنْ شُرْبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَبِيذِ السِّقَايَةِ بِمَكَّةَ وَهُوَ مَا يَشْرَبُ مِنْهُ النَّاسُ فِي الْحَرَمِ وَمِنْ كَوْنِهِ شَمَّهُ أَوَّلًا (وَقِيلَ ذَاقَهُ) فَقَطَّبَ وَأَمَرَ بِأَنْ يُزَادَ فِيهِ الْمَاءُ فَهُوَ إِنْ صَحَّ لَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ كَانَ مُسْكِرًا وَلَا عَلَى كَوْنِهِ شَرِبَ مِنْهُ كَانَ نَسْخًا لِتَحْرِيمِ كُلِّ مُسْكِرٍ ،

كَمَا يَزْعُمُ بَعْضُ الْمَفْتُونِينَ بِالنَّبِيذِ ، إذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانَتِ الرِّوَايَةُ دَالَّةً عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُصِرِّينَ عَلَى شُرْبِ الْمُسْكِرِ وَعَلَى إسْقَائِهِ لِلْحُجَّاجِ جَهْرًا فِي الْحَرَمِ وَهَذَا زَعْمٌ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ ، بَلْ هُوَ مَنْقُوصٌ بِالرِّوَايَاتِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا رُبَّمَا تَوَاتَرَ مِنْ أَنَّهُمْ تَرَكُوا بَعْدَ نُزُولِ آيَاتِ الْمَائِدَةِ كُلَّ مُسْكِرٍ وَإِنَّمَا يُفَسِّرُ ذَلِكَ مَا قَالَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِوَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ إذْ أَذِنَ لَهُمْ بِالِانْتِبَاذِ فِي الْأَسْقِيَةِ (أَيْ قِرَبِ الْجِلْدِ) قَالَ : " فَإِنِ اشْتَدَّ فَاكْسِرُوهُ بِالْمَاءِ فَإِنْ أَعْيَاكُمْ فَأَهْرِيقُوهُ " وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ مَاذَا يَفْعَلُونَ إذَا اشْتَدَّ فِي الْأَسْقِيَةِ فَقَالَ : " صُبُّوا عَلَيْهِ الْمَاءَ فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ لَهُمْ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ : أَهْرِيقُوهُ . . . الْحَدِيثَ " رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَهُوَ يُفَسِّرُ لَنَا أَمْرَهُ بِكَسْرِ مَا فِي سِقَايَةِ الْحُجَّاجِ بِالْمَاءِ إذْ شَمَّهُ فَعَلِمَ أَنَّهُ بَدَا فِيهِ التَّغَيُّرُ وَقَرُبَ أَنْ يَصِيرَ خَمْرًا ، وَكَمَا أَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ شُرْبُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(276/213)

مِنَ النَّبِيذِ الْمُسْكِرِ لَمْ يَصِحَّ أَيْضًا مَا رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ أَنَّ رَجُلًا شَرِبَ مِنْ إدَاوَةِ عُمَرَ فَسَكِرَ ، فَجَلَدَهُ وَقَالَ : جَلَدْنَاكَ لِلسُّكْرِ ، أَيْ لَا لِمُجَرَّدِ الشُّرْبِ .

وَيَقُولُ بَعْضُ النَّصَارَى : إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرِبَ الْخَمْرَ مَعَ بَحِيرَا الرَّاهِبِ وَبَعْضِ الصَّحَابَةِ ، وَأَنَّ بَعْضَ مَنْ سَكِرَ مِنَ الصَّحَابَةِ قَتَلَ الرَّاهِبَ بِسَيْفِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ تَحْرِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْخَمْرِ وَهَذَا قَوْلٌ مُخْتَلَقٌ لَا أَصْلَ لَهُ الْبَتَّةَ ، فَلَمْ يُرْوَ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحٍ وَلَا ضَعِيفٍ وَلَا مَوْضُوعٍ ، وَبَحِيرَا الرَّاهِبُ لَمْ يَجِئِ الْحِجَازَ ، وَإِنَّمَا رُوِيَ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَغَيْرِهِ مِنْ تُجَّارِ مَكَّةَ فِي بُصْرَى بِالشَّامِ وَلَمَّا اخْتَبَرَ حَالَهُ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى وَالْأَنْبِيَاءُ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وَأَوْصَى بِهِ عَمَّهُ وَحَذَّرَهُ مِنَ الْيَهُودِ أَنْ يَكِيدُوا لَهُ ، وَكَانَتْ سِنُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ بَحِيرَا أَدْرَكَ الْبَعْثَةَ ، وَلَيْسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي حَرَّمَ الْخَمْرَ كَمَا حَرَّمَ صَيْدَ الْمَدِينَةِ وَخَلَّاهَا : بَلْ كَانَ ذَلِكَ بِوَحْيٍ تَدْرِيجِيٍّ كَمَا تَقَدَّمَ .

(التَّدَاوِي بِالْخَمْرِ) .

(277/213)

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي التَّدَاوِي بِالْخَمْرِ وَالنَّجَاسَاتِ وَالسُّمُومِ لِحَدِيثِ طَارِقِ بْنِ سُوَيْدٍ الْجُعْفِيِّ فِي الْخَمْرِ سَيَأْتِي وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ " نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الدَّوَاءِ الْخَبِيثِ يَعْنِي السُّمَّ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ ، وَحَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَرْفُوعًا : " إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا

بِحَرَامٍ " رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَيَّاشٍ وَهُوَ ثِقَةٌ فِي الشَّامِيِّينَ كَمَا هُنَا ، ضَعِيفٌ فِي الْحِجَازِيِّينَ وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ إِذْنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْعُرَنِيِّينَ بِالتَّدَاوِي بِأَبْوَالِ الْإِبِلِ ، قَالَ بَعْضُهُمْ بِعَدَمِ الْجَوَازِ مُطْلَقًا ، وَقَالَ آخَرُونَ : يَجُوزُ بِشَرْطِ عَدَمِ وُجُودِ دَوَاءٍ مِنَ الْحَلَالِ يَقُومُ مَقَامَ الْحَرَامِ ، وَقَالَ شَيْخُنَا مُحَمَّد عَبْده : يُشْتَرَطُ فِي التَّدَاوِي بِالْخَمْرِ أَلَّا يَقْصِدَ الْمُتَدَاوِي بِهَا اللَّذَّةَ وَالنَّشْوَةَ وَلَا يَتَجَاوَزُ مِقْدَارَ مَا يُحَدِّدُهُ الطَّبِيبُ ، وَقَدْ جَاءَ فِي فَتَاوَى الْمُجَلَّدِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الْمَنَارِ السُّؤَالُ وَالْجَوَابُ الْآتِيَيْنِ :

(السُّؤَالُ) هَلْ يَحِلُّ التَّدَاوِي بِالْخَمْرِ إِذَا ظُنَّ نَفْعُهَا بِخَبَرِ طَبِيبٍ أَخْذًا مِنْ آيَةِ (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (22 : 78) وَمِنَ الْقَاعِدَةِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا : الضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ ؟ وَإِذَا جَوَّزْتُمْ فَمَاذَا تَرَوْنَ فِي حَدِيثِ " إِنَّهَا دَاءٌ وَلَيْسَ بِدَوَاءٍ " أَوْ كَمَا وَرَدَ ؟

(278/213)

(الْجَوَابُ) التَّدَاوِي بِالْخَمْرِ لِمَنْ ظَنَّ نَفْعَهَا شَيْءٌ وَالِاضْطِرَارُ إِلَى شُرْبِهَا شَيْءٌ آخَرُ ، فَأَمَّا الِاضْطِرَارُ فَإِنَّمَا يَعْرِضُ لِبَعْضِ الْأَفْرَادِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ، وَهُوَ يُبِيحُ الْمُحَرَّمَ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ بِنَصِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) (6 :

119) يَنْفِي الْحَرَجَ وَالْعُسْرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ (أَيْ كَالنَّهْيِ عَنِ الْإِلْقَاءِ بِالنَّفْسِ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وَقَدْ مَثَّلَ الْفُقَهَاءُ لَهُ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ بِمَنْ غُصَّ بِلُقْمَةٍ فَكَادَ يَخْتَنِقُ وَلَمْ يَجِدْ مَا يُسِيغُهَا بِهِ سِوَى الْخَمْرِ وَمِثْلُهُ مَنْ دَنَقَ مِنَ الْبَرْدِ وَكَادَ يَهْلِكُ وَلَمْ يُوجَدْ مَا يَدْفَعُ بِهِ الْهَلَاكَ بَرْدًا سِوَى جَرْعَةٍ أَوْ كُوبٍ مِنْ خَمْرٍ .

وَمِثْلُهُ أَوْ أَوْلَى مِنْهُ مَنْ أَصَابَتْهُ نَوْبَةُ أَلَمٍ فِي قَلْبِهِ كَادَتْ تَقْضِي عَلَيْهِ وَقَدْ عَلِمَ أَوْ أَخْبَرَهُ الطَّبِيبُ بِأَنَّهُ لَا يَجِدُ مَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْخَطَرَ سِوَى شُرْبِ مِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْخَمْرِ الْقَوِيَّةِ كَالنَّوْعِ الْإِفْرِنْجِيِّ الَّذِي يُسَمُّونَهُ (كُونْيَاكَ) فَإِنَّنَا نَسْمَعُ مِنَ الْأَطِبَّاءِ أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لِعِلَاجِ مَا يَعْرِضُ مِنْ مَرَضِ

(279/213)

الْقَلْبِ وَدَفْعِ الْخَطَرِ وَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ بِالتَّجْرِبَةِ ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْعِلَاجِ لَا يَكَادُ يَكُونُ شُرْبًا لِلْخَمْرِ وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْهُ نُقَطٌ قَلِيلَةٌ لَا تُسْكِرُ ، وَأَمَّا التَّدَاوِي الْمُعْتَادُ بِالْخَمْرِ لِمَنْ يَظُنُّ نَفْعَهَا وَلَوْ بِإِخْبَارِ الطَّبِيبِ كَتَقْوِيَةِ الْمَعِدَةِ أَوِ الدَّمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا نَسْمَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ النَّاسُ يَفْعَلُونَهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَصُّ الْحَدِيثِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ السَّائِلُ " إِنَّهُ لَيْسَ بِدَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَسَبَبُهُ أَنَّ

طَارِقَ بْنَ سُوَيْدٍ الْجُعْفِيَّ سَأَلَ النَّبِيَّ عَنِ الْخَمْرِ وَكَانَ يَصْنَعُهَا فَنَهَاهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : إنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ ، فَقَالَهُ ، وَقَوْلُهُ : " وَلَكِنَّهُ دَاءٌ " وَهُوَ الْحَقُّ وَعَلَيْهِ إجْمَاعُ الْأَطِبَّاءِ ، فَإِنَّ الْمَادَّةَ الْمُسْكِرَةَ مِنَ الْخَمْرِ سُمٌّ تَتَوَلَّدُ مِنْهُ أَمْرَاضٌ كَثِيرَةٌ يَمُوتُ بِهَا فِي كُلِّ عَامٍ أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ ، وَالسُّمُومُ قَدْ تَدْخُلُ فِي تَرْكِيبِ الْأَدْوِيَةِ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَلَوْ بِقَصْدِ التَّدَاوِي بِهَا لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي أَعْصَابِهِمْ سُمُّهَا ، فَتَصِيرَ مَطْلُوبَةً عِنْدَهُمْ لِذَاتِهَا ، أَيْ لَا لِمُجَرَّدِ التَّدَاوِي بِهَا ، فَيَتَضَرَّرُونَ بِسُمِّهَا ، فَلَا يَغْتَرَّنَّ مُسْلِمٌ بِأَمْرِ أَحَدٍ مِنَ الْأَطِبَّاءِ بِالتَّدَاوِي بِهَا لِمِثْلِ مَا يَصِفُونَهَا لَهُ عَادَةً وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ اه .

(280/213)

هَذَا مَا أَجَبْنَا بِهِ عَنْ ذَلِكَ السُّؤَالِ وَنَزِيدُ فِي إيضَاحِهِ بِالْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ وَاعْتِبَارِ الْقِيَاسِ فَنَقُولُ إنَّ الْمِقْدَارَ الْمُسْكِرَ مِنَ الْخَمْرِ مُحَرَّمٌ لِذَاتِهِ ، أَيْ لِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ وَالْمَفَاسِدِ الَّتِي بَيَّنَّا أَنْوَاعَهَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ وَمَا دُونَ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَالْقَاعِدَةُ أَنَّ مَا حُرِّمَ لِذَاتِهِ يُبَاحُ لِلضَّرُورَةِ إنْ كَانَ مِمَّا يُضْطَرُّ إلَيْهِ كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ ، وَمِنْهُ شُرْبُ الْخَمْرِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْفَتْوَى آنِفًا ، (وَلَيْسَ مِنْهُ مِثْلُ الزِّنَا كَمَا لَا يَخْفَى) وَيُعَبِّرُونَ عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ بِقَوْلِهِمْ : " الضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ " وَإِذَا وَصَلَ التَّدَاوِي

بِالْخَمْرِ إِلَى حَدِّ الْإِضْرَارِ إِلَيْهِ بِشَهَادَةِ الثِّقَةِ مِنَ الْأَطِبَّاءِ يَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهِ قَاعِدَةُ " الضَّرُورَاتُ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا " فَلَا يَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى مَا يَقُولُ الطَّبِيبُ حَتَّى إِذَا حَدَّدَهُ بِالنُّقَطِ امْتَنَعَ زِيَادَةُ نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَمَّا الْمُحَرَّمُ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ فَقَدْ يُبَاحُ لِلْحَاجَةِ كَرُؤْيَةِ الطَّبِيبِ لِعَوْرَاتِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ لِأَجْلِ التَّدَاوِي فَالتَّدَاوِي بِالْخَمْرِ عَلَى هَذَا جَائِزٌ مُطْلَقًا أَوْ إِذَا لَمْ يُوجَدْ غَيْرُهُ يَقُومُ مَقَامَهُ ، وَعَدَّهُ بَعْضُهُمْ كَتَدَاوِي الْعُرَنِيِّينَ بِأَبْوَالِ الْإِبِلِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ عِلَّةَ الْمَنْعِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا نَجِسٌ عِنْدَ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ مِنَ الْفُقَهَاءِ كَالشَّافِعِيَّةِ ، وَظَاهِرُ حَدِيثِ طَارِقِ بْنِ

(281/213)

سُوَيْدٍ أَنَّ الْخَمْرَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ

دَوَاءً فَيَكُونُ مُسْتَثْنًى مِنَ الْقَاعِدَةِ وَلَا قِيَاسَ مَعَ النَّصِّ ، هَذَا إِذَا كَانَ التَّدَاوِي بِالْخَمْرِ مُبَاشَرَةً لِغَيْرِ اضْطِرَارٍ ، أَمَّا دُخُولُ نُقَطٍ مِنَ الْخَمْرِ فِي عِلَاجٍ مُرَكَّبٍ تَكُونُ أَجْزَاءُ الْخَمْرِ فِيهِ مَغْلُوبَةً غَيْرَ ظَاهِرَةٍ وَلَا مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُسْكِرَ فَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ فَهُوَ كَالْقَلِيلِ مِنَ الْحَرِيرِ فِي الثَّوْبِ .

(أَسْبَابُ تَرْجِيحِ شُرْبِ الْخَمْرِ الضَّارِّ عَلَى حِفْظِ الصِّحَّةِ وَالْعَقْلِ وَالدِّينِ) .

ثَبَتَ بِالِاخْتِبَارِ وَالْإِحْصَاءِ الَّذِي عُنِيَ بِهِ الْإِفْرِنْجُ أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ يُبْتَلَوْنَ بِشُرْبِ الْخَمْرِ لَا يُقْدِمُونَ

عَلَى شُرْبِهَا إِلَّا بِإِغْرَاءِ الْقُرَنَاءِ وَالْمُعَاشِرِينَ وَالْأَصْحَابِ ، وَأَنَّهُمْ يَحْتَسُونَهَا فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ إِلَّا كُرْهًا ، لِبَشَاعَةِ طَعْمِهَا وَاعْتِقَادِ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُقْدِمُونَ عَلَى عَمَلٍ مُنْكَرٍ أَوْ ضَارٍّ وَلَكِنَّ غَرِيزَةَ التَّقْلِيدِ فِي الْإِنْسَانِ وَضَعْفَ إِرَادَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنْ مُخَالَفَةِ الْعُشَرَاءِ وَالْخِلَّانِ ، هُمَا اللَّذَانِ يُمَهِّدَانِ السَّبِيلَ لِطَاعَةِ الشَّيْطَانِ .

(282/213)

أَمَّا الشُّبْهَةُ الَّتِي يُرَجِّحُ بِهِ الْعَالِمُونَ بِضَرَرِ الْخَمْرِ دَاعِيَتَيِ التَّقْلِيدِ وَمُوَاتَاةِ الْعُشَرَاءِ أَوَّلًا وَطَاعَةِ غُولِ الْخَمْرِ آخِرًا عَلَى دَاعِيَةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى صِحَّةِ الْجِسْمِ وَالْعَقْلِ ، فَهِيَ ظَنُّهُ أَنَّ الضَّرَرَ الْمُتَيَقَّنَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِسْرَافِ فِي الشُّرْبِ ، وَالِانْهِمَاكِ فِي السُّكْرِ ، وَأَنَّ شُرْبَ الْقَلِيلِ مِنَ الْخَمْرِ إِمَّا أَنْ يَنْفَعَ وَإِمَّا أَلَّا يَضُرَّ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتْرُكَ فِيهِ مِنْ لَذَّةِ النَّشْوَةِ وَالذُّهُولِ عَنِ الْمُكَدِّرَاتِ وَمِنْ مُجَامَلَةِ الْإِخْوَانِ ، لِتَوَهُّمِ ضَرَرٍ نَجَا مِنْهُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، وَلَوْ سَأَلَ هَؤُلَاءِ الْمَخْدُوعُونَ مَنْ سَبَقَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْمِحْنَةِ وَأَسْرَفُوا فِي السُّكْرِ حَتَّى أَفْسَدَ عَلَيْهِمْ صِحَّتَهُمْ وَعِفَّتَهُمْ وَبَيْتَهُمْ وَثَرْوَتَهُمْ : هَلْ كُنْتُمْ يَوْمًا بَدَأْتُمْ بِشُرْبِ الْإِثْمِ تَنْوُونَ الْإِسْرَافَ فِيهِ وَإِدْمَانَهُ ؟ لَأَجَابَهُمْ جَمِيعُ مَنْ سَأَلُوهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ لَا لَا ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَنْوِي أَنْ نَشْرَبَ الْقَلِيلَ ، وَمَا كُنَّا لِنَعْلَمَ أَنَّ الْقَلِيلَ يَقْسِرُنَا عَلَى الْكَبِيرِ ، وَيَرْمِينَا بَعْدَ ذَلِكَ بِالدَّاءِ الْوَبِيلِ حَتَّى لَا نَجِدَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ

سَبِيلٍ؛ وَمِنْ هُنَا تَعْلَمُ أَنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ فِي تَعَلُّلِ شُرْبِ بَعْضِ الْمُتَعَلِّمِينَ الْأَطِبَّاءِ لِلْخَمْرِ مِنْ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّسَامُحِ وَالْأَخْذِ بِالظَّاهِرِ فَالْعِلْمُ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ مَا لَمْ يُعَارِضْهُ مَا هُوَ أَرْجَحُ مِنْهُ .

(283/213)

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ فَلَهُمْ شُبَهَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ لَا شُبْهَةٌ وَاحِدَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ تَعَلَّقَ بِقَوْلِ مَنْ ذَهَبَ إلَى أَنَّ الْخَمْرَ الْمُتَّخَذَةَ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ هِيَ الْمُحَرَّمَةُ لِذَاتِهَا وَأَنَّ

(284/213)

مَا عَدَاهَا مِنَ الْمُسْكِرَاتِ لَا يَحْرُمُ مِنْهُ إلَّا الْقَدْرُ الْمُسْكِرُ بِالْفِعْلِ ، أَوِ الْحُسْوَةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي تَعْقُبُهَا نَشْوَةُ الْمُسْكِرِ ، وَأَوَّلُوا مَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنَ النَّصِّ عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ مُسْكِرٍ بِأَنَّ لَفْظَ الْمُسْكِرِ وَصْفٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الْمِقْدَارَ الْمُسْكِرَ مِنَ الشَّرَابِ بِالْفِعْلِ هُوَ الْحَرَامُ وَقَدْ بَيَّنَّا رَدَّ هَذَا فِيمَا سَبَقَ ، وَأَنَّ لَفْظَ مُسْكِرٍ فِي تِلْكَ الْأَحَادِيثِ اسْمُ جِنْسٍ يَعُمُّ كُلَّ شَرَابٍ مِنْ شَأْنِهِ الْإِسْكَارُ ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مَقْرُونًا

بِكُلِّ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ" كَمَا تَقَدَّمَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى كُلُّ مِقْدَارٍ مُسْكِرٍ بِالْفِعْلِ يُسَمَّى خَمْرًا ، كَمَا هُوَ بَدِيهِيٌّ عِنْدَ كُلِّ مَنْ لَهُ شَمَّةٌ مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ ، وَكَمَا يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ ، لِمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ التَّنَاقُضِ أَيْضًا ، فَإِنَّ الْمِقْدَارَ الْمُسْكِرَ لِزَيْدٍ رُبَّمَا لَا يَكُونُ مُسْكِرًا لِعَمْرٍو ، وَلَا يَزَالُ بَعْضُ النَّاسِ يَبْحَثُ عَنْ بَعْضِ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ حَتَّى الضَّعِيفَةِ وَالْمَوْضُوعَةِ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى أَنَّ شُرْبَ الْقَلِيلِ مِنَ الْمُسْكِرِ غَيْرُ مُحَرَّمٍ ، وَإِنْ كَانَتْ وَقَائِعَ أَحْوَالٍ لَا يُحْتَجُّ بِهَا عَلَى فَرْضِ صِحَّتِهَا وَيَجْعَلُ ذَلِكَ مَخْرَجًا عَلَى نَصِّ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا وَعَمَلِ أَهْلِ الدِّينِ مِنَ السَّلَفِ

(285/213)

وَالْخَلَفِ ، قَدْ تَقَدَّمَ تَفْنِيدُ الْمَزَاعِمِ وَدَحْضُ الشُّبَهَاتِ الَّتِي يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا هَؤُلَاءِ النَّاسِ وَأَمْثَالُهُمْ كَالَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ تَحْرِيمَ كُلِّ مُسْكِرٍ قَدْ نُسِخَ ، نَعَمْ رَوَى الطَّحَاوِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْحَجَّاجِ بْنِ أَرْطَاةَ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ فِي حَدِيثِ : "كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ" هِيَ الشَّرْبَةُ الَّتِي تُسْكِرُ ، وَحَجَّاجٌ هَذَا ضَعِيفٌ وَمُدَلِّسٌ وَمَا زَعَمَهُ مَرْدُودٌ لُغَةً فَلَا يَقُولُهُ مِثْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ .

وَإِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نُشِيرَ إِلَى تَعِلَّاتِ مَنْ يُقْدِمُونَ عَلَى شُرْبِ أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَمْرِ لِأَجْلِ السُّكْرِ وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَبَائِرِ الْمَعَاصِي ، وَقَدْ فَاتَ زَمَنُ الَّذِينَ كَانُوا يَغُشُّونَ أَنْفُسَهُمْ

وَالنَّاسَ بِتَرْكِ النَّبِيذِ الَّذِي هُوَ نَقِيعُ الزَّبِيبِ وَالتَّمْرِ وَنَحْوِهِمَا زَمَنًا يُسْكِرُ فِيهِ كَثِيرُهُ ثُمَّ قَلِيلُهُ وَيَشْرَبُونَهُ عَلَى تَوَهُّمِ أَنَّهُ حَلَالٌ ، فَإِنْ سَكِرُوا أَحَالُوا عَلَى غَفْلَتِهِمْ عَنِ الْكَثْرَةِ أَوْ عَلَى جَوْرِ السُّقَاةِ عَلَيْهِمْ وَكَابَرُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَقْصِدُونَ السُّكْرَ ، كَمَا كَانَ يَقَعُ مِنْ بَعْضِ الْمُتْرَفِينَ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى ، حَتَّى عُزِيَ إلَى بَعْضِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ ، وَبَعْضِ رِجَالِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ .

(286/213)

مَنِ اخْتَبَرَ حَالَ الْمُبْتَدِئِينَ بِشُرْبِ الْخَمْرِ عَلَى اعْتِقَادِ ضَرَرِهَا فِي الدُّنْيَا ، وَالْمُبْتَدِئِينَ بِشُرْبِهِمْ عَلَى اعْتِقَادِ ضَرَرِهَا فِي الْآخِرَةِ ، يَرَى بَيْنَهُمَا شَبَهًا فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَنْوِي فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الْقَلِيلِ الَّذِي لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فَسَادٌ يُذْكَرُ ، فَأَمَّا الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ مَنْ قَالُوا إنَّ الْقَلِيلَ مِنْ غَيْرِ خَمْرِ الْعِنَبِ لَيْسَ كَالْكَثِيرِ فَيَكُونُ اطْمِئْنَانُهُمْ أَشَدَّ ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النُّصُوصَ وَيُوَافِقُونَ الْجُمْهُورَ فِي تَحْرِيمِ قَلِيلِ مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَمِنْهُمُ الْمُتَفَقِّهَةُ وَغَيْرُ الْمُتَفَقِّهَةِ فَالْمُتَفَقِّهَةُ يُعَلِّلُونَ أَنْفُسَهُمْ أَوَّلًا بِمَسْأَلَةِ عِلَّةِ التَّحْرِيمِ وَحِكْمَتِهِ ، وَقَدْ فَنَّدْنَا شُبْهَتَهُمْ هَذِهِ فِيمَا سَبَقَ ، وَغَيْرُ الْمُتَفَقِّهَةِ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَ التَّعَوُّدِ وَالْإِدْمَانِ ، كَمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ هُمْ

وَالْمُتَفَقِّهَةُ بَعْدَهُ عِنْدَمَا يَعْلَمُونَ بِالِاخْتِبَارِ وَالْعَمَلِ أَنَّ قَلِيلَ الْخَمْرِ يُفْضِي إلَى كَثِيرِهَا ، وَيَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ قَدِ انْغَمَسَتْ فِي شُرُورِهَا وَمَفَاسِدِهَا .

(287/213)

فَالنُّكَاةُ الْأَخِيرَةُ لِمَنْ يَشْرَبُ الْخَمْرَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ هِيَ نُكَاةُ أَكْثَرِ الْمُرْتَكِبِينَ لِسَائِرِ الْمَعَاصِي وَهِيَ الْغُرُورُ بِكَرَمِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ ، إمَّا بِضَمِيمَةِ الِاعْتِمَادِ عَلَى بَعْضِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَلَا سِيَّمَا مَا يُسَمَّى مِنْهَا بِالْمُكَفِّرَاتِ ، أَوْ عَلَى الشَّفَاعَاتِ ، وَإِمَّا بِدُونِ ضَمِيمَةٍ ، وَمِنْ مُكَفِّرَاتِ الذُّنُوبِ مَا لَهُ أَصْلٌ فِي السُّنَّةِ وَمِنْهَا مَا لَا أَصْلَ لَهُ ، وَمَا لَهُ أَصْلٌ قَيَّدُوهُ بِالصَّغَائِرِ أَوْ بِمُقَارَنَةِ التَّوْبَةِ لَهُ ، وَقَدْ فَنَّدْنَا جَهْلَ هَؤُلَاءِ وَغُرُورَهُمْ فِي مَبَاحِثِ التَّوْبَةِ الْكَفَّارَةِ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ النِّسَاءِ (رَاجِعْ تَفْسِيرَ) : (إنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) (4 : 17) (رَاجِعْ ص268 وَمَا بَعْدَهَا ج4ط الْهَيْئَةِ) وَتَفْسِيرَ : (إنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) (4 : 31)

(فِي ص 39 وَمَا بَعْدَهَا ج5 ط الْهَيْئَةِ) وَهَذَا الْجَهْلُ وَالْغُرُورُ يَرْسَخُ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ ، بِمَا نَظَمَهُ وَيَنْظِمُهُ لَهُمْ فُسَّاقُ الشُّعَرَاءِ ، كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ الشَّهِيرِ بِالسُّكْرِ وَالْفُجُورِ :

تَكَثَّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْمَعَاصِي . . . فَإِنَّكَ وَاجِدٌ رَبًّا غَفُورَا

تَعُضُّ نَدامَةً كَفَّيْكَ مِمَّا . . . تَرَكْتَ مَخافَةَ النَّارِ السُّرُورا

وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَذْكُرُ بِهَا اسْتِعَانَتَهُ بِالْخَمْرِ عَلَى الْفُجُورِ بِغُلَامٍ نَصْرَانِيٍّ هَرَبَ مِنْهُ إلَى دَيْرٍ وَتَرَهَّبَ فِيهِ :

وَرَجَوْتُ عَفْوَ اللَّهِ مُعْتَمِدًا . . . عَلَى خَيْرِ الْأَنَامِ مُحَمَّدِ الْمَبْعُوثِ .

(288/213)

لَوْ صَحَّ مَا يَهْذِي بِهِ هَؤُلَاءِ الْفُجَّارُ ، لَكَانَ الدِّينُ كُلُّهُ لَغْوًا وَعَبَثًا لَا حَاجَةَ إلَيْهِ وَحَاشَا لِلَّهِ .

(تَوْضِيحٌ وَاسْتِدْرَاكٌ وَتَصْحِيحٌ) .

فِي بَحْثِ عَدَمِ شُرْبِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَمْرَ .

حَدِيثُ إهْدَاءِ الْخَمْرِ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَعْزُوُّ إلَى الْحُمَيْدِيِّ فِي (ص74) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَإِلَى مُسْلِمٍ وَالنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَكَذَا الْبَغَوِيُّ عَنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ لَهِيعَةَ وَسُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ نَافِعِ بْنِ كَيْسَانَ الثَّقَفِيِّ عَنْ أَبِيهِ : " أَنَّهُ كَانَ يَتَّجِرُ فِي الْخَمْرِ وَأَنَّهُ أَقْبَلَ مِنَ الشَّامِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي جِئْتُكَ (فِي الْإِصَابَةِ : جِئْتُ) بِشَرَابٍ جَيِّدٍ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا كَيْسَانُ إنَّهَا حُرِّمَتْ بَعْدَكَ ، قَالَ : أَفَأَبِيعُهَا ؟ قَالَ : إنَّهَا حُرِّمَتْ وَحُرِّمَ ثَمَنُهَا " وَفِي تَوْثِيقِ ابْنِ لَهِيعَةَ وَسُلَيْمَانَ وَتَضْعِيفُهُمَا مَقَالٌ

مَعْرُوفٌ .

وَرَوَى أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى مِنْ حَدِيثِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُهْدِي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ عَامٍ رَاوِيَةَ خَمْرٍ فَلَمَّا كَانَ عَامَ حُرِّمَتْ جَاءَ بِرَاوِيَةٍ فَقَالَ : " أَشَعَرْتَ أَنَّهَا قَدْ حُرِّمَتْ بَعْدَكَ ؟ قَالَ : أَفَلَا أَبِيعُهَا وَأَنْتَفِعُ بِثَمَنِهَا ؟ فَنَهَاهُ " .

ذَكَرَ الْحَافِظُ بْنُ حَجَرٍ الْحَدِيثَيْنِ فِي الْفَتْحِ وَقَالَ أَوَّلًا : إنَّ فِي حَدِيثِ أَحْمَدَ الْأَوَّلِ

(289/213)

أَنَّ الْمُهْدِيَّ كَانَ مِنْ ثَقِيفٍ أَوْ دَوْسٍ وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ عَامَ الْفَتْحِ ، ثُمَّ قَالَ : وَيُسْتَفَادُ مِنْ حَدِيثِ كَيْسَانَ تَسْمِيَةُ الْمُبْهَمِ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ (أَيِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ أَقُولُ : وَكَذَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي عَزَاهُ صَاحِبُ الْمُنْتَقَى إلَى الْحُمَيْدِيِّ) وَمِنْ حَدِيثِ تَمِيمٍ تَأْيِيدُ الْوَقْتِ الْمَذْكُورِ فَإِنَّ إسْلَامَ تَمِيمٍ كَانَ بَعْدَ الْفَتْحِ . اهـ .

وَأَقُولُ : قَدِ اتَّضَحَ مِنْ مَجْمُوعِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ تَمِيمًا هُوَ الَّذِي قَالُوا إنَّهُ كَانَ يَهْدِي

(290/213)

لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاوِيَةَ خَمْرٍ فِي كُلِّ عَامٍ دُونَ كَيْسَانَ ، وَتَمِيمٌ هَذَا قَدْ أَسْلَمَ سَنَةَ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ كَمَا نَقَلَهُ الْحَافِظُ فِي الْإِصَابَةِ وَأَشَارَ إِلَيْهِ فِي الْفَتْحِ ، فَهُوَ لَمْ يُدْرِكْ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا سَنَةً وَاحِدَةً كَانَتِ الْخَمْرُ مُحَرَّمَةً فِيهَا بِاتِّفَاقِ الرِّوَايَاتِ ، فَإِهْدَاؤُهُ الرَّاوِيَةَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ كَمَا قِيلَ مُتَعَذِّرٌ فَهَذَا حَدِيثٌ يَنْقُضُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ فَلَا يُحْتَجُّ بِهِ ، عَلَى فَرْضِ قُوَّةِ سَنَدِهِ ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ صَحَّ مَتْنًا وَسَنَدًا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَشْرَبُ مِنْ تِلْكَ الْخَمْرِ وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ ، وَأَنَّهُ لَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَقْتَنُونَ الْخَمْرَ وَلَا يَدِينُونَ اللَّهَ بِحُرْمَتِهَا وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَشْرَبُونَهَا ، وَقَدْ يَشْرَبُهَا بَعْضُ أَهْلِ الْبَيْتِ مِنْهُمْ دُونَ بَعْضٍ وَيُقَدِّمُونَهَا لِلضُّيُوفِ ، فَالِاقْتِنَاءُ لَا يَدُلُّ عَلَى الشُّرْبِ .

(291/213)

وَأَمَّا حَدِيثُ شُرْبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَبِيذِ السِّقَايَةِ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي ص74 يَعْزُوهُ إِلَى الْمُسْنَدِ فَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ يَحْيَى بْنِ يَمَانٍ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ : " عَطِشَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ فَاسْتَسْقَى فَأُتِيَ بِنَبِيذٍ مِنَ السِّقَايَةِ فَشَمَّهُ فَقَطَّبَ فَقَالَ : عَلَيَّ بِذَنُوبٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ فَصَبَّ عَلَيْهِ ثُمَّ شَرِبَ ، فَقَالَ رَجُلٌ : أَحَرَامٌ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا " وَقَدْ صَرَّحَ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ رَاوِيَاهُ بِضَعْفِهِ ، لِأَنَّ يَحْيَى بْنَ يَمَانٍ انْفَرَدَ

بِهِ دُونَ أَصْحَابِ سُفْيَانَ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، قَالَ النَّسَائِيُّ : وَيَحْيَى بْنُ يَمَانٍ لَا يُحْتَجُّ بِحَدِيثِهِ لِسُوءِ حِفْظِهِ وَكَثْرَةِ خَطَئِهِ ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ : عَامَّةُ مَا يَرْوِيهِ غَيْرُهُ مَحْفُوظٌ ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ لَا يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ إِلَّا أَنَّهُ يُخْطِئُ وَيُشَبَّهُ عَلَيْهِ ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ : كَانَ سَرِيعَ الْحِفْظِ سَرِيعَ النِّسْيَانِ ، كَانَ يَحْفَظُ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ خَمْسَمِائَةِ حَدِيثٍ ، وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ : وَقَدْ ضَعَّفَ حَدِيثَ أَبِي مَسْعُودٍ الْمَذْكُورَ النَّسَائِيُّ وَأَحْمَدُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَغَيْرُهُمْ يَنْفَرِدُ يَحْيَى بْنُ يَمَانٍ يَرْفَعُهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ .

(292/213)

وَفِي مَعْنَى حَدِيثِ السِّقَايَةِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ " رَأَيْتُ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَدَحٍ فِيهِ نَبِيذٌ وَهُوَ عِنْدَ الرُّكْنِ وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْقَدَحَ فَرَفَعَهُ إِلَى فِيهِ فَوَجَدَهُ شَدِيدًا فَرَدَّهُ عَلَى صَاحِبِهِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَرَامٌ هُوَ ؟ فَقَالَ : عَلَيَّ بِالرَّجُلِ فَأُتِيَ بِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ الْقَدَحَ ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَصَبَّهُ فِيهِ ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَى فِيهِ فَقَطَّبَ ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ أَيْضًا فَصَبَّهُ فِيهِ ثُمَّ قَالَ : إِذَا اغْتَلَمَتْ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الْأَوْعِيَةُ فَاكْسِرُوا مُتُونَهَا بِالْمَاءِ " رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ

طَرِيقِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ نَافِعٍ وَقَالَ فِيهِ : لَيْسَ بِالْمَشْهُورِ وَلَا يُحْتَجُّ

بِحَدِيثِهِ ، وَالْمَشْهُورُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ خِلَافَ حِكَايَتِهِ ، ثُمَّ أَوْرَدَ الرِّوَايَاتِ عَنْهُ بِأَنَّهُ قَالَ : " اجْتَنِبَ كُلَّ شَيٍّ يَنِشُّ " وَقَالَ : " الْمُسْكِرُ قَلِيلُهُ حَرَامٌ وَكَثِيرُهُ حَرَامٌ " وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ : عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَجْهُولٌ مَرَّةً وَخَبَرُهُ مُنْكَرٌ .

أَقُولُ : طَالَمَا دَسَّ الْمُتَلَاعِبُونَ بِالرِّوَايَاتِ أَسْمَاءَ الْمَجْهُولِينَ فِي الْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ لِيُرَوِّجُوا بِهَا مَا يَفْتَرُونَهُ فَأَبْطَلَ رِجَالُ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ دَسِيسَتَهُمْ وَلَوْ ثَبَتَ هَذَا الْحَدِيثُ لِجَازَ الْقَوْلُ بِأَنَّ ذَلِكَ الشَّرَابَ كَانَ قَدْ بَدَأَ فِيهِ التَّغَيُّرُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الْإِسْكَارِ فَكَسَرَهُ بِالْمَاءِ لِئَلَّا يَصِيرَ مُسْكِرًا وَلَا يُمْكِنُ مُوَافَقَتُهُ لِلرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ إِلَّا بِهَذَا .

(293/213)

وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ نَحْوًا مِنْ هَذَا عَنْ عُمَرَ ، وَلَفْظُ النَّسَائِيِّ : عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ : " تَلَقَّتْ ثَقِيفٌ عُمَرَ بِشَرَابٍ فَدَعَا بِهِ فَلَمَّا قَرَّبَهُ إِلَى فِيهِ كَرِهَهُ فَدَعَا بِهِ فَكَسَرَهُ بِالْمَاءِ فَقَالَ : هَكَذَا فَافْعَلُوا " ثُمَّ رَوَى عَنْ عُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ قَالَ : كَانَ النَّبِيذُ الَّذِي قَدْ شَرِبَهُ عُمَرُ قَدْ تَخَلَّلَ (أَيْ صَارَ خَلًّا) وَذَكَرَ الْحَافِظُ الْأَثَرَ فِي الْفَتْحِ عَنِ الْبَيْهَقِيِّ وَفِيهِ أَنَّهُ قَطَّبَ وَجْهَهُ " وَقَالَ : قَالَ نَافِعٌ : وَاللَّهِ مَا قَطَّبَ عُمَرُ وَجْهَهُ لِأَجْلِ الْإِسْكَارِ حِينَ ذَاقَهُ ، وَلَكِنَّهُ تَخَلَّلَ ، وَعَنْ عُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ قَالَ : كَانَ النَّبِيذُ الَّذِي شَرِبَهُ عُمَرُ قَدْ تَخَلَّلَ

وَرَوَى الْأَثْرَمُ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ وَعَنِ الْعُمَرِيِّ أَنَّ عُمَرَ إنَّمَا كَسَرَهُ بِالْمَاءِ لِشِدَّةِ حَلَاوَتِهِ ، ثُمَّ جَمَعَ الْحَافِظُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ بِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي حَالَتَيْنِ ، وَأَنَّهُ لَمَّا قَطَّبَ كَانَ لِحُمُوضَتِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يُقَطِّبْ كَانَ لِحَلَاوَتِهِ .

(294/213)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ مَا وَرَدَ مِنْ كَسْرِ النَّبِيذِ بِالْمَاءِ يَدُلُّ مَجْمُوعُهُ عَلَى أَنْ يُكْسَرَ إذَا أَخَذَ فِي الِاشْتِدَادِ وَالتَّغَيُّرِ خَشْيَةَ أَنْ يَصِيرَ مُسْكِرًا ، فَأَمَّا إذَا صَارَ مُسْكِرًا فَلَا عِلَاجَ لَهُ إلَّا إرَاقَتُهُ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ ، إذْ لَا يُبَاحُ حِينَئِذٍ قَلِيلُهُ وَلَا كَثِيرُهُ ، وَلَوْ أُزِيلَ تَأْثِيرُهُ بِالْمَاءِ ، وَالْمُرَادُ بِالِاشْتِدَادِ الَّذِي وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ اشْتِدَادُ الْحُمُوضَةِ أَوِ الْحَلَاوَةِ كَمَا قَالَهُ الْبَيْهَقِيُّ ، وَمِثْلُهُ الِاغْتِلَامُ .

وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : " إذَا خَشِيتُمْ مِنْ نَبِيذٍ شِدَّتَهُ فَاكْسِرُوهُ بِالْمَاءِ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : مِنْ قَبْلِ أَنْ يَشْتَدَّ " انْتَهَى وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ كُلُّ مَا وَرَدَ فِي الِاشْتِدَادِ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي التَّغَيُّرِ بِالْفِعْلِ عَنْ قُرْبِ وُقُوعِهِ وَإِرَادَتِهِ .

وَمِنَ الِاسْتِدْرَاكِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ حَدِيثُ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ نِيَارٍ " اشْرَبُوا فِي الظُّرُوفِ وَلَا تَسْكَرُوا " قَالَ النَّسَائِيُّ هَذِهِ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ غَلَطَ فِيهِ أَبُو الْأَحْوَصِ سَلَامُ بْنُ سُلَيْمٍ ، وَلَا نَعْلَمُ

أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ سِمَاكٍ تَابَعَهُ عَلَيْهِ وَسِمَاكٌ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَكَانَ يَقْبَلُ التَّلْقِينَ وَخَطَّأَهُ فِيهِ أَحْمَدُ أَيْضًا .

(295/213)

وَمَثَلُهُ حَدِيثُ عَائِشَةَ " اشْرَبُوا وَلَا تَسْكَرُوا " قَالَ النَّسَائِيُّ : وَهَذَا غَيْرُ ثَابِتٍ أَيْضًا ، وَقَالَ فِي قِرْصَافَةَ رَاوِيَتِهِ عَنْ عَائِشَةَ لَا يُدْرَى مَنْ هِيَ ، وَالْمَشْهُورُ عَنْ عَائِشَةَ خِلَافُ مَا رَوَتْهُ عَنْهَا قِرْصَافَةُ ، ثُمَّ ذَكَرَ الرِّوَايَاتِ عَنْهَا فِي ذَلِكَ كَقَوْلِهَا : " لَا أُحِلُّ مُسْكِرًا وَإِنْ كَانَ خُبْزًا وَإِنْ كَانَ مَاءً " وَقَوْلِهَا لِلنِّسَاءِ : " وَإِنْ أَسْكَرَكُنَّ مَاءُ حُبِّكُنَّ فَلَا تَشْرَبْنَهُ " أَقُولُ : كَذَبُوا عَلَى عَائِشَةَ كَمَا كَذَبُوا عَلَى ابْنِ عُمَرَ بِخِلَافِ مَا صَحَّ عَنْهُمَا .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ فِي هَذَا الْمَعْنَى شَيْءٌ ، عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ حَمْلُ مَعْنَاهُ عَلَى مَا يُوَافِقُ سَائِرَ النُّصُوصِ وَهُوَ الْإِذْنُ بِشُرْبِ النَّبِيذِ (النَّقِيعِ) إذَا عُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَخْتَمِرْ فَيَصِيرُ مُسْكِرًا لِئَلَّا يُكْسَرَ بِهِ ، وَأَمَّا حَمْلُهُ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْكَثِيرَةِ فِي تَحْرِيمِ كُلِّ مُسْكِرٍ وَفِي تَسْمِيَتِهِ خَمْرًا عَلَى الْمُسْكِرِ بِالْفِعْلِ فَهُوَ تَحْرِيفٌ لِلُّغَةِ وَإِفْسَادٌ لَهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَإِنِّي لَأَعْجَبُ كَيْفَ يَقُولُ عَاقِلٌ إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ الصَّحَابَةَ بِأَنْ يَشْرَبُوا مِنَ الْمُسْكِرِ وَأَلَّا يَسْكَرُوا ،

هَلْ يَتَيَسَّرُ لِوَاحِدٍ مِنْ أَلْفٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَشْرَبَ مِنَ الْمُسْكِرِ وَلَا يَسْكَرَ ؟

(عُقُوبَةُ شَارِبِ الْخَمْرِ) .

(296/213)

ثَبَتَ فِي أَحَادِيثِ الصَّحِيحَيْنِ مُجْتَمِعِينَ وَمُنْفَرِدِينَ " أَنَّهُ كَانَ يُؤْتَى بِالشَّارِبِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُضْرَبُ بِالْأَيْدِي وَالْجَرِيدِ وَالثِّيَابِ وَالنِّعَالِ " وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ عِنْدَ أَحْمَدَ وَمُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَجُلِدَ بِجَرِيدَتَيْنِ نَحْوَ أَرْبَعِينَ ، قَالَ وَفَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ ، فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ اسْتَشَارَ النَّاسَ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : أَخَفُّ الْحُدُودِ ثَمَانِينَ ، فَأَمَرَ بِهِ عُمَرُ " وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ " مَا كُنْتُ لِأُقِيمَ عَلَى أَحَدٍ حَدًّا فَيَمُوتُ وَأَجِدُ فِي نَفْسِي شَيْئًا إلَّا صَاحِبَ الْخَمْرِ فَإِنَّهُ لَوْ مَاتَ وَدَيْتُهُ (أَيْ دَفَعْتُ دِيَتَهُ) وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسُنَّهُ " .

(297/213)

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : " أَنَّ عُثْمَانَ أَتَى بِالْوَلِيدِ وَقَدْ صَلَّى الصُّبْحَ رَكْعَتَيْنِ وَقَالَ : أَزِيدُكُمْ فَشَهِدَ عَلَيْهِ حُمْرَانُ أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ ، وَشَهِدَ آخَرُ أَنَّهُ رَآهُ يَتَقَيَّؤُهَا ، فَقَالَ عُثْمَانُ : إنَّهُ لَمْ يَتَقَيَّأْهَا حَتَّى شَرِبَهَا ، وَأَمَرَ بِجَلْدِهِ ، فَجَلَدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ وَعَلِيٌّ يَعُدُّ حَتَّى بَلَغَ أَرْبَعِينَ فَقَالَ : أَمْسِكْ ، ثُمَّ قَالَ : جَلَدَ النَّبِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ وَعُمَرُ ثَمَانِينَ ، وَكُلٌّ سُنَّةٌ ، وَهَذَا أَحَبُّ إلَيَّ " أَقُولُ : يَعْنِي الْأَرْبَعِينَ الَّذِي أَمَرَ بِهَا ، وَقَوْلُهُ : " وَكُلٌّ سُنَّةٌ " مَعْنَاهُ أَنَّهُ جَرَى بِهِ الْعَمَلُ ، وَهَذَا لَا يُعَارِضُ قَوْلَهُ فِي رِوَايَةِ الصَّحِيحَيْنِ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسُنَّ حَدَّ الْخَمْرِ ; " لِأَنَّ ضَرْبَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَا يُعَدُّ سُنَّةً مَحْدُودَةً لَهُ مَعَ مُخَالَفَتِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَإِنَّمَا صَارَ سُنَّةً عَمَلِيَّةً لِجَرْيِ أَبِي بَكْرٍ عَلَيْهِ ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ مَجْمُوعِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْمَشْرُوعَ فِي الْعِقَابِ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ وَهُوَ الضَّرْبُ الْمُرَادُ مِنْهُ إهَانَةُ الشَّارِبِ وَتَنْفِيرُ النَّاسِ مِنَ الشُّرْبِ ، وَإِنَّ ضَرْبَ الشَّارِبِ أَرْبَعِينَ وَثَمَانِينَ كَانَ اجْتِهَادًا مِنَ الْخُلَفَاءِ فَاخْتَارَ الْأَوَّلَ أَبُو بَكْرٍ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ مَا وَقَعَ

(298/213)

بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ وَاخْتَارَ عُمَرُ الثَّمَانِينَ بِمُوَافَقَتِهِ لِاجْتِهَادِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ بِتَشْبِيهِهِ بِحَدِّ قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ ، وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ هَذَا الِاجْتِهَادَ عَنْ عَلِيٍّ أَيْضًا ، قَالَ : " إذَا شَرِبَ

سَكِرَ وَإِذَا سَكِرَ هَذِيَ وَإِذَا هَذِيَ افْتَرَى وَعَلَى الْمُفْتَرِي ثَمَانُونَ جَلْدَةً " وَرَوَاهُ عَنْهُ غَيْرُهُ بِرِوَايَاتٍ فِيهَا مَقَالَاتٌ تُرَاجَعُ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ لِأَهْلِهِ ، فَمِنْهَا يُعْرَفُ الصَّحِيحُ وَغَيْرُ الصَّحِيحِ لَا مِنْ كُتُبِ الْفُقَهَاءِ الَّتِي يُورِدُ أَهْلُ كُلِّ مَذْهَبٍ مِنْهَا مِمَّا يُقَوِّي مَذْهَبَهُ ، وَيُضَعِّفُ مَذْهَبَ غَيْرِهِمْ .

(فَائِدَةٌ فِي الْمَشْرُوعِ مِنَ الْمُسَابَقَةِ وَالرِّمَايَةِ) .

ذَكَرْنَا فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَيْسِرِ أَنَّ أَخْذَ الْمَالِ فِي الْمُسَابَقَةِ جَائِزٌ شَرْعًا ، وَقَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُ الْعَامَّةِ مِنْهُ أَنَّ مُسَابَقَةَ الْخَيْلِ فِي مِصْرَ وَغَيْرِهَا مِنْ ذَلِكَ الْجَائِزِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا مِنَ الْقِمَارِ الْمُحَرَّمِ ، وَأَمَّا الْجَائِزُ شَرْعًا فَحِكْمَتُهُ أَنَّهُ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَدِ اشْتُرِطَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ السَّبَقُ بِفَتْحِ السِّينِ وَالْبَاءِ وَهُوَ الْجُعْلُ الَّذِي يَكُونُ لِصَاحِبِ الْفَرَسِ السَّابِقِ إِمَّا عَنِ الْإِمَامِ (أَيِ الْخَلِيفَةِ وَالسُّلْطَانِ) وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ ، وَإِمَّا مِنْ أَحَدِ الْمُتَسَابِقِينَ وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَالُ السَّبَقِ مِنْ

(299/213)

كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَإِذَا دَخَلَ بَيْنَهُمَا ثَالِثٌ اشْتَرَطَ أَيْضًا أَلَّا يَخْرُجَ مِنْ عِنْدِهِ شَيْئًا ، وَبِهَذِهِ الشُّرُوطِ السَّابِقَةِ مِنْ مَعْنَى الْمَيْسِرِ وَالْقِمَارِ ، وَمَا اشْتَرَطَهُ الْفُقَهَاءُ مِنْ كَوْنِ الْمُسَابَقَةِ مَعْرُوفَةَ الِابْتِدَاءِ

وَالِانْتِهَاءِ ، وَكَوْنِ الْجُعْلِ وَالْمَسَافَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا مَعْلُومَيْنِ وَكَوْنِ الْفَرَسَيْنِ أَوِ الْأَفْرَاسِ مُعَيَّنَةً ، وَكَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا أَوْ مِنْهَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَسْبِقَ كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَشْتَرِطُهُ الْمُقَامِرُونَ أَيْضًا وَيَزِيدُونَ عَلَيْهِ .

(300/213)

رَوَى أَحْمَدُ بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَقَ بِالْخَيْلِ وَرَاهَنَ " وَفِي لَفْظٍ : " سَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ وَأَعْطَى السَّابِقَ " وَرَوَى بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَقِيلَ لَهُ : أَكُنْتُمْ تُرَاهِنُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَانَ رَسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَاهِنُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَاهَنَ عَلَى فَرَسٍ يُقَالُ لَهُ سَبْحَةُ فَسَبَقَ النَّاسَ فَبَهَشَ لِذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ " وَرَوَى الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمُ عَنْ طُرُقٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا سَبَقَ إلَّا فِي خُفٍّ أَوْ نَصْلٍ أَوْ حَافِرٍ " وَلَمْ يَذْكُرِ ابْنُ مَاجَهْ " أَوْ نَصْلٍ " صَحَّحَهُ ابْنُ الْقَطَّانِ وَابْنُ حِبَّانَ وَحَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَالْمُرَادُ بِالنَّصْلِ السِّهَامُ ، وَعَبَّرَ عَنِ السَّهْمِ بِحَدِيدَتِهِ الْجَارِحَةِ ، يُقَاسُ عَلَى الرَّمْيِ بِالسَّهْمِ الرَّمْيُ بِبُنْدُقِ الرَّصَاصِ وَقَذَائِفِ الْمَدَافِعِ ، وَأَجَازَ

الشَّافِعِيُّ الْمُسَابَقَةَ عَلَى الْأَقْدَامِ بِعِوَضٍ ، وَهَذَا مِنَ الرِّيَاضَةِ الْقَوِيَّةِ لِلْأَبْدَانِ عَلَى الْقِتَالِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 83.41 ﴾

(301/213)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا ﴾

لقد أنزل الحق هذه الآية ليُطَمْئن المؤمنين السائلين عن الحكم في إخوانهم الذين ماتوا أو استشهدوا وكانوا يشربون الخمر قبل نزول الحكم بتحريمها . ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ فِيمَا طعموا ﴾ و ﴿ طعموا ﴾ لا تخص الطعام فقط ولكن تشمل وتضم الشراب أيضاً ، فالحق يقول : ﴿ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني ﴾ [البقرة : 249] .

وعلى ذلك فالماء طعام ، بمعنى أن طعمه يكون في الفم . وهكذا عرف المسلمون السائلون عن إخوانهم الذين ماتوا أو استشهدوا أن إسلامهم كان مقصوراً على الأحكام التي نزلت في أثناء حياتهم ، فقد نفذوا المطلوب منهم بعدم عبادة الأصنام . وقد يكون منهم من مات

قبل أن تفرض الصلاة ، أو مات قبل أن تنزل أحكام الزكاة أو الصوم ، ولذلك لم يفعلوها .

وعلى ذلك يكون عملهم الصالح هو تنفيذ التعاليم التي نزلت إليهم . لقد اتقوا الله فنفذوا مطلوب الإيمان على قدر ما طلب منهم الحق ، آمنوا بالإله المكلِّف وجعلوا بينهم وبين الله وقاية بأن نفذوا مطلوبه سبحانه امراً ونهياً .

(302/213)

والإيمان له قمة هي أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبعد ذلك بالأحكام التي تنزل من السماء . واختلف العلماء فيما بينهم في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ، فمن العلماء من قال : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، إنما نظروا إلى الإيمان بالقمة العقدية وهي الإيمان بالله : والذين قالوا بأن الإيمان يزيد وينقص إنما نظروا إلى الإيمان بالأحكام التي ينزلها الله ، وأخذوا ذلك من قوله الحق : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : 124] .

فكل آية تنزل بأحكام جديدة فهي تزيد الإيمان . فعندما نزل الحكم بالزكاة أمن به المسلمون وطبقوه . ومنهم ممن لم يكن يملك المال فلم يطبق الحكم على الرغم من أنه آمن به .

فالمسلم يؤمن بالحكم ، وإن كان مستطيعاً فهو يفعله ، وإن كان غير مستطيع فهو لا يفعله .

ولهذا كانوا يستبشرون بالأحكام التي تنزل بها الآيات . وعلى ذلك يكون خلاف العلماء خلافا على جهة منفكة ، ونلحظ أن الحق يقول : ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جُنَاحٌ فِيمَا طعموا إِذَا مَا اتقوا وَآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [المائدة : 93] .

إذن ، فهنا ثلاث مراحل : هناك من أدرك حكماً فاتقى الله وآمن وعمل صالحاً ، وبعد ذلك انتقل وأفضى إلى ربه فلا جناح عليه ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً أخرى فآمن بها وعمل بها ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً قد زادت فعمل بها أيضاً . والإيمان الأول ارتبط بالعمل الصالح ، وكذلك الإيمان الثاني الذي جاء في الآية .

ثم يأتي الإيمان الثالث مرتبطاً بالإحسان .

(303/213)

والإحسان كما نعلم له وجهان : الأول أن يعبد المؤمن الله كأنه يراه ، وكلما جاء تكليف ، يحسن المؤمن في أدائه ، كأنه يرى الله ، وإن لم يكن يراه فإنه يحس أنه سبحانه يراه . وإذا ما استوعب المسلم كل أحكام الله التي استوعبت بدورها كل أقضية الحياة ، فهو يحسن أداء هذه الأحكام . والوجه الثاني للإحسان أن يزيد المؤمن في أداء هذه التكاليف فوق ما

فرض الله ، وهي النوافل . وبذلك لا يكتفي المؤمن بتصديق الأحكام التي نزلت ، بل يزيد من جنسها . والحق يقول : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات : 15-16] .

وجاء الحق بالتعليل وهو : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات : 16] .

ووجه إحسانهم أن الواحد منهم لا يقف عند ما كلفه الله به ، بل يزيد على ما كلفه الله من جنس ما كلفه سبحانه ، فالحق قد فرض على المسلم خمسة فروض ، والمحسن هو من يزيد ويتقرب إلى الله بالنوافل . وفرض سبحانه على المسلم صوم رمضان ، والمحسن هو من يؤدي صيام رمضان بتمامه ويزيد بصوم أيام أخرى من العام . وفرض سبحانه على المسلم زكاة مال بقدر اثنين ونصف في المائة وهو ربع العشر ، والمحسن قد يزيد الزكاة إلى أكثر من ذلك . وفرض سبحانه على المسلم حج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، والمحسن هو الذي يزيد مرات الحج .

إذن ، فالمحسن هو من عشق التكليف من الله ، وعرف منزلة القرب من الله ، فوجد أن الله قد كلفه دون ما يستحق – سبحانه – منا فزاد من العمل الذي يزيده قرباً من الله .

ويضيف الحق في وصف المحسنين : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : 17] .

ولم يكلفنا سبحانه بألا نهجع إلا قليلاً من الليل . كلفنا فقط بأن نصلي العشاء ، وبعد ذلك قد ننام لنصحو لنصلي الصبح ، أما المحسن الذي عرف حلاوة الخلوة مع الله فهو لا يهجع إلا قليلاً من الليل . ويضيف الحق سبحانه في وصف المحسنين : ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : 18] .

ولم يكلف الله المسلم بالاستغفار في السحر ، لكن المحسن يفعل ذلك ويضيف الحق سبحانه : ﴿ وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] .

ولم يقل سبحانه : إنه حق معلوم ، لأن الحق المعلوم هو الزكاة . وهذه المراحل الثلاث هي التي تُدخل المؤمن في مرتبة الإحسان . ولذلك نجد الحق في آخر مرحلة في الآية التي نحن بصددها يتحدث عن الإحسان : ﴿ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾ أي أن يزيد الإنسانُ المؤمنُ من جنس ما فرض الله . ووقت أن كان التكليف في دور الاستكمال فكل حكم يأتي كان يستقبله المؤمن بإيمان وعمل . أما الذين أدركوا كل التكاليف خلال الثلاثة والعشرين عاماً – المدة التي مكثها وعاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى – فقد استوت عندهم التكاليف ، وإذا ما أرادوا الإحسان فلا بد لهم من الزيادة من جنس التكليف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(305/213)

ومن فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَابِرُ وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَالْحَسَنُ وَمُجَاهِدُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ : (لَمَّا حَرُمَ الْخَمْرُ كَانَ قَدْ مَاتَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ ، فَقَالَتْ الصَّحَابَةُ : كَيْفَ بِمَنْ مَاتَ مِنَّا وَهُمْ يَشْرَبُونَهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ) .

وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ عَنْ عَلِيٍّ : أَنَّ قَوْمًا شَرِبُوا بِالشَّامِ وَقَالُوا هِيَ لَنَا حَلَالٌ وَتَأَوَّلُوا هَذِهِ الْآيَةَ ، فَأَجْمَعَ عُمَرُ وَعَلِيٌّ عَلَى أَنْ يُسْتَتَابُوا فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا قُتِلُوا .

(306/213)

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرِ بْنُ رَبِيعَةَ ، أَنَّ الْجَارُودَ سَيِّدَ بَنِي عَبْدِ الْقِيسِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ شَهِدَا عَلَى قُدَامَةَ بْنِ مَظْعُونٍ أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ وَأَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَجْلِدَهُ ، فَقَالَ قُدَامَةُ : لَيْسَ لَكَ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ ﴾ الْآيَةَ فَقَالَ عُمَرُ : إنَّك قَدْ أَخْطَأْت التَّأْوِيلَ يَا قُدَامَةُ ، إذَا اتَّقَيْت اجْتَنَبْت مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْك فَلَمْ يَحْكُمُوا عَلَى قُدَامَةَ بِحُكْمِهِمْ عَلَى الَّذِينَ شَرِبُوهَا بِالشَّامِ ، وَلَمْ يَكُنْ حُكْمُهُ حُكْمَهُمْ لِأَنَّ أُولَئِكَ شَرِبُوهَا مُسْتَحِلِّينَ لَهَا ، وَمُسْتَحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ كَافِرٌ ، فَلِذَلِكَ اسْتَتَابُوهُمْ .

وَأَمَّا قُدَامَةُ بْنُ مَظْعُونٍ فَلَمْ يَشْرَبْهَا مُسْتَحِلًّا لِشُرْبِهَا ، وَإِنَّمَا تَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ الْحَالَ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا وَوُجُودُ الصِّفَةِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ فِيهِ مُكَفِّرَةٌ لِذُنُوبِهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاَللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فَكَانَ عِنْدَهُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ عَلَى شُرْبِهَا مَعَ اعْتِقَادِهِ لِتَحْرِيمِهَا وَلِتَكْفِيرِ إحْسَانِهِ إسَاءَتَهُ .

(307/213)

وَأَعَادَ ذِكْرَ الِاتِّقَاءِ فِي الْآيَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَالْمُرَادُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا غَيْرُ الْمُرَادِ بِالْأُخْرَى ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ : فَمَنْ اتَّقَى فِيمَا سَلَفَ ، وَالثَّانِي : الِاتِّقَاءُ مِنْهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَوْقَاتِ ، وَالثَّالِثُ : اتِّقَاءُ ظُلْمِ الْعِبَادِ وَالْإِحْسَانُ إلَيْهِمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(308/213)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاَللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : كُنْت سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ ، فَنَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا يُنَادِي ؛ فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : اُخْرُجْ فَانْظُرْ مَا هَذَا الصَّوْتُ ؛ قَالَ : فَخَرَجْت ، فَقُلْت : هَذَا مُنَادٍ يُنَادِي : أَلَا إنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ .

فَقَالَ لِي : اذْهَبْ فَأَهْرِقْهَا ، وَكَانَ الْخَمْرُ مِنْ الْفَضِيخِ .

قَالَ : فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ .

فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : قُتِلَ قَوْمٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ .

قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُهُ صَحِيحًا عَنْ الْبَرَاءِ أَيْضًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ نَزَلَتْ الْآيَةُ فِيمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ ، ثُمَّ قَالَ فِيهِ : إذَا مَا طَعِمُوا ؛ فَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى تَسْمِيَةِ الشُّرْبِ طَعَامًا ، وَقَدْ قَدَّمْنَا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(309/213)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلَى : ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ اُخْتُلِفَ فِيهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : اتَّقَوْا فِي اتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ ، وَاتَّقَوْا فِي الثَّبَاتِ عَلَى ذَلِكَ ، وَاتَّقَوْا فِي لُزُومِ النَّوَافِلِ ؛ وَهُوَ الْإِحْسَانُ إلَى آخِرِ الْعُمْرِ .

الثَّانِي : اتَّقَوْا قَبْلَ التَّحْرِيمِ فِي غَيْرِهَا مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَوْا بَعْدَ تَحْرِيمِهَا شُرْبَهَا ، ثُمَّ اتَّقَوْا فِي الَّذِي بَقِيَ مِنْ أَعْمَارِهِمْ ، فَاجْتَنَبُوا الْعَمَلَ الْمُحَرَّمَ .

الثَّالِثُ : اتَّقَوْا الشِّرْكَ ، وَآمَنُوا ، ثُمَّ اتَّقَوْا الْحَرَامَ ، ثُمَّ اتَّقَوْا تَرْكَ الْإِحْسَانِ ، فَيَعْبُدُونَ اللَّهَ ،

وَإِنْ لَمْ يَرَوْهُ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ .

وَقَدْ صُرِفَتْ فِيهَا أَقْوَالٌ عَلَى قَدْرِ وَظَائِفِ الشَّرِيعَةِ يَكْثُرُ تَعْدَادُهَا ، وَأَشْبَهُهَا بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مَا رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ الشُّرَّابَ كَانُوا يُضْرَبُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بِالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ وَبِالْعِصِيِّ حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانُوا فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَجْلِدُهُمْ أَرْبَعِينَ حَتَّى تُوُفِّيَ ، فَكَانَ عُمَرُ مِنْ بَعْدِهِ يَجْلِدُهُمْ كَذَلِكَ أَرْبَعِينَ ، ثُمَّ أُتِيَ بِرَجُلٍ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ وَقَدْ شَرِبَ ، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُجْلَدَ ، فَقَالَ : أَتَجْلِدُنِي ، بَيْنِي وَبَيْنَكَ كِتَابُ اللَّهِ " .

(310/213)

فَقَالَ عُمَرُ : " أَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَجِدُ أَلَّا أَجْلِدَكَ ؟ " فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ الْآيَةَ ؛ فَأَنَا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدْرًا وَأُحُدًا وَالْخَنْدَقَ وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا .

فَقَالَ عُمَرُ : " أَلَا تَرُدُّونَ عَلَيْهِ مَا يَقُولُ " ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ أُنْزِلَتْ عُذْرًا لِمَنْ

صَبَرَ وَحُجَّةً عَلَى النَّاسِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ الْآيَةَ ، ثُمَّ قَرَأَ حَتَّى أَنْفَذَ الْآيَةَ الْأُخْرَى ؛ فَإِنْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَهَاهُ أَنْ يَشْرَبَ الْخَمْرَ .

فَقَالَ عُمَرُ : " صَدَقْت ، مَاذَا تَرَوْنَ " ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ : " إِنَّهُ إِذَا شَرِبَ سَكِرَ ، وَإِذَا سَكِرَ هَذَى ، وَإِذَا هَذَى افْتَرَى ، وَعَلَى الْمُفْتَرِي جَلْدُ ثَمَانِينَ " .

[فَأَمَرَ بِهِ عُمَرُ فَجُلِدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً] .

(311/213)

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ قَالَ : اسْتَعْمَلَ عُمَرُ قُدَامَةَ بْنَ مَظْعُونٍ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، وَقَدْ كَانَ يَشْهَدُ بَدْرًا ، وَهُوَ خَالُ ابْنِ عُمَرَ وَحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ زَادَ الْبَرْقَانِيُّ : فَقَدِمَ الْجَارُودُ مِنْ الْبَحْرَيْنِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ قُدَامَةَ بْنَ مَظْعُونٍ قَدْ شَرِبَ مُسْكِرًا ، وَإِنِّي إِذَا رَأَيْت حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى حُقَّ عَلَيَّ أَنْ أَرْفَعَهُ إِلَيْك .

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : " مَنْ يَشْهَدُ لِي عَلَى مَا تَقُولُ ؟ " فَقَالَ : أَبُو هُرَيْرَةَ .

فَدَعَا عُمَرُ أَبَا هُرَيْرَةَ فَقَالَ : " عَلَامَ تَشْهَدُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ " ؟ فَقَالَ : " لَمْ أَرَهُ حِينَ شَرِبَ ، وَقَدْ

رَأَيْته سَكْرَانَ يَقِيءُ " .

فَقَالَ عُمَرُ : " لَقَدْ تَنَطَّعْت فِي الشَّهَادَةِ " .

ثُمَّ كَتَبَ عُمَرَ إلَى قُدَامَةَ وَهُوَ بِالْبَحْرَيْنِ يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا قَدِمَ قُدَامَةُ وَالْجَارُودُ بِالْمَدِينَةِ كَلَّمَ الْجَارُودُ عُمَرَ ، فَقَالَ لَهُ : أَقِمْ عَلَى هَذَا كِتَابَ اللَّهِ

فَقَالَ عُمَرُ لِلْجَارُودِ : " أَشَهِيدٌ أَنْتَ أَمْ خَصْمٌ " ؟ فَقَالَ الْجَارُودُ : أَنَا شَهِيدٌ .

قَالَ : " قَدْ كُنْت أَدَّيْت الشَّهَادَةَ " .

فَسَكَتَ الْجَارُودُ ، ثُمَّ قَالَ : لَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَنْشُدُك اللَّهَ .

فَقَالَ عُمَرُ : " أَمَا وَاَللَّهِ لَتَمْلِكَنَّ لِسَانَك أَوْ لَأَسُوءَنَّكَ " .

فَقَالَ الْجَارُودُ : أَمَا وَاَللَّهِ مَا ذَلِكَ بِالْحَقِّ أَنْ يَشْرَبَ ابْنُ عَمِّك وَتَسُوءَنِي : فَتَوَعَّدَهُ عُمَرُ .

(312/213)

فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَهُوَ جَالِسٌ : " يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إنْ كُنْت تَشُكُّ فِي شَهَادَتِنَا فَسَلْ بِنْتَ الْوَلِيدِ امْرَأَةَ ابْنِ مَظْعُونٍ " .

فَأَرْسَلَ عُمَرُ إلَى هِنْدَ يَنْشُدُهَا بِاَللَّهِ ، فَأَقَامَتْ هِنْدُ عَلَى زَوْجِهَا قُدَامَةَ الشَّهَادَةَ .

فَقَالَ عُمَرُ : " يَا قُدَامَةُ ؛ إنِّي جَالِدُك " .

فَقَالَ قُدَامَةُ : وَاَللَّهِ لَوْ شَرِبْت كَمَا تَقُولُونَ مَا كَانَ لَك أَنْ تَجْلِدَنِي يَا عُمَرُ .

قَالَ : " لِمَ يَا قُدَامَةُ ؟ " قَالَ : لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ الْآيَةَ إلَى : ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فَقَالَ عُمَرُ : " إنَّك أَخْطَأْت التَّأْوِيلَ يَا قُدَامَةُ ؛ إذَا اتَّقَيْت اللَّهَ اجْتَنَبْت مَا حَرَّمَ اللَّهُ " .

ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ عَلَى الْقَوْمِ فَقَالَ : " مَا تَرَوْنَ فِي جَلْدِ قُدَامَةَ ؟ " فَقَالَ الْقَوْمُ : لَا نَرَى أَنْ تَجْلِدَهُ مَا دَامَ وَجِعًا ، فَسَكَتَ عُمَرُ عَنْ جَلْدِهِ أَيَّامًا ، ثُمَّ أَصْبَحَ يَوْمًا وَقَدْ عَزَمَ عَلَى جَلْدِهِ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : " مَا تَرَوْنَ فِي جَلْدِ قُدَامَةَ ؟ " فَقَالُوا : لَا نَرَى أَنْ تَجْلِدَهُ مَا دَامَ وَجِعًا .

فَقَالَ عُمَرُ : " إنَّهُ وَاَللَّهِ لَأَنْ يَلْقَى اللَّهَ وَهُوَ تَحْتَ السَّوْطِ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَهِيَ فِي عُنُقِي ، وَاَللَّهِ لَأَجْلِدَنَّهُ ، ائْتُونِي بِسَوْطٍ " .

فَجَاءَ مَوْلَاهُ أَسْلَمُ بِسَوْطٍ رَقِيقٍ صَغِيرٍ ، فَأَخَذَهُ عُمَرُ فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِأَسْلَمَ : " قَدْ أَخَذْتُك بِإِقْرَارِ أَهْلِك ، ائْتُونِي بِسَوْطٍ غَيْرِ هَذَا " .

(313/213)

قَالَ : فَجَاءَهُ أَسْلَمُ بِسَوْطٍ تَامٍّ ، فَأَمَرَ عُمَرُ بِقُدَامَةَ فَجُلِدَ ، فَغَاضَبَ قُدَامَةُ عُمَرَ وَهَجَرَهُ ، فَحَجَّا وَقُدَامَةُ مُهَاجِرٌ لِعُمَرَ ، حَتَّى قَفَلُوا مِنْ حَجِّهِمْ ، وَنَزَلَ عُمَرُ بِالسُّقْيَا وَقَامَ بِهَا ؛ فَلَمَّا

اسْتَيْقَظَ عُمَرُ قَالَ : " عَجِّلُوا عَلَيَّ بِقُدَامَةَ ، انْطَلِقُوا فَأْتُونِي بِهِ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى فِي النَّوْمِ أَنَّهُ جَاءَنِي آتٍ فَقَالَ لِي : سَالِمْ قُدَامَةَ فَإِنَّهُ أَخُوكَ " .

فَلَمَّا جَاءُوا قُدَامَةَ أَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ ؛ فَأَمَرَ عُمَرُ بِقُدَامَةَ أَنْ يُجَرَّ إِلَيْهِ جَرًّا حَتَّى كَلَّمَهُ عُمَرُ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ ، فَكَانَ أَوَّلَ صُلْحِهِمَا .

فَهَذَا يَدُلُّك عَلَى تَأْوِيلِ الْآيَةِ ، وَمَا ذُكِرَ فِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ الدَّارَقُطْنِيِّ وَعُمَرَ فِي حَدِيثِ الْبَرْقَانِيِّ ، وَهُوَ صَحِيحٌ .

وَبَسْطُهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ وَاتَّقَى اللَّهَ فِي غَيْرِهِ لَا يُحَدُّ عَلَى الْخَمْرِ مَا حُدَّ أَحَدٌ ، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَفْسَدِ تَأْوِيلٍ ، وَقَدْ خَفِيَ عَلَى قُدَامَةَ ، وَعَرَفَهُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ لَهُ كَعُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَإِنَّ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّهْرَ بَاكِيًا عَلَى شَجْوِهِ إِلَّا بَكَيْت عَلَى عُمَرَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(314/213)

ومن فوائد الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

وفي سياق قضية التشريع بالتحريم والتحليل ، وفي خط التربية للأمة المسلمة في المدينة ، وتخليصها من جو الجاهلية ورواسبها وتقاليدها الشخصية والاجتماعية ، يجيء النص القاطع الأخير في تحريم الخمر والميسر مقرونين إلى تحريم الأنصاب والأزلام . أي إلى الشرك بالله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين . ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين ﴾ . .

(315/213)

لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية ، ومن التقاليد المتغلغلة في المجتمع الجاهلي . وكانت كلها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق في مزاولتها ، وفي كونها من سمات ذلك المجتمع وتقاليده . . فلقد كانوا يشربون الخمر في إسراف ،

ويجعلونها من المفاخر التي يتسابقون في مجالسها ويتكاثرون ؛ ويديرون عليها فخرهم في الشعر ومدحهم كذلك ! وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح واتخاذ الشواء منها للشاربين وللسقاة ولأحلاس هذه المجالس ومن يلوذون بها ويلتفون حولها ! وكانت هذه الذبائح تنحر على الأنصاب وهي أصنام لهم كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها (كما كانت تذبح عليها الذبائح التي تقدم للآلهة أي لكهنتها !) . . وفي ذبائح مجالس الخمر وغيرها من المناسبات الاجتماعية التي تشبهها كان يجري الميسر عن طريق الأزلام . وهي قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة ، فيأخذ كل منهم نصيبه منها بحسب قدحه . فالذي قدحه (المعلى) يأخذ النصيب الأوفر ، وهكذا حتى يكون من لا نصيب لقدحه . وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرها كلها !

وهكذا يبدو تشابك العادات والتقاليد الاجتماعية ؛ ويبدو جريانها كذلك وفق حال الجاهلية وتصوراتها الاعتقادية .

(316/213)

ولم يبدأ المنهج الإسلامي في معالجة هذه التقاليد في أول الأمر ، لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة ؛ فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع .

حاشا للمنهج الرباني أن يفعله ! إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى . عقدة العقيدة . بدأ باجتثاث التصور الجاهلي الاعتقادي جملة من جذوره ؛ وإقامة التصور الإسلامي الصحيح . إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة . . بيّن للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية وهداهم إلى الإله الحق . وحين عرفوا إلهم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم هذا الإله الحق وما يكرهه . وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا ! أو يطيعوا أمراً ولا نهياً ؛ وما كانوا ليقلعوا عن مألوفاتهم الجاهلية مهما تكرر لهم النهي وبذلت لهم النصيحة . . إن عقدة الفطرة البشرية هي عقدة العقيدة ؛ وما لم تنعقد هذه العقدة أولاً فلن يثبت فيها شيء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعي .

إن مفتاح الفطرة البشرية ها هنا . وما لم تفتح بمفتاحها فستظل سراديبها مغلقة ودروبها ملتوية ، وكما كشف منها زقاق انبهمت أزقة ؛ وكلما ضاء منها جانب أظلمت جوانب ، وكلما حلت منها عقدة تعقدت عقد ، وكلما فتح منها درب سدت دروب ومسالك . . إلى ما لا نهاية . .

(317/213)

لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامي في علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها ، من هذه الرذائل والانحرافات . . إنما بدأ من العقيدة . . بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله . . وطالت فترة إنشاء لا إله إلا الله هذه في الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاماً ، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية ! تعريف الناس بإلههم الحق وتعبيدهم له وتطويعهم لسلطانه . . حتى إذا خلصت نفوسهم لله ؛ وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله . . عندئذ بدأت التكاليف – بما فيها الشعائر التعبدية – وعندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية . . بدأت في الوقت الذي يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال . لأنهم لا يعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله به أو ينهى عنه أياً كان ! أو بتعبير آخر : لقد بدأت الأوامر والنواهي بعد " الإسلام " . . بعد الاستسلام . . بعد أن لم يعد للمسلم في نفسه شيء . . بعد أن لم يعد يفكر في أن يكون له إلى جانب أمر الله رأي أو اختيار . . أو كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه : " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " تحت عنوان : " انحلت العقدة الكبرى " :

(318/213)

" . . انحلت العقدة الكبرى . . عقدة الشرك والكفر . . فانحلت العقد كلها ؛ وجاهدهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهي ؛ وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة . وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ؛ ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى ؛ ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم ؛ وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد . . نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ؛ فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة ؛ وكسرت دنان الخمر فسالت في سكك المدينة " .

ومع هذا فلم يكن تحريم الخمر وما يتصل بها من الميسر أمراً مفاجئاً . . فلقد سبقت هذا التحريم القاطع مراحل وخطوات في علاج هذه التقاليد الاجتماعية المتغلغلة ، المتلبسة بعادات النفوس ومألوفاتها ، والمتلبسة كذلك ببعض الجوانب الاقتصادية وملابساتها .

لقد كانت هذه هي المرحلة الثالثة أو الرابعة في علاج مشكلة الخمر في المنهج الإسلامي : كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم في الاتجاه حين قال الله سبحانه في سورة النحل المكية : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً . . . ﴾ فكانت أول ما يطرق حس المسلم من وضع السكر (وهو المخمر) في مقابل الرزق

الحسن . . فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر .

ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المنطق التشريعي في نفوس المسلمين حين نزلت التي في سورة البقرة : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى ما دام الإثم أكبر من النفع . إذ أنه قلما يخلو شيء من نفع ؛ ولكن حله أو حرمته إنما ترتكز على غلبة الضر أو النفع .

(319/213)

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب ، وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التي في النساء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ والصلاة في خمسة أوقات معظمها متقارب ؛ ولا يكفي ما بينها للسكر ثم الإفاقة . وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب – وخاصة عادة الصبوح في الصباح والغبوق بعد العصر أو المغرب كما كانت عادة الجاهليين – وفيه كسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي . وفيه – وهو أمر له وزنه في نفس المسلم – ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة في مواعيدها والوفاء بعادة الشراب في مواعيدها !

ثم كانت هذة الرابعة الحاسمة والأخيرة ، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤاً كاملاً فلم يكن إلا النهي حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان :

عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شفاء . فنزلت التي في البقرة : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ، قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ فدعي عمر – رضي الله عنه – فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء . فنزلت التي في النساء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . ﴾ الآية . . فدعي عمر – رضي الله عنه – فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء . فنزلت التي في المائدة : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ؛ ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه ، فقال : " انتهينا . انتهينا " . . (أخرجه أصحاب السنن) .

(320/213)

ولما نزلت آيات التحريم هذه ، في سنة ثلاث بعد وقعة أحد ، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد في نوادي المدينة : " ألا أيها القوم . إن الخمر قد حرمت " . . فمن كان في يده كأس حطمها

ومن كان في فمه جرعة مجها ، وشقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه . . وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر !

والآن ننظر في صياغة النص القرآني ؛ والمنهج الذي يتجلى فيه منهج التربية والتوجيه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون .

إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ .

إنه يبدأ بالنداء المألوف في هذا القطاع :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . .

لاستجاشة قلوب المؤمنين من جهة ؛ ولتذكيرهم بمقتضى هذا الإيمان من الالتزام والطاعة من جهة أخرى . . يلي هذا النداء الموحي تقرير حاسم على سبيل القصر والحصر :

﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ﴾ . .

فهي دنسة لا ينطبق عليها وصف " الطيبات " التي أحلها الله . وهي من عمل الشيطان . والشيطان عدو الإنسان القديم ؛ ويكفي أن يعلم المؤمن أن شيئاً ما من عمل الشيطان لينفر منه حسه ، وتشمئز منه نفسه ، ويجفل منه كيانه ، ويبعد عنه من خوف ويتقيه !

وفي هذه اللحظة يصدر النهي مصحوباً كذلك بالإطماع في الفلاح – وهي لمسة أخرى من لمسات الإيحاء النفسي العميق :

﴿ فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ . .

ثم يستمر السياق في كشف خطة الشيطان من وراء هذا الرجس :

﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . . . ﴾ . .

(321/213)

بهذا ينكشف لضمير المسلم هدف الشيطان ، وغاية كيده ، وثمرة رجسه . . إنها إيقاع العداوة والبغضاء في الصف المسلم – في الخمر والميسر – كما أنها هي صد ﴿ الذين آمنوا ﴾ عن ذكر الله وعن الصلاة . . ويالها إذن من مكيدة !

وهذه الأهداف التي يريدها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمون أن يروها في عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهي الصادق بذاته . فما يحتاج الإنسان إلى طول بحث حتى يرى أن الشيطان يوقع العداوة والبغضاء – في الخمر والميسر – بين الناس . فالخمر بما تفقد من الوعي وبما تثير من عرامة اللحم والدم ، وبما تهيج من نزوات ودفعات . والميسر

الذي يصحابها وتصاحبه بما يتركه في النفوس من خسارات وأحقاد ؛ إذا المقمور لابد أن يحقد على قامره الذي يستولي على ماله أمام عينيه ، ويذهب به غانماً وصاحبه مقمور مقهور . . إن من طبيعة هذه الأمور أن تثير العداوة والبغضاء ، مهما جمعت بين القرناء في مجالات من العربدة والانطلاق اللذين يخيل للنظرة السطحية أنهما أنس وسعادة !

وأما الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فلا يحتاجان إلى نظر . . فالخمر تنسي ، والميسر يلهي ، وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبوبة الخمر عند المقامرين ؛ وعالم المقامر كعالم السكير لا يتعدى الموائد والأقداح والقداح !

وهكذا عندما تبلغ هذه الإشارة إلى هدف الشيطان من هذا الرجس غايتها من إيقاظ قلوب ﴿ الذين آمنوا ﴾ وتحفزها ، يجيء السؤال الذي لا جواب له عندئذ إلا جواب عمر رضي الله عنه وهو يسمع :

﴿ فهل انتم منتهون ﴾ ؟

فيجيب لتوه : " انتهينا . انتهينا " . .

ولكن السياق يمضي بعد ذلك يوقع إيقاعه الكبير :

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا . فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ . .

إنها القاعدة التي يرجع إليها الأمر كله : طاعة الله وطاعة الرسول . . الإسلام . . الذي لا تبقى معه إلا الطاعة المطلقة لله وللرسول . . والحذر من المخالفة ، والتهديد الملفوف :

(322/213)

﴿ فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ . .

وقد بلّغ وبيّن ، فتحددت التبعة على المخالفين ، بعد البلاغ المبين . .

إنه التهديد القاصم ، في هذا الأسلوب الملفوف ، الذي ترتعد له فرائص المؤمنين ! . . إنهم حين يعصون ولا يطيعون لا يضرون أحداً إلا أنفسهم . لقد بلغ الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأدى ؛ ولقد نفض يديه من أمرهم إذن فما هو بمسؤول عنهم ، وما هو بدافع عنهم عذاباً – وقد عصوه ولم يطيعوه – ولقد صار أمرهم كله إلى الله سبحانه . وهو القادر على مجازاة العصاة المتولين !

إنه المنهج الرباني يطرق القلوب ، فتنفتح له مغاليقها ، وتتكشف له فيها المسالك والدروب . .

ولعله يحسن هنا أن نبين ما هي الخمر التي نزل فيها هذا النهي :

أخرج أبو داود بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : "كل مخمر خمر . وكل مسكر

حرام " .

وخطب عمر – رضي الله عنه – على منبر النبي – صلى الله عليه وسلم – بمحضر جماعة من الصحابة فقال : " يا أيها الناس قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهي من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير . والخمر ما خامر العقل " . . (ذكره القرطبي في تفسيره) .

فدل هذا وذلك على أن الخمر تشمل كل مخمر يحدث السكر . . وأنه ليس مقصوراً على نوع بعينه . وأن كل ما أسكر فهو حرام .

(323/213)

إن غيبوبه السكر – بأي مسكر – تنافي اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم ليكون موصولاً بالله في كل لحظة ، مراقباً لله في كل خطرة . ثم ليكون بهذه اليقظة عاملاً إيجابياً في نماء الحياة وتجددها ، وفي صيانتها من الضعف والفساد ، وفي حماية نفسه وماله وعرضه ، وحماية أمن الجماعة المسلمة وشريعتها ونظامها من كل اعتداء . والفرد المسلم ليس متروكاً لذاته وللذاته ؛ فعليه في كل لحظة تكاليف تستوجب اليقظة الدائمة . تكاليف لربه ، وتكاليف لنفسه ، وتكاليف لأهله ، وتكاليف للجماعة المسلمة التي يعيش

فيها ، وتكاليف للإنسانية كلها ليدعوها ويهديها . وهو مطالب باليقظة الدائمة لينهض بهذه التكاليف . وحتى حين يستمتع بالطيبات فإن الإسلام يحتم عليه أن يكون يقظاً لهذا المتاع ، فلا يصبح عبداً لشهوة أو لذة . إنما يسيطر دائماً على رغباته فيلبيها تلبية المالك لأمره .

وغيبوبة السكر لا تتفق في شيء مع هذا الاتجاه .

ثم إن هذه الغيبوبة في حقيقتها إن هي إلا هروب من واقع الحياة في فترة من الفترات ؛ وجنوح إلى التصورات التي تثيرها النشوة أو الخمار . والإسلام ينكر على الإنسان هذا الطريق ويريد من الناس أن يروا الحقائق ، وأن يواجهوها ، ويعيشوا فيها ، ويصرفوا حياتهم وفقها ، ولا يقيموا هذه الحياة على تصورات وأوهام . . إن مواجهة الحقائق هي محك العزيمة والإرادة ؛ أما الهروب منها إلى تصورات وأوهام فهو طريق التحلل ، ووهن العزيمة ، وتذاوب الإرادة . والإسلام يجعل في حسابه دائماً تربية الإرادة ، وإطلاقها من قيود العادة القاهرة . . الإدمان . . وهذا الاعتبار كاف وحده من وجهة النظر الإسلامية لتحريم الخمر وتحريم سائر المخدرات . . وهي رجس من عمل الشيطان . . مفسد لحياة الإنسان .

(324/213)

وقد اختلف الفقهاء في اعتبار ذات الخمر نجسة كبقية النجاسات الحسية . أو في اعتبار شربها هو المحرم . والأول قول الجمهور والثاني قول ربيعة والليث بن سعد والمزني صاحب الشافعي وبعض المتأخرين من البغداديين . . وحسبنا هذا القدر في سياق الظلال .

وقد حدث أنه لما نزلت هذه الآيات ، وذكر فيها تحريم الخمر ، ووصفت بأنها رجس من عمل الشيطان أن انطلقت في المجتمع المسلم صيحتان متحدتان في الصيغة ، مختلفتان في الباعث والهدف .

قال بعض المتحرجين من الصحابة : كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر . . أو قالوا : فما بال قوم قتلوا في أحد وهي في بطونهم (أي قبل تحريمها) .

وقال بعض المشككين الذين يهدفون إلى البلبلة والحيرة . . هذا القول أو ما يشبهه ؛ يريدون أن ينشروا في النفوس قلة الثقة في أسباب التشريع ، أو الشعور بضياع إيمان من ماتوا والخمر لم تحرم ؛ وهي رجس من عمل الشيطان ، ماتوا والرجس في بطونهم !

عندئذ نزلت هذه الآية :

﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين ﴾ . .

نزلت لتقرر أولاً أن ما لم يحرَّم لا يحرم ؛ وأن التحريم يبدأ من النص لا قبله ؛ وأنه لا يحرم بأثر

رجعي ؛ فلا عقوبة إلا بنص ؛ سواء في الدنيا أو فى الآخرة ؛ لأن النص هو الذي ينشىء الحكم . . والذين ماتوا والخمر في بطونهم ، وهي لم تحرم بعد ، ليس عليهم جناح ؛ فإنهم لم يتناولوا محرماً ؛ ولم يرتكبوا معصية . . لقد كانوا يخافون الله ويعملون الصالحات ويراقبون الله ويعلمون أنه مطلع على نواياهم وأعمالهم . . ومن كانت هذه حاله لا يتناول محرماً ولا يرتكب معصية .

ولا نريد أن ندخل بهذه المناسبة في الجدل الذي أثاره المعتزلة حول الحكم بأن الخمر رجس : هل هو ناشئ عن أمر الشارع – سبحانه – بتحريمها ، أم إنه ناشئ عن صفة ملازمة للخمر في ذاتها .

(325/213)

وهل المحرمات محرمات لصفة ملازمة لها ، أم إن هذه الصفة تلزمها من التحريم . . فهو جدل عقيم في نظرنا وغريب على الحس الإسلامي ! . . والله حين يحرم شيئاً يعلم – سبحانه – لم حرمه . سواء ذكر سبب التحريم أو لم يذكر . وسواء كان التحريم لصفة ثابتة في المحرم ، أو لعلة تتعلق بمن يتناوله من ناحية ذاته ، أو من ناحية مصلحة الجماعة . . فالله سبحانه هو الذي يعلم الأمر كله ؛ والطاعة لأمره واجبة ، والجدل بعد ذلك لا يمثل حاجة

واقعية . والواقعية هي طابع هذا المنهج الرباني . . ولا يقولن أحد : إذا كان التحريم لصفة ثابتة في المحرم فكيف أبيح إذن قبل تحريمه ! ! فلا بد أن لله – سبحانه – حكمة في تركه فترة بلا تحريم . ومرد الأمر كله إلى الله . وهذا مقتضى ألوهيته – سبحانه – واستحسان الإنسان أو استقباحه ليس هو الحكم في الأمر ؛ وما يراه علة قد لا يكون هو العلة . والأدب مع الله يقتضي تلقي أحكامه بالقبول والتنفيذ ، سواء عرفت حكمتها أو علتها أم ظلت خافية . . والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

إن العمل بشريعة الله يجب أن يقوم ابتداء على العبودية . . على الطاعة لله إظهاراً للعبودية له سبحانه . . فهذا هو الإسلام – بمعنى الاستسلام . . وبعد الطاعة يجوز للعقل البشري أن يتلمس حكمة الله – بقدر ما يستطيع – فيما أمر الله به أو نهى عنه – سواء بين الله حكمته أم لم يبينها ، وسواء أدركها العقل البشري أم لم يدركها – فالحكم في استحسان شريعة الله في أمر من الأمور ليس هو الإنسان ! إنما الحكم هو الله . فإذا أمر الله أو نهى فقد انتهى الجدل ولزم الأمر أو النهي . . فأما إذا ترك الحكم للعقل البشري فمعنى ذلك أن الناس هم المرجع الأخير في شرع الله . . فأين مكان الألوهية إذن وأين مكان العبودية ؟

ونخلص من هذا إلى تركيب الآية ودلالة هذا التركيب :

﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾ . .

ولم أجد في أقوال المفسرين ما تستريح إليه النفس في صياغة العبارة القرآنية على النحو وتكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح ، ومرة مع الإيمان ، ومرة مع الإحسان . .

كذلك لم أجد في تفسيري لهذا التكرار في الطبعة الأولى من هذه الظلال ما تستريح إليه نفسي الأن . . وأحسن ما قرأت – وإن كان لا يبلغ من حسي مبلغ الارتياح – هو ما قاله ابن جرير الطبري : " الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل . والاتقاء الثاني الاتقاء بالثبات على التصديق والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل " . .

وكان الذي ذكرته في الطبعة الأولى في هذا الموضع هو : " إنه توكيد عن طريق التفصيل بعد الإجمال .

فقد أجمل التقوى والإيمان والعمل الصالح في الأولى . ثم جعل التقوى مرة مع الإيمان في الثانية ، ومرة مع الإحسان – وهو العمل الصالح – في الثالثة . . ذلك التوكيد مقصود هنا للاتكاء على هذا المعنى . ولإبراز ذلك القانون الثابت في تقدير الأعمال بما يصاحبها من شعور باطني . فالتقوى . . تلك الحساسية المرهفة برقابة الله ، والاتصال به في كل لحظة .

والإيمان بالله والتصديق بأوامره ونواهيه ، والعمل الصالح الذي هو الترجمة الظاهرة للعقيدة المستكنة . والترابط بين العقيدة الباطنة والعمل المعبر عنها . . هذه هي مناط الحكم ، لا الظواهر والأشكال . . وهذه القاعدة تحتاج إلى التوكيد والتكرار والبيان " .

وأنا ، اللحظة لا أجد في هذا القول ما يريح أيضاً . . ولكنه لم يفتح عليَّ بشيء آخر . . والله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 972.979 ﴾

(327/213)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا مَا اتقوا ﴾ : ظرفٌ منصوبٌ بما يُفْهَمُ من الجملة السابقة ، وهي : " لَيْسَ " وما في حَيِّزها ، والتقدير : لا يَأْثَمُونَ ، ولا يُؤاخَذُونَ وقْتَ اتِّقائهم ، ويجوز أن يكون ظَرْفاً مَحْضاً ، وأن يكونَ فيه معنى الشرط ، وجوابه محذوفٌ ، أو متقدِّمٌ على ما مَرَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 510 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93) ﴾

من حافظ على الأمر والنهي فليس للقمة يتناولها من الخطر ما يُضايَق فيها ، وإنما المقصود من العبد التأدبُ بصحبة طريقه سبحانه ، فإذا اتَّقى الشِرْكَ تعرّف ، ثم اتقى الحرامَ فما تصرّف ، ثم اتقى الشحَّ فآثر وما أسرف .

وقوله ﴿ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا ﴾ يعني اتقوا المنع وأحسنوا للخلْق – وهذا للعموم . ثم اتقوا شهود الخلْق ؛ فأحسنُ الشهودِ الحقُّ ، والإحسانُ أَنْ تعبد الله كأنك تراه – وهذا للخواص .

والله يحب المحسنين أعمالاً والمحسنين (آمالاً) والمحسنين أحوالاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 447.448 ﴾

(328/213)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما حرم من الطعام في كل حال ، وكان الصيد ممن حرم في بعض الأوقات ، وكان من أمثل مطعوماتهم ، وكان قد ذكر لهم بعض أحكامه عقب قوله : ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام ﴾ ﴿ وأحل لكم الطيبات ﴾ أخذ هنا في ذكر شيء من أحكامه ، وابتدأها – لأنهم خافوا على من مات منهم على شرب الخمر قبل تحريمها بأنه يبتليهم لتمييز الورع منهم من غيره – بالصيد في الحال التي حرمه عليهم فيها كما ابتلى إسرائيل في السبت ، فكان ذلك سبباً لجعلهم قردة ، ومنَّ سبحانه على الصحابة من هذه الأمة بالعصمة عند بلواهم بياناً لفضلهم على من سواهم ، فقال تعالى منادياً لهم بما يكفّهم ذكره عن المخالفة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أوقعوا الإيمان ولو على أدنى وجوهه ، فعم بذلك العالي والداني ﴿ ليبلونكم الله ﴾ أي يعاملكم معاملة المختبر في قبولكم تحريم الخمر وغيره المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ، وذكر الاسم الأعظم إشارة بالتذكير بما له من الجلال إلى أن له أن يفعل ما يشاء ، وأشار إلى تحقير البلوى تسكيناً للنفوس بقوله : ﴿ بشيء من الصيد ﴾ أي الصيد في البر في الإحرام ، وهو ملتفت إلى قوله : ﴿ هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ﴾ [المائدة : 60] وشارح لما ذكر أول السورة في قوله ﴿ غير محلي الصيد وأنتم حرم ﴾ ، وما ذكر بعد المحرمات من قوله : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾ [المائدة : 4] ، ووصف المبتلى به بوصف هو من أعلام النبوة فقال : ﴿ تناله أيديكم ﴾ أي إن أردتم

أخذه سالماً ﴿ ورماحكم ﴾ إن أردتم قتله ، ثم ذكر المراد من ذلك وهو إقامة الحجة على ما يتعارفه العباد بينهم فقال : ﴿ ليعلم الله ﴾ أي وهو الغني عن ذلك بما له من صفات الكمال التي لا خفاء بها عند أحد يعلم هذا الاسم الأعظم ﴿ من يخافه بالغيب ﴾ أي بما حجب به من هذه الحياة الدنيا التي حجبتهم عن أن يعرفوه حق معرفته سبحانه ، والمعنى أنه يخرج بالامتحان ما كان من أفعال العباد في عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، فيصير تعلق العلم

(329/213)

به تعلقاً شهودياً كما كان تعلقاً غيبياً لتقوم بذلك الحجة على الفاعل في مجاري عاداتهم ، ويزداد من له اطلاع على اللوح المحفوظ من الملائكة إيماناً ويقيناً وعرفاناً ، وقد حقق سبحانه معنى هذه الآية فابتلاهم بذلك عام الحديبية حتى كان يغشاهم الصيد في رحالهم ويمكنهم أخذه بأيديهم .

ولما كان هذا زاجراً في العادة عن التعرض لما وقعت البلوى به وحاسماً للطمع فيه بمن اتسم بما جعل محط النداء من الإيمان ، سبب عنه قوله : ﴿ فمن اعتدى ﴾ أي كلف نفسه مجاوزة الحد في التعرض له ؛ ولما كان سبحانه يقبل التوبة عن عباده ، خص الوعيد بمن

استغرق الزمان بالاعتداء فأسقط الجار لذلك فقال : ﴿ بعد ذلك ﴾ أي الزجر العظيم ﴿ فله عذاب أليم ﴾ بما التذَّ من تعرضه إليه لما عرف بالميل إلى هذا أنه إلى ما هو أشهى منه كالخمر وما معها أميل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 539.540 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن هذا نوع آخر من الأحكام ، ووجه النظم أنه تعالى كما قال : ﴿ لاَ تُحَرِّمُواْ طيبات مَا أَحَلَّ الله لَكُمْ ﴾ [المائدة : 87] ثم استثنى الخمر والميسر عن ذلك ، فكذلك استثنى هذا النوع من الصيد عن المحللات ، وبين دخوله في المحرمات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 71 ﴾

وقال ابن عاشور :

لا أحسب هذه الآية إلاّ تبييناً لقوله في صدر السورة ﴿ غير محلّى الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 1] ، وتخلُّصاً لحكم قتل الصيد في حالة الإحرام ، وتمهيداً لقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 95] جرَّتْ إلى هذا التخلّص مناسبة ذكر المحرّمات من الخمر والميسر وما عطف عليهما ؛ فخاطب الله المؤمنين بتنبيههم إلى حالة قد يسبق فيها حرصُهم ، حذرَهم وشهوتُهم تقواهم .

(330/213)

وهي حالة ابتلاء وتمحيص ، يَظهر بها في الوجود اختلاف تمسّكهم بوصايا الله تعالى ، وهي حالة لم تقع وقت نزول هذه الآية ، لأنّ قوله ﴿ ليبلونّكم ﴾ ظاهر في الاستقبال ، لأنّ نون التوكيد لا تدخل على المضارع في جواب القسم إلاّ وهو بمعنى المستقبل .

والظاهر أنّ حكم إصابة الصيد في حالة الإحرام أو في أرض الحرم لم يكن مقرّراً بمثل هذا .

وقد روي عن مقاتل : أنّ المسلمين في عمرة الحديبية غشيَهم صيد كثير في طريقهم ، فصار يترامى على رحالهم وخيامهم ، فمنهم المُحِلّ ومنهم المُحرِم ، وكانوا يقدرون على أخذه بالأيدي ، وصيد بعضه بالرماح .

ولم يكونوا رأوا الصيد كذلك قط ، فاختلفت أحوالهم في الإقدَام على إمساكه .

فمنهم من أخذ بيده وطعن برمحه .

فنزلت هذه الآية أ هـ

فلعلّ هذه الآية ألحقت بسورة المائدة إلحاقاً ، لتكون تذكرة لهم في عام حجّة الوداع ليحذروا مثلَ ما حلّ بهم يوم الحديبية .

وكانوا في حجّة الوداع أحْوج إلى التحذير والبيان ، لكثرة عدد المسلمين عام حجّة الوداع وكثرة من فيهم من الأعراب ، فذلك يبيّن معنى قوله ﴿ تناله أيديكم ورماحكم ﴾ لإشعار قوله ﴿ تناله ﴾ بأنّ ذلك في مكنتهم وبسهولة الأخذ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال مقاتل بن حيّان : ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون عام الحديبية حتى كانت الوحش والطير تغشاهم في رحالهم ، فيقدرون على أخذها بالأيدي ، وصيدها بالرماح ، وما رأوا مثل ذلك قط ، فنهاهم الله عنها ابتلاءً .

قال الواحدي : الذي تناله الأيدي من الصيد ، الفراخ والبيض وصغار الوحش ، والذي تناله الرماح الكبار ، وقال بعضهم : هذا غير جائز ، لأن الصيد اسم للمتوحش الممتنع دون ما لم يمتنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 71 ﴾

(331/213)

قال الآلوسى :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ الله ﴾ جواب قسم محذوف أي والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليتعرف حالكم ﴿ بِشَىْءٍ مّنَ الصيد ﴾ أي مصيد البر كما قال الكلبي مأكولاً كان أو غير مأكول ما عدا المستثنيات كما سيأتي إن شاء الله تعالى فاللام للعهد .

والآية كما أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل نزلت في عمرة الحديبية حيث ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون فكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم وكانوا متمكنين من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وذلك قوله تعالى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ورماحكم ﴾ فهموا بأخذها فنزلت .

وعن ابن عباس ومجاهد وهو المروي عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه أن الذي تناله الأيدي فراخ الطير وصغار الوحش والبيض والذي تناله الرماح الكبار من الصيد .

واختار الجبائي أن المراد بما تناله الأيدي والرماح صيد الحرم مطلقاً لأنه كيفما كان يأنس بالناس ولا ينفر منهم كما ينفر في الحل ، وقيل : ما تناله الأيدي ما يتأتى ذبحه وما تناله الرماح ما لا يتأتى ذبحه ، وقيل : المراد بذلك ما قرب وما بعد ، وذكر ابن عطية أن الظاهر أنه سبحانه خص الأيدي بالذكر لأنها أعظم تصرفاً في الاصطياد وفيها يدخل الجوارح والحبالات وما عمل بالأيدي من فخاخ وأشباك .

وخص الرماح بالذكر لأنها أعظم ما يجرح به الصيد ويدخل فيها السهم ونحوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

الخطاب للمؤمنين ، وهو مجمل بيّنه قوله عقبه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 95] .

قال أبو بكر بن العربي : اختلف العلماء في المخاطب بهذه الآية على قولين : أحدهما : أنّهم المحلّون ، قاله مالك ، الثاني : أنّهم المحرمون ، قاله ابن عباس وغيره أ هـ .

وقال في "القبس" : توهّم بعض الناس أنّ المراد بالآية تحريم الصيد في حال الإحرام ، وهذه عُضْلة ، إنّما المراد به الابتلاء في حالتي الحلّ والحرمة أ هـ .

(332/213)

ومرجع هذا الاختلاف النظر في شمول الآية لحكم ما يصطاده الحلال من صيد الحرم وعدم شمولها بحيث لا يحتاج في إثبات حكمه إلى دليل آخر أو يحتاج .

قال ابن العربي في "الأحكام" : "إنّ قوله ﴿ ليبلونّكم ﴾ الذي يقتضي أنّ التكليف يتحقّق في المُحِلّ بما شرط له من أمور الصيد وما شرط له من كيفية الاصطياد .

والتكليف كلّه ابتلاء وإن تفاضل في القلّة والكثرة وتبايَن في الضعف والشدّة" .

يريد أنّ قوله : ﴿ ليبلونّكم الله بشيء من الصيد ﴾ لا يراد به الإصابة ببلوى ، أي مصيبة قتل الصيد المحرّم بل يراد ليكلفنّكم الله ببعض أحوال الصيد .

وهذا ينظر إلى أنّ قوله تعالى : ﴿ وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 95] شامل لحالة الإحرامِ والحلولِ في الحرم .

وقوله : ﴿ ليبلونّكم الله بشيء من الصيد ﴾ هو ابتلاء تكليف ونهي ، كما دلّ عليه تعلّقه بأمر ممّا يفعل ، فهو ليس كالابتلاء في قوله : ﴿ ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ﴾ [البقرة : 155] وإنّما أخبرهم بهذا على وجه التحذير .

فالخبر مستعمل في معناه ولازم معناه ، وهو التحذير .

ويتعيّن أن يكون هذا الخطاب وُجّه إليهم في حين تردّدهم بين إمساك الصيد وأكله ، وبين مراعاة حرمة الإحرام ، إذ كانوا مُحرمين بعمرة في الحديبية وقد تردّدوا فيما يفعلون ، أي أنّ ما كان عليه الناس من حِرمة إصابة الصيد للمُحْرِم معتدّ به في الإسلام أو غير معتدّ به .

فالابتلاء مستقبل لأنّه لا يتحقّق معنى الابتلاء إلاّ من بعد النهي والتحذير .

ووجود نون التوكيد يعيّن المضارع للاستقبال ، فالمستقبل هو الابتلاء .

وأمّا الصيد ونوال الأيدي والرماح فهو حَاضر .

والصيد : المصيد ، لأنّ قوله من الصيد وقع بياناً لقوله ﴿ بشيء ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(333/213)

فائدة

قال الفخر :

معنى التقليل والتصغير في قوله ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الصيد ﴾ أن يعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي يكون التكليف فيها صعباً شاقاً ، كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال ، وإنما هو ابتلاء سهل ، فإن الله تعالى امتحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم بصيد البر كما امتحن بني إسرائيل بصيد البحر ، وهو صيد السمك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 71 ﴾

وقال الآلوسى :

وتنكير "شيء" كما قال غير واحد للتحقير المؤذن بأن ذلك (ليس) من الفتن الهائلة التي تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس وإتلاف الأموال وإنما هو من قبيل ما ابتلي به أهل أيلة من صيد البحر .

وفائدته التنبيه على أن من لم يثبت في مثل هذا كيف يثبت عند شدائد المحن .

فمن بيانية أي بشيء حقير هو الصيد .

واعترضه ابن المنير "بأنه قد وردت هذه الصيغة بعينها في الفتن العظيمة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف والجوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأموال والانفس والثمرات وَبَشِّرِ الصابرين ﴾ [البقرة : 551] فالظاهر والله تعالى أعلم أن من للتبعيض ، والمراد بما يشعر

به اللفظ من التقليل والتبعيض التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعض من كل بالنسبة إلى مقدور الله تعالى وأنه تعالى قادر على أن يجعل ما يبتليهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول وأنه مهما اندفع عنهم ما هو أعظم في المقدور فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل لطفاً بهم ورحمة ليكون هذا التنبيه باعثاً لهم على الصبر وحاملاً على الاحتمال .

والذي يرشد إلى هذا سبق الإخبار بذلك قبل حلوله لتوطين النفوس عليه فإن المفاجأة بالشدائد شديدة الألم والإنذار بها قبل وقوعها مما يسهل موقعها .

وإذا فكر العاقل فيما يبتلى به من أنواع البلايا وجد المندفع منها عنه أكثر مما وقع فيه بإضعاف لا تقف عنده غاية فسبحانه اللطيف بعباده" انتهى .

(334/213)

وتعقبه مولانا شهاب الدين بأن ما ذكر بعينه أشار إليه الشيخ في "دلائل الإعجاز" لأن شيئاً إنما يذكر لقصد التعميم نحو قوله سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] أو الإبهام وعدم التعيين أو التحقير لادعا أنه لحقارته لا يعرف .

وهنا لو قيل : ليبلونكم بصيد تم المعنى فإقحامها لا بد له من نكتة وهي ما ذكر ، وأما ما

أورده من الآية الأخرى فشاهد له لا عليه لأن المقصود فيه أيضاً التحقير بالنسبة إلى ما دفعه الله تعالى عنهم كما صرح به المعترض نفسه مع أنه لا يتم الاعتراض به إلا إذا كان ﴿ وَنَقْصٍ ﴾ معطوفاً على مجرور من لو عطف على شيء لكان مثل هذه الآية بلا فرق انتهى .

وقال عصام الملة : يمكن أن يقال : التعبير بالشيء للإبهام المكنى به عن العظمة والتنوين للتعظيم أي بشيء عظيم في مقام المؤاخذة بهتكه إذا آخذ الله تعالى المبتلى به في الأمم السابقة بالمسخ والجعل قردة وخنازير ثم استظهر أن التعبير بذلك لافادة البعضية ، ومما قدمنا يعلم ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وتنكير شيء هنا للتنويع لا للتحقير ، خلافاً للزمخشري ومن تابَعه .

وأشار بقوله : ﴿ تناله أيديكم ورماحكم ﴾ إلى أنواع الصيد صغيره وكبيره .

فقد كانوا يمسكون الفراخ بأيديهم وما هو وسيلة إلى الإمساك بالأيدي من شباك وحِبالات وجوارح ، لأنّ جميع ذلك يؤول إلى الإمساك باليد .

وكانوا يعْدُون وراء الكبار بالخيل والرماح كما يفعلون بالحُمر الوحشية وبقر الوحش ، كما في حديث أبي قتادة أنّه : رأى عام الحديبية حماراً وحشياً ، وهو غير محرم ، فاستوى على فرسه وأخذ رمحه وشدّ وراء الحمار فأدركه فعقره برمحه وأتى به .

.

إلخ.

وربما كانوا يصيدون برمي النبال عن قسيّهم ، كما في حديث "الموطأ" "عن زيد البَهْزي أنّه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد مكّة فإذا ظبي حاقف فيه سَهم" الحديث .

(335/213)

فقد كان بعض الصائدين يختبىء في قُتْرة ويمسك قوسه فإذا مرّ به الصيد رماه بسهم .

قال ابن عطية : وخصّ الرماح بالذكر لأنّها أعظم ما يجرح به الصيد .

وقد يقال : حذف ما هو بغير الأيدي وبغير الرماح للاستغناء بالطرفين عن الأوساط .

وجملة ﴿ تناله أيديكم ﴾ صفة للصيد أو حال منه .

والمقصود منها استقصاء أنواع الصيد لئلاّ يتوهّم أنّ التحذير من الصيد الذي هو بجرح أو قتل دون القبض باليد أو التقاط البيض أو نحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

لطيفة

قال القاسمي :

قال المهايمى : قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ لأن قتله تجبر ، والمحرم فى غاية التذلل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 256 ﴾

فائدة

قال الفخر :

من في قوله ﴿ مِّنَ الصيد ﴾ للتبعيض من وجهين :

أحدهما : المراد صيد البر دون البحر .

والثاني : صيد الإحرام دون صيد الإحلال ، وقال الزجاج : يحتمل أن تكون للتبيين كقوله ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 72 ﴾

فائدة

قال الفخر :

أراد بالصيد المفعول ، بدليل قوله تعالى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ورماحكم ﴾ والصيد إذا كان بمعنى المصدر يكون حدثاً ، وإنما يوصف بنيل اليد والرماح ما كان عينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 72 ﴾

قوله تعالى ﴿ لِيَعْلَمَ الله مَن يَخَافُهُ بالغيب ﴾

فائدة

قال الفخر :

إن هذا مجاز لأنه تعالى عالم لم يزل ولا يزال واختلفوا في معناه فقيل نعاملكم معاملة من يطلب أن يعلم وقيل ليظهر المعلوم وهو خوف الخائف وقيل هذا على حذف المضاف والتقدير : ليعلم أولياء الله من يخافه بالغيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 72 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بالغيب ﴾ أي ليتعلق علمه سبحانه بمن يخافه بالفعل فلا يتعرض للصيد فإن علمه تعالى بأنه سيخافه وإن كان متعلقاً به لكن تعلقه بأنه خائف بالفعل وهو الذي يدور عليه أمر الجزاء إنما يكون عند تحقق الخوف بالفعل ، وإلى هذا يشير كلام البلخي .

والغيب مصدر في موضع اسم الفاعل أي يخافه في الموضع الغائب عن الخلق فالجار متعلق بما قبله .

(336/213)

وجوز أبو البقاء أن يكون في موضع الحال من من أو من ضمير الفاعل في ﴿ يَخَافُهُ ﴾ أي يخافه غائباً عن الخلق .

وقال غير واحد : العلم مجاز عن وقوع المعلوم وظهوره .

ومحصل المعنى ليتميز الخائف من عقابه الأخروي وهو غائب مترقب لقوة إيمانه فلا يتعرض للصيد من لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه ، وقيل : إن هناك مضافاً محذوفاً ، والتقدير ليعلم أولياء الله تعالى و(من) على كل تقدير موصولة ، واحتمال كونها إستفهامية أي ليعلم جواب من يخافه أي هذا الاستفهام بعيد .

وقرىء (ليعلم) من الإعلام على حذف المفعول الأول أي ليعلم الله عباده الخ ، وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ من يخافه بالغيب ﴾ علّة لقوله ﴿ ليبلونّكم ﴾ [المائدة : 94] لأنّ الابتلاء اختبار ، فِعلّته أن يعلم الله مِنه من يخافه .

وجَعْل علم الله علّة للابتلاء إنّما هو على معنى ليظهر للناس من يخاف الله من كلّ من علم الله أنّه يخافه ، فأطلق علم الله على لازِمه ، وهو ظهور ذلك وتميّزه ، لأنّ علم الله يلازمه التحقّق في الخارج إذ لا يكون علم الله إلاّ موافقاً لما في نفس الأمر ، كما بينّاه غير مرّة ؛ أو

أريد بقوله : ﴿ ليعلم الله ﴾ التعلّق التنجيزي لعلم الله بفعل بعض المكلّفين ، بناء على إثبات تعلّق تنجيزي لصفة العلم ، وهو التحقيق الذي انفصل عليه عبد الحكيم في "الرسالة الخاقانية" .

وقيل : أطلق العلم على تعلّقه بالمعلوم في الخارج ، ويلزم أن يكون مراد هذا القائل أنّ هذا الإطلاق قصد منه التقريب لعموم أفهام المخاطبين .

وقال ابن العربي في القبس : "ليعلم الله مشاهدةً مَا علمه غيباً من امْتثال من امتثل واعتداء من اعتدى فإنّه ، عالم الغيب والشهادة يعلم الغيبَ أوّلاً ، ثم يَخلق المعدوم فيَعْلَمُه مشاهدة ، يتغيّر المعلوم ولا يتغيّر العلم" .

(337/213)

والباء إمّا للملابسة أو للظرفية ، وهي في موضع الحال من الضمير المرفوع في ﴿ يخافه ﴾ .

والغيب ضدّ الحضور وضدّ المشاهدة ، وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : 3] على أحد وجهين هنالك ، فتعلّق المجرور هنا بقوله ﴿ يخافه ﴾ الأظهر أنّه تعلّق لمجرّد الكشف دون إرادة تقييد أو احتراز ، كقوله تعالى : ﴿ ويقتلون النبيئين بغير حقّ ﴾ [البقرة : 61] .

أي من يخاف الله وهو غائب عن الله ، أي غير مشاهد له .

وجميع مخافة الناس من الله في الدنيا هي مخافة بالغيب .

قال تعالى : ﴿ إنّ الذين يخشون ربّهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ [الملك : 12] .

وفائدة ذكره أنه ثناء على الذين يخافون الله أثنى عليهم بصدق الإيمان وتنوّر البصيرة ، فإنّهم خافوه ولم يروا عظمته وجلاله ونعيمه وثوابه ولكنّهم أيقنوا بذلك عن صدق استدلال .

وقد أشار إلى هذا ما في الحديث القدسي : " إنّهم آمنوا بي ولم يروني فكيف لو رأوني "

ومن المفسرين من فسّر الغيب بالدنيا .

وقال ابن عطية : الظاهر أنّ المعنى بالغيب عن الناس ، أي في الخلوة .

فمن خاف الله انتهى عن الصيد في ذات نفسه ، يعني أنّ المجرور للتقييد ، أي من يخاف الله وهو غائب عن أعين الناس الذين يتّقى إنكارهم عليه أو صدّهم إيّاه وأخذَهم على يده أو التسميع به ، وهذا ينظر إلى ما بنوا عليه أنّ الآية نزلت في صيد غشيهم في سفرهم عام الحديبية يغشاهم في رحالهم وخيامهم ، أي كانوا متمكّنين من أخذه بدون رقيب ، أو يكون الصيد المحذّر من صيده مماثلاً لذلك الصيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ بالغيب ﴾ فيه وجهان :

(338/213)

الأول : من يخافه حال إيمانه بالغيب كما ذكر ذلك في أول كتابه وهو قوله ﴿ يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 3] الثاني : من يخاف بالغيب أي يخافه بإخلاص وتحقيق ولا يختلف الحال بسبب حضور أحد أو غيبته كما في حق المنافقين الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 72 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قال الفخر :

المراد عذاب الآخرة والتعزيز في الدنيا قال ابن عباس : هذا العذاب هو أن يضرب بطنه وظهره ضرباً وجيعاً وينزع ثيابه .

قال القفال : وهذا جائز لأن اسم العذاب قد يقع على الضرب كما سمى جلد الزانيين عذاباً فقال ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ ﴾ [النور : 2] وقال ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى

المحصنات مِنَ العذاب ﴾ [النساء : 25] وقال حاكياً عن سليمان في الهدهد :

﴿ لأعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ [النمل : 21] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 72 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَنِ اعتدى ﴾ أي تجاوز حد الله تعالى وتعرض للصيد ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ الإعلام وبيان أن ما وقع ابتلاء من جهته سبحانه لما ذكر من الحكمة .

وقيل : بعد التحريم والنهي ، ورد بان النهي والتحريم ليس أمراً حادثاً ترتب عليه الشرطية بالفاء ، وقيل : بعد الابتلاء ورد بان الابتلاء نفسه لا يصلح مدار التشديد والعذاب بل ربما يتوهم كونه عذراً مسوغاً لتحقيقه .

وفسر بعضهم الابتلاء بقدرة المحرم على المصيد فيما يستقبل ، وقال : ليس المراد به غشيان الصيود إياهم فإنه قد مضى ، وأنت تعلم أن إرادة ذلك المعنى ليست في حيز القبول والمعول عليه ما أشرنا إليه أي فمن تعرض للصيد بعد ما بينا أن ما وقع من كثرة الصيد وعدم توحشه منهم ابتلاء مؤد إلى تعلق العلم بالخائف بالفعل أو تميز المطيع من العاصي .

(339/213)

﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لأن التعرض والاعتداء حينئذ مكابرة محضة وعدم مبالاة بتدبير الله تعالى وخروج عن طاعته وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية ، ومن لا يملك زمام نفسه ولا يراعي حكم الله تعالى في أمثال هذه البلايا الهينة لا يكاد يراعيه في عظائم المداحض .

والمتبادر على ما قيل : أن هذا العذاب الأليم في الآخرة ، وقيل : هو في الدنيا .

فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق قيس بن سعد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : هو أن يوسع ظهره وبطنه جلداً ويسلب ثيابه وكان الأمر كذلك في الجاهلية أيضاً ، وقيل : المراد بذلك عذاب الدارين وإليه ذهب شيخ الإسلام .

ومناسبة الآية لما قبلها على ما ذكره الأجهوري أنه سبحانه لما أمرهم أن لا يحرموا الطيبات وأخرج من ذلك الخمر والميسر وجعلهما حرامين ، وإنما أخرج بعد من الطيبات ما يحرم في حال دون حال وهو الصيد ، ثم إنه عز اسمه شرع في بيان ما يتدارك به الاعتداء من الأحكام إثر بيان ما يلحقه من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ تصريح بالتحذير الذي أومأ إليه بقوله ﴿ ليبلونّكم ﴾ ، إذ قد أشعر قوله : ﴿ ليبلونّكم ﴾ أنّ في هذا الخبر تحذيراً من عمل قد تسبق النفس إليه .

والإشارة بذلك إلى التحذير المستفاد من ﴿ ليبلونّكم ﴾ ، أي بعد ما قدّمناه إليكم وأعذرنا لكم فيه ، فلذلك جاءت بعده فاء التفريع .

والمراد بالاعتداء الاعتداء بالصيد ، وسمّاه اعتداء لأنّه إقدام على محرّم وانتهاك لحرمة الإحرام أو الحرم .

وقوله : ﴿ فله عذاب أليم ﴾ ، أي عقاب شديد في الآخرة بما اجترأ على الحرم أو على الإحرام أو كليهما ، وبما خالف إنذار الله تعالى ، وهذه إذا اعتدى ولم يتدارك اعتداءه بالتوبة أو الكفارة ، فالتوبة معلومة من أصول الإسلام ، والكفارة هي جزاء الصيد ، لأنّ الظاهر أنّ الجزاء تكفير عن هذا الاعتداء كما سيأتي .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : العذاب الأليم أنّه يوسَع بطنُه وظهرُه جلْداً ويُسلَبُ ثيابَه وكان الأمر كذلك به في الجاهلية" .

فالعذاب هو الأذى الدنيوي ، وهو يقتضي أنّ هذه الآية قرّرت ما كان يفعله أهل الجاهلية ، فتكون الآية الموالية لها نسخاً لها .

ولم يقل بهذا العقاب أحد من فقهاء الإسلام فدلّ ذلك على أنّه أبطل بما في الآية الموالية ، وهذا هو الذي يلتئم به معنى الآية مع معنى التي تليها .

ويجوز أن يكون الجزاء من قبيل ضمان المتلفات ويبقى إثم الاعتداء فهو موجب العذاب الأليم .

فعلى التفسير المشهور لا يسقطه إلاّ التوبة ، وعلى ما نقل عن ابن عباس يبقى الضرب تأديباً ، ولكن هذا لم يقل به أحد من فقهاء الإسلام ، والظاهر أنّ سَلَبَه كان يأخذه فقراء مكة مثل جِلال البُدن ونِعالها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

لطيفة

قال فى روح البيان :

والإشارة فى الآية أن الله تعالى جعل البلاء للولاء كاللهب للذهب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح البيان حـ 2 صـ 528 ﴾

(340/213)

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ ﴾

في قوله ليبلونكم تأويلان :

أحدهما : معناه لَيُكَلِّفَنَّكُمْ .

الثاني : لَيَخْتَبِرَنَّكُم ، قاله قطرب ، والكلبي .

وفي قوله : ﴿ مِّنَ الصَّيْدِ ﴾ قولان :

أحدهما : أن ﴿ مِّنَ ﴾ للتبعيض في هذا الموضع لأن الحكم متعلق بصيد البَرِّ دون البحر ، وبصيد الحرم والإِحرام دون الحل والإِحلال .

والثاني : أن ﴿ مِّنَ ﴾ في هذا الموضع داخلة لبيان الجنس نحو قوله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [الحج : 30] قاله الزجاج .

﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : ما تناله أيدينا : البيض ، ورماحنا : الصيد ، قال مجاهد .

والثاني : ما تناله أيدينا : الصغار ، ورماحنا : الكبار ، قاله ابن عباس .

﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن معنى ليعلم الله : ليرى ، فعبر عن الرؤية بالعلم لأنها تؤول إليه ، قاله الكلبي .

والثاني : ليعلم أولياؤه من يخافه بالغيب .

والثالث : لتعلموا أن الله يعلم من يخافه بالغيب .

والرابع : معناه لتخافوا الله بالغيب ، والعلم مجاز ، وقوله : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ يعني بالسر كما تخافونه في العلانية .

﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ يعني فمن اعتدى في الصيد بعد ورود النهي .

﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي مؤلم ، قال الكلبي : نزلت يوم الحديبية وقد غشي الصيد الناس وهم محرمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(341/213)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ الله ﴾ أي ليختبرنكم ، والابتلاء الاختبار .

وكان الصيد أحد معايش العرب العاربة ، وشائعاً عند الجميع منهم ، مستعملاً جداً ، فابتلاهم الله فيه مع الإحرام والحرم ، كما ابتلى بني إسرائيل في ألاّ يعتدوا في السبت .

وقيل : إنها نزلت عام الحديبية ؛ أحرم بعض الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحرم بعضهم ، فكان إذا عرض صيدٌ اختلف فيه أحوالهم وأفعالهم ، واشتبهت أحكامه عليهم ، فأنزل الله هذه الآية بياناً لأحكام أحوالهم وأفعالهم ، ومحظورات حجّهم وعُمرتهم .

الثانية اختلف العلماء من المخاطب بهذه الآية على قولين : أحدهما أنهم المُحِلّون ؛ قاله مالك .

(342/213)

الثاني أنهم المحرمون قاله ابن عباس ؛ وتعلق بقوله تعالى : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ﴾ فإن تكليف الامتناع الذي يتحقق به الابتلاء هو مع الإحرام .

قال ابن العربي : وهذا لا يلزم ؛ فإن التكليف يتحقق في المُحِّل بما شُرط له من أُمور الصيد ، وما شُرع له من وصفه في كيفية الاصطياد .

والصحيح أن الخطاب في الآية لجميع الناس مُحلّهم ومُحرمهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ ﴾ أي ليكلفنكم ، والتكليف كله ابتلاء وإن تفاضل في الكثرة والقلة ، وتباين في الضّعف والشدّة .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الصيد ﴾ يريد ببعض الصيد ، فمِن للتبعيض ، وهو صيد البر خاصّة ؛ ولم يعمّ الصيد كله لأن للبحر صيدا ، قاله الطَّبَريّ وغيره .

وأراد بالصيد المصيد ؛ لقوله : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ﴾ .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ بيان لحكم صغار الصيد وكباره .

وقرأ ابن وثّاب والنَّخَعيّ : "يناله" بالياء منقوطة من تحت .

قال مجاهد : الأيدي تنال الفِراخ والبيض وما لا يستطيع أن يفِر ، والرّماح تنال كبار الصيد .

وقال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصيد تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ وكل شيء يناله الإنسان بيده أو برمحه أو بشيء من سلاحه فقتله فهو صيد كما قال الله تعالى .

الخامسة خص الله تعالى الأيدي بالذكر لأنها عُظْم التصرف في الاصطياد ؛ وفيها تدخل الجوارح والحِبالات ، وما عمل باليد من فِخاخ وشِباك ؛ وخص الرّماح بالذكر لأنها عُظْم ما يجرح به الصيد ، وفيها يدخل السهم ونحوه ؛ وقد مضى القول فيما يصاد به من الجوارح والسهام في أوّل السورة بما فيه الكفاية والحمد لله .

السادسة ما وقع في الفخّ والحِبالة فلربّها ، فإن ألجا الصيد إليها أحد ولولاها لم يتهيأ له أخذه فربها فيه شريكه .

(343/213)

وما وقع في الجُبَحْ المنصوب في الجبل من ذباب النّحل فهو كالحِبالة والفخّ ، وحمام الأبرجة تُردّ على أربابها إن استطيع ذلك ، وكذلك نحل الجِباح ؛ وقد روي عن مالك .

وقال بعض أصحابه : إنه ليس على من حصل الحمام أو النحل عنده أن يردّه .

ولو ألجأت الكلاب صيداً فدخل في بيت أحد أو داره فهو للصائد مرسِل الكلاب دون صاحب البيت ، ولو دخل في البيت من غير اضطرار الكلاب له فهو لرب البيت .

السابعة احتج بعض الناس على أن الصيد للآخذ لا للمثير بهذه الآية ؛ لأن المثير لم تنل يده ولا رمحه بعدُ شيئاً ، وهو قول أبي حنيفة .

الثامنة كره مالك صيد أهل الكتاب ولم يحرمه ، لقوله تعالى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ يعني أهل الإيمان ، لقوله تعالى في صدر الآية : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ ﴾ فخرج عنهم أهل الكتاب .

وخالفه جمهور أهل العلم ، لقوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الذين أُوتُواْ الكتاب حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ وهو عندهم مثل ذبائحهم .

وأجاب علماؤنا بأن الآية إنما تضمنت أكل طعامهم ، والصيد باب آخر فلا يدخل في عموم الطعام ، ولا يتناوله مطلق لفظه .

قلت : هذا بناء على أن الصيد ليس مشروعاً عندهم فلا يكون من طعامهم ، فيسقط عنا هذا الإلزام ؛ فأما إن كان مشروعاً عندهم في دينهم فيلزمنا أكله لتناول اللفظ له ، فإنه من طعامهم .

والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ الله ﴾

جوابُ قسمٍ محذوفٍ أي والله لَيُعامِلَنكم معاملةَ مَنْ يختبركم ليتعرَّفَ أحوالَكم ﴿ بِشَىْءٍ مّنَ الصيد ﴾ أي من صيدِ البَرّ مأكولاً أو غيرَ مأكول ما عدا المستثنياتِ من الفواسق ، فاللام للعَهْد ، نزلت عام الحُدَيْبية . ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم مُحرِمون كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث كانوا متمكنين من صيدِها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وذلك قوله تعالى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ورماحكم ﴾ فهمُّوا بأخذها فنزلت ، ورُوي أنه عَنَّ لهم حمارُ وحشٍ فحمل عليه أبو اليَسَر بنُ عمرو فطعنه برمحه وقتله ، فقيل له : قتلته وأنت مُحرم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك فأنزل الله تعالى الآية ، فالتأكيد القَسَميُّ في (ليبلونكم) إنما هو لتحقيق أن ما وقع من عدم توحُّش الصيد عنهم ليس إلا لابتلائهم لا لتحقيق وقوعِ المبتلى به كما لو كان النزول قبل الابتلاء ، وتنكير (شيء) للتحقير المُؤْذِن بأن ذلك ليس من الفِتن الهائلة التي تزِلُّ فيها أقدامُ الراسخين كالابتلاء بقتل

الأنفس وإتلافِ الأموال ، وإنما هو من قبيل ما ابتُلِيَ به أهل أُيْلَةَ من صيد البحر ، وفائدته التنبيه على أن من لم يثبّتْ في مثل هذا كيف يثبتُ عند شدائد المحن ؟ (فمن) في قوله تعالى : ﴿ مّنَ الصيد ﴾ بيانية قطعاً أي بشيء حقير هو الصيد ، وجعلُها تبعيضيةً يقتضي اعتبارَ قِلَّته وحقارته بالنسبة إلى كل الصيد لا بالنسبة إلى عظائم البلايا فيَعْرَى الكلامُ عن التنبيه المذكور .

(345/213)

﴿ لِيَعْلَمَ الله مَن يَخَافُهُ بالغيب ﴾ أي ليتميز الخائفُ من عقابه الأخروي وهو غائبٌ مترقبٌ لقوة إيمانه ، فلا يتعرض للصيد ، ممن لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيُقدم عليه ، وإنما عبر عنْ ذلك بعلم الله تعالى اللازم له إيذاناً بمدار الجزاءِ ثواباً وعقاباً فإنه أدْخَلُ في حملهم على الخوف ، وقيل : المعنى ليتعلق علمه تعالى بمن يخافه بالفعل ، فإن علمه تعالى بأنه سيخافه وإن كان متعلقاً به قبل خوفه لكنّ تعلُّقَه بأنه خائف بالفعل وهو الذي يدور عليه أمرُ الجزاء إنما يكون عند تحقق الخوف بالفعل ، وقيل : هناك مضاف محذوف ، والتقدير ليعلم أولياءَ الله ، وقرىء (لِيُعلِمَ) من الإعلام على حذف المفعول الأول أي لِيُعْلِمَ الله عباده الخ ، والعلمُ على القراءتين متعدَ إلى واحد ، وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية

المهابة وإدخال الروعة ﴿ فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذلك ﴾ أي بعد بيان أنّ ما وقع ابتلاءٌ من جهته تعالى لِما ذُكر من الحِكمة لا بعد تحريمِه أو النهي عنه كما قاله بعضهم ، إذ النهي والتحريم ليس أمراً حادثاً يترتب عليه الشرطية ، بالفاء ، ولا بعد الابتلاء كما اختاره آخرون ، لأن نفس الابتلاء لا يصلح مداراً لتشديد العذاب ، بل ربما يتوهم كونُه عذراً مسوّغاً لتخفيفه ، وإنما الموجب للتشديد بيانُ كونه ابتلاءً ، لأن الاعتداء بعد ذلك مكابرةٌ صريحة ، وعدمُ مبالاةٍ بتدبير الله تعالى ، وخروجٌ عن طاعته ، وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية .

(346/213)

أي : فمن تعرض للصيد بعد ما بينا أن ما وقع من كثرة الصيد وعدم توحُّشه منهم ابتلاءٌ مؤدَ إلى تمييز المطيع من العاصي ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لما ذكر من أنه مكابرة محضة ولأن من لا يملك زمام نفسه ولا يراعي حكم الله تعالى في أمثال هذه البلايا الهيِّنة لا يكاد يُراعيه في عظائم المداحض . والمراد بالعذاب الأليم عذاب الدارين ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يُوسَعُ ظهرُه وبطنه جَلداً وينزع ثيابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾

وهذا انتقال لحكم جديد ، فبعد أن تكلم الحق فيما أحله لنا وقال سبحانه : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنعام ﴾ [المائدة : 1] .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه فيما حرم علينا من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكى وذبح وحرَّم ما ذبح للأصنام وما استقسم بالأزلام وكذلك الخمر والميسر ، أراد أن يعطينا محرمات من نوع خاص ، وحتى نعرف هذه المحرمات لا بد لنا أن نعرف أن هناك أشياء محرمة في كل زمان وكل مكان ، كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من النواهي الثابتة ، سواء أكانت عبادة أصنام أم أزلام أم غير ذلك من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهناك محرمات في أزمنة خاصة ، أو في أمكنة خاصة . والفعل ، أي فعل ، لا بد له من زمن ولا بد له من مكان . نحن مأمورون بالصلاة في زمانها في أي مكان طاهر وصالح للصلاة فيه ، وكذلك الصوم

يتحكم فيه الزمان ، أما الحج فالذي يتحكم فيه هو الزمان والمكان . وأما العمرة فالذي يتحكم فيها هو المكان ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يعتمر في أي زمان – غالباً – ويتكلم سبحانه هنا عن نهي في مكان خاص وفي زمان خاص ، فالصيد ليس محرماً إلا في حالة أن يكون الإنسان حُرماً .

(348/213)

ونعلم أن كلمة و" حُرُم " هي جمع " حَرَام " ، والحرام إما أن يكون الإنسان في المكان الذي يبدأ فيه بالتحريم . ومثال ذلك منطقة رابغ التي يبدأ عندها الإحرام بالنسبة لسكان مصر ، فإن وصلت إلى هذا المكان وبدأت في عمل من أعمال الحج أو العمرة فأول عمل هو الإحرام . ومن لحظة الإحرام حتى ولو أحرمت من بلدك أو بيتك لا يحل لك الصيد . و" الحرم " أيضاً هو وصف للمكان حتى وإن لم يكن الإنسان حاجاً ، فالصيد محرم في الحرم ، والحرم له حدود بينها الشرع ، فالصيد فيه حرام على المُحْرِم وغير المحْرِم . ونعلم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الحق لها الأرض كلها مسجداً وطهوراً .

وعلى ذلك فأي مكان يصلح للصلاة ، ويصلح أن نقرأ فيه العلم ، ويصلح أن نقيم عليه مصنعاً ويصلح أن نزرعه . إذن فأي أرض تصلح أن تكون مسجداً لأنها مكان للسجود .

ولكن المسجد بالمعنى الاصطلاحي هو المكان المخصص للصلاة . أما المسجد الحرام فمركزه الكعبة وحولها الطواف وحول ذلك جدران الحرم . ويقع المسجد الحرام في دائرة الحرم ، والتي تبدأ من التنعيم والجعرانة والحديبية والجحفة وغيرها ، هذه حدود الحرم . فالإنسان إذا ما جاء إلى ميقات الحج عند رابغ مثلا فهو لا يصطاد ؛ لأنه أصبح في دائرة الحرم ، فالصيد محرم عليه حتى ولو لم يكن حاجاً أو معتمرا .

والحج – كما نعلم – هو رحلة فرضها الله مرة واحدة في العمر يخرج إليها المسلم الذي يحيا في كل مكان مع نعمة المنعم . وعندما يخرج المسلم إلى الحج فهو يتحلل من كل النعم التي تصنع له التمييز ليستوي مع كل خلق الله . وأول سمة مميزة للإنسان هي الملابس ، لذلك يخلع المسلمون ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً يتساوون فيه . وحين يترك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى المُنْعِم .

(349/213)

ومن بعد ذلك يريد الحق أن يؤدبنا تأديباً إيمانياً مع الوجود كله . ويصفي الله في الحج هذه المسألة كلها ، فالكل سواء في ملابس تكاد تكون واحدة ، وكلهم شُعْثٌ غُبْر ، وكلهم يقولون : " لبيك اللهم لبيك " . هكذا تتم تصفية التفاوت في الإنسان بالإحرام .

ومن بعد ذلك ينظر إلى الجنس الأدنى وهو الحيوان ، ويعلمنا الحق الأدب مع هذا الجنس فيأتي بتحريم صيده . ويعلمنا الأدب مع الزرع الذي تحت الحيوان فيمنع المسلم من قطع شجر الحرم . وهكذا تصفي كل هذه المسألة ، وتصبح العبودية مستطرقة في الجميع .

وتزول في الحج كل الألقاب والمقادير المتباينة من فور اتجاههم إلى الحج ، وحول الكعبة يرى الخفيرُ الوزيرَ وهو يبكي ، ويشعر الجميع أن الكل سواء ، والحق يقول : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران : 97] .

فالحيوان يأمن وكذلك النبات ، هذا ما أمر به الحق في دائرة الحرم ؛ لأن ذلك تدريب للإنسان على أن يخرج من النعمة إلى المنعم . ومن بعد ذلك يدخل إلى المسجد ويطوف حول الكعبة . ونجد الإنسان – سيد الوجود – يقف من كل ما يخدمه في الوجود موقفاً مختلفاً ، فالحيوان يأخذ كرامته وكذلك النبات ، وكذلك الجماد يأخذ أيضاً كرامته ، فمن عند الحجر الأسود يبدأ الطواف سبعة أشواط .

في الحج ينفض الإنسان أي طغيان عن نفسه ويتساوى مع كل الناس ، ينفض طغيانه أمام الجنس الأدنى وهو الحيوان فحرّم عليه صيده – ونعلم أن الحيوان يغذي الإنسان – وينفض أيضا طغيانه مع النبات – والنبات يغذي الإنسان – فحرّم قطعه .

وينفض الحق كبرياء الإنسان أمام الجماد – وهو أحط الأجناس – فأمر الحق الإنسان أن يستلم الحجر الأسود أو أن يقبله ، وإن لم يستطع من الزحام فعليه الإشارة للحجر ، ومن لم

يستطع استلام الحجر أو تقبيله فقد يخيل إليه أن حجه لم يقبل وذلك زيادة منه في التعلق بالمناسك والاحتياط في أدائها .

(350/213)

كل ذلك حتى يحقق الله سبحانه وتعالى استطراق العبودية ، ودائماً نجد من يتساءل : وكيف نقبل الحجر على الرغم من أن الله قد نهانا عن الوثنية وعبادة الأصنام ؟ ونقول ؟ إن الحجرية ليست لها قيمة في هذا المجال ، ولكن رب الإنسان والحيوان والنبات والحجر هو الذي أمرنا بذلك ، بدليل أننا نرجم حجراً آخر هو رمز إبليس ، والعبد في أثناء أداء المشاعر – إنما ينتقل من مراد نفسه إلى مراد ربه ، فيقبل ويعظم حجراً ويرجم حجراً آخر ، وهكذا صفيت العبودية بالنسبة للناس فاستطرقوا ، وصُفيت العبودية بالنسبة للحيوان والنبات والجماد .

ويلفتنا سيدنا عمر رضي الله عنه فيقول للحجر الأسود : " أنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك " .

كأن سيدنا عمر رضي الله عنه يعلمنا حتى لا يقول أحد : إنها وثنية ، فالوثنية أن تعبد حجراً بمرادك ، أما الحجر الأسود فنحن نعظمه بمراد الله . ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ

اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصيد تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بالغيب فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 94] .

ما الفرق بين ما تناله الأيدي وما تناله الرماح؟ . ما تناله الأيدي هو صغار الأفراخ والأشياء السهلة اليسيرة ، أما ما تناله الرماح فهو ما تصطاده بجهد وبالرمح وحسن تصويبه . وقال الحق : " ولنبلوكم " لأن هناك فارقاً بين أن يلح الإنسان على المعصية فيفعلها ، وبين أن يصل إلى منزلة لا يلح فيها على معصية ، بل قد تقع عليه المعصية ، وإن وقعت عليه المعصية فهو لا يرتكبها .

كأن الحق يبتلينا ما دمنا لا نلح على المعصية ، ويريد أن يرى ماذا يكون التصرف منا إن جاءت المعصية إلينا فهل نفعلها أو لا؟ . فإن كان الإيمان قوياً فلا أحد يقرب المعصية . ولذلك يبتليكم الله بشيء من الصيد المحرّم عليكم بان يجعله في متناول أيديكم .

(351/213)

حدث ذلك في الحديبية لقد كاد الصيد يضع نفسه بين أيدي المؤمنين ولم يقربوه وكان هذا اختباراً . ونعلم أن الابتلاء غير مذموم في ذاته ، إنما المذموم فيه الغاية منه ؛ لأن الابتلاء اختبار ، وقد ينجح إنسان ، وقد يفشل إنسان آخر . وكأن الحق قد ابتلى المؤمنين بان

جعل الصيد يتكاثر أمامهم حتى يقوي عود الإيمان في قلب المؤمن فلا يتهافت على المعصية وتكون لديه المناعة وذلك . ﴿ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بالغيب ﴾ وسبحانه وتعالى العالم بكل شيء قبل أن يحدث . لكن هناك فرق بين علم وعلم ، وإن علم الله أزلي لا يتخلف ، ولكن هذا العلم ليس حجة على الناس ؛ لأن الحجة على الناس هو ما يقع منهم فعلاً ، ولذلك كان الابتلاء .

وأسوق هذا المثل – ولله المثل الأعلى – إن الوالد قد ينظر إلى أحد أبنائه ويقول : أنه يلعب طول السنة ومن الأفضل ألا ندخله الامتحان ؛ لأنه سوف يرسب . ولا يدخل الابن الامتحان ، ولكن الوقاحة قد تصل به إلى الحد الذي يقول فيه : لو كنت دخلت الامتحان لكنت من الناجحين . ولو كان والده أدخله الامتحان ورسب ، لكان هذا الرسوب حجة عليه .

إذن فعلم الحق لا يلزمنا الحجة ، إنما العلم الواقعي هو الذي يلزمنا بها .

(352/213)

وقد حدثت هذه الابتلاءات في النبوّات كثيراً . ومثال ذلك ابتلاء الحق لليهود بتحريم الصيد يوم السبت ، فكان الحيتان تأتي في هذا اليوم مشرعة وكأنها تلح عليهم أن

يصطادوها . وفي الأيام الأخرى لا تأتي الحيتان ، فيحتالون لعصيان الأمر باختراع نوع من الشباك السلكية تدخل فيها الحيتان ، وتظل محبوسة فيها إلى يوم الأحد فيأخذونها .

وتكون حيلتهم هي دليل الغباء منهم ؛ لأن الصيد قد تم بالنية والعمل والاستعداد المسبق . وكان الابتلاء في الإسلام بشيء من الصيد . ﴿ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بالغيب فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وقد علمنا من قبل قوله الحق : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة : 229] .

فإن كانت المسائل مأمورات فعلينا أن ننفذها . وإن كانت نواهي فيجب ألا نقربها حتى لا نقع فيها فتكون حجة علينا ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(353/213)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

بَابُ الصَّيْدِ لِلْمُحْرِمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ ﴾

قِيلَ فِي مَوْضِعِ (مِنْ) هَهُنَا إنَّهَا لِلتَّبْعِيضِ ، بِأَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ صَيْدَ الْبَرِّ دُونَ صَيْدِ الْبَحْرِ وَصَيْدَ الْإِحْرَامِ دُونَ صَيْدِ الْإِحْلَالِ .

وَقِيلَ إنَّهَا لِلتَّمْيِيزِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الْأَوْثَانِ ﴾ وَقَوْلُك " بَابٌ مِنْ حَدِيدٍ " وَ " ثَوْبٌ مِنْ قُطْنٍ " .

وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ مَا يَكُونُ مِنْ أَجْزَاءِ الصَّيْدِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَيْدًا ، كَالْبَيْضِ وَالْفَرْخِ ؛ لِأَنَّ الْبَيْضَ مِنْ الصَّيْدِ ، وَكَذَلِكَ الْفَرْخُ وَالرِّيشُ وَسَائِرُ أَجْزَائِهِ ؛ فَتَكُونُ الْآيَةُ شَامِلَةً لِجَمِيعِ هَذِهِ الْمَعَانِي ، وَيَكُونُ الْمُحَرَّمُ بَعْضُ الصَّيْدِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَهُوَ صَيْدُ الْبَرِّ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ ، وَيُفِيدُ أَيْضًا تَحْرِيمَ مَا كَانَ مِنْ أَجْزَاءِ الصَّيْدِ وَنَمَا عَنْهُ كَالْبَيْضِ وَالْفَرْخِ وَالْوَبَرِ وَغَيْرِهِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ﴾ قَالَ : (فِرَاخُ الطَّيْرِ وَصِغَارُ الْوَحْشِ) .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : (الْفِرَاخُ وَالْبَيْضُ) .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ ﴿ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِخَمْسِ بَيْضَاتٍ فَقَالَ : إنَّا مُحْرِمُونَ وَإِنَّا لَا نَأْكُلُ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْهَا ﴾ .

(354/213)

وَرَوَى عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ : أَنَّ ﴿ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى فِي بَيْضِ نَعَامٍ أَصَابَهُ الْمُحْرِمُ بِقِيمَتِهِ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي مُوسَى فِي بَيْضِ النَّعَامَةِ يُصِيبُهُ الْمُحْرِمُ : (أَنَّ عَلَيْهِ قِيمَتَهُ) .

وَلَا نَعْلَمُ خِلَافًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (كِبَارُ الصَّيْدِ) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ ، قِيلَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ كُلُّهَا مُحْتَمَلٌ : أَحَدُهَا : مُحْرِمُونَ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ .

وَالثَّانِي دُخُولُ الْحَرَمِ ، يُقَالُ أَحْرَمَ الرَّجُلُ إذَا دَخَلَ الْحَرَمَ ، كَمَا يُقَالُ أَنْجَدَ إذَا أَتَى نَجْدًا ، وَأَعْرَقَ إذَا أَتَى الْعِرَاقَ ، وَأَتْهَمَ إذَا أَتَى تِهَامَةَ .

وَالثَّالِثُ : الدُّخُولُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ قُتِلَ الْخَلِيفَةُ مُحْرِمًا يَعْنِي فِي الشَّهْرِ

الْحَرَامِ ، وَهُوَ يُرِيدُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْوَجْهَ الثَّالِثَ غَيْرُ مُرَادٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَأَنَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ لَا يَحْظُرُ الصَّيْدَ ، وَالْوَجْهَانِ الْأَوَّلَانِ مُرَادَانِ .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ صَيْدِ الْحَرَمِ لِلْحَلَالِ وَالْمُحْرِمِ ، فَدَلَّ أَنَّهُ مُرَادٌ بِالْآيَةِ ؛ لِأَنَّهُ مَتَى ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُكْمٌ يَنْتَظِمُهُ لَفْظُ الْقُرْآنِ فَالْوَاجِبُ أَنْ يُحْكَمَ بِأَنَّهُ صَدَرَ عَنْ الْكِتَابِ غَيْرُ مُبْتَدَأٍ .

(355/213)

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ يَقْتَضِي عُمُومُهُ صَيْدَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لَوْلَا مَا خَصَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾ فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ صَيْدُ الْبَرِّ خَاصَّةً دُونَ صَيْدِ الْبَحْرِ .

وَقَدْ دَلَّ قَوْلُهُ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ أَنَّ كُلَّ مَا يَقْتُلُهُ الْمُحْرِمُ مِنْ الصَّيْدِ فَهُوَ غَيْرُ ذَكِيٍّ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّاهُ قَتْلًا ، وَالْمَقْتُولُ لَا يَجُوزُ أَكْلُهُ وَإِنَّمَا يَجُوزُ أَكْلُ الْمَذْبُوحِ عَلَى شَرَائِطِ الذَّكَاةِ ، وَمَا ذُكِّيَ مِنْ الْحَيَوَانِ لَا يُسَمَّى مَقْتُولًا لِأَنَّ كَوْنَهُ مَقْتُولًا يُفِيدُ أَنَّهُ غَيْرُ مُذَكًّى .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ الْمُحْرِمُ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ ﴾ قَدْ

دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْخَمْسَةَ لَيْسَتْ مِمَّا يُؤْكَلُ لِأَنَّهُ مَقْتُولٌ غَيْرُ مُذَكًّى ، وَلَوْ كَانَ مُذَكًّى كَانَتْ إفَاتَةُ

رُوحِهِ لَا تَكُونُ قَتْلًا وَلَمْ يَكُنْ يُسَمَّى بِذَلِكَ .

وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ قَالَ : (لِلَّهِ عَلَيَّ ذَبْحُ شَاةٍ) إنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَذْبَحَ ، وَلَوْ قَالَ : (لِلَّهِ عَلَيَّ قَتْلُ شَاةٍ) لَمْ يَلْزَمْهُ شَيْءٌ .

وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ قَالَ : (لِلَّهِ عَلَيَّ ذَبْحُ وَلَدِي أَوْ نَحْرُهُ) فَعَلَيْهِ شَاةٌ ، وَلَوْ قَالَ : (لِلَّهِ عَلَيَّ قَتْلُ وَلَدِي) لَمْ يَلْزَمْهُ شَيْءٌ لِأَنَّ اسْمَ الذَّبْحِ مُتَعَلِّقٌ بِحُكْمِ الشَّرْعِ فِي الْإِبَاحَةِ وَالْقُرْبَةِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْقَتْلُ .

(356/213)

وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ قَالَ : (قَتْلُهُ حَرَامٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَكْلُهُ حَرَامٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ) يَعْنِي أَكْلُ مَا قَتَلَهُ الْمُحْرِمُ مِنْهُ .

وَرَوَى أَشْعَثُ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : (كُلُّ صَيْدٍ يَجِبُ فِيهِ الْجَزَاءُ فَذَلِكَ الصَّيْدُ مَيْتَةٌ لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ) ؛ وَرَوَى عَنْهُ يُونُسُ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ .

وَرَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلِمَةَ عَنْ يُونُسَ عَنْ الْحَسَنِ فِي الصَّيْدِ يَذْبَحُهُ الْمُحْرِمُ قَالَ : (يَأْكُلُهُ الْحَلَالُ

) .

وَعَنْ عَطَاءٍ : (إذَا أَصَابَ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ لَا يَأْكُلُهُ الْحَلَالُ) .

وَقَالَ الْحَكَمُ وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ : (يَأْكُلُهُ الْحَلَالُ) .

وَهُوَ قَوْلُ سُفْيَانَ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا دَلَالَةَ الْآيَةِ عَلَى تَحْرِيمِ مَا أَصَابَهُ الْمُحْرِمُ مِنْ الصَّيْدِ وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ مُذَكًّى ؛ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَحْرِيمَهُ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الدِّينِ عَلَى أَنَّهُ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى فَأَشْبَهَ صَيْدَ الْمَجُوسِيِّ وَالْوَثَنِيِّ وَمَا تُرِكَ فِيهِ التَّسْمِيَةُ أَوْ شَيْءٌ مِنْ شَرَائِطِ الذَّكَاةِ ، وَلَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الذَّبْحِ بِسِكِّينٍ مَغْصُوبٍ أَوْ ذَبْحِ شَاةٍ مَغْصُوبَةٍ ؛ لِأَنَّ تَحْرِيمَهُ تَعَلَّقَ بِحَقِّ آدَمِيٍّ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ أَبَاحَهُ جَازَ فَلَمْ يَمْنَعْ صِحَّةَ الذَّكَاةِ ؟ إذْ كَانَتْ الذَّكَاةُ حَقًّا لِلَّهِ تَعَالَى ، فَشُرُوطُهَا مَا كَانَ حَقًّا لِلَّهِ تَعَالَى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص جـ 3 صـ ﴾

(357/213)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ

لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَقَدْ قِيلَ : إنَّهَا نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ ، أَحْرَمَ بَعْضُ النَّاسِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُحْرِمْ بَعْضُهُمْ فَكَانَ إذَا عَرَضَ صَيْدٌ اخْتَلَفَتْ فِيهِ أَحْوَالُهُمْ ، وَاشْتَبَهَتْ أَحْكَامُهُ عَلَيْهِمْ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ بَيَانًا لِأَحْكَامِ أَحْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَمَحْظُورَاتِ حَجِّهِمْ وَعُمْرَتِهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ ، خَاطَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا كُلَّ مُسْلِمٍ مِنْهُمْ ، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَسَائِلِ الْأُصُولِ هَذِهِ التَّرْجَمَةَ ، وَبَيَّنَّا حَقِيقَتَهَا ، وَأَوْضَحْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ مَعْنَاهَا فِي كُلِّ آيَةٍ تَجْرِي عَلَيْهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُخَاطَبِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ الْمُحِلُّونَ ؛ قَالَهُ مَالِكٌ .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ الْمُحْرِمُونَ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ ، وَتَعَلَّقَ مَنْ عَمَّمَ بِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مُطْلَقٌ فِي الْجَمِيعِ .

(358/213)

وَتَعَلَّقَ مَنْ خَصَّ بِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ الْمُحْرِمُونَ ، فَإِنَّ تَكْلِيفَ الِامْتِنَاعِ الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِهِ الِابْتِلَاءُ هُوَ مَعَ الْإِحْرَامِ .

وَهَذَا لَا يَلْزَمُ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ الَّذِي يَقْتَضِي التَّكْلِيفَ يَتَحَقَّقُ فِي الْمُحِلِّ بِمَا شُرِطَ لَهُ مِنْ أُمُورِ الصَّيْدِ ، وَمَا شُرِعَ لَهُ مِنْ وَظِيفَةٍ فِي كَيْفِيَّةِ الِاصْطِيَادِ ، وَالتَّكْلِيفُ كُلُّهُ ابْتِلَاءٌ وَإِنْ تَفَاضَلَ فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ ، وَتَبَايَنَ فِي الضَّعْفِ وَالشِّدَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَ قَوْمٌ : الْأَصْلُ فِي الصَّيْدِ التَّحْرِيمُ ، وَالْإِبَاحَةُ فَرْعُهُ الْمُرَتَّبُ عَلَيْهِ ، وَهَذَا يَنْعَكِسُ فَيُقَالُ : الْأَصْلُ فِي الصَّيْدِ الْإِبَاحَةُ وَالتَّحْرِيمُ فَرْعُهُ الْمُرَتَّبُ عَلَيْهِ ، وَلَا دَلِيلَ يُرَجِّحُ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ بِهِ .

وَنَحْنُ نَقُولُ : لَا أَصْلَ فِي شَيْءٍ إلَّا مَا أَصَّلَهُ الشَّرْعُ بِتِبْيَانِ حُكْمِهِ وَإِيضَاحِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ مِنْ حِلٍّ أَوْ تَحْرِيمٍ ، وَوُجُوبٍ أَوْ نَدْبٍ أَوْ كَرَاهِيَةٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي مَسْأَلَةِ الْأَكْلِ لِمَا أَكَلَهُ الْكَلْبُ مِنْ الصَّيْدِ ، حَتَّى قِيلَ الْأَصْلُ فِي الصَّيْدِ التَّحْرِيمُ .

وَإِذَا أَكَلَ الْكَلْبُ مِنْ الصَّيْدِ فَهُوَ مَشْكُوكٌ فِيهِ .

وَقُلْنَا : إنَّ الْأَصْلَ فِي الصَّيْدِ الْإِبَاحَةُ فَلَا يُحَرِّمُهُ أَكْلُ الْكَلْبِ مِنْهُ إلَّا بِدَلِيلٍ .

ثُمَّ ذَكَرْنَا التَّعَارُضَ فِيهِ وَالِانْفِصَالَ عَنْهُ ، فَلْيُنْظَرْ فِي مَوْضِعِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ بَيَانٌ لِحُكْمِ صِغَارِ الصَّيْدِ وَكِبَارِهِ .

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ فَكُلُّ شَيْءٍ يَنَالُهُ الْإِنْسَانُ بِيَدِهِ ، أَوْ بِرُمْحِهِ أَوْ بِشَيْءٍ مِنْ سِلَاحِهِ فَقَتَلَهُ ، فَهُوَ صَيْدٌ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ ، وَهَذَا بَيَانٌ شَافٍ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : [صَيْدُ الذِّمِّيِّ] : قَالَ مَالِكٌ : لَا يَحِلُّ صَيْدُ الذِّمِّيِّ بِنَاءً عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُحِلِّينَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ، فَخَرَجَ عَنْهُمْ أَهْلُ الذِّمَّةِ ، لِاخْتِصَاصِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْإِيمَانِ ، فَيَقْتَضِي ذَلِكَ اقْتِصَارُهُ عَلَيْهِمْ إلَّا بِدَلِيلٍ يَقْتَضِي التَّعْمِيمَ .

وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ دَلِيلِ الْخِطَابِ الَّذِي هُوَ تَعْلِيقُ الْحُكْمِ بِأَحَدِ وَصْفَيْ الشَّيْءِ ، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْآخَرَ بِخِلَافِهِ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ بَابِ أَنَّ أَحَدَ الْوَصْفَيْنِ مَنْطُوقٌ بِهِ ، مُبَيَّنٌ حُكْمُهُ ، وَالثَّانِي مَسْكُوتٌ عَنْهُ ، وَلَيْسَ فِي مَعْنَى مَا نُطِقَ بِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : إنْ كَانَ مَسْكُوتًا عَنْهُ فَحَمَلَهُ عَلَيْهِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ .

قُلْنَا : هَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ أَكْلِ طَعَامِهِمْ .

وَالصَّيْدُ بَابٌ آخَرُ ؛ فَلَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ ذِكْرِ الطَّعَامِ ، وَلَا يَتَنَاوَلُهُ مُطْلَقُ لَفْظِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : نَقِيسُهُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ نَوْعُ ذَكَاةٍ ، فَجَازَ مِنْ الذِّمِّيِّ كَذَبْحِ الْإِنْسِيِّ .

(360/213)

قُلْنَا : لِلْمَقْدُورِ عَلَيْهِ مِمَّا يُذَكَّى شُرُوطٌ ، وَلِمَا لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ شُرُوطٌ أُخَرُ ؛ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضُوعٌ وُضِعَ عَلَيْهِ ، وَمَنْصِبٌ جُعِلَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَجُوزُ الْإِلْحَاقُ فِيمَا اخْتَلَفَ مَوْضُوعُهُ فِي الْأَصْلِ ؛ وَهَذَا فَنٌّ مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ أَمَّا صَيْدُ الْمَجُوسِيِّ : فَإِنَّهُ لَا يُؤْكَلُ إجْمَاعًا ؛ لِأَنَّ الصَّيْدَ الْوَاقِعَ مِنْهُ دَاخِلٌ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ وَالْمَجُوسِيُّ إنَّمَا يَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ ، وَيَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ ، وَيَفْعَلُ جَمِيعَ أَفْعَالِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا ذَكَرْت اسْمَ اللَّهِ عَلَى كَلْبِك الْمُعَلَّمِ فَكُلْ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : فَالذِّمِّيُّ لَا يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ وَيُؤْكَلُ صَيْدُهُ .

قُلْنَا : لَا يُؤْكَلُ صَيْدُ الذِّمِّيِّ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ فَيَسْقُطُ عَنَّا هَذَا الِالْتِزَامُ .

وَإِنْ قُلْنَا : إنَّهُ يُؤْكَلُ فَلِمُطْلَقِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ عَلَى أَحَدِ الْأَدِلَّةِ ، وَعَلَى الدَّلِيلِ الثَّانِي نَأْكُلُهُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُخَاطَبُوا بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ .

وَعَلَى الدَّلِيلِ الثَّالِثِ يَكُونُ كَمَتْرُوكِ التَّسْمِيَةِ عَمْدًا عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ .

وَهَذَا كُلُّهُ مُتَرَدِّدٌ عَلَى الْآيَاتِ بِحُكْمِ التَّعَارُضِ فِيهَا .

(361/213)

وَالصَّحِيحُ عِنْدِي جَوَازُ أَكْلِ صَيْدِهِ ، وَأَنَّ الْخِطَابَ فِي الْآيَةِ لِجَمِيعِ النَّاسِ مُحِلِّهِمْ وَمُحْرِمِهِمْ ؛ وَلِأَجْلِ هَذَا قَالَ قَاضِي الْقُضَاةِ ابْنُ حَبِيبٍ : إنَّ مَعْنَى قَوْلِ : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ لَيُكَلِّفَنَّكُمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(362/213)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿

ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ﴾ قال : هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يبتلي الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاؤوا تناولوه بأيديهم ، فنهاهم الله أن يقربوه ، فمن قتله منكم متعمداً قال : إن قتله متعمداً أو ناسياً أو خطأ حكم عليه ، فإن عاد متعمداً عجلت له العقوبة إلا أن يعفو الله عنه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله ﴿ ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ﴾ قال : النبل والرمح ينال كبار الصيد ، وأيديهم تنال صغار الصيد ، أخذ الفروخ والبيض . وفي لفظ : أيديكم . أخذكم إياهن بأيديكم من بيضهن وفراخهن ، ورماحكم . ما رميت أو طعنت .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ ليبلونكم الله بشيء من الصيد ﴾ قال : ما لا يستطيع أن يرمي من الصيد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية ، فكانت الوحش والطير والصيد يغشاهم في رحالهم ، لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون ﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم من طرق قيس بن سعد عن ابن عباس . أنه كان يقول في قوله : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ : أن يوسع ظهره وبطنه جلداً ، ويسلب ثيابه .

وأخرج أبو الشيخ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله قال : كان إذا ما أخذ شيئاً من الصيد أو قتله جلد مائة ، ثم نزل الحكم بعد .

(363/213)

وأخرج أبو الشيخ من طريق أبي صالح عن ابن عباس قال : يملأ بطنه وظهره إن عاد لقتل الصيد متعمداً ، وكذلك صنع بأهل وج أهل واد بالطائف ، قال ابن عباس : كانوا في الجاهلية إذا أحدث الرجل حدثاً أو قتل صيداً ضرب ضرباً شديداً وسلب ثيابه .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ قال : هي والله موجبة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد . مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(364/213)

ومن فوائد ابن كثير فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ . . . الآية ﴾

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر ، وهو القمار .

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : الشَطْرَنج من الميسر . رواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن عُبَيس بن مرحوم ، عن حاتم ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن علي ، به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وَكِيع ، عن سفيان ، عن لَيْث ، عن عطاء ومجاهد وطاوس - قال سفيان : أو اثنين منهم - قالوا : كل شيء من القمار فهو من الميسر ، حتى لعب الصبيان بالجوز .

ورُوي عن راشد بن سعد وحمزة بن حبيب وقالا حتى الكعاب ، والجوز ، والبيض التي تلعب بها الصبيان ، وقال موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : الميسر هو القمار .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس قال : الميسر هو القمار ، كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام ، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة .

وقال مالك ، عن داود بن الحُصَيْن : أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين .

وقال الزهري ، عن الأعرج قال : الميسر والضرب بالقداح على الأموال والثمار .

وقال القاسم بن محمد : كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهو من الميسر .

رواهن ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "اجتنبوا هذه الكِعَاب الموسومة التي يزجر بها زجرًا فإنها من الميسر" . حديث غريب . (1)

---

(1) وذكره ابن أبي حاتم في العلل (297/2) ، وقال : "وقال أبي : هذا حديث باطل وهو من علي بن يزيد ، وعثمان لا بأس به" .

(365/213)

وكأن المراد بهذا هو النرد ، الذي ورد في الحديث به في صحيح مسلم ، عن بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من لعب بالنَّرْدَشير فكأنما صَبَغ يده في لحم خنزير ودَمه" . (1) وفي موطأ مالك ومسند أحمد ، وسنني أبي داود وابن ماجه ، عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله" . (2) وروي موقوفاً عن أبي موسى من قوله ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا مكي بن إبراهيم حدثنا الجُعَيْد ، عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي ، أنه سمع محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول : أخبرني ، ما سمعت أباك يقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عبد الرحمن : سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مثل الذي يلعب بالنرد ، ثم يقوم فيصلي ، مثل الذي يتوضأ بالقَيْح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي" . (3)

وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر : أنه شرّ من النرد . وتقدم عن علي أنه قال : هو من الميسر ، ونص على تحريمه مالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد ، وكرهه الشافعي ، رحمهم الله تعالى .

وأما الأنصاب ، فقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وغير واحد : هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها .

وأما الأزلام فقالوا أيضاً : هي قداح كانوا يستقسمون بها .

وقوله : ﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : أي سَخَط من عمل الشيطان . وقال سعيد بن جبير : إثم . وقال زيد بن أسلم : أي شر من عمل الشيطان .

﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ الضمير عائد على الرجس ، أي اتركوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وهذا ترغيب .

---

(1) صحيح مسلم برقم (2260) .

(2) الموطأ (958/2) والمسند (394/4) وسنن أبي داود برقم (4938) وسنن ابن ماجة برقم (3762) .

(3) المسند (370/5) وقال الهيثمي في المجمع (113/8) : "فيه موسى بن عبد الرحمن الخطمي ولم أعرفه ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح" .

(366/213)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ وهذا تهديد وترهيب .

ذكر الأحاديث الواردة في [بيان] تحريم الخمر :

قال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج حدثنا أبو مَعْشَر ، عن أبي وَهْب مولى أبي هريرة ، عن أبي هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما ، فأنزل الله :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ إلى آخر الآية [البقرة : 219] . فقال الناس : ما حرم علينا ، إنما قال : ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ وكانوا يشربون الخمر ، حتى كان يوما من الأيام صلى رجل من المهاجرين ، أَمَّ أصحابه في

(367/213)

المغرب ، خلط في قراءته ، فأنزل الله [عز وجل] آية أغلظ منها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : 43] وكان الناس يشربون ، حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق . ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ قالوا : انتهينا ربنا . وقال الناس : يا رسول الله ، ناس قتلوا في سبيل الله ، [وناس] ماتوا على سرفهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجسًا من عمل الشيطان ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ إلى آخر الآية ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم" . انفرد به أحمد . (1)

وقال الإمام أحمد : حدثنا خَلَف بن الوليد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي

مَيْسَرة ، عن عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بَيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا . فنزلت هذه الآية التي في البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ فَدُعي عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا . فنزلت الآية التي في سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادى : ألا يقربن الصلاة سكران . فدعي عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا . فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ قال عمر : انتهينا .

---

(1) المسند (351/2) .

(368/213)

وهكذا رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي من طرق ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق عَمْرو بن عبد الله السَّبِيعي وعن أبي ميسرة - واسمه عمرو بن شُرَحبيل الهمداني - عن عُمَر ، به . وليس له عنه سواه ، قال أبو زُرْعَة : ولم يسمع منه . وصحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي . (1)

وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس ، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب ، والتمر ، والعسل ، والحِنْطَة ، والشعير ، والخمر ما خامر العقل . (2)

وقال البخاري : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن بِشْر ، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، حدثني نافع ، عن ابن عمر قال : نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ما فيها شراب العنب . (3)

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسي : حدثنا محمد بن أبي حميد ، عن المصري - يعني أبا طعمة

---

(1) المسند (53/1) وسنن أبي داود برقم (3670) وسنن الترمذي برقم (3049) وسنن النسائي (286/8) .

(2) صحيح البخاري برقم (4619) وصحيح مسلم برقم (3032) .

(3) صحيح البخاري برقم (4616) .

قارئ مصر – قال : سمعت ابن عمر يقول : نزلت في الخمر ثلاث آيات ، فأول شيء نزل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ الآية [البقرة : 219] فقيل : حرمت الخمر . فقالوا : يا رسول الله ، ننتفع بها كما قال الله تعالى . قال : فسكت عنهم ثم نزلت هذه الآية : ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ [النساء : 43] . فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا لا نشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ثم نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حرمت الخمر" . (1)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يعلى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن القعقاع بن حكيم ؛ أن عبد الرحمن بن وَعْلَة قال : سألت ابن عباس عن بيع الخمر ، فقال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم صديق من ثقيف – أو : من دوس – فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا فلان ، أما علمت أن الله حرمها ؟" فأقبل الرجل على غلامه فقال : اذهب فبعها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا فلان ، بماذا أمرته ؟" فقال : أمرته أن يبيعها . قال : "إن الذي حرم شربها حرم بيعها" . فأمر بها فأفرغت في البطحاء .

رواه مسلم من طريق ابن وَهْب ، عن مالك ، عن زيد بن أسلم . ومن طريق ابن وهب أيضاً ، عن سليمان بن بلال ، عن يحيى بن سعيد كلاهما – عن عبد الرحمن بن وَعْلَة ، عن ابن

عباس ، به . ورواه النسائي ، عن قتيبة ، عن مالك ، به . (2)

---

(1) مسند الطيالسي برقم (1957) .

(2) المسند (230/1) والموطأ (846/2) وصحيح مسلم برقم (1579) وسنن النسائي (307/7)

(370/213)

حديث آخر : قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن شَهْر بن حَوْشَب ، عن تميم الداري أنه كان يهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم راوية من خمر ، فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك وقال : "إنها قد حرمت بعدك" . قال : يا رسول الله ، فأبيعها وأنتفع بثمنها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لعن الله اليهود ، حرم عليهم شُحُوم البقر والغنم ، فأذابوه ، وباعوه ، والله حَرّم الخمر وثمنها" . (1)

وقد رواه أيضاً الإمام أحمد فقال : حدثنا رَوْح ، حدثنا عبد الحميد بن بَهْرام قال : سمعت شهر بن حوشب قال : حدثني عبد الرحمن بن غَنْم : أن الداري كان يهدي لرسول الله

صلى الله عليه وسلم كل عام راوية من خمر ، فلما كان عام حُرّمت جاء براوية ، فلما نظر إليه ضحك فقال أشعرت أنها حرمت بعدك ؟" فقال : يا رسول الله ، ألا أبيعها وأنتفع بثمنها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لعن الله اليهود ، انطلقوا إلى ما حُرّم عليهم من شحم البقر والغنم فأذابوه ، فباعوه به ما يأكلون ، وإن الخمر حرام

---

(1) وفي إسناده انقطاع .

ورواه الطبراني في المعجم الكبير (57/2) من طريق زيد بن أخزم ، عن أبي بكر الحنفي ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن تميم الداري به .

(371/213)

وثمنها حرام ، وإن الخمر حرام وثمنها حرام ، وإن الخمر حرام وثمنها حرام" . (1)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا قُتَيْبَةُ بن سعيد ، حدثنا ابن لَهِيعَة ، عن سليمان بن عبد الرحمن ، عن نافع بن كَيسان أن أباه أخبره أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق ، يريد بها التجارة ، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني جئتك بشراب طيب فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا كيسان ، إنها قد حرمت بعدك" . قال : فأبيعها يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنها قد حرمت وحرم ثمنها" .

فانطلق كيسان إلى الزقاق ، فأخذ بأرجلها ثم هراقها . (2)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيي بن سعيد ، عن حميد ، عن أنس قال : كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح ، وأبي بن كَعْب ، وسُهَيْل بن بيضاء ، ونفرًا من أصحابه عند أبي طلحة وأنا أسقيهم ، حتى كاد الشراب يأخذ منهم ، فأتى آت من المسلمين فقال : أما شعرتم أن الخمر قد حرمت ؟ فما قالوا : حتى ننظر ونسأل ، فقالوا : يا أنس اكف ما بقي في إنائك ، فوالله ما عادوا فيها ، وما هي إلا التمر والبسر ، وهي خمرهم يومئذ . (3)

أخرجاه في الصحيحين – من غير وجه – عن أنس (4) وفي رواية حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس قال : كنتُ ساقي القوم يوم حُرّمت الخمر في بيت أبي طلحة ، وما شرابهم إلا الفَضيخ البسرُ والتمرُ ، فإذا مناد ينادي ، قال : اخرج فانظر . فإذا مناد ينادي : ألا إن الخمر قد حُرّمت ، فَجرت في سِكَكِ المدينة ، قال : فقال لي أبو طلحة : اخرج فَأَهْرقها . فهرقتها ، فقالوا – أو : قال بعضهم : قُتل فلان وفلان وهي في بطونهم . قال : فأنزل الله : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ الآية . (5)

---

(1) المسند (226/4) وقال الهيثمي في المجمع (88/4) ، "فيه شهر وحديثه حسن وفيه كلام" .

(2) المسند (337/4) وقال الهيثمي في المجمع (88/4) : "فيه نافع بن كيسان وهو مستور" .

(3) المسند (181/3)

(4) صحيح البخاري برقم (4620) وصحيح مسلم برقم (1980) .

(5) هذا لفظ مسلم في صحيحه برقم (1980) .

(372/213)

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بَشّار ، حدثني عبد الكبير بن عبد المجيد حدثنا عباد بن راشد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة ، وأبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وسهيل بن بيضاء ، وأبي دُجَانة ، حتى مالت رؤوسهم من خَليط بُسْر وتمر . فسمعت مناديًا ينادي : ألا إن الخمر قد حُرّمت ! قال : فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج ، حتى أهرقنا الشراب ، وكسرنا القلال ، وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا ، وأصبنا من طيب أمّ سليم ، ثم خرجنا إلى المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

إلى قوله : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ فقال رجل : يا رسول الله ، فما منزلة من مات وهو يشربها ؟ فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا [إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ] ﴾ الآية ، فقال رجل لقتادة : أنت سَمعتَه من أنس بن مالك ؟ قال : نعم . وقال رجل لأنس بن مالك : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم - أو : حدثني من لم يكذب ، ما كنا نكذب ، ولا ندري ما الكذب . (1)

---

(1) تفسير الطبري (578/10) ورواه البزار في مسنده برقم (2922) "كشف الأستار" من طريق عباد بن راشد ، عن قتادة ، عن أنس بنحوه .

(373/213)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، أخبرني يحيى بن أيوب ، عن عبيد الله بن زَحر ، عن بكر بن سوادة ، عن قيس بن سعد بن عبادة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن ربي تبارك وتعالى حرم عَلَيّ الخمر ، والكُوبَة ، والقنّين . وإياكم والغُبيراء فإنها ثلث خمر العالم" . (1)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن إبراهيم بن عبد

الرحمن بن رافع عن أبيه ، عن عبد الله بن عَمْرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله حرم على أمتي الخمر والميسر والمزْر ، والكُوبة والقِنّين . وزادني صلاة الوتر" .

قال يزيد : القنين : البرابط . تفرد به أحمد . (2)

وقال أحمد أيضا : حدثنا أبو عاصم – وهو النبيل – أخبرنا عبد الحميد بن جعفر ، حدثنا يزيد بن أبي حبيب ، عن عمرو بن الوليد ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من جهنم" . قال : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء ، وكل مسكر حرام" . تفرد به أحمد أيضا (3)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، عن أبي طعمة – مولاهم – وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لعنت الخمر على عشرة وجوه : لعنت الخمر بعينها وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومُبتاعها ، وعاصرها ، ومُعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها" .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث وكيع ، به . (4)

---

(1) المسند (422/4) وقال الهيثمي في المجمع (54/5) : "فيه عبيد الله بن زحر وثقة أبو زرعه والنسائي وضعفه الجمهور" .

(2) المسند (163/2) وقال الهيثمي في المجمع (240/2) : "فيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع وهو مجهول" .

(3) المسند (171/2) .

(4) المسند (25/2) وسنن أبي داود برقم (3674) وسنن ابن ماجة برقم (3380) .

(374/213)

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا أبو طِعْمة ، سمعت ابن عمر يقول : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المربد ، فخرجت معه فكنت عن يمينه ، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه ، فكان عن يمينه وكنت عن يساره . ثم أقبل عمر فتنحيت له ، فكان عن يساره . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم المربد ، فإذا بزقاق على المربد فيها خمر – قال ابن عمر – : فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدية – قال ابن عمر : وما عرفت المدية إلا يومئذ – فأمر بالزقاق فشقت ، ثم قال : "لعنت الخمر وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ،

وحاملها ، والمحمولة إليه ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وآكل ثمنها" . (1)

وقال أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم ، عن ضَمْرة بن حبيب قال : قال عبد الله بن عمر : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آتيه بمدية وهي الشفرة ، فأتيته بها فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها وقال : "اغد عليَّ بها" . ففعلت فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة ، وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام ، فأخذ المدية مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ، ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن يعاونوني ، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته ، ففعلت ، فلم أترك في أسواقها زقًّا إلا شققته . (2)

---

(1) المسند (71/2) .

(2) المسند (132/2) وقال الهيثمي في المجمع (54/5) : "رواه أحمد بإسنادين في أحدهما أبو بكر بن أبي مريم وقد اختلط ، وفي الآخر أبو طعمة ، وقد وثقه محمد بن عمار الموصلي ، وضعفه مكحول وبقية رجاله ثقات" .

(375/213)

حديث آخر : قال عبد الله بن وَهب : أخبرني عبد الرحمن بن شُرَيْح ، وابن لَهِيعة ، والليث بن سعد ، عن خالد بن يزيد ، عن ثابت بن يزيد الخولاني أخبره : أنه كان له عم يبيع

الخمر ، وكان يتصدق ، فنهيته عنها فلم ينته ، فقدمت المدينة فتلقيت ابن عباس ، فسألته عن الخمر وثمنها ، فقال : هي حرام وثمنها حرام . ثم قال ابن عباس ، رضي الله عنه : يا معشر أمة محمد ، إنه لو كان كتاب بعد كتابكم ، ونبي بعد نبيكم ، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم ، ولكن أخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة ، ولَعمري لهو أشد عليكم ، قال ثابت : فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر ، فقال : سأخبرك عن الخمر ، إني كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، فبينما هو محتب حَلّ حُبْوَته ثم قال : "من كان عنده من هذه الخمر فليأتنا بها" . فجعلوا يأتونه ، فيقول أحدهم : عندي راوية . ويقول الآخر : عندي زقٌّ أو : ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اجمعوه ببقيع كذا وكذا ثم آذنوني" . ففعلوا ، ثم آذنوه فقام وقمت معه ، فمشيت عن يمينه وهو متكئ عليّ ، فألحقنا أبو بكر ، رضي الله عنه ، فأخرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلني عن شماله ، وجعل أبا بكر في مكاني . ثم لحقنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه فأخرني ، وجعله عن يساره ، فمشى بينهما . حتى إذا وقف على الخمر قال للناس : "أتعرفون هذه قالوا : نعم ، يا رسول الله ، هذه الخمر . قال : "صدقتم" . قال : "فإن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها ، وشاربها وساقيها ، وحاملها والمحمولة إليه ، وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها" . ثم دعا بسكين فقال : "اشحذوها" . ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرق بها الزقاق ، قال

: فقال الناس : في هذه الزقاق منفعة ، قال : "أجل ، ولكني إنما أفعل ذلك غضبًا لله ، عز وجل ، لما فيها من سخطه" . فقال عمر : أنا أكفيك يا رسول الله

(376/213)

؟ قال : "لا" .

قال ابن وَهْب : وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث . رواه البيهقي . (1)

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو الحسين بن بِشْران ، أنبأنا إسماعيل بن محمد

---

(1) السنن الكبرى (286/8) .

(377/213)

الصفار ، حدثنا محمد بن عبيد الله المنادي ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا شُعْبَة ، عن سِماك ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد ، قال : أنزلت في الخمر أربع آيات ، فذكر الحديث . قال : وضع رجل من الأنصار طعامًا ، فدعانا فشربنا الخمر قبل أن تحرم حتى

انتشينا ، فتفاخرنا ، فقالت الأنصار : نحن أفضل . وقالت قريش : نحن أفضل . فأخذ رجل من الأنصار لَحْي جَزُور ، فضرب به أنف سعد ففزره ، وكان أنف سعد مفزورًا . فنزلت آية الخمر : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ [وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ] ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ أخرجه مسلم من حديث شعبة . (1)

حديث آخر : قال البيهقي : وأخبرنا أبو نصر بن قتادة ، أنبأنا أبو علي الرفاء ، حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا حجاج بن مِنْهال ، حدثنا ربيعة بن كلثوم ، حدثني أبي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار ، شربوا فلما أن ثمل عبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته ، فيقول : صنع هذا بي ، أخي فلان – وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن والله لو كان بي رؤوفًا رحيمًا ما صنع هذا بي ، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم فأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ [فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ] فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ فقال ناس من المتكلفين : هي رجس ، وهي في بطن فلان ، وقد قتل يوم أحد ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا [إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] ﴾

ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة، عن حجاج بن منهال. (2)

---

(1) السنن الكبرى (285/8) ولفظه عنده. "أنزلت في أربع آيات". وصحيح مسلم برقم (1748).

(2) السنن الكبرى (285/8) وسنن النسائي الكبرى برقم (11151).

(378/213)

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني محمد بن خَلَف، حدثنا سعيد بن محمد الجرْمي، عن أبي تُمَيْلَة، عن سلام مولى حفص أبي القاسم، عن أبي بريدة، عن أبيه قال: بينا نحن قُعُود على شراب لنا، ونحن رَمْلة، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطية لنا، ونحن نشرب الخمر حلا إذ قمت حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ إلى آخر الآيتين ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾؟ فجئت إلى أصحابي فقرأتها إلى قوله: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾؟ قال: وبعض القوم شَربته في يده، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا، كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا.

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا صَدَقة بن الفضل، أخبرنا ابن عُيَينة، عن عمرو،

عن جابر

قال : صَبَّح ناس غداة أحد الخمر ، فَقُتلوا من يومهم جميعًا شهداء ، وذلك قبل تحريمها .

(379/213)

هكذا رواه البخاري في تفسيره من صحيحه (1) وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا أحمد بن عَبْدة ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول : اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثم قتلوا شهداء يوم أحد ، فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم . فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ ثم قال : وهذا إسناد صحيح . وهو كما قال ، ولكن في سياقته غرابة .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن البراء بن عازب قال : لما نزل تحريم الخمر قالوا : كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم ؟ فنزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ الآية .

ورواه الترمذي ، عن بُنْدار ، غُنْدَر عن شعبة ، به نحو . وقال : حسن صحيح . (2)

حديث آخر : قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا جعفر بن حميد الكوفي ، حدثنا

يعقوب القمي ، عن عيسى بن جارية ، عن جابر بن عبد الله قال : كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين ، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة ، فلقيه رجل من المسلمين فقال : يا فلان ، إن الخمر قد حرمت فوضعها حيث انتهى على تَلّ ، وسجى عليها بأكسية ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، بلغني أن الخمر قد حرمت ؟ قال : "أجل" قال : لي أن أردها على من ابتعتها منه ؟ قال : "لا يصلح ردها" . قال : لي أن أهديها إلى من يكافئني منها ؟ قال : "لا" . قال : فإن فيها مالا ليتامى في حجري ؟ قال : "إذ أتانا مال البحرين فأتنا نعوّضُ أيتامك من مالهم" . ثم نادى بالمدينة ، فقال رجل : يا رسول الله ، الأوعية ننتفع بها ؟ . قال : "فَحُلُّوا أوكيتها" . فانصبت حتى استقرت في بطن الوادي هذا حديث غريب . (3)

---

(1) صحيح البخاري برقم (4618) .

(2) مسند الطيالسي برقم (715) وسنن الترمذي برقم (3051) .

(3) مسند أبي يعلى (404/3) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (1980) "مجمع البحرين" من طريق جعفر بن حميد به .

قال الهيثمي في المجمع (88/4) : "في إسنادهما يعقوب القمي ، وعيسى بن جارية وفيهما كلام وقد وثقا" .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا سفيان ، عن السُّدِّي ، عن أبي هُبيرة – وهو يحيى بن عَبَّاد الأنصاري – عن أنس بن مالك ؛ أن أبا طلحة سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أيتام في حجره ورثوا خمرا فقال : "أهرقها" . قال : أفلا نجعلها خلا ؟ قال : "لا" .

ورواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، من حديث الثوري ، به نحوه . (1)

حديث آخر : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن رَجاء ، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة ، حدثنا هلال بن أبي هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو قال : إن هذه الآية التي في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ قال : هي في التوراة : "إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ، ويبطل به اللعب ، والمزامير ، والزَّفْن ، والكِبَارات – يعني البرابط – – والزمارات – يعني به الدف – والطنابير – والشعر ، والخمر مرة لمن طعمها .

(1) المسند (119/3) وصحيح مسلم برقم (1983) وسنن أبي داود برقم (3675) وسنن الترمذي برقم (1294) .

(381/213)

أقسم الله بيمينه وعزة حَيْله من شربها بعد ما حرمتها لأعطشنه يوم القيامة ، ومن تركها بعد ما حرمتها لأسقينه إياها في حظيرة القدس" .

وهذا إسناد صحيح .

حديث آخر : قال عبد الله بن وَهْب : أخبرني عمرو بن الحارث ؛ أن عمرو بن شُعَيب حدثهم ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة ، فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات ، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال" . قيل : وما طينة الخبال ؟ قال : "عصارة أهل جهنم" .

ورواه أحمد ، من طريق عمرو بن شعيب . (1)

حديث آخر : قال أبو داود : حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا إبراهيم بن عمر الصنعاني ، قال : سمعت النعمان – هو ابن أبي شيبة الجَنَدي – يقول عن طاوس ، عن ابن عباس ،

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل مَخمَّر خَمْر ، وكل مُسْكِر حَرَام ، ومن شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقًا على الله أن يُسقيه من طِينة الخَبَال" . قيل : وما طينة الخبال يا رسول الله قال : "صديد أهل النار ، ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه ، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال"

تفرد أبو داود . (2)

حديث آخر : قال الشافعي ، رحمه الله : أنبأنا مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من شرب الخمر في الدنيا ، ثم لم يتب منها حُرمها في الآخرة" .

أخرجه البخاري ومسلم ، من حديث مالك ، به . (3)

وروى مسلم عن أبي الربيع ، عن حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل مُسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر فمات وهو يُدْمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة" . (4)

حديث آخر : قال ابن وَهْب : أخبرني عمر بن محمد ، عن عبد الله بن يَسار ؛ أنه سمع سالم بن

---

(1) المسند (178/2) ورواه الحاكم في المستدرك (146/4) والبيهقي في السنن

الكبرى (287/8) من طريق محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، عن عبد الله بن وهب به .

(2) سنن أبي داود (3680) .

(3) مسند الشافعي برقم (1763) "بدائع المنن" وصحيح البخاري برقم (5575) وصحيح مسلم برقم (2003) .

(4) صحيح مسلم برقم (2003) .

(382/213)

عبد الله يقول : قال عبد الله بن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاق لوالديه ، والمُدْمِن الخمر ، والمنَّان بما أعطى" .

ورواه النسائي ، عن عمر بن علي ، عن يزيد بن زُرَيْع ، عن عمر بن محمد العُمَري ، به .

(1)

وروى أحمد ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن مجاهد ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل الجنة منَّان ولا عاق ، ولا مُدْمِن خمر" .

(2)

ورواه أحمد أيضاً ، عن عبد الصمد ، عن عبد العزيز بن مسلم عن يزيد بن أبي زياد ، عن مجاهد ، به . وعن مروان بن شجاع ، عن خَصِيف ، عن مجاهد ، به (3) ورواه النسائي عن القاسم بن زكريا ، عن الحسين الجَعْفِي ، عن زائدة ، عن بن ابن أبي زياد ، عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد ، كلاهما عن أبي سعيد ، به . (4)

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابان ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل الجنة عاق ، ولا مُدْمِن خمر ، ولا منَّان ، ولا ولد زِنْيَة" . (5)

وكذا رواه عن يزيد ، عن همام ، عن منصور ، عن سالم ، عن جابان ، عن عبد الله بن عمرو ، به (6) وقد رواه أيضاً عن غُنْدر وغيره ، عن شعبة ، عن منصور ، عن سالم ، عن نُبَيْط بن شُرَيط ، عن جابان ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل الجنة منان ، ولا عاق والديه ، ولا مدمن خمر" .

---

(1) سنن النسائي الكبرى برقم (2343) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (288/8) من طريق محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، عن عبد الله بن وهب به .

(2) المسند (44/3) .

(3) المسند (28/3) .

(4) سنن النسائي الكبرى برقم (4920) .

(5) المسند (203/2) .

(6) المسند (164/2) .

(383/213)

ورواه النسائي ، من حديث شعبة كذلك ، ثم قال : ولا نعلم أحدًا تابع شعبة عن نبيط بن شريط . (1)

وقال البخاري : لا يعرف لجابان سماع من عبد الله ، ولا لسالم من جابان ولا نبيط .

وقد روي هذا الحديث من طريق مجاهد ، عن ابن عباس - ومن طريقه أيضًا ، عن أبي هريرة ، فالله أعلم .

وقال الزهري : حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، أن أباه قال : سمعت عثمان بن عفان يقول : اجتنبوا الخمر ، فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فَعَلقته امرأة غَوية ، فأرسلت إليه جاريتها فقالت : إنا ندعوك لشهادة . فدخل معها ، فطفقت

كلما دخل بابًا أغلقته دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتقع عَليّ أو تقتل هذا الغلام ، أو تشرب

هذا الخمر . فسقته كأسًا ، فقال : زيدوني ، فلم يَرِم حتى وقع عليها ، وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه .

---

(1) المسند (201/2) وسنن النسائي الكبرى برقم (4914)

(384/213)

رواه البيهقي (1) وهذا إسناد صحيح . وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه "ذم المسكر" عن محمد بن عبد الله بن بَزِيع ، عن الفضيل بن سليمان النميري ، عن عمر بن سعيد ، عن الزهري ، به مرفوعًا (2) والموقوف أصح ، والله أعلم .

وله شاهد في الصحيحين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" . (3)

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا إسرائيل ، عن سِماك ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عباس قال : لما حرمت الخمر قال أناس : يا رسول الله ، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟ فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ الآية . قال : ولما حُوّلت القبلة قال أناس : يا رسول الله ، أصحابنا الذين ماتوا وهم

يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (4) ﴾ [البقرة : 143] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا داود بن مِهْران الدباغ ، حدثنا داود - يعني العطار - عن ابن خُثَيْم ، عن شَهْرِ بن حَوْشَب ، عن أسماء بنت يزيد ، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "من شرب الخمر لم يَرْضَ الله عنه أربعين ليلة ، إن مات مات كافرًا ، وإن تاب تاب الله عليه . وإن عاد كان حقًا على الله أن يسقيه من طِينة الخَبَال" . قالت : قلت : يا رسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال : "صديد أهل النار" . (5)

وقال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "قيل لي : أنت منهم" .

وهكذا رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، من طريقه . (6)

---

(1) السنن الكبرى (287/8) من طريق عبد الله بن وهب ، عن يونس بن يزيد ، عن الزهري به . وقد خولف يونس بن يزيد خالفه عمر بن سعيد بن السرحة ، فرواه عن الزهري مرفوعا ، كما سيأتي في رواية ابن أبي الدنيا .

(2) ذم المسكر برقم (1) ورواية يونس بن يزيد أرجح من رواية عمر بن سعيد بن السرحة ، فقد لينه بعض الأئمة . قالوا : "وأحاديثه عن الزهري ليست بمستقيمة" .

(3) صحيح البخاري برقم (6810) وصحيح مسلم برقم (57) .

(4) المسند (295/1) .

(5) المسند (460/6) وقال الهيثمي في المجمع (69/5) : "فيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد حسن حديثه ، وبقية رجاله ثقات" .

(6) صحيح مسلم برقم (2459) وسنن الترمذي برقم (3053) وسنن النسائي الكبرى برقم (11153) .

(385/213)

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : قرأت على أبي ، حدثنا علي بن عاصم ، حدثنا إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إياكم وهاتان الكعبتان الموسمتان اللتان تزجران زجرًا ، فإنهما مَيْسِر العَجَم" .

(1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 178 . 189 ﴾

---

(1) المسند (446/1) وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري ضعيف .

(386/213)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

اللام جواب قسم محذوفٍ ، أي : واللَّهِ ، لَيَبْلُونَّكُمْ ، وقد تقدَّم أنه تَجِبُ اللامُ وإحدى النونَيْن في مثل هذا الجواب واللام في " لَيَبلونَّكُمْ " مفتوحة لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : " بِشَيءٍ " متعلّقٌ بـ " لَيَبلُونَّكُمْ " أي : لَيَخْتبرنَّكُمْ بشيءٍ ؛ وقوله تعالى : " مِنَ الصَّيْدِ " : في محلِّ جرٍّ صفةً لـ " شَيْء " فيتعلَّقُ بمحذوف ، و " مِن " الظاهرُ أنها تبعيضيةٌ ؛ لأنه لم يُحَرِّم صيدَ الحلال ، ولا صيدَ الحِلِّ ، ولا صيد البْحرِ ، وقيل : إنها لبيان الجِنْسِ ، وقال مكيٌّ : " وقيل " مِنْ " لبيان الجنس ، فلما قال " بِشَيء " لم يُعْلَمْ من أي جنْسٍ هو : فبيَّن ، فقال : " مِنَ الصَّيْدِ " ؛ كما تقولُ : لأُعْطِيَنَّكَ شَيْئاً مِنَ الذَّهَب " ، وبهذا الوجه بدأ أبو البقاء ، ثم قال : " وقيل : إنَّها للتبعيض " ، وكونُها للبيان فيه نظرٌ ؛ لأنَّ الصَّحيحَ أنها لا تكونُ للبيان ، والقائلُ بأنها للبيان يُشْترطُ أنْ يكونَ المُبَيَّنُ بها معرَّفاً بأل الجنسيَّة ؛ كقوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] ، وبه قال ابن عطيَّة أيضاً ، والزَّجَّاج هو الأصل في ذلك ، فإنه قال : وهذا كما تقولُ : " لأمْتَحِنَنَّكَ بِشَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ " ، وكما قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] .

والمرادُ بالصَّيْد : المَصِيدُ ، لقوله تعالى : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ والصَّيْدُ إذا كان

بِمَعْنَى المصدرِ يكون حدثاً ، وإنما يُوصفُ بِنَيْلِ الأيدِي والرِّمَاحِ ما يكونُ عَيْناً .

قوله تعالى : " تَنَالُهُ " في محلِّ جر ؛ لأنَّه صفةٌ ثانيةٌ لـ " شَيْء " ، وأجاز أبو البقاء أن يكون حالاً : إمَّا من الصَّيْد ، وإمَّا من " شَيْء " ، وإن كان نكرة ؛ لأنه قد وُصِفَ فتخصَّصَ ، واستبعدَ أبو حيان جَعْلَه حالاً من الصَّيْد ، ووجهُ الاستبعادِ : أنه ليس المقصودَ بالحديثِ عنه ، وقرأ الجُمْهُور : " تَنَالُهُ " بالمنقوطةِ فوقُ ؛ لتأنيثِ الجمع ، وابنُ وثَّاب والنخعي بالمنقوطةِ من تحْتُ ؛ لأنَّ تأنيثه غيرُ حقيقيٍّ .

(387/213)

" لِيَعْلَمَ اللَّهُ " قيل : اللامُ متعلِّقةٌ بـ " لَيَبْلُوَنَّكُمْ " ، والمعنى : ليتميَّزَ أو ليظهر لكم ، وقد مضى تحقيقُه في البقرة ، وأنَّ هذه تسمَّى لام كي ، وقرأ بعضهم : " لِيُعْلِمَ " بضم الياء وكسر اللام من " أعْلَمَ " ، والمفعول الأوَّل على هذه القراءة محذوفٌ ، أي : لِيُعْلِمَ اللَّهُ عِبَادَهُ ، والمفعول الثاني هو قوله : " مَنْ يَخَافُهُ " فـ " أعْلَمَ " منقولةٌ بهمزة التعدية لواحدٍ بمعنى " عَرَفَ " وهذا مجازٌ ؛ لأنَّه – تعالى – عَالِمٌ لَمْ يَزَلْ ولا يَزَالُ ، واخْتَلَفُوا في معناه ، فَقِيلَ ، يعامِلُكُم مُعَامَلَةَ من يَطْلُبُ أنْ يَعْلَمَ ، وقيل : لِيظهر المَعْلُوم ، وهو خَوْفُ الخَائِفِ ، وقيل : هذا بِحَذْفِ المُضَافِ والتَّقْدِيرُ : لِيَعْلَمَ أوْلِيَاءُ اللهِ من يَخَافُهُ بالغَيْبِ ، وقِيلَ : ليرى اللَّه لأنَّهُ قَدْ عَلِمَهُ .

وقوله تعالى : " بالغَيْبِ " أي : يَخَافُ اللَّه ولمْ يَرَه ، كقوله تعالى : ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب ﴾ [الأنبياء : 49] أي : يَخَافُون ، فلا يَصْطَادُون في حال الإحرامِ ، وكقوله تعالى : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 3] ، وقيل : معنى يَخَافُهُ بالغَيْبِ أي : بإخلاصٍ وتَحْقِيقٍ ، ولا يختلف الحالُ بسِبَبِ حضُورِ واحدٍ أو غَيْبَتِهِ ، كما في حقِّ المُنَافِقِين الذين ﴿ إِذَا لَقُوا الذين آمَنُوا قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة : 14] .

قوله تعالى : " بالغَيْبِ " في محلِّ نصب على الحال من فاعل " يَخَافُهُ " ، أي : يخافُه مُلْتَبِساً بالغيبِ ، وقد تقدَّم معناه في البقرة [الآية 3] .

والمعنى : من يخافُهُ حال كونِهِ غَائباً عن رُؤيتِهِ ، كقوله تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [ق : 33] .

وجوَّز أبو البقاء ثلاثة أوجه :

أحدها : ما ذكرناه .

(388/213)

والثاني : أنه حالٌ مِنْ " مَنْ " في " مَنْ يَخَافُهُ " .

والثالث : أنَّ الباءَ بمعنى " في " ، والغيب مصدرٌ واقعٌ موقع غائبٍ ، أي : يخافه في المكانِ

الغائب عن الخَلْقِ ، فعلى هذا يكونُ متعلّقاً بنفْسِ الفعل قبله ، وعلى الأوّلَيْن يكونُ متعلّقاً بمحذوفٍ على ما عُرِف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 513. 514 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) ﴾

أباح الصيد لمن كان حَلاَلاً ، وحرَّم الصيد على المُحْرِم الذي قَصْدُهُ زيارة البيت . والإشارة فيه أن من قصد بيتنا فينبغي أن يكون الصيد منه في الأمان ، لا يتأذى منه حيوان بحال ، لذا قالوا : البَرُّ مَنْ لا يؤذي الذر ولا يُضْمِر الشر .

ويقال الإشارة في هذا أَنْ مَنْ قصدَنا فعليه نَبْذُ الأطماعِ جملةً ، ولا ينبغي أن تكون له مطالبة بحالٍ من الأحوال .

وكما أنَّ الصيدَ على المُحْرِم حرامٌ إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار – على الواجِد – حرامٌ ما دام مُحْرِمًا بقلبه .

ويقال العارفُ صيدُ الحق ، ولا يكون للصيد صيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 448. 449 ﴾

(389/213)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع عشر بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/214)

الجزء الرابع عشر بعد المائتين

من الآية ﴿ 95 ﴾ من سورة المائدة

وحتى الآية ﴿ 95 ﴾ نفس الآية

(4/214)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبرهم بالابتلاء صرح لهم بما لوح إليه بذكر المخافة من تحريم التعرض لما ابتلاهم به ، فقال منوّهاً بالوصف الناهي عن الاعتداء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وذكر القتل الذي هو أعم من الذبح إشارة إلى أن الصيد – لما عنده من النفرة المانعة من التمكن من ذبحه – يحبس بأي وجه كان من أنواع القتل فقال : ﴿ لا تقتلوا الصيد ﴾ أي لا تصطادوا ما يحل

أكله من الوحش ، وأما غير المأكول فيحل قتله ، فإنه لاحظ للنفس في قتله إلا الإراحة من أذاه المراد بالفسق في قوله صلى الله عليه وسلم : " خمس في الدواب فواسق ، لا جناح على من قتلها في حل ولا حرم " وذكر منهن السبع العادي ، فدل الحكم برفع الجناح عقب الوصف بالفسق على أنه علة الإباحة ، ولا معنى لفسقها إلا أذاها ﴿ وأنتم حرم ﴾ أي محرومون أو في الحرم .

ولما كان سبحانه عالماً بأنه لا بد أن يوافق موافق تبعاً لأمره ويخالف مخالف موافقة لمراده ، شرع لمن خالف كفارة تخفيفاً منه على هذه الأمة ورفعاً لما كان على من كان من قبلها من الآصار ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فمن انتهى فله عند ربه أجر عظيم : ﴿ ومن قتله منكم متعمداً ﴾ أي قاصداً للصيد ذاكراً للإحرام إن كان محرماً ، والحرم إن كان فيه عالماً بالتحريم .

ولما كان هذا الفعل العمد موجباً للإثم والجزاء ، ومتى اختل وصف منه كان خطأ موجباً للجزاء فقط ، وكان سبحانه قد عفا عن الصحابة رضي الله عنهم العمد الذي كان سبباً لنزول الآية كما في آخرها ، لم يذكره واقتصر على ذكر الجزاء فقال : ﴿ فجزاء ﴾ أي فمكافأة ﴿ مثل ما قتل ﴾ أي أقرب الأشياء به شبهاً في الصورة لا النوع ، ووصف الجزاء بقوله : ﴿ من النعم ﴾ لما قتله عليه ، أي عليه أن يكافئ ما قتله بمثله ، وهو من إضافة

المصدر إلى الفاعل ، هذا على قراءة الجماعة بإضافة " جزاء " إلى " مثل " ، وأما على قراءة الكوفيين ويعقوب بتنوين " جزاء " ورفع " مثل " فالأمر واضح .

(5/214)

ولما كان كأنه قيل : بما تعرف المماثلة ؟ قال : ﴿ يحكم به ﴾ أي بالجزاء ؛ ولما كانت وجوه المشابهة بين الصيد وبين النعم كثيرة ، احتاج ذلك إلى زيادة التأمل فقال : ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ أي المسلمين ، وعن الشافعي أن الذي له مثل ضربان : ما حكمت فيه الصحابة ، وما لم تحكم فيه ، فما حكمت فيه لا يعدل إلى غيره لأنه قد حكم به عدلان فدخل تحت الآية ، وهم أولى من غيرهم لأنهم شاهدوا التنزيل وحضروا التأويل ؛ وما لم يحكموا به يرجع فيه إلى اجتهاد عدلين ، فينظر إلى الأجناس الثلاثة من الأنعام ، فكل ما كان أقرب شبهاً به يوجبانه ؛ فإن كان القتل خطأ جاز أن يكون الفاعل أحد الحكمين ، وإن كان عمداً فلا ، لأنه يفسق به .

ولما كان هذا المثل يساق إلى مكة المشرفة على وجه الإكرام والنسك رفقاً بمساكينها ، قال مبيناً لحاله من الضمير في " به " : ﴿ هدياً ﴾ ولما كان الهدي هو ما تقدم تفسيره ، صرح به فقال : ﴿ بالغ الكعبة ﴾ أي الحرم المنسوب إليها ، وإنما صرح بها زيادة في التعظيم وإعلاماً

بأنها هي المقصودة بالذات بالزيارة والعمارة لقيام ما يأتي ذكره ، تذبح الهدي بمكة المشرفة ويتصدق به على مساكين الحرم ، والإضافة لفظية لأن الوصف بشبه " يبلغ " فلذا وصف بها النكرة .

ولما كان سبحانه رحيماً بهذه الأمة ، خيرها بين ذلك وبين ما بعد فقال : ﴿ أو ﴾ عليه ﴿ كفارة ﴾ هي ﴿ طعام مساكين ﴾ في الحرم بمقدار قيمة الهدي ، لكل مسكين مد ﴿ أو عدل ذلك ﴾ أي قيمة المثل ﴿ صياماً ﴾ في أيّ موضع تيسر له ، عن كل مد يوم ، فأو للتخيير لأنه الأصل فيها ، والقول بأنها للترتيب يحتاج إلى دليل .

(6/214)

ولما كان الأمر مفروضاً في المتعمد قال معلقاً بالجزاء ، أي فعليه أن يجازي بما ينقص المال أو يؤلم الجسم ﴿ ليذوق وبال ﴾ أي ثقل ﴿ أمره ﴾ وسوء عاقبته ليحترز عن مثل ما وقع فيه ؛ ولما كان هذا الجزاء محكوماً به في دار العمل التي لا يطلع أهلها بمجرد عقولهم فيها على غيب ، ولا يعرفون عاقبة أمر إلاّ تخرصاً ، طرد الحكم في غير المتعمد لئلا يدعي المتعمد أنه مخطئ ، كل ذلك حمى لحرمة الدين وصوناً لحرمة الشرع وحفظاً لجانبه ورعاية لشأنه ، ولما كان قد مضى منهم قبل نزولها من هذا النوع أشياء ، كانوا كأنهم قالوا : فكيف نصنع بما

أسلفنا ؟ قال جواباً : ﴿ عما سلف ﴾ أي تعمده ، أي لكم من ذلك ، فمن حفظ نفسه بعد هذا فاز ﴿ ومن عاد ﴾ إلى تعمد شيء من ذلك ولو قل ؛ ولما كان المبتدأ متضمناً معنى الشرط ، قرن الخبر بالفاء إعلاماً بالسببية فقال : ﴿ فينتقم الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ منه ﴾ أي بسبب عوده بما يستحقه من الانتقام .

ولما كان فاعل ذلك منتهكاً لحرمة الإحرام والحرم ، وكان التقدير : فالله قادر عليه ، عطف على ذلك ما اقتضاه المقام من الإتيان بالاسم الأعظم ووصف العزة فقال : ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا تداني عظمتَه عظمةٌ ﴿ عزيز ﴾ لا يغلب ﴿ ذو انتقام ﴾ ممن خالف أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 540.542 ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد بالصيد قولان .

الأول : أنه الذي توحش سواء كان مأكولاً أو لم يكن ، فعلى هذا المحرم إذا قتل سبعاً لا يؤكل لحمه ضمن ولا يجب به قيمة شاة ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله ، وقال زفر : يجب بالغاً ما بلغ .

والقول الثاني : أن الصيد هو ما يؤكل لحمه ، فعلى هذا لا يجب الضمان ألبتة في قتل السبع ، وهو قول الشافعي رحمه الله وسلم أبو حنيفة رحمه الله أنه لا يجب الضمان في قتل الفواسق الخمس وفي قتل الذئب حجة الشافعي رحمه الله القرآن والخبر ، أما القرآن فهو أن الذي يحرم أكله ليس بصيد ، فوجب أن لا يضمن ، إنما قلنا إنه ليس بصيد لأن الصيد ما يحل أكله لقوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر وَطَعَامُهُ متاعا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ [المائدة : 96] فهذا يقتضي حل صيد البحر بالكلية ، وحل صيد البر خارج وقت الاحرام ، فثبت أن الصيد ما يحل أكله والسبع لا يحل أكله ، فوجب أن لا يكون صيداً ، وإذا ثبت أنه ليس بصيد وجب أن لا يكون مضموناً ، لأن الأصل عدم الضمان ، تركنا العمل به في ضمان الصيد بحكم هذه الآية ، فبقي فيما ليس بصيد على وفق الأصل ، وأما الخبر فهو الحديث المشهور وهو قوله عليه السلام : " خمس فواسق لا جناح على المحرم أن يقتلهن في الحل والحرم الغراب والحدأة والحية والعقرب والكلب العقور " وفي رواية أخرى : والسبع الضاري ، والاستدلال به من وجوه : أحدها : أن قوله : والسبع الضاري نص في المسألة ، وثانيها : أنه عليه السلام وصفها بكونها فواسق ثم حكى بحل قتلها ، والحكم المذكور عقيب الوصف المناسب مشعر بكون الحكم معللاً بذلك الوصف ، وهذا يدل على أن كونها فواسق علة لحل قتلها ، ولا معنى لكونها فواسق

إلا كونها مؤذية ، وصفة الإيذاء في السباع أقوى فوجب جواز قتلها ، وثالثها : أن الشارع خصها بإباحة القتل ، وإنما خصها بهذا الحكم لاختصاصها بمزيد الإيذاء ، وصفة الإيذاء في السباع أتم ، فوجب القول بجواز قتلها .

وإذا ثبت جواز قتلها وجب أن لا تكون مضمونة لما بيناه في الدليل الأول .

(8/214)

حجة أبي حنيفة رحمه الله : أن السبع صيد فيدخل تحت قوله ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ وإنما قلنا إنه صيد لقول الشاعر :

ليث تربى ربية فاصطيدا . . ولقول علي عليه السلام :

صيد الملوك أرانب وثعالب . . وإذا ركبت فصيدي الأبطال

والجواب : قد بينا بدلالة الآية أن ما يحرم أكله ليس بصيد ، وذلك لا يعارضه شعر مجهول ، وأما شعر علي عليه السلام فغير وارد ، لأن عندنا الثعلب حلال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 72 . 73 ﴾

فائدة

قال الفخر :

حرم جمع حرام ، وفيه ثلاثة أقوال : الأول : قيل حرم أي محرمون بالحج ، وقيل : وقد دخلتم الحرم ، وقيل : هما مرادان بالآية ، وهل يدخل فيه المحرم بالعمرة فيه خلاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 73 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ لَا تَقْتُلُوا ﴾ يفيد المنع من القتل ابتداء ، والمنع منه تسبباً ، فليس له أن يتعرض إلى الصيد ما دام محرماً لا بالسلاح ولا بالجوارح من الكلاب والطيور سواء كان الصيد صيد الحل أو صيد الحرم ، وأما الحلال فله أن يتصيد في الحل وليس له أن يتصيد في الحرم ، وإذا قلنا ﴿ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ يتناول الأمرين أعني من كان محرماً ومن كان داخلاً في الحرم كانت الآية دالة على كل هذه الأحكام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 73 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي فجزاء بالتنوين ؛ ومثل بالرفع والمعنى فعليه جزاء مماثل للمقتول من الصيد فمثل مرفوع لأنه صفة لقوله ﴿ فَجَزَاءٌ ﴾ قال ولا ينبغي إضافة جزاء إلى المثل .

ألا ترى أنه ليس عليه جزاء مثل ما قتل ، في الحقيقة إنما عليه جزاء المقتول لا جزاء مثل المقتول الذي لم يقتله وقوله تعالى : ﴿ مِنَ النعم ﴾ يجوز أن يكون صفة للنكرة التي هي جزاء ؛ والمعنى فجزاء من النعم مثل ما قتل ، وأما سائر القراء فهم قرؤا ﴿ فَجَزَاء مِّثْلُ ﴾ على إضافة الجزاء إلى المثل وقالوا : إنه وإن كان الواجب عليه جزاء المقتول لا جزاء مثله فإنهم يقولون : أنا أكرم مثلك يريدون أنا أكرمك ونظيره قوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : 11] والتقدير : ليس هو كشيء ، وقال : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ [الأنعام : 122] والتقدير : كمن هو في الظلمات وفيه وجه آخر وهو أن يكون المعنى فجزاء مثل ما قتل من النعم كقولك خاتم فضة أي خاتم من فضة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 74 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال سعيد بن جبير : المحرم إذا قتل الصيد خطأ لا يلزمه شيء وهو قول داود وقال جمهور الفقهاء : يلزمه الضمان سواء قتل عمداً أو خطأ حجة داود أن قوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ مذكور في معرض الشرط ، وعند عدم الشرط يلزم عدم المشروط فوجب أن لا يجب الجزاء عند فقدان العمدية قال : والذي يؤكد هذا أنه تعالى قال في آخر الآية ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ والانتقام إنما يكون في العمد دون الخطأ وقوله ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ المراد منه ومن عاد إلى ما تقدم ذكره ، وهذا يقتضي أن الذي تقدم ذكره من القتل الموجب للجزاء هو العمد لا الخطأ وحجة الجمهور قوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ [المائدة : 96] ولما كان ذلك حراماً بالاحرام صار فعله محظوراً بالاحرام فلا يسقط حكمه بالخطأ والجهل كما في حلق الرأس وكما في ضمان مال المسلم فإنه لما ثبتت الحرمة لحق المالك لم يتبدل ذلك بكونه خطأ أو عمداً فكذا هاهنا وأيضاً يحتجون بقوله عليه السلام في الضبع كبش إذا قتله المحرم ، وقول الصحابة في الظبي شاة ، وليس فيه ذكر العمد .

أجاب داود بأن نص القرآن خير من خبر الواحد وقول الصحابي والقياس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 74 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر الآية يدل على أنه يجب أن يكون جزاء الصيد مثل المقتول ، إلا أنهم اختلفوا في المثل ، فقال الشافعي ومحمد بن الحسن : الصيد ضربان : منه ما له مثل ، ومنه ما لا مثل له ، فما له مثل يضمن بمثله من النعم ، وما لا مثل له يضمن بالقيمة .

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : المثل الواجب هو القيمة .

(11/214)

وحجة الشافعي : القرآن ، والخبر ، والإجماع ، والقياس ، أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ والاستدلال به من وجوه أربعة : الأول : أن جماعة من القراء قرؤا ﴿ فَجَزَاء ﴾ بالتنوين ، ومعناه : فجزاء من النعم مماثل لما قتل ، فمن قال إنه مثله في القيمة فقد خالف النص ، وثانيها : أن قوما آخرين قرؤا ﴿ فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ بالإضافة ، والتقدير : فجزاء ما قتل من النعم ، أي فجزاء مثل ما قتل يجب أن يكون من النعم ، فمن لم يوجبه فقد خالف النص ، ثالثها : قراءة ابن مسعود ﴿ فَجَزَاؤُهُ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ وذلك صريح فيما قلناه : ورابعها : أن قوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾ صريح في أن ذلك الجزاء الذي يحكم به ذوا عدل منهم ، يجب أن يكون هدياً بالغ الكعبة .

فإن قيل : إنه يشري بتلك القيمة هذا الهدى .

قلنا : النص صريح في أن ذلك الشيء الذي يحكم به ذوا عدل يجب أن يكون هدياً وأنتم تقولون : الواجب هو القيمة ، ثم إنه يكون بالخيار إن شاء اشترى بها هدياً يهدي إلى الكعبة ، وإن شاء لم يفعل ، فكان ذلك على خلاف النص ، وأما الخبر : فما روى جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضبع ، أصيد هو ؟ فقال " : نعم ، وفيه كبش إذا أخذه المحرم " ، وهذا نص صريح .

(12/214)

وأما الإجماع : فهو أن الشافعي رحمه الله قال : تظاهرت الروايات عن علي وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وابن عباس وابن عمر في بلدان مختلفة وأزمان شتى : أنهم حكموا في جزاء الصيد بالمثل من النعم ، فحكموا في النعامة ببدنة ، وفي حمار الوحش ببقرة ، وفي الضبع بكبش ، وفي الغزال بعنز ، وفي الظبي بشاة ، وفي الأرنب بجفرة ، وفي رواية بعناق ، وفي الضب بسخلة ، وفي اليربوع بجفرة وهذا يدل على أنهم نظروا إلى أقرب الأشياء شبهاً بالصيد من النعم لا بالقيمة ولو حكموا بالقيمة لاختلف باختلاف الأسعار والظبي هو الغزال الكبير الذكر والغزال هو الأنثى واليربوع هو الفأرة الكبيرة تكون في الصحراء ،

والجفرة الأنثى من أولاد المعز إذا انفصلت عن أمها والذكر جفر والعناق الأنثى من أولاد المعز إذا قويت قبل تمام الحول .

وأما القياس فهو أن المقصود من الضمان جزاء الهالك ولا شك أن المماثلة كلما كانت أتم كان الجزاء أتم فكان الايجب أولى .

حجة ابي حنيفة رحمه الله تعالى : لا نزاع أن الصيد المقتول إذا لم يكن له مثل فإنه يضمن بالقيمة فكان المراد بالمثل في قوله ﴿ فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ هو القيمة في هذه الصورة ، فوجب أن يكون في سائر الصور كذلك لأن اللفظ الواحد لا يجوز حمله إلا على المعنى الواحد .

والجواب : أن حقيقة المماثلة أمر معلوم والشارع أوجب رعاية المماثلة فوجب رعايتها بأقصى الامكان فإن أمكنت رعايتها في الصورة وجب ذلك وإن لم يكن رعايتها إلا بالقيمة وجب الاكتفاء بها للضرورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 74 .

﴿ 75

فصل

قال الفخر :

جماعة محرمون قتلوا صيداً .

قال الشافعي رحمه الله : لا يجب عليهم إلا جزاء واحداً ، وهو قول أحمد وإسحاق ، وقال أبو حنيفة ومالك والثوري رحمهم الله : يجب على كل واحد منهم جزاء واحد .

(13/214)

حجة الشافعي رحمه الله : أن الآية دلت على وجوب المثل ، ومثل الواحد واحد وأكد هذا بما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال بمثل قولنا : حجة أبي حنيفة رحمه الله أن كل واحد منهم قاتل فوجب أن يجب على كل وحد منهم جزاء كامل ، بيان الأول أن جماعة لو حلف كل واحد منهم أن لا يقتل صيداً فقتلوا صيداً واحداً لزم كل واحد منهم كفارة ، وكذلك القصاص المتعلق بالقتل يجب على جماعة يقتلون واحداً ، وإذا ثبت أن كل واحد منهم قاتل وجب أن يجب على كل واحد منهم جزاء كامل لقوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ فقوله ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ صيغة عموم فيتناول كل القاتلين .

أجاب الشافعي رحمه الله : بأن القتل شيء واحد فيمتنع حصوله بتمامه بأكثر من فاعل واحد فإذا اجتمعوا حصل بمجموع أفعالهم قتل واحد وإذا كان كذلك امتنع كون كل واحد منهم قاتلاً في الحقيقة وإذا ثبت أن كل واحد منهم ليس بقاتل لم يدخل تحت هذه الآية وأما

قتل الجماعة بالواحد فذاك ثبت على سبيل التعبد وكذا القول في إيجاب الكفارات المتعددة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 75﴾

فصل

قال الفخر:

قال الشافعي رحمه الله: المحرم إذا دل غيره على صيد، فقتله المدلول عليه لم يضمن الدال الجزاء، وقال أبو حنيفة رحمه الله: يضمن حجة الشافعي أن وجوب الجزاء معلق بالقتل في هذه الآية والدلالة ليست بقتل فوجب أن لا يجب الضمان ولأنه بدل المتلف فلا يجب بالدلالة ككفارة القتل والدية، وكالدلالة على مال المسلم.

حجة أبي حنيفة رحمه الله أنه سئل عمر عن هذه المسألة فشاور عبد الرحمن بن عوف فأجمعا على أن عليه الجزاء وعن ابن عباس أنه أوجب الجزاء على الدال، أجاب الشافعي رحمه الله: بأن نص القرآن خير من أثر بعض الصحابة.

فصل:

قال الشافعي رحمه الله : إن جرح ظبياً فنقص من قيمته العشر فعليه عشر قيمة الشاة ، وقال داود لا يضمن ألبتة سوى القتل ، وقال المزني عليه شاة .

حجة داود أن الآية دالة على أن شرط وجوب الجزاء هو القتل ، فإذا لم يوجد القتل : وجب أن لا يجب الجزاء ألبتة ، وجوابه أن المعلق على القتل ، وجوب مثل المقتول ، وعندنا أن هذا لا يجب عند عدم القتل فسقط قوله .

فصل :

إذا رمى من الحل والصيد في الحل ، فمر في السهم طائفة من الحرم ، قال الشافعي رحمه الله : يحرم وعليه والجزاء ، وقال أبو حنيفة : لا يحرم .

حجة الشافعي : أن سبب الذبح مركب من أجزاء ، بعضها مباح وبعضها محرم ، وهو المرور في الحرم ، وما اجتمع الحرام والحلال إلا وغلب الحرام الحلال ، لا سيما في الذبح الذي الأصل فيه الحرمة .

وحجة أبي حنيفة رضي الله عنه : أن قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ نهى له عن الاصطياد حال كونه في الحرم ، فلما لم يوجد واحد من هذين الأمرين وجب أن لا تحصل الحرمة .

فصل :

الحلال إذا اصطاد صيداً وأدخله الحرم لزمه الارسال وإن ذبحه حرم ولزمه الجزاء وهذا

قول أبي حنيفة رحمه الله ، وقال الشافعي رحمه الله يحل ، وليس عليه ضمان .

حجة الشافعي : قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنعامِ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 1] وحجة أبي حنيفة قوله تعالى : ﴿ لا تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ نهى عن قتل الصيد حال كونه محرماً ، وهذا يتناول الصيد الذي اصطاده في الحل ، والذي اصطاده في الحرم .

فصل :

إذا قتل المحرم صيداً وأدى جزاءه ، ثم قتل صيداً آخر لزمة جزاء آخر ، وقال داود : لا يجب حجة الجمهور : أن قوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ ظاهره يقتضي أن علة وجوب الجزاء هو القتل ، فوجب أن يتكرر الحكم عند تكرر العلة .

(15/214)

فإن قيل : إذا قال الرجل لنسائه ، من دخل منكن الدار فهي طالق ، فدخلت واحدة مرتين لم يقع إلا طلاق واحد .

قلنا : الفرق أن القتل علة لوجوب الجزاء ، فيلزم تكرر الحكم عند تكرر العلة .

أما ههنا : دخول الدار شرط لوقوع الطلاق ، فلم يلزم تكرر الحكم عند تكرر الشرط .

حجة داود : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ جعل جزاء العائد الانتقام لا الكفارة .

فصل :

قال الشافعي رحمه الله : إذا أصاب صيداً أعور أو مكسور اليد أو الرجل فداه بمثله ، والصحيح أحب إليّ ، وعلى هذا الكبير أولى من الصغير ، ويفدى الذكر بالذكر ، والأنثى بالأنثى ، والأولى أن لا يغير ، لأن نص القرآن إيجاب المثل ، والأنثى وإن كانت أفضل من الذكر من حيث إنها تلد ، فالذكر أفضل من الأنثى لأن لحمه أطيب وصورته أحسن .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 75 . 77 ﴾ . بتصرف يسير .

قوله تعالى ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال ابن عباس : يريد يحكم في جزاء الصيد رجلان صالحان ذوا عدل منكم أي من أهل ملتكم ودينكم فقيهان عدلان فينظران إلى أشبه الأشباه به من النعم فيحكمان به ، واحتج به من نصر قول أبي حنيفة رحمه الله في إيجاب القيمة ، فقال : التقويم هو المحتاج إلى النظر والاجتهاد ، وأما الخلقة والصورة ، فظاهرة مشاهدة لا يحتاج فيها إلى الاجتهاد .

وجوابه : أن وجوه المشابهة بين النعم وبين الصيد مختلفة وكثيرة ، فلا بد من الاجتهاد في تمييز الأقوى من الأضعف ، والذي يدل على صحة ما ذكرنا أنه قال ميمون بن مهران : جاء أعرابي إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فقال : إني أصبت من الصيد كذا وكذا ، فسأل أبو بكر رضي الله عنه أبي بن كعب ، فقال الأعرابي : أتيتك أسألك ، وأنت تسأل غيرك ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : وما أنكرت من ذلك ، قال الله تعالى : ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ فشاورت صاحبي ، فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به ، وعن قبيصة بن جابر : أنه حين كان محرماً ضرب ظبياً فمات ، فسأل عمر بن الخطاب رضي لله عنه ، وكان بجنبه عبد الرحمن بن عوف ، فقال عمر لعبد الرحمن : ما ترى ؟ قال : عليه شاة .

قال : وأنا أرى ذلك ، فقال : إذهب فاهد شاة .

قال قبيصة : فخرجت إلى صاحبي وقلت له إن أمير المؤمنين لم يدر ما يقول حتى سأل غيره .

قال : ففاجأني عمر وعلاني بالدرة ، وقال : أتقتل في الحرم وتسفه الحكم ، قال الله تعالى : ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ فأنا عمر ، وهذا عبد الرحمن بن عوف .

فصل :

قال الشافعي رحمه الله : الذي له مثل ضربان فما حكمت فيه الصحابة بحكم لا يعدل عنه إلى غيره ، لأنهم شاهدوا التنزيل ، وحضروا التأويل ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى اجتهاد عدلين ، فينظر إلى الأجناس الثلاثة من الأنعام فكل ما كان أقرب شبهاً به يوجبانه وقال مالك : يجب التحكيم فيما حكمت به الصحابة ، وفيما لم تحكم به حجة الشافعي رحمه الله الآية دلت على أنه يجب أن يحكم به ذوا عدل ، فإذا حكم به اثنان من الصحابة ، فقد دخل تحت الآية ، ثم ذاك أولى لما ذكرنا أنهم شاهدوا التنزيل ، وحضروا التأويل .

فصل :

قال الشافعي رحمه الله : يجوز أن يكون القاتل أحد العدلين إذا كان أخطأ فيه ، فإن تعمد لا يجوز ، لأنه يفسق به ، وقال مالك : لا يجوز كما في تقويم المتلفات .

(17/214)

حجة الشافعي رحمه الله : أنه تعالى أوجب أن يحكم به ذوا عدل ، وإذا صدر عنه القتل خطأ كان عدلاً ، فإذا حكم به هو وغيره فقد حكم به ذوا عدل ، وأيضاً روي أن بعض

الصحابة أوطأ فرسه ظبياً ، فسأل عمر عنه ، فقال عمر : احكم فقال : أنت عدل يا أمير المؤمنين فاحكم ، فقال عمر رضي الله عنه : إنما أمرتك أن تحكم وما أمرتك أن تزكيني ، فقال : أرى فيه جدياً جمع الماء والشجر ، فقال : افعل ما ترى ، وعلى هذا التقدير قال أصحابنا : يجوز أن يكونا قاتلين .

فصل :

لو حكم عدلان بمثل ، وحكم عدلان آخران بمثل آخر ، فيه وجهان : أحدهما : يتخير ، والثاني : يأخذ بالأغلظ .

فصل :

قال بعض مثبتي القياس : دلت الآية على أن العمل بالقياس والاجتهاد جائز لأنه تعالى فوّض تعيين المثل إلى اجتهاد الناس وظنونهم وهذا ضعيف لأنه لا شك أن الشارع تعبدنا بالعمل بالظن في صور كثيرة .

منها : الاجتهاد في القبلة ، ومنها : العمل بشهادة الشاهدين ومنها : العمل بتقويم المقومين في قيم المتلفات وأروش الجنايات ، ومنها : العمل بتحكيم الحكام في تعيين مثل المصيد المقتول ، كما في هذه الآية ، ومنها : عمل العامي بالفتوى .

ومنها : العمل بالظن في مصالح الدنيا .

إلا أنا نقول : إن ادعيتم أن تشبيه صورة شرعية بصورة شرعية في الحكم الشرعي هو عين

هذه المسائل التي عددناها فذلك باطل في بديهة العقل ، وإن سلمتم المغايرة لم يلزم ، من كون الظن حجة في تلك الصور ، كونه حجة في مسألة القياس ، إلا إذا قسنا هذه المسألة على تلك المسائل وذلك يقتضي إثبات القياس بالقياس ، وهو باطل .

وأيضاً فالفرق ظاهر بين البابين ، لأن في جميع الصور المذكورة الحكم إنما ثبت في حق شخص واحد في زمان واحد في واقعة واحدة .

وأما الحكم الثابت بالقياس فإنه شرع عام في حق جميع المكلفين باق على وجه الدهر والتنصيص على أحكام الأشخاص الجزئية متعذر .

(18/214)

وأما التنصيص على الأحكام الكلية والشرائع العامة الباقية إلى آخر الدهر غير متعذر .

فظهر الفرق والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 77 . 78 ﴾ .

بتصرف يسير .

قوله تعالى ﴿ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾

فائدة

قال الفخر :

في الآية وجهان :

الأول : أن المعنى يحكمان به هدياً يساق إلى الكعبة فينحر هناك ، وهذا يؤكد قول من أوجب المثل من طريق الخلقة لأنه تعالى لم يقل يحكمان به شيئاً يشتري به هدي وإنما قال يحكمان به هدياً وهذا صريح في أنهما يحكمان بالهدي لا غير .

الثاني : أن يكون المعنى يحكمان به شيئاً يشتري به ما يكون هدياً ، وهذا بعيد عن ظاهر اللفظ ، والحق هو الأول .

وقوله ﴿ هَدْياً ﴾ نصب على الحال من الكناية في قوله ﴿ بِهِ ﴾ والتقدير يحكم بذلك المثل شاة أو بقرة أو بدنة فالضمير في قوله ﴿ بِهِ ﴾ عائد إلى المثل والهدي حال منه ، وعند التفطن لهذين الاعتبارين فمن الذي يرتاب في أن الواجب هو المثل من طريق الخلقة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 78 ﴾

فائدة

قال الفخر :

سميت الكعبة كعبة لارتفاعها وتربعها ، والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة والكعبة إنما أريد بها كل الحرم لأن الذبح والنحر لا يقعان في الكعبة ولا عندها ملازقاً لها ونظير هذه الآية قوله ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إلى البيت العتيق ﴾ [الحج : 33] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 78 ﴾

فصل

قال الفخر :

معنى بلوغه الكعبة ، أن يذبح بالحرم فإن دفع مثل الصيد المقتول إلى الفقراء حياً لم يجز بل يجب عليه ذبحه في الحرم ، وإذا ذبحه في الحرم .

قال الشافعي رحمه الله : يجب عليه أن يتصدق به في الحرم أيضاً .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : له أن يتصدق به حيث شاء ، وسلم الشافعي أن له أن يصوم حيث شاء ، لأنه لا منفعة فيه لمساكين الحرم .

(19/214)

حجة الشافعي : أن نفس الذبح إيلام ، فلا يجوز أن يكون قربة ، بل القربة هي إيصال اللحم إلى الفقراء ، فقوله : ﴿ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾ يوجب إيصال تلك الهدية إلى أهل الحرم والكعبة .

وحجة أبي حنيفة رحمه الله : أنها لما وصلت إلى الكعبة فقد صارت هدياً بالغ الكعبة ، فوجب أن يخرج عن العهدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 78 .

﴿ 79

قوله تعالى ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مساكين أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع وابن عامر ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ ﴾ على إضافة الكفارة إلى الطعام ، والباقون ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ ﴾ بالرفع والتنوين طعام بالرفع من غير التنوين ، أما وجه القراءة الأولى : فهي أنه تعالى لما خير المكلف بين ثلاثة أشياء : الهدي ، والصيام ، والطعام ، حسنت الإضافة ، فكأنه قيل كفارة طعام لا كفارة هدي ، ولا كفارة صيام ، فاستقامت الإضافة لكون الكفارة من هذه الأشياء ، وأما وجه قراءة من قرأ ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ ﴾ بالتنوين ، فهو أنه عطف على قوله ﴿ فَجَزَاء ﴾ و ﴿ طَعَامُ مساكين ﴾ عطف بيان ، لأن الطعام هو الكفارة ولم تضف الكفارة إلى الطعام ، لأن الكفارة ليست للطعام ، وإنما الكفارة لقتل الصيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 79 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الشافعي ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله : كلمة ﴿ أَوْ ﴾ في هذه الآية للتخيير ، وقال أحمد وزفر : إنها للترتيب .

حجة الأولين أن كلمة (أو) في أصل اللغة للتخيير ، والقول بأنها للترتيب ترك للظاهر .

حجة الباقين : أن كلمة (أو) قد تجيء لا لمعنى للتخيير ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خلاف ﴾ [المائدة : 33] فإن المراد منه تخصيص كل واحد من هذه الأحكام بحالة معينة ، فثبت أن هذا اللفظ يحتمل الترتيب ، فنقول :

والدليل دل على أن المراد هو الترتيب ، لأن الواجب ههنا شرع على سبيل التغليظ بدليل قوله ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ والتخيير ينافي التغليظ .

والجواب : أن إخراج المثل ليس أقوى عقوبة من إخراج الطعام ، فالتخيير لا يقدح في القدر الحاصل من العقوبة في إيجاب المثل .

فصل :

إذا قتل صيداً له مثل قال الشافعي رحمه الله : هو مخير بين ثلاثة أشياء : إن شاء أخرج المثل ، وإن شاء قوم المثل بدراهم ، ويشتري بها طعاماً ويتصدق به ، وإن شاء صام ، وأما الصيد الذي لا مثل له ، فهو مخير فيه بين شيئين ، بين أن يقوم الصيد بالدراهم ويشتري بتلك الدراهم طعاماً ويتصدق به ، وبين أن يصوم ، فعلى ما ذكرنا الصيد الذي له مثل إنما يشتري الطعام بقيمة مثله .

وقال أبو حنيفة ومالك رحمهما الله : إنما يشتري الطعام بقيمته : حجة الشافعي أن المثل من النعم هو الجزاء والطعام بناء عليه فيعدل به كما يعدل عن الصوم بالطعام ، وأيضاً تقويم مثل الصيد أدخل في الضبط من تقويم نفس الصيد ، وحجة أبي حنيفة رحمه الله : أن مثل المتلف إذا وجب اعتبر بالمتلف لا بغيره ما أمكن ، والطعام إنما وجب مثلاً للمتلف فوجب أن يقدر به .

فصل :

اختلفوا في موضع التقويم : فقال أكثر الفقهاء : إنما يقوم في المكان الذي قتل الصيد فيه . وقال الشعبي : يقوم بمكة بثمن مكة لأنه يكفر بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 79 ﴾ . باختصار يسير .

فصل

قال الفخر :

(21/214)

قال الفراء : العدل ما عادل الشيء من غير جنسه ، والعدل المثل ، تقول عندي عدل غلامك أو شاتك إذا كان عندك غلام يعدل غلاماً أو شاة تعدل شاة ، أما إذا أردت قيمته

من غير جنسه نصبت العين فقلت عدل .

وقال أبو الهيثم : العدل المثل ، والعدل القيمة ، والعدل اسم حمل معدول بحمل آخر مسوى به ، والعدل تقويمك الشيء بالشيء من غير جنسه .

وقال الزجاج وابن الأعرابي : العدل والعدل سواء وقوله ﴿ صِيَاماً ﴾ نصب على التمييز ، كما تقول عندي رطلان عسلا ، وملء بيت قتا ، والأصل فيه إدخال حرف من فيه ، فإن لم يذكر نصبته .

تقول : رطلان من العسل وعدل ذلك من الصيام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 80 ﴾

فصل

قال الفخر :

مذهب الشافعي رضي الله عنه : أنه يصوم لكل مد يوماً وهو قول عطاء ومذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه يصوم لكل نصف صاع يوماً ، والأصل في هذه المسألة أنهما توافقا على أن الصوم مقدر بطعام يوم ، إلا أن طعام اليوم عند الشافعي مقدر بالمد ، وعند أبي حنيفة رحمه الله مقدر بنصف صاع على ما ذكرناه في كفارة اليمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 80 ﴾

فصل

قال الفخر :

زعم جمهور الفقهاء أن الخيار في تعيين أحد هذه الثلاثة إلى قاتل الصيد .

وقال محمد بن الحسن رحمه الله إلى الحكمين : حجة الجمهور أنه تعالى أوجب على قاتل الصيد أحد هذه الثلاثة على التخيير ، فوجب أن يكون قاتل الصيد مخيراً بين أيها شاء ، وحجة محمد رحمه الله أنه تعالى جعل الخيار إلى الحكمين فقال ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً ﴾ أي كذا وكذا .

وجوابنا : أن تأويل الآية ﴿ فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم . . . أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مساكين أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ وأما الذي يحكم به ذوا عدل فهو تعيين المثل ، إما في القيمة أو في الخلقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 80 ﴾

قوله تعالى ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾

فائدة

قال الفخر :

الوبال في اللغة : عبارة عما فيه من الثقل والمكروه .

يقال : مرعى وبيل إذا كان فيه وخامة ، وماء وبيل إذا لم يستمر ، أو الطعام الوبيل الذي يثقل على المعدة فلا ينهضم ، قال تعالى : ﴿ فأخذناه أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ [المزمل : 16] أي ثقيلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 80 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما سمى الله تعالى ذلك وبالا لأنه خيره بين ثلاثة أشياء : اثنان منها توجب تنقيص المال ، وهو ثقيل على الطبع ، وهما الجزاء بالمثل والاطعام ، والثالث : يوجب إيلام البدن وهو الصوم ، وذلك أيضاً ثقيل على الطبع ، والمعنى : أنه تعالى أوجب على قاتل الصيد أحد هذه الأشياء التي كل واحد منها ثقيل على الطبع حتى يحترز عن قتل الصيد في الحرم وفي حال الإحرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 80 ﴾

قوله تعالى ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية وجهان :

الأول : عفا الله عما مضى في الجاهلية وعما سلف قبل التحريم في الإسلام .

القول الثاني : وهو قول من لا يوجب الجزاء إلا في المرة الأولى ، أما في المرة الثانية فإنه لا يوجب الجزاء عليه ويقول إنه أعظم من أن يكفره التصدق بالجزاء ، فعلى هذا المراد : عفا الله عما سلف في المرة الأولى بسبب أداء الجزاء ، ومن عاد إليه مرة ثانية فلا كفارة لجرمه بل ينتقم الله منه .

وحجة هذا القول : أن الفاء في وقوله ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ فاء الجزاء ، والجزاء هو الكافي ، فهذا يقتضي أن هذا الانتقام كاف في هذا الذنب ، وكونه كافياً يمنع من وجوب شيء آخر ، وذلك يقتضي أن لا يجب الجزاء عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 81.80 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال سيبويه في قوله ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ وفي قوله ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ [البقرة : 126] وفي قوله ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ ﴾ [الجن : 13] إن في هذه الآيات إضماراً مقدراً والتقدير : ومن عاد فهو ينتقم الله منه ، ومن كفر فأنا أمتعه ، ومن يؤمن بربه فهو لا يخاف ، وبالجملة فلا بدّ من إضمار مبتدأ يصير ذلك الفعل خبراً عنه ، والدليل عليه : أن الفعل يصير بنفسه جزاء ، فلا حاجة إلى إدخال حرف الجزاء عليه فيصير إدخال حرف الفاء على الفعل لغواً أما إذا أضمرنا المبتدأ احتجنا إلى إدخال حرف الفاء عليه

ليرتبط بالشرط فلا تصير الفاء لغواً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 81 ﴾

(23/214)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ .

هذه الآية الكريمة يفهم من دليل خطابها مخالفتها أنهم إن حلوا من إحرامهم ، جاز لهم قتل الصيد ، وهذا المفهوم مصرح به في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] ، يعني إن شئتم كما تقدم إيضاحه في أول هذه السورة الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ الآية .

ذَهب جمهور العلماء إلى أن معنى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ لِقَتْلِه ذاكراً لإحْرامه ، وخالف مجاهد – رَحمه الله – الجمهور قائلاً : إن معنى الآية : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ لِقَتْله في حال كونه ناسياً لإحْرامه ، واستدل لِذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ ، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله تعالى .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب أن مِن أنواع البيان التي تضمنها أنْ يقول بعض العلماء في الآية قولاً ، ويكون فيها قرينة دالة على عدم صحّة ذلك القول . وإذا عرفت ذلك فاعلم أن في الآية قرينة واضحة دالة على عدم صحّة قول مجاهد رحمه الله ، وهي قوله تعالى : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ ، فإنه يدل على أنه مُتعمّداً أمراً لا يجوز ، أما الناسي فهو غَير آثِم إجماعاً ، فلا يناسِب أن يقال فيه : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ ، كما ترى ، والعِلْم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(24/214)

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لا تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ يعني : وأنتم محرمون ويقال : وأنتم محرمون أو في الحرم .

ثم بيّن الكفارة فقال : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمّداً فَجَزَاء مّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ يعني : عليه الفداء مثل ما قتل .

قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي : ﴿ فَجَزَاء مّثْلُ ﴾ بتنوين الهمزة وبضم اللام .

وقرأ الباقون : بالضم بغير تنوين وبكسر اللام .

فأما من قرأ : بالتنوين .

فمعناه : فعليه جزاء ، ثم صار المثل نعتاً للجزاء .

وأما من قرأ : بغير تنوين فعلى معنى الإضافة إلى الجزاء يعني : عليه جزاء ما قتل من النعم ، يشتري بقيمته من النعم ويذبحه .

يعني : إذا كان المقتول يوجد النعم .

ثم قال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ يعني : رجلان مسلمان عدلان ينظران إلى قيمة المقتول ، ثم يشتري بقيمته ﴿ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾ يعني : يبلغ بالهدي مكة ويذبحه هناك ويتصدق بلحمه على الفقراء .

(25/214)

﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مساكين ﴾ يعني : إن شاء يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به على كل مسكين نصف صاع من حنطة ﴿ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ يعني : يصوم مكان كل نصف صاع من حنطة يوماً .

قال ابن عباس : إنما يقوّم لكي يعرف مقدار الصيام من الطعام ؛ فهو بالخيار بين هذه الأشياء

الثلاثة إن شاء أطعم ، وإن شاء أهدى ، وإن شاء صام .

قرأ نافع وابن عامر : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مساكين ﴾ بغير تنوين على معنى الإضافة .

وقرأ الباقون ﴿ كَفَّارَةٌ ﴾ بالتنوين والطعام نعتاً لها .

ثم قال : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ يعني : عقوبة ذنبه لكي يمتنع عن قتل الصيد .

﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ يعني : عما مضى قبل التحريم ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ بعد التحريم

﴿ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ يعني : يعاقبه الله تعالى .

ومع ذلك يجب عليه الكفارة .

وقال بعضهم : لا يجب عليه الكفارة إذا قتل مرة أخرى .

وروى عكرمة عن ابن عباس : أنه سئل عن المحرم يصيب الصيد فيحكم عليه ، ثم يصيبه أيضاً قال : لا يحكم عليه ، وتلا هذه الآية ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ فذلك إلى الله إن شاء عفا وإن شاء عاقبه .

وعن شريح : أن رجلاً أتاه فسأله أن يحكم عليه فقال له شريح : هل أصبت صيداً قبله ؟

قال : لا .

قال : لو كنت أصبته قبل ذلك لم أحكم عليك .

وقال بعضهم : سواء قتل قبل ذلك أو لم يقتل فهو سواء .

لأنه قاتل في المرة الثانية كما هو قاتل في المرة الأولى .

وروي عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم أنهم حكموا ولم يسألوه أنك أصبت قبل ذلك أم لا .

وروى ابن جريج عن عطاء أنه سئل عن قوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ قال : يعني : ما كان في الجاهلية .

ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه ، ومع ذلك عليه الكفارة .

وروى سعيد بن جبير مثله .

وقد قال بعض الناس : إنه إذا قتل خطأ فلا تجب عليه الكفارة .

وهذا القول ذكر عن طاوس اليماني .

وقال غيره : تجب عليه الكفارة .

وروى ابن جريج عن عطاء قال سألت عن قوله : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ فلو قتله خطأ أيغرم ؟ قال : نعم يعظم بذلك حرمات الله .

ومضت به السنن .

وعن الحسن قال : يحكم عليه في الخطأ والعمد .

وعن إبراهيم النخعي وعن مجاهد مثله .

وبهذا القول نأخذ ونقول : بأن العمد والخطأ سواء ، والمرة الأولى والثانية سواء .

ثم قال تعالى : ﴿ واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ من أهل المعصية آخذ الصيد بعد التحريم .

ويقال : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ مستحلاًأو مستخفاً بأمر الله تعالى ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ يعني : يعذبه الله تعالى ﴿ واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ يعذب من عصاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(26/214)

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني الإِحرام بحج أو عمرة ، قاله الأكثرون .

والثاني : يعني بالحرم الداخل إلى الحرم ، يقال أحرم إذا دخل في الحرم ، وأَتْهَمَ إذا دخل تهامة ، وأَنْجَدَ إذا دخل نجد ، ويقال أحرم لمن دخل في الأشهر الحرم . قاله بعض البصريين .

والثالث : أن اسم المحرم يتناول الأمرين معاً على وجه الحقيقة دون المجاز من أحرم بحج أو عمرة أو دخل الحرم ، وحكم قتل الصيد فيهما على سواء بظاهر الآية ، قاله علي بن أبي هريرة .

﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : متعمداً لقتله ، ناسياً لإحرامه ، قاله مجاهد ، وإبراهيم ، وابن جريج .

والثاني : متعمداً لقتله ذاكراً لإحرامه ، قاله ابن عباس ، وعطاء ، والزهري .

واختلفوا في الخاطىء في قتله الناسي لإحرامه على قولين .

أحدهما : لا جزاء عليه ، قاله داود .

الثاني : عليه الجزاء ، قاله مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة .

﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ يعني أن جزاء القتل فى الحرم أو الإحرام مثل ما قتل من النعم .

وفي مثله قولان :

أحدهما : أن قيمة الصيد مصروفة في مثله من النعم ، قاله أبو حنيفة .

والثاني : أن عليه مثل الصيد من النعم في الصورة والشبه قاله الشافعي .

﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ يعني بالمثل من النعم ، فلا يستقر المثل فيه إلا بحكم عدلين فقيهين ، ويجوز أن يكون القاتل أحدهما .

﴿ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ يريد أن مثل الصيد من النعم يلزم إيصاله إلى الكعبة ، وعنى بالكعبة جميع الحرم ، لأنها في الحرم .

واختلفوا هل يجوز أن يهدي في الحرم ما لا يجوز في الأضحية من صغار الغنم على قولين :

أحدهما : لا يجوز قاله : أبو حنيفة .

الثاني : يجوز ، قاله الشافعي .

(27/214)

﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه يُقَوِّم المثل من النعم ويشتري بالقيمة طعاماً ، قاله عطاء ، والشافعي .

الثاني : يقوِّم الصيد ويشتري بالغنيمة طعاماً ، قاله قتادة ، وأبو حنيفة .

﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً ﴾ يعني عدل الطعام صياماً ، وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه يصوم عن كل مد يوماً ، قاله عطاء ، والشافعي .

والثاني : يصوم عن كل مد ثلاثة أيام ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : يصوم عن كل صاع يومين ، قاله ابن عباس .

واختلفوا في التكفير بهذه الثلاثة ، هل هو على الترتيب أو التخيير على قولين :

أحدهما : على الترتيب ، إن لم يجد المثل فالإطعام ، فإن لم يجد الطعام فالصيام ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعامر ، وإبراهيم ، والسدي .

والثاني : أنه على التخيير في التكفير بأي الثلاثة شاء ، قاله عطاء ، وهو أحد قولي ابن

عباس ، ومذهب الشافعي .

﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ يعني في التزام الكفارة ، ووجوب التوبة .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ يعني قبل نزول التحريم .

﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني ومن عاد بعد التحريم ، فينتقم الله منه بالجزاء عاجلاً ، وعقوبة المعصية آجلاً .

والثاني : ومن عاد بعد التحريم في قتل الصيد ثانية بعد أوله ، فينتقم الله منه .

وعلى هذا التأويل قولان :

أحدهما : فينتقم الله منه بالعقوبة في الآخرة دون الجزاء ، قاله ابن عباس ، وداود .

والثاني : بالجزاء مع العقوبة ، قاله الشافعي ، والجمهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(28/214)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ لا تقتلوا الصيد وأنتم حرمٌ ﴾

بيَّن الله عز وجل بهذه الآية من أيِّ وجهٍ تقع البلوى ، وفي أيِّ زمانٍ ، وما على من قتله بعد النهي ؟ .

وفي قوله : "وأنتم حرمٌ" ثلاثة أقوال .

أحدها : وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، قاله الأكثرون .

والثاني : وأنتم في الحرم ، يقال : أحرم : إذا دخل في الحرم ، وأنجد : إذا أتى نجداً .

والثالث : الجمع بين القولين .

قوله تعالى : ﴿ ومن قتله منكم متعمداً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن يتعمّد قتله ذاكراً لإحرامه ، قاله ابن عباس ، وعطاء .

والثاني : أن يتعمد قتله ناسياً لإحرامه ، قاله مجاهد .

فأما قتله خطأً ، ففيه قولان .

أحدهما : أنه كالعمد ، قاله عمر ، وعثمان ، والجمهور .

قال الزهري : نزل القرآن بالعمد ، وجرت السُنّة في الخطأ ، يعني : ألحقت المخطىء بالمتعمّد في وجوب الجزاء وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الضبع صيد وفيه كبش إذا قتله المحرم " وهذا عامٌ في العامد والمخطىء .

قال القاضي أبو يعلى : أفاد تخصيص العمد بالذكر ما ذكر في أثناء الآية من الوعيد ، وإنما

يختصّ ذلك بالعامد .

والثاني : أنه لا شيء فيه ، قاله ابن عباس ، وابن جبير ، وطاووس ، وعطاء ، وسالم ، والقاسم ، وداود .

وعن أحمد روايتان : أصحهما الوجوب .

قوله تعالى : ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو وابن عامر : ﴿ فجزاء مثل ﴾ مضافة وبخفض "مثل" .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "فجزاءٌ" منون "مثلُ" مرفوع .

قال أبو علي : من أضاف ، فقوله : ﴿ من النعم ﴾ يكون صفة للجزاء ، وإنما قال : مثل ما قتل ، وإنما عليه جزاء المقتول لا جزاء مثله ، لأنهم يقولون : أنا أُكرِمُ مثلك ، يريدون : أن أُكرِمُك ، فالمعنى : جزاء ما قتل .

ومَن رفع "المثل" ، فالمعنى : فعليه جزاء من النعم مماثل للمقتول ، والتقدير : فعليه جزاء .

قال ابن قتيبة : النعم : الإبل .

وقد يكون البقر والغنم ، والأغلب عليها الإبل ، وقال الزجاج : النعم في اللغة : الإبل والبقر والغنم ، فإن انفردت الابل ، قيل لها : نعم ، وإن انفردت البقر والغنم ، لم تسم نعماً .

فصل

قال القاضي أبو يعلى : والصيد الذي يجب الجزاء بقتله : ما كان مأكول اللحم ، كالغزال ، وحمار الوحش ، والنعامة ، ونحو ذلك ، أو كان متولداً من حيوان يؤكل لحمه ، كالسِّمع ، فإنه متولد من الضبع ، والذئب ، وما عدا ذلك من السباع كلها ، فلا جزاء على قاتلها ، سواء ابتدأ قتلها ، أو عدت عليه ، فقتلها دفعاً عن نفسه ، لأن السبع لا مثل له صورة ولا قيمة ، فلم يدخل تحت الآية ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز للمحرم قتل الحيّة ، والعقرب ، والفويسقة ، والغراب ، والحدأة ، والكلب العقور ، والسَّبع العادي .

قال : والواجب بقتل الصيد فيما له مثلٌ من الأنعام مثله ، وفيما لا مثل له قيمته ، وهو قول مالك ، والشافعي .

وقال أبو حنيفة : الواجب فيه القيمة ، وحمل المثل على القيمة ، وظاهرُ الآية يردُّ ما قال ، ولأن الصحابة حملوا الآية على المثل من طريق الصورة ، فقال ابن عباس : المثل : النظير ، ففي الظبية شاة ، وفي النعامة بعير .

قوله تعالى : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ يعني بالجزاء ، وإنما ذكر اثنين ، لأن الصيد يختلف في نفسه ، فافتقر الحكم بالمثل إلى عدلين .

قوله تعالى : ﴿ منكم ﴾ يعني : من أهل ملتكم .

قوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على الحال ، والمعنى :

يحكمان به مقدّراً أن يهدى .

ولفظ قوله "بالغ الكعبة" لفظ معرفة ، ومعناه : النكرة .

والمعنى : بالغاً الكعبة ، إلا أن التنوين حُذف استخفافاً .

قال ابن عباس : إذا أتى مكّة ذبحه ، وتصدّق به .

قوله تعالى : ﴿ أو كفّارة ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ أو كفارةٌ ﴾ منوناً ﴿ طعامُ ﴾ رفعاً .

وقرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ أو كفارة ﴾ رفعاً غير منوّن ﴿ طعام المساكين ﴾ على الاضافة .

(30/214)

قال أبو علي : من رفع ولم يضف ، جعله عطفاً على الكفارة عطف بيان ، لأن الطعام هو الكفارة ، ولم يضف الكفارة إلى الطعام ، لأن الكفارة لقتل الصيد ، لا للطعام ، ومن أضاف الكفارة إلى الطعام ، فلأنه لما خيّر المكفِّر بين الهدي ، والطعام ، والصيام ، جازت الإضافة لذلك ، فكأنه قال : كفارةُ طعامٍ ، لا كفارة هدي ، ولا صيام .

والمعنى : أو عليه بدل الجزاء والكفارة ، وهي طعامُ مساكين .

وهل يعتبر في إِخراج الطعام قيمة النظير ، أو قيمة الصيد ؟ فيه قولان .

أحدهما : قيمة النظير ، وبه قال عطاء ، والشافعي ، وأحمد .

والثاني : قيمة الصيد ، وبه قال قتادة ، وأبو حنيفة ، ومالك .

وفي قدر الإِطعام لكل مسكين قولان .

أحدهما : مدّان من بُرٍّ ، وبه قال ابن عباس ، وأبو حنيفة .

والثاني : مُدٌّ بُرٍّ ، وبه قال الشافعي ، وعن أحمد روايتان ، كالقولين .

قوله تعالى : ﴿ أو عدل ذلك صياماً ﴾ قرأ أبو رزين ، والضحاك ، وقتادة ، والجحدري ، وطلحة : ﴿ أو عِدل ذلك ﴾ ، بكسر العين .

وقد شرحنا هذا المعنى في (البقرة) قال أصحابنا : يصوم عن كل مُدّ بُرٍّ ، أو نصف صاع تمر ، أو شعير يوماً .

وقال أبو حنيفة : يصوم يوماً عن نصف صاع في الجميع .

وقال مالك ، والشافعي : يصوم يوماً عن كلِّ مدٍّ من الجميع .

فصل

وهل هذا الجزاء على الترتيب ، أم على التخيير ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنه على التخيير بين إِخراج النظير وبين الصيام وبين الإِطعام .

والثاني : أنه على الترتيب ، إِن لم يجد الهدي ، اشترى طعاماً ، فإن كان معسراً صام ، قاله

ابن سيرين .

والقولان مرويان عن ابن عباس ، وبالأول قال جمهور الفقهاء .

قوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ أي : جزاء ذنبه .

قال الزجاج : "الوبال" : ثقل الشيء في المكروه ، ومنه قولهم : طعامٌ وبيل ، وماءُ وبيلٌ : إذا كانا ثقيلين .

قال الله عز وجل : ﴿ فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ [المزمل : 16] أي : ثقيلاً شديداً .

(31/214)

قوله تعالى : ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ فيه قولان .

أحدهما : ما سلف في الجاهلية ، من قتلهم الصيد ، وهم محرمون ، قاله عطاء .

والثاني : ما سلف من قتل الصيد في أوّل مرّة ، حكاه ابن جرير ، والأول أصح .

فعلى القول الأول يكون معنى قوله : ﴿ ومن عاد ﴾ في الإِسلام ، وعلى الثاني : ﴿ ومن عاد ﴾ ثانية بعد أولى .

قال أبو عبيدة : "عاد" في موضع يعود ، وأنشد :

إِن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً . . .

وإِن ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا

قوله تعالى : ﴿ فينتقم الله منه ﴾ "الانتقام" : المبالغة في العقوبة ، وهذا الوعيد بالانتقام لا يمنع إِيجاب جزاء ثانٍ إِذا عاد ، وهذا قول الجمهور ، وبه قال مالك ، والشافعي ، وأحمد . وقد روي عن ابن عباس ، والنخعي ، وداود : أنه لا جزاء عليه في الثاني ، إِنما وعد بالانتقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(32/214)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾

الخطاب لجميع المؤمنين ، وهذا النهي هو الابتلاء الذي أعلم به قوله قبل ﴿ ليبلونكم ﴾ [المائدة : 94] و ﴿ الصيد ﴾ مصدر عومل معاملة الأسماء فأوقع على الحيوان المصيد ، ولفظ الصيد هنا عام ومعناه الخصوص فيما عدا الحيوان الذي أباح رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله في الحرم ، ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خمس فواسق يقتلن في الحرم الغراب والحدأة والفأرة والعقرب والكلب العقور " ووقف مع ظاهر هذا الحديث

سفيان الثوري والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه فلم يبيحوا للمحرم قتل شيء سوى ما ذكر ، وقاس مالك رحمه الله على الكلب العقور كل ما كلب على الناس وعقرهم ورآه داخلاً في اللفظ فقال للمحرم أن يقتل الأسد والنمر والفهد والذئب وكل السباع العادية مبتدئاً بها ، فأما الهر والثعلب والضبع فلا يقتلها المحرم وإن قتلها فدى ، وقال أصحاب الرأي إن بدأ السبع المحرم فله أن يقتله ، وإن ابتدأه المحرم فعليه قيمته ، وقال مجاهد والنخعي لا يقتل المحرم من السباع إلا ما عدا عليه ، وقال ابن عمر ما حل بك من السباع فحلَّ به ، وأما فراخ السبع الصغار قبل أن تفرس فقال مالك في المدونة لا ينبغي للمحرم قتلها ، قال أشهب في كتاب محمد : فإن فعل فعليه الجزاء ، وقال أيضاً أشهب وابن القاسم لا جزاء عليه ، وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمر المحرمين بقتل الحيات وأجمع الناس على إباحة قتلها وثبت عن عمر رضي الله عنه إباحة قتل الزنبور لأنه في حكم العقرب ، وقال مالك : يطعم قاتله شيئاً ، وكذلك قال مالك فيمن قتل البرغوث والذباب والنمل ونحوه ، وقال أصحاب الرأى لا شيء على قاتل هذه كلها ، وأما سباع الطير فقال مالك لا يقتلها المحرم وإن فعل فدى ، وقال ابن القاسم في كتاب محمد : وأحب إليَّ أن لا يقتل الغراب والحدأة حتى يؤذياه ، ولكن إن فعل فلا شيء عليه .

(33/214)

قال القاضي أبو محمد : وذوات السموم كلها في حكم الحية كالأفعى والرتيلاء وما عدا ما ذكرناه فهو مما نهى الله عن قتله في الحرمة بالبلد أو الحال ، وفرض الجزاء على من قتله و ﴿ حرم ﴾ جمع حرام وهو الذي يدخل في الحرام أو في الإحرام ، وحرام ، يقال للذكر والأنثى والاثنين والجميع ، واختلف العلماء في معنى قوله ﴿ متعمداً ﴾ فقال مجاهد وابن جريج والحسن وابن زيد : معناه متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه ، فهذا هو الذي يكفر وكذلك الخطأ المحض يكفر وأما إن قتله متعمداً ذاكراً لإحرامه فهذا أجلّ وأعظم من أن يكفر . قال مجاهد : قد حل ولا رخصة له ، وقاله ابن جريج ، وحكى المهدوي وغيره أنه بطل حجه ، وقال ابن زيد : هذا يؤكل إلى نقمة الله ، وقال جماعة من أهل العلم منهم ابن عباس ومالك وعطاء وسعيد ابن جبير والزهري وطاوس وغيرهم ، المتعمد هو القاصد للقتل الذاكر لإحرامه ، وهو يكفر وكذلك الناسي والقاتل خطأً يكفران .

قال الزهري : نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في قتله خطأً أنهما يكفران ، وقال بعض الناس لا يلزم القاتل خطأً كفارة ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " فجزاءُ مثلِ ما " بإضافة الجزاء إلى مثل وخفض مثل ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم " فجزاء " بالرفع " مثلُ " بالرفع أيضاً فأما القراءة الأولى ومعناها فعليه جزاء مثل ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم " فجزاء " بالرفع " مثلُ " بالرفع أيضاً فأما القراءة الأولى ومعناها بقولك أنا أكرمك

، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ﴾ [الأنعام : 122] التقدير كمن هو في الظلمات .

(34/214)

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل قوله تعالى : ﴿ فجزاء مثل ﴾ أني كون المعنى فعليه أن يجزي مثل ما ، ثم وقعت الإضافة إلى المثل الذي يجزي به اتساعاً ، وأما القراءة الثانية فمعناها فالواجب عليه أو فاللازم له جزاء مثل ما و" مثل " على هذه القراءة صفة لجزاء ، أي فجزاء مماثل ، وقوله تعالى : ﴿ من النعم ﴾ صفة لجزاء على القراءتين كلتيهما ، وقرأ عبد الله بن مسعود " فجزاؤه مثل ما " بإظهار هاء يحتمل أن تعود على الصيد أو على الصائد القاتل ، وقرأ أبو عبد الرحمن " فجزاءُ " بالرفع والتنوين " مثلَ ما " بالنصب ، وقال أبو الفتح " مثل " منصوبة بنفس الجزاء أي فعليه أن يجزي مثل ما قتل ، واختلف العلماء في هذه المماثلة كيف تكون ؟ ! فذهب الجمهور إلى أن الحكمين ينظران إلى مثل الحيوان المقتول في الخلقة وعظم المرأى فيجعلون ذلك من النعم جزاءه ، قال الضحاك بن مزاحم والسدي وجماعة من الفقهاء : في النعامة وحمار الوحش ونحوه بدنة ، وفي الوعل والإبل ونحوه بقرة ، وفي الظبي ونحوه كبش ، وفي الأرنب ونحوه ثنية من الغنم ، وفي اليربوع حمل

صغير ، وما كان من جرادة ونحوها ففيها قبضة طعام ، وما كان من طير فيقوم ثمنها طعاماً فإن شاء تصدق به وإن شاء صام لكل صاع يوماً ، وإن أصاب بيض نعام فإنه يحمل الفحل على عدد أصاب من بكارة الإبل فما نتج منها أهداه إلى البيت وما فسد فيها منها فلا شيء عليه فيه .

قال القاضي أبو محمد : حكم عمر على قبيصة بن جابر في الظبي بشاة ، وحكم هو وعبد الرحمن بن عوف ، قال قبيصة : قلت يا أمير المؤمنين إن أمره أهون من أن تدعو من يحكم معك ، قال : فضربني بالدرة حتى سابقته عَدْوا .

(35/214)

ثم قال : أقتلت الصيد وأنت محرم ثم تغمض الفتوى ؟ وهذه القصة في الموطأ بغير هذه الألفاظ . وكذلك روي أنها نزلت بصاحب لقبيصة ، وقبيصة هو راويها والله أعلم . وأما الأرنب واليربوع ونحوها فالحكم فيه عند مالك أن يقوم طعاماً ، فإن شاء تصدق به وإن شاء صام بدل كلّ مدّ يوماً ، وكذلك عنده الصيام في كفارة الجزاء إنما هو كله يوم بدل مد ، وعند قوم صاع ، وعند قوم بدل مدين ، وفي حمام الحرم عند مالك شاة في الحمامة ، وفي الحمام غيره حكومة وليس كحمام الحرم ، وأما بيض النعام وسائر الطير ففي البيضة عند

مالك عشر ثمن أمه ، قال ابن القاسم : وسواء كان فيها فرخ أو لم يكن ما لم يستهل الفرخ صارخاً بعد الكسر فإن استهل ففيه الجزاء كاملاً كجزاء كبير ذلك الطير . قال ابن المواز : بحكومة عدلين ، وقال ابن وهب : إن كان في بيضة النعامة فما دونها فرخ فعشر ثمن أمه ، وإن لم يكن فصيام يوم أو مد لكل مسكين ، وذهبت فرقة من أهل العلم منهم النخعي وغيره إلى أن المماثلة إنما هي في القيمة ، يقوّم الصيد المقتول ثم يشتري بقيمته من النعم ثم يهدى ، ورد الطبري وغيره على هذا القول ، و﴿ النعم ﴾ لفظ يقع على الإبل والبقر والغنم إذا اجتمع هذه الأصناف ، فإذا انفرد كل صنف لم يقل " نعم " إلا للإبل وحدها ، وقرأ الحسن " من النعْم " بسكون العين وهي لغة ، والجزاء إنما يجب بقتل الصيد لا بنفس أخذه بحكم لفظ الآية ، وذلك في المدونة ظاهر من مسألة الذي اصطاد طائراً فنتف ريشه ثم حبسه حتى نسل ريشه فطار ، قال لا جزاء عليه ، وقصر القرآن هذه النازلة على حكمين عدلين عالمين بحكم النازلة وبالتقدير فيها ، وحكم عمر وعبد الرحمن بن عوف وأمر أبا جرير البجلي أن يأتي رجلين من العدول ليحكما عليه في عنز من الظباء أصابها قال :

(36/214)

فأتيت عبد الرحمن وسعداً فحكما عليّ تيساً أعفر ، ودعا ابن عمر ابن صفوان ليحكم معه في جزاء ، وعلى هذا جمهور الناس وفقهاء الأمصار ، وقال ابن وهب رحمه الله في العتبية : من السنة أن يخير الحكمان من أصاب الصيد كما خيره الله في أن يخرج هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً . فإن اختار الهدي حكما عليه بما يريانه نظيراً لما أصاب ما بينهما وبين أن يكون عدل ذلك شاة لأنها أدنى الهدي . فما لم يبلغ شاة حكما فيه بالطعام ، ثم خير في أن يطعمه أو يصوم مكان كل مد يوماً . وكذلك قال مالك في المدونة : إذا أراد المصيب أن يطعم أو يصوم وإن كان لما أصاب نظير من النعم فإنه يقوم صيده طعاماً لا دراهم ، قال : وإن قوموه دراهم واشتري بها طعام لرجوت أن يكون واسعاً ، والأول أصوب ، فإن شاء أطعمه وإلا صام مكانه لكل مد يوماً وإن زاد ذلك على شهرين أو ثلاثة ، وقال يحيى بن عمر من أصحابنا إنما يقال كم من رجل يشبع من هذا الصيد فيعرف العدد ثم يقال كم من الطعام يشبع هذا العدد ، فإن شاء أخرج ذلك الطعام ، وإن شاء صام عدد أمداده .

(37/214)

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول حسن أحتاط فيه لأنه قد تكون قيمة الصيد من الطعام قليلة فبهذا النظر يكثر الطعام ، ومن أهل العلم من يرى أن لا يتجاوز في صيام الجزاء شهران ، قالوا : لأنها أعلى الكفارات بالصيام ، وقوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ يقتضي هذا اللفظ أن يشخص بهذا الهدي حتى يبلغ ، وذكرت ﴿ الكعبة ﴾ لأنها أم الحرم ورأس الحرمة ، والحرم كله منحر لهذا الهدي فما وقف به بعرفة من هذا الجزاء فينحر بمنى ، وما لم يوقف به فينحر بمكة وفي سائر بقاع الحرم ، بشرط أن يدخل من الحل لا بد أن يجمع فيه بين حل وحرم حتى يكون بالغاً الكعبة ، وقرأ عبد الرحمن الأعرج " هدِيّاً بالغ الكعبة " بكسر الدال وتشديد الياء ، و﴿ هدياً ﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿ به ﴾ ، وقيل على المصدر ، و﴿ بالغ ﴾ نكرة في الحقيقة لم تزل الإضافة عنه الشياع ، فتقديره بالغاً الكعبة حذف تنويه تخفيفاً ، وقرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي " أو كفارةً " منوناً " طعامُ مساكين " برفع طعام وإضافته إلى جمع المساكين ، وقرأ نافع وابن عامر برفع الكفارة دون تنوين وخفض الطعام على الإضافة ومساكين بالجمع ، قال أبو علي : إعراب طعام في قراءة من رفعه أنه عطف بيان لأن الطعام هو الكفارة ، ولم يضف الكفارة لأنها ليست للطعام إنما هي لقتل الصيد .

(38/214)

قال القاضي أبو محمد : وهذا الكلام كله مبني على أن الكفارة هي الطعام وفي هذا نظر ، لأن الكفارة هي تغطية الذنب بإعطاء الطعام ، فالكفارة غير الطعام لكنها به ، فيتجه في رفع الطعام البدل المحض ، ويتجه قراءة من أضاف الكفارة إلى الطعام على أنها إضافة تخصيص ، إذ كفارة هذا القتل قد تكون كفارة هدي أو كفارة طعام أو كفارة صيام ، وقرأ الأعرج وعيسى بن عمرو " أو كفارةٌ " بالرفع والتنوين " طعامُ " بالرفع دون تنوين " مسكين " على الإفراد وهو اسم الجنس ، وقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء : القاتل مخير في الرتب الثلاثة وإن كان غنياً ، وهذا عندهم مقتضى ﴿ أو ﴾ ، وقال ابن عباس وجماعة لا ينتقل المكفر من الهدي إلى الطعام إلا إذا لم يجد هدياً ، وكذلك لا يصوم إلا إذا لم يجد ما يطعم ، وقاله إبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان ، قالوا : والمعنى أو كفارة طعام إن لم يجد الهدي .

ومالك رحمه الله وجماعة معه يرى أن المقوم إنما هو الصيد المقتول بالطعام كما تقدم ، وقال العراقيون إنما يقوم الجزاء طعاماً ، فمن قتل ظبياً قوم الظبي عند مالك وقوم عدله من الكباش أو غير ذلك عند أبي حنيفة وغيره ، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم ، فإن وجد جزاءه ذبحه فتصدق به ، وإن لم يجد قوم الجزاء دراهم ثم قومت الدراهم حنطة ثم صام مكان كل

نصف صاع يوماً قال : وإنما أريد بذكر الطعام تبيين أمر الصوم ، ومن يجد طعاماً فإنما يجد جزاء ، وأسنده أيضاً عن السدي .

قال القاضي أبو محمد : ويعترض هذا القول بظاهر لفظ الآية فإنه ينافره ، والهدي لا يكون إلا في الحرم كما ذكرنا قبل .

(39/214)

واختلف الناس في الطعام فقال جماعة من العلماء : الإطعام والصيام حيث شاء المكفر من البلاد ، وقال عطاء بن أبي رباح وغيره " الهدي والإطعام بمكة والصوم حيث شئت " وقوله تعالى : ﴿ أو عدل ذلك صياماً ﴾ قرأ الجمهور بفتح العين ومعناه : نظير الشيء بالموازنة والمقدار المعنوي ، وقرأ ابن عباس وطلحة بن مصرف والجحدري : " أو عِدل " بكسر العين ، قال أبو عمرو الداني ورواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعض الناس " العَدل " بالفتح قدر الشيء من غير جنسه ، وعِدله بالكسر قدره من جنسه ، نسبها مكي إلى الكسائي وهو وهم والصحيح عن الكسائي : أنهما لغتان في المثل ، وهذه المنسوبة عبارة معترضة وإنما مقصد قائلها أن " العِدل " بالكسر قدر الشيء موازنة على الحقيقة كعدلي البعير ، وعدله قدره من شيء آخر موازنة معنوية ، كما يقال في ثمن

فرس هذا عدله من الذهب ، ولا يتجه هنا كسر العين فيما حفظت ، والإشارة بذلك في قوله ﴿ عدل ذلك ﴾ يحتمل أن تكون إلى الطعام ، وعلى هذا انبنى قول من قال من الفقهاء الأيام التي تصام هي على عدد الأمداد أو الأصوع أو أنصافها حسب الخلاف الذي قد ذكرته في ذلك . ويحتم أن تكون الإشارة ب ﴿ بذلك ﴾ إلى الصيد المقتول ، وعلى هذا انبنى قول من قال من العلماء : الصوم في قتل الصيد إنما هو على قدر المقتول ، وقال ابن عباس رضي الله عنه إن قتل المحرم ظبياً فعليه شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، وإن قتل أيلاً فعليه بقرة ، فإن لم يجد فإطعام عشرين مسكيناً ، فإن لم يجد صام عشرين يوماً ، وإن قتل نعامة أو حمار وحش فعليه بدنة ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً .

(40/214)

قال القاضي أبو محمد : وقد تقدم لابن عباس رضي الله عنه قول غير هذا آنفاً حكاهما عنه الطبري مسندين ، ولا ينكر أن يكون له في هيئة التكفير قولان ، وقال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى : ﴿ أو عدل ذلك صياماً ﴾ قال يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة .

وقوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ الذوق هنا مستعار كما قال تعالى : ﴿ ذق إنك

أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] وكما قال ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع ﴾ [النحل : 112] وكما قال أبو سفيان : ذق عقق وحقيقة الذوق إنما هي في حاسة السان ، وهي في هذا كله مستعارة فيما بوشر بالنفس ، والوبال سوء العاقبة ، والمرعى الوبيل هو الذي يتأذى به بعد أكله ، وعبر بأمره عن جميع حاله من قتل وتكفير وحكم عليه ومضي ماله أو تعبه بالصيام ، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ فقال عطاء بن أبي رباح وجماعة معه : معناه عفا الله عما سلف في جاهليتكم من قتلكم الصيد في الحرمة ومن عاد الآن في الإسلام فإن كان مستحيلاً فينتقم الله منه في الآخرة ويكفر في ظاهر الحكم ، وإن كان عاصياً فالنقمة هي في إلزام الكفارة فقط ، قالوا وكلما عاد المحرم فهو مكفر .

قال القاضي أبو محمد : ويخاف المتورعون أن تبقى النقمة مع التكفير ، وهذا هو قول الفقهاء مالك ونظائره وأصحابه رحمهم الله ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : المحرم إذا قتل مراراً ناسياً لإحرامه فإنه يكفر في كل مرة ، فأما المتعمد العالم بإحرامه فإنه يكفر أول مرة ، وعفا الله عن ذنبه مع التكفير ، فإن عاد ثانية فلا يحكم عليه ، ويقال له : ينتقم الله منك ، كما قال الله ، وقال بهذا القول شريح القاضي وإبراهيم النخعي ومجاهد ، وقال سعيد بن جبير : رخص في قتل الصيد مرة فمن عاد لم يدعه الله حتى ينتقم منه .

قال القاضي أبو محمد : وهذ القول منه رضي الله عنه وعظ بالآية ، وهو مع ذلك يرى أن يحكم عليه في العودة ويكفر لكنه خشي مع ذلك بقاء النقمة ، وقال ابن زيد : معنى الآية ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ لكم أيها المؤمنون من قتل الصيد قبل هذا النهي والتحريم ، قال وأما من عاد فقتل الصيد وهو عالم بالحرمة متعمد للقتل فهذا لا يحكم عليه ، وهو موكول إلى نقمة الله ، ومعنى قوله ﴿ متعمداً ﴾ في صدر الآية أي متعمداً للقتل ناسياً للحرمة .

قال القاضي أبو محمد : وقد تقدم ذكر هذا الفصل ، قال الطبري : وقال قوم : هذه الآية مخصوصة في شخص بعينه وأسند إلى زيد بن المعلى أن رجلاً أصاب وهو محرم فتجوز له عنه ثم عاد فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ تنبيه على صفتين تقتضي خوف من له بصيرة ، ومن خاف ازدجر ، ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾

جمع حرام .

أي : لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بالحج والعمرة وقيل المراد منه دخول الحرم .

يقال : أحرم إذا عقد الإحرام ، وأحرم : إذا دخل الحرم .

وقيل : هما مرادان بالآية فلا يجوز قتل الصيد للمحرم ولا في الحرم نزلت هذه الآية في أبي اليسر شد على حمار وحش فقتله وهو محرم ثم صار هذا الحكم عاماً فلا يجوز قتل الصيد ولا التعرض له ما دام محرماً ولا في الحرم .

والمراد بالصيد ، كل حيوان متوحش مأكول اللحم وهذا قول الشافعي .

وقال أبو حنيفة : هو كل حيوان متوحش سواء كان مأكولاً أو لم يكن فيجب عنده الضمان على من قتل سبعاً أو نمراً أو نحو ذلك واستثنى الشارع خمس فواسق فأجاز قتلهن (ق) .

(42/214)

عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور " وفي رواية : " خمس لا جناح على من قتلهن في الحرم والإحرام " (ق) .

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن في الحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور "

ولمسلم " خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم " وذكر نحوه .

وفي رواية النسائي قال : " خمس يقتلن المحرم : الحية ، والعقرب ، والفأرة ، والغراب الأبقع ، والكلب العقور " قال ابن عيينة : الكلب العقور كل سبع ضار يعقر .

وقاس الشافعي عليها جميع ما لا يؤكل لحمه ، قال : لأن الحديث يشتمل على أشياء بعضها سباع ضارية وبعضها هوام قاتلة وبعضها طير لا يدخل في معنى السباع ولا في معنى الهوام وإنما هو حيوان مستخبث اللحم .

وتحريم الأكل ، يجمع الكل فاعتبره ورتب عليه الحكم .

وذهب أصحاب الرأي إلى وجوب الجزاء في كل ما لا يؤكل لحمه إلا الأعيان المذكورة في الحديث وقاسوا عليها الذئب فلم يوجبوا فيه كفارة .

قوله تعالى : ﴿ ومن قتله منكم متعمداً ﴾ قال مجاهد والحسن وابن زيد : هو الذي يتعمد قتل الصيد مع نسيان الإحرام فعليه الجزاء .

أما إذا تعمد قتل الصيد ذكراً لإحرامه ، فلا جزاء عليه لأنه أعظم من أن يكون له كفارة .

(43/214)

وقال ابن عباس والجمهور : يحكم عليه بالجزاء وإن تعمد القتل مع ذكر الإحرام وهذا مذهب عامة الفقهاء ، أما إذا قتل الصيد خطأً بأن قصد غيره بالرمي فأصابه ، فهو كالعمد في وجوب الجزاء وهذا مذهب جمهور المفسرين والفقهاء قال الزهري : نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في الخطأ يعني ألحقت المخطئ بالمتعمد في وجوب الجزاء وقال سعيد بن جبير : لا أرى في الخطأ شيئاً وهذا قول شاذ لا يؤخذ به ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ يعني فعليه جزاء من النعم مثل ما قتل والمثل والشبه واحد واختلفوا في هذه المماثلة أهي بالخلقة أم بالقيمة والذي عليه جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أن المماثلة في الخلقة معتبرة لأن ظاهر الآية يدل على ذلك وما لا مثل له فالقيمة ، وقال أبو حنيفة : المثل الواجب في قتل الصيد هو القيمة لأن الصيد المقتول إذا لم يكن له مثل فإنه يضمن بالقيمة وهذا لا نزاع فيه فكان المراد بالمثل هو القيمة في هذه الصورة فوجب أن يكون في سائر الصور كذلك لأن اللفظ الواحد لا يجوز حمله إلا على معنى واحد وأجيب عنه بأن حقيقة المماثلة أمر معلوم فيجيب رعايتها بأقصى الإمكان وإن لم تكن رعايتها إلا بالقيمة وجب الاكتفاء بها للضرورة وحجة الشافعي ومن وافقه في اعتبار المماثلة بالخلقة أن الصحابة حكموا في بلدان شتى وأزمان مختلفة بالمثل من النعم فحكموا في النعامة ببدنة وهي لا تساوي بدنة وحكموا في حمار الوحش ببقرة وهو لا يساوي بقرة وكذا في الضبع بكبش فدل ذلك على أنهم إنما نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة فحكموا به ولم

يعتبروا القيمة فيجب في الظبي شاة وفي الأرنب سخل وفي الضب سخلة وفي اليربوع جفرة ويجب في الحمامة وكل ما عبَّ وهدر كالفواخت والقمري وذوات الأطواق شاة وما سواه من الطير ففيه القيمة في المكان الذي أصيب فيه .

وروي عن عثمان وابن عباس أنهما حكما في حمام الحرم .

(44/214)

وروي عن عمر أنه قضى في الضبع بكبش وفي الغزال بعنز وفي الأرنب بعناق وفي اليربوع بجفرة .

وقوله تعالى : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ يعني يحكم بالجزاء في قتل الصيد رجلان صالحان عدلان من أهل ملتكم ودينكم وينبغي أن يكونا فقيهين فينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به .

قال ميمون بن مهران : جاء أعرابي إلى أبي بكر الصديق ، فقال : إني أصبت من الصيد كذا وكذا فسأل أبو بكر بن كعب ، فقال الأعرابي : إني أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك ، فقال أبو بكر : وما أنكرت من ذلك ؟ قال الله تعالى : يحكم به ذوا عدل منكم فشاورت صاحبي فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به وقوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ يعني أن

الكفارة هدي يساق إلى الكعبة وسميت الكعبة كعبة لارتفاعها والعرب تسمي كل بيت مرتفع كعبة .

وإنما أريد الكعبة ، كل الحرم لأن الذبح لا يقع في الكعبة وعندها ملاقياً لها إنما يقع في الحرم وهو المراد بالبلوغ فيذبح الهدي بمكة ويتصدق به على مساكين الحرم هذا مذهب الشافعي وقال أبو حنيفة له أن يتصدق به حيث شاء إذا وصل الهدي إلى الكعبة ﴿ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ ذهب الشافعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن كلمة – أو – في هذه الآية للتخيير وقال أحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة إنها للترتيب وهما روايتان .

عن ابن عباس قال الشافعي إذا قتل صيداً له مثل فهو مخير بين ثلاثة أشياء : إن شاء ذبح المثل من النعم وتصدق به على مساكين الحرم وإن شاء قوم المثل دراهم والدراهم طعاماً ثم يتصدق به على مساكين الحرم وإن شاء صام عن كل مد من الطعام يوماً .

وقال أبو حنيفة : يصوم عن كل نصف صاع يوماً .

(45/214)

وعن أحمد روايتان كالقولين وأصل هذه المسألة أنّ الصوم مقدر بطعام اليوم فعند الشافعي مقدر بالمد وعند أبي حنيفة مقدر بنصف صاع وله أن يصوم حيث شاء لأنه لا نفع فيه للمساكين وذهب جمهور الفقهاء إلى أن الخيار في تعيين أحد هذه الثلاثة الأشياء إلى قاتل الصيد الذي وجب عليه الكفارة لأن الله أوجب عليه أحد هذه الثلاثة على التخيير فوجب أن يكون هو المخير بين أيها شاء وقال محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفة التخيير إلى الحكمين لأن الله تعالى قال : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ ومن قال : إن كلمة أو للترتيب ، قال : إن لم يجد الهدي اشترى طعاماً وتصدق به فإن كان معسراً صام وقال مالك : إن لم يخرج المثل من النعم يقوّم الصيد ثم يجعل القيمة طعاماً فيتصدق به أو يصوم . وقال أبو حنيفة : لا يجب المثل من النعم ، بل يقوم الصيد فإن شاء صرف تلك القيمة إلى شيء من النعم وإن شاء إلى الطعام فيتصدق به وإن شاء صام عن كل نصف صاع من بر أو صاع من غيره يوماً واختلفوا في موضع التقويم فقال جمهور الفقهاء يقوم في المكان الذي قتل فيه الصيد .

وقال الشعبي : يقوم بمكة بثمن مكة لأنه يصرف بها .

وقوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ يعني جزاء ذنبه .

والوبال في اللغة ، الشيء الثقيل الذي يخاف ضرره .

يقال : مرعى وبيل إذا كان فيه وخامة وإنما سمى ذلك الله وبالاً لأن إخراج الجزاء ثقيل على النفس لأن فيه تنقيصاً للمال وهو ثقيل على النفس وكذا الصوم أيضاً ثقيل على النفس لأن فيه إنهاك البدن ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ يعني قبل التحريم ﴿ ومن عاد ﴾ يعني إلى قتل الصيد مرة ثانية ﴿ فينتقم الله منه ﴾ يعني في الآخرة والانتقام المبالغة في العقوبة وهذا الوعيد لا يمنع إيجاب الجزاء في المرة الثانية والثالثة فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد تكرر عليه الجزاء وهذا قول جمهور العلماء وقد روي عن ابن عباس والنخعي وداود الظاهري أنه إذا قتل الصيد مرة ثانية فلا جزاء عليه لأنه وعد بالانتقام منه .

قال ابن عباس : إذا قتل المحرم صيداً متعمداً سئل هل قتل شيئاً من الصيد ، فإن قال نعم ، لم يحكم عليه .

ويقال له : اذهب فينتقم الله منك وإن قال لم أقتل قبله شيئاً ، حكم عليه ، فإن عاد بعد ذلك لم يحكم عليه ، ولكن يملأ ظهره وصدره ضرباً وكذلك حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في صيد وج وهو واد بالطائف : ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ يعني ممن عصاه .

وإذا أتلف المحرم شيئاً من الصيد الذي لا مثل له من النعم مثل البيض وطائر صغير دون الحمام ففيه القيمة فيقوّم ثم يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به على محاويج الحرم أو يصوم عن كل مد يوماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن جزى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَا تَقْتُلُوا الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ معنى حرم داخلين في الإحرام وفي الحرم ، والصيد هنا عامّ خَصَّص منه الحديث : الغراب ، والحدأة ، والفأرة ، والعقرب ، والكلب العقور . وأدخل مالك في الكلب العقور كل ما يؤذي الناس من السباع وغيرها ، وقاس الشافعي على هذه الخمسة : كل مّا لا يؤكل لحمه ، ولفظ الصيد يدخل فيه ما صيد وما لم يصد مما شأنه أن يصاد وورد النهي هنا عن القتل قبل أن يصاد وبعد أن يصاد ، وأما النهي عن الاصطياد فيؤخذ من قوله : " وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً " ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ مفهوم الآية يقتضي أن جزاء الصيد على المتعمد لا على الناسي ، وبذلك قال أهل الظاهر ، وقال جمهور الفقهاء : المتعمد والناسي سواء في وجوب الجزاء ، ثم اختلفوا في قوله متعمداً على ثلاثة أقوال : أحدها أن المتعمد إنما ذكر ليناط به الوعيد في قوله : ومن عاد فينتقم الله منه ، إذ لا وعيد على الناسي ، والثاني : أن الجزاء على الناس ثبت بالسنة ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ المعنى فعليه جزاء ، وقرئ بإضافة جزاءُ إلى

مثل ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول به ، وقيل : مثل زائدة ، كقولك : أنا أكرمُ مثلّك أي : أكرمك ، وقرئ فجزاءٌ بالتنوين ، ومثلُ بالرفع على البدل أو الصفة ، والنعم الإبل والبقر والغنم خاصة ، ومعنى الآية عند مالك والشافعي : أنّ من قتل صيداً وهو محرم أنّ عليه في الفدية ما يشبه ذلك الصيد في الخلقة والمنظر ، ففي النعامة بدنة ، وفي حمار الوحش بقرة ، وفي الغزالة شاة ، فالمثلية على هذا هي في الصورة والمقدار ، فإن لم يكن له مثل أطعَم أو صامَ ، ومذهب أبي حنيفة أنّ المثل القيمة يقومّ الصيد المقتول ، ويخير القاتل بين أن يصدّق بالقيمة أو يشتري بالقيمة من النعم ما يهديه ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ هذه الآية تقتضي أن التحكيم شرط في إخراج الجزاء ، ولا خلاف في ذلك ،

(48/214)

فإن أخرج أحد الجزاء قبل الحكم عليه ، فعليه إعادته بالحكم إلا حمام مكة ، فإنه لا يحتاج إلى حكمين ، قاله مالك ، ويجب عند مالك التحكيم فيما حكمت فيه الصحابة ، وفيما لم يحكموا فيه ، لعموم الآية ، وقال الشافعي : يكتفي في ذلك بما حكمت به الصحابة ﴿ هَدْياً ﴾ يقتضي ظاهره أن ما يخرج من النعم جزاء عن الصيد يجب أن يكون مما يجوز أن يهدي ، وهو الجذع من الضأن والثني مما سواه ، وقال الشافعي : يخرج المثل في اللحم ولا

يشترط السن ﴿ بالغ الكعبة ﴾ لم يرد الكعبة بعينها ، وإنما أراد الحرم ، ويقتضي أن يصنع بالجزاء ما يصنع بالهدي من سَوْقه من الحلّ إلى الحرام ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : إن اشتراه في الحرم أجزأه ﴿ أَوْ كفارة طَعَامُ مساكين أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ عدّد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصيد ، فذكر أولاً الجزاء من النعم ، ثم الطعام ثم الصيام ، ومذهب مالك والجمهور أنها : على التخيير ، وهو الذي يقتضيه العطف بأو ، ومذهب ابن عباس أنها : على الترتيب ، ولم يبين الله هنا مقدار الطعام ، فرأى العلماء أن يقدّر الجزاء من النعم .

(49/214)

لأنهم اختلفوا في كيفية التقدير ، فقال مالك : يقدر الصيد المقتول نفسه بالطعام الحب أو الدراهم ، ثم تقوّم الدراهم بالطعام ، فينظر كم يساوي من طعام أو من دراهم وهو حيّ ، وقال بعض أصحاب مالك : يقدّر الصيد بالطعام أي يقال : كم كان يشبع الصيد من نفس ، ثم يخرج قدر شبعهم طعاماً ، وقال الشافعي : لا يقدر الصيد نفسه ، وإنما يقدّر مثله ، وهو الجزاء الواجب على القاتل له ﴿ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ تحتمل الإشارة بذلك أن تكون إلى الطعام وهو أحسن لأنه أقرب أو إلى الصيد ، واختلف في تعديل الصيام بالطعام فقال

مالك : يكون مكان كل مدّ يوماً ، وقال أبو حنيفة : مكان كل مدّين يوم ، وقيل : مكان كل صاع يوماً ، ولا يجب الجزاء ولا الإطعام ولا الصيام إلا بقتل الصيد ، لا بأخذه دون قتل لقوله : من قتله ، وفي كل وجه يشترط حكم الحكمين ، وإنما لم يذكر الله في الصيام والطعام استغناء بذكره في الجزاء ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ الذوق هنا مستعار لأن حقيقته بحاسة اللسان ، والوبال سوء العاقبة ، وهو هنا ما لزمه من التفكير ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ أي عما فعلتم في الجاهلية من قتل الصيد في الحرم ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ أي من عاد إلى قتل الصيد وهو محرم بعد النهي عن ذلك ؛ فينتقم الله منه بوجوب الكفارة عليه أو بعذابه في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 1 صـ 187 . 189 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾

﴿ الذين آمنوا ﴾

عام وصرح هنا بالنهي عن قتل الصيد في حال كونهم حرماً والحرم جمع حرام والحرام المحرم والكائن بالحرم ، ومن ذهب إلى أن اللفظ يراد به معناه استدل بقوله ﴿ وأنتم حرم ﴾ على منع المحرم والكائن بالحرم من قتل الصيد ومن لم يذهب إلى ذلك ، قال المعنى يحرمون بحج أو عمرة وهو قول الأكثر .

وقيل المعنى وأنتم في الحرم والظاهر النهي عن قتل الصيد وتكون الآية قبل هذه دلت بمعناها على النهي عن الاصطياد فيستفاد من مجموع الآيتين النهي عن الاصطياد والنهي عن قتل الصيد والظاهر عموم الصيد وقد خص هذا العموم بصيد البر لقوله : ﴿ أحل لكم صيد البحر ﴾ .

وقيل وبالسنة بالحديث الثابت " خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الغراب والحدأة والفأرة والكلب العقور " فاقتصر على هذه الخمسة الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وقاس مالك على الكلب العقور كل ما كلب على الناس وغيرهم ورآه داخلاً في لفظه من أسد ونمر وفهد وذئب وكل سبع عاد فقال له أن يقتلها مبتدئاً بها لا هزبر وثعلب وضبع فإن قتلها فدى .

وقال مجاهد والنخعي لا يقتل من السباع إلا ما عدا عليه وروي نحوه عن ابن عمر .

وقال أصحاب الرأي أن بدأه بالسبع قتله ولا فدية وإن ابتدأه المحرم فقتله فدى .

وقال مالك في فراخ السباع قبل أن تفترس لا ينبغي للمحرم قتلها ، وثبت عن عمر أمره المحرمين بقتل الحيات وأجمع الناس على إباحة قتلها وثبت عن عمر إباحة قتل الزنبور لأنه

في حكم العقرب وذوات السموم في حكم الحية كالأفعى والرتيلا ومذهب أبي حنيفة وجماعة أن الصيد هو ما توحش مأكولاً كان أو غير مأكول .

فعلى هذا لو قتل المحرم سبعاً لا يؤكل لحمه ضمن ولا يجاوز قيمة شاة ، وقال زفر بالغاً ما بلغ ، وقال قوم الصيد هو ما يؤكل لحمه فعلى هذا لا يجب الضمان في قتل السبع وهو قول الشافعي ولا في قتل الفواسق الخمس ولا الذئب وإذا كان الصيد مما حل أكله فقتله المحرم ولو بالذبح فمذهب أبي حنيفة ومالك أنه غير مذكى فلا يؤكل لحمه وبه قال ابن المسيب وأحد قولي الحسن ومذهب الشافعي إن ذبح المحرم الصيد ذكاه ، وقال الحكم وعمرو بن دينار وسفيان يحل للحلال أكله وهو أحد قولي الحسن .

(51/214)

﴿ ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ الظاهر تقييد القتل بالعمد فمن لم يتعمد فقتل خطأ بأن كان ناسياً لإحرامه أو رماه ظاناً أنه ليس بصيد فإذا هو صيد أو عدل سهمه الذي رماه لغير صيد فأصاب صيداً فلا جزاء عليه ، وروي ذلك عن ابن عباس وابن جبير وطاوس وعطاء وسالم وبه قال أبو ثور وداود والطبري وهو أحد قولي الحسن البصري ومجاهد وأحمد بن حنبل ، وقال ابن عباس فيما أسنده عنه الدارقطني إنما

التكفير في العمد وإنما غلظوا في الخطأ لئلا يعودوا ، وقيل خرج مخرج الغالب فالحق به النادر ، وقيل ذكر التعمد لأن مورد الآية في من تعمد لقصة أبي اليسر إذ قتل الحمار متعمداً وهو محرم ومذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأصحابهم أن الخطأ بنسيان أو غيره كالعمد والعمد أن يكون ذاكراً لإحرامه قاصداً للقتل وروي ذلك عن عمرو بن عباس وطاوس والحسن وإبراهيم والزهري ، قال الزهري جزاء العمد بالقرآن والخطأ والنسيان بالسنة ، قال القاضي أبو بكر بن العربي إن كان يريد بالسنة الآثار التي وردت عن عمرو بن عباس فنعماً هي وأحسن بها أسوة ، وقال مجاهد معناه متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه فإن كان ذاكراً لإحرامه فهذا أجل وأعظم من أن يكفر وقد حل ولا حج له لارتكابه محظور إحرامه فبطل عليه كما لو تكلم في الصلاة أو أحدث فيها ، قال ومن أخطأ فذلك الذي عليه الجزاء ، وقال نحوه ابن جريج ، وروي عن مجاهد أنه لا جزاء عليه في قتله متعمداً ويستغفر الله وحجه تام ، وقرأ الكوفيون ﴿ فجزاء ﴾ بالتنوين ﴿ مثل ﴾ بالرفع فارتفاع جزاء على أنه خبر لمبتدأ محذوف الخبر تقديره فعليه جزاء ومثل صفة أي فجزاء يماثل ما قتل .

وقرأ عبد الله ﴿ فجزاؤه مثل ﴾ على الابتداء والخبر .

(52/214)

وقرأ باقي السبعة ﴿ فجزاء مثل ﴾ برفع جزاء وإضافته إلى مثل ، فقيل مثل كأنها مقحمة كما تقول مثلك من يفعل كذا أي أنت تفعل كذا فالتقدير فجزاء ما قتل ، وقيل ذلك من إضافة المصدر إلى المفعول ويدل على هذا التقدير قراءة السلمي ﴿ فجزاء ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ مثل ما قتل ﴾ بالنصب .

وقرأ محمد بن مقاتل ﴿ فجزاء مثل ما قتل ﴾ بنصب جزاء ومثل والتقدير فليخرج جزاء مثل ما قتل ومثل صفة لجزاء .

وقرأ الحسن ﴿ من النعم ﴾ سكن العين تخفيفاً كما قالوا الشعر ، وقال ابن عطية هي لغة و﴿ من النعم ﴾ صفة لجزاء سواء رفع ﴿ جزاء ﴾ و﴿ مثل ﴾ أو أضيف ﴿ جزاء ﴾ إلى ﴿ مثل ﴾ أي كائن من النعم ويجوز في وجه الإضافة أن يتعلق من النعم بجزاء إلا في وجه الأول لأن جزاء مصدر موصوف فلا يعمل .

ووهم أبو البقاء في تجويزه أن يكون من النعم حالاً حل الضمير في قتل يعني من الضمير المنصوب المحذوف في قتل العائد ، على ما قال لأن المقتول يكون من النعم وليس المعنى على ذلك ، لأن الذي هو من النعم هو ما يكون جزاء لا الذي يقتله المحرم ، ولأن النعم لا تدخل في اسم الصيد والظاهر في المثلية أنها مثلية في الصورة والخلقة والصغر والعظم وهو قول الجمهور .

وروي ذلك عن عمرو بن عوف وابن عباس والضحاك والسدّي وابن جبير وقتادة وبه قال

مالك والشافعي ومحمد بن الحسن ، وتفاصيل ما يقابل كل مقتول من الصيد قد طول بها جماعة من المفسرين ولم يتعرض لفظ القرآن لها وهي مذكورة في كتب الفقه

وذهب جماعة من التابعين إلى أن المماثلة هي في القيمة يقوم الصيد المقتول ثم يشتري بقيمته طعاماً من الأنعام ثم يهدى وهو قول النخعي وعطاء وأحد قولي مجاهد .

(53/214)

وبه قال أبو حنيفة وأبو يوسف يشتري بالقيمة هدياً إن شاء وإن شاء اشترى طعاماً فأعطى كل مسكين نصف صاع وإن شاء صام عن كل نصف صاع يوماً ، وقال قوم المثلية فيما وجد له مثل صورة وما لم يوجد له مثل فالمثلية في القيمة وقد تعصب أبو بكر الرازي والزمخشري لمذهب أبي حنيفة .

ولفظ الآية ينبو عن مذهبه إذ ظاهر الآية يقتضي التخيير بين أن يجزىء هدياً من النعم مثل ما قتل وأن يكفر بطعام مساكين وأن يصوم عدل الصيام .

والظاهر أن الجزاء لا يكون إلا في القتل لا في أخذ الصيد ولا في جنسه ولا في أكله وفاقاً للشافعي وخلافاً لأبي حنيفة إذ قال عليه جزاء ما أكل يعني قيمته وخالفه صاحباه فقالا لا شيء عليه سوى الاستغفار لأنه تناول منه ، ولا في الدلالة عليه خلافاً لأبي حنيفة

وأشهب إذ قالا يضمن الدار الجزاء ، وروي ذلك عن ابن عمر وابن عوف ، وقال الشافعي ومالك وأبو ثور لا يضمن الدال والجزاء على القاتل ولا في جرحه ونقص قيمته بذلك ، وقال المزني عليه شيء ، وقال بعض أهل العلم إذا نقص من قيمته مثلاً العشر فعليه عشر قيمته ، وقال داود لا شيء عليه ، والظاهر أنه لو اجتمع محرمون في صيد لم يجب عليهم إلا جزاء واحد لأنه لا ينسب القتل إلى كل واحد منهم .

(54/214)

فأما المقتول فهو واحد يجب أن يكون المثل واحد ، وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق وقال أبو حنيفة ومالك والثوري يجب على كل واحد منهم جزاء واحد ، والظاهر أنه إذا حمل قوله ﴿ وأنتم حرم ﴾ على عنيه وهما محرمون بحج أو عمرة ومحرمون بمعنى داخلين الحرم وإن كانوا محلين ، أنه إذا قتل المحلون صيداً في الحرم أنه يلزمهم جزاء واحد ، وبه قال أبو حنيفة ، وقال مالك على كل واحد جزاء كامل وظاهر قوله ﴿ من النعم ﴾ أنه لا يشترط سن فيجزىء الجفر والعناق على قدر الصيد وبه قال أبو يوسف ومحمد ، وقال أبو حنيفة لا يجوز أن يهدي إلا ما يجزىء في الأضحية وهدي القرآن والظاهر من تقييد المنهيين عن القتل بقوله ﴿ وأنتم حرم ﴾ أنه لو صاد الحلال بالحل ثم ذبحه في الحرم فلا ضمان وهو

حلال وبه قال الشافعي ، وقال أبو حنيفة عليه الجزاء .

﴿ يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ﴾ أي يحكم بمثل ما قتل .

قال ابن وهب من السنة أن يخير الحكمان من قتل الصيد كما خيره الله في أن يخرج هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ، فإن اختار الهدي حكما عليه بما يريانه نظراً لما أصاب وأدنى الهدي شاة ، وما لم يبلغ شاة حكما فيه بالطعام ثم خيرين أن يطعمه أو يصوم مكان كل مدّ يوماً وكذلك قال مالك ، والظاهر أنه يحكم به عدلان وكذلك فعل عمر في حديث قبيصة بن جابر استدعى عبد الرحمن بن عوف وحكما في ظبي بشاة وفعل ذلك جرير وابن عمر والظاهر أن العدلين ذكران فلا يحكم فيه امرأتان عدلتان ، وقرأ جعفر بن محمد ﴿ يحكم به ذوا عدل ﴾ على التوحيد أي يحكم به من يعدل منكم ولا يريد به الوحدة ، وقيل أراد به الإمام .

(55/214)

والظاهر أن الحكمين يحكمان في جزاء الصيد باجتهادهما وذلك موكول إليهما وبه قال أبو حنيفة ومالك وجماعة من أهل العلم ، وقال الشافعي الذي له مثل من النعم وحكمت فيه الصحابة بحكم لا يعدل عنه إلى غيره وما لم تحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى اجتهادهما

فينظران إلى الأجناس الثلاثة من الأنعام فكل ما كان أقرب شبهاً به يوجبانه ، والظاهر أن الحكمين لا يكون أحدهما قاتل الصيد وهو قول مالك ، وقال الشافعي : إن كان القتل خطأ جاز أن يكون أحدهما أو عمداً فلا لأنه يفسق به واستدل بقوله تعالى : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ على إثبات القياس لأنه تعالى فرض تعيين المثل إلى اجتهاد الناس وظنونهم . وجوّزوا في انتصاب قوله ﴿ هدياً ﴾ أن يكون حالاً من ﴿ جزاء ﴾ فيمن وصفه بمثل لأن الصفة خصصته فقرب من المعرفة وأن يكون بدلاً من مثل في قراءة من نصب مثلاً أو من محله في قراءة من خفضه وأن ينتصب على المصدر والظاهر أنه حال من قوله به ومعنى ﴿ بالغ الكعبة ﴾ أن ينحر بالحرم ويتصدّق به حيث شاء عند أبي حنيفة ، وقال الشافعي بالحرم ، وقرأ الأعرج ﴿ هدياً ﴾ بكسر الدال وتشديد الياء والجملة من قوله يحكم في موضع الصفة لقوله فجزاء أي حاكم به ذوا عدل وفي قوله ﴿ منكم ﴾ دليل على أنهما من المسلمين وذكر الكعبة لأنها أم الحرام قالوا والحرم كله منحر لهذا الهدي فما وقف به يعرفه من هدي الجزاء ينحر بمنى وما لم يوقف به فينحر بمكة وفي سائر بقاع الحرم بشرط أن يدخل من الحل ولا بد أن يجمع فيه بين حل وحرم حتى يكون بالغاً الكعبة .

(56/214)

﴿ أو كفارة طعام مساكين ﴾ قرأ الصاحبان بالإضافة والإضافة تكون بأدنى ملابسة إذ الكفارة تكون كفارة هدي وكفارة طعام وكفارة صيام ولا التفات إلى قول الفارسي ولم يصف الكفارة إلى الطعام لأنها ليست للطعام إنما هي لقتل الصيد ، وأما ما ذهب إليه الزمخشري من زعمه أن الإضافة مبينة كأنه قيل أو كفارة من طعام مساكين ، كقولك خاتم فضة ، بمعنى خاتم من فضة فليست من هذا الباب لأن خاتم فضة من باب إضافة الشيء إلى جنسه والطعام ليس جنساً للكفارة إلا بتجوز بعيد جدّاً ، وقرأ باقي السبعة بالتنوين ورفع ﴿ طعام ﴾ وقرأ كذلك الأعرج وعيسى بن عمر إلا أنهما أفردا مسكين على أنه اسم جنس ، قال أبو علي ﴿ طعام ﴾ عطف بيان لأن الطعام هو الكفارة .

انتهى ؛ وهذا على مذهب البصريين لأنهم شرطوا في البيان أن يكون في المعارف لا في النكرات فالأولى أن يعرب بدلاً وقد أجمل في مقدار الطعام وفي عدد المساكين والظاهر أنه يكفي أقل ما ينطلق عليه جمع مساكين ، وقال إبراهيم وعطاء ومجاهد والقاسم يقوّم الصيد دراهم ثم يشتري بالدراهم طعاماً فيطعم كل مسكين نصف صاع ، وروي هذا عن ابن عباس وبتقويم الصيد قال أبو حنيفة ، وقال مجاهد وعطاء وابن عباس والشافعي وأحمد يقوّم الهدي ثم يشتري بقيمة الهدى طعاماً ، وقال مالك أحسن ما سمعت ، إنه يقوّم الصيد فينظر كم ثمنه من الطعام فيطعم لكل مسكين مدّاً ويصوم مكان كل مدّ يوماً .

﴿ أَو عدل ذلك صياماً ﴾ الأظهر أن يكون ذلك إشارة إلى أقرب مذكور وهو الطعام

والطعام المذكور غير معين في الآية لا كيلاً ولا وزناً فيلزم من ذلك أن يكون الصيام أيضاً غير معين عدداً والصيام مبني على الخلاف في الطعام أهو مدّ أو مدّان .

(57/214)

وبالمدّ قال ابن عباس ومالك وبالمدّين قال الشافعي وعن أحمد القولان ، وجوّزوا أن يكون ذلك إشارة إلى الصيد المقتول وفي الظبي ثلاثة أيام وفي الإبل عشرون يوماً وفي النعامة وحمار الوحش ثلاثون يوماً قاله ابن عباس ، وقال ابن جبير ثلاثة أيام إلى عشرة أيام والظاهر عدم تقييد الإطعام والصوم بمكان وبه قال جماعة من العلماء فحيث ما شاء كفر بهما ، وقال عطاء وغيره الهدي والإطعام بمكة والصوم حيث شاء ، وقرأ الجمهور ﴿ أو عدل ﴾ بفتح العين ، وقرأ ابن عباس وطلحة بن مصرف والجحدري بكسرها وتقدم تفسيرها في أوائل البقرة .

والظاهر أن أو للتخيير أي ذلك فعل أجزأه موسراً كان أو معسراً وهو قول الجمهور ، وقال ابن عباس وإبراهيم وحماد بن سلمة لا ينتقل إلى الإطعام إلا إذا لم يجد هدياً ولا إلى الصوم إلا إن لم يجد ما يطعم والظاهر أن التخيير راجع إلى قاتل الصيد وهو قول الجمهور ، وقال محمد بن الحسن الخيار إلى الحكمين والظاهر أن الواجب أحد هذه الثلاثة فلا يجمع بين الإطعام

والصيام بأن يطعم عن يوم ويصوم في كفارة واحدة وأجاز ذلك أصحاب أبي حنيفة وانتصب ﴿ صياماً ﴾ على التمييز على العدل كقولك على التمرة مثلها زبداً لأن المعنى أو قدر ذلك صياماً .

﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ الذوق معروف واستعير هنا لما يؤثر من غرامة وإتعاب النفس بالصوم والوبال سوء عاقبة ما فعل وهو هتك حرمة الإحرام بقتل الصيد ، قال الزمخشري ليذوق متعلق بقوله ﴿ فجزاء ﴾ أي فعليه أن يجازى أو يكفر ليذوق انتهى .

(58/214)

وهذا لا يجوز إلا على قراءة من أضاف ﴿ فجزاء ﴾ أو نون ونصب ﴿ مثل ﴾ وأما على قراءة من نوّن ورفع ﴿ مثل ﴾ فلا يجوز أن تتعلق اللام به لأن ﴿ مثل ﴾ صفة لجزاء وإذا وصف المصدر لم يجز لمعموله أن يتأخر عن الصفة لو قلت أعجبني ضرب زيد الشديد عمراً لم يجز فإن تقدم المعمول على الوصف جاز ذلك والصواب أن تتعلق هذه القراءة بفعل محذوف التقدير جوزي بذلك ليذوق ووقع لبعض المعربين أنها تتعلق بعدل ذلك وهو غلط .

﴿ عفا الله عما سلف ﴾ أي في جاهليتكم من قتلكم الصيد في الحرم .

قال الزمخشريّ لأنهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم ، وكان الصيد فيها محرماً انتهى ، وقال ابن زيد : عما سلف لكم أيها المؤمنون من قتل الصيد قبل هذا النهي والتحريم .

﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ أي ومن عاد في الإسلام إلى قتل الصيد فإن كان مستحِلاً فينتقم الله منه في الآخرة ويكفر أو ناسياً لإحرامه كفر بإحدى الخصال الثلاث أو عاصياً بأن يعود متعمّداً عالماً بإحرامه فلا كفّارة عليه وينتقم الله منه بإلزام الكفّارة فقط وكلما عاد فهو يكفر .

وقال ابن عباس : إن كان متعمداً عالماً بإحرامه فلا كفارة عليه وينتقم الله منه .

وبه قال شريح والنخعي والحسن ومجاهد وابن زيد وداود وظاهر و﴿ من عاد ﴾ لعموم ألا ترى أنّ ﴿ من ﴾ شرطيّة أو موصولة تضمنت معنى الشرط فتعمّ خلافاً لقوم إذ زعموا أنها مخصوصة بشخص بعينه وأسندوا إلى زيد بن العلاء أنّ رجلاً أصاب صيداً وهو مُحرِم فتجوز له ثم عاد فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته وذلك قوله تعالى : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ وعلى تقدير صحة هذا الحديث لا تكون هذه القضية تخص عموم الآية إذ هذا الرجل فرد من أفراد العموم ظهر انتقام الله منه والفاء في ﴿ فينتقم ﴾ جواب الشرط أو الداخلة على الموصول المضمّن معنى الشرط وهو على إضمار مبتدأ أي فهو ينتقم الله منه .

﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ أي عزيز لا يغالب إذا أراد أن ينتقم لم يغالبْه أحد ، وفي هذه الجملة تذكار بنقم الله وتخويف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(59/214)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ . . . الآية (95) ﴾

فيه ثلاثون مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ ﴾ هذا خطاب عام لكل مسلم ذكر وأنثى ، وهذا النهي هو الابتلاء المذكور في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ الله بِشَيْءٍ مِّنَ الصيد ﴾ الآية .

وروى أن أبا اليَسر واسمه عمرو بن مالك الأنصاري كان مُحْرِما عام الحديبية بعُمْرة فقتل حمار وحش فنزلت فيه ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ .

الثانية قوله تعالى : ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ الصيد ﴾ القتل هو كل فعل يفيت الروح ، وهو أنواع : منها النحر والذبح والخنق والرضخ وشبهه ؛ فحرم الله تعالى على المحرم في الصيد كل فعل يكون

مفيتاً للروح.

الثالثة من قتل صيداً أو ذبحه فأكل منه فعليه جزاء واحد لقتله دون أكله؛ وبه قال الشافعي.

وقال أبو حنيفة: عليه جزاء ما أكل؛ يعني قيمته، وخالفه صاحباه فقالا: لا شيء عليه سوى الاستغفار؛ لأنه تناول الميتة كما لو تناول ميتةً أخرى؛ ولهذا لو أكلها محرِم آخر لا يلزمه إلا الاستغفار.

(60/214)

وحجة أبي حنيفة أنه تناول محظور إحرامه؛ لأن قتله كان من محظورات الإحرام، ومعلوم أن المقصود من القتل هو التناول، فإذا كان ما يتوصل به إلى المقصود محظور إحرامه موجباً عليه الجزاء فما هو المقصود كان أولى.

الرابعة لا يجوز عندنا ذبح المحرم للصيد، لنهي الله سبحانه المحرم عن قتله؛ وبه قال أبو حنيفة.

وقال الشافعي: ذبح المحرم للصيد ذكاة؛ وتعلق بأنه ذبح صدر من أهله وهو المسلم، مضاف إلى محله وهو الأنعام؛ فأفاد مقصوده من حِل الأكل؛ أصله ذبح الحلال.

قلنا : قولكم ذبح صدر من أهله فالمحرم ليس بأهل لذبح الصيد ؛ إذ الأهلية لا تستفاد عقلاً ، وإنما يفيدها الشرع ؛ وذلك بإذنه في الذبح ، أو بنفيها وذلك بنهيه عن الذبح ، والمحرم منهي عن ذبح الصيد ؛ لقوله : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصيد ﴾ فقد انتفت الأهلية بالنهي .

وقولكم أفاد مقصوده فقد اتفقنا على أن المحرم إذا ذبح الصيد لا يحِل له أكله ، وإنما يأكل منه غيره عندكم ؛ فإذا كان الذبح لا يفيد الحِلّ للذابح فأولى وأَحْرى ألا يفيده لغيره ، لأن الفرع تبع للأصل في أحكامه ؛ فلا يصح أن يثبت له ما لا يثبت لأصله .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ الصيد ﴾ مصدر عومل معاملة الأسماء ، فأوقع على الحيوان المَصِيد ؛ ولفظ الصيد هنا عام في كل صيد بريٍّ وبحرِي حتى جاء قوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ فأباح صيد البحر إباحة مطلقة ؛ على ما يأتي بيانه في الآية بعد هذا إن شاء الله تعالى .

السادسة اختلف العلماء في خروج السباع من صيد البر وتخصيصها منه ؛ فقال مالك : كل شيء لا يعدو من السباع مثل الهِرّ والثعلب والضّبع وما أشبهها فلا يقتله المحرم ، وإن قتله فَدَاه .

قال : وصغار الذئاب لا أرى أن يقتلها المحرِم ، فإن قتلها فَدَاها ؛ وهي مثل فراخ الغربان .

ولا بأس بقتل كل ما عدا على الناس في الأغلب ؛ مثل الأسد والذئب والنمر والفَهْد ؛ وكذلك لا بأس عليه بقتل الحيات والعقارب والفأرة والغراب والحِدأة .

قال إسماعيل : إنما ذلك لقوله عليه السلام : " خَمسٌ فَواسقُ يُقتلْن في الحِلّ والحرَم " الحديث ؛ فسماهنّ فسّاقاً ؛ ووصفهن بأفعالهن ؛ لأن الفاسق فاعل للفسق ، والصغار لا فعل لهن ، ووصف الكلب بالعقور وأولاده لا تعقِر ؛ فلا تدخل في هذا النعت .

قال القاضي إسماعيل : الكلب العَقُور مما يعظم ضرره على الناس .

قال : ومن ذلك الحية والعقرب ؛ لأنه يخاف منهما ، وكذلك الحِدَأة والغراب ؛ لأنهما يخطفان اللحم من أيدي الناس .

قال ابن بُكَير : إنما أُذن في قتل العقرب لأنها ذات حُمَة ؛ وفي الفأرة لقرضها السّقاء والحذاء اللذين بهما قوام المسافر .

وفي الغراب لوقوعه على الظهر ونَقْبه عن لحومها ؛ وقد روي عن مالك أنه قال : لا يقتل الغراب ولا الحِدَأة إلاّ أن يضرا .

قال القاضي إسماعيل : واختلف في الزُّنْبُور ؛ فشبهه بعضهم بالحية والعقرب ، قال : ولولا أن الزُّنْبُور لا يبتدىء لكان أغلظ على الناس من الحية والعقرب ، ولكنه ليس في طبعه من العَدَاء ما في الحيّة والعقرب ، وإنما يَحمي الزُّنْبُور إذا أُوذِي .

قال : فإذا عرض الزُّنْبُور لأحد فدفعه عن نفسه لم يكن عليه شيء في قتله ؛ وثبت عن عمر ابن الخطاب إباحة قتل الزُّنْبُور .

وقال مالك : يُطعِم قاتله شيئاً ؛ وكذلك قال مالك فيمن قتل البُرْغُوت والذّباب والنّمل ونحوه .

وقال أصحاب الرأي : لا شيء على قاتل هذه كلها .

وقال أبو حنيفة : لا يَقتل المحرمُ من السباع إلا الكلب العَقُور والذئب خاصة ، سواء ابتدأه أو ابتدأهما ؛ وإن قَتل غيره من السباع فداه .

(62/214)

قال : فإن ابتدأه غيرهما من السباع فقتله فلا شيء عليه ؛ قال : ولا شيء عليه في قتل الحية والعقرب والغراب والحِدَأة ، هذه جملة قول أبي حنيفة وأصحابه إلا زُفَر ؛ وبه قال الأوزاعي والثّوري والحسن ؛ واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم خص دوابّ بأعيانها وأرخص للمحرِم في قتلها من أجل ضررها ؛ فلا وجه أن يزاد عليها إلا أن يجمعوا على شيء فيدخل في معناها .

قلت : العجب من أبي حنيفة رحمه الله يحمل التراب على البُرّ بعلة الكيل ، ولا يحمل

السباع العادِية على الكلب بعلة الفِسْق والعَقْر ، كما فعل مالك والشافعي رحمهما الله ا

وقال زُفَر بن الهُذَيل : لا يقتل إلا الذئب وحده ، ومن قتل غيره وهو مُحرِم فعليه الفِدية ، سواء ابتدأه أو لم يبتدئه ؛ لأنه عجماء فكان فِعله هَدَراً ؛ وهذا ردّ للحديث ومخالفة له .

وقال الشافعي : كل ما لا يؤكل لحمه فللمحرم أن يقتله ؛ وصغار ذلك وكِباره سواء ، إلاَّ السِّمْع وهو المتولد بين الذئب والضّبع ، قال : وليس في الرَّخَمَة والخنافس والقِرْدَان والحَلَم وما لا يؤكل لحمه شيء ؛ لأن هذا ليس من الصيد ، لقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ فدل أن الصيد الذي حُرّم عليهم ما كان لهم قبل الإحرام حلالاً ؛ حكى عنه هذه الجملة المُزني والرّبيع ؛ فإن قيل : فلم تُفدَى القملة وهي تؤذي ولا تؤكل ؟ قيل له : ليس تُفدى إلا على ما يُفدَى به الشَّعر والظُّفر ولُبس ما ليس له لُبْسه ؛ لأن في طرح القملة إماطة الأذى عن نفسه إذا كانت في رأسه ولحيته .

فكأنه أماط بعض شعره ؛ فأما إذا ظهرت فقتلت فإنها لا تؤذي .

وقول أبي ثور في هذا الباب كقول الشافعي ؛ قاله أبو عمر .

السابعة روى الأئمة عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خَمسٌ من الدواب ليس على المحرِم في قتلهنّ جناح الغراب والحِدَأة والعقرب والفأرة والكلب العَقُور " اللفظ للبخاري ؛ وبه قال أحمد وإسحاق .

وفي كتاب مسلم عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خمسٌ فَواسِقُ يُقتلْن في الحِلّ والحرَم الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العَقُور والحديا " وبه قالت طائفة من أهل العلم قالوا : لا يقتل من الغربان إلا الأبقع خاصة ؛ لأنه تقييد مطلق .

وفي كتاب أبي داود عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ويرمي الغراب ولا يقتله " وبه قال مجاهد .

وجمهور العلماء على القول بحديث ابن عمر ، والله أعلم .

وعند أبي داود والترمذي : والسّبع العادي ؛ وهذا تنبيه على العلة .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ عامّ في النوعين من الرجال والنساء ، الأحرار والعبيد يقال : رجل حرام وامرأة حرام ، وجمع ذلك حُرُم كقولهم : قَذَال وقُذُل .

وأَحرم الرجلُ دخل في الحرم ؛ كما يقال : أَسْهَلَ دخل في السهل .

وهذا اللفظ يتناول الزمان والمكان وحالة الإحرام بالإشتراك لا بالعموم .

يقال : رجل حرام إذا دخل في الأشهر الحُرم أو في الحَرَم ، أو تلبّس بالإحرام ؛ إلا أن تحريم الزمان خرج بالإجماع عن أن يكون معتبراً ، وبقي تحريم المكان وحالة الإحرام على أصل التكليف ؛ قاله ابن العربي .

التاسعة حَرَم المكان حَرَمان ، حَرَمُ المدينة وحَرَمُ مكة وزاد الشافعي الطائف ، فلا يجوز

عنده قطع شجرِه ، ولا صيد صيده ، ومن فعل ذلك فلا جزاء عليه فأما حَرَم المدينة فلا يجوز فيه الاصطياد لأحد ولا قطع الشجر كحرم مكة ، فإن فعل أثم ولا جزاء عليه عند مالك والشافعي وأصحابهما .

وقال ابن أبي ذئب : عليه الجزاء .

وقال سعد : جزاؤه أخذ سَلَبه ، وروى عن الشافعي .

وقال أبو حنيفة : صيد المدينة غير محرّم ، وكذلك قطع شجرها .

واحتج له بعض من ذهب مذهبه بحديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من وجدتموه يصيد في حدود المدينة أو يقطع شجرها فخذوا سَلَبه " وأخذ سعد سَلَب من فعل ذلك .

(64/214)

قال : وقد اتفق الفقهاء على أنه لا يؤخذ سَلَب من صاد في المدينة ، فدل ذلك على أنه منسوخ .

واحتج لهم الطحاوي أيضاً بحديث أنس : ما فعل النُّغَير ؛ فلم ينكر صيده وإمساكه وهذا كله لا حجة فيه ، أما الحديث الأوّل فليس بالقويّ ولو صح لم يكن في نسخ أخذ السَّلَب ما

يسقط ما صح من تحريم المدينة ، فكم من محرّم ليس عليه عقوبة في الدنيا .

وأما الحديث الثاني فيجوز أن يكون صيد في غير الحرم .

وكذلك حديث عائشة : أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحَشْ فإذا خرج لَعِب واشتد وأَقبل وأَدبر ، فإذا أَحس برسول الله صلى الله عليه وسلم ربض ، فلم يَتَرَمْرَم كراهية أن يؤذيه .

ودليلنا عليهم ما رواه مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب " أن أبا هُريرة قال : لو رأيت الظّباء تَرتع بالمدينة ما ذَعَرتُها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما بين لابتيها حرام" " فقول أبي هريرة ما ذَعَرتُها دليل على أنه لا يجوز ترويع الصيد في حرم المدينة ، كما لا يجوز ترويعه في حرم مكة .

وكذلك نزع زيد بن ثابت النُّهسَ وهو طائر من يد شُرَحْبيل بن سعد كان صاده بالمدينة ؛ دليل على أن الصحابة فهموا مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحريم صيد المدينة ، فلم يجيزوا فيها الاصطياد ولا تملّك ما يصطاد .

ومتعلق ابن أبي ذئب قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : " اللَّهُمَّ إنَّ إبراهيم حرّم مكة وإني أُحرم المدينة مثل ما حَرَم به مكة ومثله معه لا يُخْتلى خَلاَها ولا يُعضَد شجرُها ولا يُنفَّر صيدُها " ولأنه حرم مُنِع الاصطياد فيه فتعلق الجزاء به كحرم مكة .

قال القاضي عبد الوهاب : وهذا قول أقيس عندي على أُصولنا ، لا سيما أن المدينة عند أصحابنا أفضل من مكة ، وأن الصلاة فيها أفضل من الصلاة في المسجد الحرام .

(65/214)

ومن حجة مالك والشافعي في ألاَّ يُحكم عليه بجزاء ولا أخذ سَلَب في المشهور من قول الشافعي عموم قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : " المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْر إلى ثَوْر فمن أحدث فيها حَدَثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفا ولا عَدْلاً " فأرسل صلى الله عليه وسلم الوعيد الشديد ولم يذكر كفّارة .

وأما ما ذُكر عن سعد فذلك مذهب له مخصوص به ؛ لما روي عنه في الصحيح : أنه ركب إلى قصره بالعَقِيق ، فوجد عبداً يقطع شجراً أو يخبطه فسَلبه ، فلما رجع سعد جاءه أهل العبد فكلموه أن يردّ على غلامهم أو عليهم ما أخذ من غلامهم ؛ فقال : معاذ الله أن أردّ شيئاً نَفَّلنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى أن يردّ عليهم ؛ فقوله : "نَفَّلنيه" ظاهِرُهُ الخصوص .

والله أعلم .

العاشرة قوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ ذكر الله سبحانه المتعمد ولم يذكر المخطىء والناسي ؛ والمتعمد هنا هو القاصد للشيء مع العلم بالإحرام .

والمخطىء هو الذي يقصد شيئاً فيصيب صيداً ، والناسي هو الذي يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه .

واختلف العلماء في ذلك على خمسة أقوال : الأول ما أسنده الدَّارَقُطْني عن ابن عباس قال : إنما التكفير في العمد ، وإنما غلّظوا في الخطأ لئلا يعودوا .

الثاني أن قوله : "مُتَعَمِّداً" خرج على الغالب ، فألحق به النادر كأصول الشريعة .

الثالث أنه لا شيء على المخطىء والناسي ؛ وبه قال الطَّبَري وأحمد بن حنبل في إحدى روايتيه ، وروي عن ابن عباس وسعيد بن جُبَير ، وبه قال طاوس وأبو ثور ، وهو قول داود .

وتعلق أحمد بأن قال : لما خص الله سبحانه المتعمد بالذكر ، دل على أن غيره بخلافه .

وزاد بأن قال : الأصل براءة الذمة فمن ادعى شغلها فعليه الدليل .

(66/214)

الرابع أنه يحكم عليه في العمد والخطأ والنسيان ؛ قاله ابن عباس ، وروى عن عمر وطاوس والحسن وإبراهيم والزُّهري ، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم .

قال الزُّهري : وجب الجزاء في العمد بالقرآن ، وفي الخطأ والنسيان بالسُّنة ؛ قال ابن العربي : إن كان يريد بالسنة الآثار التي وردت عن ابن عباس وعمر فنعماً هي ، وما أحسنها أسوة .

الخامس أن يقتله متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه وهو قول مجاهد لقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ .

قال : ولو كان ذاكراً لإحرامه لوجبت عليه العقوبة لأوّل مرة ، قال : فدل على أنه أراد متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه ؛ قال مجاهد : فإن كان ذاكراً لإحرامه فقد حل ولا حج له لارتكابه محظور إحرامه ، فبطل عليه كما لو تكلم في الصلاة ، أو أحدث فيها ؛ قال : ومن أخطأ فذلك الذي يجزئه .

ودليلنا على مجاهد أن الله سبحانه أوجب الجزاء ولم يذكر الفساد ، ولا فرق بين أن يكون ذاكراً للإحرام أو ناسياً له ، ولا يصح اعتبار الحج بالصلاة فإنهما مختلفان ؛ وقد رُوِي عنه أنه لا حكم عليه في قتله متعمداً ، ويستغفر الله ، وحَجُّهُ تام ؛ وبه قال ابن زيد .

ودليلنا على داود " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الضَّبع فقال : "هي صيد" " وجعل فيها إذا أصابها المحرم كبشاً ، ولم يقل عمداً ولا خطأً .

وقال ابن بكير من علمائنا : قوله سبحانه : "مُتَعَمّداً" لم يرد به التجاوز عن الخطأ ، وإنما أراد "متعمداً" ليبين أنه ليس كابن آدم الذي لم يجعل في قتله متعمداً كفارة ، وأن الصيد فيه كفّارة ، ولم يرد به إسقاط الجزاء في قتل الخطأ .

والله أعلم .

(67/214)

الحادية عشرة فإن قتله في إحرامه مرة بعد مرة حُكم عليه كلما قتله في قول مالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم ؛ لقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ فالنهي دائم مستمر عليه ما دام محرماً فمتى قتله فالجزاء لأجل ذلك لازم له .

وروي عن ابن عباس قال : لا يحكم عليه مرتين في الإسلام ، ولا يُحكم عليه إلا مرة واحدة ، فإن عاد ثانية فلا يُحكم عليه ، ويقال له : ينتقم الله منك ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ ﴾ .

وبه قال الحسن وإبراهيم ومجاهد وشُرَيْح .

ودليلنا عليهم ما ذكرناه من تَمَادي التحريم في الإحرام ، وتوجه الخطاب عليه في دين

الإسلام.

الثانية عشرة قوله تعالى: ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ فيه أربع قراءات؛ "فَجَزَاءٌ مِثْلُ" برفع جزاء وتنوينه، و"مِثْلُ" على الصفة.

والخبر مضمر، التقدير فعليه جزاء مماثل واجب أو لازم من النَّعم.

وهذه القراءة تقتضي أن يكون المِثل هو الجزاء بعينه.

و"جَزَاءُ" بالرفع غير منون و"مِثْلِ" بالإضافة أي فعليه جزاءُ مثل ما قتل، و"مثل" مقحمة كقولك أنا أكرم مثلك، وأنت تقصد أنا أكرمك.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ [الأنعام: 122] التقدير كمن هو في الظلمات، وقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: 11] أي ليس كهو شيء.

وهذه القراءة تقتضي أن يكون الجزاء غير المثل؛ إذ الشيء لا يضاف إلى نفسه.

وقال أبو علي: إنما يجب عليه جزاء المقتول، لا جزاء مثل المقتول، والإضافة توجب جزاء المثل لا جزاء المقتول.

وهو قول الشافعي على ما يأتي.

وقوله: "مِنَ النَّعَمِ" صفة لجزاء على القراءتين جميعاً.

وقرأ الحسن "مِن النَّعْمِ" بإسكان العين وهي لغة .

وقرأ عبد الرحمن "فَجَزَاءٌ" بالرفع والتنوين "مِثْلَ" بالنصب ؛ قال أبو الفتح : "مِثْلَ" منصوبة بنفس الجزاء ؛ والمعنى أن يجزى مثل ما قتل .

وقرأ ابن مسعود والأعمش "فجزاؤه مِثل" بإظهار "هاء" ؛ ويحتمل أن يعود على الصيد أو على الصائد القاتل .

الثالثة عشرة الجزاء إنما يجب بقتل الصيد لا بنفس أخذه كما قال تعالى .

وفي "المدونة" : من اصطاد طائراً فنتف ريشه ثم حبسه حتى نَسَل ريشه فطار ، قال : لا جزاء عليه .

قال وكذلك لو قطع يد صيد أو رجله أو شيئاً من أعضائه وسلِمت نفسه وصح ولحق بالصيد فلا شيء عليه .

وقيل : عليه من الجزاء بقدر ما نقصه .

ولو ذهب ولم يدر ما فعل فعليه جزاؤه .

ولو زَمِن الصيد ولم يلحق بالصيد ، أو تركه مَحُوفاً عليه فعليه جزاؤه كاملاً .

الرابعة عشرة ما يُجزى من الصيد شيئان : دوابٌ وطيرٌ فيُجزَى ما كان من الدواب بنظيره في الخلقة والصّورة ، ففي النّعامة بَدنَة ، وفي حمار الوحش وبقرة الوحش بقرة ، وفي الظبي

شاة ؛ وبه قال الشافعي .

وأقل ما يَجزى عند مالك ما استيسر من الهدي وكان أضحية ؛ وذلك كالجَذَع من الضأن والثنيّ مما سواه ، وما لم يبلغ جزاؤه ذلك ففيه إطعام أو صيام .

وفي الحمام كله قيمته إلا حمام مكة ؛ فإن في الحمامة منه شاة اتباعا للسّلف في ذلك .

والدُّبسي والفَوَاخِت والقُمْريّ وذوات الأطواق كلّه حمام .

وحكى ابن عبد الحَكَمْ عن مالك أن في حمام مكة وفراخها شاة ؛ قال : وكذلك حمام الحرم ؛ قال : وفي حمام الحِلّ حكومة .

وقال أبو حنيفة : إنما يعتبر المثل في القيمة دون الخِلْقة ، فيقوم الصيد دراهم في المكان الذي قتله فيه ، أو في أقرب موضع إليه إن كان لا يباع الصيد في موضع قتله ؛ فيشتري بتلك القيمة هديا إن شاء ، أو يشتري بها طعاماً ويُطْعم المساكين كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من شعير أو صاعاً من تمر .

(69/214)

وأما الشافعي فإنه يرى المثل من النعم ثم يقوِّم المثل كما في المتلفات يقوّم المثل ، وتؤخذ قيمة المثل كقيمة الشيء فإن المثل هو الأصل في الوجوب ؛ وهذا بيّن وعليه تخرج قراءة الإضافة

"فَجَزَاءُ مِثْلِ" .

احتج أبو حنيفة فقال : لو كان الشبه من طريق الخلقة معتبراً .

في النّعامة بَدَنَة ، وفي الحمار بقرة ، وفي الظبي شاة ، لما أوقفه على عَدلين يحكمان به ؛ لأن ذلك قد علم فلا يحتاج إلى الإرتياء والنظر ؛ وإنما يفتقر إلى العدول والنظر ما تشكل الحال فيه ، ويضطرب وجه النظر عليه .

ودليلنا عليه قول الله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ الآية .

فالمثل يقتضي بظاهره المثل الخِلْقي الصّوري دون المعنى ؛ ثم قال : ﴿ مِنَ النعم ﴾ فبين جنس المثل ؛ ثم قال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ وهذا ضمير راجع إلى مثل من النعم ؛ لأنه لم يتقدم ذكر لسواه يرجع الضمير عليه ، ثم قال : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ والذي يتصور فيه الهَدْي مثل المقتول من النَّعم ، فأما القيمة فلا يتصوّر أن تكون هديا ، ولا جرى لها ذكر في نفس الآية ، فصح ما ذكرناه .

والحمد لله .

وقولهم : لو كان الشبه معتبراً لما أوقفه على عَدلين ؛ فالجواب أن اعتبار العدلين إنما وجب للنظر في حال الصيد من صغر وكبر ، وما لا جنس له مما له جنس ، وإلحاق ما لم يقع عليه نص بما وقع عليه النص .

الخامسة عشرة من أحرم من مكة فأغلق باب بيته على فراخ حمام فماتت فعليه في كل فرخ

شاة .

قال مالك : وفي صغار الصيد مثل ما في كباره ؛ وهو قول عطاء .

ولا يُفدَى عند مالك شيء بعنَاقٍ ولا جَفْرة ؛ قال مالك .

وذلك مثل الدية ، الصغير والكبير فيها سواءٌ .

وفي الضّب عنده واليَرْبُوع قيمتهما طعاماً .

ومن أهل المدينة من يخالفه في صغار الصيد ، وفي اعتبار الجَذَع والثَّني ، ويقول بقول عمر : في الأرنب عَنَاق وفي اليَرْبوع جَفْرة ؛ رواه مالك موقوفاً .

(70/214)

وروى أبو الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " في الضبع إذا أصابه المحرم كبش وفي الظبي شاة وفي الأرنب عَنَاق وفي اليَرْبوع جَفْرة " قال : والجَفرة التي قد ارتعت .

وفي طريق آخر قلت لأبي الزبير : وما الجَفْرة ؟ قال : التي قد فُطِمَت ورَعَت .

خرجه الدَّارَقُطْنيّ .

وقال الشافعي : في النعامة بَدَنة ، وفي فرخها فَصِيل ، وفي حمار الوحش بقرة ، وفي سَخْلهِ عجل ؛ لأن الله تعالى حكم بالمِثلية في الخلقة ، والصغر والكبر متفاوتان فيجب اعتبار

الصغير فيه والكبير كسائر المتلفَات .

قال ابن العربيّ : وهذا صحيح وهو اختيار علمائنا ؛ قالوا : ولو كان الصيد أعور أو أعرج أو كسِيراً لكان المثل على صفته لتتحقق المِثلية ، فلا يلزم المتلِف فوق ما أتلف .

ودليلنا قوله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ ولم يفصل بين صغير وكبير .

وقوله : "هَدْياً" يقتضي ما يتناوله اسم الهدي لحقّ الإطلاق .

وذلك يقتضي الهدي التام .

والله أعلم .

السادسة عشرة في بيض النعامة عُشْر ثمن البَدَنة عند مالك .

وفي بيض الحمامة المكية عنده عُشْر ثمن الشاة .

قال ابن القاسم : وسواء كان فيها فرخ أو لم يكن ما لم يستهل الفرخ بعد الكسر ؛ فإن استهل فعليه الجزاء كاملاً كجزاء الكبير من ذلك الطير .

قال ابن المواز : بحكومة عَدلين .

وأكثر العلماء يرون في بيض كل طائر القيمة .

روى عِكرمة عن ابن عباس عن كعب بن عُجْرَة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قضى في بيض نعام أصابه محرِم بقدر ثمنه ؛ خرجه الدّارَقُطْنيّ .

وروى عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في كل بيضة نعام صيام يوم

أو إطعام مسكين " .

السابعة عشرة وأما ما لا مثل له كالعصافير والفِيلة فقيمة لحمه أو عَدله من الطعام ، دون ما يراد له من الأغراض ؛ لأن المراعَى فيما له مثلٌ وجوبُ مثله ، فإن عُدم المثل فالقيمة قائمة مقامه كالغصب وغيره .

(71/214)

ولأن الناس قائلان أي على مذهبين معتبر للقيمة في جميع الصيد ؛ ومقتصر بها على ما لا مثل له من النَّعم ؛ فقد تضمن ذلك الإجماع على اعتبار القيمة فيما لا مثل له .

وأما الفيل فقيل : فيه بَدَنَة من الهجان العظام التي لها سنامان ؛ وهي بيض خراسانية ، فإذا لم يوجد شيء من هذه الإبل فينظر إلى قيمته طعاماً ، فيكون عليه ذلك ؛ والعمل فيه أن يجعل الفيل في مَرْكب ، وينظر إلى منتهى ما ينزل المركَب في الماء ، ثم يخرج الفيل ويجعل في المركب طعام حتى ينزل إلى الحد الذي نزل والفيل فيه ، وهذا عَدْله من الطعام .

وأما أن ينظر إلى قيمته فهو يكون له ثمن عظيم لأجل عظامه وأنيابه فيكثر الطعام وذلك ضرر .

الثامنة عشرة قوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ روى مالك عن عبد الملك ابن

قُرَيْب عن محمد بن سيرين أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : إني أجريت أنا وصاحب لي فرسين نستبق إلى ثَغْرة ثَنِيّة ، فأصبنا ظبياً ونحن محرمان فماذا ترى ؟ فقال عمر لرجل إلى جنبه : تعال حتى أحكم أنا وأنت ؛ فحكما عليه بعنز ؛ فولى الرجل وهو يقول : هذا أمير المؤمنين لا يستطيع أن يحكم في ظبي حتى دعا رجلاً يحكم معه ، فسمع عمر بن الخطاب قول الرجل فدعاه فسأله ؛ هل تقرأ سورة "المائدة" ؟ فقال : لا ؛ قال : هل تعرف الرجل الذي حكم معي ؟ فقال : لا ؛ فقال عمر رضي الله عنه : لو أخبرتني أنك تقرأ سورة "المائدة" لأوجعتك ضرباً ، ثم قال : إن الله سبحانه يقول في كتابه ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ وهذا عبد الرحمن بن عوف .

التاسعة عشرة إذا اتفق الحَكَمان لزم الحكم ؛ وبه قال الحسن والشافعي .

وإن اختلفا نظر في غيرهما .

وقال محمد بن المواز : لا يأخذ بأرفع من قوليْهما ؛ لأنه عمل بغير تحكيم .

وكذلك لا ينتقل عن المِثل الخِلْقي إذا حكما به إلى الطعام ؛ لأنه أمر قد لزم ؛ قاله ابن شعبان .

وقال ابن القاسم : إن أمرَهما أن يحكما بالجزاء من المِثل ففعلا ، فأراد أن ينتقل إلى الطعام جاز .

وقال ابن وهب رحمه الله في "العتبية" : من السنة أن يُخيّر الحَكَمان من أصاب الصيد ، كما خيّره الله في أن يخرج "هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً" فإن اختار الهدي حَكَما عليه بما يريانه نظيراً لما أصاب ما بينهما وبين أن يكون عَدْل ذلك شاة لأنها أدنى الهدي ؛ وما لم يبلغ شاة حَكَما فيه بالطعام ثم خُيّر في أن يطعمه ، أو يصوم مكان كل مُدّ يوماً ؛ وكذلك قال مالك في "المدوّنة" .

الموفية عشرين ويستأنف الحكم في كل ما مضت فيه حكومة أو لم تمض ، ولو اجتزأ بحكومة الصحابة رضي الله عنهم فيما حكموا به من جزاء الصيد كان حسناً .

وقد روي عن مالك أنه ما عدا حمام مكة وحمار الوحش والظّبي والنّعامة لا بدّ فيه من الحكومة ، ويُجتزأ في هذه الأربعة بحكومة من مضى من السلف رضي الله عنهم .

الحادية والعشرون لا يجوز أن يكون الجاني أحد الحكَمين ؛ وبه قال أبو حنيفة .

وقال الشافعي في أحد قوليه : يكون الجاني أحد الحكمين ؛ وهذا تسامح منه ؛ فإن ظاهر الآية يقتضي جانياً وحَكَمين فحذف بعض العدد إسقاط للظاهر ، وإفساد للمعنى ؛ لأن حكم المرء لنفسه لا يجوز ، ولو كان ذلك جائزاً لاستغنى بنفسه عن غيره ؛ لأنه حكم بينه وبين الله تعالى فزيادة ثان إليه دليل على استئناف الحكم برجلين .

الثانية والعشرون إذا اشترك جماعة محرِمون في قتل صيد فقال مالك وأبو حنيفة : على كل واحد جزاء كامل .

وقال الشافعي : عليهم كلهم كفارة واحدة لقضاء عمر وعبد الرحمن .

وروى الدَّارَقُطْنِيّ : أن موالي لابن الزبير أحرموا إذ مرت بهم ضبع فحذفوها بعصيهم فأصابوها ، فوقع في أنفسهم ، فأتوا ابن عمر فذكروا له فقال : عليكم كلكم كبش ؛ قالوا : أو على كل واحد منا كبش ؛ قال : إنكم لَمُعَزّزٌ بكم ، عليكم كلكم كبش .

(73/214)

قال اللغويون : لَمُعَزَّزٌ بكم أي لمشدّد عليكم .

ورُوي عن ابن عباس في قوم أصابوا ضبعاً قال : عليهم كبش يتخارجونه بينهم .

ودليلنا قول الله سبحانه : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ وهذا خطاب لكل قاتل .

وكل واحد من القاتلين للصيد قاتل نفساً على التمام والكمال ، بدليل قتل الجماعة بالواحد ، ولولا ذلك ما وجب عليهم القصاص ، وقد قلنا بوجوبه إجماعاً منا ومنهم ؛ فثبت ما قلناه .

الثالثة والعشرون قال أبو حنيفة : إذا قتل جماعة صيدا في الحرم وكلهم مُحِلَون ، عليهم جزاء واحد ، بخلاف ما لو قتله المحرمون في الحلّ والحرم ؛ فإن ذلك لا يختلف .

وقال مالك : على كل واحد منهم جزاء كامل ، بناء على أن الرجل يكون محرماً بدخوله الحرم ، كما يكون محرماً بتلبيته بالإحرام ، وكل واحد من الفعلين قد أكسبه صفة تعلق بها نهي ، فهو هاتك لها في الحالتين .

وحجة أبي حنيفة ما ذكره القاضي أبو زيد الدَّبُوسيّ قال : السِّرّ فيه أن الجناية في الإحرام على العبادة ، وقد ارتكب كل واحد منهم محظور إحرامه .

وإذا قتل المِحِلّون صيدا في الحرم فإنما أتلفوا دابة محرّمة بمنزلة ما لو أتلف جماعة دابة ؛ فإن كل واحد منهم قاتل دابة ، ويشتركون في القيمة .

قال ابن العربي : وأبو حنيفة أقوى منا ، وهذا الدليل يستهين به علماؤنا وهو عسير الانفصال علينا .

الرابعة والعشرون قوله تعالى : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ المعنى أنهما إذا حكما بالهدي فإنه يُفعل به ما يُفعل بالهدي من الإشعار والتقليد ، ويُرسل من الحِلّ إلى مكة ، ويُنحرْ ويُتصدّق به فيها ؛ لقوله : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ ولم يرد الكعبة بعينها فإن الهدْي لا يبلغها ، إذ هي في المسجد ، وإنما أراد الحرم ولا خلاف في هذا .

وقال الشافعي : لا يحتاج الهدي إلى الحِلّ بناء على أن الصغير من الهدي يجب في الصغير من الصيد ، فإنه يُبتاع في الحرم ويهدى فيه .

(74/214)

الخامسة والعشرون قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ الكفارة إنما هي عن الصيد لا عن الهدي .

قال ابن وهب قال مالك : أحسن ما سمعت في الذي يقتل الصيد فيحكم عليه فيه ، أنه يقوّم الصيد الذي أصاب ، فينظر كم ثمنه من الطعام ، فيطعم لكل مسكين مُدّا ، أو يصوم مكان كل مدّ يوماً .

وقال ابن القاسم عنه : إن قوّم الصيد دراهم ثم قوّمها طعاماً أجزأه ؛ والصواب الأوّل .

وقال عبد الله بن عبد الحكم مثله ؛ قال عنه : وهو في هذه الثلاثة بالخيار ؛ أيّ ذلك فعل أجزأه موسراً كان أو معسراً .

وبه قال عطاء وجمهور الفقهاء ؛ لأن "أو" للتخيير .

قال مالك : كل شيء في كتاب الله في الكفّارات كذا أو كذا فصاحبه مخيَّر في ذلك ، أيّ ذلك أحب أن يفعل فعل .

ورُوِي عن ابن عباس أنه قال : إذا قتل المحرم ظبياً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ؛ فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فعليه صيام ثلاثة أيام ؛ وإن قتل إيّلا أو نحوه فعليه بقرة ، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً ، فإن لم يجد صام عشرين يوماً ؛ وإن قتل نعامة أو حماراً فعليه بَدَنة ، فإن لم يجد فإطعام ثلاثين مسكيناً ، فإن لم يجد فصيام ثلاثين يوماً .

والطعام مدّ مدّ لشبعهم .

وقاله إبراهيم النَّخَعيّ وحماد بن سلمة ، قالوا : والمعنى ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ ﴾ إن لم يجد الهدْي .

وحكى الطبريّ عن ابن عباس أنه قال : إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه بجزائه ، فإن وجد جزاءه ذبحه وتصدّق به ، وإن لم يكن عنده جزاؤه قُوِّم جزاؤه بدراهم ، ثم قوّمت الدراهم حِنطة ، ثم صام مكان كل نصف صاع يوماً ؛ وقال : إنما أُريد بالطعام تبيين أمر الصيام ، فمن لم يجد طعاماً ، فإنه يجد جزاءه .

وأسنده أيضاً عن السديّ .

ويُعترض هذا القول بظاهر الآية فإنه ينافره .

السادسة والعشرون اختلف العلماء في الوقت الذي يعتبر فيه المتلَف ؛ فقال قوم : يوم الإتلاف .

وقال آخرون : يوم القضاء .

وقال آخرون : يلزم المتلف أكثر القيمتين ، من يوم الإتلاف إلى يوم الحكم .

قال ابن العربي : واختلف علماؤنا كاختلافهم ، والصحيح أنه تلزمه القيمة يوم الإتلاف ؛ والدليل على ذلك أن الوجود كان حقاً للمتلَف عليه ، فإذا أعدمه المتلِفُ لزمه إيجاده بمثله ، وذلك في وقت العدم .

السابعة والعشرون أما الهدْيُ فلا خلاف أنه لا بدّ له من مكة ؛ لقوله تعالى : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ .

وأما الإطعام فاختلف فيه قولُ مالك هل يكون بمكة أو بموضع الإصابة ؛ وإلى كونه بمكة ذهب الشافعي .

وقال عطاء : ما كان من دم أو طعام فبمكة ويصوم حيث يشاء ؛ وهو قول مالك في الصوم ، ولا خلاف فيه .

قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب : ولا يجوز إخراج شيء من جزاء الصيد بغير الحرم إلا الصيام .

وقال حمّاد وأبو حنيفة : يُكفِّر بموضع الإصابة مطلقاً .

وقال الطَّبَريّ : يُكفِّر حيث شاء مطلقاً ، فأما قول أبي حنيفة فلا وجه له في النظر ، ولا أثر فيه .

وأما من قال يصوم حيث شاء ؛ فلأن الصوم عبادة تختص بالصائم فتكون في كل موضع كصيام سائر الكفارات وغيرها .

وأما وجه القول بأن الطعام يكون بمكة ؛ فلأنه بدل عن الهدي أو نظير له ، والهدي حق لمساكين مكة ، فلذلك يكون بمكة بدله أو نظيره .

وأما من قال إنه يكون بكل موضع ؛ فاعتبار بكل طعام وفدية ، فإنها تجوز بكل موضع .

والله أعلم .

الثامنة والعشرون قوله تعالى : ﴿ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ العدل والعِدل بفتح العين وكسرها لغتان وهما المِثل ؛ قاله الكسائيّ .

وقال الفرّاء : عِدْل الشيء بكسر العين مثله من جنسه ، وبفتح العين مثله من غير جنسه ، ويؤثر هذا القول عن الكِسائيّ ، تقول : عندي عِدْل دراهمك من الدارهم ، وعندي عَدْل دراهمك من الثياب ؛ والصحيح عن الكسائيّ أنهما لغتان ، وهو قول البصريين .

ولا يصح أن يماثل الصيام الطعام في وجه أقرب من العدد .

قال مالك : يصوم عن كل مُدّ يوماً ، وإن زاد على شهرين أو ثلاثة ؛ وبه قال الشافعيّ .

وقال يحيى بن عمر من أصحابنا : إنما يقال كم من رجل يشبع من هذا الصيد فيعرف العدد ، ثم يقال : كم من الطعام يشبع هذا العدد ؛ فإن شاء أخرج ذلك الطعام ، وإن شاء صام عدد أمداده .

وهذا قول حسن احتاط فيه ؛ لأنه قد تكون قيمة الصيد من الطعام قليلة ، فبهذا النظر يكثر الإطعام .

ومن أهل العلم من لا يرى أن يتجاوز في صيام الجزاء شهرين ؛ قالوا : لأنها أعلى الكفّارات . واختاره ابن العربيّ .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : يصوم عن كل مدّين يوماً اعتبارا بفدية الأذى .

التاسعة والعشرون قوله تعالى : ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ الذوق هنا مستعار كقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] .

وقال : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف ﴾ [النحل : 112] .

وحقيقة الذوق إنما هي في حاسة اللسان ، وهي في هذا كله مستعارة .

ومنه الحديث : " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً " الحديث والوبال سوء العاقبة .

والمرعى الوبيل هو الذي يُتأذّى به بعد أكله .

وطعام وبِيل إذا كان ثقيلاً ؛ ومنه قوله :

عقِيلةُ شيخ كالوَبِيلِ يَلَنْدَدِ . . .

وعبر بأمره عن جميع حاله .

الموفية ثلاثين قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ يعني في جاهليتكم من قتلكم الصيد ؛ قاله عطاء بن أبي رَبَاح وجماعة معه .

وقيل : قبل نزول الكفّارة .

﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ يعني للمنهى ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ أي بالكفّارة .

وقيل : المعنى "فينتقِم الله مِنه" يعني في الآخرة إن كان مستحلاً ؛ ويكفر في ظاهر الحكم .

وقال شُرَيْح وسعيد بن جُبَير : يحكم عليه في أوّل مرة ، فإذا عاد لم يحكم عليه ، وقيل له : اذهب ينتقم الله منك ؛ أي ذنبك أعظم من أن يُكفَّر ، كما أن اليمين الفاجرة لا كفّارة لها عند أكثر أهل العلم لعظم إثمها .

والمتورّعون يتقون النقمة بالتكفير .

وقد رُوِي عن ابن عباس : يملأ ظهره سوطاً حتى يموت .

وروي عن زيد بن أبي المُعَلَّى : أن رجلاً أصاب صيداً وهو محرم فتجوز عنه ، ثم عاد فأنزل الله عز وجل ناراً من السماء فأحرقته ؛ وهذه عبرة للأُمّة وكفٌّ للمعتدين عن المعصية .

قوله سبحانه : ﴿ واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ "عَزِيزٌ" أي منيع في ملكه ، ولا يمتنع عليه ما

يريده .

"ذُو انْتِقَام"ممن عصاه إن شاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(77/214)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ ﴾

شروع في بيان ما يتدارك به الاعتداءُ من الأحكام إثر بيانِ ما يلحقه من العذاب ، والتصريح بالنهي في قوله تعالى : ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ مع كونه معلوماً لا سيما من قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلّى الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ لتأكيد الحرمة وترتيب ما يعقبُه عليه ، واللام في الصيد للعهد حسبما سلف ، وحُرُم جمع حَرام ، وهو المُحرم وإن كان في الحِل ، وفي حكمه من في الحَرَم وإن كان حَلالاً ، كرُدُح جمع رَادح ، والجملة حال من فاعل لا تقتلوا ، أي لا تقتلوه وأنتم محرمون ﴿ وَمَن قَتَلَهُ ﴾ أي الصيد المعهود ، وذِكرُ القتل في الموضعين دون الذبح للإيذان بكونه في حكم الميتة ﴿ مّنكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل قتله أي كائناً منكم .

﴿ مُّتَعَمّداً ﴾ حال منه أيضاً أي ذاكراً لإحرامه عالماً بحُرمة قتل ما يقتله ، والتقييدُ بالتعمّد مع أن محظوراتِ الإحرام يستوي فيها العمْدُ والخطأ لِما أن الآية نزلتْ في المتعمّد كما مرَّ من قصة أبي اليَسَر ، ولأن الأصل فعلُ المتعمّد والخطأ لاحقٌ به للتغليظ ، وعن الزُهري : نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ . وعن سعيد بن جُبير رضي الله عنه : لا أرى في الخطأ شيئاً أخذاً باشتراط التعمّد في الآية ، وهو قول داودَ عن مجاهد والحسن : أن المراد بالتعمد هو تعمدُ القتل مع نسيان الإحرام ، أما إذا قتله عمْداً وهو ذاكراً لإحرامه فلا حكم عليه ، وأمره إلى الله عز وجل ، لأنه أعظمُ من أن يكون له كفارة . ﴿ فَجَزَاء مّثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ برفعهما ، أي فعليه جزاءٌ مماثلٌ لما قتله ، وقرىء برفع الأول ونصب الثاني على إعمال المصدر ، وقرىء بجرِّ الثاني على إضافته إلى مفعوله ، وقرىء (فجزاؤه مثلُ) ما قتل على الابتداء والخبرية ، وقرىء بنصبهما على تقدير فليجْزِ جزاءً أو فعليه أن يجزى جزاءً مثلَ ما قتل ، والمرادُ به عند أبي حنيفة وأبي يوسف رضي الله عنهما المثلُ باعتبار القيمة ، يُقوَّم الصيد حيث صِيدَ أو في أقرب الأماكن إليه ، فإن بلغَت قيمتُه قيمةَ هدْيٍ يُخير الجاني بين أن يشتريَ بها قيمةَ الصيد فيُهدِيَه إلى الحرم ، وبين أن يشتريَ بها طعاماً

فيُعطيَ كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره ، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً ، فإن فضل ما لا يبلغُ طعامَ مسكين تصدّق به أو صام عنه يوماً كاملاً ، إذ لم يُعهد في الشرع صومُ ما دونه فيكون قوله تعالى : ﴿ مِنَ النعم ﴾ بياناً للهدْي المشترى بالقيمة على أحد وجوه التخيير ، فإنَّ من فعل ذلك يصدُق عليه أنه جُزيَ بمثل ما قتل من النَّعم ، وعن مالك والشافعي رحمهما الله تعالى ومن يرى رأيهما : هو المِثْلُ باعتبار الخِلْقة والهيئة لأن الله تعالى أوجب مثلَ المقتول

(79/214)

مقيداً بالنَّعم ، فمن اعتبَر المِثْل بالقيمة فقد خالف النص ، وعن الصحابة رضي الله عنهم : أنهم أوجبوا في النَّعامة بدنةً ، وفي الظبْيِ شاةً ، وفي حمار الوَحش بقرةً ، وفي الأرنب عَناقاً ، وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : " الضبُع صيدٌ وفيه شاةٌ إذا قتله المُحرم " ولنا أن النصَّ أوجبَ المثْل ، والمِثْلُ المطلق في الكتاب والسنة وإجماعِ الأمة والمعقولِ يُراد به إما المثلُ صورةً ومعنى ، وإما المثلُ معنى . وأما المثلُ صورةً بلا معنى فلا اعتبارَ له في الشرع أصلاً ، وإذا لم يمكن إرادةُ الأول إجماعاً تعيّنت إرادةُ الثاني لكونه معهوداً في الشرع كما في حقوق العباد ، ألا يرى أن المماثلة بين أفراد نوعٍ واحد مع كونها في غاية القوة والظهور لم يعتبْرها

الشرع ، ولم يجعل الحيوانَ عند الإتلاف مضموناً بفردٍ آخَرَ من نوعه مماثلٍ له في عامة الأوصاف بل مضموناً بقيمتِه مع أن المنصوص عليه في أمثاله إنما هو المثل ، قال تعالى : ﴿ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ﴾ فحيث لم تُعتبرْ تلك المماثلةُ القويةُ مع تيسُّر معرفتِها وسهولةِ مراعاتِها فَلأَنْ لا تُعتبرُ ما بين أفراد أنواع مختلفةٍ من المماثلة الضعيفة الخفيةِ مع صعوبة مأخذِها وتعسُّرِ المحافظة عليها أولى وأحرى ، ولأن القيمة قد أريدت فيما لا نظيرَ له إجماعاً فلم يبق غيرُه مراداً ، إذْ لا عمومَ للمشترَك في مواقع الإثبات ، والمراد بالمرويِّ إيجابُ النظير باعتبار القيمة لا باعتبار العين ، ثم الموجبُ الأصليُّ للجناية والجزاءِ المماثلِ للمقتول إنما هو قيمتُه ، لكن لا باعتبار أن يعمِدَ الجاني إليها فيصرِفَها إلى المصارف ابتداءً ، بل باعتبار أن يجعلَها معياراً فيقدّرَ بها إحدى الخصال الثلاث فيُقِيمَها مُقامها ، فقوله تعالى : ﴿ مِّثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ وصفٌ لازم للجزاء ، غيرُ مفارِقٍ عنه بحال ، وأما قوله تعالى : ﴿ مِنَ النعم ﴾ فوصفٌ له

(80/214)

معتبرٌ في ثاني الحال بناءً على وصفه الأول الذي هو المعيارُ له ولِما بعده من الطعام والصيام ، فحقُّهما أن يُعطفا على الوصف المفارِق لا على الوصف اللازم فضلاً عن العطف على

الموصوف كما سيأتي بإذن الله تعالى . ومما يرشدك إلى أن المراد بالمثل هو القيمة قوله عز وجل : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ﴾ أي بمثل ما قتل ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أي حكَمان عادلان من المسلمين لكنْ لا لأن التقويمَ هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهاد من العُدول دون الأشياء المشاهدةَ التي يستوي في معرفتها كلُّ أحد من الناس ، فإن ذلك ناشىء من الغفلةِ عما أرادوا بما به اللماثلة ، بل لأن ما جعلوه مدار المماثلة بين الصيد وبين النَّعم من ضربِ مشاكَلةٍ ومضاهاة في بعض الأوصاف والهيئات مع تحقق التبايُن بينهما في بقية الأحوال مما لا يَهتدي إليه ، من أساطينِ أئمة الاجتهاد ، وصناديدِ أهل الهداية والإرشاد ، إلا المؤيدون بالقوة القدسية ، ألا يُرى أن الإمام الشافعي رضي الله عنه أوجب في قتل الحمامة شاةً بناء على ما أثبتَ بينهما من المماثلة من حيث أن كلاًّ منهما يعُبّ ويهدِر ، مع أن النسبة بينهما من سائر الحيثيات كما بين الضّبّ والنون ، فكيف يُفوَّضُ معرفةُ أمثالِ هذه الدقائق العويصة إلى رأي عدْلين من آحاد الناس ؟ على أن الحكم بهذا المعنى إنما يتعلق بالأنواع لا بالأشخاص ، فبعد ما عُيِّن ، بمقابلة كل نوع من أنواع الصيد ، نوعٌ من أنواع النعم يتم الحُكم ولا يبقى عند وقوع خصوصيات الحوادث حاجةٌ إلى حكمٍ أصلاً .

(81/214)

وقرىء (يحكم به ذو عدل) على إرادة جنس العادل دون الوَحْدة ، وقيل : بل على إرادة الإمام ، والجملة صفة لجزاءٌ أو حال منه لتخصصه بالصفة ، وقوله تعالى : ﴿ هَدْياً ﴾ حال مقدرة من الضمير في (به) ، أو في (جزاء) لما ذكر من تخصصه بالصفة ، أو بدلٌ من (مثل) فيمن نصبه ، أو مِنْ محله فيمن جرَّه ، أو نصبٌ على المصدر أي يهديه هدياً ، والجملة صفة أخرى لجزاء .

(82/214)

﴿ بالغ الكعبة ﴾ صفةٌ (لهدياً) لأن الإضافة غير حقيقية ﴿ أَوْكَفَّارَةٌ ﴾ عطف على مل (من النعم) على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملةُ صفة ثانية (لجزاء) كما أشير إليه ، وقوله تعالى : ﴿ طَعَامُ مساكين ﴾ عطفُ بيانٍ لكفارةٌ عند من لا يخصصه بالمعارف ، أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هي طعام مساكين ، وقوله تعالى : ﴿ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ عطف على طعام الخ ، كأنه قيل : فعليه جزاءٌ مماثلٌ للمقتول هو من النَّعم أو طعامُ مساكينَ أو صيامُ أيامٍ بعددهم ، فحينئذ تكون الماثلةُ وصفاً لازماً للجزاء يقدَّر به الهدْي والطعام والصيام ، أما الأولان فبلا واسطة ، وأما الثالث فبواسطة الثاني ، فيختار الجاني كلاًّ منها بدلاً من الآخرَيْن ، هذا وقد قيل : إن قوله تعالى : ﴿ أَوْكَفَّارَةٌ ﴾ عطف على (

جزاء) فلا يبقى حينئذ في النظم الكريم ما يقدَّر به الطعام والصيام ، والالتجاءُ إلى القياس على الهدْي تعسفٌ لا يخفى ، هذا على قراءة (جزاء) بالرفع على سائر القراءات ، فقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوفٍ ، والجملة معطوفة على جملة هو (من النعم) . وقرىء أو (كفارةُ طعامِ مساكين) بالإضافة لتبيين نوع الكفارة وقرىء طعامُ مِسْكين على أن التبيين يحصل بالواحد الدال على الجنس وقرىء (أو عِدْل) بكسر العين والفرق بينهما أن عَدلَ الشيء ما عادله من غير جنسه كالصوم والإطعام وعِدْلَه ما عُدِل به في المقدار كأن المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول وذلك إشارة إلى الطعام و(صياماً) تمييز للعَدْل ، والخيار في ذلك للجاني عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله وللحَكَمين عند محمد رحمه الله .

(83/214)

﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ متعلق بالاستقرار في الجار والمجرور ، أي فعليه جزاءٌ ليذوق الخ ، وقيل : بفعل يدل عليه الكلام ، كأنه قيل : شرع ذلك عليه ليذوق وبال أمره أي سوءَ عاقبةِ هَتْكه لحُرمة الإحرامِ ، والوبال في الأصل : المكروهُ والضررُ الذي ينال في العاقبة مَنْ عمل سوءاً لِثِقَله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فأخذناه أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ ومنه الطعام الوبيلُ وهو الذي لا

تستمرئه المَعِدة ﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ من قتل الصيد مُحرِماً قبل أن يسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقيل : عما سلف منه في الجاهلية ، لأنهم كانوا متعبَّدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرّماً ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي عنه وهو محرم ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ، ولذلك دخلت الفاء كقوله تعالى : ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ أي فذلك لا يخاف الخ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ ﴾ أي فأنا أمتعه ، والمراد بالانتقام التعذيبُ في الآخرة ، وأما الكفارة فعن عطاءٍ وإبراهيمَ وسعيدِ بن جبير والحسن أنها واجبة على العائد ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وشُريح أنه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر ﴿ واللهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يُغالَب ﴿ ذُو انتقام ﴾ شديد فينتقم ممن أصر على المعصية والاعتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(84/214)

ومن فوائد ابن كثير فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ

يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ . . . الآية ﴾

قال الوالبي ، عن ابن عباس قوله : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ قال : هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يبتلي الله به عباده في إحرامهم ، حتى لو شاؤوا يتناولونه بأيديهم . فنهاهم الله أن يقربوه .

وقال مجاهد : ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني : صغار الصيد وفراخه ﴿ وَرِمَاحِكُمْ ﴾ يعني : كباره .

وقال مُقَاتِل بن حَيَّان : أنزلت هذه الآية في عُمْرة الحُدَيْبِيَّة ، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم ، لم يروا مثله قط فيما خلا فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون .

﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ يعني : أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم ، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرًا وجهرًا ليظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : 12] .

(85/214)

وقوله هاهنا : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ قال السدي وغيره : يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : لمخالفته أمر الله وشرعه .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام ، ونهي عن تعاطيه فيه . وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول وما يتولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها . والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين من طريق الزهري ، عن عُرْوَة ، عن عائشة أم المؤمنين ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "خمس فَواسِق يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَم الغُراب والحدأة ، والعَقْرب ، والفأرة ، والكلب العَقُور" . (1)

وقال مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جُنَاح : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور" . أخرجاه . (2)

ورواه أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، مثله . قال أيوب ، قلت لنافع : فالحية ؟ قال : الحية لا شك

---

(1) صحيح البخاري برقم (3314) وصحيح مسلم برقم (1198) .

(2) صحيح البخاري برقم (1826) وصحيح مسلم برقم (1199) .

فيها ، ولا يختلف في قتلها . (1)

ومن العلماء – كمالك وأحمد – من ألحق بالكلب العقور الذئب ، والسَّبُعَ ، والنِّمْر ، والفَهْد ؛ لأنها أشد ضررًا منه فالله أعلم . وقال سفيان بن عيينة وزيد بن أسلم : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلّها . واستأنس من قال بهذا بما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال : "اللهم سَلِّط عليه كلبك بالشام" (2) فأكله السبع بالزرقاء ، قالوا : فإن قتل ما عداهن فَدَاها كالضبع والثعلب وهر البر ونحو ذلك .

قال مالك : وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها ، وصغار الملحق بها من السباع العوادي .

وقال الشافعي [رحمه الله] يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه ، ولا فرق بين صغاره وكباره . وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل .

وقال أبو حنيفة : يقتل المحرم الكلب العقور والذئب ؛ لأنه كلب بري ، فإن قتل غيرهما فَدَاه ، إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه . وهذا قول الأوزاعي ، والحسن بن

صالح بن حيي .

وقال زُفَر بن الهذيل : يفدي ما سوى ذلك وإن صال عليه .

وقال بعض الناس : المراد بالغراب هاهنا الأبقع وهو الذي في بطنه وظهره بياض ، دون الأدرع وهو الأسود ، والأعصم وهو الأبيض ؛ لما رواه النسائي عن عمرو بن علي الفَلاس ، عن يحيى القَطَّان ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن عائشة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "خمس يقتلهن المحرم : الحية ، والفأرة ، والحدأة ، والغراب الأبقع ، والكلب العقور" .

والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك ؛ لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه .

وقال مالك ، رحمه الله : لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه .

وقال مجاهد بن جَبْر وطائفة : لا يقتله بل يرميه . ويروى مثله عن علي .

---

(1) صحيح مسلم برقم (1199) .

(2) رواه البيهقي في دلائل النبوة (339/2) من طريق زهير بن العلاء ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة به مرسلا وذكر قصة . ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص 163) من طريق محمد بن إسحاق ، عن عثمان بن عروة بن الزبير ، عن أبيه وذكر قصة . ورواه البيهقي في دلائل النبوة (338/2) من طريق عباس بن الفضل ، عن الأسود بن شيبان ، عن أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه به وذكر قصة .

وقد روى هُشَيْم : حدثنا يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أنه سئل عما يقتل المحرم ، فقال : "الحية ، والعقرب ، والفُوَيْسِقَة ، ويرمي الغراب ولا يقتله ، والكلب العقور ، والحدأة ، والسبع العادي" .

رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ، والترمذي عن أحمد بن منيع ، كلاهما عن هشيم . وابن ماجه ، عن أبي كريم عن محمد بن فضيل ، كلاهما عن يزيد بن أبي زياد ، وهو ضعيف ، به . وقال الترمذي : هذا حديث حسن . (1)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن أيوب قال : نبئت عن طاوس قال : لا يحكم على من أصاب صيدًا خطأ ، إنما يحكم على من أصابه متعمدًا .

وهذا مذهب غريب عن طاوس ، وهو متمسك بظاهر الآية .

وقال مجاهد بن جبير : المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد ، الناسي لإحرامه . فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه ، فذاك أمره أعظم من أن يكفر ، وقد بطل إحرامه .

(1) سنن أبي داود برقم (1848) وسنن الترمذي برقم (838) وسنن ابن ماجة برقم (3089) .

(88/214)

رواه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي نَجِيح وليث بن أبي سليم وغيرهما ، عنه . وهو قول غريب أيضاً . والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه . قال الزهري : دل الكتاب على العامد ، وجرت السنة على الناسي ، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله : ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي صلى الله عليه وسلم وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ ، كما دل الكتاب عليه في العَمْد ، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف ، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، لكن المتعمّد مأثوم والمخطئ غير مَلُوم .

وقوله : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأها : "فجزاؤه مثل ما قتل من النعم" .

وفي قوله : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه

مالك ، والشافعي ، وأحمد ، والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم ، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي ، خلافًا لأبي حنيفة ، رحمه الله ، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثليًا أو غير مثلي ، قال : وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه ، وإن شاء اشترى به هديًا . والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة ببدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز وذكْرُ قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب "الأحكام" ، وأما إذا لم يكن الصيد مثليًا فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه ، يحمل إلى مكة . رواه البيهقي . وقوله : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل ، أو بالقيمة في غير المثل ، عدلان من المسلمين ، واختلف العلماء في القاتل : هل يجوز أن يكون أحد الحكمين ؟ على قولين :

(89/214)

أحدهما : " لا ؛ لأنه قد يُتَّهم في حكمه على نفسه ، وهذا مذهب مالك .

والثاني : نعم ؛ لعموم الآية . وهو مذهب الشافعي ، وأحمد .

واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكومًا عليه في صورة واحدة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نُعَيْم الفضل بن دُكَيْن ، حدثنا جعفر – هو ابن

بُرْقَان – عن ميمون بن مِهْران ؛ أن أعرابيًا أتى أبا بكر قال : قتلت صيدًا وأنا محرم ، فما ترى عليَّ من الجزاء ؟ فقال أبو بكر ، رضي الله عنه ، لأبي بن كعب وهو جالس عنده : ما ترى فيما قال ؟ فقال الأعرابي : أتيتك وأنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسألك ، فإذا أنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر : وما تنكر ؟ يقول الله تعالى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به .

وهذا إسناد جيد ، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق ، ومثله يحتمل ها هنا . فبين له الصديق الحكم برفق وتُؤَدَة ، لما رآه أعرابيا جاهلا وإنما دواء الجهل التعليم ، فأما إذا كان المعترض منسوبًا إلى العلم ، فقد قال ابن جرير :

(90/214)

حدثنا هَنَّاد وأبو هشام الرفاعي قالا حدثنا وَكِيع بن الجراح ، عن المسعودي ، عن عبد الملك بن عمير ، عن قَبِيصة بن جابر قال : خرجنا حجاجًا ، فكنا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا نتماشى نتحدث ، قال : فبينما نحن ذات غداة إذ سنح لنا ظبي – أو : برح – فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ خُشَّاءه فركب رَدْعه ميتًا ، قال : فَعَظَّمْنا عليه ،

فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر رضي الله عنه ، قال : فقص عليه القصة قال : وإلى جنبه رجل كأن وجهه قُلْب فضة – يعني عبد الرحمن بن عوف – فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه قال : ثم أقبل على الرجل فقال : أعمدًا قتلته أم خطأ ؟ قال الرجل : لقد تعمدت رميه ، وما أردت قتله . فقال عمر : ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها واستبق إهابها . قال : فقمنا من عنده ، فقلت لصاحبي : أيها الرجل ، عَظّم شعائر الله ، فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه : اعمد إلى ناقتك فانحرها ، ففعل ذاك . قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ قال : فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدّرّة . قال : فعلا صاحبي ضربًا بالدرة ، وجعل يقول : أقتلت في الحرم وسفَّهت الحكم ؟ قال : ثم أقبل عليَّ فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا أحل لك اليوم شيئًا يحْرُم عليك مني ، قال : يا قبيصة بن جابر ، إني أراك شابّ السن ، فسيح الصدر ، بيّن اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ ، فيفسد الخلقُ السيئ الأخلاقَ الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب .

وقد روى هُشَيْم هذه القصة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن قبيصة ، بنحوه . ورواها أيضًا عن حُصَيْن ، عن الشعبي ، عن قبيصة ، بنحوه . وذكرها مرسلة عن عُمَر : بن بكر بن عبد الله المزني ، ومحمد بن سِيرين .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بَشَّار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن أبي وائل ، أخبرني أبو جرير البَجَلِيّ قال : أصبت ظَبْيًا وأنا محرم ، فذكرت ذلك لعمر ، فقال : ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك . فأتيت عبد الرحمن وسعدًا ، فحكما عليّ بتَيْس أعفر .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا ابن عُيَيْنة ، عن مُخارق ، عن طارق قال : أوطأ أربد ظبيًا فقتلته وهو محرم فأتى عمر ؛ ليحكم عليه ، فقال له عمر : احكم معي ، فحكما فيه جَدْيًا ، قد جمع الماء والشجر . ثم قال عمر : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾

وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين ، كما قاله الشافعي وأحمد ، رحمهما الله .

واختلفوا : هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم ، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل ، وإن كان قد حكم من قبله الصحابة ، أو يكتفي بأحكام الصحابة المتقدمة ؟ على قولين ، فقال الشافعي وأحمد : يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة وجعلاه شرعًا مقررًا لا يعدل عنه ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين . وقال مالك وأبو حنيفة : بل يجب

الحكم في كل فرد فرد ، سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ أي : واصلا إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم ، بأن يذبح هناك ، ويفرق لحمه على مساكين الحرم . وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة .

(92/214)

وقوله : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ أي : إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعَم أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام ، كما هو قول مالك ، وأبي حنيفة ، وأبي يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وأحد قولي الشافعي ، والمشهور عن أحمد رحمهم الله ، لظاهر الآية "أو" فإنها للتخيير . والقول الآخر : أنها على الترتيب .

فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة ، فيُقوّم الصيد المقتول عند مالك ، وأبي حنيفة وأصحابه ، وحماد ، وإبراهيم . وقال الشافعي : يقوم مثله من النعم لو كان موجودًا ، ثم يشتري به طعام ويتصدق به ، فيصرف لكل مسكين مُدٌّ منه عند الشافعي ، ومالك ، وفقهاء الحجاز ، واختاره ابن جرير .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : يُطعِم كل مِسْكين مُدَّين ، وهو قول مجاهد .

وقال أحمد : مُدّ من حنطة ، أو مدان من غيره . فإن لم يجد ، أو قلنا بالتخيير صام عن إطعام كل مسكين يومًا .

وقال ابن جرير : وقال آخرون : يصوم مكان كل صاع يومًا . كما في جزاء المترفه بالحلق ونحوه ، فإن الشارع أمر كعب بن عُجْرَة أن يقسم فَرَقًا بين ستة ، أو يصوم ثلاثة أيام ، والفَرَقُ ثلاثة آصع .

واختلفوا في مكان هذا الإطعام ، فقال الشافعي : محله الحرم ، وهو قول عطاء . وقال مالك : يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد ، أو أقرب الأماكن إليه . وقال أبو حنيفة : إن شاء أطعم في الحرم ، وإن شاء أطعم في غيره .

ذكر أقوال السلف في هذا المقام :

(93/214)

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن الحكم ، عن مقْسَم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ قال : إذا

أصاب المحرمُ الصيدَ حكم عليه جزاؤه من النعم ، فإن وجد جزاءه ، ذبحه فتصدق به .

وإن لم يجد نظر كم ثمنه ، ثم قوّم ثمنه طعامًا ، فصام مكان كل نصف صاع يومًا ، قال : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ قال : إنما أريد بالطعام الصيام ، أنه إذ وجد الطعام وجد جزاؤه .

ورواه ابن جرير ، من طريق جرير .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ إذا قتل المحرم شيئًا من الصيد ، حكم عليه فيه . فإن قتل ظبيًا أو نحوه ، فعليه شاة تذبح بمكة . فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . فإن قتل إبلا أو نحوه ، فعليه بقرة . فإن لم يجد أطعم عشرين مسكينًا . فإن لم يجد صام عشرين يومًا . وإن قتل نعامة أو حمارَ وحش أو نحوه ، فعليه بدنة من الإبل . فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينًا . فإن لم يجد صام ثلاثين يومًا .

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وزاد : والطعام مُدٌّ مُدّ تشبَعهم .

وقال جابر الجُعْفي ، عن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ قالوا : إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدي . رواه ابن جرير .

وكذا روى ابن جُرَيْج عن مجاهد ، وأسباط عن السُّدّي أنها على الترتيب .

وقال عطاء ، وعكرمة ، ومجاهد – في رواية الضحاك – وإبراهيم النَّخَعِي : هي على

الخيار . وهو رواية الليث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس . واختار ذلك ابن جرير ، رحمه الله تعالى .

(94/214)

وقوله : ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ أي : أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ أي : في زمان الجاهلية ، لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله ، ولم يرتكب المعصية .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ أي : ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه فينتقم الله منه وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ

قال ابن جُرَيْج ، قلت لعطاء : ما ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ قال : عما كان في الجاهلية . قال : قلت : وما ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ ؟ قال : ومن عاد في الإسلام ، فينتقم الله منه ، وعليه مع ذلك الكفارة قال : قلت : فهل في العود حَدٌّ تعلمه ؟ قال : لا . قال : قلت : فترى حقًا على الإمام أن يعاقبه ؟ قال : لا هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله ، عز وجل ، ولكن يفتدي . رواه ابن جرير .

وقيل معناه : فينتقم الله منه بالكفارة . قاله سعيد بن جبير ، وعطاء .

ثم الجمهور من السلف والخلف ، على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء ، ولا فرق بين الأولى والثانية وإن تكرر ما تكرر ، سواء الخطأ في ذلك والعمد .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : من قتل شيئًا من الصيد خطأ ، وهو محرم ، يحكم عليه فيه كلما قتله ، وإن قتله عمدا يحكم عليه فيه مرة واحدة ، فإن عاد يقال له : ينتقم الله منك كما قال الله ، عز وجل .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبي عدي جميعًا ، عن هشام - هو ابن حسان - عن عِكْرِمَة ، عن ابن عباس فيمن أصاب صيدًا فحُكم عليه ثم عاد ، قال : لا يحكم عليه ، ينتقم الله منه .

وهكذا قال شُرَيْح ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، وإبراهيم النَّخَعِي . رواهن ابن جرير ، ثم اختار القول الأول .

(95/214)

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا العباس بن يزيد العبدي ، حدثنا المُعْتَمِر بن سليمان ، عن زيد أبي المعلى ، عن الحسن البصري ؛ أن رجلا أصاب صيدًا ، فتجوز عنه ، ثم عاد فأصاب صيدًا آخر ، فنزلت نار من السماء فأحرقته فهو قوله : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾

وقال ابن جرير في قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ يقول عَزَّ ذكره : والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع ؛ لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره ، له العزة والمنعة .

وقوله : ﴿ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ يعني : أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 190.196 ﴾

(96/214)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لا تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾

والتصريح بالنهي مع كونه معلوماً لا سيما من قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلّى الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 1] لتأكيد الحرمة وترتيب ما يعقبه عليه ، واللام في ﴿ الصيد ﴾ للعهد حسبما سلف ، وإطلاقه على غير المأكول شائع ، وإلى التعميم ذهبت الإمامية ، وأنشدوا لعلي كرم الله تعالى وجهه

: صيد الملوك ثعالب وأرانب . . .

وإذا ركبت فصيدي الأبطال

وخصه الشافعية بالمأكول قالوا : لأنه الغالب فيه عرفا ، وأيد ذلك بما رواه الشيخان " خمس يقتلن في الحل والحرم : الحدأة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور " .

وفي رواية لمسلم " والحية " بدل العقرب ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمة البحث .

(97/214)

والحرم جمع حرام كردح جمع رداح والحرام والمحرم بمعنى والمراد به من أحرم بحج أو عمرة وإن كان في الحل وفي حكمه من كان في الحرم وإن كان حلالاً ، وقيل : المراد به من كان في الحرم وإن لم يكن محرماً بنسك وفي حكمه المحرم وإن كان في الحل ، وقال أبو علي الجبائي : الآية تدل على تحريم قتل الصيد على المحرم بنسك أينما كان وعلى من في الحرم كيفما كان معا ، وقال علي بن عيسى : لا تدل إلا على تحريم ذلك على الأول خاصة ، ولعل الحق مع علي لا مع أبيه ، وذكر القتل دون الذبح ونحوه للإيذان بأن الصيد وإن ذبح في حكم الميتة ، وإلى ذلك ذهب الإمام الأعظم وأحمد ومالك رضي الله تعالى عنهم ، وهو القول الجديد للشافعي رضي الله تعالى عنه ، وفي القديم لا يكون في حكم الميتة ويحل أكله للغير ويحرم على المحرم .

﴿ وَمَن قَتَلَهُ ﴾ كائناً ﴿ مّنكُمْ ﴾ حال كونه ﴿ مُّتَعَمّداً ﴾ أي ذاكر لإحرامه عالماً بحرمة قتل ما يقتله ومثله من قتله خطأ للسنة .

فقد أخرج ابن جرير عن الزهري قال : نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في الخطأ .

وأخرج الشافعي وابن المنذر عن عمرو بن دينار قال : رأيت الناس أجمعين يغرمون في الخطأ ، وقال بعضهم : التقييد به بالعمد لأنه الأصل والخطأ ملحق به قياساً .

واعترض بأن القياس في الكفارات مختلف فيه ، والحنفية لا تراه ، وقيل : التقييد به لأنه المورد ، فقد روي أنه عن لهم حمار وحشي فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمحه فقتله فقيل له : قتلته وأنت محرم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فأنزل الله تعالى الآية .

واعترض بأن الخبر على تقدير ثبوته إنما يدل على أن القتل من أبي اليسر كان عن قصد وهو غير العمد بالمعنى السابق إذ قد أخذ فيه العلم بالتحريم ، وفعل أبي اليسر خال عن ذلك بشهادة الخبر إذ يدل أيضاً على أن حرمة قتل المحرم الصيد علمت بعد نزول الآية .

وأجيب بأنا لا نسلم أن أبا اليسر لم يكن عالماً بالحرمة إذ ذاك .

(98/214)

فقد روي عن جابر بن عبد الله وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أن الصيد كان حراماً في الجاهلية حيث كانوا يضربون من قتل صيداً ضرباً شديداً ، والمعلوم من الآية كون ذلك من شرعنا ، وقيل : إن العلم بالحرمة جاء من قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّى الصيد ﴾ [المائدة : 1] ولعله أولى .

وعن داود أنه لا شيء في الخطأ أخذاً بظاهر الآية .

وروى ابن المنذر ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه وابن جبير وطاوس .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال : من قتله ناسياً لإحرامه فعليه الجزاء ومن قتله متعمداً لقتله غير ناس لإحرامه فذاك إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

وأخرج ابن جرير عن الحسن ومجاهد نحو ذلك ، و ﴿ مِنْ ﴾ يجوز أن تكون شرطية وهو الظاهر ؛ ويجوز أن تكون موصولة .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَجَزَاء مِّثْلُ ما قَتَلَ ﴾ جزائية على الأول وزائدة لشبه المبتدأ بالشرط الثاني .

و(جزاء) بالرفع والتنوين مبتدأ و ﴿ مَثَلُ ﴾ مرفوع على أنه صفته والخبر محذوف أي فعليه ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي فواجبه أو فالواجب عليه جزاء مماثل لما قتله .

وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ مَثَلُ ﴾ بدلا ؛ والزجاج أن يكون (جزاء) مبتدأ و ﴿ مَثَلُ

﴿ خبره إذ التقدير جزاء ذلك الفعل أو المقتول مماثل لما قتله ، وبهذا قرأ الكوفيون ويعقوب ؛ وقرأ باقي السبعة برفع (جزاء) مضافاً إلى ﴿ مَثَلُ ﴾ .

واستشكل ذلك الواحدي بل قال : ينبغي أن لا يجوز لأن الجزاء الواجب للمقتول لا لمثله .

(99/214)

ولا يخفى أن هذا طعن في المنقول المتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك غاية في الشناعة ، وما ذكر مجاب عنه ، أما أولا فبأن (جزاء) كما قيل مصدر مضاف لمفعوله الثاني أي فعليه أن يجزي مثل ما قتل ومفعوله الأول محذوف والتقدير فعليه أن يجزي المقتول من الصيد مثله ثم حذف المفعول الأول لدلالة الكلام عليه وأضيف المصدر إلى الثاني ، وقد يقال لا حاجة إلى ارتكاب هذه المؤنة بأن يجعل مصدراً مضافاً إلى مفعوله من غير تقدير مفعول آخر على أن معنى أن يجزي مثل أن يعطي المثل جزاء ، وأما ثانياً فبأن تجعل الإضافة بيانية أي جزاء هو مثل ما قتل ، وأما ثالثاً فبأن يكون ﴿ مَثَلُ ﴾ مقحما كما في قولهم : مثلك لا يفعل كذا .

واعترض هذا بأنه يفوت عليه اشتراط المماثلة بين الجزاء والمقتول وكون جزائه المحكوم به ما يقاومه ويعادله وهو يقتضي المماثلة مما لا يكاد يسلم انفهامه من هذه الجملة كما لا يخفى .

وقرأ محمد بن مقاتل بتنوين (جزاء) ونصبه ونصب ﴿ مَثَلُ ﴾ أي فليجز جزاء أو فعليه أن يجزي جزاء مثل ما قتل ، وقرأ السلمي برفع (جزاء) منوناً ونصب ﴿ مَثَلُ ﴾ أما رفع (جزاء) فظاهر وأما نصب (مثل) فبجزاء أو بفعل محذوف دل جزاء عليه أي يخرج أو يؤدي مثل .

وقرأ عبد الله ﴿ فَجَزَاؤُهُ ﴾ برفع جزاء مضافاً إلى الضمير ورفع (مثل) على الابتداء والخبرية .

(100/214)

والمراد عند الإمام الأعظم وأبي يوسف المثل باعتبار القيمة يقوم الصيد من حيث إنه صيد لا من حيث ما زاد عليه بالصنع في المكان الذي أصابه المحرم فيه أو في أقرب الأماكن إليه مما يباع فيه ويشرى وكذا يعتبر الزمان الذي أصابه فيه لاختلاف القيم باختلاف الأمكنة والأزمنة فإن بلغت قيمته قيمة هدي يخير الجاني بين أن يشتري بها ما قيمته قيمة الصيد فيهديه إلى الحرم وبين أن يشتري بها طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره ، ولا يجوز أن يطعم مسكيناً أقل من نصف صاع ولا يمنع أن يعطيه أكثر ولو كان كل الطعام غير أنه إن فعل أجزأ عن إطعام مسكين نصف صاع وعليه أن يكمل بحسابه ويقع

الباقي تطوعاً وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً فإن فضل ما لا يبلغ طعام مسكين تصدق به أو صام عنه يوماً كاملاً لأن الصوم أقل من يوم لم يعهد في الشرع وإن لم تبلغ قيمته قيمة هدي فإن بلغت ما يشتري به طعام مسكين يخير بين الإطعام والصوم وإن لم تبلغ إلا ما يشتري به مدا من الحنطة مثلاً يخير بين أن يطعم ذلك المقدار وبين أن يصوم يوماً كاملاً لما قلنا فيكون قوله تعالى : ﴿ مِنَ النعم ﴾ تفسيراً للهدي المشتري بالقيمة على أحد وجوه التخيير فإن من فعل ذلك يصدق عليه أنه جزى بمثل ما قتل من النعم .

ونظر فيه صاحب "التقريب" لأن قراءة رفع (جزاء) و(مثل) تقتضي أن يكون الجزاء مماثلاً من النعم للصيد فإن كان الجزاء القيمة فليس مماثلاً له منها بل الجزاء قيمة يشتري بها مماثل .

وأجاب في "الكشف" بأن ما يشتري بالجزاء جزاء أيضاً فإن طعام المساكين جزاء بالإجماع وهو مشترى بالقيمة .

(101/214)

والحاصل أنه يصدق عليه أنه جزاء وأنه اشترى بالجزاء ولا تنافي بينهما ، وادعى صاحب "الهداية" "أن ﴿ مِنَ النعم ﴾ بيان لما قتل وأن معنى الآية فجزاء هو قيمة ما قتل من النعم

بجعل المثل بمعنى القيمة وحمل النعم على النعم الوحشي لأن الجزاء إنما يجب بقتله لا بقتل الحيوان الأهلي ، وقد ثبت كما قال أبو عبيدة والأصمعي أن النعم كما تطلق على الأهلي في اللغة تطلق على الوحشي" ، وكان كلام أبي البقاء حيث قال : يجوز أن يكون ﴿ مِنَ النعم ﴾ حالا من الضمير في ﴿ قَتْلَ ﴾ لأن المقتول يكون من النعم مبنياً على هذا ، وهو مع بعد إرادته من النظم الكريم خلاف المتبادر في نفسه ، فإن المشهور أن النعم في اللغة الإبل والبقر والغنم دون ما ذكر ، وقد نص على ذلك الزجاج وذكر أنه إذا أفردت الإبل قيل لها نعم أيضاً وإن أفردت البقرة والغنم لا تسمى نعماً .

(102/214)

"وقال محمد ونسب إلى الشافعي ومالك والإمامية أيضاً : المراد بالمثل والنظير في المنظر فيما له نظير في ذلك لا في القيمة ففي الظبي شاة وفي الضبع شاة وفي الأرنب عناق وفي اليربوع جفرة وفي النعامة بدنة ، وفي حمار الوحش بقرة لأن الله تعالى أوجب مثل المقتول مقيداً بالنعم فمن اعتبر القيمة فقد خالف النص لأنها ليست بنعم ولأن الصحابة كعلي كرم الله تعالى وجهه وعمر وعبد الله بن مسعود وغيرهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين أوجبوا في النعامة بدنة ، وفي حمار الوحش بقرة إلى غير ذلك ، وجاء عن النبي صلى الله عليه

وسلم كما رواه أبو داود " الضبع صيد وفيه شاة " وما ليس له نظير من حيث الخلقة مثل العصفور والحمام تجب فيه القيمة عند محمد كما هو عند الإمام الأعظم وصاحبه ، وعن الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه يعتبر المماثلة من حيث الصفات فأوجب في الحمام شاة لمشابهة بينهما من حيث إن كل واحد منهما يعب ويهدر وروي ذلك عن ابن عباس وابن عمر ومقاتل رضي الله تعالى عنهم ، وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال : أول من فدى طير الحرم بشاة عثمان رضي الله تعالى عنه ، ولأبي حنيفة وأبي يوسف رضي الله تعالى عنهما أن الله تعالى أطلق المثل والمثل المطلق هو المثل صورة ومعنى وهو المشارك في النوع وهو غير مراد هنا بالإجماع فبقي أن يراد المثل معنى" وهو القيمة وهذا لأن المعهود في الشرع في إطلاق لفظ المثل أن يراد المشارك في النوع أو القيمة فقد قال تعالى في ضمان العدوان : ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 194] والمراد الأعم منها أعني المماثل في النوع إذا كان المتلف مثلياً والقيمة إذا كان قيمياً بناء على أنه مشترك معنوي ، والحيوانات من القيميات شرعاً إهداراً للماثلة الكائنة في تمام الصورة فيها تغليباً للاختلاف الباطني في أبناء نوع واحد فما ظنك إذا انتفى المشاركة في النوع أيضاً فلم يبق إلا

(103/214)

مشاكلة في بعض الصورة كطول العنق والرجلين في النعامة مع البدنة ونحو ذلك في غيره فإذا حكم الشرع بانتفاء اعتبار المماثلة مع المشاكلة في تمام الصورة ولم يضمن المتلف بما شاركه في تمام نوعه بل بالمثل المعنوي فعند عدمها وكون المشاكلة في بعض الهيئة انتفاء الاعتبار أظهر إلا أن لا يمكن وذلك بأن يكون للفظ محمل يمكن سواه فالواجب إذا عهد المراد بلفظ في الشرع وتردد فيه في موضع يصح حمله على ذلك المعهود وغيره أن يحمل على المعهود وما نحن فيه كذلك فوجب المصير إليه وأن يحمل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن صحابته الكرام رضي الله تعالى عنهم من الحكم بالنظير على أنه كان باعتبار التقدير بالقيمة إلا أن الناس إذ ذاك لما كانوا أرباب مواش كان الأداء عليهم منها أيسر لا على معنى أنه لا يجزىء غير ذلك ، وحديث التقييد بالنعم قد علمت الجواب عنه ، وذكر مولانا شيخ الإسلام أن الموجب الأصلي للجناية والجزاء المماثل للمقتول إنما هو قيمته لكن لا باعتبار أن الجاني يعمد إليها فيصرفها إلى المصارف ابتداء بل باعتبار أن يجعلها معياراً فيقدر بها إحدى الخصال الثلاث فيقيمها مقامها فقوله تعالى : ﴿ مِّثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ وصف لازم للجزاء غير مفارق عنه بحال .

وأما قوله سبحانه ﴿ مِنَ النعم ﴾ فوصف له معتبر في ثاني الحال بناء على وصفه الأول الذي هو المعيار له ولما بعده من الطعام والصيام فحقهما أن يعطفا على الوصف المفارق لا

على الوصف اللازم فضلاً عن العطف على الموصوف كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ومما يرشد إلى أن المراد بالمثل هو القيمة قوله عز وجل : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ﴾ أي بمثل ما قتل ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أي حكمان عدلان من المسلمين لأن التقويم هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون المماثلة في الصورة التي يستوي في معرفتها كل أحد من الناس .

وهذا ظاهر الورود على ظاهر قول محمد .

(104/214)

وقد يقال : إن هذه الجملة مرشدة إلى ما قلنا أيضاً على رأي من يجعل مدار المماثلة بين الصيد والنعم المشاكلة والمضاهاة في بعض الأوصاف والهيآت مع تحقق التباين بينهما في بقية الأحوال فإن ذلك مما لا يهتدي إليه من أساطين أئمة الاجتهاد وصناديد أهل الهداية والرشاد إلا المؤيدون بالقوة القدسية .

ألا يرى أن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ومن أسلفنا ذكره أوجبوا في قتل الحمامة شاة بناء على ما أثبت بينهما من المماثلة في العب والهدير مع أن النسبة بينهما من سائر الحيثيات كما بين الضب والنون بل السمك والسماك فكيف يفوض معرفة هذه الدقائق العويصة إلى رأي عدلين من آحاد الناس على أن الحكم بهذا المعنى إنما يتعلق بالأنواع لا

بالأشخاص فبعد ما عين بمقابلة كل نوع من أنواع الصيد نوع من أنواع النعم يتم الحكم ولا يبقى عند وقوع خصوصيات الحوادث حاجة إلى حكم أصلاً .

وقرأ محمد بن جعفر ﴿ ذُو عَدْلٍ ﴾ وخرجها ابن جني على إرادة الإمام ، وقيل : إن (ذو) تستعمل استعمال من للتقليل والتكثير ، وليس المراد بها هنا الوحدة بل التعدد ويراد منه إثنان لأنه أقل مراتبه ، وفي "الهداية" "قالوا : والعدل الواحد يكفي والمثنى أولى لأنه أحوط وأبعد من الغلط" ، وعلى هذا لا حاجة إلى حمل (ذو) على المتعدد ولا على الإمام بل المراد منها الواحد إماماً كان أو غيره ، ومن اشترط الإثنين حمل العدد في الآية على القراءة المتواترة على الأولوية ، والجملة صفة لجزاء أو حال من الضمير المستتر في خبره المقدر ، وقيل : حال منه لتخصيصه بالصفة ، وجوز ابن الهمام على قراءة رفع (جزاء) وإضافته أن تكون صفة لمثل كما أن تكون صفة لجزاء لأن مثلاً لا تتعرف بالإضافة فجاز وصفها ووصف ما أضيف إليها بالجملة .

(105/214)

وقوله تعالى : ﴿ هَدْياً ﴾ حال مقدرة من الضمير في ﴿ بِهِ ﴾ كما قال الفارسي أو من (جزاء) بناء على أنه خبر أو منه على تقدير كونه مبتدأ في رأي أو بدل من ﴿ مَثَلُ ﴾ فيمن

نصبه أو من محله فيمن جره أو نصب على المصدر أي يهديه هدياً والجملة صفة أخرى لجزاء ﴿ بالغ الكعبة ﴾ صفة لهدياً لأن إضافته لفظية ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ ﴾ عطف على محل ﴿ مِنَ النعم ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة صفة لجزاء على ما اختاره شيخ الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ طَعَامُ مساكين ﴾ عطف بيان لكفارة عند من يراه كالفارسي في النكرات أو بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف أي هي طعام مساكين.

وقوله سحبانه: ﴿ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ عطف على ﴿ طَعَامُ ﴾ وذلك إشارة إليه و﴿ صِيَاماً ﴾ تمييز.

وخلاصة الآية كأنه قيل: فعليه جزاء أو فالواجب جزاء مماثل للمقتول هو من النعم أو طعام مساكين أو صيام بعددهم فحينئذ تكون المماثلة وصفاً لازماً للجزاء يقدر به الهدي والطعام والصيام.

أما الأولان فبلا واسطة، وأما الثالث: فبواسطة الثاني فيختار الجاني كلاً منها بدلاً عن الآخرين، "وكون الاختيار للجاني هو ما ذهب إليه أبو حنيفة وأبو يوسف رضي الله تعالى عنهما فعندهما إذا ظهر قيمة الصيد بحكم الحكمين وهي تبلغ هدياً فله الخيار في أن يجعله هدياً أو طعاماً أو صوماً لأن التخيير شرع رفقاً بمن عليه فيكون الخيار إليه ليرتفق بما يختار كما في كفارة اليمين.

وقال محمد وحكاه أصحابنا عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أيضاً إن الخيار إلى الحكمين في تعيين أحد الأشياء فإن حكما بالهدي يجب النظير على ما مر وإن حكما بالطعام أو الصيام فعلى ما قاله الإمام وصاحبه من اعتبار القيمة من حيث المعنى .

(106/214)

واستدل كما قيل على ذلك بالآية ، ووجهه أنه ذكر الهدي منصوباً على أنه تفسير للضمير المبهم العائد على ﴿ مَثَلُ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ ﴾ سواء كان حالاً منه كما قدمنا أو تمييزاً على ما قيل فيثبت أن المثل إنما يصير هدياً باختيارهما وحكمهما أو هو مفعول لحكم الحاكم على أن يكون بدلاً عن الضمير محمولاً على محله كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا ﴾ [الأنعام : 161] وفي ذلك تنصيص على أن التعيين إلى الحكمين ثم لما ثبت ذلك في الهدي ثبت في الطعام والصيام لعدم القائل بالفصل لأنه سبحانه عطفهما عليه بكلمة (أو) وهي عند غير الشعبي والسدي وابن عباس رضي الله تعالى عنهم في رواية للتخيير فيكون الخيار إليهما .

وأجاب عن ذلك غير واحد من أصحابنا بأن الاستدلال إنما يصح لو كان كفارة معطوفة على ﴿ هَدْياً ﴾ وليس كذلك لاختلاف إعرابهما وإنما هي معطوفة على قوله تعالى :

﴿ فَجَزَاء ﴾ بدليل أنه مرفوع وكذا قوله : ﴿ أَو عَدْلُ ﴾ الخ فلم يكن في الآية دلالة على اختيار للحكمين في الطعام والصيام وإذا لم يثبت الخيار فيهما للحكمين لم يثبت في الهدي لعدم القائل بالفصل وإنما يرجع إليهما في (تقديم) المتلف لا غير ، ثم الاختيار بعد ذلك إلى من عليه" رفقاً به على أن في توجيه الاستدلال على ما قاله أكمل الدين في "العناية" إشكالاً لأن ذكر الطعام والصيام بكلمة (أو) لا يفيد المطلوب إلا إذا كان (كفارة) منصوباً على ما هو قراءة عيسى بن عمر النحوي وهي شاذة ، والشافعي لا يرى الاستدلال بالقراءة الشاذة لا من حيث إنها كتاب ولا من حيث إنها خبر كما عرف في الأصول .

(107/214)

واعترض مولانا شيخ الإسلام على عطف ﴿ كَفَّارَةُ ﴾ على (جزاء) وقد ذهب إليه أجلة المفسرين والفقهاء بأنه لا يبقى حينئذ في النظم الكريم ما يقدر به الطعام والصيام ، والالتجاء إلى القياس على الهدي تعسف لا يخفى وقد علمت ما اختاره .

والآية عليه أيضاً لا تصلح دليلاً على مدعى الخصم كما هو ظاهر على أن الظاهر منها كما قاله ابن الهمام أن الاختيار لمن عليه فإن مرجع ضمير المحذوف من الخبر أو متعلق المبتدأ إليه بناء على أن التقدير فعليه أو فالواجب عليه ، "ثم إذا وقع الاختيار على الهدي يهدي

ما يجزيه في الأضحية وهو الجذع الكبير من الضأن أو الثني من غيره عند أبي حنيفة لأن مطلق اسم الهدي ينصرف إليه" كما في هدي المتعة والقران .

واعترض عليه بأن اسم الهدي قد ينصرف إلى غيره كما إذا قال : إذا فعلت كذا فثوبي هذا هدي فليكن في محل النزاع كذلك .

وأجيب بأن الكلام في مطلق الهدي وما ذكر ليس كذلك لأن الإشارة إلى الثوب قيدته ، "وعند محمد يجزىء صغار النعم لأن الصحابة كما تقدم أوجبوا عناقاً وجفرة" فدل على جواز ذلك في باب الهدي ، وعن أبي يوسف روايتان رواية كقول الإمام ، وأخرى كقول محمد وهي التي في "المبسوط" و"الأسرار" وغيرهما ، "وعند أبي حنيفة يجوز الصغار على وجه الإطعام" فيجوز أن يكون حكم الصحابة رضي الله تعالى عنهم كان على هذا الاعتبار فمجرد فعلهم حينئذ لا ينافي ما ذهب إليه الإمام فلا ينتهض حجة عليهم .

وإذا اختار الهدي وبلغ ما يضحي به فلا يذبح إلا بالحرم وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾ إلا أن ذكر الكعبة للتعظيم .

ولو ذبحه في الحل لا يجزيه عن الهدي بل عن الإطعام فيشترط أن يعطي كل مسكين قيمة نصف صاع حنطة أو صاع من غيرها ، ويجوز أن يتصدق بالشاة الواقعة هدياً على مسكين واحد كما في هدي المتعة ولا يتصدق بشيء من الجزاء على من لا تقبل شهادته له ، ويجوز على أهل الذمة والمسلم أحب .

ولو أكل من الجزاء غرم قيمة ما أكل ، ولا يشترط في الإطعام أن يكون في الحرم .

"ونقلوا عن الشافعي أنه يشترط ذلك اعتباراً له بالهدي والجامع التوسعة على سكان الحرم ، ونحن نقول : الهدي قربة غير معقولة فيختص بمكان أو زمان أما الصدقة فقربة معقولة في كل زمان ومكان كالصوم فإنه يجوز في غير الحرم بالإجماع فإن ذبح في الكوفة مثلاً أجزأه عن الطعام إذا تصدق باللحم ، وفيه وفاء بقيمة الطعام لأن الإراقة لا تنوب عنه" ، ولو سرق هذا المذبوح أو ضاع قبل التصدق به بقي الواجب عليه كما كان وهذا بخلاف ما لو كان الذبح في الحرم حيث يخرج عن العهدة .

وإن سرق المذبوح أو ضاع قبل التصدق به وإذا وقع الاختيار على الطعام يقوم المتلف بالقيمة ثم يشتري بالقيمة طعام ويتصدق به على ما أشرنا إليه أولاً .

وفي "الهداية" "يقوم المتلف بالطعام عندنا لأنه المضمون فتعتبر قيمته2 .

ونقل حميد الدين الضرير عن محمد أنه يقوم النظير لأنه الواجب عيناً إذا كان للمقتول نظير ، وأنت تعلم أنه لو سلم أن النظير هو الواجب عيناً عند اختيار الهدي لم يلزم منه وجوب تقديمه عند اختيار خصلة أخرى فكيف وهو ممنوع ، وإن اختار الصيام فعلى ما في

"الهداية" يقوم المقتول طعاماً ثم يصوم عن طعام كل مسكين يوماً على ما مر لأن تقدير الصيام بالمقتول غير ممكن إذ لا قيمة للصيام فقدرناه بالطعام ، والتقدير على هذا الوجه معهود في الشرع كما في الفدية وتمام البحث في الفروع .

والكفارة والطعام في الآية على ما يشعر به كلام بعض المفسرين بالمعنى المصدري ولو أبقيا على الظاهر لصح هذا ، وما ذكرنا من عطف ﴿ كَفَّارَةٌ ﴾ إنما هو على قراءة (جزاء) بالرفع وعلى سائر القراءات يكون خبر مبتدأ محذوف والجملة معطوفة على جملة ﴿ مِنَ النعم ﴾ .

(109/214)

وذكر الشهاب أنه يجوز في ﴿ كَفَّارَةٌ ﴾ على قراءة (جزاء) بالنصب أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي الواجب عليه كفارة وأن يقدر هناك فعل أي أن يجزىء جزاء فيكون ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ ﴾ عطفاً على أن يجزىء وهو مبتدأ مقدم عليه خبره .

وقرىء ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مساكين ﴾ على الإضافة لتبيين نوع الكفارة بناء على أنها بمعنى المكفر به وهي عامة تشمل الطعام وغيره ، وكذا الطعام يكون كفارة وغيرها فبين المتضايفين عموم وخصوص من وجه كخاتم حديد .

وقال أبو حيان : إن الطعام ليس جنساً للكفارة إلا بتجوز بعيد جداً فالإضافة إنما هي إضافة الملابسة وليس بشيء .

وقرأ الأعرج ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مساكين ﴾ على أن التبيين يحصل بالواحد الدال على الجنس .

وقرىء ﴿ أَو عَدْلُ ﴾ بكسر العين ، والفرق بينهما أن عدل الشيء كما قال الفراء ما عادله من غير جنسه كالصوم والإطعام وعدله ما عدل به في المقدار كأن المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول ، وقال البصريون : العدل والعدل كلاهما بمعنى المثل سواء كان من الجنس أو من غيره .

وقال الراغب : العدل والعدل متقاربان لكنه بالفتح فيما يدرك بالبصيرة كالأحكام وبالكسر فيما يدرك بالحواس كالعديل فالعدل بالفتح هو التقسيط على سواء .

وعلى هذا روي بالعدل قامت السموات تنبيهاً على أنه لو كان ركن من الأركان الأربعة في العالم زائداً على الآخر أو ناقصاً عنه على خلاف مقتضى الحكمة لم يكن العالم منتظماً .

(110/214)

﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ متعلق بالاستقرار الذي تعلق به المقدر ، وقيل : بجزاء ، وقيل : بصيام أو بطعام ، وقيل : بفعل مقدر وهو جوزي أو شرعنا ذلك ونحوه ، والوبال في الأصل الثقل ومنه الوابل للمطر الكثير والوبيل للطعام الثقيل الذي لا يسرع هضمه والمرعى الوخيم ولخشبة القصار وضمير ﴿ أَمْرِهِ ﴾ إما لله تعالى أو لمن قتل الصيد أي ليذوق ثقل فعله وسوء عاقبة هتك حرمة ما هو فيه أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله تعالى القوي ، وعلى هذا لا بد من تقدير مضاف كما أشرنا إليه لأن أمر الله تعالى لا وبال فيه وإنما الوبال في مخالفته .

﴿ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ لكم من الصيد وأنتم محرمون فلم يجعل فيه إثماً ولم يوجب فيه جزاء أو لم يؤاخذكم على ما كان منكم في الجاهلية من ذلك مع أنه ذنب عظيم أيضاً حيث كنتم على شريعة إسماعيل عليه السلام والصيد محرم فيها ، وقد مر رواية التحريم جاهلية والمؤاخذة على قتل الصيد بالضرب الوجيع .

﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ إلى مثل ذلك فقتل الصيد متعمداً وهو محرم ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ أي فهو ينتقم الله تعالى منه لأن الجزاء إذا وقع مضارعاً مثبتاً لم تدخله الفاء ما لم يقدر المبتدأ على المشهور ، وكذا المنفي بلا ، وجوز السمين أن تكون (من) موصولة ودخلت الفاء لشبه المبتدأ بالشرط وهي زائدة والجملة بعدها خبر ولا حاجة حينئذ إلى إضمار المبتدأ .

والمراد بالانتقام التعذيب في الآخرة ؛ وأما الكفارة فعن عطاء وإبراهيم وابن جبير والحسن

والجمهور أنها واجبة على العائد فيتكرر الجزاء عندهم بتكرر القتل .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وشريح أنه إن عاد لم يحكم عليه بكفارة حتى أنهم كانوا يسألون المستفتي هل أصبت شيئاً قبله ؟ فإن قال : نعم لم يحكم عليه وإن قال لا حكم عليه تعلقاً بظاهر الآية .

(111/214)

وأنت تعلم أن وعيد العائد لا ينافي وجوب الجزاء عليه وإنما لم يصرح به لعلمه فيما مضى ، وقيل : معنى الآية ومن عاد بعد التحريم إلى ما كان قبله وليس بالبعيد ، وأما حمل الانتقام على الانتقام في الدنيا بالكفارة وإن كان محتملاً لكنه خلاف الظاهر .

وكذا كون المراد ينتقم منه إذا لم يكفر .

"وقد اختلفوا فيما إذا اضطر محرم إلى أكل الميتة أو الصيد فقال زفر يأكل الميتة لا الصيد لتعدد جهات حرمته عليه ، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : يتناول الصيد ويؤدي الجزاء لأن حرمة الميتة أغلظ ألا ترى أن حرمة الصيد ترتفع بالخروج من الإحرام فهي مؤقتة بخلاف حرمة الميتة فعليه أن يقصد أخف الحرمتين دون أغلظهما والصيد وإن كان محظور الإحرام لكن عند الضرورة يرتفع الحظر فيقتله ويأكل منه ويؤدي الجزاء كما في "المبسوط" .

وفي "الخانية" المحرم إذا اضطر إلى ميتة وصيد فالميتة أولى في قول أبي حنيفة . ومحمد .

وقال أبو يوسف والحسن : يذبح الصيد ولو كان الصيد مذبوحاً فالصيد أولى عند الكل .

ولو وجد لحم صيد ولحم آدمي كان لحم الصيد أولى ولو وجد صيداً وكلباً فالكلب أولى

لأن في الصيد ارتكاب محظورين .

وعن محمد الصيد أولى من لحم الخنزير انتهى .

وفي هذا خلاف ما ذكر في "المبسوط" ﴿ واللهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يغالب ﴿ ذُو انتقام ﴾

شديد فينتقم ممن يتعدى حدوده ويخالف أوامره ويصر على معاصيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لا تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾

استئناف لبيان آية : ﴿ ليبلونّكم الله بشيء من الصيد ﴾ [المائدة : 94] أو لنسخ

حكمها أن كانت تضمّنت حكماً لم يبق به عمل .

وتقدّم القول في معنى ﴿ وأنتم حرم ﴾ في طالع هذه السورة [المائدة : 1] .

(112/214)

واعلم أنّ الله حرّم الصيد في حالين : حال كون الصائد محرِماً ، وحال كون الصيد من صيد الحرم ، ولو كان الصائد حلالاً ؛ والحكمة في ذلك أنّ الله تعالى عظّم شأن الكعبة من عهد إبراهيم عليه السلام وأمره بأن يتّخذ لها حرَماً كما كان الملوك يتّخذون الحِمى ، فكانت بيت الله وحماه ، وهو حرم البيت محترماً بأقصى ما يعدّ حرمة وتعظيماً فلذلك شرع الله حرماً للبيت واسعاً وجعل الله البيت أمناً للناس ووسّع ذلك الأمن حتى شمل الحيوان العائش في حرمه بحيث لا يرى الناس للبيت إلاّ أمنا للعائذ به وبحرمه .

قال النابغة:

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحُها . . .

رُكبانُ مكَّةَ بين الغِيل فالسَّنَد

فالتحريم لصيد حيوان البرّ ، ولم يحرّم صيد البحر إذ ليس في شيء من مساحة الحرم بحر ولا نهر .

ثم حُرّم الصيد على المحرم بحجّ أو عمرة ، لأنّ الصيد إثارة لبعض الموجودات الآمنة .

وقد كان الإحرام يمنع المحرمين القتال ومنعوا التقاتل في الأشهر الحرم لأنها زمن الحج والعمرة فألحق مثل الحيوان في الحرمة بقتل الإنسان ، أو لأنّ الغالب أنّ المحرم لا ينوي الإحرام إلاّ عند الوصول إلى الحرم ، فالغالب أنَّه لا يصيد إلاّ حيوان الحرم .

والصيد عامّ في كلّ ما شأنه أن يصاد ويقتل من الدوابّ والطير لأكله أو الانتفاع ببعضه .

ويلحق بالصيد الوحوش كلّها .

قال ابن الفرس : والوحوش تسمّى صيداً وإن لم تُصد بعدُ ، كما يقال : بئس الرميَّة الأرنب ، وإن لم ترم بعد .

وخصّ من عمومه ما هو مضرّ ، وهي السباع المؤذية وذوات السموم والفأر وسباع الطير .

ودليل التخصيص السنّة .

وقصد القتل تبع لتذكّر الصائد أنّه في حال إحرام ، وهذا مورد الآية ، فلو نسي أنّه محرم فهو غير متعمّد ، ولو لم يقصد قتله فأصابه فهو غير متعمّد .

ولا وجه ولا دليل لمن تأوّل التعمّد في الآية بأنّه تعمّد القتل مع نسيان أنّه محرم .

(113/214)

وقوله : ﴿ وأنْتم حُرُم ﴾ حُرُم جمع حرام ، بمعنى مُحرم ، مثل جمع قذال على قذل ، والمحرم أصله المتلبِّس بالإحرام بحجّ أو عمرة .

ويطلق المحرم على الكائن في الحرم .

قال الراعي:

قتلوا ابنَ عفّان الخليفةَ مُحْرماً . . .

أي كائناً في حرم المدينة .

فأمّا الإحرام بالحجّ والعمرة فهو معلوم ، وأمّا الحصول في الحرم فهو الحلول في مكان الحرم من مكة أو المدينة .

وزاد الشافعي الطائف في حرمة صيده لا في وجوب الجزاء على صائده .

فأمّا حرم مكة فيحرم صيده بالاتّفاق .

وفي صيده الجزاء .

وأمّا حرم المدينة فيحرم صيده ولا جزاء فيه ، ومثله الطائف عند الشافعي .

وحرم مكة معلوم بحدود من قبل الإسلام ، وهو الحرم الذي حرّمه إبراهيم عليه السلام ووضعت بحدوده علامات في زمن عمر بن الخطاب .

وأمّا حرم المدينة فقال النبي صلى الله عليه وسلم " المدينة حرم من ما بين عيَر أو عائر (جبل) إلى ثور " قيل : هو جبل ولا يعرف ثور إلاّ في مكة .

قال النووي : أكثر الرواة في كتاب "البخاري" ذكروا عيَراً ، وأمّا ثور فمنهم من كنّى عنه فقال : من عير إلى كذا ، ومنهم من ترك مكانه بياضاً لأنّهم اعتقدوا ذكر ثور هنا خطأ .

وقيل : إنّ الصواب إلى أحُد كما عند أحمد والطبراني .

وقيل : ثور جبل صغير وراء جبل أحُد .

وقوله : ﴿ ومن قتله منكم ﴾ الخ ، (مَن) اسم شرط مبتدأ ، و ﴿ قتله ﴾ فعل الشرط ، و ﴿ منكم ﴾ صفة لاسم الشرط ، أي من الذين آمنوا .

وفائدة إيراد قوله ﴿ منكم ﴾ أعرض عن بيانها المفسّرون .

والظاهر أنّ وجه إيراد هذا الوصف التنبيه على إبطال فعل أهل الجاهلية ، فمن أصاب صيدا في الحرم منهم كانوا يضربونه ويسلبونه ثيابه ، كما تقدّم آنفاً .

وتعليق حكم الجزاء على وقوع القتل يدلّ على أنّ الجزاء لا يجب إلاّ إذا قتل الصيد ، فأمّا لو جرحه أو قطع منه عضوا ولم يقتله فليس فيه جزاء ، ويدلّ على أنّ الحكم سواء أكل القاتل الصيد أو لم يأكله لأنّ مناط الحكم هو القتل .

(114/214)

وقوله ﴿ متعمّداً ﴾ قيد أخرج المخطىء ، أي في صيده .

ولم تبيّن له الآية حكماً لكنّها تدلّ على أنّ حكمه لا يكون أشدّ من المتعمّد فيحتمل أن يكون فيه جزاء آخر أخفّ ويحتمل أن يكون لا جزاء عليه وقد بيّنته السنّة .

قال الزهري : نزل القرآن بالعمد وجرت السنّة في الناسي والمخطىء أنّهما يكفّران .

ولعلّه أراد بالسنّة العمل من عهد النبوءة والخلفاء ومضى عليه عمل الصحابة .

وليس في ذلك أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم

وقال مالك ، وأبو حنيفة ، والشافعي ، وجمهور فقهاء الأمصار : إنّ العمد والخطأ في ذلك سواء ، وقد غلَّب مالك فيه معنى الغُرم ، أي قاسه على الغُرم .

والعمد والخطأ في الغرم سواء فلذلك سوّى بينهما .

ومضى بذلك عمل الصحابة .

وقال أحمد بن حنبل ، وابن عبد الحكم من المالكية ، وداوود الظاهري ، وابن جبير وطاووس ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، وعطاء ، ومجاهد : لا شيء على الناسي .

وروي مثله عن ابن عباس .

وقال مجاهد ، والحسن ، وابن زيد ، وابن جريج : إن كان متعمّداً للقتل ناسياً إحرامه فهو مورد الآية ، فعليه الجزاء .

وأمّا المتعمّد للقتل وهو ذاكر لإحرامه فهذا أعظم من أن يكفّر وقد بطل حجّه ، وصيده جيفة لا يؤكل .

والجزاء العوض عن عمل ، فسمّى الله ذلك جزاء ، لأنّه تأديب وعقوبة إلاّ أنّه شرع على صفة الكفّارات مثل كفارة القتل وكفارة الظهار .

وليس القصد منه الغرم إذ ليس الصيد بمنتفع به أحد من الناس حتى يغرَم قاتله ليجبر ما

أفاته عليه .

وإنّما الصيد ملك الله تعالى أباحه في الحلّ ولم يبحه للناس في حال الإحرام ، فمن تعدّى عليه في تلك الحالة فقد فرض الله على المتعدّي جزاء .

وجعله جزاء ينتفع به ضعاف عبيده .

وقد دلّنا على أنّ مقصد التشريع في ذلك هو العقوبة قولُه عقبه ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ .

(115/214)

وإنّما سمّي جزاء ولم يسمّ بكفّارة لأنّه روعي فيه المماثلة ، فهو مقدّر بمثل العمل فسمّي جزاء ، والجزاء مأخوذ فيه المماثلة والموافقة قال تعالى : ﴿ جزاءاً وفاقاً ﴾ [النبأ : 26] .

وقد أخبر أنّ الجزاء مثل ما قتل الصائد ، وذلك المثل من النعم ، وذلك أنّ الصيد إمّا من الدوابّ وإمّا من الطير ، وأكثر صيد العرب من الدوابّ ، وهي الحمر الوحشية وبقر الوحش والأروى والظباء ومن ذوات الجناح النعام والإوز ، وأمّا الطير الذي يطير في الجوّ فنادر صيده ، لأنّه لا يصاد إلاّ بالمعراض ، وقلّما أصابه المعراض سوى الحمام الذي بمكة وما يقرب منها ، فمماثلة الدوابّ للأنعام هيّنة .

وأمّا مماثلة الطير للأنعام فهي مقاربة وليست مماثلة ؛ فالنعامة تقارب البقرة أو البدنة ، والإوز يقارب السخلة ، وهكذا .

وما لا نظير له كالعصفور فيه القيمة .

وهذا قول مالك والشافعي ومحمد بن الحسن .

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : المثل القيمة في جميع ما يصاب من الصيد .

والقيمة عند مالك طعام .

وقال أبو حنيفة : دارهم .

فإذا كان المصير إلى القيمة ؛ فالقيمة عند مالك طعام يتصدّق به ، أو يصوم عن كلّ مدّ من الطعام يوماً ، ولكسر المدّ يوماً كاملاً .

وقال أبو حنيفة : يشتري بالقيمة هدياً إن شاء ، وإن شاء اشترى طعاماً ، وإن شاء صام عن كلّ نصف صاع يوماً .

وقد اختلف العلماء في أنّ الجزاء هل يكون أقلّ ممّا يجزىء في الضحايا والهدايا .

فقال مالك : لا يجزىء أقل من ثني الغنم أو المعز لأنّ الله تعالى قال : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ .

فما لا يجزىء أن يكون هدياً من الأنعام لا يكون جزاء ، فمن أصاب من الصيد ما هو صغير كان مخيّراً بين أن يعطي أقلّ ما يجزي من الهدي من الأنعام وبين أن يعطي قيمة ما صاده

طعاماً ولا يعطي من صغار الأنعام .

وقال مالك في "الموطأ" : وكلّ شيء فدي ففي صغاره مثل ما يكون في كباره .

وإنّما مثل ذلك مثل دية الحرّ الصغير والكبير بمنزلة واحدة .

(116/214)

وقال الشافعي وبعض علماء المدينة : إذا كان الصيد صغيراً كان جزاؤه ما يقاربه من صغار الأنعام لما رواه مالك في "الموطأ" عن أبي الزبير المكّي أنّ عمر بن الخطاب قضى في الأرنب بعَناق وفي اليربوع بجفرة .

قال الحفيد ابن رشد في كتاب "بداية المجتهد" : وذلك ما روي عن عمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود أ هـ .

وأقول : لم يصحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك شيء ، فأمّا ما حكم به عمر فلعلّ مالكاً رآه اجتهاداً من عمر لم يوافقه عليه لظهور الاستدلال بقوله تعالى : ﴿ هديا بالغ الكعبة ﴾ .

فإنّ ذلك من دلالة الإشارة ، ورأى في الرجوع إلى الإطعام سعة ، على أنّه لو كان الصيد لا مماثل له من صغار الأنعام كالجرادة والخنفساء لوجب الرجوع إلى الإطعام ، فليرجع إليه عند

كون الصيد أصغر ممّا يماثله ممّا يجزىء في الهدايا .

فمن العجب قول ابن العربي : إنّ قول الشافعي هو الصحيح ، وهو اختيار علمائنا .

ولم أدر من يعنيه من علمائنا فإنّي لا أعرف للمالكية مخالفاً لمالك في هذا .

والقول في الطير كالقول في الصغير وفي الدوابّ ، وكذلك القول في العظيم من الحيوان كالفيل والزرافة فيرجع إلى الإطعام .

ولمّا سمّى الله هذا جزاء وجعله مماثلاً للمصيد دلّنا على أنّ من تكرّر منه قتل الصيد وهو محرم وجب عليه جزاء لكلّ دابّة قتلها ، خلافاً لداوود الظاهري ، فإنّ الشيئين من نوع واحد لا يماثلهما شيء واحد من ذلك النوع ، ولأنه قد تقتل أشياء مختلفة النوع فكيف يكون شيء من نوع مماثلاً لجميع ما قتله .

وقرأ جمهور القرّاء ﴿ فجزاء مثل ما قتل ﴾ بإضافة ﴿ جزاء ﴾ إلى ﴿ مثل ﴾ ؛ فيكون ﴿ جزاء ﴾ مصدراً بدلاً عن الفعل ، ويكون ﴿ مثلُ ما قتل ﴾ فاعل المصدر أضيف إليه مصدره .

و﴿ من النعم ﴾ بيان المثل لا ل ﴿ مَا قَتَلَ ﴾ .

والتقدير : فمثل ما قتل من النعم يجزىء جزاء ما قتله ، أي يكافىء ويعوّض ما قتله .

وإسناد الجزاء إلى المثل إسناد على طريقة المجاز العقلي .

ولك أن تجعل الإضافة بيانية ، أي فجزاء هو مثل ما قتل ، والإضافة تكون لأدنى ملابسة .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ [سبأ : 37] .

وهذا نظم بديع على حدّ قوله تعالى : ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء : 92] ، أي فليحرّر رقبة .

وجعله صاحب "الكشاف" من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي فليجز مثلَ ما قتلَ .

وهو يقتضي أن يكون النعم هو المعوّض لا العوض لأنّ العوض يتعدّى إليه فعل (جزى) بالباء ويتعدّى إلى المعوّض بنفسه .

تقول : جزيْت ما أتلفتُه بكذا درهماً ، ولا تقول : جزيْت كذا درهماً بما أتلفته ، فلذلك اضطرّ الذين قدّروا هذا القول إلى جعل لفظ (مثل) مقحماً .

ونظّروه بقولهم : "مثلك لا يبخل" ، كما قال ابن عطية وهو معاصر للزمخشري .

وسكت صاحب "الكشاف" عن الخوض في ذلك وقرّر القطب كلام "الكشاف" على لزوم جعل لفظ ﴿ مثل ﴾ مقحماً وأنّ الكلام على وجه الكناية ، يعني نظير ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] وكذلك ألزمه إياه التفتازاني ، واعتذر عن عدم التصريح به في كلامه بأنّ الزمخشري بصدد بيان الجزاء لا بصدد بيان أنّ عليه جزاء ما قتل .

وهو اعتذار ضعيف .

فالوجه أن لا حاجة إلى هذا التقدير من أصله .

وقد اجترأ الطبري فقال : أن لا وجه لقراءة الإضافة وذلك وهم منه وغفلة من وجوه تصاريف الكلام العربي .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، ويعقوب ، والكسائي ، وخلف ﴿ فجزاءٌ مثلُ ﴾ بتنوين (جزاء) .

ورفع (مثل) على تقدير : فالجزاء هو مثلُ ، على أنّ الجزاء مصدر أطلق على اسم المفعول ، أي فالمَجزي به المقتول مثلُ ما قتله الصائد .

وقوله تعالى : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ جملة في موضع الصفة ل ﴿ جواء ﴾ أو استئناف بياني ، أي يحكم بالجزاء ، أي بتعيينه .

والمقصد من ذلك أنّه لا يبلغ كلّ أحد معرفة صفة المماثلة بين الصيد والنعم فوكل الله أمر ذلك إلى الحكمين .

(118/214)

وعلى الصائد أن يبحث عمّن تحقّقت فيه صفة العدالة والمعرفة فيرفع الأمر إليهما .

ويتعيّن عليهما أن يجيباه إلى ما سأل منهما وهما يُعيّنان المثل ويخيّرانه بين أن يعطي المثل أو الطعام أو الصيام ، ويقدّران له ما هو قَدر الطعام إن اختاره .

وقد حكم من الصحابة في جزاء الصيد عمر مع عبد الرحمان بن عوف ، وحكم مع كعب بن مالك ، وحكم سعد بن أبي وقاص مع عبد الرحمان بن عوف ، وحكم عبد الله بن عمر مع ابن صفوان .

ووُصف ﴿ ذوا عدل ﴾ بقوله : ﴿ منكم ﴾ أي من المسلمين ، للتحذير من متابعة ما كان لأهل الجاهلية من عمل في صيد الحرم فلعلَّهم يدّعون معرفة خاصّة بالجزاء .

وقوله : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ حال من ﴿ مثل ما قتل ﴾ ، أو من الضمير في (به) .

والهدي ما يذبح أو ينحر في منحر مكة .

والمنحر : منى والمروة .

ولما سمّاه الله تعالى ﴿ هدياً ﴾ فله سائر أحكام الهدي المعروفة .

ومعنى ﴿ بالغ الكعبة ﴾ أنّه يذبح أو ينحر في حرم الكعبة ، وليس المراد أنّه ينحر أو يذبح حول الكعبة .

وقوله : ﴿ أو كفّارة طعام مساكين ﴾ عطف على ﴿ فجزاء ﴾ وسمّى الإطعام كفّارة لأنّه ليس بجزاء ، إذ الجزاء هو العوض ، وهو مأخوذ فيه المماثلة .

وأمّا الإطعام فلا يماثل الصيد وإنّما هو كفارة تكفّر به الجريمة .

وقد أجمل الكفارة فلم يبيّن مقدار الطعام ولا عدد المساكين .

فأمّا مقدار الطعام فهو موكول إلى الحكمين ، وقد شاع عن العرب أنّ المدّ من الطعام هو طعام رجل واحد ، فلذلك قدّره مالك بمدّ لكلّ مسكين .

وهو قول الأكثر من العلماء .

وعن ابن عباس : تقدير الإطعام أن يقوّم الجزاء من النعم بقيمته دراهم ثم تقوّم الدراهم طعاماً .

وأمّا عدد المساكين فهو ملازم لعدد الأمداد .

قال مالك : أحسن ما سمحت إليَّ فيه أنه يقوّم الصيد الذي أصاب وينظر كم ثمن ذلك من الطعام ، فيطعم مدّاً لكلّ مسكين .

ومن العلماء من قدّر لكلّ حيوان معادلاً من الطعام .

(119/214)

فعن ابن عباس : تعديل الظبي بإطعام ستة مساكين ، والأيل بإطعام عشرين مسكيناً ، وحمار الوحش بثلاثين ، والأحسن أنّ ذلك موكول إلى الحكمين .

و﴿ أو ﴾ في قوله ﴿ أو كفارة طعام مساكين ﴾ وقوله : ﴿ أو عدل ذلك ﴾ تقتضي تخيير قاتل الصيد في أحد الثلاثة المذكورة .

وكذلك كل أمر وقع ب"أو" في القرآن فهو من الواجب المخيّر .

والقول بالتخيير هو قول الجمهور ، ثم قيل : الخيار للمحكوم عليه لا للحكمين .

وهو قول الجمهور من القائلين بالتخيير ، وقيل : الخيار للحكمين .

وقال به الثوري ، وابن أبي ليلى ، والحسن .

ومن العلماء من قال : إنّه لا ينتقل من الجزاء إلى كفّارة الطعام إلاّ عند العجز عن الجزاء ، ولا ينتقل عن الكفّارة إلى الصوم إلاّ عند العجز عن الإطعام ، فهي عندهم على الترتيب .

ونسب لابن عباس .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ﴿ كفّارةُ ﴾ بالرفع بدون تنوين مضافاً إلى طعام كما قرأ ﴿ جزاءُ مثلِ ما قتلَ ﴾ .

والوجه فيه إمَّا أن نجعله كوجه الرفع والإضافة في قوله تعالى : ﴿ فجزاء مثلِ ما قتل ﴾ فنجعل ﴿ كفارة ﴾ اسم مصدر عوضاً عن الفعل وأضيف إلى فاعله ، أي يكفّره طعامُ مساكين ؛ وإمّا أن نجعله من الإضافة البيانية ، أي كفّارة من طعام ، كما يقال : ثوبُ خزّ ، فتكون الكفّارة بمعنى المكفَّر به لتصحّ إضافة البيان ، فالكفّارة بيّنها الطعام ، أي لا كفّارة غيره فإنّ الكفّارةُ تقع بأنواع .

وجزم بهذا الوجه في "الكشاف" ، وفيه تكلّف .

وقرأه الباقون بتنوين ﴿ كفارةٌ ﴾ ورفع ﴿ طعامُ ﴾ على أنّه بدل من ﴿ كفارة ﴾ .

وقوله ﴿ أو عدْل ذلك صياماً ﴾ عطف على ﴿ كفّارة ﴾ والإشارة إلى الطعام .

والعَدل بفتح العين ما عادل الشيء من غير جنسه .

وأصل معنى العدل المساواة .

وقال الراغب : إنّما يكون فيما يدرك بالبصيرة كما هنا .

وأما العدل بكسر العين ففي المحسوسات كالموزونات والمكيلات ، وقيل : هما مترادفان .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ﴿ طعام مساكين ﴾ .

(120/214)

وانتصب ﴿ صياماً ﴾ على التمييز لأنّ في لفظ العدْل معنى التقدير .

وأجملت الآية الصيام كما أجملت الطعام ، وهو موكول إلى حكم الحكمين .

وقال مالك والشافعي : يصوم عن كلّ مدّ من الطعام يوماً .

وقال أبو حنيفة : عن كلّ مُدَّين يوماً ، واختلفوا في أقصى ما يصام ؛ فقال مالك والجمهور : لا ينقص عن أعداد الأمداد أياماً ولو تجاوز شهرين ، وقال بعض أهل العلم : لا يزيد على

شهرين لأنّ ذلك أعلى الكفارات .

وعن ابن عباس : يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة .

وقوله ﴿ ليذوق ﴾ متعلّق بقوله ﴿ فجزاء ﴾ ، واللاّم للتعليل ، أي جُعل ذلك جزاء عن قتله الصيد ليذوق وبال أمره .

والذوق مستعار للإحساس بالكدر .

شبّه ذلك الإحساس بذوق الطعم الكريه كأنهم رَاعَوا فيه سُرعة اتّصال ألمه بالإدراك ، ولذلك لم نجعله مجازاً مرسلاً بعلاقة الإطلاق إذ لا داعي لاعتبار تلك العلاقة ، فإنّ الكدر أظهر من مطلق الإدراك .

وهذا الإطلاق معتنى به في كلامهم ، لذلك اشتهر إطلاق الذوق على إدراك الآلام واللذّات .

ففي القرآن ﴿ ذق إنّك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] ، ﴿ لا يذوقون فيها الموت ﴾ [الدخان : 56] .

وقال أبو سفيان يوم أحد مخاطباً جثّة حمزة "ذق عُقق" .

وشهرة هذه الاستعارة قاربت الحقيقة ، فحسن أن تبنى عليها استعارة أخرى في قوله تعالى : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ [النحل : 112] .

والوبال السوء وما يُكره إذا اشتدّ ، والوبيل القوي في السوء ﴿ فأخذناه أخذاً وبيلا ﴾ [

المزمل : 16] .

وطعام وبيل : سيّء الهضم ، وكلأ وبيل ومستوبل ، تستوبله الإبل ، أي تستوخمه .

قال زهير :

إلى كَلأٍ مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَخَّمِ . . .

والأمر : الشأن والفعل ، أي أمر من قتل الصيد متعمّداً .

والمعنى ليجد سوء عاقبة فعله بما كلّفه من خسارة أو من تعب .

(121/214)

وأعقب اللّهُ التهديد بما عوّد به المسلمين من الرأفة فقال : ﴿ عفا الله عمّا سلف ﴾ ، أي عفا عمّا قتلتم من الصيد قبل هذا البيان ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فالله ينتقم منه .

والانتقام هو الذي عُبّر عنه بالوبال من قبلُ ، وهو الخسارة أو التعب ، ففهم منه أنه كلّما عاد وجب عليه الجزاء أو الكفارة أو الصوم ، وهذا قول الجمهور .

وعن ابن عباس ، وشريح ، والنخعي ، ومجاهد ، وجابر بن زيد : أنّ المتعمّد لا يجب عليه الجزاء إلاّ مرة واحدة فإن عاد حقّ عليه انتقام العذاب في الآخرة ولم يقبل منه جزاء .

وهذا شذوذ .

ودخلت الفاء في قوله : ﴿ فينتقم الله منه ﴾ مع أنّ شأن جواب الشرط إذا كان فعلاً أن لا تدخل عليه الفاء الرابطة لاستغنائه عن الربط بمجرّد الاتّصال الفعلي ، فدخول الفاء يقع في كلامهم على خلاف الغالب ، والأظهر أنّهم يرمون به إلى كون جملة الجواب اسمية تقديراً فيرمزون بالفاء إلى مبتدأ محذوف جُعل الفعل خبراً عنه لقصد الدلالة على الاختصاص أو التقوّي ، فالتقدير : فهو ينتقم الله منه ، لقصد الاختصاص للمبالغة في شدّة ما يناله حتى كأنّه لا ينال غيره ، أو لقصد التقوّي ، أي تأكيد حصول هذا الانتقام .

ونظيره ﴿ فمن يؤمن بربّه فلا يخافُ بخساً ولا رهقاً ﴾ [الجن : 13] فقد أغنت الفاء عن إظهار المبتدإ فحصل التقوّي مع إيجاز .

هذا قول المحقّقين مع توجيهه ، ومن النحاة من قال : إنّ دخول الفاء وعدمه في مثل هذا سواء ، وإنّه جاء على خلاف الغالب .

وقوله : ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ تذييل .

والعزيز الذي لا يحتاج إلى ناصر ، ولذلك وُصف بأنّه ذو انتقام ، أي لأنّ من صفاته الحكمة ، وهي تقتضي الانتقام من المفسد لتكون نتائج الأعمال على وفقها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ . . . الآية ﴾

أي لا تقتلوا الصيد إن كنتم قد أحرمتم بالحج أو بالعمرة أو بهما معا ، وإن لم تحرموا فالصيد محرّم أيضاً في حدود منطقة الحرم . وسبحانه قد جعل الحرم زماناً والحرم مكاناً . وهو فَيْءٌ يلجأ إليه الناس من غرور عزة قوم على حساب ذلة قوم آخرين . وقديماً كان يحارب بعضهم بعضا ، ولذلك جعل الحق أربعة أشهر حرماً في الزمان ، أي لا قتال فيها ، وذلك حتى يستريح المتعب من الحرب ، ويستريح من يخاف على عزته ، أو يذوق فيها الجميع لذة السلام والأمن ، وقد يستمرون في ذلك الاستمتاع بالسلام والأمان . وكذلك جعل الحق الحرم أيضاً مكاناً آمناً ، لا يتعرض فيه أحد لأحد . وكان الإنسان يقابل في الحرم قاتل أبيه فلا يتعرض له ، كل ذلك ليحمي عزة المسلمين أن تنكسر أمام غيرهم .

ومثال ذلك طرفان كلاهما على خلاف مع الآخر ، وكل منهما يرغب في الصلح مع الطرف الآخر . وهنا يتدخل أي إنسان من الخارج فينجح ؛ لأن الطرفين ميالان للصلح . وكل منهما يريد إنهاء الحرب ولكن تأخذه العزة بالإثم وتستولي عليه الحمية ويأنف أن يبدأ خصمه بطلب الصلح .

وقد أراد الحق أن تكون هناك في الأشهر الحرم فرصة للائتلاف والصلح وذلك بأن يلجأ الناس إلى البيت الحرام حتى تنفض البشرية عن نفسها البغضاء وحتى يرتاح البشر من القتال ، فتصدر الأحكام في رويّة واتزان وهدوء أعصاب .

(123/214)

ويقول الحق جل وعلا : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الكعبة أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا الله عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ والله عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ [المائدة : 95] .

ولا يعتبر الشيء صيداً إلا إذا كان مما يؤكل . أما إذا كان الشيء المصاد لا يؤكل كالسبع وغيره فقد قال بعض العلماء : لا يمنع ولا يحرم ولكنا نقول : إن الصيد هو كل ما يصاد سواء ليؤكل أو حتى غير مأكول ، وذلك لنعلم أنفسنا وجوارحنا وأعضاءنا الأدب ونحن حرم .

ومعنى " حُرُم " هو أن نكون محرمين أو في الحرم ، والحرم له حدود معروفة . وداخل الحرم ممنوع على الإنسان أن يصطاد أي شيء من لحظة بلوغه ميقات الحج والعمرة .

إذن فحيز الصيد محدود بالنسبة لكل من دخل الحرم المكّي الشريف سواء أكان محرماً أم لا

. وحيز الصيد بالنسبة لمن أراد الحج أو العمرة هو أكثر رقعة واتساعا ، ذلك أن التحريم يبدأ من حين الاحرام بالحج أو العمرة أو بهما . ولكن ماذا يكون الحكم إن اعتدى إنسان على الحكم واصطاد ؟

﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ .

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق قتل الخطأ بالعمد ، وذلك حتى ينتبه كل مسلم إلى كل فعل وهو محرم ، أو وهو في البيت الحرام .

(124/214)

هب أنك أردت أن تحك جلد رأسك بأظافرك وأنت محرم ، هنا قد يتساقط بعض شعرك ؛ فإن ثبت ذلك فعليك هدي للكعبة أو صوم أو إطعام مساكين ؛ لأن الحق يريد لك حين تحرم أن تنتبه بكل جوارحك إلى أن كل حركة من حركاتك محفوظة ومحسوبة عليك ، ولتكن في منتهى اليقظة الإيمانية ، وأي خطأ مهما يكن يسيراً يوجب الفدية . لذلك من قتل وجب عليه الجزاء لتعديه على شيء حرمه الله . والجزاء محدد بنص القول الحق : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ وعند المثلية وقف العلماء أيضاً : أتكون المثلية بالقيمة ، أو المثلية في الشكل ؟

والمثلية في القيمة تعني أن تقوِّم الشيء المقتول بثمنه ، وتشتري بالثمن شيئاً من الأنعام وتذبحها . والمثلية في الشكل تعني أن نشبه الشيء المقتول بمثيل له مما يذبح ويكون أقرب إلى شكله . ودليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما قتل مسلم ضبعاً أمر المسلم أن يفدي بكبش . والصحابة رضوان الله عليهم : علي ، عمر ، وعثمان وعبد الله بن عمر أمروا رجلاً قتل نعامة أن يفديها ببدنة ناقة أو بعير لأنها تشابه النعامة في العلو . وحينما قتل إنسان ظبياً فداه بشاة . والظبي أو الغزال هو الذكر ، والغزالة هي الأنثى ، وعندما قتل غزالاً صدر الحكم بالفداء بعنزة . ومن قتل " يربوعاً " – وهو من الزواحف وأكبر من الفأر قليلاً – صدر الحكم أن تكون الفدية " الجفرة " وهي ولد الماعز بعد أن يستغني عن لبن أمه ويستطيع الأكل .

إذن ، فالمثلية هنا مثلية الشكل . وقال أبو حنيفة بإباحة أن تكون المثلية بالقيمة إن لم يوجد الشبيه . وعلى ذلك فالذي يصطاد من أجل أن يطعم نفسه يدفع ثمن الخطأ لغيره من المحتاجين . وإن كانت المثلية بالقيمة فالذي يحدد هذه القيمة أناس لهم بصيرة وهما اثنان من ذوي العدل . ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الكعبة ﴾ وهم الذين لا يميلون عن الحق ، ويقيمون الميزان .

ويأمرنا الحق أن نحكم بالإنصاف لنكون من ذوي العدل ، أي أن الإنسان حين يواجه خصمين فهو يعطي نصفه لخصم ونصفه الآخر للخصم الثاني ، فلا يميل بالهوى ناحية أحدهما . ولا يدير الإنسان وجهه إلى الخصم أكثر مما يديره للآخر .

وإن سأل أحد : كيف نأتي بذوي العدل ؟ ونقول : انظر إلى عدالتهما في نفسيهما ولنر تصرفات الإنسان هل هي مستقيمة أو لا ؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء في الطعام أو الغضب أو في أي لون من ألوان السلوك ؟ ومن كان مأموناً على نفسه فهو مأمون على غيره ، ويجب كذلك أن يكون من ذوي الخبرة في هذا الأمر ، ولذلك يجب أن ينتبه الناس إلى هذه المسائل لأننا نرى أن موجة من النفاق للشباب تسود بعض المجتمعات ، فنسمع أصواتاً تقول : إن الشباب يجب أن يتولى القيادة .

ونقول لأصحاب هذه الأصوات : تمهلوا ودققوا النظر في مثل هذا القول ؛ لأن الشباب عليه أن يزاول عمله الخاص في فترة الشباب ، وعلينا ملاحظته وهو يؤدي عمله فإن نجح ورأينا فيه أمانة على حركة نفسه ، وعدلاً مع نفسه وعدم إسراف على نفسه فإننا نرشحه من بعد ذلك ليخدم أمته بعد أن يثبت أنه مأمون في عدالة نفسه . ولا يصح أن نجرب في الأمة مَن لا يَستند إلى رصيد من الخبرة السابقة .

إنه لا يصح أن نولي الأمر في أي قطاع لمن أطلقوا عليهم : الأطفال المعجزة . ومن يريد أن

يجرب فليجرب في نفسه ، وفيما يملك ، لا في الأمم والشعوب . وعلى الشاب أن يبدأ حياته بنشاط جدي لذاته ، ليستخلص النفعية القريبة منه وألا يغش نفسه ، فإن نجح في ذلك ، نأخذ منه بعض الوقت أو كل الوقت لخدمة أمته بعد أن يثبت لنا أنه قد وصل إلى النضج العقلي الكافي ، وقد زادت تجاربه وفقد شهية الطموح الشخصي والمتع الصغيرة ، ووصل إلى القدرة على التجرد ليحكم بين الناس .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نختار ذوي العدل للحكم في رقبة شاة ، فما بالنا برقاب الناس ومصالح الناس ؟

(126/214)

نحن – إذن – مطالبون بأن نميز ذوي العدل بين الناس من خلال مراقبة حركة الإنسان مع نفسه وعلى نفسه وعلى أهله ، وعندما نكتشف أنه صار مأموناً على نفسه ، هنا نستطيع أن نوليه أمور غيره بالخدمة العامة ، وذلك حتى لا تخيب الأمة ، فالأمم إنما تخيب باختيار غير مدروس لقيادات المواقع المختلفة فيها .

ولنا أن نلحظ في عملنا دقة المعاني التي جاءت في القرآن الكريم ، فنحن هنا في أمر شاة أو حيوان نستصدر الحكم من ذوي العدل . ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا

عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ وما يحكم به ذوا العدل إنما يذهب كله للكعبة ؛ ليأكله الموجودون في البيت الحرام لعبادة الرحمن . وقد أراد الله أن يضمن قوت الذين يسكنون وادياً غير ذي زرع حتى من أغلاط الذين يعتدون على ما حرَّمَ الله صيده من الحيوان .

ولكن ما الحل إذا ما كان المخطئ لا يملك القدرة على أن يقدم هدياً بالغ الكعبة ؟

والحق سبحانه لا يترك مثل هذه الأمور دون بيان أو تفصيل ، فها هوذا يضع الكفارة بإطعام مساكين ، يحدد عددهم الاثنان من ذوي العدل . ومن لا يستطيع إطعام مساكين فليصم أياماً بعدد الفقراء الذين كانوا يستحقون الطعام لو أخرجه . ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ والوبال هو الثقل والعاقبة .

(127/214)

ولماذا الوبال ؟ لأن الإنسان حين يدفع من ماله ثمن شراء المثل لما قتل سيعز عليه ماله ، وأيضاً إن أطعم مساكين فهو سيشتري الطعام بمال يعز عليه ، وكذلك يسبب له الصيام الإرهاق . إن هذا اللون من الكفارة يذيق الإنسان وبال ما فعل . وأراد الحق بذلك ألا يجعل الإحساس مجرد أمر شكلي ، أو أن تظل الإساءة أمراً شكلياً . وشاء سبحانه أن يرتب النفع للإحسان والضر للإساءة ، حتى تستقيم الأمور في الكون . ولنا في قصة ذي

القرنين المثل الواضح على ذلك : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ [الكهف : 83-84] .

لقد مكن الحق لذي القرنين في الأرض ، وأعطاه من كل شيء سببا . ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أعطى فلم يتقاعس ولم يكسل ، بل يخبرنا الحق : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ [الكهف : 85] .

لقد أخذ ذو القرنين من تمكين الله له في الأرض ، وأخذ من عطاء الله له بشيء من كل سبب ، إنه أخذ طاقة وإحساساً بالمسئولية ليواصل مهمته : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا ياذا القرنين إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ [الكهف : 86] .

(128/214)

لقد بلغ مغرب الشمس في نظر عينيه ، لأن الإنسان عندما يقف وقت الغروب في خلاء فالشمس تغرب أمامه وكأنها تسقط في آخر الأفق . والحقيقة أن ذلك هو نهاية قدرة البصر . وجاء التفويض لذي القرنين : إما أن يعذب هؤلاء القوم ، وإما أن يعاملهم بالحسنى . وليقس عمل كل إنسان منهم ، وليجاز كل إنسان منهم حسب عمله . وهو لا يفعل ذلك

عن هوى ، لأنه ممكن في الأرض من الحق سبحانه وتعالى ؛ لذلك قال الحق : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴾ [الكهف : 87] .

وكل إنسان – حتى النفعي – حين يرى أن ارتكاب العمل السيء يأتي له بالمتاعب والخسارة ، يرجع عنه ولو لم يكن مؤمناً باليوم الآخر . أما من يؤمن باليوم الآخر ويعمل عملاً صالحاً فماذا تكون نوعية معاملته ؟ ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ [الكهف : 88] .

إنه ينال التكريم والتشجيع ، فالتكريم والتشجيع يجب أن ينالهما صاحب الحق فيهما لا المنافق أو المتمسح بالأبواب . هكذا يكون دستور كل متمكن في الأرض . وهكذا تكون رعاية أوامر الله ونواهيه . وحين أمرنا الحق بتحريم الصيد في البيت الحرام أو على المحرم ووضع عقوبة لمن أخطأ ، فهو سبحانه وتعالى عادل معنا ، فلا عقوبة إلا بنص ولا تجريم إلا بعد النص ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ عَفَا الله عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ والله عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ . فسبحانه يعفو عما سلف ، أما من عاد ليرتكب نواهي الله في هذا المجال فيعاقبه الحق . فلا يقبل منه هدى ولا إطعام مساكين ولا صوم ؛ لأن في تكرار المخالفة إصراراً عليها ، لذلك ينتقم منه الله ، وهو العزيز الذي لا يُغْلَب .

وبعد أن تكلم الحق عن صيد البر وحكمه ، أراد أن يوضح لنا أن ذلك الحكم لا ينسحب على كل صيد . فسبحانه حرم صيد البر إن كنا حرماً ، أو في دائرة الحرم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(130/214)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

بَابُ مَا يَقْتُلُهُ الْمُحْرِمُ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾

لَمَّا كَانَ خَاصًّا فِي صَيْدِ الْبَرِّ دُونَ صَيْدِ الْبَحْرِ لِمَا ذَكَرْنَا فِي سِيَاقِ الْآيَةِ مِنْ التَّخْصِيصِ ، اقْتَضَى عُمُومُهُ تَحْرِيمَ سَائِرِ صَيْدِ الْبَرِّ إلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَأَبُو سَعِيدٍ وَعَائِشَةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ الْمُحْرِمُ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ : الْحَيَّةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْغُرَابُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ ﴾ عَلَى اخْتِلَافٍ مِنْهُمْ فِي بَعْضِهَا ، وَفِي بَعْضِهَا : (هُنَّ فَوَاسِقُ) .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : (الْكَلْبُ الْعَقُورُ الْأَسَدُ) .

وَرَوَى حَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ عَنْ وَبَرَةَ قَالَ : سَمِعْت ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ ﴿ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ الذِّئْبِ وَالْفَأْرَةِ وَالْغُرَابِ وَالْحِدَأَةِ ﴾ .

فَذَكَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الذِّئْبَ .

وَذَكَرَ الْقَعْنَبِيُّ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : (الْكَلْبُ الْعَقُورُ الَّذِي أُمِرَ الْمُحْرِمُ بِقَتْلِهِ مَا قَتَلَ النَّاسَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ ، مِثْلُ الْأَسَدِ وَالنَّمِرِ وَالذِّئْبِ وَهُوَ الْكَلْبُ الْعَقُورُ ، وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ السِّبَاعِ لَا يَعْدُو مِثْلُ الضَّبُعِ وَالثَّعْلَبِ وَالْهِرَّةِ وَمَا أَشْبَهَهُنَّ مِنْ السِّبَاعِ فَلَا يَقْتُلُهُنَّ الْمُحْرِمُ ، فَإِنْ قَتَلَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَدَاهُ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ تَلَقَّى الْفُقَهَاءُ هَذَا الْخَبَرَ بِالْقَبُولِ وَاسْتَعْمَلُوهُ فِي إبَاحَةِ قَتْلِ الْأَشْيَاءِ الْخَمْسَةِ لِلْمُحْرِمِ .

(131/214)

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي الْكَلْبِ الْعَقُورِ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَلَى مَا قَدَّمْنَا الرِّوَايَةَ فِيهِ : (إنَّهُ الْأَسَدُ) وَيَشْهَدُ لِهَذَا التَّأْوِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا عَلَى عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ فَقَالَ : ﴿ أَكَلَك كَلْبُ اللَّهِ ﴾ فَأَكَلَهُ الْأَسَدُ .

قِيلَ لَهُ : إنَّ الْكَلْبَ الْعَقُورَ هُوَ الذِّئْبُ .

وَرُوِيَ فِي بَعْضِ أَخْبَارِ ابْنِ عُمَرَ فِي مَوْضِعٍ (الْكَلْبُ) (الذِّئْبُ) ، وَلَمَّا ذَكَرَ الْكَلْبَ الْعَقُورَ أَفَادَ بِذَلِكَ كَلْبًا مِنْ شَأْنِهِ الْعَدْوُ عَلَى النَّاسِ وَعَقْرِهِمْ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الذِّئْبِ ، فَأَوْلَى الْأَشْيَاءِ بِالْكَلْبِ هَهُنَا الذِّئْبُ .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا عَدَا عَلَى الْمُحْرِمِ وَابْتَدَأَهُ بِالْأَذَى فَجَائِزٌ لَهُ قَتْلُهُ مِنْ غَيْرِ فِدْيَةٍ لِأَنَّ فَحْوَى ذِكْرِهِ الْكَلْبَ الْعَقُورَ يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ ابْتَدَأَهُ السَّبُعُ فَقَتَلَهُ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي ابْتَدَأَ السَّبُعَ فَعَلَيْهِ الْجَزَاءُ ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ .

وَاسْمُ الصَّيْدِ وَاقِعٌ عَلَى كُلِّ مُمْتَنِعِ الْأَصْلِ مُتَوَحِّشٍ ، وَلَا يَخْتَصُّ بِالْمَأْكُولِ مِنْهُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ فَعَلَّقَ الْحُكْمَ مِنْهُ بِمَا تَنَالُهُ أَيْدِينَا وَرِمَاحُنَا ، وَلَمْ يُخَصِّصْ الْمُبَاحَ مِنْهُ دُونَ الْمَحْظُورِ الْأَكْلِ .

(132/214)

ثُمَّ خَصَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَشْيَاءَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْخَبَرِ وَذَكَرَ مَعَهَا الْكَلْبَ الْعَقُورَ ، فَكَانَ تَخْصِيصُهُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَذِكْرُهُ لِلْكَلْبِ الْعَقُورِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا ابْتَدَأَ الْإِنْسَانَ

بِالْأَذَى مِنْ الصَّيْدِ فَمُبَاحٌ لِلْمُحْرِمِ قَتْلُهُ ؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمَذْكُورَةَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَبْتَدِئَ بِالْأَذَى ، فَجَعَلَ حُكْمَهَا حُكْمَ حَالِهَا فِي الْأَغْلَبِ وَإِنْ كَانَتْ قَدْ لَا تَبْتَدِئُ فِي حَالٍ ؛ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ إنَّمَا تَتَعَلَّقُ فِي الْأَشْيَاءِ بِالْأَعَمِّ الْأَكْثَرِ ، وَلَا حُكْمَ لِلشَّاذِّ النَّادِرِ .

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ الْكَلْبَ الْعَقُورَ وَقِيلَ هُوَ الْأَسَدُ فَإِنَّمَا أَبَاحَ قَتْلَهُ إذَا قَصَدَ بِالْعَقْرِ وَالْأَذَى ، وَإِنْ كَانَ الذِّئْبُ فَذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ فِي الْأَغْلَبِ ؛ فَمَا خَصَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ بِالْخَبَرِ وَقَامَتْ دَلَالَتُهُ فَهُوَ مَخْصُوصٌ مِنْ عُمُومِ الْآيَةِ ،

وَمَا لَمْ يَخُصَّهُ وَلَمْ تَقُمْ دَلَالَةُ تَخْصِيصِهِ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى عُمُومِهَا .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الضَّبُعُ صَيْدٌ وَفِيهِ كَبْشٌ إذَا قَتَلَهُ الْمُحْرِمُ ﴾ .

وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ ، وَالضَّبُعُ مِنْ ذِي النَّابِ مِنْ السِّبَاعِ وَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا كَبْشًا .

(133/214)

فَإِنْ قِيلَ : هَلَّا قِسْت عَلَى الْخَمْسِ مَا كَانَ فِي مَعْنَاهَا وَهُوَ مَا لَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ قِيلَ لَهُ : إنَّمَا خَصَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْخَمْسَةَ مِنْ عُمُومِ الْآيَةِ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ عِنْدَنَا الْقِيَاسُ عَلَى الْمَخْصُوصِ إلَّا

أَنْ تَكُونَ عِلَّتُهُ مَذْكُورَةً فِيهِ أَوْ دَلَالَةٌ قَائِمَةً فِيمَا خَصَّ ، فَلَمَّا لَمْ تَكُنْ لِلْخَمْسِ عِلَّةٌ مَذْكُورَةٌ فِيهَا لَمْ يَجُزْ الْقِيَاسُ عَلَيْهَا فِي تَخْصِيصِ عُمُومِ الْأَصْلِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا يَبْتَدِئُ الْإِنْسَانَ بِالْأَذَى مِنْ السِّبَاعِ ، وَكَوْنُهُ غَيْرَ مَأْكُولِ اللَّحْمِ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ دَلَالَةٌ مِنْ فَحْوَى الْخَبَرِ وَلَا عِلَّتُهُ مَذْكُورَةٌ فِيهِ ، فَلَمْ يَجُزْ اعْتِبَارُهُ .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَا خِلَافَ فِيمَا ابْتَدَأَ الْمُحْرِمَ فِي سُقُوطِ الْجَزَاءِ ، فَجَازَ تَخْصِيصُهُ بِالْإِجْمَاعِ وَبَقِيَ حُكْمُ عُمُومِ الْآيَةِ فِيمَا لَمْ يَخُصَّهُ الْخَبَرُ وَلَا الْإِجْمَاعُ .

وَمِنْ أَصْحَابِنَا مَنْ يَأْبَى الْقِيَاسَ فِي مِثْلِهِ لِأَنَّهُ حَصَرَهُ بِعَدَدٍ فَقَالَ ﴿ خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ الْمُحْرِمُ ﴾ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا عَدَاهُ مَحْظُورٌ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ اسْتِعْمَالُ الْقِيَاسِ فِي إسْقَاطِ دَلَالَةِ اللَّفْظِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْبَى صِحَّةَ الِاعْتِلَالِ بِكَوْنِهِ غَيْرَ مَأْكُولٍ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ نَفْيٌ وَالنَّفْيُ لَا يَكُونُ عِلَّةً ، وَإِنَّمَا الْعِلَلُ أَوْصَافٌ ثَابِتَةٌ فِي الْأَصْلِ الْمَعْلُولِ ، وَأَمَّا نَفْيُ الصِّفَةِ فَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِلَّةً .

فَإِنْ غَيَّرَ الْحُكْمُ بِإِثْبَاتِ وَصْفٍ وَجَعَلَ الْعِلَّةَ أَنَّهُ

مُحَرَّمُ الْأَكْلِ لَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ التَّحْرِيمَ هُوَ الْحُكْمُ بِنَفْيِ الْأَكْلِ ، فَلَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَكُونَ نَافِيًا لِلصِّفَةِ ، فَلَمْ يَصِحَّ الِاعْتِلَالُ بِهَا .

وَزَعَمَ الشَّافِعِيُّ أَنَّ مَا لَا يُؤْكَلُ مِنْ الصَّيْدِ فَلَا جَزَاءَ عَلَى الْمُحْرِمِ فِيهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : فَقَالَ قَائِلُونَ وَهُمْ الْجُمْهُورُ : (سَوَاءٌ قَتَلَهُ عَمْدًا أَوْ خَطَأً فَعَلَيْهِ الْجَزَاءُ) وَجَعَلُوا فَائِدَةَ تَخْصِيصِهِ الْعَمْدَ بِالذِّكْرِ فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ مِنْ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ ، وَذَلِكَ يَخْتَصُّ بِالْعَمْدِ دُونَ الْخَطَإِ ؛ لِأَنَّ الْمُخْطِئَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَلْحَقَهُ الْوَعِيدُ ، فَخَصَّ الْعَمْدَ بِالذِّكْرِ وَإِنْ كَانَ الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ مِثْلَهُ لِيَصِحَّ رُجُوعُ الْوَعِيدِ إلَيْهِ ؛ وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَالْحَسَنِ رِوَايَةً وَإِبْرَاهِيمَ وَفُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : مَا رَوَى مَنْصُورٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ رَجُلٍ قَدْ سَمَّاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : (أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَى فِي الْخَطَإِ شَيْئًا) وَهُوَ قَوْلُ طَاوُسٍ وَعَطَاءٍ وَسَالِمٍ وَالْقَاسِمِ وَأَحَدِ قَوْلَيْ مُجَاهِدٍ فِي رِوَايَةِ الْجُعْفِيِّ عَنْهُ .

(135/214)

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ : مَا رَوَى سُفْيَانُ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ قَالَ : (إذَا كَانَ عَامِدًا لِقَتْلِهِ نَاسِيًا لِإِحْرَامِهِ فَعَلَيْهِ الْجَزَاءُ ، وَإِنْ كَانَ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ عَامِدًا لِقَتْلِهِ فَلَا جَزَاءَ عَلَيْهِ) وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : (قَدْ فَسَدَ حَجُّهُ وَعَلَيْهِ الْهَدْيُ) .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ نَحْوُ قَوْلِ مُجَاهِدٍ فِي أَنَّ الْجَزَاءَ إنَّمَا يَجِبُ إذَا كَانَ عَامِدًا لِقَتْلِهِ نَاسِيًا لِإِحْرَامِهِ .

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ هُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ جِنَايَاتِ الْإِحْرَامِ لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا الْمَعْذُورُ وَغَيْرُ الْمَعْذُورِ فِي بَابِ وُجُوبِ الْفِدْيَةِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ عَذَرَ الْمَرِيضَ وَمَنْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ وَلَمْ يُخْلِهِمَا مِنْ إيجَابِ الْكَفَّارَةِ ؟ وَكَذَلِكَ لَا خِلَافَ فِي فَوَاتِ الْحَجِّ لِعُذْرٍ أَوْ غَيْرِهِ أَنَّهُ غَيْرُ مُخْتَلِفِ الْحُكْمِ ؛ وَلَمَّا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي جِنَايَاتِ الْإِحْرَامِ وَكَانَ الْخَطَأُ عُذْرًا ؛ لَمْ يَكُنْ مُسْقِطًا لِلْجَزَاءِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَا يَجُوزُ عِنْدَكُمْ إثْبَاتُ الْكَفَّارَاتِ قِيَاسًا ، وَلَيْسَ فِي الْمُخْطِئِ نَصٌّ فِي إيجَابِ الْجَزَاءِ .

(136/214)

قِيلَ لَهُ : لَيْسَ هَذَا عِنْدَنَا قِيَاسًا ؛ لِأَنَّ النَّصَّ قَدْ وَرَدَ بِالنَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الصَّيْدِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ وَذَلِكَ عِنْدَنَا يَقْتَضِي إيجَابَ الْبَدَلِ عَلَى مُتْلِفِهِ ، كَالنَّهْيِ عَنْ قَتْلِ صَيْدِ الْآدَمِيِّ أَوْ إتْلَافِ مَالِهِ يَقْتَضِي إيجَابَ الْبَدَلِ عَلَى مُتْلِفِهِ ؛ فَلَمَّا جَرَى الْجَزَاءُ فِي هَذَا الْوَجْهِ مَجْرَى الْبَدَلِ وَجَعَلَهُ اللَّهُ مِثْلًا لِلصَّيْدِ ؛ اقْتَضَى النَّهْيُ عَنْ قَتْلِهِ إيجَابَ بَدَلِهِ عَلَى مُتْلِفِهِ ، ثُمَّ ذَلِكَ الْبَدَلُ يَكُونُ الْجَزَاءَ بِالِاتِّفَاقِ .

(137/214)

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَمَّا ثَبَتَ اسْتِوَاءُ حَالِ الْمَعْذُورِ وَغَيْرِ الْمَعْذُورِ فِي سَائِرِ جِنَايَاتِ الْإِحْرَامِ كَانَ مَفْهُومًا مِنْ ظَاهِرِ النَّهْيِ تَسَاوِي حَالِ الْعَامِدِ وَالْمُخْطِئِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَنَا قِيَاسًا ، كَمَا أَنَّ حُكْمَنَا فِي غَيْرِ بَرِيرَةَ بِمَا حَكَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَرِيرَةَ لَيْسَ بِقِيَاسٍ ، وَكَذَلِكَ حُكْمُنَا فِي الْعُصْفُورِ بِحُكْمِ الْفَأْرَةِ وَحُكْمُنَا فِي الزَّيْتِ بِحُكْمِ السَّمْنِ إذَا مَاتَ فِيهِ لَيْسَ هُوَ قِيَاسًا عَلَى الْفَأْرَةِ وَعَلَى السَّمْنِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ تَسَاوِي ذَلِكَ قَبْلَ وُرُودِ الْحُكْمِ بِمَا وَصَفْنَا ، فَإِذَا وَرَدَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ كَانَ حُكْمًا فِي جَمِيعِهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا : إنَّ حُكْمَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَقَاءِ صَوْمِ الْآكِلِ نَاسِيًا هُوَ حُكْمٌ فِيهِ بِبَقَاءِ صَوْمِ الْمُجَامِعِ نَاسِيًا لِأَنَّهُمَا غَيْرُ مُخْتَلِفَيْنِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنْ الْأَحْكَامِ فِي حَالِ الصَّوْمِ وَكَذَلِكَ قَالُوا فِيمَنْ سَبَقَهُ الْحَدَثُ

فِي الصَّلَاةِ مِنْ بَوْلٍ أَوْ غَائِطٍ إنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الرُّعَافِ وَالْقَيْءِ اللَّذَيْنِ جَاءَ فِيهِمَا الْأَثَرُ فِي جَوَازِ الْبِنَاءِ عَلَيْهِمَا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا مِنْ أَحْكَامِ الطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ ، فَلَمَّا وَرَدَ الْأَثَرُ فِي بَعْضِ ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ حُكْمًا فِي جَمِيعِهِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ .

كَذَلِكَ حُكْمُ قَاتِلِ الصَّيْدِ خَطَأً .

(138/214)

وَأَمَّا مُجَاهِدٌ فَإِنَّهُ تَارِكٌ لِظَاهِرِ الْآيَةِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ فَمَنْ كَانَ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ عَامِدًا لِقَتْلِ الصَّيْدِ فَقَدْ شَمِلَهُ الِاسْمُ ، فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ ، وَلَا مَعْنَى لِاعْتِبَارِ كَوْنِهِ نَاسِيًا لِإِحْرَامِهِ عَامِدًا لِقَتْلِهِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كَفَّارَةِ قَاتِلِ الْخَطَإِ فَلَمْ تَرُدُّوا عَلَيْهِ قَاتِلَ الْعَمْدِ ، كَذَلِكَ لَمَّا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَاتِلِ الْعَمْدِ بِإِيجَابِ الْجَزَاءِ لَمْ يَجُزْ إيجَابُهَا عَلَى قَاتِلِ الْخَطَإِ .

قِيلَ لَهُ : الْجَوَابُ عَنْ هَذَا مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا نَصَّ عَلَى حُكْمِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الْقَتْلَيْنِ وَجَبَ اسْتِعْمَالُهُمَا وَلَمْ يَجُزْ قِيَاسُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ عِنْدَنَا قِيَاسُ الْمَنْصُوصَاتِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ قَتْلَ الْعَمْدِ لَمْ يَخْلُ مِنْ إِيجَابِ الْقَوَدِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ الْكَفَّارَةِ وَالدِّيَةِ ، وَمَتَى أَخْلَيْنَا قَاتِلَ الصَّيْدِ خَطَأً مِنْ إِيجَابِ الْجَزَاءِ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ آخَرُ فَيَكُونُ لَغْوًا عَارِيًّا مِنْ حُكْمٍ ، وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ أَحْكَامَ الْقَتْلِ فِي الْأُصُولِ مُخْتَلِفَةٌ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ وَالْمُبَاحِ وَالْمَحْظُورِ ، وَلَمْ يَخْتَلِفْ ذَلِكَ فِي الصَّيْدِ ، فَلِذَلِكَ اسْتَوَى حُكْمُ الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ فِيهِ وَاخْتَلَفَ فِي قَتْلِ الْآدَمِيِّ .

(139/214)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ اُخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِالْمِثْلِ ، فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : (أَنَّ الْمِثْلَ نَظِيرُهُ ؛ فِي الْأَرْوَى بَقَرَةٌ وَفِي الظَّبْيَةِ شَاةٌ وَفِي النَّعَامَةِ بَعِيرٌ) وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ فِي آخَرِينَ مِنْ التَّابِعِينَ ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ وَالشَّافِعِيِّ وَذَلِكَ فِيمَا لَهُ نَظِيرٌ مِنْ النَّعَمِ ، فَأَمَّا مَا لَا نَظِيرَ لَهُ مِنْهُ كَالْعُصْفُورِ وَنَحْوِهِ فَفِيهِ الْقِيمَةُ .

وَرَوَى الْحَجَّاجُ عَنْ عَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ وَإِبْرَاهِيمَ فِي الْمِثْلِ أَنَّهُ الْقِيمَةُ دَرَاهِمَ ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ رِوَايَةٌ أُخْرَى أَنَّهُ الْهَدْيُ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ : (الْمِثْلُ هُوَ الْقِيمَةُ ، وَيَشْتَرِي بِالْقِيمَةِ هَدْيًا إنْ شَاءَ ، وَإِنْ شَاءَ

اشْتَرَى طَعَامًا وَأَعْطَى كُلَّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ ، وَإِنْ شَاءَ صَامَ عَنْ كُلِّ نِصْفِ صَاعٍ يَوْمًا) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْمِثْلُ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى الْقِيمَةِ وَعَلَى النَّظِيرِ مِنْ جِنْسِهِ وَعَلَى نَظِيرِهِ مِنْ النَّعَمِ ، وَوَجَدْنَا الْمِثْلَ الَّذِي يَجِبُ فِي الْأُصُولِ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إمَّا مِنْ جِنْسِهِ كَمَنْ اسْتَهْلَكَ لِرَجُلٍ حِنْطَةً فَيَلْزَمُهُ مِثْلُهَا ، وَإِمَّا مِنْ قِيمَتِهِ كَمَنْ اسْتَهْلَكَ ثَوْبًا أَوْ عَبْدًا ؛ وَالْمِثْلُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ وَلَا قِيمَتِهِ خَارِجٌ عَنْ الْأُصُولِ .

وَاتَّفَقُوا أَنَّ الْمِثْلَ مِنْ جِنْسِهِ غَيْرُ وَاجِبٍ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمِثْلُ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ هُوَ الْقِيمَةُ .

(140/214)

وَأَيْضًا لَمَّا كَانَ ذَلِكَ مُتَشَابِهًا مُحْتَمِلًا لِلْمَعَانِي وَجَبَ حَمْلُهُ عَلَى مَا اتَّفَقُوا عَلَى مَعْنَاهُ مِنْ الْمِثْلِ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ فَلَمَّا كَانَ الْمِثْلُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فِيمَا لَا مِثْلَ لَهُ مِنْ جِنْسِهِ هُوَ الْقِيمَةُ ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمِثْلُ الْمَذْكُورُ لِلصَّيْدِ مَحْمُولًا عَلَيْهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمِثْلَ فِي آيَةِ

الِاعْتِدَاءِ مُحْكَمٌ مُتَّفَقٌ عَلَى مَعْنَاهُ مِنْهُ .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْمِثْلَ اسْمٌ لِلْقِيمَةِ فِي الشَّرْعِ وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ اسْمٌ لِلنَّظِيرِ مِنْ النَّعَمِ ، فَوَجَبَ حَمْلُهُ عَلَى مَا قَدْ ثَبَتَ اسْمًا لَهُ وَلَمْ يَجُزْ حَمْلُهُ عَلَى مَا لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ اسْمٌ لَهُ .

وَأَيْضًا قَدْ اتَّفَقُوا أَنَّ الْقِيمَةَ مُرَادَةٌ بِهَذَا الْمِثْلِ فِيمَا لَا نَظِيرَ لَهُ مِنْ النَّعَمِ ، فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمُرَادَةُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْقِيمَةَ مُرَادَةٌ فَهُوَ بِمَنْزِلَتِهِ لَوْ نَصَّ عَلَيْهَا فَلَا يَنْتَظِمُ النَّظِيرُ مِنْ النَّعَمِ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ لَمَّا ثَبَتَ أَنَّ الْقِيمَةَ مُرَادَةٌ انْتَفَى النَّظِيرُ مِنْ النَّعَمِ لِاسْتِحَالَةِ إرَادَتِهِمَا جَمِيعًا فِي لَفْظٍ وَاحِدٍ ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ أَحَدُهُمَا مِنْ قِيمَةٍ أَوْ نَظِيرٍ مِنْ النَّعَمِ ، وَمَتَى ثَبَتَ أَنَّ الْقِيمَةَ مُرَادَةٌ انْتَفَى غَيْرُهَا .

(141/214)

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ لَمَّا كَانَ عَامًّا فِيمَا لَهُ نَظِيرٌ وَفِيمَا لَا نَظِيرَ لَهُ ، ثُمَّ عُطِفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمِثْلُ عَامًّا فِي جَمِيعِ الْمَذْكُورِ وَالْقِيمَةُ بِذَلِكَ أَوْلَى ؛ لِأَنَّهُ إذَا حُمِلَ عَلَى الْقِيمَةِ كَانَ الْمِثْلُ عَامًّا فِي جَمِيعِ الْمَذْكُورِ ، وَإِذَا حُمِلَ عَلَى النَّظِيرِ كَانَ خَاصًّا فِي بَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ ؛ وَحُكْمُ اللَّفْظِ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى عُمُومِهِ مَا أَمْكَنَ ذَلِكَ ، فَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ

يَكُونَ اعْتِبَارُ الْقِيمَةِ أَوْلَى ، وَمَنْ اعْتَبَرَ النَّظِيرَ جَعَلَ اللَّفْظَ خَاصًّا فِي بَعْضِ الْمَذْكُورِ دُونَ الْبَعْضِ .

فَإِنْ قِيلَ : إذَا كَانَ اسْمُ الْمِثْلِ يَقَعُ عَلَى الْقِيمَةِ تَارَةً وَعَلَى النَّظِيرِ أُخْرَى ، فَمَنْ اسْتَعْمَلَهُمَا فِيمَا لَهُ نَظِيرٌ عَلَى النَّظِيرِ وَفِيمَا لَا نَظِيرَ لَهُ مِنْ النَّعَمِ عَلَى الْقِيمَةِ ، فَلَمْ يَخْلُ مِنْ اسْتِعْمَالِ لَفْظِ الْمِثْلِ عَلَى عُمُومِهِ إمَّا فِي الْقِيمَةِ أَوْ الْمِثْلِ .

قِيلَ لَهُ : لَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ هُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْقِيمَةِ عَلَى الْخُصُوصِ وَفِي النَّظِيرِ عَلَى الْخُصُوصِ أَيْضًا وَاسْتِعْمَالُهُ عَلَى الْعُمُومِ فِي جَمِيعِ مَا انْتَظَمَهُ الِاسْمُ بِاعْتِبَارِ الْقِيمَةِ أَوْلَى مِنْ اسْتِعْمَالِهِ عَلَى الْخُصُوصِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الْمَعْنَيَيْنِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : الْمِثْلُ اسْمٌ لِلنَّظِيرِ وَلَيْسَ بِاسْمٍ لِلْقِيمَةِ ، وَإِنَّمَا أُوجِبَتْ الْقِيمَةُ فِيمَا لَا نَظِيرَ لَهُ مِنْ الصَّيْدِ بِالْإِجْمَاعِ لَا بِالْآيَةِ .

(142/214)

قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمَّى الْقِيمَةَ مِثْلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ وَاتَّفَقَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِيمَنْ اسْتَهْلَكَ عَبْدًا أَنَّ عَلَيْهِ قِيمَتَهُ ، وَحَكَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مُعْتِقِ عَبْدٍ

بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ بِنِصْفِ قِيمَتِهِ إذَا كَانَ مُوسِرًا ، فَبَانَ بِذَلِكَ غَلَطُ هَذَا الْقَائِلِ فِي نَفْيِهِ اسْمَ الْمِثْلِ عَنْ الْقِيمَةِ .

وَوَجْهٌ آخَرُ : وَهُوَ أَنَّ قَوْلَك (إنَّ الْآيَةَ لَمْ تَقْتَضِ إيجَابَ الْجَزَاءِ فِيمَا لَا نَظِيرَ لَهُ) تَخْصِيصٌ لَهَا بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، مَعَ دُخُولِ ذَلِكَ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ وَالْهَاءُ فِي : ﴿ قَتَلَهُ ﴾ كِنَايَةٌ عَنْ جَمِيعِ الْمَذْكُورِ مِنْ الصَّيْدِ ، فَإِذَا أَخْرَجْت مِنْهُ بَعْضَهُ فَقَدْ خَصَّصْته بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، وَذَلِكَ غَيْرُ سَائِغٍ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمِثْلَ الْقِيمَةُ دُونَ النَّظِيرِ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ الصَّحَابَةِ قَدْ رُوِيَ عَنْهُمْ : (فِي الْحَمَامَةِ شَاةٌ) وَلَا تَشَابُهَ بَيْنَ الْحَمَامَةِ وَالشَّاةِ فِي الْمَنْظَرِ ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُمْ أَوْجَبُوهَا عَلَى وَجْهِ الْقِيمَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ جَعَلَ فِي الضَّبُعِ كَبْشًا .

قِيلَ لَهُ : لِأَنَّ تِلْكَ كَانَتْ قِيمَتُهُ ، وَلَا

دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّهُ أَوْجَبَهُ مِنْ حَيْثُ كَانَ نَظِيرًا لَهُ .

(143/214)

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّمَا كَانَ يَسُوغُ هَذَا التَّأْوِيلُ وَحَمْلُ الْآيَةِ عَلَى الْقِيمَةِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْآيَةِ بَيَانُ الْمُرَادِ بِالْمِثْلِ ، وَقَدْ فُسِّرَ فِي نَسَقِ الْآيَةِ مَعْنَى الْمِثْلِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ الْمِثْلَ مِنْ النَّعَمِ وَلَا مَسَاغَ لِلتَّأْوِيلِ مَعَ النَّصِّ .

قِيلَ لَهُ : إِنَّمَا كَانَ يَكُونُ عَلَى مَا ادَّعَيْت لَوْ اقْتَصَرَ عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ يَصِلْهُ بِمَا أَسْقَطَ دَعْوَاك ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ مِنْ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ فَلَمَّا وَصَلَهُ بِمَا ذَكَرَ وَأَدْخَلَ عَلَيْهِ حَرْفَ التَّخْيِيرِ ثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ ذِكْرَ النَّعَمِ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ التَّفْسِيرِ لِلْمِثْلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ الطَّعَامَ وَالصِّيَامَ جَمِيعًا وَلَيْسَا مِثْلًا وَأَدْخَلَ (أَوْ) بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النَّعَمِ ؟ وَلَا فَرْقَ ؛ إِذْ كَانَ ذَلِكَ تَرْتِيبُ الْآيَةِ بَيْنَ أَنْ يَقُولَ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ طَعَامًا أَوْ صِيَامًا أَوْ مِنْ النَّعَمِ هَدْيًا ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ ذِكْرِ النَّعَمِ فِي التِّلَاوَةِ لَا يُوجِبُ تَقْدِيمَهُ فِي الْمَعْنَى ، بَلْ الْجَمِيعُ كَأَنَّهُ مَذْكُورٌ مَعًا .

(144/214)

أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ لَمْ يَقْتَضِ كَوْنَ الطَّعَامِ مُقَدَّمًا عَلَى الْكِسْوَةِ وَلَا الْكِسْوَةِ مُقَدَّمَةً عَلَى الْعِتْقِ فِي الْمَعْنَى ، بَلْ الْكُلُّ كَأَنَّهُ مَذْكُورٌ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ مَعًا ؟ فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ فَجَزَاءٌ

مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ مَوْصُولًا بِقَوْلِهِ : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ لَمْ يَكُنْ ذِكْرُ النَّعَمِ تَفْسِيرًا لِلْمِثْلِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَه تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ كَلَامٌ مُكْتَفٍ بِنَفْسِهِ غَيْرُ مُفْتَقِرٍ إلَى تَضْمِينِهِ بِغَيْرِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ التَّفْسِيرِ لِلْمِثْلِ ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُجْعَلَ الْمِثْلُ مُضَمَّنًا بِالنَّعَمِ مَعَ اسْتِغْنَاءِ الْكَلَامِ عَنْهُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَلَهُ حُكْمٌ غَيْرُ جَائِزٍ تَضْمِينُهُ بِغَيْرِهِ إلَّا بِدَلَالَةٍ تَقُومُ عَلَيْهِ سِوَاهُ .

وَأَيْضًا قَوْلُهُ : ﴿ مِنْ النَّعَمِ ﴾ مَعْلُومٌ أَنَّ فِيهِ ضَمِيرَ إرَادَةِ الْمُحْرِمِ ، فَمَعْنَاهُ : (مِنْ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا) إنْ أَرَادَ الْهَدْيَ ، وَالطَّعَامَ إنْ أَرَادَ الطَّعَامَ ، فَلَيْسَ هُوَ إذًا تَفْسِيرًا لِلْمِثْلِ ، كَمَا أَنَّ الطَّعَامَ وَالصِّيَامَ لَيْسَا تَفْسِيرًا لِلْمِثْلِ الْمَذْكُورِ .

(145/214)

فَإِنْ قِيلَ : رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ حَكَمُوا فِي النَّعَامَةِ بِبَدَنَةٍ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقِيَمَ تَخْتَلِفُ ، وَقَدْ أَطْلَقُوا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارِ الصَّيْدِ فِي زِيَادَةِ الْقِيمَةِ وَنُقْصَانِهَا .

قِيلَ لَهُ : فَمَا تَقُولُ أَنْتَ ، هَلْ تُوجِبُ فِي كُلِّ نَعَامَةٍ بَدَنَةً مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارِ الصَّيْدِ فِي ارْتِفَاعِ

قِيمَتِهِ وَانْخِفَاضِهَا فَتُوجِبُ فِي أَدْنَى النَّعَامِ بَدَنَةً رَفِيعَةً وَتُوجِبُ فِي أُرْفَعِ النَّعَامِ بَدَنَةً وَضِيعَةً ؟ فَإِنْ قِيلَ : لَا ، وَإِنَّمَا أُوجِبُ بَدَنَةً عَلَى قَدْرِ النَّعَامَةِ ، فَإِنْ كَانَتْ رَفِيعَةً فَبَدَنَةٌ رَفِيعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ وَضِيعَةً فَبَدَنَةٌ عَلَى قَدْرِهَا ؛ قِيلَ لَهُ فَقَدْ خَالَفْتَ الصَّحَابَةَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَنْ حَالِ الصَّيْدِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الرَّفِيعَةِ مِنْهَا وَالدَّنِيَّةِ فَاعْتَبَرْتَ خِلَافَ مَا اعْتَبَرُوا .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُمْ حَكَمُوا بِالْبَدَنَةِ عَلَى حَسَبِ حَالِ النَّعَامَةِ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرُوا ذَلِكَ وَلَمْ يَنْقُلْهُ الرَّاوِي .

قِيلَ لَهُ : فَكَذَلِكَ يَقُولُ لَكَ الْقَائِلُونَ بِالْقِيمَةِ إِنَّهُمْ حَكَمُوا بِالْبَدَنَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ قِيمَتَهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَإِنْ لَمْ يُنْقَلْ إِلَيْنَا أَنَّهُمْ حَكَمُوا بِالْبَدَنَةِ عَلَى أَنَّ قِيمَتَهَا كَانَتْ قِيمَةَ النَّعَامَةِ .

وَيُقَالُ لَهُمْ : هَلْ يَدُلُّ حُكْمُهُمْ فِي النَّعَامَةِ بِبَدَنَةٍ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ غَيْرُهَا مِنْ الطَّعَامِ وَالصِّيَامِ ؟ فَإِنْ قَالُوا : لَا ، قِيلَ لَهُمْ : فَكَذَلِكَ حُكْمُهُمْ فِيهَا بِالْبَدَنَةِ غَيْرُ دَالٍّ عَلَى نَفْيِ جَوَازِ الْقِيمَةِ .

(146/214)

فَصْلٌ وَقُرِئَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ ﴾ بِرَفْعِ الْمِثْلِ ، وَقُرِئَ بِخَفْضِهِ وَإِضَافَةُ الْجَزَاءِ إِلَيْهِ .

وَالْجَزَاءُ قَدْ يَكُونُ اسْمًا لِلْوَاجِبِ بِالْفِعْلِ وَيَكُونُ مَصْدَرًا فَيَكُونُ فِعْلًا لِلْمَجَازِيِّ ، فَمَنْ قَرَأَهُ بِالتَّنْوِينِ جَعَلَ الْمِثْلَ صِفَةً لِلْجَزَاءِ الْمُسْتَحَقِّ بِالْفِعْلِ وَهُوَ الْقِيمَةُ أَوْ النَّظِيرُ مِنْ النَّعَمِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِيهِ ؛ وَمَنْ أَضَافَهُ جَعَلَهُ مَصْدَرًا وَأَضَافَهُ إلَى الْمِثْلِ ، فَكَانَ مَا يُخْرِجُهُ مِنْ الْوَاجِبِ مُضَافًا إلَى الْمِثْلِ الْمَذْكُورِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْجَزَاءُ الَّذِي هُوَ الْوَاجِبُ مُضَافًا إلَى الْمِثْلِ ، وَالْمِثْلُ يَكُونُ مِثْلًا لِلصَّيْدِ ، فَيُفِيدُ أَنَّ الصَّيْدَ مَيْتَةٌ مُحَرَّمٌ لَا قِيمَةَ لَهُ ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ اعْتِبَارُ مِثْلِ الصَّيْدِ حَيًّا فِي إيجَابِ الْقِيمَةِ ، فَالْإِضَافَةُ صَحِيحَةُ الْمَعْنَى فِي الْحَالَيْنِ سَوَاءٌ كَانَ الْجَزَاءُ اسْمًا أَوْ مَصْدَرًا ؛ وَالنَّعَمِ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ يَحْتَمِلُ الْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا مِنْ الْقِيمَةِ أَوْ النَّظِيرِ مِنْ النَّعَمِ لِأَنَّ الْقِيَمَ تَخْتَلِفُ عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ الصَّيْدِ ، فَيَحْتَاجُ فِي كُلِّ حِينٍ وَفِي كُلِّ صَيْدٍ إلَى اسْتِئْنَافِ حُكْمِ الْحَكَمَيْنِ فِي تَقْوِيمِهِ .

وَمَنْ قَالَ بِالنَّظِيرِ فَرَجَعَ إلَى قَوْلِ الْحَكَمَيْنِ ، لِاخْتِلَافِ الصَّيْدِ فِي نَفْسِهِ مِنْ ارْتِفَاعٍ أَوْ انْخِفَاضٍ حَتَّى يُوجِبَا فِي الرَّفِيعِ مِنْهُ الرَّفِيعَ مِنْ النَّظِيرِ وَفِي الْوَسَطِ الْوَسَطَ وَفِي الدَّنِيِّ الدَّنِيَّ ، وَذَلِكَ يُحْتَاجُ فِيهِ

إِلَى اجْتِهَادِ الْحَكَمَيْنِ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ ، قَالَا فِي مُحْرِمٍ قَتَلَ قَطَاةً : (فِيهِ ثُلُثَا مُدٍّ وَثُلُثَا مُدٍّ خَيْرٌ مِنْ قَطَاةٍ فِي بَطْنِ مِسْكِينٍ) .

وَرَوَى مُعْمَرٌ عَنْ صَدَقَةَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ : سَأَلْتُ الْقَاسِمَ وَسَالِمًا عَنْ حَجَلَةٍ ذَبَحَهَا وَهُوَ مُحْرِمٌ نَاسِيًا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَحَجَلَةٌ فِي بَطْنِ رَجُلٍ خَيْرٌ أَوْ ثُلُثَا مُدٍّ ؟ فَقَالَ : بَلْ ثُلُثَا مُدٍّ ، فَقَالَ : هِيَ خَيْرٌ أَوْ نِصْفُ مُدٍّ ؟ قَالَ : بَلْ نِصْفُ مُدٍّ ، قَالَ : هِيَ خَيْرٌ أَوْ ثُلُثُ مُدٍّ ؟ قَالَ : قُلْتُ : أَتُجْزِي عَنِّي شَاةٌ ؟ قَالَا : أَوَتَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَا : فَاذْهَبْ .

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ وَضَعَ رِدَاءَهُ عَلَى عُودٍ فِي دَارِ النَّدْوَةِ ، فَأَطَارَ حَمَامًا فَقَتَلَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ ، فَقَالَ لِعُثْمَانَ وَنَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ : احْكُمَا عَلَيَّ فَحَكَمَا بِعَنَاقٍ بُنَيَّةٍ عَفْرَاءَ ، فَأَمَرَ بِهَا عُمَرُ .

(148/214)

وَرَوَى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ جَابِرٍ : " أَنَّ مُحْرِمًا قَتَلَ ظَبْيًا ، فَسَأَلَ عُمَرُ رَجُلًا إِلَى جَنْبِهِ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِذَبْحِ شَاةٍ وَأَنْ يَتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا ؛ قَالَ قَبِيصَةُ : فَلَمَّا قُمْنَا مِنْ عِنْدِهِ قُلْتُ

لَهُ : أَيُّهَا الْمُسْتَفْتِي ابْنِ الْخَطَّابِ إِنَّ فُتْيَا ابْنِ الْخَطَّابِ لَمْ تُغْنِ عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، فَانْحَرْ نَاقَتَكَ وَعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمَ ابْنُ الْخَطَّابِ مَا يَقُولُ حَتَّى سَأَلَ الرَّجُلَ الَّذِي إِلَى جَنْبِهِ ، فَقُمْت إِلَى عُمَرَ وَإِذَا عُمَرُ قَدْ أَقْبَلَ وَمَعَهُ الدِّرَّةُ عَلَى صَاحِبِي صَفْعًا وَهُوَ يَقُولُ : قَاتَلَكَ اللَّهُ أَتَقْتُلُ الْحَرَامَ وَتُعَدِّي الْفَتَيَا وَتَقُولُ مَا عَلِمَ عُمَرُ حَتَّى سَأَلَ مَنْ إِلَى جَنْبِهِ أَمَا تَقْرَأُ : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَكَمَيْنِ فِي ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الِاجْتِهَادِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ عُمَرَ وَابْنَ عَبَّاسٍ وَابْنَ عُمَرَ وَالْقَاسِمَ وَسَالِمًا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَأَلَ صَاحِبَهُ عَنْ

اجْتِهَادِهِ فِي الْمِقْدَارِ الْوَاجِبِ ، فَلَمَّا اتَّفَقَ رَأْيُهُمَا عَلَى شَيْءٍ حَكَمَا بِهِ ؟ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الِاجْتِهَادِ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ لِإِبَاحَةِ اللَّهِ تَعَالَى الِاجْتِهَادَ فِي تَقْوِيمِ الصَّيْدِ وَمَا يَجِبُ فِيهِ .

وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ تَقْوِيمَ الْمُسْتَهْلَكَاتِ مَوْكُولٌ إِلَى اجْتِهَادِ عَدْلَيْنِ يَحْكُمَانِ بِهِ عَلَى الْمُسْتَهْلِكِ ، كَمَا أَوْجَبَ الرُّجُوعَ إِلَى قَوْلِ الْحَكَمَيْنِ فِي تَقْوِيمِ الصَّيْدِ .

(149/214)

وَالْحَكَمَانِ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ يَحْكُمَانِ عَلَيْهِ بِالْقِيمَةِ ثُمَّ يَخْتَارُ الْمُحْرِمُ مَا شَاءَ مِنْ هَدْيٍ أَوْ طَعَامٍ أَوْ صِيَامٍ .

وَقَالَ مُحَمَّدٌ : (الْحَكَمَانِ يَحْكُمَانِ بِمَا يَرَيَانِ مِنْ هَدْيٍ أَوْ طَعَامٍ أَوْ صِيَامٍ ، فَإِنْ حَكَمَا بِالْهَدْيِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُهْدِيَ) .

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ فَإِنَّ الْهَدْيَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ ﴾ وَلَا خِلَافَ أَنَّ لَهُ أَنْ يُهْدِيَ مِنْ أَحَدِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ أَيَّهَا شَاءَ مِنْهَا .

هَذَا فِي الْإِحْصَارِ ، فَأَمَّا فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ فَإِنَّ مَنْ يَجْعَلُ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ قِيمَةَ الصَّيْدِ فَإِنَّهُ يُخَيِّرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَإِنْ اخْتَارَ الْهَدْيَ وَبَلَغَتْ قِيمَتُهُ بَدَنَةً نَحَرَهَا ، وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ بَدَنَةً وَبَلَغَ بَقَرَةً ذَبَحَهَا ، فَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ وَبَلَغَ شَاةً ذَبَحَهَا ، وَإِنْ اشْتَرَى بِالْقِيمَةِ جَمَاعَةَ شَاءٍ أَجْزَأَهُ .

وَمَنْ يُوجِبُ النَّظِيرَ مِنْ النَّعَمِ ، فَإِنَّهُ إنْ حَكَمَ عَلَيْهِ بِالْهَدْيِ أَهْدَى بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ بَدَنَةٍ أَوْ بَقَرَةٍ أَوْ شَاةٍ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي السِّنِّ الَّذِي يَجُوزُ فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : (لَا يَجُوزُ أَنْ يُهْدِيَ إلَّا مَا يُجْزِي فِي الْأُضْحِيَّةِ وَفِي الْإِحْصَارِ وَالْقِرَانِ) .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : (يُجْزِي الْجَفْرَةُ وَالْعَنَاقُ عَلَى قَدْرِ الصَّيْدِ) .

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَنَّ ذَلِكَ هَدْيٌ تَعَلَّقَ وُجُوبُهُ بِالْإِحْرَامِ ، وَقَدْ اتَّفَقُوا فِي سَائِرِ الْهَدَايَا الَّتِي تَعَلَّقَ وُجُوبُهَا بِالْإِحْرَامِ أَنَّهَا لَا يُجْزِي مِنْهَا إلَّا مَا يُجْزِي فِي الْأَضَاحِيِّ ، وَهُوَ الْجَذَعُ مِنْ الضَّأْنِ أَوْ الثَّنِيُّ مِنْ الْمَعْزِ وَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ فَصَاعِدًا ، فَكَذَلِكَ هَدْيُ جَزَاءِ الصَّيْدِ . وَأَيْضًا لَمَّا سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى هَدْيًا عَلَى الْإِطْلَاقِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ سَائِرِ الْهَدَايَا الْمُطْلَقَةِ فِي الْقُرْآنِ ، فَلَا يُجْزِي دُونَ السِّنِّ الَّذِي ذَكَرْنَا .

وَذَهَبَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ إلَى مَا رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ أَنَّ فِي الْيَرْبُوعِ جَفْرَةٌ وَفِي الْأَرْنَبِ عَنَاقٌ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ أَهْدَى شَاةً فَوَلَدَتْ ذُبِحَ وَلَدُهَا مَعَهَا .

فَأَمَّا مَا رُوِيَ عَنْ الصَّحَابَةِ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ الْقِيمَةِ ، وَأَمَّا وَلَدُ الْهَدْيِ فَإِنَّهُ تَبَعٌ لَهَا ، فَيَسْرِي الْحَقُّ الَّذِي فِي الْأُمِّ مِنْ جِهَةِ التَّبَعِ ، وَلَيْسَ يَجُوزُ اعْتِبَارُ مَا كَانَ أَصْلًا فِي نَفْسِهِ بِالِاتِّبَاعِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ ابْنُ أُمِّ الْوَلَدِ بِمَنْزِلَةِ أُمِّهِ فِي كَوْنِهِ غَيْرَ مَالٍ وَعِتْقُهُ بِمَوْتِ الْمَوْلَى مِنْ غَيْرِ سِعَايَةٍ وَلَا يَصِحُّ ابْتِدَاءُ إيجَابِ هَذَا الْحُكْمِ لَهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ التَّبَعِ وَالدُّخُولِ فِي حُكْمِ الْأُمِّ ؟ وَكَذَلِكَ وَلَدُ الْمُكَاتَبَةِ هُوَ مُكَاتَبٌ وَهُوَ عُلُوقٌ وَلَوْ ابْتَدَأَ كِتَابَةَ الْعُلُوقِ لَمْ يَصِحَّ ؛ وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ .

وقَوْله تعَالَى : ﴿ بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ صِفَةٌ لِلْهَدْيِ ، وبُلُوغُهُ الْكَعْبَةَ ذَبْحُهُ فِي الْحَرَمِ لَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَرَمَ كُلَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْكَعْبَةِ فِي الْحُرْمَةِ وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ بَيْعُ رِبَاعُهَا لِأَنَّهُ عَبَّرَ بِالْكَعْبَةِ عَنْ الْحَرَمِ ، وَهُوَ كَمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّ الْحَرَمَ كُلَّهُ مَسْجِدٌ ﴾ ؛ وَكَذَلِكَ قَوْله تعَالَى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ الْمُرَادُ بِهِ الْحَرَمُ كُلُّهُ وَمَعَالِمُ الْحَجِّ لِأَنَّهُمْ مُنِعُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ الْحَجِّ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي مَوَاضِعِ تَقْوِيمِ الصَّيْدِ ، فَقَالَ إبْرَاهِيمُ : (يُقَوَّمُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَصَابَهُ ، فَإِنْ كَانَ فِي فَلَاةٍ فَفِي أَقْرَبِ الْأَمَاكِنِ مِنْ الْعُمْرَانِ إلَيْهَا) ، وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : (يُقَوَّمُ بِمَكَّةَ أَوْ بِمِنًى) .

وَالْأَوَّلُ هُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّهُ كَتَقْوِيمِ الْمُسْتَهْلَكَاتِ ، فَيُعْتَبَرُ الْمَوْضِعُ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الِاسْتِهْلَاكُ لَا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُؤَدَّى فِيهِ الْقِيمَةُ ؛ وَلِأَنَّ تَخْصِيصَ مَكَّةَ وَمِنًى مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْبِقَاعِ تَخْصِيصُ الْآيَةِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، فَلَا يَجُوزُ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : رُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُمَا حَكَمَا فِي الظَّبْيِ بِشَاةٍ وَلَمْ يَسْأَلَا السَّائِلَ عَنْ الْمَوْضِعِ الَّذِي قَتَلَهُ فِيهِ .

قِيلَ لَهُ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ السَّائِلُ سَأَلَ عَنْ قَتْلِهِ فِي مَوْضِعٍ عَلِمَ أَنَّ قِيمَتَهُ فِيهِ شَاةٌ .

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ فَإِنَّهُ قُرِئَ "كَفَّارَةُ" بِالْإِضَافَةِ ، وَقُرِئَ بِالتَّنْوِينِ بِلَا إضَافَةٍ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي تَقْدِيرِ الطَّعَامِ ، فَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةً وَإِبْرَاهِيمُ وَعَطَاءُ وَمُجَاهِدُ وَمِقْسَمُ : (يُقَوِّمُ الصَّيْدَ دَرَاهِمَ ثُمَّ يَشْتَرِي بِالدَّرَاهِمِ طَعَامًا ، فَيُطْعِمُ كُلَّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ) .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةً : (يُقَوِّمُ الْهَدْيُ ثُمَّ يَشْتَرِي بِقِيمَةِ الْهَدْيِ طَعَامًا) ، وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا .

وَالْأَوَّلُ قَوْلُ أَصْحَابِنَا ، وَالثَّانِي قَوْلُ الشَّافِعِيِّ ؛ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَذَلِكَ لِأَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ جَزَاءُ الصَّيْدِ ، فَلَمَّا كَانَ الْهَدْيُ مِنْ حَيْثُ كَانَ جَزَاءً مُعْتَبَرًا بِالصَّيْدِ إمَّا فِي قِيمَتِهِ أَوْ فِي نَظِيرِهِ ؛ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الطَّعَامُ مِثْلَهُ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ فَجَعَلَ الطَّعَامَ جَزَاءً وَكَفَّارَةً كَالْقِيمَةِ ؛ فَاعْتِبَارُهُ بِقِيمَةِ الصَّيْدِ أَوْلَى مِنْ اعْتِبَارِهِ بِالْهَدْيِ ، إذْ هُوَ بَدَلٌ مِنْ الصَّيْدِ وَجَزَاءٌ عَنْهُ لَا مِنْ الْهَدْيِ .

وَأَيْضًا قَدْ اتَّفَقُوا فِيمَا لَا نَظِيرَ لَهُ مِنْ النَّعَمِ أَنَّ اعْتِبَارَ الطَّعَامِ إنَّمَا هُوَ بِقِيمَةِ الصَّيْدِ ، فَكَذَلِكَ

فِيمَا لَهُ نَظِيرٌ ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ مُنْتَظِمَةٌ لِلْأَمْرَيْنِ ، فَلَمَّا اتَّفَقُوا فِي أَحَدِهِمَا أَنَّ الْمُرَادَ اعْتِبَارُ الطَّعَامِ بِقِيمَةِ الصَّيْدِ كَانَ الْآخَرُ مِثْلَهُ .

(153/214)

وَقَالَ أَصْحَابُنَا : إذَا أَرَادَ الْإِطْعَامَ اشْتَرَى بِقِيمَةِ الصَّيْدِ طَعَامًا فَأَطْعَمَ كُلَّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ وَلَا يُجْزِيهِ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ ، كَكَفَّارَةِ الْيَمِينِ وَفِدْيَةِ الْأَذَى ؛ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِيمَا سَلَفَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ ، فَإِنَّهُ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَعَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ وَمَقْسَمٍ وَقَتَادَةَ أَنَّهُمْ قَالُوا : (لِكُلِّ نِصْفِ صَاعٍ يَوْمًا) ، وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا .

وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : (لِكُلِّ مُدٍّ يَوْمًا) .

وَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ الْهَدْيِ وَالْإِطْعَامِ وَالصِّيَامِ فَهُوَ عَلَى التَّخْيِيرِ لِأَنَّ (أَوْ) يَقْتَضِي ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ .

وَرُوِيَ نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ رِوَايَةً ؛ وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةً أُخْرَى أَنَّهَا عَلَى التَّرْتِيبِ .

وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالشَّعْبِيِّ وَالسُّدِّيِّ مِثْلُهُ ؛ وَعَنْ إبْرَاهِيمَ رِوَايَةً أُخْرَى أَنَّهَا عَلَى التَّرْتِيبِ .

وَالصَّحِيحُ هُوَ الْأَوَّلُ لِأَنَّهُ حَقِيقَةُ اللَّفْظِ ، وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى التَّرْتِيبِ زَادَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ ، وَلَا يَجُوزُ إلَّا بِدَلَالَةٍ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ .

(154/214)

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَشُرَيْحٍ : (إنْ عَادَ عَمْدًا لَمْ يُحْكَمْ عَلَيْهِ وَاَللَّهُ تَعَالَى يَنْتَقِمُ مِنْهُ) .

وَقَالَ إبْرَاهِيمُ : (كَانُوا يَسْأَلُونَ هَلْ أَصَبْت شَيْئًا قَبْلَهُ ؟ فَإِنْ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَحْكُمُوا عَلَيْهِ ، وَإِنْ قَالَ لَا حُكِمَ عَلَيْهِ) .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ : (يُحْكَمُ عَلَيْهِ أَبَدًا) .

وَسَأَلَ عُمَرَ قَبِيصَةُ بْنَ جَابِرٍ عَنْ صَيْدٍ أَصَابَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ ، فَسَأَلَ عُمَرُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ ثُمَّ حَكَمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْأَلْ هَلْ أَصَبْت قَبْلَهُ شَيْئًا .

وَهُوَ قَوْلُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ لِأَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا

فَجَزَاءٌ ﴾ يُوجِبُ الْجَزَاءَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ .

وَذِكْرُهُ الْوَعِيدَ لِلْعَائِدِ لَا يُنَافِي وُجُوبَ الْجَزَاءِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ حَدَّ الْمُحَارِبِ جَزَاءً لَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِذِكْرِ الْوَعِيدِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ فَلَيْسَ إِذًا فِي ذِكْرِ الِانْتِقَامِ مِنْ الْعَائِدِ نَفْيٌ لِإِيجَابِ الْجَزَاءِ .

(155/214)

وَعَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْعَائِدُ إلَى قَتْلِ الصَّيْدِ بَعْدَ قَتْلِهِ لِصَيْدٍ آخَرَ قَبْلَهُ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ : (عَفَا اللَّهُ عَمَّا قَبْلَ التَّحْرِيمِ وَمَنْ عَادَ يَعْنِي بَعْدَ التَّحْرِيمِ) وَإِنْ كَانَ أَوَّلُ صَيْدٍ بَعْدَ نُزُولِ الْآيَةِ ؛ وَإِذَا كَانَ فِيهِ احْتِمَالُ ذَلِكَ لَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْعَائِدَ فِي قَتْلِ الصَّيْدِ بَعْدَ قَتْلِهِ مَرَّةً أُخْرَى لَيْسَ عَلَيْهِ إلَّا الِانْتِقَامُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ يُحْتَجُّ بِهِ لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي الْمُحْرِمِ إذَا أَكَلَ مِنْ الصَّيْدِ الَّذِي لَزِمَهُ جَزَاؤُهُ أَنَّ عَلَيْهِ قِيمَةَ مَا أَكَلَ يَتَصَدَّقُ بِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ أَوْجَبَ عَلَيْهِ

الْغُرْمَ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ بِإِخْرَاجِ هَذَا الْقَدْرِ مِنْ مَالِهِ ، فَإِذَا أَكَلَ مِنْهُ فَقَدْ رَجَعَ مِنْ الْغُرْمِ فِي مِقْدَارِ مَا أَكَلَ مِنْهُ ، فَهُوَ غَيْرُ ذَائِقٍ بِذَلِكَ وَبَالَ أَمْرِهِ ؛ لِأَنَّ مَنْ غَرِمَ شَيْئًا وَأَخَذَ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ ذَائِقًا وَبَالَ أَمْرِهِ ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِهِ .

(156/214)

وَقَالَ أَصْحَابُنَا : (إنْ شَاءَ الْمُحْرِمُ صَامَ عَنْ كُلِّ نِصْفِ صَاعٍ مِنْ الطَّعَامِ يَوْمًا ، وَإِنْ شَاءَ صَامَ عَنْ بَعْضٍ وَأَطْعَمَ بَعْضًا) فَأَجَازُوا الْجَمْعَ بَيْنَ الصِّيَامِ وَالطَّعَامِ ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصِّيَامِ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ مَعَ الْإِطْعَامِ فَلَمْ يُجِيزُوا الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا ، وَفَرَّقُوا أَيْضًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِتْقِ وَالطَّعَامِ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ بِأَنْ يَعْتِقَ نِصْفَ عَبْدٍ وَيُطْعِمَ خَمْسَةَ مَسَاكِينَ .

فَأَمَّا الصَّوْمُ فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ فَإِنَّمَا أَجَازُوا الْجَمْعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الطَّعَامِ مِنْ قِبَلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الصِّيَامَ عَدْلًا لِلطَّعَامِ وَمِثْلًا لَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِقَوْلِهِ عَدْلُ ذَلِكَ يَكُونُ مِثْلًا لَهُ فِي حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ ؛ إذْ لَا تَشَابُهَ بَيْنَ الصِّيَامِ وَبَيْنَ الطَّعَامِ ، فَعَلِمْنَا أَنَّ الْمُرَادَ الْمُمَاثَلَةُ بَيْنَهُمَا فِي قِيَامِهِ مَقَامَ الطَّعَامِ وَنِيَابَتِهِ عَنْهُ لِمَنْ صَامَ بَعْضًا ، فَكَأَنَّهُ قَدْ أَطْعَمَ بِقَدْرِ ذَلِكَ فَجَازَ ضَمُّهُ إلَى الطَّعَامِ فَكَانَ الْجَمِيعُ طَعَامًا .

وَأَمَّا الصِّيَامُ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ فَإِنَّمَا يَجُوزُ عِنْدَ عَدَمِ الطَّعَامِ وَهُوَ بَدَلٌ مِنْهُ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ؛ إذْ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاجِدًا أَوْ غَيْرَ وَاجِدٍ ، فَإِنْ كَانَ وَاجِدًا لِلطَّعَامِ لَمْ يُجْزِهِ

(157/214)

الصِّيَامُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ وَاجِدٍ فَالصَّوْمُ فَرْضُهُ بَدَلًا مِنْهُ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ الْجَمْعُ بَيْنَ الْبَدَلِ وَالْمُبْدَلِ مِنْهُ ، كَالْمَسْحِ عَلَى أَحَدِ الْخُفَّيْنِ وَغَسْلِ الرِّجْلِ الْأُخْرَى وَكَالتَّيَمُّمِ وَالْوُضُوءِ وَمَا جَرَى مُجْرَى ذَلِكَ .

وَلَا نَعْلَمُ خِلَافًا فِي .

امْتِنَاعِ جَوَازِ الْجَمْعِ بَيْنَ الصِّيَامِ وَالطَّعَامِ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ ، وَأَمَّا الْعِتْقُ وَالطَّعَامُ فَإِنَّمَا لَمْ يَجُزْ الْجَمْعُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ أَحَدَ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ فَإِذَا أَعْتَقَ النِّصْفَ وَأَطْعَمَ النِّصْفَ فَهُوَ غَيْرُ فَاعِلٍ لِأَحَدِهِمَا فَلَمْ يُجْزِهِ ، وَالْعِتْقُ لَا يَتَقَوَّمُ فَيُجْزِي عَنْ الْجَمِيعِ بِالْقِيمَةِ ، وَلَيْسَ هُوَ مِثْلُ أَنْ يَكْسُوَ خَمْسَةً وَيُطْعِمُ خَمْسَةً فَيُجْزِي بِالْقِيمَةِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ مُتَقَوِّمٌ فَيُجْزِي عَنْ أَحَدِهِمَا بِالْقِيمَةِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ يَنْتَظِمُ الْوَاحِدَ وَالْجَمَاعَةَ إذَا قَتَلُوا فِي إيجَابِ جَزَاءٍ تَامٍّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ ؛ لِأَنَّ (مَنْ) يَتَنَاوَلُ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى حِيَالِهِ فِي

إيجَابِ جَمِيعِ الْجزَاءِ عَلَيْهِ ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ قَدْ اقْتَضَى إيجَابَ الرَّقَبَةِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الْقَاتِلِينَ إذَا قَتَلُوا نَفْسًا وَاحِدَةً ؛ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ وَعِيدٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ عَلَى حِيَالِهِ .

(158/214)

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ وَعِيدٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الْقَاتِلِينَ ؛ وَهَذَا مَعْلُومٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ لَا يَتَدَافَعُونَهُ ، وَإِنَّمَا يَجْهَلُهُ مَنْ لَا حَظَّ لَهُ فِيهَا .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَلَوْ قَتَلَ جَمَاعَةٌ رَجُلًا كَانَتْ عَلَى جَمِيعِهِمْ دِيَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَالدِّيَةُ إنَّمَا دَخَلَتْ فِي اللَّفْظِ حَسَبَ دُخُولِ الرَّقَبَةِ .

قِيلَ لَهُ : الَّذِي يَقْتَضِيهِ حَقِيقَةُ اللَّفْظِ وَعُمُومِهِ إيجَابُ دِيَاتٍ بِعَدَدِ الْقَاتِلِينَ ، وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ فِيهِ عَلَى دِيَةٍ وَاحِدَةٍ بِالْإِجْمَاعِ ، وَإِلَّا فَالظَّاهِرُ يَقْتَضِيهِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُمَا لَوْ قَتَلَاهُ عَمْدًا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَأَنَّهُ قَاتِلٌ لَهُ عَلَى حِيَالِهِ وَيُقْتَلَانِ جَمِيعًا بِهِ ؟ أَلَا تَرَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الْقَاتِلِينَ لَا يَرِثُ وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَتَلَ بَعْضَهُ لَوَجَبَ أَنْ لَا يُحْرَمَ الْمِيرَاثَ مِمَّا قَتَلَهُ مِنْهُ غَيْرُهُ ؟ فَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّهُمَا جَمِيعًا لَا يَرِثَانِ وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَأَنَّهُ قَاتِلٌ لَهُ وَحْدَهُ ، كَذَلِكَ فِي إيجَابِ الْكَفَّارَةِ ؛ إذْ كَانَتْ النَّفْسُ لَا تَتَبَعَّضُ ، وَكَذَلِكَ

قَاتِلُو الصَّيْدَ كُلُّ وَاحِدٍ كَأَنَّهُ مُتْلِفٌ لِلصَّيْدِ عَلَى حِيَالِهِ ؛ فَتَجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ كَفَّارَةٌ تَامَّةٌ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى ذَلِكَ كَفَّارَةً بِقَوْلِهِ

: ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا صَوْمًا ، فَأَشْبَهَتْ كَفَّارَةُ الْقَتْلِ .

(159/214)

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْجَزَاءَ إنَّمَا هُوَ جَزَاءٌ وَاحِدٌ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ أَنْ يَكُونُوا جَمَاعَةً أَوْ وَاحِدًا ، وَأَنْتَ تَقُولُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ جَزَاءَانِ وَثَلَاثَةٌ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا الْجَزَاءُ يَنْصَرِفُ إلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَقُولُ إنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَزَاءَانِ وَثَلَاثَةٌ وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَيْهِ جَزَاءٌ وَاحِدٌ ؛ وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُنْصَرِفٌ إلَى كُلِّ وَاحِدٍ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : (قَتَلُوا) فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ وَاحِدًا ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كِتَابِ (شَرْحِ الْمَنَاسِكِ) .

وَالْخَصْمُ يَحْتَجُّ عَلَيْنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي الْقَارِنِ ، فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ إلَّا جَزَاءٌ وَاحِدٌ بِظَاهِرِ الْكِتَابِ .

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا أَنَّهُ مُحْرِمٌ عِنْدَنَا بِإِحْرَامَيْنِ عَلَى مَا سَنَذْكُرُهُ فِي مَوْضِعِهِ ، وَإِذَا صَحَّ لَنَا

ذَلِكَ ثُمَّ أُدْخِلَ النَّقْصُ عَلَيْهِمَا وَجَبَ أَنْ يَجْبُرَهُمَا بِدَمَيْنِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الْهَدْيَ لَا يُجْزِي إلَّا بِمَكَّةَ ، وَأَنَّ بُلُوغَهُ الْكَعْبَةَ أَنْ يَذْبَحَهُ هُنَاكَ فِي الْحَرَمِ ، وَأَنَّهُ لَوْ هَلَكَ بَعْدَ دُخُولِهِ الْحَرَمَ قَبْلَ أَنْ يَذْبَحَهُ أَنَّ عَلَيْهِ هَدْيًا آخَرَ غَيْرَهُ .

(160/214)

وَقَالَ أَصْحَابُنَا : إذَا ذَبَحَهُ فِي الْحَرَمِ بَعْدَ بُلُوغِ الْكَعْبَةِ فَإِنْ سُرِقَ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ تَعَيَّنَتْ فِيهِ بِالذَّبْحِ ، فَصَارَ كَمَنْ قَالَ لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهَذَا اللَّحْمِ ، فَسُرِقَ فَلَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ .

وَاتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ أَيْضًا عَلَى جَوَازِ الصَّوْمِ فِي غَيْرِ مَكَّةَ ، وَاخْتَلَفُوا فِي الطَّعَامِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : (يَجُوزُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ حَيْثُ شَاءَ) ؛ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : (لَا يُجْزِي إلَّا أَنْ يُعْطِيَ مَسَاكِينَ مَكَّةَ) .

وَالدَّلِيلُ عَلَى جَوَازِهِ حَيْثُ شَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ وَذَلِكَ عُمُومٌ فِي سَائِرِهِمْ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ تَخْصِيصُهُ بِمَكَانٍ إلَّا بِدَلَالَةٍ ، وَمَنْ قَصَرَهُ عَلَى مَسَاكِينِ مَكَّةَ فَقَدْ خَصَّ الْآيَةَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ .

وَأَيْضًا لَيْسَ فِي الْأُصُولِ صَدَقَةٌ مَخْصُوصَةٌ بِمَكَانٍ لَا يَجُوزُ أَدَاؤُهَا فِي غَيْرِهِ ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ صَدَقَةً وَجَبَ جَوَازُهَا فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ قِيَاسًا عَلَى نَظَائِرِهَا مِنْ الصَّدَقَاتِ ؛ وَلِأَنَّ تَخْصِيصَهُ بِمَكَانٍ خَارِجٌ عَنْ الْأُصُولِ ، وَمَا خَرَجَ عَنْ الْأُصُولِ وَظَاهِرِ الْكِتَابِ مِنْ الْأَقَاوِيلِ فَهُوَ سَاقِطٌ مَرْذُولٌ .

(161/214)

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَالْهَدْيُ سَبِيلُهُ الصَّدَقَةُ وَهُوَ مَخْصُوصٌ بِالْحَرَمِ قِيلَ لَهُ : ذَبْحُهُ مَخْصُوصٌ بِالْحَرَمِ ، فَأَمَّا الصَّدَقَةُ فَحَيْثُ شَاءَ ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا أَنَّهُ لَوْ ذَبَحَهُ فِي الْحَرَمِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ فَتَصَدَّقَ بِهِ فِي غَيْرِهِ أَجْزَأَهُ وَأَيْضًا لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ الصِّيَامِ فِي غَيْرِ مَكَّةَ وَهُوَ جَزَاءٌ لِلصَّيْدِ وَلَيْسَ بِذَبْحٍ ، وَجَبَ مِثْلُهُ فِي الطَّعَامِ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(162/214)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ . . . الآية ﴾ .

فِيهَا ثَمَانِ وَثَلَاثُونَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَقَدْ تَقَدَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ ﴾ وَالْقَتْلُ : كُلُّ فِعْلٍ يُفِيتُ الرُّوحَ ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ : مِنْهَا الذَّبْحُ وَالنَّحْرُ ، وَالْخَنْقُ وَالرَّضْخُ وَشِبْهُهُ ؛ فَحَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُحْرِمِ فِي الصَّيْدِ كُلَّ فِعْلٍ يَكُونُ مُفِيتًا لِلرُّوحِ ، وَحَرَّمَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى نَفْسَ الِاصْطِيَادِ ؛ فَقَالَ : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَحْرِيمَ كُلِّ فِعْلٍ يَتَعَلَّقُ بِعَيْنِ الصَّيْدِ ؛ لِأَنَّ التَّحْرِيمَ لَيْسَ بِصِفَةٍ لِلْأَعْيَانِ وَالذَّوَاتِ ، وَإِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَعَلُّقِ خِطَابِ الشَّارِعِ بِالْأَعْيَانِ ، فَالْمُحْرِمُ هُوَ الْقَوْلُ فِيهِ : لَا تَقْرَبُوهُ ، وَالْوَاجِبُ هُوَ الْمَقُولُ فِيهِ : لَا تَتْرُكُوهُ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : لَمَّا نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُحْرِمَ عَنْ قَتْلِ الصَّيْدِ عَلَى كُلِّ وَجْهٍ وَقَعَ عَامًّا .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : لَا يَجُوزُ ذَبْحُ الْمُحْرِمِ لِلصَّيْدِ عَلَى وَجْهِ التَّذْكِيَةِ ؛ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ذَبْحُ الْمُحْرِمِ لِلصَّيْدِ ذَكَاةٌ ؛ وَتَعَلَّقَ بِأَنَّهُ ذَبْحٌ صَدَرَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَهُوَ الْمُسْلِمُ ، مُضَافًا إلَى مَحَلِّهِ وَهُوَ الْأَنْعَامُ ، فَأَفَادَ مَقْصُودُهُ مِنْ حِلِّ الْأَكْلِ مِنْ أَصْلِهِ ذَبْحِ الْحَلَالِ .

وَالْجَوَابُ : أَنَّ هَذَا بِنَاءٌ عَلَى دَعْوَى ؛ فَإِنَّ الْمُحْرِمَ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِذَبْحِ الصَّيْدِ ؛ إذْ الْأَهْلِيَّةُ لَا تُسْتَفَادُ عَقْلًا ، وَإِنَّمَا يُفِيدُهَا الشَّرْعُ ، وَذَلِكَ بِإِذْنِهِ فِي الذَّبْحِ ؛ أَوْ يَنْفِيهَا الشَّرْعُ أَيْضًا ؛ وَذَلِكَ بِنَهْيِهِ عَنْ الذَّبْحِ .

وَالْمُحْرِمُ مَنْهِيٌّ عَنْ ذَبْحِ الصَّيْدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ فَقَدْ انْتَفَتْ الْأَهْلِيَّةُ بِالنَّهْيِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : فَأَفَادَ مَقْصُودَهُ ، فَقَدْ اتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّ الْمُحْرِمَ إذَا ذَبَحَ الصَّيْدَ لَا يَحِلُّ لَهُ أَكْلُهُ ؛ وَإِنَّمَا يَأْكُلُ مِنْهُ عِنْدَهُمْ غَيْرُهُ ، فَإِذَا كَانَ الذَّبْحُ لَا يُفِيدُ الْحِلَّ لِلذَّابِحِ فَأَوْلَى وَأَحْرَى أَلَّا يُفِيدَهُ لِغَيْرِهِ ؛ لِأَنَّ الْفَرْعَ تَبَعٌ لِلْأَصْلِ فِي أَحْكَامِهِ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَثْبُتَ لَهُ مَا لَا يَثْبُتُ لِأَصْلِهِ .

وَإِذَا بَطَلَ مَنْزَعُ الشَّافِعِيِّ وَمَأْخَذُهُ فَقَدْ اعْتَمَدَ عُلَمَاؤُنَا سِوَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَلَى أَنَّهُ ذَبْحٌ مُحَرَّمٌ لِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى لِمَعْنًى فِي الذَّابِحِ ، فَلَا يَجُوزُ كَذَبْحِ الْمَجُوسِيِّ ، وَهَذَا صَحِيحٌ .

فَإِنَّ الَّذِي قَالَ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ هُوَ الْقَائِلُ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ .

وَالْأَوَّلُ : نَهْيٌ عَنْ الْمَقْصُودِ بِالسَّبَبِ ، فَدَلَّ عَلَى عَدَمِ السَّبَبِ .

وَالثَّانِي : نَهْيٌ عَنْ السَّبَبِ ، فَدَلَّ عَلَى عَدَمِهِ شَرْعًا ، فَلَا يُفِيدُ مَقْصُودُهُ حُكْمًا ، وَهَذَا مِنْ نَفِيسِ الْأُصُولِ فَتَأَمَّلُوهُ .

(164/214)

وَقَوْلُ عُلَمَائِنَا : لِمَعْنًى فِي الذَّابِحِ فِيهِ احْتِرَازٌ مِنْ السِّكِّينِ الْمَغْصُوبَةِ وَالْكَالَّةِ وَمِلْكِ الْغَيْرِ ، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ التَّذْكِيَةِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ ، وَلَكِنَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ لِمَعْنًى فِي الذَّابِحِ وَلَا فِي الْمَذْبُوحِ لَمْ يُحَرِّمْ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ فَجَعَلَ الْقَتْلَ مُنَافِيًا لِلتَّذْكِيَةِ خَارِجًا عَنْ حُكْمِ الذَّبْحِ لِلْأَكْلِ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إذَا قَالَ : لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أَقْتُلَ وَلَدِي فَهُوَ عَاصٍ ، وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ .

وَإِذَا قَالَ : لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ أَذْبَحَ وَلَدِي فَإِنَّهُ يَفْتَدِيه بِشَاةٍ عَلَى تَفْصِيلٍ بَيَانِهِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَسَيَأْتِي إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ بَيَانُهُ .

وَالْمِقْدَارُ الْمُتَعَلِّقُ مِنْهُ هَاهُنَا بِهَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ الْقَتْلَ لَيْسَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّذْكِيَةِ بِمُطْلَقِهِ وَلَا الْخَنْقَ ، وَلَا يُعَدُّ مِنْ بَابِ الذَّبْحِ أَوْ النَّحْرِ اللَّذَيْنِ شُرِعَا فِي الْحَيَوَانِ الْمَأْكُولِ لِتَطْيِيبِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ جَرَى عُمُومُهُ

عَلَى كُلِّ صَيْدٍ بَرِّيٍّ وَبَحْرِيٍّ ، حَتَّى جَاءَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ فَأَبَاحَ صَيْدَ الْبَحْرِ إبَاحَةً مُطْلَقَةً ، وَحَرَّمَ صَيْدَ الْبَرِّ عَلَى الْمُحْرِمِينَ ؛ فَصَارَ هَذَا التَّقْسِيمُ وَالتَّنْوِيعُ دَلِيلًا عَلَى خُرُوجِ صَيْدِ الْبَحْرِ مِنْ النَّهْيِ .

(165/214)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ عَامٌّ فِي التَّحْرِيمِ بِالزَّمَانِ ، وَفِي التَّحْرِيمِ بِالْمَكَانِ ، وَفِي التَّحْرِيمِ بِحَالَةِ الْإِحْرَامِ ، إلَّا أَنَّ تَحْرِيمَ الزَّمَانِ خَرَجَ بِالْإِجْمَاعِ عَنْ أَنْ يَكُونَ مُعْتَبَرًا ، وَبَقِيَ تَحْرِيمُ الْمَكَانِ وَحَالَةُ الْإِحْرَامِ عَلَى أَصْلِ التَّكْلِيفِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ عَامٌّ فِي كُلِّ صَيْدٍ كَانَ ، مَأْكُولًا أَوْ غَيْرَ مَأْكُولٍ ، سَبُعًا أَوْ غَيْرَ سَبُعٍ ، ضَارِيًا أَوْ غَيْرَ ضَارٍ ، صَائِلًا أَوْ سَاكِنًا ؛ بَيْدَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي خُرُوجِ السِّبَاعِ عَنْهُ وَتَخْصِيصِهِ مِنْهَا ؛ فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : يَجُوزُ لِلْمُحْرِمِ قَتْلُ السِّبَاعِ الْعَادِيَةِ الْمُبْتَدِئَةِ بِالْمَضَرَّةِ كَالْأَسَدِ وَالنَّمِرِ وَالذِّئْبِ وَالْفَهْدِ وَالْكَلْبِ الْعَقُورِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ، وَمِنْ الطَّيْرِ كَالْغُرَابِ وَالْحِدَأَةِ ؛ وَلَا جَزَاءَ عَلَيْهِ فِيهِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ بِقَوْلِنَا فِي الْكَلْبِ الْعَقُورِ وَالذِّئْبِ وَالْغُرَابِ وَالْحِدَأَةِ ، وَخَالَفَنَا فِي السَّبُعِ وَالْفَهْدِ وَالنَّمِرِ وَغَيْرِهَا مِنْ السِّبَاعِ ، فَأَوْجَبَ عَلَى الْمُحْرِمِ الْجَزَاءَ بِقَتْلِهَا .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : كُلُّ مَا لَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ فَلَا جَزَاءَ فِيهِ إلَّا السَّمْعُ وَهُوَ الْمُتَوَلِّدُ بَيْنَ الذِّئْبِ وَالضَّبُعِ .

وَدَلِيلُنَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ﴿ خَمْسٌ لَيْسَ عَلَى الْمُحْرِمِ فِي قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ ﴾ .

(166/214)

وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ : الْحِدَأَةُ وَالْغُرَابُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ الْحَيَّةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ ﴾ خَرَّجَهُ الْأَئِمَّةُ بِأَجْمَعِهِمْ .

وَفِيهِ ﴿ الْغُرَابُ الْأَبْقَعُ ﴾ خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ ، وَفِيهِ : ﴿ السَّبُعُ الْعَادِي ﴾ خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَهَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى الْعِلَّةِ وَعَلَى الْأَجْنَاسِ .

أَمَّا الْعِلَّةُ فَهِيَ الْفِسْقُ بِالْإِذَايَةِ ، وَأَمَّا الْأَجْنَاسُ فَنَبَّهَ بِكُلِّ مَذْكُورٍ عَلَى نَوْعٍ مِنْ الْجِنْسِ وَذَكَرَ الْكَلْبَ الْعَقُورَ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَهُ بِعِلَّةِ الْعَقْرِ الْفَهْدُ وَالسَّبُعُ ، وَلَا سِيَّمَا بِالنَّصِّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ السِّجْزِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ .

وَالْعَجَبُ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ فِي أَنْ يَحْمِلَ التُّرَابَ عَلَى الْبُرِّ بِعِلَّةِ الْكَيْلِ ، وَلَا يَحْمِلَ السِّبَاعَ الْعَادِيَةَ عَلَى الْكَلْبِ الْعَقُورِ بِعِلَّةِ الْفِسْقِ وَالْعَقْرِ .

وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ فَإِذَا قُلْنَا بِأَنَّ لَحْمَهَا لَا يُؤْكَلُ فَهِيَ مَعْقُورَةٌ لَا جَزَاءَ فِيهَا ؛ لِأَنَّ مَا لَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ لَا جَزَاءَ فِيهِ كَالْخِنْزِيرِ .

وَأَمَّا إنْ قُلْنَا : إنَّهَا تُؤْكَلُ فَفِيهَا الْجَزَاءُ لِأَنَّهَا صَيْدٌ مَأْكُولٌ .

وَسَيَأْتِي الْقَوْلُ فِي أَكْلِهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَتَعَلَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ بِأَنَّهُ صَيْدٌ تَنَاوَلَهُ الْآيَةُ بِالنَّهْيِ وَالْجَزَاءِ بَعْدَ ارْتِكَابِ النَّهْيِ ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ صَيْدٌ أَنَّهُ يُقْصَدُ لِأَجْلِ جِلْدِهِ ، وَالْجِلْدُ مَقْصُودٌ فِي الْمَالِيَّةِ ، كَمَا أَنَّ اللَّحْمَ مَقْصُودٌ فِي الْأَكْلِ .

(167/214)

قُلْنَا : لَا تُسَمِّي الْعَرَبُ صَيْدًا إلَّا مَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ .

فَإِنْ قِيلَ : بَلْ كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا عِنْدَ الْعَرَبِ صَيْدًا .

فَإِنَّهَا كَانَتْ تَأْكُلُ كُلَّ مَا دَبَّ وَدَرَجَ ، ثُمَّ جَاءَ الشَّرْعُ بِالتَّحْرِيمِ ، فَغَيَّرَ الشَّرْعُ الْأَحْكَامَ دُونَ الْأَسْمَاءِ .

قُلْنَا : هَذَا جَهْلٌ عَظِيمٌ ، إنَّ الصَّيْدَ لَا يُعْرَفُ إلَّا فِيمَا يُؤْكَلُ .

وَقَوْلُهُمْ : إنَّ الشَّرْعَ غَيَّرَ الْأَحْكَامَ دُونَ الْأَسْمَاءِ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ تَابِعَةٌ لِلْأَسْمَاءِ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي عَمَّارٍ أَنَّهُ قَالَ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .

الضَّبُعُ أَصَيْدٌ هِيَ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : فِيهَا جَزَاءٌ ؛ قَالَ : نَعَمْ ، كَبْشٌ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ جَوَازِ أَكْلِهَا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ سَأَلَهُ عَنْ جَزَائِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ عَامٌّ فِي الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

وَلِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عَامٌّ فِي النَّوْعَيْنِ .

وَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ ، يُقَالُ : رَجُلٌ حَرَامٌ وَامْرَأَةٌ حَرَامٌ ، وَجَمْعُ ذَلِكَ حُرُمٌ ، كَقَوْلِنَا : قَذَالٌ وَقُذُلٌ .

وَكَذَلِكَ يَدْخُلُ فِي عُمُومِهِ الْأَحْرَارُ وَالْعَبِيدُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : وَقَدْ بَيَّنَّا هَذِهِ الْمَعَانِي فِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

(168/214)

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ فَذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُتَعَمِّدَ فِي وُجُوبِ الْجَزَاءِ خَاصَّةً ، وَفِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ ، مُتَعَمِّدٌ ، وَمُخْطِئٌ ، وَنَاسٍ ؛

فَالْمُتَعَمِّدُ هُوَ الْقَاصِدُ لِلصَّيْدِ مَعَ الْعِلْمِ بِالْإِحْرَامِ ، وَالْمُخْطِئُ هُوَ الَّذِي يَقْصِدُ شَيْئًا فَيُصِيبُ صَيْدًا .

وَالنَّاسِي هُوَ الَّذِي يَتَعَمَّدُ الصَّيْدَ وَلَا يَذْكُرُ إِحْرَامَهُ .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ يُحْكَمُ عَلَيْهِ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ وَعَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالزُّهْرِيِّ .

الثَّانِي : إِذَا قَتَلَهُ مُتَعَمِّدًا لِقَتْلِهِ ، نَاسِيًا لِإِحْرَامِهِ ؛ فَأَمَّا إِذَا كَانَ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ فَقَدْ حَلَّ وَلَا حَجَّ لَهُ ، وَمَنْ أَخْطَأَ فَذَلِكَ الَّذِي يُجْزِي .

الثَّالِثُ : لَا شَيْءَ عَلَى الْمُخْطِئِ وَالنَّاسِي ، وَبِهِ قَالَ الطَّبَرِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي إِحْدَى رِوَايَتَيْهِ .

وَاخْتَلَفَ الَّذِينَ قَالُوا بِعُمُومِ الْكَفَّارَةِ فِي تَوْجِيهِ ذَلِكَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ وَرَدَ الْقُرْآنُ بِالْعَمْدِ ، وَجَعَلَ الْخَطَأَ تَغْلِيظًا ؛ قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

وَالثَّانِي : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ مُتَعَمِّدًا ﴾ خَرَجَ عَلَى الْغَالِبِ ، فَأُلْحِقَ بِهِ النَّادِرُ ، كَسَائِرِ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ .

الثَّالِثُ : قَالَ الزُّهْرِيُّ : إِنَّهُ وَجَبَ الْجَزَاءُ فِي الْعَمْدِ بِالْقُرْآنِ ، وَفِي الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ بِالسُّنَّةِ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ وَجَبَ بِالْقِيَاسِ عَلَى قَاتِلِ الْخَطَأِ بِعِلَّةِ أَنَّهَا كَفَّارَةُ إِتْلَافِ نَفْسٍ ؛ فَتَعَلَّقَتْ بِالْخَطَأِ ، كَكَفَّارَةِ الْقَتْلِ ؛ وَتَعَلَّقَ مُجَاهِدٌ بِأَنَّهُ أَرَادَ مُتَعَمِّدًا لِلْقَتْلِ نَاسِيًا لِإِحْرَامِهِ ، لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ ، وَلَوْ كَانَ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ لَوَجَبَتْ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ .

وَتَعَلَّقَ أَحْمَدُ فِي إِحْدَى

رِوَايَتَيْهِ وَمَنْ تَابَعَهُ عَلَيْهَا بِأَنَّهُ خَصَّ الْمُتَعَمِّدَ بِالذِّكْرِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ غَيْرَهُ بِخِلَافِهِ ، وَزَادَ بِأَنْ قَالَ الْأَصْلُ بَرَاءَةُ الذِّمَّةِ ، فَمَنْ ادَّعَى شَغْلَهَا فَعَلَيْهِ الدَّلِيلُ .

وَأَمَّا مُتَعَلِّقُ مَنْ قَالَ : وَجَبَ فِي النِّسْيَانِ تَغْلِيظًا فَدَعْوَى تَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ خَرَجَ عَلَى الْغَالِبِ فَحِكْمَةُ الْآيَةِ وَفَائِدَةُ التَّخْصِيصِ مَا قَالُوهُ ، فَأَيْنَ دَلِيلُهُ ؟

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ وَجَبَ فِي النِّسْيَانِ بِالسُّنَّةِ فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ بِهِ الْآثَارَ الَّتِي وَرَدَتْ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَمَا أَحْسَنُهَا أُسْوَةً ، وَأَمَّا مَنْ تَعَلَّقَ بِالْقِيَاسِ عَلَى كَفَّارَةِ الْقَتْلِ فَيَصِحُّ ذَلِكَ لِلشَّافِعِيِّ الَّذِي يَرَى الْكَفَّارَةَ فِي قَتْلِ الْآدَمِيِّ عَمْدًا وَخَطَأً ، فَأَمَّا نَحْنُ وَقَدْ عَقَدْنَا أَصْلَنَا عَلَى أَنَّ قَتْلَ الْعَمْدِ فِي الْآدَمِيِّ لَا كَفَّارَةَ فِيهِ ، وَفِي قَتْلِ الصَّيْدِ عَمْدًا الْكَفَّارَةَ فَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ مِنَّا لِوُجُودِ الْمُنَاقَضَةِ مِنَّا بِالْمُخَالَفَةِ فِيهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ عِنْدَنَا .

وَالَّذِي يَتَحَقَّقُ مِنْ الْآيَةِ أَنَّ مَعْنَاهَا أَنَّ مَنْ قَتَلَ الصَّيْدَ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا لِقَتْلِهِ نَاسِيًا لِإِحْرَامِهِ ، أَوْ جَاهِلًا بِتَحْرِيمِهِ ، فَعَلَيْهِ الْجَزَاءُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَكْفِي لِوَصْفِ التَّعَمُّدِ ، فَتَعَلَّقَ الْحُكْمُ بِهِ ، لِاكْتِفَاءِ الْمَعْنَى مَعَهُ .

وَهَذَا دَقِيقٌ فَتَأَمَّلُوهُ .

فَأَمَّا إذَا قَتَلَهُ مُتَعَمِّدًا لِلْقَتْلِ وَالْإِحْرَامِ فَذَلِكَ أَبْلَغُ فِي وَصْفِ الْعَمْدِيَّةِ ؛ لَكِنْ مِنْ النَّاسِ مَنْ قَالَ : لَا حَجَّ لَهُ .

وَهَذِهِ دَعْوَى لَا يَدُلُّك عَلَيْهَا دَلِيلٌ مِنْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَلَا مِنْ السُّنَّةِ وَلَا مِنْ الْمَعْنَى ،

وَسَنَسْتَوْفِي بَقِيَّةَ الْقَوْلِ فِي آخِرِ الْآيَةِ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ الْجَزَاءُ فِي اللُّغَةِ هُوَ : الْمُقَابِلُ لِلشَّيْءِ ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : فَعَلَيْهِ جَزَاءٌ فِي مُقَابِلِ مَا أَتْلَفَ وَبَدَلٌ مِنْهُ ؛ وَقَدْ حَقَّقْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ " مُلْجِئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ إلَى مَعْرِفَةِ غَوَامِضِ النَّحْوِيِّينَ " وَقَدْ تَقَدَّمَ أَمْثَالُهُ قَبْلَ هَذَا ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ جَزَاءُ الْأَعْمَالِ ؛ لِأَنَّ فِي مُقَابَلَتِهَا ثَوَابًا بِثَوَابٍ وَعِقَابًا بِعِقَابٍ ، وَدَرَجَاتٍ

وَدَرَكَاتٍ ؛ وَذَلِكَ مُحَقَّقٌ فِي كِتَابِ الْمُشْكَلَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : ﴿ مِثْلُ ﴾ قُرِئَ بِخَفْضِ مِثْلِ عَلَى الْإِضَافَةِ إلَى ﴿ فَجَزَاءٌ ﴾ .

(171/214)

وَبِرَفْعِهِ وَتَنْوِينِهِ صِفَةً لِلْجَزَاءِ ؛ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ رِوَايَةً ، صَوَابٌ مَعْنًى ، فَإِذَا كَانَ عَلَى الْإِضَافَةِ اقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْجَزَاءُ غَيْرَ الْمِثْلِ ؛ إذْ الشَّيْءُ لَا يُضَافُ إلَى نَفْسِهِ ، وَإِذَا كَانَ الصِّفَةُ بِرَفْعِهِ وَتَنْوِينِهِ اقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْمِثْلُ هُوَ الْجَزَاءَ بِعَيْنِهِ ، لِوُجُوبِ كَوْنِ الصِّفَةِ عَيْنَ الْمَوْصُوفِ ؛ وَسَتَرَى ذَلِكَ فِيمَا بَعْدُ مَشْرُوحًا إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ مِنْ النَّعَمِ ﴾ قَدْ بَيَّنَّا فِي " مُلْجِئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ " دَرَجَاتِ حَرْفِ مِنْ ، وَأَنَّ مِنْ جُمْلَتِهَا بَيَانُ الْجِنْسِ ، كَقَوْلِك : خَاتَمٌ مِنْ حَدِيدٍ ، وَقَدَّمْنَا قَوْلَ أَبِي بَكْرٍ السَّرَّاجِ فِي شَرْحِ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ الَّذِي أَوْقَفَنَا عَلَيْهِ شَيْخُ السُّنَّةِ فِي وَقْتِهِ أَبُو عَلِيٍّ الْحَضْرَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : إنَّهَا لَا تَكُونُ لِلتَّبْعِيضِ بِحَالٍ ، وَلَا فِي مَوْضِعٍ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ التَّبْعِيضُ فِيهَا بِالْقَرِينَةِ ، فَجَاءَتْ مُقْتَرِنَةً بِقَوْلِهِ : ﴿ مِنْ النَّعَمِ ﴾ لِبَيَانِ جِنْسِ مِثْلِ الْمَقْتُولِ الْمُفْدَى ، وَأَنَّهُ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَحْقِيقُهُ ، وَمِثْلُ الشَّيْءِ حَقِيقَتُهُ وَهُوَ شَبَهُهُ فِي الْخِلْقَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَيَكُونُ مِثْلُهُ فِي مَعْنًى ، وَهُوَ مَجَازُهُ ؛ فَإِذَا أُطْلِقَ الْمِثْلُ اقْتَضَى بِظَاهِرِهِ حَمْلَهُ عَلَى الشَّبَهِ الصُّورِيِّ دُونَ الْمَعْنَى ، لِوُجُوبِ الِابْتِدَاءِ بِالْحَقِيقَةِ فِي مُطْلَقِ الْأَلْفَاظِ قَبْلَ الْمَجَازِ حَتَّى يَقْتَضِيَ الدَّلِيلُ مَا يَقْضِي فِيهِ مِنْ صَرْفِهِ عَنْ حَقِيقَتِهِ إلَى مَجَازِهِ ؛ فَالْوَاجِبُ هُوَ الْمِثْلُ الْخِلْقِيُّ ؛ وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إنَّمَا يُعْتَبَرُ بِالْمِثْلِ .

فِي الْقِيمَةِ دُونَ الْخِلْقَةِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبْنَا إلَيْهِ الْآيَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ ، وَذَلِكَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْمِثْلَ حَقِيقَةً هُوَ الْمِثْلُ مِنْ طَرِيقِ الْخِلْقَةِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مِنْ النَّعَمِ ﴾ فَبَيَّنَ جِنْسَ الْمِثْلِ ، وَلَا اعْتِبَارَ عِنْدَ الْمُخَالِفِ بِالنَّعَمِ بِحَالٍ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ وَهَذَا ضَمِيرٌ رَاجِعٌ إلَى مِثْلٍ مِنْ النَّعَمِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ ذِكْرٌ سِوَاهُ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ إلَيْهِ .

وَالْقِيمَةُ الَّتِي يَزْعُمُ الْمُخَالِفُ أَنَّهُ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ إلَيْهَا لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ وَالَّذِي يُتَصَوَّرُ فِيهِ الْهَدْيُ مِثْلُ الْمَقْتُولِ مِنْ النَّعَمِ ؛ فَأَمَّا الْقِيمَةُ فَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ تَكُونَ هَدْيًا .

(173/214)

فَإِنْ قِيلَ : الْقِيمَةُ مِثْلٌ شَرْعِيٌّ مِنْ طَرِيقِ الْمَعْنَى فِي الْحَيَوَانِ وَغَيْرِهِ ، حَتَّى يُقَالَ الْقِيمَةُ مِثْلٌ لِلْعَبْدِ ، وَلَا يَجْعَلُ فِي الْإِتْلَافِ مِثْلَهُ عَبْدًا يَغْرَمُ فِيهِ ، وَأَوْجَبْنَا فِي ذَوَاتِ الْأَمْثَالِ فِي الْمُتْلَفَاتِ الْمِثْلَ خِلْقَةً ؛ لِأَنَّ الطَّعَامَ كَالطَّعَامِ وَالدُّهْنَ كَالدُّهْنِ ؛ وَلَمْ يُوجَبْ فِي الْعَبْدِ عَبْدٌ مِثْلُهُ ؛ لِأَنَّ الْخِلْقَةَ لَمْ تَقُمْ

بِالْمِثْلِيَّةِ ، فَكَيْفَ أَنْ يَجْعَلَ الْبَدَنَةَ مِثْلًا لِلنَّعَامَةِ .

قُلْنَا : هَذَا مَزْلَقٌ يَنْبَغِي أَنْ يَتَثَبَّتَ فِيهِ قَدَمُ النَّاظِرِ قَلِيلًا ، وَلَا يَطِيشَ حُلْمُهُ ، فَاسْمَعْ مَا نَقُولُ ، فَلَا خَفَاءَ بِوَاضِحِ الدَّلِيلِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ يُعَارِضُهُ الْآنَ مَا مَوَّهُوا بِهِ مِنْ أَنَّ النَّعَامَةَ لَا تُمَاثِلُهَا الْبَدَنَةُ ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ قَضَوْا بِهَا فِيهَا ، وَهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ أَفْهَمُ ، وَبِالْمِثْلِ مِنْ طَرِيقِ الْخِلْقَةِ وَالْمَعْنَى أَعْلَمُ ، فَلَا يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ سِوَاهُ إلَّا وَهَمَ ، وَلَا يَتَّهِمُهُمْ فِي قُصُورِ النَّظَرِ ، إلَّا مَنْ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ .

وَالدَّقِيقَةُ فِيهِ أَنَّ مُرَاعَاةَ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ مَعَ شَبَهٍ وَاحِدٍ مِنْ طَرِيقِ الْخِلْقَةِ أَوْلَى مِنْ إسْقَاطِ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ مَعَ التَّوَفُّرِ عَلَى مُرَاعَاةِ الشَّبَهِ الْمَعْنَوِيِّ ؛ هَذَا مَا لَا يَسْتَقِلُّ بِدَرْكِهِ فِي مَطْرَحِ النَّظَرِ إلَّا نَافِذُ الْبَصِيرَةِ وَالْبَصَرِ .

فَإِنْ قِيلَ : يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ قَوَّمُوا النَّعَامَةَ بِدَرَاهِمَ ، ثُمَّ قَوَّمُوا الْبَدَنَةَ بِدَرَاهِمَ .

(174/214)

قُلْنَا : هَذَا جَهْلٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ سَرْدَ الرِّوَايَاتِ عَلَى مَا سَنُورِدُهُ يُبْطِلُ هَذَا فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُ .

الثَّانِي : أَنَّ قِيمَةَ النَّعَامَةِ لَمْ تُسَاوِ قَطُّ قِيمَةَ الْبَدَنَةِ فِي عَصْرٍ مِنْ الْأَعْصَارِ ، لَا مُتَقَدِّمٍ وَلَا مُتَأَخِّرٍ ، عُلِمَ ذَلِكَ ضَرُورَةً وَعَادَةً ، فَلَا يَنْطِقُ بِمِثْلِ هَذَا إلَّا مُتَسَاخِفٌ بِالنَّظَرِ .

وَإِنَّمَا سَقَطَتْ الْمِثْلِيَّةُ فِي الِاعْتِدَاءِ عَلَى الْحَيَوَانِ مِنْ بَابِ الْمُزَابَنَةِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : لَوْ كَانَ الشَّبَهُ مِنْ طَرِيقِ الْخِلْقَةِ مُعْتَبَرًا ، فِي النَّعَامَةِ بَدَنَةٌ ، وَفِي الْحِمَارِ بَقَرَةٌ ، وَفِي الظَّبْيِ شَاةٌ لَمَا أَوْقَفَهُ عَلَى عَدْلَيْنِ يَحْكُمَانِ بِهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ عُلِمَ ، فَلَا يَحْتَاجُ إلَى الِارْتِيَاءِ وَالنَّظَرِ ، وَإِنَّمَا يَفْتَقِرُ إلَى الْعُدُولِ وَالْحُكْمِ مَا يُشْكِلُ الْحَالُ فِيهِ

وَيَضْطَرِبُ وَجْهُ النَّظَرِ عَلَيْهِ .

وَالْجَوَابُ : أَنَّ اعْتِبَارَ الْحُكْمَيْنِ إنَّمَا وَجَبَ فِي حَالِ الْمَصِيدِ مِنْ صِغَرٍ وَكِبَرٍ ، وَمَا لَهُ جِنْسٌ مِمَّا لَا جِنْسَ لَهُ ، وَلْيَعْتَبِرْ مَا وَقَعَ التَّنْصِيصُ عَلَيْهِ مِنْ الصَّحَابَةِ ، فَيَلْحَقُ بِهِ مَا لَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمْ نَصٌّ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ ، فَشَرَكَ بَيْنَهُمَا بِـ " أَوْ " فَصَارَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ، أَوْ مِنْ الطَّعَامِ ، أَوْ مِنْ الصِّيَامِ ، وَتَقْدِيرُ الْمِثْلِيَّةِ فِي الطَّعَامِ وَالصِّيَامِ بِالْمَعْنَى ، وَكَذَلِكَ فِي الْمِثْلِ الْأَوَّلِ .

(175/214)

قُلْنَا : هَذَا جَهْلٌ أَوْ تَجَاهُلٌ ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ ظَاهِرٌ كَمَا قَدَّمْنَا فِي مِثْلِ الْخِلْقَةِ ، وَمَا عَدَاهُ يَمْتَنِعُ فِيهِ مِثْلِيَّةُ الْخِلْقَةِ حِسًّا ؛ فَرَجَعَ إلَى مِثْلِيَّةِ الْمَعْنَى حُكْمًا ، وَلَيْسَ إذَا عُدِمَ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبُ فِي مَوْضِعٍ وَيَرْجِعُ إلَى بَدَلِهِ يَلْزَمُ أَنْ يَرْجِعَ إلَى بَدَلِهِ مَعَ وُجُودِهِ .

تَكْمِلَةٌ : وَمَنْ يَعْجَبُ فَعَجَبٌ مِنْ قِرَاءَةِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ وَالْبَصْرِيِّ وَالشَّامِيِّ : فَجَزَاءُ مِثْلِ بِالْإِضَافَةِ ؛ وَهَذَا يَقْتَضِي الْغَيْرِيَّةَ بَيْنَ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إلَيْهِ ، وَأَنْ يَكُونَ الْجَزَاءُ لِمِثْلِ

الْمَقْتُولِ لَا الْمَقْتُولِ ، وَمِنْ قِرَاءَةِ الْكُوفِيِّينَ : فَجَزَاءٌ مِثْلَ عَلَى الْوَصْفِ ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْجَزَاءُ هُوَ الْمِثْلَ .

وَيَقُولُ أَهْلُ الْكُوفَةِ مِنْ الْفُقَهَاءِ : إنَّ الْجَزَاءَ غَيْرُ الْمِثْلِ .

وَيَقُولُ الْمَدَنِيُّونَ وَالْمَكِّيُّونَ وَالشَّامِيُّونَ مِنْ الْفُقَهَاءِ : إنَّ الْجَزَاءَ هُوَ الْمِثْلُ ؛ فَيَبْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَذْهَبَهُ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى ظَاهِرِ قِرَاءَةِ قُرَّاءِ بَلَدِهِ .

وَقَدْ قَالَ لَنَا الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ الْقَرَافِيُّ الزَّاهِدُ : إنَّ ابْنَ مَعْقِلٍ الْكَاتِبَ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ النَّحْوِيِّ أَنَّهُ قَالَ : إنَّمَا يَجِبُ عَلَيْهِ

جَزَاءُ الْمَقْتُولِ لَا جَزَاءُ مِثْلِ الْمَقْتُولِ .

وَالْإِضَافَةُ تُوجِبُ جَزَاءَ الْمِثْلِ لَا جَزَاءَ الْمَقْتُولِ .

(176/214)

قَالَ : وَمَنْ أَضَافَ الْجَزَاءَ إلَى الْمِثْلِ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ عَلَى تَقْدِيرِ إقْحَامِ الْمِثْلِ ؛ وَذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ : أَنَا أُكْرِمُ مِثْلَك ؛ أَيْ أُكْرِمُك .

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ : وَذَلِكَ سَائِغٌ فِي اللُّغَةِ ، وَعَلَيْهِ يُخَرِّجُ أَحَدُ التَّأْوِيلَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

وَقَدْ حَقَّقْنَاهُ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ : فِي سَرْدِ الْآثَارِ عَنْ السَّلَفِ فِي الْبَابِ : وَفِي ذَلِكَ آثَارٌ كَثِيرَةٌ ، لُبَابُهَا سَبْعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ السُّدِّيُّ : " فِي النَّعَامَةِ وَالْحِمَارِ بَدَنَةٌ ، وَفِي بَقَرَةِ الْوَحْشِ أَوْ الْإِبِلِ أَوْ الْأَرْوَى بَقَرَةٌ ، وَفِي الْغَزَالِ وَالْأَرْنَبِ شَاةٌ ، وَفِي الضَّبِّ وَالْيَرْبُوعِ سَخْلَةٌ قَدْ أَكَلَتْ الْعُشْبَ ، وَشَرِبَتْ الْمَاءَ ، فَفَرَّقَ بَيْنَ صَغِيرِ الصَّيْدِ وَكَبِيرِهِ .

الثَّانِي : قَالَ عَطَاءٌ : " صَغِيرُ الصَّيْدِ وَكَبِيرُهُ سَوَاءٌ " لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ ، مُطْلَقًا ، وَلَا يَفْصِلُ بَيْنَ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ .

الثَّالِثُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " تُطْلَبُ صِفَةُ الصَّيْدِ ، فَإِنْ لَمْ تُوجَدْ قُوِّمَ بِالدَّرَاهِمِ ، ثُمَّ قُوِّمَتْ الدَّرَاهِمُ بِالْحِنْطَةِ ، ثُمَّ صَامَ مَكَانَ كُلِّ نِصْفِ صَاعٍ يَوْمًا " .

الرَّابِعُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " تُذْبَحُ عَنْ الظَّبْيِ شَاةٌ ؛ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ . فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ سِتَّةَ أَيَّامٍ " .

(177/214)

الْخَامِسُ : قَالَ الضَّحَّاكُ : " الْمِثْلُ مَا كَانَ لَهُ قَرْنٌ كَوَعْلٍ وَأَيِّلٍ فَدَاهُ بِبَقَرَةٍ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ قَرْنٌ كَالنَّعَامَةِ وَالْحِمَارِ فَفِيهِ بَدَنَةٌ ، وَمَا كَانَ مِنْ ظَبْيٍ فَمِنْ النَّعَمِ مِثْلُهُ ، وَفِي الْأَرْنَبِ ثَنِيَّةٌ ، وَمَا

كَانَ مِنْ يَرْبُوعٍ فَفِيهِ جَمَلٌ صَغِيرٌ .

فَإِنْ أَصَابَ فَرْخَ صَيْدٍ أَوْ بِيضَهُ تَصَدَّقَ بِثَمَنِهِ ، أَوْ صَامَ مَكَانَ كُلِّ نِصْفِ صَاعٍ يَوْمًا " .

السَّادِسُ : قَالَ النَّخَعِيُّ : "يُقَوِّمُ الصَّيْدَ الْمَقْتُولَ بِقِيمَتِهِ مِنْ الدَّرَاهِمِ ، ثُمَّ يَشْتَرِي الْقَاتِلُ بِقِيمَتِهِ فِدَاءً مِنْ النَّعَمِ ، ثُمَّ يُهْدِيهِ إلَى الْكَعْبَةِ " .

السَّابِعُ : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : " أَحْسَنُ مَا سَمِعْت فِي الَّذِي يَقْتُلُ الصَّيْدَ فَيُحْكَمُ عَلَيْهِ فِيهِ أَنَّهُ يُقَوِّمُ الصَّيْدَ الَّذِي أَصَابَ ، فَيَنْظُرُ كَمْ ثَمَنُهُ مِنْ الطَّعَامِ ؛ فَيُطْعِمُ لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدًّا ، أَوْ يَصُومُ مَكَانَ كُلِّ مُدٍّ يَوْمًا " .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْهُ : " إنْ قَوَّمَ الصَّيْدَ دَرَاهِمَ ثُمَّ قَوَّمَهَا طَعَامًا أَجْزَأَهُ " .

وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ مِثْلَهُ قَالَ عَنْهُ : وَهُوَ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ بِالْخِيَارِ أَيْ ذَلِكَ فِعْلٌ أَجْزَأَهُ مُوسِرًا كَانَ أَوْ مُعْسِرًا ، وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ ، وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ .

(178/214)

فَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ صَغِيرِ الصَّيْدِ وَكَبِيرِهِ وَهِيَ [الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ] الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ : [الْفَرْقُ بَيْنَ صَغِيرِ الصَّيْدِ وَكَبِيرِهِ] : فَصَحِيحٌ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ بِالْمِثْلِيَّةِ فِي

الْخِلْقَةِ ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ مُتَفَاوِتَانِ فِيهَا ، فَوَجَبَ اعْتِبَارُ التَّفَاوُتِ فَإِنَّهُ أَمْرٌ يَعُودُ إلَى التَّقْوِيمِ ، فَوَجَبَ اعْتِبَارُ الصَّغِيرِ فِيهِ وَالْكَبِيرِ كَسَائِرِ الْمُتْلَفَاتِ ؛ وَهُوَ اخْتِيَارُ عُلَمَائِنَا ، وَلِذَلِكَ قَالُوا : لَوْ كَانَ الصَّيْدُ أَعْوَرَ أَوْ أَعْرَجَ أَوْ كَسِيرًا لَكَانَ الْمِثْلُ عَلَى صِفَتِهِ لِتَحَقُّقِ الْمِثْلِيَّةِ ، وَلَا يَلْزَمُ الْمُتْلِفَ فَوْقَ مَا أَتْلَفَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ : وَأَمَّا تَرْتِيبُ الثَّلَاثَةِ الْوَاجِبَاتِ فِي هَذِهِ الْمِثْلِيَّةِ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : فَالَّذِي اخْتَارَهُ عُلَمَاؤُنَا كَمَا تَقَدَّمَ أَنْ يَكُونَ بِالْخِيَارِ فِيهَا ، وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ ، وَقَالُوا : كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ فِيهِ " أَوْ " فَهُوَ فِيهِ بِالْخِيَارِ .

وَتَحْقِيقُ الْمَسْأَلَةِ عِنْدِي أَنَّ الْأَمْرَ مَصْرُوفٌ إلَى الْحَكَمَيْنِ ، فَمَا رَأَيَاهُ مِنْ ذَلِكَ لَزِمَهُ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(179/214)

وَأَمَّا تَقْدِيرُ الطَّعَامِ وَالصِّيَامِ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ : فَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، حَيْثُ قَدَّرَهُ فِي كَفَّارَةِ الظِّهَارِ مِسْكِينًا بِيَوْمٍ ، وَلَا يُعْدَلُ عَنْ تَقْدِيرِهِ تَعَالَى وَتُقَدَّسُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ التَّقْدِيرَاتِ تَتَعَارَضُ فِيهِ الْأَقْوَالُ ، وَلَا يَشْهَدُ لَهُ أَصْلٌ ؛ فَالِاقْتِصَارُ عَلَى الشَّاهِدِ الْجَلِيِّ أَوْلَى .

الْمَسْأَلَةُ الْمُوفِيَةُ عِشْرِينَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : يُقِيمُ الْمُتْلِفُ رَجُلَيْنِ عَدْلَيْنِ فَقِيهَيْنِ بِمَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، فَيَنْظُرَانِ فِيمَا أَصَابَ ، وَيَحْكُمَانِ عَلَيْهِ بِمَا رَأَيَاهُ فِي ذَلِكَ ، فَمَا حَكَمَا عَلَيْهِ لَزِمَهُ .

وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ إنْ كَانَ الْإِمَامُ حَاضِرًا أَوْ نَائِبَهُ أَنَّهُ يَكُونُ الْحُكْمُ إلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا أَقَامَ حِينَئِذٍ الْمُتْلِفُ مَنْ يَحْكُمُ عَلَيْهِ .

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى التَّحْكِيمِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : وَقَدْ تَقَدَّمَ الذِّكْرُ فِيهِ ، وَلِأَجْلِهِ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّهُ يَجُوزُ حُكْمُهُمَا بِغَيْرِ إذْنِ الْإِمَامِ ؛ وَذَلِكَ عِنْدِي صَحِيحٌ ؛ إذْ يَتَعَذَّرُ أَمْرُهُ .

وَقَدْ رَوَى جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ قَالَ : أَصَبْت صَيْدًا ، وَأَنَا مُحْرِمٌ ، فَأَتَيْت عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فَأَخْبَرْته ، فَقَالَ : " ائْتِ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِك فَلْيَحْكُمَا عَلَيْك " فَأَتَيْت عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَسَعْدًا ، فَحَكَمَا عَلَيَّ بِتَيْسٍ أَعْفَرَ .

(180/214)

وَهُوَ أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَتَوَلَّى فَصْلَ الْقَضَاءِ رَجُلَانِ ، وَقَدْ مَنَعَتْهُ الْجَهَلَةُ ؛ لِأَنَّ اخْتِلَافَ اجْتِهَادِهِمَا يُوجِبُ تَوَقُّفَ الْأَحْكَامِ بَيْنَهُمَا ، وَقَدْ بَعَثَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذًا

وَأَبَا مُوسَى إلَى الْيَمَنِ ، كُلٌّ وَاحِدٍ عَلَى مِخْلَافٍ ، وَبَعَثَ أُنَيْسًا إلَى الْمَرْأَةِ الْمَرْجُومَةِ ، وَلَمْ يَأْتِ الِاشْتِرَاكُ فِي الْحُكْمِ إلَّا فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ ؛ لِأَجْلِ أَنَّهَا عِبَادَةٌ لَا خُصُومَةَ فِيهَا ، فَإِنْ اتَّفَقَا لَزِمَ الْحُكْمُ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَإِنْ اخْتَلَفَا نُظِرَ فِي غَيْرِهِمَا .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَوَّازِ : وَلَا يَأْخُذُ بِأَرْفَعِ قَوْلِهِمَا ؛ يُرِيدُ لِأَنَّهُ عَمَلٌ بِغَيْرِ تَحْكِيمٍ ، وَكَذَلِكَ لَا يَنْتَقِلُ عَنْ الْمِثْلِ الْخِلْقِيِّ ، إذَا حَكَمَا بِهِ ، إلَى الطَّعَامِ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ قَدْ لَزِمَ قَالَهُ ابْنُ شَعْبَانَ ؛ وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : إنْ

أَمَرَهُمَا أَنْ يَحْكُمَا بِالْجَزَاءِ مِنْ الْمِثْلِ فَفَعَلَا ، فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِلَ إلَى الطَّعَامِ جَازَ .

وَفِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ تَجَاوُزٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : قَوْلُهُ : إنْ أَمَرَهُمَا أَنْ يَحْكُمَا بِالْمِثْلِ ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ إلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يُحَكِّمُهُمَا .

ثُمَّ يَنْظُرَانِ فِي الْقَضِيَّةِ ، فَمَا أَدَّى إلَيْهِ اجْتِهَادُهُمَا لَزِمَهُ ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ عَنْهُ .

وَهُوَ الثَّانِي لِأَنَّهُ نَقْضٌ لِحُكْمِهِمَا ؛ وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ لِالْتِزَامِهِ لِحُكْمِهِمَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ : الْمَعْنَى إذَا حَكَمَا بِالْمِثْلِ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَفْعَلُ بِالْهَدْيِ ، يُقَلِّدُهُ وَيُشْعِرُهُ ، وَيُرْسِلُهُ إلَى مَكَّةَ وَيَنْحَرُهُ بِهَا ، وَيَتَصَدَّقُ بِهِ فِيهَا ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ : وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْهَدْيَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ الْحَرَمِ .

وَاخْتُلِفَ هَلْ يُفْتَقَرُ إلَى حِلٍّ مَعَهُ ؟ فَقَالَ مَالِكٌ : لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ يَبْتَاعُ بِالْحِلِّ ، وَيُقَلِّدُ وَيُشْعِرُ ، وَيَدْفَعُ إلَى الْحَرَمِ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا يَحْتَاجُ إلَى الْحِلِّ .

وَحَقِيقَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ يَقْتَضِي أَنْ يَهْدِيَ مِنْ مَكَانٍ يَبْلُغُ مِنْهُ إلَى الْكَعْبَةِ ، وَلَمْ يُرِدْ الْكَعْبَةَ بِعَيْنِهَا ؛ فَإِنَّ الْهَدْيَ لَا يَبْلُغُهَا ، إذْ هِيَ فِي الْمَسْجِدِ وَإِنَّمَا أَرَادَ الْحَرَمَ ، وَلِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ : إنَّ الصَّغِيرَ مِنْ الْهَدْيِ يَجِبُ فِي الصَّغِيرِ مِنْ الصَّيْدِ ، لِأَنَّهُ يَبْتَاعُهُ فِي الْحَرَمِ وَيُهْدِيه فِيهِ .

وَقَالَ مَالِكٌ : لَا يَكُونُ الْجَزَاءُ فِي الصَّغِيرِ إلَّا بِالْقِيمَةِ ؛ لِأَنَّ الْهَدْيَ الصَّغِيرَ لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ إلَى الْحَرَمِ ، وَهَذَا لَا يُغْنِي ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ قَضَتْ فِي الصَّغِيرِ صَغِيرًا ، وَفِي الْكَبِيرِ كَبِيرًا ، وَإِذَا تَعَذَّرَ حَمْلُهُ إلَى الْحَرَمِ حُمِلَتْ قِيمَتُهُ ، كَمَا لَوْ قَالَ بِالْمَغْرِبِ : بَعِيرِي هَذَا هَدْيٌ ، فَإِنَّهُ يُبَاعُ وَيُحْمَلُ ثَمَنُهُ إلَى مَكَّةَ ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي صَغِيرِ الْهَدْيِ مِثْلُهُ .

وَرُوِيَ عَنْ مَالِكٍ : أَنَّ صَغِيرَ الْهَدْيِ مِثْلُ كَبِيرِهِ فِي الْقِيمَةِ ، كَمَا أَنَّ صَغِيرَ الْآدَمِيِّ مِثْلُ كَبِيرِهِ فِي الدِّيَةِ .

وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ ؛ فَإِنَّ الدِّيَةَ مُقَدَّرَةٌ جَبْرًا ، وَهَذَا مُقَدَّرٌ نَظَرًا ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، فَافْتَرَقَا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ ﴾ سَمَّاهُ بِهَا لِيُبَيِّنَ أَنَّ الطَّعَامَ عَنْ الصَّيْدِ لَا عَنْ الْهَدْيِ ، وَلِيُلْحِقَهَا بِأَمْثَالِهَا وَنَظَائِرِهَا عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ طَعَامُ مَسَاكِينَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إذَا قَتَلَ الْمُحْرِمُ ظَبْيًا وَنَحْوَهُ فَعَلَيْهِ شَاةٌ تُذْبَحُ بِمَكَّةَ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَإِطْعَامُ سِتَّةِ مَسَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَعَلَيْهِ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، فَإِنْ قَتَلَ أَيْلًا أَوْ نَحْوَهُ فَعَلَيْهِ بَقَرَةٌ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ عِشْرِينَ مِسْكِينًا ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ عِشْرِينَ يَوْمًا ، وَإِنْ قَتَلَ نَعَامَةً أَوْ حِمَارًا فَعَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنْ الْإِبِلِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَإِطْعَامُ ثَلَاثِينَ مِسْكِينًا ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَالطَّعَامُ مُدٌّ مُدٌّ لِشِبَعِهِمْ وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا : إنْ لَمْ يَجِدْ جَزَاءً قَوَّمَ الْجَزَاءَ دَرَاهِمَ ، ثُمَّ قُوِّمَتْ الدَّرَاهِمُ حِنْطَةً ، ثُمَّ صَامَ مَكَانَ كُلِّ نِصْفِ صَاعٍ يَوْمًا .

وَقَالَ : إنَّمَا أُرِيدَ بِالطَّعَامِ الصَّوْمَ ، فَإِذَا وَجَدَ طَعَامًا وَجَبَ جَزَاءً .

وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ النَّخَعِيِّ ، وَمُجَاهِدٍ ، وَالسُّدِّيِّ ، وَحَمَّادٍ ، وَغَيْرِهِمْ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : فَإِنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَإِطْعَامُ سِتَّةِ مَسَاكِينَ ، فَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ عَلَى التَّخْيِيرِ لَا عَلَى التَّرْتِيبِ بِمَا يَقْتَضِيهِ حَرْفُ " أَوْ " فِي لِسَانِ الْعَرَبِ .

وَأَمَّا تَقْدِيرُ الطَّعَامِ فِي الظَّبْيِ بِسِتَّةِ مَسَاكِينَ ، وَفِي الْبَدَنَةِ بِثَلَاثِينَ مِسْكِينًا فَلَيْسَ بِتَقْدِيرٍ نَافِذٍ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ تَحَكُّمٌ بِاخْتِيَارِ قِيمَةِ الطَّعَامِ بِالدَّرَاهِمِ أَصْلًا أَوْ بَدَلًا كَمَا تَقَدَّمَ ، ثُمَّ يُعْطَى عَنْ كُلِّ مُدٍّ يَوْمًا لَا نِصْفَ صَاعٍ .

وَقَدْ رَوَى بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيّ : كَانَ رَجُلَانِ مِنْ الْأَعْرَابِ مُحْرِمِينَ ، فَحَاشَ أَحَدُهُمَا صَيْدًا فَقَتَلَهُ الْآخَرُ ، فَأَتَيَا عُمَرُ ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ

الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَا تَرَى ؟ قَالَ : شَاةٌ .

قَالَ : وَأَنَا أَرَى ذَلِكَ .

اذْهَبَا فَأَهْدِيَا شَاةً .

فَلَمَّا مَضَيَا قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : مَا دَرَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَقُولُ ، حَتَّى سَأَلَ صَاحِبَهُ .

فَسَمِعَهُ عُمَرُ ، فَرَدَّهُمَا ، فَقَالَ : هَلْ تَقْرَآنِ سُورَةَ الْمَائِدَةِ ؟ فَقَالَا : لَا .

فَقَرَأَ عَلَيْهِمَا : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا ﴾ ثُمَّ قَالَ : اسْتَعَنْت بِصَاحِبِي هَذَا .

وَعَنْ قَبِيصَةَ وَصَاحِبٍ لَهُ أَنَّهُمَا أَصَابَا وَذَكَرَ الْحَدِيثَ ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ .

فَسَمِعَهُمَا عُمَرُ .

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ضَرْبًا بِالدِّرَّةِ ، وَقَالَ : تَقْتُلُ الصَّيْدَ وَأَنْتَ مُحْرِمٌ ، وَتَغْمِصُ الْفُتْيَا ، إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ فِي كِتَابِهِ : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ .

وَهَذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَأَنَا عُمَرُ .

(184/214)

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي قَتْلِ الصَّيْدِ الْمُحَرَّمِ يُوجِبُ عَلَى الْمُشْتَرِكِينَ كَفَّارَةً وَاحِدَةً لِقَضَاءِ عُمَرَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ بِشَاةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى رَجُلَيْنِ ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ : عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَزَاءٌ كَامِلٌ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : وَهِيَ تَنْبَنِي عَلَى أَصْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لُغَوِيٌّ قُرْآنِيٌّ ، وَالْآخَرُ مَعْنَوِيٌّ .

أَمَّا اللُّغَوِيُّ الْقُرْآنِيُّ : فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الْقَاتِلِينَ لِلصَّيْدِ قَاتِلٌ نَفْسًا عَلَى الْكَمَالِ وَالتَّمَامِ ، بِدَلِيلِ قَتْلِ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مُتْلِفٌ نَفْسًا عَلَى الْكَمَالِ وَمُذْهِبٌ رَوْحًا عَلَى التَّمَامِ .

وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ الْقِصَاصُ ، وَقَدْ قُلْنَا بِوُجُوبِهِ إجْمَاعًا مِنَّا وَمِنْهُمْ فَثَبَتَ مَا قُلْنَا .

وَأَمَّا الْمَعْنَوِيُّ : فَإِنَّ عِنْدَنَا أَنَّ الْجَزَاءَ كَفَّارَةٌ ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قِيمَةٌ .

وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْجَزَاءَ كَفَّارَةٌ وَمُقَابِلٌ لِلْجِنَايَةِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ جَنَى عَلَى إحْرَامِهِ جِنَايَةً كَامِلَةً ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُسَمَّى قَاتِلًا ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَمَّى الْجَزَاءَ كَفَّارَةً فِي كِتَابِهِ .

وَأَمَّا كَمَالُ الْجِنَايَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى الْإِحْرَامِ فَصَحِيحٌ ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ارْتَكَبَ مَحْظُورَ إحْرَامِهِ فِي قَتْلِ الصَّيْدِ ، وَسُمِّيَ قَاتِلًا حَقِيقَةً فَوَجَبَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَزَاءٌ .

(185/214)

فَإِنْ قِيلَ : إنَّهُ يَقُومُ بِقِيمَةِ الصَّيْدِ ، وَيَلْحَظُ فِيهِ شِبْهَهُ .

وَلَوْ كَانَ كَفَّارَةً لَاعْتُبِرَ مُطْلَقًا مِنْ اعْتِبَارِ ذَلِكَ كُلِّهِ ، كَمَا فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ ، فَلَمَّا كَانَ كَذَلِكَ صَارَ كَالدِّيَةِ .

قُلْنَا : هَذَا بَاطِلٌ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ دُخُولُ الصَّوْمِ عَلَيْهِ .

وَلَوْ كَانَ بَدَلَ مُتْلَفٍ مَا دَخَلَ الصِّيَامُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الصِّيَامَ إنَّمَا مَوْضِعُهُ وَمَوْضُوعُهُ

الْكَفَّارَاتُ ، لَا أَبْدَالُ الْمُتْلَفَاتِ .

جَوَابٌ آخَرُ : وَذَلِكَ أَنَّهُ إنَّمَا تُقَدَّرُ بِقَدْرِ الْمَحِلِّ ؛ لِأَنَّ الْجِنَايَةَ لَهَا ، مَحِلٌّ ، فَيَزِيدُ بِزِيَادَتِهِ ، وَيَنْقُصُ بِنُقْصَانِهِ ، بِخِلَافِ كَفَّارَةِ الْآدَمِيِّ فَإِنَّهُ حَدٌّ لَا يَتَقَدَّرُ حَقِيقَةً فَيُقَدَّرُ كَفَّارَةً .

جَوَابٌ ثَالِثٌ : وَذَلِكَ أَنَّ الْجَزَاءَ لَا يَجُوزُ إسْقَاطُهُ ، وَالدِّيَةُ يَجُوزُ إسْقَاطُهَا ، فَدَلَّ عَلَى اخْتِلَافِهِمَا بِالصِّفَةِ وَالْمَوْضُوعِ .

جَوَابٌ رَابِعٌ : وَذَلِكَ أَنَّ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى يَسْتَوِي فِي الْجَزَاءِ ، وَيَخْتَلِفُ فِي الدِّيَةِ ، وَقِيمَةِ الْإِتْلَافِ ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا ، وَظَهَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الشَّافِعِيِّ ضَعِيفٌ جِدًّا .

وَاَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : خَالَفَ أَبُو حَنِيفَةَ مَالِكًا فِي فَرْعٍ ؛ وَهُوَ إذَا قَتَلَ جَمَاعَةٌ صَيْدًا فِي حَرَمٍ وَهُمْ مُحِلُّونَ فَعَلَيْهِمْ جَزَاءٌ وَاحِدٌ ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قَتَلَهُ الْمُحْرِمُونَ فِي الْحِلِّ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَتَلَ نَفْسًا مُحَرَّمَةً ، فَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي الْحِلِّ أَوْ فِي الْحَرَمِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَخْتَلِفُ .

(186/214)

وَأَمَّا الْقَاضِي أَبُو زَيْدٍ فَبَنَاهُ فِي أَسْرَارِ اللَّهِ عَلَى أَصْلٍ ، وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ : السِّرُّ فِيهِ أَنَّ الْجِنَايَةَ فِي الْإِحْرَامِ عَلَى الْعِبَادِ ، فَقَدْ ارْتَكَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَحْظُورًا فِي إحْرَامِهِ .

وَإِذَا قَتَلَ صَيْدًا فِي الْحَرَمِ فَإِنَّمَا أَتْلَفَ نَفْسًا مُحْتَرَمَةً فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَوْ أَتْلَفَ جَمَاعَةٌ دَابَّةً ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَاتِلٌ دَابَّةً ، وَيَشْتَرِكُونَ فِي الْقِيمَةِ ، وَهَذَا مِمَّا يَسْتَهِينُ بِهِ عُلَمَاؤُنَا ، وَهُوَ عَسِيرُ الِانْفِصَالِ .

وَقَدْ عَوَّلَ عُلَمَاؤُنَا عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ يَكُونُ مُحْرِمًا بِدُخُولِهِ فِي الْحَرَمِ ، كَمَا يَكُونُ مُحْرِمًا بِتَلْبِيَتِهِ بِالْإِحْرَامِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْفِعْلَيْنِ قَدْ أَكْسَبَهُ صِفَةً تَعَلَّقَ بِهَا نَهْيٌ ، فَهُوَ هَاتِكٌ لَهَا فِي الْحَالَيْنِ .

وَأَبُو حَنِيفَةَ أَقْوَى مِنَّا ، عَلَى أَنَّ عُلَمَاءَنَا قَالُوا : إذَا قَتَلَ الصَّيْدَ فِي الْحِلِّ وَهُوَ مُحْرِمٌ فَعَلَيْهِ الْجَزَاءُ ، وَإِنْ قَتَلَهُ فِي الْحَرَمِ فَعَلَيْهِ حُكُومَةٌ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ : وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا جَزَاءَ فِي صَيْدِ الْحَرَمِ أَصْلًا .

وَقَالَ سَائِرُ الْعُلَمَاءِ : حُرْمَةُ الْحَرَمِ كَالْإِحْرَامِ ، وَاللَّفْظُ فِيهِمَا وَاحِدٌ ، يُقَالُ : أَحْرَمَ الرَّجُلُ إذَا تَلَبَّسَ بِالْإِحْرَامِ ، كَمَا يُقَالُ : أَحْرَمَ إذَا دَخَلَ فِي الْحَرَمِ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، فَلَا مَعْنَى لِمَا قَالَهُ مَنْ أَسْقَطَ الْجَزَاءَ فِيهِ ، وَيُضَعَّفُ قَوْلُ عُلَمَائِنَا لِاقْتِضَاءِ اللَّفْظِ لِوُجُوبِ الْجَزَاءِ وَعُمُومِ الْحُكْمِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ :

وَكَذَلِكَ كَفَّارَةُ الْعَبْدِ إذَا أَحْرَمَ أَوْ دَخَلَ الْحَرَمَ كَكَفَّارَةِ الْحُرِّ سَوَاءٌ ؛ لَكِنْ يَكُونُ حُكْمُهُ فِي الْكَفَّارَةِ الْمَالِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ مُخْتَلِفَ الْحَالِ ، كَمَا سَيَأْتِي فِي آيَةِ الظِّهَارِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الْمُوفِيَةُ ثَلَاثِينَ : إذَا قُوِّمَ الطَّعَامُ فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ أَيْنَ يُقَوَّمُ ؟ فَقَالَ قَوْمٌ : يُقَوَّمُ فِي مَوْضِعِ الْجِنَايَةِ ؛ قَالَهُ حَمَّادٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَسِوَاهُمْ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : يُقَوَّمُ حَيْثُ يُكَفِّرُ بِمَكَّةَ .

وَرُوِيَ عَنْ الشَّعْبِيِّ .

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ مُشْكِلَةٌ جِدًّا ؛ فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُعْتَبَرُ بِهِ قِيمَةُ الْمُتْلَفِ ؛ فَقَالَ قَوْمٌ : يَوْمَ الْإِتْلَافِ .

وَقَالَ آخَرُ : يَوْمَ الْقَضَاءِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : يَلْزَمُ الْمُتْلِفُ أَكْثَرَ الْقِيمَتَيْنِ مِنْ الْإِتْلَافِ إلَى يَوْمِ الْحُكْمِ ، وَاخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا كَاخْتِلَافِهِمْ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَلْزَمُ الْقِيمَةَ يَوْمَ الْإِتْلَافِ ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مَحْمُولَةٌ عَلَيْهَا .

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْوُجُوبَ كَانَ حَقًّا لِلْمُتْلَفِ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَعْدَمَهُ الْمُتْلِفُ لَزِمَهُ إيجَادُهُ

بِمِثْلِهِ ، وَذَلِكَ فِي وَقْتِ الْعَدَمِ ، فَالْقَضَاءُ يُظْهِرُ الْوَاجِبَ فِي ذِمَّةِ الْمُتْلِفِ ، وَلَا يَسْتَأْنِفُ الْقَاضِي إيجَابًا لَمْ يَكُنْ ، وَهَذَا يُعَضِّدُ فِي مَسْأَلَتِنَا الْوُجُوبَ فِي مَوْضِعِ الْإِتْلَافِ ، فَأَمَّا فِي مَوْضِعِ فِعْلِ الْكَفَّارَةِ فَلَا وَجْهَ لَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : فَأَمَّا الْهَدْيُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَكَّةَ .

(188/214)

وَأَمَّا الْإِطْعَامُ فَاخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ مَالِكٍ ؛ هَلْ يَكُونُ بِمَكَّةَ أَوْ بِمَوْضِعِ الْإِصَابَةِ .

وَأَمَّا الصَّوْمُ فَلَمْ يَخْتَلِفْ قَوْلُهُ : إنَّهُ يَصُومُ حَيْثُ شَاءَ .

وَقَالَ حَمَّادٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ : يُكَفِّرُ بِمَوْضِعِ الْإِصَابَةِ .

وَقَالَ عَطَاءٌ : مَا كَانَ مِنْ دَمٍ أَوْ طَعَامٍ بِمَكَّةَ ، وَيَصُومُ حَيْثُ شَاءَ .

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ : يُكَفِّرُ حَيْثُ شَاءَ .

فَأَمَّا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ : إنَّهُ يُكَفِّرُ حَيْثُ أَصَابَ ، فَلَا وَجْهَ لَهُ فِي النَّظَرِ وَلَا أَثَرَ فِيهِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ يَصُومُ حَيْثُ شَاءَ فَلِأَنَّ الصَّوْمَ عِبَادَةٌ تَخْتَصُّ بِالصَّائِمِ ، فَتَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ كَصِيَامِ سَائِرِ الْكَفَّارَاتِ فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهَا .

وَأَمَّا وَجْهُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الطَّعَامَ يَكُونُ بِمَكَّةَ فَلِأَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ الْهَدْيِ أَوْ نَظِيرٌ لَهُ ؛ وَالْهَدْيُ حَقٌّ

لِمَسَاكِينِ مَكَّةَ ؛ فَلِذَلِكَ يَكُونُ بِمَكَّةَ بَدَلَهُ أَوْ نَظِيرَهُ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ يَكُونُ بِكُلِّ مَوْضِعٍ ، وَهُوَ الْمُخْتَارُ ، فَإِنَّهُ اعْتِبَارٌ بِكُلِّ طَعَامٍ وَفِدْيَةٍ ، فَإِنَّهَا تَجُوزُ بِكُلِّ مَوْضِعٍ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(189/214)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : الْعَدْلُ وَالْعِدْلُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَكَسْرِهَا : هُوَ الْمِثْلُ ، وَيُؤْثَرُ عَنْ السَّكَّاكِيِّ أَنَّهُ قَالَ : عِدْلُ الشَّيْءِ بِكَسْرِ الْعَيْنِ مِثْلُهُ مِنْ جِنْسِهِ ، وَبِفَتْحِ الْعَيْنِ مِثْلُهُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ ، وَأَرَادَ أَوْ يَصُومُ صَوْمًا مُمَاثِلًا لِلطَّعَامِ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُمَاثِلَ الطَّعَامُ الطَّعَامَ فِي وَجْهٍ أَقْرَبَ مِنْ الْعَدَدِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَوْجِيهُهُ .

وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ : يَصُومُ عَلَى عَدَدِ الْمَسَاكِينِ فِي الطَّعَامِ لَا عَلَى عَدَدِ الْأَمْدَادِ الْأَشْهُرِ ، وَهُوَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا ، وَالْكَافَّةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَدَّرَهُ بِالْأَمْدَادِ ، وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ : عَنْ كُلِّ مُدٍّ يَوْمًا ، وَهُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي لِمَالِكٍ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَصُومُ عَنْ كُلِّ مُدَّيْنِ يَوْمًا اعْتِبَارًا بِفِدْيَةِ الْأَذَى .

وَاعْتِبَارُ الْكَفَّارَةِ بِالْفِدْيَةِ لَا وَجْهَ لَهُ فِي الشَّرِيعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي نُظَرَائِهِ .

(190/214)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : إنَّمَا يُفْتَقَرُ إلَى الْحَكَمَيْنِ فِي مَوْضِعَيْنِ ؛ فِي الْجَزَاءِ مِنْ النَّعَمِ ، وَالْإِطْعَامِ ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلْ يَحْتَاجُ إلَيْهِمَا فِي الْحَالِ كُلِّهَا ، وَهِيَ تَنْحَصِرُ فِي مَوَاضِعَ سَبْعَةٍ : الْأَوَّلُ : هَلْ يُحْكَمُ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَأِ أَوْ فِي الْعَمْدِ وَحْدَهُ ؟ الثَّانِي : هَلْ يُحْكَمُ فِي قَتْلِ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ كَمَا يَكُونُ فِي الْإِحْرَامِ ؟ الثَّالِثُ : هَلْ يُحْكَمُ بِالْجَزَاءِ حَيَوَانًا أَوْ قِيمَةً ؟ الرَّابِعُ : إذَا رَأَى الْحَيَوَانَ جَزَاءً عَنْ حَيَوَانٍ .

فِي تَعْيِينِ الْحَيَوَانِ خِلَافٌ كَثِيرٌ لَا بُدَّ مِنْ تَسْلِيطِ نَظَرِهِ عَلَيْهِ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ مِنْ اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِيهِ ؛ هَلْ يَسْتَوِي صَغِيرُهُ وَكَبِيرُهُ كَمَا قَالَ مَالِكٌ فِي الْكِتَابِ حِينَ جَعَلَهُ كَالدِّيَةِ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يُرَاعِي صِفَاتِهِ أَجْمَعَ حَتَّى الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ ، أَمْ تُرَاعَى

(191/214)

الْأُصُولُ ، أَوْ يُرَاعَى الْعَيْبُ وَالسَّلَامَةُ ، أَوْ هُمَا وَاحِدٌ ؟ وَهَلْ يَكُونُ فِي النَّعَامَةِ بَدَنَةٌ كَمَا فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِ ، أَمْ يَكُونُ فِيهَا الْقِيمَةُ ؛ لِأَنَّهَا لَا تُقَارِبُ خَلْقَ الْبَقَرِ وَلَا تَبْلُغُ خَلْقَ الْإِبِلِ ؟ الْخَامِسُ : هَلْ الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا تُجْزِئُ أَمْ بَعْضُهَا ؟ السَّادِسُ : هَلْ يَقُومُ الْمِثْلُ بِالطَّعَامِ أَوْ بِالدَّرَاهِمِ ؟ السَّابِعُ : هَلْ يَكُونُ التَّقْوِيمُ بِمَوْضِعِ الْإِصَابَةِ أَمْ بِمَوْضِعِ الْكَفَّارَةِ ؟ وَهَكَذَا إلَى آخِرِ فُصُولِ الِاخْتِلَافِ ، فَيُرْفَعُ الْأَمْرُ إلَى الْحُكْمَيْنِ حَتَّى يُخَلِّصَا جِهَادُهُمَا مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ الْوُجُوهِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَيَلْزَمُهُ مَا قَالَا .

وَاَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : إذَا قَتَلَ مُحْرِمٌ صَيْدًا فَجَزَاهُ .

ثُمَّ قَتَلَهُ ثَانِيَةً وَجَبَ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ .

(192/214)

قَالَ عُلَمَاؤُنَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ ، وَلَمْ يَفْصِلْ بَيْنَ الْمَرَّةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ ، وَمِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهَذَا الدَّلِيلِ أَحْبَارٌ مِمَّنْ لَا يَلِيقُ بِمَرْتَبَتِهِمْ إيرَادُ هَذَا الدَّلِيلِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ حُكْمٍ عُلِّقَ بِشَرْطٍ لَا يَتَكَرَّرُ بِتَكْرَارِ الشَّرْطِ ، فَمَنْ قَالَ لِزَوْجَتِهِ : إنْ دَخَلْت الدَّارَ فَأَنْتِ طَالِقٌ [فَإِنَّ الطَّلَاقَ] لَا يَتَكَرَّرُ بِتَكْرَارِ الدُّخُولِ ، فَإِنْ قَامَ دَلِيلٌ عَلَى تَكْرَارِ

الْحُكْمِ بِتَكْرَارِ الشَّرْطِ فَذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ الدَّلِيلِ الْقَائِمِ عَلَيْهِ لَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْطِ الْمُضَافِ إلَيْهِ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إذَا قُمْتُمْ إلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ فَإِنَّ الْوُضُوءَ يَتَكَرَّرُ بِتَكَرُّرِ الْقِيَامِ مَعَ الْحَدَثِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ ﴾ .

وَهَا هُنَا تَكَرَّرَ الِاسْمُ بِتَكَرُّرِ الشَّرْطِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ .

وَالنَّهْيُ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ عَلَيْهِ ، فَالْجَزَاءُ لِأَجْلِ ذَلِكَ مُتَوَجِّهٌ لَازِمٌ ذِمَّتَهُ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْ جَزَاءً وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قُلْنَا : قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ يَعْنِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا الْإِسْلَامِ ، أَوْ عَمَّا قَبْلَ بَيَانِ الْحُكْمِ ؛ فَإِنَّ الْوَاقِعَ قَبْلَهُ عَفْوٌ .

(193/214)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ : يَعْنِي فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَعَلَيْهِ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ الدَّلِيلِ الْكَفَّارَةُ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ ،

وَهَذَا لَا يَصِحُّ ؛ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ تَمَادِي التَّحْرِيمِ فِي الْإِحْرَامِ وَتَوَجُّهِ الْخِطَابِ عَلَيْهِ فِي دِينِ

الْإِسْلَامِ .

وَوَجْهٌ آخَرُ مِنْ الدَّلِيلِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ يَعْنِي وَهُوَ مُحْرِمٌ ، ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ .

وَقَدْ قَالَ بِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْحَسَنُ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُجَاهِدٌ وَشُرَيْحٌ .

وَيُرْوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : نَعَمْ نَحْكُمُ عَلَيْهِ أَفَيُخْلَعُ يَعْنِي يُخْرَجُ عَنْ حُكْمِ الْمُحْرِمِينَ ؛ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ : إنَّهُ إذَا قَتَلَهُ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ حَلَّ إحْرَامُهُ ؛ لِأَنَّهُ ارْتَكَبَ مَحْظُورًا [يُنَافِي] عِبَادَةً فِيهَا ، فَأَبْطَلَهَا ، كَمَا لَوْ تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ أَوْ أَحْدَثَ فِيهَا .

وَدَلِيلُنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الْجَزَاءَ وَلَمْ يَذْكُرْ الْفَسَادَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ مَا يُفْسِدُ الْحَجَّ مِنْ مَحْظُورَاتِهِ بِمَا يُغْنِي عَنْ إعَادَتِهِ ، فَلَا يَصِحُّ اعْتِبَارُ الْحَجِّ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهُمَا مُخْتَلِفَانِ شَرْطًا وَوَصْفًا وَوَضْعًا فِي الْأَصْلِ ، فَلَا يُعْتَبَرُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ بِحَالٍ .

(194/214)

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَفِيمَا تَقَدَّمَ ، كَمَا أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْ زَيْدِ بْنِ الْمُعَلَّى أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ صَيْدًا وَهُوَ مُحْرِمٌ فَتَجُوزُ عَنْهُ ، ثُمَّ عَادَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَارًا مِنْ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهُ ، وَهَذِهِ عِبْرَةٌ لِلْأُمَّةِ وَكَفٌّ لِلْمُعْتَدِينَ عَنْ الْمَعْصِيَةِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : مَا تَقَدَّمَ فِيهِ لِلصَّحَابَةِ حُكْمٌ مِنْ الْجَزَاءِ فِي صَيْدٍ يَبْتَدِئُ الْآنَ الْحَكَمَانِ النَّظَرَ فِيهِ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا يُنْظَرُ فِيمَا نَظَرَتْ فِيهِ الصَّحَابَةُ ؛ لِأَنَّهُ حُكْمٌ نَفَذَ ، وَهَذَا يَبْطُلُ بِقَضَايَا الدِّينِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ حُكْمٍ أَنْفَذَتْهُ الصَّحَابَةُ يَجُوزُ الِاجْتِهَادُ فِيهِ ثَانِيًا .

وَذَلِكَ فِيمَا لَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ وَلَا انْعَقَدَ عَلَيْهِ إجْمَاعٌ ، وَهَذَا أَبْيَنُ مِنْ إطْنَابٍ فِيهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ : لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَانِي أَحَدَ الْحَكَمَيْنِ ، وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَانِي أَحَدَ الْحَكَمَيْنِ ، وَهَذَا تَسَامُحٌ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ يَقْتَضِي جَانِيًا وَحَكَمَيْنِ ، فَحَذْفُ بَعْضِ الْعَدَدِ إسْقَاطٌ لِلظَّاهِرِ ، وَإِفْسَادٌ لِلْمَعْنَى لِأَنَّ حُكْمَ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ لَا يَجُوزُ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا لَاسْتَغْنَى بِنَفْسِهِ عَنْ غَيْرِهِ ؛ لِأَنَّهُ حُكْمٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ ، فَزِيَادَةُ ثَانٍ إلَيْهِ غَيْرُهُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِئْنَافِ الْحُكْمِ بِرَجُلَيْنِ سِوَاهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(195/214)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ . . . الآية (95) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ فنهى المحرم عن قتله في هذه الآية ، وأكله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ قال : حرم صيده ههنا ، وأكله ههنا .

وأخرج ابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ ومن قتله منكم متعمداً ﴾ قال : إن قتله متعمداً أو ناسياً أو خطأً حكم عليه ، فإن عاد متعمداً عجلت له العقوبة إلا أن يعفو الله عنه . وفي قوله ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ قال : إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه ، فإن قتل ظبياً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فإن قتل إبلاً ونحوه فعليه بقرة ، فإن لم يجدها أطعم عشرين مسكيناً ، فإن لم يجد صام عشرين يوماً ، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنة من الإبل ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً ، والطعام مدٌّ مدٌّ يشبعهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحكم . أن عمر كتب أن يحكم عليه في الخطأ والعمد .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن عطاء قال : يحكم عليه في العمد

والخطأ والنسيان .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ومن قتله منكم متعمداً ﴾ قال : متعمد القتلة ناسياً لإحرامه ، فذلك الذي يحكم عليه ، فإن قتله ذاكراً لإحرامه متعمد القتلة لم يحكم عليه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الذي يقتل الصيد متعمداً وهو يعلم أنه محرم ومتعمد قتله قال : لا يحكم عليه ولا حج له .

(196/214)

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : العمد هو الخطأ المكفر ، أن يصيب الصيد وهو يريد غيره فيصيبه .

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ ومن قتله منكم متعمداً ﴾ للصيد ناسياً لإحرامه ، فمن اعتدى بعد ذلك متعمداً للصيد يذكر إحرامه لم يحكم عليه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ ومن قتله منكم متعمداً ﴾ قال : إذا كان ناسياً لإحرامه وقتل الصيد متعمداً .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن سيرين قال : من قتله متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه فعليه

الجزاء ، ومن قتله متعمداً لقتله غير ناس لإحرامه ، فذاك إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

وأخرج الشافعي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : من قتله متعمداً غير ناس لإحرامه ولا يريد غيره فقد حل وليست له رخصة ، ومن قتله ناسياً لإحرامه أو أراد غيره فأخطأ به فذلك العمد المكفر .

وأخرج الشافعي وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج قال : قلت لعطاء ﴿ ومن قتله منكم متعمداً ﴾ فمن قتله خطأ يغرم ، وإنما جعل الغرم على من قتله متعمداً قال : نعم ، تعظم بذلك حرمات الله ، ومضت بذلك السنن ، ولئلا يدخل الناس في ذلك .

وأخرج الشافعي وابن المنذر عن عمرو بن دينار قال : رأيت الناس أجمعين يغرمون في الخطأ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : إنما كانت الكفارة فيمن قتل الصيد متعمداً ، ولكن غلظ عليهم في الخطأ كي يتقوا .

وأخرج ابن جرير عن الزهري قال : نزل القرآن بالعمد وجرت السنة في الخطأ ، يعني في المحرم يصيب الصيد .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن الزهري قال : يحكم عليه في العمد وفي الخطأ منه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : إذا أصاب المحرم الصيد فليس عليه شيء .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير . في المحرم إذا أمات صيداً خطأً فلا شيء عليه ، وإن أصاب متعمداً فعليه الجزاء .

(197/214)

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طاوس قال : لا يحكم على من أصاب صيداً خطأً ، إنما يحكم من أصابه عمداً ، والله ما قال الله إلا ﴿ ومن قتله منكم متعمداً ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ قال : إذا أصاب المحرم الصيد يحكم عليه جزاؤه من النعم ، فإن وجد جزاؤه ، ذبحه وتصدّق بلحمه ، وإن لم يجد جزاؤه ، قوّم الجزاء دراهم ، ثم قوّمت الدراهم حنطة ، ثم صام مكان كل نصف صاع يوماً . قال ﴿ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ وإنما أريد بالطعام الصيام ، أنه إذا وجد الطعام وجد جزاءه .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ، في الرجل يصيب الصيد وهو محرم قال : يحكم عليه جزاؤه ، فإن لم يجد قال : يحكم عليه ثمنه فقوّم طعاماً فتصدق به ، فإن لم يجد ، حكم عليه الصيام .

وأخرج ابن المنذر عن عطاء الخراساني في قوله ﴿ فجزاء مثل ﴾ قال : شبهه .

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ قال : نده .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عكرمة قال : سأل مروان بن الحكم ابن عباس وهو بوادي الأزرق قال : أرأيت ما أصبنا من الصيد لم نجد له نداً ؟ فقال ابن عباس : ثمنه يهدى إلى مكة .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : عليه من النعم مثله .

وأخرج ابن جرير عن السدي في الآية قال : إن قتل نعامة أو حماراً فعليه بدنة ، وإن قتل بقرة أو أيلاً أو أروى فعليه بقرة ، أو قتل غزالاً أو أرنباً فعليه شاة ، وإن قتل ظبياً أو جرياً أو يربوعاً ، فعليه سخلة قد أكلت العشب وشربت اللبن .

وأخرج ابن جرير عن عطاء أنه سئل : أيغرم في صغير الصيد كما يغرم في كبيره ؟ قال : أليس يقول الله ﴿ فجزاء مثل ما قتل ﴾ ؟

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله ﴿ فجزاء مثل ما قتل ﴾ قال : ما كان له مثل يشبهه فهو جزاؤه قضاؤه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان في قوله ﴿ فجزاء مثل ما قتل ﴾ قال : فما كان من صيد البر مما ليس له قرن الحمار والنعامة ، فجزاؤه من البدن ، وما كان من صيد البر ذوات القرون ، فجزاؤه من البقر ، وما كان من الظباء ، ففيه من الغنم ، والأرنب فيه ثنية من الغنم ، واليربوع فيه برق وهو الحمل ، وما كان من حمامة أو نحوها من الطير ففيها شاة ، وما كان من جرادة أو نحوها ففيها قبضة من طعام .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : أرأيت إن قتلت صيداً فإذا هو أعور أو أعرج أو منقوص ، أغرم مثله ؟ قال : نعم ، إن شئت . قال عطاء : وإن قتلت ولد بقرة وحشية ، ففيه ولد بقرة إنسية مثله ، فكل ذلك على ذلك .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم في قوله ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ قال : ما كان من صيد البر مما ليس له قرن الحمار أو النعامة فعليه مثله من الإبل ، وما كان ذا قرن من صيد البر من وعل أو إبل فجزاؤه من البقر ، وما كان من ظبي فمن الغنم مثله ، وما كان من أرنب ففيها ثنية ، وما كان من يربوع وشبهه ففيه حمل صغير ، وما كان من جرادة أو نحوها ففيها قبضة من طعام ، وما كان من طير البر ففيه أن يقوم ويتصدق بثمنه ، وإن شاء

صام لكل نصف صاع يوماً ، وإن أصاب فرخ طير برية أو بيضها ، فالقيمة فيها طعام أو صوم على الذي يكون في الطير .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الضبع صيد ، فإذا أصابه المحرم ففيه جزاء كبش مسن وتؤكل " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء . أن عمر وعثمان وزيد بن ثابت وابن عباس ومعاوية قالوا : في النعامة بدنة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر . أن عمر قضى في الأرنب جفرة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء وطاوس ومجاهد أنهم قالوا : في الحمار بقرة .

(199/214)

وأخرج ابن أبي شيبة عن عروة قال : إذا أصاب المحرم بقرة الوحش ففيها جزور .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء . أن رجلاً أغلق بابه على حمامة وفرخيها ، ثم انطلق إلى عرفات ومنى ، فرجع وقد ماتت ، فأتى ابن عمر فذكر ذلك له ، فجعل عليه ثلاثة من الغنم ، وحكم معه رجل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : في طير الحرم شاة شاة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء قال : أول من فدى طير الحرم بشاة عثمان .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : في الجراد قبضة من طعام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر قال : تمرة خير من جرادة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن القاسم قال : سئل ابن عباس عن المحرم يصيد الجرادة ؟ فقال : تمرة خير من جرادة .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال : ما أصاب المحرم من شيء حكم فيه قيمته .

وأخرج أبو الشيخ من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " في بيضة النعام صيام يوم ، أو إطعام مسكين " .

وأخرج الشافعي عن أبي موسى الأشعري وابن مسعود موقوفاً . مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة عن معاوية بن قرة وأحمد عن رجل من الأنصار . " أن رجلاً أوطأ بعيره ادحي نعامة فكسر بيضها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عليك بكل بيضة صوم يوم أو إطعام مسكين " " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن ذكوان . " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن رجل محرم أصاب بيض نعام قال : عليه في كل بيضة صيام يوم أو إطعام مسكين " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الزناد عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم . نحوه .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه من طريق أبي المهزم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "

في بيض النعام ثمنه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر قال : في بيض النعام قيمته .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : في بيض النعام قيمته .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : في كل بيضتين درهم ، وفي كل بيضة نصف درهم .

(200/214)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن قبيصة بن جابر قال : حججنا زمن عمر فرأينا ظبياً ، فقال أحدنا لصاحبه : أتراني أبلغه ؟ فرمى بحجر فما أخطأ خششاه فقتله ، فأتينا عمر بن الخطاب فسألناه عن ذلك وإذا إلى جنبه رجل ، يعني عبد الرحمن بن عوف ، فالتفت إليه فكلمه ثم أقبل على صاحبنا فقال : أعمدا قتلته أم خطأ ؟ قال الرجل : لقد تعمدت رميه وما أردت قتله . قال عمر : ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها وأسق إهابها ، يعني ادفعه إلى مسكين يجعله سقاء ، فقمنا من عنده فقلت لصاحبي : أيها الرجل ، أعظم شعائر الله ، الله ما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى شاور صاحبه ، اعمد إلى ناقتك

فانحرها فلعل ذلك .

قال قبيصة : وما أذكر الآية في سورة المائدة ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ قال : فبلغ عمر مقالتي فلم يفجأنا إلا ومعه الدرة ، فعلا صاحبي ضرباً بها ، وهو يقول : أقتلت الصيد في الحرم وسفهت الفتيا ، ثم أقبل عليَّ يضربني فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا أحل لك مني شيئاً مما حرم الله عليك . قال : يا قبيصة ، إني أراك شاباً حديث السن ، فصيح اللسان فسيح الصدر ، وإنه قد يكون في الرجل تسعة أخلاق صالحة وخلق سيء ، فيغلب خلقه السيء أخلاقه الصالحة ، فإياك وعثرات الشباب .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران . أن أعرابياً أتى أبا بكر فقال : قتلت صيداً وأنا محرم ، فما ترى عليَّ من الجزاء ؟ فقال أبو بكر لأبي بن كعب وهو جالس عنده : ما ترى فيها ؟ فقال الأعرابي : أتيتك وأنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسألك فإذا أنت تسأل غيرك ! قال أبو بكر : فما تنكر ؟ يقول الله ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به .

(201/214)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن بكر بن عبد الله المزني قال : كان رجلان من الأعراب محرمان ، فأجاش أحدهما ظبياً فقتله الآخر ، فأتيا عمر وعنده عبد الرحمن بن عوف ، فقال له عمر : ما ترى ؟ قال : شاة . قال : وأنا أرى ذلك ، اذهبا فاهديا شاة ، فلما مضيا قال أحدهما لصاحبه : ما درى أمير المؤمنين ما يقول حتى سأل صاحبه ! فسمعها عمر فردهما ، وأقبل على القائل ضرباً بالدرة وقال : تقتل الصيد وأنت محرم وتغمص الفتيا ؟ ، إن الله يقول ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ ثم قال : إن الله لم يرض بعمر وحده فاستعنت بصاحبي هذا .

وأخرج الشافعي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن طارق بن شهاب قال : أوطأ أربد ظبياً فقتله وهو محرم ، فأتى عمر ليحكم عليه ، فقال له عمر : احكم معي . فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشجر ، ثم قال عمر ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن أبي مجلز : أن رجلاً سأل ابن عمر عن رجل أصاب صيداً وهو محرم وعنده عبد الله بن صفوان فقال ابن عمر له : إما أن تقول فأصدقك أو أقول فتصدقني . فقال ابن صفوان : بل أنت فقل . فقال ابن عمر ووافقه على ذلك عبد الله بن صفوان .

وأخرج ابن سعد وابن جرير وأبو الشيخ عن أبي حريز البجلي قال : أصبت ظبياً وأنا محرم ، فذكرت ذلك لعمر فقال : ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك ، فأتيت عبد الرحمن

بن عوف وسعداً ، فحكما عليَّ تيساً أعفر .

وأخرج ابن جرير عن عمرو بن حبشي قال : سمعت رجلاً سأل عبد الله بن عمر عن رجل أصاب ولد أرنب فقال : فيه ولد ماعز فيما أرى أنا ، ثم قال لي : أكذاك ؟ فقلت : أنت أعلم مني . فقال : قال الله ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي مليكة قال : سئل القاسم بن محمد عن محرم قتل سخلة في الحرم ، فقال لي : احكم . فقلت : أحكم وأنت ههنا ؟ فقال : إن الله يقول ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة بن خالد قال : لا يصلح إلا بحكمين لا يختلفان .

(202/214)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر بن محمد بن علي ، أن رجلاً سأل علياً عن الهدي ، ممَّ هو ؟ قال : من الثمانية الأزواج ، فكأن الرجل شك ! فقال علي : تقرأ القرآن ؟ فكأن الرجل قال نعم . قال : أفسمعت الله يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام ﴾ [المائدة : 1] قال : نعم . قال : وسمعته يقول ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ [الحج : 34] ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشاً ﴾ [الأنعام :

142] فكلوا من بهيمة الأنعام ، قال : نعم . قال : أفسمعته يقول ﴿ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ [الأنعام : 143] قال : نعم . قال : أفسمعته يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 95] إلى قوله ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ قال الرجل : نعم . فقال : إن قتلت ظبياً فما علي ؟ قال : شاة . قال علي : هدياً بالغ الكعبة . قال الرجل : نعم . فقال علي : قد سماه الله بالغ الكعبة كما تسمع .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال : إنما الهدي ذوات الجوف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ قال : محله مكة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عطاء قال : الهدي والنسك والطعام بمكة ، والصوم حيث شئت .

وأخرج أبو الشيخ عن الحكم قال : قيمة الصيد حيث أصابه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ أو كفارة طعام مساكين ﴾ قال : الكفارة في قتل ما دون الأرنب إطعام .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : من قتل الصيد ناسياً أو أراد غيره فأخطأ به فذلك العمد المكفر ، فعليه مثله ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ فإن لم يجد فابتاع بثمنه طعاماً ، فإن لم يجد صام عن كل مد يوماً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : قال لي الحسن بن مسلم : من أصاب من الصيد ما يبلغ أن يكون فيه شاة فصاعداً فذلك الذي قال الله ﴿ فجزاء مثل ما قتلتم من النعم ﴾ وأما ﴿ كفارة طعام مساكين ﴾ فذلك الذي لا يبلغ أن يكون فيه هدي ، العصفور يقتل فلا يكون هدي قال ﴿ أو عدل ذلك صياماً ﴾ عدل النعامة أو عدل العصفور ، أو عدل ذلك كله .

قال ابن جريج : فذكرت ذلك لعطاء ، فقال : كل شيء في القرآن أو ، فلصاحبه أن يختار ما شاء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم النخعي . أنه كان يقول : إذا أصاب المحرم شيئاً من الصيد عليه جزاؤه من النعم ، فإن لم يجد ، قوم الجزاء دراهم ، ثم قومت الدراهم طعاماً بسعر ذلك اليوم فتصدق به ، فإن لم يكن عنده طعام صام مكان كل نصف صاع يوماً .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء ومجاهد في قوله ﴿ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ قالا : هو ما يصيب المحرم من الصيد لا يبلغ أن يكون فيه الهدي ، ففيه طعام

قيمته .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء في الآية قال : إن أصاب إنسان محرم نعامة فإن له إن كان ذا يسار أن يهدي ما شاء ، جزوراً أو عدلها طعاماً ، أو عدلها صياماً له ، ايتهن شاء من أجل قوله عز وجل ، فجزاؤه كذا . قال : فكل شيء في القرآن ، أو ، فليختر منه صاحبه ما شاء . قلت له : أرأيت إذا قدر على الطعام ألا يقدر على عدل الصيد الذي أصاب ؟ قال : ترخيص الله عسى أن يكون عنده طعام وليس عنده ثمن الجزور ، وهي الرخصة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء الخراساني . أن عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية ، قضوا فيما كان من هدي مما يقتل المحرم من صيد فيه جزاء ، نظر إلى قيمة ذلك فأطعم به المساكين .

(204/214)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : ما كان في القرآن أو فهو فيه بالخيار ، وما كان فمن لم يجد فالأول ، ثم الذي يليه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد والحسن وإبراهيم والضحاك . مثله .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي في محرم أصاب صيداً بخراسان قال : يكفر بمكة أو بمنى ، ويقوِّم الطعام بسعر الأرض التي يكفر بها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن إبراهيم قال : ما كان من دم فبمكة ، وما كان من صدقة أو صوم حيث شاء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن طاوس وعطاء . مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : أين يتصدق بالطعام ؟ قال : بمكة من أجل أنه بمنزلة الهدي .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عطاء قال : كفارة الحج بمكة .

وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : إذا قدمت مكة بجزاء صيد فانحره ، فإن الله يقول ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ إلا أن تقدم في العشر فيؤخر إلى يوم النحر .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : هل لصيامه وقت ؟ قال : لا إذا شاء وحيث شاء ، وتعجيله أحب إليَّ .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قلت لعطاء : ما عدل الطعام من الصيام ؟ قال : لكل مد يوم يأخذ ، زعم بصيام رمضان وبالظهار ، وزعم أن ذلك رأي يراه ولم يسمعه من أحد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ أو عدل ذلك صياماً ﴾ قال : يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة أيام .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عباس قال : إنما جعل الطعام ليعلم به الصيام .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ قال : عقوبة أمره .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ قال : عاقبة عمله .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق نعيم بن قعنب عن أبي ذر ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ عما كان في الجاهلية ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ قال : في الإسلام .

(205/214)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ قال : عما كان في الجاهلية ﴿ ومن عاد ﴾ قال : من عاد في الإسلام ﴿ فينتقم الله منه ﴾ وعليه مع ذلك الكفارة . قال ابن جريج : قلت لعطاء : فعليه من الآثام عقوبة ؟ قال : لا .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق عكرمة عن ابن عباس . في الذي يصيب الصيد وهو محرم يحكم عليه من واحدة ، فإن عاد لم يحكم عليه وكان ذلك إلى الله ، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه ، ثم تلا ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ ولفظ أبي الشيخ : ومن عاد قيل له اذهب ، ينتقم

الله منك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق علي عن ابن عباس قال : من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم حكم عليه كلما قتله ، ومن قتله متعمداً حكم عليه فيه مرة واحدة ، فإن عاد يقال له : ينتقم الله منك كما قال الله عز وجل .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي . أن رجلاً أصاب صيداً وهو محرم ، فسأل شريحاً فقال : هل أصبت قبل هذا شيئاً ؟ قال : لا . قال : أما إنك لو فعلت لم أحكم عليك ، ولوكلتك إلى الله يكون هو ينتقم منك .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : رخص في قتل الصيد مرة ، فإن عاد لم يدعه الله حتى ينتقم منه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن إبراهيم . في الذي يقتل الصيد ثم يعود قال : كانوا يقولون : من عاد لا يحكم عليه ، أمره إلى الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال : يحكم عليه في العمد مرة واحدة ، فإن عاد لم يحكم عليه وقيل له : اذهب ينتقم الله منك ، ويحكم عليه في الخطأ أبداً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن عطاء بن أبي رباح قال : يحكم عليه كلما عاد .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم قال : كلما أصاب الصيد المحرم حكم عليه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق زيد أبي المعلى عن الحسن . أن رجلاً أصاب صيداً وهو محرم فتجوز عنه ، ثم عاد فأصاب صيداً آخر ، فنزلت نار من السماء فأحرقته ، فهو قوله ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً عاد ، فبعث الله عليه ناراً فأكلته .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليقتل المحرم الفأرة ، والعقرب ، والحدأ ، والغراب ، والكلب العقور " ، زاد في رواية " ويقتل الحية " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " خمس فواسق فاقتلوهن في الحرم : الحداء ، والغراب ، والكلب ، والفأرة ، والعقرب " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود . أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر محرماً أن يقتل حية في الحرم بمنى .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقتل المحرم الذئب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

ثم يمضي السياق في مجال التحريم والتحليل ، يتحدث عن الصيد في حالة الإحرام ، وكفارة قتله ، وعن حكمة الله في تحريم البيت والأشهر الحرم والهدي والقلائد ، التي نهى عن المساس بها في مطالع السورة . . ثم يختم هذه الفقرة بوضع ميزان القيم للنفس المسلمة وللمجتمع المسلم . . الميزان الذي يرجح فيه الطيب وإن قل ، على الكثير والخبيث :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ؛ ليعلم الله من يخافه بالغيب ؛ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ؛ ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم ؛ هدياً بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياماً ، ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ؛ والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون . جعل الله الكعبة البيت الحرام ، قياماً للناس ، والشهر الحرام والهدي والقلائد . ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيء عليم . اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم . ما على الرسول إلا البلاغ والله

يعلم ما تبدون وما تكتمون . قل : لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾ . .

لقد قال تعالى للذين آمنوا في أول هذه السورة :

(208/214)

﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد . يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً . وإذا حللتم فاصطادوا . . ﴾ وكان هذا النهي عن إحلال الصيد وهم حرم ؛ وعن إحلال شعائر الله ، أو الشهر الحرام أو الهدي والقلائد ، أو قاصدي البيت الحرام ، لا يرتب عقوبة في الدنيا على المخالف ، إنما يلحقه الإثم .

فالآن يبين العقوبة وهي الكفارة ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ ويعلن العفو عما سلف من إحلال هذه المحارم ؛ ويهدد بانتقام الله ممن يعود بعد هذا البيان .

وتبدأ هذه الفقرة كما تبدأ كل فقرات هذا القطاع بالنداء المألوف : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . . ثم يخبرهم أنهم مقدمون على امتحان من الله وابتلاء ؛ في أمر الصيد الذي نهوا عنه

وهم محرمون :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ . .

(209/214)

إنه صيد سهل ، يسوقه الله إليهم . صيد تناله أيديهم من قريب ، وتناله رماحهم بلا مشقة . ولقد حكي أن الله ساق لهم هذا الصيد حتى لكان يطوف بخيامهم ومنازلهم من قريب ! . . إنه الإغراء الذي يكون فيه الابتلاء . . إنه ذات الإغراء الذي عجزت بنو إسرائيل من قبل عن الصمود له ، حين ألحوا على نبيهم موسى – عليه السلام – أن يجعل الله لهم يوماً للراحة والصلاة لا يشتغلون فيه بشيء من شئون المعاش . فجعل لهم السبت . ثم ساق إليهم صيد البحر يجيئهم قاصداً الشاطئ متعرضاً لأنظارهم في يوم السبت . فإذا لم يكن السبت اختفى ، شأن السمك في الماء . فلم يطيقوا الوفاء بعهودهم مع الله ؛ وراحوا – في جبلة اليهود المعروفة – يحتالون على الله فيحوّطون على السمك يوم السبت ولا يصيدونه ؛ حتى إذا كان الصباح التالي عادوا فأمسكوه من التحويطة ! وذلك الذي وجه الله – سبحانه – رسوله – صلى الله عليه وسلم – لأن يواجههم ويفضحهم به في قوله تعالى

: ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ هذا الابتلاء بعينه ابتلى به الله الأمة المسلمة ، فنجحت حيث أخفقت يهود . . وكان هذا مصداق قول الله سبحانه في هذه الأمة : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ ولقد نجحت هذه الأمة في مواطن كثيرة حيث أخفق بنو إسرائيل . ومن ثم نزع الله الخلافة في الأرض من بني إسرائيل وائتمن عليها هذه الأمة . ومكن لها في الأرض ما لم يمكن لأمة قبلها . إذ أن منهج الله لم يتمثل تمثلاً كاملاً في نظام واقعي يحكم الحياة كلها كما تمثل في خلافة الأمة المسلمة . . ذلك يوم أن كانت مسلمة . يوم أن كانت تعلم أن الإسلام هو أن يتمثل دين الله وشريعته في حياة البشر . وتعلم أنها هي المؤتمنة

(210/214)

على هذه الأمانة الضخمة ؛ وأنها هي الوصية على البشرية لتقيم فيها منهج الله ، وتقوم عليه بأمانة الله .

ولقد كان هذا الاختبار بالصيد السهل في أثناء فترة الإحرام أحد الاختبارات التي

اجتازتها هذه الأمة بنجاح. وكانت عناية الله – سبحانه – بتربية هذه الأمة بمثل هذه الاختبارات من مظاهر رعايته واصطفائه.

ولقد كشف الله للذين آمنوا في هذا الحادث عن حكمة الابتلاء :

﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ . .

إن مخافة الله بالغيب هي قاعدة هذه العقيدة في ضمير المسلم. القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء العقيدة، وبناء السلوك، وتناط بها أمانة الخلافة في الأرض بمنهج الله القويم. . إن الناس لا يرون الله؛ ولكنهم يجدونه في نفوسهم حين يؤمنون. . إنه تعالى بالنسبة لهم غيب، ولكن قلوبهم تعرفه بالغيب وتخافه. إن استقرار هذه الحقيقة الهائلة – حقيقة الإيمان بالله بالغيب ومخافته – والاستغناء عن رؤية الحس والمشاهدة؛ والشعور بهذا الغيب شعوراً يوازي – بل يرجح – الشهادة؛ حتى ليؤدي المؤمن شهادة : بأن لا إله إلا الله. وهو لم ير الله. . إن استقرار هذه الحقيقة على هذا النحو يعبر عن نقلة ضخمة في ارتقاء الكائن البشري، وانطلاق طاقاته الفطرية، واستخدام أجهزته المركوزة في تكوينه الفطري على الوجه الأكمل؛ وابتعاده – بمقدار هذا الارتقاء – عن عالم البهيمة التي لا تعرف الغيب – بالمستوى الذي تهيأ له الإنسان – بينما يعبر انغلاق روحه عن رؤية ما وراء الحس، وانكماش إحساسه في دائرة المحسوس، عن تعطل أجهزة الالتقاط والاتصال الراقية فيه، وانتكاسه إلى المستوى الحيواني في الحس " المادي " !

ومن ثم يجعلها الله سبحانه حكمة لهذا الابتلاء ؛ ويكشف للذين آمنوا عن هذه الحكمة كي تحتشد نفوسهم لتحقيقها . .

(211/214)

والله سبحانه يعلم علماً لَدُنِّياً من يخافه بالغيب . ولكنه – سبحانه – لا يحاسب الناس على ما يعلمه عنهم علماً لدنيا . إنما يحاسبهم على ما يقع منهم فيعلمه الله – سبحانه – علم وقوع . .

﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ . .

فقد أخبر بالابتلاء ، وعرف حكمة تعرضه له ، وحذر من الوقوع فيه ؛ وبذلت له كل أسباب النجاح فيه . . فإذا هو اعتدى – بعد ذلك – كان العذاب الأليم جزاء حقاً وعدلاً ؛ وقد اختار بنفسه هذا الجزاء واستحقه فعلاً .

بعد هذا يجيء تفصيل كفارة المخالفة مبدوءاً بالنهي مختوماً بالتهديد مرة أخرى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم . ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياماً ، ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو

انتقام ﴾ . .

إن النهي ينصب على قتل المحرم للصيد عمداً .

فأما إذا قتله خطأ فلا إثم عليه ولا كفارة . . فإذا كان القتل عمداً فكفارته أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذي قتله . فالغزالة مثلاً تجزئ فيها نعجة أو عنزة . والأيِل تجزئ فيه بقرة . والنعامة والزرافة وما إليها تجزئ فيها بدنة . . والأرنب والقط وأمثالهما يجزئ فيه أرنب . وما لا مقابل له من البهيمة يجزئ عنه ما يوازي قيمته . .

(212/214)

ويتولى الحكم في هذه الكفارة اثنان من المسلمين ذوا عدل . فإذا حكما بذبح بهيمة أطلقت هدياً حتى تبلغ الكعبة ، تذبح هناك وتطعم للمساكين . أما إذا لم توجد بهيمة فللحكمين أن يحكما بكفارة طعام مساكين ؛ بما يساوي ثمن البهيمة أو ثمن الصيد (خلاف فقهي) . فإذا لم يجد صاحب الكفارة صام ما يعادل هذه الكفارة . مقدراً ثمن الصيد أو البهيمة ، ومجزأ على عدد المساكين الذين يطعمهم هذا الثمن ؛ وصيام يوم مقابل إطعام كل مسكين . . أما كم يبلغ ثمن إطعام مسكين فهو موضع خلاف فقهي . ولكنه يتبع الأمكنة والأزمنة والأحوال .

وينص السياق القرآني على حكمة هذه الكفارة :

﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ . .

ففي الكفارة معنى العقوبة ، لأن الذنب هنا مخل بحرمة يشدد فيها الإسلام تشديداً كبيراً :

لذلك يعقب عليها بالعفو عما سلف والتهديد بانتقام الله ممن لا يكف :

﴿ عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام ﴾ .

فإذا اعتز قاتل الصيد بقوته وقدرته على نيل هذا الصيد ، الذي أراد الله له الأمان في مثابة الأمان ، فالله هو العزيز القوي القادر على الانتقام !

ذلك شأن صيد البر . فأما صيد البحر فهو حلال في الحل والإحرام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 2 صـ 979 . 981 ﴾

(213/214)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ : في محلِّ نصب على الحال من فاعل " تَقْتُلُوا " ، و " حُرُمٌ " جمع حرام ، وحرامٌ يكون للمُحْرِمِ ، وإنْ كان في الحلِّ ، ولِمَنْ في الحرمِ ، وإنْ كان حلالاً ، وهما

سيَّان في النهي عن قتل الصيد وهل يدخل فيه المحرمُ بالعُمْرة؟ فيه خلافٌ، وهذه الآيةُ نَزَلَتْ في رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: أبو اليَسَرِ شدَّ على حِمَارٍ وَحْشِيٍّ وهو مُحْرِمٌ فَقَتَلَهُ، وهذا يَدُلُّ على المنْعِ من القَتْلِ ابتداء، والمَنْعُ مِنْه تَسَبُّباً، فَلَيْسَ لَهُ أنْ يتعَرَّضَ للصَّيْد ما دامَ مُحْرِماً، لا بالسِّلاح ولا بالجَوارِحِ من الكلابِ والطَّيْرِ، سواء كان الصَّيْدُ صَيْد الحِلِّ أو الحَرَمِ، وأمَّا الحلالُ فلَهُ أنْ يَتَصيَّدَ في الحلِّ وفي الحَرَم.

قوله تعالى: "مِنْكُمْ" في محل نصب على الحال من فاعل "قَتَلَهُ"، أي: كائناً منْكُمْ، وقيل: "مِنْ" للبيان، وليس بشيء؛ لأنَّ كُلَّ من قتل صَيْداً حكمُه كذلك، فإن قُلْتَ: هذا واردٌ أيضاً على جعله حالاً، فالجواب: لم يُقْصَدْ لذلك مفهومُ؛ حتَّى إنه لو قتله غيرُكُمْ، لم يكن عليه جزاءٌ؛ لأنَّه قصد بالخطابِ معنًى آخرَ، وهو المبالغةُ في النهي عن قَتْلِ الصيد.

قوله: "مُتَعَمِّداً" حالٌ أيضاً من فاعل "قَتَلَهُ"، فعلى رأي مَنْ يُجَوِّز تعدُّدَ الحال، يُجيز ذلك هنا، ومن منع يقول: إنَّ "مِنْكُمْ" للبيانِ؛ حتَّى لا تتعدَّد الحالُ، و"مَنْ" يُجَوِّزُ أنْ تكونَ شرطيةً، وهو الظاهرُ، وموصولةً، والفاءُ لشبهها بالشرطيةِ، ولا حاجةَ إليه وإنْ كانوا فعلوه في مواضع.

قوله تعالى : " فَجَزَاءٌ " الفاءُ جوابُ الشرطِ أو زائدةٌ ؛ لشبه المبتدأ بالشرط ؛ فعلى الأوّل : الجملةُ بعدها في محلِّ جزمٍ ؛ وعلى الثاني : في محلِّ رفعٍ ، وما بعد " مَنْ " على الأولِ في محلِّ جزمٍ ؛ لكونه شرطاً ؛ وعلى الثاني : لا محلَّ له لكونه صلةً ، وقرأ الكوفيُّون : " فَجَزاءٌ مثلُ " بتنوين " جَزَاء " [ورفعه] ورفع " مِثْلُ " ، وباقي السبعة برفعه مضافاً إلى " مِثْل " ، ومحمَّد بن مُقاتِل بتنوين " جَزَاءً " ، ونصبه ، ونصب " مِثْلَ " ، والسُّلَمِي برفع " جَزَاءٌ " منوناً ، ونصب " مِثل " ، وقرأ عبد الله " فَجَزَاؤُهُ " برفع " جَزَاء " مضافاً لضمير " مِثْل " رفعاً .

فأمَّا قراءةُ الكوفيّين فواضحةٌ لأنَّ " مِثْل " صفةٌ لـ " جَزَاء " ، أي : فعليْه " جَزَاءٌ " موصوفٌ بكونه " مِثْلَ ما قَتَلَهُ " أي مماثله .

قالوا : ولا يَنْبَغِي إضافةُ جزاءٍ إلى المثْلِ ، ألا ترى أنَّهُ ليْسَ عليْه جَزَاءُ مثل ما قتلَ في الحقيقَةِ ، إنَّمَا عليه جَزَاءُ المقْتُولِ لا جَزَاء مثل المقتُول الذي لم يَقْتُلْه .

(215/214)

وجَوَّز مكي وأبو البقاء وغيرُهما أنْ يرتفعَ " مِثْل " على البدلِ ، وذكر الزجَّاج وجْهاً غريباً ، وهو أن يرتفع " مِثْلُ " على أنه خبرٌ لـ " جَزَاءٌ " ، ويكونُ " جزَاءٌ " مبتدأ ، قال : " والتقديرُ : فجزاءُ ذلك الفعلِ مِثْلُ ما قتل " ؛ قال شهاب الدين : ويؤيِّد هذا الوجه قراءةُ عبد الله : "

فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ " ، إلاَّ أن الأحسنَ أن يقدّر ذلك المحذوف ضميراً يعودُ على المقتول ، لا أنْ يُقَدّره : " فَجَزَاءُ ذلك الفِعْلِ " و" مِثْلُ " بمعنى مماثل قال مكيٌّ : قاله الزمخشريُّ ، وهو معنى اللَّفْظِ ، فإنَّها في قُوَّةِ اسم فاعل ، إلاَّ أنَّ مَكِّيًّا تَوَهَّم أن " مِثْلاً " قد يكون بمعنى غير مماثل ؛ فإنه قال : " ومثل " في هذه القراءة – يعني قراءة الكوفيين – بمعنى مُمَاثِل ، والتقديرُ : فَجَزَاءٌ مُمَاثِلٌ لما قَتَل ، يعني في القيمةِ ، أو في الخِلْقَةِ ؛ على اختلافِ العلماء ، ولو قَدَّرْتَ مِثْلاً بعيْنِهِ لا جَزَاءٌ مِثْلُه ؛ لأنه إذا ودى جزاءً مثل المقْتُولِ ، صار إنما ودى جزاء ما لم يُقْتَلْ ؛ لأنَّ مثل المقتولِ لم يَقْتُلْهُ ، فصَحَّ أن المعنى : فعليه جزاءٌ مماثِلٌ أبداً ، فكيف يقول " ولَوْ قَدَّرْتَ مِثْلاً على لفْظه ؟ " وأيضاً فقوله : " لصار المعنى إلى آخره " هذا الإشكالُ الذي ذكره لا يُتَصَوَّرُ مجيئُه في هذه القراءة أصْلاً ، وإنما ذَكَرَهُ الناسُ في قراءةِ الإضَافَة ؛ كما سيأتي ، وكأنه نَقَلَ هذا الإشكالَ من قراءةِ الإضافةِ إلى قراءةِ التنوين .

وأمَّا قراءة باقي السَّبْعة ، فاستبعَدَهَا جماعةٌ ،

قال الواحِدِيُّ : " ولا ينبغي إضافةُ الجزاءِ إلى المثلِ ؛ لأنَّ عليه جزاءَ المقتولِ لا جزاءَ مِثله ، فإنه لا جزاءَ عليه لَمَّا لم يقتلْه " .

(216/214)

وقال مكيٌّ بعد ما تقدَّم عنه : " ولذلك بَعُدَت القراءةُ بالإضافة عند جماعةٍ ؛ لأنها تُوجِبُ جزاءً مثلَ الصيْدِ المقْتُولِ " ولا التفاتَ إلى هذا الاستبعادِ ؛ فإنَّ أكثر القراء عليها ، وقد أجاب الناسُ عن ذلك بأجْوبةٍ سديدةٍ ، لمَّا خفيتْ على أولئكَ طَعَنُوا في المُتَوَاتِرِ ، منْها : أنَّ " جَزَاء " مصدرٌ مضافٌ لمفعوله ؛ تخفيفاً ، والأصلُ : فعليه جزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ ، أي : أن يَجْزِيَ مثل ما قتلَ ، ثم أُضيفَ ، كما تقول : " عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبِ زَيْداً " ثم " مِنْ ضَرْبِ زَيْدٍ " ذكر ذلك الزمخشريُّ وغيره ، وبَسْطُ ذلك ؛ أنَّ الجزاءَ هنا بمعنى القضاء ، والأصلُ : فعليه أن يُجْزَى المقتولُ من الصيْدِ مثله من النَّعَمِ ، ثم حُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ ؛ لدلالة الكلامِ عليه ، وأُضيفَ المَصْدَرُ إلى ثانيهما ؛ كقولك : " زَيْدٌ فَقِيرٌ ويُعْجِبُنِي إعْطَاؤُكَ الدِّرْهم " ، أي : إعطاؤكَ إيَّاه ، ومنها : أنَّ " مِثْل " مُقْحَم ؛ كقولهم : " مِثْلُكَ لا يَفْعَلُ ذَلِكَ " ، [أي : أنْتَ لا تفعَلُ ذلك] وأنَا أُكْرِمُ مثلك أيْ : أنا أُكْرِمُكَ ، ونحو قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَآ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ [البقرة : 137] أي : بِمَا آمَنْتُمْ به ، وكقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ، والتقديرُ ليس كهو شيءٌ ف " مِثْل " زائدةٌ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام : 122] ، ومِنْهَا أن يكونَ المعنى " فَجَزَاءٌ من مِثْلِ ما قَتَلَ من النَّعَم " كقولك : " خَاتِمُ فضَّةٍ " أي : " خاتمٌ من فضةٍ " ، وهذا خلاف الأصْلِ فالجوابُ ما تقدَّم و "

مَا " يجوزُ أن تكون موصولةً اسميَّة ، أو نكرةً موصوفةً ، والعائدُ محذوفٌ على كلا التقديرين ، أي : مثلُ ما قَتَلَهُ من النَّعَمِ .

(217/214)

فَمَنْ رفع " جَزَاء " ففيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه مرفوع بالابتداء ، والخبرُ محذوفٌ ، تقديرُه : فعليه جزاء .

والثاني : أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف ، تقديرُه : فالواجبُ جزاء .

والثالث : أنه فاعلٌ بفعل محذوف ، أي : فيلزَمُه الجزاءُ ، أو يَجِبُ عليه جزاءٌ .

الرابع : أنه مبتدأ وخبره " مِثْل " ، وقد تقدَّم أن ذلك مذهبُ أبي إسْحَاق الزجَّاج ، وتقدم أيضاً رفع " مِثْل " في قراءة الكوفيين ؛ على أحدِ ثلاثةِ أوجه : النعْتِ ، والبدلِ ، والخبرِ ؛ حيث قلنا : " جَزَاء " مبتدأٌ عند الزجَّاج .

وأمَّا قراءةُ " فَجَزَاؤه مِثْلُ " ، فظاهرةٌ أيضاً ، وأمَّا قراءة " فَجَزَاءٌ مِثْلَ " برفع " جَزَاءٌ " وتنوينه ، ونصب " مِثْل " ، فعلى إعمال المصدر المنوَّن في مفعوله ، وقد تقدَّم أنَّ قراءة الإضافة منه ، وهو نظيرُ قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [البلد : 14 - 15] وفاعلُه محذوف ، أي : فجزاءُ أحدِكُمْ أو القاتلِ ، أي : أنْ يُجْزَى القاتلُ

للصَّيْدِ ، وأما قراءة : " فَجَزَاءً مِثْلَ " بنصبهما ف " جَزَاءً " منصوبٌ على المصدر ، أو على المفعول به ، و " مِثْلَ " صفتُه بالاعتبارين ، والتقدير : فَلْيَجْزِ جَزَاءً مِثْلَ ، أو : فَلْيُخْرِجْ جَزاءً ، أو فليُغَرَّمْ جَزَاءً مِثْلَ .

قوله : " مِنَ النَّعَمِ " فيه ثلاثةُ أوجه :

أحدها : أنه صفةٌ لـ " جَزَاء " مطلقاً ، أي : سواءً رُفِعَ أم نُصِبَ ، نُوِّن أم لم يُنَوَّنْ ، أي : إنَّ ذلك الجزاءَ يكونُ من جنسِ النَّعَمِ ، فهذا الوجهُ لا يمتنع بحالٍ .

(218/214)

الثاني : أنه متعلق بنفسِ " جَزَاء " ؛ لأنه مصدرٌ ، إلا أنَّ ذلك لا يجوزُ إلا في قراءة من أضاف " جَزَاء " إلى " مثْل " ، فإنه لا يلزمُ منه محذورٌ ؛ بخلافِ ما إذا نَوَّنْتَهُ ، وجعلتَ " مِثْلَ " صفته ، أو بدلاً منه ، أو خبراً له ؛ فإنَّ ذلك يمتنع حينئذ ، لأنَّك إنْ جَعَلْتَه موصوفاً بـ " مِثْل " كان ذلك ممنوعاً من وجهين :

أحدهما : أنَّ المصدرَ الموصوفَ لا يعملُ ، وهذا قد وُصِفَ .

والثاني : أنه مصدر ، فهو بمنزلةِ الموصولِ ، والمعمولُ من تمامِ صلته ، وقد تقرَّر أنه لا يُتْبَعُ الموصولُ إلا بعد تمام صلته ؛ لئلا يلزمَ الفصلُ بأجنبيٍّ ، وإنْ جعلْتَه بدلاً ، لَزِمَ أن يُتْبَعَ الموصولُ

قبل تمام صلته ، وإنْ جَعَلْتَه خبراً ، لزم الإخبارُ عن الموصولِ قبل تمامِ صلته ، وذلك كلُّه لا يجوزُ .

الثالث : ذكره أبو البقاء وهو أنْ يكون حالاً من عائدِ الموصولِ المحذوفِ ؛ فإنَّ التقدير : فجزاءٌ مثل الذي قتله حال كونه من النَّعَم ، وهذا وَهْمٌ ؛ لأن الموصوف بكونه من النَّعم ، إنما هو جزاءُ الصيد المقتولِ ، وأمَّا الصيد نفسُه ، فلا يكونُ من النعم ، والجمهورُ على فَتْحِ عَيْن " النَّعَم " ، وقرأ الحسن بسكُونها ، فقال ابنُ عطيَّة : " هي لغةٌ " ، وقال الزمخشريُّ : استثقَلَ الحركةَ على حرفِ الحلق ، كما قالوا : " الشَّعْرُ " في " الشَّعَرِ " .

(219/214)

قوله : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ ﴾ في موضع نصْبٍ على الحال منه ، أو على النَّعْتِ لـ " جَزَاء " فيمَنْ نَصَبه ، وخصَّصَ أبو البقاء كونه صفةً بقراءةِ تنوين " جَزَاء " ، والحالَ بقراءةِ إضافته ، ولا فرقَ ، بل يجوزُ أنْ تكون الجملةُ نعتاً أو حالاً بالاعتبارين ؛ لأنه أذا أُضيفَ إلى " مِثْل " ، فهو باقٍ على تنكيرِه ؛ لأنَّ " مِثْلاً " لا يتعرَّفُ بالإضافة ، وكذا خَصَّصَ مكي الوصفَ بقراءةِ إضافةِ الجزاء إلى " مِثْل " فإنه قال : " ومِنَ النَّعَم في قراءةِ مَنْ أضافَ الجَزَاء إلى " مِثْل " صفةً لـ " جَزَاء " ، ويَحْسُنُ أنْ تتعلَّق " مِنْ " بالمصدر ، فلا تكونُ صفةً ، وإنما المصدرُ

مُعَدى إلى " مِنَ النَّعَمِ " ، وإذا جعلته صفةً ، ف " مِنْ " متعلِّقةٌ بالخبرِ المحذوف ، وهو فَعَلَيْهِ " ، وفي هذا الكلامِ نظرٌ مِنْ وجهَيْن :

أحدهما : قد تقدَّم ، وهو التخصيصُ بقراءةِ الإضافة .

والثاني : أنه حين جعل " مِنَ النَّعَم " صفةً عَلَّقها بالخبرِ المحذوفِ لِمَا تضمَّنه من الاستقرار ؛ وليس كذلك ؛ لأنَّ الجارَّ ، إذا وقعَ صفةً تعلَّقَ بمحْذوفٍ ، ذلك المحذوفُ هو الوصفُ في الحقيقةِ ، وهذا الذي جعله متعلَّقاً لهذه الصفةِ ليس صفةً للموصوف في الحقيقةِ ، بل هو خبرٌ عنه ؛ ألا ترى أنك لو قلت : " عِنْدِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ " أنَّ " مِنْ بَنِي " متعلِّقٌ بوصفٍ محذوفٍ في الحقيقة ، لا بقولِكَ " عِنْدِي " ، ويمكن أن يُقال – وهو بعيدٌ جدًّا – إنه أراد التعلُّقَ المعنويَّ ؛ وذلك أنَّ العاملَ في الموصوفِ عاملٌ في صفته ، و " عَلَيْهِ " عاملٌ في " جَزَاء " ، فهو عاملٌ في صفته ، فالتعلُّقُ من هذه الحَيْثِيَّةِ ، ولكن إنما يتأَّتى ذلك حيث جعلنا الخبرَ عاملاً في المبتدأ ، أو قلنا : إنَّ الجارَّ يرفع الفاعلَ ، ولو لم يعتمدْ وإنما ذكر هنا التوجيهاتِ ؛ لأنَّ القائلين بذلك مِمَّنْ لا يُلْغَى قولهم بالكلية .

(220/214)

والألفُ في " ذَوَا " علامةُ الرفع ؛ لأنه مثنى ، وقد تقدَّم الكلامُ في اشتقاق هذه اللفظةِ وتصاريفها [الآية 177 البقرة] ، وقرأ الجمهورُ : " ذَوَا " بالألف ، وقرأ محمد بن جعفر الصادق : " ذُو " بلفظِ الإفراد ، قالوا : ولا يريدُ بذلك الوَحْدة ، بل يريدُ : يحكُمُ به مَنْ هو مِنْ أهْلِ العدل ، وقال الزمخشريُّ : " وقيل : أراد الإمام " فعلى هذا تكونُ الوحْدَةُ مقصودةً ، و " مِنْكُمْ " في محلِّ رفع صفةً لـ " ذَوَا " ، أي : إنهما يكونان من جنْسِكُمْ في الدِّين ، ولا يجوزُ أن تكونَ صفةً لـ " عَدْل " ؛ لأنه مصدرٌ قاله أبو البقاء ، يعني : أن المصدرَ ليس مِنْ جنْسِهِمْ ، فكيف يُوصَفُ بكونه منهم ؟

قوله : " هَدْياً " فيه ستةُ أوجهٍ :

أظهرُها : أنه حالٌ من الضمير في " به " قال الزجاج : " هو منصوبٌ على الحالِ ، المعنى : يحكم به مقدَّراً أن يُهْدَى " يعني أنه حال مقدَّرةٌ ، لا مقارنةٌ ، وكذا قال الفارسيُّ كقولك : " مَعَهُ صَقْرٌ صَائِداً به غداً " ، أي مُقَدَّراً الصَّيْدَ .

الثاني : أنه حالٌ من " جَزَاء " سواءٌ قُرِئَ مرفوعاً أم منصوباً ، منوناً أم مضافاً ، وقال الزمخشريُّ : " هدْياً " حالٌ من " جزَاء " فيمَنْ وصفه بـ " مِثْل " ؛ لأنَّ الصفةَ خَصَّصَتْه ، فقرُبَ من المعرفة ، وكذا خصَّصه أبو حيان ، وهذا غير واضحٍ ، بل الحاليةُ جائزةٌ مطلقاً ؛ كما تقدَّم .

الثالث : أنه منصوبٌ على المصدْرِ ، أي : يُهْدِيهِ هَدْياً ، ذكره مكي وأبو البقاء .

الرابع : أنه منصوبٌ على التَّمْييزِ ، قال أبو البقاء ومكيٌّ ، إلا أنَّ مَكّياً ، قال : " على البيانِ " ، وهو التمييزُ في المعنى ، وكأنهما ظَنّا أنه تمييزٌ لما أُبهِمَ في المِثْلية ؛ إذ ليس هنا شيءٌ يَصْلُحُ للتمييزِ غيرَها ، وفيه نظرٌ ؛ من حيث إنَّ التمييزَ إنما يَرْفَع الإبهامَ عن الذَّواتِ ، لا عن الصفاتِ ، وهذا كما رأيتَ إنما رفع إبهاماً عن صفة ؛ لأنَّ الهدي صفةٌ في المعنى ؛ إذ المرادُ به مُهْدى .

الخامس : أنه منصوبٌ على محلِّ " مِثْل " فيمَنْ خَفَضه ؛ لأنَّ محلَّه النصبُ بعملِ المصدرِ فيه تقديراً ؛ كما تقدَّم تحريرُه .

السادس : أنه بدلٌ من " جَزَاء " فيمن نصبه .

و " بَالِغَ الكَعْبَةِ " صفةٌ لـ " هَدْياً " ، ولم يتعرَّفْ بالإضافة ؛ لأنه عاملٌ في الكعبة النصبَ تقديراً ، ومثله : ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : 24] وقولُ الآخرِ : [البسيط]

2025 - يَا رُبَّ غَابِطِنَا لَوْ كَانَ يَطْلُبُكُمْ . . .

لاقَى مُبَاعَدَةً مِنْكُمْ وحِرْمَانَا

في أنَّ الإضافة فيها غيرُ مَحْضَةٍ ، وقرأ الأعْرج : " هَدِيًّا " بكسر الدال وتشديد الياء .

قوله : " أو كَفَّارةٌ " عطفٌ على قوله : " فَجَزَاءٌ " ، و " أوْ " هنا للتخيير ، ونُقِل عن ابن عباس ؛ أنها ليسَتْ للتخيير ، بل للترتيب ، وهذا على قراءةِ مَنْ رفع " فَجَزَاءٌ " ، وأمَّا مَنْ نصبه ، فقال الزمخشريُّ : جعلها خَبَرَ مبتدأ محذوفٍ ؛ كأنه قيل : أو الواجبُ عليه كفَّارةٌ ، ويجوز أن تُقَدَّرَ : فعليه أن يجْزِي جزاءً ، أو كفارةً ، فتعطفَ " كَفَّارة " على " أنْ يَجْزِيَ " ، يعني أنَّ " عليه " يكونُ خبراً مقدَّماً ، و " أن يَجْزِيَ " مبتدأ مؤخَّراً ، فعطفت " الكفَّارة " على هذا المبتدأ ، وقرأ نافع وابنُ عامرٍ بإضافة " كَفَّارة " لما بعدها ، والباقون بتنوينها ، ورفع ما بعدها .

فأمَّا قراءةُ الجماعةِ ، فواضحةٌ ، ورفعُ " طَعَامُ " على أحد ثلاثة أوجه :

(222/214)

أحدها : أنه بدل من " كَفَّارةٌ " ؛ إذ هي من جنسه .

الثاني : أنه بيانٌ لها ؛ كما تقدَّم ، قاله الفارسيُّ .

وردَّه أبو حيان ؛ بأنَّ مذهبَ البصريِّين اختصاصُ عطفِ البيانِ بالمعارفِ دون النكرات ، قال شهاب الدين : أبو عَلِيٍّ يُخالِفُ في ذلك ، ويستدلُّ بأدلَّة ، منها قوله تعالى : ﴿ شَجَرَةٍ

مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ [النور : 35] ، ف "زَيْتُونَةٍ" عنده عطفُ بيان لـ "شَجَرَة" ، وكذا قوله تعالى : ﴿ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 16] ، ف "صَدِيد" عنده بدلٌ من "مَاءٍ" ، والبدلُ فيهما محتملٌ ؛ فلا حُجَّةَ له ، والبدل قد يجيء للبيان .

الثالث : أنه خبر مبتدأ محذوفٍ ، أي : هي طعام ، أي : تلك الكفارة .

وأمَّا قراءة نافع وابن عامرٍ ، فوجهها : أنَّ الكفارة ، لمَّا تنوَّعَتْ إلى تكفير الطعام ، وتكفير بالجزاء المماثل ، وتكفير بالصيام ، حسُنَ إضافتها لأحَدِ أنواعها تبييناً لذلك ، والإضافةُ تكون بأدْنَى ملابسة ؛ كقوله : [الطويل]

2053 - إذَا كَوْكَبُ الخَرْقَاءِ لاحَ بِسُحْرَةٍ . . .

سُهَيْلٌ أذَاعَتْ غَزْلَهَا فِي القَرَائِبِ

أضاف الكوكبَ إليها ؛ لقيامها عند طلوعه ؛ فهذا أولى ، ووجَّهَها الزمخشريُّ فقال : " وهذه الإضافةُ مبيِّنةٌ ، كأنه قيل : أو كفارةٌ من طعامِ مساكين ؛ كقولك : " خَاتَمُ فِضَّةٍ " بمعنى مِنْ فِضَّةٍ " ، قال أبو حيان : " أمَّا ما زعمه ، فليْسَ من هذا الباب ؛ لأنَّ " خَاتَم فِضَّةٍ " من باب إضافة الشيء إلى جنْسه ، والطعامُ ليس جنساً للكفارةِ ، إلا بتجَوُّزٍ بعيدٍ جدًّا " . انتهى ،

(223/214)

قال شهاب الدين : كان مِنْ حَقّه أن يقول : والكفَّارةُ ليستْ جنْساً للطَّعامِ ؛ لأنَّ الكفارةَ في التركيب نظيرُ " خَاتَم " في أنّ كلاًّ منهما هو المضافُ إلى ما بعده ، فكما أن " خَاتَماً " هو المضافُ إلى جنسه ينبغي أن يُقالَ : الكفَّارةُ ليستْ جنْساً للطعام ؛ لأجل المقابلةِ ، لكنْ لا يمكنُ أن يُقال ذلك ، فإنَّ الكفارةَ كما تقدَّم جنسٌ للطعامِ ، والجزاءِ ، والصَّومِ ، فالطريقُ في الردِّ على الزمخشريِّ أن يُقال : شرطُ الإضافةِ بمعنى " مِنْ " : أن يُضاف جزءٌ إلى كلٍّ بشرطِ صدقِ اسم الكلِّ على الجزءِ ؛ نحو : " خَاتَمُ فِضَّةٍ " ، و" كَفَّارةُ طعَامٍ " ليس كذلك ، بل هي إضافة " كُلّ " إلى جزء ، وقد استشكل جماعةٌ هذه القراءة ؛ من حَيْثُ إنَّ الكفارةَ ليست للطعامِ ، إنما هي لقتلِ الصيدِ ، كذا قاله أبو عليٍّ الفارسيُّ وغيره ، وجوابُه ما تقدَّم . ولم يختلف السبعةُ في جمع " مَسَاكِينَ " هنا ، وإن اختلفوا في البقرة ، قالوا : والفرقُ بينهما أنَّ قَتْلَ الصَّيْدِ لا يُجْزِئُ فيه إطعامُ مِسْكِينٍ واحدٍ ، على أنه قد قرأ عيسى بْنُ عُمَرَ والأعْرَجُ بتنوين " كَفَّارة " ، ورفع " طَعَامُ مسْكِينٍ " بالتوحيد ، قالوا : ومرادُهما بيانُ الجِنْسِ ، لا التوحيدُ .

قوله : " أوْعَدْلُ " نسقٌ على " فَجَزاءٌ " ، والجمهورُ على فتحِ العين ، وقرأ ابن عباس وطلحة بن مُصَرِّف والجَحْدَرِي بكَسْرِها .

قال الفرَّاءُ : " العِدْل " بالكسر : ما عادَلَ الشَّيْءَ من جِنْسِهِ ، والعدل : المِثْلُ ، تقول : عندي

عِدلُ غُلامِكَ أو شَاتِكَ إذا كان غلامٌ بِعِدْلِ غُلامه ، أو شاةٌ تَعْدِلُ شَاتَهُ ، أمَّا إذا أرَدْتَ قِيمَتَهُ من غير جِنْسِه نَصَبْتَ العَيْن ، فقُلْت : عَدْل .

(224/214)

وقال أبو الهَيْثَم : العدل : المِثْل ، والعِدْل : القِيمَةُ ، والعَدْلُ : اسم مَعْدُولٌ بحمل آخر مُسَوى به ، والعَدْل : تَقْوِيمُك الشَّيْء بالشيء من غير جِنْسِهِ .

وقال الزَّجَّاج ، وابنُ الأعْرَابِيّ : العَدل والعِدْل سواءٌ ، وقد تقدَّم الكلام عَلَيْه في البَقَرة : عند قوله : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [الآية : 48] .

قوله : " صِيَاماً " نصْبٌ على التمييز كقولك : " عندي رَطلان عَسَلاً " لأنَّ المعنى : أو قَدْرُ ذلك صِياماً ، والأصْلُ فيه إدْخَالُ حَرْفَيْنِ تقُولُ : رطلانِ من العَسَلِ ، وعَدْلُ ذلك من الصِّيَام .

[وأصل " صِياماً " : " صِوَاماً " فأعِلَّ كما تقدَّم مراراً] .

قوله : " لِيَذُوقَ " فيه ستةُ أوجهٍ :

أحدها : أنه متعلقٌ بـ " جزاء " قاله الزمخشريُّ ، وقال أبو حيان : إنما يتأَّتى ذلك حيثُ يضاف إلى " مِثْل " ، أو يُنَوَّن " جَزَاء " ، ويُنْصَبُ " مِثْل " ، وعَلَّلَ ذلك بأنه إذا رَفَعَ مثلاً ،

كان صفةً للمصْدَرِ ، وإذا وُصِفَ المصدرُ ، لم يعمل إلا أن يتقدَّم المعمولُ على وصْفِه ؛ نحو : "يُعْجِبُنِي الضَّرْبُ زَيْداً الشَّديدُ " ، فيجوز : قال شهاب الدين : وكذا لو جعله بدلاً أيضاً أو خبراً ؛ لما تقدَّم من أنه يلزمُ أن يُتْبَعَ الموصولُ أو يُخْبَرَ عنه قبل تمامِ صلته ، وهو ممنوعٌ ، وقد أفْهَمَ كلامُ الشيخِ بصريحِهِ ؛ أنه على قراءةِ إضافة الجزاءِ إلى " مِثْل " يجوزُ ما قاله الزمخشري ، وأنا أقول : لا يجوزُ ذلك أيضاً ؛ لأنَّ " لِيَذُوقَ " مِنْ تمامِ صلةِ المصدرِ ، وقد عُطِفَ عليه قولُه " أوْ كَفَّارَةٌ أو عَدْلٌ " ؛ فليزمُ أنْ يُعْطَفَ على الموصُولِ قبل تمام صلته ؛ وذلك لا يجوزُ لو قلْتَ : " جَاءَ الذي ضربَ وعَمرٌو زَيْداً " لم يَجُزْ للفصْلِ بين الصِّلَة – أو أبعاضِهَا – والموصُولِ بأجنبيٍّ ، فتأمَّلْه .

(225/214)

الثاني : أنه متعلِّقٌ بفعلٍ محذوفٍ يَدُلُّ عليه قُوَّةُ الكلامِ ؛ كأنه قيل : جُوزِيَ بذلِكَ لِيَذُوقَ .

الثالث : أنه متعلِّقٌ بالاستقرارِ المقدَّرِ قبل قوله : " فَجَزَاء " ؛ إذ التقديرُ : فعليهِ جزاءٌ لِيَذُوقَ .

الرابع : أنه متعلِّقٌ بـ " صِيَام " ، أي : صَوْمُهُ لِيَذُوقَ .

الخامس : أنه متعلِّقٌ بـ " طَعَام " ، أي : طعامِ لِيَذُوقَ ، ذكر هذه الأوجه الثلاثة أبو البقاء ،

وهي ضعيفةٌ جدًّا ، وأجودُها الأولُ .

السادس : أنها تتعلَّقُ بـ " عَدْلُ ذَلِكَ " ، نقله أبو حيان عن بعضِ المُعْرِبين ، قال : " غَلَطٌ " .

والوَبَالُ : سوءُ العاقبةِ وما يُخاف ضَرَرُهُ ، قال الراغبُ : والوَابِلُ : المطرُ الثقيلُ القَطْرِ ، ولمراعاة الثِّقَلِ ، قيل للأمرِ الذي يُخاف ضَرَرُه : وَبَال ، قال تعالى : ف ﴿ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ [الحشر : 15] ، ويقال : " طَعَامٌ وَبِيلٌ " ، و " كَلأٌ وَبِيلٌ " يُخافُ وبالُه ؛ قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ [المزمل : 16] ، وقال غيره : " والوَبَالُ في اللغةِ ؛ ثِقَلُ الشيءِ في المَكْرُوهِ ، يقال : " مَرْعى وَبِيلٌ " ، إذا كان يُسْتَوْخَمُ ، و " مَاءٌ وَبِيلٌ " إذا كان لا يُسْتَمْرَأ ، واسْتَوْبَلْتُ الأرضَ : كرهتُها خَوْفاً من وبالِها " .

والذَّوْقُ هنا استعارةٌ بليغةٌ .

(226/214)

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ " منْ " يجوز أن تكون شرطيةً ، فالفاءُ جوابُها ، و " يَنْتَقِمْ " خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ ، أي : فهو يَنْتَقِمُ ، ولا يجوز الجزمُ مع الفاءِ ألبتة ، قال : سيبويه : " الفاءُ " في قوله : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ ، وفي قوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ ﴾ [البقرة : 126] ، و ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً ﴾ [الجن : 13]

إنَّ في هذه الآيات إضْمَاراً مُقَدَّراً ، والتَّقدير : ومَنْ عادَ فهو ينتَقِمُ اللَّه منه ومن كفر فأنا أمتِّعُهُ ، ومن يُؤمِن بربه فهو لا يَخَافُ ، وبالجُمْلَةِ فلا بد من إضْمَارِ مبتدأ يكونُ ذَلِكَ الفِعْلُ خَبَراً عنه ؛ لانَّ الفِعْلَ يَصِيرُ بنَفْسِهِ جزاءً ، فلا حاجَةَ إلى إدْخَال حَرْفِ الجزاءِ عليه ، فيَصِيرُ إدْخال حَرْفِ " الفَاءِ " على الفِعْلِ لَغْواً ، أما إذَا أضْمَرْنا المُبْتَدَأ ، احْتَجْنَا إلى إدخال " الفَاءِ " عليه ؛ ليَرْتَبِطَ بالشَّرْط فلا تَصِير " الفَاء " لَغْواً .

ويجُوزُ أن تكون " مَنْ " موصولةً ، ودخلتِ الفاءُ في خبر المبتدأ ، لَمَّا أشبه الشرطَ ، فالفاءُ زائدةٌ ، والجملةُ بعدها خبرٌ ، ولا حاجَةَ إلى إضمارِ مبتدأ بعد الفاء ؛ بخلافِ ما تقدَّمَ .

قال أبو البقاء : " حَسَّنَ دُخُولَ الفاءِ كونُ فِعْلِ الشرطِ مَاضِياً لَفْظاً " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 516.529 ﴾ . باختصار .

(227/214)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾

وإذا قَتَلَ المُحرِمُ الصيدَ فعليه الكفَّارة ، وإذا لاحظ العارفُ الأغيارَ ، أو طمع أو رغب في

شيءٍ أو اختار لَزِمَتْه الكفَّارة ، ولكن لا يُكْتَفى منه بجزاء المثل ، ولا بأضعاف أمثال ما تصرَّف فيه أو طمع ، ولكن كفَّارته تجرده – على الحقيقة – عن كل غير ، قليلٍ أو كثير ، صغير أو كبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 449 ﴾

(228/214)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) وَأَطِيعُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95) ﴾

(229/214)

التفسير : إنه سبحانه بعد استقصاء المناظرة مع أهل الكتابين عاد الى بيان الأحكام فبدأ بحل المطاعم والمشارب واستيفاء اللذات كيلا يتوهم متوهم أن مدح القسيسين والرهبان يوجب إيثار طريقتهم في هذا الدين . قال المفسرون : " جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فذكر الناس ووصف القيامة ولم يزدهم على التخويف ، فرق الناس وبكوا فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون منهم أبو بكر وعلي وابن مسعود وأبو

ذر الغفاري وسلمان الفارسي واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك

(230/214)

ولا يقربوا النساء والطيب ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويسيحوا في الأرض ويترهبوا ويجبوا المذاكير ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا ؟ قالوا : يا رسول الله وما أردنا إلا الخير . فقال : إني لم أؤمر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم ، من رغب عن سنتي فليس مني . ثم جمع الناس وخطبهم فقال : ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا ! أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع ، وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان ، فإنما هلك من قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع ، فأنزل الله

هذه الآية ، فقالوا : يا رسول الله فكيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها - وكانو حلفوا على ما اتفقوا عليه "

(231/214)

- فنزلت هذه الآية ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ فهذا وجه اتصال الآيات . فإن قيل : ما الحكمة في قوله ﴿ لا تحرّموا ﴾ ومن المعلوم أن توسع الأنسان في اللذات والطيبات يمنعه عن الاستغراق في تحصيل السعادات الباقيات ، ولهذا قالت الحكماء : إذا شبعت الأجسام صارت الأرواح أجساداً ، وإذا جاعت الأجسام صارت الأجساد أرواحاً ؟ فالجواب أن الرهبانية المفرطة مما توقع الآفة في الأعضاء الرئيسة التي هي القلب والكبد والدماغ والأنثيان فيختل الفكر ويقل التأمل في الجواهر الروحانية ومباديها ، على أن النفوس القوية لا يمنعها التصرف في الجسمانيات عن التأمل في الروحانيات . فالرهبانية دليل الضعف والقصور والكمال في الوفاء بالجهتين ،

(232/214)

وكيف والرهبانية توجب خراب الدنيا وانقطاع الحرث والنسل وترك الترهب مع رعاية وظائف الطاعة يفضي الى سعادة الدارين ، قال القفال : إنه تعالى قال في أوّل السورة ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ [المائدة : 1] فبين أنه كما لا يجوز تحليل المحرم لا يجوز تحريم المحلل ، وذلك أنهم كانوا يحللون الميتة والدم ويحرمون البحائر والسوائب . ومعنى ﴿ لا تحرموا ﴾ لا تعتقدوا تحريم ﴿ ما أحل الله ﴾ ولا تظهروا باللسان تحريمه ولا تجتنبوه اجتناباً يشبه اجتناب المحرمات . فهذه الوجوه محمولة على الاعتقاد والقول والعمل ، ويحتمل أن يراد لا تحرموا على غيركم بالفتوى ، أو لا تلتزموا تحريمها بنذر أو يمين كقوله ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ [التحريم : 1] أو لا تخلطوا المملوك بالمغصوب أو الطاهر بالنجس خلطاً لا يبقى معه التمييز فإنه يحرم الكل . والطيبات المستلذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب . ثم نهى عن الاعتداء مطلقاً ليدخل تحته النهي عن الإسراف كقوله ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ [الأعراف : 31] و﴿ كلوا ﴾ أمر إباحة وتحليل ﴿ مما رزقكم الله ﴾ في إدخال " من " التبعيضية إرشاد الى الاقتصاد والاقتصار في

(233/214)

الأكل على البعض وصرف الباقي الى المحتاجين ، وفيه أنه تعالى هو الذي يرزق عبيده وتكفل برزقهم . قال في التفسير الكبير : قوله ﴿ حلالاً طيباً ﴾ إن كان متعلقاً بالأكل كان حجة للمعتزلة على أن الرزق لا يكون إلا حلالاً لأنه يدل على الإذن في أكل كل ما رزق الله تعالى وإنما يأذن في أكل الحلال فيلزم أن يكون كل رزق حلالاً ، وإن كان متعلقاً بالمأكول أي كلوا من الرزق الذي يكون حلالاً كان حجة لأصحابنا لأن التقييد يؤذن بأن الرزق قد لا يكون حلالاً . أقول : هذا فرق ضعيف ولهذا قال في الكشاف : ﴿ حلالاً ﴾ حال ﴿ مما رزقكم الله ﴾ مع أنه من المعتزلة . ثم أكد التوصية بقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ وزاده تأكيداً بقوله ﴿ الذي أنتم به مؤمنون ﴾ لأن الإيمان به يوجب اتقاءه في أوامره ونواهيه .

(234/214)

ثم قال ﴿ لا يؤاخذكم ﴾ وقد ذكرنا وجه النظم آنفاً ، وقد تقدم معنى يمين اللغو في سورة البقرة . أما قوله ﴿ بما عقدتم الأيمان ﴾ فمن قرأ بالتخفيف فإنه صالح للقليل والكثير فلا إشكال ، ومن قرأ بالتشديد فإن أبا عبيدة اعترض عليه بأن التشديد للتكثير فهذه القراءة توجب سقوط الكفارة عن اليمين الواحدة . وأجاب الواحدي بأن عقد بالتخفيف وعقد بالتشديد واحد في المعنى ، ولو سلم فالتكرير يحصل بأن يعقدها بقلبه ولسانه ، أما لو عقد

اليمين بأحدهما دون الآخر فلا كفارة . ومن قرأ بالألف فمثل القراءة المخففة كقولك : عاقبت اللص وعافاه الله . والمعنى على القراءات : ولكن يؤاخذكم بعقد الأيمان أو بتعقيدها أو معاقدتها إذا حنثتم . فحذف الظرف للعلم به ، أو المراد بنكث ما عقدتم بحذف المضاف ﴿ فكفارته ﴾ أي الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أي تسترها أحد هذه الأمور ويسمى بالواجب المخير . وحاصله أنه لا يجب الإتيان بكل واحد منها ، ولا يجوز الإخلال بجميعها ، ولكنه إذا أتى بأيّ واحد منها فإنه يخرج عن العهدة ، ومن هنا قال أكثر الفقهاء الواجب واحد لا بعينه من الإطعام والكسوة وتحرير الرقبة فإن عجز عنها جميعاً فالواجب شيء آخر وهو الصوم . أما مقدار الطعام فقد قال الشافعي : نصيب كل مسكين مد أي ثلثا منّ ، وهو قول ابن عباس وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب والحسن والقاسم لأنه تعالى قال ﴿ من أوسط ما تطعمون ﴾ فإن كان المراد ما كان متوسطاً في العرف فثلثا منّ من الحنطة إذا جعل دقيقاً وخبز فإنه يصير قريباً من المنّ وذلك كاف لواحد في يوم واحد ، وإن كان المراد ما كان متوسطاً في الشرع فليس له في الشرع مقدار إلا ما جاء في قصة الأعرابي المفطر في نهار رمضان أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بإطعام ستين مسكيناً من غير ذكر مقدار . فقال الرجل : ما أجد . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيه خمسة عشر صاعاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أطعم

هذا . وذلك يدل على تقدير طعام المسكين بربع الصاع وهو مدّ . ولا تلزم كفارة الحلق لأنها شرعت بلفظ الصدقة مطلقة عن التقدير بإطعام الأهل فكان تكفيرها معتبراً بصدقة الفطر وقد ثبت بالنص تقديرها بالصاع لا بالمد . وقال أبو حنيفة : الواجب نصف صاع من الحنطة أو صاع من غيرها قال : لأن الأسط هو الأعدل . وما ذكره الشافعي هو أدنى ما يكفي . وأما الأعدل فيكون بإدام وهكذا روي عن ابن عباس مدّ بإدامه والإدام تبلغ قيمته مداً آخر ويزيد في الأغلب . أجاب الشافعي أن الإدام غير واجب بالإجماع فلم يبق إلا حمل اللفظ على التوسط في قدر الطعام ومقداره ما ذكرنا ، وجنس الطعام المخرج جنس الفطرة .

ثم قال الشافعي : الواجب تمليك الطعام قياساً على الكسوة . وقال أبو حنيفة : إذا غدّى وعشى عشرة مساكين جاز لأن ذلك إطعام ، ولأن إطعام الأهل يكون بالتمكين لا بالتمليك وقد قال ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ والقائل أن يقول : ذكر إطعام الأهل لتعيين مقدار المطعم لا لأجل كيفية الإطعام . وقال أبو حنيفة : لو أطعم مسكيناً واحد عشر مرات جاز . وقال الشافعي : لا يجزي إلا إطعام عشرة لأن مدار الباب على التعبد الذي لا يعقل معناه فيجب الوقوف على مورد النص .

قال في الكشاف ﴿ أو كسوتهم ﴾ عطف على محل ﴿ من أوسط ﴾ ووجه بأن البدل هو المقصود فكأنه قيل : فكفارته من أوسط . وأقول : الأظهر أن يكون ﴿ من أوسط ﴾ مفعولاً آخر للإطعام سواء كان " من " للابتداء أو للتبعيض ، ويكون ﴿ كسوتهم ﴾ معطوفاً على الإطعام . والكسوة معناها اللباس وهو كل ما يكتسى به . قال الشافعي : يجزىء في الكفارة أقل ما يقع عليه اسم الكسوة وهو الثوب يغطي العورة إزار أو رداء أو قميص أو سراويل أو عمامة أو مقنعة لكل مسكين ثوب واحد لما روي عن ابن عباس كانت العباءة تجزىء يومئذٍ . وعن مجاهد : ثوب جامع . وقال الحسن : ثوبان أبيضان . والمراد بالرقبة الجملة كان الأسير في العرب تجمع يداه الى رقبته فإذا أطلق حل ذلك الحبل فسمي الإطلاق من الحبل فك رقبة . ثم أجرى ذلك على العتق هكذا قيل في أصل هذا المجاز . ومذهب أهل الظاهر أن جميع الرقاب تجزئه . وقال الشافعي : لا يجزىء إلا كل سليمة من عيب يخل بالعمل صغيرة كانت أو كبيرة ذكراً أو أنثى بعد أن كانت مؤمنة قياساً على كفارة القتل ، ولم يجوز إعتاق المكاتب ولا شراء القريب . وفي تقديم الإطعام على العتق من أن العتق أفضل تنبيه على التخيير وأن الأمر مبني على التخفيف . ويكمن أن

يقال : الإطعام أفضل لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام أو لا يكون هناك من يعطيه فيقع في الضر ، أما العبد فيجب على مولاه طعامه وكسوته ، فالعتق يحتمل التأخير والإطعام قد لا يحتمل ذلك . ﴿ فمن لم يجد ﴾ أحد الأمور الثلاثة المذكورة ﴿ فصيام ﴾ فعليه صيام ﴿ ثلاثة أيام ﴾ قال الشافعي : إذا وجد قوت نفسه وقوت عياله يومه وليلته ومن الفضل ما يطعم عشرة مساكين لزمته الكفارة بالإطعام ، وإن لم يكن عنده ذلك القدر جاز له الصيام وذلك أنه علق جواز الصيام على عدم وجدان الخصال الثلاث فعند وجدانها وجب أن لا يجوز الصوم . تركنا العمل به عند وجدان قوت نفسه وقوت عياله يوماً وليلة لأن ذلك ضروري ، وتقديم حق

(237/214)

النفس على حق الغير واجب شرعاً فبقي الآية معمولاً بها في غيره . وعند أبي حنيفة : يجوز الصيام إذا كان عنده من المال ما لا تجب فيه الزكاة .

ثم صيام الأيام الثلاثة المشروط عند أبي حنيفة بالتتاع تمسكاً بقراءة أبيّ وابن مسعود ﴿ فصيام ثلاثة أيام متتابعات ﴾ فإن قراءتهما لا تتخلف عن روايتهما . وقال الشافعي في أصح قوليه : إن التفريق جائز والقراءة الشاذة لا يعتدّ بها لأنها لو كانت صحيحة لنقلت

نقلاً متواتراً وقد " روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً قال له : عليّ أيام من رمضان أفأقضيها متفرقات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت لو كان عليك دين فقضيت الدرهم فالدرهم أما كان يجزيك ؟ قال : بلى . قال : فالله أحق أن يعفو ويصفح " وإذا جاز هذا التفريق في صوم رمضان ففي غيره أولى ، وأيضاً العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(238/214)

مسألة : من صام ستة أيام عن يمينين أجزأته ولا حاجة الى تعيين إحدى الثلاثتين لإحدى اليمينين لأن الواجب عن كل منهما ثلاثة أيام وقد أتى بها فيخرج عن العهدة ﴿ ذلك ﴾ المذكور ﴿ كفارة أيمانكم إذا حلفتم ﴾ وحنثتم فحذف ذكر الحنث للعلم بأن الكفارة لا تجب بمجرد الحلف ، وللتنبيه على أن الكفارة لا يجوز تقديمها على اليمين ، وأما بعد اليمين وقبل الحنث فيجوز وبه قال مالك والشافعي وأحمد موافقاً لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً فكفر عن يمينك ثم ائت بالذي هو خير " ولأن الكفارة حق ماليّ يتعلق بسببين فجاز تعجيله بعد وجود أحد السببين كتعجيل الزكاة بعد وجود النصاب . هذا إذا كان يكفر بغير الصوم ، أما الصوم فلا يجوز

تقديمه لأن العبادات البدنية لا تقدّم على وقتها إذا لم تمس إليه حاجة كالصلاة وصوم رمضان ، ولأن الصوم إنما يجوز التكفير به عند العجز عن جميع الخصال المالية ، وإنما يتحقق العجز بعد الوجوب وإن كان الحنث بارتكاب محظور كأن حلف أن لا يشرب الخمر أجزأه التكفير قبل الشرب أيضاً لوجود أحد السببين . والتكفير لا يتعلق به استباحة ولا تحريم بل المحلوف عليه حرام قبل اليمين وبعدها وقبل التكفير وبعده لا أثر لهما فيه . جميع ما ذكرنا ظاهر مذهب الشافعي ، أما عند أبي حنيفة وأصحابه فلا يجوز التكفير قبل الحنث مطلقاً . ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ قللوها ولا تكثروا منها ، أو احفظوها إذا حلفتم عن الحنث ، وعلى هذا تكون الأيمان المختصة بالتي الحنث فيها معصية كمن حلف أن لا يشرب الخمر بخلاف ما لو حلف ليشربن فإنه لا يؤمر حينئذ بالحفظ عن الحنث . وقيل : احفظوها بأن تكفروها أو المراد لا تنسوها تهاوناً بها ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك البيان الشافي ﴿ يبين الله لكم آياته ﴾ أحكامه وأعلام شريعته ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ نعمة البيان وتسهيل المخرج من الحرج .

(239/214)

ثم إنه سبحانه استثنى من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر – وقد تقدم معناهما وما يتعلق بهما في سورة البقرة ، وسلك في سلك التحريم الأنصاب ووالأزلام وقد ذكرناهما في أول هذه السورة .

واعلم أنه كانت تحدث قبل تحريم الخمر أشياء يكرهها رسول الله صلى الله عليه وسلم منها قصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه مع عمه حمزة على ما روي في الصحيحين أنه قال : كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني شارفاً من الخمس ، فلما أردت أن أبني بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم واعدت رجلاً صوّاغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي لأذخر ، أردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعين به في وليمة عرسي . فبينا أنا أجمع لشارفيّ متاعاً من الأقتاب والغرائر والحبال وشارفاي مناختان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار ، أقبلت فإذا أنا بشارفيّ قد جبت أسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما فلم أملك عيني حين رأيت ذلك المنظر وقلت : من فعل هذا ؟ قالوا : فعله حمزة بن عبد المطلب وهو في البيت في شرب مع امرأة من الأنصار غنت أغنية فقالت في غنائها :

ألا يا حمز للشرف النواء . . . وهن معقلات بالفناء

ضع السكين في اللبات منها . . . فضرجهن حمزة بالدماء

وأطعم من شرائحها كباباً . . . ملهوجة على وهج الصلاء

فأنت أبا عمارة المرجى . . . لكشف الضر عنا والبلاء

(240/214)

فوثب الى السيف أسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما . قال علي رضي الله عنه : فانطلقت حتى دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده زيد بن حارثة فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أتيت له فقال : ما لك ؟ فقلت يا رسول الله ما رأيت كاليوم ! عدا حمزة على ناقتي فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرهما وها هوذا في بيت معه شرب . قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه ثم انطلق يمشي واتبعت أثره ، - أنا وزيد بن حارثة - حتى جاء البيت الذي فيه . فاستأذن فأذن له فإذا هم شرب ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوم حمزة فيما فعل فإذا حمزة ثمل محمرة عيناه ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه ثم قال : وهل أنتم إلا عبيد أبي ؟ فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ثمل فنكص على عقبيه القهقرى ، فخرج وخرجنا فكانت هذه القصة من الأسباب الموجبة لنزول تحريم الخمر . قالت العلماء : هذه الآية تدل على تحريمها من وجوه منها : تصدير الجملة ب " إنما " الدالة على

الحصر معناه ليست الخمر إلا الرجس وعمل الشيطان . ومنها أنه قرنها بعبادة الأصنام ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم

(241/214)

" شارب الخمر كعابد الوثن " ومنها أنه جعلها رجساً كما قال في موضع آخر ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج : 30] وأصل الرجس العمل القبيح القذر . قال الفراء : ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ [يونس : 100] أي العقاب والغضب وكأنه إبدال الرجز والرجس بالفتح الصوت الشديد من الرعد ومن هدير البعير فلهذا سمي العمل القوي الدرجة في القبح رجساً . ومنها أنه جعلها من عمل الشيطان ، ومن المعلوم أنه لا يصدر منه إلا الشر البحت . ومنها أنه أمر بالاجتناب وظاهر الامر للوجوب . ومنها انه جعل الاجتناب من الفلاح فيكون القرب منه خيبة . والضمير في ﴿ فاجتنبوه ﴾ عائد الى الرجس أو العمل أو إلى المضاف المحذوف أي إنما تعاطي الخمر ونحو ذلك . ومنها شرح أنواع المفاسد المنتجة منها من التعادي والتباغض والصد عن ذكر الله وعن الصلاة خصوصاً وفيه أن غرض الشرب من الاجتماع تأكد الألفة والمودّة . ثم إنها تورث نقيض المقصود لأن العقل إذا زال استولت الشهوة والغضب ويؤدي الى التنازع واللجاج ، وكذا

القمار يفضي الى إفناء المال وإلى أن يقامر على حليلته وأهله وولده وكل ذلك يورث العداوة والفتن وهذان من مكايد الشيطان ومضادّان لمصالح الإنسان . وأيضاً الخمر سبب تهييج اللذه الجسمية ، والقمار يورث لذة الغلبة الحالية ، وكلتاهما توجب الاشتغال عن اللذات الحقيقية الحاصلة من الاستغراق في طاعة المعبود . وإنما أفرد ذكر الخمر والميسر ثانياً لأن الخطاب مع المؤمنين فقرنهما أولاً بذكر الأنصاب والأزلام تنبيهاً على أنها جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك ، ثم أفردهما لأن الكلام مسوق لتحريمهما على المخاطبين حيث إنهم كانوا لا يتعاطون سوى هذين . ومنها سوق الكلام بطريق الاستفهام في قوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ كأنه قيل : قد تلي عليكم ما هو كاف في باب المنع فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم تزجروا ؟ ولهذا قالوا قد

(242/214)

انتهينا يا رب . إذ فهموا التحريم المؤكد . ومنها إنه قال عقيب ذلك ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ﴾ والظاهر أن المراد الطاعة فيما تقدم من الأمر بالاجتناب والحذر عن المخالفة في ذلك الباب . ومنها تهديد من خالف هذا التكليف بقوله ﴿ فإن توليتم ﴾ الآية . والمراد إن أعرضتم فالحجة قد قامت عليكم والرسول قد خرج عن

عهدة البلاغ وقد أعذر من أنذر وجزاء المخالف الى الله المقتدر . عن أنس قال : كنت ساقي القوم يوم حرمت في بيت أبي طلحة وما شرابهم إلا فضيخ البسر والتمر ، فإذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت . قال : فجزت في سكك المدينة فقال أبو طلحة : اخرج فأرقها . فقالوا : قتل فلان وفلان وهي في بطونهم فأنزل الله تعالى ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ الطعم خلاف الشرب في الأغلب وقد يقع على المشروب كقوله تعالى

(243/214)

﴿ ومن لم يطعمه فإنه مني ﴾ [البقرة : 249] فيجوز أن يكون المراد فيما شربوا من الخمر ، ويحتمل أن يكون معنى الطعم راجعاً إلى التلذذ بما يؤكل ويشرب جميعاً ، فقد تقول العرب : أطعم أي ذق . ونظير هذه الآية قوله في نسخ القبلة ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [البقرة : 143] والعامل في ﴿ إذا ما اتقوا ﴾ معنى الكلام المتقدم أي لا يأثمون في ذلك إذا اتقوا المحرّمات لأنهم شربوها حين كانت محللة . والمراد أن أولئك كانوا على هذه الصفة وهو ثناء عليهم وحمد لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان . وزعم بعض الجهلة أن هذا الحكم متعلق بالمستقبل وإلا قيل : لم يكن أو ما كان جناح مثل ﴿ وما كان الله

ليضيع ﴾ [البقرة : 143] والمعنى لا جناح على من طعمها إذا لم يحصل معه العداوة والبغضاء وسائر المفاسد المذكورة بل حصل معه أنواع المصالح من الطاعة والتقوى والإحسان إلى الخلق . والجواب أن صيغة طعموا وهي المضي تأباه ، وأيضاً إن سبب نزول الآية يكذبه . روى أبو بكر الأصم أنه لما نزل تحريم الخمر قال أبو بكر : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وأكلوا القمار ، وكيف بالغائبين عنا في البلاد لا يشعرون بتحريم الخمر وهم يطعمونها ؟ فنزلت . وعلى هذا فالحال قد ثبت فيما يستقبل لكن في حق الغائبين الذين لم يبلغهم هذا النص . ثم أنه سبحانه شرط في نفي الجناح حصول التقوى والإيمان مرتين ، وفي الثالثة التقوى والإحسان . فقال الأكثرون : الأول فعل الاتقاء ، والثاني دوامه والثبات عليه ، والثالث اتقاء ظلم العباد مع الإحسان إليهم . وقيل الأول اتقاء جميع المعاصي قبل نزول الآية ، والثاني اتقاء الخمر والميسر وما في هذه الآية ، والثالث اتقاء ما يحدث تحريمه بعد هذه الآية ، وهذا قول الأصم . وقيل : اتقوا الكفر ثم الكبائر ثم الصغائر . وقال القفال : الأول الاتقاء من القدح في صحة النسخ ليثبت تحريم الخمر بعد أن كانت مباحة ،

(244/214)

والثاني الإتيان بالعمل المطابق للآية ، والثالث المداومة على التقوى مع الإحسان إلى الخلق . ثم إنه سبحانه استثنى بعض الصيد من المحللات فقال على سبيل المثال التوكيد القسمي ﴿ ليبلونكم الله ﴾ أي ليعاملنكم معاملة المختبر ﴿ بشيءٍ ﴾ التنوين للتحقير وفيه أنه ليس من الفتن العظام التي تدحض عندها الأقدام كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال ، فامتحن الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم بصيد البر كما امتحن أصحاب أيلة بصيد البحر . قال مقاتل بن حيان : ابتلاهم بالصيد وهم محرمون عام الحديبية حتى إن الوحش والطير يغشاهم في رحالهم فيقدرون على أخذها بالأيدي وصيدها بالرماح وما رأوا مثل ذلك قط ، فنهاهم الله عن ذلك ابتلاء . قال الواحدي : الذي تناله أيديهم من الصيد الفراخ والبيض وصغار الوحش ، والذي تناله الرماح الكبار . و" من " في ﴿ من الصيد ﴾ للبيان أو للتبعيض وهو صيد البر أو صيد الإحرام والمراد به العين لا الحدث بدليل عود الضمير في ﴿ تناله ﴾ إليه ﴿ ليعلم الله ﴾ ليظهر معلومة وهو خوف الخائف أو ليعاملكم معاملة من يطلب أن يعلم أو ليعلم أولياء الله ومحل ﴿ بالغيب ﴾ النصب على الحال أي يخافه حال كونه غائباً عن رؤيته أو عن حضور الناس ﴿ فمن اعتدى ﴾ فصاد ﴿ بعد ذلك ﴾ الابتلاء ﴿ فله عذاب أليم ﴾ في الآخرة وقيل في الدنيا .

(245/214)

عن ابن عباس : هو أن يضرب بطنه وظهره ضرباً وجيعاً وينزع ثيابه . ﴿ لا تقتلوا الصيد ﴾ قال الشافعي : إنه البري المتوحش المأكول اللحم . أما الأول فلقوله تعالى بعد ذلك ﴿ أحل لكم صيد البحر ﴾ وأما المتوحش فيدخل فيه نحو الظبي وإن صار مستأنساً ويخرج الإنسي وإن صار متوحشاً إبقاء لحكم الأصل ، وأما كونه مأكولاً فلقوله تعالى ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ فيعلم منه أنه مما يحل أكله في غير الإحرام . وقال أبو حنيفة : المحرم إذا قتل سبعاً لا يؤكل لحمه ضمن . وسلم أنه لا يجب الضمان في قتل الذئب وفي قتل الفواسق الخمس فقال الشافعي : لا معنى في قتلها إلا الإيذاء فيلزم جواز قتل جميع المؤذيات لا سيما وقد جاء " خمس يقتلن في الحل والحرم : الغراب والحدأة والحية والعقرب والكلب والعقور " وفي رواية بزيادة السبع العادي واحتج لأبي حنيفة بقول علي رضي الله عنه :

صيد الملوك أرانب وثعالب . . . فإذا ركبت فصيدي الأبطال .

(246/214)

وزيف بأن الثعلب عندنا حلال . ﴿ وأنتم حرم ﴾ أي محرمون بالحج والعمرة أيضاً على الأصح . وقيل : وقد دخلتم الحرم . وقيل : هما مرادان بالآية وهو قول الشافعي . وقوله ﴿ لا تقتلوا ﴾ يفيد المنع ابتداء والمنع تسبباً فليس له أن يتعرض للصيد ما دام محرماً أو في الحرم بالسلاح ولا بالجوارح من الكلاب والطيور سواء كان الصيد صيد الحل أو صيد الحرم ﴿ ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل ﴾ من قرأ ﴿ جزاء ﴾ بالتنوين ﴿ ومثل ﴾ بالرفع فالمعنى : فعليه جزاء صفته كذا . ومن قرأ بالإضافة فمن باب إضافة المصدر إلى المفعول أي فعلية أن يجزىء مثل ما قتل . قال بعض العلماء : المثل مقحم للتأكيد إذ الواجب عليه جزاء المقتول لا جزاء مثله فهو قولهم : أنا أحب مثلك أي أحبك . وقيل : الإضافة بمعنى " من " أي جزاء من مثل ما قتل . قال سعيد بن جبير : المحرم إذا قتل الصيد خطأ لا يلزمه شيء . وهو قول داود لأن النهي ورد عن التعمد وهو أن يقتله ذاكراً لإحرامه أو عالماً أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله ، فإن قتله وهو ناسٍ لإحرامه أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد ، أو رمى غير الصيد فعدل السهم فأصاب صيداً فهو مخطىء لا شيء عليه لفقدان القيد المذكور . ويتأكد هذا الرأي بقوله ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ وبقوله ﴿ ومن عاد ﴾ أي الى ما تقدم ذكره وهو القتل العمد ، والانتقام أيضاً يناسب العمد لا الخطأ قال جمهور الفقهاء : يلزمه الضمان سواء قتل عمداً أو خطأ قياساً على سائر محظورات

الإحرام كحلق الرأس وغيره وكما في ضمان مال المسلم ، فإنه لما ثبتت الحرمة لحق المالك لم يختلف ذلك بكونه عمداً أو لا .

(247/214)

وإنما وردت الآية بالتعمد لأن العمد أصل والخطأ ملحق به للتغليظ ، ولما روي أنه عنّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمحه فقتله فقيل له : إنك قتلت الصيد وأنت محرم فنزلت الآية على وفق القصة . وعن الزهري نزل كتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ . قال صلى الله عليه وسلم " في الضبع كبش إذا قتله المحرم " وقالت الصحابة : في الظبي شاة . أطلقوا الضمان من غير فرق بين العمد والخطأ . ثم العلماء اختلفوا في المثل فقال الشافعي ومحمد بن الحسن : الصيد ضربان : منه ما له مثل ومنه ما لا مثل له فيضمن بالقيمة . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : المثل الواجب هو القيمة قياساً على ما لا مثل له . حجة الشافعي قوله تعالى ﴿ من النعم ﴾ فإنه بيان للمثل وكذا قوله ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حكم في الضبع بكبش . وعن علي وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وابن عباس وابن عمر أنهم حكموا في أمكنة مختلفة وأزمان متعدّدة في جزاء الصيد بالمثل من النعم . فحكموا في النعامة ببدنة ، وفي

حمار الوحش ببقرة ، وفي الضبع بكبش ، وفي الغزال بعنز ، وفي الظبي بشاة ، وفي الأرنب بجمل – وفي رواية بعناق – وفي الضب بسخلة ، وفي اليربوع بجفرة ، وفي الحمام بشاة ، ويعني به كل ما عب وهدر كالقمري والدبسي الفاختة . والعب شرب الماء مرة ، والهدير ترجيعه صوته وتغريده . وفيه دليل على أنهم نظروا إلى أقرب الأشياء شبهاً بالصيد من النعم ، ولو نظروا إلى القيمة لاختلف باختلاف الأسعار . والظبي الذكر من هذا الجنس والغزال أنثاه ، والجفرة من أولاد المعز إذا انفصلت من أمها ، والعناق الأنثى من أولاد المعز . وأيضاً المقصود من الضمان جبر الهلاك فكلما كانت المماثلة أتم كان الجبر أكمل .

(248/214)

(وههنا مسائل) الأولى : جماعة محرومون قتلوا صيداً . فالشافعي وأحمد وإسحق : لا يجب عليهم إلا جزاء واحد لأن مثل الواحد واحد . وقال أبو حنيفة ومالك والثوري : على كل منهم جزاء واحد كما لو قتل جماعة واحداً يقتص منهم جميعاً ، وكذا لو حلف كل منهم أن لا يقتل صيداً فقتلوا صيداً واحداً لزم كلاً منهم كفارة . وأجيب بأن قتل الجماعة بالواحد تعبدي وتعدد الكفارة لتعدد الإيمان .

الثانية : قال الشافعي : المحرم إذا دل غيره على صيد فقتله لم يضمن كما لا يجب بالدلالة

كفارة القتل ولا الدية ، وكما لو دل على مال المسلم وذلك لأن الدلالة ليست بقتل ولا إتلاف

.

وقال أبو حنيفة : يضمن لما روي أن عمر عبد الرحمن بن عوف وابن عباس أوجبوا الجزاء على الدال .

الثالثة : قال الشافعي : إذا جرح ظبياً فنقص من قيمته العشر فعليه عشر قيمة الشاة إرشاداً إلى ما هو الأسهل لأنه قد لا يجد شريكاً في ذبح الشاة ويتعذر عليه إخراج قسط من الحيوان . وقال المزني : عليه شاة . وقال داود : لا ضمان إلا بالقتل لظاهر الآية حيث نيط الجزاء بالقتل فقط .

الرابعة : إذا قتل المحرم صيداً وأدى جزاءه ثم قتل صيداً آخر لزمه جزاء آخر خلافاً لداود ، وينقل عن ابن عباس وشريح . حجة الجمهور أن الحكم يتكرر بتكرر العلة بخلاف ما لو قال لنسائه : من دخل منكن الدار فهي طالق فدخلت واحدة مرتين ، فإنه لا يقع إلا طلاق واحد لأن تكرر الحكم بتكرر الشرط غير لازم . حجة داود ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ فإنه جعل جزاء العائد الانتقام لا الكفارة .

الخامسة : قال الشافعي : إذا أصاب صيداً أعور أو مكسور اليد أو الرجل فداه بمثله والصحيح أحب ، وكذا الكبير لأجل الصغير . والذكر يفدى بالذكر والأنثى بالذكر

والأنثى والأولى أن لا يغير تحقيقاً للمثلية . فالأنثى أفضل لأنها تلد ، والذكر أفضل من حيث إن لحمه أطيب وصورته أحسن .

(249/214)

قوله سبحانه ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ قال ابن عباس : أي رجلان صالحان فقيهان من أهل دينكم ينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به . وبهذا احتج من نصر قول أبي حنيفة فقال : التقويم هو المحتاج إلى النظر والاجتهاد ، وأما الخلقة والصورة فمشاهد لا يفتقر إلى الاجتهاد . ورد بأن وجه المشابه بين النعم والصيد أيضاً يتوقف على الاجتهاد . عن قبيصة بن جابر أنه ضرب ظبياً في الإحرام فمات فسأل عمر – وكان الى جانبه عبد الرحمن ابن عوف – فقال له : ما ترى ؟ قال : عليه شاة . قال : وأنا أرى ذلك ، فاذهب فأهد شاة . قال قبيصة : فخرجت إلى صاحبي وقلت : إن أمير المؤمنين لم يدر ما يقول حتى سأل غيره . قال : ففاجأني عمر وعلاني بالدرّة وقال : أتقتل في الحرم وتسفه الحكم ؟ قال الله تعالى ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ فأنا عمر وهذا عبد الرحمن . قال الشافعي : ما ورد فيه نص فهو متبع كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قضى في الضبع بكبش . وكل ما حكم به عدلان من الصحابة أو التابعين أو من أهل عصر آخر من النعم أن

مثل الصيد المقتول يتبع حكمهم ولا حاجة إلى تحكيم غيرهم لأن بحثهم أوفى ونظرهم أعلى . وقال مالك يجب التحكيم فيما حكمت به الصحابة وفيما لم تحكم . وهل يجوز أن يكون قاتل الصيد حكماً ؟ إن كان القتل عمداً عدواناً فلا لأنه يورث الفسق والحكم موصوف بالعدالة ، وإن كان خطأ أو كان مضطراً إليه فكذلك عند مالك كما في تقويم المتلفات .

(250/214)

وجوّزه الشافعي لما روي أن بعض الصحابة أوطأ فرسه ظبياً فسأل عمر فقال : احكم فيه . فقال : أنت خير مني وأعلم يا أمير المؤمنين . فقال : إنما أمرتك أن تحكم فيه ولم آمرك أن تزكيني . فقال الرجل : أرى فيه جدياً فقال عمر : فذلك فيه . وأيضاً فإنه حق الله فيجوز أن يكون من عليه أميناً فيه كما أن رب المال أمين في الزكاة . ولو حكم عدلان بأن الله له مثلاً وآخران بأنه لا مثل له فالأخذ بقول الأولين . ولو حكم عدلان بمثل وآخران بمثل آخر فأصح الوجهين أنه يتخير والآخر أنه يأخذ بالأغلظ . قيل في الآية دلالة على أن العمل بالاجتهاد والقياس جائز . وأجيب بأنه لا نزاع في الصور الجزئية كالاجتهاد في القبلة وكالعمل بشهادة الشاهدين وبتقويم المقوّمين في قيم المتلفات وأروش الجنايات ، وكعمل

العامي بالفتوى ، وكالعمل بالظن في مصالح الدنيا ، إنما النزاع في إثبات شرع عام في حق جميع المكلفين باق على وجه الدهر والإنصاف أن تجويز الاجتهاد في القبلة وفي تعيين مثل الصيد المقتول أمر كلي أيضاً . وانتصب ﴿ هدياً ﴾ على أنه حال من ﴿ جزاء ﴾ عند من وصفه بمثل لأنه حينئذ قريب من المعرفة أو بدل من محل ﴿ مثل ﴾ عند من أضاف ، أو حال من الضمير في ﴿ به ﴾ ووصف هدياً ببالغ الكعبة لأن إضافته غير حقيقية تقديره بالغاً الكعبة . والعرب تسمى كل بيت مربع كعبة ولا سيما إذا كان مرتفعاً . ومعنى بلوغه الكعبة أن يذبح في الحرم لأن الذبح والنحر لا يقعان في نفس الكعبة ولا في غاية القرب والتلاصق منها فإن دفع مثل الصيد المقتول إلى الفقراء حياً لم يجز . قال الشافعي : يجب عليه أن يتصدق به في الحرم أيضاً لأن نفس الذبح إيلام ولا قربة فيه وإنما القربة في التصدّق على فقراء الحرم . وقال أبو حنيفة : له أن يتصدق به حيث شاء لأنها لما وصلت إلى الكعبة فقد خرج عن العهدة . قوله ﴿ أو كفارة ﴾ عطف على قوله ﴿ فجزاء ﴾ و ﴿ طعام مساكين ﴾ بيان له . ومن أضاف فللبيان أيضاً

(251/214)

أي كفارة من طعام مساكين مثل : خاتم فضة ﴿ أو عدل ذلك ﴾ الطعام ﴿ صياماً ﴾ نصب على التمييز كقولك : لي مثله رجلاً . وعدل الشيء ما عادله من غير جنسه ، والعدل بالكسر المثل تقول : عندي عدل غلامك إذا كان غلاماً يعدل غلاماً ، فإذا أردت قيمته من غير جنسه فتحت العين . ثم مذهب الشافعي أنه يصوم لكل مد يوماً . ومذهب أبي حنيفة أنه يصوم لكل نصف صاع يوماً وذلك بحسب الاختلاف في طعام مسكين واحد كما مر في كفارة اليمين .

(252/214)

وبالجملة فحاصل مذهب أبي حنيفة أنه يوجب قيمة الصيد يقوّم حيث صيد ، فإن بلغت قيمته ثمن هدي تخير بين أن يهدي من النعم ما قيمته قيمة الصيد وبين أن يشتري بقيمته طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره ، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً . وحاصل مذهب الشافعي أن الصيد قسمان : ما له مثل من النعم وما ليس كذلك . فالأوّل جزاؤه على التخيير والتعديل فيتخير بين أن يذبح مثله فيتصدق به على مساكين الحرم إما بأن يفرق اللحم أو يملك جملته إياهم مذبوحاً ، وبين أن يقوّم المثل بدراهم ولا يجوز أن يتصدق بالدراهم ولكن إن شاء اشترى بها طعاماً وتصدق به على

مساكين الحرم وإن شاء صام عن كل مد من الطعام يوماً حيث كان . والثاني وهو ما ليس بمثلي كالعصافير وغيرها . وبالجملة كل ما دون الحمام أو فوقه فيه قيمته ولا يتصدق بها بل يجعلها طعاماً ، ثم إن شاء تصدق بها وإن شاء صام عن كل مد يوماً ، فإن انكسر مد في القسمين صام يوماً لأن الصوم لا يتبعض . فللجزاء في القسم الأوّل ثلاثة أركان : الحيوان والطعام والصيام . وفي القسم الثاني ركنان : الطعام والصيام و﴿ أو ﴾ هنا على التخيير في ظاهر المذهب لا على الترتيب . ووافق مالك وأبو حنيفة لأن " أو " للتخيير غالباً ، وخالف أحمد وزفر فقالا إنها في الآية للترتيب لأن الواجب هنا شرع على سبيل التغليظ بدليل قوله ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ والتخيير ينافي التغليظ . ثم القائلون بالتخيير اتفقوا على أن الخيار في تعيين هذه الثلاثة إلى قاتل الصيد كما هو ظاهر الآية إلا محمد بن الحسن فإنه قال : الخيار إلى الحكمين قياساً على تعيين المثل . ثم إن يكن الصيد مثلياً فالعبرة في القيمة بمحل الإتلاف قياساً على كل متلف متقوّم ، والمعتبر في الصرف إلى الطعام سعر الطعام بمكة . وإن كان مثلياً وأراد تقويم مثله من النعم ليرجع إلى الإطعام أو الصيام فالعبرة في قيمته بمكة يومئذ أنها محل الذبح لو كان

(253/214)

يذبح . ولا جزاء عل المحرم بأكل الصيد سواء ذبحه بنفسه أو اصطيد له أو بدلالته لأنه ليس بنام بعد الذبح ولا يؤل إلى النماء فلا يتعلق بإتلافه الجزاء ، كما لو أتلف بيضة مذرة هذا في الجديد من قولي الشافعي وفي قوله القديم – وبه قال مالك وأحمد – يلزمه القيمة بعدما أكل . وإذا ذبح المحرم صيداً لم يحل له الأكل منه ولا لغيره في الجديد – وبه قال مالك وأحمد وأبو حنيفة – لأنه يكون ميتة كذبيحة المجوسي حتى لو كان مملوكاً وجب مع الجزاء القيمة للممالك . وهل يحل له بعد زوال الإحرام ؟ أظهر الوجهين لا ، وكذا الكلام في الصيد الحرم إذا ذبح .

أما قوله ﴿ ليذوق ﴾ فإنه متعلق بقوله ﴿ فجزاء ﴾ أي فعليه أن يجازي أو يكفر ليذوق ، ويحتمل أن يقال : يتعلق بمحذوف أي شرعنا ما شرعنا ليذوق سوء عاقبة فعله وهو هتك حرمة الحرم والإحرام . والتركيب يدور على الثقل يقال : مرعى وبيل إذا كان فيه وخامة ، وطعام وبيل تقيل على الطبع والمعدة . والأمور الثلاثة اثنان منها نقص في المال فيثقل على الطبع ، والثالث وهو الصوم ثقيل على البدن أيضاً ، وكل منها نوع عقوبة ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ في الجاهلية لأنهم متعبدون بشرع من قبلهم ، أو عما سلف قبل التحريم في الإسلام . وعلى مذهب داود ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ في المرة الأولى بسبب أداء الجزاء ﴿ ومن عاد ﴾ فإنه أعظم من أن يعفى بالجزاء ﴿ فينتقم الله منه ﴾

أي فهو ينتقم الله منه وإلا لم يحتج إلى إدخال فاء الجزاء لارتباطه بنفسه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 20.7 ﴾

(254/214)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس عشر بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/215)

الجزء الخامس عشر بعد المائتين

من الآية ﴿ 96 ﴾ من سورة المائدة

وحتى الآية ﴿ 96 ﴾ نفس الآية

(4/215)

قوله تعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا عاماً في كل صيد ، بين أنه خاص بصيد البر فقال : ﴿ أحل لكم صيد البحر ﴾ أي اصطياده ، أي الذي مبناه غالباً على الحاجة ، والمراد به جميع المياه من

الأنهار والبرك وغيرها ﴿ وطعامه ﴾ أي مصيده طرياً وقديداً ولو كان طافياً قذفه البحر ، وهو الحيتان بأنواعها وكل ما لا يعيش في البر ، وما أكل مثله في البر .

(5/215)

ولما أحل ذلك ذكر علته فقال : ﴿ متاعاً لكم ﴾ أي إذا كنتم مسافرين أو مقيمين ﴿ وللسيارة ﴾ أي يتزودونه إلى حيث أرادوا من البر أو البحر ، وفي تحليل صيد البحر حال الابتلاء من النعمة على هذه الأمة ما يبين فضلها على من كان قبلها ممن جعل صيد البحر له محنة يوم الابتلاء – ولله الحمد ، والظاهر أن المراد بصيد البحر الفعل ، لأن ثَمَّ أمرين : الاصطياد والأكل ، والمراد بيان حكمهما ، فكأنه أحل اصطياد حيوان البحر ، وأحل طعام البحر مطلقاً ما اصطادوه وما لم يصطادوه ، سواء كانوا مسافرين أو مقيمين ، وذلك لأنه لما قدَّم تحريم اصطياد ما في البر بقوله ﴿ لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 95] أتبعه بيان إحلال اصطياد مصيد البحر في حال تحريم ذلك ، ثم أتبعه بيان حرمة مصيد البر بقوله : ﴿ وحرم عليكم صيد البر ﴾ أي اصطياده وأكل ما صيد منه لكم وهو ما لا عيش له إلاّ فيه ، وما يعيش فيه وفي البحر ، فإن صيدَ للحلال حل للمحرم أكله ، فإنه غير منسوب إليه اصطياده بالفعل ولا بالقوة ﴿ ما دمتم حرماً ﴾ لأن مبنى أمره غالباً في

الاصطياد والأكل مما صيد على الترف والرفاهية ، وقد تقدم أيضاً حرمة اصطياد مصيد البر وحرمة الأكل مما صيد منه ، وتكرر ذلك بتكرر الإحرام في آية ﴿ غير محلي الصيد ﴾ [المائدة : 1] وآية ﴿ لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 95] فلا يعارضه مفهوم ﴿ ما دمتم حرماً ﴾ [المائدة : 96] وعبر بذلك ليكون نصاً في الحرمة في كل جزء من أجزاء وقت الإحرام إلى تمام التحلل - والله أعلم ، ولا يسقط الجزاء بالخطأ والجهل كسائر محظورات الإحرام .

(6/215)

ولما كان الاصطياد بحشر المصيد إلى حيث يعجز عن الخلاص منه ، وكانت حالة الإحرام أشبه شيء بحالة الحشر في التجرد عن المخيط والإعراض عن الدنيا وتمتعاتها ، ختم الآية بقوله عطفاً على ما تقديره : فلا تأكلوا شيئاً منه في حال إحرامكم : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي الذي له الأمر كله في ذلك وفي غيره من الاصطياد وغيره ﴿ الذي إليه تحشرون ﴾ ليكون العرض عليه نصبَ أعينكم فتكونوا مواظبين على طاعته محترزين عن معصيته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 542 . 543 ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد بالصيد المصيد ، وجملة ما يصاد من البحر ثلاثة أجناس ، الحيتان وجميع أنواعها حلال ، والضفادع وجميع أنواعها حرام ، واختلفوا فيما سوى هذين .

فقال أبو حنيفة رحمه الله إنه حرام .

وقال ابن أبي ليلى والأكثرون إنه حلال ، وتمسكوا فيه بعموم هذه الآية ، والمراد بالبحر جميع المياه والأنهار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 81 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر ﴾ على المحرم والحلال . وهو على ثلاثة أوجه : الحيتان وأجناسها وكلها حلال ، والثاني : الضفادع وأجناسها وكلها حرام . والثاني فيه قولان ، أحدهما : حلال ، والثاني : حرام ، وهو مذهب أبي حنيفة .

وقال بعضهم : كل ما كان مثاله في البر فهو حلال في البحر وما كان مثاله [جزاء ما] في البر فهو حرام في البحر .

فأراد بالبحر جميع المياه لقوله ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر ﴾ [الروم : 41] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنه تعالى عطف طعام البحر على صيده والعطف يقتضي المغايرة وذكروا فيه وجوهاً :

الأول : وهو الأحسن ما ذكره أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أن الصيد ما صيد بالحيلة حال حياته والطعام ما يوجد مما لفظه البحر أو نضب عنه الماء من غير معالجة في أخذه هذا هو الأصح مما قيل في هذا الموضع .

(7/215)

والوجه الثاني : أن صيد البحر هو الطري ، وأما طعام البحر فهو الذي جعل مملحاً ، لأنه لما صار عتيقاً سقط اسم الصيد عنه ، وهو قول سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومقاتل والنخعي وهو ضعيف لأن الذي صار مالحاً فقد كان طرياً وصيداً في أول الأمر فيلزم التكرار .

والثالث : أن الاصطياد قد يكون للأكل وقد يكون لغيره مثل اصطياد الصدف لأجل اللؤلؤ ، واصطياد بعض الحيوانات البحرية لأجل عظامها وأسنانها فقد حصل التغاير بين الاصطياد من البحر وبين الأكل من طعام البحر والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 81 ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ قال بعضهم : هو ما مات في الماء فقذفه الماء إلى الساحل ميتاً وهو قول أبي بكر وعمر وإبنه وأبي هريرة وابن عباس ، وقال بعضهم : هو المليح منه ، وهو قول ابن جبير وعكرمة والنخعي وابن المسيب وقتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

ويقال : ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ ما نضب الماء عنه فأخذ بغير صيد ميتاً .

ويقال : كل ما سقاه الماء فأنبت من الأرض فهو طعام البحر .

قال الفقيه : حدّثنا الفضل بن أبي حفص .

قال : حدّثنا أبو جعفر الطحاوي .

قال : حدّثنا محمد بن خزيمة قال : حدّثنا حجاج بن المنهال قال : حدّثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال : كنت في البحرين ، فسألني أهل البحرين عما يقذف البحر من السمك ، فقلت : كلوه .

فلما رجعت إلى المدينة سألت عن ذلك عمر بن الخطاب فقال : ما أمرتهم به ؟ فقلت : أمرتهم بأكله فقال : لو أمرتهم بغير ذلك لضربتك بالدرة .

ثم قرأ عمر : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر وَطَعَامُهُ متاعا لَّكُمْ ﴾ فصيده ما صيد وطعامه : ما رمي به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الشافعي رحمه الله : السمكة الطافية في البحر محللة .

(8/215)

وقال أبو حنيفة رحمه الله محرّمة : حجة الشافعي القرآن والخبر ، أما القرآن فهو أنه يمكن أكله فيكون طعاماً فوجب أن يحل لقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر وَطَعَامُهُ ﴾ وأما الخبر فقوله عليه السلام في البحر : " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 81 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ للسيارة ﴾ يعني أحلّ لكم صيد البحر للمقيم والمسافر ، فالطري للمقيم ، والمالح للمسافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 82 ﴾

وقال ابن عاشور :

والسيّارة : الجماعة السائرة في الأرض للسفر والتجارة ، مؤنث سيّار ، والتأنيث باعتبار

الجماعة .

قال تعالى : ﴿ وجاءت سيّارة ﴾ [يوسف : 19] .

والمعنى أحلّ لكم صيد البحر تتمتّعون بأكله ويتمتّع به المسافرون ، أي تبيعونه لمن يتّجرون ويجلبونه إلى الأمصار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر تحريم الصيد على المحرم في ثلاثة مواضع من هذه السورة من قوله ﴿ غَيْرَ مُحِلِّى الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 1] إلى قوله ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ﴾ [المائدة : 2] ومن قوله ﴿ لا تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 95] إلى قوله ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 82 ﴾

فائدة

قال الفخر :

صيد البحر هو الذي لا يعيش إلا في الماء ، أما الذي لا يعيش إلا في البر والذي يمكنه أن يعيش في البر تارة وفي البحر أخرى فذاك كله صيد البر ، فعلى هذا السلحفاة ، والسرطان ، والضفدع ، وطير الماء ، كل ذلك من صيد البر ، ويجب على قاتله الجزاء . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 82 ﴾

فصل

قال الفخر :

(9/215)

اتفق المسلمون على أن المحرم يحرم عليه الصيد ، واختلفوا في الصيد الذي يصيده الحلال هل يحل للمحرم فيه أربعة أقوال : الأول : وهو قول علي وابن عباس وابن عمر وسعيد بن جبير وطاوس ، وذكره الثوري وإسحاق أنه يحرم عليه بكل حال ، وعولوا فيه على قوله ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ وذلك لأن صيد البر يدخل فيه ما اصطاده المحرم وما اصطاده الحلال ، وكل ذلك صيد البر ، وروى أبو داود في "سننه" عن حميد الطويل عن إسحاق بن عبد الله بن الحرث عن أبيه قال : كان الحرث خليفة عثمان على الطائف فصنع لعثمان طعاماً وصنع فيه الحجل واليعاقيب ولحوم الوحش فبعث إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فجاءه الرسول فجاء فقالوا له كل فقال علي : أطعمونا قوتاً حلالاً فإنا حرم ، ثم قال علي عليه السلام أنشد الله من كان ههنا من أشجع أتعلمون أن رسول الله أهدى إليه رجل حمار وحش وهو محرم فأبى أن يأكله فقالوا نعم .

والقول الثاني : أن لحم الصيد مباح للمحرم بشرط أن لا يصطاده المحرم ولا يصطاد له ، وهو قول الشافعي رحمه الله ، والحجة فيه ما روى أبو داود في "سننه" عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " صيد البر لكم حلال ما لم تصيدوه أو يصاد لكم ".

والقول الثالث : أنه إذا صيد للمحرم بغير إعانته وإشارته حل له وهو قول أبي حنيفة رحمه الله ، روي عن أبي قتادة أنه اصطاد حمار وحش وهو حلال في أصحاب محرمين له فسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عنه فقال : " هل أشرتم هل أعنتم فقالوا لا .

فقال : هل بقي من لحمه شيء أوجب الإباحة عند عدم الإشارة والإعانة من غير تفصيل ".

واعلم أن هذين القولين مفرعان على تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد ، والثاني في غاية الضعف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 82.83 ﴾

(10/215)

وقال الثعلبى :

﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ قال بعضهم : هو ما مات في الماء فقذفه الماء إلى الساحل ميتاً وهو قول

أبي بكر وعمر وإبنه وأبي هريرة وابن عباس ، وقال بعضهم : هو المليح منه ، وهو قول ابن جبير وعكرمة والنخعي وابن المسيب وقتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وحرّم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً ﴾ زيادة تأكيد لتحريم الصيد ، تصريحاً بمفهوم قوله ﴿ لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ [المائدة : 95] ، ولبيان أنّ مدّة التحريم مدّة كونهم حُرُماً ، أي محرمين أو مارّين بحرم مكة .

وهذا إيماء لتقليل مدّة التحريم استئناساً بتخفيف ، وإيماء إلى نعمة اقتصار تحريمه على تلك المدّة ، ولو شاء الله لحرّمه أبداً .

وفي "الموطأ" : أنّ عائشة قالت لعروة بن الزبير : يا بن أختي إنّما هي عشر ليال (أي مدّة الإحرام) فإن تخلَّجَ في نفسك شيء فدعه .

تعني أكل لحم الصيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فصل

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أُحلَّ لكم صيد البحر ﴾ قال أحمد : يؤكل كلُّ ما في البحر إلا الضِّفدِع والتِّمساح ، لأن التمساح يأكل الناس يعني : أنه يَفْرِسُ .

وقال أبو حنيفة ، والثوري : لا يباح منه إلا السمك .

وقال ابن أبي ليلى ، ومالك : يباح كلُّ ما فيه من ضِفْدِع وغيره .

فأما طعامه ، ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ما نبذه البحر ميّتاً ، قاله أبو بكر ، وعمر ، وابن عمر ، وأبو أيوب ، وقتادة .

والثاني : أنه مليحه ، قاله سعيد بن المسيّب ، وسعيد بن جبير ، والسدّي ، وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة كالقولين .

واختلفت الرواية عن النخعي ، فروي عنه كالقولين ، وروي عنه أنه جمع بينهما ، فقال : طعامه المليح وما لفظه .

والثالث : أنه ما نبت بمائة من زروع البرّ ، وإنما قيل لهذا : طعام البحر ، لأنه ينبت بمائه ، حكاه الزجاج .

وفي المتاع قولان .

أحدهما : أنه المنفعة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة .

(11/215)

والثاني : أنه الحلّ ، قاله النخعي .

قال مقاتل : متاعاً لكم ، يعني : المقيمين ، وللسيارة ، يعني : المسافرين .

قوله تعالى : ﴿ وحرم عليكم صيد البرّ ما دُمتم حرماً ﴾ أما الاصطياد ، فمحرّم على المحرم ، فإن صيد لأجله ، حَرُم عليه أكله خلافاً لأبي حنيفة ، فإن أكل فعليه الضمان خلافاً لأحد قولي الشافعي .

فإن ذبح المُحرم صيداً ، فهو ميتة خلافاً لأحد قولي الشافعي أيضاً .

فإن ذبح الحلال صيداً في الحرم ، فهو ميتة أيضاً ، خلافاً لأكثر الحَنَفيّة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ واتقوا الله الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

قال الفخر :

المقصود منه التهديد ليكون المرء مواظباً على الطاعة محترزاً عن المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 83 ﴾

وقال ابن عاشور :

وذيّل ذلك بقوله : ﴿ واتّقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ .

وفي إجراء الوصف بالموصول وتلك الصلة تذكير بأنّ المرجع إلى الله ليعدّ الناس ما

استطاعوا من الطاعة لذلك اللقاء .

والحشر : جمع الناس في مكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(12/215)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾

هذا حكم بتحليل صيد البحر وهو كل ما صيد من حيتانه ، وهذا التحليل هو للمحرم وللحلال ، والصيد هنا أيضاً يراد به الصيد ، وأضيف إلى البحر لما كان منه بسبب ، و ﴿ البحر ﴾ الماء الكثير ملحاً كان أو عذباً ، وكل نهر كبير بحر ، واختلف الناس في معنى قوله ﴿ وطعامه ﴾ قال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم هو ما قذف به وما طفا عليه لأن ذلك طعام لا صيد ، وسأل رجل ابن عمر عن حيتان طرحها البحر فنهاه عنها ثم قرأ المصحف فقال لنافع الحقه فمره بأكلها فإنها طعام البحر ، وهذا التأويل ينظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وجماعة : " طعامه " كل ما

ملح منه وبقي ، وتلك صنائع تدخله فترده طعاماً ، وإنما الصيد الغريض ، وقال قوم ﴿ طعامه ﴾ ملحه الذي ينعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات ونحوه . وكره قوم خنزير الماء ، وقال مالك رحمه الله : أنتم تقولون خنزير ، ومذهبه إباحته ، وقول أبي بكر وعمر هو أرجح الأقوال ، وهو مذهب مالك ، وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الحارث و" طُعْمه " بضم الطاء وسكون العين دون ألف و ﴿ متاعاً ﴾ نصب على المصدر والمعنى متعكم به متاعاً تنتفعون به وتأتدمون ، و ﴿ لكم ﴾ يريد حاضري البحر ومدنه ، ﴿ وللسيارة ﴾ المسافرين ، وقال مجاهد أهل القرى هم المخاطبون ، والسيارة أهل الأمصار .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : كأنه يريد أهل قرى البحر وأن السيارة من أهل الأمصار غير تلك القرى يجلبونه إلى الأمصار .

(13/215)

واختلف العلماء في مقتضي قوله ﴿ وحرم عليكم الصيد البر ما دمتم حرماً ﴾ فتلقاه بعضهم على العموم من جميع جهاته ، فقالوا إن المحرم لا يحل له أن يصيد ولا أن يأمر بصيد ولا أن يأكل صيداً صيد من أجله ولا من غير أجله ، ولحم الصيد بأي وجه كان حرام على المحرم ، وروي أن عثمان حج وحج معه علي بن أبي طالب فأتي عثمان بلحم صيد صاده

حلال فأكل منه ولم يأكل علي ، فقال عثمان : والله ما صدنا ولا أمرنا ولا أشرنا ، فقال علي : ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ ، وروي أن عثمان استعمل على العروض أبا سفيان بن الحارث فصاد يعاقيب فجعلها في حظيرة فمر به عثمان بن عفان فطبخهن وقدمهن إليه ، جاء علي بن أبي طالب فنهاهم عن الأكل ، وذكر نحو ما تقدم قال : ثم لما كانوا بمكة أتي عثمان فقيل له هل لك في علي ؟ أهدي له تصفيف حمار فهو يأكل منه ، فأرسل إليه عثمان فسأله عن أكله التصفيف وقال له : أما أنت فتأكل وأما نحن فتنهانا فقال له علي : إنه صيد عام أول ، وأنا حلال ، فليس علي بأكله بأس ، وصيد ذلك ، يعني اليعاقيب وأنا محرم وذبحن وأنا حرام ، وروي مثل قول علي عن ابن عباس وابن عمر وطاوس وسعيد بن جبير ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يرى بأساً للمحرم أن يأكل لحم الصيد الذي صاده الحلال لحلال مثله ولنفسه ، وسئل أبو هريرة عن هذه النازلة فأفتى بالإباحة ، ثم أخبر عمر بن الخطاب فقال له لو أفتيت بغير هذا لأوجعت رأسك بهذه الدرة ، وسأل أبو الشعثاء ابن عمر عن هذه المسألة فقال له ، كان عمر يأكله ، قال : قلت فأنت ؟ قال كان عمر خيراً مني ، روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : ما صيد أو ذبح وأنت حلال فهو لك حلال ، وما صيد أو ذبح وأنت حرام فهو عليك حرام .

(14/215)

قال القاضي أبو محمد : وهذا مثل قول علي بن أبي طالب ، وروى عطاء عن كعب قال أقبلت في ناس محرمين فوجدنا لحم حمار وحشي فسألوني عن أكله فأفتيتهم بأكله ، فقدمنا على عمر فأخبروه بذلك ، فقال ، قد أمرته عليكم حتى ترجعوا ، وقال بمثل قول عمر بن الخطاب عثمان بن عفان رضي الله عنهما والزبير بن العوام وهو الصحيح لأن النبي صلى الله عليه وسلم أكل من الحمار الذي صاده أبو قتادة وهو حلال والنبي محرم ، قال الطبري وقال آخرون : إنما حرم على المحرم أن يصيد ، فأما أن يشتري الصيد من مالك له فيذبحه فيأكله فذلك غير محرم ثم ذكر أن أبا سلمة بن عبد الرحمن ، اشترى قطاً وهو بالعرج فأكله فعاب ذلك عليه الناس ، ومالك رحمه الله يجيز للمحرم أن يأكل ما صاده الحلال وذبحه إذا كان لم يصده من أجل المحرم ، فإن صيد من أجله فلا يأكله ، وكذلك قال الشافعي ، ثم اختلفا إن أكل ، فقال مالك : عليه الجزاء وقال الشافعي لا جزاء عليه ، وقرأ ابن عباس و" حَرَّم " بفتح الحاء والراء مشددة " صيدَ " بنصب الدال " ما دمتم حَرماً " بفتح الحاء ، المعنى وحرم الله عليكم ، و﴿ حرماً ﴾ يقع للجميع والواحد كرضى وما أشبهه ، والمعنى ما دمتم محرمين ، فهي بالمعنى كقراءة الجماعة بضم الحاء والراء ، ولا يختلف في أن ما لا زوال له من الماء أنه صيد بحر ، وفيما لا زوال له من البر أنه صيد بر ، واختلف فيما يكون في أحدهما وقد يعيش ويحيا في الآخر فقال مالك رحمه الله وأبو مجلز وعطاء وسعيد

بن جبير وغيرهم كل ما يعيش في البر وله فيه حياة فهو من صيد البر إن قتله المحرم وداه :

وذكر أبو مجلز في ذلك الضفادع والسلاحف والسرطان .

(15/215)

قال القاضي أبو محمد : ومن هذه أنواع لا زوال لها من الماء فهي لا محالة من صيد البحر ، وعلى هذا خرج جواب مالك في الضفادع في المدونة ، فإنه قال الضفادع من صيد البحر ، وروي عن عطاء بن أبي رباح خلاف ما ذكرناه ، وهو أنه راعي أكثر عيش الحيوان ، سئل عن ابن الماء أصيد بر أم صيد بحر ؟ فقال : حيث يكون أكثر فهو منه ، وحيث يفرخ فهو منه . قال القاضي أبو محمد : والصواب في ابن ماء أنه صيد بر طائر يرعى ويأكل الحب وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ تشديد وتنبيه عقب هذا التحليل والتحريم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ المراد بالصيد ما صيد من البحر والمراد جميع المياه العذبة والمالحة .

فأما طعامه .

فاختلفوا فيه فقيل : هو ما قذفه البحر ورمى به إلى الساحل يروى ذلك عن أبي بكر وعمر وابن عمر وأبي أيوب وقتادة وقيل : صيد البحر طريه وطعامه مالحه .

يروى ذلك عن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب والسدي .

ويروى عن ابن عباس ومجاهد كالقولين وجملة حيوان الماء على قسمين : سمك وغير سمك فأما السمك فجميعه حلال على اختلاف أجناسه وأنواعه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته " أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب فيحل أكله وقال أبو حنيفة لا يحل إلا أن يموت بسبب وما عدا السمك فقسمان : قسم يعيش في البر والبحر كالضفدع والسرطان فلا يحل أكلهما وقال سفيان أرجو أن يكون بالسرطان بأس واختلفوا في الجراد فقيل هو من صيد البحر فيحل أكله للمحرم وذهب جمهور العلماء إلى أنه من صيد البر وأنه لا يحل للمحرم أكله في حال الإحرام فإن أصاب جرادة فعليه صدقة .

قال عمر : في الجرادة تمرة .

(16/215)

وعنه وعن ابن عباس قبضة من طعام وكذلك طير الماء فهو من صيد البر أيضاً وقال أحمد : يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح قال لأن التمساح يفترس ويأكل الناس .

وقال ابن أبي ليلى ومالك يباح كل ما في البحر وذهب جماعة إلى أن ماله نظير من البر يؤكل فيؤكل نظيره من حيوان البحر مثل بقر الماء ونحوه ولا يؤكل ما لا يؤكل نظيره في البر مثل كلب الماء وخنزير الماء فلا يحل أكله .

قوله تعالى : ﴿ متاعاً لكم وللسيارة ﴾ يعني ينتفع به المقيمون والمسافرون فيتزودون منه .

قوله تعالى : ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ ذكر الله عز وجل تحريم الصيد على المحرم في ثلاثة مواضع من هذه السورة أحدها في أول السورة وهو قوله : غير محِلّي الصيد وأنتم حرم .

والثاني قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ والثالث : هذه الآية وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً .

كل ذلك لتأكيد تحريم قتل الصيد على المحرم واختلف العلماء هل يجوز للمحرم أن يأكل من لحم صيد صاده غيره فذهب قوم إلى أنه لا يحل ذلك بحال يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول طاوس وإليه ذهب الثوري واحتجوا على ذلك بما روي عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم حماراً وحشياً وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلما رأى ما في وجهه من الكراهة قال : إنا لم نرده عليك

إلا أنّا حرم .

أخرجاه في الصحيحين وذهب جمهور العماء إلى أنه يجوز للمحرم أن يأكل لحم الصيد إذا لم يصده بنفسه ولا صِيدَ له ولا بإشارته ولا أعان عليه .

(17/215)

وهذا قول عمر وعثمان وأبي هريرة وبه قال عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وأصحاب الرأي ويدل عليه ما روي عن أبي قتادة الأنصاري ، قال : كنت جالساً مع رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في منزل في طريق مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمامنا والقوم محرمون وأنا غير محرم عام الحديبية ، فأبصروا حماراً وحشياً وأنا مشغول أخصف نعلاً فلم يؤذنوا بي وأحبوا لو أني أبصرته فالتفتُّ ، فأبصرته ، فقمت إلى الفرس فأسرجته ثم ركبت ونسيت السوط والرمح فقلت لهم ناولوني السوط والرمح .

قالوا : لا والله لا نعينك عليه ، فغضبت ونزلت فأخذتهما ثم ركبت فشددت على الحمار فعقرته ثم جئت به وقد مات ، فوقعوا فيه يأكلون .

ثم إنهم شكّوا في أكلهم إياه وهم حرم فرحنا وخبأت العضد فأدركنا رسول الله صلى الله

عليه وسلم ك فسألته عن ذلك فقال : " هل معكم منه شيء ؟ " فقلت نعم .

فناولته العضد فأكل منها وهو محرم .

وزاد في رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : إنما هي طعمة أطعمكموها الله .

وفي رواية : هو حلال فكلوه .

وفي رواية قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها قالوا : لا ؟ قال : كلوا ما بقي من لحمها " أخرجاه في الصحيحين وأجاب أصحاب هذا المذهب عن حديث الصعب بن جثامة بأنه إنما رده النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ظن أنه إنما صيد لأجله والمحرم لا يأكل ما صيد لأجله ﴿ واتقوا الله ﴾ يعني فلا تستحلُّوا الصيد في حال الإحرام ولا في الحرم ثم حذرهم بقوله ﴿ الذي إليه تحشرون ﴾ يعني في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(18/215)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ

حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96) ﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر ﴾ هذا حكم بتحليل صيد البحر ، وهو كل ما صيد من حيتانه .

والصيد هنا يراد به المَصِيد ، وأُضيف إلى البحر لما كان منه بسبب .

وقد مضى القول في البحر في "البقرة" والحمد لله .

و"مَتَاعاً" نصب على المصدر أي متعتم به متاعاً .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ الطعام لفظ مشترك يطلق على كل ما يُطعَم ويُطلق على مطعوم خاص كالماء وحده ، والبُرّ وحده ، والتمر وحده ، واللَّبن وحده ، وقد يطلق على النوم كما تقدّم ؛ وهو هنا عبارة عما قذف به البحر وطَفَا عليه ؛ أسند الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس في قول الله عز وجل : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ الآية صيده ما صِيد وطعامه ما لفظ البحر .

وروي عن أبي هريرة مثله ؛ وهو قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين .

وروي عن ابن عباس طعامه ميتته ؛ وهو في ذلك المعنى .

وروى عنه أنه قال : طعامه ما مُلِّح منه وبقي ؛ وقاله معه جماعة .

وقال قوم : طعامه مِلحه الذي ينعقد من مائِهِ وسائر ما فيه من نبات وغيره .

الثالثة قال أبو حنيفة : لا يؤكل السمك الطافي ، ويؤكل ما سواه من السمك ، ولا يؤكل شيء من حيوان البحر إلا السمك ؛ وهو قول الثوريّ في رواية أبي إسحاق الفَزَاريّ عنه .

وكره الحسن أكل الطافي من السمك .

(19/215)

وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كرهه ، وروي عنه أيضاً أنه كره أكل الجِرِّيّ ، وروي عنه أكل ذلك كله وهو أصح ؛ ذكره عبد الرزاق عن الثوريّ عن جعفر بن محمد عن علي قال : الجراد والحِيتان ذَكِيٌّ ؛ فعليّ مختلف عنه في أكل الطافي من السمك ، ولم يختلف عن جابر أنه كرهه ، وهو قول طاوس ومحمد بن سيرين وجابر بن زيد ، واحتجوا بعموم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ .

وبما رواه أبو داود والدَّارَقُطْنِيّ عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كُلُوا ما حَسَرَ عنه البحر وما ألقاه وما وجدتموه ميتاً أو طافياً فوق الماء فلا تأكلوه" قال الدَّارَقُطْنِيّ : تفرد به عبد العزيز بن عُبيد الله ، عن وهب بن كَيْسان عن جابر ، وعبد العزيز ضعيف لا يحتج به .

وروى سفيان الثوريّ عن أبي الزُّبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ؛ قال

الدَّارَقُطْنِيّ : لم يسنده عن الثوريّ غير أبي أحمد الزُّبيريّ وخالفه وكيع والعدنيان وعبد الرزاق ومُؤَمَّل وأبو عاصم وغيرهم ؛ رووه عن الثوريّ موقوفاً وهو الصواب .

وكذلك رواه أيوب السَّخْتِياني ، وعُبيد الله بن عمر وابن جُرَيْج ، وزُهير وحمّاد بن سَلَمة وغيرهم عن أبي الزّبير موقوفاً ؛ قال أبو داود : وقد أسند هذا الحديث من وجه ضعيف عن ابن أبي ذئب عن أبي الزّبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال الدَّارَقُطْنِيّ : وروي عن إسماعيل بن أُمية وابن أبي ذئب عن أبي الزّبير مرفوعاً ، ولا يصح رفعه ، رفعه يحيى بن سليم عن إسماعيل بن أُمية ووقفه غيره .

(20/215)

وقال مالك والشافعي وابن أبي ليلى والأُوزاعيّ والثوريّ في رواية الأشجعيّ : يؤكل كل ما في البحر من السمك والدّواب ، وسائر ما في البحر من الحيوان ، وسواء اصطيد أو وجد ميتاً ؛ واحتج مالك ومن تابعه بقوله عليه الصلاة والسلام في البحر : " هو الطَّهور ماؤُه الحِلُّ ميتته " وأصح ما في هذا الباب من جهة الإسناد حديث جابر في الحُوت الذي يقال له : "العَنْبَر" وهو من أثبت الأحاديث خرّجه الصحيحان .

وفيه : " فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له فقال : "هو

رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا" " فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله ؛ لفظ مسلم .

وأسند الدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس أنه قال أشهد على أبي بكر أنه قال : السمكة الطافية حلال لمن أراد أكلها .

وأسند عنه أيضاً أنه قال : أشهد على أبي بكر أنه أكل السمك الطافي على الماء .

وأَسند عن أبي أيوب أنه ركب البحر في رهط من أصحابه ، فوجدوا سمكة طافية على الماء فسألوه عنها فقال : أطيبة هي لم تتغير ؟ قالوا : نعم ؛ قال : فكلُوها وارفعوا نصيبي منها ؛ وكان صائماً .

وأسند عن جَبَلة بن عطية أن أصحاب أبي طلحة أصابوا سمكة طافية فسألوا عنها أبا طلحة فقال : اهدوها إليّ .

وقال عمر بن الخطاب : الحُوت ذَكِيٌّ والجراد ذَكِيٌّ كله ؛ رواه عنه الدَّارَقُطْنِيّ .

فهذه الآثار ترد قول من كره ذلك وتخصص عموم الآية ، وهو حجة للجمهور ؛ إلا أن مالكاً كان يكره خنزير الماء من جهة اسمه ولم يحرّمه وقال : أنتم تقولون خنزيراً ! وقال الشافعي : لا بأس بخنزير الماء .

وقال الليث : ليس بميتة البحر بأس ، قال : وكذلك كلب الماء وفرس الماء .

قال : ولا يؤكل إنسان الماء ولا خنزير الماء .

الرابعة اختلف العلماء في الحيوان الذي يكون في البر والبحر هل يحل صيده للمحرم أم لا ؟

فقال مالك وأبو مِجلَز وعطاء وسعيد بن جُبَير وغيرهم : كلّ ما يعيش في البر وله فيه حياة فهو صيد البر ، إن قتله المحرم وَدَاه ؛ وزاد أبو مِجْلَز في ذلك الضّفادع والسّلاحف والسّرَطان .

الضفادع وأجناسها حرام عند أبي حنيفة ، ولا خلاف عن الشافعي في أنه لا يجوز أكل الضّفدع ، واختلف قوله فيما له شبه في البر مما لا يؤكل كالخنزير والكلب وغير ذلك .

والصحيح أكل ذلك كله ؛ لأنه نص على الخنزير في جواز أكله ، وهو له شبه في البر مما لا يؤكل .

ولا يؤكل عنده التمساح ولا القِرْش والدّلفين ، وكل ما له ناب لنهيه عليه السلام عن أكل كل ذي ناب .

قال ابن عطية : ومن هذه أنواع لا زوال لها من الماء فهي لا محالة من صيد البحر ، وعلى هذا خرج جواب مالك في الضفادع في "المدوّنة" فإنه قال : الضفادع من صيد البحر .

وروي عن عطاء بن أبي رَبَاح خلاف ما ذكرناه ، وهو أنه يراعي أكثر عيش الحيوان ؛ سئل

عن ابن الماء أصيد بَر هو أم صيد بحر ؟ فقال : حيث يكون أكثر فهو منه ، وحيث يفرخ فهو منه ؛ وهو قول أبي حنيفة .

والصواب في ابن الماء أنه صيد بَرٍّ يرعى ويأكل الحب .

قال ابن العربي : الصحيح في الحيوان الذي يكون في البر والبحر منعه ؛ لأنه تعارض فيه دليلان ، دليل تحليل ودليل تحريم ، فيغلب دليل التحريم احتياطاً .

والله أعلم .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ فيه قولان : أحدهما للمقيم والمسافر كما جاء في حديث أبي عُبيدة أنهم أكلوه وهم مسافرون ، وأكل النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقيم ، فبيّن الله تعالى أنه حلال لمن أقام ، كما أحله لمن سافر .

(22/215)

الثاني أن السيَّارة هم الذين يَركبونه ، كما جاء في حديث مالك والنَّسائيّ : " أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هو الطَّهُورُ ماؤُه الحِلُّ ميْتتُهُ" " قال ابن العربيّ قال علماؤنا : فلو قال له النبي صلى الله عليه وسلم " نعم " لما جاز

الوضوء به إلاَّ عند خوف العطش ؛ لأن الجواب مرتبط بالسؤال ، فكان يكون محالاً عليه ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ابتدأ تأسيس القاعدة ، وبيان الشرع فقال : " هو الطهور ماؤُه الحل ميتته " .

قلت : وكان يكون الجواب مقصوراً عليهم لا يتعدى لغيرهم ، لولا ما تقرر من حكم الشريعة أن حكمه على الواحد حكمه على الجميع ، إلاَّ ما نص بالتخصيص عليه ، كقوله لأبي بُرْدة في العناق : " ضَحِّ بها ولن تُجزىء عن أحد غَيرك " .

السادسة قوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ التحريم ليس صفة للأعيان ، وإنما يتعلق بالأفعال ؛ فمعنى قوله : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر ﴾ أي فعل الصيد ، وهو المنع من الاصطياد ، أو يكون الصيد بمعنى المصيد ، على معنى تسمية المفعول بالفعل كما تقدّم ، وهو الأظهر ؛ لإجماع العلماء على أنه لا يجوز للمحرم قبول صيد وُهِب له ، ولا يجوز له شراؤه ولا اصطياده ولا استحداث ملكه بوجه من الوجوه ، ولا خلاف بين علماء المسلمين في ذلك ؛ لعموم قوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ ؛ ولحديث الصَّعْب بن جَثَّامة على ما يأتي .

(23/215)

السابعة اختلف العلماء فيما يأكله المحرم من الصَّيد ، فقال مالك والشافعيّ وأصحابهما وأحمد ، وروي عن اسحاق ، وهو الصحيح عن عثمان بن عفان : إنه لا بأس بأكل المحرم الصّيد إذا لم يُصَد له ، ولا من أجله ؛ لما رواه الترمذيّ والنّسائيّ والدّارَقُطْنِيّ عن جابر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " صيد البرّ لكم حلال ما لم تَصيدوه أو يُصَد لكم " قال أبو عيسى : هذا أحسن حديث في الباب ؛ وقال النّسائيّ : عَمرو بن أبي عَمرو ليس بالقويّ في الحديث ، وإن كان قد رَوى عنه مالك .

فإن أكل من صيدٍ صِيد من أجله فداه .

وبه قال الحسن بن صالح والأوزاعيّ ، واختلف قول مالك فيما صيد لمحرم بعينه .

والمشهور من مذهبه عند أصحابه أن المحرم لا يأكل مما صِيد لمحرم معيّن أو غير معيّن ، ولم يأخذ بقول عثمان لأصحابه حين أُتي بلحم صيد وهو مُحرِم : كُلُوا فلستم مثلي لأنه صِيد من أجلي ؛ وبه قالت طائفة من أهل المدينة ، وروي عن مالك .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : أكل الصيد للمحرم جائز على كل حال إذا اصطاده الحلال ، سواء صِيد من أجله أو لم يُصَد لظاهر قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ فحرّم صيده وقتله على المحرمين ، دون ما صاده غيرهم .

واحتجوا بحديث البَهْزِيّ واسمه زيد بن كعب : عن النبي صلى الله عليه وسلم في حمار الوحش العقِير أنه أمر أبا بكر فقسمه في الرّفاق ؛ من حديث مالك وغيره .

وبحديث أبي قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه : " إنما هي طُعْمة أطعمكموها الله " وهو قول عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان في رواية عنه ، وأبي هريرة والزُّبير بن العوّام ومجاهد وعطاء وسعيد بن جُبير .

ورُوي عن عليّ بن أبي طالب وابن عباس وابن عمر أنه لا يجوز للمحرم أكل صيد على حال من الأحوال ، سواء صِيد من أجله أو لم يُصَد ؛ لعموم قوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ .

(24/215)

قال ابن عباس : هي مبهمة ، وبه قال طاوس وجابر بن زيد أبو الشعثاء ، وروي ذلك عن الثّوريّ ، وبه قال إسحاق .

واحتجوا ب " حديث الصَّعْب بن جَثَّامة الليثيّ : أنه أَهْدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حماراً وحشياً ، وهو بالأَبْوَاء أو بوَدَّان فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : فلما أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في وجهي قال : "إنا لم نرده عليك إلاَّ إنا حُرُم" " خرجه الأئمة واللفظ لمالك .

قال أبو عمر : وروى ابن عباس من حديث سعيد بن جُبير ومقْسَم وعطاء وطاوس عنه :

أن الصَّعْب بن جَثَّامة أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لحم حمار وحشٍ ؛ وقال سعيد بن جُبَير في حديثه : عَجُز حمار وحشٍ فردّه يقطر دماً كأنه صِيد في ذلك الوقت ؛ وقال مِقْسَم في حديثه : رِجْل حمار وحشٍ .

وقال عطاء في حديثه : " أهدي له عَضُد صيد فلم يقبله وقال : "إنّا حُرُم" " وقال طاوس في حديثه : عَضُداً من لحم صيد ؛ حدّث به إسماعيل عن عليّ بن المَدِينيّ ، عن يحيى بن سعيد ، عن ابن جُرَيْج ، عن الحسن بن مسلم ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، إلاَّ أن منهم من يجعله عن ابن عباس عن زيد بن أرقم .

قال إسماعيل : سمعت سليمان بن حرب يتأوّل هذا الحديث على أنه صِيد من أجل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك لكان أكله جائزاً ؛ قال سليمان : ومما يدل على أنه صِيد من أجل النبي صلى الله عليه وسلم قولهم في الحديث : فردّه يقطر دماً كأنه صِيد في ذلك الوقت .

قال إسماعيل : إنما تأوّل سليمان هذا الحديث ؛ لأنه يحتاج إلى تأويل ؛ فأما رواية مالك فلا تحتاج إلى التأويل ؛ لأن المحرم لا يجوز له أن يُمسك صيداً حياً ولا يُذكّيه ؛ قال إسماعيل : وعلى تأويل سليمان بن حرب تكون الأحاديث المرفوعة كلها غير مختلفة فيها إن شاء الله تعالى .

الثامنة إذا أحرم وبيده صيد أو في بيته عند أهله فقال مالك : إن كان في يده فعليه إرساله ، وإن كان في أهله فليس عليه إرساله .

وهو قول أبي حنيفة وأحمد بن حنبل .

وقال الشافعي في أحد قوليه : سواء كان في يده أو في بيته ليس عليه أن يرسله .

وبه قال أبو ثور ، وروي عن مجاهد وعبد الله بن الحرث مثله ، وروي عن مالك .

وقال ابن أبي ليلى والثوريّ والشافعيّ في القول الآخر : عليه أن يرسله ، سواء كان في بيته أو في يده ؛ فإن لم يرسله ضَمِن .

وجه القول بإرساله قوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ وهذا عام في المِلك والتصرف كله .

ووجه القول بإمساكه : أنه معنى لا يمنع من ابتداء الإحرام فلا يمنع من استدامة مِلكه ؛ أصله النكاح .

التاسعة فإن صاده الحلال في الحِلّ فأدخله الحرم جاز له التصرف فيه بكل نوع من ذبحه ، وأكل لحمه .

وقال أبو حنيفة : لا يجوز .

ودليلنا أنه معنًى يُفعلَ في الصيد فجاز في الحرم للحلال ، كالإمساك والشراء ولا خلاف

فيها .

العاشرة إذا دل المحرم حِلاًّ على صيد فقتله الحلال اختلف فيه ؛ فقال مالك والشافعي وأبو ثور : لا شيء عليه ؛ وهو قول ابن الماجِشُون .

وقال الكوفيون وأحمد وإسحاق وجماعة من الصحابة والتابعين : عليه الجزاء ؛ لأن المحرم التزم بإحرامه ترك التعرّض ؛ فيضمن بالدلالة كالمودع إذا دل سارقاً على سرقة .

الحادية عشرة واختلفوا في المحرم إذا دل محرماً آخر ؛ فذهب الكوفيون وأشهب من أصحابنا إلى أن على كل واحد منهما جزاء .

وقال مالك والشافعي وأبو ثور : الجزاء على المحرم القاتل ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ فعلق وجوب الجزاء بالقتل ، فدل على انتفائه بغيره ؛ ولأنه دالّ فلم يلزمه بدلالته غُرْم ، كما لو دل الحلال في الحرم على صيد في الحرم .

وتعلق الكوفيون وأشهب بقوله عليه السَّلام في حديث أبي قَتَادة : " هل أَشرتم أو أَعنتم " ؟ وهذا يدل على وجوب الجزاء .

(26/215)

والأوّل أصح . والله أعلم .

الثانية عشرة إذا كانت شجرة نابتة في الحل وفرعها في الحرم فأصيب ما عليه من الصيد ففيه الجزاء ؛ لأنه أخذ في الحرم .

وإن كان أصلها في الحرم وفرعها في الحل فاختلف علماؤنا فيما أُخذ عليه على قولين : الجزاء نظراً إلى الأصل ، ونفيه نظراً إلى الفرع .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تشديد وتنبيه عقب هذا التحليل والتحريم ، ثم ذكر بأمر الحشر والقيامة مبالغة في التحذير . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ ﴾ أيها المحرمون ﴿ صَيْدُ البحر ﴾ أي ما يصاد في الماء بحراً كان أو نهراً أو غديراً وهو ما يكون توالده ومثواه في الماء مأكولاً كان أو غيره كما في "البدائع" .

وفي "مناسك الكرماني" الذي رخص من صيد البحر للمحرم هو السمك خاصة وأما نحو طيره فلا رخصة فيه له والأول هو الأصح ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ أي ما يطعم من صيده وهو عطف على ﴿ صَيْدُ ﴾ من عطف الخاص على العام .

والمعنى أحل لكم التعرض لجميع ما يصاد في المياه والانتفاع به وأكل ما يؤكل منه وهو

السمك عندنا وعند ابن أبي ليلى الصيد والطعام على معناهما المصدري وقدر مضافاً في (صيد البحر) وجعل ضمير ﴿ طَعَامِهِ ﴾ راجعاً إليه لا إلى البحر أي أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه وتأكلوه فيحل عنده أكل جميع حيوانات البحر من حيث إنها حيواناته ، وقيل : المراد بصيد البحر ما صيد ثم مات وبطعامه ما قذفه البحر ميتاً ، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن عمر وقتادة قيل : المراد بالأول : الطري وبالثاني : المملوح.

وسمي طعاماً لأنه يدخر ليطعم فصار كالمقتات به من الأغذية وروي ذلك عن ابن المسيب وابن جرير ومجاهد وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وفيه بعد . وأبعد منه كون المراد بطعامه ما ينبت بمائه من الزروع والثمار .

(27/215)

وقرىء ﴿ وطعمه ﴾ .

﴿ أرساها متاعا لَّكُمْ ﴾ نصب على أنه مفعول له لأحل أي تمتيعاً .

وجعله في "الكشاف" مختصاً بالطعام كما أن ﴿ نَافِلَةً ﴾ في باب الحال من قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : 72] مختص بيعقوب عليه السلام .

والذي حمله على ذلك كما قال الشهاب مذهبه وهو مذهب إمامنا الأعظم رضي الله تعالى عنه من أن صيد البحر ينقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل وأن طعامه هو المأكول منه إلا أنه أورد عليه أنه يؤدي إلى أن الفعل الواحد المسند إلى فاعلين متعاطفين يكون المفعول له المذكور بعدهما لأحدهما دون الآخر كقام زيد وعمرو إجلالاً لك على أن الإجلال مختص بقيام أحدهما وفيه إلباس .

وأما الحال في الآية المذكورة فليست نظيرة لهذا لأن فيه قرينة عقلية ظاهرة لأن النافلة ولد الولد فلا تعلق لها بإسحق لأنه ولد صلب لإبراهيم عليهما السلام .

وعلى غير مذهب الإمام لا اختصاص للمفعول له بأحدهما وهو ظاهر جلي .

وقيل : نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر أي متعكم به متاعاً ، وقيل : مؤكد لمعنى ﴿ أَحَلَّ ﴾ فإنه في قوة متعكم به تمتيعاً كقوله : ﴿ كتاب الله عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : 24] وقيل وليس بشيء : إنه حال مقدرة من طعام أي مستمتعاً به للمقيمين منكم يأكلونه طرياً ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ منكم يتزودونه قديداً وهو مؤنث سيار باعتبار الجماعة كما قال الراغب .

﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر ﴾ وهو ما توالده ومثواه في البر مما هو ممتنع لتوحشه الكائن في أصل الخلقة فيدخل الظبي المستأنس ويخرج البعير والشاة المتوحشان لعروض الوصف

لهما ، وكون زكاة الظبي المستأنس بالذبح والأهلي المتوحش بالعقر لا ينافيه لأن الذكاة بالذبح والعقر دائران مع الإمكان وعدمه لا مع الصيدية وعدمها .

(28/215)

واستثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً ففي "الصحيحين" عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح العقرب والفأرة والكلب العقور والغراب والحدأة " وقد تقدم ما في رواية لمسلم وجاء تسميتهن فواسق ، وفي "فتح القدير" ويستثنى من صيد البر بعضه كالذئب والغراب والحدأة وأما باقي الفواسق فليست بصيود .

وأما باقي السباع فالمنصوص عليه في ظاهر الرواية عدم الاستثناء وأنه يجب بقتلها الجزاء ولا يجاوز شاة إن ابتدأها المحرم وإن ابتدأته فلا شيء عليه وذلك كالأسد والفهد والنمر والصقر والبازي ، وأما "صاحب البدائع" فيقسم البري إلى مأكول وغيره ، والثاني : إلى ما يبتدىء بالأذى غالباً كالأسد والذئب والنمر وإلى ما ليس كذلك كالضبع والفهد والثعلب فلا يحل قتل الأول والأخير إلا أن يصول ويحل قتل الثاني ولا شيء فيه وإن لم يصل ، وجعل ورود النص في الفواسق ورودا فيها دلالة ولم يحك خلافاً ، لكن في "الخانية" : وعن أبي

يوسف الأسد بمنزلة الذئب .

وفي ظاهر الرواية السباع كلها صيد إلا الكلب والذئب ؛ ولعل استثناء الذئب لذكره في المستثنيات على ما أخرجه أبو شيبة والدارقطني والطحاوي وقيل : لأنه المراد بالكلب العقور في الخبر السابق ، وقيل : لأنه بمعناه فيلحق به دلالة .

وأما الكلب فقد جاء استثناؤه في الحديث إلا أنه وصف فيه بالعقورية ، ولعل الإمام إنما يعتبر الجنس .

ونظر فيه بأنه يفضي إلى إبطال الوصف المنصوص عليه .

وأجيب بأنه ليس للقيد بل لإظهار نوع إذائه فإن ذلك طبع فيه ، وقال سعدي جلبي : لو صح هذا النظر يلزم اعتبار مفهوم الصفة بل سائر المفاهيم وهو خلاف ما في أصولنا ، وأما كون السباع كلها صيداً إلا ما استثني ففيه خلاف للشافعي رضي الله تعالى عنه أيضاً فعنده هي داخلة في الفواسق المستثنيات قياساً أو ملحقة بها دلالة لأن الكلب العقور يتناولها لغة .

(29/215)

وأجاب بعض الأصحاب بأن القياس على الفواسق ممتنع لما فيه من إبطال العدد وكذلك الإلحاق بها دلالة لأن الفواسق مما تعدو علينا للقرب منا والسبع ليس كذلك لبعده عنا فلا يكون في معنى الفواسق ليلحق بها ، واسم الكلب وإن تناوله لغة لم يتناوله عرفاً والعرف أقوى وأرجح في هذا الموضع كما في الأيمان لبنائه على الاحتياط ، وفيه بحث طويل الذيل فتأمل .

وأخرج مسلم عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجاً وخرجنا معه فصرف نفراً من أصحابه فيهم أبو قتادة فقال : خذوا ساحل البحر حتى تلقوني قال : فأخذوا ساحل البحر فلما انصرفوا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرموا كلهم إلا أبا قتادة فإنه لم يحرم فبينما هم يسيرون إذ رأوا حمر وحش فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتاناً فنزلوا فأكلوا من لحمها قال فقالوا : أكلنا لحماً ونحن محرمون قال : فحملوا ما بقي من لحم الأتان فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله إنا كنا أحرمنا وكان أبو قتادة لم يحرم فرأينا حمر وحش فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتاناً فنزلنا فأكلنا من لحمها فقلنا : نأكل لحم صيد ونحن محرمون فحملنا ما بقي من لحمها فقال عليه الصلاة والسلام : هل معكم أحد أمره أو أشار إليه بشيء ؟ قالوا : لا قال : فكلوا ما بقي من لحمها " .

وفي رواية لمسلم أنه : صلى الله عليه وسلم قال : " هل عندكم منه شيء ؟ قالوا : معنا

رجله فأخذها عليه الصلاة والسلام فأكلها " .

وحديث جابر مؤول بوجهين الأول : كون اللام للملك ، والمعنى أن يصاد ويجعل له فيكون مفاده تمليك عين الصيد من المحرم وهو ممتنع أن يتملكه فيأكل من لحمه ، والثاني : الحمل على أن المراد أن يصاد بأمره وهذا لأن الغالب في عمل الإنسان لغيره أن يكون بطلب منه ، والتزام التأويل دفعاً للتعارض كما قال غير واحد .

(30/215)

وقال ابن الهمام وقد يقال : القواعد تقتضي أن لا يحكم بالتعارض بين حديث جابر وبين الخبرين الأولين من هذه الأخبار الثلاثة لأن قول طلحة : فأمرنا بأكله مقيد عندنا بما إذا لم يدله المحرم على الصحيح خلافاً لأبي عبد الله الجرجاني ولا أمره بقتله على ما يدل عليه حديث أبي قتادة فيجب تخصيصه بما إذا لم يصد للمحرم بالحديث الآخر .

وحديث الزبير حاصله نقل وقائع أخبار وهي لا عموم لها فيجوز كون ما كانوا يحملونه من لحوم الصيد للتزويد ما لم يصد لأجل المحرمين بل هو الظاهر لأنهم يتزودونه من الحضر ظاهراً والإحرام بعد الخروج إلى الميقات ، فالأولى الاستدلال على أصل المطلوب بحديث أبي قتادة المذكور على وجه المعارضة فإنه أفاد أنه عليه الصلاة والسلام لم يجب بحله لهم حتى

سألهم عن موانع الحل أكانت موجودة أم لا ؟ فلو كان من الموانع أن يصاد لهم لنظمه صلى الله عليه وسلم في سلك ما يسأل عنه منها في التفحص عن الموانع ليجيب بالحل عند خلوه عنها .

وهذا المعنى كالصريح في نفي كون الاصطياد مانعاً فيعارض حديث جابر ويقدم عليه لقوة ثبوته إذ هو في "الصحيحين" وغيرهما من "الكتب الستة" بخلاف ذلك بل قيل في حديث جابر انقطاع لأن المطلب في سنده لم يسمع من جابر عند غير واحد ، وكذا في رجاله من فيه لين ، وبعد ثبوت ما ذهبنا إليه بما ذكرنا يقوم دليل على ما ذكر من التأويل انتهى .

وأنت تعلم أن في حديث جابر أيضاً شيئاً من جهة العربية ولعل الأمر فيه سهل .

(31/215)

بقي أن حديث الصعب بظاهره يعارض ما استدل به أهل المذهبين الأخيرين ، واختار بعض الحنفية في الجواب بأن فيه اضطراباً ليس مثله في حديث قتادة حتى روى عمرو بن أمية الضمري عن أبيه أن الصعب أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عجز حمار وحش بالجحفة فأكل منه عليه الصلاة والسلام وأكل القوم فكان حديث قتادة أولى وقد وقع ما وقع فيه في الحج كما تحكيه الرواية التي ذكرناها ، ومعلوم أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم لم يحج بعد الهجرة إلا حجة الوداع ، وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه في الجواب : يحتمل أن يكون صلى الله عليه وسلم علم أنه صيد له فرده عليه فلا يعارض حديث جابر ، وتعليله عليه الصلاة والسلام الرد بأنه محرم لا يمنع من كونه صيد له لأنه إنما يحرم الصيد على الإنسان إذا صيد له بشرط أن يكون محرماً ، فبين صلى الله عليه وسلم الشرط الذي يحرم به ، وقيل : إن جابراً إنما أهدى حماراً فرده صلى الله عليه وسلم لامتناع تملك المحرم الصيد ، ولا يخفى أن الروايات الدالة على البعضية أكثر ولا تعارض بينها فتحمل رواية أنه أهدى حماراً على أنه من إطلاق اسم الكل على البعض ويمتنع هنا العكس إذ إطلاق الرجل مثلاً على كل الحيوان غير معهود ، وقد صرحوا أنه لا يجوز أن يطلق على زيد أصبع ونحوه لأن شرط إطلاق اسم البعض على الكل التلازم كالرقبة والرأس على الإنسان فإنه لا إنسان دونهما بخلاف نحو الرجل والظفر ، وأما إطلاق العين على الرؤية فليس من حيث هو إنسان بل من حيث هو رقيب وهو من هذه الحيثية لا يتحقق بلا عين أو هو أحد معاني المشترك اللفظي كما عده كثير منها فليتيقظ .

﴿ واتقوا الله ﴾ فيما نهاكم عنه من الصيد أو في جميع المعاصي التي من جملتها ذلك ﴿ الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ لا إلى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالالتجاء إلى ذلك الغير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾

وصف اللَّه شدّة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق «1» ولين عريكة النصارى وسهولة ارعوائهم وميلهم إلى الإسلام ، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدّة العداوة للمؤمنين ، بل نبه على تقدّم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا ، وكذلك فعل في قوله (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) ولعمري إنهم لكذلك وأشدّ . وعن النبىّ صلى اللَّه عليه وسلم «ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله» «2» وعلل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودّتهم للمؤمنين بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً أى علماء وعباداً وَأَنَّهُمْ قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم ، واليهود على خلاف ذلك . وفيه دليل بين على أنّ التعلم أنفع

---

(1) . قال محمود : «وصف اللَّه تعالى شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم . . . الخ» قال أحمد : وإنما قال (الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى) ولم يقل : النصارى ، تعريضا بصلابة اليهود في الكفر والامتناع من الامتثال للأمر ، لأن اليهود قيل لهم (ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي

كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ) . فقابلوا ذلك بأن قالوا (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ) والنصارى قالوا (نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ) ومن ثم سموا نصارى ، وكذلك أيضا ورد أول هذه السورة (وَمِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) فأسند ذلك إلى قولهم ، والاشارة به إلى قولهم (نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ) لكنه هاهنا ذكر تنبيها على أنهم لم يثبتوا على الميثاق ، ولا على ما قالوه من أنهم أنصار اللَّه ، وفي الآية الثانية ذكر تنبيها على أنهم أقرب حالا من اليهود ، لأنهم لما ورد عليهم الأمر لم يكافحوه بالرد مكافحة اليهود ، بل قالوا (نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ) واليهود قالت (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ) فهذا سره واللَّه أعلم .

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه وابن حبان في الضعفاء من رواية يحيى بن عبيد اللَّه عن أبيه . عن أبى هريرة وفي رواية ابن حبان «يهودى» على الافراد .

(33/215)

شيء وأهداه إلى الخير وأدله على الفوز حتى علم القسيسين ، وكذلك غم الآخرة والتحدّث بالعاقبة وإن كان في راهب ، والبراءة من الكبر وإن كانت في نصراني . ووصفهم اللَّه برقة القلوب وأنهم يبكون عند استماع القرآن ، وذلك نحو ما يحكى عن النجاشىّ

رضى اللَّه عنه أنه قال لجعفر بن أبى طالب - حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون لعنوا وهم يغرونه عليهم ويتطلبون عنتهم عنده - : هل في كتابكم ذكر مريم ؟ قال جعفر : فيه سورة تنسب إليها ، فقرأها إلى قوله : (ذِلكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) وقرأ سورة طه إلى قوله : (وَهَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى) فبكى النجاشي «1» وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهم سبعون رجلا حين قرأ عليهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سورة يس ، فبكرا . فإن قلت : بم تعلقت اللام في قوله لِلَّذِينَ آمَنُوا ؟ قلت : بعداوة ومودّة ، على أنّ عداوة اليهود التي اختصت المؤمنين أشدّ العداوات وأظهرها ، وأن مودّة النصارى التي اختصت المؤمنين أقرب المودّات ، وأدناها وجوداً ، وأسهلها حصولا . ووصف اليهود بالعداوة والنصارى بالمودّة مما يؤذن بالتفاوت ، ثم وصف العداوة والمودّة بالأشدّ والأقرب . فإن قلت : ما معنى قوله : (تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) «2» قلت : معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض ، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه ، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء ، وهو من إقامة

---

(1) . لم أجده قلت أظن صاحب الكشاف ذكره بالمعنى من قصة جعفر بن أبى طالب مع عمرو بن العاص لما أرسلته قريش بهديتها إلى النجاشي ليدفع إليهم جعفراً ورفقاءه فان معنى ما ذكر موجوداً فيها إلا قراءة طه . أخرجه ابن إسحاق في المغازي . من طريق ابن حبان من حديث أم سلمة . وقوله : وكذلك فعل قومه أى النجاشي الذين وفدوا على

رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم . وهم سبعون رجلا حين قرأ النبي صلى اللَّه عليه وسلم سورة يس : الطبري من رواية قيس بن الربيع . عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير في قوله ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا . قال نعم رسل النجاشي الذين أرسلت وإسلام قومهم وكانوا سبعين رجلا فدخلوا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقرأ عليهم يس . فبكوا وعرفوا الحق . فنزلت ونزل فيهم أيضا (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن قيس . [. . . . .]

(2) . عاد كلامه . قال : «إن قلت ما معنى قوله : (تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ . . .) الخ» قال أحمد : وهذه العبارة من أبلغ العبارات ، وأنهاها وهي ثلاث مراتب ، فالأولى : فاض دمع عينه ، وهذا هو الأصل . والثانية :

محولة من هذه . وهي قول القائل : فاضت عينه دمعا حولت الفعل إلى العين مجازا ومبالغة ، ثم نبهت على الأصل والحقيقة بنصب ما كان فاعلا على التمييز . والثالثة : فيها هذا التحويل المذكور ، وهي الواردة في الآية ، إلا أنها أبلغ من الثانية باطراح المنبهة على الأصل وعدم نصب التمييز ، وإبرازه في صورة التعليل واللَّه أعلم . وإنما كان الكلام مع التعليل أبعد عن الأصل منه مع التمييز لأن التمييز في مثله قد استقر كونه فاعلا في الأصل في مثل : تصبب زيد عرقا ، وتفقأ عمرو شحما ، واشتعل الرأس شيبا ، وتفجرت الأرض عيونا . فإذا قلت : فاضت عينه دمعا ، فهم هذا الأصل في العادة في أمثاله . وأما التعليل فلم يعهد

فيه ذلك . ألا تراك تقول : فاضت عينه من ذكر اللَّه كما تقول فاضت عينه من الدمع ، فلا يفهم التعليل ما يفهم التمييز واللَّه الموفق .

(34/215)

المسبب مقام السبب ، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها ، أى تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك دمعت عينه دمعاً فإن قلت : أى فرق بين من ومن في قوله مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ؟ قلت الأولى لابتداء الغاية ، على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق ، وكان من أجله وبسببه . والثانية لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا . وتحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق ، فأبكاهم وبلغ منهم ، فكيف إذا عرفوه كله وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنة ؟ وقرئ (ترى أعينهم) على البناء للمفعول رَبَّنا آمَنَّا المراد به إنشاء الإيمان ، والدخول فيه فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ مع أمّة محمد صلى اللَّه عليه وسلم الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة (لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ) وقالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ إنكار استبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجبه وهو الطمع في إنعام اللَّه عليهم بصحبة الصالحين : وقيل : لما رجعوا إلى قومهم لاموهم فأجابوهم بذلك . أو أرادوا : وما لنا لا نؤمن باللَّه

وحده لأنهم كانوا مثلثين ، وذلك ليس بإيمان بالله : ومحل (لا نُؤْمِنُ) النصب على الحال ، بمعنى : غير مؤمنين ، كقولك مالك قائما . والواو في وَنَطْمَعُ واو الحال . فإن قلت : ما العامل في الحال الأولى والثانية ؟ قلت : العامل في الأولى ما في اللام من معنى الفعل ، كأنه قيل : أى شيء حصل لنا غير مؤمنين : وفي الثانية معنى هذا الفعل ، ولكن مقيداً بالحال الأولى لأنك لو أزلتها وقلت : وما لنا ونطمع ، لم يكن كلاما .

ويجوز أن يكون (وَنَطْمَعُ) حالا من لا نؤمن ، على أنهم أنكروا على نفوسهم أنهم لا يوحدون الله ، ويطمعون مع ذلك أن يصحبوا الصالحين ، وأن يكون معطوفا على لا نؤمن على معنى : وما لنا نجمع بين التثليث وبين الطمع في صحبة الصالحين ، أو على معنى : وما لنا لا نجمع بينهما بالدخول في الإسلام ، لأن الكافر ما ينبغي له أن يطمع في صحبة الصالحين . قرأ الحسن : فآتاهم الله بما قالوا بما تكلموا به عن اعتقاد وإخلاص ، من قولك : هذا قول فلان ، أى اعتقاده وما يذهب إليه .

[سورة المائدة (5) : الآيات 87 إلى 88]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)

طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ما طاب ولذ من الحلال . ومعنى لا تُحَرِّمُوا لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم . أو لا تقولوا حرّمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً

منكم وتقشفاً «1» وروى أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وصف القيامة يوماً لأصحابه ، فبالغ وأشبع الكلام في الإنذار ، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون ، واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين ، وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح «2» ويسيحوا في الأرض ، ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال لهم : إني لم أومر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدسم ، وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني «3» ونزلت . وروى أنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ ، وكان يعجبه الحلواء والعسل . وقال : «إن المؤمن حلو يحب الحلاوة «4»» وعن ابن مسعود أن رجلا قال له : إني حرمت الفراش فتلا هذه

---

(1) . قوله «تقشفا» وفي الصحاح «قشف» بالكسر : قشفا ، إذا لوحته الشمس أو الفقر فتغير . والمتقشف : الذي يتبلغ بالقوت وبالمرقع . (ع)

(2) . قوله «و يلبسوا المسوح» المسوح : أكسية غلاظ تعمل منها الغرائر للتبن . أفاده الصحاح في مادة لبس

(3) . ذكره الواحدي هكذا في أسبابه بغير إسناد . لكن قال المفسرون – فذكره سواه ، وقد أورده الطبري من طريق السدى في هذه الآية قال «و ذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم جلس يوما . فذكر الناس ثم قام ولم يزدهم على التخويف فقام ناس من أصحابه فذكره بمعنى ما تقدم» وهو منتزع من أحاديث ، وأصله في الصحيحين عن عائشة» أن ناسا من أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله في السر . فقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فقال ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ولكنى أصوم وأفطر . وأنام وأقوم . وآكل اللحم وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس منى» وفي الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص قال «رد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل . ولو أذن له لاختصينا » وفي الصحيحين عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص في قصة مراجعته النبي صلى اللَّه عليه وسلم في الصوم والصلاة فقال صلى اللَّه عليه وسلم «صم وأفطر ، وقم ونم . فان لنفسك عليك حقا – الحديث» وروى الطبري من طريق ابن جريج عن مجاهد قال «أراد رجال ، منهم عثمان بن مظعون وعبد اللَّه ابن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح» ومن طريق ابن جريج عن

عكرمة «أن عثمان بن مظعون وعلى ابن أبى طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبى حذيفة ، في جماعة من الصحابة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس . وهموا بالاختصاء . واجتمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) - الآية قال : فبعث اليهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال : إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وصلوا وناموا .

فليس منا من ترك سنتنا»

(4) . هذا منتزع من أحاديث . أما أكل الدجاج فمتفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى في قصة له . وأما أكله الفالوذ فرواه الحاكم من حديث عبد اللَّه بن سلام قال «كنت مع النبي صلى اللَّه عليه وسلم في أناس من أصحابه إذ أقبل عثمان بن مظعون ومعه راحلة عليها غرارتان فذكر الحديث - وفيه فطبخ الدقيق والسمن والعسل حتى نفح ثم أكل» وهو من رواية الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة مضعفا وأعله ابن الجوزي بضعف الوليد . وأما «كان يعجبه الحلوى والعسل» فمتفق عليه من حديث همام عن أبيه عن عائشة رضى اللَّه عنها . وأما الأخير فذكره الديلمي في الفردوس عن على بن أبى طالب رضى اللَّه عنه .

الآية وقال : ثم على فراشك وكفر عن يمينك . وعن الحسن أنه دعى إلى طعام ومعه فرقد السنجيّ وأصحابه ، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك ، فاعتزل فرقد ناحية ، فسأل الحسن : أهو صائم ؟ قالوا : لا ، ولكنه يكره هذه الألوان ، فأقبل الحسن عليه وقال : يا فرقد ، ترى لعاب النحل بلباب البرّ بخالص السمن يعيبه مسلم . وعنه أنه قيل له . فلان لا يأكل الفالوذ ويقول : لا أؤدّى شكره . قال : أفيشرب الماء البارد ؟ قالوا :

نعم . قال : إنه جاهل ، إن نعمة اللَّه عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذ . وعنه أن اللَّه تعالى أدّب عباده فأحسن أدبهم . قال اللَّه تعالى : (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ) ما عاب اللَّه قوما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا ، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه (وَلَا تَعْتَدُوا) ولا تتعدوا حدود ما أحل اللَّه لكم إلى ما حرّم عليكم . أو ولا تسرفوا في تناول الطيبات . أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلماً ، فنهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أوليا لوروده على عقبه أو أراد ولا تعتدوا بذلك وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أى من الوجوه الطيبة التي تسمى رزقا حَلالًا حال مما رزقكم اللَّه وَاتَّقُوا اللَّهَ تأكيد للتوصية بما أمر به . وزاده تأكيداً بقوله الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ لأنّ الإيمان به يوجب التقوى في الانتهاء إلى ما أمر وعما نهى عنه .

[سورة المائدة (5) : آية 89]

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)

اللغو في اليمين : الساقط الذي لا يتعلق به حكم : واختلف فيه ، فعن عائشة رضى اللَّه عنها أنها سئلت عنه فقالت : هو قول الرجل «لا واللَّه ، بلى واللَّه» «1» وهو مذهب الشافعي . وعن مجاهد :

هو الرجل يحلف على الشيء يرى أنه كذلك وليس كما ظن . وهو مذهب أبى حنيفة رحمه اللَّه بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية . وروى أن الحسن رضى اللَّه عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال : يا أبا سعيد ، دعني أجب عنك فقال :

---

(1) . أخرجه البخاري ومالك من حديثها دون قوله «سئلت» ورواه أبو داود من طريق عطاء عنها مرفوعا وموقوفا . وصحح الدارقطني الموقوف

وَلَسْتُ بِمَأْخُوذٍ بِلَغْوٍ تَقُولُهُ إِذَا لَمْ تَعَمَّدْ عَاقِدَاتِ الْعَزَائِمِ «1»

وقرئ: عقدتم، بالتخفيف. وعاقدتم. والمعنى: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم، فحذف وقت المؤاخذة. لأنه كان معلوما عندهم، أو بنكث ما عقدتم، فحذف المضاف فَكَفَّارَتُهُ فكفارة نكثه. والكفارة: الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة أى تسترها مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ من أقصده، لأنّ منهم من يسرف في إطعام أهله، ومنهم من يقتر، وهو عند أبى حنيفة رحمه اللَّه نصف صاع من برّ أو صاع من غيره لكل مسكين، أو يغديهم ويعشيهم. وعند الشافعي رحمه اللَّه: مدّ لكل مسكين. وقرأ جعفر بن محمد: أهاليكم، بسكون الياء، والأهالى: اسم جمع لأهل: كاللّيالي في جمع ليلة، والأراضى في جمع أرض. وقولهم «أهلون» كقولهم «أرضون» بسكون الراء. وأما تسكين الياء في حال النصب فللتخفيف، كما قالوا: رأيت معديكرب، تشبيها للياء بالألف أَوْ كِسْوَتُهُمْ عطف على محل (مِنْ أَوْسَطِ) «2» وقرئ بضم الكاف، ونحوه:

قدوة في قدوة، وأسوة في إسوة، والكسوة ثوب يغطى العورة، وعن ابن عباس رضى اللَّه عنه كانت العباءة تجزئ يومئذ. وعن ابن عمر: إزار أو قميص أو رداء أو كساء. وعن مجاهد: ثوب جامع. وعن الحسن: ثوبان أبيضان. وقرأ سعيد بن المسيب واليماني: أو كأسوتهم، بمعنى: أو مثل ما تطعمون أهليكم إسرافا كان أو تقتيرا. لا تنقصونهم عن

مقدار نفقتهم ، ولكن تواسون بينهم وبينهم . فإن قلت : ما محل الكاف ؟ قلت : الرفع ، تقديره : أو طعامهم كأسوتهم ، بمعنى :

كمثل طعامهم إن لم يطعموهم الأوسط أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ شرط الشافعي رحمه اللَّه الإيمان قياسا على كفارة القتل . وأما أبو حنيفة وأصحابه ، فقد جوّزوا تحرير الرقبة الكفارة في كل كفارة سوى كفارة القتل . فإن قلت : ما معنى أو ؟ قلت : التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاث على الإطلاق ، بأيتها أخذ المكفر فقد أصاب فَمَنْ لَمْ يَجِدْ إحداها فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ متتابعات عند أبى حنيفة رحمه اللَّه ، تمسكا بقراءة أبىّ وابن مسعود رضى اللَّه عنهما : فصيام ثلاثة أيام متتابعات . وعن مجاهد : كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان . ويخير في كفارة اليمين ذِلكَ المذكور «3» كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ ولو قيل : تلك كفارة أيمانكم ، لكان صحيحا بمعنى تلك الأشياء

---

(1) . للفرزدق روى أن الحسن رضى اللَّه عنه سئل عن لغو اليمين ، فقال الفرزدق : دعني أجب عنك يا أبا سعيد ، وقال البيت ، أى لست مؤاخذا باللغو أى الساقط من الكلام . وتعمد : أصله تتعمد ، حذف منه إحدى التاءين .

وهذا في معنى الاستثناء المنقطع . وعاقدات العزائم : الجازمات . ونسبة الجزم إليها مجاز عقلى .

(2) . قوله «على محل من أوسط» قد يقال هذا إنما يناسب القراءة الآتية أو كأسوتهم

ولكن عبارة النسفي عطف على إطعام أو على محل من أوسط . ووجهه أن (مِنْ أَوْسَطِ) بدل من (إِطْعامُ) والبدل هو المقصود في الكلام اه (ع)

(3) . قال محمود : «المشار إليه هو المذكور فيما تقدم ولو قيل . . . الخ» قال أحمد : بل في هذه الآية وجه لطيف المأخذ في الدلالة على صحة وقوع الكفارة بعد اليمين وقبل الحنث وهو المشهور من مذهب مالك ، وبيان الاستدلال بها أنه جعل ما بعد الحلف ظرفا لوقوع الكفارة المعتبرة شرعا ، حيث أضاف «إذا» إلى مجرد الحلف .

وليس في الآية إيجاب الكفارة حتى يقال : قد اتفق على أنها إنما تجب بالحنث ، فتعين تقديره مضافا إلى الحلف ، بل إنما نطقت بشرعية الكفارة ووقوعها على وجه الاعتبار ، إذ لا يعطي قوله : (ذِلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ) إيجابا ، إنما يعطى صحة واعتبارا ، واللَّه أعلم .

وهذا انتصار على من منع التكفير قبل الحنث مطلقا ، وإن كانت اليمين على بر والأقوال الثلاثة في مذهب مالك ، إلا أن القول المنصور هو المشهور .

(38/215)

أو لتأنيث الكفارة . والمعنى إذا حَلَفْتُمْ وحنثتم . فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأنّ الكفارة إنما تجب بالحنث في الحلف ، لا بنفس الحلف ، والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبى

حنيفة وأصحابه ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحانث وَاحْفَظُوا أَيمانَكُمْ فبروا فيها ولا تحنثوا «1» أراد الأيمان التي الحنث فيها معصية، لأن الأيمان اسم جنس يجوز إطلاقه على بعض الجنس وعلى كله. وقيل: احفظوها بأن تكفروها. وقيل: احفظوها كيف حلفتم بها، ولا تنسوها تهاونا بها كَذلِكَ مثل ذلك البيان يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ أعلام شريعته وأحكامه لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه

[سورة المائدة (5): الآيات 90 إلى 91]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91)

أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد «2» منها تصدير الجملة بإنما، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن» «3» ومنها أنه

---

(1). عاد كلامه. قال: «واحفظوا أيمانكم، أى فبروا فيها ... الخ» قال أحمد: وفي هذا التأويل إشعار بأن الشاك في صورة اليمين بعد تحقق أصلها يشدد عليه ويؤاخذ بالأحوط، فأرشده الله إلى حفظ اليمين لئلا يفضى أمره إلى أن يلزم في ظاهر الأمر على وجه الاحتياط ما لم يصدر منه في علم الله تعالى، كالذي يحلف بالطلاق وينسى هل قيده

بالثلاث مثلا أو أطلقه ، فيلزمه الثلاث على المذهب المشهور . ويحتمل أن يكون في علم اللَّه تعالى أنه إنما حلف بالطلاق مطلقا ، فأرشد إلى الحفظ لئلا يجره النسيان إلى هذا التشديد . والمراد بالأيمان كل ما ينطلق عليه يمين ، سواء كان حلفا باللَّه أو بغيره مما يلزم في الشرع حكما واللَّه أعلم .

(2) . قال محمود : «أكد اللَّه تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد منها . . . الخ» قال أحمد : ويجوز عود الضمير إلى الرجس الذي انطوى على سائر ما ذكر واللَّه أعلم .

(3) . أخرجه البزار من حديث مجاهد عن عبد اللَّه بن عمرو بهذا . رواه الحرث بن أسامة وأبو نعيم في الحلية من رواية الحسن عن عبد اللَّه بن عمرو به . وفيه الخليل بن زكريا وفي الذي قبله ثابت بن محمد وهو أصلح حالا من الخليل . ولابن ماجة من حديث أبى هريرة ، بلفظ «مدمن خمر كعابد وثن» وإسناده جيد ، قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا محمد بن سليمان الأصبهانى عن سهيل عن أبيه عنه به . ورواه ابن حبان من حديث ابن عباس بهذا اللفظ . وقال الشبه أن يكون فيمن استحلها . وفي مسند إسحاق ومن رواية عمر بن عبد العزيز عن بعض أصحابه ، بلفظ «من شرب الخمر فمات مات كعابد وثن» وللطبراني في الأوسط من حديث أنس بلفظ «المقيم على الخمر كعابد وثن» وإسناده ضعيف

جعلهما رجسا ، كما قال تعالى : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ) ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت ، ومنها أنه أمر بالاجتناب . ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح ، وإذا كان الاجتناب فلاحا ، كان الارتكاب خيبة ومحقة . ومنها أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال ، وهو وقوع التعادي والتباغض من أصحاب «1» الخمر والقمر ، وما يؤدّيان إليه من الصدّ عن ذكر اللَّه ، وعن مراعاة أوقات الصلاة . وقوله فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ من أبلغ ما ينهى به ، كأنه قيل : قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع ، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون . أم أنتم على ما كنتم عليه ، كأن لم توعظوا ولم تزجروا ؟ فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله : (فَاجْتَنِبُوهُ) ؟ قلت : إلى المضاف المحذوف ، كأنه قيل : إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما أشبه ذلك . ولذلك قال : (رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ) فإن قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولا ثم أفردهما آخراً «2» ؟ قلت : لأن الخطاب مع المؤمنين . وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر ، وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر ، وإظهار أنّ ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك ، فوجب اجتنابه بأسره ، وكأنه لا مباينة بين من عبد صنما وأشرك باللَّه في علم الغيب ، وبين من شرب خمراً أو قامر ، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر . وقوله وَعَنِ الصَّلاةِ اختصاص

للصلاة من بين الذكر كأنه قيل : وعن الصلاة خصوصاً .

[سورة المائدة (5) : آية 92]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (92)

---

(1) . قوله «من أصحاب» لعله بين أصحاب . (ع)

(2) . عاد كلامه . قال : «فان قلت لم جمع الخمر والميسر مع الأنصاب . . . الخ» قال أحمد : ويرشد إلى أن المقصود الخمر والميسر خاصة ، لأنهم إنما كانوا يتعاطونهما خاصة الآية الأخرى وهي قوله : (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما) فخصهما بالذكر ولم يثبت النهى عنهما ، فلذلك ورد أن قوما تركوها لما فيها من الإثم ، وقوما بقوا على تعاطيها لما فيها من المنافع ، ثم نزلت هذه الآية جازمة بالنهى ، والله أعلم . [. . . . .]

(40/215)

وَاحْذَرُوا وكونوا حذرين خاشين ، لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة . ويجوز أن يراد : واحذروا ما عليكم في الخمر والميسر ، أو في ترك

طاعة اللَّه والرسول فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول ، لأنّ الرسول ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم .

[سورة المائدة (5) : آية 93]

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)

رفع الجناح عن المؤمنين في أى شيء طعموه من مستلذات المطاعم ومشتهياتها إِذا مَا اتَّقَوْا ما حرم عليهم منها وَآمَنُوا وثبتوا على الإيمان والعمل الصالح وازدادوه ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثم ثبتوا على التقوى والإيمان ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ثم ثبتوا على اتقاء المعاصي وأحسنوا أعمالهم ، أو أحسنوا إلى الناس : واسوهم بما رزقهم اللَّه من الطيبات . وقيل لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة : يا رسول اللَّه ، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر «1» فنزلت . يعنى أن المؤمنين لا جناح عليهم في أى شيء طعموه من المباحات إذا ما اتقوا المحارم ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، على معنى : أنّ أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمداً لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان . ومثاله أن يقال لك : هل على زيد فيما فعل جناح ؟

---

(1) . أخرجه أحمد من رواية ابن وهب مولى أبى هريرة قال «حرمت الخمر ثلاث مرات قدم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر . فسألوا

رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عن ذلك . فأنزل اللَّه تعالى : (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) الآية فقال الناس : لم تحرم علينا ، إنما قال : فيها إثم كبير فكانوا يشربون الخمر ، حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين المغرب ، فخلط في قراءته . فأنزل اللَّه تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى) فكانوا يشربونها حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق ، فنزلت (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) – الآية فقالوا : انتهينا يا رب . وقال الناس : يا رسول اللَّه ، ناس قتلوا في سبيل اللَّه أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله اللَّه رجسا من عمل الشيطان . فأنزل اللَّه (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ) – الآية فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم : لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم ، إسناده ضعيف ، فانه من رواية أبى معشر عن أبى وهب . وأبو معشر ضعيف . وروى الطبري من حديث على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال في قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) الآية قالوا : يا رسول اللَّه : ما تقول في إخواننا الذين ماتوا كانوا يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر . فأنزل اللَّه الآية وفي المتفق عليه عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال «كنت ساقى القوم في منزل أبى طلحة – وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر مناديا فنادى : ألا إن الخمر قد حرمت – الحديث» قال بعض القوم : قد قتل فلان وفلان وفلان وهي في بطونهم فأنزل اللَّه (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا . . .) الآية

فتقول - وقد علمت أن ذلك أمر مباح - : ليس على أحد جناح في المباح ، إذا اتقى المحارم ، وكان مؤمناً محسناً ، تريد : أن زيداً تقيّ مؤمن محسن وأنه غير مؤاخذ بما فعل .

[سورة المائدة (5) : آية 94]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (94)

نزلت عام الحديبية ابتلاهم اللَّه بالصيد وهم محرمون ، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيستمكنون من صيده ، أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ ليتميز من يخاف عقاب اللَّه وهو غائب منتظر في الآخرة فيتقى الصيد ، ممن لا يخافه فيقدم عليه فَمَنِ اعْتَدى فصاد بَعْدَ ذلِكَ الابتلاء فالوعيد لاحق به ، فإن قلت : ما معنى التقليل والتصغير «1» في قوله : (بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ) ؟ قلت : قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تدحض عندها أقدام الثابتين ، كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال ، وإنما هو شبيه بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك ، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشدّ منه . وقرأ إبراهيم :

يناله ، بالياء .

[سورة المائدة (5) : آية 95]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (95)

---

(1) . قال محمود : «إن قلت ما معنى التقليل والتصغير . . . الخ» قال أحمد : وقد وردت هذه الصيغة بعينها في الفتن العظيمة في قوله تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) فلا خفاء في عظم هذه البلايا والمحن التي يستحق الصابر عليها أن يبشر ، لأنه صبر على عظيم . فقول الزمخشري إذاً «إنه قلل وصغر تنبيها على أن هذه الفتنة ليست من الفتن العظام» مدفوع باستعمالها مع الفتن المتفق على عظمها .

والظاهر – والله أعلم – أن المراد بما يشعر به اللفظ من التقليل والتصغير ، التنبيه على أن جميع ما يقع الابتلاء به من هذه البلايا بعض من كل بالنسبة إلى مقدور الله تعالى ، وأنه تعالى قادر على أن يكون ما يبلوهم به من ذلك أعظم مما يقع وأهول ، وأنه مهما اندفع عنهم مما هو أعظم في المقدور ، فإنما يدفعه عنهم إلى ما هو أخف وأسهل ، لطفا بهم ورحمة : ليكون

هذا التنبيه باعثا لهم على الصبر وحاملا على الاحتمال ، والذي يرشد إلى أن هذا مراد أن سبق التوعد بذلك لم يكن إلا ليكونوا متوطنين على ذلك عند وقوعه ، فيكون أيضا باعثا على تحمله ، لأن مفاجاة المكروه بغتة أصعب ، والانذار به قبل وقوعه مما يسهل موقعه ، وحاصل ذلك لطف في القضاء ، فسبحان اللطيف بعباده . وإذا فكر العاقل فيما يبتلى به من أنواع البلايا ، وجد المندفع عنه منها أكثر إلى ما لا يقف عند غاية ، فنسأل اللَّه العفو والعافية واللطف في المقدور .

(42/215)

حُرُمٌ محرمون ، جمع حرام ، كردح في جمع رداح . والتعمد : أن يقتله وهو ذاكر لإحرامه ، أو عالم أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله ، فإن قتله وهو ناس لإحرامه أو رمى صيداً وهو يظن أنه ليس بصيد فإذا هو صيد ، أو قصد برميه غير صيد فعدل السهم عن رميته فأصاب صيدا فهو مخطئ . فإن قلت : فمحظورات الإحرام يستوي فيها العمد والخطأ ، فما بال التعمد مشروطاً في الآية ؟ قلت : لأن مورد الآية فيمن تعمد فقد روى أنه عنّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحش ، فحمل عليه أبو اليسر فطعنه برمحه فقتله ، فقيل له : إنك قتلت الصيد وأنت محرم فنزلت ولأن الأصل فعل التعمد ، والخطأ لاحق به للتغليظ . ويدل عليه

قوله تعالى : (لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ) (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ) وعن الزهري : نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطإ وعن سعيد بن جبير : لا أرى في الخطإ شيأً أخذا باشتراط العمد في الآية . وعن الحسن روايتان فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ برفع جزاء ومثل جميعاً ، بمعنى : فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد ، وهو عند أبى حنيفة قيمة المصيد يقوّم حيث صيد ، فإن بلغت قيمته ثمن هدى ، تخير بين أن يهدى من النعم ما قيمته قيمة الصيد ، وبين أن يشترى بقيمته طعاماً ، فيعطى كل مسكين نصف صاع من برّ أو صاع من غيره ، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً ، فإن فضل ما لا يبلغ طعام مسكين صام عنه يوماً أو تصدّق به . وعند محمد والشافعي رحمهما اللَّه مثله نظيره من النعم ، فإن لم يوجد له نظير من النعم عدل إلى قول أبى حنيفة رحمه اللَّه .

فإن قلت : فما يصنع من يفسر المثل بالقيمة بقوله مِنَ النَّعَمِ وهو تفسير للمثل ، وبقوله : هدياً بالغ الكعبة ؟ قلت : قد خير من أوجب القيمة بين أن يشترى بها هدياً أو طعاماً أو يصوم ، كما خير اللَّه تعالى في الآية ، فكان قوله : (مِنَ النَّعَمِ) بياناً للهدى المشترى بالقيمة في أحد وجوه التخيير لأن من قوم الصيد واشترى بالقيمة هدياً فأهداه ، فقد جزى بمثل ما قتل من النعم . على أن التخيير الذي في الآية بين أن يجزى بالهدى أو يكفر بالإطعام أو بالصوم ، إنما يستقيم استقامة ظاهرة بغير تعسف إذا قوّم ونظر بعد التقويم أىّ الثلاثة يختار ، فأما إذا عمد إلى النظير وجعله الواجب وحده من غير تخيير – فإذا كان شيئاً لا نظير له قوّم حينئذ

، ثم يخير بين الإطعام والصوم - ففيه نبوّ عما في الآية . ألا ترى إلى قوله تعالى : (أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً) كيف خير بين الأشياء الثلاثة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتقويم . وقرأ عبد اللَّه : فجزاؤه مثل ما قتل ، وقرئ . فجزاء مثل ما قتل ، على الإضافة ، وأصله . فجزاء مثل ما قتل ، بنصب مثل بمعنى : فعليه أن يجزى مثل ما قتل ، ثم أضيف كما تقول :

(43/215)

عجبت من ضرب زيد ، وقرأ السلمىّ على الأصل وقرأ محمد بن مقاتل ، فجزاء مثل ما قتل ، بنصبهما ، بمعنى :

فليجز جزاء مثل ما قتل . وقرأ الحسن : من النعم ، بسكون العين ، استثقل الحركة على حرف الحلق فسكنه يَحْكُمُ بِهِ بمثل ما قتل ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ حكمان عادلان من المسلمين . قالوا : وفيه دليل على أن المثل القيمة ، لأنّ التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة . وعن قبيصة أنه أصاب ظبياً وهو محرم فسأل عمر ، فشاور عبد الرحمن بن عوف ، ثم أمره بذبح شاة ، فقال قبيصة لصاحبه : واللَّه ما علم أمير المؤمنين حتى سأل غيره ، فأقبل عليه ضرباً بالدرّة وقال : أتغمص الفتيا وتقتل الصيد وأنت محرم .

قال اللَّه تعالى : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ) فأنا عمر ، وهذا عبد الرحمن «1» . وقرأ محمد بن جعفر ذو عدل منكم ، أراد يحكم به من يعدل منكم ولم يرد الوحدة .

وقيل أراد الإمام هَدْياً حال عن جزاء فيمن وصفه بمثل ، لأنّ الصفة خصصته فقرّبته من المعرفة ، أو بدل عن مثل فيمن نصبه ، أو عن محله فيمن جرّه . ويجوز أن ينتصب حالا عن الضمير في به . ووصف هدياً ب بالِغَ الْكَعْبَةِ لأن إضافته غير حقيقية . ومعنى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم ، فأما التصدّق به فحيث شئت عند أبى حنيفة ، وعند الشافعي في الحرم . فإن قلت : بم يرفع (كَفَّارَةٌ) من ينصب جزاء ؟ قلت : يجعلها خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قيل : أو الواجب عليه كفارة .

أو يقدر : فعليه أن يجزى جزاء أو كفارة . فيعطفها على أن يجزى . وقرئ : أو كفارة طعام مساكين على الإضافة . وهذه الإضافة مبينة ، كأنه قيل : أو كفارة من طعام مسكين ، كقولك : خاتم فضة ، بمعنى خاتم من فضة . وقرأ الأعرج : أو كفارة طعام مساكين . وإنما وحد ، لأنه واقع موقع التبيين ، فاكتفى بالواحد الدال على الجنس . وقرئ : أو عدل ذلك ، بكسر العين . والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عادله من غير جنسه ، كالصوم والإطعام . وعدله ما عدل به في المقدار ، ومنه عدلا الحمل ، لأن كل واحد منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا ، كأن المفتوح تسمية بالمصدر ، والمكسور بمعنى المفعول به ، كالذبح ونحوه ، ونحوهما الحمل والحمل . وذِلكَ إشارة إلى الطعام صِياماً تمييز للعدل كقولك : لي مثله

رجلا . والخيار في ذلك إلى قاتل الصيد عند أبي حنيفة وأبي يوسف . وعند محمد إلى الحكمين لِيَذُوقَ متعلق بقوله : (فَجَزَاءٌ) أي فعليه أن يجازى أو يكفر ، ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام . والوبال : المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه ، كقوله تعالى : (فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلًا) ثقيلا . والطعام الوبيل : الذي يثقل على المعدة فلا يستمرأ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ لكم من الصيد في حال الإحرام قبل أن تراجعوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وتسألوه عن جوازه . وقيل : عما سلف لكم في الجاهلية منه ، لأنهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرماً وَمَنْ عادَ إلى قتل الصيد وهو محرم بعد

---

(1) . رواه عبد الرزاق عن معمر عن عبد الملك بن عمير فذكره . وفيه الزيادة التي في آخره .

نزول النهي فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ينتقم : خبر مبتدإ محذوف تقديره فهو ينتقم اللَّه منه ، ولذلك دخلت الفاء . ونحوه (فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ) يعني ينتقم منه في الآخرة . واختلف في وجوب الكفارة على العائد ، فعن عطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير والحسن : وجوبها ،

وعليه عامة العلماء . وعن ابن عباس وشريح : أنه لا كفارة عليه تعلقاً بالظاهر ، وأنه لم يذكر الكفارة

[سورة المائدة (5) : آية 96]

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)

صَيْدُ الْبَحْرِ مصيدات البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل وَطَعامُهُ وما يطعم من صيده والمعنى : أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد في البحر «1» ، وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده عند أبى حنيفة . وعند ابن أبى ليلى جميع ما يصاد منه ، على أن تفسير الآية عنده أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه مَتاعاً لَكُمْ مفعول له ، أى أحل لكم تمتيعاً لكم وهو في المفعول له بمنزلة قوله تعالى : (وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً) في باب الحال ، لأن قوله (مَتاعاً لَكُمْ) مفعول له مختص بالطعام ، كما أن نافلة حال مختصة بيعقوب ، يعنى أحل لكم طعامه تمتيعاً لتنائكم «2» يأكلونه طريا ، ولسيارتكم يتزوّدونه قديداً ، كما تزوّد موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر عليهما السلام . وقرئ : وطعمه . وصيد البر : ما صيد فيه ، وهو ما يفرّخ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات ، كطير الماء عند أبى حنيفة . واختلف فيه «3» فمنهم من حرّم على المحرم كل شيء يقع عليه اسم الصيد ، وهو قول عمر وابن عباس ، وعن أبى هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير :

أنهم أجازوا للمحرم أكل ما صاده الحلال ، وإن صاده لأجله ، إذا لم يدل ولم يشر ، وكذلك ما ذبحه قبل إحرامه وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمه اللَّه ، وعند مالك والشافعي وأحمد رحمهم اللَّه : لا يباح له ما صيد لأجله . فإن قلت : ما يصنع

---

(1) . قوله «بجميع ما يصاد في البحر» لعله من . (ع)

(2) . قوله «تمتيعا لتنائكم يأكلونه» أي للمتوطنين منكم . يقال : تنأ بالبلد توطنه ، فهو تانئ ، وهم تناه .

أفاده الصحاح ، وسيأتي للمفسر في قوله تعالى : (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ) أن الأناس اسم جمع غير تكسير ، نحو رحال وتناء وتؤام . ويجوز أن يقال : إن الأصل الكسر والتكسير ، والضمة بدل من الكسرة . (ع)

(3) . قال محمود «اختلف في المراد بالتحريم . . . الخ» قال أحمد : وتخصيص عموم الآية لازم على كلتا الطائفتين لأن مالكا رضي اللَّه عنه يجيز أكل المحرم لصيد البر ، إذا صاده حلال لنفسه ، أو لحلال ، فلا بد إذا على مذهبه من تخصيص العموم المخصوص ، غاية ذلك أن صورة التخصيص على مذهب أبي حنيفة ، تكون أكثر منها على مذهب مالك ، لأنه يجيز أكل ما صاده الحلال من أجل المحرم كما نقل عنه ، فيزيد على مذهب مالك بهذه الصورة ، واللَّه أعلم .

(45/215)

أبو حنيفة بعموم قوله : صيد البر ؟ قلت قد أخذ أبو حنيفة رحمه اللَّه بالمفهوم من قوله : (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً) لأن ظاهره أنه صيد المحرمين دون صيد غيرهم ، لأنهم هم المخاطبون فكأنه قيل : وحرم عليكم ما صدتم في البر ، فيخرج منه مصيد غيرهم ، ومصيدهم حين كانوا غير محرمين . ويدل عليه قوله تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) وقرأ ابن عباس رضى اللَّه عنه : وحرّم عليكم صيد البرّ ، أى اللَّه عزّ وجلّ . وقرئ (ما دُمْتُمْ) بكسر الدال ، فيمن يقول دام يدام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 1 صـ 668. 681 ﴾

(46/215)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ) .

بَيِّنًا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (90) أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ افْتُتِحَتْ بِآيَاتٍ مِنْ أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ فِي الطَّعَامِ وَأَحْكَامِ النُّسُكِ (وَمِنْهَا الصَّيْدُ فِي أَرْضِ الْحَرَامِ أَوْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ) وَتَلَاهَا سِيَاقٌ طَوِيلٌ فِي بَيَانِ أَحْوَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُحَاجَّتِهِمْ ، ثُمَّ عَادَ الْكَلَامُ إلَى شَيْءٍ مِنْ تَفْصِيلِ تِلْكَ الْأَحْكَامِ إلَخْ ، وَنَقُولُ الْآنَ إنَّ اللَّهَ جَلَّتْ آلَاؤُهُ نَهَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ تَحْرِيمِ الطَّيِّبَاتِ وَمِنَ الِاعْتِدَاءِ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا ، وَأَمَرَهُمْ بِأَكْلِ الْحَلَالِ وَالطَّيِّبِ ، وَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الْمُبَالِغِينَ فِي النُّسُكِ قَدْ حَلَفُوا عَلَى تَرْكِ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ بَيَّنَ لَهُمْ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ كَفَّارَةَ الْأَيْمَانِ ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ لِأَنَّهَا مِنْ أَخْبَثِ الْخَبَائِثِ ، فَكَانَ هَذَا وَذَاكَ مُتَمِّمًا لِمَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مِنْ أَحْكَامِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَنَاسَبَ أَنْ يُتَمِّمَ أَحْكَامَ الصَّيْدِ فِي الْحُرُمِ وَالْإِحْرَامِ أَيْضًا فَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي ذَلِكَ .

(47/215)

وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي مُنَاسَبَةِ هَذَا لِمَا قَبْلَهُ مَا نَصُّهُ : وَوَجْهُ النَّظْمِ أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ : (لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) (5 : 87) ثُمَّ اسْتَثْنَى الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ مِنْ تِلْكَ فَكَذَلِكَ اسْتَثْنَى هَذَا النَّوْعَ مِنَ الصَّيْدِ عَنِ الْمُحَلَّلَاتِ وَبَيَّنَ دُخُولَهُمْ فِي الْمُحَرَّمَاتِ انْتَهَى وَمَا قُلْنَاهُ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَصَحُّ ، وَلَيْسَ الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَيُسْتَثْنَيَانِ مِنْهَا بَلْ هُمَا رِجْسٌ خَبِيثٌ .

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ) الِابْتِلَاءُ : الِاخْتِبَارُ ، وَالصَّيْدُ مَصْدَرٌ أُطْلِقَ عَلَى مَا يُصْطَادُ مِنْ حَيَوَانِ الْبَحْرِ مُطْلَقًا وَمِنْ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّ الْوَحْشِيَّةِ لِتُؤْكَلَ ، وَقِيلَ مُطْلَقًا فَيَدْخُلُ فِيهِ غَيْرُ الْمَأْكُولِ لَحْمُهُ إلَّا مَا أُبِيحَ قَتْلُهُ كَمَا يَأْتِي وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِي الصَّيْدِ فِي تَفْسِيرِ أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَسَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ التَّالِيَةِ الْخِلَافُ فِيمَا يُكَفِّرُ بِهِ الْمُحْرِمُ عَنْ صَيْدِهِ وَوَصْفُ الصَّيْدِ

(48/215)

بِكَوْنِهِ تَنَالُهُ الْأَيْدِي وَالرِّمَاحُ يُرَادُ بِهِ كَثْرَتُهُ وَسُهُولَةُ أَخْذِهِ ، وَإِمْكَانُ الِاسْتِخْفَاءِ بِالتَّمَتُّعِ بِهِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ : أَنَّهُ مَا يُؤْخَذُ بِالْأَيْدِي صِغَارُهُ وَفِرَاخُهُ وَبِالرِّمَاحِ كِبَارُهُ ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ : أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ : فَكَانَ الْوَحْشُ وَالطَّيْرُ تَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ قَطُّ فِيمَا خَلَا ، فَنَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْ قَتْلِهِ وَهُمْ مُحْرِمُونَ .

وَوَجْهُ الِابْتِلَاءِ بِذَلِكَ أَنَّ الصَّيْدَ أَلَذُّ الطَّعَامِ وَأَطْيَبُهُ ، وَنَاهِيكَ بِاسْتِطَابَتِهِ وَبِشِدَّةِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ فِي السَّفَرِ الطَّوِيلِ كَالسَّفَرِ بَيْنَ الْحَرَمَيْنِ ، وَسُهُولَةِ تَنَاوُلِ اللَّذِيذِ تُغْرِي بِهِ ، فَتَرْكُ مَا لَا يُنَالُ إلَّا بِمَشَقَّةٍ لَا يَدُلُّ عَلَى التَّقْوَى وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَرْكُ مَا يُنَالُ بِسُهُولَةٍ ، وَقَدْ قِيلَ : إنَّ مِنَ الْعِصْمَةِ أَلَّا تَجِدَ ، وَهَلْ يُعَدُّ تَرْكُ الزِّنَا مِمَّنْ لَا يَصِلُ إلَيْهِ إلَّا بِسَعْيٍ وَبَذْلِ مَالٍ

وَتَوَقُّعِ فَضِيحَةٍ كَتَرْكِ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ لَهُ إِذْ غَلَّقَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْأَبْوَابَ دُونَهُ وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ ؟

(49/215)

وَالْمَعْنَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُقْسِمُ بِأَنَّهُ سَيَخْتَبِرُكُمْ بِإِرْسَالِ شَيْءٍ كَثِيرٍ مِنَ الصَّيْدِ أَوْ بِبَعْضٍ مِنْ أَنْوَاعِهِ يَسْهُلُ عَلَيْكُمْ أَخْذُ بَعْضِهِ بِأَيْدِيكُمْ وَبَعْضِهِ بِرِمَاحِكُمْ (لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) أَيْ يَبْتَلِيكُمْ بِهِ وَأَنْتُمْ مُحْرِمُونَ لِيَعْلَمَ مَنْ يَخَافُهُ غَائِبًا عَنْ نَظَرِ النَّاسِ غَيْرَ مُرَاءٍ وَلَا خَائِفٍ مِنْ إِنْكَارِهِمْ ، فَيَتْرُكُ أَخْذَ شَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ وَيَخْتَارُ شَظَفَ الْعَيْشِ عَلَى لَذَّةِ اللَّحْمِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَةً لَهُ فِي سِرِّهِ ، أَوْ يَخَافُهُ حَالَ كَوْنِهِ مُتَلَبِّسًا بِالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ الَّذِي يَقْتَضِي الطَّاعَةَ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ ، فَإِذَا وَقَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّ عِلْمَهُ يَتَعَلَّقُ بِالْوَاقِعِ الثَّابِتِ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى عِلْمِهِ بِهِ رِضَاهُ عَنْكُمْ وَإِثَابَتُكُمْ عَلَيْهِ كَمَا يَعْلَمُ حَالَ مَنْ يَعْتَدِي فِيهِ ، وَقَدْ بَيَّنَ جَزَاءَهُ فِي الْجُمْلَةِ الْآتِيَةِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَا حَذَفَ مِنْ جَزَاءِ مَنْ يَخَافُهُ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ الْمُرَادَ بِمِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ أَنَّهُ تَعَالَى يُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ الْمُخْتَبِرِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ الشَّيْءَ وَإِنْ كَانَ عَلَّامَ الْغُيُوبِ ، لِأَنَّ هَذَا مِنْ ضُرُوبِ تَرْبِيَتِهِ لَكُمْ وَعِنَايَتِهِ

بِتَزْكِيَتِكُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذَا التَّعْلِيلِ بِعِلْمِ اللهِ تَعَالَى (رَاجِعْ ص7 ج2 وص142 ج4 وَمَا بَعْدَهُمَا ط الْهَيْئَةِ) .

(50/215)

(فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أَيْ فَمَنِ اعْتَدَى بِأَخْذِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الصَّيْدِ بَعْدَ ذَلِكَ الْبَيَانِ وَالْإِعْلَامِ الَّذِي أَخْبَرَكُمُ اللهُ بِهِ قَبْلَ وُقُوعِهِ فَلَهُ عَذَابٌ شَدِيدٌ الْأَلَمِ فِي الْآخِرَةِ قِيلَ : وَفِي الدُّنْيَا بِالتَّعْزِيرِ وَالضَّرْبِ لِأَنَّهُ لَمْ يُبَالِ بِاخْتِبَارِ اللهِ لَهُ ، بَلْ سَجَّلَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَخَافُ اللهَ تَعَالَى بِالْغَيْبِ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَخَافُ لَوْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعْزِيرَهُمْ إِذْ هُوَ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الصَّيْدِ بِمَرْأًى مِنْهُمْ ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، لَا شَأْنُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْأَبْرَارَ .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) هَذَا النِّدَاءُ تَوْطِئَةٌ لِبَيَانِ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُحْرِمِ الْمُعْتَدِي فِي الصَّيْدِ مِنَ الْجَزَاءِ وَالْكَفَّارَةِ فِي الدُّنْيَا ، سَبَقَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ تَحْرِيمُ الصَّيْدِ عَلَى مَنْ كَانَ مُحْرِمًا بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ وَمَنْ كَانَ فِي أَرْضِ الْحَرَمِ ، وَقَدْ أَعَادَهُ هُنَا لِيُرَتِّبَ عَلَيْهِ جَزَاءَهُ ، وَتَقَدَّمَ هُنَاكَ أَنَّ الْحُرُمَ بِضَمَّتَيْنِ جَمْعُ حَرَامٍ وَهُوَ الْمُحْرِمُ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ وَإِنْ كَانَ فِي الْحِلِّ .

(51/215)

(وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) أَيْ وَمَنْ قَتَلَ شَيْئًا مِنَ الصَّيْدِ وَهُوَ مُحْرِمٌ قَاصِدٌ لِقَتْلِهِ فَجَزَاؤُهُ أَوْ فَعَلَيْهِ جَزَاءٌ مِنَ الْأَنْعَامِ مُمَاثِلٌ لِمَا قَتَلَهُ فِي هَيْئَتِهِ وَصُورَتِهِ إنْ وُجِدَ ، وَإِلَّا فَفِي قِيمَتِهِ ، وَقِيلَ : فِي قِيمَتِهِ مُطْلَقًا وَسَيَأْتِي تَحْقِيقُ الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ ، قَرَأَ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ " فَجَزَاءٌ " بِالرَّفْعِ وَالتَّنْوِينِ وَ " مِثْلُ " الرَّفْعِ وَالْإِضَافَةِ لِمَا بَعْدَهُ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِإِضَافَةِ جَزَاءِ إلَى مِثْلِ وَهُوَ مُخَرَّجٌ عَلَى أَنَّ مِثْلَ الشَّيْءِ عَيْنُهُ ، عَلَى حَدِّ " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " أَوْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ خَاتَمِ فِضَّةٍ أَيْ مِنْ فِضَّةٍ ، وَأَنَّ الْمَعْنَى فَعَلَيْهِ جَزَاءُ الَّذِي قَتَلَهُ ، أَيْ جَزَاءٌ عَنْهُ ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : أَصْلُهُ " فَجَزَاءٌ مِثْلَ مَا قَتَلَ " بِنَصْبِ مِثْلِ بِمَعْنَى فَعَلَيْهِ أَنْ يَجْزِيَ مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ أُضِيفَ كَمَا نَقُولُ : عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبِ زَيْدًا ، ثُمَّ مِنْ ضَرْبِ زَيْدٍ اه .

(52/215)

قَتْلُ الْمُحْرِمِ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ الصَّيْدَ حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ لِنَصِّ الْآيَةِ ، وَلَكِنَّ أَكْلَ الْمُحْرِمِ مَا صَادَهُ مَنْ لَيْسَ بِمُحْرِمٍ مُخْتَلَفٌ فِيهِ ، فَقِيلَ : يَحْرُمُ مُطْلَقًا عَمَلًا بِظَاهِرِ الْآيَةِ الْآتِيَةِ ، وَحَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ عَنْ أَحْمَدَ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا ، وَقِيلَ : يَجُوزُ مُطْلَقًا ، لِمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةَ أَكَلُوا مِمَّا أُهْدِيَ إلَيْهِمْ مِنْ لَحْمِ الْحِمَارِ الْوَحْشِيِّ وَهُوَ التَّحْقِيقُ الَّذِي يَجْمَعُ بِهِ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ أَبِي قَتَادَةَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا ، وَهُوَ الَّذِي صَادَ الْحِمَارَ الْوَحْشِيَّ وَأَكَلَ مِنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فِي الْحُدَيْبِيَةِ .

وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي الصَّيْدِ الَّذِي نَهَتِ الْآيَةُ عَنْ قَتْلِهِ ، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : هُوَ كُلُّ حَيَوَانٍ وَحْشِيٍّ يُؤْكَلُ لَحْمُهُ ، فَلَا جَزَاءَ فِي قَتْلِ الْأَهْلِيِّ وَمَا لَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ مِنَ السِّبَاعِ وَالْحَشَرَاتِ وَهِيَ كَبِيرَةٌ فِي مَذْهَبِهِ ، وَمِنْهَا الْفَوَاسِقُ الْخَمْسُ الَّتِي وَرَدَ الْإِذْنُ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا بِقَتْلِهَا فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ وَهِيَ الْغُرَابُ وَالْحِدَأَةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ .

(53/215)

وَأَخْرَجَاهُ أَيْضًا عَنْ طَرِيقِ مَالِكٍ وَأَيُّوبَ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ أَيُّوبُ : قُلْتُ لِنَافِعٍ فَالْحَيَّةُ : قَالَ : الْحَيَّةُ لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا يُخْتَلَفُ فِي قَتْلِهَا ، وَأَلْحَقَ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَغَيْرُهُمَا بِالْكَلْبِ

الْعَقُورِ الذِّئْبَ وَالسَّبُعَ وَالنَّمِرَ وَالْفَهْدَ لِأَنَّهَا أَشَدُّ ضَرَرًا مِنْهُ ، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : الْكَلْبُ الْعَقُورُ يَشْمَلُ هَذَا السِّبَاعَ الْعَادِيَّةَ كُلَّهَا ، وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إلَى وُجُوبِ الْجَزَاءِ فِي قَتْلِ كُلِّ حَيَوَانٍ إلَّا الْفَوَاسِقَ الْخَمْسَ ، وَجَعَلَ الذِّئْبَ مِنْهَا لِأَنَّهُ كَلْبٌ بَرِّيٌّ ، وَالْمُرَادُ بِالْغُرَابِ الْأَبْقَعُ الضَّارُّ لَا الْأَسْحَمُ الَّذِي يُؤْكَلُ فَإِنَّهُ صَيْدٌ ، الْحَاصِلُ أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الضَّارَّةَ الَّتِي تَقِلُّ اتِّقَاءُ ضَرَرِهَا ، لَا جَزَاءَ عَلَى الْمُحْرِمِ إذَا قَتَلَهَا ، طَلَبَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ وَقَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَا يَقْتُلُ الْغُرَابَ إلَّا إذَا صَالَ عَلَيْهِ وَآذَاهُ ، وَقَالَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرٍ وَطَائِفَةٌ : لَا يَقْتُلُهُ بَلْ يَرْمِيهِ ، وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَقَدْ رَوَى هُشَيْمٌ : حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي نُعْمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سُئِلَ عَمَّا يَقْتُلُ الْمُحْرِمُ ؟ فَقَالَ " الْحَيَّةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفُوَيْسِقَةُ (أَيِ الْفَأْرَةُ) وَيَرْمِي الْغُرَابَ وَلَا يَقْتُلُهُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ وَالْحِدَأَةُ " رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَالتِّرْمِذِيُّ

(54/215)

عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مَنِيعٍ كِلَاهُمَا عَنْ هُشَيْمٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ التِّرْمِذِيَّ حَسَّنَهُ .

وَاخْتَلَفُوا فِي اشْتِرَاطِ التَّعَمُّدِ لِوُجُوبِ الْجَزَاءِ ، فَذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ إلَى أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ التَّعَمُّدُ وَقَالُوا : إنَّ الْكِتَابَ دَلَّ عَلَى جَزَاءِ الْمُتَعَمِّدِ وَسَكَتَ عَنْ جَزَاءِ الْمُخْطِئِ وَلَكِنَّ السُّنَّةَ

مَضَتْ بِأَنَّ عَلَيْهِ الْجَزَاءَ أَيْضًا ، قَالَهُ الزُّهْرِيُّ :

وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْمُتَعَمِّدَ وَالْقَاصِدَ لِقَتْلِهِ مَعَ ذِكْرِهِ لِإِحْرَامِهِ وَعِلْمِهِ بِحُرْمَةِ قَتْلِ مَا يَقْتُلُهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْتَرِطُ نِسْيَانَ الْإِحْرَامِ ، وَلَمْ نَرَ لِلْجُمْهُورِ حَدِيثًا مَرْفُوعًا يَدُلُّ عَلَى تَغْرِيمِ الْمُخْطِئِ ، وَلَا رِوَايَةً صَحِيحَةً صَرِيحَةً فِي كَوْنِ ذَلِكَ كَانَ مِنْ عَمَلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(55/215)

وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ ، إلَّا مَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ كَتَبَ بِذَلِكَ ، وَرَوَى الشَّافِعِيُّ وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ : رَأَيْتُ النَّاسَ أَجْمَعِينَ يُغَرِّمُونَ فِي الْخَطَأِ ، وَمَا قَالَهُ الزُّهْرِيُّ أَصْرَحُ مِنْهُ ، وَلَكِنْ لَا يُعَدُّ مِثْلُ هَذِهِ دَلِيلًا شَرْعِيًّا ، وَلِذَلِكَ احْتَجَّ الشَّافِعِيُّ بِالْقِيَاسِ عَلَى قَتْلِ الْخَطَأِ لَا بِالرِّوَايَاتِ ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ حِكَايَةً لِلْإِجْمَاعِ وَلَكِنْ لَا يَصِحُّ ، فَالْخِلَافُ فِي الْمَسْأَلَةِ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَطَاوُسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ كُلِّهِمْ صَرَّحُوا بِاشْتِرَاطِ الْعَمْدِ وَعِبَارَةُ طَاوُسٍ : لَا يُحْكَمُ عَلَى مَنْ أَصَابَ صَيْدًا خَطَأً ، إنَّمَا يُحْكَمُ عَلَى مَنْ أَصَابَهُ عَمْدًا ، وَاللَّهِ مَا قَالَ اللَّهُ إلَّا " وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا " وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَابْنِ سِيرِينَ اشْتِرَاطُ الْعَمْدِ لِلْقَتْلِ مَعَ نِسْيَانِ الْإِحْرَامِ ، وَالرِّوَايَاتُ فِي الْخِلَافِ

مُفَصَّلَةٌ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ وَغَيْرِهِ ، وَاشْتِرَاطُ الْعَمْدِ مَذْهَبُ دَاوُدَ الظَّاهِرِيِّ ، وَقَدْ شَرَحَ الرَّازِيُّ اسْتِدْلَالَهُ بِالْآيَةِ شَرْحًا يُؤْذِنُ بِاخْتِيَارِهِ لَهُ .

(56/215)

وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ مَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِسَبَبِ الْخِلَافِ لَوْلَا إجْمَالٌ فِيهِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : إنَّمَا كَانَتِ الْكَفَّارَةُ فِيمَنْ قَتَلَ الصَّيْدَ مُتَعَمِّدًا وَلَكِنْ غَلَّظَ عَلَيْهِمْ فِي الْخَطَأِ كَيْ يَتَّقُوا ، وَانْتَهَى وَلَمْ يُبَيِّنْ مِنْ أَيْنَ جَاءَ التَّغْلِيظُ ، فَإِنْ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ كَتَبَ أَنْ يُحْكَمَ عَلَيْهِ فِي الْخَطَأِ وَالْعِنْدِ جَازَ أَنْ يَكُونَ هَذَا اجْتِهَادًا مِنْهُ فِي أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ لِسَدِّهِ ذَرِيعَةَ صَيْدِ الْعَمْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ ، كَمَا فَعَلَ فِي إمْضَاءِ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ بِاللَّفْظِ الْوَاحِدِ لِمَنْعِ النَّاسِ مِنْهُ ثُمَّ يَتْبَعُهُ الْجُمْهُورُ فِي هَذَا وَذَاكَ لِأَنَّ الْإِمَامَ الْأَعْظَمَ تَجِبُ طَاعَتُهُ فِي الْمَسَائِلِ الِاجْتِهَادِيَّةِ وَمُرَاعَاةِ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي أَرَادَهَا وَعَدَمِ تَعَدِّيهَا ، وَمَنْ لَمْ يَتْبَعْهُ فِي ذَلِكَ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ انْقِضَاءِ خِلَافَتِهِ يَقُولُ : إنَّ اجْتِهَادَهُ لَيْسَ شَرْعًا وَلَا دَلِيلًا مِنْ أَدِلَّةِ الشَّرْعِ ، فَكَيْفَ يُؤْخَذُ عَلَى عِلَّاتِهِ فِيمَا كَانَ كَمَسْأَلَتِنَا مِنَ الْمَسَائِلِ الْمَنْصُوصَةِ فِي الْقُرْآنِ أَوِ الَّتِي مَضَتْ فِيهَا السُّنَّةُ قَبْلَهُ وَفِي صَدْرِ خِلَافَتِهِ كَمَسْأَلَةِ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ ؟ هَذَا مَعَ عِلْمِنَا بِأَنَّهُ كَانَ يُخْطِئُ فَيَرْجِعُ فَيَعْتَرِفُ بِخَطَئِهِ وَيَرْجِعُ عَنْهُ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ الْمُجْتَهِدِينَ قَدِ اتَّبَعُوهُ فِي ذَلِكَ لِإِقْرَارِ الصَّحَابَةِ إِيَّاهُ عَلَيْهِ وَعَدَمِ مُعَارَضَتِهِمْ لَهُ كَعَادَتِهِمْ فِيمَا يَرَوْنَهُ خَطَأً قُلْنَا : إِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ عَرَضَ مَسْأَلَةَ تَغْرِيمِ مَنْ قَتَلَ الصَّيْدَ خَطَأً عَنِ الصَّحَابَةِ وَأَقَرُّوهُ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا قَالَ الْحَكَمُ : " إِنَّهُ كَتَبَ ، وَلَمْ يَقُلْ لِمَنْ كَتَبَ " وَالظَّاهِرُ إِنْ صَحَّ أَنَّهُ لِبَعْضِ عُمَّالِهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِي وَاقِعَةِ حَالٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ وَنَصُّ كِتَابِهِ لَمْ يُذْكَرْ فِي الرِّوَايَةِ ، وَالْحَكَمُ الَّذِي رَوَى هَذَا الْأَثَرَ هُوَ ابْنُ عُتَيْبَةَ الْكِنْدِيُّ الْكُوفِيُّ كَمَا يَظْهَرُ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِهِ وَهُوَ عَلَى تَوْثِيقِ الْجَمَاعَةِ لَهُ مِنَ الْمُدَلِّسِينَ كَمَا قَالَ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ وَقَالَ فِيهِ ابْنُ مَهْدِيٍّ : الْحَكَمُ بْنُ عُتَيْبَةَ ثِقَةٌ ثَبْتٌ وَلَكِنْ يَخْتَلِفُ مَعْنَى حَدِيثِهِ ، وَلَمْ نَقِفْ عَلَى رِجَالِ السَّنَدِ إِلَيْهِ عِنْدَ الَّذِينَ رَوَوُا الْأَثَرَ عَنْهُ وَهُمُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ كَمَا فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ لِنَعْرِفَ دَرَجَةَ رِوَايَتِهِمْ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ هَذَا الْأَثَرَ لَيْسَ بِحُجَّةٍ ، وَسَيَأْتِي مَا صَحَّ مِنْ حُكْمِ عُمَرَ .

بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ رَاجَعْتُ تَفْسِيرَ شَيْخِ الْمُفَسِّرِينَ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ ، فَإِذَا بِهِ قَدْ أَوْرَدَ فِي رِوَايَتِهِ قَوْلَ مَنْ قَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ التَّعَمُّدِ فِي الْآيَةِ هُوَ الْعَمْدُ لِقَتْلِ الصَّيْدِ مَعَ نِسْيَانِ قَاتِلِهِ لِإِحْرَامِهِ حَالَ قَتْلِهِ إِيَّاهُ ، وَقَوْلَ مَنْ قَالُوا : إِنَّهُ الْعَمْدُ لِقَتْلِهِ مَعَ ذِكْرِ قَاتِلِهِ لِإِحْرَامِهِ وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَاتِ قَوْلَ مَنْ قَالُوا بِالْجَزَاءِ فِي الْعَمْدِ بِالْكِتَابِ وَفِي الْخَطَأِ بِالسُّنَّةِ أَوْ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ وَحِفْظِ حُرُمَاتِ اللَّهِ أَيْ بِالْقِيَاسِ ثُمَّ قَالَ :

" وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ قَتْلَ صَيْدِ الْبَرِّ عَلَى كُلِّ مُحْرِمٍ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ مَا دَامَ حَرَامًا بِقَوْلِهِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) ثُمَّ بَيَّنَ حُكْمَ مَنْ قَتَلَ مَا قَتَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ مُتَعَمِّدًا لِقَتْلِهِ وَلَمْ

(59/215)

يُخَصِّصِ الْمُتَعَمِّدَ قَتْلَهُ فِي حَالِ نِسْيَانِهِ إِحْرَامَهُ ، وَلَا الْمُخْطِئَ فِي قَتْلِهِ فِي حَالِ ذِكْرِهِ إِحْرَامَهُ بَلْ عَمَّ فِي إِيجَابِ الْجَزَاءِ عَلَى كُلِّ قَاتِلِ صَيْدٍ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ مُتَعَمِّدًا ، وَغَيْرُ جَائِزٍ إِحَالَةُ ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ إِلَى بَاطِنٍ مِنَ التَّأْوِيلِ لَا دَلَالَةَ عَلَيْهِ مِنْ نَصِّ كِتَابٍ وَلَا خَبَرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا إِجْمَاعٍ عَنِ الْأُمَّةِ وَلَا دَلَالَةَ مِنْ بَعْضِ هَذِهِ الْوُجُوهِ ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَسَوَاءٌ كَانَ قَاتِلُ الصَّيْدِ مِنَ الْمُحْرِمِينَ عَامِدًا قَتْلَهُ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ ، أَمْ عَامِدًا قَتْلَهُ نَاسِيًا

لِإِحْرَامِهِ ، أَوْ قَاصِدًا غَيْرَهُ فَقَتَلَهُ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ ، فَإِنَّ عَلَى جَمِيعِهِمْ مِنَ الْجَزَاءِ مَا قَالَ رَبُّنَا تَعَالَى وَهُوَ : (مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) إِلَخْ .

(60/215)

أَقُولُ : هَذَا هُوَ الِاسْتِدْلَالُ الصَّحِيحُ الْمُبَيِّنُ ، لَكِنْ لَا يَظْهَرُ دُخُولُ الْقِسْمِ الْأَخِيرِ مِنَ التَّفْصِيلِ فِيهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : " أَوْ قَاصِدًا غَيْرَهُ فَقَتَلَهُ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ " ; لِأَنَّ هَذَا مِنْ قَتْلِ الْخَطَأِ لَا الْعَمْدِ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ صُورَةً مُعَيَّنَةً وَهِيَ أَنْ يَقْصِدَ قَتْلَ صَيْدٍ غَيْرِهِ وَهُوَ ذَاكِرٌ لِإِحْرَامِهِ ، إِذْ يَصْدُقُ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ أَنَّهُ قَصَدَ قَتْلَ الصَّيْدِ بِإِطْلَاقٍ ، وَأَنَّهُ مُنْتَهِكٌ لِحُرْمَةِ الْإِحْرَامِ ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ ، وَيَقْرُبُ مِنْهُ مَا إِذَا قَصَدَ رَمْيَهُ لِجَرْحِهِ لَا لِقَتْلِهِ ، وَأَمَّا إِذَا رَمَى غَرَضًا لَا حَيَوَانًا أَوْ حَيَوَانًا يُبَاحُ قَتْلُهُ كَالْكَلْبِ الْعَقُورِ فَأَصَابَ سَهْمُهُ أَوْ رَصَاصُهُ صَيْدًا لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ مَثَلًا فَلَا جَزَاءَ فِيهِ فِي هَذَا بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ الَّذِي قَرَّرَهُ ، وَسَيَأْتِي أَنَّ عُمَرَ قَالَ فِي مِثْلِهِ إِنَّهُ أَشْرَكَ فِيهِ الْعَمْدَ بِالْخَطَأِ .

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَمَّا مَا يَلْزَمُ بِالْخَطَأِ قَاتِلُهُ فَقَدْ بَيَّنَّا الْقَوْلَ فِيهِ فِي كِتَابِنَا (كِتَابُ لَطِيفِ الْقَوْلِ فِي أَحْكَامِ الشَّرَائِعِ) بِمَا أَغْنَى عَنْ ذِكْرِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَوْضِعُ مَوْضِعَ ذِكْرِهِ

لِأَنَّ قَصْدَنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ الْإِبَانَةُ عَنْ تَأْوِيلِ التَّنْزِيلِ ، وَلَيْسَ فِي التَّنْزِيلِ لِلْخَطَأِ ذِكْرٌ فَنَذْكُرُ أَحْكَامَهُ . اه .

(61/215)

وَاخْتَلَفُوا فِي الْمِثْلِ الْمُرَادِ مِنَ الْآيَةِ ، فَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى اعْتِبَارِ مِثْلِ الْمَقْتُولِ فِي خَلْقِهِ كَصُورَتِهِ وَفِعْلِهِ وَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ إِلَى اعْتِبَارِ الْقِيمَةِ وَتَبِعَهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ ، وَالْأَوَّلُ مُؤَيَّدٌ بِحُكْمِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَحُكْمِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ ، رَوَى أَحْمَدُ ، وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ ، وَابْنُ حِبَّانَ ، وَالْحَاكِمُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ " جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الضَّبُعِ يُصِيبُهُ الْمُحْرِمُ كَبْشًا وَجَعَلَهُ مِنَ الصَّيْدِ " ; أَيْ لِأَنَّهُ يُؤْكَلُ لَحْمُهُ كَمَا ثَبَتَ فِي غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ أَيْضًا ، وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا ، وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ أَنَّهُ سَأَلَ الْبُخَارِيَّ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَصَحَّحَهُ ، وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ عَنِ الْأَجْلَحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " فِي الضَّبُعِ إِذَا أَصَابَهُ الْمُحْرِمُ كَبْشٌ ، وَفِي الظَّبْيِ شَاةٌ ، وَفِي الْأَرْنَبِ عَنَاقٌ وَفِي الْيَرْبُوعِ جَفْرَةٌ ، قَالَ : الْجَفْرَةُ الَّتِي قَدِ ارْتَعَتْ ، وَالْأَجْلَحُ هَذَا قَالَ أَبُو حَاتِمٍ : لَا يُحْتَجُّ بِحَدِيثِهِ ، وَوَثَّقَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ ، وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ : صَدُوقٌ ، قَالَ الْحَافِظُ

فِي تَقْرِيبِ التَّهْذِيبِ : صَدُوقٌ شِيعِيٌّ مِنَ السَّابِعَةِ ، فَاعْتَمَدَ تَوْثِيقَهُ ، وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي نَيْلِ الْأَوْطَارِ : وَحَدِيثُ جَابِرٍ أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ وَأَبُو يَعْلَى وَقَالَا : عَنْ عُمَرَ رَفَعَهُ ، وَأَمَّا الدَّارَقُطْنِيُّ فَرَوَاهُ عَنْ طَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ الصَّائِغِ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ وَكَذَلِكَ الْحَكَمُ وَرَوَاهُ الشَّافِعِيُّ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ مَوْقُوفًا عَلَى جَابِرٍ وَصَحَّحَ وَقْفَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

وَقَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ : وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الضَّبُعُ صَيْدٌ فَإِذَا أَصَابَهُ الْمُحْرِمُ فَفِيهِ جَزَاءٌ كَبْشٌ مُسِنٌّ وَتُؤْكَلُ " .

أَقُولُ : وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى اعْتِبَارِ السِّنِّ فِي الْمُمَاثَلَةِ فَالْعَنَزُ بِالتَّحْرِيكِ أُنْثَى الْمَعِزِ كَالنَّعْجَةِ مِنَ الضَّأْنِ ، وَالْعَنَاقُ بِالْفَتْحِ الْأُنْثَى مِنْ وَلَدِ الْمَعِزِ قَبْلَ اسْتِكْمَالِهَا السَّنَةَ وَالْجَفْرَةُ بِفَتْحِ الْجِيمِ الْأُنْثَى مِنْ وَلَدِ الضَّأْنِ الَّتِي بَلَغَتْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ .

(يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) أَيْ يَحْكُمُ بِالْجَزَاءِ مِنَ النَّعَمِ وَكَوْنُهُ مِثْلَ الْمَقْتُولِ مِنَ الصَّيْدِ رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ وَالْمَعْرِفَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَوَجْهُ الْحَاجَةِ إِلَى حُكْمِ الْعَدْلَيْنِ أَنَّ الْمُمَاثَلَةَ بَيْنَ النَّعَمِ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ بِأَنْوَاعِهَا وَبَيْنَ الصَّيْدِ الْوَحْشِيِّ وَأَنْوَاعُهُ كَثِيرَةٌ ، مِمَّا يَخْفَى عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَوَجْهُ حُكْمِ الْعَدْلَيْنِ إِذَا أَرَادَا أَنْ يَحْكُمَا بِمِثْلِ الْمَقْتُولِ مِنَ الصَّيْدِ مِنَ النَّعَمِ عَلَى الْقَاتِلِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمَقْتُولِ أَوْ يَسْتَوْصِفَاهُ ، فَإِنْ ذَكَرَ أَنَّهُ أَصَابَ ظَبْيًا صَغِيرًا حَكَمَا عَلَيْهِ مِنْ وَلَدِ الضَّأْنِ بِنَظِيرِ ذَلِكَ الَّذِي قَتَلَهُ فِي السِّنِّ وَالْجِسْمِ ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ كَبِيرًا حَكَمَا عَلَيْهِ مِنَ الضَّأْنِ الْكَبِيرِ ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي أَصَابَ حِمَارَ وَحْشٍ حَكَمَا عَلَيْهِ بِبَقَرَةٍ ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي أَصَابَ كَبِيرًا فَكَبِيرٌ مِنَ الْبَقَرِ ، وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا فَصَغِيرٌ ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ ذَكَرًا فَمِثْلُهُ مِنْ ذُكُورِ الْبَقَرِ ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى فَمِثْلُهُ مِنَ الْبَقَرِ أُنْثَى ، ثُمَّ أَوْرَدَ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ مَا حَكَمَ بِهِ عُمَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ عَلَى اللَّذَيْنِ قَتَلَا الظَّبْيَ ، وَقَدْ رَوَاهَا مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ الْقِصَّةُ مُتَعَدِّدَةً ، وَقَدْ حَكَمَا بِشَاةٍ ، وَسَيَأْتِي .

(64/215)

وَأَمَّا مَا لَا مِثْلَ لَهُ مِنَ النَّعَمِ بِوَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ الشَّبَهِ فَيَحْكُمُ الْعَدْلَانِ فِيهِ بِالْقِيمَةِ ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : وَأَمَّا قَوْلُهُ : (فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَرَأَ " فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ " وَفِي قَوْلِهِ : (فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) (عَلَى كُلٍّ مِنَ الْقِرَاءَتَيْنِ دَلِيلٌ) لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالْجُمْهُورُ مِنْ وُجُوبِ الْجَزَاءِ فِي مِثْلِ مَا قَتَلَهُ الْمُحْرِمُ إِذَا كَانَ لَهُ مِثْلٌ مِنَ الْحَيَوَانِ الْإِنْسِيِّ خِلَافًا

لِأَبِي حَنِيفَةَ

رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ أَوْجَبَ الْقِيمَةَ سَوَاءٌ كَانَ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ مِثْلِيًّا أَوْ غَيْرَ مِثْلِيٍّ ، قَالَ : وَهُوَ مُخَيَّرٌ ، إِنْ شَاءَ تَصَدَّقَ بِقِيمَتِهِ وَإِنْ شَاءَ اشْتَرَى بِهِ هَدْيًا ، وَالَّذِي حَكَمَ بِهِ الصَّحَابَةُ فِي الْمَثَلِ لَأَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ ، فَإِنَّهُمْ حَكَمُوا فِي النَّعَامَةِ بِبَدَنَةٍ ، وَفِي بَقَرَةِ الْوَحْشِ بِبَقَرَةٍ ، وَفِي الْغَزَالِ بِعَنَزٍ وَذِكْرُ قَضَايَا الصَّحَابَةِ وَأَسَانِيدِهَا مُقَرَّرٌ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ مِثْلِيًّا فَقَدْ حَكَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيهِ بِثَمَنِهِ يُحْمَلُ إِلَى مَكَّةَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ .

(65/215)

ثُمَّ قَالَ : وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) يَعْنِي أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْجَزَاءِ بِالْمِثْلِ أَوْ بِالْقِيمَةِ فِي غَيْرِ الْمِثْلِ عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْقَاتِلِ : هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَحَدَ

الْحَكَمَيْنِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ (أَحَدُهُمَا) لَا ، لِأَنَّهُ قَدْ يُتَّهَمُ فِي حُكْمِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَهَذَا مَذْهَبُ مَالِكٍ ، (وَالثَّانِي) نَعَمْ لِعُمُومِ الْآيَةِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ ، وَاحْتَجَّ الْأَوَّلُونَ بِأَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مَحْكُومًا عَلَيْهِ فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ هُوَ ابْنُ بُرْقَانَ عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ " أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ : قَتَلْتُ صَيْدًا وَأَنَا مُحْرِمٌ فَمَا تَرَى عَلَيَّ مِنَ الْجَزَاءِ ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَهُ : مَا تَرَى فِيمَا قَالَ الْأَعْرَابِيُّ ؟ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : أَتَيْتُكَ وَأَنْتَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُكَ وَأَنْتَ تَسْأَلُ غَيْرَكَ ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَمَا تُنْكِرُ ؟ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : (فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) شَاوَرْتُ صَاحِبِي إِذَا اتَّفَقْنَا عَلَى أَمْرٍ أَمَرْنَاكَ بِهِ " وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ لَكِنَّهُ مُنْقَطِعٌ بَيْنَ مَيْمُونٍ وَالصِّدِّيقِ ، وَمِثْلُهُ يُحْتَمَلُ هَهُنَا فَبَيَّنَ لَهُ الصِّدِّيقُ الْحُكْمَ بِرِفْقٍ وَتُؤَدَةٍ لَمَّا رَآهُ أَعْرَابِيًّا جَاهِلًا ، وَإِنَّمَا دَوَاءُ

(66/215)

الْجَهْلِ التَّعَلُّمُ فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمُعْتَرِضُ مَنْسُوبًا إِلَى الْعِلْمِ فَقَدْ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا هَنَّادٌ وَأَبُو هِشَامٍ الرِّفَاعِيُّ قَالَا حَدَّثَنَا وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ عَنِ الْمَسْعُودِيِّ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ

قَبِيصَةَ بْنِ جَابِرٍ ، قَالَ : " خَرَجْنَا حُجَّاجًا فَكُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا الْغَدَاةَ أَقَدْنَا رَوَاحِلَنَا فَنَتَمَاشَى نَتَحَدَّثُ ، قَالَ : فَبَيْنَا نَحْنُ ذَاتَ غَدَاةٍ إِذْ سَنَحَ لَنَا ظَبْيٌ أَوْ بَرِحَ ، رَمَاهُ رَجُلٌ كَانَ مَعَنَا بِحَجَرٍ فَمَا أَخْطَأَ حَشَاهُ ، فَرَكِبَ وَوَدَّعَهُ مَيِّتًا ، قَالَ : فَعَظَّمْنَا عَلَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ خَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى أَتَيْنَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، قَالَ : وَإِلَى جَنْبِهِ رَجُلٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ قَلْبُ فِضَّةٍ ، يَعْنِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، فَالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَى صَاحِبِهِ فَكَلَّمَهُ قَالَ : ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ فَقَالَ : أَعَمْدًا قَتَلْتَهُ أَمْ خَطَأً ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ تَعَمَّدْتُ رَمْيَهُ وَمَا أَرَدْتُ قَتْلَهُ فَقَالَ عُمَرُ : مَا أَرَاكَ إِلَّا أَشْرَكْتَ بَيْنَ الْعَمْدِ وَالْخَطَأِ ، اعْمِدْ إِلَى شَاةٍ فَاذْبَحْهَا وَتَصَدَّقْ بِلَحْمِهَا وَانْتَفِعْ بِإِهَابِهَا ، قَالَ : فَقُمْنَا مِنْ عِنْدِهِ فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : أَيُّهَا الرَّجُلُ عَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَمَا دَرَى

(67/215)

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا يُفْتِيكَ حَتَّى سَأَلَ صَاحِبَهُ ، اعْمَدْ إِلَى نَاقَتِكَ فَانْحَرْهَا فَلَعَلَّ ذَلِكَ ، يَعْنِي أَنْ يُجْزِيَ عَنْكَ ، قَالَ قَبِيصَةُ : وَلَا أَذْكُرُ الْآيَةَ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (يحكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) فَبَلَغَ عُمَرَ مَقَالَتِي فَلَمْ يُفَاجِأْنَا مِنْهُ إِلَّا وَمَعَهُ الدِّرَّةُ قَالَ : فَعَلَا صَاحِبِيَّ ضَرْبًا بِالدِّرَّةِ أَقْبَلْتَ فِي الْحَرَمِ وَسَفَّهْتَ فِي الْحُكْمِ قَالَ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ ، فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : لَا أَحِلُّ الْيَوْمَ شَيْئًا

يَحْرُمُ عَلَيْكَ مِنِّي ، فَقَالَ : يَا قَبِيصَةُ بْنَ جَابِرٍ إِنِّي أَرَاكَ شَابَّ السِّنِّ فَسِيحَ الصَّدْرِ بَيِّنَ اللِّسَانِ ، وَإِنَّ الشَّابَّ يَكُونُ فِيهِ تِسْعَةُ أَخْلَاقٍ حَسَنَةٍ وَخُلُقٌ سَيِّئٌ فَيُفْسِدُ الْخُلُقُ السَّيِّئُ الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ ، فَإِيَّاكَ وَعَثَرَاتَ الشَّبَابِ " .

(68/215)

ثُمَّ ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ طُرُقًا أُخْرَى لِأَثَرِ قَبِيصَةَ ثُمَّ نَقَلَ عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ أَنَّ ابْنَ جَرِيرٍ الْبَجَلِيَّ قَالَ أَصَبْتُ ظَبْيًا وَأَنَا مُحْرِمٌ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ فَقَالَ : ائْتِ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِكَ فَلْيَحْكُمَا عَلَيْكَ ، فَأَتَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَسَعْدًا فَحَكَمَا عَلَيَّ بِتَيْسٍ أَعْفَرَ ، ثُمَّ نَقَلَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا رَمَى ظَبْيًا فَقَتَلَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ فَأَتَى عُمَرَ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : احْكُمْ مَعِي فَحَكَمَا فِيهِ بِجَدْيٍ قَدْ جَمَعَ الْمَاءَ وَالشَّجَرَ ثُمَّ قَالَ عُمَرُ : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ أَنْ يَكُونَ الْقَاتِلُ أَحَدَ الْحَكَمَيْنِ كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى .

(ثُمَّ قَالَ) : وَاخْتَلَفُوا هَلْ تُسْتَأْنَفُ الْحُكُومَةُ فِي كُلِّ مَا يُصِيبُهُ الْمُحْرِمُ فَيَجِبُ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ ذَوَا عَدْلٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ حَكَمَ مَنْ قَبْلَهُ الصَّحَابَةُ ؟ يَرْجِعُ فِيهِ إِلَى عَدْلَيْنِ

وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ : بَلْ يَجِبُ الْحُكْمُ فِي كُلِّ فَرْدٍ سَوَاءٌ وُجِدَ لِلصَّحَابَةِ فِي مِثْلِهِ حُكْمٌ أَمْ لَا .

(69/215)

وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْحَنَفِيَّةُ بِتَحْكِيمِ الْعَدْلَيْنِ عَلَى كَوْنِ الْمُرَادِ بِالْمِثْلِ الْقِيمَةَ ، قَالُوا لِأَنَّ التَّقْوِيمَ هُوَ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ وَالِاجْتِهَادِ دُونَ الْمُمَاثَلَةِ ، وَالظَّاهِرُ خِلَافُ ذَلِكَ ، لِأَنَّ قِيَمَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِمَّا يَعْرِفُهُ كُلُّ النَّاسِ فِي الْغَالِبِ ، وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى الِاجْتِهَادِ وَالنَّظَرِ فِي دَقَائِقِ الْمُشَابَهَةِ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ الْوَحْشِيَّةِ عَلَى كَثْرَتِهَا وَاخْتِلَافِ صُوَرِهَا وَطِبَاعِهَا وَبَيْنَ الْأَنْعَامِ عَلَى قِلَّتِهَا وَتَقَارُبِ صِفَاتِهَا ، وَمَالَ الْآلُوسِيُّ إِلَى جَعْلِ كُلٍّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ مُحْتَاجًا إِلَى هَذَا الِاجْتِهَادِ مِنَ الْحَكَمَيْنِ ، جَمْعًا بَيْنَ مَذْهَبِهِ الْأَوَّلِ وَمَذْهَبِهِ الثَّانِي إِذْ كَانَ مِنْ فُقَهَاءِ الشَّافِعِيَّةِ ثُمَّ صَارَ مُفْتِي الْحَنَفِيَّةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ) فَمَعْنَاهُ أَنَّ ذَلِكَ الْجَزَاءَ الْوَاجِبَ عَلَى قَاتِلِ الصَّيْدِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَدْيًا يَصِلُ إِلَى الْكَعْبَةِ وَيُذْبَحُ هُنَاكَ أَيْ فِي جِوَارِهَا حَيْثُ تُؤَدَّى الْمَنَاسِكُ وَيُفَرَّقُ لَحْمُهُ عَلَى مَسَاكِينِ الْحَرَمِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ السُّورَةِ أَنَّ الْهَدْيَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الْأَنْعَامِ ، فَهُوَ يُؤَيِّدُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ كَوْنِ الْمُمَاثَلَةِ فِي الْجَزَاءِ

إِنَّمَا تُعْتَبَرُ فِي الصِّفَاتِ وَالْهَيْئَاتِ وَكَلِمَةُ (هَدْيًا) حَالٌ مِنْ (جَزَاءٌ) بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ ، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ : (يَحْكُمُ بِهِ) أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ أَيْ يَهْدِي هَدْيًا .

(70/215)

(أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا) قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ بِإِضَافَةِ (كَفَّارَةُ) إِلَى (طَعَامٍ) أَيْ كَفَّارَةُ طَعَامٍ لَا كَفَّارَةُ هَدْيٍ وَلَا صِيَامٍ ، وَالْبَاقُونَ بِتَنْوِينِ (كَفَّارَةٌ) ، أَيْ فَعَلَى مَنْ قَتَلَ الصَّيْدَ وَهُوَ مُحْرِمٌ مُتَعَمِّدٌ جَزَاءٌ مِنَ النَّعَمِ مُمَاثِلٌ لَهُ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ مَا يُعَادِلُ ذَلِكَ الطَّعَامَ مِنَ الصِّيَامِ ، وَالْعَدْلُ بِالْفَتْحِ الْمُعَادِلُ لِلشَّيْءِ الْمُسَاوِي لَهُ مِمَّا يُدْرَكُ بِالْبَصِيرَةِ وَالْعَقْلِ كَالْعَدْلِ فِي الْأَحْكَامِ ، وَبِالْكَسْرِ الْمُعَادِلُ وَالْمُسَاوِي مِمَّا يُدْرَكُ بِالْحِسِّ كَالْغِرَارَتَيْنِ مِنَ الْأَحْمَالِ عَلَى جَانِبَيِ الْبَعِيرِ يُسَمَّى كُلٌّ مِنْهَا عِدْلًا ، هَذَا مَعْنَى مَا قَالَهُ الرَّاغِبُ ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ بَعْدَ ذِكْرِ الْقِرَاءَةِ الشَّاذَّةِ بِالْكَسْرِ : وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ عَدْلَ الشَّيْءِ مَا عَادَلَهُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ كَالصَّوْمِ

وَالْإِطْعَامِ وَعِدْلَهُ مَا عَدَلَ بِهِ فِي الْمِقْدَارِ ، وَمِنْهُ عِدْلَا الْحِمْلِ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهَا عِدْلٌ بِالْآخَرِ حَتَّى اعْتَدَلَا ، كَأَنَّ الْمَفْتُوحَ تَسْمِيَةٌ بِالْمَصْدَرِ ، وَالْمَكْسُورَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ بِهِ كَالذَّبْحِ وَنَحْوِهِ ، وَنَحْوِهِمَا الْحَمْلُ وَالْحِمْلُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْمَرْوِيُّ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ .

وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ هِيَ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي فِدْيَةِ الْحَلْقِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ) (2 : 196) فَالنُّسُكُ هُنَاكَ بِمَعْنَى الْهَدْيِ هُنَا ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ بِحَلْقِ رَأْسِهِ لَمَّا آذَتْهُ الْقَمْلُ ، وَأَنْ يُطْعِمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ أَوْ يَهْدِيَ شَاةً أَوْ يَصُومَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ " فَعَلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ صِيَامَ الْيَوْمِ الْوَاحِدِ يَعْدِلُ إطْعَامَ مِسْكِينَيْنِ ، وَأَنَّ إطْعَامَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ وَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ تَعْدِلُ ذَبْحَ شَاةٍ فِي النُّسُكِ ، فَإِنْ قِيلَ : إنَّ هَذَا مُخَالِفٌ لِجَعْلِ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُعَادَلَةً لِإِطْعَامِ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ قُلْنَا : إنَّ الصِّيَامَ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ لَمْ يُجْعَلْ مُسَاوِيًا لِلْإِطْعَامِ بَلْ تَخْفِيفًا عَلَى مَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِطْعَامَ وَإِلَّا لَخُيِّرَ بَيْنَهُمَا ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ كَفَّارَةِ الظِّهَارِ أَنَّ صِيَامَ شَهْرَيْنِ أَعْظَمُ مِنْ إطْعَامِ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، إذْ فُرِضَ الْإِطْعَامُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الصِّيَامَ هِيَ عَلَى التَّرْتِيبِ لَا التَّخْيِيرِ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ جَعَلَ كَفَّارَةَ الْمُجَامِعِ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ كَكَفَّارَةِ الظِّهَارِ ، وَالْمَرْوِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مُوَافِقٌ لِمَا

أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ فِي الْمُعَادَلَةِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الثَّلَاثَةَ هُنَا عَلَى التَّرْتِيبِ لَا التَّخْيِيرِ .

وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ بِالتَّرْتِيبِ فِي الثَّلَاثَةِ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ رِوَايَةٌ أُخْرَى بِأَنَّهَا عَلَى التَّخْيِيرِ وَهُوَ يَرْوِيهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ وَمِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ وَصَاحِبَاهُ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُمَا .

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا قَتَلَ الْمُحْرِمُ شَيْئًا مِنَ الصَّيْدِ فَعَلَيْهِ فِيهِ الْجَزَاءُ ، فَإِنْ قَتَلَ ظَبْيًا أَوْ نَحْوَهُ فَعَلَيْهِ ذَبْحُ شَاةٍ تُذْبَحُ بِمَكَّةَ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَإِطْعَامُ سِتَّةِ مَسَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، فَإِنْ قَتَلَ ظَبْيًا أَوْ نَحْوَهُ فَعَلَيْهِ بَقَرَةٌ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهَا صَامَ عِشْرِينَ يَوْمًا ، وَإِنْ قَتَلَ نَعَامَةً أَوْ حِمَارَ وَحْشٍ أَوْ نَحْوَهُ فَعَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنَ الْإِبِلِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ ثَلَاثِينَ مِسْكِينًا فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَالطَّعَامُ مُدٌّ مُدٌّ يُشْبِعُهُمْ .

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : إِذَا أَصَابَ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ حُكِمَ عَلَيْهِ جَزَاؤُهُ مِنَ النَّعَمِ ، فَإِنْ وَجَدَ جَزَاءَهُ ذَبَحَهُ فَتَصَدَّقَ بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ جَزَاءَهُ قُوِّمَ الْجَزَاءُ دَرَاهِمَ ثُمَّ قُوِّمَتِ الدَّرَاهِمُ حِنْطَةً ثُمَّ صَامَ مَكَانَ كُلِّ صَاعٍ يَوْمًا .

ثُمَّ ذَكَرَ رِوَايَةً أُخْرَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ جَزَاءً قُوِّمَ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ طَعَامًا ثُمَّ صَامَ لِكُلِّ صَاعٍ يَوْمَيْنِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رِوَايَةَ صِيَامِ يَوْمٍ عَنْ كُلِّ صَاعٍ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنْ يُطْعِمَ كُلَّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ أَيْ مُدَّيْنِ ، وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ تِلْمِيذِهِ مُجَاهِدٍ وَأَنَّ رِوَايَةَ صِيَامِ يَوْمَيْنِ عَنْ كُلِّ صَاعٍ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنْ يُطْعِمَ كُلَّ مِسْكِينٍ مُدًّا وَاحِدًا كَمَا سَبَقَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى عَنْهُ .

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ كُلَّ مِسْكِينٍ يُطْعَمُ مُدًّا ، وَعَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْحِجَازِ كَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ ، وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ يُوجِبُونَ مُدَّيْنِ لِكُلِّ مِسْكِينٍ ، وَقَالَ أَحْمَدُ : مُدٌّ مِنْ حِنْطَةٍ وَمُدَّانِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ أَطَالَ الشَّافِعِيُّ فِي بَيَانِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ كَفَّارَةِ الصَّيْدِ وَفِدْيَةِ الْأَذَى ، وَتَكَلَّمَ فِي سَائِرِ الْكَفَّارَاتِ وَأَثْبَتَ بِدَقَائِقِ الْقِيَاسِ الَّتِي لَا يَغُوصُ عَلَيْهَا إلَّا مِثْلُهُ أَنَّ صِيَامَ يَوْمٍ يَعْدِلُ طَعَامَ مُدٍّ ، وَقَدْ عَقَدَ الرَّبِيعُ بَابًا خَاصًّا لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي الْأُمِّ كَمَا أَطَالَ فِي جَمِيعِ فُرُوعِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ مَقْرُونَةً بِالشَّوَاهِدِ وَالدَّلَائِلِ .

وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ التَّقْوِيمَ يَكُونُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ الصَّيْدُ ، وَقِيلَ : بَلْ يَقُومُ بِمَكَّةَ حَيْثُ تَكُونُ الْكَفَّارَةُ وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الشَّعْبِيِّ ، وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ الْقَائِلُونَ بِالتَّخْيِيرِ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى أَنَّ الْمُخَيَّرَ بَيْنَهُمَا هُوَ قَاتِلُ الصَّيْدِ ، وَقِيلَ : بَلِ التَّخْيِيرُ لِلْحَكَمَيْنِ ، وَحَكَى هَذَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ .

وَاخْتَلَفُوا فِي مَكَانِ الْإِطْعَامِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَكَانُهُ مَكَانُ الْهَدْيِ أَيْ مَكَّةَ لِأَنَّهُ بَدَلُهُ وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هُوَ مُخَيَّرٌ فِيهِ .

(لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ) هَذَا تَعْلِيلٌ لِإِيجَابِ الْجَزَاءِ ، وَفُسِّرَ الْوَبَالُ بِسُوءِ الْعَاقِبَةِ هُوَ مِنَ الْوَبْلِ وَالْوَابِلُ الَّذِي هُوَ الْمَطَرُ الثَّقِيلُ ، قَالَ الرَّاغِبُ : وَلِمُرَاعَاةِ الثِّقَلِ ، قِيلَ لِلْأَمْرِ الَّذِي يُخَافُ ضَرَرُهُ وَبَالٌ ، وَيُقَالُ : طَعَامٌ وَبِيلٌ ، وَالذَّوْقُ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْإِدْرَاكِ الْعَامِّ ، غَيْرُ خَاصٍّ بِإِدْرَاكِ اللِّسَانِ ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ الْقُرْآنُ فِي إِدْرَاكِ أَلَمِ الْعَذَابِ

وَالْوَبَالِ ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي إِدْرَاكِ الطُّعُومِ إِلَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ) (7 : 22) وَفِي قَوْلِهِ : (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) (78 : 24 ، 25) وَكُلُّ اسْتِعْمَالِهِ فِيمَا يُكْرَهُ وَيُذَمُّ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الْجَزَاءَ وَالْعُقُوبَةَ مِنْ أَثْقَلِ الْأَشْيَاءِ وَأَشَقِّهَا عَلَى النَّاسِ سَوَاءٌ كَانَتْ مَالِيَّةً أَوْ بَدَنِيَّةً .

(عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ) أَيْ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا سَلَفَ قَبْلَ التَّحْرِيمِ أَوْ قَبْلَ الْجَزَاءِ ، وَقِيلَ : عَمَّا سَلَفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ وَيُطَهِّرُ نَفْسَ صَاحِبِهِ مِنَ الْأَدْرَانِ السَّابِقَةِ ، فَلَا يُبْقِي لَهَا أَثَرًا فِي النَّفْسِ تَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مُؤَاخَذَةٌ .

(76/215)

(وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) أَيْ وَمَنْ عَادَ إِلَى قَتْلِ الصَّيْدِ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ وَإِيجَابِ الْجَزَاءِ وَالْكَفَّارَةِ عَلَيْهِ أَوْ مَنْ عَادَ إِلَى قَتْلِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ أَنْ كَفَّرَ عَنْهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَإِنَّ اللَّهَ يَنْتَقِمُ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَزْجُرْهُ عَنِ الْإِصْرَارِ عَلَى مُخَالَفَتِهِ " وَاللَّهُ عَزِيزٌ " أَيْ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ فَلَا يَغْلِبُهُ الْعَاصِي ، " ذُو انْتِقَامٍ " مِمَّنْ أَصَرَّ عَلَى الذَّنْبِ ، وَالِانْتِقَامُ الْمُبَالَغَةُ فِي الْعُقُوبَةِ ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يَمْنَعُ الْعِقَابَ فِي الْآخِرَةِ إِذَا لَمْ يَتَكَرَّرِ الذَّنْبُ ، فَإِنْ تَكَرَّرَ اسْتَحَقَّ صَاحِبُهُ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا وَالْعِقَابَ فِي الْآخِرَةِ ، بِهَذَا قَالَ الْجُمْهُورُ ، رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٍ أَنَّ الِانْتِقَامَ هُنَا هُوَ الْكَفَّارَةُ ، وَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مَنْ قَتَلَ شَيْئًا مِنَ الصَّيْدِ خَطَأً وَهُوَ مُحْرِمٌ يُحْكَمُ عَلَيْهِ فِيهِ كُلَّمَا قَتَلَهُ ، فَإِنْ قَتَلَ عَمْدًا يُحْكَمُ عَلَيْهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَإِنْ عَادَ يُقَالُ لَهُ : يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْكَ

، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَا تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ عُقُوبَتَا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَبِهَذَا قَالَ شُرَيْحٌ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ ، كَمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

(77/215)

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ) الْمُرَادُ بِالْبَحْرِ الْمَاءُ الْكَثِيرُ الْمُسْتَبْحِرُ الَّذِي يُوجَدُ فِيهِ السَّمَكُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمَائِيَّةِ الَّتِي تُصَادُ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْأَنْهَارُ وَالْآبَارُ وَالْبِرَكُ وَنَحْوُهَا ، وَصَيْدُ الْبَحْرِ مَا يُصَادُ مِنْهُ مِمَّا يَعِيشُ فِيهِ عَادَةً وَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ يَعِيشَ خَارِجَهُ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا كَالسَّرَطَانِ وَالسُّلَحْفَاةِ ، وَقِيلَ : هُوَ مَا لَا يَعِيشُ إِلَّا فِيهِ ، وَطَيْرُ الْمَاءِ لَيْسَ مِنْهُ فِيمَا يَظْهَرُ عَلَى الْقَوْلَيْنِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمَائِيَّةِ ، وَإِنَّمَا يُلَازِمُ الْمَاءَ لِصَيْدِ طَعَامِهِ مِنْهُ قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي الْأُمِّ بَعْدَ بَيَانِ مَعْنَى الْبَحْرِ بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ : وَمَنْ خُوطِبَ بِإِحْلَالِ صَيْدِ الْبَحْرِ وَطَعَامِهِ عَقَلَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَحَلَّ لَهُ مَا يَعِيشُ فِي الْبَحْرِ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ أَحَلَّ كُلَّ مَا يَعِيشُ فِي مَائِهِ لِأَنَّ صَيْدَهُ ، وَطَعَامَهُ عِنْدَنَا مَا أُلْقِيَ وَطَفَا عَلَيْهِ وَاللهُ أَعْلَمُ ، وَلَا أَعْلَمُ الْآيَةَ تَحْتَمِلُ إِلَّا هَذَا الْمَعْنَى ، أَوْ يَكُونُ طَعَامُهُ مِنْ دَوَابَّ تَعِيشُ فِيهِ فَتُؤْخَذُ بِالْأَيْدِي مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ كَتَكَلُّفِ صَيْدِهِ فَكَانَ هَذَا دَاخِلًا فِي ظَاهِرِ جُمْلَةِ الْآيَةِ وَاللهُ أَعْلَمُ اه .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ الْآيَةَ وَقَالَ : " مَا لَفَظَهُ مَيِّتًا فَهُوَ طَعَامُهُ " وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ ، وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَذَكَرَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَهُ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَفِي لَفْظٍ لِابْنِ عَبَّاسٍ مَا قَذَفَ بِهِ مَيِّتًا ، وَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : مَا حُسِرَ عَنْهُ وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ : مَا لَفَظَ الْبَحْرُ فَهُوَ طَعَامُهُ وَإِنْ كَانَ مَيِّتًا ، فَهَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِطَعَامِهِ فِي الْآيَةِ مَا لَا عَمَلَ لِلْإِنْسَانِ وَلَا كُلْفَةَ فِي اصْطِيَادِهِ كَالَّذِي يَطْفُو عَلَى وَجْهِهِ وَالَّذِي يُقْذَفُ بِهِ إِلَى السَّاحِلِ وَالَّذِي يَنْحَسِرُ عَنْهُ الْمَاءُ فِي وَقْتِ الْجَزَاءِ أَوْ لِأَسْبَابٍ أُخْرَى ، لَا فَرْقَ بَيْنَ حَيِّهِ وَمَيِّتِهِ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ : صَيْدُ الطَّرِيِّ وَطَعَامُهُ الْمَالِحُ لِلْمُسَافِرِ وَالْمُقِيمِ وَأَخَذَ بِهَذَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ ، وَلَوْلَا هَذِهِ الرِّوَايَاتُ لَكَانَ الْمُتَبَادَرُ مِنَ الْآيَةِ عِنْدِي : أُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَصْطَادُوا مِنَ الْبَحْرِ وَأَنْ تَأْكُلُوا الطَّعَامَ الْمُتَّخَذَ مِنْ حَيَوَانِهِ سَوَاءٌ صِدْتُمُوهُ أَنْتُمْ أَوْ صَادَهُ لَكُمْ غَيْرُكُمْ أَوْ أَلْقَاهُ الْبَحْرُ إِلَيْكُمْ . وَسَوَاءٌ كُنْتُمْ حَلَالًا أَوْ مُحْرِمِينَ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : (مَتَاعًا) فَمَعْنَاهُ لِأَجْلِ تَمَتُّعِكُمْ بِهِ أَوْ مَتَّعَكُمُ اللَّهُ بِهِ مَتَاعًا حَسَنًا ، وَالسَّيَّارَةُ جَمَاعَةُ الْمُسَافِرِينَ وَيَتَزَوَّدُونَ مِنْهُ ، فَهُوَ مَتَاعٌ لِلْمُقِيمِ وَالْمُسَافِرِ .

(وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا) هَذَا أَعَمُّ مِنْ تَحْرِيمِ الصَّيْدِ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ أَخْذَهُ مِنْ غَيْرِ قَتْلٍ ، وَقِيلَ : يَشْمَلُ أَكْلَهُ وَإِنْ صَادَهُ غَيْرُ الْمُحْرِمِ مُطْلَقًا ، وَالتَّحْقِيقُ التَّفْصِيلُ فَمَا صَادَهُ غَيْرُ الْمُحْرِمِ لِأَجْلِ الْمُحْرِمِ أَوْ بِإِعَانَتِهِ أَوْ إِذْنِهِ لَا يَحِلُّ لِلْمُحْرِمِ الْأَكْلُ مِنْهُ ، وَمَا صَادَهُ غَيْرُ الْمُحْرِمِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِمِثْلِهِ ثُمَّ أَهْدَى مِنْهُ الْمُحْرِمَ فَهُوَ حِلٌّ لَهُ ، وَقَدْ قُلْنَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ إِنَّ هَذَا مَا يَجْمَعُ بِهِ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ ، وَفِيهِ أَنَّهُ تَخْصِيصٌ لِلْكِتَابِ بِأَخْبَارِ الْآحَادِ ، وَقَدْ أَجَازَهُ الْجُمْهُورُ وَمَنَعَهُ بَعْضُ الْحَنَابِلَةِ مُطْلَقًا ، وَلِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ تَفْصِيلٌ فِيهِ لَا مَحَلَّ لِذِكْرِهِ هُنَا .

رَوَى أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ : "كُنْتُ يَوْمًا جَالِسًا مَعَ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِ

(80/215)

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَنْزِلٍ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَامَنَا وَالْقَوْمُ مُحْرِمُونَ وَأَنَا غَيْرُ مُحْرِمٍ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ، فَأَبْصَرُوا حِمَارًا وَحْشِيًّا ، وَأَنَا مَشْغُولٌ أَخْصِفُ نَعْلِي ، فَلَمْ يُؤْذِنُونِي وَأَحَبُّوا لَوْ أَنِّي أَبْصَرْتُهُ ، وَالْتَفَتُّ فَأَبْصَرْتُهُ فَقُمْتُ إِلَى الْفَرَسِ فَأَسْرَجْتُهُ ثُمَّ رَكِبْتُ وَنَسِيتُ السَّوْطَ وَالرُّمْحَ ، فَقَالُوا : وَاللَّهِ لَا نُعِينُكَ عَلَيْهِ ، فَغَضِبْتُ فَنَزَلْتُ فَأَخَذْتُهُمَا ثُمَّ رَكِبْتُ فَشَدَدْتُ عَلَى الْحِمَارِ فَعَقَرْتُهُ ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ وَقَدْ

مَاتَ فَوَقَعُوا فِيهِ يَأْكُلُونَهُ ثُمَّ إِنَّهُمْ شَكُّوا فِي أَكْلِهِمْ إِيَّاهُ وَهُمْ حُرُمٌ ، فَرُحْنَا وَخَبَأْتُ الْعَضُدَ مَعِي ، فَأَدْرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ ؟ فَقُلْتُ نَعَمْ ، فَنَاوَلْتُهُ الْعَضُدَ فَأَكَلَهَا وَهُوَ مُحْرِمٌ " وَفِي رِوَايَةٍ لَهُمْ " هُوَ حَلَالٌ فَكُلُوهُ " وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ " هَلْ أَشَارَ إِلَيْهِ إِنْسَانٌ أَوْ أَمَرَهُ بِشَيْءٍ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَكُلُوهُ " وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ " هَلْ أَشَارَ إِلَيْهِ أَحَدٌ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ : فَكُلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا " وَرِوَايَةُ التَّأْنِيثِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ مَا صَادَهُ أَبُو قَتَادَةَ كَانَ أَتَانًا لَا حِمَارًا ، فَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ " فَرَأَيْنَا حُمُرَ وَحْشٍ فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَبُو قَتَادَةَ فَعَقَرَ مِنْهَا أَتَانًا " . . . إِلَخْ ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ

(81/215)

الْوَاقِعَةُ مُتَعَدِّدَةً خَلَطَ الرُّوَاةُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ .

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ وَابْنِ مَاجَهْ وَالدَّارَقُطْنِيِّ وَالْبَيْهَقِيِّ وَابْنِ خُزَيْمَةَ " وَأَنَّ أَبَا قَتَادَةَ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَإِنِّي إِنَّمَا صِدْتُهُ لَكَ ، فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا وَلَمْ يَأْكُلْ " وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ وَقَدِ اسْتَغْرَبُوا هَذِهِ الزِّيَادَةَ وَشَكُّوا فِي كَوْنِهَا مَحْفُوظَةً ، لِمُخَالَفَتِهَا رِوَايَةَ الصَّحِيحَيْنِ ، وَحَاوَلَ بَعْضُهُمُ الْجَمْعَ بِكَوْنِهِ أَكَلَ قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَهُ بِأَنَّهُ اصْطَادَهُ لَهُ وَامْتَنَعَ بِهِ الْعِلْمُ بِذَلِكَ ، وَهُوَ

تَكَلُّفٌ ظَاهِرٌ ، وَلَا يَظْهَرُ الْجَمْعُ إلَّا إذَا ثَبَتَ أَوِ احْتَمَلَ تَعَدُّدَ الْوَاقِعَةِ ، وَفِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ شُذُوذٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ قَالَ : " خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ فَأَحْرَمَ أَصْحَابِي وَلَمْ أُحْرِمْ فَرَأَيْتُ حِمَارًا فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ فَاصْطَدْتُهُ ، فَذَكَرْتُ شَأْنَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَحْرَمْتُ وَأَنِّي إنَّمَا اصْطَدْتُهُ لَكَ إلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ " وَاسْتَشْكَلُوهُ بِأَنَّهُ كَيْفَ جَازَ أَنْ يَتْرُكَ الْإِحْرَامَ وَهُوَ مَعَهُمْ ، وَالصَّوَابُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ وَجْهُهُ عَلَى طَرِيقِ الْبَحْرِ مَخَافَةَ الْعَدُوِّ ، فَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُحْرِمًا ، فَعَلَى هَذَا لَا يَكُونُ لِتَعْبِيرِهِ عَنْ خُرُوجِهِ وَعَدَمِ إحْرَامِهِ هُنَا وَجْهٌ ظَاهِرٌ .

(82/215)

وَرَوَى أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ " أَنَّهُ أَهْدَى إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ ، أَوْ بِوَدَّانَ كِلَاهُمَا فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَرَدَّهُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ : إنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إلَّا أَنَّا حُرُمٌ " .

وَرَوَى الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ " وَلَهُ

طُرُقٌ لَا يَخْلُو وَاحِدٌ مِنْهَا مِنْ عِلَّةٍ ، قَالَ الشَّافِعِيُّ : هَذَا أَحْسَنُ حَدِيثٍ رُوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ وَأَقْيَسُ .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) فَلَا تُحِلُّوا مَا حَرَّمَهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الصَّيْدِ وَغَيْرِهِ مَخَافَةَ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ يَوْمَ تُحْشَرُونَ إِلَيْهِ ، أَيْ تُجْمَعُونَ وَتُسَاقُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْحِسَابِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 84. 98 ﴾

(83/215)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾

وهذا قول دقيق يبين تحليل صيد البحر وطعامه ، وتحريم صيد البر على المحرم كما حرّم الصيد في دائرة الحرم على المحرم وغير المحرم ؛ لأن المسألة ليست رتابة حِلٍ ، ولا رتابة حُرمة ، إنما هي خروج عن مراد النفس إلى مراد الله . وصيد البحر هو ما نأخذه بالحيل ونأكله طرياً ، وطعام البحر هو ما يعد ليكون طعاماً بأن نملحه ولذلك قال : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ . ولهذا جاء الحق بطعام البحر معطوفاً على صيد البحر . والشيء لا

يعطف على نفسه ، فإذا ما جاء العطف فهو عطف شيء على شيء آخر ، فالعطف يقتضي المغايرة .

إذن فالمقيم يأكل السمك الطري والذي في سيارة ورحلة فليأخذ السمك ويجففه ويملحه طعاماً له ، مثلما فعل سيدنا موسى مع الحوت . ولكنْ هناك ألوان من الصيد ليست للأكل ، كاللؤلؤ والمرجان والحيوانات التي نستخرجها من البحر لعظامها وأسنانها وخلاف ذلك ، فماذا يكون الموقف ؟ لقد أباح لنا سبحانه الاستمتاع بكل صيد البحر . وجاء هذا التحليل هنا بأسلوب اللف والنشر ، مثلما قال الحق : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [القصص : 73] .

وكلنا يعرف أن الليل للراحة والنهار للتعب . والليل يسلم للنهار ، والنهار يسلم لليل . إذن فالمسكن يعود إلى الليل ، وابتغاء الفضل بالكد يعود إلى النهار . إذن فقد جاء الحكم على طريق اللف والنشر المرتب ، وأوضحت من قبل كيف أن الشاعر العربي قد فعل ذلك فقال :

قلبي وجفني واللسان وخالقي . . . راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ .

(84/215)

فالقلب راض ، والجفن باكٍ ، واللسان شاكر ، والخالق غفور ، ولكن الشاعر جاء بالأحكام منشورة بعد أن لف الكلمات الأربع الأولى . أي أنه طوى المحكوم عليه مع بعضه ثم نشر الأحكام من بعد ذلك . وفي حياتنا – في أثناء السفر – نشتري الهدايا للأبناء ونرتبها حسب ورود الأبناء إلى حياتنا ، أي أننا نلف الهدايا ثم ننشرها من بعد ذلك .

وبعد أن حلل الحق صيد البحر جاء بتحريم صيد البر إن كنا حُرُماً ، وذلك تأكيد جديد على تحريم صيد البر في أثناء الإحرام أو الوجود في الحرم .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ واتقوا الله الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُون ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ؛ لأنكم لستم بقادرين على تحمل عذاب النار ، فالحق – كما قلنا من قبل – له صفات جمال ، وهي التي تأتي بما ييسر وينفع كالبسط ، والمغفرة والرحمة ، وله سبحانه وتعالى صفات القهر مثل : الجبار وشديد العقاب وغيرها . وكل صفة من صفات الحق لها مطلوب . فعندما يذنب الإنسان فالتجلي في صفات الله يكون لصفات الجلال ، ومن جنود صفات الجلال النار .

إذن فإياكم أن تظنوا أنكم انفلتم من الله ، فمساحة الحرية الممنوحة لكل إنسان تقع في المسافة بين قوسين : قوس الميلاد ، وقوس الموت ، فلا أحد يتحكم في ميلاده أو وفاته .

إياك – إذن – أيها الإنسان أن تقع أسير الغرور ؛ لأنك مختار فيهم بين القوسين . ومحكوم

بقهرين ، قهر أنه قد خلقك بدءاً ، وقهر أنك ستعود إليه – سبحانه وتعالى – نهاية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(85/215)

ومن فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾ .

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ وَمُجَاهِدٍ قَالُوا : (صَيْدُهُ مَا صِيدَ طَرِيًّا بِالشِّبَاكِ وَنَحْوِهَا) .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ قَالُوا : (مَا قَذَفَهُ مَيِّتًا) .

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَقَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ قَالُوا : (الْمَمْلُوحُ مِنْهُ) .

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُ يَنْتَظِمُ إبَاحَةَ الصِّنْفَيْنِ مِمَّا صِيدَ مِنْهُ وَمَا لَمْ يُصَدْ ، وَأَمَّا الْمَمْلُوحُ فَقَدْ تَنَاوَلَهُ قَوْلُهُ ﴿ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ

تَكْرَارًا لِمَا انْتَظَمَهُ اللَّفْظُ الْأَوَّلُ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : هَذَا يَدُلُّ عَلَى إبَاحَةِ الطَّافِي لِأَنَّهُ قَدْ انْتَظَمَ مَا صِيدَ مِنْهُ وَمَا لَمْ يُصَدْ وَالطَّافِي لَمْ يُصَدْ .

قِيلَ لَهُ : إنَّمَا تَأَوَّلَ السَّلَفُ قَوْلَهُ : ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ عَلَى مَا قَذَفَهُ الْبَحْرُ ، وَعِنْدَنَا أَنَّ مَا قَذَفَهُ الْبَحْرُ مَيِّتًا فَلَيْسَ بِطَافٍ وَإِنَّمَا الطَّافِي مَا يَمُوتُ فِي الْبَحْرِ حَتْفَ أَنْفِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَالُوا مَا قَذَفَهُ الْبَحْرُ مَيِّتًا ، وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَاتَ فِيهِ ثُمَّ قَذَفَهُ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ أَرَادُوا بِهِ الطَّافِيَ .

(86/215)

قِيلَ لَهُ : وَلَيْسَ كُلُّ مَا قَذَفَهُ الْبَحْرُ مَيِّتًا يَكُونُ طَافِيًا ؛ إذْ جَائِزٌ أَنْ يَمُوتَ فِي الْبَحْرِ بِسَبَبٍ طَرَأَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ مِنْ بَرْدٍ أَوْ حَرٍّ أَوْ غَيْرِهِ فَلَا يَكُونُ طَافِيًا ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا الْكَلَامَ فِي الطَّافِي فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ قَالَ : مَا وَرَاءَ بَحْرِكُمْ هَذَا كُلُّهُ الْبَحْرُ وَطَعَامُهُ الْبُرُّ وَالشَّعِيرُ وَالْحُبُوبُ رَوَاهُ أَشْعَثُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ الْحَسَنِ ؛ فَلَمْ يَجْعَلْ الْبَحْرَ فِي هَذَا

الْمَوْضِعِ بُحُورَ الْمِيَاهِ وَجَعَلَهُ عَلَى مَا اتَّسَعَ مِنْ الْأَرْضِ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي مَا اتَّسَعَ بَحْرًا ، وَمِنْهُ ﴿ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْفَرَسِ الَّذِي رَكِبَهُ لِأَبِي طَلْحَةَ : وَجَدْنَاهُ بَحْرًا ﴾ أَيْ وَاسِعَ الْخَطْوِ .

وَقَدْ رَوَى حَبِيبُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أَنَّهُ أَرَادَ بِالْبَحْرِ الْأَمْصَارَ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْأَمْصَارَ الْبَحْرَ .

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ بَعْضِهِمْ عَنْ عِكْرِمَةَ ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ قَالَ : (الْبَرُّ الْفَيَافِي الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ ، وَالْبَحْرُ الْقُرَى) .

وَالتَّأْوِيلُ الَّذِي رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ غَيْرُ صَحِيحٍ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ بَحْرُ الْمَاءِ وَأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الْبَرَّ وَلَا الْأَمْصَارَ ؛ لِأَنَّهُ عُطِفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ .

(87/215)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ قَالُوا مَنْفَعَةٌ لِلْمُقِيمِ وَالْمُسَافِرِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : هَلْ اقْتَضَى قَوْلُهُ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ إبَاحَةَ صَيْدِ الْأَنْهَارِ ؟ قِيلَ

لَهُ : نَعَمْ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي النَّهْرَ بَحْرًا ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ، وَقَدْ قِيلَ إنَّ الْأَغْلَبَ عَلَى الْبَحْرِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مَاؤُهُ مِلْحًا ، إلَّا أَنَّهُ إذَا جَرَى ذِكْرُهُ عَلَى طَرِيقِ الْجُمْلَةِ انْتَظَمَ الْأَنْهَارَ أَيْضًا .

وَأَيْضًا فَالْمَقْصَدُ فِيهِ صَيْدُ الْمَاءِ ، فَسَائِرُ حَيَوَانِ الْمَاءِ يَجُوزُ لِلْمُحْرِمِ اصْطِيَادُهُ ، وَلَا نَعْلَمُ خِلَافًا فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ يُبِيحُ أَكْلَ جَمِيعِ حَيَوَانِ الْبَحْرِ ؛ وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيهِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي

ذَلِكَ : قَالَ أَصْحَابُنَا : (لَا يُؤْكَلُ مِنْ حَيَوَانِ الْمَاءِ إلَّا السَّمَكُ) ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو إسْحَاقَ الْفَزَارِيّ .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى : (لَا بَأْسَ بِأَكْلِ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْبَحْرِ مِنْ الضُّفْدَعِ وَحَيَّةِ الْمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ) ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ؛ وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ الثَّوْرِيِّ ، قَالَ الثَّوْرِيُّ : (وَيُذْبَحُ) .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ (صَيْدُ الْبَحْرِ كُلُّهُ حَلَالٌ) ، وَرَوَاهُ عَنْ مُجَاهِدٍ .

(88/215)

وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ : (لَيْسَ بِمَيْتَةِ الْبَحْرِ بَأْسٌ وَكَلْبُ الْمَاءِ وَالَّذِي يُقَالُ لَهُ فَرَسُ الْمَاءِ ، وَلَا يُؤْكَلُ إنْسَانُ الْمَاءِ وَلَا خِنْزِيرُ الْمَاءِ) .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " مَا يَعِيشُ فِي الْمَاءِ حِلٌّ كُلُّهُ وَأَخْذُهُ ذَكَاتُهُ ، وَلَا بَأْسَ بِخِنْزِيرِ الْمَاءِ " .

وَاحْتَجَّ مَنْ أَبَاحَ حَيَوَانَ الْمَاءِ كُلَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ وَهُوَ عَلَى جَمِيعِهِ ؛ إذْ لَمْ يُخَصِّصْ شَيْئًا مِنْهُ .

وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى مَا ذَكَرُوا ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ إنَّمَا هُوَ عَلَى إبَاحَةِ اصْطِيَادِ مَا فِيهِ لِلْمُحْرِمِ ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَكْلِهِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ فَخَرَجَ الْكَلَامُ مَخْرَجَ بَيَانِ اخْتِلَافِ حُكْمِ صَيْدِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ عَلَى الْمُحْرِمِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الصَّيْدَ اسْمُ مَصْدَرٍ ، وَهُوَ اسْمٌ لِلِاصْطِيَادِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَقَعُ عَلَى الْمَصِيدِ ، أَلَا تَرَى أَنَّك تَقُولُ : (صِدْت صَيْدًا) ؟ وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مَصْدَرًا كَانَ اسْمًا لِلِاصْطِيَادِ الَّذِي هُوَ فِعْلُ الصَّائِدِ ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ إذَا أُرِيدَ بِهِ ذَلِكَ عَلَى إبَاحَةِ الْأَكْلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ الْمَصِيدِ ، إلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَجَازٌ ؛ لِأَنَّهُ تَسْمِيَةٌ لِلْمَفْعُولِ بِاسْمِ الْفِعْلِ ، وَتَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِاسْمِ غَيْرِهِ إنَّمَا هُوَ اسْتِعَارَةٌ .

وَيَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ

أَبَاحَ جَمِيعَ حَيَوَانِ الْمَاءِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ : السَّمَكُ وَالْجَرَادُ ﴾ ، فَخَصَّ مِنْ الْمَيْتَاتِ هَذَيْنِ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَخْصُوصَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَيْتَاتِ الْمُحَرَّمَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ﴾ هُوَ هَذَانِ دُونَ غَيْرِهِمَا لِأَنَّ مَا عَدَاهُمَا قَدْ شَمِلَهُ عُمُومُ التَّحْرِيمِ بِقَوْلِهِ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ وَذَلِكَ عُمُومٌ فِي مَيْتَةِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .

وَمِنْ أَصْحَابِنَا مَنْ يَجْعَلُ حَصْرَهُ الْمُبَاحَ بِالْعَدَدِ الْمَذْكُورِ دَالَّةً عَلَى حَظْرِهِ مَا عَدَاهُ .

وَأَيْضًا لَمَّا خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ غَيْرِهِمَا مِنْ الْمَيْتَاتِ دَلَّ تَفَرُّقُهُ عَلَى اخْتِلَافِ حَالِهِمَا ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ وَذَلِكَ عُمُومٌ فِي خِنْزِيرِ الْمَاءِ كَهُوَ فِي خِنْزِيرِ الْبَرِّ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّ خِنْزِيرَ الْمَاءِ إنَّمَا يُسَمَّى حِمَارَ الْمَاءِ .

قِيلَ لَهُ : إنْ سَمَّاهُ إنْسَانٌ حِمَارًا لَمْ يَسْلُبْهُ ذَلِكَ اسْمَ الْخِنْزِيرِ الْمَعْهُودِ لَهُ فِي اللُّغَةِ ، فَيَنْتَظِمُهُ عُمُومُ التَّحْرِيمِ .

(90/215)

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ قَالَ : ﴿ ذَكَرَ طَبِيبٌ الدَّوَاءَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرَ الضُّفْدَعَ يَكُونُ فِي الدَّوَاءِ ، فَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِهِ ﴾ وَالضُّفْدَعُ مِنْ حَيَوَانِ الْمَاءِ ، وَلَوْ كَانَ أَكْلُهُ جَائِزًا وَالِانْتِفَاعُ بِهِ سَائِغًا لَمَا نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِهِ ، وَلَمَّا ثَبَتَ تَحْرِيمُ الضُّفْدَعِ بِالْأَثَرِ ، كَانَ سَائِرُ حَيَوَانِ الْمَاءِ سِوَى السَّمَكِ بِمَثَابَتِهِ ، لِأَنَّا لَا نَعْلَمُ أَحَدًا فَرَّقَ بَيْنَهُمَا .

وَاحْتَجَّ الَّذِينَ أَبَاحُوهُ بِمَا رَوَى مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَلِمَةَ الزُّرَقِيِّ عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْبَحْرِ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ .

(91/215)

وَسَعِيدُ بْنُ سَلِمَةَ مَجْهُولٌ لَا يُقْطَعُ بِرِوَايَتِهِ ، وَقَدْ خُولِفَ فِي هَذَا الْإِسْنَادِ ، فَرَوَى يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ ابْنُ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَرَوَاهُ يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ رَبِيعَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ عَنْ بَكْرِ بْنِ سِوَادَةَ عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ الْعَلَوِيِّ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ مَخْشِيٍّ الْمُدْلِجِيِّ عَنْ الْفَرَّاسِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ فِي الْبَحْرِ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ حَنْبَلٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدُوسٍ قَالَا : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ قَالَ : حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ يَعْنِي ابْنُ حَازِمٍ عَنْ ابْنِ مِقْسَمٍ يَعْنِي عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ الْبَحْرِ فَقَالَ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ لَا يَحْتَجُّ بِهَا مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالْحَدِيثِ ، وَلَوْ ثَبَتَ كَانَ مَحْمُولًا عَلَى مَا بَيَّنَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ ﴾ .

(92/215)

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُخَصِّصْ بِذَلِكَ حَيَوَانَ الْمَاءِ دُونَ غَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ مَا يَمُوتُ فِيهِ ، وَذَلِكَ يَعُمُّ ظَاهِرُهُ حَيَوَانَ الْمَاءِ وَالْبَرِّ جَمِيعًا إذَا مَاتَا فِيهِ ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ذَلِكَ ، فَثَبَتَ أَنَّهُ أَرَادَ السَّمَكَ خَاصَّةً مَا سِوَاهُ ؛ إذْ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الْعُمُومَ وَلَا يَصِحُّ اعْتِقَادُهُ فِيهِ .

وَاحْتَجَّ الْمُبِيحُونَ لَهُ بِحَدِيثِ جَابِرٍ فِي جَيْشِ الْخَبَطِ وَأَنَّ الْبَحْرَ أَلْقَى لَهُمْ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا الْعَنْبَرُ ، فَأَكَلُوا مِنْهَا ثُمَّ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ﴿ هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ تُطْعِمُونِيهِ ؟ ﴾ وَهَذَا لَا دَلِيلَ فِيهِ عَلَى مَا قَالُوا

؛ لِأَنَّ جَمَاعَةً قَدْ رَوَوْا هَذَا الْحَدِيثَ وَذَكَرُوا فِيهِ أَنَّ الْبَحْرَ أَلْقَى حُوتًا يُقَالُ لَهُ الْعَنْبَرُ ، فَأَخْبَرُوا أَنَّهَا كَانَتْ حُوتًا وَهُوَ السَّمَكُ ، وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ وَلَا دَلَالَةَ عَلَى إبَاحَةِ مَا سِوَاهُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ .

فَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ (أَنَّهُمَا كَرِهَا لِلْمُحْرِمِ أَكْلَ صَيْدٍ اصْطَادَهُ حَلَالٌ) إلَّا أَنَّ إسْنَادَ حَدِيثِ عَلِيٍّ لَيْسَ بِقَوِيٍّ ، يَرْوِيهِ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ ، وَبَعْضُهُمْ يَرْفَعُهُ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَقِفُهُ بَعْضُهُمْ .

وَرُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَأَبِي قَتَادَةَ وَجَابِرٍ وَغَيْرِهِمْ إبَاحَتُهُ .

(93/215)

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَتَادَةَ وَعَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ : ﴿ أَصَبْت حِمَارَ وَحْشٍ ، فَقُلْت لِرَسُولِ اللَّهِ : إنِّي أَصَبْت حِمَارَ وَحْشٍ وَعِنْدِي مِنْهُ فَضْلَةٌ ، فَقَالَ لِقَوْمٍ : كُلُوا وَهُمْ مُحْرِمُونَ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ ﴿ عَقَرَ أَبُو قَتَادَةَ حِمَارَ وَحْشٍ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ وَهُوَ حَلَالٌ ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ وَمَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

وَرَوَى الْمُطَّلِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْطَبٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَحْمُ صَيْدِ الْبَرِّ حَلَالٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصْطَادُ لَكُمْ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي إبَاحَتِهِ أَخْبَارٌ أُخَرُ غَيْرُ ذَلِكَ كَرِهْت الْإِطَالَةَ بِذِكْرِهَا لِاتِّفَاقِ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ عَلَيْهِ .

وَاحْتَجَّ مَنْ حَظَرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ وَعُمُومُهُ يَتَنَاوَلُ الِاصْطِيَادَ وَالْمَصِيدَ نَفْسَهُ لِوُقُوعِ الِاسْمِ عَلَيْهِمَا ، وَمَنْ أَبَاحَهُ ذَهَبَ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ﴾ إذْ كَانَ يَتَنَاوَلُ الِاصْطِيَادَ وَتَحْرِيمَ الْمَصِيدِ نَفْسِهِ ، فَإِنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ إنَّمَا يُسَمَّى صَيْدًا مَا دَامَ حَيًّا وَأَمَّا اللَّحْمُ فَغَيْرُ مُسَمًّى بِهَذَا الِاسْمِ بَعْدَ الذَّبْحِ ، فَإِنْ سُمِّيَ بِذَلِكَ فَإِنَّمَا يُسَمَّى بِهِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ صَيْدًا ، فَأَمَّا اسْمُ الصَّيْدِ فَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ عَلَى اللَّحْمِ حَقِيقَةً .

(94/215)

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ لَمْ يَنْتَظِمْ اللَّحْمَ أَنَّهُ غَيْرُ مَحْظُورٍ عَلَيْهِ التَّصَرُّفُ فِي اللَّحْمِ بِالْإِتْلَافِ وَالشِّرَى وَالْبَيْعِ وَسَائِرِ وُجُوهِ التَّصَرُّفِ سِوَى الْأَكْلِ عِنْدَ الْقَائِلِينَ بِتَحْرِيمِ أَكْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ عُمُومُ الْآيَةِ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ لَمَا جَازَ لَهُ التَّصَرُّفُ فِيهِ بِغَيْرِ الْأَكْلِ كَهُوَ إذَا كَانَ حَيًّا وَلَوْ كَانَ عَلَى مُتْلِفِهِ إذَا كَانَ مُحْرِمًا ضَمَانُهُ كَمَا يَلْزَمُ ضَمَانَ إتْلَافِ الصَّيْدِ الْحَيِّ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَحُرِّمَ

عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ يَتَنَاوَلُ تَحْرِيمَ سَائِرِ أَفْعَالِنَا فِي الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ بَيْضُ الصَّيْدِ مُحَرَّمٌ عَلَى الْمُحْرِمِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعًا وَلَا مُسَمًّى صَيْدًا ، فَكَذَلِكَ لَحْمُهُ .

قِيلَ لَهُ : لَيْسَ كَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُحْرِمَ غَيْرُ مَنْهِيٍّ عَنْ إتْلَافِ لَحْمِ الصَّيْدِ وَلَوْ أَتْلَفَهُ لَمْ يَضْمَنْهُ ، وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْ إتْلَافِ الْبَيْضِ وَالْفَرْخِ وَيَلْزَمُهُ ضَمَانُهُ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْبَيْضَ وَالْفَرْخَ قَدْ يَصِيرَانِ صَيْدًا مُمْتَنِعًا فَحَكَمَ لَهُمَا بِحُكْمِ الصَّيْدِ ، وَلَحْمُ الصَّيْدِ لَا يَصِيرُ صَيْدًا بِحَالٍ فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ لُحُومِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ ؛ إذْ لَيْسَ بِصَيْدٍ فِي الْحَالِ وَلَا يَجِيءُ مِنْهُ صَيْدٌ .

وَأَيْضًا فَإِنَّا لَمْ نُحَرِّمْ الْفَرْخَ وَالْبَيْضَ بِعُمُومِ الْآيَةِ وَإِنَّمَا حَرَّمْنَاهُمَا بِالِاتِّفَاقِ .

(95/215)

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي حَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ أَنَّهُ أَهْدَى إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ غَيْرِهَا لَحْمَ حِمَارِ وَحْشٍ وَهُوَ مُحْرِمٌ فَرَدَّهُ ، فَرَأَى فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهَةَ ، فَقَالَ : ﴿ لَيْسَ بِنَا رَدٌّ عَلَيْك وَلَكِنَّا حُرُمٌ ﴾ ، وَخَالَفَهُ مَالِكٌ ، فَرَوَاهُ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ

عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ ، أَنَّهُ أَهْدَى إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانَ حِمَارَ وَحْشٍ ،

فَرَدَّهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : ﴿ إنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْك إلَّا أَنَّا حُرُمٌ ﴾ .

قَالَ ابْنُ إدْرِيسَ : فَقِيلَ لِمَالِكٍ : إنَّ سُفْيَانَ يَقُولُ رِجْلُ حِمَارَ وَحْشٍ ؟ فَقَالَ : ذَاكَ غُلَامٌ ذَاكَ غُلَامٌ .

وَرَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ بِإِسْنَادٍ كَرِوَايَةِ مَالِكٍ ، وَقَالَ فِيهِ : إنَّهُ أَهْدَى لَهُ حِمَارَ وَحْشٍ .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ حَبِيبٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ أَهْدَى إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَارَ وَحْشٍ وَهُوَ مُحْرِمٌ ، فَرَدَّهُ وَقَالَ : ﴿ لَوْلَا أَنَّا حُرُمٌ لَقَبِلْنَاهُ مِنْك ﴾ ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَهَاءِ حَدِيثِ سُفْيَانَ ، وَأَنَّ الصَّحِيحَ مَا رَوَاهُ مَالِكٌ لِاتِّفَاقِ هَؤُلَاءِ الرُّوَاةِ عَلَيْهِ .

(96/215)

وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ وَجْهٌ آخَرُ ، وَهُوَ مَا رَوَى أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ أَبِي الشَّعْثَاءِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : ﴿ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مُحْرِمٍ أُتِيَ بِلَحْمِ صَيْدٍ يَأْكُلُ مِنْهُ ، فَقَالَ : احْسِبُوا لَهُ ﴾ قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : يَعْنِي إنْ كَانَ صِيدَ قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ فَيَأْكُلُ وَإِلَّا

فَلَا .

وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ إذَا صِيدَ مِنْ أَجْلِهِ أَوْ أَمَرَ بِهِ أَوْ أَعَانَهُ أَوْ دَلَّ عَلَيْهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ الْمَحْظُورَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(97/215)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ : عَامٌّ فِي الْمُحِلِّ وَالْمُحْرِمِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنْ جِهَةِ التَّقْسِيمِ وَالتَّنْوِيعِ قَبْلَ هَذَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ الْبَحْرِ ﴾ هُوَ كُلُّ مَاءٍ كَثِيرٍ ، وَأَصْلُهُ الِاجْتِمَاعُ ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ الْمَدَائِنُ بِحَارًا .

وَيُقَالُ لِلْبَلْدَةِ : الْبَحْرَةُ وَالْبُحَيْرَةُ ؛ لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا ؛ وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ ظَهَرَ

الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ : إِنَّ الْبَحْرَ الْبِلَادُ ، وَالْبَرَّ الْفَيَافِي وَالْقِفَارُ .

وَفَائِدَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ بَرًّا وَبَحْرًا وَهَوَاءً ، وَجَعَلَ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الثَّلَاثَةِ عِمَارَةً ، فَعِمَارَةُ الْهَوَاءِ الطَّيْرُ ، وَعِمَارَةُ الْمَاءِ الْحِيتَانُ ، وَعِمَارَةُ الْأَرْضِ سَائِرُ الْحَيَوَانِ ، وَجَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ مُبَاحًا لِلْإِنْسَانِ عَلَى شُرُوطٍ وَتَنْوِيعٍ ، هِيَ مُبَيَّنَةٌ فِي مَسَائِلِ الْأَحْكَامِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ : وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : مَا صِيدَ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى تَسْمِيَةِ الْمَفْعُولِ بِالْفِعْلِ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

الثَّانِي : هُوَ حِيتَانُهُ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

(98/215)

الثَّالِثُ : السَّمَكُ الْجَرِيُّ ؛ قَالَهُ ابْنُ جُبَيْرٍ .

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ تَرْجِعُ إِلَى قَوْلٍ وَاحِدٍ ، وَهِيَ حِيتَانُهُ تَفْسِيرًا ، وَيَرْجِعُ مِنْ طَرِيقِ الِاشْتِقَاقِ إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ مَا حُولَ أَخْذُهُ بِحِيلَةٍ وَعَمَلٍ ، وَيَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِهِ : مَا صِيدَ مِنْهُ ، وَهُوَ أَصْلُ الْمَسْأَلَةِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : " أُحِلَّ لَكُمْ أَخْذُ مَا فِي الْبَحْرِ مِنْ الْحِيتَانِ بِالْمُحَاوَلَةِ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ طَعَامُهُ ، وَهُوَ مَا أُخِذَ بِغَيْرِ مُحَاوَلَةٍ " وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : وَالَّذِي يُؤْخَذُ بِغَيْرِ

مُحَاوَلَةٍ وَلَا حِيلَةَ عَلَى قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَا طَفَا عَلَيْهِ مَيْتًا .

وَالثَّانِي : مَا جَزَرَ عَنْهُ الْمَاءُ ، فَأَخَذَهُ النَّاسُ .

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ : عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : مَا جَزَرَ عَنْهُ .

وَالثَّانِي : مَا طَفَا عَلَيْهِ ؛ قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَقَتَادَةُ ، وَهِيَ رِوَايَةُ مَعْنٍ عَنْ سُفْيَانَ ، قَالَ : صَيْدُ الْبَحْرِ مَا صِيدَ ، وَطَعَامُهُ مَيْتَتُهُ .

الثَّالِثُ : مَمْلُوحُهُ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا أَلْقَاهُ الْبَحْرُ أَوْ جَزَرَ عَنْهُ فَكُلُوهُ ، وَمَا مَاتَ فِيهِ فَطَفَا فَلَا تَأْكُلُوهُ ﴾ .

وَقَالَ أَبُو دَاوُد : الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى جَابِرٍ .

وَرَوَى مَالِكٌ وَالنَّسَائِيُّ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الْبَحْرِ : هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ .

(99/215)

وَهَذَا نَصٌّ لَا غُبَارَ عَلَيْهِ ، وَلَا كَلَامَ بَعْدَهُ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَتَعَلَّقَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ الَّذِينَ قَالُوا : إنَّ مَيْتَةَ الْبَحْرِ

حَرَامٌ بِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ﴾ وَهِيَ كُلُّ حَيَوَانٍ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ مِنْ غَيْرِ ذَكَاةٍ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَخُصُّ هَذَا الْعُمُومَ ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ قَالَ بِهِ الْخَلِيفَتَانِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَثَبَتَ بِحَدِيثِ جَابِرٍ ﴿ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَكْلِهِمْ الْحُوتَ الْمَيِّتَ فِي غَزَاةِ سَيْفِ الْبَحْرِ ، وَمِنْ ادِّخَارِهِمْ مِنْهُ جُزْءًا ، حَتَّى لَقُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَكَلَ مِنْهُ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذِهِ الْآيَةُ إنَّمَا سِيقَتْ لِبَيَانِ مَا يُحَرَّمُ بِالْإِحْرَامِ ، وَمَا لَا يُحَرَّمُ بِهِ ، لَا لِبَيَانِ مَا حَرُمَ بِنَفْسِهِ .

وَإِنَّمَا بَيَانُ هَذِهِ الْحُرْمَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ﴾ إلَى آخِرِهَا .

وَالْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ السَّمَكُ الْمَذْكُورُ .

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ .

وَهَذِهِ عُمْدَةُ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ .

(100/215)

قُلْنَا : هَذَا قَلْبُ الْمَبْنَى ، وَإِفْسَادُ الْمَعْنَى لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا إِنَّمَا جَاءَتْ لِبَيَانِ تَحْلِيلِ الصَّيْدِ ، وَهُوَ أَخْذُ مَا لَا قُدْرَةَ لِلْعَبْدِ عَلَيْهِ ، وَلَا أُنْسَ لَهُ بِهِ ، وَصِفَةُ تَذْكِيَتِهِ حَتَّى يَحِلَّ ، وَلِهَذَا قُلْنَا : إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَاطَبَ بِهِ الْمُحِلِّينَ ، فَبَيَّنَ رُكْنَ التَّحْلِيلِ فِي ذَلِكَ وَأَخْذَهُ بِالْقَهْرِ وَالْحِيلَةِ فِي كِبَارِهِ ، وَبِالْيُسْرِ فِي صِغَارِهِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ تَحْلِيلَ صَيْدِ الْبَحْرِ فِي بَابِهِ ، وَزَادَ مَا لَا يُصَادُ مِنْهُ ؛ وَإِنَّمَا يَرْمِيهِ الْبَحْرُ رَمْيًا ، ثُمَّ قَيَّدَ تَحْرِيمَ صَيْدِ الْبَرِّ خَاصَّةً بِالْإِحْرَامِ ، وَبَقِيَ الْبَاقِي عَلَى أَصْلِ الْإِبَاحَةِ .

فَأَمَّا الْمُحَرَّمَاتُ وَأَجْنَاسُهَا فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ﴾ فَهُوَ عَامٌّ خَصَّصَهُ : هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ، فِي مَيْتَةِ الْمَاءِ خَاصَّةً .

وَأَمَّا حَدِيثُ : ﴿ أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ ﴾ ؛ فَلَمْ يَصِحَّ فَلَا يَلْزَمُنَا عَنْهُ جَوَابٌ ، ثُمَّ نَقُولُ : إِنَّهُ لَوْ كَانَ صَحِيحًا لَكَانَ قَوْلُهُ : السَّمَكُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ مَا فِي الْبَحْرِ ، اسْمٌ عَامٌّ .

وَقَدْ يُطْلَقُ بِالْعُرْفِ فِي بَعْضِهَا فَيُحْمَلُ عَلَى أَصْلِ الْإِطْلَاقِ ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِمْ عِنْدَنَا لِبَعْضِ الْحُوتِ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ سَمَكٌ دُونَ سَائِرِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : لِلْمُقِيمِ وَالْمُسَافِرِ ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ " أَبِي عُبَيْدَةَ : إنَّهُمْ أَكَلُوهُ وَهُمْ مُسَافِرُونَ ، وَأَكَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُقِيمٌ " فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ حَلَالٌ لِمَنْ أَقَامَ ، كَمَا أَحَلَّهُ فِي حَدِيثِ أَبِي عُبَيْدَةَ لِمَنْ سَافَرَ .

الثَّانِي : إنَّ السَّيَّارَةَ هُمْ الَّذِينَ يَرْكَبُونَهُ كَمَا ثَبَتَ فِي أَصْلِ الْحَدِيثِ : ﴿ أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ الْعَرَكِيُّ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَمَعَنَا الْقَلِيلُ مِنْ الْمَاءِ ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا ، أَفَنَتَوَضَّأُ لَهُ بِمَاءِ الْبَحْرِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : فَلَوْ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " نَعَمْ " لَمَا جَازَ الْوُضُوءُ بِهِ إلَّا عِنْدَ خَوْفِ الْعَطَشِ لِأَنَّ الْجَوَابَ مُرْتَبِطٌ بِالسُّؤَالِ .

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْتَدَأَ بِتَأْسِيسِ الْحُكْمِ وَبَيَانِ الشَّرْعِ ؛ فَقَالَ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ .

فَزَادَ فِي جَوَابِ السَّائِلِ جَوَابَيْنِ : أَحَدُهُمَا : قَوْلُهُ : ﴿ هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ﴾ ابْتِدَاءً .

الثَّانِي : ﴿ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ : قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ التَّحْرِيمَ لَيْسَ بِصِفَةٍ لِلْأَعْيَانِ ، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالٍ ؛ فَمَعْنَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ إنْ كَانَ الصَّيْدُ الْفِعْلَ فَمَعْنَاهُ مَعَ الِاصْطِيَادِ كُلِّهِ عَلَى أَنْوَاعِهِ ، وَإِنْ كَانَ مَعْنَى الصَّيْدِ الْمَصِيدَ عَلَى مَعْنَى تَسْمِيَةِ الْمَفْعُولِ بِالْفِعْلِ ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ : حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ، وَهَذَا مِنْ غَرِيبِ الْمُتَعَلِّقَاتِ لِلتَّكْلِيفِ بِالْأَفْعَالِ ، وَتَفْسِيرُ وَجْهِ التَّعَلُّقِ ؛ فَصَارَ الصَّيْدُ فِي الْبَرِّ فِي حَقِّ الْمُحْرِمِ مُمْتَنِعًا بِكُلِّ وَجْهٍ ، وَكَانَتْ إضَافَتُهُ إلَيْهِ كَإِضَافَةِ الْخَمْرِ إلَى الْمُكَلَّفِينَ وَالْمَيْتَةِ ؛ إذْ إنَّ التَّحْرِيمَ لَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمُحَرَّمَاتِ .

وَقَدْ رَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ " أَبِي قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إذَا كُنَّا بِالْقَاحَةِ وَمِنَّا الْمُحْرِمُ وَمِنَّا غَيْرُ الْمُحْرِمِ إذْ أَبْصَرْت أَصْحَابِي يَتَرَاءَوْنَ ، فَنَظَرْت فَإِذَا حِمَارُ وَحْشٍ ، فَأَسْرَجْت فَرَسِي ، وَأَخَذْت رُمْحِي ، ثُمَّ رَكِبْت ، فَسَقَطَ سَوْطِي ، فَقُلْت لِأَصْحَابِي وَكَانُوا مُحْرِمِينَ : نَاوِلُونِي السَّوْطَ .

فَقَالُوا : وَاَللَّهِ لَا نُعِينُك عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ، فَنَزَلْت فَتَنَاوَلْته ، ثُمَّ رَكِبْت فَأَدْرَكْته مِنْ خَلْفِهِ ، وَهُوَ وَرَاءَ أَكَمَةٍ ، فَطَعَنْته بِرُمْحِي ، فَعَقَرْته ، فَأَتَيْت بِهِ أَصْحَابِي ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُوهُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا نَأْكُلُهُ .

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَنَا ، فَحَرَّكْت دَابَّتِي فَأَدْرَكْته ، فَقَالَ : هُوَ حَلَالٌ ، فَكُلُوهُ ﴾ .

وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : ﴿ هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَوْ أَشَارَ إلَيْهِ بِشَيْءٍ ؟ قَالُوا : لَا .

قَالَ : فَكُلُوا .

هَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ ؟ قَالُوا : مَعَنَا رِجْلُهُ .

قَالَ : فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فَأَكَلَهَا ﴾ .

وَرَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ " الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيِّ أَنَّهُ ﴿ أَهْدَى إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانَ ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ .

قَالَ : فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا فِي وَجْهِهِ مِنْ الْكَرَاهَةِ قَالَ : إنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْك إلَّا أَنَّا حُرُمٌ ﴾ .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ

حَلَالٌ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ ﴾ .

قَالَ أَبُو عِيسَى : هُوَ أَحْسَنُ حَدِيثٍ فِي الْبَابِ .

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ عُثْمَانَ فَأُتِيَ عُثْمَانُ بِلَحْمِ صَيْدٍ صَادَهُ حَلَالٌ ، فَأَكَلَ عُثْمَانُ ، وَأَبَى عَلِيٌّ أَنْ يَأْكُلَ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا صِدْنَا وَلَا أَمَرْنَا وَلَا أَشَرْنَا .

فَقَالَ عَلِيٌّ : وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا .

(104/215)

وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : إِنَّمَا صِيدَ قَبْلَ أَنْ نُحْرِمَ ؛ فَقَالَ عَلِيٌّ : وَنَحْنُ قَدْ بَدَأْنَا وَأَهْلَلْنَا وَنَحْنُ حَلَالٌ ، أَفَيَحِلُّ لَنَا الْيَوْمَ ؟ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَرِهَ لَحْمَ الصَّيْدِ وَهُوَ مُحْرِمٌ ، أُخِذَ لَهُ أَوْ لَمْ يُؤْخَذْ ، وَإِنْ صَادَهُ الْحَلَالُ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلُهُ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَطَاوُسٍ مِثْلُهُ .

وَهَذَا يَنْبَنِي عَلَى أَنَّ الْمُحَرَّمَ الْفِعْلُ بِقَوْلِهِ صَيْدُ الْبَرِّ ، أَوْ الْمُحَرَّمَ مُضْمَرٌ ؛ وَالْمُرَادُ بِالصَّيْدِ الْمَصِيدُ ، وَالَّذِي ثَبَتَ عَلَى الدَّلِيلِ أَنَّ حُكْمَ التَّحْرِيمِ إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِالْمَصِيدِ لَا بِالصَّيْدِ ؛ فَيَكُونُ التَّحْرِيمُ يَتَعَلَّقُ بِتَنَاوُلِ الْحِيلَةِ فِي تَحْصِيلِهِ أَوْ بِقَصْدِ تَنَاوُلِ الْحِيلَةِ فِي تَحْصِيلِهِ لَهُ ، بَيَّنَ ذَلِكَ

حَدِيثُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ ﴾ ؛ فَإِذَا لَمْ يَتَنَاوَلْ الْمُحْرِمُ صَيْدَهُ بِنَفْسِهِ وَلَا قَصَدَ بِهِ حَلَّ لَهُ أَكْلُهُ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَخْذُهُ وَلَا مِلْكُهُ ؛ ﴿ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّهُ عَلَى الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا ﴾ ، وَالْمُحْرِمُ لَا يَمْلِكُ الصَّيْدَ .

وَقِيلَ : إنَّمَا رَدَّهُ لِأَنَّهُ صِيدَ لَهُ ، وَيَكُونُ بِذَلِكَ دَاخِلًا فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إذَا لَمْ يُعَنْ فِيهِ بِدَلَالَةٍ وَلَا سِلَاحٍ جَازَ لَهُ أَكْلُهُ ، وَإِنْ كَانَ صِيدَ مِنْ أَجْلِهِ .

وَالْحَدِيثُ الْمُتَقَدِّمُ يَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدْ لَكُمْ ﴾ .

(105/215)

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : إذَا أَحْرَمَ وَفِي مِلْكِهِ صَيْدٌ : فَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : لَا يَحِلُّ لَهُ إمْسَاكُهُ وَيَلْزَمُهُ إرْسَالُهُ .

وَالْآخَرُ يُمْسِكُهُ حَتَّى يَحِلَّ فِي تَفْصِيلٍ بَيَانُهُ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ .

وَلِلشَّافِعِيِّ قَوْلَانِ مِثْلُهُمَا .

وَجْهُ الْقَوْلِ بِإِرْسَالِهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ .

وَهَذَا عَامٌّ فِي [مَنْعِ] الْمِلْكِ وَالتَّصَرُّفِ كُلِّهِ .

وَجْهُ الْقَوْلِ بِإِمْسَاكِهِ أَنَّهُ مَعْنًى يَمْتَنِعُ مَعَ ابْتِدَاءِ الْإِحْرَامِ ، فَلَا يَمْتَنِعُ مِنْ اسْتِدَامَةِ مِلْكِهِ ؛ أَصْلُهُ النِّكَاحُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : فَإِنْ صَادَهُ الْحَلَالُ فِي الْحِلِّ ، فَأَدْخَلَهُ فِي الْحَرَمِ جَازَ لَهُ التَّصَرُّفُ فِيهِ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ ذَبْحِهِ وَأَكْلِ لَحْمِهِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَجُوزُ ؛ وَدَلِيلُنَا أَنَّهُ مَعْنًى يَفْعَلُ فِي الصَّيْدِ ؛ فَجَازَ فِي الْحَرَمِ الْحَلَالُ كَالْإِمْسَاكِ وَالشِّرَاءِ ، وَلَا خِلَافَ فِيهِمَا .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَلِأَنَّ الْمَقَامَ فِي الْحَرَمِ يَدُومُ ، وَالْإِحْرَامُ يَنْقَطِعُ ، فَلَوْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ ذَلِكَ فِي الْحَرَمِ لَأَدَّى إلَى مَشَقَّةٍ عَظِيمَةٍ ، فَسَقَطَ التَّكْلِيفُ عَنْهُ فِيهِ لِذَلِكَ .

وَهَذَا مِنْ بَابِ تَخْصِيصِ الْعُمُومِ بِالْمَصَالِحِ ، وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَالْمَصْلَحَةُ مِنْ أَقْوَى أَنْوَاعِ الْقِيَاسِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : إذَا كَانَ الْمُحْرِمُ مُحْرِمًا بِدُخُولِ حَرَمِ الْمَدِينَةِ لَمْ يَجُزْ لَهُ الِاصْطِيَادُ فِيهِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ .

وَدَلِيلُنَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ بِمِثْلِ مَا حَرَّمَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ ؛ لَا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ صَحِيحٌ صَرِيحٌ ، خَرَّجَهُ الْأَئِمَّةُ : وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : إِذَا صَادَ بِالْمَدِينَةِ كَانَ آثِمًا وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ جَزَاءٌ إِنْ قَتَلَهُ بِهَا .

وَقَالَ سَعْدٌ : جَزَاؤُهُ أَخْذُ سَلَبِهِ .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ : عَلَيْهِ الْجَزَاءُ .

أَمَّا قَوْلُ سَعْدٍ : فَإِنَّ مُسْلِمًا خَرَّجَ عَنْهُ ﴿ أَنَّ رَجُلًا صَادَ بِالْمَدِينَةِ فَلَقِيَهُ سَعْدٌ فَأَخَذَ سَلَبَهُ فَكُلِّمَ فِي رَدِّهِ ، فَقَالَ : مَا كُنْتُ لِأَرُدَّ شَيْئًا نَفَّلَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ ؛ وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِسَعْدٍ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَقُلْ مَنْ لَقِيَ صَائِدًا بِالْمَدِينَةِ فَلْيَسْتَلِبْهُ ثِيَابَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ .

وَأَمَّا ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ فَاحْتَجَّ بِأَنَّهُ حَرَمٌ ، فَكَانَ الْجَزَاءُ عَلَى مَنْ قَتَلَ فِيهِ صَيْدًا ، كَمَا يُفْعَلُ فِي حَرَمِ مَكَّةَ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : لَوْ كَانَ حَرَمُ الْمَدِينَةِ كَحَرَمِ مَكَّةَ مَا جَازَ دُخُولُهَا إِلَّا بِالْإِحْرَامِ ، فَافْتَرَقَا .

وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَزَاءَ الْمُتَعَدِّي فِيهِ مَا رُوِيَ أَنَّ : ﴿ مَنْ أَحْدَثَ أَوْ

آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ﴾ .

(107/215)

فَأَرْسَلَ الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ ، وَلَمْ يَذْكُرْ الْكَفَّارَةَ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : إذَا دَلَّ الْحَرَامُ حَلَالًا عَلَى صَيْدٍ فَقَتَلَهُ الْحَلَالُ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ عُلَمَاؤُنَا ؛ وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ لَا ضَمَانَ عَلَيْهِ ؛ وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ أَشْهَبُ : يَلْزَمُهُ الضَّمَانُ ؛ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ .

وَالْمَسْأَلَةُ غَامِضَةُ الْمَأْخَذِ بَعِيدَةُ الْغَوْرِ ، وَلِعُلَمَائِنَا فِيهَا ثَلَاثَةُ طُرُقٍ بَيَّنَّاهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

أَقْوَاهَا طَرِيقُ مَنْشَأِ غَوْرٍ .

وَقَالَ الْجَوْنِيُّ : الضَّمَانُ إنَّمَا يَجِبُ فِي الشَّرِيعَةِ بِأَحَدِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : إمَّا بِإِتْلَافٍ مُبَاشِرٍ ، كَالْقَتْلِ .

أَوْ بِتَلَفٍ تَحْتَ يَدٍ عَادِيَةٍ ، كَمَا لَوْ مَاتَ الْحَيَوَانُ فِي يَدِ الْغَاصِبِ .

أَوْ بِسَبَبٍ يَتَعَلَّقُ بِالْفَاعِلِ ؛ كَحَفْرِ الْبِئْرِ فِي جِهَةِ التَّعَدِّي ؛ وَلَمْ يُوجَدْ هَاهُنَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ،

فَبَطَلَ تَعَلُّقُ الْجَزَاءِ بِهِ .

وَعَوَّلَ مَنْ أَوْجَبَ الْجَزَاءَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ الْمُتَقَدِّمِ : ﴿ هَلْ أَشَرْتُمْ ؟ هَلْ أَعَنْتُمْ ؟ ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْجَزَاءِ لَوْ أَشَارَ أَوْ أَعَانَ عَلَيْهِ .

قُلْنَا : إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ ؛ فَأَمَّا عَلَى وُجُوبِ الْجَزَاءِ فَلَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي الْحَيَوَانِ الَّذِي يَكُونُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، هَلْ يَحِلُّ صَيْدُهُ لِلْمُحْرِمِ لِأَنَّهُ مِنْ حَيَوَانِ الْبَحْرِ أَمْ لَا يَحِلُّ لِأَنَّهُ مِنْ حَيَوَانِ الْبَرِّ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ .

(108/215)

وَالصَّحِيحُ مَنْعُهُ ؛ لِأَنَّهُ تَعَارَضَ فِيهِ دَلِيلَانِ : دَلِيلُ تَحْلِيلٍ ، وَدَلِيلُ تَحْرِيمٍ ، فَغَلَّبْنَا دَلِيلَ التَّحْرِيمِ احْتِيَاطًا ؛ وَاَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : قَالَ أَبُو يُوسُفَ : مَا أُخْرِجَ مِنْ اللُّؤْلُؤِ وَالْعَنْبَرِ مِنْ الْبَحْرِ يُخَمَّسُ ، وَهُوَ مَذْهَبُ عُمَرَ ؛ لِأَنَّ الْبَحْرَ شَبِيهُ الْبَرِّ وَقَسِيمُهُ وَنَظِيرُهُ ؛ إذْ الدُّنْيَا بَرٌّ وَبَحْرٌ ، فَنَقُولُ : فَائِدَةُ أُخْرِجَتْ مِنْ الْبَاطِنِ فَوَجَبَ فِيهِ الْخُمُسُ ، أَصْلُهُ الرِّكَازُ ، أَوْ لِأَنَّهُ أَحَدُ قِسْمَيْ الْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ، فَجَازَ أَنْ يَجِبَ حَقُّ اللَّهِ فِيمَا يُوجَدُ فِي بَاطِنِهِ ، أَصْلُهُ الرِّكَازُ .

وَالتَّعْلِيلُ لِلْبَحْرِ .

وَدَلِيلُنَا مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : " لَا زَكَاةَ فِي الْعَنْبَرِ ، إنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَقْذِفُهُ الْبَحْرُ " وَلِأَنَّهُ مِنْ فَوَائِدِ الْبَحْرِ ، فَلَا يَجِبُ فِيهِ حَقٌّ أَصْلُهُ السَّمَكُ .

وَهَذَا الْفِقْهُ صَحِيحٌ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَحْرَ لَمْ يَكُنْ فِي أَيْدِي الْكَفَرَةِ فَتَجْرِي فِيهِ الْغَنِيمَةُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُبَاحِ الْمُطْلَقِ ، كَالصَّيْدِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَقُولُونَ فِي ذَهَبٍ يُوجَدُ فِي الْبَحْرِ ؟ قُلْنَا : لَا رِوَايَةَ فِيهِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ يَجِبُ ؛ لِأَنَّ الْبَحْرَ لَيْسَ بِمَعْدِنٍ لِلذَّهَبِ ، فَوُجُودُهُ فِيهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّيُولَ قَذَفَتْهُ فِيهِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْحَنَفِيَّةِ : يَحْتَمِلُ أَلَّا يَجِبَ فِيهِ شَيْءٌ لِأَنَّ فِي الْبَحْرِ جِبَالًا لَا يَدَ لِأَحَدٍ عَلَيْهَا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(109/215)

ومن فوائد الشيخ الشنقيطى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر ﴾ الآية .

ظاهر عموم هذه الآية الكريمة يشمل إباحة صيد البحر للمحرم بحج أو عمرة ، وهو كذلك ، كما بينه تخصيصه تعالى تحريم الصيد على المحرم بصيد البر في قوله : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ [المائدة : 96] ، فإنه يفهم منه أن صيد البحر لا يحرم على المحرم ، كما هو ظاهر .

مسائل تتعلق بالاصطياد في الإحرام أو في الحرم

المسألة الأولى : اجمع العلماء على منع صيد البر للمحرم بحج أو عمرة .

وهذا الإجماع في مأكول اللحم الوحشي كالظبي والغزال ونحو ذلك ، وتحرم عليه الإشارة إلى الصيد والدلالة عليه ، لما ثبت في الصّحيحين من حديث أبي قتادة رضي الله عنه ، " أنه كان مع قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو حَلالٌ وهم مُحْرِمُونَ ، ورسول الله صلى الله لعيه وسلم محرم أمَامهُمْ ، فَأَبْصَروا حمَاراً وَحشِياً وأبو قتادة مشغول يخْصِف نعله فلم يؤذنوه ، وأحبوا لو أنه أبصره فأبصره فأسرج فرسه . ثم ركب ونسي سوطه ورمحه فقال لهم : ناولوني السوط والرمح ، فقالوا : والله لا نعينك عليه ، فغضب فنزل فأخذهما فركِبَ فَشدَّ على الحمار فَعقَرَهُ ثم جاء به ، وقد مات فوقعوا فيه يأكلونه ، ثم إنهم شكوا في أكلهم إيَّاه وهم حُرم ، فأدركوا النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فسألوه فَقَرَّرَهُم على اكله ، وناوله أبو قتادة عضُدَ الحمار الوحشي ، فأكل منها صلى الله عليه وسلم " ، ولمسلم " هل أشار إليه إنسان أو أمره بشيء ، قالوا : لا ، قال : فكلوه " .

وللبخاري " هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها ، أو أشار إليها قالوا : لا ، قال : فكلوا ما بقى من لحمها " ، وقد أجمع جميع العلماء على أن ما صاده محرم لا يجوز أكله للمحرم الذي صاده ، ولا لمحرم غيره ، ولا لحلال غير محرم لأنه ميتة .

(110/215)

واختلف العلماء في أكل المحرم مما صاده حلال على ثلاثة أقوال ، قيل : لا يجوز له الأكل مطلقاً ، وقيل : يجوز مطلقاً ، وقيل : بالتفصيل بين ما صاده لأجله ، وما صاده لا لأجله فيمنع الأول دون الثاني .

واحتج أهل القول الأول بحديث الصعب بن جثامة رضي الله عنه " أنه أهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حماراً وحشياً وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه ، فلما رأى ما في وجهه قال : " إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم " متفق عليه ، ولأحمد ومسلم " لحم حمار وحشي " .

واحتجوا أيضاً بحديث زيد بن أرقم رضي الله عنه " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أهدي له عضو من لحم صيد فرده ، وقال : " إنا لا نأكله إنا حرم "

أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي .

واحتجوا أيضاً بحديث زيد بن أرقم رضي الله عنه " أن النَبي صلى الله عليه وسلم أهدي له عضو من لحم صيد فرده ، وقال : " إنا لا نأكله إنا حرم " أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي .

واحتجوا أيضاً بعموم قوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ [المائدة : 96] ، ويروى هذا القول عن علي وابن عباس وابن عمر ، والليث والثوري وإسحاق وعائشة وغيرهم .

واحتج من قال : بجواز أكل المحرم ما صاده الحلال مطلقاً بعموم الأحاديث الواردة بجواز أكل المحرم من صيد الحلال ، كحديث طلحة بن عبيد الله عند مسلم ، والإمام أحمد " أنه كان في قوم محرمين فأهدي لهم طير ، وطلحة راقد ، فمنهم من أكل ومنهم من تورع فلم يأكل فلما استيقظ طلحة رضي الله عنه وفق من أكله وقال : " أكلناه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

(111/215)

وكحديث البهزي واسمه زيد بن كعب ، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم في حمار وحشي عقير في بعض وادي الروحاء وهو صاحبه " شأنكم بهذا الحمار ، فأمر صلى الله عليه

وسلم أبا بكر فقسمه في الرفاق وهم محرمون " ، أخرجه الإمامان مالك في موطئه وأحمد في مسنده ، والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره ، كما قاله ابن حجر ، وممن قال بإباحته مطلقاً أبو حنيفة وأصحابه .

قال مقيده ، عفا الله عنه : أظهر الأقوال وأقواها دليلاً ، هو القول المفصل بين ما صيد لأجل المحرم ، فلا يحل له ، وبين ما صاده الحلال ، لا لأجل المحرم ، فإنه يحل له .

والدليل على هذا أمران :

الأول : أن الجمع بين الأدلة واجب متى ما أمكن ، لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ، ولا طريق للجمع إلا هذه الطريق .

ومن عدل عنها لا بد أن يلغي نصوصاً صحيحة .

الثاني : أن جابراً رضي الله عنه ، روى عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " صيد البر لكم حلال ، وأنتم حرم ما لم تصيدوه ، أو يصد لكم " ، رواه الإمام أحمد وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي ، والدارقطني .

وقال الشافعي : هذا أحسن حديث روي في هذا الباب وأقيس ، فإن قيل في غسناد هذا الحديث ، عمرو بن أبي عمرو ، مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب ، عن مولاه المطلب ، عن جابر ، وعمرو مختلف فيه ، قال فيه النسائي : ليس بالقوي في الحديث ، وإن كان قد روى عنه مالك .

وقال الترمذي في مولاه المطلب أيضاً : لا يعرف له سماع من جابر ، وقال فيه الترمذي أيضاً في موضع آخر قال محمد : لا أعرف له سماعاً من أحد من الصحابة ، إلا قوله حدثني من شهد خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(112/215)

فالجواب أن هذا كله ليس فيه ما يقتضي رد هذا الحديث ، لأن عمراً المذكور ثقة ، وهو من رجال البخاري ومسلم ، وممن روى عنه مالك بن أنس ، وكل ذلك يدل على أنه ثقة ، وقال فيه ابن حجر في (التقريب) : ثقة ربما وهم ، وقال فيه النووي في (شرح المهذب) : أما تضعيف عمرو بن أبي عمرو فغير ثابت ، لأن البخاري ، ومسلماً رويا له في صحيحيهما ، واحتجا به ، وهما القدوة في هذا الباب .

وقد احتج به مالك ، وروى عنه وهو القدوة ، وقد عرف من عادته أنه لا يروي في كتابه إلا عن ثقة ، وقال أحمد بن حنبل فيه : ليس به بأس ، وقال ابو زرعة : هو ثقة ، وقال أبو حاتم : لا بأس به .

وقال ابن عدي : لا بأس به ، لأن مالكاً روى عنه ، ولا يروي مالك إلا عن صدوق ثقة ، قلت : وقد عُرِف أن الجرح لا يثبت إلا مفسراً ، ولم يفسره ابن معين ، والنسائي بما يثبت

تضعيف عمرو المذكور ، وقول الترمذي : إن مولاه المطلب بن عبد الله بن حنطب ، لا يعرف له سماع من جابر ، وقول البخاري للترمذي : لا أعرف له سماعاً من أحد من الصحابة إلا قوله : حدثني من شهد خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس في شيء من ذلك ما يقتضي رد روايته ، لما قدمنا في سورة النساء من أن التحقيق هو الاكتفاء بالمعاصرة .

ولا يلزم ثبوت اللقي ، وأحرى ثبوت السماع ، كما أوضحه الإمام مسلم بن الحجاج – رحمه الله تعالى – في مقدمة صحيحه ، بما لا مزيد عليه مع أن البخاري ذكر في كلامه هذا الذي نقله عنه الترمذي ، أن المطلب مولى عمرو بن أبي عمرو المذكور ، صرح بالتحديث ممن سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو تصريح بالسماع من بعض الصحابة بلا شك .

(113/215)

وقال النووي في (شرح المهذب) : وأما إدراك المطلب لجابر . فقال ابن أبي حاتم ، وروى عن جابر قال : ويشبه أن يكون أدركه ، هذا هو كلام ابن أبي حاتم ، فحصل شك في إدراكه ، ومذهب مسلم بن الحجاج الذي ادعى في مقدمة صحيحه الإجماع فيه أنه لا

يشترط في اتصال الحديث اللقاء ، بل يكتفي بإمكانه ، والإمكان حاصل قطعاً ، ومذهب علي بن المديني ، والبخاري ، والأكثرين اشتراط ثبوت اللقاء ، فعلى مذهب مسلم الحديث متصل ، وعلى مذهب الأكثرين يكون مرسلاً لبعض كبار التابعين ، وقد سبق أن مرسل التابعي الكبير يحتج به عندنا إذا اعتضد بقول الصحابة . أو قول أكثر العلماء ، أو غير ذلك مما سبق .

وقد اعتضد هذا الحديث ، فقال به من الصحابة رضي الله عنهم ، من سنذكره في فرع مذاهب العلماء اه ، كلام النووي ، فظهرت صحة الاحتجاج بالحديث المذكور على كل التقديرات ، على مذاهب الأئمة الأربعة .

لأن الشافعي منهم هو الذي لا يحتج بالمرسل ، وقد عرفت احتجاجه بهذا الحديث على تقدير إرساله .

قال مقيده عفا الله عنه : نعم يشترط في قبول رواية (المدلس) التصريح بالسماع والمطلب المذكور مدلس ، لكن مشهور مذهب مالك ، وأبي حنيفة وأحمد – رحمهم الله تعالى – صحة الاحتجاج بالمرسل ، ولا سيما إذا اعتضد بغيره كما هنا ، وقد علمت من كلام النووي موافقة الشافعين .

واحتج من قال بأن المرسل حجة بأن العدل لا يحذف الواسطة مع الجزم بنسبة الحديث لمن فوقها ، إلا وهو جازم بالعدالة والثقة فيمن حذفه ، حتى قال بعض المالكية : إن المرسل

مقدم على المسند . لأنه ما حذف الواسطة في المرسل إلا وهو متكفل بالعدالة والثقة فيما حذف بخلاف المسند ، فإنه يحيل الناظر عليه ، ولا يتكفل له بالعدالة والثقة ، وإلى هذا أشار في (مراقي السعود) بقوله في مبحث المرسل :

وهو حجة ولكن رجحا . . . عليه مسند وعكس صححا

(114/215)

ومن المعلوم أن من يحتج بالمرسل يحتج بعنعنة المدلس من باب أولى ، فظهرت صحة الاحتجاج بالحديث المذكور عند مالك وأبي حنيفة وأحمد مع أن هذا الحديث له شاهد عند الخطيب وابن عدي من رواية عثمان بن خالد المخزومي ، عن مالك عن نافع عن ابن عمر ، كما نقله ابن حجر في التلخيص وغيره وهو يقويه . وإن كان عثمان المذكور ضعيفاً لأن الضعيف يقوِّي المرسل ، كما عُرف في علوم الحديث ، فالظاهر أن حديث جابر هذا صالح ، وأنه نص في محل النزاع ، وهو جمع بين هذه الأدلة بعين الجمع الذي ذكرنا أولاً ، فاتضح بهذا أن الأحاديث الدالة على منع أكل المحرم مما صاده الحلال كلها محمولة على أنه صاده من أجله ، وأن الأحاديث الدالة على إباحة الأكل منه محمولة على أنه لم يصده من أجله ، ولو صاده لأجل محرم معين حرم على جميع المحرمين خلافاً لمن قال : لا يحرم إلا على

ذلك المحرم المعين الذي ضيد من أجله .

ويَروى هذا عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهو ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم " أو يصَدْ لكم " ويدل للأول ظاهر قوله في حديث أبي قتادة ، " هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها ، أو أشار لها ؟ قالوا : لا ، قال : فكلوه " فمفهومه أن إشارة واحد منهم تحرمه عليهم كلهم ، ويدل له أيضاً ما روه أبو داود عن علي " أنه دُعِيَ وهو محرم إلى طعام عليه صيد فقال " أطعموه حلالاً فإنا حرم " ، وهذا مشهور مذهب مالك عند أصحابه مع اختلاف قوله في ذلك .

المسألة الثانية : لا تجوز زكاة المحرم للصيد بأن يذبحه مثلاً ، فإن ذبحه فهو ميتة لا يحل أكله لأحد كائناً من كان إذ لا فرق بين قتله بالعقر وقتله بالذبح ، لعموم قوله تعالى :

(115/215)

﴿ لَا تَقْتُلُوا الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 95] ، وبهذا قال مالك وأصحابه كما نقله عنهم القرطبي وغيره ، وبه قال الحسن ، والقاسم وسالم ، والأوزاعي وإسحاق وأصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه ، وقال الحكم والثوري وأبو ثور : لا بأس بأكله ، قال ابن المنذر : هو بمنزلة ذبيحة السارق .

وقال عمرو بن دينار وأيوب السختياني يأكله الحلال ، وهو أحد قولي الشافعي ، كما نقله عنهم ابن قدامة في المغني ، وغيره .

واحتج أهل هذا القول بأن من اباحت ذكاته غير الصيد أباحت الصيد كالحلال ، والظاهر هو ما تقدم من أن ذبح المحرم لا يحل الصيد ، ولا يعتبر ذكاة له ، لأن قتل الصيد حرام عليه ، ولأن ذكاته لا تحل له هو أكله إجماعاً ، وإذا كان الذبح لا يفيد الحل للذابح ، فأولى وأحرى ألا يفيد لغيره ، لأن الفرع تبع للأصل في أحكامه ، فلا يصح أن يثبت له ما لا يثبت لأصله ، قاله القرطبي ، وهو ظاهر .

المسالة الثالثة : الحيوان البري ثلاثة أقسام : قسم هو صيد إجماعاً ، وهو ما كالغزال من كل وحشي حلال الأكل ، فيمنع قتله للمحرم ، وإن قتله فعليه الجزاء . وقسم ليس بصيد إجماعاً ، ولا بأس بقتله ، وقسم اختلف فيه .

أما القسم الذي لا بأس بقتله ، وليس بصيد إجماعاً فهو الغراب ، والحدأة والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور .

وأما القسم الذي لا بأس بقتله ، وليس بصيد إجماعاً فهو الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور .

وأما القسم المختلف فيه : فكالأسد ، والنمر ، والفهد والذئب ، وقد روى الشيخان في صحيحهما عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

بقتل خمس فواسق في الحل ، والحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور " .

(116/215)

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح " ثم عد الخمس المذكورة آنفاً ، ولا شك أن الحية أولى بالقتل من العقرب .

وقد أخرج مسلم عن ابن مسعود " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر مُحْرِماً بقتل حية بمنى " ، وعن ابن عمرو " سئل : ما يقتل الرجل من الدواب وهو محرم ؟ فقال : " حدثتني إحدى نسوة النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بقتل الكلب العقور ، والفأرة ، والعقرب ، والحدأة ، والغراب ، والحية " رواه مسلم أيضاً .

والأحاديث في الباب كثيرة ، والجاري على الأصول تقييد الغراب بالأبقع ، وهو الذي فيه بياض ، لما روى مسلم من حديث عائشة في عد الفواسق الخمس المذكورة ، والغراب الأبقع . والمقرر في الأصول حمل المطلق على المقيد ، وما أجاب به بعض العلماء من أن روايات الغراب بالإطلاق متفق عليها ، فهي أصح من رواية القيد بالأبقع لا ينهض ، إذ لا

تعارض بين مقيد ومطلق ، لأن القيد بيان للمراد من المطلق .

ولا عبرة بقول عطاء ، ومجاهد ، بمنع قتل الغراب للمحرم ، لأنه خلاف النص الصريح الصحيح ، وقول عامة أهل العلم ، ولا عبرة أيضاً بقول إبراهيم النخعي : أن في قتل الفأرة جزاء لمخالفته أيضاً للنص ، وقول عامة العلماء ، كما لا عبرة أيضاً بقول الحكم ، وحماد ، " لا يقتل المحرم العقرب ، ولا الحية " ولا شك أن السباع العادية كالأسد ، والنمر ، والفهد ، أولى بالقتل من الكلب ، لنها أقوى منه عقراً ، وأشد منه فتكاً .

واعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالكلب العقور ، فروى سعيد بن منصور عن أبي هريرة بإسناد حسن ، أنه الأسد ، قاله ابن حجر ، وعن زيد بن أسلم أنه قال : وأيّ كلب أعقر من الحية .

(117/215)

وقال زفر : المراد به هنا الذئب خاصة ، وقال مالك في الموطأ : كل ما عقر الناس ، وعدا عليهم ، وأخافهم ، مثل الأسد ، والنمر ، والفهد ، والذئب ، فهو عقور ، وكذا نقل أبو عبيد عن سفيان ، وهو قول الجمهور .

وقال أبو حنيفة : المراد بالكلب هنا هو الكلب المتعارف خاصة . ولا يحلق به في هذا

الحكم سوى الذئب ، واحتج الجمهور بقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الجوارح مُكَلِّبِينَ ﴾ [المائدة : 4] فاشتقها من اسم الكلب ، وبقوله صلى الله عليه وسلم ، في ولد أبي لهب " اللهم سلط عليه كلباً من كلابك فقتله الأسد " رواه الحاكم وغيره بإسناد حسن .

قال مقيده عفا الله عنه : التحقيق أن السباع العادية ليست من الصيد ، فيجوز قتلها للمحرم ، وغيره في الحرم وغيره . ملا تقرر في الأصول من أن العلة تعمم معلولها ، لأن قوله " العقور " علة لقتل الكلب فيعلم منه أن كل حيوان طبعه العقر كذلك .

ولذا لم يختلف العلماء في أن قوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي بكرة المتفق عليه " لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان " أن هذه العلة التي هي في ظاهر الحديث الغضب تعمم معلولها فيمتنع الحكم للقاضي بكل مشوش للفكر ، مانع من استيفاء النظر في المسائل كائناً ما كان غضباً أو غيره كجوع وعطش مفرطين ، وحزن وسرور مفرطين ، وحقن وحقب مفرطين ، ونحو ذلك ، وإلى هذا أشار في (مراقي السعود) بقوله في مبحث العلة :

وقد تخصص وقد تعمم . . . لأصلها لكنها لا تخرم

ويدل لهذا ما اخرجه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، والإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم سئل عما يقتل المحرم فقال : " الحية ، والعقرب ، والفويسقة ، ويرمي الغراب ولا يقتله ، واكلب العقور والحدأة والسبع العادي " وهذا الحديث حسنه الترمذي .

وضعف ابن كثير رواية يزيد بن أبي زياد ، وقال فيه ابن حجر في التلخيص فيه يزيد بن أبي زياد ، وهو ضعيف . وفيه لفظة منكرة وهي قوله : " ويرمي الغراب ولا يقتله " ، وقال النووي في شرح المهذب : إن صح هذا الخبر حمل قوله هذا على أنه لا يتأكد ندب قتل الغراب كتأكيد قتل الحية وغيرها .

قال مقيده : عفا الله عنه : تضعيف هذا الحديث ، ومنع الاحتجاج به متعقب من وجهين :

الأول : أنه على شرط مسلم ، لأن يزيد بن أبي زياد من رجال صحيحه وأخرج له البخاري تعليقاً ، ومنع الاحتجاج بحديث على شرط مسلم لا يخلو من نظر ، وقد ذكر مسلم في مقدمة صحيحه . أن من أخرج حديثهم في غير الشواهد والمتابعات أقل أحوالهم قبول الرواية فيزيد بن أبي زياد عند مسلم مقبول الرواية ، وإليه الإشارة بقول العراقي في ألفيته :

فاحتاج أن ينزل في الإسناد . . . إلى يزيد بن أبي زياد

الوجه الثاني : أنا لو فرضنا ضعف هذا الحديث فإنه يقويه ما ثبت من الأحاديث المتفق عليها من جواز قتل الكلب العقور في الإحرام وفي الحرم والسبع العادي ، إما أن يدخل في

المراد به ، أو يلحق به إلحاقاً صحيحاً لا مراء فيه ، وما ذكره الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – من أن الكلب العقور يلحق به الذئب فقط ، لأنه أشبه به من غيره لا يظهر ، لأنه لا شك في أن فتك الأسد والنمر مثلاً أشد من عقر الكلب والذئب ، وليس من الواضح أن يباح قتل ضعيف الضرر ، ويمنع قتل قويه ، لأن فيه علة الحكم وبادة ، وهذا النوع من الإلحاق من دلالة اللفظ عند أكثر أهل الأصول ، لا من القياس ، خلافاً للشافعي وقوم ، كما قدمنا في سورة النساء .

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه : قلت : العجب من أبي حنيفة – رحمه الله – يحمل التراب على البر بعلة الكيل ، ولا يحمل السباع العادية على الكلب بعلة الفسق ، والعقر ، كما فعل مالك ، والشافعي ، رحمهما الله .

(119/215)

واعلم أن الصَّيد عند الشافعي هو مأكول اللحم فقط . فلا شيء عنده في قتل ما لم يؤكل لحمه والصغار منه ، والكبار عنده سواء ، إلا المتولد من بين مأكول اللحم ، وغير مأكوله ، فلا يجوز اصطياده عنده ، وإن كان يحرم أكله ، كالسمع وهو المتولد من بين الذئب ، والضبع ، وقال : ليس في الرخمة والخنافس ، والقردان والحلم ، وما لا يؤكل لحمه شيء . لأن هذا

ليس من الصَّيد ، لقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ [المائدة : 96] ، فدل أن الصَّيد الذي حرم عليهم ، هو ما كان حلالاً لهم قبل الإحرام ، وهذا هو مذهب الإمام أحمد .

أما مالك – رحمه الله – فذهب إلى أن كل ما لا يعدو من السباع ، كالهر والثعلب ، والضبع ، وما أشبهها ، لا يجوز قتله . فإن قتله فداه ، قال : وصغار الذئاب لا أرى أن يقتلها المحرم ، فإن قتلها فداها ، وهي مثل فراخ الغربان .

قال مقيده عفا الله عنه : أما الضبع فليست مثل ما ذكر معها لورود النص فيها ، دون غيرها . بأنها صيد يلزم فيه الجزاء ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ولم يجز مالك للمحرم قتل الزنبور ، وكذلك النمل والذباب والبراغيث ، وقال : إن قتلها محرم يطعم شيئاً ، وثبت عن عمر رضي الله عنه غباحة قتل الزنبور ، وبعض العلماء شبهه بالعقرب ، وبعضهم يقول : إذا ابتدأ بالأذى جاز قتله ، وإلا فلا ، وأقيسها ما ثبت عن عمر بن الخطاب . لأنه مما طبيعته أن يؤذي .

وقد قدمنا عن اشافعي ، وأحمد ، وغيرهم ، أنه لا شيء في غير الصَّيد المأكول ، وهو ظاهر القرآن العظيم .

المسألة الرابعة : أجمع العلماء على أن المحرم إذا صاد الصَّيد المحرم عليه ، فعليه جزاؤه ، كما هو صريح قوله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً

بَالِغَ الكعبة أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ [المائدة: 95].

(120/215)

اعلم أولاً أن المراد بقوله ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ﴾ [المائدة: 95] أنه متعمد قتله، ذاكر إحرامه، كما هو صريح الآية. وقول عامة العلماء.

وما فسره به مجاهد، من أن المراد أنه متعمد لقتله ناسٍ لإحرامه، مستدلاً بقوله تعالى بعده: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ [المائدة: 95] قال: لو كان ذاكراً لإحرامه، لوجبت عليه العقوبة لأول مرة. وقال: إن كان ذاكراً لإحرامه، فقد بطل حجه لارتكابه محظور الإحرام غير صحيح، ولا ظاهر لمخالفته ظاهر القرآن بلا دليل. ولأن قوله تعالى: ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ [المائدة: 95]، يدل على أنه متعمد ارتكاب المحظور، والناسي للإحرام غير متعمد محظوراً.

إذا علمت ذلك، فاعلم أن قاتل الصَّيد متعمداً، عالماً بإحرامه، عليه الجزاء المذكور، في الآية، بنص القرآن العظيم، وهو قول عامة العلماء. خلافاً لمجاهد، ولم يذكر الله تعالى، في هذه الآية الكريمة حكم الناسي، والمخطئ.

والفرق بينهما : أن الناسي هو من يقصد قتل الصَّيد ناسياً إحرامه ، والمخطئ هو من يرمي غير الصَّيد ، كما لو رمى غرضاً فيقتل الصَّيد من غير قصد لقتله .

ولا خلاف بين العلماء أنهما لا أثم عليهما ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ [الأحزاب : 5] الآية . وَلِمَا قدَّمنا في صحيح مسلم " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : 286] أن الله قال : قد فعلت " .

أما وجوب الجزاء عليهما فاختلف فيه العلماء .

(121/215)

فذهب جماعة من العلماء : منهم المالكية ، والحنفية ، والشافعية ، إلى وجوب الجزاء ، في الخطأ ، والنسيان ، لدلالة الأدلة . على أن غرم المتلفات لا فرق فيه بين العامد ، وبين غيره ، وقالوا : لا مفهوم مخالفة لقوله متعمداً لأنه جري على الغالب ، إذ العالب ألا يقتل المحرم الصَّيد إلا عامداً ، وجرى النص على الغالب من موانع اعتبار دليل خطابه ، أعني مفهوم مخالفته ، وإليه الإشارة بقول صاحب (مراقي السعود) في موانع اعتبار مفهوم المخالفة :

أو جهل الحكم أو النطق انجلب . . . للسؤل أو جرى على الذي غلب

ولذا لم يعتبر جمهور العلماء مفهوم المخالفة في قوله تعالى : ﴿ اللاتي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ [النساء : 23] لجريه على الغالب ، وقال بعض من قال بهذا القول ، كالزهري : وجب الجزاء في العمد بالقرآن العظيم ، وفي الخطأ والنسيان بالسنة ، قال ابن العربي : إن كان يريد بالسنة الآثار التي وردت عن ابن عباس ، وعمر فَنِعمَّا هي ، وما أحسنها إسوة .

واحتج أهل هذا القول . بأنه صلى الله عليه وسلم " سئل عن الضبع فقال : " هي صيد " ، وجعل فيها إذا أصابها المحرم كبشاً ، ولم يقل عمداً ولا خطأ ، فدل على العموم ، وقال ابن بكير من علماء المالكية : قوله سبحانه ﴿ مُتَعَمِّدًا ﴾ لم يرد به التجاوز عن الخطأ ، وذكر التعمد لبيان أن الصَّيد ليس كابن آدم الذي ليس في قتله عمداً كفارة .

وقال القرطبي في تفسيره : إن هذا القول بوجوب " الجزاء على المخطئ ، والناسي والعامد " ، قاله ابن عباس ، وروي عن عمر ، وطاوس ، والحسن ، وإبراهيم ، والزهري ، وبه قال مالك ، والشافعي ، وابو حنيفة ، وأصحابهم .

وذهب بعض العلماء إلى أن الناسي ، والمخطئ لا جزاء عليهما ، وبه قال القرطبي ، وأحمد بن حنبل ، في إحدى الروايتين ، وسعيد بن جبير ، وأبو ثور ، وهو مذهب داود ، وروي أيضاً عن ابن عباس ، وطاوس ، كما نقله عنهم القرطبي .

واحتج أهل هذا القول بأمرين :

الأول : مفهوم قوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ [المائدة : 95] الآية ، فإنه يدل على أن غير المتعمد ليس كذلك .

الثاني : أن الأصل براءة الذمة ، فمن ادعى شغلها ، فعليه الدليل .

قال مقيده : عفا الله عنه : هذا القول قوي جداً من جهة النظر ، والدليل .

المسالة الخامسة : إذا صاد المحرم الصَّيد ، فأكل منه ، فعليه جزاء واحد لقتله ، وليس في أكله إلا التوبة والاستغفار ، وهذا قول جمهور العلماء ، وهو ظاهر الآية خلافاً لأبي حنيفة القائل بأن عليه أيضاً جزاء ما أكل يعني قيمته ، قال القرطبي : وخالفه صاحباه في ذلك ، ويروى مثل قول أبي حنيفة عن عطاء .

المسألة السادسة : إذا قتل المحرم الصَّيد مرة بعد مرة ، حكم عليه بالجزاء في كل مرة ، في قول جمهور العلماء منهم مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة وغيرهم ، وهو ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ [المائدة : 95] الآية ، لأن تكرار القتل يقتضي تكرار الجزاء ، وقال بعض العلماء : لا يحكم عليه بالجزاء إلا مرة واحدة ، " فإن عاد لقتله مرة ثانية لم يحكم عليه ، وقيل له : ينتقم الله منك " ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ [المائدة : 95] الآية .

ويُروى هذا القول عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وإبراهيم ، ومجاهد ، وشريح ، كما نقله

عنهم القرطبي ، وروي عن ابن عباس أيضاً أنه يضرب حتى يموت .

المسالة السابعة : إذا دل المحرم حلالا على صيد فقتله ، فهل يجب على المحرم جزاء لتسببه في قتل الحلال للصيد بدلالته له عليه أو لا ؟ اختلف العلماء في ذلك ، فذهب الإمام أحمد ، وأبو حنيفة إلى أن المحرم الدال يلزمه جزاؤه كاملاً ، ويروى نحو ذلك عن علي ، وابن عباس ، وعطاء ، ومجاهد وبكر المزني ، وإسحاق ، ويدل لهذا القول سؤال النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أصحابه ، " هل أشار أحد منهم إلى أبي قتادة على الحمار الوحشي " ؟

(123/215)

فإن ظاهره أنهم لو دلوه عليه كان بمثابة ما لو صادوه في تحريم الأكل . ويفهم من ذلك لزوم الزاء ، والقاعدة لزوم الضمان للمتسبب إن لم يمكن تضمين المباشر ، والمباشر هنا لا يمكن تضمينه الصَّيد . لأنه حلال ، والدال متسبب ، وهذا القول هو الأظهر ، والذين قالوا به منهم من أطلق الدلالة ، ومنهم من اشترط خفاء الصَّيد بحيث لا يراه دون الدلالة ، كأبي حنيفة ، وقال الإمام الشافعي وأصحابه ، لا شيء على الدال .

وروي عن مالك نحوه ، قالوا : لأن الصَّيد يضمن بقتله ، وهو لم يقتله وإذا علم المحرم أن الحلال صاده من أجله فأكل منه ، فعليه الجزاء كاملاً عند مالك ، كما صرح بذلك في

موطئه ، وأما إذا دل المحرم محرماً آخر على الصَّيد فقتله ، فقال بعض العلماء : عليهما جزاء واحد بينهما ، وهو مذهب الإمام أحمد ، وبه قال عطاء ، وحماد بن أبي سليمان كما نقله عنهم ابن قدامة في (المغني) ، وقال بعض العلماء : على كل واحد منهما جزاء كامل ، وبه قال الشعبي ، وسعيد بن جبير ، والحارث العكلي ، وأصحاب الراي ، كما نقله عنم أيضاً صاحب (المغني) .

وقال بعض العلماء : الجزاء كله على المحرم المباشر ، وليس على المحرم الدال شيء ، وهذا قول الشافعي ، ومالك ، وهو الجاري على قاعدة تقديم المباشر على المتسبب في الضمان ، والمباشر هنا يمكن تضمينه لأنه محرم ، وهذا هو الأظهر ، وعليه : فعلى الدال الاستغفار والتوبة ، وبهذا تعرف حكم ما لو دل محرم محرماً ، ثم دل هذا الثاني محرماً ثالثاً ، وهكذا ، فقتله الأخير ، إذ لا يخفى من الكلام المتقدم أنهم على القول الأول شركاء في جزاء واحد . وعلى الثاني على كل واحد منهم جزاء ، وعلى الثالث لا شيء إلا على من باشر القتل .

(124/215)

المسالة الثامنة : إذا اشترك محرمون في قتل صيد بأن باشروا قتله كلهم ، كما إذا حذفوه بالحجارة والعصي حتى مات ، فقال مالك وأبو حنيفة : على كل واحد منهم جزاء كامل ،

كما لو قتلت جماعة واحداً ، فإنهم يقتلون به جميعاً ، لأن كل واحد قاتل .

وكذلك هنا كل واحد قاتل صيداً فعليه جزاء . وقال الشافعي ومن وافقه : عليهم كلهم جزاء واحد ، لقضاء عمر وعبد الرحمن ، قاله القرطبي ، ثم قال أيضاً : وروى الدارقطني أن موالي لابن الزبير أحرموا فمرت بهم ضبع فحذفوها بعصيهم فأصابوها ، فوقع في أنفسهم ، فأتوا ابن عمر فذكروا له ذلك ، فقال : عليكم كلكم كبش ، قالوا : أو على كل واحد منا كبش ، قال : " إنكم لمعزز بكم عليكم كلكم كبش " .

قال اللغويون : لمعزز بكم أي لمشدد عليكم .

وروي عن ابن عباس في قوم أصابوا ضبعاً فقال : " عليهم كبش يتخارجونه بينهم " ودليلنا قول الله سبحانه : ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [المائدة : 95] . وهذا خطاب لكل قاتل ، وكل واحد من القاتلين الصَّيد قاتل نفساً على التمام والكمال بدليل قتل الجماعة بالواحد ، ولولا ذلك ما وجب عليهم القصاص . وقد قلنا بوجوبه إجماعاً منا ومنهم فثبت ما قلناه .

وقال ابو حنيفة : إذا قتل جماعة صيداً في الحرم وهم محلون ، فعليهم جزاء واحد ، بخلاف ما لو قتله المحرمون في الحل أو الحرم ، فإن ذلك لا يختلف .

وقال مالك : على كل واحد منهم جزاء كامل . بناء على أن الرجل يكون محرماً بدخوله الحرم ، كما يكون محرماً بتلبيته بالإحرام ، وكل واحد من الفعلين قد أكسبه صفة تعلق بها

نهي فهو هاتك لها في الحالتين .

وحجة أبي حنيفة ما ذكره القاضي أبو زيد الدبوسي ، قال : السر فيه أن الجناية في الإحرام على العبادة . وقد ارتكب كل واحد منهم محظور إحرامه .

(125/215)

وإذا قتل المحلون صيداً في الحرم فإنما أتلفوا دابة محترمة ، بمنزلة ما لو أتلف جماعة دابة فإن كل واحد منهم قاتل دابة . ويشتركون في القيمة ، قال ابن العربي : وأبو حنيفة أقوى منا ، وهذا الدليل يستهين به علماؤنا وهو عسير الانفصال علينا ، اه من القرطبي .

المسألة التاسعة : اعلم أن الصَّيد ينقسم إلى قسمين : قسم له مثل من النعم كبقرة الوحش ، وقسم لا مثل له من النعم كالعصافير .

وجمهور العلماء يعتبرون المثلية بالمماثلة في الصورة والخلقة ، وخالف الإمام أبو حنيفة – رحمه الله تعالى – الجمهور ، فقال : إن المماثلة معنوية ، وهي القيمة ، أي قيمة الصَّيد في المكان الذي قتله فيه ، أو أقرب موضع إليه إن كان لا يباع الصَّيد في موضع قتله ، فيشتري بتلك القيمة هدياً إن شاء ، أو يشتري بها طعاماً ، ويطعم المساكين كل مسكين نصف صاع من بر ، أو صاعاً من شعير ، أو صاعاً من تمر .

واحتج أبو حنيفة – رحمه الله – بأنه لو كان الشبه من طريق الخلقة والصورة معتبراً في النعامة بدنة ، وفي الحمار بقرة ، وفي الظبي شاة ، لما أوقفه على عدلين يحكمان به ، لأن ذلك قد علم فلا يحتاج إلى الارتياء والنظر ، وإنما يفتقر إلى العدلين والنظر ما تشكل الحال فيه ، ويختلف فيه وجه النظر .

ودليل الجمهور على أن المراد بالمثل من النعم المشابهة للصيد في الخلقة والصورة منها قوله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [المائدة : 95] الآية ، فالمثل يقتضي بظاهره المثل الخلقي الصوري دون المعنوي ، ثم قال : ﴿ مِنَ النَّعَم ﴾ فصرح ببيان جنس المثل ، ثم قال :

﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ [المائدة : 95] وضمير ﴿ به ﴾ راجع إلى المثل من النعم ، لأنه لم يتقدم ذكر لسواه حتى يرجع إليه الضمير .

(126/215)

ثم قال ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] والذي يتصور أن يكون هدياً مثل المقتول من النعم ، فأما القيمة فلا يتصور أن تكون هدياً ولا جرى لها ذكر في نفس الآية ، وادعاء أن المراد شراء الهدي بها بعيد من ظاهر الآية ، فاتضح أن المراد مثل من النعم ، وقوله لو كان

الشبه الخلقي معتبراص لما أوقفه على عدلين ؟ أجيب عنه بأن اعتبار العدلين إنما وجب للنظر في حال الصَّيد من كبر وصغر ، وما لا جنس له مما له جنس ، وإلحاق ما لم يقع عليه نص بما وقع عليه النص ، قاله القرطبي .

قال مقيده عفا الله عنه : المراد ب المثلية في الآية التقريب ، وإذاً فنوع المماثلة قد يكون خفياً لا يطلع عليه إلا أهل المعرفة والفطنة التامة ، ككون الشاة مثلاً للحمامة لمشابهتها لها في عب الماء والهدير .

وإذا عرفت التحقيق في الجزاء بالمثل من النعم ، فاعلم أن قاتل الصَّيد مخير بينه ، وبين الإطعام ، والصيام ، كما هو صريح الآية الكريمة ، لأن " أو " حرف تخيير ، وقد قال تعالى : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ [المائدة : 95] ، وعليه جمهور العلماء .

فإن اختار جزاء بالمثل من النعم ، وجب ذبحه في الحرم خاصة ، لأنه حق لمساكين الحرم ، ولا يجزئ في غيره كما نص عليه تعالى بقوله : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] والمراد الحرم كله ، كقوله : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ﴾ [الحج : 33] مع أن المنحر الأكبر مني ، وإن اختار الطعام ، فقال مالك : أحسن ما سمعت فيه ، أنه يقوم الصَّيد بالطعام ، فيطعم كل مسكين مداً ، أو يصوم مكان كل مد يوماً .

وقال ابن القاسم عنه : إن قَوَّمَ الصَّيد بالدراهم ، ثم قَوَّم الدراهم بالطعام ، أجزأه .

والصواب الأول . فإن بقي أقل من مد تصدق به عند بعض العلماء ، وتممه مداً كاملاً عند بعض آخر ، أما إذا صام ، فإنه يكمل اليوم المنكسر بلا خلاف .

(127/215)

وقال الشافعي : إذا اختار الإطعام ، أو الصيام ، فلا يقوم الصَّيد الذي له مثل ، وإنما يقوم مثله من النعم بالدراهم ، ثم تقوم الدراهم بالطعام ، فيطعم كل مسكين مداً ، أو يصوم عن كل مد يوماً ، ويتمم المنكسر .

والتحقيق أن الخيار لقاتل الصَّيد الذي هو دافع الجزاء .

وقال بعض العلماء : الخيار للعدلين الحكمين ، وقال بعضهم : ينبغي للمحكمين إذا حكما بالمثل أن يخيرا قاتل الصَّيد بين الثلاثة المذكورة .

وقال بعض العلماء : إذا حكما بالمثل لزمه ، والقرآن صريح في أنه لا يلزمه المثل من النعم ، إلا إذا اختاره على الإطعام والصَّوم ، للتخيير المنصوص عليه بحرف التخيير في الآية .

وقال بعض العلماء : هي على الترتيب ، فالواجب الهدي ، فإن لم يجد فالإطعام ، فإن لم يجد فالصَّوم ، ويروى هذا عن ابن عباس ، والنخعي وغيرهما ، ولا يخفى أن في هذا مخالفة لظهر القرآن ، بلا دليل .

وقال أبو حنيفة : يصوم عن كل مدين يوماً واحداً اعتباراً بفدية الأذى ، قاله القرطبي .

واعلم أن ظاهر هذه الآية الكريمة ، أنه يصوم عدل الطعام المذكور ، ولو زاد الصيام عن شهرين ، أو ثلاثة .

وقال بعض العلماء : لا يتجاوز صيام الجزاء شهرين . لأنهما أعلى الكفارات ، واختاره ابن العربي ، وله وجه من النظر ، ولكن ظاهر الآية يخالفه .

وقال يحيى بن عمر من المالكية : إنما يقال : كم رجلاً يشبع من هذا الصَّيد ، فيعرف العدد ، ثم يقال : كم من الطعام يشبع هذا العدد ؟ فإن شاء أخرج ذلك الطعام ، وإن شاء صام عدد أمداده ، قال القرطبي : وهذا قول حسن احتاط فيه . لأنه قد تكون قيمة الصَّيد من الطعام قليلة ، فبهذا النظر يكثر الإطعام .

(128/215)

واعلم أن الأنواع الثلاثة واحد منها يشترط له الحرم إجماعاً ، وهو الهدي كما تقدم ، وواحد لا يشترط له الحرم إجماعاً ، وهو الصَّوم ، وواحد اختلف فيه ، وهو الإطعام .

فذهب بعض العلماء : إلى أنه لا يطعم إلا في الحرم ، وذهب بعضهم إلى أنه يطعم في موضع إصابة الصَّيد ، وذهب بعضهم إلى أنه يطعم حيث شاء . وأظهرها أنه حق لمساكين

الحرم. لأنه بدل عن الهدي، أو نظير له، وهو حق لهم إجماعاً، كما صرح به تعالى بقوله: ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة: 95]، وأما الصَّوم فهو عبادة تختص بالصائم لا حق فيها لمخلوق، فله فعلها في أي موضع شاء.

وأما إن كان الصَّيد لا مثل له من النعم كالعصافير. فإنه يقوم، ثم يعرف قدر قيمته من الطعام، فيخرجه لكل مسكين مد، أو يصوم عن كل مد يوماً.

فنحصل أن ماله مثل من النعم يخير فيه بين ثلاثة أشياء: هي الهدي، بمثله، والإطعام، والصيام. وأن ما لا مثل له يخير فيه بين شيئين فقط: وهما الإطعام، والصيام على ما ذكرنا.

واعلم أن المثل من النعم له ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون تقدم فيه حكم من النَّبي صلى الله عليه وسلم.

الثانية: أن يكون تقدم فيه حكم من عدلين من الصَّحابة، أو التابعين مثلاً.

الثالثة: ألا يكون تقدم فيه حكم منه صلى الله عليه وسلم، ولا منهم رضي الله عنهم.

فالذي حكم صلى الله عليه وسلم فيه لا يجوز لأحد الحكم فيه بغير ذلك، وذلك كالضبع، فإنه صلى الله عليه وسلم قضى فيها بكبش، قال ابن حجر في التلخيص ما نصه: حديث "أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قضى في الضبع بكبش" أخرجه أصحاب السنن، وابن

حبان وأحمد ، والحاكم في (المستدرك) من طريق عبد الرحمن بن أب يعمار عن جابر بلفظ سألت النَّبي صلى الله عليه وسلم عن الضبع فقال :

(129/215)

" هو صيد ، ويجعل فيه كبش إذا أصابه المحرم " ، ولفظ الحاكم " جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضبع يصيبه المحرم كبشاً " ، وجعله من الصَّيد وهو عند ابن ماجه إلا أنه لم يقل نجدياً ، قال الترمذي : سألت عنه البخاري فصححه ، وكذا صححه عبد الحق وقد أعل بالوقف . وقال البيهقي : هو حديث جيد تقوم به الحجة ، ورواه البيهقي من طريق الأجلح عن أبي الزبير عن جابر عن عمر قال : " لا أراه إلا قد رفعه أنه حكم في الضبع بكبش " . الحديث ، ورواه الشافعي عن مالك عن أبي الزبير به موقوفاً ، وصحح وقفه في هذا الباب الدارقطني ، ورواه الدارقطني والحاكم من طريق إبراهيم الصائغ عن عطاء عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الضبع صيد فإذا أصابه المحرم ففيه كبش مسن ويؤكل " ، وفي الباب عن ابن عباس رواه الدارقطني ، والبيهقي من طريق عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عنه ، وقد أعل بالإرسال .

ورواه الشافعي من طريق ابن جريج عن عكرمة مرسلاً وقال : لا يثبت مثله لو انفرد ، ثم

أكده بحديث ابن أبي عمار المتقدم ، وقال البيهقي : وروي عن ابن عباس موقوفاً أيضاً .

قال مقيده عفا الله عنه : قضاؤه صلى الله عليه وسلم في الضبع بكبش ثابت كما رأيت تصحيح البخاري وعبد الحق له ، وكذلك البيهقي والشافعي وغيرهم ، والحديث إذا ثبت صحيحاً من وجه لا يقدح فيه الإرسال ولا الوقف من طريق أخرى . كما هو الصحيح عند المحدثين : لأن الوصل والرفع من الزيادات ، وزيادة العدل مقبولة كما هو معروف ، وإليه الإشارة بقول صاحب (مراقي السعود) :

والرفع والوصل وزيد اللفظ . . . مقبولة عند إمام الحفظ . . إلخ

وأما إن تقدم فيه حكم من عدلين من الصَّحابة ، أو ممن بعدهم . فقال بعض العلماء : يتبع حكمهم ولا حاجة إلى نظر عدلين وحكمهما من جديد ، لأن الله قال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ [المائدة : 95] ، وقد حكما بأن هذا مثل لهذا .

(130/215)

وقال بعض العلماء : لا بد من حكم عدلين من جديد ، وممن قال به مالك ، قال القرطبي : ولو اجتزأ بحكم الصَّحابة رضي الله عنهم لكان حسناً .

وروي عن مالك أيضاً أنه يستأنف الحكم في كل صيد ما عدا حمام مكة ، وحمار الوحش ،

والظبي ، والنعامة ، فيكتفي فيها بحكم من مضى من السلف ، وقد روي عن عمر " أنه حكم هو وعبد الرحمن بن عوف في ظبي بعنز " أخرجه مالك والبيهقي وغيرهما . وروي عن عبد الرحمن بن عوف ، وسعد رضي الله عنهما " أنهما حكما في الظبي بتيس أعفر " ، وعن ابن عباس وعمر ، وعثمان وعلي ، وزيد بن ثابت ومعاوية ، وابن مسعود وغيرهم ، " أنهم قالوا : في النعامة بدنة " ، أخرجه البيهقي وغيره .

وعن ابن عباس وغيره " أن في حمار الوحش والبقرة بقرة ، وأن في الأيل ، بقرة " .

وعن جابر " أن عمر قضى في الضبع بكبش ، وفي الغزال بعنز ، وفي الأرنب بعناق ، وفي اليربوع بجفرة " ، أخرجه مالك والبيهقي ، وروى الأجلح بن عبد الله هذا الأثر عن جابر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، والصحيح موقوف على عمر كما ذكره البيهقي وغيره ، وقال البيهقي : وكذلك رواه عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء عن جابر عن عمر من قوله ، وعن ابن عباس " أنه قضى في الأرنب بعناق ، وقال هي تمشي على اربع ، والعناق كذلك ، وهي تأكل الشجر ، والعناق كذلك وهي تجتر ، والعناق كذلك " رواه البيهقي .

وعن ابن مسعود " أنه قضى في اليربوع بجفر أو جفرة " رواه البيهقي أيضاً ، وقال البيهقي : قال ابو عبيد : قال أبو زيد : الجفر من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر وفصل عن أمه ، وعن شريح أنه قال : لوك ان معي حكم حكمت في الثعلب بجدي ، وروي عن عطاء أنه قال في

الثعلب شاة ، وروي عن عمر وأربد رضي الله عنهما " أنهما حكما في ضب قتله أربد المذكور بجدي قد جمع الماء والشجر " رواه البيهقي وغيره .

(131/215)

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه " أنه حكم في أم حبين بجلان من الغنم " ، والجلان الجدي ، رواه البيهقي وغيره .

تنبيه

أقل ما يكون جزاء من النعم عند مالك شاة تجزئ ضحية ، فلا جزاء عنده بجفرة ولا عناق ، مستدلاً بأن جزاء الصَّيد كالدية لا فرق فيها بين الصغير والكبير ، وبأن الله قال : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] فلا بد أن يكون الجزاء يصح هدياً ، ففي الضب واليربوع عنده قيمتها طعاماً . قال مقيده عفا الله عنه : قول الجمهور في جزاء الصغير بالصغير ، والكبير بالكبير ، هو الظاهر ، وهو ظاهر قوله تعالى ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [المائدة : 95] قال ابن العربي : وهذا صحيح ، وهو اختيار علمائنا يعني مذهب الجمهور الذي هو اعتبار الصغر والكبر والمرض ونحو ذلك كسائر المتلفات .

المسألة العاشرة : إذا كان ما أتلفه المحرم بيضاً ، فقال مالك : في بيض النعامة عشر ثمن

البدنة ، وفي بيض الحمامة المكية عشر ثمن شاة ، قال ابن القاسم : وسواء كان فيها فرخ أو لم يكن ما لم يستهل الفرخ بعد الكسر ، فإن استهل فعليه الجزاء كاملاً كجزاء الكبير من ذلك الطير ، قال ابن المواز بحكومة عدلين وأكثر العلماء يرون في بيض كل طائر قيمته .

قال مقيده عفا الله عنه : وهو الأظهر ، قال القرطبي : روى عكرمة عن ابن عباس عن كعب بن عجرة " أن النَّبي صلى الله عليه سلم قضى في بيض نعام أصابه محرم بقدر ثمنه " ، أخرجه الدارقطني ، وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " في بيضة نعام صيام يوم أو إطعام مسكين " ، قاله القرطبي ، وإن قتل المحرم فيلاً فقيل : فيه بدنة من الهجان العظام التي لها سنامان ، وإذا لم يوجد شيء من هذه الإبل فينظر إلى قيمته طعاماً ، فيكون عليه ذلك .

(132/215)

قال القرطبي : والعمل فيه أن يجعل الفيل في مركب وينظر إلى منتهى ما ينزل المركب في الماء ، ثم يخرج الفيل ويجعل في المركب طعام إلى الحد الذي نزل فيه والفيل فيه ، وهذا عدله من الطعام وأما إن نظر إلى قيمته فهو يكون له ثمن عظيم لأجل عظامه وأنيابه ، فيكثر الطعام وذلك ضرر اه .

قال مقيده عفا الله عنه : هذا الذي ذكره القرطبي في اعتبار مثل الفيل طعاماً فيه أمران :

الأول : أنه لا يقدر عليه غالباً ، لأن نقل الفيل إلى الماء ، وتحصيل المركب ورفع الفيل فيه ، ونزعه منه ، لا يقدر عليه آحاد الناس غالباً ، ولا ينبغي التكليف العام إلا بما هو مقدور غالباً لكل أحد .

والثاني : أن كثرة القيمة لا تعد ضرراً ، لأنه لم يجعل عليه إلا قيمة ما أتلف في الإحرام ، ومن أتلف في الإحرام حيواناً عظيماً لزمه جزاء عظيم ، ولا ضرر عليه ، لأن عظم الجزاء تابع لعظم الجناية كما هو ظاهر .

المسالة الحادية عشرة : أجمع العلماء على أن صيد الحرم المكي ممنوع ، وأن قطع شجره ، ونباته حرام ، إلا الإذخر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : " إن هذا البلد حرام لا يعضد شوكة ، ولا يختلى خلاه ، ولا ينفر صيده ، ولا تلتقط لقطته ، إلا لمعرف " فقال العباس إلا الإذخر ، فإنه لا بد لهم منه ، فإنه للقيون والبيوت ، فقال : " إلا الإذخر " ، متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وعن أبي هريرة أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة قال : " لا ينفر صيدها ، ولا يختلى شوكها ، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد " ، فقال العباس : إلا الإذخر ، فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إلا الإذخر " متفق عليه أيضاص . وفي لفظ " لا يعضد شجرها " ، بدل قوله " لا يختلى شوكها " ، والأحاديث في الباب كثيرة .

واعلم أن شجر الحرم ونباته طرفان ، وواسطة طرف لا يجوز قطعه إجماعاً ، وهو ما أنبته الله في الحرم من غير تسبب الآدميين ، وطرف يجوز قطعه إجماعاً ، وهو ما زرعه الآدميون من الزروع ، والبقول ، والرياحين ونحوها ، وطرف اختلف فيه ، وهو ما غرسه الآدميون من غير المأكول ، والمشموم ، كالأثل ، والعوسج ، فأكثر العلماء على جواز قطعه .

وقال قوم منهم الشافعي بالمنع ، وهو أحوط في الخروج من العهدة ، وقال بعض العلماء : إن نبت أولاً في الحل ، ثم نزع فغرس في الحرم جاز قطعه ، وإن نبت أولاً في الحرم ، فلا يجوز قطعه ، ويحرم قطع الشوك والعوسج ، قال ابن قدامة في (المغني) ، وقال القاضي ، وأبو الخطاب : لا يحرم ، وروي ذلك عن عطاء ، ومجاهد ، وعمرو بن دينار ، والشافعي ، لأنه يؤذي بطبعه ، فأشبه السباع من الحيوان .

قال مقيده عفا الله عنه : قياس شوك الحرم على سباع الحيوان مردود من وجهين :

الأول : أن السباع تتعرض لأذى الناس ، وتقصده بخلاف الشوك .

الثاني : أنه مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يعضد شوكه " ، والقياس المخالف للنص فاسد الاعتبار . قال في (مراقي السعود) :

والخلف للنص أو إجماع دعا . . . فساد الاعتبار كل من وعى

وفساد الاعتبار قادح مبطل للدليل ، كما تقرر في الأصول ، واختلف في قطع اليابس من الشجر ، والحشيش ، فأجازه بعض العلماء ، وهو مذهب الشافعي وأحمد . لأنه كالصيد الميت لا شيء على من قده نصفين ، وهو ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : " ولا يختلى خلاه " لأن الخلا هو الرطب من النبات ، فيفهم منه أنه لا بأس بقطع اليابس .

وقال بعض العلماء : لا يجوز قطع اليابس منه ، واستدلوا له بأن استثناء الإذخر إشارة إلى تحريم اليابس ، وبأن في بعض طرق حديث أبي هريرة : ولا يحتش حشيشها ، والحشيش في اللغة : اليابس من الشعب ، ولا شك أن تركه أحوط .

(134/215)

واختلف أيضاً في جواز ترك البهائم ترعى فيه ، فمنعه أبو حنيفة ، وروي نحوه عن مالك ، وفيه عن أحمد روايتان ، ومذهب الشافعي جوازه ، واحتج من منعه بأن ما حرم اتلافه ، لم يجز أن يرسل عليه ما يتلفه كالصيد ، واحتج من أجازه بأمرين :

الأول : حديث ابن عباس قال : " أقبلت راكباً على أتان ، فوجدت النَّبي صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس بمنى إلى غير جدار ، فدخلت في الصف وأرسلت الأتان ترتع " متفق

عليه ، ومنى من الحرم .

الثاني : أن الهدْيَ كان يدخل الحرم بكثرة في زمن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وزمن أصحابه ، ولم ينقل عن أحد الأمر بسد أفواه الهدي عن الأكل من نبات الحرم . وهذا القول أظهر ، والله تعالى أعلم .

وممن قال به عطاء ، واختلف في أخذ الورق ، والمساويك من شجر الحرم إذا كان أخذ الورق بغير ضرب يضر بالشجرة ، فمنعه بعض العلماء لعموم الأدلة ، وأجازه الشافعي ، لأنه لا ضرر فيه على الشجرة ، وروي عن عطاء ، وعمرو بن دينار ، أنهما رخصا في ورق السنا للاستمشاء بدون نزع أصله ، والأحوط ترك ذلك كله ، والظاهر أن من أجازه استدل لذلك بقياسه على الإذخر بجامع الحاجة .

وقال ابن قدامة في (المغني) : ولا بأس بالانتفاع بما انكسر من الأغصان ، وانقلع من الشجر بغير فعل آدمي ، ولا ما سقط من الورق ، نص عليه أحمد ، ولا نعلم فيه خلافاً ، لأن الخبر إنما ورد في القطع ، وهذا لم يقطع فأما إن قطعه آدمي ، فقال أحمد : لم أسمع إذا قطع أنه ينتفع به ، وق لفي الدوحة تقطع من شبهه بالصيد لم ينتفع بحطبها ، وذلك لأنه ممنوع من اتلافه لحرمة الحرم ، فإذا قطعه من يحرم عليه قطعه لم ينتفع به ، كالصيد يذبحه المحرم .

ويحتمل أن يباح لغير القاطع الانتفاع به ، لأنه انقطع بغير فعله ، فأبيح له الانتفاع به ، كما لو

قطعه حيوان بهيمي ، ويفارق الصيد الذي ذبحه ، لأن الذكاة تعتبر لها الأهلية ، ولهذا لا تحصل بفعل بهيمة بخلاف هذا اه .

(135/215)

وقال في المغني أيضاً : ويباح أخذ الكمأة من الحرم ، وكذلك الفقع ، لأنه لا أصل له ، فأشبه الثمرة ، وروى حنبل قال : يؤكل من شجر الحرم الضغابيس والعشرق ، وما سقط من الشجر ، وما أنبت الناس .

واختلف في عشب الحرم المكي ، هل يجوز أخذه لعلف البهائم ؟ والأصح المنع لعموم الأدلة .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الحلال إذا قتل صيداً في الحرم المكي . فجمهور العلماء منهم الأئمة الأربعة ، وعامة فقهاء الأمصار على أن عليه الجزاء ، وهو كجزاء المحرم المتقدم ، إلا أن أبا حنيفة قال : ليس فيه الصوم ، لأنه إتلاف محذ من غير محرم .

وخالف في ذلك داود بن علي الظاهري ، محتجاً بأن الأصل براءة الذمة ولم يرد في جزاء صيد الحرم نص ، فيبق على الأصل الذي هو براءة الذمة وقوله هذا قوي جداً .

واحتج الجمهور " بأن الصحابة رضي الله عنهم قضوا في حمام الحرم المكي بشاة شاة " ،

روي عن عمر وعثمان وعلي وابن عمر وابن عباس ، ولم ينقل عن غيرهم خلافهم ، فيكون إجماعاً سكوتياً ، واستدلوا أيضاً بقياسه على صيد المحرم ، بجامع أن الكل صيد ممنوع لحق الله تعالى ، وهذا الذي ذكرنا عن جمهور العلماء من أن كل ما يضمنه المحرم يضمنه من في الحرم يستثنى منه شيئان :

الأول : منهما القمل ، فإنه مختلف في قتله في الإحرام ، وهو مباح في الحرم بلا خلاف .

والثاني : الصيد المائي مباح في الإحرام بلا خلاف ، واختلف في اصطياده من آبار الحرم وعيونه ، وكرهه جابر بن عبد الله ، لعموم قوله عليه الصلاة والسلام " لا ينفر صيدها " فثبت حرمة الصيد لحرمة المكان ، وظاهر النص شمول كل صيد ، ولأنه صيد غير مؤذ فأشبه الظباء ، وأجازه بعض العلماء محتجاً بأن الإحرام لم يحرمه ، فكذلك الحرم ، وعن الإمام أحمد روايتان في ذلك بالمنع والجواز .

وكذلك اختلف العلماء أيضا ص في شجر الحرم المكي وخلاه ، هل يجب على من قطعهما ضمان ؟

(136/215)

فقالت جماعة من أهل العلم ، منهم مالك ، وأبو ثور ، وداود : لا ضمان في شجره ونباته ، وقال ابن المنذر : لا أجد دليلا أوجب به في شجر الحرم فرضاً من كتاب ، ولا سنة ، ولا إجماع ، وأقول كما قال مالك : نستغفر الله تعالى .

والذين قالوا بضمانه ، منهم الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ، إلا أن أبا حنيفة قال : يضمن كله بالقيمة ، وقال الشافعي ، وأحمد : يضمن الشجرة الكبيرة ببقرة ، والصغيرة بشاة ، والخلا بقيمته والغصن بما نقص ، فإن نبت ما قطع منه ، فقا لبعضهم : يسقط الضمان ، وقال بعضهم بعدم سقوطه .

واستدل من قال في الدوحة بقرة ، وفي الشجرة الجزلة شاة بآثار رويت في ذلك عن بعض الصحابة كعمر وابن عباس ، والدوحة : هي الشجرة الكبيرة ، والجزلة : الصغيرة .

المسألة الثانية عشرة : حرم المدينة اعلم أن جماهير العلماء على أن المدينة حرم أيضاً لا ينفر صيدها ولا يختلى خلاها ، وخالف أبو حنيفة الجمهور ، فقال : إن حرم المدينة ليس بحرم على الحقيقة ولا تثبت له أحكام الحرم من تحريم قتل الصيد ، وقطع الشجر ، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترد هذا القول ، وتقضي بأن ما بين لابتي المدينة حرم لا ينفر صيده ، ولا يختلي خلاه إلا لعلف ، فمن ذلك حديث عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن إبراهيم حرم مكة ، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة " ، الحديث متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتي المدينة ، وجعل اثني عشر ميلاً حول المدينة حمى " متفق عليه أيضاً ، وكان أبو هريرة يقول : " لو رأيت الظباء ترتع في المدينة ما ذعرتها " : وعن أبي هريرة أيضاً في المدينة قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرم شجرها أن يخبط أو يعضد " رواه الإمام أحمد ، وعن أنس أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أشرف على المدينة ، فقال : " اللهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم إبراهيم مكة ، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم " متفق عليه .

وللبخاري عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " المدينة حرام من كذا إلى كذا لا يقطع شجرها ، ولا يحدث فيها حدث ، من أحدث فيها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " ، ولمسلم عن عاصم الأحول ، قال : سألت أنساً أَحَرَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ؟ فقال : نعم هي حرام لا يُختلى خلاها " ، الحديث .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إني حرمت المدنية ، حرام ما بين مأزميها ألا يهراق فيها دم ، ولا يحمل فيها سلاح ولا

يخبط فيها شجر إلا لعلف " ، رواه مسلم .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبراهيم حرم مكة ، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها لا يقطع عضاهها ، ولا يصاد صيدها " ، رواه مسلم أيضاً .

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المدينة حرام ما بين عير إلى ثور " ، الحديث متفق عليه .

(138/215)

وعن علي رضي الله عنه ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في المدينة " لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ، ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ، ولا يصلح أن تقطع فيها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره " ، رواه أبو داود بإسناد صحيح ، ورواه الإمام أحمد ، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها ، أو يقتل صيدها " .

وقال : " المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يخرج عنها أحد رغبة إلا أبدل الله فيها من هو

خير منه ، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شهيداً ، أو شفيعاً يوم القيامة " ، رواه مسلم .

وعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبراهيم حرم مكة ، وإني أحرم ما بين لابتيها " رواه مسلم أيضاً .

وعن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري ، عن أبيه أبي سعيد رضي الله عنهما " أنه سمع النَّبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إني حرمت ما بين لابتي المدينة ، كما حرم إبراهيم مكة " .

قال : وكان أبو سعيد الخدري يجد في يد أحدنا الطير ، فيأخذه فيفكه من يده ، ثم يرسله ، رواه مسلم في صحيحه أيضاً ، وعن عبد الله بن عبادة الزرقي ، " أنه كان يصيد العصافير في بئر إهاب ، وكانت لهم ، قال : قرآني عبادة ، وقد أخذت عصفوراً فانتزعه مني فأرسله ، وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حُرِّم ما بين لابتيها كما حرم إبراهيم عليه السلام مكة " وكان عبادة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم " رواه البيهقي .

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، قال : اصطدت طيراً بالقنبلة ، فعرك أذني عركاً شديداً ، وانتزعه من يدي ، فأرسله ، فقال : " حَرَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم صيد ما بين لابتيها " ، رواه البيهقي أيضاً ، والقنبلة : آلة يصاد بها النهس وهو طائر .

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه " أنه وجد غلماناً قد ألجؤوا ثعلباً إلى زاوية فطردهم عنه " ، قال مالك : ولا أعلم إلا أنه قال : " أفي حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع هذا " ، رواه البيهقي أيضاً .

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه " أنه وجد رجلاً بالأسواف – وهو موضع بالمدينة – وقد اصطاد نهساً فأخذه زيد من يده فأرسل ، ثم قال : أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيد ما بين لابتيها " ، رواه البيهقي ، والرجل الذي اصطاد النهس هو شرحبيل بن سعد والنهي بضم النون وفتح الهاء بعدهما سين مهملة – طير صغير فوق العصفور شبيه بالقنبرة .

والأحاديث في الباب كثيرة جداً ، ولا شك في أن النصوص الصحيحة الصريحة التي أوردناها في حرم المدينة لا شك معها ، ولا لبس في أنها حرام ، لا ينفر صيدها ، لا يقطع شجرها ، ولا يختلى خلاها إلا لعلف ، وما احتج به بعض أهل العلم على أنها غير حرام من قوله صلى الله عليه وسلم " ما فعل النَّغَيْر يَا أَبَا عُمَيْرٍ " ، لا دليل فيه ، لأنه محتمل لأن يكون ذلك قبل تحريم المدينة ، ومحتمل لأن يكون صيد في الحل ، ثم أدخل المدينة .

وقد استدل به بعض العلماء على جواز إمساك الصيد الذي صيد في الحل وإدخاله المدينة ، وما كان محتملاً لهذه الاحتمالات لا تعارض به النصوص الصريحة الصحيحة الكثيرة التي لا لبس فيها ولا احتمال ، فإذا علمت ذلك فاعلم أن العلماء القائلين بحرمة المدينة ، وهم جمهور علماء الأمة اختلفوا في صيد حرم المدينة هل يضمنه قاتله أو لا ؟ وكذلك شجرها ، فذهب كثير من العلماء منهم مالك والشافعي في الجديد ، وأصحابهما وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وعليه أكثر أهل العلم إلى أنه موضع يجوز دخوله بغير إحرام ، فلم يجب فيه جزاء كصيد وج.

(140/215)

واستدلوا أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم " المدينة حرم ما بين عير وثور ، فمن أحدث فيها حدثاً ، أو آوى فيها محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلاً " ، فذكره صلى الله عليه وسلم لهذا الوعيد الشديد في الآخرة ، ولم يذكر كفارة في الدنيا دليل على أنه لا كفارة تجب فيه في الدنيا ، وهو ظاهر .

وقال ابن أبي ذئب ، وابن المنذر : يجب في صيد الحرم المدني الجزاء الواجب في صيد الحرم المكي ، وهو قول الشافعي في القديم . واستدل أهل هذا القول بأنه صلى الله عليه وسلم

صرح في الأحاديث الصحيحة المتقدمة بأنه حرم المدينة مثل تحريم إبراهيم لمكة ، ومماثلة تحريمها تقتضي استواءهما في جزاء من انتهك الحرمة فيهما .

قال القرطبي ، قال القاضي عبد الوهاب : وهذا القول أقيس عندي على أصولنا لا سيما أن المدينة عند أصحابنا أفضل من مكة ، وأن الصلاة فيها أفضل من الصلاة في المسجد الحرام اه .

قال مقيده عفا الله عنه : ومذهب الجمهور في تفضيل مكة ، وكثرة مضاعفة الصلاة فيها زيادة على المدينة بمائة ضعف أظهر لقيام الدليل عليه ، والله تعالى أعلم .

وذهب بعض من قال بوجوب الجزاء في الحرم المدني إلى أن الجزاء فيه هو أخذ سلب قاتل الصيد ، أو قاطع الشجر فيه .

(141/215)

قال مقيده عفا الله عنه : وهذا القول هو أقوى الأقوال دليلاً . لما رواه مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه " أنه ركب إلى قصره بالعقيق فوجد عبداً يقطع شجراً ، أو يخبطه فسلبه فلما رجع سعد جاءه أهل العبد فكلموه ، أن يرد على غلامهم أو عليهم ما أخذ من غلامهم فقال : معاذ الله أن أرد شيئاً نفلنيه رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وأبى أن يرده عليهم " ، رواه مسلم في صحيحه ، وأحمد وما ذكره القرطبي في تفسيره رحمه الله من أن هذا الحكم خاص بسعد رضي الله عنه ، مستدلاً بأن قوله " نفلنيه " أي أعطانيه ظاهر في الخصوص به دون غيره فيه عندي أمران :

الأول : أن هذا لا يكفي في الدلالة على الخصوص ، لأن الأصل استواء الناس في الأحكام الشرعية إلا بدليل ، وقوله " نفلنيه " ليس بدليل ، لاحتماله أنه نفل كل من وجد قاطع شجر ، أو قاتل صيد بالمدينة ثيابه ، كما تنفل سعداً ، وهذا هو الظاهر .

الثاني : أن سعداً نفسه روي عنه تعميم الحكم ، وشموله لغيره ، فقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن سليمان بن أبي عبد الله قال : " رأيت سعد بن أبي وقاص أخذ رجلاً يصيد في حرم المدينة الذي حَرَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلبه ثيابه فجاء مواليه ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم هذا الحرم ، وقال : " من رأيتموه يصيد فيه شيئاً فلكم سلبه " فلا أرد عليكم طعمة أطعمنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن إن شئتم أن أعطيكم ثمنه أعطيتكم " وفي لفظ " من أخذ أحداً يصيد فيه فليسلبه ثيابه " وروى هذا الحديث أيضاً الحاكم وصححه ، وهو صريح في العموم وعدم الخصوص بسعد كما ترى ، وفيه تفسير المراد بقوله " نفلنيه " وأنه عام لكل من وجد أحداً يفعل فيها ذلك .

وتضعيف بعضهم لهذا الحديث بأن في إسناده سليمان بن أبي عبد الله غير مقبول ، لأن

سليمان بن أبي عبد الله مقبول ، قال فيه الذهبي : تابعي وثق ، وقال فيه ابن حجر في (التقريب) : مقبول .

(142/215)

والمقبول عنده كما بينه في مقدمة تقريبه : هو من ليس له من الحديث إلا القليل ، ولم يثبت فيه ما يترك حديثه من أجله فهو مقبول حيث يتابع ، وإلا فلين الحديث ، وقال فيه ابن أبي حاتم : ليس بمشهور ، ولكن يعتبر بحديثه اه .

وقد تابع سليمان بن أبي عبد الله في هذا الحديث عامر بن سعد عند مسلم وأحمد ، ومولى لسعد عند أبي داود كلهم عن سعد رضي الله عنه ، فاتضح رد تضعيفه مع ما قدمنا من أن الحاكم صححه ، وأن الذهبي قال فيه : تابعي موثق .

والمراد بسلب قاطع الشجر أو قاتل الصيد في المدينة أخذ ثيابه . قال بعض العلماء : حتى سراويله .

والظاهر ما ذكره بعض أهل العلم من وجوب ترك ما يستر العورة المغلظة ، والله تعالى أعلم .

وقال بعض العلماء : السلب هنا سلب القاتل ، وفي مصرف هذا السلب ثلاثة أقوال :

أصحها : أنه للسالب كالقتيل ، ودليله حديث سعد المذكور .

والثاني : أنه لفقراء المدينة .

والثالث : أنه لبيت المال ، والحق الأول .

وجمهور العلماء على أن حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تقدم في حديث أبي هريرة المتفق عليه ، أن قدره اثنا عشر ميلاً من جهات المدينة لا يجوز قطع شجره ، ولا خلاه ، كما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يخبط ولا يعضد حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن يهش هشاً رقيقاً " أخرجه أبو داود والبيهقي ، ولم يضعفه أبو داود ، والمعروف عن أبي داود رحمه الله إنه إن سكت عن الكلام في حديث فأقل درجاته عنده الحسن .

(143/215)

وقال النووي في شرح المهذب بعد أن ساق حديث جابر المذكور : رواه أبو داود بإسناد غير قوي لكنه لم يضعفه اه ، ويعتضد هذا الحديث بما رواه البيهقي بإسناده عن محمد بن زياد قال : " كان جدي مولى لعثمان بن مظعون ، وكان يلي أرضاً لعثمان فيها بقل وقثاء . قال : فربما أتاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه نصف النهار ، واضعاً ثوبه على راسه يتعاهد الحِمَى ، ألا يعضد شجره ، ولا يخبط . قال : فيجلس إليَّ فيحدثني ، وأطعمه من

القثاء والبقل ، فقال له يوماً : أراك لا تخرج من ها هنا . قال : قلت : أجل . قال : إني أستعملك على ما ها هنا فمن رأيت يعضد شجراً أو يخبط فخذ فأسه ، وحبله ، قال : قلت آخذ رداءه ، قال : لا " وعامة العلماء على أن صيد الحمى المذكور غير حرام ، لأنه ليس بحرم ، وإنما هو حمى حماه رسول الله صلى الله عليه وسلم للخيل وإبل الصدقة والجزية ، ونحو ذلك .

واختلف في شجر الحمى هل يضمنه قاطعه ؟ والأكثرون على أنه لا ضمان فيه ، وأصح القولين عند الشافعية ، وجوب الضمان فيه بالقيمة ، ولا يسلب قاطعه ، وتصرف القيمة في مصرف نعم الزكاة والجزية .

المسالة الثالثة عشرة : اعلم أن جماهير العلماء على إباحة صيد وج ، وقطع شجره . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : أكره صيد وج ، وحمله المحققون من أصحابه على كراهة التحريم .

واختلفوا فيه على القول بحرمته ، هل فيه جزاء كحرم المدينة أو لا شيء فيه ؟ ولكن يؤدب قاتله ، وعليه أكثر الشافعية .

وحجة من قال بحرمة صيد وج ما رواه أبو داود ، وأحمد والبخاري في تاريخه ، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " صَيدَ وَج محرَّم " الحديث .

قال ابن حجر في (التلخيص) : سكت عليه أبو داو وحسنه المنذري ، وسكت عليه عبد الحق ، فتعقبه ابن القطان بما نقل عن البخاري ، أنه لم يصح ، وكذا قال الأزدي .

(144/215)

وذكر الذهبي ، أن الشافعي صححه ، وذكر الخلال أن أحمد ضعفه ، وقال ابن حبان في رواية المنفرد به ، وهو محمد بن عبد الله بن إنسان الطائفي كان يخطئ ، ومقتضاه تضعيف الحديث فإنه ليس له غيره فإن كان أخطأ فيه فهو ضعيف ، وقال العقيلي : لا يتابع إلا من جهة تقاربه في الضعف ، وقال النووي في شرح المهذب : إسناده ضعيف .

وذكر البخاري في تاريخه في ترجمة عبد الله بن إنسان أنه لا يصح .

وقال ابن حجر في (التقريب) في حمد بن عبد الله بن إنسان الثقفي الطائفي المذكور : لين الحديث ، وكذلك أبوه عبد الله الذي هو شيخه في هذا الحديث : قال فيه أيضاص : لين الحديث ، وقال ابن قدامة في المغني في هذا الحديث في صيد وج : ضعفه أحمد ذكره الخلال في كتاب (العلل) ، فإذا عرفت هذا ظهر لك حجة الجمهور في إباحة صيد وج وشجره كون الحديث لم يثبت ، والأصل براءة الذمة ، ووج – بفتح الواو ، وتشديد الجيم – أرض بالطائف . وقال بعض العلماء : هو واد بصحراء الطائف ، وليس المراد به نفس بلدة

الطائف . وقيل : هو كل أرض الطائف ، وقيل هو اسم لحصون الطائف وقيل ، لواحد منها وربما التبس وجّ المذكور بوح – بالحاء المهملة – وهي ناحية نعمان : فإذا عرفت حكم صيد المحرم ، وحكم صيد مكة ، والمدينة ، ووجّ ، مما ذكرنا فاعلم أن الصيد المحرم إذا كان بعض قوائمه في الحل ، وبعضها في الحرم ، أو كان على غصن ممتد في الحل ، وأصل شجرته في الحرم ، فاصطياده حرام على التحقيق تغليباً لجانب حرمة الحرم فيهما .

أما إذا كان أصل الشجرة في الحل ، وأغصانها ممتدة في الحرم ، فاصطاد طيراً واقعاً على الأغصان الممتدة في الحرم ، فلا إشكال في أنه مصطاد في الحرم ، لكون الطير في هواء الحرم .

(145/215)

واعلم أن ما ادعاه بعض الحنفية ، من أن أحاديث تحديد حرم المدينة مضطربة لأنه وقع في بعض الروايات باللابتين ، وفي بعضها بالحرتين ، وفي بعضها بالجبلين ، وفي بعضها بالمأزمين ، وفي بعضها بعير وثور ، غير صحيح لظهور الجمع بكل وضوح .

لأن اللابتين هما الحرتان المعروفتان ، وهما حجارة سود على جوانب المدينة والجبلان هما المأزمان ، وهما عير وثور والمدينة بين الحرتين ، كما أنها أيضاً بين ثور وعير ، كما يشاهده من نظرها . وثور جبيل صغير يميل إلى الحمرة بتدوير خلف أحد من جهة الشمال .

فمن ادعى من العلماء أنه ليس في المدينة جبل يسمى ثوراً ، فغلط منه . لأنه معروف عند الناس إلى اليوم ، مع أنه ثبت في الحديث الصحيح .

واعلم أنه على قراءة الكوفيين ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ ﴾ [المائدة : 95] الآية . بتنوين جزاء ، ورفع مثل فالأمر واضح ، وعلى قراءة الجمهور ﴿ فَجَزَآءُ مِّثْلِ ﴾ بالإضافة ، فأظهر الأقوال أن الإضافة بيانية ، أي جزاء هو مثل ما قتل من النعم ، فيرجع معناه إلى الأول ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(146/215)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96) ﴾

أخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم ﴾ قال : ما لفظه ميتاً فهو طعامه " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفاً . مثله .

وأخرج أبو الشيخ من طريق قتادة عن أنس عن أبي بكر الصديق في الآية قال : صيده ما حويت عليه ، وطعامه ما لفظ إليك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة . أن أبا بكر الصديق قال في قوله ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ قال : صيد البحر ما تصطاده أيدينا ، وطعامه ما لاثه البحر . وفي لفظ : طعامه كل ما فيه ، وفي لفظ : طعامه ميتته .

وأخرج أبو الشيخ من طريق أبي الطفيل عن أبي بكر الصديق قال في البحر : هو الطهور ماؤه الحل ميتته .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : صيد البحر حلال وماؤه طهور .

وأخرج أبو الشيخ من طريق أبي الزبير عن عبد الرحمن مولى بني مخزوم قال : ما في البحر شيء إلا قد ذكَّاه الله لكم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس قال : خطب أبو بكر الناس فقال ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم ﴾ قال : وطعامه ما قذف به .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال : قدمت البحرين ، فسألني أهل البحرين عما يقذف البحر من السمك ؟ فقلت لهم : كلوا ، فلما رجعت سألت عمر بن الخطاب عن ذلك ، فقال : بم

أفتيتهم ؟ ! قال : أفتيتهم أن يأكلوا . قال : لو أفتيتهم بغير ذلك لعلوتك بالدرة ، ثم قال ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ فصيده ما صيد منه ، وطعامه ما قذف .

(147/215)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه من طرق عن ابن عباس قال : صيده ما صيد ، وطعامه ما لفظ به البحر ، وفي رواية ما قذف به ، يعني ميتاً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق أخرى عن ابن عباس في الآية قال : صيده الطري ، وطعامه المالح ، للمسافر والمقيم .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن ثابت قال : صيده ما اصطدت .

وأخرج ابن جرير عن جابر بن عبد الله قال : ما حسر عنه فكل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عمر قال : صيده ما اضطرب ، وطعامه ما قذف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق علي عن ابن عباس ﴿ أحل لكم صيد البحر ﴾ يعني طعامه مالحه ، وما حسر عنه الماء ، وما قذفه ، فهذا حلال لجميع الناس محرم وغيره .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير عن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر عن حيتان ألقاها البحر ، فقال ابن عمر : أميتة هي ؟ قال : نعم . فنهاه ، فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة ، فأتى على هذه الآية ﴿ وطعامه متاعاً لكم ﴾ فقال : طعامه هو الذي ألقاه فألحقه ، فمره يأكله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أبي أيوب قال : ما لفظ البحر فهو طعامه وإن كان ميتاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : صيده ما اصطدت طرياً ، وطعامه ما تزوّدت مملوحاً في سفرك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان قال : ما نعلمه حرم من صيد البحر شيئاً غير الكلاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون الكردي . أن ابن عباس كان راكباً فمر عليه جراد فضربه ، فقيل له : قتلت صيداً وأنت محرم ؟ فقال : إنما هو من صيد البحر .

(148/215)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن عطاء بن يسار قال : قال كعب الأحبار لعمر : والذي نفسي بيده إن هو إلا نثرة حوت ينثره في كل عام مرتين . يعني الجراد .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مجلز في الآية قال : ما كان من صيد البحر يعيش في البر والبحر فلا يصيده ، وما كان حياته في الماء فذلك له .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة ﴿ متاعاً لكم ﴾ لمن كان يحضره البحر ﴿ وللسيارة ﴾ قال : السفر .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ وطعامه ﴾ قال : حيتانه ﴿ متاعاً لكم ﴾ لأهل القرى ﴿ وللسيارة ﴾ أهل الأسفار وأجناس الناس كلهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن ﴿ وللسيارة ﴾ قال : هم المحرمون .

وأخرج الفريابي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ وللسيارة ﴾ قال : المسافر يتزوّد منه ويأكل .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق طاوس عن ابن عباس في قوله ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ قال : هي مبهمة ، لا يحل لك أكل لحم الصيد وأنت محرم ، ولفظ ابن أبي حاتم قال : هي مبهمة صيده ، وأكله حرام على المحرم .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الكريم بن أبي المخارق قال : قلت لمجاهد : فإنه صيد اصطيد

بهمذان قبل أن يحرم الرجل بأربعة أشهر . فقال : لا ، كان ابن عباس يقول : هي مبهمة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحارث بن نوفل قال : حج عثمان بن عفان ، فأتى بلحم صيد صاده حلال ، فأكل منه عثمان ولم يأكل علي ، فقال عثمان : والله ما صدنا ولا أمرنا ولا أشرنا ، فقال علي ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن الحسن . أن عمر بن الخطاب لم يكن يرى بأساً بلحم الصيد للمحرم إذا صيد لغيره ، وكرهه علي بن أبي طالب .

(149/215)

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب . أن علياً كره لحم الصيد للمحرم على كل حال .

وأخرج عن ابن عباس . مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن ابن عمر . أنه كان لا يأكل الصيد وهو محرم ، وإن صاده الحلال .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إسماعيل قال : سألت الشعبي عنه فقال : قد اختلف فيه ، فلا تأكل منه أحب إليَّ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي هريرة . أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال ، أيأكله المحرم ؟ قال : نعم . ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره ، فقال : لو أفتيت بغير هذا لعلوتك بالدرة ، إنما نهيت أن تصطاده .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ فجعل الصيد حراماً على المحرم صيده وأكله حراماً ، وإن كان الصيد صيد قبل أن يحرم الرجل فهو حلال ، وإن صاده حرام للحلال فلا يحل أكله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عبد الرحمن بن عثمان قال "كنا مع طلحة بن عبيد الله ونحن حرم ، فأهدي لنا طائر ، فمنا من أكل ومنا من تورع فلم يأكل ، فلما استيقظ طلحة وافق من أكل وقال : أكلناه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : اقرأها كما تقرؤها ، فإن الله ختم الآية بحرام قال أبو عبيد : يعني ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ يقول : فهذا يأتي معناه على قتله وعلى أكل لحمه .

(150/215)

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم عن أبي قتادة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج حاجاً فخرجوا معه ، فصرف طائفة منهم فيهم أبو قتادة ، فقال : خذوا ساحل البحر حتى نلتقي ، فأخذوا ساحل البحر ، فلما انصرفوا أحرموا كلهم إلا أبو قتادة لم يحرم ، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حمر وحش ، فحمل أبو قتادة على الحمر فعقر منها أتاناً ، فنزلوا فأكلوا من لحمها ، فقالوا : نأكل لحم صيد ونحن محرمون ، فحملنا ما بقي من لحمها ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ، إنا كنا أحرمنا ، وقد كان أبو قتادة لم يحرم ، فرأينا حمر وحش ، فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتانا ، فنزلنا فأكلنا من لحمها ، ثم قلنا أنأكل لحم صيد ونحن محرمون ؟ فحملنا ما بقي من لحمها . قال : أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها ؟ قالوا : لا . قال : فكلوا ما بقي من لحمها " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لحم صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ، ما لم تصيدوه أو يصد لكم " .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال " يا زيد بن أرقم ، أعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدي له بيضات نعام وهو حرام فردهن ؟ قال : نعم . " .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة بسند ضعيف عن أبي هريرة : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حج أو عمرة ، فاستقبلنا رحل جراد ، فجعلنا نضربهن بعصينا وسياطنا فنقتلهن ، فأسقط في أيدينا فقلنا : ما نصنع ونحن محرمون ؟ فسألنا

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا بأس بصيد البحر " .

وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : كل شيء عاش في البر والبحر فأصابه المحرم فعليه الكفارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(151/215)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وطعَامُهُ " : نسقٌ على " صَيْدُ " ، أي : أحِلَّ لكمُ الصيدُ وطعامُهُ ، فالصَّيْدُ الاصْطِيَادُ ، والطَّعامُ بمعنى الإطعامِ ، أي : إنه اسمُ مصدرٍ ، ويُقَدَّرُ المفعولُ حينئذٍ محذوفاً ، أي : إطعامُكُمْ إياه أنفسكُمْ ، ويجوز أن يكون الصَّيْدُ بمعنى المَصِيد ، والهاءُ في " طَعَامُهُ " تعودُ على البَحْر على هذا أي : أُحِلَّ لكُمْ مَصِيدُ البَحْرِ وطعامُ البَحْر ؛ فالطعامُ على هذا غَيْرُ الصَّيْدِ وعلى هذا ففيهِ وجوهٌ :

أحسنها ما ذكرهُ أبو بَكْر الصِّدّيق ، وعُمَرُ - رضي الله عنهما - : أنَّ الصَّيدَ ما صِيدَ بالْحِيلَةِ حال حِيَاتِهِ - والطَّعَامُ ما رَمَى بِهِ البَحْرُ ، أو نضبَ عَنْهُ المَاءُ مِنْ غَيْرِ مُعَالَجَةٍ .

قوله تعالى : " متاعاً لَكُمْ " في نصبه وجهان :

أحدهما : أنه منصوبٌ على المصدر ، وإليه ذهب مكي وابن عطيَّة وأبو البقاء وغيرهم ، والتقدير : مَتَّعَكُمْ به متاعاً تَنْتَفِعُونَ وتَأْتَدِمُونَ به ، وقال مكيٌّ : لأنَّ قوله : " أُحِلَّ لَكُمْ " بمعنى أَمْتَعْتُكُمْ به إمْتَاعاً ؛ كقوله : ﴿ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : 24] .

والثاني : أنه مفعول من أجله ، قال الزمخشري : " أي : أحلَّ لكُمْ تمتيعاً لكم ، وهو في المفعول له بمنزلة قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : 72] في باب الحال ؛ لأنَّ قوله " مَتَاعاً لَكُمْ " مفعولٌ له مختصٌّ بالطعام ؛ كما أنَّ " نَافِلَةً " حالٌ مختصٌّ بيعقوب ، يعني أُحِلَّ لكم طعامُه تمتيعاً لتَنَائِكُمْ تأكلونه طَرِيًّا ولسيَّارَتِكُمْ يتزوَّدونه قديداً " . انتهى ،

(152/215)

فقد خصَّصَ الزمخشريّ كونه مفعولاً له بكون الفعْلِ ، وهو " أُحِلَّ " مسنداً لقوله : " طَعَامُهُ " ، وليس علَّةً لِحِلِّ الصيدِ ، وإنما هو علَّةٌ لِحِلِّ الطعام فقط ، وإنما حملهُ على ذلك مذهبُهُ – وهو مذهبُ أبي حنيفةَ – ؛ من أنَّ صيدَ البَحْرِ مُنْقَسِمٌ إلى ما يُؤكَلُ ، وإلى ما لا يُؤكَلُ ، وأن طعامه هو المأكُولُ منه ، وأنه لا يقع التمثيلُ إلا بالمأكُول منه طرِيًّا وقَدِيداً ، وقوله " نَافِلَةً " ، يعني أنَّ هذه الحالَ مختصةٌ بيعقوبَ ؛ لأنه ولدُ ولدٍ ؛ بخلافِ إسحاقَ ، فإنه ولدُه لصُلْبه ،

والنافلةُ إنما تُطْلَقُ على ولد الولدِ ، دونَ الولد ، فكذا " متاعاً " ، إلاَّ أنَّ هذا يؤدّي إلى أنَّ الفعل الواحد يُسْنَدُ لفاعلين متعاطفَيْن [يكونُ] في إسناده إلى أحدهما معللاً وإلى الآخر ليْسَ كذلك ، فإذا قلت : " قَامَ زَيْدٌ وعَمْرٌو إجلالاً لَكَ " ، فيجوز أن يكون " قِيَامُ زيدٍ " هو المختصَّ بالإجلال ، أو بالعكْسِ ، وهذا فيه إلباسٌ ، وأمَّا ما أورده من الحالِ في الآية الكريمة ، فَثَمَّ قرينةٌ أَوْجَبَتْ صرْفَ الحالِ إلى أحدهما ، دون ما نحْنُ فيه من الآية الكريمة ، وأمَّا غيرُ مذهبه ؛ فإنه يكونُ مفعولاً له غير مختص بأحدِ المتعاطفيْنِ وهو ظاهرٌ جَلِيٌّ ، و" لَكُمْ " إنْ قلنا : " مَتَاعاً " مصدرٌ ، فيجوز أن يكونَ صفةً له ، ويكونُ مصدراً مبيّناً لكونه وُصِفَ ، وإن قلنا : إنه مفعولٌ له ، فيتعلَّقُ بفعلٍ محذوفٍ ، أي : أعني التقديرُ : لأنْ أمَتِّعَكُمْ ، ولأنْ أمَتِّعَكُمْ ، ولأنْ أجلَّكَ ، وهكذا ما جاء من نظائره .

قوله : ﴿ مَا دُمْتُمْ حُرُماً ﴾ " ما " مصدريةٌ ، و" دمتم " صلتها وهي مصدريةٌ ظرفيةٌ أي : حُرِّم عليكم صيدُ البر مدةَ دوامِكم مُحْرمين .

والجمهور على ضمِّ دال " دمتم " من لغة من قال : دام يدوم .

(153/215)

وقرأ يحيى : " دِمتم " بكسرها من لغة من يقول : دام يدام كخاف يخاف ، وهما كاللغتين في مات يموتُ ويمات ، وقد تقدَّم [الآية 57 آل عمران] .

والجمهورُ على " وحُرِّم " مبنياً للمفعول ، " صيدُ " رفعاً على قيامه مقام الفاعل ، وقرئ : " وحَرَّم " مبنياً للفاعل ، " صيدَ " نصباً على المفعول به .

والجمهورُ أيضاً على " حُرُماً " بضم الحاء والراء جمعُ " حَرام " بمعنى مُحْرِم كـ " قَذَال " و " قُذُل " .

وقرأ ابن عباس " حَرَماً " بفتحهما ، أي : ذوي حَرَم أي إحرام ، وقيل : جعلهم بمنزلة المكان الممنوع منه ، والأحسنُ أن يكون من باب " رجل عدل " جعلهم نفسَ المصدرِ فإنَّ " حَرَما " بمعنى إحرام ، وتقدم أن المصدر يقع للواحدِ فما فوقُ بلفظٍ واحد .

والبَرُّ معروفٌ ، قال الليث : " ويستعمل نكرة يقال : جلست بَرًّا ، وخرجْتُ برًّا " .

قال الأزهري : " وهو من كلام المولدين " وفيه نظر لقول سلمان الفارسي : " إنَّ لكلِّ امرئ جَوَّانِيًّا وبَرَّانياً " أي باطنٌ وظاهرٌ ، وهو من تغيير النسب ، وقد تقدم استيفاء هذه المادة في البقرة [الآية 44] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 531 . 536 ﴾ . باختصار .

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ إيماناً علمياً ﴿ لاَ تُحَرّمُواْ ﴾ بتقصيركم في السلوك ﴿ طيبات مَا أَحَلَّ الله لَكُمْ ﴾ من مكاشفات الأحوال وتجليات الصفات ﴿ وَلاَ تَعْتَدُواْ ﴾ [المائدة : 87] بظهور النفس بصفاتها ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ أي اجعلوا ما من الله تعالى به عليكم من علوم التجليات ومواهب الأحوال والمقامات غذاء قلوبكم ﴿ حلالا طَيّباً واتقوا الله ﴾ [المائدة : 88] في حصول ذلك لكم بأن تردوها منه وله ، وجعل غير واحد هذا خطاباً للواصلين من أرباب السلوك حيث أرادوا الرجوع إلى حال أهل البدايات من المجاهدات فنهوا عن ذلك وأمروا بأكل الحلال الطيب ، وفسروا الحلال بما وصل إلى المعارف من خزائن الغيب بلا كلفة ، والطيب ما يقوي القلب في شوق الله تعالى وذكر جلاله ، وقيل : الحلال الطيب ما يأكل على شهود وإلا فعلى ذكر ، فإن الأكل على الغفلة حرام في شرع السلوك ، وقال آخرون : الحلال الطيب هو الذي يراه العارف في خزانة القدر فيأخذه منها بوصف الرضا والتسليم ، والحرام ما قدر لغيره وهو يجتهد في طلبه لنفسه ﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو فِى أيمانكم ﴾ وهو الحلف لملالة النفس وكلالة القوى وغلبة سلطان الهوى ، وعدوا من اللغو في اليمين الإقسام على الله

تعالى بجماله وجلاله سبحانه عند غلبة الشوق ووجدان الذوق أن يرزقه شيئاً من إقباله عز وجل ووصاله فإن ذلك لغو في شريعة الرضا ومذهب التسليم .

والذي يقتضيه ذلك ما أشير إليه بقوله

: أريد وصاله ويريد هجري . . .

فاترك ما أريد لما يريد

لكن لا يؤاخذ الله تعالى عليه الحالف لعلمه بضعف حاله .

وعدوا من ذلك أيضاً ما يجري على لسان السالكين في غلبة الوجد من تجديد العهد وتأكيد العقد كقول بعضهم

: وحقك لا نظرت إلى سواكا . . .

بعين مودة حتى أراكا

(155/215)

فإن ذلك ينافي التوحيد وهل في الدار ديار كلا بل هو الله الواحد القهار ﴿ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الايمان ﴾ وذلك إذا عزمتم على الهجران وتعرضتم للخذلان عن صميم الفؤاد ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مساكين ﴾ وهي على ما قال البعض الحواس الخمس الظاهرة

والحواس الخمس الباطنة ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ وهم القلب والسر والروح والخفي ، وطعامهم الشوق والمحبة والصدق والإخلاص والتفويض والتسليم والرضا والأنس والهيبة والشهود والكشوف والأوسط الذكر والفكر والشوق والتوكل والتعبد والخوف والرجاء ، وإطعام الحواس ذلك أن يشغلها به ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ لباس التقوى ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ وهي رقبة النفس فيحررها من عبودية الحرص والهوى ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ ولم يستطع ﴿ فَصِيَامُ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ [المائدة : 89] فيمسك في اليوم الأول عما عزم عليه وفي اليوم الثاني عما لا يعنيه وفي اليوم الثالث عن العود إليه ، وقيل كنى سبحانه بصيام ثلاثة أيام عن التوبة والاستقامة عليها ما دامت الدنيا ، فقد قيل : الدنيا ثلاثة أيام : يوم مضى ويوم أنت فيه ويوم لا تدري ما الله سبحانه قاض فيه ﴿ وَأَطِيعُواْ الله ﴾ بالفناء فيه ﴿ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ بالبقاء بعد الفناء ﴿ واحذروا ﴾ ظهور ذلك بالنظر إلى نفوسكم

(156/215)

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ ﴾ [المائدة : 92] ولم يقصر فيه فالقصور منكم ﴿ لَيْسَ عَلَى الذين ءامَنُواْ ﴾ بالتقليد ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الأعمال البدنية

الشرعية ﴿ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ ﴾ من المباحات ﴿ إِذَا مَا اتقوا ﴾ الشبهة والإسراف ﴿ وَءامَنُواْ ﴾ بالتحقيق ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الأعمال القلبية الحقيقية من تخلية القلب عما سواه سبحانه ومن تحليته بالأحوال المضادة لهواه من الصدق والإخلاص والتوكل والتسليم ونحو ذلك ﴿ ثُمَّ اتَّقَواْ ﴾ شرك الأنانية ﴿ وَءامَنُواْ ﴾ بالهوية ﴿ ثُمَّ اتَّقَواْ ﴾ هذا الشرك وهو الفناء ﴿ وَأَحْسِنُواْ ﴾ بالبقاء به جل شأنه قاله النيسابوري.

وقال غيره: ليس على الذين آمنوا الإيمان العيني بتوحيد الأفعال وعملوا بمقتضى إيمانهم أعمالاً تخرجهم عن حجب الأفعال وتصلحهم لرؤية أفعال الحق جناح وضيق فيما تمتعوا به من أنواع الحظوظ إذا ما اجتنبوا بقايا أفعالهم واتخذوا الله تعالى وقاية في صدور الأفعال منهم وآمنوا بتوحيد الصفات وعملوا ما يخرجهم عن حجبها ويصلحهم لمشاهدة الصفات الإلهية بالمحو فيها ثم اتقوا بقايا صفاتهم واتخذوا الله تعالى وقاية في ظهور صفاته عليهم وآمنوا بتوحيد الذات ثم اتقوا بقية ذواتهم واتخذوا الله تعالى وقاية في وجودهم بالفناء المحض والاستهلاك في عين الذات وأحسنوا بشهود التفصيل في عين الجمع والاستقامة في البقاء بعد الفناء ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [المائدة: 93] الباقين بعد فنائهم أو المشاهدين للوحدة في عين الكثرة المراعين لحقوق التفاصيل في عين الجمع بالوجود الحقاني ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ بالغيب ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ﴾ في أثناء السير والإحرام لزيارة كعبة

الوصول ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الصيد ﴾ أي الحظوظ والمقاصد النفسانية ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ورماحكم ﴾ أي يتيسر لكم ويتهيأ ما يتوصل به إليه .

(157/215)

وقيل : ما تناله الأيدي اللذات البدنية وما تناله الرماح اللذات الخيالية ﴿ لِيَعْلَمَ الله ﴾ العلم الذي ترتب عليه الجزاء ﴿ مَن يَخَافُهُ بالغيب ﴾ أي في حال الغيبة ولا يكون ذلك إلا للمؤمنين بالغيب لتعلقه بالعقاب الذي هو من باب الأفعال ، وأما في الحضور فالخشية والهيبة دون الخوف ، والأولى بتجلي صفات الربوبية والعظمة ، والثانية بتجلي الذات ، فالخوف كما قيل من صفات النفس والخشية من صفات القلب ، والهيبة من صفات الروح ﴿ فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذلك ﴾ بتناول شيء من الحظوظ ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : 94] وهو عذاب الاحتجاب ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ أي في حال الإحرام الحقيقي ﴿ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً ﴾ بأن ارتكب شيئاً من الحظوظ النفسانية قصداً ﴿ فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ بأن يقهر تلك القوة التي ارتكب بها من قوى النفس البهيمية بأمر يماثل ذلك الحظ ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ وهما القوتان النظرية والعملية ﴿ هَدْياً بالغ الكعبة ﴾ الحقيقية وذلك بإفنائها في الله عز وجل

﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مساكين أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ [المائدة : 95] أي أو يستر تلك القوة بصدقة أو صيام ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر ﴾ وهو ما في العالم الروحاني من المعارف ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾ وهو العلم النافع من علم المعاملات والأخلاق ﴿ متاعا ﴾ أي تمتيعاً لكم أيها السالكون بطريق الحق ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ المسافرين سفر الآخرة ، ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر ﴾ وهو في العالم الجسماني من المحسوسات والحظوظ النفسانية ﴿ واتقوا الله ﴾ في سيركم ﴿ الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المائدة : 69] بالفناء فاجتهدوا في السلوك ولا تقفوا مع الموانع وهو الله تعالى الميسر للرشاد وإليه المرجع والمعاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(158/215)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس عشر بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/216)

الجزء السادس عشر بعد المائتين

من الآية ﴿ 97 ﴾ من سورة المائدة

وحتى الآية ﴿ 102 ﴾ من نفس السورة

(4/216)

قوله تعالى ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الإحرام وتحريم الصيد فيه إنما هو لقصد تعظيم الكعبة ، بين تعالى حكمة ذلك وأنه كما جعل الحرم والإحرام سبباً لأمن الوحش والطير جعله سبباً لأمن الناس وسبباً لحصول السعادة دنيا وأخرى ، فقال مستأنفاً بياناً لحكمة المنع في أول السورة من استحلال من يقصدها للزيارة : ﴿ جعل الله ﴾ أي بما له من العظمة وكمال الحكمة ونفوذ الكلمة ﴿ الكعبة ﴾ وعبر عنها بذلك لأنها مأخوذة من الكعب الذي به قيام الإنسان وقوامه ، وبيّنها مادحاً بقوله : ﴿ البيت الحرام ﴾ أي الممنوع من كل جبار دائماً الذي تقدم في أول السورة أني منعتكم من استحلال من يؤمّه ﴿ قياماً للناس ﴾ أي في أمر معاشهم ومعادهم لأنها لهم كالعماد الذي يقوم به البيت ، فيأمن به الخائف ويقوى فيه الضعيف ويقصده التجار والحجاج والعمّار فهو عماد الدين والدنيا .

ولما ذكر ما به القوام من المكان ، أتبعه ذلك من الزمان فقال : ﴿ والشهر الحرام ﴾ أي الذي يفعل فيه الحج وغيره يأمن فيه الخائف .

ولما ذكر ما به القوام من المكان والزمان ، أتبعه ما به قوام الفقراء من شعائره فقال : ﴿ والهدي ﴾ ثم أتبعه أعزَّه وأخصه فقال : ﴿ والقلائد ﴾ أي والهدي العزيز الذي يقلد فيذبح ويقسم على الفقراء ، وفي الآية التفات إلى ما في أول السورة من قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ﴾ [المائدة : 2] - فقوانينُها أن من قصدها في شهر الحرام لم يتعرض له أحد ولو كان قتل ابنه ، ومن قصدها في غيره ومعه هدي قلده أو لم يقلده أو لم يكن معه هدي وقلد نفسه من لَحاء شجر الحرم لم يعرِض له أحد حتى أن بعضهم يلقي الهدي وهو مضطر فلا يعرض له ولو مات جوعاً ، وسواء في ذلك صاحبه وغيره لأن الله تعالى أوقع في قلوبهم تعظيمها ، لأنه تعالى جبل العرب على الشجاعة ليفتح بهم البلاد شرقاً وغرباً ليظهر عموم رسالة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، فلزم من ذلك شدة حرصهم على القتل والغارات ، وعلم أن ذلك إن دام بهم شَغَلَهم عن تحصيل ما يحتاجون إليه لعيشهم ، فأدى إلى فنائهم ، فجعل بيته المكرم وما كان من أسبابه أماناً يكون به قوام معاشهم ومعايشهم ، فكان ذلك برهاناً ظاهراً على أن الإله عالم بجميع المعلومات وأن له الحكمة البالغة .

ولما أخبر بعلة التعظيم لما أمر بتعظيمه من نظم أمور الناس ، ذكر علة ذلك الجعل فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الجعل العظيم الذي تم أمره على ما أراد جاعله سبحانه ﴿ لتعلموا ﴾ أي بهذا التدبير المحكم ﴿ أن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله الذي جعل ذلك ﴿ يعلم ما في السماوات ﴾ فلذلك رتبها ترتيباً فصلت به الأيام والليالي ، فكانت من ذلك الشهور والأعوام ، وفصّل من ذلك ما فصل للقيام المذكور ﴿ وما في الأرض ﴾ فلذلك جعل فيها ما قامت به مصالح الناس وكف فيه أشدهم وأفتكهم عن أضعفهم وآمن فيه الطير والوحش ، فيؤدي ذلك من له عقل رصين وفكر متين إلى أن يعلم أن فاعل ذلك من العظمة ونفوذ الكلمة بحيث يستحق الإخلاص في العبادة وأن يمتثل أمره في إحلال ما أحل من الطعام وتحريم ما حرم من الشراب وغير ذلك .

ولما ذكر هذا العلم العظيم ، ذكر ما هو أعم منه فقال : ﴿ وأن ﴾ أي ولتعلموا أن ﴿ الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً الذي فعل ذلك فتم له ﴿ بكل شيء عليم ﴾ وإلاّ لما أثبت جميع مقتضيات ذلك ونفى جميع موانعه حتى كان ، ولقد اتخذ العرب – كما في السيرة الهشامية وغيرها – طواغيت ، وهي بيوت جعل لها سدنة وحجاباً وهدايا

أكثروا منها ، وعظمت كل قبيلة ما عندها أشد تعظيم وطافوا به فلم يبلغ شيء منها ما بلغ أمر الكعبة المشرفة ولا قارب ، ليحصل العلم بأنه سبحانه لا شيء مثله ولا شريك له .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 543. 545 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها ، هو أن الله تعالى حرّم في الآية المتقدمة الاصطياد على المحرم ، فبين أن الحرم كما أنه سبب لأمن الوحش والطير ، فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 83 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر ﴿ قَيِّماً ﴾ بغير ألف ، ومعناه المبالغة في كونه قائماً بإصلاح مهمات الناس كقوله تعالى : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ [الأنعام : 161] والباقون بالألف ، وقد استقصينا ذلك في سورة النساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 83 ﴾

فائدة

قال الفخر :

﴿ جَعَلَ ﴾ فيه قولان : الأول : أنه بين وحكم ، الثاني : أنه صير ، فالأول بالأمر والتعريف ، والثاني بخلق الدواعي في قلوب الناس لتعظيمه والتقرب إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 83 ﴾

فصل

قال الفخر :

سميت الكعبة كعبة لارتفاعها ، يقال للجارية إذا نتأ ثديها وخرج كاعب وكعاب ، وكعب الإنسان يسمى كعباً لنتوه من الساق ، فالكعبة لما ارتفع ذكرها في الدنيا واشتهر أمرها في العالم سميت بهذا الاسم ، ولذلك فإنهم يقولون لمن عظم أمره فلان علا كعبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 83 ﴾

وقال الثعلبى :

قال مجاهد : سميت كعبة مربع والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة .

وقال مقاتل : سميت كعبة لانفرادها من البنيان .

قال أهل اللغة : أصلها من الخروج والارتفاع وسمّي الكعب كعباً لخروجه من جانبي القدم ، ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرجت ثدياها : قد تكعبت ، فسميت الكعبة كعبة

لارتفاعها من الأرض ، وثباتها على الموضع الرفيع ، وسميت البيت الحرام لأن اللّه حرّمه وعظم حرمته .

وفي الحديث : " مكتوب في أسفل المقام : إني أنا اللّه ذو بكة حرمتها يوم خلقت السماوات والأرض . ويوم وضعت هذين الجبلين وحففتهما بسبعة أملاك حفاً من جاءني زائراً لهذا البيت عارفاً بحقه مذعناً لي بالربوبية حرّمت جسده على النار " . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

وقد سُمْيت الكَعْبة كعبة ؛ لأنها مربّعة وأكثر بيوت العرب مُدوّرة .

وقيل : إنما سُمّيت كعبة لنتوئها وبروزها ، فكلّ ناتىء بارز كَعْب ، مستديراً كان أو غير مستدير .

ومنه كَعْب القَدَم وكُعُوب الفتاة .

وكَعَبَ ثديُ المرأة إذا ظهر في صدرها .

(8/216)

والبيت سُمّي بذلك لأنها ذات سقف وجدار ، وهي حقيقة البيتية وإن لم يكن بها ساكن .

وسماه سبحانه حراماً بتحريمه إياه ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن مكة حَرَّمها الله ولم يُحرِّمها الناس " وقد تقدم أكثر هذا مستوفى والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

قال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ البيت الحرام ﴾ عطف بيان على جهة المدح لأنه عرف بالتعظيم عندهم فصار في معنى المعظم أو لأنه وصف بالحرام المشعر بحرمته وعظمته ، وذكر البيت كالتوطئة له فالاعتراض بالجمود من الجمود دون التوضيح ، وقيل : جىء به للتبيين لأنه كان لخثعم بيت يسمونه بالكعبة اليمانية .

وجوز أن يكون بدلاً وأن يكون مفعولاً ثانياً لجعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ أصله قوام لأنه من قام يقوم ، وهو ما يستقيم به الأمر ويصلح ، ثم ذكروا ههنا في كون الكعبة سبباً لقوام مصالح الناس وجوهاً : الأول : أن أهل مكة كانوا

محتاجين إلى حضور أهل الآفاق عندهم ليشتروا منهم ما يحتاجون إليه طول السنة ، فإن مكة بلدة ضيقة لا ضرع فيها ولا زرع ، وقلما يوجد فيها ما يحتاجون إلية ، فالله تعالى جعل الكعبة معظمة في القلوب حتى صار أهل الدنيا راغبين في زيارتها ، فيسافرون إليها من كل فج عميق لأجل التجارة ويأتون بجميع المطالب والمشتهيات ، فصار ذلك سبباً لاسباغ النعم على أهل مكة .

(9/216)

الثاني : أن العرب كانوا يتقاتلون ويغيرون إلا في الحرم ، فكان أهل الحرم آمنين على أنفسهم وعلى أموالهم حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم لم يتعرض له ، ولو جنى الرجل أعظم الجنايات ثم التجأ إلى الحرم لم يتعرض له ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] الثالث : أن أهل مكة صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصته وسادة الخلق إلى يوم القيامة وكل أحد يتقرب إليهم ويعظمهم .

الرابع : أنه تعالى جعل الكعبة قواماً للناس في دينهم بسبب ما جعل فيها من المناسك العظيمة والطاعات الشريفة ، وجعل تلك المناسك سبباً لحط الخطيآت ، ورفع الدرجات

وكثرة الكرامات .

واعلم أنه لا يبعد حمل الآية على جميع هذه الوجوه ، وذلك لأن قوام المعيشة إما بكثرة المنافع وهو الوجه الأول الذي ذكرناه ، وإما بدفع المضار وهو الوجه الثاني ، وإما بحصول الجاه والرياسة وهو الوجه الثالث ، وإما بحصول الدين وهو الوجه الرابع ، فلما كانت الكعبة سبباً لحصول هذه الأقسام الأربعة ، وثبت أن قوام المعيشة ليس إلا بهذه الأربعة ثبت أن الكعبة سبب لقوام الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 83.84 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ أي قواماً لهم في أمر دينهم ودنياهم وصلاحاً لمعاشهم ومعادهم لما يحصل لهم من الحج والعمرة والزيارة والتجارة وما يجبى إليه من الثمرات ويظهر فيه من أنواع البركات .

فقال ابن جبير : من أتى هذا البيت يريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه .

﴿ والشهر الحرام ﴾ أراد به الأشهر الحرم يأمن فيها الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ أي صلاحاً ومعاشاً ، لأمن الناس بها ؛ وعلى هذا يكون

"قِيَاماً" بمعنى يقومون بها .

وقيل : "قِيَاماً" أي يقومون بشرائعها .

(10/216)

وقرأ ابن عامر وعاصم "قيماً" وهما من ذوات الواو فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها .

وقد قيل : "قِوام" .

قال العلماء : والحكمة في جَعْلِ الله تعالى هذه الأشياء قياماً للناس ، أن الله سبحانه خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد والتنافس والتقاطع والتدابر ، والسلب والغارة والقتل والثأر ، فلم يكن بدّ في الحكمة الإلهية ، والمشيئة الأوّلية من كافّ يدوم معه الحال ، ووازعٍ يُحمَد معه المآل .

قال الله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] فأمرهم الله سبحانه بالخلافة ، وجعل أُمورهم إلى واحد يزَعُهم عن التّنازع ، ويحملهم على التآلف من التقاطع ، ويردّ الظالم عن المظلوم ، ويقرر كلّ يد على ما تستولي عليه .

روى ابن القاسم قال حدّثنا مالك أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يقول : ما يَزَع الإمامُ أكثر مما يَزَع القرآن ؛ ذكره أبو عمر رحمه الله .

وجَوْر السلطان عاماً واحداً أقل أذاية من كون الناس فوضى لحظة واحدة ؛ فأنشأ الله سبحانه الخليفة لهذه الفائدة ، لتجري على رأيه الأُمور ، ويكفّ الله به عادية الجمهور ؛ فعظّم الله سبحانه في قلوبهم البيت الحرام ، وأوقع في نفوسهم هيبته ، وعظّم بينهم حرمته ، فكان من لجأ إليه معصوماً به ، وكان من اضطهد محميّاً بالكون فيه .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] .

قال العلماء : فلما كان موضعاً مخصوصاً لا يدركه كل مظلوم ، ولا يناله كل خائف جعل الله الشهر الحرام ملجأ آخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

المراد بقوله ﴿ قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ أي لبعض الناس وهم العرب ، وإنما حسن هذا المجاز لأن أهل كل بلد إذا قالوا الناس فعلوا كذا وصنعوا كذا فإنهم لا يريدون إلا أهل بلدتهم فلهذا السبب خوطبوا بهذا الخطاب على وفق عادتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 84 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الآية دالة على أنه تعالى جعل أربعة أشياء سبباً لقيام الناس وقوامهم .

الأول : الكعبة وقد بينا معنى كونها سبباً لقيام الناس ، وأما الثاني : فهو الشهر الحرام ومعنى كونه سبباً لقيام الناس هو أن العرب كان يقتل بعضهم بعضاً في سائر الأشهر ، ويغير بعضهم على بعض ، فإذا دخل الشهر الحرام زال الخوف وقدروا على الأسفار والتجارات وصاروا آمنين على أنفسهم وأموالهم وكانوا يحصلون في الشهر الحرام من الأقوات ما كان يكفيهم طول السنة ، فلولا حرمة الشهر الحرام لهلكوا وتفانوا من الجوع والشدة فكان الشهر الحرام سبباً لقوام معيشتهم في الدنيا أيضاً .

فهو سبب لاكتساب الثواب العظيم بسبب إقامة مناسك الحج .

واعلم أنه تعالى أراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم الأربعة إلا أنه عبّر عنها بلفظ الواحد لأنه ذهب به مذهب الجنس .

وأما الثالث : فهو الهدي وهو إنما كان سبباً لقيام الناس ، لأن الهدي ما يهدى إلى البيت ويذبح هناك ويفرق لحمه على الفقراء فيكون ذلك نسكاً للمهدي وقواماً لمعيشة الفقراء .

وأما الرابع : فهو القلائد ، والوجه في كونها قياماً للناس أن من قصد البيت في الشهر الحرام لم

يتعرض له أحد ، ومن قصده من غير الشهر الحرام ومعه هدي ، وقد قلده وقلد نفسه من لحاء شجرة الحرم لم يتعرض له أحد ، حتى أن الواحد من العرب يلقى الهدي مقلداً ، ويموت من الجوع فلا يتعرض له ألبتة ، ولم يتعرض لها صاحبها أيضاً ، وكل ذلك إنما كان لأن الله تعالى أوقع في قلوبهم تعظيم البيت الحرام ، فكل من قصده أو تقرب إليه صار آمناً من جميع الآفات والمخافات ، فلما ذكر الله تعالى أنه جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناسي ذكر بعده هذه الثلاثة ، وهي الشهر الحرام والهدي والقلائد ، لأن هذه الثلاثة إنما صارت سبباً لقوام المعيشة لانتسابها إلى البيت الحرام ، فكان ذلك دليلاً على عظمة هذا البيت وغاية شرفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 84 ﴾

(12/216)

وقال القرطبى :

الشهر الحرام وهو اسم جنس ، والمراد الأشهر الثلاثة بإجماع من العرب ، فقرر الله في قلوبهم حرمتها ، فكانوا لا يُروّعون فيها سِرْباً أي نفساً ولا يطلبون فيها دماً ، ولا يتوقعون فيها ثأراً ، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه .

واقتطعوا فيها ثلث الزمان ، ووصلوا منها ثلاثة متوالية ، فسحة وراحة ومجالاً للسياحة في

الأمن والاستراحة ، وجعلوا منها واحداً منفرداً في نصف العام دَرَكاً للإحترام ، وهو شهر رجب الأصَمّ ويسمى مُضَر ، وإنما قيل له : رجب الأصَمّ ؛ لأنه كان لا يُسمع فيه صوت الحديد ، ويسمى مُنْصِل الأَسِنّة ؛ لأنهم كانوا ينزعون فيه الأسِنّة من الرماح ، وهو شهر قريش ، وله يقول عوف بن الأَحْوَص : وشهر بني أُميّة والهَدَايا . . .

إذا سيقت مُضرِّجها الدّماءُ

وسماه النبي صلى الله عليه وسلم شهر الله ؛ أي شهر آلِ الله ، وكان يُقال لأهل الحرم : آلُ الله ، ويحتمل أن يريد شهر الله ؛ لأن الله مَتّنه وشدّده إذ كان كثير من العرب لا يراه .

وسيأتي في "براءة" أسماء الشهور إن شاء الله .

ثم يَسّر لهم الإلهام ، وشَرَع على ألسنة الرسل الكرام الهدي والقلائد فكانوا إذا أخذوا بعيراً أشعروه دماً ، أو علّقوا عليه نعلاً ، أو فعل ذلك الرجل بنفسه من التقليد على ما تقدّم بيانه أوّل السورة لم يرُوّعه أحد حيث لقيه ، وكان الفَيْصل بينه وبين من طلبه أو ظلمه ؛ حتى جاء الله بالإسلام وبيّن الحق بمحمد عليه السّلام ، فانتظم الدين في سِلكه ، وعاد الحق إلى نصابه ، فأُسندت الأمامة إليه ، وانبنى وجوبها على الخلق عليه وهو قوله سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض ﴾ [النور : 55] الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الآلوسى :

﴿ والشهر الحرام ﴾ أي الذي يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة فالتعريف للعهد بقرينة قرنائه ؛ واختار غير واحد إرادة الجنس على ما هو الأصل والقرينة المعهودة لا تعين العهد ، والمراد الأشهر الحرم وهي أربعة واحد فرد وثلاثة سرد فالفرد رجب والسرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وهو وما بعده عطف على ﴿ الكعبة ﴾ فالمفعول الثاني محذوف ثقة بما مر أي وجعل الشهر الحرام ﴿ والهدى والقلائد ﴾ أيضاً قياماً لهم ، والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهي البدن خصت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر و(بهاء) الحج بها أظهر ؛ وقيل : الكلام على ظاهره ، فقد أخرج أبو الشيخ عن أبي مجلز أن أهل الجاهلية كان الرجل منهم إذا أحرم تقلد قلادة من شعر فلا يتعرض له أحد فإذا حج وقضى حجه تقلد قلادة من إذخر ، وقيل : كان الرجل يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم فلا يخاف من أحد ولا يتعرض له أحد بسوء ، وكانوا لا يغيرون في الأشهر الحرم وينصلون فيها الأسنة ويهرع الناس فيها إلى معايشهم ولا يخشون أحداً ، وقد توارثوا على ما قيل ذلك من دين إسماعيل عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ ذلكِ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ

عَلِيمٌ ﴾

قال الفخر :

(14/216)

المعنى : أنه تعالى لما علم في الأزل أن مقتضى طباع العرب الحرص الشديد على القتل والغارة وعلم أنه لو دامت بهم هذه الحالة لعجزوا عن تحصيل ما يحتاجون إليه من منافع المعيشة ، ولأدى ذلك إلى فنائهم وانقطاعهم بالكلية ، دبر في ذلك تدبيراً لطيفاً ، وهو أنه ألقى في قلوبهم اعتقاداً قوياً في تعظيم البيت الحرام وتعظيم مناسكه ، فصار ذلك سبباً لحصول الأمن في البلد الحرام ، وفي الشهر الحرام ، فلما حصل الأمن في هذا المكان وفي هذا الزمان ، قدروا على تحصيل ما يحتاجون إليه في هذا الزمان ، وفي هذا المكان ، فاستقامت مصالح معاشهم ، ومن المعلوم أن مثل هذا التدبير لا يمكن إلا إذا كان تعالى في الأزل عالماً بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات حتى يعلم أن الشر غالب على طباعهم ، وأن ذلك يفضي بهم إلى الفناء وانقطاع النسل ، وأنه لا يمكن دفع ذلك إلا بهذا الطريق اللطيف ، وهو إلقاء تعظيم الكعبة في قلوبهم حتى يصير ذلك سبباً لحصول الأمان في بعض الأمكنة ، وفي بعض الأزمنة ، فحينئذ تستقيم مصالح معاشهم في ذلك المكان ،

وفي ذلك الزمان ، وهذا هو بعينه الدليل الذي تمسك به المتكلمون على كونه تعالى عالماً ، فإنهم يقولون إن أفعاله محكمة متقنة مطابقة للمصالح ، وكل من كان كذلك كان عالماً ، ومن المعلوم أن إلقاء تعظيم الكعبة في قلوب العرب لأجل أن يصير ذلك سبباً لحصول الأمن في بعض الأمكنة ، وفي بعض الأزمنة ، ليصير ذلك سبب اقتدارهم على تحصيل مصالح المعيشة ، فعل في غاية الاتقان والاحكام ، فيكون ذلك دليلاً قاهراً وبرهاناً باهراً ، على أن صانع العالم سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات ، فلا جرم قال ذلك ﴿ لِّتَعْلَمُواْ ﴾ أي ذلك التدبير اللطيف لأجل أن تتفكروا فيه ، فتعلموا أنه تدبير لطيف وفعل محكم متقن ، فتعلموا ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ ثم إذا عرفتم ذلك ، عرفتم أن علمه سبحانه وتعالى صفة قديمة أزلية

(15/216)

واجبة الوجود ، وما كان كذلك ، امتنع أن يكون مخصوصاً بالبعض دون البعض ، فوجب كونه متعلقاً بجميع المعلومات ، وإذا كان كذلك ، كان الله سبحانه عالماً بجميع المعلومات ، فلذلك قال : ﴿ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فما أحسن هذا الترتيب في هذا التقدير والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 85.84 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك لتعلموا ﴾ "ذَلِكَ" إشارة إلى جعل الله هذه الأُمور قياماً ؛ والمعنى فعل الله ذلك لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل أُمور السموات والأرض ، ويعلم مصالحكم أيها الناس قبل وبعد ، فانظروا لطفه بالعباد على حال كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ذلك ﴾ أي الجعل المذكور خاصة أو مع ما ذكر من الأمر بحفظ حرمة الإحرام وغيره . ومحل اسم الإشارة النصب بفعل مقدر يدل عليه السياق وبه تتعلق اللام فيما بعد .

وقيل : محله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الحكم الذي قررناه ذلك أو مبتدأ خبره محذوف أي ذلك الحكم هو الحق والحكم الأول هو الأقرب ، والتقدير شرع ذلك ﴿ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ فإن تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية قبل الوقوع وجلب المنافع الأولية والأخروية من أوضح الدلائل على حكمة الشارع وإحاطة علمه سبحانه ﴿ وَأَنَّ الله بِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ واجباً كان أو ممتنعاً أو ممكناً ﴿ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم ، وهذا تعميم إثر تخصيص ، وقدم الخاص لأنه كالدليل على ما بعد .

وجوز أن يراد بما في السموات والأرض الأعيان الموجودة فيهما وبكل شيء الأمور المتعلقة بتلك الموجودات من العوارض والأحوال التي هي من قبيل المعاني والإظهار في مقام الإضمار لما مر غير مرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(16/216)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة ﴾ جعل بمعنى : صيّر .

وفي تسمية الكعبة كعبة قولان .

أحدهما : لأنها مربعة ، قاله عكرمة ، ومجاهد .

والثاني : لعُلوها ونتوئها ، يقال : كعبت المرأة كعابة ، وهي كاعب : إذا نتأ ثديها .

ومعنى تسمية البيت بأنه حرام : أنه حَرُم أن يصاد عنده ، وأن يختلى ما عنده من الخلا ، وأن يُعضَدَ شجرُه ، وعظمت حرمته .

والمراد بتحريم البيت سائِر الحرم ، كما قال : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ وأراد : الحرم .

والقيام : بمعنى القوام .

وقرأ ابن عامر : قيما بغير ألف .

قال أبو علي : وجهه على أحد أمرين ، إما أن يكون جعله مصدراً ، كالشبع ، أو حذف الألف وهو يريدها ، كما يُقصر الممدود .

وفي معنى الكلام ستة أقوال .

أحدها : قياماً للدين ، ومعالم للحج ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : قياماً لأمرِ مَن توجه إليها ، رواه العوفي عن ابن عباس .

قال قتادة : كان الرجل لو جرّ كل جريرة ، ثم لجأ إليها ، لم يُتناول ، [ولم يُقْرَب .

وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام ، لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر ، فأحمته ومنعته من الناس ، وكان إذا نفر تقلد قلادة من الاذخر أو من لِحاء السَّمُر فمنعته من الناس حتى يأتي أهله .

حواجز ألقاها الله بين الناس في الجاهلية] .

والثالث : قياماً لبقاء الدين ، فلا يزال في الأرض دين ما حُجَّت واستُقْبِلت ، قاله الحسن .

والرابع : قوام دنيا وقوام دين ، قاله أبو عبيدة .

والخامس : قياماً للناس ، أي : مما أُمروا أن يقوموا بالفرض فيه ، ذكره الزجاج .

والسادس : قياماً لمعايشهم ومكاسبهم بما يحصل لهم من التجارة عندها ، ذكره بعض المفسرين .

فأما الشهر الحرام ، فالمراد به الأشهر الحرم ، كانوا يأمن بعضهم بعضاً فيها ، فكان ذلك قواماً لهم ، وكذلك إذا أهدى الرجل هدياً أو قلد بعيره أمِنَ كيف تصرّف ، فجعل الله تعالى هذه الأشياء عصمة للناس بما جعل في صدورهم من تعظيمها .

قوله تعالى : ﴿ ذلك لتعلموا ﴾ ذكر ابن الأنباري في المشار إليه بذلك أربعة أقوال .

أحدها : أن الله تعالى أخبر في هذه السورة بغيوب كثيرة من أخبار الأنبياء وغيرهم ، وأطلع على أشياء من أحوال اليهود والمنافقين ، فقال : ذلك لتعلموا ، أي : ذلك الغيب الذي أنبأتكم به عن الله يدلكم على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ولا تخفى عليه خافية .

والثاني : أن العرب كانت تسفك الدماء بغير حلها ، وتأخذ الأموال بغير حقها ، ويقتل أحدهم غير القاتل ، فاذا دخلوا البلد الحرام ، أو دخل الشهر الحرام ، كفُّوا عن القتل .

والمعنى : جعل اللهِ الكعبة أمناً ، والشهر الحرام أمناً ، إذ لو لم يجعل للجاهلية وقتاً يزول فيه الخوف لهلكوا ، فذلك يدل على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض .

والثالث : أن الله تعالى صرف قلوب الخلق إلى مكة في الشهور المعلومة ، فاذا وصلوا إليها

عاش أهلها معهم ، ولولا ذلك ماتوا جوعاً ، لعلمه بما في ذلك من صلاحهم ، وليستدلوا بذلك على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض .

والرابع : أن الله تعالى جعل مكة أمناً ، وكذلك الشهر الحرام ، فإذا دخل الظبي الوحشي الحرم ، أنس بالناس ، ولم ينفر من الكلب ، ولم يطلبه الكلب ، فإذا خرجا عن حدود الحرم ، طلبه الكلبُ ، وذُعِر هو منه ، والطائِر يأنس بالناس في الحرم ، ولا يزالُ يطير حتى يقرب من البيت ، فإذا قرب منه عدل عنه ، ولمْ يطرْ فوقه إجلالاً له ، فإذا لحقه وجعٌ طرح نفسه على سقف البيت استشفاءً به ، فهذه الأعاجيب في ذلك المكان ، وفي ذلك الشهر قد دللن على أن الله تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(18/216)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ﴾ .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة وذلك أنه تعالى ذكر تعظيم الإحرام بالنهي عن قتل

الوحش فيه بحيث شرع بقتله ما شرع وذكر تعظيم الكعبة بقوله ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ ، فذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس أي ركز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى أحد ، وصارت وازعة لهم من الأذى وهم في الجاهلية الجهلاء لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً إذ لم يكن لهم ملك يمنعهم من أذى بعضهم فقامت لهم حرمة الكعبة مقام حرمة الملك هذا مع تنافسهم وتحاسدهم ومعاداتهم وأخذهم بالثأر ، ولذلك جعل الثلاثة المذكورة بعد الكعبة قياماً للناس فكانوا لا يهيجون أحداً في الشهر الحرام ولا من ساق الهدي لأنه لا يعلم أنه لم يجيء لحرب ولا من خرج يريد البيت بحج أو عمرة فتقلد من لحي الشجر ولا من قضى نسكه فتقلد من شجر الحرم ، ولما بعثت قريش زمن الحديبية إلى المؤمنين الحلس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا رجل يعظم الحرمة فألقوه بالبدن مشعرة " فلما رآها الحلس عظم عليه ذلك وقال ما ينبغي أن يصد هؤلاء ورجع عن رسالة قريش ، وجعل هنا بمعنى صيَّر .

وقيل جعل بمعنى بين وينبغي أن يحمل هذا على تفسير المعنى إذ لم ينقل جعل مرادفة لهذا المعنى لكنه من حيث التصيير يلزم منه التبيين والحكم ، ولما كان لفظ الكعبة قد أطلقه بعض العرب على غير البيت الحرام كالبيت الذي كان في خثعم يسمى كعبة اليمانية ، بين تعالى أن المراد هنا بالكعبة البيت الحرام ، وهو بدل من الكعبة أو عطف بيان ، وقال الزمخشري : البيت الحرام عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح كما تجيء

الصفة كذلك انتهى .

وليس كما ذكر لأنهم ذكروا في شرط عطف البيان الجمود فإذا كان شرطه أن يكون جامداً .

(19/216)

لم يكن فيه إشعار بمدح إذ ليس مشتقاً وإنما يشعر بالمدح المشتق إلا أن يقال أنه لما وصف عطف البيان بقوله الحرام اقتضى المجموع المدح فيمكن ذلك والقيام مصدر كالصيام ويقال هذا قيام له وقوام له وكأنهم ذهبوا في قيام إلى أنه ليس مصدراً بل هو اسم كالسواك فلذلك صحت الواو قال : قوام دنيا وقيام دين .

إذا لحقت تاء التأنيث لزمت التاء قالوا القيامة واختلفوا في تفسير قوله ﴿ قياماً للناس ﴾ فقيل باتساع الرزق عليهم إذ جعلها تعالى مقصودة من جميع الآفاق وكانت مكة لا زرع ولا ضرع ، وقيل بامتناع الإغارة في الحرم ، وقيل بسبب صيرورتهم أهل الله فكل أحد يتقرب إليهم ، وقيل بما يقام فيها من المناسك وفعل العبادات ، وروي عن ابن عباس ، وقيل : يأمن من توجه إليها وروي عنه ، وقيل بعدم أذى من أخرجوه من جر جريرة ولجأ إليها ، وقيل ببقاء الدين ما حجت واستقبلت ، وقال عطاء لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا .

وقال أبو عبد الله الرازي لا يبعد حمله على جميع الوجوه ، لأن قوام المعيشة بكثرة المنافع وبدفع المضار وبحصول الجاه والرئاسة وبحصول الدين والكعبة سبب لحصول هذه الأقسام انتهى .

وقرأ ابن عامر قيماً بغير ألف فإن كان أصله قياماً بالألف وحذفت فقيل حكم هذا أن يجيء في الشعر وإن كان مصدراً على فعل فكان قياسه أن تصح فيه الواو كعوض ، وقرأ الجحدري قيماً بفتح القاف وتشديد الياء المكسورة وهو كسيد اسم يدل على ثبوت الوصف من غير تقييد بزمان ولفظ الناس عام ، فقيل المراد العموم ، وقيل المراد العرب ، قال أبو عبد الله بن أبي الفضل وحس هذا المجاز أن أهل كل بلدة إذا قالوا الناس فعلوا كذا لا يريدون بذلك إلا أهل بلدتهم فلذلك خوطبوا على وفق عادتهم انتهى .

(20/216)

والشهر الحرام ظاهره الإفراد ، فقيل هو ذو الحجة وحده وبه بدأ الزمخشري قال لأن لاختصاصه من بين الأشهر المحرمة برسم الحج شأناً قد عرفه الله انتهى ، وقيل المراد الجنس فيشمل الأشهر الحرم الأربعة الثلاثة بإجماع من العرب وشهر مضر وهو رجب كان كثير من العرب لا يراه ولذلك يسمى شهر الله إذ كان تعالى قد ألحقه في الحرمة بالثلاثة فنسبه

وسدده ، والمعنى شهر آل الله وهو شهر قريش وله يقول عوف بن الأحوص :

وشهر بني أمية والهدايا . . .

إذا سيقت مصرحها الدماء

ولما كانت الكعبة موضعاً مخصوصاً لا يصل إليه كل خائف جعل الله الأشهر الحرم والهدي والقلائد قياماً للناس كالكعبة .

﴿ ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ الظاهر أن الإشارة هي للمصدر المفهوم أي ذلك الجعل لهذه الأشياء قياماً للناس وأمناً لهم ليعلموا أنه تعالى يعلم تفاصيل الأمور الكائنة في السموات والأرض ومصالحكم في دنياكم ودينكم فانظروا لطفه بالعباد على حال كفرهم ، وأجاز الزمخشري أن تكون الإشارة إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره ، وقال الزجاج الإشارة إلى ما نبأ به تعالى من الأخبار بالمغيبات والكشف عن الأسرار مثل قوله ﴿ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ ومثل إخباره بتحريفهم الكتب أي ذلك الغيب الذي أنبأكم به على لسان رسوله يدلكم على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض .

وقيل الإشارة إلى صرف قلوب الناس إلى مكة في الأشهر المعلومة فيعيش أهلها معهم ولولا ذلك ماتوا جوعاً لعلمه بما في مصالحهم وليستدلوا على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض .

﴿ وأن الله بكل شيء عليم ﴾ هذا عموم تندرج فيه الكليات والجزئيات كقوله تعالى ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(21/216)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ ﴾

أي : مداراً لقيام أمر دينهم بالحج إليه ، ودنياهم بأمن داخله وعدم التعرض له وجبي ثمرات كل شيء إليه .

قال المهايميّ : جعله الله مقام التوجه إليه في عبادته للناس المتفرقين في العالم ، ليحصل لهم لهم الاجتماع الموجب للتألف ، الذي يحتاجون إليه في تمدّنهم ، الذي الذي به كمالُ معايشهم ومعاهدهم ، لاحتياجهم إلى المعاونة فيهما .

﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ بمعنى الأشهر الحرم – ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب – قياماً لهم بأمنهم من القتال فيها . لأنه حرم فيها ليحصل التآلف فيها : ﴿ وَالْهَدْيَ ﴾ وهو ما يهدى إلى مكة : ﴿ وَالْقَلائِدَ ﴾ جمع قلادة . وهي ما يجعل في عنق البدنة التي تهدى

وغيره . والمراد بـ (القلائد) ذوات القلائد وهي البدن . خصّت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر ، وبهاء الحج بها أظهر . والمفعول الثاني محذوف ، ثقةً بما مرّ ، أي : جعل الهدي والقلائد أيضاً قياماً لهم . فإنهم كانوا يأمنون بَسَوْق الهدي إلى البيت الحرام على أنفسهم . وفيه قوام لمعيشة الفقراء ثَمَّت . وكذلك كانوا يأمنون إذا قلدوها أو قلّدوا أنفسهم ، عند الإحرام ، من لحاء شجر الحرم . فلا يتعرض لهم أحد : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : الجَعْل المذكور : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإنّ جعله ذلك لجلب المصالح لكم ودفع المضار عنكم قبل وقوعها ، دليلٌ على علمه بما هو في الوجود وما هو كائن .

وقد جوّد الرازيّ تقرير هذا المقام فأبدع ، فلينظر .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تعميمٌ إثر تخصيصٍ للتأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 261 ﴾

(22/216)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾

استئناف بياني لأنّه يحصل به جواب عمّا يخطر في نفس السامع من البحث عن حكمة تحريم الصيد في الحرم وفي حال الإحرام ، بأنّ ذلك من تعظيم شأن الكعبة التي حُرّمت أرضُ الحرم لأجل تعظيمها ، وتذكيرٌ بنعمة الله على سكّانه بما جعل لهم من الأمن في علائقها وشعائرها .

والجعل يطلق بمعنى الإيجاد ، فيتعدّى إلى مفعول واحد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ ، في سورة الأنعام (1) ، ويطلق بمعنى التصيير فتعدّى إلى مفعولين ، وكلا المعنيين صالح هنا .

والأظهر الأول فإنّ الله أوجد الكعبة ، أي أمر خليله بإيجادها لتكون قياماً للناس .

فقوله : قياماً ﴾ منصوب على الحال ، وهي حال مقدّرة ، أي أوجدها مقدّراً أن تكون قياماً .

وإذا حمل ﴿ جعل ﴾ على معنى التصيير كان المعنى أنّها موجودة بيتَ عبادة فصيّرها الله قياماً للناس لطفاً بأهلها ونسلهم ، فيكون ﴿ قياماً ﴾ مفعولاً ثانياً ل ﴿ جعل ﴾ .

وأمّا قوله : ﴿ البيت الحرام ﴾ يصحّ جعله مفعولاً .

والكعبة علم على البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام بمكة بأمر الله تعالى ليكون آية للتوحيد .

وقد تقدّم ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ إنّ أوّل بيتٍ وضع للناس للذي ببكة ﴾ في سورة آل عمران (96) .

قالوا : إنّه علم مشتقّ من الكَعَب ، وهو النتوء والبروز ، وذلك محتمل .

ويحتمل أنّهم سمّوا كلّ بارز كعبة ، تشبيهاً بالبيت الحرام ، إذ كان أول بيت عندهم ، وكانوا من قبله أهل خيام ، فصار البيت مثلاً يمثّل به كلّ بارز .

وأمّا إطلاق الكعبة على (القليس) الذي بناه الحبشة في صنعاء ، وسمّاه بعض العرب الكعبة اليمانية ، وعلى قبة نجران التي أقامها نصارى نجران لعبادتهم التي عناها الأعشى في قوله:

فَكَعْبَةُ نَجرَان حَتْم عليكِ . . .

حتى تُناخي بأبوابها

(23/216)

فذلك على وجه المحاكاة والتشبيه ، كما سمّى بنو حنيفة مسَليمة رحمان .

وقوله : البيت الحرام ﴾ بيان للكعبة .

قصد من هذا البيان التنويه والتعظيم ، إذ شأن البيان أن يكون موضّحاً للمبيّن بأن يكون

أشهر من المبيّن .

ولمّا كان اسم الكعبة مساوياً للبيت الحرام في الدلالة على هذا البيت فقد عبّر به عن الكعبة في قوله تعالى : ﴿ ولا آمّين البيت الحرام ﴾ [المائدة : 2] فتعيّن أنّ ذكر البيان للتعظيم ، فإنّ البيان يجيء لما يجيء له النعت من توضيح ومدح ونحو ذلك .

ووجه دلالة هذا العلم على التعظيم هو ما فيه من لمح معنى الوصف بالحرام قبل التغليب .

وذكر البيت هنا لأنّ هذا الموصوف مع هذا الوصف صارا علماً بالغلبة على الكعبة .

والحرام في الأصل مصدر حَرُم إذا مُنِع ، ومصدره الحرام ، كالصلاح من صلُح ، فوصف شيء بحرام مبَالغة في كونه ممنوعاً .

ومعنى وصف البيت بالحرام أنّه ممنوع من أيدي الجبابرة فهو محترم عظيم المهابة .

وذلك يستتبع تحجير وقوع المظالم والفواحش فيه ، وقد تقدّم أنّه يقال رجل حرام عند قوله تعالى : ﴿ غير محلّي الصيد وأنتم حُرُم في هذه السورة (1) ، وأنّه يقال : شهر حرام ، عند قوله تعالى:

﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ [المائدة : 2] فيها أيضاً ، فيحمل هذا الوصف على ما يناسبه بحسب الموصوف الذي يجري عليه ، وهو في كلّ موصوف يدلّ على أنّه ممّا يتجنّب جانبه ، فيكون تجنّبه للتعظيم أو مهابته أو نحو ذلك ، فيكون وصفَ مدح ، ويكون تجنّبه للتنزّه عنه فيكون وصف ذمّ ، كما تقول : الخمر حرام .

وقرأ الجمهور ﴿ قياماً ﴾ بألف بعد الياء .

وقرأه ابن عامر ﴿ قيماً ﴾ بدون ألف بعد الياء .

والقيام في الأصل مصدر قام إذا استقلّ على رجليه ، ويستعار للنشاط ، ويستعار من ذلك للتدبير والإصلاح ، لأنّ شأن من يعمل عملاً مهمّاً أن ينهض له ، كما تقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ في سورة البقرة (3) .

(24/216)

ومن هذا الاستعمال قيل للناظر في أمور شيء وتدبيره : هو قيّم عليه أو قائم عليه ، فالقيام هنا بمعنى الصلاح والنفع .

وأمّا قراءة ابن عامر قيما ﴾ فهو مصدر (قام) على وزن فِعَل بكسر ففتح مثل شِبَع .

وقد تقدّم أنّه أحد تأويلين في قوله تعالى : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيما ﴾ في سورة النساء .

وإنّما أعلّت واوه فصارت ياء لشدّة مناسبة الياء للكسرة .

وهذا القلب نادر في المصادر التي على وزن فِعَل من الواوي العين .

وإثباته للكعبة من الإخبار بالمصدر للمبالغة ، وهو إسناد مجازي ، لأنّ الكعبة لمّا جعلها

الله سبباً في أحكام شرعية سابقة كان بها صلاح أهل مكة وغيرهم من العرب وقامت بها مصالحهم ، جُعلت الكعبة هي القائمة لهم لأنّها سبب القيام لهم .

والناس هنا ناس معهودون ، فالتعريف للعهد .

والمراد بهم العرب ، لأنّهم الذين انتفعوا بالكعبة وشعائرها دون غيرهم من الأمم كالفرس والروم .

وأمّا ما يحصل لهؤلاء من منافع التجارة ونحوها من المعاملة فذلك تبع لوجود السّكان لا لكون البيت حراماً ، إلاّ إذا أريد التسبّب البعيد ، وهو أنّه لولا حرمة الكعبة وحرمة الأشهر في الحجّ لساد الخوف في تلك الربوع فلم تستطع الأمم التجارة هنالك .

وإنّما كانت الكعبة قياماً للناس لأنّ الله لمّا أمر إبراهيم بأن يُنزل في مكة زوجه وابنه إسماعيل ، وأراد أن تكون نشأة العرب المستعربة (وهم ذرية إسماعيل) في ذلك المكان لينشأوا أمّة أصيلة الآراء عزيزة النفوس ثابتة القلوب ، لأنّه قدّر أن تكون تلك الأمّة هي أول من يتلقّى الدين الذي أراد أن يكون أفضل الأديان وأرسخها ، وأن يكون منه انبثاث الإيمان الحقّ والأخلاق الفاضلة .

(25/216)

فأقام لهم بلداً بعيداً عن التعلّق بزخارف الحياة ؛ فنشأوا على إباء الضيم ، وتلقّوا سيرة صالحة نشأوا بها على توحيد الله تعالى والدعوة إليه ؛ وأقام لهم فيه الكعبة معلماً لتوحيد الله تعالى ، ووضع في نفوسهم ونفوس جيرتهم تعظيمه حرمته .

ودعا مجاوريهم إلى حجّه ما استطاعوا ، وسخّر الناس لإجابة تلك الدعوة ، فصار وجود الكعبة عائداً على سكان بلدها بفوائد التأنّس بالوافدين ، والانتفاع بما يجلبونه من الأرزاق ، وبما يجلب التجّار في أوقات وفود الناس إليه ؛ فأصبح ساكنوه لا يلحقهم جوع ولا عراء . وجعل في نفوس أهله القناعة فكان رزقهم كفاناً .

وذلك ما دعا به إبراهيم في قوله : ﴿ ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون ﴾ [إبراهيم : 37] .

فكانت الكعبة قياماً لهم يقوم به أوَد معاشهم .

وهذا قيام خاصّ بأهله .

ثم انتشرت ذرّية إسماعيل ولحقت بهم قبائل كثيرة من العرب القحطانيين وأهِلت بلاد العرب .

وكان جميع أهلها يدين بدين إبراهيم ؛ فكان من انتشارهم ما شأنه أن يَحدُث بين الأمّة الكثيرة من الاختلاف والتغالب والتقاتل الذي يفضي إلى التفاني ، فإذا هم قد وجدوا

حرمة أشهر الحج الثلاثة وحرمة شهر العمرة ، وهو رجب الذي سنَّتْهُ مُضَرُ (وهم معظم ذرية إسماعيل) وتبعهم معظم العرب .

وجدوا تلك الأشهر الأربعة ملجئة إيّاهم إلى المسالمة فيها فأصبح السلم سائداً بينهم مدة ثلث العام ، يصلحون فيها شؤونهم ، ويستبقون نفوسهم ، وتسعى فيها سادتهم وكبراؤهم وذوو الرأي منهم بالصلح بينهم ، فيما نجم من ترات وإحَنٍ .

فهذا من قيام الكعبة لهم ، لأنّ الأشهر الحرم من آثار الكعبة إذ هي زمن الحج والعمرة للكعبة .

وقد جعل إبراهيم للكعبة مكاناً متّسعاً شاسعاً يحيط بها من جوانبها أميالاً كثيرة ، وهو الحرم ، فكان الداخل فيه آمناً .

(26/216)

قال تعالى : ﴿ أوَلم يروا أنّا جعلنا حرماً آمناً ويتخطَّف الناس مِنْ حولهم ﴾ [العنكبوت : 67] .

فكان ذلك أمناً مستمراً لسكّان مكة وحرمها ، وأمناً يلوذ إليه من عراه خوف من غير سكانها بالدخول إليه عائذاً ، ولتحقيق أمنه أمّن الله وحوشه ودوابّه تقوية لحرمته في

النفوس ، فكانت الكعبة قياماً لكلّ عربي إذا طرقه ضيم .

وكان أهل مكة وحرمها يسيرون في بلاد العرب آمنين لا يتعرّض لهم أحد بسوء ، فكانوا يتّجرون ويدخلون بلاد قبائل العرب ، فيأتونهم بما يحتاجونه ويأخذون منهم ما لا يحتاجونه ليبلّغوه إلى من يحتاجونه ، ولولاهم لما أمكن لتاجر من قبيلة أن يسير في البلاد ، فلتعطّلت التجارة والمنافع .

ولذلك كان قريش يوصفون بين العرب بالتجّار ، ولأجل ذلك جعلوا رحلتي الشتاء والصيف اللّتين قال الله تعالى فيهما : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ [قريش : 1 ، 2] .

وبذلك كلّه بقيت أمّة العرب محفوظة الجبلّة التي أراد الله أن يكونوا مجبولين عليها ، فتهيّأت بعد ذلك لتلقّي دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وحمِلها إلى الأمم ، كما أراد الله تعالى وتمّ بذلك مراده .

وإذا شئت أن تعدو هذا فقل : إنّ الكعبة كانت قياماً للناس وهم العرب ، إذ كانت سبب اهتدائهم إلى التوحيد واتّباع الحنيفية ، واستبقت لهم بقية من تلك الحنيفية في مدة جاهليتهم كلّها لم يعدموا عوائد نفعها .

فلمّا جاء الإسلام كان الحج إليها من أفضل الأعمال ، وبه تكفّر الذنوب ، فكانت الكعبة من هذا قياماً للناس في أمور أخراهم بمقدار ما يتمسّكون به ممّا جعلت الكعبة له قياماً .

وعَطْفُ ﴿ الشهرَ الحرامَ ﴾ على ﴿ الكعبةَ ﴾ شبْه عطف الخاصّ على العامّ باعتبار كون الكعبة أريد بها ما يشمل علائقها وتوابعها ، فإنّ الأشهر الحرم ما اكتسبت الحرمة إلاّ من حيث هي أشهر الحج والعمرة للكعبة كما علمت .

(27/216)

فالتعريف في ﴿ الشهر ﴾ للجنس كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ [المائدة : 2] .

ولا وجه لتخصيصه هنا ببعض تلك الأشهر .

وكذلك عطف ﴿ الهدي ﴾ و﴿ القلائد ﴾ .

وكون الهدي قياماً للناس ظاهر ، لأنّه ينتفع ببيعه للحاج أصحابُ المواشي من العرب ، وينتفع بلحومه من الحاج فقراءُ العرب ، فهو قيام لهم .

وكذلك القلائد فإنّهم ينتفعون بها ؛ فيتّخذون من ظفائرها مادّة عظيمة للغزل والنسج ، فتلك قيام لفقرائهم ، ووجه تخصيصها بالذكر هنا ، وإن كانت هي من أقلّ آثار الحج ، التنبيهُ على أنّ جميع علائق الكعبة فيها قيام للناس ، حتى أدنى العلائق ، وهو القلائد ، فكيف بما عداها من جِلال البدْن ونعالها وكسوة الكعبة ، ولأنّ القلائد أيضاً لا يخلو عنها

هدي من الهدايا بخلاف الجِلال والنعال .

ونظير هذا قول أبي بكر "والله لو منعوني عِقالاً" إلخ . . .

وقوله : ﴿ ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية ، مرتبط بالكلام الذي قبله بواسطة لام التعليل في قوله ﴿ لتعلموا ﴾ .

وتوسّط اسم الإشارة بين الكلامين لزيادة الربط مع التنبيه على تعظيم المشار إليه ، وهو الجعل المأخوذ من قوله : ﴿ جعل الله الكعبة ﴾ ، فتوسّط اسم الإشارة هنا شبيه بتوسّط ضمير الفصل ، فلذلك كان الكلام شبيهاً بالمستأنف وما هو بمستأنف ، لأنّ ما صْدَقَ اسم الإشارة هو الكلام السابق ، ومفاد لام التعليل الربط بالكلام السابق ، فلم يكن في هذا الكلام شيء جديد غير التعليل ، والتعليل اتّصال وليس باستئناف ، لأنّ الاستئناف انفصال .

وليس في الكلام السابق ما يصلح لأن تتعلّق به لام التعليل إلاّ قوله ﴿ جعل ﴾ .

وليست الإشارة إلاّ للجعل المأخوذ من قوله ﴿ جعل ﴾ .

والمعنى : جعل الله الكعبة قياماً للناس لتعلموا أن الله يعلم الخ .

.

، أي أنّ من الحكمة التي جعل الكعبة قياماً للناس لأجلها أن تعلموا أنه يعلم .

فَجَعْل الكعبة قياماً مقصود منه صلاح الناس بادىء ذي بدء لأنّه المجعولة عليه ، ثم مقصود منه عِلم الناس بأنّه تعالى عليم .

وقد تكون فيه حكم أخرى لأنّ لام العلّة لا تدلّ على انحصار تعليل الحكم الخبري في مدخولها لإمكان تعدّد العلل للفعل الواحد ، لأنّ هذه علل جعلية لا إيجادية ، وإنّما اقتصر على هذه العلة دون غيرها لشدّة الاهتمام بها ، لأنّها طريق إلى معرفة صفة من صفات الله تحصل من معرفتها فوائد جمّة للعارفين بها في الامتثال والخشية والاعتراف بعجز من سواه وغير ذلك .

فحصول هذا العلم غاية من الغايات التي جعل الله الكعبة قياماً لأجلها .

والمقصود أنّه يعلم ما في السموات وما في الأرض قبل وقوعه لأنّه جعل التعليل متعلّقاً بجعل الكعبة وما تبعها قياماً للناس .

وقد كان قيامها للناس حاصلاً بعد وقت جعلها بمدّة ، وقد حصل بعضُه يتلُو بعضاً في أزمنة متراخية كما هو واضح .

وأمّا كونه يعلم ذلك بعد وقوعه فلا يحتاج للاستدلال لأنّه أولى ، ولأنّ كثيراً من الخلائق قد علم تلك الأحوال بعد وقوعها .

ووجه دلالة جَعْل الكعبة قياماً للناس وما عطف عليها ، على كونه تعالى يعلم ما في

السماوات وما في الأرض ، أنّه تعالى أمر ببناء الكعبة في زمن إبراهيم ، فلم يدر أحد يومئذٍ إلاّ أنّ إبراهيم اتّخذها مسجداً ، ومكة يومئذٍ قليلة السكّان ، ثم إنّ الله أمر بحج الكعبة وبحرمة حرمها وحرمة القاصدين إليها ، ووقّت للناس أشهراً القصد فيها ، وهدايا يسوقونها إليها فإذا في جميع ذلك صلاح عظيم وحوائل دون مضارّ كثيرة بالعرب لولا إيجاد الكعبة ، كما بيّنّاه آنفاً .

فكانت الكعبة سبب بقائهم حتى جاء الله بالإسلام .

فلا شك أنّ الذي أمر ببنائها قد علم أن ستكون هنالك أمّة كبيرة ، وأن ستحمد تلك الأمّة عاقبة بناء الكعبة وما معه من آثارها .

(29/216)

وكان ذلك تمهيداً لما علمه مِن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فيهم ، وجعلِهم حملة شريعته إلى الأمم ، وما عقب ذلك من عِظم سلطان المسلمين وبناء حضارة الإسلام .

ثم هو يعلم ما في الأرض وليس هو في الأرض بدليل المشاهدة ، أو بالترفّع عن النقص فلا جرم أن يكون عالماً بما في السماواة ، لأنّ السموات إمّا أن تكون مساوية للأرض في أنّه تعالى ليس بمستقرّ فيها ، ولا هي أقرب إليه من الأرض ، كما هو الاعتقاد الخاصّ ، فثبت له العلم

بما في السماوات بقياس المساواة ؛ وإمّا أن يكون تعالى في أرفع المكان وأشرف العوالم ، فيكون علمه بما في السماوات أحرى من علمه بما في الأرض ، لأنّها أقرب إليه وهو بها أعني ، فيتمّ الاستدلال للفريقين .

وأمّا دلالة ذلك على أنّه بكلّ شيء عليم فلأنّ فيما ثبت من هذا العلم الذي تقرّر من علمه بما في السماوات وما في الأرض أنواعاً من المعلومات جليلة ودقيقة ؛ فالعلم بها قبل وقوعها لا محالة ، فلو لم يكن يعلم جميع الأشياء لم يخل من جهل بعضها ، فيكون ذلك الجهل معطّلاً لعلمه بكثير ممّا يتوقّف تدبيره على العلم بذلك المجهول فهو ما دبر جعل الكعبة قياماً وما نشأ عن ذلك إلاّ عن عموم علمه بالأشياء ولولا عمومه ما تمّ تدبير ذلك المقدّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(30/216)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾

" جعل " تعني بَيَّن ووضَّح ، فقال : إن الكعبة محرمة ولها كرامة تستحق من المؤمن أن يأمن

فيها . أو " جعل " تعني إيجاد صفات للأشياء بعد أن تكون ذات المادة موجودة ، مثل قوله الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 7] .

أي أنه سبحانه خصص جزءا من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءا آخر ليكون أذنا ، وجزءا ثالثاً ليكون لساناً . والحق هنا يقول : ﴿ جَعَلَ الله الكعبة البيت الحرام قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ . ونعرف أن كل الأسماء للمعنويات مأخوذة من المُحسات .

والكعب هو الشيء الناتيء الخارج عن حد المتساوي . ومثال ذلك الكعب في القدم يكون مرتفعاً . وكذلك الفتاة نطلق عليها : " طفلة " وهي دون البلوغ ، وعند البلوغ وظهور الثديين نقول إنها " كَعَاب وكاعب " ، أي أن ثدييها قد صارا مرتفعين ، والكعبة نتوء ، والنتوء ارتفاع ، وهذا الارتفاع هو علامة البيت ، فالبيت هو مساحة من الأرض ، أما الارتفاع فهو يحدد الحجم .

ومثال ذلك عندما نريد حساب مساحة الأرض ؛ نقيس الطول والعرض ؛ ونضرب الطول في العرض حتى نحسب المساحة . أما إذا كان هناك ارتفاع فهذا يعني الانتقال من المساحة إلى الحجم . والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ [البقرة : 127] .

أي أن سيدنا إبراهيم بعمله إنما أراد أن يصنع للبيت ارتفاعاً وحجماً ، وهذا البناء يدل على صناعة حجم لمساحة من الأرض . إذن فالكعبة هي البيت بعد أن صار له ارتفاع . وكلمة " بيت " تعني المكان الذي أعد للبيتوتة ، فالإنسان يضرب في الأرض طيلة نهاره وعندما يحب أن يستريح يذهب إلى البيت .

فالله جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كدحهم لأنه بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت الله ولكن باختيار خلق الله ، أما الكعبة فهي بيت الله باختيار الله ، وهي قبلة لبيوت الله التي قامت باختيار خلق الله . ﴿ جَعَلَ اللهُ الكعبة البيت الحرام قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ وكلمة ﴿ البيت الحرام ﴾ تدل على أن له حرمات كثيرة . وجعل الله الكعبة بيتاً حراماً لكل المسلمين قياماً . والقيام هو الوقوف ، والوقوف هو القيام على الأمر . والقائم على أمرٍ ما يحفظ له قوام حياته ووجوده .

وهكذا نفهم أنه سبحانه أراد أن تكون الكعبة هي البيت الحرام ليحفظ على الناس قوام حياتهم ، بالطعام والشراب واستبقاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين ، ولذلك يعطي الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر ، وتبدأ بوجود الروح في المادة فتنتقل المادة إلى الحالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقي بحياته فيعطي لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المضار ، فيأخذ السيادة ،

وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته في الآخرة ، فلا تنتهي منه الحياة أبداً .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . أي قواماً لحياتهم سواءً الحياة الدنيا او حياة الآخرة ، الحياة المادية التي تنتهي بالموت ، والحياة التي تبدأ بالآخرة . والحق سبحانه يقول عن ذلك : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] .

(32/216)

هكذا يكون الإيمان بالله وصلاً لحياتين : الحياة المادية في الدنيا ، وحياة الآخرة . وأراد الحق بذلك دفع الأذى وجلب النفع والجاه والسيطرة للمؤمنين ، ونعرف أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : 96] .

كذلك نعرف أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أقام القواعد من البيت ، أما البيت نفسه فقد أقيم من قبل ذلك . وما دام الحق سبحانه قد قال : ﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 96] .

فمعنى ذلك أن الله لم يحرم الناس من قبل إبراهيم أن يكون لهم بيت . فالناس معناها البشر

من آدم إلى أن تقوم الساعة ، وأقام إبراهيم خليل الرحمن البُعْد الثالث وهو رفع القواعد للبيت الحرام . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت ﴾ [الحج : 26] .

أي أن الحق سبحانه وتعالى أظهر مكان البيت لإبراهيم عليه السلام ، ونعرف أن إبراهيم أشرك ابنه إسماعيل في إقامة القواعد من البيت ، ونعلم أن إسماعيل قد جاء إلى هذا المكان رضيعاً مع أمه ، وقال إبراهيم بعد أن رفع القواعد متوجها إلى ربه بالدعاء : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم ﴾ [إبراهيم : 37] .

(33/216)

لقد عرف إبراهيم مكان البيت وأنه بوادٍ غير ذي زرع ، لا ماء فيه ولا نبات . وجاء الحق بهذه الكتابة لنعرف أنه لا حياة بدون زرع ، والماء لازم للزرع . وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد لبى نداء الله بأن يأتي إلى مكان ليس به أي نعمة تقيم الحياة ، ولا يوجد فيه إلا المنعم ، ولذلك نرى سيدتنا هاجر عليها السلام عندما تتلقى الأمر من إبراهيم بالسكن مع ابنها في ذلك المكان تناديه : يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ فيقول لها : إلى الله تقول : رضيت بالله . هنا تركته سيدتنا هاجر ليمشي كما أراد ، فالله لن يضيعها لا هي ولا ابنها ؛ لأنها

قالت : رضيت بالله .

وقص الرسول الله – صلى الله عليه وسلم – علينا قصتها ، والسعي الذي قامت به بين الصفا والمروة ، وكيف كانت ثقتها في أن الخالق الأكرم لن يضيعها لا هي ولا ابنها ، بل سيرزقهما ، فتسعى بين الصفا والمروة لعلها تجد طيراً يدلها على موقع للماء ، وتعود إلى المروة لعلها تجد قافلة تسير . إنها تأخذ بالأسباب مع علمها أنها في صحبة المسبب الأعظم . وسعت سبعة أشواط . وهي الأنثى وفي تلك السن ، وذلك من لهفتها على توفير شربة ماء لطفلها .

السعي – كما نعرفه – عملية شاقة . ولو أن الله أعطاها الماء على الصفا أو على المروة لما أثبت كلمتها : " إن الله لا يضيعنا " . ولكن الحق يعطيها الماء عند قدمي طفلها الرضيع . وبذلك لها يكون سبحانه قد نبهنا وأرشدنا إلى قضيتين : أمّا الأولى فإن الإنسان يلزمه أن يسعى على قدر جهده ، وأما الثانية فهي أن السعي لا يعطي بمفرده الثمرة ، ولكن الثمرة يعطيها الله . وجعل الله من السعي بين الصفا والمروة تعليماً لنا بدرس عملي تطبيقي أن نأخذ بالأسباب ولا ننسى المسبب ؛ لأن فتنة الناس تأتي من الغرور بالأسباب . ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7] .

(34/216)

إنه لا يصح أبداً أن تعزلك الأسباب عن المسبب ، ولا تقل سأبقى مع المسبب إلى أن تأتيني الأسباب ؛ لا ، كُنْ دائماً مع الأسباب ، وتذكر دائماً المسبب . ولذلك نقول : إن الجوارح تعمل ، ولكن القلوب تتوكل . وهذا هو المغزى من عطاء الحق سبحانه الماء لهاجر عند قدمي ابنها ، وبذلك تستجاب دعوة إبراهيم التي دعا بها الله : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : 37] .

لقد دعا إبراهيم عليه السلام بالرزق من الثمرات ، لأن الوادي غير ذي زرع . ولذلك جعل الحق أفئدة الناس تهوي إلى الكعبة وإلى البيت الحرام . يقول – سبحانه – : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص : 57] .

وكلمة " يُجبى " تدلنا على أن الناس لا تأتي بهذه الثمرات اختياراً إلى البيت الحرام الذي جعله الله قياماً لحياة من يوجد فيه ، بل يأتون بالثمرات قهراً .

وهناك أناس لهم مزارع كبيرة وحدائق وفيرة الثمار في الطائف وفي غيرها من البلاد ، وعندما يريد إنسان الشراء من نتاج مزارعهم يقولون له : إنه مخصص لمكة فإن أردت شراءه فاذهب إلى مكة .

لقد استجاب الحق لدعاء إبراهيم : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ . و" تهوي

" – بكسر الواو – تدل على السقوط من حالق . . أي من مكان مرتفع شاهق . وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها . ولذلك نجد الكَلِف بالحج – المحب له والمتعلق به – تشتاق روحه إلى الحج .

(35/216)

وعلينا أن نفرق بين "يَهْوَى" . . أي يحب الذهاب ، و"يَهوِى" بكسر الواو أي يذهب بالاندفاع ، فالإنسان إن سقط من مكان عالٍ لا يستطيع أن يقول : سأتوقف عند نقطةٍ ما في منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذي يقع من مكان لا يقدر على أن يمسك نفسه .

ولذلك قال الحق : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات ﴾ [إبراهيم : 37] .

وهذا دليل على أن الهُوِي ليس من صنعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأفئدة .

والأفئدة بيد الله – سبحانه – هو الذي جعلها تهوِي ، والكعبة هي البيت الحرام وهي قوام لحياة الناس ، وسبحانه القائل : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران : 97] .

فالداخل إلى الكعبة آمن حتى ولو كان قاتلاً . وكان الرجل يلتقي بقاتل أبيه في الكعبة فلا يتعرض له ، إذن فقد أعطى الحق لهم من مقومات الحياة الشيء النافع وحجب عن الموجود

منهم الضر .

وأما السيادة والجاه فقد عرفنا ان قريشاً سادت العرب وكان رجالها سدنة وخدماً لبيت الله ، والكل يأتي إليهم فلا أحد يتعرض لقوافلهم الذاهبة إلى الشام أو اليمن . وإلا فمن يتعرض لقوافل قريش فإن قريشاً تستطيع الانتقام منه عندما يأتي إليها . وكان ذلك قمة السيادة . إذن فمقوم الحياة إما أن يأتي بنافع كالرزق ، وأما أن يمنع الضار ؛ وذلك بالأمن الذي يصيب كل داخل إليها ، وكذلك بالسيادة التي أخذتها قريش على العرب جميعاً .

وأعطى الله المثل لقريش على حمايته للكعبة ، عندما جاء أبرهة ليهدم الكعبة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] .

ورد سبحانه كيد أصحاب الفيل ؛ لأنهم لو هدموا الكعبة لضاعت السيادة من قريش ، ولذلك قال الحق وصفاً لذلك : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 5] . ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف ﴾ [قريش : 1-2] .

(36/216)

جعل الحق أصحاب الفيل كعصف مأكول أي كتبن أو نحوه أكلته الدواب وألقتهُ رَوْثا ، فعل – سبحانه – ذلك حتى تألف قريش وتطمئن إلى أن الكعبة لن يمسها سوء ، وإلى أن

رحلات الشتاء والصيف مصونة بحكم حاجة كل القبائل إلى الحج . وقال سبحانه : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 3-4] .

أي أسبغ عليهم النعمة بالطعام وسلبهم المضرة بالخوف ، وأبقى لهم السيادة والجاه بخدمة الكعبة التي جعلها الله للناس جميعاً قياما وامناً ؛ لأن الذين يذهبون إلى حج البيت يُكفر عنهم سبحانه سيئاتهم ويخرجون من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهذا قيام لحياتهم الأخروية أيضاً .

إذن جعل الله البيت الحرام قياماً لكل ألوان الحياة ، والبيت الحرام مكان كما نعلم . وجعل الحق الشهر الحرام أيضاً قياماً للحياة ، والشهر الحرام هو زمان كما نعلم . والشهر الحرام هو أحد الأشهر الحرم الأربعة : شهر منها فرد أي غير متصل بغيره من الأشهر الحرم وهو رجب – ولذلك يسمى رجب الفرد – وثلاثة سرد أي متتابعة يلي بعضها بعضاً وهي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والمراد بالشهر الحرام هو الجنس لكل شهر من الأشهر الحرم .

ونعلم أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى فاعل . والفاعل يحتاج إلى زمن ليفعل فيه الفعل ، وإلى مكان يفعل فيه ، وإلى سبب يدعو إلى الفعل ، وإلى قدرة تبرز هذا الفعل . ولذلك نذكر جميعاً قول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ

الله ﴾

[الكهف : 23-24] .

(37/216)

فإياك أن تقول : إني فاعل ذلك غداً إلا بعد أن تتبعها بقولك : " إن شاء الله " . ولا يمنعنا هذا أن نخطط لمستقبلنا . فمادمنا قد استعنا بالمشيئة ، فلنا أن نخطط لحياتنا . ونقول : " إن شاء الله " لأن عناصر الفعل : فاعل ، ومفعول يقع عليه الفعل ، وزمان ، ومكان ، وسبب ، وقدرة تبرز الفعل . ولا أحد منا يملك واحداً من هذه العناصر ، فأنت أيها الإنسان لا تملك وجود ذاتك غداً ، ولا تملك وجود المفعول غداً ، ولا تملك الزمان ، ولا تملك المكان ، ولا تملك السبب ؛ لأنه من الجائز أن يتغير ، ولا تملك القدرة على العمل ، فقد تسلب منك القدرة قبل أن تفعل الفعل .

إذن ، فأنت لا تملك من عناصر الفعل شيئاً . فلا تجازف وتقول : أنا أفعل ذلك غداً . بل أسندها إلى من يملك كل العناصر ، وقل : " إن شاء الله " ، وبذلك لا تكون كاذباً .

وهنا في هذه الآية يوجد عنصران : المكان ، والزمان ، المكان هو البيت الحرام ، والزمان هو الشهر الحرام ، والذي يحدث الفعل فيه نسميه : المفعول فيه ، وهو إما ظرف مكان وإما

ظرف زمان . وأراد الحق سبحانه بذلك أن يؤكد ما فيه قيام الناس زمانا ومكانا ، فلو أنه سبحانه لم يفعل ذلك بالنسبة للزمان وهو الأشهر الحرم ، والمكان وهو الحرم ، لاستمرت الحرب بين قبائل العرب إلى ما لا نهاية . ولذلك أراد بالأشهر الحرم أن يعطي للعقل فرصة للتأمل في أسباب الحرب ، ويعطي كل إنسان من العرب الراحة من القتال . وكان كل عربي في ذلك الزمن يهتم بالاستعداد للقتال اهتمامه بالطعام والشراب ، فكل منهم تربى على الفروسية والقتال والضرب بالرمح والمبارزة بالسيف .

(38/216)

وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لينساح بالدعوة في أرض الله صحب معه الكثير من الرجال الذين لم يكونوا في حاجة إلى التدريب على أعمال الحرب ، فقد كان كل الناس تقريباً جاهزين للقتال . وكأن الله سبحانه أراد للإسلام أن ينهي الثأر بين القبائل ، وأن يستفيد الإسلام من استعداد كل عربي للقتال . واستفاد الإسلام أيضاً من أن أمة العرب كانت – غالباً – متبدية ؛ بيت كل إنسان منهم على ظهر البعير ، يشد رحاله ، وينصب خيمته وينام ؛ لأن الناس إنما ارتبطوا بالأوطان عندما بنوا المنازل ، فمن بنى لنفسه بيتاً في مكان ما فهو يشتاق إلى ما بناه .

وكأن الحق قد أعدهم للانسياح بكلمة الله في الأرض فلا يحزن لترك مكان إلى مكان آخر ، بل إن الشخص منهم كان يذهب إلى البلاد ويتوطن فيها ليؤصل الوجود الإسلامي . فكان كل واحد منهم نواة الخير للأمم التي انساحوا إليها ؛ فمن ذهب منهم إلى الشام توطن فيها ولم يصعب عليه فراق الجزيرة . وكذلك من ذهب إلى مصر وغيرها من البلدان .

إذن فقد أراد الحق بحرمة الأشهر الحرم والبيت الحرام أن يرتاح العرب من القتال بدلاً من أن تهلك الحربُ الحرثَ والنسلَ ، وأراد الحق ذلك قياماً للناس ، واستبقاء للنوع .

وكذلك حرم الله : ﴿ والهدي والقلائد ﴾ والهدي هو الذي يُهْدَى للحرم فيأكله الناس هناك ، ذلك لأن الحرم موجود بوادٍ غير ذي زرع . والهدي هو البهيمة التي يتطوع بها أي إنسان ويضع حول عنقها قلادة من لِحاء وقشر الشجر أو غير ذلك ، وعندما يرى الناس القلادة يعرفون أن تلك البهيمة مهداة للحرم فلا يقربها أحد حتى صاحبها وإن قرصه وعضه الجوع ، وفي ذلك قيام للناس .

(39/216)

وتتابع الآية : ﴿ ذلك لتعلموا أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي أنه مدبر لهم ما يحفظ حياتهم في كل حالٍ من أغيار الحياة ؛ فقد رتب سبحانه لهم حفظ الأرواح ،

وحفظهم من الجوع ، وآمنهم ، وحفظ لهم السيادة ، كل ذلك بتدبيره وهو الحكيم . لقد دبر كل شيء أزلاً ، وأتت الأمور على وَفْق ما دبر من خير ومصلحة ، فإذا كان كل ذلك قد فعله سبحانه وتعالى فلأنه الأعلم والأحكم .

وقد حدث كل ذلك بعلمه وحكمته ، ونؤمن أن ما لا نعرفه قد فعله وصنعه – أيضاً – بهذه الحكمة المطلقة وذلك العلم المطلق . ﴿ ذلك لتعلموا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لقد رتب حياة الناس في الجزيرة وحول البيت الحرام على الرغم من انهم قبل الرسالة كانوا يعبدون الأصنام ، ولكنه هداهم بالرسالة المحمدية . ولذلك قال : ﴿ اعلموا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العقاب وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فسبحانه جعل البيت أمنا وأماناً ، وهذا إخبار شرعي لا إخبار كوني .

والفرق بين الإخبار الكوني والإخبار الشرعي أن الإخبار الكوني لا بد أن يحدث لأنه لا دخل للناس به ، أما الإخبار الشرعي فهو أمر يجب أن يقوم الناس بتنفيذه ، فإن أطاع الناس الخبر القادم من الله جعلوا البيت آمنا ، وإن أساءوا جعلوه غير آمن .

وفي زماننا القريب عندما اعتدى شاب يدعى جهيمان على الحرم ، تساءل الناس : كيف يعتدي إنسان على الحرم وقد أراده الله حرماً آمناً ؟ وقلنا : إن أمر الله بجعل البيت حراماً آمنا هو أمر شرعي ينفذه المؤمنون إن أطاعوا ، وإن لم ينفذوه فهم غير مؤمنين . والمثال على الأمر الشرعي والكوني قوله الحق : ﴿ والطيبات لِلطَّيِّبِينَ ﴾ [النور : 26] .

(40/216)

إنَّنَا نجد في الحياة خبيثاً يتزوج امرأة طيبة ، ونجد طيباً يتزوج خبيثة . وهذا يثبت لنا أن قوله الحق : ﴿ والطيبات لِلطَّيِّبِينَ ﴾ هو أمر شرعي بأن نزوج الطيب طيبة مثله ، وهو واجب التنفيذ إن كنا مؤمنين بالمنهج ، أما إن خالفنا المنهج فإننا نزوج الطيب خبيثة والطيبة خبثاً ، وبذلك يختل التكافؤ في الأسرة ، وتصير حياة المجتمع جحيماً ، ومن أجل أن نحفظ للمجتمع توازنه علينا أن نزوج الطيب للطيبة وأن نترك الخبيثة للخبيث ، حتى لا تكون حياتنا في فتنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(41/216)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : إنما سميت الكعبة لأنها مربعة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : إنما سميت الكعبة لتربيعها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ﴾ قال : قياماً لدينهم ومعالم لحجهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : قيامها أن يأمن من توجه إليها .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ قياماً للناس ﴾ قال : قواماً للناس .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير ﴿ قياماً للناس ﴾ قال : صلاحاً لدينهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير ﴿ قياماً للناس ﴾ قال : شدة لدينهم .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير ﴿ قياماً للناس ﴾ قال : عصمة في أمر دينهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : كان الناس كلهم فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، ولم يكن في العرب ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، فجعل الله لهم البيت الحرام

قياماً يدفع بعضهم عن بعض به ﴿ والشهر الحرام ﴾ كذلك يدفع الله بعضهم عن بعض بالأشهر الحرم والقلائد ، ويلقي الرجل قاتل أبيه أو ابن عمه فلا يعرض له ، وهذا كله قد نسخ .

(42/216)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال : جعل الله البيت الحرام والشهر الحرام قياماً للناس يأمنون به في الجاهلية الأولى ، لا يخاف بعضهم بعضاً حين يلقونهم عند البيت ، أو في الحرم أو في الشهر الحرام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ﴾ قال : حواجز أبقاها الله في الجاهلية بين الناس ، فكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ الحرم لم يتناول ولم يقرب ، وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل لو لقي الهدي مقلداً وهو يأكل العصب من الجوع لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فأحمته ومنعته من الناس ، وكان إذا نفر تقلد قلادة من الإذخر أو من السمر فمنعته من الناس حتى يأتي أهله حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن . أنه تلا هذه الآية ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ﴾ قال : لا يزال الناس على دين ما حجوا البيت واستقبلوا القبلة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : جعل الله هذه الأربعة قياماً للناس هي قوام أمرهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده في قوله ﴿ قياماً للناس ﴾ قال : تعظيمهم إياها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل بن حيان ﴿ قياماً للناس ﴾ يقول : قواماً علماً لقبلتهم ، وأمناً هم فيه آمنون .

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم ﴿ قياماً للناس ﴾ قال : أمنا .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الله بن مسلم بن هرمز قال : حدثني من أصدق قال : تنصب الكعبة يوم القيامة للناس تخبرهم بأعمالهم فيها .

(43/216)

وأخرج أبو الشيخ عن أبي مجلز . أن أهل الجاهلية كان الرجل منهم إذا أحرم تقلد قلادة من شعر فلا يعرض له أحد ، فإذا حج وقضى حجه تقلد قلادة من إذخر فقال الله : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام . . . ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء الخراساني في الآية قال : كانوا إذا دخل الشهر الحرام وضعوا السلاح ، ومشى بعضهم إلى بعض .

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم في الآية قال : كانت العرب في جاهليتها جعل الله هذا لهم شيئاً بينهم يعيشون به ، فمن انتهك شيئاً من هذا أو هذا لم يناظره الله حتى بعد ذلك ﴿ لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(44/216)

ومن فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ الْآيَةُ .

قِيلَ إنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ قِوَامًا لِمَعَايِشِهِمْ وَعِمَادًا لَهُمْ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : (هُوَ قِوَامُ الْأَمْرِ وَمَلَاكُهُ)

وَهُوَ مَا يَسْتَقِيمُ بِهِ أَمْرُهُ ، فَهُوَ قِوَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ .

وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَوْلُهُ : (قِوَامًا لِلنَّاسِ صَلَاحًا لَهُمْ) وَقِيلَ : (قِيَامًا لِلنَّاسِ) أَيْ تَقُومُ بِهِ أَبْدَانُهُمْ لِأَمْنِهِمْ بِهِ فِي التَّصَرُّفِ لِمَعَايِشِهِمْ ، فَهُوَ قِوَامُ دِينِهِمْ لِمَا فِي الْمَنَاسِكِ مِنْ الزَّجْرِ عَنْ الْقَبِيحِ وَالدُّعَاءِ إلَى الْحَسَنِ ، وَلِمَا فِي الْحَرَمِ وَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ مِنْ الْأَمْنِ ، وَلِمَا فِي الْحَجِّ وَالْمَوَاسِمِ وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ مِنْ الْآفَاقِ فِيهَا مِنْ صَلَاحِ الْمَعَاشِ ، وَفِي الْهَدْيِ وَالْقَلَائِدِ أَنَّ الرَّجُلَ إذَا كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ مُقَلَّدًا كَانُوا لَا يَعْرِضُونَ لَهُ ؛ وَقِيلَ : إنَّ مَنْ أَرَادَ الْإِحْرَامَ مِنْهُمْ كَانَ يَتَقَلَّدُ مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ الْحَرَمِ فَيَأْمَنُ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : (الْقَلَائِدُ مِنْ تَقْلِيدِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ بِالنِّعَالِ وَالْخِفَافِ) فَهَذَا عَلَى صَلَاحِ التَّعَبُّدِ بِهِ فِي الدِّينِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَقْلِيدَ الْبَدَنِ قُرْبَةٌ وَكَذَلِكَ سَوْقُ الْهَدْيِ .

وَالْكَعْبَةُ اسْمٌ لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ قَالَ مُجَاهِدُ وَعِكْرِمَةُ : (إنَّمَا سُمِّيَتْ كَعْبَةً لِتَرْبِيعِهَا) ، وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : إنَّمَا قِيلَ كَعْبَةُ الْبَيْتِ فَأُضِيفَتْ لِأَنَّ كَعْبَتَهُ تَرَبُّعُ أَعْلَاهُ .

(45/216)

وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنْ الْكُعُوبَةِ وَهُوَ النُّتُوُّ ، فَقِيلَ لِلتَّرْبِيعِ كَعْبَةٌ لِنُتُوِّ زَوَايَا الْمُرَبَّعِ ، وَمِنْهُ كَعْبُ ثَدْيِ الْجَارِيَةِ إذَا نَتَأَ ، وَمِنْهُ كَعْبُ الْإِنْسَانِ لِنُتُوِّهِ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَعْبَيْنِ اللَّذَيْنِ يَنْتَهِي إِلَيْهِمَا الْغَسْلُ فِي الْوُضُوءِ هُمَا النَّاتِئَانِ عَنْ جَنْبَيْ أَصْلِ السَّاقِ .

وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْبَيْتَ حَرَامًا لِأَنَّهُ أَرَادَ الْحَرَمَ كُلَّهُ لِتَحْرِيمِ صَيْدِهِ وَخَلَاهُ وَتَحْرِيمُ قَتْلِ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ وَالْمُرَادُ الْحَرَمُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ فَإِنَّهُ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : (هُوَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ) فَأَخْرَجَهُ مَخْرَجَ الْوَاحِدِ ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ الْجِنْسَ ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ : ثَلَاثَةٌ سَرْدٌ وَهِيَ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمِ ، وَوَاحِدٌ فَرْدٌ وَهُوَ رَجَبُ ؛ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْمَنُونَ فِيهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا فِي مَعَايِشِهِمْ ، فَكَانَ فِيهِ قِوَامُهُمْ .

(46/216)

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قِوَامِ النَّاسِ بِمَنَاسِكِ الْحَجِّ وَالْحَرَمِ وَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَالْهَدْيِ وَالْقَلَائِدِ مَعْلُومٌ مُشَاهَدٌ مِنْ ابْتِدَاءِ وَقْتِ الْحَجِّ فِي زَمَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى زَمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِلَى آخِرِ الدَّهْرِ ، فَلَا تَرَى شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ صَلَاحِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ بَعْدَ الْإِيمَانِ مَا تَعَلَّقَ بِالْحَجِّ ، أَلَا تَرَى إِلَى كَثْرَةِ مَنَافِعِ الْحَاجِّ فِي الْمَوَاسِمِ الَّتِي يَرِدُونَ عَلَيْهَا مِنْ سَائِرِ الْبُلْدَانِ الَّتِي يَجْتَازُونَ بِمِنًى وَبِمَكَّةَ إِلَى أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى

أَهَالِيهِمْ وَانْتِفَاعِ النَّاسِ بِهِمْ وَكَثْرَةِ مَعَايِشِهِمْ وَتِجَارَاتِهِمْ مَعَهُمْ ، ثُمَّ مَا فِيهِ مِنْ مَنَافِعِ الدِّينِ مِنْ التَّأَهُّبِ لِلْخُرُوجِ إلَى الْحَجِّ وَإِحْدَاثِ التَّوْبَةِ وَالتَّحَرِّي لِأَنْ تَكُونَ نَفَقَتُهُ مِنْ أَحَلِّ مَالِهِ ، ثُمَّ احْتِمَالِ الْمَشَاقِّ فِي السَّفَرِ إلَيْهِ وَقَطْعِ الْمَخَاوِفِ وَمُقَاسَاةِ اللُّصُوصِ وَالْمُحْتَالِينَ فِي مَسِيرِهِمْ إلَى أَنْ يَبْلُغُوا مَكَّةَ ، ثُمَّ الْإِحْرَامِ وَالتَّجَرُّدِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالتَّشَبُّهِ بِالْخَارِجِينَ يَوْمَ النُّشُورِ مِنْ قُبُورِهِمْ إلَى عَرْصَةِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّلْبِيَةِ وَاللَّجَأِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَالتَّعَلُّقِ بِأَسْتَارِهِ مُوقِنًا بِأَنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَهُ غَيْرُهُ ، كَالْغَرِيقِ الْمُتَعَلِّقِ بِمَا يَرْجُو بِهِ النَّجَاةَ وَأَنَّهُ لَا خَلَاصَ لَهُ إلَّا بِالتَّمَسُّكِ بِهِ ، ثُمَّ إظْهَارِ التَّمَسُّكِ

(47/216)

بِحَبْلِ اللَّهِ الَّذِي مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ نَجَا وَمَنْ حَادَ عَنْهُ هَلَكَ ، ثُمَّ حُضُورِ الْمَوْقِفِ وَالْقِيَامِ عَلَى الْأَقْدَامِ دَاعِينَ رَاجِينَ لِلَّهِ تَعَالَى مُتَخَلِّفِينَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا تَارِكِينَ لِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ عَلَى نَحْوِ وُقُوفِهِمْ فِي عَرْصَةِ الْقِيَامَةِ ، وَمَا فِي سَائِرِ مَنَاسِكِ الْحَجِّ مِنْ الذِّكْرِ وَالْخُشُوعِ وَالِانْقِيَادِ لِلَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْحَجُّ مِنْ سَائِرِ الْقُرَبِ الَّتِي هِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي غَيْرِهِ مِنْ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْقُرُبَاتِ وَالذِّكْرِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ ، وَمَا لَوْ اسْتَقْصَيْنَا ذِكْرَهُ لَطَالَ بِهِ الْقَوْلُ ؛ فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ مَنَافِعِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا قَوْله تَعَالَى

: ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إخْبَارٌ عَنْ عِلْمِهِ بِمَا يُؤَدِّي إلَيْهِ شَرِيعَةُ الْحَجِّ مِنْ مَنَافِعِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، فَدَبَّرَهُ هَذَا التَّدْبِيرَ الْعَجِيبَ وَانْتَظَمَ بِهِ صَلَاحُ الْخَلْقِ مِنْ أَوَّلِ الْأُمَّةِ وَآخِرِهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ عَالِمًا بِالْغَيْبِ وَبِالْأَشْيَاءِ كُلِّهَا قَبْلَ كَوْنِهَا لَمَا كَانَ تَدْبِيرُهُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ مُؤَدِّيًا إلَى مَا ذُكِرَ مِنْ صَلَاحِ عِبَادِهِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ لِأَنَّ مَنْ لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ لَا يَتَأَتَّى مِنْهُ فِعْلُ الْمُحْكَمِ الْمُتْقَنِ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ يَعُمُّ جَمِيعَ الْأُمَّةِ نَفْعُهُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(48/216)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

فِيهِ تِسْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ ﴾ : وَهُوَ يَتَصَرَّفُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ :

بِمَعْنَى سَمَّى ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ بِمَا يَنْبَغِي .

الثَّانِي : بِمَعْنَى خَلَقَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا ، مِنْهَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ .

الثَّالِثُ : بِمَعْنَى صَيَّرَ ، كَقَوْلِك ، جَعَلْت الْمَتَاعَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ .

وَتَحْقِيقُهُ هَاهُنَا خَلَقَ ثَانِيًا وَصْفًا لِشَيْءٍ مَخْلُوقٍ أَوَّلًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَ الْكَعْبَةَ وُجُودًا أَوَّلًا ، ثُمَّ خَلَقَ فِيهَا صِفَاتٍ ثَانِيًا ، فَـ " خَلَقَ " عَامٌّ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ، وَ " جَعَلَ " خَاصٌّ فِي الثَّانِي خَبَرٌ عَنْ الصِّفَاتِ الَّتِي فِيهَا عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : الْكَعْبَةُ : وَفِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا سُمِّيَتْ كَعْبَةً لِتَرَبُّعِهَا ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ .

(49/216)

الثَّانِي : أَنَّهَا سُمِّيَتْ كَعْبَةً لِنُتُوئِهَا وَبُرُوزِهَا ؛ فَكُلُّ نَاتِئٍ بَارِزٍ كَعْبٌ ، مُسْتَدِيرًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُسْتَدِيرٍ ، وَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ ، يُقَالُ : كَعَبَ ثَدْيُ الْمَرْأَةِ ؛ وَهَذِهِ صِفَتُهَا هُنَا ، وَقَدْ شَرَحْنَا أَمْرَهَا فِي " إيضَاحِ الصَّحِيحَيْنِ " .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ : سَمَّاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْتًا ؛ لِأَنَّهَا ذَاتُ سَقْفٍ وَجِدَارٍ ، وَهِيَ حَقِيقَةُ الْبَيْتِيَّةِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهَا سَاكِنٌ ؛ وَلَكِنْ جَعَلَ لَهَا شَرَفَ الْإِضَافَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ الْحَرَامَ ﴾ : سَمَّاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ حَرَامًا بِتَحْرِيمِهِ إيَّاهَا .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا أَوْ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُولُوا لَهُ : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، وَلْيُبْلِغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ﴾ .

(50/216)

رَوَاهُ الْكُلُّ مِنْ الْأَئِمَّةِ ، وَثَبَتَ عَنْهُ فِي رِوَايَةِ الْأَئِمَّةِ أَنَّهُ ﴿ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ : أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ فَسَكَتْنَا ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَالَ :

أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ ؟ قُلْنَا : بَلَى .

قَالَ : أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ فَسَكَتْنَا ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ .

فَقَالَ : أَلَيْسَ الْبَلْدَةُ ؟ ﴾ يَعْنِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَلَيْسَ الْبَلَدَ الْحَرَامَ ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ﴾ .

وَمَعْنَى قَوْله تَعَالَى : حَرَّمَهَا أَيْ بِعِلْمِهِ وَكِتَابِهِ وَكَلَامِهِ وَإِخْبَارِهِ بِتَحْرِيمِهَا وَخَلْقِهِ لِتَحْرِيمِهَا ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْهُ صَحِيحٌ ، وَإِلَيْهِ مَنْسُوبٌ .

فَإِنْ قِيلَ : وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ حَرَّمَهَا ؟ قُلْنَا : مِنْ سَطْوَةِ الْجَبَابِرَةِ وَمِنْ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ فِيهَا بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لِيُخَرِّبَنَّ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنْ الْحَبَشَةِ ﴾ .

قُلْنَا : هَذَا عِنْدَ انْقِلَابِ الْحَالِ ، وَانْقِضَاءِ الزَّمَنِ ، وَإِقْبَالِ السَّاعَةِ ، وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ الْآنَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ قِيَامُ الشَّيْءِ قَوَامُهُ وَمِلَاكُهُ أَيْ يَقُومُونَ بِهِ قِيَامًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ ؛ أَيْ يَقُومُونَ بِهَا .

(51/216)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فِي مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيِّ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : [الْأَوَّلُ] : قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : قِيَامًا لِلنَّاسِ ، أَيْ صَلَاحًا .

الثَّانِي : قِيَامًا لِلنَّاسِ أَيْ أَمْنًا .

الثَّالِثُ : يَعْنِي فِي الْمَنَاسِكِ وَالْمُتَعَبَّدَاتِ ؛ قَالَهُ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ .

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ يَدْخُلُ فِيهِ الثَّانِي ؛ لِأَنَّ الْأَمْنَ مِنْ الصَّلَاحِ ، وَيَدْخُلُ التَّمَكُّنُ مِنْ الْمَنَاسِكِ وَالْعِبَادَاتِ ؛ فَإِنَّ لِكُلٍّ مَصْلَحَةً .

(52/216)

وَفَائِدَةُ ذَلِكَ وَحِكْمَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي الْجِبِلَّةِ أَخْيَافًا يَتَقَاطَعُونَ تَدَابُرًا وَاخْتِلَافًا ، وَيَتَنَافَسُونَ فِي لَفِّ الْحُطَامِ إِسْرَافًا ، لَا يَبْتَغُونَ فِيهِ إِنْصَافًا ، وَلَا يَأْتَمِرُونَ فِيهِ بِرُشْدٍ اعْتِرَافًا ، فَأَمَرَهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالْخِلَافَةِ ، وَجَعَلَ فِيهِمْ الْمَمْلَكَةَ ، وَصَرَفَ أُمُورَهُمْ إِلَى تَدْبِيرِ وَاحِدٍ يَزَعُهُمْ عَنْ التَّنَازُعِ ، وَيَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّأَلُّفِ مِنْ التَّقَاطُعِ ، وَيَرْدَعُ الظَّالِمَ عَنْ

الْمَظْلُومِ ، وَيُقَرِّرُ كُلَّ يَدٍ عَلَى مَا تَسْتَوْلِي عَلَيْهِ حَقًّا ، وَيَسُوسُهُمْ فِي أَحْوَالِهِمْ لُطْفًا وَرِفْقًا ، وَأَوْقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ صِدْقَ ذَلِكَ وَصَوَابَهُ ، وَأَرَاهُمْ بِالْمُعَايَنَةِ وَالتَّجْرِبَةِ صَلَاحَ ذَلِكَ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ وَمَآلِهِ ، وَلَقَدْ يَزَعُ اللَّهُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ ، فَالرِّيَاسَةُ لِلسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكُ لِنَفْيِ الْمُلْكِ ، وَجَوْرُ السُّلْطَانِ عَامًا وَاحِدًا أَقَلُّ إِذَايَةً مِنْ كَوْنِ النَّاسِ فَوْضَى لَحْظَةً وَاحِدَةً ، فَأَنْشَأَ اللَّهُ الْخَلِيقَةَ لِهَذِهِ الْفَائِدَةِ وَالْمَصْلَحَةِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ ، كُلَّمَا بَانَ خَلِيفَةٌ خَلَفَهُ آخَرُ ، وَكُلَّمَا هَلَكَ مَلِكٌ مَلَكَ بَعْدَهُ غَيْرُهُ ؛ لِيَسْتَتِبَّ بِهِ التَّدْبِيرُ ، وَتَجْرِيَ عَلَى مُقْتَضَى رَأْيِهِ الْأُمُورُ ، وَيَكُفَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ عَادِيَةَ الْجُمْهُورِ ؛ فَإِذَا بَعَثَ نَبِيًّا سَخَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ الْمُلْكَ فِي وَقْتِهِ إِنْ كَانَ ضَعِيفًا ، فَكَانَ صَغْوُهُ إِلَيْهِ وَعَوْنُهُ مَعَهُ ، كَمَا فَعَلَ بِدَانْيَالَ وَأَمْثَالِهِ .

(53/216)

وَإِنْ بَعَثَهُ قَوِيًّا يَسَّرَ لَهُ الِاسْتِيلَاءَ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ، وَأَعْرَى أَرْضَ السُّلْطَانِ عَنْ ظِلِّهِ ، وَجَعَلَ الْأَمْرَ فِي الدِّينِ وَأَهْلِهِ ، كَمَا فَعَلَ بِمُوسَى ، وَلِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ التَّيْسِيرِ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ، وَالتَّقْدِيمِ لَهُ ، وَالتَّشْرِيفِ لِقَوْمِهِ أَسْكَنَ أَبَاهُ إِسْمَاعِيلَ الْبَلْدَةَ الْحَرَامَ حَيْثُ لَا إِنْسَ وَلَا أَنِيسَ ، وَاسْتَخْرَجَ فِيهَا ذُرِّيَّتَهُ ، وَسَاقَ إِلَيْهِ مِنْ الْجُوَارِ مَنْ عَمَرَتْ بِهِ تِلْكَ الْبِلَادُ وَالدِّيَارُ ،

وَجَرَّدَهُمْ عَنْ الْمُلْكِ تَقَدُّمَةً لِرِئَاسَةِ الْمِلَّةِ ، وَكَانُوا عَلَى جِبِلَّةِ الْخَلِيقَةِ وَسَلِيقَةِ الْآدَمِيَّةِ ، مِنْ التَّحَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ ، وَالتَّقَاطُعِ وَالتَّدَابُرِ ، وَالسَّلْبِ وَالْغَارَةِ ، وَالْقَتْلِ وَالثَّارَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْمَشِيئَةِ الْأَوَّلِيَّةِ مِنْ كَافٍ يَدُومُ مَعَ الْحَالِ ، وَرَادِعٍ يُحْمَدُ مَعَهُ الْمَآلُ ؛ فَعَظَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي قُلُوبِهِمْ الْبَيْتَ الْحَرَامَ لِحَقِّهِ ، وَأَوْقَعَ فِي نُفُوسِهِمْ هَيْبَتَهُ لِحِكْمَتِهِ ، وَعَظَّمَ بَيْنَهُمْ حُرْمَتَهُ لِقَهْرِهِ ؛ فَكَانَ مَنْ لَجَأَ إلَيْهِ مَعْصُومًا بِهِ ، وَكَانَ مَنْ اضْطُهِدَ مَحْمِيًّا بِالْكَوْنِ فِيهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ .

(54/216)

بَيْدَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ مَوْضِعًا مَخْصُوصًا لَا يُدْرِكُهُ كُلُّ مَظْلُومٍ وَلَا يَنَالُهُ كُلُّ خَائِفٍ جَعَلَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : مَلْجَأً آخَرَ ، فَقَرَّرَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَأَوْقَعَ فِي نُفُوسِهِمْ حُرْمَةَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ؛ فَكَانُوا لَا يَرُوعُونَ فِيهَا سَرْبًا ، وَلَا يَطْلُبُونَ فِيهَا ذَنْبًا ، وَلَا يَتَوَقَّعُونَ فِيهَا ثَأْرًا ، حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ وَابْنِهِ وَأَخِيهِ فَلَا يُؤْذِيهِ . وَاقْتَطَعُوا فِيهَا ثُلُثَ الزَّمَانِ ، وَوَصَلُوا مِنْهَا ثَلَاثَةً مُتَوَالِيَةً ، فُسْحَةً وَرَاحَةً ، وَمَجَالًا لِلسِّيَاحَةِ فِي الْأَمْنِ وَاسْتِرَاحَةً ، وَجَعَلُوا مِنْهَا وَاحِدًا مُفْرَدًا فِي نِصْفِ الْعَامِ دَرْكًا لِلِاحْتِرَامِ ؛ ثُمَّ يَسَّرَ

لَهُمْ الْإِلْهَامَ ، وَشَرَعَ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الْكِرَامِ الْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ، فَكَانُوا إذَا أَخَذُوا بَعِيرًا أَشْعَرُوهُ دَمًا ، وَعَلَّقُوا عَلَيْهِ نَعْلًا .

رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْ مَالِكٍ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : أَنَّ الْقَلَائِدَ حَبْلٌ يَفْتِلُهُ ، وَنَعْلَانِ يُقَلِّدُهُمَا ، وَالنَّعْلُ الْوَاحِدُ تُجْزِي ؛ وَلِذَلِكَ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يُقَلِّدُ نَعْلَيْنِ .

(55/216)

وَرُبَّمَا قَلَّدَ نَعْلًا وَاحِدًا ، فَإِذَا فَعَلَ الرَّجُلُ ذَلِكَ فِي بَعِيرِهِ أَوْ فِي نَفْسِهِ لَمْ يَرُعْهُ ذَلِكَ حَيْثُ لَقِيَهُ ، وَكَانَ الْفَيْصَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ طَلَبَهُ أَوْ ظَلَمَهُ ، حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ ، وَبَيَّنَ الْحَقَّ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَانْتَظَمَ الدِّينُ فِي سَلْكِهِ ، وَعَادَ الْحَقُّ إلَى نِصَابِهِ ، وَبِهَذَا وَجَبَتْ الْخِلَافَةُ هُدًى ، وَمَنَعَ اللَّهُ الْخَلْقَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ، فَأُسْنِدَتْ الْإِمَامَةُ إلَيْهِ ، وَانْبَنَى وُجُوبُهَا عَلَى الْخَلْقِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي وَلَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

﴿ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ : الْمَعْنَى أَنَّهُ دَبَّرَ ذَلِكَ مِنْ حُكْمِهِ ، وَأَنْفَذَهُ مِنْ قَضَائِهِ بِقُدْرَتِهِ عَلَى مُقْتَضَى عِلْمِهِ ، لِيَعْلَمُوا بِظُهُورِ هَذَا التَّقْدِيرِ وَانْتِظَامِهِ فِي التَّدْبِيرِ عُمُومَ عِلْمِهِ ، وَشُمُولَ قُدْرَتِهِ ، وَإِحَاطَتَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، كَيْفَمَا تَصَرَّفَ أَوْ تَقَدَّرَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(56/216)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " جَعَلَ اللَّهُ " : فيها وجهان :

أحدهما : أنها بمعنى " صَيَّرَ " فتتعدَّى لاثنين ، أولهما " الكَعْبَة " والثاني " قِيَاماً " .

والثاني : أن تكون بمعنى " خَلَقَ " ، فتتعدَّى لواحد ، وهو " الكَعْبَة " ، و " قِياماً " نصبٌ على الحال ، وقال بعضُهُمْ : إنَّ " جَعَلَ " هنا بمعنى " بَيَّنَ " و " حَكَمَ " ، وهذا ينبغي أن يُحْمَلَ على تَفْسير المعنى لا تفسير اللغة ؛ إذ لم ينقل أهلُ العربية ؛ أنها تكونُ بمعنى " بَيَّنَ " ولا " حَكَمَ " ، ولكن يلزمُ من الجَعْلِ البيانُ ، وأمَّا " البَيْتَ " ، فانتصابُه على أحد وجهين : إما البدلِ ، وإما عطفِ البيان ، وفائدةُ ذلك : أن بعض الجاهليَّة – وهم خَثْعَم – سَمَّوْا

بيتاً الكعبة اليمانية ، فجيء بهذا البدلِ ، أو البيانِ ، تبييناً له من غيره ، وقال الزمخشريُّ : " البَيْتَ الحَرَامَ " عطف بيانٍ على جهة المدحِ ، لا على جهة التوضيحِ ؛ كما تجيء الصفةُ كذلك " ، واعترض عليه أبو حيان بأن شرط البيانِ الجمودُ ، والجمودُ لا يُشْعِرُ بمَدْحٍ ، وإنما يُشْعِرُ به المشتقُّ ، ثم قال : " إلاَّ أنْ يُريد أنه لَمَّا وُصِفَ البيْتُ بالحرامِ اقْتَضَى المجموعُ ذلك فيمكنُ " .

والكَعْبَةُ لغةً : كلُّ بيْتٍ مربَّعٍ ، وسُمِّيَت الكعبةُ كَعْبَةً لذلك ، وأصل اشتقاق ذلك من الكعبِ الذي هو أحَدُ أعضاءِ الآدميّ ، قال الراغب : "كَعْبُ الرَّجُلِ " العَظْم الذي عند مُلْتَقى الساق والقَدَم ، والكَعْبةُ كُلُّ بَيْتٍ على هَيْئَتِهَا في التَّرْبيع ، والعربُ تُسَمِّي كلَّ بَيْت مُرَبَّع كَعْبةً ؛ لانفرادها من البِنَاءِ .

(57/216)

وقيل : سُمِّيَت كَعْبَةً لارتفَاعِهَا من الأرْض ، وأصْلُها من الخُرُوج والارتِفَاع ، وسُمِّيَ الكعبُ لِنُتُوئِهِ ، وخُرُوجه من جَانِبي القَدم ، ومنه قِيلَ لِلْجَارية إذا قاربتِ البُلُوغَ وخَرَجَ ثَدْيَاهَا تكعَّبَتْ والكعبة لَمَّا ارتفع ذِكْرُها سُمِّيَتْ بهذا الاسْم ، ويقولون لِمَنْ عَظُمَ أمْرُه " فلانٌ عَلاَ كَعْبُهُ " وذُو الكعبات : بيتٌ كان في الجاهلية لبني ربيعة ، وتقدَّم الكلام في هذه المادةِ أول

السورة [آية 6] .

قوله : " قِياماً " [قراءة الجمهورُ بألفٍ بعد الياء ، وابنُ عامرٍ : " قِيَماً " دون ألف بزنة " عِنَبٍ " ، والقيامُ هنا يحتمل أن يكون مصدراً لـ " قَامَ - يَقُومُ " ، والمعنى : أنَّ اللَّهَ جَعَلَ الكعبةَ سَبَباً لقيام النَّاسِ إليها ، أي : لزيارتها والحجِّ إليها ، أو لأنَّها يَصْلُح عندها أمرُ دينهِمْ ودُنْيَاهُمْ ، فيها يَقُومُونَ ، ويجوز أنْ يكونَ القيامُ بمعنى القوامِ ، فقُلِبَتِ الواوُ ياءً ؛ لانكسارِ ما قبلها ، كذا قال الواحديُّ ، وفيه نظرٌ ؛ إذ لا موجبَ لإعلاله ؛ إذ هو : " السِّوَاكِ " ، فينبغي أن يقال : إنَّ القيامَ والقوامَ بمعنًى واحدٍ ؛ قال : [الرجز]

2054 - قِوَامُ دُنْيَا وقِوَامُ دِينِ . . .

فأمَّا إذا دخلها تاءُ التأنيث ، لَزِمَتِ الياءُ ؛ نحو : " القِيَامَة " ، وأمَّا قراءةُ ابن عامر ، فاستشكلها بعضُهم بأنه لا يَخْلُو : إمَّا أنْ يكون مصدراً على فعلٍ ، وإما أن يكون على فعالٍ ، فإن كان الأوَّل ، فينبغي أن تصِحَّ الواوُ كـ " حِوَلٍ " و " عوَرٍ " ، وإن كان الثاني ، فالقصر لا يأتي إلا في شِعْرٍ ، وقرأ الجَحْدَرِيُّ : " قَيِّماً " بتشديد الياء ، وهو اسمٌ دالٌّ على ثبوت الصفة ، وقد تقدَّم تحقيقُه أوَّلَ النساء [الآية 5]] .

(58/216)

قوله : ﴿ والشهر الحرام والهدي والقلائد ﴾ عطف على " الكَعْبَة " ، والمفعول الثاني أو الحال محذوفٌ ، لفهم المعنى ، أي : جعل الله أيضاً الشَّهْرَ والهَدْيَ والقلائِدَ قِيَاماً .

قوله " ذِلكَ " فيه ثلاثة أُوجه :

أحدها : أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، أي : الحُكْمُ الذي حكمْنَاهُ ذلك لا غيرُه .

والثاني : أنه مبتدأ ، وخبره محذوف ، أي ذلك الحكمُ هو الحقُّ لا غيره .

الثالث : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ ، أي : شَرَعَ اللَّهُ ذلك ، وهذا أقواها ؛ لتعلُّقِ لام العلَّة به ، و " تَعْلَموا " منصوبٌ بإضمار " أنْ " بعد لام كَيْ ، لا بها ، و " أنَّ الله " وما في حَيِّزها سادَّةٌ مَسَدَّ المفعولينِ أو أحدهما على حسبِ الخلافِ المتقدِّم ، و ﴿ وَأَنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ نسقٌ على " أنَّ " قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 536 . 539 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) ﴾

حَكَمَ الله سبحانه – بأن يكون بيتُه – اليومَ ملجأ يلوذ به كل مُؤمِّل ، ويستقيم ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الاستقامة ، ويستنجح بابتهاله هنالك كلُّ ذي أَرَبٍ .

والبيتُ حَجَرٌ والعبد مَدَرٌ ، والحق سبحانه ربط المدر بالحجر ليُعْلَمَ أنه الذي لم يَزَلْ لا سبيل إليه للحدثان والغير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 449 ﴾

(59/216)

قوله تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أنتج هذا كله أنه على كل شيء قدير لأنه بكل شيء عليم ، وكانت هذه الآية – كما تقدم – ناظرةً إلى أول السورة من آية ﴿ لا تحلوا شعائر الله ﴾ [المائدة : 2] وما بعدها أتم نظر ، ذكر سبحانه ما اكتنف آية ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] من الوعيد الذي ختم به ما قبلها والوعد الذي ختمت هي به في هذه الآية على ترتيبه ، سائقاً له مساق النتيجة والثمرة لما قبله ، بياناً لأن من ارتكب شيئاً من هذه المنهيات كان حظه ، فقال محذراً ومبشراً لأن الإيمان لا يتم إلاّ بهما : ﴿ اعلموا أن الله ﴾ أي الذي له المعظمة كلها الذي نهاه عنها ﴿ شديد العقاب ﴾ فليكن عباده على حذر منه ، وأن من أوقعه في شيء منها القدر ، ثم فتح له التوفيقُ بابَ الحذر ، فكفر فيما فيه كفارة وتاب ، كان مخاطباً

بقوله : ﴿ وأن ﴾ أي واعلموا أن ﴿ الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام مع كونه شديد العقاب ﴿ غفور رحيم ﴾ يقبل عليه ويمحو زلله ويكرمه ، فكان اكتناف أسباب الرجاء سابقاً للإنذار ولاحقاً معلماً بأن رحمته سبقت غضبه وأن العقاب إنما هو لإتمام رحمته ، قال ابن الزبير : ثم قال ﴿ جعل الله الكعبة ﴾ [المائدة : 97] - فنبه على سوء العاقبة في منع البحث على التعليل وطلب الوقوف على ما لعله مما استأثر الله بعلمه ، ومن هذا الباب أتى على بني إسرائيل في أمر البقرة وغير ذلك ؛ وجعل هذا التنبيه إيماء ، ثم أعقبه بما يفسره ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء ﴾ [المائدة : 101] - ووعظهم بحال غيرهم في هذا ، وأنهم سألوا فأعطوا ثم امتحنوا ، وقد كان التسليم أولى لهم ، فقال تعالى ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ [المائدة : 102] ثم عرّف عباده أنهم إذا استقاموا فلن يضرهم خذلان غيرهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ [المائدة : 105] - انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 545.546 ﴾

فصل

قال الفخر :

لما ذكر الله تعالى أنواع رحمته بعباده ، ذكر بعده أنه شديد العقاب ، لأن الإيمان لا يتم إلا بالرجاء والخوف كما قال عليه الصلاة والسلام : " لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا " ثم ذكر عقيبه ما يدل على الرحمة وهو كونه غفوراً رحيماً وذلك يدل على أن جانب الرحمة أغلب ، لأنه تعالى ذكر فيما قبل أنواع رحمته وكرمه ، ثم ذكر أنه شديد العقاب ثم ذكر عقيبه وصفين من أوصاف الرحمة وهو كونه غفوراً رحيماً ، وهذا تنبيه على دقيقة وهي أن ابتداء الخلق والإيجاد كان لأجل الرحمة ، والظاهر أن الختم لا يكون إلا على الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 85 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ اعلموا أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ وعيد لمن انتهك محارمه أو أصر على ذلك . والعقاب كما قيل هو الضرر الذي يقارنه استخفاف وإهانة ، وسمي عقاباً لأنه يستحق عقيب الذنب ﴿ وَأَنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وعد لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى وأقلع عن الانتهاك .

ووجه تقديم الوعيد ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ اعلموا أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ استئناف ابتدائي وتذييل لما سبق من حظر الصيد للمحرم وإباحة صيد البحر والامتنان بما جعل للكعبة من النعم عليهم ليطمئنّوا لِما في

تشريع تلك الأحكام من تضييق على تصرّفاتهم ليعلموا أنّ ذلك في صلاحهم ، فذيل بالتذكير بأنّ الله منهم بالمرصاد يجازي كل صانع بما صنع من خير أو شر .

وافتتاح الجملة بـ ﴿ اعلموا ﴾ للاهتمام بمضمونها كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنّكم ملاقوه ﴾ في سورة البقرة (223) .

وقد استوفى قوله : إن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ أقسام معاملته تعالى فهو شديد العقاب لمن خالف أحكامه وغفور لمن تاب وعمل صالحاً .

(61/216)

وافتتاح الجملة بلفظ ﴿ اعلموا ﴾ للاهتمام بالخبر كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنّكم ملاقوه ﴾ في سورة البقرة (223) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(62/216)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) ﴾

أي تيقظوا لأحكام الله ، وكونوا طوع ما يريد ، فمن يخالف الله فعليه أن يعرف أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب . ومن كان يطيع الله فليعلم أنه سبحانه غفور رحيم . وجاء سبحانه بصفة من صفات الجلال لتتقابل مع صفتين من صفات الجمال ، فصفة : ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ تتقابل مع صفتي : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ لأن كل الناس ليسوا أخياراً ، وكل الناس ليسوا أشراراً ؛ لذلك جاء للأخيار بما يناسبهم من المغفرة والرحمة ، وجاء للأشرار بما يناسبهم من شدة العقاب ، وغلبت رحمته ومغفرته غضبه وعقابه ، ونلحظ ذلك من مجيء صفة واحدة من صفات الجلال : ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ ويقابلها صفتان من صفات الجمال وهما : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(63/216)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) ﴾

شديد العقاب للأعداء ، غفور رحيم للأولياء .

ويقال شديد العقاب للخواص بتعجيل الحجاب إنْ زاغُوا عن الشهود لحظةً ، غفور رحيم للعوام إن رجعوا إليه بتوبة وحسرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 450 ﴾

(64/216)

قوله تعالى ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما رغب سبحانه ووهب ، علم أنه المجازى وحده ، فأنتج ذلك أنه ليس إلى غيره إلاّ ما كلفه به ، فأنتج ذلك ولا بد قوله : ﴿ ما على الرسول ﴾ أي الذي من شأنه الإبلاغ ﴿ إلا البلاغ ﴾ أي بأنه يحل لكم الطعام وغيره ويحرم عليكم الخمر وغيرها ، وليس عليه أن يعلم ما تضمرون وما تظهرون ليحاسبكم عليه ﴿ والله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ يعلم ما تبدون ﴾ أي تجددون إبداءه على الاستقرار ﴿ وما تكتمون ﴾ من إيمان وكفر

وعصيان وطاعة وتعمد لقتل الصيد وغيره ومحبة للخمر وغيرها وتعمق في الدين بتحريم الحلال من الطعام والشراب وغيره إفراطاً وتفريطاً ، لأنه الذي خلقكم وقدّر ذلك فيكم في أوقاته ، فيجازيكم على ما في نفس الأمر ، من عصي أخذه بشديد العقاب ، ومن أطاعه منحه حسن الثواب ، وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يحكم إلاّ بما يعلمه مما تبدونه ما لم أكشف له الباطن وآمره فيه بأمري ، وهذه أيضاً ناظرة إلى قوله تعالى ﴿ بلّغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ [المائدة : 67] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 546 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما قدم الترهيب والترغيب بقوله ﴿ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العقاب وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 98] أتبعه بالتكليف بقوله ﴿ مَّا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ ﴾ يعني أنه كان مكلفاً بالتبليغ فلما بلغ خرج عن العهدة وبقي الأمر من جانبكم وأنا عالم بما تبدون وبما تكتمون ، فإن خالفتم فاعلموا أن الله شديد العقاب ، وإن أطعتم فاعلموا أن الله غفور رحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 85.86 ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ إخبار للمؤمنين فلا يتصور أن يقال هي آية موادعة منسوخة بآيات القتال ، بل هذه حال من آمن وشهد شهادة الحق . فإنه إذ قد

عصم من الرسول ماله ودمه ، فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ والله تعالى بعد ذلك يعلم ما ينطوي عليه صدره ، وهو المجازي بحسب ذلك ثواباً وعقاباً ، و﴿ البلاغ ﴾ مصدر من بلغ يبلغ ، والآية معناها الوعيد للمؤمنين إن انحرفوا ولم يمتثلوا ما بلغ إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ يعني ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم إلا تبليغ ما أرسل به من الإنذار بما فيه قطع الحجج ، ففي الآية تشديد عظيم في إيجاب القيامة بما أمر الله وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت الحجة عليكم بذلك ولزمتكم الطاعة فلا عذر في التفريط ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ يعني أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ظاهراً وباطناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(65/216)

وقال أبو حيان :

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾

لما تقدم الترغيب والترهيب أخبر تعالى أن كلف رسوله بالتبليغ وهو توصيل الأحكام إلى أمته وهذا فيه تشديد على إيجاب القيام بما أمر به تعالى ، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت عليه الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم في التفريط .

قال ابن عطية هي إخبار للمؤمنين ولا يتصور أن يقال هي أنه موادعة منسوخة بآيات القتال بل هذه حال من آمن بهذا وشهد شهادة الحق فإنه عصم من الرسول ماله ودمه فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ . انتهى .

وذكر بعض المفسرين الخلاف فيها أهي محكمة أم منسوخة بآية السيف والرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل يجوز أن يكون اسم جنس والمعنى ما على كل من أرسل إلا البلاغ والبلاغ والبلوغ مصدران لبلغ وإذا كان مصدر البلغ فبلاغ الشرائع مستلزم لتبليغ من أرسل بها فعبر باللازم عن الملزوم ويحتمل أن يكون مصدر البلغ المشدد على حذف الزوائد فمعنى البلاغ التبليغ .

﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ جملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى أنه مطلع على حال العبد ظاهراً وباطناً فهو مجازيه على ذلك ثواباً أو عقاباً ، ويحتمل أن يكون المعنى أنه تعالى ألزم رسوله التبليغ للشريعة وألزمكم أنتم تبليغها فهو العالم بما تبدون منها وما تكتمونه فيجازيكم على ذلك وكان ذلك خطاباً لأمته إذا كان الإبداء والكتم يمكن صدورهما منهم

بخلاف الرسول فإنه يستحيل عليه أن يكتم شيئاً من شرائع الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(66/216)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَّا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ ﴾ أي ليس له الهداية والتوفيق ولا الثواب ، وإنما عليه البلاغ .

وفي هذا ردّ على القَدَرية كما تقدّم .

وأصل البلاغ البلوغ وهو الوصول .

بَلَغ يَبلغُ بُلوغاً ، وأَبلَغه إبلاغاً ، وتَبلَّغ تَبلُّغاً ، وبَالغَه مبالغةً ، وبَلَّغه تَبلِيغاً ، ومنه البلاغة ؛ لأنها إيصال المعنى إلى النفس في حسن صورة من اللفظ .

وتَبالَغ الرجلُ إذا تعاطى البلاغة وليس ببليغ ، وفي هذا بلاغٌ أي كفاية ؛ لأنه يبلغ مقدار الحاجة .

﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أي تظهرونه يُقال : بدا السِّرُّ وأبداه صاحبه يُبديه .

﴿ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ أي ما تسرونه وتخفونه في قلوبكم من الكفر والنفاق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ مَّا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ ﴾ ولم يأل جهداً في تبليغكم ما أمرتم به فأي عذر لكم بعد .

وهذا تشديد في إيجاب القيام بما أمر به سبحانه .

والبلاغ اسم أقيم مقام المصدر كما أشير إليه ﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

فيعاملكم بما تستحقونه في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ ما على الرسول إلاّ البلاغ ﴾ معترضة ذيل بها التعريض بالوعيد والوعد .

ومضمونها إعذار الناس لأن الرسول قد بلّغ إليهم ما أراد الله منهم فلا عذر لهم في التقصير ، والمنّة لله ولرسوله فيما أرشدهم إليه من خير .

والقصر ليس بحقيقي لأنّ على الرسول أموراً أخر غير البلاغ مثل التعبّد لله تعالى ، والخروج إلى الجهاد ، والتكاليف التي كلّفه الله بها مثل قيام الليل ، فتعيّن أنّ معنى القصر : ما عليه إلاّ البلاغ ، أي دون إلجائكم إلى الإيمان ، فالقصر إضافي فلا ينافي أنّ على الرسول أشياء كثيرة .

والإتيان بحرف (على) دون (اللام) ونحوها مؤذن بأنّ المردود شيء يتوهّم أنّه لازم للرسول من حيث إنّه يدّعي الرسالة عن الله تعالى .

وقوله : ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ عطف على جملة ﴿ اعلموا أنّ الله شديد العقاب ﴾ .

وهي تتميم للتعريض بالوعيد والوعد تذكيراً بأنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي هنا لإفادة تقوّي الحكم وليس لإفادة التخصيص لنبُوّ المقام عن ذلك .

وذكر ﴿ ما تبدون ﴾ مقصود منه التعميم والشمول مع ﴿ ما تكتمون ﴾ وإلاّ فالغرض هو تعليمهم أنّ الله يعلم ما يسرّونه أمّا ما يبدونه ، فلا يُظنّ أنّ الله لا يعلمه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(67/216)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) ﴾

الرسول هو المبعوث من المرسِل الحق سبحانه إلينا نحن العباد . والحق سبحانه هو الفاعل

الأول ، المطلق الذي لا فاعل يزاحمه ، والمفعول الأول بالرسالة هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمفعول الثاني هو نحن . وهناك في النحو المفعول معه ، وهناك أيضاً المفعول له ، والمفعول فيه ، والمفعول به ، وأيضاً يوجد المفعول إليه والمثال على المفعول إليه قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [النحل : 63] .

وفيه أيضا المفعول منه . والمثال على المفعول منه هو قوله الحق : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ﴾ [الأعراف : 155] .

و" قومه " هي مفعول منه . لأنه اختار من قومه سبعين رجلا ممن لم يعبدوا العجل ليعتذروا عمن عبد العجل ويسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء .

إن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البلاغ (ما على الرسول إلا البلاغ) ، أما تنفيذ البلاغ فهو دور المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أدوْها فلهم الجنة ، وإن لم يؤدُّوها فعليهم العقاب . وأراد الحق أن يكون البلاغ من رسوله مصحوبا بالأسوة السلوكية منه صلى الله عليه وسلم ، فالرسول يبلغ وينفذ أمامنا ما بلغ به حتى نتبعه ، ولذلك قال الحق : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] .

وهذا ما ينقض ادعاء الألوهية لبشر . فلو كان هناك إله رسول لقال الناس : كيف نتبع هذا الرسول وله من الصفات والخصائص ما يختلف عنا نحن البشر ؟ إن الرسول لا يستقيم ولا يصح أن يكون إلها لأنه هو الأسوة والقدوة للمرسل إليهم . إنه يصلي ويصوم ويزكي ويحج ويفعل غير ذلك من الأفعال ، ويأمر من أرسل إليهم أن يتبعوه فيما يفعل ، فلو كان إلها فإن المرسَل إليهم – وهم البشر – لا يقدرون على أن يفعلوا مثل ما يفعل ؛ لأنه إله وطبيعته تختلف عن طبيعتم ولذلك لا يستطيعون التأسي والاقتداء به ، فالأسوة لا تتأتي إلا إذا كان الرسول من جنس المرسل إليهم . . أي يكون بشراً بكل أغيار البشر .

والحق سبحانه قال : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] .

أي أن البشر تساءلوا – جهلاً – عما يمنع الله – سبحانه – أن يرسل لهم رسولاً من غير جنس البشر ، ولماذا أرسل لهم رسولاً من جنسهم البشري ؟ وهنا يأتي الأمر من الله سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] .

وبهذا يبلغ الحق رسله ضرورة إبلاغ الناس أن الرسول لهم لا بد من أن يكون من جنس البشر ؛ لأن الملائكة لا يمشون مطمئنين في الأرض ، ولو جاء الرسل من الملائكة لقال البشر : لن نستطيع اتباع ما جاء به الملائكة لأنهم لا يصلحون أسوة لنا ؛ لأنهم من جنس آخر غير

جنس البشر ، ثم إن الملائكة من خلق الغيب ، فكيف يبعث الله للبشر هذا الغيب ليكون رسولاً ؟ ولو حدث ذلك فلا بد أن يجعله الحق في صورة بشرية .

ففي آية أخرى يقول الحق : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 9] .

(69/216)

إنهم طلبوا أن ينزل الله عليهم ملكاً ، ولو استجاب الله لهم وأرسل رسوله ملكاً لتجسد المَلَك في صورة بشرية ، وهم من بعد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون ، عندئذ يحق عليهم عذاب الله ويهلكهم . إذن فمهمة الرسول هي البلاغ ولنا فيه الأسوة . وتتابع الآية : ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ كأنه سبحانه وتعالى يحذرنا من أن نأخذ شكل الإيمان دون أن نؤمن حقيقة ؛ لأن الأمر الشكلي قد يجوز على أجناس البشر أن ينخدعوا فيه ، ولكن الله ينظر إلينا بقيوميته ، فسبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم . وفي هذا القول تحدّ للمنافقين من أنه سبحانه سيحاسبهم ، فإن كتم الإنسان الكفر في قلبه وأظهر الإيمان الشكلي ، فسوف ينال عقاب الله ، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة المؤمنين أن يحكموا على ظاهر الأمر وأن يتركوا السرائر لله .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا عن أن يحكم بكفر إنسان أعلن الإيمان ولو نفاقاً .

وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم أنه بشر ، وعرف أن البشرية محدودة القدرة . ولذلك قال : " إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ليأخذها أو ليتركها "

.

(70/216)

هكذا يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نظن فيه قدرة فوق قدرة البشر "

وعندما قتل صحابي رجلاً أعلن الإيمان قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هلا شققت عن بطنه فعلمت ما في قلبه " إذن فنحن لنا الظاهر ، أما السرائر فأمرها موكول إلى الله . ولذلك يقول الله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ . ونعلم أن ظاهرة النفاق تعطي للمنافق حقوق المسلم الظاهرة الموقوتة بحياته وزمنه ، ولكن الباقي في الحياة الأخرى طويل ينال فيه جزاء ما أبطن من كفر . والكتمان غير الإخفاء . فكتم الشيء يعني أن الشيء ظاهر الوضوح ولكن صاحبه يكتمه ، أما الإخفاء فهو ما يدور بالخواطر ، ويمكن أن يخفيه الإنسان ، ولكنه مع مرور الوقت لا يستطيع ذلك ، فالشاعر العربي يقول :

ومهْما تكُنْ عندَ امرىء من خليقةٍ . . . وإن خالها ، تخْفى على الناس تُعْلَم

ويقال : يكاد المريب أن يقول خذوني .

ومادام الحق يعلم كُلّ ما يبدي البشر وكل ما يكتمون ، وهو شديد العقاب ، وغفور ورحيم ، ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها ، ويجازي على السيئة بمثلها ، فماذا علينا أن نفعل ؟ يأتينا القول الفصل في أمر الله لرسوله أن يخبرنا : ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الخبيث وَالطَّيِّبُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(71/216)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " إلاَّ البلاغُ " : في رفعه وجهان :

أحدهما : أنه فاعلٌ بالجارِّ قبله ؛ لاعتماده على النفي ، أي : ما استقرَّ على الرَّسُول إلا البلاغُ .

والثاني : أنه مبتدأ ، وخبره الجارُّ قبله ، وعلى التقديرين ، فالاستثناء مفرَّغٌ .

والبلاغُ يُحْتَمَل أن يكون مصدراً [لـ " بَلَّغَ " مشدَّداً ، أي : ما عليه إلا التبليغُ ، فجاء على

حذفِ الزوائدِ ، كـ " نَبَات " بعد " أَنْبَتَ " ، ويحتمل أن يكون مصدراً] لـ " بَلَغَ " مُخَفَّفاً بمعنى البُلُوغ ، ويكون المعنى : ما عليه إلا البُلُوغُ بتبليغه ، فالبلوغُ مُسْتلزمٌ للتبليغِ ، فعبَّر باللاَّزمِ عن الملزوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 540 . 541 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) ﴾

المتفرِّدُ بالإلهية اللهُ . والرسولُ – وإنْ جلَّ قَدْرُه – فليس عليه إلا البلاغ وهو أيضاً (بتسييره) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 450 ﴾

(72/216)

قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما سلب سبحانه العلم عن كل أحد وأثبته لنفسه الشريفة ، أنتج ذلك أنه لا أمر لغيره ولا

نهي ولا إثبات ولا نفي ، فأخذ سبحانه يبين حكمة ما مضى من الأوامر في إحلال الطعام وغيره من الاصطياد والأكل من الصيد وغيره والزواجر عن الخمر وغيرها بأن الأشياء منها طيب وخبيث ، وأن الطيب وإن قل خير من الخبيث وإن كثر ، ولا يميز هذا من ذاك إلاّ الخلاق العليم ، فربما ارتكب الإنسان طريقة شرعها لنفسه ظانّاً أنها حسنة فجرته إلى السيئة وهو لا يشعر فيهلك ، كالرهبانية التي كانوا عزموا عليها والخمر التي دعا شغفُهم بها إلى الإنزال فيها مرة بعد أخرى إلى أن أكد فيها هنا أشد تأكيد ، وحذر فيها أبلغ تحذير ، فقال تعالى صارفاً الخطاب إلى أشرف الورى صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أنه لا ينهض بمعرفة هذا من الخلق غيرُه : ﴿ قل لا يستوي الخبيث ﴾ أي من المطعومات والطاعمين ﴿ والطيب ﴾ أي كذلك ، فإن ما يتوهمونه في الكثرة من الفضل لا يوازي النقصان من جهة الخبيث .

(73/216)

ولما كان الخبيث من الذوات والمعاني أكثر في الظاهر وأيسر قال : ﴿ ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ والخبيث والطيب منه جسماني ومنه روحاني ، وأخبثهما الروحاني وأخبثه الشرك ، وأطيب الطيب الروحاني وأطيبه معرفة الله وطاعته ، وما يكون للجسم من

طيب أو خبث ظاهر لكل أحد ، فما خالطه نجاسة صار مستقذراً لأرباب الطباع السليمة ، وما خالط الأرواح من الجهل صار مستقذراً عند الأرواح الكاملة المقدسة ، وما خالطه من الأرواح معرفةُ الله فواظب على خدمته أشرق بأنوار المعارف الإلهية وابتهج بالقرب من الأرواح المقدسة الطاهرة ، وكما أن الخبيث والطيب لا يستويان في العالم الروحاني كذلك لا يستويان في العالم الجسماني ، والتفاوت بينهما في العالم الروحاني أشد ، لأن مضرة خبث الجسماني قليلة ، ومنفعة طيبه يسيرة ، وأما خبث الروحاني فمضرته عظيمة دائمة ، وطيب الروحاني منفعته جليلة دائمة ، وهي القرب من الله والانخراط في زمرة السعداء ، وأدلّ دليل على إرادة العصاة والمطيعين قوله : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين ما يسخط الملك الأعظم الذي له صفات المال من الحرام وقايةً من الحلال لتكونوا من قسم الطيب ، فإنه لا مقرب إلى الله مثلُ الانتهاء عما حرم – كما تقدم الإشارة بقوله : ﴿ ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ [المائدة : 93] ويزيد المعنى وضوحاً قوله ﴿ يا أولي الألباب ﴾ أي العقول الخالصة من شوائب النفس فتؤثروا الطيب وإن قل في الحبس لكثرته في المعنى على الخبيث وإن كثر في الحس لنقصه في المعنى ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي لتكونوا على رجاء من أن تفوزوا بجميع المطالب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 546 . 547 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما زجر عن المعصية ورغب في الطاعة بقوله ﴿ اعلموا أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب وَأَنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 98] ثم أتبعه بالتكليف بقوله ﴿ مَّا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ ﴾ [المائدة : 99] ثم أتبعه بالترغيب في الطاعة والتنفير عن المعصية بقوله ﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة : 99] أتبعه بنوع آخر من الترغيب في الطاعة والتنفير عن المعصية فقال : ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِى الخبيث والطيب ﴾ وذلك لأن الخبيث والطيب قسمان : أحدهما : الذي يكون جسمانياً ، وهو ظاهر لكل أحد ، والثاني : الذي يكون روحانياً ، وأخبث الخبائث الروحانية الجهل والمعصية ، وأطيب الطيبات الروحانية معرفة الله تعالى وطاعة الله تعالى ، وذلك لأن الجسم الذي يلتصق به شيء من النجاسات يصير مستقذراً عند أرباب الطباع السليمة ، فكذلك الأرواح الموصوفة بالجهل بالله والإعراض عن طاعة الله تعالى تصير مستقذرة عند الأرواح الكاملة المقدسة .

وأما الأرواح العارفة بالله تعالى المواظبة على خدمة الله تعالى ، فإنها تصير مشرقة بأنوار المعارف الإلهية مبتهجة بالقرب من الأرواح المقدسة الطاهرة ، وكما أن الخبيث والطيب في عالم الجسمانيات لا يستويان ، فكذلك في عالم الروحانيات لا يستويان ، بل المباينة بينهما

في عالم الروحانيات أشد ، لأن مضرة خبث الخبيث الجسماني شيء قليل ، ومنفعته طيبة مختصرة ، وأما خبث الخبيث الروحاني فمضرته عظيمة دائمة أبدية ، وطيب الطيب الروحاني فمنفعته عظيمة دائمة أبدية ، وهو القرب من جوار رب العالمين ، والانخراط في زمرة الملائكة المقربين ، والمرافقة من النبيّين والصدّيقين والشهداء الصالحين ، فكان هذا من أعظم وجوه الترغيب في الطاعة والتنفير عن المعصية .

(75/216)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث ﴾ يعني أن الذي يكون خبيثاً في عالم الروحانيات ، قد يكون طيباً في عالم الجسمانيات ، ويكون كثير المقدار ، وعظيم اللذة ، إلا أنه مع كثرة مقداره ولذاذة متناوله وقرب وجدانه ، سبب للحرمان من السعادات الباقية الأبدية السرمدية ، التي إليها الإشارة بقوله ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبّكَ ﴾ [الكهف : 46] وإذا كان الأمر كذلك فالخبيث ولو أعجبك كثرته ، يمتنع أن يكون مساوياً للطيب الذي هو المعرفة والمحبة والطاعة والابتهاج بالسعادات الروحانية والكرامات الربا نية .

ولما ذكر تعالى هذه الترغيبات الكثيرة في الطاعة ، والتحذيرات من المعصية ، أتبعها بوجه

آخر يؤكدها ، فقال تعالى : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي فاتقوا الله بعد هذه البيانات الجلية ، والتعريفات القوية ، ولا تقدموا على مخالفته لعلّكم تصيرون فائزين بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 86 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِى الخبيث والطيب ﴾ يعني : لا يستوي الحلال والحرام .

قال في رواية الكلبي : نزلت في شأن حَجَّاج اليمامة شريح بن ضبيعة حين أراد المسلمون أخذ ماله ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك ، وأخبرهم أن أخذ ماله حرام .

﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث ﴾ يعني : كثره مال شريح بن ضبيعة ﴿ واتقوا الله ﴾ لا تستحلوا ما حرم الله عليكم ﴿ واتقون ياأُوْلِي الالباب ﴾ يا ذوي العقول ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يعني : تأمنون من عذابه .

وروى أسباط عن السدي أنه قال : ﴿ الخبيث ﴾ هم المشركون ﴿ والطيب ﴾ هم المؤمنون .

وقال الضحاك : ﴿ لاَّ يَسْتَوِى الخبيث والطيب ﴾ يعني : صدقة من حرام لا تصعد إلى الله تعالى ، لا توضع في خزائنه .

وصدقة من حلال تقع في يد الرحمن يعني : يقبلها .

﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ﴾ يعني : مثقال حبة من صدقة الحلال أرجح عند الله من جبال الدنيا من الحرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(76/216)

وقال الزمخشري :

البون بين الخبيث والطيب بعيد عند الله تعالى وإن كان قريباً عندكم ، فلا تعجبوا بكثرة الخبيث حتى تؤثروه لكثرته على القليل الطيب ، فإنّ ما تتوهمونه في الكثرة من الفضل ، لا يوازي النقصان في الخبيث ، وفوات الطيب ، وهو عام في حلال المال وحرامه ، وصالح العمل وطالحه ، وصحيح المذاهب وفاسدها ، وجيد الناس ورديهم ﴿ فاتقوا الله ﴾ وآثروا الطيب ، وإن قل ، على الخبيث وإن كثر .

ومن حق هذه الآية أن تكفح بها وجوه المجبرة إذا افتخروا بالكثرة كما قيل :

وَكَاثِرْ بِسَعْدٍ إِنَّ سَعْداً كَثِيرَةٌ . . .

وَلاَ تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءاً وَلاَ نَصْرَا

وكما قيل :

لاَ يَدْهَمَنَّكَ مِنْ دَهْمَائِهِمْ عَدَدٌ . . .

فَإِنَّ جُلَّهُمْ بَلْ كُلَّهُمْ بَقَرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 682 ﴾

(77/216)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ هل يستوي ﴾ الآية لفظ عام في جميع الأمور يتصور في المكاسب وعدد الناس والمعارف من العلوم ونحوها ، ف ﴿ الخبيث ﴾ من هذا كله لا يفلح ولا ينجب ولا تحسن له عاقبة ، ﴿ والطيب ﴾ ولو قل نافع جميل العاقبة وينظر إلى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ [الأعراف : 58] والخبث هو الفساد الباطن في الأشياء حتى يظن بها الصلاح والطيب وهي بخلاف ذلك ، وهكذا هو الخبث في الإنسان ، وقد يراد بلفظة خبيث في الإنسان فساد نسبه ، فهذا لفظ يلزم قائله على هذا القصد الحد ، وقوله تعالى ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ تنبيه على لزوم الطيب في المعتقد والعمل ، وخص ﴿ أولي الألباب ﴾ بالذكر لأنهم المتقدمون في ميز هذه الأمور والذي لا ينبغي لهم إهمالها مع البهائم وإدراكهم الإشارة بهذه ﴿ الألباب ﴾ إلى لب التجربة الذي يزيد على لب التكليف بالحنكة والفطنة المستنبطة والنظر البعيد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لا يستوي الخبيث والطيب ﴾ روى جابر بن عبد الله " أن رجلاً قال : يا رسول الله إِن الخمر كانت تجارتي ، فهل ينفعني ذلك المال إِن عملت فيه بطاعة الله ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم "إِن الله لا يقبل إِلاّ الطيّب" " فنزلت هذه الآية تصديقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي الخبيث والطيب أربعة أقوال .

أحدها : الحلال والحرام ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : المؤمِن والكافر ، قاله السدي .

والثالث : المطيع والعاصي .

والرابع : الرديء والجيِّد ، ذكرهما الماوردي .

ومعنى الإعجاب هاهنا : السرور بما يتعجّب منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(78/216)

وقال أبو حيان :

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما حذر عن المعصية ورغب في التوبة بقوله : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ الآية .

وأتبعه في التكليف بقوله : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ ثم بالترغيب في الطاعة والتنفير عن المعصية بقوله : ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ أتبعه بنوع آخر من الترغيب في الطاعة والتنفير عن المعصية .

فقال هل يستوي الخبيث والطيب ، الآية أو يقال لما بين أن عقابه شديد لمن عصى وأنه غفور رحيم لمن أطاع بين أنه لا يستوي المطيع والعاصي وإن كان من العصاة والكفار كثرة فلا يمنعه كثرتهم من عقابه ، والظاهر أن الخبيث والطيب عامان فيندرج تحتهما حلال المال وحرامه وصالح العمل وفاسده وجيد الناس ورديئهم وصحيح العقائد وفاسدها والخبيث من هذا كله لا يصلح ولا يحب ولا يحسن له عاقبة والطيب ولو قل نافع جيد العاقبة وينظر إلى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته ﴾ الآية .

والخبيث فاسد الباطن في الأشياء حتى يظن بها الصلاح والطيب خلاف ذلك وقد خصص بعض المتقدمين هنا الخبيث والطيب ببعض ما يقتضيه عموم اللفظ ، فقال ابن عباس والحسن هو الحلال والحرام ، وقال السدي هو المؤمن والكافر وذكر الماوردي قولاً أنه المطيع والعاصي وقولاً آخر أنه الجيد والرديء ، وقيل : الطيب المعرفة والطاعة والخبيث

الجهل والمعصية والأحسن حمل هذه الأقوال على أنها تمثيل للطيب والخبيث لأقصر اللفظ عليها ، وقوله : ﴿ ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ ظاهره أنه من جملة المأمور بقوله ووجه كاف الخطاب في قوله ﴿ ولو أعجبك ﴾ أن المعنى ولو أعجبك أيها السامع أو أيها المخاطب وأما أن لا يكون من جملة ما أمر بقوله ويكون خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم فقد ذكر بعضهم أنه يحتمل ذلك والأولى القول الأول أو يحمل على أنه خطاب له في الظاهر والمراد غيره .

(79/216)

﴿ فاتقوا الله يا اولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾ أي اتقوه في إيثار الطيب وإن قل على الخبيث وإن كثر ، قال الزمخشري ومن حق هذه الآية أن يكفح بها المجبرة إذا افتخروا بالكثرة .

قال شاعرهم :

وكاثر بسعدٍ إنّ سعداً كثيرة . . .

ولا ترجُ من سعدٍ وفاء ولا نصرا

وقال آخر :

لا يدهمنك من دهمائهم عدد . . .

فإنّ جلَّهم كلَّهم بقرُ

وهو على عادته من تسمية أهل السنة مجبرة وذمهم وخص تعالى الخطاب والنداء بأولي الألباب لأنهم المتقدمون في تمييز الطيب والخبيث فلا ينبغي لهم إهمال ذلك .

قال ابن عطية وكأن الإشارة إلى لب التجربة الذي يزيد على لب التكليف بالجبلة والفطنة المستنبطة والنظر البعيد انتهى . انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(80/216)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الخبيث والطيب ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قال الحسن : "الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ" الحلال والحرام .

وقال السُّديّ : المؤمن والكافر .

وقيل : المطيع والعاصي .

وقيل : الرديء والجيد ؛ وهذا على ضرب المثال .

والصحيح أن اللفظ عام في جميع الأُمور ، يُتصوَّر في المكاسب والأعمال ، والناس ، والمعارف من العلوم وغيرها ؛ فالخبيث من هذا كله لا يُفلح ولا يُنْجِب ، ولا تَحسن له عاقبة وإن كثر ، والطيّب وإن قلّ نافع جميل العاقبة .

قال الله تعالى : ﴿ والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ [الأعراف : 58] .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [الجاثية : 21] ؛ فالخبيث لا يساوي الطيّب مقداراً ولا إنفاقاً ، ولا مَكاناً ولا ذَهَاباً ، فالطيّب يأخذ جهة اليمين ، والخبيث يأخذ جهة الشّمال ، والطيّب في الجنّة ، والخبيث في النار .

وهذا بيّن .

وحقيقة الاستواء الاستمرار في جهة واحدة ، ومثله الاستقامة وضدّها الاعوجاج .

ولما كان هذا وهي :

الثانية قال بعض علمائنا : إنّ البيع الفاسد يُفسَخ ولا يُمضَى بحَوالة سُوق ، ولا بتغير بدن ، فيستوي في إمضائه مع البيع الصحيح ، بل يُفْسخ أبداً ، ويُردّ الثمن على المبتاع إن كان قبضه ، وإن تلف في يده ضمنه ؛ لأنه لم يقبضه على الأمانة ، وإنما قبضه بشبهة عقد .

وقيل : لا يُفسَخ نظراً إلى أن البيع إذا فُسخ وردّ بعد الفوت يكون فيه ضرر وغَبْن على البائع ، فتكون السلعة تساوي مائة وتردّ عليه وهي تساوي عشرين ، ولا عقوبة في الأموال .

(81/216)

والأوّل أصح لعموم الآية ، ولقوله عليه السَّلام : " من عَمِل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ " .

قلت : وإذا تُتبع هذا المعنى في عدم الاستواء في مسائل الفقه تعدّدت وكثرت ، فمن ذلك الغاصب وهي :

الثالثة إذا بنى في البقعة المغصوبة أو غَرَس فإنه يلزمه قلع ذلك البناء والغرس ؛ لأنه خبيث ، ورَدّها ؛ خلافاً لأبي حنيفة في قوله : لا يَقلع ويأخذ صاحبها القيمة .

وهذا يَرده قوله عليه السَّلام : " ليس لِعْرقٍ ظالمٍ حقٌّ " قال هشام : العرق الظَّالم أن يَغْرِس الرجل في أرض غيره ليستحقّها بذلك .

قال مالك : العِرْق الظالم كل ما أخذ واحتفر وغُرس في غير حق .

قال مالك : من غَصَب أرضاً فزرعها ، أو أَكْرَاها ، أو داراً فسكنها أو أَكْرَاها ، ثم استحقها ربها أن على الغاصب كراء ما سكن وردّ ما أخذ في الكِراء .

واختلف قوله إذا لم يسكنها أو لم يزرع الأرض وعطّلها ؛ فالمشهور من مذهبه أنه ليس عليه

فيه شيء ؛ وقد روي عنه أنه عليه كِراء ذلك كله .

واختاره الوَقَّار ، وهو مذهب الشافعي ؛ لقوله عليه السَّلام : " ليس لعرقٍ ظالمٍ حقٌّ "

وروى أبو داود عن أبي الزُّبير أن رجلين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : غَرَس أحدهما نخلاً في أرض الآخر ، فقضى لصاحب الأرض بأرضه ، وأمر صاحب النخل أن يخرج نخله منها ، قال : فلقد رأيتها ، وإنها لتضرب أُصولها بالفُؤس حتى أخرجت منها وإنّها لنخل عُمٌّ .

وهذا نص .

قال ابن حبيب : والحكم فيه أن يكون صاحب الأرض مخيّراً على الظالم ، إن شاء حبس ذلك في أرضه بقيمته مقلوعاً ، وإن شاء نزعه من أرضه ؛ وأجر النزع على الغاصب .

وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من بنى في رِباع قوم بإذنهم فله القيمة ومن بنى بغير إذنهم فله النقض " قال علماؤنا : إنما تكون له القيمة ؛ لأنه بنى في موضع يملك منفعته .

(82/216)

وذلك كمن بنى أو غرس بشبهة فله حقّ ؛ إن شاء رب المال أن يدفع إليه قيمته قائماً ، وإن أبى قيل للذي بنى أو غرس : ادفع إليه قيمة أرضه بَرَاحاً ؛ فإن أبى كانا شريكين .

قال ابن الماجِشون : وتفسير اشتراكهما أن تُقوَّم الأرض بَراحا ، ثم تُقوّم بعمارتها فما زادت قيمتها بالعمارة على قيمتها بَرَاحاً كان العامل شريكاً لربّ الأرض فيها ، إن أَحبّا قَسَما أو حَبَسا .

قال ابن الجَهْم : فإذا دفع رب الأرض قيمة العمارة وأخذ أرضه كان له كِراؤها فيما مضى من السنين .

وقد روي عن ابن القاسم وغيره أنه إذا بنى رجل في أرض رجل بإذنه ثم وجب له إخراجه ، فإنه يعطيه قيمة بنائه مقلوعاً .

والأوّل أصح لقوله عليه السّلام : " فله القيمة " وعليه أكثر الفقهاء .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث ﴾ قيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعجبه الخبيث .

وقيل : المراد به النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، وإعجابه له أنه صار عنده عجباً مما يشاهده من كثرة الكفار والمال الحرام ، وقلة المؤمنين والمال الحلال .

﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تقدّم معناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ﴾ يعني الحلال والحرام في الدرجة والرتبة ولا يعتد الردئ والجيد ولا المسلم والكافر ولا الصالح والطالح ﴿ ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ يعني ولو سرك كثرة الخبيث لأن عاقبته عاقبة سوء .

والمعنى : أن أهل الدنيا يعجبهم كثرة المال وزينة الدنيا وما عند الله خير وأبقى لان زينة الدنيا ونعيمها يزول وما عند الله يدوم .

(83/216)

وقال ابن الجوزي : روى جابر بن عبد الله أن رجلاً قال : يا رسول الله إن الخمر كانت تجارتي فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب " وقال مقاتل : نزلت في شريح بن ضبعة البكري وحجاج بن بكر وقد تقدمت القصة في أول السورة ﴿ فاتقوا الله ﴾ يعني فيما أمركم به أو نهاكم عنه ولا تعتدوه ﴿ يا أولي الألباب ﴾ يعني يا ذوي العقول السليمة ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(84/216)

وقال أبو السعود :

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِى الخبيث والطيب ﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال ، وبين جيّدها ، قَصَد به الترغيب في جيّد كل منها والتحذيرَ عن رديئها ، وإن كان سببَ النزول شريحُ بنُ ضُبيعةَ البكريُّ الذي مرت قصته في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَائِرَ الله ﴾ الخ ، وقيل : نزلت في رجل سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام : إن الخمر كانت تجارتي ، وإني اعتقدت من بيعها مالاً ، فهل ينفعني من ذلك المال إن عمِلت فيه بطاعة الله تعالى ؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام : " إن أنفقته في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدِلْ جَناحَ بعوضة ، إن الله لا يقبل إلا الطيب " ، وقال عطاءٌ والحسنُ رضي الله عنهما : الخبيث والطيب الحرامُ والحلال ، وتقديم الخبيث في الذكر للإشعار من أول الأمر بأن القصور الذي يُنْبىء عنه عدمُ الاستواء فيه لا في مقابِله ، فإنه مفهومٌ عدمُ الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادةً ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتبارُه بحسب قصور القاصر كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾ إلى غير ذلك ، وأما قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فلعل تقديمَ الفاضلِ فيه لما أن صِلتَه ملكة لصلة المفضول ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث ﴾ أي وإن سرك كثرته ، والخطاب لكل واحد من الذين أُمر

النبي صلى الله عليه وسلم بخطابهم ، والواو لعطف الشرطية على مثلها المقدَّر ، وقيل : للحال وقد مر ، أي ولو لم تُعجِبْك كثرة الخبيث ولو أعجبتك ، وكلتاهما في موقع الحال من فاعل لا يستوي ، أي لا يستويان كائنين على كل حال مفروض كما في قولك : أحسِنْ إلى فلان وإن أساء إليك ، أي أحسن إليه وإن لم يُسِيءْ إليك وإن أساء إليك ، أي كائناً على كل حال مفروض ، وقد حُذفت الأولى حذفاً

(85/216)

مطَّرداً لدِلالة الثانية عليها دلالة واضحة ، فإن الشيء إذا تحقق مع المعارِض فلأن يتحقق بدونه أولى ، وعلى هذا السر يدور ما في لو وإن الوصليتين من المبالغة والتأكيد ، وجواب لو محذوف في الجملتين لدلالة ما قبلهما عليه ، وسيأتي تمام تحقيقه في مواقعَ عديدةٍ بإذن الله عز وجل .

﴿ فاتقوا الله يا أولى أُوْلِى الالباب ﴾ أي في تحرّي الخبيث وإن كثر ، وآثروا عليه الطيّب وإن قلّ ، فإن مدارَ الاعتبار هو الجُودة والرداءةُ لا الكثرةُ والقِلة ، فالمحمودُ القليلُ خيرٌ من المذموم الكثير ، بل كلما كثر الخبيثُ كان أخبثَ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ راجين أن تنالوا الفلاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ لاَّ يَسْتَوِى الخبيث والطيب ﴾ أي الردىء والجيد من كل شيء ، فهو حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين النوعين والتحذير عن رديها وإن كان سبب النزول أن المسلمين أرادوا أن يوقعوا بحجاج اليمامة وكان معهم تجارة عظيمة فنهوا عن ذلك على ما مر ذكره ، وقيل : نزلت في رجل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن الخمر كانت تجارتي وإني جمعت من بيعها مالاً فهل ينفعني من ذلك (المال) إن عملت فيه بطاعة الله تعالى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن أنفقته في حج أو جهاد (أو صدقة) (1) لم يعدل جناح بعوضة إن الله تعالى لا يقبل إلا الطيب .

وعن الحسن واختاره الجبائي الخبيث الحرام والطيب الحلال ، وأخرج ابن جرير وغيره عن السدي قال : الخبيث هم المشركون والطيب هم المؤمنون وتقديم الخبيث في الذكر للإشعار من أول الأمر بأن القصور الذي ينبىء عنه عدم الاستواء فيه لا في مقابله ، وقد تقدمت الإشارة إلى تحقيقه .

﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ﴾ أي وإن سرك أيها الناظر بعين الاعتبار ﴿ كَثْرَةُ الخبيث ﴾ .

(86/216)

وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته والواو لعطف الشرطية على مثلها المقدر .

وقيل للحال أي لو لم يعجبك ولو أعجبك وكلتاهما في موضع الحال من فاعل ﴿ لاَيَسْتَوِى ﴾ أي لا يستويان كائنين على كل حال مفروض .

وقد حذفت الأولى في مثل هذا التركيب لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فإن الشيء إذا تحقق مع المعارض فلأن يتحقق بدونه أولى .

وجواب لو محذوف في الجملتين لدلالة ما قبلها عليه ﴿ فاتقوا الله يا أولى أُوْلِى الألباب ﴾ في تحري الخبيث وإن كثر وآثروا عليه الطيب وإن قل فإن مدار الاعتبار هو الخيرية والرداءة لا الكثرة والقلة وفي الأكثر أحسن كل شيء أقله .

ولله در من قال

: والناس ألف منهم كواحد . . .

وواحد كالألف إن أمر عنا

وفي الآية كما قيل إشارة إلى غلبة أهل الإسلام وإن قلوا ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ راجين أن تنالوا الفلاح والفوز بالثواب العظيم والنعيم المقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

لما آذن قوله : ﴿ اعلموا أنّ الله شديد العقاب وأنّ الله غفور رحيم ﴾ [المائدة : 98] وقوله : ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ [المائدة : 99] بأنّ الناس فريقان : مطيعون وعصاة ، فريق عاندوا الرسول ولم يمتثلوا ، وهم من بقي من أهل الشرك ومن عاضدهم من المنافقين ، وربما كانوا يظهرون للقبائل أنّهم جمع كثير ، وأنّ مثلهم لا يكون على خطأ ، فأزال الله الأوهام التي خامرت نفوسهم فكانت فتنة أو حجّة ضالّة يموّه بها بعض منهم على المهتدين من المسلمين .

فالآية تؤذن بأن قد وجدت كثرة من أشياء فاسدة خيف أن تستهوي من كانوا بقلّة من الأشياء الصالحة ، فيحتمل أن تكون تلك الكثرة كثرة عدد في الناس إذ معلوم في متعارف العرب في الجاهلية وفي أول الإسلام الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها .

قال الأعشى:

ولستَ بالأكثرِ منهم حصًى . . .

وإنّما العزّة للكاثر

وقال السموأل أو عبد الملك الحارثي:

تعيّرنا أنّا قليل عَدِيدنَا . . .

وقد تعجّب العنبري إذ لام قومه فقال:

لكنّ قومي وإن كانوا ذوي عَدد . . .

ليسوا من الشرّ في شيء وإن هانا

قال السديّ : كثرة الخبيث هم المشركون ، والطيّب هم المؤمنون .

وهذا المعنى يناسب لو يكون نزول هذه الآية قبل حجّة الوداع حين كان المشركون أكثر عدداً من المسلمين ؛ لكن هذه السورة كلّها نزلت في عام حجّة الوداع فيمكن أن تكون إشارة إلى كثرة نصارى العرب في الشام والعراق ومشارف الشام لأنّ المسلمين قد تطلّعوا يومئذٍ إلى تلك الأصقاع ، وقيل : أريد منها الحرام والحلال من المال ، ونقل عن الحسن .

ومعنى ﴿ لا يستوي ﴾ نفي المساواة ، وهي المماثلة والمقاربة والمشابهة .

والمقصود منه إثبات المفاضلة بينهما بطريق الكناية ، والمقام هو الذي يعيّن الفاضل من المفضول ، فإنّ جعل أحدهما خبيثاً والآخر طيّباً يعيّن أنّ المراد تفضيل الطيّب .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ليسوا سواء ﴾ في سورة آل عمران (113) .

ولمّا كان من المعلوم أنّ الخبيث لا يساوي الطيّب وأنّ البون بينهما بعيد ، علم السامع من هذا أنّ المقصود استنزال فهمه إلى تمييز الخبيث من الطيّب في كلّ ما يلتبس فيه أحدهما بالآخر ، وهذا فتح لبصائر الغافلين كيلا يقعوا في مهواة الالتباس ليعلموا أنّ ثمّة خبيثاً قد

التفّ في لباس الحسن فتموّه على الناظرين ، ولذلك قال ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ .

فكان الخبيث المقصود في الآية شيئاً تلبّس بالكثرة فراق في أعين الناظرين لكثرته ، ففتح أعينهم للتأمّل فيه ليعلموا خبثه ولا تعجبهم كثرته .

فقوله : ﴿ ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ من جملة المقول المأمور به النبيءُ صلى الله عليه وسلم أي قُل لهم هذا كلّه ، فالكاف في قوله : ﴿ أعجبك ﴾ للخطاب ، والمخاطب بها غير معيَّن بل كلّ من يصلح للخطاب ، مثل ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ [الأنعام : 27] ، أي ولو أعجبَ مُعْجَبا كثرةُ الخبيث .

وقد علمت وجه الإعجاب بالكثرة في أول هذه الآية .

(88/216)

وليس قوله : ﴿ ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ بمقتض أنّ كلّ خبيث يكون كثيراً ولا أن يكون أكثر من الطيّب من جنسه ، فإنّ طيّب التَمر والبرّ والثمار أكثر من خبيثها ، وإنّما المراد أن لا تعجبكم من الخبيث كثرته إذا كان كثيراً فتصرفكم عن التأمّل من خبثه وتحدُوكم إلى متابعته لكثرته ، أي ولكن انظروا إلى الأشياء بصفاتها ومعانيها لا بأشكالها ومبانيها ، أو كثرةُ الخبيث في ذلك الوقت بوفرة أهل الملل الضالّة .

والإعجاب يأتي الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ فلا تُعْجبْك أمْوالهم ولا أولادهم ﴾ في سورة براءة (55) .

وفي تفسير ابن عرفة ﴾ قال : "وكنت بحثت مع ابن عبد السلام وقلت له : هذه تدلّ على الترجيح بالكثرة في الشهادة لأنّهم اختلفوا إذا شهد عدلان بأمر وشهد عشرة عدول بضدّه ، فالمشهور أن لا فرق بين العشرة والعدلين ، وهما متكاملان .

وفي المذهب قول آخر بالترجيح بالكثرة .

فقوله : ﴿ ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ يدلّ على أنّ الكثرة لها اعتبار بحيث إنّها ما أسقطت هنا إلاّ للخبث ، ولم يوافقني عليه ابن عبد السلام بوجه .

ثم وجدت ابن المنير ذكره بعينه" أ هـ .

والواو في قوله ﴿ ولو أعجبك ﴾ واو الحال ، و﴿ لو ﴾ اتّصالية ، وقد تقدّم بيان معناهما عند قوله تعالى : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملْءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في سورة آل عمران (91) .

وتفريع قوله : فاتّقوا الله يا أولى الألباب ﴾ على ذلك مؤذن بأنّ الله يريد منّا إعمال النظر في تمييز الخبيث من الطيّب ، والبحث عن الحقائق ، وعدم الاغترار بالمظاهر الخلابة الكاذبة ، فإنّ الأمر بالتقوى يستلزم الأمر بالنظر في تمييز الأفعال حتى يُعرف ما هو تقوى دون غيره .

ونظير هذا الاستدلال استدلالِ العلماء على وجوب الاجتهاد بقوله تعالى : ﴿ فاتّقوا الله

ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16] ، لأنّ ممّا يدخل تحت الاستطاعة الاجتهاد بالنسبة للمتأهّل إليه الثابت له اكتساب أداته .

(89/216)

ولذلك قال هنا : ﴿ يا أولي الألباب ﴾ فخاطب الناس بصفة ليؤمىء إلى أنّ خلق العقول فيهم يمكّنهم من التمييز بين الخبيث والطيّب لاتّباع الطيّب ونبذ الخبيث .

ومن أهمّ ما يظهر فيه امتثال هذا الأمر النظر في دلائل صدق دعوى الرسول وأن لا يحتاج في ذلك إلى تطلّب الآيات والخوارق كحال الذين حكى الله عنهم ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] الآية ، وأن يميّز بين حال الرسول وحال السحرة والكهّان وإن كان عددهم كثيراً .

وقوله : ﴿ لعلّكم تفلحون ﴾ تقريب لحصول الفلاح بهم إذا اتّقوا هذه التقوى التي منها تمييز الخبيث من الطيّب وعدم الاغترار بكثرة الخبيث وقلّة الطيّب في هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(90/216)

كلام نفيس للشيخ محمد أبو زهرة فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

(قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث)

أمر الله تعالى نبيه أن يذكر لهم أن الخير والشر لا يستويان ، وأن الخبيث والطيب لا يتساويان ، فلا يمكن أن يكون معاملة أهل الخبيث كمعاملة أهل الطيب ، وأمر الله تعالى نبيه أن يقول ذلك ، ويبينه للناس على أنه جزء من رسالته يبينه للناس ويعرفهم به أو يذكرهم إياه وهو ما ترتضيه الفطر السليمة وتدركه العقول المستقيمة ، وهو بيان لطبائع هذا الوجود .

والخبيث هو الأمر المستقذر ، إما لأنه فى ذاته قذر تعافه النفوس والطبائع السليمة ، وإما لأن سبب الحصول عليه خبيث ، فجاءه الخبث من سببه ، إذ انسحب السبب على المسبب فلوثه ، وإما لأنه مخل بالمروءة ، فالمستقذر هو الخبيث ، وهو حسى ، وأدبى ، والطيب ما يكون حسنا فى ذاته وفى طريق كسبه ، وترضاه النفوس المستقيمة والعقول المدركة ، وتأتى الشرائع بإباحته .

(91/216)

وإذا كانت تلك هى القاعدة الإنسانية العالية ، والعادلة ، فإنه لا بد من عقاب المسىء ، وثواب المحسن ، ولكن الباطل له لجاجة وفيه كثرة ، لأنه مجاوبة للذائذ الشهوات ، وما يستلذ يكثر ، وما يطاوع الهوى يزيد ، وما يكون فيه صبر وضبط نفس يقل ، هان كان طيبا ، ومهما يكثر الشر لن يتساوى مع الخير ، ولذا قال سبحانه : (ولو أعجبك كثرة الخبيث . أى ولو أثار نفسك وعجبك واسترعى نظرك كون الخبيث كثيرا ، إن الشر مهما يكثر لا يمكن أن يستحسن شرعا أو ترضى به الأخلاق ، ولا يمكن أن ينقلب بالكثرة مساويا للخير بل إنه كلما كثر ، وجبت مقاومته ، بشدة وبمقدار كثرته ، تكون شدة المقاومة ، وذلك فرق ما بين شريعة الله تعالى وقوانين العباد ، فإن قوانين العباد ، تستمد قوتها من الكثرة ، وعرف الناس ، ولو كان فاسدا ، أما شريعة الله ، فهى للخير المحض ، وإذا كثر الشر لا تتبعه ، بل تقاومه ، ولا ترضى به ، لأنها جاءت لنشر الخير ، ولا يمكن أن ترضى ، وإلا ما كانت رسالات الرسل ، ولا جهاد الأنبياء والصديقين والشهداء الصالحين ، ولذلك أمر سبحانه بمقاومة الشر مهما كثر ، فقال تعالت كلماته : (فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون) وقال الله تعالى فى الآية السابقة :

(92/216)

(لا يستوي الخبيث والطيب . وأن هذه الجملة السامية تصلح الكبرى لقياس طويت صغراه ، وهى مفهومة من قوله تعالى : (اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) . إذ الكلام يكون هكذا ولكلام الله تعالى المثل الأعلى الذى لا يصل إلى مثله البشر . . لا مساواة بين الخير والشر ، والله يعاقب على الشر ، ويثيت على الخير ، والنتيجة لهاتين المقدمتين ، أن الأشرار سيعاقبون ، والأخبار سيثابون لا محالة ، ولازم هذه النتيجة أن يحذر الناس فيرجوا ثواب الله ويخافوا عقابه ، وذلك الحذر يكون بتقوى الله تعالى بامتلاء القلب بخشيته ، والعمل على اتقاء عذابه ؟ ولذا قال : (فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون) أى إذا "كان كل امرئ مجزيا بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فاملأوا قلوبكم بتقوى الله وخشيته وملاحظة أنه يعلم ما تبدون وما تكتمون ، فاعبدوه كأنكم ترونه ، فإن لم تكونوا ترونه ، فاعلموا أنه يراكم ، وهو يعلم سركم وجهركم ، فإن خشية الله تعالى فى أعمالكم على هذا النحو يرجى منها الفلاح والفوز ؟ لأنها سبب لذلك ، فالرجاء فى : (لعلكم) من العبيد ، لا من الله ؟ لأنه سبحانه يرجى ولا يرجو إنه بكل شىء عليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 1268 . 2370 ﴾

(93/216)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي الْخَبِيثِ : وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : الْكَافِرُ .

وَالثَّانِي : الْحَرَامُ .

وَأَمَّا الطَّيِّبُ وَهِيَ : [الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ] : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : [الطَّيِّبُ] : وَفِيهِ أَيْضًا قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : الْمُؤْمِنُ .

الثَّانِي : الْحَلَالُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ : وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْخِطَابَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُعْجِبُهُ الْكُفَّارُ وَلَا الْحَرَامُ ، وَإِنَّمَا يُعْجِبُ ذَلِكَ النَّاسَ .

الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِعْجَابًا بِهِ لَهُ أَنَّهُ صَارَ عِنْدَهُ عَجَبًا مِمَّا يُشَاهِدُ مِنْ كَثْرَةِ الْكُفَّارِ ، وَالْمَالِ الْحَرَامِ ، وَقِلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقِلَّةِ الْمَالِ الْحَلَالِ .

وَقَدْ سَبَقَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمُهُ بِذَلِكَ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا آدَمُ ، ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ : وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِلنَّارِ وَوَاحِدٌ لِلْجَنَّةِ ﴾ .

(94/216)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي وَجْهِ عَدَمِ اسْتِوَائِهِ وَوُجُوبِ تَفَاوُتِهِ : إنَّ الْحَرَامَ يُؤْذِي فِي الدِّينِ ، وَيَجِبُ فَسْخُهُ وَرَدُّهُ ، وَالْحَلَالُ يَنْفَعُ وَيَجِبُ إمْضَاؤُهُ [وَيَصِحُّ تَنْفِيذُهُ] .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ .

فَلَا يُعْجِبَنَّكَ كَثْرَةُ الْمَالِ الرِّبَوِيِّ ، وَنُقْصَانُ الْمَالِ بِصَدَقَتِهِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَمْحَقُ ذَلِكَ الْكَثِيرَ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَيُنَمِّي الْمَالَ الزَّكَاتِيَّ بِالصَّدَقَةِ ؛ وَبِهَذَا احْتَجَّ مِنْ عُلَمَائِنَا مَنْ رَأَى أَنَّ الْبَيْعَ الْفَاسِدَ يُفْسَخُ ، وَلَا يُمْضَى بِحَوَالَةِ سُوقٍ ، وَلَا بِتَغَيُّرِ بَدَنٍ ؛ فَيَسْتَوِي فِي إمْضَائِهِ مَعَ

الْبَيْعِ الصَّحِيحِ ؛ بَلْ يُفْسَخُ أَبَدًا .

وَقَدْ احْتَجَّ أَيْضًا مَنْ زَعَمَ أَنَّ مَنْ اكْتَرَى قَاعَةً إلَى أَمَدٍ فَكَمُلَ أَمَدُهُ ، وَقَدْ بَنَى بِهَا وَأَسَّسَ ، فَأَرَادَ صَاحِبُ الْأَرْضِ أَنْ يُخْرِجَهُ ، فَإِنَّهُ يَدْفَعُ إلَيْهِ قِيمَةَ بِنَائِهِ قَائِمًا ، وَلَا يَهْدِمُهُ عَلَيْهِ ، كَمَا يُفْعَلُ بِالْغَاصِبِ إذَا بَنَى فِي الْبُقْعَةِ الْمَغْصُوبَةِ .

وَنَظَرَ آخَرُونَ إلَى أَنَّ الْبَيْعَ إذَا فُسِخَ بَعْدَ الْفَوْتِ يَكُونُ فِيهِ غَبْنٌ عَلَى أَحَدِ الْمُتَعَاقِدَيْنِ وَلَا عُقُوبَةَ فِي الْأَمْوَالِ .

(95/216)

وَكَذَلِكَ إذَا كَمُلَ أَمَدُ الْبَانِي فَأَيُّ حُجَّةٍ لَهُ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْبُنْيَانَ إلَى أَمَدٍ ، فَإِنَّ صَاحِبَ الْعَرْصَةِ سَيَحْتَاجُ إلَى عَرْصَتِهِ لِمِثْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ الْبِنَاءِ أَوْ لِغَيْرِهِ ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَلْزَمَهُ إخْلَاؤُهَا مِمَّا شَغَلَهَا بِهِ .

وَهَذِهِ كُلُّهَا حُقُوقٌ مُرْتَبِطَةٌ بِحَقَائِقَ وَأَدِلَّةٍ تَتَّفِقُ تَارَةً وَتَفْتَرِقُ أُخْرَى ، وَتَتَبَايَنُ تَارَةً وَتَتَمَاثَلُ أُخْرَى .

وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ عَلَى التَّفْصِيلِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : حَقِيقَةُ الِاسْتِوَاءِ : الِاسْتِمْرَارُ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَمِثْلُهُ الِاسْتِقَامَةُ ،

وَضِدُّهُ الِاعْوِجَاجُ ، وَذَلِكَ يَتَصَرَّفُ إلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : الِاسْتِوَاءُ فِي الْمِقْدَارِ ، وَلَا يَتَسَاوَى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ مِقْدَارًا فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ الْخَبِيثَ أَوْزَنُ دُنْيَا وَالطَّيِّبُ أَوْزَنُ أُخْرَى .

الثَّانِي : الِاسْتِوَاءُ فِي الْمَكَانِ ، وَلَا يَسْتَوِيَانِ أَيْضًا فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْخَبِيثَ فِي النَّارِ وَالطَّيِّبَ فِي الْجَنَّةِ .

الثَّالِثُ : الِاسْتِوَاءُ فِي الذَّهَابِ ، وَلَا يَتَسَاوَيَانِ أَيْضًا فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْخَبِيثَ يَأْخُذُ جِهَةَ الشِّمَالِ وَالطَّيِّبَ يَأْخُذُ فِي جِهَةِ الْيَمِينِ .

الرَّابِعُ : الِاسْتِوَاءُ فِي الْإِنْفَاقِ ، وَلَا يَسْتَوِيَانِ أَيْضًا فِيهِ ؛ لِأَنَّ مُنْفِقَ الْخَبِيثِ يَعُودُ عَلَيْهِ الْخُسْرَانُ فِي الدَّارَيْنِ ، وَمُنْفِقَ الطَّيِّبِ يَرْبَحُ فِي الدَّارَيْنِ .

(96/216)

أَمَّا خُسْرَانُ الْأَوَّلِ فَنَقْصُ مَالِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَنَقْصُ مَالِهِ فِي الْآخِرَةِ ؛ وَرَبِحَ مُنْفِقُ الطَّيِّبِ فِي الدُّنْيَا حُسْنُ النِّيَّةِ وَصِدْقُ الرَّجَاءِ فِي الْعِوَضِ ، وَرِبْحُهُ فِي الْآخِرَةِ ثِقَلُ الْمِيزَانِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(97/216)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ) .

هَذِهِ الْآيَةُ تَتِمَّةُ السِّيَاقِ السَّابِقِ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّ جَزَاءَ الصَّيْدِ يَكُونُ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، وَأُرِيدَ بِالْكَعْبَةِ هُنَالِكَ حَرَمُهَا وَجِوَارُهَا الَّذِي تُؤَدَّى فِيهِ الْمَنَاسِكُ كَمَا تَقَدَّمَ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْكَعْبَةَ وَأَرَادَ بِهَا عَيْنَهَا وَلِذَلِكَ بَيَّنَهَا بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَذَكَرَ الْهَدْيَ أَيْضًا .

وَقَالَ الرَّازِيُّ : اعْلَمْ أَنَّ اتِّصَالَ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا هُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الِاصْطِيَادَ عَلَى الْمُحْرِمِ ، فَبَيَّنَ أَيْ هُنَا أَنَّ الْحَرَمَ كَمَا أَنَّهُ سَبَبٌ لِأَمْنِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ فَكَذَلِكَ هُوَ سَبَبٌ لِأَمْنِ النَّاسِ مِنَ الْآفَاتِ وَالْمَخَافَاتِ ، وَسَبَبٌ لِحُصُولِ الْخَيْرَاتِ وَالسَّعَادَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اه .

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ) الْجَعْلُ هُنَا إِمَّا خِلْقِيٌّ تَكْوِينِيٌّ وَهُوَ التَّصْيِيرُ ، وَإِمَّا أَمْرِيٌّ تَكْلِيفِيٌّ وَهُوَ التَّشْرِيعُ ، وَسَيَأْتِي تَوْجِيهُ كُلٍّ مِنْهَا ، (وَالْكَعْبَةُ) فِي اللُّغَةِ الْبَيْتُ الْمُكَعَّبُ أَيِ الْمُرَبَّعُ ، وَقِيلَ :

الْمُرْتَفِعُ مِنْ كَعْبِ الرُّمْحِ وَهُوَ طَرَفُ الْأُنْبُوبِ النَّاشِزِ ، أَوْ كَعْبِ الرَّجُلِ وَهُوَ النَّاتِئُ عِنْدَ مَفْصِلِ السَّاقِ ، وَمِنْهُ كَعَّبَتِ الْجَارِيَةُ (الْبِنْتُ) وَكَعَّبَ ثَدْيُهَا يُكَعِّبُ إِذَا نَتَأَ وَارْتَفَعَ فَهِيَ كَاعِبٌ وَكَعَابٌ ، وَثَدْيٌ كَاعِبٌ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ، وَقَدْ غَلَبَ اسْمُ الْكَعْبَةِ عَلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَكَّةَ أُمِّ الْقُرَى فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (ج1) وَتَفْسِيرِ آلِ عِمْرَانَ (ج4) قَالَ مُجَاهِدٌ : إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْكَعْبَةُ لِأَنَّهَا مُرَبَّعَةٌ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ : إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْكَعْبَةُ لِتَرْبِيعِهَا ، وَ (الْقِيَامُ) أَصْلُهُ الْقِوَامُ بِالْوَاوِ فَقُلِبَتِ الْوَاوُ

(99/216)

يَاءً لِانْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا كَالْمِيزَانِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ مَا يَقُومُ بِهِ أَمْرُ النَّاسِ وَيَتَحَقَّقُ أَوْ يَسْتَقِيمُ وَيَصْلُحُ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ " قِيَمًا " بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْيَاءِ ، وَهُوَ بِمَعْنَى " قِيَامًا " وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ النِّسَاءِ (وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ) ذُو الْحِجَّةِ الَّذِي تُؤَدَّى فِيهِ مَنَاسِكُ الْحَجِّ فِي تِلْكَ الْمَعَاهِدِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ جِنْسُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ الَّتِي كَانُوا يَتْرُكُونَ فِيهَا الْقِتَالَ ، (وَالْهَدْيَ) مَا يُهْدَى إِلَى الْحَرَمِ مِنَ الْأَنْعَامِ لِلتَّوْسِعَةِ عَلَى فُقَرَائِهِ ، (وَالْقَلَائِدَ) هُنَا ذَاتُ الْقَلَائِدِ

مِنَ الْهَدْيِ وَهِيَ الْأَنْعَامُ الَّتِي كَانُوا يُقَلِّدُونَهَا إِذَا سَاقُوهَا هَدْيًا ، خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِعِظَمِ شَأْنِهَا ، وَقِيلَ : هِيَ عَلَى مَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ ، وَهُوَ مَا يُقَلَّدُ بِهِ الْهَدْيُ مِنَ النَّبَاتِ ، وَكَذَا مَا كَانَ يَتَقَلَّدُ بِهِ مُرِيدُو الْحَجِّ وَالرَّاجِعُونَ مِنْهُ إِلَى بِلَادِهِمْ لِيَأْمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَوَّلَ السُّورَةِ .

(100/216)

وَالْمَعْنَى عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ فِي الْجَعْلِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْكَعْبَةَ الَّتِي هِيَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ قِيَامًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ يُقِيمُونَ بِجِوَارِهَا وَالَّذِينَ يَحُجُّونَهَا ، أَيْ سَبَبًا لِقِيَامِ مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ بِإِيدَاعِ تَعْظِيمِهَا فِي الْقُلُوبِ ، وَجَذْبِ الْأَفْئِدَةِ إِلَيْهَا ، وَصَرْفِ النَّاسِ عَنِ الِاعْتِدَاءِ فِيهَا وَعَلَى مُجَاوِرِيهَا وَحُجَّابِهَا ، وَتَسْخِيرِهِمْ لِجَلْبِ الْأَرْزَاقِ إِلَيْهَا ، فَهَذَا هُوَ الْجَعْلُ الْخِلْقِيُّ التَّكْوِينِيُّ ، وَيُؤَيِّدُهُ دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (14 : 37) وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا

مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (28 : 57) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ 29 : 67) .

(101/216)

وَالْمَعْنَى عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي : أَنَّهُ جَعَلَهَا قِيَامًا لِلنَّاسِ فِي أَمْرِ دِينِهِمُ الْمُهَذِّبِ لِأَخْلَاقِهِمُ الْمُزَكِّي لِأَنْفُسِهِمْ ، بِمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَجِّ الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ الدِّينِ لِأَنَّهُ عِبَادَةٌ رُوحِيَّةٌ بَدَنِيَّةٌ مَالِيَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَتَقَدَّمَ بَيَانُ بَعْضِ حِكَمِهِ وَسَيَأْتِي لَهَا مَزِيدٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا شَرَعَ فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالذَّبَائِحِ الَّتِي تُطَهِّرُ فَاعِلَهَا مِنْ رَذِيلَةِ الْبُخْلِ وَتُحَبِّبُهُ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَتُحَبِّبُ إِلَيْهِ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ ، وَيَتَّسِعُ بِهَا رِزْقُ أَهْلِ الْحَرَمِ ، وَهَذَا هُوَ الْجَعْلُ الْأَمْرِيُّ التَّشْرِيعِيُّ ، دَعْ مَا تَسْتَلْزِمُهُ كَثْرَةُ النَّاسِ هُنَاكَ مِنْ جَلْبِ الْأَرْزَاقِ وَعُرُوضِ التِّجَارَةِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا أُمُورُ الْمَعِيشَةِ .

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ فَسَّرَ الْقِيَامَ هُنَا بِقَوْلِهِ : قِيَامًا لِدِينِهِمْ وَمَعَالِمَ لِحَجِّهِمْ ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ قَالَ : قِيَامُهَا أَنْ يَأْمَنَ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَيْهَا .

(102/216)

وروي عن سعيد بن جبير فيه ثلاث أقوال : (1) صلاح لدينهم (2) شدة لدينهم (3) عصمة في أمر دينهم ، فهذه أقوال من جعل القيام دينا فقط ، وإنما هو ديني دنيوي ، لأن أهل الحرم وحجاجه ما كانوا ليجدوا فيه ما يعيشونه به من الغذاء ، وما يأمنون به على أنفسهم الهلاك ، لولا أن جعل الله الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قياما لأمر المعيشة ، كما جعلها قياما لأمر الدين ، ولكن خص بعضهم القيام الدنيوي بزمن الجاهلية .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد قال : كان الناس فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، ولم يكن في العرب ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، فجعل الله لهم البيت الحرام قياما يدفع بعضهم عن بعض به والشهر الحرام كذلك يدفع الله بعضهم عن بعض بالأشهر الحرم والقلائد ، ويلقى الرجل قاتل أبيه وابن عمه فلا يعرض له وهذا كله قد نسخ .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال : جعل الله البيت الحرام والشهر الحرام قياما للناس يأمنون به في الجاهلية الأولى ، لا يخاف بعضهم بعضا حين يلقونهم عند البيت أو في الحرم أو في الشهر الحرام .

(103/216)

وَرَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ قَتَادَةَ (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ) قَالَ : حَوَاجِزُ أَبْقَاهَا اللَّهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَكَانَ الرَّجُلُ لَوْ جَرَّ كُلَّ جَرِيرَةٍ ثُمَّ لَجَأَ إلَى الْحَرَمِ لَمْ يُتَنَاوَلْ وَلَمْ يُقْرَبْ ، كَانَ الرَّجُلُ لَوْ لَقِيَ قَاتِلَ أَبِيهِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ

لَمْ يَعْرِضْ لَهُ وَلَمْ يَقْرَبْهُ ، وَكَانَ الرَّجُلُ لَوْ لَقِيَ الْهَدْيَ مُقَلَّدًا وَهُوَ يَأْكُلُ الْعَصَبَ مِنَ الْجُوعِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ وَلَمْ يَقْرَبْهُ ، وَكَانَ الرَّجُلُ إذَا أَرَادَ الْبَيْتَ تَقَلَّدَ قِلَادَةً مِنْ شَعْرٍ فَأَحْمَتْهُ وَمَنَعَتْهُ مِنَ النَّاسِ ، وَكَانَ إذَا نَفَرَ (أَيْ عَادَ مِنَ الْحَجِّ) تَقَلَّدَ قِلَادَةً مِنَ الْخَزِّ أَوْ مِنَ السَّمَرِ حَتَّى يَأْتِيَ أَهْلَهُ حَوَاجِزُ أَبْقَاهَا اللَّهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ اه .

(104/216)

وَالْمُخْتَارُ أَنَّ جَعْلَ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ قِيَامًا لِلنَّاسِ هُوَ جَعْلٌ تَكْوِينِيٌّ تَشْرِيعِيٌّ مَعًا ، وَهُوَ عَامٌّ شَامِلٌ لِمَا تَقُومُ بِهِ وَتَتَحَقَّقُ مَصَالِحُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَشَامِلٌ لِزَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعَهْدِ الْإِسْلَامِ ، لَكِنْ لَهُ فِي كُلٍّ مِنَ الْعَهْدَيْنِ صُورَةٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَفِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ التَّكْوِينِيُّ أَظْهَرَ وَالتَّشْرِيعِيُّ أَخْفَى ، لِأَنَّهُمْ عَلَى إضَاعَتِهِمْ لِشَرِيعَةِ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ إلَّا قَلِيلًا مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ مَزَجُوهَا بِالْوَثَنِيَّةِ وَالْخُرَافَاتِ الْوَضْعِيَّةِ ، وَكَانَتْ

آيَاتُ اللهِ تَعَالَى

التَّكْوِينِيَّةُ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ آنِفًا ، وَسَبَقَ مَا فِي مَعْنَاهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَأَمَّا فِي عَهْدِ الْإِسْلَامِ فَالتَّشْرِيعِيُّ أَظْهَرُ .

(105/216)

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أَيْ فَعَلَ ذَلِكَ الْجَعْلَ لِأَجْلِ أَنْ تَعْلَمُوا مِنْهُ إِذَا تَأَمَّلْتُمْ فِيهِ أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ ، وَأَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ فِي قُلُوبِ الْعَرَبِ فِي طَوْرِ جَاهِلِيَّتِهَا وَغَفْلَتِهَا وَتَفَانِيهَا فِي الْغَزْوِ وَالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ تَعْظِيمًا لِهَذَا الْمَكَانِ ، وَلِلْأَعْمَالِ الَّتِي تُعْمَلُ فِيهِ ، وَلِلزَّمَنِ الَّذِي فِيهِ تُؤَدَّى هَذِهِ الْأَعْمَالُ هُنَالِكَ ، مَنَعَهُمْ مِنَ اعْتِدَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَكَانَ سَبَبًا لِحَقْنِ الدِّمَاءِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ ، وَقَدْ عَجَزَتْ جَمِيعُ أُمَمِهِمْ عَنِ الْحَضَارَةِ

(106/216)

وَالْمَدَنِيَّةِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ بَلْهَ أُمَمِ الْبَدَاوَةِ عَنْ تَأْمِينِ النَّاسِ فِي قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ ، وَزَمَنٍ مُعَيَّنٍ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيهِمَا قِتَالٌ وَلَا قَتْلٌ وَلَا عُدْوَانٌ ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ فِي أَحْكَامِ الْحَجِّ وَمَنَاسِكِهِ أَعْظَمَ الْفَوَائِدِ وَالْمَنَافِعِ الرُّوحِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ كَمَا عُلِمَ مِمَّا مَرَّ آنِفًا بِالْإِجْمَالِ ، مِمَّا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَكَانِ مِنْ حُكْمِ الْحَجِّ بِالتَّفْصِيلِ ، وَقَدْ ثَبَتَتْ هَذِهِ الْمَنَافِعُ وَالْفَوَائِدُ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ قِيَامِ أَمْرِ النَّاسِ ثُبُوتًا قَطْعِيًّا بِالْمُشَاهَدَةِ وَالتَّجْرِبَةِ ، فَدَلَّ مَا ذَكَرَ عَلَى أَنَّ جَعْلَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ وَالْقَلَائِدِ قِيَامًا لِلنَّاسِ ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ صَادِرَةٍ عَنْ عِلْمٍ بِخَفَايَا الْأُمُورِ وَغَايَاتِهَا ، فَكَانَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَسْبَابِ الرِّزْقِ وَنِظَامِ الْخَلْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، عَلَى أَنَّ آيَاتِهِ الدَّالَّةَ عَلَى عِلْمِهِ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ أَعَمُّ وَأَظْهَرُ فِي نَظَرِ الْعَقْلِ مِنْ جَعْلِهِ بَعْضَ الْأَمْكِنَةِ وَالْأَزْمِنَةِ سَبَبًا لِدَفْعِ الشَّقَاوَةِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَجَلْبِ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءَةِ لَهُمْ ، فَإِنَّ سُنَّتَهُ تَعَالَى فِي الْفَلَكِ وَسَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَغَيْرِهِمَا بِحُسْبَانٍ ، وَفِي عِلْمِ الْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ

، لَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الشُّبَهَاتِ مَا يَعْتَرِي السُّنَنَ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنَوْعِ الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَغْفُلُونَ عَنْهَا .

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

أَرْشَدَنَا جَلَّ شَأْنُهُ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ إِلَى بَعْضِ آيَاتِ عِلْمِهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَأَرْشَدَنَا فِي هَذِهِ إِلَى الْعِلْمِ بِأَنَّ الْعَلِيمَ بِكُلِّ شَيْءٍ الَّذِي ظَهَرَتْ آيَاتُ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كَمَا ظَهَرَتْ فِي جَعْلِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قِيَامًا لِلنَّاسِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ، كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَلَا يُسَوِّي بَيْنَ الطَّيِّبِ

(108/216)

وَالْخَبِيثِ كَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُصْلِحِ وَالْمُفْسِدِ ، وَالْمَظْلُومِ وَالظَّالِمِ ، فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ الْجَزَاءِ بِالْحَقِّ ، وَلَا يَمْلِكُ الْجَزَاءَ إِلَّا مَنْ يَقْدِرُ عَلَى الْعِقَابِ الشَّدِيدِ ، وَعَلَى الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، لِذَلِكَ قَالَ : (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) لِمَنْ دَنَّسَ نَفْسَهُ بِالشِّرْكِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ (وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) لِمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَعَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ ، فَلَا يُؤَاخِذُهُ بِمَا سَلَفَ قَبْلَ الْإِيمَانِ ، وَلَا بِمَا يَعْمَلُهُ مِنَ السُّوءِ بِجَهَالَةٍ إِذَا بَادَرَ إِلَى التَّوْبَةِ

وَالْإِصْلَاحِ ، وَلَا بِاللَّمَمِ ، إِلَّا اجْتِنَابَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ ، بَلْ يَسْتُرُ ذَنْبَهُ وَيَمْحُوهُ فَيَضْمَحِلُّ فِي إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ ، كَمَا يَسْتُرُ الْقَذَرَ الْقَلِيلَ ، وَيَضْمَحِلُّ بِمَا يَغْمُرُهُ مِنَ الْمَاءِ الْكَثِيرِ ، وَيَخُصُّهُ فَوْقَ ذَلِكَ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ .

(109/216)

فَالْآيَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَهِيَ وَعِيدٌ لِمَنْ كَفَرَ وَتَوَلَّى عَنِ الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَوَعْدٌ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ ، وَلَعَلَّ فِي تَقْدِيمِ ذِكْرِ الْعِقَابِ وَتَأْخِيرِ ذِكْرِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْعِقَابَ قَدْ يَنْتَهِي بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ فَلَا يَدُومُ ، لِأَنَّ رَحْمَتَهُ تَعَالَى سَبَقَتْ غَضَبَهُ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، وَلِذَلِكَ يَغْفِرُ كَثِيرًا مِنْ ظُلْمِ النَّاسِ لِأَنْفُسِهِمْ (وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (42 : 30) وَأَعَادَ اسْمَ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَغْفِرَتَهُ وَرَحْمَتَهُ ثَابِتَانِ لَهُ بِالْأَصَالَةِ .

(110/216)

(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) هَذَا بَيَانٌ لِوَظِيفَةِ الرَّسُولِ فِي إِثْرِ بَيَانِ كَوْنِ الْجَزَاءِ بِيَدِ اللهِ الْعَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهِيَ أَنَّ الرَّسُولَ مِنْ حَيْثُ هُوَ رَسُولُ اللهِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا تَبْلِيغُ رِسَالَةِ مَنْ أَرْسَلَهُ ، فَهُوَ لَا يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا يُبْدِيهِ الْمُكَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَمَا يَكْتُمُونَهُ مِنْهَا ، فَيَكُونُ أَهْلًا لِحِسَابِهِمْ وَجَزَائِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ ذَلِكَ اللهُ وَحْدَهُ ، وَفِيهِ إِبْطَالٌ لِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالضَّلَالِ مِنَ الْخَوْفِ مِنْ مَعْبُودَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ وَالرَّجَاءِ فِيهَا ، وَالْتِمَاسِ الْخَلَاصِ وَالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ بِشَفَاعَتِهَا ، فَهُوَ يَقُولُ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ : " مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَالْبَيَانُ لِدِينِ اللهِ وَشَرْعِهِ ، فَبِذَلِكَ تَبْرَأُ ذِمَّتُهُ ، وَيَكُونُ مَنْ بَلَّغَهُمْ هُمُ الْمَسْئُولُونَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، وَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ مِنْ عَقَائِدِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ

فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا ، بِحَسَبِ عِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْهَا ، فَيَكُونُ جَزَاءُهُ حَقًّا وَعَدْلًا وَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ كَرَمًا مِنْهُ وَفَضْلًا (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

فَلَا تَطْلُبُوا سَعَادَتَكُمْ إِلَّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَخَافُوا عَلَيْهَا إِلَّا مِنْهَا .

(111/216)

وَيُؤَيِّدُ تَفْسِيرَنَا هَذَا قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ : (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) (13 : 40) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (6 : 48 51) .

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الْوَارِدَةُ فِي الْأَحَادِيثِ فَلَا تُنَاقِضُ الشَّفَاعَةَ الْمَنْفِيَّةَ هُنَا وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ دُعَاءٍ مُسْتَجَابٍ فِي الْآخِرَةِ يُظْهِرُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ وَاقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ بِحَسَبِ مَا فِي كِتَابِهِ تَكْرِيمًا لِلدَّاعِي الشَّفِيعِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مُؤَثِّرًا فِي عِلْمِ اللَّهِ وَلَا فِي إِرَادَتِهِ لِأَنَّ الْحَادِثَ لَا يُؤَثِّرُ فِي الْقَدِيمِ (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (57 : 3) .

(112/216)

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ الْجَزَاءَ وَكَوْنَهُ مَنُوطًا بِالْأَعْمَالِ ، أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْجَزَاءُ مِنْ وَصْفِ الْأَعْمَالِ وَالْعَامِلِينَ لَهَا ، فَأَثْبَتَ وُجُودَ حَقِيقَتَيْنِ مُتَضَادَّتَيْنِ يَتَرَتَّبُ عَلَى كُلٍّ مِنْهَا مَا

يَلِيقُ بِهَا ، وَهُمَا حَقِيقَةُ الطَّيِّبِ وَحَقِيقَةُ الْخَبِيثِ ، فَقَالَ : (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ مُخَاطِبًا كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ : لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَمْوَالِ كَالضَّارِّ وَالنَّافِعِ وَالْفَاسِدِ وَالصَّالِحِ ، وَالْحَرَامِ وَالْحَلَالِ وَلَا مِنَ النَّاسِ كَالظَّالِمِ وَالْعَادِلِ وَالْجَاهِلِ وَالْعَالِمِ وَالْمُفْسِدِ وَالْمُصْلِحِ ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، فَلِكُلٍّ مِنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ حُكْمٌ يَلِيقُ بِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا فِي الْقِسْمِ الْآخَرِ جَزَاءٌ

(113/216)

وَمَكَانٌ يَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِ صِفَتِهِ (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (6 : 139) يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ ، وَلَعَلَّ نُكْتَةَ تَقْدِيمِ الْخَبِيثِ فِي الذِّكْرِ كَوْنُ السِّيَاقِ لِلْإِهْتِمَامِ بِإِزَالَةِ شُبْهَةِ الْمُغْتَرِّينَ بِكَثْرَتِهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ : (وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) الْخِطَابُ مِنَ الرَّسُولِ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ كَمَا تَقَدَّمَ ، أَيْ وَلَوْ أَعْجَبَكَ أَيُّهَا السَّامِعُ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ مِنَ النَّاسِ وَجَاهِهِمْ ، أَوْ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمُحَرَّمَةِ لِسُهُولَةِ تَنَاوُلِهَا وَالتَّوَسُّعِ فِي التَّمَتُّعِ بِهَا ، كَأَكْلِ الرِّبَا وَالرِّشْوَةِ وَالْغُلُوِّ وَالْخِيَانَةِ ، أَوْ لِدَعْوَى أَصْحَابِهَا أَنَّهَا دَلِيلٌ عَلَى حُبِّ اللهِ لَهُمْ وَرِضَاهُ عَنْهُمْ إِذْ فَضَّلَهُمْ بِهَا عَلَى غَيْرِهِمْ (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا

نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (34 : 35) .

أَيْ لَا يَسْتَوِيَانِ فِي أَنْفُسِهِمَا وَلَا عِنْدَ اللهِ وَلَوْ فُرِضَ أَنَّ كَثْرَةَ الْخَبِيثِ أَعْجَبَتْكَ وَغَرَّتْكَ فَصِرْتَ بَعِيدًا عَنْ إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، وَهِيَ أَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَلَالِ كَرَاتِبِ الْحَاكِمِ الْعَادِلِ وَرِبْحِ التَّاجِرِ الصَّادِقِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْحَرَامِ كَالرَّشْوَةِ وَالْخِيَانَةِ ، بِاعْتِبَارِ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَأَنَّ الْقَلِيلَ الْجَيِّدَ مِنَ الْغِذَاءِ أَوِ الْمَتَاعِ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الرَّدِيءِ الَّذِي لَا يُغْنِي غِنَاءَهُ وَلَا يُفِيدُ فَائِدَتَهُ ، بَلْ رُبَّمَا يَضُرُّ آكِلَهُ وَيُفْسِدُ عَلَيْهِ مَعِدَتَهُ .

(114/216)

كَذَلِكَ الْقَلِيلُ الطَّيِّبُ مِنَ النَّاسِ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الْخَبِيثِ ، فَالْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ مِنْ أَهْلِ الشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ وَالْإِيمَانِ تَغْلِبُ الْفِئَةَ الْكَثِيرَةَ مِنْ ذَوِي الْجُبْنِ وَالتَّخَاذُلِ وَالشِّرْكِ ، وَإِنَّ أَفْرَادًا مَنْ أُولِي الْبَصِيرَةِ وَالرَّأْيِ ، لَيَأْتُونَ بِمَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْجَمَاعَاتُ مِنْ أَهْلِ الْغَبَاوَةِ وَالْخَرَقِ ، وَالْعَالَمُ الْحَكِيمُ يُسَخِّرُ لِخِدْمَتِهِ أُلُوفًا مِنَ الْجَاهِلِينَ (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (39 : 9) .

كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْخَرُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ بِكَثْرَتِهِمْ وَيَعْتَزُّونَ بِهَا (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا) (34 : 35) فَضَرَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ مَثَلَ الْكَافِرِ الَّذِي فَاخَرَ الْمُؤْمِنَ

بِقَوْلِهِ : (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) (18 : 34) وَكَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ خُسْرًا وَقَالَ لَهُمْ : (وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) (8 : 19) ثُمَّ قَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ تَثْبِيتًا لَهُمْ حَتَّى لَا تُرَوِّعَهُمْ كَثْرَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ : (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ) (8 : 26) وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِالْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِصِفَةِ الشَّيْءِ لَا بِعَدَدِهِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الْعِزَّةُ بِالْكَثْرَةِ بَعْدَ التَّسَاوِي فِي الصِّفَاتِ .

(115/216)

وَلَمَّا كَانَ مِنْ دَأْبِ أَهْلِ الْغَفْلَةِ وَالْجَهْلِ وَالْغُرُورِ بِالْكَثْرَةِ مُطْلَقًا ، قَالَ تَعَالَى تَعْقِيبًا عَلَى مَا أَثْبَتَهُ مِنْ تَفْضِيلِ الطَّيِّبِ عَلَى الْخَبِيثِ وَإِنْ كَثُرَ الْخَبِيثُ : (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أَيْ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَصْحَابَ الْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ وَلَا تَغْتَرُّوا بِكَثْرَةِ الْمَالِ الْخَبِيثِ وَلَا بِكَثْرَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْفَسَادِ مِنَ الْخَبِيثِينَ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الَّتِي تَنْظِمُكُمْ فِي سِلْكِ الطَّيِّبِينَ ، فَيُرْجَى لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُفْلِحِينَ ، أَيْ فَائِزِينَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَإِنَّمَا خَصَّ أُولِي الْأَلْبَابِ بِالذِّكْرِ فِي عَجُزِ الْآيَةِ بَعْدَ مُخَاطَبَةِ كُلِّ مُكَلَّفٍ فِي صَدْرِهَا لِأَنَّ أَهْلَ الْبَصِيرَةِ وَالرَّوِيَّةِ مِنَ الْعُقَلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا أَوَائِلُهَا

وَمُقَدِّمَاتُهَا ، بَعْدَ التَّأَمُّلِ فِي حَقِيقَتِهَا وَصِفَاتِهَا ، فَلَا يُصِرُّونَ عَلَى الْغُرُورِ بِكَثْرَةِ الْخَبِيثِ بَعْدَ التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ ، وَأَمَّا الْأَغْرَارُ وَالْغَافِلُونَ الَّذِينَ لَمْ يُمَرِّنُوا عُقُولَهُمْ عَلَى الِاسْتِقْلَالِ فِي النَّظَرِ

(116/216)

وَالِاعْتِبَارِ بِالتَّجَارِبِ وَالْحِكَمِ ، فَلَا يُفِيدُهُمْ وَعْظُ وَاعِظٍ وَلَا تَذْكِيرُ مُذَكِّرٍ ، بَلْ لَا يَعْتَبِرُونَ بِمَا يَرَوْنَ بِأَعْيُنِهِمْ وَيَسْمَعُونَ بِآذَانِهِمْ مِنْ حَوَادِثِ الْأَغْنِيَاءِ الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمُ الْكَثِيرَةُ الْمَجْمُوعَةُ مِنَ الْحَرَامِ ، وَلَا مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ الَّتِي اضْمَحَلَّتْ كَثْرَتُهَا الْعَاطِلَةُ مِنْ فَضِيلَتَيِ الْعِلْمِ وَالنِّظَامِ ، وَكَيْفَ وَرِثَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ مَنْ كَانُوا أَقَلَّ مَالًا وَرِجَالًا ، إِذْ كَانُوا أَفْضَلَ أَخْلَاقًا وَأَعْمَالًا (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

وَرُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَبِيثِ هُنَا الْمُشْرِكُونَ وَبِالطَّيِّبِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَيُرْوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : " لَدِرْهَمٌ حَلَالٌ أَتَصَدَّقُ بِهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ حَرَامٍ فَإِنْ شِئْتُمْ فَاقْرَءُوا كِتَابَ اللَّهِ : (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ) وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْإِسْكَنْدَرَانِيِّ قَالَ : كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعْضُ عُمَّالِهِ يَذْكُرُ أَنَّ الْخَرَاجَ قَدِ انْكَسَرَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : " إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : (لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ

الْخَبِيثِ) فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ فِي الْعَدْلِ وَالْإِصْلَاحِ وَالْإِحْسَانِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فِي الظُّلْمِ وَالْفُجُورِ وَالْعُدْوَانِ فَافْعَلْ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) .

فَهَذِهِ الْآيَةُ قَاعِدَةٌ فِي التَّشْرِيعِ وَبُرْهَانٌ لِلْقِيَاسِ الصَّحِيحِ وَأَصْلٌ لِلْأَدَبِ وَالتَّهْذِيبِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 98.105 ﴾

(117/216)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾

إذن فالخبيث لا يستوي أبداً مع الطيب ، بدليل أن الإنسان منا إذا ما ذهب لشراء سلعة فهو يفرز البضاعة ليختار الطيب ويبتعد عن الخبيث . وهذه قضية كونية مثلها تماماً مثل عدم تساوي الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور . ويأتي الحق إلى المحسات ليأخذ منها ما يوضح لنا الأمر المعنوي . ولذلك يحذرنا أن نغتر بكميات الأشياء ومقدارها ، فإن الطيب القليل هو أربى وأعظم وأفضل من الكثير الخبيث . والأمر الطيب قد يرى الإنسان خيره في الدنيا ، ومن المؤكد أن خيره في الآخرة أكثر بكثير مما

يتصور أحد ؛ لأن عمر الآخرة لا نهاية له ، أما عمر الدنيا فهو محدود .

وكثير من الناس عندما يحضرون قسمة ما ، فكل واحد يرغب في أن يأخذ لنفسه النصيب الأكبر ؛ لأن الإنسان تغريه الكثرة . وهذا الطمع يشيع الخبث في جميع ما يأخذه الطامع ، فالذي يطمع في حفنة من قمح – على سبيل المثال – تزيد على حقه ، فهو يفسد حياته بهذا الشيء الخبيث . وذلك كخلط الماء الطاهر بماء نجس فتغلب النجاسة على الماء . إذن فلا يصح أن نحكم على الأشياء بكميتها وقَدْرِها ، ولكن يجب أن نحكم على الأشياء بكيفيتها وصفتها وبعمرها في الخير .

والمثال الذي لا أمل من تكراره هو التلميذ الذي يكد لمدة عشرين عاماً فهو يتخرج إنساناً له مكانة لائقة ، أما التلميذ الذي يقضي عشرين عاماً في اللعب واللهو فهو يتلقى وينال مستقبلا فاشلا مؤلما . إذن ، على كل منا أن يقدر النفعية بديمومتها ، ولا يغتر بكثرة الخبيث .

(118/216)

والمثال يتكرر في حياتنا ولا بد أن نضعه أمام أعيننا لنرعى الله ولا ننساق كما ينساق كثير من الناس إلى هلاكهم ، فبعض الناس لا يرتضون قسمة الله في مواريثهم ، فيعطي بعضُهم

للذكور ولا يعطي للإناث . أو يقلل من نصيب الإناث . ونقول لمن يفعل ذلك : أنت لا تعلم ماذا تفعل . ولو أن ابنك الذكر يعلم أن يد الله في الأشياء لقال لك : ارحمني ولا تزدني ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾ [النساء : 11] .

ولذلك يجب أن ينتبه الناس إلى أن قسمة الله هي أعدل قسمة ، وإياك أن تظلم ابناً لك أو قريباً بزيادة فوق ما قدره الله له ؛ لأن هذا عين الظلم . فإن فاتت على المورِّث وهو حي نقول لمن أخذ : احذر ولا تقبل ما هو فوق شرع الله وأَعِدْ ما هو فوق حقك . افعل ذلك برجولة الإيمان . وإياك أن تظن أن الذي سيديم الستر لأولادك هو هذه الزيادة التي ليس لك حق فيها ؛ لأنك بهذه الزيادة ستقطع الأرحام وتغرس بذور الكراهية والبغض .

ولو نظرت إلى هذه المسألة وأقمتها على ما شرعه الله فستجد أن الرزق سيفيض عليك من كل جانب ما دمت قد راعيت حق الله في إرادته التي حكم بها لينشأ الاستطراق الأسري وتظهر العدالة الربانية ؛ لذلك يجب ألا يجترىء أحد على قسمة الله ؛ لذلك أقول لكل من يقرأ هذه الكلمات ويفكر في الاجتراء على قسمة الله .

تُب إلى الله ولا يصح أن تشوه استقامتك الإيمانية . وإياك أن يظن إنسان أنه كأب يمكنه أن يحتاط لأبنائه . فكثيراً ما رأينا أناساً تركهم أهلهم أغنياء وصاروا في عوز وفاقة وفقر ، ورأينا أناساً أهلهم فقراء ، وأفاض الله عليهم من رزقه ، فسبحانه القائل : ﴿ وَلْيَخْشَ

الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء : 9] .

(119/216)

إذن فعلى المؤمن أن يحذر الكثرة إن كان بها شيء خبيث . ولنا العبرة في الحكاية التي حدثت مع أبي جعفر المنصور حينما بويع للخلافة ، وذهب الناس يهنئونه بإمارة المؤمنين ، ودخل عليه سيدنا مقاتل بن سليمان وكان أحد الواعظين .

هنا قال أبو جعفر لنفسه : جاء ليعكر علينا صفو يومنا ، سأبدأه قبل أن يبدأني وقال له : عظنا يا مقاتل . قال مقاتل : أعظك بما رأيت أم بما سمعت ؟

ذلك أن السمع أكثر من الرؤية ، فالرؤية محدودة ومقصورة على ما تدركه العين ، لكن السمع متعدد ؛ لأن الإنسان قد يسمع أيضاً تجارب غيره من البشر .

قال أبو جعفر : تكلم بما رأيت . قال : يا أمير المؤمنين ، مات عمر بن عبد العزيز وقد ترك أحد عشر ولداً . وخلف ثمانية عشر ديناراً كُفن منها بخمسة ، واشتروا له قبراً بأربعة ، ثم وزع الباقي على ورثته . ومات هشام بن عبد الملك ، فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع ثمانين ألف دينار ، غير الضياع والقصور . كان نصيب الزوجات الأربع هو ثلاثمائة

وعشرون ألف دينار ، وهذا هو ثُمن التركة فقط . والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت بعيني هاتين في يوم واحد ولداً من أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرس في سبيل الله ، وولدا من أولاد هشام بن عبد الملك يسأل الناس في الطريق .

إذن فعلى كل منا أن يعرف أنه لم يدخل الدنيا بثروة ، وعليه أن يتأدب مع الله ويرعى حق الله ، ولا يتدخل في قسمة الله .

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الخبيث والطيب وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : 100] .

على المسلم – إذن – أن يستحضر كل ملكاته العقلية حتى يميز الخبيث من الطيب ويرفض الشيء الخبيث ؛ لأننا لو تدبرنا الحكم بعقولنا لوصلنا إلى أن حكم الله هو الحكم الحق العادل .

(120/216)

﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ والفلاح – كما نعلم – مأخوذ من أمر محس وهو فلح الأرض ، فالإنسان يأخذ حبة قمح ويزرعها فتعطيه سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة . والحق سبحانه يسمي لنا كل عمل الآخرة بالفلاح ؛ لأن الكلمة لها وقعها الجميل ، فإذا كانت

الأرض ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله بما تحتويه من كل العناصر اللازمة للزرع واللازمة لكل حياة ، هذه الأرض تعطينا لقاء حبة قمح سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟ فاتق الله أيها المسلم ولا تتدخل في قسمة الله ، وضع أمامك هذا التوجيه الحكيم الذي ورد في الأثر : شرّكم من ترك عياله بخير وأقبل على الله بشرّ .

وعلى الأبناء الذي ابتلوا بهذا أن يراجعوا الأمر بنخوة إيمانية ؛ لأن الأب حينما أحب ابناً له وزاد له في الميراث كان أحمق الحب ، وعلى الابن أن يحترم عاطفة الحب ، وأن يجازي الأب عنها ويرحمه ، فيعيد الأمر إلى نصابه ويعطي كل ذي حق حقه حتى لا يتعرض أبوه لعذاب النار الذي سيناله نتيجة تدخله لصالحه في قسمة الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(121/216)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : الخبيث هم المشركون ، والطيب هم المؤمنون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : لدرهم حلال أتصدق به أحب إليَّ من مائة ألف ومائة ألف حرام ، فإن شئتم فاقرأوا كتاب الله ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب حدثني يعقوب بن عبد الرحمن الاسكندراني قال : كتب إلى عمر عبد العزيز بعض عماله يذكر أن الخراج قد انكسر ، فكتب إليه عمر أن الله يقول ﴿ لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ فإن استطعت أن تكون في العدل والإصلاح والإحسان بمنزلة من كان قبلك في الظلم والفجور والعدوان فافعل ولا قوّة إلا بالله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ يا أولي الألباب ﴾ يقول : من كان له لب أو عقل . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(122/216)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله : ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ : الخبيث ما اكتسبه الغافل عن الله تعالى في حالة اكتسابه ، والطيب ما اكتسبه على شهود الحق .

ويقال الخبيث ما لم يُخْرَجْ منه حقُّ الله تعالى ، والطيب ما أُخْرِجَ منه حقه – سبحانه .

ويقال الخبيث ما ادخرته لنفسك ، والطيب ما قدَّمته لأمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 450 ﴾

(123/216)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100) ﴾

﴿ أحل لكم صيد البحر ﴾ أي مصيداته . ويعني بالبحر جميع هذه المياه والأنهار ، وجملة ما يصاد منه ثلاث أجناس : الحيتان وجميع أنواعها حلال ، والضفادع وجميع أنواعها حرام ، وفيما سوى هذين خلاف . فقال أبو حنيفة : حرام . وقال ابن أبي ليلى والأكثرون : حلال . قوله ﴿ وطعامه ﴾ العطف يقتضي المغايرة وفيه وجوه : يروى عن أبي بكر الصديق أن الصيد ما صيد بالحيلة حال حياته ، والطعام ما يوجد مما لفظه البحر أو نضب عنه الماء من غير معالجة في أخذه . وقال جمع من العلماء : الاصطياد قد يكون للأكل وقد يكون لغيره كاصطياد الصدف لأجل اللؤلؤ واصطياد بعض الحيوانات البحرية لأجل عظامها وأسنانها . فالمعنى أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصطاد في البحر ، وأحل لكم أكل المأكول منه . وعن سعيد بن جبير أن الصيد هو الطري ، والطعام هو القديد منه وفي الفرق ضعف . قال الشافعي : السمكة الطافية في البحر محللة لأنه طعام البحر وقد قال تعالى ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في البحر " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " ﴿ متاعاً لكم ﴾ في الحضر طرياً و ﴿ للسيارة ﴾ في السفر مالحاً . وانتصب ﴿ متاعاً ﴾ على أنه مفعول له ولكنه مختص بالطعام . وقال الزجاج :

انه مصدر مؤكد لأن قوله ﴿ أحل لكم ﴾ في معنى التمتيع ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ قال العلماء : صيد البحر هو الذي لا يعيش إلا في الماء ، أما الذي لا يعيش إلا في البر والذي يمكنه أن يعيش في البر تارة وفي البحر أخرى فذاك كله صيد البر ، والسلحفاة والسرطان والضفدع وطير الماء كل ذلك من صيد البر ، ويجب على قاتله الجزاء . واتفق المسلمون على أن المحرم يحرم عليه الصيد الذي صاده أما الذي صاده الحلال فعن علي وابن عباس وابن عمر وسعيد بن جبير وطاوس والثوري واسحق أن الحكم كذلك لإطلاق الآية ، ولما روي عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدي إليه حمار وحش وهو محرم فأبى أن

(125/216)

يأكله .

وقال مالك والشافعي وأحمد : إن لحم الصيد مباح للمحرم بشرط أن لا يصطاده المحرم ولا يصطاد له لما روى أبو داود في سننه عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صيد البر لكم حلال ما لم تصيدوه أو يصاد لكم " وعن أبي هريرة وعطاء ومجاهد أنهم أجازوا للمحرم ما صاده الحلال وإن لأجله إذا لم يدل لم يشر ، وكذلك ما ذبحه قبل إحرامه

وهو مذهب أبي حنيفه وأصحابه لما روي عن أبي قتادة أنه اصطاد حمار وحش وهو حلال في أصحاب محرمين له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أشرتم ؟ هل أعنتم ؟ فقالوا : هل بقي من لحمه شيء ؟ قالوا معنا رجله . فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم فأكلها . هذان قولان مفرعان على تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد . وقال في الكشاف . أخذ أبو حنيفة بالمفهوم فكأنه قيل : وحرم عليكم أيها المحرمون ما صدتم في البر ، فيخرج عنه مصيد غيرهم . ويرد عليه أن المفهوم ليس بحجة . ثم حث على الطاعة والاجتناب عن المعاصي بقوله ﴿ واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ وهو كلام جامع للوعد والوعيد .

(126/216)

ثم ذكر سبب حرمة الصيد في الحرم وفي الإحرام فقال ﴿ جعل الله ﴾ أي حكم وبين بالخطاب والتعريف ، أو صير بخلق دواعي التعظيم في القلوب ﴿ قياماً للناس ﴾ وهم العرب ووجه المجاز أن أهل بلدة إذا قالوا " الناس فعلوا كذا " أرادوا أهل بلدتهم فنطق القرآن على مجرى عادتهم . وبيان القيام أن قوام المعيشه إما بكثرة المنافع وقد جعله بحيث يجبي إليه ثمرات كل شيء ، وإما بدفع المضار وقد صيره حرماً آمناً ، وإما بحصول الجاه

والرياسة وتوفر الدواعي والرغبات وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام . ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ [إبراهيم : 37] ثم المنافع الدينية الحاصلة من مناسكها وشعائرها أكثر من أن تحصى وأظهر من أن تخفى . وانتصب ﴿ البيت الحرام ﴾ على أنه عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح إذ الكعبة أوضح من أن توضح ، ويحتمل أن يراد بالناس عامة الناس لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم وأنواع منافعهم الدينية والدنيوية . وعن عطاء بن أبي رباح : لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا . وتفسير الشهر الحرام والهدي والقلائد تقدم في أوّل السورة . وإنما كان الشهر الحرام سبباً لقيام الناس وقوامهم لأنه إذا دخل الشهر الحرام كان يزول خوفهم ويقدرون على الأسفار وتحصيل الأقوات قدر ما يكفيهم طول السنة ، فلولا حرمة ذلك لهلكوا من الجوع . وأيضاً هو سبب لاكتساب الثواب من قبل مناسك الحج وإقامتها .

(127/216)

وأما الهدي فأنه نسك للمهدي وقوام لمعايش الفقراء ، وكذا القلائد فكان من قلد الهدي أو قلد نفسه من لحاء شجر الحرم لم يتعرض له أحد ، وكل ذلك لأن الله تعالى أوقع في قلوبهم تعظيم الكعبة وما يتعلق بها ذلك الذي ذكر من جعل الكعبة قياماً للناس أو من حفظ

حرمة الإحرام والحرم مشروع ﴿ لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ وذلك أنه علم في الأزل أن مقتضى طباع العرب الحرص على القتل والغارة وكان ذلك مما يفضي إلى الفناء وانقطاع النسل ، فدبر هذا التدبير المحكم والفعل المتقن كي يصير سبباً للأمان في بعض الأمكنة وفي بعض الأزمان فتستقيم مصالح الإنسان . ولا ريب أن مثل هذا التقدير والتدبير لا يصح إلا ممن يعلم الكائنات وأسبابها وغاياتها بل يعلم المعلومات بأسرها كلياتها وجزئياتها قديمها وحديثها ، عللها ومعلولها ، موجودها ومعدومها ، وذلك قوله ﴿ وأن الله بكل شيء عليم ﴾ فما أحسن هذا الترتيب ! ثم خوّفهم وأطمعهم بقوله ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن انتهك محارمه ﴿ وأن الله غفور رحيم ﴾ لمن حافظ عليها . وذكر الوصفين في جانب الرحمة دليل على أن جانب الرحمة أغلب كما قال " سبقت رحمتي غضبي " ثم قرر أن رسول الله ما كان مكلفاً إلا بالتبليغ فإذا بلغ خرج من العهدة وبقي الأمر من جانبكم وأنه تعالى يعلم جهركم وسركم ، وفيه من الوعيد ما فيه ، عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله عز وجل حرم عليكم عبادة الأوثان وشرب الخمر والطعن في الأنساب ألا وإن الخمر لعن الله شاربها وعاصرها وساقيها وبائعها وآكل ثمنها " فقام إليه أعرابي فقال : يا رسول الله إني كنت رجلاً هذه تجارتي واستفدت من بيع الخمر مالاً فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله ؟ فقال له النبي

صلى الله عليه وسلم : " إن أنفقته في الحج أو جهاد أو صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضة ، إن الله لا يقبل إلا الطيب " ، وأنزل الله عز وجل تصديقاً لقول

(128/216)

رسوله ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ وهو عام في حرام الأموال وحلالها وفاسد الأعمال وصالحها وسقيم المذاهب وصحيحها ورديء النفوس وجيدها ، وأخبث الخبائث الروحانية الجهل والمعصية ، وأطيب الطيبات الروحانية معرفة الله تعالى وطاعته ، والبون بين الصنفين في العالم الروحاني أبعد منه في العالم الجسماني ، لأن أثرهما في عالم الأرواح أبقى وأدوم وأجل وأعظم ، فلا تستبدل الخبيث يا إنسان بالطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، لأن كثرته في تحقيق قلة ، ولذته في نفس الأمر ذلة ، ونقده زيف وصرف العمر في طلبه حيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 23.20 ﴾

(129/216)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ لا تحرموا ﴾ على أنفسكم بالاستمتاعات النفسانية ﴿ طيبات ما أحل الله لكم ﴾ دون سائر المخلوقات من المواهب الربانية ﴿ ولا تعتدوا ﴾ ولا تجاوزوا عن حد العبودية ﴿ وكلوا مما رزقكم الله ﴾ واجتهدوا في طلب ما خصكم به الله من تجلى جماله وجلاله ﴿ حلالاً طيباً ﴾ يحل فيكم بريئاً من سمات النقائص .

﴿ باللغو في أيمانكم ﴾ أن تحلفوا بآلائه عن التبرم من ولائه لملالة النفوس وكلالة القوي واستيلاء النفس وغلبة سلطان الهوى في أثناء المجاهدات وإعواز المشاهدات ﴿ ولكن يؤاخذكم ﴾ إذا عزمتم على الهجران وتعرضتم للخذلان ﴿ فكفارته ﴾ حينئذ ﴿ إطعام عشرة مساكين ﴾ الحواس الظاهرة والباطنة . ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ وهم القلب والسر والروح والخفاء ، طعامهم الشوق والمحبة والصدق والإخلاص والتفويض والتسليم والرضا والأنس والهيبة والشهود والكشوف ، وأوسطه الذكر والتذكر والفكر والتفكر والشوق والتوكل والتعبد والخوف والرجاء يشغل الحواس العشرة بهذه الأمور ، أو يكسوهم لباس التقوى ، أو يحرر رقبة النفس من عبودية الحرص والهوى ﴿ فمن لم يجد ﴾ أمسك في اليوم الماضي عما عزم عليه وفي اليوم الحاضر عما لا يعنيه وفي اليوم المستقبل عن العود إليه . ومن لغو اليمين عند أرباب اليقين أن الطالب الصادق عند

غلبات الشوق ووجدان الذوق يقسم عليه بجماله وحلاله أن يرزقه شيئاً من إقباله ووصاله وذلك في شريعة الرضا لغو ، وفي مذهب التسليم سهو ولكن يرجى له عفو فلا يؤاخذه بمقاله لعلمه بضعف حاله والكمال في الثبات والاستقامة .

أريد وصاله ويريد هجري . . . فأترك ما أريد لما يريد

ومن اللغو في اليمين عندهم ما يجري على لسانهم في حال غلبات الوجد من تجديد العهد وتأكيد العقد كقول بعضهم :

وحقك ما نظرت إلى سواكا . . . بعين مودّة حتى أراكا

(130/216)

فإن هذا ينافي التوحيد وأين في دار ديار كلا بل هو الله الواحد القهار ﴿ ليس على الذين آمنوا ﴾ بالتقليد ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ الأعمال البدنية الشرعية ﴿ جناح فيما طعموا ﴾ من المباحات ﴿ إذا ما اتقوا ﴾ الشبهة والإسراف ﴿ وآمنوا ﴾ بالتحقيق بعد التقليد ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ الأعمال القلبية الحقيقية من تخلية القلب عما سواه ومن تحليته بالأخلاق المضادة لهواه كالصدق والإخلاص والتوكل والتسليم وما عداه ﴿ ثم اتقوا ﴾ شرك الأنانية ﴿ وآمنوا ﴾ بهويته ﴿ ثم اتقوا ﴾ هذا الشرك وهو الفناء في

الفناء ﴿ وأحسنوا ﴾ وهو البقاء به فافهم جعل الله البلاء لأهل الولاء كاللهب للذهب فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إيمان المحسنين الذين تجردوا عن ملاذ وشهواتها الحلال وأحرموا بحج الوصول وعمرة الوصال ﴿ ليبلونكم الله ﴾ في أثناء السلوك بشيء من الصيد وهو المطالب النفسانية والمقاصد الدنيوية الدنية . ﴿ تناله أيديكم ﴾ يعني اللذات البدنية ورماحكم يعني اللذات الخيالية ﴿ فله عذاب ﴾ الردّ والصد ﴿ ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ يعني من أحرم لزيارة كعبة الوصال فعليه حسم الأطماع من الحرام والحلال ﴿ متعمداً ﴾ أي عالماً بما في الالتفات إلى غيره من المضار ﴿ مثل ما قتل من النعم ﴾ يجازي نفسه برياضة ومجاهدة يماثل ألمها تلك اللذة ﴿ ذوا عدل ﴾ هما القلب والروح يحكمان على مقدار الإسلام وعلى حسب قوّة السالك بتقليل الطعام والشراب ، أو ببذل المال أو بترك الجاه أو بالعزلة وضبط الحواس ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ خالصاً عن الخلق لأجل الحق ﴿ طعام مساكين ﴾ هم العقل والقلب والسر والروح والخفاء كانوا محرومين عن أغذيتهم الروحانية فيطعمهم المعاملات الروحانية من صدق التوجه والصبر على المكاره والفطام عن المألوفات ومن الشكر والرضا وغير ذلك .

(131/216)

﴿ أو عدل ذلك صياماً ﴾ هو الإمساك عن الأغيار والركون إلى الواحد القهار لتذوق النفس الأمارة وبال أمرها ، فإن كل هذه الأمور على خلاف طبعها ﴿ ذو انتقام ﴾ ينتقم من أحبائه بنقاب الدلال ، ومن أعدائه بحجاب الملام والملال . ﴿ أحل لكم صيد ﴾ بحر المعارف والكشوف تنتفعون بالواردات وتطعمون منها السائرين إلى الله من أهل الإرادات ﴿ صيد البر ﴾ ما سنح للسائرين من مطالب الدنيا ﴿ ما دمتم حرماً ﴾ أي في حال المحو لا في حال الصحو . رجعل الله الكعبة ﴿ كعبة الظاهر ﴿ قياماً ﴾ للعوام والخواص يستنجحون بها حاجاتهم الدنيوية والأخروية ، وكعبة القلب قواماً للخواص ولخواص الخواص يلوذون بها بدوام الذكر ونفي الخواطر حتى يعلموا أن لا موجود إلا هو ، ولا وجود إلا له ﴿ البيت الحرام ﴾ حرام أن يسكن في الكعبة القلب غيره والشهر الحرام هو أيام الطلب حرام على الطالب فيها مخالطة الخلق وملاحظة ما سوى الحق . والهدي هو النفس البهيمية تساق إلى كعبة القلب مع قلائد أركان الشريعة فتذبح على عتبة القلب بسكين آداب الطريقة عن شهواتها ، فإذا وصل العبد إلى كعبة القلب شاهد بأنواره أن لله ما في السموات وما في الأرض . ﴿ شديد العقاب ﴾ يسدل الحجاب لغير الأحباء غفور رحيم للصادقين في الطلب بفتح الأبواب ﴿ إلا البلاغ ﴾ بالقال يتلو عليهم آياته وبالحال ويزكيهم ﴿ ما تبدون ﴾ بإقرار اللسان ﴿ وما تكتمون ﴾ من تصديق الجنان الخبيث ما

يشغلك عن الله والطيب ما يوصلك إلى الله بل الطيب هو الله والخبيث ما سوى الله وفي ذلك كثرة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 23 . 25 ﴾

(132/216)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآَنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أعطوا من أنفسهم العهد على الإيمان الذي معناه قبول جميع ما جاء به مَنْ وقع به الإيمان ﴿ لا تسئلوا عن أشياء ﴾ وذلك لأنهم إذا كانوا على خطر فيما يسرعون وفيما به ينتفعون من المآكل والمشارب وغيرها من الأقوال والأفعال فهم مثله فيما عنه يسألون سواء سألوا شرعه أو لا ، لأنه ربما أجابهم من لا يضره شيء إلى ما فيه ضررهم مما سألوه ، فإنهم لا يحسنون التفرقة بين الخبيث والطيب كما فعل بأهل السبت حيث أبوا الجمعة وسألوه ، فاشتد اعتناقها حينئذ بقوله : ﴿ إن الله يحكم ما يريد ﴾ [المائدة : 1] وبقوله : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ [المائدة : 99] فكان كأنه قيل :

فما بلغكم إياه فخذوه بقبول وحسن انقياد ، وما لا فلا تسألوا عنه ، وسببُ نزولها – كما في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه " أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه بالمسألة ، فغضب فصعد المنبر فقال : لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم – وشرح يكرر ذلك ، وإذ جاء رجل كان إذا لاحى الرجال يدعى لغير أبيه فقال : يا رسول الله ! من أبي ؟ قال : أبوك حذافة ، ثم أنشأ عمر رضي الله عنه فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، نعوذ بالله من سوء الفتن .

وفي آخره : فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ "

وللبخاري في التفسير عن أنس أيضاً قال : " خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم ، لهم حنين ، فقال رجل : من أبي ؟ قال : فلان ، فنزلت ﴿ لا تسئلوا عن أشياء ﴾ " الآية .

(133/216)

وللبخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي ؟

فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء ﴾ حتى فرغ من الأية كلها " ولابن ماجه مختصراً وللحافظ أبي القاسم بن عساكر في الموافقات فيما أفاده المحب الطبري في مناقب العشرة وأبي يعلى في مسنده مطولاً عن أنس رضي الله عنه قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضبان ونحن نرى أن معه جبرئيل عليه السلام حتى صعد المنبر – وفي رواية : فخطب الناس – فقال : سلوني ! فوالله لا تسألوني عن شيء اليوم إلا أخبرتكم وفي رواية : أنبأتكم به – فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً منه ، فقال رجل : يا رسول الله – وفي رواية : فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله – إنا كنا حديث عهد بجاهلية ، من أبي ؟ قال : أبوك حذافة – لأبيه الذي كان يدعى له – وفي رواية : أبوك حذافة الذي تدعى له – فقام إليه آخر فقال : يا رسول الله أفي الجنة أنا أم في النار ؟ فقال : في النار ، فقام إليه آخر فقال : يا رسول الله ! أعلينا الحج كل عام ؟ – وفي رواية : في كل عام – فقال : لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولو وجبت لم تقوموا بها ، ولو لم تقوموا بها عذبتم ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً – وفي رواية : رسولاً – لا تفضحنا بسرائرنا – وفي رواية : فقام إليه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ! إنا كنا حديث عهد بجاهلية فلا تبد علينا سرائرنا ، أتفضحنا بسرائرنا – اعف عنا عفا الله عنك ، فسرى عنه ، ثم التفت إلى الحائط فذكر بمثل الجنة والنار " وللإمام أحمد ومسلم والنسائي والدارقطني والطبري عن

أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطب – وفي رواية : خطبنا – رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أيها

(134/216)

الناس ! إن الله قد فرض عليكم الحج حجوا " ، فقال رجل – وفي رواية النسائي : " فقال الأقرع بن حابس التميمي – : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال : من السائل ؟ فقال : فلان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده ! لو قلت : نعم ، لوجبت ، ثم إذا لا تسمعون ولا تطيعون ، ولكن حجة واحدة " – وفي رواية الدارقطني والطبري : " ولو وجبت ما أطقتموها ، ولو لم تطيقوها " – وفي رواية الطبري : " ولو تركتموه – لكفرتم " ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ ثم قال : " ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فآتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه – وفي رواية : فاجتنبوه " وهذا الحديث له ألفاظ كثيرة من طرق شتى استوفيتها في كتابي " الاطلاع على حجة الوداع " ولا تعارض بين هذه الأخبار ولو تعذر ردها إلى شيء واحد لما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾

من أن الأمر الواحد قد تعدد أسبابه ، بل وكل ما ذكر من أسباب تلك وما أشبهه كقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال ﴾ [النساء : 77] - الآية ، يصلح أن يكون سبباً لهذه ، وروى الدارقطني في آخر الرضاع من سننه عن أبي ثعلبة الخشني وفي آخر الصيد عن أبي الدرداء رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها " وقال أبو الدرداء : " فلا تكلفوها ، رحمة من ربكم فاقبلوها " وأخرج حديث أبي الدرداء أيضاً الطبراني .

(135/216)

ولما كان الإنسان قاصراً عن علم ما غاب ، فكان زجره عن الكشف عما يسوءه زجراً له عن كل ما يتوقع أن يسوءه ، قال تعالى : ﴿ إن تبد ﴾ أي تظهر ﴿ لكم ﴾ بإظهار عالم الغيب لها ﴿ تسؤكم ﴾ ولما كان ربما وقع في وهم متعنت أن هذا الزجر إنما هو لقصد راحة المسؤول عن السؤال خوفاً من عواقبه - قال : ﴿ وإن تسئلوا عنها ﴾ أي تلك الأشياء التي تتوقع مساءتكم عند إبدائها ﴿ حين ينزل القرآن ﴾ أي والملك حاضر ﴿ تبد

لكم ﴾ ولما كان ربما قال : فما له لا يبديها سئل عنها أم لا ؟ قال : ﴿ عفا الله ﴾ بما له من الغنى المطلق والعظمة الباهرة وجميع صفات الكمال ﴿ عنها ﴾ أي سترها فلم يبدها لكم رحمة منه لكم وإراحة عما يسوءكم ويثقل عليكم في دين أو دنيا ؛ ولما كانت صفاته سبحانه أزلية ، لا تتوقف لواحدة منها على غيرها ، وضع الظاهر موضع المضمر لئلا يختص بما قبله فقال نادباً من وقع منه ذنب إلى التوبة : ﴿ والله ﴾ أي الذي له مع صفة الكمال صفة الإكرام ﴿ غفور ﴾ أزلاً وأبداً يمحو الزلات عيناً وأثراً ويعقبها بالإكرام على عادة الحكماء ﴿ حليم ﴾ أي لا يعجل على العاصي بالعقوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 547.550 ﴾

وقال الفخر :

في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه : الأول : أنه تعالى لما قال : ﴿ مَّا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ ﴾ [المائدة : 99] صار التقدير كأنه قال ، ما بلغه الرسول إليكم فخذوه ، وكونوا منقادين له ، وما لم يبلغه الرسول إليك فلا تسألوا عنه ، ولا تخوضوا فيه ، فإنكم إن خضتم فيما لا تكليف فيه عليكم فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض الفاسد من التكاليف ما يثقل عليكم ويشق عليكم .

الثاني : أنه تعالى لما قال : ﴿ مَّا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ ﴾ وهذا ادعاء منه للرسالة ، ثم إن الكفار كانوا يطالبونه بعد ظهور المعجزات ، بمعجزات أخر على سبيل التعنت كما قال تعالى حاكياً عنهم ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ [الإسرار : 90] إلى قوله ﴿ قُلْ سبحان رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسرار : 93] والمعنى إني رسول أمرت بتبليغ الرسالة والشرائع والأحكام إليكم ، والله تعالى قد أقام الدلالة على صحة دعواي في الرسالة بإظهار أنواع كثيرة من المعجزات ، فبعد ذلك طلب الزيادة من باب التحكم وذلك ليس في وسعي ولعل إظهارها يوجب ما يسوءكم مثل أنها لو ظهرت فكل من خالف بعد ذلك استوجب العقاب في الدنيا ، ثم إن المسلمين لما سمعوا الكفار يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المعجزات ، وقع في قلوبهم ميل إلى ظهورها فعرفوا في هذه الآية أنهم لا ينبغي أن يطلبوا ذلك فربما كان ظهورها يوجب ما يسوءهم .

الوجه الثالث : أن هذا متصل بقوله : ﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة : 99] فاتركوا الأمور على ظواهرها ولا تسألوا عن أحوال مخفية إن تبد لكم تسؤكم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 86 . 87 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ينزل ﴾ من الإنزال : أبو عمرو وابن كثير وسهل ويعقوب ﴿ شهادة ﴾ بالتنوين ﴿ آلله ﴾ بالمد : روح وزيد . الباقون بالإضافة . " استحق " على البناء للفاعل : حفص والأعشى في اختياره الباقون على البناء للمفعول . ﴿ الأولين ﴾ جمع الأول نقيض الآخر . سهل ويعقوب وحمزة خلف وعاصم غير حفص والأعشى في اختياره الباقون ﴿ الأوليان ﴾ تثنية الأولى الأحق ﴿ الغيوب ﴾ بكسر الغين حيث كان : حمزة وحماد وأبو بكر غير الشموني والبرجمي والخزاعي عن ابن فليح في ﴿ ساحر ﴾ وكذلك في هود والصف : حمزة وعلي وخلف الباقون ﴿ سحر ﴾ ﴿ هل تستطيع ﴾ بتاء الخطاب ﴿ ربك ﴾ بالنصب : علي والأعشى في اختياره ، الباقون بالياء وبالرفع ﴿ أن ينزل ﴾ بالتخفيف من الإنزال : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب . الباقون بالتشديد ﴿ منزلها ﴾ بالتشديد : عاصم وأبو جعفر نافع وابن عامر . الباقون بالتخفيف ﴿ فإني أعذبه ﴾ بفتح ياء المتكلم : أبو جعفر ونافع ﴿ وأمي ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع

وابن عامر وأبو عمرو وحفص ﴿ لي أن ﴾ بالفتح : ابن كثير وأبو جعفر ونافع وأبو عمرو . الباقون بالسكون ﴿ يوم ينفع ﴾ بفتح الميم : نافع . الباقون بالرفع .

(138/216)

الوقوف : ﴿ تسؤكم ﴾ ج لابتداء شرط آخر مع واو العطف . ﴿ تبدلكم ﴾ ط ﴿ عنها ﴾ ط ﴿ حليم ﴾ ه ﴿ كافرين ﴾ ه ﴿ ولا حام ﴾ لا للاستدراك . ﴿ الكذب ﴾ ط ﴿ لا يعقلون ﴾ ه ﴿ آبائنا ﴾ ط ﴿ ولا يهتدون ﴾ ه ﴿ أنفسكم ﴾ ج لاحتمال الاستئناف أو الحال أي احفظوا أنفسكم غير مضرورين ﴿ إذا اهتديتم ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ مصيبة الموت ﴾ ط ﴿ قربى ﴾ ز لأن وقوله ﴿ ولا نكتم ﴾ من جواب القسم . ﴿ شهادة ﴾ ط لمن قرأ ﴿ آلله ﴾ بالمد ﴿ الآثمين ﴾ ه ﴿ وما اعتدينا ﴾ ز لظاهر "إن" والوصل أجوز لتعلق "إذا" بقوله ﴿ وما اعتدينا ﴾ ز ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ أيمانهم ﴾ ط لابتداء الأمر ﴿ واسمعوا ﴾ ط ﴿ الفاسقين ﴾ ه ﴿ أجبتم ﴾ ط ﴿ لنا ﴾ ط ﴿ الغيوب ﴾ ه ﴿ والدتك ﴾ لا لئلا يوهم أنه ظرف لاذكر بل عامله محذوف والتقدير : واذكر إذا أيدتك ﴿ وكهلاً ﴾ ج ﴿ والإنجيل ﴾ ج ﴿ والأبرص بإذني ﴾ ج ﴿ الموتى ﴾ ج لأن "إذ" يجوز تعلقه تعلق به "إذ" الأول ، ويمكن

تعلق كل واحد بمحذوف آخر لتفصيل النعم ﴿ سحر مبين ﴾ ه ﴿ وبرسولي ﴾ ط لاحتمال أن قالوا مستأنف أو عامل في ﴿ إذ أوحيت ﴾ ﴿ مسلمون ﴾ ﴿ من السماء ﴾ الأولى ط ﴿ مؤمنين ﴾ ه ﴿ الشاهدين ﴾ ه ﴿ وآية منك ﴾ ج لاتفاق الجملتين مع وقوع العارض ﴿ الرازقين ﴾ ه ﴿ عليكم ﴾ ج لابتداء الشرط مع فاء التعقيب ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ من دون الله ﴾ ط ﴿ ما ليس لي ﴾ ط قد قيل وهو تعسف لأن المنكر لا يقسم به والقسم لا يجاب بالشرط بل الوقف على ﴿ بحق ﴾ ﴿ علمته ﴾ ط ﴿ نفسك ﴾ ط ﴿ الغيوب ﴾ ه ﴿ وربكم ﴾ ج على أن الواو للاستئناف أو الحال أي وقد كنت ﴿ فيهم ﴾ ط لأن عامل "لما" متأخر وفاء التعقيب دخلتها ﴿ عليهم ﴾ ط لأن الواو لا يحتمل الحال للتعميم في كل شيء ﴿ شهيد ﴾ ه ﴿ عبادك ﴾ ج لابتداء الشرط مع الواو ﴿ الحكيم ﴾ ه ﴿ صدقهم ﴾ ط لاختلاف الجملتين بلا عطف ﴿ أبداً ﴾ ط ﴿ عنه ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ﴿ وما فيهن ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 26 . 27 ﴾

(139/216)

فصل

قال الفخر :

روى أنس أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فأكثروا المسألة ، فقام على المنبر فقال : " سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي هذا إلا حدثتكم به " فقام عبد الله بن حذافة السهمي وكان يطعن في نسبه ، فقال يا نبي الله من أبي فقال : " أبوك حذافة بن قيس " وقال سراقة بن مالك ويروي عكاشة بن محصن يا رسول الله : الحج علينا في كل عام فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد مرتين أو ثلاثة ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لتركتم ، ولو تركتم لكفرتم فاتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم فإذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " وقام آخر فقال : يا رسول الله أين أبي فقال " في النار " ولما اشتد غضب الرسول صلى الله عليه وسلم قام عمر وقال : رضينا بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(140/216)

واعلم أن السؤال عن الأشياء ربما يؤدي إلى ظهور أحوال مكتومة يكره ظهورها وربما ترتبت عليه تكاليف شاقة صعبة فالأولى بالعاقل أن يسكت عما لا تكليف عليه فيه ، ألا ترى أن الذي سأل عن أبيه فإنه لم يأمن أن يلحقه الرسول عليه الصلاة والسلام بغير أبيه فيفتضح ، وأما السائل عن الحج فقد كاد أن يكون ممن قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : " إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من كان سبباً لتحريم حلال " إذ لم يؤمن أن يقول في الحج إيجاب في كل عام وكان عبيد بن عمير يقول : إن الله أحل وحرم فما أحل فاستحلوه ، وما حرم فاجتنبوه ، وترك بين ذلك أشياء لم يحللها ولم يحرمها ، فذلك عفو من الله تعالى ، ثم يتلو هذه الآية وقال أبو ثعلبة الخشني : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها ، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 88 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ الآية

اختلفوا في نزولها ، فروى الزهري وقتادة عن أنس وأبو صالح عن أبي هريرة قالا : " سأل الناس رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حتى ألحّوا بالمسألة فقام مغضباً خطيباً وقال : سلوني فواللّه لا تسألوني عن شيء في مقامي هذا لآتيته لكم ، فأشفق أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أن يكون بين يدي أمر قد مضى ، قال أنس : فجعلت لا ألتفت يميناً

ولا شمالاً إلاّ وجدت رجلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي ، فقام إليه رجل من قريش من بني تميم يقال له عبد اللّه بن حذافة : وكان يطعن في نسبه وكان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي اللّه من أبي ؟ قال : أبو حذافة بن قيس " . قال الزهري : فقالت أم عبد اللّه بن حذافة : ما رأيت ولداً بأعق منك قط أكنت تأمن أن تكون أمك قد فارقت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤس الناس .

(141/216)

فقال : واللّه لو ألحقني بعبد أسود للحقته ، فقام إليه رجل آخر فقال : يا رسول اللّه أين أنا ؟ قال : في النار .

فقام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقبل رجل رسول اللّه وقال : رضينا باللّه ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبالقرآن إماماً ، إنا يا رسول اللّه حديثو عهد بالجاهلية والشرك فاعف عنا عفى اللّه عنك فسكن غضبه وقال : " أما والذي نفسي بيده لقد صورت لي الجنة والنار أنفاً في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر " .

وقال ابن عباس : كانوا قوم يسألون رسول اللّه (عليه السلام) امتحاناً بأمره ، واستهزاءً به ، فيقول له بعضهم من أبي ؟ ويقول الآخر : أين أنا ؟ ويقول الآخر إذا خلت ناقته : أين

ناقتي ؟ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية . (1)

وقال علي وأبو أمامة الباهلي : " خطب بنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وقال : " إن اللّه كتب عليكم الحج " . فقام رجل من بني أسد يقال له عكاشة بن محسن فقال : أفي كل عام يا رسول اللّه ؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً ، فقال (عليه السلام) : " ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم ، واللّه لو قلت نعم لوجبت ، ولو أوجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم فاتركوني كما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء ، فأتوا منه ما استطعتم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " .

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية حين قالوا لرسول اللّه عن البحيرة والسائبة ألا ترى يقول بعد ذلك ما جعل اللّه من بحيرة ولا سائبة الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

---

(1) هذه الرواية مذكورة فى البخارى ومن ثم يتعين حملها على المنافقين لما علم من تسابق الصحابة فى محبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإجلاله . والله أعلم

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لا تسألوا عن أشياء إِن تُبد لكم تسؤكم ﴾ في سبب نزولها ستة أقوال .

أحدها : أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه بالمسألة ، فقام مغضباً خطيباً ، فقال : " سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي هذا إلا بينته لكم " فقام رجل من قريش ، يقال له : عبد الله بن حُذافة كان إِذا لاحى يُدعى إِلى غير أبيه ، فقال : يا نبي الله مَن أبي ؟ قال أبوك حُذافة ، فقام آخر ، فقال : أين أبي ؟ قال . في النار ، فقام عمر فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إِماماً ، إِنَّا حديثو عهدٍ بجاهلية .

والله أعلم مَن أباؤنا ، فسكن غضبه ، ونزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن أبي هريرة ، وقتادة عن أنس .

والثاني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس ، فقال : " إِن الله كتب عليكم الحج فقام عكاشة بن مُحصن ، فقال : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فقال : أما إِني لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم ، اسكتوا عني ما سكتُّ عنكم ، فإنما هلكَ من هلك ممن كان قبلكم بكثرة سؤالِهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فنزلت هذه الآية " رواه محمد بن زياد عن أبي هريرة .

وقيل : إِن السائل عن ذلك الأقرع بن حابس .

والثالث : أن قوماً كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء ، فيقول الرجل : مَن أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي ؟ فنزلت هذه الآية ، رواه أبو الجورية عن ابن عباس .

والرابع : أن قوماً سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، فنزلت هذه الآية ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال ابن جبير .

والخامس : أن قوماً كانوا يسألون الآيات والمعجزات ، فنزلت هذه الآية ، روي هذا المعنى عن عكرمة .

والسادس : أنها نزلت في تمنيهم الفرائض ، وقولهم : وددنا أن الله تعالى أذِنَ لنا في قتال المشركين ، وسؤالهم عن أحبِّ الأعمال إلى الله ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قال الزجاج : "أشياء" في موضع خفض إلا أنها فتحت ، لأنها لا تنصرف .

و"تبد لكم" : تظهر لكم .

فأعلم الله تعالى أن السؤال عن مثل هذا الجنس لا ينبغي أن يقع ، لأنه يسوء الجواب عنه .

وقال ابن عباس : إن تبد لكم ، أي : إن نزل القرآن فيها بغليظ ، ساءكم ذلك . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

استئناف ابتدائي للنهي عن العودة إلى مسائل سألها بعض المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست في شؤون الدين ولكنّها في شؤون ذاتية خاصّة بهم ، فنهوا أن يشغلوا الرسول بمثالها بعد أن قدّم لهم بيان مُهمّة الرسول بقوله تعالى : ﴿ ما على الرسول إلاّ البلاغ ﴾ [المائدة : 99] الصالح لأن يكون مقدّمة لمضمون هذه الآية ولمضمون الآية السابقة ، وهي قوله : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيّب ﴾ [المائدة : 100] فالآيتان كلتاهما مرتبطتان بآية ﴿ ما على الرسول إلاّ البلاغ ﴾ [المائدة : 99] ، وليست إحدى هاتين الآيتين بمرتبطة بالأخرى .

وقد اختلفت الروايات في بيان نوع هذه الأشياء المسؤول عنها والصحيح من ذلك حديث موسى بن أنس بن مالك عن أبيه في "الصحيحين" قال : سأل الناس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حتى أحْفَوْهُ بالمسألة ، فصعِد المنبر ذات يوم فقال : " لا تسألونني عن شيء إلاّ بيّنت لكم " ، فأنشأ رجل كانَ إذا لاحَى يُدعى لغير أبيه ، فقال : يا رسول الله من أبي قال : أبوك حذافة (أي فدعاه لأبيه الذي يعرف به) ، والسائل هو عبد الله بن حُذَافة السَّهمي ، كما ورد في بعض روايات الحديث .

وفي رواية لمسلم عن أبي موسى : فقام رجل آخر فقال مَن أبي ، قال : أبوك سالم مولى شيبة .

وفي بعض روايات هذا الخبر في غير الصحيح عن أبي هريرة أنّ رجلاً آخر قام فقال : أين أبي .

وفي رواية : أين أنا ؟ فقال : في النار .

(144/216)

وفي "صحيح البخاري" عن ابن عبّاس قال : كان قوم ، أي من المنافقين ، يسألون رسول الله استهزاء فيقول الرجل تضلّ ناقته : أين ناقتي ، ويقول الرجل : من أبي ، ويقول المسافر : ماذا ألقى في سفري ، فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسؤكم ﴾ .

قال الأئمّة : وقد انفرد به البخاري .

ومحمله أنّه رأي من ابن عباس ، وهو لا يناسب افتتاح الآية بخطاب الذين آمنوا اللهمّ إلاّ أن يكون المراد تحذير المؤمنين من نحو تلك المسائل عن غفلة من مقاصد المستهزئين ، كما في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعِنا ﴾ [البقرة : 104] ، أو أريد بالذين آمنوا

الذين أظهروا الإيمان ، على أنّ لهجة الخطاب في الآية خالية عن الإيماء إلى قصد المستهزئين ، بخلاف قوله : ﴿ لا تقولوا راعنا ﴾ [البقرة : 104] فقد عقّب بقوله : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ [البقرة : 104] .

وروى الترمذي والدارقطني عن علي بن أبي طالب لمّا نزلت ﴿ ولله على الناس حجّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] قالوا : يا رسول الله في كلّ عام ، فسكت ، فأعادوا . فقال : لا ، ولو قلت : نعم لوجبتْ ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ قال : هذا حديث حسن غريب .

وروى الطبري قريباً منه عن أبي أمامة وعن ابن عباس .

وتأويل هذه الأسانيد أنّ الآية تليتْ عند وقوع هذا السؤال وإنّما كان نزولها قبل حدوثه فظنّها الراوون نزلت حينئذٍ .

وتأويل المعنى على هذا أنّ الأمّة تكون في سعة إذا لم يشرع لها حكم ، فيكون الناس في سعة الاجتهاد عند نزول الحادثة بهم بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإذا سألوا وأجيبوا من قِبل الرسول صلى الله عليه وسلم تعيّن عليهم العمل بما أجيبوا به .

فصل

قال الحافظ ابن حجر :

قَوْله : (بَاب قَوْله لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

سَقَطَ " بَاب قَوْله " لِغَيْرِ أَبِي ذَرّ ، وَقَدْ تَعَلَّقَ بِهَذَا النَّهْي مَنْ كَرِهَ السُّؤَال عَمَّا لَمْ يَقَع ، وَقَدْ أَسْنَدَهُ الدَّارِمِيُّ فِي مُقَدِّمَة كِتَابه عَنْ جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ . وَقَالَ اِبْن الْعَرَبِيّ : اِعْتَقَدَ قَوْم مِنْ الْغَافِلِينَ مَنْع أَسْئِلَة النَّوَازِل حَتَّى تَقَع تَعَلُّقًا بِهَذِهِ الْآيَة ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، لِأَنَّهَا مُصَرِّحَة بِأَنَّ الْمَنْهِيّ عَنْهُ مَا تَقَع الْمَسَاءَة فِي جَوَابه ، وَمَسَائِل النَّوَازِل لَيْسَتْ كَذَلِكَ . وَهُوَ كَمَا قَالَ ، إِلَّا أَنَّهُ أَسَاءَ فِي قَوْله الْغَافِلِينَ عَلَى عَادَته كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الْقُرْطُبِيّ . وَقَدْ رَوَى مُسْلِم عَنْ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص رَفَعَهُ " أَعْظَم الْمُسْلِمِينَ بِالْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْء لَمْ يُحَرَّم فَحُرِّمَ مِنْ أَجْل مَسْأَلَته " وَهَذَا يُبَيِّن الْمُرَاد مِنْ الْآيَة ، لَيْسَ مِمَّا أَشَارَ إِلَيْهِ اِبْن الْعَرَبِيّ فِي شَيْء .

4255 - قَوْله : (حَدَّثَنَا مُنْذِر بْن الْوَلِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن)

أَيْ اِبْن حَبِيب بْن عَلْيَاء بْن حَبِيب بْن الْجَارُود الْعَبْدِيُّ الْبَصْرِيّ الْجَارُودِيُّ نِسْبَة إِلَى جَدّه الْأَعْلَى ، وَهُوَ ثِقَة ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْبُخَارِيّ إِلَّا هَذَا الْحَدِيث وَآخَر فِي كَفَّارَات الْأَيْمَان ، وَأَبُوهُ مَا لَهُ فِي الْبُخَارِيّ ذِكْر إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِع ، وَلَا رَأَيْت عَنْهُ رَاوِيًا إِلَّا وَلَده ، وَحَدِيثه

هَذَا فِي الْمُتَابَعَات ، فَإِنَّ الْمُصَنِّف أَوْرَدَهُ فِي الِاعْتِصَام مِنْ رِوَايَة غَيْره كَمَا سَأُبَيِّنُهُ .

(تَنْبِيه) :

(146/216)

وَقَعَ فِي كَلَام أَبِي عَلِيّ الْغَسَّانِيّ فِيمَا حَكَاهُ الْكَرْمَانِيُّ أَنَّ الْبُخَارِيّ رَوَى هَذَا الْحَدِيث عَنْ مُحَمَّد غَيْر مَنْسُوب عَنْ مُنْذِر هَذَا وَأَنَّ مُحَمَّدًا الْمَذْكُور هُوَ اِبْن يَحْيَى الذُّهْلِيُّ ، وَلَمْ أَرَ ذَلِكَ فِي شَيْء مِنْ الرِّوَايَات الَّتِي عِنْدنَا مِنْ الْبُخَارِيّ ، وَأَظُنّهُ وَقَعَ فِي بَعْض النُّسَخ " حَدَّثَنَا مُحَمَّد " غَيْر مَنْسُوب وَالْمُرَاد بِهِ الْبُخَارِيّ الْمُصَنِّف وَالْقَائِل ذَلِكَ الرَّاوِي عَنْهُ وَظَنُّوهُ شَيْخًا لِلْبُخَارِيِّ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْله : (عَنْ أَنَس)

فِي رِوَايَة رَوْح بْن عُبَادَة عَنْ شُعْبَة فِي الِاعْتِصَام " أَخْبَرَنِي مُوسَى قَالَ سَمِعْت أَنَس بْن مَالِك يَقُول " .

قَوْله : (خَطَبَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطْبَة مَا سَمِعْت مِثْلهَا قَطُّ قَالَ : لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم)

وَقَعَ عِنْد مُسْلِم مِنْ طَرِيق النَّضْر بْن شُمَيْلٍ عَنْ شُعْبَة فِي أَوَّله زِيَادَة يَظْهَر مِنْهَا سَبَب

الْخُطْبَة وَلَفْظه " بَلَغَ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَصْحَابه شَيْء ، فَخَطَبَ فَقَالَ : عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّة وَالنَّار فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْر وَالشَّرّ ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم " .

قَوْله : (لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، قَالَ فَغَطَّى)

فِي رِوَايَة النَّضْر بْن شُمَيْل " قَالَ فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَاب رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْم كَانَ أَشَدّ مِنْ ذَلِكَ ، غَطَّوْا رُءُوسهمْ " .

قَوْله : (لَهُمْ حَنِين)

(147/216)

بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ لِلْأَكْثَرِ ، وَلِلْكُشْمِيهَنِيِّ بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَة ، وَالْأَوَّل الصَّوْت الَّذِي يَرْتَفِع بِالْبُكَاءِ مِنْ الصَّدْر ، وَالثَّانِي مِنْ الْأَنْف . وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : الْحَنِين بُكَاء دُون الِانْتِحَاب ، وَقَدْ يَجْعَلُونَ الْحَنِين وَالْخَنِين وَاحِدًا إِلَّا أَنَّ الْحَنِين مِنْ الصَّدْر أَيْ الْمُهْمَلَة وَالْحَنِين مِنْ الْأَنْف بِالْمُعْجَمَةِ . وَقَالَ عِيَاض

قَوْله : (فَقَالَ رَجُل مَنْ أَبِي ؟ قَالَ : أَبُوك فُلَان)

تَقَدَّمَ فِي الْعِلْم أَنَّهُ عَبْد اللَّه بْن حُذَافَة . وَفِي رِوَايَة لِلْعَسْكَرِيِّ " نَزَلَتْ فِي قَيْس بْن حُذَافَة " وَفِي رِوَايَة لِلْإِسْمَاعِيلِيِّ يَأْتِي التَّنْبِيه عَلَيْهَا فِي كِتَاب الْفِتَن " خَارِجَة بْن حُذَافَة " وَالْأَوَّل

أَشْهَر ، وَكُلّهمْ لَهُ صُحْبَة ، وَتَقَدَّمَ فِيهِ أَيْضًا زِيَادَة مِنْ حَدِيث أَبِي مُوسَى وَأَحَلْت بِشَرْحِهِ عَلَى كِتَاب الِاعْتِصَام ، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّه تَعَالَى ، فَاقْتَصَرَ هُنَا عَلَى بَيَان الِاخْتِلَاف فِي سَبَب نُزُول الْآيَة .

قَوْله : (فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة)

(148/216)

هَكَذَا أَطْلَقَ وَلَمْ يَقَع ذَلِكَ فِي سِيَاق الزُّهْرِيّ عَنْ أَنَس مَعَ أَنَّهُ أَشْبَع سِيَاقًا مِنْ رِوَايَة مُوسَى بْن أَنَس كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَائِل الْمَوَاقِيت ، وَلِذَا لَمْ يَذْكُر ذَلِكَ هِلَال بْن عَلِيّ عَنْ أَنَس كَمَا سَيَأْتِي فِي كِتَاب الرِّقَاق . وَوَقَعَ فِي الْفِتَن مِنْ طَرِيق قَتَادَةُ عَنْ أَنَس فِي آخِر هَذَا الْحَدِيث بَعْد أَنْ سَاقَهُ مُطَوَّلًا قَالَ " فَكَانَ قَتَادَةُ يَذْكُر هَذَا الْحَدِيث عِنْد هَذِهِ الْآيَة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ) وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ وَجْه آخَر عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَس قَالَ " سَأَلُوا رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ ، فَصَعِدَ الْمِنْبَر فَقَالَ : لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْء إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ ، فَجَعَلْت أَلْتَفِت عَنْ يَمِين وَشِمَال فَإِذَا كَانَ رَجُل لَافّ ثَوْبه بِرَأْسِهِ يَبْكِي " الْحَدِيث ، وَفِيهِ قِصَّة عَبْد اللَّه بْن حُذَافَة ، وَقَوْل عُمَر رَوَى الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق أَبِي صَالِح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ " خَرَجَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضْبَان مُحْمَارّ وَجْهه

حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَر ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُل فَقَالَ : أَيْنَ أَنَا قَالَ : فِي النَّار . فَقَامَ آخَر فَقَالَ : مَنْ أَبِي ؟ فَقَالَ : حُذَافَة . فَقَامَ عُمَر – فَذَكَرَ كَلَامه وَزَادَ فِيهِ – وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا ، قَالَ فَسَكَنَ غَضَبه وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة " وَهَذَا شَاهِد جَيِّد لِحَدِيثِ مُوسَى بْن أَنَس وَالْمَذْكُور . وَأَمَّا مَا رَوَى التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث عَلِيّ قَالَ " لَمَّا نَزَلَتْ (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) قَالُوا يَا رَسُول اللَّه فِي كُلّ عَام

(149/216)

؟ فَسَكَتَ . ثُمَّ قَالُوا : يَا رَسُول اللَّه فِي كُلّ عَام ؟ فَقَالَ : لَا ، وَلَوْ قُلْت نَعَمْ لَوَجَبَتْ . فَأَنْزَلَ اللَّه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا) فَهَذَا لَا يُنَافِي حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُون نَزَلَتْ فِي الْأَمْرَيْنِ ، وَلَعَلَّ مُرَاجَعَتهمْ لَهُ فِي ذَلِكَ هِيَ سَبَب غَضَبه . وَقَدْ رَوَى أَحْمَد مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة وَالطَّبَرِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي أُمَامَة نَحْو حَدِيث عَلَى هَذَا ، وَكَذَا أَخْرَجَهُ مِنْ وَجْه ضَعِيف وَمِنْ آخَر مُنْقَطِع عَنْ اِبْن عَبَّاس ، وَجَاءَ فِي سَبَب نُزُولهَا قَوْل ثَالِث وَهُوَ مَا يَدُلّ عَلَيْهِ حَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي الْبَاب عَقِب هَذَا وَهُوَ أَصَحّ إِسْنَادًا ، لَكِنْ لَا مَانِع أَنْ يَكُون الْجَمِيع سَبَب نُزُولهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَجَاءَ فِي سَبَب نُزُولهَا قَوْلَانِ آخَرَانِ ، فَأَخْرَجَ الطَّبَرِيّ وَسَعِيد بْن مَنْصُور مِنْ طَرِيق خُصَيْف عَنْ مُجَاهِد عَنْ اِبْن عَبَّاس : أَنَّ الْمُرَاد بِالْأَشْيَاءِ

الْبَحِيرَة وَالْوَصِيلَة وَالسَّائِبَة وَالْحَام . قَالَ فَكَانَ عِكْرِمَة يَقُول : إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَ عَنْ الْآيَات ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ . قَالَ : وَالْمُرَاد بِالْآيَاتِ نَحْو سُؤَال قُرَيْش أَنْ يَجْعَل الصَّفَا لَهُمْ ذَهَبًا ، وَسُؤَال الْيَهُود أَنْ يَنْزِل عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ السَّمَاء وَنَحْو ذَلِكَ . أَخْرَجَ اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق عَبْد الْكَرِيم عَنْ عِكْرِمَة قَالَ " نَزَلَتْ فِي الَّذِي سَأَلَ عَنْ أَبِيهِ . وَعَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر فِي الَّذِينَ سَأَلُوا عَنْ الْبَحِيرَة وَغَيْرهَا ، وَعَنْ مِقْسَم فِيمَا سَأَلَ الْأُمَم أَنْبِيَاءَهَا عَنْ الْآيَات . قُلْت : وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُحْتَمَل ، وَكَذَا مَا

(150/216)

أَخْرَجَ اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق عَطِيَّة قَالَ " نُهُوا أَنْ يَسْأَلُوا مِثْل مَا سَأَلَ النَّصَارَى مِنْ الْمَائِدَة فَأَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ " وَقَدْ رَجَّحَهُ الْمَاوَرْدِيُّ ، وَكَأَنَّهُ مِنْ حَيْث الْمَعْنَى ؛ لِوُقُوعِ قِصَّة الْمَائِدَة فِي السُّورَة بَعْد ذَلِكَ ، وَاسْتُبْعِدَ نُزُولهَا فِي قِصَّة مَنْ سَأَلَ عَنْ أَبِيهِ أَوْ عَنْ الْحَجّ كُلّ عَام ، وَهُوَ إِغْفَال مِنْهُ لِمَا فِي الصَّحِيح ، وَرَجَّحَ اِبْن الْمُنِير نُزُولهَا فِي النَّهْي عَنْ كَثْرَة الْمَسَائِل عَمَّا كَانَ وَعَمَّا لَمْ يَكُنْ ، وَاسْتَنَدَ إِلَى كَثِير مِمَّا أَوْرَدَهُ الْمُصَنِّف فِي " بَاب مَا يُكْرَه مِنْ كَثْرَة السُّؤَال " فِي كِتَاب الِاعْتِصَام وَهُوَ مُتَّجَه ، لَكِنْ لَا مَانِع أَنْ تَتَعَدَّد الْأَسْبَاب ، وَمَا فِي الصَّحِيح أَصَحّ . وَفِي الْحَدِيث إِيثَار السَّتْر عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَكَرَاهَة التَّشْدِيد عَلَيْهِمْ ،

وَكَرَاهَة التَّنْقِيب عَمَّا لَمْ يَقَع ، وَتَكَلُّف الْأَجْوِبَة لِمَنْ يَقْصِد بِذَلِكَ التَّمَرُّن عَلَى التَّفَقُّه ، فَاَللَّه أَعْلَم . وَسَيَأْتِي مَزِيد لِذَلِكَ فِي كِتَاب الِاعْتِصَام إِنْ شَاءَ اللَّه تَعَالَى .

قَوْله : (رَوَاهُ النَّضْر)

هُوَ اِبْن شُمَيْل

(وَرَوْح بْن عُبَادَة عَنْ شُعْبَة)

أَيْ بِإِسْنَادِهِ ، وَرِوَايَة النَّضْر وَصَلَهَا مُسْلِم ، وَرِوَايَة رَوْح بْن عُبَادَة وَصَلَهَا الْمُؤَلِّف فِي كِتَاب الِاعْتِصَام .

4256 - قَوْله : (حَدَّثَنِي الْفَضْل بْن سَهْل)

(151/216)

هُوَ الْبَغْدَادِيّ ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْبُخَارِيّ سِوَى هَذَا الْمَوْضِع وَشَيْء تَقَدَّمَ فِي الصَّلَاة ، وَأَبُو النَّضْر هَاشِم بْن الْقَاسِم ، وَأَبُو خَيْثَمَة هُوَ زُهَيْر بْن مُعَاوِيَة ، وَأَبُو الْجُوَيْرِيَة بِالْجِيمِ مُصَغَّر اِسْمه حِطَّان بِكَسْرِ الْمُهْمَلَة وَتَشْدِيد الطَّاء اِبْن خُفَاف بِضَمِّ الْمُعْجَمَة وَفَاءَيْنِ الْأُولَى خَفِيفَة ، ثِقَة مَا لَهُ فِي الْبُخَارِيّ سِوَى هَذَا الْحَدِيث وَآخَر تَقَدَّمَ فِي الزَّكَاة وَيَأْتِي فِي الْأَشْرِبَة لَهُ ثَالِث .

قَوْله : (عَنْ اِبْن عَبَّاس)

فِي رِوَايَة اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق أَبِي النَّضْر عَنْ أَبِي خَيْثَمَة حَدَّثَنَا أَبُو الْجُوَيْرِيَة سَمِعْت أَعْرَابِيًّا مِنْ بَنِي سُلَيْم سَأَلَهُ يَعْنِي اِبْن عَبَّاس .

قَوْله : (كَانَ قَوْم يَسْأَلُونَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اِسْتِهْزَاء)

قَدْ تَقَدَّمَ طَرِيق الْجَمْع بَيْنه وَبَيْن الَّذِي قَبْله ، وَالْحَاصِل أَنَّهَا نَزَلَتْ بِسَبَبِ كَثْرَة الْمَسَائِل إِمَّا عَلَى سَبِيل الِاسْتِهْزَاء أَوْ الِامْتِحَان وَإِمَّا عَلَى سَبِيل التَّعَنُّت عَنْ الشَّيْء الَّذِي لَوْ لَمْ تَسْأَل عَنْهُ لَكَانَ عَلَى الْإِبَاحَة ، وَفِي أَوَّل رِوَايَة الطَّبَرِيّ مِنْ طَرِيق حَفْص بْن نُفَيْل عَنْ أَبِي خَيْثَمَة عَنْ أَبِي الْجُوَيْرِيَة " قَالَ اِبْن عَبَّاس : قَالَ أَعْرَابِيّ مِنْ بَنِي سُلَيْم : هَلْ تَدْرِي فِيمَ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَة " فَذَكَرَهُ وَوَقَعَ عِنْد أَبِي نُعَيْم فِي " الْمُسْتَخْرَج " مِنْ وَجْه آخَر عَنْ أَبِي خَيْثَمَة عَنْ أَبِي الْجُوَيْرِيَة عَنْ اِبْن عَبَّاس أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الضَّالَّة فَقَالَ اِبْن عَبَّاس : " مَنْ أَكَلَ الضَّالَّة فَهُوَ ضَالّ " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح البارى حـ 13 صـ ﴾

(152/216)

وقد تختلف الأحوال والأعصار فيكونون في حرج إن راموا تغييره ؛ فيكون معنى ﴿ إن تبد لكم تسؤكم ﴾ على هذا الوجه أنّها تسوء بعضهم أو تسوءهم في بعض الأحوال إذا

شقّت عليهم .

وروى مجاهد عن ابن عباس : نزلت في قوم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البَحيرة والسائبة والوصيلة والحامي .

وقال مثله سعيد بن جبير والحسن .

وقوله : ﴿ أشياء ﴾ تكثير شيء ، والشيء هو الموجود ، فيصدق بالذات وبحال الذات ، وقد سألوا عن أحوال بعض المجهولات أو الضَّوال أو عن أحكام بعض الأشياء .

و(أشياء) كلمة تدلّ على جمع (شيء) ، والظاهر أنّه صيغة جمع لأنّ زنة شيء (فَعْل) ، و(فَعْل) إذا كان معتلّ العين قياس جمعه (أفعال) مثل بيت وشيخ .

فالجاري على متعارف التصريف أن يكون (أشياء) جمعاً وأنّ همزته الأولى همزة مزيدة للجمع .

إلاّ أنّ (أشياء) ورد في القرآن هنا ممنوعاً من الصرف ، فتردّد أئمّة اللغة في تأويل ذلك ، وأمثل أقوالهم في ذلك قول الكسائي : إنّه لما كثر استعماله في الكلام أشبه (فعلاء) ، فمنعوه من الصرف لهذا الشبه ، كما منعوا سراويل من الصرف وهو مفرد لأنّه شابه صيغة الجمع مثل مصابيح .

وقال الخليل وسيبويه : (أشياء) اسم جمع (شيء) وليس جمعاً ، فهو مثل طَرْفاء وحلفاء فأصله شيْئاء ، فالمّدة في آخره مدّة تأنيث ، فلذلك منع من الصرف ، وادّعى أنّهم صيّروه

أشياء بقلب مَكَاني .

وحقُّه أن يقال : شيْئَاء بوزن (فعلاء) فصار بوزن (لفعاء) .

(153/216)

وقوله ﴿ إن تبد لكم تسؤكم ﴾ صفة ﴿ أشياء ﴾ ، أي إن تُظهرْ لكم وقد أخفيت عنكم يكن في إظهارها ما يسوءكم ، ولمّا كانت الأشياء المسؤول عنها منها ما إذا ظهر ساء من سأل عنه ومنها ما ليس كذلك ، وكانت قبل إظهارها غير متميّزة كان السؤال عن مجموعها معرّضاً للجواب بما بعضه يسوء ، فلمّا كان هذا البعض غير معيّن للسائلين كان سؤالهم عنها سُؤالاً عن ما إذا ظهر يسوءهُم ، فإنّهم سألوا في موطن واحد أسئلة منها : ما سرّهم جوابه ، وهو سؤال عبد الله بن حذافة عن أبيه فأجيب بالذي يصدّق نسبه ، ومنها ما ساءهم جوابه ، وهو سؤال من سأل أين أبي ، أو أين أنا فقيل له : في النار ، فهذا يسوءه لا محالة .

فتبيّن بهذا أنّ قوله : ﴿ إن تبد لكم تسؤكم ﴾ روعي فيه النهي عن المجموع لكراهية بعض ذلك المجموع .

والمقصود من هذا استئناسهم للإعراض عن نحو هذه المسائل ، وإلاّ فإنّ النهي غير مقيّد

بحال ما يسوءهم جوابه ، بدليل قوله بعده ﴿ عفا الله عنها ﴾ .

لأنّ العفو لا يكون إلاّ عن ذنب وبذلك تعلم أنّه لا مفهوم للصفة هنا لتعذّر تمييز ما يسوء عمّا لا يسوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه وجوه :

الأول : أنه بيّن بالآية الأولى أن تلك الأشياء التي سألوا عنها أن أبديت لهم ساءتهم ثم بين بهذه الآية أنهم إن سألوا عنها أبديت لهم ، فكان حاصل الكلام أنهم إن سألوا عنها أبديت لهم ، وإن أبديت لهم ساءتهم ، فيلزم من مجموع المقدمتين أنهم إن سألوا عنها ظهر لهم ما يسوءهم ولا يسرهم .

والوجه الثاني : في تأويل الآية أن السؤال على قسمين .

أحدهما : السؤال عن شيء لم يجز ذكره في الكتاب والسنة بوجه من الوجوه ، فهذا السؤال منهى عنه بقوله ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

والنوع الثاني من السؤال : السؤال عن شيء نزل به القرآن لكن السامع لم يفهمه كما ينبغي فههنا السؤال واجب ، وهو المراد بقوله ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ والفائدة في ذكر هذا القسم أنه لما منع في الآية الأولى من السؤال أوهم أن جميع أنواع السؤال ممنوع منه فذكر ذلك تمييزاً لهذا القسم عن ذلك القسم .

فإن قيل قوله ﴿ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا ﴾ هذا الضمير عائد إلى الأشياء المذكورة في قوله ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء ﴾ فكيف يعقل في ﴿ أَشْيَاء ﴾ بأعيانها أن يكون السؤال عنها ممنوعاً وجائزاً معاً .

قلنا : الجواب عنه من وجهين :

الأول : جائز أن يكون السؤال عنها ممنوعاً قبل نزول القرآن بها ومأموراً به بعد نزول القرآن بها ، والثاني : أنهما وإن كانا نوعين مختلفين ، إلا أنهما في كون كل واحد منهما مسؤولاً عنه شيء واحد ، فلهذا الوجه حسن اتحاد الضمير وإن كانا في الحقيقة نوعين مختلفين .

الوجه الثالث في تأويل الآية : إن قوله ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء ﴾ دل على سؤالاتهم عن تلك الأشياء ، فقوله ﴿ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا ﴾ أي وإن تسألوا عن تلك السؤالات حين ينزل القرآن يبين لكم أن تلك السؤالات هل هي جائزة أم لا ، والحاصل أن المراد من هذه الآية أنه يجب السؤال أولاً ، وأنه هل يجوز السؤال عن كذا وكذا أم لا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب

حـ 12 صـ 88.89 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ ﴾ تسؤكم لأن القرآن إنما ينزل بإلزام فرض فيشق عليكم أو شيء كان حلالاً لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

(155/216)

وقوله تعالى ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ قال ابن عباس : معناه لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم وإما لخبر يسوء ، كما قيل للذي قال أين أنا ؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأكم ربكم بأمر فحينئذٍ إن سألتم عن تفصيله وبيانه بين لكم وأبدى ؟ .

قال القاضي أبو محمد : فالضمير في قوله ﴿ عنها ﴾ عائد على نوعها لا على الأولى التي نهى عن السؤال عنها ، وقال أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وعفا من غير نسيان

عن أشياء فلا تبحثوا عنها ، وكان عبيد بن عمير يقول : إن الله أحل وحرم فما أحل فاستحلوا وما حرم فاجتنبوا وترك بين ذلك أشياء لم يحلها ولم يحرمها ، فذلك عفو من الله عفاه ، ثم يتلو هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل قوله تعالى : ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ أن يكون في معنى الوعيد كأنه قال لا تسألوا وإن سألتم لقيتم عبء ذلك وصعوبته لأنكم تكلفون وتستعجلون علم ما يسوءكم كالذي قيل له إنه في النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تبْدَ لكم ﴾ عطف على جملة ﴿ لا تسألوا ﴾ ، وهي تفيد إباحة السؤال عنها على الجملة لقوله : ﴿ وإن تسألوا ﴾ فجعلهم مخيّرين في السؤال عن أمثالها ، وأنّ ترك السؤال هو الأوْلى لهم ، فالانتقال إلى الإذن رخصة وتوسعة ، وجاء بـ ﴿ إنْ ﴾ للدلالة على أنّ الأولى ترك السؤال عنها لأنّ الأصل في (إنْ) أن تدلّ على أنّ الشرط نادر الوقوع أو مرغوب عن وقوعه .

وقوله : ﴿ حين ينزّل القرآن ﴾ ظرف يجوز تعلّقه بفعل الشرط وهو ﴿ تسألوا ﴾ ، ويجوز تعلّقه بفعل الجواب وهو ﴿ تُبدَ لكم ﴾ ، وهو أظهر إذ الظاهر أنّ حين نزول القرآن لم يجعل وقتاً لإلقاء الأسئلة بل جعل وقتاً للجواب عن الأسئلة .

وتقديمه على عامله للاهتمام ، والمعنى أنّهم لا ينتظرون الجواب عمّا يسألون عنه إلاّ بعد نزول القرآن ، لقوله تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب إلى قوله إن أتّبعُ إلاّ ما يوحى إليّ ﴾ [الأنعام : 50] فنبّههم الله بهذا على أنّ النبي يتلقّى الوحي من علاّم الغيوب .

فمن سأل عن شيء فلينتظر الجواب بعد نزول القرآن ، ومن سأل عند نزول القرآن حصل جوابه عِقب سؤاله .

ووقتُ نزول القرآن يعرفه من يحضر منهم مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فإنّ له حالة خاصّة تعتري الرسول صلى الله عليه وسلم يعرفها الناس ، كما ورد في حديث يعلى بن أمية في حكم العمرة .

ومما يدلّ لهذا ما وقع في حديث أنس من رواية ابن شهاب في "صحيح مسلم" أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى لهم صلاة الظهر فلما سلّم قام على المنبر فذكر الساعة وذكر أنّ قبلها أموراً عظاماً ثم قال : مَنْ أحبّ أن يسألني عن شيء فليسألني عنه فوالله لا تسألونني عن شيء إلاّ أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا .

ثم قال : " لقد عرضت عليَّ الجنة والنار آنفاً في عُرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر " الحديث ، فدلّ ذلك على أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذلك الحينَ في حال نزول وحي عليه .

وقد جاء في رواية موسى بن أنس عن أبيه أنس أنّه أنزل عليه حينئذٍ قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ الآية .

فتلك لا محالة ساعة نزول القرآن واتّصال الرسول عليه الصلاة والسلام بعالم الوحي . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا ﴾ وفيه وجوه :

الأول : عفا الله عما سلف من مسائلكم وإغضابكم للرسول بسببها ، فلا تعودوا إلى مثلها .

(157/216)

الثاني : أنه تعالى ذكر أن تلك الأشياء التي سألوا عنها إن أبديت لهم ساءتهم ، فقال ﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا ﴾ يعني عما ظهر عند تلك السؤالات مما يسؤكم ويثقل ويشق في التكليف عليكم .

الثالث : في الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها في الآية ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ وهذا ضعيف لأن الكلام إذا استقام من غير تغيير النظم لم يجز المصير إلى التقديم والتأخير ، وعلى هذا الوجه فقوله ﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا ﴾ أي أمسك عنها وكف عن ذكرها ولم يكلف فيها بشيء ، وهذا كقوله عليه الصلاة والسلام : " عفوت لكم عن صدقة الخيل ، والرقيق " أي خففت عنكم بإسقاطها .

ثم قال تعالى : ﴿ واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ وهذه الآية تدل على أن المراد من قوله عفا الله عنها ما ذكرناه في الوجه الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 89 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ عفا الله عنها ﴾ تركها ولم يعرف بها ، وهذه اللفظة التي هي ﴿ عفا ﴾ ، تؤيد أن الأشياء التي هي في تكليفات الشرع ، وينظر إلى ذلك قول النبي عليه السلام إن الله قد عفا لكم عن صدقة الخيل ، و ﴿ غفور حليم ﴾ صفتان تناسب العفو وترك المباحثة والسماحة في الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ عفا الله عنها ﴾ يحتمل أنّه تقرير لمضمون قوله : ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تبدَ لكم ﴾ ، أي أنّ الله نهاكم عن المسألة وعفا عنكم أن تسألوا حين ينزّل القرآن .

وهذا أظهر لعوذ الضمير إلى أقرب مذكور باعتبار تقييده ﴿ حين ينزّل القرآن ﴾ .

ويحتمل أن يكون إخباراً عن عفوه عمّا سلف من إكثار المسائل وإحفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فيها لأنّ ذلك لا يناسب ما يجب من توقيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

(158/216)

قرأ عامة الناس " قد سَألها " بفتح السين ، وقرأ إبراهيم النخعي " قد سِألها " بكسر السين ، والمراد بهذه القراءة الإمالة ، وذلك على لغة من قالت سلت تسأل ، وحكي عن العرب هما يتساولان ، فهذا يعطي هذه اللغة هي من الواو لا من الهمزة فالإمالة إنما أريدت وساغ ذلك لانكسار ما قبل اللام في سلت كما جاءت الإمالة في خاف لمجيء الكسرة في خاء خفت ، ومعنى الآية أن هذه السؤالات التي هي تعنيتات وطلب شطط واقتراحات

ومباحثات قد سألتها قبلكم الأمم ثم كفروا بها قال الطبري كقوم صالح في سؤالهم الناقة وكبني إسرائيل في سؤالهم المائدة . قال السدي : كسؤال قريش أن يجعل الله له لهم الصفا ذهباً .

قال القاضي أبو محمد : وإنما يتجه في قريش مثالاً سؤالهم آية ، فلما شق لهم القمر كفروا ، وهذا المعنى إنما يقال لمن سأل النبي عليه السلام أين ناقتي ؟ وكما قال له الأعرابي ما في بطن ناقتي هذه ؟ فأما من سأله عن الحج أفي كل عام هو ؟ فلا يفسر قوله قد سألها قوم الآية بهذه الأمثلة بل بأن الأمم قديماً طلبت التعمق في الدين من أنبيائها ثم لم تف لما كلفت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(159/216)

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية فروي عن أنس بن مالك قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعنا مثلها قط فقال " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم

كثيراً " قال فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين فقال رجل : من أبي ؟ فقال فلان فنزلت هذه الآية ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ وفي رواية أخرى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة فذكر فيها أموراً عظاماً ثم قال : من أحب أن يسألني عن شيء فليسأل ، فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي فأكثر الناس البكاء وأكثر أن يقول سلوا فقام عبد الله بن حذافة السهمي فقال : من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة .

ثم اكثر أن يقول سلوني فبرك عمر على ركبتيه فقال : " رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً " فسكت ثم قال : عرضت علي الجنة والنار أنفاً في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر .

قال ابن شهاب : فأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة ما سمعت بابن قط أعق منك أمنت أن تكون أمك قارفت بعض ما تقارف أهل الجاهلية فتفضحها عن أعين الناس ؟ فقال عبد الله بن حذافة : لو ألحقني بعبد أسود للحقته زاد في رواية أخرى قال قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ أخرجاه في الصحيحين (خ) .

عن ابن عباس قال : كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء فيقول الرجل : من أب ؟ ويقول الرجل : تضل ناقته أين ناقتي ؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ الآية كلها وقيل نزلت هذه الآية في شأن الحج عن علي بن أبي طالب قال لما نزلت ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل عام ؟ فسكت فقالوا يا رسول الله صلى الله في كل عام ؟ قال : " لا ولو قلت نعم لوجبت " فأنزل الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (م) .

عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله فقال : " يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا " فقال رجل : أفي كل عام ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال : " ذروني ما تركتكم ولو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم وإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه "

(161/216)

وروى مجاهد عن ابن عباس : لا تسألوا عن أشياء قال هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ألا ترى أنه يقول بعد ذلك ما جعل الله من بحيرة ولا كذا ولا كذا وقال عكرمة : إنها كانوا يسألون عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ومعنى الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ جمع شيء ﴿ إن تبد لكم ﴾ أي تظهر لكم وتبن لكم ﴿ تسؤكم ﴾ يعني إن أمرتم بالعمل بها فإن من سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به فلا يقدر عليه فيسوءه ذلك ومن سأل عن نسبه لم يأمن أن يلحقه النبي صلى الله عليه وسلم بغير أبيه فيفتضح ويسوءه ذلك ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ معناه : إن صبرتم حتى ينزل القرآن بحكم من فرض أو نهي أو حكم وليس في ظاهره شرح ما تحتاجون إليه ومست حاجتكم إليه فإذا سألتم عنه فحينئذ يبدى لكم ، ومثال هذا : أن الله عز وجل لما بيَّن عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها والحامل ولم يكن في عدد هؤلاء دليل على عدة التي ليست ذات قرء ولا حامل فسألوا عنها فأنزل الله عز وجل جوابهم في قوله

﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ﴾ الآية ﴿ عفا الله عنها ﴾ يعني عن مسألتكم عن الأشياء التي سألتم عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ولم يعاقبكم عليها ﴿ والله غفور ﴾ يعني لمن تاب منكم ﴿ حليم ﴾ فلا يعجل بعقوبتكم .

وقال عطاء : غفور يعني لما كان في الجاهلية .

حليم : يعني عن عقابكم منذ آمنتم وصدقتم .

وقال بعض العلماء : الأشياء التي يجوز السؤال عنها ، هي ما يترتب عليها أمر الدين والدنيا من مصالح العباد وما عدا ذلك فلا يجوز السؤال عنه (ق) .

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على الناس فحرم من أجل مسألته (ق) .

(162/216)

عن المغيرة بن شعبة أنه كتب إلى معاوية أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان ينهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال " عن معاوية أن النبي صلى الله عليه وسلم " نهى عن الأغلوطات " أخرجه أبو داود .

والأغلوطات صعاب المسائل التي تزل فيها أقدام العلماء ويؤيد ذلك قول أبي هريرة : شرار الناس الذين يسألون عن شرار المسائل كي يغلطوا بها العلماء .

عن سلمان قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء فقال " الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما قد عفا عنه فلا تتكلفوا "

وعن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تقربوها وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها " هذان الحديثان أخرجهما في جامع الأصول ولم يعزهما إلى الكتب الستة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(163/216)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لك تسؤكم ﴾

روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن أنس قال : قال رجل : يا رسول الله من أبي قال " أبوك فلان " ونزلت الآية .

وفي حديث أنس أيضاً أن رجلاً قال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال : " النار " وإن السائل من أبي هو عبد الله بن حذافة وفي غير حديث أنس ، فقام آخر فقال من أبي فقال " أبوك سالم مولى شيبة " وقيل نزلت بسبب سؤالهم عن الحج أفي كل عام ؟ فسكت فقال أفي كل عام ؟ قال : " لا ولو قلت نعم لوجبت " .

روي هذا عن عليّ وأبي هريرة وأبي أمامة وابن عباس ، وقيل السائل سراقة بن مالك ، وقيل عكاشة بن محصن الأسدي ، وقيل محصن ، وقيل رجل من بني أسد .

وقيل الأقرع بن حابس ، وقال الحسن : سألوا عن أمور الجاهلية التي عفا الله عنها ولا وجه للسؤال عما عفا الله عنه ، وقال ابن جبير ورواه مجاهد عن ابن عباس : سألوا عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ولذلك جاء ذكرها بعدها وروي عن عكرمة أنهم سألوا الآيات والمعجزات .

(164/216)

وذكر أبو سليمان الدمشقي أنها نزلت في تسهيم الفرائض ، وروي أنه تعالى لما بين أمر الكعبة والهدي والقلائد وأعلم أن حرمتها هو تعالى الذي شرعها إذ هي أمور قديمة من لدن إبراهيم عليه السلام ، ذهب ناس من العرب إلى السؤال عن سائر أحكام الجاهلية هل تلحق بذلك أم لا ؟ إذ كانوا قد اعتقدوا الجميع سنة لا يفرقون بين ما هو من عند الله وما هو من تلقاء الشيطان ، والظاهر من الروايات أن الأعراب ألحوا عليه بأنواع من السؤالات فزجروا عن ذلك بهذه الآية ، وقيل نزلت في حجاج اليمامة حين أراد المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عن الإيقاع بهم وإن كانوا مشركين ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما قال :

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ صار كأنه قيل ما بلغه الرسول فخذوه وكونوا منقادين له وما لم يبلغه فلا تسألوا عنه ولا تخوضوا فيه فربما جاءكم بسبب الخوض الفاسد تكاليف تشق عليكم ، قاله أبو عبد الله الرازي وفيه بعض تلخيص ، وقال أيضاً هذا متصل بقوله ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ فاتركوا الأمور على ظواهرها ولا تسألوا عن أحوال مختلفة والجملة الشرطية وما عطف عليها من الشرط في موضع الصفة لأشياء والمعنى لا تكثروا مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتى لكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها قاله الزمخشري وبناه على ما نقل في سبب النزول أنه سئل عن الحج ، وقرأ الجمهور ﴿ إن تبد لكم ﴾ بالتاء مبنيّاً للمفعول ، وقرأ ابن عباس ومجاهد مبنيّاً للفاعل ، وقرأ الشعبي بالياء مفتوحة من أسفل وضم الدال ﴿ يسؤكم ﴾ بالياء فيهما مضمومة في الأول ومفتوحة في الثاني ، وقال ابن عطية والتحرير إن يبدها الله تعالى .

(165/216)

﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ قال ابن عباس معناه لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم وإما لخبر يسوءكم ، مثل

الذي قال من أبي ؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأكم ربكم بأمر فحينئذ إن سألتم عن بيانه بين لكم وأبدى انتهى .

قال ابن عطية : فالضمير في قوله ﴿ عنها ﴾ عائد على نوعها لا على الأول التي نهى عن السؤال عنها .

قال : ويحتمل أن يكون في معنى الوعيد كأنه قال لا تسألوا وإن سألتم لقيتم غب ذلك وصعوبته لأنكم تكلفون وتستعجلون ما يسوءكم كالذي قيل له إنه في النار انتهى .

وقال الزمخشري ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن ﴾ أي عن هذه التكاليف الصعبة في زمان الوحي وهو ما دام الرسول بين أظهركم يوحى إليه ﴿ تبد لكم ﴾ تلك التكاليف ﴿ التي تسوءكم ﴾ وتؤمروا بتحملها فتعرّضوا أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها انتهى .

وعلى هذا يكون الضمير في ﴿ عنها ﴾ عائداً على أشياء نفسها لا على نوعها والذي يظهر أنهم نهوا عن السؤال عن أشياء وصفت بوصفين أحدهما أنها إن سألوا عنها أبديت لهم وقت نزول القرآن فيكون ﴿ حين ﴾ ظرفاً لقوله ﴿ تبد لكم ﴾ لا لقوله ﴿ وإن تسألوا عنها ﴾ والوصف الثاني أنها إن أبديت لهم ساءتهم وهذا الوصف وإن تقدم مرتب على الوصف المتأخر وإنما تقدم لأنه أردع لهم عن المسألة عن تلك الأشياء أن يسألوا عنها لأنهم إذا أخبروا أنهم تسوءهم تلك المسألة إذا أبديت كانت أنفر عن أن يسألوا بعد ، فما كان هذا الوصف أزجر عن السؤال قدّم وتأخر الوصف في الذكر الذي ليس فيه

زجر ولا ردع واتكل في ذلك على فهم المعنى مع أن غطف الوصف الثاني بالواو يقتضي التشريك فقط دون الترتيب ، ولا يدل قوله ﴿ وإن تسألوا عنها ﴾ على جواز السؤال كما زعم بعضهم فقال : الضمير عائد على أشياء فكيف يفعل أشياء بأعيانها أن يكون السؤال عنها ممنوعاً وجائزاً معاً .

(166/216)

وأجاب بوجهين أحدهما أن يكون ممنوعاً قبل نزول القرآن مأموراً به بعد نزوله الثاني أنهما وإن كانا غير مختلفين إلا أنهما في كون كل واحد منهما مسؤولاً عنه شيء واحد فلهذا الوجه حسن اتحاد الضمير انتهى وهذا ليس بجواب ثان لأنه فرض أن تلك الأشياء بأعيانها السؤال عنها ممنوع وجائز وإذا كانا نوعين مختلفين فليست الأشياء بأعيانها وجملة الشرط كما ذكرناه لا تدل على الجواز ألا ترى أنك تقول لا تزن وإن زنيت حددت فقوله وإن زنيت حددت لا يدل ذلك على الجواز بل جملة الشرط لا تدل على الوقوع بل لا تدل على الإمكان إذ قد يقع التعليق بين المستحيلين كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك

عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ظاهره أنه استئناف إخباره من الله تعالى وذهب بعضهم إلى أنها في موضع جر صفة لأشياء كأنه قيل لا تسألوا عن أشياء معفو عنها ويكون معنى عفا أي ترك لكم

التكليف فيها والمشقة عليكم بها لقوله إن الله قد عفا لكم عن صدقة الخيل وهو القول الأول وهو الاستئناف يحتمل أن يكون المعنى هذا أي تركها الله ولم يعرفكم بها ويحتمل أن يكون المعنى أنه تجاوز عن ارتكابكم تلك السؤالات ولم يؤاخذكم بها ويدل على هذا المعنى قوله وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ولذلك قال الزمخشري عفا الله عنكم ما سلف عن مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لا يؤاخذكم بما يفرط منكم بعقوبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(167/216)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى روى البخاريّ ومسلم وغيرهما واللفظ للبخاريّ عن أَنَس قال : " قال رجل يا نبيّ الله من أَبِي ؟ قال : "أبوك فلان" " قال فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن

تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ الآية .

وخرّج أيضاً عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه : " "فواللَّهِ لا تسألوني عن شيء إلاَّ أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا" فقام إليه رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال : "النار" .

فقام عبد الله بن حذافة فقال : من أبِي يا رسول الله فقال : "أبوك حُذَافة" " وذكر الحديث قال ابن عبد البر : عبد الله بن حُذَافة أسلم قديماً ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، وشهد بَدْراً وكانت فيه دُعَابة ، وكان رسولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أرسله إلى كسرى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولما قال من أبي يا رسول الله ؛ قال : " "أَبوكَ حُذافة" قالت له أُمُّه : ما سمعتُ بابن أعقّ منك آمنتَ أن تكون أُمك قَارَفْت ما يُقارِف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس " ! .

فقال : والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقت به .

وروى الترمذيّ والدَّارَقُطْنِيّ " عن عليّ رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران : 97] قالوا : يا رسول الله أفي كلّ عام ؟ فسكت ، فقالوا : أفي كلّ عام ؟ قال : "لا ولو قلتُ نعم لَوَجَبَت" " فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ إلى آخر الآية .

واللفظ للدَّارَقُطْنِيّ سِئل البخاريّ عن هذا الحديث فقال : هو حديث حسن إلاَّ أنه مُرسَل ؛ أبو البَخْتَرِيّ لم يُدرك علياً ، واسمه سعيد .

(168/216)

وأخرجه الدَّارَقُطْنِيّ أيضاً عن أبي عِياض " عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يأيها الناس كتب عليكم الحج" فقام رجل فقال : في كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه ، ثم عاد فقال : في كل عام يا رسول الله ؟ فقال : "ومن القائل" قالوا : فلان ؛ قال : "والذي نفسي بيده لو قلت نَعَم لَوَجَبت ولو وَجَبت ما أطقتموها ولو لم تُطيقوها لكفَرتم" فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ الآية " وقال الحسن البصري في هذه الآية : سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور الجاهلية التي عفا الله عنها ، ولا وجه للسؤال عما عفا الله عنه .

ورَوى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت في قوم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البَحِيرة والسَّائبة والوَصِيلة والحَام ؛ وهو قول سعيد بن جُبَير ؛ وقال : ألا ترى أن بعده ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ﴾ [المائدة : 103] قلت : وفي الصحيح والمسند كفاية .

ويحتمل أن تكون الآية نزلت جواباً للجميع ، فيكون السؤال قريباً بعضه من بعض .

والله أعلم .

و"أشياء" وزنه أفعال ؛ ولم يصرف لأنه مشبه بحمراء ؛ قاله الكسائي .

وقيل : وزنه أَفْعلاء ؛ كقولك : هَيْن وأَهْوِناء ؛ عن الفرّاء والأخفش ويُصغّر فيقال : "أُشَيَّاء ؛ قال المازِني : يجب أن يُصغَر شُيَيْآت كما يصغر أصدقاء ؛ في المؤنث صُدَيْقات وفي المذكر صُدَيْقون .

الثانية قال ابن عون : سألت نافعاً عن قوله تعالى : ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ فقال : لم تزل المسائل منذ قطّ تكره .

(169/216)

روى مسلم عن المغيرة بن شُعْبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ الله حرّم عليكم عُقوق الأمهات وَوَأْد البنات وَمَنْعاً وهات وكرِه لكم ثلاثاً قِيلَ وقالَ وكثرةَ السّؤالِ وإضاعة المالِ " قال كثير من العلماء : المراد بقوله "وكثرة السؤال" التكثير من السؤال في المسائل الفقهية تَنطُّعاً ، وتكلفاً فيما لم ينزل ، والأغلوطات وتشقيق المولدات ، وقد كان السّلف يكرهون ذلك ويرونه من التكليف ويقولون ؛ إذا نزلت النازلة وُفِّق المسؤولُ لها .

قال مالك : أدركت أهل هذا البلد وما عندهم علم غير الكتاب والسنة ، فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذه ، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل المُرَاد بكثرة المسائل كثرة سؤال الناس الأموال والحوائج إلحاحاً واستكثاراً ؛ وقاله أيضاً مالك .

وقيل : المراد بكثرة المسائل السؤال عما لا يعني من أحوال الناس بحيث يؤدّي ذلك إلى كشف عوراتهم والاطلاع على مساوئهم .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [الحجرات : 12]

قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : ولذلك قال بعض أصحابنا متى قُدِّم إليه طعام لم يسأل عنه من أين هذا أو عُرض عليه شيء يشتريه لم يسأل من أين هو ، وحَمَل أمور المسلمين على السلامة والصحة .

قلت : والوجه حمل الحديث على عمومه فيتناول جميع تلك الوجوه كلها .

والله أعلم .

الثالثة قال ابن العربي : اعتقد قوم من الغافلين تحريم أسئلة النوازل حتى تقع تعلقاً بهذه الآية وليس كذلك ؛ لأن هذه الآية مصرّحة بأن السؤال المنهي عنه إنما كان فيما تقع المسَاءةُ في جوابه ، ولا مَسَاءَة في جواب نوازل الوقت فافترقا .

قلت : قوله اعتقد قوم من الغافلين فيه قبح ، وإنما كان الأولى به أن يقول : ذهب قوم إلى تحريم أسئلة النوازل ، لكنه جرى على عادته ، وإنما قلنا كان أولى به ؛ لأنه قد كان قوم من السلف يكرهها .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يلعن من سأل عما لم يكن ؛ ذكره الدَّارِمي في مسنده ؛ وذكر عن الزهري قال : بلغنا أن زيد بن ثابت الأنصاري كان يقول إذا سئل عن الأمر : أكان هذا ؟ فإن قالوا : نعم قد كان حدّث فيه بالذي يَعلم ، وإن قالوا : لم يكن قال فذروه حتى يكون .

وأسند عن عَمَار بن يَاسِر وقد سئل عن مسئلة فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا ؛ قال : دعونا حتى يكون ، فإذا كان تجشَّمناها لكم .

قال الدَّارِمي : حدّثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ، قال حدثنا ابن فُضَيل عن عطاء عن ابن عباس قال : ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسئلة حتى قُبض ، كلهن في القرآن ؛ منهن ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام ﴾ [البقرة : 217] ، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض ﴾ [البقرة : 222]

وشبهه ما كانوا يسألون إلا عمّا ينفعهم .

الرابعة قال ابن عبد البر : السؤال اليوم لا يُخاف منه أن ينزل تحريم ولا تحليل من أجله ، فمن سأل مستفهماً راغباً في العلم ونَفى الجهل عن نفسه ، باحثاً عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه ، فلا بأس به ، فشفاء العِي السؤال ؛ ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره ؛ قال ابن العربي : الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة ، وإيضاح سُبُل النظر ، وتحصيل مقدّمات الاجتهاد ، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد ؛ فإذا عرضت نازلة أُتيت من بابها ، ونُشدت في مظانها ، والله يفتح في صوابها .

(171/216)

الخامسة قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ فيه غموض ، وذلك أن في أوّل الآية النهي عن السؤال ، ثم قال : ﴿ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ فأباحه لهم ؛ فقيل : المعنى وإن تسألوا عن غيرها فيما مست الحاجة إليه ، فحذف المضاف ، ولا يصح حمله على غير الحذف .

قال الجُرْجاني : الكناية في "عنها" ترجع إلى أشياء أخر ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

الإنسان مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ يعني آدم ، ثم قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ [المؤمنون : 13] أي ابن آدم ؛ لأن آدم لم يجعل نطفة في قرار مكين ، لكن لما ذكر الإنسان وهو آدم دلّ على إنسان مثله ، وعُرف ذلك بقرينة الحال ؛ فالمعنى وإن تسألوا عن أشياء حين يُنزَّل القرآن من تحليل أو تحريم أو حُكْم ، أو مسّت حاجتكم إلى التفسير ، فإذا سألتم فحينئذٍ تُبد لكم ؛ فقد أباح هذا النوع من السؤال : ومثاله أنه بيّن عِدّة المطلقة والمتوفى عنها زوجها والحامل ، ولم يجر ذكر عِدّةِ التي ليست بذات قُرء ولا حامل ، فسألوا عنها فنزل ﴿ واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض ﴾ [الطلاق : 4] .

فالنهي إذا في شيء لم يكن بهم حاجة إلى السؤال فيه ؛ فأما ما مسّت الحاجة إليه فلا .

السادسة قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا ﴾ أي عن المسئلة التي سلفت منهم .

وقيل : عن الأشياء التي سألوا عنها من أمور الجاهلية وما جرى مجراها .

وقيل : العفو بمعنى الترك ؛ أي تركها ولم يُعرف بها في حلال ولا حرام فهو معفو عنها فلا تبحثوا عنه فلعله إن ظهر لكم حكمه ساءكم .

وكان عُبيد بن عُمير يقول : إن الله أحل وحرّم فما أحلّ فاستحلوه ، وما حرّم فاجتنبوه ، وترك بين ذلك أشياء لم يحلّلها ولم يحرمها ، فذلك عفو من الله ، ثم يتلو هذه الآية .

وخرّج الدّارقُطْني عن أبي ثَعْلبة الخُشَني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى فرض فرائض فلا تُضيعوها وحَرّم حُرُمات فلا تَنتهكوها وحَدّد حدوداً فلا تعتدوها وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها " والكلام على هذا التقدير فيه تقديم وتأخير ؛ أي لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها إن تبد لكم تسؤكم ، أي أمسك عن ذكرها فلم يوجب فيها حُكماً .

وقيل : ليس فيه تقديم ولا تأخير ؛ بل المعنى قد عفا الله عن مسألتكم التي سلفت ، وإن كرهها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا تعودوا لأمثالها .

فقوله : "عنها" أي عن المسألة ، أو عن السؤالات كما ذكرناه .

السابعة قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ ﴾ أخبر تعالى أن قوماً من قبلنا قد سألوا آياتٍ مثلها ، فلما أعطوها وفرضت عليهم كفروا بها ، وقالوا : ليست من عند الله ؛ وذلك كسؤال قوم صالح الناقة ، وأصحاب عيسى المائدة ؛ وهذا تحذير ممّا وقع فيه من سبق من الأمم . والله أعلم .

الثامنة إن قال قائل : ما ذكرتم من كراهية السّؤال والنّهي عنه ، يعارضه قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43 والأنبياء : 7] فالجواب ؛ أن هذا الذي أمر الله به عباده هو ما تقرّر وثبت وجوبه مما يجب عليهم العمل به ، والذي جاء فيه

النهي هو ما لم يتعبد الله عباده به ؛ ولم يذكره في كتابه .

والله أعلم .

التاسعة روى مسلم عن عامر بن سعد عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أعظم المسلمين في المسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يُحرَّم على المسلمين فحُرم عليهم من أجل مسئلته " ، قال القُشَيْري أبو نصر : ولو لم يسأل العَجْلاني عن الزّنى لما ثبت اللّعَان .

قال أبو الفرج الجَوْزي : هذا محمول على من سأل عن الشيء عَنَتاً وعَبثاً فعوقب بسوء قصده بتحريم ما سأل عنه ؛ والتحريم يَعمّ .

(173/216)

العاشرة قال علماؤنا : لا تعلق للقَدَرية بهذا الحديث في أن الله تعالى يفعل شيئاً من أجل شيء وبسببه ، تعالى الله عن ذلك ؛ فإنّ الله على كل شيء قدير ، وهو بكل شيء عليم ؛ بل السبب والداعي فعل من أفعاله ، لكن سبق القضاء والقدر أن يحرم الشيء المسئول عنه إذا وقع السؤال فيه ؛ لا أن السؤال موجب للتحريم ، وعلّة له .

ومثله كثير ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء ﴾

هو اسمُ جمعٍ على رأي الخليل وسيبويه وجمهور البصريين ، كطرفاء وقصباء أصله شيآء بهمزتين بينهما ألف ، فقُلبت الكلمة بتقديم لامها على فائها فصار وزنها لفعاء ، ومُنعت الصرفَ

(174/216)

لألف التأنيث الممدودة ، وقيل : هو جمع شيْء على أنه مخفف من شيِّيء كهَيْنٍ مخففٌ من هيِّن ، والأصل أشْيِئاء كأهوناء بزنة أفعِلاء ، فاجتمعت همزتان لام الكلمة والتي للتأنيث ، إذ الألف كالهمزة فخففت الكلمة بأن قلبت الهمزة الأولى ياء لانكسار ما قبلها فصارت أشياء وزنها أفلاء ، ونعت الصرف لألف التأنيث ، وقيل : إنما حذفت من أشيِياءَ الياءُ المنقلبةُ من الهمزة التي هي لام الكلمة وفُتحت الياء المكسورة لتسلم ألف الجمع فوزنها أفعاء ، وقوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ صفةٌ لأشياء داعيةٌ إلى الانتهاء عن

السؤال عنها ، وحيث كانت المَساءةُ في هذه الشرطية معلقةً بإبدائها لا بالسؤال عنها عُقّبت بشرطية أخرى ناطقةٍ باستلزام السؤال عنها لإبدائها الموجِبِ للمحذور قطعاً ، فقيل : ﴿ وإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ ينزلُ القُرْآنُ تُبْدَ لَكُم ﴾ أي تلك الأشياء الموجِبة للمَساءة بالوحي كما ينبىء عنه تقييدُ السؤال بحينِ التنزيل ، والمراد بها ما يشُق عليهم ويغمُهم من التكاليف الصعبة التي لا يطيقونها ، والأسرارِ الخفية التي يفتضحون بظهورها ، ونحوُ ذلك مما لا خير فيه ، فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستَتْبِعٌ لإبدائها كذلك السؤالُ عن تلك التكاليف مستتبعٌ لإيجابها عليهم بطريق التشديد لإساءتهم الأدب ، واجترائِهم على المسألة والمراجعة ، وتجاوزِهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عز وجل من غير بحث فيه ولا تعرّضٍ لكيفيته وكمّيته ، أي لا تُكثروا مُساءلةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عما لا يَعْنيكم من نحو تكاليفَ شاقةٍ عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها حسبما أُوحيَ إليه لم تطيقوها ، ونحوِ بعضِ أمورٍ مستورة تكرهون بُروزَها ،

(175/216)

وذلك مِثلُ ما رُوي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال : خطبنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فحمِد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : " إن الله تعالى كتَب عليكم الحجَّ " فقام

رجل من بني أسدٍ يقال لهُ : عُكاشةُ بنِ مِحْصَنٍ ، وقيل : سُراقة بنُ مالك ، فقال : أفي كل عامٍ يا رسول الله ؟ فأعرضَ عنه حتى أعاد مسألَتَه ثلاثَ مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويحك وما يُؤْمِنُك أن أقول نعم ؟ والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبتْ ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم . فإنما هلَك من كان قبلَكم بكثرة سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتُكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتُكم عن شيء فاجتنبوه " ومِثلُ ما رُوي عن أنسٍ وأبي هريرة رضي الله عنهما ، أنه سأل الناسُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياءَ حتى أحفَوْه في المسألة ، فقام عليه الصلاة والسلام مغْضَباً خطيباً فحمِد الله تعالى وأثنى عليه وقال : " سلوني فوالله ما تسألوني عن شيءٍ ما دُمْت في مقامي هذا إلا بيّنتُه لكم " فأشفق أصحابُ النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون بين يَدَيْ أمرٍ قد حضَر ، قال أنسٌ رضي الله عنه : فجعلتُ ألتفتُ يميناً وشِمالاً فلا أجدُ رجلاً إلا وهو لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي ، فقام رجل من قريشٍ من بني سَهْمٍ يقال له : عبدُ اللَّه بنُ حُذافة ، وكان إذا لاحى الرجال يدعى إلى غير أبيه وقال : يا نبي الله ، مَنْ أبي ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : "أبوك حذافةُ بنُ قيسٍ الزهري" ، وقام آخرُ وقال : أين أبي ؟ قال عليه الصلاة والسلام : "في النار" ، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال : رضِينا بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً نبياً ، نعوذ بالله تعالى من الفتن ، إنا حديثو عهدٍ بجاهلية وشِرْكٍ فاعفُ عنا يا رسول الله ، فسكن غضبُه عليه الصلاة والسلام .

﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا ﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتِهم عن المَساءة ، بل لأنها في نفسها معصيةٌ مستتبِعةٌ للمؤاخذة وقد عفا عنها ، وفيه مِنْ حثّهم على الجِدّ في الانتهاء عنها ما لا يخفى ، وضميرُ (عنها) للمسألة المدلول عليها بلا تسألوا ، أي عفا الله تعالى عن مسائِلكم السالفةِ حيث لم يفرِضْ عليكم الحج في كل عام جزاءً بمسألتكم ، وتجاوَزَ عن عقوبتكم الأخروية بسائر مسائلكم ، فلا تعودوا إلى مثلها . وأما جعلُه صفةً أخرى (لأشياء) على أن الضمير (لها) بمعنى لا تسألوا عن أشياءَ عفا الله عنها ولم يكلّفْكم إياها فمما لا سبيل إليه أصلاً ، لاقتضائِه أن يكون الحجُّ قد فُرض أولاً في كل عامٍ ثم نُسخ بطريق العفو وأن يكون ذلك معلوماً للمخاطَبين ضرورةَ أن حقَّ الوصف أن يكونَ معلومَ الثبوت للموصوف عند المخاطب قبل جعلِه وصفاً له ، وكلاهما ضروريُّ الانتفاء قطعاً ، على أنه يستدعي اختصاصَ النهْي بمسألة الحجِّ ونحوِها إن سلِمَ وقوعُها ، مع أن النظم الكريمَ صريحٌ في أنه مَسوق للنهي عن السؤال عن الأشياء التي يسوؤُهم إبداؤُها ، سواءٌ كانت من قبيل الأحكام والتكاليفِ الموجبةِ لمَساءتهم بإنشائها وإيجابها

بسبب السؤال عقوبةً وتشديداً كمسألة الحج لولا عفوُه تعالى عنها ، أو من قبيل الأمور الواقعةِ قبل السؤال الموجبةِ للمساءة بالإخبار بها كمسألة مَنْ قال : أين أبي ؟

(177/216)

إن قلتَ تلك الأشياءُ غير مُوجبةٍ للمَساءة ألبتةَ ، بل هي محتمِلةٌ لإيجاب المَسرَّة أيضاً ، لأن إيجابَها للأولى إن كانت من حيث وجودُها فهي من حيث عدمُها موجبةٌ للأخرى قطعاً ، وليست إحدى الحيثيتَيْن محقّقةً عند السائل وإنما غَرَضُه من السؤال ظهورُها كيف كانت ، بل ظهورُها بحيثية إيجابها للمَساءة ؟ قلتُ : لتحقيق المنهيِّ عنه كما ستعرِفه مع ما فيه من تأكيد النهْي وتشديدِه ، لأن تلك الحيثيةَ هي الموجبةُ للانتهاء والانزجار ، لا حيثيةُ إيجابِها للمسرة ولا حيثيةُ تردّدِها بين الإيجابين .

إن قيل : الشرطية الثانية ناطقةٌ بأن السؤالَ عن تلك الأشياء الموجبة للمساءة مستلزمٌ لإبدائها ألبتةَ كما مر فلمَ تخلَّفَ الإبداءُ عن السؤال في مسألةِ الحج حيث لم يُفرَضْ في كل عام ؟ قلنا : لوقوع السؤال قبل ورودِ النهي ، وما ذُكر في الشرطية إنما هو السؤال الواقعُ بعد وروده ، إذ هو الموجبُ للتغليظ والتشديد ولا تخلُّفَ فيه ، إن قيل : ما ذكرتَه إنما يتمشى فيما إذا السؤالُ عن الأمور المترددةِ بين الوقوع وعدمِه كما ذُكرَ من التكاليف الشاقةِ ، وأما

إذا كان عن الأمور الواقعةِ قبله فلا يكادُ يتسنّى ، لأن ما يتعلق به الإبداءُ هو الذي وقع في نفس الأمرِ ولا مرد له ، سواء كان السؤالُ قبل النهي أو بعده ، وقد يكون الواقع ما يوجب المسرةَ كما في مسألة عبدِ اللَّه بنِ حذافةَ ، فيكون هو الذي يتعلق به الإبداءُ لا غيرُ ، فيتعين التخلُّفُ حتماً ، قلنا : لا احتمالَ للتخلف فضلاً عن التعيُّن ، فإن المنهيَّ عنه في الحقيقة إنما هو السؤالُ عن الأشياء الموجبةِ للمَساءة الواقعةِ في نفس الأمر قبل السؤال ، كسؤال من قال : أين أبي ؟ لا عما يعُمُّها وغيرَها مما ليس بواقع ، لكنه محتمِلٌ للوقوع عند المكلفين حتى يلزمَ التخلّفُ في صورةِ عدم الوقوع .

(178/216)

وجملة الكلام أن مدلول النظم الكريم بطريق العبارة إنما هو النهيُ عن السؤال عن الأشياء التي يوجبُ إبداؤها المساءةَ البتة ، إما بأن تكون تلك الأشياءُ بعَرَضية الوقوعِ فتُبدَى عند السؤال بطريق الإنشاء عقوبةً وتشديداً كما في صورة كونِها من قبيل التكاليف الشاقة ، وإما بأن تكون واقعةً في نفس الأمر قبل السؤال فتُبدى عنده بطريق الإخبار بها ، فالتخلفُ ممتنعٌ في الصورتين معاً ، ومنشأ توهّمِه عدمُ الفرق بين المنهي عنه وبين غيرِه بناءً على عدم امتياز ما هو موجودٌ أو بعَرَضية الوجود من تلك الأشياء في نفس الأمر وما ليس كذلك

عند المكلفين وملاحظتهم للكل باحتمال الوجود والعدم ، وفائدةُ هذا الإبهام الانتهاءُ عن السؤال عن تلك الأشياء على الإطلاق حِذارَ إبداء المكروه ﴿ واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لعفوه تعالى أي مبالغٌ في مغفرة الذنوب والإغضاءِ عن المعاصي ، ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخِذْكم بعقوبة ما فَرَط منكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(179/216)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء ﴾

ظاهر اللفظ كما قال ابن يعيش يقضي بكونها جمع شيء لأن فعلاً إذا كان متعل العين يجمع في القلة على أفعال نحو بيت وأبيات وشيخ وأشياخ إلا أنهم رأوها غير مصروفة في حال التنكير كما هنا فتشعبت آراء الجماعة فيها فذهب سيبويه والخليل إلى أن الهمزة للتأنيث وأن الكلمة اسم مفرد يراد به الجمع نحو الحلفاء والظرفاء فأشياء في الأصل شيئاء بهمزتين بينهما ألف فقدمت الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة على الفاء لاستثقال همزتين بينهما

ألف قبلهما حرف علة وهو الياء والهمزة الثانية زائدة للتأنيث ولذلك لا تنصرف ووزنها لفعاء ، وقصارى ما في هذا المذهب القلب وهو كثير في كلامهم ارتكبوه مع عدم الثقل كما في أينق وقسي ونحوهما فارتكابه مع الثقل أولى فلا يضر الاعتراض بأنه خلاف الأصل .

وذهب الفراء إلى أنها جمع شيء بياء مشددة وهمزة بوزن هين ولين إلا أنهم خففوه فقالوا شيء كميت في ميت وبعد التخفيف جمعوه على أشياء بهمزتين بينهما ألف بعد ياء بزنة افعلاء فاجتمعت همزتان إحداهما لام الكلمة والأخرى للتأنيث فخففوا ذلك بقلب الهمزة الأولى ياء ثم حذفوا الياء الأولى التي هي عين الكلمة فصار وزنه افعلاء ، وقيل : في تصريف هذا المذهب أنهم حذفوا الهمزة التي هي لام الكلمة لأن الثقل حصل بها فوزنها افعاء ومنع الصرف لهمزة التأنيث .

واستحسن هذا المذهب لو كان على أن أصل شيء بالتخفيف شيء بالتشديد دليل ، وذهب الأخفش إلى أنها جمع شيء بوزن فلس وأصلها أشيئاء بهمزتين بينهما ألف بعد ياء ثم عمل فيه ما مر .

ورده الزجاج بأن فعلاً لا يجمع على افعلاء ، وناظر أبو عثمان المازني الأخفش في هذه المسألة كما قال أبو علي في "التكملة" فقال : كيف تصغر أشياء قال أقول أشيآء فقال المازني : هلا رددتها إلى الواحد فقلت شييئات لأن أفعلاء لا تصغر فلم يأت بمقنع انتهى .

وأراد أن أفعلاء من أمثلة الكثرة وجموع الكثرة لا تصغر على ألفاظها وتصغر بآحادها ثم يجمع الواحد بالألف والتاء كقولك في تصغير درهم : دريهمات ، والجواب كما قال أبو علي عن ذلك بأن أفعلاء هنا جاز تصغيرها على لفظها لأنها قد صارت بدلاً من أفعال بدلالة استجازتهم إضافة العدد إليها كما أضيف إلى أفعال ، ويدل على كونها بدلاً أيضاً تذكيرهم العدد المضاف إليها في قولهم : ثلاثة أشياء فكما صارت بمنزلة أفعال في هذا الموضع بالدلالة المذكورة كذلك يجوز تصغيرها من حيث جاز تصغير أفعال ولم يمتنع تصغيرها على اللفظ من حيث امتنع تصغير هذا الوزن في غير هذا الموضع لارتفاع المعنى المانع من ذلك عن أشياء وهو أنها صارت بمنزلة أفعال وإن كان كذلك لم يجتمع في الكلمة ما يتدافع من إرادة التقليل والتكثير في شيء واحد انتهى ، ومراده كما قال ابن الشجري بأن فعلاء في هذا الموضع صارت بدلاً من أفعال أنه كان القياس في جمع شيء أشياء مصروفاً كقولك في جمع فيء أفياء على أن تكون همزة الجمع هي همزة الواحد ولكنهم أقاموا أشياء التي همزتها للتأنيث مقام أشياء التي وزنها أفعال ، واستدلاله في تجويز تصغير أشياء على لفظها بأنها صارت بدلاً من أفعال بدلالة أنهم أضافوا العدد إليها وألحقوه الهاء فقالوا ثلاثة أشياء مما لا يقوم به دلالة لأن أمثلة القلة وأمثلة الكثرة يشتركن في ذلك ، ألا ترى أنهم يضيفون العدد إلى أبنية الكثرة إذا عدم بناء القلة فيقولون : ثلاثة شسوع وخمسة دراهم ، وأما

إلحاق الهاء في قولنا : ثلاثة أشياء وإن كان أشياء مؤنثاً لأن الواحد مذكر ألا ترى أنك تقول ثلاثة : أنبياء وخمسة أصدقاء وسبعة شعراء فتلحق الهاء وإن كان لفظ الجمع مؤنثاً وذلك لأن الواحد نبي وصديق وشاعر كما أن واحد أشياء شيء فأي دلالة في قوله : ويدل على كونها بدلاً تذكيرهم العدد المضاف إليها الخ ثم قال : والذي يجوز أن يستدل به لمذهب الأخفش أن يقال : إنما جاز تصغير

(181/216)

افعلاء على لفظه وإن كان من أبنية الكثرة لأن وزنه نقص بحذف لامه فصار افعاء فشبهوه بأفعال فصغروه ، وذهب الكسائي إلى أنها جمع شيء كضيف وأضياف .

وأورد عليه منع الصرف من غير علة ويلزمه صرف أبناء وأسماء ، وقد استشعر الكسائي هذا الإيراد وأشار إلى دفعه بأنه على أفعال ولكن كثرت في الكلام فأشبهت فعلاء فلم يصرف كما لم يصرف حمراء ، وقد جمعوها على أشاوى كعذراء وعذارى وأشياوات كحمراء وحمراوات فعاملوا أشياء وإن كانت على أفعال معاملة حمراء وعذراء في جمعي التكسير والتصحيح .

ورد بأن الكثرة تقتضي تخفيفه وصرفه .

وأيده بعضهم بأن العرب قد اعتبروا في باب ما لا ينصرف الشبه اللفظي كما قيل في سراويل إنه منع من الصرف لشبهه بمصابيح وأجروا ألف الإلحاق مجرى ألف التأنيث المقصورة ولكن مع العلمية فاعتبروا مجرد الصورة فليكن هذا من ذلك القبيل ، وقيل : إنها جمع شيء ووزنها أفعلاء جمع فعيل كنصيب وأنصباء وصديق وأصدقاء وحذفت الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة وفتحت الياء لتسلم الألف فصارت أشياء بزنة أفعاء ، وجعل مكي تصريفه كمذهب الأخفش إذ أبدل الهمزة ياء ثم حذفت إحدى الياءين وحسن حذفها من الجمع حذفها من المفرد لكثرة الاستعمال وعدم الصرف لهمزة التأنيث الممدودة ، وهو حسن إلا أنه يرد عليه كما ورد على الأخفش مع إيرادات أخر ، وقيل غير ذلك ، وللشهاب عليه الرحمة :

أشياء لفعاء في وزن وقد قلبوا . . .

لاماً لها وهي قبل القلب شيئاء

وقيل أفعال لم تصرف بلا سبب . . .

منهم وهذا لوجه الرد إيماء أو أشياء

وحذف اللام من ثقل . . .

وشيء أصل شيء وهي آراء

وأصل أسماء اسماً وكمثل كسا . . .

فاصرفه حتماً ولا تغررك أسماء

واحفظ وقل للذي ينسى العلا سفها . . .

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

(182/216)

وظاهر صنيعه كغيره يشير إلى اختيار مذهب الخليل وسيبويه ، وقال غير واحد : إنه الأظهر لقولهم في جمعها أشاوى فجمعوها كما جمعوا صحراء على صحارى ، وأصله كما قال ابن الشجري أشايا بالياء لظهورها في أشياء لكنهم أبدلوها واواً على غير قياس كإبدالها واواً في قولهم جبيت الخراج جباوة ، وأيضاً يدل على أنها مفرد قولهم في تحقيرها أشيئاء كصحيراء ولو كانت جمعاً لقالوا شيآت على ما تقدمت الإشارة ، وتمام البحث في "أمالي ابن الشجري .

(183/216)

﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ صفة لأشياء داعية إلى الانتهاء عن السؤال عنها ، وعطف عليها قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القرءان تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أي بالوحي كما ينبىء عنه تقييد السؤال بحين نزول القرآن لأن المساءة في الشرطية الأولى معلقة بإبداء تلك الأشياء لا بالسؤال عنها فعقبها جل شأنه بما هو ناطق باستلزام السؤال عنها لإبدائها الموجب للمحذور ، فضمير ﴿ عَنْهَا ﴾ راجع إلى تلك الأشياء وليس على حد عندي درهم ونصفه كما وهم ، والمراد بها ما لا خير لهم فيه من نحو التكاليف الصعبة التي لا يطيقونها والأسرار الخفية التي قد يفتضحون بها ، فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لإبدائها كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبع لإيجابها عليهم بطريق التشديد لإساءتهم الأدب وتركهم ما هو الأولى بهم من الاستسلام لأمر الله تعالى من غير بحث فيه ولا تعرض لكيفيته وكميته ففي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : " خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس قد فرض الله تعالى عليكم الحج فحجوا " فقال رجل وهو كما قال ابن الهمام الأقرع بن حابس ، وصرح به أحمد والدارقطني والحاكم في حديث صحيح رووه على شرط الشيخين " أكل عام يا رسول الله فسكت عليه الصلاة والسلام حتى قالها ثلاثاً فقال صلى الله عليه وسلم : لو قلت : نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال صلى الله عليه وسلم : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان

قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه " وذكر كما قال ابن حبان أن الآية نزلت لذلك .

(184/216)

وأخرج مسلم وغيره أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه في المسألة فصعد ذات يوم المنبر وقال : " لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم فلما سمعوا ذلك أزموا ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر قال أنس رضي الله تعالى عنه : فجعلت أنظر يميناً وشمالاً فإذا كل رجل لاف رأسه في ثوبه يبكي فأنشأ رجل كان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه فقال : يا رسول الله من أبي ؟ قال : أبوك حذافة ، ثم أنشأ عمر رضي الله تعالى عنه فقال : رضينا بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً نعوذ بالله تعالى من الفتن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط " وذكر ابن شهاب أن أم ابن حذافة واسمه عبد الله قالت له لما رجع إليها : ما سمعت قط أعق منك أمنت أن تكون أمك قارفت بعض ما يقارف أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس فقال ابن حذافة : لو ألحقني بعبد أسود للحقته .

وأخرج غير واحد عن قتادة أن هذه الآية نزلت يومئذٍ .

ووجه اتصالها بما قبلها على الرواية الأولى ظاهر جداً لما أن الكلام فيما يتعلق بالحج .

وذكر الطبرسي في ذلك ثلاثة أوجه ، "الأول : أنها متصلة بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : 100] لأن من الفلاح ترك السؤال بما لا خير فيه ، والثاني : أنها متصلة بقوله سبحانه : ﴿ مَّا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ ﴾ [المائدة : 99] أي فإنه بلغ ما فيه المصلحة فلا تسألوه عما لا يعنيكم ، والثالث : أنها متصلة بقوله جل وعلا : ﴿ والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة : 99] أي فلا تسألوا عن تلك الأشياء فتظهر سرائركم2 .

﴿ عَفَا الله عَنْهَا ﴾ أي عن المسألة المدلول عليها بلا تسألوا .

(185/216)

والجملة استئناف مسوق لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة بل لأنها في نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا سبحانه عنها ، وفيه من حثهم على الجد في الانتهاء عنها ما لا يخفى أي عفا الله تعالى عن مسألتكم السالفة حيث لم يفرض عليكم الحج في كل عام جزاء لمسألتكم أو المراد تجاوز عن عقوبتكم الأخروية بسبب ذلك فلا تعودوا لمثله ، وقد يحمل العفو عنها على معنى شامل للتجاوز عن العقوبة الدنيوية والعقوبة

الأخروية واختاره بعض المحققين ، وجوز غير واحد كون الجملة صفة أخرى لأشياء والضمير المجرور عائد إليها وهو الرابط على معنى لا تسألوا عن أشياء لم يكلفكم الله تعالى بها .

واعترض بأن هذا يقتضي أن يكون الحج قد فرض أولاً ثم نسخ بطريق العفو وأن يكون ذلك معلوماً للمخاطبين ضرورة أن حق الوصف أن يكون معلوم الثبوت للموصوف عند المخاطب قبل جعله وصفاً له وكلاهما ضروري الانتفاء قطعاً على أنه يستدعي اختصاص النهي بمسألة الحج ونحوها مع أن النظم الكريم صريح في أنه مسوق للنهي عن السؤال عن الأشياء التي يسوءهم إبداؤها سواء كانت من قبيل الأحكام والتكاليف الموجبة لمساءتهم بإنشائها وإيجابها بسبب السؤال عقوبة وتشديداً كمسألة الحج لولا عفوه تعالى عنها أو من قبيل الأمور الواقعة قبل السؤال الموجبة للمساءة بالإخبار بها كما في سبب النزول على ما أخرج ابن جرير وغيره عن أبي هريرة قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال : أين أبي ؟ قال : في النار " وفسر بعضهم العفو عنها بالكف عن بيانها والتعرض لشأنها وحينئذٍ يوشك أن لا يتوجه هذا الاعتراض أصلاً ، وإلى التفسير الأول يشير كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، فقد أخرج مجاهد عنه أنه كان إذا سئل عن الشيء لم يجيء فيه أثر يقول : هو من العفو ثم يقرأ هذه الآية .

والذي ذهب إليه شيخ الإسلام عليه الرحمة هو الاستئناف لا غير لما علمت ، واستبعاد بعض الفضلاء ليس في محله .

ثم قال : "إن قلت تلك الأشياء غير موجبة للمساءة ألبتة بل هي محتملة لإيجاب المسرة أيضاً لأن إيجابها للأولى وإن كان من حيث وجودها فهي من حيث عدمها موجبة للأخرى قطعاً وليست إحدى الحيثيتين محققة عند السائل وإنما غرضه من السؤال ظهورها كيف كانت بل ظهورها بحيثية إيجابها للمسرة فلم (عبر) عنها بحيثية إيجابها للمساءة قلت : لتحقيق المنهي عنه كما ستعرفه مع ما فيه من تأكيد النهي وتشديده لأن تلك الحيثية هي الموجبة للانتهاء لا الحيثية الثانية ولا حيثية التردد بين الإيجابين ، فإن قيل : الشرطية الثانية ناطقة بأن السؤال عن تلك الأشياء الموجبة للمساءة مستلزم لإبدائها فلم تخلف الإبداء في مسألة الحج ولم يفرض كل عام ؟ قلنا : لوقوع السؤال قبل النهي وما في الشرطية إنما هو السؤال الواقع بعده إذ هو الموجب للتغليظ والتشديد ولا تخلف فيه .

فإن قيل : ما ذكر إنما يتمشى فيما إذا كان السؤال عن الأمور المترددة بين الوقوع وعدمه كما ذكر في التكاليف الشاقة وأما إذا كان عن الأمور الواقعة قبله فلا يكاد يتسنى لأن ما يتعلق

به الإبداء هو الذي وقع في نفس الأمر ولا مرد له سواء كان السؤال قبل أو بعد وقد يكون الواقع ما يوجب المسرة كما في مسألة ابن حذافة فيكون هو متعلق الإبداء لا غيره فيتعين التخلف حتماً .

قلنا : لا احتمال له فضلاً عن تعينه فإنه المنهي عنه في الحقيقة إنما هو السؤال عن الأشياء الموجبة للمساءة الواقعة في نفس الأمر قبل السؤال كسؤال من قال : أين أبي ؟ لا ما يعمها وغيرها مما ليس بواقع لكنه محتمل الوقوع عند المكلفين حتى يلزم التخلف في صورة عدم الوقوع .

(187/216)

وجملة الكلام أن مدلول النظم الكريم بطريق العبارة إنما هو النهي عن السؤال عن الأشياء التي يوجب إبداؤها المساءة ألبتة إما بأن تكون تلك الأشياء بعرضية الوقوع فتبدى عند السؤال بطريق الإنشاء عقوبة وتشديداً كما في صورة كونها من قبيل التكاليف الشاقة ، وإما بأن تكون واقعة في نفس الأمر قبل السؤال فتبدى عنده بطريق الإخبار بها فالتخلف ممتنع في الصورتين معاً ، ومنشأ توهمه عدم الفرق بين المنهي عنه وغيره بناءً على عدم امتياز ما هو موجود أو بعرضية الوجود من تلك الأشياء في نفس الأمر وما ليس كذلك عند

المكلفين وملاحظتهم للكل باحتمال الوجود والعدم ، وفائدة هذا الإبهام الانتهاء عن تلك الأشياء على الإطلاق حذار إبداء المكروه" انتهى وهو تحرير لم يسبق إليه .

﴿ واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أي مبالغ في مغفرة الذنوب والإغضاء عن المعاصي ولذلك عفا سبحانه عنكم ولم يعاقبكم بما فرط منكم ، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما سبق من عفوه تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(188/216)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

وهذا نهي عن السؤال ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : " ذروني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه " .

ونعرف أن بني إسرائيل شددوا على أنفسهم عندما أخذوا يماطلون في أمر ذبح البقرة ، وتساءلوا عن لونها ، وشددوا فشدد الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة لكانت مقبولة

منهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى جاءت البقرة الموصوفة ملكاً ليتيم ، كان هذا اليتيم ابناً لرجل صالح وكانت له عِجْلة فأتى بها موضعا كثير الشجر والمرعى وقال : اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر وعندما ساوموا اليتيم على ثمنها باعها لهم بملء جلدها ذهباً .

" وقد شدد بعض الناس في سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أبي ؟

فأجاب رسول الله : أبوك حذافة . ولو فرضنا أن هذا السائل كان ينسب لغير أبيه ألا يكون في ذلك فضيحة لأمه وقد قالت له أمه : ما رأيت أعق منك قط ، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس " .

لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس في الأمور التي تؤدي بهم إلى المشقة والتعب وتسيء إليهم وتقبل الحق من رسوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشريعة مثل سؤالهم عن الخمر والأهلة والحيض والشهر الحرام وغيرها . أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق في شأنها : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

(189/216)

ذلك أن البعض استمرأ السؤال وكأنه يمتحن النبي صلى الله عليه وسلم . ولذلك جاء الأمر بألا يتعمد المؤمنون السؤال عما ستره الله عنهم كي لا ينفضح عرضهم . ﴿ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ فإن نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها . وإن لم تأت الإجابة فلا يقولن أحد : إن النبي ليس عنده جواب . أو هي سؤال عن الأشياء التي اقترحوها ادعاء منهم أنها تثبت صدق النبوة فقد حكى الله عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 90-93] .

لقد ظهر من هذا القول سوء النية المبيتة منهم ، فالرسول لن يأتي بالآيات ، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلف به ؛ لأن الرسول لا يختار ما يُؤْتى به من آيات ، ولكن الحق هو الذي يرسل الآيات المناسبة .

ولذلك يقول الحق : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

رَوَى قَيْسُ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي حُصَيْنٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضْبَانَ قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ ، فَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَجَبْتُكُمْ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : أَيْنَ أَنَا ؟ فَقَالَ : فِي النَّارِ فَقَامَ إِلَيْهِ آخَرُ فَقَالَ : مَنْ أَبِي ؟ فَقَالَ : أَبُوكَ حُذَافَةُ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ : رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَشِرْكٍ وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَنْ آبَاؤُنَا ؛ فَسَكَنَ غَضَبُهُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ ﴾ .

رَوَى إبْرَاهِيمُ الْهِجْرِيُّ عَنْ أَبِي عِيَاضٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ سُئِلَ عَنْ الْحَجِّ أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ نَحْوَ ذَلِكَ .

وَرَوَى عِكْرِمَةُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ مَنْ أَبِي .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : فِي الَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ .

وَقَالَ مِقْسَمٌ : فِيمَا سَأَلَتْ الْأُمَمُ أَنْبِيَاءَهُمْ مِنْ الْآيَاتِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْسَ يَمْتَنِعُ تَصْحِيحُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ كُلِّهَا فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ ، فَيَكُونُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ : لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إلَّا أَجَبْتُكُمْ سَأَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ عَنْ أَبِيهِ مَنْ هُوَ ، لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ يُتَكَلَّمُ فِي نَسَبِهِ ، وَسَأَلَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الَّذِينَ ذُكِرَ عَنْهُمْ هَذِهِ الْمَسَائِلُ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ﴾ يَعْنِي عَنْ مِثْلِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِمْ حَاجَةٌ إلَيْهَا ؛ فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ فَقَدْ كَانَ نَسَبُهُ مِنْ حُذَافَةَ ثَابِتًا بِالْفِرَاشِ ، فَلَمْ يَحْتَجْ إلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ كَوْنِهِ مِنْ مَاءِ مَنْ هُوَ مِنْهُ ، وَلِأَنَّهُ كَانَ لَا يَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَاءِ غَيْرِهِ فَيَكْشِفُ عَنْ أَمْرٍ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَهْتِكُ أُمَّهُ وَيَشِينُ نَفْسَهُ بِلَا طَائِلٍ وَلَا فَائِدَةٍ لَهُ فِيهِ ، لِأَنَّ نَسَبَهُ حِينَئِذٍ مَعَ كَوْنِهِ مِنْ مَاءِ غَيْرِهِ ثَابِتٌ مِنْ حُذَافَةَ لِأَنَّهُ صَاحِبُ الْفِرَاشِ ، فَلِذَلِكَ قَالَتْ لَهُ : لَقَدْ عَقَقْتَنِي بِسُؤَالِك ، فَقَالَ : لَمْ تَسْكُنْ نَفْسِي إلَّا بِإِخْبَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ .

فَهَذَا مِنْ الْأَسْئِلَةِ الَّتِي كَانَ ضَرَرُ الْجَوَابِ عَنْهَا عَلَيْهِ كَانَ كَثِيرًا لَوْ صَادَفَ غَيْرَ الظَّاهِرِ ، فَكَانَ مَنْهِيًّا عَنْهُ .

أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ أَتَى شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ مَنْ أَبْدَى لَنَا صَفْحَةً أَقَمْنَا عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَقَالَ لِهُزَالٍ وَكَانَ أَشَارَ عَلَى مَاعِزٍ بِالْإِقْرَارِ بِالزِّنَا : لَوْ سَتَرْتَه بِثَوْبِك كَانَ خَيْرًا لَك ﴾ وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ أَنَا ؟ قَدْ كَانَ غَنِيًّا عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَالسِّتْرُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا فَهَتْكُ سِتْرِهِ وَقَدْ كَانَ السِّتْرُ أَوْلَى بِهِ .

وَكَذَلِكَ الْمَسْأَلَةُ عَنْ الْآيَاتِ مَعَ ظُهُورِ مَا ظَهَرَ مِنْ الْمُعْجِزَاتِ مَنْهِيٌّ غَيْرُ سَائِغٍ لِأَحَدٍ ؛ لِأَنَّ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ تَبَعًا لِأَهْوَاءِ الْكُفَّارِ وَشَهَوَاتِهِمْ .

فَهَذَا النَّحْوُ مِنْ الْمَسَائِلِ مُسْتَقْبَحَةٌ مَكْرُوهَةٌ ، وَأَمَّا سُؤَالُ الْحَجِّ فِي كُلِّ عَامٍ فَقَدْ كَانَ عَلَى سَامِعِ آيَةِ الْحَجِّ الِاكْتِفَاءُ بِمُوجَبِ حُكْمِهَا مِنْ إيجَابِهَا حَجَّةً وَاحِدَةً ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّهَا حَجَّةٌ وَاحِدَةٌ وَلَوْ قُلْت نَعَمْ لَوَجَبَتْ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ قَالَ نَعَمْ لَوَجَبَتْ بِقَوْلِهِ دُونَ الْآيَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ بِهِ حَاجَةٌ إلَى الْمَسْأَلَةِ مَعَ إمْكَانِ الِاجْتِزَاءِ بِحُكْمِ الْآيَةِ .

وَأَبْعَدُ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ قَوْلُ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ سُؤَالُهُ عَنْ مَعْنَى الْبَحِيرَةِ مَا هُوَ أَوْ عَنْ جَوَازِهَا .

وَقَدْ كَانَتْ الْبُحَيْرَةُ وَمَا ذُكِرَ مَعَهَا أَسْمَاءٌ لِأَشْيَاءَ مَعْلُومَةٍ عِنْدَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَمْ يَكُونُوا يَحْتَاجُونَ إلَى الْمَسْأَلَةِ عَنْهَا ؛ وَلَا يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ السُّؤَالُ وَقَعَ عَنْ إبَاحَتِهَا وَجَوَازِهَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ كُفْرًا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إلَى أَوْثَانِهِمْ ، فَمَنْ اعْتَقَدَ الْإِسْلَامَ فَقَدْ عَلِمَ بُطْلَانَهُ .

وَقَدْ احْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَوْمٌ فِي حَظْرِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ ، وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِمَا رَوَاهُ الزُّهْرِيُّ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ حَرَامًا فَحَرُمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى حَظْرِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ ، لِأَنَّهُ إنَّمَا قَصَدَ بِهَا إلَى النَّهْيِ عَنْ الْمَسْأَلَةِ عَنْ أَشْيَاءَ أَخْفَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَاسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهَا وَهُمْ غَيْرُ مُحْتَاجِينَ إلَيْهَا بَلْ عَلَيْهِمْ فِيهَا ضَرَرٌ إنْ أُبْدِيَتْ لَهُمْ ، كَحَقَائِقِ الْأَنْسَابِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ ﴾ فَلَمَّا سَأَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ عَنْ حَقِيقَةِ خَلْقِهِ مِنْ مَاءِ مَنْ هُوَ دُونَ مَا حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نِسْبَتِهِ إلَى الْفِرَاشِ ، نَهَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي قَالَ : أَيْنَ أَنَا ؟ لَمْ يَكُنْ بِهِ حَاجَةٌ إلَى كَشْفِ عَيْبِهِ فِي كَوْنِهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَكَسُؤَالِ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ .

وَفِي فَحْوَى الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْحَظْرَ تَعَلَّقَ بِمَا وَصَفْنَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ يَعْنِي الْآيَاتِ الَّتِي سَأَلُوهَا الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ فَأَعْطَاهُمْ اللَّهُ إيَّاهَا .

وَهَذَا تَصْدِيقُ تَأْوِيلِ مِقْسَمٍ .

فَأَمَّا السُّؤَالُ عَنْ أَحْكَامٍ غَيْرِ مَنْصُوصَةٍ فَلَمْ يَدْخُلْ فِي حَظْرِ الْآيَةِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ نَاجِيَةَ بْنَ جُنْدُبٍ لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ الْبُدْنَ لِيَنْحَرَهَا بِمَكَّةَ قَالَ : كَيْفَ أَصْنَعُ بِمَا عَطِبَ مِنْهَا ؟ فَقَالَ : ﴿ انْحَرْهَا وَاصْبُغْ نَعْلَهَا بِدَمِهَا وَاضْرِبْ بِهَا صَفْحَتَهَا وَخَلِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّاسِ وَلَا تَأْكُلْ أَنْتَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ رُفْقَتِك شَيْئًا ﴾ وَلَمْ يُنْكِرْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُؤَالَهُ .

وَفِي حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّهُمْ سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّا لَاقُو الْعَدُوِّ غَدًا وَلَيْسَ مَعَنَا مُدًى ، فَلَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِ .

وَحَدِيثُ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ فِي الرَّجُلِ الَّذِي سَأَلَهُ عَمَّا يَصْنَعُ فِي عُمْرَتِهِ ، فَلَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِ .

وَأَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي سُؤَالِ قَوْمٍ سَأَلُوهُ عَنْ أَحْكَامِ شَرَائِعِ الدِّينِ فِيمَا لَيْسَ بِمَنْصُوصٍ عَلَيْهِ غَيْرُ مَحْظُورٍ عَلَى أَحَدٍ .

وَرَوَى شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غُنْمٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿ إنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَك عَنْ أَمْرٍ وَيَمْنَعُنِي مَكَانُ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ﴾ ، فَقَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْت : الْعَمَلُ الَّذِي يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : قَدْ سَأَلْت عَظِيمًا وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ شَهَادَةُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَحَجُّ الْبَيْتِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ ﴾ فَلَمْ يَمْنَعْهُ السُّؤَالُ وَلَمْ يُنْكِرْهُ .

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ عَنْ الْأَحْنَفِ عَنْ عُمَرَ قَالَ : (تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا) ، وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْتَمِعُونَ فِي الْمَسْجِدِ يَتَذَاكَرُونَ حَوَادِثَ الْمَسَائِلِ فِي الْأَحْكَامِ ، وَعَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ جَرَى أَمْرُ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ الْفُقَهَاءِ إلَى يَوْمِنَا هَذَا .

وَإِنَّمَا أَنْكَرَ هَذَا قَوْمٌ حَشْوٌ جُهَّالٌ قَدْ حَمَلُوا أَشْيَاءَ مِنْ الْأَخْبَارِ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِمَعَانِيهَا وَأَحْكَامِهَا فَعَجَزُوا عَنْ الْكَلَامِ فِيهَا وَاسْتِنْبَاطِ فِقْهِهَا ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ﴾ وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ الْمُنْكِرَةُ لِذَلِكَ

كَمَنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ .

(196/216)

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ إنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ مَعْنَاهُ : إنْ تَظْهَرْ لَكُمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُ فِيمَنْ سَأَلَ مِثْلَ سُؤَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ وَالرَّجُلِ الَّذِي قَالَ أَيْنَ أَنَا ؛ لِأَنَّ إظْهَارَ أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ لَا يَسُوءُ السَّائِلِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ إنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهَا لِيَعْلَمُوا أَحْكَامَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ يَعْنِي : فِي حَالِ نُزُولِ الْمَلَكِ وَتِلَاوَتِهِ الْقُرْآنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ يُظْهِرُهَا لَكُمْ وَذَلِكَ مِمَّا يَسُوءُكُمْ وَيَضُرُّكُمْ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ يَعْنِي هَذَا الضَّرْبَ مِنْ الْمَسَائِلِ لَمْ يُؤَاخِذْكُمْ اللَّهُ بِهَا بِالْبَحْثِ عَنْهَا وَالْكَشْفِ عَنْ حَقَائِقِهَا .

وَالْعَفْوُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ التَّسْهِيلُ وَالتَّوْسِعَةُ فِي إبَاحَةِ تَرْكِ السُّؤَالِ عَنْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ وَمَعْنَاهُ : سَهَّلَ عَلَيْكُمْ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (الْحَلَالُ مَا أَحِلَّ اللَّهُ ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ)

يَعْنِي تَسْهِيلٌ وَتَوَسُّعَةٌ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ عَفَوْت لَكُمْ عَنْ صَدَقَةِ الْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(197/216)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاَللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : ﴿ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطْبَةً مَا سَمِعْنَا مِثْلَهَا .

قَالَ : لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا .

قَالَ : فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُجُوهَهُمْ ، وَلَهُمْ حُنَيْنٌ .

فَقَالَ رَجُلٌ : مَنْ أَبِي ؟ فَقَالَ : أَبُوكَ فُلَانٌ ﴾ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ

أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

الثَّانِي : ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، ﴿ كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتِهْزَاءً ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ : مَنْ أَبِي ؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ : تَضِلُّ نَاقَتُهُ : أَيْنَ نَاقَتِي ﴾ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

الثَّالِثُ : رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : ﴿ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ قَالَ : لَا .

(198/216)

وَلَوْ قُلْت : نَعَمْ لَوَجَبَتْ ﴾ .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بَعْضُهُ .

الرَّابِعُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْبَحِيرَةِ ، وَالسَّائِبَةِ ، وَالْوَصِيلَةِ ، وَالْحَامِ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ : هَذَا الْمَسَاقُ يُعَضِّدُ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ رِوَايَةَ مَنْ رَوَى أَنَّ سَبَبَهَا سُؤَالُ ذَلِكَ الرَّجُلِ : مَنْ أَبِي ؟ لِأَنَّهُ لَوْ كَشَفَ لَهُ عَنْ سِرِّ أُمِّهِ رُبَّمَا كَانَتْ قَدْ بَغَتْ عَلَيْهِ فَيَلْحَقُ الْعَارُ بِهِمْ .

وَلِذَلِكَ رُوِيَ أَنَّ أُمَّ السَّائِلِ قَالَتْ لَهُ : يَا بُنَيَّ ؛ أَرَأَيْت أُمَّك لَوْ قَارَفَت بَعْضَ مَا كَانَ يُقَارِفُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، أَكُنْت تَفْضَحُهَا ؟ فَكَانَ السَّتْرُ أَفْضَلَ .

وَيُعَضِّدُهُ أَيْضًا رِوَايَةُ مَنْ رَوَى عَنْ تَفْسِيرِ فَرْضِ الْحَجِّ ؛ فَإِنَّ تَكْرَارَهُ مُسْتَثْنًى لِعَظِيمِ الْمَشَقَّةِ فِيهِ ، وَعَظِيمِ الِاسْتِطَاعَةِ عَلَيْهِ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِأَشْيَاءَ فَامْتَثِلُوهَا ، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فَاجْتَنِبُوهَا ، وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً مِنْهُ ، فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا ﴾ .

(199/216)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ : وَهَذَا يَشْهَدُ لِكَوْنِهَا مِنْ بَابِ التَّكْلِيفِ الَّذِي لَا يُبَيِّنُهُ إلَّا نُزُولُ الْقُرْآنِ ، وَجَعَلَ نُزُولَ الْقُرْآنِ سَبَبًا لِوُجُوبِ الْجَوَابِ ؛ إذْ لَا شَرْعَ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَقِّقُ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ أَيْ أَسْقَطَهَا ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : وَالَّذِي يَسْقُطُ لِعَدَمِ بَيَانِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِيهِ وَسُكُوتِهِ عَنْهُ هُوَ بَابُ التَّكْلِيفِ فَإِنَّهُ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَخْتَلِفُ الْعُلَمَاءُ فِيهِ ، فَيُحَرِّمُ عَالِمٌ ، وَيُحِلُّ آخَرُ ، وَيُوجِبُ مُجْتَهِدٌ .

وَيُسْقِطُ آخَرُ ؛ وَاخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ رَحْمَةٌ لِلْخَلْقِ ، وَفُسْحَةٌ فِي الْحَقِّ ، وَطَرِيقٌ مَهْيَعٌ إلَى الرِّفْقِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ : فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَوْمُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَائِدَةِ .

الثَّانِي : قَوْمُ صَالِحٍ فِي النَّاقَةِ .

الثَّالِثُ : قُرَيْشٌ فِي الصَّفَا ذَهَبًا .

الرَّابِعُ : بَنُو إسْرَائِيلَ ، كَانَتْ تَسْأَلُ : فَإِذَا عَرَفَتْ بِالْحُكْمِ لَمْ تُقِرَّ وَلَمْ تَمْتَثِلْ .

(200/216)

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ عَامٌّ فِي الْكُلِّ ، وَلَقَدْ كَفَرَتْ الْعِيسَوِيَّةُ بِعِيسَى وَبِالْمَائِدَةِ ، وَالصَّالِحِيَّةُ بِالنَّاقَةِ ، وَالْمَكِّيَّةُ بِكُلِّ مَا شَهِدَتْ مِنْ آيَةٍ ، وَعَايَنَتْ مِنْ مُعْجِزَةٍ مِمَّا سَأَلَتْهُ وَمِمَّا لَمْ تَسْأَلْهُ عَلَى كَثْرَتِهَا ؛ وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ مَنْ سَبَقَ مِنْ الْأُمَمِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : اعْتَقَدَ قَوْمٌ مِنْ الْغَافِلِينَ تَحْرِيمَ أَسْئِلَةِ النَّوَازِلِ حَتَّى تَقَعَ تَعَلُّقًا بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَهُوَ جَهْلٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ صَرَّحَتْ بِأَنَّ السُّؤَالَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ إنَّمَا كَانَ فِيمَا تَقَعُ الْمَسَاءَةُ فِي جَوَابِهِ ، وَلَا مَسَاءَةَ فِي جَوَابِ نَوَازِلِ الْوَقْتِ ، وَقَدْ كَانَ مَنْ سَلَفَ مِنْ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَكْرَهُهَا أَيْضًا ، وَيَقُولُ فِيمَا يَسْأَلُ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ : دَعُوهُ دَعُوهُ حَتَّى يَقَعَ ، يُرِيدُ : فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَئِذٍ يُعِينُ عَلَى جَوَابِهِ ، وَيَفْتَحُ إلَى الصَّوَابِ مَا اسْتَبْهَمَ مِنْ بَابِهِ ؛ وَتَعَاطِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ غُلُوٌّ فِي الْقَصْدِ ، وَسَرَفٌ مِنْ الْمُجْتَهِدِ ؛ وَقَدْ وَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى رَبِيعَةَ الرَّأْيِ وَهُوَ يُفَرِّعُ الْمَسَائِلَ ، فَقَالَ : مَا الْعِيُّ عِنْدَنَا إلَّا مَا هَذَا فِيهِ مُنْذُ الْيَوْمِ .

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَنِيَ بِبَسْطِ الْأَدِلَّةِ ، وَإِيضَاحِ سُبُلِ النَّظَرِ ، وَتَحْصِيلِ مُقَدِّمَاتِ الِاجْتِهَادِ ، وَإِعْدَادِ الْآلَةِ الْمُعِينَةِ عَلَى الِاسْتِمْدَادِ ؛ فَإِذَا عَرَضَتْ النَّازِلَةُ أُتِيَتْ مِنْ بَابِهَا ، وَنُشِدَتْ فِي مَظَانِّهَا ، وَاللَّهُ يَفْتَحُ فِي صَوَابِهَا .

(201/216)

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : وَهُمْ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي ثَلَاثَةِ فُصُولٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ : إنَّ قَوْلَهُ : ﴿ لَا تَسْأَلُوا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ تَسُؤْكُمْ ﴾ سُؤَالٌ عَمَّا لَا يَعْنِي ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلْ هُوَ سُؤَالٌ عَمَّا يَضُرُّ وَيَسُوءُ ، فَفَرَّقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ عَنْ شَيْءٍ يَضُرُّ .

وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَمَّا لَا يَعْنِي .

وَهَذَا بَيِّنٌ .

الثَّانِي : قَالَ : قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ يَعْنِي : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ غَيْرِهَا ؛ لِأَنَّهُ نَهَاهُمْ فَكَيْفَ يَنْهَاهُمْ وَيَقُولُ : إنَّهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ إنْ سَأَلُوهُ عَنْهَا .

وَهَذَا اسْتِبْعَادٌ مَحْضٌ عَارٍ عَنْ الْبُرْهَانِ ؛ وَأَيُّ فَرْقٍ أَوْ أَيُّ اسْتِحَالَةٍ فِي أَنْ يُقَالَ : لَا تَسْأَلْ ، فَإِنَّك إنْ سَأَلْت يُبَيِّنُ لَك مَا يَسُوءُك ، فَالسُّكُوتُ عَنْهُ أَوْلَى بِك ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ عَفَا عَنْهَا لَك .

الثَّالِثُ : قَوْلُهُ : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ : قَالَ : فَهَذَا السُّؤَالُ لِغَيْرِ الشَّيْءِ ، وَالْأَوَّلُ وَالثَّانِي هُوَ سُؤَالٌ عَنْ غَيْرِ الشَّيْءِ ، وَهَذَا كَلَامٌ فَاتِرٌ ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ ضِدُّهُ حِينَ قَالَ : إنَّ السُّؤَالَ الثَّانِيَ هُوَ سُؤَالٌ عَنْ الشَّيْءِ ، وَفِيمَا قَدَّمْنَاهُ بَلَاغٌ فِي الْآيَةِ ، وَاَللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(202/216)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) ﴾

أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال " خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال رجل : من أبي ؟ قال فلان ، فنزلت هذه الآية ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق قتادة عن أنس " في قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ أن الناس سألوا نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج ذات يوم حتى صعد المنبر فقال : لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أنبأتكم به ، فلما سمع ذلك القوم أرموا وظنوا أن ذلك بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت التفت عن يميني وشمالي ، فإذا كل رجل لاف ثوبه برأسه يبكي ، فأتاه رجل فقال : يا رسول الله ، من أبي ؟ قال : أبوك حذافة ، وكان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه ، فقال عمر بن الخطاب : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، ونعوذ بالله من سوء الفتن . قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط ، إن الجنة والنار مثلتا لي حتى رأيتهما دون الحائط " قال قتادة : وإن الله يريه ما لا ترون ، ويسمعه ما لا تسمعون . قال : وأنزل عليه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا

عن أشياء . . ﴾ الآية . قال قتادة : وفي قراءة أبي بن كعب " قد سألها قوم بينت لهم فأصبحوا بها كافرين " .

(203/216)

وأخرج البخاري وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان ناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء ، فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ حتى فرغ من الآية كلها .

وأخرج ابن جرير " عن ابن عون قال : سألت عكرمة مولى ابن عباس عن قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ قال : ذاك يوم قام فيهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ، فقام رجل فكره المسلمون مقامه يومئذ ، فقال : يا رسول الله ، من أبي ؟ قال : أبوك حذافة . فنزلت هذه الآية " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن طاوس قال " نزلت ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ في رجل قال : يا رسول الله من أبي ؟ قال : أبوك فلان " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي " في قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا

عن أشياء . . . ﴾ الآية . قال : غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من الأيام فقام خطيباً ، فقال : سلوني فإنكم لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة – وكان يطعن فيه – فقال : يا رسول الله ، من أبي ؟ قال : أبوك فلان ، فدعاه لأبيه ، فقام إليه عمر فقبل رجله ، وقال : يا رسول الله ، رضينا بالله رباً ، وبك نبياً ، وبالقرآن إماماً ، فاعف عنا عفا الله عنك ، فلم يزل به حتى رضي ، فيومئذ قال : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وأنزل عليه ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ﴾ " .

(204/216)

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر ، فقام إليه رجل فقال : أين آبائي ؟ قال : في النار . فقام آخر فقال : من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة . فقام عمر بن الخطاب فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً ، إنا يا رسول الله حديث عهد بجاهلية وشرك ، والله أعلم مَنْ آباؤنا ، فسكن غضبه ، ونزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ " .

وأخرج ابن حبان عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال : أيها الناس إن الله تعالى قد افترض عليكم الحج ، فقام رجل فقال : لكل عام يا رسول الله ؟ فسكت عنه حتى أعادها ثلاث مرات قال : لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما قمتم بها ، ذروني ما تركتكم فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وذكر أن هذه الآية في المائدة نزلت في ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " يا أيها الناس كتب الله عليكم الحج . فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال : أفي كل عام يا رسول الله ؟ قال : أما أني لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ثم تركتكم لضللتم ، اسكتوا عني ما سكت عنكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ إلى آخر الآية " .

(205/216)

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة الباهلي قال " قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فقال : إن الله تعالى كتب عليكم الحج . فقال رجل من الأعراب : أفي كل عام ؟ فسكت طويلاً ثم تكلم ، فقال : من السائل ؟ فقال : أنا ذا . فقال : ويحك . . ! ماذا يؤمنك أن أقول نعم ؟ والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لتركتم ، ولو تركتم لكفرتم ، ألا أنه إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج والله لو أني أحللت لكم جميع ما في الأرض من شيء ، وحرمت عليكم منها موضع خف بعير لوقعتم فيه ، وأنزل الله عند ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ إلى آخر الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كتب الله عليكم الحج . فقال رجل : يا رسول الله ، كل عام ؟ فأعرض عنه ثم قال : والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما أطقتموها ، ولو تركتموها لكفرتم ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أين أبي ؟ قال : في النار . ثم جاء آخر فقال : يا رسول الله ، الحج كل عام ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحول وركه فدخل البيت ، ثم خرج فقال : لم تسألوني عما لا أسألكم عنه ؟ ! ثم قال : والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت عليكم كل عام ثم لكفرتم ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء . . . ﴾ الآية " .

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم وابن مردويه عن علي قال " لما نزلت ﴿ ولله على الناس حجُّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] قالوا : يا رسول الله ، أفي كل عام ؟ فسكت ثم قالوا : أفي كل عام ؟ قال : لا : ولو قلت نعم لوجبت ، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم ﴾ " .

(206/216)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال " لما نزلت آية الحج أذن النبي صلى الله عليه وسلم في الناس ، فقال : يا أيها الناس ، إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا . فقالوا : يا رسول الله ، أعاماً واحداً أم كل عام ؟ فقال : لا ، بل عاماً واحداً ، ولو قلت كل عام لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم ، وأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في الناس فقال : يا قوم ، كتب عليكم الحج ، فقام رجل من بني أسد فقال : يا رسول الله ، أفي كل عام ؟ فغضب غضباً شديداً فقال : والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم وإذن لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، وإذا أمرتكم

بشيء فافعلوا ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ، فأنزل الله ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت النصارى من المائدة ، فأصبحوا بها كافرين ، فنهى الله عن ذلك وقال ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ أي إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ولكن انتظروا ، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد " في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج . فقيل : أواجب هو يا رسول الله كل عام ؟ قال : لا ، ولو قلتها لوجبت عليكم كل عام ، ولو وجبت ما أطقتم ، ولو لم تطيقوا لكفرتم ، ثم قال : سلوني فلا يسألني رجل في مجلسي هذا عن شيء إلا أخبرته ، وإن سألني عن أبيه . فقام إليه رجل فقال : من أبي ؟ قال : أبوك حذافة بن قيس . فقام عمر فقال : يا رسول الله ، رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، ونعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله " .

(207/216)

وأخرج ابن المنذر عن سعد بن أبي وقاص قال : " إن كانوا ليسألون عن الشيء وهو لهم حلال ، فما يزالون يسألون حتى يحرم عليهم ، وإذا حرم عليهم وقعوا فيه " .

وأخرج الشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن المنذر عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن لله حد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة منه لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق خصيف عن مجاهد عن ابن عباس . في قوله ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ قال : يعني البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، ألا ترى أنه يقول بعد ذلك : ما جعل الله من كذا ولا كذا قال : وأما عكرمة فإنه قال : إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك ، ثم قال ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ قال : فقلت : قد حدثني مجاهد بخلاف هذا عن ابن عباس فما لك تقول هذا ؟ فقال : هاه " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق عبد الكريم عن عكرمة في قوله تعالى ﴿ يا أيها

الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ قال : هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم : من أبي ؟ وأما سعيد بن جبير فقال : هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البحيرة والسائبة ، وأما مقسم فقال : هي فيما سألت الأمم أنبياءها عن الآيات .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن نافع في قوله ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ قال : ما زال كثرة السؤال مذ قط تكره .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم . أنه قرأ ﴿ تبد لكم ﴾ برفع التاء ونصب الدال .

(208/216)

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الملك بن أبي جمعة الأزدي قال : سألت الحسن عن كسب الكناس فقال لي : ويحك . . . ! ما تسأل عن شيء لو ترك في منازلكم لضاقت عليكم ، ثم تلا هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ .

وأخرج أحمد وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع ، وهو مردف الفضل بن عباس على جمل آدم ، فقال : يا أيها الناس ، خذوا العلم قبل رفعه وقبضه . قال : وكنا نهاب مسألته بعد تنزيل الله الآية ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ فقدمنا إليه أعرابياً ، فرشوناه برداء على

مسألته فاعتم بها حتى رأيت حاشية البرد على حاجبه الأيمن ، وقلنا له : سل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يرفع العلم وهذا القرآن بين أظهرنا ، وقد تعلمناه وعلمناه نساءنا وذرارينا وخدامنا ؟ فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ، قد علا وجهه حمرة من الغضب فقال : أوليست اليهود والنصارى بين أظهرها المصاحف ، وقد أصبحوا ما يتعلقون منها بحرف مما جاء به أنبياؤهم ، ألا وإن ذهاب العلم أن تذهب حملته " .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات " عن أبي مالك الأشعري قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ قال : فنحن نسأله إذ قال : إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة . فقال أعرابي : من هم يا رسول الله ؟ قال : هم عباد من عباد الله من بلدان شتى وقبائل شتى من شعوب القبائل ، لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها ، ولا دنيا يتبادلون بها ، يتحابون بروح الله ، يجعل الله وجوههم نوراً ، ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن ، يفزع الناس ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون " .

(209/216)

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن مالك بن بحينة قال : " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل المقبرة ثلاث مرات ، وذلك بعد نزول هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ فاسكت القوم . فقام أبو بكر ، فأتى عائشة فقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على أهل المقبرة ؟ فقالت عائشة : صليت على أهل المقبرة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك مقبرة بعسقلان يحشر منها سبعون ألف شهيد " .

وأخرج محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة والخرائطي في مكارم الأخلاق عن معاذ بن جبل قال "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فتقدمت به راحلته ، ثم إن راحلتي لحقت براحلته حتى تصحب ركبتي ركبته ، فقلت : يا رسول الله ، إني أريد أن أسألك عن أمر يمنعني مكان هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ قال : ما هو يا معاذ ؟ قلت : ما العمل الذي يدخلني الجنة وينجيني من النار ؟ قال : قد سألت عن عظيم وإنه يسير ، شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وإقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان ، ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروته ؟ أما رأس الأمر فالإسلام ، وعموده الصلاة ، وأما ذروته فالجهاد ، ثم قال : الصيام جنة ، والصدقة تكفر الخطايا ، وقيام الليل ، وقرأ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . . ﴾ إلى آخر الآية . ثم قال : ألا أنبئكم ما هو أملك بالناس من ذلك ؟ ثم أخرج لسانه فأمسكه بين

أصبعيه ، فقلت : يا رسول الله ، أكل ما نتكلم به يكتب علينا ؟ قال : ثكلتك أمك . . . ؟ وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم ؟ إنك لن تزال سالماً ما أمسكت ، فإذا تكلمت كتب عليك أو لك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(210/216)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " عَنْ أَشْيَاءَ " : متعلق بـ " تَسْأَلُوا " .

واختلف النحويُّون في " أَشْيَاء " على خمسة مذاهب :

أحدها – وهو رأي الخليل وسيبويه والمازنيِّ وجمهور البصريين – : أنها اسمُ جمعٍ من لفظ " شَيْء " ، فهي مفردةٌ لفظاً جمعٌ معنًى ؛ كـ " طَرْفَاء " ، و " قَصْبَاء " ، وأصلها : " شَيْئَاء " بهمزتين بينهما ألفٌ ، ووزنها فعلاء ؛ كـ " طَرْفَاء " ، فاستثقلوا اجتماع همزتين بينهما ألفٌ ، لا سيما وقد سبقها حرفُ علَّة ، وهي الياءُ ، وكَثُر دورُ هذه اللفظةِ في لسانهم ، فقلبوا الكلمةَ بأنْ قَدَّمُوا لامَها ، وهي الهمزةُ الأولى على فائها ، وهي الشين ؛ فقالوا " أَشْيَاء "

فصارَ وزنُها "لَفْعَاء"، ومُنِعَتْ من الصرف؛ لألف التأنيث الممدودة، ورُجِّح هذا المذهبُ بأنه لم يلزمْ منه شيءٌ غيرُ القَلْب، والقلبُ في لسانهم كثيرٌ كـ "الجَاهِ، والحَادِي، والقسيِّ، وناءَ، وآدُرٍ، وآرَامٍ، وضِئَاء في قراءة قُنْبُل، وأِيسَ"، والأصل: "وَجهٌ، وواحِدٌ، وقُووسٌ، ونَأَى، وأَدْوُرٌ، وأَرَامٌ، وضِيَاء، ويَئِسَ"، واعترضَ بعضُهم على هذا بأن القَلْبَ على خلافِ الأصْلِ، وأنه لم يَرِدْ إلا ضرورةً، أو في قليلٍ من الكلام، وهذا مردودٌ بما قدَّمْتُه من الأمثلةِ، ونحن لا نُنْكِرُ أنَّ القلبَ غير مُطَّرِدٍ؛ وأما الشاذُّ القليلُ، فنحو قولهم: "رَعَمْلِي" في "لَعَمْرِي"، و"شَوَاعِي" في "شَوَائِع"؛

قال: [الكامل]

2055 - وكَأَنَّ أَوْلاَهَا كِعَابُ مُقَامِرٍ . . .

ضُرِبَتْ على شُزُنٍ فَهُنَّ شَوَاعِي

[يريد شَوَائِع].

وأمَّا المذاهبُ الآتية، فإنه يَرِدُ عليها إشكالاتٌ، هذا المذهبُ سالمٌ منها؛ فلذلك اعتبره الجُمْهُور دون غيره.

وقال ابنُ الخطيبِ: منعَ الصَّرْفُ لثلاثة أوجهٍ:

أحدها: ما تقدَّم، وهو أنَّ هذه الكلمةَ لَمَّا كانَتْ في الأصْلِ على وزن "فَعْلاء" مثل"

حَمْرَاء " ، فلم يتَصرَّفْ كَحَمْرَاء .

وثانيها : لَمَّا كانَتْ في الأصْل " شيآء " ، ثُمَّ جُعِلَت أشْيَاء مَنَعَ ذَلِكَ الصَّرْف .

(211/216)

وثالثها : أنَّا لَمَّا قَطَعْنَا الحَرْفَ الأخِيرَ منهُ ، وجَعَلْنَاهُ أوَّلَه ، والكَلِمَةُ إذا قُطِع منها الحرْفُ الأخيرُ صارت كنصْفِ كَلِمَة ، ونِصْفُ الكلمةِ لا تَقْبَلُ الإعراب ، ومن حيث إنَّ ذلك الحَرْفَ الذي قَطَعْنَاهُ ، لم نحذِفْهُ بالكُلِّيَّة ، بل ألصَقْنَاهُ بأوَّلِ الكَلِمَةِ ، فَكَأَنَّها بَاقِيَةٌ بتَمامِهَا ، فلا جرم مَنَعْنَاهُ في بَعْضِ وُجُوه الإعراب دون البَعْض .

الثاني – وبه قال الفراء – : أن " أشْيَاء " جمع لـ " شَيْء " ، والأصل في " شَيْء " : " شَيِّئ " على " فَيْعِلٍ " كـ " لَيِّن " ، ثم خُفِّفَ إلى " شَيْء " ؛ كما خففوا لَيناً ، وهَيِّناً ، وميِّتاً إلى لَيْنٍ ، وهيْنٍ ، وميْتٍ ، ثم جمعه بعد تخفيفه ، وأصله " أشْيِئَاء " بهمزتين بينهما ألفٌ بعد ياءٍ بزنة " أفْعِلاء " ، فاجتمع همزتان : لامُ الكلمة والتي للتأنيث ، والألف تشبهُ الهمزة والجَمْعُ ثقيلٌ ، فخَفَّفُوا الكلمة ؛ بأن قلبوا الهمزة الأولى ياءً ؛ لانكسار ما قبلها ، فيجتمع ياءان ، أولاهما مكسورةٌ ، فحذفوا الياء التي هي عينُ الكلمة تخفيفاً ، فصارت " أشْيَاء " ، ووزنها الآن بعد الحذف " أفْلاء " فمَنْعُ الصرف ؛ لأجْلِ ألفِ التأنيثِ ، وهذه طريقةُ بعضهم في تَصْريف

هذا المذهب ؛ كمكي بن ابي طالب ، وقال بعضهم كأبي البقاء : لمَّا صارت إلى أشْيِئَاء ، حُذِفَتِ الهمزة الثانيةُ التي هي لام الكلمة ؛ لأنَّها بها حصل الثِّقَلُ ، وفُتِحَتِ الياءُ المكسورةُ ؛ لتسلمَ ألف الجَمْعِ ، فصار وزنُها : أفْعَاء .

(212/216)

المذهب الثالث – وبه قال الأخفش – : أنَّ أشْياء جمعُ " شَيْءٍ " [بزنة فَلْسٍ ، أي : ليس مخفَّفاً من " شَيِّئ " ، كما يقوله الفرَّاء ، بل جمع " شَيْء "] ، وقال : إنَّ فَعْلاً يجمعُ على أفْعِلاَء ، فصار أشْيِئَاء بهمزتَيْنِ بينهما ألفٌ بعد ياء ، ثم عُمِلَ فيه ما عُمِلَ في مذْهَب الفرَّاء ، والطريقانِ المذْكُوران عن مَكِّيٍّ وأبي البقاء في تصريف هذا المذهب جاريان هنا ، وأكثر المصنِّفين يذكرون مذهب الفرَّاء عنه وعن الأخفش ، قال مكي : " وقال الفرَّاء والأخفش ؛ والزياديُّ : " أشْيَاء " وزنها " أفْعِلاء " ، وأصلها " أشْيِئَاء " ؛ كـ " هَيِّنٍ وأهْوِنَاء " ، لكنه خُفِّفَ " .

ثم ذكر تصريفَ الكلمةِ إلى آخره ،

وقال أبو البقاء : " وقال الأخفشُ والفراء : أصلُ الكلمةِ " شَيِّئ " مثل " هَيِّنٍ " ، ثم خُفِّف بالحذف " ، وذكر التصريف إلى آخره ، فهؤلاء نقلوا مذهبهما شيئاً واحداً ، والحقُّ ما

ذكرته عنهُما ؛ ويدلُّ على ما قلته ما قاله الواحديُّ ؛ فإنه قال : " وذهبَ الفرّاء في هذ الحرف مذهب الأخفش " ، غير أنه خلطَ حين ادَّعى أنها كهَيْنٍ ولَيْنٍ حين جمعا على أهْوِنَاء وأُلِينَاء ، وهَيْنٍ تخفيف " هَيِّن " ؛ فلذلك جاز معه على أفْعِلاء ، وشَيْء ليس مخفَّفاً من " شَيِّئ " حتى يُجْمَعَ على أفْعِلاء ، وهذان المذهَبَان – أعني مذهب الفراء والأخفشِ – وإن سَلِمَا من منع الصَّرْف بغير علَّة ، فقد ردَّهُمَا الناس ، قال الزجَّاج : " وهذا القَوْلُ غَلَطٌ ؛ لأنَّ " شَيئاً " فعلٌ ، وفعلٌ لا يجمعُ على أفْعِلاء ، فأما هَيِّنٌ ولَيِّنٌ ، فأصلُه : هَيِينٌ ولَيِينٌ ، فجُمِعَ على أفعلاء ، كما يُجْمَعُ فَعِيلٌ على أفعلاء ؛ مثل : نَصِيب وأنْصِبَاء "

(213/216)

قال شهاب الدين : وهذا غريبٌ جدًّا ، أعني كونه جعل أنَّ أصلَ " هيِّن " " هَيِين " بزنة فعيلٍ ، وكذا لَيِّنٌ ولَيِينٌ ، ولذلك صرح بتشبيههما بنصيبٍ ، والناسُ يقولون : إنَّ هَيِّناً أصله هَيْونٌ ، كميِّتٍ أصله مَيْوتٌ ، ثم أعِلَّ الإعلال المعروف ، وأصل لَيِّنٍ : لَيْينٌ بياءين ، الأولى ساكنة والثانية مكسورةٌ ، فأدغمتِ الأولى ، والاشتقاقُ يساعدُهم ؛ فإن الهيِّنَ من هانَ يَهُونُ ، ولأنَّهم حين جمعوه على أفعلاء أظْهَرُوا الواو ، فقالوا : أهْوِنَاء .

وقال الزجَّاج : " إنَّ المازنيَّ ناظر الأخفش في هذه المسألة ، فقال له : كيف تُصَغِّرُ أشْيَاء ؟ قال : أقول فيها أُشيَّاء .

(214/216)

فقال المازنيُّ : لو كانت أفعالاً ، لرُدَّتْ في التصغير إلى واحدهَا ، وقيل : شُيَيْئَات ، مثل شُعَيْعات ، وإجماعُ البصريِّين أن تصغير " أصدقَاء " إن كان لمؤنث " صُدَيِّقَات " ، وإن كان لمذكر : " صُدَيقُونَ " فانقطع الأخْفَشُ " ، وبَسْطُ هذا أنَّ الجمع المُكَسَّرَ ، إذا صُغِّرَ : فإمَّا أن يكون من جموع القلَّة ، وهي أربعٌ على الصحيح : أفْعِلَةٌ وأفْعُل وأفْعَالٌ وفِعْلَةٌ ، فيُصَغَّرُ على لفظه ، وإن كان من جموع الكثرة فلا يُصغَّر على لفظه على الصحيح ، وإنْ وردَ منه شيءٌ ، عُدَّ شَاذاً كـ " أصَيْلان " تصغير " أصْلاَن " جمع " أصيل " ، بل يُرَدُّ إلى واحده ؛ فإن كان من غير العقلاء ، صُغِّرَ وجُمِعَ بالألف والتاء ، فتقول في تصغير حُمُرٍ جمع حِمارٍ : " حُمَيْرات " ، وإن كان من العقلاء صُغِّرَ وجمع بالواو والنون ، فتقول في تصغير " رِجَال " : " رُجَيْلُونَ " ، وإن كان اسم جمعٍ كـ " قَوْم " و " رَهْط " أو اسم جنسٍ ، كـ " قَمَر " و " شَجَر " صُغِّر على لفظه كسائر المفردات ، رجعنا إلى " أشْيَاء " ، فتصغيرُهم لها على لفظها يَدُلُّ على أنها اسمُ جمع ؛ لأنَّ اسم الجمع يُصَغَّر على لفظه ، نحو : " رُهَيْط " و " قُوَيْم " ، وليس

بجمعِ تكسيرٍ ؛ إذ هي من جموعِ الكثرة ، ولم تُرَدَّ إلى واحدها ، وهذا لازمٌ للأخفشِ ؛ لأنه بصريٌّ ، والبصريُّ لا بدَّ وأن يفعل ذلك ، وأصَيْلان عنده شاذٌ ، فلا يقاسُ عليه ، وفي عبارة مَكّيٍّ قال : " وأيضاً فإنه يلزمُهُم أن يُصَغِّروا " أشْيَاء " على " شُوَيَّات " ، أو على " شُيَيْئَات " ، وذلك لم يَقُلْه أحد " .

قال شهاب الدين : قوله " شُوَيَّات " ليس بجيّد ؛ فإن هذا ليس موضع قلب الياء واواً ، ألا ترى أنك إذا صغَّرْتَ بيتاً ، قلت : بُيَيْتاً لا بُوَيْتاً ، إلاَّ أنّ الكوفيّين يُجيزُونَ ذلك ، فيمكنُ أن يُرَى رأيهم ، وقد ردَّ مكيٌّ أيضاً مذهب الفراء والأخفش بشيئين :

(215/216)

أحدهما : أنه يلزمُ منه عدمُ النظير ؛ إذ لم يقع " أفْعِلاء " جمعاً لـ " فَيْعِل " فيكون هذا نظيرهُ ، وهَيِّن وأهْوِنَاء شاذٌّ لا يقاس عليه .

والثاني : أن حذفه واعتلاله مُجْرى على غير قياسٍ ، فهذا القولُ خارجٌ في جمعه واعتلاله عن القياس والسَّماع .

المذهب الرابع – وهو قول الكسائي وأبي حاتم – : أنها جمعُ شيءٍ على أفعالٍ كـ " بَيْتٍ " و " أبْيَاتٍ " و " ضَيْفٍ " و " أضْيَافٍ " ، واعترض الناس هذا القول ؛ بأنه يلزم منه منعُ

الصرفِ بغير علته ؛ إذ لو كان على " أفْعَال " ، لانصرفَ كأبْيَاتٍ ، قال الزجَّاج " أجمع البصريُّون وأكثر الكوفيِّين على أن قول الكسائيِّ خطأ ، وألزموه ألاَّ يصرفَ أنْبَاء وأسْمَاء ".

قال شهاب الدين : والكسائيُّ قد استشعر بهذا الردِّ ، فاعتذر عنه ، ولكن بما لا يُقْبَلُ ، قال الكسائيُّ – رحمه الله – : " هي – أي أشياء – على وزن أفعالٍ ، ولكنها كَثُرَتْ في الكلام ، فأشبهَتْ فعلاء ، فلم تُصْرَف كما لم يُصْرَفْ حَمْرَاء " ، قال : " وجَمَعُوهَا أشَاوَى ، كما جمعوا عذرَاء وعَذارَى ، وصَحْرَاء وصَحَارى ، وأشْيَاوَات كما قيل حَمْرَاوَات " ، يعني أنهم عاملوا " أشْيَاء " ، وإن كانت على أفعالٍ معاملةَ حَمْرَاء وعَذْرَاء في جمعي التكسير والتصحيح ، إلا أن الفرَّاء والزجَّاج اعترضا على هذا الاعتذار ، فقال الفرَّاء : " لو كان كما قال ، لكان أملكَ الوجهين أنْ تُجْرَى ؛ لأن الحرْفَ إذا كَثُرَ في الكلام ، خَفَّ وجاز أن يُجْرَى كما كَثُرَتِ التسميةُ بـ "يَزِيدَ " ، وأجروه في النَّكرة ، وفيه ياءٌ زائدةٌ تَمْنَعُ من الإجراء " .

(216/216)

والمراد بالإجراء الصرْفُ ، وقال الزجَّاج : " أجمع البصريون وأكثر الكوفيّين " وقد تقدَّم آنفاً ، وقال مكي : " وقال الكسائيُّ وأبو عُبَيْد : لم تَنْصَرِفْ – أي أشياء – ؛ لأنها أشبهت " حَمْرَاء " ؛ لأن العرب تقول : " أشْيَاوَات " كما تقول : " حَمْرَاوَات " قال : " ويلزمُهما ألاَّ يَصْرِفَا في الجمْعِ أسْمَاء وأبْنَاء لقول العرب فيهما : أسْمَاوَات وأبْنَاوَات " ، وقد تقدَّم شرح هذا ، ثم إنَّ مَكِّيًّا – رحمه الله – بعد أن ذكر عن الكسائيِّ ما تقدَّم ، ونقل مذهب الأخفشِ والفرَّاء ، قال : " قال أبو حاتم : أشياء أفعال جمع شَيءٍ كأبياتٍ " فهذا يُوهِمُ أن مذهب الكسائيِّ المتقدِّمَ غيرُ هذا المذهب ، وليس كذلك ، بل هو هو ، وقد أجاب بعضهم عن الكسائيِّ بأن النحويِّين قد اعتبروا في باب ما لا يَنصرِفُ الشبه اللفظيَّ ، دون المعنويَّ ، يَدُلُّ على ذلك مسألةُ " سَراويلَ " في لغةِ مَنْ يمنعُه ؛ فإنَّ فيه تأويلَيْن : أحدهما : أنه مفردٌ أعجميٌّ ، حُمِلَ على مُوازنِهِ في العربيَّة ، أي صيغة مصابيح مثلاً ؛ ويدُلُّ له أيضاً أنهم أجروا ألف الإلحاقِ المقْصُورة مُجْرَى ألف التأنيث المقْصُورة ، ولكن مع العلميَّة ، فاعتبروا مُجَرَّدَ الصُّورة .

(217/216)

المذهب الخامس : أنَّ وزنها " أفْعِلاء " أيضاً جَمْعاً لـ " شَيِيءٍ " بزنة " ظَرِيفٍ " ، وفعيلٌ يجمع على أفْعِلاء ، كـ " نَصِيبٍ وأنْصِبَاء " ، و " صَدِيقٍ وأصْدِقَاء " ، ثم حُذِفت الهمزة الأولى التي هي لامُ الكلمة ، وفُتحتِ الياءُ ؛ لتسلمَ ألفُ الجمع ؛ فصارت أشياء ، ووزنُها بعد الحذف أفْعَاء ، وجعله مَكِّيٌّ في التصريف كتصريف [مذهب] الأخفشِ ؛ من حيث إنه تُبْدَلُ الهمزة ياءً ، ثم تُحْذفُ إحدى الياءين ، قال – رحمه الله – : " وحَسَّنَ الحذفَ في الجمع حَذْفُها في الواحد ، وإنما حُذِفَتْ من الواحد ؛ تخفيفاً لكثرة الاستعمال ؛ إذ " شَيْء " يقعُ على كل مُسَمًّى من عرضٍ ، أو جوهرٍ ، أو جسمٍ ، فلم ينصرفْ لهمزةِ التأنيثِ في الجمع " ، قال : " وهذا قولٌ حسنٌ جارٍ في الجَمْعِ ، وتُرِكَ الصرفُ على القياس ، لولا أنَّ التصغير يعترضُهُ ، كما اعترض الأخْفَش " .

قال شهاب الدين : قوله " هذا قول حسن " ، فيه نظر ؛ لكثرة ما يَرِدُ عليه ، وهو ظاهر ممَّا تقدَّم ، ولمَّا ذكر أبو حيان هذا المذهب ، قال في تصريفه : " ثمَّ حذفتِ الهمزة الأولى ، وفتحت ياءُ المدّ ؛ لكون ما بعدها ألفاً " ، قال : " وَزنُهَا في هذا القولِ إلى " أفْيَاء " ، وفي القول قبله إلى " أفْلاء " ، كذا رأيته " أفْيَاء " ، بالياء ، وهذا غلطٌ فاحشٌ ، ثم إنِّي جوَّزتُ أن يكون هذا غلطاً عليه من الكاتبِ ، وإنما كانت " أفْعَاء " بالعين ، فصحَّفها الكاتب إلى " أفْيَاء " ، وقد ردَّ الناس هذا القول : بأنَّ أصل شَيْء : " شَيِيءٌ " بزنة " صديقٍ " دعوى من غير دليل ، وبأنه كان ينبغي ألاَّ يُصَغَّر على لفظه ، بل يُرَدُّ إلى مفرده ؛ كما تقدم تحريره .

(218/216)

وقد تلخص القول في "أشْيَاء": أنها هَلْ هي اسمُ جمعٍ، وأصلها "شَيْئَاء"؛ كطَرْفَاء، ثم قُلِبت لامُها قبل فائِها، فصار وزنُها "لَفْعَاء" أو جمعٌ صريحٌ؟ وإذا قيل بأنها جمعٌ صريحٌ، فهل أصلها "أفْعِلاء" ثم تحذفُ، فتصير إلى "أفْعَاء" أو "أفْلاَء"، أو أنَّ وزنها "أفْعَال"؛ كأبْيَات.

(219/216)

قوله تعالى: "إنْ تُبْدَ" شرط، وجوابه "تَسُؤكُمْ"، وهذه الجملة الشرطية في محلِّ جرّ صفةً لـ "أشْيَاء"، وكذا الشرطيَّة المعطوفة أيضاً، وقرأ ابن عبَّاس: "إنَّ تَبْدُ لَكُمْ تَسُؤكُمْ" ببناء الفعليْنِ للفاعلِ، مع كون حرف المضارعةِ تاءً مثنَّاةً من فوقُ، والفاعل ضميرُ "أشْياء"، وقرأ الشعبي – فيما نقله عنه أبو محمَّد بن عطيَّة: "إنْ يَبْدُ" بفتح الياء من تحتُ، وضم الدال، "يَسُؤكُمْ" بفتح الياء من تحتُ، والفاعل ضميرٌ عائدٌ على ما يليق تقديره بالمعنى، أي: إنْ يَبْدُ لكُمْ جوابُ سؤالكُمْ أو سُؤلُكُمْ، يَسُؤكُمْ، ولا جائزٌ أن تعود على "

أشْيَاء " ؛ لأنه جارٍ مجرَى المؤنَّث المجازيِّ ، ومتى أسند فعلٌ إلى ضمير مؤنَّثٍ مطلقاً ، وجبَ لَحَاقُ العلامة على الصحيح ، ولا يُلتفتُ لضرورة الشعر ، ونقل غيره عن الشعبيِّ ؛ أنه قرأ : "يُبْدَ لَكُمْ يَسُؤكُمْ" بالياء من تحت فيهما ، إلا أنه ضمَّ الياء الأولى وفتح الثانية ، والمعنى : إن يُبْدَ - أي يُظْهَر - السؤالُ عَنْهَا ، يَسُؤكُمْ ذلك السُّؤالُ ، أي : جوابُهُ ، أو هُوَ ؛ لأنه سببٌ في ذلك والمُبْدِيه هو اللَّهُ تعالى ، والضميرُ في " عَنْهَا " يحتمل أن يعود على نوعِ الأشياءِ المنهيِّ عنها ، لا عليها أنفسها ، قاله ابن عطيَّة ، ونقله الواحديُّ عن صاحب " النَّظمِ " ، ونظَّرهُ بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] يعني آدم ، " ثُمَّ جعلْنَاهُ " قال " يعني ابنَ آدَمَ " فعاد الضميرُ على ما دلَّ عليه الأول ، ويحتملُ أن يعود عليها أنْفُسِها ، قاله الزمخشريُّ بمعناه .

قوله : ﴿ حِينَ يُنَزَّلُ القرآن ﴾ في هذا الظرفِ احتمالان :

(220/216)

أظهرهما : أنه منصوبٌ بـ " تسْأَلُوا " ، قال الزمخشريُّ : " وإنْ تَسْأَلُوا عنها : عن هذه التكاليفِ الصعبةِ ، حين يُنَزَّلُ القرآنُ : في زمانِ الوحي ، وهو ما دام الرسولُ بين أظْهُرِكُمْ يُوحَى إليه تَبْدُ لكم تلك التكاليفُ التي تَسُؤكُمْ وتُؤمَرُوا بتحمُّلِها ، فَتُعَرِّضُوا أنفسكُمْ لغَضَبِ

اللَّهِ؛ لتفريطكم فيها " ، ومن هنا قلنا : إنَّ الضمير في " عَنْهَا " عائدٌ على الأشياءِ الأولِ ، لا على نوعها .

والثاني : أنَّ الظرف منصوبٌ بـ " تُبْدَ لَكُمْ " ، أي : تَظْهَرْ لكم تلك الأشياءُ حين نُزُولِ القرآنِ ، قال بعضهم : " في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ ؛ لأنَّ التقدير : عن أشياءَ ، إنْ تَسْأَلوا عَنْهَا ، تُبْدَ لكم حين نُزولِ القرآنِ ، وإن تُبْدَ لَكُمْ ، تَسُؤكُمْ " ، ولا شك أن المعنى على هذا الترتيب ، لا أنه لا يقالُ في ذلك تقديمٌ وتأخيرٌ ، فإنَّ الواو لا تقتضي ترتيباً ، فلا فرق ، ولكن إنما قُدِّم هذا أولاً على قوله : " وإنْ تَسْأَلُوا " ؛ لفائدةٍ ، وهي الزجرُ عن السؤالِ ؛ فإنه قدَّم لهم أنَّ سؤالهم عن أشياء متى ظهرتْ ، أساءتهم قبل أن يُخْبِرَهم بأنهم إنْ سأَلُوا عنها ، بدتْ لهم لينزجرُوا ، وهو معنًى لائقٌ .

قوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه في محلِّ جرٍّ ؛ لأنه صفةٌ أُخرى لـ " أشياء " ، ولا حاجة إلى ادِّعاء التقديم والتأخيرِ في هذا ؛ كما قاله بعضهم ، قال : " تقديرُه : لا تَسْأَلُوا عن أَشْيَاءَ عفا اللهُ عَنْهَا إنْ تُبْدَ لَكُمْ إلى آخر الآية " ؛ لأنَّ كلاًّ من الجملتين الشرطيَّتَيْنِ وهذه الجملة صفةٌ لـ " أَشْيَاء " ، فمِنْ أين أنَّ هذه الجملةَ مستحقةٌ للتقديمِ على ما قبلها ؟ وكأنَّ هذا القائل إنَّما قدَّرَها متقدِّمةً ؛ ليتضحَ أنها صفةٌ لا مستأنفةٌ .

والثاني : أنها لا محلَّ لها ؛ لاستئنافها ، والضميرُ في " عَنْهَا " على هذا يعودُ على المسألةِ المدلُولِ عليها بـ " لا تَسألُوا " ، ويجوزُ أنْ تعودَ على " أشْيَاء " ، وإنْ كان في الوجه الأولِ يتعيَّن هذا ؛ لضرورةِ الربطِ بين الصفةِ والموصوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 542.548 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) ﴾

إذا أسبل عليكم ستر اللطف فلا تتعرضوا لعلم أُخْفِيَ عنكم ، فيتنغص (بالتج . . .) (1) – عليكم – عَيْشُكم .

ويقال لا تتعرضوا للوقوف على محل الأكابر – حيث لا تستوجبون ذلك – فيسوءكم تقاصرُ رتبتك .

ويقال إذا بدا من الإعراض علم فاطلبوا له عندكم وجهاً من التفال ولا تطلبوا أسرار الباري ، واركنوا إلى روْح المنى في استدفاع ما ظلكم ولا تبحثوا عن سر ذلك وراعوا الأمر مجملاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 451 ﴾

(1) بقية الكلمة مشتبهة ولكنها أقرب ما تكون إلى (النجس) وهى مقبولة هكذا فى السياق؛ أى لا تجعلوا النجس ومحاولة معرفة الأسرار ينغص عليكم عيشكم.

(222/216)

قوله تعالى ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما نهى عن السؤال عنها ليتعرف حالها، علل ذلك بأن غيرهم عرف أشياء وطلب أن يعطاها، إما بأن سأل غيره ذلك، وإما بأن شرعها وسأل غيره أن يوافقه عليها وهو قاطع بأنها غاية في الحسن فكانت سبب شقائه فقال: ﴿ قد سألها ﴾ يعني أمثالها، ولم يقل: سأل عنها، إشارة إلى ما أبدته ﴿ قوم ﴾ أي أولو عزم وبأس وقيام في الأمور.

ولما كان وجود القوم فضلاً عن سؤالهم لم يستغرق زمان القبل، أدخل الجار فقال: ﴿ من قبلكم ﴾ ولما كان الشيء إذا جاء عن مسألة جديراً بالقبول لا سيما إذا كان من ملك فكيف إذا كان من ملك الملوك.

فكان رده في غاية البعد، عبر عن استبعاده بأداة العبد في قوله: ﴿ ثم أصبحوا بها ﴾ أي

عقب إتيانهم إياها سواء من غير مهلة ﴿كافرين﴾ أي ثابتين في الكفر ، هذا زجر بليغ لأن يعودوا لمثل ما أرادوا من تحريم ما أحل لهم ميلاً إلى الرهبانية والتعمق في الدين المنهي عنه بقوله : ﴿لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ [المائدة : 87] . انتهى انتهى . اهـ

﴿نظم الدرر حـ 2 صـ 550﴾

فصل

قال الفخر :

قال المفسرون : يعني قوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها وقوم موسى قالوا : ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾ [النساء : 153] فصار ذلك وبالاً عليهم ، وبنو إسرائيل ﴿قَالُواْ لِنَبِىّ لَّهُمُ ابعث لَنَا مَلِكًا نقاتل فِى سَبِيلِ الله﴾ قال تعالى : فما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم﴾ [البقرة : 246] و﴿قَالُواْ أنى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بالملك مِنْهُ﴾ [البقرة : 247] فسألوها ثم كفروا بها ، وقوم عيسى سألوا المائدة ثم كفروا بها ، فكأنه تعالى يقول أولئك سألوا فلما أعطوا سؤالهم ساءهم ذلك فلا تسألوا عن أشياء فلعلكم إن أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك فإن قيل : إنه تعالى قال : أولا : ﴿لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء﴾ [المائدة : 101] ثم قال ههنا : ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مّن قَبْلِكُمْ﴾ وكان الأولى أن يقول : قد سأل عنها قوم فما السبب في ذلك .

قلنا الجواب من وجهين : الأول : أن السؤال عن الشيء عبارة عن السؤال عن حالة من أحواله ، وصفة من صفاته ، وسؤال الشيء عبارة عن طلب ذلك الشيء في نفسه ، يقال : سألته درهماً أي طلبت منه الدرهم ويقال : سألته عن الدرهم أي سألته عن صفة الدرهم وعن نعته ، فالمتقدمون إنما سألوا من الله إخراج الناقة من الصخرة ، وإنزال المائدة من السماء ، فهم سألوا نفس الشيء ، وأما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فهم ما سألوا ذلك ، وإنما سألوا عن أحوال الأشياء وصفاتها ، فلما اختلف السؤالان في النوع ، اختلفت العبارة أيضاً إلا أن كلا القسمين يشتركان في وصف واحد ، وهو أنه خوض في الفضول ، وشروع فيما لا حاجة إليه ، وفيه خطر المفسدة ، والشيء الذي لا يحتاج إليه ويكون فيه خطر المفسدة ، يجب على العاقل الاحتراز عنه ، فبيّن تعالى أن قوم محمد عليه السلام في السؤال عن أحوال الأشياء مشابهون لأولئك المتقدمين في سؤال تلك الأشياء في كون كل واحد منهما فضولاً وخوضاً فيما لا فائدة فيه .

الوجه الثاني : في الجواب أن الهاء في قوله ﴿ قَدْ سَأَلَهَا ﴾ غير عائدة إلى الأشياء التي سألوا عنها ، بل عائدة إلى سؤالاتهم عن تلك الأشياء ، والتقدير : قد سأل تلك السؤالات الفاسدة التي ذكرتموها قوم من قبلكم ، فلما أجيبوا عنها أصبحوا بها كافرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 89 . 90 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : قوم عيسى سألوه المائدة ، ثم كفروا بها ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم قوم صالح سألوا الناقة ، ثم عقروها وكفروا به .

والثالث : أنهم قريش سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحوِّل لهم الصفا ذهباً ، قاله السدي .

(224/216)

والرابع : أنهم القوم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ أبي ؟ ونحوه ، فلما أخبرهم به أنكروه وكفروا به ، قاله بعض المتأخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قد سألها قومٌ من قبلكم ﴾ في هؤلاء القوم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الذين سألوا عيسى نزول المائدة ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : أنهم قوم صالح حين سألوا الناقة ، هذا على قول السدي .

وهذان القولان يخرجان على أنهما سألوا الآيات .

والثالث : أن القوم هم الذين سألوا في شأن البقرة وذبحها ، فلو ذبحوا بقرةً لأجزأت ، ولكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، قاله ابن زيد .

وهذا يخرج على سؤال من سأل عن الحج ، إذ لو أراد الله أن يشدّد عليهم بالزيادة في الفرض لشدّد .

والرابع : أنهم الذين قالوا لنبيٍ لهم : ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، وهذا عن ابن زيد أيضاً ، وهو يخرج على من قال : إنما سألوا عن الجهاد والفرائض تمنياً لذلك .

قال مقاتل : كان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أخبروهم بها تركوا قولهم ولم يصدّقوهم ، فأصبحوا بتلك الأشياء كافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ سَأَلَهَا ﴾ أي المسألة فالضمير في موقع المصدر لا المفعول به ، والمراد سأل مثلها في كونها محظورة ومستتبعة للوبال ﴿ قَوْمٌ ﴾ وعدم التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير ، وجوز أن يكون الضمير للأشياء على تقدير المضاف أيضاً فالضمير في موقع المفعول به وذلك من باب الحذف والإيصال والمراد سأل عنها ، وقيل : لا حاجة إلى جعله من ذلك

الباب لأن السؤال هنا استعطاء وهو يتعدى بنفسه كقولك : سألته درهماً بمعنى طلبته منه لا استخبار كما في صدر الآية ، واختلف في تعيين القوم .

(225/216)

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه هم قوم عيسى عليه الصلاة والسلام سألوه إنزال المائدة ثم كفروا بها ، وقيل : هم قوم صالح عليه السلام سألوه الناقة ثم عقروها وكفروا بها ، وقيل : هم قوم موسى عليه السلام سألوه أن يريهم الله تعالى جهرة أو سألوه بيان البقرة .

وعن مقاتل هم بنو إسرائيل مطلقاً كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم كذبوهم .

وعن السدي هم قريش سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يحول الصفا ذهباً ، وقال الجبائي : كانوا يسألونه صلى الله عليه وسلم عن أنسابهم فإذا أخبرهم عليه الصلاة والسلام لم يصدقوا ويقولوا : ليس الأمر كذلك ، ولا يخفى عليك الغث والسمين من هذه الأقوال وأن بعضها يؤيد حمل السؤال على الاستعطاء وبعضها يؤيد حمله على الاستخبار ، والحمل على الاستخبار أولى ، وإلى تعينه ذهب بعض العلماء .

﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ متعلق بسألها ، وجوز كونه متعلقاً بمحذوف وقع صفة لقوم ، واعترض

بأن ظرف الزمان لا يكون صفة الجثة ولا حالاً منها ولا خبراً عنها ، وأجيب بأن التحقيق أن هذا مشروط إذا عدمت الفائدة أما إذا حصلت فيجوز كما إذا أشبهت الجثة المعنى في تجددها ووجودها وقتاً دون وقت نحو الليلة الهلال بخلاف زيد يوم السبت وما نحن فيه مما فيه فائدة لأن القوم لا يعلم هل هم ممن مضى أم لا ؟ وقال أبو حيان وهو تحقيق بديع غفلوا عنه : "هذا المنع إنما هو في الزمان (ظرف) المجرد عن الوصف أما إذا تضمن وصفاً فيجوز كقبل وبعد فإنهما وصفان في الأصل فإذا قلت جاء زيد قبل عمرو فالمعنى جاء في زمان قبل زمان مجيئه أي متقدم عليه ولذا وقع صلة للموصول ، ولو لم يلحظ فيه الوصف وكان ظرف زمان مجرد لم يجز أن يقع صلة ولا صفة .

(226/216)

قال تعالى : ﴿ والذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : 21] ولا يجوز والذين اليوم" وما نحن فيه من المتضمن لا المجرد وهو ظاهر ، وما قيل من أنه ليس من المتنازع فيه في شيء لأن الواقع صفة هو الجار والمجرور لا الظرف نفسه ليس بشيء لأن دخول الجار عليه إذا كان من أول في لا يخرجه عن كونه في الحقيقة هو الصفة أو نحوها فليفهم .

﴿ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا ﴾ أي بسببها ، وهو متعلق بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ كافرين ﴾ قدم

عليه رعاية للفواصل .

وقرأ أبي (قد سألها قوم بينت لهم فأصبحوا بها كافرين) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثُم أصبحوا بها كافرين ﴾ استئناف بياني جواب سؤال يثيره النهي عن السؤال ثم الإذن فيه في حين ينزل القرآن ، أن يقول سائل : إن كان السؤال في وقت نزول القرآن وأنّ بعض الأسئلة يسوء جوابه قوماً ، فهل الأوْلى ترك السؤال أو إلقاؤه .

فأجيب بتفصيل أمرها بأنّ أمثالها قد كانت سبباً في كفر قومٍ قبل المسلمين .

وضمير ﴿ سألها ﴾ جُوّز أن يكون عائداً إلى مصدر مأخوذ من الكلام غير مذكور دلّ عليه فعل ﴿ تسألوا ﴾ ، أي سأل المسألة ، فيكون الضمير منصوباً على المفعولية المطلقة .

وجرى جمهور المفسّرين على تقدير مضاف ، أي سأل أمثالها .

والمماثلة في ضآلة الجدوى .

والأحسن عندي أن يكون ضمير ﴿ سألها ﴾ عائداً إلى ﴿ أشياء ﴾ ، أي إلى لفظه دون مدلوله .

فالتقدير : قد سأل أشياء قومٌ من قبلكم ، وعدّي فعل ﴿ سأل ﴾ إلى الضمير على حذف حرف الجرّ ، وعلى هذا المعنى يكون الكلام على طريقة قريبة من طريقة الاستخدام بل هي أحقّ من الاستخدام ، فإنّ أصل الضمير أن يعود إلى لفظ باعتبار مدلوله وقد يعود إلى لفظ دون مدلوله ، نحو قولك : لك درهم ونصفه ، أي نصف درهم لا الدرهم الذي أعطيته إياه .

والاستخدام أشدّ من ذلك لأنّه عود الضمير على اللفظ مع مدلول آخر .

(227/216)

و ﴿ ثم ﴾ في قوله : ﴿ ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ للترتيب الرتبي كشأنها في عطف الجمل فإنّها لا تفيد فيه تراخي الزمان وإنّما تفيد تراخي مضمون الجملة المعطوفة في تصوّر المتكلّم عن تصور مضمون الجملة المعطوف عليها ، فتدلّ على أنّ الجملة المعطوفة لم يكن يُترقب حصول مضمونها حتى فاجأ المتكلم .

وقد مرّت الإشارة إلى ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ في سورة البقرة (85) .

والباء في قوله بها ﴾ يجوز أن تكون للسببية ، فتتعلّق بِ ﴿ أصبحوا ﴾ ، أي كانت تلك

المسائل سبباً في كفرهم ، أي باعتبار ما حصل من جوابها ، ويحتمل أن تكون "للتعدية" فتتعلّق بـ ﴿ كافرين ﴾ ، أي كفروا بها ، أي بجوابها بأن لم يصدّقوا رسلهم فيما أجابوا به ، وعلى هذا الوجه فتقديم المجرور على عامله مفيد للتخصيص ، أي ما كفروا إلاّ بسببها ، أي كانوا في منعة من الكفر لولا تلك المسائل ، فقد كانوا كالباحث على حتفه بظلفه ، فهو تخصيص ادّعائي ، أو هو تقديم لمجرّد الاهتمام للتنبيه على التحذير منها .

وفعل ﴿ أصبحوا ﴾ مستعمل بمعنى صاروا ، وهو في هذا الاستعمال مشعر بمصير عاجل لا تريّث فيه لأنّ الصباح أول أوقات الانتشار للأعمال .

والمراد بالقوم بعض الأمم التي كانت قبل الإسلام ، سألوا مثل هذه المسائل ، فلمّا أعطوا ما سألوا لم يؤمنوا ، مثل ثمود ، سألوا صالحاً آية ، فلمّا أخرج لهم ناقة من الصخر عقروها ، وهذا شأن أهل الضلالة متابعةُ الهوى فكلّ ما يأتيهم ممّا لا يوافق أهواءهم كذّبوا به ، كما قال الله تعالى : ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم مُعرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ [النور : 48 ، 49] ، وكما وقع لليهود في خبر إسلام عبد الله بن سَلام .

وقريب ممّا في هذه الآية ما قدّمناه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قل من كان عدوّاً لجبريل ﴾ في سورة البقرة (97) .

فإنّ اليهود أبغضوا جبريل لأنّه أخبر دانيال باقتراب خراب أورشليم ، وتعطيل بيت القدس ، حسبما في الإصحاح التاسع من كتاب دانيال .

وقد سأل اليهود زكرياء وابنه يحيى عن عيسى ، وكانا مقدّسين عند اليهود ، فلمّا شهدا لعيسى بالنبوءة أبغضهما اليهود وأغروا بهما زوجة هيرودس فحملته على قتلهما كما في الإصحاح الرابع من إنجيل متّى والإصحاح الثالث من مرقس .

والمقصود من هذا ذمّ أمثال هذه المسائل بأنّها لا تخلو من أن تكون سبباً في غمّ النفس وحشرجة الصدر وسماع ما يَكره ممّن يُحبّه .

ولولا أنّ إيمان المؤمنين وازع لهم من الوقوع في أمثال ما وقع فيه قومٌ من قبلهم لكانت هذه المسائل محرّمة عليهم لأنها تكون ذريعة للكفر .

فهذا استقصاء تأويل هذه الآية العجيبة المعاني البليغة العبر الجديرة باستجلائها ، فالحمد لله الذي منّ باستضوائها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(229/216)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي : سألوا هذه المسألة ، لكن لا عينها ، بل مثلها في كونها محظورة ومستتبعة للوبال . وعدم التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير : ﴿ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ أي : بسببها . حيث لم يمتثلوا ما أجيبوا به ، ويفعلوه . وقد كان بنو إسرائيل يستفتون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أُمِروا بها تركوها فهلكوا . والمعنى : احذروا مشابهتهم والتعرض لما تعرضوا له .

تنبيهات :

الأول : روى البخاريّ في سبب نزولها في " التفسير " عن أبي الجويرية عن ابن عباس قال : كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً . فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل ، تضلّ ناقته : أين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا ﴾ حتى فرغ من الآية كلها .

وأخرج أيضاً عن موسى بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال : < لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . . . قال : فغطّى أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم ،

لهم خنين . فقال رجل : من أبي ؟ قال : فلان > فنزلت هذه الآية : ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

(230/216)

وروى البخاري أيضاً في كتاب " الفتن " عن قتادة : أن أنساً حدثهم قال : سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أحْفَوْه بالمسألة . فصعد النبيّ صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ المنبر فقال : < لا تسألوني عن شيء إلاّ بينت لكم . فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً ، فإذا كلّ رجلٍ ، رأسه في ثوبه يبكي . فأنشر رجل – كان إذ لاحى يُدْعى إلى غير أبيه – فقال : يا نبيّ الله ! من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة > . ثم أنشأ عمر فقال : رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ رسولاً . نعوذ بالله من سوء الفتن .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : < ما رأيت في الخير والشرّ كاليوم قط . إنه صوّرت لِيَ الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط > .

فكان قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء ﴾ .

وفي رواية : قال قتادة يُذْكَرُ – بالبناء للمجهول – هذا الحديث . . . الخ

وروى البخاري أيضاً في كتاب " الاعتصام بالكتاب والسنّة " في باب ما يكره من كثرة السؤال ، عن الزهري قال : أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر . فلما سلّم قام إلى المنبر فذكر الساعة . وذكر أن بين يديها أموراً عظاماً . ثم قال : < من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه ، فوالله ! لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا > . قال أنس فأكثر الأنصار البكاء ، وكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : فقال أنس : فقام رجل فقال : أين مدخليْ يا رسول الله ! قال : النار . فقام عبد الله بن حذافة فقال : من أبي ؟ يا رسول الله ! قال : < أبوك حذافة > . قال : ثم أكثر أن يقول : سلوني . فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً .

قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عمر ذلك .

(231/216)

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < والذي نفسي بيده ! لقد عرضت عليّ الجنة والنار آنفاً في عُرْض هذا الحائط وأنا أصلي . فلم أر كاليوم في الخير والشر > .

وعند مسلم : قال ابن شهاب : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَة قال : قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة : ما سمعتُ بابنٍ قطّ أعقّ منك . أأمنت أن تكون أمك قد قارفت بعض ما تقارف نساء أهل الجاهلية ، فتفضحها على أَعْيَن الناس ؟

قال عبد الله بن حذافة : والله ! لو ألحقني بعبد أسود للحقته .

وروى ابن جرير عن السدّي قال : غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من الأيام فقام خطيباً فقال : سلوني . – نحو ما تقدم – وزاد : فقام إليه عمر فقبل رجله وقال : رضينا بالله رباً . . الخ .

وزاد : وبالقرآن إماماً ، فاعف عنا عفا الله عنك . فلم يزل به حتى رضي .

وأخرج أيضاً عن أبي هريرة قال : < خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضبان محمارّ وجهه حتى جلس على المنبر . فقام إليه رجل فقال : أين أنا ؟ قال : في النار . – نحو ما مرّ – وفيه : فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ ﴾ > الآية .

قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : وبهذه الزيادة – أي : على ما في البخاريّ من قول رجل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أين أنا ؟ قال : في النار . – يتضح أن هذه القصة سبب نزول : ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء ﴾ الآية ، فإن المساءة في حق هذا جاءت صريحة ، بخلافها في حق حذافة فإنه بطريق الجواز ، أي : لو قدر أنه في نفس الأمر لم يكن لأبيه ، فبيّن أباه

الحقيقيّ ، لافتضحت أمه ، كما صرحت بذلك أمه حين عاتبته على هذا السؤال . انتهى

.

(232/216)

وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي البختري عن عليّ رضي الله عنه قال : لما نزلته هذه الآية : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ قالوا : يا رسول الله ! أفي كل عام ؟ فسكت ، فقالوا : أفي كلّ عام ؟ فسكت ، قال ثم قالوا : أفي كلّ عام ؟ فقال : لا . ولو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت لما استطعتم . فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ ﴾ الآية .

قال الترمذي : غريب وسمعت البخاريّ يقول : أبو البختريّ لم يدرك عليّاً .

وروى ابن جرير ونحوه عن أبي هريرة وأبي أمامة ، وكذا عن ابن عباس ، قال في الآية : لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ، ولكن انتظروا فإن نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم بيانه .

قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل . إما على سبيل الاستهزاء أو الامتحان ، وإما على سبيل التعنت عن الشيء الذي لو لم يسأل عنه

لكان على الإباحة .

الثاني – قال ابن كثير : ظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته . فالأَوْلى الإعراض عنها وتركها . وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا يبلغني أحد عن أحدٍ شيئاً . فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سُلَيم الصدر . ورواه أبو داود والترمذي .

الثالث – قال الإمام ابن القيم في " إعلام الموقعين " :

لم ينقطع حكم هذه الآية . بل لا ينبغي للعبد أن يتعرّض للسؤال عمّا إن بدا له ساءه . بل يستعفي ما أمكنه ، ويأخذ بعفو الله . ومن هاهنا قال عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه : يا صاحب الميزاب ! لا تخبرنا . لمّا سأله عن رفيقه عن مائه : أطاهر أم لا ؟

(233/216)

وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه وستره فلعله يسوءه إن أبدي له . فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله . فإنه سبحانه يكره إبداءها ، ولذلك سكت عنها .

وما ذكره من التعميم هو باعتبار ظاهرها . وأما المقصود أولاً وبالذات – كما يفيده تتمتها – فهو النهي عن السؤال بما يسوء إبداؤه في زمن الوحي .

ويدل له ، ما رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : < إنّ أعظم المسلمين جرماً ، من سأل عن شيءٍ لم يحرّم فحُرِّم من أجل مسألته > .

فإن مثل ذلك قد أمن وقوعه . وعن أبي هريرة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : < ذروني ما تركتكم . فإنما أهلكَ مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشيء فأْتُوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه > ، رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي .

وعن أبي ثعلبة الخُشَنِي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < إنّ الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها . وحدّ حدوداً فلا تعتدوها . وحرّم أشياء فلا تقربوها . وترك أشياء ، من غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها > . رواه الدارقطنيّ وأبو نعيم .

وعن سلمان الفارسي : قال سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء فقال : < الحلال ما أحلّ الله في كتابه . والحرام ما حرّم الله في كتابه . وما سكت عنه فهو مما قد عفا عنه ، فلا تتكلّفوا > . رواه الترمذي والحاكم وابن ماجة .

وأخرج الشيخان عن أنس قال : كنا نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيءٍ . وكان يعجبنا الرجل الغافل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع .

وفي قصة اللعان من حديث ابن عمر : فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها .

(234/216)

. ولمسلم عن النوّاس بن سمعان قال : أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة بالمدينة ، ما يمنعني من الهجرة إلاَّ مسألة . كان أحدنا ، إذا هاجر ، لم يسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ومراده : أنه قدم وافداً ، فاستمر بتلك الصورة ليحصل المسائل ، خشية أن يخرج من صفة الوفد إلى استمرار الإقامة فيصير مهاجراً ، فيمتنع عليه السؤال .

وفيه إشارة إلى أن المخاطب بالنهي عن السؤال غير الأعراب ، وفوداً كانوا أو غيرهم .

وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال : لمّا نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء ﴾ الآية , كنّا قد أتقينا أن نسأله صلى الله عليه وسلم . فأبينا أعرابيّاً فرشوناه برداءِ وقلنا : سل النبيه صلى الله عليه وسلم .

ولأبي يعلى عن البراء : إن كان ليأتي عليّ السنة أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء فأتهيّب , وإن كنا لنتمنى الإعراب – أي : قدومهم – ليسألوه ,

فيسمعوهم أجوبة سؤالات الأعراب , فيستفيدوها .

وأمّا ما ثبت في الأحاديث من أسئلة الصحابة , فيحتمل أن يكون قبل نزول الآية ، ويحتمل أن النهي عن الآية لا يتناول ما يحتاج إليه مما تقرر حكمه ، أو ما لهم بمعرفته حاجة راهنة : كالسؤال عن الذبح بالقصَب . والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء إذا أمروا بغير الطاعة . والسؤال عن أحوال يوم القيامة وما قبلها من الملاحم والفتن . والأسئلة التي في القرآن : كسؤالهم عن الكلالة والخمر والميسر والقتال في الشهر الحرام واليتامى والمحيض والنساء والصيد وغير ذلك .

لكن الذين تعلقوا بالآية في كراهية كثرة المسائل عمّا لم يقع ، أخذوه بطريق الإلحاق ، من جهة أن كثرة السؤال ، لمّا كانت سبباً للتكليف بما يشق ، فحقها أن تجتنب .

(235/216)

وقد عقد الإمام الدارمي في أوائل " مسنده " لذلك باباً . وأورد فيه عن جماعة من الصحابة والتابعين آثاراً كثيرة في ذلك ، منها : عن ابن عمر : لا تسألوا عما لم يكن . فإني سمعت عمر يلعن السائل عما لم يكن .

وعن عمر : أحرّج عليكم أن تسألوا عمّا لم يكن . فإن لنا فيما كان شغلاً .

وعن زيد بن ثابت ، أنه كان إذا كان إذا سئل عن الشيء ؟ يقول : كان هذا ؟ فإن قيل : لا ! قال : دعوه حتى يكون .

وعن أُبيّ بن كعب ، وعن عمار نحو ذلك .

وأخرج أبو داود في " المراسيل " : عن أبي سلمة ومعاذ مرفوعاً : لا تعجلوا بالبلية قبل نزولها . فإنكم إن تفعلوا لم يزل في المسلمين مَنْ إذا قال سُدِّد – أو وفق – وإن عجلتم تشتَّتَتْ بكم السبل .

وعن أشياخ الزبير بن سعيد مرفوعاً : لا يزال في أمتي من إذا سُدِّد ، حتى يتساءلوا عمّا لم ينزل .

قال بعض الأئمة : والتحقيق في ذلك ، أن البحث عما لا يوجد فيه نص ، على قسمين : أحدهما أن يبحث عن دخوله في دلالة النصّ على اختلاف وجوهها ، فهذا مطلوب لا مكروه . بل ربما كان فرضاً على من تعين عليه من المجتهدين .

ثانيهما – أن يدقق النظر في وجوه الفروق ، فيفرق بين متماثلين بفرق ليس له أثر في الشرع مع وجود وصف الجمع ، أو بالعكس بأن يجمع بين متفرقين بوصف طرديّ مثلاً . فهذا الذي ذمه السلف . وعليه ينطبق حديث ابن مسعود رفعه : هلك المتنطعون . . . أخرجه مسلم ، فرأوا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحته .

ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ، وهي نادرة الوقوع جداً ، فيصرف فيها زماناً كان صرفه في غيرها أولى ، لا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه . وأشد من ذلك – في كثرة السؤال – البحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها . ومنها لا يكون له شاهد في عالم الحسّ . كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة . . إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف . والكثير منه لم يثبت فيه شيء ، فيجب الإيمان من غير بحث . وأشد من ذلك ما يوقع كثرة البحث عنه في الشك والحيرة . قال بعضهم : مثال التنطع في السؤال حتى يفضي بالمسؤول إلى الجواب بالمنع بعد أن يفتي بالإذن – أن يسأل عن السلع التي توجد في الأسواق : هل يكره شراؤها ممن هي في يده من قبل البحث عن مصيرها إليه أو لا ؟ فيجيبه بالجواز . فإن عاد فقال : أخشى أن يكون من نهب أو غصب ، ويكون ذلك الوقت قد وقع شيء من ذلك في الجملة ، فيحتاج أن يجيبه بالمنع . ويقيّد ذلك إن ثبت شيء من ذلك حرم ، وإن تردد كره أو كان خلاف الأولى . ولو سكت السائل عن هذا التنطع لم يزد المفتي على جوابه بالجواز . وإذا تقرر ذلك ، فمن يسدّ باب المسائل حتى فاته معرفة كثير من الأحكام التي يكثر وقوعها ، فإنه يقل فهمه وعلمه ، ومن توسع في تفريع المسائل وتوليدها – ولا سيما فيما يقل وقوعه أو يندر ، ولا سيما إن كان الحامل على ذلك

المباهاة والمغالبة – فإنه يذم فعله ، وهو عين الذي كره السلف . ومن أمعن في البحث عن معاني كتاب الله ، محافظاً على ما جاء في تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ، الذين شاهدوا التنزيل . وحصل من الأحكام ما يستفاد من منطوقه ومفهومه ، وعن معاني السنة وما دلت عليه كذلك ، مقتصراً على ما يصلح للحجة منها ، فإنه الذي يحمد وينتفع به . وعلى ذلك يحمل عمل فقهاء الأمصار من التابعين

(237/216)

فمن بعدهم – كذا في " فتح الباري " .

ثم رأيت في " موافقات " الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى ، في أواخرها – في هذا الموضوع – مبحثاً جليلاً ، قال في أوله :

الإكثار من الأسئلة مذموم . والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح . من ذلك قوله تعالى . . . – وساق هذه الآية وما أسلفناه من الآثار وزاد أيضاً عما نقلنا – ثم قال : والحاصل أن كثرة السؤال ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية ، مذموم . وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وُعِظوا في كثرة السؤال حتى امتنعوا منه . وكانوا يحبون أن يجيء الأعراب فيسألون حتى

يسمعوا كلامه ويحفظوا منه العلم . . ثم قال : ويتبيّن من هذا أن لكراهية السؤال مواضع ، نذكر منها عشرة مواضع :

أحدها : السؤال عمّا لا ينفع في الدين ، كسؤال عبد الله بن حذافة : مَن أبي ؟ وروي في " التفسير " أنه عليه السلام سئل : ما بال الهلال يبدو رقيقاً كالخيط ثم لا يزال ينمو حتى يصير بدراً ثم ينقص إلى أن يصير كما كان ؟ فأنزل الله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ [البقرة : 189] الآية ، فإنما أجيب بما فيه منافع الدين .

وثانيها : أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته ، كم سأل الرجل عن الحج : أكل عام ؟ مع أن قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [آل عِمْرَان : 97] ، قاض بظاهره أنه للأبد ، لإطلاقه . ومثله سؤال بني إسرائيل بعد قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة : 67] .

وثالثها : السؤال من غير احتياجٍ إليه في الوقت ، وكأن هذا – والله أعلم – خاص بما لم ينزل فيه حكم ، وعليه يدل قوله : < ذَرُوني ما تَرَكْتُكُمْ > . وقوله : < وسكت عن أشياء رحمةً بكم ، لا عَنْ نسيان ، فلا تبحثوا عنها > .

ورابعها : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها ، كما جاء في النهي عن الأغلوطات .

(238/216)

وخامسها : أن يسأل عن علة الحكم – هو من قبيل التعبدات ، أو السائل ممّن لا يليق به ذلك السؤال – كما في حديث قضاء الصوم دون الصلاة .

وسادسها : أن يبلغ بالسؤال إلى حدّ التكلف والتعمق ، وعلى ذلك يدلّ قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : 86] ، ولما سئل الرجل : يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ قال عُمَر بن الخطاب : يا صاحب الحوض ! لا تخبرنا . فإن نرد على السباع وترد علينا .

وسابعها : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي ، ولذلك قال سعيد : أعراقيّ أنت ؟ وقيل لمالك بن أنس : الرجل يكون عالماً بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : لا . ولكن يخبر بالسنة . فإن قبلت منه وإلاّ سكت .

وثامنها : السؤال عن المتشابهات ، وعلى ذلك يدل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عِمْرَان : 7] الآية . وعن عُمَر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضاً للخصومات أسرع التنقل . ومن ذلك سؤال من سأل مالكاً عن الاستواء ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

وتاسعها : السؤال عما شجر بين السلف الصالح . وقد سئل عُمَر بن عبد العزيز عن قتال أهل صِفّين ؟ فقال : تلك دماء كف الله عنها يدي ، فلا أحب أن ألطّخ بها لساني .

وعاشرها : سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام . وفي القرآن في ذم نحو هذا : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة : 204] ، وقال : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف : 58] وفي الحديث : أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم .

(239/216)

هذه جملة من المواضع التي يكره السؤال فيها ، يقاس عليها ما سواها ، وليس النهي فيها واحداً ، بل فيها ما تشتدّ كراهيته ، ومنها ما يخفّ ، ومنها ما يحرم ، ومنها يكون محلّ اجتهاد . وعلى جملة ، منها يقع النهي عن الجدال في الدين كما جاء : أن المراء في القرآن كفر . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام : 68] الآية . وأشباه ذلك من الآي والأحاديث . . . فالسؤال في مثل ذلك منهيّ عنه ، والجواب بحسبه . انتهى كلامه .

التنبيه الرابع :

قال بعض المفسّرين : لا بد من تقييد النهي في هذه الآية (بما لا تدعو إليه حاجة) . لأن الأمر الذي تدعو إليه الحاجة في أمور الدين قد أذن الله بالسؤال عنه فقال : ﴿ فَاسْأَلُوا

أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] . وقال صلى الله عليه وسلم : < قاتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا . فإنما شفاء العيّ السؤال . . > انتهى .

ولا يخفى أن الآية بقيدها – أعني : ﴿ إِن تُبْدَ ﴾ . . الخ – غنية عن أن تقيّد بقيد آخر كما ذكره البعض . لأن المراد بها ما يشق عليهم من التكاليف الصعبة وما يفتضحون به – كما أسلفنا – مما هو خوض في الفضول ، وشروع فيما لا حاجة إليه . وفيه خطر المفسدة . والشيء الذي لا يحتاج إليه ويكون فيه خطر المفسدة ، يجب على العاقل الاحتراز عنه .

وأما ما تدعو إليه الحاجة فلا تشمله الآية – كما يتضح من نظمها الكريم – مع ما بيّنته السنة في سبب النزول ، وتحرج الصحابة عن المسائل المارّ بيانه – معلومٌ أنه فيما لا ضرورة إليها . وإلاَّ فمسائلهم في الضروريات والحاجيات طفحت بها كتب السنة ، مما يبيّن أن هذه الآية في موضوع خاص .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يكره فتح باب كثرة المسائل ، خشية أن تفضي إلى حرج أو مسادة أو تعنّت . .

(240/216)

روى الشخان عن المغيرة بن شعبة أنه كتب إلى معاوية : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن قيل وقال : وإضاعة المال ، وكثرة السؤال .

وروى أحمد وأبو داود : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الأغلوطات –وهي صعاب المسائل – والآثار في ذلك كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 374.264 ﴾

(241/216)

كلام نفيس للعلامة ابن القيم فى الآيتين :

قال رحمه الله :

معنى الرأي :

الرأي في الأصل مصدر "رأي الشيء يراه رأيا ثم غلب استعماله على المرئي نفسه من باب استعمال المصدر في المفعول كالهوى في الأصل مصدر هويه يهواه هوى ثم استعمل في الشيء الذي يهوى فيقال: هذا هوى فلان والعرب تفرق بين مصادر فعل الرؤية بحسب محالها فتقول: رأى كذا في النوم رؤيا ورآه في اليقظة رؤية ورأى كذا لما يعلم بالقلب ولا يرى بالعين رأيا ولكنهم خصوه بما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب مما

تتعارض فيه الإمارات فلا يقال لمن رأى بقلبه أمرا غائبا عنه مما يحس به أنه رأيه ولا يقال أيضا للأمر المعقول الذي لا تختلف فيه العقول ولا تتعارض فيه الإمارات إنه رأى وإن احتاج إلى فكر وتأمل كدقائق الحساب ونحوها .

أقسام الرأي :

وإذا عرف هذا فالرأي ثلاثة أقسام:

رأي باطل بلا ريب ورأي صحيح ورأي هو موضع الاشتباه والأقسام الثلاثة قد أشار إليها السلف فاستعملوا الرأي الصحيح وعملوا به وأفتوا به وسوغوا القول به وذموا الباطل ومنعوا من العمل والفتيا والقضاء به وأطلقوا ألسنتهم بذمه وذم أهله .

(242/216)

والقسم الثالث سوغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه حيث لا يوجد منه بد ولم يلزموا أحد العمل به ولم يحرموا مخالفته ولا جعلوا مخالفه مخالفا للدين بل غايته أنهم خيروا بين قبوله ورده فهو بمنزلة ما أبيح للمضطر من الطعام والشراب الذي يحرم عند عدم الضرورة إليه كما قال الإمام أحمد سألت الشافعي عن القياس فقال لي عند الضرورة وكان استعمالهم لهذا النوع بقدر الضرورة لم يفرطوا فيه ويفرعوه ويولدوه ويوسعوه كما صنع

المتأخرون بحيث اعتاضوا به عن النصوص والآثار وكان أسهل عليهم من حفظها كما يوجد كثير من الناس يضبط قواعد الإفتاء لصعوبة النقل عليه وتعسر حفظه فلم يتعدوا فى استعماله قدر الضرورة ولم يبغوا العدول إليه مع تمكنهم من النصوص والآثار كما قال تعالى في المضطر إلى الطعام المحرم ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فالباغي الذي يبتغي الميتة مع قدرته على التوصل إلى المذكى والعادي الذي يتعدى قدر الحاجة بأكلها .

فصل في أنواع الرأي الباطل

والرأي الباطل أنواع:

أحدها : الراى المخالف للنص وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام فساده وبطلانه ولا تحل الفتيا به ولا القضاء وإن وقع فيه من وقع بنوع تأويل وتقليد .

النوع الثاني: هو الكلام في الدين بالخرص والظن مع التفريط والتقصير في معرفة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها فإن من جهلها وقاس برأيه فيما سئل عنه بغير علم بل لمجرد قدر جامع بين الشيئين ألحق أحدهما بالآخر أو لمجرد قدر فارق يراه بينهما يفرق بينهما في الحكم من غير نظر إلى النصوص والآثار فقد وقع في الرأي المذموم الباطل .

النوع الثالث: الرأي المتضمن تعطيل أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية ومن ضاهاهم حيث استعمل أهله قياساتهم الفاسدة وآراءهم الباطلة وشبههم الداحضة في رد النصوص الصحيحة الصريحة فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التي وجدوا السبيل إلى تكذيب رواتها وتخطئتهم ومعاني النصوص التي لم يجدوا إلى رد ألفاظها سبيلا فقابلوا النوع الأول بالتكذيب والنوع الثاني: بالتحريف والتأويل فأنكروا لذلك رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده وأنكروا مباينته للعالم واستواءه على عرش وعلوه على المخلوقات وعموم قدرته على كل شيء بل أخرجوا أفعال عباده من الملائكة والأنبياء والجن الإنس عن تعلق قدرته ومشيئته وتكوينه لها ونفوا لأجلها حقائق ما أخبر به عن نفسه واخبر به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله وحرفوا لأجلها النصوص عن مواضعها وأخرجوها عن معانيها وحقائقها بالرأي المجرد الذي حقيقته أنه ذبالة الأذهان ونخالة الأفكار وعفارة الآراء ووساوس الصدور فملأوا به الأوراق سوادا والقلوب شكوكا والعالم فسادا وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي والهوى على العقل وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساد فلا إله إلا الله كم نفي بهذه الآراء من حق وأثبت بها من باطل وأميت

بها من هدى وأحي بها من ضلالة وكم هدم بها من معقل الإيمان وعمر بها من دين الشيطان وأكثر أصحاب

الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل بل هم شر من الحمر وهم الذين يقولون يوم القيامة: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

النوع الرابع: الرأي الذي أحدثت به البدع وغيرت به السنن وعم به البلاء وتربى عليه الصغير وهرم فيه الكبير .

(244/216)

فهذه الأنواع الأربعة من الرأي الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه وإخراجه من الدين .

النوع الخامس: ما ذكره أبو عمر بن عبد البر عن جمهور أهل العلم: "أن الرأي المذموم في هذه الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه والتابعين رضي الله عنهم أنه القول في أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون والاشتغال بحفظ المعضلات والأغلوطات ورد الفروع بعضها على بعض قياسا دون ردها على أصولها والنظر في عللها واعتبارها فاستعمل فيها الرأي قبل أن ينزل وفرعت وشققت قبل أن تقع وتكلم فيها قبل أن تكون

بالرأي المضارع للظن قالوا وفي الاشتغال بهذا والاستغراق فيه تعطيل السنن والبعث على جهلها وترك الوقوف على ما يلزم الوقوف عليه منها ومن كتاب الله عز وجل ومعانيه احتجوا على ما ذهبوا إليه بأشياء" ثم ذكر من طريق أسد بن موسى ثنا شريك عن ليث عن طاووس عن ابن عمر قال لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر يلعن من يسأل عما لم يكن ثم ذكر من طريق أبي داود ثنا إبراهيم بن موسى الرازي ثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن عبد الله بن سعد عن الصنابحي عن معاوية أن النبي صلى الله عليه وسلم: "نهى عن الأغلوطات" .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: ثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي بإسناده مثله وقال: فسره الأوزاعي يعني صعاب المسائل وقال الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن عبد الله بن سعد عن عبادة بن قيس الصنابحي عن معاوية بن أبي سفيان أنهم ذكروا المسائل عنده فقال أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن عضل المسائل ؟ ! .

وقال أبو عمر: واحتجوا أيضا بحديث سهل وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره المسائل وعابها وبأنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال" .

(245/216)

وقال ابن أبي خيثمة: ثنا أبي ثنا عبد الرحمن بن مهدي ثنا مالك عن الزهري عن سهل بن سعد قال: "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها" قال أبو بكر هكذا ذكره أحمد بن زهير بهذا الإسناد وهو خلاف لفظ الموطأ قال أبو عمر: "وفي سماع أشهب سئل مالك عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال فقال: "أما كثرة السؤال فلا أدري أهو ما أنتم فيه مما أنهاكم عنه من كثرة السؤال فقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها وقال الله عز وجل: ﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ فلا أدري أهو هذا أم السؤال في مسألة الناس في الاستعطاء" وقال الأوزاعي: عن عبدة بن أبي لبابة: "وددت أن حظي من أهل هذا الزمان أن لا أسألهم عن شيء ولا يسألوني يتكاثرون بالمسائل كما يتكاثر أهل الدراهم بالدراهم" .

قال: واحتجوا أيضا بما رواه ابن شهاب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أباه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته" وروى ابن وهب أيضا قال حدثني ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم" وقال سفيان بن

عيينة عن عمرو عن طاووس قال: قال عمر بن الخطاب وهو على المنبر: "أحرج بالله على كل امرىء سأل عن شيء
لم يكن فإن الله قد بين ما هو كائن" .

(246/216)

وقال أبو عمر: وروى جرير بن عبد الحميد ومحمد بن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "ما رأيت قوما خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه وسلم كلهن في القرآن يسألونك عن المحيض يسألونك عن الشهر الحرام يسألونك عن اليتامى ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم" قال أبو عمر: "ليس في الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث" .
قلت: ومراد ابن عباس بقوله: "ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة" المسائل التي حكاها الله في القرآن عنهم وإلا فالمسائل التي سألوه عنها وبين لهم أحكامه بالسنة لا تكاد تحصى ولكن إنما كانوا يسألونه عما ينفعهم من الواقعات ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات والأغلوطات وعضل المسائل ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها بل كانت هممهم مقصورة على تنفيذ ما أمرهم به فإذا وقع بهم أمر سألوا عنه فأجابهم وقد قال تعالى ﴿يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ .

(247/216)

وقد اختلف في هذه الأشياء المسئول عنها : هل هي أحكام قدرية أو أحكام شرعية ؟ على قولين: فقيل: إنها أحكام شرعية عفا الله عنها أي سكت عن تحريمها فيكون سؤالهم عنها سبب تحريمها ولو لم يسألوا لكانت عفوا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الحج: أفي كل عام ؟ فقال: "لو قلت نعم وجبت ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم" ويدل على هذا التأويل حديث أبي ثعلبة المذكور: "إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما" الحديث ومنه الحديث الآخر: "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها" وفسرت بسؤالهم عن أشياء من الأحكام القدرية كقول عبد الله بن حذافة: "من أبي يا رسول الله" وقول آخر: "أين أبي يا رسول الله" قال: "في النار" والتحقيق أن الآية تعم النهي عن النوعين وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ أما في أحكام الخلق والقدر فإنه يسؤهم أن يبدو لهم ما يكرهونه

مما سألوا عنه وأما في أحكام التكليف فإنه يسؤهم أن يبدو لهم ما يشق عليهم تكليفه مما سألوا عنه .

وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ فيه قولان: أحدهما أن القرآن إذا نزل بها ابتداء بغير سؤال فسألتم عن تفصيلها وعلمها أبدى لكم وبين لكم والمراد بحين النزول زمنه المتصل به لا الوقت المقارن للنزول وكأن في هذا إذنا لهم في السؤال عن تفصيل المنزل ومعرفته بعد إنزاله ففيه رفع لتوهم المنع من السؤال عن الأشياء مطلقا والقول الثاني أنه من باب التهديد والتحذير أي ما سألتم عنها في وقت نزول الوحي جاءكم بيان ما سألتم عنه بما يسؤكم والمعنى لا تتعروا للسؤال عما يسوءكم بيانه وإن تعرضتم له في زمن الوحي أبدي لكم .

(248/216)

وقوله ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي عن بيانها خبرا وأمرا بل طوى بيانها عنكم رحمة ومغفرة وحلما والله غفور حليم فعلى القول الأول عفا الله عن التكليف بها توسعة عليكم وعلى القول الثاني عفا الله عن بيانها لئلا يسؤكم بيانها .

وقوله ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ أراد نوع تلك المسائل لا أعيانها

أي قد تعرض قوم من قبلكم لأمثال هذه المسائل فلما بينت لهم كفروا بها فاحذروا مشابهتهم والتعرض لما تعرضوا له .

ولم ينقطع حكم هذه الآية بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إن بدا له ساءه بل يستعفي ما أمكنه ويأخذ بعفو الله ومن ههنا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا صاحب الميزاب لا تخبرنا لما سأله رفيقه عن مائه أطاهر

أم لا وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه وستره فلعله يسوءه إن أبدي له فالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله فإنه سبحانه يكره إبداءها ولذلك سكت عنها والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 73.66 ﴾

مبحث نفيس للإمام الشاطبى

قال عليه الرحمة :

الإكثار من الأسئلة مذموم

والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح

من ذلك قوله تعالى ﴿ أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ الآية وفى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قرأ ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ الآية فقال رجل يا رسول الله أكل عام فأعرض ثم قال يا رسول الله أكل عام ثلاثا وفى كل ذلك

يعرض وقال في الرابعة

والذى نفسي بيده لو قلتها لوجبت ولو وجبت ما قمتم بها ولو لم تقوموا بها لكفرتم فذروني ما تركتكم وفى مثل هذا نزلت ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ الآية وكره عليه الصلاة والسلام المسائل وعابها ونهى عن كثرة السؤال وكان عليه الصلاة والسلام يكره السؤال فيما لم ينزل فيه حكم وقال

(249/216)

إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تعتدوها وعفا عن أشياء رحمة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها

وقال ابن عباس ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه وسلم كلهن في القرآن ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ ﴿ ويسألونك عن اليتامى ﴾ ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم يعنى أن هذا كان الغالب عليهم وفى الحديث إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شئ لم يحرم عليه فحرم عليهم من أجل مسألته وقال

ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وقام يوما وهو يعرف في وجهه الغضب فذكر الساعة وذكر قبلها أمورا عظاما ثم قال

من أحب أن يسأل عن شئ فليسأل عنه فوالله لا تسألوني عن شئ إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا قال فأكثر الناس من البكاء حين سمعوا ذلك وأكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول سلوني فقام عبد الله ابن حذافة السهمي فقال من أبي فقال أبوك حذافة فلما أكثر أن يقول سلوني برك عمر بن الخطاب على ركبتيه فقال يا رسول الله رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبينا قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عمر ذلك وقال أولا

والذي نفسي بيده لقد عرضت علي الجنة والنار آنفا في عرض هذا الحائط وأنا أصلي فلم أر كاليوم في الخير والشر وظاهر هذا المساق يقتضي أنه إنما قال سلوني في معرض الغضب تنكيلا بهم في السؤال حتى يروا عاقبة ذلك ولأجل ذلك ورد في الآية قوله ﴿ إن تبد لكم تسؤكم ﴾

(250/216)

ومثل ذلك قصة أصحاب البقرة فقد روى عن ابن عباس أنه قال لو ذبحوا بقرة ما لأجزأتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم حتى ذبحوها وما كادوا يفعلون وقال الربيع بن خيثم يا عبد الله ما علمك الله في كتابه من علم فأحمد الله وما استأثر عليك به من علم فكله إلى عالمه ولا تتكلف فإن الله يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ الخ وعن ابن عمر قال لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن وفى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن الأغلوطات فسره الأوزاعي فقال يعنى صعاب المسائل وذكرت المسائل عند معاوية فقال أما تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن عضل المسائل وعن عبدة بن أبي لبابة قال وددت أن حظى من أهل هذا الزمان أن لا أسألهم عن شئ ولا يسألوني يتكاثرون بالمسائل كما يتكاثرون أهل الدراهم بالدراهم وورد في الحديث

إياكم وكثرة السؤال وسئل مالك عن حديث

نهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال قال أما كثرة السؤال فلا أدري أهو ما أنتم فيه مما أنهاكم عنه من كثرة المسائل فقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها وقال الله تعالى ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ فلا أدري أهو هذا أم السؤال في الاستعطاء وعن عمر بن الخطاب أنه قال على المنبر أحرج بالله على كل امرئ سأل عن

شيء لم يكن فإن الله بين ما هو كائن وقال ابن وهب قال لي مالك وهو ينكر كثرة الجواب للمسائل يا عبد الله ما علمته فقل به ودل عليه وما لم

(251/216)

تعلم فاسكت عنه وإياك أن تتقلد للناس قلادة سوء وقال الأوزاعي إذا أراد الله أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه الأغاليط وعن الحسن قال إن شرار عباد الله الذين يجيئون بشرار المسائل يعنتون بها عباد الله وقال الشعبي والله لقد بغض هؤلاء القوم إلي المسجد حتى لهو أبغض إلى من كناسة داري قلت من هم يا أبا عمر قال ألا رأيتيون وقال ما كلمة أبغض إلى من رأيت وقال أيضا لداود ألا احفظ عنى ثلاثا إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها فلا تتبع مسألتك أرأيت فإن الله قال في كتابه ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ حتى فرغ من الآية والثانية إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئا بشيء فربما حرمت حلالا أو حللت حراما والثالثة إذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم وأنا شريكك وقال يحيى بن أيوب بلغني أن أهل العلم كانوا يقولون إذا أراد الله أن لا يعلم عبده أشغله بالأغاليط والآثار كثيرة

والحاصل أن كثرة السؤال ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية مذموم

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وعطوا في كثرة السؤال حتى امتنعوا منه وكانوا يحبون أن يجئ الأعراب فيسألون حتى يسمعوا كلامه ويحفظوا منه العلم ألا ترى ما في الصحيح عن أنس قال نهينا أن

نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شئ فكان يعجبنا أن يجئ الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ولقد أمسكوا عن السؤال حتى جاء جبريل فجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأمارتها ثم أخبرهم عليه الصلاة والسلام أنه جبريل وقال

(252/216)

أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا وهكذا كان مالك بن أنس لا يقدم عليه في السؤال كثيرا وكان أصحابه يهابون ذلك قال أسد بن الفرات وقد قدم على مالك وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلونني أسأله عن المسألة فإذا أجاب يقولون قل له فإن كان كذا فأقول له فضاق علي يوما فقال لي هذه سليسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق وإنما كان مالك يكره فقه العراقيين وأحوالهم لايغالهم في المسائل وكثرة تفريعهم في الرأي وقد جاء عن عائشة أن امرأة سألتها عن قضاء الحائض الصوم دون الصلاة فقالت لها أحرورية أنت

انكارا عليها السؤال عن مثل هذا وقضى النبي صلى الله عليه وسلم في الجنين بغرة فقال الذى قضى عليه كيف أغرم ما لا شرب ولا أكل ولا شهق ولا استهل ومثل ذلك بطل فقال عليه الصلاة والسلام

إنما هذا من إخوان الكهان وقال ربيعة لسعيد في مسألة عقل الأصابع حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها فقال سعيد أعراقي أنت فقلت بل عالم متثبت أو جاهل متعلم فقال هي السنة يا ابن أخي وهذا كاف في كراهية كثرة السؤال في الجملة

فصل

ويتبين من هذا أن لكراهية السؤال مواضع نذكر منها عشرة مواضع أحدها السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال عبد الله بن حذافة من أبي وروى في التفسير أنه عليه الصلاة والسلام سئل ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم لا يزال ينمو حتى يصير بدرا ثم ينقص إلى أن يصير كما كان فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الأهلة ﴾ الآية فأنما أجيب بما فيه من منافع الدين والثاني أن يسأل بعد ما بلغ من العلم حاجته كما سأل الرجل عن الحج أكل عام مع أن قوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ قاض بظاهره أنه للأبد لاطلاقة ومثله سؤال بني إسرائيل بعد قوله ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾

والثالث السؤال من غير احتياج إليه في الوقت وكان هذا والله أعلم خاص بما لم ينزل فيه

حكم وعليه يدل قوله

ذروني ما تركتكم وقوله

(253/216)

وسكت عن أشياء رحمة لكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها

والرابع أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها كما جاء في النهي عن الأغلوطات

والخامس أن يسأل عن علة الحكم وهو من قبيل التعبدات التي لا يعقل لها

معنى أو السائل ممن لا يليق به ذلك السؤال كما في حديث قضاء الصوم دون الصلاة

والسادس أن يبلغ بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق وعلى ذلك يدل قوله تعالى ﴿ قل ما

أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ ولما سأل الرجل يا صاحب الحوض هل ترد

حوضك السباع قال عمر بن الخطاب

يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا الحديث

والسابع أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي ولذلك قال سعيد أعراقى

أنت وقيل لمالك بن أنس الرجل يكون عالما بالنسبة أيجادل عنها قال لا ولكن يخبر بالنسبة

فإن قبلت منه وإلا سكت

والثامن السؤال عن المتشابهات وعلى ذلك يدل قوله تعالى ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه ﴾ الآية وعن عمر بن عبد العزيز من جعل دينه عرضا للخصومات أسرع التنقل ومن ذلك سؤال من سأل مالكا عن الاستواء فقال الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة

والتاسع السؤال عما شجر بين السلف الصالح وقد سئل عمر بن عبد العزيز عن قتال أهل صفين فقال تلك دماء كف الله عنها يدي فلا أحب أن يطلخ بها لساني

والعاشر سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام وفى القرآن في ذم نحو هذا ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ وقال ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ وفى الحديث

أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم

هذه الجملة من المواضع التي يكره السؤال فيها يقاس عليها ما سواها

وليس النهي فيها واحدا بل فيها ما تشتد كراهيته ومنها ما يخف ومنها ما يحرم ومنها ما يكون محل اجتهاد وعلى جملة منها يقع النهي عن الجدال في الدين كما جاء

(254/216)

إن المراء في القرآن كفر وقال تعالى ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ الآية وأشباه ذلك من الآي أو الأحاديث فالسؤال في مثل ذلك منهي عنه والجواب بحسبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الموافقات حـ 5 صـ 374.392 ﴾

(255/216)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " قَدْ سَأَلَهَا " : الضميرُ في " سَأَلَهَا " ظاهرُه يعود على " أشْيَاء " ، لكن قال الزمخشري : " فإن قلتَ : كيف قال : لا تَسْأَلُوا عنْ أشْيَاء ، ثم قال : " قَدْ سَأَلَهَا " ولم يقل سأل عنها ؟ قلت : ليس يعودُ على أشياء ؛ حتى يتعدَّى إليها بـ " عَنْ " ، وإنما يعودُ على المسألةِ المدلولِ عليها بقوله : " لا تَسْأَلُوا " ، أي : قد سأل المَسْأَلَةَ قومٌ ، ثم أصبحُوا بها - أي بمَرْجُوعِهَا - كافِرِين " ، ونحا ابن عطية منْحَاهُ ، قال أبو حيان : " ولا يتَّجه قولُهما إلا على حذفِ مضافٍ ، وقد صرَّحَ به بعضُ المفسّرين ، أي : قد سأل أمثالها ، أي : أمثالَ هذه المسألةِ ، أو أمثال هذه السؤالاتِ " ، وقال الحُوفِيُّ في " سَأَلَهَا " : " الظاهرُ عَوْدُ الضَّميرِ على " أشْيَاء " ولا يتّجه حَمْلُه على ظاهره ، لا من جهة اللفظ العربيّ ، ولا من

جهةِ المعنى ، أمَّا من جهة اللفظ : فلأنه كان ينبغي أن يُعَدَّى بـ " عَنْ " كما عُدِّيَ في الأوَّل ، وأمَّا من جهة المعنى ، فلأنَّ المسئُول عنه مختلفٌ قَطْعَاً ؛ فإنَّ سؤالهم غيرُ سؤالِ من قبلهم ؛ فإنَّ سؤال هؤلاء مثلُ من سَأَلَ : أَيْنَ نَاقَتِي ، وما فِي بَطْنِ نَاقَتِي ، وأَيْنَ أَبِي ، وأَيْنَ مَدْخَلِي ؟ وسؤالُ أولئك غيرُ هذا ؛ نَحْو : ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً ﴾ [المائدة : 114] ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : 153] ﴿ اجعل لَّنَآ إلها ﴾ [الأعراف : 138] وسؤال ثمود الناقة ، ونحوه " .

(256/216)

وقال الواحديُّ – ناقلاً عن الجرجانيِّ – : وهذا السؤالُ في هذه الآيات يخالفُ معنى السؤال في قوله : ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ﴾ ﴿ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا ﴾ ؛ ألا ترى أنَّ السؤال في الآية الأولى قد عُدِّيَ بالجارِّ ، وها هنا لم يُعَدَّ بالجارِّ ؛ لأن السؤالَ ها هنا طلبٌ لعينِ الشيء ؛ نحو : " سَأَلْتُكَ دِرْهَماً " أي طلبته منْكَ ، والسؤالُ في الآية الأولى سؤالٌ عن حالِ الشيء وكيفيَّتِهِ ، وإنما عطف بقوله ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ ﴾ على ما قبلَها وليستْ بمثلِها في التأويل ؛ لأنه إنما نهاهم عن تكليف ما لم يُكَلَّفُوا ، وهو مرفوعٌ عنهم فهُمَا يَشْتَرِكَانِ في وصفٍ واحدٍ ، وهو أنَّه خوضٌ في الفُضُولِ ، وفيما لا حَاجَةَ إلَيْه .

وقيل : يجوز أن يعود على " أشْيَاء " لفظاً لا معنًى ؛ كما قال النحويُّون في مسألة : " عِنْدِي دِرْهَمٌ ونِصْفُهُ " ، أي : ونِصْفُ دِرْهَمٍ آخَرَ ، ومنه : [الطويل]

2056 - وكُلُّ أُنَاسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ . . .

ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبُ

فصل

وقرأ النَّخَعِيُّ : " سَالَهَا " بالإمالة من غير همزٍ وهما لغتان ، ومنه يتساولان فإمالتُه لـ " سَأَلَ " كإمالة حمزة " خَافَ " ، وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك في البقرةِ عند قوله ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة : 61] و ﴿ سَلْ بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [البقرة : 211] .

(257/216)

قوله : " مِنْ قَبْلِكُمْ " متعلق بقوله : " سَأَلَهَا " ، فإنْ قيل : هَلْ يجوز أن يكون صفةً لـ " قوم " ؟ فالجواب : منعَ من ذلك جماعة معتلّين بأنَّ ظَرْفَ الزمان لا يقعُ خبراً ، ولا صفةً ، ولا حالاً عن الجُثَّة ، وقد تقدَّم نحوُ هذا في أوَّلِ البقرة عند قوله : ﴿ والذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : 21] ، فإنَّ الصلةَ كالصفة ، و " بِهَا " متعلّق بـ " كَافرينَ " ، وإنما قُدِّم لأجْلِ الفواصل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 550.552 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102) ﴾

يعني توهَّم قوم أنهم محرورون عن التأثر فيما يصادفهم في فجاءة التقدير ، وذلك منهم ظَنٌّ ،

كما يقول بعضهم :

تبيَّن يومَ البيْن أنَّ اعتزامَه . . . على الصبر من إحدى الظنون الكواذب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 451 ﴾

(258/216)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع عشر بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/217)

الجزء السابع عشر بعد المائتين

من الآية ﴿ 103 ﴾ من سورة المائدة

وحتى الآية ﴿ 104 ﴾ من نفس السورة

(4/217)

قوله تعالى ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما فرغ من زجرهم عن أن يشرعوا لأنفسهم أو يسألوه عن أن يشرع لهم وأن يسألوا مَنْ رحمهم بابتدائهم بهذا الشرع عن شيء من الأشياء اعتماداً على أنه ما ابتدأ بذلك إلا وهو غير مخف عنهم شيئاً ينفعهم ولا مبد لهم شيئاً يضرهم لأنه بكل شيء عليم – كما تقدم التنبيه على ذلك ، قال معللاً بختام الآية التي قبلها : ﴿ ما جعل الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال فلا يشرع شيئاً إلا وهو على غاية الحكمة ، وأغرق في النفي بقوله : ﴿ من بحيرة ﴾ وأكد النفي بإعادة النافي فقال : ﴿ ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ دالاً بذلك على أن الإنسان قد يقع في شرعه لنفسه على الخبيث دون الطيب ، وذلك لأن الكفار شرعوا لأنفسهم هذا وظنوا أنه من محاسن الأعمال ، فإذا هو مما لا يعبأ الله به بل ومما يعذب عليه ، لكونه أوقعهم فيما كانوا معترفين بأنه أقبح القبائح وهو الكذب ، بل في أقبح أنواعه وهو الكذب على ملك الملوك ، ثم صار لهم ديناً ، وصاروا أرسخ الناس فيه وهو عين الكفر ، وهم معترفون بأنه ما شرعه إلا عمرو بن لحي وهو أول من غير دين إبراهيم – كما رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن عمْراً أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي " ورواه عبد بن حميد في مسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه وفي

آخره : " وكان عمرو بن لحي أول من حمل العرب على عبادة الأصنام " ورواه البخاري في المناقب من صحيحه ومسلم في صفة النار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، وكان أول من سيّب السوائب " قال ابن هشام في السيرة : والبحيرة عندهم الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهرها ولا يجزّ وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف أو يتصدق به وتهمل لآلهتهم .

(5/217)

وروى البخاري في المناقب ومسلم في صفة النار عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة التي كانوا يسيّبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء .

وكذا رواه البخاري أيضاً في التفسير وقال : والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى .

وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر وقال البرهان السفاقسي في إعرابه : قال أبو عبيد : وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، في الآخر ذكر ، شقوا أذنها وخلو سبيلها لا تركب ولا تحلب – وقيل غير ذلك ، وقال أبو حيان في

النهر : قال ابن عباس : السائبة هي التي تسيب للأصنام أي تعتق ، وكان الرجل يسيب من ماله شيئاً فيجيء به إلى السدنة وهم خدم آلهتهم فيطعمون من لبنها للسبيل ، والوصيلة قال ابن عباس – إنها الشاة تنتج سبعة أبطن ، فإن كان السابع أنثى لم تنتفع النساء منها بشيء إلا أن تموت فيأكلها الرجال والنساء ، وإن كان ذكراً ذبحوه وأكلوه جميعاً ، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فتترك مع أخيها فلا تذبح ، ومنافعها للرجال دون النساء ، فإذا ماتت اشترك الرجال والنساء فيها .

وقال ابن هشام : والحامي الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ، حمى ظهره فلم يركب ظهره ولم يجزّ وبره وخلى في إبله يضرب فيها لا ينتفع منه بغير ذلك .

وقال السفاقسي : قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم – واختاره أبو عبيدة والزجاج – : هو الفحل ينتج من صلبه عشرة أبطن فيقولون : قد حمى ظهره ، فيسيبونه لأصنامهم فلا يحمل عليه شيء .

(6/217)

ولما كانوا قد حرموا هذه الأشياء ، وكان التحريم والتحليل من خواص الإله ، وكان لا إله إلا الله ، كان حكمهم عليها بالحرمة نسبة لذلك إلى الله سبحانه كذباً ، فقال تعالى بعد أن نفى

أن يكون جعل شيئاً من ذلك : ﴿ ولكن الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دل عليه عقلهم من أن الله ما جعل هذا ، لأنهم لا وصول لهم إليه سبحانه وعز شأنه ، فلذلك قال :

﴿ يفترون ﴾ أي يتعمدون بجعل هذه الأشياء من تحريم وتحليل ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ الكذب ﴾ فيحرمون ما لم يحرمه ويحللون ما لم يحلله ﴿ وأكثرهم ﴾ أي هؤلاء الذين جعلوا هذه الأشياء ﴿ لا يعقلون ﴾ أي لا يتجدد لهم عقل ، وهم الذين ماتوا على كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 551.552 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما منع الناس من البحث عن أمور ما كلفوا بالبحث عنها كذلك منعهم عن التزام أمور ما كلفوا التزامها ، ولما كان الكفار يحرمون على أنفسهم الانتفاع بهذه الحيوانات وإن كانوا في غاية الاحتياج إلى الانتفاع بها ، بيّن تعالى أن ذلك باطل فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 90 ﴾

(7/217)

اللغة :

[البحيرة] من البحر وهو الشق قال ابو عبيدة : وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن في آخرها ذكر شقوا أذنها وخلوا سبيله فلا تركب ولا تحلب

[السائبة] البعير يسيب بنذر ونحوه

[وصيلة] الوصيلة من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن وكان السابع ذكرا وأنثى قالوا قد وصلت اخاها فلم تذبح

[حام] : الفحل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن يقال قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يمنع من كلا ولا ماء

[عثر] ظهر يقال : عثرت منه على خيانة أى اطلعت وظهرت لي

[الأوليان] تثنية ولى بمعنى أحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 366 . 367 ﴾

(8/217)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه يقال : فعل وعمل وطفق وجعل وأنشأ وأقبل ، وبعضها أعم من بعض ، وأكثرها عموماً فعل ، لأنه واقع على أعمال الجوارح وأعمال القلوب ، أما إنه واقع على أعمال الجوارح فظاهر ، وأما إنه واقع على أعمال القلوب ، فالدليل عليه قوله تعالى : ﴿ لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا ﴾ إلى قوله ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل : 35] وأما عمل فإنه أخص من فعل ، لأنه لا يقع إلا على أعمال الجوارح ، ولا يقع على الهم والعزم والقصد ، والدليل عليه قوله عليه السلام : " نية المؤمن خير من عمله " جعل النية خيراً من العمل ، فلو كانت النية عملاً ، لزم كون النية خيراً من نفسها ، وأما جعل فله وجوه : أحدها : الحكم ومنه قوله ﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثًا ﴾ [الزخرف : 19] وثانيها : الخلق ، ومنه قوله : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] .

وثالثها : بمعنى التصيير ومه قوله ﴿ إِنَّا جعلناه قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ [الزخرف : 3] .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله ﴿ مَّا جَعَلَ الله ﴾ أي ما حكم الله بذلك ولا شرع ولا أمر به .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 90 . 91 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر ههنا أربعة أشياء : أولها : البحيرة : وهي فعيلة من البحر وهو الشق ، يقال :

بحر ناقته إذا شق أذنها ، وهي بمعنى المفعول ، قال أبو عبيدة والزجاج : الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، وكان آخرها ذكراً شقوا أذن الناقة وامتنعوا من ركوبها وذبحها وسيبوها لآلهتهم ، ولا يجز لها وبر ، ولا يحمل على ظهرها ، ولا تطرد عن ماء ، ولا تمنع عن مرعى ، ولا ينتفع بها وإذا لقيها المعيي لم يركبها تحريجاً .

(9/217)

وأما السائبة : فهي فاعلة من ساب إذا جرى على وجه الأرض يقال : ساب الماء وسابت الحية ، فالسائبة هي التي تركت حتى تسيب إلى حيث شاءت ، وهي المسيبة كعيشة راضية بمعنى مرضية ، وذكروا فيها وجوهاً : أحدها : ما ذكره أبو عبيدة ، وهو أن الرجل كان إذا مرض أو قدم من سفر أو نذر نذراً أو شكر نعمة سيب بعيراً ، فكان بمنزلة البحيرة في جميع ما حكموا لها ، وثانيها : قال الفراء : إذا ولدت الناقة عشرة أبطن كلهن إناث ، سيبت فلم تركب ولم تحلب ولم يجز لها وبر ، ولم يشرب لبنها إلا ولد أو ضيف ، وثالثها : قال ابن عباس : السائبة هي التي تسيب للأصنام أي تعتق لها ، وكان الرجل يسيب من ماله ما يشاء ، فيجيء به إلى السدنة وهم خدم آلهتهم فيطعمون من لبنها أبناء السبيل ، ورابعها : السائبة هو العبد يعتق على أن لا يكون عليه ولاء ولا عقل ولا ميراث .

وأما الوصيلة : فقال المفسرون : إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ، فالوصيلة بمعنى الموصولة كأنها وصلت بغيرها ، ويجوز أن تكون بمعنى الواصلة لأنها وصلت أخاها ، وأما الحام فيقال : حماه يحميه إذا حفظه وفيه وجوه : أحدها : الفحل إذا ركب ولد ولده .

قيل : حمى ظهره أي حفظه عن الركوب فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى إلى أن يموت فحينئذٍ تأكله الرجال والنساء .

وثانيها : إذا نتجت الناقة عشرة أبطن قالوا حمت ظهرها حكاه أبو مسلم .

وثالثها : الحام هو الفحل الذي يضرب في الإبل عشر سنين فيخلى ، وهو من الأنعام التي حرمت ظهورها ، وهو قول السدي .

فإن قيل : إذا جاز إعتاق العبيد والإماء فلم لا يجوز إعتاق هذه البهائم من الذبح والاتعاب والايلام .

(10/217)

قلنا : الإنسان مخلوق لخدمة الله تعالى وعبوديته ، فإذا تمرد عن طاعة الله تعالى عوقب بضرب الرق عليه ، فإذا أزيل الرق عنه تفرغ لعبادة الله تعالى ، فكان ذلك عبادة مستحسنة ، وأما هذه الحيوانات فإنها مخلوقة لمنافع المكلفين ، فتركها وإهمالها يقتضي فوات منفعة على مالكها من غير أن يحصل في مقابلتها فائدة ، فظهر الفرق ، وأيضاً الإنسان إذا كان عبداً فأعتق قدر على تحصيل مصالح نفسه ، وأما البهيمة إذا أعتقت وتركت لم تقدر على رعاية مصالح نفسها فوقعت في أنواع من المحنة أشد وأشق مما كانت فيها حال ما كانت مملوكة فظهر الفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 91 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ﴾

يعني ما بحر الله من بحيرة ، ولا سيب سائبة ، ولا وصل وصيلة ، ولا حمى حامياً .

والبحيرة : الفصلة من قول القائل ، بحرت أذن الناقة إذا شقها ، ومنه قول الأبيرد :

وأمسى فيكم عمران يمشي . . . . . كأنه جمل بحير

وقد روى أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : " أَرَأَيْتَ إِبِلَكَ تَكُونَ مُسَلَّمَةً آذَانُهَا فَتَأْخُذَ الْمُوسَى فَتَجْدَعَهَا تَقُولُ هَذِهِ بَحِيْرَةٌ ، وَتَشُقُّونَ آذَانَهَا تَقُولُونَ هَذِهِ بَحِيْرَةٌ

" قال : فإن ساعِدَ الله أشدُّ ، وموسى الله أحد ، كل مالك لك حلال لا يحرم عليك منه

شيء .

وفي البحيرة ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن البحيرة الناقة إذا ولدت خمسة أبطن ، فإن كان الخامس ذكراً أكلته الرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى بحروا أذنها أي شقوها ، وتركت ، فلا يشرب لها لبن ، ولا تنحر ، ولا تركب ، وإن كان ميتة اشترك فيه الرجال والنساء ، قاله عكرمة .

(11/217)

والقول الثاني : البحيرة الناقة التي تنجب خمسة أبطن ، فكان آخرها ميتاً ذكراً شقوا أذن الناقة وخلوا عنها ، فلا تُحْلَب وَلاَ تُرْكَب تحرجاً ، قاله أبو عبيدة .

والقول الثالث : أن البحيرة بنت السائبة ، قاله أبو إسحاق ، وأما السائبة ، فإنها المسيبة المخلاة وكانت العرب تفعل ذلك ببعض مواشيها فتحرم الانتفاع بها على أنفسها تقرباً إلى الله تعالى ، قال الشاعر :

عقرتم ناقة كانت لربي . . . وسائبة فقوموا للعقاب

وكذا كان بعض أهل الإِسلام يعتق عبده سائبة ، ولا ينتفع به ولا بولائه ، وكان أبو العالية سائبة فلما أُتِي مولاه بميراثه فقال : هو سائبة وأبى أن يأخذه .

وأخرجت المسيبة بلفظ السائبة ، كما قيل في عيشة راضية يعني مرضية ، وفي السائبة قولان :

أحدهما : أنها الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس فيهن ذكر سُيِّبَتْ فلم يُرْكَب ظهرها ولم يُجَزّ وبرها ولم يَشْرَب لبنَها إلا ضيفٌ ، وما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أُذُنُها ، وسميت بحيرة ، وخُلِّيَتْ مع أمها ، قاله محمد بن إسحاق .

والقول الثاني : أنهم كانوا ينذرون السائبة عند المرض فيسيب الرجل بعيره ولا يركب ، ولا يجلى عن ماء كالبحيرة ، قاله أبو عبيدة .

أما الوصيلة فأجمعوا على أنها من الغنم ، وفيها ثلاثة أقاويل : أحدها : أنها الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نُظِرَ في البطن السابع فإن كان جَدْياً ذبحوه ، فأكل الرجال دون النساء ، فقالوا هذا حلال لذكورنا ، حرام على أزواجنا ونسائنا ، وإن كان عناقاً سرحت في غنم الحي ، وإن كان جَدْياً وعناقاً ، قالوا وصلت أخاها فسميت وصيلة ، قاله عكرمة .

القول الثاني : أنها الشاة إذا أتأمت عشر إناث في خمسة أبطن ليس فيهن ذكر ، جعلت وصيلة ، فقالوا قد وصلت ، وكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الإناث قاله محمد بن إسحاق .

والقول الثالث : أن العرب كانت إذا ولدت الشاة لهم ذكراً قالوا هذا لآلهتنا فيتقربون به ، وإذا ولدت أنثى قالوا هذه لنا ، وإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوه لمكانها ، قاله أبو عبيدة .

وأما الحام ففيه قول واحد أجمعوا عليه وهو البعير ينتج من صلبه عشرة أبطن ، فيقال حمى ظهره ويخلَّى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾ . باختصار يسير .

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ﴾ أي : ما أوجب ذلك ، ولا أمر به .

وفي "البحيرة" أربعة أقوال .

أحدها : أنها الناقة إذا نُتِجَتْ خمسة أبطن نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكراً نحروه ، فأكله الرجال والنساء ، وإن كان أنثى شقوا أُذنها ، وكانت حراماً على النساء لا ينتفعن بها ، ولا يذقن من لبنها ، ومنافعها للرجال خاصة ، فإذا ماتت ، إشترك فيها الرجال والنساء ، قاله ابن عباس ، واختاره ابن قتيبة .

والثاني : أنها الناقة تلد خمس إناث ليس فيهن ذكر ، فيَعْمِدون إلى الخامسة ، فيَبْتِكُون أُذنها ، قاله عطاء .

والثالث : أنها ابنة السائِبة ، قاله ابن إسحاق ، والفراء .

قال ابن إِسحاق : كانت الناقة إِذا تابعت بين عشر إِناث ، ليس فيهن ذكر ، سُيِّبت ، فإِذا نُتِجَتْ بعد ذلك أُنثى ، شقّت أُذنها ، وسمّيت بحيرة ، وخليت مع أُمها .

والرابع : أنها الناقة كانت إِذا نُتِجَت خمسة أبطن ، وكان آخرها ذكراً بحروا أُذنها ، أي : شقُّوها ، وامتنعوا من ركوبها وذبحها ، ولا تطرد عن ماء ، ولا تمنع عن مرعى ، وإِذا لقيها لم يركبها ، قاله الزجاج .

فأما "السائبة" ، فهي فاعلة بمعنى : مفعولة ، وهي المسيّبة ، كقوله : ﴿ في عيشة راضية ﴾ : أي مرضيّة .

وفي السائِبة خمسة أقوال .

أحدها : أنها التي تُسيّب من الأنعام للآلهة ، لا يركبون لها ظهراً ، ولا يحلبون لها لبناً ، ولا يجزُّون منها وبراً ، ولا يحملون عليها شيئاً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

(13/217)

والثاني : أن الرجل كان يُسيّب من ماله ما شاء ، فيأتي به خزنة الآلهة ، فيطعمون ابن السبيل من ألبانِه ولحومه إِلا النساء ، فلا يطعمونهن شيئاً منه إِلا أن يموت ، فيشترك فيه الرجال والنساء ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وقال الشعبي : كانوا يهدون لآلهتهم الإِبل والغنم ، ويتركونها عند الآلهة ، فلا يشرب منها إِلا رجلٌ ، فإن مات منها شيءٌ أكله الرجال والنساء .

والثالث : أنها الناقة إِذا ولدت عشرة أبطن ، كلهن إِناث ، سيّبت ، فلم تركب ، ولم يجز لها وبر ، ولم يشرب لبنها إِلا ضيف أو ولدُها حتى تموت ، فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء ، ذكره الفراء .

والرابع : أنها البعير يُسيّب بنذر يكون على الرجل إِن سلمه الله تعالى من مرض ، أو بلّغه منزله أن يفعل ذلك ، قاله ابن قتيبة .

قال الزجاج : كان الرجل إِذا نذر لشيء من هذا ، قال : ناقتي سائبة ، فكانت كالبحيرة في أن لا ينتفع بها ولا تمنع من ماء ومرعى .

والخامس : أنه البعير يحج عليه الحجة ، فيُسيّب ، ولا يستعمل شكراً لنجحها ، حكاه الماوردي عن الشافعي .

وفي "الوصيلة" خمسة أقوال .

أحدها : أنها الشاة كانت إِذا نُتِجَت سبعة أبطن ، نظروا إِلى السابع ، فإن كان أُنثى ، لم ينتفع النساء منها بشيء إِلا أن تموت ، فيأكلها الرجال والنساء ، وإِن كان ذكراً ، ذبحوه ، فأكلوه جميعاً ، وإِن كان ذكراً وأُنثى ، قالوا : وصلت أخاها ، فتترك مع أخيها فلا تذبح ، ومنافعها للرجال دون النساء ، فإذا ماتت ، اشترك فيها الرجال والنساء ، رواه أبو صالح

عن ابن عباس .

وذهب إلى نحوه ابن قتيبة ، فقال : إن كان السابع ذكراً ، ذبح فأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أُنثى ، تركت في النعم ، وإن كان ذكراً وأُنثى ، قالوا : وصلت أخاها ، فلم تذبح ، لمكانها ، وكانت لحومها حراماً على النساء ، ولبن الأُنثى حراماً على النساء إلا أن يموت منها شيء فيأكله الرجال والنساء .

(14/217)

والثاني : أنها الناقة البكر تبتكر في أول نتاج الإبل بالأُنثى ، ثم تثنّي بالأنثى ، فكانوا يستبقونها لطواغيتهم ، ويَدْعونها الوصيلة ، أي : وصلت إحداهما بالأُخرى ، ليس بينهما ذكر ، رواه الزهري عن ابن المسيّب .

والثالث : أنها الشاة تنتج عشر إناثٍ متتابعاتٍ في خمسة أبطن ، فيدعونها الوصيلة ، وما ولدت بعد ذلك فللذكور دون الإناث ، قاله ابن إسحاق .

والرابع : أنها الشاة تنتج سبعة أبطن ، عناقين عناقين ، فإذا ولدت في سابعها عناقاً وجدياً ، قيل : وصلت أخاها ، فجَرت مجرى السائبة ، قاله الفراء .

والخامس : أن الشاة كانت إذا ولدت أُنثى ، فهي لهم ، وإذا ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم فإن

ولدت ذكراً وأُنثى ، قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ، قاله الزجاج .

وفي "الحام" ستة أقوال .

أحدها : أنه الفحل ، ينتج من صلبه عشرة أبطن ، فيقولون : قد حمى ظهره ، فيسيبونه لأصنامهم ، ولا يحمل عليه ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، واختاره أبو عبيدة ، والزجاج .

والثاني : أنه الفحل يولد لولده ، فيقولون : قد حمى هذا ظهره ، فلا يحملون عليه ، ولا يجزُّون وبره ، ولا يمنعونه ماءً ، ولا مرعى ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، واختاره الفراء ، وابن قتيبة .

والثالث : أنه الفحل يظهر من أولاده عشر إناثٍ من بناته ، وبنات بناته ، قاله عطاء .

والرابع : أنه الذي ينتج له سبع إناث متواليات ، قاله ابن زيد .

والخامس : أنه الذي لصُلبه عشرة كلها تضرِب في الإبِل ، قاله أبو روق .

والسادس : أنه الفحل يضرب في إبِل الرجل عشر سنين ، فيخلَّى ، ويقال : قد حمى ظهره ، ذكره الماوردي عن الشافعي .

قال الزجاج : والذي ذكرناه في البحيرة ، والسائِبة ، والوصيلة ، والحام أثبت ما روينا عن أهل اللغة .

وقد أعلم الله عز وجل في هذه الآية أنه لم يحرّم من هذه الأشياء شيئاً ، وأن الذين كفروا افتروا على الله عز وجل .

(15/217)

قال مقاتل : وافتراؤهم : قولهم : إِن الله حرَّمه ، وأمرنا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

لما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية هل تلحق بحكم الله في تعظيم الكعبة والحرم . أخبر تعالى في هذه الآية أنه لم يجعل شيئاً منها ولا سنه لعباده . المعنى ولكن الكفار فعلوا ذلك إذ أكابرهم ورؤساؤهم كعمرو بن لحي وغيره يفترون على الله الكذب ويقولون هذه قربة إلى الله وأمر يرضيها ﴿ وأكثرهم ﴾ يعني الأتباع ﴿ لا يعقلون ﴾ بل يتبعون هذه الأمور تقليداً وضلالاً بغير حجة و﴿ جعل ﴾ في هذه الآية لا يتجه أن تكون بمعنى خلق الله . لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء كلها . ولا هي بمعنى صير لعدم المفعول الثاني ، وإنما هي بمعنى ما سنَّ ولا شرع فتعدت تعدي هذه التي بمعناه إلى مفعول واحد و" البحيرة " فعلية بمعنى مفعولة . وبحر شق كانوا إذا انتجت الناقة عشرة بطون شقوا أذنها بنصفين

طولاً فهي مبحورة وتركت ترعى وترد الماء ولا ينتفع منها بشيء ويحرم لحمها إذا ماتت على النساء ويحل للرجال ، وقال ابن عباس كانوا يفعلون ذلك بها أنتجت خمسة بطون ، وقال مسروق إذا ولدت خمساً أو سبعاً شقوا أذنها .

قال القاضي أبو محمد : ويظهر مما يروى في هذا أن العرب كانت تختلف في المبلغ الذي تبحر عنده آذان النوق ، فلكل سنة ، وهي كلها ضلال ، قال ابن سيده ويقال " البحيرة " هي التي خليت بلا راع ، ويقال للناقة الغزيرة بحيرة .

قال القاضي أبو محمد : أرى أن البحيرة تصلح وتسمن ويغزر لبنها فتشبه الغزيرات بالبحر ، وعلى هذا يجيء قول ابن مقبل :

فيه من الأخرج المرتاع قرقرة . . . هدر الزيامي وسط الهجمة البحر

(16/217)

فإنما يريد النوق العظام وإن لم تكن مشققة الآذان . وروى الشعبي عن أبي الأحوص عن أبيه قال دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي أرأيت إبلك ألست تنتجها مسلمة آذانها ، فتأخذ الموسى فتقطع آذانها ، فتقول هذه بحر ، وتقطع جلودها فتقول هذه صوم فتحرمها عليك وعلى أهلك ؟ قال نعم قال : فإن ما آتاك الله لك حل . وساعد الله أشد ،

وموسى الله أحد ، والسائبة هي الناقة التي تسيب للآلهة ، والناقة أيضاً إذا تابعت اثنتي عشرة إناثاً ليس فيهن ذكر سيبت ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكثم بن الجون الخزاعي : " يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت أشبه به منك ، قال أكثم : أيضرني شبهه يا رسول الله ؟ قال : لا إنك مؤمن وإنه كافر " ، هو أول من غير دين إسماعيل عليه اسلام ونصب الأوثان وسيب السوائب ، وكانت السوائب أيضاً في العرب كالقربة عند المريض يبرأ منه ، والقدوم من السفر ، وإذا نزل بأحدهم أمر يشكر الله عليه تقرب بأن يسيب ناقة فلا ينتفع منها بلبن ولا ظهر ولا غيره ، يرون ذلك كعتق بني آدم ، ذكره السدي وغيره وكانت العرب تعتقد أن من عرض لهذه النوق فأخذها أو انتفع منها بشيء فإنه تلحقه عقوبة من الله ، و" الوصيلة " قال أكثر الناس :

إن " الوصيلة " في الغنم قالوا إذا ولدت الشاة ثلاثة بطون أو خمسة فإن كان آخرها جذياً ذبحوه لبيت الآلهة وإن كانت عناقاً استحيوها وإن كان جذي وعناق استحيوهما وقالوا هذه العناق وصلت أخاها فمنعته من أن يذبح ، وعلى أن الوصيلة في الغنم جاءت الروايات عن أكثر الناس وروي عن سعيد بن المسيب أن الوصيلة من الإبل كانت الناقة إذا ابتكرت بأنثى ثم ثنت بأخرى قالوا وصلت أنثيين ، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم أو يذبحونها .

شك الطبري في إحدى اللفظين . وأما " الحامي " فإنه الفحل من الإبل إذا ضرب في الإبل عشرين وقيل إذا ولد من صلبه عشر وقيل إذا ولد ولده قالوا حمي ظهره فسيبوه لم يركب ولا سخر في شيء ، وقال علقمة لمن سأله في هذه الأشياء ما تريد إلى شيء كان من عمل أهل الجاهلية وقد ذهب ؟ وقال نحوه ابن زيد .

قال القاضي أبو محمد : وجملة ما يظهر من هذه الأمور أن الله تعالى قد جعل هذه الأنعام رفقاً لعباده ونعمة عددها عليهم ومنفعة بالغة ، فكان أهل الجاهلية يقطعون طريق الانتفاع ويذهبون نعمة الله فيها ويزيلون المصلحة التي للعباد في تلك الإبل ، وبهذا فارقت هذه الأمور الأحباس والأوقاف ، فإن المالك الذي له أن يهب ويتصدق له أن يصرف المنفعة في أي طريق من البر ، ولم يسد الطريق إليها جملة كما فعل بالبحيرة والسائبة ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تجوز الأحباس والأوقاف وقاسوا على البحيرة والسائبة ، والفرق بين ، ولو عمد رجل إلى ضيعة له فقال هذه تكون حبساً لا يجتنى ثمرها ولا يزرع أرضها ولا ينتفع منها بنفع لجاز أن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة ، وأما الحبس البين طريقه واستمرار الانتفاع به فليس من هذا ، وحسبك بأن النبي عليه السلام قال لعمر بن الخطاب في مال له : اجعله حبساً لا يباع أصله ، وحبس أصحاب النبي عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر

الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

(18/217)

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ ﴾ هي فعيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق والتاء للنقل إلى الإسمية أو لحذف الموصوف ، قال الزجاج : كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وشقوها وامتنعوا من نحرها وركوبها ولا تطرد من ماء ولا تمنع عن مرعى وهي البحيرة ، وعن قتادة أنها إذا نتجت خمسة أبطن نظر في الخامس فإن كان ذكراً ذبحوه وأكلوه وإن كان أنثى شقوا أذنها وتركوها ترعى ولا يستعملها أحد في حلب وركوب ونحو ذلك ، وقيل : البحيرة هي الأنثى التي تكون خامس بطن وكانوا لا يحلون لحمها ولبنها للنساء فإن ماتت اشترك الرجال والنساء في أكلها ، وعن محمد بن إسحاق ومجاهد أنها بنت السائبة ، وستأتي إن شاء الله تعالى قريباً وكانت تهمل أيضاً . وقيل : هي التي ولدت خمساً أو سبعاً ، وقيل : عشرة أبطن وتترك هملاً وإذا ماتت حل لحمها للرجال خاصة .

وعن ابن المسيب أنها التي منع لبنها للطواغيت فلا تحلب ، وقيل : هي التي ولدت خمس

إناث فشقوا أذنها وتركوها هملاً ، وجعلها في "القاموس" على هذا القول من الشاء خاصة ، وكما تسمى بالبحيرة تسمى بالغزيرة أيضاً .

"وقيل : هي السقب الذي إذا ولد شقوا أذنه وقالوا : اللهم إن عاش فَفَتِيّ وإن مات فذكي فإذا مات أكلوه" (1) ، وقيل : هي التي تترك في المرعى بلا راع .

﴿ وَلاَ سَآئِبَةٍ ﴾ هي فاعلة من سيبته أي تركته وأهملته فهو سائب وهي سائبة أو بمعنى مفعول ك ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21 ، القارعة : 7] .

(19/217)

واختلف فيها فقيل هي الناقة تبطن عشرة أبطن إناث فتهمل ولا تركب ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف ونسب إلى محمد بن إسحاق ، وقيل : هي التي تسيب للأصنام فتعطى للسدنة ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم ، وقيل : هي البعير يدرك نتاج نتاجه فيترك ولا يركب ، وقيل : "كان الرجل إذا قدم من سفر بعيد أو نجت دابته من مشقة أو حرب قال : هي سائبة أو كان ينزع من ظهرها فقارة أو عظماً وكانت لا تمنع عن ماء ولا كلأ ولا تركب" ، وقيل : هي ما ترك ليحج عليه ، وقيل : هي العبد يعتق على أن لا يكون عليه ولاء ولا عقل ولا

ميراث .

﴿ وَلاَ وَصِيلَةٍ ﴾ هي فعيلة بمعنى فاعلة ؛ وقيل : مفعولة والأول أظهر كما ينبىء عن ذلك بيان المراد بها .

واختلف فيه فقال الفراء : هي الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين وإذا ولدت في آخرها عناقاً وجدياً قيل : وصلت أخاها فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء وتجرى مجرى السائبة ، وقال الزجاج : هي الشاة إذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم وإذا ولدت أنثى كانت لهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وقيل : هي الشاة تلد ذكراً ثم أنثى فتصل أخاها فلا يذبحون أخاها من أجلها وإذا ولدت ذكراً قالوا : هذا قربان لآلهتنا .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هي الشاة تنتج سبعة أبطن فإن كان السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشيء إلا أن تموت فتأكلها الرجال والنساء وكذا إن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فتترك معه ولا ينتفع بها إلا الرجال دون النساء فإن ماتت اشتركوا فيها .

(20/217)

وقال ابن قتيبة : إن كان السابع ذكراً ذبح وأكلوا منه دون النساء وقالوا : خالصة لذكورنا محرمة على أزواجنا وإن كانت أنثى تركت في الغنم وإن كان ذكراً وأنثى فكقول ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، وقال محمد بن إسحاق : وهي الشاة تنتج عشر إناث متواليات في خمسة أبطن فما ولدت بعده للذكور دون الإناث فإذا ولدت ذكراً وأنثى معاً قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوه لمكانها ، وقيل : هي الشاة تنتج خمسة أبطن أو ثلاثة فإن كان جدياً ذبحوه وإن كان أنثى أبقوها وإن كان ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، وقال بعضهم : الوصيلة من الإبل وهي الناقة تبكر فتلد أنثى ثم تثني بولادة أنثى أخرى ليس بينهما ذكر فيتركونها لآلهتهم ويقولون : قد وصلت أنثى بأنثى ليس بينهما ذكر .

وقيل : هي الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن لا ذكر بينها .

﴿ وَلاَ حَامٍ ﴾ هو فاعل من الحمى بمعنى المنع .

واختلف فيه أيضاً فقال الفراء : هو الفحل إذ لقح ولد ولده فيقولون : قد حمى ظهره فيهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه وابن مسعود وهو قول أبي عبيدة والزجاج أنه الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون : حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ومرعى .

وعن الشافعي أنه الفحل يضرب في مال صاحبه عشر سنين ، وقيل : هو الفحل ينتج له سبع أإاث متواليات فيحمى ظهره ، وجمع بين الأقوال المتقدمة في كل من تلك الأنواع بأن

العرب كانت تختلف أفعالهم فيها .

والمراد من هذه الجملة رد وإبطال لما ابتدعه أهل الجاهلية .

ومعنى ﴿ مَّا جَعَلَ ﴾ ما شرع ولذلك عدي إلى مفعول واحد وهو ﴿ بَحِيرَةٍ ﴾ وما عطف عليها .

و ﴿ مِنْ ﴾ سيف خطيب أتى بها لتأكيد النفي .

وأنكر بعضهم مجيء جعل بمعنى شرع عن أحد من أهل اللغة وجعلها هنا للتصيير والمفعول الثاني محذوف أي ما جعل البحيرة ولا ولا مشروعة وليس كما قال فإن الراغب نقل ذلك عن أهل اللغة وهو ثقة لا يفتري عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(21/217)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ ﴾

استئناف ابتدائي جاء فارقاً بين ما أحدثه أهل الجاهلية من نقائض الحنيفية وبين ما نوّه الله به ممّا كانوا عليه من شعائر الحج ، فإنّه لمّا بيّن أنّه جعل الكعبة قياماً للناس وجعل الهدْي والقلائد قياماً لهم ، بيّن هنا أنّ أموراً ما جعلها الله ولكن جعلها أهل الضلالة ليميز الخبيث

من الطيّب ، فيكون كالبيان لآية ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيّب ﴾ [المائدة : 100] ، فإنّ البَحيرة وما عطف عليها هنا تشبهُ الهدي في أنّها تحرّر منافعها وذواتها حيّة لأصنامهم كما تهدي الهدايا للكعبة مذكّاة ، فكانوا في الجاهلية يزعمون أنّ الله شرع لهم ذلك ويخلطون ذلك بالهدايا ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ قل هلمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرَّم هذا وقال في هذه الآية : ولكنّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ .

فالتصدّي للتفرقة بين الهدي وبين البحيرة والسائبة ونحوهما ، كالتصدّي لبيان عدم التفرقة بين الطواف وبين السعي للصفا والمروة في قوله : ﴿ إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ [البقرة : 158] كما تقدّم هنالك .

وقد قدّمنا ما رواه مجاهد عن ابن عباس : أنّ ناساً سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البحيرة والسائبة ونحوهما فنزلت هذه الآية .

وممّا يزيدك ثقة بما ذكرته أنّ الله افتتح هذه الآية بقوله : ﴿ ما جعل الله ﴾ لتكون مقابلاً لقوله في الآية الأخرى ﴿ جعل الله الكعبة ﴾ [المائدة : 97] .

ولولا ما توسّط بين الآيتين من الآي الكثيرة لكانت هذه الآية معطوفة على الأولى بحرف العطف إلاّ أنّ الفصل هنا كان أوقع ليكون به استقلال الكلام فيفيد مزيد اهتمام بما تضمّنه .

والجعل هنا بمعنى الأمر والتشريع ، لأنّ أصل (جعل) إذاَ تعدّى إلى مفعول واحد أن يكون بمعنى الخلق والتكوين ، ثم يستعار إلى التقدير والكتْب كما في قولهم : فرض عليه جعالة ، وهو هنا كذلك فيؤول إلى معنى التقدير والأمر بخلاف ما وقع في قوله : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ﴾ [المائدة : 97] .

فالمقصود هنا نفي تشريع هذه الأجناس من الحقائق فإنّها موجودة في الواقع .

فنفي جعلها مُتعيّن لأن يكون المراد منه نفيَ الأمر والتشريع ، وهو كناية عن عدم الرضا به والغضبِ على من جعله ، كما يقول الرجل لمن فعل شيئاً : ما أمرتك بهذا .

فليس المراد إباحته والتخيير في فعله وتركه كما يستفاد من المقام ، وذلك مثل قوله : ﴿ قل هلمّ شهداءكم الذين يشهدون أنّ الله حرّم هذا ﴾ [الأنعام : 150] فإنّه كناية عن الغضب على من حرّموه ، وليس المراد أنّ لهم أن يجتنبوه .

وأدخلت (مِن) الزائدة بعد النفي للتنصيص على أنّ النفي نفي الجنس لا نفي أفراد معيّنة ، فقد ساوى أن يقال : لاَ بحيرة ولاَ سائبةَ مع قضاء حقّ المقام من بيان أنّ هذا ليس من جعل الله وأنّه لا يَرضى به فهو حرام .

والبَحيرة بفتح الباء الموحّدة وكسر الحاء المهملة فَعِيلة بمعنى مفعولة ، أي مبحورة ، والبَحْر الشقّ .

يقال : بحرَشقّ .

وفي حديث حفر زمزم أنّ عبد المطلب بَحَرَها بَحْراً ، أي شقّها ووسّعها .

فالبحيرة هي الناقة ، كانوا يشقّون أذنها بنصفين طولاً علامة على تخليتها ، أي أنّها لا تركب ولا تنحر ولا تمنع عن ماء ولا عن مرعى ولا يَجزرونها ويكون لبنها لطواغيتهم ، أي أصنامهم ، ولا يشرب لبنها إلاّ ضيف ، والظاهر أنّه يشربه إذا كانت ضيافة لزيارة الصنم أو إضافة سادنه ، فكلّ حيّ من أحياء العرب تكون بحائرهم لصنمهم .

وقد كانت للقبائل أصنام تدين كلّ قبيلة لصنم أو أكثر .

وإنّما يجعلونها بحيرة إذا نُتجت عشرة أبطن على قول أكثر أهل اللغة .

(23/217)

وقيل : إذا نُتجت خمسة أبطن وكان الخامس ذكراً .

وإذا ماتت حتف أنفها حلّ أكل لحمها للرجال وحرم على النساء .

والسائبة : البعير أو الناقة يجعل نَذراً عن شفاء من مرض أو قدوم من سفر ، فيقول : أجعله لله سائبة .

فالتاء فيه للمبالغة في الوصف كتاء نسّابة ، ولذلك يقال : عبد سائبة ، وهو اسم فاعل

بمعنى الانطلاق والإهمال ، وقيل : فاعل بمعنى مفعول ، أي مسيّب .

وحكم السائبة كالبحيرة في تحريم الانتفاع ، فيكون ذلك كالعتق وكانوا يدفعونها إلى السدنة ليُطعموا من ألبانها أبناء السبيل .

وكانت علامتها أن تقطع قطعة من جلدة فَقار الظهر ، فيقال لها : صَريم وجمعه صُرُم ، وإذا ولدت الناقة عشرة أبطن كلّهنّ إناث متتابعة سيّبوها أيضاً فهي سائبة ، وما تلده السائبة يكون بحيرة في قول بعضهم .

والظاهر أنّه يكون مثلها سائبة .

والوصيلة من الغنم هي الشاة تلد أنثى بعد أنثى ، فتسمّى الأمّ وصيلة لأنّها وصلت أنثى بأنثى ، كذا فسّرها مالك في رواية ابن وهب عنه ، فعلى هذه الرواية تكون الوصيلة هي المتقرّب بها ، ويكون تسليط نفي الجعل عليها ظاهراً .

وقال الجمهور : الوصيلة أن تلد الشاة خمسة أبطن أو سبعة (على اختلاف مصطَلَح القبائل) فالأخير إذا كان ذكراً ذبحوه لبيوت الطواغيت وإن كانت أنثى استحيوها ، أي للطواغيت ، وإن أتأمت استحيوهما جميعاً وقالوا : وَصَلت الأنثى أخاها فمنعته من الذبح ، فعلى هذا التأويل فالوصيلة حالة من حالات نسل الغنم ، وهي التي أبطلها الله تعالى ، ولم يتعرّضوا لبقية أحوال الشاة .

والأظهر أنّ الوصيلة اسم للشاة التي وصلت سبعة أبطن إناثاً ، جمعاً بين تفسير مالك

وتفسير غيره ، فالشاة تسيّب للطواغيت ، وما ذكروه من ذبح ولدها أو ابنتها هو من فروع استحقاق تسييبها لتكون الآية شاملة لأحوالها كلّها .

(24/217)

وعن ابن إسحاق : الوصيلة الشاة تتئم في خمسة أبطن عشرة إناث فما ولدت بعد ذلك فهو للذكور منهم دون النساء إلاّ أن يموت شيء منها فيشترك في أكله الرجال والنساء .

وفي "صحيح البخاري" عن سعيد بن المسيّب : أنّ الوصيلة من الإبل إذا بكّرت الناقة في أول إنتاج الإبل بأنثى ثم تثنّي بعد بأنثى في آخر العام فكانوا يجعلونها لطواغيتهم .

وهذا قاله سعيد من نفسه ولم يروه عن النبي صلى الله عليه وسلم ووقع في سياق البخاري إيهام اغترّ به بعض الشارحين ونبّه عليه في "فتح الباري" .

وعلى الوجوه كلّها فالوصيلة فعيلة بمعنى فاعلة .

والحامي هو فحل الإبل إذا نُتجت من صلبه عشرة أبطن فيمنع من أن يركب أو يحمل عليه ولا يمنع من مرعًى ولا ماء .

ويقولون : إنّه حمى ظهره ، أي كان سبباً في حمايته ، فهو حام .

قال ابن وهب عن مالك ، كانوا يجعلون عليه ريش الطواويس ويسيّبونه ، فالظاهر أنّه يكون

بمنزلة السائبة لا يؤكل حتى يموت وينتفع بوبره للأصنام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾

قال الفخر :

قال المفسرون : إن عمرو بن لحي الخزاعي كان قد ملك مكة وكان أول من غير دين إسماعيل ، فاتخذ الأصنام ، ونصب الأوثان ، وشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فلقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبه " والقصب المعا وجمعه الاقصاب ، ويروي يجر قصبه في النار .

قال ابن عباس : قوله ﴿ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب ﴾ يريد عمرو بن لحي وأصحابه يقولون على الله هذه الأكاذيب والأباطيل في تحريمهم هذه الأنعام ، والمعنى أن الرؤساء يفترون على الله على الكذب ، فأما الأتباع والعوام فأكثرهم لا يعقلون ، فلا جرم يفترون على الله هذه الأكاذيب من أولئك الرؤساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 92 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى ﴿ ولكن الذين كفروا ﴾ الآية ، وقد تقدم أن المفترين هم المبتدعون ، وأن الذين ﴿ لا يعقلون ﴾ هم الأتباع ، وكذلك نص الشعبي وغيره وهو الذي تعطيه الآية ، وقال محمد بن أبي موسى : الذين كفروا وافتروا هم أهل الكتاب ، والذين ﴿ لا يعقلون ﴾ هم أهل الأوثان .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تفسير من انتزع ألفاظ آخر الآية عما تقدمها وارتبط بها من المعنى وعما تأخر أيضاً من قوله ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ والأول من التأويلين أرجح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون ويقولون : الله سبحانه وتعالى أمرنا بهذا وإمامهم عمرو بن لحي فإنه في المشهور أول من فعل تلك الأفاعيل الشنيعة .

واستدل بالآية على تحريم هذه الأمور وهو ظاهر واستنبط منه تحريم جميع تعطيل المنافع .

واستدل ابن الماجشون بها على منع أن يقول الرجل لعبده : أنت سائبة وقال : لا يعتق بذلك .

وجعل بعض العلماء من صور السائبة إرسال الطير ونحوه ، وصرح بعض علمائنا بأنه لا

ثواب في ذلك ولعل الجاعل لا يكتفي بهذا القدر ويدعي الإثم فيه والناس عن ذلك غافلون .

﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أن ذلك افتراء باطل فما تقدم فعل الرؤساء وهذا شأن الأتباع وهم المراد بالأكثر كما روي عن قتادة والشعبي ، وظاهر سياق النظم الكريم أنهم المقلدون لأسلافهم المفترين من معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾ .

باختصار يسير .

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ الاستدراك لرفع ما يتوهّمه المشركون من اعتقاد أنّها من شرع الله لتقادم العمل بها منذ قرون .

والمراد بالذين كفروا هنا جميع المشركين فإنّهم يكذّبون في نسبة هذه الأشياء إلى شعائر الله لأنّهم جميعاً يخبرون بما هو مخالف لما في الواقع .

(26/217)

والكذب هو الخبر المخالف للواقع .

والكفّار فريقان خاصّة وعامّة : فأمّا الخاصّة فهم الذين ابتدعوا هذه الضلالات لمقاصد مختلفة ونسبوها إلى الله ، وأشهر هؤلاء وأكذبهم هو عَمْرُو بنُ عامر بن لُحَيّ بضم اللام وفتح الحاء المهملة وياء مشدّدة الخزاعي ، ففي الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بنَ عامر بن لُحَي الخزاعي يجُرّ قُصْبَه بضم القاف وسكون الصاد المهملة أي إمعاءه في النار ، وكان أولَ من سيّب السوائب .

ومنهم جنادة بن عوف .

وعن مالك أنّ منهم رجلاً من بني مُدْلِج هو أول من بحّر البَحيرة وأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيته مع عَمرو في النار .

رواه ابن العربي .

وفي رواية أنّ عَمرو بن لحي أول من بحّر البحيرة وسيّب السائبة .

وأصحّ الروايات وأشهرها عن رسول الله : أنّ عمرو بن لحي أول من سيّب السوائب ولم يذكر البحيرة .

وأمّا العامّة فهم الذين اتّبعوا هؤلاء المضلّين عن غير بصيرة ، وهم الذين أريدوا بقول : ﴿ وأكثرهم لا يعقلون ﴾ .

فلمّا وصف الأكثر بعدم الفهم تعيّن أنّ الأقلّ هم الذين دبّروا هذه الضلالات وزيّنوها

للناس .

والافتراء : الكذب .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك ﴾ في سورة آل عمران (94) .

وفي تسمية ما فعله الكفّار من هذه الأشياء افتراء وكذباً ونفي أن يكون الله أمر به ما يدلّ على أنّ تلك الأحداث لا تمتّ إلى مرضاة الله تعالى بسبب من جهتين : إحداهما : ﴿ أنّها تنتسب إلى الآلهة والأصنام ، وذلك إشراك وكفر عظيم .

الثانية : أنّ ما يجعل منها لله تعالى مثل السائبة هو عمل ضرّه أكثر من نفعه ، لأنّ في تسييب الحيوان إضرار به إذ ربما لا يجد مرعى ولا مأوى ، وربما عدت عليه السباع ، وفيه تعطيل منفعته حتى يموت حتف أنفه .

وما يحصل من درّ بعضها للضيف وابن السبيل إنّما هو منفعة ضئيلة في جانب المفاسد الحافّة به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(27/217)

فصل

قال الحافظ ابن حجر :

قَوْله : (بَاب مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ)

أَيْ مَا حَرَّمَ ، وَلَمْ يُرِدْ حَقِيقَةَ الْجَعْلِ لِأَنَّ الْكُلَّ خَلْقه وَتَقْدِيره ، وَلَكِنَّ الْمُرَاد بَيَان اِبْتِدَاعهمْ مَا صَنَعُوهُ مِنْ ذَلِكَ .

قَوْله : (وَإِذْ قَالَ اللَّه ، يَقُول قَالَ اللَّه ، وَإِذْ هَاهُنَا صِلَة)

كَذَا ثَبَتَ هَذَا وَمَا بَعْده هُنَا ، وَلَيْسَ بِخَاصٍّ بِهِ وَهُوَ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ تَرْتِيب بَعْض الرُّوَاة ، وَهَذَا الْكَلَام ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْله تَعَالَى (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى اِبْنَ مَرْيَمَ) قَالَ مَجَازه يَقُول اللَّه ، وَإِذْ مِنْ حُرُوف الزَّوَائِد ، وَكَذَلِكَ قَوْله وَإِذْ عَلَّمْتُك أَيْ وَعَلَّمْتُك .

قَوْله : (الْمَائِدَة أَصْلهَا مَفْعُولَة كَعِيشَةٍ رَاضِيَة وَتَطْلِيقَة بَائِنَة ، وَالْمَعْنَى مِيدَ بِهَا صَاحِبهَا مِنْ خَيْر يُقَال مَادَنِي يُمِيدنِي)

قَالَ اِبْن التِّين : هُوَ قَوْل أَبِي عُبَيْدَة ، وَقَالَ غَيْره : هِيَ مِنْ مَادَ يَمْتَدّ إِذَا تَحَرَّكَ ، وَقِيلَ مِنْ مَادَ يَمْتَدّ إِذَا أَطْعَمَ . قَالَ اِبْن التِّين : وَقَوْله تَطْلِيقَة بَائِنَة غَيْر وَاضِح إِلَّا أَنْ يُرِيد أَنَّ الزَّوْج أَبَانَ الْمَرْأَة بِهَا ، وَإِلَّا فَالظَّاهِر أَنَّهَا فَرَّقَتْ بَيْن الزَّوْجَيْنِ فَهِيَ فَاعِل عَلَى بَابهَا .

قَوْله : (وَقَالَ اِبْن عَبَّاس : مُتَوَفِّيك مُمِيتك)

هَكَذَا ثَبَتَ هَذَا هُنَا ، وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، فَكَأَنَّ بَعْضَ الرُّوَاةِ ظَنَّهَا مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ فَكَتَبَهَا فِيهَا ، أَوْ ذَكَرَهَا الْمُصَنِّفُ هُنَا لِمُنَاسَبَةِ قَوْلِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ) ثُمَّ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ حَدِيثَ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ فِي تَفْسِيرِ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ ، وَالِاخْتِلَافِ فِي وَقْفِهِ وَرَفْعِهِ .

4257 - قَوْلُهُ : (الْبَحِيرَةُ الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ)

(29/217)

وَهِيَ الْأَصْنَامُ ، فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ ، وَالْبَحِيرَةُ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ ، وَهِيَ الَّتِي بُحِرَتْ أُذُنُهَا أَيْ حُرِّمَتْ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : جَعَلَهَا قَوْمٌ مِنْ الشَّاةِ خَاصَّةً إِذَا وَلَدَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ بَحَرُوا أُذُنَهَا أَيْ شَقُّوهَا وَتُرِكَتْ فَلَا يَمَسُّهَا أَحَدٌ . وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ الْبَحِيرَةُ النَّاقَةُ كَذَلِكَ ، وَخَلَّوْا عَنْهَا فَلَمْ تُرْكَبْ وَلَمْ يَضْرِبْهَا فَحْلٌ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ " فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ " فَهَكَذَا أُطْلِقَ نَفْيُ الْحَلْبِ ، وَكَلَامُ أَبِي عُبَيْدَةَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَنْفِيَّ إِنَّمَا هُوَ الشُّرْبُ الْخَاصُّ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : كَانُوا يُحَرِّمُونَ وَبَرَهَا وَلَحْمَهَا وَظَهْرَهَا وَلَبَنَهَا عَلَى النِّسَاءِ وَيُحِلُّونَ ذَلِكَ لِلرِّجَالِ ، وَمَا وَلَدَتْ فَهُوَ بِمَنْزِلَتِهَا ، وَإِنْ مَاتَتْ اشْتَرَكَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي أَكْلِ لَحْمِهَا .

وَرَوَى عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : الْبَحِيرَة مِنْ الْإِبِل كَانَتْ النَّاقَة إِذَا نَتَجَتْ خَمْس بُطُون فَإِنْ كَانَ الْخَامِس ذَكَرًا كَانَ لِلرِّجَالِ دُون النِّسَاء ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى بُتِكَتْ أُذُنهَا ثُمَّ أُرْسِلَتْ فَلَمْ يَجُزُّوا لَهَا وَبَرًا وَلَمْ يَشْرَبُوا لَهَا لَبَنًا وَلَمْ يَرْكَبُوا لَهَا ظَهْرًا ، وَإِنْ تَكُنْ مَيْتَة فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء الرِّجَال وَالنِّسَاء . وَنَقَلَ أَهْل اللُّغَة فِي تَفْسِير الْبَحِيرَة هَيْئَات أُخْرَى تَزِيد بِمَا ذَكَرْت عَلَى الْعَشْر . وَهِيَ فَعِيلَة بِمَعْنَى مَفْعُولَة ، وَالْبَحْر شَقّ الْأُذُن ، كَانَ ذَلِكَ عَلَامَة لَهَا .

قَوْله : (وَالسَّائِبَة كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ فَلَا يُحْمَل عَلَيْهَا شَيْء)

(30/217)

قَالَ أَبُو عُبَيْدَة : كَانَتْ السَّائِبَة مِنْ جَمِيع الْأَنْعَام ، وَتَكُون مِنْ النُّذُور لِلْأَصْنَامِ فَتُسَيَّب فَلَا تُحْبَس عَنْ مَرْعًى وَلَا عَنْ مَاء وَلَا يَرْكَبهَا أَحَد ، قَالَ : وَقِيلَ السَّائِبَة لَا تَكُون إِلَّا مِنْ الْإِبِل ، كَانَ الرَّجُل يَنْذُر إِنْ بَرِئَ مِنْ مَرَضه أَوْ قَدِمَ مِنْ سَفَره لَيُسَيِّبَنَّ بَعِيرًا ، وَرَوَى عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : السَّائِبَة كَانُوا يُسَيِّبُونَ بَعْض إِبِلهِمْ فَلَا تُمْنَع حَوْضًا أَنْ تَشْرَب فِيهِ .

قَوْله : (قَالَ : وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَة قَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : رَأَيْت عَمْرو بْن عَامِر الْخُزَاعِيّ إِلَخْ)

هَكَذَا وَقَعَ فِي الرِّوَايَة إِيرَاد الْقَدْر الْمَرْفُوع مِنْ الْحَدِيث فِي أَثْنَاء الْمَوْقُوف ، وَسَأُبَيِّنُ مَا فِيهِ بَعْدُ .

قَوْله : (وَالْوَصِيلَة النَّاقَة الْبِكْر تُبَكِّر فِي أَوَّل نِتَاج الْإِبِل بِأُنْثَى ، ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَى)

(31/217)

هَكَذَا أَوْرَدَهُ مُتَّصِلًا بِالْحَدِيثِ الْمَرْفُوع ، وَهُوَ يُوهِم أَنَّهُ مِنْ جُمْلَة الْمَرْفُوع ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ هُوَ بَقِيَّة تَفْسِير سَعِيد بْن الْمُسَيِّب ، وَالْمَرْفُوع مِنْ الْحَدِيث إِنَّمَا هُوَ ذِكْر عَمْرو بْن عَامِر فَقَطْ ، وَتَفْسِير الْبَحِيرَة وَسَائِر الْأَرْبَعَة الْمَذْكُورَة فِي الْآيَة عَنْ سَعِيد بْن الْمُسَيِّب وَوَقَعَ فِي رِوَايَة الْإِسْمَاعِيلِيّ مِنْ طَرِيق يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم بْن سَعْد عَنْ أَبِيهِ بِهَذَا الْإِسْنَاد مِثْل رِوَايَة الْبَاب ، إِلَّا أَنَّهُ بَعْد إِيرَاد الْمَرْفُوع قَالَ " وَقَالَ اِبْن الْمُسَيِّب : وَالْوَصِيلَة النَّاقَة إِلَخْ " فَأَوْضَحَ أَنَّ التَّفْسِير جَمِيعه مَوْقُوف ، وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمَد ، وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ اِبْن مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيق يَحْيَى بْن سَعِيد وَعُبَيْد اللَّه بْن زِيَاد عَنْ اِبْن شِهَاب مُفَصَّلًا .

قَوْله : (أَنْ وَصَلَتْ)

(32/217)

أَيْ مِنْ أَجْل . وَقَال أَبُو عُبَيْدَة : كَانَتْ السَّائِبَة مَهْمَا وَلَدَتْهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ أُمِّهَا إِلَى سِتَّة أَوْلَاد ، فَإِنْ وَلَدَتْ السَّابِع أُنْثَيَيْنِ تُرِكَتَا فَلَمْ تُذْبَحَا ، وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا ذُبِحَ وَأَكَلَهُ الرِّجَال دُون النِّسَاء ، وَكَذَا إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرَيْنِ ، وَإِنْ أَتَتْ بِتَوْأَمٍ ذَكَر وَأُنْثَى سَمَّوْا الذَّكَر وَصِيلَة فَلَا يُذْبَح لِأَجْلِ أُخْته ، وَهَذَا كُلّه إِنْ لَمْ تَلِد مَيِّتًا ، فَإِنْ وَلَدَتْ بَعْد الْبَطْن السَّابِع مَيِّتًا أَكَلَهُ النِّسَاء دُون الرِّجَال . وَرَوَى عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَةَ قَال : الْوَصِيلَة الشَّاة كَانَتْ إِذَا وَلَدَتْ سَبْعَة فَإِنْ كَانَ السَّابِع ذَكَرًا ذُبِحَ وَأُكِلَ وَإِنْ كَانَ أُنْثَى تُرِكَتْ وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى قَالُوا : وَصَلَتْ أَخَاهَا فَتُرِكَ وَلَمْ يُذْبَح .

قَوْله : (وَالْحَام فَحْل الْإِبِل يَضْرِبُ الضِّرَاب الْمَعْدُود إِلَخْ)

وَكَلَام أَبِي عُبَيْدَة يَدُلّ عَلَى أَنَّ الْحَام إِنَّمَا يَكُون مِنْ وَلَد السَّائِبَة . وَقَال أَيْضًا : كَانُوا إِذَا ضَرَبَ فَحْل مِنْ وَلَد الْبَحِيرَة فَهُوَ عِنْدهمْ حَام ، وَقَال أَيْضًا : الْحَام مِنْ فُحُول الْإِبِل خَاصَّة إِذَا نَتَجُوا مِنْهُ عَشَرَة أَبْطُن قَالُوا : قَدْ حَمَى ظَهْره ، فَاحْمُوا ظَهْره وَوَبَره وَكُلّ شَيْء مِنْهُ فَلَمْ يُرْكَب وَلَمْ يُطْرَق ، وَعُرِفَ بِهَذَا بَيَان الْعَدَد الْمُبْهَم فِي رِوَايَة سَعِيد . وَقِيل الْحَام فَحْل الْإِبِل إِذَا رُكِبَ وَلَد وَلَده ، قَال الشَّاعِر : حَمَاهَا أَبُو قَابُوس فِي غَيْر مِلْكه كَمَا قَدْ حَمَى أَوْلَاد أَوْلَاده الْفَحْلَا

وَقَالَ الْفَرَّاء : اُخْتُلِفَ فِي السَّائِبَة فَقِيل كَانَ الرَّجُل يُسَيِّب مِنْ مَاله مَا شَاءَ يَذْهَب بِهِ إِلَى السَّدَنَة وَهُمْ الَّذِينَ يَقُومُونَ عَلَى الْأَصْنَام . وَقِيلَ : السَّائِبَة النَّاقَة إِذَا وَلَدَتْ عَشَرَة أَبْطُن كُلّهنَّ إِنَاث سُيِّبَتْ فَلَمْ تُرْكَب وَلَمْ يُجَزّ لَهَا وَبَر وَلَمْ يُشْرَب لَهَا لَبَن ، وَإِذَا وَلَدَتْ بِنْتهَا بُحِرَتْ أَيْ شُقَّتْ أُذُنهَا ، فَالْبَحِيرَة اِبْنَة السَّائِبَة وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ أُمّهَا ، وَالْوَصِيلَة مِنْ الشَّاة إِذَا وَلَدَتْ سَبْعَة أَبْطُن إِذَا وَلَدَتْ فِي آخِرهَا ذَكَرًا وَأُنْثَى قِيلَ وَصَلَتْ أَخَاهُ فَلَا تَشْرَب النِّسَاء لَبَن الْأُمّ وَتَشْرَبهُ الرِّجَال وَجَرَتْ مَجْرَى السَّائِبَة إِلَّا فِي هَذَا ، وَأَمَّا الْحَام فَهُوَ فَحْل الْإِبِل كَانَ إِذَا لَقَّحَ وَلَدُ وَلَدِهِ قِيلَ حَمَى ظَهْره فَلَا يُرْكَب وَلَا يُجَزّ لَهُ وَبَر وَلَا يُمْنَع مِنْ مَرْعًى .

قَوْله : (وَقَالَ لِي أَبُو الْيَمَان)

عِنْد غَيْر أَبِي ذَرّ " وَقَالَ أَبُو الْيَمَان " بِغَيْرِ مُجَاوَرَة .

قَوْله : (سَمِعْت سَعِيدًا يُخْبِرهُ بِهَذَا قَالَ : وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَة سَمِعْت النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوه)

هَكَذَا لِلْأَكْثَرِ يُخْبِر بِصِيغَةِ الْفِعْل الْمُضَارِعِ مِنْ الْخَبَر مُتَّصِل بِهَاءِ الضَّمِير ، وَوَقَعَ لِأَبِي ذَرّ عَنْ الْحَمَوِيّ وَالْمُسْتَمْلِيّ بَحِيرَة بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَة وَكَسْر الْمُهْمَلَة ، وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى تَفْسِير الْبَحِيرَة وَغَيْرهَا كَمَا فِي رِوَايَة إِبْرَاهِيم بْن سَعْد ، وَأَنَّ الْمَرْفُوع مِنْهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ عَمْرو بْن عَامِر حَسْب ، وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمَد ، فَإِنَّ الْمُصَنِّف أَخْرَجَهُ فِي مَنَاقِب قُرَيْش قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَان أَنْبَأَنَا شُعَيْب عَنْ الزُّهْرِيّ سَمِعْت سَعِيد بْن الْمُسَيِّب قَالَ : الْبَحِيرَة الَّتِي يُمْنَع دَرّهَا إِلَخْ ، لَكِنَّهُ أَوْرَدَهُ بِاخْتِصَارٍ قَالَ " وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَيْت عَمْرو بْن عَامِر إِلَخْ " .

قَوْله : (وَرَوَاهُ اِبْن الْهَادِ عَنْ اِبْن شِهَاب عَنْ سَعِيد عَنْ أَبِي هُرَيْرَة سَمِعْت النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

(35/217)

أَمَّا طَرِيق اِبْن الْهَادِ فَأَخْرَجَهَا اِبْن مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيق خَالِد بْن حُمَيْدٍ الْمَهْرِيّ عَنْ اِبْن الْهَاد – وَهُوَ يَزِيد بْن عَبْد اللَّه اِبْن أُسَامَة بْن الْهَادِ اللَّيْثِيّ – بِهَذَا الْإِسْنَاد ، وَلَفْظ الْمَتْن " رَأَيْت عَمْرو بْن عَامِر الْخُزَاعِيّ يَجُرّ قُصْبَهُ فِي النَّار " وَكَانَ أَوَّل مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب ، وَالسَّائِبَة الَّتِي كَانَتْ تُسَيَّب فَلَا يُحْمَل عَلَيْهَا شَيْء إِلَى آخِر التَّفْسِير الْمَذْكُور ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَبُو عُوَانَة وَابْن

أَبِي عَاصِمٍ فِي " الْأَوَائِل " وَالْبَيْهَقِيُّ وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ طَرِيق عَنْ اللَّيْث عَنْ ابْن الْهَادِ بِالْمَرْفُوعِ فَقَطْ ، وَظَهَرَ أَنَّ فِي رِوَايَة خَالِد بْن حُمَيْدٍ إِدْرَاجًا وَأَنَّ التَّفْسِير مِنْ كَلَام سَعِيد بْن الْمُسَيِّب وَاللَّهُ أَعْلَمُ . قَوْله فِي الْمَرْفُوع " وَهُوَ أَوَّل مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب " زَادَ فِي رِوَايَة أَبِي صَالِح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عِنْد مُسْلِم " وَبَحَرَ الْبَحِيرَة وَغَيَّرَ دِين إِسْمَاعِيل " وَرَوَى عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ يَزِيد بْن أَسْلَمَ مُرْسَلًا " أَوَّل مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب عَمْرو بْن لُحَيٍّ ، وَأَوَّل مَنْ بَحَّرَ الْبَحَائِر رَجُل مِنْ بَنِي مُدْلِج جَدَعَ أُذُن نَاقَته وَحَرَّمَ شُرْب أَلْبَانهَا " وَالْأَوَّل أَصَحّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ثُمَّ ذَكَرَ الْمُصَنِّف حَدِيث عَائِشَة " رَأَيْت جَهَنَّم يُحَطِّم بَعْضهَا بَعْضًا ، وَرَأَيْت عَمْرًا يَجُرّ قُصْبَهُ فِي النَّار ، وَهُوَ أَوَّل مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب " هَكَذَا وَقَعَ هُنَا مُخْتَصَرًا ، وَتَقَدَّمَ فِي أَبْوَاب الْعَمَل فِي الصَّلَاة مِنْ وَجْه آخَر عَنْ يُونُس عَنْ زَيْد مُطَوَّلًا وَأَوَّله " خَسَفَتْ الشَّمْس ، فَقَامَ رَسُول

(36/217)

اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ سُورَة طَوِيلَة " الْحَدِيث وَفِيهِ " لَقَدْ رَأَيْت فِي مَقَامِي هَذَا كُلّ شَيْء " وَفِيهِ الْقَدْر الْمَذْكُور هُنَا ، وَأَوْرَدَهُ فِي أَبْوَاب الْكُسُوف مِنْ وَجْه آخَر عَنْ يُونُس بِدُونِ الزِّيَادَة ، وَكَذَا مِنْ طَرِيق عُقَيْل عَنْ الزُّهْرِيّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَان نَسَب عَمْرو الْخُزَاعِيّ

فِي مَنَاقِب قُرَيْش ، وَكَذَا بَيَان كَيْفِيَّة تَغْيِيره لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام وَنَصْبه الْأَصْنَام وَغَيْر ذَلِكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح البارى حـ 13 صـ ﴾

(37/217)

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ ﴾

يعني : ما جعل الله حراماً من بحيرة ، لقولهم : إن الله أمرهم بتحريمها .

ونزلت في مشركي العرب ، فكانت الناقة إذا ولدت البطن الخامس ، فإن كان الخامس ذكراً ذبحوه للآلهة ، وكان لحمه للرجال دون النساء ، وإن مات أكله الرجال والنساء .

وإن كان الولد الخامس أنثى شَقُّوا أذنها وهي البحيرة ، ثم لا يُجَزّ لها وبر ولا يُذكر عليه اسم الله ، وألبانها للرجال دون النساء .

فإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء .

﴿ وَلَا سَآئِبَةٍ ﴾ وأما السائبة : فهي الأنثى من الأنعام كلها .

إذا قدم الرجل من سفره ، أو برأ من مرضه ، أو بنى بناءً ، سيّب شيئاً من الأنعام للآلهة ،

وخرجها من ملكه ، ويسلمها إلى سدنة البيت لآلهتهم ، ولا يركبونها .

وكان صوفها وأولادها للرجال دون النساء .

﴿ وَلاَ وَصِيلَةٍ ﴾ وأما الوصيلة : فهي من الغنم إذا ولدت سبعة أبطن .

فإن كان الولد السابع جدياً ذبحوه لآلهتهم ، وكان لحمه للرجال دون النساء ؛ وإن كانت عناقاً ، كانوا يستعملونها بمنزلة سائر الغنم .

وإن كان جدياً وعناقاً ، قالوا : إن الأخت قد وصلت بأخيها ، فحرمتا جميعاً ، وكانت المنفعة للرجال دون النساء .

وإن ماتا تشارك الرجال والنساء .

﴿ وَلاَ حَامٍ ﴾ وأما الحام : فهو الفحل من الإبل إذا ركب ولده .

قالوا : قد حمى ظهره فيهمل ، ولا يحمل ، ولا يركب ، ولا يمنع من المياه ، ولا عن المراعي ، فإذا مات أكله الرجال والنساء .

وكانوا يقولون : هذه الأشياء كلها من أحكام الله تعالى .

قال الله تعالى : ما حرّم الله هذه الأشياء ﴿ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب ﴾ .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنِّي أَعْرِفُ أَوَّلَ مَنْ سَيّبَ السَّوَائِبِ ، وَأَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ " قالوا : من

هو يا رسول الله ؟ قال : " عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ أَخُو بَنِي كَعْبٍ لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَجُرُّ قُصبَهُ فِي النَّارِ يُؤْذِي رِيحُهُ أَهْلَ النَّارِ ، وَإِنِّي لأَعْرِفُ مَنْ بَحَّرَ البَحَائِرَ " قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : " رَجُلٌ مِنْ بَنِي مدْلِج كَانَتْ لَهُ نَاقَتَانِ ، فَجَدَعَ آذَانَهُما ، وَحَرَّمَ أَلْبَانَهُمَا ، ثُمَّ شَرِبَ أَلْبَانَهُمَا بَعْدَ ذلك . فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ وَهُوَ وَهُمَا يَعضَّانِهِ بِأَفْوَاهِهِمَا ، وَيَخْبِطَانِهِ بِأَخْفَافِهِمَا " ثم قال تعالى : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ يعني : ليس لهم عقل يعقلون أن الله هو المحلل والمحرم ، وليس لغيره أن يحل ويحرم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(38/217)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ مناسبة هذه لما قبلها أنه تعالى لما نهى عن سؤال ما لم يأذن فيه ولا كلفهم إياه منع من التزام أمور ليست مشروعة من الله تعالى ، ولما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية هل تلحق بأحكام الكعبة بين تعالى أنه لم يشرع شيئاً منها ، أو لما ذكر المحللات والمحرمات في الشرع عاد إلى الكلام في المحللات والمحرمات من غير شرع ، وفي حديث روي عن أبي هريرة عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم " أن أول من غير دين إسماعيل عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف نصب الأوثان وسبب السائبة وبحر البحيرة وحمى الحامي " ورآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر قصبه في النار ، وروي أنه كان ملك مكة ، وروى زيد بن أسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " قد عرفت أول من بحر البحيرة هو رجل من مدلج كانت له ناقتان فجدع ذانهما وحرم ألبانهما وركوب ظهورهما قال : فلقد رأيته في النار يؤذي أهل النار ريح قصبه " .

قال الزمخشري يعني ﴿ ما جعل الله ﴾ ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسييب وغير ذلك ، وقال ابن عطية و ﴿ جعل ﴾ في هذه الآية لا يتجه أن تكون بمعنى خلق الله لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء كلها ولا هي بمعنى صير لعدم المفعول الثاني ، وإنما هي بمعنى ما سن ولا شرع ، ولم يذكر النحويون في معاني جعل شرع ، بل ذكروا أنها تأتي بمعنى خلق وبمعنى ألقى وبمعنى صير ، وبمعنى الأخذ في الفعل فتكون من أفعال المقاربة .

(39/217)

وذكر بعضهم بمعنى سمى وقد جاء حذف أحد مفعولي ظن وأخواتها إلا أنه قليل والحمل على ما سمع أولى من إثبات معنى لم يثبت في لسان العرب فيحتمل أن يكون المفعول الثاني

محذوفاً ، أي ما صير الله بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حامياً مشروعة بل هي من شرع غير الله ، ﴿ والأنعام خلقها لكم ﴾ خلقها الله تعالى رفقاً لعباده ونعمة عددها عليهم ومنفعة بالغة وأهل الجاهلية قطعوا طريق الانتفاع بها وإذهاب نعمة الله بها ، قال ابن عطيّة وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تجوز الأحباس والأوقاف وقاسوا على البحيرة والسائبة والفرق بيّن ولو عمد رجل إلى ضيعة له فقال هذه تكون حبساً لا تجتنى ثمرتها ولا تزرع أرضها ولا ينتفع منها بنفع لجاز أن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة ، وأما الحبس المتعين طريقة واستمرار الانتفاع به فليس من هذا ، وحسبك بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب في مال له : " اجعله حبساً لا يباع أصله " وحبس أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم انتهى .

﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ قال الزمخشري بتحريم ما حرموا .

﴿ وأكثرهم لا يعقلون ﴾ فلا ينسبوا التحريم حتى يفتروا ولكنهم يقلدون في تحريمها كبارهم انتهى .

نص الشعبي وغيره أن المفترين هم المبتدعون وأن الذين لا يعقلون هم الأتباع ، وقال ابن عباس ﴿ الذين كفروا ﴾ يريد عمرو بن لحي وأصحابه ، وقيل في ﴿ لا يعقلون ﴾ أي الحلال من الحرام ، وقال قتادة : ﴿ لا يعقلون ﴾ أن هذا التحريم من الشيطان لا من الله ، وقال محمد بن موسى : ﴿ الذين كفروا ﴾ هنا هم أهل الكتاب والذين ﴿ لا يعقلون ﴾

هم أهل الأوثان ، قال ابن عطية وهذا تفسير من انتزاع آخر الآية عما تقدمها وارتبط بها من المعنى وعما أخبر أيضاً من قوله ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ انتهى .

وقال مكي ذكر أهل الكتاب هنا لا معنى له إذ ليس في هذا صنع ولا شبه وإنما ذكر ذلك عن مشركي العرب فهم الذين عنوا بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(40/217)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ الله ﴾ .

جعل هنا بمعنى سَمَى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [الزخرف : 3] أي سمّيناه .

والمعنى في هذه الآية ما سَمَى الله ، ولا سَنّ ذلك حكماً ، ولا تَعبّد به شرعاً ، بَيْد أنه

قَضَى به علماً ، وأوجده بقدرته وإرادته خَلْقاً ؛ فإن الله خالق كل شيء من خير وشر ، ونفع وضرّ ، وطاعة ومعصية .

الثانية قوله تعالى : ﴿ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ ﴾ "مِن" زائدة .

والبحيرة فَعِيلة بمعنى مفعولة ، وهي على وزن النَّطِيحة والذَّبيحة .

وفي الصحيح عن سعيد بن المسيّب : البحِيرة هي التي يمنع دَرُّها للطواغيت ، فلا يَحتلبها أحدٌ من الناس .

وأما السّائبة فهي التي كانوا يُسيبونها لآلهتهم .

(41/217)

وقيل : البحِيرة لغة هي الناقة المشقوقة الأذن ؛ يقال : بحَرتُ أذن الناقة أي شققتها شقاً واسعاً ، والناقة بَحِيرة ومبحورة ، وكان البحر علامة التخلية .

قال ابن سيده : يقال البحيرة هي التي خُلّيت بلا راع ، ويقال للناقة الغَزِيرة بَحِيرة .

قال ابن إسحاق : البحيرة هي ابنة السائبة ، والسائبة هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهنّ ذَكر ، لم يُركَب ظهرها ولم يُجزَّ وبرها ، ولم يَشرب لبنها إلا ضيفٌ ، فما نُتِجت بعد ذلك من أنثى شُقّت أذنها ، وخُلّي سبيلها مع أُمها ، فلم يُركَب ظهرُها ولم يجزَّ وبرها ولم

يشرب لبنُها إلا ضيف كما فُعِل بأمّها فهي البحيرة أبنة السّائبة .

وقال الشافعي : إذا نُتِجت الناقة خمسة أبطن إناثاً بُحرت أذنها فحرمت ؛ قال :

محرّمة لا يَطعم الناس لحمها . . .

ولا نحن في شيء كذاك البحائر

وقال ابن عُزيز : البحيرة الناقة إذا نُتِجَت خمسة أبطن فإذا كان الخامس ذكراً نحروه فأكله الرجال والنساء ، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها أي شقوه وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها وقاله عِكْرمة فإذا ماتت حلّت للنساء .

والسائبة البعير يُسيّب بنذر يكون على الرجل إن سلّمه الله من مرض ، أو بلّغه منزلة أن يفعل ذلك ، فلا تُحبَس عن رعي ولا ماء ، ولا يركبها أحد ؛ وقال به أبو عبيد : قال الشاعر :

وسائبة للّه تَنْمِي تشكُّراً . . .

إن اللّهُ عافى عامراً أو مُجاشَعاً

وقد يُسيّبون غير الناقة ، وكانوا إذا سيبوا العبد لم يكن عليه وَلاء ، وقيل : السّائبة هي المخلاّة لا قيد عليها ، ولا راعي لها ؛ فاعل بمعنى مفعول ، نحو "عيشة راضية" أي مرضية .

من سابت الحيةُ وانسابت ؛ قال الشاعر :

عقرتم ناقة كانت لرّبي . . .

وسائبةً فقوموا للعِقاب

(42/217)

وأما الوصيلة والحام ؛ فقال ابن وهب قال مالك : كان أهل الجاهلية يعتقون الإبل والغنم يُسيّبونها ؛ فأمّا الحام فمن الإبل ؛ كان الفحل إذا انقضى ضِرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه ؛ وأما الوصِيلة فمن الغنم إذا ولدت أنثى بعد أنثاى سيّبوها .

وقال ابن عُزيز : الوصيلة في الغنم ؛ قال : كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا ؛ فإذا كان السابع ذكراً ذُبح وأَكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى تركت في الغنم ، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم تُذبح لمكانها ، وكان لحمها حراماً على النساء ، ولبن الأنثى حراماً على النساء إلا أن يموت منهما شيء فيأكله الرجال والنساء .

والحامي الفحل إذا رَكب ولد ولده .

قال :

حَماها أبو قابُوسَ في عزّ مُلْكه . . .

كما قد حَمَى أولادَ أولاده الفحلُ

ويقال : إذا نُتِج من صُلبْه عشرة أبطن قالوا : قد حمى ظهرَه فلا يُركب ولا يُمنع من كَلاَءٍ ولا ماء .

وقال ابن إسحاق : الوصيلة الشاة إذا أتأَمَتْ عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر ، قالوا : وصلت ؛ فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون الإناث ، إلا أن يموت شيء منها فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم .

الثالثة روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت عمرو بن عامر الخِزاعي يَجرّ قُصْبه في النار وكان أوّل من سيّب السوائب " وفي رواية " عمرو بن لُحَي بن قَمَعة بن خِنْدِف أخا بني كعب هؤلاء يجرّ قُصْبه في النار " .

(43/217)

" وروى أبو هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجُون : "رأيت عمرو بن لُحَي بن قمعة بن خندف يجرّ قُصْبه في النار فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا به منك" فقال أكثم : أخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله ؛ قال : "لا إنك مؤمن وهو كافر إنه أوّل من غيَّر دين إسماعيل وبَحّر البحيرة وسيّب السائبة وحَمى الحامي" " وفي رواية " رأيته رجلاً قصيراً أشعر له وَفْرة يجرّ قُصْبه في النار " وفي رواية ابن القاسم وغيره

عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنه يؤذي أهل النار بريحه " مرسل ذكره ابن العربي .

وقيل : إن أوّل من ابتدع ذلك جناده بن عوف .

والله أعلم .

وفي الصحيح كفاية .

وروى ابن إسحاق : أن سبب نصب الأوثان ، وتغيير دين إبراهيم عليه السلام عمرو بن لُحَي خرج من مكة إلى الشام ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق أولاد عَمليق ويُقال عِملاق بن لاوِذ بن سام بن نوح ، رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نستمطر بها فنمطر ، ونستنصر بها فننصر ؛ فقال لهم : أفلا تعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنماً يقال له : "هُبل" فقدم به مكة فنصبه ، وأخذ الناس بعبادته وتعظيمه ؛ فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أنزل الله عليه ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ﴾ ﴿ ولكن الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني من قريش وخُزاعة ومشركي العرب ﴿ يَفْتَرُونَ على الله الكذب ﴾ بقولهم : إن الله أمر بتحريمها ، ويزعمون أنهم يفعلون ذلك لرضا ربهم في طاعة الله ، وطاعة الله إنما تعلم من قوله ، ولم يكن عندهم من الله بذلك قول ، فكان ذلك مما يفترونه على الله .

وقالوا : ﴿ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ [الأنعام : 139] يعني من الولد والألبان ﴿ وَمُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ يعني إن وضعته ميتاً اشترك فيه الرجال والنساء ؛ فذلك قوله عز وجل : ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي بكذبهم العذاب في الآخرة ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : 139] أي بالتحريم والتحليل .

وأنزل عليه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآلله أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] وأنزل عليه : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الأنعام : 143] الآية ، وأنزل عليه : ﴿ وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا افترآء عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام : 138] الآية .

الرابعة تعلق أبو حنيفة رضي الله عنه في منعه الأحباس وردّه الأوقاف ؛ بأن الله تعالى عاب على العرب ما كانت تفعل من تسييب البهائم وحمايتها وحبس أنفاسها عنها ، وقاس على البحيرة والسائبة ؛ والفرق بَيِّنٌ .

ولو عَمِد رجل إلى ضيعة له فقال : هذه تكون حبساً ، لا يُجْتَنى ثمرُها ، ولا تُزرع أرضُها ،

ولا يُنتفع منها بنفع ، لجاز أن يشبّه هذا بالبحيرة والسائبة .

وقد قال علقمة لمن سأله عن هذه الأشياء : ما تريد إلى شيء كان من عمل أهل الجاهلية وقد ذهب .

وقال نحوَه ابن زيد .

وجمهور العلماء على القول بجواز الأحباس والأوقاف ما عدا أبا حنيفة وأبا يوسف وزُفَر ؛ وهو قول شُرَيْح إلاّ أن أبا يوسف رجع عن قول أبي حنيفة في ذلك لما حدّثه ابن عُلَيّة عن ابن عون عن نافع " عن ابن عمر أنه أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يتصدق بسهمه بخيبر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "احبس الأصل وسبِّل الثمرة" " وبه يحتج كل من أجاز الأحباس ؛ وهو حديث صحيح قاله أبو عمر .

(45/217)

وأيضاً فإن المسألة إجماع من الصحابة وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وعائشة وفاطمة وعمرو بن العاص وابن الزبير وجابراً كلهم وقفوا الأوقاف ، وأوقافهم بمكة والمدينة معروفة مشهورة .

وروى أن أبا يوسف قال لمالك بحضرة الرشيد : إن الحبس لا يجوز ؛ فقال له مالك : هذه

الأحباس أحباس رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر وفَدَك وأحباس أصحابه .

وأما ما احتج به أبو حنيفة من الآية فلا حجة فيه ؛ لأن الله سبحانه إنما عاب عليهم أن تصرفوا بعقولهم بغير شرع تَوَجه إليهم ، أو تكليف فُرِض عليهم في قطع طريق الانتفاع ، وإذهاب نعمة الله تعالى ، وإزالة المصلحة التي للعباد في تلك الإبل .

وبهذا فارقت هذه الأمور الأحباس والأوقاف .

ومما احتج به أبو حنيفة وزُفَر ما رواه عطاء عن ابن المسيب قال : سألت شريحاً عن رجل جعل داره حبساً على الآخِر من ولده فقال : لا حبس عن فرائض الله ؛ قالوا : فهذا شُرَيْح قاضي عمر وعثمان وعلي الخلفاء الراشدين حكم بذلك .

واحتج أيضاً بما رواه ابن لِهيعة عن أخيه عيسى ، عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول بعد ما أنزلت سورة "النساء" وأنزل الله فيها الفرائض : ينهى عن الحبس .

قال الطبري : الصدقة التي يمضيها المتصدّق في حياته على ما أذِن الله به على لسان نبيه وعمِل به الأئمة الراشدون رضي الله عنهم ليس من الحبس عن فرائض الله ؛ ولا حجة في قول شريح ولا في قول أحد يُخالف السنة ، وعمل الصحابة الذين هم الحجة على جميع الخلق ؛ وأما حديث ابن عَباس فرواه ابن لِهيعة ، وهو رجل اختلط عقله في آخر عمره ، وأخوه غير معروف فلا حُجّة فيه ؛ قاله ابن القصار .

فإن قيل : كيف يجوز أن تخرج الأرض بالوقف عن ملك أربابها لا إلى ملك مالك ؟ قال الطحاوي يقال لهم : وما ينكر من هذا وقد اتفقت أنت وخصمك على الأرض يجعلها صاحبها مسجداً للمسلمين ، ويخلّي بينهم وبينها ، وقد خرجت بذلك من مِلك إلى غير مالك ، ولكن إلى الله تعالى ؛ وكذلك السقايات والجسور والقناطر ، فما ألزمت مخالفك في حجتك عليه يلزمك في هذا كله .

والله أعلم .

الخامسة اختلف المجيزون للحبس فيما للمحبِس من التصرف ؛ فقال الشافعي : ويحرم على الموقِف ملكه كما يحرم عليه ملك رقبة العبد ، إلا أنه جائز له أن يتولّى صدقته ، وتكون بيده ليفرقها ويسبلها فيما أخرجها فيه ؛ لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يزل يلي صدقته فيما بلغنا حتى قبضه الله عز وجل .

قال : وكذلك علي وفاطمة رضي الله عنهما كان يليان صدقاتهما ؛ وبه قال أبو يوسف .

وقال مالك : من حبس أرضاً أو نخلاً أو داراً على المساكين وكانت بيده يقوم بها ويكريها ويقسمها في المساكين حتى مات والحبس في يديه ، أنه ليس بحبس ما لم يُجزِه غيره وهو

ميراث ؛ والرّبع عنده والحوائط والأرض لا ينفذ حبسها ، ولا يتم حوزها ، حتى يتولاه غير من حبّسه ، بخلاف الخيل والسلاح ؛ هذا محصل مذهبه عند جماعة أصحابه ؛ وبه قال ابن أبي ليلى .

السادسة لا يجوز للواقف أن ينتفع بوقفه ؛ لأنه أخرجه لله وقطعه عن ملكه ، فانتفاعه بشيء منه رجوع في صدقته ؛ وإنما يجوز له الإنتفاع إن شرط ذلك في الوقف ، أو أن يفتقر المحبِّسُ ، أو ورثتُه فيجوز لهم الأكل منه .

ذكر ابن حبيب عن مالك قال : من حبس أصلاً تجري غلته على المساكين فإن ولده يعطون منه إذا افتقروا كانوا يوم حبَّس أغنياء أو فقراء غير أنهم لا يعطون جميع الغلة مخافة أن يندرس الحبس ، ولكن يبقى منه سهم للمساكين ليبقى عليه اسم الحبس ؛ ويكتب على الولد كتاب أنهم إنما يعطون منه ما أُعطوا على سبيل المسكنة ، وليس على حق لهم دون المساكين .

(47/217)

السابعة عِتْقُ السائبة جائز ؛ وهو أن يقول السيد لعبده أنت حر وينوي العتق ، أو يقول : أعتقتك سائبة ؛ فالمشهور من مذهب مالك عند جماعة أصحابه أن ولاءه لجماعة

المسلمين ، وعتقه نافذ ؛ هكذا روى عنه ابن القاسم وابن عبد الحَكَم وأشهب وغيرهم ، وبه قال ابن وهب ؛ وروى ابن وهب عن مالك قال : لا يعتق أحد سائبة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الولاء وعن هبته ؛ قال ابن عبد البر : وهذا عند كل من ذهب مذهبه ، إنما هو محمول على كراهة عتق السائبة لا غير ؛ فإن وقع نفذ وكان الحكم فيه ما ذكرناه .

وروى ابن وهب أيضاً وابن القاسم عن مالك أنه قال : أنا أكره عتق السائبة وأنهى عنه ؛ فإن وقع نفذ وكان ميراثاً لجماعة المسلمين ، وعَقْلُه عليهم .

وقال أصبغ : لا بأس بعتق السائبة ابتداء ؛ ذهب إلى المشهور من مذهب مالك ؛ وله احتج إسماعيل القاضي ابن إسحاق وإياه تقلد .

ومن حجته في ذلك أن عتق السائبة مستفيض بالمدينة لا ينكره عالم ، وأن عبد الله بن عمر وغيره من السلف أعتقوا سائبة .

وروي عن ابن شهاب وربيعة وأبي الزِّناد وهو قول عمر بن عبد العزيز وأبي العالية وعطاء وعمرو بن دينار وغيرهم .

(48/217)

قلت : أبو العالية الرياحِي البصريّ التميميّ رضي الله عنه ممن أُعتِق سائبة ؛ أعتقته مولاة له من بني رِياح سائبة لوجه الله تعالى ، وطافت به على حِلق المسجد ، واسمه رفيع بن مِهران ، وقال ابن نافع : لا سائبة اليوم في الإسلام ، ومن أعتق سائبة كان ولاؤه له ؛ وبه قال الشافعي وأبو حنيفة وابن الماجِشون ، ومال إليه ابن العربيّ ؛ واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : " من أعتق سائبة فولاؤه له " وبقوله : " إنما الولاء لمن اعتق " فنفى أن يكون الولاء لغير معتِق ؛ واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ ﴾ وبالحديث : " لا سائبة في الإسلام " وبما رواه أبو قيس عن هُزَيْل بن شَرَحْبِيل قال قال رجل لعبد الله : إني أعتقت غلاماً لي سائبة فماذا ترى فيه ؟ فقال عبد الله : إن أهل الإسلام لا يسيِّبون ، إنما كانت تسيّب الجاهلية ؛ أنت وارثه ووليّ نعمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(49/217)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾

وهذه الآية جاءت في السورة التي أحل الله فيها بهيمة الأنعام ، وحرّم منها ما حرّم . فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يستبقي حياته من قوت ، وما يستبقي نوعه بالتزاوج . وإذا كان الحق هو الذي جعل الإنسان خليفة في الأرض فقد أعدّ له كل هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعدّ سبحانه لخلقه الأرض والسماء والماء والهواء ، ومما ذخر وخَبّأ وأوجد في الأرض من أقوات لا تنتهي إلى يوم القيامة .

ولنا أن نلتفت إلى فارق مهم بين " الخلق " ، وبين " الجَعْل " . فالخلق شيء ، والجعل شيء آخر . والخلق هو إيجاد من عدم . والجَعْل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته في الحياة . فخلق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخلق والإيجاد له سبحانه . وعلينا – نحن الخلق – أن نخصص كل شيء لمهمته في حياته التي أرادها الله ، أي أن نترك " الجعل " لله ولا نتدخل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير – على سبيل المثال – ليأكل من القاذورات وليحمي الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة ، وعلى الإنسان – إذن – أن يخصص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوّله إلى غير مهمته كأن يأكله مثلا ؛ لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضر بالإنسان الذي أراده الله سيداً مستخلفاً في الكون .

وأبلغ سبحانه الناس أنه قد أحل أشياء وحرّم أشياء ، وعلى الإنسان أن يرضخ لما حلله الله فيقبل عليه ، وأن يرضخ بالابتعاد عما حرّم الله . والخالق سبحانه وتعالى هو الذي "

خلق " وهو الذي " جعل " وهو القائل : ﴿ جَعَلَ اللهُ الكعبة البيت الحرام قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 97] .

(50/217)

وهو القائل : ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] .

والحق سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نجعل له أنداداً : ﴿ يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 21-22] .

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد ، فلا يصح أن تجعلوا له أنداداً ؛ لأن ذلك عبث .

ويثبت لنا سبحانه أن قضية الفساد في الأرض تنشأ من تعدي الناس إلى الجعل المخلوق لله فيحولونه إلى غير ما خلقه الله له .

والخَلْقُ في حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيما هي مخصصة له .

ومثال ذلك : أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن . وتستقبل من صانع الصابون قالباً

من الصابون ، ثم تجيء بالجبن والصابون إلى المنزل ، فتخبر أهل البيت بأن الجبن للأكل والصابون للغسيل ، ويطيع الجميع هذه التوجيهات .

لكن إن استخدم أحد الصابون للأكل والجبن للغسيل يحدث إفساد في صحة أفراد الأسرة . وكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى لنا أبناء من أصلابنا ، فكيف نأخذ أبناء من غير أصلابنا لنجعلهم أبناء لنا ؟ إن هذا خطأ في الجَعْل .

ولذلك قال الحق : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [الأحزاب : 4] .

إن الدعيّ هو في حقيقة أمره من غير صلبك ، وزوجتك ليست أمّاً له ، فكيف تجعله ابناً لك ، وتمكنه من أن يجلس في حجر امرأة غير أمه ويشب على ذلك وينظر إلى غير محارمه على أن ذلك حلال ومباح له ، إنه بذلك يفقد التمييز بين الحلال والحرام ؛ لذلك فالتبني إفساد في الجعل .

(51/217)

إن كل فساد ينشأ في الكون حينما نجعل مخلوقاً لله في مهمة غير تلك التي جعلها الله له .

والحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيته ، وما يحفظ نوعه ، فعلينا أن نتبع ما يأمر به الحق من اتباع ما هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام . وإن قال قائل

: ولماذا حرّم الله بعض الأشياء التي خلقها ؟ ونقول : إن الذي خلقها جعلها لمهمة غير التي يريد الإنسان أن يوجهها له ، ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير .

والإنسان منا إذا ما رأى صورة من معيشة الحيوانات في الغابة . يتعجب ، ففضلات حيوان هي غذاء لحيوان آخر . وسم الثعبان هو حماية وعلاج . ونعرف أن الإنسان يستخلص سم الثعبان ليستخرج منه علاجاً لبعض الأمراض ولقتل بعض الجراثيم .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : 59] .

كيف إذن نجعل من أنفسنا مشرعين نحلل الحرام ونحرم الحلال ؟ إن الله الذي خلق كل شيء لم يمنحنا الإذن بذلك . وعلينا أن نسلم بأن كل شيء مخلوق لمهمة فلا يصح أن نوجه شيئاً إلى غير مهمته . وتوجيه أشياء إلى غير ما جعلت له أنتج آثاراً ضارة ، ومثال ذلك استخدامنا لمبيدات الحشرات في الحقول ، تلك المبيدات أبادت الضار في نظرنا ، وأبادت النافع أيضاً . وعلى الإنسان – إذن – أن ينتبه جيداً فلا يساوي بين الحرام والحلال ، وأن ينتبه تماماً فلا يتعدى الجعل المخلوق لله . يقول سبحانه : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ ولكن الذين كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ على الله الكذب وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : 103] .

والبحيرة هي الناقة التي تُشق أذنها كعلامة على أنها محرّمة فلا يتعرض لها أحد ، ولا تُرد عن مرعى ، ولا تُرد عن ماء ، ولا يُشرب لبنها ، ولا يُركب ظهرها ، ولا يُجز صوفها ؛ لأنهم قالوا : نُتجت خمسة أبطن آخرها ذكر . و" السائبة " وهي الناقة التي يقدمها الرجل إن برئ من مرضه أو قدم من سفره كنذر سائب .

فلا يربطها ، وتأكل كما تريد ، وتشرب ما تريد ، وتنام في أي مكان ، ولا أحد يتعرض لها أبداً ، وقد سميت " سائبة " بمعنى مأخوذ من الماء السائب . ونعرف أن صفة الماء وطبيعته الأساسية هي الاستطراق ، فإن سقط الماء على قمم الجبال فهو يملأ الوديان أولاً ، ثم يصعد إلى الأعالي ، هكذا يكون استطراق الماء ما لم يتحكم فيه الإنسان بإقامة السدود والمضخات وشبكات توزيع المياه .

والوصيلة هي الناقة التي تصل أخاها ، فالناقة عندما تحمل وتضع المولود ، هنا ينظر أصحاب الناقة إلى جنس المولود ، فإن كان ذكراً أكلوه ، أما إن كان المولود أنثى فهي لهم يستبقونها لأنها وعاء إنجاب لنتاج جديد ويكفي فحل واحد لإخصاب عشرات الإناث . فإن نتجت الناقة في بطن واحد ذكراً وأنثى فإنهم لا يذبحونهما ويقال : " وصلت الأنثى أخاها " فحرمته علينا .

وفي ريفنا المصري نجد الأطفال يتمنون أن يأتي وليد الجاموسة أو البقرة ذكراً حتى يأكلوا من

لحمه وحتى يشربوا من لبن الجاموسة أو البقرة كما يهوون . ذلك أن الطفل ينظر إلى مصلحته المباشرة ، أما الكبار فهم يتمنون دائماً أن يكون وليد البهيمة أنثى ، لأن الأنثى وعاء لنتاج جديد .

وال " حام " هو الفحل الذي يُحمى ظهره من أن يُركب ، ويتركونه لينطلق كما يريد . وهو الذي لقح عشرة أجيال من الإناث ، أو هو الذي نتجت من صلبه عشرة أبطن . وكان من الضوابط لهذه العملية أن يعرفوا أن حفيد هذا الفحل – ابن ابنه – يمكنه أن يلقح .

(53/217)

وكل هذه المسائل : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، هي من اختراعات أهل الكفر الذي يفترون على الله ، فالحق سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام ليستمتع الإنسان بأكلها وشرب لبنها وتسخيرها إلى ما يفيده .

ومعنى " يفتري الكذب " أي أنه يختلق كذباً ويدعيه ليطرأ به على صدق ليخفيه فالكذب ستر لحقيقة كانت قائمة . والحقيقة القائمة منذ أن خلق الله الخلق أن هذه الأنعام جميعها مسخرة لخدمة الإنسان ، وأبلغ سبحانه آدم بمنهجه ، وكان من المفروض أن يبلغ كل جيل الجيل الذي يليه ، لكن طول الزمن والغفلة هما السببان وراء نسيان الناس لبعض الأحكام ؛

لذلك بعث الله الرسل ليذكروا الناس بالمنهج ، وليزيلوا الكفر عن وعي الناس ، فالكافرون أناس ستروا منهج الله ، وستروا البلاغ عن الله ، وهم بذلك يفترون الكذب على الله .

ومثال ذلك قصة دخول الأصنام إلى الكعبة ، فقد سافر رجل اسمه عمرو بن لُحي إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنما يقال له " هبل " إلى مكة ، وكان هو أول من أدخل الأصنام إلى مكة ، وكما فعل عمرو بن لُحَيّ فعل غيره بوضع قوانين وقواعد لم يأت بها الله ، كالوصيلة والبحيرة والسائبة والحام . وكان ذلك افتراءً على منهج الله وتغييراً لمنهج الحق ، وعلى فرض أنه لا منهج قد وصلهم من الله ، ألم يكن من ضرورة التعقل أن ينظروا في أمر هذه البدع والضلالات ؟

إن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع العقل من أن يصل إلى حقيقة كونية سليمة .

ولكن قد يجهد العقل ويتعب بالتجربة الطويلة حتى يصل إلى حقيقة ما . لذلك أراد سبحانه حماية الناس من شقاء التجارب القاسية فأنزل منهجه ليحدد الحرام من الحلال .

قال سبحانه : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ [التوبة : 33] .

ويقول في موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [الفتح : 28] .

ولقائل أن يقول : لماذا إذن وُجد في العالم أديان أخرى . كاليهودية والنصرانية ، ولماذا إذن هناك ملاحدة ما دام الله قد قرر ألا يوجد مع الإسلام دين آخر ؟

ونقول : أنت لم تفهم مراد الآيتين الكريمتين ، إن الحق سبحانه يقرر مرة أن الذي الذي سيظهر ولو كره المشركون ، ومعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين ، وأهل ديانات أخرى وسيظهر الإسلام عليهم ، ويجعله الله هو السائد بالحجة والبرهان وبشهادة الكافرين والملحدين والوثنيين أنفسهم ؛ لأن أمور الحياة ستتبعهم في كل قضايا حياتهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المتاعب إلا بأن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هي التي ستخلصهم من مشكلاتهم ، ولجوؤهم إلى أقضية تتفق مع الإسلام – مع كفرهم بالإسلام – هو شهادة قوية على أن الإسلام جاء دين الفطرة ، ودين العقل ، وأن الكل سيحتاج إليه قهراً عنه . ومن لم يأخذ ديناً فيسضطر إلى أن يأخذه نظاماً .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذيل الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها بقوله عز وجل : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ فلأنه سبحانه ينبهنا إلى أنهم لو تعقلوا الأمر لما جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من المحرمات عليهم .

ولنا أن نتساءل : أجعلتم هذه الأشياء حراماً تكريماً لها أم زهداً فيها ؟ . فإن كان هو الزهد ، فمعنى ذلك أنهم أخرجوها عما خلق الله ؛ لأن الله خلقها لنأكل لحمها وننتفع بها . وإن كان هو التكريم ، فهل من التكريم أن يترك الإنسان الحيوان الذي خدمه دون حماية من ذئب ، ودون طعام يعده له ويتركه يلغ في أرض الغير ؟ . إن هذا أسلوب يدل على عدم الوفاء للحيوان الذي خدم الإنسان ، ومثل هذا السلوك لا يستبقي حياة هذا الحيوان ، بل يعرضها للخطر ، لهذا يأبى العقل السويّ هذا الزهد وذلك التكريم . فإن كان عمرو بن لُحَيّ أو غيره قد جاءوا بأشياء وتقاليد لم يجعلها الله ، فعلينا أن نشكر الحق سبحانه لأنه جاء بالإسلام ليعدل من هذه المسائل .

والمدقق للنظر في آيات القرآن يجدها تمثل برنامجاً مطمْئِناً لحياة الإنسان على الأرض ، وكأنها حاسب آلي يضبط إيقاع حركة الإنسان في الأرض بدقة تتفوق بكل المقاييس على دقة أي حاسب آلي من صنع البشر ، ذلك المسمى "كمبيوتر" . إن هناك "كمبيوتر" إلهياً يهدي الإنسان من أن يضل أو يُضل . فالسماء تعدل للإنسان سلوكه إن ذهب بعيداً عن الصراط المستقيم . ولا يقولن إنسان : إنما أنا أتبع ما كان عليه آبائي . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ ﴾ : وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيمُهُ وَتَفْسِيرُهُ ، وَمَعْنَى اللَّفْظِ هَاهُنَا : مَا سَمَّى اللَّهُ ذَلِكَ حُكْمًا وَلَا يُعْتَدُّ بِهِ شَرْعًا ، بَيْدَ أَنَّهُ قَضَى بِهِ عِلْمًا ، وَأَوْجَدَهُ بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ خَلْقًا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَنَفْعٍ وَضُرٍّ ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي تَفْسِيرِ الْمُسَمَّيَاتِ فِيهَا لُغَةٌ : فَالْبَحِيرَةُ ، هِيَ : النَّاقَةُ الْمَشْقُوقَةُ الْأُذُنِ لُغَةً ، يُقَالُ : بَحَرْت أُذُنَ النَّاقَةِ أَيْ شَقَقْتهَا .

وَالسَّائِبَةُ ، هِيَ : الْمُخَلَّاةُ لَا قَيْدَ عَلَيْهَا وَلَا رَاعِيَ لَهَا .

وَالْوَصِيلَةُ فِي الْغَنَمِ : كَانَتْ الْعَرَبُ إذَا وَلَدَتْ الشَّاةُ أُنْثَى كَانَتْ لَهُمْ ، وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا كَانَتْ

لِآلِهَتِهِمْ ، وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى قَالُوا : وَصَلَتْ أَخَاهَا ، فَكَانَ الْكُلُّ لِلْآلِهَةِ ، وَلَمْ يَذْبَحُوا الذَّكَرَ .

وَالْحَامِي : كَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا نَتَجَتْ مِنْ صُلْبِ الْفَحْلِ عَشَرَةُ أَبْطُنٍ قَالُوا : حَمَى ظَهْرَهُ فَسَيَّبُوهُ لَا يُرْكَبُ وَلَا يُهَاجُ .

وَلِهَذِهِ الْآيَةِ تَفْسِيرٌ طَوِيلٌ بِاخْتِلَافٍ كَثِيرٍ يَرْجِعُ إلَى مَا أَوْضَحَهُ مَالِكٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ .

(57/217)

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْتِقُونَ الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ يُسَيِّبُونَهَا ، فَأَمَّا الْحَامِي فَمِنْ الْإِبِلِ ؛ كَانَ الْفَحْلُ إِذَا انْقَضَى ضِرَابُهُ جَعَلُوا عَلَيْهِ مِنْ رِيشِ الطَّوَاوِيسِ وَسَيَّبُوهُ .

وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ فَمِنْ الْغَنَمِ وَلَدَتْ أُنْثَى بَعْدَ أُنْثَى سَيَّبُوهَا .

وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ وَغَيْرُهُ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَوَّلُ مَنْ نَصَبَ النُّصُبَ ، وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ ، وَغَيَّرَ عَهْدَ إبْرَاهِيمَ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ ؛ وَلَقَدْ رَأَيْته يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ ، يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ بِرِيحِهِ ﴾ .

قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ بَحَرَ الْبَحَائِرَ ﴿ رَجُلٌ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ عَمَدَ إلَى نَاقَتَيْنِ لَهُ ، فَجَدَعَ آذَانَهُمَا ، وَحَرَّمَ أَلْبَانَهُمَا وَظُهُورَهُمَا ، ثُمَّ احْتَاجَ إلَيْهِمَا ، فَشَرِبَ أَلْبَانَهُمَا ، وَرَكِبَ ظُهُورَهُمَا ، فَقَالَ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَقَدْ رَأَيْتهمَا فِي النَّارِ يَخْبِطَانِهِ بِأَخْفَافِهِمَا وَيَعَضَّانِهِ بِأَفْوَاهِهِمَا ﴾ .

وَنَحْوُهُ عَلِيُّ بْنُ نَافِعٍ عَنْ مَالِكٍ قَالَ

: " لَقَدْ رَأَيْته يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ بِرِيحِهِ " وَلَمْ يَزِدْ .

وَرَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ : السَّوَائِبُ الْغَنَمُ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : الْبَحِيرَةُ بِنْتُ السَّائِبَةِ .

(58/217)

وَالسَّائِبَةُ هِيَ النَّاقَةُ إذَا تَابَعَتْ بَيْنَ عَشْرِ إنَاثٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ لَمْ يُرْكَبْ ظَهْرُهَا ، وَلَمْ يُجَزَّ وَبَرُهَا ، وَلَمْ يَشْرَبْ لَبَنَهَا إلَّا ضَيْفٌ فَمَا نَتَجَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أُنْثَى شُقَّتْ أُذُنُهَا ، وَخُلِّيَ سَبِيلُهَا مَعَ أُمِّهَا ، فَلَمْ يُرْكَبْ ظَهْرُهَا ، وَلَمْ يُجَزَّ وَبَرُهَا ، وَلَمْ يَشْرَبْ لَبَنَهَا إلَّا ضَيْفٌ ، كَمَا فُعِلَ بِأُمِّهَا ؛ فَهِيَ الْبَحِيرَةُ بِنْتُ السَّائِبَةِ .

وَالْوَصِيلَةُ : الشَّاةُ إذَا أَتَأَمَّتْ عَشْرَ إنَاثٍ مُتَتَابِعَاتٍ فِي خَمْسَةِ أَبْطُنٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ جُعِلَتْ وَصِيلَةً ، قَالُوا : قَدْ وُصِلَتْ ، فَكَانَ مَا وَلَدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ لِلذُّكُورِ مِنْهُمْ دُونَ الْإِنَاثِ إلَّا أَنْ يَمُوتَ مِنْهَا شَيْءٌ فَيَشْتَرِكُونَ فِي أَكْلِهِ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ .

وَرُوِيَ عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ : فَكَانَ مَا وَلَدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ لِذُكُورِهِمْ دُونَ إِنَاثِهِمْ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَالْحَامِي الْفَحْلُ إِذَا نَتَجَ لَهُ عَشْرُ إِنَاثٍ مُتَتَابِعَاتٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ حُمِيَ ظَهْرُهُ ، فَلَمْ يُرْكَبْ ظَهْرُهُ ، وَلَمْ يُجَزَّ وَبَرُهُ ، وَخُلِّيَ فِي إِبِلِهِ يَضْرِبُ ، لَا يُنْتَفَعُ مِنْهُ بِشَيْءٍ بِغَيْرِ ذَلِكَ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْبَحِيرَةُ النَّاقَةُ .

وَالْوَصِيلَةُ الشَّاةُ .

وَالْحَامِي الْفَحْلُ .

وَسَائِبَةٌ يَقُولُ يُسَيِّبُونَهَا لِأَصْنَامِهِمْ .

وَرُوِيَ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنَ قَمْعَةَ بْنَ خِنْدِفٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ .

قَالَ : فَسَأَلْته عَمَّنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنْ النَّاسِ .

قَالَ : هَلَكُوا ﴾ .

(59/217)

وَرُوِيَ أَنَّ سَبَبَ نَصْبِ الْأَوْثَانِ وَتَغْيِيرِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَأْرِبَ مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ ؛ وَبِهَا يَوْمَئِذٍ الْعَمَالِيقُ أَوْلَادُ عِمْلِيقَ ، وَيُقَالُ عِمْلَاقُ بْنُ لَاوِذْ بْنُ سَامِ بْنُ نُوحٍ ، رَآهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، فَقَالَ لَهُمْ : مَا هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي أَرَاكُمْ تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : هَذِهِ أَصْنَامٌ نَسْتَمْطِرُهَا فَتُمْطِرُنَا ، وَنَسْتَنْصِرُنَا فَتَنْصُرُهَا .

فَقَالَ لَهُمْ : أَفَلَا تُعْطُونِي مِنْهَا صَنَمًا أَسِيرُ بِهِ إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ فَيَعْبُدُوهُ ؟ فَأَعْطَوْهُ صَنَمًا يُقَالُ لَهُ هُبَلُ .

فَقَدِمَ بِهِ مَكَّةَ فَنَصَبَهُ ، وَأَخَذَ النَّاسُ بِعِبَادَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بِزَعْمِهِمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِرِضَا رَبِّهِمْ وَفِي طَاعَتِهِ ، وَطَاعَةُ اللَّهِ وَرِضَاهُ إِنَّمَا تُعْلَمُ مِنْ قَوْلِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ لِلَّهِ بِذَلِكَ قَوْلٌ ، فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَفْتَرُونَهُ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

(60/217)

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ .

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمِنْ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

.

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِأَكْثَمَ بْنِ الْجَوْنِ : ﴿ رَأَيْت عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنَ قَمْعَةَ بْنَ خِنْدِفٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ ، فَمَا رَأَيْت رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْك بِهِ وَلَا بِهِ مِنْك .

فَقَالَ أَكْثَمُ : أَخْشَى أَنْ يَضُرَّنِي شَبَهُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ : لَا ؛ لِأَنَّك مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ ؛ إنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إسْمَاعِيلَ ، وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ ، وَحَمَى الْحَامِيَ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو الْأَحْوَصِ عَوْنُ بْنُ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ الْجُشَمِيُّ عَنْ أَبِيهِ ﴿ أَنَّهُ وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَرَبُّ إِبِلٍ أَنْتَ أَمْ رَبُّ غَنَمٍ ؟ فَقَالَ : مِنْ كُلِّ الْمَالِ آتَانِي اللَّهُ فَأَكْثَرَ وَأَطْيَبَ .

فَقَالَ : هَلْ تُنْتِجُ إِبِلُك صِحَاحًا آذَانُهَا فَتَعْمِدَ إِلَى الْمَوَاسِي فَتَقْطَعَ آذَانَهَا ، فَتَقُولَ : هَذِهِ بُحُرٌ .

وَتَشُقُّ جُلُودَهَا ، فَتَقُولَ : هَذِهِ صُرُمٌ ، فَتُحَرِّمُهَا عَلَيْك وَعَلَى أَهْلِك ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحَلَّ لَك مَا آتَاك ، وَمُوسَى اللَّهِ أَحَدٌ ، وَسَاعِدُ اللَّهِ أَشَدُّ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : لَمَّا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَرَبَ عَلَى مَا كَانَتْ تَفْعَلُهُ مِنْ ذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ تَحْذِيرًا لِلْأُمَّةِ عَنْ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ الْبَاطِلِ ، وَلَزِمَهُمْ الِانْقِيَادُ إلَى مَا بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، دُونَ التَّعَلُّقِ بِمَا كَانَ يُلْقِيهِ إلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ مِنْ الْأَبَاطِيلِ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : سَمِعْت الشَّافِعِيَّ يَقُولُ : قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : الْحَبْسُ الَّذِي جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِطْلَاقِهَا الَّتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ .

قَالَ الشَّافِعِيُّ : هَذَا الَّذِي كَلَّمَ بِهِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ أَبَا يُوسُفَ عِنْدَ هَارُونَ .

وَهَذِهِ إشَارَةٌ إلَى أَنَّ أَبَا يُوسُفَ خَالَفَ مَالِكًا فِي الْأَحْبَاسِ ، وَرَأَى رَأْيَ شَيْخِهِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي أَنَّ الْحَبْسَ بَاطِلٌ .

(62/217)

وَرَوَى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ : حَضَرْت مَالِكًا وَقَدْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَنْ صَدَقَةِ الْحَبْسِ ، فَقَالَ : إذَا حِيزَتْ مَضَتْ .

قَالَ الْعِرَاقِيُّ : إنَّ شُرَيْحًا قَالَ : لَا حَبْسَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ .

فَضَحِكَ مَالِكٌ ، وَكَانَ قَلِيلَ الضَّحِكِ ، وَقَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ شُرَيْحًا لَوْ دَرَى مَا صَنَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَاهُنَا .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مَالِكًا قَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ بِحَضْرَةِ الرَّشِيدِ : إنَّ الْحَبْسَ لَا يَجُوزُ .

فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ : فَهَذِهِ الْأَحْبَاسُ أَحْبَاسُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَيْبَرَ وَفَدَكَ وَأَحْبَاسُ أَصْحَابِهِ ؟ فَأَمَّا ﴿ حَظُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : إنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ ﴾ .

وَأَمَّا أَصْحَابُهُ : فَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ، وَعُثْمَانَ ، وَعَلِيٍّ ، وَطَلْحَةَ ، وَالزُّبَيْرِ ، وَعَائِشَةَ ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَرَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ، وَخَالِدِ بْنِ

الْوَلِيدِ ، وَجَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، وَابْنَ عُمَرَ ، وَأُمَّ سَلَمَةَ ، وَحَفْصَةَ ، وَقَدْ رَوَى حَدِيثَ عُمَرَ جَمَاعَةٌ ، قَالُوا : ﴿ إِنَّ عُمَرَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنِّي أَصَبْتُ مَالًا بِخَيْبَرَ لَمْ أُصِبْ قَطُّ مَالًا أَنْفَسَ مِنْهُ يَعْنِي بِسَمْعٍ ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : احْبِسْ الْأَصْلَ وَسَبِّلْ الثَّمَرَاتِ ﴾ .

(63/217)

وَأَشَارَ بِهِ إلَى الصَّدَقَةِ الدَّائِمَةِ فَإِنَّهُ لَوْ تَصَدَّقَ بِهِ عُمَرُ صَدَقَةً فَبِيعَ لَانْقَطَعَ أَجْرُهُ فِي الْحَبْسِ ؛ وَكَتَبَ عُمَرُ فِي شَرْطِهِ : " هَذَا مَا تَصَدَّقَ بِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ صَدَقَةً لَا تُبَاعُ وَلَا تُورَثُ وَلَا تُوهَبُ ، لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْقُرْبَى ، وَالرِّقَابِ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالضَّيْفِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا " .

وَجَاءَ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ هَذِهِ أُمَّهَاتُهَا .

وَتَعَلَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَابَ عَلَى الْعَرَبِ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ مِنْ تَسْيِيبِ الْبَهَائِمِ وَحِمَايَتِهَا وَحَبْسِ أَنْفُسِهَا عَنْهَا .

وَهَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَابَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا بِعُقُولِهِمْ بِغَيْرِ شَرْعٍ تَوَجَّهَ إلَيْهِمْ ، أَوْ تَكْلِيفٍ فُرِضَ عَلَيْهِمْ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا عَابَ عَلَيْهِمْ أَنْ نَقَلُوا الْمِلْكَ إِلَى غَيْرِ مَالِكٍ ، وَالْمِلْكُ قَدْ عَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَمْوَالِ ، وَجَعَلَ الْأَيْدِي تَتَبَادَلُ فِيهِ بِوُجُوهٍ شَرْعِيَّةٍ ، أَوْ تَبْطُلُ فِي الْأَعْيَانِ بِمَعَانٍ قَرِيبَةٍ ، كَالْعِتْقِ وَالْهَدْيِ ؛ فَأَمَّا هَذِهِ الطَّرِيقُ فَبِدْعَةٌ .

قُلْنَا : بَلْ سُنَّةٌ كَمَا تَقَدَّمَ .

جَوَابٌ ثَانٍ : وَذَلِكَ أَنَّ الْحَبْسَ عِنْدَنَا لَا يَنْقُلُ الْمِلْكَ ؛ بَلْ يَبْقَى عَلَى حُكْمِ مَالِكِهِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْحَبْسُ فِي الْغَلَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ ، وَفِي الْقَوْلِ الثَّانِي يُنْقَلُ الْمِلْكُ إِلَى الْمَحْبُوسِ

عَلَيْهِ وَهُوَ مَالِكٌ .

(64/217)

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا كَانَ يَصِحُّ هَذَا لَوْ كَانُوا مُعَيَّنِينَ ، فَأَمَّا الْمَجْهُولُ وَالْمَعْدُومُ فَلَا يَنْتَقِلُ الْمِلْكُ إِلَيْهِ .

قُلْنَا : هَذَا يَبْطُلُ بِأَرْبَعَةِ مَسَائِلَ : الْأُولَى الْمَسْجِدُ .

الثَّانِيَةُ الْمَقْبَرَةُ .

الثَّالِثَةُ الْقَنْطَرَةُ ، قَالُوا يَصِحُّ هَذَا ، وَهُوَ حَبْسٌ عَلَى مَعْدُومٍ وَمَجْهُولٍ [وَهُوَ الرَّابِعُ] .

جَوَابٌ خَامِسٌ : وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ نَاقَضَ ؛ فَقَالَ : إِذَا أَوْصَى بِالْحَبْسِ جَازَ ، وَهَذِهِ

الْمُنَاقَضَاتُ الْخَمْسُ لَا جَوَابَ لَهُ عَنْهَا إلَّا وَيَنْعَكِسُ عَلَيْهِمْ فِي مَسْأَلَتِنَا ، وَلَهُمْ آثَارٌ لَمْ نَرْضَ ذِكْرَهَا لِبُطْلَانِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فِي عِتْقِ السَّائِبَةِ : قَالَ أَصْبَغُ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ فِي الْعُتْبِيَّةِ : أَكْرَهُ عِتْقَ السَّائِبَةِ ؛ لِأَنَّهُ كَهِبَةِ الْوَلَاءِ .

وَقَالَ عِيسَى : أَكْرَهُهُ وَأَنْهَى عَنْهُ .

قَالَ سَحْنُونٌ : لَا يُعْجِبُنَا كَرَاهِيَتُهُ لَهُ ، وَهُوَ جَائِزٌ ، كَمَا يَجُوزُ أَنْ يُعْتِقَ عَنْ غَيْرِهِ يُرِيدَانِ : وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ هِبَةً لِلْوَلَاءِ ، كَذَلِكَ فِي السَّائِبَةِ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَاهُ صَحِيحٌ عَلَى تَعْلِيلِهِ .

وَأَمَّا لَوْ عَلَّلَ الْكَرَاهَةَ بِأَنَّهَا لَفْظَةٌ مَذْمُومَةٌ شَرْعًا ، فَلَا يَتَقَرَّبُ بِهَا ؛ إذْ لَهُ فِي غَيْرِهَا مِنْ أَلْفَاظِ الْعِتْقِ فِي كِنَايَاتِهِ وَصَرَائِحِهِ مَنْدُوحَةٌ لَكَانَ لَهُ وَجْهٌ ، وَتَبَيَّنَتْ الْمَسْأَلَةُ ؛ وَبِالْكَرَاهَةِ أَقُولُ لِلْمَعْنَى الَّذِي نَبَّهْت عَلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فِي تَصْوِيرِهِ : وَهُوَ أَنْ يَقُولَ لِلْعَبْدِ : أَنْتَ سَائِبَةٌ ، وَيَنْوِيَ الْعِتْقَ .

أَوْ يَقُولَ : أُعْتِقُك سَائِبَةً .

فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَلَاؤُهُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَبِهِ قَالَ عُمَرُ ، وَابْنُ عُمَرَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَابْنُ شِهَابٍ ، رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ الْقَاسِمِ وَمُطَرِّفٌ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : وَلَاؤُهُ لِمُعْتِقِهِ ، وَبِهِ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَابْنُ نَافِعٍ ، وَابْنُ الْمَاجِشُونِ .

وَجْهُ الْأَوَّلِ : أَنَّ اللَّفْظَ يَقْتَضِي أَنْ يَزُولَ عَنْهُ الْمِلْكُ وَالْيَدُ وَيَبْقَى كَالْجَمَلِ الْمُسَيَّبِ الَّذِي لَا يُعْرَضُ لَهُ ، وَلَوْ تَبَيَّنَ الْوَلَاءُ لِأَحَدٍ لَمْ يَتَحَقَّقْ هَذَا الْمَعْنَى .

وَوَجْهُ الثَّانِي وَبِهِ أَقُولُ : إنَّهُ لَا سَائِبَةَ فِي الْإِسْلَامِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ ﴾ .

وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يُعْتَقْ عَنْ مُعَيَّنٍ ، فَلَا يَخْرُجُ الْوَلَاءُ عَنْهُ ، كَمَا لَوْ أَطْلَقَ الْعِتْقَ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ : وَهَذَا عَامٌّ فِيهِمْ ، لَكِنْ افْتِرَاؤُهُمْ عَلَى قِسْمَيْنِ مِنْهُمْ : افْتِرَاءُ مُعَانِدٍ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا كَذِبٌ وَزُورٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ ، وَهُمْ الْأَتْبَاعُ لِرُؤَسَائِهِمْ وَأَهْلُ الْغَفْلَةِ مِنْهُمْ ، وَهُمْ الْأَكْثَرُ ؛ وَالْعَذَابُ يُشْرِكُهُمْ وَيَعُمُّهُمْ ، وَالْعِنَادُ أَعْظَمُ عَذَابًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) ﴾

أخرج البخاري ومسلم وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة . التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلها أحد من الناس ، والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوائب " قال ابن المسيب : والوصيلة . الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحامي : فحل الإبل ، يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت واعفوه من الحمل فلم يحمل شيء وسموه الحامي .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلقان من الثياب ، فقال لي : هل لك من مال ؟ قلت : نعم . قال : من أي المال ؟ قلت : من كل المال ، من الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : فإذا آتاك الله مالاً فلير عليك ، ثم قال : تنتج إبلك رافية آذانها ؟ قلت : نعم ، وهل تنتج الإبل إلا كذلك ! قال : فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول : هذه بحر ، وتشق آذان طائفة منها وتقول : هذه الصرم ، قلت : نعم . قال : فلا تفعل ؛ إن كل ما آتاك الله لك حل ، ثم قال ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ قال أبو الأحوص : أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها ، فلا تنتفع امرأته ، ولا بناته ، ولا أحد من أهل بيته بصوفها ، ولا أوبارها ، ولا أشعارها ، ولا ألبانها ، فإذا ماتت اشتركوا فيها . وأما السائبة : فهي التي يسيبون لآلهتهم . وأما الوصيلة : فالشاة تلد ستة أبطن وتلد السابع جدياً وعناقاً ، فيقولون : قد وصلت فلا يذبحونها ، ولا تضرب ، ولا تمنع مهما وردت على حوض ، وإذا ماتت كانوا فيها سواء . والحام من الإبل إذا أدرك له عشرة من صلبه كلها تضرب حمى ظهره فسمي الحام ، فلا ينتفع له بوبر ، ولا ينحر ، ولا يركب له ظهر ، فإذا مات كانوا فيه سواء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : البحيرة . هي الناقة ، إذا أنتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس فإن كان ذكراً ذبحوه فأكله الرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى جدعوا آذانها فقالوا : هذه بحيرة . وأما السائبة : فكانوا يسيبون من أنعامهم لآلهتهم لا يركبون لها ظهراً ، ولا يحلبون لها لبناً ، ولا يجزون لها وبراً ، ولا يحملون عليها شيئاً .

(68/217)

وأما الوصيلة : فالشاة ، إذا أنتجت سبعة أبطن نظروا السابع ، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت ، اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى استحيوها ، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن استحيوهما ، وقالوا : وصلته أخته فحرمته علينا . وأما الحام : فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا : حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئاً ، ولا يجزون له وبراً ، ولا يمنعونه من حمى رعي ، ولا من حوض يشرب منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ ما جعل الله من بحيرة ﴾ قال : البحيرة الناقة ، كان الرجل إذا ولدت خمسة فيعمد إلى الخامسة ، فما لم تكن سقياً فيبتك آذانها ، ولا يجز لها وبراً ، ولا يذوق لها لبناً ، فتلك

البحيرة ﴿ ولا سائبة ﴾ كان الرجل يسيب من ماله ما شاء ﴿ ولا وصيلة ﴾ فهي الشاة إذا ولدت سبعاً عمد إلى السابع ، فإن كان ذكراً ذبح ، وإن كانت أنثى تركت ، وإن كان في بطنها اثنان ذكر وأنثى فولدتهما ، قالوا : وصلت أخاها فيتركان جميعاً لا يذبحان ، فتلك الوصيلة ﴿ ولا حام ﴾ كان الرجل يكون له الفحل ، فإذا ألقح عشراً قيل : حام فاتركوه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ما جعل الله من بحيرة . . . ﴾ الآية . قال : البحيرة من الإبل ، كان أهل الجاهلية يحرمون وبرها وظهرها ولحمها ولبنها إلا على الرجال ، فما ولدت من ذكر وأنثى فهو على هيئتها ، فإن ماتت اشترك الرجال والنساء في أكل لحمها ، فإذا ضرب من ولد البحيرة فهو الحامي ، والسائبة من الغنم على نحو ذلك ، إلا أنها ما ولدت من ولد بينها وبين ستة أولاد كان على هيئتها ، فإذا ولدت في السابع ذكراً أو أنثى أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم ، وإن توأمت أنثى وذكر فهي وصيلة ترك ذبح الذكر بالأنثى ، وإن كانتا أنثيين تركتا .

(69/217)

وأخرج ابن المنذر عن أبي سعيد الخدري قال " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر ، فاستأخر عن قبلته ، وأعرض بوجهه ، وتعوَّذ بالله ، ثم دنا من قبلته حتى رأيناه يتناول بيده ، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : يا نبي الله ، لقد صنعت اليوم في صلاتك شيئاً ما كنت تصنعه ! . . قال : نعم ، عرضت عليَّ في مقامي هذا الجنة والنار ، فرأيت في النار ما لا يعلمه إلا الله ، ورأيت فيها الحميرية صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ، ولم تسقها ، ولم ترسلها فتأكل من خشاش الأرض حتى ماتت في رباطها ، ورأيت فيها عمرو بن لحي يجر قصبه في النار ، وهو الذي سيَّب السوائب ، وبحر البحيرة ، ونصب الأوثان وغيَّر دين إسماعيل ، ورأيت فيها عمران الغفاري معه محجنه الذي كان يسرق به الحاج . قال : وسمى لي الرابع فنسيته . ورأيت الجنة فلم أر مثل ما فيها ، فتناولت منها قطفاً لأريكموه فحيل بيني وبينه ، فقال رجل من القوم : كيف تكون الحبة منه ؟ قال : كأعظم دلو فرته أمك قط . قال محمد بن إسحاق : فسألت عن الرابع فقال : هو صاحب ثنيتي رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نزعهما " .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ، ورأيت عمراً يجر قصبه في النار وهو أول من سيب السوائب " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال "

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون : يا أكثم ، عرضت عليَّ النار فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار ، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا به منك . فقال أكثم : أخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غيَّر دين إبراهيم ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، وحمى الحامي " .

(70/217)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن أول من سيب السوائب ، وعبد الأصنام ، أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإني رأيته يجر أمعاءه في النار " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني لأعرف أول من سيَّب السوائب ، ونصب النصب ، وأول من غير دين إبراهيم ، قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : عمرو بن لحي ، أخو بني كعب ، لقد رأيته يجر قصبه في النار ، يؤذي أهل النار ريح قصبه ، وإني لأعرف من بحر البحائر . قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : رجل من بني مدلج ، كانت له ناقتان ، فجدع

آذانهما وحرم ألبانهما وظهورهما ، وقال : هاتان لله ، ثم احتاج إليهما فشرب ألبانهما ، وركب ظهورهما ، قال : فلقد رأيته في النار وهما يقضمانه بأفواههما ويطآنه بأخفافهما " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن أبي بن كعب قال : " بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الظهر والناس في الصفوف خلفه ، فرأيناه تناول شيئاً فجعل يتناوله ، فتأخر ، فتأخر الناس ، ثم تأخر الثانية فتأخر الناس ، فقلت : يا رسول الله ، رأيناك صنعت اليوم شيئاً ما كنت تصنعه في الصلاة ؟ فقال : إنه عرضت علي الجنة بما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت قطفاً من عنبها ، ولو أخذته لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه ، فحيل بيني وبينه ، وعرضت علي النار فلما وجدت سفعتها تأخَّرت عنها ، وأكثر من رأيت فيها النساء إن ائتمن أفشين ، وإن سألن ألحفن ، وإذا سئلن بخلن ، وإذا أعطين لم يشكرن ، ورأيت فيها عمرو بن لحي يجر قصبه في النار ، وأشبه من رأيت به معبد بن أكثم الخزاعي ، فقال معبد : يا رسول الله ، أتخشى عليّ من شبهه ؟ قال : لا ، أنت مؤمن وهو كافر ، وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام " .

(71/217)

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ قال : لا يعقلون تحريم الشيطان الذي يحرم عليهم .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن أبي موسى في الآية قال : الآباء جعلوا هذا وماتوا ، ونشأ الأبناء وظنوا أن الله هو جعل هذا ، فقال الله ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ الآباء فالآباء افتروا على الله الكذب ، والأبناء أكثرهم لا يعقلون ، يظنون الله هو الذي جعله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن أبي موسى في قوله ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ قال : هم أهل الكتاب ﴿ وأكثرهم لا يعقلون ﴾ قال : هم أهل الأوثان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ قال : الذين لا يعقلوهم الأتباع ، وأما الذين افتروا فعقلوا أنهم افتروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" جَعَلَ " يجوز أن يكون بمعنى " سَمَّى " ويتعدَّى لمفعولَيْن ، أحدهما محذوف ، والتقدير : ما جَعَلَ - أي ما سَمَّى - اللَّهُ حيواناً [بَحِيرَةً] .

قاله أبو البقاء .

وقال ابن عطيَّة والزمخشريُّ وأبو البقاء : " إنَّها تكونُ بمعنى شرَعَ ووضَعَ ، أي : ما شَرَعَ اللَّهُ ولا أمَرَ " ، وقال الواحديُّ - بعد كلامٍ طويلٍ - " فمعنى ما جعل اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ : ما أوْجَبَهَا ولا أمَرَ بِهَا " ، وقال ابنُ عطيَّة : " وجَعَلَ في هذه الآيةِ لا تكُونُ بمعنى " خَلَقَ " ؛ لأنَّ الله خَلَقَ هذه الأشياء كلَّها ، ولا بمعنى " صَيَّرَ " ؛ لأن التصْيِيرَ لا بُدَّ له من مفعولٍ ثانٍ ، فمعناه : ما سَنَّ الله ولا شَرَعَ " .

ومنع أبو حيان هذه النقولاتِ كلَّها بأنَّ " جَعَلَ " لم يَعُدُّ اللغويُّون من معانيها " شَرَعَ " ، وخرَّجَ الآية على التَّصْيِيرِ ، ويكونُ المفعولُ الثاني محذوفاً ، أي : ما صيَّر الله بَحِيرَة مَشْرُوعَةً ، وفي قوله لم يَعُدَّ اللغويُّون في معانيها " شَرَعَ " نظرٌ ؛ لأن الآية المتقدمة تدل على ذلك وهي قوله : ﴿ جَعَلَ الله الكعبة البيت الحرام قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 97] .

والبَحِيرَة : فعيلَةٌ بمعنى مفعُولَة ، فدخولُ تاءِ التأنيثِ عليها لا ينقاس ، ولكن لَمَّا جَرَتْ مَجْرَى الأسماءِ الجَوَامِد أُنِّثَتْ ، وقد تقدم إيضاح هذا في قوله ﴿ والنطيحة ﴾ [المائدة :

3] ، واشتقاقُها من البَحْرِ ، والبَحْرُ : السَّعَةُ ، ومنه "بَحْرُ المَاءِ "لِسَعَتِه وَهِيَ النَاقَةُ المَشْقُوقَةُ الأُذُنِ ، يُقَالُ : بَحَرتُ أذن النَّاقَة إذَا شَقَقْتَهَا شقّاً واسعاً ، والنَّاقَةُ بَحِيرةٌ ومَبْحُورَةٌ .

(73/217)

واختلف أهلُ اللغة في البحيرةِ عند العرب ما هي اختلافاً كثيراً ، فقال أبو عُبَيْدٍ : " هي الناقةُ التي تُنْتَجُ خمسةَ أبطنٍ في آخِرِهَا ذكرٌ ، فتُشَقُّ أُذنُهَا ، وتُتْرَكُ فلا تُرْكَبُ ولا تُحْلَبُ ولا تُطْرَدُ عن مَرْعىً ولا ماءٍ ، وإذا لَقِيَهَا المُعْيي لم يركبْهَا " ورُوِيَ ذلك عن ابن عبَّاس ، إلا أنه لم يذكُرْ في آخرها ذَكَراً ، وقال بعضُهُمْ : " إذَا أُنْتِجَتِ الناقَةُ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ ، نُظِرَ في الخامس : فإن كان ذَكَراً ، ذبحوه وأكَلُوه ، وإن كان أنثى ، شَقُّوا أذنها وتركُوها تَرْعَى وتَرِدُ ولا تُرْكَبُ ولا تُحْلَبُ فهذه هي البَحِيرَةُ " ، ورُوِيَ هذا عن قتادة ، وقال بعضهم : " البحيرَةُ : الأنثى الَّتِي تكونُ خَامِسَ بطنٍ ؛ كما تقدَّم بيانُه ، إلاَّ أنها لا يَحِلُّ للنساءِ لَحْمُها ولا لَبَنُها ، فإن ماتَتْ حَلَّتْ لهن " ، وقال بعضُهُم : " البَحِيرَةَ : بِنْتُ السَّائبة " ، وسيأتي تفسيرُ " السَّائِبَة " ، فإذا ولدَتِ السائبةُ أُنْثَى شقُّوا أذنها وتركُوها مع أمِّها ترعى وتَرِدُ ولا تُحْلَبُ ولا تُرْكَبُ حتَّى لِلْمُعْيِي ، وهذا قولُ مجاهدٍ ، وابنِ جُبَيْر ، وقال بعضُهُمْ : " هِيَ التي مُنِعَ دَرُّهَا – أي

لَبَنُهَا - لأجْلِ الطَّواغِيتِ ، فلا يَحْلِبُهَا أحَدٌ " وقال بهذا سَعِيدُ بنُ المُسَيّب ، وقيل : هي التي تُتْرَكُ في المَرْعَى بلا راعٍ ، قاله ابنُ سيدة ، وقيل : إذا ولدَتْ خَمْسَ إناثٍ شَقُّوا أذنَهَا وتَرَكُوهَا .

(74/217)

نَقَلَ القُرْطِبي عن الشَّافِعِيّ رحمه الله ، أنَّهُ قال : إذا أنْتَجَتِ النَّاقَةُ خَمْسَةَ أبْطُنٍ إناثٍ بُحِرَتْ أذنُهَا ، فحَرُمَتْ ، قال : محرمة لا يَطْعمُ النَّاسُ لَحْمَها وقال بعضُهُمْ - ويُعْزَى لِمَسْرُوقٍ - : " إنَّهَا إذا وَلَدَتْ خَمْساً ، أو سَبْعاً ، شَقُّوا أذنَهَا " ، وقيل : " هي الناقة تَلِدُ عَشرةَ أبْطُنٍ ، فَتُشَقُّ أذنُها طُولاً بنصْفَيْن ، وتُتْرَك ؛ فلا تُرْكَبُ ولا تُحْلَبُ ولا تُطْرَدُ عن مرعى ولا ماءٍ ، وإذا ماتَتْ ، حَلَّ لحمها للرجال دون النساء " ، نقله ابن عطية ، وكذا قاله أبو القاسم الرَّاغب ، وقيل : البَحِيرَةُ السَّقْبُ ، إذا وُلِدَ ، نَحَرُوا أذنه ، وقالُوا : اللَّهُمَّ ، إنْ عاشَ ، فَقَنِيٌّ ، وإن مات ، فَذَكِيٌّ ، فإذا مات ، أكلُوه ، ووجه الجمع بين هذه الأقوال الكثيرة : أنَّ العربَ كانت تختلفُ أفعالُها في البحيرة .

والسائبةُ قيل : كان الرَّجُل إذا قَدِمَ من سفرٍ أو شُكْرِ نعمةٍ ، سَيَّبَ بعيراً فلم يُرْكَبْ ويفعل به ما تقدَّمَ في البحيرَة ، وهذا قول أبي عُبَيْد ، وقيل : هي الناقة تُنْتَجُ عَشْرَةَ إناثٍ ، قال

القرطبيُّ : ليْس بينهن ذكرٌ ؛ فلا تُرْكبُ ولا يَشْرَب لبنهَا إلا ضَيْفٌ أو ولدٌ ، قاله الفراء ، وقيل : ما تُرِكَ لآلهتهم ، فكان الرجُل يُجيء بما شيتهِ إلى السَّدنة فيتركه عندهم ويسيل لبنه ، وقيل : هي الناقَةُ تُتْرَكُ لِيُحَجَّ عليها حَجَّة ، ونُقِلَ ذلك عن الشافعيّ ، وقيل : هو العبدُ يُعْتَقُ على ألاَّ يَكُونَ عليه ولاءٌ ، ولا عَقْلٌ ولا ميراثٌ قاله عَلقَمَةُ .

والسَّائِبَةُ هنا : فيها قولان :

أحدهما : أنها اسمُ فاعلٍ على بابه ، من سَابَ يَسِيبُ ، أي يَسْرَحُ ، كسَيَّبَ المَاءَ ، وهو مطاوعُ سَيَّبْتُهُ ، يقال : سَيَّبْتُهُ فَسَابَ وانْسَابَ .

(75/217)

والثاني : أنه بمعنى مفعُول ؛ نحو : " عِيشَة رَاضِيَة " ، ومجيءُ فاعل بمعنى مفعول قليلٌ جدًّا ؛ نحو : " ماء دافق " ، والذي ينبغي أن يُقال : إنه فاعلٌ بمعنى ذي كذا ، أي : بمعنى النَّسَب ، نحو قولهم : لابنٌ ، أي : صَاحِبُ لبنٍ ، ومنه في أحدِ القولَيْن : " عِيشَةٌ رَاضِيَةٌ ، ومَاءٌ دَافِقٌ " ، أي : ذاتُ رِضاً ، وذو دَفْقٍ ، وكذا هذا ، أي : ذَاتُ سَيْبٍ .

والوصِيلَةُ هنا فعليةٌ بمعنى فاعلةٍ على ما سيأتي تفسيرُهُ ، فدخولُ التاءِ قياسٌ ، واختلف أهلُ اللغةِ فيها ، هَلْ هي من جنْسِ الغَنَم ، أو من جنْسِ الإبلِ ؟ ثم اختَلَفُوا بعد ذلك أيضاً ،

فقال الفرَّاء : " هي الشَّاةُ تُنْتَجُ سبعةَ ابطُنٍ عَناقَيْنِ عَناقَيْنِ ، فإذا ولدتْ في آخرِهَا عَنَاقاً وجَدْياً ، قيل : وصلتْ أخَاهَا ، فجَرَتْ مَجْرَى السَّائبة " ، وقال الزجَّاج : " هي الشَّاة إذا ولدتْ ذكراً ، كان لآلهتهمْ ، وإذا ولدتْ أنثى ، كانت لهم " ، وقال ابن عبَّاس – رضي الله عنه – : " هِيَ الشَّاةُ تُنْتَجُ سبْعَةَ أبْطُنٍ ، فإذا كان السابعُ أُنْثَى ، لم تنتفعِ النساء منها بشَيْء ، إلا أنْ تموتَ فيأكُلَهَا الرجَالُ والنِّسَاء ، وإنْ كانَتْ ذَكَراً ذبحُوه وأكلُوه جميعاً ، وإنْ كان ذكراً وأنثى ، قالوا : وصلتْ أخَاهَا ، فيتركُونَها معهُ لا تُذْبَحُ ولا ينتفعُ بها إلا الرجالُ ، دون النِّساء ، فإن ماتتِ ، اشتركْنَ مع الرجالِ فيها " ، وقال ابن قُتَيْبَةَ : إن كان السابعُ ذَكَراً ، ذُبِحَ وأكله الرجال ، دون النساء ، وقالوا :

(76/217)

﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا ﴾ [الأنعام : 139] وإنْ كانَتْ أنثى ، تُرِكَتْ في الغنمِ ، وإن كان ذَكَراً وأُنْثَى فكقَوْلِ ابن عبَّاس ، وقيل : " هي الشَّاةُ تنتجُ عشْرَ إناثٍ متواليات في خَمْسة أبطنٍ ، ثم ما ولدتْ [بعد ذلك ، فللذكورِ دون الإناث " وبهذا قال أبو إسحاق ، وأبو عُبَيْدَة ، إلا أن أبا عُبَيْدَة قال : " وإذَا وَلَدَتْ] ذكراً وأنثى معاً ، قالوا : وَصَلَتْ أخَاهَا ، فلم يذبَحُوه لمكانِهَا " ، وقيل : هي الشَّاة تُنْتَجُ خَمْسَةَ أبطنٍ أو ثلاثةً ، فإن

كان جَدْياً ذَبَحُوه ، وإن كان أنثى أبْقَوْهَا ، وإن كان ذَكراً وأنثى ، قالوا : وصلَتْ أخاها ، هذا كلُّه عند من يَخُصُّها بجنْسِ الغَنَمِ ، وأما من قال : إنها من الإبل فقال : " هي النَّاقَةُ تبتكرُ ، فتلدُ أنثى ، ثم تُثَنِّي بولادةِ أنثى أخرى ، ليس بينهما ذَكَرٌ ، فيتركونها لآلهتهم ، ويقولون : قد وصلتْ أنثى بأنثى ، ليس بينهما ذكرٌ " .

والحَامِي : اسمُ فاعلٍ من حَمَى يَحْمِي أي : مَنَعَ ، واختلف فيه أهلُ اللغة ، فعن الفرَّاء : " هو الفحْلُ يُولَدُ لولدِ ولدِه ، فيقولون : قد حَمَى ظهرَه ، فلا يُرْكَبُ ولا يُستعملُ ولا يُطْرَدُ عن ماءٍ ولا شجرٍ " ، وقال بعضهم : " هو الفحْلُ يُنْتَجُ من بَيْن أولاده ذكُورَها وإناثَها عشْرَ إناثٍ " ، روى ذلك ابن عطيَّة .

(77/217)

وقال بعضهم : هو الفحْلُ يُولَدُ مِنْ صُلْبِهِ عَشَرَةُ أبْطُنٍ ، فيقولون قد حَمَى ظهرَهُ ، فيتركونَهُ كالسائبةِ فيما تقدَّم ، وهذا قول ابن عبَّاس وابنِ مسْعُود ، وإليه مال أبو عُبَيْدَة والزجَّاج ، ورُوِيَ عن الشافعيِّ : أنه الفَحْلُ يَضْرِبُ في مال صاحبِهِ عَشْرَ سنينَ ، وقال ابن زَيْدٍ : هو الفحل يُنْتَجُ له سَبْعُ إناثٍ متواليات ، فيَحْمِي ظهره ، فيُفْعَلُ به ما تقدَّم ، فهذا منشأ خلاف أهْلِ اللغة في هذه الأشياءِ ؛ أنه باعتبار اختلافِ مذاهب العرب وآرائهم الفاسِدَة فيها ،

وقد أنشد أهل اللغة في كلِّ واحدٍ من هذه الألفاظ معنًى يخُصُّه ؛ فأُنْشَدُوا في البحيرةِ قوله :

[الطويل]

2057 - مُحَرَّمَةٌ لا يَطْعَمُ النَّاسُ لَحْمَهَا . . .

ولا نَحْنُ فِي شيءٍ كَذاكَ البَحَائِرُ

وأنشدوا في السَّائبةِ قوله : [الطويل]

2058 - وَسَائِبَةٍ للهِ مالِي تَشَكُّراً . . .

إن اللَّه عَافَى عَامِراً أَوْ مُجَاشِعَا

ونشدوا في الوصيلةِ لتَأَبُّطَ شَرًّا : [الطويل]

2059 - أجِدَّكَ أَمَّا كُنْتَ فِي النَّاسِ نَاعِقاً . . .

تُرَاعِي بأَعْلَى ذِي المَجَازِ الوَصَايلا

وأنشدوا في الحَامِي قوله : [الطويل]

2060 - حَمَاهَا أَبُو قَابُوسَ فِي عِزِّ مُلْكِهِ . . .

كَمَا قَدْ حَمَى أَوْلادَ أَولادِهِ الفَحْلُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 552.

555 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) ﴾

هذه أحكامٌ ابتدعوها ، فردَّهم الحقُّ – سبحانه – عن الابتداع ، وأمَرهم بحسن الاتِّباع ، وأخبر أنَّ ما صدر من عاداتهم لا يُعَدُّ من جملة عباداتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 451 ﴾

(78/217)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم لما حرموا هذه الأشياء اضطروا إلى تحليل الميتة فحرموا الطيب وأحلوا الخبيث .

ولما اتخذوه ديناً واعتقدوه شرعاً ومضى عليه أسلافهم ، دعتهم الحظوظ والأنفة من نسبة آبائهم إلى الضلال والشهادة عليهم بالسفه إلى الإصرار عليه وعدم الرجوع عنه بعد انكشاف قباحته وبيان شناعته حتى أفنى أكثرهم السيف ووطأتهم الدواهي ، فوطأت

أكتافهم وذللت أعناقهم وأكتافهم ، فقال تعالى دالاً على ختام الآية التي قبله من عدم عقلهم : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي من أيّ قائل كان ولو أنه ربهم ، بما ثبت من كلامهم بالعجز عنه أنه كلامه ﴿ تعالوا ﴾ أي ارفعوا أنفسكم عن هذا الحضيض السافل ﴿ إلى ما أنزل الله ﴾ أي الذي لا أعظم منه ، وقد ثبت أنه أنزله بعجزكم عنه ﴿ وإلى الرسول ﴾ أي الذي من شأنه لكونه سبحانه أرسله أن يبلغكم ما يحبه لكم ويرضاه ﴿ قالوا حسبنا ﴾ أي يكفينا ﴿ ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ .

(79/217)

ولما كانوا عالمين بأنه ليس في آبائهم عالم ، وأنه من تأمل أدنى تأمل عرف أن الجاهل لا يهتدي إلى شيء ، قال منكراً عليهم موبخاً لهم : ﴿ أولو ﴾ أي يكفيهم ذلك إذا قالوا ذلك ولو ﴿ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ﴾ أي من الأشياء حق علمه لكونهم لم يأخذوه عن الله بطريق من الطرق الواصلة إليه ، ولما كان من لا يعلم قد يشعر بجهله فيتعلم فيهتدي فيصير أهلاً للاقتداء به ، وقد لا يشعر لكونه جهله مركباً فلا يجوز الاقتداء به ، بين أنهم من أهل هذا القسم فقال : ﴿ ولا يهتدون ﴾ أي لا يطلبون الهداية فلا توجد هدايتهم إلى صواب ، لأن من لا يعلم لا صواب له ، لأنه ليس للهدى آلة سوى العلم ، وأدل دليل على عدم هدايتهم

أنهم ضيعوا الطيب من أموالهم فاضطرهم ذلك إلى أكل الخبيث من الميتة ، وأغضبوا بذلك خالقهم فدخلوا النار ، فلا أقبح مما يختاره لنفسه المطبوع على الكدر ، ولا أحسن مما يشرعه له رب البشر ، وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في سورة النساء ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ [المساء : 117] إلى قوله : ﴿ ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ﴾ [النساء : 119] فالتفت حينئذ إلى قوله : ﴿ رجس من عمل الشيطان ﴾ أيّ التفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 552 . 553 ﴾

فصل

قال الفخر :

المعنى معلوم وهو رد على أصحاب التقليد وقد استقصينا الكلام فيه في مواضع كثيرة .

واعلم أن الواو في قوله ﴿ أولو كان آباؤهم ﴾ واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار ، وتقديره أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون .

واعلم أن الاقتداء إنما يجوز بالعالم المهتدي ، وإنما يكون عالماً مهتدياً إذا بنى قوله على الحجة والدليل ، فإذا لم يكن كذلك لم يكن عالماً مهتدياً ، فوجب أن لا يجوز الاقتداء به .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 92 ﴾

وقال السمرقندى :

ثم أخبر عن جهلهم فقال :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إلى مَا أنزل الله وإلى الرَّسُول ﴾ من تحليل ما حرمتم على أنفسكم ، وما بيّن رسوله .

ويقال : تعالوا إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﴿ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ من الدين والسنة .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلى مَا أَنزَلَ الله ﴾ يعني : أيتبعون آباءهم وإن كان آباؤهم جهالاً ، فنهاهم الله عن التقليد ، وأمرهم بالتمسك بالحق وبالحجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﴾ يعني : وإذا قيل لهؤلاء الذين بحروا البحائر وفعلوا هذه الأشياء أضافوها إلى الله كذباً تعالوا إلى ما أنزل الله يعني في كتابه وإلى الرسول يعني محمداً صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه كتابه ليبين لكم كذب ما تضيفونه إلى الله ويبين لكم الشرائع والأحكام وإن الذي تفعلونه ليس بشيء ﴿ قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ يعني قد اكتفينا بما أخذنا عنهم من الدين ونحن لهم تقع قال الله رداً

عليهم ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ يعني إنما يصح الاقتداء بالعالم المهتدي الذي يبني قوله على الحجة والبرهان والدليل وأن آباءهم ما كانوا كذلك فيصح اقتداؤهم بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(81/217)

وقال أبو السعود :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي للذين عبَّر عنهم (بأكثرُهم) على سبيل الهداية والإرشاد ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿ وَإِلَى الرسول ﴾ الذي أُنزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتُميِّزوا الحرامَ من الحلال ﴿ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادي إلى الحق وانقيادِهم للداعي إلى الضلال ﴿ أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهم لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ قيل : الواو للحال دخلت عليها الهمزة للإنكار والتعجيب ، أي أَحَسْبُهم ذلك ولو كان آباؤهم جَهَلةً ضالين ؟ وقيل : للعطف على شرطية أخرى مقدّرة قبلها وهو الأظهر ، والتقدير أَحَسْبهم ذلك أو أيقولون هذا القولَ لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون الصواب ؟ ولو كانوا

لا يعلمون الخ . وكلتاهما في موقع الحال أي أحسْبُهم ما وجدوا عليه آباؤهم كائنين على كل حال مفروض ؟

(82/217)

وقد حُذفت الأولى في الباب حذفاً مطَّرداً لدلالة الثانية عليها د2لالةً واضحةً ، كيف لا وأن للشيء إذا تحقق عند المانع فلأَنْ يتحقّقَ عند عدمِه أولى كما في قولك : أحسِنْ إلى فلان وإن أساء إليك ، أي أحسِنْ إليه إن لم يُسيء إليك وإن أساء ، أي أحسن إليه كائناً على كل حال مفروض ، وقد حذفت الأولى لدلالةِ الثانية عليها دَلالة ظاهرةً إذِ الإحسانُ حيث أُمِر به عند المانع ، فلأَنْ يُؤْمَرَ به عند عدمه أولى ، وعلى هذا السر يدورُ ما في إنْ ولو الوصليتين من المبالغة والتأكيد ، وجوابُ لو محذوفٌ لدلالة ما سبق عليه ، أي لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون حسبُهم ذلك أو يقولون ذلك ، وما في (لو) من معنى الامتناع والاستبعاد إنما هو بالنظر إلى زعمهم لا إلى نفس الأمر ، وفائدتُه المبالغةُ في الإنكار والتعجيب ببيان أن ما قالوه موجبٌ للإنكار والتعجيب إذا كان كونُ آبائهم جَهلةً ضالين في حيز الاحتمال البعيد ، فكيف إذا كان ذلك واقعاً لا ريب فيه ؟ وقيل : مآلُ الوجهين واحدٌ ، لأن الجملة المقدرة حالٌ فكذا ما عُطف عليها ، وأنت خبيرٌ بأن الحالَ على الوجه الأخير

مجموعُ الجملتين لا الأخيرةُ فقط ، وأن الواو للعطف لا للحال ، وقد مر التحقيق في قوله تعالى : ﴿ أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤهم لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

(83/217)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي للذين عبر عنهم بأكثرهم على سبيل الهداية والإرشاد إلى الحق ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ الله ﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام والإيمان به ﴿ وَإِلَى الرسول ﴾ الذي أنزل عليه ذلك لتقفوا على حقيقة الحال وتميزوا الحرام من الحلال ﴿ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ في هذا الشأن فلا نلتفت لغيره بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادي إلى الحق وانقيادهم للداعي إلى الضلال ، و(ما) موصولة إسمية ، وجوز أن تكون نكرة موصوفة والوجدان المصادفة و ﴿ عَلَيْهِ ﴾ متعلق به أو حال من مفعوله ، وجوز أن يكون بمعنى العلم و ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عليه في موضع المفعول الثاني .

﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءابَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ ذهب الراغب إلى أن الواو للعطف ،

وصرح غير واحد أنه على شرطية أخرى مقدرة قبلها والهمزة للتعجيب وهي داخلة على مقدر في الحقيقة أي أيكفيهم ذلك لو لم يكن آباؤهم جهلة ضالين ولو كانوا كذلك وكلتا الجملتين في موقع الحال أي أيكفيهم ما وجدوا عليه آباءهم كائنين على كل حال مفروض ، وعلى هذا لا يلزم كون الجملة الاستفهامية الإنشائية حالاً ليحتاج توجيه ذلك إلى نظر دقيق ، وحذفت الجملة الأولى للدلالة عليها دلالة واضحة وهو حذف مطرد في هذا الباب لذلك كما في قولك : أحسن إلى زيد ولو أساء إليك فإن الشيء إذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى .

وجواب لو كما قال أبو البقاء محذوف لظهور انفهامه مما سبق وقدره يتبعونهم .

(84/217)

ويجوز أن يقدر حسبهم ذلك أو يقولون ، وما في لو من معنى الامتناع والاستبعاد إنما هو بالنظر إلى زعمهم لا في نفس الأمر ، وفائدة ذلك المبالغة في الإنكار والتعجيب ، وقيل : الواو للحال والهمزة لإنكار الفعل على هذه الحال ؛ والمراد نفي صحة الاقتداء بالجاهل الضال ، والحال ما يفهم من الجملة أي كائنين على هذا الحال المفروض فما قيل : إنهم جعلوا الواو للحال وليس ما دخلته الواو حالاً من جهة المعنى بل ما دخلته لو أي ولو كان الحال أن

آباءهم لا يعلمون فيفعلون ما يقتضيه علمهم ولا يهتدون بمن له علم ناشىء من قلة التأمل وذلك غريب من حال ذلك القائل ، وأغرب من ذلك ما قيل : إن المعنى أنهم هل يكفيهم ما عليه آباؤهم ولو كان آباؤهم جهلة ضالين أي هل يكفيهم الجهل والضلال اللذان كان عليهما آباؤهم .

ويوشك أن يكون هذا من الجهل والضلال فيما يليق بالتنزيل .

واستدل بالآية على أن الاقتداء إنما يصح بمن علم أنه عالم مهتد وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد من غير أن يعلم أن لمن قلده حجة صحيحة على ما قلده فيه حتى قالوا : إن للمقلد دليلاً إجمالياً وهو دليل من قلده فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾

الواو للحال .

والجملة حال من قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ [المائدة : 103] ، أي أنّهم ينسبون إلى الله ما لم يأمر به كذباً ، وإذا دعوا إلى اتّباع ما أمر الله به حقّاً أو التدبّر فيه أعرضوا وتمسّكوا بما كان عليه آباؤهم .

فحالهم عجيبة في أنّهم يقبلون ادّعاء آبائهم أنّ الله أمرهم بما اختلقوا لهم من الضلالات ،

مثل البحيرة والسائبة وما ضاهاهما ، ويعرضون على دعوة الرسول الصادق بلا حجّة لهم في الأولى ، وبالإعراض عن النظر في حجة الثانية أو المكابرة فيها بعد علمها .

(85/217)

والأمر في قوله ﴿ تعالَوْا ﴾ مستعمل في طلب الإقبال ، وفي إصغاء السمع ، ونظر الفكر ، وحضور مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم وعدم الصدّ عنه ، فهو مستعمل في حقيقته ومجازه .

وتقدّم الكلام على فعل (تعالَ) عند الكلام على نظير هذه الآية في سورة النساء .

و ﴿ ما أنزل الله ﴾ : هو القرآنُ .

وعطف ﴿ والى الرسول ﴾ لأنّه يرشدهم إلى فهم القرآن .

وأعيد حرف (إلى) لاختلاف معنيي الإقبال بالنسبة إلى متعلّقي ﴿ تعالوا ﴾ فإعادة الحرف قرينة على إرادة معنيي ﴿ تعالوا ﴾ الحقيقي والمجازي .

وقوله ﴿ قالوا حسبنا ﴾ أي كافينا ، إذا جُعلت (حَسْب) اسماً صريحاً و ﴿ ما وجدنا ﴾ هو الخبر ، أو كفانا إذا جُعلت (حسب) اسمَ فعل و ﴿ ما وجدنا ﴾ هو الفاعلَ .

وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ في سورة آل عمران (

173) .

و(على) في قوله : ما وجدنا عليه ءاباءنا ﴾ مجاز في تمكّن التلبّس ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ [البقرة : 5] .

وقوله : ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعلمون ﴾ الخ ، تقدّم القول على نظيره في سورة البقرة (170) عند قوله : ﴿ وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤكم ﴾ الآية .

وليس لهذه الآية تعلّق بمسألة الاجتهاد والتقليد كما توهّمه جمع من المفسّرين ، لأنّ هذه الآية في تنازع بين أهل ما أنزل الله وأهل الافتراء على الله ، فأمّا الاجتهاد والتقليد في فروع الإسلام فذلك كلّه من اتّباع ما أنزل الله .

فتحميل الآية هذه المسألة إكراه للآية على هذا المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(86/217)

وقال السعدى

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ

كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ .

فإذا دعوا ﴿ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ أعرضوا فلم يقبلوا ، و ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ من الدين ، ولو كان غير سديد ، ولا دينًا ينجي من عذاب الله .

ولو كان في آبائهم كفاية ومعرفة ودراية لهان الأمر . ولكن آباءهم لا يعقلون شيئًا ، أي: ليس عندهم من المعقول شيء ، ولا من العلم والهدى شيء . فتبا لمن قلد من لا علم عنده صحيح ، ولا عقل رجيح ، وترك اتباع ما أنزل الله ، واتباع رسله الذي يملأ القلوب علما وإيمانا ، وهدى ، وإيقانا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 246 ﴾

(87/217)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ارْتِبَاطُهَا بِمَا قَبْلَهَا : وَذَلِكَ بَيِّنٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْ جَهَالَةِ الْعَرَبِ فِيمَا تَحَكَّمَتْ فِيهِ بِآرَائِهَا السَّقِيمَةِ فِي الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْحَوَامِي ،

وَاحْتِجَاجُهُمْ فِي ذَلِكَ بِأَنَّهُ أَمْرٌ وَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ ؛ فَاتَّبَعُوهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَتَرَكُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَأَمَرَ بِهِ مِنْ دِينِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الْعُقُولَ لَا حُكْمَ لَهَا بِتَحْسِينٍ وَلَا تَقْبِيحٍ ، وَلَا تَحْلِيلٍ وَلَا تَحْرِيمٍ ؛ وَإِنَّمَا ذَلِكَ إلَى الشَّرْعِ ؛ إذْ الْعُقُولُ لَا تَهْتَدِي إلَى الْمَنَافِعِ الَّتِي تُرْشِدُ مِنْ ضَلَالِ الْخَوَاطِرِ ، وَتُنْجِي مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ بِمَا لَا يَهْتَدِي الْعَقْلُ إلَى تَفْصِيلِهِ ، وَلَا يَتَمَكَّنُ مِنْ تَحْصِيلِهِ ، فَكَيْفَ إنْ تَغَيَّرَ مَا مَهَّدَهُ الشَّرْعُ ، وَتَبَدَّلَ مَا سَنَّهُ وَأَوْضَحَهُ ، وَذَلِكَ [كُلُّهُ] مِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ وَتَحَكُّمِهِ عَلَى الْخَلْقِ بِالْوَعْدِ الصَّادِقِ : لَأَجْلِبَنَّ عَلَيْهِمْ وَلَأُشَارِكَنَّهُمْ وَلَأَعِدَنَّهُمْ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِك وَرَجِلِك وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إلَّا غُرُورًا ﴾ . .

(88/217)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : تَعَلَّقَ قَوْمٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي ذَمِّ التَّقْلِيدِ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَمَّ الْكُفَّارِ بِاتِّبَاعِهِمْ لِآبَائِهِمْ بِالْبَاطِلِ ، وَاقْتِدَائِهِمْ بِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ الْقُرْآنِ . وَأَكَّدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ كَمَا فَسَّرْنَاهُ فِي الْبَاطِلِ .

فَأَمَّا التَّقْلِيدُ فِي الْحَقِّ فَأَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ ، وَعِصْمَةٌ مِنْ عِصَمِ الْمُسْلِمِينَ يَلْجَأُ إلَيْهَا

الْجَاهِلُ الْمُقَصِّرُ عَنْ دَرْكِ النَّظَرِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي جَوَازِهِ فِي مَسَائِلِ الْأُصُولِ ، فَأَمَّا جَوَازُهُ ، بَلْ وُجُوبُهُ ، فِي مَسَائِلِ الْفُرُوعِ فَصَحِيحٌ ، وَهُوَ قَبُولُ قَوْلِ الْعَالِمِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِدَلِيلِهِ ؛ وَلِذَلِكَ مَنَعَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يُقَالَ : إنَّا نُقَلِّدُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّا إنَّمَا قَبِلْنَا قَوْلَهُ بِدَلِيلٍ ظَاهِرٍ ، وَأَصْلٍ مَقْطُوعٍ بِهِ ، وَهُوَ الْمُعْجِزَةُ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى يَدِهِ مُوَافِقَةً لِدَعْوَاهُ ، وَدَالَّةً عَلَى صِدْقِهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَحْكَامَ التَّقْلِيدِ وَوَجْهَهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

لِبَابِهِ : أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى الْعَامِّيِّ إذَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ أَنْ يَقْصِدَ أَعْلَمَ مَنْ فِي زَمَانِهِ وَبَلَدِهِ فَيَسْأَلُهُ عَنْ نَازِلَتِهِ ، فَيَمْتَثِلُ فِيهَا فَتْوَاهُ ، وَعَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي مَعْرِفَةِ [أَعْلَمَ] أَهْلِ وَقْتِهِ بِالْبَحْثِ عَنْ ذَلِكَ ، حَتَّى يَتَّصِلَ لَهُ الْحَدِيثُ بِذَلِكَ وَيَقَعُ عَلَيْهِ الِاتِّفَاقُ مِنْ الْأَكْثَرِ مِنْ النَّاسِ .

(89/217)

وَعَلَى الْعَالِمِ أَيْضًا فَرْضٌ أَنْ يُقَلِّدَ عَالِمًا مِثْلَهُ فِي نَازِلَةٍ خَفِيَ عَلَيْهِ فِيهَا وَجْهُ الدَّلِيلِ وَالنَّظَرِ ، وَأَرَادَ أَنْ يُرَدِّدَ فِيهَا الْفِكْرَ ، حَتَّى يَقِفَ عَلَى الْمَطْلُوبِ ؛ فَضَاقَ الْوَقْتُ عَنْ ذَلِكَ ، وَخِيفَ عَلَى الْعِبَادَةِ أَنْ تَفُوتَ ، أَوْ عَلَى الْحُكْمِ أَنْ يَذْهَبَ فِي تَفْصِيلٍ طَوِيلٍ ، وَاخْتِلَافٍ كَثِيرٍ ، عَوَّلُوا مِنْهُ عَلَى مَا أَشَرْنَا لَكُمْ إلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ : هَذِهِ إشَارَةٌ إلَى أَنَّ الْأَدِلَّةَ وَالِاحْتِجَاجَاتِ لَا تَكُونُ بِمُحْتَمَلٍ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ الِاتِّبَاعُ فِيهَا بِمَا خَرَجَ مِنْ الِاحْتِمَالِ ، وَوَجَبَتْ لَهُ الصِّحَّةُ فِي طُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ : وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، فَنَحْنُ نَقْتَدِي بِهِمْ فِي أَفْعَالِهِمْ ، وَنَمْتَثِلُ مَا شَاهَدْنَاهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدَهُمْ أَنَّ آبَاءَهُمْ بِالْهُدَى عَامِلُونَ ، وَعَنْ غَيْرِ الْحَقِّ مَعْصُومُونَ ، وَنَسُوا أَنَّ الْبَاطِلَ جَائِزٌ عَلَيْهِمْ ، وَالْخَطَأَ وَالْجَهْلَ لَاحِقٌ بِهِمْ ؛ فَبَطَلَ وَجْهُ الْحُجَّةِ فِيهِ ، وَوَضَحَ الْعَمَلُ بِالدَّلِيلِ بِشُرُوطِهِ حَسْبَمَا قَرَرْنَاهُ مِنْ شُرُوطِ الْأَدِلَّةِ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(90/217)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ) .

قَالَ الرَّازِيُّ : فِي اتِّصَالِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا وُجُوهٌ :

(الْأَوَّلُ) أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ : (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ) صَارَ التَّقْدِيرُ كَأَنَّهُ قَالَ : مَا بَلَّغَهُ الرَّسُولُ إِلَيْكُمْ فَخُذُوهُ وَكُونُوا مُنْقَادِينَ لَهُ ، وَمَا لَمْ يُبَلِّغْهُ الرَّسُولُ إِلَيْكُمْ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهُ وَلَا تَخُوضُوا فِيهِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ خُضْتُمْ فِيمَا لَا تَكْلِيفَ فِيهِ عَلَيْكُمْ فَرُبَّمَا جَاءَكُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْخَوْضِ الْفَاسِدِ مِنَ التَّكَالِيفِ مَا يَثْقُلُ وَيَشُقُّ عَلَيْكُمْ .

(الثَّانِي) أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ : (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ) وَهَذَا ادِّعَاءٌ مِنْهُ لِلرِّسَالَةِ ثُمَّ إِنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يُطَالِبُونَهُ بَعْدَ ظُهُورِ الْمُعْجِزَاتِ بِمُعْجِزَاتٍ أُخْرَى عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ كَمَا

(91/217)

قَالَ حَاكِيًا عَنْهُمْ : (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا 17 : 90) إِلَى قَوْلِهِ : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا 17 : 93) وَالْمَعْنَى أَنِّي رَسُولٌ أُمِرْتُ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَقَامَ الدَّلَالَةَ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ فِي الرِّسَالَةِ بِإِظْهَارِ أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ ، فَبَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ طَلَبُ الزِّيَادَةِ مِنْ بَابِ التَّحَكُّمِ وَذَلِكَ لَيْسَ فِي وُسْعِي ، وَلَعَلَّ إِظْهَارَهَا يُوجِبُ مَا يَسُوءُكُمْ ، مِثْلُ أَنَّهَا لَوْ ظَهَرَتْ فَكُلُّ مَنْ خَالَفَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْتَوْجَبَ الْعِقَابَ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا سَمِعُوا الْكُفَّارَ يُطَالِبُونَ

الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بِهَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ وَقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى ظُهُورِهَا فَعَرَفُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا ذَلِكَ فَرُبَّمَا كَانَ ظُهُورُهَا يُوجِبُ مَا يَسُوؤُهُمْ .

(الْوَجْهُ الثَّالِثُ) أَنَّ هَذَا مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) فَاتْرُكُوا الْأُمُورَ عَلَى ظَوَاهِرِهَا وَلَا تَسْأَلُوا عَنْ أَحْوَالٍ مَخْفِيَّةٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . انْتَهَى كَلَامُ الرَّازِيِّ بِنَصِّهِ وَضَعْفِ عِبَارَتِهِ .

(92/217)

وَأَقُولُ : إِنَّ مُنَاسَبَةَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ لِآيَةِ تَبْلِيغِ الرَّسُولِ لِلرِّسَالَةِ مُنَاسِبَةٌ خَاصَّةٌ قَرِيبَةٌ وَلَهُمَا مَوْقِعٌ مِنْ مَجْمُوعِ السُّورَةِ يَنْبَغِي تَذَكُّرُهُ وَالتَّأَمُّلُ فِيهِ : ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ السُّوَرِ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ، وَسُورَةُ النَّصْرِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا ابْنُ عُمَرَ ، وَقَدْ صَرَّحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَوَائِلِهَا بِإِكْمَالِ الدِّينِ ، وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ بِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُصَرِّحَ فِيهَا بِأَنَّ الرَّسُولَ قَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ مِنْ وَظِيفَةِ الْبَلَاغِ الَّذِي كَمُلَ بِهِ الْإِسْلَامُ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُكْثِرُوا عَلَيْهِ مِنَ السُّؤَالِ ، لِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِكَثْرَةِ التَّكَالِيفِ الَّتِي يَشُقُّ عَلَى الْأُمَّةِ احْتِمَالُهَا ، فَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ أَنْ يُسْرِعَ إِلَيْهَا الْفُسُوقُ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ، وَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ كِتْمَانِ شَيْءٍ مِمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِمَ طَالَ الْفَصْلُ بَيْنَ هَذَا النَّهْيِ وَبَيْنَ الْخَبَرِ بِإِكْمَالِ الدِّينِ وَلَمْ يَتَّصِلْ بِهِ فِي النَّظْمِ الْكَرِيمِ ؟ قُلْتُ : تِلْكَ سُنَّةُ الْقُرْآنِ فِي تَفْرِيقِ مَسَائِلِ الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ مِنْ أَخْبَارٍ وَأَحْكَامٍ وَغَيْرِهِمَا لِمَا بَيَّنَّاهُ مِرَارًا مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ ، وَهَاكَ أَقْوَى مَا وَرَدَ فِي أَسْبَابِ نُزُولِ الْآيَتَيْنِ :

(93/217)

رَوَى أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمْ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : " خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ وَقَالَ فِيهَا : لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، قَالَ : فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ فَقَالَ رَجُلٌ : مَنْ أَبِي ؟ قَالَ فُلَانٌ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ

(94/217)

(لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا بِشْرٌ حَدَّثَنَا يَزِيدُ ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ

تَسُؤْكُمْ) الْآيَةَ ، قَالَ فَحَدَّثَنَا أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوهُ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ : " لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ فَأَشْفَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيْ أَمْرٍ قَدْ حَضَرَ ، فَجَعَلْتُ لَا أَلْتَفِتُ لَا يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا وَجَدْتُ كُلَّ رَجُلٍ لَافٌّ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي ، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ كَانَ يُلَاحَى فَيُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ مَنْ أَبِي ؟ قَالَ : أَبُوكَ حُذَافَةُ ، قَالَ : ثُمَّ قَامَ عُمَرُ أَوْ فَأَنْشَأَ عُمَرُ فَقَالَ : رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا عَائِذًا بِاللهِ أَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الْفِتَنِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَمْ أَرَ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ

(95/217)

صُوِّرَتْ لِيَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الْحَائِطِ " أَخْرَجَاهُ (أَيِ الشَّيْخَانِ) مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ ، وَرَوَاهُ مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَنَسٍ بِنَحْوِ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ ، قَالَ الزُّهْرِيُّ : فَقَالَتْ أُمُّ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ : (مَا رَأَيْتُ وَلَدًا أَعَقَّ مِنْكَ ، قَالَتْ : أَكُنْتَ تَأْمَنُ أَنَّ أُمَّكَ قَدْ قَارَفَتْ مَا قَارَفَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ فَتَفْضَحَهَا عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ فَقَالَ : وَاللهِ لَوْ أَلْحَقَنِي بِعَبْدٍ أَسْوَدَ لَلَحِقْتُهُ) .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ حَدَّثَنَا قَيْسٌ عَنْ أَبِي حُصَيْنٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : " خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ غَضْبَانُ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ أَيْنَ أَبِي ؟ قَالَ : فِي النَّارِ فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ : مَنْ أَبِي ؟ قَالَ أَبُوكَ حُذَافَةُ ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ : رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا ، إِنَّا يَا رَسُولَ اللهِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَشِرْكٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ مَنْ آبَاؤُنَا ، قَالَ : فَسَكَنَ غَضَبُهُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) الْآيَةَ " إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ .

(96/217)

وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ مُرْسَلَةً غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ مِنْهُمْ أَسْبَاطٌ عَنِ السُّدِّيِّ فَذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ عَنْهُ مِثْلَ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي جُمْلَتِهِ وَزَادَ كَلَامَ عُمَرَ " فَاعْفُ عَنَّا عَفَا اللهُ عَنْكَ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى رَضِيَ : فَيَوْمَئِذٍ قَالَ : وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ " (ثُمَّ قَالَ) قَالَ الْبُخَارِيُّ : حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ حَدَّثَنَا أَبُو الْجُوَيْرِيَّةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : "كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتِهْزَاءً فَيَقُولُ الرَّجُلُ : مَنْ أَبِي ؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتُهُ : أَيْنَ نَاقَتِي ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ

هَذِهِ الْآيَةَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ كُلِّهَا ، تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ وَرْدَانَ الْأَسَدِيُّ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ وَهُوَ سَعِيدُ بْنُ فَيْرُوزَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) (3 : 97) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَتَ ، فَقَالُوا : أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَتَ ، قَالَ ثُمَّ قَالُوا : أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَقَالَ : لَا وَلَوْ

(97/217)

قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) الْآيَةَ " وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ عَنْ طَرِيقِ مَنْصُورِ بْنِ وَرْدَانَ بِهِ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَسَمِعْتُ الْبُخَارِيَّ يَقُولُ : أَبُو الْبَخْتَرِيِّ لَمْ يُدْرِكْ عَلِيًّا . اهـ .

أَقُولُ : مَنْصُورُ بْنُ وَرْدَانَ ثِقَةٌ كَمَا قَالَ ابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ هُوَ سَعِيدُ بْنُ فَيْرُوزَ التَّابِعِيُّ ثِقَةٌ فِيهِ تَشَيُّعٌ ، رَوَى عَنِ الْجَمَاعَةِ كُلِّهِمْ ، وَلَكِنْ مَرَاسِيلُهُ ضَعِيفَةٌ .

وَقَدْ عَزَا السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ حَدِيثَ عَلِيٍّ هَذَا إِلَى أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ وَابْنُ

مَاجَهْ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْحَاكِمُ وَذَكَرَ نَحْوَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَازِيًا إِيَّاهُ إِلَى عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ وَابْنِ الْمُنْذِرِ وَالْحَاكِمِ - قَالَ : وَصَحَّحَهُ - وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ ، وَفِيهِ أَنَّ السَّائِلَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ، وَذُكِرَ مِثْلُهُ أَيْضًا عَنِ الْحَسَنِ مِنْ تَخْرِيجِ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ وَفِيهِ : " ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ " إِلَخْ ، وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ مِنْ أَحَادِيثِ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ : " دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ " وَلَفْظُ مُسْلِمٍ " دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ " .

(98/217)

قَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ فِي شَرْحِهِ لَهُ تَبَعًا لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ : وَسَبَبُ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ (أَقُولُ : وَكَذَا النَّسَائِيُّ) مِنْ رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا فَقَالَ رَجُلٌ : أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ ثُمَّ قَالَ ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ " الْحَدِيثَ وَأَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ مُخْتَصَرًا فَزَادَ فِيهِ : فَنَزَلَتْ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا

عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) انْتَهَى وَأَقُولُ : مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ هَذَا ثِقَةٌ ، رَوَى عَنْهُ الْجَمَاعَةُ كُلُّهُمْ .

وَنَصُّ سُنَنِ النَّسَائِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : خَطَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ فَقَالَ : إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ ، فَقَالَ رَجُلٌ : فِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ حَتَّى أَعَادَهُ ثَلَاثَةً فَقَالَ : لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَوْ وَجَبَتْ مَا قُمْتُمْ بِهَا ، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُمْ ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا

(99/217)

أَمَرْتُكُمْ بِالشَّيْءِ وَفِي نُسْخَةٍ بِشَيْءٍ فَخُذُوا بِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ " رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَسْأَلَةُ وُجُوبِ الْحَجِّ وَأَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ قَالَ : " كُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَسَكَتَ فَقَالَ : لَوْ قُلْتُ نَعَمْ ، لَوَجَبَتْ ثُمَّ إِذَنْ لَا تَسْمَعُونَ وَلَا تُطِيعُونَ وَلَكِنَّهُ حِجَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وَفِي فَتْحِ الْبَارِي أَنَّ ابْنَ عَبْدِ الْبَرِّ نَقَلَ عَنْ رِوَايَةِ مُسْلِمٍ أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الْحَجِّ كَانَ يَوْمَ خَطَبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : " لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرْتُهُ " .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَبِيبِ بْنِ الشَّهِيدِ ، قَالَ : حَدَّثَنَا عَتَّابُ بْنُ بَشِيرٍ عَنْ خُصَيْفٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ) قَالَ : " هِيَ

الْبَحِيرَةُ وَالسَّائِبَةُ وَالْوَصِيلَةُ وَالْحَامِي ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ : مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ كَذَا وَلَا كَذَا " قَالَ : وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَإِنَّهُ قَالَ : إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْآيَاتِ فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ : (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ) ، قَالَ فَقَالَتْ : قَدْ حَدَّثَنِي مُجَاهِدٌ بِخِلَافِ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَمَا لَكَ تَقُولُ هَذَا ؟ فَقَالَ : هِيهْ .

(100/217)

ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِثْلَ قَوْلِ مُجَاهِدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَجْلِ إِكْثَارِ السَّائِلِينَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسَائِلَ ، كَمَسْأَلَةِ ابْنِ حُذَافَةَ إِيَّاهُ مَنْ أَبُوهُ ، وَمَسْأَلَةِ سَائِلِهِ إِذَا قَالَ " إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ " أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْمَسَائِلِ ، لِتَظَاهُرِ الْأَخْبَارِ بِذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَعَامَّةِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ، وَأَمَّا الْقَوْلُ الَّذِي رَوَاهُ مُجَاهِدٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَغَيْرُ بَعِيدٍ عَنِ الصَّوَابِ ، وَلَكِنَّ الْأَخْبَارَ الْمُتَظَاهِرَةَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بِخِلَافِهِ ، ذَكَرَ هُنَا الْقَوْلَ بِهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ، عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ أَنْ تَكُونَ الْمَسْأَلَةُ عَنِ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِي كَانَتْ فِيمَا سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي كَرِهَ اللَّهُ لَهُمُ السُّؤَالَ عَنْهَا إِلَى آخِرِ مَا قَالَهُ ، وَفِيهِ أَنَّ تِلْكَ الْأَخْبَارَ صِحَاحٌ فَوَجَبَ تَرْجِيحُهَا ،

وَيُشِيرُ إِلَى ضَعْفِ سَنَدِ رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ ؛ لِأَنَّ خُصَيْفَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَاوِيهَا عَنْهُ قَدْ ضَعَّفَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَقَالَ مَرَّةً : لَيْسَ بِقَوِيٍّ ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ : تُكُلِّمَ فِي سُوءِ حِفْظِهِ ، وَلَكِنْ قَالَ ابْنُ مَعِينٍ فِيهِ : مَرَّةً صَالِحٌ وَمَرَّةً ثِقَةٌ .

(101/217)

وَالطَّرِيقَةُ الْمُتَّبَعَةُ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ : أَنْ يُقَالَ : إنَّ النُّهَى فِي الْآيَةِ يَشْمَلُ كُلَّ مَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا وَكُلَّ مَا هُوَ فِي مَعْنَاهُ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا رُوِيَ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ كَانَ سَبَبًا حَقِيقِيًّا ، بَلْ كَانُوا يَقُولُونَ فِي كُلِّ مَا يَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ وَيَشْمَلُهُ عُمُومُهَا : إنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ ، وَكَثِيرًا مَا يَنْقُلُونَ كَلَامَ الرُّوَاةِ بِمَعْنَاهُ فَيَجِيءُ مَنْطُوقُهُ مُتَعَارِضًا ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِرَارًا ، وَأَبْعَدُ مَا قِيلَ فِي أَسْبَابِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَسْأَلُ النَّبِيَّ عَنِ الشَّيْءِ امْتِحَانًا أَوِ اسْتِهْزَاءً ، وَهَذَا لَا يَصْدُرُ إلَّا مِنْ كَافِرٍ صَرِيحٍ أَوْ مُنَافِقٍ ، وَالْخِطَابُ فِي الْآيَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ فَلَا يُمْكِنُ نَهْيًا لَهُمْ عَنْ سُؤَالِ امْتِحَانٍ أَوِ اسْتِهْزَاءٍ ، وَإِنَّمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْآيَةِ تَعْرِيضٌ بِالْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .

وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ " أَنَّ النَّاسَ سَأَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ " إلَى آخِرِ الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَفِي حَدِيثٍ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فِي

الصَّحِيحَيْنِ بِمَعْنَاهُ : " فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ الْمَسْأَلَةَ غَضِبَ وَقَالَ : سَلُونِي " فَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَرَى أَنَّ النَّهْيَ عَنِ السُّؤَالِ فِي الْآيَةِ لِهَذَا الْإِحْفَاءِ وَالْإِغْضَابِ الَّذِي آذَوْا بِهِ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَكِنْ مَا شَرَطَ فِي النَّهْيِ وَمَا عَلَّلَ بِهِ يُنَافِي ذَلِكَ .

(102/217)

وَالْقَوْلُ الْجَامِعُ لِلرِّوَايَاتِ وَالْمُتَبَادِرُ مِنَ اللُّغَةِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ مَا يَأْتِي :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (أَشْيَاءَ) اسْمُ جَمْعٍ أَوْ جَمْعٌ لِكَلِمَةِ (شَيْءٍ) وَهِيَ أَهَمُّ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَوْجُودِ ، فَتَشْمَلُ السُّؤَالَ عَنِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَالْعَقَائِدِ وَالْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ ، وَالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ إِذَا تَحَقَّقَ فِيهَا ذِكْرُ مَعْنَى الْجُمْلَتَيْنِ الشَّرْطِيَّتَيْنِ ، وَالْمَقْصُودُ أَوَّلًا بِالذَّاتِ النَّهْيُ عَنْ سُؤَالِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَدَقَائِقِ التَّكَالِيفِ ، يَلِيهِ السُّؤَالُ عَنِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ أَوِ الْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَغْرَاضِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إِظْهَارُهَا سَبَبًا لِلْمَسَاءَةِ ، إِمَّا بِشِدَّةِ التَّكَالِيفِ وَكَثْرَتِهَا ، وَإِمَّا بِظُهُورِ حَقَائِقَ تَفْضَحُ أَهْلَهَا ، وَلَكِنَّ حَذْفَ مَفْعُولِ " تَسْأَلُوا " يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ ، أَيْ وَلَا تَسْأَلُوا غَيْرَ الرَّسُولِ عَنْ أَشْيَاءَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إِبْدَاؤُهَا مَسَاءَتَكُمْ ، فَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الْفُضُولِ وَمَا لَا يُغْنِي الْمُؤْمِنَ .

وَمِنَ الْمُقَرَّرِ فِي قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ شَرْطَ " إِنْ " مِمَّا لَا يُقْطَعُ بِوُقُوعِهِ ، وَالْجَزَاءُ تَابِعٌ لِلشَّرْطِ فِي الْوُقُوعِ وَعَدَمِهِ ، فَكَانَ التَّعْبِيرُ بِقَوْلِهِ : (إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) دُونَ " إِذَا

(103/217)

أُبْدِيَتْ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ " دَالًّا عَلَى أَنَّ احْتِمَالَ إِبْدَائِهَا وَكَوْنَهُ يَسُوءُ كَافٍ فِي وُجُوبِ الِانْتِهَاءِ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهَا .

وَبِهَذَا سَقَطَ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ أَمْثِلَةَ الْمَسَائِلِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا الْوَارِدَةِ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ مِمَّا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِكَوْنِ إِبْدَائِهَا يَسُوءُ السَّائِلِينَ عَنْهَا ، بَلْ يَحْتَمِلُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَسُرُّ ، وَقَدْ كَانَ جَوَابُ مَنْ سَأَلَ عَنْ أَبِيهِ سَارًّا لَهُ ، وَكَذَلِكَ مَنْ سَأَلَ عَنِ الْحَجِّ إِذْ كَانَ جَوَابُهُ التَّخْفِيفَ عَنْهُ وَعَنِ الْأُمَّةِ بِبَيَانِ كَوْنِ الْحَجِّ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْتَطِيعٍ مَرَّةً وَاحِدَةً لَا فِي كُلِّ عَامٍ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي كُلِّ سَائِلٍ عَنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ فَلَا يَظْهَرُ تَعْلِيلُ النَّهْيِ ،

بِهَذَا الشَّرْطِ ، كُلُّ هَذَا يَسْقُطُ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ دَلَالَةِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ الْمُصَدَّرَةِ : بِـ " إِنْ " عَلَى احْتِمَالِ وُقُوعِ شَرْطِهَا لَا عَلَى الْقَطْعِ بِوُقُوعِهِ .

(104/217)

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الَّذِي قَرَّرْنَاهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَعْرَابِيِّ الَّذِي سَأَلَهُ عَنِ الْحَجِّ " وَيْحَكَ مَاذَا يُؤَمِّنُكَ أَنْ أَقُولَ نَعَمْ ؟ وَلَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ " إلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ ، وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ جَرِيرٍ : " وَلَوْ وَجَبَتْ لَكَفَرْتُمْ ، أَلَا إنَّهُ إنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَئِمَّةُ الْحَرَجِ " فَهُوَ صَرِيحٌ فِي كَوْنِ احْتِمَالِ قَوْلِهِ : " نَعَمْ " كَانَ كَافِيًا فِي جَوَابِ تَرْكِ ذَلِكَ السُّؤَالِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا فِي سُؤَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ عَنْ أَبِيهِ قَوْلُهُ لَهُ : " مَا رَأَيْتُ وَلَدًا أَعَقَّ مِنْكَ ، أَتَأْمَنُ أَنْ تَكُونَ أُمُّكَ قَارَفَتْ مَا قَارَفَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ فَتَفْضَحَهَا عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ ؟ " وَسَيَأْتِي رَأْيُنَا فِي جَوَابِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ حُذَافَةَ .

(وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ) أَيْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ جِنْسِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَكُونَ إبْدَاؤُهَا مِمَّا يَسُوؤُكُمْ حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ فِي شَأْنِهَا أَوْ حُكْمِهَا لِأَجْلِ فَهْمِ مَا نُزِّلَ إلَيْكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُبْدِيهِ لَكُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ، وَبِنَحْوِ هَذَا الْقَوْلِ قَالَ شَيْخُ الْمُفَسِّرِينَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ ، فَإِنَّهُ بَعْدَ إيرَادِ الْوُجُوهِ السَّابِقَةِ فِي السُّؤَالِ عِنْدَ تَفْسِيرِ صَدْرِ الْآيَةِ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا نَصُّهُ :

"يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلَّذِينَ نَهَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مَسْأَلَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ إِيَّاهُ عَنْ فَرَائِضَ لَمْ يَفْرِضْهَا عَلَيْهِمْ ، وَتَحْلِيلِ أُمُورٍ لَمْ يُحَلِّلْهَا لَهُمْ ، وَتَحْرِيمِ أَشْيَاءَ لَمْ يُحَرِّمْهَا عَلَيْهِمْ قَبْلَ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِذَلِكَ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ السَّائِلُونَ عَمَّا سَأَلُوا عَنْهُ رَسُولِي مِمَّا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ كِتَابًا وَلَا وَحْيًا لَا تَسْأَلُوا عَنْهُ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ أَظْهَرَ ذَلِكَ لَكُمْ تِبْيَانٌ بِوَحْيٍ وَتَنْزِيلٍ سَاءَكُمْ ؛ لِأَنَّ التَّنْزِيلَ بِذَلِكَ إِذَا جَاءَكُمْ فَإِنَّمَا يَجِيئُكُمْ بِمَا فِيهِ امْتِحَانُكُمْ وَاخْتِبَارُكُمْ ، إِمَّا بِإِيجَابِ عَمَلٍ عَلَيْكُمْ ، وَلُزُومِ فَرْضٍ لَكُمْ ، وَفِي ذَلِكَ عَلَيْكُمْ مَشَقَّةٌ ، وَلَوْمٌ وَمُؤْنَةٌ وَكُلْفَةٌ ، وَإِمَّا بِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يَأْتِ بِتَحْرِيمِهِ وَحْيٌ كُنْتُمْ مِنَ التَّقْدِيمِ عَلَيْهِ فِي فُسْحَةٍ وَسَعَةٍ ، وَإِمَّا بِتَحْلِيلِ مَا تَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَهُ ، وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ مَسَاءَةٌ لِنَقْلِكُمْ عَمَّا كُنْتُمْ تَرَوْنَهُ حَقًّا إِلَى مَا كُنْتُمْ تَرَوْنَهُ بَاطِلًا ، وَلَكِنَّكُمْ إِنْ سَأَلْتُمْ عَنْهَا بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِهَا ، وَبَعْدَ ابْتِدَائِكُمْ شَأْنَ أَمْرِهَا فِي كِتَابِي إِلَى رَسُولِي إِلَيْكُمْ بَيَّنَ عَلَيْكُمْ مَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ مِنْ إِتْيَانِ كِتَابِي وَتَأْوِيلِ تَنْزِيلِي وَوَحْيِي .

(106/217)

" وَذَلِكَ نَظِيرُ الْخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي حَدَّثَنَا بِهِ هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ

أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَعَفَا عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا ، ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ

مِثْلَ هَذَا الْمَعْنَى عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ تَفْسِيرًا لِلْآيَةِ ، وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ مِنْهَا بِتَغْلِيظٍ سَاءَكُمْ ذَلِكَ ، وَلَكِنِ انْتَظِرُوا فَإِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ فَإِنَّكُمْ لَا تَسْأَلُونَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَجَدْتُمْ تِبْيَانَهُ اهـ . وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّ الْحَدِيثَ مَوْقُوفٌ عَلَى أَبِي ثَعْلَبَةَ وَسَتَعْلَمُ أَنَّهُ مَرْفُوعٌ .

(107/217)

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي بَيَانِ هَذَا الْوَجْهِ : " أَيْ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ تَسْتَأْنِفُونَ السُّؤَالَ عَنْهَا فَلَعَلَّهُ قَدْ يَنْزِلُ بِسُؤَالِكُمْ تَشْدِيدٌ أَوْ تَضْيِيقٌ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : " أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ " وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَا مُجْمَلَةً فَسَأَلْتُمْ عَنْ بَيَانِهَا بُيِّنَتْ لَكُمْ حِينَئِذٍ لِاحْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهَا (عَفَا اللَّهُ عَنْهَا) أَيْ مَا لَمْ يَذْكُرْهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ فَاسْكُتُوا أَنْتُمْ عَنْهَا كَمَا سَكَتَ عَنْهَا ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ

كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ " وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَيْضًا : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا " .

أَقُولُ : أَمَّا حَدِيثُ : " ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ " وَفِي رِوَايَةٍ بِلَفْظِ : " دَعُونِي " فَهُوَ فِي

(108/217)

الصَّحِيحَيْنِ وَسَبَبُهُ السُّؤَالُ عَنِ الْحَجِّ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي ثَعْلَبَةَ فَقَدْ عَزَاهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ إِلَى الصَّحِيحِ أَيْضًا وَلَمْ يُسْنِدْهُ وَلَا أَشَارَ إِلَى مَنْ خَرَّجَهُ ، وَهُوَ فِي سُنَنِ الدَّارَقُطْنِيِّ ، وَأَوْرَدَهُ صَاحِبُ مِشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ عَنْهُ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ الِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ قَالَ : وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا " .

وَرُوِّينَاهُ فِي الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ عَنْهُ بِلَفْظِ : " إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا " قَالَ النَّوَوِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ .

وَثَمَّ وَجْهٌ ثَانٍ فِي مَعْنَى الْجُمْلَةِ وَهُوَ أَنَّهُ يَقُولُ : إنْ تَسْأَلُوا عَنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ فِي زَمَنِ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَعَهْدِ التَّشْرِيعِ يُظْهِرْهَا اللَّهُ لَكُمْ إنْ كَانَتِ اعْتِقَادِيَّةً بِبَيَانِ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ فِيهَا ،

(109/217)

وَإِنْ كَانَتْ عَمَلِيَّةً بِبَيَانِ حُكْمِهَا ، لِأَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حُكْمًا يَلِيقُ بِهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُبَيِّنُ لِعِبَادِهِ بِنَصِّ الْخِطَابِ مَا لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ لِصَلَاحِ أَمْرَيْ مَعَادِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَبِفَحْوَى الْخِطَابِ أَوِ الْإِشَارَةِ مَا يُفْتَحُ لَهُمْ بَابُ الِاجْتِهَادِ فِي كُلِّ مَا لَهُ عَلَاقَةٌ بِأُمُورِ مَصَالِحِهِمْ ، فَيَعْمَلُ كُلُّ فَرْدٍ أَوْ هَيْئَةٍ حَاكِمَةٍ مِنْهُمْ بِمَا ظَهَرَ أَنَّهُ الْحَقُّ وَالْمَصْلَحَةُ ، وَيَنْتَهِي عَمَّا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ الْبَاطِلُ وَالْمُفْسِدُ ، فَيَكُونُ الْوَازِعُ لِلْفَرْدِ فِي الْمَسَائِلِ الشَّخْصِيَّةِ مِنْ نَفْسِهِ بِحَسَبِ دَرَجَتِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَلِلْمَجْمُوعِ فِي الْأَحْكَامِ وَالسِّيَاسَةِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَيْضًا ، لِأَنَّهُ يَتَقَرَّرُ بِتَشَاوُرِ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ، وَفِي ذَلِكَ مُنْتَهَى السَّعَةِ وَالْيُسْرِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَالْوَاجِبُ أَنْ يُتْرَكَ أَمْرُ التَّشْرِيعِ إلَيْهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَلَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إنْ تُبْدَ لَكُمْ أَحْكَامُهَا تَسُؤْكُمْ وَتُحْرِجْكُمْ ، وَمَتَى سَأَلْتُمْ عَنْهَا فِي عَهْدِ التَّشْرِيعِ لَا بُدَّ أَنْ تُجَابُوا وَتُبَيَّنَ لَكُمْ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْبَيَانَ قَدْ يَسُدُّ فِي وُجُوهِكُمْ بَابَ الِاجْتِهَادِ الَّذِي فَرَضَهُ

اللهُ إِلَيْكُمْ ، وَيُقَيِّدُكُمْ بِقُيُودٍ أَنْتُمْ فِي غِنًى عَنْهَا وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُ هَذَا الْمَبْحَثِ قَرِيبًا عَقِبَ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ .

(110/217)

فَحَاصِلُ هَذَا الْوَجْهِ : أَنَّ السُّؤَالَ عَنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ فِي زَمَنِ نُزُولِ الْقُرْآنِ يَقْتَضِي إِبْدَاءَهَا لَكُمْ ، وَإِبْدَاؤُهَا يَقْتَضِي مَسَاءَتَكُمْ ، فَيَجِبُ تَرْكُ السُّؤَالِ عَنْهَا أَلْبَتَّةَ .

وَحَاصِلُ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ تَحْرِيمُ السُّؤَالِ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ شَأْنِ إِبْدَائِهَا أَنْ يَسُوءَ السَّائِلِينَ إِلَّا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَزَلَ فِي شَأْنِهَا شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فِيهِ إِجْمَالٌ وَأَرَدْتُمُ السُّؤَالَ عَنْ بَيَانِهِ لِيَظْهَرَ لَكُمْ ظُهُورًا لَا مِرَاءَ فِيهِ ، كَمَا وَقَعَ فِي مَسْأَلَةِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ بَعْدَ نُزُولِ آيَةِ الْبَقَرَةِ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ بِالتَّفْصِيلِ ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ الثَّانِيَةُ مِنْ قَبِيلِ الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ عُمُومِ النَّهْيِ ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا جَوَازُ السُّؤَالِ عَنْ تِلْكَ بِشَرْطِهِ لَا عَلَى وُجُوبِهِ ، فَالسُّؤَالُ عَمَّا ذُكِرَ غَيْرُ مَطْلُوبٍ بِإِطْلَاقٍ .

(111/217)

وَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ ظَاهِرٌ فِي السُّؤَالِ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقْتَضِي أَجْوِبَتُهَا تَشْرِيعًا جَدِيدًا ، وَأَحْكَامًا تَزِيدُ فِي مَشَقَّةِ التَّكَالِيفِ ، وَلَا يَظْهَرُ أُلْبَتَّةَ فِي سُؤَالِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ لِمَا يُعَارِضُ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى عَدَمِ إِجَابَةِ مُقْتَرَحِي الْآيَاتِ لِعِنَادِهِمْ وَمُشَاغَبَتِهِمْ ، وَكَوْنِ الْإِجَابَةِ تَقْتَضِي هَلَاكَهُمْ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ، كَمَا هِيَ سُنَّةٌ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ (فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّمَا هَذَا الْوَعْدُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تِلْكَ الِاقْتِرَاحَاتُ مِنَ الْكَافِرِينَ (قُلْنَا) : لَوْ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ فَهِمُوا مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُمْ يُجَابُونَ إِلَى مَا يَقْتَرِحُونَ مِنَ الْآيَاتِ لَوُجِدَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقْتَرِحُ ذَلِكَ لِمَا لِلنُّفُوسِ مِنَ الشَّوْقِ إِلَى رُؤْيَةِ الْآيَاتِ ، وَأَمَّا السُّؤَالُ عَنِ الْأُمُورِ الْوَاقِعَةِ الَّتِي تَقْتَضِي أَجْوِبَتُهَا إِخْبَارًا عَنْ أَسْرَارٍ خَفِيَّةٍ وَأُمُورٍ غَيْبِيَّةٍ ، فَلَا يَظْهَرُ فِيهِ كُلٌّ مِنَ الْجَوَابَيْنِ مِثْلَ ظُهُورِهِ فِي طَلَبِ الْأَحْكَامِ ، وَلَا سِيَّمَا الْأَشْيَاءُ الشَّخْصِيَّةُ كَسُؤَالِ بَعْضِهِمْ عَنْ أَبِيهِ ، فَإِذَا صَحَّ أَنَّهُ مُرَادٌ مِنَ الْآيَةِ فَوَجْهُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ زَمَنَ نُزُولِ الْقُرْآنِ هُوَ زَمَنُ بَيَانِ الْمُغَيَّبَاتِ وَإِظْهَارِهَا ،

(112/217)

لِلرَّسُولِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى مَعْرِفَتِهَا ، وَمِنْهُ وَقْتُ السُّؤَالِ عَنْهَا ، فَإِنَّهُ إِنْ سُئِلَ عَنْهَا يُخْبِرُهُ اللَّهُ بِهَا مَزِيدًا فِي إِثْبَاتِ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ ، كَمَا أَخْبَرَهُ بِالْجَوَابِ عَنِ الرُّوحِ ، وَعَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، وَذِي الْقَرْنَيْنِ ، حِينَ سَأَلَهُ الْيَهُودُ عَنْهَا ، وَعِنْدِي أَنَّ جَوَابَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ أَبِيهِ جَوَابٌ شَرْعِيٌّ لَا غَيْبِيٌّ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بِتِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ : " الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ " فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ : أَبُوكَ الشَّرْعِيُّ مَنْ وُلِدْتَ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ حُذَافَةُ بْنُ قَيْسٍ ، وَهَذَا مِنْ أُسْلُوبِ الْحَكِيمِ الْمُتَضَمِّنِ لِتَعْلِيمِهِمْ مَا يَنْفَعُهُمْ مِنَ السُّؤَالِ ، فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ مَا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) (2 : 189) وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (ج2) .

(113/217)

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ أَوْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقَعُ ، وَقَدْ غَفَلَ جُمْهُورُ الْأُصُولِيِّينَ عَنِ الِاسْتِدْلَالِ بِهَا ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَطْلُبُ الْعِلْمَ بِهِ كَالْعَقَائِدِ وَالْأَخْبَارِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَطْلُبُ الْعَمَلَ بِهِ وَهُوَ الْأَحْكَامُ . وَتَأْخِيرُ الْبَيَانِ - دَعْ تَرْكَهُ وَعَدَمَهُ - يَقْتَضِي الْإِقْرَارَ عَلَى الِاعْتِقَادِ الْبَاطِلِ ، أَوِ الْعَمَلِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الْمُرَادِ لِلشَّارِعِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ شَرْعِهِ تَرْكُهُ الِاجْتِهَادَ لِلنَّاسِ تَوْسِعَةً عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا وَلَا ذَاكَ السُّؤَالُ عَنِ الْأُمُورِ الشَّخْصِيَّةِ كَسُؤَالِ مَنْ سَأَلَ عَنْ نَاقَتِهِ ، وَلِذَلِكَ جَعَلْنَا هَذَا النَّوْعَ مِنَ السُّؤَالِ غَايَةً فِي خَفَاءِ دُخُولِهِ فِي عُمُومِ : (وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ

الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ) فَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِيهِ فَحِكْمَتُهُ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ عَدَمَ إِبْدَاءِ الْجَوَابِ لِلسَّائِلِ الْمُؤْمِنِ رُبَّمَا كَانَ مُشَكِّكًا لَهُ فِي رِسَالَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(114/217)

وَذَهَبَ أَبُو السُّعُودِ مَذْهَبًا غَرِيبًا فِي الْآيَةِ وَتَعْلِيلِ إِبْدَاءِ الْأَشْيَاءِ الْمَسْئُولِ عَنْهَا بِمَا يُوجِبُ الْمَسَاءَةَ فِي كُلِّ نَوْعَيْهَا ، فَقَالَ : الْمُرَادُ بِهَا مَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ وَيَغُمُّهُمْ مِنَ التَّكَالِيفِ الصَّعْبَةِ الَّتِي لَا يُطِيقُونَهَا ، وَالْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي يَفْتَضِحُونَ بِظُهُورِهَا ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا خَيْرَ فِيهِ ، فَكَمَا أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الْأُمُورِ الْوَاقِعَةِ مُسْتَتْبِعٌ لِإِبْدَائِهَا ، كَذَلِكَ السُّؤَالُ عَنِ التَّكَالِيفِ مُسْتَتْبِعٌ لِإِيجَابِهَا عَلَيْهِمْ بِطَرِيقِ التَّشْدِيدِ لِإِسَاءَتِهِمُ الْأَدَبَ وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَى الْمَسْأَلَةِ وَالْمُرَاجَعَةِ ، وَتَجَاوُزِهِمْ عَمَّا يَلِيقُ بِشَأْنِهِمْ مِنَ الِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ فِيهِ وَلَا تَعَرُّضٍ لِكَيْفِيَّتِهِ وَكَمِّيَّتِهِ . اهـ .

ثُمَّ أَوْرَدَ عَلَى مَا قَرَّرَهُ بَعْدَ أَنِ اسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ بِمَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ ثَلَاثَةَ إِيرَادَاتٍ وَأَجَابَ عَنْهَا فَقَالَ :

(إِنْ قُلْتَ) : تِلْكَ الْأَشْيَاءُ غَيْرُ مُوجِبَةٍ لِلْمَسَاءَةِ الْبَتَّةَ ، بَلْ هِيَ مُحْتَمِلَةٌ لِإِيجَابِ الْمَسَرَّةِ أَيْضًا ، لِأَنَّ إِيجَابَهَا لِلْأُولَى إِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ وُجُودُهَا فَهِيَ مِنْ حَيْثُ عَدَمُهَا مُوجِبَةٌ لِلْأُخْرَى قَطْعًا

، وَلَيْسَتْ إِحْدَى الْحَيْثِيَّتَيْنِ مُحَقَّقَةً عِنْدَ الْمَسَائِلِ ، وَإِنَّمَا غَرَضُهُ مِنَ السُّؤَالِ ظُهُورُهَا كَيْفَ كَانَتْ ، بَلْ ظُهُورُهَا بِإِيجَابِهَا لِلْمَسَاءَةِ ؟

(115/217)

(قُلْتُ) : لِتَحْقِيقِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ كَمَا سَنَعْرِفُهُ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَأْكِيدِ النَّهْيِ وَتَشْدِيدِهِ ، لِأَنَّ تِلْكَ الْحَيْثِيَّةَ هِيَ الْمُوجِبَةُ لِلِانْتِهَاءِ وَالْإِنْزِجَارِ لَا حَيْثِيَّةَ إِيجَابِهَا لِلْمَسَرَّةِ ، وَلَا حَيْثِيَّةَ تَرَدُّدِهَا بَيْنَ الْإِيجَابَيْنِ .

(إِنْ قِيلَ) : الشَّرْطِيَّةُ الثَّانِيَةُ نَاطِقَةٌ بِأَنَّ السُّؤَالَ عَنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الْمُوجِبَةِ لِلْمَسَاءَةِ مُسْتَلْزِمٌ لِإِبْدَائِهَا أَلْبَتَّةَ كَمَا مَرَّ ، فَلِمَ تَخَلَّفَ الْإِبْدَاءُ عَنِ السُّؤَالِ فِي مَسْأَلَةِ الْحَجِّ حَيْثُ لَمْ يُفْرَضْ فِي كُلِّ عَامٍ ؟

(قُلْنَا) : لِوُقُوعِ السُّؤَالِ وَوُرُودِ النَّهْيِ ، وَمَا ذُكِرَ فِي الشَّرْطِيَّةِ إِنَّمَا هُوَ السُّؤَالُ الْوَاقِعُ بَعْدَ وُرُودِهِ ، إِذْ هُوَ الْمُوجِبُ لِلتَّغْلِيظِ وَالتَّشْدِيدِ ، وَلَا تَخَلُّفَ فِيهِ .

(إِنْ قِيلَ) : مَا ذَكَرْتَهُ إِنَّمَا يَتَمَشَّى فِيمَا إِذَا كَانَ السُّؤَالُ عَنِ الْأُمُورِ الْمُتَرَدِّدَةِ بَيْنَ الْوُقُوعِ وَعَدَمِهِ كَمَا ذُكِرَ مِنَ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ عَنِ الْأُمُورِ الْوَاقِعَةِ قَبْلَهُ فَلَا يَكَادُ يَتَمَشَّى ؛ لِأَنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْإِبْدَاءُ هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَلَا مَرَدَّ لَهُ سَوَاءٌ كَانَ السُّؤَالُ قَبْلَ النَّهْيِ أَوْ

بَعْدَهُ ، وَقَدْ يَكُونُ الْوَاقِعُ مَا يُوجِبُ الْمَسَرَّةَ كَمَا فِي مَسْأَلَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ ، فَيَكُونُ هُوَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ الْإِبْدَاءُ لَا غَيْرُهُ ، فَيَتَعَيَّنُ التَّخَلُّفُ حَتْمًا .

(116/217)

(قُلْنَا) : لَا احْتِمَالَ لِلتَّخَلُّفِ فَضْلًا عَنِ التَّعَيُّنِ ، فَإِنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ فِي الْحَقِيقَةِ إنَّمَا هُوَ السُّؤَالُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُوجِبَةِ لِلْمَسَاءَةِ الْوَاقِعَةِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ قَبْلَ السُّؤَالِ ، كَسُؤَالِ مَنْ قَالَ : أَيْنَ أَبِي ؟ لَا عَمَّا يَعُمُّهَا وَغَيْرَهَا مِمَّا لَيْسَ بِوَاقِعٍ لَكِنَّهُ مُحْتَمَلٌ لِلْوُقُوعِ عِنْدَ الْمُكَلَّفِينَ حَتَّى يَلْزَمَ التَّخَلُّفُ فِي صُورَةِ عَدَمِ الْوُقُوعِ ، اهـ .

وَحَاصِلُ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ نَهْيُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ السُّؤَالِ عَمَّا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْجَوَابَ عَنْهُ يَسُوؤُهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ دُونَ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُرُّهُمْ أَوْ يَكُونُ مُحْتَمِلًا لِلْمَسَرَّةِ وَالْمَسَاءَةِ ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ السُّؤَالِ قَلَّمَا يَقَعُ مِنْ أَحَدٍ وَأَنَّ مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ فِي زَمَنِ نُزُولِ الْقُرْآنِ فَإِنَّ الْجَوَابَ عَنْهُ لَا يَكُونُ إلَّا بِالتَّشْدِيدِ ، عُقُوبَةً لَهُ وَلِجَمِيعِ الْأُمَّةِ عَلَى إسَاءَةِ أَدَبِهِ ، وَإِنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ بَعِيدٌ عَنِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ ، غَيْرُ مُنْطَبِقٍ عَلَى عُمُومِ الرَّحْمَةِ وَيُسْرِ الشَّرْعِ ، وَقَدْ غَفَلَ قَائِلُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ كِتَابَتِهِ عَنْ ذَلِكَ ، فَلَمْ يُفَكِّرْ إلَّا فِي ظَوَاهِرِ مَدْلُولِ اللَّفْظِ ، وَلَا تَتَوَسَّعُ فِي بَسْطِ الِاعْتِرَاضِ

عَلَيْهِ اكْتِفَاءً بِتَقْرِيرِ الصَّوَابِ الَّذِي هَدَانَا اللَّهُ تَعَالَى إلَيْهِ .

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) فَقَدْ رُوِيَ فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَانِ :

(117/217)

(أَحَدُهُمَا) : مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَأَشَرْنَا إلَيْهِ فِيمَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ ، وَنَقَلْنَا مِثْلَهُ عَنِ ابْنِ كَثِيرٍ ، وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي نَهَيْتُمْ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهَا هِيَ مِمَّا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ بِسُكُوتِهِ

عَنْهُ فِي كِتَابِهِ وَعَدَمِ تَكْلِيفِكُمْ إيَّاهُ فَاسْكُتُوا عَنْهُ أَيْضًا ، وَأَيَّدُوا هَذَا الْقَوْلَ بِحَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ إذْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا " وَالْجُمْلَةُ عَلَى هَذَا صِفَةٌ لِأَشْيَاءَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ ، أَوْ هِيَ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ يَتَضَمَّنُ تَعْلِيلَ النَّهْيِ ، وَهُوَ يُنَاسِبُ كَوْنَ النَّهْيِ عَنِ الْمَسَائِلِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالتَّشْرِيعِ

.

(118/217)

(ثَانِيهُمَا) : أَنَّ مَعْنَاهُ عَفَا اللَّهُ عَمَّا كَانَ مِنْ مَسْأَلَتِكُمْ قَبْلَ النَّهْيِ فَلَا يُعَاقِبُكُمْ عَلَيْهَا لِسَعَةِ مَغْفِرَتِهِ وَحِلْمِهِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ فِيمَا يُشَابِهُ هَذَا السِّيَاقَ : (عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ) (5 : 95) وَقَوْلِهِ : (إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) (4 : 22 ، 23) وَلَا مَانِعَ عِنْدَنَا يَمْنَعُنَا مِنْ إِرَادَةِ الْمَعْنَيَيْنِ مَعًا ، فَإِنَّ كُلَّ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ عِبَارَاتُ الْقُرْآنِ مِنَ الْمَعَانِي الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمَجَازِيَّةِ وَالْكِنَائِيَّةِ يَجُوزُ عِنْدَنَا أَنْ يَكُونَ مُرَادًا مِنْهَا مُجْتَمِعَةً تِلْكَ الْمَعَانِي أَوْ مُنْفَرِدَةً مَا لَمْ يَمْنَعْ مَانِعٌ مِنْ ذَلِكَ ، كَأَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْمَعَانِي مِمَّا لَا يُمْكِنُ اجْتِمَاعُهَا شَرْعًا أَوْ عَقْلًا ، فَحِينَئِذٍ لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا مُرَادَةً بَلْ يُرَجَّحُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِطُرُقِ التَّرْجِيحِ مِنْ لَفْظِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ .

(119/217)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ) أَيْ قَدْ سَأَلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ أَيْ هَذَا النَّوْعَ مِنْهَا أَوْ هَذِهِ الْمَسَائِلَ أَيْ أَمْثَالَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بَعْدَ إِبْدَائِهَا لَهُمْ كَافِرِينَ بِهَا ، فَإِنَّ الَّذِينَ أَكْثَرُوا السُّؤَالَ عَنِ الْأَحْكَامِ التَّشْرِيعِيَّةِ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا بُيِّنَ لَهُمْ مِنْهَا بَلْ فَسَقُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَتَرَكُوا شَرْعَهُ لِاسْتِثْقَالِهِمُ الْعَمَلَ بِهِ ، وَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى اسْتِنْكَارِهِ وَاسْتِقْبَاحِهِ أَوْ إِلَى جُحُودِ كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ ، وَالَّذِينَ سَأَلُوا الْآيَاتِ كَقَوْمِ صَالِحٍ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ إِعْطَائِهِمْ إِيَّاهَا بَلْ كَفَرُوا وَاسْتَحَقُّوا الْهَلَاكَ فِي

الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَالْأَخْبَارُ الْغَيْبِيَّةُ كَالْآيَاتِ أَوْ مِنْهَا ، وَقَدِ اقْتَصَرَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى تَفْسِيرِ الْمَسَائِلِ الَّتِي سَأَلُوهَا وَكَفَرُوا بِهَا بِالْآيَاتِ الَّتِي يُؤَيِّدُ اللهُ بِهَا

(120/217)

الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ الْمَعْنَيَيْنِ اللَّذَيْنِ قَرَّرْنَاهُمَا آنِفًا وَاسْتَشْهَدَ لِلْأَوَّلِ بِمَسْأَلَةِ السُّؤَالِ عَنِ الْحَجِّ لَا بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا لِتَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ تَتِمَّةً لِمَا قَبْلَهَا وَبَيَانًا لِسَبَبِ ذَلِكَ النَّهْيِ الْجَامِعِ لِلْمَعْنَيَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ السُّؤَالِ عَنِ الْحَجِّ مِنْ كَوْنِ فَرْضِهِ كُلَّ عَامٍ يُفْضِي إِلَى الْكُفْرِ ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ ذَلِكَ بِالْوَجْهِ الَّذِي قَرَّرْنَا وَبَيَّنَّاهُ وَلَمْ نَرَ أَحَدًا سَبَقَنَا إِلَيْهِ ، وَقَدْ يَكُونُ مِمَّا لَمْ نَرَهُ وَهُوَ الْأَكْثَرُ .

وَالْعِبْرَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَسَّعُوا بِأَقْيِسَتِهِمْ دَائِرَةَ التَّكَالِيفِ وَانْتَهَوْا بِهَا إِلَى الْعُسْرِ وَالْحَرَجِ الْمَرْفُوعِ بِالنَّصِّ الْقَاطِعِ ، فَأَفْضَى ذَلِكَ إِلَى تَرْكِ كَثِيرٍ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ وَحُكُومَاتِهِمْ لِلشَّرِيعَةِ بِجُمْلَتِهَا ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ انْتِقَادِهَا وَالِاعْتِرَاضِ عَلَيْهَا ، فَاتَّبَعُوا بِذَلِكَ سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ عَقْدِ فَصْلٍ خَاصٍّ فِي تَفْصِيلِ هَذَا الْبَحْثِ .

(عِلَاوَةٌ فِي بَيَانٍ)

كَوْنُ كَثْرَةِ الزِّيَادَةِ عَلَى نُصُوصِ الشَّارِعِ وَالتَّنَطُّعِ فِي الدِّينِ بِاسْتِعْمَالِ الرَّأْيِ فِي الْعِبَادَاتِ

وَأَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُخِلًّا بِيُسْرِ الْإِسْلَامِ وَمُنَافِيًا لِمَقْصِدِهِ .

نَفْتَتِحُ هَذَا الْفَصْلَ بِمُقَدِّمَاتٍ مِنَ الْمَسَائِلِ أَكْثَرُهُنَّ مَقَاصِدُ لَا وَسَائِلُ ، يَتَجَلَّى بِهِنَّ الْمُرَادُ وَيَتَمَيَّزُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ .

(121/217)

---

(1) إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَكْمَلَ دِينَهُ وَأَتَمَّ بِهِ نِعْمَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى خَاتَمِ رُسُلِهِ وَبِمَا قَامَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْمَلَ الْقِيَامِ مِنْ بَيَانِ مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَنْزِيلِهِ ، فَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ قَطْعِيَّةٌ ثَابِتَةٌ بِالنَّقْلِ وَالْعَقْلِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفَصِّي الْقَوْلِ فِيهَا فِي تَفْسِيرِ : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (5 : 3) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(2) إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ قَدْ رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ الْحَرَجَ كَمَا نَطَقَ بِهِ النَّصُّ فِي آيَةِ الْوُضُوءِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي سِيَاقِ آيَاتِ الصِّيَامِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ النَّصَّيْنِ ، وَسَيَأْتِي نَصٌّ آخَرُ فِي مَعْنَى نَصِّ آيَةِ الْوُضُوءِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْحَجِّ ، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْلَى : (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) (87 : 8) أَيِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي تَفْضُلُ

(122/217)

غَيْرَهَا بِالْيُسْرِ ، وَلِذَلِكَ سَمَّاهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ ، وَوَصَفَهَا بِقَوْلِهِ : " لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا " وَجَعَلَ الدِّينَ عَيْنَ الْيُسْرِ مُبَالِغَةً فِي يُسْرِهِ فَقَالَ : " إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ " إلخ ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَحَبُّ الدِّينِ وَفِي لَفْظٍ : الْأَدْيَانِ إِلَى اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي تَرْجَمَةِ أَحَدِ أَبْوَابِ الصَّحِيحِ تَعْلِيقًا ، وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا " رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَقَالَ : (لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ " رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثٍ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ .

(123/217)

---

(3) إِنَّ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَأَسَاسُهُ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (6 : 38) وَقَالَ : (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) (16 : 89) وَأَمَّا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ الْمُبَلِّغُ لَهُ وَالْمُبَيِّنُ لِمُرَادِ اللهِ تَعَالَى مِمَّا جَاءَ فِيهِ مُجْمَلًا ، قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَهُ : (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) (42 : 48) وَقَالَ : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (16 : 44) وَقَالَ : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) (4 : 105) .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيمَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَا ذِكْرَ لَهَا فِي الْقُرْآنِ ، هَلْ هِيَ مِنْ رَأْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاجْتِهَادِهِ فِيهِ ؟ أَمْ بِوَحْيٍ آخَرَ غَيْرِ الْقُرْآنِ ؟ أَمْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِاسْتِئْنَافِ التَّشْرِيعِ ؟ وَالْخِلَافُ مَشْهُورٌ ، وَرَجَّحَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ الْقَوْلَ الثَّانِيَ ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : (بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْأَلُ بِمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ، فَيَقُولُ : " لَا أَدْرِي " أَوْ لَمْ يُجِبْ حَتَّى يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ، وَلَمْ يَقُلْ بِرَأْيٍ وَلَا قِيَاسٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) (4 : 105) وَيَلِيهِ فِي (بَابِ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ وَلَا تَمْثِيلٍ) .

(124/217)

وَنَقُولُ : لَا يَتَّجِهُ الْخِلَافُ إِلَّا فِي الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ الْمَحْضَةِ ، وَأَمَّا الْمَصَالِحُ الْمَدَنِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ وَالْحَرْبِيَّةُ فَقَدْ أُمِرَ بِالْمُشَاوَرَةِ فِيهَا ، وَكَانَ يَرَى الرَّأْيَ فَيَرْجِعُ عَنْهُ لِرَأْيِ أَصْحَابِهِ ، وَعَاتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَعْضِ الْأَعْمَالِ الَّتِي عَمِلَهَا بِرَأْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ

فِي غَزَوَاتِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ وَتَبُوكَ ، وَلَا يَتَأَتَّى شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا كَانَ بِوَحْيٍ .

(4) الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْصُومٌ مِنَ الْخَطَأِ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَفِيمَا بَيَّنَهُ لِلنَّاسِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي مَسْأَلَةِ تَلْقِيحِ النَّخْلِ حِينَ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ فَتَرَكَهُ بَعْضُهُمْ لِظَنِّهِ فَخَسِرَ مَوْسِمَهُ : " إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ " وَقَالَ أَيْضًا : " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ " وَقَالَ أَيْضًا : " أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

(125/217)

---

(5) إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ فَوَّضَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ أُمُورَ دُنْيَاهُمُ الْفَرْدِيَّةَ وَالْمُشْتَرَكَةَ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ ، بِشَرْطِ أَلَّا تَجْنِيَ دُنْيَاهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَهَدْيِ شَرِيعَتِهِمْ فَجَعَلَ الْأَصْلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْإِبَاحَةَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (2 : 29) وَقَوْلِهِ : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ) (45 : 13) وَجَعَلَ أُمُورَ سِيَاسَةِ الْأُمَّةِ وَحُكُومَتِهَا شُورَى ، إِذْ قَالَ فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (42 : 38) وَأَمَرَ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ وَهُمْ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَرِجَالُ الشُّورَى بِالتَّبَعِ لِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ

وَأَرْشَدَ إِلَى رَدِّ أُمُورِ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالسِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ وَالْإِدَارَةِ إِلَى رَسُولِ اللهِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ رَاجِعْ تَفْسِيرَ : (أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (4 : 59) وَتَفْسِيرَ : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) (4 : 83)

وَآتَى هَذِهِ الْأُمَّةَ الْمِيزَانَ مَعَ الْقُرْآنِ كَمَا آتَاهُ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلُ ، وَالْمِيزَانُ : مَا يَقُومُ بِهِ الْعَدْلُ وَالْمُسَاوَاةُ فِي الْأَحْكَامِ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَيِّنَاتِ الَّتِي يَسْتَخْرِجُهَا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ بِاجْتِهَادِهِمْ فِي تَطْبِيقِ الْأَقْضِيَةِ عَلَى النَّصِّ وَالْعَدْلِ وَالْمَصْلَحَةِ .

(126/217)

وَأَمَّا أَدِلَّةُ ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ فَأَعْظَمُهَا وَأَظْهَرُهَا سِيرَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِ الْأُمَّةِ فِي الْحَرْبِ وَالسِّلْمِ وَالسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ بِمُشَاوَرَةِ أُولِي الرَّأْيِ وَالْفَهْمِ وَالْمَكَانَةِ الْمُحْتَرَمَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمْ كُبَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وَمِنْهَا إِذْنُهُ لِمُعَاذٍ عِنْدَ إِرْسَالِهِ إِلَى الْيَمَنِ

بِالِاجْتِهَادِ فِي الْقَضَاءِ ، وَحَدِيثُ : " إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَذَكَرَ أَنَّ أَبَا

هُرَيْرَةَ وَأَبَا سَلَمَةَ تَابَعَاهُ عَلَيْهِ .

(6) إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْإِسْلَامَ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ لِتَكْمِيلِ الْبَشَرِ ، فِي أُمُورِهِمُ الرُّوحِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ ، لِيَكُونَ وَسِيلَةً لِلسَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ ، وَلَمَّا كَانَتِ الْأُمُورُ الرُّوحِيَّةُ الَّتِي تُنَالُ بِهَا سَعَادَةُ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ لَا تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ أَتَمَّهَا اللهُ تَعَالَى وَأَكْمَلَهَا أُصُولًا وَفُرُوعًا وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهَا النُّصُوصُ ، فَلَيْسَ لِبَشَرٍ بَعْدَ الرَّسُولِ أَنْ يَزِيدَ فِيهَا وَلَا أَنْ يَنْقُصَ مِنْهَا شَيْئًا .

(127/217)

وَأَمَّا الْأُمُورُ الدُّنْيَوِيَّةُ مِنْ قَضَائِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ ، فَلَمَّا كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ بَيَّنَ الْإِسْلَامُ أَهَمَّ أُصُولِهَا ، وَمَا مَسَّتْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ مِنْ فُرُوعِهَا ، وَكَانَ مِنْ إِعْجَازِ هَذَا الدِّينِ وَكَمَالِهِ أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ مِنْ ذَلِكَ يَتَّفِقُ مَعَ مَصَالِحِ الْبَشَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، وَيَهْدِي أُولِي الْأَمْرِ إِلَى أَقْوَمِ الطُّرُقِ لِإِقَامَةِ الْمِيزَانِ ، بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الشُّورَى وَالِاجْتِهَادِ .

(7) مَنْ تَدَبَّرَ مَا تَقَدَّمَ تَظْهَرْ لَهُ حِكْمَةُ مَا كَانَ مِنْ كَرَاهَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكَثْرَةِ سُؤَالِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ عَنِ الْمَسَائِلِ الَّتِي تَقْتَضِي أَجْوِبَتُهَا كَثْرَةَ الْأَحْكَامِ ، وَالتَّشْدِيدَ فِي الدِّينِ ،

أَوْ بَيَانَ أَحْكَامٍ دُنْيَوِيَّةٍ رُبَّمَا تُوَافِقُ ذَلِكَ الْعَصْرَ وَلَا تُوَافِقُ مَصَالِحَ الْبَشَرِ بَعْدَهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَسْطُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ ، وَسَنُورِدُ قَرِيبًا أَحَادِيثَ أُخْرَى وَآثَارًا فِي مَعْنَى مَا أَوْرَدْنَاهُ فِي سِيَاقِ تَفْسِيرِهِمَا .

(8) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَذُمُّونَ الْإِحْدَاثَ وَالِابْتِدَاعَ ،

(128/217)

وَيُوصُونَ بِالِاعْتِصَامِ وَالِاتِّبَاعِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الرَّأْيِ وَالْقِيَامِ فِي الدِّينِ ، وَيَتَدَافَعُونَ الْفَتْوَى وَيَتَحَامَوْنَهَا وَلَا سِيَّمَا إِذَا سُئِلُوا عَمَّا لَمْ يَقَعْ ، وَلَكِنْ بَعْضُ الَّذِينَ انْقَطَعُوا لِعِلْمِ الشَّرِيعَةِ فَتَحُوا بَابَ الْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ فِيهَا ، وَأَكْثَرُوا مِنَ اسْتِنْبَاطِ الْفُرُوعِ الْكَثِيرَةِ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ جَمِيعًا ، فَجَاءَ بَعْضُ الْفُرُوعِ مُخَالِفًا لِلسُّنَّةِ الْقَوْلِيَّةِ أَوِ الْعَمَلِيَّةِ مُخَالَفَةً بَيِّنَةً ، وَبَعْضُهَا غَيْرُ مُوَافِقٍ وَلَا مُخَالِفٍ ، إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيمَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فَسَكَتَ عَنْ بَيَانِهِ رَحْمَةً لَا نِسْيَانًا كَمَا وَرَدَ ، وَقَدْ وَضَعُوا لِلِاسْتِنْبَاطِ أُصُولًا وَقَوَاعِدَ مِنْهَا الصَّحِيحُ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَمِنْهَا مَا لَا تَقُومُ عَلَيْهِ حُجَّةٌ أَلْبَتَّةَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَلْتَزِمْ تِلْكَ الْأُصُولَ وَالْقَوَاعِدَ فِي اسْتِنْبَاطِهِ لِلْأَحْكَامِ ، وَقَوْلِهِ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ، وَذَهَبُوا فِي ذَلِكَ مَذَاهِبَ بَدَدًا ، وَسَلَكُوا إِلَيْهِ طَرَائِقَ قِدَدًا ، فَكَثُرَتِ التَّكَالِيفُ حَتَّى تَعَسَّرَ تَعَلُّمُهَا ، فَمَا الْقَوْلُ فِي عُسْرِ الْعَمَلِ بِهَا ؟

فَتَسَلَّلَ مِنْهَا الْأَفْرَادُ وَالْجَمَاعَاتُ ، وَنَقَصَتْ مِنْ عَقْلِهَا الْحُكُومَاتُ ، وَكَثُرَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِهَا الشُّبُهَاتُ ، وَكَانَتْ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ أَصْعَبُ الْعَقَبَاتِ ، وَلَوْ سَلَكَ الْمُتَأَخِّرُونَ طَرِيقَ السَّلَفِ حَتَّى أَئِمَّةِ أَهْلِ الرَّأْيِ مِنْهُمْ فِي مَنْعِ التَّقْلِيدِ وَالرُّجُوعِ إِلَى صَحِيحِ الْمَأْثُورِ ، وَرَدِّ الْمُتَنَازَعِ فِيهِ إِلَى اللهِ

(129/217)

وَالرَّسُولِ لَمَا وَصَلْنَا إِلَى هَذَا الْحَدِّ الَّذِي وَصَفْنَاهُ .

(9) إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ تَوْحِيدٍ وَاجْتِمَاعٍ ، وَقَدْ نَهَى أَشَدَّ النَّهْيِ عَنِ التَّفْرِيقِ وَالِاخْتِلَافِ قَالَ تَعَالَى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (3 : 103) وَقَالَ : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) (3 : 105) وَقَالَ : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) (6 : 159) وَقَالَ : (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (30 : 31 ، 32) وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ النُّصُوصُ مِنَ الْكِتَابِ وَأَمْثَالِهَا مِنْهُ وَمِنَ السُّنَّةِ بِرَادِعَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ عَنِ التَّفَرُّقِ ، وَمَا كَانَ التَّفَرُّقُ إِلَّا مِنَ الرَّأْيِ الَّذِي اتَّبَعُوا فِيهِ سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى دَخَلُوا جُحْرَ الضَّبِّ الَّذِي دَخَلُوهُ قَبْلَهُمْ ، مِصْدَاقًا لِلْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ ، وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ

وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَمْ يَزَلْ أَمْرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعْتَدِلًا حَتَّى نَشَأَ فِيهِمُ الْمُوَلَّدُونَ وَأَبْنَاءُ سَبَايَا الْأُمَمِ الَّتِي كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسْبِيهَا فَقَالُوا بِالرَّأْيِ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا " وَقَدْ عَلِمَ عَلَيْهِ السُّيُوطِيُّ بِالْحُسْنِ ، وَنَقَلَ هَذَا الْمَعْنَى غَيْرَ

(130/217)

مَرْفُوعٍ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَامَّةً ، كَمَا رَوَاهُ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ .

وَلِمَا كَثُرَ الْقَوْلُ بِالرَّأْيِ قَامَ أَهْلُ الْأَثَرِ يَرُدُّونَ عَلَى أَهْلِ الرَّأْيِ وَيُنَفِّرُونَ النَّاسَ مِنْهُمْ ، فَكَانَ عُلَمَاءُ الْأَحْكَامِ قِسْمَيْنِ : أَهْلَ الْأَثَرِ وَالْحَدِيثِ ، وَأَهْلَ الرَّأْيِ ، وَكَانَ أَئِمَّةُ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ ، النَّاهِينَ عَنْ تَقْلِيدِ غَيْرِ الْمَعْصُومِ فِي الدِّينِ ، ثُمَّ حَدَثَتِ الْمَذَاهِبُ ، وَبِدْعَةُ تَعَصُّبِ الْجَمَاعَةِ الْكَثِيرَةِ لِلْوَاحِدِ ، وَفَشَا بِذَلِكَ التَّقْلِيدُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَضَاعَ الْعِلْمُ مِنَ الْجُمْهُورِ بِتَرْكِ الِاسْتِقْلَالِ فِي الِاسْتِدْلَالِ ، فَكَانَ هَذَا أَصْلَ كُلِّ شَقَاءٍ وَبَلَاءٍ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا .

(131/217)

(10) مَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ضَلَالَةٍ قَطُّ ، أَمَّا أَهْلُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ فَلَمْ يَفْتَتِنْ بِالْبِدَعِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي عَصْرِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ ، وَكَانَ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ عَلَى الْحَقِّ ، وَلَمَّا ضَعُفَ الْحَقُّ وَارْتَفَعَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الْمَوْتِ فِي الْعُلَمَاءِ الْمُسْتَقِلِّينَ ، وَفُشُوِّ الْجَهْلِ بِتَقْلِيدِ الْجَمَاهِيرِ حَتَّى لِأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ ، كَانَ يُوجَدُ فِي كُلِّ عَصْرٍ طَائِفَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الْحَقِّ مُقِيمَةٌ لِلسُّنَّةِ خَاذِلَةٌ لِلْبِدْعَةِ وَلِغُرْبَةِ الْإِسْلَامِ صَارَ هَؤُلَاءِ غُرَبَاءَ فِي النَّاسِ ، وَكَانُوا فِي اعْتِصَامِهِمْ بِالْحَقِّ وَفِي غُرْبَتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ مِصْدَاقًا لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ، وَلَوْ خَلَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَانْفَرَدَ بِتَعْلِيمِ الدِّينِ وَالتَّصْنِيفِ فِيهِ الْمُقَلِّدُونَ الْمُتَعَصِّبُونَ لِلْمَذَاهِبِ ، الَّذِينَ جَعَلُوا كَلَامَ مُقَلَّدِيهِمْ أَصْلًا فِي الدِّينِ ، يَرُدُّونَ إِلَيْهِ أَوْ لِأَجْلِهِ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَتَّى بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ وَيُضَعِّفُونَ الصَّحِيحَ وَيُصَحِّحُونَ السَّقِيمَ ، لَعَمِيَتِ السَّبِيلُ الْمُوَصِّلَةُ إِلَى دِينِ اللهِ الْقَوِيمِ .

(132/217)

إِنَّمَا أَعْنِي بِأَهْلِ الْحَقِّ وَأَنْصَارِ السُّنَّةِ مَنْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَدَعَوْا إِلَيْهِ وَأَنْكَرُوا عَلَى مُخَالِفِيهِ وَقَرَّرُوهُ بِالتَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ حَدِيثُ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا : " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ " ، وَفِي لَفْظٍ : "

حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ " وَحَدِيثُ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ : " بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ " وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ زِيَادَةٌ فِي تَفْسِيرِ الْغُرَبَاءِ وَهِيَ : " الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي " وَقَدْ وُجِدَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي كُلِّ عَصْرٍ عَرَفُوا الْحَقَّ فِي أَنْفُسِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ مَا دَعَوْا إلَيْهِ ، وَلَا أَنْكَرُوا عَلَى مُخَالِفِيهِ

لِضَعْفٍ فِي عَزَائِمِهِمْ ، أَوْ خَوْفٍ عَلَى جَاهِهِمْ وَكَرَامَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَرَفَ بَعْضَ الْحَقِّ وَلَمْ يُوَفَّقْ لِتَمْحِيصِهِ ، وَكَتَبُوا فِي ذَلِكَ كُتُبًا خَلَطُوا فِيهَا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا .

(133/217)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ أَنْصَارَ السُّنَّةِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخَرِينَ ، مِنْهُمُ الْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ وَلَيِّنُ الْقَوْلِ وَخَشِنُهُ ، وَالْمُبَالِغُ وَالْمُقْتَصِدُ ، وَقَدْ فَضُلَتِ الْأَنْدَلُسُ الشَّرْقَ بَعْدَ خَيْرِ الْقُرُونِ بِإِمَامٍ جَلِيلٍ مِنْهُمْ قَوِيِّ الْعَارِضَةِ شَدِيدِ الْمُعَارَضَةِ ، بَلِيغِ الْعِبَارَةِ ، بَالِغِ الْحُجَّةِ أَلَا وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُحَدِّثُ الْفَقِيهُ الْأُصُولِيُّ مُجَدِّدُ الْقَرْنِ الْخَامِسِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ حَزْمٍ ، أَلَّفَ كُتُبًا فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَفُرُوعِهِ ، هَدَمَ بِهَا الْقِيَاسَ ، وَبَيَّنَ إحَاطَةَ النُّصُوصِ بِالْأَحْكَامِ أَبْلَغَ بَيَانٍ ،

(134/217)

وَأَنْحَى بِهَا عَلَى أَهْلِ الرَّأْيِ أَشَدَّ الْإِنْحَاءِ ، وَلَكِنَّهُ جَاءَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ الَّذِي تَمَكَّنَتْ فِيهِ الْمَذَاهِبُ الْقِيَاسِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ ، بِتَقْلِيدِ الْجَمَاهِيرِ وَتَأْيِيدِ الْحُكُومَاتِ لَهَا وَمَا حُبِسَ عَلَى أَهْلِهَا مِنَ الْأَوْقَافِ ، حَتَّى صَارَ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى كُلِّ مَذْهَبٍ مِنْهَا يُقَدِّمُونَ قَوْلَ كُلِّ مُؤَلِّفٍ مُنْتَسِبٍ إِلَيْهَا ، عَلَى نُصُوصِ الشَّارِعِ الَّتِي اتَّفَقَ نَقَلَةُ الدِّينِ عَلَى صِحَّتِهَا ، فَمَا اسْتَفَادَ مِنْ كُتُبِ ابْنِ حَزْمٍ إِلَّا الْأَقَلُّونَ . وَعِنْدِي أَنَّ الصَّارِفَ الْأَكْبَرَ لِلنَّاسِ عَنْ كُتُبِهِ هُوَ شِدَّةُ عِبَارَتِهِ فِي تَجْهِيلِ فُقَهَاءِ الْقِيَاسِ حَتَّى الْأَئِمَّةِ الْمَتْبُوعِينَ مِنْهُمْ وَقَدْ كَانَ أَكَابِرُ الْعُلَمَاءِ فِي كُلٍّ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ كُتُبِهِ وَيَنْسَخُونَهَا بِأَقْلَامِهِمْ وَيَتَنَافَسُونَ فِيهَا ، وَلَكِنْ قَلَّمَا كَانُوا يَنْقُلُونَ عَنْهَا إِلَّا مَا يَجِدُونَهُ مِنْ هَفْوَةٍ يَرُدُّونَ عَلَيْهَا ; وَلِذَلِكَ بَعُدَ مِنْ مَنَاقِبِ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ الَّذِي اعْتَرَفُوا لَهُ بِالِاجْتِهَادِ الْمُطْلَقِ وَلُقِّبَ بِسُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ ، قَوْلُهُ لِمَنْ سَأَلَ عَنْ خَيْرِ كُتُبِ الْفِقْهِ فِي الْإِسْلَامِ (الْمُحَلَّى) لِابْنِ حَزْمٍ ، وَ (الْمُغْنِي) لِلشَّيْخِ الْمُوَفَّقِ . وَفِي دَارِ الْكُتُبِ الْكُبْرَى بِمِصْرَ نُسْخَةٌ مِنْ كِتَابِ (الْإِحْكَامِ فِي أُصُولِ الْأَحْكَامِ) لِابْنِ حَزْمٍ مِنْ خَطِّ عَلَّامَةِ الشَّافِعِيَّةِ فِي عَصْرِهِ ابْنِ أَبِي شَامَةَ ، فَهَذَا الْأَثَرُ وَذَلِكَ الْقَوْلُ يَدُلَّانِ عَلَى عِنَايَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ بِكُتُبِ ابْنِ حَزْمٍ وَحِرْصِهِمْ عَلَى

الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا .

لَمْ يَجِئْ بَعْدَ الْإِمَامِ ابْنِ حَزْمٍ مَنْ يُسَامِيهِ أَوْ يُسَاوِيهِ فِي سَعَةِ عِلْمِهِ وَقُوَّةِ حُجَّتِهِ وَطُولِ بَاعِهِ وَحِفْظِهِ لِلسُّنَّةِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الِاسْتِنْبَاطِ إِلَّا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُجَدِّدُ الْقَرْنِ السَّابِعِ أَحْمَدُ تَقِيُّ الدِّينِ بْنُ تَيْمِيَّةَ ، وَهُوَ قَدِ اسْتَفَادَ مِنْ كُتُبِ ابْنِ حَزْمٍ وَاسْتَدْرَكَ عَلَيْهَا وَحَرَّرَ مَا كَانَ مِنْ ضَعْفٍ فِيهَا ، وَكَانَ عَلَى شِدَّتِهِ فِي الْحَقِّ مِثْلَهُ أَنْزَهَ مِنْهُ قَلَمًا أَوْ أَكْثَرَ أَدَبًا مَعَ أَئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَنْفِ الْقِيَاسَ أَلْبَتَّةَ ، وَلَكِنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ الْمُوَافِقِ لِلنُّصُوصِ وَالْقِيَاسِ الْبَاطِلِ الْمُخَالِفِ لَهَا بِمَا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ فِيمَا نَعْلَمُ .

وَكَانَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَيِّمِ وَارِثَ عِلْمِ أُسْتَاذِهِ ابْنِ تَيْمِيَةَ وَمُوَضِّحَهُ ، وَكَانَ أَقْرَبَ مِنْ أُسْتَاذِهِ إِلَى اللِّينِ وَالرِّفْقِ بِالْمُبْطِلِينَ وَالْمُخْطِئِينَ ، فَلِذَلِكَ كَانَتْ تَصَانِيفُهُ أَقْرَبَ إِلَى الْقَبُولِ ، وَلَمْ يَلْقَ مِنَ الْمُقَاوَمَةِ وَالِاضْطِهَادِ مَا لَقِيَ أُسْتَاذُهُ بِتَعَصُّبِ مُقَلِّدَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ ، وَجَهْلِ الْحُكَّامِ الظَّالِمِينَ .

وَإِنَّ أَنْفَعَ مَا كُتِبَ بَعْدَهُمْ لِأَنْصَارِ السُّنَّةِ كِتَابُ (فَتْحِ الْبَارِي) شَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ لِقَامُوسِ السُّنَّةِ الْمُحِيطِ الْحَافِظِ أَحْمَدَ بْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ شَيْخِ الْحُفَّاظِ وَالْفُقَهَاءِ بِمِصْرَ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي لَا يَكَادُ يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَحَدٌ يَخْدِمُ السُّنَّةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ ؛ لِأَنَّهُ جَامِعٌ لِخُلَاصَةِ كُتُبِ السُّنَّةِ وَزُبْدَةِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي الْعَقَائِدِ وَالْفِقْهِ وَالْآدَابِ ، وَمِنْ أَنْفَعِهَا فِي كُتُبِ فِقْهِ الْحَدِيثِ كِتَابُ (نَيْلِ الْأَوْطَارِ) شَرْحِ مُنْتَقَى الْأَخْبَارِ ، وَمِنْ كُتُبِ أُصُولِ الْفِقْهِ كِتَابُ (إِرْشَادِ الْفُحُولِ فِي تَحْقِيقِ الْحَقِّ مِنْ عِلْمِ الْأُصُولِ) كِلَاهُمَا لِلْإِمَامِ الْجَلِيلِ الْمُجَدِّدِ مُجْتَهِدِ الْيَمَنِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ : مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الشَّوْكَانِيِّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَنَفَعَ بِهِمْ أَجْمَعِينَ .

فَهَؤُلَاءِ أَشْهَرُ أَعْلَامِ الْمُصْلِحِينَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ الَّذِينَ تُعَدُّ كُتُبُهُمْ أَعْظَمَ مَادَّةٍ لِلْإِصْلَاحِ فِيمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ ، وَمِنْ دُونِهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْحُفَّاظِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ قُطْرٍ ، وَقَدِ اكْتَفَيْنَا بِذِكْرِ مَنِ اعْتَمَدْنَا عَلَى كُتُبِهِمْ فِي هَذَا الْبَحْثِ وَهِيَ أَمْتَعُ الْكُتُبِ فِيهِ ، وَإِنَّ حُسْنَ اخْتِيَارِ الْكُتُبِ نِصْفُ الْعِلْمِ .

(137/217)

إِذَا تَمَهَّدَ هَذَا فَإِنَّنَا نَنْقُلُ لِلْقُرَّاءِ بَعْدَهُ مُلَخَّصَ مَا أَوْرَدَهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي مَسْأَلَةِ النَّهْيِ عَنِ السُّؤَالِ ، ثُمَّ أَوْرَدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِهِ لَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَأَقْوَالِ أَشْهَرِ الْعُلَمَاءِ فِيهَا . ثُمَّ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ ابْنُ حَزْمٍ فِي الْقِيَاسِ ،

ثُمَّ خُلَاصَةَ مَا حَرَّرَهُ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ مِنْ كَلَامِ شَيْخِهِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ فِي مَسْأَلَةِ الْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ . ثُمَّ مَا اعْتَمَدَهُ الْعَلَّامَةُ الشَّوْكَانِيُّ فِيهَا . ثُمَّ نَأْتِي بِخُلَاصَةِ الْخُلَاصَةِ الَّتِي عَقَدْنَا لَهَا هَذَا الْفَصْلَ .

(أَحَادِيثُ الْبُخَارِيِّ فِي كَرَاهَةِ السُّؤَالِ) .

عَقَدَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بَابًا فِي كِتَابِ الِاعْتِصَامِ عُنْوَانُهُ : بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَمِنْ تَكَلُّفِ مَا لَا يَعْنِيهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) أَوْرَدَ فِيهِ تِسْعَةَ أَحَادِيثَ :

(أَوَّلُهَا) : حَدِيثُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ مَرْفُوعًا : " إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ " وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ بِلَفْظِ : " إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا " إِلَخْ .

(الثَّانِي) : حَدِيثُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّخَذَ حُجْرَةً فِي الْمَسْجِدِ مِنْ حَصِيرٍ فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا لَيَالِيَ حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَاسٌ فَفَقَدُوا صَوْتَهُ لَيْلَةً فَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ نَامَ ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَتَنَحْنَحُ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : مَا زَالَ بِكُمُ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ صَنِيعِكُمْ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ مَا قُمْتُمْ بِهِ . فَصَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ ، فَإِنَّ أَفْضَلَ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ " .

(الثَّالِثُ) : حَدِيثُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي سَبَبِ نُزُولِ النَّهْيِ عَنِ السُّؤَالِ وَهُوَ فِي مَعْنَى حَدِيثِ أَنَسٍ فِي ذَلِكَ ، (ص 110 ط الْهَيْئَةِ) .

(الرَّابِعُ) : حَدِيثُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ الَّذِي كَتَبَ بِهِ إِلَى مُعَاوِيَةَ لَمَّا سَأَلَهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِ مَا سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْهُ . وَكَتَبَ إِلَيْهِ : " أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةِ الْمَالِ " .

(139/217)

(الْخَامِسُ) : قَوْلُ عُمَرَ : " نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ " فَهُوَ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ ، وَسَبَبُهُ كَمَا أَخْرَجَهُ رُوَاةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ : أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْأَبِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) (80 : 31) فَقَالَ ، وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ جَرِيرٍ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ : " مَا بُيِّنَ لَكُمْ فَعَلَيْكُمْ بِهِ وَمَا لَا فَدَعُوهُ " وَرُوِيَ أَيْضًا أَنَّ

ابْنَ عَبَّاسٍ فَسَّرَ الْأَبَّ عِنْدَ عُمَرَ بِمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ أَيْ مِنَ النَّبَاتِ فَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ ، قِيلَ : إنَّ كَلِمَةَ الْأَبِّ غَيْرُ عَرَبِيَّةٍ ؛ فَلِذَلِكَ لَمْ يَعْرِفْهَا عُمَرُ وَلَا أَبُو بَكْرٍ ، كَمَا رُوِيَ بِسَنَدَيْنِ مُنْقَطِعَيْنِ وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ : إنَّهَا غَيْرُ قُرَشِيَّةٍ أَوْ غَيْرُ حِجَازِيَّةٍ . وَلِذَلِكَ عَرَّفَهَا

ابْنُ عَبَّاسٍ لِسَعَةِ اطِّلَاعِهِ عَلَى لُغَةِ الْعَرَبِ وَكَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ .

(السَّادِسُ وَالسَّابِعُ) : حَدِيثُ أَنَسٍ الْمُتَقَدِّمِ فِي سَبَبِ نُزُولِ (لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ) الْآيَةَ .

(ص 107) .

(الثَّامِنُ) : حَدِيثُ أَنَسٍ مَرْفُوعًا : " لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ : هَذَا اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ ؟ " وَرَوَاهُ هُوَ وَمُسْلِمٌ فِي بَابِ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ وَغَيْرِهِ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ .

وَقَدْ قَفَّى الْبُخَارِيُّ عَلَى هَذَا الْبَابِ بَابَ الِاقْتِدَاءِ بِأَفْعَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَابَ مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ ، فَبَابَ إثْمِ مَنْ آوَى مُحْدِثًا ، أَيْ مُبْتَدِعًا ، فَبَابَ مَا يُذْكَرُ مِنْ ذَمِّ الرَّأْيِ وَتَكَلُّفِ الْقِيَاسِ .

خُلَاصَةُ الْأَحَادِيثِ وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ .

أَوْرَدَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبَابِ الَّذِي سَرَدْنَا أَحَادِيثَ مَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مَا نَصُّهُ :

" وَيَدْخُلُ فِي مَعْنَى حَدِيثِ سَعْدٍ مَا أَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ وَقَالَ : سَنَدُهُ صَالِحٌ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَفَعَهُ : " مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ يَنْسَى شَيْئًا " ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) (19 : 64) .

" وَأَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ رَفَعَهُ : " إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ لَا تَبْحَثُوا عَنْهَا " ، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَآخَرُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ .

" وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَصْلُهُ فِي الْبُخَارِيِّ كَمَا تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِنْ طَرِيقٍ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : "كُنَّا نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ ، وَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ الْغَافِلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلَ وَنَحْنُ نَسْمَعُ " فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَمَضَى فِي قِصَّةِ اللِّعَانِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ : فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا .

" وَلِمُسْلِمٍ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ : " أَقَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَنَةً بِالْمَدِينَةِ مَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَّا الْمَسْأَلَةُ ، كَانَ أَحَدُنَا إِذَا هَاجَرَ لَمْ يَسْأَلِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " وَمُرَادُهُ أَنَّهُ قَدِمَ وَافِدًا فَاسْتَمَرَّ بِتِلْكَ الصُّورَةِ لِيُحَصِّلَ الْمَسَائِلَ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ صِفَةِ الْوَفْدِ إِلَى اسْتِمْرَارِ الْإِقَامَةِ فَيَصِيرَ مُهَاجِرًا ، فَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ السُّؤَالُ . وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِالنَّهْيِ عَنِ السُّؤَالِ غَيْرُ الْأَعْرَابِ وُفُودًا كَانُوا أَوْ غَيْرَهُمْ .

" وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : " لَمَّا نَزَلَتْ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ) الْآيَةَ . كُنَّا قَدِ اتَّقَيْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْنَا أَعْرَابِيًّا فَرَشَوْنَاهُ بِرِدَاءٍ وَقُلْنَا : سَلِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

" وَلِأَبِي يَعْلَى عَنِ الْبَرَاءِ " أَنْ كَانَ لَتَأْتِي عَلَيَّ السَّنَةُ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشَّيْءِ فَأَتَهَيَّبَ ، وَإِنْ كُنَّا لَنَتَمَنَّى الْأَعْرَابَ ؛ أَيْ قُدُومَهُمْ لِيَسْأَلُوا فَيَسْمَعُوا هُمْ أَجْوِبَةَ سُؤَالَاتِ الْأَعْرَابِ فَيَسْتَفِيدُوهَا " .

" وَأَمَّا مَا ثَبَتَ فِي الْأَحَادِيثِ مِنْ أَسْئِلَةِ الصَّحَابَةِ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ نُزُولِ الْآيَةِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ النَّهْيَ فِي الْآيَةِ لَا يَتَنَاوَلُ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ مِمَّا تَقَرَّرَ حُكْمُهُ أَوْ مَا لَهُمْ بِمَعْرِفَتِهِ حَاجَةٌ رَاهِنَةٌ ، كَالسُّؤَالِ عَنِ الذَّبْحِ بِالْقَصَبِ ، وَالسُّؤَالِ عَنْ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ إذَا أَمَرُوا بِغَيْرِ الطَّاعَةِ ، وَالسُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنَ الْمَلَاحِمِ وَالْفِتَنِ ، وَالْأَسْئِلَةِ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ ، كَسُؤَالِهِمْ عَنِ الْكَلَالَةِ وَالْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْيَتَامَى وَالْمَحِيضِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّيْدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، لَكِنَّ الَّذِينَ تَعَلَّقُوا بِالْآيَةِ فِي كَرَاهِيَةِ كَثْرَةِ الْمَسَائِلِ عَمَّا لَمْ يَقَعْ ، أَخَذُوهُ بِطَرِيقِ الْإِلْحَاقِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ كَثْرَةَ السُّؤَالِ لَمَّا كَانَتْ سَبَبًا لِلتَّكْلِيفِ بِمَا يَشُقُّ فَحَقُّهَا أَنْ تُجْتَنَبَ .

" وَقَدْ عَقَدَ الْإِمَامُ الدَّارِمِيُّ فِي أَوَائِلِ مُسْنَدِهِ لِذَلِكَ بَابًا ، وَأَوْرَدَ فِيهِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ آثَارًا كَثِيرَةً فِي ذَلِكَ ، مِنْهَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ : " لَا تَسْأَلُوا عَمَّا لَمْ يَكُنْ فَإِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ يَلْعَنُ

السَّائِلَ عَمَّا لَمْ يَكُنْ ، وَعَنْ عُمَرَ : " أُحَرِّجُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْأَلُوا عَمَّا لَمْ يَكُنْ ، فَإِنَّ لَنَا فِيمَا كَانَ شُغْلًا " وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّهُ كَانَ سُئِلَ عَنِ الشَّيْءِ يَقُولُ : " كَانَ هَذَا ؟ فَإِنْ قِيلَ : لَا ، قَالَ : دَعُوهُ حَتَّى يَكُونَ " وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَعَنْ عَمَّارٍ نَحْوُ ذَلِكَ .

" وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَرَاسِيلِ مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ مَرْفُوعًا ، وَمِنْ طَرِيقِ طَاوُسٍ عَنْ مُعَاذٍ رَفَعَهُ : " لَا تُعَجِّلُوا بِاللَّيْلَةِ قَبْلَ نُزُولِهَا ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفْعَلُوا لَمْ يَزَلْ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ إِذَا قَالَ سُدِّدَ أَوْ وُفِّقَ ، وَإِنْ عَجَّلْتُمْ تَشَتَّتَ بِكُمُ السُّبُلُ " وَهُمَا مُرْسَلَانِ يُقَوِّي بَعْضُهُمَا بَعْضًا . وَمِنْ وَجْهٍ ثَالِثٍ عَنْ أَشْيَاخِ الزُّبَيْرِ بْنِ سَعِيدٍ مَرْفُوعًا : " لَا يَزَالُ فِي أُمَّتِي مَنْ إِذَا سُئِلَ سُدِّدَ وَأُرْشِدَ حَتَّى يَتَسَاءَلُوا عَمَّا لَمْ يُنَزَّلْ " الْحَدِيثَ نَحْوَهُ .

(144/217)

" قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ : وَالتَّحْقِيقُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْبَحْثَ عَمَّا لَا يُوجَدُ فِيهِ نَصٌّ عَلَى قِسْمَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) : أَنْ يَبْحَثَ عَنْ دُخُولِهِ فِي دَلَالَةِ النَّصِّ عَلَى اخْتِلَافِ وُجُوهِهَا ، فَهَذَا مَطْلُوبٌ لَا مَكْرُوهٌ ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ فَرْضًا عَلَى مَنْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ . (ثَانِيهُمَا) : أَنْ يُدَقِّقَ النَّظَرَ فِي وُجُوهِ الْفُرُوقِ ، فَيُفَرِّقَ بَيْنَ مُتَمَاثِلَيْنِ بِفَرْقٍ لَيْسَ لَهُ أَثَرٌ فِي الشَّرْعِ ، مَعَ وُجُودِ وَصْفِ الْجَمْعِ ، أَوْ بِالْعَكْسِ ، بِأَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ مُتَفَرِّقَيْنِ بِوَصْفٍ طَرْدِيٍّ مَثَلًا ، فَهَذَا الَّذِي ذَمَّهُ السَّلَفُ ، وَعَلَيْهِ يَنْطَبِقُ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَفَعَهُ : " هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ " أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ . فَرَأَوْا أَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ الزَّمَانِ بِمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ . وَمِثْلُهُ الْإِكْثَارُ مِنَ التَّفْرِيعِ عَلَى مَسْأَلَةٍ لَا أَصْلَ لَهَا فِي

الْكِتَابِ وَلَا السُّنَّةِ وَلَا الْإِجْمَاعِ ، وَهِيَ نَادِرَةُ الْوُقُوعِ جِدًّا . فَيَصْرِفُ فِيهَا زَمَانًا كَانَ صَرْفُهُ فِي غَيْرِهَا أَوْلَى ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ إغْفَالُ التَّوَسُّعِ فِي بَيَانِ مَا يَكْثُرُ وُقُوعُهُ .

(145/217)

" وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ فِي كَثْرَةِ السُّؤَالِ الْبَحْثُ عَنْ أُمُورٍ مُغَيَّبَةٍ وَرَدَ الشَّرْعُ بِالْإِيمَانِ بِهَا مَعَ تَرْكِ كَيْفِيَّتِهَا . وَمِنْهَا مَا لَا يَكُونُ لَهُ شَاهِدٌ فِي عَالَمِ الْحِسِّ كَالسُّؤَالِ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ ، وَعَنِ الرُّوحِ ، وَعَنْ مُدَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُعْرَفُ إلَّا بِالنَّقْلِ الصِّرْفِ ، وَالْكَثِيرُ مِنْهُ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ ، فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ . وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ مَا تُوُقِّعَ كَثْرَةُ الْبَحْثِ عَنْهُ فِي الشَّكِّ وَالْحَيْرَةِ ، وَسَيَأْتِي مِثَالُ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ : " لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ : هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ ؟ " وَهُوَ ثَامِنُ أَحَادِيثِ هَذَا الْبَابِ .

" وَقَالَ بَعْضُ الشُّرَّاحِ : مِثَالُ التَّنَطُّعِ فِي السُّؤَالِ حَتَّى يُفْضِيَ بِالْمَسْئُولِ إلَى الْجَوَابِ بِالْمَنْعِ بَعْدَ أَنْ يُفْتِيَ بِالْإِذْنِ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ السِّلَعِ الَّتِي تُوجَدُ فِي الْأَسْوَاقِ ، هَلْ يُكْرَهُ شِرَاؤُهَا مِمَّنْ هِيَ فِي يَدِهِ مِنْ قَبْلِ الْبَحْثِ عَنْ مَصِيرِهَا إلَيْهِ أَوْ لَا ؟ فَيُجِيبُهُ بِالْجَوَازِ ، فَإِنْ عَادَ فَقَالَ : أَخْشَى أَنْ يَكُونَ مِنْ نَهْبٍ أَوْ غَصْبٍ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَقْتُ قَدْ وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي

الْجُمْلَةِ ،

فَيَحْتَاجُ أَنْ يُجِيبَهُ بِالْمَنْعِ ، وَيُقَيِّدَ ذَلِكَ . إِنْ ثَبَتَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ حَرَّمَ ، وَإِنْ تَرَدَّدَ كَرِهَ أَوْ كَانَ خِلَافَ الْأَوْلَى ، وَلَوْ سَكَتَ السَّائِلُ عَنْ هَذَا التَّنَطُّعِ لَمْ يَزِدِ الْمُفْتِي عَلَى جَوَابِهِ بِالْجَوَازِ .

(146/217)

" وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَمَنْ يَسُدُّ بَابَ الْمَسَائِلِ حَتَّى يَفُوتَهُ مَعْرِفَةُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي يَكْثُرُ وُقُوعُهَا ، فَإِنَّهُ يَقِلُّ فَهْمُهُ وَعِلْمُهُ ، وَمَنْ تَوَسَّعَ فِي تَفْرِيعِ الْمَسَائِلِ وَتَوْلِيدِهَا وَلَا سِيَّمَا فِيمَا يَقِلُّ وُقُوعُهُ أَوْ يَنْدُرُ ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْحَامِلُ عَلَى ذَلِكَ الْمُبَاهَاةَ وَالْمُغَالَبَةَ فَإِنَّهُ يُذَمُّ فِعْلُهُ ، وَهُوَ عَيْنُ الَّذِي كَرِهَهُ السَّلَفُ .

" وَمَنْ أَمْعَنَ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَعَانِي كِتَابِ اللهِ مُحَافِظًا عَلَى مَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ شَاهَدُوا التَّنْزِيلَ ، وَحَصَلَ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا يُسْتَفَادُ مِنْ مَنْطُوقِهِ وَمَفْهُومِهِ ، وَعَنْ مَعَانِي السُّنَّةِ وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ كَذَلِكَ ، مُقْتَصِرًا عَلَى مَا يَصْلُحُ لِلْحُجَّةِ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ الَّذِي يُحْمَدُ وَيُنْتَفَعُ بِهِ .

" وَعَلَى ذَلِكَ يُحْمَلُ عَمَلُ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ مِنَ التَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ حَتَّى حَدَّثَتِ الطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ فَعَارَضَتْهَا الطَّائِفَةُ الْأُولَى ، فَكَثُرَ بَيْنَهُمُ الْمِرَاءُ وَالْجِدَالُ وَتَوَلَّدَتِ الْبَغْضَاءُ وَتَسَمَّوا

خُصُومًا وَهُمْ مِنْ أَهْلِ دِينٍ وَاحِدٍ ، وَالْوَسَطُ هُوَ الْمُعْتَدِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِلَى ذَلِكَ يُشِيرُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمَاضِي " فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ " فَإِنَّ الِاخْتِلَافَ يَجُرُّ إِلَى عَدَمِ الِانْقِيَادِ ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ حَيْثُ تَقْسِيمُ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ .

(147/217)

وَأَمَّا الْعَمَلُ بِمَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالتَّشَاغُلُ بِهِ فَقَدْ وَقَعَ الْكَلَامُ فِي أَيِّهِمَا أَوْلَى .

وَالْإِنْصَافُ أَنْ يُقَالَ : كُلُّ مَا زَادَ عَلَى مَا هُوَ فِي حَقِّ الْمُكَلَّفِ فَرْضُ عَيْنٍ ، فَالنَّاسُ فِيهِ عَلَى قِسْمَيْنِ : مَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَى الْفَهْمِ وَالتَّحْرِيرِ ، فَتَشَاغُلُهُ بِذَلِكَ أَوْلَى مِنْ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ ، وَتَشَاغُلُهُ بِالْعِبَادَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ الْمُتَعَدِّي ، وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ قُصُورًا ، فَإِقْبَالُهُ عَلَى الْعِبَادَةِ أَوْلَى ؛ لِعُسْرِ اجْتِمَاعِ الْأَمْرَيْنِ ، فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَوْ تَرَكَ الْعِلْمَ ، لَأَوْشَكَ أَنْ يُضَيِّعَ بَعْضَ الْأَحْكَامِ بِإِعْرَاضِهِ . وَالثَّانِي لَوْ أَقْبَلَ عَلَى الْعِلْمِ وَتَرَكَ الْعِبَادَةَ فَاتَهُ الْأَمْرَانِ لِعَدَمِ حُصُولِ الْأَوَّلِ لَهُ وَإِعْرَاضِهِ بِهِ عَنِ الثَّانِي وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ " انْتَهَى كَلَامُ الْحَافِظِ .

(148/217)

أَقُولُ : لِلَّهِ دَرُّ الْحَافِظِ ، فَإِنَّهُ أَتَى بِخُلَاصَةِ الْآثَارِ وَصَفْوَةِ مَا فَسَّرَهَا بِهِ أَهْلُ التَّحْقِيقِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَلَوْلَا عُمُومُ افْتِتَانِ الْجَمَاهِيرِ بِالْكُتُبِ الْفِقْهِيَّةِ الْمَلْأَى بِمَا ذَكَرَ مِنَ الْفُرُوعِ الَّتِي نَهَى الشَّرْعُ عَنِ الْخَوْضِ فِي مِثْلِهَا ، وَأَجْمَعَ السَّلَفُ عَلَى ذَمِّ الِاشْتِغَالِ بِهَا لَاكْتَفَيْنَا بِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمَا حَرَّرَهُ الْحَافِظُ فِي الشَّرْحِ ، وَقُلْنَا فِيهِ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ : لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ جُمُودِ الْجَمَاهِيرِ عَلَى التَّقْلِيدِ ، لَا يُزَلْزِلُهُ هَذَا الْقَوْلُ الْوَجِيزُ الْمُخْتَصَرُ الْمُفِيدُ ، فَلَا بُدَّ إِذًا مِنْ تَفْصِيلِ الْقَوْلِ فِي مَسْأَلَةِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ ، الَّتِي هِيَ مَنْشَأُ كُلِّ هَذَا الْبَلَاءِ فِي النَّاسِ ، وَهَاكَ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ حَزْمٍ فِي مَسَائِلِ الْأُصُولِ مِنْ مُقَدِّمَةِ الْمُحَلَّى :

إِبْطَالُ ابْنِ حَزْمٍ الْقِيَاسَ وَالرَّأْيَ :

(مَسْأَلَةٌ) وَلَا يَحِلُّ الْقَوْلُ بِالْقِيَاسِ فِي الدِّينِ وَلَا بِالرَّأْيِ ؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى بِالرَّدِّ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى كِتَابِهِ وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ صَحَّ ، فَمَنْ رَدَّ إِلَى قِيَاسٍ أَوْ إِلَى تَعْلِيلٍ يَدَّعِيهِ أَوْ إِلَى رَأْيٍ فَقَدْ خَالَفَ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى الْمُتَعَلِّقَ بِالْإِيمَانِ ، وَرَدَّ إِلَى غَيْرِ مَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِالرَّدِّ إِلَيْهِ ، وَفِي هَذَا مَا فِيهِ .

(قَالَ عَلِيٌّ) : وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (6 : 38) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) (16 : 89) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (16 : 44) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (5 : 3) إِبْطَالٌ لِلْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ ; لِأَنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ أَهْلُ الْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ فِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمَا مَا دَامَ يُوجَدُ نَصٌّ . وَقَدْ شَهِدَ اللهُ تَعَالَى بِأَنَّ النَّصَّ لَمْ يُفَرِّطْ فِيهِ شَيْئًا ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ بَيَّنَ لِلنَّاسِ كُلَّ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَأَنَّ الدِّينَ قَدْ كَمُلَ فَصَحَّ أَنَّ النَّصَّ قَدِ اسْتَوْفَى جَمِيعَ الدِّينِ . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ بِأَحَدٍ إِلَى قِيَاسٍ وَلَا إِلَى رَأْيٍ وَلَا إِلَى رَأْيِ غَيْرِهِ . وَنَسْأَلُ مَنْ قَالَ بِالْقِيَاسِ : هَلْ كُلُّ قِيَاسٍ قَاسَهُ قَائِسٌ حَقٌّ ؟ أَمْ مِنْهُ حَقٌّ وَمِنْهُ بَاطِلٌ ؟ فَإِنْ قَالَ : كُلُّ قِيَاسٍ حَقٌّ أَحَالَ ; لِأَنَّ الْمَقَايِيسَ تَتَعَارَضُ وَيُبْطِلُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ وَضِدُّهُ مِنَ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ حَقًّا مَعًا ، وَلَيْسَ هَذَا مَكَانَ نَسْخٍ وَلَا تَخْصِيصٍ كَالْأَخْبَارِ الْمُتَعَارِضَةِ الَّتِي يَنْسَخُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُخَصِّصُ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَإِنْ قَالَ : بَلْ مِنْهَا حَقٌّ وَمِنْهَا بَاطِلٌ قِيلَ لَهُ : فَعَرِّفْنَا بِمَاذَا يُعْرَفُ الْقِيَاسُ الصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ ؟ وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى وُجُودِ ذَلِكَ .

وَإِذَا لَمْ يُوجَدْ دَلِيلٌ عَلَى تَصْحِيحِ الصَّحِيحِ مِنَ الْقِيَاسِ مِنَ الْبَاطِلِ مِنْهُ فَقَدْ بَطَلَ كُلُّهُ ، وَصَارَ دَعْوَى بِلَا بُرْهَانٍ .

فَإِنِ ادَّعَوْا أَنَّ الْقِيَاسَ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، سُئِلُوا : أَيْنَ وَجَدُوا ذَلِكَ ؟ فَإِنْ قَالُوا : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (59 : 2) قِيلَ لَهُمْ : إِنَّ الِاعْتِبَارَ لَيْسَ هُوَ كَلَامَ الْعَرَبِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ إِلَّا التَّعَجُّبَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً) أَيْ تَعَجُّبًا ، وَقَالَ تَعَالَى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (12 : 111) أَيْ عَجَبٌ . وَمِنَ الْبَاطِلِ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الِاعْتِبَارِ الْقِيَاسَ ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا : قِيسُوا ، ثُمَّ لَا يُبَيِّنُ لَنَا مَاذَا نَقِيسُ ؟

وَلَا كَيْفَ نَقِيسُ ؟ وَلَا عَلَى مَاذَا نَقِيسُ ؟ هَذَا مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وِسْعِ أَحَدٍ أَنْ يَعْلَمَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (2 : 286) .

(151/217)

فَإِنْ ذَكَرُوا أَحَادِيثَ وَآيَاتٍ فِيهَا تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ ، وَأَنَّ اللهَ قَضَى وَحَكَمَ بِأَمْرِ كَذَا مِنْ أَجْلِ أَمْرِ كَذَا ، قُلْنَا لَهُمْ : كُلُّ مَا قَالَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ حَقٌّ ، لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ خِلَافُهُ ، وَهُوَ نَصٌّ بِهِ نَقُولُ ، وَكَيْفَمَا تُرِيدُونَ أَنْتُمْ أَنْ تُشَبِّهُوهُ فِي الدِّينِ ، وَأَنْ تُعَلِّقُوهُ مِمَّا لَمْ يَنُصَّ عَلَيْهِ اللهُ تَعَالَى ، وَلَا رَسُولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِفْكٌ ، وَشَرْعٌ لَمْ يَأْذَنِ اللهُ تَعَالَى بِهِ . وَهَذَا يُبْطِلُ عَلَيْهِمْ تَمْوِيهَهُمْ بِذِكْرِ آيَةِ جَزَاءِ الصَّيْدِ ، وَ " أَرَأَيْتَ لَوْ مَضْمَضْتَ " وَ (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ) (5 : 32) وَكُلِّ آيَةٍ وَحَدِيثٍ مَوَّهُوا بِإِيرَادِهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ، عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي (كِتَابِ الْإِحْكَامِ لِأُصُولِ الْأَحْكَامِ) وَفِي (كِتَابِ النُّكَتِ) وَفِي (كِتَابِ الدُّرَّةِ) وَ (كِتَابِ النَّبْذِ) .

(قَالَ عَلِيٌّ) : وَقَدْ عَارَضْنَاهُمْ فِي كُلِّ قِيَاسٍ قَاسُوهُ بِقِيَاسٍ مِثْلِهِ أَوْ أَوْضَحَ مِنْهُ عَلَى أُصُولِهِمْ لِنُرِيَهُمْ فَسَادَ الْقِيَاسِ جُمْلَةً ، فَمَوَّهَ مِنْهُمْ مُمَوِّهُونَ . فَإِنْ قَالُوا : أَنْتُمْ دَأْبًا تُبْطِلُونَ الْقِيَاسَ بِالْقِيَاسِ ، وَهَذَا مِنْكُمْ رُجُوعٌ إِلَى الْقِيَاسِ وَاحْتِجَاجٌ بِهِ ، وَأَنْتُمْ فِي ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْمُحْتَجِّ بِحُجَّةِ الْعَقْلِ لِيُبْطِلَ حُجَّةَ الْعَقْلِ ، وَبِدَلِيلٍ مِنَ النَّظَرِ لِيُبْطِلَ بِهِ النَّظَرَ .

(قَالَ عَلِيٌّ) فَقُلْنَا : هَذَا شَغَبٌ يَسْهُلُ إِفْسَادُهُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ، وَنَحْنُ لَمْ نَحْتَجَّ

بِالْقِيَاسِ فِي إِبْطَالِ الْقِيَاسِ ، وَمَعَاذَ اللهِ مِنْ هَذَا ، لَكِنْ أَرَيْنَاكُمْ أَنَّ أَصْلَكُمُ الَّذِي أَتَيْتُمُوهُ مِنْ تَصْحِيحِ الْقِيَاسِ يَشْهَدُ بِفَسَادِ قِيَاسَاتِكُمْ ، وَلَا قَوْلَ أَظْهَرَ بَاطِلًا مِنْ قَوْلٍ أَكْذَبَ نَفْسَهُ ، وَقَدْ نَصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى هَذَا فَقَالَ : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) (5 : 18) فَلَيْسَ هَذَا تَصْحِيحًا لِقَوْلِهِمْ : إِنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَلَكِنْ إِلْزَامًا لَهُمْ مَا يَفْسُدُ بِهِ قَوْلُهُمْ . وَلَسْنَا فِي ذَلِكَ كَمَنْ ذَكَرْتُمْ مِمَّنْ يَحْتَجُّ فِي إِبْطَالِ حُجَّةِ الْعَقْلِ بِحُجَّةِ الْعَقْلِ ؛ لِأَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ مُصَحِّحُ الْقَضِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا ، فَظَهَرَ تَنَاقُضُهُ مِنْ قُرْبٍ ، وَلَا حُجَّةَ لَهُ غَيْرُهَا ، فَقَدْ ظَهَرَ بُطْلَانُ قَوْلِهِ . وَأَمَّا نَحْنُ فَلَمْ نَحْتَجَّ قَطُّ فِي إِبْطَالِ الْقِيَاسِ بِقِيَاسٍ نُصَحِّحُهُ ، وَلَكِنَّا نُبْطِلُ الْقِيَاسَ بِالنُّصُوصِ وَبَرَاهِينِ الْعَقْلِ . ثُمَّ نَزِيدُ بَيَانًا فِي فَسَادِهِ مِنْهُ نَفْسِهِ بِأَنْ نَرَى تَنَاقُضَهُ جُمْلَةً فَقَطْ ، وَالْقِيَاسُ الَّذِي نُعَارِضُ بِهِ قِيَاسَكُمْ نَحْنُ نُقِرُّ بِفَسَادِهِ وَفَسَادِ قِيَاسِكُمُ الَّذِي

(153/217)

هُوَ مِثْلُهُ أَوْ أَضْعَفُ مِنْهُ ، كَمَا نَحْتَجُّ عَلَى أَهْلِ كُلِّ مَقَالَةٍ مِنْ مُعْتَزِلَةٍ ، وَرَافِضَةٍ ، وَمُرْجِئَةٍ ، وَخَوَارِجَ ، وَيَهُودٍ ، وَنَصَارَى ، وَدَهْرِيَّةٍ ، مِنْ أَقْوَالِهِمُ الَّتِي يَشْهَدُونَ بِصِحَّتِهَا ، فَنُرِيهِمْ فَسَادَهَا وَتَنَاقُضَهَا ، وَأَنْتُمْ تَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ مَعَنَا بِذَلِكَ وَلَسْنَا نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ مِمَّنْ يُقِرُّ بِتِلْكَ

الْأَقْوَالِ الَّتِي نَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، بَلْ هِيَ عِنْدَنَا فِي غَايَةِ الْبُطْلَانِ وَالْفَسَادِ كَاحْتِجَاجِنَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ كُتُبِهِمُ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ وَنَحْنُ لَا نُصَحِّحُهَا ، بَلْ نَقُولُ : إنَّهَا مُحَرَّفَةٌ مُبْدَلَةٌ ؛ لَكِنْ لِنُرِيَهُمْ تَنَاقُضَ أُصُولِهِمْ وَفُرُوعِهِمْ ، لَا سِيَّمَا وَجَمِيعُ أَصْحَابِ الْقِيَاسِ مُخْتَلِفُونَ فِي قِيَاسَاتِهِمْ ، لَا تَكَادُ تُوجَدُ مَسْأَلَةٌ إلَّا وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَأْتِي بِقِيَاسٍ تَدَّعِي صِحَّتَهُ تُعَارِضُ بِهِ قِيَاسَ الْأُخْرَى .

وَهُمْ كُلُّهُمْ مُقِرُّونَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ قِيَاسٍ صَحِيحًا وَلَا كُلُّ رَأْيٍ حَقًّا ، فَقُلْنَا لَهُمْ : فَهَاتُوا حَدَّ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ وَالرَّأْيِ الصَّحِيحِ الَّذَيْنِ يَتَمَيَّزَانِ بِهِ مِنَ الْقِيَاسِ الْفَاسِدِ . وَهَاتُوا حَدَّ الْعِلَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي لَا تَقِيسُونَ إلَّا عَلَيْهَا مِنَ الْعِلَّةِ الْفَاسِدَةِ ، فَلَجْلَجُوا .

(قَالَ عَلِيٌّ) : وَهَذَا مَكَانٌ إنْ زَمَّ عَلَيْهِمْ فِيهِ ظَهَرَ فَسَادُ قَوْلِهِمْ جُمْلَةً وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إلَى جَوَابٍ يُفْهَمُ سَبِيلٌ أَبَدًا ، وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ .

(154/217)

فَإِنْ أَتَوْا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِنَصٍّ قُلْنَا : النَّصُّ حَقٌّ ، وَالَّذِي تُرِيدُونَ أَنْتُمْ إضَافَتَهُ إلَى النَّصِّ بِآرَائِكُمْ بَاطِلٌ ، وَفِي هَذَا خُولِفْتُمْ ، وَهَكَذَا أَبَدًا .

فَإِنِ ادَّعَوْا أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى الْقَوْلِ بِالْقِيَاسِ قِيلَ لَهُمْ : كَذَبْتُمْ ، بَلِ الْحَقُّ أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى بُطْلَانِهِ . بُرْهَانُ كَذِبِهِمْ : أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى وُجُودِ حَدِيثٍ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُ أَطْلَقَ الْأَمْرَ بِالْقَوْلِ بِالْقِيَاسِ أَبَدًا ، إِلَّا فِي الرِّسَالَةِ الْمَكْذُوبَةِ الْمَوْضُوعَةِ عَلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَإِنَّ فِيهَا : " وَاعْرَفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ وَقِسِ الْأُمُورَ " وَهَذِهِ رِسَالَةٌ لَمْ يَرْوِهَا إِلَّا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنْ أَبِيهِ ، وَهُوَ سَاقِطٌ بِلَا خِلَافٍ ، وَأَبُوهُ أَسْقَطُ مِنْهُ أَوْ مِمَّنْ هُوَ مِثْلُهُ فِي السُّقُوطِ ، فَكَيْفَ وَفِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ نَفْسِهَا أَشْيَاءُ خَالَفُوا فِيهَا عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ؟ مِنْهَا قَوْلُهُ فِيهَا : " وَالْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ أَوْ ظَنِينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ نَسَبٍ " وَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِهَذَا ، يَعْنِي جَمِيعَ الْحَاضِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْقِيَاسِ حَنَفِيَّهُمْ وَمَالِكِيَّهُمْ وَشَافِعِيَّهُمْ ، فَإِنْ كَانَ قَوْلُ عُمَرَ لَوْ صَحَّ فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ فِي الْقِيَاسِ حُجَّةً ، فَقَوْلُهُ فِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ عُدُولٌ كُلُّهُمْ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ حُجَّةٌ . فَلَيْسَ قَوْلُهُ فِي الْقِيَاسِ حُجَّةً لَوْ صَحَّ ، فَكَيْفَ وَلَمْ يَصِحَّ ؟

(155/217)

وَأَمَّا بُرْهَانُ صِحَّةِ قَوْلِنَا فِي إِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَلَى إِبْطَالِ الْقِيَاسِ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ فِي أَنَّ جَمِيعَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مُصَدِّقُونَ بِالْقُرْآنِ وَفِيهِ : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ) (5 : 3) (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) (4 : 59) فَمِنَ الْبَاطِلِ الْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَعْلَمُونَ هَذَا وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ثُمَّ يَرُدُّونَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِمَّا إِلَى قِيَاسٍ أَوْ رَأْيٍ . هَذَا مَا لَا يَظُنُّهُ بِهِمْ ذُو عَقْلٍ .

(156/217)

فَكَيْفَ وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : " أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي أَوْ أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي ، إِنْ قُلْتُ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ بِرَأْيِي ، أَوْ بِمَا لَا أَعْلَمُ " وَصَحَّ عَنِ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : " اتَّهِمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ ، وَإِنَّ الرَّأْيَ مِنَّا هُوَ الظَّنُّ وَالتَّكَلُّفُ " وَعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي فُتْيَا أَفْتَاهَا " إِنَّمَا كَانَ رَأْيًا رَأَيْتُهُ فَمَنْ شَاءَ أَخَذَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ " وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : " لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَلُ الْخُفِّ أَوْلَى بِالْمَسْحِ مِنْ أَعْلَاهُ " وَعَنْ سَهْلِ بْنِ حَنِيفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : " أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ " وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : " مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ جَهَنَّمَ " وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : " سَأَقُولُ فِيهَا بِجُهْدِ رَأْيِي " . وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فِي حَدِيثِ : " تَبْتَدِعُ

كَلَامًا لَيْسَ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُ؛ فَإِنَّهُ بِدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ " فَعَلَى هَذَا النَّحْوِ هُوَ كُلُّ رَأْيٍ .

(157/217)

وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَا عَلَى أَنَّهُ إِلْزَامٌ وَلَا أَنَّهُ حَقٌّ ، وَلَكِنَّهُ إِشَارَةٌ بِعَفْوٍ أَوْ صُلْحٍ أَوْ تَوَرُّعٍ فَقَطْ لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَابِ . . . وَحَدِيثُ مُعَاذٍ الَّذِي فِيهِ : " أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا آلُو " لَا يَصِحُّ لِأَنَّهُ لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ إِلَّا الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو وَهُوَ مَجْهُولٌ لَا يُدْرَى مَنْ هُوَ ، عَنْ رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ حِمْصَ لَمْ يُسَمِّهِمْ عَنْ مُعَاذٍ . وَقَدْ تَقَصَّيْنَا إِسْنَادَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا فِي كُتُبِنَا الْمَذْكُورَةِ وَلِلَّهِ تَعَالَى الْحَمْدُ .

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ قَاسِمٍ ، نَا ابْنُ قَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ قَاسِمٍ ، نَا جَدِّي قَاسِمُ بْنُ أَصْبَغَ ، نَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ التِّرْمِذِيُّ ، نَا نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ ، نَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ، نَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبِيعِيِّ ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عُثْمَانَ ،

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أَعْظَمُهَا فِتْنَةً عَلَى

أُمَّتِي قَوْمٌ يَقِيسُونَ الْأُمُورَ بِرَأْيِهِمْ ، فَيُحِلُّونَ الْحَرَامَ وَيُحَرِّمُونَ الْحَلَالَ " .

قَالَ عَلِيٌّ : وَالشَّرِيعَةُ كُلُّهَا إِمَّا فَرْضٌ يَعْصِي مَنْ تَرَكَهُ ، وَإِمَّا حَرَامٌ يَعْصِي مَنْ فَعَلَهُ ،

(158/217)

وَإِمَّا مُبَاحٌ لَا يَعْصِي مَنْ فَعَلَهُ وَلَا مَنْ تَرَكَهُ . وَهَذَا الْمُبَاحُ يَنْقَسِمُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : إِمَّا مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ يُؤْجَرُ مَنْ فَعَلَهُ وَلَا يَعْصِي مَنْ تَرَكَهُ ، وَإِمَّا مَكْرُوهٌ يُؤْجَرُ مَنْ تَرَكَهُ وَلَا يَعْصِي مَنْ فَعَلَهُ ، وَإِمَّا مُطْلَقٌ لَا يُؤْجَرُ مَنْ فَعَلَهُ وَلَا مَنْ تَرَكَهُ ، وَلَا يَعْصِي مَنْ تَرَكَهُ وَلَا مَنْ فَعَلَهُ . وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (2 : 29) وَقَالَ تَعَالَى : (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) (6 : 119) فَصَحَّ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ حَلَالٌ إِلَّا مَا فُصِّلَ تَحْرِيمُهُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ .

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ ، نَا أَحْمَدُ بْنُ فَتْحٍ ، نَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عِيسَى ، نَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، نَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ ، نَا مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ ، نَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ ، نَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ ، نَا الرَّبِيعُ بْنُ مُسْلِمٍ الْقُرَشِيُّ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ فَقَالَ : " أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا . فَقَالَ رَجُلٌ : أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَسَكَتَ حَتَّى أَعَادَهَا ثَلَاثًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ ، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ

بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ " .

(159/217)

(قَالَ عَلِيٌّ) : فَجَمَعَ هَذَا الْحَدِيثُ جَمِيعَ أَحْكَامِ الدِّينِ أَوَّلِهَا عَنْ آخِرِهَا . فَفِيهِ أَنَّ مَا سَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَأْمُرْ بِهِ وَلَا نَهَى عَنْهُ فَهُوَ مُبَاحٌ وَلَيْسَ حَرَامًا وَلَا فَرْضًا ، وَأَنَّ مَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ فَرْضٌ ، وَمَا نَهَى عَنْهُ فَهُوَ حَرَامٌ ، وَأَنَّ مَا أَمَرَنَا (بِهِ) فَإِنَّمَا يَلْزَمُنَا مِنْهُ مَا نَسْتَطِيعُ فَقَطْ ، وَأَنْ نَفْعَلَ مَرَّةً

وَاحِدَةً نُؤَدِّي مَا أُلْزِمْنَا ، وَلَا يَلْزَمُنَا تَكْرَارُهُ فَأَيُّ حَاجَةٍ بِأَحَدٍ إِلَى الْقِيَاسِ أَوْ رَأْيٍ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ الْوَاضِحِ ، وَنَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : لَا يَجُوزُ إِبْطَالُ الْقَوْلِ بِالْقِيَاسِ إِلَّا حَتَّى تُوجِدُونَا تَحْرِيمَ الْقَوْلِ بِهِ نَصًّا فِي الْقُرْآنِ . قُلْنَا : قَدْ أَوْجَدْنَاكُمُ الْبُرْهَانَ نَصًّا بِذَلِكَ بِأَلَّا تَرُدُّوا التَّنَازُعَ إِلَّا إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَقَطْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) (7 : 3) وَقَالَ تَعَالَى : (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (16 : 74) وَالْقِيَاسُ ضَرْبُ أَمْثَالٍ فِي الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى .

ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ : إنْ عَارَضْتُمُ الرَّوَافِضَ بِمِثْلِ هَذَا فَقَالُوا لَكُمْ : لَا يَجُوزُ الْقَوْلُ بِإِبْطَالِ الْإِلْهَامِ ، وَلَا بِإِبْطَالِ اتِّبَاعِ الْإِمَامِ ، إلَّا حَتَّى تُوجِدُونَا تَحْرِيمَ ذَلِكَ نَصًّا . أَوْ قَالَ لَكُمْ ذَلِكَ أَهْلُ كُلِّ مَقَالَةٍ فِي تَقْلِيدِ إنْسَانٍ بِعَيْنِهِ ، بِمَاذَا تَتَفَصَّوْنَ ؟ بَلِ الْحَقُّ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يُقَالَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى : إنَّهُ حَرَّمَ أَوْ حَلَّلَ أَوْ أَوْجَبَ إلَّا بِنَصٍّ فَقَطْ ، وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ اهـ .

(مُلَخَّصُ مَا حَقَّقَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ) .

عَقَدَ فِي أَوَّلِ كِتَابِهِ (إعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فَصْلًا فِي تَحْرِيمِ الْإِفْتَاءِ فِي دِينِ اللَّهِ بِالرَّأْيِ الْمُخَالِفِ لِلنُّصُوصِ ، صَدَّرَهُ بِآيَاتٍ أَوَّلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (28 : 50) قَالَ : فَقَسَّمَ الْأَمْرَ إلَى أَمْرَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا إمَّا الِاسْتِجَابَةُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَمَا جَاءَ بِهِ ، وَإِمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى ، فَكُلُّ مَا لَمْ يَأْتِ بِهِ الرَّسُولُ فَهُوَ مِنَ الْهَوَى ، وَقَفَّى عَلَى الْآيَاتِ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ أَوَّلُهَا حَدِيثُ

عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ : " إِنَّ اللهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ إِذْ أَعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعًا ، وَلَكِنْ يَنْزِعُهُ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ " وَحَدِيثُ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ : " تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، أَعْظَمُهَا فِتْنَةً قَوْمٌ يَقِيسُونَ الدِّينَ بِرَأْيِهِمْ يُحَرِّمُونَ بِهِ مَا أَحَلَّ اللهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ " رَوَاهُ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُ .

ثُمَّ أَوْرَدَ فَصْلًا بَلْ فَصْلَيْنِ فِيمَا رُوِيَ عَنْ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ كَالْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَالْعَبَادِلَةِ وَغَيْرِهِمْ فِي ذَمِّ الرَّأْيِ وَمِنْهَا قَوْلُ عُمَرَ : " إِيَّاكُمْ وَأَصْحَابَ الرَّأْيِ فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ السُّنَنِ ، أَعْيَتْهُمُ الْأَحَادِيثُ أَنْ يَعُوهَا ، وَتَفَلَّتَتْ مِنْهُمْ أَنْ يَحْفَظُوهَا . فَقَالُوا بِالرَّأْيِ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا " وَلِلْأَثَرِ أَلْفَاظٌ أُخْرَى ، قَالَ الْمُصَنِّفُ : وَأَسَانِيدُ هَذِهِ الْآثَارِ عَنْ عُمَرَ فِي غَايَةِ الصِّحَّةِ .

(162/217)

ثُمَّ عَقَدَ فَصْلًا آخَرَ ذَكَرَ فِيهِ مَا احْتَجَّ بِهِ أَهْلُ الرَّأْيِ مِنْ إِفْتَاءِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَقَضَائِهِمْ بِالرَّأْيِ ، كَقَوْلِ عُمَرَ لِكَاتِبِهِ : " قُلْ : هَذَا مَا رَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ " وَقَوْلِ عُثْمَانَ فِي الْأَمْرِ بِإِفْرَادِ الْعُمْرَةِ عَنِ الْحَجِّ : " إِنَّمَا هُوَ رَأْيٌ رَأَيْتُهُ " وَقَوْلِ عَلِيٍّ فِي أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ : " اتَّفَقَ رَأْيِي وَرَأْيُ عُمَرَ عَلَى أَلَّا يَبِعْنَ " وَمَا نُقِلَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنَ

الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ عَلَى الْقَضَاءِ بِكِتَابِ اللهِ إِنْ وُجِدَ فِيهِ الْحُكْمُ وَإِلَّا فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ فِيهِمَا مَا يُقْضَى بِهِ ، جَمَعُوا لَهُ النَّاسَ أَوْ رُؤَسَاءَ النَّاسِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : عُلَمَاءَ النَّاسِ وَكِلَاهُمَا صَوَابٌ فَقَدْ كَانَ الرُّؤَسَاءُ عُلَمَاءَ وَاسْتَشَارُوهُمْ ، وَكَانَ يَكُونُ الْقَضَاءُ بِمَا يَجْتَمِعُ رَأْيُهُمْ عَلَيْهِ . وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةِ عُمَرَ ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى .

وَمِنْهُ مَا فِي كِتَابِ عُمَرَ إِلَى شُرَيْحٍ : " إِذَا وَجَدْتَ شَيْئًا فِي كِتَابِ اللهِ فَاقْضِ بِهِ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى غَيْرِهِ ، وَإِنْ أَتَاكَ شَيْءٌ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَاقْضِ بِمَا سَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنْ أَتَاكَ مَا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَمْ يَسُنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْضِ بِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ

(163/217)

النَّاسُ ، وَإِنْ أَتَاكَ مَا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَمْ يَسُنَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهِ أَحَدٌ قَبْلَكَ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَجْتَهِدَ رَأْيَكَ فَتَقَدَّمْ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَتَأَخَّرَ فَتَأَخَّرَ ، وَمَا أَرَى التَّأَخُّرَ إِلَّا خَيْرًا لَكَ " وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ جَرِيرٍ الِاقْتِصَارُ عَلَى أَمْرِهِ بِأَنْ يَجْتَهِدَ رَأْيَهُ عِنْدَ عَدَمِ النَّصِّ . وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ كَلَامٌ بِمَعْنَى هَذَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِي الْحَالَةِ الثَّالِثَةِ لِمَنْ عَرَضَ عَلَيْهِ

الْقَضَاءَ : " فَإِنْ جَاءَهُ أَمْرٌ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَا قَضَى بِهِ نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلْيَقْضِ بِمَا قَضَى بِهِ الصَّالِحُونَ " وَقَالَ فِي الْحَالَةِ الرَّابِعَةِ : " فَلْيَجْتَهِدْ رَأْيَهُ وَلَا يَقُلْ إِنِّي أَرَى وَإِنِّي أَخَافُ ، فَإِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَالْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ مُشْتَبِهَاتٌ فَدَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكَ " اهـ .

وَمُرَادُ ابْنِ مَسْعُودٍ بِالصَّالِحِينَ هُوَ عَيْنُ مُرَادِ عُمَرَ بِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ فِي كِتَابِهِ إِلَى شُرَيْحٍ ، كَالَّذِينَ كَانَ يَسْتَشِيرُهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(164/217)

أَقُولُ : هَذَا زُبْدَةُ مَا وَرَدَ فِي هَذَا الْفَصْلِ وَغَيْرِهِ بِمَعْنَاهُ . وَكُلُّهُ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْقَضَاءِ إِلَّا رَأْيَ عُثْمَانَ فِي إِفْرَادِ الْعُمْرَةِ عَنِ الْحَجِّ ، فَإِنَّهُ فِي مَسْأَلَةٍ دِينِيَّةٍ ، وَهُوَ شَاذٌّ وَلَا حُجَّةَ فِي مِثْلِ هَذَا بِقَوْلِ صَحَابِيٍّ ، وَهُوَ لَمْ يَأْمُرْ أَحَدًا بِالْعَمَلِ بِهِ ، بَلْ تَرَكَهُ إِلَى النَّاسِ وَهُمْ مُخَيَّرُونَ فِيهِ شَرْعًا . وَأَمَّا الْقَضَاءُ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ فَهُوَ لَيْسَ بِرَأْيِ صَحَابِيٍّ وَاحِدٍ ، وَإِنَّمَا تِلْكَ سُنَّتُهُمُ الَّتِي جَرَوْا عَلَيْهَا ، وَاهْتَدَى بِهِمْ فِيهَا سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ فَكَانَتْ إِجْمَاعًا صَحِيحًا . وَلَكِنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ تَرَكُوا جَمْعَ الْعُلَمَاءِ لِاسْتِشَارَتِهِمْ فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ ، اكْتِفَاءً بِتَقْلِيدِ مَذَاهِبِهِمْ . وَلَا حُجَّةَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَلَا فِي أَقْوَالِهِمْ فِيهَا عَلَى جَوَازِ اسْتِخْرَاجِ أَحْكَامٍ لَمْ يَرِدْ فِيهَا

قُرْآنٌ وَلَا سُنَّةٌ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، كَمَا فَعَلَ الْمُؤَلِّفُونَ فِي الْفِقْهِ ، وَإِنَّمَا الِاجْتِهَادُ وَالرَّأْيُ فِي الْأَقْضِيَةِ الَّتِي تَحْدُثُ لِلنَّاسِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ أُمُورِ السِّيَاسَةِ ، وَهِيَ الَّتِي فَوَّضَ اللهُ أَمْرَهَا إِلَى أُولِي الْأَمْرِ بِشَرْطِهِ .

الْجَمْعُ بَيْنَ إِثْبَاتِ الرَّأْيِ وَإِنْكَارِهِ .

ثُمَّ عَقَدَ ابْنُ الْقَيِّمِ فَصْلًا لِلْفَصْلِ بَيْنَ الرَّأْيِ الَّذِي يُعْمَلُ بِهِ وَالَّذِي لَا يُعْمَلُ بِهِ فَقَالَ :

(165/217)

" وَلَا تَعَارُضَ بِحَمْدِ اللهِ بَيْنَ هَذِهِ الْآثَارِ ، عَنِ السَّادَةِ الْأَخْيَارِ ، بَلْ كُلُّهَا حَقٌّ وَكُلٌّ مِنْهَا لَهُ وَجْهٌ . وَهَذَا إِنَّمَا يُتَبَيَّنُ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الرَّأْيِ الْبَاطِلِ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الدِّينِ وَالرَّأْيِ الْحَقِّ الَّذِي لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ ، فَنَقُولُ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ :

الرَّأْيُ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرُ رَأَى الشَّيْءَ يَرَاهُ رَأْيًا ، ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى الْمَرْئِيِّ نَفْسِهِ ، مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ الْمَصْدَرِ فِي الْمَفْعُولِ ، كَالْهَوَى فِي الْأَصْلِ مَصْدَرُ هَوِيَهُ يَهْوَاهُ هَوًى ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي الشَّيْءِ الَّذِي يُهْوَى فَيُقَالُ : هَذَا هَوَى فُلَانٍ . وَالْعَرَبُ تُفَرِّقُ بَيْنَ مَصَادِرِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ بِحَسَبِ مَحَالِّهَا ، فَتَقُولُ : رَأَى كَذَا فِي النَّوْمِ رُؤْيًا وَرَآهُ فِي الْيَقَظَةِ رُؤْيَةً ، وَرَأَى كَذَا رَأْيًا لِمَا يُعْلَمُ بِالْقَلْبِ وَلَا يُرَى بِالْعَيْنِ وَلَكِنَّهُمْ خَصَّوْهُ بِمَا يَرَاهُ الْقَلْبُ بَعْدَ فِكْرٍ وَتَأَمُّلٍ ،

وَطَلَبِ لِمَعْرِفَةِ وَجْهِ الصَّوَابِ مِمَّا تَتَعَارَضُ فِيهِ الْأَمَارَاتُ ، فَلَا يُقَالُ لِمَنْ رَأَى بِقَلْبِهِ أَمْرًا غَائِبًا عَنْهُ مِمَّا يُحِسُّ بِهِ : إنَّهُ رَأَيُهُ ، وَلَا يُقَالُ أَيْضًا لِلْأَمْرِ الْمَعْقُولِ الَّذِي لَا تَخْتَلِفُ فِيهِ الْعُقُولُ وَلَا تَتَعَارَضُ فِيهِ الْأَمَارَاتُ : إنَّهُ رَأَى ، وَإِنِ احْتَاجَ إلَى فِكْرٍ وَتَأَمُّلٍ ، كَدَقَائِقِ الْحِسَابِ وَنَحْوِهَا .

(166/217)

" وَإِذَا عُرِفَ هَذَا فَالرَّأْيُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : رَأْيٌ بَاطِلٌ بِلَا رَيْبٍ ، وَرَأْيٌ صَحِيحٌ ، وَرَأْيٌ هُوَ مَوْضِعُ الِاشْتِبَاهِ . وَالْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ قَدْ أَشَارَ إلَيْهَا السَّلَفُ ، فَاسْتَعْمَلُوا الرَّأْيَ الصَّحِيحَ وَعَمِلُوا بِهِ وَأَفْتَوْا بِهِ وَسَوَّغُوا الْقَوْلَ بِهِ ، وَذَمُّوا الْبَاطِلَ وَمَنَعُوا مِنَ الْعَمَلِ وَالْفُتْيَا وَالْقَضَاءِ بِهِ ، وَأَطْلَقُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِذَمِّهِ وَذَمِّ أَهْلِهِ .

(167/217)

" وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ : سَوَّغُوا الْعَمَلَ وَالْفُتْيَا وَالْقَضَاءَ بِهِ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ إلَيْهِ حَيْثُ لَا يُوجَدُ مِنْهُ بُدٌّ ، وَلَمْ يُلْزِمُوا أَحَدًا الْعَمَلَ بِهِ ، وَلَمْ يُحَرِّمُوا مُخَالَفَتَهُ ، وَلَا جَعَلُوا مُخَالِفَهُ مُخَالِفًا لِلدِّينِ ، بَلْ

خَيَّرُوا بَيْنَ قَبُولِهِ وَرَدِّهِ ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَا أُبِيحَ لِلْمُضْطَرِّ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الَّذِي يَحْرُمُ عِنْدَ عَدَمِ الضَّرُورَةِ إلَيْهِ . كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : سَأَلْتُ الشَّافِعِيَّ عَنِ الْقِيَاسِ فَقَالَ لِي : عِنْدَ الضَّرُورَةِ . وَكَانَ اسْتِعْمَالُهُمْ لِهَذَا النَّوْعِ بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ ، لَمْ يُفَرِّطُوا فِيهِ وَيُفَرِّعُوهُ وَيُوَلِّدُوهُ وَيُوَسِّعُوهُ . كَمَا صَنَعَ الْمُتَأَخِّرُونَ بِحَيْثُ اعْتَاضُوا بِهِ عَنِ النُّصُوصِ وَالْآثَارِ ، وَكَانَ أَسْهَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِفْظِهَا ، كَمَا يُوجَدُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَضْبِطُ قَوَاعِدَ الْإِفْتَاءِ لِصُعُوبَةِ النَّقْلِ عَلَيْهِ وَتَعَسُّرِ حِفْظِهِ ، فَلَمْ يَتَعَدَّوْا فِي اسْتِعْمَالِهِ قَدْرَ الضَّرُورَةِ ، وَلَمْ يَبْغُوا بِالْعُدُولِ إلَيْهِ مَعَ تَمَكُّنِهِمْ مِنَ النُّصُوصِ وَالْآثَارِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْمُضْطَرِّ إلَى الطَّعَامِ الْمُحَرَّمِ : (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (2 : 173) فَالْبَاغِي الَّذِي يَبْتَغِي الْمَيْتَةَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّوَصُّلِ إلَى الْمُذَكَّى ، وَالْعَادِي الَّذِي يَتَعَدَّى قَدْرَ الْحَاجَةِ بِأَكْلِهَا .

ثُمَّ بَيَّنَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الرَّأْيَ الْبَاطِلَ أَنْوَاعٌ قَالَ :

(168/217)

(النَّوْعُ الْأَوَّلُ) : الرَّأْيُ الْمُخَالِفُ لِلنُّصُوصِ . وَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ فَسَادُهُ وَبُطْلَانُهُ ، وَلَا تَحِلُّ الْفُتْيَا بِهِ وَلَا الْقَضَاءُ ، وَإِنْ وَقَعَ فِيهِ مَنْ وَقَعَ بِنَوْعِ تَأْوِيلٍ وَتَقْلِيدٍ .

(النَّوْعُ الثَّانِي) : هُوَ الْكَلَامُ فِي الدِّينِ بِالْخَرْصِ وَالظَّنِّ مَعَ التَّفْرِيطِ وَالتَّقْصِيرِ فِي مَعْرِفَةِ

النُّصُوصِ وَفَهْمِهَا وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْهَا . فَإِنَّ مَنْ جَهِلَهَا وَقَاسَ بِرَأْيِهِ فِيمَا سُئِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، بَلْ لِمُجَرَّدِ قَدْرٍ جَامِعٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَلْحَقَ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ ، أَوْ لِمُجَرَّدِ قَدْرٍ فَارِقٍ يَرَاهُ بَيْنَهُمَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا فِي الْحُكْمِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِي النُّصُوصِ وَالْآثَارِ ، فَقَدْ وَقَعَ فِي الرَّأْيِ الْمَذْمُومِ الْبَاطِلِ .

(النَّوْعُ الثَّالِثُ) : الرَّأْيُ الْمُتَضَمِّنُ تَعْطِيلَ أَسْمَاءِ الرَّبِّ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِالْمَقَايِيسِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي وَضَعَهَا أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ إلَخْ .

(النَّوْعُ الرَّابِعُ) : الرَّأْيُ الَّذِي أُحْدِثَتْ بِهِ الْبِدَعُ وَغُيِّرَتْ بِهِ السُّنَنُ ، وَعَمَّ بِهِ الْبَلَاءُ ، وَتَرَبَّى عَلَيْهِ الصَّغِيرُ ، وَهَرِمَ فِيهِ الْكَبِيرُ .

(قَالَ) : فَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الْأَرْبَعَةُ مِنَ الرَّأْيِ الَّذِي اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا عَلَى ذَمِّهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنَ الدِّينِ .

(169/217)

(النَّوْعُ الْخَامِسُ) : مَا ذَكَرَهُ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الرَّأْيَ الْمَذْمُومَ فِي هَذِهِ الْآثَارِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ أَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُ الْقَوْلُ فِي شَرَائِعِ الدِّينِ بِالِاسْتِحْسَانِ وَالظُّنُونِ ، وَالِاشْتِغَالِ بِحِفْظِ الْمُعْضِلَاتِ وَالْأُغْلُوطَاتِ

، وَرَدُّ الْفُرُوعِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ قِيَاسًا دُونَ رَدِّهَا إِلَى أُصُولِهَا وَالنَّظَرِ فِي عِلَلِهَا وَاعْتِبَارِهَا إِلَخْ .

(أَقُولُ) : ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ فِي هَذَا تَعْطِيلَ السُّنَنِ ، وَاسْتَشْهَدَ عَلَى بُطْلَانِ هَذَا الرَّأْيِ وَمَا فَسَّرَهُ بِهِ بِالْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي نَهْيِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْأُغْلُوطَاتِ ، وَعَنْ عَضْلِ الْمَسَائِلِ ، وَعَنْ كَثْرَةِ الْمَسَائِلِ ، وَقَدْ أَوْرَدَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي هَذَا الْفَصْلِ أَكْثَرَ مَا أَوْرَدْنَاهُ آنِفًا عَنْ فَتْحِ الْبَارِي ، وَمِنْهُ مَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا .

(آثَارُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ) .

(170/217)

ثُمَّ عَقَدَ ابْنُ الْقَيِّمِ لِآثَارِ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ فِي ذَمِّ الْقِيَاسِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ ، وَبَيَانِ كَوْنِ الْقَائِلِينَ بِهِ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ يَجْعَلَهُ النَّاسُ دِينًا يُدَانُ بِهِ وَشَرْعًا مُتَّبَعًا لِلْأُمَّةِ ، وَكَوْنُ الْمُتَعَصِّبِينَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمُ انْحَرَفُوا عَنْ طَرِيقِهِمْ وَخَالَفُوا مَذْهَبَهُمْ غُلُوًّا فِيهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَعْنَبِيِّ : دَخَلْتُ عَلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسْتُ فَرَأَيْتُهُ يَبْكِي ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا الَّذِي يُبْكِيكَ ؟ فَقَالَ لِي : يَا ابْنَ – قَعْنَبٍ وَمَا لِيَ لَا أَبْكِي ؟ وَمَنْ أَحَقُّ بِالْبُكَاءِ مِنِّي ؟ وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي ضُرِبْتُ بِكُلِّ مَسْأَلَةٍ أَفْتَيْتُ فِيهَا

بِالرَّأْيِ سَوْطًا ، وَقَدْ كَانَتْ لِي السَّعَةُ فِيمَا قَدْ سُبِقْتُ إِلَيْهِ ، وَلَيْتَنِي لَمْ أُفْتِ بِالرَّأْيِ . وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ : مَثَلُ الَّذِي يَنْظُرُ فِي الرَّأْيِ ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ مَثَلُ الْمَجْنُونِ الَّذِي عُولِجَ حَتَّى بَرِئَ فَأَعْقَلَ مَا يَكُونُ قَدْ هَاجَ . وَمِنْهُ تَقْدِيمُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ الْحَدِيثَ الضَّعِيفَ عَلَى الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ ، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا فِي مَذْهَبِ

(171/217)

أَبِي حَنِيفَةَ الْأَخْذُ بِحَدِيثِ الْقَهْقَهَةِ فِي الصَّلَاةِ ، وَحَدِيثِ الْوُضُوءِ بِنَبِيذِ التَّمْرِ فِي السَّفَرِ ، وَحَدِيثِ قَطْعِ السَّارِقِ فِي أَقَلَّ مِنْ عَشَرَةِ دَرَاهِمَ ، وَحَدِيثِ جَعْلِ أَكْثَرِ الْحَيْضِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَالْحَدِيثِ فِي اشْتِرَاطِ الْمِصْرِ لِإِقَامَةِ الْجُمُعَةِ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ضَعِيفَةٌ وَقَدْ قَدَّمَهَا عَلَى الْقِيَاسِ ، وَقَدْ نَهَى جَمِيعُ الْعُلَمَاءِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ وَتَقْلِيدِ غَيْرِهِمْ فِي دِينِ اللَّهِ .

(أَنْوَاعُ الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ) .

ثُمَّ بَيَّنَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَنْوَاعَ الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ وَهِيَ أَرْبَعَةٌ :

(أَوَّلُهَا) : رَأْيُ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

(ثَانِيهَا) : الرَّأْيُ الَّذِي يُفَسِّرُ النُّصُوصَ . وَيُبَيِّنُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ مِنْهَا ، وَيُقَرِّرُهَا وَيُوَضِّحُ مَحَاسِنَهَا ، وَيُسَهِّلُ طَرِيقَ الِاسْتِنْبَاطِ مِنْهَا . وَقَدْ بَيَّنَ لَهُ الشَّوَاهِدَ مِمَّا وَرَدَ عَنِ الصَّحَابَةِ

مِنَ الرَّأْيِ فِي التَّفْسِيرِ ، ثُمَّ أَوْرَدَ عَلَى هَذَا مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ : " وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي إِنْ قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ بِرَأْيِي ؟ " وَحَدِيثِ : " مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ " .

(172/217)

وَأَجَابَ ابْنُ الْقَيِّمِ عَنْ ذَلِكَ الْإِيرَادِ بِأَنَّ الرَّأْيَ نَوْعَانِ : رَأْيٌ مُجَرَّدٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَلْ هُوَ خَرْصٌ وَتَخْمِينٌ ; فَهَذَا الَّذِي أَعَاذَ اللهُ الصَّحَابَةَ مِنْهُ ، وَرَأْيٌ مُسْتَنِدٌ إِلَى اسْتِدْلَالٍ وَاسْتِنْبَاطٍ مِنَ النَّصِّ أَوْ مِنْ نَصٍّ آخَرَ مَعَهُ ، فَهَذَا مِنْ أَلْطَفِ فَهْمِ النُّصُوصِ وَأَدَقِّهِ . وَمَثَّلَ لَهُ بِتَفْسِيرِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْكَلَالَةَ بِأَنَّهَا مَا عَدَا الْوَالِدَ وَالْوَلَدَ .

أَقُولُ : وَقَدْ بَيَّنْتُ ذَلِكَ أَتَمَّ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْكَلَالَةِ فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ ، وَلَا تَنْسَ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، قَوْلَ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ غَيْرَ مَا فِي كِتَابِ اللهِ قَالَ : " إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ " .

(ثَالِثُهَا) : رَأْيُ جَمَاعَةِ الشُّورَى ، وَقَدْ فَصَّلْتُ الْقَوْلَ فِيهِ بِمَا لَمْ أُسْبَقْ إِلَيْهِ فِيمَا أَعْلَمُ فِي الْكَلَامِ عَلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ النِّسَاءِ .

(173/217)

(رَابِعُهَا) : الِاجْتِهَادُ الَّذِي أَجَازَهُ الصَّحَابَةُ فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ وَلَا مَا قَضَى بِهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ ، وَكَانَ الْأَوْلَى أَنْ يَقُولَ : وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ مِنْهُ ، وَفِي حُكْمِهِ مَا قَضَى بِهِ الرَّاشِدُونَ ، وَشَرْطُ هَذَا الِاجْتِهَادِ أَنْ يَكُونَ فِي مَسَائِلِ الْقَضَاءِ وَالْمُعَامَلَاتِ ، لَا فِي الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا مِنْ قَبْلُ ، وَسَيُعَادُ الْقَوْلُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَدِ اسْتَشْهَدَ لِهَذَا النَّوْعِ بِكِتَابِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْقَضَاءِ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَقَدْ أَثْبَتَهُ وَشَرَحَهُ شَرْحًا طَوِيلًا ، وَابْنُ حَزْمٍ يُنْكِرُ هَذَا الْكِتَابَ كَمَا تَقَدَّمَ .

ثُمَّ أَطَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِيمَا عُدَّ مِنْ قَبِيلِ الْقِيَاسِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ ، وَذَكَرَ طَائِفَةً مِنْ أَقْيِسَةِ الصَّحَابَةِ بِنَاءً عَلَى التَّوَسُّعِ فِي مَعْنَى الْقِيَاسِ ، وَلَكِنْ لَا تَنْطَبِقُ تِلْكَ الْأَمْثِلَةُ كُلُّهَا عَلَى الْقِيَاسِ الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ فِي عِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَلَيْسَتْ كُلُّهَا فِي الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوْفِيَ كُلَّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَلُوذَ بِهِ وَيَلْجَأَ إِلَيْهِ الْقَائِلُونَ بِالْقِيَاسِ ، فَكَانَ مِنْهُ مَا لَعَلَّهُ لَمْ يَخْطُرْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى بَالٍ ، وَلِذَلِكَ قَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِمَا يُقَابِلُهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي ذَمِّ الْقِيَاسِ وَكَوْنِهِ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ . فَافْتَتَحَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

(فَصْلٌ) قَدْ أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِ فُصُولٍ فِي الْقِيَاسِ نَافِعَةٍ وَأُصُولٍ جَامِعَةٍ فِي تَقْرِيرِ الْقِيَاسِ وَالِاحْتِجَاجِ بِهِ لَعَلَّكَ لَا تَظْفَرُ بِهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ وَلَا تَقْرُبُ مِنْهَا ، فَلْنَذْكُرْ مَعَ ذَلِكَ مَا قَابَلَهَا مِنَ النُّصُوصِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَمِّ الْقِيَاسِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ ، وَحُصُولِ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ وَالِاكْتِفَاءِ بِالْوَحْيَيْنِ .

(مِثَالُ الْقِيَاسِ الْبَاطِلِ) .

ثُمَّ إِنَّهُ أَطَالَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَسَرْدِ الْأَمْثِلَةِ الْكَثِيرَةِ لِلْأَقْيِسَةِ الْبَاطِلَةِ مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ تِلْكَ الْآيَاتِ ، وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ ، فَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِمَّا ذَكَرَهُ فِي هَذَا السِّيَاقِ ، وَزَادَ هُوَ إِنْكَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عُمَرَ وَأُسَامَةَ مَحْضَ الْقِيَاسِ فِي الْحُلَّتَيْنِ الْحَرِيرِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَهْدَاهُمَا إِلَيْهِمَا إِذْ لَبِسَهَا أُسَامَةُ قِيَاسًا لِلُّبْسِ عَلَى التَّمَلُّكِ وَالِانْتِفَاعِ وَالْبَيْعِ ، وَرَدَّهَا عُمَرُ قِيَاسًا لِتَمَلُّكِهَا عَلَى لُبْسِهَا الْمُحَرَّمِ بِالنَّصِّ . (قَالَ) : فَأُسَامَةُ أَبَاحَ وَعُمَرُ حَرَّمَ قِيَاسًا ، فَأَبْطَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْقِيَاسَيْنِ

وَقَالَ لِعُمَرَ : " إنَّمَا بَعَثْتُ بِهَا إلَيْكَ لِتَسْتَمْتِعَ بِهَا " وَقَالَ لِأُسَامَةَ : " إنِّي لَمْ أَبْعَثْهَا إلَيْكَ لِتَلْبَسَهَا وَلَكِنْ بَعَثْتُهَا إلَيْكَ لِتُشَقِّقَهَا خُمُرًا لِنِسَائِكَ " وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا تَقَدَّمَ إلَيْهِمْ فِي الْحَرِيرِ بِالنَّصِّ عَلَى تَحْرِيمِ لُبْسِهِ فَقَطْ فَقَاسَا قِيَاسًا أَخْطَئَا فِيهِ ، فَأَحَدُهُمْ قَاسَ اللُّبْسَ عَلَى الْمِلْكِ ، وَعُمَرُ قَاسَ التَّمَلُّكَ عَلَى اللُّبْسِ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ أَنَّ مَا حَرَّمَهُ مِنَ اللُّبْسِ لَا يَتَعَدَّى إلَى غَيْرِهِ ، وَمَا أَبَاحَهُ مِنَ التَّمَلُّكِ لَا يَتَعَدَّى إلَى اللُّبْسِ ، وَهَذَا عَيْنُ إبْطَالِ الْقِيَاسِ " اهـ .

أَقُولُ : وَلَكِنَّ هَذَا لَمْ يَمْنَعْ بَعْضَ الْفُقَهَاءِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ قِيَاسِ كُلِّ اسْتِعْمَالٍ لِلْحَرِيرِ عَلَى اللُّبْسِ ، وَمِنْ قِيَاسِ كُلِّ اسْتِعْمَالٍ لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ عَلَى مَا وَرَدَ مِنْ نَهْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْأَكْلِ فِي صِحَافِهِمَا وَالشُّرْبِ مِنْ آنِيَتِهِمَا . وَهَكَذَا شَأْنُهُمْ فِي أَمْثِلَةِ ذَلِكَ .

(176/217)

ثُمَّ عَقَدَ فَصْلَيْنِ فِي ذَمِّ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِلْقِيَاسِ وَإِبْطَالِهِمْ لَهُ ، وَفَصْلًا فِي تَعَارُضِ الْأَقْيِسَةِ وَتَنَاقُضِهَا ، وَفَصْلًا آخَرَ فِي فَسَادِ الْقِيَاسِ وَبُطْلَانِهِ وَتَنَاقُضِ أَهْلِهِ فِيهِ وَاضْطِرَابِهِمْ تَأْصِيلًا وَتَفْصِيلًا ، وَذَكَرَ أَنْوَاعَ الْقِيَاسِ الْأَرْبَعَةَ عِنْدَ غُلَاتِهِمْ كَفُقَهَاءِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَهِيَ قِيَاسُ الْعِلَّةِ وَالدَّلَالَةِ وَالشُّبْهَةِ وَالطَّرْدِ ، وَذَكَرَ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً مِنْ أَقْيِسَتِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَاضْطِرَابِهِمْ فِي التَّأْصِيلِ

وَالتَّفْصِيلِ ، وَهَذَا الْفَصْلُ مِنْ أَجَلِّ الْفُصُولِ وَأَطْوَلِهَا ، وَفِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقِيسَةِ الَّتِي جَمَعُوا فِيهَا بَيْنَ مَا فَرَّقَتِ النُّصُوصُ أَوِ الْمِيزَانُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَفَرَّقُوا فِيهَا بَيْنَ مَا جَمَعَتْ ، وَبَيَانُ ذَلِكَ بِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ وَتَبِعَهُ عِدَّةُ فُصُولٍ تَفَرَّعَتْ مِنْهُ .

(الْحُكْمُ بَيْنَ مُثْبِتِي الْقِيَاسِ وَمُنْكِرِيهِ) .

بَعْدَ أَنْ أَطَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي بَسْطِ أَدِلَّةِ الْفَرِيقَيْنِ تَصَدَّى لِبَيَانِ الْحُكْمِ بَيْنَهُمَا بِإِثْبَاتِ الْقِيَاسِ الْمُوَافِقِ لِلنُّصُوصِ وَإِبْطَالِ الْقِيَاسِ الِاصْطِلَاحِيِّ ، وَمَهَّدَ لِذَلِكَ تَمْهِيدًا مُفِيدًا بَيَّنَ فِيهِ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَرْعٌ لِمَسْأَلَةِ الْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ وَالْأَسْبَابِ ، وَقَدِ انْقَسَمَ النَّاسُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا إِلَى غُلَاةٍ فِي النَّفْيِ وَغُلَاةٍ فِي الْإِثْبَاتِ وَمُعْتَدِلِينَ فِيهِ قَالَ :

(177/217)

وَسَبَبُ ذَلِكَ خَفَاءُ الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى وَالْمَذْهَبِ الْوَسَطِ الَّذِي هُوَ فِي الْمَذَاهِبِ كَالْإِسْلَامِ فِي الْأَدْيَانِ ، وَعَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَالْفُقَهَاءُ الْمُعْتَبَرُونَ بِهِ مِنْ إِثْبَاتِ الْحُكْمِ وَالْأَسْبَابِ وَالْغَايَاتِ الْمَحْمُودَةِ فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَأَمْرِهِ (أَيْ وَشَرْعِهِ) وَإِثْبَاتِ لَامِ التَّعْلِيلِ وَفَاءِ السَّبَبِيَّةِ فِي الْقَضَاءِ وَالشَّرْعِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ مَعَ صَرِيحِ الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ ، وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالْمِيزَانُ " ثُمَّ قَالَ :

" وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ كَمَا انْقَسَمُوا إلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ فِي هَذَا الْأَصْلِ ، انْقَسَمُوا فِي فَرْعِهِ وَهُوَ الْقِيَاسُ إلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ : فِرْقَةٌ أَنْكَرَتْهُ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَفِرْقَةٌ قَالَتْ بِهِ وَأَنْكَرَتِ الْحُكْمَ وَالتَّعْلِيلَ وَالْمُنَاسَبَاتِ . وَالْفِرْقَتَانِ أَخْلَتَا النُّصُوصَ عَلَى تَنَاوُلِهَا لِجَمِيعِ أَحْكَامِ الْمُكَلَّفِينَ ، وَإِنَّمَا أَحَالَتَا عَلَى الْقِيَاسِ . ثُمَّ قَالَ غُلَاتُهُمْ : أَحَالَتْ عَلَيْهِ أَكْثَرَ الْأَحْكَامِ ، وَقَالَ مُتَوَسِّطُوهُمْ : بَلْ أَحَالَتْ عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْكَامِ لَا سَبِيلَ إلَى إثْبَاتِهَا إلَّا بِهِ .

خَطَأُ نُفَاةِ الْقِيَاسِ وَمُثْبِتِيهِ بِإِطْلَاقٍ :

(178/217)

" وَالصَّوَابُ وَرَاءَ مَا عَلَيْهِ الْفِرَقُ الثَّلَاثُ . وَهُوَ أَنَّ النُّصُوصَ مُحِيطَةٌ بِأَحْكَامِ الْحَوَادِثِ ، وَلَمْ يُحِلْنَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ عَلَى رَأْيٍ وَلَا قِيَاسٍ ، بَلْ قَدْ بَيَّنَ الْأَحْكَامَ كُلَّهَا وَالنُّصُوصُ كَافِيَةٌ وَافِيَةٌ بِهَا ، وَالْقِيَاسُ حَقٌّ مُطَابِقٌ لِلنُّصُوصِ ، فَهُمَا دَلِيلَانِ لِلْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ ، وَقَدْ تَخْفَى دَلَالَةُ النَّصِّ وَلَا يَبْلُغُ الْعَالِمَ فَيَعْدِلُ إلَى الْقِيَاسِ ، ثُمَّ قَدْ يَظْهَرُ مُوَافِقًا لِلنَّصِّ فَيَكُونُ قِيَاسًا صَحِيحًا ، وَقَدْ يَظْهَرُ مُخَالِفًا لَهُ فَيَكُونُ فَاسِدًا . وَفِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا بُدَّ مِنْ مُوَافَقَتِهِ أَوْ مُخَالَفَتِهِ ، وَلَكِنْ عِنْدَ الْمُجْتَهِدِ قَدْ تَخْفَى مُوَافَقَتُهُ أَوْ مُخَالَفَتُهُ .

وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْ هَذِهِ الْفِرَقِ الثَّلَاثِ سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْحَقِّ فَاضْطَرُّوا

إِلَى تَوْسِعَةِ طَرِيقٍ أُخْرَى أَكْثَرَ مِمَّا تَحْتَمِلُهُ ، فَنَفَاهُ الْقِيَاسُ لَمَّا سَدُّوا عَلَى نُفُوسِهِمْ بَابَ التَّمْثِيلِ وَالتَّعْلِيلِ وَاعْتِبَارِ الْحُكْمِ وَالْمَصَالِحِ ، وَهُوَ مِنَ الْمِيزَانِ وَالْقِسْطِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ ، احْتَاجُوا إِلَى تَوْسِعَةِ الظَّاهِرِ وَالِاسْتِصْحَابِ فَحَمَّلُوهُمَا فَوْقَ الْحَاجَةِ وَوَسَّعُوهُمَا أَكْثَرَ مِمَّا يَسَعَانِهِ ، فَحَيْثُ فَهِمُوا مِنَ النَّصِّ حُكْمًا أَثْبَتُوهُ وَلَمْ يُبَالُوا بِمَا وَرَاءَهُ ، وَحَيْثُ لَمْ يَفْهَمُوهُ مِنْهُ نَفَوْهُ وَحَمَلُوا الِاسْتِصْحَابَ ، وَأَحْسَنُوا فِي اعْتِنَائِهِمْ بِالنُّصُوصِ وَنَصْرِهَا وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَعَدَمِ تَقْدِيمِ غَيْرِهَا عَلَيْهَا مِنْ رَأْيٍ أَوْ قِيَاسٍ أَوْ تَقْلِيدٍ ، وَأَحْسَنُوا فِي رَدِّ الْأَقْيِسَةِ الْبَاطِلَةِ وَبَيَانِهِمْ تَنَاقُضَ أَهْلِهَا فِي نَفْسِ الْقِيَاسِ وَتَرْكِهِمْ لَهُ ، وَأَخْذِهِمْ بِقِيَاسٍ وَتَرْكِهِمْ مَا هُوَ أَوْلَى مِنْهُ وَلَكِنْ أَخْطَأُوا مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ .

بَيَانُ مَا أَخْطَأَ فِيهِ نُفَاةُ الْقِيَاسِ :

(الْخَطَأُ الْأَوَّلُ) : رَدُّ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ وَلَا سِيَّمَا الْمَنْصُوصُ عَلَى عِلَّتِهِ الَّتِي يَجْرِي النَّصُّ عَلَيْهَا مَجْرَى التَّنْصِيصِ عَلَى التَّعْمِيمِ بِاللَّفْظِ ، وَلَا يَتَوَقَّفُ عَاقِلٌ فِي أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ لَعَنَ عَبْدَ اللَّهِ حِمَارًا عَلَى كَثْرَةِ شُرْبِهِ لِلْخَمْرِ : " لَا تَلْعَنْهُ ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ : لَا تَلْعَنُوا كُلَّ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَفِي أَنَّ قَوْلَهُ : " إنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ " بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ : يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ كُلِّ رِجْسٍ ، وَفِي أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ) (6 : 145) نَهَى عَنْ كُلِّ رِجْسٍ ، وَفِي أَنَّ قَوْلَهُ فِي الْهِرَّةِ : " لَيْسَتْ بِنَجَسٍ إنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ " بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ : كُلُّ مَا هُوَ مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِنَجَسٍ ، وَلَا يَسْتَرِيبُ أَحَدٌ فِي أَنَّ مَنْ قَالَ لِغَيْرِهِ : لَا تَأْكُلْ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ فَإِنَّهُ مَسْمُومٌ نَهَى لَهُ عَنْ كُلِّ طَعَامٍ كَذَلِكَ . وَإِذَا قَالَ : لَا تَشْرَبْ هَذَا الشَّرَابَ فَإِنَّهُ مُسْكِرٌ نَهَى لَهُ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ ، وَلَا تَتَزَوَّجْ هَذِهِ الْمَرْأَةَ فَإِنَّهَا فَاجِرَةٌ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ .

(181/217)

(الْخَطَأُ الثَّانِي) : تَقْصِيرُهُمْ فِي فَهْمِ النُّصُوصِ ، فَكَمْ مِنْ حُكْمٍ دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ وَلَمْ يَفْهَمُوا دَلَالَتَهُ عَلَيْهِ . وَسَبَبُ هَذَا الْخَطَأِ حَصْرُهُمُ الدَّلَالَةَ فِي مُجَرَّدِ ظَاهِرِ اللَّفْظِ دُونَ إيمَائِهِ

وَتَنْبِيهِهِ وَإِشَارَتِهِ وَعُرْفِهِ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ ، فَلَمْ يَفْهَمُوا مِنْ قَوْلِهِ : (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) (17 : 23) ضَرْبًا وَلَا سَبًّا وَلَا إِهَانَةً غَيْرَ لَفْظَةِ (أُفٍّ) فَقَصَرُوا فِي فَهْمِ الْكُتَّابِ كَمَا قَصَرُوا فِي اعْتِبَارِ الْمِيزَانِ .

(الْخَطَأُ الثَّالِثُ) : تَحْمِيلُ الِاسْتِصْحَابِ فَوْقَ مَا يَسْتَحِقُّهُ وَجَزْمُهُمْ بِمُوجِبِهِ لِعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِالنَّاقِلِ ، وَلَيْسَ عَدَمُ الْعِلْمِ عِلْمًا بِالْعَدَمِ ، وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الِاسْتِصْحَابِ ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ أَقْسَامَهُ وَمَرَاتِبَهَا ، فَالِاسْتِصْحَابُ اسْتِفْعَالٌ مِنَ الصُّحْبَةِ ، وَهِيَ اسْتِدَامَةُ إِثْبَاتِ مَا كَانَ ثَابِتًا أَوْ نَفْيُ مَا كَانَ مَنْفِيًّا ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : اسْتِصْحَابُ الْبَرَاءَةِ الْأَصْلِيَّةِ ، وَاسْتِصْحَابُ الْوَصْفِ الْمُثْبِتِ لِلْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ حَتَّى يَثْبُتَ خِلَافُهُ ، وَاسْتِصْحَابُ حُكْمِ الْإِجْمَاعِ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ .

أَقُولُ : وَهَهُنَا أَطَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ وَأَمْثِلَتِهَا ثُمَّ قَالَ :

(الْخَطَأُ الرَّابِعُ) : لَهُمُ اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ عُقُودَ الْمُسْلِمِينَ وَشُرُوطَهُمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ كُلَّهَا عَلَى الْبُطْلَانِ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الصِّحَّةِ ، فَإِذَا لَمْ يَقُمْ عِنْدَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ شَرْطٍ أَوْ عَقْدٍ

أَوْ مُعَامَلَةٍ اسْتَصْحَبُوا بُطْلَانَهُ فَأَفْسَدُوا بِذَلِكَ كَثِيرًا مِنْ مُعَامَلَاتِ النَّاسِ وَعُقُودِهِمْ وَشُرُوطِهِمْ بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ بِنَاءً عَلَى هَذَا الْأَصْلِ ، وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى خِلَافِهِ ، وَأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْعُقُودِ وَالشُّرُوطِ الصِّحَّةُ ، إِلَّا مَا أَبْطَلَهُ الشَّارِعُ أَوْ نَهَى عَنْهُ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ ، فَإِنَّ الْحُكْمَ بِبُطْلَانِهَا حُكْمٌ بِالتَّحْرِيمِ وَالتَّأْثِيمِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا تَأْثِيمَ إِلَّا مَا أَثَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ بِهِ فَاعِلَهُ ، كَمَا أَنَّهُ لَا وَاجِبَ إِلَّا مَا أَوْجَبَهُ اللهُ ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ اللهُ ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ .

(183/217)

فَالْأَصْلُ فِي الْعِبَادَاتِ الْبُطْلَانُ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمْرِ ، وَالْأَصْلُ فِي الْعُقُودِ وَالْمُعَامَلَاتِ الصِّحَّةُ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْبُطْلَانِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا : أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَا يُعْبَدُ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ ، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ حَقُّهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَحَقُّهُ الَّذِي أَحَقَّهُ هُوَ وَرَضِيَ بِهِ وَشَرَّعَهُ ، وَأَمَّا الْعُقُودُ وَالشُّرُوطُ وَالْمُعَامَلَاتُ فَهُوَ عَفْوٌ حَتَّى يُحَرِّمَهَا ، وَلِهَذَا نَعَى اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مُخَالَفَةَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ ، وَهُوَ تَحْرِيمُ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَا لَمْ يُشَرِّعْهُ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَوْ سَكَتَ عَنْ إِبَاحَةِ ذَلِكَ وَعَنْ تَحْرِيمِهِ لَكَانَ ذَلِكَ عَفْوًا لَا يَجُوزُ الْحُكْمُ بِتَحْرِيمِهِ وَإِبْطَالِهِ ، فَإِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّهُ اللهُ وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ ، وَمَا سَكَتَ

عَنْهُ عَفْوًا لَا يَجُوزُ الْحُكْمُ بِتَحْرِيمِهِ وَإِبْطَالِهِ ، فَكُلُّ شَرْطٍ وَعَقْدٍ وَمُعَامَلَةٍ سَكَتَ عَنْهَا فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقَوْلُ بِتَحْرِيمِهَا ، فَإِنَّهُ سَكَتَ عَنْهَا رَحْمَةً مِنْهُ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ وَإِهْمَالٍ ، فَكَيْفَ وَقَدْ صَرَّحَتِ النُّصُوصُ بِأَنَّهَا عَلَى الْإِبَاحَةِ فِيمَا عَدَا مَا حَرَّمَهُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ كُلِّهَا . فَقَالَ تَعَالَى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ) (17 : 34) وَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) (5 : 1) وَقَالَ : (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) (23 : 8) وَقَالَ تَعَالَى : (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) (2 :

(184/217)

---

177) وَقَالَ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (61 : 2 ، 3) وَقَالَ : (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (3 : 76) وَقَالَ : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (8 : 58) وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ اهـ .

(أَقُولُ) : ثُمَّ إِنَّهُ أَوْرَدَ بَعْدَ هَذَا كَثِيرًا مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَفِيهَا مَا هُوَ عَامٌّ وَمَا هُوَ خَاصٌّ ، مِنْهَا حَدِيثُ أَبِي رَافِعٍ الَّذِي أَرْسَلَهُ الْمُشْرِكُونَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ، فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الْآنَ

فَارْجِعْ ، فَذَهَبَ ثُمَّ عَادَ فَأَسْلَمَ " رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ . وَحَدِيثُ حُذَيْفَةَ وَأَبِي حَسَلٍ اللَّذَيْنِ أَخَذَهُمَا الْمُشْرِكُونَ فَلَمْ يُطْلِقُوهُمَا إلَّا بَعْدَ أَنْ أَخَذُوا عَلَيْهِمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَيَنْصَرِفَانِ إلَى الْمَدِينَةِ وَلَا يُقَاتِلَانِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ قُبَيْلَ غَزْوَةِ بَدْرٍ ، فَلَمَّا أَخْبَرَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ قَالَ : " انْصَرِفَا ، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ " فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُمَا بِالْقِتَالِ مَعَهُ . وَقَدِ اسْتَوْفَيْنَا الْكَلَامَ عَلَى مَسْأَلَةِ الشُّرُوطِ فِي تَفْسِيرِ : (أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) (5 : 1) مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ .

(185/217)

(بَيَانُ مَا أَخْطَأَ فِيهِ مُثْبِتُو الْقِيَاسِ) .

ثُمَّ إنَّ ابْنَ الْقَيِّمِ بَيَّنَ أَنْوَاعَ الْخَطَأِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ مُثْبِتُو الْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَقَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِمَا هُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ عِنْدَهُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَقَالَ :

(فَصْلٌ) وَأَمَّا أَصْحَابُ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَعْتَنُوا بِالنُّصُوصِ وَلَمْ يَعْتَقِدُوهَا وَافِيَةً بِالْأَحْكَامِ وَلَا شَامِلَةً لَهَا ، وَغَلَا تُهُمْ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَفِ بِعُشْرِ مِعْشَارِهَا فَوَسَّعُوا طُرُقَ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ وَقَالُوا بِقِيَاسِ الشَّبَهِ ، وَعَلَّقُوا الْأَحْكَامَ بِأَوْصَافٍ لَا يُعْلَمُ أَنَّ الشَّارِعَ عَلَّقَهَا بِهَا ، وَاسْتَنْبَطُوا عِلَلًا لَا يُعْلَمُ أَنَّ الشَّارِعَ شَرَعَ الْأَحْكَامَ لِأَجْلِهَا ، ثُمَّ اضْطَرَّهُمْ ذَلِكَ إلَى أَنْ

عَارَضُوا بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ وَالْقِيَاسِ ، ثُمَّ اضْطَرَبُوا فَتَارَةً يُقَدِّمُونَ الْقِيَاسَ وَتَارَةً يُفَرِّقُونَ بَيْنَ النَّصِّ الْمَشْهُورِ وَغَيْرِ الْمَشْهُورِ ، وَاضْطَرَّهُمْ ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى أَنِ اعْتَقَدُوا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ أَنَّهَا شُرِعَتْ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ فَكَانَ خَطَؤُهُمْ مِنْ خَمْسَةِ أَوْجُهٍ .

" الْأَوَّلُ : ظَنُّهُمْ قُصُورَ النُّصُوصِ عَنْ بَيَانِ جَمِيعِ الْحَوَادِثِ .

" الثَّانِي : مُعَارَضَةُ كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ بِالرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ .

" الثَّالِثُ : اعْتِقَادُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ أَنَّهَا عَلَى خِلَافِ الْمِيزَانِ وَالْقِيَاسِ ، وَالْمِيزَانُ هُوَ الْعَدْلُ ، فَظَنُّوا أَنَّ الْعَدْلَ خِلَافُ مَا جَاءَتْ بِهِ هَذِهِ الْأَحْكَامُ .

(186/217)

" الرَّابِعُ : اعْتِبَارُهُمْ عِلَلًا وَأَوْصَافًا لَمْ يُعْلَمِ اعْتِبَارُ الشَّارِعِ لَهَا ، وَإِلْغَاؤُهُمْ عِلَلًا وَأَوْصَافًا اعْتَبَرَهَا الشَّارِعُ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

" الْخَامِسُ : تَنَاقُضُهُمْ فِي نَفْسِ الْقِيَاسِ كَمَا تَقَدَّمَ أَيْضًا . وَنَحْنُ نَعْقِدُ هَاهُنَا ثَلَاثَةَ فُصُولٍ : " الْفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي بَيَانِ شُمُولِ النُّصُوصِ لِلْأَحْكَامِ وَالِاكْتِفَاءِ بِهَا عَنِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ .

"

الْفَصْلُ الثَّانِي فِي سُقُوطِ الرَّأْيِ وَالِاجْتِهَادِ وَالْقِيَاسِ وَبُطْلَانِهَا مَعَ وُجُودِ النَّصِّ " .

" الْفَصْلُ الثَّالِثُ فِي بَيَانِ (أَنَّ) أَحْكَامَ الشَّرْعِ كُلَّهَا عَلَى وَفْقِ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ " وَلَيْسَ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حُكْمٌ يُخَالِفُ الْمِيزَانَ وَالْقِيَاسَ الصَّحِيحَ .

وَهَذِهِ الْفُصُولُ الثَّلَاثَةُ مِنْ أَهَمِّ فُصُولِ الْكِتَابِ ، وَبِهَا يَتَبَيَّنُ لِلْعَالِمِ الْمُنْصِفِ مِقْدَارُ الشَّرِيعَةِ وَجَلَالَتُهَا وَهُنَيَّتُهَا وَسَعَتُهَا وَفَضْلُهَا وَشَرَفُهَا عَلَى جَمِيعِ الشَّرَائِعِ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ عَامُّ الرِّسَالَةِ إِلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ ، فَرِسَالَتُهُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَدَقِيقِهِ وَجَلِيلِهِ ، فَكَمَا لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ عَنْ رِسَالَتِهِ فَكَذَلِكَ لَا يَخْرُجُ حُكْمٌ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ عَنْهُ وَعَنْ بَيَانِهِ لَهُ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّا لَا نُوَفِّي هَذِهِ الْفُصُولَ حَقَّهَا وَلَا نُقَارِبُ ، وَأَنَّهَا أَجَلُّ مِنْ عُلُومِنَا ، وَفَوْقَ إِدْرَاكِنَا ، وَلَكِنْ نُنَبِّهُ أَدْنَى تَنْبِيهٍ وَنُشِيرُ أَدْنَى إِشَارَةٍ إِلَى مَا نَفْتَحُ أَبْوَابَهَا وَنَنْهَجُ طُرُقَهَا وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ " اهـ .

أَقُولُ : إِنَّنَا لَمْ نَجِدْ فِي الْكِتَابِ إِلَّا فَصْلَيْنِ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي وَعَدَ بِهَا ، الْأَوَّلُ فِي شُمُولِ النُّصُوصِ وَإِغْنَائِهَا عَلَى الْقِيَاسِ ، وَالثَّانِي فِي بَيَانِ أَحْكَامِ الشَّرْعِ كُلِّهَا عَلَى وَفْقِ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ وَالْمِيزَانِ الْمُسْتَقِيمِ وَالْمُوَافِقَةِ لِعُقُولِ الْبَشَرِ وَمَصَالِحِهِمْ ، وَلَا نَدْرِي أَسَقَطَ الْفَصْلُ الَّذِي بَيَّنَ فِيهِ سُقُوطَ الرَّأْيِ وَالِاجْتِهَادِ وَالْقِيَاسِ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ ؟ أَمْ أَغْفَلَ كِتَابَتَهُ بَعْدَ الْوَعْدِ بِهِ نِسْيَانًا لِلْوَعْدِ وَاكْتِفَاءً بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْمَسْأَلَةِ ، وَكَوْنِ مَنْ يُعْتَدُّ بِدِينِهِ وَعِلْمِهِ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقِيَاسِ كَرَبِيعَةَ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ لَمْ يُثْبِتُوا حُكْمًا فِي مَسْأَلَةٍ فِيهَا نَصٌّ بِالْقِيَاسِ إِلَّا إِذَا كَانُوا غَيْرَ عَالِمِينَ بِالنَّصِّ أَوْ غَيْرَ ثَابِتٍ عِنْدَهُمْ ، أَوْ لَمْ يَفْهَمُوا الْحُكْمَ مِنْهُ .

(شُمُولُ النُّصُوصِ لِلْأَحْكَامِ وَتَفَاوُتُ الْأَفْهَامِ فِيهَا) .

وَقَدْ صُدِّرَ الْفَصْلُ الْأَوَّلُ بِمُقَدِّمَةٍ نَفِيسَةٍ فِي نَوْعَيِ الدَّلَالَةِ وَتَفَاوُتِ الْأَفْهَامِ فِي النُّصُوصِ فَقَالَ :

(189/217)

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ) فِي شُمُولِ النُّصُوصِ وَإِغْنَائِهَا عَنِ الْقِيَاسِ ، وَهَذَا يَتَوَقَّفُ عَلَى بَيَانِ مُقَدِّمَةٍ ، وَهِيَ : أَنَّ دَلَالَةَ النُّصُوصِ نَوْعَانِ : حَقِيقِيَّةٌ وَإِضَافِيَّةٌ . فَالْحَقِيقَةُ تَابِعَةٌ لِقَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ وَإِرَادَتِهِ ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ لَا تَخْتَلِفُ ، وَالْإِضَافِيَّةُ تَابِعَةٌ لِفَهْمِ السَّامِعِ وَإِدْرَاكِهِ وَجَوْدَةِ فِكْرِهِ

وَقَرِيحَتِهِ وَصَفَاءِ ذِهْنِهِ وَمَعْرِفَتِهِ الْأَلْفَاظَ وَمَرَاتِبَهَا ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا بِحَسَبِ تَبَانِي السَّامِعِينَ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أَحْفَظَ الصَّحَابَةِ لِلْحَدِيثِ وَأَكْثَرَهُمْ رِوَايَةً لَهُ ، وَكَانَ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ أَفْقَهَ مِنْهُمَا ، بَلْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَفْقَهُ مِنْهُمَا وَمِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ .

"

وَقَدْ أَنْكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عُمَرَ فَهْمَهُ إِتْيَانَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ مِنْ إِطْلَاقِ قَوْلِهِ : " إِنَّكَ سَتَأْتِيهِ وَتَطُوفُ بِهِ " فَإِنَّهُ لَا دَلَالَةَ فِي هَذَا اللَّفْظِ عَلَى تَعْيِينِ الْعَامِ الَّذِي يَأْتُونَهُ فِيهِ .

وَأَنْكَرَ عَلَى عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ فِي فَهْمِهِ مِنَ الْخَيْطِ الْأَبْيَضِ وَالْخَيْطِ الْأَسْوَدِ نَفْسَ الْعِقَالَيْنِ : " وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ فَهِمَ مِنْ قَوْلِهِ : " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلَةٍ مِنْ كِبْرٍ " شُمُولَ لَفْظِهِ لِحَسَنِ الثَّوْبِ وَحَسَنِ الْفِعْلِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ .

(190/217)

" وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ فَهِمَ مِنْ قَوْلِهِ : " مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ " أَنَّهُ كَرَاهَةُ الْمَوْتِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ هَذَا لِلْكَافِرِ إِذَا احْتُضِرَ وَبُشِّرَ بِالْعَذَابِ ؛ فَإِنَّهُ

حِينَئِذٍ يَكْرَهُ لِقَاءَ اللهِ وَاللهُ يَكْرَهُ لِقَاءَهُ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا احْتُضِرَ وَبُشِّرَ بِكَرَامَةِ اللهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ .

" وَأَنْكَرَ عَلَى عَائِشَةَ إِذْ فَهِمَتْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) (84 : 8) مُعَارَضَتَهُ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ " وَبَيَّنَ لَهَا أَنَّ الْحِسَابَ الْيَسِيرَ هُوَ الْعَرْضُ ، أَيْ حِسَابُ الْعَرْضِ لَا حِسَابَ الْمُنَاقَشَةِ .

" وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ فَهِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) (4 : 123) أَنَّ هَذَا الْجَزَاءَ إِنَّمَا هُوَ فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّهُ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ عَمَلِ السُّوءِ ، وَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الْجَزَاءَ قَدْ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا بِالْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالْمَرَضِ وَالنَّصَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَائِبِهَا ، وَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ تَقْيِيدُ الْجَزَاءِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .

(191/217)

" وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ فَهِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (6 : 82) أَنَّهُ ظُلْمُ النَّفْسِ بِالْمَعَاصِي وَبَيَّنَ أَنَّهُ الشِّرْكُ ، وَذَكَرَ قَوْلَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (31 : 13) مَعَ أَنَّ سِيَاقَ اللَّفْظِ عِنْدَ إِعْطَائِهِ حَقَّهُ مِنَ التَّأَمُّلِ يُبَيِّنُ ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ وَلَمْ يَظْلِمُوا أَنْفُسَهُمْ بَلْ قَالَ : (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

بِظُلْمٍ) وَلُبْسُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ : تَغْطِيَتُهُ بِهِ وَإِحَاطَتُهُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، وَلَا يُغَطِّي الْإِيمَانَ وَيُحِيطُ بِهِ وَيَلْبَسُهُ إِلَّا الْكُفْرُ ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (2 : 82) فَإِنَّ الْخَطِيئَةَ لَا تُحِيطُ بِالْمُؤْمِنِ أَبَدًا ، فَإِنَّ

إِيمَانَهُ يَمْنَعُهُ مِنْ إِحَاطَةِ الْخَطِيئَةِ بِهِ ، وَمَعَ أَنَّ سِيَاقَ قَوْلِهِ : (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (6 : 81) ثُمَّ حُكْمُ اللَّهِ أَعْدَلُ حُكْمٍ وَأَصْدَقُهُ أَنَّ مَنْ آمَنَ وَلَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ فَهُوَ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ وَالْهُدَى ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الظُّلْمَ الشِّرْكُ .

(192/217)

" وَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَنِ الْكَلَالَةِ وَرَاجَعَهُ فِيهَا مِرَارًا فَقَالَ : " يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ " وَاعْتَرَفَ عُمَرُ بِأَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِ فَهْمُهَا ، وَفَهِمَهَا الصِّدِّيقُ .

" وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ فَفَهِمَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ مِنْ نَهْيِهِ أَنَّهُ لِكَوْنِهَا لَمْ تُخَمَّسْ ، وَفَهِمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ النَّهْيَ لِكَوْنِهَا كَانَتْ حَمُولَةَ الْقَوْمِ وَظُهُورَهُمْ ، وَفَهِمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ لِكَوْنِهَا كَانَتْ حَوْلَ الْقَرْيَةِ .

" وَفَهِمَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْجَنَّةِ وَكِبَارُ الصَّحَابَةِ مَا قَصَدَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّهْيِ وَصَرَّحَ بِعِلَّتِهِ مِنْ كَوْنِهَا رِجْسًا .

وَفَهِمَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا) (4 : 20) جَوَازَ الْمُغَالَاةِ فِي الصَّدَاقِ فَذَكَرَتْهُ لِعُمَرَ فَاعْتَرَفَ بِهِ .

وَفَهِمَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) (46 : 15) مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) (2 : 233) أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تَلِدُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ ، وَلَمْ يَفْهَمْهُ عُثْمَانُ فَهَمَّ بِرَجْمِ امْرَأَةٍ وَلَدَتْ حَتَّى ذَكَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَقَرَّ بِهِ .

(193/217)

وَلَمْ يَفْهَمْ عُمَرُ مِنْ قَوْلِهِ : " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا " قِتَالَ مَانِعِي الزَّكَاةِ حَتَّى بَيَّنَ لَهُ الصِّدِّيقُ (ذَلِكَ) فَأَقَرَّ بِهِ :

وَفَهِمَ قُدَامَةُ بْنُ مَظْعُونٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا) (5 : 93) رَفْعَ الْجُنَاحِ عَنِ الْخَمْرِ حَتَّى بَيَّنَ لَهُ عُمَرُ أَنَّهُ لَا يَتَنَاوَلُ الْخَمْرَ ، وَلَوْ تَأَمَّلَ سِيَاقَ الْآيَةِ لَفَهِمَ الْمُرَادَ مِنْهَا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا رَفَعَ الْجُنَاحَ عَنْهُمْ فِيمَا طَعِمُوهُ مُتَّقِينَ لَهُ فِيهِ ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِاجْتِنَابِ مَا حَرَّمَهُ مِنَ الْمَطَاعِمِ ، فَالْآيَةُ لَا تَتَنَاوَلُ

الْمُحَرَّمَ بِوَجْهٍ مَا .

وَقَدْ فَهِمَ مِنْ فَهِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) (2 : 195) انْغِمَاسَ الرَّجُلِ فِي الْعَدُوِّ حَتَّى بَيَّنَ لَهُ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الْإِلْقَاءِ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، بَلْ هُوَ مِنْ بَيْعِ الرَّجُلِ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ، وَأَنَّ الْإِلْقَاءَ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ هُوَ تَرْكُ الْجِهَادِ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الدُّنْيَا وَعِمَارَتِهَا .

(194/217)

وَقَالَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : " أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) (5 : 105) وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ " فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ يَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا فِي فَهْمِهِمْ مِنْهَا خِلَافَ مَا أُرِيدَ بِهَا .

وَأَشْكَلَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَمْرُ الْفِرْقَةِ السَّاكِتَةِ الَّتِي لَمْ تَرْتَكِبْ مَا نُهِيَتْ

(195/217)

عَنْهُ مِنَ الْيَهُودِ هَلْ عُذِّبُوا أَوْ نَجَوْا حَتَّى بَيَّنَ لَهُ مَوْلَاهُ عِكْرِمَةُ دُخُولَهُمْ فِي النَّاجِينَ دُونَ الْمُعَذَّبِينَ ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ عَنِ السَّاكِتِينَ : (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) (7 : 164) فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا فِعْلَهُمْ وَغَضِبُوا عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يُوَاجِهُوهُمْ بِالنَّهْيِ فَقَدْ وَاجَهَهُمْ بِهِ مَنْ أَدَّى الْوَاجِبَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرْضُ كِفَايَةٍ ، فَلَمَّا قَامَ بِهِ أُولَئِكَ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ فَلَمْ يَكُونُوا ظَالِمِينَ بِسُكُوتِهِمْ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا عَذَّبَ الَّذِينَ نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ وَعَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ ، وَهَذَا لَا يَتَنَاوَلُ السَّاكِتِينَ قَطْعًا ، فَلَمَّا بَيَّنَ عِكْرِمَةُ لِابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الظَّالِمِينَ الْمُعَذَّبِينَ كَسَاهُ بُرْدَةً وَفَرِحَ بِهِ .

(196/217)

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِلصَّحَابَةِ : " مَا تَقُولُونَ فِي (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) (110 : 1) السُّورَةَ قَالُوا : أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ إِذَا فَتَحَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَهُ فَقَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ : مَا تَقُولُ أَنْتَ قَالَ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ ، فَقَالَ : مَا أَعْلَمُ مِنْهَا غَيْرَ مَا تَعْلَمُ ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْفَهْمِ وَأَلْطَفِهِ وَلَا يُدْرِكُهُ كُلُّ أَحَدٍ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعَلِّقِ الِاسْتِغْفَارَ بِعِلْمِهِ ، بَلْ

عَلَّقَهُ بِمَا يُحْدِثُهُ هُوَ سُبْحَانَهُ مِنْ نِعْمَةِ فَتْحِهِ عَلَى رَسُولِهِ وَدُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِهِ ، وَهَذَا لَيْسَ بِسَبَبٍ لِلِاسْتِغْفَارِ ، فَعَلِمَ أَنَّ سَبَبَ الِاسْتِغْفَارِ غَيْرُهُ ، وَهُوَ حُضُورُ الْأَجَلِ الَّذِي مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ تَوْفِيقُهُ لِلتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَالِاسْتِغْفَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَلْقَى رَبَّهُ طَاهِرًا مُطَهَّرًا مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ ، فَيَقْدَمَ عَلَيْهِ مَسْرُورًا رَاضِيًا مَرْضِيًّا عَنْهُ . وَيَدُلُّ عَلَيْهِ (أَيْضًا) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ) وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ دَائِمًا فَعُلِمَ أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ التَّسْبِيحِ بَعْدَ الْفَتْحِ وَدُخُولِ النَّاسِ فِي الدِّينِ أَمْرٌ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَقَدِّمِ ، وَذَلِكَ مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَيِ انْتِقَالِهِ إلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، وَأَنَّهُ قَدْ بَقِيَتْ عَلَيْهِ مِنْ عُبُودِيَّةِ التَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ الَّتِي

(197/217)

تُرَقِّيهِ إلَى ذَلِكَ الْمَقَامِ بَقِيَّةٌ فَأَمَرَهُ بِتَوْفِيَتِهَا . وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ شَرَعَ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ فِي خَوَاتِيمِ الْأَعْمَالِ فَشَرَعَهَا فِي خَاتِمَةِ الْحَجِّ وَقِيَامِ اللَّيْلِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا ، وَشَرَعَ لِلْمُتَوَضِّئِ بَعْدَ كَمَالِ وُضُوئِهِ أَنْ يَقُولَ : " اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي

مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ " فَعُلِمَ أَنَّ التَّوْبَةَ مَشْرُوعَةٌ عَقِيبَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ،

فَأَمَرَ رَسُولَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ عَقِيبَ تَوْفِيَتِهِ مَا عَلَيْهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ حِينَ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا ، فَكَأَنَّ التَّبْلِيغَ عِبَادَةٌ قَدْ أَكْمَلَهَا وَأَدَّاهَا فَشَرَعَ لَهُ الِاسْتِغْفَارَ عَقِيبَهَا .

(198/217)

وَالْمَقْصُودُ تَفَاوُتُ النَّاسِ فِي مَرَاتِبِ الْفَهْمِ فِي النُّصُوصِ ، وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ حُكْمًا أَوْ حُكْمَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ مِنْهَا عَشْرَةَ أَحْكَامٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ فِي الْفَهْمِ عَلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ دُونَ سِيَاقِهِ وَدُونَ إِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ وَتَنْبِيهِهِ وَاعْتِبَارِهِ ، وَأَخَصُّ مِنْ هَذَا وَأَلْطَفُ ضَمُّهُ إِلَى نَصٍّ آخَرَ مُتَعَلِّقٍ بِهِ فَيُفْهَمُ مِنَ اقْتِرَانِهِ بِهِ قَدْرًا زَائِدًا عَلَى ذَلِكَ اللَّفْظِ بِمُفْرَدِهِ . وَهَذَا بَابٌ عَجِيبٌ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ لَا يَتَنَبَّهُ لَهُ إِلَّا النَّادِرُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَإِنَّ الذِّهْنَ قَدْ لَا يَشْعُرُ بِارْتِبَاطِ هَذَا بِهَذَا وَتَعَلُّقِهِ بِهِ ، وَهَذَا كَمَا فَهِمَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ قَوْلِهِ : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) مَعَ قَوْلِهِ : (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تَلِدُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ ، وَكَمَا فَهِمَ الصِّدِّيقُ مِنْ آيَةِ الْفَرَائِضِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَآخِرِهَا أَنَّ الْكَلَالَةَ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ ، وَأَسْقَطَ الْإِخْوَةَ بِالْجَدِّ ، وَقَدْ أَرْشَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ إِلَى هَذَا الْفَهْمِ حَيْثُ سَأَلَهُ عَنِ الْكَلَالَةِ وَرَاجَعَهُ السُّؤَالَ فِيهَا مِرَارًا فَقَالَ : "يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ "

وَإِنَّمَا أَشْكَلَ عَلَى عُمَرَ قَوْلُهُ : (قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ) (4 : 176) الْآيَةَ فَدَلَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا بَيَّنَ لَهُ الْمُرَادَ مِنْهَا ، وَهِيَ الْآيَةُ

(199/217)

الْأُولَى الَّتِي نَزَلَتْ فِي الصَّيْفِ ، فَإِنَّهُ وَرِثَ فِيهَا وَلَدُ الْأُمِّ فِي الْكَلَالَةِ السُّدُسَ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْكَلَالَةَ فِيهَا مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ وَإِنْ عَلَا " انْتَهَتِ الْمُقَدِّمَةُ .

أَقُولُ : ثُمَّ إِنَّهُ أَوْرَدَ بَعْدَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ عِدَّةَ مَسَائِلَ مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ السَّلَفُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ بَيَّنَتْهَا النُّصُوصُ ، وَهِيَ سِتُّ مَسَائِلَ فِي أَحْكَامِ الْمَوَارِيثِ وَقَدْ وَضَّحَ فِيهَا إِغْنَاءَ النَّصِّ عَنِ الْقِيَاسِ أَتَمَّ الْإِيضَاحَ .

مِثَالُ النُّصُوصِ الْكُلِّيَّةِ الْمُغْنِيَةِ عَنِ الْقِيَاسِ :

ثُمَّ زَادَ عَلَى تِلْكَ الْمَسَائِلِ عِدَّةَ نُصُوصٍ كُلِّيَّةٍ يُغْنِي كُلٌّ مِنْهَا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْيِسَةِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ أَدَامَ اللَّهُ النَّفْعَ بِعِلْمِهِ

وَمِنْ ذَلِكَ الِاكْتِفَاءُ بِقَوْلِهِ : "كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ" عَنْ إِثْبَاتِ التَّحْرِيمِ بِالْقِيَاسِ فِي الِاسْمِ أَوْ فِي الْحُكْمِ كَمَا فَعَلَهُ مَنْ لَمْ يُحْسِنِ الِاسْتِدْلَالَ بِالنَّصِّ .

وَمِنْ ذَلِكَ الِاكْتِفَاءُ بِقَوْلِهِ : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) (5 : 38) عَنْ إِثْبَاتِ

قَطْعِ النَّبَّاشِ بِالْقِيَاسِ اسْمًا أَوْ حُكْمًا ، إذِ السَّارِقُ يَعُمُّ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَعُرْفِ الشَّارِعِ سَارِقَ ثِيَابِ الْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءِ .

(200/217)

وَمِنْ ذَلِكَ الِاكْتِفَاءُ بِقَوْلِهِ : (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) (66 : 2) فِي تَنَاوُلِهِ لِكُلِّ يَمِينٍ مُنْعَقِدَةٍ يَحْلِفُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ غَيْرِ تَخْصِيصٍ إلَّا بِنَصٍّ وَإِجْمَاعٍ ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ : (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ) (5 : 89) فَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ كُلَّ يَمِينٍ مُنْعَقِدَةٍ فَهَذَا كَفَّارَتُهَا ، وَقَدْ أَدْخَلَتِ الصَّحَابَةُ فِي هَذَا النَّصِّ الْحَلِفَ بِالْتِزَامِ الْوَاجِبَاتِ وَالْحَلِفَ بِأَحَبِّ الْقُرُبَاتِ الْمَالِيَّةِ إلَى اللَّهِ وَهُوَ الْعِتْقُ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ سِتَّةٍ مِنْهُمْ وَلَا مُخَالِفَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَدْخَلَتْ فِيهِ الْحَلِفَ بِالْبَغِيضِ إلَى اللَّهِ وَهُوَ الطَّلَاقُ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فِي الْجَنَّةِ وَلَا مُخَالِفَ لَهُ مِنْهُمْ ، فَالْوَاجِبُ تَحْكِيمُ هَذَا النَّصِّ الْعَامِّ وَالْعَمَلُ بِعُمُومِهِ حَتَّى يَثْبُتَ إجْمَاعُ الْأُمَّةِ إجْمَاعًا مُتَيَقَّنًا عَلَى خِلَافِهِ ، فَالْأُمَّةُ لَا تُجْمِعُ عَلَى خَطَأٍ أَلْبَتَّةَ .

(201/217)

وَمِنْ ذَلِكَ الِاكْتِفَاءُ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ " فِي إبْطَالِ كُلِّ عَقْدٍ نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ وَأَنَّهُ لَغْوٌ لَا يُعْتَدُّ بِهِ نِكَاحًا كَانَ أَوْ طَلَاقًا أَوْ غَيْرَهُمَا ، إلَّا أَنْ تُجْمِعَ الْأُمَّةُ إجْمَاعًا مَعْلُومًا عَلَى أَنَّ بَعْضَ مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ مِنَ الْعُقُودِ صَحِيحٌ لَازِمٌ مُعْتَدٌّ بِهِ غَيْرُ مَرْدُودٍ ، فَهِيَ لَا تُجْمِعُ عَلَى خَطَأٍ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

وَمِنْ ذَلِكَ الِاكْتِفَاءُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) (6 : 119) مَعَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ " فَكُلُّ مَا لَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَحْرِيمَهُ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْعُقُودِ وَالشُّرُوطِ فَلَا يَجُوزُ تَحْرِيمُهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَصَّلَ لَنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، فَمَا كَانَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ حَرَامًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ تَحْرِيمُهُ مُفَصَّلًا ، وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إبَاحَةُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ ، فَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ تَحْرِيمُ مَا عَفَا عَنْهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ " .

لَا شَيْءَ فِي الشَّرْعِ يُخَالِفُ الْقِيَاسَ الصَّحِيحَ :

ثُمَّ شَرَعَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي بَيَانِ كَوْنِ جَمِيعِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ مُوَافِقَةً لِلْقِيَاسِ الصَّحِيحِ الْمُوَافِقِ لِلْعَدْلِ وَالْعَقْلِ فَقَالَ :

(الْفَصْلُ الثَّانِي) فِي بَيَانِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الشَّرِيعَةِ شَيْءٌ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ ، وَأَنَّ مَا يُظَنُّ مُخَالَفَتُهُ لِلْقِيَاسِ فَأَحَدُ الْأَمْرَيْنِ لَازِمٌ فِيهِ وَلَا بُدَّ إمَّا أَنْ يَكُونَ الْقِيَاسُ فَاسِدًا أَوْ يَكُونَ ذَلِكَ الْحُكْمُ لَمْ يَثْبُتْ بِالنَّصِّ كَوْنُهُ مِنَ الشَّرْعِ . وَسَأَلْتُ شَيْخَنَا قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ عَمَّا يَقَعُ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ قَوْلِهِمْ : هَذَا خِلَافُ الْقِيَاسِ لِمَا ثَبَتَ بِالنَّصِّ أَوْ قَوْلِ الصَّحَابَةِ أَوْ بَعْضِهِمْ ، وَرُبَّمَا كَانَ مُجْمَعًا عَلَيْهِ كَقَوْلِهِمْ : طَهَارَةُ الْمَاءِ إذَا وَقَعَتْ فِيهِ نَجَاسَةٌ خِلَافُ الْقِيَاسِ ، وَتَطْهِيرُ النَّجَاسَةِ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ ، وَالْوُضُوءُ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ وَالْفِطْرُ بِالْحِجَامَةِ وَالسَّلَمُ وَالْإِجَارَةُ وَالْحَوَالَةُ وَالْكِتَابَةُ وَالْمُضَارَبَةُ وَالْمُزَارَعَةُ وَالْمُسَاقَاةُ وَصِحَّةُ صَوْمِ الْآكِلِ النَّاسِي وَالْمُضِيُّ فِي الْحَجِّ الْفَاسِدِ كُلُّ ذَلِكَ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ ، فَهَلْ ذَلِكَ صَوَابٌ أَمْ لَا ؟ فَقَالَ : لَيْسَ فِي الشَّرِيعَةِ مَا يُخَالِفُ الْقِيَاسَ . وَأَنَا أَذْكُرُ مَا حَصَّلْتُهُ مِنْ جَوَابِهِ بِخَطِّهِ وَلَفْظِهِ وَمَا فَتَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي بِيُمْنِ إرْشَادِهِ وَبَرَكَةِ تَعْلِيمِهِ وَحُسْنِ بَيَانِهِ وَتَفْهِيمِهِ .

(203/217)

" إنَّ أَصْلَ هَذَا أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَفْظَ الْقِيَاسِ لَفْظٌ مُجْمَلٌ يَدْخُلُ فِيهِ الْقِيَاسُ الصَّحِيحُ وَالْفَاسِدُ . وَالصَّحِيحُ هُوَ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ ، وَهُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُخْتَلِفَيْنِ ،

فَالْأَوَّلُ قِيَاسُ الطَّرْدِ وَالثَّانِي قِيَاسُ الْعَكْسِ ، وَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . فَالْقِيَاسُ الصَّحِيحُ مِثْلُ أَنْ تَكُونَ الْعِلَّةُ الَّتِي عُلِّقَ بِهَا الْحُكْمُ فِي الْأَصْلِ مَوْجُودَةً فِي الْفَرْعِ مِنْ غَيْرِ مُعَارِضٍ فِي الْفَرْعِ يَمْنَعُ حُكْمَهَا ، وَمِثْلُ هَذَا الْقِيَاسِ لَا تَأْتِي الشَّرِيعَةُ بِخِلَافِهِ قَطُّ ، وَكَذَلِكَ الْقِيَاسُ بِإِلْغَاءِ الْفَارِقِ ، وَهُوَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ فَرْقٌ مُؤَثِّرٌ فِي الشَّرْعِ ، فَمِثْلُ هَذَا الْقِيَاسِ أَيْضًا لَا تَأْتِي الشَّرِيعَةُ بِخِلَافِهِ ، وَحَيْثُ جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِاخْتِصَاصِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ بِحُكْمٍ يُفَارِقُ بِهِ نَظَائِرَهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَخْتَصَّ ذَلِكَ النَّوْعُ بِوَصْفٍ يُوجِبُ اخْتِصَاصَهُ

(204/217)

بِالْحُكْمِ وَيَمْنَعُ مُسَاوَاتَهُ بِغَيْرِهِ ، وَلَكِنَّ الْوَصْفَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ ذَلِكَ النَّوْعَ قَدْ يَظْهَرُ لِبَعْضِ النَّاسِ وَقَدْ لَا يَظْهَرُ ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ أَنْ يَعْلَمَ صِحَّتَهُ كُلُّ أَحَدٍ . فَمَنْ رَأَى شَيْئًا مِنَ الشَّرِيعَةِ مُخَالِفًا لِلْقِيَاسِ فَإِنَّمَا هُوَ مُخَالِفٌ لِلْقِيَاسِ الَّذِي انْعَقَدَ فِي نَفْسِهِ . لَيْسَ مُخَالِفًا لِلْقِيَاسِ الصَّحِيحِ الثَّابِتِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَحَيْثُ عَلِمْنَا أَنَّ النَّصَّ بِخِلَافِ قِيَاسٍ عَلِمْنَا قَطْعًا أَنَّهُ قِيَاسٌ فَاسِدٌ ، بِمَعْنَى أَنَّ صُورَةَ النَّصِّ امْتَازَتْ عَنْ تِلْكَ الصُّوَرِ الَّتِي يَظُنُّ أَنَّهَا مِثْلُهَا بِوَصْفٍ أَوْجَبَ تَخْصِيصَ الشَّارِعِ لَهَا بِذَلِكَ الْحُكْمِ ، فَلَيْسَ فِي الشَّرِيعَةِ مَا يُخَالِفُ

قِيَاسًا صَحِيحًا ، وَلَكِنْ يُخَالِفُ الْقِيَاسَ الْفَاسِدَ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُ فَسَادَهُ ، وَنَحْنُ نُبَيِّنُ ذَلِكَ فِيمَا ذُكِرَ فِي السُّؤَالِ " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

(205/217)

(أَقُولُ) : ثُمَّ إنَّهُ بَعْدَ هَذَا بَيَّنَ خَطَأَ مَنْ قَالَ : إنَّ تِلْكَ الْمَسَائِلَ جَاءَتْ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ بَيَانًا كَافِيًا شَافِيًا فِي عِدَّةِ فُصُولٍ ظَهَرَ بِهِ بُطْلَانُ كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِ فُقَهَاءِ الْقِيَاسِ وَأُصُولِهِمْ وَقَوَاعِدِهِمْ ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ فَوَائِدَ نَفِيسَةً ، مِنْهَا انْعِقَادُ الْعُقُودِ بِأَيِّ لَفْظٍ عَرَّفَ بِهِ الْمُتَعَاقِدَانِ مَقْصُودَهُمَا ، وَأَنَّ الشَّارِعَ لَمْ يَحِدَّ لِأَلْفَاظِ الْعُقُودِ حَدًّا ، لَا النِّكَاحِ وَلَا غَيْرِهِ وَأَنَّ الْكِنَايَةَ مَعَ الْقَرِينَةِ كَالصَّرِيحِ ، وَمِنْهَا بَيَانُ أَنْوَاعِ الْمُعَامَلَاتِ الْمَالِيَّةِ ، وَبُطْلَانُ كَثِيرٍ مِنَ الشُّرُوطِ الَّتِي اشْتَرَطَهَا فُقَهَاءُ الْقِيَاسِ فِيهَا ، وَمِنْهُ يُعْلَمُ يُسْرُ الشَّرِيعَةِ وَسَعَتُهَا وَمُوَافَقَتُهَا لِلْعَدْلِ وَالْعَقْلِ .

(206/217)

ثُمَّ أَوْرَدَ بَعْدَ هَذَا مَا اسْتَشْكَلَهُ نُفَاةُ الْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ وَالْقِيَاسِ مِنْ تَفْرِيقِ الشَّرِيعَةِ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلِينَ وَجَمْعِهَا بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي عِدَّةِ مَسَائِلَ كَثِيرًا مَا يَذْكُرُونَهَا ، كَفَرْضِ الْغُسْلِ مِنَ

الْمَنِيِّ الطَّاهِرِ دُونَ الْبَوْلِ النَّجِسِ وَمَا فِي حُكْمِهِ ، وَكَذَا إبْطَالُ الصِّيَامِ بِالِاسْتِمْنَاءِ ، وَنَضْحُ الثَّوْبِ مِنْ بَوْلِ الْغُلَامِ وَغَسْلُهُ مِنْ بَوْلِ الْجَارِيَةِ ، وَقَصْرُ الصَّلَاةِ الرُّبَاعِيَّةِ دُونَ غَيْرِهَا ، وَإِيجَابُ إعَادَةِ الصِّيَامِ عَلَى الْحَائِضِ دُونَ الصَّلَاةِ ، وَتَحْرِيمُ النَّظَرِ إلَى الْحُرَّةِ وَلَوْ عَجُوزًا شَوْهَاءَ دُونَ الْأَمَةِ وَلَوْ شَابَّةً حَسْنَاءَ ، وَقَطْعُ يَدِ سَارِقِ رُبْعِ دِينَارٍ دُونَ مُغْتَصِبِ أَلْفِ دِينَارٍ مَعَ جَعْلِ دِيَةِ الْيَدِ خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْكَثِيرَةِ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْمَالِيَّةِ وَالزَّوْجِيَّةِ وَفِي الْعُقُوبَاتِ ، وَلَعَلَّهُ اسْتَوْفَى كُلَّ مَا بَلَغَهُ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ وَالْعَقْلِ .

ثُمَّ أَجَابَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِالْإِسْهَابِ الَّذِي لَا يَكَادُ يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ . وَفِي جَوَابِهِ أَوْ أَجْوِبَتِهِ هَذِهِ مِنْ حُكْمِ الشَّرِيعَةِ وَأَسْرَارِهَا وَبَيَانِ مُوَافَقَتِهَا لِلْعَقْلِ وَمَصَالِحِ الْبَشَرِ وَمِنْ خَطَأِ غُلَاةِ الْقِيَاسِيِّينَ مَا لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ طُلَّابِ عِلْمِ الشَّرْعِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ .

(207/217)

نَذْكُرُ مِنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ مَسْأَلَةً وَاحِدَةً عَلَى سَبِيلِ النَّمُوذَجِ ، وَهِيَ الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِ مُنْكِرِي الْقِيَاسِ : إنَّ الشَّارِعَ حَرَّمَ بَيْعَ مُدِّ حِنْطَةٍ بِمُدٍّ وَحَفْنَةٍ ، وَجَوَّزَ بَيْعَهُ بِقَفِيزٍ مِنْ شَعِيرٍ ، فَهَذَا

تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلِينَ مُخَالِفٌ لِلْقِيَاسِ وَالْعَقْلِ عِنْدَهُمْ . وَقَدْ أَطَالَ فِي رَدِّ هَذَا بِمَا بَيَّنَ بِهِ حِكْمَةَ تَحْرِيمِ الرِّبَا فِي النَّقْدَيْنِ وَالْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالتَّمْرِ وَالْمِلْحِ الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْحَدِيثُ .

فَنُلَخِّصُ ذَلِكَ بِجُمَلٍ وَجِيزَةٍ .

(الرِّبَا : مَوْضُوعُهُ وَعِلَّتُهُ وَحِكْمَتُهُ) .

(1) قَالَ : " الرِّبَا نَوْعَانِ : جَلِيٌّ ، وَخَفِيٌّ . فَالْجَلِيُّ حُرِّمَ لِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ ، وَالْخَفِيُّ حُرِّمَ لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إلَى الْجَلِيِّ ، فَتَحْرِيمُ الْأَوَّلِ قَصْدًا وَتَحْرِيمُ الثَّانِي وَسِيلَةً . .

" فَأَمَّا الْجَلِيُّ فَرِبَا النَّسِيئَةِ وَهُوَ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، مِثْلُ أَنْ يُؤَخِّرَ دَيْنَهُ وَيَزِيدَهُ فِي الْمَالِ ، وَكُلَّمَا أَخَّرَهُ زَادَ فِي الْمَالِ حَتَّى تَصِيرَ الْمِائَةُ عِنْدَهُ آلَافًا مُؤَلَّفَةً ، وَفِي الْغَالِبِ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إلَّا مُعْدِمٌ مُحْتَاجٌ ، فَإِذَا رَأَى الْمُسْتَحِقُّ يُؤَخِّرُ مُطَالَبَتَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهِ بِزِيَادَةٍ يَبْذُلُهَا لَهُ ، تَكَلَّفَ بَذْلَهَا لِيَفْتَدِيَ مِنْ أَسْرِ الْمُطَالَبَةِ وَالْحَبْسِ ، وَيُدَافِعُ مِنْ وَقْتٍ إلَى وَقْتٍ ، فَيَشْتَدُّ ضَرَرُهُ وَتَعْظُمُ مُصِيبَتُهُ ، وَيَعْلُوهُ الدَّيْنُ حَتَّى يَسْتَغْرِقَ جَمِيعَ مَوْجُودِهِ " إلَخْ .

(208/217)

(أَقُولُ) : وَهَذَا الرِّبَا الْجَاهِلِيُّ هُوَ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ التَّشْدِيدُ وَالْوَعِيدُ . وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : إنَّهُ هُوَ الرِّبَا الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ كَمَا نَقَلَهُ الْمُصَنِّفُ عَنْهُ فِي هَذَا السِّيَاقِ وَغَيْرِهِ عَنْهُ وَعَنْ

غَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ وَهُوَ الَّذِي رَوَى فِيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " لَا رِبَا إِلَّا فِي النَّسِيئَةِ أَوْ إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ " كَمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ فِي الصَّحِيحَيْنِ . وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَابْنَ عُمَرَ لَمْ يَكُونَا يُحَرِّمَانِ رِبَا الْفَضْلِ ، وَقِيلَ : رَجَعَا عَنْ ذَلِكَ ، وَجَزَمَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ بِرُجُوعِ الثَّانِي وَالِاخْتِلَافُ فِي رُجُوعِ الْأَوَّلِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُمَا بِالرِّبَا مَا نَزَلَ فِيهِ وَعِيدُ

الْقُرْآنِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِهِ فِي سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ . وَذَهَبَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي هَذَا السِّيَاقِ إِلَى مَا اعْتَمَدَهُ الْجُمْهُورُ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ حَصْرُ الْكَمَالِ ، أَيْ أَنَّ الرِّبَا التَّامَّ الْكَامِلَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي النَّسِيئَةِ (قَالَ) : فَإِنَّ رِبَا الْفَضْلِ إِنَّمَا سُمِّيَ رِبًا تَجَوُّزًا مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْمَقْصِدِ عَلَى الْوَسِيلَةِ ، وَهُوَ نَحْوٌ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ الْآتِي .

(209/217)

وَأَقُولُ : هُوَ مِنْ قَبِيلِ إِطْلَاقِ اسْمِ الزِّنَا عَلَى النَّظَرِ إِلَى الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ بِشَهْوَةٍ . وَإِنَّمَا حَرَّمَ هَذَا النَّظَرَ وَالْخَلْوَةَ بِالْأَجْنَبِيَّةِ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ كَرِبَا الْفَضْلِ .

(قَالَ) : وَأَمَّا رِبَا الْفَضْلِ فَتَحْرِيمُهُ مِنْ بَابِ سَدِّ الذَّرَائِعِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ

الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَا تَبِيعُوا الدِّرْهَمَ بِالدِّرْهَمَيْنِ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّمَاءَ " وَالرِّمَاءُ هُوَ الرِّبَا ، فَمَنَعَهُمْ مِنْ رِبَا الْفَضْلِ لِمَا يَخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ رِبَا النَّسِيئَةِ ، إلَى آخَرِ مَا قَالَهُ فِي إيضَاحِ ذَلِكَ وَهُوَ وَاضِحٌ .

(2) بَيَّنَ أَنَّ الْحَدِيثَ نَصٌّ عَلَى تَحْرِيمِ الرِّبَا فِي سِتَّةِ أَعْيَانٍ وَهِيَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالْبُرُّ وَالشَّعِيرُ وَالتَّمْرُ وَالْمِلْحُ ، ثُمَّ قَالَ : فَاتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى تَحْرِيمِ التَّفَاضُلِ فِيهَا مَعَ اتِّحَادِ الْجِنْسِ أَيْ كَبَيْعِ الذَّهَبِ بِالذَّهَبِ وَالْقَمْحِ بِالْقَمْحِ ، بِخِلَافِ بَيْعِ الذَّهَبِ بِالْفِضَّةِ ، وَالْقَمْحِ بِالشَّعِيرِ مَثَلًا ، فَإِنَّهُمْ جَوَّزُوهُ وَتَنَازَعُوا فِيمَا عَدَاهَا ، فَطَائِفَةٌ قَصَرَتِ التَّحْرِيمَ عَلَيْهَا ، وَأَقْدَمُ مَنْ يَرْوِي هَذَا عَنْ قَتَادَةَ ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الظَّاهِرِ ، وَاخْتِيَارُ ابْنِ عَقِيلٍ (هُوَ مِنْ أَئِمَّةِ الْحَنَابِلَةِ) فِي آخِرِ مُصَنَّفَاتِهِ مَعَ قَوْلِهِ بِالْقِيَاسِ ، قَالَ : لِأَنَّ عِلَلَ الْقِيَاسَيْنِ فِي مَسْأَلَةِ الرِّبَا ضَعِيفَةٌ ، وَإِذَا لَمْ تَظْهَرْ فِيهِ عِلَّةٌ امْتَنَعَ الْقِيَاسُ .

(210/217)

---

(3) بَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْقِيَاسِ اخْتَلَفُوا فِي عِلَّةِ تَحْرِيمِ الرِّبَا فِي تِلْكَ الْأَعْيَانِ السِّتَّةِ الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْحَدِيثُ . فَأَمَّا الْبُرُّ وَالشَّعِيرُ وَالتَّمْرُ وَالْمِلْحُ فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ كَأَبِي حَنِيفَةَ وَظَاهِرُ الرِّوَايَةِ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّ عِلَّتَهُ كَوْنُهُ مَكِيلًا وَمَوْزُونًا فَيَجْرِي الرِّبَا فِي كُلِّ مَكِيلٍ وَمَوْزُونٍ ، وَذَهَبَ بَعْضٌ آخَرُ

إِلَى أَنَّ عِلَّتَهُ كَوْنُهُ طَعَامًا ، وَهُوَ مَذْهَبُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالشَّافِعِيِّ وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ فَيَجْرِي عَلَى كُلِّ مَا يُطْعَمُ ، وَذَهَبَ غَيْرُهُمْ إِلَى أَنَّ عِلَّةَ ذَلِكَ كَوْنُهَا قُوتَ النَّاسِ ، وَعِبَارَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ : وَطَائِفَةٌ خَصَّتْهُ بِالْقُوتِ وَمَا يَصْلُحُهُ ، وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَهُوَ أَرْجَحُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ كَمَا سَتَرَاهُ . أَقُولُ : وَاعْتَبَرَ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ فِي الْقُوتِ

(211/217)

مَا يُدَّخَرُ . وَأَمَّا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ فَالْعِلَّةُ فِيهِمَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ الْوَزْنُ ، فَيَجْرِي الرِّبَا عَلَى هَذَا فِي كُلِّ مَوْزُونٍ وَكُلِّ مَكِيلٍ مِنَ الْمَعَادِنِ كَغَيْرِهَا ، وَهَذَا أَوْسَعُ الْأَقْوَالِ وَأَشَدُّهَا فِي الرِّبَا ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْعِلَّةَ فِيهَا الثَّمَنِيَّةُ ؛ أَيْ كَوْنُهَا مِعْيَارَ الْأَثْمَانِ فِي الْمُعَامَلَاتِ كُلِّهَا . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : وَهَذَا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ بَلِ الصَّوَابُ ، ثُمَّ أَوْرَدَ الْأَدِلَّةَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَوَّلُهَا : الْإِجْمَاعُ عَلَى إِسْلَامِهِمَا فِي الْمَوْزُونَاتِ مِنَ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَغَيْرِهِمَا ، فَلَوْ كَانَ النُّحَاسُ وَالْحَدِيدُ رِبَوِيَّيْنِ لَمْ يَجُزْ بَيْعُهُمَا إِلَى أَجَلٍ بِدَرَاهِمَ نَقْدًا ، فَإِنَّ مَا يَجْرِي فِيهِ الرِّبَا إِذَا اخْتَلَفَ جِنْسُهُ جَازَ التَّفَاضُلُ فِيهِ دُونَ النَّسَاءِ ، وَالْعِلَّةُ إِذَا انْتُقِضَتْ مِنْ دُونِ فَرْقٍ مُؤَثِّرٍ دَلَّ عَلَى بُطْلَانِهَا إِلَى آخِرِ مَا قَالَهُ .

(4) بَنَى ابْنُ الْقَيِّمِ بَيَانَ حِكْمَةِ تَحْرِيمِ الرِّبَا عَلَى الرَّاجِحِ الْمُخْتَارِ مِنْ تَعْلِيلٍ حَصَرَهُ فِي الْأَجْنَاسِ السِّتَّةِ ، وَلَا تَظْهَرُ حِكْمَةُ ذَلِكَ عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ : إنَّ الرِّبَا يَجْرِي فِي كُلِّ مَا يُكَالُ وَيُوزَنُ ، بَلْ هَذَا التَّضْيِيقُ عَلَى الْعِبَادِ لَا يُعْقَلُ لَهُ حِكْمَةٌ ، وَلَا هُوَ عِبَادَةٌ بِالنَّصِّ ، وَقَدْ بَيَّنَّا حِكْمَةَ تَحْرِيمِ الرِّبَا فِي تَفْسِيرِ آيَاتِهِ مِنْ سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ فَيُرَاجَعُ هُنَاكَ وَفِي إعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ .

(212/217)

---

(5) بَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ مَا حُرِّمَ لِذَاتِهِ لَا يُبَاحُ شَرْعًا إلَّا لِلضَّرُورَةِ إنْ كَانَ مِمَّا يُضْطَرُّ إلَيْهِ ، وَمَا حُرِّمَ لِسَدِّ الذَّرِيعَةِ يُبَاحُ لِلْحَاجَةِ وَالْمَصْلَحَةِ ، وَبَنَى عَلَى ذَلِكَ جَوَازَ بَيْعِ الْحِلْيَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِنُقُودٍ مِنْهُمَا تَزِيدُ عَلَى وَزْنِهَا فِي مُقَابَلَةِ مَا فِيهَا مِنَ الصَّنْعَةِ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى هَذَا الْجَوَازِ بِأَدِلَّةٍ مَنْقُولَةٍ وَمَعْقُولَةٍ أَيْضًا ، وَاسْتَشْهَدَ عَلَى جَوَازِ رِبَا الْفَضْلِ لِلْمُصْلِحَةِ الرَّاجِحَةِ بِإِبَاحَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْعَ الْعَرَايَا ، وَذَكَرَ مِنْ نَظَائِرِهِ إبَاحَةَ نَظَرِ الْخَاطِبِ وَالطَّبِيبِ وَالشَّاهِدِ إلَى الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ حَتَّى إنَّ الطَّبِيبَ يَنْظُرُ كُلَّ عُضْوٍ تَتَوَقَّفُ مُعَالَجَتُهُ عَلَى النَّظَرِ إلَيْهِ ، وَكَذَا لَمْسُهُ وَإِبَاحَةُ لُبْسِ الْحَرِيرِ لِمَنْعِ الْحَكَّةِ أَوِ الْقَمْلِ ، وَالْأَمْثِلَةُ وَالشَّوَاهِدُ كَثِيرَةٌ .

وَالْغَرَضُ مِمَّا لَخَّصْنَاهُ هُنَا بَيَانُ فَضِيلَةِ الْمَذْهَبِ الْوَسَطِ بَيْنَ مَذْهَبَيْ نَفْيِ الْقِيَاسِ أَلْبَتَّةَ وَالتَّوَسُّعِ فِيهِ بِاسْتِنْبَاطِ الْعِلَلِ الْبَعِيدَةِ . فَمُقْتَضَى مَذْهَبِ ابْنِ حَزْمٍ أَنَّهُ إذَا وَجَدَ أَهْلَ قُطْرٍ لَا قُوتَ لَهُمْ

(213/217)

إلَّا الرُّزُّ وَلَا نَقْدَ لَهُمْ مِنَ النُّحَاسِ فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَهُمُ الرِّبَا فِي نَقْدِهِمْ وَقُوتِهِمْ ، وَهَذَا يُنَافِي حِكْمَةَ الشَّارِعِ فِي تَحْرِيمِ ذَلِكَ وَهُوَ غُلُوٌّ فِي الْإِبَاحَةِ . وَيُقَابِلُهُ الْغُلُوُّ فِي الْحَظْرِ وَهُوَ مَذْهَبُ الْقَائِلِينَ بِجَرَيَانِ الرِّبَا فِي كُلِّ مَكِيلٍ وَمَوْزُونٍ . وَالْمَذْهَبُ الْوَسَطُ : أَنَّ الْأَجْنَاسَ السِّتَّةَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْحَدِيثِ كَانَتْ وَلَا تَزَالُ مِعْيَارَ الْأَثْمَانِ وَأُصُولَ الْأَقْوَاتِ لِأَكْثَرِ الْبَشَرِ ، فَكَانَ رِبَا النَّسِيئَةِ فِيهَا وَهُوَ الَّذِي يَتَضَاعَفُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً مُضِرًّا بِهِمْ ضَرَرًا بَلِيغًا ، فَكَانَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْمُصْلِحَةِ تَحْرِيمُهُ أَشَدَّ التَّحْرِيمِ وَجَعْلُهُ مِنَ الْكَبَائِرِ ، وَتَحْرِيمُ مَا كَانَ ذَرِيعَةً لَهُ تَحْرِيمَ الصَّغَائِرِ . فَإِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ الْعِلَّةُ فِي نَقْدٍ آخَرَ غَيْرَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَقُوتٍ آخَرَ غَيْرَ الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالتَّمْرِ وَالْبَلَحِ صَحَّ قِيَاسُهُمَا عَلَى الْأَجْنَاسِ السِّتَّةِ لِحُلُولِهِمَا مَحَلَّهَا ، وَانْطِبَاقِ حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ عَلَى ذَلِكَ .

(214/217)

(فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ الْمُعْتَدِلِينَ فِي الْقِيَاسِ مِنْ أَهْلِ الْأَثَرِ لَا يَعْتَدُّونَ إِلَّا بِالْعِلَّةِ الثَّابِتَةِ عَنِ الشَّارِعِ بِالنَّصِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ : (فَإِنَّهُ رِجْسٌ) (6 : 145) أَيْ خَبِيثٌ مُسْتَقْذَرٌ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ (وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) (7 : 157) وَلَا نَصَّ عَلَى عِلَّةِ الرِّبَا (قُلْنَا) : إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِالنَّصِّ هُنَا مَا ثَبَتَ بِالْمَنْطُوقِ أَوِ الْمَفْهُومِ أَوِ الْقَرِينَةِ الْوَاضِحَةِ ، كَفَحْوَى الْخِطَابِ وَلَحْنِهِ وَمَا يَقُومُ مَقَامَهُ ، فَمِنْهُ مَا يَكُونُ مَعْلُومًا مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ بِالضَّرُورَةِ أَوِ الْبَدَاهَةِ ، أَوْ بِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ الدَّلَائِلِ اللَّفْظِيَّةِ كَتَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَى الْمُشْتَقِّ كَالزَّانِي وَالسَّارِقِ . وَالْأَجْنَاسُ السِّتَّةُ الَّتِي وَرَدَ الْحَدِيثُ بِجَرَيَانِ الرِّبَا فِيهَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، فَإِنَّ تَخْصِيصَهَا بِالذِّكْرِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِمَعْنًى فِيهَا اقْتَضَاهُ ، وَإِلَّا كَانَ لَغْوًا أَوْ عَبَثًا يَتَنَزَّهُ عَنْهُ الْعُقَلَاءُ ، فَكَيْفَ يَصْدُرُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ ؟ ! وَلَيْسَ فِيهَا مَعْنًى تَمْتَازُ بِهِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْمَعَادِنِ وَالْأَطْعِمَةِ إِلَّا كَوْنَهَا تَقُودُ النَّاسَ الَّتِي هِيَ مِعْيَارُ مُعَامَلَاتِهِمْ وَمُبَادَلَاتِهِمْ ، وَأَغْذِيَتِهِمِ الرَّئِيسِيَّةِ وَأُصُولِ أَقْوَاتِهِمْ ، وَأَمَّا كَوْنُهَا تُوزَنُ أَوْ تُكَالُ فَهُوَ مِنْ صِفَاتِهَا الْعَامَّةِ ، كَكَوْنِهَا تُنْقَلُ وَتُحْمَلُ وَتُنْظَرُ وَتُلْمَسُ

وَتُبَاعُ وَتُشْتَرَى ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ مَقْصُودَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَا عَبَّرَ عَنِ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا يُحْصَرُ بِبَعْضِ أَفْرَادِهِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ لِعِلَّتِهِ ، بَلْ كَانَ الْبَيَانُ الصَّحِيحُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَا يُفْهَمُ بِهِ الْمُرَادُ مِنَ التَّعْبِيرِ ، كَأَنْ يَقُولَ : كُلُّ مَا يُكَالُ أَوْ يُوزَنُ فَحُكْمُهُ كَذَا ، وَمَا قَرَّرْنَاهُ وَاضِحٌ جِدًّا وَإِنْ خَفِيَ عَلَى بَعْضِ أَئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ . فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَكَابِرَ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا أَوْسَعَ عِلْمًا وَفَهْمًا لِلنُّصُوصِ مِنْ أُولَئِكَ الْفُقَهَاءِ بِشَهَادَةِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ كُلِّهِمْ قَدْ خَفِيَ عَلَى بَعْضِهِمْ مَا هُوَ مِثْلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي الْوُضُوحِ أَوْ أَشَدُّ . وَالْبَشَرُ عُرْضَةٌ لِلْغَفْلَةِ وَالذُّهُولِ ، وَإِنَّ مَنْ أَنْهَضَ الْحُجَجَ عَلَى بُطْلَانِ الْتِزَامِ تَقْلِيدِ فَرْدٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا ظَهَرَ كَالشَّمْسِ مِنْ خَطَأِ أَكَابِرِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ ، إمَّا بِمُخَالَفَةِ النَّصِّ الصَّرِيحِ ، وَإِمَّا بِتَنَكُّبِ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ .

وَلَمْ أَرَ مَثَلًا لِجَعْلِ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ عِلَّةً لِلرِّبَا أَظْهَرَ مِنْ جَعْلِ " الدُّخُولِ فِي جَوْفٍ " عِلَّةً

(216/217)

لِتَحْرِيمِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ عَلَى الصَّائِمِ فِي كَوْنِ كُلٍّ مِنَ الْعِلَّتَيْنِ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِمَا الشَّرْعُ وَلَا اللُّغَةُ وَلَا الْعَقْلُ الْمُدْرِكُ لِلْحُكْمِ وَالْمَصَالِحِ ; وَلِذَلِكَ قَاسُوا عَلَى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ إدْخَالَ الْمِسْبَارِ فِي جُرْحِ الْبَطْنِ أَوِ الرَّأْسِ . حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : إذَا خَرَجَتْ مَقْعَدَتُهُ عِنْدَ الْغَائِطِ فَأَدْخَلَهَا بِيَدِهِ

أَيْ بَعْدِ الِاسْتِنْجَاءِ فَإِنَّهُ يُفْطِرُ ! .

وَبِأَمْثَالِ هَذِهِ الْأَقِيسَةِ زَادَتْ أَحْكَامُ الْعِبَادَاتِ وَأَنْوَاعُ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى مَا كَانَ مَعْرُوفًا فِي زَمَنِ إِكْمَالِ الدِّينِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا شَيْءٌ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْنَا الشَّارِعُ مِنْ سُكُوتِهِ عَنْ أَشْيَاءَ عَفَا عَنْهَا رَحْمَةً بِنَا مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّهُ يُرِيدُ بِنَا الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِنَا الْعُسْرَ ، وَإِنَّهُ مَا جَعَلَ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ وَإِنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُعْنِتَنَا .

(مَا حَقَّقَهُ الشَّوْكَانِيُّ فِي مَسْأَلَةِ الْقِيَاسِ) :

بَيَّنَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّوْكَانِيُّ فِي كِتَابِهِ (إِرْشَادِ الْفُحُولِ إِلَى تَحْقِيقِ الْحَقِّ مِنْ عِلْمِ الْأُصُولِ) الْخِلَافَ فِي الْقِيَاسِ الْفِقْهِيِّ : هَلْ : يَجُوزُ التَّعَبُّدُ بِهِ عَقْلًا أَمْ لَا ؟ وَاخْتِلَافَ الْقَائِلِينَ بِالْجَوَازِ ، هَلْ وَقَعَ بِالْفِعْلِ أَمْ لَا ؟ وَاخْتِلَافَ الْقَائِلِينَ بِالْوُقُوعِ فِي شُرُوطِهِ وَدَلَائِلُهُ ، هَلْ هِيَ سَمْعِيَّةٌ أَوْ عَقْلِيَّةٌ ؟ وَانْقِسَامَ الْقَائِلِينَ بِعَدَمِ الْوُقُوعِ إِلَى

(217/217)

فَرِيقَيْنِ : فَرِيقٌ يَقُولُ : لَمْ يُوجَدْ فِي الشَّرْعِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فَوَجَبَ الِامْتِنَاعُ مِنَ الْعَمَلِ بِهِ ، وَفَرِيقٌ يَسْتَدِلُّ عَلَى نَفْيِهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَإِجْمَاعِ الْعِتْرَةِ وَبِالْعَقْلِ . ثُمَّ قَالَ : " وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْمَانِعُونَ مِنَ الْقِيَاسِ بِأَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ وَنَقْلِيَّةٍ وَلَا حَاجَةَ بِهِمْ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ ; فَالْقِيَامُ

فِي مَقَامِ الْمَنْعِ يَكْفِيهِمْ ، وَإِيرَادُ الدَّلِيلِ عَلَى الْقَائِلِينَ بِهِ ، وَقَدْ جَاءُوا بِأَدِلَّةٍ عَقْلِيَّةٍ لَا تَقُومُ بِهَا الْحُجَّةُ فَلَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا ، وَجَاءُوا بِأَدِلَّةٍ نَقْلِيَّةٍ فَقَالُوا : دَلَّ عَلَى ثُبُوتِ التَّعَبُّدِ بِالْقِيَاسِ الشَّرْعِيِّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ " .

ثُمَّ أَوْرَدَ مَا قَالُوهُ وَبَحَثَ فِيهِ الْإِمَامُ النِّحْرِيرُ مُلْتَزِمًا قَوَاعِدَ الْأُصُولِ وَآدَابَ الْمُنَاظَرَةِ ، فَنُلَخِّصُ ذَلِكَ بِمَا يَأْتِي مُبْتَدِئِينَ بِأَدِلَّتِهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ .

اسْتِدْلَالُهُمْ بِالْقُرْآنِ عَلَى الْقِيَاسِ :

(218/217)

(الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ) : قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (59 : 2) وَقَدْ نَقَلَ عَنِ الْمَحْصُولِ لِلْإِمَامِ الرَّازِيِّ رَدَّ الِاسْتِدْلَالِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْقِيَاسِ الْفِقْهِيِّ مِنْ وُجُوهٍ ، وَبَحَثَ فِيمَا اخْتَارَهُ مِنْ كَوْنِ الِاعْتِبَارِ حَقِيقَةً فِي الْمُجَاوَزَةِ ، وَوَافَقَهُ عَلَى كَوْنِ الْآيَةِ غَيْرَ حُجَّةٍ لِلْقِيَاسِيِّينَ فَقَالَ : " وَالْحَاصِلُ : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى الْقِيَاسِ الشَّرْعِيِّ لَا بِمُطَابَقَةٍ وَلَا تَضَمُّنٍ وَلَا الْتِزَامٍ ، وَمَنْ أَطَالَ الْكَلَامَ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَا فَقَدْ شَغَلَ الْحَيِّزَ بِمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ " .

(الدَّلِيلُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ) : قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) (5 : 95)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) (2 : 144) وَهَذَانِ مِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي رِسَالَتِهِ .

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ : وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّ غَايَةَ مَا فِي آيَةِ الْجَزَاءِ هِيَ الْمَجِيءُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الصَّيْدِ وَكَوْنِهِ مَثَلًا لَهُ مَوْكُولٌ إِلَى الْعَدْلَيْنِ وَمُفَوَّضٌ إِلَى اجْتِهَادِهِمَا ، وَلَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْقِيَاسِ الَّذِي هُوَ إِلْحَاقُ فَرْعٍ بِأَصْلٍ لِعِلَّةٍ جَامِعَةٍ . وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْقِبْلَةِ ، فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا إِيجَابُ تَحَرِّي الصَّوَابِ فِي أَمْرِهَا ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْقِيَاسِ فِي شَيْءٍ .

(219/217)

(الدَّلِيلُ الرَّابِعُ) : مَا اسْتَدَلَّ بِهِ ابْنُ سُرَيْجٍ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) (4 : 83) قَالَ الشَّوْكَانِيُّ : قَالُوا : أُولُو الْأَمْرِ هُمُ الْعُلَمَاءُ ، وَالِاسْتِنْبَاطُ هُوَ الْقِيَاسُ . وَيُجَابُ عَنْهُ بِأَنَّ الِاسْتِنْبَاطَ هُوَ اسْتِخْرَاجُ الدَّلِيلِ مِنَ الْمَدْلُولِ بِالنَّظَرِ فِيمَا يُفِيدُهُ مِنَ الْعُمُومِ أَوِ الْخُصُوصِ أَوِ الْإِطْلَاقِ أَوِ التَّقْيِيدِ أَوِ الْإِجْمَالِ أَوِ التَّبْيِينِ فِي نَفْسِ النُّصُوصِ ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ طَرِيقًا إِلَى اسْتِخْرَاجِ الدَّلِيلِ مِنْهُ . وَلَوْ سَلَّمْنَا انْدِرَاجَ الْقِيَاسِ تَحْتَ مُسَمَّى الِاسْتِنْبَاطِ لَكَانَ ذَلِكَ مَخْصُوصًا بِالْقِيَاسِ الْمَنْصُوصِ عَلَى عِلَّتِهِ وَقِيَاسِ الْفَحْوَى وَنَحْوِهِ ، لَا بِمَا كَانَ مُلْحَقًا بِمَسْلَكٍ مِنْ مَسَالِكِ الْعِلَّةِ

الَّتِي هِيَ مَحْضُ رَأْيٍ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا دَلِيلٌ مِنَ الشَّرْعِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الِاسْتِنْبَاطِ مِنَ الشَّرْعِ بِمَا أَذِنَ اللَّهُ بِهِ ، بَلْ مِنَ الِاسْتِنْبَاطِ بِمَا لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ بِهِ . اهـ .

أَقُولُ : وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّ أُولِي الْأَمْرِ لَيْسُوا هُمْ عُلَمَاءَ الْفِقْهِ الْمَعْرُوفِ وَأُصُولِهِ ، بَلْ هُمْ أُولُو الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنَ الْأُمَّةِ . فَرَاجِعْهُ فِي مَحَلِّهِ .

(220/217)

(الدَّلِيلُ الْخَامِسُ) : مَا اسْتَدَلَّ بِهِ ابْنُ سُرَيْجٍ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) (2 : 26) قَالَ : لِأَنَّ الْقِيَاسَ هُوَ تَشْبِيهُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ ، فَمَا جَازَ مِنْ فِعْلِ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فَهُوَ مِمَّنْ لَا يَخْلُو مِنَ الْجَهَالَةِ وَالنَّقْصِ أَجْوَزُ . وَاعْتَمَدَ الشَّوْكَانِيُّ فِي رَدِّ هَذَا الِاسْتِدْلَالِ قَلْبَهُ عَلَى صَاحِبِهِ بِبَيَانِ أَنَّ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَكُلُّ مَا يَضْرِبُهُ مِنْ مَثَلٍ وَمَا يُثْبِتُهُ مِنْ تَشْبِيهِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ، وَأَمَّا مَنْ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ وَالْجَهْلِ فَلَا نَقْطَعُ بِصِحَّةِ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَا نَظُنُّهُ لِمَا فِي فَاعِلِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالنَّقْصِ .

وَأَقُولُ : إِنَّ تَقْرِيرَ هَذَا الِاسْتِدْلَالِ هَفْوَةٌ مِنْ أَكْبَرِ الْهَفَوَاتِ ، بَلْ سَقْطَةٌ مِنْ أَقْبَحِ السَّقَطَاتِ ، فَإِنَّهُ عَلَى كَوْنِهِ لَيْسَ مِنَ الْمَوْضُوعِ فِي وِرْدٍ وَلَا صَدْرٍ عِبَارَةٌ عَنْ قِيَاسِ الْعَبْدِ عَلَى الرَّبِّ ،

وَجَعْلِهِ أَحَقَّ بِالتَّشْرِيعِ وَأَجْدَرَ ، وَقَدْ أَطَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَسْأَلَةِ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ مِنْ سِيَاقِهِ الَّذِي اخْتَصَرْنَاهُ ، فَيُرَاجَعُ فِي كِتَابِهِ .

(الدَّلِيلُ السَّادِسُ) : قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ إِحْيَاءَ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) (36 : 79)

(221/217)

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ : وَيُجَابُ عَنْهُ بِمَنْعِ كَوْنِ هَذِهِ الْآيَةِ لَا تَدُلُّ عَلَى الْمَطْلُوبِ لَا بِمُطَابَقَةٍ وَلَا تَضَمُّنٍ وَلَا الْتِزَامٍ ، وَغَايَةُ مَا فِيهَا الِاسْتِدْلَالُ بِالْأَثَرِ السَّابِقِ عَلَى الْأَثَرِ اللَّاحِقِ وَكَوْنُ الْمُؤَثِّرِ فِيهِمَا وَاحِدًا ، وَذَلِكَ غَيْرُ الْقِيَاسِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي هُوَ إِدْرَاجُ فَرْعٍ تَحْتَ أَصْلٍ لِعِلَّةٍ جَامِعَةٍ بَيْنَهُمَا .

(الدَّلِيلُ السَّابِعُ) : قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) (16 : 90) وَقَدْ نَسَبَهُ إلَى ابْنِ تَيْمِيَّةَ (قَالَ) : وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ الْعَدْلَ هُوَ التَّسْوِيَةُ ، وَالْقِيَاسَ هُوَ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ مَثَلَيْنِ فِي الْحُكْمِ فَيَتَنَاوَلُهُ عُمُومُ الْآيَةِ . وَيُجَابُ عَنْهُ بِمَنْعِ كَوْنِ الْآيَةِ دَلِيلًا عَلَى الْمَطْلُوبِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَلَوْ سَلَّمْنَا لَكَانَ ذَلِكَ فِي الْأَقْيِسَةِ الَّتِي قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى نَفْيِ الْفَارِقِ فِيهَا ، لَا فِي

الْأَقْيِسَةِ الَّتِي هِيَ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الرَّأْيِ ، وَنَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الظُّنُونِ الزَّائِفَةِ ، وَخَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْخَيَالَاتِ الْمُخْتَلَّةِ اهـ .

(222/217)

أَقُولُ : أَخْطَأَ الشَّوْكَانِيُّ هَهُنَا وَأَصَابَ - أَصَابَ فِيمَا رَمَى إِلَيْهِ مِنْ كَوْنِ الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى الْقِيَاسِ الْفِقْهِيِّ الْمَعْرُوفِ الَّذِي يَجْعَلُ كُلَّ مَا يُوزَنُ فِي حُكْمِ النَّقْدَيْنِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَكُلَّ مَا يُكَالُ فِي حُكْمِ الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالتَّمْرِ وَالْمِلْحِ ، وَيَجْعَلُ مُسْبِرَ الْجِرَاحِ مُفْطِرًا لِلصَّائِمِ كَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَأَخْطَأَ مُرَادُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ مِنَ الْقِيَاسِ وَالْعَدْلِ إِذْ يَظْهَرُ أَنَّهُ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى مَا كَتَبَهُ هُوَ ثُمَّ تِلْمِيذُهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي ذَلِكَ وَهُوَ عَيْنُ مَا سَلَّمَ دَلَالَةَ الْآيَةِ عَلَيْهِ ، وَسَنَعُودُ إِلَى ذِكْرِ مَذْهَبِهِمَا فِيهِ .

الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْقِيَاسِ بِالْحَدِيثِ وَالْإِجْمَاعِ :

ثُمَّ أَوْرَدَ الشَّوْكَانِيُّ مَا اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى حُجَّةِ الْقِيَاسِ مِنَ الْحَدِيثِ وَالْإِجْمَاعِ وَبَدَأَ الْكَلَامَ بِحَدِيثِ مُعَاذٍ ، إِذْ أَقَرَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَوْلِهِ : " أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا آلُو " فِي الْقَضَاءِ بِمَا لَا يَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَضْعِيفُ ابْنِ حَزْمٍ لِهَذَا

الْحَدِيثِ ، وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ : إِنَّ الْكَلَامَ فِي إِسْنَادِ هَذَا الْحَدِيثِ يَطُولُ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ مِمَّا تُلُقِّيَ بِالْقَبُولِ ، ثُمَّ أَجَابَ عَنْهُ وَعَنْ سَائِرِ أَدِلَّتِهِمْ بَعْدَ تَلْخِيصِهَا بِمَا نَصُّهُ :

(223/217)

" وَأُجِيبُ عَنْهُ بِأَنَّ اجْتِهَادَ الرَّأْيِ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِفْرَاغِ الْجُهْدِ فِي الطَّلَبِ لِلْحُكْمِ مِنَ النُّصُوصِ الْخَفِيَّةِ ، وَرُدَّ بِأَنَّهُ إِنَّمَا قَالَ : " أَجْتَهِدُ رَأْيِي " بَعْدَ عَدَمِ وُجُودِهِ لِذَلِكَ الْحُكْمِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الْخَفِيَّةُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأُجِيبُ عَنْ هَذَا الرَّدِّ بِأَنَّ الْقِيَاسَ عِنْدَ الْقَائِلِينَ بِهِ مَفْهُومٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَلَا بُدَّ

مِنْ حَمْلِ الِاجْتِهَادِ فِي الرَّأْيِ عَلَى مَا عَدَا

الْقِيَاسَ ، فَلَا يَكُونُ الْحَدِيثُ حَجَّةً لِإِثْبَاتِهِ ، وَاجْتِهَادُ الرَّأْيِ كَمَا يَكُونُ بِاسْتِخْرَاجِ الدَّلِيلِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَكُونُ بِالتَّمَسُّكِ بِالْبَرَاءَةِ الْأَصْلِيَّةِ ، أَوْ بِأَصَالَةِ الْإِبَاحَةِ فِي الْأَشْيَاءِ أَوِ الْحَظْرِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ ، أَوِ التَّمَسُّكِ بِالْمَصَالِحِ أَوِ التَّمَسُّكِ بِالِاحْتِيَاطِ .

(224/217)

" وَعَلَى تَسْلِيمِ دُخُولِ الْقِيَاسِ فِي اجْتِهَادِ الرَّأْيِ فَلَيْسَ الْمُرَادُ كُلَّ قِيَاسٍ ، بَلِ الْمُرَادُ الْقِيَاسَاتُ الَّتِي يَسُوغُ الْعَمَلُ بِهَا وَالرُّجُوعُ إِلَيْهَا ، كَالْقِيَاسِ الَّذِي عِلَّتُهُ مَنْصُوصَةٌ ، وَالْقِيَاسُ الَّذِي قَطَعَ فِيهِ بِنَفْيِ الْفَارِقِ فِي الدَّلِيلِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْأَخْذِ بِتِلْكَ الْقِيَاسَاتِ لَا الْقِيَاسَاتِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى تِلْكَ الْمَسَالِكِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِلَّا مُجَرَّدُ الْخَيَالَاتِ الْمُخْتَلَّةِ وَالشُّبَهِ الْبَاطِلَةِ .

وَأَيْضًا فَعَلَى التَّسْلِيمِ لَا دَلَالَةَ لِلْحَدِيثِ إِلَّا عَلَى الْعَمَلِ بِالْقِيَاسِ فِي أَيَّامِ النُّبُوَّةِ ، لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ إِذْ ذَاكَ لَمْ تَكْمُلْ فَيُمْكِنُ عَدَمُ وِجْدَانِ الدَّلِيلِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَمَّا بَعْدَ أَيَّامِ النُّبُوَّةِ فَقَدْ كَمُلَ الشَّرْعُ لِقَوْلِهِ : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) وَلَا مَعْنَى لِلْإِكْمَالِ إِلَّا وَفَاءُ النُّصُوصِ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الشَّرْعِ إِمَّا بِالنَّصِّ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ أَوْ بِانْدِرَاجِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ تَحْتَ الْعُمُومَاتِ الشَّامِلَةِ ، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (6 : 38) وَقَوْلُهُ : (وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (6 : 59) .

(225/217)

وَاسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْقِيَاسَاتِ كَقَوْلِهِ : " أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتَهُ أَكَانَ يُجْزِئُ عَنْهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَدَيْنُ اللهِ أَحَقُّ أَنْ

يُقْضَى " وَقَوْلُهُ لِرَجُلٍ سَأَلَهُ فَقَالَ : " أَيَقْضِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيُؤْجَرُ عَلَيْهَا ؟ فَقَالَ : " أَرَأَيْتَ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي حَلَالٍ كَانَ لَهُ أَجْرٌ " وَقَالَ لِمَنْ أَنْكَرَ وَلَدَهُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ امْرَأَتُهُ أَسْوَدَ : " هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَمَا أَلْوَانُهَا ؟ قَالَ : حُمْرٌ ، قَالَ : فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : فَمِنْ أَيْنَ ؟ قَالَ : لَعَلَّهُ نَزْعَةُ عِرْقٍ ، قَالَ : وَهَذَا لَعَلَّهُ نَزْعَةُ عِرْقٍ " وَقَالَ لِعُمَرَ وَقَدْ قَبَّلَ امْرَأَتَهُ وَهُوَ صَائِمٌ : " أَرَأَيْتَ لَوْ تَمَضْمَضْتَ بِمَاءٍ " وَقَالَ : " يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ " وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ ثَابِتَةٌ فِي دَوَاوِينِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ وَقَعَ مِنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قِيَاسَاتٌ كَثِيرَةٌ حَتَّى صَنَّفَ النَّاصِحُ الْحَنْبَلِيُّ جُزْءًا فِي أَقْيِسَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

" وَيُجَابُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَقْيِسَةَ صَادِرَةٌ عَنِ الشَّارِعِ الْمَعْصُومِ الَّذِي يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ فِيمَا جَاءَنَا بِهِ عَنْهُ : (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (53 : 4) وَيَقُولُ فِي وُجُوبِ اتِّبَاعِهِ :

(226/217)

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (59 : 7) وَذَلِكَ خَارِجٌ عَنْ مَحَلِّ النِّزَاعِ ، فَإِنَّ الْقِيَاسَ الَّذِي كَلَامُنَا فِيهِ إِنَّمَا هُوَ قِيَاسُ مَنْ لَمْ تَثْبُتْ لَهُ الْعِصْمَةُ وَلَا وَجَبَ اتِّبَاعُهُ وَلَا كَانَ كَلَامُهُ وَحْيًا بَلْ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ الْأَمَّارَةِ وَبِعَقْلِهِ الْمَغْلُوبِ بِالْخَطَأِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

الِاتِّفَاقُ عَلَى قِيَامِ الْحُجَّةِ بِالْقِيَاسَاتِ الصَّادِرَةِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(اسْتِدْلَالُهُمْ عَلَى الْقِيَاسِ بِالْإِجْمَاعِ) :

" وَاسْتَدَلُّوا أَيْضًا بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَى الْقِيَاسِ ، قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ الْحَنْبَلِيُّ : وَقَدْ بَلَغَ التَّوَاتُرُ الْمَعْنَوِيُّ عَنِ الصَّحَابَةِ بِاسْتِعْمَالِهِ وَهُوَ قَطْعِيٌّ . وَقَالَ الصَّفِيُّ الْهِنْدِيُّ : دَلِيلُ الْإِجْمَاعِ هُوَ الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ لِجَمَاهِيرِ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْأُصُولِيِّينَ . وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي الْمَحْصُولِ : مَسْلَكُ الْإِجْمَاعِ هُوَ الَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْأُصُولِيِّينَ . وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ : عِنْدِي أَنَّ الْمُعْتَمَدَ اشْتِهَارُ الْعَمَلِ بِالْقِيَاسِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ إِلَّا عِنْدَ شُذُوذٍ مُتَأَخِّرِينَ . قَالَ : وَهَذَا أَقْوَى الْأَدِلَّةِ .

(227/217)

وَيُجَابُ عَنْهُ بِمَنْعِ ثُبُوتِ هَذَا الْإِجْمَاعِ فَإِنَّ الْمُحْتَجِّينَ بِذَلِكَ إِنَّمَا جَاءُونَا بِرِوَايَاتٍ عَنْ أَفْرَادٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَحْصُورِينَ فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ إِجْمَاعًا لِجَمِيعِهِمْ مَعَ تَفَرُّقِهِمْ فِي الْأَقْطَارِ ، وَاخْتِلَافِهِمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ ، وَرَدِّ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَإِنْكَارِ بَعْضِهِمْ لِمَا قَالَهُ الْبَعْضُ كَمَا ذَلِكَ مَعْرُوفٌ ؟ .

" وَبَيَانُهُ أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي الْجَدِّ مَعَ الْإِخْوَةِ عَلَى أَقْوَالٍ مَعْرُوفَةٍ ، وَأَنْكَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ،

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فِي مَسْأَلَةِ زَوْجٍ وَأُمٍّ وَإِخْوَةٍ لِأُمٍّ وَإِخْوَةٍ لِأَبٍ وَأُمٍّ ، وَأَنْكَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فِي مَسْأَلَةِ الْخُلْعِ ، وَهَكَذَا وَقَعَ الْإِنْكَارُ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَى مَنْ عَمِلَ بِالرَّأْيِ مِنْهُمْ ، وَالْقِيَاسُ إنْ كَانَ مِنْهُ فَظَاهِرٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ فَقَدْ أَنْكَرَهُ مِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَهُ كَمَا فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا . وَلَوْ سَلَّمْنَا لَكَانَ ذَلِكَ الْإِجْمَاعُ إنَّمَا هُوَ عَلَى الْقِيَاسَاتِ الَّتِي وَقَعَ النَّصُّ عَلَى عِلَّتِهَا وَالَّتِي قَطَعَ فِيهَا بِنَفْيِ الْفَارِقِ ، فَمَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُمْ قَالُوا بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقِيَاسِ الَّذِي اعْتَبَرَهُ كَثِيرٌ

(228/217)

مِنَ الْأُصُولِيِّينَ وَأَثْبَتُوهُ بِمَسَالِكَ تَتَقَطَّعُ فِيهَا أَعْنَاقُ الْإِبِلِ ، وَتُسَافِرُ فِيهَا الْأَذْهَانُ حَتَّى تَبْلُغَ إلَى مَا لَيْسَ بِشَيْءٍ ، وَتَتَغَلْغَلُ فِيهَا الْعُقُولُ حَتَّى تَأْتِيَ بِمَا لَيْسَ مِنَ الشَّرْعِ فِي وُرُودٍ وَلَا صَدْرٍ ، وَلَا مِنَ الشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ فِي قُبَيْلٍ وَلَا دُبَيْرٍ ، وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْوَاضِحَةِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا " وَجَاءَتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ بِمَا قَدَّمْنَا مِنْ إكْمَالِ الدِّينِ ، وَبِمَا يُفِيدُ هَذَا الْمَعْنَى وَيُصَحِّحُ دَلَالَتَهُ وَيُؤَيِّدُ بَرَاهِينَهُ .

(الْقِيَاسُ الصَّحِيحُ) .

وَإِذَا عَرَفْتَ مَا حَرَّرْنَا ، وَتَقَرَّرَ لَدَيْكَ جَمِيعُ مَا قَرَّرْنَا ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْقِيَاسَ الْمَأْخُوذَ بِهِ هُوَ مَا

وَقَعَ النَّصُّ عَلَى عِلَّتِهِ وَمَا قُطِعَ فِيهِ بِنَفْيِ الْفَارِقِ ، وَمَا كَانَ مِنْ بَابِ فَحْوَى الْخِطَابِ أَوْ لَحْنِ الْخِطَابِ عَلَى اصْطِلَاحِ مَنْ يُسَمِّي ذَلِكَ قِيَاسًا ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ مِنْ مَفْهُومِ الْمُوَافَقَةِ .

(229/217)

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ نُفَاةَ الْقِيَاسِ لَمْ يَقُولُوا بِإِهْدَارِ كُلِّ مَا يُسَمَّى قِيَاسًا وَإِنْ كَانَ مَنْصُوصًا عَلَى عِلَّتِهِ أَوْ مَقْطُوعًا فِيهِ بِنَفْيِ الْفَارِقِ ، بَلْ جَعَلُوا هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْقِيَاسِ مَدْلُولًا عَلَيْهِ بِدَلِيلِ الْأَصْلِ مَشْمُولًا بِهِ مُنْدَرِجًا تَحْتَهُ ، وَبِهَذَا يَهُونُ عَلَيْكَ الْخَطْبُ وَيَصْغُرُ عِنْدَكَ مَا اسْتَعْظَمُوهُ ، وَيَقْرُبُ لَدَيْكَ مَا بَعَّدُوهُ ؛ لِأَنَّ الْخِلَافَ فِي هَذَا النَّوْعِ الْخَاصِّ صَارَ لَفْظِيًّا ، وَهُوَ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى مُتَّفَقٌ عَلَى الْأَخْذِ بِهِ وَالْعَمَلِ عَلَيْهِ ، وَاخْتِلَافُ طَرِيقَةِ الْعَمَلِ لَا يَسْتَلْزِمُ الِاخْتِلَافَ الْمَعْنَوِيَّ لَا عَقْلًا وَلَا شَرْعًا وَلَا عُرْفًا ، وَقَدْ قَدَّمْنَا لَكَ أَنَّ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ لَا تَقُومُ الْحُجَّةُ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا تَسْتَحِقُّ تَطْوِيلَ ذُيُولِ الْبَحْثِ بِذِكْرِهَا ، وَبَيَانُ ذَلِكَ : أَنَّ أَنْهَضَ مَا قَالُوهُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النُّصُوصَ لَا تَفِي بِالْأَحْكَامِ ؛ فَإِنَّهَا مُتَنَاهِيَةٌ وَالْحَوَادِثُ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ .

وَيُجَابُ عَنْ هَذَا بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ إِخْبَارِهِ عَزَّ وَجَلَّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَنَّهُ قَدْ أَكْمَلَ لَهَا دِينَهَا ، وَبِمَا أَخْبَرَهَا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنَّهُ قَدْ تَرَكَهَا عَلَى الْوَاضِحَةِ الَّتِي لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا .

(230/217)

ثُمَّ لَا يَخْفَى عَلَى ذِي لُبٍّ صَحِيحٍ وَفَهْمٍ صَالِحٍ أَنَّ فِي عُمُومَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمُطْلَقَاتِهِمَا وَخُصُوصِ نُصُوصِهِمَا مَا يَفِي بِكُلِّ حَادِثَةٍ تَحْدُثُ ، وَيَقُومُ بِبَيَانِ كُلِّ نَازِلَةٍ تَنْزِلُ ، عَرَفَ ذَلِكَ مَنْ عَرَفَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ اهـ .

ثُمَّ قَالَ الشَّوْكَانِيُّ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى النَّصِّ مِنْ مَسَالِكِ الْعِلَّةِ فِي الْقِيَاسِ مَا نَصُّهُ :

" وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خِلَافَ فِي الْأَخْذِ بِالْعِلَّةِ إذَا كَانَتْ مَنْصُوصَةً ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا هَلِ الْأَخْذُ بِهَا مِنْ بَابِ الْقِيَاسِ أَمْ مِنَ الْعَمَلِ بِالنَّصِّ ؟ فَذَهَبَ إِلَى الْأَوَّلِ الْجُمْهُورُ ، وَذَهَبَ إِلَى الثَّانِي النَّافُونَ لِلْقِيَاسِ ، فَيَكُونُ الْخِلَافُ عَلَى هَذَا لَفْظِيًّا . وَعِنْدَ ذَلِكَ يَهُونُ الْخَطْبُ وَيَصْغُرُ مَا اسْتَعْظَمَ مِنَ الْخِلَافِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ . فَإِنَّ لَفْظَ التَّعْلِيلِ إذَا لَمْ يَقْبَلِ التَّأْوِيلَ عَنْ كُلِّ مَا تَجْرِي الْعِلَّةُ فِيهِ كَانَ الْمُتَعَلِّقُ بِهِ مُسْتَدِلًّا بِلَفْظٍ قَاضٍ بِالْعُمُومِ " اهـ .

أَقُولُ : إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَا يَعُدُّ كُلَّ تَعْلِيلٍ فِي النُّصُوصِ مِنْ قَبِيلِ الْعَامِّ ، فَيَجْرِي كُلُّ مَا تَحَقَّقَتْ فِيهِ الْعِلَّةُ مَجْرَى أَفْرَادِ الْعَامِّ فِي حُكْمِهِ ، فَالْخِلَافُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ الَّذِينَ يَنُوطُونَ الْأَحْكَامَ بِالْعِلَلِ الْمَنْصُوصَةِ حَقِيقِيٌّ لَا لَفْظِيٌّ ، سَوَاءٌ كَانُوا يُسَمُّونَ ذَلِكَ عَمَلًا بِالنَّصِّ أَوْ قِيَاسًا ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ

اللَّفْظِيُّ بَيْنَ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَّفِقَيْنِ عَلَى تَحْكِيمِ الْعِلَلِ الْمَنْصُوصَةِ . وَابْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ الْقَيِّمِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَثَرِ إنَّمَا يُوَافِقَانِ الْجُمْهُورَ عَلَى إثْبَاتِ الْقِيَاسِ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَيَرَيَانِ أَنَّهُ بِهَذَا الْمَعْنَى دَاخِلٌ فِي مَفْهُومِ كَلِمَتَيِ الْعَدْلِ وَالْمِيزَانِ وَهَذَا حَقٌّ ، وَمِنْ مُقْتَضَاهُ أَنَّهُ خَاصٌّ بِأَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ دُونَ الْعِبَادَاتِ الْمَحْضَةِ ، فَإِنَّ الْعِبَادَاتِ قَدِ اسْتَوْفَتْهَا النُّصُوصُ وَبَيَّنَتْهَا السُّنَّةُ الْعَمَلِيَّةُ ، فَلَا وَجْهَ لِلزِّيَادَةِ فِيهَا أَوِ النَّقْصِ مِنْهَا ، وَلَا لِإِيقَاعِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : "كُلُّ عِبَادَةٍ لَمْ يَتَعَبَّدْهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا تَعَبَّدُوهَا " وَالْآثَارُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَمَنْ تَتَبَّعَ مَا زَادَهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ فِي أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ بِالْقِيَاسِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ لَمْ يَرَ لِشَيْءٍ مِنْهُ حُجَّةً قَيِّمَةً وَلَا قِيَاسًا صَحِيحًا .

(بَحْثٌ فِي الْتِزَامِ النُّصُوصِ فِي الْعِبَادَاتِ ، وَاعْتِبَارِ الْمَصَالِحِ فِي الْمُعَامَلَاتِ) .

تَمْهِيدٌ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ فِي ذَلِكَ :

(232/217)

كَانَ الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ مِنْ أَشَدِّ عُلَمَاءِ السَّلَفِ تَشْدِيدًا فِي اتِّبَاعِ السُّنَّةِ ، وَتَدْقِيقًا فِي إِنْكَارِ الْبِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ فِي الدِّينِ ، حَتَّى إِنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ - وَنَاهِيكَ بِعِلْمِهِ وَهَدْيِهِ - وَضْعَ رِدَائِهِ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْحَرِّ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ . وَأَنْكَرَ عَلَى مَنِ اسْتَشَارَهُ فِي الْإِحْرَامِ مِنْ مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِ قَبْرِهِ وَنَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَهُ بِالْإِحْرَامِ مِنَ الْمِيقَاتِ ، فَلَمَّا أَلَحَّ الرَّجُلُ قَالَ لَهُ : " لَا تَفْعَلْ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ الْفِتْنَةَ " فَقَالَ الرَّجُلُ : وَأَيُّ فِتْنَةٍ فِي هَذَا ؟ إِنَّمَا هِيَ أَمْيَالٌ أَزِيدُهَا . قَالَ : وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَرَى أَنَّكَ قَدْ سَبَقْتَ إِلَى فَضِيلَةٍ قَصَّرَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (24 : 63) وَمِنْ أَجَلِّ كَلَامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَنْ أَحْدَثَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ سَلَفُهَا فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَانَ الدِّينَ وَفِي رِوَايَةٍ : الرِّسَالَةَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا لَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا اهـ .

(233/217)

نَقَلَ ذَلِكَ الْعَلَّامَةُ الشَّاطِبِيُّ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِ الِاعْتِصَامِ (ص : 167 ج1 و198 ج2) وَقَالَ فِي ص : 310 مِنَ الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ : وَلِذَلِكَ الْتَزَمَ مَالِكٌ فِي الْعِبَادَاتِ عَدَمَ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْمَعَانِي وَإِنْ ظَهَرَتْ لِبَادِيَ الرَّأْيِ ، وُقُوفًا مَعَ مَا فُهِمَ مِنْ مَقْصُودِ الشَّارِعِ فِيهَا مِنَ التَّسْلِيمِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ فِي إِزَالَةِ الْأَخْبَاثِ وَرَفْعِ الْأَحْدَاثِ إِلَى مُطْلَقِ النَّظَافَةِ الَّتِي اعْتَبَرَهَا غَيْرُهُ حَتَّى اشْتَرَطَ فِي رَفْعِ الْأَحْدَاثِ النِّيَّةَ ، وَلَمْ يَقُمْ غَيْرُ الْمَاءِ مَقَامَهُ عِنْدَهُ وَإِنْ حَصَلَتِ النَّظَافَةُ حَتَّى يَكُونَ بِالْمَاءِ الْمُطْلَقِ ، وَامْتَنَعَ مِنْ إِقَامَةِ التَّكْبِيرِ

وَالتَّسْلِيمِ وَالْقِرَاءَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَقَامَهَا فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ وَالْإِجْزَاءِ وَمُنِعَ مِنْ إِخْرَاجِ الْقِيَمِ فِي الزَّكَاةِ ، وَاقْتَصَرَ فِي الْكَفَّارَاتِ عَلَى مُرَاعَاةِ الْعَدَدِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

" وَدَوَرَانُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى مَا حَدَّهُ الشَّارِعُ دُونَ مَا يَقْتَضِيهِ مَعْنًى مُنَاسِبٌ أَنْ تَصَوَّرَ لِقِلَّةِ ذَلِكَ فِي التَّعَبُّدَاتِ وَنُدُورِهِ ، بِخِلَافِ قِسْمِ الْعَادَاتِ الَّذِي هُوَ جَارٍ عَلَى الْمَعْنَى الْمُنَاسِبِ الظَّاهِرِ لِلْعُقُولِ . فَإِنَّهُ اسْتَرْسَلَ فِيهِ اسْتِرْسَالَ الْمُدِلِّ الْعَرِيقِ فِي فَهْمِ الْمَعَانِي الْمَصْلَحِيَّةِ ، نَعَمْ مَعَ مُرَاعَاةِ مَقْصُودِ الشَّارِعِ أَلَّا يَخْرُجَ عَنْهُ ، وَلَا يُنَاقِضَ أَصْلًا مِنْ أُصُولِهِ اهـ .

(234/217)

(أَقُولُ) : إِنَّ الْعَلَّامَةَ الشَّاطِبِيَّ قَدْ حَرَّرَ بَحْثَ الْبِدَعِ وَأَطَالَ فِي التَّنْفِيرِ عَنْهَا وَالْحَثِّ عَلَى الْتِزَامِ السُّنَّةِ فِي كِتَابِهِ (الِاعْتِصَامِ) بِمَا لَمْ يَسْبِقْ إِلَى مِثْلِهِ - بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَعِلْمِنَا - سَابِقٌ ، وَلَمْ يَلْحَقْهُ فِيهِ عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُنَا لَاحِقٌ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْبِدَعِ وَبَيْنَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ تَفْرِقَةً وَاضِحَةً بَيِّنَةً ، وَأَثْبَتَ أَنَّ مَالِكًا كَانَ يَقُولُ بِهَا عَلَى تَشَدُّدِهِ فِي نَصْرِ السُّنَّةِ ، وَمُبَالَغَتِهِ فِي مُقَاوَمَةِ الْبِدَعِ ، حَتَّى قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِيهِ : إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُبْغِضُ مَالِكًا فَاعْلَمْ أَنَّهُ مُبْتَدِعٌ ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ : إِذَا رَأَيْتَ الْحِجَازِيَّ يُحِبُّ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ فَاعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ .

(235/217)

الْمَشْهُورُ أَنَّ الْقَوْلَ بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى خِلَافِهِ . وَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ صَحِيحًا عَلَى إِطْلَاقِهِ ، فَإِنَّ بَعْضَ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ جَعَلَ الْقَوْلَ بِهَا مِنْ مَسَالِكِ الْعِلَّةِ لِلْقِيَاسِ ، فَأَدْخَلُوهَا فِيمَا يُسَمُّونَهُ الْمُنَاسَبَةَ أَوِ الْمَعْنَى الْمُنَاسِبَ . وَعَدَّهَا بَعْضُهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِدْلَالِ لَا مِنْ أُصُولِ الْأَحْكَامِ ، فَالْأَكْثَرُونَ يَقُولُونَ بِهَا ، وَلَكِنْ يَخْتَلِفُونَ فِي اسْمِهَا . قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ : الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ لِمَالِكٍ تَرْجِيحًا عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ فِي هَذَا النَّوْعِ ، وَيَلِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وَلَا يَكَادُ يَخْلُو غَيْرُهُمَا عَنِ اعْتِبَارِهِ فِي الْجُمْلَةِ ، وَلَكِنْ لِهَذَيْنِ

تَرْجِيحًا فِي الِاسْتِعْمَالِ لَهَا عَلَى غَيْرِهِمَا ، وَقَالَ الْقَرَافِيُّ : هِيَ عِنْدَ التَّحْقِيقِ فِي جَمِيعِ الْمَذَاهِبِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُومُونَ وَيَقْعُدُونَ بِالْمُنَاسَبَةِ ، وَلَا يَطْلُبُونَ شَاهِدًا بِالِاعْتِبَارِ ، وَلَا نَعْنِي بِالْمَصْلَحَةِ الْمُرْسَلَةِ إلَّا ذَلِكَ . قَالَ إمَامُ الْحَرَمَيْنِ : ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَمُعْظَمُ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ إلَى تَعَلُّقِ الْأَحْكَامِ بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ بِشَرْطِ الْمُلَاءَمَةِ لِلْمَصَالِحِ الْمُعْتَبَرَةِ الْمَشْهُودِ لَهَا بِالْأُصُولِ .

(236/217)

وَقَدْ قَسَّمَ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ الْمُنَاسِبَ إلَى مَا عُلِمَ اعْتِبَارُ الشَّرْعِ لَهُ ، وَمَا عُلِمَ إلْغَاؤُهُ لَهُ ، وَمَا لَا يُعْلَمُ اعْتِبَارُهُ وَلَا إلْغَاؤُهُ لَهُ ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَشْهَدُ لَهُ أَصْلٌ مُعَيَّنٌ بِالِاعْتِبَارِ ، بَلْ يُؤْخَذُ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ الْعَامَّةِ ، فَيُعَدُّ مِنْ وَسَائِلِهَا وَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي يُسَمُّونَهُ بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ . ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ الشَّوْكَانِيُّ فِي إرْشَادِ الْفُحُولِ ، وَقَالَ : وَقَدِ اشْتُهِرَ انْفِرَادُ الْمَالِكِيَّةِ بِالْقَوْلِ بِهِ . قَالَ الزَّرْكَشِيُّ : وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ فِي جَمِيعِ الْمَذَاهِبِ يَكْتَفُونَ بِمُطْلَقِ الْمُنَاسَبَةِ . وَلَا مَعْنَى لِلْمَصْلَحَةِ الْمُرْسَلَةِ إلَّا ذَلِكَ اهـ .

مَا حَرَّرَهُ الطُّوفِيُّ فِي مَسْأَلَةِ الْمَصَالِحِ :

(أَقُولُ) : لَمْ أَرَ فِي كَلَامِ عُلَمَاءِ الْمَشَارِقَةِ مَنْ أَطْنَبَ فِي بَحْثِ الْمَصَالِحِ مِثْلَ الْإِمَامِ نَجْمِ الدِّينِ

الطُّوفِيِّ الْحَنْبَلِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 716 وَلَا فِي كَلَامِ عُلَمَاءِ الْمَغَارِبَةِ مِثْلَ الْعَلَّامَةِ أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ الشَّاطِبِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 790 .

(237/217)

أَمَّا الطُّوفِيُّ فَإِنَّهُ وَفَّى الْمَوْضُوعَ حَقَّهُ فِي شَرْحِهِ لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مِنَ الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ : " لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ " (رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُمَا مُسْنَدًا وَمَالِكٌ مُرْسَلًا وَحَسَّنُوهُ) وَقَدْ قَالَ هُوَ وَغَيْرُهُ : إِنَّهُ يَقْتَضِي رِعَايَةَ الْمَصَالِحِ إِثْبَاتًا وَنَفْيًا ، وَالْمَفَاسِدِ نَفْيًا . ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى الْمَسْأَلَةِ بِعِدَّةِ أَدِلَّةٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَفْصِيلِيَّةٍ وَإِجْمَالِيَّةٍ ، وَبِإِجْمَاعِ مَا عَدَا الْجَامِدِينَ مِنَ الظَّاهِرِيَّةِ ، وَجَعَلَ مَدَارَ تَعْلِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَدَعَّمَ ذَلِكَ بِالِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا بِالنَّظَرِ الْعَقْلِيِّ ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا حَتَّى جَعَلَ رِعَايَةَ الْمَصْلَحَةِ مُقَدَّمَةً عَلَى النَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ عِنْدَ التَّعَارُضِ ، فَقَالَ : وَإِنْ خَالَفَهَا وَجَبَ تَقْدِيمُ رِعَايَةِ الْمَصْلَحَةِ عَلَيْهِمَا بِطَرِيقِ التَّخْصِيصِ وَالْبَيَانِ لَهُمَا ، لَا بِطَرِيقِ الِافْتِئَاتِ عَلَيْهِمَا وَالتَّعْطِيلِ لَهُمَا .

وَهَذَا الَّذِي قَرَّرَهُ الطُّوفِيُّ فِي رِعَايَةِ الْمَصْلَحَةِ هُوَ أَدَقُّ وَأَوْسَعُ مِنَ الْقَوْلِ بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ وَأَدِلَّتُهُ أَقْوَى ، وَقَدْ صَرَّحَ هُوَ بِذَلِكَ فَقَالَ :

" وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ الَّتِي قَرَّرْنَاهَا مُسْتَفِيدِينَ لَهَا مِنَ الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ لَيْسَتْ هِيَ الْقَوْلَ بِالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ ، بَلْ هِيَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ ، وَهِيَ التَّعْوِيلُ عَلَى النُّصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُقَدَّرَاتِ وَعَلَى اعْتِبَارِ الْمَصَالِحِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَبَاقِي الْأَحْكَامِ " اهـ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ بَيَانِ ذَلِكَ :

" وَإِنَّمَا اعْتَبَرْنَا الْمَصْلَحَةَ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَنَحْوِهَا ، دُونَ الْعِبَادَاتِ وَشَبَهِهَا ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَاتِ حَقٌّ لِلشَّارِعِ خَاصٌّ بِهِ ، وَلَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ حَقِّهِ كَمًّا وَكَيْفًا وَزَمَانًا وَمَكَانًا إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ ، فَيَأْتِي بِهِ الْعَبْدُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ ، وَلِأَنَّ غُلَامَ أَحَدِنَا لَا يُعَدُّ مُطِيعًا خَادِمًا لَهُ إِلَّا إِذَا امْتَثَلَ مَا رَسَمَ سَيِّدُهُ وَفَعَلَ مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يُرْضِيهِ ، فَكَذَلِكَ هَهُنَا ، وَلِهَذَا لَمَّا تَعَبَّدَتِ الْفَلَاسِفَةُ بِعُقُولِهِمْ وَرَفَضُوا

الشَّرَائِعَ أَسْخَطُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَضَلُّوا وَأَضَلُّوا . وَهَذَا

بِخِلَافِ حُقُوقِ الْمُكَلَّفِينَ ؛ فَإِنَّ أَحْكَامَهَا سِيَاسِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ وُضِعَتْ لِمَصَالِحِهِمْ ، وَكَانَتْ هِيَ الْمُعْتَبَرَةَ وَعَلَى تَحْصِيلِهَا الْمُعَوَّلُ .

" وَلَا يُقَالُ : إنَّ الشَّرْعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمْ فَلْتُؤْخَذْ مِنْ أَدِلَّتِهِ لِأَنَّا نَقُولُ : قَدْ قَرَّرْنَا أَنَّ الْمَصْلَحَةَ مِنْ أَدِلَّةِ الشَّرْعِ وَهِيَ أَقْوَاهَا وَأَخَصُّهَا فَلْنُقَدِّمْهَا فِي تَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ .

(239/217)

" ثُمَّ إنَّ هَذَا إنَّمَا يُقَالُ فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي تَخْفَى مَصَالِحُهَا عَنْ مَجَارِي الْعُقُولِ وَالْعَادَاتِ . وَأَمَّا مَصْلَحَةُ سِيَاسَةِ الْمُكَلَّفِينَ فِي حُقُوقِهِمْ فَهِيَ مَعْلُومَةٌ لَهُمْ بِحُكْمِ الْعَادَةِ وَالْعَقْلِ . فَإِذَا رَأَيْنَا الشَّرْعَ مُتَقَاعِدًا عَنْ إفَادَتِهَا عَلِمْنَا أَنَّا أَحَلْنَا فِي تَحْصِيلِهَا عَلَى رِعَايَتِهَا " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ هُنَا . وَمَنْ أَرَادَ الِاطِّلَاعَ عَلَى سِيَاقِهِ بِرُمَّتِهِ فَلْيَرْجِعْ إلَى الْمُجَلَّدِ التَّاسِعِ مِنَ الْمَنَارِ (ص 745 - 770) .

مَا حَرَّرَهُ الشَّاطِبِيُّ فِي مَسْأَلَةِ الْمَصَالِحِ :

وَأَمَّا الشَّاطِبِيُّ ، فَإِنَّهُ جَعَلَ الْبَابَ الثَّامِنَ مِنْ كِتَابِهِ الِاعْتِصَامِ فِي التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْبِدَعِ وَالْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ وَالِاسْتِحْسَانِ ؛ فَأَمَّا الِاسْتِحْسَانُ فَإِذَا لَمْ يَرْجِعْ إلَى قِيَاسٍ صَحِيحٍ أَوْ إلَى رِعَايَةِ الْمَصَالِحِ وَدَفْعِ الْمَفَاسِدِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ ، وَأَمَّا الْمَصَالِحُ الْمُرْسَلَةُ فَقَدْ وَافَقَ الشَّاطِبِيُّ الْأُصُولِيِّينَ عَلَى عَدِّهَا مِمَّا يُسَمُّونَهُ الْمَعْنَى الْمُنَاسِبَ ، وَوَضَّحَهَا بِعَشَرَةِ أَمْثِلَةٍ مِنْهَا :

(1) اتِّفَاقُ الصَّحَابَةِ عَلَى كِتَابَةِ الْقُرْآنِ فِي الصُّحُفِ الَّتِي سُمِّيَ مَجْمُوعُهَا الْمُصْحَفَ .

(2) اتِّفَاقُهُمْ عَلَى حَدِّ شَارِبِ الْخَمْرِ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، كَذَا قَالَ .

(3) قَضَاءُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِتَضْمِينِ الصُّنَّاعِ ، وَقَوْلُ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) فِي ذَلِكَ : لَا يُصْلِحُ النَّاسَ إلَّا ذَاكَ .

(240/217)

---

(4) مَا ذَهَبَ إلَيْهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الضَّرْبِ فِي التُّهَمِ ، وَمَا ذَهَبَ إلَيْهِ مَالِكٌ مِنَ السِّجْنِ فِي التُّهَمِ ، مَعَ أَنَّ السِّجْنَ نَوْعٌ مِنَ الْعَذَابِ .

(5) مَا قَرَّرَهُ وَنُقِلَ مِثْلُهُ عَنِ الْغَزَالِيِّ وَابْنِ الْعَرَبِيِّ مِنْ جَوَازِ وَضْعِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ ضَرَائِبَ وَإِعَانَاتٍ مُؤَقَّتَةً عِنْدَ الضَّرُورَةِ ؛ لِتَكْثِيرِ الْجُنُودِ لِسَدِّ الثُّغُورِ وَحِمَايَةِ الْمِلْكِ إذَا لَمْ يُوجَدْ فِي بَيْتِ الْمَالِ مَا يَفِي بِذَلِكَ .

(6) اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي الْعِقَابِ عَلَى بَعْضِ الْجِنَايَاتِ بِأَخْذِ الْمَالِ .

(7) الزِّيَادَةُ عَلَى سَدِّ الرَّمَقِ إذَا تَوَالَتْ ضَرُورَةُ الْأَكْلِ مِنَ الْمُحَرَّمِ كَالْمَيْتَةِ فِي الْمَجَاعَاتِ ، أَوْ عَمَّ الْحَرَامُ بَلَدًا أَوْ قُطْرًا فِي جَمِيعِ الْأَمْوَالِ ، فَحِينَئِذٍ لَا يُنْظَرُ إلَى أَصْلِ الْمَالِ ، بَلْ يُؤْخَذُ مِنَ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ ، كَمَا لَوْ كَانَ أَصْلُهُ حَلَالًا . هَذَا مُلَخَّصُ مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ ، وَعَزَى الْقَوْلَ بِهِ إلَى ابْنِ الْعَرَبِيِّ وَأَحَالَ فِي بَسْطِهِ عَلَى الْغَزَالِيِّ فِي الْإِحْيَاءِ ؛ أَيْ فِي كِتَابِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مِنَ

الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْهُ .

(8) قَتْلُ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ ، قَالَ : وَالْمُسْتَنَدُ فِيهِ الْمَصْلَحَةُ الْمُرْسَلَةُ ; إذْ لَا نَصَّ عَلَى عَيْنِ الْمَسْأَلَةِ ، وَلَكِنَّهُ مَنْقُولٌ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ .

(241/217)

---

(9) إقَامَةُ إمَامٍ لِلْمُسْلِمِينَ (خَلِيفَةٍ) غَيْرِ مُجْتَهِدٍ فِي الشَّرْعِ إذَا فُقِدَ الْمُجْتَهِدُ . قَالَ : " إنَّ الْعُلَمَاءَ نَقَلُوا الِاتِّفَاقَ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ الْكُبْرَى لَا تَنْعَقِدُ إلَّا لِمَنْ نَالَ رُتْبَةَ الِاجْتِهَادِ وَالْفَتْوَى فِي عُلُومِ الشَّرْعِ ، كَمَا أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا أَيْضًا أَوْ كَادُوا يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ بَيْنَ النَّاسِ لَا يَحْصُلُ إلَّا لِمَنْ رُقِّيَ فِي رُتْبَةِ الِاجْتِهَادِ . وَهَذَا صَحِيحٌ عَلَى الْجُمْلَةِ ، وَلَكِنْ إذَا فُرِضَ خُلُوُّ الزَّمَانِ عَنْ مُجْتَهِدٍ يَظْهَرُ بَيْنَ النَّاسِ وَافْتَقَرُوا إلَى إمَامٍ يُقَدِّمُونَهُ لِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ وَتَسْكِينِ ثَوْرَةِ الثَّائِرِينَ وَالْحِيَاطَةِ عَلَى دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ ، فَلَا بُدَّ مِنْ إقَامَةِ الْأَمْثَلِ مِمَّنْ لَيْسَ بِمُجْتَهِدٍ . ثُمَّ بَيَّنَ وَجْهَ ذَلِكَ وَصَرَّحَ بِأَنَّهُ لَا يَتَّجِهُ إلَّا عَلَى فَرْضِ خُلُوِّ الزَّمَانِ عَنْ مُجْتَهِدٍ ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ فِيهَا بَحْثٌ ، وَقَدْ صَرَّحَ الْمُحَقِّقُونَ بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ خُلُوُّ الزَّمَانِ عَنْ مُجْتَهِدٍ ، وَلَيْسَ هَذَا مَحَلَّ بَيَانِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، بَلْ هُوَ لَا يَتَّسِعُ لِتَحْقِيقِ مَسْأَلَةِ الْمِثَالِ الْمَفْرُوضَةِ أَيْضًا .

(10) بَيْعَةُ مَنْ لَمْ تَتَوَفَّرْ فِيهِ شُرُوطُ الْإِمَامَةِ ابْتِدَاءً أَوِ اسْتَدَامَتُهَا بَعْدَ وُجُودِ الْكُفْءِ لَهَا كَالْقُرَشِيِّ الْمُجْتَهِدِ . . . إلخ; خَوْفًا مِنَ الْفِتْنَةِ وَتَفَرُّقِ الْكَلِمَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ مُبَايَعَةَ ابْنِ عُمَرَ لِيَزِيدَ وَلِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ عَلَى كَوْنِهِمَا مِنْ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ ، وَأَخْذَهُمَا الْمُلْكَ بِالسَّيْفِ لَا بِاخْتِيَارِ الْأُمَّةِ ، وَنَهْيَ مَالِكٍ عَنِ الْخُرُوجِ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ . وَفِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَبْحَاثٌ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ; فَلَا تُؤْخَذُ عَلَى إِطْلَاقِهَا ، وَقَدْ سَبَقَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْمُحَارِبِينَ (الْبُغَاةِ) قَوْلٌ وَجِيزٌ فِيهَا ،

وَإِشَارَةٌ إِلَى بَعْضِ مَسَائِلِهَا ; مِنْهُ أَنَّ تَحْرِيرَهَا لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِمُصَنَّفٍ خَاصٍّ ، وَمِنْهُ أَنَّ الرَّأْيَ الْغَالِبَ عَلَى الْأُمَمِ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي الْخُرُوجِ عَلَى الْمُلُوكِ الْمُسْتَبِدِّينَ الْجَائِرِينَ ; كَمَا فَعَلَتِ الْأُمَّةُ الْعُثْمَانِيَّةُ إِذْ كَوَّنَتْ قُوَّةً خَرَجَتْ بِهَا عَلَى سُلْطَانِهَا عَبْدِ الْحَمِيدِ فَسَلَبَتِ السُّلْطَةَ مِنْهُ ، وَخَلَعَتْهُ بِفَتْوَى مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ فِيهَا .

وَمَنْ دَقَّقَ النَّظَرَ فِي الْأَمْثِلَةِ الَّتِي أَوْرَدَهَا الشَّاطِبِيُّ لِمَسْأَلَةِ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ بَعْضَهَا تَدُلُّ عَلَيْهِ النُّصُوصُ أَوِ السُّنَّةُ الْعَمَلِيَّةُ ، وَمِنْهَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقِيَاسُ . فَمِنَ الْأَوَّلِ كِتَابَةُ الْقُرْآنِ فِي مُصْحَفٍ يَجْمَعُهُ كُلَّهُ ، فَإِنَّ تَسْمِيَةَ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ كِتَابًا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ كِتَابَتِهِ ، وَاتِّخَاذُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكُتَّابَ لَهُ يَكْتُبُونَ بِأَمْرِهِ كُلَّ مَا نَزَلَ فِي وَقْتِهِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، وَسَبَبُ عَدَمِ جَمْعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ فِي الْمُصْحَفِ ظَاهِرٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِطَالَةِ الْفِكْرَةِ ، وَهُوَ احْتِمَالُ الْمَزِيدِ فِي كُلِّ سُورَةٍ مَا دَامَ حَيًّا ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَوَّرَ أَحَدٌ وَلَا أَنْ يَجِدَ شُبْهَةً

عَلَى كَوْنِ كِتَابَتِهِ فِي صُحُفٍ مُتَفَرِّقَةٍ هُوَ مَطْلُوبَ الشَّارِعِ ، وَإِنَّمَا تَلَبَّثَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْأَمْرِ أَوَّلًا عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الرَّوِيَّةِ فِي الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ ، وَنَاهِيكَ بِأَوَائِلِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَعْرِضُ عَلَى أَصْحَابِ الْمَنَاصِبِ الْعُلْيَا فِي مَنَاصِبِهِمْ . وَمِنَ الثَّانِي حَدُّ السُّكْرِ ، قِيلَ : إِنَّهُ قِيَاسٌ عَلَى الْقَذْفِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ تَعْزِيرٌ لَا يَجِبُ الْتِزَامُ الْعَدَدِ فِيهِ .

(244/217)

وَالْحَقُّ الْجَلِيُّ الظَّاهِرُ أَنَّ مَسَائِلَ الْمُعَامَلَاتِ الَّتِي يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى الْحُكَّامِ مِنْ قَضَائِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَحَرْبِيَّةٍ تَرْجِعُ كُلُّهَا إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي بَيَّنَهُ حَدِيثُ : " لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ " بِالتَّبَعِ

لِآيَاتِ رَفْعِ الْمَضَارَّةِ فِي الْإِرْثِ وَالزَّوْجِيَّةِ أَيْ رَفْعُ الضَّرَرِ الْفَرْدِيِّ وَالْمُشْتَرَكِ ، وَمِنْهُ أُخِذَتْ قَاعِدَةُ دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَحِفْظِ الْمَصَالِحِ مَعَ مُرَاعَاةِ مَا عُلِمَ مِنْ نُصُوصِ الشَّارِعِ وَمَقَاصِدِهِ ، وَأَمْثِلَةُ هَذَا فِي أَعْمَالِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَالِيَّةِ وَالْإِدَارِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، عَلَى أَنَّ جَمَاهِيرَ الْفُقَهَاءِ يُصَرِّحُونَ دَائِمًا بِإِرْجَاعِ جَمِيعِ الْأَحْكَامِ إِلَى الْقَاعِدَةِ الْمَذْكُورَةِ آنِفًا ، فَقَوَاعِدُ الْعِزِّ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ الشَّافِعِيِّ الْمَشْهُودِ لَهُ بِالِاجْتِهَادِ الْمُطْلَقِ أَكْثَرُهَا يَدُورُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ .

إِنَّمَا فَرَّ أَكْثَرُ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ مِنْ تَقْرِيرِ هَذَا الْأَصْلِ تَقْرِيرًا صَرِيحًا مَعَ اعْتِبَارِهِمْ كُلِّهِمْ لَهُ كَمَا قَالَ الْقَرَافِيُّ خَوْفًا مِنِ اتِّخَاذِ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ إِيَّاهُ حُجَّةً لِاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَإِرْضَاءِ اسْتِبْدَادِهِمْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ وَدِمَائِهِمْ ، فَرَأَوْا أَنْ يَتَّقُوا ذَلِكَ بِإِرْجَاعِ جَمِيعِ الْأَحْكَامِ

(245/217)

إِلَى النُّصُوصِ وَلَوْ بِضَرْبٍ مِنَ الْأَقْيِسَةِ الْخَفِيَّةِ ، فَجَعَلُوا مَسْأَلَةَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَةِ مِنْ أَدَقِّ مَسَالِكِ الْعِلَّةِ فِي الْقِيَاسِ وَلَمْ يَنُوطُوهَا بِاجْتِهَادِ الْأُمَرَاءِ وَالْحُكَّامِ . وَهَذَا الْخَوْفُ فِي مَحَلِّهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَقِ الْأُمَّةَ مِنْ أَهْوَاءِ الْحُكَّامِ كَمَا يَنْبَغِي ، إِذْ كَانَ يُوجَدُ فِي عَهْدِ كُلِّ ظَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ مَنْ يُمَهِّدُ لَهُ الطَّرِيقَ وَلَوْ لِبَعْضِ مَا يُرِيدُ مِنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى .

وَالطَّرِيقَةُ الْمُثْلَى لِحِفْظِ الْحَقِّ وَإِقَامَةِ مِيزَانِ الْعَدْلِ : هِيَ رَفْعُ قَوَاعِدِ الْحُكْمِ عَلَى الْأَسَاسِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (42 : 38) وَقَوْلِهِ : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (4 : 59) كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ التَّفْسِيرِ لَا بِإِنْكَارِ أَصْلِ الْمَصَالِحِ وَلَا بِالتَّضْيِيقِ فِي تَفْرِيعِ الْأَحْكَامِ عَلَيْهَا . فَإِذَا نِيطَ ذَلِكَ بِأُولِي الْأَمْرِ أَيْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ يُنَصِّبُونَ الْإِمَامَ (الْخَلِيفَةَ) وَيَكُونُونَ أَهْلَ الشُّورَى لَهُ وَيَكُونُ هُوَ مُقَيَّدًا بِمَا يُقَرِّرُونَهُ فَحِينَئِذٍ لَا يُخْشَى مِنْ جَعْلِ مُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ ذَرِيعَةً لِلْمَفَاسِدِ مَا يُخْشَى مِنْهُ فِي حَالِ إِقْرَارِ كُلِّ مُتَغَلِّبٍ عَلَى الْحُكْمِ مَعَ التَّضْيِيقِ فِي مَسَالِكِ اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ ، الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْفُقَهَاءِ . وَإِنَّمَا مَثَارُ الْمَفَاسِدِ كُلِّهَا أَنْ يُوَسَّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ . وَأَنْ يُقَرَّ عَلَى الْمُلْكِ كُلُّ مُتَغَلِّبٍ ، وَيَرْضَى بِتَقْلِيدِهِ كُلُّ جَائِرٍ جَاهِلٍ . فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَضَاعَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ . نَتِيجَةُ مَا تَقَدَّمَ .

عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمَسَائِلَ الدِّينِيَّةَ الْمَحْضَةَ ، وَهِيَ : الْعَقَائِدُ وَالْعِبَادَاتُ وَالْحَظْرُ وَالْإِبَاحَةُ الدِّينِيَّانِ ، تُؤْخَذُ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ ، وَبَيَانُ السُّنَّةِ لَهَا بِالْقَوْلِ أَوِ الْعَمَلِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ فَلَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِي مُخَالَفَتِهِ . وَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ يُنْظَرُ فِي دَلَائِلِهِ ، وَيُرَجَّحُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا يَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِنْ أَقْسَامِ أَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ ، وَلَا يُلْتَفَتُ فِيهِ إِلَى الشُّذُوذِ ، وَلَا يَجُوزُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِحْدَاثُ عِبَادَةٍ جَدِيدَةٍ أَوِ الْإِتْيَانُ بِعِبَادَةٍ مَأْثُورَةٍ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجُمْهُورُ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا بِقِيَاسٍ وَلَا بِدَعْوَى إِجْمَاعٍ لِمَنْ بَعْدَهُمْ وَلَا لِمَصْلَحَةٍ ، وَلَا لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ وَالنَّظَرِيَّاتِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَكْمَلَ الدِّينَ أُصُولَهُ وَفُرُوعَهُ بِكِتَابِهِ وَبَيَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَهَانَا عَنِ السُّؤَالِ الْمُقْتَضِي لِزِيَادَةِ التَّكَالِيفِ ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، فَمَنْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا كَانَ مُرَاغِمًا لِنَصِّ الْقُرْآنِ أَوْ طَاعِنًا فِي بَيَانِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ زَاعِمًا أَنَّهُ أَكْمَلُ مِنْهُ عِلْمًا وَعَمَلًا بِالدِّينِ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ لِمَنْ أَرَادَ الْإِحْرَامَ بِالْحَجِّ مِنَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(248/217)

وَأَمَّا الْأُمُورُ الدُّنْيَوِيَّةُ ، مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ وَسِيَاسَةٍ وَقَضَاءٍ وَآدَابٍ فَهِيَ تَنْقَسِمُ بِحَسَبِ الْأَدِلَّةِ إِلَى سِتَّةِ أَقْسَامٍ :

الْأَوَّلُ : مَا فِيهِ نَصٌّ مُحْكَمٌ قَطْعِيُّ الرِّوَايَةِ وَالدَّلَالَةِ لُغَةً ، وَارِدٌ مَوْرِدَ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ الْعَامِّ فَالْوَاجِبُ أَنْ يُعْمَلَ بِهِ وَلَا مَجَالَ لِلِاجْتِهَادِ فِيهِ مَا لَمْ يُعَارِضْهُ مَا هُوَ أَرْجَحُ مِنْهُ مِنَ النُّصُوصِ الْخَاصَّةِ بِمَوْضُوعِهِ أَوِ الْعَامَّةِ كَنَفْيِ الْحَرَجِ وَنَفْيِ الضَّرَرِ وَالضِّرَارِ ، وَكَوْنِ الضَّرُورَاتِ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ بِنَصِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) (6 : 119) وَكَوْنِهَا تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا وَتَزُولُ بِزَوَالِ مُقْتَضِيهَا .

الثَّانِي : مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَصٌّ صَحِيحٌ بِعُمُومِهِ أَوْ تَعْلِيلِهِ أَوْ مَفْهُومِهِ دَلَالَةً وَاضِحَةً أَجْمَعَ عَلَيْهَا أَهْلُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ أَوْ عَمِلَ بِهَا جُمْهُورُهُمْ ، وَعُرِفَ شُذُوذُ مَنْ خَالَفَ مِنْهُمْ ، فَالْوَاجِبُ فِي هَذَا عَيْنُ الْوَاجِبِ فِيمَا قَبْلَهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ مَنْ عَرَفَهُ .

(249/217)

الثَّالِثُ : مَا وَرَدَ فِيهِ نَصٌّ تَكْلِيفِيٌّ غَيْرُ قَطْعِيِّ الدَّلَالَةِ ، أَوْ حَدِيثٌ غَيْرُ وَاهٍ وَلَا صَحِيحٍ ، فَاخْتَلَفَ فِيهِ الصَّحَابَةُ أَوْ غَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ الْفِقْهِ لِلِاخْتِلَافِ فِي صِحَّةِ رِوَايَتِهِ أَوْ صَرَاحَةِ دَلَالَتِهِ . فَمِثْلُ هَذَا يَعْمَلُ فِيهِ كُلُّ مُكَلَّفٍ بِاجْتِهَادِ نَفْسِهِ ، وَيُعْذَرُ كُلُّ مَنْ

خَالَفَهُ فِيمَا ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ الْحَقُّ لَا يَعِيبُهُ وَلَا يَنْتَقِدُهُ ، كَمَا اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي بَعْضِ أَحْكَامِ الطَّهَارَةِ وَالنَّجَاسَةِ ، وَلَمْ يَعِبْ أَحَدُهُمْ مُخَالِفَهُ فِيهِ ، وَلَمْ يَمْتَنِعْ مِنَ الصَّلَاةِ مَعَهُ لَا إِمَامًا وَلَا مُقْتَدِيًا ، وَكَمَا فَهِمَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ مِنْ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْخَمْرِ تَحْرِيمَهَا وَبَعْضُهُمْ عَدَمَ تَحْرِيمِهَا ، فَعَمِلَ كُلٌّ بِمَا ظَهَرَ لَهُ وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَى غَيْرِهِ .

(250/217)

وَمِثْلُهُ مَا يَسْتَنْبِطُهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، فَمَنْ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الدِّينِ وَأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ سُنَّةَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ عَمِلَ بِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ ذَلِكَ فَلَا يُكَلِّفُهُ تَقْلِيدًا لِمَنِ اسْتَنْبَطَهُ . وَقَدْ نُقِلَ عَنْ أَشْهَرِ الْمُجْتَهِدِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يُقَلِّدَهُمْ وَأَنْ يَأْخُذَ بِشَيْءٍ مِنْ أَقْوَالِهِمْ إِلَّا إِذَا عَرَفَ مَأْخَذَهُ وَظَهَرَ لَهُ صِحَّةُ دَلِيلِهِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ مُتَّبِعًا لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَا لِآرَاءِ النَّاسِ ، فَلَا يَكُونُ مُخَالِفًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) (7 : 3) .

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ كَالْأَحْكَامِ الْقَضَائِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ أُولُو الْأَمْرِ وَيَتَشَاوَرُوا فِيهِ مِنْ حَيْثُ تَصْحِيحُ النَّقْلِ ، وَمِنْ حَيْثُ طَرِيقُ الدَّلَالَةِ عَلَى الْحُكْمِ ، فَإِذَا ظَهَرَ لَهُمْ مَا يَقْتَضِي إِلْحَاقَهُ بِأَحَدِ الْأَقْسَامِ السَّابِقَةِ أَلْحَقُوهُ بِهِ فَكَانَ لَهُ حُكْمُهُ ،

وَإِلَّا كَانَ كَالْمَسْكُوتِ عَنْهُ .

الرَّابِعُ : مَا وَرَدَ فِيهِ نَصٌّ غَيْرُ وَارِدٍ مَوْرِدَ التَّكْلِيفِ كَالْأَحَادِيثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعَادَاتِ

(251/217)

مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالطِّبِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ الْعَامِّ – وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ إِرْشَادًا لَا تَشْرِيعًا – وَكَذَا مَا كَانَ مِنْ قَبِيلِ الْفَتَاوَى الشَّخْصِيَّةِ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ الْجُمْهُورُ لِعَدَمِ الْأَمْرِ بِتَبْلِيغِهِ ، فَالْأَوْلَى وَالْأَفْضَلُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا مَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ مِنَ الشَّرْعِ أَوِ الْمَصْلَحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ الْعَامَّةِ أَوِ الْخَاصَّةِ ؛ لِأَنَّ الْمُبَالَغَةَ فِي الِاتِّبَاعِ حَتَّى فِي الْعَادَاتِ مِمَّا يُقَوِّي الْأُمَّةَ ، وَيُمَكِّنُ الرَّابِطَةَ وَالْوَحْدَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يَنْبَغِي لِحُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ يُجْبِرُوا أَحَدًا عَلَى فِعْلِهِ وَلَا عَلَى تَرْكِهِ ، وَإِنَّمَا يَحْسُنُ أَنْ يَكُونُوا قُدْوَةً صَالِحَةً فِي مِثْلِهِ .

(252/217)

الْخَامِسُ : مَا سَكَتَ عَنْهُ الشَّارِعُ فَلَمْ يَرِدْ عَنْهُ فِيهِ مَا يَقْتَضِي فِعْلًا وَلَا تَرْكًا فَهُوَ الَّذِي عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ رَحْمَةً مِنْهُ وَتَخْفِيفًا عَلَى عِبَادِهِ . فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُكَلِّفَ

عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ تَعَالَى فِعْلَ شَيْءٍ أَوْ تَرْكَ شَيْءٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، وَإِنَّ مَا أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ طَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ مِنَّا خَاصٌّ بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَمَصَالِحِهَا وَمَشْرُوطٌ فِيهِ أَلَّا يَكُونَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى ، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : " لَا طَاعَةَ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ " وَأَمَّا أَمْرُ الدِّينِ فَقَدْ تَمَّ وَكَمُلَ . وَهُوَ تَعَالَى شَارِعُ الدِّينِ كَمَا قَالَ : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) (42 : 13) إِلَخْ . وَكَمَا قَالَ : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا) (45 : 18) وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ مُبَلِّغُ الدِّينِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) (42 : 48) وَمُبَيِّنُهُ كَمَا قَالَ : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (16 : 44) فَلَيْسَ لِأُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سُلْطَانٌ عَلَى أَحَدٍ فِي أَمْرِ الدِّينِ الْمَحْضِ بِزِيَادَةٍ عَلَى مَدْلُولِ النُّصُوصِ وَلَا نُقْصَانٍ مِنْهَا ، وَمَنِ ادَّعَى ذَلِكَ أَوِ ادُّعِيَ لَهُ فَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ أَوْ جُعِلَ

(253/217)

شَرِيكًا لِلَّهِ تَعَالَى أَوِ اتَّخَذَ رَبًّا مِنْ دُونِهِ (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ) (42 : 21) .

وَقَدْ مَرَّ تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ حَتَّى إنَّ فِيمَا أَثْبَتْنَاهُ هُنَا تَكْرَارًا وَإِعَادَةً لِبَعْضِ مَا تَقَدَّمَ " وَفِي الْإِعَادَةِ إفَادَةٌ " كَمَا قِيلَ وَلَا سِيَّمَا إذَا اخْتَلَفَ الْأُسْلُوبُ وَتَنَوَّعَ التَّعْبِيرُ .

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) .

(254/217)

وَجْهُ اتِّصَالِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بِمَا قَبْلَهُمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى فِي السِّيَاقِ الَّذِي قَبْلَهُمَا عَنْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ وَعَنِ الِاعْتِدَاءِ فِيهِ وَإِنْ كَانَ التَّحْرِيمُ تَرْكًا لِمُبَاحٍ يَلْتَزِمُ بِالنَّذْرِ أَوْ بِالْحَلِفِ بِاسْمِ اللَّهِ تَنَسُّكًا وَتَعَبُّدًا مَعَ اعْتِقَادِ إبَاحَتِهِ فِي نَفْسِهِ ، لَا شَرْعًا يُدْعَى إلَيْهِ وَيُعْتَقَدُ وُجُوبُهُ وَبَيَّنَ فِيهِ كَفَّارَةَ الْأَيْمَانِ ، وَحَرَّمَ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ وَالْأَنْصَابَ وَالْأَزْلَامَ ، وَصَيْدَ الْبَرِّ عَلَى الْمُحْرِمِ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ ، وَبَعْدَ أَنْ نَهَى عَنْ تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّهُ ، نَهَى أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ سَبَبًا لِتَحْرِيمِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا لَمْ يَكُنْ حَرَّمَهُ ، أَوْ شَرْعِ حُكْمٍ لَمْ يَكُنْ شَرَعَهُ ، بِأَنْ يَسْأَلَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا سَكَتَ اللهُ عَنْهُ عَفْوًا وَفَضْلًا ، فَيَكُونُ الْجَوَابُ عَنْهُ أَنْ أَوْرَدَ تَكْلِيفًا جَدِيدًا ، فَنَاسَبَ بَعْدَ هَذَا أَنْ يُبَيِّنَ ضَلَالَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِيمَا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمَا شَرَعُوهُ لَهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا قَلَّدَ بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى جَهْلِهِمْ ، مَعَ بَيَانِ بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ وَكَوْنِهِ يُنَافِي الْعِلْمَ وَالدِّينَ فَقَالَ :

(مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ) هَذِهِ أَرْبَعَةُ نُعُوتٍ لِأَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ مِنْ مُحَرَّمَاتِ الْأَنْعَامِ الَّتِي حَرَّمَتْهَا الْجَاهِلِيَّةُ عَلَى أَنْفُسِهَا .

(255/217)

(فَالْبَحِيرَةُ) : فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي يُبْحِرُونَ أُذُنَهَا أَيْ يَشُقُّونَهَا شَقًّا وَاسِعًا ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ بِهَا ذَلِكَ إِذَا أُنْتِجَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ وَكَانَ الْخَامِسُ أُنْثَى كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقِيلَ : إِذَا وَلَدَتْ عَشَرَةَ أَبْطُنٍ ، يَفْعَلُونَهُ لِيَكُونَ عَلَامَةً عَلَى تَحْرِيمِ أَكْلِهَا أَوْ رُكُوبِهَا أَوِ الْحَمْلِ عَلَيْهَا ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ مَادَّةِ (بَحَرَ) وَهُوَ فِي الْأَصْلِ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ : " كُلُّ مَكَانٍ وَاسِعٍ جَامِعٍ لِلْمَاءِ الْكَثِيرِ " ثُمَّ اشْتَقُّوا مِنْهُ عِدَّةَ كَلِمَاتٍ فِيهَا مَعْنَى السَّعَةِ .

(وَالسَّائِبَةُ) : النَّاقَةُ الَّتِي تُسَيَّبُ بِنَذْرِهَا لِآلِهَتِهِمْ فَتَرْعَى حَيْثُ شَاءَتْ ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ ، وَلَا يُجَزُّ صُوفُهَا وَلَا يُحْلَبُ لَبَنُهَا إِلَّا لِضَيْفٍ ، فَهِيَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ قَوْلِهِمْ : سَابَ

الْفَرَسُ

وَنَحْوُهُ : أَيْ ذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ حَيْثُ شَاءَ ، وَسَابَ الْمَاءُ : جَرَى ، فَهُوَ سَائِبٌ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : هِيَ النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هِيَ مِنَ الْغَنَمِ مِثْلُ الْبَحِيرَةِ مِنَ الْإِبِلِ ، وَعَنْ أَبِي رَوْقٍ وَالسُّدِّيِّ : كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا قُضِيَتْ حَاجَتُهُ سَيَّبَ مِنْ مَالِهِ نَاقَةً أَوْ غَيْرَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ وَأَوْثَانِهِمْ .

(256/217)

(وَالْوَصِيلَةُ) : الشَّاةُ الَّتِي تَصِلُ أُنْثَى بِأُنْثَى فِي النِّتَاجِ وَقِيلَ : هِيَ الَّتِي وَصَلَتْ أَخَاهَا . قَالَ الرَّاغِبُ : وَهُوَ أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ إِذَا وَلَدَتْ لَهُ شَاتُهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى قَالُوا : وَصَلَتْ أَخَاهَا فَلَا يَذْبَحُونَ أَخَاهَا مِنْ أَجْلِهَا . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : هِيَ الشَّاةُ إِذَا نُتِجَتْ سَبْعَةَ أَبْطُنٍ فَإِنْ كَانَ السَّابِعُ أُنْثَى اسْتَحْيَوْهَا ، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ اسْتَحْيَوْهُمَا ، وَقَالُوا : وَصَلَتْهُ أُخْتُهُ فَحَرَّمَتْهُ عَلَيْنَا .

(وَالْحَامِي) : اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الْحِمَايَةِ ، وَهُوَ فَحْلُ الضِّرَابِ أَيِ التَّلْقِيحِ ، قِيلَ : إِذَا أَتَمَّ ضِرَابَ عَشَرَةِ أَبْطُنٍ قَالُوا : حَمَى ظَهْرَهُ ، وَتَرَكُوهُ لَا يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ شَيْئًا ، وَرُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ عَلَيْهِ رِيشَ الطَّوَاوِيسِ تَمْيِيزًا . وَقَدِ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ كَمَا تَرَى ،

وَأَقْوَاهَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ :

(257/217)

الْبَحِيرَةُ : الَّتِي يُمْنَحُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ وَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، وَالسَّائِبَةُ : كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ " قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ : وَالْوَصِيلَةُ : النَّاقَةُ الْبِكْرُ تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الْإِبِلِ ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَى ، وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ ، وَالْحَامِي : فَحْلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ الْمَعْدُودَ ، فَإِذَا قَضَى ضِرَابَهُ وَدَّعُوهُ (أَيْ تَرَكُوهُ) لِلطَّوَاغِيتِ وَأَعْفَوْهُ مِنَ الْحَمْلِ فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَسَمَّوْهُ الْحَامِي .

وَسَيَأْتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ بَقِيَّةُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْبَحْثِ وَمَنِ ابْتَدَعَهُ لِلْعَرَبِ وَغَيَّرَ شَرِيعَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَا ابْتَدَعَهُ الْمُسْلِمُونَ مِمَّا يُضَاهِي ذَلِكَ .

(258/217)

أَمَّا مَعْنَى الْجُمْلَةِ : فَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ لَهُمْ تَحْرِيمَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَأَخَوَاتِهِمَا أَيْ لَمْ يَجْعَلْهُ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ (وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) بِزَعْمِهِمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مُحَرَّمَةٌ سَوَاءٌ أَسْنَدُوا تَحْرِيمَهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى ابْتِدَاءً أَوِ ادِّعَاءً عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِدْلَالِ كَمَا حَكَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ) (6 : 148) أَيْ وَلَكِنَّهُ شَاءَ ذَلِكَ مِنَّا فَفَعَلْنَاهُ فَهُوَ رَاضٍ بِهِ أَمْ لَمْ يُسْنِدُوهُ إِلَيْهِ . أَمَّا كَوْنُ إِسْنَادِ تَحْرِيمِهِ إِلَيْهِ بِالتَّصْرِيحِ

(259/217)

افْتِرَاءً عَلَيْهِ فَظَاهِرٌ بَيِّنٌ ، وَأَمَّا إِسْنَادُهُ إِلَيْهِ ادِّعَاءً وَاسْتِدْلَالًا بِالْمَشِيئَةِ فَهُوَ افْتِرَاءٌ أَيْضًا لِأَنَّ دَلِيلَهُ بَاطِلٌ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَمْنَعِ الْكُفَّارَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسَّاقَ مِنَ الْفِسْقِ وَلَا أَكْرَهَهُمْ عَلَيْهَا بِمَحْضِ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ ، بَلْ جَعَلَ لَهُمُ اخْتِيَارَ التَّرْجِيحِ فِي أَعْمَالِهِمْ وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَيْهَا ، فَعَدَمُ إِجْبَارِهِمْ عَلَى التَّرْكِ أَوِ الْفِعْلِ لَا يَدُلُّ عَلَى رِضَائِهِ تَعَالَى بِمَا اخْتَارُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَفِسْقٍ ، وَأَمَّا كَوْنُهُ افْتِرَاءً عَلَيْهِ فِي حَالِ السُّكُوتِ عَنْ إِسْنَادِهِ إِلَيْهِ ، فَوَجْهُهُ أَنَّ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَ مِنْ شَأْنِ رَبِّ النَّاسِ وَإِلَهِهِمْ سُبْحَانَهُ ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يُحَرِّمَ

عَلَيْهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِهِ وَالتَّبْلِيغِ عَنْهُ ، فَمَنْ تَجَرَّأَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ مُدَّعِيًا بِفِعْلِهِ هَذَا ، إِمَّا الرُّبُوبِيَّةَ وَإِمَّا الْإِذْنَ مِنَ الرَّبِّ تَعَالَى ، وَكِلَاهُمَا افْتِرَاءٌ ، وَالْفِعْلُ فِيهِ أَبْلَغُ مِنَ الْقَوْلِ (وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) أَنَّهُمْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ بِتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْكُفْرِ بِهِ ، بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَيْهِ وَلَوْ بِالْوَسَاطَةِ؛ لِأَنَّ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يُسَيِّبُونَ بِاسْمِهَا السَّوَائِبَ وَيَتْرُكُونَ لَهَا مَا حَرَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَيْسَتْ بِزَعْمِهِمْ إِلَّا وُسَطَاءَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى ، تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَتُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، وَهَكَذَا شَأْنُ

(260/217)

كُلِّ مُبْتَدِعٍ فِي الدِّينِ بِتَحْرِيمِ طَعَامٍ أَوْ غَيْرِهِ ، وَتَسْيِيبِ عِجْلٍ لِلسَّيِّدِ الْبَدَوِيِّ أَوْ سِوَاهُ ، وَسَنِّ وِرْدٍ أَوْ حِزْبٍ يُضَاهِي بِهِ الْمَشْرُوعَ مِنْ شَعَائِرِ دِينِهِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي لَمْ تُؤْثَرْ عَنِ الشَّارِعِ ، يَزْعُمُ أَنَّهُ جَاءَ بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَيَنَالُ بِهِ رِضَاهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْحَقُّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُعْبَدُ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا عِبَادَةَ وَلَا تَحْرِيمَ إِلَّا بِنَصٍّ عَامٍّ أَوْ خَاصٍّ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَزِيدَ أَوْ يَنْقُصَ بِرَأْيٍ وَلَا قِيَاسٍ ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(261/217)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) أَيْ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُؤَيَّدَةِ بِالْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى قَوَاعِدِ دَرْءِ الْمَفَاسِدِ وَجَلْبِ الْمَصَالِحِ دُونَ الْعَبَثِ وَالْخُرَافَاتِ وَإِلَى الرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ لَهَا وَالْمُبَيِّنِ لِمُجْمَلِهَا فَاتَّبِعُوهُ فِيهَا ، قَالُوا : يَكْفِينَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا مِنْ عَقَائِدَ وَأَحْكَامٍ وَحَلَالٍ وَحَرَامٍ . قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ : (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) أَيْ أَيَكْفِيهِمْ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنَ الشَّرَائِعِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا إِلَى مَصَالِحِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ ؟ وَإِنَّمَا يَعْرِفُ مَا يَكْفِي الْأَفْرَادَ وَالْأُمَمَ وَمَا لَا يَكْفِي بِالْعِلْمِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالِاهْتِدَاءِ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْفَضَائِلِ ، وَأَيْنَ مِنْ هَذَا وَذَاكَ ، أُولَئِكَ الْأُمِّيُّونَ الْجُهَلَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَخَبَّطُونَ فِي وَثَنِيَّةٍ وَخُرَافَاتٍ ، وَوَأْدِ بَنَاتٍ ، وَعُدْوَانٍ مُسْتَمِرٍّ ، وَقِتَالٍ مُسْتَمِرٍّ ، وَعَدَاوَةٍ وَبَغْضَاءَ ، وَظُلْمٍ لِلْيَتَامَى وَالنِّسَاءِ ، عَلَى مَا أُوتُوا مِنْ فِطْنَةٍ وَذَكَاءٍ ، وَعَزِيمَةٍ وَدَهَاءٍ ، وَحَزْمٍ وَمُضَاءٍ ، وَعِزَّةٍ وَإِبَاءٍ ، وَاسْتِقْلَالِ أَفْكَارٍ وَآرَاءٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَزَايَا الَّتِي تُؤَهِّلُهُمْ لِأَنْ يَكُونُوا هُمُ الْأَئِمَّةَ

الْوَارِثِينَ ، وَالْخُلَفَاءَ

الْعَادِلِينَ ، لَوْلَا تَقْلِيدُ الْآبَاءِ ! وَكَذَلِكَ كَانَ بَعْدَ اتِّبَاعِهِمْ بِتَرْكِهِمْ مُقْتَضَى الْعِلْمِ وَهِدَايَةِ الْقُرْآنِ .

هَذِهِ الْآيَةُ وَالْآيَةُ الْمُشَابِهَةُ لَهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (2 : 170) هُمَا أَظْهَرُ وَأَوْضَحُ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مِنَ الْآيَاتِ فِي بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ ، فَقَدْ قَرَّرْنَا أَنَّ التَّقْلِيدَ خِلَافُ مُقْتَضَى حُكْمِ الْعَقْلِ وَدَلَائِلِ الْعِلْمِ وَهِدَايَةِ الدِّينِ ، وَلَكِنَّ خَلَفَنَا الطَّالِحَ رَجَعُوا إِلَيْهِ خِلَافًا لِسَلَفِهِمُ الصَّالِحِ ، حَتَّى عَادُوا وَهُمْ فِي حِجْرِ الْإِسْلَامِ ، شَرًّا مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةُ فِي حِجْرِ الْأَصْنَامِ .

(فَصْلٌ فِي بَيَانِ بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ وَشُبُهَاتِ أَهْلِهِ) .

الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ فِي الدِّينِ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، وَكَذَلِكَ الْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ وَأَقْوَالُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، وَإِنَّمَا تَقَرَّرَتْ بِدْعَةُ التَّقْلِيدِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ ، أَيْ بَعْدَ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي وَصَفَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهَا خَيْرُ الْقُرُونِ ،

وَشَرُّ التَّقْلِيدِ مَا فَرَّقَ الْأُمَّةَ شِيَعًا وَجَعَلَ الِاخْتِلَافَ فِي الدِّينِ عِنْدَهَا دِينًا بِانْتِسَابِ كُلِّ شِيعَةٍ وَطَائِفَةٍ إلَى رَجُلٍ يَلْتَزِمُونَ أَقْوَالَهُ أَوْ أَقْوَالَ مَنْ يَدَّعُونَ اتِّبَاعَهُ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ وَإِنْ خَالَفَتْ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ . هَذَا مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ الْمُتَفَرِّقِينَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الدِّينِ ، وَبَرَّأَ رَسُولَهُ مِنْهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ الْعَظِيمِ ، وَأَمَرَ بِأَنْ يَرُدَّ مَا تَنَازَعَ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا إلَى أَقْوَالِ النَّاسِ غَيْرِ الْمَعْصُومِينَ ، وَجَعَلَ وَظِيفَةَ الْكِتَابِ الْحُكْمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يَحْمِلُ عَلَى الِاخْتِلَافِ فِيهِ إلَّا الْبَغْيَ وَالضَّلَالَ .

ثُمَّ إنَّ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ أَوْجَبَ الْعِلْمَ بِالدِّينِ وَطَالَبَ بِالدَّلِيلِ وَلَا سِيَّمَا فِي الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (10 : 68) السُّلْطَانُ : الْبُرْهَانُ . وَالتَّقْلِيدُ لَيْسَ بِعِلْمٍ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا .

وَقَدْ بَيَّنَّا بُطْلَانَ التَّقْلِيدِ وَتَنَاقُضَ أَهْلِهِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْمَنَارِ ، وَإِنَّنَا نَذْكُرُ هُنَا مَا حَرَّرَهُ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي مَسْأَلَةِ التَّقْلِيدِ فِي مَبْحَثِ الْأَحْكَامِ مِنْ كِتَابِهِ (إرْشَادِ الْفُحُولِ إلَى تَحْقِيقِ الْحَقِّ مِنْ عِلْمِ الْأُصُولِ) قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

(264/217)

(الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ) : اخْتَلَفُوا فِي الْمَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ الْفَرْعِيَّةِ : هَلْ يَجُوزُ التَّقْلِيدُ فِيهَا أَمْ لَا ؟ فَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مُطْلَقًا . قَالَ الْقَرَافِيُّ : وَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ وُجُوبُ الِاجْتِهَادِ وَإِبْطَالُ التَّقْلِيدِ ، وَادَّعَى ابْنُ حَزْمٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى النَّهْيِ عَنِ التَّقْلِيدِ . قَالَ : وَنَقَلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ : أَنَا بَشَرٌ أُخْطِئُ وَأُصِيبُ فَانْظُرُوا فِي رَأْيِي ، فَمَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَخُذُوا بِهِ ، وَمَا لَمْ يُوَافِقْ فَاتْرُكُوهُ . وَقَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ : وَدِدْتُ أَنِّي ضُرِبْتُ بِكُلِّ مَسْأَلَةٍ

(265/217)

تَكَلَّمْتُ فِيهَا بِرَأْيِي سَوْطًا عَلَى أَنَّهُ لَا صَبْرَ لِي عَلَى السِّيَاطِ ، قَالَ ابْنُ حَزْمٍ : فَهُنَا مَالِكٌ يَنْهَى عَنِ التَّقْلِيدِ ، وَكَذَلِكَ الشَّافِعِيُّ (وَأَحْمَدُ) وَأَبُو حَنِيفَةَ ، وَقَدْ رَوَى الْمُزَنِيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ فِي أَوَّلِ مُخْتَصَرِهِ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَنْهَى عَنْ تَقْلِيدِهِ وَتَقْلِيدِ غَيْرِهِ .

وَقَدْ ذَكَرْتُ نُصُوصَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ الْمُصَرِّحَةَ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّقْلِيدِ فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي سَمَّيْتُهَا (الْقَوْلَ الْمُفِيدَ فِي حُكْمِ التَّقْلِيدِ) فَلَا نُطَوِّلُ الْمَقَامَ بِذِكْرِ ذَلِكَ; وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ الْمَنْعَ مِنَ التَّقْلِيدِ إنْ لَمْ يَكُنْ إجْمَاعًا فَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا سَيَأْتِي فِي الْمَسْأَلَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ مِنْ حِكَايَةِ الْإِجْمَاعِ عَلَى عَدِّ جَوَازِ تَقْلِيدِ الْأَمْوَاتِ ، وَكَذَلِكَ مَا سَيَأْتِي مِنْ أَنَّ

عَمَلَ الْمُجْتَهِدِ بِرَأْيِهِ إِنَّمَا هُوَ رُخْصَةٌ لَهُ عِنْدَ عَدَمِ الدَّلِيلِ ، وَلَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ بِالْإِجْمَاعِ . فَهَذَانِ الْإِجْمَاعَانِ يَجْتَثَّانِ التَّقْلِيدَ مِنْ أَصْلِهِ ، فَالْعَجَبُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ حَيْثُ لَمْ يَحْكُوا هَذَا الْقَوْلَ إِلَا عَنْ بَعْضِ الْمُعْتَزِلَةِ . وَقَابَلَ مَذْهَبَ الْقَائِلِينَ بَعْدَ الْجَوَازِ بَعْضُ الْحَشْوِيَّةِ ، وَقَالَ : يَجِبُ مُطْلَقًا وَيَحْرُمُ النَّظَرُ ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَقْنَعُوا بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ حَتَّى أَوْجَبُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ فَإِنَّ التَّقْلِيدَ جَهْلٌ وَلَيْسَ بِعِلْمٍ .

(266/217)

(وَالْمَذْهَبُ الثَّالِثُ) : التَّفْصِيلُ وَهُوَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَامِّيِّ وَيَحْرُمُ عَلَى الْمُجْتَهِدِ ; وَبِهَذَا قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ ، وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُعْتَبَرُ فِي الْخِلَافِ أَقْوَالُ الْمُجْتَهِدِينَ وَهَؤُلَاءِ هُمْ مُقَلِّدُونَ ، فَلَيْسُوا مِمَّنْ يُعْتَبَرُ خِلَافُهُ ، وَلَا سِيَّمَا وَأَئِمَّتُهُمُ الْأَرْبَعَةُ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ تَقْلِيدِهِمْ وَتَقْلِيدِ غَيْرِهِمْ ، وَقَدْ تَعَسَّفُوا فَحَمَلُوا كَلَامَ أَئِمَّتِهِمْ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا الْمُجْتَهِدِينَ مِنَ النَّاسِ لَا الْمُقَلِّدِينَ ! فَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ .

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ بَعْضَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِمَّنْ صَنَّفَ فِي الْأُصُولِ نَسَبَ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى الْأَكْثَرِ ، وَجَعَلَ الْحُجَّةَ لَهُمُ الْإِجْمَاعَ عَلَى عَدَمِ الْإِنْكَارِ عَلَى الْمُقَلِّدِينَ ! فَإِنْ أَرَادَ إِجْمَاعَ خَيْرِ الْقُرُونِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ فَتِلْكَ دَعْوَى بَاطِلَةٌ ، فَإِنَّهُ لَا تَقْلِيدَ فِيهِمُ الْبَتَّةَ وَلَا عَرَفُوا التَّقْلِيدَ

وَلَا سَمِعُوا بِهِ ، بَلْ كَانَ الْمُقَصِّرُ مِنْهُمْ يَسْأَلُ الْعَالِمَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهُ فَيُفْتِيهِ بِالنُّصُوصِ الَّتِي يَعْرِفُهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَهَذَا لَيْسَ مِنَ التَّقْلِيدِ فِي شَيْءٍ ، بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ طَلَبِ حُكْمِ اللهِ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالسُّؤَالِ عَنِ الْحُجَّةِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَقَدْ عَرَفْتَ فِي أَوَّلِ هَذَا الْفَصْلِ أَنَّ التَّقْلِيدَ إِنَّمَا هُوَ الْعَمَلُ بِالرَّأْيِ لَا بِالرِّوَايَةِ .

(267/217)

وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِمَا احْتَجَّ بِهِ الْمُوجِبُونَ لِلتَّقْلِيدِ وَالْمُجَوِّزُونَ لَهُ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) إِلَّا السُّؤَالَ عَنْ حُكْمِ اللهِ فِي الْمَسْأَلَةِ لَا عَنْ آرَاءِ الرِّجَالِ ، هَذَا عَلَى تَسْلِيمِ أَنَّهَا وَارِدَةٌ فِي عُمُومِ السُّؤَالِ كَمَا زَعَمُوا ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلْ هِيَ وَارِدَةٌ فِي أَمْرٍ خَاصٍّ . وَهُوَ السُّؤَالُ عَنْ كَوْنِ أَنْبِيَاءِ اللهِ رِجَالًا ، كَمَا يُفِيدُهُ أَوَّلُ الْآيَةِ وَآخِرُهَا حَيْثُ قَالَ : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) (16 : 43 ، 44) وَإِنْ أَرَادَ إِجْمَاعَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ فَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُمْ قَالُوا بِالْمَنْعِ مِنَ التَّقْلِيدِ ، وَلَمْ يَزَلْ فِي عَصْرِهِمْ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ ، وَإِنْ أَرَادَ إِجْمَاعَ مَنْ بَعْدَهُمْ فَوُجُودُ الْمُنْكِرِينَ لِذَلِكَ مُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ مَعْلُومٌ لِكُلِّ مَنْ يَعْرِفُ أَقْوَالَ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَقَدْ عَرَفْتَ مِمَّا نَقَلْنَاهُ سَابِقًا أَنَّ الْمَنْعَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ إِذَا لَمْ يَكُنْ إِجْمَاعًا . وَإِنْ أَرَادَ إِجْمَاعَ

الْمُقَلِّدِينَ لِلْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ خَاصَّةً فَقَدْ عَرَفْتَ مِمَّا قَدَّمْنَا فِي مَقْصِدِ الْإِجْمَاعِ أَنَّهُ لَا اعْتِبَارَ بِأَقْوَالِ الْمُقَلِّدِينَ فِي شَيْءٍ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَنْعَقِدَ بِهِمْ إِجْمَاعٌ .

(268/217)

" وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ مَنْ جَوَّزَ التَّقْلِيدَ فَضْلًا عَمَّنْ أَوْجَبَهُ بِحُجَّةٍ يَنْبَغِي الِاشْتِغَالُ بِجَوَابِهَا قَطُّ ، وَلَمْ نُؤْمَرْ بِرَدِّ شَرَائِعِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إلَى آرَاءِ الرِّجَالِ ، بَلْ أُمِرْنَا بِمَا قَالَهُ سُبْحَانَهُ : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (4 : 59) أَيْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ . وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ مَنْ يُرْسِلُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ بِالْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ كَمَا فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ .

" وَأَمَّا مَا ذَكَرُوهُ مِنَ اسْتِبْعَادِ أَنْ يَفْهَمَ الْمُقَصِّرُونَ نُصُوصَ الشَّرْعِ ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ مُسَوِّغًا لِلتَّقْلِيدِ ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرُوهُ ، فَهُنَا وَاسِطَةٌ بَيْنَ الِاجْتِهَادِ وَالتَّقْلِيدِ ، وَهِيَ سُؤَالُ الْجَاهِلِ لِلْعَالِمِ عَنِ الشَّرْعِ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُ ، لَا عَنْ رَأْيِهِ الْبَحْتِ ، وَاجْتِهَادِهِ الْمَحْضِ ، وَعَلَى هَذَا كَانَ عَمَلُ الْمُقَصِّرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ . وَمَنْ لَمْ يَسَعْهُ مَا وَسِعَ أَهْلَ هَذِهِ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ فَلَا وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ .

(269/217)

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُقَلِّدِينَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) (43 : 22 ، 23) ، (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) (9 : 31) ، (إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ) (33 : 67) وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْآيَاتِ . وَمَنْ أَرَادَ اسْتِيفَاءَ الْبَحْثِ عَلَى التَّمَامِ فَلْيَرْجِعْ إلَى الرِّسَالَةِ الَّتِي قَدَّمْتُ الْإِشَارَةَ إلَيْهَا وَإِلَى الْمُؤَلَّفِ الَّذِي سَمَّيْتُهُ " أَدَبَ الطَّلَبِ وَمُنْتَهَى الْأَرَبِ " .

" وَمَا أَحْسَنَ مَا حَكَاهُ الزَّرْكَشِيُّ فِي الْبَحْرِ عَنِ الْمُزَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ : يُقَالُ لِمَنْ حَكَمَ بِالتَّقْلِيدِ : هَلْ

لَكَ مِنْ حُجَّةٍ ؟ فَإِنْ قَالَ : نَعَمْ . أُبْطِلَ التَّقْلِيدُ ؛ لِأَنَّ الْحُجَّةَ أَوْجَبَتْ

(270/217)

ذَلِكَ عِنْدَهُ لَا التَّقْلِيدُ . وَإِنْ قَالَ : بِغَيْرِ عِلْمٍ . قِيلَ لَهُ : فَلِمَ أَرَقْتَ الدِّمَاءَ وَأَبَحْتَ الْفُرُوجَ وَالْأَمْوَالَ وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ إلَّا بِحُجَّةٍ ؟ فَإِنْ قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ أَنِّي أَصَبْتُ وَإِنْ لَمْ أَعْرِفِ الْحُجَّةَ ؛ لِأَنَّ مُعَلِّمِي مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ . قِيلَ لَهُ : تَقْلِيدُ مُعَلِّمِ مُعَلِّمِكَ أَوْلَى مِنْ تَقْلِيدِ مُعَلِّمِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقُولُ إلَّا بِحُجَّةٍ خَفِيَتْ عَنْ مُعَلِّمِكَ ، كَمَا لَمْ يَقُلْ مُعَلِّمُكَ إلَّا بِحُجَّةٍ خَفِيَتْ عَنْكَ ، فَإِنْ

قَالَ : نَعَمْ . تَرَكَ تَقْلِيدَ مُعَلِّمِهِ إِلَى تَقْلِيدِ مُعَلِّمِ مُعَلِّمِهِ ، ثُمَّ كَذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْعَالِمِ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَإِنْ أَبَى ذَلِكَ نُقِضَ قَوْلُهُ وَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ يَجُوزُ تَقْلِيدُ مَنْ هُوَ أَصْغَرُ وَأَقَلُّ عِلْمًا ، وَلَا يَجُوزُ تَقْلِيدُ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ وَأَغْزَرُ عِلْمًا ؟ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ حَذَّرَ مِنْ زَلَّةِ الْعَالِمِ ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : " لَا يُقَلِّدَنَّ أَحَدُكُمْ دِينَهُ رَجُلًا إِنْ آمَنَ مَنَّ وَإِنْ كَفَرَ كَفَرَ ، فَإِنَّهُ لَا أُسْوَةَ فِي الشَّرِّ " انْتَهَى .

(271/217)

(قُلْتُ) : تَتْمِيمًا لِهَذَا الْكَلَامِ ، وَعِنْدَ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْعَالِمِ مِنَ الصَّحَابَةِ يُقَالُ لَهُ : هَذَا الصَّحَابِيُّ أَخَذَ عِلْمَهُ مَنْ أَعْلَمِ الْبَشَرِ الْمُرْسَلِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى عِبَادِهِ الْمَعْصُومِ مِنَ الْخَطَأِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، فَتَقْلِيدُهُ أَوْلَى مِنْ تَقْلِيدِ الصَّحَابِيِّ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ إِلَّا شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ عُلُومِهِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْعِصْمَةِ شَيْءٌ ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ وَلَا فِعْلَهُ وَلَا اجْتِهَادَهُ حُجَّةً عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ .

(272/217)

(وَاعْلَمْ) : أَنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنْ رَأْيَ الْمُجْتَهِدِ عِنْدَ عَدَمِ الدَّلِيلِ إنَّمَا هُوَ رُخْصَةٌ لَهُ يَجُوزُ لَهُ الْعَمَلُ بِهَا عِنْدَ فَقْدِ الدَّلِيلِ ، وَلَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ الْعَمَلُ بِهَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ; وَلِهَذَا نَهَى كِبَارُ الْأَئِمَّةِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ وَتَقْلِيدِ غَيْرِهِمْ . وَقَدْ عَرَفْتَ حَالَ الْمُقَلِّدِ أَنَّهُ إنَّمَا يَأْخُذُ بِالرَّأْيِ لَا بِالرِّوَايَةِ ، وَيَتَمَسَّكُ بِمَحْضِ الِاجْتِهَادِ عَنْ مُطَالَبٍ بِحُجَّةٍ فَمَنْ قَالَ : إنَّ رَأْيَ الْمُجْتَهِدِ يَجُوزُ لِغَيْرِهِ التَّمَسُّكُ بِهِ وَيَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ فِيمَا كَلَّفَهُ اللَّهُ ، فَقَدْ جَعَلَ هَذَا الْمُجْتَهِدَ صَاحِبَ شَرْعٍ ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَا يَتَمَكَّنُ كَامِلٌ وَلَا مُقَصِّرٌ أَنْ يَحْتَجَّ عَلَى هَذَا بِحُجَّةٍ قَطُّ . وَأَمَّا مُجَرَّدُ الدَّعَاوَى وَالْمُجَازَفَاتِ فِي شَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ ، وَلَوْ جَازَتِ الْأُمُورُ الشَّرْعِيَّةُ بِمُجَرَّدِ الدَّعَاوَى لَادَّعَى مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ ، وَقَالَ مَنْ شَاءَ بِمَا شَاءَ اهـ .

هَذَا مَا قَالَهُ الشَّوْكَانِيُّ وَإِنَّنَا سَنَعُودُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إلَى هَذَا الْبَحْثِ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى فَنَزِيدُهُ بَيَانًا وَتَفْصِيلًا . انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 7 صـ 105. 176 ﴾

(273/217)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ بل على الإنسان أن يلتفت إلى أن أول تغيير لمنهج الله كان من أحد الآباء الذين أصابتهم الغفلة . وقول الإنسان : إنما أتبع ما كان عليه آبائي ، هو قضية منقوضة ؛ لأن الذي غيّر أول تغيير لم يقل : ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ لأنه لم يقلد أباً له ، وأيضاً فمن المحتمل أن الآباء لم يعقلوا ما غيروه من منهج الله ولم يهتدوا إلى الحق .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : 170] .

إن الآية التي نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا ﴾ لم يقل الله فيها اتبعوا ولكن قال : (تعالوا) أي ارتفعوا كأنهم انحطوا وتسفَّلوا بقولهم : ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ إنهم بذلك يرفضون وينكرون كل ما يأتي إليهم من غير طريق تقليد الآباء ، فقد قفلوا الطريق وسدوه على أنفسهم .

أما آية سورة البقرة : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فيحتمل أن يقولوا : ونتبع كذلك ما جاء به الدين ، فالنكير أشد على من قال : ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ .

وعلى هذا فالاستدراك من الله في كل آية من الآيتين جاء مناسبا لحالهم . كيف ذلك ؟ لأن الذي لا يعقل يمكن أن يعلم عن طريق شخص آخر استخرج واستنبط واكتشف ، فإنه إن فاته التعقل لم يفته أن يأخذ العلم من غيره ، أما الذي لا يعلم فقد باء ورجع بالجهل ؛ لأنه لم يصل إلى العلم بنفسه ، وكذلك لم يتعلم من غيره .

وجاء – سبحانه وتعالى – بهمزة الإنكار لمسألة اتباع الآباء دون منهج الله . ونلحظ أن الحق جاء بعملية الهداية كأمر مشترك في الآيتين ، ذلك أن الهداية من السماء ، أما التعقل والعلم فهما عمليتان إنسانيتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(275/217)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ ﴾ " حَسْبُنَا " مبتدأ ، وقد تقدَّم أنه في الأصلِ مصدرٌ ، والمرادُ به اسمُ الفاعل ، أي : كَافِينَا ، وتفسيرُ ابن عطية له بـ " كَفَانَا " تفسيرُ معنًى ، لا إعراب ، و " مَا وَجَدْنَا " هو الخبر ، و " مَا " ظاهرُها أنها موصولة اسميةٌ ،

ويجوز أن تكون نكرةً موصوفةً ، أي : كَافِينَا الذي وجدنا ، و" وَجَد " يجوز أن يكون بمعنى المُصَادفة ، ف " عَلَيْهِ " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أنه متعلق بـ " وَجَدْنَا " وأنه متعدٍّ لواحد .

والثاني : أنه حال من " آبَاءَنَا " ، أي : وجدناهم مُسْتَقِرينَ عليه ، ويجوز أن يكون بمعنى العلْمِ ، فيتعدَّى لاثنين ثانيهما " عَلَيْهِ " .

وقوله : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ﴾ قد تقدَّم إعراب هذا في البقرة [الآية 170] ، وأنَّ " لَوْ " هنا معناها الشرط ، وأنَّ الواوَ للحال ، وتقدَّم تفسيرُ ذلك كلّه ؛ فأغنى عن إعادته ، إلاَّ أنَّ ابن عطيَّة قال هنا : " أَلِفُ التوقيفَ دخلَتْ على واو العَطْف " قال شهاب الدين : تسميةُ هذه الهَمْزةِ للتوقيفِ فيه غرابةٌ في الاصطلاحِ ، وجعلَ الزمخشريُّ هذه الواو للحالِ ، وابنُ عطيَّة جعلها عاطفةً ، وتقدَّم الجمعُ بين كلامهما في البقرة ، واختلافُ الألفاظِ في هاتين الآيتين – أعْنِي آيةَ البقرةِ ، وآيةَ المائِدَة – مِنْ نَحْو قوله هناك : " اتَّبِعُوا " وهنا " تَعَالَوْا " وهناك " أَلْفَيْنَا " وهنا " وَجَدْنَا " من باب التفنُّن في البلاغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 557 ﴾

(276/217)

ومن فوائد الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ﴾ . .

فحيوان البحر حلال صيده وحلال أكله للمحرم ولغير المحرم سواء . . ولما ذكر حل صيد البحر وطعامه ، عاد فذكر حرمة صيد البر للمحرم :

﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ . .

والذي عليه الإجماع هو حرمة صيد البر للمحرم . ولكن هناك خلاف حول تناول المحرم له إذا صاده غير المحرم . كما أن هناك خلافاً حول المعنّى بالصيد . وهل هو خاص بالحيوان الذي يصاد عادة . أم النهي شامل لكل حيوان ، ولو لم يكن مما يصاد ومما لا يطلق عليه لفظ الصيد .

ويختم هذا التحليل وهذا التحريم باستجاشة مشاعر التقوى في الضمير ؛ والتذكير بالحشر إلى الله والحساب :

﴿ واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ . . وبعد . ففيم هذه الحرمات ؟

إنها منطقة الأمان يقيمها الله للبشر في زحمة الصراع . . إنها الكعبة الحرام ، والأشهر الحرام ، تقدم في وسط المعركة المستعرة بين المتخاصمين والمتحاربين والمتصارعين والمتزاحمين على الحياة بين الأحياء من جميع الأنواع والأجناس . . بين الرغائب والمطامع والشهوات

والضرورات . . فتحل الطمأنينة محل الخوف ، ويحل السلام محل الخصام ، وترف أجنحة من الحب والإخاء والأمن والسلام . وتدرب النفس البشرية في واقعها العملي – لا في عالم المثل والنظريات – على هذه المشاعر وهذه المعاني ؛ فلا تبقى مجرد كلمات مجنحة ورؤى حالمة ، تعز على التحقيق في واقع الحياة :

﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام ، قياماً للناس ، والشهر الحرام ، والهدي والقلائد . ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في والأرض وأن الله بكل شيء عليم . اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم ، ما على الرسول إلا البلاغ ؛ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ . .

(277/217)

لقد جعل الله هذه الحرمات تشمل الإنسان والطير والحيوان والحشرات بالأمن في البيت الحرام . وفي فترة الإحرام بالنسبة للمحرم حتى وهو لم يبلغ الحرم . كما جعل الأشهر الحرم الأربعة التي لا يجوز فيها القتل ولا القتال وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثم رجب . . ولقد ألقى الله في قلوب العرب – حتى في جاهليتهم – حرمة هذه الأشهر . فكانوا لا يروعون فيها نفساً ، ولا يطلبون فيها دماً ، ولا يتوقعون فيها ثأراً ، حتى كان الرجل يلقى

قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه ، فكانت مجالاً آمناً للسياحة والضرب في الأرض وابتغاء الرزق . . جعلها الله كذلك لأنه أراد للكعبة – بيت الله الحرام – أن تكون مثابة أمن وسلام . تقيم الناس وتقيهم الخوف والفزع . كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن في الزمان كالكعبة منطقة أمن في المكان . ثم مد رواق الأمن خارج منطقة الزمان والمكان ، فجعله حقاً للهدي – وهو النعم – الذي يطلق ليبلغ الكعبة في الحج والعمرة ؛ فلا يمسه أحد في الطريق بسوء . كما جعله لمن يتقلد من شجر الحرم ، معلناً احتماءه بالبيت العتيق .

(278/217)

لقد جعل الله هذه الحرمات منذ بناء هذا البيت على أيدي إبراهيم وإسماعيل ؛ وجعله مثابة للناس وأمناً ، حتى لقد امتن الله به على المشركين أنفسهم ؛ إذ كان بيت الله بينهم مثابة لهم وأمناً ، والناس من حولهم يُتخطفون ، وهم فيه وبه آمنون ، ثم هم – بعد ذلك – لا يشكرون الله ؛ ولا يفردونه بالعبادة في بيت التوحيد ؛ ويقولون للرسول – صلى الله عليه وسلم – إذ يدعوهم إلى التوحيد : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . فحكى الله قولهم هذا وجبههم بحقيقة الأمن والمخافة : ﴿ وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ؟ ولكن أكثرهم

لا يعلمون ﴾ وفي الصحيحين عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : إن هذا البلد حرام ، لا يعضد شجرة ، ولا يُختلى خَلاه ، ولا ينفر صيده ، ولا تلتقط لقطته إلا لمعرّف " .

ولم يستثن من الأحياء مما يجوز قتله في الحرم وللمحرم إلا الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور لحديث عائشة رضي الله عنها في الصحيحين :

" أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقتل خمس فواسق في الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور " .

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – زيادة الحية .

كذلك حرمت المدينة لحديث علي – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " المدينة حرم ما بين عير إلى ثور " . وفي الصحيحين من حديث عباد بن تميم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها ، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة " .

(279/217)

وبعد ، فإنها ليست منطقة الأمان في الزمان والمكان وحدهما . وليس رواق الأمن الذي يشمل الحيوان والإنسان وحدهما . . إنما هي كذلك منطقة الأمان في الضمير البشري . . ذلك المصطرع المترامي الأطراف في أغوار النفس البشرية . . هذا المصطرع الذي يثور ويفور فيطغى بشواظه وبدخانه على المكان والزمان ، وعلى الإنسان والحيوان ! . . إنها منطقة السلام والسماحة في ذلك المصطرع ، حتى ليتحرج المحرم أن يمد يده إلى الطير والحيوان . وهما – في غير هذه المنطقة – حل للإنسان . ولكنهما هنا في المثابة الآمنة . في الفترة الآمنة . في النفس الآمنة . . إنها منطقة المرانة والتدريب للنفس البشرية لتصفو وترق وترف فتتصل بالملأ الأعلى ؛ وتتهيأ للتعامل مع الملأ الأعلى . .

ألا ما أحوج البشرية المفزَّعة الوجلة ، المتطاحنة المتصارعة . . إلى منطقة الأمان ، التي جعلها الله للناس في هذا الدين ، وبينها للناس في هذا القرآن !

﴿ ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيء عليم ﴾ . .

تعقيب عجيب في هذا الموضع ؛ ولكنه مفهوم ! إن الله يشرع هذه الشريعة ، ويقيم هذه المثابة ، ليعلم الناس أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم . . ليعلموا أنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات نفوسهم وهتاف أرواحهم . وأنه يقرر شرائعه لتلبية الطبائع والحاجات ، والاستجابة للأشواق والمكنونات . . فإذا أحست

قلوب الناس رحمة الله في شريعته ؛ وتذوقت جمال هذا التطابق بينها وبين فطرتهم العميقة علموا أن الله يعلم ما في السماوات والأرض وأن الله بكل شيء عليم .

إن هذا الدين عجيب في توافيه الكامل مع ضرورات الفطرة البشرية وأشواقها جميعاً ؛ وفي تلبيته لحاجات الحياة البشرية جميعاً . . إن تصميمه يطابق تصميمها ؛ وتكوينه يطابق تكوينها . وحين ينشرح صدر لهذا الدين فإنه يجد فيه من الجمال والتجاوب والأنس والراحة ما لا يعرفه إلا من ذاق !

(280/217)

وينتهي الحديث عن الحلال والحرام في الحل والإحرام بالتحذير صراحة من العقاب مع الإطماع في المغفرة والرحمة :

﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم ﴾ .

ومع التحذير إيحاء وإلقاء للتبعة على المخالف الذي لا يثوب :

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ . .

ثم تختم الفقرة بميزان يقيمه الله للقيم ، ليزن به المسلم ويحكم . ميزان يرجح فيه الطيب ويشيل الخبيث . كي لا يخدع الخبيث المسلم بكثرته في أي وقت وفي أي حال !

﴿ قل : لا يستوي الخبيث والطيب ؛ ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾ . .

إن المناسبة الحاضرة لذكر الخبيث والطيب في هذا السياق ، هي مناسبة تفصيل الحرام والحلال في الصيد والطعام . والحرام خبيث ، والحلال طيب . . ولا يستوي الخبيث والطيب ولو كانت كثرة الخبيث تغر وتعجب . ففي الطيب متاع بلا معقبات من ندم أو تلف ، وبلا عقابيل من ألم أو مرض . . وما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيب مثلها على اعتدال وأمن من العاقبة في الدنيا والآخرة . . والعقل حين يتخلص من الهوى بمخالطة التقوى له ورقابة القلب له ، يختار الطيب على الخبيث ؛ فينتهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة : ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾ . .

هذه هي المناسبة الحاضرة . . ولكن النص – بعد ذلك – أفسح مدى وأبعد أفقاً . وهو يشمل الحياة جمعياً ، ويصدق في مواضع شتى :

(281/217)

لقد كان الله الذي أخرج هذه الأمة ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس ، يعدها لأمر عظيم هائل . . كان يعدها لحمل أمانة منهجه في الأرض ، لتستقيم عليه كما لم تستقم أمة قط ،

ولتقيمه في حياة الناس كما لم يقم كذلك قط . ولم يكن بد أن تراض هذه الأمة رياضة طويلة . رياضة تخلعها أولاً من جاهليتها ؛ وترفعها من سفح الجاهلية الهابطة وتمضي بها صعداً في المرتقى الصاعد إلى قمة الإسلام الشامخة ثم تعكف بعد ذلك على تنقية تصوراتها وعاداتها ومشاعرها من رواسب الجاهلية ؛ وتربية إرادتها على حمل الحق وتبعاته . ثم تنتهي بها إلى تقييم الحياة جملة وتفصيلاً وفق قيم الإسلام في ميزان الله . . حتى تكون ربانية حقاً . . وحتى ترتفع بشريتها إلى أحسن تقويم . . وعندئذ لا يستوي في ميزانها الخبيث والطيب ؛ ولو أعجبها كثرة الخبيث ! والكثرة تأخذ العين وتهول الحس . ولكن تمييز الخبيث من الطيب ، وارتفاع النفس حتى تزنه بميزان الله ، يجعل كفة الخبيث تشيل مع كثرته ، وكفة الطيب ترجح على قلته . . وعندئذ تصبح هذه الأمة أمينة ومؤتمنة على القوامة . . القوامة على البشرية . . تزن لها بميزان الله ؛ وتقدر لها بقدر الله ؛ وتختار لها الطيب ، ولا تأخذ عينها ولا نفسها كثرة الخبيث !

وموقف آخر ينفع فيه هذا الميزان . . ذلك حين ينتفش الباطل ؛ فتراه النفوس رابياً ؛ وتؤخذ الأعين بمظهره وكثرته وقوته . . ثم ينظر المؤمن الذي يزن بميزان الله إلى هذا الباطل المنتفش ، فلا تضطرب يده ، ولا يزوغ بصره ، ولا يختل ميزانه ؛ ويختار عليه الحق الذي لا رغوة له ولا زبد ؛ ولا عدة حوله ولا عدد .

إنما هو الحق . . الحق المجرد إلا من صفته وذاته ؛ وإلا من ثقله في ميزان الله وثباته ؛ وإلا من جماله الذاتي وسلطانه !

(282/217)

لقد ربى الله هذه الأمة بمنهج القرآن ، وقوامة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى علم – سبحانه – أنها وصلت إلى المستوى الذي تؤتمن فيه على دين الله . . لا في نفوسها وضمائرها فحسب ، ولكن في حياتها ومعاشها في هذه الأرض ، بكل ما يضطرب في الحياة من رغبات ومطامع ، وأهواء ومشارب ، وتصادم بين المصالح ، وغلاب بين الأفراد والجماعات . ثم بعد ذلك في قوامتها على البشرية بكل ما لها من تبعات جسام في خضم الحياة العام .

لقد رباها بشتى التوجيهات ، وشتى المؤثرات ، وشتى الابتلاءات ، وشتى التشريعات ؛ وجعلها كلها حزمة واحدة تؤدي دوراً في النهاية واحداً ، هو إعداد هذه الأمة بعقيدتها وتصوراتها ، وبمشاعرها واستجاباتها ، وبسلوكها وأخلاقها ، وبشريعتها ونظامها ، لأن تقوم على دين الله في الأرض ، ولأن تتولى القوامة على البشر . . وحقق الله ما يريده بهذه الأمة . . والله غالب على أمره . . وقامت في واقع الحياة الأرضية تلك الصورة الوضيئة من

دين الله . . حلماً يتمثل في واقع . . وتملك البشرية أن تترسمه في كل وقت حين تجاهد لبلوغه فيعينها الله . .

بعد ذلك يتجه السياق إلى شيء من تربية الجماعة المسلمة وتوجيهها إلى الأدب الواجب مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعدم سؤاله عما لم يخبرها به ؛ مما لو ظهر لساء السائل وأحرجه أو ترتب عليه تكاليف لا يطيقها ، أو ضيق عليه في أشياء وسع الله فيها ، أو تركها بلا تحديد رحمة بعباده .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم . عفا الله عنها والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ . .

(283/217)

كان بعضهم يكثر على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من السؤال عن أشياء لم يتنزل فيها أمر أو نهي . أو يلحف في طلب تفصيل أمور أجملها القرآن ، وجعل الله في إجمالها سعة للناس . أو في الاستفسار عن أمور لا ضرورة لكشفها فإن كشفها قد يؤذي السائل عنها أو يؤذي غيره من المسلمين .

وروي أنه لما نزلت آية الحج سأل سائل : أفي كل عام ؟ فكره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذا السؤال لأن النص على الحج جاء مجملاً : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ والحج مرة يجزي . فأما السؤال عنه أفي كل عام فهو تفسير له بالصعب الذي لم يفرضه الله .

وفي حديث مرسل رواه الترمذي والدارقطني عن علي رضي الله عنه قال : " لما نزلت هذه الآية : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ قالوا : يا رسول الله أفي كل عام ؟ فسكت . فقالوا : أفي كل عام ؟ قال : لا . ولو قلت نعم لوجبت "

فأنزل الله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ . . الخ الآية .

وأخرجه الدارقطني أيضاً عن أبي عياض عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " يا أيها الناس كتب عليكم الحج . فقام رجل فقال : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه ، ثم عاد فقال : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فقال : " ومن القائل ؟ " قالوا : فلان . قال : والذي نفسي بيده لو قلت : نعم . لوجبت . ولو وجبت ما أطقتموها . ولو لم تطيقوها لكفرتم " فأنزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ . .

وفي حديث أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – : " . . . فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا فقام إليه رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال : " النار " فقام عبد الله بن حذافة فقال : " من أبي يا رسول الله ؟ فقال : أبوك حذافة " . قال ابن عبد البر : عبد الله بن حذافة أسلم قديماً ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، وشهد بدراً ، وكانت فيه دعابة ! وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أرسله إلى كسرى بكتاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولما قال : من أبي يا رسول الله ؟ قال " أبوك حذافة " قالت أمه : ما سمعت بابن أعق منك . أأمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس ؟ ! فقال : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقت به . .

وفي رواية لابن جرير – بسنده – " عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر . فقام إليه رجل فقال : أين أنا ؟ قال : " في النار " فقام آخر فقال : من أبي ؟ فقال : " أبوك حذافة " فقام عمر بن الخطاب ، فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد – صلى الله عليه وسلم – نبياً وبالقرآن إماماً . إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك ، والله أعلمُ من آباؤنا . قال : فسكن غضبه " ونزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم

﴾ . . الآية .

وروى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت في قوم سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وهو قول سعيد بن جبير .

وقال : ألا ترى أن بعده : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ ؟

ومجموعة هذه الروايات وغيرها تعطي صورة عن نوع هذه الأسئلة التي نهى الله الذين آمنوا أن يسألوها . .

(285/217)

لقد جاء هذا القرآن لا ليقرر عقيدة فحسب ، ولا ليشرع شريعة فحسب . ولكن كذلك ليربي أمة ، وينشئ مجتمعاً ، وليكوّن الأفراد وينشئهم على منهج عقلي وخلقي من صنعه . . وهو هنا يعلمهم أدب السؤال ، وحدود البحث ، ومنهج المعرفة . . وما دام الله – سبحانه – هو الذي ينزل هذه الشريعة ، ويخبر بالغيب ، فمن الأدب أن يترك العبيد لحكمته تفصيل تلك الشريعة أو إجمالها ؛ وأن يتركوا له كذلك كشف هذا الغيب أو ستره . وأن يقفوا هم في هذه الأمور عند الحدود التي أرادها العليم الخبير . لا ليشددوا على أنفسهم بتنصيص النصوص ، والجري وراء الاحتمالات والفروض ، كذلك لا يجرون وراء

الغيب يحاولون الكشف عما لم يكشف الله منه وما هم ببالغيه . والله أعلم بطاقة البشر واحتمالهم ، فهو يشرع لهم في حدود طاقتهم ، ويكشف لهم من الغيب ما تدركه طبيعتهم . وهناك أمور تركها الله مجملة أو مجهلة ؛ ولا ضير على الناس في تركها هكذا كما أرادها الله . ولكن السؤال – في عهد النبوة وفترة تنزل القرآن – قد يجعل الإجابة عنها متعينة فتسوء بعضهم ، وتشق عليهم كلهم وعلى من يجيء بعدهم .

لذلك نهى الله الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسوؤهم الكشف عنها ؛ وأنذرهم بأنهم سيجابون عنها إذا سألوا في فترة الوحي في حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وستترتب عليهم تكاليف عفا الله عنها فتركها ولم يفرضها :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم . . عفا الله عنها . . ﴾ .

أي لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها وترك فرضها أو تفصيلها ليكون في الإجمال سعة . . كأمره بالحج مثلاً . . أو تركه ذكرها أصلاً . .

(286/217)

ثم ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم – من أهل الكتاب – ممن كانوا يشددون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام. فلما كتبها الله عليهم كفروا بها ولم يؤدوها . ولو سكتوا وأخذوا الأمور باليسر الذي شاءه الله لعبادة ما شدد عليهم ، وما احتملوا تبعة التقصير والكفران .

ولقد رأينا في سورة البقرة كيف أن بني إسرائيل حينما أمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، بلا شروط ولا قيود ، كانت تجزيهم فيها بقرة أية بقرة . . أخذوا يسألون عن أوصافها ويدققون في تفصيلات هذه الأوصاف . وفي كل مرة كان يشدد عليهم . ولو تركوا السؤال ليسروا على أنفسهم .

وكذلك كان شأنهم في السبت الذي طلبوه ثم لم يطيقوه ! . .

ولقد كان هذا شأنهم دائماً حتى حرم الله عليهم أشياء كثيرة تربية لهم وعقوبة !

وفي الصحيح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال :

" ذروني ما تركتكم . فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم " .

وفي الصحيح أيضاً : " إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها . وسكت عن أشياء رحمة بكم – غير نسيان – فلا تسألوا عنها " .

وفي صحيح مسلم عن عامر بن سعد عن أبيه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم

- " إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً ، من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته " .

ولعل مجموعة هذه الأحاديث - إلى جانب النصوص القرآنية - ترسم منهج الإسلام في المعرفة . .

(287/217)

إن المعرفة في الإسلام إنما تطلب لمواجهة حاجة واقعة وفي حدود هذه الحاجة الواقعة . . فالغيب وما وراءه تصان الطاقة البشرية أن تنفق في استجلائه واستكناهه ، لأن معرفته لا تواجه حاجة واقعية في حياة البشرية . وحسب القلب البشري أن يؤمن بهذا الغيب كما وصفه العليم به . فأما حين يتجاوز الإيمان به إلى البحث عن كنهه ؛ فإنه لا يصل إلى شيء أبداً ، لأنه ليس مزوداً بالمقدرة على استكناهه إلا في الحدود التي كشف الله عنها . . فهو جهد ضائع . فوق أنه ضرب في التيه بلا دليل ، يؤدي إلى الضلال البعيد .

وأما الأحكام الشرعية فتطلب ويسأل عنها عند وقوع الأقضية التي تتطلب هذه الأحكام . . وهذا هو منهج الإسلام . .

ففي طوال العهد المكي لم يتنزل حكم شرعي تنفيذي - وإن تنزلت الأوامر والنواهي عن

أشياء وأعمال – ولكن الأحكام التنفيذية كالحدود والتعازير الكفارات لم تتنزل إلا بعد قيام الدولة المسلمة التي تتولى تنفيذ هذه الأحكام.

ووعى الصدر الأول هذا المنهج واتجاهه؛ فلم يكونوا يفتون في مسألة إلا إذا كانت قد وقعت بالفعل؛ وفي حدود القضية المعروضة دون تفصيص للنصوص، ليكون للسؤال والفتوى جديتهما وتمشيهما كذلك مع ذلك المنهج التربوي الرباني:

كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يلعن من سأل عما لم يكن.. ذكره الدارميّ في مسنده.. وذكر عن الزهري قال: بلغنا أن زيد بن ثابت الأنصاري كان يقول إذا سئل عن الأمر: أكان هذا؟ فإن قالوا: نعم قد كان، حدث فيه بالذي يعلم. وإن قالوا: لم يكن، قال: فذروه حتى يكون. وأسند عن عمار ابن ياسر – وقد سئل عن مسألة – فقال: هل كان هذا بعد؟ قالوا: لا. قال. دعونا حتى يكون، فإذا كان تجشمناها لكم.

(288/217)

وقال الدراميّ: حدثنا عبدالله بن محمد بن أبي شيبة، قال: حدثنا ابن فضيل، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن، منهن:

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ وشبهه . . ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم .

وقال مالك : أدركت هذا البلد (يعني المدينة) وما عندهم علم غير الكتاب والسنة . فإذا نزلت نازلة ، جمع الأمير لها من حضر من العلماء ، فما اتفقوا عليه أنفذه . وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله – صلى الله عليه وسلم !

وقال القرطبي في سياق تفسيره للآية : روى مسلم عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعاً وهات . وكره لكم ثلاثاً : قيل وقال ؛ وكثرة السؤال ، وإضاعة المال " . قال كثير من العلماء : المراد بقوله : " وكثرة السؤال " : التكثير من السؤال في المسائل الفقهية تنطعاً ، وتكلفاً فيما لم ينزل ، والأغلوطات ، وتشقيق المولدات . وقد كان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكلف . ويقولون : إذا نزلت النازلة وفق المسؤول لها . .

إنه منهج واقعي جاد . يواجه وقائع الحياة بالأحكام ، المشتقة لها من أصول شريعة الله ، مواجهة عملية واقعية . . مواجهة تقدر المشكلة بحجمها وشكلها وظروفها كاملة وملابساتها ، ثم تقضي فيها بالحكم الذي يقابلها ويغطيها ويشملها وينطبق عليها انطباقاً كاملاً دقيقاً . .

فأما الاستفتاء عن مسائل لم تقع ، فهو استفتاء عن فرض غير محدد . وما دام غير واقع فإن

تحديده غير مستطاع . والفتوى عليه حينئذ لا تطابقه لأنه فرض غير محدد . والسؤال والجواب عندئذ يحملان معنى الاستهتار بجدية الشريعة ؛ كما يحملان مخالفة للمنهج الإسلامي القويم .

(289/217)

ومثله الاستفتاء عن أحكام شريعة الله في أرض لا تقام فيها شريعة الله ، والفتوى على هذا الأساس ! . . إن شريعة الله لا تستفتى إلا ليطبق حكمها وينفذ . . فإذا كان المستفتي والمفتي كلاهما يعلمان أنهما في أرض لا تقيم شريعة الله ؛ ولا تعترف بسلطان الله في الأرض وفي نظام المجتمع وفي حياة الناس . . أي لا تعترف بألوهية الله في هذه الأرض ولا تخضع لحكمه ولا تدين لسلطانه . . فما استفتاء المستفتي ؟ وما فتوى المفتي ؟ إنهما – كليهما – يرخصان شريعة الله ، ويستهتران بها شاعرين أو غير شاعرين سواء !

ومثله تلك الدراسات النظرية المجردة لفقه الفروع وأحكامه في الجوانب غير المطبقة . . إنها دراسة للتلهية ! لمجرد الإيهام بأن لهذا الفقه مكاناً في هذه الأرض التي تدرسه في معاهدها ولا تطبقه في محاكمها ! وهو إيهام يبوء بالإثم من يشارك فيه ، ليخدر مشاعر الناس بهذا الإيهام !

إن هذا الدين جد . وقد جاء ليحكم الحياة . جاء ليعبد الناسَ لله وحده ، وينتزع من المغتصبين لسلطان الله هذا السلطان ، فيرد الأمر كله إلى شريعة الله ، لا إلى شرع أحد سواه . . وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها ؛ ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها ، ولتدلي بحكم الله في الواقعة حين تقع بقدر حجمها وشكلها وملابساتها .

ولم يجيء هذا الدين ليكون مجرد شارة أو شعار . ولا لتكون شريعته موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة . ولا لتعيش مع الفروض التي لم تقع ، وتضع لهذه الفروض الطائرة أحكاماً فقهية في الهواء !

هذا هو جد الإسلام . وهذا هو منهج الإسلام . فمن شاء من " علماء " هذا الدين أن يتبع منهجه بهذا الجد فليطلب تحكيم شريعة الله في واقع الحياة . أو على الأقل فليسكت عن الفتوى والقذف بالأحكام في الهواء !

(290/217)

ويبدو – بالاستناد إلى رواية مجاهد عن ابن عباس – رضي الله عنه – ومن قول سعيد بن جبير كذلك في أسباب نزول الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم

تسؤكم . . . ﴾ أن من بين ما كانوا يسألون عنه أشياء كانت في الجاهلية . ولم نقف على معين للسؤال ماذا كان . ولكن مجيء الحديث في السياق عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي بعد آية النهي عن السؤال يوحي بأن هناك اتصالاً ما . . فنكتفي بهذا لنواجه النص القرآني عن هذه العادات الجاهلية :

﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ ﴾ . .

إن القلب البشري إما أن يستقيم على فطرته التي فطره الله عليها ؛ فيعرف إلهه الواحد ، ويتخذه رباً ، ويعترف له وحده بالعبودية ويستسلم لشرعه وحده ؛ ويرفض ربوبية من عداه فيرفض إذن أن يتلقى شريعة من سواه . . إما أن يستقيم القلب البشري على فطرته هذه فيجد اليسر في الاتصال بربه ، ويجد البساطة في عبادته ، ويجد الوضوح في علاقاته به . . وإما أن يتيه في دروب الجاهلية والوثنية ومنعرجاتها ، تتلقاه في كل درب ظلمة ، ويصادفه في كل ثنية وهم . تطلب إليه طواغيت الجاهلية والوثنية شتى الطقوس لعبادتها ، وشتى التضحيات لإرضائها ؛ ثم تتعدد الطقوس في العبادات والتضحيات ، حتى ينسى الوثني أصولها ، ويؤديها وهو لا يعرف حكمتها ، ويعاني من العبودية لشتى الأرباب ما يقضي على كرامة الإنسان التي منحها الله للإنسان .

ولقد جاء الإسلام بالتوحيد ليوحد السلطة التي تدين العباد ؛ ثم ليحرر الناس بذلك من العبودية بعضهم لبعض ؛ ومن عبوديتهم لشتى الآلهة والأرباب . . وجاء ليحرر الضمير البشري من أوهام الوثنية وأوهاقها ؛ وليرد إلى العقل البشري كرامته ويطلقه من ربقة الآلهة وطقوسها . ومن ثم حارب الوثنية في كل صورها وأشكالها ؛ وتتبعها في دروبها ومنحنياتها . سواء في أعماق الضمير ، أم في شعائر العبادة ، أم في أوضاع الحياة وشرائع الحكم والنظام .

وهذا منعرج من منعرجات الوثنية في الجاهلية العربية ، يعالجه ليقومه ويسلط عليه النور ليبطل ما حوله من أساطير . ويقرر أصول التفكير والنظر ؛ وأصول الشرع والنظام في آن : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون ﴾ . .

هذه الصنوف من الأنعام التي كانوا يطلقونها لآلهتهم بشروط خاصة ، منتزعة من الأوهام المتراكمة في ظلمات العقل والضمير . البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ! ! !

هذه الصنوف من الأنعام ما هي ؟ ومن الذي شرع لهم هذه الأحكام فيها ؟

لقد تشعبت الروايات في تعريفها ، فنعرض نحن طرفاً من هذه التعريفات :

" روى الزهري عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة من الإبل يمنع درها للطواغيب (أي يحجز لبنها ويخصص للآلهة فلا يطعمها الناس وكهنة الآلهة هم الذين يأخذونه طبعاً !) والسائبة من الإبل كانوا يسيبونها لطواغيتهم . والوصيلة كانت الناقة تبكر بالأنثى ، ثم تثني بالأنثى فيسمونها الوصيلة ، يقولون : وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر ، فكانوا يذبحونها لطواغيتهم . والحامي الفحل من الإبل كان يضرب الضراب المعدود (أي يقوم بتلقيح عدد من النوق) فإذا بلغ ذلك يقال : حمي ظهره ، فيترك ، فيسمونه الحامي .

(292/217)

" وقال أهل اللغة : البحيرة الناقة التي تشق أذنها ، يقال : بحرت أذن الناقة أبحرها بحراً ، والناقة مبحورة وبحيرة ، إذا شققتها واسعا . ومنه البحر لسعته . وكان أهل الجاهلية يحرمون البحيرة ، وهي أن تنتج خمسة أبطن يكون آخرها ذكراً ، بحروا أذنها وحرموها وامتنعوا من ركوبها ونحرها ، ولم تطرد عن ماء ، ولم تمنع عن مرعى ، وإذا لقيها المعيي لم يركبها . قالوا : والسائبة المخلاة وهي المسيبة ، وكانوا في الجاهلية إذا نذر الرجل لقدوم من سفر ، أو برء من مرض ، أو ما أشبه ذلك ، قال : ناقتي سائبة ، فكانت كالبحيرة في

التحريم والتخلية . . فأما الوصيلة فإن بعض أهل اللغة ذكر أنها الأنثى من الغنم إذا ولدت مع ذكر ، قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوها : وقال بعضهم : كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم ، وإذا ولدت ذكراً ذبحوه لآلهتهم في زعمهم . وإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوه لآلهتهم . وقالوا : الحامي الفحل من الإبل إذا نتجت من صلبه عشرة أبطن ، قالوا : حمي ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى " .

وهناك روايات أخرى عن تعريف هذه الأنواع من الطقوس لا ترتفع على هذا المستوى من التصور ، ولا تزيد الأسباب فيها معقولية على هذه الأسباب . . وهي كما ترى أوهام من ظلام الوثنية المخيم . وحين تكون الأوهام والأهواء هي الحكم ، لا يكون هناك حد ولا فاصل ، ولا ميزان ولا منطق . وسرعان ما تتفرع الطقوس ويضاف إليها وينقص منها بلا ضابط . وهذا هو الذي كان في جاهلية العرب ، والذي يمكن أن يحدث في كل مكان وفي كل زمان ، حين ينحرف الضمير البشري عن التوحيد المطلق ، الذي لا منعرجات فيه ولا ظلام .

وقد تتغير الأشكال الخارجية ولكن لباب الجاهلية يبقى ، وهو التلقي من غير الله في أي شأن من شؤون الحياة !

إن الجاهلية ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها حالة ووضع يتكرر – في أشكال شتى – على مدار الزمان . فإما ألوهية واحدة تقابلها عبودية شاملة ؛ وتتجمع فيها كل ألوان السلطة ، وتتجه إليها المشاعر والأفكار ، والنوايا والأعمال ، والتنظيمات والأوضاع ، وتتلقى منها القيم والموازين ، والشرائع والقوانين ، والتصورات والتوجيهات . . وإما جاهلية – في صورة من الصور – تتمثل فيها عبودية البشر للبشر أو لغيرهم من خلق الله . . لا ضابط لها ولا حدود . لأن العقل البشري لا يصلح وحده أن يكون ضابطاً موزوناً ما لم ينضبط هو على ميزان العقيدة الصحيحة . فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد في كل حين ؛ ويفقد قدرته على المقاومة في وجه الضغوط المختلفة ما لم يقم إلى جانبه ذلك الضابط الموزون .

وإننا لنشهد اليوم – بعد أربعة عشر قرناً من نزول هذا القرآن بهذا البيان – أنه حيثما انفك رباط القلب البشري بالإله الواحد ، تاه في منحنيات ودروب لا عداد لها ، وخضع لربوبيات شتى ، وفقد حريته وكرامته ومقاومته . . ولقد شهدت في هذا الجانب الخرافي وحده في صعيد مصر وريفها عشرات من الأوهام تطلق لها بعض صنوف الحيوان ، للأولياء والقديسين ، في ذات الصورة التي كانت تطلق بها للآلهة في الزمان القديم !

على أن المسألة في تلك الطقوس الجاهلية – وفي كل جاهلية – هي القاعدة الكلية . هي نقطة الانطلاق في طريق الإسلام أو في طريق الجاهلية . هي . . لمن الحكم في حياة

الناس . . لله وحده كما قرر في شريعته ؟ أم لغير الله فيما يقرره البشر لأنفسهم من أحكام وأوضاع وشرائع وطقوس وقيم وموازين ؟ أو بتعبير آخر : لمن الألوهية على الناس ؟ لله أم لخلق من خلقه ؟ أياً كان هذا الخلق الذي يزاول حقوق الألوهية على الناس !

ومن ثم يبدأ النص القرآني بتقرير أن الله لم يشرع هذه الطقوس . لم يشرع البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحامي . . فمن ذا الذي شرعها إذن لهؤلاء الكفار ؟ !

(294/217)

﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ . .

والذين يتبعون ما شرعه غير الله هم كفار . كفار يفترون على الله الكذب . مرة يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون : شريعة الله . . ومرة يقولون : إننا نشرع لأنفسنا ولا ندخل شريعة الله في أوضاعنا . . ونحن مع هذا لا نعصي الله . . وكله كذب على الله :

﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ . .

ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم الذي جاء به من عند الله . فهم لم يكونوا يجحدون الله البتة .

بل كانوا يعترفون بوجوده وبقدرته وبتصريفه للكون كله . ولكنهم مع ذلك كانوا يشرعون

لأنفسهم من عند أنفسهم ثم يزعمون أن هذا شرع الله ! وهم بهذا كانوا كفاراً . ومثلهم كل أهل جاهلية في أي زمان وفي أي مكان يشرعون لأنفسهم من عند أنفسهم ثم يزعمون – أو لا يزعمون – أن هذا شرع الله !

إن شرع الله هو الذي قرره في كتابه ، وهو الذي بينه رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهو ليس مبهماً ولا غامضاً ولا قابلاً لأن يفتري عليه أحد من عنده ما يفتري ، ويزعم أنه منه ، كما يتصور أهل الجاهلية في أي زمان وفي أي مكان !

ولذلك يصم الله الذين ادعوا هذا الادعاء بالكفر . ثم يصمهم كذلك بأنهم لا يعقلون ! ولو كانوا يعقلون ما افتروا على الله . ولو كانوا يعقلون ما حسبوا أن يمر هذا الافتراء !

ثم يزيد هذه المفارقة في قولهم وفعلهم إيضاحاً :

﴿ وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا حسبنا : ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ ﴾ . .

(295/217)

إن ما شرعه الله بيّن . وهو محدد فيما أنزل الله ومبين بما سنه رسوله . . وهذا هو المحك .

وهذه هي النقطة التي يفترق فيها طريق الجاهلية وطريق الإسلام . طريق الكفر وطريق

الإيمان . . فإما أن يدعى الناس إلى ما أنزل الله بنصه وإلى الرسول ببيانه فيلبوا . . فهم إذن مسلمون . وإما أن يدعوا إلى الله والرسول فيأبوا . . فهم إذن كفار . . ولا خيار . .

وهؤلاء كانوا إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ! فاتبعوا ما شرعه العبيد ، وتركوا ما شرعه رب العبيد . ورفضوا نداء التحرر من عبودية العباد للعباد ، واختاروا عبودية العقل والضمير ، للآباء والأجداد .

ثم يعقب السياق القرآني على موقفهم ذاك تعقيب التعجيب والتأنيب :

﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ ﴾ . .

وليس معنى هذا الاستنكار لاتباعهم لآبائهم ولو كانوا لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ، أن لو كان يعلمون شيئاً لجاز لهم اتباعهم وترك ما أنزل الله وترك بيان الرسول ! إنما هذا تقرير لواقعهم وواقع آبائهم من قبلهم . فآباؤهم كذلك كانوا يتبعون ما شرعه لهم آباؤهم أو ما شرعوه هم لأنفسهم . ولا يركن أحد إلى شرع نفسه أو شرع أبيه ، وبين يديه شرع الله وسنة رسوله ، إلا وهو لا يعلم شيئاً ولا يهتدي ! وليقل عن نفسه أو ليقل عنه غيره ما يشاء : إنه يعلم وإنه يهتدي . فالله – سبحانه – أصدق وواقع الأمر يشهد . . وما يعدل عن شرع الله إلى شرع الناس إلا ضال جهول ! فوق أنه مفتر كفور !

فإذا انتهى من تقرير حال الذين كفروا وقولهم التفت إلى ﴿ الذين آمنوا ﴾ يقرر لهم انفصالهم وتميزهم ؛ ويبين لهم تكاليفهم وواجبهم ؛ ويحدد لهم موقفهم ممن سواهم ؛ ويكلهم

إلى حساب الله وجزائه لا إلى أي مغنم في هذه الأرض أو مأرب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 2 صـ 981.991 ﴾

(296/217)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (104) ﴾

إذا هتفت بهم دواعي الحقِّ بالجنوح إلى وصف الصدق صَدَّهم عن الإجابة ما مرنوا عليه من سهولة التقليد ، وإن أسلافهم الذين وافقوهم لم يكونوا إلاَّ في ضلال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 452 ﴾

(297/217)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن عشر بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن عشر بعد المائتين

من الآية ﴿ 105 ﴾ من سورة المائدة

وحتى الآية ﴿ 108 ﴾ من نفس السورة

(4/218)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان المانع لهم من قبول الهدى كون ذلك تسفيهاً لآبائهم ، فيعود ضرراً عليهم يُسبَّون به على زعمهم ، أعلم الله المؤمنين أن مخالفة الغير في قبول الهدى لا تضرهم أصلاً ، بأن عقب آية الإنكار عليهم في التقيد بآبائهم لمتابعتهم لهم في الكفر بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي عاهدوا ربهم ورسوله على الإيمان ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ أي الزموا هدايتها وإصلاحها ؛ ولما كان كأنه قيل : إنا ننسب بآبائنا ، وننسب إليهم ، فربما ضرتنا نسبتنا إليهم عند الله كما

جوز أكثم بن الجون الخزاعي أن يضره شبه عمرو ابن لحي به حتى سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " لا ، إنك مؤمن وهو كافر " - كما في أوائل السيرة

(5/218)

الهشامية عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وكان ذلك ربما وقف بأحد منهم عن الإسلام قال : ﴿ لا يضركم من ضل ﴾ أي من المخالفين بكفر أو غيره بنسبتكم إليه ولا بقول الكفار : إنكم سفهتم آراءكم ، ولا بغير ذلك من وجوه الضرر ، وحقق هدايتهم بشارة لهم بأداة التحقيق فقال مفهماً لوجود الضرر عند فقد الهداية : ﴿ إذا اهتديتم ﴾ أي بالإقبال على ما أنزل الله وعلى الرسول حتى تصيروا علماء وتعملوا بعلمكم فتخالفوا من ضل ، فإن كان موجوداً فبالاجتهاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بحسب الطاقة ، فإن لم يستطع رده انتظر به يوم الجمع الأكبر والهول الأعظم ، وإن كان مفقوداً فبمخالفته في ذلك الضلال وإن كان أقرب الأقرباء وأولى الأحباء ، وإلا كان الباقي أسفه من الماضي ، وقد كان لعمري أحدهم لا يتبع أباه إذا كان سفيهاً في أمر دنياه عاجزاً عن تحصيلها ولا يتحاشى عن مخالفته في طريقته بل يعد الكدح في تحصيلها والتعمق في اقتناصها وحسن السعي في تثميرها ولطف الحيلة في توسيعها من معالي الأخلاق وإصالة الرأي وجودة النظر على أن ذلك ظل

زائل وعرض تافه ، فكيف لا يخالفه فيما به سعادته الأبدية وحياته الباقية ويأخذ بالحزم في ذلك ويشمر ذيله في أمره ويسهر ليله في

(6/218)

إعمال الفكر وترتيب النظر فيما أمره الله بالنظر فيه حتى يظهر له الحق فيتبعه ، وينهتك لديه الباطل فيجتنبه ، ما ذاك إلا لمجرد الهوى ، وقد كان الحزم العمل بالحكمة التي كشفها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس رضي الله عنه " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني " وروى مسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير أحرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا – وقال ابن ماجه : ولا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا – فإن " لو " تفتح عمل الشيطان " ، وفي بعض طرق الحديث : " ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل " يعني : والله ! اعمل عمل الحزمة فأوسع النظر حتى لا تترك أمراً يحتمل أن ينفعك ولا يضرك إلا أخذت به ، ولا تدع أمراً يحتمل أن يضرك ولا ينفعك إلا تجتنبه ، فإنك

إن فعلت ذلك وغلبك القضاء والقدر لم نجد في وسعك أمراً تقول : لو أني فعلته أو تركته ، ولكنك تقول : قدر الله وما شاء فعل ، بخلاف ما إذا لم تنعم النظر وعملت عمل العجزة فإنك حتماً تقول : لو أني فعلت كذا وكذا ، لأن الشيطان يفتح لك تلك الأبواب التي نظر فيها الحازم ، فيكثر لك من " لو " لأنها مفتاح عمله ، وليس في الآية ما يتعلق به من يتهاون في الأمر بالمعروف كما يفعله كثير من البطلة ؛ روى أحمد في المسند عن أبي عامر الأشعري رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في أمر رآه : يا أبا عامر ! ألا غيرت ؟ فتلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أين ذهبتم ؟ إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم " وروى أحمد

(7/218)

وأصحاب السنن الأربعة والحارث وأحمد بن منيع وأبو يعلى " أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا أيها الناس ! إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه .

قال البغوي : وفي رواية : لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب ، ثم ليدعون الله خياركم فلا يستجاب لكم " والله الموفق .

ولما حكم الله تعالى – وهو الحكم العدل – أنه لا ضرر عليهم من غيرهم بشرط هداهم ، وكان الكفار يعيرونهم ، قال مؤكداً لما أخبر به ومقرراً لمعناه : ﴿ إلى الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا شريك له ، لا إلى غيره ﴿ مرجعكم ﴾ أي أنتم ومن يعيركم ويهددكم وغيرهم من جميع الخلائق ﴿ جميعاً فينبئكم ﴾ أي يخبركم إخباراً عظيماً مستوفى مستقصى ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي تعمداً جبلة وطبعاً ، ويجازي كل أحد بما عمل على حسب ما عمل .

ولا يؤاخذ أحداً بما عمل غيره ولا بما أخطأ فيه أو تاب منه ، وليس المرجع ولا شيء منه إلى الكفار ولا معبوداتهم ولا غيرهم حتى تخشوا شيئاً من غائلتهم في شيء من الضرر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 553.556 ﴾

(8/218)

وقال الفخر :

لما بين أنواع التكاليف والشرائع والأحكام ثم قال : ﴿ مَّا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة : 99] إلى قوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلى مَا أَنزَلَ الله وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ [المائدة : 104] فكأنه تعالى قال : إن هؤلاء الجهال مع ما تقدم من أنواع المبالغة في الاعذار والانذار والترغيب والترهيب لم ينتفعوا بشيء منه بل بقوا مصرين على جهلهم مجدين على جهالاتهم وضلالتهم ، فلا تبالوا أيها المؤمنون بجهالتهم وضلالتهم ، بل كونوا منقادين لتكاليف الله مطيعين لأوامره ونواهيه ، فلا يضركم ضلالتهم وجهالتهم ، فلهذا قال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 92. 93 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾

تذييل جرى على مناسبة في الانتقال فإنّه لما ذكر مكابرة المشركين وإعراضهم عن دعوة الخير عقّبه بتعليم المسلمين حدود انتهاء المناظرة والمجادلة إذا ظهرت المكابرة ، وعذر المسلمين بكفاية قيامهم بما افترض الله عليهم من الدعوة إلى الخير ، فأعلمهم هنا أن ليس تحصيل أثر الدعاء على الخير بمسؤولين عنه ، بل على الداعي بذل جهده وما عليه إذا لم

يصغ المدعوّ إلى الدعوة ، كما قال تعالى : ﴿ إنّك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [القصص : 56] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكروا في سبب النزول وجوها :

(9/218)

أحدها : ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قبل من أهل الكتاب الجزية ولم يقبل من العرب إلا الإسلام أو السيف ، عير المنافقون المؤمنين بقبول الجزية من بعض الكفار دون البعض ، فنزلت هذه الآية أي لا يضركم ملامة اللائمين إذا كنتم على الهدى ، وثانيها : أن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار في كفرهم وضلالتهم . فقيل لهم : عليكم أنفسكم ، وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طريق الهدى لا يضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين ، وثالثها : أنهم كانوا يغتمون لعشائرهم لما ماتوا على الكفر فنهوا عن ذلك ، والأقرب عندي أنه لما حكى عن بعضهم أنه إذا قيل لهم : ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ [المائدة : 104]

ذكر تعالى هذه الآية ، والمقصود منها بيان أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يتشبهوا بهم في هذه الطريقة الفاسدة ، بل ينبغي أن يكونوا مصرين على دينهم ، وأن يعلموا أنه لا يضرهم جهل أولئك الجاهلين إذا كانوا راسخين في دينهم ثابتين فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 93 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ الآية ، اختلف العلماء في تأويل هذه الآية فأجراها بعضهم على الظاهر .

وقال ضمرة بن ربيعة : تلا الحسن هذه الآية ، وقال : الحمد للّه لها والحمد للّه عليها ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي إلاّ وإلى جانبه منافق يكره عمله .

وقال بعضهم : معناها عليكم أنفسكم فاعملوا بطاعة اللّه ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ فأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر .

أبو البحتري عن حذيفة في هذه الآية : إذا أمرتم ونهيتم .

(10/218)

وروى إسماعيل بن أبي خالد عن أبي ظبيان عن قيس بن أبي حازم قال : قال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) على المنبر : إنكم تقرؤن هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هي وإني سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه عمّهم اللّه بعقاب ، فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تغتروا بقول اللّه ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ فيقول أحدكم : عليّ نفسي ، واللّه لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو [ليستعملن] عليكم شراركم فليس منكم هو في العذاب ، ثم ليدعنّ اللّه خياركم فلا يستجيب لهم "

يدل عليه حديث أبي هريرة قال : " قلنا : يا رسول اللّه إن لم نأمر بالمعروف ولم ننه عن المنكر حتى لا يبقى من المعروف شيء إلاّ عملنا به ولا من المنكر شيء إلاّ إنتهينا عنه ولا نأمره ولا ننهي أبداً .

فقال (عليه السلام) : " فمروا بالمعروف فإن لم [يقبلوا به] كله ما نهوا عن المنكر وإن لم ينتهوا عنه كله " وقيل : معنى الآية : عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم .

قال شقيق بن عقد : قيل لابن عمر : لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن اللّه قال ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ .

فقال ابن عمر : إنها ليست لي ولا لأصحابي ، لأن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : "

ألا فليبلغ الشاهد الغائب " فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم تقبل منهم .

(11/218)

وروى سهل بن الأشهب عن الحسين والربيع عن أبي العالية إن هذه الآية قرأت على ابن مسعود ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، فقال ابن مسعود : ليس هذا بزمانها قولوها ما قبلت منكم فإذا رُدت عليكم فعليكم أنفسكم ، ثم قال : إن القرآن نزل حين نزل فمنه آي قد مضى تأويلهن ومنه آي وقع تأويلهن على عهد رسول اللّه ومنه آي يقع تأويلهن بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم يسير ومنه من يقع آي لا ينهض بعد اليوم ومنه آي يقع في آخر الزمن ومنه آي يقع تأويلهن يوم القيامة ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا ، فإذا اختلفت القلوب والأهواء وأُلبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض فامْرُؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية .

قال أبو أميّة السمعاني : سمعت أبا ثعلبة [الخشني] عن هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

فقال أبو ثعلبة : سألت عنها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال : " ائمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت ديناً موثراً وشحاً مطاعاً وهوىً متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك وذر عوامهم فإن وراءكم أياماً أيام الصبر فإذا عمل العبد بطاعة اللّه لم يضره من ضل بعده وهلك وأجر العامل يومئذ بمثل الذي أنتم عليه كأجر خمسين عامل " .

قالوا : يا رسول اللّه كأجر خمسين عاملاً منهم ؟

قال : " لا بل كأجر خمسين عاملاً منكم " .

وقال بعضهم : نزلت هذه الآية في أهل الأهواء .

وقال أبو جعفر الرازي : دخل على صفوان بن حرث شاب من أصحاب الأهواء فذكر شيئاً من أمره ، فقال صفوان : ألا أدلك على خاصة اللّه التي تخص بها أولياءه ، ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية .

وقال الضحّاك : عليكم أنفسكم إذا إختلفت الأهواء ما لم يكن سيف أو سوط .

(12/218)

وقال ابن جبير : نزلت هذه الآية في أهل الكتاب يعني عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل من أهل الكتاب .

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس " إن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل هجر وعليهم المنذر ابن ساوي التميمي يدعوهم إلى الإسلام فإن أبو فليؤدوا الجزية فلما أتاه الكتاب عرضه على من عنده من اليهود والعرب والنصارى والمجوس فأقرّوا بالجزية وكرهوا الإسلام ، فكتب إليه رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " أما العرب فلا تقبل منهم إلاّ الإسلام أو السيف ، وأما أهل الكتاب والمجوس فاقبل منهم الجزية " فلما قرأ عليهم كتاب رسول الله عليه السلام أسلمت العرب وأما أهل الكتاب والمجوس أعطوا الجزية ، فقال في ذلك : منافقو أهل مكة وقالوا : عجباً من محمد يزعم أن اللّه تعالى بعثه ليقاتل الناس ، حتى يقولوا لا إله إلاّ اللّه ، وقد قبل من مجوس هجر وأهل الكتاب الجزية ، هلاّ أكرههم على الإسلام وقد ردّها على إخواننا من العرب ؟

فشقّ ذلك على المسلمين مشقة شديدة فأنزل اللّه تعالى ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ يعني بعد أن بلغ محمد فأحذر ، وأنزل بعد ما أسلم العرب ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي ﴾ [البقرة : 256] .

وقال ابن عباس : نزلت في جميع الكفار وذلك أن الرجل كان إذا أسلم قالوا : سفهت أباك ، وضللت ، وفعلت وفعلت فأنزل اللّه ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم

﴿ وهذه لفظة إغراء ، والعرب تغري من الصفات بعليك عليك ولبيك وإليك وعندك ودونك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ معناه : الزموا أنفسكم كما تقول : عليك زيداً ، معناه : الزم زيداً .

معناه : الزموا أمر أنفسكم لا يؤاخذكم بذنوب غيركم .

﴿ لاَيَضُرُّكُمْ ﴾ وأصل اللغة : لا يضرركم .

(13/218)

فأدغم أحد الراءين في الثاني ، وضمت الثانية لالتقاء الساكنين .

وهذا جواب الشرط وموضعه الجزم .

وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية فقال : إذا رأيتم شُحًّا مطاعاً ، وهوًى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليكم بخويصة أنفسكم .

وروى عمر بن جارية اللخمي عن أبي أمية قال : سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية

فقال : لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ .

فَإِذَا رَأَيْتَ دُنْيا مُؤْثَرَةً ، وَشُحّاً مُطاعاً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ .

فَإِنَّ مِنْ بَعْدِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ المُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِمِثْلِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كَأَجْرِ خَمْسِينَ عَامِلاً "

قالوا : يا رسول الله كأجر خمسين عاملاً منهم قال : " لا بَلْ كَأَجْرِ خَمْسِينَ عَامِلاً مِنْكُمْ "

وروي عن أبي بكر الصديق أنه قال : يا أيها الناس إنكم تتلون هذه الآية على غير تأويلها .

إنه كان رجال طعموا بالإسلام ، وذاقوا حلاوته ، وكانت لهم قرابة من المشركين .

فأرادوا أن يذيقوهم حلاوة الإسلام ، وأن يدخلوهم في الإسلام .

فنزل ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ .

والذي نفس أبي بكر بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليعمنكم الله بعقاب من عنده .

وروي عن أبي العالية أنه قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود ، فوقع بين رجلين ما يكون بين الناس ، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال بعضهم : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف ؟ فقال بعضهم : عليك نفسك إن الله تعالى يقول : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ يقول : لا يضركم ضلالة من ضلّ ﴿ إِذَا اهتديتم ﴾ فقال ابن مسعود : مه لم يجيء تأويل هذه الآية ، بعد .

فما دامت قلوبكم واحدة ، وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعاً ، فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، فإذا اختلفت القلوب والأهواء فعند ذلك جاء تأويلها .

وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ ﴾ يقول : لا يضركم ضلالة من ضلّ ﴿ إِذَا اهتديتم ﴾ إذا ثبتم على الحق ﴿ إِلَى الله ﴾ تعالى ﴿ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا .

وقال في رواية الكلبي نزلت في "منذر بن عمرو" بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل هجر ليدعوهم إلى الإسلام ، فأبوا الإسلام ، فوضع عليهم الجزية فقال : ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ ﴾ من أهل هجر ، وأقر بالجزية ﴿ إِذَا اهتديتم ﴾ إلى الله يعني آمنتم بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : " أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إِلى هَجَر ، وعليهم المنذر بن ساوي

يدعوهم إلى الإسلام ، فإن أبوا فليُؤدُّوا الجزية ، فلما أتاه الكتاب ، عرضه على مَن عنده من العرب واليهود والنصارى والمجوس ، فأقرُّوا بالجزية ، وكرهوا الإسلام ، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما العرب فلا تقبل منهم إلا الإسلام أو السّيف ، وأما أهل الكتاب والمجوس فاقبل منهم الجزية" فلما قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمت العرب ، وأعطى أهل الكتاب والمجوس الجزية ، فقال منافقوا مكة : عجباً لمحمدٍ يزعم أن الله بعثه ليقاتل الناس كافة حتى يسلموا ، وقد قبل من مجوس هَجر ، وأهل الكتاب الجزية ، فهلاّ أكرههم على الإسلام ، وقد ردَّها على إخواننا من العرب ، فشق ذلك على المسلمين ، فنزلت هذه الآية " ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

(15/218)

وقال مقاتل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب فلما أسلمت العرب طوعاً وكرهاً ، قبلها من مجوس هَجَر ، فطعن المنافقون في ذلك ، فنزلت هذه الآية .

والثاني : أن الرجل كان إذا أسلم ، قالوا له سفهت آباءك وضللتهم ، وكان ينبغي لك أن تنصرهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ عَلَيْكم أَنفُسَكُمْ ﴾ أي احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب قال النحويون عليك وعندك ودونك من جملة أسماء الأفعال .

تقول العرب : عليك وعندك ودونك ، فيعدونها إلى المفعول ويقيمونها مقام الفعل ، وينصبون بها ، فيقال : عليك زيداً كأنه قال : خذ زيداً فقد علاك ، أي أشرف عليك ، وعندك زيداً ، أي حضرك فخذه ودونك ، أي قرب منك فخذه ، فهذه الأحرف الثلاثة لا اختلاف بين النحويين في إجازة النصب بها ونقل صاحب "الكشاف" ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ بالرفع عن نافع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 93 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قال الزجاج : ومعنى الآية : إنما ألزمكم الله أمر أنفسكم ، ولا يؤاخذكم بذنوب غيركم ، وهذه الآية لا توجب ترك الأمر بالمعروف ، لأن المؤمن إذا تركه وهو مستطيع له ، فهو ضالّ وليس بمهتدٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾

أي الزموا أنفسكم واحفظوها من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب ، فعليكم اسم فعل أمر نقل إلى ذلك مجموع الجار والمجرور لا الجار وحده كما قيل .

(16/218)

وهو متعد إلى المفعول به بعده وقد يكون لازماً ، والمراد به الأمر بالتمسك كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " عليك بذات الدين " وذكر أبو البقاء أن الكاف والميم في موضع جر لأن اسم الفعل هو المجموع وعلى وحدها لم تستعمل اسماً للفعل بخلاف رويدكم فإن الكاف والميم هناك للخطاب فقط ولا موضع لها لأن رويداً قد استعمل اسماً لأمر المواجه من غير كاف الخطاب وإلى ذلك ذهب سيبويه وهو الصحيح ، ونقل الطبرسي أن استعمال على مع الضمير اسم فعل خاص فيما إذا كان الضمير للخطاب فلو قلت عليه زيداً لم يجز وفيه خلاف .

وقرأ نافع في الشواذ ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالرفع ، والكلام حينئذٍ مبتدأ وخبر أي لازمة عليكم أنفسكم أو حفظ أنفسكم لازم عليكم بتقدير مضاف في المبتدأ .

وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾

يحتمل الرفع على أنه كلام مستأنف في موضع التعليل لما قبله وينصره قراءة أبي حيوة ﴿ لا

﴾ ، ويحتمل أن يكون مجزوماً جواباً للأمر ، والمعنى إن لزمتم أنفسكم لا يضركم .

وإنما ضمت الراء اتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة والأصل لا يضرركم ،

ويجوز أن يكون نهياً مؤكداً للأمر السابق والكلام على حد لا أرينك ههنا .

وينصر احتمال الجزم قراءة من قرأ ﴿ لاَيَضُرُّكُمْ ﴾ بالفتح ﴿ وَلاَيَضُرُّكُمْ ﴾ بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره بمعنى ضره كذمه وذامه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

(17/218)

و ﴿ عليكم ﴾ اسم فعل بمعنى الزَموا ، وذلك أنّ أصله أن يقال : عليك أن تفعل كذا ، فتكون جملة من خبر مقدّم ومبتدأ مؤخّر ، وتكون (على) دالّة على استعلاء مجازي ، كأنّهم جعلوا فعل كذا معتلياً على المخاطب ومتمكّناً منه تأكيداً لمعنى الوجوب فلمّا كثر في كلامهم قالوا : عليك كذا ، فركّبوا الجملة من مجرور خبر واسم ذات مبتدأ بتقدير : عليك فعل كذا ، لأنّ تلك الذات لا توصف بالعلوّ على المخاطب ، أي التمكّن ، فالكلام على تقدير .

وذلك كتعلّق التحريم والتحليل بالذوات في قوله : ﴿ حرّمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] ، وقوله ﴿ أحلّت لكم بهيمة الأنعام ﴾ [المائدة : 1] ، ومن ذلك ما روي ﴿ عليكم الدعاء وعليّ الإجابة ﴾ ومنه قولهم : عليّ ألّيّة ، وعليّ نذر .

ثم كثر الاستعمال فعاملوا (على) معاملة فعل الأمر فجعلوها بمعنى أمر المخاطب بالملازمة ونصبوا الاسم بعدها على المفعولية .

وشاع ذلك في كلامهم فسمّاها النحاة اسم فعل لأنّها جعلت كالاسم لمعنى أمر مخصوص ، فكأنّك عمدت إلى فعل (الزم) فسميّته (عَلَى) وأبرزت مَا مَعه من ضمير فألصقته بـ (عَلى) في صورة الضمير الذي اعتيد أن يتّصل بها ، وهو ضمير الجرّ فيقال : عليك وعليكما وعليكم .

ولذلك لا يسند إلى ضمائر الغيبة لأنّ الغائب لا يؤمر بصيغة الأمر بل يؤمر بواسطة لام الأمر .

فقوله تعالى : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ هو بنصب ﴿ أنفسكم ﴾ أي الزموا أنفسكم ، أي احرصوا على أنفسكم .

والمقام يبيّن المحروص عليه ، وهو ملازمة الاهتداء بقرينة قوله : ﴿ إذا اهتديتم ﴾ ، وهو يشعر بالإعراض عن الغير وقد بيّنه بقوله : ﴿ لا يضرّكم من ضلّ ﴾ .

فجملة ﴿ لا يضرّكم من ضلّ ﴾ تنزّل من التي قبلها منزلة البيان فلذلك فصلت ، لأنّ أمرهم بملازمة أنفسهم مقصود منه دفع ما اعتراهم من الغمّ والأسف على عدم قبول الضالّين للاهتداء ، وخشية أن يكون ذلك لتقصير في دعوتهم ، فقيل لهم : عليكم أنفسكم ، أي اشتغلوا بإكمال اهتدائكم ، ففعل ﴿ يضرّكم ﴾ مرفوع .

وقوله : ﴿ إذا اهتديتم ﴾ ظرف يتضمّن معنى الشرط يتعلّق بـ ﴿ يضرّكم ﴾ .

وقد شمل الاهتداء جميع ما أمرهم به الله تعالى .

ومن جملة ذلك دعوة الناس إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلو قصروا في الدعوة إلى الخير والاحتجاج له وسكتوا عن المنكر لضرّهم من ضلّ لأنّ إثم ضلاله محمول عليهم .

فلا يتوهّم من هذه الآية أنّها رخصة للمسلمين في ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنّ جميع ذلك واجب بأدلّة طفحت بها الشريعة .

فكان ذلك داخلاً في شرط ﴿ إذا اهتديتم ﴾ .

ولما في قوله ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ من الإشعار بالإعراض عن فريق آخر وهو المبيّين بـِ ﴿ من ضلّ ﴾ ، ولما في قوله ﴿ إذا اهتديتم ﴾ من خفاء تفاريع أنواع الاهتداء ؛ عرض لبعض الناس قديماً في هذه الآية فشكّوا في أن يكون مُفادها الترخيص في ترك الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد حدث ذلك الظنّ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

أخرج الترمذي عن أبي أمية الشعباني أنّه قال : سألت عنها أبا ثعلبة الخشني ، فقال لي : سألتَ عنها خبيراً ، سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " بل ائتمروا بالمعروف وتناهَوا عن المنكر حتّى إذا رأيت شحّاً مُطَاعَاً وهوى مُتَّبعاً وَدنْيَا مُؤثرَة وإعجابَ كلّ ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودَعَ العوّام " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فائدة

قال ابن عطية :

(19/218)

وجملة ما عليه أهل العلم في هذا أن الأمر بالمعروف متعين متى رجي القبول أو رجي رد المظالم ولو بعنف ما لم يخف المراء ضرراً يلحقه في خاصيته أو فتنة يدخلها على المسلمين إما بشق عصا وإما بضرر يلحق طائفة من الناس فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم محكم واجب أن يوقف عنده ، وقال سعيد بن جبير معنى هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم

أنفسكم ﴾ فالتزموا شرعكم بما فيه من جهاد وأمر بمعروف وغيره ، ولا يضركم ضلال أهل الكتاب إذا اهتديتما وقال ابن زيد : معنى الآية : يا أيها الذين آمنوا من أبناء أولئك الذين بحروا البحيرة وسيبوا السوائب عليكم أنفسكم في الاستقامة على الدين ولا يضركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم ، قال : وكان الرجل إذا أسلم قال له الكفار سفهت أباءك وضللتهم وفعلت وفعلت فنزلت الآية بسبب ذلك .

قال القاضي أبو محمد : ولم يقل أحد فيما علمت أنها آية موادعة للكفار وكذلك ينبغي أن لا يعارض أنها شيء مما أمر الله به في غير ما آية من القيام بالقسط والأمر بالمعروف ، قال المهدوي : وقد قيل هي منسوخة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ولا يعلم قائله ، وقال بعض الناس نزلت بسبب ارتداد بعض المؤمنين وافتتانهم كابن أبي سرح وغيره ، فقيل للمؤمنين لا يضركم ضلالهم ، وقرأ جمهور الناس " لا يضُرُّكم " بضم الضاد وشد الراء المضمومة ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " لا يضُرْكم " بضم الضاد وسكون الراء ، وقرأ إبراهيم " لا يضِرك " بكسر الضاد وهي كلها لغات بمعنى ضر يضر وضار يضور وضير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

وقد دلت الآيات القرآنية ، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً مضيقاً متحتماً ، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو لا يظن التأثير بحال من الأحوال ، أو يخشى على نفسه أن يحلّ به ما يضرّه ضرراً يسوغ له معه الترك ﴿ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

(21/218)

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد ابن حميد ، وأبو داود ، والترمذي وصححه ، والنسائي وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والدارقطني والضياء ، في المختارة وغيرهم ، عن قيس بن أبي حازم قال : قام أبو بكر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها على غير مواضعها ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب " وفي لفظ لابن جرير عنه : " والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ

عن المنكر ، أو ليعمنكم الله منه بعقاب " وأخرج الترمذي وصححه ، وابن ماجه ، وابن جرير ، والبغوي في معجمه ، وابن أبي حاتم والطبراني ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي أمية الشعثاني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم "

(22/218)

وفي لفظ : قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال : " بل أجر خمسين منكم " وأخرج أحمد وابن أبي حاتم ، والطبرني وابن مردويه ، عن عامر الأشعري أنه كان فيهم أعمى ، فاحتبس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه فقال : " ما حبسك ؟ " قال : يا رسول الله قرأت هذه الآية : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ

إِذَا اهتديتم ﴾ قال : فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أين ذهبتم ؟ إنما هي لا يضرّكم من ضلّ من الكفار إذا اهتديتم " وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وأبو الشيخ عن الحسن : أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُم ﴾ فقال : يا أيها الناس إنه ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة ، ولكنه قد أوشك أن يأتي زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا ، أو قال : فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد عنه في الآية قال : " مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط والسيف ، فإذا كان كذلك فعليكم أنفسكم "

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عمر ، أنه قال في هذه الآية : إنها لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، عن رجل قال : كنت في خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة في حلقة فيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيهم شيخ حسبت أنه قال أُبيّ بن كعب ، فقرأ ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فقال : إنما تأويلها في آخر الزمان .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن أبي مازن قال : انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة ، فإذا قوم جلوس فقرأ أحدهم : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فقال أكثرهم : لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم .

وأخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال : كنت في حلقة فيها أصحاب النبي وإني لأصغر القوم ، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقلت : أليس الله يقول : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ؟ فأقبلوا عليّ بلسان واحد فقالوا : تنزع آية من القرآن لا نعرفها ولا ندري ما تأويلها ؟ حتى تمنيت أني لم أكن تكلمت ، ثم أقبلوا يتحدّثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حدث السن ، وإنك نزعت آية لا ندري ما هي ؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان " إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت " وأخرج ابن مردويه ، عن معاذ بن جبل ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحو حديث أبي ثعلبة الخشني المتقدّم ، وفي آخره " كأجر خمسين رجلاً منكم " وأخرج ابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري قال : ذكرت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لم يجيء تأويلها ، لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام " ، والروايات في هذا الباب كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية ، ففيه ما يرشد إلى ما قدمناه من الجمع بين هذه الآية وبين الآيات والأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

سؤال : فإن قيل : ظاهر هذه الآية يوهم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير واجب .

قلنا الجواب عنه من وجوه : الأول : وهو الذي عليه أكثر الناس ، إن الآية لا تدل على ذلك بل توجب أن المطيع لربه لا يكون مؤاخذاً بذنوب العاصي ، فأما وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فثابت بالدلائل ، خطب الصديق رضي الله عنه فقال : إنكم تقرؤن هذه الآية ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وتضعونها غير موضعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب " .

(24/218)

والوجه الثاني في تأول الآية : ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما قالا قوله ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ يكون هذا في آخر الزمان : قال ابن مسعود لما قرئت عليه هذه الآية ليس هذا بزمانها ، ما دامت قلوبكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمروا وانهوا فإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً ووكل كل امرىء ونفسه ، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية ، وهذا القول عندي ضعيف ، لأن قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب عام ، وهو أيضاً خطاب مع الحاضرين فكيف يخرج الحاضر ويخص الغائب .

والوجه الثالث في تأويل الآية : ما ذهب إليه عبد الله بن المبارك فقال : هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه قال : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني عليكم أهل دينكم ولا يضركم من ضل من الكفار ، وهذا كقوله ﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54] يعني أهل دينكم فقوله ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغب بعضكم بعضاً في الخيرات ، وينفره عن القبائح والسيئات ، والذي يؤكد ذلك ما بينا أن قوله ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ معناه احفظوا أنفسكم فكان ذلك أمراً بأن نحفظ أنفسنا فإن لم يكن ذلك الحفظ إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان ذلك واجباً .

والوجه الرابع : أن الآية مخصوصة بالكفار الذين علم أنه لا ينفعهم الوعظ ، ولا يتركون الكفر ، بسبب الأمر بالمعروف ، فهاهنا لا يجب على الإنسان أن يأمرهم بالمعروف ، والذي يؤكد هذا القول ما ذكرنا في سبب النزول أن الآية نازلة في المنافقين ، حيث عيروا المسلمين بأخذ الجزية من أهل الكتاب دون المشركين .

الوجه الخامس : أن الآية مخصوصة بما إذا خاف الإنسان عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نفسه أو على عرضه أو على ماله ، فهاهنا عليه نفسه لا تضره ضلالة من ضل ولا جهالة من جهل ، وكان ابن شبرمة يقول : من فر من اثنين فقد فر ومن فر من ثلاثة فلم يفر .

الوجه السادس : لا يضركم إذا اهتديتم فأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر ضلال من ضل فلم يقبل ذلك .

الوجه السابع : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ من أداء الواجبات التي من جملتها الأمر بالمعروف عند القدرة ، فإن لم يقبلوا ذلك فلا ينبغي أن تستوحشوا من ذلك فإنكم خرجتم عن عهدة تكليفكم فلا يضركم ضلال غيركم .

والوجه الثامن : أنه تعالى قال لرسوله ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء : 84] وذلك لا يدل على سقوط الأمر بالمعروف عن الرسول فكذا هاهنا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 93.94 ﴾

وقال الآلوسي :

وتوهم من ظاهر الآية الرخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأجيب عن ذلك بوجوه .

الأول أن الاهتداء لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن ترك ذلك مع القدرة عليه ضلال .

فقد أخرج ابن جرير عن قيس بن أبي حازم قال : "صعد أبو بكر رضي الله تعالى عنه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم

لتتلون آية من كتاب الله سبحانه وتعدونها رخصة والله ما أنزل الله تعالى في كتابه أشد منها ﴿ يَهْتَدُونَ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله تعالى منه بعقاب وفي رواية يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب" .

وفي رواية ابن مردويه عن أبي بكر بن محمد قال : خطب أبو بكر الصديق الناس فكان في خطبته "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أيها الناس لا تتكلوا على هذه الآية ﴿ يَهْتَدُونَ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الخ إن الداعر ليكون في الحي فلا يمنعونه فيعمهم الله تعالى بعقاب " .

(26/218)

ومن الناس من فسر الاهتداء هنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وروي ذلك عن حذيفة وسعيد بن المسيب ، والثاني : أن الآية تسلية لمن يأمر وينهى ولا يقبل منه عند غلبة الفسق وبعد عهد الوحي ، فقد أخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ والطبراني وغيرهم عن الحسن أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه سأله رجل عن هذه الآية فقال : أيها الناس

إنه ليس بزمانها ولكنه قد أوشك أن يأتي زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا أو قال : فلا يقبل منكم فحينئذٍ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قيل له : لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن الله تعالى يقول : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فقال : إنها ليست لي ولا لأصحابي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألا فليبلغ الشاهد الغائب " فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم .

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال : يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم : يا معاذ " مروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر فإذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل امرىء برأيه فعليكم أنفسكم لا يضركم ضلالة غيركم فإن من ورائكم أيام صبر المتمسك فيها بدينه مثل القابض على الجمر فللعامل منهم يومئذٍ مثل عمل أحدكم اليوم كأجر خمسين منكم قلت : يا رسول الله خمسين منهم قال : بل خمسين منكم أنتم " .

والثالث : أنها للمنع عن هلاك النفس حسرة وأسفاً على ما فيه الكفرة والفسقة من الضلال فقد كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم فنزلت .

والرابع : أنها للرخصة في ترك الأمر والنهي إذا كان فيهما مفسدة .

والخامس : أنها للأمر بالثبات على الإيمان من غير مبالاة بنسبة الآباء إلى السفه ، فقد قيل : كان الرجل إذا أسلم قالوا له سفهت أباك فنزلت ، وقيل : معنى الآية يا أيها الذين آمنوا الزموا أهل دينكم واحفظوهم وانصروهم لا يضركم من ضل من الكفار إذا فعلتم ذلك ، والتعبير عن أهل الدين بالأنفس على حد قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : 29] ونحوه ، والتعبير عن ذلك الفعل بالاهتداء للترغيب فيه ولا يخفى ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ .

قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور ، وذلك في قوله ﴿ إِذَا اهتديتم ﴾ ، لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد ، وممن قال بهذا حذيفة ، وسعيد بن المسيب ، كما نقله عنهما الألوسي في تفسيره ، وابن جرير ، ونقله القرطبي عن سعيد بن المسيب ، وأبي عبيد القاسم بن سلام ، ونقل نحوه ابن جرير عن جماعة من الصحابة منهم ابن عمر وابن مسعود .

فمن العلماء من قال : ﴿ إِذَا اهتديتم ﴾ أي أمرتم فلم يسمع منكم ، ومنهم من قال : يدخل

الأمر بالمعروف في المراد بالاهتداء في الآية ، وهو ظاهر جداً ولا ينبغي العدول عنه لمنصف .

(28/218)

ومما يدل على أن تارك المر بالمعروف غير مهتد ، أن الله تعالى أقسم أنه في خسر في قوله تعالى : ﴿ والعصر إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 1-3] فالحق وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبعد أداء الواجب لا يضر الآمر ضلال من ضل . وقد دلت الآيات كقوله تعالى : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] ، والأحاديث على أن الناس إن لم يأمروا بالمعروف ، ولم ينهوا عن المنكر ، عمهم الله بعذاب من عنده .

فمن ذلك ما خرجه الشيخان في صحيحهما عن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النَّبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعاً مرعوباً يقول : " لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج ، مثل هذه وحلق بأصبعيه الإبهام ، والتي تليها " فقلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم إذا كثر الخبث " .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " مثل القائم في حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً " ، أخرجه البخاري والترمذي .

(29/218)

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ [المائدة : 105] وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن رأى الناس الظالم فلم يشأخذوا على يده ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه " ، رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل ، أنه كان الرجل يَلْقَى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : ﴿

لُعِنَ الذين كَفَرُواْ مِن بني إِسْرَائِيلَ على لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ذلك بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ترى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الذين كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ الله عَلَيْهِمْ وَفِي العذاب هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ولكن كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : 78-81] ، ثم قال : "كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم ليلعننكم كما لعنهم " .

(30/218)

رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن ، وهذا لفظ أبي داود ، ولفظ الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لَمَّا وقعت بنو إسرائيل في المعاصِي ، نعتهم علماؤُهم فلم ينتهوا فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً ، فقال : لا والذي نفسي بيده حتى يأطروهم على الحق أطرا " .

ومعنى تأطجروهم أي تعطفوهم ، ومعنى تقصرونه : تحبسونه ، والأحاديث في الباب

كثيرة جداً ، وفيها الدلالة الواضحة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في قوله ﴿ إِذَا اهتديتم ﴾ [المائدة : 105] ، ويؤيده كثرة الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخير وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [آل عمران : 104] ، وقوله ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ [آل عمران : 110] . وقوله : ﴿ لُعِنَ الذين كَفَرُواْ مِن بني إِسْرَائِيلَ على لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ذلك بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : 78-79] ، وقوله : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] ، وقوله : ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر : 94] ، وقوله : ﴿ أَنجَيْنَا الذين يَنْهَوْنَ عَنِ السواء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ بعذاب بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : 165] ، وقوله : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] .

(31/218)

والتحقيق في معناها أن المراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره هي أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بالعذاب ، صالحهم وطالحهم وبه فسرها جماعة من أهل العلم والأحاديث الصحيحة شاهدة لذلك كما قدمنا طرفاً منها .

مسائل تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المسالة الأولى : اعلم أن كلا من الآمر والمأمور يجب عليه اتباع الحق المأمور به ، وقد دلت السنة الصحيحة على " أن من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله أنه حمار من حمر جهنم يجر أمعاءه فيها " .

وقد دل القرآن العظيم على أن المأمور المعرض عن التذكرة حمار أيضاً ، أما السنة المذكورة فقوله صلى الله عليه وسلم " يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق اقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون : أي فلان ما أصابك ، ألم تكن تامرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ، فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه " ، أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما .

(32/218)

ومعنى تندلق أقتابه : تتدلى أمعاؤه ، أعاذنا الله والمسلمين من كل سوء ، وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رأيت ليلة أسرى بي رجالا تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقَارِيضَ مِن نار كلما قُرِضَتْ رجعت فقلت لجبريل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خُطَبَاء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " أخرجه الإمام أحمد ، وابن ابي شيبة ، وعبد بن حميد والبزار ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن حيان وابن مردويه والبيهقي ، كما نقله عنهم الشوكاني وغيره . وعن ابن عباس رضي الله عنهما " أنه جاءه رجل فقال له : يا ابن عباس إني اريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، فقال ابن عباس : أو بلغت ذلك ؟ فقال أرجو ، قال : فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل ، قال : وما هي ؟ قال قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ الناس بالبر وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 44] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 3] ، وقوله تعالى عن العبد الصالح شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : 88] الآية ، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، كما نقله عنهم أيضاً الشوكاني وغيره .

واعلم أن التحقيق أن هذا الوعيد الشديد الذي ذكرنا من اندلاق الأمعاء في النار وقرض الشفاه بمقاريض النار ، ليس على الأمر بالمعروف . وإنما هو على ارتكابه المنكر عالماً

بذلك ، ينصح الناس عنه ، فالحق أن الأمر بالمعروف غير ساقط عن صالح ، ولا طالح ، والوعيد على المعصية ، لا على الأمر بالمعروف ، لأنه في حد ذاته ليس فيه إلا الخير ، ولقد أجاد من قال :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله . . . عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الآخر :

(33/218)

وغير تقي يأمر الناس بالتقى . . . طبيب يداوي الناس وهو مريض

وقال الآخر :

فإنك إذ ما تأت ما أنت آمر . . . به تلف من إياه تأمر آتيا

وأما الآية الدالة على أن المعرض عن التذكير كالحمار أيضاً ، فهي قوله تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر : 49-51] والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ، فيجب على المذكر - بالكسر - والمذكر - بالفتح - أن يعملا بمقتضى التذكرة ، وأن يتحفظا من عدم المبالاة بها ، لئلا يكونا حمارين من حمر جهنم .

المسألة الثانية : يشترط في الآمر بالمعروف أن يكون له علم يعلم به ، أن ما يأمر به معروف ، وأن ما ينهى عنه منكر ، لأنه إن كان جاهلاً بذلك فقد يأمر بما ليس بمعروف ، وينهى عما ليس بمنكر ، ولا سيما في هذا الزمن الذي عم فيه الجهل وصار فيه الحق منكراً ، والمنكر معروفاً والله تعالى يقول ﴿ قُلْ هذه سبيلي أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعني ﴾ [يوسف : 108] الآية ، فدل على أن الداعي إلى الله لا بد أن يكون على بصيرة ، وهي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه ، وينبغي أن تكون دعوته إلى الله بالحكمة ، وحسن الأسلوب ، واللطافة مع إيضاح الحق . لقوله تعالى ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] الآية ، فإن كانت دعوته إلى الله بقسوة وعنف وخرق ، فإنها تضر أكثر مما تنفع ، فلا ينبغي أن يسند الأمر بالمعروف إسناداً مطلقاص ، إلا لمن جمع بين العلم والحكمة والصبر على أذى الناس ، لأن الأمر بالمعروف وظيفة الرسل ، وأتباعهم وهو مستلزم للأذى من الناس ، لأنهم مجبولون بالطبع على معاداة من يتعرض لهم في أهوائهم الفاسدة ، وأغراضهم الباطلة ، ولذا قال العبد الصالح لقمان الحكيم لولده ، فيما قص الله عنه : ﴿ وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر واصبر على مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان :

17] الآية ، ولما قال النَّبي صلى الله عليه وسلم لورقة بن نوفل " أو مخرجِيَّ هُم ؟ " يعني قريشاً أخبره ورقة " أن هذا الدين الذي جاء به لم يأت به أحد إلا عودي " ، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : " ما ترك الحق لعمر صديقاً " ، واعلم أنه لا يحكم على الأمر بأنه منكر ، إلا إذا قام على ذلك دليل من كتاب الله تعالى ، أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، أو إجماع المسلمين .

(35/218)

وأما إن كان من مسائل الاجتهاد ، فيما لا نص فيه فلا يحكم على أحد المجتهدين المختلفين بأنه مرتكب منكراً ، فالمصيب منهم مأجور بإصابته ، والمخطئ منهم معذور كما هو معروف في محله .

واعلم أن الدعوة إلى الله بطريقين : طريق لين ، وطريق قسوة . أما طريق اللين فهي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإيضاح الأدلة في أحسن أسلوب وألطفه .

فإن نجحت هذه الطريق فبها ونعمت ، وهو المطلوب وإن لم تنجح تعينت طريق القسوة بالسيف حتى يُعبد الله وحده وتُقام حدوده ، وتُمتثل أوامره ، وتُجتنب نواهيه ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ

الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد : 25] الآية .

ففيه الإشارة إلى أعمال السيف بعد إقامة الحجة ، فإن لم تنفع الكتب تعينت الكتائب ، والله تعالى قد يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

المسألة الثالثة : يشترط في جواز الأمر بالمعروف ، ألا يؤدي إلى مفسدة أعظم من ذلك المنكر ، لإجماع المسلمين على ارتكاب أخف الضررين . قال في مراقي السعود :

وارتكب لأخف من ضررين . . . وخيرن لدى استوا هذين

(36/218)

ويشترط في وجوبه مظنة النفع به ، فإن جزم بعدم الفائدة فيه لم يجب عليه ، كما يدل له ظاهر قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ [الأعلى : 9] ، وقوله صلى الله عليه وسلم " بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائكم أياماً ، الصابر فيهن كالقابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم " ، وفي لفظ قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا ، أو منهم قال : " بل أجر خمسين منكم " ، أخرجه الترمذي ، والحاكم وصححاه ، وأبو داود وابن ماجه

وابن جرير ، والبغوي في معجمه ، وابن أبي حاتم ، والطبراني وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، وقال الراوي هذا الحديث عنه أبو أمية الشعباني ، وقد سأله عن قوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " بل ائتمر " إلى آخر الحديث .

وهذه الصفات المذكورة في الحديث من الشح المطاع والهوى المتبع الخ مظنة لعدم نفع الأمر بالمعروف . فدل الحديث على أنه إن عدمت فائدته سقط وجوبه .

تنبيه

الأمر بالمعروف له ثلاث حكم :

الأولى : إقامة حجة الله على خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] .

الثانية : خروج الآمر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف ، كما قال تعالى في صالحي القوم الذين اعتدى بعضهم في السبت ، ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 164] الآية ، وقال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات : 54] ، فدل على أنه لو لم يخرج من العهدة ، لكان ملوماً .

الثالثة : رجاء النفع المأمور ، كما قال تعالى : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 164] ، وقال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : 55] ، وقد أوضحنا هذا البحث في كتابنا (دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب) في سورة الأعلى في الكلام على قوله تعالى

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى : 9] ، ويجب على الإنسان أن يأمر أهله بالمعروف كزوجته وأولاده ونحوهم ، وينهاهم عن المنكر . لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] الآية ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيَّته " ، الحديث .

المسألة الرابعة : اعلم أن من أعظم أنواع الأمر بالمعروف كلمة حق عند سلطان جائر ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " أفضل الجهاد كلمة تدل عند سلطان جائر " ، أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وقال : حديث حسن .

وعن طارق بن شهاب رضي الله عنه : أن رجلاً سأل النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وقد وضع رجله في الغرز : أيُّ الجهاد أفضل ؟ قال : " كلمة حق عند سلطان جائر " رواه النسائي بإسناد صحيح .

كما قاله النووي رحمه الله ، واعلم أن الحديث الصحيح قد بين أن أحوال الرعية مع ارتكاب السلطان ما لا ينبغي ثلاث :

الأولى : أن يقدر على نصحه وأمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر من غير أن يحصل منه ضرر أكبر من الأول ، فآمره في هذه الحالة مجاهد سالم من الإثم ، ولو لم ينفع نصحه ويجب أن يكون نصحه له بالموعظة الحسنة مع اللطف . لأن ذلك هو مظنة الفائدة .

الثانية : ألا يقدر على نصحه لبطشه بمن يأمره ، وتأدية نصحه لمنكر أعظم ، وفي هذه الحالة يكون الإنكار عليه بالقلوب ، وكراهة منكره والسخط عليه ، وهذه الحالة هي أضعف الإيمان .

(38/218)

الثالثة : أن يكون راضياً بالمنكر الذي يعمله السلطان متابعاً له عليه ، فهذا شريكه في الإثم ، والحديث المذكور هو ما قدمنا في سورة البقرة عن أم المؤمنين ، أم سلمة هند بنت أبي أمية رضي الله عنها أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنَّه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع ، قالوا : يا رسول الله ألا نقاتلهم ؟ قال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة " أخرجه مسلم في صحيحه .

فقوله صلى الله عليه وسلم " فمن كره " يعني بقلبه ، ولم يستطع إنكاراً بيد ولا لسان فقد برئ من الإثم ، وأدى وظيفته . ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية ، ومن رضي بها وتابع عليها ، فهو عاص كفاعلها .

ونظيره حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند مسلم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان " وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ صيغة إغراء يعني : الزموا حفظها كما أشار له في (الخلاصة) بقوله :

والفعل من أسمائه عليك . . . وهكذا دونك مع إليك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قريء لا يضركم بفتح الراء مجزوماً على جواب قوله ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وقريء بضم الراء ، وفيه وجهان : أحدهما : على وجه الخبر أي ليس يضركم من ضل ، والثاني : أن حقها الفتح على الجواب ولكن ضمت الراء اتباعاً لضمة الضاد .

ثم قال تعالى : ﴿ إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ يريد مصيركم ومصير من خالفكم ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني يجازيكم بأعمالكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح

الغيب حـ 12 صـ 94 ﴾

وقال ابن الجوزى :

وفي وقوله : ﴿ لا يضركم مَن ضلَّ إِذا اهتديتم ﴾ قولان .

(39/218)

أحدهما : لا يضركم من ضل بترك الأمر بالمعروف إِذا اهتديتم أنتم للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قاله حُذيفة بن اليمان ، وابن المسيّب .

والثاني : لا يضرُّكم من ضل من أهل الكتاب إِذا أدُّوا الجزية ، قاله مجاهد .

وفي قوله : ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ تنبيهٌ على الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ الآية ، تذكير بالحشر وما بعده ، وذلك مسل عن أمور الدنيا ومكروهها ومحبوبها ، وروي عن بعض الصالحين أنه قال : ما من يوم إلا يجيء الشيطان فيقول : ما تأكل وما تلبس وأين تسكن ؟ فأقول له آكل الموت وألبس الكفن وأسكن القبر .

قال القاضي أبو محمد : فمن فكر في مرجعه إلى الله تعالى فهذه حاله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِلَى الله ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿ جَمِيعاً ﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد من المهتدين وغيرهم ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ بالثواب والعقاب ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من أعمال الهداية والضلال ، فالكلام وعد ووعيد للفريقين ، وفيه كما قيل دليل على أن أحداً لا يؤاخذ بعمل غيره وكذا يدل على أنه لا يثاب بذلك ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ عذر للمهتدي ونذارة للضالّ .

وقدّم المجرور للاهتمام بمتعلّق هذا الرجوع وإلقاء المهابة في نفوس السامعين ، وأكّد ضمير المخاطبين بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ للتنصيص على العموم وأن ليس الكلام على التغليب .

والمراد بالإنباء بما كانوا يعملون الكناية عن إظهار أثر ذلك من الثواب للمهتدي الداعي إلى الخير ، والعذاب للضالّ المعرض عن الدعوة .

والمرجع مصدر ميمي لا محالة ، بدليل تعديته بـ ﴿ إلى ﴾ ، وهو ممّا جاء من المصادر

الميمية بكسر العين على القليل ، لأنّ المشهود في الميمي مِن يَفعِل بكسر العين أن يكون مفتوح العين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(40/218)

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . .

إنه التميز والمفاضلة بينهم وبين من عداهم . ثم إنه التضامن والتواصي فيما بينهم بوصفهم أمة واحدة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ . .

أنتم وحدة منفصلون عمن سواكم ، متضامنون متكافلون فيما بينكم . فعليكم أنفسكم . . عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها ؛ وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها ؛ ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم . فأنتم وحدة منفصلة عمن عداكم ؛ وأنتم أمة متضامنة فيما بينها بعضكم أولياء بعض ، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم .

إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادىء أساسية في طبيعة الأمة المسلمة ، وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى .

إن الأمة المسلمة هي حزب الله . ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان . ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن ، لأنه لا اشتراك في عقيدة ؛ ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة ؛ ولا اشتراك في تبعة أو جزاء .

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها ؛ وأن تتناصح وتتواصى ، وأن تهتدي بهدي الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها . . ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئاً أن يضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى .

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى . والهدى هو دينها هي وشريعتها ونظامها . فإذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو الناس كافة ، وأن تحاول هدايتهم ، وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم ؛ ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم . .

(41/218)

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت ، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولاً ، ثم في الأرض جميعاً ، وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته ؛ وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته . وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت ، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه . . والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولاً ؛ وعلى البشرية كلها أخيراً .

وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية كما فهم بعضهم قديماً – وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثاً – أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – إذا اهتدى هو بذاته – ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله في الأرض – إذا هي اهتدت بذاتها – وضل الناس من حولها .

إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر ، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان – وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته ، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم .

ولقد روى أصحاب السنن أن أبا بكر – رضي الله عنه – قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم

من ضل إذا اهتديتم ﴾ . . وإنكم تضعونها على غير موضعها وإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يغيرونه ، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه " .

(42/218)

وهكذا صحح الخليفة الأول – رضوان الله عليه – ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة . ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح ، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق . فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه ، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه !

وكلا والله ! إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد . ولا يصلح إلا بعمل وكفاح . ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه ، ولإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ولتقرير ألوهية الله في الأرض ، ولرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان ، ولإقامة شريعة الله في حياة الناس ، وإقامة الناس عليها . . لا بد من جهد . بالحسنى حين يكون الضالون أفراداً ضالين ، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة . وبالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى ؛ وتعطل دين

الله أن يوجد ، وتعوق شريعة الله أن تقوم .

وبعد ذلك – لا قبله – تسقط التبعة عن الذين آمنوا . وينال الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء إليه : ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 991.993 ﴾

(43/218)

فائدة

قال ابن الجوزى :

فعلى ما ذكرنا عن الزجاج في معنى الآية ، هي محكمة ، وقد ذهب قومٌ من المفسرين إِلى أنها منسوخة ، ولهم في ناسخها قولان .

أحدهما : أنه آية السيف .

والثاني : أن آخرها نسخ أولها .

روي عن أبي عبيد أنه قال : ليس في القرآن آية جمعت الناسخ والمنسوخ غير هذه ، وموضع المنسوخ منها إِلى قوله : ﴿ لا يضركم من ضل ﴾ والناسخ : قوله : إِذا اهتديتم .

والهُدى هاهنا : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ

2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾

قال بعض العلماء : هذا أمر من الله تعالى ومعناه احفظوا أنفسكم من ملابسة الذنوب والإصرار على المعاصي لأنك إذا قلت عليك زيداً معناه الزم زيداً وقيل معناه عليكم أنفسكم فأصلحوا واعملوا في خلاصها من عذاب الله عز وجل .

وانظروا لها ما يقربها من الله عز وجل .

لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، يعني لا يضركم كفر من كفر إذا كنتم مهتدين وأطعتم الله عز وجل فيما أمركم به ونهاكم عنه .

قال سعيد بن جبير ومجاهد : نزلت هذه الآية في أهل الكتاب اليهود والنصارى يعني عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم .

وقيل : لما قبلت الجزية من أهل الكتاب قال بعض الكفار : كيف تقبل الجزية من بعض دون بعض ؟ فنزلت هذه الآية .

وقيل : إن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار على كفرهم فقيل لهم : عليكم أنفسكم

واجتهدوا في صلاحهم لا يضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين إذا كنتم مهتدين .

فإن قلت هل يدل ظاهر هذه الآية على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(44/218)

قلت : لا يدل على ذلك والذي عليه أكثر الناس أن المطيع لربه عزَّ وجل لا يكون مؤاخذاً بذنوب أصحاب المعاصي فأما وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فثابت بدليل الكتاب والسنة .

عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضلَّ إذا اهتديتم ﴾ ولا تضعونها موضعها ولا تدرون ما هي وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وأخرجه أبو داود زاد فيه : " ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ولا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب " وقال قوم في معنى الآية عليكم أنفسكم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم قال ابن مسعود مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قبل منكم فإن رد عليكم فعليكم

أنفسكم ، ثم قال : إن القرآن نزل منه أي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه أي وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه أي وقع تأويلهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير ومنه أي يقع تأويلهن في آخر الزمان ومنه أي يقع تأويلهن يوم القيامة وهو ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة لم تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض فامروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإذا اختلفت قلوبكم وأهواؤكم وألبستم شيعاً وأذيق بعضكم بأس بعض فأمرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية .

(45/218)

وقيل لابن عمر لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن الله يقول ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا هتديتم ﴾ فقال ابن عمر : إنها ليست لي ولا لأصحابي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا ليبلغ الشاهد الغائب فكنا نحن الشهود وأنت الغائب ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم .

وعن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف نصنع بهذه الآية قال : أية آية قلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "

ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أيام الصبر فمن صبر فيهن قبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم "

وفي رواية : " قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ، قال : لا بل أجر خمسين منكم " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وقيل في معنى الآية : إن العبد إذا عمل بطاعة الله واجتنب نواهيه لا يضره من ضل .

وقال ابن عباس : قوله " عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " يقول إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته من الحلال والحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به وعن صفوان بن محرز قال : دخل عليَّ شاب من أصحاب الأهواء فذكر شيئاً من أمره فقلت له : ألا أدلك على خاصة الله التي خص بها أوليائه ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وقال الحسن : لم يكن مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله .

وقيل في معنى الآية : لا يضركم من كفر بالله وحاد عن قصد السبيل من أهل الكتاب إذا اهتديتم أنتم .

قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآية في أهل الكتاب .

وقال ابن زيد : كان الرجل إذا أسلم قالوا له سفهت آباءكم وضللتم وفعلت وفعلت وكان ينبغي لك أن تنصرهم وتفعل وتفعل فقال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ قال الطبري : وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات عندنا في هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق وهو العمل بطاعة الله وأداء ما لزم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم لأن الله تعالى يقول : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم حتى يرجع عن ظلمه .

وقال عبد الله بن المبارك : هذه الآية أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الله تعالى قال : عليكم أنفسكم يعني أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغبه في الخيرات وينفره عن القبائح والمكروهات والذي يؤكد ذلك أن معنى قوله : عليكم أنفسكم أي احفظوا أنفسكم وهذا أمر بأن نحفظ أنفسنا ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ يعني في الآخرة الطائع والعاصي والضال والمهتدي ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ يعني فيخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأُولى قال علماؤنا : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التحذير مما يجب أن يحذر منه ، وهو حال من تقدّمت صفته ممن ركَن في دينه إلى تقليد آبائه وأسلافه .

وظاهر هذه الآية يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس القيام به بواجب إذا استقام الإنسان ، وأنه لا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره ، لولا ما ورد من تفسيرها في السنة وأقاويل الصحابة والتابعين على ما نذكره بحول الله تعالى .

(47/218)

الثانية قوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ معناه احفظوا أنفسكم من المعاصي ؛ تقول عليك زيداً بمعنى الزم زيداً ؛ ولا يجوز عليه زيداً ، بل إنما يجري هذا في المخاطبة في ثلاثة ألفاظ ؛ عليك زيداً أي خذ زيداً ، وعندك عمراً أي حضرك ، ودونك زيداً أي قَرُب منك ؛ وأنشد :

يا أيها المَائِحُ دَلْوِي دُونَكَا . . .

وأما قوله : عليه رجلاً لَيْسَنِي ، فشاذّ .

الثالثة روى أبو داود والترمذيّ وغيرهما عن قيس قال : خطبنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : إنكم تقرؤون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهتديتم" وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الناس إذا رأُوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده" قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ؛ قال إسحاق بن إبراهيم سمعت عمرو بن عليّ يقول سمعت وَكِيعاً يقول : لا يصح عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا حديث واحد ، قلت : ولا إسماعيل عن قيس ، قال : إن إسماعيل روى عن قيس موقوفاً .

(48/218)

قال النقاش : وهذا إفراط من وَكِيع ؛ رواه شعبة عن سفيان وإسحاق عن إسماعيل مرفوعاً ؛ وروى أبو داود والترمذي وغيرهما "عن أبي أُمية الشعبانيّ قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنيّ فقلت له : كيف تصنع بهذه الآية ؟ فقال : أية آية ؟ قلت قوله تعالى : ﴿ يا أيها

الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ قال أما واللَّهِ لقد سألتَ عنها خبيراً ، سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "بل ائتمروا بالمعروف وتَناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتَ شُحّا مُطاعاً وهَوًى مُتَّبعاً ودنيا مُؤثَرة وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة نفسك ودع عنك أمر العامّة فإنّ من ورائكم أياماً الصبرُ فيهنّ مثلُ القبض على الجمر للعامل فيهنّ مثلُ أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم" " " وفي رواية قيل : يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : "بل أجر خمسين منكم" " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

قال ابن عبد البر قوله : " بل منكم " هذه اللفظة قد سكت عنها بعض الرواة فلم يذكرها ، وقد تقدم .

وروى الترمذيّ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنكم في زمان من ترَكَ منكم عُشْر ما أمر به هلك ثم يأتي زمان من عمل منهم بعُشْر ما أُمِر به نجا " قال : هذا حديث غريب .

وروي عن ابن مسعود أنه قال : ليس هذا بزمان هذه الآية : قولوا الحق ما قُبِل منكم ، فإذا رُدّ عليكم فعليكم أنفسكم .

وقيل لابن عمر في بعض أوقات الفتن : لو تركت القول في هذه الأيام فلم تأمرْ ولم تَنهَ ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا : " ليبلغ الشاهدُ الغائبَ " ونحن شهدنا فيلزمنا أن

نبلغكم ، وسيأتي زمان إذا قيل فيه الحقُّ لم يُقبل .

في رواية عن ابن عمر بعد قوله : " ليبلّغ الشاهدُ الغائب " فكنا نحن الشهود وأنتم الغُيَّب ، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا ، لم يقبل منهم .

(49/218)

وقال ابن المبارك قوله تعالى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ خطاب لجميع المؤمنين ، أي عليكم أهل دينكم ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فكأنّه قال : ليأمر بعضكم بعضاً ؛ وليْنَه بعضكم بعضاً ؛ فهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يضركم ضلال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب ؛ وهذا لأن الأمر بالمعروف يجري مع المسلمين من أهل العصيان كما تقدّم ؛ وروي معنى هذا عن سعيد بن جبير .

وقال سعيد بن المسيب : معنى الآية لا يضركم من ضل إذا اهتديتم بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال ابن خُوَيزِمَنْدَاد : تضمنت الآية اشتغال الإنسان بخاصة نفسه ، وتركه التعرض لمعائب الناس ، والبحث عن أحوالهم ؛ فإنهم لا يسألون عن حاله فلا يسأل عن حالهم وهذا كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : 38] ، ﴿ وَلاَ تَزِرُ

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [الأنعام : 164 وفاطر : 18] .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : "كن جليس بيتك وعليك بخاصة نفسك " ويجوز أن يكون أريد به الزمان الذي يتعذر فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فينكر بقلبه ، ويشتغل بإصلاح نفسه .

قلت : قد جاء حديث غريب رواه ابن لَهِيعة : قال حدثنا بكر بن سَوَادَة الجُذاميّ عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان رأس مائتين فلا تأمر بمعروف ولا تنه عن منكر وعليك بخاصة نفسك " قال علماؤنا : إنما قال عليه السلام ذلك لتغير الزمان ، وفساد الأحوال ، وقلة المعينين .

وقال جابر بن زيد : معنى الآية ؛ يا أيها الذين آمنوا من أبناء أُولئك الذين بحروا البحيرة وسيبوا السوائب ؛ عليكم أنفسكم في الاستقامة على الدّين ، لا يضركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم ؛ قال : وكان الرجل إذا أسلم قال له الكفار سفَّهْت آباءَك وضلّلتهم وفعلتَ وفعلتَ ؛ فأنزل الله الآية بسبب ذلك .

(50/218)

وقيل : الآية في أهل الأهواء الذين لا ينفعهم الوعظ ؛ فإذا علمت من قوم أنهم لا يقبلون ، بل يستخفون ويظهرون فاسكت عنهم .

وقيل : نزلت في الأسارى الذين عذّبهم المشركون حتى ارتد بعضهم ، فقيل لمن بقي على الإسلام : عليكم أنفسكم لا يضركم ارتدادُ أصحابكم .

وقال سعيد بن جبير : هي في أهل الكتاب وقال مجاهد : في اليهود والنصارى ومن كان مثلهم ؛ يذهبان إلى أن المعنى لا يضركم كفر أهل الكتاب إذا أدّوا الجِزية .

وقيل : هي منسوخة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ قاله المهدويّ .

قال ابن عطية : وهذا ضعيف ولا يعلم قائله .

قلت : قد جاء عن أبي عبيد القاسم بن سلاّم أنه قال : ليس في كتاب الله تعالى آية جمعت الناسخ والمنسوخ غير هذه الآية .

قال غيره : الناسخ منها قوله : ﴿ إِذَا اهتديتم ﴾ ، والهدي هنا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والله أعلم .

الرابعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعيّن متى رُجّي القبولُ ، أو رُجي ردّ الظالم ولو بعنف ، ما لم يخَفِ الآمرُ ضرراً يلحقه في خاصته ، أو فتنة يدخلها على المسلمين ؛ إمّا بشق عصا ، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس ؛ فإذا خيف هذا ف ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ مُحْكَم واجب أن يوقف عنده .

ولا يشترط في الناهي أن يكون عدلاً كما تقدّم ؛ وعلى هذا جماعة أهل العلم فاعلمه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(51/218)

ومن فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

بَابُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى فَرْضَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَبَيَّنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَخْبَارٍ مُتَوَاتِرَةٍ عَنْهُ فِيهِ ، وَأَجْمَعَ السَّلَفُ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى وُجُوبِهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعْرِضُ أَحْوَالٌ مِنْ التَّقِيَّةِ يَسَعُ مَعَهَا السُّكُوتُ .

فَمِمَّا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ لُقْمَانَ : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : وَاصْبِرْ عَلَى مَا سَاءَكَ مِنْ الْمَكْرُوهِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ .

وَإِنَّمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى لَنَا ذَلِكَ عَنْ عَبْدِهِ لِنَقْتَدِيَ بِهِ وَنَنْتَهِيَ إلَيْهِ .

وَقَالَ تَعَالَى فِيمَا مَدَحَ بِهِ سَالِفَ الصَّالِحِينَ مِنْ الصَّحَابَةِ : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ

: ﴿ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

(52/218)

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ وَهَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ قَالَا : حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ إسْمَاعِيلَ بْنِ رَجَاءٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ، وَعَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَاكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو إسْحَاقَ عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ عَنْ جَرِيرٍ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : ﴿ مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ فَلَا يُغَيِّرُوا إلَّا أَصَابَهُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا ﴾ .

فَأَحْكَمَ اللَّهُ تَعَالَى فَرْضَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ .

(53/218)

وَرُبَّمَا ظَنَّ مَنْ لَا فِقْهَ لَهُ أَنَّ ذَلِكَ مَنْسُوخٌ أَوْ مَقْصُورُ الْحُكْمِ عَلَى حَالٍ دُونَ حَالٍ ، وَتَأَوَّلَ فِيهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَلَيْسَ التَّأْوِيلُ عَلَى مَا يَظُنُّ هَذَا الظَّانُّ لَوْ تَجَرَّدَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَنْ قَرِينَةٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ يَعْنِي : احْفَظُوهَا لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ؛ وَمِنْ الِاهْتِدَاءِ اتِّبَاعُ أَمْرِ اللَّهِ فِي أَنْفُسِنَا وَفِي غَيْرِنَا ، فَلَا دَلَالَةَ فِيهَا إذًا عَلَى سُقُوطِ فَرْضِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ .

(54/218)

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ السَّلَفِ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ أَحَادِيثُ مُخْتَلِفَةُ الظَّاهِرِ وَهِيَ مُتَّفِقَةٌ فِي الْمَعْنَى ، فَمِنْهَا مَا حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَاسِطِي قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْوَاسِطِي عَنْ إسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ : سَمِعْت أَبَا بَكْرٍ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي أَرَاكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَإِنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ إنَّ النَّاسَ إذَا عُمِلَ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي وَلَمْ

يُغَيِّرُوا أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابِهِ ﴾ ؛ فَأَخْبَرَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَا رُخْصَةَ فِيهَا فِي تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأَنَّهُ لَا يَضُرُّهُ ضَلَالُ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَى هُوَ بِالْقِيَامِ بِفَرْضِ اللَّهِ مِنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ .

(55/218)

وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنُ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ قَالَ : (يَعْنِي مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَحَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : (مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمَنْ ضَلَّ مِنْ غَيْرِهِمْ) .

فَكَأَنَّهُمَا ذَهَبَا إلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَقَرُّوا وَلَا يَجُوزُ لَنَا نَقْضُ عَهْدِهِمْ بِإِجْبَارِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَهَذَا لَا يَضُرُّنَا الْإِمْسَاكُ عَنْهُ .

وَأَمَّا مَا لَا يَجُوزُ الْإِقْرَارُ عَلَيْهِ مِنْ الْمَعَاصِي وَالْفُسُوقِ وَالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ ، فَهَذَا عَلَى كُلِّ الْمُسْلِمِينَ تَغْيِيرُهُ وَالْإِنْكَارُ عَلَى فَاعِلِهِ عَلَى مَا شَرَطَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الَّذِي قَدَّمْنَا .

(56/218)

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الرَّبِيعِ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الْعَتَكِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ عَتَبَةَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ جَارِيَةَ اللَّخْمِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ قَالَ : سَأَلْت أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْت : يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ؟ فَقَالَ : أَمَا وَاَللَّهِ لَقَدْ سَأَلْت عَنْهَا خَبِيرًا ، سَأَلْت عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ﴿ بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ حَتَّى إذَا رَأَيْت شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْك نَفْسَك وَدَعْ عَنْك الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ ، الصَّبْرُ فِيهِ كَقَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهَا مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ قَالَ : وَزَادَنِي غَيْرُهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ ﴾ وَهَذَا لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى سُقُوطِ فَرْضِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ إذَا كَانَتْ الْحَالُ مَا ذَكَرَ ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ تِلْكَ الْحَالِ تُنَبِّئُ عَنْ تَعَذُّرِ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ لِشُيُوعِ الْفَسَادِ وَغَلَبَتِهِ عَلَى الْعَامَّةِ ، وَفَرْضُ النَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ إنْكَارُهُ بِالْقَلْبِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ﴾

فَكَذَلِكَ إِذَا صَارَتْ الْحَالُ إِلَى مَا ذَكَرَ كَانَ فَرْضُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ بِالْقَلْبِ لِلتَّقِيَّةِ وَلِتَعَذُّرِ تَغْيِيرِهِ .

وَقَدْ يَجُوزُ إِخْفَاءُ الْإِيمَانِ وَتَرْكُ إِظْهَارِهِ تَقِيَّةً بَعْدَ أَنْ يَكُونَ مُطْمَئِنَّ الْقَلْبِ بِالْإِيمَانِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ فَهَذِهِ مَنْزِلَةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ .

وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ وَجْهٌ آخَرُ ، وَهُوَ مَا حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنُ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مُسْهِرٍ عَنْ عَبَّادِ الْخَوَاصِّ قَالَ : حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ ، أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَكَعْبًا كَانَا جَالِسَيْنِ بِالْجَابِيَةِ ، فَأَتَاهُمَا آتٍ فَقَالَ : لَقَدْ رَأَيْت الْيَوْمَ أَمْرًا كَانَ حَقًّا عَلَى مَنْ يَرَاهُ أَنْ يُغَيِّرَهُ فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ، فَقَالَ كَعْبٌ : إِنَّ هَذَا لَا يَقُولُ شَيْئًا ، ذُبَّ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا تَذُبُّ عَنْ عَائِلَتِك حَتَّى يَأْتِيَ تَأْوِيلُهَا .

فَانْتَبَهَ لَهَا أَبُو الدَّرْدَاءِ فَقَالَ : مَتَى يَأْتِي تَأْوِيلُهَا ؟ فَقَالَ : إِذَا هُدِمَتْ كَنِيسَةُ دِمَشْقَ وَبُنِيَ مَكَانَهَا مَسْجِدٌ فَذَلِكَ مِنْ تَأْوِيلِهَا ، وَإِذَا رَأَيْت الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ فَذَلِكَ مِنْ تَأْوِيلِهَا ؛ وَذَكَرَ خَصْلَةً ثَالِثَةً لَا أَحْفَظُهَا ، فَذَلِكَ مِنْ تَأْوِيلِهَا .

(58/218)

قَالَ أَبُو مُسْهِرٍ : وَكَانَ هَدْمُ الْكَنِيسَةِ بِعَهْدِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ؛ أَدْخَلَهَا فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَزَادَ فِي سَعَتِهِ بِهَا .

وَهَذَا أَيْضًا عَلَى مَعْنَى الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ فِي الِاقْتِصَارِ عَلَى إنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِالْقَلْبِ دُونَ الْيَدِ وَاللِّسَانِ لِلتَّقِيَّةِ وَالْخَوْفِ عَلَى النَّفْسِ وَلَعَمْرِي إنَّ أَيَّامَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَالْحَجَّاجِ وَالْوَلِيدِ وَأَضْرَابِهِمْ كَانَتْ مِنْ الْأَيَّامِ الَّتِي سَقَطَ فِيهَا فَرْضُ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ وَالْيَدِ لِتَعَذُّرِ ذَلِكَ وَالْخَوْفِ عَلَى النَّفْسِ .

(59/218)

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ الْحَجَّاجَ لَمَّا مَاتَ قَالَ الْحَسَنُ : (اللَّهُمَّ أَنْتَ أَمَتَّهُ فَاقْطَعْ سُنَّتَهُ فَإِنَّهُ أَتَانَا أُخَيْفِشُ أُعَيْمِشُ يَمُدُّ بِيَدٍ قَصِيرَةِ الْبَنَانِ وَاَللَّهِ مَا عَرَقٌ فِيهَا عِنَانٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، يُرَجِّلُ جُمَّتَهُ وَيَخْطُرُ فِي مِشْيَتِهِ وَيَصْعَدُ الْمِنْبَرَ فَيَهْذِرُ حَتَّى تَفُوتَهُ الصَّلَاةُ ، لَا مِنْ اللَّهِ يَتَّقِي وَلَا مِنْ النَّاسِ يَسْتَحِيُ ، فَوْقَهُ اللَّهُ وَتَحْتَهُ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ لَا يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ الصَّلَاةَ أَيُّهَا الرَّجُلُ)

ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ : (هَيْهَاتَ وَاللَّهُ حَالٌ دُونَ ذَلِكَ السَّيْفِ وَالسَّوْطِ) وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ : (خَرَجَ الْحَجَّاجُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِالْهَاجِرَةِ فَمَا زَالَ يَعْبُرُ مَرَّةً عَنْ أَهْلِ الشَّامِ يَمْدَحُهُمْ وَمَرَّةً عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ يَذُمُّهُمْ حَتَّى لَمْ نَرَ مِنْ الشَّمْسِ إلَّا حُمْرَةً عَلَى شُرُفِ الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمُؤَذِّنَ فَأَذَّنَ فَصَلَّى بِنَا الْجُمُعَةَ ، ثُمَّ أُذِّنَ فَصَلَّى بِنَا الْعَصْرَ ، ثُمَّ أُذِّنَ فَصَلَّى بِنَا الْمَغْرِبَ ، فَجَمَعَ بَيْنَ الصَّلَوَاتِ يَوْمَئِذٍ) .

فَهَؤُلَاءِ السَّلَفُ كَانُوا مَعْذُورِينَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي تَرْكِ النَّكِيرِ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ .

وَقَدْ كَانَ فُقَهَاءُ التَّابِعِينَ وَقُرَّاؤُهُمْ خَرَجُوا عَلَيْهِ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ إنْكَارًا مِنْهُمْ لِكُفْرِهِ وَظُلْمِهِ وَجَوْرِهِ ، فَجَرَتْ بَيْنَهُمْ تِلْكَ الْحُرُوبُ الْمَشْهُورَةُ وَقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَوَطِئَهُمْ بِأَهْلِ الشَّامِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ يُنْكِرُ عَلَيْهِ شَيْئًا يَأْتِيهِ إلَّا بِقَلْبِهِ .

(60/218)

وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ فِي ذَلِكَ مَا حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّهُ ذَكَرَ عِنْدَهُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ فَقَالَ : لَمْ يَجِئْ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ ، إنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ حِينَ أُنْزِلَ وَمِنْهُ

آيٌ قَدْ مَضَى تَأْوِيلُهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلْنَ ، وَكَانَ مِنْهُ آيٌ وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْهُ آيٌ وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ ، وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ بَعْدَ الْيَوْمِ ، وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ عِنْدَ السَّاعَةِ ، وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، قَالَ : فَمَا دَامَتْ قُلُوبُكُمْ وَاحِدَةً وَأَهْوَاؤُكُمْ وَاحِدَةً وَلَمْ تَلْبَسُوا شِيَعًا وَلَمْ يَذُقْ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ الْقُلُوبُ وَالْأَهْوَاءُ وَلُبِّسْتُمْ شِيَعًا وَذَاقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَامْرُؤٌ وَنَفْسُهُ عِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ .

(61/218)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَعْنِي عَبْدُ اللَّهِ بِقَوْلِهِ : (لَمْ يَجِئْ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ) أَنَّ النَّاسَ فِي عَصْرِهِ كَانُوا مُمَكَّنِينَ مِنْ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ لِصَلَاحِ السُّلْطَانِ وَالْعَامَّةِ وَغَلَبَةِ الْأَبْرَارِ لِلْفُجَّارِ ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَعْذُورًا فِي تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ ، ثُمَّ إذَا جَاءَ حَالُ التَّقِيَّةِ وَتَرْكُ الْقَبُولِ وَغَلَبَتْ الْفُجَّارُ سُوِّغَ السُّكُوتُ فِي تِلْكَ الْحَالِ مَعَ الْإِنْكَارِ بِالْقَلْبِ ؛ وَقَدْ يَسَعُ السُّكُوتُ أَيْضًا فِي الْحَالِ الَّتِي قَدْ عَلِمَ فَاعِلُ الْمُنْكَرِ أَنَّهُ يَفْعَلُ مَحْظُورًا وَلَا يُمْكِنُ الْإِنْكَارُ بِالْيَدِ وَيُغَلَّبُ فِي الظَّنِّ بِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ إذَا قُتِلَ ، فَحِينَئِذٍ يَسَعُ السُّكُوتُ .

وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ .

وَحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ قَالَ : أَخْبَرَنَا يُونُسُ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قَالَ : قُولُوهَا مَا قُبِلَتْ مِنْكُمْ ، فَإِذَا رُدَّتْ عَلَيْكُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ .

فَأَخْبَرَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ فِي سَعَةٍ مِنْ السُّكُوتِ إذَا رُدَّتْ وَلَمْ تُقْبَلْ ، وَذَلِكَ إذَا لَمْ يُمْكِنْهُ تَغْيِيرُهُ بِيَدِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ إبَاحَتُهُ تَرْكَ النَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ مَعَ إمْكَانِ تَغْيِيرِهِ .

(62/218)

حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنُ الْيَمَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَشْهَلِيِّ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُعَمَّكُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ ﴾ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَحَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ حَمْزَةَ الزَّيَّاتِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ : إنِّي أَعْمَلُ بِأَعْمَالِ الْخَيْرِ كُلِّهَا إلَّا خَصْلَتَيْنِ ، قَالَ : وَمَا هُمَا ؟ قَالَ : لَا آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا أَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ ، قَالَ : لَقَدْ طَمَسْت سَهْمَيْنِ مِنْ سِهَامِ

الْإِسْلَامِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ غَفَرَ لَكَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَكَ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ جُوَيْبِرٍ عَنْ الضَّحَّاكِ قَالَ : الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ فَرِيضَتَانِ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى كَتَبَهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

(63/218)

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : أَخْبَرُونِي عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ : حَدَّثَتْ ابْنُ شُبْرُمَةَ بِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ : (مَنْ فَرَّ مِنْ اثْنَيْنِ فَقَدْ مَرَّ ، وَمَنْ فَرَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ لَمْ يَفِرَّ) فَقَالَ : أَمَّا أَنَا فَأَرَى الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ مِثْلَ هَذَا ، لَا يَعْجِزُ الرَّجُلُ عَنْ اثْنَيْنِ أَنْ يَأْمُرَهُمَا أَوْ يَنْهَاهُمَا .

وَذَهَبَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاَللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَصْلًا فِيمَا يَلْزَمُ مِنْ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ .

وَقَالَ مَكْحُولٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ : إذَا هَابَ الْوَاعِظُ وَأَنْكَرَ الْمَوْعُوظُ فَعَلَيْك حِينَئِذٍ نَفْسَك لَا يَضُرُّك مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتَ ، وَاَللَّهُ الْمُوَفِّقُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(64/218)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَرِيبَةٌ مِنْ الْقُرْآنِ لَيْسَ لَهَا أُخْتٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا آيَةٌ يَنْسَخُ آخِرُهَا أَوَّلَهَا ؛ نَسَخَ قَوْلُهُ : ﴿ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ قَوْلَهُ : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

وَقَدْ حَقَّقْنَا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ ، فَالْحَظُوهُ هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعْلَمُوهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رُوِيَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَتَأَوَّلُونَهَا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهَا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ .

وَإِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ .

وَرَوَى ﴿ أَبُو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ قَالَ : أَتَيْت أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ ، فَقُلْت لَهُ : كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؟ فَقَالَ : أَيَّةُ آيَةٍ ؟ قُلْت : قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ؛ فَقَالَ : أَمَا وَاَللَّهِ لَقَدْ سَأَلْت عَنْهَا خَبِيرًا ، سَأَلْت عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إذَا رَأَيْت شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْك بِخَاصَّةِ نَفْسِك ، وَدَعْ أَمْرَ الْعَامَّةِ ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا ، يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ ﴾ الْحَدِيثَ إلَى آخِرِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أُصُولِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَخِلَافَةُ الْمُسْلِمِينَ : وَقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاؤُنَا أَبْوَابَهُ وَمَسَائِلَهُ فِي أُصُولِ الدِّينِ ، وَهِيَ مِنْ فُرُوعِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهَا فِي آيَاتٍ قَبْلَ هَذَا ، وَذَكَرْنَا بَعْضَ شُرُوطِهِ ، وَحَقَّقْنَا أَنَّ الْقِيَامَ بِهِ فَرْضٌ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ .

وَعَرَضْت هَذِهِ الْآيَةَ الْمُوهِمَةَ فِي ابْتِدَاءِ الْحَالِ لِمُعَارَضَتِهَا لِمَا تَقَدَّمَ ، أَوْ لِمَا يَتَأَخَّرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ الْآيَاتِ الْمُؤَكِّدَةِ لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ ، وَعِنْدَ سَدَادِ النَّظَرِ وَانْتِهَائِهِ إلَى الْغَايَةِ يَتَبَيَّنُ الْمَطْلُوبُ .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ .

وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْعَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ لِأَجْلِ سُكُوتِهِمْ عَنْ الْمُنْكَرِ الْمَفْعُولِ ، وَالْمَعْرُوفِ الْمَتْرُوكِ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مُخَاطَبَةِ الْكُفَّارِ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ ، وَأَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَلَى تَرْكِهَا ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آنِفًا بِقَوْلِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ .

وَذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى ذَلِكَ بِيَقِينِ الْأَمْنِ مِنْ الضَّرَرِ عِنْدَ الْقِيَامِ بِهِ ؛ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ : ﴿ فَإِذَا رَأَيْت شُحًّا مُطَاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْك بِخَاصَّةِ نَفْسِك ، وَدَعْ أَمْرَ الْعَامَّةِ ﴾ .

وَذَلِكَ لِعَدَمِ الِاسْتِطَاعَةِ عَلَى مُعَارَضَةِ الْخَلْقِ ، وَالْخَوْفِ عَلَى النَّفْسِ أَوْ الْمَالِ مِنْ الْقِيَامِ بِالْحَقِّ .

وَتِلْكَ رُخْصَةٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَسَّرَهَا عَلَيْنَا ، وَفَضْلُهُ الْعَمِيمُ آتَانَاهُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا كَيْفِيَّةَ الْعَمَلِ فِيهِ وَالِاخْتِلَافَ عَلَيْهِ .

وَيَعْضُدُ ذَلِكَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُغَيِّرْهُ بِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُغَيِّرْهُ بِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ﴾ .

وَلِهَذَا الْمَعْنَى حَدَّثَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَصْعَدَ الْمِنْبَرَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فِي خُطْبَةِ الْعِيدَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ : ذَهَبَ مَا كُنْت تَعْلَمُ .

فَسَكَتَ أَبُو سَعِيدٍ ، وَذَكَرَ نَحْوَ الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ ؛ إذْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْمَلِكِ ، وَلَا اسْتَطَاعَ مُنَازَعَةَ الْإِمَارَةِ ، وَسَكَتَ .

فَإِنْ قِيلَ : لِمَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ النَّاسِ ، وَلِمَ يَحْضُرُ بِدْعَةً ، وَيُقِيمُ سُنَّةً مُبْدَلَةً ؟ قُلْنَا : فِي الْجَوَابِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : مَا قَالَ عُثْمَانُ ، حِينَ قِيلَ لَهُ إنَّهُ يُصَلِّي لَنَا إمَامُ فِتْنَةٍ .

قَالَ : " الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَفْعَلُ النَّاسُ ؛ فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إسَاءَتَهُمْ " .

الثَّانِي : أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ لَمْ يَسْتَطِعْ الْخُرُوجَ ؛ فَإِنَّ الْمَوْضِعَ كَانَ مُحَاطًا بِهِ مِنْ الْحَرَسِ مَشْحُونًا بِحَاشِيَةِ مَرْوَانَ ، يَحْفَظُونَ أَعْمَالَ النَّاسِ ، وَيَلْحَظُونَ حَرَكَاتِهِمْ ، فَلَوْ خَرَجَ أَبُو سَعِيدٍ لَخَافَ أَنْ يَلْقَى هَوَانًا ، فَأَقَامَ مَعَ النَّاسِ فِي الطَّاعَةِ ، وَخَلَصَ بِنَفْسِهِ مِنْ التَّبَاعَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : تَذَاكَرْت بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى طَهَّرَهُ اللَّهُ مَعَ شَيْخِنَا أَبِي بَكْرٍ الْفِهْرِيِّ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ : ﴿ إنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ لِلْعَامِلِ فِيهَا أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ .

فَقَالُوا : بَلْ مِنْهُمْ .

فَقَالَ : بَلْ مِنْكُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ، وَهُمْ لَا يَجِدُونَ عَلَيْهِ أَعْوَانًا ﴾ ، وَتَفَاوَضْنَا كَيْفَ يَكُونُ أَجْرُ مَنْ يَأْتِي مِنْ الْأُمَّةِ أَضْعَافَ أَجْرِ الصَّحَابَةِ ، مَعَ أَنَّهُمْ أَسَّسُوا الْإِسْلَامَ ، وَعَضَّدُوا الدِّينَ ، وَأَقَامُوا الْمَنَارَ ، وَافْتَتَحُوا الْأَمْصَارَ ، وَحَمَوْا الْبَيْضَةَ ، وَمَهَّدُوا الْمِلَّةَ ؟ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ دَعُوا لِي أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ ﴾ .

فَتَرَاجَعْنَا الْقَوْلَ فَكَانَ الَّذِي تَنَخَّلَ مِنْ الْقَوْلِ ، وَتَحَصَّلَ مِنْ الْمَعْنَى لُبَابًا أَوْضَحْنَاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، الْإِشَارَةُ إلَيْهِ أَنَّ الصَّحَابَةَ كَانَ لَهُمْ أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ فِيهَا مَا تَقَدَّمَ سَرْدُهُ ؛ وَذَلِكَ لَا يَلْحَقُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ ، وَلَا يُدَانِي شَأْوَهُمْ فِيهَا بَشَرٌ ، وَالْأَعْمَالُ سِوَاهَا مِنْ فُرُوعِ الدِّينِ يُسَاوِيهِمْ فِيهَا فِي الْأَجْرِ مَنْ أَخْلَصَ إخْلَاصَهُمْ ، وَخَلَّصَهَا مِنْ شَوَائِبِ الْبِدَعِ وَالرِّيَاءِ بَعْدَهُمْ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ بَابٌ عَظِيمٌ هُوَ ابْتِدَاءُ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ ، وَهُوَ أَيْضًا انْتِهَاؤُهُ ؛ وَقَدْ كَانَ قَلِيلًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، صَعْبَ الْمَرَامِ لِغَلَبَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْحَقِّ ، وَفِي آخِرِ الزَّمَانِ أَيْضًا يَعُودُ كَذَلِكَ بِوَعْدِ الصَّادِقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفَسَادِ الزَّمَانِ ، وَظُهُورِ الْفِتَنِ ، وَغَلَبَةِ الْبَاطِلِ ، وَاسْتِيلَاءِ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ عَلَى الْحَقِّ مِنْ الْخَلْقِ ، وَرُكُوبِ مَنْ يَأْتِي سَنَنَ مَنْ مَضَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ خَرِبٍ لَدَخَلْتُمُوهُ ﴾ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ ﴾ .

(70/218)

قَالَ عُلَمَاؤُنَا فَلَا بُدَّ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِحُكْمِ هَذَا الْوَعْدِ الصَّادِقِ أَنْ يَرْجِعَ الْإِسْلَامُ إلَى وَاحِدٍ كَمَا بَدَأَ مِنْ وَاحِدٍ ، وَيَضْعُفَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إذَا قَامَ بِهِ قَائِمٌ مَعَ

احْتِوَاشِهِ بِالْمَخَاوِفِ ، وَبَاعَ نَفْسَهُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّعَاءِ إِلَيْهِ كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ أَضْعَافُ مَا كَانَ لِمَنْ كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ ، مُعَانًا عَلَيْهِ بِكَثْرَةِ الدُّعَاةِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ : " لِأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا وَهُمْ لَا يَجِدُونَ إلَيْهِ أَعْوَانًا حَتَّى يَنْقَطِعَ ذَلِكَ انْقِطَاعًا بَاتًّا ، لِضَعْفِ الْيَقِينِ ، وَقِلَّةِ الدِّينِ " كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ ﴾ .

يُرْوَى بِرَفْعِ الْهَاءِ وَنَصْبِهَا مِنْ الْمَكْتُوبَةِ ، فَإِنْ رُوِيَتْ بِرَفْعِ الْهَاءِ كَانَ مَعْنَاهُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يَبْقَى مُوَحِّدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِذَا نَصَبْت الْهَاءَ كَانَ مَعْنَاهُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يَبْقَى آمِرٌ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا نَاهٍ عَنْ مُنْكَرٍ يَقُولُ : خَافُوا اللَّهَ ، وَحِينَئِذٍ يَتَمَنَّى الْعَاقِلُ الْمَوْتَ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(71/218)

ومن فوائد الإمام ابن تيمية فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله – تَعَالَى عُلُوًّا كَبِيرًا : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾

لَا يَقْتَضِي تَرْكَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ لَا نَهْيًا وَلَا إذْنًا كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ فِي السُّنَنِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ خَطَبَ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : " أَيُّهَا النَّاسُ إنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَإِنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ ﴾ . وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِي مَرْفُوعًا فِي تَأْوِيلِهَا ﴿ إذَا رَأَيْت شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْك بِخُوَيْصَةِ نَفْسِك ﴾ وَهَذَا يُفَسِّرُهُ حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ فِي مُسْلِمٍ : ﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ﴾ فَإِذَا قَوِيَ أَهْلُ الْفُجُورِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ إصْغَاءٌ إلَى

(72/218)

الْبِرِّ ؛ بَلْ يُؤْذُونَ النَّاهِيَ لِغَلَبَةِ الشُّحِّ وَالْهَوَى وَالْعُجْبِ سَقَطَ التَّغْيِيرُ بِاللِّسَانِ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَبَقِيَ بِالْقَلْبِ و " الشُّحُّ " هُوَ شِدَّةُ الْحِرْصِ الَّتِي تُوجِبُ الْبُخْلَ وَالظُّلْمَ وَهُوَ مَنْعُ الْخَيْرِ وَكَرَاهَتُهُ و " الْهَوَى الْمُتَّبَعُ " فِي إرَادَةِ الشَّرِّ وَمَحَبَّتِهِ و " الْإِعْجَابُ بِالرَّأْيِ " فِي الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ فَذَكَرَ فَسَادَ الْقُوَى الثَّلَاثِ الَّتِي هِيَ الْعِلْمُ وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ . كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : ﴿

ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ وَبِإِزَائِهَا الثَّلَاثُ الْمُنْجِيَاتُ : خَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَكَلِمَةُ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ﴾ وَهِيَ الَّتِي سَأَلَهَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : ﴿ اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك خَشْيَتَك فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَأَسْأَلُك كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا وَأَسْأَلُك الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى ﴾ . فَخَشْيَةُ اللَّهِ بِإِزَاءِ اتِّبَاعِ الْهَوَى فَإِنَّ الْخَشْيَةَ تَمْنَعُ ذَلِكَ كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى بِإِزَاءِ الشُّحِّ الْمُطَاعِ وَكَلِمَةُ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا بِإِزَاءِ إعْجَابِ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ وَمَا ذَكَرَهُ الصِّدِّيقُ ظَاهِرٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أَيْ الزَمُوهَا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهَا وَمِنْ مَصَالِحِ النَّفْسِ فِعْلُ مَا أُمِرَتْ بِهِ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . وَقَالَ : ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَإِنَّمَا

(73/218)

يَتِمُّ الِاهْتِدَاءُ إذَا أُطِيعَ اللَّهُ وَأُدِّيَ الْوَاجِبُ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَغَيْرِهِمَا ؛ وَلَكِنَّ فِي الْآيَةِ فَوَائِدَ عَظِيمَةً :

" أَحَدُهَا " أَلَّا يَخَافَ الْمُؤْمِنُ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوهُ إذَا كَانَ مُهْتَدِيًا .

(74/218)

" الثَّانِي " أَلَّا يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا يَجْزَعَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ مَعَاصِيَهُمْ لَا تَضُرُّهُ إذَا اهْتَدَى وَالْحُزْنُ عَلَى مَا لَا يَضُرُّ عَبَثٌ وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ مَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ . " الثَّالِثُ " أَلَّا يَرْكَنَ إلَيْهِمْ وَلَا يَمُدَّ عَيْنَهُ إلَى مَا أُوتُوهُ مِنْ السُّلْطَانِ وَالْمَالِ وَالشَّهَوَاتِ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ فَنَهَاهُ عَنْ الْحُزْنِ عَلَيْهِمْ وَالرَّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَهُمْ فِي آيَةٍ وَنَهَاهُ عَنْ الْحُزْنِ عَلَيْهِمْ وَالرَّهْبَةِ مِنْهُمْ فِي آيَةٍ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَأَلَّمُ عَلَيْهِمْ وَمِنْهُمْ إمَّا رَاغِبًا وَإِمَّا رَاهِبًا . " الرَّابِعُ " أَلَّا يَعْتَدِيَ عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي بِزِيَادَةٍ عَلَى الْمَشْرُوعِ فِي بُغْضِهِمْ أَوْ ذَمِّهِمْ أَوْ نَهْيِهِمْ أَوْ هَجْرِهِمْ أَوْ عُقُوبَتِهِمْ ؛ بَلْ يُقَالُ لِمَنْ اعْتَدَى عَلَيْهِمْ عَلَيْك نَفْسَك لَا يَضُرُّك مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْت كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ﴾ الْآيَةَ . وَقَالَ : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْآمِرِينَ النَّاهِينَ قَدْ يَتَعَدَى

حُدُودَ اللَّهِ إمَّا بِجَهْلٍ وَإِمَّا بِظُلْمٍ وَهَذَا بَابٌ يَجِبُ التَّثَبُّتُ فِيهِ وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ الْإِنْكَارُ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْفَاسِقِينَ وَالْعَاصِينَ . " الْخَامِسُ " أَنْ يَقُومَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ مِنْ الْعِلْمِ وَالرِّفْقِ وَالصَّبْرِ وَحُسْنِ الْقَصْدِ وَسُلُوكِ السَّبِيلِ الْقَصْدِ فَإِنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ إذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ . فَهَذِهِ خَمْسَةُ أَوْجُهٍ تُسْتَفَادُ مِنْ الْآيَةِ لِمَنْ هُوَ مَأْمُورٌ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَفِيهَا الْمَعْنَى الْآخَرُ . وَهُوَ إقْبَالُ الْمَرْءِ عَلَى مَصْلَحَةِ نَفْسِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِعْرَاضُهُ عَمَّا لَا يَعْنِيهِ كَمَا قَالَ صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ : ﴿ مِنْ حُسْنِ إسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ ﴾ وَلَا سِيَّمَا كَثْرَةُ الْفُضُولِ فِيمَا لَيْسَ بِالْمَرْءِ إلَيْهِ حَاجَةٌ مِنْ أَمْرِ دِينِ غَيْرِهِ وَدُنْيَاهُ لَا سِيَّمَا إنْ كَانَ التَّكَلُّمُ لِحَسَدٍ أَوْ رِئَاسَةٍ .

وَكَذَلِكَ الْعَمَلُ فَصَاحِبُهُ إمَّا مُعْتَدٍ ظَالِمٌ وَإِمَّا سَفِيهٌ عَابِثٌ وَمَا أَكْثَرُ مَا يُصَوِّرُ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ بِصُورَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَكُونُ مِنْ بَابِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ . فَتَأَمَّلْ الْآيَةَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لِلْمَرْءِ وَأَنْتَ إذَا تَأَمَّلْت مَا يَقَعُ مِنْ الِاخْتِلَافِ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عُلَمَائِهَا وَعُبَّادِهَا وَأُمَرَائِهَا

وَرُؤَسَائِهَا وَجَدْت أَكْثَرَهُ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ الَّذِي هُوَ الْبَغْيُ بِتَأْوِيلٍ أَوْ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ كَمَا بَغَتْ الْجَهْمِيَّةُ عَلَى الْمُسْتَنَّةِ فِي مِحْنَةِ الصِّفَاتِ وَالْقُرْآنِ ؛ مِحْنَةِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ وَكَمَا بَغَتْ الرَّافِضَةُ عَلَى الْمُسْتَنَّةِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَكَمَا بَغَتْ النَّاصِبَةُ عَلَى عَلِيٍّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَكَمَا قَدْ تَبْغِي الْمُشَبِّهَةُ عَلَى الْمُنَزِّهَةِ وَكَمَا قَدْ يَبْغِي بَعْضُ الْمُسْتَنَّةِ إمَّا عَلَى بَعْضِهِمْ وَإِمَّا عَلَى نَوْعٍ مِنْ الْمُبْتَدِعَةِ بِزِيَادَةٍ عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَهُوَ الْإِسْرَافُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ . وَبِإِزَاءِ هَذَا الْعُدْوَانِ تَقْصِيرُ آخَرِينَ فِيمَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ الْحَقِّ أَوْ فِيمَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ كُلِّهَا فَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَا أَمَرَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إلَّا اعْتَرَضَ الشَّيْطَانُ فِيهِ بِأَمْرَيْنِ - لَا يُبَالِي بِأَيِّهِمَا ظَفِرَ - غُلُوٍّ أَوْ تَقْصِيرٍ . فَالْمُعِينُ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ بِإِزَائِهِ تَارِكُ الْإِعَانَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَفَاعِلُ الْمَأْمُورِ بِهِ وَزِيَادَةِ مَنْهِيٍّ عَنْهَا بِإِزَائِهِ تَارِكُ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَبَعْضِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَاَللَّهُ يَهْدِينَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 14 صـ 479 483. ﴾

(77/218)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

(78/218)

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى بُطْلَانَ التَّقْلِيدِ وَهُوَ أَنْ يَتْبَعَ الْمَرْءُ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ فِي فَهْمِهِ لِلدِّينِ وَرَأْيِهِ فِيهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا حُجَّةٍ ، أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِصِيغَةِ الْإِغْرَاءِ بِأَنْ يَهْتَمُّوا بِإِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ بِالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُعَدُّ رُشْدًا وَهُدًى ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَصْلَحُوا أَنْفُسَهُمْ وَقَامُوا بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِلْمٍ وَتَعْلِيمٍ وَعَمَلٍ وَإِرْشَادٍ ، فَلَا يَضُرُّهُمْ مَنْ ضَلَّ مِنَ النَّاسِ عَنْ مَحَجَّةِ الْعِلْمِ بِالْجَهْلِ وَالتَّقْلِيدِ ، وَعَنْ صِرَاطِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ بِالْفِسْقِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) أَيِ الْزَمُوا إِصْلَاحَ أَنْفُسِكُمْ ، وَتَزْكِيَتَهَا بِمَا شَرَّعَ اللهُ لَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ ضَلَالُ غَيْرِكُمْ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِذْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَمِنْ أُصُولِ الْهِدَايَةِ : الدَّعْوَةُ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَإِذَنْ لَا تَكُونُونَ مُهْتَدِينَ إِلَّا إِذَا بَلَغْتُمْ دَعْوَةَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، وَعَلِمْتُمِ الْجَاهِلِينَ مَا

أَعْطَاكُمُ اللهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، وَأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَلَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَالْعِلْمَ كَمَا كَتَمَهُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَلَعَنَهُمُ اللهُ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِمْ وَلِسَانِ نَبِيِّكُمْ (إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أَيْ إِلَيْهِ وَحْدَهُ رُجُوعُكُمْ وَرُجُوعُ مَنْ ضَلَّ

(79/218)

عَمَّا اهْتَدَيْتُمْ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُكُمْ عِنْدَ الْحِسَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا وَيَجْزِيكُمْ بِهِ .

وَقَدِ اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ : قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ يَعْنِي ابْنَ مُعَاوِيَةَ ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ حَدَّثَنَا قَيْسٌ قَالَ : " قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يُغَيِّرُوهُ يُوشِكُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ قَالَ : وَسَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ " وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ أَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ طُرُقٍ

كَثِيرَةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ بِهِ مُتَّصِلًا مَرْفُوعًا وَمِنْهُمْ مَنْ رَوَاهُ عَنْهُ بِهِ مَوْقُوفًا عَلَى الصِّدِّيقِ . وَقَدْ رَجَّحَ رَفْعَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَذَكَرْنَا طُرُقَهُ وَالْكَلَامَ عَلَيْهِ مُطَوَّلًا فِي مُسْنَدِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(80/218)

وَقَالَ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ يَعْقُوبَ الطَّالْقَانِيُّ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ، حَدَّثَنَا عُتْبَةُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ حَارِثَةَ اللَّخْمِيُّ ، عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ قَالَ : أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ فَقُلْتُ : " مَا تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؟ قَالَ : أَيَّةُ آيَةٍ ؟ قُلْتُ : قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا خَبِيرًا ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُمْ " قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَزَادَ غَيْرُ عُتْبَةَ قِيلَ : " يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : لَا بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ " ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ

غَرِيبٌ صَحِيحٌ ، وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ الْمُبَارَكِ ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ .

(81/218)

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ : أَنْبَأَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الْحَسَنِ سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ

لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) فَقَالَ : إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِزَمَانِهَا إِنَّهَا الْيَوْمَ مَقْبُولَةٌ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانُهَا تَأْمُرُونَ فَيَصْنَعُ بِكُمْ كَذَا وَكَذَا أَوْ قَالَ فَلَا يَقْبَلُ مِنْكُمْ ، فَحِينَئِذٍ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ .

وَرَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ) الْآيَةَ قَالَ : "كَانُوا عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَكَانَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ بَعْضُ مَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى قَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ عَبْدِ اللهِ : أَلَا أَقُومُ فَآمُرُهُمَا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَاهُمَا عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَالَ آخَرُ إِلَى جَنْبِهِ : عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ : (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الْآيَةَ . قَالَ : فَسَمِعَهَا ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ : مَهْ لَمْ يَجِئْ تَأْوِيلُ هَذِهِ بَعْدُ ، إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ حَيْثُ أُنْزِلَ وَمِنْهُ آيٌ قَدْ مَضَى تَأْوِيلُهُنَّ قَبْلَ أَنْ

يَنْزِلْنَ وَمِنْهُ آيٌ وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمِنْهُ آيٌ وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ

(82/218)

بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ ، وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَمَا دَامَتْ قُلُوبُكُمْ وَاحِدَةً وَأَهْوَاؤُكُمْ وَاحِدَةً وَلَمْ تَلْبَسُوا شِيَعًا وَلَمْ يَذُقْ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَائْمُرُوا وَانْهَوْا ، وَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْقُلُوبُ وَالْأَهْوَاءُ وَأُلْبِسْتُمْ شِيَعًا وَذَاقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَائْمُرْ نَفْسَكَ وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ " رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ ، حَدَّثَنَا شَبَابَةُ بْنُ سَوَّارٍ ، حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ صُبَيْحٍ ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عِقَالٍ ، قَالَ : " قِيلَ لِابْنِ عُمَرَ : لَوْ جَلَسْتَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ فَلَمْ تَأْمُرْ وَلَمْ تَنْهَ ؛ فَإِنَّ اللهَ قَالَ : (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي وَلَا لِأَصْحَابِي لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ . فَكُنَّا نَحْنُ الشُّهُودَ وَأَنْتُمُ الْغُيَّبَ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لِأَقْوَامٍ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِنَا إِنْ قَالُوا لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ " .

وَقَالَ أَيْضًا : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ وَأَبُو عَاصِمٍ قَالَا : حَدَّثَنَا

عَوْفٌ عَنْ سَوَّارِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ : "كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ جَلِيدٌ فِي الْعَيْنِ شَدِيدُ اللِّسَانِ فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ نَفَرٌ سِتَّةٌ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَسْرَعَ فِيهِ ،

(83/218)

وَكُلُّهُمْ مُجْتَهِدٌ لَا يَأْلُو ، وَكُلُّهُمْ بَغِيضٌ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ دَنَاءَةً إِلَّا الْخَيْرَ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَشْهَدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالشِّرْكِ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : وَأَيُّ دَنَاءَةٍ تُرِيدُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَشْهَدَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالشِّرْكِ ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنِّي لَسْتُ إِيَّاكَ أَسْأَلُ إِنَّمَا أَسْأَلُ الشَّيْخَ ، فَأَعَادَ عَلَى عَبْدِ اللهِ الْحَدِيثَ ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ : لَعَلَّكَ تَرَى لَا أَبَا لَكَ أَنِّي سَآمُرُكَ أَنْ تَذْهَبَ فَتَقْتُلَهُمْ ! عِظْهُمْ وَانْهَهُمْ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الْآيَةَ .

وَقَالَ أَيْضًا : حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ الْمِقْدَامِ ، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، سَمِعْتُ أَبِي ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ أَبِي مَازِنٍ قَالَ : " انْطَلَقْتُ عَلَى عَهْدِ عُثْمَانَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَإِذَا قَوْمٌ جُلُوسٌ فَقَرَأَ أَحَدُهُمْ هَذِهِ الْآيَةَ (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ) فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ : لَمْ يَجِئْ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْيَوْمَ " .

(84/218)

وَقَالَ : حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ ، حَدَّثَنَا ابْنُ فَضَالَةَ ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ : "كُنْتُ فِي حَلْقَةٍ فِيهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَأَصْغَرُ الْقَوْمِ ، فَتَذَكَّرُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَقُلْتُ أَنَا : أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) ؟ فَأَقْبَلُوا عَلَيَّ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ ، وَقَالُوا : تَنْزِعُ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ لَا تَعْرِفُهَا وَلَا تَدْرِي مَا تَأْوِيلُهَا فَتَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ تَكَلَّمْتُ . وَأَقْبَلُوا يَتَحَدَّثُونَ ، فَلَمَّا حَضَرَ قِيَامُهُمْ قَالُوا : إِنَّكَ غُلَامٌ حَدِيثُ السِّنِّ ، وَإِنَّكَ نَزَعْتَ آيَةً وَلَا تَدْرِي مَا هِيَ ، وَعَسَى أَنْ تُدْرِكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ : إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا . وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ ، لَا يَضُرُّكَ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتَ"

.

(85/218)

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ سَهْلٍ حَدَّثَنَا ضَمْرَةُ بْنُ رَبِيعَةَ قَالَ : تَلَا الْحَسَنُ هَذِهِ الْآيَةَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) فَقَالَ الْحَسَنُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ بِهَا . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَيْهَا ، مَا كَانَ مُؤْمِنٌ فِيمَا مَضَى وَلَا مُؤْمِنٌ فِيمَا بَقِيَ إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهِ

مُنَافِقٌ يَكْرَهُ عَمَلَهُ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : إذَا أَمَرْتَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَلَا يَضُرُّكَ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتَ . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَكَذَا رُوِيَ مِنْ طَرِيقِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عَنْ أَبِي الْعُمَيْسِ عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ عَنْ حُذَيْفَةَ مِثْلُهُ ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ خَالِدٍ الدِّمَشْقِيُّ ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ : (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ) قَالَ : إذَا هُدِمَتْ كَنِيسَةُ مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجُعِلَتْ مَسْجِدًا وَظَهَرَ لُبْسُ الْعَصَبِ فَحِينَئِذٍ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ اهـ .

(86/218)

أَقُولُ : عُلِمَ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ السَّلَفَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ مُهْتَدِيًا بِمُجَرَّدِ إصْلَاحِهِ لِنَفْسِهِ إذَا لَمْ يَهْتَمَّ بِإِصْلَاحِ غَيْرِهِ وَيَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ هَذَا فَرْضٌ لَازِمٌ دَائِمٌ ، وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : إنَّ فَرِيضَةَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ تَسْقُطُ إذَا فَسَدَ النَّاسُ فَسَادًا لَا يُرْجَى مَعَهُ تَأْثِيرُ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ ، أَوْ فَمَاذَا يَخْشَى أَنْ يُفْضِيَ إلَى إيذَاءِ الْوَاعِظِ الْمُرْشِدِ ، وَقَدْ رَجَّحَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ لِقُوَّةِ رِوَايَتِهِ ، وَسَائِرِ أَدِلَّتِهِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ مَنْ عَلِمَ أَوْ ظَنَّ ظَنًّا قَوِيًّا أَنَّهُ يَنَالُ أَذًى إذَا أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ

يَسْقُطُ عَنْهُ الْفَرْضُ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ

حِينَئِذٍ فَضِيلَةً لَا فَرِيضَةً ، وَهَذَا إذَا رُجِّحَ أَنَّ الْمُنْكَرَ يَزُولُ بِإِنْكَارِهِ ، فَإِذَا رُجِّحَ أَنَّهُ يُؤْذِي وَلَا يَتَرَتَّبُ عَلَى نُصْحِهِ فَائِدَةٌ ، فَحِينَئِذٍ يُكْرَهُ لَهُ أَوْ يَحْرُمُ عَلَيْهِ إذَا كَانَ مِنَ الْإِلْقَاءِ بِالْيَدِ إلَى التَّهْلُكَةِ ، وَقَدْ فَصَّلَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِ (الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ) مِنَ الْإِحْيَاءِ فَلْيُرَاجِعْهُ مَنْ شَاءَ .

(87/218)

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ تَصْرِيحُ بَعْضِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِأَنَّ فِي الْقُرْآنِ أَحْكَامًا لَا يَظْهَرُ تَأْوِيلُهَا إلَّا بَعْدَ عَصْرِ التَّنْزِيلِ ، أَيْ أَنَّ آيَاتِ الْأَحْكَامِ فِي ذَلِكَ كَآيَاتِ الْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ ، وَكَثِيرًا مَا نُبَيِّنُ فِي تَفْسِيرِنَا مَا يَظْهَرُ تَأْوِيلُهُ فِي عَصْرِنَا ، كَمَا بَيَّنَ مَنْ قَبْلَنَا مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنَ الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِعُصُورِهِمْ ، وَلَا غَرْوَ فَقَدْ وُصِفَ الْقُرْآنُ فِي الْآثَارِ بِأَنَّهُ لَا تَنْتَهِي عَجَائِبُهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 176. 180 ﴾

(88/218)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾

والحق سبحانه قد قال من قبل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ ﴾ [المائدة : 104] .

والقولان يدلان على أن هناك فريقين : فريقا يسير على الضلال ، وفريقا يسير على الهداية . وهناك معركة بين الفريقين . فهل تدوم هذه المعركة طويلاً ؟ نعم ستظل هذه المعركة طويلاً ؛ لأن أهل الضلال لا يحبون أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ، وكذلك فهم يستفيدون من فساد الكون .

والمؤمن يحب الطاعة ويحاول أن يجعل أخاه المؤمن مُحباً للطاعة ، فإن رآه على مُنكر فإنه ينهاه عنه ويدفعه إلى المعروف ، فالخير حين يكون من الإنسان ينفع سواه ، وقد يتأجل نفعه هو لنفسه إلى الآخرة . وخير المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال . وصدق المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال . ونزاهة المؤمن يستفيد منها المجتمع ، وتضر أهل الضلال . أما إن كان المجتمع فاسداً فالمؤمن يشقى بفساد هذا المجتمع .

إذن فمن مصلحة المؤمن أن يعدي الخير منه إلى سواه ، حتى ينتشر الخير ويعود الخير إلى المؤمن من حركة الخير في المجتمع . ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي

ألزموا أنفسكم ، وكأن نفوس المؤمنين وحدة واحدة . وهو تعبير عن ضرورة شيوع الرتابة الإيمانية المتبادلة . ومثل هذا الأمر جاء في التعامل مع أموال السفهاء ؛ لقد قال الحق : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ ﴾ [النساء : 5] .

(89/218)

لأن السفيه لا حق له في إدارة ماله حتى يرشد ؛ لأن المال في الواقع هو مال كل المسلمين ، وعليهم إدارته لينتفع به كل المسلمين . وتكون إدارة الأمر أولاً بالنصح ، فإن لم يرتدع السفيه فليرفع عليه أقرب الناس إليه قضية حجر ، ذلك لأن أي شر ينتج من سلوك السفيه بماله إنما يعود على المجتمع ، وعلى هذا فالمال يظل مال الناس يقومون على إدارته إلى أن يعود السفيه إلى رشده فيعود له حق التصرف في ماله . ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء : 6] .

لم يقل الحق إذن : ﴿ فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ذلك أن الرشيد أصبح مأموناً على ماله ؛ لذلك يعود المال إلى السفيه من فور عودته إلى الرشد . وكذلك قول الحق : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي أنكم يا جماعة المؤمنين كل منكم مسئول عن نفسه وعن بقية النفوس المؤمنة ، ومن الهداية أن نقوّم الذي على فساد . ولا يقولنّ مؤمن : " وأنا مالي " . وتتابع الآية ﴿ لاَ

يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ فما دمتم قد حاولتم تقويم الفساد فأنتم قد أديتم ما عليكم في ضوء قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان " .

ولكن كيف يكون التغيير بالقلب ؟ أي أن يكون تصرف الإنسان المؤمن هو المقاطعة لمن يخرج على منهج الله ، فإن قاطع كلُّ المؤمنين أيَّ خارج على منهج الله فلا بد أن يرتدع ، وعلى المؤمن ألا يقابل منحرفاً أو منحرفة بترحيب أو تعظيم ، فالتغيير بالقلب أن يكون التصرف السلوكي الظاهري مطابقاً لما في القلب ، فيحس فاعل المنكر أنه مستهجن من غيره .

(90/218)

وقد يستسهل الناس أمور الشر أولاً إذا ما صادفهم من ينافقهم بمجاملات في غير محلها ، لكن لو استشعر فاعل المنكر أنه مقاطع من جماعة المسلمين وإن لم تضربه على يده ، فلا بد أن يرتدع ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام : 68] .

أي أنك ساعة تعرض عن الذين يخالفون منهج الله ، وساعة يعرض غيرك عنه ، فإن ذلك

يؤذيه ، ولا يجعل الناس يستشرون في الشر ويتفاقم ويعظم ضررهم إلا احترام المجتمع لهم .

والمثال في القرى نجد أن الذي يمتلك بندقية ينال احتراماً ومجاملات تجعله يتجبر بسلاحه ، ولو أن الناس أعرضت عنه لضاعت هيبته ولعاد مرة أخرى يسلك السلوك الملتزم . وما المقياس في أمر التغيير بالقلب ومعاملة فاعل المنكر بعدم مودة ومحبة ؟

نقول : علينا أن نستمع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل مرة عن هذه الآية : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، فقال : " بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متّبعاً ودنيا مُؤثَرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك – بخاصة نفسك – ودع عنك العوامّ فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم " .

وأنت حين لا تولي منحرفاً عن منهج الله مودة ، ورحمة ، ومعروفاً تكون قد ألزمت نفسك الإيجابية .

(91/218)

وإذا سأل المؤمن : وكيف يقاوم الإنسان ؟ . أجاب العلماء : من فرّ من اثنين ، فقد فرّ ، ومن فر من ثلاثة لم يفرّ . أي أن الإنسان في القتال إن واجهه شخصان ففِراره هَرب من

المواجهة . وأما إن فرّ الإنسان وهو يواجه ثلاثة من الأعداء ، فهذه حماية للنفس وليست فِراراً . واستنبط العلماء هذا الحكم من وعد الله بنصر المؤمنين إن كان أعداؤهم مثليهم أي كعددهم مرتين وذلك من قول الحق تعالى : ﴿ الآن خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يغلبوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصابرين ﴾ [الأنفال : 66] .

هي إذن نسبة الرجل إلى الرجلين ، فإن فرّ مؤمن من أمام اثنين في أثناء القتال فقد خرج عن موعود الله بالنصر له ويسمى فاراً ويبوء ويرجع بغضب الله ويكون مآله جهنم ؛ لأن الله قد قال : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ ﴾ فقد وعد الله المقاتل المؤمن الصابر بالنصر إذا كان يقابل اثنين من الكفار .

لكن إذا هرب من مواجهة ثلاثة فقد فعل ما يحمي حياته ؛ لأن الدين لا يدعو إلى الانتحار ؛ لذلك نقول لمن يبغون تغيير المنكرات في الدنيا : لا ترموا بأنفسكم إلى التهلكة ولا تقاتلوا عدوّاً يغلبكم بكثرته . واتبعوا قول النبي الصادق الأمين على استمرار أمته ما دامت تتمسك بمنهج الله .

وتغيير المنكر بالقلب يتمثل – كما قلنا – في مقاطعة المنحرف مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ ونلاحظ أن " على " حرف جر ، والكاف للخطاب ، والميم للجمع ، و " أنفسكم " منصوبة . فعليكم هي "

اسم فعل " أي هي ليست اسماً على حقيقته وليس حرفاً على حقيقته ، بل هي حرف دخل على ضمير فأدى مؤدى اسم الفعل ، أو هو اسم فعل منقول من الجار والمجرور .

(92/218)

﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ أي ألزموها ، وحافظوا عليها ، ومن الهداية أن نعرف كيف نواجه القضايا بالعقيدة الإيمانية ، فينظر المؤمن إلى الكمية العددية للمهتدين ، والكمية العددية للضالين . فإن كانت الكمية العددية مساوية فلتقبل على المواجهة . وإن كانت الكمية الضالة ضعف الكمية المؤمنة فلتُقْبِل الكمية المؤمنة على المواجهة أيضاً . وإن كانت الكمية الضالة أكثر من الضعف فالمؤمن معذور إن حمى نفسه بعدم المواجهة ، ولكن عليه أن يقاطع كل منكر أو فاعلَ المنكر .

كلنا نعرف تماماً أن كل فرد يحب أن تكون له مكانة في المجتمع . فإن رأى الإنسان أن الصيت والمكانة والذكر الحسن للصادق المستقيم فالإنسان يتجه إلى أن يكون صادقاً مستقيماً . وأن رأى الفرد أن المكانة في المجتمع تكون للكاذب المنحرف فهو يتجه إلى أن يكون كاذباً منحرفاً ؛ لذلك فعلى المؤمنين ألا يكرّموا إلا من يسير على المنهج الصالح . فقد روى الإمام أحمد قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها وإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " إنّ الناس إذا رأوْا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله – عز وجل – أن يعمهم بعقابه "

(93/218)

﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ ويطمِئن الحق المؤمنين إلى أنهم إن قابلوا الضرر في حياتهم فليعلموا أن هذه الحياة ليست هي كل شيء ، بل هناك حياة أخرى نرجع فيها إلى الله ، فمن كان في جانب الله أعطاه الله خلوداً أبدياً في النعيم ، ومن كان ضد منهج الله أعطاه الله عذاب الجحيم . وقال الحق ذلك لأن المؤمن لا يضمن نفسه في كثير من المواقف ، فقد يدخل معركة وفي نيته الإخلاص لكنه قد ينحرف ، فيصيبه الضرر على قدر ما انحرف .

وعلى الذي يسيرون في ضوء منهج الله دائماً أن يحتفظوا بتلك القضية في بؤرة شعورهم . ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة حينما كان في غزوة أحد ، وأمر الرماة ألا يبرحوا أماكنهم وإن رأوا المؤمنين في انتصار ورأوا الأعداء في هزيمة . واتجه الرماة

إلى الغنائم من فور أن رأوا انتصار المؤمنين ، فلم ينصرهم الله وهم على مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك تعلم المؤمنون الدرس : أن يطيعوا الله والرسول في كل خطوة .

ولو أن الله سبحانه لم يقل : ﴿ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فماذا يكون موقف الذين لم يشهدوا نصراً لجند الله ، وهم قد دخلوا المعارك الأولى واستشهدوا ؟ . لقد علموا من البداية أن المرجع إلى الله وأنه سيعطيهم حياة أخرى . وسينبئهم الله بما فعلوا . والإنباء هنا بمعنى الجزاء والتكريم .

وكما ساس الحق حياة المؤمن وهو يتحرك في الحياة الدنيا ، فإنه سبحانه يسوس حياة المؤمنين بما يضمن له الحياة الآخرة في نعيم الخلد والجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(94/218)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ

جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والعدني وابن منيع والحميدي في مسانيدهم ، وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وأبو يعلى والكجي في سننه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والدارقطني في الأفراد ، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، والضياء في المختارة ، عن قيس قال : قام أبو بكر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب " .

وأخرج ابن جرير عن قيس بن أبي حازم قال : صعد أبو بكر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنكم لتتلون آية من كتاب الله وتعدونها رخصة ، والله ما أنزل الله في كتابه أشد منها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله منه بعقاب " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن جرير البجلي : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم

يقول : " ما من قوم يكون بين أظهرهم رجل يعمل بالمعاصي هم أمنع منه وأعز ، ثم لا يغيرون عليه إلا أوشك أن يعمهم الله منه بعقاب " .

(95/218)

وأخرج الترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير والبغوي في معجمه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب " عن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قال : قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضل إذا اهتديتم ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر . حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى تبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصابر فيهن مثل القابض على الحمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً ، يعملون مثل عملكم " " .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه " عن أبي عامر الأشعري " أنه كان فيهم شيء ، فاحتبس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتاه فقال : ما حبسك ؟

قال : يا رسول الله ، قرأت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضل إذا اهتديتم ﴾ قال : فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أين ذهبتم ؟ إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم " " .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ عن الحسن . أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ فقال : أيها الناس ، إنه ليس بزمانها فإنها اليوم مقبولة ، ولكنه قد أوشك أن يأتي زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا ، أو قال : فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن مسعود في قوله ﴿ عليكم أنفسكم . . . ﴾ الآية . قال : مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط والسيف ، فإذا كان ذلك كذلك فعليكم أنفسكم .

(96/218)

وأخرج عبد بن حميد ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي العالية قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود ، فوقع بين

رجلين بعض ما يكون بين الناس ، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ؟ فقال آخر إلى جنبه : عليك نفسك ، فإن الله تعالى يقول ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ فسمعها ابن مسعود فقال : مه ! لم يجئ تأويل هذه الآية بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه ما وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنه آي يقع تأويلهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنين ، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه آي يقع تأويلهن عند الساعة ما ذكر من أمر الساعة ، ومنه آي يقع تأويلهن عند الحساب ما ذكر من أمر الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم واحدة ، وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعاً ، فلم يذق بعضكم بأس بعض ، فمروا وانهوا ، فإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض فكل امرئ ونفسه ، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه " عن ابن عمر . أنه قيل له : أجلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه ، فإن الله قال ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ فقال : إنها ليست لي ولا لأصحابي ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ألا فليبلغ الشاهد الغائب " فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا ، إن قالوا لم يقبل منه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير من طريق قتادة عن رجل قال : كنت في خلافة عمر بن

الخطاب بالمدينة في حلقة فيهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيهم شيخ حسبت أنه قال أبي بن كعب ، فقرأ ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ فقال : إنما تأويلها في آخر الزمان .

(97/218)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ من طريق قتادة عن أبي مازن قال : انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة ، فإذا قوم جلوس ، فقرأ أحدهم ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ فقال : أكثرهم : لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم .

وأخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال : كنت في حلقة فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإني لأصغر القوم ، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقلت : أليس الله يقول ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ فأقبلوا علي بلسان واحد ، فقالوا : تنزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدري ما تأويلها ؟ حتى تمنيت أني لم أكن تكلمت ، ثم أقبلوا يتحدثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حدث السن ، وإنك نزعت أية لا تدري ما هي ، وعسى أن تدرك ذلك الزمان إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بنفسك ، لا يضرك من ضل إذا اهتديت .

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال : " يا رسول الله ، أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ قال : يا معاذ ، مروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، فإذا رأيتم شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل امرئ برأيه ، فعليكم أنفسكم لا يضركم ضلالة غيركم ، فهو من ورائكم أيام صبر ، المتمسك فيها بدينه مثل القابض على الجمر ، فللعامل منهم يومئذ مثل عمل أحدكم اليوم كأجر خمسين منكم . قلت : يا رسول الله ، خمسين منهم ؟ قال : بل خمسين منكم أنتم " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : " ذكرت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . قول الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : لم يجئ تأويلها ، لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى بن مريم عليه السلام " .

(98/218)

وأخرج ابن مردويه عن محمد بن عبد الله التيمي عن أبي بكر الصديق سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بذل ، ولا أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعقاب ، وما بينكم وبين أن يعمكم الله بعقاب من عنده

إلا أن تأولوا هذه الآية على غير أمر بمعروف ولا نهي عن المنكر ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : خطب أبو بكر الناس فكان في خطبته قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أيها الناس لا تتكلموا على هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ إن الذاعر ليكون في الحي فلا يمنعوه ، فيعمهم الله بعقاب " .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الحسن . أنه تلا هذه الآية ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ فقال : يا لها من سعة ما أوسعها ! ، ويا لها ثقة ما أوثقها ! .

وأخرج أبو الشيخ عن عثمان الشحام أبي سلمة قال : " حدثني شيخ من أهل البصرة وكان له فضل وسن قال : بلغني أن داود سأل ربه قال : يا رب ، كيف لي أن أمشي لك في الأرض وأعمل لك فيها بنصح ؟ قال " يا داود ، تحب من أحبني من أحمر وأبيض ، ولا يزال شفتاك رطبتين من ذكري ، واجتنب فراش المغيب . قال : أي رب ، فكيف أن تحبني أهل الدنيا البر والفاجر ؟ قال : يا داود ، تصانع أهل الدنيا لدنياهم ، وتحب أهل الآخرة لآخرتهم ، وتجتان إليك ذنبك بيني وبينك ، فإنك إذا فعلت ذلك فلا يضرك من ضل إذا اهتديت " " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر . أنه جاء رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، نفر ستة كلهم قرأ القرآن ، وكلهم مجتهد لا يألوهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك ، فقال : لعلك ترى أني آمرك أن تذهب إليهم تقاتلهم ، عظهم وانههم ، فإن عصوك فعليك نفسك ، فإن الله تعالى يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ حتى ختم الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن صفوان بن محرز . أنه أتاه رجل من أصحاب الأهواء ، فذكر له بعض أمره فقال له صفوان : ألا أدلك على خاصة الله التي خص الله بها أولياءه ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ يقول : أطيعوا أمري ، واحفظوا وصيتي .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ يقول : إذا ما أطاعني العبد فيما أمرته من الحلال والحرام ، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به .

وأخرج ابن جرير من طريق قارب بينهما عن الضحاك عن ابن عباس قال : ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ ما لم يكن سيف أو سوط .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مكحول . أن رجلاً سأله عن قول الله ﴿ عليكم أنفسكم ﴾

الآية . فقال : إن تأويل هذه الآية لم يجيء بعد ، إذا هاب الواعظ وأنكر الموعوظ ، فعليك نفسك لا يضرك حينئذ من ضل إذا اهتديت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى غفرة قال : إنما أنزلت هذه الآية لأن الرجل كان يسلم ويكفر أبوه ، ويسلم الرجل ويكفر أخوه ، فلما دخل قلوبهم حلاوة الإيمان دعوا آباءهم وإخوانهم ، فقالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا .

فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ .

(100/218)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير أنه سئل عن هذه الآية فقال : نزلت في أهل الكتاب يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل ﴾ من أهل الكتاب ﴿ إذا اهتديتم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة في قوله ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ قال : إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ قال : إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر لا يضرك من ضل إذا اهتديت .

وأخرج ابن جرير عن الحسن . أنه تلا هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ فقال : الحمد لله بها والحمد لله عليها ، ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله .

وأخرج أحمد وابن ماجة والبيهقي في الشعب عن أنس قال : " قيل يا رسول الله ، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال " إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل قبلكم . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : إذا ظهر الادهان في خياركم ، والفاحشة في كباركم ، وتحوّل الملك في صغاركم والفقه " ، وفي لفظ : " والعلم في رذالكم " .

وأخرج البيهقي عن حذيفة . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم . والله تعالى أعلم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(101/218)

كلام نفيس لصاحب الميزان فى الآية الكريمة

قال رحمه الله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾

(بيان) الآية تأمر المؤمنين أن يلزموا أنفسهم ، ويلازموا سبيل هدايتهم ولا يوحشهم ضلال من ضل من الناس فإن الله سبحانه هو المرجع الحاكم على الجميع حسب أعمالهم ، والكلام مع ذلك لا يخلو عن غور عميق .

قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " لفظة " عليكم " اسم فعل بمعنى ألزموا ، و" أنفسكم " مفعوله .

ومن المعلوم أن الضلال والاهتداء – وهما معنيان متقابلان – إنما يتحققان في سلوك الطريق لا غير ، فالملازم لمتن الطريق ينتهي إلى ما ينتهي إليه الطريق ، وهو الغاية المطلوبة التي يقصدها الإنسان السالك في سلوكه ، أما إذا استهان بذلك وخرج عن مستوى الطريق فهو الضلال الذي تفوت به الغاية المقصودة فالآية تقدر للإنسان طريقا يسلكه ومقصدا يقصده غير أنه ربما لزم الطريق فاهتدى إليه أو فسق عنه فضل وليس هناك مقصد يقصده القاصد إلا الحياة السعيدة ، والعاقبة الحسنى بلا ريب لكنها مع ذلك تنطق بأن الله سبحانه هو المرجع الذي يرجع إليه الجميع : المهتدي والضال .

فالثواب الذى يريده الإنسان في مسيره بالفطرة إنما هو عند الله سبحانه يناله المهتدون ، ويحرم عنه الضلال ، ولازم ذلك أن يكون جميع الطرق المسلوكة لأهل الهداية والطرق المسلوكة لأهل الضلال تنتهى إلى الله سبحانه ، وعنده سبحانه الغاية المقصودة وإن كانت تلك الطرق مختلفة في إيصال الإنسان إلى البغية والفوز والفلاح أو ضربه بالخيبة والخسران ، وكذلك في القرب والبعد كما قال تعالى : " يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه " (الانشقاق : 6) وقال تعالى : " ألا إن حزب الله هم المفلحون " (المجادلة : 22) وقال تعالى : " ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار " (إبراهيم : 28) وقال تعالى : " فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون " (البقرة : 186) وقال تعالى : " والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى اولئك ينادون من مكان بعيد " (حم السجدة : 44) .

بين تعالى في هذه الآيات أن الجميع سائرون إليه سبحانه سيرا لا مناص لهم عنه ، غير أن طريق بعضهم قصير وفيه الرشد والفلاح ، وطريق آخرين طويل لا ينتهى إلى سعادة ، ولا يعود إلى سالكه إلا الهلاك والبوار .

وبالجملة فالآية تقدر للمؤمنين وغيرهم طريقين اثنين ينتهيان إلى الله سبحانه ، وتأمر المؤمنين بأن يشتغلوا بأنفسهم وينصرفوا عن غيرهم وهم أهل الضلال من الناس ولا يقعوا فيهم ولا

يخافوا ضلالهم فإنما حسابهم على ربهم لا على المؤمنين وليسوا بمسؤلين عنهم حتى يهمهم أمرهم ، فالاية قريبة المضمون من قوله تعالى : " قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون " (الجاثية : 14) ونظيرها قوله تعالى : " تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون " (البقرة : 134) .

(103/218)

فعلى المؤمن أن يشتغل بما يهم نفسه من سلوك سبيل الهدى ، ولا يهزهزه ما يشاهده من ضلال الناس وشيوع المعاصي بينهم ولا يشغله ذلك ولا يشتغل بهم فالحق حق وإن ترك والباطل باطل وإن أخذ به كما قال تعالى : " قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا اولى الألباب لعلكم تفلحون " (المائدة : 100) وقال تعالى : " ولا تستوى الحسنة ولا السيئة " (حم السجدة : 34) .

فقوله تعالى : " لا يضركم من ضل إذا اهتديتم بناء على ما مر مسوق سوق الكناية أريد به نهى المؤمنين عن التأثر من ضلال من ضل من الناس فيحملهم ذلك على ترك طريق الهداية كأن يقولوا : إن الدنيا الحاضرة لا تساعد الدين ولا تبيح التنحل بالمعنويات فإنما ذلك من السنن الساذجة وقد مضى زمنه وانقرض أهله ، قال تعالى : " وقالوا إن نتبع

الهدى معك نتخطف من أرضنا " (القصص : 57) .

أو يخافوا ضلالهم على هدى أنفسهم فيشتغلوا بهم وينسوا أنفسهم فيصيروا مثلهم فإنما الواجب على المؤمن هو الدعوة إلى ربه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبالجملة الاخذ بالاسباب العادية ثم إيكال أمر المسببات إلى الله سبحانه فإليه الأمر كله ، فأما أن يهلك نفسه في سبيل إنقاذ الغير من الهلكة فلم يؤمر به ، ولا يؤاخذ بعمل غيره ، وما هو عليه بوكيل ، وعلى هذا فتصير الآية في معنى قوله تعالى : " فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ، إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا " (الكهف : 8) ، وقوله تعالى : " ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا " (الرعد : 31) ونحو ذلك .

(104/218)

وقد تبين بهذا البيان أن الآية لا تنافى آيات الدعوة وآيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن الآية إنما تنهى المؤمنين عن الاشتغال بضلال الناس عن اهتداء أنفسهم وإهلاك أنفسهم في سبيل إنقاذ غيرهم وإنجائه .

على أن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من شؤون اشتغال المؤمن بنفسه وسلوكه سبيل ربه ، وكيف يمكن أن تنافى الآية آيات الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو تنسخها ؟ وقد عدهما الله سبحانه من مشخصات هذا الدين وأسسه التى بنى عليها كما قال تعالى : " قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى " (يوسف : 108) وقال تعالى : "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " (آل عمران : 110) .

فعلى المؤمن أن يدعو إلى الله على بصيرة وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على سبيل أداء الفريضة الإلهية وليس عليه أن يجيش ويهلك نفسه حزنا أو يبالغ في الجد في تأثير ذلك في نفوس أهل الضلال فذلك موضوع عنه .

وإذا كانت الآية قدرت للمؤمنين طريقا فيه اهتداؤهم ولغيرهم طريقا من شأنه ضلال سالكيه ، ثم أمر المؤمنين في قوله : " عليكم أنفسكم " بلزوم أنفسهم كان فيه دلالة على أن نفس المؤمن هو الطريق الذى يؤمر بسلوكه ولزومه فإن الحث على الطريق إنما يلائم الحث على لزومه والتحذير من تركه لا على لزوم سالك الطريق كما نشاهده في مثل قوله تعالى : " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله " (الأنعام : 153) .

فأمره تعالى المؤمنين بلزوم أنفسهم في مقام الحث على التحفظ على طريق هدايتهم يفيد أن

الطريق الذى يجب عليهم سلوكه ولزومه هو أنفسهم ، فنفس المؤمن هو طريقه الذى يسلكه إلى ربه وهو طريق هداه ، وهو المنتهى به إلى سعادته .

(105/218)

فالآية تجلى الغرض الذى تؤمه إجمالا آيات أخرى كقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ، لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون " (الحشر : 20) .

فالآيات تأمر بأن تنظر النفس وتراقب صالح عملها الذى هو زادها غدا وخير الزاد التقوى فللنفس يوم وغد وهى في سير وحركة على مسافة ، والغاية هو الله سبحانه وعنده حسن الثواب وهو الجنة فعليها أن تدوم على ذكر ربها ولا تنساه فإنه سبحانه هو الغاية ، ونسيان الغاية يستعقب نسيان الطريق فمن نسى ربه نسى نفسه ، ولم يعد لغده ومستقبل مسيره زادا يتزود به ويعيش باستعماله وهو الهلاك ، وهذا معنى ما رواه الفريقان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من عرف نفسه فقد عرف ربه .

وهذا المعنى هو الذى يؤيده التدبر التام والاعتبار الصحيح فإن الإنسان في مسير حياته إلى

أي غاية امتدت لا هم له في الحقيقة إلا خير نفسه وسعادة حياته وإن اشتغل في ظاهر الأمر ببعض ما يعود نفعه إلى غيره ، قال تعالى : " إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها " .

وليس هناك إلا هذا الإنسان الذى يتطور طورا بعد طور ، ويركب طبقا عن طبق من جنين وصبى وشاب وكهل وشيخ ثم الذى يديم الحياة في البرزخ ثم يوم القيامة

ثم ما بعده من جنة أو نار ، فهذه هي المسافة التى يقطعها الإنسان من موقفه في أول تكونه إلى أن ينتهى إلى ربه ، قال تعالى : " وأن إلى ربك المنتهى " (النجم : 42) .

وهو الإنسان لا يطأ موطأ في مسيره ولا يسير ولا يسرى إلا بأعمال قلبية هي الاعتقادات ونحوها وأعمال جوارحية صالحة أو طالحة ، وما أنتجه عمله يوما كان هو زاده غدا فالنفس هو طريق الإنسان إلى ربه ، والله سبحانه هو غايته في مسيره .

(106/218)

وهذا طريق اضطرارى لا مناص للإنسان عن سلوكه كما يدل عليه قوله تعالى : " يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه " (الانشقاق : 6) ، فهذا طريق ضروري السلوك يشترك فيه المؤمن والكافر والملتفت المتنبه والغافل العامه ، والآية لا تريد الحث

على لزومه بمعنى البعث على سلوكه ممن لا يسلك .

وإنما تريد الآية تنبيه المؤمنين على هذه الحقيقة بعد غفلتهم عنها ، فإن هذه الحقيقة كسائر الحقائق التكوينية وإن كانت ثابتة غير متغيرة بالعلم والجهل لكن التفات الإنسان إليها يؤثر في عمله تأثيرا بارزا ، والاعمال التى تربى النفس الإنسانية تربية مناسبة لسنخها وإذا كان العمل ملائما لواقع الأمر مناسبا لغاية الصنع والايجاد كانت النفس المستكملة بها سعيدة في جدها ، غير خائبة في سعيها ولا خاسرة في صفقتها ، وقد مر بيان ذلك في مواضع كثيرة من هذا الكتاب بما لا يبقى معه ريب .

وتوضيح ذلك بما يناسب هذا المقام أن الإنسان كغيره من خلق الله سبحانه واقع تحت التربية الإلهية من دون أن يفوته تعالى شئ من أمره ، وقد قال تعالى : " ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم " (هود : 56) وهذه تربية تكوينية على حد ما يربى الله سبحانه غيره من الامور ، في مسيرها جميعا إليه تعالى ، وقد قال : " ألا إلى الله تصير الامور " (الشورى : 53) ولا يتفاوت الأمر ولا يختلف الحال في هذه التربية بين شئ وشئ فإن الصراط مستقيم ، والأمر متشابه مطرد ، وقد قال تعالى أيضا : " ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت " (الملك : 3) .

وقد جعل سبحانه غاية الإنسان وما ينتهى إليه أمره ويستقر عليه عاقبته من حيث السعادة والشقاوة والفلاح والخيبة مبنية على أحوال وأخلاق نفسانية مبنية على أعمال من الإنسان تنقسم تلك الأعمال إلى صالحة وطالحة وتقوى وفجور كما قال تعالى : " ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها " (الشمس : 10) فالآيات – كما ترى – تضع النفس المسواة في جانب وهو مبدء الحال ، والفلاح والخيبة في جانب وهو الغاية ومنتهى المسير ، ثم تبنى الغايتين أعنى الفلاح والخيبة على تزكية النفس وتدسيتها وذلك مرحلة الاخلاق ، ثم تبنى الفضيلة والرذيلة على التقوى والفجور أعنى الأعمال الصالحة والطالحة التى تنطق الآيات بأن الإنسان ملهم بها من جانب الله تعالى .

والآيات في بيانها لا تتعدى طور النفس بمعنى أنها تعتبر النفس هي المخلوقة المسواة وهى التى أضيف إليها الفجور والتقوى ، وهى التى تزكى وتدسى ، وهى التى يفلح فيها الإنسان ويخيب ، وهذا كما عرفت جرى على مقتضى التكوين .

لكن هذه الحقيقة التكوينية أعنى كون الإنسان في حياته سائرا في مسير نفسه لا يسعه التخطي عنها ولو بخطوة ، ولا تركها والخروج منها ولو لحظة ، لا يتساوى حال من تنبه له وتذكر به تذكرا لازما لا يتطرق إليه نسيان ، وحال من غفل عنه ونسى الواقع الذى لا مفر له

منه ، وقد قال تعالى : " هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر اولوا الألباب " (الزمر : 9) .

وقال تعالى : " فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال ربى لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى " (طه : 126) .

(108/218)

وذلك أن المتنبه إلى هذه الحقيقة حيثما يلتفت إلى حقيقة موقفه من ربه ونسبته إلى سائر أجزاء العالم وجد نفسه منقطعة عن غيره وقد كان يجدها على غير هذا النعت ومضروبا دونها الحجاب لا يمسها بالاحاطة والتأثير إلا ربها المدبر لامرها الذى يدفعها من ورائها ويجذبها إلى قدامها بقدرته وهدايته ، ووجدها خالية بربها ليس لها من دونه من وال ، وعند ذلك يفقه معنى قوله تعالى : " إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون " بعد قوله : " عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " ومعنى قوله تعالى : " أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها " (الانعام : 122) .

وعند ذلك يتبدل إدراك النفس وشعورها ، ويهاجر من موطن الشرك إلى موقف العبودية ومقام التوحيد ، ولا يزال يعوض شركا من توحيد وتوهما من تحقق وبعدا من قرب واستكبارا شيطانيا من تواضع رحماني واستغناء وهميا من فقر عبودي إن أخذت بيدها العناية الإلهية وساقها سائق التوفيق .

ونحن وإن كان لا يسعنا أن نفقه هذه المعاني حق الفقه لمكان إخلادنا إلى الأرض واشتغالنا عن الغوص في أغوار هذه الحقائق التى يكشف عنها الدين ويشير إليها الكتاب الإلهى بما لا يعنينا من فضولات هذه الحياة الفانية التى لا يعرفها الكلام الإلهى في بيانه إلا بأنها لعب ولهو كما قال تعالى : " وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو " (الأنعام : 32) وقال تعالى : " ذلك مبلغهم من العلم " (النجم : 30) .

إلا أن الاعتبار الصحيح والبحث البالغ والتدبر الوافى يوصلنا إلى التصديق بكلياتها إجمالا وإن قصرنا عن إحصاء التفاصيل والله الهادى .

(109/218)

ولعلنا خرجنا عن طور الاختصار فلنرجع إلى أول الكلام فنقول : وتسع الآية أن تحمل على الخطاب الاجتماعي بأن يكون المخاطب بقوله : " يا أيها الذين آمنوا " مجتمع المؤمنين فيكون

المراد بقوله : " عليكم أنفسكم " هو إصلاح المؤمنين مجتمعهم الاسلامي باتخاذ صفة الاهتداء بالهداية الإلهية بأن يحتفظوا على معارفهم الدينية والاعمال الصالحة والشعائر الإسلامية العامة كما قال تعالى : " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " (آل عمران : 103) وقد تقدم في تفسيره أن المراد بهذا الاعتصام الاجتماعي الاخذ بالكتاب والسنة .

ويكون قوله : " لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " يراد به أنهم في أمن من أضرار المجتمعات الضالة غير الإسلامية فليس من الواجب على المسلمين أن يبالغوا الجد في انتشار الإسلام بين الطوائف غير المسلمة أزيد من الدعوة المتعارفة كما تقدم .

أو أنه لا يجوز لهم أن ينسلوا مما بأيديهم من الهدى من مشاهدة ما عليه المجتمعات الضالة من الانهماك في الشهوات والتمتع من مزايا العيش الباطلة فإن الجميع مرجعهم إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون ، وتجرى الآية على هذا مجرى قوله تعالى : " لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد " (آل عمران : 197) ، وقوله : " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا " (طه : 131) .

وهنا معنى آخر لقوله : " لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " من جهة أن المنفى في الآية هو الاضرار المنسوب إلى نفس الضالين دون شئ معين من صفاتهم أو أعمالهم فتفيد الإطلاق ، ويكون المعنى نفى أن يكون الكفار ضارين للمجتمع الاسلامي بتبديله مجتمعا غير

إسلامى بقوة قهرية فتكون الآية مسوقه سوق قوله تعالى : " اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون " (المائدة : 3) ، وقوله : " لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الادبار " (آل عمران : 111) .

(110/218)

وقد ذكر جمع من مفسري السلف أن مفاد الآية هو الترخيص في ترك الدعوة الدينية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذكروا أن الآية خاصة تختص بزمان أو حال لا يوجد فيه شرط الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو الامن من الضرر وقد رووا في ذلك روايات ستأتي الإشارة إليها في البحث الروائي الاتى .

ولازم هذا المعنى أن يكون قوله : " لا يضركم من ضل إذا اهتديتم " كناية عن انتفاء التكليف أي لا تكليف عليكم في ذلك وإلا فتضرر المجتمع الدينى من شيوع الضلال من كفر أو فسق مما لا يرتاب فيه ذو ريب .

لكن ذلك معنى بعيد لا يحتمله سياق الآية فإن الآية لو أخذت مخصصة لعمومات وجوب الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلسانها ليس لسان التخصيص ، وإن أخذت ناسخة فآيات الدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر آبية من النسخ ، وللكلام تتمة

ستوافيك .

(بحث روائي) في الغرر والدرر للامدي عن على عليه السلام قال : من عرف نفسه عرف ربه .

اقول : ورواه الفريقان عن النبي أيضا ، وهو حديث مشهور ، وقد ذكر بعض العلماء : أنه من تعليق المحال ، ومفاده استحالة معرفة النفس لاستحالة الإحاطة العلمية بالله سبحانه ، ورد أولا بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في رواية أخرى : أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه ، وثانيا بأن الحديث في معنى عكس النقيض لقوله تعالى : " ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم " .

وفيه عنه عليه السلام : قال : الكيس من عرف نفسه وأخلص أعماله .

أقول : تقدم في البيان السابق معنى ارتباط الإخلاص وتفرعه على الاشتغال بمعرفة النفس .

وفيه عنه عليه السلام : قال : المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين .

(111/218)

اقول : الظاهر أن المراد بالمعرفتين المعرفة بالآيات الانفسية والمعرفة بالآيات الافاقية ، قال تعالى : " سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد " " حم السجدة : 53 " وقال تعالى : " وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون " (الذاريات : 21) .

وكون السير الانفسي أنفع من السير الآفاقى لعله لكون المعرفة النفسانية لا تنفك عادة من إصلاح أوصافها وأعمالها بخلاف المعرفة الافاقية ، وذلك أن كون معرفة الآيات نافعة إنما هو لأن معرفة الآيات بما هي آيات موصلة إلى معرفة الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله ككونه تعالى حيا لا يعرضه موت ، وقادرا لا يشوبه عجز ، وعالما لا يخالطه جهل ، وأنه تعالى هو الخالق لكل شئ ، والمالك لكل شئ ، والرب القائم على كل نفس بما كسبت ، خلق الخلق لا لحاجة منه إليهم بل لينعم عليهم بما استحقوه ثم يجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وهذه وأمثالها معارف حقة إذا تناولها الإنسان وأتقنها مثلت له حقيقة حياته ، وأنها حياة مؤبدة ذات سعادة دائمة أو شقوة لازمة ، وليست بتلك المتهوسة المنقطعة اللاهية اللاغية ، وهذا موقف علمي يهدى الإنسان إلى تكاليف ووظائف بالنسبة إلى ربه وبالنسبة إلى أبناء نوعه في الحياة الدنيا والحياة الاخرة ، وهى التى نسميها بالدين ، فإن السنة التى يلتزمها الإنسان في حياته ، ولا يخلو عنها حتى البدوى والهمجى إنما يضعها

ويلتزمها أو يأخذها ويلتزمها لنفسه من حيث إنه يقدر لنفسه نوعا من الحياة أي نوع كان ، ثم يعمل بما استحسنه من السنة لإسعاد تلك الحياة ، وهذا من الوضوح بمكان .

فالحياة التى يقدرها الإنسان لنفسه تمثل له الحوائج المناسبة لها فيهتدى بها إلى الأعمال التى تضمن عادة رفع تلك الحوائج فيطبق الإنسان عمله عليها وهو السنة أو الدين .

(112/218)

فتخلص مما ذكرنا أن النظر في الآيات الانفسية والافاقية ومعرفة الله سبحانه بها يهدى الإنسان إلى التمسك بالدين الحق والشريعة الإلهية من جهة تمثيل المعرفة المذكورة الحياة الإنسانية المؤبدة له عند ذلك ، وتعلقها بالتوحيد والمعاد والنبوة .

وهذه هداية إلى الإيمان والتقوى يشترك فيها الطريقان معا أعنى طريقي النظر إلى الافاق والانفس فهما نافعان جميعا غير أن النظر إلى آيات النفس أنفع فإنه لا يخلو من العثور على ذات النفس وقواها وأدواتها الروحية والبدنية وما يعرضها من الاعتدال في أمرها أو طغيانها أو خمودها والملكات الفاضلة أو الرذيلة ، والأحوال الحسنة أو السيئة التى تقارنها .

واشتغال الإنسان بمعرفة هذه الإمور والإذعان بما يلزمها من أمن أو خطر وسعادة أو

شقاوة لا ينفك من أن يعرفه الداء والدواء من موقف قريب فيشتغل بإصلاح الفاسد منها ، والالتزام بصحيحها بخلاف النظر في الآيات الافاقية فإنه وإن دعا إلى إصلاح النفس وتطهيرها من سفاسف الاخلاق ورذائلها ، وتحليتها بالفضائل الروحية لكنه ينادى لذلك من مكان بعيد ، وهو ظاهر .

وللرواية معنى آخر أدق مستخرج من نتائج الأبحاث الحقيقية في علم النفس وهو أن النظر في الآيات الآفاقية والمعرفة الحاصلة من ذلك نظر فكرى وعلم حصولي بخلاف النظر في النفس وقواها وأطوار وجودها والمعرفة المتجلية منها فإنه نظر شهودي وعلم حضوري ، والتصديق الفكري يحتاج في تحققه إلى نظم الأقيسة واستعمال البرهان ، وهو باق ما دام الإنسان متوجها إلى مقدماته غير ذاهل عنها ولا مشتغل بغيرها ، ولذلك يزول العلم بزوال الإشراف على دليله وتكثر فيه الشبهات ويثور فيه الاختلاف .

(113/218)

وهذا بخلاف العلم النفساني بالنفس وقواها وأطوار وجودها فإنه من العيان فإذا اشتغل الإنسان بالنظر إلى آيات نفسه ، وشاهد فقرها إلى ربها ، وحاجتها في جميع أطوار وجودها ، وجد أمرا عجيبا ، وجد نفسه متعلقة بالعظمة والكبرياء متصلة في وجودها

وحياتها وعلمها وقدرتها وسمعها وبصرها وإرادتها وحبها وسائر صفاتها وأفعالها بما لا يتناهى بهاء وسناء وجمالا وجلالا وكمالا من الوجود والحياة والعلم والقدرة ، وغيرها من كل كمال .

وشاهد ما تقدم بيانه أن النفس الإنسانية لا شأن لها إلا في نفسها ، ولا مخرج لها من نفسها ، ولا شغل لها إلا السير الاضطراري في مسير نفسها ، وأنها منقطعة عن كل شئ كانت تظن أنها مجتمعة معه مختلطة به إلا ربها المحيط بباطنها وظاهرها وكل شئ دونها فوجدت أنها دائما في خلا مع ربها وإن كانت في ملا من الناس .

وعند ذلك تنصرف عن كل شئ وتتوجه إلى ربها وتنسى كل شئ وتذكر ربها فلا يحجبه عنها حجاب ولا تستتر عنه بستر وهو حق المعرفة الذى قدر لانسان .

وهذه المعرفة الأحرى بها أن تسمى بمعرفة الله بالله ، وأما المعرفة الفكرية التى يفيدها النظر في الآيات الافاقية سواء حصلت من قياس أو حدس أو غير ذلك فإنما هي معرفة بصورة ذهنية عن صورة ذهنية ، وجل الاله أن يحيط به ذهن أو تساوى ذاته صورة مختلقة اختلقها خلق من خلقه ، ولا يحيطون به علما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 5 صـ 172.162 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ " : الجمهورُ على نَصْب " أَنْفُسَكُمْ " وهو منصوب على الإغْرَاء بـ " عَلَيْكُمْ " ؛ لأنَّ " عَلَيْكُمْ " هنا اسمُ فعلٍ ؛ إذ التقديرُ : الزمُوا أَنْفُسَكُمْ ، أي : هَدَايَتَهَا وحِفْظَهَا مِمَّا يُؤذِيَها ، ف " عَلَيْكُمْ " هنا يرفعُ فاعلاً ، تقديره : عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ ؛ ولذلك يجوز أن يُعْطَفَ عليه مرفوعٌ ؛ نحو : " عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ وزَيْدٌ الخَيْرَ " ؛ كأنك قُلْتَ : الزَمُوا أنتم وزَيْدٌ الخَيْرَ ، واختلف النحاةُ في الضميرِ المتصلِ بها وبأخواتها ؛ نحو : إلَيْكَ ولدَيْكَ ومَكَانَكَ ، فالصحيحُ أنه في موضع جرٍّ ؛ كما كان قبل أن تُنْقَلَ الكلمةُ إلى الإغراء ، وهذا مذهب سيبويه ، واستدلَّ له الأخفشُ بما حكى عن العرب " عَلَى عَبْدِ الله " بجرِّ " عَبْدِ الله " وهو نصٌّ في المسألة ، وذهب الكسائيُّ إلى أنه منصوبُ المحلِّ ، وفيه بُعْدٌ ؛ لنصبِ ما بعدهما ، أعني " عَلَى " وما بعدها كهذه الآية ، وذهب الفرَّاء إلى أنه مرفوعُه .

وقال أبو البقاء - بعد أن جعل " كُمْ " في موضع جرّ بـ " عَلَى " بخلافِ " رُوَيْدَكُمْ " - : " فإن الكاف هناك للخطَابِ ، ولا موضع لها ، فإن " رُوَيْد " قد استُعملتْ للأمر المواجه من غير كافِ الخطابِ ، وكذا قوله تعالى : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ [يونس : 28] " كُمْ " في محل جَرٍّ " ،

وفي هذه المسألة كلامٌ طويلٌ ، صحيحُه أنَّ " رُوَيْد " تارةً يكون ما بعدها مَجْرُورَ المحلّ وتارةً منصوبَهُ ، وقد تقدَّمَ في سورةِ النساءِ الخلافُ في جواز تقديمِ معمُولِ هذا البابِ عليه .

(115/218)

قال ابنُ الخطيب : قال النَّحْوِيُّونَ : " عَلَيْك ، وعِنْدَك ، ودُونَك " من جُمْلة أسْماءِ الأفْعَال ، فَيُعدُّونَهَا إلى المَفْعُول ، ويُقيمُونَهَا مقامَ الفِعْلِ ، وينصِبُون بِهَا ، فإذا قال : " عَلَيْك [زيداً] " كأنه قال : خُذْ زَيْداً [فقد عَلاَك ، أي أشْرَفَ عليْك] ، وعِنْدَك زَيْداً ، أي : حَضَرَك فَخُذْهُ ، و" دُونَك " أي : قَرُبَ مِنْكَ فَخُذْهُ ، فهذه الأحرف الثلاثَةُ لا خِلاَف بَيْن النُّحَاة في جوازِ النَّصْب بِهَا .

وقرأ نافعُ بن أبي نُعَيْمٍ : " أنْفُسُكُمْ " رفعاً فيما حكاه عنه صاحبُ " الكشَّاف " ، وهي مُشْكِلَةٌ ، وتخريجُها على أحد وجهين : إمَّا الابتداء ، و" عَلَيْكُمْ " خبره مقدَّم عليه ، والمعنى على الإغْراء أيضاً ؛ فإنَّ الاغراء قد جاء بالجملة الابتدائيَّة ، ومنه قراءةُ بعضهم ﴿ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس : 13] ، وهذا تحذيرٌ نظيرُ الإغراء .

والثاني من الوجهين : أن تكون توكيداً للضميرِ المُستترِ في " عَلَيْكُمْ " ؛ لأنه كما تقدَّم تقديره قائمٌ مقام الفعْلِ ، إلا أنه شَذَّ توكيدُه بالنفس من غير تأكيدٍ بضمير منفصلٍ ، والمفعولُ على

هذا محذوفٌ ، تقديرُه : عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ صَلاحَ حالِكُمْ وهدايَتَكُمْ .

قوله : " لا يَضُرُّكُمْ " قرأ الجمهور بضمِّ الراء مشددة ، وقرأ الحسن البصريُّ : " لا يَضُرْكُمْ " بضم الضادِ وسكُونِ الراء ، وقرأ إبراهيمُ النَّخَعِيُّ : " لا يَضِرْكُمْ " بكسر الضادِ وسكون الراءِ ، وقرأ أبو حيوة : " لا يَضْرُرْكُمْ " بسكون الضاد وضم الراء الأولى والثانية .

فأمَّا قراءةُ الجمهور : فتحتمل وجهين :

(116/218)

أحدهما : أن يكون الفعلُ فيها مَجْزُوماً على جوابِ الأمر في " عَلَيْكُمْ " ، وإنما ضُمَّتِ الراءُ إتباعاً لضمَّةِ الضَّادِ ، وضمةُ الضادِ هي حركةُ الراء الأولى ، نُقِلَتْ للضَّادِ [لأجلِ] إدغامها في الراء بعدها ، والأصْلُ : " لا يَضْرُرْكُمْ " ، ويجوز أن يكون الجزمُ لا على وجه الجواب للأمرِ ، بل على وجهِ أنه نهي مستأنفٌ ، والعملُ فيه ما تقدَّم ؛ وينصُرُ جواز الجزمِ هنا على المعنيين المذكورينِ من الجواب والنهْيِ : قراءةُ الحسنِ والنخَعِيِّ ؛ فإنهما نَصٌّ في الجزْمِ ، ولكنهما محتملتان للجَزْمِ على الجوابِ أو النهي .

والوجه الثاني : أن يكون الفعلُ مرفوعاً ، وليس جواباً ولا نهياً ، بل هو مستأنفٌ سِيقَ للإخبار بذلك ، وينصرُه قراءةُ أبي حَيْوَةَ المتقدّمةُ .

وأمَّا قراءةُ الحسن : فَمِنْ " ضَارَهُ يَضُورُهُ " كصَانَهُ يَصُونُهُ ، وأما قراءة النخَعِيِّ فمِنْ " ضَارَهُ يَضِيرُهُ " كَبَاعَهُ يبيعُهُ ، والجزم فيهما على ما تقدَّم في قراءة العامة من الوجهين ، وحكى أبو البقاء : " لا يَضرُّكُمْ " بفتح الراء ، ووجهها على الجزم ، وأن الفتح للتخفيفِ ، وهو واضح ، والجزم على ما تقدَّم أيضاً من الوجهين ، وهذه كلُّها لغاتٌ قد تقدَّم التنبيهُ عليها في آل عمران [الآية 144] .

و " مَنْ ضَلَّ " فاعلٌ ، و " إذَا " ظرفٌ محضٌ ناصبه " يَضرُّكُمْ " ، أي : لا يَضرُّكُمُ الذي ضَلَّ وقتَ اهْتِدَائِكُمْ ، ويجوز أن تكون شرطية ، وجوابُها محذوفٌ ؛ لدلالةِ الكلام عليه ، وقال أبو البقاء : " ويبعُدُ أن تكون ظرفاً لـ " ضَلَّ " ؛ لأنَّ المعنى لا يَصِحُّ معه " ، قال شهاب الدين : لأنه يصير المعنى على نفي الضرر الحاصل مِمَّنْ يضلُّ وقْتَ اهتدائهم ، فقد يُتَوَهَّم أنه لا ينتفي عنهم ضَرَرُ من ضلَّ في غيرِ وقْتِ اهتدائِهِمْ ، ولكنَّ هذا لا ينفي صِحَّة المعنى بالكليةِ كما ذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 558.559 ﴾

(117/218)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾

يكفي للفقير أن يمشي وقد جُبِرَ بعض كَسْرِه ، فأمَّا إذا ادَّعى التقدم أو الطمع في إنجادِ منْ سواه فمحال من الحدث والظن .

ويقال من يفرغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه ، ومن اشتغل بنفسه لم يتفرَّغ إلى غيره . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 452 ﴾

(118/218)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما خاطب سبحانه أهل ذلك الزمان بأنه نصب المصالح العامة كالبيت الحرام والشهر

الحرام ، وأشار بآية البحيرة وما بعدها إلى أن أسلافهم لا وفّروا عليهم مالهم ولا نصحوا لهم في دينهم ، وختم ذلك بقهره للعباد بالموت وكشف الأسرار يوم العرض بالحساب على النقير والقطمير والجليل والحقير ؛ عقب ذلك بآية الوصية إرشاداً منه سبحانه إلى ما يكشف سريرة مَنْ خان فيها علماً منه سبحانه أن الوفاء في مثل ذلك يقل وحثاً لهم على أن يفعلوا ما أمر سبحانه به لينصحوا لمن خلفوه بتوفير المال ويقتدي بهم فيما ختم به الآية من التقوى والسماع والبعد من الفسق والنزاع ، فقال تعالى منادياً لهم بما عقدوا به العهد بينهم وبينه من الإقرار بالإيمان : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي أخبروا عن أنفسهم بذلك ﴿ شهادة بينكم ﴾ هو كناية عن التنازع والتشاجر لأن الشهود إنما يحتاج إليهم عند ذلك ، وسبب نزول الآية قد ذكره المفسرون وذكره الشافعي في الأم فقال : أخبرني أبو سعيد معاذ بن موسى الجعفري عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قال : أخذت هذا التفسير عن مجاهد والحسن والضحاك " أن رجلين نصرانيين من أهل دارين أحدهما تميمي والآخر يماني ، صحبهما مولى لقريش في تجارة فركبوا البحر ، ومع القرشي مال معلوم قد علمه أولياؤه من بين آنية وبزٍ ورِقَةٍ فمرض القرشي فجعل وصيته إلى الداريين فمات ، وقبض الداريان المال فدفعاه إلى أولياء الميت ، فأنكر القوم قلة المال فقالوا للداريين : إن صاحبنا قد خرج معه بمال أكثر مما أتيتمونا به ، فهل باع شيئاً أو اشترى فوضع فيه ؟ أو هل طال

مرضه فأنفق على نفسه؟ قالا : لا ، قالوا : فإنكما خنتمانا ، فقبضوا المال ، ورفعوا أمرهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(119/218)

فأنزل الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ [المائدة : 106] فلما نزلت أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقاما بعد الصلاة ، فحلفا بالله رب السماوات : ما ترك مولاكم من المال إلا ما أتيناكم به ، فلما حلفا خلي سبيلهما ، ثم إنهم وجدوا بعد ذلك إناء من آنية الميت فأخذوا الداريين فقالا : اشتريناه منه في حياته ، فكُذِّبا وكُلِّفا البينة فلم يقدرا عليها ، فرفعوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل ﴿ فإن عثر ﴾ - يعني إلى آخرها " ثم ذكر وقت الشهادة وسببها فقال : ﴿ إذا حضر ﴾ وقدم المفعول تهويلاً - كما ذكر في النساء - لأن الآية نزلت لحفظ ماله فكان أهم ، فقال : ﴿ أحدكم الموت ﴾ أي أخذته أسبابه الموجبة لظنه .

ولما كان الإيصاء إذ ذاك أمراً متعارفاً ، عرف فقال معلقاً بشهادة كما علق به ﴿ إذا ﴾ أو مبدلاً من ﴿ إذا ﴾ لأن الزمنين واحد : ﴿ حين الوصية ﴾ أي إن أوصى ، ثم أخبر عن المبتدأ فقال : ﴿ اثنان ﴾ أي شهادة بينكم في ذلك الحين شهادة اثنين ﴿ ذوا عدل

منكم ﴾ أي من قبيلتكم العارفين بأحوالكم ﴿ أو آخران ﴾ أي ذوا عدل ﴿ من غيركم ﴾ أي إن لم تجدوا قريبين يضبطان أمر الوصية من كل ما للوصي وعليه ، وقيل : بل هما الوصيان أنفسهما احتياطاً بجعل الوصي اثنين ، وقيل : آخران من غير أهل دينكم ، وهو خاص بهذا الأمر الواقع في السفر للضرورة لا في غيره ولا في غير السفر ؛ ثم شرط هذه الشهادة بقوله : ﴿ إن أنتم ضربتم ﴾ أي بالأرجل ﴿ في الأرض ﴾ أي بالسفر ، كأن الضرب بالأرجل لا يسمى ضرباً إلا فيه لأنه موضع الجد والاجتهاد ﴿ فأصابتكم ﴾ وأشار إلى أن الإنسان هدف لسهام الحدثان بتخصيصه بقوله : ﴿ مصيبة الموت ﴾ أي أصابت الموصي المصيبةُ التي لا مفر منها ولا مندوحة عنها .

(120/218)

ولما كان قد استشعر من التفصيل في أمر الشهود مخالفة لبقية الشهادات ، فكان في معرض السؤال عن الشهود : ماذا يفعل بهم ؟ قال مستأنفاً : ﴿ تحبسونهما ﴾ أي تدعونهما إليكم وتمنعونهما من التصرف لأنفسهما لإقامة ما تحملاه من هذه الواقعة وأدائه ؛ ولما كان المراد إقامة اليمين ولو في أيسر زمن ، لا استغراق زمن البعد بالحبس ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعد الصلاة ﴾ أي التي هي أعظم الصلوات ؛ فكانت بحيث إذا أطلقت معرفة انصرفت

إليها وهي الوسطى وهي العصر ، ثم ذكر الغرض من حبسهما فقال : ﴿ فيقسمان بالله ﴾ أي الملك الذي له تمام القدرة وكمال العلم ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليمين إنما تكون إذا كانا من غيرنا ، فإن كانا مسلمين فلا يمين ، وعن غيره ، إن كان الشاهدان على حقيقتهما فقد نسخ تحليفهما ، وإن كان الوصيين فلا ؛ ثم شرط لهذا الحلف شرطاً فقال اعتراضاً بين القسم والمقسم عليه : ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي وقع بكم شك فيما أخبرا به عن الواقعة ؛ ثم ذكر المقسم عليه بقوله : ﴿ لا نشتري به ﴾ أي هذا الذي ذكرناه ﴿ ثمناً ﴾ أي لم نذكره ليحصل لنا به عرض دنيوي وإن كان في نهاية الجلالة ، وليس قصدنا به إلا إقامة الحق ﴿ ولو كان ﴾ أي الوصي الذي أقسمنا لأجله تبرئة له ﴿ ذا قربى ﴾ أي لنا ، أي إن هذا الذي فعلناه من التحري عادتنا التي أطعنا فيها ﴿ كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ﴾ [النساء : 135] - الآية ، لا أنه فعلنا في هذه الواقعة فقط ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ أي هذا الذي ذكرناه لم نبدل فيه لما أمر الله به من حفظ الشهادة وتعظيمها ، ولم نكتم شيئاً وقع به الإشهاد ، ولا نكتم فيما يستقبل شيئاً نشهد به لأجل الملك الأعظم المطلع على السرائر كما هو مطلع على الظواهر ؛ ثم علل ذلك بما لقنهم إياه ليكون آخر كلامهم ، كل ذلك تغليظاً وتنبيهاً على أن ذلك ليس كغيره من الأيمان ، فقال تذكيراً لهم وتحذيراً من التغيير : ﴿ إنا إذاً ﴾ أي إذا فعلنا شيئاً من التبديل أو الكتم ﴿ لمن

الآثمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 556.558 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى : لما أمر بحفظ النفس في قوله ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ [المائدة : 105] أمر بحفظ المال في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 94 ﴾

فصل

قال الفخر :

اتفقوا على أن سبب نزول هذه الآية أن تميماً الداري وأخاه عدياً كانا نصرانيين خرجا إلى الشام ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً مهاجراً ، خرجوا للتجارة فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتاباً فيه نسخة جميع ما معه وألقاه فيما بين الأقمشة ولم يخبر صاحبه بذلك ، ثم أوصى إليهما وأمرهما أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله ، ومات بديل فأخذا من متاعه إناء من فضة منقوشاً بالذهب ثلثمائة مثقال ، ودفعا باقي المتاع إلى أهله لما قدما ، ففتشوا فوجدوا الصحيفة ، وفيها ذكر الإناء ، فقالوا لتميم وعدي : أين الإناء ؟ فقالا لا ندري ، والذي رفع إلينا دفعناه إليكم ، فرفعوا الواقعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ

﴿95.94﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾

سبب نزول هذه الآية ما روي أن تميم بن أوس الداري ، وعدي بن بداء ، خرجا من المدينة في تجارة إلى الشام وهما نصرانيان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتاباً فيه جميع ما معه من المتاع وألقاه في متاعه ولم يخبر صاحبيه بذلك فلما اشتد وجعه أوصى إلى تميم وعدي وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله إذا رجعا إلى المدينة ومات بديل ، ففتشا متاعه ، فوجدا فيه إناء من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فغيباه ، ثم إنهما قضيا حاجتهما وانصرفا إلى المدينة فدفعا المتاع إلى أهل البيت ففتشوه فأصابوا الصحيفة وفيها تسمية ما كان معه فجاء أهل الميت إلى تميم وعدي فقالوا : هل باع صاحبنا شيئاً من متاعه قالا : لا .

(122/218)

قالوا : فهل أتجر تجارة ؟ قالا : لا .

قالوا : فهل طال مرضه فأنفق شيئاً على نفسه قالا : لا .

قالوا : إنا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما كان معه وإنا فقدنا إناء من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فضة قالا : لا ندري إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم فدفعناه ومَا لَنا بالإناء فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأصرا على الإنكار وحلفا فأنزل الله هذه الآية هذا قول المفسرين .

وروى الترمذي عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت قال تميم برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام بتجارتهما قبل الإسلام فأتيا إلى الشام بتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم : ولما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدي فلما أتينا أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقد الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا ولا دفع إلينا غيره قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم على أهل دينه فحلف فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ﴾ إلى قوله ﴿ أو يخافوا أن ترد

أيمان بعد أيمانهم ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي قال الترمذي : هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح .

(123/218)

وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه قال ابن عباس : خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم قال وفيهم نزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ﴾ أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأخرج هذه الرواية الأخيرة البخاري في صحيحه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ شهادة بينكم ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ شهادة بينكم ﴾ يعني شهادة ما بينكم وما بينكم كناية عن التنازع والتشاجر ، وإنما أضاف الشهادة إلى التنازع لأن الشهود إنما يحتاج إليهم عند وقوع التنازع ، وحذف ما من قوله ﴿ شهادة بينكم ﴾ جائز لظهوره ، ونظيره قوله ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ [الكهف : 78] أي ما بيني وبينك ، وقوله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : 94] وفي قراءة نصب ، وقوله ﴿ إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية ﴾ يعني الشهادة المحتاج إليها عند حضور الموت ، وحين الوصية بدل من قوله ﴿ إذا حضر أحدكم ﴾ لأن زمان حضور الموت هو زمان حضور الوصية ، فعرف ذلك الزمان بهذين الأمرين الواقعين فيه ، كما يقال : ائتني إذا زالت الشمس حين صلاة الظهر ، والمراد بحضور الموت مشارفته وظهور أمارات وقوعه ، كقوله ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية ﴾ [البقرة : 180] قالوا وقوله ﴿ إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية ﴾ دليل على وجوب الوصية ، لأنه تعالى جعل زمان حضور الموت غير زمان الوصية ، وهذا إنما يكون إذا كانا متلازمين ، وإنما تحصل هذه الملازمة عند وجوب الوصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 95 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ . . . ﴾ في قوله : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنها الشهادة بالحقوق عند الحكام .

والثاني : أنها شهادة الحضور للوصية .

والثالث : أنها أيمان ، ومعنى ذلك أيمان بينكم ، فعبر عن اليمين بالشهادة كما قال في أيمان المتلاعنين : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ يعني ليشهد ما بينكم لأن الشهادة إنما يحتاج إليها عند وقوع التنازع والتشاجر ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ يعني إذا قارب وقت حضور الموت ﴿ حين الوصية ﴾ لفظه خبر ومعناه الأمر يعني ليشهد اثنان منكم عند حضور الموت وأردتم الوصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ اثنان ذوا عدل منكم ﴾

فائدة

قال الفخر :

في الآية حذف ، والمراد أن يشهد ذوا عدل منكم ، وتقدير الآية : شهادة ما بينكم عند الموت الموصوف ، هي أن يشهد اثنان ذوا عدل منكم ، وإنما حسن هذا الحذف لكونه معلوماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 95 ﴾

وقال الماوردى :

وفي قوله تعالى : ﴿ . . . اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ تأويلان :

أحدهما : يعني من المسلمين ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : من حي المُوصِي ، قاله الحسن ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة وفيهما قولان :

أحدهما : أنهما شاهدان يشهدان على وصية المُوصِي .

والثاني : أنهما وصيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

(125/218)

﴿ ذوا عدل منكم ﴾ يعني من أهل دينكم وملتكم يا معشر المؤمنين واختلفوا في هذين الاثنين فقيل هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي وقيل هما الوصيان لأن الآية نزلت فيهما ولأنه قال تعالى : ﴿ فيقسمان بالله ﴾ والشاهد لا يلزمه يمين وجعل

الوصي اثنين تأكيداً فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور كقولك : شهدت وصية فلان بمعنى حضرت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلف المفسرون في قوله ﴿ منكم ﴾ على قولين : الأول : وهو قول عامة المفسرين أن المراد : اثنان ذوا عدل منكم يا معشر المؤمنين ، أي من أهل دينكم وملتكم ، وقوله ﴿ أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ يعني أو شهادة آخرين من غير أهل دينكم وملتكم إذا كنتم في السفر ، فالعدلان المسلمان صالحان للشهادة في الحضر والسفر ، وهذا قول ابن عباس ، وأبي موسى الأشعري ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وشريح ومجاهد وابن سيرين وابن جريج .

قالوا : إذا كان الإنسان في الغربة ، ولم يجد مسلماً يشهده على وصيته ، جاز له أن يشهد اليهودي أو النصراني أو المجوسي أو عابد الوثن أو أي كافر كان وشهادتهم مقبولة ، ولا يجوز شهادة الكافرين على المسلمين إلا في هذه الصورة قال الشعبي رحمه الله : مرض رجل من المسلمين في الغربة ، فلم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، فقدما الكوفة وأتيا أبا موسى الأشعري ، وكان والياً عليها فأخبراه بالواقعة وقدما تركته ووصيته .

فقال أبو موسى : هذا أمر لم يكن بعد لذي كان في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم حلفهما في مسجد الكوفة بعد العصر ، بالله أنهما ما كذبا ولا بدلا وأجاز شهادتهما ، ثم إن القائلين بهذا القول ، منهم من قال هذا الحكم بقي محكماً ومنهم من قال صار منسوخاً .

(126/218)

القول الثاني : وهو قول الحسن والزهري وجمهور الفقهاء : أن قوله ﴿ ذوا عدو منكم ﴾ أي من أقاربكم وقوله ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ أي من الأجانب إن أنتم ضربتم في الأرض أي إن توقع الموت في السفر ، ولم يكن معكم أحد من أقاربكم ، فاستشهدوا أجنبيين على الوصية .

وجعل الأقارب أولاً لأنهم أعلم بأحوال الميت وهم به أشفق ، وبورثته أرحم وأرأف ، واحتج الذاهبون إلى القول الأول على صحة قولهم بوجوه .

الحجة الأولى : أنه تعالى قال في أول الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فعم بهذا الخطاب جميع المؤمنين ، فلما قال بعده ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ كان المراد أو آخران من جميع المؤمنين لا محالة .

الحجة الثانية : أنه قال تعالى : ﴿ أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ وهذ

يدل على أن جواز الاستشهاد بهذين الآخرين مشروط بكون المستشهد في السفر ، فلو كان هذان الشاهدان مسلمين لما كان جواز الاستشهاد بهما مشروطاً بالسفر ، لأن استشهاد المسلم جائز في السفر والحضر .

الحجة الثالثة : الآية دالة على وجوب الحلف على هذين الشاهدين من بعد الصلاة ، وأجمع المسلمون على أن الشاهد المسلم لا يجب عليه الحلف ، فعلمنا أن هذين الشاهدين ليسا من المسلمين .

الحجة الرابعة : أن سبب نزول هذه الآية ما ذكرناه من شهادة النصرانيين على بديل وكان مسلماً .

الحجة الخامسة : ما روينا أن أبا موسى الأشعري قضى بشهادة اليهوديين بعد أن حلفهما ، وما أنكر عليه أحد من الصحابة ، فكان ذلك إجماعاً .

(127/218)

الحجة السادسة : أنا إنما نجيز إشهاد الكافرين إذا لم نجد أحداً من المسلمين ، والضرورات قد تبيح المحظورات ، ألا ترى أنه تعالى أجاز التيمم والقصر في الصلاة ، والافطار في رمضان ، وأكل الميتة في حال الضرورة ، والضرورة حاصلة في هذه المسألة ، لأن المسلم إذا قرب

أجله في الغربة ولم يجد مسلماً يشهده على نفسه ، ولم تكن شهادة الكفار مقبولة فإنه يضيع أكثر مهماته ، فإنه ربما وجبت عليه زكوات وكفارات وما أداها .

وربما كان عنده ودائع أو ديون كانت في ذمته ، وكما تجوز شهادة النساء فيما يتعلق بأحوال النساء ، كالحيض والحبل والولادة والاستهلال لأجل أنه لا يمكن وقوف الرجال على هذه الأحوال ، فاكتفينا فيها بشهادة النساء لأجل الضرورة ، فكذا ههنا .

وأما قول من يقول : بأن هذا الحكم صار منسوخاً فبعيد ، لاتفاق أكثر الأمة على أن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن ، وليس فيها منسوخ ، واحتج القائلون بالقول الثاني بقوله ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ والكافر لا يكون عدلاً .

(128/218)

أجاب الأولون عنه : لم لا يجوز أن يكون المراد بالعدل من كان عدلاً في الاحتراز عن الكذب ، لا من كان عدلاً في الدين والاعتقاد ، والدليل عليه : أنا أجمعنا على قبول شهادة أهل الأهواء والبدع ، مع أنهم ليسوا عدولاً في مذاهبهم ، ولكنهم لما كانوا عدولاً في الاحتراز عن الكذب قبلنا شهادتهم ، فكذا ههنا سلمنا أن الكافر ليس بعدل ، إلا أن قوله ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ [الطلاق : 2] عام ، وقوله في هذه الآية ﴿ إثنان ذوا

عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ خاص فإنه أوجب شهادة العدل الذي يكون منا في الحضر ، واكتفى بشهادة من لا يكون منا في السفر ، فهذه الآية خاصة ، والآية التي ذكرتموها عامة ، والخاص مقدم على العام ، لا سيما إذا كان الخاص متأخراً في النزول ، ولا شك أن سورة المائدة متأخرة ، فكان تقديم هذه الآية الخاصة على الآية العامة التي ذكرتموها واجباً بالاتفاق والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 95. 97 ﴾

قوله تعالى ﴿ أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ أو آخران ﴾ عطف على قوله ﴿ اثنان ﴾ والتقدير : شهادة بينكم أن يشهد اثنان منكم أو آخران من غيركم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 97 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ أَوْءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : من غير دينكم من أهل الكتاب ، قاله ابن عباس ، وأبو موسى ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وشريح .

والثاني : من غير قبيلتكم وعشيرتكم ، قاله الحسن ، وعكرمة ، والزهري ، وعبيدة .

وفي ﴿ أَوْ ﴾ في هذا الموضع قولان :

أحدهما : أنها للتخيير في قبول اثنين منا أو آخرين من غيرنا .

والثاني : أنها لغير التخيير ، وإن معنى الكلام ، أو آخران من غيركم إن لم تجدوا ، منكم ، قاله ابن عباس وشريح ، وسعيد بن جبير والسدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(129/218)

وقال الخازن :

﴿ أو آخران من غيركم ﴾ يعني من غير أهل دينكم وملتكم وهذا قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن جبير والنخعي والشعبي وابن سيرين وابن شريح وأكثر المفسرين : وقيل : معناه من غير عشيرتكم وقبيلتكم وهم مسلمون .

واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال إبراهيم النخعي وجماعة : هي منسوخة كانت شهادة أهل الذمة مقبولة في الابتداء ثم نسخت بقوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ لأن إجماع الأمة على أن شهادة الفاسق لا تجوز فشهادة الكفار وأهل الذمة لا تجوز بطريق الأولى وذهب قوم إلى أنها ثابتة لم تنسخ وهو قول ابن عباس وأبي موسى

الأشعري وسعيد بن المسيب وابن جبير وابن سيرين وبه قال أحمد بن حنبل قالوا إذا لم يجد مسلمين يشهدان على وصيته وهو في أرض غربة فليشهد كافرين أو ذميين أو من أي دين كانا لأن هذا موضع ضرورة قال شريح : من كان بأرض غربة لم يجد مسلماً وصيته فليشهد كافرين على أي دين كانا من أهل الكتاب أو من عبدة الأصنام فشهادتهم جائزة في هذا الموضع ولا تجوز شهادة كافر على مسلم بحال إلا على وصيته في سفر لا يجد فيه مسلماً .

عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه ولم يجد أحداً من المسلمين حضر يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى فأخبراه وقدما بتركته ووصيته فقال أبو موسى هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وأنها لوصيته الرجل وتركته فأمضى شهادتهما أخرجه أبو داود .

(130/218)

وقال قوم في قوله ذوا عدل منكم يعني من عشيرتكم وحيكم أو آخران من غيركم من غير عشيرتكم وحيكم وأن الآية كلها في المسلمين وهذا قول الحسن والزهري وعكرمة وقالوا لا تجوز شهادة كافر في شيء من الأحكام وهذا الشافعي ومالك وأبي حنيفة غير أن أبا

حنيفة أجاز شهادة أهل الذمة فيما بينهم بعضهم على بعض واحتج من قال بأن هذه الآية محكمة بأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً وليس فيها منسوخ واحتج من أجاز شهادة غير المسلم في هذا الموضع بأن الله تعالى قال في أول الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فعمَّ بهذا الخطاب جميع المؤمنين ثم قال بعده ﴿ ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ﴾ فعلم بذلك أنهما من غير المؤمنين ، ولأن الآية دالة على وجوب الحلف على هذين الشاهدين وأجمع المسلمون على أن الشاهد المسلم لا يجب عليه يمين ولأن الميت إذا كان في أرض غربة ولم يجد مسلماً يشهده على وصيته ضاع ماله وربما كان عليه ديون أو عنده وديعة فيضيع ذلك كله وإذا كان ذلك كذلك احتاج إلى إشهاد من حضر من أهل الذمة وغيرهم من الكفار حتى لا يضيع ماله وتنفذ وصيته فهذا كالمضطر الذي أبيح له أكل الميتة في حال الاضطرار والضرورات قد تبيح شيئاً من المحظورات واحتج من منع ذلك بأن الله تعالى قال : ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ والكفار ليسوا مرضيين ولا عدولاً فشهادتهم غير مقبولة في حال من الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(131/218)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ الآية : هذه الآية تدل على قبول شهادة الكفار على الوصية في السفر وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله: ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ وقوله: ﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴾ ، أي فالكافرون أحرى برد شهادتهم وقوله: ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ ، وقوله: ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء . . ﴾ الآية

والجواب عن هذا على قول من لا يقبل شهادة الكافرين على الإيصاء في السفر أنه يقول إن قوله: ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ منسوخ بآيات اشتراط العدالة والذي يقول بقبول شهادتهما يقول هي محكمة مخصصة لعموم غيرها وهذا الخلاف معروف ووجه الجواب على كلا القولين ظاهر وأما على قول من قال أن معنى قوله: ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ أي من قبيلة الموصي وقوله: ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ أي من غير قبيلة الموصي من سائر المسلمين ، فلا إشكال في الآية ولكن جمهور العلماء على أن قوله ﴿ من غيركم ﴾ أي من غير المسلمين وأن قوله ﴿ منكم ﴾ أي من المسلمين وعليه فالجواب ما تقدم والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 113.114 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ المقصود منه بيان أن جواز الاستشهاد بآخرين من غيركم مشروط بما إذا كان المستشهد مسافراً ضارباً في الأرض وحضرت علامات نزول الموت به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 97 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ يعني سافرتم .

﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ وفي الكلام محذوف تقديره : فأصابتكم مصيبة الموت ، وقد أسندتم الوصية إليهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

وقوله تعالى : ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ يعني : إن أنتم سافرتم في الأرض ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ يعني نزل بكم أسباب الموت فأوصيتم إليهما ودفعتم مالكم

إليهما ﴿ تحبسونهما ﴾ يعني إن اتهمهما بعض الورثة وادعوا عليهما خيانة فالحكم فيه أن يوقفوهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾

فصل

قال الفخر :

تحبسونهما ، أي توقفونهما كما يقول الرجل : مرَّ بي فلان على فرس فحبس على دابته أي أوقفها وحبست الرجل في الطريق أكلمه أي أوقفته .

فإن قيل : ما موقع تحبسونهما .

قلنا : هو استئناف كأنه قيل كيف نعمل إن حصلت الريبة فيهما فقيل تحبسونهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 97 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ من بعد الصلاة ﴾ فيه أقوال :

الأول : قال ابن عباس من بعد صلاة أهل دينهما ، والثاني : قال عامة المفسرين من بعد صلاة العصر .

فإن قيل : كيف عرف أن المراد هو صلاة العصر ، مع أن المذكور هو الصلاة المطلقة .

قلنا : إنما عرف هذا التعيين بوجوه : أحدها : أن هذا الوقت كان معروفاً عندهم بالتحليف بعدها فالتقييد بالمعروف المشهور أغنى عن التقييد باللفظ ، وثانيها : ما روي أنه لما نزلت هذه الآية صلّى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ، ودعا بعدي وتميم ، فاستحلفهما عند المنبر ، فصار فعل الرسول دليلاً على التقييد ، وثالثها : أن جميع أهل الأديان يعظمون هذا الوقت ويذكرون الله فيه ويحترزون عن الحلف الكاذب ، وأهل الكتاب يصلون لطلوع الشمس وغروبها .

والقول الثالث : قال الحسن المراد بعد الظهر أو بعد العصر ، لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما .

(133/218)

والقول الرابع : أن المراد بعد أداء الصلاة أي صلاة كانت والغرض من التحليف بعد إقامة الصلاة هو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فكان احتراز الحالف عن الكذب في ذلك الوقت أتم وأكمل ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 97. 98 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ يعني تستوقفونهما للأيمان وهذا خطاب للورثة ، وفي هذه الصلاة ثلاثة أقوال :

أحدها : بعد صلاة العصر ، قاله شريح ، والشعبي ، وسعيد بن جبير وقتادة .

والثاني : من بعد صلاة الظهر ، والعصر ، قاله الحسن .

والثالث : من بعد صلاة أهل دينهما ومِلَّتِهِمَا من أهل الذمة ، قاله ابن عباس ، والسدي .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ من بعد الصلاة ﴾ يعني من بعد صلاة العصر لأن جميع أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقيل من بعد صلاة أهل دينهم لأنهما إذا كانا كافرين لا يحترمان صلاة العصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الشافعي رحمه الله : الأيمان تغلظ في الدماء والطلاق والعتاق ، والمال إذا بلغ مائتي درهم في الزمان والمكان ، فيحلف بعد العصر بمكة بين الركن والمقام ، وبالمدينة عند المنبر ، وفي بيت المقدس عند الصخرة ، وفي سائر البلدان في أشرف المساجد ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : يحلف من غير أن يختص الحلف بزمان أو مكان ، وهذا على خلاف الآية ،

ولأن المقصود منه التهويل والتعظيم ، ولا شك أن الذي ذكره الشافعي رضي الله عنه أقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 98 ﴾

قوله تعالى ﴿ فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ﴾

فصل

قال الفخر :

الفاء في قوله ﴿ فيقسمان بالله ﴾ للجزاء يعني : تحبسونهما فيقدمان لأجل ذلك الحبس على القسم .

قوله ﴿ إن ارتبتم ﴾ اعتراض بين القسم والمقسم عليه .

(134/218)

والمعنى : ان ارتبتم في شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما ، وبهذا يحتج من يقول الآية نازلة في إشهاد الكفار ، لأن تحليف الشاهد المسلم غير مشروع ، ومن قال الآية نازلة في حق المسلم قال إنها منسوخة ، وعن علي عليه السلام أنه كان يحلف الشاهد والرواي عند التهمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 98 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الماوردى :

﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ﴾ معناه فيحلفان بالله إن ارتبتم بهما ، وفيهما قولان : أحدهما : أنهما الوصيان إن ارتبتم بهما في الخيانة أَحْلَفَهُمَا الورثة .

والثاني : أنهما الشاهدان إن ارتبتم بهما ، ولم تُعْرَفْ عدالتهما ، ولا جرحهما ، أحلفهما الحاكم ليزول عنه الارتياب بهما ، وهذا إنما جوزه قائل هذا القول في السفر دون الحضر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فيقسمان بالله ﴾ يعني فيحلفان بالله .

قال الشافعي : الأيمان تغلظ في الدماء والطلاق والعتاق والمال إذا بلغ مائتي درهم بالزمان والمكان فيحلف بعد صلاة العصر إن كان بمكة بين الركن والمقام وإن كان بالمدينة فعند المنبر وإن كان في بيت المقدس فعند الصخرة وفي سائر البلاد في أشرف المساجد وأعظمها بها ﴿ إن ارتبتم ﴾ يعني إن شككتم أيها الورثة في قول الشاهدين وصدقهما ، فحلّفوهما وهذا إذا كانا كافرين أما إذا كانا مسلمين فلا يمين عليهما لأن تحليف الشاهد المسلم غير مشروع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ لا نشتري به ثمناً ﴾ يعني يقسمان بالله أنا لا نبيع عهد الله بشيء من الدنيا قائلين لا نشتري به ثمناً ، وهو كقوله ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ [آل عمران : 77] أي لا نأخذ ولا نستبدل ، ومن باع شيئاً فقد اشترى ثمنه ، وقوله ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ أي لا نبيع عهد الله بشيء من الدنيا ، ولو كان ذلك الشيء حبوة ذي قربى أو نفسه ، وخص ذا القربى بالذكر لأن الميل إليهم أتم والمداهنة بسببهم أعظم ، وهو كقوله ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ [النساء : 135] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 98 ﴾

وقال الماوردى :

وفي قوله تعالى : ﴿ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ﴾ تأويلان :

أحدهما : لا نأخذ عليه رشوة ، قاله ابن زيد .

والثاني : لا نعتاض عليه بحق .

﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أي لا نميل مع ذي القربى في قول الزور ، والشهادة بغير حق .

﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ يعني عندنا فيما أوجبه علينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ لا نشتري به ثمناً ﴾ يعني لا نبيع عهد الله بشيء من الدنيا ولا نحلف بالله كاذبين لأجل عوض نأخذه أو حق نجحده ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ يعني ولو كان المشهود له ذا قرابة منا وإنما خص القربى بالذكر لأن الميل إليهم أكثر من غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾

فائدة

قال الفخر :

﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ هذا عطف على قوله ﴿ لا نشتري به ثمناً ﴾ يعني أنهما يقسمان حال ما يقولان لا نشتري به ثمناً ولا نكتم شهادة الله أي الشهادة التي أمر الله بحفظها وإظهارها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 98 ﴾

وقال الخازن :

(136/218)

﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ إنما أضاف الشهادة إليه لأنه أمر بإقامتها ونهى عن كتمانها ﴿ إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ يعني إن كتمنا الشهادة أو خنّا فيها ولما نزلت هذه الآية صلى صلى الله

عليه وسلم العصر ودعا تميماً وعدياً وحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنهما لم يخونا شيئاً مما دفع إليهما فحلفا على ذلك فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما ثم ظهر الإناء من بعد ذلك قال ابن عباس وجد الإناء بمكة ، فقالوا : اشتريناه من تميم وعدي .

وقيل : لما طالت المدة أظهروه فبلغ ذلك بني سهم ، فأتوهما في ذلك ، فقالا : إنا كنا اشتريناه منه .

فقالوا لهما : ألم تزعما أن صاحبنا لم يبع شيئاً من متاعه ؟ قالا : لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نقر لكم به فكتمناه لذلك فرفعوهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

نقل عن الشعبي أنه وقف على قوله ﴿ شهادة ﴾ ثم ابتدأ الله بالمد على طرح حرف القسم .

وتعويض حرف الاستفهام منه ، وروي عنه بغير مد على ما ذكره سيبويه أن منهم من يقول الله لقد كان كذا ، والمعنى تالله .

ثم قال تعالى : ﴿ إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ يعني إذا كتمناها كنا من الآثمين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 98 ﴾

(137/218)

ومن فوائد الحافظ ابن حجر فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله : (خَرَجَ رَجُل مِنْ بَنِي سَهْم)

هُوَ بُزَيْل بِمُوَحَّدَةٍ وَزَاي مُصَغَّر ، وَكَذَا ضَبَطَهُ اِبْن مَاكُولَا ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَة الْكَلْبِيّ عَنْ أَبِي صَالِح عَنْ اِبْن عَبَّاس عَنْ تَمِيم نَفْسه عِنْد التِّرْمِذِيّ وَالطَّبَرِيّ بُدَيْل بِدَال بَدَل الزَّاي ، وَرَأَيْته فِي نُسْخَة صَحِيحَة مِنْ تَفْسِير الطَّبَرِيّ بُرَيْل بِرَاءٍ بِغَيْرِ نُقْطَة ، وَلِاِبْنِ مَنْدَهْ مِنْ طَرِيق السُّدِّيّ عَنْ الْكَلْبِيّ بُدَيْل بْن أَبِي مَارِيَة ، وَمِثْله فِي رِوَايَة عِكْرِمَة وَغَيْره عِنْد الطَّبَرِيّ مُرْسَلًا لَكِنَّهُ لَمْ يُسَمِّهِ ، وَوَهَمَ مَنْ قَالَ فِيهِ بُدَيْل بْن وَرْقَاء فَإِنَّهُ خُزَاعِيّ وَهَذَا سَهْمِيّ ، وَكَذَا وَهَمَ مَنْ ضَبَطَهُ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَة ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَة اِبْن جُرَيْجٍ أَنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا ، وَكَذَا أَخْرَجَهُ بِسَنَدِهِ فِي تَفْسِيره .

قَوْله : (مَعَ تَمِيم الدَّارِيّ)

أَيْ الصَّحَابِيّ الْمَشْهُور وَذَلِكَ قَبْل أَنْ يُسْلِم تَمِيم كَمَا سَيَأْتِي ، وَعَلَى هَذَا فَهُوَ مِنْ مُرْسَل الصَّحَابِيّ لِأَنَّ اِبْن عَبَّاس لَمْ يَحْضُر هَذِهِ الْقِصَّة ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْض الطُّرُق أَنَّهُ رَوَاهَا عَنْ تَمِيم نَفْسه ، بَيَّنَ ذَلِكَ الْكَلْبِيّ فِي رِوَايَته الْمَذْكُورَة فَقَالَ : " عَنْ اِبْن عَبَّاس عَنْ تَمِيم الدَّارِيّ قَالَ : بَرِئَ النَّاس مِنْ هَذِهِ الْآيَة غَيْرِي وَغَيْر عَدِيّ بْن بَدَّاء . وَكَانَا نَصْرَانِيَّيْنِ مُخْتَلِفَانِ إِلَى الشَّام قَبْل الْإِسْلَام فَأَتَيَا الشَّام فِي تِجَارَتهمَا وَقَدِمَ عَلَيْهِمَا مَوْلًى لِبَنِي سَهْم " وَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون الْقِصَّة وَقَعَتْ قَبْل الْإِسْلَام ثُمَّ تَأَخَّرَتْ الْمُحَاكَمَة حَتَّى أَسْلَمُوا كُلّهمْ فَإِنَّ فِي الْقِصَّة مَا يُشْعِر بِأَنَّ الْجَمِيع تَحَاكَمُوا إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَعَلَّهَا كَانَتْ بِمَكَّة سَنَة الْفَتْح .

قَوْله : (وَعَدِيّ بْن بَدَّاء)

بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَة وَتَشْدِيد الْمُهْمَلَة مَعَ الْمَدّ ، لَمْ تَخْتَلِف الرِّوَايَات فِي ذَلِكَ إِلَّا مَا رَأَيْته فِي " كِتَاب الْقَضَاء لِلْكَرَابِيسِيّ " فَإِنَّهُ سَمَّاهُ الْبَدَّاء بْن عَاصِم ، وَأَخْرَجَهُ عَنْ مُعَلَّى بْن مَنْصُور عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي زَائِدَة ، وَوَقَعَ عِنْد الْوَاقِدِيّ أَنَّ عَدِيّ بْن بَدَّاء كَانَ أَخَا تَمِيم الدَّارِيّ فَإِنْ ثَبَتَ فَلَعَلَّهُ أَخُوهُ لِأُمِّهِ أَوْ مِنْ الرَّضَاعَة ، لَكِنْ فِي تَفْسِير مُقَاتِل بْن حِبَّانَ " أَنَّ رَجُلَيْنِ

نَصْرَانِيَّيْنِ مِنْ أَهْل دَارَيْنِ أَحَدهمَا تَمِيم وَالْآخَر يَمَانِيّ " .

قَوْله : (فَمَاتَ السَّهْمِيّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِم)

(139/218)

فِي رِوَايَة الْكَلْبِيّ " فَمَرِضَ السَّهْمِيّ فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا وَأَمَرَهُمَا أَنْ يُبَلِّغَا مَا تَرَكَ أَهْله ، قَالَ تَمِيم : فَلَمَّا مَاتَ أَخَذْنَا مِنْ تَرِكَته جَامًا وَهُوَ أَعْظَم تِجَارَته فَبِعْنَاهُ بِأَلْفِ دِرْهَم فَاقْتَسَمْتهَا أَنَا وَعَدِيّ " .

قَوْله : (فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَقَدُوا جَامًا)

فِي رِوَايَة ابْن جُرَيْجٍ عَنْ عِكْرِمَة أَنَّ السَّهْمِيّ الْمَذْكُور مَرِضَ فَكَتَبَ وَصِيَّته بِيَدِهِ ثُمَّ دَسَّهَا فِي مَتَاعه ثُمَّ أَوْصَى إِلَيْهِمَا ، فَلَمَّا مَاتَ فَتَحَا مَتَاعه ثُمَّ قَدِمَا عَلَى أَهْله فَدَفَعَا إِلَيْهِمْ مَا أَرَادَا ، فَفَتَحَ أَهْله مَتَاعه فَوَجَدُوا الْوَصِيَّة وَفَقَدُوا أَشْيَاء فَسَأَلُوهُمَا عَنْهَا فَجَحَدَا ، فَرَفَعُوهُمَا إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة إِلَى قَوْله : (مِنْ الْآثِمِينَ) ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَحْلِفُوهُمَا .

قَوْله : (جَامًا) بِالْجِيمِ وَتَخْفِيف الْمِيم أَيْ إِنَاء .

قَوْله : (مَخُوصًا)

(140/218)

بِخَاءٍ مُعْجَمَة وَوَاو ثَقِيلَة بَعْدهَا مُهْمَلَة أَيْ مَنْقُوشًا فِيهِ صِفَة الْخُوص ، وَوَقَعَ فِي بَعْض نُسَخ أَبِي دَاوُد " مَخُوضًا " بِالضَّادِ الْمُعْجَمَة أَيْ مُمَوَّهًا وَالْأَوَّل أَشْهَر ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَة اِبْن جُرَيْجٍ عَنْ عِكْرِمَة " إِنَاء مِنْ فِضَّة مَنْقُوش بِذَهَبٍ " وَزَادَ فِي رِوَايَته أَنَّ تَمِيمًا وَعَدِيًّا لَمَّا سُئِلَا عَنْهُ قَالَا اِشْتَرَيْنَاهُ مِنْهُ ، فَارْتَفَعُوا إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ : (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اِسْتَحَقَّا إِثْمًا) وَوَقَعَ فِي رِوَايَة الْكَلْبِيّ عَنْ تَمِيم " فَلَمَّا أَسْلَمْت تَأَثَّمْت ، فَأَتَيْت أَهْله فَأَخْبَرْتهمْ الْخَبَر وَأَدَّيْت إِلَيْهِمْ خَمْسمِائَةِ دِرْهَم وَأَخْبَرْتهمْ أَنَّ عِنْد صَاحِبِي مِثْلهَا " .

قَوْله : (فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاء السَّهْمِيّ)

(141/218)

أَيْ الْمَيِّت ، وَقَعَ فِي رِوَايَة الْكَلْبِيّ " فَقَامَ عَمْرو بْن الْعَاص وَرَجُل آخَر مِنْهُمْ " وَسَمَّى مُقَاتِل بْن سُلَيْمَان فِي تَفْسِير الْآخَر الْمُطَّلِب بْن أَبِي وَدَاعَة وَهُوَ سَهْمِيّ أَيْضًا ، لَكِنَّهُ سَمَّى الْأَوَّل عَبْد اللَّه بْن عَمْرو بْن الْعَاص ، وَكَذَا جَزَمَ بِهِ يَحْيَى بْن سَلَام فِي تَفْسِيره ، وَقَوْل مَنْ قَالَ عَمْرو

بْن الْعَاص أَظْهَر ، وَاَللَّه أَعْلَم . وَاسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيث لِجَوَاز رَدّ الْيَمِين عَلَى الْمُدَّعِي فَيَحْلِف وَيَسْتَحِقّ ، وَسَيَأْتِي الْبَحْث فِيهِ . وَاسْتَدَلَّ بِهِ اِبْن سُرَيْج الشَّافِعِيّ الْمَشْهُور لِلْحُكْمِ بِالشَّاهِدِ وَالْيَمِين ، وَتَكَلَّفَ فِي اِنْتِزَاعه فَقَالَ : إِنَّ قَوْله تَعَالَى : (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اِسْتَحَقَّا إِثْمًا) لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يُقِرَّا أَوْ يَشْهَد عَلَيْهِمَا شَاهِدَانِ أَوْ شَاهِد وَامْرَأَتَانِ أَوْ شَاهِد وَاحِد ، قَالَ : وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْإِقْرَار بَعْد الْإِنْكَار لَا يُوجِب يَمِينًا عَلَى الطَّالِب ، وَكَذَلِكَ مَعَ الشَّاهِدَيْنِ وَمَعَ الشَّاهِد وَالْمَرْأَتَيْنِ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا شَاهِد وَاحِد فَلِذَلِكَ اِسْتَحَقَّ الطَّالِبَانِ يَمِينهمَا مَعَ الشَّاهِد الْوَاحِد . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُتَعَقَّبٌ بِأَنَّ الْقِصَّة وَرَدَتْ مِنْ طُرُق مُتَعَدِّدَة فِي سَبَب النُّزُول لَيْسَ فِي شَيْء مِنْهَا أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَشْهَد ، بَلْ فِي رِوَايَة الْكَلْبِيّ فَسَأَلَهُمْ الْبَيِّنَة فَلَمْ يَجِدُوا فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَحْلِفُوهُ – أَيْ عَدِيًّا – بِمَا يَعْظُم عَلَى أَهْل دِينه . وَاسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيث عَلَى جَوَاز شَهَادَة الْكُفَّار بِنَاء عَلَى أَنَّ الْمُرَاد بِالْغَيْرِ الْكُفَّار وَالْمَعْنَى

(142/218)

(مِنْكُمْ) أَيْ مِنْ أَهْل دِينكُمْ (أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْركُمْ) أَيْ مِنْ غَيْر أَهْل دِينكُمْ ، وَبِذَلِكَ قَالَ أَبُو حَنِيفَة وَمَنْ تَبِعَهُ ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّهُ لَا يَقُول بِظَاهِرِهَا فَلَا يُجِيز شَهَادَة الْكُفَّار عَلَى الْمُسْلِمِينَ ،

وَإِنَّمَا يُجِيز شَهَادَة بَعْض الْكُفَّار عَلَى بَعْض ، وَأُجِيبَ بِأَنَّ الْآيَة دَلَّتْ بِمَنْطُوقِهَا عَلَى قَبُول شَهَادَة الْكَافِر عَلَى الْمُسْلِم ، وَبِإِيمَائِهَا عَلَى قَبُول شَهَادَة الْكَافِر عَلَى الْكَافِر بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ، ثُمَّ دَلَّ الدَّلِيل عَلَى أَنَّ شَهَادَة الْكَافِر عَلَى الْمُسْلِم غَيْر مَقْبُولَة فَبَقِيَتْ شَهَادَة الْكَافِر عَلَى الْكَافِر عَلَى حَالهَا ، وَخَصَّ جَمَاعَة الْقَبُول بِأَهْلِ الْكِتَاب وَبِالْوَصِيَّةِ وَبِفَقْدِ الْمُسْلِم حِينَئِذٍ ، مِنْهُمْ اِبْن عَبَّاس وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيّ وَسَعِيد بْن الْمُسَيَّب وَشُرَيْح وَابْن سِيرِينَ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَأَبُو عُبَيْد وَأَحْمَد ، وَهَؤُلَاءِ أَخَذُوا بِظَاهِرِ الْآيَة ، وَقَوَّى ذَلِكَ عِنْدهمْ حَدِيث الْبَاب فَإِنَّ سِيَاقه مُطَابِق لِظَاهِرِ الْآيَة ، وَقِيلَ الْمُرَاد بِالْغَيْرِ الْعَشِيرَة وَالْمَعْنَى : مِنْكُمْ أَوْ مِنْ عَشِيرَتكُمْ ، أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْركُمْ أَوْ مِنْ غَيْر عَشِيرَتكُمْ وَهُوَ قَوْل الْحَسَن ، وَاحْتَجَّ لَهُ النَّحَّاس بِأَنَّ لَفْظ " آخَر " لَا بُدّ أَنْ يُشَارِك الَّذِي قَبْله فِي الصِّفَة حَتَّى لَا يَسُوغ أَنْ تَقُول مَرَرْت بِرَجُلٍ كَرِيم وَلَئِيم آخَر ، فَعَلَى هَذَا فَقَدْ وُصِفَ الِاثْنَانِ بِالْعَدَالَةِ فَيَتَعَيَّن أَنْ يَكُون الْآخَرَانِ كَذَلِكَ ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ هَذَا وَإِنْ سَاغَ فِي الْآيَة الْكَرِيمَة لَكِنَّ الْحَدِيث دَلَّ عَلَى خِلَاف ذَلِكَ ،

(143/218)

وَالصَّحَابِيّ إِذَا حَكَى سَبَب النُّزُول كَانَ ذَلِكَ فِي حُكْم الْحَدِيث الْمَرْفُوع اِتِّفَاقًا ، وَأَيْضًا فَفِيمَا قَالَ رَدّ الْمُخْتَلَف فِيهِ بِالْمُخْتَلَفِ فِيهِ لِأَنَّ اِتِّصَاف الْكَافِر بِالْعَدَالَةِ مُخْتَلَف فِيهِ وَهُوَ

فَرْع قَبُول شَهَادَته فَمَنْ قَبِلَهَا وَصَفَهُ بِهَا وَمَنْ لَا فَلَا ، وَاعْتَرَضَ أَبُو حِبَّانَ عَلَى الْمِثَال الَّذِي ذَكَرَهُ النَّحَّاس بِأَنَّهُ غَيْر مُطَابِق فَلَوْ قُلْت جَاءَنِي رَجُل مُسْلِم وَآخَر كَافِر صَحَّ بِخِلَافِ مَا لَوْ قُلْت جَاءَنِي رَجُل مُسْلِم وَكَافِر آخَر ، وَالْآيَة مِنْ قَبِيل الْأَوَّل لَا الثَّانِي ، لِأَنَّ قَوْله أَوْ آخَرَانِ مِنْ جِنْس قَوْله اِثْنَانِ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا صِفَة (رَجُلَانِ) فَكَأَنَّهُ قَالَ فَرَجُلَانِ اِثْنَانِ وَرَجُلَانِ آخَرَانِ ، وَذَهَبَ جَمَاعَة مِنْ الْأَئِمَّة إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَة مَنْسُوخَة وَأَنَّ نَاسِخهَا قَوْله تَعَالَى : (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاء) وَاحْتَجُّوا بِالْإِجْمَاعِ عَلَى رَدّ شَهَادَة الْفَاسِق ، وَالْكَافِر شَرّ مِنْ الْفَاسِق . وَأَجَابَ الْأَوَّلُونَ بِأَنَّ النَّسْخ لَا يَثْبُت بِالِاحْتِمَالِ وَأَنَّ الْجَمْع بَيْن الدَّلِيلَيْنِ أَوْلَى مِنْ إِلْغَاء أَحَدهمَا ، وَبِأَنَّ سُورَة الْمَائِدَة مِنْ آخِر مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآن حَتَّى صَحَّ عَنْ اِبْن عَبَّاس وَعَائِشَة وَعَمْرو بْن شُرَحْبِيل وَجَمْع مِنْ السَّلَف أَنَّ سُورَة الْمَائِدَة مُحْكَمَة ، وَعَنْ اِبْن عَبَّاس " أَنَّ الْآيَة نَزَلَتْ فِيمَنْ مَاتَ مُسَافِرًا وَلَيْسَ عِنْده أَحَد مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ اِتُّهِمَا اُسْتُحْلِفَا " أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ بِإِسْنَادٍ رِجَاله ثِقَات ، وَأَنْكَرَ أَحْمَد عَلَى مَنْ قَالَ إِنَّ هَذِهِ الْآيَة مَنْسُوخَة ، وَصَحَّ

(144/218)

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ أَنَّهُ عَمِلَ بِذَلِكَ بَعْد النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَرَوَى أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ رِجَاله ثِقَات عَنْ الشَّعْبِيّ قَالَ : حَضَرَتْ رَجُلًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ الْوَفَاة بِدُقُوقَا وَلَمْ يَجِد أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَأَشْهَدَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْل الْكِتَاب ، فَقَدِمَا الْكُوفَة بِتَرِكَتِهِ وَوَصِيَّته فَأَخْبَرَ الْأَشْعَرِيّ فَقَالَ : هَذَا لَمْ يَكُنْ بَعْد الَّذِي كَانَ فِي عَهْد رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَحْلَفَهُمَا بَعْد الْعَصْر مَا خَانَا وَلَا كَذَبَا وَلَا كَتَمَا وَلَا بَدَّلَا وَأَمْضَى شَهَادَتهمَا ، وَرَجَّحَ الْفَخْر الرَّازِيُّ وَسَبَقَهُ الطَّبَرِيُّ لِذَلِكَ أَنَّ قَوْله تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) خِطَاب لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَلَمَّا قَالَ : (أَوْ آخَرَانِ) وَصَحَّ أَنَّهُ أَرَادَ غَيْر الْمُخَاطَبِينَ فَتَعَيَّنَ أَنَّهُمَا مِنْ غَيْر الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَيْضًا فَجَوَاز اِسْتِشْهَاد الْمُسْلِم لَيْسَ مَشْرُوطًا بِالسَّفَرِ وَأَنَّ أَبَا مُوسَى حَكَمَ بِذَلِكَ فَلَمْ يُنْكِرهُ أَحَد مِنْ الصَّحَابَة فَكَانَ حُجَّة ، وَذَهَبَ الْكَرَابِيسِيّ ثُمَّ الطَّبَرِيُّ وَآخَرُونَ إِلَى أَنَّ الْمُرَاد بِالشَّهَادَةِ فِي الْآيَة الْيَمِين ، قَالَ : وَقَدْ سَمَّى اللَّه الْيَمِين شَهَادَة فِي آيَة اللِّعَان ، وَأَيَّدُوا ذَلِكَ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ الشَّاهِد لَا يَلْزَمهُ أَنْ يَقُول أَشْهَد بِاللَّهِ وَأَنَّ الشَّاهِد لَا يَمِين عَلَيْهِ أَنَّهُ شَهِدَ بِالْحَقِّ ، قَالُوا فَالْمُرَاد بِالشَّهَادَةِ الْيَمِين لِقَوْلِهِ : (فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ) أَيْ يَحْلِفَانِ ، فَإِنْ عُرِفَ أَنَّهُمَا حَلَفَا عَلَى الْإِثْم رَجَعَتْ الْيَمِين عَلَى

(145/218)

الْأَوْلِيَاء ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ الْيَمِينَ لَا يُشْتَرَطُ فِيهَا عَدَدٌ وَلَا عَدَالَةٌ ، بِخِلَافِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ اشْتَرَطَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَقَوِيَ حَمْلُهَا عَلَى أَنَّهَا شَهَادَةٌ . وَأَمَّا اعْتِلَالُ مَنْ اعْتَلَّ فِي رَدِّهَا بِأَنَّهَا تُخَالِفُ الْقِيَاسَ وَالْأُصُولَ لِمَا فِيهَا مِنْ قَبُولِ شَهَادَةِ الْكَافِرِ وَحَبْسِ الشَّاهِدِ وَتَحْلِيفِهِ وَشَهَادَةِ الْمُدَّعِي لِنَفْسِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ بِمُجَرَّدِ الْيَمِينِ فَقَدْ أَجَابَ مَنْ قَالَ بِهِ بِأَنَّهُ حُكْمٌ بِنَفْسِهِ مُسْتَغْنًى عَنْ نَظِيرِهِ ، وَقَدْ قُبِلَتْ شَهَادَةُ الْكَافِرِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ كَمَا فِي الطِّبِّ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحَبْسِ السِّجْنَ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْإِمْسَاكُ لِلْيَمِينِ لِيَحْلِفَ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، وَأَمَّا تَحْلِيفُ الشَّاهِدِ فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِهَذِهِ الصُّورَةِ عِنْدَ قِيَامِ الرِّيبَةِ ، وَأَمَّا شَهَادَةُ الْمُدَّعِي لِنَفْسِهِ وَاسْتِحْقَاقُهُ بِمُجَرَّدِ الْيَمِينِ فَإِنَّ الْآيَةَ تَضَمَّنَتْ نَقْلَ الْأَيْمَانِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ ظُهُورِ اللَّوْثِ بِخِيَانَةِ الْوَصِيَّيْنِ ، فَيُشْرَعُ لَهُمَا أَنْ يَحْلِفَا وَيَسْتَحِقَّا كَمَا يُشْرَعُ لِمُدَّعِي الدَّمِ فِي الْقَسَامَةِ أَنْ يَحْلِفَ وَيَسْتَحِقَّ ، فَلَيْسَ هُوَ مِنْ شَهَادَةِ الْمُدَّعِي لِنَفْسِهِ بَلْ مِنْ بَابِ الْحُكْمِ لَهُ بِيَمِينِهِ الْقَائِمَةِ مَقَامَ الشَّهَادَةِ لِقُوَّةِ جَانِبِهِ ، وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ ظُهُورِ اللَّوْثِ فِي صِحَّةِ الدَّعْوَى بِالدَّمِ وَظُهُورِهِ فِي صِحَّةِ الدَّعْوَى بِالْمَالِ ؟ وَحَكَى الطَّبَرِيُّ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) الْوَصِيَّانِ ، قَالَ : وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) مَعْنَى الْحُضُورِ لِمَا يُوصِيهِمَا بِهِ الْمُوصِي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح الباري حـ 13 صـ ﴾

ومن فوائد الثعلبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ الآية نزلت في ثلاثة نفر خرجوا تجاراً من المدينة إلى الشام ، عدي بن فدي ، وتميم بن أوس الداري وهما نصرانيان وبديل مولى عمرو بن العاص السهمي وكان مسلماً مهاجراً واختلفوا في كنية أبيه .

فقال الكلبي : بديل بن أبي مارزنة . وقال قتادة وابن سيرين وعكرمة : هو ابن أبي مارية ، ومحمد بن إسحاق بن يسار وابن أبي مريم ، فلما قدموا إلى الشام مرض بديل وكتب كتاباً فيه جميع ما معه وطرحها في متاعه ولم يخبر صاحبه بذلك ، فلما اشتد وجعه أوصى إلى تميم وعدي وأمرهما أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله ، ومات بديل ففتشا متاعه فأخذا منه إناء من فضة منقوشاً بالذهب فيه ثلثمائة مثقال فضة مموّهة بالذهب فغيباه ثم قضيا حاجتهما وانصرفا وقدما المدينة فدفعا المتاع إلى أهل الميت ففتشوا [فوجدوا] الصحيفة فيها تسمية ما كان معه وما فيها الإناء فجاءوا تميماً وعدياً . فقالوا : هل باع صاحبنا شيئاً من متاعه ؟ قالا : لا ، قالوا : فهل خسر تجارة ؟ قالا : لا ، قالوا : فهل طال مرضه فأنفق على نفسه ؟ قالا : لا . قالوا : فإنا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه وإنا فقدنا فيها إناء من فضة مموّهة بالذهب فها ثلاثمائة مثقال فضة . قالا : لا ندري

إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم ودفعناه وما لنا إلاّ من حكم ، فرفعوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل اللّه تعالى ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت حِينَ الوصية اثنان ﴾ .

قال أهل الكوفة : معناه ليشهد اثنان لفظ الآية خبر ومعناها أمر . قال أهل البصرة : معناه شهادة بينكم شهادة إثنين فألقيت الشهادة وأقيمت الاثنان مقامهما كقوله ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] أي أهل القرية ما (بقي) أهل وأقام القرية مقامه فنصبها .

وقال بعضهم : معناه شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت أن يشهد إثنان ﴿ ذَوَا عَدْلٍ ﴾ أمانة وعقل ﴿ مِّنْكُمْ ﴾ يا معشر المؤمنين من أهل دينكم وملتكم .

قاله جميع المفسرين إلاّ عكرمة وعبيد فإنهما قالا : معناه من حيّ الموصي .

واختلفوا في صفة الإثنين ، فقال قوم : هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي

.

(147/218)

وقال آخرون : هما الوصيان أراد الله تأكيد الأمر فجعل الوصي إثنين دليل هذا التأويل أنه عقَّبه بقوله : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصلاة فَيُقْسِمَانِ ﴾ ولا يلزم الشاهد يمين ، ولأن الآية

نزلت في الوصيين ، وعلى هذا القول تكون الشهادة بمعنى الحضور ، كقولك : شهدت فلان أي حضرت ، قال الله تعالى ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت ﴾ [البقرة : 133] الآية ، فقال : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] .

﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ ملّتكم وهو قول ابن المسيب والنخعي وابن جبير ومجاهد وعبيدة ويحيى بن يعمر وأبي محجن قالوا : إذا لم يجد مسلمين فليشهد كافرين .

قال شريح إذا كان الرجل بأرض غربة فلم يجد مسلماً يشهده على وصيته فليشهد يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو عابد وثن وأيّ كافر كان فشهادته جائزة ولا يجوز شهادة الكافرين على المسلمين إلاّ في سفرة ولا يجوز في سفر إلاّ في وصية فإن جاء رجلان مسلمان وشهدا بخلاف شهادتهما أجيزت شهادة المسلمين فأبطلت شهادة الكافرين .

وعن الشعبي : أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة فأوصى ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد ، الذي كان في عهد رسول الله فأحلفهما وأمضى شهادتهما .

قال آخرون : معناه من غير حيكم وعشيرتكم . وهذا قول الحسن والزهري وعكرمة قالوا : لا يجوز شهادة كافر في سفر ولا حضر .

﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأرض ﴾ سرتم وسافرتم في الأرض ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الموت ﴾ فأوصيتم إليهما ودفعتم مالكم إليهما فلم [يأمنان الإرتياب بحق] الورثة فاتهموهما في ذلك فادّعوا عليهما خيانة ، فإن الحكم حينئذ أن تحبسونهما ، أي تستوقفونهما ﴿ مِن بَعْدِ الصلاة ﴾ وقال ابن عباس : هذا من صلة قوله ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ من الكفار فأما إذا كانا مسلمين ، فلا يمين عليهما ، واختلفوا في هذه الصلاة ما هي .

فقال النخعي والشعبي وابن جبير وقتادة : من بعد صلاة العصر . وقال السدي : من بعد صلاة أهل دينهما وملتهما لأنهما لا يباليان صلاة العصر ﴿ فَيُقْسِمَانِ بالله ﴾ فيحلفان ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ شككتم ﴿ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ﴾ يقول لا نحلف بالله كاذبين على عرض نأخذ عليه [لو أن يكن يذهب إليه في ويجحده] ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ ولو كان الذي يقسم له به ذا قربى ذا قرابة معنا ﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ الله ﴾ قرأ الشعبي لا نكتم شهادة الله بالتنوين ، الله بخفض الهاء على الإتصال أراد الله على القسم .

وروي عن أبي جعفر (شهادة الله) بقطع الألف وكسر أولها على معنى ولا نكتم شهادة ثم إبتدأ يميناً فقال : الله أي والله [. . . . .] [يعقب] بتنوين الشهادة ، (الله) بالألف واللام وكسر الهاء وجعل الإستفهام حرفاً من حروف القسم ، فروي عن بعضهم شهادة منونة ، الله بنصب الهاء يعني ولا نكتم شهادة الله أما إن فعلنا ذلك ﴿ إِنَّآ إِذاً لَّمِنَ

الآثمين ﴾ فلما نزلت الآية على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا بعدي وتميم ، فاستحلفا عند المنبر باللّه الذي لا إله إلاّ هو أنهما لم يخونا شيئاً مما دفع إليهما فحلف على ذلك وخلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم سبيلهما حين حلفا فكتما الإناء ما شاء اللّه أن يكتما ثمّ ظهر واختلفوا في كيفية ظهور الإناء .

(149/218)

فروى ابن جبير عن ابن عباس إن الإناء وجد بمكة فقالوا : اشتريناه من عدي وتميم .

قال الآخرون : لما طالت المدة أظهر الإناء وبلغ ذلك بني تميم فأتوهما في ذلك . فقالا : إنا كنّا قد اشترينا منهم هذا وقالوا : ألم تزعما بأن صاحبنا لم يبع شيئاً من متاعه ؟ قالا : لم يكن عندنا ثمنه فكرهنا أن نقر لكم به [فكتمناكموه] لذلك فرفعوهما لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم فأنزل اللّه ﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس .

قال : كان تميم الدّاري ، وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة ، فصحبهما رجلٌ من قريش من بني سهم ، فمات بأرض ليس فيها أحد من المسلمين ، فأوصى إليهما بتركته ، فلما قدما ، دفعاها إلى أهله ، وكتما جاماً كان معه من فضة ، وكان مخوَّصاً بالذهب ، فقالا : لم نره ، فأُتي بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستحلفهما بالله : ما كتما ، وخلى سبيلهما . ثم إن الجام وُجدَ عند قومٍ من أهل مكة ، فقالوا : ابتعناه من تميم الدّاري ، وعدي بن بداء ، فقام أولياء السهمي ، فأخذوا الجام ، وحلف رجلان منهم بالله : إن هذا الجام جام صاحبنا ، وشهادتنا أحق من شهادتهما ، وما اعتدينا ، فنزلت هذه الآية ، والتى بعدها .

قال مقاتل : واسم الميّت : بُزيلُ بن أبي مارية مولى العاص بن وائل السهمي ، وكان تميم ، وعدي نصرانيين ، فأسلم تميم ، ومات عديٌ نصرانياً .

فأما التفسير ، فقال الفراء : معنى الآية : ليشهدكم اثنان إذا حضر أحدكم الموت .

قال الزجاج : المعنى : شهادة هذه الحال شهادة اثنين ، فحذف "شهادة" ، ويقوم "اثنان" مقامهما .

وقال ابن الأنباري : معنى الآية : ليشهدكم في سفركم إذا حضركم الموت ، وأردتم الوصيّة اثنان .

وفي هذه الشهادة ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الشهادة على الوصيّة التي ثبتت عند الحكام ، وهو قول ابن مسعود ، وأبي موسى ، وشريح ، وابن أبي ليلى ، والأوزاعي ، والثوري ، والجمهور .

والثاني : أنها أيمان الوصي بالله تعالى إذا ارتاب الورثة بهما ، وهو قول مجاهد .

والثالث : أنها شهادة الوصيّة ، أي حضورها ، كقوله : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾ [البقرة : 133] جعل الله الوصي هاهنا اثنين تأكيداً ، واستدل أرباب هذا القول بقوله : ﴿ فيقسمان بالله ﴾ قالوا : والشاهد لا يلزمه يمينٌ .

فأما "حضور الموت" فهو حضور أسبابه ومقدماته .

وقوله : ﴿ حين الوصية ﴾ ، أي : وقت الوصية .

وفي قوله : "منكم" قولان .

أحدهما : من أهل دينكم وملتكم ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد ابن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وشريح ، وابن سيرين ، والشعبي ، وهو قول أصحابنا .

والثاني : من عشيرتكم وقبيلتكم ، وهم مسلمون أيضاً ، قاله الحسن ، وعكرمة ، والزهري ، والسدي .

قوله تعالى : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ تقديره : أو شهادة آخرين من غيركم .

وفي قوله : "من غيركم" قولان .

أحدهما : من غير ملتكم ودينكم ، قاله أرباب القول الأول .

والثاني : من غير عشيرتكم وقبيلتكم ، وهم مسلمون أيضاً ، قاله أرباب القول الثاني ، وفي "أوْ" قولان .

أحدهما : أنها ليست للتخيير ، وإنما المعنى : أو آخران من غيركم إن لم تجدوا منكم ، وبه قال ابن عباس ، وابن جبير ، والثاني : أنها للتخيير ، ذكره الماوردي .

فصل

فالقائل بأن المراد بالآية شهادة مسلمين من القبيلة ، أو من غير القبيلة لا يشك في إحْكَامِ هذه الآية .

فأما القائل بأن المراد بقوله : "أو آخران من غيركم" أهل الكتاب إذا شهدوا على الوصيّة في السفر ، فلهم فيها قولان .

أحدهما : أنها محكمة ، والعمل على هذا باق ، وهو قول ابن عباس ، وابن المسيب ، وابن جبير .

وابن سيرين ، وقتادة ، والشعبي ، والثوري ، وأحمد في آخرين .

والثاني : أنها منسوخة بقوله : ﴿ وأشهدوا ذوي عدلٍ منكم ﴾ وهو قول زيد بن أسلم ، وإليه يميل أبوحنيفة ، ومالك ، والشافعي ، قالوا : وأهل الكفر ليسوا بعدول ، والأول أصح ، لأن هذا موضع ضرورة كما يجوز في بعض الأماكن شهادة نساء لا رجل معهن بالحيض والنفاس والاستهلال .

قوله تعالى : ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ هذا الشرط متعلق بالشهادة ، والمعنى : ليشهدكم اثنان إن أنتم ضربتم في الأرض ، أي : سافرتم .

﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ فيه محذوفٌ ، تقديره : وقد أسندتم الوصية إليهما ، ودفعتم إليهما مالكم ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ خطابٌ للورثة إذا ارتابوا .

وقال ابن عباس : هذا من صلة قوله : "أو آخران من غيركم" ، أي : من الكفار .

فأما إذا كانا مسلمين ، فلا يمين عليهما .

وفي هذه الصلاة قولان .

أحدهما : صلاة العصر ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وبه قال شريح ، وابن جبير ، وإبراهيم ، وقتادة ، والشعبي .

والثاني : من بعد صلاتهما في دينهما ، حكاه السدي عن ابن عباس ، وقال به .

وقال الزجاج : كان الناس بالحجاز يحلفون بعد صلاة العصر ، لأنه وقت اجتماع الناس ،

وقال ابن قتيبة : لأنه وقت يعظمه أهل الأديان .

قوله تعالى : ﴿ فيقسمان بالله ﴾ أي : فيحلفان ﴿ إِن ارتبتم ﴾ أي : شككتم يا أولياء الميت .

ومعنى الآية : إِذا قدم الموصى إِليهما بتركة المتوفي ، فاتهمهما الوارث ، استحلفا بعد صلاة العصر : أنهما لم يسرقا ، ولم يخونا .

فالشرط في قوله : "إِن ارتبتم" متعلق بتحبسونهما ، كأنه قال إِن إِرتبتم حبستموهما فاستحلفتموهما ، فيحلفان بالله : ﴿ لا نشتري به ﴾ أي : بأيماننا ، وقيل : بتحريف شهادتنا ، فالهاء عائدة على المعنى .

﴿ ثمناً ﴾ أي : عرضاً من الدنيا ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ أي : ولو كان المشهود له ذا قرابة منا ، وخصّ ذا القرابة ، لميل القريب إِلى قريبه .

(152/218)

والمعنى : لا نحابي في شهادتنا أحداً ، ولا نميل مع ذي القربى في قول الزور ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ إِنما أُضيفت إِليه ، لأمره بإِقامتها ، ونهيه عن كتمانها .

وقرأ سعيد بن جبير : "ولا نكتم شهادةً" بالتنوين "الله" بقطع الهمزة وقصرها ، وكسر الهاء

، ساكنة النون في الوصل .

وقرأ سعيد بن المسيب ، وعكرمة "شهادة" بالتنوين والوصل منصوبة الهاء .

وقرأ أبو عمران الجوني "شهادة" بالتنوين وإِسكانها في الوصل "الله" بقطع الهمزة وقصرها مفتوحة الهاء .

وقرأ الشعبي ، وابن السميفع "شهادة" بالتنوين وإِسكانها في الوصل "الله" بقطع الهمزة ، ومدّها ، وكسر الهاء .

وقرأ أبو العالية ، وعمرو بن دينار مثله ، إِلاّ أنهما نصبا الهاء .

واختلف العلماء لأي معنىً وجبت اليمين على هذين الشاهدين ، على ثلاثة أقوال .

أحدها : لكونهما من غير أهل الإسلام ، روي هذا المعنى عن أبي موسى الأشعري .

والثاني : لوصيّةٍ وقعت بخط الميّت وفَقَدَ ورثتُهُ بعضَ ما فيها ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : لأن الورثة كانوا يقولون : كان مال ميّتنا أكثر ، فاستخانوا الشاهدين ، قاله الحسن ، ومجاهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قال مكي بن أبي طالب رضي الله عنه : هذه الآيات عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعراباً ومعنى وحكماً .

(153/218)

قال القاضي أبو محمد : وهذا كلام من لم يقع له الثلج في تفسيرها ، وذلك بين من كتابه رحمه الله وبه نستعين ، لا نعلم خلافاً أن سبب هذه الآية أن تميماً الداري وعدي بن بداء ، كانا نصرانيين سافرا إلى المدينة يريدان الشام لتجارتهما ، قال الواقدي : وهما أخوان وقدم المدينة أيضاً ابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص يريد الشام تاجراً فخرجوا رفاقة فمرض ابن أبي مارية في الطريق ، قال الواقدي فكتب وصية بيده ودسها في متاعه وأوصى إلى تميم وعدي أن يؤديا رحله ، فأتيا بعد مدة المدينة برحله فدفعاه ، ووجد أولياؤه من بني سهم وصيته مكتوبة ، ففقدوا أشياء قد كتبها فسألوهما عنها فقالا ما ندري ، هذا الذي قبضناه له ، فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية الأولى فاستخلفهما رسول الله بعد العصر ، فبقي الأمر مدة ثم عثر بمكة من متاعه على إناء عظيم من فضة مخوص بالذهب ، فقيل لمن وجد عنده من أين صار لكم هذا الإناء ؟ قالوا : ابتعناه من تميم الداري وعدي بن بداء ، فارتفع في الأمر إلى النبي عليه السلام فنزلت الآية

الأخرى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أولياء الميت أن يحلفا ، قال الواقدي : فحلف عبد الله بن عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة ، واستحقا ، وروى ابن عباس عن تميم الداري أنه قال : برىء الناس من هذه الآيات غيري وغير عدي بن بداء ، وذكر القصة ، إلا أنه قال وكان معه جام فضة يريد به الملك ، فأخذته أنا وعدي فبعناه بألف وقسمنا ثمنه ، فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت إليهم خمسمائة ، فوثبوا إلى عدي فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف عمرو بن العاص ورجل آخر معه ، ونزعت من عدي خمسمائة .

(154/218)

قال القاضي أبو محمد : تختلف ألفاظ هذه القصة في الدواوين وما ذكرته هو عمود الأمر ، ولم يصح لعدي صحبة فيما علمت ولا ثبت إسلامه ، وقد صنفه في الصحابة بعض المتأخرين ، وضعف أمره ، ولا وجه عندي لذكره في الصحابة .

(155/218)

وأما معنى الآية من أولها إلى آخرها ، فهو أن الله تعالى أخبر المؤمنين أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضره الموت أن تكون شهادة عدلين فإن كان في سفر وهو الضرب في الأرض ولم يكن معه من المؤمنين أحد ليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر ، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدلا وأن ما شهدا به حق ما كتما فيه شهادة الله ، وحكم بشهادتهما ، فإن عثر بعد ذلك على أنهما كذبا أو خانا ونحو هذا مما هو إثم ، حلف رجلان من أولياء الموصي في السفر وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما ، هذا معنى الآية على مذهب أبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ويحيى بن يعمر وسعيد بن جبير وأبي مجلز وإبراهيم وشريح وعبيدة السلماني وابن سيرين ومجاهد وابن عباس وغيرهم ، يقولون معنى قوله ، ﴿ منكم ﴾ من المؤمنين ، ومعنى ، ﴿ من غيركم ﴾ من الكفار ، قال بعضهم ذلك أن الآية نزلت ولا مؤمن إلا بالمدينة وكانوا يسافرون في التجارة صحبة أهل الكتاب وعبدة الأوثان وأنواع الكفرة ، واختلفت هذه الجماعة المذكورة ، فمذهب أبي موسى الأشعري وشريح وغيرهما أن الآية محكمة ، وأسند الطبري إلى الشعبي أن رجلاً حضرته المنية بدقوقا ولم يجد أحداً من المؤمنين يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعري فأخبراه وقدما بتركته ، فقال أبو موسى الأشعري هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في مدة

النبي عليه السلام ثم أحلفهما بعد صلاة العصر وأمضى شهادتهما ، وأسند الطبري عن شريح أنه كان لا يجيز شهادة النصراني واليهودي على مسلم إلا في الوصية ، ولا تجوز أيضاً في الوصية إلا إذا كانوا في سفر ، ومذهب جماعة ممن ذكر ، أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ [الطلاق : 2] وبما استند إليه إجماع جمهور الناس على أن شهادة الكافر لا تجوز .

(156/218)

وتأول الآية جماعة من أهل العلم على غير هذا كله ، قال الحسن بن أبي الحسن وقوله تعالى : ﴿ منكم ﴾ يريد من عشيرتكم وقرابتكم ، وقوله ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ يريد من غير القرابة والعشيرة ، وقال بهذا عكرمة مولى ابن عباس وابن شهاب ، قالوا أمر الله بإشهاد عدلين من القرابة إذ هم ألحن بحال الوصية وأدرى بصورة العدل فيها ، فإن كان الأمر في سفر ولم تحضر قرابة أشهد أجنبيان ، فإذا شهدا فإن لم يقر ارتياب مضت الشهادة ، وإن ارتيب أنهما مالا بالوصية إلى أحد أو زادا أو نقصا حلفا بعد صلاة العصر ومضت شهادتهما ، فإن عثر بعد ذلك على تبديل منهما واستحقاق إثم حلف وليان من القرابة وبطلت شهادة الأولين .

وقال بعض الناس الآية منسوخة ، ولا يحلف شاهد ، ويذكر هذا عن مالك بن أنس والشافعي وكافة الفقهاء ، وذكر الطبري رحمه الله أن هذا التحالف الذي في الآية إنما هو بحسب التداعي ، وذلك أن الشاهدين الأولين إنما يحلفان إن ارتيب فقد ترتبت عليهما دعوى فلتزمهما اليمين ، لكن هذا الارتياب إنما يكون في خيانة منهما ، فإن عثر بعد ذلك على أنهما استحقا إثماً نظر ، فإن كان الأمر بيناً غرما دون يمين وليين ، وإن كان بشاهد واحد أو بدلا بل تقتضي خيانتهما أو ما أشبه ذلك مما هو كالشاهد حمل على الظالم وحلف المدعيان مع قام لهما من شاهد أو دليل .

قال القاضي أبو محمد : فهذا هو الاختلاف في معنى الآية وصورة حكمهما ، ولنرجع الآن إلى الإعراب والكلام على لفظة لفظة من الآية ، ولنقصد القول المفيد لأن الناس خلطوا في تفسير هذه الآية تخليطاً شديداً ، وذكر ذلك والرد عليه يطول ، وفي تبيين الحق الذي تتلقاه الأذهان بالقبول مقنع ، والله المستعان ، قوله ﴿ شهادة بينكم ﴾ قال قوم الشهادة هنا بمعنى الحضور ، وقال الطبري : الشهادة بمعنى اليمين وليست بالتي تؤدى .

(157/218)

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله ضعيف ، والصواب أنها الشهادة التي تحفظ لتؤدى ، ورفعهما بالابتداء والخبر في قوله ﴿ اثنان ﴾ قال أبو علي : التقدير شهادة بينكم في وصاياكم شهادة اثنين ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقدره غيره أولاً كأنه قال مقيم شهادة بينكم اثنان ، وأضيفت الشهادة إلى " بين " اتساعاً في الظرف بأن يعامل معاملة الأسماء ، كما قال تعالى : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : 94] وقرأ الأعرج والشعبي والحسن " شهادةٌ " بالتنوين " بينكَم " بالنصب ، وإعراب هذه القراءة على نحو إعراب قراءة السبعة وروي عن الأعرج وأبي حيوة " شهادة " بالنصب والتنوين " بينكم " نصب ، قال أبو الفتح : التقدير ليقم شهادة بينكم اثنان ، وقوله تعالى : ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ معناه إذا قرب الحضور وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميت وهذا كقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ [النحل : 98] وكقوله ﴿ إذا طلقتم النساء فطلقوهن ﴾ [الطلاق : 1] وهذا كثير ، والعامل في ﴿ إذا ﴾ المصدر الذي هو ﴿ شهادة ﴾ ، وهذا على أن تجعل ﴿ إذا ﴾ بمنزلة حين لا تحتاج إلى جواب ولك أن تجعل ﴿ إذا ﴾ في هذه الآية المحتاجة إلى الجواب ، لكن استغني عن جوابها بما تقدم في قوله ﴿ شهادة بينكم ﴾ إذ المعنى إذا حضر أحدكم الموت فينبغي أن يشهد ، وقوله ﴿ حين الوصية ﴾ ظرف زمان ، والعامل فيه ﴿ حضر ﴾ ، وإن شئت جعلته بدلاً من ﴿ إذا ﴾ ، قال أبو علي :

ولك أن تعلقه ﴿ بالموت ﴾ لا يجوز أن تعمل فيه ﴿ شهادة ﴾ لأنها إذا عملت في ظرف من الزمان لم تعمل في ظرف آخر منه ، وقوله ﴿ ذوا عدل ﴾ صفة لقوله اثنان ، و ﴿ منكم ﴾ صفة أيضاً بعد صفة ، وقوله تعالى : ﴿ من غيركم ﴾ صفة لآخران ، و ﴿ ضربتم في الأرض ﴾ معناه سافرتم للتجارة ، تقول ضربت في الأرض أي سافرت للتجارة ، وضربت الأرض ذهبت فيها لقضاء حاجة الإنسان ، وهذا السفر كان الذي يمكن أن يعدم المؤمن مؤمنين ، فلذلك خص بالذكر لأن سفر الجهاد لا يكاد يعدم فيه مؤمنين ، قال أبو علي : قوله ﴿ تحبسونهما ﴾ صفة ل ﴿ آخران ﴾ واعترض بين الموصوف والصفة بقوله : إن أنتم إلى الموت ، وأفاد الاعتراض أن العدول إلى ﴿ آخران ﴾ من غير الملة والقرابة حسب اختلاف العلماء في ذلك إنما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه ، واستغني عن جواب ﴿ إن ﴾ لما تقدم من قوله ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ وقال جمهور العلماء ﴿ الصلاة ﴾ هنا صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس ، وقد ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فيمن حلف على سلعته وأمر باللعان فيه ، وقال ابن عباس : إنما هي بعد صلاة الذميين ، وأما العصر فلا حرمة لها عندهما ، والفاء في قوله ﴿ فيقسمان ﴾ عاطفة جملة

على جملة لأن المعنى تم في قوله ﴿ من بعد الصلاة ﴾ قال أبو علي : وإن شئت لم تقدر الفاء عاطفة جملة على جملة ، ولكن تجعله جزاء كقول ذي الرمة :

وإنسان عيني يحسر الماء تارة . . . فيبدو وتارات يجم فيغرق

(159/218)

تقديره عندهم إذا حسر بدا ، فكذلك إذا حبستموهما أقسما وقوله ﴿ إن ارتبتم ﴾ شرط لا يتوجه تحليف الشاهدين إلا به ، ومتى لم يقع ارتياب ولا اختلاف فلا يمين ، أما أنه يظهر من حكم أبي موسى تحليف الذميين أنه باليمين تكمل شهادتهما وتنفذ الوصية لأهلها وإن لم يرتب ، وهذه الريبة عند من لا يرى الآية منسوخة ترتب فيا لخيانة وفي الاتهام بالميل إلى بعض الموصى لهما دون بعض وتقع مع ذلك اليمين عنده ، وأما من يرى الآية منسوخة فلا يقع تحليف إلا بأن يكون الارتياب في خيانة أو تعد بوجه من وجوه التعدي فيكون التحليف عنده بحسب الدعوى على منكر لا على أنه تكميل للشهادة ، والضمير في قول الحالفين ﴿ لا نشتري به ثمناً ﴾ عائد على القسم ، ويحتمل أن يعود على اسم الله تعالى ، قال أبو علي : يعود على تحريف الشهادة ، وقوله ﴿ لا نشتري ﴾ جواب ما يقتضيه قوله :

فيقسمان بالله ، لأن القسم ونحوه يتلقى بما تتلقى به الأيمان ، وتقديره به ثمناً ، أي ذا ثمن لأن الثمن لا يشترى .

(160/218)

وكذلك قوله تعالى : ﴿ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ [التوبة : 9] معناه ذا ثمن ، ولا يجوز أن يكون ﴿ نشتري ﴾ في هذه الآية بمعنى نبيع لأن المعنى يبطله وإن كان ذلك موجوداً في اللغة في غير هذا الموضع ، وخص " ذو القربى " بالذكر لأن العرف ميل النفس إلى قرابتهم واستسهالهم في جنب نفعهم ما لا يستسهل ، وقوله تعالى : ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ أضاف ﴿ شهادة ﴾ إليه تعالى من حيث هو الآمر بإقامتها الناهي عن كتمانها ، وقرأ الحسن والشعبي " ولا نكتمْ " بجزم الميم ، وقرأ علي بن أبي طالب ونعيم بن مسيسرة والشعبي بخلاف عنه " شهادةً " بالتنوين " الله " نصب ب ﴿ نكتم ﴾ ، كأن الكلام ولا نكتم الله شهادة قال الزهري ويحتمل أن يكون المعنى " ولا نكتم شهادة والله " ثم حذفت الواو ونصب الفعل إيجازاً ، وروى يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش " شهادةً " بالتنوين ألله بقطع الألف دون مد وخفض الهاء ، ورويت أيضاً عن الشعبي وغيره أنه كان يقف على الهاء من الشهادة بالسكون ، ثم يقطع الألف المكتوبة من غير مد كما تقدم ، وروي عنه أنه

كان يقرأ " الله " بمد ألف الاستفهام في الوجهين أعني بسكون الهاء من الشهادة وتحريكها منّونة منصوبة ، ورويت هذه التي هي تنوين الشهادة ومد ألف الاستفهام بعد عن علي بن أبي طالب ، قال أبو الفتح : أما تسكين هاء شهادة والوقف عليها واستئناف القسم فوجه حسن لأن استئناف القسم في أول الكلام أوقر له وأشد هيبة أن يدرج في عرض القول ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن حبيب والحسن البصري فيما ذكر أبو عمرو الداني " شهادةً " بالنصب والتنوين " آلله " بالمد في همزة الاستفهام التي هي عوض من حرف القسم " آنا " بمد ألف الاستفهام أيضاً دخلت لتوقيف وتقرير لنفوس المقسمين أو لمن خاطبوه وقرأ ابن محيصن " لملآثمين " بالإدغام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(161/218)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ . . . الآية ﴾

فيه سبع وعشرون مسألة :

الأُولى قال مكيّ رحمه الله : هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعراباً ومعنى وحُكماً ؛ قال ابن عطية : هذا كلام من لم يقع له الثلجُ في تفسيرها ؛ وذلك بيّن من كتابه رحمه الله .

قلت : ما ذكره مكيّ رحمه الله ذكره أبو جعفر النحاس قبلَه أيضاً ، ولا أعلم خلافاً أن هذه الآيات نزلت بسبب تميم الدارِيّ وعديّ بن بَدّاء .

روى البخاريّ والدارقطنيّ وغيرهما عن ابن عباس قال : "كان تميم الدارِيّ وعدِيّ بن بدّاء يختلفان إلى مكة ، فخرج معهما فتًى من بني سهم فتُوفّي بأرض ليس بها مسلم ، فأوصى إليهما ؛ فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاماً من فضة مخوّصاً بالذهب ، فاستحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما كتمتما ولا اطلعتما" ثم وُجد الجامُ بمكة فقالوا : اشتريناه من عَدِي وتَميم ، فجاء رجلان من ورثة السهميّ فحلفا أن هذا الجام للسهميّ ، ولَشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا ؛ قال : فأخذوا الجام ؛ وفيهم نزلت هذه الآية" لفظ الدّارَقُطنيّ .

وروى الترمذيّ عن تميم الدارِيّ في هذه الآية .

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ بَرِىء منها الناس غيري وغير عديّ بن بَدّاء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتَيَا الشام بتجارتهما ، وقدم عليهما مولىً لبني سهم يقال له : بُدَيل ابن أبي مريم بتجارة ، ومعه جَامٌ من فضة يريد به المِلك ، وهو عُظْم تجارته ، فمرض فأوصى إليهما ، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهلَه ؛ قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناها أنا وعديّ بن بدّاء ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا : ما ترك غير هذا ، وما دفع إلينا غيره ؛ قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تأثّمت من ذلك ، فأتيت أهله وأخبرتهم الخبر ، وأدّيت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فأتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا ، فأمرهم أن يستحلفوه بما يقطع به على أهل دينه ، فحلف فأنزل الله عز وجل ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من يدي عدِيّ بن بدّاء .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح .

وذكر الواقديّ أن الآيات الثلاث نزلت في تميم وأخيه عديّ ، وكانا نصرانيين ، وكان متجرهما إلى مكة ، فلما هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قدم ابن أبي مريم

مولى عمرو بن العاص المدينة وهو يريد الشام تاجراً ، فخرج مع تميم وأخيه عديّ ؛ وذكر الحديثَ .

(163/218)

وذكر النقاش قال : نزلت في بُدَيل بن أبي مريم مولى العاص بن وائل السهميّ ؛ كان خرج مسافراً في البحر إلى أرض النجاشيّ ، ومعه رجلان نصرانيان أحدهما يسمى تَميماً وكان من لَخْم وعدِيّ بن بدّاء ، فمات بُديل وهم في السفينة فرمى به في البحر ، وكان كتب وصيته ثم جعلها في المتاع فقال : أبلِغا هذا المتاع أهلي ، فلما مات بديل قبضا المال ، فأخذا منه ما أعجبهما فكان فيما أخذا إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال ، منقوشاً مموّهاً بالذهب ؛ وذكر الحديث .

وذكره سُنيد وقال : فلما قدموا الشام مرض بُدَيل وكان مسلماً ؛ الحديث .

الثانية قوله تعالى : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ ورد "شهد" في كتاب الله تعالى بأنواع مختلفة : منها قوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ قيل : معناه أحضروا .

ومنها "شَهِد" بمعنى قضى أي أعلم ؛ قاله أبو عبيدة ؛ كقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] .

ومنها "شَهِد" بمعنى أقرّ؛ كقوله تعالى: ﴿ والملائكةَ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء: 166].

ومنها "شَهِد" بمعنى حكم.

قال الله تعالى ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [يوسف: 26].

ومنها "شَهِد" بمعنى حلف؛ كما في اللِّعان.

"وشَهِد" بمعنى وَصَّى؛ كقوله تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾.

وقيل: معناها هنا الحضور للوصية؛ يقال: شَهِدت وصية فلان أي حضرتها.

وذهب الطبريّ إلى أن الشهادة بمعنى اليمين؛ فيكون المعنى يمين ما بينكم أن يحلف اثنان؛ واستدل على أن ذلك غير الشهادة التي تؤدّى للمشهود له بأنه لا يُعلم لله حكم يجب فيه على الشاهد يمينٌ.

واختار هذا القول القَفَّال.

وسميت اليمين شهادة؛ لأنه يثبت بها الحكم كما يثبت بالشهادة.

واختار ابن عطية أن الشهادة هنا هي الشهادة التي تُحفظ فتؤدّى، وضعّف كونها بمعنى الحضور واليمين.

(164/218)

الثالثة قوله تعالى : ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ قيل : معناه ما بينكم فحذفت "ما" وأُضيفت الشهادة إلى الظرف ، واستعمل اسما على الحقيقة ، وهو المسمى عند النحويين بالمفعول على السعة ؛ كما قال :

ويوماً شهدناه سُلَيما وعامرا . . .

أراد شهدنا فيه .

وقال تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] أي مكركم فيهما .

وأنشد :

تُصافح من لاقيتَ لي ذا عداوة . . .

صِفَاحا وعنّي بين عَيْنَيْكَ مُنْزَوِي

أراد ما بين عينيك فحذف ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] أي ما بيني وبينك .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ إِذَا حَضَرَ ﴾ معناه إذا قارب الحضور ، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميت .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله ﴾ [النحل : 98] .

وكقوله : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النساآء فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ [الطلاق : 1] ومثله كثير .

والعامل في "إذا" المصدر الذي هو "شَهَادَةُ" .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ حِينَ الوصية اثنان ﴾ "حين" ظرف زمان والعامل فيه "حَضَرَ" .

وقوله : "اثنان" يقتضي بمطلقه شخصين ، ويحتمل رجلين ، إلا أنه لما قال بعد ذلك : "ذَوَا عَدْلٍ" بيّن أنه أراد رجلين ؛ لأنه لفظ لا يصلح إلا للمذكر ، كما أن

﴿ ذَوَاتَآ ﴾ [الرحمن : 48] لا يصلح إلا للمؤنث .

وارتفع "اثنان" على أنه خبر المبتدأ الذي هو "شَهَادَةُ" ؛ قال أبو عليّ : "شَهَادَةُ" رفع بالابتداء والخبر في قوله : "اثنان" ؛ التقدير شهادة بينكم في وصاياكم شهادة اثنين ؛ فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : 6] أي مثل أُمهاتهم .

ويجوز أن يرتفع "اثنان" ب "شهادة" ؛ التقدير وفيما أنزل عليكم أو ليكن منكم أن يشهد اثنان ، أو ليقم الشهادة اثنان .

السادسة قوله تعالى : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ "ذَوَا عَدْلٍ" صفة لقوله : "اثْنَانِ" و "منكم" صفة بعد صفة .

وقوله : ﴿ أَوْآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي أو شهادة آخرين من غيركم ؛ فمن غيركم صفة لآخرين .

وهذا الفصل هو المشكل في هذه الآية ، والتحقيق فيه أن يقال : اختلف العلماء فيه على ثلاثة أقوال :

الأوّل أن الكاف والميم في قوله : "مِنْكُمْ" ضمير للمسلمين ﴿ أَوْآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ للكافرين ؛ فعلى هذا تكون شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزة في السفر إذا كانت وصية ، وهو الأشبه بسياق الآية ، مع ما تقرّر من الأحاديث .

وهو قول ثلاثة من الصحابة الذين شاهدوا التنزيل ؛ أبو موسى الأشعريّ ، وعبد الله بن قيس ، وعبد الله بن عباس ؛ فمعنى الآية من أوّلها إلى آخرها على هذا القول ؛ أن الله تعالى أخبر أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضر الموت أن تكون شهادة عدلين ؛ فإن كان في سفر وهو الضّرب في الأرض ، ولم يكن معه أحد من المؤمنين ، فليُشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر ، فإذا قدما وأدّيا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا وما بَدّلا ، وأن ما شهِدا به حق ، ما كتما فيه شهادة وحُكِم بشهادتهما ؛ فإن عُثِرَ بعد ذلك على أنهما كذبا أو خانا ، ونحو هذا مما هو إثم حلف رجلان من أولياء الموصِي في السفر ، وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما .

هذا معنى الآية على مذهب أبي موسى الأشعريّ ، وسعيد بن المسيب ، ويحيى بن يعمر

؛ وسعيد بن جبير وأبي مجْلَز وإبراهيم وشريح وعبيدة السلمانيّ ؛ وابن سِيرين ومجاهد وقتادة والسديّ وابن عباس وغيرهم .

وقال به من الفقهاء سفيان الثوريّ ؛ ومال إليه أبو عبيد القاسم بن سلام لكثرة من قال به .

واختاره أحمد بن حنبل وقال : شهادة أهل الذمة جائزة على المسلمين في السفر عند عدم المسلمين ؛ كلهم يقولون "مِنكم" من المؤمنين ومعنى ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ يعني الكفار .

قال بعضهم : وذلك أن الآية نزلت ولا مؤمن إلا بالمدينة ؛ وكانوا يسافرون بالتجارة صحبة أهل الكتاب وعبدة الأوثان وأنواع الكفرة .

(166/218)

والآية محكمة على مذهب أبي موسى وشُرَيْح وغيرهما .

القول الثاني أن قوله سبحانه : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ منسوخ ؛ هذا قول زيد بن أسلم والنخعيّ ومالك ؛ والشافعيّ وأبي حنيفة وغيرهم من الفقهاء ؛ إلا أن أبا حنيفة خالفهم فقال : تجوز شهادة الكفار بعضهم على بعض ؛ ولا تجوز على المسلمين ؛ واحتجوا بقوله تعالى :

﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء ﴾ [البقرة : 282] وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَي عَدْلٍ

مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق : 2] ؛ فهؤلاء زعموا أن آية الدَّين من آخر ما نزل ؛ وأن فيها ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء ﴾ فهو ناسخ لذلك ؛ ولم يكن الإسلام يومئذ إلا بالمدينة ؛ فجازت شهادة أهل الكتاب ؛ وهو اليوم طبق الأرض فسقطت شهادة الكفار ؛ وقد أجمع المسلمون على أن شهادة الفُسّاق لا تجوز ؛ والكفار فساق فلا تجوز شهادتهم .

قلت : ما ذكرتموه صحيح إلا أنا نقول بموجبه ؛ وأن ذلك جائز في شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر خاصة للضرورة بحيث لا يوجد مسلم ؛ وأما مع وجود مسلم فلا ؛ ولم يأت ما ادعيتموه من النسخ عن أحد ممن شهد التنزيل ؛ وقد قال بالأوّل ثلاثة من الصحابة وليس ذلك في غيره ؛ ومخالفة الصحابة إلى غيرهم ينفر عنه أهل العلم .

ويقوّي هذا أن سورة "المائدة" من آخر القرآن نزولاً حتى قال ابن عباس والحسن وغيرهما : إنه لا منسوخ فيها .

وما ادعوه من النّسخ لا يصح ؛ فإن النّسخ لا بدّ فيه من إثبات الناسخ على وجه يتنافى الجمع بينهما مع تراخي الناسخ ؛ فما ذكروه لا يصح أن يكون ناسخاً ؛ فإنه في قصة غير قصة الوصية لمكان الحاجة والضرورة ؛ ولا يمتنع اختلاف الحكم عند الضرورات ؛ ولأنه ربما كان الكافر ثقة عند المسلم ويرتضيه عند الضرورة ؛ فليس فيما قالوه ناسخ .

(167/218)

القول الثالث أن الآية لا نسخ فيها ؛ قاله الزهريّ والحسن وعِكرِمة ؛ ويكون معنى قوله : "مِنْكُمْ" أي من عشيرتكم وقرابتكم ؛ لأنهم أحفظ وأضبط وأبعد عن النسيان .

ومعنى قوله : ﴿ أَوْآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي من غير القرابة والعشيرة ؛ قال النحاس : وهذا ينبني على معنى غامض في العربية ؛ وذلك أن معنى "آخَر" في العربية من جنس الأوّل ؛ تقول : مررت بكريم وكريم آخر ؛ فقوله "آخر" يدل على أنه من جنس الأوّل ؛ ولا يجوز عند أهل العربية مررت بكريم وخسيس آخر ؛ ولا مررت برجل وحمار آخر ؛ فوجب من هذا أن يكون معنى قوله : ﴿ أَوْآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي عدلان ؛ والكفار لا يكونون عدولاً فيصح على هذا قول من قال "مِنْ غَيْرِكُمْ" من غير عشيرتكم من المسلمين . وهذا معنى حسن من جهة اللسان ؛ وقد يحتج به لمالك ومن قال بقوله ؛ لأن المعنى عندهم ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ من غير قبيلتكم ؛ على أنه قد عورض هذا القول بأنّ في أوّل الآية ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ ﴾ فخوطب الجماعة من المؤمنين .

السابعة استدل أبو حنيفة بهذه الآية على جواز شهادة الكفار من أهل الذمة فيما بينهم ؛ قال : ومعنى ﴿ أَوْآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي من غير أهل دينكم ؛ فدل على جواز شهادة بعضهم على بعض ؛ فيقال له : أنت لا تقول بمقتضى هذه الآية ؛ لأنها نزلت في قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين وأنت لا تقول بها ؛ فلا يصح احتجاجك بها .

فإن قيل : هذه الآية دلت على جواز قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين من طريق النطق ؛ ودلت على قبول شهادتهم على أهل الذمة من طريق التنبيه ، وذلك أنه إذا قبلت شهادتهم على المسلمين فلأن تقبل على أهل الذمة أولى ؛ ثم دلّ الدليل على بطلان شهادتهم على المسلمين ؛ فبقي شهادتهم على أهل الذمة على ما كان عليه ؛ وهذا ليس بشيء ؛ لأن قبول شهادة أهل الذمة على أهل الذمة فرع لقبول شهادتهم على المسلمين ؛ فإذا بطلت شهادتهم على المسلمين وهي الأصل فلأن تبطل شهادتهم على أهل الذمة وهي فرعها أحرى وأولى .

والله أعلم .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي سافرتم ؛ وفي الكلام حذف تقديره إن أنتم ضربتم في الأرض ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الموت ﴾ فأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنكم ؛ ودفعتم إليهما ما معكم من المال ، ثم متم وذهبا إلى ورثتكم بالتركة فارتابوا في أمرهما ؛ وادّعوا عليهما خيانة ؛ فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصَّلاة ؛ أي تستوثقوا منهما ؛ وسمى الله تعالى الموت في هذه الآية مصيبة ؛ قال علماؤنا : والموت وإن كان مصيبة

عظمى ؛ ورزِية كبرى ؛ فأعظم منه الغفلة عنه ؛ والإعراض عن ذكره ؛ وترك التفكر فيه ؛ وترك العمل له ؛ وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر ؛ وفكرة لمن تفكّر .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً " ويروى أن أعرابياً كان يسير على جمل له ؛ فخر الجمل ميتاً فنزل الأعرابيّ عنه ؛ وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول : ما لك لا تقوم ؟ ! مالك لا تنبعث ؟ ! هذه أعضاؤك كاملة ؛ وجوارحك سالمة ؛ ما شأنك ؟ ! ما الذي كان يحملك ؟ ! ما الذي كان يبعثك ؟ ! ما الذي صرعك ؟ ! ما الذي عن الحركة منعك ؟ ! ثم تركه وانصرف متفكراً في شأنه ؛ متعجباً من أمره .

(169/218)

التاسعة قوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ قال أبو علي : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ صفة ل "آخران" واعترض بين الصفة والموصوف بقوله : "إِنْ أَنْتُمْ" .

وهذه الآية أصل في حبس من وجب عليه حقّ ؛ والحقوق على قسمين : منها ما يصلح استيفاؤه معجّلاً ؛ ومنها ما لا يمكن استيفاؤه إلاَّ مؤجلاً ؛ فإن خُلّي مَنْ عليه الحق غاب واختفى وبطل الحَق وتوِي فلم يكن بدّ من التوثق منه ؛ فإما بعِوض عن الحق وهو المسمى

رهناً ؛ وإما بشخص ينوب منابه في المطالبة والذمة وهو الحمِيل ؛ وهو دون الأوّل ؛ لأنه يجوز أن يغيب كمغيبه ويتعذر وجوده كتعذره ؛ ولكن لا يمكن أكثر من هذا ؛ فإن تعذرا جميعاً لم يبق إلاَّ التوثق بحبسه حتى تقع منه التوفية لما كان عليه من حق ؛ أو تَبيّن عسرته .

العاشرة فإن كان الحق بدنياً لا يقبل البدل كالحدود والقصاص ولم يتفق استيفاؤه معجّلاً ؛ لم يكن فيه إلاَّ التوثق بسجنه ؛ ولأجل هذه الحكمة شرِع السجن ؛ روى أبو داود والترمذيّ وغيرهما عن بَهْزِ بن حكِيم عن أبيه عن جده : " أن النبي صلى الله عليه وسلم حبس رجلاً في تهمة " وروى أبو داود عن عمرو بن الشَّرِيد عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لَيُّ الوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَه وعُقوبَته " قال ابن المبارك يحلُّ عِرضَه يُغَلّظ له ، وعقوبته يُحبَس له .

قال الخطّابي : الحبس على ضربين ؛ حبس عقوبة ، وحبس استظهار ، فالعقوبة لا تكون إلاَّ في واجب ، وأما ما كان في تهمة فإنما يستظهر بذلك ليستكشف به ما وراءه ؛ وقد روي أنه حَبَس رجلاً في تهمة ساعة من نهار ثم خَلّى عنه .

وروى معمر عن أيوب عن ابن سيرين قال : كان شُرَيح إذا قضى على رجل بحق أمر بحبسه في المسجد إلى أن يقوم فإن أعطاه حقه وإلاَّ أمر به إلى السجن .

الحادية عشرة قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ الصلاة ﴾ يريد صلاة العصر ؛ قاله الأكثر من العلماء ؛ لأن أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويتجنبون فيه الكذب واليمين الكاذبة .

وقال الحسن : صلاة الظهر .

وقيل : أي صلاة كانت .

وقيل : من بعد صلاتهما على أنهما كافران ؛ قاله السديّ .

وقيل : إن فائدة اشتراطه بعد الصَّلاة تعظيماً للوقت ، وإرهاباً به ، لشهود الملائكة ذلك الوقت ؛ وفي الصحيح : " من حلف على يمين كاذبة بعد العصر لقي الله وهو عليه غضبان " .

الثانية عشرة هذه الآية أصل في التغليظ في الإيمان ، والتغليظ يكون بأربعة أشياء : أحدها الزمان كما ذكرنا .

الثاني ؛ المكان كالمسجد والمنبر ، خلافاً لأبي حنيفة وأصحابه حيث يقولون : لا يجب استحلاف أحد عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بين الركن والمقام لا في قليل الأشياء ولا في كثيرها ؛ وإلى هذا القول ذهب البخاريّ رحمه الله حيث ترجم "باب يَحلِف المدَّعَى عليه حيثما وجَبَت عليه اليمينُ ولا يُصرَف من موضع إلى غيره" .

وقال مالك والشافعي : ويُجلب في أيمان القسامة إلى مكة من كان من أعمالها ، فيحلف

بين الركن والمقام ، ويُجلب إلى المدينة من كان من أعمالها ، فيحلف عند المنبر .

الثالث الحال ؛ روى مُطَرِّف وابن الماجِشون وبعض أصحاب الشافعي أنه يحلف قائماً مستقبل القبلة ؛ لأن ذلك أبلغ في الردع والزجر .

وقال ابن كنانة : يحلف جالساً ؛ قال ابن العربيّ : والذي عندي أنه يحلف كما يُحكم عليه بها إن كان قائماً فقائماً وإن جالساً فجالساً إذ لم يثبت في أثر ولا نظر اعتبار ذلك من قيام أو جلوس .

قلت : قد استنبط بعض العلماء من قوله في حديث عَلْقَمة بن وائل عن أبيه : "فانطلق ليحلف" القيامَ والله أعلم أخرجه مسلم .

(171/218)

الرابع التغليظ باللفظ ؛ فذهبت طائفة إلى الحلف بالله لا يزيد عليه ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ إِي وربي ﴾ [يونس : 53] وقال : ﴿ وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ [الأنبياء : 57] وقوله عليه السَّلام : " من كان حالفاً فليحلف بالله أو لِيَصْمُتْ " وقول الرجل : والله لا أُزيد عليهنّ .

وقال مالك : يحلف بالله الذي لا إله إلاَّ هو ما له عندي حق ، وما ادعاه عليّ باطل ؛

والحجة له ما رواه أبو داود حدّثنا مسدّد قال حدّثنا أبو الأحوص قال حدّثنا عطاء بن السائب عن أبي يحيى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يعني لرجل حلفه : " احلف بالله الذي لا إله إلاَّ هو ما له عندك شيء " يعني للمدّعي ؛ قال أبو داود : أبو يحيى اسمه زياد كُوفِي ثقة ثَبْت .

وقال الكوفيون : يحلف بالله لا غير ، فإن اتهمه القاضي غلظ عليه اليمين ؛ فيحلفه بالله الذي لا إله إلاَّ هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية ، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وزاد أصحاب الشافعيّ التغليظ بالمصحف .

قال ابن العربي : وهو بدعة ما ذكرها أحد قط من الصحابة .

وزعم الشافعيّ أنه رأى ابن مازن قاضي صنعاء يحلف بالمصحف ويأمر أصحابه بذلك ويرويه عن ابن عباس ، ولم يصح .

قلت : وفي كتاب "المهذب" وإن حلف بالمصحف وما فيه من القرآن فقد حكى الشافعي عن مُطرِّف أن ابن الزبير كان يحلف على المصحف ، قال : ورأيت مطرّفاً بصنعاء يحلف على المصحف ؛ قال الشافعيّ : وهو حَسَنٌ .

قال ابن المنذرِ : وأجمعوا على أنه لا ينبغي للحاكم أن يستحلف بالطلاق والعتاق والمصحف .

قلت : قد تقدّم في الأيمان : وكان قتادة يحلف بالمصحف .

وقال أحمد وإسحق : لا يكره ذلك ؛ حكاه عنهما ابن المنذر .

(172/218)

الثالثة عشرة اختلف مالك والشافعي من هذا الباب في قدر المال الذي يحلف به في مقطع الحق ؛ فقال مالك : لا تكون اليمين في مقطع الحق في أقل من ثلاثة دراهم قياساً على القطع ، وكلُّ مال تقطع فيه اليد وتسقط به حرمة العَضْو فهو عظيم .

وقال الشافعيّ : لا تكون اليمين في ذلك في أقلَّ من عشرين ديناراً قياساً على الزكاة ، وكذلك عند مِنْبَر كل مسجد .

الرابعة عشرة قوله تعالى : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ ﴾ الفاء في ﴿ فَيُقْسِمَانِ ﴾ عاطفة جملة على جملة ، أو جواب جزاء ؛ لأن ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ معناه احبسوهما ، أي لليمين ؛ فهو جواب الأمر الذي دل عليه الكلام كأنه قال : إذا حبستموهما أقسما ؛ قال ذو الرُّمة :

وَإنسانُ عيْني يَحْسِرُ الماءَ مرةً . . .

فيَبْدوا وتَاراتٍ يَجِمّ فيَغْرَقُ

تقديره عندهم : إذا حسر بدا .

الخامسة عشرة واختلف مَن المراد بقوله : ﴿ فَيُقْسِمَانِ ﴾ ؟ فقيل : الوصيان إذا ارتيب في قولهما .

وقيل : الشاهدان إذا لم يكونا عدلين وارتاب بقولهما الحاكم حلّفهما .

قال ابن العربيّ مبطلاً لهذا القول : والذي سمعت وهو بدعة عن ابن أبي ليلى أنه يحلِّف الطالب مع شاهديه أن الذي شهدا به حق ؛ وحينئذٍ يُقْضَى له بالحق ؛ وتأويل هذا عندي إذا ارتاب الحاكم بالقبض فيحلف إنه لباق ، وأما غير ذلك فلا يلتفت إليه ؛ هذا في المدعى فكيْف يحبس الشاهد أو يحلف ؟! هذا ما لا يلتفت إليه .

قلت : وقد تقدّم من قول الطبريّ في أنه لا يُعلَم لله حكم يجب فيه على الشاهد يمين .

وقد قيل : إنما استحلف الشاهدان لأنهما صارا مُدَّعى عليهما ، حيث ادعى الورثة أنهما خانا في المال .

السادسة عشرة قوله تعالى : ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ شرط لا يتوجه تحليف الشاهدين إلاَّ به ، ومتى لم يقع رَيْبٌ ولا اختلاف فلا يمين .

(173/218)

قال ابن عطية : أما أنه يظهر من حكم أبي موسى في تحليف الذميين أنه باليمين تكمل شهادتهما وتنفذ الوصية لأهلها ؛ روى أبو داود عن الشعبيّ : أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدَقُوقَاء هذه ، ولم يجد أحداً من المسلمين حضره يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، فقدِما الكوفة فأتيا الأشعريّ فأخبراه ؛ وقدِما بتركته ووصيته ؛ فقال الأشعريّ : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأحلفهما بعد العصر : "بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدّلا ولا كتما ولا غيّرا وإنها لوصِية الرجل وتركته" فأمضى شهادتهما .

قال ابن عطية : وهذه الريبة عند من لا يرى الآية منسوخة تترتب في الخيانة ، وفي الاتهام بالميل إلى بعض الموصى لهم دون بعض ، وتقع مع ذلك اليمين عنده ؛ وأما من يرى الآية منسوخة فلا يقع تحليف إلاَّ أن يكون الإرتياب في خيانة أو تعدّ بوجه من وجوه التعدّي ؛ فيكون التحليف عنده بحسب الدعوى على منكِر لا على أنّه تكميل للشهادة .

قال ابن العربيّ : يمين الريبة والتهمة على قسمين : أحدهما ما تقع الريبة فيه بعد ثبوت الحق وتوجه الدعوى فلا خلاف في وجوب اليمين .

الثاني التهمة المطلقة في الحقوق والحدود ، وله تفصيل بيانه في كتب الفروع ؛ وقد تحققت هاهنا الدعوى وقويت حسبما ذكر في الروايات .

السابعة عشرة الشرط في قوله : ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ يتعلق بقوله : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ لا بقوله

﴿ فَيُقْسِمَانِ ﴾ لأن هذا الحبس سبب القسم .

الثامنة عشرة قوله تعالى : ﴿ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ أي يقولان في يمينهما لا نشتري بقسمنا عوضاً نأخذه بدلاً مما أوصى به ، ولا ندفعه إلى أحد ولو كان الذي نقسم له ذا قربى منا .

وإضمار القول كثير ، كقوله :

﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : 23-24] أي يقولون سلام عليكم .

(174/218)

والاشتراء ها هنا ليس بمعنى البيع ، بل هو التحصيل .

التاسعة عشرة اللام في قوله : ﴿ لاَ نَشْتَرِي ﴾ جواب لقوله : ﴿ فَيُقْسِمَانِ ﴾ لأن أقسم يلتقي بما يلتقي به القسم ؛ وهو "لا" و"ما" في النفي ، "وإنّ" واللام في الإيجاب .

والهاء في "به" عائد على اسم الله تعالى ، وهو أقرب مذكور ؛ المعنى : لا نبيع حظنا من الله تعالى بهذا العَرَض .

ويحتمل أن يعود على الشهادة وذُكِّرت على معنى القول ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : "

واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " فأعاد الضمير على معنى الدعوة الذي هو الدعاء ، وقد تقدّم في سورة "النساء" .

الموفية عشرين قوله تعالى : "ثَمَناً" قال الكوفيون : المعنى ذا ثمن أي سلعة ذا ثمن ، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه .

وعندنا وعند كثير من العلماء أن الثمن قد يكون هو ويكون السلعة ؛ فإن الثمن عندنا مشترًى كما أن المثمون مشترًى ؛ فكل واحد من المبيعين ثمناً ومثموناً كان البيع دائراً على عَرْض ونَقْد ، أو على عرضين ، أو على نقْدَيْن ؛ وعلى هذا الأصل تنبني مسألة : إذا أفلس المبتاع ووجد البائع متاعه هل يكون أولى به ؟ قال أبو حنيفة : لا يكون أولى به ؛ وبناه على هذا الأصل ، وقال : يكون صاحبها أُسوة الغرماء .

وقال مالك : هو أحق بها في الفَلَس دون الموت .

وقال الشافعيّ : صاحبها أحق بها في الفلس والموت .

تمسّك أبو حنيفة بما ذكرنا ، وبأن الأصل الكليّ أن الدَيْن في ذمة المفلِس والميت ، وما بأيديهما محل للوفاء ؛ فيشترك جميع الغرماء فيه بقدر رؤوس أموالهم ، ولا فرق في ذلك بين أن تكون أعيان السِّلَع موجودة أو لا ، إذ قد خرجت عن ملك بائعها ووجبت أثمانُها لهم في الذمة بالإجماع ، فلا يكون لهم إلاَّ أثمانها أو ما وُجد منها .

وخَصّص مالك والشافعيّ هذه القاعدة بأخبار رُويت في هذا الباب رواها الأئمة أبو داود وغيره.

(175/218)

الحادية والعشرون قوله تعالى: ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ أي ما أعلمنا الله من الشهادة. وفيها سبُع قراءات، من أرادها وجدها في "التحصيل" وغيره. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله:

﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ﴾

روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدي يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من بني سهم فتوفي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب فاستحلفهما، وفي رواية فحلفهما بعد العصر النبي صلى الله عليه وسلم " ما كتمتما ولا اطلعتما " ثم وجد الجام بمكة فقالوا اشتريناه من عدي وتميم فجاء الرجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحق

من شهادتهما ، وما اعتدينا قال : فأخذ الجام وفيهم نزلت الآية ، قيل والسهمي هو مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم وأن جام الفضة كان يريد به الملك وهو أعظم تجاراته وأن عدياً وتميماً باعاه بألف درهم واقتسماها ، وقيل اسمه بديل بن أبي مارية مولى العاصي بن وائل السهمي وأنه خرج مسافراً في البحر إلى أرض النجاشي .

وأن إناء الفضة كان وزنه ثلثمائة مثقال وكان مموّهاً بالذهب قال فقدموا الشام ، فمرض بديل وكان مسلماً الحديث .

وذكر أبو عبد الله بن الفضل أن ورثة بديل قالوا لهما ألستما زعمتما أن صاحبنا لم يبع شيئاً من متاعه ، فما بال هذا الإناء معكما وهو مما خرج صاحبنا به وقد حلفتما عليه قالا إنا كنا ابتعناه منه ، ولم يكن لنا عليه بينة فكرهنا أن نقر لكم فتأخذوه منا وتسألوا عليه البينة ولا نقدر عليها فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت انتهى .

(176/218)

وفي رواية قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله وأخبرتهم الخبر وأديت لهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا ما أمروا به فأمرهم أن

يستحلفوه بما يقطع به على أهل دينه فحلف فأنزل الله هذه الآية إلى قوله : ﴿ بعد أيمانهم ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من يد عدي بن زيد وزاد الواقدي في حديثه أن تميماً وعدي كانا أخوين ويعني والله أعلم أنهما أخوان لأم وأن بديلاً كتب وصيته بيده ودسها في متاعه ، وأوصى إلى تميم وعدي أن يؤدّيا رحله وأن الرسول استحلفهما بعد العصر وأنه حلف عبد الله بن عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة ، وذكر الزمخشري هذا السبب مختصراً مجرداً فذكر فيه أن بديل بن أبي مريم كان من المهاجرين وأنه كتب كتاباً فيه ما معه وطرحه في متاعه ولم يخبر به صاحبيه فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء فجحدوا فرفعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ، وقال ابن عطية ولم يصح لعدي صحبة فيما علمت ولا ثبت إسلامه وقد عده بعض المتأخرين في الصحابة ، وقال مكي بن أبي طالب : هذه الآيات عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعراباً ومعنى وحكماً ، قال ابن عطية وهذا كلام من لم يقع له الثلج في تفسيرها وذلك بين من كتابه انتهى .

وقال أبو الحسن السخاوي ما رأيت أحداً من الأئمة تخلص كلامه فيها من أولها إلى آخرها انتهى .

(177/218)

ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنه لما ذكر ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ كان في ذلك تنفير عن الضلال واستبعاد عن أن ينتفع بهم في شيء من أمور المؤمنين من شهادة أو غيرها فأخبر تعالى بمشروعية شهادتهم أو الإيصاء إليهم في السفر على ما سيأتي بيانه ، وقال أبو نصر القشيري لما نزلت السورة بالوفاء بالعقود وترك الخيانات انجر الكلام إلى هذا ، وقرأ الجمهور ﴿ شهادة بينكم ﴾ بالرفع وإضافة ﴿ شهادة ﴾ إلى ﴿ بينكم ﴾ ، وقرأ الشعبي والحسن والأعرج ﴿ شهادة بينكم ﴾ برفع شهادة وتنوينه ، وقرأ السلمي والحسن أيضاً ﴿ شهادة ﴾ بالنصب والتنوين وروي هذا عن الأعرج وأبي حيوة و ﴿ بينكم ﴾ في هاتين القراءتين منصوب على الظرف فشهادة على قراءة الجمهور مبتدأ مضاف إلى بين بعد الاتساع فيه كقوله

﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ وخبره ﴿ اثنان ﴾ تقديره شهادة اثنين أو يكون التقدير ذوا شهادة بينكم إثنان واحتيج إلى الحذف ليطابق المبتدأ الخبر وكذا توجيه قراءة الشعبي والأعرج ، وأجاز الزمخشري أن يرتفع ﴿ اثنان ﴾ على الفاعلية بشهادة ويكون ﴿ شهادة ﴾ مبتدأ وخبره محذوف وقدره فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان ، وقيل ﴿ شهادة ﴾ مبتدأ خبره ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ ، وقيل خبره ﴿ حين الوصية ﴾ ، ويرتفع ﴿ اثنان ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، التقدير الشاهدان اثنان ذوا عدل

منكم ، أو على الفاعلية ، التقدير يشهد اثنان ، وقيل ﴿ شهادة ﴾ مبتدأ و﴿ اثنان ﴾ مرتفع به على الفاعلية وأغنى الفاعل عن الخبر .

وعلى الإعراب الأول يكون ﴿ إذاً ﴾ معمولاً للشهادة وأما ﴿ حين ﴾ فذكروا أنه يكون معمولاً لحضر أو ظرفاً للموت أو بدلاً من إذا ولم يذكر الزمخشري غير البدل ، قال و﴿ حين الوصية ﴾ بدل منه يعني من ﴿ إذا ﴾ وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية وأنها من الأمور اللازمة التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم ويذهل عنها ، وحضور الموت مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل انتهى .

(178/218)

وقال الماتريدي واتبعه أبو عبد الله الرازي : التقدير ما بينكم فحذف ما ، قال أبو عبد الله الرازي : يعني شهادة ما بينكم ، ﴿ بينكم ﴾ كناية عن التنازع لأن الشهود إنما يحتاج إليهم عند وقوع التنازع وحذف ما من قوله ما بينكم جائز لظهوره ونظيره ﴿ هذا فراق بيني وبينكم ﴾ أي ما بيني وبينك وقوله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ في قراءة من نصب انتهى ، وحذف ما الموصولة لا يجوز عند البصريين ومع الإضافة لا يصح تقدير ما البتة وليس قوله ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ نظيره ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ لأن ذلك مضاف إليه وهذا

باق على طريقته فيمكن أن يتخيل فيه تقدير ما لأن الإضافة إليه أخرجته عن الظرفية وصيرته مفعولاً به على السعة وأما تخريج قراءة السلمي والحسن ﴿ شهادة ﴾ بالنصب والتنوين ونصب ﴿ بينكم ﴾ فقدره الزمخشري ليقم شهادة اثنان فجعل ﴿ شهادة ﴾ مفعولاً بإضمار هذا الأمر و﴿ اثنان ﴾ مرتفع بليقم على الفاعلية وهذا الذي قدره الزمخشري هو تقدير ابن جني بعينه ، قال ابن جني التقدير ليقم شهادة بينكم اثنان انتهى ، وهذا الذي ذكره ابن جني مخالف لما قاله أصحابنا قالوا لا يجوز حذف الفعل وإبقاء فاعله إلا أن أشعر بالفعل ما قبله كقوله تعالى : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ على قراءة من فتح الباء فقرأه مبنياً للمفعول وذكروا في اقتياس هذا خلافاً أي يسبحه رجال فدل يسبح على يسبحه أو أجيب به نفي كأن يقال لك ما قام أحد عندك فتقول بلى زيد أي قام زيد أو أجيب به استفهام كقول الشاعر :

ألا هل أتى أم الحويرث مرسل . . .

بل خالد إن لم تعقه العوائق

(179/218)

التقدير أتى خالد أو يأتيها خالد وليس حذف الفعل الذي قدره ابن جني وتبعه الزمخشري واحداً من هذه الأقسام الثلاثة والذي عندي أن هذه القراءة الشاذة تخرج على وجهين :

أحدهما أن يكون ﴿ شهادة ﴾ منصوبة على المصدر الذي ناب مناب الفعل بمعنى الأمر و﴿ اثنان ﴾ مرتفع به والتقدير ليشهد بينكم اثنان فيكون من باب قولك : ضرباً زيداً إلا أن الفاعل في ضرباً مسند إلى ضمير المخاطب لأن معناه اضرب وهذا مسند إلى الظاهر لأن معناه ليشهد ، والوجه الثاني أن يكون أيضاً مصدراً ليس بمعنى الأمر بل يكون خبراً ناب مناب الفعل في الخبر ، وإن كان ذلك قليلاً كقولك افعل وكرامة ومسرة أي وأكرمك وأسرك فكرامة ومسرة بدلان من اللفظ بالفعل في الخبر وكما هو الأحسن في قول امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم . . .

فارتفاع صحبي وانتصاب مطيهم بقوله وقوفاً لأنه بدل من اللفظ بالفعل في الخبر التقدير وقف صحبي على مطيهم والتقدير في الآية يشهد إذا حضر أحدكم الموت اثنان ، والشهادة هنا هل هي التي تقام بها الحقوق عند الحكام أو الحضور أو اليمين ثلاثة أقوال آخرها للطبري والقفال كقوله : ﴿ فشهادة أحدهم أربع شهادات ﴾ وقيل تأتي الشهادة بمعنى الإقرار نحو قوله : ﴿ والملائكة يشهدون ﴾ وبمعنى العلم نحو قوله : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ وبمعنى الوصية وخرجت هذه الآية عليه فيكون فيها أربعة أقوال .

(180/218)

﴿ ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ﴾ ﴿ ذوا عدل ﴾ صفة لقوله ﴿ اثنان ﴾ و﴿ منكم ﴾ صفة أخرى و﴿ من غيركم ﴾ صفة لآخران ، قال الزمخشري ﴿ منكم ﴾ من أقاربكم و﴿ من غيركم ﴾ من الأجانب ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ يعني أن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم فاستشهدوا أجنبيين على الوصية وجعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بأحوال الميت وبما هو أصلح وهم له أنصح ، وقيل ﴿ منكم ﴾ من المسلمين وإنما جازت في أول الإسلام لقلة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر ، وعن مكحول نسخها قوله : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ انتهى .

(181/218)

وما اختاره الزمخشري وبدأ به أولاً هو قول ابن عباس وعكرمة والحسن والزهري قالوا أمر الله بإشهاد عدلين من القرابة إذ هم أحق بحال الوصية وأدرى بصورة العدل فيها فإن كان الأمر في سفر ولم تحضر قرابة أسندها إلى غيرهما من المسلمين الأجانب وهذا القول مخالف

لما ذكره الزمخشري وغيره من المفسرين حتى ابن عطية قال لا نعلم خلافاً أن سبب هذه الآية أن تميماً الداري وعدي بن زياد كانا نصرانيين وساقا الحديث المذكور أولاً فهذا القول مخالف لسبب النزول وأما القول الثاني الذي حكاه الزمخشري هو مذهب أبي موسى وابن المسيب ويحيى بن يعمر وابن جبير وأبي مجلز وابراهيم وشريح وعبيدة السلماني وابن سيرين ومجاهد وقتادة والسدي ، وروي ذلك عن ابن عباس وبه قال الثوري ومال إليه أبو عبيد واختاره أحمد قالوا : معنى قوله : ﴿ منكم ﴾ من المؤمنين ومعنى ﴿ من غيركم ﴾ من الكفار ، قال بعضهم وذلك أن الآية نزلت ولا يؤمن إلا بالمدينة وكانوا يسافرون بالتجارة صحبة أهل الكتاب وعبدة الأوثان وأنواع الكفار ومذهب أبي موسى وشريح وغيرهما أن الآية محكمة ، قال أحمد : شهادة أهل الذمة جائزة على المسلمين في السفر عند عدم المسلمين ورجح أبو عبد الله الرازي هذا القول قال : قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خطاب لجميع المؤمنين فلما قال : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ كان من غير المؤمنين لا محالة وبأنه لو كان الآخران مسلمين لم يكن جواز الاستشهاد بهما مشروطاً بالسفر لأن المسلم جائز استشهاده في الحضر والسفر وبأنه دلت الآية على وجوب الحلف من بعد الصلاة وأجمع المسلمون على أن الشاهد لا يجب تحليفه فعلمنا أنهما ليسا من المسلمين وبسبب النزول وهو شهادة النصرانيين على بديل وكان مسلماً وبأن أبا موسى قضى بشهادة يهوديين بعد أن حلفهما وما أنكر عليه أحد من الصحابة فكان ذلك إجماعاً

وباتفاق أكثر الأمة على أن سورة المائدة من آخر ما نزل وليس فيها منسوخ ، وقال أبو جعفر النحاس

(182/218)

ناصراً للقول الأول : هذا ينبني على معنى غامض في العربية وذلك أن معنى آخر في العربية من جنس الأول تقول مررت بكريم وكريم آخر فقوله آخر يدل على أنه من جنس الأول ولا يجوز عند أهل العربية مررت بكريم وخسيس آخر ولا مررت برجل وحمار آخر فوجب من هذا أن يكون معنى قوله ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ أي عدلان والكفار لا يكونون عدولاً انتهى ، وما ذكره في المثل صحيح إلا أن الذي في الآية مخالف للمثل التي ذكرها النحاس في التركيب لأنه مثل بآخر وجعله صفة لغير جنس الأول .

وأما الآية فمن قبيل ما تقدم فيه آخر على الوصف واندرج آخر في الجنس الذي قبله ولا يعتبر جنس وصف الأول تقول : جاءني رجل مسلم وآخر كافر ومررت برجل قائم وآخر قاعدٍ واشتريت فرساً سابقاً وآخر مبطئاً فلو أخرت آخر في هذه المثل لم تجز المسألة لو قلت : جاءني رجل مسلم وكافر آخر ومررت برجل قائم وقاعد آخر واشتريت فرساً سابقاً ومبطئاً آخر لم يجز وليست الآية من هذا القبيل إلا أن التركيب فيها جاء ﴿ اثنان

ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ﴾ فآخران من جنس قوله ﴿ اثنان ﴾ ولا سيما إذا قدرته رجلان اثنان فآخران هما من جنس قولك رجلان اثنان ولا يعتبر وصف قوله ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ وإن كان مغايراً لقوله ﴿ من غيركم ﴾ كما لا يعتبر وصف الجنس في قولك عندي رجلان اثنان مسلمان وآخران كافران إذ ليس من شرط آخر إذا تقدم أن يكون من جنس الأول بعيد وصفه وهو على ما ذكرته هو لسان العرب قال الشاعر :

كانوا فريقين يصغون الزجاج على . . .

قعس الكواهل في أشداقها ضخم

وآخرين على الماذيّ فوقهم . . .

من نسج داود أو ما أورثت إرم

(183/218)

التقدير كانوا فريقين فريقاً أو ناساً يصغون الزجاج ثم قال وآخرين ترى المأذى ، فآخرين من جنس قولك فريقاً ، ولم يعبره بوصفه وهو قوله يصغون الزجاج لأن الشاعر قسم من ذكر إلى قسمين متباينين بالوصفين متحدي الجنس ، وهذا الفرق قل من يفهمه فضلاً عمن يعرفه ، وأما القول الثالث الذي حكاه الزمخشري وهو أنه منسوخ ، وحكاه عن مكحول ، فهو قول

زيد بن أسلم والنخعي ومالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم من الفقهاء إلا أن أبا حنيفة خالفهم فقال : تجوز شهادة الكفار بعضهم على بعض لا على المسلمين ، والناسخ قوله : ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ وقوله : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ وزعموا أن آية الدين من آخر ما نزل ، والظاهر أن أو للتخيير وقال به ابن عباس فمن جعل قوله ﴿ من غيركم ﴾ أي من الكفار فاختلفوا .

فقيل ﴿ غيركم ﴾ يعني به أهل الكتاب وروي ذلك عن ابن عباس ، وقيل أهل الكتاب والمشركين وهو ظاهر قوله ﴿ من غيركم ﴾ ، وقيل ﴿ أو ﴾ للترتيب إذا كان قوله ﴿ من غيركم ﴾ يعني به من غير أهل ملتكم فالتقدير إن لم يوجد من ملتكم .

﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ هذا التفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى على لفظ ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ لكان التركيب إن هو ضرب في الأرض فأصابته مصيبة الموت وإنما جاء الالتفات جمعاً لأن قوله ﴿ أحدكم ﴾ معناه إذا حضر كل واحد منكم الموت ، والمعنى إذا سافرتم في الأرض لمصالحكم ومعايشكم ، وظاهر الآية يقتضي أن استشهاد آخرين من غير المسلمين مشروط بالسفر في الأرض وحضور علامات الموت .

﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ الخطاب للمؤمنين لا لما دلّ عليه الخطاب في قوله ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم ﴾ لأن ضرب في الأرض وأصابه الموت ليس هو الحابس

، ﴿ تحبسونهما ﴾ صفة لآخران واعترض بين الموصوف والصفة بقوله ﴿ إن أنتم . .

.

(184/218)

إلى الموت ﴾ وأفاد الاعتراض أن العدول إلى آخرين من غير الملة أو القرابة ، حسب اختلاف العلماء في ذلك ، إنما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه استغنى عن جواب إن لما تقدم من قوله و ﴿ آخران من غيركم ﴾ انتهى .

وإلى أن ﴿ تحبسونهما ﴾ صفة ذهب الحوفي وأبو البقاء وهو ظاهر كلام ابن عطية إذ لم يذكر غير قول أبي علي الذي قدّمناه .

وقال الزمخشري (فإن قلت) : ما موضع ﴿ تحبسونهما ﴾ .

(قلت) : هو استئناف كلام كأنه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما فكيف إن ارتبنا فقيل : ﴿ تحبسونهما ﴾ ، وما قاله الزمخشري من الاستئناف أظهر من الوصف لطول الفصل بالشرط والمعطوف عليه بين الموصوف وصفته .

وإنما قال الزمخشري بعد اشتراط العدالة فيهما لأنه اختار أن يكون قوله ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ معناه أو عدلان آخران من غير القرابة وتقدم من كلام أبي على أن العدول إلى

آخرين من غير الملة أو القرابة إنما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه إلى آخر كلامه ، فظهر منه أن تقدير جواب الشرط هو ﴿ إن ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ فاستشهدوا آخرين من غيركم أو فالشاهدان آخران من غيركم ، والظاهر أن الشرط قيد في شهادة اثنين ذوي عدل من المؤمنين أو آخرين من غير المؤمنين فيكون مشروعية الوصية للضارب في الأرض المشارف على الموت أن يشهد اثنين ، ويكون تقدير الجواب : إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت فاستشهدوا اثنين إما منكم وإما من غيركم ، ولا يكون الشرط إذ ذاك قيداً في آخرين من غيرنا فقط ، بل هو قيد فيمن ضرب في الأرض وشارف الموت فيشهد اثنان منا أو من غيرنا .

وقال ابن عباس في الكلام محذوف تقديره فأصابتكم مصيبة الموت وقد استشهدتموهما على الإيصاء ، وقال ابن جبير تقديره وقد أوصيتم .

قيل وهذا أولى لأن الشاهد لا يحلف والموصي يحلف .

(185/218)

ومعنى ﴿ تحبسونهما ﴾ تستوثقونهما لليمين والخطاب لمن يلي ذلك من ولاة الإسلام ، وضمير المفعول عائد في قول على آخرين من غير المؤمنين وظاهر عوده على اثنين منا أو من

غيرنا سواء كانا وصيين أو شاهدين ، وظاهر قوله من بعد الصلاة أن الألف واللام للجنس أو من بعد أي صلاة ، وقد قيل بهذا الظاهر وخص ذلك ابن عباس بصلاة دينهما وذلك تغليظ في اليمين ، وقال الحسن بعد العصر أو الظهر لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما ، وقال الجمهور هي صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس وكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم استحلف عدياً وتميماً بعد العصر عند المنبر ورجح هذا القول بفعله صلى الله عليه وسلم وبقوله في الصحيح : " من حلف على يمين كاذبة بعد العصر لقي الله وهو عليه غضبان " .

وبأن التحليف كان معروفاً بعدهما فالتقييد بالمعروف يغني عن التقييد باللفظ وبأن جميع الأديان يعظمون هذا الوقت ويذكرون الله فيه فتكون الألف واللام في هذا القول للعهد وكذا في قول الحسن .

﴿ فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ ظاهره تقييد حلفهما بوجود الارتياب فمتى لم توجد الريبة فلا تحليف .

وينبغي أن يحمل تحليف أبي موسى لليهوديين اللذين استشهدهما مسلم توفي على وصيته على أنه وقعت ريبة وإن لم يذكر ذلك في قصة ذلك المسلم ، والفاء في قوله ﴿ فيقسمان ﴾ عاطفة هذه الجملة على قوله ﴿ تحبسونهما ﴾ هذا هو الظاهر .

وقال أبو علي وإن شئت لم تقدر الفاء لعطف جملة ولكن تجعله جزاء كقول ذي الرمة :

وإنسان عيني يحسر الماء تارة . . .

فيبدو وتارات يجم فيغرق

تقديره عندهم إذا حسر بدا فكذلك إذا حبستموهما اقسما انتهى .

(186/218)

ولا ضرورة تدعو إلى تقدير شرط محذوف وإبقاء جوابه فتكون الفاء إذ ذاك فاء الجزاء وإلى تقدير مضمر بعد الفاء أي فهما يقسمان وفهو يبدو ، وخرّج أصحابنا بيت ذي الرمة على توجيه آخر وهو أن قوله : يحسر الماء تارة .

جملة في موضع الخبر وقد عريت عن الرابط فكان القياس أن لا تقع خبراً للمبتدأ لكنه عطف عليهما بالفاء جملة فيها ضمير المبتدأ فحصل الربط بذلك و ﴿ لا نشتري ﴾ هو جواب قوله فيقسمان بالله وفصل بين القسم وجوابه بالشرط .

والمعنى إن ارتبتم في شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما ، وقيل إن أريد بهما الشاهدان ، فقد نسخ تحليف الشاهدين وإن أريد الوصيّان فليس بمنسوخ تحليفهما وعن عليّ أنه كان يحلّف الشاهد والراوي إذا اتهمها ، والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على الله أو على القسم أو على تحريف الشهادة ، أقوال ثالثها لأبي علي ، وقوله : ﴿ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ﴾ كناية عن

الاستبدال عرضاً من الدنيا وهو على حذف مضاف أي ذا ثمن لأن الثمن لا يشترى ولا يصح أن يكون ﴿ لا نشتري ﴾ لا نبيع هنا وإن كان ذلك في اللغة .

قال الزمخشري أن لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ولو كان من نقسم لأجله قريباً منا وذلك على عادتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً فإنهم داخلون تحت قوله : ﴿ كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ وإنما قال فإنهم داخلون إلى آخره لأن الاثنين والآخرين عنده مؤمنون فاندرجوا في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين ﴾ الآية .

(187/218)

قال ابن عطية وخص ذا القربى بالذكر لأن العرف ميل النفس إلى أقربائهم واستسها لهم في جنب نفعهم ما لا يستسهل والجملة من قوله : ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ لا نشتري به ثمناً ﴾ فيكون من جملة المقسم عليه وأضاف الشهادة إلى الله لأنه تعالى هو الآمر بإقامتها الناهي عن كتمانها ويحتمل أن يكون ﴿ ولا نكتم ﴾ خبراً منهما أخبرا عن أنفسهما أنهما لا يكتمان شهادة الله ولا يكون داخلاً تحت المقسم عليه .

وقرأ الحسن والشعبي ﴿ ولا نكتم ﴾ بجزم الميم نهيا أنفسهما عن كتمان الشهادة ودخول

لا الناهية على المتكلم قليل نحو قوله :

إذا ما خرجنا من دمشق فلا نعد . . .

بها أبداً ما دام فيها الجراضم

وقرأ علي ونعيم بن ميسرة والشعبي بخلاف عنه ﴿ شهادة الله ﴾ بنصبهما وتنوين ﴿ شهادة ﴾ وانتصبا بنَكتم التقدير ولا نكتم الله شهادة ، قال الزهراوي ويحتمل أن يكون المعنى ولا نكتم شهادة والله ثم حذف الواو ونصب الفعل إيجازاً .

وروي عن عليّ والسلميّ والحسن البصري شهادة بالتنوين آلله بالمدّ في همزة الاستفهام التي هي عوض من حرف القسم دخلت تقريراً وتوقيفاً لنفوس المقسمين أو لمن خاطبوه ، وروي عن الشعبي وغيره أنه كان يقف على شهادة بالهاء الساكنة الله بقطع ألف الوصل دون مد الإستفهام .

قال ابن جني الوقف على شهادة بسكون الهاء واستئناف القسم حسن لأن استئنافه في أول الكلام أوقر له وأشدّ هيبة من أن يدخل في عرض القول .

وروي عن يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش ﴿ شهادة ﴾ بالتنوين ﴿ الله ﴾ بقطع الألف دون مد وخفض هاء الجلالة ورويت هذه عن الشعبي .

وقرأ الأعمش وابن محيصن لملاثمين بإدغام نون من في لام الآثمين بعد حذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

استئناف مَسوقٌ لبيان الأحكامِ المتعلقة بأمور دنياهم إثرَ بيانِ الأحوال المتعلقةِ بأمور دينهم ، وتصديرُه بحرفي النداءِ والتنبيه لإظهار كمالِ العناية بمضمونه ، وقولُه عز وجل : ﴿ شهادة بَيْنِكُمْ ﴾ بالرفع والإضافة إلى الظرف توسعاً ، إما باعتبار جَرَيَانِها بينهم ، أو باعتبار تعلّقِها بما يجري بينهم من الخصومات ، مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ أي شارفه وظهرت علائمُه ، ظرفٌ لها ، وتقديمُ المفعول لإفادة كمالِ تمكن الفاعل عند النفْس وقت ورودِه عليها ، فإنه أدخلُ في تهوين أمر الموت ، وقولُه تعالى : ﴿ حِينَ الوصية ﴾ بدلٌ منه لا ظرف للموت كما تُوُهّم ، ولا لحضوره كما قيل ، فإن في الإبدال تنبيهاً على أن الوصية من المَهَمّات المقررة التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم ويذهَلَ عنها ، وقوله تعالى : ﴿ اثنان ﴾ خبرٌ للمبتدأ بتقدير المضاف ، أي شهادةُ بينكم حينئذ شهادةُ اثنين ، أو فاعلُ (شهادةُ بينكم) على أن خبرها محذوف ، أي فيما نزل عليكم أن يشهد

بينكم اثنان ، وقرىء (شهادةٌ) بالرفع والتنوين ، والإعرابُ كما سبق ، وقرىء (شهادةً) بالنصب والتنوين على أن عاملها المضمرَ هو العامل في اثنان أيضاً أي ليُقِمْ شهادةً بينكم اثنان ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أي من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له ، وأقرب إلى تحرِّي ما هو أصلح له . وقيل : من المسلمين وهما صفتان لاثنان ﴿ أَوْ آخَرَانِ ﴾ عطف على اثنان تابع له فيما ذُكر من الخبرية والفاعلية ، أي أو شهادةُ آخَرَيْن أو أن يشهد بينكم آخران ، أو ليقم (شهادةً بينكم) آخران ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ صفةٌ (لآخَران) أي كائنان من غيركم أي من الأجانب ، وقيل : من أهل الذمة ، وقد كان ذلك في بدء الإسلام لعزة وجود المسلمين لا سيما في السفر ، ثم نسخ . وعن مكحول أنه نسخها قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوِى عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ ﴾

(189/218)

إِنْ أَنتُمْ ﴾ مرفوعٌ بمُضْمرٍ يفسرُه ما بعده تقديره إن ضربتم ، فلما حُذف الفعل انفصل الضمير ، وهذا رأيُ جمهور البَصْريين ، وذهب الأخفش والكوفيون إلى أنه مبتدأٌ بناءً على جواز وقوعِ المبتدأ بعد إنْ الشرطية كجواز وقوعِه بعد إذا ، فقوله تعالى : ﴿ ضَرَبْتُمْ فِى الأرض ﴾ أي سافرتم فيها ، لا محل له من الإعراب عند الأولين لكونه مفسِّراً ، ومرفوع

على الخبرية عند الباقين . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الموت ﴾ عطفٌ على الشرطية ، وجوابُه محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه ، أي إن سافرتم فقاربَكم الأجلُ حينئذ ، وما معكم من الأقارب أو من أهل الإسلام مَنْ يتولى أمرَ الشهادة كما هو الغالب المعتاد في الأسفار ، فليشهد آخرانِ أو فاستشهدوا آخَرَيْن أو فالشاهدانِ آخرانِ كذا قيل ، والأنسب أن يقدَّر عينُ ما سبق ، أي فآخرانِ على معنى شهادةُ بينِكم شهادةُ آخَرَيْن ، أو فأَنْ يشهَدَ آخران ، على الوجوه المذكورة ثَمَّةَ ، وقوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ استئنافٌ وقعَ جواباً عما نشأ من اشتراط العدالة كأنه قيل : فكيف نصنع إنِ ارْتَبْنا بالشاهدين ؟ فقيل : تحبِسونهما وتَصْبِرونهما للتحليف ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ ﴾ وقيل : هو صفة (لآخران) ، والشرط بجوابه المحذوف اعتراضٌ فائدته الدلالة على أن اللائق إشهادُ الأقارب أو أهلِ الإسلام ، وأما إشهادُ الآخَرِين فعند الضرورة المُلجئةِ إليه ، وأنت خبير بأنه يقتضي اختصاصَ الحبس بالآخرين مع شموله للأولين أيضاً قطعاً ، على أن اعتبارَ اتصافهما بذلك يأباه مقامُ الأمر بإشهادهما ، إذ مآلُه فآخرانِ شأنُهما الحبسُ والتحْليف ، وإن أمكن إتمام التقريب باعتبار قَيدِ الارتياب بهما كما يفيده الاعتراضُ الآتي ، والمرادُ بالصلاة صلاةُ العصر ، وعدمُ تعيينها لتعيُّنِها عندهم بالتحْليف بعدها لأنه وقت اجتماع الناس ووقت تصادُمِ ملائكة الليل وملائكة النهار ، ولأن جميع أهل الأديان يعظّمونه ويجتنبون فيه الحِلفَ الكاذب .

وقد روي أن النبي عليه الصلاةَ والسلام وقتئذ حلّف من حلف كما سيأتي ، وقيل : بعد أي صلاة كانت لأنها داعيةٌ إلى النطق بالصدق ، وناهيةٌ عن الكذِب والزور ﴿ اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ﴾

(190/218)

﴿ فَيُقْسِمَانِ بالله ﴾ عطفٌ على تحبسونهما وقوله تعالى : ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ شرطية محذوفةُ الجواب لدلالة ما سبق من الحبس والإقسام عليه ، سيقت من جهته تعالى معترِضةً بين القسمَ وجوابِه للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليف بحال الارتياب ، أي إن ارتاب بهما الوارثُ منكم بخيانةٍ وأخذِ شيءٍ من التركة فاحبِسوهما وحلِّفوهما بالله ، وقولُه تعالى : ﴿ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ﴾ جوابٌ للقسم ، وليس هذا من قبيل ما اجتمع فيه قَسَمٌ وشرط ، فاكتُفِيَ بذكر جوابِ سابِقِهما عن جواب الآخر كما هو الواقع غالباً ، فإن ذلك إنما يكون عند سدّ جواب السابق مَسدَّ جوابِ اللاحق لاتحاد مضمونها كما في قولك : والله إن أتيتَني لأكرمنك ، ولا ريب في استحالة ذلك ها هنا لأن القسم وجوابه كلاهما (منفصل) وقد عرفت أن الشرط من جهته تعالى ، والاشتراءُ هو استبدال السلعة بالثمن أي أخذُها بدلاً منه لا بذلُه لتحصيلها كما قيل ، وإن كان مستلزِماً له ، فإن المعتبرَ في عقد

الشراء ومفهومِه هو الجلبُ دون السلب المعتبر في عقد البيع ، ثم استُعير لأخذ شيءٍ بإزالة ما عنده عيناً كان أو معنى على وجه الرغبة في المأخوذ والإعراض عن الزائل ، كما هو المعتبر في المستعار منه حسبما مر تفصيلُه في تفسير قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ والضمير في (به) لله ، والمعنى لا نأخذ لأنفسنا بدلاً من الله ، أي مِنْ حُرمته عَرَضاً من الدنيا بأن نهتِكَها ونُزيلَها بالحلف الكاذب ، أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ، وقيل : الضمير للقسم ، فلا بد من تقدير مضافٍ ألبتةَ ، أي لا نستبدل بصحة القسم بالله ، أي لا نأخذ لأنفسنا بدلاً منها عرَضاً من الدنيا بأن نُزيلَ عنه وصفَ الصدق ونصفَه بالكذب ، أي لا نحلف كاذبين كما ذكر وإلا فلا سِدادَ للمعنى ، سواءٌ أريد به القسمُ الصادقُ أو الكاذب ، أما إن أريدَ به الكاذبُ فلأنه يفوّتُ حينئذ ما هو المعتبرُ في

(191/218)

الاستعارة من كون الزائل شيئاً مرغوباً فيه عند الحالف كحُرمة اسمِ الله تعالى ووصفِ الصحة والصدق في القسم ، ولا ريب في أن القسم الكاذبَ ليس كذلك ، وأما إن أريد به الصادقُ فلأنه وإن أمكن أن يُتوسَّلَ باستعمالِه إلى عَرَض الدنيا كالقسم الكاذب لكن لا محذور فيه ، وأما التوسلُ إليه بترك استعماله فلا إمكان له هاهنا حتى يصِحَّ التبروءُ منه ،

وإنما يُتوسَّلُ إليه باستعمال القسم الكاذب ، وليس استعمالُه من لوازم ترْكِ استعمالِ الصادق ضرورةَ جوازِ تركِهما معاً حتى يُتصوَّرَ جعلُ ما أُخذَ باستعمالِه مأخوذاً بتركِ استعمالِ الصادق كما في صوره تقديرِ المضاف ، فإن إزالةَ وصْفِ الصدق عن القسم مع بقاء الموصوفِ مستلزِمةٌ لثبوت وصفِ الكذِب له البتة فتأمل ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي المقسَمُ له المدلولُ عليه بفحوى الكلام ﴿ ذَا قربى ﴾ أي قريباً منا ، تأكيدٌ لتبرُّئهم من الحِلف كاذباً ومبالغةٌ في التنزه عنه ، كأنهما قالا : لا نأخذُ لأنفسنا بدلاً من حُرمة اسمه تعالى مالاً ولو انضمَّ إليه رعايةُ جانبِ الأقرباء ، فكيف إذا لم يكنْ كذلك ، وصيانةُ أنفسِهما وإن كانت أهمَّ من رعاية الأقرباء لكنها ليست ضميمةً للمال ، بل هي راجعة إليه ، وجواب (لو) محذوفٌ ثقةً بدلالة ما سبق عليه ، أي لا نشتري به ثمناً ، والجملة معطوفةٌ على أخرى مثلِها ، كما فُصِّل في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ﴾ الخ ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شهادة الله ﴾ أي الشهادة التي أمرَنا الله تعالى بإقامتها ، معطوفٌ على (لا نشتري به) داخلٌ معه في حكم القسم ، وعن الشعبي أنه وَقَفَ على شهادة ، ثم ابتدأ (آلله) بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه بغير مد ، كقولهم : الله لأفعلن ﴿ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثمين ﴾ أي إن كتمناها ، وقرىء (لمِلاثمين) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدخال النون فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ

﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ ﴾ استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم إثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم ، وفيه من إظهار كمال العناية بمضمونه ما لا يخفى ﴿ شهادة بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت حِينَ الوصية اثنان ﴾ للشهادة معان : الإحضار والقضاء والحكم والحلف والعلم والإيصاء ، والمراد بها هنا الأخير كما نص عليه جماعة من المفسرين ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك ، وقرأها الجمهور بالرفع على أنها مبتدأ و(اثنان) خبرها ، والكلام على حذف مضاف من الأول أي ذو شهادة بينكم إثنان أو من الثاني أي شهادة بينكم شهادة إثنين ، والتزم ذلك ليتصادق المبتدأ والخبر ، وقيل : الشهادة بمعنى الشهود كرجل عدل فلا حاجة إلى التزام الحذف ، وقيل : الخبر محذوف و(اثنان) مرفوع بالمصدر الذي هو ﴿ شَهَادَةً ﴾ والتقدير فيما فرض عليكم أن يشهد إثنان وإلى هذا ذهب الزجاج والشهادة فيه على معناها المتبادر منها لا بمعنى الإشهاد ، وكلام البعض يوهم ذلك وهو في الحقيقة بيان لحاصل معنى الكلام .

وزعم بعضهم أنها بمعنى الإشهاد الذي هو مصدر المجهول و(اثنان) قائم مقام فاعله ، وفيه أن الإتيان لمصدر الفعل المجهول بنائب فاعل وهو اسم ظاهر وإن جوزه البصريون كما في "شرح التسهيل" للمرادي فقد منعه الكوفيون وقالوا : إنه هو الصحيح لأن حذف فاعل المصدر سائغ شائع فلا يحتاج إلى ما يسد مسد فاعله كفاعل الفعل الصريح .

و﴿ إِذَا ﴾ ظرف لشهادة أي ليشهد وقت حضور الميت والمراد مشارفته وظهور أماراته ، و﴿ حِينَ الوصية ﴾ أما بدل من ﴿ إِذَا ﴾ وفيه تنبيه على أن الوصية من المهمات المقررة التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم ويذهل عنها .

(193/218)

وجوز أن يتعلق بنفس الموت أي وقوع الموت أي أسبابه حين الوصية أو يحضر ، وأن يكون ﴿ شَهَادَةُ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ إِذَا حَضَرَ ﴾ أي وقوع الشهادة في وقت حضور الموت و﴿ حِينَ الوصية ﴾ على الأوجه السابقة ، ولا يجوز فيه أن يكون ظرفاً للشهادة لئلا يخبر عن الموصول قبل تمام صلته أو خبره ﴿ حِينَ الوصية ﴾ و﴿ إِذَا ﴾ منصوب بالشهادة ولا يجوز نصبه بالوصية وإن كان المعنى عليه لأن معمول المصدر لا يتقدمه على الصحيح مع ما يلزم من تقديم معمول المضاف إليه على المضاف وهو لا يجوز في غير غير لأنها بمنزلة لا و﴿

اثنان ﴾ على هذين الوجهين إما فاعل يشهد مقدراً أو خبراً لشاهدان كذلك .

وعن الفراء أن ﴿ شَهَادَةً ﴾ مبتدأ و ﴿ اثنان ﴾ فاعله سدَّ مسد الخبر وجعل المصدر بمعنى الأمر أي ليشهد ، وفيه نيابة المصدر عن فعل الطلب وهو ضعيف عند غيره لأن الاكتفاء بالفاعل مخصوص بالوصف المعتمد .

و ﴿ إِذَا ﴾ و ﴿ حِينٍ ﴾ عليه منصوبان على الظرفية كما مر ، وإضافة ﴿ شَهَادَةً ﴾ إلى الظرف على التوسع لأنه متصرف ولذا قرىء ﴿ تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] بالرفع ، وقيل : إن الأصل ما بينكم وهو كناية عن التخاصم والتنازع ، وحذف ما جائز نحو ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ [الإنسان : 20] أي ما ثم ، وأورد عليه أن ما الموصولة لا يجوز حذفها ومنهم من جوزه .

وقرأ الشعبي ﴿ شهادة بَيْنِكُمْ ﴾ بالرفع والتنوين فبينكم حينئذٍ منصوب على الظرفية .

وقرأ الحسن ﴿ شَهَادَةً ﴾ بالنصب والتنوين ، وخرج ذلك ابن جني على أنها منصوبة بفعل مضمر ﴿ اثنان ﴾ فاعله أي ليقم شهادة بينكم اثنان .

وأورد عليه أن حذف الفعل وإبقاء فاعله لم يجزه النحاة إلا إذا تقدم ما يشعر به كقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والاصال ﴾ [النور : 36] في قراءة من قرأ ﴿ يُسَبَّحُ ﴾ بالبناء للمفعول ، وقول الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة . . .

أو أجيب به نفي أو استفهام وذلك ظاهر ، والآية ليست واحداً من هذه الثلاثة .

وأجيب بأن ما ذكر من الاشتراط غير مسلم بل هو شرط الأكثرية ، واختار في "البحر" وجهين للتخريج ، الأول : أن تكون ﴿ شَهَادَةً ﴾ منصوبة على المصدر النائب مناب فعل الأمر و﴿ اثنان ﴾ مرتفع به ، والتقدير ليشهد بينكم اثنان فيكون من باب ضربا زيداً إلا أن الفاعل في ضربا يستند إلى ضمير المخاطب لأن معناه اضرب ، وهذا يستند إلى الظاهر لأن معناه ما علمت ، والثاني : أن تكون مصدراً لا بمعنى الأمر بل خبراً ناب مناب الفعل في الخبر وإن كان ذلك قليلاً كقوله :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم . . .

فارتفاع صحبي وانتصاب مطيهم بقوله وقوفاً فإنه بدل من اللفظ بالفعل في الخبر ، والتقدير وقف صحبي على مطيهم ، والتقدير في الآية يشهد إذا حضر أحدكم الموت اثنان .

﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ أي من المسلمين كما روي عن ابن عباس وابن مسعود والباقر رضي الله تعالى عنهم وابن المسيب عليه الرحمة ، أو من أقاربكم وقبيلتكم كما روي عن الحسن وعكرمة ، وهو الذي يقتضيه كلام الزهري وهما صفتان لاثنان ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ ﴾

عطف على ﴿ اثنان ﴾ في سائر احتمالاته .

وقوله سبحانه : ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ صفة له أي كائنان من غيركم ، والمراد بهم غير المسلمين من أهل الكتاب عند الأولين وغير الأقربين من الأجانب عند الآخرين .

واختار الأول جماعة من المتأخرين حتى قال الجصاص : إن التفسير الثاني لا وجه له لأن الخطاب توجه أولاً إلى أهل الإيمان فالمغايرة تعتبر فيه ولم يجر للقرابة ذكر ، ويدل لذلك أيضاً سبب النزول وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى .

(195/218)

﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأرض ﴾ أي سافرتم ، وارتفاع ﴿ أَنتُمْ ﴾ بفعل مضمر يفسره ما بعده ، والتقدير إن ضربتم فلما حذف الفعل وجب أن يفصل الضمير ليقوم بنفسه وهذا رأي جمهور البصريين ، وذهب الأخفش والكوفيون إلى أنه مبتدأ بناءً على جواز وقوع المبتدأ بعد إن الشرطية كجواز وقوعه بعد (إذا) فجملة ﴿ ضَرَبْتُمْ ﴾ لا موضع لها على الأول للتفسير وموضعها الرفع على الخبرية على الثاني .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الموت ﴾ أي قاربتم الأجل عطف على الشرط وجوابه محذوف ، فإن كان الشرط قيداً في أصل الشهادة فالتقدير إن ضربتم في الأرض الخ

فليشهد اثنان منكم أو من غيركم ، وإن كان شرطاً في العدول إلى آخرين بالمعنى الذي نقل عن الأولين فالتقدير فاشهدوا آخرين من غيركم أو فالشاهدان آخران من غيركم ، وحينئذٍ تفيد الآية أنه لا يعدل في الشهادة إلى غير المسلمين إلا بشرط الضرب في الأرض ، وروي ذلك عن شريح رضي الله تعالى عنه .

وقوله سبحانه : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ أي تلزمونهما وتصبرونهما للتحليف استئناف كأنه قيل كيف نعمل إذا ارتبنا بالشاهدين فقال سبحانه : تحبسونهما ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ ﴾ أي صلاة العصر كما روي عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه وقتادة وابن جبير وغيرهم ، والتقييد بذلك لأنه وقت اجتماع الناس وتكاثرهم ولأن جميع أهل الأديان يعظمونه ويجتنبون الحلف الكاذب فيه ولأنه وقت تصادم ملائكة الليل والنهار وتلاقيهم ، وفي ذلك تكثير للشهود منهم على صدق الحالف وكذبه فيكون أخوف ، وعد ذلك بعضهم من باب التغليظ على المستحلف بالزمان .

وعندنا لا يلزم التغليظ به ولا بالمكان بل يجوز للحاكم فعله .

وعن الحسن أن المراد بها صلاة العصر أو الظهر لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما ، وجوز أن تكون اللام للجنس أي بعد أي صلاة كانت .

والتقييد بذلك لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق ناهية عن التفوه بالكذب والزور وارتكاب الفحشاء والمنكر .

وجعل الحسن التقييد بذلك دليلاً على ما تقدم من تفسيره .

وجوز أن تكون الجملة صفة أخرى لآخران ؛ وجملة الشرط معترضة فلا يضر الفصل بها .

وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وتعقب بأنه يقتضي اختصاص الحبس بالآخرين مع شموله للأولين أيضاً قطعاً على أن اعتبار اتصافهما بذلك يأباه مقام الأمر بإشهادهما إذ مآله فآخران شأنهما الحبس والتحليف وإن أمكن إتمام التقريب باعتبار قيد الارتياب بهما كما يفيده الاعتراض الآتي ولا يخفى ما فيه .

والخطاب للموصى لهم وقيل : للورثة وقيل : للحكام والقضاة .

وقوله عز وجل : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ ﴾ عطف على ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ أي شككتم في صدقهما وعدم استبدادهما بشيء من التركة .

والجملة شرطية حذف جوابها لدلالة ما سبق من الحبس والإقسام عليه ، والشرط مع جوابه المحذوف معترض بين القسم وجوابه أعني قوله تعالى : ﴿ لاَ نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً ﴾ وقد سيق من جهته تعالى للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليف بحال الارتياب وليس هذا

من قبيل ما اجتمع فيه قسم وشرط فاكتفى بذكر جواب سابقهما عن جواب الآخر كما هو الواقع غالباً لأن ذلك إنما يكون عند سد جواب السابق مسد جواب اللاحق لاتحاد مضمونهما كما في قولك : والله إن أتيتني لأكرمنك ، ولا ريب في استحالته ههنا لأن القسم وجوابه كلام الشاهدين والشرطية كما علمت من جهته سبحانه وتعالى ، ولا يتوهم أن إن هنا وصلية لأنها مع أن الواو لازمة لها ليس المعنى عليها كما لا يخفى .

(197/218)

وزعم بعضهم جواز كونها شرطية و ﴿ لاَ نَشْتَرِى ﴾ دليل الجواب ، والمعنى إن ارتبتم فلا ينبغي ذلك أو فقد أخطأتم لأنا لسنا ممن يشتري به ثمناً قليلاً وهو بعيد جداً وتخلو الآية عليه ظاهراً من شرط التحليف ، وضمير ﴿ بِهِ ﴾ عائد إلى الله تعالى ، والمعنى لا نأخذ لأنفسنا بدلاً من الله سبحانه أي من حرمته تعالى عرضاً من الدنيا بأن نزيلها بالحلف الكاذب وحاصله لا نحلف بالله تعالى حلفاً كاذباً لأجل المال ، وقيل : إنه عائد إلى القسم على تقدير مضاف أي لا نستبدل بصحة القسم بالله تعالى عرضاً من الدنيا بأن نزيل عنه وصف الصدق ونصفه بالكذب ، وقيل : إلى الشهادة باعتبار أنها قول ولا بد من تقدير مضاف أيضاً ، وتقدير مضاف في ﴿ ثَمَناً ﴾ أي ذا ثمن مما لا يدع إليه إلا قلة التأميل .

﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ المقسم له المدلول عليه بفحوى الكلام ﴿ ذَا قربى ﴾ أي قريباً منا .

وهذا تأكيد لتبريهما من الحلف الكاذب ومبالغة في التنزه عنه كأنهما قالا : لا نأخذ لأنفسنا بدلاً من ذلك مالاً ولو انضم إليه رعاية جانب الأقرباء فكيف إذا لم يكن كذلك ، وصيانة أنفسهما وإن كانت أهم من رعاية جانب الأقرباء لكنها كما قال شيخ الإسلام ليست ضميمة المال بل هي راجعة إليه ، وقيل : الضمير للمشهود له على معنى لا نحابي أحداً بشهادتنا ولو كان قريباً منا ، وجواب لو محذوف اعتماداً على ما سبق عليه أي لا نشتري به ثمناً ، والجملة معطوفة على جملة أخرى محذوفة أي لو لم يكن ذا قربى ولو كان الخ ، وجعل السمين الواو للحال ، وقد تقدم لك ما ينفعك هنا .

(198/218)

وجوز بعضهم إرجاع الضمير للشاهد وقدر جواباً للو غير ما قدرناه أي ولو كان الشاهد قريباً يقسمان ، وجعل فائدة ذلك دفع توهم اختصاص الأقسام بالأجنبي ، ولا يخفى ما في التركيب حينئذ من الركاكة التي لا ينبغي أن تكون في كلام هذا البعض فضلاً عن كلام رب الكل ، ونشهد بالله سبحانه وتعالى أن حمل كلامه عز وجل على مثل ذلك مما لا يليق .

﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شهادة الله ﴾ أي الشهادة التي أمرنا سبحانه وتعالى بإقامتها وألزمنا أداءها

فالإضافة للاختصاص أو لأدنى ملابسة ، والجملة معطوفة على ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ﴾ داخل معه في حيز القسم .

وروي عن الشعبي أنه وقف على ﴿ شَهَادَةَ ﴾ بالهاء ثم ابتدأ آللّٰه بالمد والجر على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه وليس هذا من حذف حرف الجر وإبقاء عمله وهو شاذ كقوله :

أشارت كليب بالأكف الأصابع . . .

لأن ذلك حيث لا تعويض ، وفي الجلالة الكريمة تعويض همزة الاستفهام عن المحذوف ، وهل البحر به أو بالعوض قولان .

وروي عنه وكذا عن الحسن رضي الله تعالى عنه ويحيى بن عمر وابن جرير وآخرين ﴿ الله ﴾ بدون مد وفي ذلك احتمالان .

الأول : أن الحذف من غير عوض فيكون على خلاف القياس ، والثاني : أن الهمزة المذكورة همزة الاستفهام وهي همزة قطع عوضت عن الحرف ولكنها لم تمد وهذا أولى من دعوى الشذوذ ولذا اختاره في "الدر المصون" ، وقرىء بتنوين الشهادة ووصل الهمزة ونصب اسم الله تعالى من غير مد وخرجه أبو البقاء على أنه منصوب بفعل القسم محذوفاً .

﴿ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ أي إذا فعلنا ذلك وكتمنا ، والعدول عن آثمون إلى ما ذكر للمبالغة .

وقرىء ﴿ لملاثمين ﴾ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام النون فيها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(199/218)

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قال مكيّ : هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعراباً ومعنى وحكماً .

قال ابن عطية : هذا كلام من لم يقع له النتاج في تفسيرها ، وذلك بين من كتابه رحمه الله ، يعني من كتاب مكي .

قال القرطبي : ما ذكره مكي ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضاً .

قال السعد في حاشيته على الكشاف : واتفقوا على أنها أصعب ما في القرآن إعراباً ونظماً وحكماً .

قوله : ﴿ شهادة بَيْنِكُمْ ﴾ أضاف الشهادة إلى البين توسعاً لأنها جارية بينهم ؛ وقيل أصله شهادة ما بينكم فحذفت "ما" ، وأضيفت إلى الظرف كقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اليل

والنهار ﴾ [سبأ : 33] ومنه قول الشاعر :

تصافح من لاقيت لي ذا عداوة . . . صفايا وعني بين عينيك منزوي

أراد ما بين عينيك ، ومثله قول الآخر :

ويوماً شهدناه سليماً وعامراً . . . أي : شهدنا فيه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] قيل : والشهادة هنا بمعنى الوصية ؛ وقيل بمعنى الحضور للوصية .

وقال ابن جرير الطبري : هي هنا بمعنى اليمين ، فيكون المعنى : يمين ما بينكم أن يحلف اثنان ، واستدل على ما قاله بأنه لا يعلم لله حكماً يجب فيه على الشاهد يمين .

واختار هذا القول القفال ، وضعف ذلك ابن عطية ، واختار أن الشهادة هنا هي الشهادة التي تؤدى من الشهود .

قوله : ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ ظرف للشهادة ، والمراد إذا حضرت علاماته ، لأن من مات لا يمكنه الإشهاد ، وتقديم المفعول للاهتمام ولكمال تمكن الفاعل عند النفس .

وقوله : ﴿ حِينَ الوصية ﴾ ظرف لحضر أو للموت ، أو بدل من الظرف الأوّل .

وقوله : ﴿ اثنان ﴾ خبر شهادة على تقدير محذوف ، أي شهادة اثنين أو فاعل للشهادة على أن خبرها محذوف ، أي فيما فرض عليكم شهادة بينكم اثنان على تقدير أن يشهد اثنان ، ذكر الوجهين أبو عليّ الفارسي .

قوله : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ صفة للاثنان وكذا منكم أي كائنان منكم ، أي من أقاربكم ﴿ أَوْ آخَرَانِ ﴾ معطوف على ﴿ اثنان ﴾ ، و ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ صفة له ، أي كائنان من الأجانب ؛ وقيل : إن الضمير في ﴿ مِّنكُمْ ﴾ للمسلمين ، وفي ﴿ غَيْرِكُمْ ﴾ للكفار وهو الأنسب لسياق الآية ، وبه قال أبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن عباس وغيرهما ، فيكون في الآية دليل على جواز شهادة أهل الذمة على المسلمين في السفر ، في خصوص الوصايا كما يفيده النظم القرآني ، ويشهد له السبب للنزول وسيأتي ، فإذا لم يكن مع الموصي من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر ، فإذا قدما وأدّيا بالشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدّلا ، وأن ما شهدا به حق ، فيحكم حينئذ بشهادتهما ﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ بعد ذلك ﴿ عَلَى أَنَّهُمَا ﴾ كذبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الموصي وغرم الشاهدان الكافران ما ظهر عليهما من خيانة أو نحوها ، هذا معنى الآية عند من تقدم ذكره ، وبه قال سعيد بن المسيب ويحيى بن يعمر ، وسعيد بن جبير ، وأبو مجلز ، والنخعي وشريح ، وعبيدة السلماني ، وابن سيرين ، ومجاهد ، وقتادة ، والسديّ ، والثوري ، وأبو عبيد ، وأحمد بن حنبل .

وذهب إلى الأول : أعني تفسير ضمير ﴿ مّنكُمْ ﴾ بالقرابة أو العشيرة ، وتفسير ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ بالأجانب الزهري والحسن وعكرمة .

وذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم من الفقهاء أن الآية منسوخة ، واحتجوا بقوله : ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهداء ﴾ [البقرة : 282] وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوِى عَدْلٍ مّنْكُمْ ﴾ [الطلاق : 2] والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول ، وخالفهم الجمهور فقالوا : الآية محكمة ، وهو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ .

(201/218)

وأما قوله تعالى : ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهداء ﴾ [البقرة : 282] وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوِى عَدْلٍ مّنْكُمْ ﴾ [الطلاق : 2] فهما عامان في الأشخاص والأزمان والأحوال ، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب في الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين ، ولا تعارض بين عامّ وخاص .

قوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم ، أو مبتدأ وما بعده خبر ، والأوّل : مذهب الجمهور من النحاة ، والثاني : مذهب الأخفش والكوفيين ، والضرب في الأرض هو السفر .

وقوله : ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الموت ﴾ معطوف على ما قبله وجوابه محذوف ؛ أي إن ضربتم في الأرض فنزل بكم الموت ، وأردتم الوصية ، ولم تجدوا شهوداً عليها مسلمين ، ثم ذهبا إلى ورثتكم بوصيتكم وبما تركتم فارتابوا في أمرهما وادّعوا عليها خيانة ، فالحكم أن تحبسوهما ، ويجوز أن يكون استئنافاً لجواب سؤال مقدّر ، كأنهم قالوا : فكيف نصنع إن ارتبنا في الشهادة ؟ فقال : تحبسونهما من بعد الصلاة إن ارتبتم في شهادتهما .

وخص بعد الصلاة ، أي صلاة العصر ، قاله الأكثر لكونه الوقت الذي يغضب الله على من حلف فيه فاجراً كما في الحديث الصحيح .

وقيل لكونه وقت اجتماع الناس وقعود الحكام للحكومة وقيل صلاة الظهر .

وقيل : أيّ صلاة كانت .

قال أبو عليّ الفارسي : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ صفة لآخران ، واعترض بين الصفة والموصوف بقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأرض ﴾ ، والمراد بالحبس : توقيف الشاهدين في ذلك الوقت لتحليفهما ، وفيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام ، وعلى جواز التغليظ على الحالف بالزمان والمكان ونحوهما .

قوله : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بالله ﴾ معطوف على ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ أي : يقسم بالله الشاهدان على الوصية أو الوصيان .

وقد استدلّ بذلك ابن أبي ليلى على تحليف الشاهدين مطلقاً إذا حصلت الريبة في شهادتهما ، وفيه نظر ؛ لأن تحليف الشاهدين هنا إنما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها .

قوله : ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ جواب هذا الشرط محذوف دلّ عليه ما تقدّم كما سبق .

قوله : ﴿ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ﴾ جواب القسم ، والضمير في ﴿ بِهِ ﴾ راجع إلى الله تعالى .

والمعنى : لا نبيع حظنا من الله تعالى بهذا العرض النزر ، فنحلف به كاذبين لأجل المال الذي ادّعيتموه علينا .

وقيل يعود إلى القسم : أي لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من أعراض الدنيا .

وقيل يعود إلى الشهادة ، وإنما ذكر الضمير لأنها بمعنى القول ، أي لا نستبدل بشهادتنا ثمناً .

قال الكوفيون : المعنى ذا ثمن ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وهذا مبنيّ على أن العروض لا تسمى ثمناً ، وعند الأكثر أنها تسمى ثمناً ، كما تسمى مبيعاً .

قوله : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ أي ولو كان المقسم له ، أو المشهود له قريباً فإنا نؤثر الحق والصدق ، ولا نؤثر العرض الدنيوي ، ولا القرابة ، وجواب " لو " محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي ولو كان ذا قربى ، لا نشتري به ثمناً .

قوله : ﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شهادة الله ﴾ معطوف على ﴿ لاَ نَشْتَرِي ﴾ داخل معه في حكم

القسم ، وأضاف الشهادة إلى الله سبحانه لكونه الآمر بإقامتها والناهي عن كتمها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(203/218)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾

استؤنفت هذه الآي استئنافاً ابتدائياً لشرع أحكام التوثّق للوصية لأنّها من جملة التشريعات التي تضمّنتها هذه السورة ، تحقيقاً لإكمال الدين ، واستقصاء لما قد يحتاج إلى علمه المسلمون وموقعها هنا سنذكره .

وقد كانت الوصية مشروعة بآية البقرة (180) ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية ﴾ وتقدّم القول في ابتداء مشروعيتها وفي مقدار ما نسخ من حكم تلك الآية وما أحكم في موضعه هنالك .

وحرص رسول الله على الوصية وأمر بها ، فكانت معروفة متداولة منذ عهد بعيد من الإسلام .

وكانت معروفة في الجاهلية كما تقدّم في سورة البقرة .

وكان المرء يوصي لمن يوصي له بحضرة ورثته وقرابته فلا يقع نزاع بينهم بعد موته مع ما في النفوس من حرمة الوصية والحرص على إنفاذها حفظاً لحقّ الميّت إذ لا سبيل له إلى تحقيق حقّه ، فلذلك استغنى القرآن عن شرع التوثّق لها بالإشهاد ، خلافاً لما تقدّم به من بيان التوثّق في التبايع بآية ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ [البقرة : 282] والتوثّق في الدين بآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين ﴾ [البقرة : 282] الخ فأكملت هذه الآية بيان التوثّق للوصية اهتماماً بها ولجدارة الوصية بالتوثيق لها لضعف الذياد عنها لأنّ البيوع والديون فيها جانبان عالمان بصورة ما انعقد فيها ويذُبّان عن مصالحهما فيتّضح الحقّ من خلال سعيهما في إحقاق الحقّ فيها بخلاف الوصية فإنّ فيها جانباً واحداً وهو جانب الموصى له لأنّ الموصي يكون قد ماتَ وجانب الموصى له ضعيف إذ لا علم له بما عقد الموصي ولا بما ترك ، فكانت معرّضة للضياع كلّها أو بعضها .

وقد كان العرب في الجاهلية يستحفظون وصاياهم عند الموت إلى أحد يثقون به من أصحابهم أو كبراء قبيلتهم أو من حضر احتضار الموصي أو من كان أودع عند الموصي خَبَرَ عزمه .

فقد أوصى نزارُ بن مَعَدّ وصية موجزة وأحال أبناءه على الأفعى الجرهمي أن يبيّن لهم تفصيل مراده منها .

وقد حدثت في آخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام حادثة كانت سبباً في نزول هذه الآية.

ولعلّ حدوثها كان مقارناً لنزول الآي التي قبلها فجاءت هذه الآية عقبها في هذا الموضع من السورة.

(204/218)

ذلك أنّه كان في سنة تسع من الهجرة نزلت قضية: هي أن رجلين أحدهما تميم الداريُّ اللخمي والآخر عدي بن بدّاء، كانا من نصارى العرب تاجرين، وهما من أهل (دارِين) وكانا يتّجران بين الشام ومكةَ والمدينة.

فخرج معهما من المدينة بُديل بن أبي مريم مولى بني سَهم وكان مسلماً بتجارة إلى الشام، فمرض بديل (قيل في الشام وقيل في الطريق برّاً أو بحراً) وكان معه في أمتعته جام من فضة مخوّص بالذهب قاصداً به ملكَ الشام، فلمّا اشتدّ مرضه أخذ صحيفة فكتب فيها ما عنده من المتاع والمال ودسّها في مطاوي أمتعته ودفع ما معه إلى تميم وعدي وأوصاهما بأن يبلّغاه مواليه من بني سهم.

وكان بديل مولى للعاصي بن وائل السهمي، فولاؤه بعد موته لابن عمرو بن العاصي.

وبعض المفسّرين يقول : إنّ ولاء بُديل لعَمرو بن العاصي والمطلب بن وداعة .

ويؤيّد قولهم أنّ المطلب حلف مع عمرو بن العاصي على أنّ الجام لبديل بن أبي مريم .

فلمّا رجعا باعا الجام بمكة بألف درهم ورجعا إلى المدينة فدفعا مَا لِبديل إلى مواليه .

فلمّا نشروه وجدوا الصحيفة ، فقالوا لتميم وعدي : أين الجَامُ فأنكرا أن يكون دفع إليهما جاماً .

ثم وُجد الجام بعد مدة يباع بمكة فقام عمرو بن العاصي والمطلب بن أبي وداعة على الذي عنده الجام فقال : إنّه ابتاعه من تميم وعديّ .

وفي رواية أنّ تميماً لما أسلم في سنة تسع تأثّم ممّا صنع فأخبر عمرو بن العاصي بخبر الجام ودفع له الخمسمائة الدرهم الصائرة إليه من ثمنه ، وطالب عمرو عدياً ببقية الثمن فأنكر أن يكون باعه .

وهذا أمثل ما روي في سبب نزول هذه الآية .

وقد ساقه البخاري تعليقاً في كتاب الوصايا .

ورواه الترمذي في كتاب التفسير ، وقال : ليس إسناده بصحيح .

وهو وإن لم يستوف شروط الصحة فقد اشتهر وتلقّى بالقبول ، وقد أسنده البخاري في "تاريخه" .

واتّفقت الروايات على أنّ الفريقين تفاضَوا في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية في ذلك ، فحلف عَمرُو بن العاصي والمطّلب بن أبي وَدَاعة على أنّ تميماً وعدياً أخفيا الجام وأنّ بُديلاً صاحبه وما باعه ولا خرج من يده .

ودفع لهما عدي خمسمائة درهم وهو يومئذٍ نصراني .

وعدي هذا قيل : أسلم ، وعدّه ابن حبّان وابن منده في عداد الصحابة ، وقيل : مات نصرانياً ، ورجّح ذلك ابن عطية ، وهو قول أبي نعيم ، ويروى عن مقاتل ، ولم يذكره ابن عبد البر في الصحابة .

واحتمل أن يكون نزولها قبل الترافع بين الخصم في قضية الجام ، وأن يكون نزولها بعد قضاء النبي صلى الله عليه وسلم في تلك القضية لتكون تشريعاً لما يحدث من أمثال تلك القضية .

و﴿ بينكم ﴾ أصل (بين) اسم مكان مبهم متوسّط بين شيئين يبيّنه ما يضاف هو إليه ، وهو هنا مجاز في الأمر المتعلّق بعدّة أشياء ، وهو مجرور بإضافة ﴿ شهادةُ ﴾ إليه على الاتّساع .

وأصله (شهادةٌ) بالتنوين والرفع "بينكم" بالنصب على الظرفية .

فخرج (بين) عن الظرفية إلى مطلق الاسمية كما خرج عنها في قوله تعالى : ﴿ لقد تقطّع بينكم ﴾ [الأنعام : 94] في قراءة جماعة من العشرة برفع ﴿ بينكم ﴾ .

وارتفع ﴿ شهادةُ ﴾ على الابتداء ، وخبره ﴿ اثنان ﴾ .

و ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ ظرف زمان مستقبل .

وليس في (إذا) معنى الشرط ، والظرف متعلّق بـ ﴿ شهادة ﴾ لما فيه من معنى الفعل ، أي ليشهدْ إذا حضر أحدكم الموتُ اثنان ، يعني يجب عليه أن يشهد بذلك ويجب عليهما أن يَشهدا لقوله تعالى:

﴿ ولا يأبَ الشهداءُ إذا ما دُعوا ﴾ [البقرة : 282] .

و ﴿ حين الوصية ﴾ بدَل من ﴿ إذا حضر أحدكم الموتُ ﴾ بَدَلاً مطابقاً ، فإنّ حين حضور الموت هو الحين الذي يوصي فيه الناس غالباً .

جيء بهذا الظرف الثاني ليتخلّص بهذا البدل إلى المقصود وهو الوصية .

(206/218)

وقد كان العرب إذا راوا علامة الموت على المريض يقولون : أوص ، وقد قالوا ذلك لعمر بن الخطاب حين أخبر الطبيب أنّ جرحه في أمعائه .

ومعنى حضور الموت حضور علاماته لأن تلك حالة يتخيّل فيها المرءُ أنّ الموت قد حضر عنده ليصيّره ميتاً ، وليس المراد حصول الغرغرة لأنّ ما طُلب من الموصي أن يعمله

يستدعي وقتاً طويلاً ، وقد تقدّم عند قوله : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً ﴾ في سورة البقرة (180) .

وقوله : اثنان ﴾ خبر عن ﴿ شهادةُ ﴾ ، أي الشهادة على الوصية شهادة اثنين ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأخذ إعرابه ، والقرينة واضحة والمقصود الإيجاز .

فماصْدقُ ﴿ اثنان ﴾ شاهدان ، بقرينة قوله ﴿ شهادة بينكم ﴾ ، وقوِله : ﴿ ذوا عدل ﴾ .

وهذان الشاهدان هما وصيّان من الميّت على صفة وصيّته وإبلاغها ، إلاّ أن يجعل الموصي وصياً غيرهما فيكونا شاهدين على ذلك .

والعدل والعدالة متّحدان ، أي صاحبا اتّصَاف بالعدالة .

ومعنى ﴿ منكم ﴾ من المؤمنين ، كما هو مقتضى الخطاب بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، لأنّ المتكلّم إذا خاطب مخاطبه بوصف ثم أتبعه بما يدلّ على بعضه كان معناه أنّه بعض أصحاب الوصف ، كما قال الأنصار يوم السقيفة : مِنّا أمير ومِنْكم أمير .

فالكلام على وصية المؤمنين .

وعلى هذا درج جمهور المفسّرين ، وهو قول أبي موسى الأشعري ، وابن عبّاس ، وسعيد بن المسيّب ، وقتادة ، والأئمة الأربعة .

وهو الذي يجب التعويل عليه ، وهو ظاهر الوصف بكلمة ﴿ منكم ﴾ في مواقعها في

القرآن .

وقال الزهري ، والحسن ، وعكرمة : معنى قوله ﴿ منكم ﴾ من عشيرتكم وقرابتكم .

ويترتّب على التفسير الأول أن يكون معنى مقابله وهو ﴿ من غيركم ﴾ أنّه من غير أهل ملّتكم .

(207/218)

فذهب فريق ممّن قالوا بالتفسير الأول إلى إعمال هذا وأجازوا شهادة غير المسلم في السفر في الوصية خاصّة ، وخصّوا ذلك بالذميّ ، وهو قول أحمد ، والثوري ، وسعيد بن المسيّب ، ونُسب إلى ابن عبّاس ، وأبي موسى .

وذهب فريق إلى أنّ هذا منسوخ بقوله تعالى : ﴿ وأشهدوا ذَوَيْ عدل منكم ﴾ [الطلاق : 2] ، وهو قول مالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، ونسب إلى زيد بن أسلم .

وقد تمّ الكلام على الصورة الكاملة في شهادة الوصية بقوله : ﴿ ذوَا عدل منكم ﴾ .

وقوله : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ الآيات .

.

تفصيل للحالة التي تعرض في السفر .

و(أو) للتقسيم لا للتخيير ، والتقسيمُ باعتبار اختلاف الحالين : حالِ الحاضر وحال المسافر ، ولذلك اقترن به قوله : ﴿ إنْ أنتم ضربتم في الأرض ﴾ ، فهو قيد لقوله : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ .

وجواب الشرط في قوله : ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ ، والتقدير : إنْ أنتم ضربتم في الأرض فشهادة آخَرَيْنِ من غيركم ، فالمصيرُ إلى شهادة شاهدَين من غير المسلمين عند من يراه مقيّد بشرط ﴿ إنْ أنتم ضربتم في الأرض ﴾ .

والضرب في الأرض : السير فيها .

والمراد به السفر ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض ﴾ في سورة آل عمران (156) .

ومعنى : فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ حلّت بكم ، والفِعْل مستعمل في معنى المشارفة والمقاربة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وليَخْشَ الذين لو تركوا من خَلْفهم ذرّيَة ﴾ [السناء : 9] ، أي لو شارفوا أن يتركوا ذرّية .

وهذا استعمال من استعمال الأفعال .

ومنه قولهم في الإقامة : قد قامت الصلاة .

وعُطف قولُه ﴿ فأصابتكم ﴾ على ﴿ ضربتم في الأرض ﴾ ، فكانَ من مضمون قوله

قبله ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ .

أعيد هنا لربط الكلام بعد ما فَصَل بينه من الظروف والشروط .

وضمير الجمع في ﴿ أصابتكم ﴾ كضمير الجمع في ﴿ ضربتم في الأرض ﴾ .

(208/218)

والمصيبة : الحادثة التي تحلّ بالمرء من شرّ وضرّ ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ في سورة النساء (72) .

وجملة تحبسونهما ﴾ حال من ﴿ آخران ﴾ عند من جعل قوله ﴿ من غيركم ﴾ بمعنى من غير أهل دينكم .

وأمّا عند من جعله بمعنى من غير قبيلتكم فإنّه حال من ﴿ اثنان ﴾ ومن ﴿ آخران ﴾ لأنّهما متعاطفان بـ (أو) .

فهما أحد قسمين ، ويكون التحليف عند الاسْترابة .

والتحليف على هذا التأويل بعيد إذ لا موجب للاسترابة في عدلين مسلمين .

وضمير الجمع في ﴿ تحبسونهما ﴾ كضميري ﴿ ضربتم وأصابتكم ﴾ .

وكلّها مستعملة في الجمع البدَلي دون الشمولي ، لأنّ جميع المخاطبين صالحون لأن يعتريهم

هذا الحكم وإنّما يحلّ ببعضهم .

فضمائر جمع المخاطبين واقعة موقع مُقتضَى الظاهر كلُّها .

وإنّما جاءت بصيغة الجمع لإفادة العموم ، دفعاً لأن يتوهّم أنّ هذا التشريع خاصّ بشخصين معيّنين لأنّ قضية سبب النزول كانت في شخصين ؛ أو الخطاب والجمع للمسلمين وحكّامهم .

والحَبس : الإمساك ، أي المنع من الانصراف .

فمنه ما هو بإكراه كحبس الجاني في بيت أو إثقافه في قيد .

ومنه ما يكون بمعنى الانتظار ، كما في حديث عتبان بن مالك ﴿ فغدا عليّ رسول الله وأبو بكر إلى أن قال وحبسناه على خزير صنعناه ﴾ ، أي أمسكناه .

وهذا هو المراد في الآية ، أي تمسكونهما ولا تتركونهما يغادِرَانكم حتّى يتحمّلا الوصية .

وليس المرادّ به السجن أو ما يقرب منه ، لأنّ الله تعالى قال : ﴿ ولا يضارّ كاتب ولا شهيد ﴾ [البقرة : 282] .

وقوله : ﴿ من بعد الصلاة ﴾ توقيت لإحضارهما وإمساكهما لأداء هذه الشهادة .

والإتيانُ بـ (مِن) الابتدائية لتقريب البَعديّة ، أي قرب انتهاء الصلاة .

وتحتمل الآية أنّ المراد بالصلاة صلاة من صلوات المسلمين ، وبذلك فسّرها جماعة من أهل العلم ، فمنهم من قال : هي صلاة العصر .

وروي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أحْلف تميماً الداري وعَدي بنَ بدّاء في قضية الجام بعد العصر ، وهو قول قتادة ، وسعيد ، وشريح ، والشعبي .

ومنهم من قال : الظهر ، وهو عن الحسن .

وتحتمل من بعد صلاة دينهما على تأويل من غيركم بمعنى من غير أهل دينكم .

ونقل عن السديّ ، وابن عبّاس ، أي تُحضرونهما عقب أدائهما صلاتهما لأنّ ذلك قريب من إقبالهما على خشية الله والوقوف لعبادته .

وقوله : ﴿ فيقسمان بالله ﴾ عطف على ﴿ تحبسونهما ﴾ فعلم أنّ حبسهما بعد الصلاة لأجل أن يقسما بالله .

وضمير ﴿ يقسمان ﴾ عائد إلى قوله ﴿ آخران ﴾ .

فالحلف يحلفه شاهدا الوصية اللذان هما غير مسلمين لزيادة الثقة بشهادتهما لعدم الاعتداد بعدالة غير المسلم .

وقوله ﴿ إن ارتبتم ﴾ تظافرت أقوال المفسّرين على أنّ هذا شرط متّصل بقوله ﴿ تحبسونهما ﴾ وما عطف عليه .

واستغني عن جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليه ليتأتّى الإيجاز ، لأنّه لو لم يقدّم لقيل : أو آخران من غيركم فإن ارتبتم فيهما تحبسونهما إلى آخره .

فيقتضي هذا التفسير أنّه لو لم تَحصل الريبة في صدقهما لما لزم إحْضارهما من بعد الصلاة وقسمهما ، فصار ذلك موكولاً لِخيَرة الولي .

وجملة الشرط معترضة بين فعل القسم وجوابه .

(210/218)

والوجه عندي أن يكون قوله ﴿ إن ارتبتم ﴾ من جملة الكلام الذي يقوله الشاهدان ، ومعناه أنّ الشاهدين يقولان : إن ارتبتم في شهادتنا فنحن نقسم بالله لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم الشهادة ، أي يقولان ذلك لاطمئنان نفس المُوصي ، لأنّ العدالة مظنّة الصدق مع احتمال وجود ما ينافيها ممّا لا يُطّلع عليه فأكّدت مظنّة الصدق بالحلف ؛ فيكون شُرع هذا الكلام على كلّ شاهد ليسْتوي فيه جميع الأحوال بحيث لا يكون توجيه اليمين في بعض الأحوال حَرجاً على الشاهدين الذين توجّهت عليهما اليمينُ من أنّ اليمين تعريض بالشكّ في صدقهما ، فكان فرض اليمين من قِبَل الشرع دافعاً للتحرّج بينهما وبين الوليّ ، لأنّ في كون اليمين شرطاً من عند الله معذرة في المطالبة بها ، كما قال جمهور فقهائنا

في يمين القضاء التي تتوجّه على من يثبت حقّاً على ميّت أو غائب من أنّها لازمة قبل الحكم مطلقاً ولو أسقطها الوارث الرشيد .

ولم أقف على مَن عرّج على هذا المعنى من المفسّرين إلاّ قول الكواشي في "تلخيص التفسير" : "وبعضُهم يقف على ﴿ يقسمان ﴾ ويبتدىء ﴿ بالله ﴾ قسماً ولا أحبّه" ، وإلاّ ما حكاه الصفاقسي في "مُعربَه" عن الجرجاني "أنّ هنا قولاً محذوفاً تقديره : فيقسمان بالله ويَقُولان" .

ولم يظهر للصفاقسي ما الذي دعَا الجرجاني لتقدير هذا القول .

ولا أراه حمله عليه إلاّ جَعْلُ قوله ﴿ إن ارتبتم ﴾ من كلام الشاهدَيْن .

وجوابُ الشرط محذوف يدلّ عليه جواب القسم ، فإنّ القسم أولى بالجواب لأنّه مقدّم على الشرط .

وقوله ﴿ لا نشتري به ثمناً ﴾ الخ ، ذلك هو المقسم عليه .

ومعنى ﴿ لا نشتري به ثمناً ﴾ لا نعتاض بالأمر الذي أقسمنا عليه ثمناً ، أي عوضاً ، فضمير به ، عائد إلى القسم المفهوم من ﴿ يقسمان ﴾ .

وقد أفاد تنكير ﴿ ثمناً ﴾ في سياق النفي عمومَ كلّ ثمن .

(211/218)

والمراد بالثمن العوَض ، أي لا نبدّل ما أقسمنا عليه بعوض كائناً ما كان العوضُ ، ويجوز أن يكون ضمير ﴿ به ﴾ عائداً إلى المقسم عليه وهو ما استشهدا عليه من صيغة الوصي بجميع ما فيها .

وقوله : ﴿ ولو كان ذا قُربى ﴾ حال من قوله ﴿ ثمناً ﴾ الذي هو بمعنى العوض ، أي ولو كان العوض ذا قربى ، أي ذا قربى منّا ، و"لو" شرط يفيد المبالغة فإذا كان ذا القربى لا يَرْضيانه عوّضاً عن تبديل شهادتهما فأوْلى ما هو دون ذلك .

وذلك أنّ أعظم ما يدفع المرء إلى الحيف في عرف القبائل هو الحميّة والنصرة للقريب ، فذلك تصغر دونه الرّشى ومنافع الذات .

والضمير المسْتتر في ﴿ كان ﴾ عائد إلى قوله ﴿ ثَمناً ﴾ .

ومعنى كون الثمن ، أي العوض ، ذَا قربى أنّه إرضاء ذي القربى ونفعه فالكلام على تقدير مضاف ، وهو من دلالة الاقتضاء لأنّه لا معنى لجعل العوض ذات ذي القربى ، فتعيّن أنّ المراد شيء من علائقه يعيّنه المقام .

ونظيره ﴿ حُرِّمت عليكم أمّهاتكم ﴾ [النساء : 23] .

وقد تقدّم وجه دلالة مثل هذا الشرط بـ (لو) وتسميتها وصلية عند قوله تعالى : ﴿ ولو افتدى به ﴾ من سورة آل عمران (91) .

وقوله ولا نكتم ﴾ عطف على ﴿ لا نشتري ﴾ ، لأنّ المقصود من إحلافهما أن يؤدّيا الشهادة كما تلقّياها فلا يغيّرا شيئاً منها ولا يكتماها أصلاً .

وإضافة الشهادة إلى اسم الجلالة تعظيم لخطرها عند الشهادة وغيره لأنّ الله لمّا أمر بأدائها كما هي وحَضّ عليها أضافها إلى اسمه حفظاً لها من التغيير ، فالتصريح باسمه تعالى تذكير للشاهد به حينَ القسم .

وفي قوله ﴿ ولا نكتم ﴾ دليل على أنّ المراد بالشهادة هنا معناها المتعارف ، وهو الإخبار عن أمر خاصّ يعرِض في مثله الترافعُ .

وليس المراد بها اليمين كما توهّمه بعض المفسّرين فلا نطيل بردّه فقد ردّه اللفظ .

(212/218)

وجملة ﴿ إنَّا إذاً لمن الآثمين ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنّها جواب سؤال مقدّر بدليل وجود ﴿ إذنْ ﴾ ، فإنّه حرفُ جواب : استشعر الشاهدان سؤالاً من الذي حَلفا له بقولهما : لا نشتري به ثمناً ولا نكتم شهادة الله ، يقول في نفسه : لعلّكما لا تَبرّان بما أقسمتما عليه ، فأجابا : إنّا إذَنْ لَمِن الآثمين ، أي إنّا نَعلم تبعة عدم البرّ بما أقسمنا عليه أن نكون من الآثمين ، أي ولا نرضى بذلك .

والآثمُ : مرتكب الإثم .

وقد علم أنّ الإثم هو الحنث بوقوع الجملة استئنافاً مع "إذن" الدالّة على جواب كلام يختلج في نفس أولياء الميّت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(213/218)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ . . . الآية (106) ﴾

الحق – سبحانه – كما ساس ودبر حياة المؤمن الدنيوية ، دبر وتولى – جل شأنه – حياته الأخروية ليلفته إلى أنه يجب عليه ألا ينظر إلى حياته العاجلة فقط ولكن عليه أن يدبر أمر نفسه فيما يستقبله من أمر الحياة الآخرة ، ففي لحظة مواجهة الموت عليه ألا ينسى الوصية إن كان مديناً لأحد أو كان له دين عند أحد . وكذلك إن سافر الإنسان ضرباً في الأرض فعليه أن يوصي حتى لا يضيّع على ورثته حقاً لهم . أو يسدد ما عليه من دين ليبرئ ذمته ، وأن يُشْهِد على وصيته اثنين من المسلمين ، أما إذا كان الإنسان يصاحب في السفر أناساً

غير مسلمين فعليه أيضاً أن يُشهدهم على الوصية ، ولم يترك الحق لنا في هذا الأمر أي عذر ، بل لا بد من شهادة اثنين . والشهادة هي الأمر المشهود في الحاضر ، ومثال قوله الحق :

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : 185] .

أي أن الإنسان إذا حضر الشهر وأدركه فليصم ، والشهادة تأتي بمعنى الرؤية مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليوم الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] .

أي أن يحضر مشهد الجلد جماعة من المؤمنين . وتأتي الشهادة أيضاً بمعنى الحكم : ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 26-27] .

(214/218)

إذن فالشهادة تأتي بمعانٍ متعددة . والأصل فيها المشهد ، أي الشيء الذي تشاهده .

والوصية – كما نعلم – هي إيصاء بأمر يهم الموصي بالنسبة للموصى إليه . والمؤمن يوصي

بالخير . ويسمعه من لا يرث ، أي الذي ليس له شرعاً نصيب في التركة ، لكن قد يكون لغير الوارث سبب من أسباب المنفعة مع المورِّث . وعلى الرغم من ذلك فالسامع للوصية يبرئ ذمته فيبلغ ما سمع إلى الورثة ؛ لأن الوصية هي مسألة في نفس الموصي ، وقد لا يكون لها حيثية عند من يسمعها أو يتلقاها ولكنها ذات حيثية في نفس الذي يقولها ؛ لذلك جعل الله الوصية قبل الدين في قوله الحق : ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء : 12]

.

إن ذلك يحدث على الرغم من أن الدَّين مقدم على الوصية ؛ لأن الدين حق والوصية تبرع . ويريد الحق ذلك ؛ لأن الدين له مُطالب سيطالب به ، ولكن الموصي إليه قد لا يكون صاحب حق ولكنه يتلقى تبرعاً بالوصية ، أو يكون حقه لدى الموصي غير موثق بصك أو شهادة ؛ لذلك يقدمه الحق سبحانه وتعالى ليجعلنا نهتم بأمر الوصية . أو يكون الذي وصى بشيء قد عاش في الحياة ويعلم مَنْ مِنَ الناس أثر في حياته علمياً أو أدبياً أو خلقياً أو اجتماعياً ؛ لذلك يريد الله سبحانه وتعالى ألا يبارح الإنسان الحياة إلا بعد أن يؤدي المؤمن هذا الحق الأريحي لمن كان له عليه دين في دنياه .

وهذه مسألة قد لا تشغل الورثة ، بل قد يكرهونها . لكن صاحب الوصية هو الذي يعلم حيثياتها .

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد أمر الوصية حتى في الوقت الذي يعز فيه التأكيد

، فأمر الإنسان أن يوصي بها إن كان بين أهله وقومه ، ويؤكد الحق أهمية الوصية أيضاً إن كان الإنسان مسافراً ، فإن أحس باقتراب الموت فله أن ينادي اثنين من أهل دينه ويوصيهما . وإن لم يجد أحداً من أهل دينه فليُسْمِع وصيته اثنين من غير أهل دينه ، ولذلك مناسبة :

(215/218)

فقد حدث أن رجلاً مسلماً اسمه بديل بن أبي مريم مولى العاص بن وائل السهمي ، كان على سفر مع غير مسلمين وحضرت له مقدمات الموت فكتب ورقة ووضعها مع كل ما معه من متاع – احتياطياً – ونادى على اثنين من غير المسلمين وهما تميم الداري وعدّي بن بدّاء ، وأوصاهما أن يسلما متاعه لأهله ، ومات الرجل . لكنَّ الاثنين فتحا المتاع ووجدا فيه إناءً مفضضاً ومُذَهَّبا وله قيمة ، فأخذاه وباعاه بألف درهم واقتسما المبلغ ، وسلما المتاع لأهل الميت الذين عثروا على الورقة المكتوب فيها كل التفاصيل بما فيها خبر الإناء الثمين . وسأل أهل الميت الشخصين اللذين سلما المتاع عن الإناء فأنكرا أي معرفة به . وأنكرا أيضاً أنها رأيا صاحب الإناء يبيعه . وبعد فترة عثر أهل الميت على الإناء معروضاً للبيع . وعرفوا أن البيع الأول كان من الشخصين اللذين حضرا موت صاحب الإناء . فذهب أهل الميت إلى رسول الله يعرضون عليه مسألة خيانة الأمانة في أمر

الوصية ، فنزل قوله الحق : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت حِينَ الوصية اثنان ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأرض فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الموت تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصلاة فَيُقْسِمَانِ بالله إِنِ ارتبتم لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قربى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ الله إِنَّآ إِذاً لَّمِنَ الآثمين ﴾ [المائدة : 106] .

إنه أمر من الله لرسوله أن يحضر هذان الاثنان من بعد أن يؤديا صلوات دينهما وأن يقسما بالله ، وأن يأتي أهل الميت ومعهم الورقة وليكشف الرسول الحق من الباطل . وقد أسلم تميم الداري من بعد ذلك وقص القصة وأحضر الخمسمائة درهم التي كانت في ذمته والتي أخذها ثمنا لنصف الإناء وأحضر الخمسمائة درهم الأخرى التي عند عدي ليرد ثمن الإناء كله إلى أهل الميت .

(216/218)

ولماذا قال الله : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصلاة ﴾ ؟ . إنه أمر بأن نحتجزهم من بعد الصلاة ؛ لأن الإنسان عادة بعد أن يؤدي الصلاة سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم تصفو نفسه بالاستعداد للصدق بعد أن وقف بين يدي الله ، ويكون في هذه الحالة أقل اجتراءً على الكذب ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾

.

أي الشهادة التي يختلف فيها الناس وتختلف فيها الأقوال بين طرفين ، ذلك أن كلمة " بين " تعني انفصال كائنين فيصير كل منهما طرفاً .

إن هذه الشهادة تحتاج إلى الفصل بين وجهتي النظر . والذي يقوم بهذا الفصل هو من يستجوب الاثنين اللذين من ذوي العدل من المسلمين أو من غير المسلمين ، ويتم الاستجواب من بعد أداء الصلاة . فإن صار الأمر الذي شهدا فيه واضحاً ، كان بها . وإن لم يكن قولهما واضح الصدق وفيه شك وريبة ، فعلى الشاهدين أن يقسما بالله أنهما لا يشتريان بآيات الله ثمنا حتى لا يكونا من الآثمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(217/218)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ : هذه الآية وما بعدها من أشْكَلِ القُرآنِ حُكْماً وإعْراباً وتَفْسيراً ، ولم يَزَلِ العلماءُ يستشكلُونَها حتى قال مكيُّ بنُ أبي طالبٍ في كتابه المسمَّى بـ " الكشف " : " هذه الآيةُ في قراءاتها وإعرابها وتفسيرها ومعانيها وأحكامها من أصْعَب

آي في القُرْآن وأشْكِلها ، قال : ويحتمل أن يُبْسَطَ ما فيها من العلوم في ثلاثينَ ورقةً أو أكثر " ؛ قال : " وقد ذكرناهَا مشروحةً في كتاب مفردٍ " ، وقال ابن عطية : " وهذا كلامُ من لم يَقَعْ له الثَّلَجُ في تَفْسيرها ، وذلك بَيِّنٌ من كتابه " ، وقال السَّخَاوِيُّ : " لم أر أحداً من العلماء تَخَلَّصَ كلامُه فيها من أولها إلى آخرها " ،

وقال الواحديُّ : " وهذه الآية وما بعدها من أعوص ما في القرآن معنًى وإعراباً وتفسيراً "

قال شهاب الدين : وأنا أستعينُ الله تعالى في توجيه إعرابها واشتقاق مفرداتها وتصريف كلماتها وقراءاتها ومعرفةِ تأليفها مِمَّا يختصُّ بهذا الموضوع ، وبالله الحول والقوة .

قرأ الجمهورُ " شَهَادَةَ بَيْنِكُمْ " برفع " شَهَادَةُ " مضافةً لـ " بَيْنِكُمْ " ، وقرأ الحسنُ والأعرجُ والشَّعْبِيُّ برفعها منوَّنةً " بَيْنَكُمْ " نصباً ، والسُّلَميُّ والحسنُ والأعرجُ - في رواية عنهما - : " شَهَادَةً " منونَّةً منصوبة ، " بَيْنَكُمْ " نصباً ، فأمَّا قراءة الجمهور ، ففي تخريجها خمسةُ أوجه :

أحدها : أنها مرفوعةٌ بالابتداءِ ، وخبرُها " اثْنَانِ " ، ولا بدَّ على هذا الوجه من حذفِ مضافٍ : إمَّا من الأوَّل ، وإمَّا من الثاني ، فتقديرُه من الأول : ذوَا شَهَادَةِ بَيْنكُمُ اثنانِ ، أي صَاحِبَا شهادةِ بينكم اثنانِ ، وتقديرُه من الثاني : شهادةُ بينكم شهادةُ اثنين ، وإنما اضطررْنا إلى حذفٍ من الأول أو الثاني ليتصادقَ المبتدأ والخبرُ على شيءٍ واحدٍ ؛ لأنَّ الشهادة معنًى ، والاثنان جُثَّانِ ، ولا يجيء التقديران المذكورانِ في نحو : " زَيْدٌ عَدْلٌ "

وهما جعله نفس المصدرِ مبالغةً أو وقوعُه موقع اسم الفاعل ؛ لأنَّ المعنى يَأْبَاهُمَا هنا ، إلا أنَّ الواحديَّ نقل عن صاحب " النَّظْم " ؛ أنه قال : " شَهَادَة " مصدرٌ وُضِع مَوْضِعَ الأسْمَاء .

(218/218)

يريدُ بالشهادة الشهود ؛ كما يقال : رَجُلٌ عَدْلٌ ورِضاً ، ورجالٌ عَدْلٌ ورِضاً وزَوْر ، وإذا قَدَّرْتها بمعنى الشُّهُود ، كان على حذف المضاف ، ويكون المعنى : عدَّة شهودٍ بينكم اثنانِ ، واستشهد بقوله : ﴿ الحج أَشْهُرٌ ﴾ [البقرة : 197] ، أي : وقتَ الحجِّ ، ولولا ذلك لنصب أشهراً على تأويل : " الحَجُّ في أشْهُرٍ " ، فعلى ظاهر هذا أنه جعل المصدر نفس الشهود مبالغةً ، ولذلك مثله بـ " رِجَال عَدْل " ، وفيه نظر .

الثاني : أن ترتفع على أنها مبتدأ أيضاً ، وخبرها محذوفٌ يَدُلُّ عليه سياقُ الكلام ، و " اثْنَان " على هذا مرتفعان بالمصدر الذي هو " شهادة " ، والتقدير : فيما فَرَضَ عليْكُمْ أن يشهد اثْنَانِ ، كذا قدَّره الزمخشريُّ وهو أحد قولي الزَّجَّاج ، وهو ظاهرٌ جدًّا ، و " إذَا " على هذين الوجهين ظرف لـ " شَهَادَةُ " ، أي ليُشْهَد وقتُ الموت - أي أسبابه - و " حِينَ الوصيَّةِ " على هذه الأوجه ؛ فيه ثلاثة أوجه :

أوجهها : أنه بدلٌ من " إذَا " ، ولم يذكر الزمخشريُّ غيره ، قال : " وفي إبداله منه دليلٌ على وجوب الوصية " .

الثاني : أنه منصوبٌ بنَفْسِ الموت ، أي : يقع المَوْتُ وقْتَ الوصية ، ولا بُدَّ من تأويله بأسباب الموت ؛ لأنَّ وقتَ الموتِ الحقيقيّ لا وصيةَ فيه .

الثالث : أنه منصوبٌ بـ " حَضَرَ " ، أي : حَضَر أسباب الموتِ حين الوصيَّة .

الثالث : أنَّ " شَهَادَةُ " مبتدأ ، وخبره : " إذَا حضَر " ، أي : وقوعُ الشهادة في وقتِ حضُورِ الموتِ ، و " حِينَ " على ما تقدَّم فيه من الأوجه الثلاثة آنفاً ، ولا يجوزُ فيه ، والحالةُ هذه : أن يكون ظرفاً للشهادة ؛ لئلا يلزمَ الإخبارُ عن الموصول قبل تمامِ صلته ، وهو لا يجوزُ ؛ لما مرَّ ، ولَمَّا ذكر أبو حيَّان هذا الوجه ، لم يستدركْ هذا ، وهو عجيبٌ منه .

(219/218)

الرابع : أنَّ " شَهَادَةُ " مبتدأ ، وخبرُها " حِين الوصيَّةِ " ، و " إذَا " على هذا منصوبٌ بالشَّهَادَةِ ، ولا يجوز أن ينتصب بـ " الوصيَّة " ، وإن كان المعنى عليه ؛ لأنَّ المصدر المؤوَّل لا يَسْبقه معمولُه عند البصريّين ، ولو كان ظرفاً ، وأيضاً : فإنه يلزمُ منه تقديمُ المضافِ إليه على المضافِ ؛ لأن تقديم المعمول يُؤذِنُ بتقديمِ العامل ، والعاملُ لا يتقدَّم ، فكذا معمولُه ،

ولم يجوّزوا تقديم معمُولِ المضافِ إلَيْه على المضاف إلا في مسألة واحدة ، وهي : إذا كان المضافُ لفظةَ " غَيْر " ؛ وأنشدوا : [البسيط]

2061 - إنَّ امْرَأً خَصَّنِي عَمْداً مَوَدَّتَهُ . . .

عَلَى التَّنَائِي لِعِنْدِي غَيْرُ مَكْفُورِ

ف " عِنْدِي " منصوبٌ بـ " مَكفُور " ؛ قالوا : لأنَّ " غَيْر " بمنزلة " لاَ " ، و " لاَ " يجوزُ تقديمُ معمولِ ما بعدها عليها ، وقد ذكر الزمخشريُّ ذلك آخرَ الفاتحةِ ، وذكر أنه يجوزُ " أنَا زَيْداً غَيْرُ ضَارِبٍ " دون " أنَا زَيْداً مِثْلُ ضَارِبٍ " ، و " اثنان " على هذين الوجهين الأخيرين يرتفعان على أحد وجهين : إمَّا الفاعلية أي : " يَشْهَدُ اثْنَانِ " يدل عليه لفظ " شَهَادة " ، وإمَّا على خبر مبتدأ محذوف مدلولٍ عليه بـ " شهادة " أيضاً أي : الشاهدان اثنان .

(220/218)

الخامس : أنَّ " شهَادَةُ " مُبْتدأ ، و " اثْنَانِ " فاعلٌ سدَّ مَسدَّ الخبَر ، ذكره أبو البقاء وغيره ، وهو مذهبُ الفرَّاء ، إلا أنَّ الفرَّاء قدَّر الشَّهادةَ واقِعةً موقعَ فِعْلِ الأمْر ؛ كأنه قال : " لِيَشْهَدِ اثْنَانِ " ، فجعلُه من بابِ نِيَابةِ المصْدَرِ عن فِعْل الطَّلَب ، وهو مثل " الحَمْدُ لله " و ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ [هود : 69] ؛ من حيث المعنى ، وهذا مذهبٌ ضعيفٌ ردَّه النَّحْوِيُّون ،

ويخصُّون ذلك بالوصْفِ المعتمد على نَفْيٍ أو استفهامٍ ؛ نحو : " أقَائِمٌ أبواكَ " وعلى هذا المذهب ف " إذَا " و " حِينَ " ظرفان مَنْصُوبان على ما تقرَّر فيهمَا في غير هذا الوجه ؛ وقد تَحَصَّلْنا فيما تقدَّم أنَّ رفع " شَهَادَةُ " من وجْهٍ واحدٍ ؛ وهو الابتداءُ ، وفي خبرها خَمْسَة أوجه تقدَّم ذكرُها مُفَصَّلَةً ، وأنَّ رفع " اثْنَان " من خَمْسة أوْجُه :

الأول : كونه خَبَراً لـ " شَهَادَةُ " بالتَّأويل المذكُور .

الثاني : أنه فاعلٌ بـ " شَهَادَةُ " .

الثالث : أنه فاعلٌ بـ "يَشْهَدُ " مقدَّراً .

الرابع : أنه خبر مُبْتدأ ، أي : الشَّاهدان اثْنَانِ .

الخامس : أنه فاعلٌ سَدَّ مسدَّ الخبر ، وأنَّ في " إذَا " وجهين : إمَّا النَّصْبَ على الظرفيَّة ، وإمَّا الرفع على الخَبَرِيَّة لـ " شَهَادَةُ " ، وكل هذا بَيِّنٌ مما لَخَّصْتُه قبلُ ، وقراءةُ الحسن برفعها منونةً تتوجه بما تقدَّم في قراءة الجُمْهور من غير فَرْقٍ .

وأمَّا قراءةُ النصبِ ، ففيها ثلاثةُ أوجهٍ :

أحدها – وإليه ذهب ابن جنّي – : أنها منصوبةٌ بفعل مضمرٍ ، و " اثْنَان " مرفوعٌ بذلك الفعل ، والتقدير : ليُقِمْ شهادةَ بَيْنكُمُ اثْنَانِ ، وتبعه الزمخشريُّ .

(221/218)

وقد ردَّ أبو حيان هذا ؛ بأن حذف الفعل وإبقاء فاعله ، لم يُجِزْهُ النحويون ، إلا أن يُشْعِرَ به ما قبله ؛ كقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ ﴾ [النور : 36 – 37] في قراءة ابن عامر وأبي بَكْرٍ ، أي : يُسَبِّحُهُ رجال ؛ ومثله : [الطويل]

2062 – لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ . . .

ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوائِحُ

وفيه خلافٌ : هل يَنْقاسَ أو لا ؟ أو يُجَابَ به نَفْيٌ ؛ كقوله : [الطويل]

2063 – تَجَلَّدْتَ حَتَّى قِيلَ : لَمْ يَعْرُ قَلْبَهُ . . .

مِنَ الوَجْدِ شَيْءٌ قُلْتُ : بَلْ أَعْظَمُ الوَجْدِ

أي : بَلْ عراه أعظمُ الوجْدِ ، وما نحْنُ فيه ليس من الأشياء الثلاثة .

الثاني : أن " شَهَادَةً " بدل من اللفظ بفعل ، أي : إنها مصدر ناب مناب الفعلِ ، فيعملُ عملَه ، والتقدير : لِيَشْهد اثْنَانِ ، ف " اثْنَانِ " فاعل بالمصدر ، لنيابته منابَ الفعلِ ، أو بذلك الفعلِ المحذوفِ ، على حسبِ الخلاف في أصل المسألة ، وإنما قدَّرْتُه " لِيَشْهَدِ اثْنَانِ " ، فأتيتُ به فعلاً مضارعاً مقروناً بلام الأمر ، ولم أقدِّرْهُ فِعْلَ أمر بصيغة " افْعَلْ " ؛ كما يُقَدِّرُه النحويُّون في نحو : " ضَرْباً زَيْداً " ، أي : " اضْرِبْ " لأنَّ هذا قد رفع ظاهراً وهو " اثنانِ " ، وصيغةُ " افْعَلْ " لا ترفع إلا ضميراً مستتراً إن كان المأمور واحداً ؛ ومثلُه قوله : [الطويل]

2065 - . . . . . .

فَنَدْلاً زُرَيْقُ المَالَ نَدْلَ الثَّعَالِبِ

ف " زُرَيْقُ " يجوز أن يكون منادًى ، أي : يا زُرَيْقُ ، والثاني : أنه مرفوع بـ " نَدْلاً " على أنه واقعٌ " لِيَنْدَلْ " ، وإنما حُذِف تنوينه ؛ لالتقاء الساكنين ؛ على حَدِّ قوله : [الطويل]

2066 - . . . . . .

وَلاَ ذَاكِرَ اللَّهَ إلاَّ قَلِيلا

(222/218)

الثالث : أنَّ " شَهَادَةً " بدل من اللفظ بفعلٍ أيضاً ، إلا أنَّ هذا الفعل خبريٌّ ، وإن كان أقلَّ من الطلبيِّ ، نحو : " حَمْداً وشُكْراً لا كُفْراً " ، و " اثْنَانِ " أيضاً فاعلٌ به ، تقديرُه : يَشْهَدُ شَهَادَةً اثنانِ ، وهذا أحسنُ التخاريجِ المذكُورة في قولِ امرئ القيس : [الطويل]

2067 - وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ . . . . . .

" وُقُوفاً " مصدرٌ بدلٌ من فعلٍ خبريٍّ رفع " صَحْبِي " ونصب " مَطِيَّهُمْ " تقديره : وقف صَحْبِي ، وقد تقدَّم أنَّ الفرَّاء في قراءة الرفع قدَّر أن " شَهَادَة " واقعةٌ موقع فعلٍ ، وارتفع "

اثْنَان " بها ، وقد تقدم أنَّ ذلك يجوز أن يكون مِمَّا سَدَّ فيه الفاعل مسدَّ الخبر ، و" بَيْنَكُمْ " في قراءةِ مَنْ نوَّن " شَهَادَة " نصبٌ على الظرف ، وهي واضحةٌ .

(223/218)

وأمَّا قراءةُ الجرِّ فيها ، فَمِنْ باب الاتِّساعِ في الظُّروفِ ، أي : بجعل الظرفِ كأنه مفعولٌ لذلك الفعلِ ، ومثله : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] وكقوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] فيمن رفع ، قال أبو حيان : " وقال الماتُرِيديُّ - وتبعه الرازيُّ - : إنَّ الأصلَ " مَا بَيْنَكُمْ " فحذف " مَا " ، قال الرازيُّ : و" بَيْنَكُمْ " كنايةٌ عن التنازُعِ ؛ لأنه إنما يُحْتَاجُ إلى الشهود عند التنازع ، وحَذْفُ " مَا " جائزٌ عند ظهوره ؛ ونظيرُه كقوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] في قراءة مَنْ نصب " قال أبو حيان : " وحَذفُ " مَا " الموصولةِ غيرُ جائز عند البصريِّين ، ومع الإضافة لا يَصِحُّ تقديرُ " مَا " ألبتة ، وليس قوله ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] نظيرَ ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] لأن هذا مضافٌ ، وذلك باقٍ على ظرفيته فيُتَخَيَّل فيه حَذْفُ " مَا " ؛ بخلاف ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] و" شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ " ؛ فإنه لا يُتَخَيَّل فيه تقديرُ " مَا " ؛ لأنَّ الإضافة أخْرَجَتْهُ عن الظرفيَّة وصَيَّرَتْهُ مفعولاً به على السَّعَة

" ، قال شهاب الدين : هذا الذي نقله الشيخ عنهما قاله أبو عليٍّ الجُرْجَانِيُّ بعينه ، قال – رحمه الله تعالى – : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ ، أي : ما بَيْنكُمْ ، و" مَا بَيْنَكُمْ "كنايةٌ عن التنازُع والتشاجر ، ثم أضافَ الشهادة إلى التنازعِ ؛ لأن الشهودَ إنَّما يُحْتَاجُ إليهم في التنازُعِ الواقعِ فيما بين القوم ، والعربُ تُضيفُ الشيْءَ إلى الشيءِ ، إذا كان منه بسبب ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ [الرحمن : 46] ، أي : مقامه بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ ، والعربُ تَحْذِفُ كثيراً ذكر " مَا " و" مَنْ " في الموضِعِ الذي

(224/218)

يُحْتَاجُ إليهما فيه ؛ كقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ [الإنسان : 20] أي : ما ثَمَّ ، وكقوله : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] و﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] أي ما بَيْنِي ، ومَا بَيْنَكُمْ ، وقول أبي حَيَّان " لا يُتَخَيَّل فيه تقديرُ " مَا " إلى آخره "ممنوعٌ ؛ لأنَّ حالة الإضافة لا تَجْعَلُها صلةً للموصول المحذوف ، ولا يَلْزمُ من ذلك : أنْ تُقَدِّرَها من حيث المعنى ، لا من حيث الإعرابُ ؛ نظراً إلى الأصْلِ ، وأمَّا حَذْفُ الموصُولِ ، فقد تقدَّم تحقيقُه .

فصل

واخْتَلَفُوا في هَاتَيْن الآيتين ، فقال قَوْمٌ : هما الشَّاهِدانِ يَشْهَدَان على وصيَّةٍ .

وقال غَيْرُهُم : هُمَا الوصيَّان ؛ لأنَّ الآية نَزَلَتْ فيهما ؛ ولأنَّه قال : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصلاة فَيُقْسِمَانِ ﴾ ، ولا يَلْزَمُ الشَّاهِدُ يَمِين ، وجَعَلَ الوَصِيَّ اثْنَيْن تأكيداً ، فعلى هذا تكُونُ الشَّهَادَةُ بِمَعْنَى : الحُضُور ، كقولك : " شَهِدْتُ وصيَّةَ فلانٍ " ، بِمَعْنَى : حَضَرتُ وشَهِدْتُ العَيْن ، وقوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] يُرِيدُ الحُضُور .

فصل

(225/218)

وقوله : " ذَوا " صفةٌ لاثنين ، أي : صاحِبَا عدْلٍ ، وكذلك قوله " مِنْكُمْ " صفة أيضاً لاثنين ، وقوله : " أَوْآخَرَانِ " نسقٌ على اثنين ، و " مِنْ غَيْرِكُمْ " صفةٌ لآخَرَيْنِ ، والمراد بـ " مِنْكُمْ " من قرابتكم وعترتِكُم ، ومن غيركم من المسلمين الأجانب ، وقيل : " مِنْكُمْ " من أهل دينكم ، و " مِنْ غَيْرِكُمْ " من أهل الذمة ، ورجَّح النحَّاسُ الأولَ ، فقال : " هذا يَنْبَنِي على معنًى غامضٍ في العربية ، وذلك أنَّ معنى " آخَرَ " في العربية من جنْسِ الأوَّلِ تقولُ : " مَرَرْتُ بِكَرِيمٍ وكَرِيمٍ آخَرَ " ولا يجوز " وخَسِيسٍ آخَرَ " ولا : " مَرَرْتُ بِحِمَارٍ ورَجُلٍ آخَرَ " ، فكذا

هاهنا يجب أن يكون "أو آخَرَانِ" : أو عَدْلاَنِ آخَرَانِ ، والكفارُ لا يكونونَ عُدُولاً " وردَّ أبو حيان ذلك ؛ فقال : "أمَّا ما ذكرَهُ من المُثُلِ ، فصحيحٌ ؛ لأنه مثَّل بتأخير "آخَرَ" ، وجعله صفةً لغير جنسِ الأوَّل ، وأمَّا الآيةُ ، فمن قبيل ما يُقدَّم فيه "آخَر" على الوصف ، واندرج "آخَر" في الجنْس الذي قبله ، ولا يُعْتَبَرُ وصْفُ جنس الأول ، تقول : "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ وآخَرَ كَافِرٍ ، واشْتَرَيْتُ فَرَساً سَابِقاً ، وآخَرَ بَطِيئاً" ، ولو أخَّرْتَ "آخَرَ" في هذين المثالين ، فقلت : "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ كَافِرٍ آخَرَ" ، لم يَجُزْ ، وليس الآيةُ من هذا ؛ لأن تركيبها ﴿ اثنان ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ ف "آخَرَانِ" من جنسِ قوله "اثْنَانِ" ، ولا سيما إذا قَدَّرْته : "رَجُلانِ اثْنَانِ" ف "آخَرَانِ" هما من جنْس قوله "رَجُلانِ اثْنَانِ" ، ولا يُعْتَبَرُ وصف قوله : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ ، وإن كان مغايراً لقوله "مِنْ غَيْرِكُمْ" ، كما لا يُعتبر وصفُ الجنْسِ في قولك : "عِنْدِي رَجُلانِ اثْنَانِ مُسْلِمَانِ وآخَرَانِ كَافِرَانِ" ؛ إذ ليس من

(226/218)

شرطِ "آخَرَ" إذا تقدَّم أن يكون من جنْس الأول بقيدِ وصفه ، وعلى ما ذكرته جاء لسانُ العربِ ؛ قال الشاعر : [البسيط]

2068 - كَانُوا فَرِيقَيْنِ يُصْفُونَ الزِّجَاجَ عَلَى . . .

قُعْسِ الكَوَاهِلِ فِي أَشْدَاقِهَا ضَخَمُ

وآخرِينَ تَرَى المَاذِيَّ فَوْقَهُمُ . . .

مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ أَوْ مَا أَوْرَثَتْ إِرَمُ

التقديرُ : كانوا فريقين : فريقاً - أو ناساً - يُصْفُونَ الزجاج ، ثم قال : " وآخرين تَرَى الماذِيَّ ، ف " آخَرِينَ " من جنْس قولك " فَرِيقاً " ، ولم يعتبره بوصفه بقوله "يُصْفُونَ الزِّجاج" ؛ لأنه قَسَّم من ذكر إلى قسمين متباينين بالوصف متحدين بالجنْسِ " ، قال : " وهذا الفرقُ قَلَّ مَنْ يَفْهَمُهُ ؛ فَضْلاً عَمَّنْ يَعْرِفُهُ " .

وقوله : " أو " الظاهرُ أنها للتخْيير ، وهو واضحٌ على القول بأن معنى " مِنْ غَيْرِكُمْ " : مِنْ غير أقارِبكُمْ من المسلمين ، يعني : المُوصِي مُخَيَّرٌ بيْنَ أَنْ يُشْهِدَ اثنَيْنِ من أقاربه ، أو من الاجانب المسلمين وقيل : " أَوْ " للترتيب : أي : لا يُعْدَلُ عن شاهدين منْكُمْ إلا عِنْدَ فَقْدِهِمَا ، وهذا لا يجيءُ إلا إذا قلنا : " مِنْ غَيْرِكُمْ " : من غير أَهْلِ مِلَّتِكُمْ .

قوله : " إن أَنْتُمْ " " أَنْتُمْ " مرفوعٌ بمحذوفٍ يفسّره ما بعده ، وهي مسألة الاشتغالِ ، والتقديرُ : إنْ ضَرَبْتُمْ ، فلما حُذِفَ الفعلُ ، انفصلَ الضميرُ ، وهذا مذهبُ جمهور البصريّين ، وذهب الأَخْفَشُ منهم والكوفيُّون إلى جواز وقوعِ المبتدأ بعد " إن " الشرطيَّةِ ؛ كما أجازوه بعد " إذَا " أيضاً ، ف " ضَرَبْتُمْ " لا محلَّ له عند الجمهور ؛ لكونه مفسّراً ، ومحلُّه الرفعُ عند

الكوفيين والأخفش ؛ لكونه خبراً ؛ ونحوه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك ﴾ [التوبة : 6] ، ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] .

(227/218)

وجوابُ الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿ اثنان ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ ﴾ ، ولكنَّ تقدير هذا الجواب يتوقَّف على خلافٍ في هذا الشرط : هل هو قيدٌ في أصْلِ الشهادة ، أو قيدٌ في ﴿ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ فقط ؟ بمعنى : أنه لا يجوزُ العدولُ في الشهادة على الوصيَّة إلى أهلِ الذمةِ ، إلا بشَرْطِ الضرب في الأرض ، وهو السفر ، فإن قيل : هو شرطٌ في أصْلِ الشهادةِ ، فتقديرُ الجواب : إنْ ضَرَبْتُمْ في الأرْضِ ، فليشهد اثنانِ منْكُمْ أو من غَيْرِكُمْ ، وإنْ كان شرطاً في العدُولِ إلى آخَرَيْنِ من غير الملَّة ، فالتقدير : فأشْهِدُوا آخَرَيْنِ من غَيْركم ، أو فالشاهِدُ آخَرَانِ من غَيْرِكُمْ ، فقد ظهر أنَّ الدَّالَّ على جوابِ الشرط : إمَّا مجموعُ قوله : " اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ . . .

إلى آخره " على القولِ الأوَّل ، وإمَّا ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ فقط على القولِ الثاني .

والفاء في " فَأصَابتكم " عاطفةٌ هذه الجملة على نَفْسِ الشرط ، وقوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصلاة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها في محلِّ رفع صفة لـ " آخَرَانِ " ؛ وعلى هذا : فالجملةُ الشرطيةُ وما عُطِفَ عليها معترضةٌ بين الصفةِ وموصوفها ؛ فإنَّ قوله " تَحْبِسُونَهُمَا " صفةٌ لقوله " آخَرَانِ " ، وإلى هذا ذهب الفارسيُّ ، ومكِّي بنُ أبي طالبٍ ، والحُوفيُّ ، وأبو البقاء ، وابن عطيَّة ، وقد أوضحَ الفارسيُّ ذلك بعبارةٍ خاصَّةٍ ، فقال : " تَحْبِسُونَهُمَا " صفة لـ " آخَرَانِ " واعترض بقوله : ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ ، وأفاد الاعتراضُ : أنَّ العُدولَ إلى آخرين من غير المِلَّة ، أو القرابة حَسَبَ اختلافِ العُلَمَاء فيه ؛ إنما يكون مع ضرورة السَّفَر ، وحلول المَوْت فيه ، واستغني عن جواب " إنْ " ؛ لِما تقدَّم في قوله ﴿ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ ، فقد ظهر من كلامه : أنه يجعلُ الشرط قيداً في ﴿ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ فقط لا قيداً في أصْلِ الشهادة ، فتقديرُ الجوابِ على رأيه ؛ كما تقدَّم : " فاسْتَشْهِدُوا آخَرَيْنِ مِنْ غَيْرِكُمْ " أو " فالشَّاهِدَانِ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ " .

والثاني : أنه لا محلَّ له ؛ لاستئنافِهِ ، وإليه ذهب الزمخشريُّ ؛ قال : " فإنْ قلت : ما موقعُ قوله : " تَحْبِسُونَهُمَا " ؟ قلتُ : هو استئنافُ كلام ، كأنه قيل بعد اشتراطِ العدالةِ فيهما : فكيفَ نَعْمَلُ ، إن ارتَبْنَا فيهمَا ؟ فقيل : تَحْبِسُونَهُمَا " ، وهذا الذي ذكره الزمخشريُّ أوفقُ

للصناعة ؛ لأنه يلزمُ في الأوّل الفصْلُ بكلام طويلٍ بين الصفة وموصوفها ، وقال : " بعد اشتراط العدالة " ؛ بناءً على مختاره في قوله : ﴿ أَوْآخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ ، أي : أو عَدْلانِ آخرانِ من الأجانب .

(229/218)

قال أبو حيان : " في قوله : " إنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُ " إلى آخره التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب ، إذ لو جرى على لفظ ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ ، لكان التركيب : إنْ هو ضَرَبَ في الأرْضِ ، فأصابته ، وإنما جاء الالتفاتُ جمعاً ؛ لأنَّ " أحَدَكُمْ " معناه : إذا حضرَ كُلَّ واحدٍ منكم المَوْتُ " ، وفيه نظرٌ ؛ لأن الخطاب جارٍ على أسلوب الخطابِ الأوّل من قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ إلى آخره ، وقال ابن عبَّاس : " في الكلام حذفٌ ، تقديرُه : فأصابتْكُمْ مصيبةُ الموتِ ، وقد أشهد تُموهُمَا على الإيصاء " ، وعن سعيد بن جُبير : تقديره " وقد أُوصيتُم " ، قال بعضُهُم : " هذا أوْلَى ؛ لأنَّ الوَصِيَّ يَحْلِفُ ، والشَّاهدَ لا يَحْلِفُ " .

والخطابُ في " تَحْبِسُونَهُمَا " لولاةِ الأمور لا لِمَنْ خُوطِبَ بإصابته المَوْتَ ؛ لأنه يتعذَّر ذلك فيه ، و " مِنْ بَعْدِ " متعلّق بـ " تَحْبِسُونَهُمَا " ، ومعنى الحَبْسِ : المنعُ ، يقال : حَبَسْتُ

وأحْبَسْتُ فَرَسِي في سبيلِ الله ، فَهُوَ مُحْبَسٌ وحَبِيسٌ ، ويقال لمصْنَعِ الماءِ : " حَبْسٌ " ؛ لأنه يمنعه ، ويقال : " حَبَّسْتُ " بالتشديد أيضاً بمعنى وقَفْتُ وسَبَلْتُ ؛ وقد يكون التشديدُ للتكثير في الفعل ؛ نحو : " حَبَّسْتُ الرِّجَالَ " ، والألف واللام في " الصَّلاة " فيها قولان :

أحدهما : أنها للجنْس ، أي : بعد أيِّ صلاة كانت .

والثاني – وهو الظاهر – أنها للعَهْد كما سيأتي – إن شاء الله تعالى – .

قوله : " فَيُقْسِمَانِ " في هذه الفاء وجهان :

أظهرهما : أنها عاطفةٌ هذه الجملة على جملة قوله : " تَحْبِسُونَهُمَا " ، فتكون في محلِّ رفع ، أو لا محلَّ لها حَسْبَمَا تقدَّم من الخلاف .

(230/218)

والثاني : أنها فاءُ الجزاءِ ، أي : جوابُ شرطٍ مقدَّرٍ ، وقال الفارسيُّ : " وإنْ شئت ، لَمْ تَجْعَلِ الفاء ؛ لعطف جملة ، بل تجعلُه جزاءً ؛ كقول ذي الرُّمَّة : [الطويل]

2069 – وإنْسَانُ عَيْنِي يَحْسِرُ الماءُ تَارَةً . . .

فَيَبْدُو ، وتَارَاتٍ يَجُمُّ فَيَغْرَقُ

تقديرُه عندهم : إذا حَسَرَ بَدَا ، وكذا في الآية : إذا حَبَسْتُمُوهُمَا أَقْسَمَا " .

[وقال مكيٌّ نحوه ؛ فإنه قال : " ويجوز أَنْ تكونَ الفاءُ جواب جزاءٍ ؛ لأن " تَحْبِسُونَهُمَا " معناه الأَمْرُ بذلك ، وهو جوابُ الأَمْر الذي دَلَّ عليه الكلامُ ؛ كأنه قيل : إذا حَبَسْتُمُوهُمَا أَقْسَمَا "]

قال شهاب الدين : ولا حاجةَ داعيةً إلى شيء من تقدير شرطٍ محذوفٍ ، وأيضاً : فإنه يُحْوِجُ إلى حذفِ مبتدأ قبل قوله " فَيُقْسِمَان " ، أي : فهما يُقْسِمَانِ ، وأيضاً ف " إنْ تَحْبِسُوهُمَا " تقدَّم أنها صفةٌ ، فكيف يَجْعَلُها بمعنى الأمر ، والطَّلَبُ لا يقع وصفاً ؟ وأمَّا البيتُ الذي أنشده أبو عليٍّ ، فَخَرَّجَه النحويُّون على أنَّ " يَحْسِرُ الماءُ تَارَةً " جملةٌ خبرية ، وهي وإن لم يكنْ فيها رابطٌ ، فقد عُطِفَ عليها جملةٌ فيها رابطٌ بالفاء السَّببية ، وفاءُ السببية جَعَلَتِ الجملتَيْنِ شيئاً واحداً .

و " بالله " متعلِّقٌ بفعل القسم ، وقد تقدَّم أنه لا يجوز إظهارُ فعلِ القسمِ إلا معها ؛ لأنها أُمُّ الباب ، وقوله : ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ﴾ جوابُ القسم المضمرِ في " يُقْسِمَانِ " ، فتُلَقِّي بما يُتَلَقَّى به ، وقوله : " إن ارْتَبْتُمْ " شرطٌ ، وجوابه محذوفٌ ، تقديرُه : إن ارتبتُمْ فيهما ، فحلِّفُوهُمَا ، وهذا الشرط وجوابه المقدَّرُ معترضٌ بين القسم وجوابه .

والمعنى : إن ارْتَبْتُمْ في شَأْنِهِمَا فَحَلِّفُوهُمَا ، وهذا الشَّرطُ حُجَّةُ من يقول : الآيةُ نَازِلَةٌ في إشْهَادِ الكُفَّارِ ؛ لأنَّ تَحْلِيفَ الشَّاهِدِ المُسْلِم غير مَشْرُوعٍ .

ومن قال : الآيةُ نازلةٌ في المُسْلِمِ قال : إنها مَنْسُوخَةٌ .

وعن عَلِيٍّ – رضي الله عنه – : أَنَّهُ كان يُحَلِّفُ الشَّاهِدَ والرَّاوي عند التُّهْمَةِ .

وليس هذه الآيةُ مِمَّا اجتمع فيه شرطٌ وقسمٌ ، فأُجيب سابقُهما ، وحُذِفَ جوابُ الآخرِ ؛ لدلالةِ جوابه عليه ؛ لأنَّ تلك المسألةَ شرطُها أن يكون جوابُ القسمِ صالحاً لأنْ يكون جواب الشرط ؛ حتَّى يَسُدَّ مسدَّ جوابه ؛ نحو : " واللهِ إنْ تَقُمْ لأُكْرِمَنَّكَ " ، لأنك لو قَدَّرْتَ " إن تَقُمْ أُكْرِمْتُكَ " ، صَحَّ ، وهنا لا يُقَدَّرُ جوابُ الشرط ما هو جوابٌ للقسَم ، بل يُقَدَّرُ جوابُه قِسْماً برأسِه ؛ ألا ترى أنَّ تقديره هنا : " إن ارْتَبْتُمْ ، حَلَّفُوهُمَا " ولو قَدَّرْتَهُ : إن ارتبتُمْ ، فلا نشتَرِي ، لم يَصِحَّ ، فقد اتفقَ هنا أنه اجتمع شرطٌ وقسمٌ ، وقد أجيب سابقهما ، وحُذِفَ جوابُ الآخرِ ، وليس من تيكَ القاعدةِ ، وقال الجُرْجَانِيُّ : " إنَّ ثَمَّ قولاً محذوفاً ، تقديرُه : يُقْسِمَانِ باللهِ ويقولانِ هذا القَوْلَ في أَيْمَانِهِمَا ، والعربُ تُضْمِرُ القولَ كثيراً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ ﴾ [الرعد : 23 – 24] أي : يقولُونَ سلامٌ عَلَيْكُمْ " ، قال شهاب الدين : ولا أَدْرِي ما حمله على إضمارِ هذا القَوْلِ ؟ .

قوله : " بِهِ " في هذه الهاءِ ثلاثةُ أقوالٍ :

أحدها : أنها تعودُ على الله تعالى .

الثاني : أنها تعودُ على القسم .

(232/218)

الثالث : وهو قول أبي عليٍّ - : أنها تعودُ على تحريفِ الشهادةِ ، وهذا قوي من حيث المعنى ، وقال أبو البقاء : " تعودُ على اللَّهِ ، أو القَسَمِ ، أو الحَلْفِ ، أو اليمينِ ، أو تحريفِ الشهادةِ ، أو على الشهادة ؛ لأنها قولٌ " ، قال شهاب الدين : قوله " أو الحَلْفِ أو اليمينِ " لا فائدةَ فيه ؛ إذ هما شيءٌ واحدٌ ، وكذلك قولُ من قال : إنها تعودُ على الله تعالى ، لا بد أن يقدّر مضافاً محذوفاً ، أي : لا نَشْتَري بيمَينِ الله أوْ قسَمِه ونَحْوه ؛ لأنَّ الذاتَ المقدَّسة لا يُقالُ فيها ذلك ، وقال مكي : " وقيل : الهاءُ تعودُ على الشَّهادة ، لكن ذُكِّرَتْ ؛ لأنها قولٌ كما قال تعالى : ﴿ فارزقوهم مِّنْهُ ﴾ [النساء : 8] فردَّ الهاءَ على المقْسُومِ ؛ لدلالة القسمة على ذلك " ، والاشتراءُ هنا ، هَلْ هو باقٍ على حقيقته ، أو يُرَاد به البيع ؟ قولان ، أظهرهما الأول ، وبيانُ ذلك مبنيٌّ على نصْب " ثَمَناً " ، وهو منصوبٌ على المفعوليَّة ، قال الفارسيُّ : " وتقديره : لا نَشْتَرِي به ذا ثَمَنٍ ؛ ألا ترى أنَّ الثمن لا يُشْتَرى ، وإنما يُشْتَرَى ذو

الثمنِ " ، قال : " وليس الاشتراءُ هنا بمعنى البيع ، وإنْ جاء لغةً ، لأنَّ البيع إبعادٌ عن البائع ، وليس المعنى عليه ، إنما معناه التمسُّكُ به والإيثارُ له على الحقِّ " ، وقد نقل أبو حيان هذا الكلام بعينه ولم يعْزُه لأبي عَلِيٍّ .

(233/218)

وقال مكيٌّ : " معناه ذا ثَمَنٍ ، لأنَّ الثمن لا يُشْتَرَى ، إنما يُشْتَرى ذو الثمنِ ، وهو كقوله : ﴿ اشتروا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً ﴾ [التوبة : 9] ، أي ذا ثَمَنٍ " ، وقال غيرُه : " إنه لا يَحْتاجُ إلى حذف مضاف " ، قال أبو البقاء : " ولا حَذْفَ فيه ؛ لأنَّ الثمنَ يُشْتَرَى كما يُشْتَرَى به ، وقيل : التقديرُ : ذا ثَمَنٍ " ، وقال بعضهم : " لا نَشْتَرِي : لا نبيعُ بعَهْدِ الله بغَرَضٍ نَأْخُذُه ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [آل عمران : 77] ، فمعنى الآية : لا نَأْخُذُ بعهد الله ثَمَناً ؛ بأن نبيعَه بعَرَضٍ من الدنيا " قال الواحديُّ : " ويُسْتَغْنَى بهذا عن كثيرٍ من تكلُّفِ أبي عَلِيٍّ ، وهذا معنى قول القُتَيْبِيِّ والجُرْجَانِيِّ " .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ الواوُ هنا كالتي سَبَقَتْ في قوله : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : 170] من أنها يحتمل أن يقال عاطفةٌ ، أو حاليةٌ ، وأنَّ جملة الامتناعِ حالٌ معطوفةٌ على حالٍ مقدَّرةٍ ؛ كقوله : " أَعْطُوا السَّائِلَ ، ولوْ عَلَى فرسٍ " ، فكذا هنا

تقديرُه : لا نشتري به ثمناً في كلِّ حال ، ولو كان الحالُ كذا ، واسمُ "كَانَ" مضمرٌ فيها يعودُ على المشهُودِ له ، أي : ولو كان المشهُودُ له ذَا قَرَابَةٍ .

قوله : ﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ ﴾ الجمهورُ على رَفْعِ ميمِ "نَكْتُمُ" على أنَّ "لا" نافية ، والجملةُ تحتمل وجهين :

أحدهما – وهو الظاهرُ – : كونُها نسقاً على جواب القسمِ ، فتكونُ أيضاً مقسماً عليها .

والثاني : أنه إخبارٌ من أنفسهم بأنهم لا يكتمُون الشهادة ؛ ويتأيَّدُ بقراءة الحسن والشَّعْبيِّ : " وَلاَ نَكْتُمْ " على النهْي ، وهذه القراءةُ جاءتْ على القليل ؛ من حيث إنَّ دخولَ "لاَ" الناهيةِ على فعلِ المتكلِّم قليلٌ ؛ ومنه : [الطويل]

(234/218)

2070 – إذا مَا خرَجْنَا مِنْ دمشْقَ فَلاَ نَعُدْ . . .

بِهَا أَبداً ما دَامَ فِيهَا الجَرَاضِمُ

والجمهورُ على " شهادةَ اللهِ " بالإضافة ، وهي مفعولٌ بها ، وأُضيفَتْ إليه تعالى ؛ لأنه هو الآمرُ بها وبحفظها ، وألاَّ تُكْتَمَ ، ولا تُضيَّعَ ، وقرأ عَلِيٌّ رضي الله عنه ونعيمُ بْنُ مَيْسَرَةَ والشَّعْبِيُّ في رواية : " شهادةً اللهَ " بتنوين شهادة ، ونصبها ، ونصب الجلالة ، وهي

واضحةٌ ، ف " شَهَادَةً " مفعول ثان ، والجلالةُ نصبٌ على التعظيم وهي الأوّل ، والأصلُ : ولا نَكْتُمُ اللَّهَ شهادةً ؛ وهو كقوله : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] وإنما قُدِّمَتْ هنا للاهتمامِ بها ؛ فإنها المحدَّثُ عنها ، وفيها وجهٌ ثانٍ – نقله الزهراويُّ – وهو : أن تكون الجلالةُ نَصْباً على إسقاطِ حرفِ القسم ، والتقديرُ : ولا نَكْتُمُ شهادةً واللَّهِ ، فلمَّا حُذِف حرفُ الجر ، نُصِب المُقْسَمُ به ، ولا حاجةَ إليه ؛ لأنه يَسْتَدْعِي حذف المفعولِ الأوّل للكتمان ، أي : ولا نَكْتُمُ أحداً شهادةً والله ، وفيه تكلُّفٌ وإليه ذهب أبو البقاء أيضاً قال : " على أنه منصوبٌ بفعْلِ القسم محذوفاً " .

ويُروَى عن أبي جَعْفَر " شَهَادةً " مُنَونةً " أَللَّهِ " بِقَطْعِ الألف وكسَرْ الهَاءِ ، من غير اسْتِفْهَام على ابْتِدَاء اليَمينِ ، أي : واللَّهِ ﴿ إِنَّآ إِذاً لَّمِنَ الآثِمِين ﴾ ، أي : إنْ كَتَمْنَاها نَكُونُ من الآثمين .

وقرأ عليٌّ – رضي الله عنه – والسُّلمِيُّ والحسن البصريُّ : " شَهَادَةً " بالتنوين والنصب ، " آللهِ " بمدِّ الألفِ التي للاستفهام ، دَخَلَتْ للتقرير ، وتوقيف نفوسِ الخَلْق الحالفين ، وهي عوضٌ عن حَرْفِ القسمِ المقدَّرِ ثمّ .

وهل الجرُّ بها أم بالحَرْفِ المحذوفِ ؟ خلافٌ .

وقرأ الشعبيُّ في رواية وغيره : " شَهَادَهْ " بالهاء ويقف عليها ، ثم يَبْتدئ " آللَّهِ " بقطع همزة الوصل وبمدّ الهمزة على أنها للاستفهام بالمعنى المتقدّم ، وجرّ الجلالة ، وهمزةُ القطعِ تكون عوضاً من حرف القسم في هذا الاسم الشريف خاصة ، تقول : يا زَيْدُ ، أَللَّهِ ، لأَفْعلَنَّ ، والذي يُعَوَّض من حرف القسم في هذا الاسم الشريف خاصَّة ثلاثةٌ : ألفُ الاستفهام ، وقطعُ همزة الوصلِ ، وها التي للتنبيه ؛ نحو : " ها اللَّهِ " ، ويجوزُ مع " هَا " قطعُ همزةِ الجلالة ووصلُها ، وهل الجرُّ بالحرف المقدَّر ، أو بالعوض ؟ تقدَّم أنَّ فيه خلافاً ، ولو قال قائلٌ : إن قولهم " الله ، لأَفْعَلَنَّ " بالجرّ وقطع الهمزة ؛ بأنها همزة استفهام لم يُرَدَّ قوله ، فإن قيل : همزةُ الاستفهام ، إذا دخلَتْ على همزة الوصْلِ التي مع لام التعريف ، أو ايْمُن في القَسَم ، وجب ثبوتُ همزة الوصل ، وحينئذ إمَّا : أنْ تُسَهَّلَ ، وإمَّا أنْ تُبْدَلَ ألفاً ، وهذه لم تَثْبُتْ بعدها همزةُ وصل ، فتعيَّن أن تكونَ همزة وصْلٍ قُطِعَتْ عوضاً عن حرف القسم ، فالجواب : أنهم إنما أبْدلوا ألفَ الوصْلِ أو سَهَّلوها بعد همزةِ الاستفهام ؛ فرقاً بين الاستفهام والخبر ، وهنا اللَّبْسُ مأمونٌ فإنَّ الجرَّ في الجلالة يؤذِنُ بذلك ؛ فلا حاجة إلى بقاءِ همزةِ الوصلِ مُبْدلةً أو مُسَهَّلةً ، فعلى هذا قراءة : أَللهِ ، وآللهِ بالقصْر والمدّ تحتمل الاستفهام ، وهو تخريجٌ حسن ، قال ابن جني في هذه القراءة : " الوقفُ على " شهَاده " بسكون الهاء ، واستئنافُ القسم – حسنٌ ؛ لأنَّ استئنافه في أولِ الكلامِ أوْجَهُ له وأشدُّ هيبةً مِنْ أنْ يدخُلَ في عرضِ القَوْل " ، ورُوِيَتْ

هذه القراءةُ – أعني : " ألله " بقطع الألف من غير مدٍّ وجرِّ الجلالة – عن أبي بكرٍ عن عاصمٍ وتقدَّم أيضاً أنها رويتْ عن أبي جعفرٍ ، وقرئ : " شَهَادَةَ اللَّهِ " بنصب الشهادة منونة ، وجرِ

(236/218)

الجلالة موصولة الهمزة ، على أن الجرَّ بحرفِ القسمِ المقدَّرِ من غير عوضٍ منه بقَطْعِ ، ولا همزةِ استفهام ، وهو مختصٌّ بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ إِذَا لَّمِنَ الآثِمِينَ ﴾ هذه الجملةُ لا محلَّ لها ؛ لأنها استئنافيةٌ ، أخبروا عن أنفسهم بأنهم من الآثمين ، إنْ كتموا الشهادة ؛ ولذلك أتوا بـ " إذَنِ " المُؤذِنَةِ بالجزاء والجواب ، وقرأ الجمهور : " لَمِنَ الآثِمِينَ " من غير نقل ، ولا إدغام ، وقرأ ابن مُحَيصنٍ والأعمش : " لَمِلآّثِمين " بإدغام نون " مِنْ " في لام التعريف ، بَعْد أن نقل إليها حركة الهمزة في " آثِمِينَ " ، فاعتدَّ بحركة النقل فأدغَمَ ، وهي نظيرُ قراءةِ مَنْ قرأ : ﴿ عَادا لُّولَى ﴾ [النجم : 50] بالإدغام ، على ما سيأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 563. 577 ﴾ . باختصار .

(237/218)

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

ولما كان المراد مجرد الاطلاع بني للمفعول قوله : ﴿ فإن عثر ﴾ أي اطلع مطلع بقصد أو بغير قصد ؛ قال البغوي : وأصله الوقوع على الشيء أي من عثرة الرجل ﴿ على أنهما ﴾ أي الشاهدين إن أريد بهما الحقيقة أو الوصيين ﴿ استحقا إثماً ﴾ أي بسبب شيء خانا فيه من أمر الشهادة ﴿ فآخران ﴾ أي من الرجال الأقرباء للميت ﴿ يقومان مقامهما ﴾ أي ليفعلا حيث اشتدت الريبة من الإقسام عند مطلق الريبة ما فعلا ﴿ من الذين استحق ﴾ أي طلب وقوع الحق بشهادة من شهد ﴿ عليهم ﴾ هذا على قراءة الجماعة ، وعلى قراءة حفص بالبناء للفاعل ، المعنى : وجد وقوع الحق عليهم ، وهم أهل الميت وعشيرته .

ولما كان كأنه قيل : ما منزلة هذين الآخرين من الميت ؟ فقيل : ﴿ الأوليان ﴾ أي الأحقان بالشهادة الأقربان إليه العارفان بتواطن أمره ، وعلى قراءة أبي بكر وحمزة بالجمع ، كأنه قيل : هما من الأولين أي في الذكر وهم أهل الميت ، فهو نعت للذين استحق ﴿ فيقسمان ﴾ أي

هذان الآخران ﴿ بالله ﴾ أي الملك الذي لا يقسم إلا به لما له من كمال العلم وشمول القدرة ﴿ لشهادتنا ﴾ أي بما يخالف شهادة الحاضرين للواقعة ﴿ أحق من شهادتهما ﴾ أي أثبت ، فإن تلك إنما ثباتها في الظاهر ، وشهادتنا ثابتة في نفس الأمر وساعدها الظاهر بما عثر عليه من الريبة ﴿ وما اعتدينا ﴾ أي تعمدنا في يميننا مجاوزة الحق ﴿ إنا إذاً ﴾ أي إذا وقع منا اعتداء ﴿ لمن الظالمين ﴾ أي الواضعين الشيء في غير موضعه كمن يمشي في الظلام ، وهذا إشارة إلى أنهم على بصيرة ونور مما شهدوا به ، وذلك أنه لما وجد الإناء الذي فقده أهل الميت وحلف الداريان بسببه أنهما ما خانا طالبوهما ، فقالا : كنا اشتريناه منه ، فقالوا : ألم نقل لكما : هل باع صاحبنا شيئاً ؟ فقلتما : لا ، فقالا : لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نقر لكم فرفعوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر فقام اثنان من أقارب الميت فحلفا على الإناء ، فدفعه النبي صلى الله عليه وسلم إليهما ، لأن الوصيين ادعيا على الميت البيع فصار اليمين في جانب الورثة لأنهم أنكروا ، وسمي أيمان الفريقين شهادة كما سميت أيمان المتلاعنين شهادة – نبه على ذلك الشافعي ، وكان ذلك لما في البايين من مزيد التأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 558 . 559 ﴾

فصل

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ قال المفسرون : لما نزلت الآية الأولى ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عديًّا وتميماً ، فاستحلفهما عند المنبر : أنهما لم يخونا شيئاً مما دفع إليهما ، فحلفا ، وخلَّى سبيلهما ، ثم ظهر الإناء الذي كتماه ، فرفعهما أولياء الميت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِنْ عُثِرَ على أَنَّهُمَا استحقا إِثْماً ﴾

قال الليث رحمه الله : عثر الرجل يعثر عثوراً إذا هجم على أمر لم يهجم عليه غيره .

وأعثرت فلاناً على أمري أي أطلعته عليه ، وعثر الرجل يعثر عثرة إذا وقع على شيء ، قال أهل اللغة : وأصل عثر بمعنى اطلع من العثرة التي هي الوقوع وذلك لأن العاثر إنما يعثر بشيء كان لا يراه ، فلما عثر به اطلع عليه ونظر ما هو ، فقيل لكل من اطلع على أمر كان خفياً عليه قد عثر عليه ، وأعثر غيره إذا أطلعه عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الكهف : 21] أي اطلعنا ، ومعنى الآية فإن حصل العثور والوقوف على أنهما أتيا بخيانة واستحقا الإثم بسبب اليمين الكاذبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح

الغيب حـ 12 صـ 99 ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ فإن عثر ﴾ استعارة لما يوقع على علمه بعد خفائه اتفاقاً وبعد " إن " لم يرج ولم يقصد ، وهذا كما يقال على الخبير سقطت ، ووقعت على كذا ، قال أبو علي : والإثم هنا اسم الشيء المأخوذ لأن آخذه يأخذه إثم ، فسمي آثماً كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة ، قال سيبويه : المظلمة اسم ما أخذ منك ، وكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر .

(239/218)

قال القاضي أبو محمد : والذي يظهر هنا أن الإثم عل بابه وهو الحكم اللاحق لهما والنسبة التي يتحصلان فيها بعد مواقعتها لتحريف الشهادة أو لأخذ ما ليس لهما أو نحو ذلك و ﴿ استحقا ﴾ معناه استوجباه من الله وكانا أهلاً له فهذا استحقاق على بابه ، أنه استيجاب حقيقة ، ولو كان الإثم الشيء المأخوذ لم يقل فيه " استحقا " لأنهما ظلما وخانا فيه ، فإنما استحقا منزلة السوء وحكم العصيان ، وذلك هو الإثم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ أي اطلع يقال عثر الرجل على الشيء عثوراً إذا اطلع عليه .

وقال الغوري : تقول عثرت إذا اطلعت على ما كان خفياً وهو مجاز بحسب الأصل من قولهم : عثر إذا كبا وذلك أن العاثر ينظر إلى موضع عثاره فيعرفه ويطلع عليه ، وقال الليث : إن مصدر عثر بمعنى اطلع العثور وبمعنى كبا العثار وحينئذ يخفى القول بالمجاز لأن اختلاف المصدر ينافيه فلا تتأتى تلك الدعوى إلا على ما قاله الراغب من اتحاد المصدرين ، وفي "القاموس" "عثر كضرب ونصر وعِلم وكُرم عَثْراً وعَثِيراً وعِثاراً كبا .

والعثور الإطلاع كالعثر" وظاهر هذا أن لا مجاز .

ويفهم منه أيضاً الاتحاد في بعض المصادر فافهم ، والمراد فإن عثر بعد التحليف .

﴿ على أَنَّهُمَا ﴾ أي الشاهدين الحالفين ﴿ استحقا إِثْماً ﴾ أي فعلاً ما يوجبه من تحريف وكتم بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة وادعيا استحقاقهما له بوجه من الوجوه ، وقال الجبائي : الكلام على حذف مضاف أي استحقا عقوبة إثم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ على أَنَّهُمَا استحقا إِثْماً ﴾ عثر على كذا : اطلع عليه ، يقال عثرت منه

على خيانة : أي اطلعت وأعثرت غيري عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الكهف : 21] وأصل العثور الوقوع والسقوط على الشيء ، ومنه قول الأعشى :

(240/218)

بذات لوث عَفَرْنَاةٍ إذ عثرت . . . فالتعس أولى لها من أن أقول لعا

والمعنى : أنه إذا اطلع بعد التحليف على أن الشاهدين أو الوصيين استحقا إثماً ، أي استوجبا إثماً إما بكذب في الشهادة أو اليمين ، أو بظهور خيانة .

قال أبو علي الفارسي : الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ لأن آخذه يأثم بأخذه ، فسمى إثماً كما سمى ما يؤخذ بغير حق مظلمة .

وقال سيبويه : المظلمة اسم ما أخذ منك فكذلك سمي هذا المأخوذ ، باسم المصدر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

ومعنى ﴿ عُثِر ﴾ اطُّلِع وتَبيّن ذلك ، وأصل فعل عَثَر أنّه مصادفة رِجْلِ الماشي جسماً ناتئاً في الأرض لم يترقّبه ولم يَحْذر منه فيختلّ به اندفاعُ مَشْيه ، فقد يسقط وقد يتزلزل .

ومصدره العِثَار والعُثور ، ثم استعمل في الظَفَر بشيء لم يكن مترقّباً الظفَر به على سبيل

الاستعارة .

وشاع ذلك حتّى صار كالحقيقة ، فخصّوا في الاستعمال المعنى الحقيقي بأحد المصدرين وهو العِثار ، وخصّوا المعنى المجازي بالمصدر الآخر ، وهو العثور .

ومعنى ﴿ استَحقَّا إثماً ﴾ ثبت أنّهما ارتكبا ما يأثمان به ، فقد حقّ عليهما الإثم ، أي وقع عليهما ، فالسين والتاء للتأكيد .

والمراد بالإثم هو الذي تبرّءا منه في قوله : ﴿ لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله ﴾ .

فالإثم هو أحد هذين بأن يظهر أنّهما استبدلا بما استؤمنا عليه عوضاً لأنفسهما أو لغيرهما ، أو بأن يظهر أنّهما كتما الشهادة ، أي بعضها .

وحاصل الإثم أن يتّضح ما يقدح في صدقهما بموجب الثبوت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَآخَرَانِ يقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ الأوليان ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن معنى الآية فإن عثر بعد ما حلف الوصيان على أنهما استحقا إثماً أي حنثاً في اليمين بكذب في قول أو خيانة في مال قام في اليمين مقامهما رجلان من قرابة الميت فيحلفان بالله لقد ظهرنا على خيانة الذميين وكذبهما وتبديلهما وما اعتدينا في ذلك وما كذبنا .

وروي أنه لما نزلت الآية الأولى صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر ودعا بتميم وعدي فاستحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنه لم يوجد منّا خيانة في هذا المال ولما حلفا خلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما وكتما الإناء مدة ثم ظهروا واختلفوا فقيل : وجد بمكة .

وقيل : لما طالت المدة أظهرا الإناء فبلغ ذلك بني سهم فطالبوهما فقالا كنا قد اشتريناه منه فقالوا ألم نقل لكم هل باع صاحبنا شيئاً فقلتما لا ؟ فقالا لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نعثر فكتمنا فرفعوا القصة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي رفاعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر فدفع الرسول صلى الله عليه وسلم الإناء إليهما وإلى أولياء الميت .

وكان تميم الداري يقول بعد ما أسلم : صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء فأتوب إلى الله تعالى ، وعن ابن عباس أنه بقيت تلك الواقعة مخفية إلى أن أسلم تميم الداري فلما أسلم أخبر بذلك وقال : حلفت كاذباً وأنا وصاحبي بعنا الإناء بألف وقسمنا الثمن .

ثم دفع خمسمائة درهم من نفسه ونزع من صاحبه خمسمائة أخرى ودفع الألف إلى موالي الميت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 99 ﴾

فصل

قال الفخر :

(242/218)

قوله ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا ﴾ أي مقام الشاهدين اللذين هما من غير ملتهما وقوله ﴿ مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ الاوليان ﴾ المراد به موالي الميت ، وقد أكثر الناس في أنه لم وصف موالي الميت بهذا الوصف ، والأصح عندي فيه وجه واحد ، وهو أنهم إنما وصفوا بذلك لأنه لما أخذ مالهم فقد استحق عليهم مالهم فإن من أخذ مال غيره فقد حاول أن يكون تعلقه بذلك المال مستعلياً على تعلق مالكه به فصح أن يوصف المالك بأنه قد استحق عليه ذلك المال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 99 . 100 ﴾

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا ﴾ أي فشاهدان آخران أو فحالفان آخران يقومان

مقام اللذين عثر على أنهما استحقا إثماً فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق ، وليس المراد أنهما يقومان مقامهما في أداء الشهادة التي شهدها المستحقان للإثم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله ﴿ الأوليان ﴾ ففيه وجوه :

الأول : أن يكون خبر المبتدأ محذوف والتقدير : هما الأوليان وذلك لأنه لما قال ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا ﴾ فكأنه قيل : ومن هما فقيل الأوليان : والثاني : أن يكون بدلاً من الضمير الذي في يقومان والتقدير فيقوم الأوليان ، والثالث : أجاز الأخفش أن يكون قوله ﴿ الاوليان ﴾ صفة لقوله ﴿ فَآخَرَانِ ﴾ وذلك لأن النكرة إذا تقدم ذكرها ثم أعيد عليها الذكر صارت معرفة ، كقوله تعالى ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور : 35] فمصباح نكرة قم قال ﴿ المصباح ﴾ ثم قال في ﴿ زُجَاجَةٍ ﴾ ثم قال ﴿ الزجاجة ﴾ ، وهذا مثل قولك رأيت رجلاً ، ثم يقول إنسان من الرجل ، فصار بالعود إلى ذكره معرفة .

الرابع : يجوز أن يكون قوله ﴿ الأوليان ﴾ بدلاً من قوله آخران ، وإبدال المعرفة من النكرة كثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 100 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَآخَرَانِ ﴾ أي فرجلان آخران .

(243/218)

وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا ﴾ والفاء جزائية وهي إحدى مصوغات الإبتداء بالنكرة .

ولا محذور في الفصل بالخبر بين المبتدأ وصفته وهو قوله سبحانه : ﴿ مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ الأوليان ﴾ ، وقيل : هو خبر مبتدأ محذوف أي فالشاهدان آخران ، وجملة ﴿ يِقُومَانُ ﴾ صفته والجار والمجرور صفة أخرى ؛ وجوز أبو البقاء أن يكون حالاً من ضمير ﴿ يِقُومَانُ ﴾ ، وقيل : هو فاعل فعل محذوف أي فليشهد آخران وما بعده صفة له ، وقيل : مبتدأ خبره الجار والمجرور ، والجملة الفعلية صفته وضمير ﴿ مَقَامَهُمَا ﴾ في جميع هذه الأوجه مستحق للذين استحقا .

وليس المراد بمقامهما مقام أداء الشهادة التي توليا ها ولم يؤدياها كما هي بل هو مقام الحبس والتحليف ، و ﴿ استحق ﴾ بالبناء للفاعل قراءة عاصم في رواية حفص عنه وبها قرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وأبي رضي الله تعالى عنهم وفاعله ﴿ الأوليان ﴾ ،

والمراد من الموصول أهل الميت ومن الأوليين الأقربان إليه الوارثان له الأحقان بالشهادة لقربهما واطلاعهما وهما في الحقيقة الآخران القائمان مقام اللذين استحقا إثماً إلا أنه أقيم المظهر مقام ضميرهما للتنبيه على وصفهما بهذا الوصف .

ومفعول ﴿ استحق ﴾ محذوف واختلفوا في تقديره فقدره الزمخشري أن يجردوهما للقيام بالشهادة ليظهروا بهما كذب الكاذبين ، وقدره أبو البقاء وصيتهما ، وقدره ابن عطية ما لهم وتركتهم .

وقال الإمام : إن المراد بالأوليان الوصيان اللذان ظهرت خيانتهما .

وسبب أولويتهما أن الميت عينهما للوصية فمعنى ﴿ استحق عَلَيْهِمُ الأوليان ﴾ خان في مالهم وجنى عليهم الوصيان اللذان عثر على خيانتهما .

وعلى هذا لا ضرورة إلى القول بحذف المفعول ، وقرأ الجمهور ﴿ استحق عَلَيْهِمُ الأوليان ﴾ ببناء استحق للمفعول .

(244/218)

واختلفوا في مرجع ضميره والأكثرون أنه الإثم ، والمراد من الموصول الورثة لأن استحقاق الإثم عليهم كناية عن الجناية عليهم ولا شك أن الذين جنى عليهم وارتكب الذنب بالقياس

إليهم هم الورثة ، وقيل : إنه الإيصاء ، وقيل : الوصية لتأويلها بما ذكر ، وقيل : المال ، وقيل : إن الفعل مسند إلى الجار والمجرور ، وكذا اختلفوا في توجيه رفع ﴿ الأوليان ﴾ فقيل : إنه مبتدأ خبره آخران أي الأوليان بأمر بالميت آخران ، وقيل : بالعكس ، واعترض بأن فيه الإخبار عن النكرة بالمعرفة وهو مما اتفق على منعه في مثله ، وقيل : خبر مبتدأ مقدر أي هما الآخران على الاستئناف البياني ، وقيل : بدل من آخران ، وقيل : عطف بيان عليه ، ويلزمه عدم اتفاق البيان والمبين في التعريف والتنكير مع أنهما شرطوه فيه حتى من جوز تنكيره ، نعم نقل عن نزر عدم الاشتراط ، وقيل : هو بدل من فاعل ﴿ يقُومَانُ ﴾ .

وكون المبدل منه في حكم الطرح ليس من كل الوجوه حتى يلزم خلو تلك الجملة الواقعة خبراً أو صفة عن الضمير ، على أنه لو طرح وقام هذا مقامه كان من وضع الظاهر موضع الضمير فيكون رابطاً .

وقيل : هو صفة آخران ، وفيه وصف النكرة بالمعرفة .

والأخفش أجازه هنا لأن النكرة بالوصف قربت من المعرفة .

قيل : وهذا على عكس :

ولقد أمر على اللئيم يسبني . . .

فإنه يؤول فيه المعرفة بالنكرة وهذا أول فيه النكرة بالمعرفة أو جعلت في حكمها للوصف ، ويمكن كما قال بعض المحققين أن يكون منه بأن يجعل الأوليان لعدم تعينهما كالنكرة .

وعن أبي علي الفارسي أنه نائب فاعل ﴿ استحق ﴾ والمراد على هذا استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة كما قال الزمخشري أو إثم الأوليين كما قيل وهو تثنية الأولى قلبت ألفه ياء عندها ، وفي على في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أوجه الأول : أنها على بابها .

والثاني : أنها بمعنى في .

والثالث : أنها بمعنى من وفسر ﴿ استحق ﴾ بطلب الحق وبحق وغلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(245/218)

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ فآخران ﴾ أي رجلان آخران ، لأنّ وصف آخر يطلق على المغاير بالذات أو بالوصف مع المماثلة في الجنس المتحدّث عنه ، والمتحدث عنه هنا ﴿ اثنان ﴾ .

فالمعنى فاثنان آخران يقومان مقامهما في إثبات الوصية .

ومعنى يقومان مقامهما ، أي يعوّضان تلك الشهادة .

فإنّ المقام هو محلّ القيام ، ثم يراد به محلّ عمل مّا ، ولو لم يكن فيه قيام ، ثم يراد به العمل الذي من شأنه أن يقع في محلّ يقوم فيه العامل ، وذلك في العمل المهمّ .

قال تعالى : ﴿ إن كان كبُر عليكم مقامي وتذكيري ﴾ [يونس : 71] .

فمقام الشاهدين هو إثبات الوصية .

و﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من الذين استحقّ عليهم ﴾ تبعيضية ، أي شخصان آخران يكونان من الجماعة من الذين استحق عليهم .

والاستحقاق كون الشيء حقيقاً بشيء آخر ، فيتعدّى إلى المفعول بنفسه ، كقوله : ﴿ استحقّا إثماً ﴾ ، وهو الشيء المستحق .

وإذا كان الاستحقاق عن نزاع يعدّى الفعل إلى المحقوق بـ ﴿ على ﴾ الدالّة على الاستعلا بمعنى اللزوم له وإن كره ، كأنّهم ضمّنوه معنى وجَب كقوله تعالى : ﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلاّ الحق ﴾ [الأعراف : 105] .

ويقال : استحقّ زيد على عمرو كذا ، أي وجب لزيد حقّ على عمرو ، فأخذه منه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما وصفهما بأنهما أوليان لوجهين :

الأول : معنى الأوليان الأقربان إلى الميت .

الثاني : يجوز أن يكون المعنى الأوليان باليمين ، والسبب فيه أن الوصيين قد ادعيا أن الميت

باع الإناء الفضة فانتقل اليمين إلى موالي الميت ، لأن الوصيين قد ادعيا أن مورثهما باع الإناء وهما أنكرا ذلك ، فكان اليمين حقاً لهما ، وهذا كما أن إنساناً أقر لآخر بدين ثم ادعى أنه قضاه حكم برد اليمين إلى الذي ادعى الدين أولاً لأنه صار مدعى عليه أنه قد استوفاه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 100 ﴾

فصل

قال الفخر :

(246/218)

القراءة المشهورة للجمهور استحق بضم التاء وكسر الحاء ، والأوليان تثنية الأولى ، وقد ذكرنا وجهه وقراءة حمزة وعاصم في رواية أبي بكر الأولين بالجمع ، وهو نعت لجميع الورثة المذكورين في قوله ﴿ مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ ﴾ وتقديره من الأولين الذين استحق عليهم مالهم وإنما قيل لهم الأولين من حيث كانوا أولين في الذكر ، ألا ترى أنه قد تقدم ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ شهادة بَيْنِكُمْ ﴾ [المائدة : 106] وكذلك ﴿ اثنان ذَوَا عَدْلٍ ﴾ [المائدة : 106] ذكرا في اللفظ قبل قوله ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ وقرأ حفص وحده بفتح التاء والحاء الأوليان على التثنية ، ووجهه أن الوصيين اللذين ظهرت خيانتهما هما أولى من

غيرهما بسبب أن الميت عينهما للوصاية ولما خانا في مال الورثة صح أن يقال إن الورثة قد استحق عليهم الأوليان أي خان في مالهم الأوليان ، وقرأ الحسن الأولان ، ووجهه ظاهر مما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 100 ﴾

فائدة

قال ابن الجوزى :

وفي قوله ﴿ من الذين استحق عليهم ﴾ قولان .

أحدهما : أنهما الذمّيان .

والثاني : الوليّان فعلى الأول في معنى ﴿ استحق عليهم ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : استحق عليهم الإِيصاء ، قال ابن الأنباري : المعنى : من القوم الذين استحق فيهم الإِيصاء ، استحقه الأوليان بالميت ، وكذلك قال الزجاج : المعنى : من الذين استحقت الوصية أو الإِيصاء عليهم .

والثاني : أنه الظلم ، والمعنى : من الذين استحق عليهم ظلم الأولَيان ، فحذف الظلم ، وأقام الأوليين مقامه ، ذكره ابن القاسم أيضاً .

والثالث : أنه الخروج مما قاما به من الشهادة ، لظهور خيانتهما .

والرابع : أنه الإثم ، والمعنى : استحق منهم الإثم ، ونابت "على" عن "مِن" كقوله : ﴿ على الناس يستوفون ﴾ [المطففين : 2] أي : منهم .

وقال الفراء : "على" بمعنى "في" كقوله : ﴿ على مُلك سليمان ﴾ [البقرة : 102] أي : في ملكه ، ذكر القولين أبو علي الفارسي .

(247/218)

وعلى هذه الأقوال مفعول "استُحق" محذوف مُقدّر .

وعلى القول الثاني في معنى ﴿ استحق عليهم ﴾ قولان .

أحدهما : استحق منهم الأوليان ، وهو اختيار ابن قتيبة .

والثاني : جني عليهم الإثم ، ذكره الزجاج .

فأما "الأوليان" فقال الأخفش : الأوليان : اثنان ، واحدهما : الأولى ، والجمع : الأولون .

ثم للمفسرين فيهما قولان .

أحدهما : أنهما أولياء الميت ، قاله الجمهور .

قال الزجاج : "الأوليان" في قول أكثر البصريين يرتفعان على البَدَلِ مما في "يقومان" والمعنى : فليقم الأوليان بالميت مقام هذين الخائنين .

وقال أبو علي : لا يخلو الأوليان أن يكون ارتفاعهما على الابتداء ، أو يكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : فآخران يقومان مقامهما ، هما الأوليان ، أو يكون بدلاً من الضمير

الذي في "يقومان" .

والتقدير : فيقوم الأوليان .

والقول الثاني : أن الأوليان : هما الذّميان ، والمعنى : أنهما الأوليان بالخيانة ، فعلى هذا يكون المعنى : يقومان ، إِلا من الذين استحق عليهم .

قال الشاعر :

فليت لنا مِنْ ماءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً . . .

مُبَرَّدَةً باتَتْ على طهيان

أي : بدلاً من ماء زمزم .

وروى قُرَّة عن ابن كثيرٍ ، وحفصٍ وعاصمٍ : "استحق" بفتح التاء والحاء "الأوليان" على التثنية ، والمعنى : استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها ، فحذف المفعول .

وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : "استحق" برفع التاء ، وكسر الحاء ، "الأولين" بكسر اللام ، وفتح النون على الجمع ، والتقدير : من الأولين الذين استحق فيهم الإِثم ، أي : جني عليهم ، لأنهم كانوا أولين في الذكر .

ألا ترى أنه قد تقدم ﴿ ذوا عدلٍ منكم ﴾ على قوله : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ .

وروى الحلبي عن عبد الوارث "الأوَّلَين" بفتح الواو وتشديدها ، وفتح اللام ، وسكون الياء ، وكسر النون ، وهي تثنية : أوَّل .

(248/218)

وقرأ الحسن البصري : "استحق" بفتح التاء والحاء ، "الأولون" تثنية "أوَّل" على البدل من قوله : "فآخران" وقال ابن قتيبة : أشبه الأقوال بالآية أن الله تعالى أراد أن يعرِّفنا كيف يشهد بالوصية عند حضور الموت ، فقال : ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ أي : عدلان من المسلمين [تشهدونهما على الوصية] ، وعلم أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين ، وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم ، ويحضره الموت ، فلا يجد من يشهده من المسلمين ، فقال : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ أي : من غير أهل دينكم ، [﴿ إذا ضربتم في الأرض ﴾ أي : سافرتم ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ وتم الكلام . فالعدلان من المسلمين للحضر والسفر خاصة إن أمكن إشهادهما في السفر] والذميان في السفر خاصة إذا لم يوجد غيرهما [ثم قال] ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم ﴾ أراد : تحبسونهما من بعد صلاة العصر إن ارتبتم في شهادتهما ، وخشيتم أن يكونا قد خانا ، أو بدّلا ، فإذا حلفا ، مضت شهادتهما .

فإن عثر [بعد هذه اليمين] أي : ظهر على أنهما استحقا إِثماً ، أي : حنثا في اليمين بكذب [في قول] أو خيانة [في وديعة] ، فآخران ، أي : قام في اليمين مقامهما رجلان من قرابة الميت الذين استحق منهم الأوليان ، وهما الوليان ، يقال : هذا الأولى بفلان ، ثم يحذف من الكلام "بفلان" ، فيقال : هذا الأولى ، وهذان الأوليان ، و"عليهم" بمعنى : "منهم" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وقرأ يعقوب وخلف وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر عنه ﴿ استحق عَلَيْهِمُ الأولين ﴾ ببناء استحق للمفعول ، والأولين جمع أول المقابل للآخر وهو مجرور على أنه صفة ﴿ الذين ﴾ أو بدل منه أو من ضمير ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أو منصوب على المدح ، ومعنى الأولية التقدم على الأجانب في الشهادة .

وقيل : التقدم في الذكر لدخولهم في ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ .

(249/218)

وقرأ الحسن ﴿ الأولان ﴾ بالرفع وهو كما قدمنا في الأوليان ؛ وقرىء "الأولين" بالتثنية والنصب ، وقرأ ابن سيرين ﴿ الأوليين ﴾ بياءين تثنية أولى منصوباً ، وقرىء ﴿ أساطير

الاولين ﴾ بسكون الواو وفتح اللام جمع أولى كأعلين وإعراب ذلك ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ الأوليان ﴾ استحق مبنيّ للمفعول ، في قراءة الجمهور ، وقرأ عليّ وأُبيّ وابن عباس وحفص على البناء للفاعل ، و ﴿ الأوليان ﴾ على القراءة الأولى مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هما الأوليان ، كأنه قيل : من هما ؟ فقيل هما الأوليان .

وقيل : هو بدل من الضمير في يقومان أو من آخران .

وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة " الأولين " جمع أول على أنه بدل من الذين ، أو من الهاء والميم في عليهم .

وقرأ الحسن "الأولان" .

والمعنى على بناء الفعل للمفعول من الذين استحق عليهم الإثم أي جنى عليهم ، وهم أهل الميت وعشيرته فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم ، فالأوليان تثنية أولى .

والمعنى على قراءة البناء للفاعل : من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما للقيام بالشهادة .

وقيل المفعول محذوف ، والتقدير : من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي

أوصى بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقرأ الجمهور ﴿ استُحقّ عليهم ﴾ بالبناء للمجهول فالفاعل المحذوف في قوله ﴿ استُحقّ عليهم هو مستحِقّ مّا ، وهو الذي انتفع بالشهادة واليمين الباطلة ، فنال من تركة الموصي ما لم يجعله له الموصي وغَلَبَ وارثَ الموصي بذلك .

فالذين استُحقّ عليهم هم أولياء الموصي الذين لهم مالُه بوجه من وجوه الإرثِ فحُرموا بَعضه .

وقوله عليهم ﴾ قائم مقام نائب فاعل ﴿ استحقّ ﴾ .

وقوله : ﴿ الأوليان ﴾ تثنية أوْلَى ، وهو الأجدر والأحقّ ، أي الأجدران بقبول قولهما .

(250/218)

فما صْدقه هو مَا صْدق ﴿ الآخران ﴾ ومرجعه إليه فيجوز ، أن يجعل خبراً عن ﴿ آخران ﴾ ، فإنّ ﴿ آخران ﴾ لمّا وصف بجملة ﴿ يقومان مقامهما ﴾ صحّ الابتداء به ، أي فشخصان آخران هما الأوْلَيَان بقبول قولهما دون الشاهدين المتّهمين .

وإنّما عرّف باللاّم لأنّه معهود للمخاطب ذهناً لأنّ السامع إذا سمع قوله : ﴿ فإن عثر على

أنّهما استحقّا إثماً ﴾ ترقّب أن يعرف من هو الأولى بقبول قوله في هذا الشأن ، فقيل له : آخران هما الأوليان بها .

ويجوز أن يكون ﴿ الأوليان ﴾ مبتدأ و ﴿ آخران يقومان ﴾ خبره .

وتقديم الخبر لتعجيل الفائدة ، لأنّ السامع يترقّب الحكم بعد قوله : ﴿ فإن عثر على أنّهما استحقّا إثماً ﴾ فإنّ ذلك العثور على كذب الشاهدين يسقط شهادتهما ويمينهما ، فكيف يكون القضاء في ذلك ، فعجّل الجواب .

ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ آخران ﴾ أو من الضمير في ﴿ يقومان ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هما الأوليان .

ونكتة التعريف هيَ هي على الوجوه كلّها .

وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم ، ويعقوب ، وخلف ، ﴿ الأوّلين ﴾ بتشديد الواو مفتوحة وبكسر اللام وسكون التحتية جمع أول الذي هو مجاز بمعنى المقدّم والمبتدأ به .

فالذين استحقّ عليهم هم أولياء الموصي حيث استحقّ الموصى له الوصية من مال التركة الذي كان للأولياء ، أي الورثة لولا الوصية ، وهو مجرور نعت (للذين استحقّ عليهم) .

وقرأ حفص عن عاصم ﴿ استحَقّ ﴾ بصيغة البناء للفاعل فيكون ﴿ الأوليان ﴾ هو فاعل ﴿ استحقّ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَيُقْسِمَانِ بالله لشهادتنا أَحَقُّ مِن شهادتهما وَمَا اعتدينا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظالمين

﴾

قال الفخر :

المعنى ظاهر أي وما اعتدينا في طلب هذا المال ، وفي نسبتهم إلى الخيانة .

وقوله ﴿ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظالمين ﴾ أي إنا إذا حلفنا موقنين بالكذب معتقدين الزور والباطل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 100 ﴾

وقال ابن الجوزى :

(251/218)

فيحلفان بالله : لقد ظهرنا على خيانة الذميين ، وكذبهما ، وما اعتدينا عليهما ، ولشهادتنا أصح ، لكفرهما وإيماننا ، فيرجع على الذّميين بما اختانا ، وينقض ما مضى من الحكم بشهادتهما تلك .

وقال غيره : لشهادتنا ، أي : ليميننا أحق ، وسميت اليمين شهادة ، لأنها كالشهادة على ما يحلفُ عليه أنه كذلك .

قال المفسرون : فلما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص ، والمطّلب بن أبي وَداعة السهميان ، فحلفا بالله ، ودُفِعَ الإناء إليهما وإلى أولياء الميت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد

المسير حـ2 صـ ﴿

وقال الآلوسى :

﴿ فَيُقْسِمَانِ بالله ﴾ عطف على ﴿ يقُومَانُ ﴾ والسببية ظاهرة .

وقوله سبحانه ﴿ لشهادتنا أَحَقُّ مِن شهادتهما ﴾ جواب القسم .

والمراد بالشهادة عند الكثير ومنهم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اليمين كما في قوله عز وجل : ﴿ فشهادة أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شهادات بالله ﴾ [النور : 6] وسميت اليمين شهادة على ما قاله الطبرسي "لأن اليمين كالشهادة على ما يحلف عليه أنه كذلك" أي ليميننا على أنهما كاذبان فيما ادعيا من الاستحقاق مع كونها حقة صادقة في نفسها أولى بالقبول من يمينهما مع كونها كاذبة في نفسها لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للإثم ويميننا منزهة عن الريب والريبة وصيغة التفضيل إنما هي لإمكان قبول يمينهما في الجملة باعتبار صدقهما في ادعاء تملكهما لما ظهر في أيديهما ، وقيل : إن الشهادة على معناها المتبادر عند الإطلاق ، وسيأتي إن شاء الله تعالى عن بعض المحققين غير ذلك .

وقوله عز شأنه : ﴿ وَمَا اعتدينا ﴾ عطف على الجواب أي ما تجاوزنا في شهادتنا الحق وما اعتدينا عليهما بإبطال حقهما .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظالمين ﴾ استئناف مقرر لما قبله أي إنا إذا اعتدينا فيما ذكر لمن الظالمين أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه أو لمن الواضعين الحق في غير موضعه ، ومعنى الآيتين عند غير واحد من المفسرين أن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يشهد عدلين من ذوي دينه أو نسبه فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فآخران من غيرهم ، ثم إن وقع ارتياب في صدقهما أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ في الوقت فإن اطلع على كذبهما بأمارة حلف آخران من أهل الميت .

وادعى أن الحكم منسوخ إذا كان الإثنان شاهدين فإنه لا يحلف الشاهد ولا يعارض يمينه بيمين الوارث ، وقيل : إن التحليف لم ينسخ لكنه مشروط بالريبة .

وقد روي عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه كان يحلف الشاهد والراوي إذا اتهمهما ، وفي بعض كتب الحنفية أن الشاهد إن لم يجد من يزكيه يجوز تحليفه احتياطاً وهذا خلاف المفتى به كما بسط في محله .

وكذا ادعى البعض النسخ أيضاً على تقدير أن يكون المراد بالشاهدين في السفر غير مسلمين لأن شهادة الكافر على المسلم لا تقبل مطلقاً ، وروى حديث النسخ ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقال بعضهم : لا نسخ وأجاز شهادة الذمي على المسلم في هذه الصورة .

وروي عن أبي موسى الأشعري أنه حكم لما كان والياً على الكوفة بمحضر من الصحابة بشهادة ذميين بعد تحليفهما في وصية مسلم في السفر وإلى ذلك ذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وقال آخرون : الإثنان وصيان وحكم تحليفهما إذا ارتاب الورثة غير منسوخ ، وما أفادته الآية من رد اليمين على الورثة ليس من حيث إنهم مدعون وقد ظهرت خيانة الوصيين فردت اليمين عليهما خلافاً للشافعي بل من حيث إنهم صاروا مدعى عليهم لانقلاب الدعوى فإن الوصي المدعى عليه أولاً صار مدعياً للملك والورثة ينكرون ذلك ، ويدل عليه ما أخرجه البخاري في "التاريخ" والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وخلق آخرون عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : "خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء ، وقيل : نداء بالنون فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فلما قدما بتركته فقدموا جاما من فضة مخوصاً بالذهب فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى ما كتمتما ولا اطلعتما ثم وجد الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله سبحانه لشهادتهما أحق من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم وأخذ الجام وفيهم نزلت ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ ، هذا وادعى

بعض المحققين أن الشهادة ههنا لا يمكن أن تكون بمعناها المتبادر بوجه ولا تتصور لأن شهادتهما إما على الميت ولا وجه لها بعد موته وانتقال الحق إلى الورثة وحضورهم أو على الوارث المخاصم وكيف يشهد الخصم على خصمه فلا بد من التأويل ، وذكر أن الظاهر أن تحمل في قوله سبحانه ﴿ شهادة بَيْنِكُمْ ﴾ على الحضور أو الإحضار أي إذا حضر الموت المسافر فليحضر من يوصي إليه بإيصال ماله لوارثه مسلماً فإن لم يجد فكافراً ، والاحتياط أن يكونا اثنين فإذا جاءا بما عندهما وحصل ريبة في كتم بعضه فليحلفا لأنهما مودعان مصدقان بيمينهما فإن وجد ما خانا فيه وادعيا أنهما تملكاه منه بشراء ونحوه ولا بينة لهما على

(254/218)

ذلك يحلف المدعى عليه على عدم العلم بما ادعياه من التملك وأنه ملك لمورثهما لا نعلم انتقاله عن ملكه ، والشهادة الثانية : بمعنى العلم المشاهد أو ما هو بمنزلته لأن الشهادة المعاينة فالتجوز بها عن العلم صحيح قريب ، والشهادة الثالثة : إما بهذا المعنى أو بمعنى اليمين ، وعلى هذا وهو مما أفاضه الله تعالى عليَّ ببركة كلامه سبحانه فلا نسخ في الآية ولا إشكال ، وما ذكروه كله تكلف لم يصف من الكدر لذوق ذائق ، وسبب النزول وفعل

الرسول صلى الله عليه وسلم مبين لما ذكر انتهى .

ولعل تخصيص الاثنين اللذين يحلفان بأحقية شهادتهما على ما قيل لخصوص الواقعة وإلا فإن كان الوارث واحداً حلف وإن تعدد حلف المتعدد كما بين في الكتب الفقهية ، وما ذكر من أن سبب النزول الخ مبين لما قرره فيه بعض خفاء إذ ليس في الخبر أن الوارثين حلفا على عدم العلم ، وفي غيره ما هو نص في الحلف على الثبات ، فقد روي في خبر أطول مما تقدم أن عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميين قاما فحلفا بالله سبحانه بعد العصر أنهما أي تميماً وعديا كذبا وخانا ، نعم قال الترمذي في "الجامع" بعد روايته لذلك الخبر : إنه حديث غريب وليس إسناده بصحيح ، وأيضاً في حمل الشهادة على شيء مما ذكره في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ خفاء ، وادعى هو نفسه أن حمل الشهادة على اليمين بعيد لأنها إذا أطلقت فهي المتعارفة فتأمل ، فقد قال الزجاج : إن هذه الآية من أشكل ما في القرآن ، وقال الواحدي : روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام ، وقال الإمام : اتفق المفسرون على أن هذه الآية في غاية الصعوبة إعراباً ونظماً وحكماً ، وقال المحقق التفتازاني : اتفقوا على أن هذه الآية أصعب ما في القرءان حكماً وإعراباً ونظماً .

وقال الشهاب : اعلم أنهم قالوا : ليس في القرآن أعظم إشكالاً وحكماً وإعراباً وتفسيراً من هذه الآية والتي بعدها يعني ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ الخ حتى صنفوا فيها تصانيف مفردة قالوا : ومع ذلك لم يخرج أحد من عهدتها .

وذكر الطبرسي أن الآيتين من أعوص القرآن حكماً ومعنى وإعراباً وافتخر بما أتى فيهما ولم يأت بشيء إلى غير ذلك من أقوالهم وسبحان الخبير بحقائق كلامه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ فيقسمان بالله ﴾ تفريع على قوله ﴿ يقومان مقامهما ﴾ .

ومعنى ﴿ لشهادتنا أحقّ من شهادتهما ﴾ أنّهما أولى بأن تقبل شهادتهما من اللذيْن عثِر على أنّهما استحقّا إثماً .

ومعنى ﴿ أحقّ ﴾ أنّها الحقّ ، فصيغة التفضيل مسلوبة المفاضلة .

وقوله ﴿ وما اعتدينا ﴾ توكيد للأحقّيّة ، لأنّ الأحقّيّة راجعة إلى نفعهما بإثبات ما كتمه الشاهدان الأجنبيان ، فلو لم تكن كذلك في الواقع لكانت باطلاً واعتداء منهما على مال مبلّغي الوصية .

والمعنى : وما اعتدينا على الشاهدين في اتّهامهما بإخفاء بعض التركة .

وقوله ﴿ إنّا إذن لمنَ الظالمين ﴾ أي لو اعتدينا لكنّا ظالمَين .

والمقصود منه الإشعار بأنّهما متذكّران ما يترتّب على الاعتداء والظلم ، وفي ذلك زيادة وازع .

وقد تضمّن القسم على صدق خبرهما يميناً على إثبات حقّهما فهي من اليمين التي يثبت بها الحقّ مع الشاهد العرفي ، وهو شاهد التهمة التي عثر عليها في الشاهدين اللذين يبلّغان الوصية .

والكلام في "إذن" هنا مثل الكلام في قوله : ﴿ إنّا إذن لمن الآثمين ﴾ .

والمعنى أنّه إن اختلّت شهادة شاهدي الوصية انتقل إلى يمين الموصى له سواء كان الموصى له واحداً أم متعدّداً .

(256/218)

وإنّما جاءت الآية بصيغة الاثنين مراعاة للقضية التي نزلت فيها ، وهي قضية تميم الداري وعدي بن بدّاء ، فإنّ ورثة صاحب التركة كانا اثنين هما : عمرو بن العاصي والمطلب بن أبي وداعة ، وكلاهما من بني سهم ، وهما مَوْليا بُديل بن أبي مريم السهمي صاحب الجام .

فبعض المفسّرين يذكر أنهما مَوْليا بُديل .

وبعضهم يقول : إنّ مولاه هو عمرو بن العاصي .

والظاهر من تحليف المطلب ابن أبي وداعة أنّ له ولاء من بديل ، إذ لا يعرف في الإسلام أن يحلف من لا ينتفع باليمين .

فإن كان صاحب الحقّ واحداً حلف وحده وإن كان أصحاب الحقّ جماعة حلفوا جميعاً واستحقّوا .

ولم يقل أحد أنّه إن كان صاحب الحقّ واحداً يحلف معه من ليس بمستحقّ ، ولا إن كان صاحب الحقّ ثلاثة فأكثر أن يحلف اثنان منهم ويستحقّون كلّهم .

فالاقتصار على اثنين في أيمان الأوليين ناظر إلى قصّة سبب النزول ، فتكون الآية على هذا خاصّة بتلك القضية .

ويجري ما يخالف تلك القضية على ما هو المعروف في الشريعة في الاستحقاق والتهم .

وهذا القول يقتضي أنّ الآية نزلت قبل حكم الرسول صلى الله عليه وسلم في وصية بُديل بن أبي مريم .

وذلك ظاهر بعض روايات الخبر ، وفي بعض الروايات ما يقتضي أنّ الآية نزلت بعد أن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام وحينئذٍ يتعيّن أن تكون تشريعاً لأمثال تلك القضية ممّا يحدث في المستقبل ، فيتعيّن المصير إلى الوجه الأول في اشتراط كون الأوليين اثنين إن أمكن .

وبقيت صورة لم تشملها الآية مثل أن لا يجد المحتضَر إلاّ واحداً من المسلمين ، أو واحداً من

غير المسلمين ، أو يجد اثنين أحدهما مسلم والآخر غير مسلم .

وكلّ ذلك يجري على أحكامه المعروفة في الأحكام كلّها من يمين من قام له شاهد أو يمين المنكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(257/218)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ على أَنَّهُمَا استحقا إِثْماً ﴾ قال عمر : هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام .

وقال الزجاج : أصعب ما في القرآن من الإعراب قوله : ﴿ مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ الأوليان ﴾ .

عثر على كذا أي اطلع عليه ؛ يُقال : عثرت منه على خيانة أي اطلعت ، وأعثرت غيري عليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الكهف : 21] .

لأنهم كانوا يطلبونهم وقد خفِي عليهم موضعهم ؛ وأصل العثور الوقوع والسقوط على الشيء ؛ ومنه قولهم : عثر الرجل يعثر عثوراً إذا وقعت إصبعه بشيء صدمته ، وعثرت

إصبع فلان بكذا إذا صدمته فأصابته ووقعت عليه .

وعثر الفرس عِثاراً ؛ قال الأعشى :

بذاتِ لَوْث عَفَرْنَاةٍ إذا عَثَرَتْ . . .

فالتَّعْسُ أدْنَى لها مِنْ أَنْ أقول لَعَا

والعِثْيَر الغبار الساطع ؛ لأنه يقع على الوجه ، والعَثْيَر الأثر الخفيّ لأنه يوقع عليه من خَفَاء .

والضمير في "أَنَّهُمَا" يعود على الوصيَّيْن اللَّذَيْن ذُكِرا في قوله عزّ وجلّ : "اثنان" عن سعيد بن جبير .

وقيل : على الشاهدين ؛ عن ابن عباس .

و"استحقا" أي استوجبا "إثْماً" يعني بالخيانة ، وأخذهما ما ليس لهما ، أو باليمين الكاذبة أو بالشهادة الباطلة .

وقال أبو علي : الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ ؛ لأن آخذه بأخذه آثِمٌ ؛ فسمي إثْماً كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة .

وقال سيبويه ؛ المظلمة اسم ما أخذ منك ؛ فكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر وهو الْجَامُ .

قوله تعالى : ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا ﴾ يعني في الأيمان أو في الشهادة ؛ وقال "آخَرَانِ" بحسب أن الورثة كانا اثنين .

وارتفع "آخران" بفعل مضمر "يَقُومَانِ" في موضع نعت.

"مَقَامَهُمَا" مصدر، وتقديره: مقاماً مثل مقامِهما، ثم أُقيم النعت مقام المنعوت، والمضاف مقام المضاف إليه.

(258/218)

قوله تعالى: ﴿ مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ الأوليان ﴾ قال ابن السَّرِيّ: المعنى استحق عليهم الإيصاء؛ قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه؛ لأنه لا يُجعل حرف بدلاً من حرف؛ واختاره ابن العربي؛ وأيضاً فإن التفسير عليه؛ لأن المعنى عند أهل التفسير: من الذين استحقت عليهم الوصية.

و"الأَوْلَيَانِ" بدل من قوله: "فآخَرَانِ" قاله ابن السَّرِيّ، واختاره النحاس، وهو بدل المعرفة من النكرة وإبدال المعرفة من النكرة جائز.

وقيل: النكرة إذا تقدّم ذكرها ثم أُعيد ذكرها صارت معرفة؛ كقوله تعالى: ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: 35] ثم قال: ﴿ المصباح فِي زُجَاجَةٍ ﴾ [النور: 35] ثم قال: ﴿ الزجاجة ﴾ [النور: 35] وقيل: هو بدل من الضمير في "يَقُومَانِ" كأنه قال: فيقوم الأوليان، أو خبر ابتداء محذوف؛ التقدير: فآخران يقومان مقامهما هما الأوليان.

وقال ابن عيسى : "الأَوْلَيَانِ" مفعول "استحق" على حذف المضاف ؛ أي استحق فيهم وبسببهم إثم الأوليين ، فعليهم بمعنى فيهم ، مثل ﴿ على مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة : 102] أي في ملك سليمان .

وقال الشاعر :

متى ما تُنكروها تَعرفوها . . .

على أَقطارها عَلَقٌ نَفِيثُ

أي في أقطارها .

وقرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش وحمزة "الأَوِّلَينَ" جمع أوّل على أنه بدل من "اللَّذِينَ" أو من الهاء والميم في "عَلَيْهِمُ" .

وقرأ حفص : "استحق" بفتح التاء والخاء ، ورُوي عن أبيّ بن كعب : وفاعله "الأَولَيان" والمفعول محذوف ، والتقدير : من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها .

وقيل : استحق عليهم الأَوليان ردّ الأيمان .

وروي عن الحسن : "الأَوّلَانِ" .

وعن ابن سيرين : "الأَوَّلَيْنِ" قال النحاس : والقراءتان لَحْنٌ ؛ لا يُقال في مُثنّى : مثنَّان ، غير أنه قد روي عن الحسن "الأَوّلَانِ" .

قوله تعالى : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ أي يحلفان الآخران اللذان يقومان مقام الشاهدين "أن الذي قال صاحبنا في وصيته حق ، وأن المال الذي وصَّى به إليكما كان أكثر مما أتيتمانا به ، وأن هذا الإِنَاء لمن متاع صاحبنا الذي خرج به معه وكتبه في وصيته ، وأنكما خنتما" فذلك قوله : ﴿ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا ﴾ أي يميننا أحق من يمينهما ؛ فصح أن الشهادة قد تكون بمعنى اليمين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ [النور : 6] .

وقد روى مَعمر عن أيوب عن ابن سيرين عن عَبِيدة قال : قام رجلان من أولياء الميت فحلفا .

﴿ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر .

وقوله : ﴿ وَمَا اعْتَدَيْنَآ ﴾ أي تجاوزنا الحق في قَسَمنا .

﴿ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي إن كنا حلفنا على باطل ، وأخذنا ما ليس لنا . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ أي فإن عثر بعد حلفهما على أنهما استحقا إثماً أي ذنباً بجنثهما في اليمين بأنها ليست مطابقة للواقع و ﴿ عثر ﴾ استعارة لما يوقع على علمه بعد خفائه وبعد إن لم يرج ولم يقصد كما تقول على الخبير سقطت ووقعت على كذا .

قال أبو علي : الإثم هنا هو الشيء المأخوذ لأن أخذه إثم قسمي إثماً كما يسمى ما أخذ بغير الحق مظلمة ، قال سيبويه المظلمة اسم ما أخذ منك ولذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر انتهى .

والظاهر أن الإثم هنا ليس الشيء المأخوذ بل الذنب الذي استحقا به أن يكونا من الآثمين الذي تبرآ أن يكونا منهم في قولهما ﴿ إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ ولو كان الإثم هو الشيء المأخوذ ما قيل فيه استحقا إثماً لأنهما ظلما وتعدّيا وذلك هو الموجب للإثم .

(260/218)

﴿ فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ قرأ الحرميان والعربيان والكسائي ﴿ استحق ﴾ مبنياً للفاعل ﴿ والأوليان ﴾ مثنى مرفوع تثنية الأولى ورويت هذه القراءة عن أبيّ وعليّ وابن عباس وعن ابن كثير في رواية قرة عنه ، وقرأ حمزة

وأبو بكر ﴿ استُحق ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ والأوليان ﴾ جمع الأول ، وقرأ الحسن ﴿ استحق ﴾ مبنياً للفاعل الأولان مرفوع تثنية أول ، وقرأ ابن سيرين الأوليين تثنية الأولى فأما القراءة الأولى فقال الزمخشري ﴿ فآخران ﴾ فشاهدان آخران ﴿ يقومان مقامهما من الذين استحق ﴾ عليهم أي من الذين استحق عليهم الإثم ، ومعناه وهم الذين جني عليهم وهم أهل الميت وعترته ، وفي قصة بديل أنه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلين من ورثته أنه إناء صاحبهما وأن شهادتهما أحق من شهادتهما ، و ﴿ الأوليان ﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما وارتفاعهما على هما لأوليان كأنه قيل ومن هما فقيل ﴿ الأوليان ﴾ ، وقيل هما بدل من الضمير في ﴿ يقومان ﴾ أو من آخران ويجوز أن يرتفعا باستحق أي من الذين استحق عليهم ابتدأت الأوليين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال انتهى .

وقد سبقه أبو عليّ إلى أن تخريج رفع ﴿ الأوليان ﴾ على تقديرهما الأوليان ، وعلى البدل من ضمير ﴿ يقومان ﴾ وزاد أبو عليّ وجهين آخرين ، أحدهما أن يكون ﴿ الأوليان ﴾ مبتدأ ومؤخراً ، والخبر آخران يقومان مقامهما .

كأنه في التقدير فالأوليان بأمر الميت آخران يقومان فيجيء الكلام كقولهم تميمي أنا .

والوجه الآخر أن يكون ﴿ الأوليان ﴾ مسنداً إليه ﴿ استحق ﴾ .

قال أبو عليّ فيه شيء آخر وهو أن يكون ﴿ الأوليان ﴾ صفة لآخران لأنه لما وصف خصص فوصف من أجل الاختصاص الذي صار له انتهى .

(261/218)

وهذا الوجه ضعيف لاستلزامه هدم ما كادوا أن يجمعوا عليه من أن النكرة لا توصف بالمعرفة ولا العكس وعلى ما جوّزه أبو الحسن يكون إعراب قوله : ﴿ فآخران ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ يقومان ﴾ ويكون قد وصف بقوله من ﴿ الذين ﴾ أو يكون قد وصف بقوله ﴿ يقومان ﴾ والخبر ﴿ من الذين ﴾ ولا يضر الفصل بين الصفة والموصوف بالخبر أو يكونان صفتين لقوله : ﴿ فآخران ﴾ ويرتفع آخران على خبر مبتدإ محذوف أي فالشاهدان آخران ويجوز عند بعضهم أن يرتفع على الفاعل ، أي فليشهد آخران وأما مفعول ﴿ استحق ﴾ فتقدم تقدير الزمخشري أنه استحق عليهم الإثم ، ويعني أنه ضمير عائد على الإثم لأن الإثم محذوف ، لأنه لا يجوز حذف المفعول الذي لم يسم فاعله وقد سبقه أبو عليّ والحوفي إلى هذا التقدير وأجازوا وجهين آخرين أحدهما : أن كون التقدير استحق عليهم الإيصاء ، والثاني : أن يكون من الذين استحق عليهم الوصية .

وأما ما ذكره الزمخشري من ارتفاع قوله ﴿ الأوليان ﴾ باستحق فقد أجازه أبو علي كما تقدم ثم منعه قال لأن المستحق إنما يكون الوصية أو شيئاً منها .

(262/218)

وأما ﴿ الأوليان ﴾ بالميت فلا يجوز أن يستحقا فيسند ﴿ استحق ﴾ إليهما إلا أن الزمخشري إنما رفع قوله الأوليان باستحق على تقدير حذف مضاف ناب عنه ﴿ الأوليان ﴾ ، فقدره استحق عليهم انتداب الأولين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال فيسوغ توجيهه ، وأجاز ذلك ابن جرير على أن يكون التقدير من الذين استحق عليهم إثم الأولين ، وأجاز ابن عطية أيضاً أن يرتفع ﴿ الأوليان ﴾ باستحق وطول في تقرير ذلك وملخصه أنه حمل استحق هنا على الاستعارة بأنه ليس استحقاقاً حقيقة لقوله ﴿ استحقا إثماً ﴾ وإنما معناه أنهم غلبوا على المال بحكم انفراد هذا الميت وعدمه لقرابته أو لأهل دينه فجعل تسورهم عليه استحقاقاً مجازاً والمعنى من الجماعة التي غابت وكان حقها أن تحضر وليها ، قال فلما غابت وانفرد هذا الموصي استحقت هذه الحال وهذان الشاهدان من غير أهل الدين الولاية وأمر الأوليين على هذه الجماعة ثم يبنى الفعل للمفعول على هذا المعنى إيجازاً ، ويقوي هذا الغرض أن يعدى الفعل بعلى لما كان باقتدار وحمل هنا

على الحال ، ولا يقال استحق منه أو فيه إلا في الاستحقاق الحقيقي على وجهه ، وأما استحق عليه فيقال في الحمل والغلبة والاستحقاق المستعار انتهى .

والضمير في ﴿ مقامهما ﴾ عائد على شاهدي الزور ﴿ ومن الذين ﴾ هم ولاة الميت .

وقال النحاس في قول من قدر الذين استحق عليهم الإيصاء هذا من أحسن ما قيل فيه لأنه لم يجعل حرف بدلاً من حرف يعني أنه لم يجعل على بمعنى في ولا بمعنى من ، وقد قيل بهما أي من الذين استحق منهم الإثم لقوله :

(263/218)

﴿ إذا اكتالوا على الناس ﴾ أي من الناس استحق عليهم الإثم أي من الناس وأجاز ابن العربي تقدير الإيصاء واختار أبو عبد الله الرازي وابن أبي الفضل أن يكون التقدير من الذين استحق عليهم المال ، قال أبو عبد الله وقد أكثر الناس في أنه لم وصف موالي بهذا الوصف ، وذكروا فيه قولاً والأصح عندي فيه وجه واحد وهو أنهم وصفوا بذلك بأنه لما أخذ مالهم استحق عليهم مالهم فإن من أخذ مال غيره فقد حاول أن يكون تعلقه بذلك المال تعلق ملكه له فصح أن يوصف المالك بأنه قد استحق عليك ذلك المال انتهى .

﴿ والأوليان ﴾ بمعنى الأقربين إلى الميت أو الأوليان بالحلف ؛ وذلك أن الوصيين ادعيا

أن مورث هذين الشاهدين باعهما الإناء وهما أنكرا ذلك فاليمين حق لهما .

كإنسان أقر لآخر بدين وادعى أنه قضاه فترد اليمين على الذي ادعى أولاً لأنه صار مدعى عليه وتلخص في إعراب ﴿ الأوليان ﴾ على هذه القراءة وجوه الابتداء والخبر لمبتدأ محذوف والبدل من ضمير ﴿ يقومان ﴾ والبدل من آخران والوصف لآخران والمفعولية باستحق على حذف مضاف مختلف في تقديره .

وأما القراءة الثانية وهي بناء ﴿ استحق ﴾ للفاعل ورفع الأوليين فقال الزمخشري معناه من الورثة الذين استحق عليهم أوليان من سهم بالشهادة أن يجردوهما لقيام الشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين انتهى .

وقال ابن عطية ما ملخصه ﴿ الأوليان ﴾ رفع باستحق وذلك على أن يكون المعنى ﴿ من الذين استحق عليهم ﴾ مالهم وتركهم شاهدا الزور فسميا أوليين أي صيرهما عدم الناس أولى بهذا الميت ، وتركته فجازا فيها ، أو يكون المعنى من الذين حق عليهم أن يكون الأوليان منهم فاستحق بمعنى حق كاستعجب وعجب ، أو يكون ﴿ استحق ﴾ بمعنى سعى واستوجب فالمعنى من القوم الذين حضر أوليان منهم فاستحقا عليهم أي استحقا لهم وسعيا فيه واستوجباه بأيمانهما وقربانهما انتهى .

وقال بعضهم المفعول محذوف أي ﴿ من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ وصيتهما .

وأما القراءة الثالثة وهي قراءة ﴿ استحق ﴾ مبنياً للمفعول والأولين جمع الأول فخرج على أن الأولين وصف للذين ، قال أبو البقاء أو بدل من الضمير المجرور بعلى ، قال الزمخشري أو منصوب على المدح ومعنى الأولية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها انتهى ؛ وهذا على تفسير أن قوله : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ أنهم الأجانب لا أنهم الكفار ، وقال ابن عطية معناها من القوم الذين استحق عليهم أمرهم أي غلبوا عليه ثم وصفهم بأنهم أولون أي في الذكر في هذه الآية وذلك في قوله : ﴿ اثنان ذوا عدل منكم ﴾ انتهى .

وأما القراءة الرابعة وهي قراءة الحسن فالأولان مرفوع باستحق .

قال الزمخشري ويحتج به من يرى رد اليمين على المدعي وهو أبو حنيفة وأصحابه لا يرون ذلك فوجه عندهم أن الورثة قد ادعوا على النصرانيين أنهما اختانا فحلفا فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتماه فأنكر الورثة فكان اليمين على الورثة لإنكارهم الشراء .

وأما القراءة الخامسة وهي قراءة ابن سيرين فانتصاب الأوليين على المدح .

﴿ فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا ﴾ أي فيقسم الآخران القائمان مقام شهادة التحريف أن ما أخبرا به حق والذي ذكرناه من نص القصة أحق مما ذكراه أولاً وحرفا فيه وما زدنا على الحد .

وقال ابن عباس ليميننا أحق من يمينهما ومن قال الشهادة في أول القصة ليست بمعنى اليمين قال هنا الشهادة يمين وسميت شهادة لأنها يثبت بها الحكم كما يثبت بالشهادة .

قال ابن الجوزي ﴿ أحق ﴾ أصح لكفرهما وإيماننا انتهى .

﴿ إنا إذاً لمن الظالمين ﴾ ختما بهذه الجملة تبرياً من الظلم واستقباحاً له وناسب الظلم هنا لقولهما ﴿ وما اعتدينا ﴾ والاعتداء والظلم متقاربان وناسب ختم ما أقسم عليه شاهدا الزور ﴿ بقوله لمن الآثمين ﴾ لأن عدم مطابقة يمينهما للواقع وكتمهما الشهادة يجران إليهما الإثم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(265/218)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ أي اطُّلع بعد التحليف ﴿ على أَنَّهُمَا استحقا إِثْماً ﴾ حسبما اعترفا به بقولهما : إنا إذاً لمن الآثمين ، أي فعلا ما يوجبُ إثماً من تحريفٍ وكَتم بأن ظهر بأيديهما شيءٌ من التركة وادَّعيا استحقاقَهما له بوجهٍ من الوجوه كما وقع في سبب النزول حسبما سيأتي ﴿ فَآخَرَانِ ﴾ أي رجلان آخران ، وهو مبتدأ خبرُه ﴿ يقُومَانُ مَقَامَهُمَا ﴾ ولا محذورَ

في الفصل بالخبر بين المبتدأ وبين وَصفِه الذي هو الجارُّ والمجرور بعده ، أي يوقمان مَقام اللذين عُثر على خيانتهما ، وليس المراد بمقامهما مقامَ أداءِ الشهادة التي تولَّياها ولم يؤدِّياها كما هي ، بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لإظهار الحق وإبراز كذِبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما في أيديهما ﴿ مِنَ الذين استحق ﴾ على البناء للفاعل على قراءة عليَ وابنِ عباس وأُبيَ رضي الله عنهم ، أي من أهل البيت الذين استحق ﴿ عَلَيْهِمُ الأوليان ﴾ من بينهم ، أي الأقربانِ إلى الميت ، الوارثانِ له ، الأحقانِ بالشهادة أي باليمين كما ستعرفه ، ومفعولُ (استحق) محذوفٌ أي استحقا عليهم أن يجرِّدوهما للقيام بها ، لأنها حقُّهما ويُظهروا بهما كذِبَ الكاذبَيْن ، وهما في الحقيقة الآخرانِ القائمان مَقام الأوَّلَيْن على وضع المُظْهر مقام المُضْمَر ، وقرىء على البناء للمفعول وهو الأظهر ، أي من الذين استُحق عليهم الإثمُ أي جُنيَ عليهم ، وهم أهلُ الميت وعشيرتُه ، فالأَوْليان مرفوعٌ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ كأنه قيل : ومن هما ؟ فقيل : الأوليان ، أو بدلٌ من الضمير في (يقومان) أو من (آخران) وقد جوِّز ارتفاعَه باستَحق على حذف المضاف ، أي استحقّ عليهم انتدابُ الأوَّلَيْن منهم للشهادة ، وقرىء (الأولِّين) على أنه صفة للذين الخ ، مجرور أو منصوب على المدح ، ومعنى الأولية التقدمُ على الأجانب في الشهادة لكونهم أحقَّ بها ، وقرىء (الأولَيْن) على

التثنية وانتصابُه على المدح، وقرئ (الأولان).

﴿ فَيُقْسِمَانِ بالله ﴾ عطف على يقومان ﴿ لشهادتنا ﴾ المرادُ بالشهادة اليمينُ كما في قوله تعالى: ﴿ فشهادة أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شهادات بالله ﴾ أي لَيمينُنا على أنهما كاذبان فيما ادَّعيا من الاستحقاق مع كونِها حقةً صادقةً في نفسها ﴿ أَحَقُّ ﴾ بالقبول ﴿ مِن شهادتهما ﴾ أي من يمينهما مع كونها كاذبةً في نفسها لما أنه قد ظهر للناس استحقاقُهما للإثم، ويمينُنا منزهةٌ عن الرَّيب والرِّيبة، فصيغةُ التفضيلِ مع أنه لا حقيةَ في يمينهما رأساً إنما هي لإمكان قَبولِها في الجُملة باعتبار احتمالِ صدقِهما في ادعاء تملُّكِهما لما ظهر في أيديهما ﴿ وَمَا اعتدينا ﴾ عطف على جواب القسم أي ما تجاوزنا فيها الحقَّ أو ما اعتدينا عليهما بإبطال حقهما ﴿ أَنَّا إِذِنَ لَمِنَ الظالمين ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله، أي إنا إنِ اعتدَيْنا في يميننا لمن الظالمين أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى، أو لمن الواضعين الحقَّ في غير موضعه، ومعنى النظم الكريم أن المُحتَضَرَ ينبغي أن يُشهدَ على وصيته عدلين من ذوِي نسبه أو دينه، فإن لم يجدْهما بأن كان في سفر فآخران من غيرهم، ثم إن وقع ارتيابٌ بهما أقسما على أنهما ما كتما من الشهادة ولا من التركة شيئاً بالتغليظ في الوقت، فإنِ اطُّلعَ بعد ذلك على كذبهما بأن ظهر بأيديهما شيءٌ من التركة، وادعيا تملُّكه من جهة الميت حلفَ الورثةُ وعُمل بأيمانهم.

ولعل تخصصَ الاثنين لخصوص الواقعة ، فإنه رُوي (أن تميمَ بنَ أوسٍ الداري وعديَّ بنَ بدَّاء خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصْرانيين ومعهما بديلُ بنُ أبي مريم مولى عمْرو بنِ العاص وكان مسلماً مهاجراً ، فلما قدِموا الشامَ مرضَ بديلٌ فكتب كتاباً فيه جميعُ ما معه وطرحه في متاعِه ولم يخبرْهما بذلك ، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعَه إلى أهله ، ومات ، ففتشاه ، فوجدوا فيه إناءً من فضة وزنُه ثلثمائةِ مثقالٍ منقوشاً بالذهب ، فغيَّباه ودفعا المتاعَ إلى أهله ، فأصابوا فيه الكتاب ، فطلبوا منهما الإناءَ فقالا : ما ندري ، إنما أوصى إلينا بشيءٍ وأمرَنا أن ندفعَه إليكم ففعلنا ، وما لنا بالإناء من علم ، فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الآية ، فاستحلَفَهما بعد صلاة العصر عند المِنْبر بالله الذي لا إله إلا هو أنهما لم يخْتانا شيئاً مما دَفَع ولا كتما فحلَفا على ذلك فخلَّى عليه الصلاة والسلام سبيلهما ، ثم إن الإناءَ وُجد بمكةَ فقال مَنْ بيده : اشتريتُه من تميم وعدي ، وقيل : لما طالت المدةُ أظهراه فبلغ ذلك بني سهمٍ فطلبوه منهما فقالا : كنا اشتريناه من بديل ، فقالوا : ألم نقلْ لكما : هل باع صاحبُنا من متاعه شيئاً ، فقلتما : لا ؟ قالا : ما كان لنا بينةٌ فكرِهنا أن نُقِرَّ به ، فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل

قوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ الآية ، فقام عمرو بنُ العاص والمطَّلِبُ بنُ أبي وداعةَ السَّهْميان فحلفا بالله بعد العصر أنهما كَذَبا وخانا ، فدفع الإناءَ إليهما) . وفي رواية إلى أولياء الميت .

واعلم أنهما إن كانا وارثين (لبديل) فلا نسخ إلا في وصف اليمين ، فإن الوارثَ لا يُحَلَّفُ على البَتات ، وإلا فهو منسوخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(268/218)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾

فإن ظهر أن الشاهدين قد حرفا وصية الميت أو أخفيا بالكذب بعضاً من تفاصيلها ، فلنا أن نستدعي اثنين من أقرب الناس للميت فيقسمان بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا في الشهادة ، وأن هذا الاتهام بالكذب ليس افتراءً ولكنه قائم على الحقيقة ، ولو ظهر أن شهادتهما فيها كذب فهما المستحقان لعقاب من يظلم غيره .

وبذلك يفسح الحق لنا المجال أمام إقامة العدل بأن نستقصي الصدق ، فإن ظهر لنا بدليل ما

كذب الشاهدين اللذين حضرا موت صاحب الوصية ، فلنأت بشاهدين من أولياء الميت بدلا منهما . وكلمة " عثر " تعني الوقوع على شيء على غير قصد . فإن عرفنا أن الإثم ظاهر من شهادة هذين الشاهدين ، فلنا أن نستقصي الصدق في شهادة اثنين غيرهما من أهل الميت .

وفي الواقعة التي نزلت فيها الآية ، قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهمي فأقسما بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا وأن الشهادة التي يقدمانها هي شهادة الحق لا اعتداء ولا جور فيها على أصحاب الشهادة الأولى . ولماذا كل ذلك ؟ لأن الهدف هو أن تأتي الشهادة على الوجه الصحيح لها ، فيقول الحق : ﴿ ذلك أدنى . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(269/218)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : " فإنْ عُثِرَ " : مبنيٌّ للمفعول ، والقائمُ مقامَ فاعله الجارُّ بعده ، أي : فإن اطُّلِعَ على اسْتِحْقَاقِهِمَا الإثْم يقالُ : عَثَرَ الرَّجُل يَعْثُرُ عُثُوراً : إذا هَجَمَ على شيءٍ ، لم يَطَّلِعْ عليه

غَيْرُهُ ، وأعْثَرْتُهُ على كذا أطلعتُه عليه ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الكهف : 21] ، قال أهلُ اللغة : وأصلُه من " عَثْرَةِ الرجْلِ " وهي الوقوعُ ، وذلك أن العاثِرَ إنما يَعْثُرُ بِشَيْءٍ كان لا يَرَاهُ ، فإن عثر به ، اطَّلَعَ عليه ، ونظر ما هو ، فقيل لكلِّ أمْرٍ كان خَفِيًّا ، ثم اطَّلَعَ عليه : " عُثِرَ عَلَيْه " ، وقال اللَّيْثُ : " عَثَرَ يَعْثُرُ عُثُوراً هَجَمَ على أمرٍ لم يهجُمْ عليه غيرُه ، وعَثَرَ يَعْثُرُ عثْرَةً وقع على شيء " ففرَّقَ بين الفعلَيْنِ بمصدَرَيْهما ، وفرَّق أبو البقاء بينهما بغير ذلك ؛ فقال : " عَثَرَ مصْدرُه العُثُور ، ومعناه اطَّلَعَ ، فأمَّا " عَثَرَ " في مَشْيِهِ ، ومنْطِقِهِ ، ورأيه ، فالعِثَارُ " ، والراغب جعَلَ المصدَرَيْنِ على حدٍّ سواء ؛ فإنه قال : " عَثَرَ الرَّجل بالشيءِ يَعْثُرُ عُثُوراً وعِثَاراً : إذا سقطَ عليه ، ويُتَجَوَّزُ به فيمَنْ يطَّلِعُ على أمرٍ من غيرِ طلبه ، يقال : " عَثَرْتُ على كذا " ، وقوله : ﴿ وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الكهف : 21] ، أي : وَقَّفْنَاهُمْ عليهم من غَيْرِ أنْ طَلَبُوا " .

قوله تعالى : " فآخَرَانِ " فيه أربعةُ أوجه :

الأول : أن يرتفع على أنه خبر مبتدأ مضمرٍ ، تقديره : فالشَّاهدانِ آخرانِ ، والفاء جوابُ الشرط ، دخلت على الجملة الاسمية ، والجملةُ من قوله : "يَقُومَانِ " في محلِّ رفعٍ صفةً لـ " آخَرَانِ " .

الثاني : أنه مرفوعٌ بفعلٍ مضمرٍ ، تقديرُه : فَلْيَشْهَدْ آخَرَانِ ، ذكره مكيٌّ وأبو البقاء ، وقد تقدَّم أن الفعل لا يُحْذَفُ وحْدَهُ إلاَّ في مواضعَ ذكَرْتُها عند قوله : ﴿ حِينَ الوصية اثنان ﴾ [المائدة : 106] .

الثالث : أن خبرٌ مقدَّم ، و " الأَوْلَيَانِ " مبتدأٌ مؤخَّرٌ ، والتقديرُ : فالأَوْلَيانِ بأمْرِ الميّتِ آخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ، ذكر ذلك أبو عَلِيٍّ ، قال : " ويكُونُ كقولك : تَمِيميٌّ أَنَا " .

الرابع : أنه مبتدأٌ ، وفي الخبر حينئذ احتمالاتٌ :

أحدها : قوله : ﴿ مِنَ الذين استحق ﴾ ، وجاز الابتداءُ به ؛ لتخصُّصِه بالوصْفِ ، وهو الجملة من " يَقُومَانِ " .

والثاني : أنَّ الخبر " يَقُومَانِ " و ﴿ مِنَ الذين استحق ﴾ صفةُ المبتدأ ، ولا يَضُرُّ الفصْلُ بالخبر بين الصفة وموصوفها ، والمسوِّغُ أيضاً للابتداء به : اعتمادُه على فاءِ الجزاء ، وقال أبو البقاء ، لمَّا حَكَى رفعه بالابتداء : " وجازَ الابتداءُ هنا بالنَّكِرَة ؛ لحصول الفائدةِ " ، فإن عنى أنَّ المسوِّغَ مجرَّدُ الفائدةِ من غير اعتبار مسوِّغٍ من المُسَوِّغات التي ذكرتُها ، فغيرُ مُسَلَّم .

الثالث : أنَّ الخبرَ قوله : " الأَوْلَيَانِ " نقله أبو البقاء ، وقوله " يَقُومَانِ " و ﴿ مِنَ الذين استحق ﴾ كلاهما في محلِّ رفعٍ صفةً لـ " آخَرَانِ " ، ويجوزُ أن يكون أحدُهما صفةً ، والآخرُ حالاً ،

وجاءتِ الحالُ من النكرةِ؛ لتخصُّصِهَا بالوصفِ، وفي هذا الوجهِ ضَعْفٌ؛ من حيث إنه إذا اجتمع معرفةٌ ونكرةٌ، جَعَلْتَ المعرفةَ محدَّثاً عنها، والنكرةَ حديثاً، وعكسُ ذلك قليلٌ جدًّا أو ضرورةٌ؛ كقوله: [الوافر]

2071 - . . . . . .

يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

وكقوله: [الطويل]

2072 - وَإِنَّ حَرَاماً أَنْ أَسُبَّ مُجَاشِعاً . . .

بِآبَائِيَ الشُّمِّ الكِرَامِ الْخَضَارِمِ

(271/218)

وقد فُهِمَ مِمَّا تقدَّمَ أنَّ الجملة من قوله "يَقُومَانِ" والجارَّ من قوله: "مِنَ الَّذِينَ": إمَّا مرفوعُ المحلِّ صفةً لـ "آخَرَانِ" أو خبرٌ عنه، وإمَّا منصوبُهُ على الحالِ: إمَّا من نَفْسِ "آخَرَانِ"، أو مِنَ الضَّمِيرِ المستكنِّ في "آخَرَانِ"، ويجوزُ في قوله "مِنَ الَّذِين" أنْ يكون حالاً من فاعلِ "يَقُومَانِ".

قوله: "استحقّ" قرأ الجمهور "استُحِقَّ" مبنيًّا للمفعول، "الأَوْلَيَانِ" رفعاً، وقرأ حفص

عن عاصم : " اسْتَحَقَّ " مبنيًّا للفاعل ، " الأولَيَانِ " كالجماعة ، وهي قراءة عبد الله بن عبَّاس وأمير المؤمنين عليٍّ – رضي الله عنهم – ورُوِيَتْ عن ابن كثيرٍ أيضاً ، وحمزة وأبو بكرٍ عن عاصمٍ : " استُحِقَّ " مبنيًّا للمفعول كالجماعة ، " الأوَّلِينَ " جمع " أوَّل " جمع المذكر السَّالِم ، والحسن البصريّ : " اسْتَحَقَّ " مبنيًّا للفاعل ، و " الأوَّلانِ " مرفوعاً تثنية " أوَّل " ، وابن سيرين كالجماعة ، إلا أنه نَصَبَ الأوْلَيْنِ تثنية " أوْلَى " ، وقرئ : " الأوْلَيْنَ " بسكون الواو وفتح اللام ، ووجمع " أوْلَى " كالأعْلَيْنَ في جمعِ " أعْلَى " ، ولما وصل أبو إسحاق الزجاج إلى هذا الموضوع ، قال : " هذا موضعٌ من أصْعَبِ ما في القرآن إعراباً " .

قال شهاب الدين : ولعَمْرِي ، إنَّ القولَ ما قالَتْ حَذَامِ ؛ فإن الناس قد دارَتْ رؤوسُهم في فَكِّ هذا التركيب ، وقد اجتهدْتُ – بحمد الله تعالى – فلخَّصْتُ الكلام فيها أحسن تَلْخِيصٍ ، ولا بدَّ من ذِكْرِ شَيْءٍ من معاني الآية ؛ لنستعين به على الإعْراب ؛ فإنه خادمٌ لها .

فأمَّا قراءةُ الجُمهورِ ، فرفعُ " الأوْلَيَان " فيها أوجه :

أحدها : أنه مبتدأ ، وخبره " آخرَانِ " ، تقديره : فالأوْلَيَانِ بأمر الميِّت آخَرَانِ ، وتقدَّم شرحُ هذا .

الثاني : أنه خبر مبتدأ مضمرٍ ، أي : هما الأوْليانِ ؛ كأنَّ سائلاً يسأل فقال : " من الآخَرَانِ " ؟ فقيل : هما الأوْلَيَانِ .

الثالث : أنه بدلٌ من " آخَرَان " ، وهو بدلٌ في معنى البيان للمبدلِ منه ؛ نحو : " جَاءَ زَيْدٌ أخُوكَ " وهذا عندهم ضعيفٌ ؛ لأنَّ الإبدالَ بالمشتقَّاتِ قليلٌ .

الرابع : أنه عطفُ بيان لـ " آخَرَانِ " بيَّن الآخَرَيْنِ بالأوْلَيَيْنِ ، فإن قلت : شرطُ عطفِ البيانِ : أن يكون التابعُ والمتبوعُ متفقينِ في التعريفِ والتنكيرِ ، على أنَّ الجمهور على عدم جريانه في النكرةِ ؛ خلافاً لأبي عَليّ ، و" آخَرَانِ " نكرةٌ ، و" الأوْلَيَانِ " معرفةٌ ، قُلْتُ : هذا سؤالٌ صحيحٌ ، ولكنْ يَلْزَمُ الأخفشَ ، ويلزمُ الزمخشريَّ جوازُه : أمَّا الأخفشُ فإنه يُجيزُ أنْ يكون " الأوْلَيَانِ " صفةً لـ " آخَرَانِ " بما سأقرره عنه عند تعرُّضِي لهذا الوجهِ ، والنعتُ والمنعوتُ يُشترط فيهما التوافُقُ ، فإذا جاز في النعْتِ ، جاز فيما هو شبيهٌ به ؛ إذْ لا فرق بينهما إلا اشتراطُ الاشتقاقِ في النعت ، وأمَّا الزمخشريُّ ، فإنه لا يشترطُ ذلك - أعني التوافُقَ - وقد نَصَّ عليه هو في سورة آل عمران على أن قوله تعالى :

﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [آل عمران : 97] عطفُ بيان ؛ لقوله ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ [آل عمران : 97] ، و" آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ " نكرةٌ ؛ لكنها لَمَّا تخصَّصَتْ بالوصفِ ، قَرُبَتْ من المعرفة ، كما تقدَّم عنه في موضعه ، وكذا " آخَرَانِ " قد وُصِفَ بصفتَيْنِ ، فقُرْبُه من المعرفة

أشدُّ من "آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ"؛ من حيثُ وُصِفَتْ بصفةٍ واحدة.

الخامس: أنه بدلٌ من فاعلِ "يَقُومَانِ".

(273/218)

السادس: أنه صفةٌ لـ "آخَرَانِ"، أجازَ ذلك الأخفشُ، وقال أبو عَلِيٍّ: "وأجازَ أبو الحسنِ فيها شيئاً آخَرَ، وهو أن يكُون "الأَوْلَيَانِ" صفةً لـ "آخَرَانِ"؛ لأَنَّه لمَّا وُصِفَ، تخصَّصَ، فَمِنْ أجلِ وصفه وتخصيصه، وُصِفَ بوصف المعارف"، قال أبو حيان: "وهذا ضعيفٌ؛ لاستلزامِه هَدْم ما كَادُوا أن يُجْمعوا عليه؛ من أنَّ النكرة لا تُوصفُ بالمعرفةِ، ولا العَكْس"، قلتُ: لا شكَّ أن تَخَالُفَهُمَا في التعريفِ والتنْكيرِ ضعيفٌ، وقد ارتكَبُوا ذلك في مواضعَ، فمنها ما حكاه الخليلُ: "مَرَرْتُ بالرَّجُلِ خَيْرٍ مِنْكَ" في أحدِ الأوجه في هذه المسألةِ، ومنها ﴿ غَيْرِ المغضوب ﴾ [الفاتحة: 7] على القولِ بأنَّ "غَيْر" صفةُ ﴿ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: 7]، وقوله: [الكامل]

2073 - وَلَقَدْ أَمُرُّ على اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي . . .

فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لا يَعْنِينِي

وقوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار ﴾ [يس: 73]، على أنَّ "يَسُبُّنِي" و"

نَسْلَخُ " صفتان لما قبلهما ؛ فإنَّ الجمل نكراتٌ ، وهذه المُثُلُ التي أوردتها عكسُ ما نحن فيه ، فإنها تُؤوَّلُ فيها المعرفةُ بالنكرة ، وما نحن فيه جعلنا النكرة فيه كالمعرفةِ ؛ إلاَّ أنَّ الجامعَ بينهما التخالفُ ، ويجوز أن يكون ما نحْنُ فيه من هذه المُثُلِ ؛ فاعتبار أنَّ " الأوْلَيَيْنِ " لمَّا لم يُقْصَدْ بهما شخصان معينان ، قَرُبَا من النكرةِ ، فوقعا صفةً لها مع تخصُّصِها هي ؛ فصار في ذلك مسوِّغان : قُرْبُ النكرةِ من المعرفة بالتخصيصِ ، وقُرْبُ المعرفةِ من النكرة بالإبهام ؛ ويدلُّ لِما قلته ما قال أبو البقاء : " والخَامِسُ أن يكون صفة لـ " آخَرَانِ " ؛ لأنه وإنْ كان نكرةً ، فقد وُصِفَ ، والأوْليانِ لم يَقْصِدْ بهما قَصْدَ اثنينِ بأعيانِهما " .

(274/218)

السابع : أنه مرفوعٌ على ما لم يُسَمَّ فاعله بـ " اسْتُحِقَّ " ، إلاَّ أنَّ كلَّ مَنْ أعربه كذا ، قَدَّر قبله مضافاً محذوفاً ، واختلفتْ تقديراتُ المُعْرِبينَ ، فقال مكي : " تقديرُه : استُحِقَّ عليهمْ إثْمُ الأوْلَيَيْنِ " ، وكذا أبو البقاء وقد سَبقَهما إلى هذا التقدير ابنُ جريرٍ الطَّبَرِيُّ ، وقدَّره الزَمَخْشَرِيُّ فقال : " مِنَ الَّذِينَ استُحِقَّ عليْهِمُ انتدابُ الأوْلَيَيْنِ منْهُمْ للشَّهادَةِ لاطِّلاعِهِمْ عَلَى حقيقةِ الحَالِ " ، ومِمَّن ذهب إلى ارتفاعِ " الأوْلَيَانِ " بـ " اسْتُحِقَّ " أبو عليٍّ الفارسِيُّ ، ثم منعه ؛ قال : " لأنَّ المُسْتَحَقَّ إنَّما يكُونُ الوصيَّةَ أو شيئاً منها ، وأمَّا الأوليَانِ بالمَيِّتِ ، فلا

يجوزُ أن يُسْتَحَقَّا ، فيُسْنَدَ استُحِقَّ إليهما " ، قلتُ : إنما منع أبو عليٍّ ذلك على ظاهرِ اللفظِ ؛ فإنَّ الأوْلَيَيْنِ لَمْ يستحقَّهما أحدٌ كما ذَكَر ، ولكن يجوز أن يُسْنَدَ " اسْتُحِقَّ " إليهما ؛ بتأويلِ حذف المضافِ المتقدّمِ ، وهذا [الذي] منعه الفارسيُّ ظاهراً هو الذي حمل النَّاس على إضمار ذلك المُضافِ ، وتقديرُ الزمخشريّ بـ " انْتِدَاب الأوْلَيَيْنِ " أحسنُ من تقدير غيره ؛ فإنَّ المعنى يُسَاعِدُهُ ، وأمَّا إضمارُ " الإثْم " فلا يَظْهر إلا بتأويل بعيدٍ .

(275/218)

وأجازَ ابن عطيَّة أن يرتفعَ " الأوْلَيَانِ " بـ " استُحِقَّ " أيضاً ، ولكن ظاهرُ عبارته ؛ أنه لم يُقَدِّر مضافاً ؛ فإنه استشعر بإستشكالِ الفارسيِّ المتقدّمِ ، فاحتالَ في الجواب عنه ، وهذا نَصُّه ، قال ما ملخَّصُه : إنَّه " حُمِلَ " اسْتُحِقَّ " هنا على الاستعارةِ ؛ فإنه ليس استحقاقاً حقيقةً ؛ لقوله : " اسْتَحَقَّا إثْماً " ، وإنما معناه أنَّهم غَلَبُوا على المالِ بحُكْمِ انفرادِ هذا المَيِّت وعدمه ؛ لقرابته أو أهل دينه ؛ فجعل تسوُّرَهُمْ عليه استحقاقاً - مجازاً ، والمعنى : من الجماعة التي غابت ، وكان منْ حَقِّها أنْ تُحْضِرَ وليَّها ، فلمَّا غابَتْ وانفرد هذا الموصِي ، استحقَّت هذه الحالَ ، وهذان الشاهدانِ من غير أهْل الدِّين والولاية ، وأمْرِ الأوْلَيَيْنِ على هذه الجماعة ، فبُنِيَ الفعلُ للمفعولِ على هذا المعنى إيجازاً ، ويُقَوِّي هذا الفرضَ تعدِّي

الفعلِ بـ " عَلَى " لَمَّا كان باقتدارٍ وحَمْلٍ ، هَيَّأَتْهُ الحالُ ، ولا يُقال : اسْتَحَقَّ منه أو فيه إلاَّ في الاسْتِحْقَاقِ الحقيقيِّ على وجهِهِ ، وأمَّا " اسْتَحَقَّ عليْهِ " فالبحَمْلِ والغلبةِ والاستحقاقِ المُسْتَعَارِ " .

انتهى ، فقد أسند " اسْتَحَقَّ " إلى " الأوليان " من غير تقدير مضافٍ متأوِّلاً له بما ذكر ، واحتملتُ طول عبارته ؛ لتتَّضِحَ .

(276/218)

واعلم أنَّ مرفوع " اسْتُحِقَّ " في الأوجهِ المتقدّمة – أعني غيرَ هذا الوجهِ ، وهو إسنادُه إلى " الأوْليانِ " – ضميرٌ يعودُ على ما تقدَّم لفظاً أو سياقاً ، واختلفت عباراتُهم فيه ، فقال الفارسيُّ ، والحُوفيُّ ، وأبو البقاء والزمخشريُّ : إنه ضميرُ الإثْمِ ، والإثمُ قد تقدَّمَ في قوله : " اسْتَحَقَّا إثْماً " ، وقال الفارسيُّ والحُوفِيُّ أيضاً : " اسْتُحِقَّ هو الإيصاءُ أو الوصيَّةُ " قال شهاب الدين : إضمارُ الوصيَّة مُشْكِلٌ ؛ لأنه إذا أُسْنِدَ الفعلُ إلى ضمير المؤنَّثِ مطلقاً ، وَجَبَتِ التاءُ إلاَّ في ضرورة ، ويُونُسُ لا يَخُصُّه بها ، ولا جائزٌ أن يقال أضْمَرَا لفظ الوصيَّة ؛ لأنَّ ذلك حُذِفَ ، والفاعلُ عندهما لا يُحْذَفُ ، وقال النحَّاس مستحْسِناً لإضمارِ الإيصَاءِ : " وهذا أحسنُ ما قِيلَ فيه ؛ لأنَّه لم يُجْعَلْ حرفٌ بدلاً من حرفٍ " ، يعني أنه لا يقول

: إنَّ "عَلَى" بمعنى "فِي"، ولا بمعنى "مِنْ" كما قيل بهما، وسيأتي ذلك - إن شاء الله تعالى -.

وقد جمع الزمخشريُّ غالبَ ما قُلْتُه وحَكَيْتُه من الإعْرَابِ والمعنى بأوجز عبارةٍ، فقال: "ف "آخَرَانِ"، أي: فشَاهِدَانِ آخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الذينَ اسْتُحِقَّ عليهم، أي: استُحِقَّ عليْهِمُ الإثمُ، ومعناه: مِنَ الذين جُنِيَ عليهمْ، وهم أهلُ الميّتِ وعشيرتُهُ والأوليانِ الأحقَّانِ بالشَّهادةِ لقَرَابَتِهِمَا ومَعْرِفَتِهِمَا، وارتفاعُهُمَا على: "هُمَا الأوْلَيَانِ"؛ كأنه قيل: ومَنْ هُمَا؟ فقيل: الأوْلَيَانِ، وقيل: هما بدلٌ من الضَّميرِ في "يَقُومَانِ" أو من "آخَرَانِ"، ويجوزُ أنْ يرتفِعَا بـ "اسْتُحِقَّ"، أي: من الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عليْهِمُ انتدابُ الأوْلَيَيْنِ مِنْهُمْ للشهادة؛ لاطِّلاعهم على حقيقة الحَالِ".

وقوله "عَلَيْهِم": في "عَلَى" ثلاثةُ أوجهٍ:

(277/218)

أحدها: أنها على بابها، قال أبو البقاء: "كقولك: وَجَبَ عليهم الإثْمُ"، وقد تقدَّم عن النحَّاس؛ أنه لمَّا أضْمَرَ الإيصاءَ، بَقَّاها على بابها، واستحْسَنَ ذلك.

والثاني: أنها بمعنى "فِي" أي: استُحِقَّ فيهم الإثمُ، فوقَعَتْ "عَلَى" موقع "فِي" كما تقعُ

"فِي" موقعها ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] أي : على جُذُوعِ ، وكقوله : [الكامل]

2074 - بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ . . .

يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْءَمِ

أي : على سَرْحةٍ ، وقدَّره أبو البقاء فقال : "أي : استُحِقَّ فيهم الوصيَّةُ" .

والثالث : أنها بمعنى "مِنْ" أي : استُحِقَّ مِنْهُمُ الإثْمُ ؛ ومثلُه قولُه تعالى : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ [المطففين : 2] أي : مِنَ الناس ، وقدَّره أبو البقاء فقال : "أي : استُحِقَّ منهم الأَوْلَيَانِ" فحينَ جعلها بمعنى "فِي" قدَّر "اسْتُحِقَّ" مُسْنَداً للوصية ؛ وحين جعلها بمعنى "مِنْ" ، قدَّره مُسْنِداً لـ "الأَوْلَيَانِ" ، وكان لَمَّا ذكر القائمَ مقامَ الفاعلِ ، لم يذكر إلا ضميرَ الإثم و "الأَوْلَيَانِ" ، وأجاز بعضهم أنْ يُسْنَدَ "اسْتُحِقَّ" إلى ضمير المالِ ، أي : اسْتُحِقَّ عليْهِمُ المالُ المَوْرُوثُ ، وهو قريبٌ .

فقد تقرَّر أنَّ في مرفوعِ "اسْتُحِقَّ" خمسة أوجه :

أحدُها : "الأَوْلَيَانِ" .

والثاني : ضميرُ الإيصاء .

والثالث : ضميرُ الوصية ، وهو في المعنى كالذي قبله وتقدَّم إشكالُه .

والرابع : أنه ضميرُ الإثْمِ .

والخامس : أنه ضميرُ المالِ ، ولم أرَهُمْ أجازوا أن يكون " عَلَيْهِم " هو القائمَ مقامَ الفاعلِ ؛ نحو : ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم ﴾ [الفاتحة : 7] كأنهم لم يَرَوْا فيه فائدةً .

(278/218)

وأمَّا قراءةُ حَفْص ف " الأوْلَيَانِ " مرفوعٌ بـ " اسْتَحَقَّ " ومفعولُه محذوفٌ ، قدَّره بعضهم " وصِيَّتَهُمَا " ، وقدَّره الزمخشريُّ بـ " أن يجرِّدُوهُمَا للقيامِ بالشَّهَادة " ؛ فإنه قال : " معناهُ من الورثةِ الذين استَحَقَّ عليْهِمُ الأوْلَيَانِ من بينهم بالشهادة : أن يجرِّدُوهُمَا للقيامِ بالشَّهَادة ، ويُظْهِرُوا بها كذب الكاذبينَ " ، وقال ابنُ عطيَّة : " الأوْلَيَانِ " رفعٌ بـ " اسْتَحَقَّ " ، وذلك أن يكون المعنى : مِنَ الَّذِينَ استحقَّ عليْهِمْ مالَهُمْ وتركَتَهُمْ شَاهِدَا الزُّورِ ، فَسُمِّيَا أوْلَيَيْنِ ، أي : صَيَّرَهُمَا عَدَمُ الناس أوْلَيَيْنِ بالمَيِّت وتَرِكَتِهِ ، فَخَانَا ، وجَارَا فيها ، أو يكونُ المعنى : من الذينَ حَقَّ عليهم أنْ يكون الأوليانِ منهم ، فاستَحَقَّ بمعنى : حَقَّ ، كاسْتَعْجَبَ وعَجِبَ ، أو يكون استحقَّ بمعنى : سَعَى واستوجب ، فالمعنى : من القوم الذين حَضَرَ أوْلَيَانِ مِنْهُمْ ، فاستَحَقَّا عليهم ، أي : استحقَّا لهُمْ وسعيا فيه ، واستوجَبَاهُ بأيْمَانِهِمَا وقُرْبَانِهِمَا " ، قال أبو حيان – بعد أنْ حكَى عن الزمخشريِّ ، وأبي محمَّدٍ ما قدَّمْتُه عنهما – : " وقال بعضُهم : المفعولُ محذوفٌ ، تقديرُه : الذين استحقَّ عليهمُ الأوليانِ وصيَّتَهُمَا " ، قال شهاب الدين :

وكذا هو محذوفٌ أيضاً في قولي الزمخشريِّ وابن عطيَّة ، وقد بَيّنْتُهما ما هما ، فهو عند الزمخشريِّ قوله : " أنْ يُجَرِّدُوهما للقيامِ بالشَّهادة " ، وعند ابن عطيَّة هو قوله : " مالَهُمْ وتَرِكَتَهُمْ " ، فقوله : " وقال بعضهم : المفعولُ محذوفٌ " يُوهِمُ أنه لم يَدْرِ أنَّه محذوفٌ فيما تقدَّم أيضاً ، وممن ذهبَ إلى أن " اسْتَحَقَّ " بمعنى " حَقَّ " المجرَّدِ – الواحديُّ فإنه قال : " واسْتَحَقَّ هنا بمعنى حَقَّ ، أي : وَجَبَ ، والمعنى : فآخَرَانِ مِنَ الذين وجب عليهمُ الإيصَاءُ

(279/218)

بتوصيتِهِ بينهم ، وهم وَرَثَتُه " وهذا التفسيرُ الذي ذكره الواحديُّ أوضحُ من المعنى الذي ذكره أبو محمَّد على هذا الوجه ، وهو ظاهرٌ .

وأمَّا قراءةُ حمزة وأبي بَكْرٍ ، فمرفوع " استُحِقَّ " ضميرُ الإيصَاءِ ، أو الوصيةِ ، أو المالِ ، أو الإثمِ ، حَسْبما تقدَّم ، وأمَّا " الأوَّلَيْنِ " فجمعُ " أوَّل " المقابل لـ " آخِر " ، وفيه أربعةُ أوجه :

أحدها : أنه مجرورٌ صفةً لـ " الَّذين " .

الثاني : أنه بدلٌ منه ، وهو قليلٌ ؛ لكونه مشتقًّا .

الثالث : أنه بدلٌ من الضميرِ في " عَلَيهم " ، وحسَّنَه هنا ، وإن كان مشتقًّا عدمُ صلاحيَةِ ما

قبله للوصف ، نقل هذَيْن الوجهَيْن الأخيرَيْنِ مكيٌّ .

الرابع : أنه منصوبٌ على المَدْح ، ذكره الزمخشريُّ ، قال : " ومعنى الأَوَّلِيَّةِ التقدُّمُ على الأجَانب في الشَّهَادة ؛ لكونهم أحَقَّ بها " ، وإنما فَسَّر الأَوَّلِيَّةَ بالتقدُّمِ على الأجَانِب ؛ جَرْياً على ما مَرَّ في تفسيره : أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ أَنَّهُمَا من الأجانب لا من الكُفَّار

وقال الواحديُّ : " وتقديرُه من الأَوَّلِينَ الَّذينَ اسْتُحِقَّ عليْهِمُ الإيصَاءُ أو الإثْمُ ، وإنما قيل لهم " الأَوَّلِينَ " من حيث كانوا أَوَّلِينَ في الذِّكْرِ ؛ ألا ترى أنه قد تقدَّم : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ وكذلك ﴿ اثنان ذَوَا عَدْلٍ ﴾ ذُكِرَا في اللفظ قبل قوله : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ ، وكان ابنُ عباسٍ يختارُ هذه القراءة ، ويقول : " أرأيتَ إنْ كان الأَوْليان صغيرَيْنِ ، كيف يَقُومَانِ مقامهما " ؟ أراد : أنهما إذا كانا صغيرَيْنِ لم يقُومَا في اليمين مقامَ الحَانِثَيْنِ ، ونحا ابن عطية هذا المنحَى قال : " معناه : من القوْمِ الذين استُحِقَّ عليهم أمرُهُمْ ، أي : غُلِبُوا عليه ، ثم وصفَهم بأنهم أَوَّلون ، أي : في الذكْرِ في هذه الآية " .

(280/218)

وأمَّا قراءةُ الحَسَن فالأَوَّلانِ مرفُوعَانِ بـ " استَحَقَّ " فإنه يقرؤهُ مبنيًّا للفاعل ، قال الزمخشريُّ : " ويَحْتَجُّ به مَنْ يَرَى ردَّ اليمينِ على المُدَّعِي " ، ولم يبيِّن مَنْ هما الأَوَّلانِ ، والمرادُ بهما

الاثْنَانِ المتقدّمَانِ في الذكْرِ ؛ وهذه القراءةُ كقراءةِ حَفْصٍ ، فيُقَدَّرُ فيها ما ذُكِرَ ، ثم مما يليقُ من تقديرِ المفْعُولِ .

وأما قراءة ابن سيرينَ ، فانتصابُها على المَدْحِ ، ولا يجوزُ فيها الجَرُّ ؛ لأنه : إمَّا على البدل ، وإمَّا على الوصْف بجَمْعٍ ، والأوْلَيَيْنِ في قراءته مثنًّى ، فتعذر فيها ذلك ، وأمَّا قراءة " الأوْلَيْنَ " كالأعلَيْنَ ، فحكاها أبو البقاء قراءةً شاذَّةً لم يَعْزُها ، قال : " ويُقْرَأ " الأوْلَيْنَ " جمع الأوْلَى ، وإعرابه كإعراب الأوَّلِينَ " يعني في قراءة حمزة ، وقد تقدَّم أن فيها أربعةَ أوجه ، وهي جارية هنا .

قوله : " فَيُقْسِمَانِ " نسقٌ على " يَقُومَانِ " والسببيَّةُ ظاهرةٌ ، و " لشَهَادَتُنَا أحَقُّ " : هذه الجملة جوابُ القسمِ في قوله : " فَيُقْسِمَانِ " .

فصل في معنى الآية

(281/218)

ومعنى الآية : فإن حصل العُثُور ، والوقوف على أنَّهُمَا أتيا بخِيَانة ، استَحَقَّا الإثم بسبَبِ اليَمِينَ الكَاذِبَة ، أو خِيَانَة في المَالِ ، قام في اليَمِين مقَامَهُما رَجُلان من قرَابَة الميت ، فَيَحْلِفَان باللَّهِ لقد ظَهَرْنا على خَبَرِ الذِّمِّيَّين ، وكذبهما وتَبْدِيلهما ، وما اعْتَدَيْنا في ذلك وما كَذَبْنَا ،

وهو المُراد بقوله : ﴿ فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم ﴾ ، والمُرَادُ به موالِي الميّتِ ، قال ابنُ الخطيب : وقد أكثر النَّاسُ في أنَّهُ لِمَ وصف موالِي الميّتِ بهذا الوَصْفِ ؟ والأصَحُّ عندي فيه وَجْهٌ : وهو أنَّهُمْ إنَّما وُصِفُوا بذلك ؛ لأنَّهُ لَمَّا أخَذَ منهم مَالَهُمْ ، فَقَدْ استَحَقَّ عليهم مَالَهُمْ ، فإن أخَذَ مال غيره ، فقد حاول أن يكون تَعَلُّقُهُ بذلك المَالِ مُسْتَعْلِياً على تَعَلُّق مالكه به ، فصحَّ أن يوصف المَالِكُ بأنَّه قد استَحَقَّ عليه ذلك المال ، وإنما وَصَفَهُمَا بأنَّهُما أولَيَانِ لِوَجْهَيْن :

الأول : معنى الأوليان : الأقْرَبان إلى الميّت .

(282/218)

الثاني : يَجُوزُ أن يكُون المَعْنَى الأوليان باليَمينِ ؛ لأن الوصِيَّيْن قد ادّعَيَا أنَّ الميّت قد باعَ الإنَاء الفِضَّة ، فانْتَقَلَتِ اليَمِينُ إلى موالي الميّت ؛ لأنَّ الوَصِيَّيْن قد ادّعَيَا أنَّ مُورثَهُمَا باعَ الإنَاء ، وهما أنْكَرَا ذلك ، فكان اليَمِينُ حقًّا لهما ؛ لأنَّ الوَصِيَّ إن أخَذَ شيئاً من مال الميّت ، وقال : إنه أوْصَى لِي به حَلَفَ لِلْوَارِثِ إذا أنْكَرَ ذلك ، وكذا لو ادّعَى رجُلٌ سِلْعَةً في يدِ رجلٍ فاعْتَرَفَ ، ثمَّ ادَّعى أنَّهُ اشْتَرَاها من المدَّعِي ، حلف المُدَّعِي أنَّه لم يَبِعْها منه ، وهذا كما لو أنَّ إنْسَاناً أقَرَّ لآخر بِدَيْنٍ ، ثم ادّعى أنه قَضَاهُ ، حُكِمَ بِرَدّ اليمينِ إلى الذي ادّعى الدَّيْن

أوّلاً ؛ لأنَّه صارَ مُدَّعىً عليه أنه قد اسْتَوْفَاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 586.578 ﴾

(283/218)

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تم هذا على هذا الوجه الغريب ، بين سبحانه سرَّه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر المحكم المرتب هذا الترتيب بالأيمان وغيرها ﴿ أدنى ﴾ أي أقرب ﴿ أن ﴾ أي إلى أن ﴿ يأتوا ﴾ أي الذين شهدوا أولاً ﴿ بالشهادة ﴾ أي الواقعة في نفس الأمر ﴿ على وجهها ﴾ من غير أدنى ميل بسبب أن يخافوا من الحنث عند الله بعد هذا التغليظ ﴿ أو يخافوا ﴾ إن لم يمنعهم الخوف من الله ﴿ أن ترد ﴾ أي تثنى وتعاد ﴿ أيمان ﴾ أي من الورثة ﴿ بعد أيمانهم ﴾ للعثور على ريبة فيصيروا بافتضاحهم مثلاً للناس ، قال الشافعي : وليس في هذا رد اليمين ، فما كانت يمين الداريين على ما ادعى الورثة من الخيانة ، ويمين ورثة الميت

على ما ادعى الداريان مما وجد في أيديهما وأقرا أنه مال الميت وأنه صار لهما من قِبَله ، فلم تقبل دعواهما بلا بينة ، فأحلف وارثاه ، قال : وإذا كان هذا كما وصفت فليست الآية ناسخة ولا منسوخة لأمر الله بإشهاد ذوي عدل ومن نرضى من الشهداء ، هذا ما اقتضى إيلاؤها لما قبلها ، وقد نزعها إلى مجموع هذه السورة مَنازع منها ما تقدم من ذكر القتل الذي هو من أنواع الموت عند قصة بني آدم وما بعدها ، ثم تعقيب ذلك بالجهاد الذي هو من أسباب الموت ، وقوله تعالى : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ [المائدة : 45] ، ثم ذكره أيضاً في قوله تعالى : ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ [المائدة : 54] وقد جرت السنة الإلهية بذكر الوصية عقب مثل ذلك في البقرة ، ولم يذكر عقب واحدة من الآيات المذكورة لزيادتها على آية البقرة بمنازع منها الحلف ، فناسب كونها بعد آية الأيمان ، ومنها تغليظ الحلف والخروج به عما يشاكله من القسم على المال بكونه في زمان مخصوص بعد عبادة مخصوصة ، فناسب ذكرها بعد تغليظ أمر الصيد في حال مخصوص وهو الإحرام والخروج به عن أشكاله من الأحوال وبعد تغليظ جزائه والخروج به عن أشكاله من الكفارات وتغليظ أمر المكان المخصوص وهو الكعبة والخروج بها عن أشكالها من

البيوت ، وكذا تغليظ الزمان المخصوص وهو الشهر الحرام والخروج به عن أشكاله من الأزمنة .

وكل ذلك لقيام أمر الناس وإصلاح أحوالهم ، وهكذا آية الوصية وما خرج من أحكامها عن أشكاله كله لقيام الأمور على السداد وإصلاح المعاش والمعاد ، وهي ملتفتة إلى أول السورة إذا هي من أعظم العهود ، والوفاءُ بها من أصعب الوفاء ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ [المائدة : 2] وإلى قوله تعالى : ﴿ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ [المائدة : 8] انظر إلى ختمها بقوله : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ وإلى كون هذه في سياق الإعلام بأن الله عالم بالخفيات ، وقوله : - عطفاً على ما تقديره : فالزموا ما أمرتكم به وأرشدتكم إليه تفلحوا : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي ذا الجلال والإكرام إلى آخرها - ملتفت إلى قوله : ﴿ وميثاقه الذي واثقكم به ﴾ [المائدة : 7] - الأية ، أي خافوا الله خوفاً عظيماً يحملكم على أن تجعلوا بينكم وبين سخطه وقاية لئلا تحلفوا كاذبين أو تخونوا أدنى خيانة ﴿ واسمعو ﴾ أي الموعظة سمع إجابة وقبول ذاكرين لقولكم ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ [البقرة : 285] فإن الله يهدي المتمسكين بالميثاق ﴿ والله ﴾ أي الذي له الكمال كله وتمام الحكمة وكمال العزة والسطوة ﴿ لا يهدي القوم ﴾ أي لا يخلق الهداية في قلوب الذين لهم قدرة على ما يحاولونه

﴿ الفاسقين ﴾ أي الذين هم خارجون ، أي من عادتهم ذلك على وجه الرسوخ ، فهم أبداً غير متقيدين بقيد ولا منضبطين بدائرة عقد ولا عهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 559.560 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ ذلك أدنى أَن يَأْتُواْ بالشهادة على وَجْهِهَا أَوْ يخافوا أَن تُرَدَّ أيمان بَعْدَ أيمانهم ﴾ .

(285/218)

والمعنى ذلك الحكم الذي ذكرناه والطريق الذي شرعناه أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، وأن يأتوا بالشهادة لا على وجهها ، ولكنهم يخافون أن يحلفوا على ما ذكروه لخوفهم من أن ترد أيمان على الورثة بعد أيمانهم ، فيظهر كذبهم ويفتضحون فيما بين الناس .

ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله واسمعوا والله لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾

والمعنى اتقوا الله أن تخونوا في الأمانات واسمعوا مواعظ الله أي اعملوا بها وأطيعوا الله فيها والله لا يهدي القوم الفاسقين ، وهو تهديد ووعيد لمن خالف حكم الله وأوامره فهذا هو القول في تفسير هذه الآية التي اتفق المفسرون على أنها في غاية الصعوبة إعراباً ونظماً

وحكماً ، وروى الواحدي رحمه الله في "البسيط" عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام .

والحكم الذي ذكرناه في هذه الآية منسوخ عند أكثر الفقهاء والله أعلم بأسرار كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 100 . 101 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى ﴾ أي : ذلك الذي حكمنا به من ردّ اليمين ، أَقرب إِلى إِتيان أهل الذّمّة بالشهادة على وجهها ، أي : على ما كانت ، وأقرب أن يخافوا أن تردَّ أيمان أولياء الميت بعد أيمانهم ، فيحلفون على خيانتهم ، فيفتضحوا ، ويغرموا ، فلا يحلفون كاذبين إِذا خافوا ذلك .

﴿ واتقوا الله ﴾ أن تحلفوا كاذبين ، أو تخونوا أمانةً ، واسمعوا الموعظة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(286/218)

وقال ابن عطية :

الإشارة ب ﴿ ذلك ﴾ هي إلى جميع ما حد الله قبل من حبس الشاهدين من بعد الصلاة

لليمين ، ثم إن عثر على جورهما ردت اليمين وغرما . فذلك كله يقرب اعتدال هذا الصنف فيما عسى أن ينزل من النوازل ، لأنهم يخافون التحليف المغلظ بعقب الصلاة ثم يخافون الفضيحة ورد اليمين ، هذا قول ابن عباس رحمه الله ، ويظهر من كلام السدي أن الإشارة ب ﴿ ذلك ﴾ إنما هي إلى الحبس من بعد الصلاة فقط ، ثم يجيء قوله تعالى : ﴿ أو يخافون أن ترد أيمان ﴾ بإزاء ﴿ فإن عثر ﴾ [المائدة : 107] الآية ، وجمع الضمير في ﴿ يأتوا . . . أو يخافوا ﴾ إذ المراد صنف ونوع من الناس ، و ﴿ أو ﴾ في هذه الآية على تأويل السدي بمنزلة قولك تجيئي يا زيداً أو تسخطني كأنك تريد وإلا أسخطتني فكذلك معنى الآية ، ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها وإلا خافوا رد الإيمان ، وأما على مذهب ابن عباس فالمعنى ذلك الحكم كله أقرب إلى أن يأتوا وأقرب إلى أن يخافوا ، وقوله تعالى : ﴿ على وجهها ﴾ معناه على جهتها القويمة التي لم تبدل ولا حرفت ، ثم أمر تعالى بالتقوى التي هي الاعتصام بالله وبالسمع لهذه الأمور المنجية ، وأخبر أنه لا يهدي القوم الفاسقين ، من حيث هم فاسقون ، وإلا فهو تعالى يهديهم إذا تابوا ، ويحتمل أن يكون لفظ ﴿ الفاسقين ﴾ عاماً والمراد الخصوص فيمن لا يتوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تردّ أيمان بعد أيمانهم ﴾ أي ذلك الحكم السابق ولما كان الشاهدان لهما حالتان : حالة يرتاب فيها إذا شهدا ، فإذ ذاك يحبسان بعد الصلاة ويحلفان اليمين المشروعة في الآية قوبلت هذه الحالة بقوله : ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أي على ما شهدا حقيقة دون إنكار ولا تحريف ولا كذب ، وحالة يطلع فيها إذا شهدا على إثمهما بالشهادة وكذبهما في الحلف ، فإذ ذاك لا يلتفت إلى أيمانهم وترد على شهود آخرين فعمل بأيمانهم وذلك بعد حلفهم وافتضاحهم فيها بظهور كذبهم قوبلت هذه الحالة بقوله : ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ وكان العطف بأو لأن الشاهدين إذا لم يتضح صدقهما لا يخلوان من إحدى هاتين الحالتين إما حصول ريبة في شهادتهما وإما الاطلاع على خيانتهما فلذلك كان العطف بأو الموضوعة لأحد الشيئين أو الأشياء فالمعنى ما تقدّم ذكره من الأحكام أقرب إلى حصول إقامة الشهادة على ما ينبغي أو خوف رد الأيمان إلى غيرهم فتسقط أيمانهم ولا تقبل .

قال ابن عباس ذلك كله يقرب اعتدال هذا الصنف فيما عسى أن ينزل من النوازل لأنهم يخافون التحليف المغلظ بعقب الصلاة ثم يخافون الفضيحة ورد اليمين انتهى .

وقيل ذلك إشارة إلى تحليف الشاهدين في جمع من الناس .

وقيل إلى الحبس بعد الصلاة فقط .

قال ابن عطية ويظهر هذا من كلام السدّي وأو على هذا التأويل بمنزلة قولك تحبني يا زيد أو تسخطني كأنك قلت وإلا أسخطتني فكذلك معنى الآية ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها وإلا خافوا رد الأيمان ﴾ وأما على مذهب ابن عباس فالمعنى ذلك الحكم كله أقرب إلى أن يأتوا أو أقرب إلى أن يخافوا انتهى .

(288/218)

فتلخص أن ﴿ أو ﴾ تكون على بابها أو تكون بمعنى الواو ، و ﴿ يخافوا ﴾ معطوف في هذين الوجهين على ﴿ يأتوا ﴾ أو يكون بمعنى إلى أن كقولك لألزمنك أو تقضيني حقي وهي التي عبر عنها ابن عطية بتلك العبارة السابقة من تقديرها بشرط محذوف فعله وجزاؤه ، وإذا كانت بمعنى إلى أن فهي عند البصريين على بابها من كونها لأحد الشيئين . إلا أن العطف بها لا يكون على الفعل الذي هو يأتوا لكنه يكون على مصدر متوهم وذلك على ما تقرر في علم العربية ، وجمع الضمير في يأتوا وما بعده وإن كان السابق مثنى فقيل هو عائد على الشاهدين باعتبار الصنف والنوع ، وقيل لا يعود إلى كليهما بخصوصيتهما بل إلى الناس الشهود والتقدير ذلك أدنى أن يحذر الناس الخيانة فيشهدوا بالحق خوف الفضيحة في رد اليمين على المدعي .

﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾ أي احذروا عقاب الله تعالى واتخذوا وقاية منه بأن لا تخونوا ولا تحلفوا به كاذبين وأدوا الأمانة إلى أهلها واسمعوا سماع إجابة وقبول .

﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ إشارة إلى من حرّف الشهادة أنه فاسق خارج عن طاعة الله فالله لا يهديه إلا إذا تاب ، فاللفظ عام والمعنى اشتراط انتفاء التوبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(289/218)

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن ما ذُكر مستتبعٌ للمنافع واردٌ على مقتضى الحِكمة والمصلحة ، أي الحُكم الذي تقدم تفصيلُه ﴿ أدنى أَن يَأْتُواْ بالشهادة على وَجْهِهَا ﴾ أي أقربُ أن يؤدِّيَ الشهودُ الشهادةَ عن وجهها الذي تحمَّلوها عليه من غير تحريفٍ ولا خيانة خوفاً من العذاب الأخروي ، وهذه كما ترى حكمةُ شَرْعيةِ التحليفِ بالتغليظ المذكور ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يخافوا أَن تُرَدَّ أيمان بَعْدَ أيمانهم ﴾ بيانٌ لِحكمة شرعيةِ ردِّ اليمين على الورثة ، معطوفٌ على مقدَّرٍ يُنبىء عنه المقامُ كأنه قيل : ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذابَ الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاحِ

على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعملِ بأَيمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية إليه ، فأيُّ الخوفين وقع حصل المقصِدُ الذي هو الإتيانُ بالشهادة على وجهها . وقيل : هو عطفٌ على (يأتوا) على معنى أن ذلك أقربُ إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو إلى أن يخافوا الافتضاحَ برد اليمين على الورثة فلا يحلِفوا على موجَب شهادتِهم إنْ لم يأتوا بها على وجهها ، فيظهرُ كذبُهم بنكولهم ، وأما ما قيل من أن المعنى أن ذلك أقربُ إلى أحد الأمرين اللذين أيُّهما وقع كان فيه الصلاحُ ، وهو أداءُ الشهادة على الصدق ، والامتناعُ عن أدائها على الكذب ، فيأباه المقام ، إذ لا تعلّق له بالحادثة أصلاً ضرورةَ أن الشاهدَ مضطرٌّ فيها إلى الجواب ، فالامتناعُ عن الشهادة الكاذبة مستلزمٌ للإتيان بالصادقة قطعاً ، فليس هناك أمران أيُّهما وقع كان فيه الصلاحُ حتى يَتوسَّطَ بينهما كلمةُ (أو) وإنما يتأتى ذلك في شهودٍ لم يُتَّهموا بخيانة ، على أن إضافةَ الامتناع عن الشهادة الكاذبة إلى خوف رد اليمين على الورثة ونسبةَ الإتيانِ بالصادقة إلى غيره مع أن ما يقتضي أحدُهما يقتضي الآخَرُ لا محالة تحكُّمٌ بحْتٌ فتأمل ﴿ واتقوا الله ﴾ في مخالفة

(290/218)

أحكامه التي من جملتها هذا الحكمُ ﴿ واسمعوا ﴾ ما تؤمرون به كائناً ما كان سمعَ طاعةٍ وقَبول ﴿ والله لاَيَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ الخارجين عن الطاعة ، أي فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم فاسقين (والله لا يهدي القوم الفاسقين) أي إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(291/218)

وقال الآلوسى :

﴿ ذلك ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن ما ذكر مستتبع للمنافع وارد على مقتضى الحكمة و(الإشارة إلى) الحكم السابق تفصيله .

وقيل : إلى تحليف الشاهدين ، وقيل : إلى الحبس بعد الصلاة ﴿ أدنى أَن يَأْتُواْ بالشهادة على وَجْهِهَا ﴾ أي أقرب إلى أن يؤدي الشهود الشهادة على حقيقتها من غير تغيير لها خوفاً من العذاب الأخروي ، وهذه حكمة التحليف الذي تقدم أولاً ، والجار الأول متعلق بيأتوا والثاني محذوف وقع حالاً من الشهادة ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يخافوا أَن تُرَدَّ أيمان ﴾ أي إلى الورثة فيحلفوا ﴿ بَعْدَ إيمانهم ﴾ التي حلفوها عطف على مقدر ينبىء عنه المقام كأنه قيل : ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة محققة ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة

المحرمة في سائر الأديان أو يخافوا أن ترد الأيمان إلى الورثة فيحلفوا ويأخذوا ما في أيديهم فيخجلوا من ذلك على رؤس الأشهاد فينزجروا عن الخيانة ، وهو بيان لحكمة شرعية قيام الآخرين فأي هذين الخوفين وقع حصل المقصد الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها ، وقيل : إنه عطف على ﴿ يَأْتُواْ ﴾ أي ذلك الحكم الذي ذكرناه أقرب أن يأتوا بالشهادة على وجهها مما كنتم تفعلونه وأقرب إلى خوف الفضيحة ، وجعل الشهاب هذا العطف على حد قوله :

علفتها تبناً وماء بارداً . . .

وجوز السمين كون أو بمعنى الواو كما جوز جعلها لأحد الشيئين على ما هو الأصل فيها فتدبر وجمع ضمير ﴿ يَأْتُواْ ﴾ و ﴿ يخافوا ﴾ على ما قيل لأن المراد ما يعم الشاهدين المذكورين وغيرهما من بقية الناس ، والظرف بعد متعلق بترد كما هو الظاهر .

وجوز السمين وهو ضعيف أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع صفة لأيمان .

﴿ واتقوا الله ﴾ في مخالفة أحكامه التي من جملتها ما ذكر .

(292/218)

والجملة على ما قيل عطف على مقدر أي احفظوا أحكام الله سبحانه واتقوا ﴿ واسمعوا ﴾ سمع إجابة وقبول جميع ما تؤمرون به ﴿ والله لاَيَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ تذييل لما تقدم ، والمراد فإن لم تتقوا وتسمعوا كنتم فاسقين خارجين عن الطاعة والله تعالى لا يهدي القوم الخارجين عن طاعته إلى ما ينفعهم أو إلى طريق الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ ذلك أدنى أَن يَأْتُواْ بالشهادة على وَجْهِهَا ﴾ أي ذلك البيان الذي قدمه الله سبحانه ، في هذه القصة وعرفنا كيف يصنع من أراد الوصية في السفر ؟ ولم يكن عنده أحد من أهله ، وعشيرته ، وعنده كفار ، أدنى أي أقرب إلى أن يؤدي الشهود المتحملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها ، فلا يحرّفوا ولا يبدّلوا ، ولا يخونوا وهذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر المنفعة والفائدة ، في هذا الحكم الذي شرعه الله في هذا الموضع من كتابه ؛ فالضمير في ﴿ يَأْتُواْ ﴾ عائد إلى شهود الوصية من الكفار .

وقيل : إنه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم .

والمراد تحذيرهم من الخيانة ، وأمرهم بأن يشهدوا بالحق .

قوله : ﴿ أَوْ يخافوا أَن تُرَدَّ أيمان بَعْدَ أيمانهم ﴾ أي تردّ على الورثة فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية فيفتضح حينئذ شهود الوصية ، وهو معطوف على قوله : ﴿ أَن

يَأْتُواْ ﴾ فتكون الفائدة في شرع الله سبحانه لهذا الحكم هي أحد الأمرين : إما احتراز شهود الوصية عن الكذب والخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها ، أو يخافوا الافتضاح إذا ردّت الأيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سبباً لتأدية شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب ولا خيانة .

(293/218)

وقيل : إن ﴿ يخافوا ﴾ معطوف على مقدّر بعد الجملة الأولى ، والتقدير : ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة ، أو يخافوا الافتضاح بردّ اليمين ، فأيّ الخوفين وقع حصل المقصود ﴿ واتقوا الله ﴾ في مخالفة أحكامه ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ الخارجين عن طاعته بأيّ ذنب ، ومنه الكذب في اليمين أو الشهادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والمشار إليه في قوله : "ذلك أدنى" إلى المذكور من الحكم من قوله ﴿ تحبسوهما من بعد الصلاة ﴾ إلى قوله إنَّا إذن لمنَ الظالمين .

و ﴿ أدنى ﴾ بمعنى أقرب ، والقرب هنا مجاز في قرب العلم وهو الظنّ ، أي أقوى إلى الظنّ

بالصدق .

وضمير ﴿ يأتوا ﴾ عائد إلى "الشهداء" وهم : الآخران من غيركم ، والآخران اللذان يقومان مقامهما ، أي أن يأتي كلّ واحد منهم .

فجمع الضمير على إرادة التوزيع .

والمعنى أنّ ما شرع الله من التوثيق والضبط ، ومن ردّ الشهادة عند العثور على الريبة أرجى إلى الظنّ بحصول الصدق لكثرة ما ضبط على كلا الفريقين ممّا ينفي الغفلة والتساهل ، بله الزور والجور مع توقّي سوء السمعة .

ومعنى ﴿ أن يأتوا بالشهادة ﴾ : أن يؤدّوا الشهادة .

جعل أداؤها والإخبار بها كالإتيان بشيء من مكان .

ومعنى قوله ﴿ على وجهها ﴾ ، أي على سنّتها وما هو مقوّم تمامها وكمالها ، فاسم الوجه في مثل هذا مستعار لأحسن ما في الشيء وأكمله تشبيهاً بوجه الإنسان ، إذ هو العضو الذي يعرف به المرء ويتميز عن غيره .

ولمّا أريد منه معنى الاستعارة لهذا المعنى ، وشاع هذا المعنى في كلامهم ، قالوا : جاء بالشيء الفلاني على وجهه ، فجعلوا الشيء مأتيّاً به ، ووصفوه بأنه أتي به متمكّناً من وجهه ، أي من كمال أحواله .

فحرف (على) للاستعلاء المجازي المراد منه التمكّن ، مثل ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ [البقرة : 5] .

(294/218)

والجارّ والمجرور في موضع الحال من ﴿ الشهادة ﴾ ، وصار ذلك قرينة على أنّ المراد من الوجه غير معناه الحقيقي .

وسنّة الشهادة وكمالها هو صدقها والتثبّت فيها والتنبّه لما يغفل عنه من مختلف الأحوال التي قد يستخفّ بها في الحال وتكون للغفلة عنها عواقب تضيّع الحقوق ، أي ذلك يعلّمهم وجه التثبّت في التحمّل والأداء وتوخّي الصدق ، وهو يدخل في قاعدة لزوم صفة اليقظة للشاهد .

وفي الآية إيماء إلى حكمة مشروعية الإعذاء في الشهادة بالطعن أو المعارضة ، فإنّ في ذلك ما يحمل شهود الشهادة على التثبّت في مطابقة شهادتهم ، للواقع لأنّ المعارضة والإعذار يكشفان عن الحقّ .

وقوله ﴿ أو يخافوا أن تردّ أيمان بعد أيمانهم ﴾ عطف على قوله ﴿ أن يأتوا ﴾ باعتبار ما تعلّق به من المجرورات ، وذلك لأنّ جملة ﴿ يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أفادت الإتيان

بها صادقة لا نقصان فيها بباعث من أنفس الشهود ، ولذلك قدّرناه بمعنى أن يعلموا كيف تكون الشهادة الصادقة .

فأفادت الجملة المعطوف عليها إيجاد وازع للشهود من أنفسهم ، وأفادت الجملة المعطوفة وازعاً هو توقّع ظهور كذبهم .

ومعنى ﴿ أن تردّ أيمان ﴾ أن تُرَجَّع أيمان إلى ورثة الموصي بعد أيمان الشهيدين .

فالردّ هنا مجاز في الانتقال ، مثل قولهم : قلب عليه اليمين ، فيعيَّروا به بين الناس ؛ فحرف (أوْ) للتقسيم ، وهو تقسيم يفيد تفصيل ما أجمله الإشارة في قوله : ﴿ ذلك أدنى ﴾ الخ . . .

وجمع ﴿ الأيمان ﴾ باعتبار عموم حكم الآية لسائر قضايا الوصايا التي من جنسها ، على أنّ العرب تعدل عن التثنية كثيراً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ [التحريم : 4]

وذيّل هذا الحكم الجليل بموعظة جميع الأمّة فقال : ﴿ واتّقوا الله ﴾ الآية .

وقوله ﴿ واسمعوا ﴾ أمر بالسمع المستعمل في الطاعة مجازاً ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ في هذه السورة (7) .

وقوله ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ تحريض على التقوى والطاعة لله فيما أمر ونهى ، وتحذير من مخالفة ذلك ، لأنّ في اتّباع أمر الله هُدى وفي الإعراض فسقاً .

﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي المعرضين عن أمر الله ، فإنّ ذلك لا يستهان به لأنّه يؤدّي إلى الرين على القلب فلا ينفذ إليه الهدى من بعدُ فلا تكونُوهم وكونوا من المهتدين .

هذا تفسير الآيات توخّيتُ فيه أوضح المعاني وأوفقها بالشريعة ، وأطلت في بيان ذلك لإزالة ما غمض من المعاني تحت إيجازها البليغ .

وقد نقل الطيبي عن الزجّاج أنّ هذه الآية من أشكل ما في القرآن من الإعراب .

وقال الفخر : رَوَى الواحدي عن عمر : هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام .

وقال ابن عطية عن مكّي بن أبي طالب : هذه الآيات عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعراباً ومعنى وحكماً .

قال ابن عطية : وهذا كلام من لم يقع له الثلج في تفسيرها .

وذلك بيّن من كتابه .

ولقصد استيفاء معاني الآيات متتابعة تجنّبت التعرّض لما تفيده من الأحكام واختلاف علماء الإسلام فيها في أثناء تفسيرها .

وأخّرت ذلك إلى هذا الموضع حين انتهيت من تفسير معانيها .

وقد اشتملت على أصلين : أحدهما الأمر بالإشهاد على الوصية ، وثانيهما فصل القضاء في قضية تميم الداري وعدي بن بدّاء مع أولياء بديل بن أبي مريم .

فالأصل الأول : من قوله تعالى : ﴿ شهادة بينكم ﴾ إلى قوله ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ .

والأصل الثاني : من قوله : ﴿ فإن عثر على أنّهما استحقّا إثماً ﴾ إلى قوله ﴿ بعد أيمانهم ﴾ .

ويحصل من ذلك معرفة وجه القضاء في أمثال تلك القضية ممّا يتّهم فيه الشهود .

وقوله : ﴿ شهادة بينكم ﴾ الآية بيان لكيفية الشهادة ، وهو يتضمّن الأمر بها ، ولكن عدل عن ذكر الأمر لأنّ الناس معتادون باستحفاظ وصاياهم عند محلّ ثقتهم .

(296/218)

وأهمّ الأحكام التي تؤخذ من الآية ثلاثة : أحدها : استشهاد غير المسلمين في حقوق المسلمين ، على رأي من جعله المراد من قوله ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ .

وثانيها : تحليف الشاهد على أنّه صادق في شهادته .

وثالثها : تغليظ اليمين بالزمان .

فأمّا الحكم الأول : فقد دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ .

وقد بيّنا أنّ الأظهر أنّ الغيرية غيرية في الدين .

وقد اختلف في قبول شهادة غير المسلمين في القضايا الجارية بين المسلمين ؛ فذهب الجمهور إلى أنّ حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ [الطلاق : 2] وقوله ﴿ ممّن ترْضَوْن من الشهداء ﴾ [البقرة : 282] وهذا قول مالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي .

وذهب جماعة إلى أنّ الآية محكمة ، فمنهم من جعلها خاصّة بالشهادة على الوصية في السفر إذا لم يكن مع الموصي مسلمون .

وهو قول أبي موسى الأشعري ، وابن عباس ، وقضى بذلك أبو موسى الأشعري في وصية مثل هذه ، أيام قضائه بالكوفة ، وقال : هذا أمر لم يكن بعدَ الذي كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول سعيد بن المسيّب ، وابن جبير ، وشريح ، وابن سيرين ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدّي ، وسفيان الثوري ، وجماعة ، وهم يقولون : لا منسوخ في سورة المائدة ، تبعاً لابن عباس .

ومنهم من تأوّل قوله ﴿ من غيركم ﴾ على أنّه من غير قبيلتكم ، وهو قول الزهري ، والحسن ، وعكرمة .

وقال أحمد بن حنبل بقياس بقية العقود المشهود فيها في السفر على شهادة الوصية ، فقال بأنّ شهادة أهل الذمّة على المسلمين في السفر ماضية ، وزاد فجعلها بدون يمين .

(297/218)

والأظهر عندي أنّ حكم الآية غير منسوخ ، وأنّ قبول شهادة غير المسلمين خاصّ بالوصية في السفر حيث لا يوجد مسلمون للضرورة ، وأنّ وجه اختصاص الوصية بهذا الحكم أنّها تعرض في حالة لا يستعدّ لها المرء من قبلُ فكان معذوراً في إشهاد غير المسلمين في تلك الحالة خشية الفوات ، بخلاف غيرها من العقود فيمكن الاستعداد لها من قبل والتوثّق لها بغير ذلك ؛ فكان هذا الحكم رخصة .

والحكمة التي من أجلها لم تقبل في شريعة الإسلام شهادة غير المسلمين إلاّ في الضرورة ، عند من رأى إعمالها في الضرورة ، أنّ قبول الشهادة تزكية وتعديل للشاهد وترفيع لمقداره إذ جعل خبره مَقطَعاً للحقوق .

فقد كان بعض القضاة من السلف يقول للشهود : اتّقوا الله فينا فأنتم القضاة ونحن المنفّذون .

ولمّا كان رسولنا صلى الله عليه وسلم قد دعا الناس إلى اتّباع دينه فأعرض عنه أهل

الكتاب لم يكونوا أهلاً لأن تزكّيهم أمّته وتسمهم بالصدق وهم كذّبوا رسولنا ، ولأنّ من لم يكن دينه ديننا لا نكون عالمين بحدود ما يزعه عن الكذب في خبره ، ولا لمجال التضييق والتوسّع في أعماله الناشئة عن معتقداته ، إذ لعلّ في دينه ما يبيح له الكذب ، وبخاصّة إذا كانت شهادته في حقّ لمن يخالفه في الدين ، فإنّنا عهدنا منهم أنّهم لا يتوخّون الاحتياط في حقوق من لم يكن من أهل دينهم .

قال تعالى حكاية عنهم "ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا في الأمّيين (أي المسلمين) سبيل" فمن أجل ذلك لم يكن مظنّة للعدالة ولا كان مقدارها فيه مضبوطاً .

وهذا حال الغالب منهم ، وفيهم من قال الله في شأنه ﴿ من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك ﴾ [آل عمران : 75] ولكن الحكم للغالب .

وأمّا حكم تحليف الشاهد على صدقه في شهادته : فلم يرد في المأثور إلاّ في هذا الموضع ؛ فأمّا الذين قالوا بنسخ قبول شهادة الكافر فتحليف شاهدي الوصية الكافرين منسوخ تبعاً ، وهو قول الجمهور .

(298/218)

وأمّا الذين جعلوه محكَماً فقد اختلفوا ، فمنهم من خصّ اليمين بشاهدي الوصية من غير المسلمين ، ومنهم من اعتبر بعلّة مشروعية تحليف الشاهدين من غير المسلمين ، فقاس عليه تحليف الشاهدين إذا تطرّقت إليهما الريبة ولو كانا مسلمين .

وهذا لا وجه له إذ قد شرط الله فيهما العدالة وهي تنافي الريبة ، نعم قد يقال : هذا إذا تعذّرت العدالة أو ضعفت في بعض الأوقات ووقع الاضطرار إلى استشهاد غير العدول كما هي حالة معظم بلاد الإسلام اليومَ ، فلا يبعد أن يكون لتحيلف الشاهد المستور الحال وجهٌ في القضاء .

والمسألة مبسوطة في كتب الفقه .

وأمّا حكم تغليظ اليمين : فقد أخذ من الآية أنّ اليمين تقع بعد الصلاة ، فكان ذلك أصلاً في تغليظ اليمين في نظر بعض أهل العلم ، ويجيء في تغليظ اليمين أن يكون بالزمان والمكان واللفظ .

وفي جميعها اختلاف بين العلماء .

وليس في الآية ما يتمسّك به بواحد من هذه الثلاثة إلاّ قوله : ﴿ من بعد الصلاة ﴾ وقد بيّنتُ أنّ الأظهر أنّه خاصّ بالوصية ، وأمّا التغليظ بالمكان وباللفظ فتفصيله في كتب الخلاف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فائدة

قال الشوكانى :

وحاصل ما تضمنه هذا المقام من الكتاب العزيز ، أن من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عدلين من عدول المسلمين ، فإن لم يجد شهوداً مسلمين ، وكان في سفر ، ووجد كفاراً جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته ، فإن ارتاب بهما ورثة الموصي حلفاً بالله على أنهما شهدا بالحق ، وما كتما من الشهادة شيئاً ولا خانا مما تركه الميت شيئاً ، فإن تبين بعد ذلك خلاف ما أقسما عليه من خلل في الشهادة أو ظهور شيء من تركة الميت زعما أنه قد صار في ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة وعمل بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(299/218)

فائدة

قال فى روح البيان :

اعلم أن الشهادة في الشرع الإخبار عن أمر حضره الشهود وشاهدوه إما معاينة كالأفعال نحو القتل والزنى أو سماعاً كالعقود والإقرارات فلا يجوز له أن يشهد إلا بما حضره وعلمه وسمعه ولهذا لا يجوز له أداء الشهادة حتى تذكر الحادثة وفي الحديث : "إذا علمت مثل

الشمس فاشهد وإلا فدع" وفي الشهادة إحياء حقوق الناس وصون العقود عن التجاحد وحفظ الأموال على أربابها وفي الحديث : "أكرموا شهودكم فإن الله يستخرج بهم الحقوق" ومن تعين للتحمل لا يسعه أن يمتنع إذا طلب لما فيه من تضييع الحقوق إلا أن يقوم الحق بغيره بأن يكون في الصك سواه ممن يقوم الحق به فيجوز له الامتناع لأن الحق لا يضيع بامتناعه وهو مخير في الحدود بين الشهادة والستر لأن إقامة الحدود حسبة والستر على المسلم حسبة والستر أفضل وفي الحديث "من ستر على مسلم ستره الله عليه في الدنيا والآخرة" .

ثم اعلم أن اليمين الفاجرة تبقى الديار بلاقع فينبغي لطالب الآخرة أن يجتنب عن الكذب لطمع الدنيا وأن يختار الصدق في كل قول وفعل

والأمانة من الأوصاف الجميلة والله تعالى يأمر بأداء الأمانات وإن قل أصحابه في هذا الزمان وعاقبة الخيانة الافتضاح فلا بد من التقوى وسماع الأحكام الأزلية والله لا يهدي إلى حضرته القوم الفاسقين يعني الذين كانوا خارجين عند رشاش النور وإصابته كما قال عليه السلام : "فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه فقد ضل" عصمنا الله وإياكم من مخالفة أمره ولا يجعلنا ممن ضاع أنفاس عمره إنه هو الموفق والمرشد والوهاب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿روح البيان حـ 2 صـ 548.549﴾

(300/218)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ﴾

الْبَيْتَ الْحَرامَ عطف بيان على جهة المدح ، لا على جهة التوضيح ، كما تجيء الصفة كذلك قِياماً لِلنَّاسِ انتعاشاً لهم « 1 » في أمر دينهم ودنياهم ، ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم في معاشهم ومعادهم ، لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم ، وأنواع منافعهم . وعن عطاء ابن أبى رباح : لو تركوه عاماً واحداً لم ينظروا ولم يؤخروا وَالشَّهْرَ الْحَرامَ الشهر الذي يؤدى فيه الحج ، وهو ذو الحجة ، لأنّ لاختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأناً قد عرّفه اللّه تعالى . وقيل عنى به جنس الأشهر الحرم وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ والمقلد منه خصوصاً

---

(1) . قال محمود : «معنى قياما للناس : انتعاشا لهم في أمر دينهم ودنياهم . . . الخ» قال أحمد : وفي هذه الآية ما يبعد تأويلين من التأويلات الثلاثة المذكورة في قوله أول هذه السورة (لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلائِدَ) فان حمل القلائد ثم على ظاهرها ، وتأويل صرف الإحلال إلى مواقعها من المقلد – كقوله : (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما

ظَهَرَ مِنْها) يريد مواقع الزينة ، والنهي عن إحلال القلائد يشبهه ، كأنه قال : لا تحلوا قلائدها فضلا عنها – متعذر في هذه الآية ، لأنها وردت في سياق الامتنان بما جعله اللَّه قياما للناس من هذه الأمور المعدودة ، وقد خص المنة بالبدن في قوله : (وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ . . .) الآية ولا يليق بسياق الامتنان الخروج من الأعلى إلى الأدنى ، حتى يقع الامتنان بالمقلد ثم بالقلائد ، بل ذلك لائق في سياق النهى أن يخرج من النهى عن الأعلى إلى التشديد بالنهى عن الأدنى . وأما التأويل الآخر – وهو بقاء القلائد على حقيقتها وصرف الإحلال المنهي عنه إليها حقيقة ، أى لا تتعرضوا للقلائد ولا تنتفعوا بها ، كما قال عليه الصلاة والسلام «ألق قلائدها في دمها وخل بين الناس وبينها » – فمتعذر أيضا بما بعد به الذي قبله . وأما التأويل الثالث – وهو حملها على ذوات القلائد – فلائق بالاثنين فيتعين المصير إليه . ومن ثم لم يذكر الزمخشري في هذه الآية سواء . ووجه صلاحيته وظهوره فيهما : أن الغرض في سياق النهى إفراده بالذكر وتخصيصه بالنهى ، بعد أن اندرج مع غيره في النهى ، فكأنه نهى عنه لخصوصيته مرتين . والغرض في سياق الامتنان أيضا ذلك ، وهو تكرير المنة به مندرجا في العموم ومخصوصا بالذكر . وأيضا فيليق في الامتنان الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، بخلاف النهى . واللَّه أعلم .

(301/218)

وهو البدن ، لأن الثواب فيه أكثر ، وبهاء الحج معه أظهر ذِلكَ إشارة إلى جعل الكعبة قياماً للناس ، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كل شيء وهو عالم بما يصلحكم وما ينعشكم مما أمركم به وكلفكم شَدِيدُ الْعِقابِ لمن انتهك محارمه غَفُورٌ رَحِيمٌ لمن حافظ عليها .

[سورة المائدة (5) : آية 99]

ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (99)

ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به ، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ ، وقامت عليكم الحجة ، ولزمتكم الطاعة ، فلا عذر لكم في التفريط .

[سورة المائدة (5) : آية 100]

قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100)

البون بين الخبيث والطيب بعيد عند اللَّه تعالى « 1 » وإن كان قريبا عندكم ، فلا تعجبوا بكثرة الخبيث حتى تؤثروه لكثرته على القليل الطيب ، فإنّ ما تتوهمونه في الكثرة من الفضل ، لا يوازى النقصان في الخبيث ، وفوات الطيب ، وهو عام في حلال المال وحرامه ، وصالح العمل وطالحه ، وصحيح المذاهب وفاسدها ، وجيد الناس ورديهم فَاتَّقُوا اللَّهَ وآثروا

الطيب ، وإن قل ، على الخبيث وإن كثر . ومن حق هذه الآية أن تكفح بها وجوه المجبرة «2» إذا افتخروا بالكثرة كما قيل :

---

(1) . قال محمود : «البون بين الخبيث والطيب بعيد عند اللَّه . . . الخ» قال أحمد رحمه اللَّه : وقد ثبت شرعا أن أكثر أهل الجنة من هذه الأمة . وقد اعترف للقدرية أنهم قليل فيها ، وشذوذ بالنسبة إلى من عداهم من الطوائف والأمر بهذه المثابة ، وهم أيضا يعتقدون أنهم الفرقة الناجية الموعودون بالجنة لا غيرهم ، إذ كل من عداهم - على طمعهم الفاسد - مخلد في النار مع الكفار ، فعلى هذا تكون هذه الطائفة الشاذة القليلة أكثر أهل الجنة ، وحاشا للَّه أن يستمر ذلك على عقل عاقل محصل ، مطلع على ما ورد في السنن من الآثار المكافحة لهذا الظن الفاسد بالرد والتكذيب .

ومن هم المعتزلة حتى يترامى طمعهم على هذا الحد ؟ وهذا الاستنباط الذي استنبطه الزمخشري من أن المراد بالطيب هذا النفر المعتزلي . من قبيل القول بأن المراد في قوله تعالى : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ) أهل الحديث وأصحاب الرأى ، يعنى الحقيقة . وقد أغلظ في تفسير هذه الآية على من قال ذلك وعده من البدع ، وما هو قد ابتدع قريبا منه في حمله الطيب في هذه الآية على الفريق المعتزلي ، بل واللَّه شراً من تلك المقالة ، لأنه حمل الخبيث على من عداهم من الطوائف السنية ، نعوذ باللَّه من ذلك ، ونبرأ من تجريه على السلف والخلف .

(2) . قوله «أن تكفح بها وجوه المجبرة» يعنى أهل السنة . وهذا غلو من العلامة في التعصب للمعتزلة ، وما كان ينبغي أن يكون منه ، لعدم الداعي إليه هنا . (ع)

(302/218)

وَكَاثِرْ بِسَعْدٍ إِنَّ سَعْداً كَثِيرَةٌ و ، لَا تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاء وَلَا نَصْرَا «1»

وكما قيل :

لَا يَدْهَمَنَّكَ مِنْ دَهْمَائِهِمْ عَدَدٌ فَإِنَّ جُلَّهُمُ بَلْ كُلَّهُمْ بَقَرُ «2»

وقيل : نزلت في حجاج اليمامة ، حين أراد المسلمون أن يوقعوا بهم ، فنهوا عن الإيقاع بهم وإن كانوا مشركين .

[سورة المائدة (5) : الآيات 101 إلى 102]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (102)

الجملة الشرطية والمعطوفة عليها أعنى قوله إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ صفة للأشياء . والمعنى : لا تكثروا مسألة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله

وسلم حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم ، إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها . وذلك نحو ما روى أن سراقة بن مالك أو عكاشة بن محصن قال :

يا رسول اللَّه ، الحج علينا كل عام ؟ فأعرض عنه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى أعاد مسألته ثلاث مرّات ، فقال صلى اللَّه عليه وسلم : «ويحك ! ما يؤمنك أن أقول نعم ؟ واللَّه لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» «3» (وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ) وإن تسألوا عن هذه

---

(1) . «سعد» اسم قبيلة . والمعنى : أنه لا نفع فيهم إلا تكثير سواد الجيش ، فلا يفون بما وعدوا من النصر ، ولا ينصرون بلا وعد . ويمكن أن المراد الوفاء بحق الشجاعة . فالنصر تفسير . وفي تكرير الاسم . نوع تهكم .

(2) لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هذه الصور

لا يدهمنك من دهمائهم عدد فان جلهم بل كلهم بقر

لأبي تمام . يقال : دهمه الأمر ، إذا غشيه فحيره وسد عليه باب الرأى . والدهماء : الجماعة الكثيرة المتكاثفة ، وأصله من الدهمة وهي الظلمة والسواد . يقول : لم يبق من

معظم هذا الجمع من الناس بقية يدركها الوهم بعد التأمل ، إلا هذه الصور والأجسام المشاهدة ، مجردة على العقول ، فلا تفزع من كثرة عدد جماعتهم ، فان معظمهم كالبقر ، بل جميعهم كذلك ، فلا تدبير عندهم لأمر الحرب .

(3) . هذا السياق لم أجده لا عن سراقة ولا عن عكاشة . فأما سراقة فروى مسلم من حديث جابر الطويل في صفة الحج «فقال سراقة بن مالك : بن جعشم يا رسول اللَّه ، لعامنا هذا . أم للأبد ؟ قلت : وهو عند البخاري ايضا من وجه آخر عن جابر ، وللنسائى وابن ماجة من حديث سراقة بن مالك نفسه أنه قال للنبي صلى اللَّه عليه وسلم «يا رسول اللَّه ، عمرتنا هذه لعامنا أم للأبد ؟ فقال : لا ، بل للأبد . دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» وأما عكاشة بن محصن فرواه الطبري وابن مردويه من طريق محمد بن زياد : سمعت أبا هريرة رضى اللَّه عنه يقول «خطبنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج ، فقال عكاشة بن محصن الأسدى : أفي كل عام يا رسول اللَّه ؟ فقال : أما أنا لو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت ثم تركتم لضللتم . اسكتوا عنى ما سكت عنكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فأنزل اللَّه (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ) الآية وهو أقرب إلى سياق المصنف ، دون ما في آخره مما ذكره المصنف فهو في الحديث الآتي . وأخرج الطبري من طريق أبى إسحاق الهجري عن ابن عباس عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «إن اللَّه

كتب عليكم الحج فقال رجل : كل عام يا رسول اللَّه ؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثا . فقال : من السائل ؟

فقيل فلان . فقال : والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما أطقتموه . ولو تركتموه لكفرتم . فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ) وأخرج أيضا من طريق معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر عن أبى أمامة أنه سمعه يقول «قام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في الناس وقال : كتب عليكم الحج فقام رجل من الأعراب – فذكر الحديث ، وفيه فقال : ويحك ما ذا يؤمنك أن أقول نعم ، واللَّه لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم . وأما بقيته ففيما أخرجه مسلم من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبى هريرة «خطبنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، فقال : أيها الناس فرض اللَّه عليكم الحج فحجوا فقال رجل : أفي كل عام يا رسول اللَّه ؟ فسكت حتى قالها ثالثا . فقال لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم . ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» وقد سأل عن الحج الأقرع بن حابس فعند بعض السنن من حديث ابن عباس «أن الأقرع بن حابس سأل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : الحج في كل سنة أو مرة واحدة ؟ فقال : مرة واحدة . فما زاد فهو تطوع»

وأخرجه الطبري من هذا الوجه . فسمى الرجل محصنا الأسدى ، وعند غيره عكاشة بن محصن .

(303/218)

التكاليف الصعبة في زمان الوحى وهو ما دام الرسول بين أظهركم يوحى إليه ، تبد لكم . تلك التكاليف الصعبة التي تسؤكم ، وتؤمروا بتحملها ، فتعرّضون أنفسكم لغضب اللَّه بالتفريط فيها عَفَا اللَّهُ عَنْها . عفا اللَّه عما سلف . من مسألتكم ، فلا تعودوا إلى مثلها وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ لا يعاجلكم فيما يفرط منكم بعقوبته . فإن قلت : كيف قال : (لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ) ثم قال : قَدْ سَأَلَها ولم يقل . قد سأل عنها ؟ قلت : الضمير في : (سَأَلَها) ليس براجع إلى أشياء حتى تجب تعديته بعن ، وإنما هو راجع إلى المسألة التي دل عليها (لا تَسْئَلُوا) يعنى قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها أى بمرجوعها أو بسببها كافِرِينَ وذلك أنّ بنى إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا .

[سورة المائدة (5) : آية 103]

ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ

الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (103)

كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر ، بحروا أذنها ، أى شقوها

(304/218)

وحرّموا ركوبها ، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى ، وإذا لقيها المعيى لم يركبها ، واسمها البحيرة .

وكان يقول الرجل : إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضى فناقتى سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها . وقيل : كان الرجل إذا أعتق عبداً قال : هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث . وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى . ومعنى ما جَعَلَ ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسييب وغير ذلك ، ولكنهم بتحريمهم ما حرّموا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ فلا ينسبون التحريم إلى اللَّه حتى يفتروا ، ولكنهم يقلدون في تحريمها كبارهم .

[سورة المائدة (5) : آية 104]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ (104)

الواو في قوله أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار. وتقديره: أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ والمعنى أنّ الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدى، وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

[سورة المائدة (5): آية 105]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتوّ والعناد من الكفرة، يتمنون دخولهم في الإسلام، فقيل لهم عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طرق الهدى لا يَضُرُّكُمْ الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، كما قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام (فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ) وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصي، ولا يزال يذكر معايبهم ومناكيرهم. فهو مخاطب به، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه، وعن ابن مسعود: أنها قرئت عنده فقال: إن هذا ليس بزمانها «1» إنها اليوم مقبولة. ولكن يوشك أن يأتى زمان تأمرون فلا يقبل منكم،

فحينئذ عليكم أنفسكم ،

---

(1) . قوله «ليس بزمانها إنها» لعل هذا الضمير للنصيحة المفهومة من السياق . (ع)

(305/218)

فهي على هذا تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه ، وبسط لعذره . وعنه : ليس هذا زمان تأويلها . قيل : فمتى ؟ قال : إذا جعل دونها السيف والسوط والسجن . وعن أبى ثعلبة الخشني أنه سئل عن ذلك فقال للسائل : سألت عنها خبيرا . سألت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عنها فقال : ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا ما رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك ودع أمر العوام . وإنّ من ورائكم أياما الصبر فيهنّ كقبض على الجمر ، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله «1» . وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سفهت آباءك ، ولاموه ، فنزلت (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) عليكم : من أسماء الفعل ، بمعنى : الزموا إصلاح أنفسكم ، ولذلك جزم جوابه . وعن نافع : عليكم أنفسكم ، بالرفع . وقرئ (لا يَضُرُّكُمْ) وفيه وجهان «2» أن يكون خبراً مرفوعا وتنصره قراءة أبى حيوة ، لا يضيركم . وأن يكون جواباً للأمر مجزوماً . وإنما ضمت الراء اتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة . والأصل :

لا يضروكم. ويجوز أن يكون نهيا، ولا يضركم، بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره.

[سورة المائدة (5): الآيات 106 إلى 108]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُما اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (108)

---

(1). أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي من رواية عبد اللَّه بن المبارك عن عتبة بن أبى حكيم عن عمرو بن حارثة اللخمي عن أبى أمية الصنعاني قال «أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت:

قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الآية قال: أما واللَّه لقد سألت عنها خبيراً سألت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر - وذكره: وقال فيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام - وقال في آخره: مثل عملكم» قال ابن

المبارك : وزادني غير عتبة : قيل يا رسول اللَّه أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : لا ، بل منكم» وأخرجه ابن حبان والحاكم وإسحاق وأبو يعلى والطبراني . [. . . . .]

(2) . قوله «لا يضركم ، وفيه وجهان» يعنى بالرفع ، وهو يفيد أن القراءة الأصلية بالنصب . (ع)

(306/218)

ارتفع اثنان على أنه خبر للمبتدإ الذي هو شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ على تقدير : شهادة بينكم شهادة اثنين . أو على أنه فاعل شهادة بينكم على معنى : فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان : وقرأ الشعبي .

شهادة بينكم بالتنوين . وقرأ الحسن : شهادة ، بالنصب والتنوين على : ليقم شهادة اثنان .

وإذا حَضَرَ ظرف للشهادة . وحِينَ الْوَصِيَّةِ بدل منه ، إبداله منه دليل على وجوب الوصية ، وأنها من الأمور اللازمة التي ما ينبغي أن يتهاون بها مسلم ويذهل عنها . وحضور الموت : مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل مِنْكُمْ من أقاربكم . ومِنْ غَيْرِكُمْ من الأجانب إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ يعنى إن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم ، فاستشهدوا أجنبيين على الوصية ، جعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بأحوال الميت وبما هو

أصلح «1» وهم له أنصح . وقيل مِنْكُمْ من المسلمين ، ومِنْ غَيْرِكُمْ من أهل الذمة . وقيل : هو منسوخ لا تجوز شهادة الذمي على المسلم ، وإنما جازت في أوّل الإسلام لقلة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر . وعن مكحول : نسخها قوله تعالى وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وروى أنه خرج بديل بن أبى مريم مولى عمرو بن العاصي وكان من المهاجرين ، مع عدى بن زيد وتميم بن أوس – وكانا نصرانيين – تجاراً إلى الشام ، فمرض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه ، وطرحه في متاعه ولم يخبر به صاحبيه ، وأمرهما أن يدفعاً متاعه إلى أهله ، ومات ففتشا متاعه ، فأخذا إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب ، فغيباه ، فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء ، فجحدا فرفعوهما إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «2» ، فنزلت تَحْبِسُونَهُما تقفونهما وتصبرونهما للحلف «3» مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ من بعد صلاة العصر ، لأنه وقت اجتماع الناس . وعن الحسن : بعد صلاة العصر أو الظهر لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما . وفي حديث بديل : أنها لما نزلت صلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم

---

(1) . قوله «وبما هو أصلح» لعله «وبما هو له أصلح» . (ع)

(2) . أخرجه الترمذي من رواية ابن إسحاق عن أبى النضر وهو محمد بن السائب الكلبي عن بادار ، يعنى أبا صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس عن تميم الداري رضى اللَّه عنهم .

فذكره وقال : ليس إسناده بصحيح وأخرجه البخاري وأبو داود مختصراً

(3) . قوله «و تصبرونهما للحلف» أي تحبسونهما . أفاده الصحاح . (ع)

(307/218)

صلاة العصر ودعا بعديّ وتميم فاستحلفهما عند المنبر ، فحلفا ، ثم وجد الإناء بمكة ، فقالوا :

إنا اشتريناه من تميم وعدى . وقيل : هي صلاة أهل الذمّة ، وهم يعظمون صلاة العصر إِنِ ارْتَبْتُمْ اعتراض بين القسم والمقسم عليه . والمعنى : إن ارتبتم في شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما . وقيل : إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين ، وإن أريد الوصيان فليس بمنسوخ تحليفهما . وعن عليّ رضى اللَّه عنه : أنه كان يحلف الشاهد والراوي إذا اتهمهما «1» والضمير في مُصِيبَةُ للقسم . وفي كانَ للمقسم له يعنى : لا نستبدل بصحة القسم باللَّه عرضاً من الدنيا ، أي لا نحلف كاذبين لأجل المال ، ولو كان من نقسم له قريباً منا ، على معنى : أن هذه عادتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً ، وأنهم داخلون تحت قوله تعالى : (كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) . شَهادَةَ اللَّهِ أي الشهادة التي أمر اللَّه بحفظها وتعظيمها . وعن الشعبي أنه وقف

على شهادة ، ثم ابتدأ اللَّه بالمدّ ، على طرح حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه .

وروى عنه بغير مدّ على ما ذكر سيبويه أن منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوض منه همزة الاستفهام ، فيقول : اللَّه لقد كان كذا .

وقرئ : لملاثمين بحذف الهمزة وطرح حركتها على اللام وإدغام نون من فيها ، كقوله : عاد لولى : فإن قلت : ما موقع تحبسونهما ؟ قلت : هو استئناف كلام ، كأنه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما ، فكيف نعمل إن ارتبنا بهما ، فقيل : تحبسونهما فإن قلت : كيف فسرت الصلاة بصلاة العصر وهي مطلقة ؟ قلت : لما كانت معروفة عندهم بالتحليف بعدها ، أغنى ذلك عن التقييد ، كما لو قلت في بعض أئمة الفقه : إذا صلى أخذ في الدرس علم أنها صلاة الفجر . ويجوز أن تكون اللام للجنس ، وأن يقصد بالتحليف على أثر الصلاة أن تكون الصلاة لطفاً في النطق بالصدق ، وناهية عن الكذب والزور (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ) . فَإِنْ عُثِرَ فإن اطلع عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً أى فعلا مّا أوجب إثما ، واستوجبا أن يقال إنهما لمن الآثمين فآخَرانِ فشاهدان آخران يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ أى من الذين استحق عليهم الإثم . معناه من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته . وفي قصة بديل : أنه لما ظهرت خيانة الرجلين ، حلف رجلان من ورثته أنه إناء صاحبهما ، وأنّ شهادتهما أحق من شهادتهما . والْأَوْلَيانِ الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما . وارتفاعهما على : هما الأوليان كأنه قيل ومن هما ؟ فقيل :

الأوليان . وقيل : هما بدل من الضمير في يقومان ، أو من آخران .

---

(1) . فأما تحليف الشاهد . فلم أره . وأما تحليف الراوي فرواه أصحاب السنن الثلاثة : البزار وابن حبان من رواية اسماء بن الحكم الفزاري عن علي رضى اللَّه عنه قال «إذا سمعت من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حديثا نفعني اللَّه منه بما شاء أن ينفعني ، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته ، فإذا حلف لي صدقته قال : وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - الحديث» قال الترمذي : حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وروى بعضهم هذا الحديث موقوفا» أى المتن دون القصة . وقال البزار : أسماء هذا مجهول .

(308/218)

ويجوز أن يرتفعا باستحق ، أى من الذين استحق عليهم انتداب الأوليين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال . وقرئ الأوّلين على أنه وصف للذين استحق عليهم ، مجرور ، أو منصوب على المدح . ومعنى الأولية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها . وقرئ : الأولين ، «1» على التثنية ، وانتصابه على المدح . وقرأ الحسن : الأولان ، ويحتج به من يرى رد اليمين على المدعى . وأبو حنيفة وأصحابه لا يرون ذلك ، فوجهه عندهم أن الورثة قد ادعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا فحلفا ، فلما ظهر كذبهما

ادعيا الشراء فيما كتما ، فأنكر الورثة فكانت اليمين على الورثة ، لإنكارهم الشراء . فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ استحق عليهم الأوليان على البناء للفاعل ، وهم على وأبيّ وابن عباس ؟ قلت : معناه من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة ، أن يجرّدوهما للقيام بالشهادة ، ويظهروا بهما كذب الكاذبين ذِلكَ الذي تقدم من بيان الحكم أَدْنى أن يأتى الشهداء على نحو تلك الحادثة بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ أن تكرّ «2» أيمان شهود آخرين بعد إيمانهم «فيفتضحوا بظهور كذبهم كما جرى في قصة بديل وَاسْمَعُوا سمع إجابة وقبول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 681. 689﴾

---

(1) . قوله «و قرئ الأوليين» لعله «الأولين» فليحرر . (ع)

(2) . قوله «أن تكر أيمان شهود» في الصحاح «الكر» الرجوع . يقال : كره ، وكر بنفسه يتعدى ولا يتعدى . (ع)

(309/218)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) .

جَاءَ فِي أَسْبَابِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَعْنَاهَا فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ مَا نَصُّهُ :

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَضَعَّفَهُ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالنَّحَّاسُ فِي نَاسِخِهِ وَأَبُو الشَّيْخِ

(310/218)

وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي الْمَعْرِفَةِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي النَّضْرِ وَهُوَ الْكَلْبِيُّ عَنْ بَاذَانَ مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) قَالَ : "بَرِئَ النَّاسُ مِنْهَا غَيْرِي وَغَيْرَ عَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ ، وَكَانَا نَصْرَانِيَّيْنِ يَخْتَلِفَانِ إِلَى الشَّامِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، فَأَتَيَا الشَّامَ لِتِجَارَتِهِمَا وَقَدِمَ عَلَيْهِمَا مَوْلًى لِبَنِي سَهْمٍ يُقَالُ لَهُ بُدَيْلُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ بِتِجَارَةٍ وَمَعَهُ جَامٌ مِنْ فِضَّةٍ يُرِيدُ بِهِ الْمَلِكَ وَهُوَ أَعْظَمُ تِجَارَتِهِ ، فَمَرِضَ فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا وَأَمَرَهُمَا أَنْ يُبَلِّغَا مَا تَرَكَ أَهْلَهُ ، قَالَ تَمِيمٌ : فَلَمَّا مَاتَ أَخَذْنَا ذَلِكَ الْجَامَ فَبِعْنَاهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ ثُمَّ اقْتَسَمْنَاهُ أَنَا وَعَدِيُّ بْنُ بَدَّاءٍ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا إِلَى أَهْلِهِ دَفَعْنَا إِلَيْهِمْ مَا كَانَ مَعَنَا وَفَقَدُوا الْجَامَ فَسَأَلُونَا عَنْهُ فَقُلْنَا : مَا تَرَكَ غَيْرَ هَذَا وَمَا دَفَعَ إِلَيْنَا غَيْرَهُ . قَالَ تَمِيمٌ : فَلَمَّا أَسْلَمْتُ بَعْدَ قُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَأَثَّمْتُ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ فَأَخْبَرْتُهُمُ الْخَبَرَ وَأَدَّيْتُ إِلَيْهِمْ خَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَنَّ عِنْدَ صَاحِبِي مِثْلَهَا ، فَأَتَوْا بِهِ

رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُمُ الْبَيِّنَةَ فَلَمْ يَجِدُوا ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَحْلِفُوهُ بِمَا يَعْظُمُ بِهِ عَلَى أَهْلِ دِينِهِ فَحَلَفَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ

(311/218)

بَيْنِكُمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ) فَقَامَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَرَجُلٌ آخَرُ فَحَلَفَا فَنَزَعْتُ الْخَمْسَمِائَةِ مِنْ عَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ " .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَالنَّحَّاسُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَأَبُو الشَّيْخِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا مُسْلِمٌ فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا ، فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَقَدَ جَامًا مِنْ فِضَّةٍ بِالذَّهَبِ فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاللهِ مَا كَتَمْتُمَاهَا وَلَا اطَّلَعْتُمَا ، ثُمَّ وَجَدُوا الْجَامَ بِمَكَّةَ فَقِيلَ : اشْتَرَيْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ ، فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ السَّهْمِيِّ فَحَلَفَا بِاللهِ : لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَأَنَّ الْجَامَ لِصَاحِبِهِمْ ، وَأَخَذَ الْجَامَ ، وَفِيهِ نَزَلَتْ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) .

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : "كَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ وَعَدِيُّ بْنُ بَدَّاءٍ رَجُلَيْنِ نَصْرَانِيَّيْنِ يَتَّجِرَانِ إِلَى مَكَّةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَيُطِيلَانِ الْإِقَامَةَ بِهَا ، فَلَمَّا هَاجَرَ

(312/218)

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوَّلَا مَتْجَرَهُمَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَخَرَجَ بُدَيْلُ بْنُ أَبِي مَارِيَةَ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ تَاجِرًا حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَخَرَجُوا جَمِيعًا تُجَّارًا إِلَى الشَّامِ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ اشْتَكَى بُدَيْلٌ فَكَتَبَ وَصِيَّتَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ دَسَّهَا فِي مَتَاعِهِ وَأَوْصَى إِلَيْهِمَا ، فَلَمَّا مَاتَ فَتَحَا مَتَاعَهُ فَأَخَذَا مِنْهُ شَيْئًا ثُمَّ حَجَرَاهُ كَمَا كَانَ وَقَدِمَا الْمَدِينَةَ عَلَى أَهْلِهِ فَدَفَعَا مَتَاعَهُ ، فَفَتَحَ أَهْلُهُ مَتَاعَهُ فَوَجَدُوا كِتَابَهُ وَعَهْدَهُ وَمَا خَرَجَ بِهِ وَفَقَدُوا شَيْئًا فَسَأَلُوهُمَا عَنْهُ ، فَقَالُوا : هَذَا الَّذِي قَبَضْنَا لَهُ وَدَفَعَ إِلَيْنَا . فَقَالُوا لَهُمَا : هَذَا كِتَابُهُ بِيَدِهِ . قَالُوا : مَا كَتَمْنَا لَهُ شَيْئًا فَتَرَافَعُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

(313/218)

إِلَى قَوْلِهِ : (إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ) فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْتَحْلِفُوهُمَا فِي دُبُرِ صَلَاةِ الْعَصْرِ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا قَبَضْنَا لَهُ غَيْرَ هَذَا وَلَا كَتَمْنَا . فَمَكَثَا مَا شَاءَ اللَّهُ

أَنْ يَمْكُثَا ، ثُمَّ ظَهَرَ مَعَهُمَا عَلَى إِنَاءٍ مِنْ فِضَّةٍ مَنْقُوشٍ مُمَوَّهٍ بِذَهَبٍ . فَقَالَ أَهْلُهُ : هَذَا مِنْ مَتَاعِهِ . قَالَا : نَعَمْ وَلَكِنَّا اشْتَرَيْنَاهُ مِنْهُ وَنَسِينَا أَنْ نَذْكُرَهُ حِينَ حَلَفْنَا فَكَرِهْنَا أَنْ نُكَذِّبَ نُفُوسَنَا فَتَرَافَعُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الْأُخْرَى : (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا) فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَنْ يَحْلِفَا عَلَى مَا كَتَمَا وَغَيَّبَا وَيَسْتَحِقَّانِهِ ، ثُمَّ إِنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ أَسْلَمَ وَبَايَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ يَقُولُ : صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَنَا أَخَذْتُ الْإِنَاءَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُظْهِرُكَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهَا فَهَبْ لِي قَرْيَتَيْنِ مِنْ بَيْتِ لَحْمٍ وَهِيَ الْقَرْيَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا عِيسَى . فَكَتَبَ لَهُ بِهَا كِتَابًا ، فَلَمَّا قَدِمَ عُمَرُ الشَّامَ أَتَاهُ تَمِيمٌ بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ : " أَنَا حَاضِرٌ ذَلِكَ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ " وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنْ عَاصِمٍ أَنَّهُ قَرَأَ (شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) مُضَافًا بِرَفْعِ " شَهَادَةُ " بِغَيْرِ نُونٍ وَبِخَفْضِ " بَيْنِكُمْ " وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ

(314/218)

وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالنَّحَّاسُ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) هَذَا لِمَنْ مَاتَ وَعِنْدَهُ الْمُسْلِمُونَ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُشْهِدَ

عَلَى وَصِيَّتِهِ عَدْلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ قَالَ : (أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ) فَهَذَا لِمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، أَمَرَهُ اللهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنِ ارْتِيبَ بِشَهَادَتِهِمَا اسْتَحْلَفَا بِاللهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ مَا اشْتَرَيْنَا بِشَهَادَتِنَا ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَإِنِ اطَّلَعَ الْأَوْلِيَاءُ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَيْنِ كَذَبَا فِي شَهَادَتِهِمَا قَامَ رَجُلَانِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ فَحَلَفَا بِاللهِ أَنَّ شَهَادَةَ الْكَافِرَيْنِ بَاطِلَةٌ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا) يَقُولُ : إِنِ اطَّلَعَ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَيْنِ كَذَبَا قَامَ الْأَوْلِيَاءُ فَحَلَفَا أَنَّهُمَا كَذَبَا (ذَلِكَ أَدْنَى) أَنْ يَأْتِيَ الْكَافِرَانِ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا (أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ) فَتُتْرَكَ شَهَادَةُ الْكَافِرَيْنِ وَيُحْكَمَ بِشَهَادَةِ الْأَوْلِيَاءِ ، فَلَيْسَ عَلَى شُهُودِ الْمُسْلِمِينَ إِقْسَامٌ ، إِنَّمَا الْإِقْسَامُ إِذَا كَانَا كَافِرَيْنِ .

(315/218)

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) قَالَ : مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ (أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) قَالَ : مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَفِي قَوْلِهِ : (فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ) يَقُولُ : يَحْلِفَانِ بِاللهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَفِي قَوْلِهِ : (فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا) قَالَ : مِنْ أَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ (فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا) يَقُولُ : فَيَحْلِفَانِ بِاللهِ مَا كَانَ صَاحِبُنَا لَيُوصِي بِهَذَا إِنَّهُمَا لَكَاذِبَانِ ، وَفِي قَوْلِهِ : (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى

وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ) يَعْنِي أَوْلِيَاءَ الْمَيِّتِ ، فَيَسْتَحِقُّونَ مَالَهُ بِأَيْمَانِهِمْ ، ثُمَّ يُوضَعُ مِيرَاثُهُ كَمَا أَمَرَ اللهُ وَتَبْطُلُ شَهَادَةُ الْكَافِرِينَ وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ .

(316/218)

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ (اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) : قَالَ : " مَا مِنَ الْكِتَابِ إِلَّا قَدْ جَاءَ عَلَى شَيْءٍ جَاءَ عَلَى إِدْلَالِهِ غَيْرُ هَذِهِ الْآيَةِ وَلَئِنْ أَنَا لَمْ أُخْبِرْكُمْ بِهَا لَأَنَا أَجْهَلُ مِنَ الَّذِي يَتْرُكُ الْغُسْلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، هَذَا رَجُلٌ خَرَجَ مُسَافِرًا وَمَعَهُ مَالٌ فَأَدْرَكَهُ قَدَرُهُ ، فَإِنْ وَجَدَ رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ دَفَعَ إِلَيْهِمَا تَرِكَتَهُ وَأَشْهَدَ عَلَيْهِمَا عَدْلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ عَدْلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَإِنْ أَدَّى فَسَبِيلُ مَا أَدَّى ، وَإِنْ هُوَ جَحَدَ اسْتُحْلِفَ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ دُبُرَ صَلَاةٍ : إِنَّ هَذَا الَّذِي وَقَعَ إِلَيَّ وَمَا غَيَّبْتُ شَيْئًا ، فَإِذَا حَلَفَ بَرِئَ فَإِذَا أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ صَاحِبَا الْكِتَابِ فَشَهِدَا عَلَيْهِ ثُمَّ ادَّعَى الْقَوْمُ عَلَيْهِ مِنْ تَسْمِيَتِهِمْ

مَا لَهُمْ جُعِلَتْ أَيْمَانُ الْوَرَثَةِ مَعَ شَهَادَتِهِمْ ثُمَّ اقْتَطَعُوا حَقَّهُ فَذَلِكَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ : (ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) انْتَهَى مِنَ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ وَفِيهِ غَلَطٌ وَتَحْرِيفٌ مِنَ الطَّبْعِ لَا سِيَّمَا

أَثَرُ ابْنِ مَسْعُودٍ .

هَذَا مَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَتَفْسِيرِ بَعْضِهَا مِنْ قَوِيٍّ وَضَعِيفٍ .

(317/218)

وَأَمَّا وَجْهُ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً فَقَدْ قَالَ الرَّازِيُّ فِيهِ : إنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِحِفْظِ النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ : (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) أَمَرَ بِحِفْظِ الْمَالِ فِي قَوْلِهِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) انْتَهَى وَهَذَا قَوْلٌ غَيْرُ ظَاهِرٍ ، بَلْ لَا يَصِحُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ لِحِفْظِ النَّفْسِ وَالْمَالِ إلَّا أَنْ يَحْمِلَ الْكَلَامَ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ . وَأَظْهَرُ مِنْهُ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَّرَنَا فِي آخِرِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِأَنَّ مَرْجِعَنَا إلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ يُحَاسِبُنَا وَيُجَازِينَا نَاسَبَ أَنْ يُرْشِدَنَا فِي أَثَرِ ذَلِكَ إلَى الْوَصِيَّةِ قَبْلَ الْمَوْتِ وَإِلَى الْعِنَايَةِ بِالْإِشْهَادِ عَلَيْهَا لِئَلَّا تَضِيعَ .

وَأَمَّا مُفْرَدَاتُهَا الَّتِي يَحْسُنُ التَّذْكِيرُ بِمَعْنَاهُ قَبْلَ تَفْسِيرِ النَّظْمِ الْكَرِيمِ . فَمِنْهَا (الشَّهَادَةُ) وَهِيَ كَالشُّهُودِ : حُضُورُ الشَّيْءِ مَعَ مُشَاهَدَتِهِ بِالْبَصَرِ أَوِ الْبَصِيرَةِ أَوْ مُطْلَقًا كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ قَالَ : لَكِنَّ الشُّهُودَ بِالْحُضُورِ الْمُجَرَّدِ أَوْلَى ، وَالشَّهَادَةَ مَعَ الشَّهَادَةِ أَوْلَى . . . وَالشَّهَادَةُ قَوْلٌ صَادِرٌ عَنْ عِلْمٍ حَصَلَ بِمُشَاهِدَةِ بَصِيرَةٍ أَوْ بَصَرٍ . وَ " شَهِدْتُ " يُقَالُ عَلَى ضَرْبَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : جَارٍ مَجْرَى الْعِلْمِ وَبِلَفْظِهِ تُقَامُ الشَّهَادَةُ ، وَيُقَالُ " أَشْهَدُ بِكَذَا " وَلَا يَرْضَى مِنَ

الشَّاهِدِ أَنْ يَقُولَ " أَعْلَمُ " بَلْ يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ " أَشْهَدُ " ، وَالثَّانِي : يَجْرِي مَجْرَى الْقَسَمِ فَيَقُولُ " أَشْهَدُ بِاللَّهِ

(318/218)

أَنَّ زَيْدًا مُنْطَلِقٌ " فَيَكُونُ قَسَمًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إنْ قَالَ " أَشْهَدُ " وَلَمْ يَقُلْ " بِاللَّهِ " يَكُونُ قَسَمًا وَيُجْرَى " عَلِمْتُ " مَجْرَاهُ فِي الْقَسَمِ ، فَيُجَابُ بِجَوَابِ الْقَسَمِ ؛ نَحْوَ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَتَأْتِيَنَّ مَنِيَّتِي .

انْتَهَى مُلَخَّصًا . وَقَدْ تَرِدُ بِمَعْنَى الْإِقْرَارِ بِالشَّيْءِ .

(وَالْبَيْنُ) أَمْرٌ اعْتِبَارِيٌّ يُفِيدُ صِلَةَ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ بِالْآخَرِ أَوِ الْأَشْيَاءِ مِنْ زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ أَوْ حَالٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَقَالُوا : إنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى الْوَصْلِ وَالْفُرْقَةِ ، وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُمْ : " ذَاتُ الْبَيْنِ " لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، قَالَ تَعَالَى : (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) (8 : 1) أَيْ مَا بَيْنَكُمْ مِنْ عَدَاوَةٍ أَوْ فَسَادٍ ، وَهُوَ أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ مُتَّصِلٌ بَيْنَ الْأَفْرَادِ .

وَمِنْهَا (ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ) أَيْ سَافَرْتُمْ وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ، وَمِنْهَا (تَحْبِسُونَهُمَا) وَهُوَ مِنَ الْحَبْسِ بِمَعْنَى إمْسَاكِ الشَّيْءِ وَمَنْعِهِ مِنَ الِانْبِعَاثِ ، وَالْحَبْسُ مَصْنَعُ الْمَاءِ الَّذِي يُمْنَعُ فِيهِ مِنَ الْجَرَيَانِ . وَمِنْهَا (عُثِرَ) وَهُوَ مِنَ الْعُثُورِ عَلَى الشَّيْءِ بِمَعْنَى الِاطِّلَاعِ عَلَيْهِ

بِالِاتِّفَاقِ مِنْ غَيْرِ سَبْقِ طَلَبٍ لَهُ أَوْ مِنْ غَيْرِ حُسْبَانٍ ، وَأَعْثَرَهُ عَلَيْهِ أَوْقَفَهُ عَلَيْهِ وَأَعْلَمَهُ بِهِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ ذَلِكَ ، وَأَصْلُهُ مِنْ عَثَرَ (كَقَعَدَ) عِثَارًا وَعُثُورًا إذَا سَقَطَ .

وَأَمَّا مَعْنَى الْآيَاتِ وَتَفْسِيرُ نَظْمِهَا فَنُبَيِّنُهُ بِمَا يَلِي :

(319/218)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) أَيْ حُكْمُ مَا يَقَعُ بَيْنَكُمْ مِنَ الشَّهَادَةِ أَوْ كَيْفِيَّتُهُ إذَا نَزَلَتْ بِأَحَدِكُمْ أَسْبَابُ الْمَوْتِ وَمُقَدِّمَاتُهُ وَأَرَادَ حِينَئِذٍ أَنْ يُوصِيَ هُوَ أَنْ يَشْهَدَ اثْنَانِ . . . إلَخْ . أَوِ الشَّهَادَةُ الْمَشْرُوعَةُ بَيْنَكُمْ فِي ذَلِكَ هِيَ شَهَادَةُ اثْنَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ذَوِي الْعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُشْهِدَهُمَا الْمُوصِي عَلَى وَصِيَّتِهِ سَوَاءٌ ائْتَمَنَهُمَا عَلَى مَا يُوصِي بِهِ ، كَمَا فِي وَاقِعَةِ سَبَبِ النُّزُولِ أَمْ لَا ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى إشْهَادِهِ إيَّاهُمَا أَنْ يَشْهَدَا بِذَلِكَ ، وَمِنْ إيجَازِ الْآيَةِ أَنَّ عِبَارَتَهَا تَدُلُّ عَلَى الْإِشْهَادِ وَالشَّهَادَةِ جَمِيعًا . وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (مِنْكُمْ) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ ، وَقِيلَ : مِنْ أَقَارِبِكُمْ ، وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ وَالزُّهْرِيِّ وَأَخَذَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ (أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ) أَيْ أَوْ شَهَادَةُ شَهِيدَيْنِ آخَرَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ مِنَ الْأَجَانِبِ إنْ كُنْتُمْ مُسَافِرِينَ وَنَزَلَتْ بِكُمْ مُقَدِّمَاتُ الْمَوْتِ وَأَرَدْتُمُ الْإِيصَاءَ

. وَفِي الْكَلَامِ تَأْكِيدٌ شَدِيدٌ لِلْوَصِيَّةِ وَلِلْإِشْهَادِ عَلَيْهَا (تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ) اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ كَأَنَّ السَّامِعَ لِمَا تَقَدَّمَ يَقُولُ : وَكَيْفَ يَشْهَدَانِ ؟ فَأُجِيبَ بِهَذَا الْجَوَابِ ، أَيْ تُمْسِكُونَ الشَّهِيدَيْنِ اللَّذَيْنِ أُشْهِدَا عَلَى الْوَصِيَّةِ

(320/218)

مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ . قَالَ الْأَكْثَرُونَ : الْمُرَادُ صَلَاةُ الْعَصْرِ ; لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَّفَ عَدِيًّا وَتَمِيمًا فِيهِ ، وَلِأَنَّ الْعَمَلَ جَرَى عَلَيْهِ ، فَكَانَ التَّحْلِيفُ فِيهِ هُوَ الْمُعْتَادَ الْمَعْرُوفَ وَلِأَنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي يَقْعُدُ فِيهِ الْحُكَّامُ لِلْقَضَاءِ وَالْفَصْلِ فِي الْمَظَالِمِ ، وَالدَّعَاوَى لِاعْتِدَالِهِ وَاجْتِمَاعِ

النَّاسِ فِيهِ ، إذْ يَكُونُونَ قَدْ فَرَغُوا مِنْ مُعْظَمِ أَعْمَالِ النَّهَارِ ، أَوْ لِأَنَّ هَذَا الْوَقْتَ وَقْتُ صَلَاةٍ عِنْدَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا ، فَهُوَ وَقْتُ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي يُرْجَى فِيهِ اتِّقَاءُ الْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ مِنْهُمْ أَيْضًا ، أَوْ لِأَنَّ صَلَاةَ الْعَصْرِ هِيَ الصَّلَاةُ الْوُسْطَى ،

(321/218)

أَوْ لِأَنَّهَا تَحْضُرُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَيَتَحَرَّى الْمُؤْمِنُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا مُتَّصِفًا بِالْكَمَالِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ جِنْسُ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ ؛ لِأَنَّهَا تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ فَيَكُونُ جَدِيرًا بِالصِّدْقِ مَنْ يَكُونُ قَرِيبَ عَهْدٍ بِهَا ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : الْمُرَادُ الظُّهْرُ أَوِ الْعَصْرُ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْحِجَازِ كَانُوا يَقْعُدُونَ لِلْحُكُومَةِ بَعْدَهُمَا ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الشَّهِيدَيْنِ إِذَا كَانَا غَيْرَ مُسْلِمَيْنِ فَالْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ صَلَاةُ أَهْلِ دِينِهِمَا أَيْ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ عِلَّةِ ذَلِكَ آنِفًا

(فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ) أَيْ فَيُقْسِمُ الشَّاهِدَانِ عَلَى الْوَصِيَّةِ إِنْ شَكَكْتُمْ فِي صِدْقِهِمَا فِيمَا يُقِرَّانِ بِهِ ، أَيْ وَتَسْتَقْسِمُونَهُمَا فَيُقْسِمَانِ ، وَالْأَمِينُ يُصَدَّقُ بِالْيَمِينِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْفَاءُ لِلْجَزَاءِ أَيْ تَحْبِسُونَهُمَا فَيُقْدِمَانِ لِأَجْلِ ذَلِكَ عَلَى الْقَسَمِ . قِيلَ : هَذَا خَاصٌّ بِالشُّهُودِ مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا اتُّهِمُوا ، أَيْ لِأَنَّهُ لَمْ يُشْتَرَطْ فِيهِمْ أَنْ يَكُونُوا عُدُولًا . وَقِيلَ : عَامٌّ وَقَدْ نُسِخَ ، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ لَا نَسْخَ فِي الْآيَاتِ : قَالَ الرَّازِيُّ : وَعَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ يُحَلِّفُ الشَّاهِدَ وَالرَّاوِيَ عِنْدَ التُّهْمَةِ ، وَيَجِبُ أَنْ يُصَرِّحَا فِي قَسَمِهِمَا بِقَوْلِهِمَا : (لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) أَيْ : لَا نَشْتَرِي بِيَمِينِ اللَّهِ ثَمَنًا ، أَيْ لَا نَجْعَلُ يَمِينَ اللَّهِ كَالسِّلْعَةِ الَّتِي تُبْذَلُ لِأَجْلِ ثَمَنٍ يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ

(322/218)

كَانَ الْمُقْسَمُ لَهُ مِنْ أَقَارِبِنَا ، وَصَحَّ إِرْجَاعُ الضَّمِيرِ إِلَى الْمُقْسَمِ لِأَجْلِهِ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنْ فَحْوَى الْكَلَامِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) (6 : 152) وَهَذَا مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) (4 : 135) وَالْمُرَادُ أَنْ يَقُولَ الْمُقْسِمُ : إِنَّهُ يُشْهِدُ اللَّهَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ ثَمَنٌ يَبْتَغِيهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَا مُرَاعَاةُ قَرِيبٍ لَهُ إِنْ فَرَضَ أَنَّ لَهُ نَفْعًا فِي إِقْرَارِهِ وَقَسَمِهِ ، أَيْ وَلَوِ اجْتَمَعَتِ الْمَنْفَعَتَانِ كِلْتَاهُمَا (وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ) وَيَقُولَانِ فِي قَسَمِهِمَا أَيْضًا : وَلَا نَكْتُمُ الشَّهَادَةَ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَأَمَرَ بِأَنْ تُقَامَ لَهُ أَوِ الْمُؤَكَّدَةَ بِالْحَلِفِ بِهِ (وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ) (65 : 2) ، (إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ) أَيْ إِنَّا إِذَا اشْتَرَيْنَا بِالْقَسَمِ ثَمَنًا أَوْ رَاعَيْنَا بِهِ قَرِيبًا بِأَنْ كَذَبْنَا فِيهِ لِمَنْفَعَةِ أَنْفُسِنَا أَوْ مَنْفَعَةِ قَرَابَةٍ لَنَا ، أَوْ كَتَمْنَا شَهَادَةَ اللَّهِ كُلَّهَا أَوْ بَعْضَهَا ، بِأَنْ ذَكَرْنَا بَعْضَ الْحَقِّ وَكَتَمْنَا بَعْضًا لَمِنَ الْمُتَحَمِّلِينَ لِلْإِثْمِ الْمُتَمَكِّنِينَ فِيهِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِجَزَائِهِ . وَالْإِثْمُ فِي الْأَصْلِ : مَا يَقْعُدُ بِصَاحِبِهِ عَنْ عَمَلِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ مِنْ مَعْصِيَةٍ وَغَيْرِهِمَا . وَهَذَا التَّعْبِيرُ أَبْلَغُ مِنْ " إِنَّا إِذًا لَآثِمُونَ " .

(323/218)

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ) قَرَأَ الْجُمْهُورُ " اسْتُحِقَّ " بِضَمِّ التَّاءِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ ، وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ بِفَتْحِ التَّاءِ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ ، وَهِيَ مَرْوِيَّةٌ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأُبَيٍّ ، وَقَرَأَ يَعْقُوبُ وَخَلَفٌ وَحَمْزَةُ وَعَاصِمٌ فِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ عَنْهُ (الْأَوَّلَيْنِ) جَمْعُ الْأَوَّلِ الَّذِي يُقَابِلُهُ الْآخِرُ ، مَعَ قِرَاءَتِهِمْ " اسْتُحِقَّ " بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ ، وَقَرَأَهُ الْبَاقُونَ (الْأَوْلَيَانِ) مُثَنَّى الْأَوَّلِ سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ " اسْتَحَقَّ " بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَمَنْ قَرَأَهُ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ ، وَرَسْمُ " الْأَوْلَيَانِ وَالْأَوَّلِينَ " فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ وَاحِدٌ وَهُوَ هَكَذَا (الْأَوَّلِينَ) .

(324/218)

وَالْمَعْنَى : فَإِنِ اتَّفَقَ اطِّلَاعُ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَيْنِ الْمُقْسِمَيْنِ اسْتَحَقَّا إِثْمًا بِالْكَذِبِ أَوِ الْكِتْمَانِ فِي الشَّهَادَةِ أَوْ بِالْخِيَانَةِ وَكِتْمَانِ شَيْءٍ مِنَ التَّرِكَةِ فِي حَالَةِ ائْتِمَنَهُمَا عَلَيْهَا كَمَا ظَهَرَ فِي الْوَاقِعَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ النُّزُولِ فَالْوَاجِبُ أَوْ فَالَّذِي يُعْمَلُ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ هُوَ أَنْ تُرَدَّ الْيَمِينُ إِلَى الْوَرَثَةِ بِأَنْ يَقُومَ رَجُلَانِ آخَرَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ أَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ الْوَارِثِينَ لَهُ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ ذَلِكَ الْإِثْمُ بِالْإِجْرَامِ عَلَيْهِمْ وَالْخِيَانَةِ لَهُمْ ، وَهَذَانِ الرَّجُلَانِ الْوَارِثَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَا هُمَا الْأَوْلَيَيْنِ بِالْمَيِّتِ ، أَيِ الْأَقْرَبَيْنِ إِلَيْهِ الْأَحَقَّيْنِ بِإِرْثِهِ إِنْ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ كَمَا تُفِيدُهُ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ أَوْ

غَيْرُهُمَا مِنْهُمْ ، كَمَا تُفِيدُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ (الْأَوَّلِينَ) وَهُوَ صِفَةٌ لِلَّذِينِ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمْ أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى الِاخْتِصَاصِ . وَتُحْمَلُ الْقِرَاءَةُ الْأُولَى عَلَى طَلَبِ الْأَكْمَلِ ، وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَقْرَبُ الْوَرَثَةِ إلَى الْمَيِّتِ . وَالْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى مَا إذَا مَنَعَ مَانِعٌ مِنْ إقْسَامِ أَقْرَبِ الْوَرَثَةِ ، أَوْ كَانَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي حَلِفِ غَيْرِهِ مِنْهُمْ لِامْتِيَازِهِ بِالسِّنِّ أَوِ الْفَضِيلَةِ ، هَذَا إذَا أُرِيدَ بِالْأَوْلَيَيْنِ الْأَوْلَيَانِ بِأَمْرِ الْمَيِّتِ الْمُوصِي ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِمَا الْأَوْلَيَانِ بِالْقَسَمِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، أَيْ أَجْدَرُ الْوَرَثَةِ بِالْيَمِينِ لِقُرْبِهِمَا مِنَ الْمَيِّتِ أَوْ لِعِلْمِهِمَا أَوْ لِفَضْلِهِمَا ، وَأَمَّا

(325/218)

قِرَاءَةُ حَفْصٍ عَنْ عَاصِمٍ وَبِهَا يَقْرَأُ أَهْلُ بِلَادِنَا فَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَوْجِيهِهَا : إنَّ " الْأَوْلَيَانِ " فِيهَا فَاعِلُ اسْتَحَقَّ وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ ، وَالتَّقْدِيرُ : مِنَ الْوَرَثَةِ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ بِأَمْرِ الْمَيِّتِ مِنْهُمْ مَا أَوْصَى بِهِ أَوْ مَا تَرَكَهُ أَوْ نَدَبَهُمَا لِلشَّهَادَةِ .

وَذَهَبَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ إلَى أَنَّ الْأَوْلَيَيْنِ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ هُمَا الْوَصِيَّانِ قَالَ : وَوَجْهُهُ أَنَّ الْوَصِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ ظَهَرَتْ خِيَانَتُهُمَا هُمَا أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمَا بِسَبَبِ أَنَّ الْمَيِّتَ عَيَّنَهُمَا لِلْوِصَايَةِ ، وَلَمَّا خَانَا فِي مَالِ الْوَرَثَةِ صَحَّ أَنْ يُقَالَ : إنَّ الْوَرَثَةَ قَدِ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ ، أَيْ خَانَ فِي مَالِهِمُ الْأَوْلَيَانِ ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ " الْأَوَّلَانِ " وَوَجْهُهُ ظَاهِرٌ مِمَّا تَقَدَّمَ اهـ .

أَقُولُ : الْوَجْهُ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنَّهُمَا " الْأَوْلَيَانِ " بِالْيَمِينِ فِي الْأَصْلِ ؛ لِأَنَّهُمَا مُنْكِرَانِ وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، وَكَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ الْإِضْمَارِ بِأَنْ يُقَالَ : مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّا عَلَيْهِمُ الْإِثْمَ فَوُضِعَ الْمُظْهَرُ وَهُوَ " الْأَوْلَيَانِ " مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِإِفَادَةِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الشَّرْعِ أَنْ تَكُونَ الْيَمِينُ عَلَيْهِمَا ، وَلَكِنَّ اسْتِحْقَاقَهُمَا الْإِثْمَ بِمَا ظَهَرَ مِنْ حِنْثِهِمَا اقْتَضَى رَدَّهَا أَيِ الْيَمِينَ إِلَى الْوَرَثَةِ (فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا) أَيْ يَحْلِفَانِ عَلَى أَنَّ مَا يَشْهَدَانِ بِهِ مِنْ خِيَانَةِ الشَّهِيدَيْنِ اللَّذَيْنِ شَهِدَا عَلَى وَصِيَّةِ مَيِّتِهِمَا أَحَقُّ وَأَصْدَقُ مِنْ شَهَادَتِهِمَا بِمَا كَانَا شَهِدَا بِهِ ، وَأَنَّهُمَا مَا اعْتَدَيَا عَلَيْهِمَا بِتُهْمَةٍ بَاطِلَةٍ أَوْ مَا اعْتَدَيَا الْحَقَّ فِيمَا اتَّهَمُوهُمَا بِهِ (إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) أَيْ وَيَقُولَانِ فِي قَسَمِهِمَا : إِنَّا إِذَا اعْتَدَيْنَا الْحَقَّ وَقُلْنَا الْبَاطِلَ لَدَاخِلُونَ فِي عِدَادِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِتَعْرِيضِهَا لِسُخْطِ اللَّهِ تَعَالَى وَانْتِقَامِهِ ، أَوِ الظَّالِمِينَ لِمَنِ ائْتَمَنَهُمَا مَيِّتُهُمْ ، وَظُلْمُهُمَا مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حِكْمَةَ شَرْعِهِ لِهَذِهِ الشَّهَادَةِ وَهَذِهِ الْأَيْمَانِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْمَبْنِيِّ عَلَى الثِّقَةِ وَالِائْتِمَانِ ، فَقَالَ :

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ) أَيْ ذَلِكَ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ تَكْلِيفِ الْمُؤْتَمَنِ عَلَى الْوَصِيَّةِ الْقِيَامَ عَلَى مَشْهَدٍ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَإِقْسَامَهُ تِلْكَ الْأَيْمَانَ الْمُغَلَّظَةَ أَقْرَبُ الْوَسَائِلِ إِلَى أَنْ يُؤَدِّيَ الشُّهَدَاءُ الشَّهَادَةَ عَلَى وَجْهِهَا بِلَا تَغْيِيرٍ وَلَا تَبْدِيلٍ ، تَعْظِيمًا لِلَّهِ وَرَهْبَةً مِنْ عَذَابِهِ ، وَرَغْبَةً فِي ثَوَابِهِ ، أَوْ خَوْفًا مِنَ الْفَضِيحَةِ الَّتِي تَعْقُبُ اسْتِحْقَاقَهُمَا الْإِثْمَ فِي الشَّهَادَةِ بِرَدِّ أَيْمَانٍ إِلَى الْوَرَثَةِ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ تَكُونُ مُبْطِلَةً لَهَا ، فَمَنْ لَمْ يَمْنَعْهُ خَوْفُ اللهِ وَتَعْظِيمُهُ أَنْ يَكْذِبَ أَوْ يَخُونَ لِضَعْفِ دِينِهِ يَمْنَعْهُ خَوْفُ الْفَضِيحَةِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ .

(وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) أَيْ وَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي الشَّهَادَةِ وَالْأَمَانَةِ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَاسْمَعُوا سَمْعَ إِجَابَةٍ وَقَبُولٍ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَسَائِرِ مَا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى لَكُمْ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّقُوا وَتَسْمَعُوا كُنْتُمْ فَاسِقِينَ عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى مَحْرُومِينَ مِنْ هِدَايَتِهِ مُسْتَحِقِّينَ لِعِقَابِهِ .

(إِيضَاحٌ لِتَفْسِيرِ الْآيَاتِ وَبَلَاغَتِهَا وَالِاسْتِنْبَاطِ مِنْهَا) .

(328/218)

قَالَ الرَّازِيُّ بَعْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ : اتَّفَقَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّهَا فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ إعْرَابًا وَنَظْمًا وَحُكْمًا ، وَرَوَى الْوَاحِدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْبَسِيطِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : " هَذِهِ الْآيَةُ أَعْضَلُ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ " اهـ .

وَأَوْرَدَ الْآلُوسِيُّ فِي رُوحِ الْمَعَانِي عِبَارَةَ الرَّازِيِّ عَنِ الْمُفَسِّرِينَ دُونَ رِوَايَةِ الْوَاحِدِيِّ عَنْ عُمَرَ ، ثُمَّ نَقَلَ مِثْلَهَا عَنِ السَّعْدِ التَّفْتَازَانِيِّ وَعَنِ الطَّبَرَسِيِّ فِي الْآيَتَيْنِ لَا الثَّانِيَةِ فَقَطْ وَقَالَ : إنَّ الطَّبَرَسِيَّ افْتَخَرَ بِمَا أَتَى فِيهِ وَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ .

أَقُولُ : نَحْنُ لَا يُرَوِّعُنَا مَا يَرَاهُ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ الصُّعُوبَةِ فِي إعْرَابِ بَعْضِ الْآيَاتِ أَوْ فِي حُكْمِهَا ; لِأَنَّ لَهُمْ مَذَاهِبَ فِي النَّحْوِ وَالْفِقْهِ يُزَيِّنُونَ بِهَا الْقُرْآنَ فَلَا يَفْهَمُونَهُ إلَّا مِنْهَا . وَالْقُرْآنُ فَوْقَ النَّحْوِ وَالْفِقْهِ وَالْمَذَاهِبِ كُلِّهَا ، فَهُوَ أَصْلُ الْأُصُولِ ، فَمَا وَافَقَهُ فَهُوَ مَقْبُولٌ وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ مَرْدُودٌ مَرْذُولٌ ، وَإِنَّمَا يُهِمُّنَا مَا يَقُولُهُ عُلَمَاءُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِيهِ فَهُوَ الْعَوْنُ الْأَكْبَرُ

(329/218)

لَنَا عَلَى فَهْمِهِ ، وَلَمْ يَرْوِ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى وُجْدَانِ شَيْءٍ مِنَ الصُّعُوبَةِ فِي عِبَارَةِ الْآيَتَيْنِ . وَمَا نَقَلَهُ الْوَاحِدِيُّ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي آيَةِ (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إثْمًا) (فَلَيْسَ مِمَّا يُؤَيِّدُ مَا نُقِلَ عَنِ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ اسْتِصْعَابِهَا . بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّ أَحْكَامَهَا أَشَدُّ

مِنْ سَائِرِ أَحْكَامِ السُّورَةِ ، وَلَعَلَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ مَا فِيهَا مِنَ التَّضْيِيقِ فِي رَدِّ أَيْمَانٍ بَعْدَ أَيْمَانٍ وَإِظْهَارِ فَضَائِحَ مَنْ كَذَبَ وَخَانَ . قَالَ فِي حَقِيقَةِ الْأَسَاسِ : عَضَلْتُ عَلَى فُلَانٍ ضَيَّقْتُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَحُلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُ . وَمِنْهُ النَّهْيُ عَنْ عَضْلِ النِّسَاءِ أَيْ مَنْعِهِنَّ مِنَ الزَّوَاجِ . وَلَكِنَّ أَصْحَابَ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ اضْطَرَبُوا فِي عِدَّةِ أَحْكَامٍ مِنْ أَحْكَامِهَا لِمَجِيئِهَا مُخَالِفَةً لِأَقْيِسَتِهِمْ وَلِمَا عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِثُبُوتِهِ فِي سَائِرِ الْأَحْكَامِ مِنْهَا حَلِفُ الشَّاهِدِ الْيَمِينَ ، وَمِنْهَا شَهَادَةُ غَيْرِ الْمُسْلِمِ فِيمَا هُوَ خَاصٌّ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْهَا الْعَمَلُ بِيَمِينِ الْمُدَّعِي ، وَقَدِ اجْتَهَدُوا فِي تَخْرِيجِ كُلِّ مَسْأَلَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ عَلَى الثَّابِتِ عِنْدَهُمْ كَمَا تَرَاهُ قَرِيبًا . حَتَّى ادَّعَوْا فِي بَعْضِهَا النَّسْخَ . وَرَوَوْهُ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِسَنَدٍ لَمْ يَصِحَّ ، فَلِهَذَا

(330/218)

رَأَيْنَا بَعْدَ تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ بِمَا يُفْهَمُ مِنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ بِالِاخْتِصَارِ أَنْ نَفْصِلَ مَا اشْتَمَلَتَا عَلَيْهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ ، لِيَظْهَرَ حَتَّى لِلضَّعِيفِ فِي عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ مَا فِيهِمَا مِنْ إِعْجَازِ الْإِيجَازِ ، وَمَا جَنَتْهُ الْمَذَاهِبُ النَّحْوِيَّةُ وَالْفِقْهِيَّةُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى قَالَ مَا قَالَ فِي الْآيَتَيْنِ أَشْهَرُهُمْ بِسَعَةِ الِاطِّلَاعِ أَوْ بِالدِّقَّةِ وَالذَّكَاءِ .

أَمَّا دَعْوَى النَّسْخِ ، فَقَدْ عُلِمَ مِمَّا سَلَفَ وَمِمَّا سَيَأْتِي قَرِيبًا مَا عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ مَنْسُوخٌ ، وَقَدْ حَرَّرَ الْمَسْأَلَةَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ فَقَالَ :

(331/218)

" وَمِنَ الشَّوَاهِدِ لِصِحَّةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَيْضًا مَا رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ قَالَ : أَخْبَرَنَا زَكَرِيَّا عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَتْهُ الصَّلَاةُ بِدُقُوقَا قَالَ : فَحَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُشْهِدُهُ عَلَى وَصِيَّتِهِ فَأَشْهَدَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . قَالَ : فَقَدِمَا الْكُوفَةَ فَأَتَيَا الْأَشْعَرِيَّ يَعْنِي أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخْبَرَاهُ وَقَدِمَا الْكُوفَةَ بِتَرِكَتِهِ وَوَصِيَّتِهِ ، فَقَالَ الْأَشْعَرِيُّ : هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ الَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ فَأَحْلَفَهُمَا بَعْدَ الْعَصْرِ بِاللَّهِ مَا خَانَا وَلَا كَذَبَا وَلَا بَدَّلَا وَلَا كَتَمَا وَلَا غَيَّرَا وَأَنَّهَا لَوَصِيَّةُ الرَّجُلِ وَتَرِكَتُهُ قَالَ فَأَمْضَى شَهَادَتَهُمَا . ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَلِيٍّ الْفَلَّاسِ عَنْ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ مُغِيرَةَ الْأَزْرَقِ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ أَبَا مُوسَى قَضَى بِهِ . وَهَذَانِ إِسْنَادَانِ صَحِيحَانِ إِلَى الشَّعْبِيِّ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فَقَوْلُهُ : " هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ الَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " الظَّاهِرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ قِصَّةَ تَمِيمٍ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ ، وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ إِسْلَامَ تَمِيمٍ

بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ سَنَةَ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ هَذَا الْحُكْمُ مُتَأَخِّرًا يَحْتَاجُ مُدَّعِي

(332/218)

نَسْخِهِ إلَى دَلِيلٍ فَاصِلٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ " .

ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ السُّدِّيَّ فِي الْآيَةِ الْأُولَى :

" قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إلَى الْعِلْجَيْنِ حِينَ انْتَهَى بِهِمَا إلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فِي دَارِهِ فَفَتَحَ الصَّحِيفَةَ ، فَأَنْكَرَ أَهْلُ الْمَيِّتِ وَخَوَّفُوهُمَا فَأَرَادَ أَبُو مُوسَى أَنْ يَسْتَحْلِفَهُمَا بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَقُلْتُ : إنَّهُمَا لَا يُبَالِيَانِ صَلَاةَ الْعَصْرِ ، وَلَكِنِ اسْتَحْلِفْهُمَا بَعْدَ صَلَاتِهِمَا فِي دِينِهِمَا ، فَيُوقَفُ الرَّجُلَانِ بَعْدَ صَلَاتِهِمَا فِي

دِينِهِمَا فَيَحْلِفَانِ بِاللَّهِ (لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إنَّا إذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ) أَنَّ صَاحِبَهُمَا لَبِهَذَا أَوْصَى وَأَنَّ هَذِهِ لَتَرِكَتُهُ . فَيَقُولُ لَهُمَا الْإِمَامُ أَيِ الْحَاكِمُ قَبْلَ أَنْ يَحْلِفَا : إنَّكُمَا إنْ كَتَمْتُمَا أَوْ خُنْتُمَا فَضَحْتُكُمَا فِي قَوْمِكُمَا وَلَمْ تَجُزْ لَكُمَا شَهَادَةٌ وَعَاقَبْتُكُمَا . فَإِذَا قَالَ لَهُمَا ذَلِكَ فَإِنَّ (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا) رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ كَثِيرٍ .

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ : " وَلَمْ تَجُزْ لَكُمَا شَهَادَةٌ " فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وَسَيَأْتِي لِبَحْثِ دَعْوَى النَّسْخِ وَاسْتِشْكَالِ الْفُقَهَاءِ مَزِيدُ بَيَانٍ قَرِيبًا .

وَأَمَّا الْفَوَائِدُ وَالْأَحْكَامُ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا الْآيَتَانِ بِإِيجَازِهِمَا ، فَهَاكَ مَا يَتَبَادَرُ إلَى الذِّهْنِ مِنْهَا :

(333/218)

---

(1) الْحَثُّ عَلَى الْوَصِيَّةِ وَتَأْكِيدُ أَمْرِهَا وَعَدَمُ التَّهَاوُنِ فِيهَا بِشَوَاغِلِ السَّفَرِ وَإِنْ قُصِرَتْ فِيهِ الصَّلَاةُ وَأُبِيحَ فِيهِ الْإِفْطَارُ فِي رَمَضَانَ .

(2) الْإِشْهَادُ عَلَى الْوَصِيَّةِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ ; لِيَكُونَ أَمْرُهَا أَثْبَتَ وَالرَّجَاءُ فِي تَنْفِيذِهَا أَقْوَى ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَيَكْتُبُونَ وَصِيَّتَهُمْ وَلَا يُشْهِدُونَ أَحَدًا عَلَيْهَا ; فَيَكُونُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ سَبَبًا لِضَيَاعِهَا .

(3) أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِشْهَادِ عَلَى الْوَصِيَّةِ أَنْ يُخْتَارَ الشَّاهِدَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوْثُوقِ بِعَدَالَتِهِمْ كَمَا ثَبَتَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى أَيْضًا ; وَحِكْمَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِنْ وُجُودِهِ لَا حَاجَةَ إلَى شَرْحِهَا .

(4) أَنَّ إشْهَادَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْوَصِيَّةِ جَائِزٌ مَشْرُوعٌ ; فَإِنْ وَجَبَتِ الْوَصِيَّةُ وَجَبَ بِشَرْطِهِ وَإِلَّا فَهُوَ مَنْدُوبٌ ; لِأَنَّ مَقْصِدَ الشَّارِعِ مِنْ إثْبَاتِ الْوَصِيَّةِ لَا يُتْرَكُ أُلْبَتَّةَ إذَا لَمْ يَتَيَسَّرْ

إقَامَتُهُ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ؛ إذِ الْمَيْسُورُ لَا يَسْقُطُ بِالْمَعْسُورِ . وَالْمَقَامُ هُنَا مَقَامُ إثْبَاتِ الْحُقُوقِ لَا مَقَامَ التَّعَبُّدِ الَّذِي يُشْتَرَطُ فِيهِ الْإِيمَانُ . وَلَا مَقَامَ التَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيمِ لِلْأَدْيَانِ وَأَهْلِ الْأَدْيَانِ .

(5) أَنَّ الشَّهَادَةَ تَشْمَلُ مَا يَقُولُهُ كُلٌّ مِنَ الْخَصْمَيْنِ مِنْ إقْرَارٍ فِي الْقَضِيَّةِ أَوْ إنْكَارٍ وَنَفْيٍ لِلْمُدَّعِي بِهِ أَوْ إثْبَاتٍ .

(6) شَرْعِيَّةُ اخْتِيَارِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي قُلُوبِ الشُّهُودِ وَمُقْسِمِي الْأَيْمَانِ

(334/218)

وَيُرْجَى أَنْ يَصْدُقُوا وَيَبَرُّوا فِيهَا كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَعْلِيلِ الْقَسَمِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، وَمِثْلُهُ فِي ذَلِكَ اخْتِيَارُ الْمَكَانِ

(335/218)

وَهُوَ مَشْرُوعٌ أَيْضًا ، وَمِمَّا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ

وَصَحَّحُوهُ عَنْ جَابِرٍ مَرْفُوعًا : " لَا يَحْلِفُ أَحَدٌ عِنْدَ مِنْبَرِي كَاذِبًا إلَّا تَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ "

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ حَدِيثٌ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ أَحْمَدَ وَابْنِ مَاجَهْ ، وَرَوَى النَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ رَفَعَهُ : " مَنْ حَلَفَ عِنْدَ مِنْبَرِي هَذَا بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ يَسْتَحِلُّ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا "

وَاسْتَدَلَّ بِالْآيَةِ وَبِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ جَمَاهِيرُ الْفُقَهَاءِ عَلَى جَوَازِ التَّغْلِيظِ عَلَى الْحَالِفِ بِمَكَانٍ مُعَيَّنٍ ثَبَتَتْ حُرْمَتُهُ شَرْعًا كَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَخَاصَّةً مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَمَقَامِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَخَاصَّةً مَا كَانَ مِنْهُ عِنْدَ مِنْبَرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِالزَّمَانِ كَيَوْمِ الْجُمُعَةِ وَبَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ وَمِنْهُمُ الْحَنَفِيَّةُ إنَّ مَا ذُكِرَ مِنَ النُّصُوصِ لَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَعَلَّهُ لَا يُنْكِرُ أَحَدٌ التَّغْلِيظَ بِمَا وَرَدَ فِيهَا ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي الْقِيَاسِ عَلَيْهَا أَوِ الْأَخْذِ بِفَحْوَاهَا .

(336/218)

وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْأَيْمَانُ تُغَلَّظُ فِي الدِّمَاءِ وَالطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ وَالْمَالِ إذَا بَلَغَ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ فَيَحْلِفُ بِمَكَّةَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ وَبِالْمَدِينَةِ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ، وَفِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ . وَفِي سَائِرِ الْبُلْدَانِ فِي أَشْرَفِ

الْمَسَاجِدِ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : يَحْلِفُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْتَصَّ الْحَلِفُ بِزَمَانٍ وَمَكَانٍ وَهَذَا عَلَى خِلَافِ الْآيَةِ ، وَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ التَّهْوِيلُ وَالتَّعْظِيمُ وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي قَالَهُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْوَى اهـ .

هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهَا بِالتَّعَصُّبِ فَلَا يُقَالُ إنَّ أَبَا حَنِيفَةَ خَالَفَ الْآيَةَ إلَّا إذَا أَجَازَ تَرْكَ الْعَمَلِ بِمَنْطُوقِهَا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ نَفْسِهِ .

(7) التَّغْلِيظُ عَلَى الْحَالِفِ بِصِيغَةِ الْيَمِينِ بِأَنْ يَقُولَ فِيهِ مَا يُرْجَى أَنْ يَكُونَ رَادِعًا لِلْحَالِفِ عَنِ الْكَذِبِ كَالْأَلْفَاظِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْآيَةِ ، وَأَشَدُّ مِنْهَا مَا وَرَدَ فِي شَهَادَةِ اللِّعَانِ ، وَقَدْ جَرَى عَلَى هَذَا أَصْحَابُ الْجَمْعِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِ ، فَاخْتَرَعُوا أَيْمَانًا وَأَقْسَامًا قَدْ يَتَحَامَى أَفْسَقُ النَّاسِ وَأَجْرَؤُهُمْ عَلَى الْإِجْرَامِ أَنْ يَحْنَثَ بِهَا وَقَدْ بَيَّنَّا مَا يَجِبُ الْبِرُّ بِهِ وَمَا يَجِبُ الْحِنْثُ بِهِ مِنَ الْأَيْمَانِ وَسَائِرِ مُهِمَّاتِ أَحْكَامِهَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ كَفَّارَتِهَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(337/218)

---

(8) أَنَّ الْأَصْلَ فِي أَخْبَارِ النَّاسِ وَشَهَادَاتِهِمُ الَّتِي هِيَ أَخْبَارٌ مُؤَكَّدَةٌ صَادِرَةٌ عَنْ عِلْمٍ صَحِيحٍ أَنْ تَكُونَ مَقْبُولَةً مُصَدَّقَةً; وَلِهَذَا شَرَطَ فِي حُكْمِ تَحْلِيفِ الشَّاهِدَيْنِ الِارْتِيَابَ فِي

خَبَرِهِمَا . وَصَدَّرَ هَذَا الشَّرْطَ بِأَنَّ الَّتِي لَا تَدُلُّ عَلَى تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ; إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي وُقُوعِهَا أَنْ يَكُونَ شَاذًّا .

(9) أَنَّ الْأَصْلَ فِي النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا أُمَنَاءَ ، وَفِي الْمُؤْتَمَنِ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا ، وَأَنْ يَكُونَ مَا يَقُولُهُ فِي أَمْرِ الْأَمَانَةِ مَقْبُولًا ; وَلِذَلِكَ قَالَ : (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا) فَأَفَادَتْ أَدَاةُ الشَّرْطِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي هَذَا أَلَّا يَقَعَ ، وَأَنَّهُ إِنْ وَقَعَ كَانَ شَاذًّا . وَأَفَادَ فِعْلُ " عُثِرَ " الْمَبْنِيُّ لِلْمَفْعُولِ أَنَّ هَذَا الشُّذُوذَ إِنْ وَقَعَ فَشَأْنُهُ أَنْ يُطَّلَعَ عَلَيْهِ بِالْمُصَادَفَةِ وَالِاتِّفَاقِ ، لَا بِالْبَحْثِ وَتَتَبُّعِ الْعَثَرَاتِ .

(10) شَرْعِيَّةُ تَحْلِيفِ الشُّهُودِ إِذَا ارْتَابَ الْحُكَّامُ أَوِ الْخُصُومُ فِي شَهَادَتِهِمْ ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْعَمَلُ الْآنَ فِي أَكْثَرِ الْأُمَمِ ، بَلْ تُحَتِّمُهُ قَوَانِينُهَا الْوَضْعِيَّةُ بِاطِّرَادٍ لِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ مِنْ شَهَادَةِ الزُّورِ وَسَيَأْتِي بَحْثُ الْفُقَهَاءِ فِي ذَلِكَ .

(11 ، 12) شَرْعِيَّةُ ائْتِمَانِ الْمُسْلِمِ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمَالِ ، وَشَرْعِيَّةُ تَحْلِيفِ الْمُؤْتَمَنِ وَالْعَمَلِ بِيَمِينِهِ .

(338/218)

---

(13) شَرْعِيَّةُ رَدِّ الْيَمِينِ إِلَى مَنْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى ضَيَاعِ حَقٍّ لَهُ بِيَمِينٍ صَارَ حَالِفُهَا خَصْمًا لَهُ وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ شَهَادَةُ الْمُتَلَاعِنَيْنِ وَأَقْسَامُهُمَا ، فَإِذَا شَهِدَ الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَتِهِ بِالزِّنَا تِلْكَ

الشَّهَادَةَ الْمَشْرُوعَةَ فِي سُورَةِ النُّورِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْقَسَمِ الْمُغَلَّظِ تُرَدُّ الشَّهَادَةُ مَعَ الْيَمِينِ إلَى زَوْجِهِ الَّتِي رَمَاهَا بِذَلِكَ ، فَإِذَا شَهِدَتْ بِاللَّهِ مِثْلَ شَهَادَتِهِ سَقَطَ عَنْهَا الْحَدُّ وَبُرِّئَتْ مِنَ التُّهْمَةِ فِي شَرْعِ اللَّهِ ، وَبِالنِّسْبَةِ إلَى غَيْرِهِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ . وَمِنْهُ أَيْمَانُ الْقَسَامَةِ فِي الدِّمَاءِ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيمَنْ يَبْدَأُ بِالْيَمِينِ الْمُدَّعُونَ ذَوُو الْقَتِيلِ ، أَمِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِمْ ذَوُو الْمُتَّهَمِ بِالْقَتْلِ ؟ وَأَيًّا مَا كَانَ الْبَادِئُونَ فَإِنَّ الْأَيْمَانَ تُرَدُّ إلَى الْآخَرِينَ .

(14) إذَا احْتِيجَ إلَى قِيَامِ بَعْضِ الْوَرَثَةِ لِمَيِّتٍ بِأَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِالتَّرِكَةِ فَالَّذِي يَجِبُ تَقْدِيمُهُ مِنْهُمْ لِلْقِيَامِ بِهِ مَنْ كَانَ أَوْلَاهُمْ بِهِ . وَمِنْ بَلَاغَةِ الْإِيجَازِ إبْهَامُ الْأَوَّلِينَ بِالْقَسَمِ فِي الْآيَةِ لِاخْتِلَافِ الْأَوْلَوِيَّةِ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْوَقَائِعِ كَمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ ، فَإِذَا تَعَيَّنَ أَصْحَابُ الْأَوْلَوِيَّةِ بِلَا نِزَاعٍ فَذَاكَ ، وَإِلَّا فَالْحَاكِمُ هُوَ الَّذِي يُقَدِّمُ مَنْ يَرَاهُ الْأَوْلَى .

(15) صِحَّةُ شَهَادَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ وَالْعَمَلُ بِهَا فِي الْجُمْلَةِ ، وَأَخَّرْنَاهُ لِيَتَّصِلَ بِمَا نُوَضِّحُهُ فِي الْفَصْلِ الْآتِي .

(339/218)

كُلُّ هَذِهِ الْأَحْكَامِ مَفْهُومَةٌ مِنَ الْآيَتَيْنِ ، فَتَأَمَّلْ جَمْعَهُمَا لِهَذِهِ الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ عَلَى إيجَازِهِمَا وَإِيضَاحِهِمَا لِلْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِهِمَا بِالذَّاتِ .

فَصْلٌ فِي حُكْمِ شَهَادَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

هَذَا بَحْثٌ شَرْعِيٌّ يَجِبُ أَنْ نُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنَ الِاسْتِقْلَالِ فِي الِاسْتِدْلَالِ فَنَقُولُ : اعْلَمْ أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ فِي الْإِشْهَادِ وَالِاسْتِشْهَادِ مِنْهَا الْمُطْلَقُ وَمِنْهَا الْمُقَيَّدُ . قَالَ تَعَالَى فِي اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ : (فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ) (4 : 15) الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْمُطَلَّقَاتِ الْمُعْتَدَّاتِ : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) (65 : 2) وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ التَّدَايُنِ : (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) ثُمَّ قَالَ فِيهَا : (وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ) (2 : 282) وَلَمْ يَقُلْ هُنَا : " ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ " وَمَثَلُهُ فِي الْإِطْلَاقِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْيَتَامَى : (فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ) (4 : 6) .

(340/218)

فَإِذَا تَأَمَّلْنَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مَعَ آيَتَيِ الْمَائِدَةِ اللَّتَيْنِ نَحْنُ فِي صَدَدِ تَفْسِيرِهِمَا وَبَحَثْنَا عَنْ حِكْمَةِ الْإِطْلَاقِ وَالتَّقْيِيدِ فِيهِنَّ كُلِّهِنَّ ، نَرَى أَنَّهُ جَلَّ وَعَزَّ اشْتَرَطَ فِي الِاسْتِشْهَادِ أَوِ الْإِشْهَادِ فِي الْوَقَائِعِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأُمُورِ الْمُؤْمِنَاتِ الشَّخْصِيَّةِ أَنْ يَكُونَ الْإِشْهَادُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَذْكُرْ

هَذَا الْقَيْدَ فِي الْإِشْهَادِ عَلَى دَفْعِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى إِلَيْهِمْ ، وَلَا فِي الْإِشْهَادِ عَلَى الْبَيْعِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْأَحْكَامِ الْمَالِيَّةِ الْمَحْضَةِ وَأَحْكَامِ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ جَلِيٌّ وَاضِحٌ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي آيَةِ الدَّيْنِ وَهِيَ فِي الْأَحْكَامِ الْمَالِيَّةِ : (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ) فَظَاهِرُ اللَّفْظِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الرِّجَالُ الْمُؤْمِنُونَ لِأَنَّهُمُ الْمُخَاطَبُونَ ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجَمَاهِيرُ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَصْفُ لِأَجْلِ بَيَانِ تَقْدِيمِ صِنْفِ الرِّجَالِ فِي الشَّهَادَةِ عَلَى مَا يُقَابِلُهُ مِنْ شَهَادَةِ الصِّنْفَيْنِ ، وَأَنَّ الْإِضَافَةَ فِيهِ رُوعِيَ فِيهَا الْوَاقِعُ أَوِ الْغَالِبُ بِقَرِينَةِ وَصْفِ الْمُقَابِلِ بِقَوْلِهِ : (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) إِذْ لَمْ يَقُلْ : " مِنْ شُهَدَائِكُمْ " أَوْ " مِنْ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ " تَمَّ بِقَرِينَةِ إِطْلَاقِ الْأَمْرِ بِالْإِشْهَادِ عَلَى الدَّيْنِ فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا .

(341/218)

فَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ : لَوْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُشْهِدَ فِي الْأَعْمَالِ الْمَالِيَّةِ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ لَجَاءَ فِي كُلِّ نَصٍّ مِنْ تِلْكَ النُّصُوصِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ تَقَارَبَتْ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) (4 : 83) وَإِنَّمَا يَدُلُّ مَجْمُوعُ الْآيَاتِ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ أَوِ الْكَمَالَ فِي الْإِشْهَادِ أَنْ يَكُونَ الشُّهُودُ مِنْ عُدُولِ الْمُؤْمِنِينَ لِلثِّقَةِ بِشَهَادَتِهِمْ ، وَالِاحْتِرَازِ مِنَ الْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالْخِيَانَةِ الَّتِي

يَكْثُرُ وُقُوعُهَا مِمَّنْ لَا ثِقَةَ بِأَيْمَانِهِمْ وَعَدَالَتِهِمْ ، وَأَنْ يَلْتَزِمَ هَذَا الْأَصْلَ فِي الْإِشْهَادِ عَلَى الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ بِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَبُيُوتِهِمْ إذْ لَا يَحْتَاجُ فِيهَا إلَى غَيْرِهِمْ ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ سِوَاهُمْ أَنْ يَعْرِفَهَا ، وَلِوُجُوبِ الِاحْتِيَاطِ فِيهَا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِي آيَةِ الطَّلَاقِ : (ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) وَوُرُودُ نَصِّ الْقُرْآنِ فِيمَنْ يَقْذِفُ امْرَأَةً بِأَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَأَلَّا تُقْبَلَ لَهُ شَهَادَةٌ أَبَدًا .

(342/218)

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا يُقَالُ فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ : إنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّمَ إشْهَادَ عُدُولِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَصِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ عَلَى الْوَجْهِ الْكَامِلِ ، وَأَجَازَ إشْهَادَ غَيْرِهِمْ فِي الْحَالِ الَّتِي لَا يَتَيَسَّرُ فِيهَا ذَلِكَ ، وَإِنَّ الشَّرْطَ فِي قَوْلِهِ : (إنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ) جَاءَ لِبَيَانِ هَذَا الْحَالِ فَمَفْهُومُهُ غَيْرُ مُرَادٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) (24 : 33) وَمَنْ يَرَى رَأْيَ الْحَنَفِيَّةِ فِي عَدَمِ الِاحْتِجَاجِ بِمَفْهُومِ الشَّرْطِ وَمَفْهُومِ اللَّقَبِ يُمْكِنُهُ أَنْ يُرَجِّحَ هَذَا الْقَوْلَ أَيَّ تَرْجِيحٍ ، وَالْكَلَامُ فِيمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ ، دُونَ مَا يُدَّعَى فِيهِ غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ قِيَاسٍ أَوْ إجْمَاعِ فُقَهَاءَ .

وَدُونَكَ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ عَنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ الْفِقْهِ كَمَا لَخَّصَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي

شَرْحِ الْبُخَارِيِّ وَنَقَلَهُ الشَّوْكَانِيُّ عَنْهُ فِي (نَيْلِ الْأَوْطَارِ) فِي شَرْحِ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَّةِ السَّهْمِيِّ الْمُتَقَدِّمَةِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ قَالَ :

(343/218)

" وَاسْتُدِلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى جَوَازِ شَهَادَةِ الْكُفَّارِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْغَيْرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْكُفَّارُ ، وَالْمَعْنَى (مِنْكُمْ) أَيْ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ (أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) أَيْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ دِينِكُمْ ، وَبِذَلِكَ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَنْ تَبِعَهُ ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّهُ لَا يَقُولُ بِظَاهِرِهَا ، فَلَا يُجِيزُ شَهَادَةَ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . وَإِنَّمَا يُجِيزُ شَهَادَةَ بَعْضِ الْكُفَّارِ عَلَى بَعْضٍ . وَأُجِيبَ بِأَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ بِمَنْطُوقِهَا عَلَى قَبُولِ شَهَادَةِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِ ، وَبِإِيمَائِهَا عَلَى قَبُولِ شَهَادَةِ الْكَافِرِ عَلَى الْكَافِرِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ، ثُمَّ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ شَهَادَةَ الْكَافِرِ عَلَى الْمُسْلِمِ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ فَبَقِيَتْ شَهَادَةُ الْكَافِرِ عَلَى الْكَافِرِ عَلَى حَالِهَا ، وَهَذَا الْجَوَابُ عَلَى التَّعَقُّبِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ ؛ لِأَنَّ التَّعَقُّبَ هُوَ بِاعْتِبَارِ مَا يَقُولُهُ أَبُو حَنِيفَةَ لَا بِاعْتِبَارِ اسْتِدْلَالِهِ .

" وَخَصَّ جَمَاعَةٌ الْقَبُولَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَبِالْوَصِيَّةِ وَبِفَقْدِ الْمُسْلِمِ حِينَئِذٍ ، وَمِنْهُمُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَشُرَيْحٌ وَابْنُ سِيرِينَ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَأَبُو

عُبَيْدَةَ وَأَحْمَدُ ، وَأَخَذُوا بِظَاهِرِ الْآيَةِ وَحَدِيثِ الْبَابِ ، فَإِنَّ سِيَاقَهُ مُطَابِقٌ لِظَاهِرِ الْآيَةِ .

" وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْغَيْرِ غَيْرُ الْعَشِيرَةِ ، وَالْمَعْنَى مِنْكُمْ أَيْ مِنْ عَشِيرَتِكُمْ ، أَوْ آخَرَانِ مِنْ

(344/218)

غَيْرِكُمْ أَيْ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَتِكُمْ ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَاسْتَدَلَّ لَهُ النَّحَّاسُ بِأَنْ لَفْظِ " آخَرَ " لَا بُدَّ أَنْ يُشَارِكَ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الصِّفَةِ حَتَّى لَا يَسُوغَ أَنْ يَقُولَ : مَرَرْتُ بِرَجُلٍ كَرِيمٍ وَلَئِيمٍ آخَرَ ، فَعَلَى هَذَا فَقَدْ وُصِفَ الِاثْنَانِ بِالْعَدَالَةِ ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْآخَرَانِ كَذَلِكَ وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ هَذَا وَإِنْ سَاغَ فِي الْآيَةِ لَكِنَّ الْحَدِيثَ دَلَّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ، وَالصَّحَابِيُّ إِذَا حَكَى سَبَبَ النُّزُولِ كَانَ ذَلِكَ فِي حُكْمِ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ اتِّفَاقًا وَأَيْضًا فَفِيمَا قَالَ رَدَّ الْمُخْتَلَفَ فِيهِ بِالْمُخْتَلَفِ فِيهِ ؛ لِأَنَّ اتِّصَافَ الْكَافِرِ بِالْعَدَالَةِ مُخْتَلَفٌ فِيهِ وَهُوَ فَرْعُ قَبُولِ شَهَادَتِهِ ، فَمَنْ قَبِلَهَا وَصَفَهُ بِهَا وَمَنْ لَا فَلَا .

وَاعْتَرَضَ أَبُو حَيَّانَ عَلَى الْمِثَالِ الَّذِي ذَكَرَهُ النَّحَّاسُ بِأَنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ ، فَلَوْ قُلْتَ جَاءَنِي رَجُلٌ مُسْلِمٌ وَآخَرُ كَافِرٌ صَحَّ ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قُلْتَ جَاءَنِي رَجُلٌ مُسْلِمٌ وَكَافِرٌ آخَرُ وَالْآيَةُ مِنْ قَبِيلِ الْأَوَّلِ لَا الثَّانِي ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ آخَرَانِ مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ اثْنَانِ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا صِفَةُ رَجُلَانِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ فَرَجُلَانِ اثْنَانِ وَرَجُلَانِ آخَرَانِ .

(345/218)

" وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) وَاحْتَجُّوا بِالْإِجْمَاعِ عَلَى رَدِّ شَهَادَةِ الْفَاسِقِ ، وَالْكَافِرُ شَرٌّ مِنَ الْفَاسِقِ .

وَأَجَابَ الْأَوَّلُونَ أَنَّ النَّسْخَ لَا يَثْبُتُ بِالِاحْتِمَالِ ، وَأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ أَوْلَى مِنْ إِلْغَاءِ أَحَدِهِمَا ، وَبِأَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، حَتَّى صَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ وَعَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ وَجَمْعٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ مُحْكَمَةٌ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيمَنْ مَاتَ مُسَافِرًا وَلَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنِ اتُّهِمَا اسْتُحْلِفَا . أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ بِإِسْنَادٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ ، وَأَنْكَرَ أَحْمَدُ عَلَى مَنْ قَالَ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ عَمِلَ بِذَلِكَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَاقَ الْحَافِظُ الْحَدِيثَ وَقَالَ : إِنْ حُكْمَهُ لَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ فَكَانَ حُجَّةً ، وَذَكَرَ رَدَّ الطَّبَرِيِّ وَالرَّازِيِّ لِقَوْلِ مَنْ قَالَ : إِنَّهَا فِي الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ كُلُّهُ ثُمَّ قَالَ :

(346/218)

" وَذَهَبَ الْكَرَابِيسِيُّ وَالطَّبَرِيُّ وَآخَرُونَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّهَادَةِ فِي الْآيَةِ الْيَمِينُ قَالُوا : وَقَدْ سَمَّى اللهُ الْيَمِينَ شَهَادَةً فِي آيَةِ اللِّعَانِ ، وَأَيَّدُوا ذَلِكَ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ الشَّاهِدَ لَا يَلْزَمُهُ أَنْ يَقُولَ أَشْهَدُ بِاللهِ ، وَأَنَّ الشَّاهِدَ لَا يَمِينَ عَلَيْهِ إِنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ، قَالُوا : فَالْمُرَادُ بِالشَّهَادَةِ الْيَمِينُ لِقَوْلِهِ : (فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ) أَيْ يَحْلِفَانِ ، فَإِنْ عُرِفَ أَنَّهُمَا حَلَفَا عَلَى الْإِثْمِ رَجَعَتِ الْيَمِينُ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ الْيَمِينَ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ عَدَدٌ وَلَا عَدَالَةٌ بِخِلَافِ الشَّهَادَةِ وَقَدِ اشْتُرِطَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَقَوِيَ حَمْلُهَا عَلَى أَنَّهَا شَهَادَةٌ .

" وَأَمَّا اعْتِلَالُ مَنِ اعْتَلَّ فِي رَدِّهَا بِأَنَّ الْآيَةَ تُخَالِفُ الْقِيَاسَ وَالْأُصُولَ لِمَا فِيهَا مِنْ قَبُولِ

(347/218)

شَهَادَةِ الْكَافِرِ وَحَبْسِ الشَّاهِدِ وَتَحْلِيفِهِ ، وَشَهَادَةِ الْمُدَّعِي لِنَفْسِهِ ، وَاسْتِحْقَاقِهِ بِمُجَرَّدِ الْيَمِينِ فَقَدْ أَجَابَ مَنْ قَالَ بِهِ بِأَنَّهُ حُكْمٌ بِنَفْسِهِ مُسْتَغْنٍ عَنْ نَظِيرِهِ ، وَقَدْ قُبِلَتْ شَهَادَةُ الْكَافِرِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ كَمَا فِي الطِّبِّ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحَبْسِ السِّجْنَ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْإِمْسَاكُ لِلْيَمِينِ لِيَحْلِفَ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، وَأَمَّا تَحْلِيفُ الشَّاهِدِ فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِهَذِهِ الصُّورَةِ عِنْدَ قِيَامِ الرِّيبَةِ ، وَأَمَّا شَهَادَةُ الْمُدَّعِي لِنَفْسِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ بِمُجَرَّدِ الْيَمِينِ فَإِنَّ الْآيَةَ تَضَمَّنَتْ نَقْلَ الْأَيْمَانِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ ظُهُورِ اللَّوْثِ بِخِيَانَةِ الْوَصِيَّيْنِ ، فَيُشْرَعُ لَهُمَا أَنْ يَحْلِفَا وَيَسْتَحِقَّا ، كَمَا يُشْرَعُ

لِمُدَّعِي الْقَسَامَةِ أَنْ يَحْلِفَ وَيَسْتَحِقَّ . فَلَيْسَ هُوَ مِنْ شَهَادَةِ الْمُدَّعِي لِنَفْسِهِ بَلْ مِنْ بَابِ الْحُكْمِ لَهُ بِيَمِينِهِ الْقَائِمَةِ مَقَامَ الشَّهَادَةِ لِقُوَّةِ جَانِبِهِ . وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ ظُهُورِ اللَّوْثِ فِي صِحَّةِ الدَّعْوَى بِالدَّمِ وَظُهُورِهِ فِي صِحَّةِ الدَّعْوَى بِالْمَالِ ؟ وَحَكَى الطَّبَرِيُّ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) الْوَصِيَّانِ : قَالَ : وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) مَعْنَى الْحُضُورِ لِمَا يُوصِيهِمَا بِهِ الْوَصِيُّ ثُمَّ زَيْفُ ذَلِكَ " اهـ .

(348/218)

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ بَعْدَ نَقْلِ مَا تَقَدَّمَ عَنِ الْفَتْحِ . وَهَذَا الْحُكْمُ يَخْتَصُّ بِالْكَافِرِ الذِّمِّيِّ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ الَّذِي لَيْسَ بِذِمِّيٍّ فَقَدْ حَكَى فِي الْبَحْرِ الْإِجْمَاعَ عَلَى عَدَمِ قَبُولِ شَهَادَتِهِ عَلَى الْمُسْلِمِ مُطْلَقًا انْتَهَى . وَأَقُولُ : مَا أَوْرَدَهُ الشَّوْكَانِيُّ مِنْ دَعْوَى صَاحِبِ الْبَحْرِ مِنْ أَئِمَّةِ الزَّيْدِيَّةِ الْإِجْمَاعَ عَلَى عَدَمِ قَبُولِ شَهَادَةِ الْكَافِرِ غَيْرِ الذِّمِّيِّ مُطْلَقًا مَرْدُودٌ بِمَا نَقَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَاخْتَارَ أَنَّ " غَيْرِكُمْ " يَدْخُلُ فِيهِ الْمَجُوسُ وَعَبَدَةُ الْأَوْثَانِ وَأَهْلُ كُلِّ دِينٍ .

سَعَةُ أَحْكَامِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَضْيِيقُ الْفُقَهَاءِ :

(349/218)

وَبَقِيَ هَهُنَا بَحْثٌ مُهِمٌّ ، وَهُوَ أَنَّ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَفِي غَيْرِهَا أَوْسَعُ مِمَّا جَرَى عَلَيْهِ الْفُقَهَاءُ ، وَكَذَلِكَ أَحْكَامُ السُّنَّةِ ، وَكُلُّ مَا فِي الْفِقْهِ مِنَ التَّشْدِيدِ وَالتَّقْيِيدِ فَهُوَ مِنَ اجْتِهَادِ الْفُقَهَاءِ ، وَلَا سِيَّمَا الْمُصَنِّفِينَ مِنْهُمُ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ . وَأَوْلَى الْأَحْكَامِ الِاجْتِهَادِيَّةِ بِالنَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ كِبَارُ الْمُجْتَهِدِينَ ، وَجَرَى عَلَيْهِ عَمَلُ حُكَّامِ الْعُصُورِ الْأُولَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْهُ عَدَمُ قَبُولِ شَهَادَةِ الْكَافِرِ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي الْقَضَايَا الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ وَالْجِنَائِيَّةِ عَلَى سَوَاءٍ ، فَمَا سَبَبُ ذَلِكَ ؟ وَلِمَاذَا لَمْ يَأْخُذُوا بِظَاهِرِ آيَةِ الْمَائِدَةِ وَهِيَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فَيَعُدُّوهَا شَارِعَةً لِقَبُولِ شَهَادَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِ عِنْدَ الْحَاجَةِ مُطْلَقًا ، أَوْ فِي غَيْرِ مَا وَرَدَ النَّصُّ بِإِشْهَادِ الْمُسْلِمِينَ الْعُدُولِ عَلَيْهِ لِحِكْمَةٍ تَقْتَضِي ذَلِكَ ، كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا فِي بَيَانِ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ آيَاتِ الشَّهَادَةِ ؟ أَوْ لَيْسَ الْغَرَضُ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَكُونَ بَيِّنَةً يُعْرَفُ بِهَا الْحَقُّ ، وَقَدْ يَتَوَقَّفُ بَيَانُهُ عَلَى شَهَادَةِ شُهَدَاءَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَثِقُ الْحَاكِمُ بِصِدْقِهِمْ وَصِحَّةِ شَهَادَتِهِمْ ؟ .

الْجَوَابُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ يُعْلَمُ بِالنَّظَرِ فِيمَا اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى مَنْعِ شَهَادَةِ الْكَافِرِ وَبِمَعْرِفَةِ

حَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْكُفَّارِ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ وَعَصْرِ وَضْعِ الْفِقْهِ وَالتَّصْنِيفِ فِيهِ وَعَمَلِ الْحُكَّامِ بِاجْتِهَادِهِمْ ثُمَّ بِأَقْوَالِ عُلَمَائِهِ .

فَأَمَّا الِاسْتِدْلَالُ فَقَدْ عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ لَهُ مِنَ الْقُرْآنِ مَأْخَذَيْنِ :

(الْمَأْخَذُ الْأَوَّلُ) : جَعْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ) مُقَيِّدًا لِلْإِطْلَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ) وَفِي هَذَا الِاسْتِدْلَالِ أَبْحَاثٌ .

(أَحَدُهَا) : أَنَّهُ مِنْ مَسَائِلِ الْأُصُولِ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا الْمُتَفَقِّهُونَ عَلَى مَنْعِ شَهَادَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ ، وَقَدِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْمُطْلَقَ وَالْمُقَيَّدَ إِذَا اخْتَلَفَا فِي السَّبَبِ وَالْحُكْمِ لَا يُحْمَلُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ ، وَإِذَا اتَّفَقَا فَالْخِلَافُ فِي عَدَمِ الْحَمْلِ ضَعِيفٌ وَالْجُمْهُورُ عَلَى الْحَمْلِ ، وَأَمَّا إِذَا اخْتَلَفَا فِي السَّبَبِ دُونَ الْحُكْمِ كَمَسَائِلِ الْإِشْهَادِ عَلَى النِّسَاءِ وَالْيَتَامَى وَالْبَيْعِ وَالْوَصِيَّةِ وَكَذَا عِتْقُ الرَّقَبَةِ فِي كَفَّارَاتِ الْقَتْلِ وَالظِّهَارِ وَالْيَمِينِ . فَالْخِلَافُ فِي الْحَمْلِ وَعَدَمِهِ قَوِيٌّ وَالْأَقْوَالُ فِيهِ مُتَعَدِّدَةٌ . فَلِمَ اتَّفَقَ الْمُخْتَلِفُونَ فِيهَا عَلَى مَنْعِ شَهَادَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِ مُطْلَقًا أَوْ فِيمَا عَدَا الْوَصِيَّةَ أَوِ الطِّبَّ ؟ .

(351/218)

(ثَانِيهَا) : أَنَّ الْإِشْهَادَ الِاخْتِيَارِيَّ غَيْرُ الشَّهَادَةِ . فَالْأَمْرُ بِاخْتِيَارِ أَفْضَلِ النَّاسِ إيمَانًا وَعَدَالَةً لِلْإِشْهَادِ لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الِاعْتِدَادِ بِشَهَادَةِ مَنْ دُونَهُمْ فِي الْفَضِيلَةِ . فَإِنَّ الشَّهَادَةَ بَيِّنَةٌ . وَالْبَيِّنَةُ كُلُّ مَا يُتَبَيَّنُ بِهِ الْحَقُّ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اسْتِعْمَالُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَقَدْ أَطَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إثْبَاتِ هَذَا وَإِيضَاحِهِ فِي كِتَابِ (إعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ) .

(ثَالِثُهَا) : أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) فِيهِ تَوْسِعَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الْإِشْهَادِ وَنَحْنُ إلَى التَّوْسِعَةِ فِي الشَّهَادَةِ نَفْسِهَا أَحْوَجُ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَايَاتِ وَالْعُقُودِ وَالْإِقْرَارِ قَدْ تَقَعُ مِنْ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَرْأًى وَمَسْمَعٍ مِنْ غَيْرِهِمْ وَقَدْ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَمِعُوا وَرَأَوْا مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ ؛ لِأَنَّ دِينَهُمْ يُحَرِّمُ الْكَذِبَ وَالْخِيَانَةَ . فَلِمَاذَا نُضَيِّعُ أَمْثَالَ هَذِهِ الْحُقُوقِ الَّتِي يُمْكِنُ إثْبَاتُهَا بِشَهَادَتِهِمْ إذَا تَجَرَّأَ الَّذِينَ أَنْكَرُوهَا عَلَى الْيَمِينِ كَمَا تَجَرَّءُوا عَلَى الْكَذِبِ بِالْإِنْكَارِ ؟

(352/218)

(الْمَأْخَذُ الثَّانِي) : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا أَنْ نُشْهِدَ ذَوَيْ عَدْلٍ مِنَّا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعِلَّةُ ذَلِكَ بَدِيهِيَّةٌ وَهِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْعَدْلَ ، يَتَحَرَّى الصِّدْقَ الَّذِي يَثْبُتُ بِهِ الْحَقُّ ، وَنَحْنُ نَشْتَرِطُ فِي قَبُولِ الشَّهَادَةِ الْأَمْرَيْنِ . وَنَرَى أَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ لَا يَكُونُ صَادِقًا عَدْلًا . وَإِذَا كَانَ

فَقْدُ الْعَدَالَةِ يُوجِبُ رَدَّ الشَّهَادَةِ عِنْدَنَا فَفَقْدُ الْإِيمَانِ أَوْلَى بِذَلِكَ .

وَفِي هَذَا الِاسْتِدْلَالِ نَظَرٌ مِنْ وَجْهَيْنِ (أَحَدُهُمَا) : أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَبِشَرْعٍ لَهُ يُحَرِّمُ الْكَذِبَ كَافٍ لِتَحْقِيقِ الْمَقْصِدِ الَّذِي تَتَوَخَّوْنَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ ، وَهَذَا مِمَّا يُوجَدُ فِي غَيْرِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْمِلَلِ ، وَقَوْلُكُمْ : إنَّ غَيْرَ الْمُسْلِمِ لَا يَكُونُ صَادِقًا وَلَا عَدْلًا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنَ النَّقْلِ ، وَلَا مِنْ سِيرَةِ الْبَشَرِ الْمَعْلُومَةِ بِالِاخْتِبَارِ وَالْعَقْلِ

(353/218)

أَمَّا النَّقْلُ فَقَدْ جَاءَ عَلَى خِلَافِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) (7 : 159) فَإِنَّ حَمْلَ هَذَا عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَ بَعْثَةِ نَبِيِّنَا أَوْ عَلَى مَنْ آمَنَ بِهِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ) (3 : 75) فَهَذِهِ شَهَادَةٌ لَهُمْ بِالْأَمَانَةِ وَقَدِ اسْتَشْهَدَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ الْيَهُودِ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ فِي التَّوْرَاةِ فَاعْتَرَفَ بِهَا بَعْضُهُمْ لَمَّا أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى [رَاجِعْ ص 319 ج6 ط الْهَيْئَةِ] وَقَدْ بَيَّنَّا فِي التَّفْسِيرِ مِرَارًا عَدْلَ الْقُرْآنِ وَدِقَّتَهُ فِي الْحُكْمِ بِالْفَسَادِ عَلَى الْأُمَمِ ، إذْ يَحْكُمُ عَلَى الْأَكْثَرِ أَنْ يُسْتَثْنَى بَعْدَ إطْلَاقِ الْحُكْمِ الْعَامِّ .

وَمَا رُوِيَ مِنْ قَبُولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لِشَهَادَتِهِمْ فِي الْوَصِيَّةِ عَمَلًا بِالْقُرْآنِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي خَبَرِ الْإِنْسَانِ الصِّدْقُ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ، وَأَنَّهُ لَا يَعْدِلُ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ إلَّا عِنْدَ وُجُودِ التُّهْمَةِ ، وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ السَّلَفِ وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ إثْبَاتَ عَدَالَتِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ (ص194) وَبِهَا يَسْقُطُ قِيَاسُ الْكَافِرِ عَلَى الْفَاسِقِ وَقَدْ قَبِلَ الْمُحَدِّثُونَ رِوَايَةَ الْمُبْتَدِعِ الَّذِي يُحَرِّمُ الْكَذِبَ مُطْلَقًا أَوْ فِيمَا عَدَا تَأْيِيدَ بِدْعَتِهِ ،

(354/218)

وَأَمَّا سِيرَةُ الْبَشَرِ الْمَعْلُومَةُ بِنَقْلِ الْمُؤَرِّخِينَ وَبِسُنَنِ اللَّهِ فِي أَخْلَاقِ الْبَشَرِ وَطِبَاعِهِمُ الَّتِي هِيَ الْقَانُونُ الْعَقْلِيُّ لِمَنْ يُرِيدُ الْحُكْمَ الصَّحِيحَ عَلَيْهِمْ فَهِيَ مُؤَيِّدَةٌ لِحُكْمِ الْقُرْآنِ الْعَادِلِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) (7 : 102) وَقَوْلِهِ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) (وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) (وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ) (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ) وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ . وَهُوَ خَاصٌّ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ فِي طَوْرِ الْفَسَادِ وَضَعْفِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ ، الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْمِلَلِ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ فَنَنْتَقِلُ إذًا إلَى بَيَانِ الْمَسْأَلَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي نَرَاهَا هِيَ السَّبَبَ الِاجْتِمَاعِيَّ

الْحَقِيقِيَّ لِعَدَمِ قَبُولِ شَهَادَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِ فَنَقُولُ :

[الثَّانِي] : حَالُ الْمُسْلِمِينَ مَعَ غَيْرِهِمْ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ :

(355/218)

إنَّ حَالَةَ الْأُمَمِ الِاجْتِمَاعِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ وَالْأَدَبِيَّةَ لَهَا شَأْنٌ كَبِيرٌ فِي تَطْبِيقِ الْأَحْكَامِ عَلَى الْوَقَائِعِ وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ (تَحْقِيقَ الْمَنَاطِ) وَمَنْ عَرَفَ التَّارِيخَ وَفِقْهَ قَوَاعِدِ عِلْمِ الِاجْتِمَاعِ مِنْهُ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَفْقَهُ سَبَبَ إعْرَاضِ الْفُقَهَاءِ وَالْحُكَّامِ عَنْ قَبُولِ شَهَادَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ، وَأَحَقُّ مَا يَجِبُ فِقْهُهُ مِنْ تِلْكَ الْقَوَاعِدِ أَرْبَعٌ يَنْبَغِي التَّأَمُّلُ فِيهَا بِعَيْنِ الْعَقْلِ وَالْإِنْصَافِ .

(الْأُولَى) : مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى لِلْإِسْلَامِ مِنَ الِاسْتِمْسَاكِ بِعُرْوَةِ الْحَقِّ وَإِقَامَةِ مِيزَانِ الْعَدْلِ ، وَعَدَمِ الْمُحَابَاةِ وَالتَّفْرِقَةِ فِي ذَلِكَ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَقَرِيبٍ وَبَعِيدٍ وَصَدِيقٍ وَعَدُوٍّ ، عَمَلًا بِنُصُوصِ الْقُرْآنِ .

(الثَّانِيَةُ) : مَا كَانَ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْأُمَمِ الَّتِي فَتَحُوا بِلَادَهَا ، وَأَقَامُوا شَرِيعَتَهُمْ فِيهَا مِنْ ضَعْفِ وَازِعِ الدِّينِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ ، وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ مُؤَرِّخُو الْإِفْرِنْجِ وَغَيْرِهِمْ وَجَعَلُوهُ أَوَّلَ الْأَسْبَابِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ لِسُرْعَةِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْخَافِقَيْنِ .

(الثَّالِثَةُ) : مَا جَرَى عَلَيْهِ الْفَاتِحُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّوْسِعَةِ عَلَى أَهْلِ ذِمَّتِهِمْ فِي الِاسْتِقْلَالِ الدِّينِيِّ وَالْمَدَنِيِّ؛ إِذْ كَانُوا يَسْمَحُونَ لَهُمْ بِأَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى رُؤَسَائِهِمْ فِي الْأُمُورِ الشَّخْصِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، فَكَانَ مِنَ الْمَعْقُولِ مَعَ هَذَا أَلَّا يُشْهِدُوهُمْ عَلَى قَضَايَا

(356/218)

أَنْفُسِهِمُ الْخَاصَّةِ ، وَأَنْ يَمْنَعَهُمْ نَظَرَهُمْ إِلَى مَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْأَحْوَالِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا آنِفًا مِنْ قَبُولِ شَهَادَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، مَعَ عَدَمِ ثِقَتِهِمْ وَعَدَالَتِهِمْ .

(الرَّابِعَةُ) : تَأْثِيرُ عِزَّةِ السُّلْطَانِ وَعَهْدِ الْفَتْحِ الَّذِي كَانَتِ الْأَحْكَامُ فِيهِ أَشْبَهَ بِمَا يُسَمُّونَهُ الْآنَ بِالْأَحْكَامِ الْعَسْكَرِيَّةِ . وَاعْتُبِرَ ذَلِكَ بِأَحْكَامِ دُوَلِ الْإِفْرِنْجِ فِي أَيَّامِ الْحَرْبِ ، بَلْ فِي الْمُسْتَعْمَرَاتِ الَّتِي طَالَ عَلَيْهَا عَهْدُ الْفَتْحِ أَوْ مَا يُشْبِهُ الْفَتْحَ . يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ أَشَدَّ أَحْكَامِ فُقَهَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَحُكَّامِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ مِنْ أَحْكَامِ أَرْقَى أُمَمِ الْمَدَنِيَّةِ مِنْ دُونِهِمْ .

(357/218)

وَقَدْ عُلِمَ مِنْ حَالِ الْبَشَرِ أَنَّ الْغَالِبَ قَلَّمَا يَرَى شَيْئًا مِنْ فَضَائِلِ الْمَغْلُوبِ وَإِنْ كَثُرَتْ ، فَكَيْفَ يُرْجَى أَنْ يَرَى قَلِيلَهَا الضَّئِيلَ الْخَفِيَّ ؟ وَالْجَمَاعَاتُ الْكَبِيرَةُ وَالصَّغِيرَةُ كَالْأَفْرَادِ فِي نَظَرِ كُلٍّ إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ بِعَيْنِ الرِّضَا وَإِلَى مُخَالِفِهِ بِعَيْنِ السُّخْطِ ، مِثَالُ ذَلِكَ : أَنَّ امْرَأَةً مِنْ فُضْلَيَاتِ نِسَاءِ سِوِيسْرَةَ دِينًا وَأَدَبًا وَعِلْمًا رَاقَبَتْ أَحْوَالَ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ وَسِيرَتَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً إِذْ كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى مَدْرَسَةِ (جِنِيفْ) لِتَلَقِّي آدَابِ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ ، وَكَلَّمَتْهُ مِرَارًا فِي مَسَائِلِ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّرْبِيَةِ وَكَانَتْ بَارِعَةً وَمُصَنِّفَةً فِيهِمَا فَأَعْجَبَهَا رَأْيُهُ ، كَمَا أَعْجَبَهَا فَضْلُهُ وَهَدْيُهُ ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ : إِنِّي لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ قَبْلَ أَنْ عَرَفْتُكَ أَنَّ الْقَدَاسَةَ تُوجَدُ فِي غَيْرِ الْمَسِيحِيِّينَ .

(358/218)

فَمَنْ تَأَمَّلَ مَا ذُكِرَ تَجَلَّتْ لَهُ الْأَسْبَابُ الْمَعْنَوِيَّةُ وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي صَدَّتِ الْحُكَّامَ وَالْفُقَهَاءَ عَنْ قَبُولِ شَهَادَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ ، وَتَعَجَّبَ مِنْ سَعَةِ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ ، الَّتِي يَتَوَهَّمُ الْجَاهِلُونَ أَنَّهَا ضِدُّ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِطْلَاقِ وَمُوَافَقَةِ كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، فَتَرَاهُمْ يَنْسُبُونَ إِلَى الْقُرْآنِ كُلَّ مَا يُنْكِرُونَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ آرَائِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ بِالْحَقِّ أَوْ بِالْبَاطِلِ ، وَلَوْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ عَامِلِينَ بِالْقُرْآنِ كَمَا يَجِبُ لَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ ، بَلْ لَاتَّبَعَهُمُ النَّاسُ فِي هَدْيِهِمْ

. كَمَا اتَّبَعُوا سَلَفَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ بَلْ لَكَانُوا أَشَدَّ اتِّبَاعًا لَهُمْ . بِمَا يَظْهَرُ لَهُمْ مِنْ مُوَافَقَةِ هِدَايَتِهِ لِهَذَا الزَّمَانِ كَغَيْرِهِ ، وَكَوْنِهَا أَرْقَى مِنْ كُلِّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنْ نِظَامٍ وَأَحْكَامٍ ، وَهَذَا مِنْ أَجْلِ مُعْجِزَاتِهِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ بِتَجَدُّدِ الْأَزْمَانِ .

(إِعْرَابُ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ الَّذِي اضْطَرَبَ فِيهِ النُّحَاةُ) .

(359/218)

قَدْ تَبَيَّنَ مِمَّا فَصَّلْنَاهُ أَنَّ الَّذِينَ عَدُّوا الْآيَتَيْنِ فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ لِمُخَالَفَةِ مَذَاهِبِهِمْ لَهُمَا مُخْطِئُونَ وَأَنَّ الْوَاجِبَ رَدُّ الْمَذَاهِبِ إِلَيْهِمَا لَا تَأْوِيلُهُمَا لِتُوَافِقَا الْمَذَاهِبَ . وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَشْكَلُوا إِعْرَابَ جُمْلَةٍ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ ، وَعَدُّوا لِأَجْلِهَا الْآيَةَ أَوِ الْآيَاتِ فِي غَايَةِ الصُّعُوبَةِ ، فَإِنَّمَا أَوْقَعَهُمْ فِي ذَلِكَ احْتِمَالُ التَّرْكِيبِ لِعِدَّةِ وُجُوهٍ مِنَ الْإِعْرَابِ بِمَا فِيهِ مِنْ تَعَدُّدِ الْقِرَاءَاتِ ، مَعَ اعْتِيَادِهِمْ تَقْدِيمَ الْإِعْرَابِ عَلَى الْمَعْنَى وَجَعْلَهُ هُوَ الْمُبَيِّنَ لَهُ ، وَقَدِ اسْتَحْسَنَّا بَعْدَ إِيضَاحِ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ بِمَا تَقَدَّمَ أَنْ نَذْكُرَ مُلَخَّصَ مَا قِيلَ فِي إِعْرَابِ تِلْكَ الْجُمْلَةِ نَقْلًا عَنْ (رُوحِ الْبَيَانِ) الَّذِي يَلْتَزِمُ تَحْقِيقَ الْمَبَاحِثِ النَّحْوِيَّةِ فِي الْآيَاتِ ، عَسَى أَنْ يَسْتَغْنِيَ الْقَارِئُ بِهِ عَنْ مُرَاجَعَةِ تَفْسِيرٍ آخَرَ ، وَنَبْدَأُ بِجَوَابِ الشَّرْطِ لِأَنَّهُ مَبْدَأُ مَا اسْتَشْكَلُوهُ مِنَ الْإِعْرَابِ . قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

(فَآخَرَانِ) أَيْ فَرَجُلَانِ آخَرَانِ وَهُوَ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا) وَالْفَاءُ جَزَائِيَّةٌ وَهِيَ إِحْدَى مُسَوِّغَاتِ الِابْتِدَاءِ بِالنَّكِرَةِ وَلَا مَحْذُورَ فِي الْفَصْلِ بِالْخَبَرِ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَصِفَتِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : (مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ) وَقِيلَ : هُوَ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ أَيْ فَالشَّاهِدَانِ آخَرَانِ ، وَجُمْلَةُ يَقُومَانِ صِفَتُهُ ، وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ صِفَةٌ أُخْرَى . وَجَوَّزَ أَبُو الْبَقَاءِ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرٍ (يَقُومَانِ) وَقِيلَ : هُوَ فَاعِلُ فِعْلٍ مَحْذُوفٍ أَيْ : فَلْيَشْهَدْ آخَرَانِ . وَمَا بَعْدَهُ صِفَةٌ لَهُ ، وَقِيلَ : مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ وَالْجُمْلَةُ الْفِعْلِيَّةُ صِفَتُهُ وَضَمِيرُ (مَقَامَهُمَا) فِي جَمِيعِ الْأَوْجُهِ مُسْتَحَقٌّ لِلَّذِينِ اسْتَحَقَّا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِمَقَامِهِمَا مَقَامَ أَدَاءِ الشَّهَادَةِ الَّتِي تَوَلَّيَاهَا وَلَمْ يُؤَدِّيَاهَا كَمَا هِيَ بَلْ هُوَ مَقَامُ الْحَبْسِ وَالتَّحْلِيفِ . وَ " اسْتَحَقَّ " بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ عَلَى قِرَاءَةِ عَاصِمٍ فِي رِوَايَةِ حَفْصٍ عَنْهُ وَبِهَا قَرَأَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأُبَيٌّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وَفَاعِلُهُ (الْأَوْلَيَانِ) وَالْمُرَادُ مِنَ الْوُصُولِ أَهْلُ الْمَيِّتِ ، وَمِنَ الْأَوْلَيَيْنِ الْأَقْرَبَانِ إِلَيْهِ الْوَارِثَانِ لَهُ الْأَحَقَّانِ بِالشَّهَادَةِ لِقُرْبِهِمَا وَاطِّلَاعِهِمَا ، وَهُمَا فِي الْحَقِيقَةِ الْآخَرَانِ الْقَائِمَانِ مَقَامَ اللَّذَيْنِ اسْتَحَقَّا إِثْمًا ، إِلَّا أَنَّهُ أُقِيمَ الْمُظْهَرُ مَقَامَ ضَمِيرِهِمَا لِلتَّنْبِيهِ عَلَى

(361/218)

وَصْفِهِمَا بِهَذَا الْوَصْفِ ، وَمَفْعُولُ " اسْتَحَقَّ " مَحْذُوفٌ

وَاخْتَلَفُوا فِي تَقْدِيرِهِ ، فَقَدَّرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ أَنْ يُجَرِّدَهُمَا لِلْقِيَامِ بِالشَّهَادَةِ لِيُظْهِرُوا بِهِمَا كَذِبَ الْكَاذِبِينَ ، وَقَدَّرَهُ أَبُو الْبَقَاءِ وَصِيَّتَهُمَا ، وَقَدَّرَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ : مَا لَهُمْ وَتَرِكَتَهُمْ . وَقَالَ الْإِمَامُ : إنَّ الْمُرَادَ بِالْأَوْلَيَاءِ الْوَصِيَّانِ اللَّذَانِ ظَهَرَتْ خِيَانَتُهُمَا ، وَسَبَبُ أَوْلَوِيَّتِهِمَا : أَنَّ الْمَيِّتَ عَيَّنَهُمَا لِلْوَصِيَّةِ ، فَمَعْنَى " اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ " خَانَ فِي مَالِهِمْ وَجَنَى عَلَيْهِمُ الْوَصِيَّانِ اللَّذَانِ

(362/218)

عُثِرَ عَلَى خِيَانَتِهِمَا ، وَعَلَى هَذَا لَا ضَرُورَةَ إلَى الْقَوْلِ بِحَذْفِ الْمَفْعُولِ ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : " اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ " بِبِنَاءِ اسْتُحِقَّ لِلْمَفْعُولِ وَاخْتَلَفُوا فِي مَرْجِعِ ضَمِيرِهِ وَالْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ الْإِثْمُ وَالْمُرَادُ مِنَ الْمَوْصُولِ الْوَرَثَةُ ؛ لِأَنَّ اسْتِحْقَاقَ الْإِثْمِ عَلَيْهِمْ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِنَايَةِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِينَ جَنَى عَلَيْهِمْ وَارْتَكَبَ الذَّنْبَ بِالْقِيَاسِ إلَيْهِمْ هُمُ الْوَرَثَةُ ، وَقِيلَ : إنَّهُ الْإِيصَاءُ ، وَقِيلَ : الْوَصِيَّةُ لِتَأْوِيلِهَا بِمَا ذُكِرَ ، وَقِيلَ : الْمَالُ ، وَقِيلَ : إنَّ الْفِعْلَ مُسْنَدٌ إلَى الْجَارِّ

وَالْمَجْرُورِ ، وَكَذَا اخْتَلَفُوا فِي تَوْجِيهِ رَفْعِ (الْأَوْلَيَانِ) فَقِيلَ : إنَّهُ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ (آخَرَانِ) أَيِ (الْأَوْلَيَانِ) بِأَمْرِ الْمَيِّتِ آخَرَانِ ، وَقِيلَ بِالْعَكْسِ ، وَاعْتُرِضَ بِأَنَّ فِيهِ الْإِخْبَارَ عَنِ النَّكِرَةِ بِالْمَعْرِفَةِ وَهُوَ مِمَّا اتُّفِقَ عَلَى مَنْعِهِ فِي مِثْلِهِ ، وَقِيلَ : خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مُقَدَّرٍ أَيْ هُمَا الْآخَرَانِ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ ، وَقِيلَ : بَدَلٌ مِنْ آخَرَانِ ، وَقِيلَ : عَطْفُ بَيَانٍ عَلَيْهِ ، وَيَلْزَمُهُ عَدَمُ اتِّفَاقِ الْبَيَانِ وَالْمُبَيَّنِ فِي التَّعْرِيفِ وَالتَّنْكِيرِ مَعَ أَنَّهُمْ شَرَطُوهُ حَتَّى مَنْ جَوَّزَ تَنْكِيرَهُ ، نَعَمْ نُقِلَ عَنْ نَزْرٍ عَدَمُ الِاشْتِرَاطِ ، وَقِيلَ : هُوَ بَدَلٌ مِنْ فَاعِلِ يَقُومَانِ ، وَكَوْنُ الْمُبْدَلِ مِنْهُ فِي حُكْمِ الطَّرْحِ لَيْسَ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ حَتَّى يَلْزَمَ خُلُوُّ تِلْكَ الْجُمْلَةِ الْوَاقِعَةِ خَبَرًا أَوْ صِفَةً عَنِ الضَّمِيرِ عَلَى أَنَّهُ لَوْ طُرِحَ

(363/218)

وَقَامَ هَذَا مَقَامَهُ كَانَ مِنْ وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ فَيَكُونُ رَابِطًا وَقِيلَ : هُوَ صِفَةُ آخَرَانِ وَفِيهِ . وَصْفُ النَّكِرَةِ بِالْمَعْرِفَةِ ، وَالْأَخْفَشُ أَجَازَهُ هُنَا ؛ لِأَنَّ النَّكِرَةَ بِالْوَصْفِ قَرُبَتْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ قِيلَ : وَهَذَا عَلَى عَكْسِ

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي

فَإِنَّهُ يُؤَوَّلُ فِيهِ الْمَعْرِفَةُ بِالنَّكِرَةِ . وَهَذَا أُوِّلَ فِيهِ النَّكِرَةُ بِالْمَعْرِفَةِ ، أَوْ جُعِلَتْ فِي حُكْمِهَا لِلْوَصْفِ ، وَيُمْكِنُ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ بِأَنْ يَجْعَلَ الْأَوْلَيَانِ لِعَدَمِ تَعَيُّنِهِمَا

كَالنَّكِرَةِ ، وَعَنْ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ أَنَّهُ نَائِبُ فَاعِلِ " اسْتَحَقَّ " وَالْمُرَادُ عَلَى هَذَا اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ انْتِدَابَ الْأَوْلَيَيْنِ مِنْهُمْ لِلشَّهَادَةِ كَمَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ ، أَوْ إِثْمَ الْأَوْلَيَيْنِ كَمَا قِيلَ ، وَهُوَ تَثْنِيَةُ الْأُولَى قُلِبَتْ أَلِفُهُ يَاءً عِنْدَهَا ، وَفِي عَلَى فِي " عَلَيْهِمْ " أَوْجُهٌ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا عَلَى بَابِهَا ، وَالثَّانِي : أَنَّهَا بِمَعْنَى فِي ، وَالثَّالِثُ : أَنَّهَا بِمَعْنَى مِنْ ، وَفَسَّرَ اسْتَحَقَّ بِطَلَبِ الْحَقِّ

(364/218)

وَبِحَقٍّ وَغَلَبٍ ، وَقَرَأَ يَعْقُوبُ وَخَلَفٌ وَحَمْزَةُ وَعَاصِمٌ فِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ عَنْهُ " اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ " بِبِنَاءِ اسْتَحَقَّ لِلْمَفْعُولِ وَالْأَوَّلِينَ جَمْعُ أَوَّلِ الْمُقَابِلِ لِلْآخِرِ وَهُوَ مَجْرُورٌ عَلَى أَنَّهُ صِفَةُ الَّذِينَ أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ أَوْ مِنْ ضَمِيرِ عَلَيْهِمْ أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ . وَمَعْنَى الْأَوَّلِيَّةِ التَّقَدُّمُ عَلَى الْأَجَانِبِ فِي الشَّهَادَةِ ، وَقِيلَ : التَّقَدُّمُ فِي الذِّكْرِ لِدُخُولِهِمْ فِي (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ " الْأَوَّلَانِ " بِالرَّفْعِ وَهُوَ كَمَا قَدَّمْنَا فِي الْأَوْلَيَانِ ، وَقُرِئَ " الْأَوَّلَيْنِ " بِالتَّثْنِيَةِ وَالنَّصْبِ ، وَقَرَأَ ابْنُ سِيرِينَ " الْأَوْلَيَيْنِ " بِيَاءَيْنِ ، تَثْنِيَةُ أُولَى مَنْصُوبًا ، وَقَرَأَ " الْأَوْلَيْنِ " بِسُكُونِ الْوَاوِ وَفَتْحِ اللَّامِ جَمْعُ أُولَى كَأَعْلَيْنِ ، وَإِعْرَابُ ذَلِكَ ظَاهِرٌ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 180 . 200 ﴾

(365/218)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾

إن الشهود الأُول الذين قدموا الشهادة لأنهم حضروا لحظة الوصية عندما قالها الميت يقدمون شهادتهم بعد أن يؤدوا الصلاة وبعد أن يقسموا أن ما يقولونه هو الحق . ولا بد لهم أن يحرصوا على صدق القول بدلاً من أن يفتضح أمر كذبهم .

والشهادة كما نعرف تطلق على أي أمر نحضره . والشهادة – كما نعلم – تُطلق على متلازمات متعددة يجمعها كلها " الحضور " كقوله الحق : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج : 27-28] .

أي أن نداء الحج يسمعه الناس فيأتون من كل مكان وعلى كل وسائل النقل وقد تكون صعبة حتى يشهدوا منافع لهم . وسبحانه وتعالى يقول : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] .

وشهادة الله هي حكم من الله . والملائكة أيضاً تشهد ، وشهادتهم هي شهادة الإقرار . وكل ذلك ناشئ من أمر حاضر يستقرئه الشاهد . ونحن نرى الشاهد يقف أمام المحكمة ،

فتسأله النيابة فيقول ما رأى ، ويسأله محامي الخصم فيقول ما رأى ، ويسأله محامي الدفاع فيقول ما رأى . وما دام الشاهد صادقا فلن يخشى محاورة أي طرف يسأله . والأطراف التي تسأل الشاهد تطلب منه أن يأتي بالواقعة على أساليب مختلفة . وما دامت الواقعة صادقة تظل كما هي مهما تنوعت الأسئلة وتغيرت الأساليب ؛ لأن الشاهد الصادق يستوحي واقعاً لا يتغير ، أما الشاهد الكاذب فهو يلف ويدور ويغير من أقواله . ولهذا نرى وكيل النيابة اللبق الحاذق يبحث في ذاكرة الشاهد عن أدق الخفايا .

(366/218)

وهكذا نعرف أن الشهادة تطلق على الحضور . أما إذا كان الشاهد هو الذي يملك الحكم فشهادته حكم . ومثال ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللهُ ﴾ . إن الله يشهد أي يحكم .

وفي قصة سيدنا يوسف عليه السلام نرى كيف أوقع الحق بإخوة يوسف عندما أخذوا أخا يوسف الصغير معهم في الرحلة إلى مصر . وكيف دبر يوسف لهم أمراً ليحتجز أخاه معه . وكيف كان الصراع بين إخوة يوسف خوفاً على أبيهم بعد حجز الأخ الصغير . فيقول لهم شقيقهم الأكبر كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ ارجعوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ

ابنك سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا والعير التي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف : 81-82] .

ونعرف أن إخوة يوسف كذبوا في المرة الأولى عندما فعلوا فعلتهم الشنعاء ضد يوسف لكنهم صدقوا في المرة الثانية التي احتجز فيها شقيق يوسف . ولذلك طلبوا أن يسأل والدهم إما أهل القرية التي كانوا بها وإما رفاقهم في القافلة .

لقد أُخبروا أن أخاهم قد استخرج من وعائه بعض من أدوات الملك وهو الصواع الذي يكال به ولهذا جاءت شهادتهم هذه المرة مطابقة للواقع ، وهو ما أخبروا به .

إذن فالشهادة هي الفيصل في التنازع . ولذلك يوصي النبي صلى الله عليه وسلم ألا يشهد الرجل على أمرٍ إلا بعد أن يكون قد رآه رأي العين ، كما يرى الشمس : " على مثلها فاشهد أو فدعْ " .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يا أهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [آل عمران : 70] .

وهكذا نعلم أن الشهادة كلها تدور حول الحضور والشهود . ولهذا تأتي الشهادة في لوازم متعددة ، فهي مرة تعني الحضور ، وهي مرة تأتي بمعنى الحكم ، وثالثة بمعنى الإقرار . وكلها معانٍ ملتقية .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به ، والثاني هو أمانة النقل ، ولذلك جعل الله في بعض الأحكام شهادة اثنتين من النساء تعدل شهادة رجل واحد . وقد يقول قائل : كيف يساوي الإسلام بين شهادة رجل جاهل أو أمي وشهادة امرأتين قد تكون كل منهما على درجة عالية من الثقافة والعلم ؟

ونقول : إن المسألة في الشهادة ليست عمل عقلٍ ، ولكنها أمانة نقل ، وأمانة النقل لا شأن لها بالثقافة ، فالشهادة تحتاج إلى حضور الحادثة ، ثم إن المرأة يكون دائماً أمرها مبنياً على الستر وعدم التهجم على الرجال . فقد تقع حادثة وتوجد امرأة بجانب هذه الحادثة ، وبطبيعة الحال لن تتجاسر وتتقدم وتسأل لمعرفة كل التفاصيل ، على العكس من الرجل الذي يرى الحادثة ، فيحاول أن يعرف كل ما جرى . وحين أراد الحق الشهادة من امرأتين ، لم يطلب ذلك لضعف الثقة في المرأة أو زيادة الثقة في الرجل ، ولكن لأن الشهادة ليست ابتكار عقل ولكنها حضور مشهد وأمانة نقل .

إن البعض يحاول أن يروج لمثل هذه القضايا وكأنها وسيلة للتهجم على بعض الداعين لله ، ولذلك أقول لهم : يجب أن يفهم الإنسان منكم الفارق بين عداوته مع بعض الداعين إلى الله وأن يتعدى حدوده إلى أن يحاد الله ؛ لأن الإنسان منهم لا يرد الحكم على الداعية ، وإنما يرد الحكم على الله .

وأمر الحق سبحانه في شهادة اثنين من الرجال أن يؤديا الصلاة ، ثم يتم حبسهما لفترة ، وبعد ذلك يتم استدعاؤهما للشهادة ، فإن رد أهل الميت شهادتهما في أمر الوصية فيتم استدعاء اثنين من أولياء الميت لأداء الشهادة في شأن الوصية ، كل ذلك لماذا ؟ من أجل أن تأتي الشهادة على وجهها الصحيح الذي يُظهر كلَّ الحقيقة .

(368/218)

ويذيل الحق القول الكريم : ﴿ واتقوا الله واسمعوا والله لا يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ وذلك بلاغ للمؤمنين كافة وإلى الناس عامة ؛ لأن الله لا يهدي إلا من تطامن إلى منهج الله ، أما من يفسق فلن يعينه الله ، ذلك أن الله لا يعين كافراً ولا ظالماً ولا فاسقاً . أما من آمن بالله ، فالحق سبحانه وتعالى يعينه على هذا المنهج ويهديه إلى الصراط المستقيم .

ولماذا أنزل الله هذه الآيات بعد أن أجرى الأحداث التي تتطلبها ؟ نعرف أن الحكم إن نزل في ظرف يتطلبه ، تكون النفس إليه أشوق وبه أعلق ، مثال ذلك : كوب الماء الذي يتناوله العطشان ، إنه يتناوله بشوق ولهفة . عكس الإنسان الذي يتناول كوب الماء وهو غير عطشان ، فقد يضعه في مكان قريب منه دون أن يشربه ، وكذلك الدواء الذي يُؤتى به للمريض لحظة معاناته القصوى من المرض ، إنه يقبل عليه بلهفة مهما كان مر الطعم ، وهكذا

جاءت بعض أحكام القرآن مناسبة لأحداث وقعت لتكون اللهفة على التطبيق موجودة في النفوس المؤمنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(369/218)

ومن فوائد ابن جزى فى الآيات السابقة

قال عليه الرحمة :

﴿ شهادة بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت حِينَ الوصية اثنان ﴾ .

قال مكي : هذه الآية أشكل آية من القرآن إعراباً ، ومعنى ، وحكماً ، ونحن نبين معناها على الجملة ، ثم نبين أحكامها وإعرابها على التفصيل ، وسببها أنّ رجلين خرجا إلى الشام ، وخرج معهما رجل آخر بتجارة ، فمرض في الطريق فكتب كتاباً قيد فيه كل ما معه ، وجعله في متاعه وأوصى الرجلين أن يؤديا رحله إلى ورثته فمات فقدم الرجلان المدينة ، ودفعا رحله إلى ورثته ، فوجدوا فيه كتابه وفقدوا منه أشياء قد كتبها ، فسألوهما فقالا لا ندري هذا الذي قبضناه ، فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبقي الأمر مدّة ، ثم عثر على إناء عظيم من فضة ، فقيل لمن وجده عنده من أين لك هذا ، فقال اشتريته من فلان وفلان ، يعني الرجلين ، فارتفع

الأمر في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين من أولياء الميت أن يحلفا فحلفا واستحقا ، فمعنى الآية : إذا حضر الموت أحد في السفر ، فليشهد عدلين بما معه ، فإن وقعت ريبة في شهادتهما حلفا أنهما ما كذبا ولا بدّلا ، فإن عثر بعد ذلك على أنهما كذبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الميت ، وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما إعراب الآية ، وشهادة بينكم مرفوع بالابتداء وخبره : اثنان التقدير شهادة بينكم شهادة اثنين أو مقيم ضهادة بينكم اثنان إذا حضر أي قارب الحضور ، والعامل في إذا المصدر الذي هو شهادة ، وهذا على أن يكون بمنزلة حين لا تحتاج جواباً ، ويجوز أن تكون شرطية ، وجوابها محذوف يدل عليه ما تقدم قبلها فإنّ المعنى : إذا حضر أحدكم الموت ، فينبغي أن يشهد حين الوصية ، ظرف العامل فيه حصر ، ويكون بدلاً من إذا ﴿ ذَوَا عَدْلٍ ﴾ صفة للشاهدين منكم ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ قيل : معنى منكم من عشيرتكم وأقاربكم ، ومن غيركم ، من غير العشيرة والقرابة وقال الجمهور : منكم أي من المسلمين ، ومن غيركم من الكفار ، إذا لم يوجد

(370/218)

مسلم ، ثم اختلف على هذا هل هي منسوخة بقوله : وأشهدوا ذوي عدل منكم فلا تجوز شهادة الكفار أصلاً ؟ وهو قول مالك والشافعي والجمهور أو هي محكمة ، وأن شهادة الكفار جائزة على الوجه في السفر ، وهو قول ابن عباس ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي سافرتم ، وجواب إن محذوف يدل عليه ما تقدّم قبلها ، والمعنى : إن ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ، فشهادة بينكم شهادة اثنين ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ قال أبو علي الفارسي : هو صفة لآخران ، واعتراض بين الصفة والموصوف بقوله : إن أنتم إلى قوله الموت ليفيد أن العدول إلى آخرين من غير الملة ، إنما يجوز لضرورة الضرب في الأرض ، وحلول الموت في السفر ، وقال الزمخشري : تحبسونهما استئناف كلام ﴿ مِن بَعْدِ الصلاة ﴾ قال الجمهور : هي صلاة العصر ، فاللام للعهد ، لأنها وقت اجتماع الناس ، وبعدها أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأيمان ، وقال : من حلف على سلعة بعد صلاة العصر ، وكان التحليف بعدها معروف عندهم ، وقال ابن عباس : هي صلاة الكافرين في دينهما ؛ لأنهما لا يعظمان صلاة العصر ﴿ فَيُقْسِمَانِ بالله ﴾ أي يحلفان ؛ ومذهب الجمهور أن تحليف الشاهدين منسوخ ، وقد استحلفهما عليّ بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري ﴿ إِنِ ارتبتم ﴾ أي شككتم في صدقهما أو أمانتهما ، وهذه الكلمة اعتراض بين القسم والمقسوم عليه ، وجواب إن محذوف يدل عليه يقسمان ﴿ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ﴾ هذا هو المقسوم عليه ، والضمير في به للقسم ، وفي كان للمقسم له : أي لا نستبدل بصحة القسم

بالله عرضاً من الدنيا : أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ، ولو كان من نقسم له قريباً لنا ، وهذا لأن عادة الناس الميل إلى أقاربهم ﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ الله ﴾ أي : الشهادة التي أمر الله بحفظها وأدائها ، وإضافتها إلى الله تعظيماً لها ﴿ فَإِنْ عُثِرَ على أَنَّهُمَا استحقآ إِثْماً ﴾ أي إن طلع بعد ذلك على أنهما فعلا ما

(371/218)

أوجب إثما ، والإثم الكذب والخيانة واستحقاقه الأهلية للوصف به ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ أي اثنان من أولياء الميت ، يقومان مقام الشاهدين في اليمين ﴿ مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ ﴾ أي من الذين استحق عليهم الإثم أو المال ومعناه من الذي جنى عليهم وهم أولياء الميت ﴿ الأوليان ﴾ تثنية أولى بمعنى أحق : أي الأحقان بالشهادة لمعرفتهما ، والأحقان بالمال : لقرابتهما ، وهو مرفوع على أنه خبر ابتداء تقديره هما الأوليان ، أو مبتدأ مؤخر تقديره الأوليان آخران يقومان ، أو بدل من الضمير في يقومان ، ومنع الفارسي أن يسند استحق إلى الأوليان ، وأجازه ابن عطية ، وأما على قراءة استحق بفتح التاء والحاء على البناء للفاعل ، فالأوليان فاعل باستحق ، ومعنى استحق على هذا أخذ المال وجعل يده عليه ، والأوليان على هذا هما الشاهدان اللذان ظهرت خيانتهما : أي الأوليان

بالتحليف والتعنيف والفضيحة ، وقرئ الأولين جمع أول ، وهو مخفوض على الصفة للذين استحق عليهم ، أو منصوباً بإضمار فعل ووصفهم بالأولية لتقدمهم على الأجانب في استحقاق المال وفي صدق الشهادة ﴿ فَيُقْسِمَانِ بالله لشهادتنا أَحَقُّ مِن شهادتهما ﴾ اي يحلف هذان الآخران أن شهادتهما أحق : أي أصح من شهادة الشاهدين الذين ظهرت خيانتهما ﴿ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظالمين ﴾ أي إن اعتدينا ، فإنا من الظالمين وذلك على وجه التبرئة ومثل قول الأولين إنا إذا لمن الآثمين ﴿ ذلك أدنى أَن يَأْتُواْ بالشهادة على وَجْهِهَآ ﴾ الإشارة بذلك إلى الحكم الذي وقع في هذه القضية ومعنى أدنى : أقرب ، وعلى وجهها أي كما وقعت من غير تغيير ولا تبديل أو يخافوا ﴿ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أيمانهم ﴾ أي يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيفتضحوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 1 صـ 191 .

192 ﴾

(372/218)

ومن فوائد ابن كثير فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ

مِنْكُمْ . . . الآية ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز ، قيل : إنه منسوخ رواه العَوْفي من ابن عباس . وقال حماد بن أبي سليمان ، عن إبراهيم : إنها منسوخة . وقال آخرون – وهم الأكثرون ، فيما قاله ابن جرير – : بل هو محكم ؛ ومن ادعى النسخ فعليه البيان .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ﴾ هذا هو الخبر ؛ لقوله : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ فقيل تقديره : "شهادة اثنين" ، حذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مَقَامه . وقيل : دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان .

وقوله : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ ﴾ وصف الاثنين ، بأن يكونا عدلين .

وقوله : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي : من المسلمين . قاله الجمهور . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ قال : من المسلمين . رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : رُوي عن عُبيدة ، وسعيد بن المسيب ، والحسن ، ومجاهد ، ويحيى بن يَعْمُر ، والسُّدِّي ، وقتادة ، ومُقاتل بن حَيَّان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، نحو ذلك .

قال ابن جرير : وقال آخرون : عني : ذلك ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي : من حَي الموصي . وذلك قول روي عن عكرمة وعبيدة وعدّة غيرهما .

وقوله : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن عَوْن

، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا حبيب بن أبي عَمْرَة ، عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس في قوله : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ قال : من غير المسلمين ، يعني : أهل الكتاب .

(373/218)

ثم قال : وروي عن عبيدة ، وشُرَيْح ، وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن سيرين ، ويحيى بن يعمر ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والشعبي ، وإبراهيم النَّخَعِي ، وقتادة ، وأبي مِجْلَزَ ، والسُّدِيِّ ، ومقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، نحو ذلك .

وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي : المراد من قبيلة الموصي ، يكون المراد هاهنا : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي : من غير قبيلة الموصي .

وقد روى عن ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري ، والزهري ، رحمهما الله .

وقوله : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : سافرتم ، ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين ، أن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية ، كما صرح بذلك شريح القاضي .

قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا حدثنا الأعمش ، عن

إبراهيم ، عن شريح قال : لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في سفر ، ولا تجوز في سفر إلا في وصية .

ثم رواه عن أبي كُرَيْب ، عن أبي بكر بن عياش ، عن أبي إسحاق السَّبِيعي قال : قال شريح ، فذكر مثله .

وقد روي مثله عن الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى . وهذه المسألة من إفراده ، وخالفه الثلاثة فقالوا : لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين . وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا أبو داود ، حدثنا صالح بن أبي الأخضر ، عن الزهري قال : مضت السنّة أنه لا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سفر ، إنما هي في المسلمين .

(374/218)

وقال ابن زيد : نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام ، وذلك في أول الإسلام ، والأرض حرب ، والناس كفار ، وكان الناس يتوارثون بالوصية ، ثم نُسخت الوصية وفرضت الفرائض ، وعمل الناس بها .

رواه ابن جرير ، وفي هذا نظر ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : اختلف في قوله : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ هل المراد به أن يوصي إليهما ، أو يشهدهما ؟ على قولين :

أحدهما : أن يوصي إليهما ، كما قال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط قال : سئل ابن مسعود ، رضي الله عنه ، عن هذه الآية قال هذا رجل سافر ومعه مال ، فأدركه قدره ، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته ، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين .

رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع .

والقول الثاني : أنهما يكونان شاهدين . وهو ظاهر سياق الآية الكريمة ، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان : الوصاية والشهادة ، كما في قصة تَمِيم الداري ، وعَدِيّ بن بَدَّاء ، كما سيأتي ذكرها آنفًا ، إن شاء الله وبه التوفيق .

وقد استشكل ابنُ جرير كونهما شاهدين ، قال : لأنا لا نعلم حُكْمًا يَحْلِفُ فيه الشاهد . وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ، وهو حكم مستقل بنفسه ، لا يلزم أن يكون جاريًا على قياس جميع الأحكام ، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة في محل

خاص ، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره ، فإذا قامت قرائن الريبة حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة .

(375/218)

وقوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ قال [العوفي ، عن] ابن عباس : يعني صلاة العصر . وكذا قال سعيد بن جبير ، وإبراهيم النَّخَعِي ، وقتادة ، وعِكْرِمة ، ومحمد بن سيرين . وقال الزهري : يعني صلاة المسلمين ، وقال السدي ، عن ابن عباس : يعني صلاة أهل دينهما .

والمقصود : أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ، ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ أي : فيحلفان بالله ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ أي : إن ظهرت لكم منهما ريبة ، أنهما قد خانا أو غلا فيحلفان حينئذ بالله ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ﴾ أي : بأيماننا . قاله مُقاتِل بن حيان ﴿ ثَمَنًا ﴾ أي : لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ، ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أي : ولو كان المشهود عليه قريبًا إلينا لا نحابيه ، ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ أضافها إلى الله تشريفًا لها ، وتعظيمًا لأمرها .

وقرأ بعضهم : "ولا نكتم شهادة آلله" مجرورًا على القسم . رواها ابن جرير ، عن عامر

الشعبي .

وحَكَي عن بعضهم أنه قرأ : "ولا نَكْتُمُ شهادةَ الله" ، والقراءة الأولى هي المشهورة .

﴿ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ ﴾ أي : إن فعلنا شيئًا من ذلك ، من تحريف الشهادة ، أو تبديلها ، أو تغييرها أو كتمها بالكلية .

(376/218)

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ أي : فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين ، أنهما خانا أو غَلا شيئًا من المال الموصى به إليهما ، وظهر عليهما بذلك ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ ﴾ هذه قراءة الجمهور : "اسْتُحِقَّ عليهم الأوليان" . ورُوي عن علي ، وأُبيّ ، والحسن البصري أنهم قرؤوها : ﴿ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ ﴾ .

وقد روى الحاكم في المستدرك من طريق إسحاق بن محمد الفَرْوِي ، عن سليمان بن بلال ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن عبيد الله بن أبي رافع ، عن علي بن أبي طالب ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ ﴾ ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . (1)

وقرأ بعضهم ، ومنهم ابن عباس : "من الذين استحق عليهم الأوِّلين" . وقرأ الحسن : "من الذين استحق عليهم الأوّلان" ، حكاه ابنُ جرير .

فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك : أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما ، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أوْلى من يرث ذلك المال ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ أي : لقولنا : إنهما خانا أحقُّ وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وَمَا اعْتَدَيْنَا ﴾ أي : فيما قلنا من الخيانة ﴿ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : إن كنا قد كذبنا عليهما .

وهذا التحليف للورثة ، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه ، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لَوْث في جانب القاتل ، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم ، كما هو مقرر في باب "القسامة" من الأحكام .

---

(1) المستدرك (237/2) ووافقه الذهبي .

(377/218)

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسين بن زياد ، حدثنا محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن أبي النضر ،

عن باذان – يعني : أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب – عن ابن عباس ، عن تميم الداري في هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ قال : بَرئ الناس منها غيري وغير عَديّ بن بَدّاء . وكانا نصرانيين ، يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم ، يقال له : بُدَيْل بن أبي مريم ، بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك ، وهو عُظْم تجارته . فمرض فأوصى إليهما ، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله – قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام ، فبعناه بألف درهم ، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بدّاء . فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا . وفقدوا الجام فسألونا عنه ، فقلنا : ما ترك غير هذا ، وما دفع إلينا غيره – قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فوثبوا إليه أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا ، فنزعتْ الخمسمائة من عَدي بن بَدّاء .

(378/218)

وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحَرَّاني ، عن محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، به فذكره (1) – وعنده : فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا ، فأمرهم أن يستحلفوه بما يُعَظِّم به على أهل دينه ، فحلف فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر ، فحلفا . فَنزعَتْ الخمسمائة من عدي بن بَدَّاء .

ثم قال : هذا حديث غريب ، وليس إسناده بصحيح ، وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمد بن السائب الكلبي ، يكنى أبا النضر ، وقد تركه أهل العلم بالحديث ، وهو صاحب التفسير ، سمعت محمد بن إسماعيل يقول : محمد بن السائب الكلبي ، يكنى أبا النضر ، ثم قال : ولا نعرف لسالم أبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ ، وقد رُوي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه .

حدثنا سفيان بن وَكِيع ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن ابن أبي زائدة ، عن محمد بن أبي القاسم ، عن عبد الملك بن سعيد بن جُبَير ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : خرج رجل من بني سهم مع تميم الداريّ وعديّ بن بَدّاء ، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم ، فلما قدما بتركته فقدوا جامًا من فضة مُخَوّصًا بالذهب ، فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، ووجدوا الجام بمكة ، فقيل : اشتريناه من تميم وعديّ . فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ، وأن الجام لصاحبهم . وفيهم نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾

وكذا رواه أبو داود ، عن الحسن بن علي ، عن يحيى بن آدم ، به . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وهو حديث ابن أبي زائدة . (2)

---

(1) سنن الترمذي برقم (3059) وتفسير الطبري (186/11) .

(2) سنن الترمذي برقم (3606) وسنن أبي داود برقم (3060) وأصله في صحيح البخاري برقم (2780) لكن البخاري لم يذكره تحديثًا وإنما حكاية قول .

(379/218)

ومحمد بن أبي القاسم ، كوفي ، قيل : إنه صالح الحديث ، وقد ذكر هذه القصة مرسلة غيرُ واحد من التابعين منهم : عكرمة ، ومحمد بن سيرين ، وقتادة . وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر ، رواه ابن جرير . وكذا ذكرها مرسلة : مجاهد ، والحسن ، والضحاك .

وهذا يدل على اشتهارها في السلف وصحتها .

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا ما رواه أبو جعفر بن جرير :

حدثني يعقوب ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا زكريا ، عن الشعبي ؛ أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدَقُوقا ، قال : فحضرته الوفاة ولم يجد أحدًا من المسلمين يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب . قال : فقدما الكوفة ، فأتيا الأشعري - يعني : أبا موسى الأشعري ، رضي الله عنه - فأخبراه وقدما بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قال : فأحلفهما بعد العصر : بالله ما خانا ولا كذبا ولا بَدّلا ولا كتما ولا غيرا ، وإنها لوصية الرجل وتركته . قال : فأمضى شهادتهما .

ثم رواه عن عمرو بن علي الفَلاس ، عن أبي داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن مغيرة الأزرق ، عن الشعبي ؛ أن أبا موسى قضى بدقوقا .

وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي ، عن أبي موسى الأشعري .

فقوله : "هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم" الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعديّ بن بَدّاء ، قد ذكروا أن إسلام تَمِيم بن أوْسٍ الداري ، رضي الله عنه ، كان في سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرًا ، يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام ، والله أعلم .

(380/218)

وقال أسباط عن السُّدِّي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ قال : هذا في الوصية عند الموت ، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ما له وما عليه ، قال : هذا في الحضر ، ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ في السفر ، ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره ، وليس بحضرته أحد من المسلمين ، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس ، فيوصي إليهما ، ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به ، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا [مال صاحبهم] تركوا الرجلين وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان . فذلك قوله تعالى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ قال عبد الله بن عباس : كأني أنظر إلى العلْجين حين انتُهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره ، ففتح الصحيفة ، فأنكر أهل الميت وخوّنوهما فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر ، فقلت له : إنهما لا يباليان صلاة العصر ، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما ، فَيُوقَفُ الرجلان بعد صلاتهما في دينهما ، فيحلفان : بالله لا نشتري به ثمنًا قليلا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين : أن صاحبهم لبهذا أوصى ، وإن هذه لتركته . فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا : إنكما إن كتمتما أو خُنْتُما فَضَحْتُكُما في قومكما ، ولم تجز

لكما شهادة ، وعاقبتكما . فإذا قال لهما ذلك ، فإن ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها . رواه ابن جرير .

(381/218)

وقال ابن جرير : حدثنا الحسين ، حدثنا هُشيْم ، أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم وسعيد بن جبير ، أنهما قالا في هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ الآية ، قالا إذا حضر الرجل الوفاة في سفر ، فليشهد رجلين من المسلمين ، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب فإذا قدما بتركته ، فإن صدقهما الورثة قُبل قولهما ، وإن اتهموهما أحلفا بعد صلاة العصر : بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خُنَّا ولا غيَّرنا .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، في تفسير هذه الآية : فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد الصلاة بالله : ما اشترينا بشهادتنا ثمنًا قليلا . فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما ، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله : أن شهادة الكافرين باطلة ، وإنا لمعتد ، فذلك قوله : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبا ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ يقول : من الأولياء ، فحلفا بالله : أن شهادة الكافرين باطلة ، وإنا لمعتد ، فترد شهادة الكافرَيْن ، وتجوز شهادة الأولياء .

وهكذا روى العَوْفِي ، عن ابن عباس . رواهما ابن جرير .

وهكذا قَرَّر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غيرُ واحد من أئمة التابعين والسلف ، رضي الله عنهم ، وهو مذهب الإمام أحمد ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ﴾ أي : شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين وقد استريب بهما ، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي .

(382/218)

وقوله : ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي : يكون الحامل لهم على الإتيان بالشهادة على وجهها ، هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله ، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة ، فيحلفون ويستحقون ما يدعون ، ولهذا قال : ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾

ثم قال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : في جميع أموركم ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ أي : وأطيعوا ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ يعني : الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 215.222 ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

وَأَمَّا الْكَافِرُ حكم شهادته فَلَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ لِمُسْلِمٍ ، وَلَا عَلَيْهِ فِي وَصِيَّةٍ ، وَلَا غَيْرِهَا ، فِي سِفْرٍ كَانَ أَوْ حَضَرٍ . وَحُكِيَ عَنْ دَاوُدَ : أَنَّهُ أَجَازَ شَهَادَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي وَصِيَّتِهِ ، فِي السَّفَرِ دُونَ الْحَضَرِ . وَبِهِ قَالَ مِنَ التَّابِعِينَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، وَعِكْرِمَةُ . فَأَمَّا قَبُولُ شَهَادَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وَعَلَى بَعْضٍ ، فَقَدِ اخْتُلِفَ فِي جَوَازِهَا عَلَى ثَلَاثَةِ مَذَاهِبَ : أَحَدُهَا : وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ بِحَالٍ سَوَاءٌ اتَّفَقَتْ مِلَلُهُمْ أَوِ اخْتَلَفَتْ . وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ ، وَالْأَوْزَاعِيُّ ، وَابْنُ أَبِي لَيْلَى ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ . وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي : وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ أَنَّ شَهَادَةَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مَقْبُولَةٌ مَعَ اتِّفَاقِ مِلَلِهِمْ وَاخْتِلَافِهَا ، وَبِهِ قَالَ حَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ، وَقُضَاةُ الْبَصْرَةِ ، الْحَسَنُ ، وَسَوَّارٌ وَعُبَيْدُ اللَّهِ . وَالْمَذْهَبُ الثَّالِثُ : وَهُوَ قَوْلُ الزُّهْرِيِّ ، وَالشَّعْبِيِّ ، وَقَتَادَةَ أَنَّهُ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ لِأَهْلِ مِلَّتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ ، وَلَا تُقْبَلُ عَلَى غَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ كَالْيَهُودِ عَلَى النَّصَارَى ، وَالنَّصَارَى عَلَى الْيَهُودِ . وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ [الْمَائِدَةِ :] . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مِنْ غَيْرِ دِينِكُمْ مِنْ أَهْلِ

(384/218)

الْكِتَابِ ، فَجَعَلَهُ دَاوُدُ مَقْصُورًا عَلَى الْوَصِيَّةِ ، وَجَعَلَهُ أَبُو حَنِيفَةَ مَقْصُورًا عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وَجَعَلَهُ الزُّهْرِيُّ ، وَالشَّعْبِيُّ مَقْصُورًا عَلَى الْمُوافِقِينَ فِي الْمِلَّةِ دُونَ الْمُخَالِفِينَ وَرَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ جَابِرٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أَجَازَ شَهَادَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ " قَالُوا : وَهَذَا نَصٌّ . وَرَوَى أَبُو أُسَامَةَ عَنْ مُجَالِدٍ عَنْ عَامِرٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : جَاءَتِ الْيَهُودُ بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْهُمْ زَنَيَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : " ائْتُونِي بِأَعْلَمِ رَجُلَيْنِ مِنْكُمْ " ، فَأَتَوْهُ بِابْنَيْ صُورِيَا " فَنَشَدَهُمَا كَيْفَ تَجِدُونَ أَمْرَ هَذَيْنِ فِي التَّوْرَاةِ " فَقَالَا نَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ إِذَا شَهِدَ أَرْبَعَةٌ أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا مِثْلَ الْمِيلِ فِي الْمُكْحُلَةِ رُجِمَا ، قَالَ : " فَمَا مَنَعَكُمَا أَنْ تَرْجُمُوهُمَا " قَالَا ذَهَبَ سُلْطَانُنَا فَكَرِهْنَا الْقَتْلَ ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالشُّهُودِ فَجَاءُوا بِأَرْبَعَةٍ فَشَهِدُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا مِثْلَ الْمِيلِ فِي الْمُكْحُلَةِ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجْمِهِمَا " . فَدَلَّ عَلَى قَبُولِ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ قَالُوا : وَلِأَنَّ الْكُفْرَ لَا يُنَافِي الْوِلَايَةَ ، لِأَنَّ الْكَافِرَ

يَلِي عَلَى أَطْفَالِهِ وَعَلَى نِكَاحِ بَنَاتِهِ ، فَكَانَ أَوْلَى أَنْ لَا يُمْنَعَ مِنَ الشَّهَادَةِ ، لِأَنَّهَا أَخَصُّ شُرُوطًا مِنَ الْوِلَايَةِ . قَالُوا :

(385/218)

وَلِأَنَّ مَنْ كَانَ عَدْلًا مِنْ أَهْلِ دِينِهِ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ كَالْمُسْلِمِينَ . قَالُوا : وَلِأَنَّهُ فُسِّقَ عَلَى وَجْهِ التَّأْوِيلِ ، فَلَمْ يُمْنَعْ مِنْ قَبُولِ الشَّهَادَةِ كَأَهْلِ الْبَغْيِ . وَدَلِيلُنَا : قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ [الطَّلَاقِ :] ، فَمَنَعَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ قَبُولِ شَهَادَتِهِمْ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ غَيْرُ عُدُولٍ . وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَّا . وَقَالَ تَعَالَى : إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا [الْحُجُرَاتِ :] . وَالْكَافِرُ فَاسِقٌ ، فَوَجَبَ أَنْ يَتَثَبَّتَ فِي خَبَرِهِ ، وَالشَّهَادَةُ أَغْلَظُ مِنَ الْخَبَرِ ، فَأَوْجَبَتِ التَّوَقُّفَ عَنْ شَهَادَتِهِ . وَرَوَى عُبَادَةُ بْنُ نُسَيٍّ عَنِ ابْنِ غَنْمٍ قَالَ : سَأَلْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ عَنْ شَهَادَةِ الْيَهُودِيِّ عَلَى النَّصْرَانِيِّ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " لَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ أَهْلِ دِينٍ عَلَى غَيْرِ أَهْلِ دِينِهِمْ إلَّا الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُمْ عُدُولٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَعَلَى غَيْرِهِمْ " فَإِذَا مَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَبُولِ شَهَادَتِهِمْ عَلَى غَيْرِ أَهْلِ دِينِهِمْ ، وَأَبُو حَنِيفَةَ يُسَوِّي بَيْنَ أَهْلِ دِينِهِمْ وَغَيْرِهِمْ دَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَا تُقْبَلُ عَلَى أَهْلِ دِينِهِمْ ، وَعَلَى غَيْرِهِمْ ، وَلِأَنَّ الْفَاسِقَ الْمُسْلِمَ أَكْمَلُ مِنَ الْكَافِرِ الْعَدْلِ ، لِصِحَّةِ الْعِبَادَاتِ مِنَ الْفَاسِقِ

، وَاسْتِحْقَاقِ الْمِيرَاثِ ، وَذَلِكَ لَا يَصِحُّ مِنَ الْكَافِرِ ، وَلَا يَسْتَحِقُّ مِيرَاثَ مُسْلِمٍ ، ثُمَّ كَانَ الْفِسْقُ مَانِعًا مِنْ قَبُولِ

(386/218)

الشَّهَادَةِ ، فَكَانَ الْكُفْرُ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَانِعًا مِنْهَا . وَيَتَحَرَّرُ لَكَ مِنْ هَذَا الِاسْتِدْلَالِ قِيَاسَانِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّ مَنْ لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُ عَلَى الْمُسْلِمِ ، لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُ عَلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِ كَالْفَاسِقِ . وَالثَّانِي : أَنَّ مَنْ رُدَّتْ شَهَادَتُهُ بِالْفِسْقِ ، رُدَّتْ شَهَادَتُهُ بِالْكُفْرِ ، كَالشَّهَادَةِ عَلَى الْمُسْلِمِ ، وَلِأَنَّ الْكَذِبَ يَمْنَعُ مِنْ قَبُولِ الشَّهَادَةِ ، وَالْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى عِبَادِهِ ، ثُمَّ كَانَتْ شَهَادَةُ مَنْ كَذَبَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَرْدُودَةً ، وَالْكَافِرُ الْكَاذِبُ عَلَى اللَّهِ أَوْلَى أَنْ تُرَدَّ شَهَادَتُهُ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى كَذِبَهُمْ فَقَالَ : يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ [الْمَائِدَةِ :] . وَقَالَ تَعَالَى : وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [آل عِمْرَانَ :] . وَيَتَحَرَّرُ مِنْ هَذَا الِاسْتِدْلَالِ قِيَاسَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ مَنْ كَانَ مَوْسُومًا بِالْكَذِبِ رُدَّتْ شَهَادَتُهُ كَالْمُسْلِمِ . وَالثَّانِي : أَنَّ الْكَذِبَ إِذَا رُدَّتْ بِهِ شَهَادَةُ الْمُسْلِمِ ، فَأَوْلَى أَنْ تُرَدَّ بِهِ شَهَادَةُ الْكَافِرِ ، كَالْكَذِبِ عَلَى النَّاسِ ، وَلِأَنَّ نَقْصَ الْكُفْرِ أَغْلَظُ مِنْ نَقْصِ الرِّقِّ ، لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ نَقْصَ الْكُفْرِ يَمْنَعُ مِنْ صِحَّةِ الْعِبَادَاتِ ، وَلَا يَمْنَعُ مِنْهَا نَقْصُ الرِّقِّ . وَالثَّانِي : أَنَّ

نَقْصَ الْكُفْرِ يَمْنَعُ مِنْ قَبُولِ الْخَبَرِ ، وَلَا يَمْنَعُ مِنْهُ نَقْصُ الرِّقِّ ، ثُمَّ ثَبَتَ بِاتِّفَاقِنَا وَأَبِي حَنِيفَةَ أَنْ نَقْصَ الرِّقِّ يَمْنَعُ مِنْ قَبُولِ الشَّهَادَةِ

(387/218)

، فَكَانَ أَوْلَى أَنْ يَمْنَعَ مِنْ قَبُولِهَا - نَقْصُ الْكُفْرِ ، وَلِهَذِهِ الْمَعَانِي مَنَعَ أَبُو حَنِيفَةَ مِنْ قَبُولِ شَهَادَةِ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ اعْتِبَارًا بِنَقْصِ الْكُفْرِ ، فَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ . وَيَتَحَرَّرُ مِنْ هَذَا الِاسْتِدْلَالِ قِيَاسَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا شَهَادَةٌ يَمْنَعُ مِنْهَا الرِّقُّ ، فَوَجَبَ أَنْ يَمْنَعَ مِنْهَا الْكُفْرُ ، قِيَاسًا عَلَى شَهَادَةِ الْوَثَنِيِّ . وَالثَّانِي : أَنَّهَا شَهَادَةٌ يَمْنَعُ مِنْهَا كُفْرُ الْوَثَنِيِّ ، فَوَجَبَ أَنْ يَمْنَعَ مِنْهَا كُفْرُ الْكِتَابِيِّ كَالشَّهَادَةِ عَلَى الْمُسْلِمِ . فَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُ بِالْآيَةِ فَسَنَذْكُرُ مِنِ اخْتِلَافِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ فِي تَفْسِيرِهَا مَا يَتَكَافَأُ بِهِ الِاسْتِدْلَالُ بِهَا . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ [الْمَائِدَةِ :] ، فَفِيهِ ثَلَاثَةُ تَأْوِيلَاتٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهَا الشَّهَادَةُ بِالْحُقُوقِ عِنْدَ الْحُكَّامِ . وَالثَّانِي : أَنَّهَا شَهَادَةُ الْحُضُورِ لِلْوَصِيَّةِ . وَالثَّالِثُ : أَنَّهَا أَيْمَانٌ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ ، أَيْمَانُ بَيْنِكُمْ ، فَعَبَّرَ عَنِ الْيَمِينِ بِالشَّهَادَةِ ، كَمَا قَالَ فِي أَيْمَانِ الْمُتَلَاعِنَيْنِ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ [النُّورِ :] ، فَلَا يَكُونُ لِأَبِي حَنِيفَةَ فِيهَا دَلِيلٌ إِلَّا عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ ، وَيَمْنَعُهُ التَّأْوِيلَانِ الْآخَرَانِ مِنْهُمَا ، وَلَا يَكُونُ لِدَاوُدَ فِيهَا دَلِيلٌ إِلَّا عَلَى التَّأْوِيلِ الثَّانِي ، وَيَمْنَعُهُ التَّأْوِيلَانِ الْآخَرَانِ فِيهِمَا .

وَفِي قَوْلِهِ : اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ [الْمَائِدَةِ :] . تَأْوِيلَانِ : أَحَدُهُمَا : يَعْنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٍ . وَالثَّانِي : يَعْنِي وَصِيَّ الْمُوصِي ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَفِيهِمَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمَا شَاهِدَانِ يَشْهَدَانِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُوصِي . وَالثَّانِي : أَنَّهُمَا وَصِيَّانِ وَلِيَّهُ ، وَلِأَبِي حَنِيفَةَ وَدَاوُدَ دَلِيلٌ عَلَى التَّأْوِيلَيْنِ الْآخَرَيْنِ ، وَإِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا دَلِيلٌ عَلَى التَّأْوِيلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ فِيهِ تَأْوِيلَانِ : أَحَدُهُمَا : مِنْ غَيْرِ دِينِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَشُرَيْحٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . وَالثَّانِي : مِنْ غَيْرِ قَبِيلَتِكُمْ وَعَشِيرَتِكُمْ ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ ، وَعِكْرِمَةَ ، وَالزُّهْرِيِّ ، وَلَيْسَ لَهُمَا فِيهِمَا عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ دَلِيلٌ ، وَإِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ دَلِيلٌ . وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا عَلَى التَّخْيِيرِ فِي اثْنَيْنِ مِنَّا ، أَوْ آخَرَيْنِ مِنْ غَيْرِنَا . وَالثَّانِي : أَنَّهَا لِغَيْرِ التَّخْيِيرِ ، وَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ ، أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ لَمْ تَجِدُوا مِنْكُمْ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَشُرَيْحٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ [الْمَائِدَةِ :] يَعْنِي سَافَرْتُمْ " فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ " ، وَفِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ ، وَتَقْدِيرُهُ ، وَقَدْ أَسْنَدْتُمُ الْوَصِيَّةَ

(389/218)

إِلَيْهِمَا . وَقَوْلُهُ : تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ [الْمَائِدَةِ :] . أَيْ : تَسْتَوْثِقُوا بِهِمَا لِلْأَيْمَانِ ، وَهَذَا خِطَابٌ لِلْوَرَثَةِ ، وَفِي هَذِهِ الصَّلَاةِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، وَهَذَا قَوْلُ شُرَيْحٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . وَالثَّانِي : مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ أَهْلِ دِينِهِمَا وَمِلَّتِهِمَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَالسُّدِّيِّ ، فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا [الْمَائِدَةِ :] ، فِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : إنِ ارْتَبْتُمْ بِالْوَصِيَّيْنِ فِي الْخِيَانَةِ أَحْلَفَهُمَا الْوَرَثَةُ . وَالثَّانِي : إنِ ارْتَبْتُمْ بِالشَّاهِدَيْنِ فِي الْعَدَالَةِ ، وَالْجَرْحِ أَحْلَفَهُمَا الْحَاكِمُ .

(390/218)

وَفِي قَوْلِهِ : نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا فِيهِمَا تَأْوِيلَانِ : أَحَدُهُمَا : لَا نَأْخُذُ عَلَيْهِ رِشْوَةً ، وَهَذَا قَوْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ . وَالثَّانِي : لَا نُعْتَاضُ عَلَيْهِ بِحَقٍّ ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى أَيْ : لَا نَمِيلُ مَعَ ذِي الْقُرْبَى فِي قَوْلِ الزُّورِ وَالشَّهَادَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ، عِنْدَنَا فِيمَا أَوْجَبَهُ مِنْ أَدَائِهَا عَلَيْنَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا [

الْمَائِدَةِ :] . وَفِي " عُثِرَ " تَأْوِيلَانِ : أَحَدُهُمَا : ظَهَرَ ، حَكَاهُ ابْنُ عِيسَى . وَالثَّانِي : اطَّلَعَ ، قَالَهُ النَّخَعِيُّ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَإِنْ تَقَارَبَ مَعْنَاهُمَا : أَنَّ الظُّهُورَ مَا بَانَ بِنَفْسِهِ وَالِاطِّلَاعَ مَا بَانَ بِالْكَشْفِ عَنْهُ . وَقَوْلُهُ : اسْتَحَقَّا إِثْمًا [الْمَائِدَةِ :] . إِنْ كَذِبَا وَخَانَا ، فَعَبَّرَ عَنِ الْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ بِالْإِثْمِ ، لِحُدُوثِهِ عَنْهُمَا ، وَفِي الَّذِي عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا - قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمَا الشَّاهِدَانِ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : أَنَّهُمَا الْوَصِيَّانِ ، وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . " فَآخَرَانِ " يَعْنِي مِنَ الْوَرَثَةِ . يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا يَعْنِي فِي حِينِ ظَهَرَ لَهُمَا الْخِيَانَةُ مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمَا الْأَوْلَيَانِ ، فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : الْأَوْلَيَانِ بِالْمَيِّتِ مِنَ الْوَرَثَةِ ، وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . وَالثَّانِي : الْأَوْلَيَانِ بِالشَّهَادَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشُرَيْحٍ ، وَسَبَبُ نُزُولِ

(391/218)

هَذِهِ الْآيَةِ ، مَا رَوَى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ ، قِيلَ : إِنَّهُ ابْنُ أَبِي مَارِيَةَ ، مَوْلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ، وَعُدَيِّ بْنِ بَدَّاءٍ فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ ، فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا بِالذَّهَبِ ، فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ وَجَدَ الْجَامَ بِمَكَّةَ

، فَقَالُوا : اشْتَرَيْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ، وَعَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ ، فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ السَّهْمِيِّ ، قِيلَ : إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَالْمُطَّلِبُ بْنُ أَبِي وَدَاعَةَ فَحَلَفَا لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ، وَأَنَّ الْجَامَ لِصَاحِبِهِمْ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " سَافِرُوا مَعَ ذَوِي الْجُدُودِ وَالْمَيْسَرَةِ " . وَاخْتُلِفَ فِي حُكْمِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، هَلْ هُوَ مَنْسُوخٌ أَوْ ثَابِتٌ ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : حُكْمُهُمَا مَنْسُوخٌ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : حُكْمُهُمَا ثَابِتٌ ، وَقَدْ تَجَاوَزْنَا بِتَفْسِيرِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ حَدَّ الْجَوَابِ لِيُعْرَفَ حُكْمُهُمَا ، وَلَيْسَ مَعَ هَذَا الِاخْتِلَافِ دَلِيلٌ فِيهِمَا ، فَإِنِ اسْتَدَلَّ مَنْ نَصَرَ مَذْهَبَ دَاوُدَ بِمَا رَوَاهُ غَيْلَانُ ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ ، عَنْ سُفْيَانَ ، عَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ ، قَالَ : شَهِدَ رَجُلَانِ نَصْرَانِيَّانِ مِنْ أَهْلِ دَقُوقَاءَ عَلَى وَصِيَّةِ مُسْلِمٍ ، وَأَنَّ

(392/218)

أَهْلَ الْوَصِيَّةِ أَقَرَّا بِهِمَا أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ ، فَاسْتَحْلَفَهُمَا بِاللَّهِ بَعْدَ الْعَصْرِ مَا اشْتَرَيْنَا ثَمَنًا ، وَلَا كَتَمْنَا شَهَادَةً ، بِاللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ، ثُمَّ قَالَ أَبُو مُوسَى ، وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَقَضِيَّةٌ مَا قُضِيَ بِهَا مُنْذُ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ الْيَوْمِ . قِيلَ : هَذَا خِلَافٌ بَيْنَ الصَّحَابَةِ ، فَلَمْ يَحُجَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لَا سِيَّمَا وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى خِلَافِهِ . ثُمَّ هَذِهِ قَضِيَّةٌ فِي عَيْنٍ يُحْتَمَلُ أَنْ

يَكُونَ لَهَا تَأْوِيلٌ ، فَامْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا دَلِيلٌ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِحَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّهُ أَجَازَ شَهَادَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فَهُوَ أَنَّهُ أَرَادَ بِالشَّهَادَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً [الْمُنَافِقُونَ :] . وَكَمَا قَالَ فِي الْمُنَافِقِينَ : قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ [الْمُنَافِقُونَ :] . أَيْ : نَحْلِفُ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ رَجْمِ الزَّانِيَيْنِ الْيَهُودِيَّيْنِ : فَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يُرْوَ أَنَّهُ قَبِلَ شَهَادَةَ الْيَهُودِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الشُّهُودُ مُسْلِمِينَ ، أَوْ حَصَلَ مَعَ شَهَادَةِ الْيَهُودِ اعْتِرَافُ الزَّانِيَيْنِ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِصِحَّةِ وِلَايَتِهِمْ : فَهُوَ أَنَّ الْوِلَايَةَ خَاصَّةٌ فَخَفَّ حُكْمُنَا ، لِمَا يُرَاعَى فِيهَا عَدَالَةُ الظَّاهِرِ دُونَ الْبَاطِنِ ، وَيُرَاعَى فِي الشَّهَادَةِ عَدَالَةُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، فَلِذَلِكَ رُدَّتْ شَهَادَةُ الْكَافِرِ ، وَإِنْ صَحَّتْ وِلَايَتُهُ .

(393/218)

وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِأَنَّهُمْ عُدُولٌ : فَهُوَ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ الْوَارِدَ بِتَكْذِيبِهِمْ يَمْنَعُ مِنْ ثُبُوتِ عَدَالَتِهِمْ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قِيَاسِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْبَغْيِ ، لِأَنَّ فِسْقَهُمْ بِتَأْوِيلٍ : فَهُوَ أَنَّ مَنْ حُكِمَ بِفِسْقِهِ مِنْهُمْ لِظُهُورِ الْخَطَأِ فِي تَأْوِيلِهِ ، لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُ ، وَمَنْ كَانَ تَأْوِيلُ شُبْهَتِهِ مُحْتَمَلًا ، كَانُوا عَلَى عَدَالَتِهِمْ وَقَبُولِ شَهَادَتِهِمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحاوى حـ 17 صـ 61 .

ومن فوائد السعدى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ . . . الآية ﴾

يخبر تعالى خبرا متضمنا للأمر بإشهاد اثنين على الوصية ، إذا حضر الإنسان مقدماتُ الموت وعلائمه . فينبغي له أن يكتب وصيته ، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما .

﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي: من غير أهل دينكم ، من اليهود أو النصارى أو غيرهم ، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين .

﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي: سافرتم فيها ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي: فأشهدوهما ، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول ، ويؤكد عليهما ، بأن يحبسا ﴿ مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ ﴾ التي يعظمونها .

﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ أنهما صدقا ، وما غيرا ولا بدلا هذا ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ في

شهادتهما ، فإن صدقتموهما ، فلا حاجة إلى القسم بذلك .

ويقولان: ﴿ لا نَشْتَرِي بِهِ ﴾ أي: بأيماننا ﴿ ثَمَنًا ﴾ بأن نكذب فيها ، لأجل عرض من الدنيا . ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿ وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿ إِنَّا إِذًا ﴾ أي: إن كتمناها ﴿ لَمِنَ الآثِمِينَ ﴾ .

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا ﴾ أي: الشاهدين ﴿ اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما خانا ﴿ فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ .

أي: فليقم رجلان من أولياء الميت ، وليكونا من أقرب الأولياء إليه . ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ أي: أنهما كذبا ، وغيرا وخانا . ﴿ وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: إن ظلمنا واعتدينا ، وشهدنا بغير الحق .

(395/218)

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها ، وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى ﴾ أي: أقرب ﴿ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات . ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي: أن لا

تقبل أيمانهم ، ثم ترد على أولياء الميت .

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي: الذين وصْفُهم الفسق ، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم .

وحاصل هذا ، أن الميت – إذا حضره الموت في سفر ونحوه ، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين – أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين .

فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين ، جاز أن يوصي إليهما ، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة ، أنهما ما خانا ، ولا كذبا ، ولا غيرا ، ولا بدلا فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما .

فإن لم يصدقوهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين ، فإن شاء أولياء الميت ، فليقم منهم اثنان ، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين ، وأنهما خانا وكذبا ، فيستحقون منهما ما يدعون .

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة "تميم الداري" و"عدي بن بداء" المشهورة حين أوصى لهما العدوي ، والله أعلم .

ويستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام:

منها : أن الوصية مشروعة ، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي .

ومنها : أنها معتبرة ، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته ، ما دام عقله

ثابتا .

ومنها : أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين .

ومنها : أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة ، وهذا مذهب الإمام أحمد . وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ ، وهذه دعوى لا دليل عليها .

(396/218)

ومنها : أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه ، أن شهادة الكفار –عند عدم غيرهم ، حتى في غير هذه المسألة– مقبولة ، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومنها : جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور .

ومنها : جواز السفر للتجارة .

ومنها : أن الشاهدين –إذا ارتيب منهما ، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهما ، وأراد الأولياء– أن يؤكدوا عليهم اليمين ، ويحبسوهما من بعد الصلاة ، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى .

ومنها : أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما ، وتأكيد اليمين عليهما .

ومنها : تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه ، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط .

ومنها : أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الريبة منهما ، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما .

ومنها : أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة – قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما ، ولقد خانا وكذبا .

ثم يدفع إليهما ما ادعياه ، فتكون القرينة –مع أيمانهما – قائمة مقام البينة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير السعدى صـ 246. 248 ﴾

(397/218)

ومن فوائد الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

والآن يجيء الحكم الأخير من الأحكام الشرعية التي تتضمنها السورة ، في بيان بعض أحكام المعاملات في المجتمع المسلم ، وهو الخاص بتشريع الإشهاد على الوصية في حالة الضرب في الأرض ، والبعد عن المجتمع . والضمانات التي تقيمها الشريعة ليصل الحق إلى أهله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت – حين الوصية – اثنان ذوا عدل منكم ، أو آخران من غيركم ، إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ، تحبسونهما من بعد الصلاة ، فيقسمان بالله – إن ارتبتم – لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله ، إنا إذن لمن الآثمين . فإن عثر على أنهما استحقا إثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم . الأوليان . . فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ، وما اعتدينا ، إنا إذن لمن الظالمين . ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ؛ واتقوا الله واسمعوا ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ . .

وبيان هذا الحكم الذي تضمنته الآيات الثلاث : أن على من يحس بدنو أجله ، ويريد أن يوصي لأهله بما يحضره من المال ، أن يستحضر شاهدين عدلين من المسلمين إن كان في الحضر ، ويسلمهما ما يريد أن يسلمه لأهله غير الحاضرين . فأما إذا كان ضارباً في الأرض ، ولم يجد مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه ، فيجوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين .

فإن ارتاب المسلمون – أو ارتاب أهل الميت – في صدق ما يبلغه الشاهدان وفي أمانتهما في أداء ما استحفظا عليه ، فإنهم يوقفونهما بعد أدائهما للصلاة – حسب عقيدتهما –

ليحلفا بالله ، أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا لأحد آخر ، ولو كان ذا قربى ، ولا يكتمان شيئاً مما استحفظا عليه . . وإلا كانا من الآثمين . . وبذلك تنفذ شهادتهما .

(398/218)

فإذا ظهر بعد ذلك أنهما ارتكبا إثم الشهادة الكاذبة واليمين الكاذبة والخيانة للأمانة . قام أولى اثنين من أهل الميت بوراثته ، من الذين وقع عليهم هذا الإثم ، بالحلف بالله أن شهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين . وأنهما لم يعتديا بتقريرهما هذه الحقيقة . وبذلك تبطل شهادة الأولين ، وتنفذ الشهادة الثانية .

ثم يقول النص : إن هذه الإجراءات أضمن في أداء الشهادة بالحق ؛ أو الخوف من رد أيمان الشاهدين الأولين ، مما يحملهما على تحري الحق .

﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ .

وينتهي إلى دعوة الجميع إلى تقوى الله ، ومراقبته وخشيته ، والطاعة لأوامره ، لأن الله لا يهدي من يفسقون عن طريقه ، إلى خير ولا إلى هدى :

﴿ واتقوا الله واسمعوا . والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ . .

قال القرطبي في تفسيره عن سبب نزول هذه الآيات الثلاث :

" . . . ولا أعلم خلافاً أن هذه الآيات الثلاث نزلت بسبب تميم الداري ، وعدي بن بدّاء روي البخاري والدارقُطني وغيرهما عن ابن عباس قال : "كان تميم الداري وعدي بن بداء ، يختلفان إلى مكة ؛ فخرج معهما فتى من بني سهم ، فتوفي بأرض ليس بها مسلم ، فأوصى إليهما ، فدفعا تركته إلى أهله ، وحبسا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب . فاستحلفهما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ما كتمتما ولا اطلعتما " . ثم وجد الجام بمكة . فقالوا : اشتريناه من عدي وتميم . فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي ، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا . قال فأخذ الجام . وفيهم نزلت هذه الآية . . . " (لفظ الدارقطني) . "

وواضح أن لطبيعة المجتمع الذي نزلت هذه الأحكام لتنظيمه دخلا في شكل الإجراءات .

(399/218)

وربما في طبيعة هذه الإجراءات . فالإشهاد والائتمان على هذا النحو . ثم الحلف بالله في مجتمع بعد الصلاة . لاستجاشة الوجدان الديني ، والتحرج كذلك من الفضيحة في المجتمع عند ظهور الكذب والخيانة . . كلها تشي بسمات مجتمع خاص . تفي بحاجاته وملابساته هذه الإجراءات .

ولقد تملك المجتمعات اليوم وسائل أخرى للإثبات ، وأشكالاً أخرى من الإجراءات ، كالكتابة والتسجيل والإيداع في المصارف . . وما إليها . .

ولكن . أو فَقَدَ هذا النص قدرته على العمل في المجتمعات البشرية ؟

إننا كثيراً ما نخدع ببيئة معينة ، فنظن أن بعض التشريعات وبعض الإجراءات قد فقدت فاعليتها ، ولم تعد لها ضرورة ، وأنها من مخلفات مجتمعات مضى زمنها ! لأن البشرية استجدّت وسائل أخرى !

أجل كثيراً ما نخدع فننسى أن هذا الدين جاء للبشرية جميعاً ، في كل أقطارها ، وفي كل أعصارها . وأن كثرة ضخمة من هذه البشرية اليوم ما تزال بدائية أو متدرجة من البداوة . وأنها في حاجة إلى أحكام وإجراءات تواكب حاجاتها في جميع أشكالها وأطوارها ، وأنها تجد في هذا الدين ما يلبي هذه الحاجات في كل حالة . وأنها حين ترتقي من طور إلى طور تجد في هذا الدين كفايتها كذلك بنفس النسبة ؛ وتجد في شريعته ما يلبي حاجاتها الحاضرة ، ثم يرتقي بها إلى تلبية حاجاتها المتطورة . . وأن هذه معجزة هذا الدين ومعجزة شريعته ؛ وآية أنه من عند الله ، وأنها من اختياره سبحانه .

على أننا نخدع كذلك مرة أخرى حين ننسى الضرورات التي يقع فيها الأفراد من البيئات التي تجاوزت هذه الأطوار ؛ والتي يسعفهم فيها يسر هذه الشريعة وشمولها ، ووسائل هذا الدين المعدة للعمل في كل بيئة وفي كل حالة . في البدو والحضر . في الصحراء والغابة . لأنه

دين البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها . . وتلك أيضاً إحدى معجزاته الكبرى .

إننا نخدع حين نتصور أننا – نحن البشر – أبصر بالخلق من رب الخلق . . فتردنا الوقائع إلى التواضع ! وما أولانا أن نتذكر قبل أن تصدمنا الأحداث . وأن نعرف أدب البشر في حق خالق البشر . . أدب العبيد في حق رب العبيد . . لو كنا نتذكر ونعرف ، ونثوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 993.994 ﴾

(400/218)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ . . . الآية ﴾

أخرج الترمذي وضعفه وابن جرير وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو النعيم في المعرفة من طريق أبي النضر وهو الكلبي ، عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ﴾ قال " برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء ، وكانا نصرانيين

يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له : بديل بن أبي مريم بتجارة ، ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو عظم تجارته ، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله . قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ، ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا الجام فسألونا عنه ، فقلنا : ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره . قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، وأديت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألهم البينة فلم يجدوا ، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ إلى قوله ﴿ أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر ، فحلفا ، فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء " .

(401/218)

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والنحاس والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال " خرج رجل من بني سهم مع

تميم الداري وعدي بن بداء ، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما ، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب ، فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله : ما كتمتماها ولا اطلعتما ، ثم وجدوا الجام بمكة ، فقيل : اشتريناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أولياء السهمي ، فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ، وإن الجام لصاحبهم ، وأخذ الجام وفيه نزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ " .

(402/218)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال " كان تميم الداري وعدي بن بداء رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة في الجاهلية ويطيلان الإقامة بها ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم حوّل متجرهما إلى المدينة ، فخرج بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة ، فخرجوا جميعاً تجاراً إلى الشام ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل ، فكتب وصيته بيده ثم دسها في متاعه وأوصى إليهما ، فلما مات ، فتحا متاعه ، فأخذا منه شيئاً ثم حجزاه كما كان ، وقدما المدينة على أهله فدفعا متاعه ، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به ، وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه ، فقالوا : هذا الذي قبضنا له ودُفِعَ إلينا ، فقالوا لهما : هذا كتابه بيده ! قالوا : ما كتمنا له شيئاً ،

فترافعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ﴾ إلى قوله ﴿ إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستحلفوهما بعد صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ، ما قبضنا له غير هذا ولا كتمنا ، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ظهر معهما على إناء من فضة منقوش مموه بذهب ، فقال أهله : هذا من متاعه ولكنا اشتريناه منه ، ونسينا أن نذكره حين حلفنا ، فكرهنا أن نكذب نفوسنا ، فترافعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية الأخرى ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ فأمر النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من أهل الميت أن يحلفا على ما كتما وغيبا ويستحقانه ، ثم إن تميماً الداري أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول : صدق الله ورسوله ، أنا أخذت الإناء ، ثم قال : يا رسول الله ، إن الله يظهرك على أهل الأرض كلها ، فهب لي قريتين من بيت لحم – وهي القرية التي ولد فيها عيسى – فكتب له بها كتاباً ، فلما قدم عمر الشام أتاه تميم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال

(403/218)

عمر : أنا حاضر ذلك فدفعها إليه " .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ شهادة بينكم ﴾ مضاف برفع شهادة بغير نون وبخفض بينكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس من طريق علي عن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ﴾ هذا لمن مات وعنده المسلمون ، أمره الله أن يشهد على وصيته عدلين من المسلمين ، ثم قال ﴿ أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين ، أمره الله بشهادة رجلين من غير المسلمين ، فإن ارتيب بشهادتهما استحلفا بالله بعد الصلاة : ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً ، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما ، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، فذلك قوله تعالى ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبا ، قام الأوليان فحلفا أنهما كذبا ، ذلك أدنى أن يأتي الكافران بالشهادة على وجهها ، أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ، فتترك شهادة الكافرين ، ويحكم بشهادة الأوليان ، فليس على شهود المسلمين أقسام ، إنما الأقسام إذا كانا كافرين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ اثنان ذوا عدل منكم ﴾ قال : من أهل الإسلام ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ قال : من غير أهل الإسلام ،

وفي قوله ﴿ فيقسمان بالله ﴾ يقول : يحلفان بالله بعد الصلاة . وفي قوله ﴿ فآخران يقومان مقامهما ﴾ قال : من أولياء الميت فيحلفان ﴿ بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ يقول : فيحلفان بالله ما كان صاحبنا ليوصي بهذا وإنهما لكاذبان . وفي قوله ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ يعني أولياء الميت فيستحقون ماله بأيمانهم ، ثم يوضع ميراثه كما أمر الله ، وتبطل شهادة الكافرين . وهي منسوخة .

(404/218)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية ﴿ اثنان ذوا عدل منكم ﴾ قال : ما من الكتاب إلا قد جاء على شيء جاء على إدلاله غير هذه الآية ، ولئن أنا لم أخبركم بها لأنا أجهل من الذي ترك الغسل يوم الجمعة ، هذا رجل خرج مسافراً ومعه مال ، فأدركه قدره ، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته ، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين ، فإن لم يجد عدلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب ، فإن أدى فسبيل ما أدى ، وإن هو جحد استحلف بالله الذي لا إله إلا هو دبر صلاة : أن هذا الذي وقع إلي وما غيبت شيئاً ، فإذا حلف برئ ، فإذا أتى بعد ذلك صاحبا الكتاب فشهدا

عليه ، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم ما لهم جعلت أيمان الورثة مع شهادتهم ثم اقتطعوا حقه ، فذلك الذي يقول الله ﴿ ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ﴾ قال : أن يموت المؤمن فيحضر موته مسلمان أو كافران ، لا يحضره غير اثنين منهم ، فإن رضي ورثته بما غابا عنه من تركته فذلك ، ويحلف الشاهدان أنهما صادقان ، فإن عثر قال : وجد لطخ أو لبس أو تشبيه حلف الاثنان الأوّلان من الورثة ، فاستحقا وأبطلا أيمان الشاهدين .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ قال : من غير المسلمين من أهل الكتاب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ اثنان ذوا عدل منكم ﴾ قال : من أهل دينكم ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ قال : من أهل الكتاب إذا كان ببلاد لا يجد غيرهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن شريح قال : لا تجوز شهادة اليهودي ولا النصراني إلا في وصية ، ولا تجوز في وصية إلا في سفر .

(405/218)

وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه عن الشعبي . أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاء ، ولم يجد أحداً من المسلمين يشهد على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعري ، فأخبراه وقدما بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدّلا ولا كتما ولا غيرا ، وإنها وصية الرجل وتركته ، فأمضى شهادتهما .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ شهادة بينكم ﴾ الآية . كلها قال : كان ذلك في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام ، وذلك في أول الإسلام ، والأرض حرب ، والناس كفار ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمدينة ، وكان الناس يتوارثون بينهم بالوصية ، ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل المسلمون بها .

وأخرج ابن جرير عن الزبير قال : مضت السنة أن لا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سفر ، إنما هي في المسلمين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هذه الآية منسوخة .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن عكرمة ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ قال : من

المسلمين من غير حيه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والنحاس وأبو الشيخ والبيهقي في سننه ﴿ إثنان ذوا عدل منكم ﴾ قال : من قبيلتكم ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ قال : من غير قبيلتكم ، ألا ترى أنه يقول ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ كلهم من المسلمين .

(406/218)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عقيل قال : سألت ابن شهاب عن هذه الآية قلت : أرأيت الاثنين اللَّذين ذكر الله من غير أهل المرء الموصي ، أهما من المسلمين أو هما من أهل الكتاب ؟ ورأيت الآخرين اللذين يقومان مقامهما ، أتراهما من أهل المرء الموصي أم هما في غير المسلمين ؟ قال ابن شهاب : لم نسمع في هذه الآية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أئمة العامة سنة أذكرها ، وقد كنا نتذاكرها أناساً من علمائنا أحياناً فلا يذكرون فيها سنة معلومة ولا قضاء من إمام عادل ، ولكنه مختلف فيها رأيهم ، وكان أعجبهم فيها رأيا إلينا الذين كانوا يقولون : هي فيما بين أهل الميراث من المسلمين ، يشهد بعضهم الميت الذي يرثونه ويغيب عنه بعضهم ، ويشهد من شهده على ما أوصى به لذوي القربى ، فيخبرون من غاب عنه منهم بما حضروا من وصية ، فإن سلموا جازت وصيته ،

وإن ارتابوا أن يكونوا بدلوا قول الميت وآثروا بالوصية من أرادوا ممن لم يوص لهم الميت بشيء ، حلف اللذان يشهدان على ذلك بعد الصلاة ، وهي أن المسلمين ﴿ يقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ فإذا أقسما على ذلك جازت شهادتهما وأيمانهما ما لم يعثر على أنهما استحقا إثماً في شيء من ذلك ، قام آخران مقامهما من أهل الميراث من الخصم الذين ينكرون ما يشهد عليه الأولان المستحلفان أول مرة ، فيقسمان بالله لشهادتنا على تكذيبكما أو إبطال ما شهدتما به ، وما اعتدينا إنا إذاً لمن الظالمين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عبيدة في قوله ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ قال : صلاة العصر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ لا نشتري به ثمناً ﴾ قال : لا نأخذ به رشوة ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ وإن كان صاحبها بعيداً .

(407/218)

وأخرج أبو عبيدة وابن جرير وابن أبي حاتم عن عامر الشعبي أنه كان يقرأ ﴿ ولا نكتم شهادة ﴾ يعني بقطع الكلام منوّناً ﴿ الله ﴾ بقطع الألف وخفض اسم الله على القسم .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه كان يقرؤها ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ يقول هو القسم.

وأخرج عن عاصم ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ مضاف بنصب شهادة، ولا ينون.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ أي اطلع منهما على خيانة على أنهما كذبا أو كتما، فشهد رجلان هما أعدل منهما بخلاف ما قالا، أجيز شهادة الآخرين وبطلت شهادة الأولين.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وأبو عبيدة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ ﴿ من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ بفتح التاء.

وأخرج ابن مردويه والحاكم وصححه عن علي بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن عدي عن أبي مجلز أن أبي بن كعب قرأ ﴿ من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ قال عمر: كذبت. قال: أنت أكذب. فقال الرجل: تكذب أمير المؤمنين! قال: أنا أشد تعظيماً لحق أمير المؤمنين منك، ولكن كذبته في تصديق كتاب الله ولم أصدق أمير المؤمنين في تكذيب كتاب الله. فقال عمر: صدق.

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى ابن يعمر أنه قرأها ﴿ الأوليان ﴾ وقال: هما الوليان.

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس

أنه كان يقرأ " من الذين استحق عليهم الأولين " ويقول : أرأيت لو كان الأوليان صغيرين كيف يقومان مقامهما ؟

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية أنه كان يقرأ الأوّلين مشدّدة على الجماع .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم ﴿ من الذين استحق ﴾ برفع التاء وكسر الحاء " عليهم الأولين " مشددة على الجماع .

(408/218)

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ الأوليان ﴾ قال : الميت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ يقول : ذلك أحرى أن يصدقوا في شهادتهم ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ يقول : وأن يخافوا العنت .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ فتبطل أيمانهم وتؤخذ أيمان هؤلاء .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل في قوله ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾ قال : يعني القضاء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ قال : الكاذبين الذين يحلفون على الكذب . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(409/218)

من فوائد الإمام الجصاص فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

بَابُ الشَّهَادَةِ عَلَى الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾

قَدْ اُخْتُلِفَ فِي مَعْنَى الشَّهَادَةِ هَهُنَا ، فَقَالَ قَائِلُونَ : (هِيَ الشَّهَادَةُ عَلَى الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ) وَأَجَازُوا بِهَا شَهَادَةُ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ .

وَرَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ رَجُلًا مُسْلِمًا تُوفِيَ بِدُقُوقَا وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ يُشْهِدُهُ عَلَى وَصِيتِهِ ، فَأَشْهَدْ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَأَحْلَفَهُمَا أَبُو مُوسَى بَعْدَ الْعَصْرِ بِاللَّهِ مَا خَانَا وَلَا كَذَبَا وَلَا بَدَّلَا وَلَا كَتَمَا وَلَا غَيَّرَا ، وَإِنَّهَا لَوَصِيَّةُ الرَّجُلِ وَتَرِكَتِهِ ؛ فَأَمْضَى أَبُو مُوسَى شَهَادَتَهُمَا وَقَالَ : هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ الَّذِي كَانَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ .

وَقَالَ آخَرُونَ : (مَعْنَى : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ حُضُورُ الْوَصِيَّيْنِ ، مِنْ قَوْلِك شَهِدْته إذَا حَضَرْته) .

وَقَالَ آخَرُونَ : (إنَّمَا الشَّهَادَةُ هُنَا أَيْمَانُ الْوَصِيَّةِ بِاَللَّهِ إذَا ارْتَابَ الْوَرَثَةُ بِهِمَا) ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ .

(410/218)

فَذَهَبَ أَبُو مُوسَى إلَى أَنَّهَا الشَّهَادَةُ عَلَى الْوَصِيَّةِ الَّتِي تَثْبُتُ بِهَا عِنْدَ الْحُكَّامِ ، وَأَنَّ هَذَا حُكْمٌ ثَابِتٌ غَيْرُ مَنْسُوخٍ ؛ وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ شُرَيْحٍ ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَابْنِ أَبِي لَيْلَى وَالْأَوْزَاعِيِّ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَابْنِ سِيرِينَ وَعُبَيْدَةَ وَشُرَيْحٍ وَالشَّعْبِيِّ : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ : (مِنْ غَيْرِ مِلَّتِكُمْ) .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَالزُّهْرِيِّ : (مِنْ غَيْرِ قَبِيلَتِكُمْ) فَأَمَّا تَأْوِيلُ مَنْ تَأَوَّلَهَا عَلَى الْيَمِينِ دُونَ الشَّهَادَةِ الَّتِي تُقَامُ عِنْدَ الْحُكَّامِ ، فَقَوْلٌ مَرْغُوبٌ عَنْهُ ، وَإِنْ كَانَتْ الْيَمِينُ قَدْ تُسَمَّى شَهَادَةً فِي نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاَللَّهِ ﴾ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ إذَا أُطْلِقَتْ فَهِيَ الشَّهَادَةُ الْمُتَعَارَفَةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا

شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ كُلُّ ذَلِكَ قَدْ عُقِلَ بِهِ الشَّهَادَاتُ عَلَى الْحُقُوقِ لَا الْأَيْمَانُ ؛ وَكَذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ الْمَفْهُومُ فِيهِ الشَّهَادَةُ الْمُتَعَارَفَةُ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾ وَيَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَيْمَانَ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ لِأَنَّ حَالَ الْمَوْتِ لَيْسَ حَالًا لِلْأَيْمَانِ .

(411/218)

ثُمَّ زَادَ بِذَلِكَ بَيَانًا بِقَوْلِهِ : ﴿ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : إِنْ لَمْ يُوجَدْ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ؛ وَلَا يَخْتَلِفُ فِي حُكْمِ الْيَمِينِ وُجُودُ ذَوِي الْعَدْلِ وَعَدَمُهُمْ .

وَقَوْلُه تَعَالَى : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْيَمِينَ مَوْجُودَةٌ ظَاهِرَةٌ غَيْرُ مَكْتُومَةٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ يَمِينَ الْوَرَثَةِ بَعْدَ اخْتِلَافِ الْوَصِيِّينَ عَلَى مَالِ الْمَيِّتِ ، وَإِنَّمَا الشَّهَادَةُ الَّتِي هِيَ الْيَمِينُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ ثُمَّ قَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ﴾ يَعْنِي بِهِ الشَّهَادَةَ عَلَى الْوَصِيَّةِ ؛ إِذْ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَقُولَ : (أَنْ تَأْتُوا بِالْيَمِينِ عَلَى وَجْهِهَا) .

وَقَوْلُه تَعَالَى : ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ شَهَادَةٌ ؛

لِأَنَّهُ ذَكَرَ الشَّهَادَةَ وَالْيَمِينَ كُلَّ وَاحِدَةٍ بِحَقِيقَةِ لَفْظِهَا .

فَأَمَّا تَأْوِيلُ مَنْ تَأَوَّلَ قَوْلَهُ : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ : مِنْ غَيْرِ قَبِيلَتِكُمْ ؛ فَلَا مَعْنَى لَهُ وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ ؛ لِأَنَّ الْخِطَابَ تَوَجَّهَ إلَيْهِمْ بِلَفْظِ الْإِيمَانِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرٍ لِلْقَبِيلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(412/218)

آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ قَالَ : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَجْرِ لِلْقَبِيلَةِ ذِكْرٌ حَتَّى تَرْجِعَ إلَيْهِ الْكِنَايَةُ ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْكِنَايَةَ إنَّمَا تَرْجِعُ إمَّا إلَى مَظْهَرٍ مَذْكُورٍ فِي الْخِطَابِ أَوْ مَعْلُومٍ بِدَلَالَةِ الْحَالِ ، فَلَمَّا لَمْ تَكُنْ هُنَا دَلَالَةٌ عَلَى الْحَالِ تَرْجِعُ الْكِنَايَةُ إلَيْهَا يَثْبُتُ أَنَّهَا رَاجِعَةٌ إلَى مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْخِطَابِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَصَحَّ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاقْتَضَتْ الْآيَةُ جَوَازَ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ .

(413/218)

وَقَدْ رُوِيَ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي مُوسَى وَشُرَيْحٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وُجُوهٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَأَشْبَهَهَا بِمَعْنَى الْآيَةِ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ، قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْقَاسِمِ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءٍ ، فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ ، فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَقَدُوا جَامٌ فِضَّةٌ مُخَوَّصًا بِالذَّهَبِ ، فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ ثُمَّ وُجِدَ الْجَامُ بِمَكَّةَ فَقَالُوا : اشْتَرَيْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ ، فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ السَّهْمِيِّ فَحَلَفَا لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَأَنَّ الْجَامَ لَصَاحِبِهِمْ ، قَالَ : فَنَزَلَتْ فِيهِمْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ .

فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدِيًّا ﴾ لِأَنَّ الْوَرَثَةَ اتَّهَمُوهُمَا بِأَخْذِهِ ، ثُمَّ لَمَّا ادَّعَيَا أَنَّهُمَا اشْتَرَيَا الْجَامَ مِنْ الْمَيِّتِ اسْتَحْلَفَ الْوَرَثَةَ وَجَعَلَ الْقَوْلَ قَوْلَهُمْ فِي أَنَّهُ لَمْ يَبِعْ وَأَخَذُوا الْجَامَ .

(414/218)

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مَا قَالَ أَبُو مُوسَى فِي قَبُولِ شَهَادَةِ الذِّمِّيِّينَ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُنْذُ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْآنَ ، هُوَ هَذِهِ الْقِصَّةُ الَّتِي فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ وَقَدْ رَوَى عِكْرِمَةُ فِي قِصَّةِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ نَحْوَ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَاخْتُلِفَ فِي بَقَاءِ حُكْمِ جَوَازِ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى وَشُرَيْحٍ : (هِيَ ثَابِتَةٌ) وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَنْ قَالَ : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ : إنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ تَأَوَّلُوا الْآيَةَ عَلَى جَوَازِ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ ، وَلَا يُحْفَظُ عَنْهُمْ بَقَاءُ هَذَا الْحُكْمِ أَوْ نَسْخُهُ وَرُوِيَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ قَالَ : (كَانَ ذَلِكَ فِي رَجُلٍ تُوُفِّيَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، وَذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَالْأَرْضُ حَرْبٌ وَالنَّاسُ كُفَّارٌ ، إلَّا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ ؛ فَكَانَ النَّاسُ يَتَوَارَثُونَ بِالْمَدِينَةِ بِالْوَصِيَّةِ ثُمَّ نُسِخَتْ الْوَصِيَّةُ وَفُرِضَتْ الْفَرَائِضُ وَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ بِهَا) .

(415/218)

وَرُوِيَ عَنْ إبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ قَالَ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ ، نَسَخَتْهَا : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ وَرَوَى ضَمْرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ وَعَطِيَّةُ بْنُ قَيْسٍ قَالَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

﴿ الْمَائِدَةُ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نُزُولًا فَأَحِلُّوا حَلَالَهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا ﴾ .

قَالَ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : (الْمَائِدَةُ مِنْ آخِرِ سُورَةٍ نَزَلَتْ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ فَاسْتَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ مِنْ حَرَامٍ فَاسْتَحْرِمُوهُ) .

وَرَوَى أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي مُيَسَّرَةَ قَالَ : (فِي الْمَائِدَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ فَرِيضَةً وَلَيْسَ فِيهَا مَنْسُوخٌ) .

وَقَالَ الْحَسَنُ : (لَمْ يُنْسَخْ مِنْ الْمَائِدَةِ شَيْءٌ) .

فَهَؤُلَاءِ ذَهَبُوا إلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْآيَةِ شَيْءٌ مَنْسُوخٌ .

وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْآيَةِ جَوَازُ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الْوَصِيَّةِ بَيْعٌ أَوْ إقْرَارٌ بِدَيْنٍ أَوْ وَصِيَّةٌ بِشَيْءٍ أَوْ هِبَةٍ أَوْ صَدَقَةٍ ، هَذَا كُلُّهُ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ اسْمُ الْوَصِيَّةِ إذَا عَقَدَهُ فِي مَرَضِهِ ؛ وَعَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجَازَ شَهَادَتَهُمَا عَلَيْهِ حِينَ الْوَصِيَّةِ لَمْ يُخَصِّصْ بِهَا الْوَصِيَّةَ دُونَ غَيْرِهَا ، وَحِينَ الْوَصِيَّةِ قَدْ يَكُونُ إقْرَارٌ بِدَيْنٍ أَوْ بِمَالِ عَيْنٍ وَغَيْرُهُ لَمْ تُفَرِّقْ الْآيَةُ بَيْنَ شَيْءٍ مِنْهُ .

(416/218)

ثُمَّ قَدْ رُوِيَ أَنَّ آيَةَ الدَّيْنِ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ وَإِنْ كَانَ قَوْمٌ قَدْ ذَكَرُوا أَنَّ الْمَائِدَةَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ ، وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يُرِيدُوا بِقَوْلِهِمْ : (مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ) : مِنْ آخِرِ سُورَةٍ نَزَلَتْ فِي الْجُمْلَةِ ، لَا عَلَى أَنَّ كُلَّ آيَةٍ مِنْهَا مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ .

(417/218)

وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَآيَةُ الدَّيْنِ لَا مَحَالَةَ نَاسِخَةٌ لِجَوَازِ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ لَا مَحَالَةَ ، لِأَنَّ الْخِطَابَ تَوَجَّهَ إلَيْهِمْ بِاسْمِ الْإِيمَانِ ، وَلَمْ يُخَصِّصْ بِهَا حَالَ الْوَصِيَّةِ دُونَ غَيْرِهَا ، فَهِيَ عَامَّةٌ فِي الْجَمِيعِ ؛ ثُمَّ قَالَ : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ ﴾ وَلَيْسَ الْكُفَّارُ بِمَرْضِيِّينَ فِي الشَّهَادَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَتَضَمَّنَتْ آيَةُ الدَّيْنِ نَسْخَ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي السَّفَرِ وَفِي الْحَضَرِ وَفِي الْوَصِيَّةِ وَغَيْرِهَا ؛ فَانْتَظَمَتْ الْآيَةُ جَوَازَ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ ، وَمِنْ حَيْثُ دَلَّتْ عَلَى جَوَازِهَا عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ فَهِيَ دَالَّةٌ أَيْضًا عَلَى وَصِيَّةِ الذِّمِّيِّ ، ثُمَّ نُسِخَ فِيهَا جَوَازُهَا عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ بِآيَةِ الدَّيْنِ وَبَقِيَ حُكْمُهَا عَلَى الذِّمِّيِّ فِي السَّفَرِ وَغَيْرِهِ ؛ إذْ

كَانَتْ حَالَةُ السَّفَرِ وَالْحَضَرِ سَوَاءٌ فِي حُكْمِ الشَّهَادَاتِ وَعَلَى جَوَازِ شَهَادَةِ الْوَصِيَّيْنِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمَيِّتِ لِأَنَّ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ الْمَيِّتَ أَوْصَى إلَيْهِمَا

(418/218)

وَأَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى وَصِيَّتِهِ ؛ وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ قَوْلُ الْوَصِيِّ فِيمَا فِي يَدِهِ لِلْمَيِّتِ مَعَ يَمِينِهِ لِأَنَّهُمَا عَلَى ذَلِكَ اسْتُحْلِفَا ؛ وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ دَعْوَاهُمَا شَرَى شَيْءٍ مِنْ الْمَيِّتِ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ إلَّا بِبَيِّنَةٍ وَأَنَّ الْقَوْلَ قَوْلُ الْوَرَثَةِ أَنَّ الْمَيِّتَ لَمْ يَبِعْ ذَلِكَ مِنْهُمَا مَعَ أَيْمَانِهِمْ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : أَقْرَبُ أَنْ لَا يَكْتُمُوا وَلَا يُبَدِّلُوا ، ﴿ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ يَعْنِي : إذَا حَلَفَا مَا غَيَّرَا وَلَا كَتَمَا ثُمَّ عُثِرَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مَالِ الْمَيِّتِ عِنْدَهُمَا ، أَنْ تُجْعَلَ أَيْمَانُ الْوَرَثَةِ أَوْلَى مِنْ أَيْمَانِهِمْ بَدِيًّا أَنَّهُمَا مَا غَيَّرَا وَلَا كَتَمَا ، عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَّةِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءٍ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ فَإِنَّهُ رُوِيَ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ وَقَتَادَةَ : اُسْتُحْلِفَا بَعْدَ الْعَصْرِ ؛ وَإِنَّمَا اُسْتُحْلِفَا بَعْدَ الْعَصْرِ تَغْلِيظًا لِلْيَمِينِ فِي الْوَقْتِ الْمُعَظَّمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ قِيلَ صَلَاةُ الْعَصْرِ ؛ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ

أَبِي مُوسَى أَنَّهُ اسْتَحْلَفَ بَعْدَ الْعَصْرِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ .

وَقَدْ رُوِيَ تَغْلِيظُ الْيَمِينِ بِالِاسْتِحْلَافِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُعَظَّمَةِ .

(419/218)

وَرَوَى جَابِرٌ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ حَلَفَ عِنْدَ هَذَا الْمِنْبَرِ عَلَى يَمِينٍ آثِمَةٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ وَلَوْ عَلَى سِوَاكٍ أَخْضَرَ ﴾ ؛ فَأَخْبَرَ أَنَّ الْيَمِينَ الْفَاجِرَةَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ أَعْظَمُ مَأْثَمًا ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْمَوَاضِعِ الْمَوْسُومَةِ لِلْعِبَادَاتِ وَلِتَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرِهِ فِيهَا تَكُونُ الْمَعَاصِي فِيهَا أَعْظَمَ إثْمًا ، أَلَا تَرَى أَنَّ شُرْبَ الْخَمْرِ وَالزِّنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي الْكَعْبَةِ أَعْظَمُ مَأْثَمًا مِنْهُ فِي غَيْرِهِ ؟ وَلَيْسَتْ الْيَمِينُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ وَفِي الْمَسْجِدِ فِي الدَّعَاوَى بِوَاجِبَةٍ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّرْهِيبِ وَتَخْوِيفِ الْعِقَابِ .

وَحُكِيَ عَنْ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ يَسْتَحْلِفُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ؛ وَاحْتَجَّ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بِحَدِيثِ جَابِرٍ الَّذِي ذَكَرْنَا ، وَبِحَدِيثِ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْحَضْرَمِيِّ : لَكَ يَمِينُهُ قَالَ : إنَّهُ رَجُلٌ فَاجِرٌ لَا يُبَالِي ، قَالَ : لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إلَّا ذَلِكَ فَانْطَلَقَ لِيَحْلِفَ ، فَلَمَّا أَدْبَرَ لِيَحْلِفَ قَالَ : مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالٍ لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ ﴾ وَبِحَدِيثِ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ ، وَفِيهِ : فَانْطَلَقَ لِيَحْلِفَ .

فَقَالُوا : قَوْلُهُ : ﴿ مَنْ حَلَفَ عِنْدَ هَذَا الْمِنْبَرِ عَلَى يَمِينٍ آثِمَةٍ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَيْمَانَ قَدْ كَانَتْ تَكُونُ عِنْدَهُ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مَسْنُونٌ .

(420/218)

وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانَ يَجْلِسُ هُنَاكَ ، فَلِذَلِكَ كَانَ يَقَعُ الِاسْتِحْلَافُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ، وَالْيَمِينُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ أَعْظَمُ مَأْثَمًا إذَا كَانَتْ كَاذِبَةً لِحُرْمَةِ الْمَوْضِعِ ، فَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ؛ وَالشَّافِعِيُّ لَا يَسْتَحْلِفُ فِي الشَّيْءِ التَّافِهِ عِنْدَ الْمِنْبَرِ ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ وَلَوْ عَلَى سِوَاكٍ أَخْضَرَ ﴾ فَقَدْ خَالَفَ الْخَبَرَ عَلَى أَصْلِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : (انْطَلَقَ لِيَحْلِفَ) وَأَنَّهُ لَمَّا أَدْبَرَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ ، فَإِنَّهُ لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّهُ ذَهَبَ إلَى الْمَوْضِعِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْعَزِيمَةُ وَالتَّصْمِيمُ عَلَيْهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ لَمْ يُرِدْ بِهِ الذَّهَابَ إلَى الْمَوْضِعِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ التَّوَلِّيَ عَنْ الْحَقِّ وَالْإِصْرَارَ عَلَيْهِ .

(421/218)

وَمَا رُوِيَ عَنْ الصَّحَابَةِ فِي الْحَلِفِ عِنْدَ الْمِنْبَرِ وَبَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يُنْفِقُ الْحُكُومَةَ هُنَاكَ وَلَا يُنْكَرُ أَنْ تَكُونَ الْيَمِينُ هُنَاكَ أَغْلَظُ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ الْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ ﴾ وَلَمْ يُخَصِّصْهَا بِمَكَانٍ ؛ وَلَكِنَّ الْحَاكِمَ إنْ رَأَى تَغْلِيظَ الْيَمِينِ بِاسْتِحْلَافِهِ عِنْدَ الْمِنْبَرِ إنْ كَانَ بِالْمَدِينَةِ ، وَفِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إنْ كَانَ بِمَكَّةَ ، جَازَ لَهُ ذَلِكَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِاسْتِحْلَافِ هَذَيْنِ الْوَصِيَّيْنِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ الْكُفَّارِ يُعَظِّمُونَهُ ، وَوَقْتُ غُرُوبِ الشَّمْسِ .

فَصْلٌ قَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الدَّالَّةَ عَلَى جَوَازِ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا قَدْ اقْتَضَتْ جَوَازَ شَهَادَتِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَهِيَ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ أَجْوَزُ فَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى جَوَازِ شَهَادَتِهِمْ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ ؛ وَلَمَّا نُسِخَ مِنْهَا جَوَازُهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ نَفَى بِذَلِكَ جَوَازَ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَنَسَخَ بِذَلِكَ قَوْلَهُ : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ وَبَقِيَ حُكْمُ دَلَالَتِهَا فِي جَوَازِهَا عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ .

وَإِذَا كَانَ حُكْمُهَا بَاقِيًا فِي جَوَازِهَا عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ اقْتَضَى ذَلِكَ جَوَازَهَا عَلَيْهِمْ فِي سَائِرِ الْحُقُوقِ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يُجِيزُهَا عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي الْوَصِيَّةِ فِي السَّفَرِ وَمَنَعَ جَوَازَهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ أَجَازَهَا عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي سَائِرِ الْحُقُوقِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَإِنَّ ابْنَ أَبِي لَيْلَى وَالثَّوْرِيَّ وَالْأَوْزَاعِيَّ يُجِيزُونَ شَهَادَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى وَشُرَيْحٍ ، وَلَا يُجِيزُونَهَا عَلَى الذِّمِّيِّ فِي سَائِرِ الْحُقُوقِ .

قِيلَ لَهُ : قَدْ بَيَّنَّا أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَاقِيَةٌ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي سَائِرِ الْحُقُوقِ .

وَقَبُولُ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ مِلَلُهُمْ قَوْلُ أَصْحَابِنَا وَعُثْمَانَ الْبَتِّيِّ وَالثَّوْرِيِّ ؛ وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالْحَسَنُ وَصَالِحٌ وَاللَّيْثُ : (تَجُوزُ شَهَادَةُ أَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَا تَجُوزُ عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِهَا) .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ : (لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ) .

وَمَا ذَكَرْنَا مِنْ دَلَالَةِ الْآيَةِ يَقْتَضِي تَسَاوِيَ شَهَادَاتِ أَهْلِ الْمِلَلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ يَعْنِي غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَبْدُوءِ بِذِكْرِهِمْ ، وَلَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ الْمِلَلِ .

وَمِنْ حَيْثُ اقْتَضَتْ جَوَازَ شَهَادَةِ أَهْلِ الْمِلَلِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ ، وَهِيَ دَالَّةٌ أَيْضًا عَلَى جَوَازِ شَهَادَتِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ فِي ذَلِكَ مَعَ اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ .

وَمِمَّا يُوجِبُ جَوَازَ شَهَادَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ ، مَا رَوَى مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّ ﴿ الْيَهُودَ جَاءُوا إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا أَنَّ رَجُلًا وَامْرَأَةً مِنْهُمْ زَنَيَا ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجْمِهِمَا ﴾ .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُرَّةَ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : ﴿ مَرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودِيٌّ مُحَمَّمٌ ، فَقَالَ : مَا شَأْنُ هَذَا ؟ فَقَالُوا : زَنَى ، فَرَجَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

وَرَوَى جَابِرٌ عَنْ الشَّعْبِيِّ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَهُ الْيَهُودُ بِرَجُلٍ وَامْرَأَةٍ زَنَيَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ائْتُونِي بِأَرْبَعَةٍ مِنْكُمْ يَشْهَدُونَ فَشَهِدَ أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ ، فَرَجَمَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ وَعَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : (يَجُوزُ شَهَادَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ) ، وَعَنْ شُرَيْحٍ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالزُّهْرِيِّ مِثْلُهُ .

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ : خَالَفَ مَالِكٌ مُعَلِّمِيهِ فِي رَدِّ شَهَادَةِ النَّصَارَى بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَكَانَ ابْنُ شِهَابٍ وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَرَبِيعَةُ يُجِيزُونَهَا .

(424/218)

وَقَالَ ابْنُ أَبِي عِمْرَانَ مِنْ أَصْحَابِنَا : سَمِعْت يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ يَقُولُ : جَمَعْت هَذَا الْبَابَ فَمَا وَجَدْت عَنْ أَحَدٍ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ رَدَّ شَهَادَةَ

النَّصَارَى بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إلَّا مِنْ رَبِيعَةَ ، فَإِنِّي وَجَدْت عَنْهُ رَدَّهَا وَوَجَدْت عَنْهُ إجَازَتَهَا .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ ذَكَرْنَا حُكْمَ الْآيَةِ عَلَى الْوُجُوهِ الَّتِي رُوِيَتْ فِيهَا عَنْ السَّلَفِ وَمَا نُسِخَ مِنْهَا وَمَا هُوَ مِنْهَا ثَابِتُ الْحُكْمِ ، فَلْنَذْكُرْ الْآيَةَ عَلَى سِيَاقِهَا مَعَ بَيَانِ حُكْمِهَا عَلَى مَا اقْتَضَاهُ تَرْتِيبُهَا عَلَى السَّبَبِ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ ، فَنَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ : إنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ يَعْتَوِرُهُ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا : شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ شَهَادَةُ اثْنَيْنِ ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ؛ فَحَذَفَ ذِكْرَ الشَّهَادَةِ .

الثَّانِيَةِ لِعِلْمِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْمُرَادِ ؛ وَيَحْتَمِلُ : عَلَيْكُمْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ؛ فَهُوَ أَمْرٌ بِإِشْهَادِ اثْنَيْنِ ذَوَيْ عَدْلٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الدَّيْنِ : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ فَأَفَادَ الْأَمْرَ

بِإِشْهَادِ شَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَوْ آخَرَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى وَصِيَّةِ الْمُسْلِمِ فِي السَّفَرِ .

(425/218)

وَكَانَ نُزُولُهَا عَلَى السَّبَبِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَّةِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءٍ ، فَذَكَرَ بَعْضَ السَّبَبِ فِي الْآيَةِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ فَجَعَلَ شَرْطَ قَبُولِ شَهَادَةِ الذِّمِّيِّينَ عَلَى الْوَصِيَّةِ أَنْ تَكُونَ فِي حَالِ السَّفَرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حِينَ الْوَصِيَّةِ ﴾ قَدْ تَضَمَّنَ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدَانِ هُمَا الْوَصِيَّيْنِ لِأَنَّ الْمُوصِيَ أَوْصَى إلَى ذِمِّيَّيْنِ ، ثُمَّ جَاءَا فَشَهِدَا بِوَصِيَّةٍ ، فَضَمِنَ ذَلِكَ جَوَازُ شَهَادَةِ الْوَصِيَّيْنِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمَيِّتِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ يَعْنِي قِصَّةَ الْمَيِّتِ الْمُوصِي .

قَالَ : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ يَعْنِي لَمَّا اتَّهَمَهُمَا الْوَرَثَةُ فِي حَبْسِ شَيْءٍ مِنْ مَالِ الْمَيِّتِ وَأَخْذِهِ ؛ عَلَى مَا رَوَاهُ عِكْرِمَةُ فِي

قِصَّةِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ، وَعَلَى مَا قَالَهُ أَبُو مُوسَى فِي اسْتِحْلَافِهِ الذِّمِّيَّيْنِ مَا خَانَا وَلَا كَذَبَا .

فَصَارَا مُدَّعًى عَلَيْهِمَا ، فَلِذَلِكَ اُسْتُحْلِفَا لَا مِنْ حَيْثُ كَانَا شَاهِدِينَ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي فِيمَا أَوْصَى بِهِ الْمَيِّتُ وَأَشْهَدَهُمَا عَلَيْهِ .

(426/218)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ يَعْنِي ظُهُورَ شَيْءٍ مِنْ مَالِ الْمَيِّتِ فِي أَيْدِيهِمَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَهُوَ جَامُ الْفِضَّةِ الَّذِي ظَهَرَ فِي أَيْدِيهِمَا مِنْ مَالِ الْمَيِّتِ فَزَعَمَا أَنَّهُمَا كَانَا اشْتَرَيَاهُ مِنْ مَالِ الْمَيِّتِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ يَعْنِي فِي الْيَمِينِ لِأَنَّهُمَا صَارَا فِي هَذِهِ الْحَالِ مُدَّعِيَيْنِ لِلشِّرَى ، فَصَارَتْ الْيَمِينُ عَلَى الْوَرَثَةِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إلَّا وَارِثَانِ فَكَانَا مُدَّعَى عَلَيْهِمَا ، فَلِذَلِكَ اُسْتُحْلِفَا ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الْيَمِينَ أَوْلَى مِنْ الْيَمِينِ الَّتِي حَلَفَ بِهَا الْوَصِيَّانِ أَنَّهُمَا مَا خَانَا وَلَا بَدَّلَا لِأَنَّ الْوَصِيَّيْنِ صَارَا فِي هَذِهِ الْحَالِ مُدَّعِيَيْنِ وَصَارَ الْوَارِثَانِ مُدَّعَى عَلَيْهِمَا ، وَقَدْ كَانَا بَرِيئَيْنِ فِي الظَّاهِرِ بَدِيًّا بِيَمِينِهِمَا فَمَضَتْ شَهَادَتُهُمَا عَلَى الْوَصِيَّةِ ، فَلَمَّا ظَهَرَ فِي أَيْدِيهِمَا شَيْءٌ مِنْ مَالِ الْمَيِّتِ صَارَتْ أَيْمَانُ الْوَارِثِينَ

أَوْلَى .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الْأَوْلَيَانِ ﴾ ، فَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : مَعْنَى الْأَوْلَيَانِ بِالْمَيِّتِ يَعْنِي الْوَرَثَةَ ، وَقِيلَ : الْأُولَيَانِ بِالشَّهَادَةِ وَهِيَ الْأَيْمَانُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى إيجَابِ الْيَمِينِ عَلَى الشَّاهِدَيْنِ

(427/218)

فِيمَا شَهِدَا بِهِ ، وَإِنَّمَا أَوْجَبَتْ الْيَمِينَ عَلَيْهِمَا لَمَّا ادَّعَى الْوَرَثَةُ عَلَيْهِمَا الْخِيَانَةَ وَأَخْذِ شَيْءٍ مِنْ تَرِكَةِ الْمَيِّتِ ، فَصَارَ بَعْضُ مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ الشَّهَادَاتِ أَيْمَانًا .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الشَّهَادَةُ عَلَى الْوَصِيَّةِ كَالشَّهَادَةِ عَلَى الْحُقُوقِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ لَا مَحَالَةَ أُرِيدَ بِهَا شَهَادَاتُ الْحُقُوقِ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَ الْيَمِينِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا ﴾ يَعْنِي بِهَا الْيَمِينَ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ أَيْمَانُ الْوَارِثِينَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ يَمِينِهِمَا وَيَحْتَمِلُ مِنْ شَهَادَتِهِمَا لِأَنَّ الْوَصِيَّيْنِ قَدْ كَانَ مِنْهُمَا شَهَادَةٌ وَحِينَ صَارَتْ يَمِينُ الْوَارِثِ أَحَقَّ

مِنْ شَهَادَةِ الْوَصِيَّيْنِ وَيَمِينِهِمَا لِأَنَّ شَهَادَتَهُمَا لِأَنْفُسِهِمَا غَيْرُ جَائِزَةٍ وَيَمِينَاهُمَا لَمْ تُوجِبْ تَصْحِيحَ دَعْوَاهُمَا فِي شِرَاءِ مَا ادَّعَيَا شِرَاهُ مِنْ الْمَيِّتِ .

(428/218)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : بِالشَّهَادَةِ عَلَى الْوَصِيَّةِ وَأَنْ لَا يَخُونُوا وَلَا يُغَيِّرُوا ، يَعْنِي أَنَّ مَا حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ الْأَيْمَانِ وَإِيجَابِهَا تَارَةً عَلَى الشُّهُودِ فِيمَا ادُّعِيَ عَلَيْهِمَا مِنْ الْخِيَانَةِ وَتَارَةً عَلَى الْوَرَثَةِ فِيمَا ادَّعَى الشُّهُودُ مِنْ شِرَى شَيْءٍ مِنْ مَالِ الْمَيِّتِ ، وَأَنَّهُمْ مَتَى عَلِمُوا ذَلِكَ أَتَوْا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَصِيَّةِ الْمَيِّتِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَلَا يَقْتَصِرُوا عَلَى أَيْمَانِهِمْ وَلَا يُبَرِّئُهُمَا ذَلِكَ مِنْ أَنْ يُسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ مَا كَتَمُوهُ وَادَّعَوْا شِرَاهُ إذَا حَلَفَ الْوَرَثَةُ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(429/218)

ومن فوائد ابن العربى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

(430/218)

وَإِنَّمَا نَظَمْنَاهَا ؛ لِأَنَّهَا فِي قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ ، وَقَدْ عَسُرَ الْقَوْلُ فِيهَا عَلَى الْمُتَبَحِّرِينَ ، فَأَمَّا الشَّادُونَ فَالْحِجَابُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مُعْزَفٌ ، وَالسَّبِيلُ الْمُوَصِّلَةُ إِلَيْهَا لَا تُعْرَفُ ، وَمَا زِلْنَا مُدَّةَ الطَّلَبِ نَقْرَعُ بَابَهَا وَنَجْذِبُ حِجَابَهَا إِلَى أَنْ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِمَا سَرَدْنَاهُ لَكُمْ وَجَلَوْنَاهُ عَلَيْكُمْ فِي تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا :

وَفِيهِ رِوَايَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ لَوْ سَرَدْنَاهَا بِطُرُقِهَا ، وَسَطَرْنَاهَا بِنُصُوصِهَا ، وَكَشَفْنَا عَنْ أَحْوَالِ رُوَاتِهَا بِالتَّجْرِيحِ وَالتَّعْدِيلِ لَاتَّسَعَ الشَّرْحُ ، وَطَالَ عَلَى الْقَارِئِ الْبَرْحُ ، فَلِذَا نَذْكُرُ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ أَيْسَرَهُ وَوَرَدَ فِي الْكِتَابِ الْكَبِيرِ أَكْثَرُهُ ، فَنَقُولُ : رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي النَّضْرِ عَنْ بَاذَانَ مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، ﴿ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ فِي هَذِهِ

الْآيَةِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ بَرِئَ مِنْهَا النَّاسُ غَيْرِي وَغَيْرَ عَدِيِّ بْنِ بَدَاءَ ، وَكَانَا نَصْرَانِيَّيْنِ يَخْتَلِفَانِ إِلَى الشَّامِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، فَأَتَيَا الشَّامَ لِتِجَارَتِهِمَا ، وَقَدِمَ عَلَيْهِمَا مَوْلًى لِبَنِي سَهْمٍ يُقَالُ لَهُ بُدَيْلُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ بِتِجَارَتِهِ ، وَمَعَهُ جَامُ فِضَّةٍ يُرِيدُ بِهِ الْمَلِكَ ، وَهُوَ عُظْمُ تِجَارَتِهِ ، فَمَرِضَ ، فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يُبَلِّغَا مَا تَرَكَ أَهْلَهُ .

(431/218)

قَالَ تَمِيمٌ : فَلَمَّا مَاتَ أَخَذْنَا ذَلِكَ الْجَامَ فَبِعْنَاهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمْنَاهَا أَنَا وَعَدِيُّ بْنُ بَدَاءَ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا إِلَى أَهْلِهِ دَفَعْنَا إِلَيْهِمْ مَا كَانَ مَعَنَا ، وَفَقَدُوا الْجَامَ ، فَسَأَلُونَا عَنْهُ ، فَقُلْنَا : مَا تَرَكَ غَيْرَ هَذَا ، وَمَا دَفَعَ إِلَيْنَا غَيْرَهُ .

قَالَ تَمِيمٌ : فَلَمَّا أَسْلَمْتُ بَعْدَ قُدُومِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ تَأَثَّمْتُ مِنْ ذَلِكَ ،

فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ ، فَأَخْبَرْتُهُمْ الْخَبَرَ ، وَأَدَّيْت إِلَيْهِمْ خَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَنَّ عِنْدَ صَاحِبِي مِثْلَهَا ، فَأَتَوْا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُمْ الْبَيِّنَةَ ، فَلَمْ يَجِدُوا ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَحْلِفُوهُ بِمَا يُقْطَعُ بِهِ عَلَى أَهْلِ دِينِهِ ، فَحَلَفَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إِلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ فَقَامَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَرَجُلٌ آخَرُ فَحَلَفَا ، فَنُزِعَتْ الْخَمْسُمِائَةِ مِنْ عَدِيِّ بْنِ بَدَاءَ ﴾ .

قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ ، وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِصَحِيحٍ .

وَقَدْ رُوِيَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى الِاخْتِصَارِ قَالَ : ﴿ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءَ ، فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ ، فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا بِالذَّهَبِ ، فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(432/218)

وَسَلَّمَ ثُمَّ وَجَدُوا الْجَامَ بِمَكَّةَ ، فَقَالُوا : اشْتَرَيْنَاهُ مِنْ عَدِيِّ بْنِ بَدَاءَ وَتَمِيمٍ ، فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ السَّهْمِيِّ ، فَحَلَفَا بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ، وَإِنَّ الْجَامَ لِصَاحِبِهِمْ .

قَالَ : وَفِيهِمْ نَزَلَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ ﴾ .

قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ ، وَكَذَلِكَ خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ بِلَفْظِهِ وَالدَّارَقُطْنِيّ

فَهُوَ صَحِيحٌ .

وَذَكَرَ يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ الْجُعْفِيُّ صَاحِبُ التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ ، حَدَّثَنَا الْكَلْبِيُّ أَنَّ أَبَا صَالِحٍ حَدَّثَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ .

(433/218)

قَالَ : بَلَغَنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَوْلًى مِنْ مَوَالِي قُرَيْشٍ ، ثُمَّ لِآلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ انْطَلَقَ فِي تِجَارَةٍ نَحْوَ الشَّامِ ، وَمَعَهُ تَمِيمُ بْنُ أَوْسٍ الدَّارِيّ وَعَدِيُّ بْنُ بَدَاءَ ، وَيُرْوَى بَيْدَاءَ ، وَهُمَا نَصْرَانِيَّانِ يَوْمَئِذٍ ، فَتُوُفِّيَ الْمَوْلَى فِي مَسِيرِهِ ؛ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ كَتَبَ وَصِيَّتَهُ ثُمَّ جَعَلَهَا فِي مَالِهِ وَمَتَاعِهِ ، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَيْهِمَا ، وَقَالَ لَهُمَا : أَبْلِغَا أَهْلِي مَالِي وَمَتَاعِي ؛ فَانْطَلَقَا لِوَجْهِهِمَا الَّذِي تَوَجَّهَا إِلَيْهِ ، فَفَتَّشَا مَتَاعَ الْمَوْلَى الْمُتَوَفَّى بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَأَخَذَا مَا أَعْجَبَهُمَا مِنْهُ ، ثُمَّ رَجَعَا بِالْمَالِ وَالْمَتَاعِ الَّذِي بَقِيَ إِلَى أَهْلِ الْمَيِّتِ فَدَفَعَاهُ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا فَتَّشَ الْقَوْمُ الْمَالَ وَالْمَتَاعَ الَّذِي بَقِيَ فَقَدُوا بَعْضَ مَا خَرَجَ بِهِ صَاحِبُهُمْ مَعَهُ مِنْ عِنْدِهِمْ ، فَنَظَرُوا إِلَى الْوَصِيَّةِ وَهِيَ فِي الْمَتَاعِ فَوَجَدُوا الْمَالَ وَالْمَتَاعَ فِيهِمَا مُسَمًّى ، فَدَعَوْا تَمِيمًا وَصَاحِبَهُ ، فَقَالُوا لَهُمَا : هَلْ بَاعَ صَاحِبُنَا شَيْئًا مِمَّا كَانَ عِنْدَهُ أَوْ اشْتَرَى ؟ فَقَالُوا : لَا .

قَالُوا : فَهَلْ مَرِضَ فَطَالَ مَرَضُهُ فَأَنْفَقَ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ ؟ قَالُوا : لَا

.

قَالُوا : فَإِنَّا نَفْقِدُ بَعْضَ الَّذِي مَضَى بِهِ صَاحِبُنَا مَعَهُ .

قَالُوا : مَا لَنَا عَمَّا مَضَى بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، وَلَا بِمَا كَانَ فِي وَصِيَّتِهِ ؛ وَلَكِنْ دَفَعَ إِلَيْنَا هَذَا الْمَالَ وَالْمَتَاعَ ، فَبَلَّغْنَاكُمُوهُ كَمَا دَفَعَهُ إِلَيْنَا .

(434/218)

فَرَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرُوا لَهُ الْأَمْرَ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ إِلَى ﴿ الْآثِمِينَ ﴾ فَقَامَا فَحَلَفَا عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِدْبَارَ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، فَخَلَّى سَبِيلَهُمَا ، ثُمَّ طَلَعُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى إِنَاءٍ مِنْ فِضَّةٍ مَنْقُوشٍ مُمَوَّهٍ بِالذَّهَبِ عِنْدَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ، فَقَالُوا : هَذَا مِنْ آنِيَةِ صَاحِبِنَا الَّتِي مَضَى بِهَا مَعَهُ ، وَقَدْ قُلْتُمَا إِنَّهُ لَمْ يَبِعْ مِنْ مَتَاعِهِ شَيْئًا ، فَقَالَا : إِنَّا كُنَّا قَدْ اشْتَرَيْنَاهُ مِنْهُ ، فَنَسِينَا أَنْ نُخْبِرَكُمْ بِهِ ؛ فَرَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَ : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ إِلَى ﴿ الْفَاسِقِينَ ﴾ فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ السَّهْمِيِّ ،

فَحلَفَا بِاللَّهِ إنَّهُ فِي وَصِيَّتِهِ ، وَإِنَّهَا لَحقٌّ ، وَلَقَدْ خَانَهُ تَمِيمٌ وَعَدِيٌّ .

فَأَخَذَ تَمِيمٌ وَعَدِيٌّ بِكُلِّ مَا وُجِدَ فِي الْوَصِيَّةِ لَمَّا اطَّلَعَ عِنْدَهُمَا مِنْ الْخِيَانَةِ ﴾ .

(435/218)

وَقَدْ ذَكَرَهُ مُقَاتِلُ بْنُ حِبَّانَ عَنْ الْحَسَنِ ، وَعَنْ الضَّحَّاكِ ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوُهُ إلَّا أَنَّهُ قَالَ : ﴿ رَكِبُوا الْبَحْرَ مَعَ الْمَوْلَى بِمَالٍ مَعْلُومٍ ، وَقَدْ عَلِمَهُ أَوْلِيَاؤُهُ وَعَرَفُوهُ مِنْ بَيْنِ آنِيَةٍ وَوَرَقٍ وَهِيَ الْفِضَّةُ ، فَمَرِضَ الْمَوْلَى ، فَجَعَلَ وَصِيَّتَهُ إلَى تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ النَّصْرَانِيَّيْنِ ، وَذَكَرَ مَعْنَى مَا تَقَدَّمَ ، وَقَالَ : أَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، فَحَلَفَا بِاللَّهِ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ مَا تَرَكَ مَوْلَاكُمْ مِنْ

الْمَتَاعِ إلَّا مَا أَتَيْنَاكُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَا نَشْتَرِي بِأَيْمَانِنَا ثَمَنًا قَلِيلًا مِنْ الدُّنْيَا .

قَالَ : ثُمَّ وُجِدَ عِنْدَهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ إنَاءٌ مِنْ آنِيَةِ الذَّهَبِ ، فَأُخِذَا بِهِ ، فَقَالَا : اشْتَرَيْنَاهُ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ وَكَذَبَا ، فَكَلَّفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَيِّنَةَ فَلَمْ يَقْدِرَا عَلَى بَيِّنَةٍ ، فَرَفَعَا ذَلِكَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إثْمًا ﴾ إلَى ﴿ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

فَحَلَفَ وَلِيَّانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ : إِنَّ مَالَ صَاحِبِنَا كَذَا ، وَإِنَّ الَّذِي نَطْلُبُهُ قِبَلَ الدَّارِيَّيْنِ حَقٌّ ﴾ .

(436/218)

وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ رَجُلَيْنِ نَصْرَانِيَّيْنِ مِنْ أَهْلِ دَارِينَ أَحَدُهُمَا تَمِيمِيٌّ ، وَالْآخَرُ يَمَانٍ ، صَحِبَهُمَا مَوْلًى لِقُرَيْشٍ فِي تِجَارَةٍ ، وَمَعَ الْقُرَشِيِّ مَالٌ مَعْلُومٌ ، قَدْ عَلِمَهُ أَهْلُهُ مِنْ بَيْنِ آنِيَةٍ وَوَرَقٍ فَمَرِضَ ، فَجَعَلَ وَصِيَّتَهُ إِلَى الدَّارِيَّيْنِ ، فَمَاتَ وَقَبَضَهَا الدَّارِيَّانِ ، فَدَفَعَاهَا إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ وَخَانَاهُ بِبَعْضِ مَالِهِ ، فَقَالُوا : إِنَّ صَاحِبَنَا قَدْ خَرَجَ ، وَذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ الْجُعْفِيِّ .

وَذَكَرَ سُنَيْدٌ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ﴿ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءَ النَّصْرَانِيَّيْنِ وَكَانَا يَخْتَلِفَانِ إِلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ بَعْدَمَا هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَبَعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَالْمُطَّلِبُ بْنُ وَدَاعَةَ السَّهْمِيُّ مَعَهُمَا رَجُلًا يُقَالُ لَهُ بُدَيْلُ بْنُ أَبِي مَارِيَةَ الرُّومِيُّ مَوْلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ بِمَتَاعٍ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ فِيهِ آنِيَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَآنِيَةٌ مِنْ فِضَّةٍ ، وَآنِيَةٌ مُمَوَّهَةٌ بِالذَّهَبِ .

فَلَمَّا قَدِمُوا الشَّامَ مَرِضَ بُدَيْلٌ ، وَكَانَ مُسْلِمًا ، فَكَتَبَ وَصِيَّتَهُ ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِهَا تَمِيمٌ الدَّارِيُّ وَلَا عَدِيٌّ ، وَأَدْخَلَهَا فِي مَتَاعِهِ ، ثُمَّ تُوُفِّيَ وَلَمْ يَبِعْ شَيْئًا مِنْ مَتَاعِهِ ، فَقَدِمَ تَمِيمٌ

الدَّارِيِّ وَعَدِيٌّ الْمَدِينَةَ ، وَدَفَعَا الْمَتَاعَ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَإِلَى الْمُطَّلِبِ ، وَأَخْبَرَاهُمَا بِمَوْتِ بُدَيْلٍ ، فَقَالَ عَمْرٌو وَالْمُطَّلِبُ : لَقَدْ مَضَى مِنْ عِنْدِنَا بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، فَهَلْ بَاعَ شَيْئًا ؟ قَالَا : لَا .

(437/218)

فَمَضَوْا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَحْلَفَ لَهُمَا تَمِيمًا وَعَدِيًّا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا تَرَكَ عِنْدَنَا غَيْرَ هَذَا .

ثُمَّ إِنَّ عَمْرًا وَالْمُطَّلِبَ ظَهَرَا عَلَى آنِيَةٍ عِنْدَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيٍّ ، فَقَالَا : هَذِهِ الْآنِيَةُ لَنَا ، وَهِيَ مِمَّا مَضَى بِهِ بُدَيْلٌ مِنْ عِنْدِنَا .

فَقَالَ لَهُمْ تَمِيمٌ وَصَاحِبُهُ عَدِيٌّ : اشْتَرَيْنَا هَذِهِ الْآنِيَةَ مِنْهُ .

فَقَالَ عَمْرٌو وَالْمُطَّلِبُ : قَدْ سَأَلْنَاكُمَا هَلْ بَاعَ شَيْئًا ؟ فَقُلْتُمَا : لَا ، وَقَدْ كَانَتْ وَصِيَّةُ بُدَيْلٍ أَنَّهُ لَمْ يَبِعْ شَيْئًا .

فَحَلَفَ عَمْرٌو وَالْمُطَّلِبُ وَاسْتَحَقَّا الْآنِيَةَ ﴾ .

(438/218)

وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ أَنَّ الْآيَاتِ الثَّلَاثَ نَزَلَتْ فِي ﴿ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَأَخِيهِ عَدِيٍّ ، وَكَانَا نَصْرَانِيَّيْنِ ، وَكَانَ مَتْجَرُهُمَا إِلَى مَكَّةَ ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ قَدِمَ ابْنُ أَبِي مَارِيَةَ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ الْمَدِينَةَ ، وَهُوَ يُرِيدُ الشَّامَ تَاجِرًا فَخَرَجَ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَأَخِيهِ عَدِيٍّ حَتَّى إِذَا كَانَا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ مَرِضَ ابْنُ أَبِي مَارِيَةَ ، وَكَتَبَ وَصِيَّتَهُ ، وَدَسَّهَا فِي مَتَاعِهِ ، وَأَوْصَى إِلَى تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ ، فَلَمَّا مَاتَ فَتَحَا مَتَاعَهُ ، وَأَخَذَا مِنْهُ مَا أَرَادَا ، وَأَوْصَلَا بَقِيَّةَ التَّرِكَةِ إِلَى وَرَثَةِ الْمَيِّتِ ، فَفَتَحُوا فَوَجَدُوا وَصِيَّتَهُ ، وَقَدْ كُتِبَ فِيهَا مَا خَرَجَ بِهِ ، فَفَقَدُوا أَشْيَاءَ ، فَسَأَلُوا تَمِيمًا وَعَدِيًّا عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : مَا نَدْرِي ، هَذَا الَّذِي قَبَضْنَا لَهُ ، فَرَفَعُوهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الْآيَةَ .

فَأَمَرَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُسْتَحْلَفَا بِاللَّهِ مَا قَبَضْنَا لَهُ غَيْرَ هَذَا ، وَمَا كَتَمْنَاهُ شَيْئًا .

فَحَلَفَا بَعْدَ الْعَصْرِ ، ثُمَّ ظَهَرَ عَلَى إِنَاءٍ مِنْ فِضَّةٍ مَنْقُوشٍ بِذَهَبٍ مَعَهُمَا ، فَقَالَا اشْتَرَيْنَاهُ مِنْهُ ، فَارْتَفَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الْأُخْرَى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ .

فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَيِّتِ فَحَلَفَا ، وَاسْتَحَقَّا الْإِنَاءَ ﴾ .

ثُمَّ إِنَّ تَمِيمًا أَسْلَمَ ، فَكَانَ يَقُولُ : صَدَقَ اللَّهُ ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ ؛ أَنَا أَخَذْتُ الْإِنَاءَ .

وَرَوَى الشَّعْبِيُّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ خَثْعَمَ خَرَجَ مِنْ الْكُوفَةِ إِلَى السَّوَادِ .

فَمَاتَ بِدَقُوقَاءَ فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا يَشْهَدُ عَلَى وَصِيَّتِهِ ، فَأَشْهَدَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَقَدِمَا الْكُوفَةَ ، فَأَتَيَا أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ ، فَأَخْبَرَاهُ ، وَقَدِمَا بِتَرِكَتِهِ وَوَصِيَّتِهِ ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ : هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ الَّذِي كَانَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَحْلَفَهُمَا ، وَأَمْضَى شَهَادَتَهُمَا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ بِمَسْجِدِ الْكُوفَةِ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، مَا كَتَمَا وَلَا غَيَّرَا .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْعِلْجَيْنِ حَتَّى انْتَهَى بِهِمَا إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، فَفَتَحَ الصَّحِيفَةَ ؛ فَأَنْكَرَ أَهْلُ الْمَيِّتِ وُجُوهَهُمَا ، فَأَرَادَ أَبُو مُوسَى أَنْ يَسْتَحْلِفَهُمَا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ ، فَقُلْتُ : لَا يُبَالُونَ بَعْدَ الْعَصْرِ ، وَلَكِنْ اسْتَحْلِفْهُمَا بَعْدَ صَلَاتِهِمَا فِي دِينِهِمَا .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى (شَهِيدٍ) فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَيْضًا بِعَيْنِهَا ، وَبَيَّنَّا اخْتِلَافَ أَنْوَاعِهَا ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ ، مِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ أَحْضِرُوا .

وَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ قَضَى .

وَمِنْهَا شَهِدَ ، أَيْ أَقَرَّ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ .

وَمِنْهَا شَهِدَ بِمَعْنَى حَكَمَ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .

وَمِنْهَا شَهِدَ بِمَعْنَى حَلَفَ ، كَمَا جَاءَ فِي اللِّعَانِ .

وَمِنْهَا شَهِدَ بِمَعْنَى عَلِمَ .

كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ أَيْ عِلْمَ اللَّهِ .

وَمِنْهَا شَهِدَ بِمَعْنَى وَصَّى ، كَقَوْلِهِ هَاهُنَا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ .

انْتَهَى كَلَامُهُ .

وَقَدْ نَقَصَ مَوَارِدُ مِنْهُ ، مِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي ذَلِكَ تَحْقِيقُ ذَلِكَ : وَهُوَ أَنَّ بِنَاءَ " شَهِدَ " مَوْضُوعٌ لِلْعِبَارَةِ عَمَّا يُعْلَمُ بِدَرْكِ الْحَوَاسِّ ، كَمَا أَنَّ " غَيَّبَ " مَوْضُوعٌ لِلْعِبَارَةِ عَمَّا لَمْ يُدْرَكْ بِهَا وَلِذَلِكَ قُلْنَا : إِنَّ الْبَارِي تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَمَعْنَى شَهِدْت : أَدْرَكْت بِحَوَاسِّي ، أَيْ عَلِمْت بِهَذِهِ الطَّرِيقِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ طُرُقًا لِعِلْمِي ، ثُمَّ يُنْقَلُ مَجَازًا إلَى مُتَعَلَّقَاتِهِ ، فَمَعْنَى شَهِدَ اللَّهُ : عَلِمَ مُشَاهَدَةً ، وَأَخْبَرَ عَمَّا عَلِمَ بِكَلَامِهِ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي الْمُحَدَّثِ ، فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَقَوْلُهُ : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ أَيْ أَحْضِرُوا مَنْ يَعْلَمُ لَكُمْ مَا يُشَاهِدُ مِنْ عَقْدِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ أَيْ عَلِمَ وَأَخْبَرَ عَنْ عِلْمِهِ ، وَبَيَّنَ مَا عَلِمَ لَنَا حَتَّى نَتَبَيَّنَهُ .

فَأَخْبَرَ عَنْ حُكْمِهِ ، فَيَرْجِعُ إلَى عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ عَمَّا

يُخْبِرُ عَنْهُ ، لِارْتِبَاطِ الْخَبَرِ وَالْعِلْمِ .

وَشَهِدَ بِمَعْنَى حَلَفَ مِثْلُهُ ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ حَالِهِ ، وَقَرَنَ بِخَبَرِهِ تَعْظِيمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ يُرِيدُ مَا عَلِمْنَاهُ وَعَلِمَهُ اللَّهُ مَعَنَا ، فَإِنْ صَدَقَ وَإِلَّا كَانَ خَبَرُهُ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ كَذِبًا ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ الْعَالِمُ الَّذِي لَا يَجْهَلُ ، وَالصَّادِقُ الْمُتَقَدِّسُ عَنْ الْكَذِبِ .

وَأَمَّا شَهِدَ بِمَعْنَى وَصَّى فَلَا مَعْنَى لَهُ إلَّا عَلَى بُعْدٍ لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ .

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَهِيَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ :

أَحَدُهَا بِمَعْنَى حَلَفَ .

وَالثَّانِي : بِمَعْنَى حَضَرَ لِلتَّحَمُّلِ .

وَالثَّالِثُ : بِمَعْنَى الْأَدَاءِ عِنْدَ الْحَاكِمِ .

تَقُولُ : أَشْهَدُ عِنْدَك ، أَيْ حَضَرْت لِأُؤَدِّيَ عِنْدَك مَا عَلِمْت ، وَأَدَاؤُهَا بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ بَعِيدٌ لَا دَرْكَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ لِمَعْنَاهُ ، وَلَا يُجْزِي غَيْرُهُ عَنْهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : مَعْنَاهُ شَهَادَةُ مَا بَيْنِكُمْ ، فَحُذِفَتْ مَا ، وَأُضِيفَتْ الشَّهَادَةُ إلَى الظَّرْفِ ، اُسْتُعْمِلَ الْبَيْنُ اسْمًا عَلَى الْحَقِيقَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ .

وَأَنْشَدُوا : تُصَافِحُ مَنْ لَاقَيْت لِي ذَا عَدَاوَةٍ صِفَاحًا وَعَنِّي غَيْبُ عَيْنَيْك مُنْزَوِي وَأَنْشَدُوا : وَأَهْلُ خِبَاءٍ صَالِحٌ ذَاتُ بَيْنِهِمْ قَدْ احْتَرَبُوا فِي عَاجِلٍ أَتَى آجِلُهُ وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّ " بَيْنَ " فِي أَصْلِهِ مَصْدَرُ قَوْلِك : بَانَ يَبِينُ بَيْنًا أَيْ فَارَقَ مَا كَانَ مُجْتَمِعًا مَعَهُ ، وَانْفَصَلَ عَمَّا كَانَ مُتَّصِلًا بِهِ ، وَمِنْهُ حَدِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا أُبِينَ مِنْ حَيٍّ فَهُوَ مَيِّتٌ ﴾ .

الْمَعْنَى مَا فُصِلَ مِنْ أَعْضَاءِ الْحَيَوَانِ عَنْهُ حَالَ حَيَاتِهِ فَهُوَ مَيْتَةٌ يَعْنِي لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ ؛ وَاسْتُعْمِلَ ظَرْفًا عَلَى مَعْنَى الصَّدْرِ ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ

أَبْوَابِ النَّحْوِ ، تَقُولُ : بَيْنَ الدَّارِ وَالْمَسْجِدِ مَسَافَةٌ .

وَلَوْ كَانَا مُجْتَمِعَيْنِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا بَيْنٌ ، أَيْ مَوْضِعٌ خَالٍ مِنْهُمَا .

(443/218)

وَمَا كَانَ الِاجْتِمَاعُ عَلَى ضَرْبَيْنِ : اجْتِمَاعُ أَجْسَامٍ ، وَاجْتِمَاعُ مَعَانٍ ، وَهِيَ الْأَخْلَاقُ وَالْأَهْوَاءُ جَعَلَ افْتِرَاقَ الْأَهْوَاءِ كَافْتِرَاقِ الْأَجْسَامِ ، وَاسْتَعْمَلَ فِيهِ " بَيْنَ " الَّذِي هُوَ الِافْتِرَاقُ فِيهِمَا جَمِيعًا .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ .

وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُهُ : بَيْنِي وَبَيْنَهُ رَحِمٌ ، أَيْ مَا افْتَرَقْنَا إلَّا عَنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ .

وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ شَرِكَةٌ أَيْ افْتَرَقْنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ إلَّا عَنْ جَمْعِ الْمَالِ الْمَخْصُوصِ .

فَقَالَ أَهْلُ الصِّنَاعَةِ : هُوَ مَصْدَرٌ فِي الْمَعَانِي ، ظَرْفٌ فِي الْأَجْسَامِ لَمَّا كَانَتْ ذَوَاتُ مِسَاحَاتٍ مَحْسُوسَاتٍ فَرْقًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَعَانِي ، وَالْكُلُّ فِي الْحَقِيقَةِ تَبَايُنٌ وَتَبَاعُدٌ وَفُرْقَةٌ .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ مَرْفُوعًا وَمَنْصُوبًا .

الْمَعْنَى : لَقَدْ تَقَطَّعَ تَبَاعُدُكُمْ وَافْتِرَاقُكُمْ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ لَهُ اتِّصَالٌ ؛ فَإِنَّ الَّذِي يَبِينُ عَلَى قِسْمَيْنِ ، مِنْهُ مَا يُرْجَى لَهُ اتِّصَالٌ ، وَمِنْهُ مَا لَا يُرْجَى لَهُ اتِّصَالٌ ، فَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِالتَّقَطُّعِ .

وَقَدْ جَعَلَ أَهْلُ الصِّنَاعَةِ هُنَا "بَيْنَ" لِلظَّرْفِ ، وَكَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى جُعِلَ اسْمًا فِي الْأَهْوَاءِ الْمُتَبَايِنَةِ ، مَجَازًا يُعَبَّرُ بِهِ عَنْهَا ، وَعَلَيْهِ يُخَرَّجُ : لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ عَلَى قِرَاءَةِ الرَّفْعِ .

الْمَعْنَى : لَقَدْ تَفَرَّقَتْ أَهْوَاؤُكُمْ وَأَخْلَاقُكُمْ .

وَتَارَةً تُضَافُ بِالْكِنَايَةِ إِلَيْهِ فَيُقَالُ : ذَاتُ الْبَيْنِ .

(444/218)

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ .

قَالَ الشَّاعِرُ : وَأَهْلُ خِبَاءٍ صَالِحٌ ذَاتُ بَيْنِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَيُقَالُ : الْأَمْرُ الَّذِي بَيْنَكُمْ ، وَمَا بَيْنَكُمْ مُبْهَمٌ ، مَعْنَاهُ الْأَمْرُ الَّذِي فَرَّقَكُمْ .

فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا

فَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ ، أَيْ شَهَادَةُ اخْتِلَافِكُمْ وَتَنَازُعِكُمْ ؛ فَتَكُونُ الشَّهَادَةُ مُضَافَةً إِلَى الْمَصْدَرِ ، لَا إِلَى الظَّرْفِ وَلَا عَلَى تَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ .

وَهَذِهِ غَايَةُ الْبَيَانِ ، وَلَوْ هُدِيَ لَهُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الْآيَةِ وَمَا تَخَبَّطَ فِيهَا وَلَا خَلَطَ مَعَانِيهَا .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾ : وَلَفْظُ ﴿ حَضَرَ ﴾ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ الْوُجُودِ مُشَاهَدَةً ، وَضِدُّهُ غَابَ ، وَهُوَ أَيْضًا عِبَارَةٌ عَنْ الْوُجُودِ الَّذِي لَمْ يُشَاهَدْ ، وَقَدْ يُعَبَّرُ بِقَوْلِك : " غَابَ " عَنْ الْمَعْدُومِ .

وَالْبَارِي سُبْحَانَهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ؛ أَيْ عَالِمُ الْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ ؟ لِأَنَّهُ مِثْلُ الْوُجُودِ فِي عَدَمِ الْمُشَاهَدَةِ .

وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ عِبَارَةً عَنْ الْمَوْتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقِيقَةً ، وَهُوَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ ﴾ .

وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ حَتَّى إذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ فَهُوَ فِي هَذَيْنِ الْمَوْضِعَيْنِ حَقِيقَةُ الْوُجُودِ مُشَاهَدَةً .

(445/218)

وَأَمَّا وُرُودُهَا مَجَازًا فَبِأَنْ يُعَبَّرَ عَنْ حُضُورِ سَبَبِهِ بِحُضُورِهِ ، وَهُوَ الْمَرَضُ ، فَيُعَبَّرَ عَنْ الْمُسَبَّبِ بِالسَّبَبِ ، وَهُوَ أَحَدُ قِسْمَيْ الْمَجَازِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ﴾ وَمَعْنَى ﴿ حِينَ ﴾ وَقْتَ ؛ وَتَقْدِيرُ الْآيَةِ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إذَا أَرَدْتُمْ الْوَصِيَّةَ وَقَدْ مَرِضْتُمْ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْوَصِيَّةَ تَكُونُ فِي ثَلَاثَةِ

أَحْوَالِ الْأَوَّلُ : حَالَ الْبِدَارِ إِلَى السَّنَةِ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ وَقْتِ ذَلِكَ وَسَبَبِهِ وَحَقِيقَةِ الْوَصِيَّةِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : فِي وَقْتِ الْوَصِيَّةِ وَسُنَنِهَا بِالْإِيضَاحِ وَالْبَسْطِ : وَذَلِكَ عِنْدَ السَّفَرِ لِلْمَخَافَةِ فِيهِ ، وَالْمَرَضِ ؛ لِأَنَّهُ رَائِدُ الْمَنِيَّةِ وَمَظِنَّتُهَا .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ فِي كِتَابِ الْعِتْقِ : إذَا قَالَ لِعَبْدِهِ فِي مَرَضِهِ : أَنْتَ حُرٌّ بَعْدَ مَوْتِي كَانَ لَهُ الرُّجُوعُ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهَا حَالَةُ مَرَضٍ ، فَاقْتَضَتْ ذَلِكَ قَرِينَةً فِي الْحُكْمِ بِأَنَّهُ وَصِيَّةٌ ، فَجَازَ لَهُ الرُّجُوعُ فِيهِ .

وَقَدْ كُنْت أَرَدْت بَسْطَهُ ، فَلَمَّا ذَكَرْت طُولَهُ قَبَضْت عَنْهُ الْعَنَانَ ، وَأَحَلْت عَلَى مَسَائِلِ الْفِقْهِ بِالْبَيَانِ .

(446/218)

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ اثْنَانِ ﴾ وَكَانَ بِمُطْلَقِهِ يَقْتَضِي شَخْصَيْنِ ، وَيَحْتَمِلُ رَجُلَيْنِ ، إلَّا أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : ذَوَا عَدْلٍ ، فَيُبَيِّنُ أَنَّهُ أَرَادَ رَجُلَيْنِ ؛ لِأَنَّهُ لَفْظٌ لَا يَصْلُحُ إلَّا لِلْمُذَكَّرِ ، كَمَا أَنَّ " ذَوَاتَيْ " لَا تَصْلُحُ إلَّا لِلْمُؤَنَّثِ الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : إعْرَابُهُ : وَفِيهِ أَرْبَعَةُ

أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنْ يَكُونَ " شَهَادَةُ " مُرْتَفِعًا بِالِابْتِدَاءِ وَاثْنَانِ خَبَرُهُ التَّقْدِيرُ شَهَادَةُ اثْنَيْنِ .

الثَّانِي : أَنْ يَرْتَفِعَ اثْنَانِ بِشَهَادَةٍ ؛ التَّقْدِيرُ وَفِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ أَنْ يَشْهَدَ اثْنَانِ .

الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ اثْنَانِ مَفْعُولًا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ بِشَهَادَةٍ .

الرَّابِعُ : يَكُونُ تَقْدِيرُهُ : شُهُودُ شَهَادَةِ بَيْنِكُمْ اثْنَانِ ، وَيَجُوزُ الْحَذْفُ مَعَ الِابْتِدَاءِ ، كَمَا يَجُوزُ مَعَ الْخَبَرِ وَفِي الثَّالِثِ بُعْدٌ ؛ لِأَنَّ شَهَادَةَ مَصْدَرُ شَهِدَ ، وَهُوَ بِنَاءٌ لَا يَتَعَدَّى ، وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي الْمُلْجِئَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْكَافُ وَالْمِيمُ لِضَمِيرِهِمَا ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٌ .

الثَّانِي : مِنْ قَبِيلَتِكُمْ : قَالَهُ الْحَسَنُ ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ .

الثَّالِثُ : مِنْكُمْ : مِنْ أَهْلِ الْمَيِّتِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوْ ﴾ قِيلَ : هِيَ لِلتَّخْيِيرِ .

(447/218)

وَقِيلَ : لِلتَّفْصِيلِ .

مَعْنَاهُ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ لَمْ تَجِدُوا مِنْكُمْ قَالَهُ ابْنُ الْمُسَيَّبِ ، وَيَحْيَى بْنُ يَعْمُرَ ، وَأَبُو مِجْلَزٍ ، وَإِبْرَاهِيمُ ، وَابْنُ جُبَيْرٍ ، وَشُرَيْحٌ ؛ وَيُرْوَى عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ .

وَتَحْقِيقُ النَّظَرِ فِي هَذَا الْفَصْلِ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ الْخِلَافُ ، وَعَلَيْهِ يَتَرَكَّبُ قَوْلُهُ : أَوْ آخَرَانِ ، وَقَوْلُهُ : غَيْرِكُمْ ؟ وَهِيَ مَسْأَلَتَانِ تَتِمُّ بِهِمَا سِتَّ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً ، فَإِنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ كَانَ قَوْلُهُ : غَيْرِكُمْ لِلْكَافِرِينَ ، وَكَانَ الْآخَرَانِ مَنْ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ مِنْ غَيْرِ قَبِيلَتِكُمْ كَانَ كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمَا " فَقَبِيلُ الْمَيِّتِ وَعَشِيرَتُهُ أَعْلَمُ بِحَالِهِ .

وَتَعَلَّقَ مَنْ قَالَ بِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ مِلَّتِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : مِنْ غَيْرِكُمْ ؛ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ الْكَافِرُونَ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مِنْ أَهْلِ الْمَيِّتِ فَلِأَنَّ الْحَجَّ لَهُمْ وَالْكَلَامَ مِنْهُمْ وَمَعَهُمْ ؛ وَيُؤَكِّدُهُ أَيْضًا بِأَنَّهُ قَالَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ يَعْنِي أَوْ آخَرَانِ عَدْلَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ .

وَبِهِ يَصِحُّ الْعَطْفُ ، وَقَالَ : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ ، وَإِذَا كَانَا مُؤْمِنَيْنِ احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ الْقَبِيلَةِ أَوْ مِنْ الْوَرَثَةِ ، وَيَتَرَجَّحُ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا تَقَدَّمَ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : إنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الشَّهَادَةَ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ ، وَتَقَدَّمَ أَيْضًا ذِكْرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَيَتَخَصَّصُ بِهِ هَاهُنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا قَالَ : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، كَانَ ذَلِكَ شَرْطًا فِيهِ حَيْثُ لَا يُوجَدُ مُسْلِمٌ فِي الْغَالِبِ ، فَيُؤْخَذُ الْكَافِرُ عِوَضًا مِنْهُ لِلضَّرُورَةِ فِي الشَّهَادَةِ ؛ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ التَّابِعِينَ ، وَاخْتَارَهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وَأَجَازَ شَهَادَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي السَّفَرِ عِنْدَ عَدَمِ الْمُسْلِمِينَ وَاحْتَجَّ بِالْحَدِيثِ وَالْآيَةِ . وَنُبَيِّنُهُ فِيمَا بَعْدُ ، إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ يَعْنِي وَقَدْ أَسْنَدْتُمْ النَّظَرَ إلَيْهِمَا ، وَاسْتَشْهَدْتُمُوهُمَا .

أَوْ ارْتَبْتُمْ بِهِمَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سَرْدِ الْقَصَصِ وَالرِّوَايَاتِ وَذِكْرِ الْآثَارِ وَالْمَقَالَاتِ

الْمَسْأَلَةُ الْمُوفِيَةُ عِشْرِينَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى حَبْسِ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْحَقُّ ، وَهُوَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الْحُكُومَةِ ، وَحُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ ؟ فَإِنَّ الْحُقُوقَ الْمُتَوَجِّهَةَ عَلَى قِسْمَيْنِ : مِنْهَا مَا يَصِحُّ اسْتِيفَاؤُهُ مُعَجَّلًا ، وَمِنْهَا مَا لَا يُمْكِنُ اسْتِيفَاؤُهُ إلَّا مُؤَجَّلًا فَإِنْ خُلِّيَ مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ وَغَابَ وَاخْتَفَى بَطَلَ الْحَقُّ وَتَوِيَ ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ التَّوَثُّقِ مِنْهُ ، فَإِمَّا بِعِوَضٍ عَنْ الْحَقِّ وَيَكُونُ بِمَالِيَّةٍ مَوْجُودَةٍ فِيهِ ؛ وَهِيَ الْمُسَمَّى رَهْنًا ، وَهُوَ الْأَوْلَى وَالْأَوْكَدُ ؛ وَإِمَّا شَخْصٌ يَنُوبُ مَنَابَهُ فِي الْمُطَالَبَةِ وَالذِّمَّةِ ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَغِيبَ كَغَيْبَتِهِ ، وَيَتَعَذَّرُ وُجُودُهُ كَتَعَذُّرِهِ ، وَلَكِنْ لَا يَمْلِكُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا .

فَإِنْ تَعَذَّرَا جَمِيعًا لَمْ يَبْقَ إلَّا التَّوَثُّقُ بِحَبْسِهِ ، حَتَّى تَقَعَ مِنْهُ التَّوْفِيَةُ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ حَقٍّ ؛ فَإِنْ كَانَ الْحَقُّ بَدَنِيًّا لَا يُقْبَلُ الْبَدَلَ كَالْحُدُودِ وَالْقِصَاصِ وَلَمْ يَتَّفِقْ اسْتِيفَاؤُهُ مُعَجَّلًا ، لَمْ يَبْقَ إلَّا التَّوَثُّقُ بِسِجْنِهِ ؛ وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْحِكْمَةِ شُرِعَ السِّجْنُ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُد أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَبَسَ فِي تُهْمَةٍ رَجُلًا ثُمَّ خَلَّى عَنْهُ ﴾ .

وَفِي مُصَنَّفِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِسَارِقٍ فَقَالَ : احْبِسُوهُ ؛ فَإِنْ مَاتَ صَاحِبُهُ فَاقْتُلُوهُ ﴾ .

(450/218)

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّهَادَةَ يَمِينٌ وَأَنَّهُ عَنَى بِهِمْ الْمُتَنَازِعَيْنِ فِي الْحَقِّ لَا الْقَائِمَيْنِ بِالشَّهَادَةِ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الْقَائِمَ بِالشَّهَادَةِ لَا حَبْسَ عَلَيْهِ

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ وَفِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ :

أَحَدُهَا : بَعْدَ الْعَصْرِ ؛ قَالَهُ شُرَيْحٌ ، وَالشَّعْبِيُّ ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَقَتَادَةُ .

الثَّانِي : مِنْ بَعْدِ الظُّهْرِ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

الثَّالِثُ : أَيُّ صَلَاةٍ كَانَتْ .

الرَّابِعُ : مِنْ بَعْدِ صَلَاتِهِمَا ، عَلَى أَنَّهُمَا كَافِرَانِ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَّفَ الْمُتَلَاعِنَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ وَرُوِيَ بَعْدَ الظُّهْرِ ﴾ .

وَفِي الصَّحِيحِ : ﴿ مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ لَقِيَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ ﴾ .

وَهَذَا عَلَى طَرِيقِ التَّغْلِيظِ بِالزَّمَانِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَشَرَحْنَا أَنَّ حُكْمَ التَّغْلِيظِ يَتَعَلَّقُ بِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : تَغْلِيظٌ بِالْأَلْفَاظِ .

الثَّانِي : تَغْلِيظٌ بِالْمَكَانِ ، كَالْمَسْجِدِ وَالْمِنْبَرِ ؛ لِأَنَّهُ مُجْتَمَعُ النَّاسِ ، فَيَكُونُ لَهُ أَخْزَى ،

وَلِفَضِيحَتِهِ أَشْهَرُ .

الثَّالِثُ : التَّغْلِيظُ بِالزَّمَانِ ، كَمَا بَعْدَ الْعَصْرِ ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ " النُّورِ " إنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَمِنْ عُلَمَائِنَا مَنْ قَالَ : إنَّ التَّغْلِيظَ يَكُونُ بِسِتَّةِ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : بِاللَّفْظِ .

الثَّانِي : بِالتَّكْرَارِ .

الثَّالِثُ : بِالْمُصْحَفِ .

الرَّابِعُ : بِالْحَالِ .

(451/218)

الْخَامِسُ : بِالْمَكَانِ .

السَّادِسُ : بِالزَّمَانِ .

أَمَّا التَّغْلِيظُ بِالْأَلْفَاظِ فَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : الِاكْتِفَاءُ بِقَوْلِهِ بِاَللَّهِ .

وَقَالَ أَشْهَبُ : لَا تُجْزِئُهُ .

الثَّانِي : الِاكْتِفَاءُ بِقَوْلِهِ : بِاَللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ .

وَقَالَ ابْنُ كِنَانَةَ عَنْ مَالِكٍ : أَمَّا رُبْعُ دِينَارٍ وَالْقَسَامَةُ ، وَاللِّعَانُ ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَقُولَ فِيهِ : بِاَللَّهِ

الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ .

وَهُوَ الْقَوْلُ الثَّالِثُ ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

وَلَقَدْ

شَاهَدْت الْقُضَاةَ مِنْ أَهْلِ مَذْهَبِهِ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمُدْرِكُ الْمُهْلِكُ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ .

وَهَذَا مَا لَا آخِرَ لَهُ إِلَّا التِّسْعَةُ وَالتِّسْعُونَ اسْمًا ، وَغَيْرُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي حَلَفُوا بِهَا أَرْهَبُ وَأَعْظَمُ مَعْنًى مِنْ غَيْرِهَا .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ : " الْحَلِفُ بِاللَّهِ وَبِالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَهُوَ التَّغْلِيظُ ، وَبِالْمُصْحَفِ ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ ، وَهُوَ بِدْعَةٌ مَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ قَطُّ مِنْ الصَّحَابَةِ ، وَكُلُّ فَصْلٍ يُسْتَوْفَى بِمَوْضِعِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ قِيلَ : هُمَا الْوَصِيَّانِ إذَا ارْتِيبَ بِقَوْلِهَا .

وَقِيلَ : هُمَا الشَّاهِدَانِ إذَا لَمْ يَكُونَا عَدْلَيْنِ وَارْتَابَ بِهِمَا الْحَاكِمُ حَلَّفَهُمَا .

(452/218)

وَالَّذِي سَمِعْت وَهُوَ بِدْعَةٌ عَنْ أَبِي لَيْلَى أَنْ يَحْلِفَ الطَّالِبُ مَعَ شَاهِدَيْهِ أَنَّ الَّذِي شَهِدَا بِهِ حَقٌّ ، وَحِينَئِذٍ يُقْضَى لِلْمُدَّعِي بِالْحَقِّ .

وَتَأْوِيلُ هَذَا عِنْدِي إذَا ارْتَابَ الْحَاكِمُ بِالْقَبْضِ لِلْحَقِّ فَيَحْلِفُ إنَّهُ لَبَاقٍ .

وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ فَلَا يُلْتَفَتُ إلَيْهِ .

هَذَا فِي الْمُدَّعِي فَكَيْفَ يُحْبَسُ الشَّاهِدُ أَوْ يَحْلِفُ ؟ هَذَا مِمَّا لَا يُلْتَفَتُ إلَيْهِ

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْلُهُ : ﴿ بِاللَّهِ ﴾ وَهَذَا نَصٌّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي تَرْكِ التَّغْلِيظِ بِالْأَلْفَاظِ .

وَالَّذِي أَقُولُ : إنَّهُ إنْ كَانَ الْحَالِفُ كَافِرًا كَمَا تَقَدَّمَ فِي سَرْدِ الْأَقْوَالِ وَالرِّوَايَاتِ ، وَقُلْنَا بِالتَّغْلِيظِ فَلَا يُقَالُ لَهُ فِي التَّغْلِيظِ قُلْ : بِاللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُقِرُّونَ بِهَا .

وَعَلَى إقْرَارِهِمْ عَلَى هَذَا الْإِنْكَارِ بَذَلُوا الْجِزْيَةَ ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ ، كَمَا رَوَى أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْيَهُودِ : أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى ﴾ ، وَتَغَلَّظَ عَلَيْهِمْ بِالْمَكَانِ فِي كَنَائِسِهِمْ وَبِالزَّمَانِ بَعْدَ صَلَاتِهِمْ ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي قِصَّةِ دَقُوقَاءَ ؛ فَإِنَّ الْغَرَضَ مِنْ هَذَا التَّغْلِيظِ كُلِّهِ زَجْرُ الْحَالِفِ عَنْ الْبَاطِلِ ، وَالرُّجُوعُ إلَى الْحَقِّ ، وَرَهْبَتُهُ بِمَا يُحِلُّ مِنْ ذَلِكَ ، حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ دَاعِيَةً لِلِانْكِفَافِ عَنْ الْبَاطِلِ وَالرُّجُوعِ إلَى الْحَقِّ ، وَهُوَ مَعْنَى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ﴾ .

وَقَدْ حَقَّقْنَا هَذَا الْغَرَضَ ، فَقُلْنَا : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَا غَلَّظَ فِي كِتَابِهِ يَمِينًا ، إنَّمَا قَالَ : فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إي وَرَبِّي إنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ .

وَقَالَ مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ ﴾ .

وَلَكِنْ قَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ لَتَعْلَمُنَّ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا ﴾ .

وَرَوَى النَّسَائِيّ وَأَبُو دَاوُد أَنَّ ﴿ خَصْمَيْنِ أَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُدَّعِي : الْبَيِّنَةُ .

قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَيْسَ

لِي بَيِّنَةٌ .

فَقَالَ لِلْآخَرِ : احْلِفْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ مَا لَهُ عَلَيْك شَيْءٌ ، أَوْ مَا لَهُ عِنْدَك شَيْءٌ ﴾ .

وَتَغْلِيظُ الْعَدَدِ فِي اللِّعَانِ ، وَهُوَ التَّكْرَارُ ، وَفِي الْقَسَامَةِ مِثْلُهُ .

وَزَعَمَ الشَّافِعِيُّ أَنَّهُ رَأَى ابْنَ مَازِنٍ قَاضِي صَنْعَاءَ يَحْلِفُ بِالْمُصْحَفِ وَيُؤْثِرُ أَصْحَابُهُ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَلَمْ يَصِحَّ .

وَأَمَّا التَّغْلِيظُ بِالْحَالِ فَرُوِيَ عَنْ مُطَرِّفٍ وَابْنِ الْمَاجِشُونِ وَبَعْضِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ يَحْلِفُ قَائِمًا مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ .

وَرَوَى ابْنُ كِنَانَةَ عَنْ مَالِكٍ : يَحْلِفُ جَالِسًا .

(454/218)

وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ يَحْلِفُ كَمَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِهَا إنْ قَائِمًا فَقَائِمًا ، وَإِنْ جَالِسًا فَجَالِسًا ؛ إذْ لَمْ يَثْبُتْ فِي أَثَرٍ وَلَا نَظَرٍ اعْتِبَارُ قِيَامٍ أَوْ جُلُوسٍ .

وَتَغْلِيظُ الْمَكَانِ كَمَا قُلْنَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ حَلَفَ عَلَى مِنْبَرِي بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ ﴾ .

فَقِيلَ : أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ الْحَالَ ؛ لِأَنَّهُ مَقْطَعُ الْحُقُوقِ .

وَقِيلَ : أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ قَوْمٍ عَاهَدُوا وَحَلَفُوا عَلَى الْمِنْبَرِ لِلنَّاسِ ثُمَّ غَدَرُوا .

وَرُوِيَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ رَأَى رَجُلًا يَحْلِفُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ فَقَالَ : أَعَلَى دَمٍ أَوْ عَلَى مَالٍ عَظِيمٍ ؟ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَهُمْ مِنْ الْمُسْتَقِرِّ فِي الشَّرْعِ أَلَّا يَحْلِفَ هُنَالِكَ إلَّا عَلَى مَا وَصَفَ ، فَكُلُّ مَالٍ تُقْطَعُ فِيهِ الْيَدُ ، وَتَسْقُطُ فِيهِ حُرْمَةُ الْعُضْوِ فَهُوَ عَظِيمٌ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ وَالرِّيبَةُ : هِيَ التُّهْمَةُ يَعْنِي مَنْ

ادَّعَى عَلَيْهِمَا بِخِيَانَةٍ .

وَاخْتُلِفَ فِي الْمُرْتَابِ ، فَقِيلَ : هُوَ الْحَاكِمُ .

وَقِيلَ : هُمْ الْوَرَثَةُ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَالتُّهْمَةُ وَالرِّيبَةُ عَلَى قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَا تَقَعُ الرِّيبَةُ فِيهِ بَعْدَ ثُبُوتِ الْحَقِّ أَوْ تَوَجُّهِ الدَّعْوَى ؛ فَهَذَا لَا خِلَافَ فِي وُجُوبِ الْيَمِينِ .

(455/218)

الثَّانِي : التُّهْمَةُ الْمُطْلَقَةُ فِي الْحُقُوقِ وَالْحُدُودِ ؛ وَهُوَ تَفْصِيلٌ طَوِيلٌ ، بَيَانُهُ فِي أُصُولِ الْمَسَائِلِ وَصُوَرُهَا مِنْ الْمَذْهَبِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَتْ هَاهُنَا الدَّعْوَى ، وَثَبَتَتْ عَلَى مَا سَطَّرَ فِي الرِّوَايَاتِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا ﴾ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : مَعْنَاهُ لَا نَشْتَرِي بِهِ ذَا ثَمَنٍ ، ثُمَّ حَذَفَ الْمُضَافَ وَأَقَامَ الْمُضَافَ إلَيْهِ مَقَامَهُ .

وَهَذَا مَا لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الثَّمَنَ عِنْدَنَا مُشْتَرًى ، كَمَا أَنَّ الْمَثْمُونَ مُشْتَرًى ؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْمَبِيعَيْنِ ثَمَنًا وَمَثْمُونًا ، كَانَ الْبَيْعُ دَائِرًا عَلَى عَرْضٍ أَوْ نَقْدٍ ، أَوْ عَلَى عَرْضَيْنِ أَوْ نَقْدَيْنِ ، وَعَلَى هَذَا الْأَصْلِ تَنْبَنِي مَسْأَلَةُ مَا إذَا أَفْلَسَ الْمُشْتَرِي وَوُجِدَ مَتَاعُهُ عِنْدَ الْبَائِعِ ، هَلْ يَكُونُ

أَوْلَى بِهِ ؟ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَكُونُ أَوْلَى بِهِ ، وَبَنَاهُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ بِهِ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : يَعْنِي الْقَوْلَ الَّذِي قُلْنَاهُ .

الثَّانِي : أَنَّ الْهَاءَ تَعُودُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى .

الْمَعْنَى : لَا نَبِيعُ حَظَّنَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذَا الْعَرْضِ .

الثَّالِثُ : هُوَ ضَمِيرُ الْجَمَاعَةِ ، وَهُمْ الْوَرَثَةُ ، وَهُمْ الْمُتَّهَمُونَ الَّذِينَ لَهُمْ الطَّلَبُ وَلَهُمْ التَّحْلِيفُ ، وَالْحَاكِمُ يَقْتَضِي لَهُمْ وَيَنُوبُ عَنْهُمْ فِي إيفَاءِ الْحَقِّ .

(456/218)

وَالصَّحِيحُ عِنْدِي : أَنَّهُ يَعُودُ عَلَى الْقَوْلِ ، فَبِهِ يَتَمَكَّنُ الْمَعْنَى وَلَا يُحْتَاجُ إلَى سِوَاهُ

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ مَعْنَاهُ : لَا نَشْهَدُ الزُّورَ ، وَلَا نَأْخُذُ رِشْوَةً لِنَكْذِبَ ، وَلَوْ كَانَ الْمَشْهُودُ لَهُ ذَا قُرْبَى قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ ؛ وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّهَا شَهَادَةٌ .

وَمَنْ قَالَ : إنَّهَا يَمِينٌ قَالَ : التَّقْدِيرُ : لَا نَأْخُذُ بِيَمِينِنَا بَدَلًا مَنْفَعَةً ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لِذِي الْقُرْبَى ،

فَكَيْفَ لِأَجْنَبِيٍّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ مَا عَلِمَ اللَّهُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ لَا نَكْتُمُ مَا أَعْلَمَنَا اللَّهُ مِنْ الشَّهَادَةِ ؛ أَضَافَهَا إلَيْهِ لِعِلْمِهِ بِهَا ، وَأَمْرِهِ بِأَدَائِهَا ، وَنَهْيِهِ عَنْ كِتْمَانِهَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَيَقُولَانِ فِي يَمِينِهِمَا : بِاَللَّهِ إنَّ صَاحِبَكُمْ بِهَذَا أَوْصَى أَنَّ هَذِهِ تَرِكَتُهُ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لَا تَتَعَيَّنُ لِلْيَمِينِ ، وَلَا لِلشَّهَادَةِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الْيَمِينُ عَلَى نَفْيِ الدَّعْوَى كَيْفَمَا كَانَتْ ، وَتَكُونُ الشَّهَادَةُ بِصِفَةِ الْحَالِ كَمَا جَرَتْ ، فَأَمَّا أَنْ يَقُولَ الشَّاهِدُ : إنِّي لَا أَشْتَرِي بِشَهَادَتِي شَيْئًا ، وَلَوْ كَانَ قَرَابَتِي .

(457/218)

أَوْ يَقُولُهَا الْحَالِفُ فِي يَمِينِهِ ، فَلَا يَلْزَمُ ذَلِكَ عِنْدِي وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ ، وَلَكِنْ يَحْلِفُ أَوْ يَشْهَدُ كَمَا وَصَفْنَا وَيَعْتَقِدُ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَهَذَا الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ يَكُونُ فِي اعْتِقَادِهِ لَا فِي لَفْظِهِ فِي شَهَادَةٍ أَوْ يَمِينٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْمُوفِيَةُ ثَلَاثِينَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إثْمًا ﴾ يُرِيدُ ظَهَرَ ،

وَأَظْهَرُ شَيْءٍ فِي الطَّرِيقِ مَا عُثِرَ عَلَيْهِ فِيهَا ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيمَا كَانَ غَائِبًا عَنْك وَكُنْت جَاهِلًا بِهِ ، ثُمَّ حَضَرَ لَدَيْك وَاطَّلَعْت عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَهُمْ ، وَقَدْ خَفِيَ عَلَيْهِمْ مَوْضِعُهُمْ .

التَّقْدِيرُ : إذَا نَفَذَ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ فِي الظَّاهِرِ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ كَذِبُهُمْ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّهُمَا ﴾ قِيلَ : هُمَا الشَّاهِدَانِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

وَقِيلَ : هُمَا الْوَصِيَّانِ ؛ قَالَهُ ابْنُ جُبَيْرٍ .

وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَيَتَرَكَّبُ عَلَيْهِ ، وَيَخْتَلِفُ التَّقْدِيرُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِهِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(458/218)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إثْمًا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ عُقُوبَةً ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ غُرْمًا ، وَظَاهِرُ الْإِثْمِ الْعُقُوبَةُ ، لَكِنْ صَرَفَ عَنْ هَذَا الظَّاهِرِ قَوْلُهُ : اسْتَحَقَّا ، وَالْعُقُوبَةُ لَا تُسْتَحَقُّ بِالْمَعَاصِي ، وَلَا يُسْتَحَقُّ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ حَسْبَمَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ اسْتَوْجَبَا غُرْمًا بِطَرِيقَةٍ .

وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الِاحْتِمَالِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ ﴾ فَإِنَّمَا

يَسْتَحِقُّ عَلَى هَؤُلَاءِ مَا كَانَا اسْتَحَقَّاهُ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا أَنَّ الْقَوْمَ ادَّعَوْا أَنَّهُ كَانَ لِلْمَيِّتِ دَعْوَى مِنْ انْتِقَالِ مِلْكٍ عَنْهُ إلَيْهِمَا بِبَعْضِ مَا تَزُولُ بِهِ الْأَمْلَاكُ مِمَّا يَكُونُ فِيهِ الْيَمِينُ عَلَى وَرَثَةِ الْمَيِّتِ دُونَ الْمُدَّعِي ، وَتَكُونُ الْبَيِّنَةُ فِيهِ عَلَى الْمُدَّعِي .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَآخَرَانِ ﴾ إنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ الِاتِّفَاقِ أَنَّ الْوَارِثَيْنِ كَانَا اثْنَيْنِ ، وَلَوْ كَانَ وَاحِدًا لَأَجْزَأَهُ .

الْمَسْأَلَةُ

الرَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْأَوْلَيَانِ ﴾ مَعْنَاهُ : مِمَّنْ كَانَ نَفَذَ عَلَيْهِمْ الْقَضَاءُ قَبْلَ ذَلِكَ بِوَصِيَّةٍ أَوْ دَيْنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ الْمَيِّتُ ذَكَرَهُ ، وَهُمْ الْوَرَثَةُ .

(459/218)

وَمَنْ يَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُ عُلَمَائِنَا : إنَّ فِي قَوْلِهِ ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ ، لَا نُطَوِّلُ بِذِكْرِهَا ، وَلَا نَحْفِلُ بِهَا ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ اسْتَحَقَّ ﴾ مَعَ قَوْلِهِ : " عَلَى " مُتَلَائِمٌ فَلَا يُحْتَاجُ إلَيْهَا .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ الْأَوْلَيَانِ ﴾ وَهَذَا فَصْلٌ مُشْكِلُ الْمَعْنَى مُشْكِلُ الْإِعْرَابِ ، كَثُرَ فِيهِ الِاخْتِلَاطُ : أَمَّا إعْرَابُهُ فَفِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ الضَّمِيرِ فِي " يَقُومَانِ " وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ : فَالْأَوْلَيَانِ يَقُومَانِ مَقَامَ الْأَوَّلَيْنِ .

وَهَذَا حَسَنٌ ؛ لَكِنَّهُ فِيهِ رَدُّ الْبَعِيدِ إلَى الْقَرِيبِ فِي الْبَدَلِيَّةِ بَعْدَمَا حَالَ بَيْنَهُمَا مِنْ طَوِيلِ الْكَلَامِ ، وَيَكُونُ فَاعِلُ " اسْتُحِقَّ " بِضَمِّ التَّاءِ مُضْمَرًا تَقْدِيرُهُ الْحَقُّ أَوْ الْوَصِيَّةُ أَوْ الْإِيصَاءُ أَوْ الْمَالُ .

وَقِيلَ : فَاعِلُ اسْتُحِقَّ عَائِدٌ عَلَى الْإِثْمِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ ، وَهُوَ الْغُرْمُ لِلْمَالِ ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ .

الثَّانِي : أَنَّ " الْأَوْلَيَانِ " فَاعِلُ " اسْتُحِقَّ ، يُرِيدُ الْأَوْلَيَانِ بِالْيَمِينِ بِأَنْ يُحَلِّفَا مَنْ يَشْهَدُ بَعْدَهُمَا ، فَإِنْ جَازَتْ شَهَادَةُ النَّصْرَانِيِّينَ كَانَ الْأَوْلَيَانِ النَّصْرَانِيِّينَ ، وَالْآخَرَانِ مِنْ غَيْرِ بَيْتِ أَهْلِ الْمَيِّتِ .

هَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ .

وَلَا أَقُولُ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ تَقْدِيرُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا : مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْأَوَّلُ وَبِالْحَقِّ .

الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ : آخَرَانِ .

(460/218)

الرَّابِعُ : أَنْ يَكُونَ عَلَى الِابْتِدَاءِ ، وَالْخَبَرُ مُقَدَّمٌ ، تَقْدِيرُهُ فَالْأَوْلَيَانِ آخَرَانِ .

وَالصَّحِيحُ مِنْ هَذَا هُوَ الْأَوَّلُ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْمُلْجِئَةِ ، وَأَكْمَلْنَا تَقْدِيرَ الْآيَةِ فِيهِ .

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ الْأَوَّلَيْنِ وَهُوَ حَمْزَةُ ، وَأَبُو بَكْرٍ فَيُرْجِعُ إلَى الْأَوَّلَيْنِ ، وَهُوَ حَسَنٌ .

وَقَرَأَ حَفْصٌ اسْتَحَقَّ بِمَعْنَى حَقَّ عَلَيْهِمْ .

وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ فَقِيلَ فِيهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أَيْ فِي مُلْكِ سُلَيْمَانَ .

وَهَذَا كَثِيرٌ .

وَقَالَ قَوْمٌ : مَعْنَاهُ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ .

وَهَذِهِ دَعَاوَى

وَضَرُورَاتٌ لَا يُحْتَاجُ إلَيْهَا ، وَلَا يَصِحُّ مُرَادُهُمْ فِي بَعْضِ مَا اُسْتُشْهِدَ بِهِ مِنْهَا .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَالثَّلَاثُونَ : مَعْنَى الْأَوْلَيَانِ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْأَوْلَى بِالشَّهَادَةِ .

الثَّانِي : قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ : الْأَوْلَى بِالْمَيِّتِ مِنْ الْوَرَثَةِ .

الثَّالِثُ : الْأَوْلَى بِتَحْلِيفِ غَيْرِهِ ؛ قَالَهُ ابْنُ فُورَكٍ ؛ وَهُوَ يَرْجِعُ إلَى الثَّانِي ، وَهُوَ أَصَحُّ مِنْ الْأَوَّلِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا ﴾ الْمَعْنَى : لَقَوْلُنَا أَحَقُّ مِنْ قَوْلِهِمَا .

وَهَذَا الْقَوْلُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى ، وَأَنَّ يَمِينَ الْحَالِفِ لَا تَكُونُ إلَّا بِلَفْظِ الدَّعْوَى .

وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْيَمِينَ إذَا كَانَتْ بِإِنَّ قَوْلِي أَصْدَقُ مِنْ قَوْلِك رُبَّمَا وَرَدَ فِي يَمِينِهِ ، بِأَنْ يَكُونَ مُدَّعِيهِ قَدْ كَذَبَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، وَكَذَبَ هُوَ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ ، فَيَلْزَمُ التَّصْرِيحُ حَتَّى يَتَحَقَّقَ الْكَذِبَ ، وَتَحْصُلُ الْمُجَاهَرَةُ إنْ خَالَفَ ، لِيَأْتِيَ بِالصِّدْقِ عَلَى وَجْهِهِ ؛ فَإِذَا صَحَّ بِالْقَوْلِ فِي الْيَمِينِ لَمْ يَنْفَعْهُ مَا نَوَى إذَا أَضْمَرَ مِنْ مَعْنَى الْيَمِينِ خِلَافَ الظَّاهِرِ مِنْهَا ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يَمِينُك عَلَى مَا يُصَدِّقُك عَلَيْهِ صَاحِبُك ﴾ .

وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ وَمَعْنًى قَوِيمٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ قَرَرْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالثَّلَاثُونَ : فِي بَقَاءِ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ أَوْ ارْتِفَاعِهِ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ حُكْمُهَا مَنْسُوخٌ .

وَقَالَ الْحَسَنُ : حُكْمُهَا ثَابِتٌ ، فَمَنْ قَالَ : إنَّهَا مَنْسُوخَةٌ قَالَ : إنَّ الْيَمِينَ الْآنَ لَا تَجِبُ عَلَى الشَّاهِدِ ؛ لِأَنَّهُ إنْ ارْتِيبَ بِهِ لَمْ تَجُزْ شَهَادَتُهُ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ رِيبَةٌ وَلَا فِي حَالِهِ خُلَّةٌ لَمْ يُحْتَجْ إلَى الْيَمِينِ ، وَعَلَى هَذَا عَوَّلَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ وَنُخْبَتُهُمْ .

وَقَدْ قَرَّرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ وَحَقَّقَهُ بِأَمْرِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ .

وَ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ ﴾ .

فَوَقَعَتْ الشَّهَادَةُ عَلَى الْعَدَالَةِ ، وَاقْتُضِيَتْ الْيَمِينُ مِنْهَا إنْ كَانَتْ فِيهَا .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا ثَابِتَةٌ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّ شَهَادَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ جَائِزَةٌ فِي السَّفَرِ ؛ مِنْهُمْ أَحْمَدُ كَمَا تَقَدَّمَ يُجَوِّزُهَا فِي السَّفَرِ عِنْدَ عَدَمِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ يَمِينٍ ، وَصَارَ بَعْضُ أَشْيَاخِنَا إلَى أَنَّ ذَلِكَ بَاقٍ بِالْيَمِينِ ، وَهُوَ خَرْقٌ لِلْإِجْمَاعِ ، وَجَهْلٌ بِالتَّأْوِيلِ ، وَقُصُورٌ عَنْ النَّظَرِ ، وَإِذَا أَسْقَطَ أَحْمَدُ الْيَمِينَ فَلَا حُجَّةَ لَهُ فِي الْآيَةِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ ؛ لِأَنَّ الْيَمِينَ تَثْبُتُ فِيهِمَا جَمِيعًا .

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الشَّهَادَةَ الْيَمِينُ ، وَهِيَ هَاهُنَا يَمِينُ الْوَصِيَّيْنِ ، كَمَا سُمِّيَتْ الْيَمِينُ فِي اللِّعَانِ شَهَادَةً .

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ : إنَّمَا حَكَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالْيَمِينِ عَلَى الشَّاهِدَيْنِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ أَجْلِ دَعْوَى وَرَثَةِ الْمَيِّتِ عَلَى الْمُسْنَدِ إلَيْهِمَا الْوَصِيَّةُ بِالْخِيَانَةِ ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ ، مَا لَا يَبْرَأُ فِيهِ الْمُدَّعِي ذَلِكَ قِبَلَهُ إلَّا بِيَمِينٍ ؛ فَإِنَّ نَقْلَ الْيَمِينِ إلَى وَرَثَةِ الْمَيِّتِ إنَّمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ عَثَرَ عَلَى الشَّاهِدَيْنِ فِي أَيْمَانِهِمَا بِإِثْمٍ ، وَظَهَرَ عَلَى كَذِبِهِمَا فِي ذَلِكَ بِمَا ادَّعَوْا مِنْ مَالِ الْمَيِّتِ أَنَّهُ بَاعَهُ

مِنْهُمَا ، وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ الْخِيَانَةَ ظَهَرَتْ فِي أَدَاءِ الْمَالِ ، وَلِذَلِكَ حَلَفَا مَعَ الشَّهَادَةِ .

قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذَا يَصِحُّ عَلَى إحْدَى الرِّوَايَاتِ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا أَنَّهُمَا ادَّعَيَا بَيْعَ الْجَامِ مِنْهُمَا .

(463/218)

وَأَمَّا عَلَى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى فَلَا يَسْتَقِيمُ هَذَا التَّأْوِيلُ لِأَنَّ الشَّاهِدَيْنِ أَدَّيَا التَّرِكَةَ فِيمَا ذُكِرَ فِيهَا ، وَانْقَلَبَا عَلَى سَتْرٍ وَسَلَامَةٍ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَتْ الْخِيَانَةُ فِي الْجَامِ ؛ إمَّا بِأَنَّهُ وُجِدَ يُبَاعُ ، وَإِمَّا بِتَحَرُّجِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَتَأَثُّمِهِ وَأَدَائِهِ مَا كَانَ أَخَذَهُ مِنْهُ .

وَتَحْقِيقُ الْكَلَامِ فِيهِ أَنَّ كُلَّ رِوَايَةٍ مِنْ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ عَضَّدَتْهَا صِيغَةُ الْقِصَّةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسَرَدُوهَا فَإِنَّهَا صَحِيحَةٌ ، وَكُلُّ مَا لَمْ يُعَضِّدْهُ مِنْهَا فَهُوَ مَرْدُودٌ .

أَمَّا إنَّهُ إذَا فَسَّرْت الْكَلَامَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَاحْتَجْت إلَى تَجْوِيزٍ أَوْ تَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ فَكُلَّمَا كَانَ أَقَلَّ فِي ذَلِكَ مِنْ التَّأْوِيلَاتِ فَهُوَ أَرْجَحُ ، وَكُلَّمَا كَانَ مِنْ خِلَافِ الْأُصُولِ فِيهِ أَقَلَّ فَهُوَ أَرْجَحُ ، كَتَأْوِيلٍ فِيهِ إجَازَةُ شَهَادَةِ الْكَافِرِ وَإِحْلَافُ الشَّاهِدِ عَلَى شَهَادَتِهِ ؛ فَإِنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي يُخَرَّجُ عَنْهُ هَذَا هُوَ أَرْجَحُ ، وَلَا يَسْلَمُ تَأْوِيلٌ مِنْ اعْتِرَاضٍ ؛ فَإِنَّ الْبَيَانَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْأَحْكَامِ جَاءَ عَلَى صِفَةٍ غَرِيبَةٍ وَهُوَ سِيَاقُهُ عَلَى الْإِشَارَةِ إلَى الْقِصَّةِ ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ

بِانْتِقَالَاتٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ .

(464/218)

وَرُبَّمَا كَانَ الْمُدَّعِي وَاحِدًا ، فَلَيْسَ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ فَآخَرَانِ ﴾ خَارِجًا مَخْرَجَ الشَّرْطِ ، وَإِنَّمَا هُوَ كِنَايَةٌ عَمَّا جَرَى مِنْ الْعَدَدِ فِي الْقِصَّةِ ، وَالْوَاحِدُ كَالِاثْنَيْنِ فِيهَا ؛ فَيَطْلُبُ النَّاظِرُ مَخْرَجًا أَوْ تَأْوِيلًا لِلَّفْظِ لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ ، فَيُدْخِلُ الْإِشْكَالَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِهِ ، فَلَا يُسَاحَلُ عَنْ هَذَا الْبَحْرِ أَبَدًا ؛ وَكَذَلِكَ مَا جَرَى مِنْ التَّعْدِيدِ لَا يُمْنَعُ مِنْ كَوْنِ الشَّهَادَةِ بِمَعْنَى الْيَمِينِ كَمَا فِي اللِّعَانِ .

وَإِنْ كَانَ لَمْ يَذْكُرْ فِي اللِّعَانِ عَدَدًا ، وَجَرَى ذِكْرُهُ هَا هُنَا لِاتِّفَاقِهِ فِي الْقِصَّةِ ؛ لَا لِأَنَّهُ شَرْطٌ فِي الْحُكْمِ .

وَكَذَلِكَ ذِكْرُ الْعَدَالَةِ تَنْبِيهًا عَلَى مَا يَجِبُ ؛ لِأَنَّهُ إنْ أَشْهَدَهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا لِتَحَمُّلِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنْ ائْتَمَنَهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا لِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ وَالثَّلَاثُونَ : فِي تَقْدِيرِ الْآيَةِ : وَهُوَ : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَحَضَرَكُمْ الْمَرَضُ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْمَوْتِ ، وَأَرَدْتُمْ الْوَصِيَّةَ فَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ

مِنْكُمْ مِنْ قَرَابَتِكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ فَإِنْ خَافَا فَاحْبِسُوهُمَا عَلَى الْيَمِينِ إنْ عَدِمْتُمْ الْبَيِّنَةَ .

فَإِنْ تَبَيَّنَتْ بَعْدَ ذَلِكَ خِيَانَتُهُمْ حَلَفَ مِمَّنْ حَلَفُوا لَهُ وَهُوَ أَوْلَى بِاسْتِحْقَاقِ مَا يَجِبُ بِالْيَمِينِ ".

(465/218)

وَعَلَى مَذْهَبِ أَحْمَدَ يَكُونُ تَقْدِيرُ الْآيَةِ : " فَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَأَشْهِدُوا الْكُفَّارَ " فَإِنْ أَدَّيَا مَا أُحْضِرَا لَهُ أَوْ ائْتُمِنَا عَلَيْهِ فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وَإِنْ أَدْرَكَتْهُمْ تُهْمَةٌ أَوْ تَبَيَّنَتْ عَلَيْهِمْ خِيَانَةٌ ، حَلَفُوا .

وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى قَبُولِ شَهَادَتِهِمْ فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى مَذْهَبِ أَحْمَدَ .

وَإِنَّمَا قَبِلْنَا نَحْنُ شَهَادَةَ الْعَدْلِ فِي الْوَصِيَّةِ بِدَلِيلٍ آخَرَ غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : إنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ قَبُولِ شَهَادَةِ الْكُفَّارِ إذَا عُدِمَ الْمُسْلِمُونَ وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إلَّا التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمَا ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَعْتَرِضُكُمْ مِنْ الْإِشْكَالِ عَلَى دَلِيلِنَا وَتَقْدِيرِنَا الَّذِي قَدَّرْنَاهُ آنِفًا ، فَانْظُرُوهُ فِي مَوْضِعِهِ هَاهُنَا تَجِدُوهُ مُبَيَّنًا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ والهدي والقلائد ﴾ عطفُ القلائد على الهدي من عطف الخاص على العام ، خُصّت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر ، وبهاء الحج بها أظهر .

2 - ﴿ مَّا عَلَى الرسولِ إلاَّ البلاغ ﴾ أطلق المصدر البلاغ وأراد به التبليغ للمبالغة .

3 - ﴿ الخبيث والطيب ﴾ بينهما طباقٌ ، وبين ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ ﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .

4 - ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى يراد منها الأمر أي ليشهد بينكم

.

الفوَائِد : قال الإمام الشاطبي : الإِكثار من الأسئلة مذموم وله مواضع نذكر منها عشرة :

أحدها : السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال بعضهم : من أبي ؟

ثانيها : أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كؤال الرجل عن الحج : أكلَّ عام ؟

ثالثها : السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ويدل عليه : " ذروني ما تركتكم "

رابعها : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها كما جاء في النهي عن الأغلوطات .

خامسها : أن يسأل عن علة الحكم في التعبدات كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة .

سادسها : أن يبلغ بالسؤال حدّ التكلف والتعمق كسؤال بني إِسرائيل عن البقرة وما هي وما لونها ؟

سابعها : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي ولذلك قال سعيد : أعراقي أنت ؟

ثامنها : السؤال عن المتشابهات ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء فقال : الاستواء معلوم . . الخ .

تاسعها : السؤال عما حصل بين السلف وقد قال عمر بن عبد العزيز : تلك دماء كف الله عنها يدي فلا ألطّخ بها لساني .

عاشرها : سؤال التعنت والإِفحام وطلب الغلبة في الخصام ففي الحديث : " أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 370 . 371 ﴾

(467/218)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله " ذلك أدْنَى " لا محلَّ لهذه الجملةِ ؛ لاستئنافِها ، والمشارُ إليه الحكمُ السابقُ بتفصيله ، أي : ما تقدَّم ذكرُه من الأحْكَامِ أقربُ إلى حصولِ إقامةِ الشَّهادة على ما ينبغي ، وقيل : المشارُ إليه الحَبْسُ بعد الصلاة ، وقيل : تحليفُ الشاهدين ، و " أنْ يَأْتُوا " أصلُه : " إلى أنْ يأتُوا " ، وقدَّره أبو البقاء بـ " مِنْ " أيضاً ، أي : أدْنَى من أن يأتُوا ، وقدَّره مكيٌّ بالباء ، أي : بِأنْ يَأتُوا ، قال شهاب الدين : وليْسَا بواضحَيْنِ ، ثم حذفَ حرفَ الجر ، فَنَشَأ الخلافُ المشهور ، و " عَلَى وَجْهِهَا " متعلّقٌ بـ " يَأْتُوا " ، وقيل : في محلِّ نَصْبٍ على الحال منها ، وقدَّره أبو البقاء بـ " محققة وصَحِيحَة " ، وهو تفسيرُ معنًى ؛ لما عرفْتَ غير مرة من أنَّ الأكوانَ المقيَّدة لا تُقَدَّر في مثله .

قوله : " أوْ يَخَافُوا " في نصبه وجهان :

أحدهما : أنه منصوب ؛ عطفاً على " يَأْتُوا " ، وفي " أوْ " على هذا تأويلان :

أحدهما : أنها على بابها من كونها لأحدِ الشيئين ، والمعنى : ذلك الحكمُ أقربُ إلى حصول الشهادة على ما ينبغي ، أو خوفِ رَدِّ الأيمانِ إلى غيرهم ، فتسقط أيمانهم ، والتأويلُ الآخر : [أن] تكون بمعنى الواو ، أي : ذلك الحُكْمُ كله أقربُ إلى أنْ يَأْتُوا ، وأقربُ إلى أن يَخَافُوا ، وهذا مفهومٌ من قول ابن عبَّاسٍ .

الثاني من وجهي النصب : أنه منصوبٌ بإضمار " أنْ " بعد " أوْ " ، ومعناها هنا " إلاَّ " ؛ كقولهم : " لأَلْزَمَنَّكَ أوْ تَقْضِيَني حَقِّي " ، تقديره : إلاَّ أنْ تَقْضِيني ، ف " أوْ " حرفُ عطفٍ على بابها ، والفعلُ بعدها منصوبٌ بإضمار " أنْ " وجوباً ، و " أنْ " وما في حيِّزها مُؤوَّلةٌ بمصْدرٍ ، ذلك المصدرُ معطوفٌ على مصدر متوهَّم من الفعلِ قبله ، فمعنى : " لأَلْزَمَنَّكَ أوْ تَقْضِيَني حَقِّي " : لَيَكُونَنَّ منّي لُزُومٌ لك أو قَضَاؤُكَ لِحَقِّي ، وكذا المعنى هنا أي : ذلك أدنى بأن يأتوا بالشهادةِ على وجهها ؛ وإلاَّ خَافُوا رَدَّ الإيمانِ ، كذا قدَّره ابن عطية بواوٍ قبل " إلاَّ " ، وهو خلافُ تقدير النحاة ؛ فإنَّهمْ لا يقدِّرون " أوْ " إلا بلفظ " ألاَّ " وحدها دون واو ، وكأن " إلاَّ " في عبارته على ما فهمه أبو حيان ليسَتْ " إلاَّ " الاستثنائيةَ ، بل أصلُها " إنْ " شرطيةً دخلتْ على " لاَ " النافيةِ فأدْغِمَتْ فيها ، فإنه قال : " أو تكون " أو " بمعنى " إلاّ إنْ " ، وهي التي عبَّر عنها ابن عطيَّة بتلك العبارةِ من تقديرها بشرطٍ – محذوفٍ فعلُه – وجزاءٍ " .

انتهى ، وفيه نظرٌ من وجهَيْن :

أحدهما : أنه لم يَقُلْ بذلك أحدٌ ، أعني كون " أوْ " بمعنى الشرط .

والثاني : أنه بعد أنْ حَكَمَ عليْهَا بأنها بمعنى " إلاَّ إنْ " جعلها بمعنى شرطٍ حُذِفَ فعلُه .
و" أنْ تُرَدَّ " في محلِّ نَصْبٍ على المفعُولِ به ، أي : أو يَخَافُوا رَدَّ أيمانهم .

(469/218)

و" بَعْدَ أيمَانِهِمْ " : إمَّا ظرفٌ لـ " تُرَدَّ " ، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ ؛ على أنها صفةٌ لـ " أيمَان " ، وجُمِعَ الضميرُ في قوله " يَأتُوا " وما بعده ، وإنْ كان عائداً في المعنى على مثنى ، وهو الشاهدان ، فقيل : هو عائدٌ على صنفي الشاهدين ، وقيل : بل عائدٌ على الشهودِ من الناسِ كُلِّهِمْ ، معناه : ذلك أولى وأجدرُ أنْ يحذرَ الناسُ الخيانةَ ، فيَتَحَرَّوْا في شهادتهم ؛ خَوْفَ الشناعةِ عليهم والفَضِيحةِ في رَدِّ اليمينِ على المُدَّعِي ، وقوله : " واتَّقُوا الله " لم يذكر متعلَّق التقوى : إمَّا للعلْمِ به ، أي : واتقوا اللَّهَ في شهادِتكُمْ وفي الموصينَ عليهم بأن لا تَخْتَلِسُوا لهم شيئاً ؛ لأن القصَّةَ كانت بهذا السَّبب ، وإمَّا قَصْداً لإيقاع التقوى ، فيتناول كُلَّ ما يُتَّقَى منه ، وكذا مفعولُ " اسْمَعُوا " إنْ شئتَ حذفته اقتصاراً أو اختصاراً ، أي : اسْمَعُوا أوامِرَهُ من نَوَاهِيه من الأحكام المتقدِّمة ، وما أفْصَحَ ما جيء بهاتَيْن الجملتَيْن الأمريتَيْن ، فتبارك اللَّهُ أصْدَقُ القائِلينَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 588.587 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (104) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ

فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108) ﴾

(471/218)

التفسير : " عن أنس أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثروا المسألة فقام على المنبر فقال : فاسألوني فوالله لا تسألوني عن شيء ما دمت في مقامي هذا إلا حدثتكم به . فقام عبد الله بن حذافة السهمي وكان يطعن في نسبه فقال : يا نبي الله من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة بن قيس وقال سراقة بن مالك " - ويروى عكاشة بن محصن - يا رسول الله الحج علينا في كل عام ؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أعاد مرتين أو ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم ، والله إن قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لتركتم ، ولو تركتم لكفرتم فاتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه .

(472/218)

وقام آخر فقال : يا رسول الله أين أبي ؟ فقال : في النار . ولما اشتد غضب الرسول صلى الله عليه وسلم قام عمر فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً . فأنزل الله هذه الآية . فهي عائدة إلى قوله ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ كأنه قال : ما آتاكم الرسول فخذوه ولا تخوضوا في غيره فلعله يجيبكم بما شق عليكم . وأيضاً كان المشركون يطالبونه بعد ظهور المعجزات بمعجزات أخر كقوله حاكياً عنهم ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] إلى تمام الآية . وكان لبعض المسلمين أيضاً ميل إلى ظهورها فمنعوا ذلك لأن طلب الزيادة بعد ثبوت الرسالة من باب التحكم ، ولعلها لو ظهرت ثم أنكرت استحق المنكر العقاب العاجل ، ويحتمل أن يكون وجه النظم قوله ﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ [النور : 29] فاتركوا الأمور على ظواهرها ولا تسألوا عن أشياء مخفية إن تبد لكم تسؤكم . وللنحويين في منع صرف أشياء وجوه ، فقال الخليل وسيبويه : أصلها " شياء " على وزن " حمراء " فهو اسم جمع لشيء استثقلوا الهمزتين في آخره فنقلوا الهمزة

(473/218)

التي هي لام الفعل إلى أوّل الكلمة فصار وزنه " لفعاء " . وقال الفراء : أصلها " أفعلاء " بناء على أن " شيا " مخفف شيء يقال " هين " في " هين " وقد يجمع " فيعل " على " أفعلاء " كنبي وأنبياء ، لكنهم استثقلوا اجتماع الياء والهمزتين فحذفوا اللام فبقي " أشياء " على وزن " أفعاء " .

(474/218)

وقال الكسائي : وزنها " أفعال " ومنع الصرف تشبيهاً له بحمراء . ولا يلزم منه منع صرف " أبناء " و" أسماء " لأن ما ثبت على خلاف الدليل لا يلزم اطراده ولكنه يكون مقصوراً على المسموع . والحاصل أن السؤال عن الأشياء ربما يؤدي إلى ظهور أحوال مكتومة يكره ظهورها وربما ترتب عليه تكاليف شاقة صعبة . فالذي سأل عن أبيه لم يأمن أن يلحق بغير أبيه فيفتضح ، والسائل عن الحج كاد أن يوجبه في كل عام وقد قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أعظّم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسالته "

(475/218)

وكان عبيد بن عمير يقول : إن الله أحل وحرم ، فما أحل فاستحلوه وما حرم فاجتنبوه ، وترك بين ذلك أشياء لم يحللها ولم يحرمها فذلك عفو من الله تعالى فاقبلوه . وقال أبو ثعلبة إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها . ثم لما رتب المساءة على السؤال ذكر أن الإبداء سيكون لأن الوحي غير منقطع فقال ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن ﴾ أي في زمان الوحي لأن الرسول بين أظهركم ﴿ تبد لكم ﴾ تلك الأمور أو التكاليف . فالحاصل أنهم إن سألوا عنها أبديت لهم وإن أبديت لهم ساءتهم فيلزم من المقدمتين أنهم إن سألوا عنها ساءتهم . وقيل : السؤال قسمان : أحدهما السؤال عن شيء لم يجر ذكره في الكتاب والسنة فنهى عنه بقوله ﴿ لا تسألوا ﴾ والثاني السؤال عن شيء نزل به القرآن لكن السامع لم يفهمه كما ينبغي وهذا السؤال غير مذموم فأشار إلى هذا القسم بقوله : ﴿ وإن تسألوا ﴾ رفعاً للحرج وتميزاً لهذا القسم من الأوّل . وإنما حسن عود الضمير في " عنها " إلى الأشياء وإن كانا في الحقيقة نوعين مختلفين ، لأن كلاً منهما مسؤول عنه في الجملة . وقيل : المعنى وإن تسألوا عن تلك السؤالات هل هي جائزة أم لا تبد لكم . والمراد أن تطلب الرخصة في السؤال أولاً ثم

يسأل ﴿ عفا الله عنها ﴾ أي عما سلف من مسألتكم وإغضابكم الرسول فلا تعودوا " إليها ، أو المراد بالعفو أنه تعالى ما أظهر عند تلك المسائل ما يشق عليهم من التكاليف . وقيل : إن الجملة صفة أخرى للأشياء كما أن الجملة الشرطية والمعطوف عليها صفة لها . والمعنى لا تسألوا عن أشياء أمسك الله عنها وكف عن ذكرها كما جاء في الحديث " " عفوت عن صدقة الخيل والرقيق " أي خفف عنكم بإسقاطها ﴿ قد سألها ﴾ يعني المسألة التي دل عليها لا تسألوا ﴿ قوم من قبلكم ﴾ سأل الناقة قوم صالح فعقروها ، وسأل الرؤية قوم موسى عليه السلام فصار وبالاً عليهم ، وسأل المائدة قوم عيسى عليه السلام فكفروا بها ، ويحتمل أن يعود الضمير في سألها إلى الأشياء فكأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم سألوا عن أحوال الأشياء والمتقدمين سألوا نفس الأشياء كالناقة والمائدة والرؤية فلما اختلفت الأسئلة اختلفت العبارة إلا أن كل واحد من القسمين يشتركان في وصف هو الخوض في الفضول والشروع فيما لا يعني فتوجه الذم عليهما جميعاً .

ولما منعهم عن أمور تكلفوا البحث عنها ذم سيرة قوم تكلفوا التزام أمور لم يؤمروا بها .

ومعنى ﴿ ما جعل ﴾ ما حكم بذلك ولا شرع . والبحيرة " فعيلة " من البحر الشق .

وبحر ناقته إذا شق أذنها وهي بمعنى المفعول . قال أبو عبيدة والزجاج : كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً شقوا أذن الناقة ومنعوا ركوبها وسيبوها لآلهتهم لا تنحر ولا يحمل على ظهرها ولا تطرد عن ماء ولا تردّ عن مرعى ولا ينتفع بها حتى لو لقيها المعي لا يركبها تحرجاً . وأما السائبة فإنها فاعلة من " ساب " إذا جرى على وجه الأرض . يقال ساب الماء وسابت الحية ، فالسائبة هي التي تركت حتى تسيب إلى حيث شاءت ، قال أبو عبيدة : كان الرجل إذا مرض أو قدم من سفر أو نذر نذراً أو شكر نعمة سيب بعيره فكان بمنزلة البحيرة في أحكامها . وقيل : هي أم البحيرة كانت الناقة إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث سيبت فلم تركب ولم يشرب لبنها إلا ولدها أو الضيف حتى تموت ، فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء جميعاً وبحرت أذن بنتها الأخيرة وكانت بمنزلة أمها في أنها سائبة . وقال ابن عباس : السائبة هي التي تسيب الأصنام أي تعتق لها وكان الرجل يسيب من ماله ما يشاء فيجيء به إلى السدنة وهم خدم آلهتهم فيطعمون من لبنها أبناء السبيل . وقيل هي العبد يعتق على أن يكون عليه ولاء ولا ميراث وأما الوصيلة فإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم ، إن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . فالوصيلة بمعنى الموصولة كأنها بغيرها أو بمعنى

الواصلة لأنها وصلت أخاها . وأما الحامي فيقال : حماه يحميه إذا حفظه . قال السدي : هو الفحل الذي يضرب في الإبل عشر سنين فيخلى وقيل : إن الفحل إذا ركب ولد ولده قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى إلى أن يموت . فإن قيل إذا جاز إعتاق العبيد والإماء فام لا يجوز إعتاق

(478/218)

البهائم من الذبح والإيلام ؟ فالجواب أن الإنسان خلق لعبادة الله تعالى فإذا أزيل الرق عنه كان ذلك معيناً له على ما خلق لأجله ، أما العجم من الحيونات فإنما خلقت لمنافع المكلفين فتركها يقتضي تفويت كمالها عليها .

(479/218)

وأيضاً الإنسان إذا أعتق قدر على تحصيل المنافع ودفع المضار بخلاف البهائم فإنها عاجزة عن جذب الملائم ودفع المنافي في الأغلب ، فإعناقها يفضي إلى ضياعها فظهر الفرق . ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ قال ابن عباس : يريد عمرو بن لحى

وأصحابه كان قد ملك مكة شرفها الله وكان أوّل من غير دين إسماعيل فاتخذ الأصنام ونصب الأوثان وشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقه " لقد رأيته في النار يؤذي أهل النار ريح قصبه " والقصب الأمعاء هذا حال رؤسائهم ﴿ وأكثرهم لا يعقلون ﴾ يعني العوام والأتباع . ثم رد على أهل التقليد بقوله ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ الآية وقد مر تفسير مثله في سورة البقرة . فنفى العقل عنهم هناك والعلم ههنا مع نفي الاهتداء في الموضعين وفيه دليل على أن الاقتداء لا يجوز إلا بالعاقل العالم المهتدي لابتناء قوله على الحجة والدليل لا على التقليد والأضاليل . قال أهل البرهان : العلم أبلغ درجة من العقل ولهذا يوصف الله تعالى بالعلم ولا يوصف بالعقل ، وكان دعواهم ههنا أبلغ لقولهم ﴿ حسبنا ما وجدنا ﴾ فناسب أن ينفي عنهم العلم الذي هو أبلغ . ثم ذكر أن هؤلاء الجهال مع ما تقدم من أنواع المبالغة في الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب لم ينتفعوا بشيء منه بل أصروا على جهالتهم وضلالتهم فلا تبالوا بهم أيها المؤمنون ، فإن جهلهم لا يضركم إذا كنتم منقادين لتكاليف الله مطيعين لأوامره ونواهيه . تقول العرب : عليك زيداً وعندك عمراً يعدّونهما إلى المفعول كأنه قيل : خذ زيداً فقد علاك أي أشرف عليك وحضرك عمرو فخذه . وليس المراد في عليك أنه حرف جر مع مجروره متعلق بمحذوف ، بل الجار والمجرور معاً منقول الى معنى الفعل نقل الأعلام ولهذا سمي أسم فعل

. فإن قيل : ظاهر الآية يوهم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس بواجب ، فالجواب المنع فإن الآية لا تدل إلا على أن المطيع لربه

(480/218)

غير مؤاخذ بذنب العاصي وهذا خطب أبو بكر فقال : إنكم تقرؤن هذه الآية وتضعونها في غير موضوعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا رأوا المنكر فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب " وعن عبد الله بن المبارك أن هذه الآية آكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن معنى ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ احفظوها والزموا صلاحها بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغبه في الخيرات وينفره عن القبائح والسيئات ﴿ لا يضركم ﴾ ضلال ﴿ من ضل إذا اهتديتم ﴾ فأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فإنكم خرجتم عن عهدة تكليفكم كما قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾

(481/218)

[النساء : 84] وقيل : إن الآية مخصوصة بما إذا خاف الأنسان عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نفسه أو على عرضه أو على ماله . وكان ابن شبرمة يقول : من فرَّ من اثنين فقد فر ومن فر من ثلاثة فلم يفر . وقيل : إنها مختصة بالكفار الذين علم الله أنه لا ينفعهم الوعظ ، يؤكده ما روي في سبب النزول عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أقر مجوس هجر بالجزية قال منافقو العرب : عجباً من محمد يزعم أن الله بعثه ليقاتل الناس كافة حتى يسلموا ولا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب فلا نراه إلا قد قبل من مشركي أهل هجر ما رد على مشركي العرب فأنزل الله تعالى الآية أي لا يضركم ملامة اللائمين إذا كنتم على الهدى والحق . وقيل : كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العناد من الكفرة فنزلت تسلية لهم كما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] وعن ابن مسعود أن الآية قرئت عنده فقال : إن هذا في آخر الزمان . ومثله ما روي عن أبي ثعلبة الخشني أنه سئل عن ذلك فقال للسائل : سألت عنها خبيراً سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال : " ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا ما رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك ودع أمر العوام ، وإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن كقبض على الجمر للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله " وقيل : كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سفهت آباءك ولاموه فنزلت .

(482/218)

ثم إنه سبحانه لما أمر بحفظ النفس في قوله ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ أمر بحفظ المال . عن ابن عباس أن تميماً الداري وأخاه عدياً – وكانا نصرانيين – ، خرجا إلى الشام ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص – وكان مسلماً مهاجر – خرجوا للتجارة . فلما قدموا الشأم مرض بديل فكتب كتاباً فيه نسخة جميع ما معه وأخفاه بين الأقمشة ولم يخبر صاحبيه بذلك ، ثم أوصى إليهما وأمرهما أن يدفعا متاعه إلى أهله ومات . ففتشا متاعه فأخذا إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشاً بالذهب ودفعا باقي المتاع إلى أهله لما قدما ، فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء فجحدا فرفعوهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت . ومعنى ﴿ شهادة بينكم ﴾ شهادة ما بينكم أي من التنازع والتشاجر . وإنما أضيفت الشهادة إلى التنازع لأن الشهود إنما يحتاج إليهم عند النزاع ﴿ وإذا حضر ﴾ ظرف للشهادة ﴿ حين الوصية ﴾ بدل منه . وفي هذا دليل على أن الوصية مما لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم عند ظهور أمارات الموت فكأنّ وقتيهما واحد وهما متلازمان .

(483/218)

وارتفع ﴿ اثنان ﴾ على أنه قام مقام الخبرية أي شهادة بينكم أن يشهد اثنان . وفي قوله اثنين ، أو على أنه فاعل فعل محذوف والتقدير شهادة ما بينكم أن يشهد اثنان . وفي قوله ﴿ منكم ﴾ و ﴿ من غيركم ﴾ قولان : فعن الحسن والزهري وعليه جمهور الفقهاء أن ﴿ منكم ﴾ أي من أقاربكم و ﴿ من غيركم ﴾ أي من الأجانب . والمعنى إن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من أقاربكم فاستشهدوا على الوصية أجنبيين . وجعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بحال الميت وأرأف به . وعن ابن عباس وأبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وشريح ومجاهد وابن جريج وابن سرين أن ﴿ منكم ﴾ أي من أهل ملتكم و ﴿ من غيركم ﴾ أي من كافر كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو عابد وثن . قال الشافعي : مرض رجل من المسلمين في الغربة فلم يجد أحد من المسلمين يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب فقدما الكوفة وأتيا أبا موسى الأشعري وكان والياً عليها فأخبراه بالواقعة . فقال أبو موسى : هذا أمر لم يقع بعد النبي صلى الله عليه وسلم فحلفهما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد العصر بالله العظيم أنهما ما كذبا وما بدلا وأجاز شهادتهما . والذاهبون إلى هذا القول احتجوا بأن الخطاب في ﴿ منكم ﴾ لجميع المؤمنين فيلزم أن يكون غيرهم كافرين ، وبأن هذين الشاهدين لو كانا مسلمين لم يكن الاستشهاد بهما مشروطاً بالسفر لجواز ذلك في الحضر أيضاً بالاتفاق ، وبأنه تعالى أوجب الحلف عليهما والشاهد المسلم لا يجب تحليفه ألبته ،

وبأن الشاهدين في سبب النزول كانا نصرانيين وبأن أبا موسى قضى بذلك ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ، وبأن الضرورات تبيح المحظورات كالتيمم والإفطار وأكل الميتة ، والمسلم إذا قرب أجله ولم يجد مسلماً ولا تقبل شهادة الكفار ضاع أكثر مهماته فقد يكون عليه زكوات وكفارات وديون ولديه ودائع وله مصالح ولمثل هذه الضرورة جوّزنا شهادة النساء فيما يتعلق بأحوال النساء

(484/218)

كالحيض والحبل والولادة . وللأولين أن يجيبوا بأن حذف المضاف غير عزيز وبأن ذكر السفر ليس لأجل اشتراط قبول الشهادة ولكن لأجل أن الغالب في السفر فقدان الأقارب ووجود الأجانب ، وبأن التحليف مشروط بالريبة وقد روي عن علي كرم الله وجهه أنه كان يحلف الشاهد والراوي إذا اتهمهما ، وبأن سبب النزول لا يلزم أن ينطبق على الحكم حذو القذة بالقذة . وبأن قصة أبي موسى خبر الواحد ، وبأن الضرورة كانت في أوّل الإسلام لقلة المسلمين وتعذرهم في السفر غالباً . ومما يصلح أن يكون مؤكداً لهذه الآية وإن لم يجز أن يكون ناسخاً لها عند من يرى أن المائدة من آخر القرآن نزولاً قوله تعالى ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ [الطلاق : 2] وليس المراد من العدالة الاحتراز عن

الكذب في النطق فقط بل في الدين والاعتقاد ، ولا كذب أعظم من الفريه على الله تعالى وعلى رسله .

(485/218)

وإنما تقبل شهادة أهل البدع والأهواء من هذه الأمة احتشاماً لكلمة الإسلام . وموقع ﴿ تحبسونهما ﴾ أي توقفونهما وتصيرونهما استئناف كأنه قيل : فكيف نعمل إن ارتبنا ؟ فقيل ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ قال ابن عباس : من بعد صلاة دينهما . وقال عامة المفسرين : من بعد صلاة العصر لأن هذا الوقت كان معروفاً عندهم بالتحليف بعده ، ولفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث دعا بعدي وتميم فاستحلفهما عند المنبر بعد صلاة العصر ، ولأن جميع أهل الأديان يعظمون هذا الوقت ويذكرون الله تعالى فيه ويحترزون عن الحلف الكاذب ، وأهل الكتاب يصلون لطلوع الشمس وغروبها . وقال الحسن : المراد بعد الظهر وبعد العصر لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما . وقيل : بعد أي صلاة كانت لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . قال الشافعي : الأيمان تغلظ في الدماء والطلاق والعتاق والمال إذا بلغ مائتي درهم بالزمان والمكان ، فيحلف بعد العصر بمكة بين الركن والمقام وبالمدينة عند المنبر ، وفي بيت المقدس عند

الصخرة ، وفي سائر البلدان في أشرف المساجد . وقد تغلظ بالتكرير والتعديل كما في القسامة واللعان أو بزيادة الأسماء والصفات ، وقال أبو حنيفة : يحلف من غير التغليظ بزمان أو مكان . ولا يخفى أن قول الشافعي أوفق للآية . والمقسم عليه قوله ﴿ لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ﴾ وقوله ﴿ إن ارتبتم ﴾ اعتراض ، والضمير في ﴿ به ﴾ ، للقسم وفي كان للمقسم له يعني لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا ولو كان من يقسم له قريباً منا ، أرادوا أن هذه عادتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً كقوله ﴿ شهداء لله ولو على أنفسكم ﴾ وخص ذا القربى بالذكر لأن الميل إليهم أتم والمداهنة بينهم أكمل ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ [النساء : 135] التي أمر بحفظها وتعظيمها وأدائها ﴿ إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ أي إذا كتمناها كنا من الآثمين . ونقل عن الشعبي أنه وقف على قول الله عز وجل ﴿

(486/218)

شهادة ﴾ ثم ابتدأ ﴿ الله ﴾ بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه . وروى عنه بغير مدّ على ما ذكره سيبويه أن منهم من يقول : الله لقد كان كذا والمعنى بالله ﴿ فإن عثر ﴾ قال الليث : عثر الرجل يعثر عثوراً إذا هجم على أمر لم يهجم عليه

غيره وقريب منه العثار لأن العاثر لأن العاثر إنما يعثر بشيء كان لا يراه . والمعنى فإن حصل الإطلاع على أنهما استحقا إثماً – وهو كناية عن الخيانة والحنث في الحلف – ﴿ فآخران ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أو فاعل فعل محذوف ، أو صفة مبتدأ محذوف أي فالشاهدان أو فليشهد أو فشاهدان آخران ﴿ يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم ﴾ قال في الكشاف : أي الإثم ومعناه من الذين جني عليهم وهم أهل الميت وعشيرته .

(487/218)

وفي التفسير الكبير أنه المال . وإنما وصف موالي الميت بذلك لأنه أخذ مالهم وكل من أخذ ماله غيره فقد حاول ذلك الغير أن يكون تعلقه بذلك المال مستعلياً على تعلق مالكه به فصح أن يوصف المالك بأنه قد استحق عليه ذلك المال . وارتفع ﴿ الأوليان ﴾ على أنهما خبر مبتدأ محذوف فكأنه قيل : ومن الآخران ؟ فقيل : هما الأوليان ، ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير في ﴿ يقومان ﴾ أو من ﴿ آخران ﴾ ويجوز أن يرتفع ب ﴿ استحق ﴾ أي من الذين استحق عليهم انتداب الأولين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال – قاله في الكشاف – ومعنى الأوليان الأقربان إلى الميت أو الأوليان الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما ، أو الأحقان باليمين إما على تقدير الرد وذلك عند الشافعي

وكل من يرى رد اليمين على المدعي ، وإما لانقلاب القضية عند من لا يرى ذلك كأبي حنيفة وأصحابه ، فإن من أقر لآخر بدين ثم ادعى أنه قضاه حكم برد اليمين إلى الذي ادّعى الدين أوّلاً لأنه صار مدعى عليه أنه قد استوفاه . وفي هذه القصة ادعى الوصيان أن الميت باع منهما الإناء ، والورثة أنكروا فكان اليمين حقاً لهم . ومن قرأ ﴿ الأوّلين ﴾ على الجمع فعلى أنه نعت ل ﴿ الذين استحق عليهم ﴾ أو منصوب على المدح . ومعنى الأوّلية التقدم على الأجانب في الشهادة أو التقدم في الذكر في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وكذلك ﴿ اثنان ذوا عدل منكم ﴾ ذكرا قبل قوله قرأ ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ ومن قرأ ﴿ استحق ﴾ على البناء للفاعل ﴿ عليهم الأوليان ﴾ فقد قال في الكشاف : معناه من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين . وفي التفسير الكبير أن الوصيين اللذين ظهرت خيانتهما هما أولى من غيرهما بسبب أن الميت عينهما للوصية ، ولما خانا في مال الوصية صح أن يقال : إن الورثة قد استحق عليهم الأوليان أي خان في مالهم الأوليان . روي أنه لما نزلت

الآية الأولى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العصر ودعا بعدي وتميم فاستحلفهما عند المنبر بالله الذي لا إله إلا هو إنه لم يجد منا خيانة في هذا المال فخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيلهما وكتما الإناء مدة ، ثم باعاه فوجد بمكة . وقيل : لما طالت المدة أظهراه فبلغ ذلك ورثته فطلبوه منهما فقالا : كنا قد اشتريناه . فقالوا : ألم نقل لكم هل باع صاحبنا شيئاً فقلتم لا ؟ فقالا : لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نقر وكتمنا . فرفعوا القصة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا ﴾ الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن وداعة فحلفا بالله بعد العصر ﴿ لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا ﴾ في طلب هذا المال وفي نسبتهم الى الكذب والخيانة ، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء اليهما وإلى أولياء الميت .

(489/218)

وكان تميم الداري يقول بعد إسلامه : صدق الله وصدق رسوله أنا أخذت الإناء فأتوب الى الله تعالى . وعن ابن عباس أنه بقيت تلك الواقعة مخفية إلى أن أسلم تميم الداري فقال : حلفت كذباً وقد بعت الإناء أنا وصاحبي بألف وقسمنا الثمن ، ثم دفع خمسمائة من نفسه ونزع من صاحبه خمسمائة أخرى ودفع الألف إلى أولياء الميت ﴿ ذلك ﴾ الحكم الذي

شرعناه والطريق الذي نهجناه أقرب إلى ﴿ أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أي كما هو في الواقع ﴿ أو يخافوا أن تردّ ﴾ في مثل هذه القضية ﴿ أيمان ﴾ على الورثة ﴿ بعد أيمانهم ﴾ وهذا تفسير من يرى ردّ اليمين ، وأما من لا يرى ذلك فالمعنى عنده أن تكرّ أيمان شهود آخرين لانقلاب المدعى عليه مدعياً وعلى التقديرين يظهر كذبهم . والحاصل أن هذا الحكم يصير باعثاً للشهود على أداء حق الشهادة للداعي أو الصارف ﴿ واتقوا الله ﴾ في الأيمان ﴿ واسمعوا ﴾ مواعظه سماع قبول ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ الخارجين عن مناهج شرائعه وأحكامه وفيه من الوعيد ما فيه . قال المفسرون : هذه الآية في غاية الصعوبة إعراباً ونظماً وحكماً . وروى الواحدي في البسيط عن عمر بن الخطاب أن هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام ، ولهذا ذهب أكثر الفقهاء إلى أن الحكم هذه الآية منسوخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 27 . 35 ﴾

(490/218)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع عشر بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/219)

الجزء التاسع عشر بعد المائتين

من الآية ﴿ 109 ﴾ من سورة المائدة

وحتى الآية ﴿ 115 ﴾ من نفس السورة

(4/219)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان فيها إقامة الشهود وحبسهم عن مقاصدهم حتى يفرغوا من هذه الواقعة المبحوث فيها عن خفايا متعلقة بالموت والتغليظ بالتحليف بعد صلاة العصر ، وكانت ساعة يجتمع فيها الناس وفريقا الملائكة المتعاقبين فينا ليلاً ونهاراً مع أنها ساعة الأصيل المؤذنة بهجوم الليل وتقوّض النهار حتى كأنه لم يكن ورجوع الناس إلى منازلهم وتركهم لمعايشهم ، وكانت عادته سبحانه بأنه يذكر أنواعاً من الشرائع والتكاليف ، ثم يتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء وإما بشرح أحوال القيامة ، ليصير ذلك مؤكداً لما تقدم من التكاليف ، ولا ينتقل من فن إلى آخر إلا بغاية الإحكام في الربط ، عقبها تعالى بقوله : ﴿ يوم يجمع الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ الرسل ﴾ أي الذين أرسلهم إلى عباده بأوامره ونواهيه إشارة إلى تذكر انصرام هذه الدار وسرعة هجوم ذلك بمشاهدة هذه الأحوال المؤذنة به وبأنه يوم يقوم فيه الأشهاد ، ويجتمع فيه العباد ، ويفتضح فيه أهل الفساد – إلى غير ذلك من الإشارات لأرباب البصائر والقلوب ، والظاهر أن " يوم " ظرف للمضاف

المحذوف الدال عليه الكلام ، فإن من المعلوم أنك إذا قلت : خف من فلان ، فإن المعنى : خَف من عقابه ونحو ذلك ، فيكون المراد هنا : واتقوا غضب الله الواقع في ذلك اليوم ، أي اجعلوا بينكم وبين سطواته في ذلك اليوم وقاية ، أو يكون المعنى : اذكروا هذه الواقعة وهذا الوقت الذي يجمع فيه الشهود ويحبس المعترف والجحود يوم الجمع الأكبر بين يدي الله تعالى ليسألهم عن العباد ويسأل العباد عنهم ﴿ فيقول ﴾ أي للرسل تشريعاً لهم وبياناً لفضلهم وتشريفاً للمحق من أممهم وتبكيتاً للمبطل وتوبيخاً للمُفْرط منهم والمفرّط .

(5/219)

ولما كان مما لا يخفى أصلاً أنهم أجيبوا ، ولا يقع فيه نزاع ولا يتعلق بالسؤال عنه غرض ، تجاوز السؤال إلى الاستفهام من نوع الإجابة فقال : ﴿ ماذا أجبتم ﴾ أي أيّ إجابة أجابكم من أرسلتم إليهم ؟ إجابة طاعة أو إجابة معصية .

ولما كان المقصود من قولهم بيان الناجي من غيره ، وكانت الشهادة في تلك الدار لا تنفع إلا فيما وافق فيه الإضمار الإظهار ، فكانت شهادتهم لا تنفع المشهود له بحسن الإجابة إلا أن يطابق ما قاله بلسانه اعتقاده بقلبه ﴿ قالوا ﴾ نافين لعلمهم أصلاً ورأساً إذا كان موقوفاً على شرط هو من علم ما غاب ولا علم لهم به ﴿ لا علم لنا ﴾ أي على الحقيقة لأنا لا نعلم

إلا ما شهدناه ، وما غاب عنا أكثر ، وإذا كان الغائب قد يكون مخالفاً للمشهود ، فما شهد ليس بعلم ، لأنه غير مطابق للواقع ، ولهذا عللوا بقولهم : ﴿ إنك أنت ﴾ أي وحدك ﴿ علام الغيوب ﴾ أي كلها ، تعلمها علماً تاماً فكيف بما غاب عنا من أحوال قومنا ! فكيف بالشهادة ! فكيف بما شهدنا من ذلك ! وهذا في موضع قولهم : أنت أعلم ، لكن هذا أحسن أدباً ، فإنهم محوا أنفسهم من ديوان العلم بالكلية ، لأن كل علم يتلاشى إذا نسب إلى علمه ويضمحل مهما قرن بصفته أو اسمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 561.562 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾

اعلم أن عادة الله تعالى جارية في هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام ، أتبعها إما بالإلهيات ، وإما بشرح أحوال الأنبياء ، أو بشرح أحوال القيامة ليصير ذلك مؤكداً لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع فلا جرم لما ذكر فيما تقدم أنواعاً كثيرة من الشرائع أتبعها بوصف أحوال القيامة أولاً ، ثم ذكر أحوال عيسى .

أما وصف أحوال القيامة فهو قوله ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 101 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل ﴾ يُقال : ما وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ؟ فالجواب أنه اتصال الزجر عن الإظهار خلاف الإبطان في وصية أو غيرها مما ينبىء أن المجازِي عليه عالمٌ به .

و "يَوْمَ" ظرف زمان والعامل فيه "واسمعوا" أي واسمعوا خبر يوم .

وقيل : التقدير واتقوا يوم يجمع الله الرسل ؛ عن الزجاج .

وقيل : التقدير اذكروا أو احذروا يوم القيامة حين يجمع الله الرسل ، والمعنى متقارب ؛ والمراد التهديد والتخويف .

﴿ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ أي ما الذي أجابتكم به أُممكم ؟ وما الذي ردّ عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى توحيدي ؟ .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي فيقولون : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَآ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل ﴾

فصل

قال الفخر :

في هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها متصلة بما قبلها وعلى هذا التقدير ففيه وجهان : الأول : قال الزجاج تقديره : واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل ، ولا يجوز أن ينصب على الظرف لهذا الفعل لأنهم لم يؤمروا بالتقوى في ذلك اليوم ، ولكن على المفعول له .

الثاني : قال القفال رحمه الله : يجوز أن يكون التقدير : والله لا يهدي القوم الفاسقين يوم يجمع الله الرسل ، أي لا يهديهم إلى الجنة كما قال ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء : 168 ، 169]

والقول الثاني : أنها منقطعة عما قبلها ، وعلى هذا التقدير ففيه أيضاً وجهان : الأول : أن التقدير : اذكر يوم يجمع الله الرسل .

والثاني : أن يكون التقدير : يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 101 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" قوله ماذا منتصب بأجبتم انتصاب مصدره على معنى أي أجابه

أجبتم إجابة إنكار أم إجابة إقرار .

ولو أريد الجواب لقيل بماذا أجبتم .

(7/219)

فإن قيل : وأي فائدة في هذا السؤال ؟ قلنا : توبيخ قومهم كما أن قوله ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ بِأَىّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : 8 ، 9] المقصود منه توبيخ من فعل ذلك الفعل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 101 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ يدل على أن الأنبياء لا يشهدون لأممهم .

والجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] مشكل .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطاً لّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] فإذا كانت أمتنا تشهد لسائر الناس فالأنبياء

أولى بأن يشهدوا لأممهم بذلك .

والجواب عنه من وجوه :

الأول : قال جمع من المفسرين إن للقيامة زلازل وأهوالاً بحيث تزول القلوب عن مواضعها عند مشاهدتها .

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند مشاهدة تلك الأهوال ينسون أكثر الأمور ، فهنالك يقولون لا علم لنا ، فإذا عادت قلوبهم إليهم فعند ذلك يشهدون للأمم .

وهذا الجواب وإن ذهب إليه جمع عظيم من الأكابر فهو عندي ضعيف ، لأنه تعالى قال في صفة أهل الثواب ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] وقال أيضاً ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : 38 ، 39] بل إنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ والذين هَادُواْ والنصارى والصابئين مَنْ ءامَنَ بالله واليوم الاخر وَعَمِلَ صالحا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ وَلاَ خَوفٌ وَلا هُم يَحزَنُونَ ﴾ [البقرة : 62] فكيف يكون حال الأنبياء والرسل أقل من ذلك ، ومعلوم أنهم لو خافوا لكانوا أقل منزلة من هؤلاء الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يخافون ألبتة .

والوجه الثاني : أن المراد منه المبالغة في تحقيق فضيحتهم كمن يقول لغيره ما تقول في فلان ؟ فيقول : أنت أعلم به مني ، كأنه قيل : لا يحتاج فيه إلى الشهادة لظهوره ، وهذا أيضاً ليس بقوي لأن السؤال إنما وقع عن كل الأمة وكل الأمة ما كانوا كافرين حتى تريد الرسل بالنفي تبكيتهم وفضيحتهم .

والوجه الثالث : في الجواب وهو الأصح وهو الذي اختاره ابن عباس أنهم إنما قالوا لا علم لنا لأنك تعلم ما أظهروا وما أضمروا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا .

فلهذا المعنى نفوا العلم عن أنفسهم لأن علمهم عند الله كلا علم .

والوجه الرابع : في الجواب أنهم قالوا : لا علم لنا ، إلا أن علمنا جوابهم لنا وقت حياتنا ، ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا .

والجزاء والثواب إنما يحصلان على الخاتمة وذلك غير معلوم لنا .

فلهذا المعنى قالوا لا علم لنا وقوله ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ يشهد بصحة هذين الجوابين .

الوجه الخامس : وهو الذي خطر ببالي وقت الكتابة ، أنه قد ثبت في علم الأصول أن العلم غير والظن غير والحاصل عند كل أحد من حال الغير إنما هو الظن لا العلم ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " نحن نحكم بالظاهر ، والله يتولى السّرائر " وقال عليه الصلاة

والسلام : " إنكم لتختصمون لدي ولعلّ بعضَكم ألحنُ بحجّته ، فمن حكمت له بغير حقه فكأنما قطعت له قِطْعةً من النار " أو لفظ هذا معناه .

فالأنبياء قالوا : لا علم لنا ألبتة بأحوالهم ، إنما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن ، والظن كان معتبراً في الدنيا ، لأن الأحكام في الدنيا كانت مبنية على الظن ، وأما الآخرة فلا التفات فيها إلى الظن لأن الأحكام في الآخرة مبنية على حقائق الأشياء ، وبواطن الأمور .

فلهذا السبب قالوا ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ ولم يذكروا ألبتة ما معهم من الظن لأن الظن لا عبرة به في القيامة .

الوجه السادس : أنهم لما علموا أنه سبحانه وتعالى عالم لا يجهل ، حكيم لا يسفه ، عادل لا يظلم ، علموا أن قولهم لا يفيد خيراً ، ولا يدفع شراً فرأوا أن الأدب في السكوت ، وفي تفويض الأمر إلى عدل الحي القيوم الذي لا يموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 101.102 ﴾

(9/219)

وقال الزمخشرى :

فإن قلت : كيف يقولون : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ وقد علموا بما أجيبوا ؟

قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم وكابدوا من سوء إجابتهم ، إظهاراً للتشكي واللجإ إلى ربهم في الانتقام منهم ، وذلك أعظم على الكفرة وأفت في أعضادهم وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم إذا اجتمع توبيخ الله وتشكي أنبيائه عليهم .

ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان واطلع على كنهها وعزم على الانتصار له منه ، فيجمع بينهما ويقول له : ما فعل بك هذا الخارجي وهو عالم بما فعل به ، يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول له : أنت أعلم بما فعل بي تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه ، واتكالاً عليه ، وإظهاراً للشكاية ، وتعظيماً لما حلّ به منه .

وقيل : من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب ، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم .

وقيل : معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمور به ، لأنك علام الغيوب .

ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي منها إجابة الأمم لرسلهم ، فكأنه لا علم لنا إلى جنب علمك .

وقيل : لا علم لنا بما كان منهم بعدنا ، وإنما الحكم للخاتمة .

وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه زرق العيون موبخين . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الكشاف حـ 1 صـ 690 ﴾

وقال الماوردى :

في قوله : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَآ ﴾ خمسة تأويلات :

أحدها : لم يكن ذلك إنكاراً لِمَا علموه ولكن ذهلوا عن الجواب من هول ذلك اليوم ثم أجابوا بعد ما ثابت عقولهم ، قاله الحسن ، والسدي .

والثاني : لا علم لنا إلا ما علمتنا ، قاله مجاهد .

والثالث : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ، قاله ابن عباس .

والرابع : لا علم لنا بما أجاب به أممنا ، لأن ذلك هو الذي يقع عليه الجزاء ، وهو مروي عن الحسن أيضاً .

والخامس : أن معنى قوله : ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ أي ماذا عملوا بعدكم ﴿ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوْبِ ﴾ قاله ابن جريج .

فإن قيل : فلم سألهم عما هو أعلم به منهم ؟ فعليه جوابان :

أحدهما : أنه إنما سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم .

والثاني : أنه أراد أن يفضحهم بذلك على الأشهاد ليكون ذلك نوعاً من العقوبة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾ . باختصار يسير .

وقال الثعلبى :

﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ أي ما الذي أجابتكم أمتكم وما الذي ردّ عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي ﴿ قَالُواْ ﴾ أي فيقولون ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَآ ﴾ قال ابن عباس : لا علم لنا إلاّ علم أنت أعلم به منا .

وقال ابن جريج : معنى قوله ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ أي ما حملوا ويصدقوا بعدكم فيقولوا : لا علم لنا .

الحسن ومجاهد ، السدي ممن يقول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب ، ثم يحتسبون بعدما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أمتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(11/219)

وقال السمرقندى :

﴿ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ من هول ذلك اليوم ، ومن شدة المسألة ، وهي في بعض مواطن يوم

القيامة قالوا : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ ما كان وما لم يكن .

وروى أسباط عن السدي قال : نزلوا منزلاً ذهبت فيه العقول فلما سئلوا ؟ قالوا : لا علم لنا ثم نزلوا منزلاً آخر ، فشهدوا على قومهم .

ويقال : هذا عند زفرة جهنم فلا يبقى ملك مقرب ، ولا نبي مرسل عند ذلك إلا قال : نفسي نفسي فعند ذلك قالوا : لا علم لنا .

ويقال : كان ذلك عند أول البعث ، ثم يشهدون بعد ذلك بتبليغ الرسالة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

ومعنى مسألته للرسل توبيخ الذين أُرسلوا إليهم .

فأما قول الرسل : ﴿ لا علم لنا ﴾ ففيه ستة أقوال .

أحدها : أنهم طاشت عقولهم حين زفرت جهنم ، فقالوا : ﴿ لا علم لنا ﴾ ثم تُرَدُّ إليهم عقولُهم ، فينطلقون بحجتهم ، رواه أبو الضحى عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، والسدي .

والثاني : أن المعنى : ﴿ لا علم لنا ﴾ إلاّ علمٌ أنت أعلم به منا ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن المراد بقوله : ﴿ ماذا أُجبتم ﴾ : ماذا عملوا بعدكم ، وأحدثوا ، فيقولون :

﴿ لا علم لنا ﴾ قاله ابن جريج ، وفيه بُعْد .

والرابع : أن المعنى : ﴿ لا علم لنا ﴾ مع علمك ، لأنك تعلم الغيب ، ذكره الزجاج .

والخامس : أن المعنى : ﴿ لا علم لنا ﴾ كعلمك ، إذ كنت تعلم ما أظهر القوم وما أضمروا ، ونحن نعلم ما أظهروا ، ولا نعلم ما أضمروا ، فعلمك فيهم أنفذ من علمنا ، هذا اختيار بن الأنباري .

والسادس : ﴿ لا علم لنا ﴾ بجميع أفعالهم إذ كنا نعلم بعضها وقت حياتنا ، ولا نعلم ما كان بعد وفاتنا ، وإنما يستحق الجزاء بما تقع به الخاتمة ، حكاه ابن الأنباري .

قال المفسرون : إذا ردَّ الأنبياء العلم إلى الله أُبْلِسَتِ الأممُ ، وعلمت أن ما أتته في الدنيا غير غائب عنه ، وأن الكل لا يخرجون عن قبضته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(12/219)

وقال القرطبى :

واختلف أهل التأويل في المعنى المراد بقولهم : "لاَ عِلْمَ لَنَا" فقيل : معناه لا علم لنا بباطن ما أجاب به أُممنا ؛ لأن ذلك هو الذي يقع عليه الجزاء ؛ وهذا مرويّ عن النبي صلى الله عليه

وسلم .

وقيل : المعنى لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا ، فحذف ؛ عن ابن عباس ومجاهد بخلاف .

وقال ابن عباس أيضاً : معناه لا علم لنا إلاَّ علم أنت أعلم به منا .

وقيل : إنهم يَذْهَلُونَ من هول ذلك ويفزعون من الجواب ، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم فيقولون : "لاَ عِلْمَ لَنَا" ؛ قاله الحسن ومجاهد والسدي .

قال النحاس : وهذا لا يصح ؛ لأن الرسل صلوات الله عليهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قلت : هذا في أكثر مواطن القيامة ؛ ففي الخبر " إن جهنم إذا جِيءَ بها زَفَرت زفرة فلا يبقى نبيّ ولا صِدّيق إلاَّ جَثَا لركبتيه " وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خوّفني جبريل يوم القيامة حتى أبكاني فقلت يا جبرائيل ألم يغفر لي ما تقدّم من ذنبي وما تأخر ؟ فقال لي يا محمد لتشهدنّ من هَوْل ذلك اليوم ما يُنسيك المغفرة " .

قلت : فإن كان السؤال عند زفرة جهنم كما قاله بعضهم فقول مجاهد والحسن صحيح ؛ والله أعلم .

قال النحاس : والصحيح في هذا أن المعنى : ماذا أجِبتم في السر والعلانية ليكون هذا توبيخاً للكفار ؛ فيقولون : لا علم لنا ؛ فيكون هذا تكذيباً لمن اتخذ المسيح إلهاً .

وقال ابن جريج : معنى قوله : ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ ماذا عملوا بعدكم ؟ قالوا : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَآ

إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ .

قال أبو عبيد : ويشبه هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يرد عليّ أقوام الحوض فيختلجون فأقول أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " وكسر الغين من الغيوب حمزة والكسائي وأبو بكر ، وضم الباقون .

(13/219)

قال الماورديّ فإن قيل : فلم سألهم عما هو أعلم به منهم ؟ فعنه جوابان : أحدهما أنه سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم .

الثاني أنه أراد أن يفضحهم بذلك على رؤوس الأشهاد ليكون ذلك نوعاً من العقوبة لهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ ﴾ : معناه : ماذا أجابَتْكُمْ الأُمَمُ ، وهذا السؤالُ للرُّسُل إنما هو لتقُومَ الحجة على الأممِ ، واختلف الناسُ في معنى قولهم عليهم السلام : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ : قال الطبريُّ : ذُهِلُوا عن الجوابِ ، لهولِ المَطْلَع ؛ وقاله الحسنُ ، وعن مجاهدٍ ؛ أنه قال : يَفْزَعُون ، فيقولُون : لا علْمَ لنا ، وضعَّف بعضُ النَّاس هذا المنْزَع ؛ بقوله تعالى : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع

الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] ، وقال ابنُ عبَّاس : معنى الآية : لاَ عِلْمَ لنا إلا ما علَّمتنا ؛ أنْتَ أعلم به منَّا ، وقولُ ابنِ عباس حَسَن ، وهو أصوبُ هذه المناحِي ؛ لأنه يتخرَّج على التسليم للَّه تعالى ، وردِّ الأمر إلَيْه ؛ إذ هو العالِمُ بجميعِ ذلك ؛ على التَّفْصيل والكمالِ ، فرأَوُا التسليمَ والخضوعَ لعلْمه المحيطِ سبحانه ، قال مكِّيٌّ : قال ابنُ عباس : المعنى : لا علم لنا إلاَّ عِلمٌ أنت أعلَمُ به منَّا ، وهو اختيار الطبريِّ ، وقيل : لما كان السؤالُ عامًّا يقتضي بعمومه سؤالَهُم عَنْ سِرِّ الأمم وعلانِيَتِها ، رَدُّوا الأمر إلَيْهِ ؛ إذ ليس عندهم إلاَّ علْمُ الظاهر ؛ قال مكِّيٌّ : وهذا القولُ أحبُّ الأقوالِ إلَيَّ ، قال : ومعنى مسألة اللَّه الرُسلَ عمَّا أَجيبُوا ، إنما هو لمعنَى التوبيخِ لمَنْ أُرْسِلُوا إلَيْه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ ﴾ [التكوير : 8] ، انتهى من "الهداية" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(14/219)

فائدة

قال فى الميزان :

وأما نفيهم العلم يومئذ عن أنفسهم بقولهم : " لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب " فإثباتهم جميع علوم الغيوب لله سبحانه على وجه الحصر يدل على أن المنفى ليس أصل العلم فإن

ظاهر قولهم : " إنك أنت علام الغيوب " يدل على أنه لتعليل النفى ، ومن المعلوم أن انحصار جميع علوم الغيب في الله سبحانه لا يقتضى رفع كل علم عن غيره وخاصة إذا كان علما بالشهادة ، والمسؤول عنه أعنى كيفية إجابة الناس لرسلهم من قبيل الشهادة دون الغيب .

فقولهم : " لا علم لنا " ليس نفيا لمطلق العلم بل لحق العلم الذى لا يخلو عن التعلق بالغيب فإن من المعلوم أن العلم إنما يكشف لعالمه من الواقع على قدر ما يتعلق بأمر من حيث أسبابه ومتعلقاته ، والواقع في العين مرتبط بجميع أجزاء الخارج مما يتقدم على الأمر الواقع في الخارج وما يحيط به مما يصاحبه زمانا فالعلم بأمر من الامور الخارجية بحقيقة معنى العلم لا يحصل إلا بالاحاطة بجميع أجزاء الوجود ثم بصانعه المتعالى من أن يحيط به شئ ، وهذا أمر وراء الطاقة الإنسانية .

فلم يرزق الإنسان من العلم في هذا الكون الذى يبهته التفكير في سعة ساحته ، وتهوله النظرة في عظمة أجرامه ومجراته ، ويطير لبه الغور في متون ذراته ، ويأخذه الدوار إذا أراد الجرى بين هاتين الغايتين إلا اليسير من العلم على قدر ما يحتاج إليه في مسير حياته كالشمعة الصغيرة يحملها طارق الليل المظلم لا ينتفع من نورها إلا أن يميز ما يضع عليه قدمه من الأرض .

فما يتعلق به علم الإنسان ناشب بوجوده متعلق بواقعيته بأطراف ثم بأطراف أطراف ، وهكذا كل ذلك في غيب من إدراك الإنسان فلا يتعلق العلم بحقيقة معنى الكلمة بشئ إلا إذا كان متعلقا بجميع الغيوب في الوجود ، ولا يسع ذلك لمخلوق محدود مقدر إنسانا أو غيره إلا لله الواحد القهار الذى عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، قال الله تعالى : " والله يعلم وأنتم لا تعلمون " (البقرة : 216) فدل على أن من طبع الإنسان الجهل فلا يرزق من العلم إلا محدودا مقدرا كما قال تعالى : " وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم " (الحجر : 21)

وقال تعالى : " ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء " (البقرة : 255) فدل على أن العلم كله لله ، وإنما يحيط منه الإنسان بما شاء الله ، وقال تعالى : " وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " (الاسراء : 85) فدل على أن هناك علما كثيرا لم يؤت الإنسان إلا قليلا منه .

فإذن حقيقة الأمر أن العلم حق العلم لا يوجد عند غير الله سبحانه ، وإذ كان يوم القيامة يوما يظهر فيه الأشياء بحقائقها على ما تفيده الآيات الواصفة لأمره فلا مجال فيه إلا للكلام الحق كما قال تعالى : " لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ، ذلك اليوم الحق " (النبأ : 39) كان من الجواب الحق إذا ما سئل الرسل فقيل لهم : " ماذا أجبتم " أن يجيبوا

بنفى العلم عن أنفسهم لكونه من الغيب ، ويثبتوه لربهم سبحانه بقولهم : " لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب " .

(16/219)

وهذا الجواب منهم عليهم السلام نحو خضوع لحضرة العظمة والكبرياء واعتراف بحاجتهم الذاتية وبطلانهم الحقيقي قبال مولاهم الحق رعاية لأدب الحضور وإظهارا لحقيقة الأمر ، وليس جوابا نهائيا لا جواب بعده ألبتة : أما أولا فلأن الله سبحانه جعلهم شهداء على امهم كما ذكره في قوله : " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا " (النساء : 41) وقال : " ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء " (الزمر : 69) ولا معنى لجعلهم شهداء إلا ليشهدوا على أممهم يوم القيامة بما هو حق الشهادة يومئذ ، فلا محالة هم سيشهدون يومئذ كما قدر الله ذلك فقولهم يومئذ : " لا علم لنا " جرى على الأدب العبودي قبال الملك الحق الذى له الأمر والملك يومئذ ، وبيان لحقيقة الحال وهو أنه هو يملك العلم لذاته ولا يملك غيره إلا ما ملكه ، ولا ضير أن يجيبوا بعد هذا الجواب بما لهم من العلم الموهوب المتعلق بأحوال أممهم ، وهذا مما يؤيد ما قدمناه في البحث عن قوله تعالى : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، الآية " (البقرة : 143) في

الجزء الأول من هذا الكتاب : أن هذا العلم والشهادة ليسا من نوع العلم والشهادة المعروفين عندنا وأنهما من العلم المخصوص بالله الموهوب لطائفة من عباده المكرمين .

(17/219)

وأما ثانيا فلأن الله سبحانه أثبت العلم لطائفة من مقربي عباده يوم القيامة على ما له من الشأن ، قال تعالى : " وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث " (الروم : 56) وقال تعالى : " وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم " (الاعراف : 46) وقال تعالى : " ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون " (الزخرف : 87) وعيسى بن مريم عليه السلام ممن تعمه الآية وهو رسول فهو ممن يشهد بالحق وهم يعلمون ، وقال تعالى : " وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا " (الفرقان : 31) والمراد بالرسول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والذى تحكيه الآية من قوله هو بعينه جواب لما تشتمل عليه هذه الآية من السؤال أعنى قوله تعالى : " فيقول ماذا أجبتم " فظهر أن قول الرسل عليهم السلام : " لا علم لنا " ليس جوابا نهائيا كما تقدم .

وأما ثالثا فلأن القرآن يذكر السؤال عن المرسلين والمرسل إليهم جميعا كما قال تعالى : "

فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين " (الاعراف : 6) ثم ذكر عن الأمم المرسل إليهم جوابات كثيرة عن سؤالات كثيرة ، والجواب يستلزم العلم كما أن السؤال يقرره ، وقال أيضا فيهم : " لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد " (ق : 22) ، وقال أيضا : ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون " (السجدة : 12) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، وإذا كانت الأمم - وخاصة المجرمون منهم - على علم في هذا اليوم فكيف يتصور أن يعدمه الرسل الكرام عليهم السلام فالمصير إلى ما قدمناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 5 صـ 200 . 203 ﴾

(18/219)

فصل

قال الفخر :

قريء ﴿ علام الغيوب ﴾ بالنصب .

قال صاحب "الكشاف" والتقدير أن الكلام قد تمّ بقوله ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ أي أنت الموصوف بأوصافك المعروفة ، من العلم وغيره .

ثم نصب ﴿ علام الغيوب ﴾ على الاختصاص ، أو على النداء ، أو وصفاً لاسم إن .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 103 ﴾

وقال الماوردى :

وفي قوله : ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوْبِ ﴾ تأويلان :

أحدهما : أنه مبالغة .

والثاني : أنه لكثير المعلومات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

دلّت الآية على جواز إطلاق لفظ العلام عليه ، كما جاز إطلاق لفظ الخلاق عليه .

أما العلاّمة فإنهم أجمعوا على أنه لا يجوز إطلاقها في حقه ولعل السبب ما فيه من لفظ التأنيث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 103 ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ ذهب قوم من المفسرين إلى أن العامل في ﴿ يوم ﴾ ما تقدم من قوله ﴿ لا يهدي ﴾ ، وذلك ضعيف ، ورصف الآية وبراعتها ، إنما هو أن يكون هذا الكلام مستأنفاً ، والعامل مقدر إما اذكروا وإما تذكروا وإما احذروا ونحو هذا

مما حسن اختصاره لعلم السامع ، والإشارة بهذا اليوم إلى يوم القيامة ، وخص الرسل بالذكر لأنهم قادة الخلق ، وفي ضمن جمعهم جمع الخلائق وهم المكلمون أولاً و ﴿ ماذا أجبتم ﴾ معناه ماذا أجابت به الأمم من إيمان أو كفر وطاعة أو عصيان ، وهذا السؤال للأنبياء الرسل إنما هو لتقوم الحجة على الأمم ويبتدأ حسابهم على الواضح المستبين لكل مفطور ، واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام ﴿ لا علم لنا ﴾ فقال الطبري ذهلوا عن الجواب لهول المطلع ، وذكر عن الحسن أنه قال : لا علم لنا من هول ذلك اليوم . وعن السدي أنه قال : نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فقالوا لا علم لنا . ثم نزلوا منزلاً آخر شهدوا على قومهم ، وعن مجاهد أنه قال : يفزعون فيقولون لا علم لنا .

(19/219)

قال القاضي أبو محمد : وضعّف بعض الناس هذا المنزع بقوله تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] والأنبياء في أشد أهوال يوم القيامة وحالة جواز الصراط يقولون سلم سلم وحالهم أعظم وفضل الله عليهم أكثر من أن تذهل عقولهم حتى يقولوا ما ليس بحق في نفسه ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : معنى الآية لا علم لنا إلا علماً أنت أعلم به منا .

قال القاضي أبو محمد : وهذا حسن ، كأن المعنى لا علم لنا يكفي وينتهي إلى الغاية ، وقال ابن جريج : معنى ماذا أجبتم ؟ ماذا عملوا بعدكم وما أحدثوا ؟ فلذلك قالوا لا علم لنا .

قال القاضي أبو محمد : وهذا معنى حسن في نفسه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ لكن لفظة ﴿ أجبتم ﴾ لا تساعد قول ابن جريج إلا على كره ، وقول ابن عباس أصوب هذه المناحي لأنه يتخرج على التسليم لله تعالى ورد الأمر إليه ، إذ قوله ﴿ ماذا أجبتم ﴾ لا علم عندهم في جوابه إلا بما شوفهوا به مدة حياتهم ، وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاق ونحوه ، وما ينقصهم ما كان بعدهم من أمتهم والله تعالى يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال . فرأوا التسليم له والخضوع لعلمه المحيط وقرأ أبو حيوة " ماذا أَجبتم " بفتح الهمزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ قال الزجاج هي متصلة بما قبلها تقديرها : واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل ، وقيل : تقدير : والله لا يهدي القوم الفاسقين يوم يجمع الله الرسل .

(20/219)

أي لا يهديهم إلى الجنة في ذلك اليوم وهو يوم القيامة وقيل إنها منقطعة عما قبلها وتقديره اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل ذلك يوم القيامة ﴿ فيقول ماذا أجبتم ﴾ يعني فيقول الله تبارك وتعالى للرسل ماذا أجابكم أممكم وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم في دار الدنيا إلى توحيدي وطاعتي وفائدة هذا السؤال توبيخ أمم الأنبياء الذين كذبوهم ﴿ قالوا ﴾ يعني الرسل ﴿ لا علم لنا ﴾ قال ابن عباس : معناه لا علم لنا كعلمك فيهم لأنك تعلم ما أضمروا وما أظهروا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا وأبلغ .

فعلى هذا القول ، إنما نفوا العلم عن أنفسهم وإن كانوا علماء لأن علمهم صار كلاعلم عند علم الله .

وقال في رواية أخرى : معناه لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا وهذا القول قريب من الأول .

وقيل : معناه لا علم لنا بوجه الحكمة عن سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا .

وقيل : معناه لا حقيقة لعلمنا بعاقبة أمرهم لأنا كنا نعلم ما كان من أفعالهم وأقوالهم وقت حياتنا ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا ولا نعلم ما أحدثوا من بعدنا ومنه ما أخبر الله عن عيسى عليه السلام بقوله : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ ومنه ما روي عن انس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليردن

على الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني فلأقولن أي رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " زاد في رواية " فأقول سحقاً لمن بدل بعدي " أخرجاه في الصحيحين وقال جمع من المفسرين إن للقيامة أهوالاً وزلازل تزول فيها القلوب عن مواضعها فيفزعون من هول ذلك ويذهلون عن الجواب ثم إذا ثابت إليهم عقولهم يشهدون على أممهم بالتبليغ .

وهذا فيه ضعف ونظر لأن الله تعالى قال في حق الأنبياء : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ ،

(21/219)

وذكر الإمام فخر الدين الرازي وجهاً آخر وهو أن الرسل عليهم السلام لما علموا أن الله تعالى عالم لا يجهل وحليم لا يسفه وعادل لا يظلم علموا أن قولهم لا يفيد خيراً ولا يدفع شراً فرأوا أن الأدب في السكوت وفي تفويض الأمر إلى الله تعالى وعدله فقالوا لا علم لنا ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ يعني إنك تعلم ما غاب عنا من بواطن الأمور ونحن نعلم ما نشاهد ولا نعلم ما في البواطن .

وقيل معناه إنك لا يخفى عليك ما عندنا من العلوم وأن الذي سألتنا عنه ليس بخاف عليك لأنك أنت علام الغيوب ومعناه العالم بأصناف المعلومات على تفاوتها ليس تخفى عليه

خافية وبناء فعال بتاء التكثير ودلت الآية على جواز إطلاق العلام على الله تعالى كما يجوز إطلاق الخلافة عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾

مناسبة هذه لما قبلها أنه لما أخبر تعالى بالحكم في شاهدي الوصية وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة ، ذكر بهذا اليوم المهول المخوف وهو يوم القيامة فجمع بذلك بين فضيحة الدنيا وعقوبة الآخرة لمن حرّف الشهادة ولمن لم يتق الله ولم يسمع ، وذكروا في نصب ﴿ يوم ﴾ وجوهاً : أحدها : أنه منصوب بإضمار اذكروا .

والثاني : بإضمار احذروا .

والثالث : باتقوا .

والرابع : باسمعوا قاله الحوفي .

والخامس : بلا يهدي ، قال قوم منهم الزمخشري وأبو البقاء قالا : لا يهديهم في ذلك اليوم طريق الجنة ، قال أبو البقاء أولاً يهديهم في ذلك اليوم إلى الحجة .

والسادس : أجاز الزمخشري أن ينتصب على البدل من المنصوب في قوله ﴿ واتقوا الله ﴾ ، وهو بدل الاشتمال ، كأنه قيل واتقوا الله يوم جمعه وفيه بعد لطول الفصل بالجملتين .

والسابع أن ينتصب على الظرف والعامل فيه مؤخر تقديره ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ كان كيت وكيت قاله الزمخشري ، وقال ابن عطية وصف الآية وبراعتها إنما هو أن يكون هذا الكلام مستأنفاً والعامل اذكروا واحذروا مما حسن اختصاره لعلم السامع والإشارة بهذا اليوم إلى يوم القيامة ، وخص الرسل بالذكر لأنهم قادة الخلق وفي ضمن جمعهم جمع الخلائق وهم المكلمون أولاً انتهى .

والذي نختاره غير ما ذكروا وهو أن يكون ﴿ يوم ﴾ معمولاً لقوله ﴿ قالوا لا علم لنا ﴾ أي قال الرسل وقت جمعهم وقول الله لهم ﴿ ماذا أجبتم ﴾ وصار نظير ما قلناه في قوله ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل ﴾ وسؤاله تعالى إياهم بقوله ماذا ﴿ أجبتم ﴾ سؤال توبيخ لأممهم لتقوم الحجة عليهم ويبتدأ حسابهم كما سئلت الموءودة توبيخاً لوائدها وتوقيفاً له على سوء فعله وانتصاب ﴿ ماذا أجبتم ﴾ ولو أريد الجواب لقيل بماذا أجبتم قاله الزمخشري ، وقيام ما الاستفهامية مقام المصدر جائز وكذلك ماذا إذا جعلتها كلها استفهاماً وأنشدوا على مجيء ما ذكر مصدراً قول الشاعر :

ماذا تعير ابنتي ربع عويلهما . . .

لا ترقدان ولا بؤسي لمن رقدا

وقال ابن عطية معناه ماذا أجابت به الأمم ، ولم يجعل ما مصدراً بل جعلها كناية عن الجواب ، وهو الشيء المجاب به لا للمصدر ، وهو الذي عنى الزمخشري بقوله ولو أريد الجواب لقيل بماذا أجبتم .

وقال الحوفي ما للاستفهام وهو مبتدأ بمعنى الذي خبرها وأجبتم صلته والتقدير ماذا أجبتم به انتهى ، وحذف هذا الضمير المجرور بالحرف يضعف لو قلت جاءني الذي مررت تريد به كان ضعيفاً إلا إن اعتقد أنه حذف حرف الجر أولاً فانتصب الضمير ثم حذف منصوباً ولا يبعد .

(23/219)

وقال أبو البقاء ﴿ ماذا ﴾ في موضع نصب بأجبتم وحرف الجر محذوف أي بماذا أجبتم وما وذا هنا بمنزلة اسم واحد ويضعف أن يجعل ذا بمعنى الذي هنا لأنه لا عائد هنا وحذف العائد مع حرف الجر ضعيف انتهى ، وما ذكره أبو البقاء أضعف لأنه لا ينقاس حذف حرف الجر إنما سمع ذلك في ألفاظ مخصوصة ونصوا على أنه لا يجوز زيداً مررت به تريد بزيد مررت ولا سرت البيت تريد إلى البيت إلا في ضرورة شعر نحو قول الشاعر :

تحنُّ فتبدي ما بها من صبابة . . .

وأخفي الذي لولا الأسى لقضاني

يريد لقضي عليّ فحذف عليّ وعدى الفعل إلى الضمير فنصبه ونفيهم العلم عنهم بقوله ﴿ لا علم لنا ﴾ ، قال ابن عباس معناه لا علم لنا إلا علماً أنت أعلم به منا كأن المعنى لا علم لنا يكفي وينتهي إلى الغاية ، وقال ابن جريج معنى ﴿ ماذا أجبتم ﴾ ماذا عملوا بعدكم وماذا أحدثوا فلذلك قالوا ﴿ لا علم لنا ﴾ ويؤيده ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ ، إلا أن لفظة ﴿ ماذا أجبتم ﴾ تنبو عن أن تشرح بقوله ماذا عملوا وذكر المفسرون عن الحسن ومجاهد والسدي وسهل التستري أقوالاً في تفسير قولهم ﴿ لا علم لنا ﴾ لا تناسب الرسل أضربت عن ذكرها صفحاً .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) كيف يقولون لا علم لنا وقد علموا ما أجيبوا .

(24/219)

(قلت) : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم فيكلون الأمر إلى علمه ، وإحاطته بما منوا به منهم ، وذلك أعظم على الكفرة وأفتّ في أعضادهم ، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم إذا اجتمع عليهم توبيخ الله تعالى وتشكي أنبيائهم عليهم ، ومثاله أن ينكت بعض

الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكتة قد عرفها السلطان واطلع على كنهها ، وعزم على الانتصار له منه فيجمع بينهما ويقول له ما فعل بك هذا الخارجي وهو عالم بما فعل به يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول : أنت أعلم بما فعل بي تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه واتكالاً عليه وإظهاراً لشكايته وتعظيماً لما به انتهى ، وليست الآية كهذا المثال الذي ذكره لأن في الآية ﴿ لا علم لنا ﴾ وهذا نفي لسائر أفراد العلم عنهم بالنسبة إلى الإجابة . وفي المثال أنت أعلم بما فعل بي وهذا لا ينفي العلم عنه غير أنه أثبت لسلطانه أنه أعلم بالخارجي منه .

وقال ابن أبي الفضل في قول الزمخشري ليس بالقوي لأن السؤال إنما وقع عن كل الأمة وكل الأمة ما كانوا كافرين حتى يريد الرسول توبيخهم ، وقيل معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمور به لأنك علام الغيوب ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي منها إجابة الأمم لرسلهم فكأنه لا علم لنا إلا جنب علمك حكاه الزمخشري بهذا اللفظ .

قال الزجاج معناه مختصراً .

وقال ابن عطية قول ابن عباس أصوب لأنه يترجح بالتسليم إلى الله تعالى ورد الأمر إليه إذ لا يعلمون إلا بما شوفهوا به مدة حياتهم وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاق ونحوه وما كان بعدهم من أممهم والله تعالى يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال فرأوا التسليم له والخشوع لعلمه المحيط انتهى .

وقيل لا علم لنا بما كان بعدنا وإنما الحكم للخاتمة .

قال الزمخشري وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه زرق العيون موبخين انتهى .

(25/219)

وقال ابن أبي الفضل الأصحّ ما اختاره ابن عباس أي تعلم ما أظهروا وما أضمروا ونحن ما نعلم إلا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا فبهذا المعنى نفوا العلم عن أنفسهم لأن علمهم عند الله كلا علم انتهى ، فيكون مما نفيت فيه الحقيقة ظاهراً والمقصود نفي الكمال كأنه قال : لا علم لنا كامل ، تقول لا رجل في الدار أي كامل الرجولية في فوته ونفاذه .

وقال أبو عبد الله الرازي ثبت في علم الأصول أن العلم غير والظن غير والحاصل عند كل أحد من الغير إنما هو الظن لا العلم ولذلك قال عليه السلام : " نحن نحكم بالظواهر والله متولي السرائر " .

وقال عليه السلام : " إنكم تختصمون إلى الحديث " والأنبياء قالوا : لا علم لنا البتة بأحوالهم إنما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن والظن كان معتبراً في الدنيا لأن الأحكام في الدنيا كانت مبنية على الظنون أما الآخرة فلا التفات فيها إلى الظن لأن الأحْكام فيها

مبنية على حقائق الأشياء وبواطن الأمور فلهذا السبب قالوا ﴿ لا علم ﴾ ولم يذكروا البتة ما معهم من الظن ، لأن الظن لا عبرة به في القيامة انتهى كلامه .

وقال ابن عطية : لا علم لنا بسؤالك ولا جواب لنا عنه .

وقرأ ابن عباس وأبو حيوة ﴿ ماذا أجبتم ﴾ مبنيًّا للفاعل .

وقرأ علام بالنصب وهو على حذف الخبر لفهم المعنى فيتم الكلام بالمقدر في قوله ﴿ إنك أنت ﴾ أي إنك الموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره .

وقال الزمخشري ثم نصب ﴿ علام الغيوب ﴾ على الاختصاص أو على النداء أو صفة لاسم إن انتهى .

وهذا الوجه الأخير لا يجوز لأنهم أجمعوا على أن ضمير المتكلم وضمير المخاطب لا يجوز أن يوصف وأما ضمير الغائب ففيه خلاف شاذّ ، للكسائي .

وقرأ حمزة وأبو بكر ﴿ الغيوب ﴾ بكسر الغين حيث وقع كأنّ من قال ذلك من العرب قد استثقل توالي ضمتين مع الياء ففر إلى حركة مغايرة للضمة مناسبة لمجاورة الياء وهي للكسرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

(27/219)

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل ﴾ نُصب على أنه بدل اشتمال من مفعول اتقوا لما بينهما من الملابسة ، فإن مدارَ البداية ليس ملابسةَ الظرفية والمظروفية ونحوِها فقط ، بل هو تعلّقٌ ما ، مُصحّحٌ لانتقال الذهن من المُبدلَ منه إلى البَدَل بوجه إجماليَ كما فيما نحن فيه ، فإن كونَه تعالى خالقَ الأشياء كافةً مالكَ يومِ الدين خاصةً كافٍ في الباب ، مع أن الأمرَ بتقوى الله تعالى يتبادر منه إلى الذهن أن المتقى أيُّ شأنٍ من شؤونه وأيُّ فعلٍ من أفعاله . وقيل : هناك مضافٌ محذوفٌ به يتحقق الاشتمال ، أي اتقوا عذابَ الله فحينئذ يجوزُ انتصابُه منه بطريق الظرفية ، وقيل : منصوب بمُضْمر معطوفٍ على (اتقوا) وما عُطف عليه ، أي واحذروا أو اذكروا يوم الخ ، فإن تذكير ذلك اليوم الهائل مما يُضْطرُّهم إلى تقوى الله عز وجل وتلقِّي أمره بسمع الإجابة والطاعة ، وقيل : هو ظرف لقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَهدِى ﴾ ، أي لا يهديهم يومئذ إلى طريق الجنة كما يهدي إليه المؤمنين ، وقيل : منصوب بقوله تعالى : ﴿ واسمعوا ﴾ بحذف مضاف ، أي اسمعوا خبرَ ذلك اليوم ، وقيل : منصوب بفعل مؤخر قد

حُذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانِه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامّة التامة والدواهي العامة ، كأنه قيل : (يوم يجمع الله الرسل فيقول) الخ ، يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي ببيانه (نطاقُ) المقال ، وإظهارُ الاسمِ الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وتشديد التهويل ، وتخصيصُ الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الأمم ، كيف لا و ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ بل لإبانة شرفهم وأصالتهم ، والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمعِ غيرِهم بناءً على ظهور كونهم أتباعاً لهم ، ولإظهار سقوطِ منزلتهم وعدم لياقتهم بالانتظام في سلك جمع الرسل ، كيف لا وهم

(28/219)

عليهم السلام يُجمعون على وجه الإجلال ، وأولئك يسحبون على وجوههم بالأغلال ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لهم مشيراً إلى خروجهم عن عُهدة الرسالة كما ينبغي حسبما يُعربُ عنه تخصيصُ السؤال بجواب الأمم إعراباً واضحاً ، وإلا لصدر الخطاب بأن يقال : هل بلغتم رسالاتي ؟ وماذا في قوله عز وجل : ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمْ ﴾ عبارةٌ عن مصدر الفعل ، فهو نصْبٌ على المصدرية أيْ أيَّ إجابةٍ أُجبتم من جهة أُممكم إجابةَ قَبول أو إجابةَ رد ؟ وقيل :

عبارة عن الجواب فهو في محل النصب بعد حذف الجارّ عنه أيْ بأيِّ جوابٍ أجبتم ؟ وعلى التقديرين ففي توجيه السؤال عما صدرَ عنهم وهم شهودٌ إلى الرسل عليهم السلام كسؤال الموؤودة بمَحْضرٍ من الوائد ، والعدولِ عن إسناد الجواب إليهم بأن يقال : ماذا أجابوا ؟ من الأنباء عن كمال تحقيرِ شأنهم وشدة الغيظ والسُّخط عليهم ما لا يخفى ﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من سَوْق الكلام كأنه قيل : فماذا يقول الرسل عليهم السلام هنالك ؟ فقيل : يقولون : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ وصيغةُ الماضي للدلالة على التقرر والتحقق كما في قوله تعالى :

(29/219)

﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾ ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ ونظائرِهما ، وإنما يقولون ذلك تفويضاً للأمر إلى علمه تعالى وإحاطتِه بما اعتراهم من جهتهم من مقاساة الأهوال ومعاناة الهموم والأوجال وعَرْضاً لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعتِه ﴿ إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ تعليل لذلك ، أي فتعلَمُ ما أجابوا وأظهروا لنا وما لم نعلمْه مما أضمَروه في قلوبهم ، وفيه إظهارٌ للشّكاةِ وردّ للأمر إلى علمه تعالى بما لَقُوا من قبلهم من الخطوب ، وكابدوا من الكروب ، والتجاءٌ إلى ربهم في الانتقام منهم ، وقيل : المعنى لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا ،

وإنما الحكم للخاتمة ورُدَّ ذلك بأنهم يعرفونهم بسيماهم فكيف يخفى عليهم أمرُهم ؟ وأنت خبير بأن مُرادهم حينئذ أن بعضهم كانوا في زمانهم على الحق ثم صاروا كَفَرة ، وعن ابن عباس ومجاهد والسُدّي رضي الله عنهم أنهم يفزَعون من أول الأمر ويذهَلون عن الجواب ثم يُجيبون بعدما ثابت إليهم عقولُهم بالشهادة على أممهم ، ولا يلائمه التعليل المذكور . وقيل : المرادُ به المبالغةُ في تحقيق فضيحتهم ، وقرىء (علامَ الغيوب) بالنصب على النداء أو الاختصاص بالمدح ، على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى : ﴿ أَنتَ ﴾ أي إنك أنت المنعوتُ بنعوتِ كمالِك المعروفُ بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

(30/219)

قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل ﴾ قيل ظرف لقوله عز وجل : ﴿ لاَّ يَهدِى ﴾ [المائدة : 108] ، ونظر فيه الحلبي من حيث إنه سبحانه لا يهديهم مطلقاً لا في ذلك اليوم ولا في الدنيا وهذا احتمال ذكره الزمخشري ، ونقل عن المغربي أيضاً وهو ظاهر على تقدير

أن يكون المراد لا يهديهم إلى طريق الجنة ، وفيه مراعاة لمذهب الاعتزال من نفي الهداية المطلقة لا يجوز على الله جل وعلا ولذلك خصص المهدي إليه ، وقيل : إنه بدل من مفعول ﴿ واتقوا ﴾ [المائدة : 108] فهو حينئذ مفعول لا ظرف .

وتعقبه أبو حيان بأن فيه بعداً لطول الفصل بالجملتين ، وقال الحلبي : لا بعد فإن هاتين الجملتين من تمام معنى الجملة الأولى وهو عند القائلين بالبدلية بدل اشتمال .

وتعقب ذلك العلم العراقي بأن الانصاف أن بدل الاشتمال ههنا ممتنع لأنه لا بد فيه من اشتمال البدل على المبدل منه أو بالعكس وهنا يستحيل ذلك ولهذا قال الحلبي : لا بد في هذا الوجه من تقدير مضاف ليصح .

والمراد اتقوا عقاب الله يوم وحينئذ يصح انتصاب اليوم على الظرفية ، وقال المحقق التفتازاني : وجه بدل الاشتمال ما بينهما من الملابسة بغير الكلية والبعضية بطريق اشتمال المبدل منه على البدل لا كاشتمال الظرف على المظروف بل بمعنى أن ينتقل الذهن إليه في الجملة ويقتضيه بوجه إجمالي مثلاً إذا قيل اتقوا الله يتبادر الذهن منه إلى أنه من أي أمر من أموره وأي يوم من أيام أفعاله يجب الاتقاء أيوم جمعه سبحانه للرسل أم غير ذلك ، واعترض بأنه اشترط في ذلك أن لا يكون ظرفية وهذا ظرف زمان لو أبدل منه لأوهم ذلك ، وقيل : إنه منصوب بمضمر معطوف على ﴿ اتقوا ﴾ الخ واحذروا أو واذكروا يوم الخ فإن تذكير ذلك اليوم الهائل مما يضطرهم إلى تقوى الله تعالى وتلقي أمره بسمع الإجابة ، وقيل : منصوب

بقوله سبحانه : ﴿ واسمعوا ﴾ [المائدة : 108] بحذف مضاف أي واسمعوا خبر ذلك اليوم .

(31/219)

وقيل : منصوب بفعل مؤخر قد حذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه لكمال فظاعة ما يقع فيه كأنه قيل : يوم يجمع الله الرسل الخ يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي ببيانه نطاق المقال ، وتخصيص الرسل بالذكر مع أن ذلك يوم مجموع له الناس لإبانة شرفهم وأصالتهم والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم بناء على ظهور كونهم أتباعاً لهم .

وقيل : ولا يخفى لطفه على بعض الاحتمالات الآتية في الآية لأن المقام مقام ذكر الشهداء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم الشهداء على أممهم كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ [القصص : 75] ففي بيان حالهم وما يقع لهم يوم القيامة وهم هم من وعظ الشهداء الذين البحث فيهم ما لا يخفى ، وبهذا تتصل الآية بما قبلها أتم اتصال ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وتشديد التهويل .

﴿ فَيَقُولُ ﴾ لهم ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمْ ﴾ أي في الدنيا حين بلغتم الرسالة وخرجتم عن العهدة

كما ينبىء عن ذلك العدول عن تصدير الخطاب بهل بلغتم ، وفي العدول عن ماذا أجاب أممكم ما لا يخفى من الإنباء عن كمال تحقير شأنهم وشدة السخط والغيظ عليهم ، والسؤال لتوبيخ أولئك أيضاً وإلا فهو سبحانه علام الغيوب .

و ﴿ مَاذَا ﴾ متعلق بأجبتم على أنه مفعول مطلق له أي أي إجابة أجبتم من قبل أممكم إجابة قبول أو إجابة رد .

وقيل : التقدير بماذا أجبتم أي بأي شيء أجبتم على أن يكون السؤال عن الجواب لا الإجابة فحذف حرف الجر وانتصب المجرور .

وضعف بأن حذف حرف الجر وانتصاب مجروره لا يجوز إلا في الضرورة كقوله :

تمرون الديار ولم تعوجوا . . .

وكذا تقديره مجروراً .

وقال العوفي : إن ﴿ مَا ﴾ اسم استفهام مبتدأ و ﴿ ذَا ﴾ بمعنى الذي خبره و ﴿ أَجَبْتُمْ ﴾ صلته والعائد محذوف أي ما الذي أجبتم به .

(32/219)

واعترض بأنه لا يجوز حذف العائد المجرور إلا إذا جر الموصول بمثل ذلك الحرف الجار واتحد متعلقاهما ، وغاية ما أجابوا به عن ذلك أن الحذف وقع على التدريج وهو كما ترى .

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل : فماذا يقول الرسل عليهم الصلاة والسلام حينئذ ؟ فقيل : يقولون ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ والتعبير بالماضي للدلالة على التقرر والتحقق ك ﴿ نُفِخَ فِى الصور ﴾ [الحاقة : 13] وغيره ، ونفي العلم عن أنفسهم مع علمهم بماذا أجيبوا كما تدل عليه شهادتهم عليهم الصلاة والسلام على أممهم هنالك حسبما نطقت به بعض الآيات ليس على حقيقته بل هو كناية عن إظهار التشكي والالتجاء إلى الله تعالى بتفويض الأمر كله إليه عز شأنه .

وقال ابن الأنباري : إنه على حقيقته لكنه ليس لنفي العلم بماذا أجيبوا عند التبليغ ومدة حياتهم عليهم الصلاة والسلام بل بما كان في عاقبة الأمر وءاخره الذي به الاعتبار .

واعترض بأنهم يرون آثار سوء الخاتمة عليهم فلا يصح أيضاً نفي العلم بحالهم وبما كان منهم بعد مفارقتهم لهم .

وأجيب بأن ذلك إنما يدل على سوء الخاتمة وظهور الشقاوة في العاقبة على حقيقة الجواب بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلعلهم أجابوا إجابة قبول ثم غلبت عليهم الشقوة .

وتعقب بأنه من المعلوم أن ليس المراد بماذا أجبتم نفس الجواب الذي يقولونه أو الإجابة التي

تحدث منهم بل ما كانوا عليه في أمر الشريعة من الامتثال والانقياد أو عكس ذلك .

وفي رواية عن الحسن أن المراد لا علم لنا كعلمك لأنك تعلم باطنهم ولسنا نعلم ذلك وعليه مدار فلك الجزاء ، وقيل : المراد من ذلك النفي تحقيق فضيحة أممهم أي أنت أعلم بحالهم منا ولا يحتاج إلى شهادتنا .

(33/219)

وأخرج الخطيب في "تاريخه" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد نفي العلم نظراً إلى خصوص الزمان وهو أول الأمر حين تزفر جهنم فتجثوا الخلائق على الركب وتنهمل الدموع وتبلغ القلوب الحناجر وتطيش الأحلام وتذهل العقول ثم إنهم يجيبون في ثاني الحال وبعد سكون الروع واجتماع الحواس وذلك وقت شهادتهم على الأمم ، وبهذا أجاب رضي الله تعالى عنه نافع بن الأزرق حين سأله عن المنافاة بين هذه الآية وما أثبت الله تعالى لهم من الشهادة على أممهم في ءاية أخرى .

وروي أيضاً عن السدي والكلبي ومجاهد وهو اختيار الفراء وأنكره الجبائي ، وقال : كيف يجوز القول بذهولهم من هول يوم القيامة مع قوله سبحانه : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] وقوله عز وجل : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62]

وقد نقل ذلك عنه الطبرسي ثم قال : ويمكن أن يجاب عنه بأن الفزع الأكبر دخول النار .

وقوله سبحانه : ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ إنما هو كالبشارة بالنجارة من أهوال ذلك اليوم مثل ما يقال للمريض لا بأس عليك ولا خوف .

وقيل : إن ذلك الذهول لم يكن لخوف ولا حزن وإنما هو من باب العوم في بحار الإجلال لظهور ءاثار تجلي الجلال .

واعترض شيخ الإسلام على ما تقدم بأن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ في موضع التعليل ولا يلائم ما ذكره .

و ﴿ عِلْمَ ﴾ صيغة مبالغة والمراد الكامل في العلم .

والغيوب جمع غيب وجمع وإن كان مصدراً على ما قال السمين لاختلاف أنواعه وإن أريد به الشيء الغائب أو قلنا إنه مخفف غيب فالأمر واضح .

وقرىء ﴿ عِلْمَ ﴾ بالنصب على أن الكلام قد تم عند ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ ونصب الوصف على المدح أو النداء أو على أنه بدل من اسم إن ، ومعنى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ﴾ إنك الموصوف بصفاتك المعروفة ، والكلام على طريقة .

أنا أبو النجم وشعري شعري . . .

وقرأ أبو بكر وحمزة ﴿ الغيوب ﴾ بكسر الغين حيث وقع وقد سمع في كل جمع على وزن فعول كبيوت كسر أوله لئلا يتوالى ضمتان وواو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

جملة ﴿ يوم يجمع الله الرّسُلَ ﴾ استئناف ابتدائي متّصل بقوله : ﴿ فأثابهم الله بما قالوا إلى قوله ﴿ وذلك جزاء المحسنين ﴾ [المائدة : 85] .

وما بينهما جمل معترضة نشأ بعضها عن بعض ، فعاد الكلام الآن إلى أحوال الذين اتّبعوا عيسى عليه السلام ، فبدّل كثير منهم تبديلاً بلغ بهم إلى الكفر ومضاهاة المشركين ، للتذكير بهول عظيم من أهوال يوم القيامة تكون فيه شهادة الرسل على الأمم وبراءتهم ممّا أحدثه أممهم بعدهم في الدين ممّا لم يأذن به الله ، والتخلّص من ذلك إلى شهادة عيسى على النصارى بأنّه لم يأمرهم بتأليهه وعبادته .

وهذا متّصل في الغرض بما تقدّم من قوله تعالى : ﴿ ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ﴾ [المائدة : 82] .

فإنّ في تلك الآيات ترغيباً وترهيباً ، وإبعاداً وتقريباً ، وقع الانتقال منها إلى أحكام تشريعية

ناسبت ما ابتدعه اليهود والنصارى ، وذلك من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ﴾ [المائدة : 87] وتفنّن الانتقال إلى هذا المبلغ ، فهذا عود إلى بيان تمام نهوض الحجّة على النصارى في مشهد يوم القيامة .

ولقد جاء هذا مناسباً للتذكير العامّ بقوله تعالى : ﴿ واتّقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 108] .

ولمناسبة هذا المقام التزم وصف عيسى بابن مريم كلّما تكرّر ذكره في هذه الآيات أربع مرات تعريضاً بإبطال دعوى أنّه ابن لله تعالى .

ولأنّه لمّا تمّ الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين ناسب الانتقال إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق تعالى ، فإنّ الأديان وصايا الله إلى خلقه .

(35/219)

قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ [الشورى : 13] .

وقد سمّاهم الله تعالى شهداء في قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] .

فقوله : ﴿ يوم يجمع ﴾ ظرف ، والأظهر أنه معمول لعاملٍ محذوف يقدّر بنحو : اذكر يوم يجمع الله الرسل ، أو يقدّر له عامل يكون بمنزلة الجواب للظرف ، لأنّ الظرف إذا تقدّم يعامل معاملة الشرط في إعطائه جواباً .

وقد حذف هذا العامل لتذهب نفس السامع كلّ مذهب ممكن من التهويل ، تقديره يوم يجمع الله الرسل يكون هول عظيم لا يبلغه طُولُ التعبير فينبغي طيّه .

ويجوز أن يكون متعلّقاً بفعل ﴿ قالوا لا علم لنا . . .

﴾ الخ ، أي أنّ ذلك الفعل هو المقصود من الجملة المستأنفة .

وأصل نظم الكلام : يجمع الله الرسل يوم القيامة فيقول الخ .

فغيّر نظم الكلام إلى الأسلوب الذي وقع في الآية للاهتمام بالخبر ، فيفتتح بهذا الظرف المهول وليوردَ الاستشهاد في صورة المقاولة بين الله والرسل .

والمقصود من الكلام هو ما يأتي بقوله : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس ﴾ [المائدة : 116] وما بينهما اعتراض .

ومن البعيد أن يكون الظرف متعلّقاً بقوله : ﴿ لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 108] لأنّه لا جدوى في نفي الهداية في يوم القيامة ، ولأنّ جزالة الكلام تناسب استئنافه ، ولأنّ تعلّقه به غير واسع المعنى .

ومثله قول الزجّاج : إنّه متعلّق بقوله : ﴿ واتّقوا الله ﴾ [المائدة : 108] على أنّ ﴿ يوم

﴿ مفعول لأجله ، وقيل : بدل اشتمال من اسم الجلالة في قوله : ﴿ واتّقوا الله ﴾ [المائدة : 108] لأنّ جمع الرسل ممّا يشمل عليه شأن الله ، فالاستفهام في قوله : ﴿ ماذا أجبتم ﴾ مستعمل في الاستشهاد .

ينتقل منه إلى لازمه ، وهو توبيخ الذين كذّبوا الرسل في حياتهم أو بدّلوا وارتدّوا بعد مماتهم .

(36/219)

وظاهر حقيقة الإجابة أنّ المعنى : ماذا أجابكم الأقوام الذين أرسلتم إليهم ، أي ماذا تلقّوا به دعواتكم ، حملاً على ما هو بمعناه في نحو قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ [النمل : 56] .

ويحمل قول الرسل : ﴿ لا علم لنا ﴾ على معنى لا علم لنا بما يضمرون حين أجابوا فأنت أعلم به منّا .

أو هو تأدّب مع الله تعالى لأنّ ما عدا ذلك ممّا أجابت به الأمم يعلمه رسلهم ؛ فلا بدّ من تأويل نفي الرسل العلم عن أنفسهم وتفويضهم إلى علم الله تعالى بهذا المعنى .

فأجمع الرسل في الجواب على تفويض العلم إلى الله ، أي أنّ علمك سبحانك أعلى من كلّ علم وشهادتك أعدل من كلّ شهادة ، فكان جواب الرسل متضمّناً أموراً : أحدها :

الشهادة على الكافرين من أممهم بأنّ ما عاملهم الله به هو الحقّ .

الثاني : تسفيه أولئك الكافرين في إنكارهم الذي لا يجديهم .

الثالث : تذكير أممهم بما عاملوا به رسلهم لأنّ في قولهم : ﴿ إنّك أنت علاّم الغيوب ﴾ ، تعميماً للتذكير بكلّ ما صدر من أممهم من تكذيب وأذى وعناد .

ويقال لمن يَسأل عن شيء لا أزيدك علماً بذلك ، أو أنت تعرف ما جرى .

وإيراد الضمير المنفصل بعد الضمير المتّصل لزيادة تقرير الخبر وتأكيده .

وعن ابن الأنباري تأويل قول الرسل ﴿ لا علم لنا ﴾ بأنّهم نفوا أن يكونوا يعلمون ما كان من آخر أمر الأمم بعد موت رسلهم من دوام على إقامة الشرائع أو التفريط فيها وتبديلها فيكون قول الرسل ﴿ لا علم لنا ﴾ محمولاً على حقيقته ويكون محمل ﴿ ماذا ﴾ على قوله : ﴿ ماذا أجبتم ﴾ هو ما أجيبوا به من تصديق وتكذيب ومن دوام المصدّقين على تصديقهم أو نقض ذلك ، ويعضّد هذا التأويل ما جاء بعد هذا الكلام من قوله تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون الله ﴾ ، وقولُ عيسى عليه السلام ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ الآية فإنّ المحاورة مع عيسى بعض من المحاورة مع بقية الرسل .

وهو تأويل حسن .

وعبّر في جواب الرسل بـ ﴿ قالوا ﴾ المفيد للمضي مع أنّ الجواب لم يقع ، للدلالة على تحقيق أنّه سيقع حتى صار المستقبل من قوة التحقّق بمنزلة الماضي في التحقّق .

على أنّ القول الذي تحكى به المحاورات لا يلتزم فيه مراعاة صيغته لزمان وقوعه لأنّ زمان الوقوع يكون قد تعيّن بقرينة سياق المحاورة .

وقرأ الجمهور ﴿ الغيُوب ﴾ بضم الغين .

وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم بكسر الغين وهي لغة لدفع ثقل الانتقال من الضمّة إلى الباء ، كما تقدّم في بيوت في قوله تعالى ﴿ فأمسكوهنّ في البيوت ﴾ من سورة النساء (15) .

وفصل قالوا ﴾ جرياً على طريقة حكاية المحاورات ، كما تقدّم في قوله ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ في سورة البقرة (30) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(38/219)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109) ﴾

وينبهنا الحق سبحانه هنا إلى ضرورة أن نستعد لليوم الذي يجمع الله فيه الرسل يوم الحساب ، أي أننا علينا أن نراعي الالتزام في تكاليف المكلف الأعلى في كل عمل من أعمال الحياة ؛ لأنه سبحانه سوف يسأل الرسل في ذلك اليوم : ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ ؟ أي كيف استجاب الناس إلى المنهج الذي دعوتم إليه ؟ وفي هذا تقريع لمن خالف الرسل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] .

ونعلم – كذلك – أن يوم المشهد الأعظم سيأتي رسولنا – صلى الله عليه وسلم – شهيداً على أمته وعلى كل الرسل السابقين عليه ، ومثال ذلك في حياتنا – ولله المثل الأعلى – نجد الأهل ينتظرون الابن على باب لجنة الامتحان ويسألونه : كيف أجبت .

إن الأهل يطلبون من الابن أن يعطيهم تقدير الموقف إجمالياً . أما إن سألوه بماذا أجبت ؟ فمعنى هذا أنهم يطلبون منه أن يحكي لهم ماذا أجاب تفصيلياً عن كل سؤال . وسؤال الحق لرسله : ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ في الظاهر هذا سؤال للرسل ، وفي الحق إنه للمخالفين ، وكأن هذا تقريع لمن لم يؤمنوا برسالات الرسل ، ذلك أن مهمة الرسل هي البلاغ عن الله .

وبماذا يجيب الرسل يؤمئذ عن الله ؟ هم يجيبون الإجابة الدقيقة المتضمنة لكل أدب الإيمان : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ ونجد من يتساءل : كيف – إذن – يقولون : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَآ ﴾ على الرغم من أن هناك من استجاب لدعوتهم ومن لم يستجب لها ؟ ونقول : لأن الآخرة فيها حساب على نوايا القلوب والسرائر ، لقد علم الرسل بالأمور العلنية من أقوال وسلوك ، ولكن الحق يحاسب على حسب النية والسلوك ، وهو سبحانه الأعلم بالسرائر وما تخفي الضمائر ، وأيضاً فالأنبياء قد علموا الذين آمنوا بالمنهج وكانوا معاصرين لهم ، ولكن ليس لهم علم بمن كفر أو آمن بعد أزمنتهم ، وإجابة الرسل هي قمة الأدب مع الله ، ذلك لأن كلا منهم قد علم أن معرفة الله شاملة وعلمه قد وسع كل شيء ، ولذلك جاء قولهم : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(40/219)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109) ﴾

أخرج الفريابي وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ فيفزعون فيقول : ماذا أجبتم فيقولون : لا علم لنا ، فيرد إليهم أفئدتهم فيعلمون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ قال : ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا قالوا : لا علم لنا ، ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ فيقولون للرب تبارك وتعالى : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ قال : فرقا تذهل عقولهم ، ثم يرد الله عقولهم إليهم ، فيكونون هم الذين يسألون يقول الله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ [الأعراف : 6] .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا

﴿ قال : من هول ذلك اليوم .

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : يأتي على الخلق ساعة يذهل فيها عقل كل ذي عقل ، ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ .

(41/219)

وأخرج الخطيب في تاريخه عن عطاء بن أبي رباح قال : جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال : والذي نفسي بيده لتفسرن لي آياً من كتاب الله عز وجل أو لأكفرن به ، فقال ابن عباس : ويحك . . ! أنا لها اليوم ، أي آي ؟ قال : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله ﴾ [القصص : 75] فكيف علموا وقد قالوا لا علم لنا ؟ وأخبرني عن قول الله ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ [الزمر : 31] وقال في آية أخرى ﴿ لا تختصموا لديَّ ﴾ [ق : 38] فكيف يختصمون وقد قال : لا تختصموا لديَّ ؟ وأخبرني عن قول الله ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾ [يس : 65] فكيف شهدوا وقد ختم على الأفواه ؟ فقال ابن عباس : ثكلتك أمك يا ابن الأزرق ، إن للقيامة أحوالاً وأهوالاً وفظائع وزلازل ، فإذا

تشققت السموات ، وتناثرت النجوم ، وذهب ضوء الشمس والقمر ، وذهلت الأمهات عن الأولاد ، وقذفت الحوامل ما في البطون ، وسجرت البحار ، ودكدكت الجبال ، ولم يلتفت والد إلى ولد ، ولا ولد إلى والد ، وجيء بالجنة تلوح فيها قباب الدر والياقوت حتى تنصب على يمين العرش ، ثم جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام من حديد ممسك بكل زمام سبعون ألف ملك ، لها عينان زرقاوان ، تجر الشفة السفلى أربعين عاماً ، تخطر كما يخطر الفحل ، لو تركت لأتت على كل مؤمن وكافر ، ثم يؤتى بها حتى تنصب عن يسار العرش ، فتستأذن ربها في السجود فيأذن لها ، فتحمده بمحامد لم يسمع الخلائق بمثلها تقول : لك الحمد إلهي إذ جعلتني أنتقم من أعدائك ولم تجعل لي شيئاً مما خلقت تنتقم به مني إلى أهلي ، فلهي أعرف بأهلها من الطير بالحب على وجه الأرض ، حتى إذا كانت من الموقف على مسيرة مائة عام ، وهو قول الله تعالى

(42/219)

﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ [الفرقان : 12] زفرت زفرة فلا يبقي ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا صديق منتخب ، ولا شهيد مما هنالك الآخر جاثياً على ركبتيه ، ثم تزفر الثانية زفرة فلا يبقى قطرة من الدموع إلا بدرت ، فلو كان لكل آدمي يومئذ عمل اثنين

وسبعين نبياً لظن أنه سيواقعها ، ثم تزفر الثالثة زفرة فتنقطع القلوب من أماكنها ، فتصير بين اللهوات والحناجر ، ويعلو سواد العيون بياضها ، ينادي كل آدمي يومئذ يا رب نفسي نفسي ، لا أسألك غيرها ، حتى أن إبراهيم ليتعلق بساق العرش ينادي : يا رب نفسي نفسي ، لا أسألك غيرها ، ونبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : يا رب أمتي أمتي ، لا همة له غيركم ، فعند ذلك يدعى بالأنبياء والرسل فيقال لهم ﴿ ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ طاشت الأحلام وذهلت العقول ، فإذا رجعت القلوب إلى أماكنها ﴿ نزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله ﴾ [القصص : 75] وأما قوله تعالى ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ [الزمر : 31] فيؤخذ للمظلوم من الظالم ، وللمملوك من المالك ، وللضعيف من الشديد ، وللجماء من القرناء حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه ، فإذا أدى إلى كل ذي حق حقه أمر بأهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، اختصموا فقالوا : ربنا هؤلاء أضلونا ﴿ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ [ص : 16] فيقول الله تعالى ﴿ لا تختصموا لديَّ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ [ق : 38] إنما الخصومة بالموقف ، وقد قضيت بينكم بالموقف ، فلا تختصموا لدي . وأما قوله ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾ [يس : 65] فهذا يوم القيامة ، حيث يرى الكفار ما يعطي الله أهل التوحيد من الفضائل والخير . يقولون : تعالوا حتى نحلف بالله ما كنا مشركين ، فتتكلم الأيدي بخلاف ما قالت الألسن : وتشهد الأرجل

تصديقاً للأيدي ، ثم يأذن الله للأفواه فتنطق ﴿ فقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ [فصلت : 21] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(43/219)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في نصب "يَوْمَ" أحدَ عشرَ وجهاً :

أحدها : أنه منصوبٌ بـ " اتَّقُوا " ، أي : اتَّقُوا اللَّهَ في يومِ جمعِهِ الرُّسُلَ ، قاله الحُوفِيُّ ، وهذا ينبغي ألاَّ يجوزَ ؛ لأنَّ أمرهم بالتقوى في يوم القيامةِ لا يكون ؛ إذ ليس بيومِ تَكْليفٍ وابتلاءٍ ، ولذلك قال الواحديُّ : ولم يُنْصَبِ اليومُ على الظرْفِ للاتّقاء ؛ لأنَّهم لم يُؤمَرُوا بالتقوَى في ذلك اليوم ، ولكنْ على المفعول به ؛ كقوله : ﴿ واتقوا يَوْماً ﴾ [البقرة : 48] .

الثاني : أنه منصوب بـ " اتَّقُوا " مضْمَراً يدلُّ عليه " واتَّقُوا الله " ، قال الزَّجَّاج : " وهو محمولٌ على قوله : " واتَّقُوا الله " ، ثم قال : "يَوْمَ يَجْمَعُ " ، أي : واتقوا ذلك اليومَ " ، فدلَّ ذِكْرُ الاتقاءِ في الأوَّل على الاتقاء في هذه الآية ، ولا يكونُ منصوباً على الظَّرْف للاتقاء ؛ لأنهم لم

يُؤمَرُوا بالاتقاء في ذلك اليَوْم ، ولكنْ على المفعول به ؛ كقوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ [البقرة : 48] .

الثالث : أنه منصوب بإضمار " اذْكُرُوا " .

الرابع : بإضمار " احْذَرُوا " .

الخامس : أنه بدلُ اشتمالٍ من الجلالة ، قال الزمخشريُّ : "يَوْمَ يَجْمَعُ " بدلٌ من المنصوب في " واتَّقُوا الله " ، وهو من بدلِ الاشتمال ، كأنه قيل : " واتقُوا الله يَوْمَ جَمْعِهِ " .

انتهى ، ولا بد من حذفِ مضافٍ على هذا الوجهِ ؛ حتى تَصِحَّ له هذه العبارةُ التي ظاهرها ليْسَ بجيدٍ ؛ لأنَّ الاشتمالَ لا يُوصَفُ به الباري تعالى على أيِّ مذهبٍ فَسَّرْنَاهُ من مذاهب النحويين في الاشتمالِ ، والتقديرُ : واتقوا – عقاب الله – يَوْمَ يَجْمَعُ رُسُلَهُ ، فإنَّ العقابَ مشتملٌ على زمانِه ، أو زمانُه مشتملٌ عليه ، أو عامِلُهُمَا مشتملٌ عليهما على حسب الخلاف في تفسير البدلِ الاشتماليِّ ، فقد تبيَّن لك امتناعُ هذه العباراتِ بالنسبةِ إلى الجلالةِ الشريفة ، واستبعد أبو حيان هذا الوجه بطُولِ الفصْلِ بجملتين ، ولا بُعْدَ ؛ فإنَّ هاتين الجملتَيْنِ من تمامِ معنى الجملة الأولى .

السادسُ : أنه منصوبٌ بـ " لا يَهْدِي " قاله الزمخشريُّ وأبو البقاء ؛ قال الزمخشريُّ : " أي : لا يهديهمْ طريقَ الجنَّة يومئذٍ كما يُفْعَلُ بغَيْرِهِمْ " ،

وقال أبو البقاء : " أي : لا يهدِيهمْ في ذلك اليَوْمِ إلى حُجَّةٍ ، أو إلى طريقِ الجنَّة " .

السابع : أنه مفعولٌ به ، وناصبُه " اسْمَعُوا " ، ولا بد من حذف مضاف حينئذٍ ، لأنَّ الزمان لا يُسْمَعُ ، فقدَّره أبو البقاء : " واسمعوا خَبَرَ يَوْمِ يُجْمَعُ " ، ولم يذكر أبو البقاء غير هذين الوجهَيْن ، وبدأ بأولهما ، وفي نصبه بـ " لا يَهْدِي " نظرٌ ؛ من حيث إنه لا يهديهم مطلقاً ، لا في ذلك اليوم ولا في الدنيا ، أعني المحْكُوم عليهم بالفسْقِ ، وفي تقدير الزمخشريّ " لا يَهْدِيهِمْ إلى طريقِ الجنَّة " نُحُوٌّ إلى مذهبه من أنَّ نَفْي الهداية المطلقة لا يجوزُ على الله تعالى ؛ ولذلك خَصَّصَ المُهْدَى إليه ، ولم يذكر غيره ، والذي سَهَّلَ ذلك عنده أيضاً كونُه في يومٍ لا تَكْلِيفَ فيه ، وأما في دار التكليفِ فلا يُجيزُ المعتزليُّ أن يُنْسَبَ إلى الله تعالى نَفْيُ الهدايةِ مطلقاً ألبتة .

الثامن : أنه منصوبٌ بـ " اسْمَعُوا " قاله الحُوفِيُّ ، وفيه نظرٌ ؛ لأنهم ليسوا مكلَّفين بالسَّماعِ في ذلك اليومِ ؛ إذ المُرادُ بالسماعِ السماعُ التكليفيُّ .

التاسع : أنه منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ متأخّرٍ ، أي : يوم يَجْمَعُ اللَّهُ الرسلَ كان كيتَ وكَيْتَ ، قاله الزمخشريُّ .

العاشر : قال شهاب الدين : يجوز أن تكونَ المسألة من باب الإعْمَال ؛ فإنَّ كُلاًّ من هذه العوامِلِ الثلاثةِ المتقدّمةِ يَصِحُّ تسلُّطُه عليه ؛ بدليل أنَّ العلماء جَوَّزوا فيه ذلك ، وتكون المسألةُ مِمَّا تنازع فيها ثلاثةُ عوامل ، وهي " اتَّقُوا " ، و" اسْمَعُوا " ، و" لاَيَهْدِي " ، ويكونُ من إعمال الأخير ؛ لأنه قد حُذِفَ من الأوَّلِينَ ولا مانعَ يمنع من الصناعة ، وأمَّا المعنى فقد قَدَّمْتُ أنه لا يظهرُ نصْبُ "يَوْمَ" بشيء [من الثلاثة] ؛ لأنَّ المعنى يأباه ، وإنما أجَزْتُ ذلك ؛ جَرْياً على ما قالوه وجَوَّزوه ، وكذا الحُوفِيُّ جَوَّز أن ينتصب بـ " اتَّقُوا " وب " اسْمَعُوا " أو بـ " لاَيَهْدِي " ، وكذا الحُوفِيُّ جَوَّز أن ينتصب بـ " اتَّقُوا " وب " اسْمَعُوا " .

الحادي عشر : أنه منصوبٌ بـ " قَالُوا : لا عِلْمَ لَنَا " أي : قال الرسُلُ يوم جمْعِهِمْ ، وقول الله لهم ماذ أجِبْتُمْ ، واختاره أبو حيان على جميع ما تقدَّم ، قال : وهو نظيرُ ما قلناه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ ﴾ [البقرة : 30] ، وهو وجه حسنٌ .

قوله : " مَاذَا أجِبْتُمْ " فيه أربعةُ أقوال :

أحدها : أنَّ " مَاذَا " بمنزلةِ اسمٍ واحدٍ ، فغلب فيه جانبُ الاستفهام ، ومحلُّه النصبُ على المصدرِ بما بعده ، والتقديرُ : أيَّ إجابةٍ أجِبْتُم [قال الزمخشريُّ : " مَاذَا أجِبْتُمْ " منتصبٌ انتصابَ مصدره على معنى : أيَّ إجابةٍ أجِبْتُمْ] ، ولو أُريدَ الجوابُ ، لقيل : بمَاذا أُجِبْتُمْ " ،

أي : لو أُرِيدَ الكلامُ المجابُ ، لقيل : بماذا ، ومِنْ مجيء " مَاذَا " كلِّه مصدراً قوله : [البسيط]

2075 - مَاذَا يَغِيرُ ابنَتَيْ رِبْعٍ عَوِيلُهُمَا . . .
لاتَرْقُدانِ وَلاَ بُؤسَى لِمَنْ رَقَدَا

(46/219)

الثاني : أن " مَا " استفهاميةٌ في محلِّ رفع بالابتداء ، و" ذَا " خبره ، وهي موصولةٌ بمعنى " الَّذي " ؛ لاستكمال الشرطَيْن المذكورَيْن ، و" أُجِبْتُمْ " صلتُها ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : ما الَّذي أجِبْتُمْ به ، فحذفَ العائد ، قاله الحُوفِيُّ ، وهذا لا يجوزُ ؛ لأنه لا يجوزُ حذفُ العائدِ المجرورِ ، إلا إذا جُرَّ الموصولُ بحرف مثلِ ذلك الحرفِ الجارِّ للعائد ، وأنْ يَتَّحِدَ متعلَّقاهُمَا ؛ نحو : " مَرَرْتُ بالَّذي مَرَرْتَ " ، أي : به : وهذا الموصولُ غيرُ مَجْرُورٍ ، لو قلتَ : " رَأَيْتُ الذي مَرَرْتَ " ، أي : مررتَ به ، لم يجُزْ ، اللهم إلا أنْ يُدَّعى حَذْفُهُ على التدريج أن يُحْذَفَ حرفُ الجرِّ ، فيصلَ الفعلُ إلى الضمير ، فيحذفَ ؛ كقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا ﴾ [التوبة : 69] ، أي : في أحدِ أوجهه ، وقوله : ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر : 94] في أحد وجهيه ، وعلى الجملةِ فهو ضعيف .

الثالث : أنَّ " مَا " مجرورةٌ بحرفِ جرٍّ مقدَّرٍ ، لمَّا حُذِفَ بقيتْ في محلِّ نصبٍ ، ذكره أبو البقاء وضعَّف الوجه الذي قبله – أي كون ذا موصولةً – فإنه قال : " مَاذَا في موضعِ نصْبٍ بـ " أُجبْتُمْ " ، وحرفُ الجرِّ محذوفٌ ، و " مَا " و " ذَا " هنا بمنزلةِ اسْمٍ واحدٍ ، ويَضْعُفُ أنْ تُجْعَلَ " مَا " بمعنى " الَّذِي " ؛ لأنه لا عائد هنا ، وحذفُ العائدِ مع حرفِ الجَرِّ ضعيفٌ " . قال شهاب الدين أمَّا جَعْلُه حذفَ العائدِ المجرورِ ضعيفاً ، فصحيحٌ تقدَّم شرحُه والتنبيهُ عليه ، وأمَّا حذفُ حرفِ الجر وانتصابُ مجرورِه ، فهو ضعيفٌ أيضاً ، لا يجوزُ إلاَّ في ضرورةٍ ؛ كقوله : [الطويل]

2076 – فَبِتُّ كَأَنَّ العَائِدَاتِ فَرَشْنَنِي . . . . . .

وقوله : [الطويل]

2077 – . . . . . .

وأُخْفِي الَّذِي لَوْلاَ الأَسَى لَقَضَانِي

وقوله : [الوافر]

2078 – تَمُرُّونَ الدِّيَارَ وَلَمْ تَعُوجُوا . . . . . .

وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك ، واستثناءُ المطَّرِد منه ، فقد فرَّ من ضعيفٍ ، ووقع في أضْعَفَ منه .

الرابع : قال ابن عطيَّة – رحمه الله – : " معناه : ماذا أجابَتْ به الأممُ " ، فجعل " مَاذَا " كنايةً عن المُجَابِ به ، لا المصدرِ ، وبعد ذلك ، فهذا الكلامُ منه محتملٌ أنْ يكونَ مثل ما تقدَّمَ حكايتُهُ عن الحُوفِيِّ في جعله " مَا " مبتدأ استفهاميةً ، و" ذَا " خبره ؛ على أنها موصولةٌ ، وقد تقدَّم التنبيهُ على ضعفه ، ويُحْتمل أن يكون " مَاذَا " كلُّه بمنزلةِ اسمِ استفهامٍ في محلِّ رفع بالابتداء ، و" أُجِبْتُمْ " خبرُه ، والعائدُ محذوفٌ ؛ كما قدَّره هو ، وهو أيضاً ضعيفٌ ؛ لأنه لا يُحْذَفُ عائدُ المبتدأ ، وهو مجرورٌ إلا في مواضعَ ليس هذا منها ، لو قلت : " زَيْدٌ مَرَرْتُ " لم يَجُزْ ، وإذا تبيَّن ضعفُ هذه الأوجهِ ، رُجِّح الأول .

والجمهورُ على " أُجِبْتُمْ " مبنيًّا للمفعول ، وفي حذفِ الفاعل هنا ما لا يُبْلَغُ كُنْهُهُ من الفصاحة والبلاغة ؛ حيث اقتصرَ على خطاب رسله غيرَ مذكورٍ معَهُم غيرُهم ؛ رفْعاً من شأنهم وتشريفاً واختصاصاً ، وقرأ ابن عبَّاس وأبو حيوة " أَجَبْتُمْ " مبنيًّا للفاعل ، والمفعول محذوف ، أي : ماذا أَجَبْتُمْ أُمَمَكُمْ حين كَذَّبُوكُمْ وآذَوْكُمْ ، وفيه توبيخٌ للأمَمِ ، وليستْ في البلاغةِ كالأولى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الغيوب ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ العليم الحكيم ﴾ في البقرة [32] .

والجمهورُ على رفع " عَلاَّمُ الغُيُوبِ " ، وقرئ بنصبه ، وفيه أوجهٌ ذكرها الزمخشريُّ وهي : الاختصاصُ ، والنداءُ ، وصفةٌ لاسم " إنَّ " ؛ قال : " وقُرئ بالنصْب على أنَّ الكلامَ قد تمَّ عند قوله " إنَّكَ أَنْتَ " ، أي : إنَّكَ الموصوفُ بأوصَافِكَ المعرُوفة من العلمِ وغيره ، ثم انتصَبَ " علاَّمَ الغُيُوبِ " على الاختصاصِ ، أو على النداء ، أو هو صفةٌ لاسْمِ " إنَّ " ، قال أبو حيان : " وهو على حذفِ الخبر لفهم المعنى ، فتَمَّ الكلامُ بالمقدَّرِ في قوله " إنَّك أَنْتَ " ، أي : إنَّك الموصوفُ بأوصافِكَ المعروفةِ من العلمِ وغيره " ، ثم قال : " قال الزمخشريُّ : ثم انتصبَ ، فذكره إلى آخره " فزعمَ أنَّ الزمخشريَّ قدَّر لـ " إنَّكَ " خبراً محذوفاً ، والزمخشريُّ لا يريد ذلك ألبتة ولا يَرْتضيه ، وإنما يريدُ أنَّ هذا الضمير بكونه لله تعالى هو الدالُّ على تلك الصفات المذكورة ، لا انفكاكَ لها عنه ، وهذا المعنى هو الذي تقتضيه البلاغةُ ، والذي غاصَ [عليه] الزمخشريُّ – رحمه الله – لا ما قدَّره أبو حيان مُوهِماً أنه أتى به من عنده ، ويعني بالاختصاص النَّصْبَ على المدْحِ ، لا الاختصاصَ الذي هو شبيه بالنداء ؛ فإنَّ شرطه أن يكون حَشْواً ، ولكنَّ أبا حيَّان قد ردَّ على أبي القاسمِ قوله " إنه يجوزُ أن يكون صفةً لاسم إنَّ " بأنَّ اسمها هنا ضميرُ مخاطبٍ ، والضمير لا يوصفُ مطلقاً

عند البصريّين ، ولا يوصَف منه عند الكسائيّ إلا ضميرُ الغائبِ ؛ لإبهامه في قولهم " مَرَرْتُ بِهِ المِسْكِينِ " ، مع إمكان تأويله بالبدلِ ، وهو ردٌّ واضحٌ ، على أنه يمكن أن يقال : أراد بالصفةِ البدل ، وهي عبارةُ سيبويه ، [يُطْلِقُ الصفةَ ويريد البدل ، فله أسْوَةٌ بإمامه ، واللازمُ مشترك ، فما كان جواباً عن سيبويه] ، كان جواباً له ، لكن يَبْقَى فيه البدلُ بالمشتقِّ ، وهو أسهلُ من الأول ، ولم أرَهُمْ خرَّجُوها على لغةِ مَنْ

(49/219)

ينصِبُ الجزأَيْنِ بـ " إنَّ " وأخواتِها ؛ كقوله في ذلك : [الرجز]

2079 - إنَّ الْعَجُوزَ خَبَّةً جَرُوزَا . . .

وقوله : [الطويل]

2080 - . . . . . .

إنَّ حُرَّاسَنَا أُسْدَا

وقوله : [الكامل]

2081 - لَيْتَ الشَّبَابَ هُوَ الرَّجِيعَ عَلَى الْفَتَى . . . . . .

وقول الآخر : [الرجز]

2082 - كَأَنَّ أُذُنَيْه إذَا تَشَوَّفَا . . .

قَادمَةً أَوْ قَلَماً مُحَرَّفَا

ولو قيل به لكان صواباً .

و" علاَّمُ " مثالُ مبالغة ، فهو ناصب لما بعده تقديراً ، وبهذا أيضاً يُرَدُّ على الزمخشريِّ على تقدير تسليم صحَّة وصف الضمير من حيث إنه نكرةٌ ؛ لأن إضافته غيرُ محضَةٍ وموصوفهُ مَعْرفةٌ .

والجمهورُ على ضمِّ العينِ من " الغُيُوب " وهو الأصلُ ، وقرأ حمزة وأبو بكر بكسرها ، والخلافُ جارٍ في ألفاظٍ أُخَرَ نحو : " البُيُوت والجُيُوب والعُيُون والشُّيُوخ " وقد تقدَّم تحرير هذا كله في البقرة عند ذكر ﴿ البيوت ﴾ [البقرة : 189] ، وستأتي كلُّ لفظةٍ من هذه الألفاظِ مَعْزُوَّةً لقارئها في سُورِهَا - إن شاء الله تعالى - وجُمِعَ الغيبُ هنا ، وإنْ كان مصدراً لاختلافِ أنواعه ، وإن أريدَ به الشيءُ الغائب ، أو قلنا : إنه مخفَّفٌ من فَيْعِل ؛ كما تقدم تحقيقه في البقرة [الآية 3] ، فواضح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 589.594 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109)

﴿

يكاشفهم بنعت الجلال فتنخنس فهومُهم وعلومُهم حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق ويقولون : ﴿ لاَعِلْمَ لَنَا ﴾ ، وهكذا تكون الحالة غداً : مَنْ قال لشيءٍ ، أو مَالَ يقولون : " ما عبدناك حق عبادتك " والأنبياء يقولون : ﴿ لاَعِلْمَ لَنَا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 453.454 ﴾

(50/219)

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان سؤاله سبحانه للرسل عن الإجابة متضمناً لتبكيت المبطلين وتوبيخهم ، وكان

أشد الأمم افتقاراً إلى التوبيخ أهل الكتاب ، لأن تمردهم تعدى إلى رتبة الجلال بما وصفوه سبحانه به من اتخاذ الصاحبة والولد ، ومن ادعاء الإلهية لعيسى عليه السلام لما أظهر من الخوارق التي دعا بها إلى الله مع اقترانها بما يدل على عبوديته ورسالته لئلا يهتضم حقه أو يُغلى فيه ، مع مشاركتهم لغيرهم في أذى الرسل عليهم السلام بالتكذيب وغيره ، وكان في الآية السالفة ذكر الآباء وما آثروا للأبناء ، ذكر أمر عيسى عليه السلام بقوله مبدلاً من قوله : ﴿ يوم يجمع الله ﴾ معبراً بالماضي تذكيراً بما لذلك اليوم من تحتم الوقوع ، وتصويراً لعظيم تحققه ، وتنبيهاً على أنه لقوة قربه كأنه قد وقع ومضى : ﴿ إذ قال الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال ﴿ يا عيسى ﴾ ثم بينه بما هو الحق من نسبه فقال : ﴿ ابن مريم ﴾ .

ولما كان ذلك يوم الجمع الأكبر والإحاطة بجميع الخلائق وأحوالهم في حركاتهم وسكناتهم ، وكان الحمد هو الإحاطة بأوصاف الكمال ، أمره بذكر حمده سبحانه على نعمته عنده فقال : ﴿ اذكر نعمتي عليك ﴾ أي في خاصة نفسك ،

(51/219)

وذكر ما يدل للعاقل على أنه عبد مربوب فقال : ﴿ وعلى والدتك ﴾ إلى آخره مشيراً إلى أنه أوجده من غير أب فأراحه مما يجب للآباء من الحقوق وما يورثون أبناءهم من اقتداء أو

اهتداء وإقامة بحقوق أمه ، فأقدره – وهو في المهد – على الشهادة لها بالبراءة والحصانة والعفاف ، وكل نعمة أنعمها سبحانه عليه صلى الله عليه وسلم فهي نعمة أمه ديناً ودنيا .

ولما ذكر سبحانه هذه الأمة المدعوة من العرب وأهل الكتاب وغيرهم بنعمه عليهم في أول السورة بقوله : ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه ﴾ [المائدة : 7] ، ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم ﴾ [المائدة : 11] ، وكانت هذه الآيات من عند ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ [المائدة : 87] كلها في النعم ، أخبرهم أنه يذكّر عيسى عليه السلام بنعمه في يوم الجمع إشارة إلى أنهم إن لم يذكروا نعمه في هذه الدار دار العمل بالشكر ، ذكروها حين يذكّرهم بها في ذلك اليوم قسراً بالكفر ، ويا لها فضيحةً في ذلك الجمع الأكبر والموقف الأهول ! وليتبصّر أهل الكتاب فيرجعوا عن كفرهم بعيسى عليه السلام : اليهودُ بالتقصير في أمره ، والنصارى بالغلو في شأنه وقدره .

(52/219)

ولما كان أعظم الأمور التنزيه ، بدأ به كما فعل بنفسه الشريفة في كلمة الدخول إلى الإسلام ، ولما كان أعظم ذلك تنزيهه أمه عليها السلام وتصحيح ما خرق لها من العادة في ولادته ، وكان أحكم ما يكون ذلك بتقوية روحه حتى يكون كلامه طفلاً ككلامه كهلاً ، قدمه فقال

معلقاً قارناً بكل نعمة ما يدل على عبوديته ورسالته ، ليخزي من غلا في أمره أو قصّر في وصفه وقدره : ﴿ إذ أيدتك ﴾ أي قويتك تقوية عظيمة ﴿ بروح القدس ﴾ أي الطهر الذي يحيي القلوب ويطهرها من أوضار الآثام ، ومنه جبرئيل عليه السلام ، فكان له منه في الصغر حظ لم يكن لغيره ؛ قال الحرالي : وهو يد بسط لروح الله في القلوب بما يحييها الله به من روح أمره إرجاعاً إليه في هذه الدار قبل إرجاع روح الحياة بيد القبض من عزرائيل عليه السلام ثم استأنف تفسير هذا التأييد فقال : ﴿ تكلم الناس ﴾ أي من أردت من عاليهم وسافلهم ﴿ في المهد ﴾ أي بما برأ الله من أمك وأظهر به كرامتك وفضلك .

ولما ذكر هذا الفضل العظيم ، أتبعه خارقاً آخر ، وهو إحياؤه نفسه وحفظُه جسدَه أكثر من ألف سنة لم يدركه الهرم ؛ فإنه رفع شاباً وينزل على ما رفع عليه ويبقى حتى يصير كهلاً ، وتسويةُ كلامه في المهد بكلامه في حال بلوغ الأشدّ وكمال العقل خرقاً لما جرت به العوائد فقال : ﴿ وكهلاً ﴾ ولما ذكر هذه الخارقة ، أتبعها روح العلم الرباني فقال : ﴿ وإذ علمتك الكتاب ﴾ أي الخط الذي هو مبدأ العلم وتلقيح لروح الفهم ﴿ والحكمة ﴾ أي الفهم لحقائق الأشياء والعمل بما يدعو إليه العلم ﴿ والتوراة ﴾ أي المنزلة على موسى عليه السلام ﴿ والإنجيل ﴾ أي المنزل عليك .

ولما ذكر تأييده بروح الروح، أتبعه تأييده بإفاضة الروح على جسد لا أصل له فيها فقال: ﴿ وإذ تخلق من الطين ﴾ أي هذا الجنس ﴿ كهيئة الطير بإذني ﴾ ثم سبب عن ذلك قوله: ﴿ فتنفخ فيها ﴾ أي في الصورة المهيأة ﴿ فتكون ﴾ أي تلك الصورة التي هيأتها ﴿ طيراً بإذني ﴾ ثم بإفاضة روح ما على بعض جسد، إما ابتداء في الأكمة كما في الذي قبله، وإما إعادة كما في الحادث العمى والبرص بقوله: ﴿ وتبرئ الأكمة والأبرص ﴾.

ولما كان من أعظم ما يراد بالسياق توبيخ من كفر به كرر قوله: ﴿ بإذني ﴾ ثم برد روح كامل إلى جسدها بقوله: ﴿ وإذ تخرج الموتى ﴾ أي من القبور فعلاً أو قوة حتى يكونوا كما كانوا من سكان البيوت ﴿ بإذني ﴾ ثم بعصمة روحه ممن أراد قتله بقوله: ﴿ وإذ كففت بني إسرائيل عنك ﴾ أي اليهود لما هموا بقتلك؛ ولما كان ذلك ربما أوهم نقصاً استحلوا قصده به، بين أنه قصد ذلك كعادة الناس مع الرسل والأكابر من أتباعهم تسلية لهذا النبي الكريم والتابعين له بإحسان فقال: ﴿ إذ جئتهم بالبينات ﴾ أي كلها، بعضها بالفعل والباقي بالقوة لدلالة ما وجد عليه من الآيات الدالة على رسالتك الموجبة لتعظيمك ﴿ فقال الذين كفروا ﴾ أي غطوا تلك البينات عناداً ﴿ منهم إن ﴾ أي ما ﴿ هذا إلا سحر مبين ﴾ ثم بتأييده بالأنصار الذين أحيى أرواحهم بالإيمان وأجسادهم باختراع

المأكل الذي من شأنه في العادة حفظ الروح ، وذلك في قصة المائدة وغيرها فقال : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 562 . 563 ﴾

(54/219)

اللغة :

[كففت] منعت وصرفت ومنه الكفيف لأنه منع الرؤية

[أيدتك] قويتك مأخوذة من الأيد وهو القوة

[أوحيت] الوحي : إلقاء المعنى الى النفس خفية وهو على أقسام : وحى بمعنى الإلهام ، ووحى بمعنى الإعلام في اليقظة والمنام ، ووحى بمعنى إرسال جبريل الى الرسل عليهم السلام

[مائدة] المائدة : الخوان الذي عليه الطعام أى السفرة ، فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة

[الرقيب] المراقب الشاهد على الأفعال

[أبدا] أى بلا انقطاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 372 ﴾

(55/219)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسل ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمْ ﴾ [المائدة : 109] توبيخ من تمرد من أممهم ، وأشد الأمم افتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ؛ لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء وطعن هؤلاء الملاعين تعدى إلى جلال الله وكبريائه ، حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد ، فلاجرَم ذكر الله تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة ، والمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مقالتهم فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بإله .

والفائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول هذه الآية على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 103 ﴾

فصل

قال الفخر :

خرج قوله ﴿ إِذ قَالَ الله ﴾ على لفظ الماضي دون المستقبل وفيه وجوه :

الأول : الدلالة على قرب القيامة حتى كأنها قد قامت ووقعت وكل آت قريب ويقال : الجيش قد أتى ، إذا قرب إتيانهم .

قال الله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] الثاني : أنه ورد على حكاية الحال ، ونظيرُه قولُ الرجل لصاحبه كأنك بنا وقد دخلنا بلدة كذا ، فصنعنا فيها كذا ، إذ صاح صائح ؛ فتركتني وأجبته .

ونظيره من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ ﴾ [سبأ : 51] ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ [الأنفال : 50] ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [سبأ : 31] والوجه في كل هذه الآيات ما ذكرناه ، من أنه خرج على سبيل الحكاية عن الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 103 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ يجوز أن يكون ﴿ عِيسَى ﴾ في محل الرفع لأنه منادى مفرد وصف بمضاف ويجوز أن يكون في محل النصب لأنه في نية الإضافة ثم جعل الابن توكيداً وكل ما

كان مثل هذا جاز فيه وجهان نحو يا زيد بن عمرو ، ويا زيد بن عمرو ، وأنشد النحويون :

يا حكم بن المنذر بن الجارود . . برفع الأول ونصبه على ما بيناه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 103.104 ﴾

وقال الثعلبى :

قوله ﴿ إِذْ قَالَ الله يا عيسى ابن مَرْيَمَ ﴾ يعني حين قال اللّه يا عيسى بن مريم ، محل عيسى نصب لأنه نداء المنصوب إذا جعلته نداء واحداً ، فإن شئت جعلته ندائين فيكون عيسى في محل الرفع لأنه نداء مفرد وابن في موضع النصب لأنه نداء مضاف ، وتقدير الكلام يا عيسى يا بن مريم . نظيره قوله :

يا حكم بن المنذر بن الجارود . . . أنت الجواد ابن الجواد ابن الجود

ذلك في حكم الرفع والنصب ، وليس بن المنذر عن النصب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِذْ قَالَ الله يا عيسى عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ﴾ [المائدة : 109] وقد نصب بإضمار اذكر ، وقيل : في محل رفع على معنى ذاك إذ وليس بشيء ، وصيغة الماضي لما مر آنفاً من الدلالة على تحقق الوقوع ، والمراد بيان ما جرى بينه تعالى وبين فرد من الرسل المجموعين (من المفاوضة) على التفصيل إثر بيان ما جرى بينه عز

وجل وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج على تفاصيل أحوال الباقين ، وتخصيص عيسى عليه السلام بالذكر لما أن شأنه عليه الصلاة والسلام متعلق بكلا فريقي أهل الكتاب المفرطين والمفرطين الذين نعت هذه السورة الكريمة جناياتهم فتفصيله أعظم عليهم وأجلب لحسراتهم ، وإظهار الاسم الجليل (في مقام الإضمار) لما مر (من المبالغة في التهويل) .

(57/219)

وعيسى مبني عند الفراء ومتابعيه إما على ضمة مقدرة أو على فتحة كذلك إجراء له مجرى يا زيد بن عمرو في جواز ضم المنادى وفتحه عند الجمهور ، وهذا إذا أعرب ابن صفة لعيسى ، أما إذا أعرب بدلاً أو بياناً فلا يجوز تقدير الفتحة إجمالاً كما بين في كتب النحو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم ﴾ ظرف ، هو بدل من ﴿ يومَ يجمع الله الرسل ﴾ بدل اشتمال ، فإنّ يوم الجمع مشتمل على زمن هذا الخطاب لعيسى ، ولذلك لم تعطف هذه الجملة على التي قبلها .

والمقصود من ذكر ما يقال لعيسى يومئذٍ هو تقريع اليهود .

والنصارى الذين ضلّوا في شأن عيسى بين طرفي إفراط بغض وإفراط حبّ .

فقوله ﴿ اذكر نعمتي عليك ﴾ إلى قوله ﴿ لا أعذّبه أحداً من العالمين ﴾ [المائدة : 115] استئناس لعيسى لئلاّ يفزعه السؤال الوارد بعده بقوله : ﴿ أأنت قلت للناس الخ . . .

﴿ [المائدة : 116] وهذا تقريع لليهود ، وما بعدها تقريع للنصارى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ أراد الجمع كقوله ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [النحل : 18] وإنما جاز ذلك لأن مضاف يصلح للجنس .

واعلم أن الله تعالى فسّر نعمته عليه بأمور : أولها : قوله ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس ﴾ وفيه وجهان : الأول : روح القدس هو جبريل عليه السلام ، الروح جبريل والقدس هو الله تعالى ، كأنه أضافه إلى نفسه تعظيماً له .

الثاني : أن الأرواح مختلفة بالماهية فمنها طاهرة نورانية ومنها خبيثة ظلمانية ، ومنها

مشرقة ، ومنها كدرة ، ومنها خيرة ، ومنها نذلة ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " الأرواح جنود مجندة " فالله تعالى خصّ عيسى بالروح الطاهرة النورانية المُشْرِقة العلوية الخَيّرة .

(58/219)

ولقائل أن يقول : لما دلّت هذه الآية على أن تأييد عيسى إنما حصل من جبريل أو بسبب روحه المختص به ، قدح هذا في دلالة المعجزات على صدق الرسل ، لأنا قبل العلم بعصمة جبريل نجوز أنه أعان عيسى عليه السلام على ذلك ، على سبيل إغواء الخلق وإضلالهم فما لم تعرف عصمة جبريل لا يندفع هذا وما لم تعرف نبوّة عيسى عليه السلام لا تعرف عصمة جبريل ، فيلزم الدور وجوابه : ما ثبت من أصلنا أن الخالق ليس إلا الله وبه يندفع هذا السؤال .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ تُكَلِّمُ الناس فِى المهد وَكَهْلاً ﴾ أما كلام عيسى في المهد فهو قوله ﴿ إِنِّى عبد الله ءاتَانِىَ الكتاب ﴾ [مريم : 30] وقوله ﴿ تُكَلِّمُ الناس فِى المهد وَكَهْلاً ﴾ في موضع الحال .

والمعنى : يكلمهم طفلاً وكهلاً من غير أن يتفاوت كلامه في هذين الوقتين وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾

وفي ﴿ الكتاب ﴾ قولان : أحدهما : المراد به الكتابة وهي الخط .

والثاني : المراد منه جنس الكتب .

فإن الإنسان يتعلم أولاً كتباً سهلة مختصرة ، ثم يترقى منها إلى الكتب الشريفة .

وأما ﴿ الحكمة ﴾ فهي عبارة عن العلوم النظرية ، والعلوم العملية .

ثم ذكر بعده ﴿ التوراة والإنجيل ﴾ وفيه وجهان : الأول : أنهما خصا بالذكر بعد ذكر الكتب على سبيل التشريف كقوله ﴿ حافظوا عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] وقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] والثاني : وهو الأقوى أن الاطلاع على أسرار الكتب الإلهية ، لا يحصل إلا لمن صار بانياً في أصناف العلوم الشرعية والعقلية الظاهرة التي يبحث عنها العلماء .

فقوله ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ إشارة إلى الأسرار التي لا يطلع عليها أحد إلا أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 104 ﴾

(59/219)

وقال الثعلبي :

﴿ اذكر نِعْمَتِي ﴾ قال الحسن : ذكر النعمة شكرها وأراد بقوله نعمتي نعمي لفظه واحد ومعناه الجمع كقوله تعالى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] أراد نعم اللّه لأن العدد لا ينفع على الواحد ﴿ عَلَيْكَ ﴾ يا عيسى ﴿ وعلى وَالِدَتِكَ ﴾ مريم ، ثم ذكر النعم ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ قويّتك وأعنتك ﴿ بِرُوحِ القدس ﴾ يعني جبرئيل ﴿ تُكَلِّمُ الناس فِي المهد ﴾ صبياً ﴿ وَكَهْلاً ﴾ نبياً ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب ﴾ قال ابن عباس : أرسله اللّه وهو ابن ثلاثين سنة فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه اللّه إليه .

﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب ﴾ يعني الخط ﴿ والحكمة ﴾ يعني العلم والقيم ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسي :

و(على) في قوله تعالى : ﴿ اذكر نِعْمَتِى عَلَيْكَ وعلى والدتك ﴾ متعلقة بنعمتي جعل مصدراً أي اذكر إنعامي أو بمحذوف وقع حالاً من نعمة إن جعل اسماً أي أذكر نعمتى كائنة عليك الخ ، وعلى التقديرين يراد بالنعمة ما هو في ضمن المتعدد ، وليس المراد كما قال شيخ الإسلام بأمره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة في سلك التعديد تكليفه عليه السلام بشكرها والقيام بمواجبها ولات حين تكليف مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر في أوانه أي خروج بل إظهار أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله

تعالى اعتداداً بها وتلذذاً بذكرها على رؤوس الأشهاد ويكون حكاية ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخاً للكفرة من الفريقين المختلفين في شأنه عليه السلام إفراطاً وتفريطاً وإبطالاً لقولهما جميعاً .

﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ ظرف لنعمتي أي أذكر إنعامي عليكما وقت تأييدي لكما أو حال منها أي أذكرها كائنة وقت ذلك ، وقيل : بدل اشتمال منها وهو في المعنى تفسير لها .

(60/219)

وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً به على السعة ، وقرىء "آيدتك" بالمد ووزنه عند الزمخشري أفعلتك وعند ابن عطية فاعلتك ، قال أبو حيان : ويحتاج إلى نقل مضارعه من كلام العرب فإن كان يؤايد فهو فاعل وإن كان يؤيد فهو أفعل ومعناه ومعنى أيد واحد ، وقيل : معناه بالمد القوة وبالتشديد النصر وهما كما قيل متقاربان لأن النصر قوة .

﴿ بِرُوحِ القدس ﴾ أي جبريل عليه السلام أو الكلام الذي يحيى به الدين ويكون سبباً للطهر عن أوضار الآثام أو تحيى بها الموتى أو النفوس حياة أبدية أو نفس روحه عليه السلام حيث أظهرها سبحانه وتعالى روحاً مقدسة طاهرة مشرقة نورانية علوية ، وكون هذا التأييد نعمة عليه عليه الصلاة والسلام مما لا خفاء فيه ، وأما كونه نعمة على والدته

فلما ترتب عليه من براءتها مما نسب إليها وحاشاها وغير ذلك .

﴿ تُكَلِّمُ الناس فِى المهد ﴾ أي طفلاً صغيراً ، وما في النظم الكريم أبلغ من التصريح بالطفولية وأولى لأن الصغير يسمى طفلاً إلى أن يبلغ الحلم فلذا عدل عنه ، والظرف في موضع الحال من ضمير ﴿ تُكَلِّمَ ﴾ .

وجوز أن يكون ظرفاً للفعل .

والجملة إما استئناف مبين لتأييده عليه الصلاة والسلام أو في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿ أَيَّدتُّكَ ﴾ كما قال أبو البقاء .

والمهد معروف .

وعن الحسن أن المراد به حجر أمه عليهما السلام ، وأنكر النصارى كلامه عليه الصلاة والسلام في المهد وقالوا إنما تكلم عليه السلام أوان ما يتكلم الصبيان وقد تقدم مع جوابه .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَهْلاً ﴾ للإيذان على ما قيل بعدم تفاوت كلامه عليه الصلاة والسلام طفولية وكهولة لا لأن كلا منهما آية فإن التكلم في الكهولة معهود من كل أحد .

وقال الإمام : إن الثاني أيضاً معجزة مستقلة لأن المراد تكلم الناس في الطفولية وفي الكهولة حين تنزل من السماء لأنه عليه الصلاة والسلام حين رفع لم يكن كهلاً .

وهذا مبني على تفسير الكهل بمن وخطه الشيب ورأيت له بحالة أو من جاوز أربعاً وثلاثين سنة إلى إحدى وخمسين وعيسى عليه الصلاة والسلام رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين قيل وثلاثة أشهر وثلاثة أيام .

وقيل : رفع وهو ابن أربع وثلاثين وما صح أنه عليه الصلاة والسلام وخطه الشيب ، وأما لو فسر بمن جاوز الثلاثين فلا يتأتى هذا القول كما لا يخفى .

وقال بعض : الأولى أن يجعل ﴿ وَكَهْلاً ﴾ تشبيهاً بليغاً أي تكلمهم كائناً في المهد وكائناً كالكهل .

وأنت تعلم أن أخذ التشبيه من العطف لا وجه له وتقدير الكاف تكلف .

﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ﴾ عطف على ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ أي واذكر نعمتي عليكما وقت تعليمي لك من غير معلم ﴿ الكتاب والحكمة ﴾ أي جنسهما ، وقيل : الكتاب الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ خصا بالذكر إظهاراً لشرفهما على الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والمراد من ﴿ اذكر نعمتي ﴾ الذُّكر بضمّ الذال وهو استحضار الأمر في الذهن .

والأمر في قوله ﴿ اذكر ﴾ للامتنان ، إذ ليس عيسى بناس لنعم الله عليه وعلى والدته .

ومن لازمه خزي اليهود الذين زعموا أنّه ساحر مفسد إذ ليس السحر والفساد بنعمة يعدّها الله على عبده .

ووجه ذكر والدته هنا الزيادة من تبكيت اليهود وكمدهم لأنّهم تنقّصوها بأقذع ممّا تنقّصوه .

والظرف في قوله ﴿ إذْ أيدتك بروح القدس ﴾ متعلّق بـ ﴿ نعمتي ﴾ لما فيها من معنى المصدر ، أي النعمة الحاصلة في ذلك الوقت ، وهو وقت التأييد بروح القدس .

وروح القدس هنا جبريل على الأظهر .

والتأييد وروح القدس تقدّماً في سورة البقرة (87) عند قوله : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيدناه بروح القدس ﴾

(62/219)

وجملة تكلّم ﴾ حال من الضمير المنصوب بِـ ﴿ أيدتك ﴾ وذلك أنّ الله ألقى الكلام من الملَك على لسان عيسى وهو في المهد ، وفي ذلك تأييد له لإثبات نزاهة تكوّنه ، وفي ذلك نعمة عليه ، وعلى والدته إذ ثبتت براءتها ممّا اتّهمت به .

والجارّ والمجرور في قوله ﴿ في المهد ﴾ حال من ضمير ﴿ تُكلّم ﴾ .

و﴿ كَهْلاً ﴾ معطوف على ﴿ في المهد ﴾ لأنّه حال أيضاً ، كقوله تعالى : ﴿ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ [يونس : 12] .

والمهد والكهل تقدّماً في تفسير سورة آل عمران .

وتكليمه كهلاً أريد به الدعوة إلى الدين فهو من التأييد بروح القدس ، لأنّه الذي يلقي إلى عيسى ما يأمره الله بتبليغه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِى ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر ههنا ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ وذكر في آل عمران ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ [آل عمران : 49] .

والجواب : أن قوله ﴿ كَهَيْئَةِ الطير ﴾ أي هيئة مثل هيئة الطير فقوله ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ الضمير للكاف ، لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا نفخه في شيء .

إذا عرفت هذا فنقول : الكاف تؤنث بحسب المعنى لدلالتها على الهيئة التي هي مثل هيئة الطير وتذكر بحسب الظاهر .

وإذا كان كذلك جاز أن يقع الضمير عنها تارة على وجه التذكير وأخرى على وجه

التأنيث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 105 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ أي تصور ﴿ مِنَ الطين ﴾ أي جنسه ﴿ كَهَيْئَةِ الطير ﴾ أي هيئة مثل هيئته ﴿ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ أي في تلك الهيئة المشبهة ﴿ فَتَكُونُ ﴾ بعد نفخك من غير تراخ ﴿ طَيْراً ﴾ أي حيواناً يطير كسائر الطيور وقرأ نافع ويعقوب ﴿ طائراً ﴾ وهو إما اسم مفرد وإما اسم جمع كباقر وسامر .

(63/219)

﴿ بِإِذْنِى وَتُبْرِىء الأكمه والأبرص بِإِذْنِى ﴾ عطف على ﴿ تَخْلُقُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قال هنا ﴿ فتنفخ فيها ﴾ وقال في سورة آل عمران (49) ﴿ فانفخ فيه ﴾ فعن مكّي بن أبي طالب أنّ الضمير في سورة آل عمران عادَ إلى الطير ، والضمير في هذه السورة عاد إلى الهيئة .

واختار ابن عطية أن يكون الضمير هنا عائداً إلى ما تقتضيه الآية ضرورة .

أي بدلالة الاقتضاء .

وذلك أنّ قوله : وإذْ تَخْلُق من الطين كهيئة الطير ﴾ يقتضي صوراً أو أجساماً أو أشكالاً ، وكذلك الضمير المذكّر في سورة آل عمران (49) يعود على المخلوق الذي يقتضيه ﴿ أخْلُق ﴾ وجعله في الكشاف ﴾ عائداً إلى الكاف باعتبار كونها صفة للفظ هيئة المحذوف الدّال عليه لفظ هيئة المدخول للكاف وكلّ ذلك ناظر إلى أنّ الهيئة لا تصلح لأن تكون متعلّق ﴿ تنفخ ﴾ ، إذ الهيئة معنى لا ينفخ فيها ولا تكون طائراً .

وقرأ نافع وحده ﴿ فتكون طائراً ﴾ بالإفراد كما قرأ في سورة آل عمران .

وتوجيهها هنا أنّ الضمير جرى على التأنيث فتعيّن أن يكون المراد وإذ تخلق ، أي تقدّر هيئة كهيئة الطير فتكون الهيئة طائراً ، أي كلّ هيئة تقدّرها تكون واحداً من الطير .

وقرأ البقية "طيراً" بصيغة اسم الجمع باعتبار تعدّد ما يقدّره من هيئات كهيئة الطير .

وقال هنا ﴿ وإذا تخرج الموتى ﴾ ولم يقل : ﴿ وأحي الموتى ﴾ ، كما قال في سورة آل عمران (49) ، أي تخرجهم من قبورهم أحياء ، فأطلق الإخراج وأريد به لازمه وهو الإحياء ، لأنّ الميّت وضع في القبر لأجل كونه ميّتاً فكان إخراجه من القبر ملزوماً الانعكاس السبب الذي لأجله وضع في القبر .

وقد سمّى الله الإحياء خروجاً في قوله : ﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ [ق : 11] وقال : ﴿ إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ﴾ [المؤمنون : 35] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

(64/219)

إنه تعالى اعتبر الإذن في خلق الطين كهيئة الطير ، وفي صيرورته ذلك الشيء طيراً .

وإنما أعاد قوله ﴿ بِإِذْنِي ﴾ تأكيداً لكون ذلك واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى وإيجاده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 105 ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الموتى بِإِذْنِي ﴾ عطف على ﴿ إِذْ تَخْلُقُ ﴾ أعيدت فيه "إذ" كما قيل لكون إخراج الموتى من قبورهم لا سيما بعد ما صاروا رميماً معجزة باهرة حرية بتذكير وقتها صريحاً .

وما في النظم الكريم أبلغ من تحيي الموتى فلذا عدل عنه إليه .

وقد تقدم الكلام في بيان من أحياهم عليه الصلاة والسلام مع بيان ما ينفعك في هذه الآية في سورة آل عمران (94) وذكر "بإذني" هنا أربع مرات وثمة مرتين قالوا : لأنه هنا للامتنان

وهناك للإخبار فناسب هذا التكرار هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ

﴾

قوله تعالى ﴿ وَتُبْرِىءُ الأكمه والأبرص بِإِذْنِى ﴾

قال الفخر :

وإبراء الأكمه والأبرص معروف وقال الخليلي : الأكمه من ولد أعمى والأعمى من ولد بصيرا ثم عمي .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الموتى بِإِذْنِى ﴾ أي وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياء باذني أي بفعلي ذلك عند دعائك ، وعند قولك للميت أخرج بإذن الله من قبرك ، وذكر الإذن في هذه الأفاعيل إنما هو على معنى إضافة حقيقة الفعل إلى الله تعالى كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [آل عمران : 145] أي إلا بخلق الله الموت فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 105 ﴾ . بتصرف يسير .

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرئيل عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بالبينات ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ إِذْ جِئْتَهُمْ بالبينات ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه هذه البيّنات التي تقدم ذكرها ،

وعلى هذا التقدير فالألف واللام للعهد .

ويحتمل أن يكون المراد منه جنس البينات .

(65/219)

روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أظهر هذه المعجزات العجيبة قصد اليهودُ قتلَه فخلصه الله تعالى منهم حيث رفعه إلى السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 105 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إسرائيل عَنكَ ﴾ يعني اليهود حين هموا بقتله ولم يتمكنوا منه .

﴿ إِذْ جِئْتَهُمْ بالبينات ﴾ أي المعجزات الواضحة مما ذكر وما لم يذكر وهو ظرف لكففت مع اعتبار قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وهو مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله عليه الصلاة والسلام المحوج إلى الكف أي كففتهم عنك حين قالوا ذلك عند مجيئك إياهم بالبينات ، ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة .

فكلمة من بيانية وهذا إشارة إلى ما جاء به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ

﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وإذ كففت بني إسرائيل عنك ﴾ عطف على ﴿ إذْ أيدتك ﴾ وما عطف عليه .

وهذا من أعظم النعم ، وهي نعمة العصمة من الإهانة ؛ فقد كفّ الله عنه بني إسرائيل سنين ، وهو يدعو إلى الدين بين ظهرانيهم مع حقدهم وقلّة أنصاره ، فصرفهم الله عن ضرّه حتى أدّى الرسالة ، ثمّ لمّا استفاقوا وأجمعوا أمرهم على قتله عصمه الله منهم فرفعه إليه ولم يظفروا به ، وماتت نفوسهم بغيظها .

وقد دلّ على جميع هذه المدّة الظرف في قوله : ﴿ إذ جئتم بالبيّنات ﴾ فإنّ تلك المدّة كلّها مدّة ظهور معجزاته بينهم .

وقوله : ﴿ فقال الذين كفروا منهم ﴾ تخلّص من تنهية تقريع مكذّبيه إلى كرامة المصدّقين به .

واقتصر من دعاوي تكذيبهم إيّاه على قولهم ﴿ إنْ هذا إلاّ سحر مبين ﴾ ، لأنّ ذلك الادّعاء قصدوا به التوسّل إلى قتله ، لأنّ حكم الساحر في شريعة اليهود القتل إذ السحر عندهم كفر ، إذ كان من صناعة عبدة الأصنام ، فقد قرنت التوراة السحر وعِرافةَ الجانّ بالشرك ، كما جاء في سفر اللاويّيين في الإصحاح العشرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير

والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فصل

(66/219)

قال الفخر :

قرأ حمزة والكَسائي ﴿ ساحر ﴾ بالألف وكذلك في يونس وهود والصّف ، وقرأ ابن عامر وعاصم في يونس بالألف فقط والباقون ﴿ سِحر ﴾ فمن قرأ ﴿ ساحر ﴾ أشار إلى الرجل ومن قرأ ﴿ سِحر ﴾ أشار به إلى ما جاء به .

وكلاهما حسن لأن كل واحد منهما قد تقدم ذكره .

قال الواحديّ – رحمه الله – : والاختيار ﴿ سِحر ﴾ لجواز وقوعه على الحدث والشخص ، أما وقوعه على الحدث فظاهر وأما وقوعه على الشخص ، فتقول : هذا سحر وتريد به ذو سحر كما قال تعالى : ﴿ ولكن البر مَنْ ءامَنَ ﴾ [البقرة : 177] أي ذا البر قال الشاعر :

فإنما هي إقبال وإدبار . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 106 ﴾

وقال السمرقندى :

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ ساحر ﴾ بالألف .

وقرأ الباقون : ﴿ ساحر ﴾ بغير ألف .

فمن قرأ بالألف يعني : هذا رجل ساحر .

ومن قرأ بغير ألف يعني : هذا الفعل سحر .

والاختلاف في أربع مواضع : ها هنا ، وفي سورة يونس ، وفي سورة هود ، وفي سورة الصف .

قرأ حمزة والكسائي في هذا كله : بالألف .

وقرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر في هذا كله : بغير ألف .

وقرأ عاصم وابن كثير : بغير ألف إلا في سورة يونس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وقرأ حمزة والكسائي "إلا ساحر" فالإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، وجعل الإشارة إليه على القراءة الأولى وتأويل السحر بساحر لتتوافق القراءتان لا حاجة إليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ﴿ إلاّ ساحر ﴾ .

والإشارة إلى عيسى المفهوم من قوله : ﴿ إذْ جئتهم بالبيّنات ﴾ .

ولا شك أنّ اليهود قالوا لعيسى كلتا المقالتين على التفريق أو على اختلاف جماعات القائلين وأوقات القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

سؤال : فإن قيل : إنه تعالى شرع ههنا في تعديد نعمه على عيسى عليه السلام وقول الكفار في حقه ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليس من النعم ، فكيف ذكره ههنا ؟

(67/219)

والجواب : أن من الأمثال المشهورة أن كل ذي نعمة محسود وطعن الكفار في عيسى عليه السلام بهذا الكلام ، يدل على أن نعم الله في حقه كانت عظيمة فَحُسن ذكره عند تعديد النعم للوجه الذي ذكرناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 106 ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ . . . ﴾ وإنما ذكَّر الله عيسى عليه السلام نعمته عليه على والدته ، وإن كان لهما ذاكراً لأمرين :

أحدهما : ليتلو على الأمم ما خصه به من الكرامة ومَيّزَه به من علو المنزلة .

والثاني : ليؤكد به حجته ويرد به جاحده .

ثم أخذ تعالى في تعديد نعمه فقال : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يعني قويتك ، مأخوذ من الأيد وهو القوة ، وروح القدس جبريل ، والقدس هو الله تعالى تقدست أسماؤه .

وتأييده له من وجهين :

أحدهما : تقويته على أمر دينه .

والثاني : معونته على دفع ظلم اليهود والكافرين له .

﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ أما كلامه لهم في المهد إنما اختص بتعريفهم حال نبوته ، ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً ﴾ [مريم : 30-31] .

وكلامه لهم كهلاً دعاؤهم إلى ما أمر الله به من الصلاة والزكاة ، وذلك حين صار ابن ثلاثين سنة وإن كان مبعوثاً حين ولد ، فمكث فيهم ثلاثين سنة ثم رفعه الله ، ولم يبعث الله نبياً حين ولد غيره ولذلك خصه الله بالكلام في المهد صبياً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ ﴾ وفيه تأويلان :

أحدهما : يريد الخط .

والثاني : يريد الكتب فعبر عنها بالكتاب إرادة للجنس .

ثم فصل فقال تعالى : ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ وفيها تأويلان :

أحدهما : أنها العلم بما في تلك الكتب .

(68/219)

والثاني : أنها جميع ما يحتاج إليه في دينه ودنياه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ يريد تلاوتهما وتأويلهما .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونَ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ يعني بقوله : ﴿ تَخْلُقُ ﴾ أي تفعل وتصور من الطين مثل صورة الطير ، لأن الخلق فعل لكن على سبيل القصد والتقدير من غير سهو ولا مجازفة ولذلك وُصِفَتْ أفعال الله تعالى بأنها مخلوقة لأنها لا تكون إلا عن قصد وتقدير ووصفت بعض أفعال العباد بأنها مخلوقة إذا كانت مقدرة مقصودة ولم توصف جميعها بهذه الصفة لجواز كون بعضها سهواً أو مجازفة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ يعني الروح ، والروح جسم .

وفي المُتَوَلِّي لنفخها وجهان :

أحدهما : أنه المسيح ينفخ الروح في الجسم الذي صوره من الطين كصورة الطير .

والثاني : أنه جبريل .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾ يعني أن الله تعالى يقلبها بعد نفخ الروح فيها لحماً ودماً ، ويخلق فيها الحياة ، فتصير طيراً بإذن الله تعالى وأمره ، لا بفعل المسيح .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ أي تدعوني أن أبرىء الأكمه والأبرص ، فأجيب دعاءك وأبرئهما ، وهو فعل الله تعالى ، وإنما نَسَبَهُ إلى المسيح مجازاً لأن فعله لأجل دعائه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ يعني واذكر نعمتي عليك ، إذ تدعوني أن أحيي الموتى ، فأجيب دعاءك ، حتى تخرجهم من القبور أحياء ، ونسب إليه ذلك توسعاً أيضاً لأجل دعائه ، ويجوز أن ينسب إخراجهم إليه حقيقة ، لأن إخراجهم من قبورهم بعد إحياء الله لهم يجوز أن يكون من فعل المسيح .

قال الكلبي : والذين أحياهم من الموتى رجلان وامرأة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله عز وجل : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك ﴾

يحتمل أن يكون العامل في ﴿ إذ ﴾ فعلاً مضمراً تقديره اذكر يا محمد إذ جئتهم بالبينات و﴿ قال ﴾ هنا بمعنى يقول ، لأن ظاهر هذا القول أنه في القيامة تقدمه لقوله أنت قلت للناس ، وذلك كله أحكام لتوبيخ الذين يتحصلون كافرين بالله في ادعائهم ألوهية عيسى ، ويحتمل أن تكون ﴿ إذ ﴾ بدلاً من قوله ﴿ يوم يجمع الله ﴾ [المائدة : 109] ونعمة الله على عيسى هي بالنبوءة وسائر ما ذكر وما علم مما لا يحصى ، وعددت عليه النعمة على أن أمه إذ هي نعمة صائرة إليه وبسببه كانت ، وقرأ جمهور الناس " أيدتك " بتشديد الياء ، وقرأ مجاهد وابن محيصن " آيدتك " على وزن فاعلتك ويظهر أن الأصل في القراءتين " أيدتك " على وزن أفعلتك ، ثم اختلف الإعلال ، والمعنى فيهما قويتك من الأيد ، وقال عبد المطلب :

الحمد لله الأعز الأكرم . . . أيدنا يوم زحوف الأشرم

و" روح القدس " هو جبريل عليه السلام ، وقوله ﴿ في المهد ﴾ حال كأنه قال صغيراً ﴿ وكهلاً ﴾ حال أيضاً معطوفة على الأول . ومثله قوله تعالى : ﴿ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ [يونس : 12] والكهولة من الأربعين إلى الخمسين . وقيل هي من ثلاثة وثلاثين ، و﴿ الكتاب ﴾ في هذه الآية : مصدر كتب يكتب أي علمتك الخط . ويحتمل أن يريد اسم جنس في صحف إبراهيم وغير ذلك . ثم خص بعد ذلك التوراة ﴿ والإنجيل ﴾

بالذكر تشريفاً ، و﴿ الحكمة ﴾ : هي الفهم والإدراك في أمور الشرع ، وقد وهب الله الأنبياء منها ما هم به مختصون معصومون لا ينطقون عن هوى . قوله تعالى : ﴿ وإذ ﴾ في هذه الآية حيث ما تكررت فهي عطف على الأولى التي عملت فيها نعمتي ، و﴿ تخلق ﴾ معناه : تقدر وتهيىء تقديره مستوياً ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبع . . . ض القوم يخلق ثم لا يفري

أي يهيىء ويقدر ليعمل ويكمل ثم لا يفعل ، ومنه قول الآخر :

من كان يخلق ما يقو . . . ل فحيلتي فيه قليله

(70/219)

وكان عيسى عليه السلام يصور من الطين أمثال الخفافيش ثم ينفخ فيها أمام الناس فتحيا وتطير بإذن الله . وقد تقدم هذا القصص في آل عمران . وقرأ جمهور الناس "كهيئة" بالهمز ، وهو مصدر من قولهم هاء الشيء يهاء إذا ثبت واستقر على أمر حسن ، قال اللحياني : ويقال "يهيء" وقرأ الزهري "كهيّة" بتشديد الياء من غير همز وقرأ أبو جعفر بن القعقاع "كهيئة الطائر" . والإذن في هذه الآية كيف تكرر معناه التمكين مع العلم بما يصنع وما يقصد من دعاء الناس إلى الإيمان . وقوله تعالى : ﴿ فتنفخ فيها ﴾ هو النفخ المعروف من البشر

وإن جعل الله الأمر هكذا ليظهر تلبس عيسى بالمعجزة وصدورها عنه .

وهذا كطرح موسى العصا . وكإيراد محمد عليه السلام القرآن . وهذا أحد شروط المعجزات . وقوله ﴿ فيها ﴾ بضمير مؤنث مع مجيء ذلك في آل عمران ﴿ فأنفخ فيه ﴾ [آل عمران : 49] بضمير مذكر موضع قد اضطرب المفسرون فيه قال مكي : هو في آل عمران عائد على الطائر وفي المائدة عائد على الهيئة ، قال ويصح عكس هذا ، قال غيره الضمير المذكر عائد على الطين .

(71/219)

قال القاضي أبو محمد : ولا يصح عود هذا الضمير لا على الطير ولا على الطين ولا على الهيئة لأن الطين والطائر الذين يجيء على الطين على هيئة لا نفخ فيه البتة ، وكذلك لا نفخ في هيئته الخاصة بجسده النفخ في الصور المخصوصة منه التي رتبتها يد عيسى عليه السلام ، فالوجه أن يقال في عود الضمير المؤنث إنه عائد على ما تقتضيه الآية ضرورة ، وذلك أن قوله ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ يقتضي صوراً أو أجساماً أو أشكالاً ، وكذلك الضمير المذكر يعود على المخلوق الذي يقتضيه ﴿ تخلق ﴾ ، ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف في معنى المثل لأن المعنى وإذ تخلق من الطين مثل هيئة ، ولك أن تعيد الضمير

على الكاف نفسه فيمن يجوّز أن يكون اسماً في غير الشعر ، وتكون الكاف في موضع نصب صفة للمصدر المراد تقديره وإذا تخلق خلقاً من الطين كهيئة الطير وقرأ عبد الله بن عباس كهيئة الطير فتنفخها فيكون وقرأ الجمهور " فتكون " بالتاء من فوق وقرأ عيسى بن عمر فيها " فيكون " بالياء من تحت ، وقرأ نافع وحده " فتكون طائراً " وقرأ الباقون " طيراً " بغير ألف والقراءتان مستفيضتان في الناس .

(72/219)

فالطير جمع طائر كتاجر وتجر وصاحب وصحب وراكب وركب . والطائر اسم مفرد والمعنى على قراءة نافع فتكون كل قطعة من تلك المخلوقات طائراً قال أبو علي : ولو قال قائل إن الطائر قد يكون جمعاً كالجامل والباقر فيكون على هذا معنى القراءتين واحداً لكان قياساً ، ويقوي ذلك ما حكاه أبو الحسن من قولهم طائرة فيكون من باب شعيرة وشعير ، وتمرة وتمر وقد تقدم القول في الأكمه والأبرص وفي قصص إحيائه الموتى في آل عمران ، و﴿ تخرج الموتى ﴾ معناه من قبورهم ، وكف بني إسرائيل عنه عليه السلام هو رفعه حين أحاطوا به في البيت مع الحواريين ومن أول ما منعه الله منهم هو الكف إلى تلك النازلة الآخرة فهنالك ظهر عظم الكف و" البينات " هي معجزاته وإنجيله وجميع ما جاء به

، وقرأ ابن كثير وعاصم هنا وفي هود والصف " إلا سحر " بغير ألف ، وقرأ حمزة والكسائي في المواضع الأربعة " ساحر " بألف فمن قرأ سحراً جعل الإشارة إلى البينات والحديث وما جاء به ، ومن قرأ ساحراً جعل الإشارة إلى الشخص إذ هو ذو سحر عندهم وهذا مطرد في القرآن كله حيثما ورد هذا الخلاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك ﴾

قال بعضهم : إن إذ قال الله تعالى : يا عيسى صلة لماذا أجبتم ولما كان المراد بقوله للرسل ما أجبتم توبيخ الأمم ومن تمرد منهم على الله وكان أشد الأمم احتياجاً وافتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ووجه ذلك أن جميع الأمم إنما كان طعنهم في أنبيائهم بالتكذيب لهم وطعن هؤلاء النصارى تعدي إلى جلال الله تعالى حيث وصفوه بما لا يليق بجلاله من اتخاذ الزوجة والولد .

(73/219)

ذكر الله في هذه الآية أنواع نعمه على عيسى عليه السلام التي تدل على أنه عبد وليس بإله والفائدة في ذكر هذه الحكاية تنبيه النصارى على قبح مقالتهم وفساد اعتقادهم وتوكيد الحجة عليهم .

وقيل : فائدة ذلك إسماع الأمم يوم القيامة ما خص الله عيسى عليه السلام به من الكرامة ، وقيل : موضع إذا رفع بالابتداء على القطع ومعناه اذكر إذ قال الله : يا عيسى وإنما خرج قوله : إذ قال الله على لفظ الماضي دون المستقبل لأنه ورد على سبيل حكاية الحال .

وقيل : تقديره إذ يقول الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعتمي عليك لفظه واحد والمراد به الجمع لأن الله تعالى عدد نعمه عليه في هذه الآية والمراد من ذكرها شكرها ﴿ وعلى والدتك ﴾ يعني بنعمته على مريم عليها السلام أنه تعالى : " أنبتها نباتاً حسناً وطهرها واصطفاها على نساء العالمين " .

ثم ذكر نعمه على عيسى عليه السلام فقال تعالى : ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ يعني بجبريل عليه السلام لأن القدس هو الله تعالى وأضافه إليه على سبيل التشريف والتعظيم كإضافة بيت الله وناقة الله .

وقيل : أراد بروح القدس الروح المطهرة لأن الأرواح تختلف باختلاف الماهية فمنها روح طاهرة مقدسة نورانية ومنها روح خبيثة كدرة ظلمانية فخصَّ الله عيسى بالروح المقدسة الطاهرة النورانية المشرفة ﴿ تكلم الناس في المهد ﴾ يعني تكلمهم طفلاً في حال الصغر

﴿ وكهلاً ﴾ يعني وفي حالة الكهولة من غير أن يتفاوت كلامك في هذين الوقتين وهذه معجزة عظيمة وخاصة شريفة ليست لأحد قبله .

(74/219)

قال ابن عباس : أرسل الله عيسى عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله إليه ﴿ وإذ علمتك الكتاب والحكمة ﴾ يعني الكتابة وهي الخط والحكمة الفهم والاطلاع على أسرار العلوم ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ أي وعلمتك التوراة التي أنزلتها على موسى والإنجيل الذي أنزلته عليك ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ﴾ يعني وإذ تجعل وتصور من الطين كصورة ﴿ الطير بإذني ﴾ ﴿ فتنفخ فيها ﴾ ذكر هنا فيها سورة آل عمران فيه يعني بالضمير في قوله فيها يعود إلى الهيئة بجعلها مصدراً كما يقع اسم الخلق على المخلوق وذلك لأن النفخ لا يكون في الهيئة إنما يكون في المهيأ وذي الهيئة ويجوز أن يعود الضمير إلى الطير لأنها مؤنثة قال الله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ وأما الضمير المذكور في آل عمران في قوله فيه فيعود إلى الكاف يعني في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ﴿ فتكون طيراً بإذني ﴾ وإنما كرر قوله بإذني تأكيداً لكون ذلك الخلق واقعاً بقدرة الله وتخليقه لا بقدرة عيسى عليه السلام وتخليقه لأن

المخلوق لا يخلق شيئاً إنما خالق الأشياء كلها هو الله تعالى لا خالق لها سواه وإنما كان الخلق لهذا الطير معجزة لعيسى عليه السلام أكرمه الله بها وكذا قوله تعالى : ﴿ وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني ﴾ يعني وتشفي الأكمه وهو الأعمى المطموس البصر والأبرص معروف ظاهر ﴿ وإذ تخرج الموتى ﴾ يعني من قبورهم أحياء ﴿ بإذني ﴾ تفعل ذلك كله بدعائك والفاعل لهذه الأشياء كلها في الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو المبرئ للأكمه والأبرص وهو محيي الموتى وهو على كل شيء قدير وإنما كانت هذه الأشياء معجزات لعيسى عليه السلام ووقعت بإذن الله تعالى وقدرته .

(75/219)

وقوله تعالى : ﴿ وإذ كففت بني إسرائيل عنك ﴾ يعني واذكر نعمتي عليك إذ كففت وصرفت عنك اليهود ومنعتك منهم حين أرادوا قتلك ﴿ إذ جئتهم بالبينات ﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التي ذكرت في هذه الآية وذلك أن عيسى عليه السلام لما أتى بهذه المعجزات العجيبة الباهرة قصد اليهود قتله فخلصه الله منهم ورفعه إلى السماء ﴿ فقال الذين كفروا منهم ﴾ يعني فقال الذين استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا بهذه المعجزات ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ يعني ما جاءهم به عيسى عليه السلام

من المعجزات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾

(76/219)

شروعٌ في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيلِ إثرَ بيانِ ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأُنموذج لتفاصيلِ أحوال الباقين ، وتخصيصُ شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلاً من بين شؤون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هَوْل ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلامُ متعلِّقٌ بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نُعِيتْ عليهم في السورة الكريمة جناياتُهم ، فتفصيلُه أعظمُ عليهم وأجلبُ لحسرتهم وندامتِهم وأفتُّ في أعضادهم وأدخَلُ في صرفهم عن غيّهم وعنادهم ، و(إذ) بدلٌ من (يومَ يجمع الله) الخ ، وصيغة الماضي لما ذكر من الدلالة على تحقق الوقوع ، وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لما مر من المبالغة في التهويل (وتربية المهابة) . وكلمة على في قوله تعالى : ﴿ اذكر

نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعلى والدتك ﴾ متعلقة بنفس النعمة إن جُعلت مصدراً ، أي اذكر إنعامي عليكما ، أو بمحذوفٍ هو حالٌ منها إن جُعلت اسماً ، أي اذكر نعمتي كائنة عليكما ، وليس المرادُ بأمره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة في سلك التعديد تكليفَه عليه السلام شكرَها والقيامَ بمواجبها ولاتَ حينَ تكليف ، مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر في أوله أيَّ خروج ، بل إظهارَ أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله تعالى اعتداداً بها وتلذذاً بذكرها على رؤوس الأشهاد ، لتكون حكايةُ ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخاً ومزجرةً للكفرة المختلفين في شأنه عليه السلام إفراطاً وتفريطاً وإبطالاً لقولهما جميعاً .

(77/219)

﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ ظرف لنعمتي أي اذكر إنعامي عليكما وقت تأييدي لك أو حال منها ، أي اذكرها كائنة وقت تأييدي لك ، وقرىء (آيدتُك) والمعنى واحد أي قويتك ﴿ بِرُوحِ القدس ﴾ بجبريلَ عليه السلام لتثبيت الحجة أو بالكلام الذي يحيى به الدين وإضافته إلى القدس لأنه سبب الطهر عن أوضار الآثام ، أو يحيى به الموتى أو النفوسُ حياةً أبدية ، وقيل : الأرواحُ مختلفةُ الحقائق ، فمنها طاهرةٌ نورانية ، ومنها خبيثةٌ ظُلمانية ، ومنها مشرقةٌ ،

ومنها كَدِرةٌ ، ومنها حُرة ، ومنها نذْلة ، وكان روحُه عليه الصلاة والسلام طاهرةً مشرقةً نورانية عُلوية ، وأياً ما كان فهو نعمة عليهما ﴿ تُكَلِّمُ الناس فِى المهد وَكَهْلاً ﴾ استئناف مبين لتأييده عليه السلام أو حال من الكاف ، وذكر تكليمه عليه السلام في حال الكهولة لبيان أم كلامه عليه السلام في تينك الحالتين كان على نسق واحد بديعٍ صادراً عن كمال العقل مقارِناً لرزانة الرأي والتدبير ، وبه استُدل على أنه عليه السلام سينزِل من السماء ِلما أنه عليه السلامُ رفع قبل التكهُّل ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أرسله الله تعالى وهو ابن ثلاثين سنةً ، ومكث في رسالته ثلاثين شهراً ، ثم رفعه الله تعالى إليه ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ منصوب بما نصبه ، أي اذكر نعمتي عليكما وقت تعليمي لك الكتاب ﴿ والحكمة ﴾ أي جنسهما ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ خُصا بالذكر مما تناوله الكتابُ والحكمةُ إظهاراً لشرفهما ، وقيل : الخطُّ والحكمةُ الكلامُ المُحكَم الصواب .

(78/219)

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير ﴾ أي تُصوِّر منه هيئةً مماثلة لهيئة الطير ﴿ بِإِذْنِى ﴾ بتسهيلي وتيسيري ، لا على أن يكون الخلقُ صادراً عنه عليه السلام حقيقة ، بل على أن

يظهر ذلك على يده عليه السلام عند مباشرةِ الأسباب مع كون الخلق حقيقةً لله تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ أي في الهيئة المصوَّرة ﴿ فَتَكُونُ ﴾ أي تلك الهيئة ﴿ طَيْراً بِإِذْنِى ﴾ فإن إذنه تعالى لو لم يكن عبارةً عن تكوينه تعالى للطير بل عن محضِ تيسيره مع صدور الفعل حقيقةً عما أُسند إليه لكان هذا تكوّناً من جهة الهيئة ، وتكريرُ قوله : ﴿ بِإِذْنِى ﴾ في الطير مع كونه شيئاً واحداً ، للتنبيه على أن كلاًّ من التصوير والنفخ أمرٌ معظّم بديعٌ لا يتسنى ولا يترتب عليه شيء إلا بإذنه تعالى ﴿ وَتُبْرِىءُ الاكمه والابرص بِإِذْنِى ﴾ عطف على (تخلُق) .

(79/219)

﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الموتى بِإِذْنِى ﴾ عطف على (إذ تخلق) أعيد فيه إذْ ، لكون إخراج الموتى من قبورهم لا سيما بعد ما صارت رميماً ، معجزةً باهرةً ونعمةً جليلة حقيقةً بتذكير وقتها صريحاً ، قيل : أخرج سامَ بنَ نوح ورجلين وامرأةً وجاريةً ، وتكرير قوله : ﴿ بِإِذْنِى ﴾ في المواضع الأربعة للاعتناء بتحقيق الحق ببيان أن تلك الخوارقَ ليست من قبل عيسى عليه الصلاة والسلام بل من جهته سبحانه قد أظهرها على يديه معجزةً له ونعمةً خصَّها به ، وأما ذكرُه في سورة آلِ عِمرانَ مرتين لما أن ذلك موضعُ الإخبار ، وهذا موضعُ تعداد النعم

﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إسراءيل عَنكَ ﴾ عطف على (إذ تخرج) أي منعتُ اليهودَ الذين أرادوا بك السوء عن التعرُّض لك ﴿ إِذْ جِئْتَهُمْ بالبينات ﴾ بالمعجزات الواضحة مما ذُكر وما لم يُذكر ، كالإخبار بما يأكلون وما يدّخِرون في بيوتهم ونحوِ ذلك ، وهو ظرفٌ لكففت ، لكن لا باعتبار المجيء بها فقط بل باعتبار ما يعقبُه من قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإن قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتيالَه عليه السلام المُحوِجَ إلى الكف ، أي كففتُهم عنك حين قالوا ذلك عند مجيئِك إياهم بالبينات ، وإنما وُضع موضعَ ضميرِهم الموصولُ لذمهم بما في حيّز الصلة ، فكلمة (من) بيانية ، وهذا إشارة إلى ما جاء به ، والتذكير لأن إشارتهم إلى ما رأَوْه من نفس المسمّى من حيث هو ، أو من حيث هو سحر لا من حيث هو مسمى بالبينات ، وقرىء (إن هذا إلا ساحر مبين) فهذا حينئذ إشارة إلى عيسى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(80/219)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) .

بَيَّنَا فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ 87 ، 88 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَجْهَ الِاتِّصَالِ وَالتَّرْتِيبِ بَيْنَ مَجْمُوعِ آيَاتِهَا وَطَوَائِفِهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى هَذَا السِّيَاقِ الْأَخِيرِ مِنْهَا وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِمُحَاجَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَامَّةً ، وَالنَّصَارَى مِنْهُمْ خَاصَّةً ، وَفِيهِ ذِكْرُ الْمَعَادِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ أَمْرُ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الدِّينِ وَأَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخَاطَبِينَ بِالْأَحْكَامِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا ، وَهَذَا هُوَ وَجْهُ الْمُنَاسَبَةِ وَالِاتِّصَالِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً مِنْ آيَاتِ الْأَحْكَامِ . وَيَرَى بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ كَلِمَةَ "يَوْمٍ" أَوَّلُهَا فِي مُتَعَلِّقَاتِ الْآيَةِ أَوِ الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا كَمَا نَرَى فِيهَا يَلِي :

(81/219)

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ) قِيلَ : إِنَّ هَذَا مُتَعَلِّقٌ بِالْفِعْلِ مِنْ آخِرِ جُمْلَةٍ مِمَّا قَبْلَهُ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ يَوْمَ يَجْمَعُ الرُّسُلَ فِي الْآخِرَةِ وَيَسْأَلُهُمْ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَمَا أَجَابَتْهُمْ بِهِ أَقْوَامُهُمْ أَوْ لَا يَهْدِيهِمْ يَوْمَئِذٍ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : (وَاتَّقُوا اللَّهَ) أَوْ بِقَوْلِهِ : (وَاسْمَعُوا) أَيْ وَاتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ يَوْمَ جَمْعِهِ الرُّسُلَ أَوْ وَاسْمَعُوا يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ . أَيْ خَبَرَهُ وَمَا يَكُونُ فِيهِ .

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ الْآيَةَ مُنْقَطِعَةٌ عَمَّا قَبْلَهَا وَالْمَعْنَى : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ وَيَسْأَلُهُمْ يَكُونُ

مِنَ الْأَهْوَالِ مَا لَا يَفِي بِبَيَانِهِ مَقَالٌ ، أَوِ الْمَعْنَى وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ : مَاذَا أَجَبْتُمْ ؟ وَهَذَا التَّقْدِيرُ أَظْهَرُ ، وَلَهُ فِي التَّنْزِيلِ

(82/219)

نَظَائِرُ . وَالْمُرَادُ مِنَ السُّؤَالِ تَوْبِيخُ أُمَمِهِمْ ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ، وَالْمَعْنَى أَيُّ إِجَابَةٍ أَجَبْتُمْ ، أَإِجَابَةُ إِيمَانٍ وَإِقْرَارٍ أَمْ إِجَابَةُ كُفْرٍ وَاسْتِكْبَارٍ ؟ فَهُوَ سُؤَالٌ عَنْ نَوْعِ الْإِجَابَةِ لَا عَنِ الْجَوَابِ مَاذَا كَانَ ، وَإِلَّا لَقُرِنَ بِالْبَاءِ . وَقِيلَ : الْبَاءُ مَحْذُوفَةٌ ، وَالتَّقْدِيرُ بِمَاذَا أَجَبْتُمْ . وَهَذَا السُّؤَالُ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبِيلِ سُؤَالِ الْمَوْءُودَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) (81 : 8 ، 9) فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا وَجْهٌ إِلَى الشَّاهِدِ دُونَ الْمُتَّهَمِ لِمَا ذُكِرَ آنِفًا مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَهُوَ يَكُونُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ ، وَيَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ بَعْدَ التَّفْوِيضِ الْآتِي ، أَوْ عَقِبَ سُؤَالٍ غَيْرِ هَذَا ، وَيَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى الْأُمَمَ فِي مَوْقِفٍ آخَرَ أَوْ فِي وَقْتٍ آخَرَ كَمَا هُوَ شَأْنُ قُضَاةِ التَّحْقِيقِ فِي سُؤَالِ الْخَصْمِ وَالشُّهُودِ لِتَحَقُّقِ شَرَائِطِ الْحُكْمِ الصَّحِيحِ كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ ، قَالَ تَعَالَى : (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) (7 : 6 ، 7) .

(83/219)

وَلَمَّا كَانَ تَعَالَى يَسْأَلُ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَمَّا هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ ، وَكَانَ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عِلْمٍ يَقِينِيٍّ بِذَلِكَ يَكُونُ جَوَابُهُمْ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ بِالسُّؤَالِ التَّبَرُّؤَ مِنَ الْعِلْمِ وَتَفْوِيضَهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى إِمَّا لِنُقْصَانِ عِلْمِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِهِ تَعَالَى كَمَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَإِمَّا لِمَا يُفَاجِئُهُمْ مِنْ فَزَعِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَوْ هَوْلِهِ أَوْ ذُهُولِهِ كَمَا نُقِلَ عَنِ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

(84/219)

(قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) جَاءَ الْجَوَابُ مُنْفَصِلًا كَسَائِرِ مَا يَأْتِي مِنْ أَقْوَالِ الْمُرَاجَعَةِ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ ، وَعَبَّرَ بِالْمَاضِي عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ وَقَعَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَقُولُونَ لِلرَّبِّ : لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا عِلْمٌ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا . يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ بِنَفْيٍ لِعِلْمِهِمْ بِإِطْلَاقٍ وَإِنَّمَا هُوَ نَفْيٌ لِعِلْمِ الْإِحَاطَةِ الَّذِي هُوَ خَاصٌّ بِالْخَلَّاقِ الْعَلِيمِ ؛ إِذِ الرُّسُلُ كَانُوا يَعْلَمُونَ ظَاهِرَ مَا أُجِيبُوا بِهِ مِنْ مُخَاطَبِيهِمْ وَلَا يَعْلَمُونَ بَوَاطِنَهُمْ ، وَلَا حَالَ مَنْ لَمْ يَرْوِهِ مِنْ أُمَمِهِمْ ، إِلَّا مَا يُوحِيهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ ؛ وَلِذَلِكَ فَقَرَنُوا نَفْيَ الْعِلْمِ عَنْهُمْ بِإِثْبَاتِ الْمُبَالَغَةِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ لَهُ تَعَالَى ، فَإِنَّ صِيغَةَ " عَلَّامُ " مَعْنَاهَا كَثِيرُ الْعِلْمِ ،

أَيْ بِكَثْرَةِ الْمَعْلُومَاتِ ، وَإِلَّا فَعِلْمُهُ وَاحِدٌ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ إِحَاطَةً كَامِلَةً . وَلَا يُوصَفُ تَعَالَى بِالْعَلَّامَةِ ، وَلَعَلَّهُ لِمَا فِيهِ مِنْ تَاءِ التَّأْنِيثِ . قَالَ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُنْجِيَ وَلَدَهُ مِنَ الطُّوفَانِ : (فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) (11 : 46) وَقَالَ لِخَاتَمِ رُسُلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) (9 : 101) .

(85/219)

وَقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ الرُّسُلَ أَرَادُوا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ حَالِ أُمَمِهِمْ إِلَّا الظَّنُّ الَّذِي هُوَ ظَاهِرُ حَالِهِمْ لَا الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ الَّذِي يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، بِدَلِيلِ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنَ الْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ (قَالَ) فَالْأَنْبِيَاءُ قَالُوا : لَا عِلْمَ لَنَا أَلْبَتَّةَ بِأَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا الْحَاصِلُ عِنْدَنَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ هُوَ الظَّنُّ ، وَالظَّنُّ كَانَ مُعْتَبَرًا فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى الظَّنِّ ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَلَا الْتِفَاتَ فِيهَا إِلَى الظَّنِّ ؛ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ فِي الْآخِرَةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَبَوَاطِنِ الْأُمُورِ . فَلِهَذَا السَّبَبِ قَالُوا : (لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) (2 : 32) وَلَمْ يَذْكُرُوا أَلْبَتَّةَ مَا مَعَهُمْ مِنَ الظَّنِّ ؛ لِأَنَّ الظَّنَّ لَا عِبْرَةَ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ اهـ .

وَنَقُولُ : إِنَّ هَذَا رَأْيٌ ضَعِيفٌ وَإِنْ بُنِيَ عَلَى اصْطِلَاحِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْأُصُولِ فِي تَفْسِيرِ الظَّنِّ وَالْعِلْمِ ، وَالصَّوَابُ مَا بَيَّنَاهُ قَبْلَهُ وَذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ يَعْلَمُونَ كَثِيرًا مِنَ الْحَقَائِقِ عِلْمًا يَقِينِيًّا ، كَاسْتِكْبَارِ الْمُجْرِمِينَ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَتِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمِنْ عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ مَا شَهِدَ بِهِ التَّنْزِيلُ إِذْ أَخْبَرَهُمُ اللهُ أَنَّ أُولَئِكَ الْمُعَانِدِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ، وَأَنَّهُ قَدْ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَحَقَّ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُكَاشِفُ النَّبِيَّ بِحَالِهِمْ وَيَمْثُلُونَ لَهُ فِي النَّارِ كَمَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ صَادِقُونَ فِي إِيمَانِهِمْ وَبَشَّرَهُمْ بِالْجَنَّةِ ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ ضُعَفَاءُ الْإِيمَانِ وَلَكِنَّ إِيمَانَهُمْ صَحِيحٌ مَقْبُولٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، وَالْعِلْمُ بِالظَّوَاهِرِ يَقْبَلُ فِي شَهَادَتِهِمْ عَلَى الْجَاحِدِينَ إِذْ لَا عِبْرَةَ بِالْإِيمَانِ فِي الْبَاطِنِ مَعَ الْجُحُودِ فِي الظَّاهِرِ بَلْ هُوَ أَشَدُّ الْكُفْرِ ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ عَلَى أُمَمِهِمْ ، فَلَوْ كَانَ كُلُّ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ أَحْوَالِ أُمَمِهِمْ ظَنًّا لَا عِبْرَةَ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ لَمَا كَانَ لِشَهَادَتِهِمْ فَائِدَةٌ : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) (4 : 41) .

ذَكَرَ اللهُ سُؤَالَ الرُّسُلِ وَجَوَابَهُمْ بِالْإِجْمَالِ ثُمَّ بَيَّنَ بِالتَّفْصِيلِ سُؤَالَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنِ التَّبْلِيغِ وَجَوَابِهِ عَنِ السُّؤَالِ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ يَدَّعُونَ اتِّبَاعَهُ ، وَهُمُ الَّذِينَ حَاجَّتْهُمْ هَذِهِ السُّورَةُ فِيمَا يَقُولُونَ فِي رَسُولِهِمْ أَوْسَعَ الِاحْتِجَاجِ ، وَأَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْبُرْهَانَ فِي إِثْرِ الْبُرْهَانِ ، وَقَدَّمَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ مَا خَاطَبَ بِهِ هَذَا الرَّسُولَ مِنْ بَيَانِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ وَآيَاتِهِ لَهُ الَّتِي كَانَتْ مَنْشَأَ افْتِتَانِ النَّاسِ بِهِ فَقَالَ :

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِذْ قَالَ) بَدَلٌ مِنْ "يَوْمَ يَجْمَعُ" وَهُوَ عَلَى طَرِيقَةِ (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) أَيْ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِالْمَاضِي ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى يُوَبِّخُ الْكَفَرَةَ يَوْمَئِذٍ بِسُؤَالِ الرُّسُلِ عَنْ إِجَابَتِهِمْ وَتَعْدِيلِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ ، فَكَذَّبَتْهُمْ طَائِفَةٌ وَسَمَوْهُمْ سَحَرَةً ، وَغَلَا آخَرُونَ وَاتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً . أَوْ نُصِبَ بِإِضْمَارِ "اذْكُرْ" اهـ .

(88/219)

وَالنِّعْمَةُ تُسْتَعْمَلُ مَصْدَرًا وَاسْمًا لِمَا حَصَلَ بِالْمَصْدَرِ ، وَالْمُفْرَدُ الْمُضَافُ يُفِيدُ التَّعَدُّدَ وَالْمَعْنَى : اذْكُرْ إِنْعَامِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ، وَقْتَ تَأْيِيدِي إِيَّاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ إِلَخْ . أَوِ

اذْكُرْ نعمِي حَال كَوْنِهَا وَاقِعَةً عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ أَيْ قَوَّيْتُكَ شَيْئًا فَشَيْئًا بِرُوحِ الْقُدُسِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ حُجَّتُكَ ، وَتَبْرَأُ مِنْ تُهْمَةِ الْفَاحِشَةِ وَالِدَتُكَ ، حَال كَوْنِكَ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ بِمَا يُبَرِّئُهَا مِنْ قَوْلِ الْآثِمِينَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا عَلَيْهَا أَنْ يَكُونَ لَهَا غُلَامٌ مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ يَكُونُ أَبًا لَهُ ، وَكَهْلًا حِينَ بَعَثْتُ فِيهِمْ رُسُلًا تُقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِمَا ضَلُّوا بِهِ عَنِ الْحُجَّةِ ، فَكَلَامُهُ فِي الْمَهْدِ هُوَ قَوْلُهُ : (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) (19 : 30) إِلَى آخِرِ مَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ .

وَرُوحُ الْقُدُسِ هُوَ مَلَكُ الْوَحْيِ الَّذِي يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِ الرُّسُلَ بِالتَّعْلِيمِ الْإِلَهِيِّ وَالتَّثْبِيتِ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي مِنْ شَأْنِ الْبَشَرِ أَنْ يَضْعُفُوا فِيهَا . قَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْقُرْآنِ : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (16 : 102) . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) (8 : 12) .

(89/219)

(وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ) أَيْ وَنِعْمَتِي عَلَيْكَ إِذْ عَلَّمْتُكَ قِرَاءَةَ الْكِتَابِ أَيْ مَا يُكْتَبُ أَوِ الْكِتَابَةَ بِالْقَلَمِ ، أَيْ وَفَّقْتُكَ لِتَعَلُّمِهَا ، وَالْحِكْمَةَ . . وَهِيَ

الْعِلْمُ الصَّحِيحُ الَّذِي يَبْعَثُ الْإِرَادَةَ إِلَى الْعَمَلِ النَّافِعِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِقْنَاعِ وَالْعِبْرَةِ وَالْبَصِيرَةِ وَفِقْهِ الْأَحْكَامِ ، وَالتَّوْرَاةَ : وَهِيَ الشَّرِيعَةُ الْمُوسَوِيَّةُ ، وَالْإِنْجِيلَ : وَهُوَ مَا أَوْحَاهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْأَحْكَامِ ، وَالْبِشَارَةِ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي حَقِيقَةِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ فِي تَفْسِيرِ أَوَّلِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ [ص 129 إِلَى 132 ج 3 ط الْهَيْئَةِ] وَفِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ [ص 234 250 ج 6 ط الْهَيْئَةِ] .

(90/219)

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي) قَرَأَ نَافِعٌ هُنَا وَفِي آيَةِ آلِ عِمْرَانَ " فَتَكُونُ طَائِرًا " وَالطَّائِرُ وَاحِدُ الطَّيْرِ كَرَاكِبٍ وَرَكْبٍ وَالْجُمْهُورُ : " فَتَكُونُ طَيْرًا " قِيلَ : هُوَ جَمْعٌ ، وَقِيلَ : اسْمُ جَمْعٍ ، وَأَجَازَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَقُطْرُبٌ إِطْلَاقَ طَيْرٍ عَلَى الْوَاحِدِ ، وَلَعَلَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ أَصْلَهُ الْمَصْدَرُ كَمَا وَجَّهَهُ ابْنُ سِيدَهْ ، وَلَفْظُ الطَّيْرِ مُؤَنَّثٌ بِمَعْنَى جَمَاعَةٍ . وَالْخَلْقُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ : التَّقْدِيرُ ؛ أَيْ جَعْلُ الشَّيْءِ بِمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ . يُقَالُ : خَلَقَ الْإِسْكَافِيُّ النَّعْلَ ثُمَّ فَرَاهُ ، أَيْ عَيَّنَ شَكْلَهُ وَمِقْدَارَهُ ، ثُمَّ قَطَعَهُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

فَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ ، وَبَعْـ . . . ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

(91/219)

وَمِنْهُ خَلْقُ الْكَذِبِ وَالْإِفْكِ قَالَ تَعَالَى : (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) (29 : 17) أَيْ تُقَدِّرُونَ وَتُزَوِّرُونَ كَلَامًا يَأْفِكُ سَامِعَهُ أَيْ يَصْرِفُهُ عَنِ الْحَقِّ . وَيُسْتَعْمَلُ فِي إِيجَادِ اللهِ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ بِتَقْدِيرٍ مُعَيَّنٍ فِي عِلْمِهِ ، وَالْمَعْنَى : وَاذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ إِذْ تَجْعَلُ قِطْعَةً مِنَ الطِّينِ مِثْلَ هَيْئَةِ الطَّيْرِ فِي شَكْلِهَا وَمَقَادِيرِ أَعْضَائِهَا فَتَنْفُخُ فِيهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ ، أَوْ بِتَسْهِيلِهِ أَوْ تَكْوِينِهِ ، إِذْ يَجْعَلُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ نَفْسَكَ سَبَبًا لِحُلُولِ الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ مِنَ الطِّينِ ، فَأَنْتَ تَفْعَلُ التَّقْدِيرَ وَالنَّفْخَ ، وَاللهُ هُوَ الَّذِي يُكَوِّنُ الطَّيْرَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ نَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ كَلَامٌ مِنْ شَيْخِنَا الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ ، مَضْمُونُهُ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُعْطِيَ هَذِهِ الْآيَةَ أَيْ مَكَّنَهُ اللهُ مِنْهَا وَلَمْ يَفْعَلْهَا .

وَاسْتَدْرَكْنَا عَلَى ذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى دَلَالَةِ آيَةِ الْمَائِدَةِ هَذِهِ عَلَى وُقُوعِهَا مِنْ غَيْرِ جَزْمٍ بِذَلِكَ ، وَبَيَّنَّا سِرَّ ذَلِكَ وَحِكْمَتَهُ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ وَهُوَ قُوَّةُ رُوحَانِيَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَا يَبْعُدُ كِتْمَانُ الْيَهُودِ لِهَذِهِ الْآيَةِ إِذَا كَانَ رَآهَا بَعْضُهُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً وَعَدَّهُ مِنَ السِّحْرِ اعْتِقَادًا أَوْ مُكَابَرَةً وَخَافَ أَنْ تَجْذِبَ قَوْمَهُ إِلَى الْمَسِيحِ ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (بِإِذْنِي)

(92/219)

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يُعْطَ هَذِهِ الْقُوَّةَ دَائِمًا بِحَيْثُ جُعِلَ السَّبَبُ الرُّوحِيُّ فِيهَا كَالْأَسْبَابِ الْجُسْمَانِيَّةِ الْمُطَّرِدَةِ ، بَلْ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ كَغَيْرِهَا لَا تَقَعُ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ اللهِ وَتَأْيِيدٍ مِنْ لَدُنْهُ ، وَنُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ عَنْ فِعْلٍ مَضَى هِيَ تَصْوِيرُ ذَلِكَ الْمَاضِي وَتَمْثِيلُهُ حَاضِرًا فِي الذِّهْنِ كَأَنَّهُ حَاضِرٌ فِي الْخَارِجِ ، لَا لِإِفَادَةِ الِاسْتِمْرَارِ ، فَإِنَّهُ فِعْلٌ مَضَى وَالْكَلَامُ تَذْكِيرٌ بِهِ كَمَا وَقَعَ إِذْ وَقَعَ .

(وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي) عَطَفَ التَّذْكِيرَ بِإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ عَلَى مَا قَبْلَهُ مُبَاشَرَةً فَلَمْ يَبْدَأْ بِإِذْ ، وَبُدِئَ بِهَا لِلتَّذْكِيرِ بِإِخْرَاجِ الْمَوْتَى ، فَكَانَ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ : (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ) وَلَعَلَّ نُكْتَةَ ذَلِكَ أَنَّ إِبْرَاءَ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ مِنْ جِنْسِ

(93/219)

شِفَاءِ الْمَرَضِ الَّذِي قَدْ يَقَعُ بَعْضُ أَفْرَادِهِ عَلَى أَيْدِي غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَظُنُّ الْمَرْضَى فِيهِمُ الصَّلَاحَ وَالْوِلَايَةَ ، فَلَمَّا كَانَ كَذَلِكَ ذُكِرَ بِالتَّبَعِ إِحْيَاءِ الصُّورَةِ مِنَ الطَّيْرِ ، وَلَمَّا كَانَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى أَعْظَمَ مِنْهُ جُعِلَ نِعْمَةً مُسْتَقِلَّةً فَقُرِنَ بِإِذْ ، وَالْمُرَادُ بِالْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ وَالْمَوْتَى الْجِنْسُ وَالْأَكْمَهُ مَنْ وُلِدَ أَعْمَى ، وَيُطْلَقُ عَلَى مَنْ عَمِيَ بَعْدَ الْوِلَادَةِ أَيْضًا . وَفِي كُتُبِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ أَنَّهُ أَبْرَأَ كَثِيرًا مِنَ الْعُمْيِ وَالْبُرْصِ وَأَحْيَا ثَلَاثَةَ أَمْوَاتٍ : (الْأَوَّلُ) ابْنُ أَرْمَلَةَ

وَحِيدٌ فِي (نَايِينَ) كَانُوا يَحْمِلُونَهُ عَلَى النَّعْشِ فَلَمَسَ النَّعْشَ وَأَمَرَ الْمَيِّتَ أَنْ يَقُومَ مِنْهُ فَقَامَ ، فَقَالَ الشَّعْبُ : " قَدْ قَامَ فِينَا نَبِيٌّ عَظِيمٌ وَافْتَقَدَ اللهُ شَعْبَهُ " أَيْ شَعْبُ إِسْرَائِيلَ انْتَهَى . (مِنْ إِنْجِيلِ لُوقَا 7 : 11 17) . (الثَّانِي) ابْنَةُ رَئِيسٍ مَاتَتْ وَدَعَاهُ لِإِحْيَائِهَا فَجَاءَ بَيْتَهُ وَقَالَ لِلْجَمِيعِ : " تَنَحَّوا ، فَإِنَّ الصَّبِيَّةَ لَمْ تَمُتْ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ فَضَحِكُوا عَلَيْهِ ، فَلَمَّا أَخْرَجَ الْجَمْعَ دَخَلَ وَأَمْسَكَ بِيَدِهَا فَقَامَتِ الصَّبِيَّةُ " وَالْقِصَّةُ فِي (إِنْجِيلِ مَتَّى 9 : 18 26) وَنَفْيُهُ لِمَوْتِهَا ثُمَّ إِثْبَاتُهُ لِنَوْمِهَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالنَّوْمِ الْمَوْتَ مَجَازًا عَلَى مَا نَقَلْ عَنْهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَعَلَيْهِ قَدْ يُقَالُ : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أُغْمِيَ عَلَيْهَا فَظَنُّوا أَنَّهَا مَاتَتْ فَعُلِمَ بِالْكَشْفِ أَوِ الْوَحْيِ أَنَّهَا لَمْ

(94/219)

تَمُتْ ، وَالْمُسْلِمُونَ لَا يَثِقُونَ بِنُقُولِ الْقَوْمِ وَلَا بِدِقَّتِهِمْ فِي التَّرْجَمَةِ وَمُرَاعَاةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْإِثْبَاتُ بَعْدَ النَّفْيِ . (الثَّالِثُ) لِعَازَرَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ جِدًّا وَيُحِبُّ أُخْتَيْهِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا كَمَا يُحِبُّونَهُ ، فَفِي الْفَصْلِ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا أَنَّهُ كَانَ مَاتَ فِي بَيْتٍ عُنِيًّا ، وَوُضِعَ فِي مَغَارَةٍ ، فَجَاءَ الْمَسِيحُ وَكَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ وَقَالَ : " أَيُّهَا الْآبُ أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي ، وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي ، وَلَكِنْ لِأَجْلِ هَذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ

قُلْتُ لِيُؤْمِنُوا إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي ، وَلَمَّا قَالَ هَذَا : صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ " لِعَازَرَ هَلُمَّ خَارِجًا " فَخَرَجَ الْمَيِّتُ إِلَخْ . وَمَا حِدَةُ أُورُبَّةَ يَزْعُمُونَ أَنَّ لِعَازَرَ تَمَاوَتَ بِإِذْنِ الْمَسِيحِ وَالتَّوَاطُؤِ مَعَهُ . . وَقَدْ كَذَبُوا أَخْزَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَمْ يَنْقُلِ النَّصَارَى عَنْهُ أَنَّهُ أَحْيَا أَمْوَاتًا كَانُوا تَحْتَ التُّرَابِ بَعْدَ الْبِلَى كَمَا نُقِلَ عَنْ دَانْيَالَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

(95/219)

وَتَكْرَارُ كَلِمَةِ الْإِذْنِ بِتَقْيِيدِ كُلِّ فِعْلٍ مِنْ تِلْكَ الْأَفْعَالِ بِهَا يُفِيدُ أَنَّهُ مَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ الْخَاصَّةِ وَقُدْرَتِهِ . وَالْإِذْنُ يُطْلَقُ عَلَى الْإِعْلَامِ بِإِجَازَةِ الشَّيْءِ وَالرُّخْصَةِ فِيهِ وَعَلَى الْأَمْرِ بِهِ وَكَذَا عَلَى الْمَشِيئَةِ وَالتَّيْسِيرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (2 : 102) وَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ بِإِجَازَتِهِ أَوْ أَمْرِهِ ، وَمِثْلُهُ بَلْ أَظْهَرُ مِنْهُ قَوْلُهُ : (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ) (3 : 166) أَيْ بِإِرَادَتِهِ وَتَيْسِيرِهِ .

(96/219)

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) أَيْ وَاذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ حِينَ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ فَلَمْ أُمَكِّنْهُمْ مِنْ قَتْلِكَ وَصَلْبِكَ وَقَدْ أَرَادُوا ذَلِكَ وَقْتَ تَكْذِيبِ كُفَّارِهِمْ إِيَّاكَ وَزَعْمِهِمْ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا سِحْرًا ظَاهِرًا ، لَا مِنْ جِنْسِ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى ، عَلَى أَنَّهَا مِثْلُهَا أَوْ أَظْهَرُ مِنْهَا ، قَرَأَ الْجُمْهُورُ (سِحْرٌ) وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (سَاحِرٌ) بِالْأَلِفِ ، وَرَسَمَهَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ بِغَيْرِ أَلِفٍ كَكَلِمَةِ (مَلِكُ) فِي الْفَاتِحَةِ وَتُقْرَأُ (مَالِكُ) ، وَكَلِمَةِ (الْكُتُبُ) فِي عِدَّةِ سُوَرٍ تُقْرَأُ فِيهَا (الْكِتَابُ) بِالْإِفْرَادِ كَمَا تُقْرَأُ فِي بَعْضِهَا بِصِيغَةِ الْجَمْعِ ، وَلَوْ كُتِبَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ بِالْأَلِفِ لَمَا احْتَمَلَتْ إِلَّا قِرَاءَةَ الْمَدِّ وَحْدَهَا ، وَظَاهِرٌ أَنَّ قِرَاءَةَ الْجُمْهُورِ (سِحْرٌ) يُرَادُ بِهَا أَنَّ تِلْكَ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مِنَ السِّحْرِ وَهُوَ التَّمْوِيهُ وَالتَّخْيِيلُ الَّذِي يُرِي الْإِنْسَانَ الشَّيْءَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ ، أَوْ مَا لَهُ سَبَبٌ خَفِيٌّ عَنْ غَيْرِ فَاعِلِهِ وَأَنَّ قِرَاءَةَ (سَاحِرٌ) يُرَادُ بِهَا أَنَّ مَنْ أَتَى بِتِلْكَ الْبَيِّنَاتِ سَاحِرٌ ، إِذْ جَاءَ بِأَمْرٍ صِنَاعِيٍّ أَوْ بِتَخْيِيلٍ بَاطِلٍ ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْقِرَاءَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ طَعَنُوا فِي تِلْكَ الْآيَاتِ بِأَنَّهَا سِحْرٌ ، وَفِيمَنْ جَاءَ بِهَا بِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ السَّحَرَةِ

(97/219)

، أَيْ فَلَا يُعْتَدُّ بِشَيْءٍ مِمَّا يَظْهَرُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، فَأَفَادَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِنْ جَاءَهُمْ بِآيَاتٍ أُخْرَى ، إِذْ لَمْ يَكُنِ الطَّعْنُ فِيمَا كَانَ قَدْ جَاءَ بِهِ لِشُبُهَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَإِنَّمَا كَانَ عَنْ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ ادَّعَوْا بِهِمَا أَنَّ السِّحْرَ صَنْعَةٌ لَهُ يَجِبُ أَنْ يُوصَفَ بِهِ كُلُّ شَيْءٍ غَرِيبٍ يَجِيءُ بِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 201. 207 ﴾

(98/219)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا . . . الآية ﴾

لماذا إذن يجمع الله كل الرسل ويسألهم سؤالاً على الإجمال ، ثم لماذا يأتي بعيسى ابن مريم ليسأله سؤالاً خاصاً عن حادثة مخصوصة ؟

أراد الحق بذلك أن يعلمنا أنه سيسأل الرسل سؤالاً يوضح لنا أدب الرسل مع الحق ، ويبين لنا تقريع الحق لمن كفروا بالمنهج ، أما سؤاله سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم ، ذلك السؤال

الخاص عن الحادثة المخصوصة ، فمرد ذلك إلى أن بعض الذين آمنوا به قد وضعوه في موضع الألوهية أو بنوّة الألوهية ، وفي ذلك تعدٍ على التنزيه المطلق للحق سبحانه وتعالى . ونعلم أن قصارى ما صنعت الأمم السابقة أن بعضهم كفر بالرسل ، وبعضهم كذب الرسل ، لكن لم يدع أحد من هذه الأمم أن الرسول الذي جاء هو إله ، لم يقل ذلك أحد وإن كان بعض فرق اليهود قد قالوا : إن عزيرا هو ابن الله وهذه الفرقة قد انقرضت ولم يبق يهودي يقول ذلك ، وسبحانه قد جعل الشرك به قمة الكفر الذي لا غفران له . [النساء : 48] .

(99/219)

فكأن عيسى عليه السلام سيواجه السؤال ضمن الرسل ، ثم يسأله الحق سؤالاً خاصاً به . ويقدم الحق السؤال لعيسى ابن مريم بعد أن ذكّره بعدد من النعم التي أنعم بها سبحانه وتعالى عليه وعلى أمه مريم عليه وعليها السلام : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ اذكر نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس تُكَلِّمُ الناس فِي المهد وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأكمه والأبرص بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الموتى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بني إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بالبينات فَقَالَ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة :

. [110

ونجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى يعدد بعضاً من نعمه على سيدنا عيسى وهي : التأييد بروح القدس وهو سيدنا جبريل عليه السلام ، والكلام في المهد بما يبرئ أم عيسى السيدة مريم عليها السلام مما ألصقوه بها من اتهامات ، وتعليم الحق له الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وأنه سبحانه قد أقدره على أن يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه وأن ينفخ فيه فيصير طيراً بإذنه سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أن يبرئ الأعمى من العمى . وأن يعيد إلى الأبرص لون جلده الطبيعي ويشفيه ، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه ، وكذلك منع الحق عن عيسى ابن مريم كيد اليهود وكف أيدي الذين أرادوا صلبه وقتله على الرغم من أنه جاء لهم بالمعجزات السابقة حتى يؤمنوا فآمن بعض منهم وكفر الذي قال : عن تلك المعجزات : إنها مجرد سحر .

(100/219)

وعندما نتأمل بالخواطر أمراً واحداً من تلك الأمور نجد أن قدرة الحق سبحانه وتعالى لها تمام الوضوح الظاهر ، فمجرد كلام عيسى في المهد هو معجزة ؛ والمهد – كما نعلم – هو الفراش المريح للطفل يعده له الأهل ساعة أن يولد ؛ لأن الطفل لا قدرة له على أن يتزحزح من

مكانه إن كان هناك شيء بارز في مهده يضايقه ؛ لأن الطفل يملك الحس ولكن لا قدرة له على مدافعة ما يتطلبه الحس .

إن الطفل المولود لا يستطيع مثلا أن يمد يده ليزيل الحصوة الناتئة من الأرض تحت المهد لذا يمهدون فراشه ويوطئونه له . إنه مجرد روح في جسد صغير لا حول ولا قوة له إلا استبقاء الحياة بالتعلق بثدي الأم ، فإن تكلم طفل في المهد ، فمعنى ذلك أنه امتلك إرادة يسيطر بها على كل جسمه إلى الدرجة التي يمكنه أن ينطق بها الكلام ، وهذا لا يحدث أبداً . ونجد الأهل يمهدون الفراش للطفل ، لأنهم يعلمون أن أقصى تعبير عن الانفعال هو أن يبكي . وإذا ما تمكنت حشرة صغيرة من لدغ الطفل كالبرغوث أو البعوضة فالطفل لا يملك إلا البكاء . وقد تكلم عيسى في المهد بعد أن أقدره الحق على ذلك . ثم جاء الحق بحقيقة هي المقابل للمهد وهي الكلام في الكهولة . فإن كان قد تكلم في المهد إعجازاً ليبرئ أمه البتول فإنه سوف يتكلم كهلاً مبلغاً عن الله . ولم يتكلم عيسى ابن مريم وهو في المهد إلا بما قاله الحق في القرآن الكريم : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصلاةِ والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : 30-33] .

(101/219)

قال عيسى عليه السلام في المهد هذه الكلمات ليبرئ أمه الصدّيقة ، ذلك أنهم اتهموها في أعز شيء لديها ، ولذلك لم يكن ليجدي أي كلام منها . وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً ﴾ [مريم : 26] .

وسبحانه وتعالى يعلم أن ميلاد عيسى من أم لم يمسسها رجل هو خرق لناموس الكون في الحمل ، وكذلك أراد الحق أن يكون هناك خرق للناموس في الكلام فيتكلم عيسى في المهد بكلام معجز له معنى . وعلمه الحق الكتاب : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب ﴾ أي علمه الله الكتابة ، وعلمه التوراة ، وأنزل عليه الإنجيل ، وألهمه الحكمة وهي الكلام المحكم الصواب بإلهامات الله ومقابلها في الإسلام أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وجاءت دقة الأداء القرآني لتمنع أي تصور لتدخل من ذات عيسى فيما أجراه الله على يديه وذلك منعاً للفتنة فقال الحق : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير ﴾ إذن فعيسى لا يخلق الطير ولكن يصنع من الطين مثل هيئة الطير ، فالحق وحده هو الذي يخلق الطير ؛ فلأنه الإله فهو الذي يخلق خلقاً عاماً ، أما البشر فبإمكانهم أن يخلقوا أشياء ويشكلوها كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات .

إننا نرى ذلك في التماثيل التي ينحتها المثَّال من الصخر أو يشكلها من الطين كهيئة الجمل أو

العصفور ، لكنه لا يملك أن ينفخ فيه الروح ، وقد يخترع الإنسان أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقى ، لكننا لم نسمع عن خلق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الاثنين نسل من الأكواب !

(102/219)

إننا نرى دائماً أن خلق الإنسان لشيء إنما يظل معقوداً على حاله فلا ينسل ولا ينمو ولا يحس ، والخالق الأعظم يخلق من عدم ، أما أنت أيها الإنسان فتصنع أشياء مما وهبك الله من أشياء موجودة مطمورة في الأرض أو ظاهرة . ولم يضن سبحانه عليك بل أطلق عليك بأنك خلقت ، ولكن لتنتبه إلى أنه سبحانه وتعالى أحسن الخالقين .

إذن فعيسى صَنَع من الطين مثل هيئة الطير ، وكان ذلك بإذن من الله ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله . والفارق بين قدرة الحادث وهو العبد ، وقدرة الباقي القدير وهو الرب أمران .

الأول : أن الحق سبحانه وتعالى حينما يقدر أمرا فهو يستطيعه بطلاقة قدرته أن يُقدر بعضاً من خلقه على أن يفعل الشيء ، لكن العبد لا يستطيع أن يقدر عبدًا آخر أن يصنع شيئاً مثل الذي يصنعه .

والمثال على ذلك : نجد الطفل إن أراد أن يحمل كرسياً فهو لا يقدر ، ويأتي شاب قوي

ليحملَ الكرسي للطفل ، هذا الشاب إنما يعدي أثر قوته إلى الطفل ولم يُعَدِّ لَهُ قوته ولم ينقلها له ، ويبقى الطفل ضعيفاً كما هو ، أما الحق سبحانه وتعالى فهو يُقْدرُ من يريد على ما يريد . فبعظمته سبحانه يعدي من قدرته إلى من لا يقدر ليَقْدر . والعظمة إذن فيما فعل المسيح هي أن الحق سبحانه أراد له أن يحيى فنفخ في الطين فصار طيراً بإذن الله . وقد سبق سيدنا إبراهيم سيدنا عيسى في ذلك عندما سأل الله : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى ﴾ [البقرة : 260] .

فسأله الله : ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة : 260] .

فقال إبراهيم : " بلى " أي أنه آمن ، وأضاف : ﴿ بلى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : 260] .

(103/219)

والكلام هنا جهته منفكة ، فإبراهيم قد آمن ، والإيمان اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، وما جرى زاد إبراهيم تيقناً . ولم يسأل إبراهيم ربه : أتحيى الموتى ولكن إبراهيم أقر أولاً بقدرة الحق على الإحياء وتساءل عن الكيفية . وطلب الكيفية لا شأن له بالإيمان ؛ لأن الكيفية تتطلب تجربة . فأمره الحق أن يأتي بأربعة من الطير وضمها إليه ليتعرف عليها جيداً .

وأن يقطعها إبراهيم بيديه ويضع كل قطعة على جبل ويناديها ، فتأتي القطع بنداء إبراهيم وقد صارت هي الطير نَفْسَهَا التي كانت من قبل .

وهكذا أراد الله لعيسى عليه السلام أن يصنع من الطين مثل هيئة الطير بإذن الله وأن ينفخ فيها بإذن الله فيصير الطين طيراً .

وأراد الله لعيسى أن يبرئ الأكمه أي الذي ولد أعمى . وقد يقول قائل : إن في عصرنا يتم ترقيع القرنية ويمكن أن يَرَى ويبصر بعض من الذين ولدوا بلا قدرة على الإبصار . ونقول : إن ما يحدث في عصرنا هو سبق وتقدم على بناء على تجارب ، أما ما حدث مع عيسى فكان خرقاً للناموس وأراده الله معجزة . وكذلك أراد الله أن يجري على عيسى شفاء الأبرص أي الذي أصابه بياض كالرقع في بشرته . وكذلك كف بني إسرائيل عنه عندما أرادوا إيذاءه وقتله . وعندما رأوا كل ذلك آمن بعضهم ، وكفر البعض واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر . وكان ذلك منهم كذبا وافتراء عليه ؛ لأنه نبي مرسل بمعجزات واضحة .

(104/219)

وفي هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على سيدنا عيسى عليه السلام . وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيداً لأنها جرت عليه ، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها ، وقد أجرى سبحانه كل هذه النعم على عيسى عليه السلام وأيده الله بما يقوي ويزكي رسالته إلى قومه . فكانت نعمة أولا عليه ، لأنه مصطفى ، مختار ، مؤيد . ونلحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين : قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية . وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله في غيب الله . والقسم الأول الذي يقنع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة والتوارة والإنجيل .

والقسم الثاني الذي يقنع الماديين هو الأمور المادية الحسية التي يتعرف من يراها على أنها لا يمكن أن تجري على يد بشر ، كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً . وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص . وهذه الآيات خرق للناموس المادي ، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة : ﴿ بِإِذْنِي ﴾ أي أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله . ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى لأنها أمر ظاهر ومعروف ، حتى يكون الأمر واضحاً أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويرتفعون به إلى مقام أعلى من مقام

النبوة المؤيدة ممن أرسله . وحتى لا يخدع قوم عيسى في هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له ، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق الرسالة عن الله .

(105/219)

إن عيسى عليه السلام حينما أخذ كل قطعة من الطين ليصور منها طيراً وينفخ فيها فتكون طيراً لم يفعل ذلك بقدرته وإرادته ، وإنما حدث ذلك بإذن من الله ، ولم يحترف عيسى تلك المسألة ، وكذلك كان إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وكل ذلك خرق لناموس المادة ، لذلك كرر الحق القول بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له بل انحصر الأمر في هذه المسائل التي أذن الله فيها فقط .

إننا نجد أن كل خرق لناموس الغيب عند الأنبياء أو الأولياء ، أو من يعطيهم الله هذه الإشراقية ، هذا الخرق إنما هو لتكريم النبي أو الولي أو الذي تشرق عليه فيوضات الله ، وعلينا أن نعرف أن الله لم يعط إنساناً واحداً القدرة على العلم بالغيب . مطلقاً إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه بهبة من تجلياته على شيء جزئي . فالخلق سبحانه وتعالى هو مالك الغيب : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] .

ولم نر إنساناً علاماً للغيب ولكن يُعْلِمُهُ الله بغيب من بعض غيبه ، حتى نعلم أنها أحداث وقتية يتجلى الله فيها بفضله ، ليثبت حالة من الحالات ، ثم يظل الإنسان مع الناموس العام في كون الله . والناموس الكوني هو الأمور والقوانين التي أطلقها الله في الكون لتعمل لخدمة المؤمن والكافر والطائع والعاصي . ومثال ذلك شروق الشمس وغروبها ، وحركة السحاب حاملاً المطر ، ووجود الأرض بعناصرها القابلة للزراعة . وخرق الناموس يكون بإذن من الله للرسل والأنبياء والأولياء ؛ إننا نجد كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول في البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط : أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى في هذا المجال الذي تحدث فيه تلك المعجزة ، والمثال على ذلك : خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهي فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هي حية تسعى . وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحراً ولكنه نقلها من جنس إلى جنس في عصر نبغ فيه الناس في السحر ، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ﴾ [طه : 18] . وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقام الخشية فأوجز قائلاً : ﴿ وَلِيَ فِيهَا

مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] .

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال الأنس به وعرف أيضاً مراعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأنس إلى مقام الرهبة فقال : (ولي فيها مآرب أخرى) .

وجاء الأمر بإلقاء العصا : ﴿ أَلْقِهَا يا موسى ﴾ [طه : 19] .

وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حيّة : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ [طه : 20] .

ولذلك كان لا بد أن تُدهش المسألة موسى عليه السلام ، لذلك أوجس خيفة .

(107/219)

ولكن موسى عندما عرف سرّ عصاه لم يوجس خيفة بل تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون في يوم الزينة ، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أتاه معجزة ستبهر حتى السحرة ، فالسحرة يعلمون أن عملهم تخييل وليس تغييراً للأشياء ، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها .

لقد جاء السحرة بناء على امر فرعون إلى يوم الزينة ، ويعلمنا القرآن بلمحات جانبية أن

نظام السحرة كان موجوداً ، ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى : ﴿ قالوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين ﴾ [الأعراف : 113] .

وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة ورقي كل منهم في فرع من فروع السحر ، إلا أنهم جميعاً سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه وقالوا : ﴿ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء : 47-48] .

(108/219)

وهكذا عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ولكنه قدرة فوق قدرة البشر . إنها المعجزة التي يجريها الله على يد الرسل لإثبات صدقهم في إدعائهم أنهم رسل من الله . وكذلك نبغ قوم عيسى عليه السلام في الطب . ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفي بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة . وعلى الرغم من تقدمهم في الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك . والحق سبحانه يسهل المعجزات على رسله ، والمثال في الإسلام هو الإسراء برسولنا ونبينا صلى الله عليه وسلم ، وحَدَثَ الإسراء في لمح البصر ، ونحن في زماننا نرى التقدم الآلي والفني قد اخترع الصواريخ التي يمكن أن تختصر الوقت لمثل الرحلة من مكة إلى القدس ولكنها تمت بوساطة آلة تعمل وبأجهزة أعدت بنظام

دقيق بعد تجارب مضنية ، ولكن الحق عندما أراد لم يكن الأمر سوى كلمة منه تصير معجزة في التو واللحظة . ولنحفظ ذلك جيداً . إن المعجزة خرق اقتدار لا سبق ابتكار أي أنها خرق لنواميس الكون حادث من اقتدار المقتدر – سبحانه – ولم يحدث ذلك من ابتكار واختراع واكتشاف مكتشف .

ويُسلّي سبحانه عيسى عليه السلام بذكر هذه البيانات ، لكنّ الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا إنها سحر : ﴿ فَقَالَ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ونعلم أن الحق خلق الخلق وجعل الإيمان أمراً فطرياً فيهم ، ثم تأتي الغفلة فتبهت جزئية من جزئيات الإيمان ، وتتلوها غفلة أخرى فتبهت جزئية أخرى ، وتأتي غفلة ثالثة فتصير إلى الران وهو ما يعطي القلب فلا تنفذ إليه الهداية ، وذلك بسبب ما كسبوا وفعلوا من الذنوب : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .

ولنستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي رواه حذيفة :

(109/219)

" حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من

السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوَكْت (أي الأثر اليسير من الشيء) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل (أي أكثر العمل في الكف) كَجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِراً (أي متورّماً) وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصاةً فدحرجها على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيّكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنّه على دينه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنّه على ساعيه ، وأمّا اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً " .

وها هوذا الحديث الثاني الذي حدثنا به حذيفة عن رفع الأمانة والفتنة . قال حذيفة : "كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره : قالوا أجل . قال : تلك تكفِّرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التي تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم ، فقلت : أنا . قال : أنت لله أبوك . قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نُكِت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت . فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرْبادّاً كالكور مُجَخِّياً – أي مقلوباً – لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه " .

قال حذيفة : وحدثت أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر .

قال عمر : " أكَسْراً لا أبا لك ، فلو أنه فُتح لعله كان يُعاد " .

هكذا كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية . وأراد سبحانه للمناعة الإيمانية أن تبقى في عباده ، لذلك تدخل بالرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد . تحدثه نفسه بفتنة .

وعندما كان يتم الفساد في الأرض . نجد الحق يرسل الرسول ليعيد البريق إلى النفس اللوامة ، ويحيي في المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج الله .

ولذلك نجد أن المقاومة التي تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد وبآثار الفساد . وحين يأتي منهج الهداية فهو يأخذ بأيدي المظلومين ويغضب منه الظالمون الأقوياء الجبابرة ، ولذلك يهاجمون الرسل والمنهج القادم من الله ؛ لأن هذا المنهج سيقطع عليهم سبل الفساد الذي يدر عليهم عائداً هو في نظرهم كبير .

لقد رأينا صناديد قريش وقد تصدوا للدعوة ، فمحمد صلى الله عليه وسلم جاء بالمساواة بين كل البشر .

(111/219)

لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق ب " لا إله إلا الله محمد رسول الله " يعني فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل . ولو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ، ويبقى الأمر على ما كان عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا يبقى من جبروت لأحد ، فكل الناس سواسية . لذلك تصدى صناديد قريش لدعوة الإسلام .

وهكذا نجد أن كل رسول يأتي يبرز له من يعاديه من أصحاب الفساد والجبابرة في الأرض ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] .

والمثال على ذلك هو إرادة الحق في أن يجعل صيحة الإيمان في الجاهلية تأتي أولاً إلى أذن سادة العرب جميعاً وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد على التعرض لهم ، لكن النصر لا يأتي لمحمد وهو في مكة حيث كانت مقام السيادة ؛ لأن النصر لو حدث في أول الدعوة ومحمد صلى الله عليه وسلم يحيا بين قومه في مكة لقال قائل : لقد حدث النصر من قوم ألفوا

السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها ، وأن قريشاً قد ساندت محمداً لاستبقاء هذه السيادة وبسطها على غيرهم ، ولكنه – سبحانه – جعل مقام النصر ينبع من المدينة المنورة .

إنّ الصرخة أولاً جاءت في أذن السادة ثم التف حولها المستضعفون في الأرض الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ثم هاجروا وقوّاهم الله من بعد ذلك على الأقوياء .

إننا نجد كل داع إلى الله يأتي إنما يريد استبقاء خير النبوات حتى لا يأتي الران على القلوب ، وإن استبقاء هذا الخير يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم . والداعية إلى الله الذي لا تجد له عدواً يصيبه بالسوء حظه من ميراث النبوة ضعيف ، والداعية الذي له أعداء له من ميراث النبوة الشيء الكثير .

(112/219)

والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام . قالوا : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وهذا يعني أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحفظتهم وأغضبتهم وأحنقتهم وملأت مشاعرهم بالخيبة . إنه قول من قوم يكرهون منهج الحق ، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمة يدعم بها الحق الداعي إليه ؛ لأن ذلك يحفزه

ويدفعه إلى الدفاع عن دين الله ، فمقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التي يؤمن بها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(113/219)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا . . . الآية ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة دعى بالأنبياء وأممها ، ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقربها ، يقول ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك . . . ﴾ الآية . ثم يقول ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ [المائدة : 116] فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتي بالنصارى فيسألون ؟ فيقولون : نعم ، هو أمرنا بذلك . فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده ، فيجاثيهم بين يدي الله مقدار ألف عام ، حتى يوقع عليهم الحجة ، ويرفع

لهم الصليب ، وينطلق بهم إلى النار " .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي بكر بن عياش عن ابن وهب عن أبيه قال : قدم رجل من أهل الكتاب اليمن فقال أبي : ائته واسمع منه . فقلت : تحيلني على رجل نصراني ؟ قال : نعم . ائته واسمع منه . فأتيته فقال : لما رفع الله عيسى عليه السلام أقامه بين يدي جبريل وميكائيل فقال له ﴿ اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك ﴾ فعلت بك وفعلت بك ، ثم أخرجتك من بطن أمك ، ففعلت بك وفعلت بك ، ستكون أمة بعدك ينتجلونك وينتجلون ربوبيتك ، ويشهدون أنك قدمت وكيف يكون رب يموت ؟ فبعزتي حلفت لأنا صبنهم الحساب يوم القيامة ، ولأقيمنهم مقام الخصم من الخصم حتى ينفذوا ما قالوا ولن ينفذوه أبداً ، ثم أسلم وجاء من الأحاديث بشيء لم أسمع مثلها .

(114/219)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ﴾ أي الآيات التي وضع على يديه من احياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير . ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، والخبر بكثير من الغيوب مما

يدخرون في بيوتهم ، وما رد عليهم من التوراة مع الإنجيل الذي أحدث الله إليه ، ثم ذكر كفرهم بذلك كله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(115/219)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الله ﴾ فيها أوجه :

أحدها : أنه بدل من "يَوْمَ يَجْمَعُ"

قال الزمخشريُّ : " والمعنى : أنه يوبِّخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسُلِ عن إجابَتِهِمْ ، وبتعديدِ ما أظْهَرَ على أيديهم من الآياتِ العظامِ ، فكذَّبهم بعضُهم وسمَّوْهُم سحَرَةً ، وتجاوزَ بعضُهُمُ الحَدَّ ، فجعله وأمَّهُ إلَهَيْنِ " ، ولمَّا ذكَر أبو البقاء هذا الوجه ، تأوَّلَ فيه " قَالَ " بـ "يَقُولُ" ، وأنَّ " إذْ " ، وإنْ كانت للماضي ، فإنما وقعتْ هنا [على] حكاية الحال .

يقولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِه : "كَأَنَّكَ بِنَا وقد دخَلْنَا بلْدة كذا ، وصَنَعْنَا فيه كذا " ، قال – تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ ﴾ [سبأ : 51] ، وقال غيْرُهُ : معناه الدَّلالة على قُرْبِ القِيَامَةِ كأنَّها قَدْ قَامَتْ ، وكُلُّ ما هو آتٍ آتٍ ، كما يُقالُ : الجَيْشُ قد أَتَى ، إذا قَرُبَ

إتْيَانهم قال - تبارك وتعالى - : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] .

الثاني : أنه منصوبٌ بـ " اذْكُرْ " مقدَّراً ، قال أبو البقاء - رحمه الله تعالى - : " ويجوزُ أن يكون التقديرُ : اذْكُرْ إذْ يَقُولُ " ، يعني أنه لا بد من تأويلِ الماضي بالمستقبلِ ، وهذا كما تقرَّر له في الوجْهِ قبله ، وكذا ابنُ عطيَّة تأوَّله بـ "يَقُولُ " ؛ فإنه قال : " تقديرُه : اذْكُرْ يا محمَّد إذْ " ، و" قَالَ " هنا بمعنى "يَقُولُ " ؛ لأنَّ ظاهر هذا القولِ ، إنما هو في يوم القيامة ؛ لقوله بعده ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] .

الثالث : أنه في محلِّ رفع خبراً لمبتدأ مضمرٍ ، أي : ذلك إذْ قَالَ ، ذكره الواحديُّ ، وهذا ضعيفٌ ؛ لأن " إذْ " لا يُتَصرَّفُ فيها ، وكذلك القولُ بأنها مفعولٌ بها بإضمار " اذْكُرْ " ، وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك ، اللهم إلا أنْ يريد الواحديُّ بكون خبراً ؛ أنه ظرفٌ قائمٌ مقام خبرٍ ، نحو : " زَيْدٌ عِنْدَكَ " فيجوز .

(116/219)

قوله : ﴿ يا عيسى ابن مَرْيَمَ ﴾ تقدَّم الكلامُ في اشتقاق هذه المفردات ومعانيها ، و" ابْنَ مَرْيَمَ " صفة لـ " عِيسَى " نُصِب ؛ لأنه مضاف ، وهذه قاعدةٌ كلية مفيدة ، وذلك أنَّ المنادى المفردَ المعرفةَ الظاهرَ الضَّمَّةِ ، إذا وُصِفَ بـ " ابْن " أو " ابْنَة " ، ووقع الابنُ أو الابنةُ

بين علمَيْنِ أو اسمَيْنِ متفقَيْنِ في اللفظِ ، ولم يُفْصَل بين الأبنِ وبيْنَ موصوفه بشيء ، تثبت له أحكامٌ منها : أنه يجوز إتْبَاعُ المنادى المضمومِ لحركةِ نُونِ " ابْن " ؛ فيُفتح ؛ نحو : "يَا زَيْدَ [يا زَيْدُ] ابْنَ عَمْرٍو ، ويَا هِنْدَ [يا هِنْدُ] ابْنَةَ بَكْرٍ " بفتح الدال من " زَيْد " و " هِنْد " وضمّها ، فلو كانت الضمةُ مقدَّرةً نحو ما نحن فيه ، فإنَّ الضمة مقدَّرة على ألفِ " عيسَى " فهل يُقَدَّر بناؤُه على الفتْحِ إتباعاً كما في الضمَّة الظاهرة ؟ فيه خلاف : الجمهورُ على عدمِ جوازه ؛ إذْ لا فائدة في ذلك ، فإنه إنما كان للإتباع ، وهذا المعنى مفقودٌ في الضمَّة المقدرة ، وأجاز الفراء ذلك ؛ إجراءً للمقدَّر مُجْرَى الظاهرِ ، وتبعه أبو البقاء ؛ فإنه قال : "يَجُوزُ أن يكون على الألِفِ من " عيسَى " فتحةٌ ؛ لأنه قد وُصِفَ بـ " ابْن " وهو بين عَلَمَيْنِ ، وأن يكونَ عليها ضمَّةٌ ، وهو مثلُ قولك : "يَا زَيْدَ [يا زَيْدُ] بْنَ عَمْرٍو " بفتح الدال وضمّها " ، وهذا الذي قالاه غيرُ بعيدٍ ، ويَشْهَدُ له مسألةٌ عند الجميع : وهو ما إذا كان المنادَى مبنيًّا على الكسرِ مثلاً ؛ نحو : "يَا هَؤلاءِ " ، فإنهم أجازوا في صفته الوجهيْن : الرفع والنصب ، فيقولون : " يا هَؤلاءِ العُقلاءِ والعُقَلاءُ " بنصب العقلاء ورفعها ، قالوا : والرفعُ مراعاةً لتلك الضمة المقدَّرة في الإتباع ، وإنْ كان ذلك فائتاً في اللفظ ، وقد يُفَرَّقُ بأنَّ " هؤلاءِ " نحن مضطَّرون فيه إلى تقدير تلْكَ الحركةِ ؛ لأنه مفرد معرفةٌ ، فكأنها ملفوظٌ

بها بخلافِ تقديرِ الفتحة هنا .

وقال الواحديُّ في "يَا عيسَى " ويجوزُ أن [يكونَ] في محلِّ النصب ؛ لأنه في نية الإضافة ، ثم جعل الابن توكيداً له ، وكل ما كان مثل هذا ؛ جَازَ فيه الوجهانِ ؛ نحو : "يَا زَيْدَ [يا زَيْدُ] بْنَ عَمْرٍو " ؛ وأنشد : [الرجز]

2083 - يَا حَكَمَ بْنَ المُنْذِرِ بْنِ الجَارُودْ . . .

أَنْتَ الجَوادُ ابْنُ الجَوَادِ ابْنُ الْجُودْ

سُرَادِقُ المَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودْ . . .

بنصب الأول ورفعه على ما بَيَّنَّا ،

وقال التبريزيُّ : الأظهرُ عندي أنَّ موضع " عِيسَى " نصب ؛ لأنك تجعلُ الاسم مع نعتِه إذا أضفته إلى العلمِ كالشيء الواحد المضافِ ، وهذا الذي قالاه لا يُشْبِهُ كلام النحاة أصلاً ، بل يقولون : الفتحةُ للإتباعِ ، ولم يُعْتَدَّ بالساكنِ ؛ لأنه حاجزٌ غيرُ حَصِينٍ ، كذا قال أبو حيان : قال شهاب الدين : الذي قد قاله الزمخشريُّ - وكونه ليس من النحاة مُكَابَرَةٌ في الضَّرُورِيَّاتِ - عند قوله : ﴿ إِذْ قَالَ الحواريون : يا عيسى ابن مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : 112] : " عِيسَى في محل النصب على إتباع حركته حركة الابنِ ؛ كقولك : "يَا زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو " ، وهي اللغة الفاشيةُ ، ويجوزُ أن يكون مضموماً ؛ كقولك "يَا زَيْدُ بْنَ عَمْرٍو " ، والدليل عليه قوله : [

المتقارب]

2084 - أحَارُ بنَ عَمْرٍو كأَنِّي خَمِرْ . . . . . .

لأنَّ الترخيم لا يكونُ إلا في المضموم" .

انتهى ، فاحتاج إلى الاعتذار عن تقديرِ الضمة ، واستشهد لها بالبيتِ ؛ لمخالفتِها اللغة الشهيرة .

(118/219)

وقولنا : "المُفْرَد" تحرُّزٌ من المُطَوَّل ، وقولنا "المَعْرِفَة" تحرُّز من النكرة ؛ نحو : ["يا رَجُلاً ابْنَ رَجُلٍ" إذا لم تَقْصِدْ به واحداً بعينه ، وقولنا : "الظاهر الضَّمَّةِ" تحرُّزٌ من نحو :] "يَا مُوسَى بْنَ فُلانٍ" ، وكالآية الكريمة ، وقولنا بـ "ابْن" تحرُّزٌ من الوصف بغيره ؛ نحو : "يا زَيْدُ صَاحِبَنَا" ، وقولنا : "بين عَلَمَيْنِ أو اسمَيْن متفقين لفظاً" تحرُّزٌ من نحو : "يَا زَيْدُ [بْنَ أَخِينَا"] ، وقولنا : "غيرَ مَفْصُولٍ" تحرُّزٌ من نحو : "يَا زَيْدُ العَاقِلُ ابْنَ عَمْرٍو" ؛ فإنه لا يجوز في جميع ذلك إلا الضَّمُّ ، وقولنا ["وَصْفٌ"] تحرُّزٌ من أن يكون الابْنُ خبراً ، لا صفة ؛ نحو : "زَيْدٌ ابْنُ عَمْرٍو" ، وهل يجوز إتباعُ "ابن" له فيُضمُّ نحو : "يا زيد بنُ عمرو" بضم "ابن" ؟ فيه خلافٌ .

وقولنا : " أحْكَام " ، وقد تقدَّم منها ما ذكرناه من جوازِ فتحهِ إتباعاً ، ومنها : حَذْفُ ألفه خَطًّا ، ومنها : حَذْفُ تنوينه في غير النداء ؛ لأنَّ المنادى لا تنوينَ فيه وفي قوله : " ابْنَ مريمَ " ثلاثةُ أوجه :

أحدها : أنه صفةٌ ؛ كما تقدَّم ، والثاني : أنه بدلٌ ، والثالث : أنه بيانٌ ؛ وعلى الوجهين الأخيرَيْن : لا يجوزُ تقديرُ الفتحة إتباعاً ؛ إجماعاً ، لأنَّ الابنَ لم يَقَعْ صفةً ، وقد تقدَّم أنَّ ذلك شرطٌ .

وأرَادَ بالنِّعْمَة : الجَمْع كقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل : 18] ، وإنَّمَا جاز ذلك ؛ لأنَّهُ مضافٌ يَصْلُح للجِنْسِ .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس ﴾ في " إذْ " أربعةُ أوجه :

أحدها : أنه منصوبٌ بـ " نِعْمَتِي " ؛ كأنه قيل : اذكُرْ إذْ أنعمْتُ عليْكَ وعلى أمِّكَ في وقت تأييدي لك .

والثاني : أنه بدلٌ من " نِعْمَتِي " بدلُ اشتمال ، وكأنه في المعنى يفسِّر النعمة .

والثالث : أنه حالٌ من " نِعْمَتِي " ، قاله أبو البقاء .

والرابع : أن يكون مفعولاً به على السَّعَة ، قاله أبو البقاء – رحمه الله تعالى – أيضاً قال شهاب الدين : هذا هو الوجهُ الثاني – أعني البدليةَ – ، وقرأ الجمهور " أَيَّدتُّكَ " بتشديد الياء ، وغيرهم " آيدتُّكَ " وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك في سورة البقرة مُشْبَعاً ، ومعنى الآية الكريمة : أي : قَوْمَك بِمَا يَجُوزُ من الأَيدِ ، وهو القُوَّة .

فصل

المرادُ بِرُوحِ القُدُسِ : جبريل – عليه الصلاة والسلام – ، والقُدُس : هو اللَّهُ تعالى ، كأَنَّه أضافَهُ إلى نَفْسِهِ تَعْظِيماً ، وقيل : إنَّ الأَرْوَاحَ مُخْتَلِفَةٌ بالماهِيَّةِ : فمنها طَاهِرَةٌ نُورَانِيَّةٌ ، ومنها خَبِيثَةٌ ظُلْمانيَّة ، ومنها : مُشْرِقَة ومنها كَدِرة ، ومنها خَيِّرَةٌ ومنها نَذِلَةٌ ؛ ولهذا قال – عليه الصلاة والسلام – : " الأَرْواح جُنُودُ مُجَنَّدَةٌ " ، فاللَّهُ تعالى خصَّ عيسى – عليه الصلاة والسلام – بالرُّوح الطَّاهِرة النُّورَانِيَّة المُشْرِقَة العُلويَّة الخيِّرة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ﴾ .

(120/219)

قرأ ابن عبَّاس – رضي الله عنهما – : " فَتَنْفُخُهَا " بحذف حرف الجر اتساعاً وقرأ الجمهور : " فتكونُ " بالتاء منقوطةً فوقُ ، وأبو جعفر منقوطةً تحتُ ، أي : فيكونُ المنفوخُ فيه ، والضمير في " فِيهَا " قال ابن عطيَّة – رحمه الله – : " اضطربَتْ فيه أقوال المفسّرين " ؛ قال مكيٌّ : " هو في آل عمران [الآية 49] عائدٌ على الطَّيْر ، ولا على الطين ، ولا على الهيئة ؛ لأنَّ الطير أو الطائر الذي يَجِيء الطِّين على هيئته ، لا يُنْفَخُ فيه ألبتة ، وكذلك لا نفخَ في هيئته الخاصَّة به ، وكذلك الطينُ إنَّما هو الطينُ العامُّ ، ولا نفخَ في ذلك " ، وقال الزمخشريُّ رحمه الله : " ولا يرجعُ الضميرُ إلى الهيئةِ المضافِ إليها ؛ لأنها ليست من خَلْقِه ، ولا مِنْ نفخه في شيء ، وكذلك الضميرُ في فَتَكُون " ، ثم قال ابنُ عطيَّة – رحمه الله – : " والوجهُ عودُ ضميرِ المؤنَّث على ما تقتضيه الآيةُ ضرورةً ، أي : صُوَراً ، أو أشكالاً ، أو أجْساماً ، وعودُ الضمير المذكَّر على المخلوقِ المدلولِ عليه بـ " تَخْلُقُ " ، ثم قال : " ولَكَ أن تعيدَهُ على ما تَدُلُّ عليه الكافُ من معنى المثل ؛ لأنَّ المعنى : وإذ تَخْلُقُ من الطِّينِ مثل هيئته ، ولك أن تعيده على الكاف نَفْسِهَا ، فتكون اسماً في غيرِ الشّعْر " . انتهى ، وهذا القولُ هو عينُ ما قبله ، فإنَّ الكافَ أيضاً بمعنى مثل ، وكونُها اسماً في غير الشعرِ ، لم يَقُلْ به غيرُ الأخْفَشِ .

واستشكل الناسُ قولَ مكيٍّ المتقدِّمَ ؛ كما قدَّمْتُ حكايته عن ابن عطية رضي الله عنه .

ويمكنُ أن يُجابَ عنه بأنَّ قوله " عائدٌ على الطَّائِرِ " لا يريدُ به الطائِرَ الذي أُضيفَتْ إليه الهيئةُ ، بل الطائرُ المُصَوَّرُ ، والتقدير : وإذ تخلُقُ من الطِّينِ طائراً صورةَ الطائرِ الحقيقيِّ ، فتنفخُ فيه ، فيكونُ طائراً حقيقيًّا ، وأنَّ قوله " عائدٌ على الهيئة " لا يريدُ الهيئةَ المجرورةَ بالكاف ، بل الموصوفة بالكاف ، والتقدير : وإذ تخلُقُ من الطِّينِ هيئةً مِثْلَ هيئةِ الطَّائر ، فتنفخُ فيها ، أي : في الموصُوفَة بالكاف الَّتِي نُسِبَ خَلْقُهَا إلى عيسى – عليه السلام – وأمَّا كونُه كيف يعودُ ضميرٌ مذكَّر على هيئةٍ ، وضميرٌ مؤنثٌ على الطائرِ [لأنَّ قوله : " ويجُوزُ عكْسُ هذا " يؤدي إلى ذلك ؟ فجوابُه أنه جازَ بالتأويل ؛ لأنه تُؤوِّلُ الهيئةُ بالشكْل ، ويُؤوَّل الطائرُ] بالهيئةِ ؛ فاستقام ، وهو موضعُ تَأمُّلٍ ، وقال هنا " بإذْنِي " أربعَ مراتٍ عَقِيبَ أربع جمل ، وفي آل عمران " بإذْنِ الله " مرتَيْن ؛ لأنَّ هناك موضعَ إخبارٍ ، فناسَبَ الإيجازَ ، وهنا مقامُ تذكيرٍ بالنعمةِ والامتنانِ ، فناسبَ الإسهابَ ؛ وقوله " بإذْنِي " حالٌ : إمَّا من الفاعلِ ، أو من المفعول .

قوله : ﴿ فَقَالَ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

(122/219)

قرأ الأخوانِ هنا وفي هودٍ [الآية 7] وفي الصَّف [الآية 6] " إلاَّ سَاحِرٌ " اسم فاعل ، والباقون : " إلاَّ سِحْرٌ " مصدراً في الجميع ، والرسمُ يحتمل القراءتَيْنِ ، فأمَّا قراءةُ الجماعةِ ، فتحتملُ أن تكون الإشارةُ إلى ما جاءَ به من البيّنات ، أي : ما هذا الذي جاء به من الآيات الخوارِق إلا سِحْرٌ ، ويُحْتمل أن تكون الإشارةُ إلى عيسى – عليه الصلاة والسلام – جَعَلُوه نفس السحْر مبالغةً ؛ نحو : " رَجُلٌ عَدْلٌ " ، أو على حذفِ مضافٍ ، أي : إلاَّ ذُو سِحْرٍ ، وخَصَّ مكي – رحمه الله تعالى – هذا الوجه بكون المرادِ بالمشار إليه محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : " ويجوز أن تكونَ إشارةً إلى النبيِّ محمد صلى الله عليه وسلم على تقدير حَذْفِ مضافٍ ، أي : إنْ هذا إلاَّ ذُو سِحْرٍ " .

قال شهاب الدين : وهذا غَيْرُ جائزٍ ، والمرادُ بالمشار إليه عيسى عليه السلام ، وكيف يكونُ المرادُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو لَمْ يكن في زَمَنِ عيسى – عليه الصلاة والسلام – والحواريّين ؛ حتى يشيروا إليه إلا بتأويلٍ بعيدٍ ؟ وأمَّا قراءةُ الأخوَيْن ، فتحتمل أن يكون " سَاحِرٌ " اسم فاعلٍ ، والمشارُ إليه " عيسى " ، ويُحتمل أن يكونَ المرادُ به المصدرَ ؛ كقولهم : عَائِذاً بِكَ وعَائِذاً بالله مِنْ شَرِّهَا ، والمشارُ إليه ما جاء به عيسَى من البيّنات والإنجيلِ ، ذكر ذلك مَكي ، وتبعَهُ أبو البقاء ، إلا أنَّ الواحديَّ مَنَعَ مِنْ ذلك ؛ فقال – بعد أنْ حَكَى القراءتَيْنِ – : وكلاهُمَا حَسَنٌ ؛ لاستواءِ كلِّ واحدٍ منهما في أنَّ ذِكْرَهُ قد تقدَّم ، غير أنَّ الاختيار " سِحْر " ؛ لجوازِ وقوعه على الحَدَثِ والشَّخْص ، أمَّا وقُوعه على الحدث ،

فسهلٌ كثير ، ووقوعه على الشخْصِ يريدُ ذُو سحْرٍ ؛ كقوله تعالى : ﴿ ولكن البر مَنْ آمَنَ ﴾ [البقرة : 177] ، وقالوا : " إنما أنت سيرٌ " و " ما أنت إلا سيرٌ " ، و[البسيط]

(123/219)

2085 - . . . . . .

فَإنَّما هِيَ إقْبَالٌ وإدْبَارُ

قلتُ : وهذا يرجّحُ ما قدَّمْتُه من أنه أطْلَقَ المصْدر على الشخص ؛ مبالغةً ؛ نحو : " رَجُلٌ عَدْلٌ " ، ثم قال : " ولا يجوز أنْ يُرادَ بساحرِ السِّحْرُ ، وقد جاء فاعل يراد به المصدرُ في حروفٍ ليست بالكثير ، نحو : " عَائِذاً بالله من شَرِّه " ، أي : عِيَاذاً ، ونحو " العافية " ولم تَصِرْ هذه الحروفُ من الكثرة بحيثُ يسوغُ القياس عليها " .

وإن قيل : إنَّهُ - تعالى - عدَّدَ هُنَا نِعمَ اللَّه تعالى على عيسى - عليه السلام - ، وقولُ الكُفَّار في حقه ﴿ إنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، ليس من النِّعَمِ ، فكيف ذكره هنا ؟ .

فالجوابُ إنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ ، فَطَعْن الكُفَّار في عيسى - عليه السلام - بهذ الكلام ، يَدُلُّ على أنَّ نِعْمَةِ الله كانت في حقِّه عَظِيمَة ، فَحَسُنَ ذِكْرُه عند تعديد النِّعم من هذا الوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 596 . 603 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾

التذكيرُ بوجوه النعم يستخرج خلاصة الحُب والهيمان في المذكور وكلُّ وقتٍ للأحباب يمضي يصير لهم حديثاً يتلى من بعدهم : إما عليهم وإمَّا عنهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 454 ﴾

(124/219)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ وإذ أوحيت ﴾ أي بإلهام باطناً وبإيصال الأوامر على لسانك ظاهراً ﴿ إلى الحواريين ﴾ أي الأنصار ﴿ أن آمنوا بي وبرسولي ﴾ أي الذي أمرته بالإبلاغ يعني إبلاغ

الناس ما آمرهم به ، ثم استأنف مبيناً لسرعة أجابتهم لجعله محبباً إليهم مطاعاً فيهم بقوله : ﴿ قالوا آمنا ﴾ .

ولما كان الإيمان باطناً فلا بد في إثباته من دليل ظاهر ، وكان في سياق عدّ النعم والطواعية لوحي الملك الأعظم دلوا عليه بتمام الانقياد ، ناسب المقام زيادة التأكيد بإثبات النون الثالثة في قولهم : ﴿ واشهد بأننا ﴾ بخلاف آل عمران ﴿ مسلمون ﴾ أي منقادون أتم انقياد ، فلا اختيار لنا إلا ما تأمرنا به ، وانظر ما أنسب إعادة " إذ " عند التذكير بروح كامل حساً أو معنى وحذفها عند الناقص ، فأثبتها عند التأييد بها في أصل الخلق وفي الكمال الموجب للحياة الأبدية وفي تعليم الكتاب وما بعده المفيض لحياة الأبد على كل من تخلّق بأخلاقه وفي خلق الطير وهو ظاهر وهكذا إلى الآخر .

(125/219)

ذكرُ شيء مما عزي إليه من الحكمة في الإنجيل : قال متى : وكان يسوع يطوف المدن والقرى ويعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل الأمراض والأوجاع ، ثم قال : فلما سمع يوحنا في السجن بأعمال المسيح أرسل إليه اثنين من تلاميذه قائلاً : أنت هو الآتي أم نترجى آخر ؟ قال لوقا : وفي تلك الساعة أبرأ كثيراً من الأمراض والأوجاع والأرواح

الشريرة ووهب النظر لعميان كثيرين ، فأجاب يسوع وقال لهما : اذهبا وأعلما يوحنا بما رأيتما وسمعتما ، العميان يبصرون والعرج يمشون والبرص يتطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون ، فطوبى لمن لا يشك فيّ ! فلما ذهب تلميذا يوحنا بدأ يسوع يقول للجمع من أجل يوحنا : لماذا خرجتم إلى البرية تنظرون – قال لوقا : قصبة تحركها الريح – أم لماذا خرجتم تنظرون ؟ إنساناً لابساً لباساً ناعماً ؟ إن اللباس الناعم يكون في بيوت الملوك ، قال لوقا : فإن الذين عليهم لباس المجد والتنعم هم في بيوت الملوك – انتهى .

(126/219)

لكن لماذا خرجتم تنظرون ؟ نبياً ؟ نعم ، أقول لكم : إنه أفضل من هذا الذي كتب من أجله : هوذا أنا مرسل ملكي أمام وجهك ليسهل طريقك قدامك ، الحق أقول لكم ! إنه لم يقم في مواليد النساء أعظم من يوحنا المعمد ، والصغير في ملكوت السماء أعظم منه ، وجميع الشعب الذي سمع والعشارون شكروا الله حيث اعتمدوا من معمودية يوحنا ، فأما الفريسيون والكتاب فعلموا أنهم رفضوا أمر الله لهم إذ لم يعتمدوا منه ؛ قال متى : ثم قال : من له أذنان سامعتان فليسمع ! بماذا أشبه هذا الجيل ؟ يشبه صبياناً جلوساً في الأسواق ، يصيحون إلى أصحابهم قائلين : زمّرنا لكم فلم ترقصوا ، ونحنا لكم فلم تبكوا ، جاء يوحنا

لا يأكل ولا يشرب ، فقالوا : معه جنون ، جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب ، فقالوا : هذا إنسان أكول شرّيب خليل العشارين والخطأة ، فتبررت الحكمة من بنيها ، حينئذ بدأ يعيّر المدن التي كان فيها أكثر قواته ، لأنهم لم يتوبوا ، ويقول : الويل لك يا كورزين ! والويل لك يا بيت صيدا ! لأن القوات اللاتي كنّ فيكما قديماً لو كنّ في صور وصيدا لتابوا بالمسوح والرماد ، لكن أقول لكم : إن لصور وصيدا راحة في يوم الدين أكثر منكن ، وأنت يا كفرناحوم لو ارتفعت إلى السماء ستهبطين إلى الجحيم ، لأنه لو كان في سدوم هذه القوات التي كانت فيك إذن لثبتت إلى اليوم ، وأقول لكم أيضاً : إن أرض سدوم تجد راحة يوم الدين أكثر منك .

(127/219)

ثم قال : وانتقل يسوع من هناك ودخل إلى مجمعهم وإذا رجل هناك يده يابسة – وقال لوقا : يده اليمنى يابسة – فسألوه قائلين : هل يحل أن يشفى في السبت ؟ فقال لهم : أي إنسان منكم يكون له خروف ، يسقط في حفرة في السبت ، ولا يمسكه ويقيمه ؟ فبكم أحزي الإنسان أفضل من الخروف ، فإذن جيد هو فعل الخير في السبت ؛ وقال لوقا : فقال للرجل اليابس اليد : قف في الوسط ، فقام ، وقال لهم يسوع : أسألكم ماذا يحل أن يعمل في

السبت ؟ خير أم شر ؟ نفس تخلص أم تهلك ؟ فسكتوا ؛ قال متى : حينئذ قال للإنسان : أمدد يدك ، فمدها فصحت مثل الأخرى ، فخرج الفريسيون – قال مرقس : مع أصحاب هيرودس – متوامرين في إهلاكه ، فعلم يسوع وانتقل من هناك وتبعه جمع كثير ، فشفى جميعهم ، وأمرهم أن لا يظهروا ذلك لكي يتم ما قيل في أشعيا النبي القائل : ها هوذا فتاي الذي هويت ، وحبيبي الذي به سررت ، أضع روحي عليه ويخبر الأمم بالحكم ، لا يماري ولا يصيح ولا يسمع أحد صوته في الشوارع ، قصبة مرضوضة لا تكسر ، وسراج مطفطف لا يطفأ حتى يخرج الحكم في الغلبة ، وعلى اسمه تتكل الأمم ؛ ثم قال : وفي ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس جانب البحر ، فاجتمع إليه جمع كبير حتى أنه صعد إلى السفينة وجلس ، وكان الجمع كله قياماً على الشطّ ، وكلهم بأمثال كثيرة قائلاً : ها هو ذا خرج الزارع ليزرع ، وفيما هو يزرع سقط البعض على الطريق ، فأتى الطير وأكله – وقال لوقا : فديس وأكله طائر السماء – وبعض سقط على الصخرة حيث لم يكن له أرض كثيرة ، وللوقت شرق إذ ليس له عمق أرض ، ولما أشرقت الشمس احترق ، وحيث لم يكن له أصل يبس ، وبعض سقط في الشوك فطلع الشوك وخنقه ؛ وقال مرقس : فخنقه بعلوه عليه فلم يأتي بثمرة ؛ وقال متى : وبعض سقط في الأرض الجيدة فأعطى ثمره ، للواحد مائة وللآخر ستين وللآخر ثلاثين – قال لوقا : فلما قال هذا نادى : من له أذنان سامعتان فليسمع – فتقدم إليه تلاميذه وقالوا له : لماذا

تكلمهم بالأمثال ؟ فأجابهم وقال : أنتم أعطيتم معرفة سرائر ملكوت السماوات – وقال لوقا : فقال لهم : لكم أعطي علم سرائر ملكوت الله – وأولئك لم يعطوا ، ومن كان له يعطي ويزاد ، ومن ليس له فالذي له يؤخذ منه – وقال لوقا : والذي ليس له ينزع منه الذي يظن أنه له – فلهذا أكلمهم بالأمثال ، لأنهم يبصرون فلا يبصرون ، ويسمعون فلا يسمعون ولا يفهمون ، لكي تتم فيهم نبوة أشعيا لقائل : سمعاً يسمعون فلا يفهمون ، ونظراً ينظرون فلا يبصرون ، لقد غلظ قلب هذا الشعب ، وثقلت آذانهم عن السماع ، وغمضوا أعينهم لكيلا يبصروا بعيونهم ولا يسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم ، فأما أنتم فطوبى لعيونكم ! لأنها تنظر ، ولآذانكم ! لأنها تسمع ؛ وقال لوقا : ومثل الزرع هذا هو كلام الله ؛ وقال متى : كل من يسمع كلام الملكوت ولا يفهم يأتي الشرير فيخطف ما يزرع في قلبه ، هذا الذي زرع على الطريق ، والذي زرع على الصخرة هو الذي يسمع الكلام وللوقت يقبله بفرح ، وليس له فيه أصل ، لكن في زمان يسير ، إذا حدث ضيق أو طرد فللوقت يشك – وقال مرقس : بسبب الكلمة فيشكون للوقت : وقال لوقا : وهم إنما يؤمنون إلى زمان التجربة ، وفي زمان التجربة يشكون – والذي يزرع في الشوك فهو الذي يسمع الكلام

فيخنق الكلام فيه ؛ وقال لوقا : فتغلب عليهم هموم هذا الدهر وطلب الغنى ؛ وقال مرقس : ومحبة الغنى وسائر الشهوات التي يسلكونها ، فتخنق الكلمة فلا تثمر فيهم ؛ وقال متى : فيكون بغير ثمرة ، والذي زرع في الأرض الجيدة هو الذي يسمع الكلام ويتفهم ويعطي ثمره ؛ وقال لوقا : وأما الذي وقع في الأرض الصالحة فهم الذين يسمعون الكلمة بقلب جيد فيحفظونها ويثمرون بالصبر ؛ قال متى : للواحد مائة وللآخر ستين وللآخر ثلاثين .

(129/219)

وضرب لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملكوت السماوات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله ، فلما نام الناس جاء عدوه فزرع زواناً في وسط القمح ومضى ، فلما نبت القمح ظهر الزوان ، فجاء عبيد رب البيت فقالوا له : يا سيد ! أليس زرعاً جيداً زرعت في حقلك ! فمن أين صار فيه زوان ؟ فقال لهم : عدو فعل هذا ، فقال عبيده : تريد أن نذهب فنجمعه ؟ فقال لهم : لا ، لئلا تنقلع معه الحنطة ، دعوهما ينبتان جميعاً إلى زمان الحصاد ، وأقول للحصادين : أولاً اجمعوا الزوان فشدوه حزماً ليحرق ، فأما القمح فاجمعوه إلى أهرائي .

وضرب لهم مثلاً آخر قائلاً : يشب ملكوت السماوات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله ، لأنها أصغر الزراريع كلها – وقال مرقس : وهي أصغر الحبوب التي على الأرض

- فإذا طالت صارت أكبر من جميع البقول وتصير شجرة - وقال مرقس : وصنعت أغصاناً عظاماً ؛ وقال لوقا : فنمت وصارت شجرة عظيمة - حتى أن طائر السماء يستظل تحت أغصانها .

(130/219)

وكلمهم بمثل آخر وقال لهم : يشبه ملكوت السماوات خميراً أخذته امرأة وعجنته في ثلاثة أكيال دقيق فاختمر الجميع ؛ وقال مرقس : وكان يقول لهم : هل يوقد سراج فيوضع تحت مكيال أو سرير ، لكن على منارة ؛ وقال لوقا : ليس أحد يوقد سراجاً فيغطيه ، ولا يجعله تحت سرير ، لكن يضعه على منارة فيرى نوره كل من يدخل ؛ قال مرقس : كذلك ليس خفي إلا سيظهر ، ولا مكتوم إلا سيعلن ؛ وقال لوقا : سراج الجسد العين ، فإذا كانت عينك بسيطة فجسدك كله نير ، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً أحرص أن لا يكون النور الذي فيك ظلاماً ، فإن كان جسدك كله نيراً وليس فيه جزء مظلم فإنه يكون كاملاً نيراً ، كما أن السراج ينير لك بلمع ضيائه ؛ وقال مرقس : من له أذنان سامعتان فليسمع ، وقال لهم : انظروا ماذا تسمعون ، فبالكيل الذي تكيلون يكال لكم - وتزادون أيها السامعون لأن الذي له يعطي ومن ليس عنده فالذي عنده يؤخذ منه ، وقال :

يشبه ملكوت الله إنساناً يلقي زرعه على الأرض وينام ، ويقوم ليلاً ونهاراً والزرع ينمو ويطول وهو لا يعلم ، أولاً أعشب وبعد ذلك سَنُبل ، ثم يمتلئ السنبل حتى إذا انتهت الثمرة حينئذ يضع المنجل إذ قد دنا الحصاد ؛ قال متى : هذا كله قاله يسوع للجموع ليتم ما قيل في النبي القائل : أفتح فاي بالأمثال وأنطق بالخفيات من قبل أساس العالم .

(131/219)

حينئذ ترك الجمع وجاء إلى البيت فجاء إليه تلاميذه وقالوا : فسر لنا مثل زوال الحقل ، أجاب : الذي زرع الزرع الجيد هو ابن الإنسان ، والحقل هو العالم ، والزرع الجيد هو بنو الملكوت ، والزوان هو بنو الشر ، والعدو الذي زرعه هو الشيطان ، والحصاد هو منتهى الدهر ، والحصادون هم الملائكة ، فكما أنهم يجمعون الزوان أولاً ، وبالنار يحرق ، هكذا يكون منتهى هذا الدهر ، يرسل ملائكته ويجمعون من مملكته كل الشوك وفاعلي الإثم ، فيلقونهم في أتون النار ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، حينئذ يضيء الصديقون مثل الشمس في ملكوت أبيهم ، من له أذنان سامعتان فليسمع .

ويشبه ملكوت السماوات كنزاً مُخفىّ في حقل وجده إنسان فخبأه ، ومِن فرحه مضى وباع كل شيء واشترى ذلك الحقل .

وأيضاً يشبه ملكوت السماوات إنساناً تاجراً بطلب الجوهر الفاخر الحسن .

فوجد درة كثيرة الثمن فمضى وباع كل ماله واشتراها .

وأيضاً يشبه ملكوت السماوات شبكة ألقيت في البحر فجمعت من كل جنس ، فلما امتلأت أطلعوها إلى الشّط فجلسوا وجمعوا الخيار في الأوعية ، والرديء رموه خارجاً ، هكذا يكون في انقضاء هذا الزمان ، تخرج الملائكة ويميزون الأشرار من وسط الصديقين . ويلقونهم في أتون النار .

هناك يكون البكاء وصرير الأسنان .

فلما أكمل يسوع هذه الأمثال انتقل من هناك وجاء إلى بلدته وكان يُعلِّم في مجامعهم حتى أنهم بهتوا وقالوا : من أين له هذه الحكمة والقوة ! وقال مرقس : من أين له هذا التعليم وهذه الحكمة التي أعطيها والقوات التي تكون على يديه – انتهى .

أليس هذا ابن النجار ؟ وقال لوقا : وكان جميعهم يشهدون له ويتعجبون من كلام النعمة الذي كان يخرج من فمه ، وكانوا يقولون : أليس هذا ابن يوسف ؟ انتهى .

(132/219)

أليس أمه تسمى مريم وإخوته يعقوب ويوسا وسمعان ويهودا ؟ أليس هو وأخواته عندنا جميعاً ؟ فمن أين له هذا كله ؟ وكانوا يشكون فيه ، فإن يسوع قال لهم : لا يهان نبي إلا في بلدته وبيته ؛ وقال مرقس : ليس يهان نبي إلا في بلدته وعند أنسابه وبيته ؛ وقال لوقا : فقال لهم : لعلكم تقولون لي هذا المثل : أيها الطبيب ! اشف نفسك والذي سمعنا أنك صنعته في كفرناحوم افعله أيضاً ههنا في مدينتك ، فقال لهم : الحق أقول لكم ، إنه لا يقبل نبي في مدينته ، الحق أقول لكم ، إن الأرامل كثيرة كنّ في إسرائيل في أيام إليا إذ أغلقت السماء ثلاث سنين وستة أشهر ، وصار جوع عظيم في الأرض كلها ، ولم يرسل إلياء إلى واحدة منهن إلا أرملة في صارفة صيدا ، وبرص كثيرون كانوا في إسرائيل على عهد اليشع النبي ولم يطهر واحد منهم إلا نعمان الشامي ، فامتلأ جميعهم غضباً عندما سمعوا هذا وأخرجوه خارج المدينة ، وجاؤوا به إلى أعلى الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه ليطرحوه إلى أسفل ، فأما هو فجاز وسطهم ومضى ، ونزل إلى كفرناحوم مدينة في الجليل ، وكان يعلمهم في السبت وبهتوا من تعليمه لأن كلامه كان بسلطان .

(133/219)

وقال في موضع آخر : وجاء إليه ناس من الفريسيين وقالوا له : اخرج فاذهب من ههنا فإن ثيرودس يريد ليقتلك ، فقال لهم : امضوا وقولوا لهذا الثعلب : إني هوذا أخرج الشياطين وأتم الشفاء اليوم وغداً وفي اليوم الثالث أكمل ، وينبغي أن أقيم اليوم وغداً ، وفي اليوم الآتي أذهب ، لأنه ليس يهلك نبي خارجاً عن يروشليم ، أيا يروشليم ! أيا يروشليم ! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها ! كم من مرة أردت أن أجمع بنيك مثل الدجاجة التي تجمع فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا ، هوذا أترك بيتكم خراباً ، فسمع هيرودس رئيس الربع بجميع ما كان فتحير ، لأن كثيراً كانوا يقولون : إن يوحنا قام من الأموات ، وآخرون يقولون : إن إليا ظهر ، وآخرون يقولون : نبي من الأولين قام ، فقال هيرودس : أنا قطعت رأس يوحنا فمن هو الذي نسمع عنه هذا ، وطلب أن يبصره ؛ وفي إنجيل متى : وفي ذلك الزمان سمع هيرودس رئيس الربع خبر يسوع فقال لغلمانه : هذا هو يوحنا المعمدان ، وهو قام من الأموات من أجل هذه القوات التي يعمل بها .

قوله : المعمد ، من أعمده – إذا غسله في ماء المعمودية ، قوله : تبررت ، أي صارت برية بالنسبة إليهم ، قوله : يعيّر المدن ، أي يذكر ما أوجب لها العار ، قوله : القوات جمع قوة وهي المعجزات هنا ، قول : الذي هويت ، يعني أحببت حباً شديداً ، ولفظ الهوى الظاهر أنه يفهم نقصاً فلا يحل في شرعنا إطلاقه على الله تعالى ، قوله : مطفطف ، أي مملوء إلى رأسه ، لا يزال كذلك ، قوله : شرق – وزن : فرح ، أي ضعف ، من : شرق بريقه ،

وشرقت الشمس - إذا ضعف ضوءها ، قوله : أتون وهو وزن تنور وقد يخفف : أخدود الجيار والجصاص ، قوله : بسيطة ، أي على الفطرة الأولى ، قوله : يروشليم - بتحتانية ومهملة وشين معجمة : بيت المقدس ، قوله : ملكوت أبيهم ، تقدم ما فيه غير مرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 564.569 ﴾

فصل

قال الثعلبي :

(134/219)

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم الوحي . والوحي على أقسام ، وحي بمعنى إرسال جبرئيل إلى الرسول ، ووحي بمعنى الإلهام كالإيحاء إلى أم موسى والنحل ووحي بمعنى الأحلام في حال اليقظة في المنام .

قال أبو عبيدة : أوحى لها : أي إليها ، وقال الشاعر :

ومن لها القرار فاستقرت . . . وشدها بالراسيات الثبت

يعني أمرت (وإلى) صلة يقال : أوحى ووحى . قال الله ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] .

قال العجاج: أوحى لها القرار فاستقرّت .

أي أمرها بالقرار فقرت . والحواريون خواص أصحاب عيسى .

قال الحسن: كانوا قصارين .

وقال مجاهد: كانوا صيادين .

وقال السدي: كانوا ملاحين .

وقال قتادة: الحواريون الوزراء .

وقال عكرمة: هم الأصفياء . وكانوا إثني عشر رجلاً، بطرس ويعقوب ويحنس واندرواسى وخيلبس وأبرثلما ومتى، وتوماس، ويعقوب بن حلقيا، وتداوسيس، وفتاتيا، وتودوس، ﴿ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ﴾ عيسى ﴿ قالوا ﴾ حين لقيتهم ورفقتهم ﴿ آمَنَّا واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال السمرقندى:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ يعني: ألهمتهم وألقيت في قلوبهم.

ويقال: أوحيت إلى عيسى ليبلغ الحواريين: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ﴾ يعني: صدقوا بتوحيدي ﴿ وَبِرَسُولِى ﴾ فلما أبلغهم الرسالة ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا ﴾ يقول: صدقنا بهما ﴿ واشهد ﴾ يا عيسى ﴿ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي: مقرون.

ويقال : هذا معطوف على أول الكلام .

إذ قال الله يا عيسى .

وقال له أيضاً : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ يعني : ألهمتهم .

(135/219)

وقال مقاتل : يقوم عيسى خطيباً يوم القيامة بهذه الآيات ، ويقوم إبليس خطيباً لأهل النار بقوله : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 22] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ ءامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ﴾ وقد تقدم تفسير الوَحْي .

فمن قال إنهم كانوا أنبياء قال ذلك الوحي هو الوحي الذي يوحى إلى الأنبياء .

ومن قال إنهم ما كانوا أنبياء ، قال : المراد بذلك الوحي الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله

تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : 7] وقوله ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] وإنما ذكر هذا في معرض تعديد النعم لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوباً في قلوبهم من أعظم نعم الله على الإنسان .

وذكر تعالى أنه لما ألقى ذلك الوحي في قلوبهم ، آمنوا وأسلموا وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام ، لأن الإيمان صفة القلب والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر ، يعني آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم .

فإن قيل : إنه تعالى قال في أول الآية ﴿ اذكر نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعلى والدتك ﴾ [المائدة : 110] ثم إن جميع ما ذكره تعالى من النعم مختص بعيسى عليه السلام ، وليس لأمه بشيء منها تعلق .

قلنا : كل ما حصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل الضمن والتبع للأم .

(136/219)

ولذلك قال تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ [المؤمنون : 50] فجعلهما معا آية واحدة لشدة اتصال كل واحد منهما بالآخر .

وروي أنه تعالى لما قال لعيس ﴿ اذكر نعمتي عليك ﴾ [المائدة : 110] كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ، ولا يدخر شيئاً لغد ويقول مع كل يوم رزقه ، ومن لم يكن له بيت فيخرب ، ولا ولد فيموت ، أينما أمسى بات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 106 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي . . . ﴾ في وحيه إلى الحواريين وجهان :

أحدهما : معناه أَلْهَمْتُهُم أن يؤمنوا بي ، ويصدقوا أنك رسولي ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ [النحل : 68] .

والثاني : يعني ألقيت إليهم بالآيات التي أريتهم أن يؤمنوا بي وبك . وفي التذكير بهذه النعمة قولان :

أحدهما : أنها نعمة على الحواريين أن آمنوا ، فذكر الله تعالى به عيسى لأنهم أنصاره .

الثاني : أنها نعمة على عيسى ، لأنه جعل له أنصاراً من الحواريين قد آمنوا به .

والحواريون : هم خواص عيسى عليه السلام الذين استخلفهم من جملة الناس .

﴿ قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ يعني بالله تعالى ربك .

﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام

على إسلامهم بالله تعالى وبه .

والثاني : أنهم أشهدوا الله تعالى بذلك على أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ﴾ قد تقدّم القول في معاني هذه الآية .

والوحي في كلام العرب معناه الإلهام ويكون على أقسام : وحي بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام .

(137/219)

ووحي بمعنى الإلهام كما في هذه الآية ؛ أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى ﴾ [القصص : 7] ووحى بمعنى الإعلام في اليقظة والمنام .

قال أبو عبيدة : أوحيت بمعنى أمرت ، "وإلى" صلة ؛ يقال : وحى وأوحى بمعنى ؛ قال الله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] وقال العجاج :

وَحَى لها القرار فاستقرّت . . .

أي أمرها بالقرار فاستقرّت .

وقيل : "أَوْحَيْتُ" هنا بمعنى أمرتهم .

وقيل : بينت لهم .

﴿ واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ على الأصل ؛ ومن العرب من يحذف إحدى النونين ؛ أي واشهد يا رب .

وقيل : يا عيسى بأننا مسلمون لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ أي أمرتهم في الإنجيل على لسانك أو أمرتهم على ألسنة رسلي .

وجاء استعمال الوحي بمعنى الأمر في كلام العرب كما قال الزجاج وأنشد :

الحمد لله الذي استقلت باذنه السماء . . .

واطمأنت أوحى لها القرار فاستقرت

أي أمرها أن تقر فامتثلت ، وقيل : المراد بالوحي إليهم إلهامه تعالى إياهم كما في قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ [القصص : 7] وروي ذلك عن السدي وقتادة وإنما لم يترك الوحي على ظاهره لأنه مخصوص

بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والحواريون ليسوا كذلك ، وقد تقدم المراد بالحواريين [في سورة رل عمران : 25] .

وأن قوله تعالى : ﴿ أَنْ ءامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول ، وقيل : مصدرية أي بأن ءامنوا الخ .

(138/219)

وتقدم الكلام في دخولها على الأمر ، والتعرض لعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الإيمان به عليه الصلاة والسلام والرمز إلى عدم إخراجه عليه الصلاة والسلام عن حده حطاً ورفعاً ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا ﴾ طبق ما أمرنا به ﴿ واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ مخلصون في إيماننا أو منقادون لما أمرنا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ إِذْ أَيَّدتك بروح القدس ﴾ [المائدة : 110] ، فيكون من جملة ما يقوله الله لعيسى يوم يجمع الرسل .

فإنّ إيمان الحواريّين نعمة على عيسى إذ لو لم يؤمنوا به لما وجد من يتّبع دينه فلا يحصل له الثواب المتجدّد بتجدد اهتداء الأجيال بدينه إلى أن جاء نسخه بالإسلام .

والمراد بالوحي إلى الحواريّين إلهامهم عند سماع دعوة عيسى للمبادرة بتصديقه ، فليس المراد بالوحي الذي به دعاهم عيسى .

ويجوز أن يكون الوحيَ الذي أوحي به إلى عيسى ليدعو بني إسرائيل إلى دينه .

وخُصّ الحواريّون به هنا تنويهاً بهم حتّى كأنّ الوحي بالدعوة لم يكن إلاّ لأجلهم ، لأنّ ذلك حصل لجميع بني إسرائيل فكفر أكثرهم على نحو قوله تعالى : ﴿ كما قال عيسى ابنُ مريم للحواريّين من أنصاري إلى الله قالَ الحواريّون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ [الصف : 14] ؛ فكان الحواريّون سابقين إلى الإيمان لم يتردّدوا في صدق عيسى .

و﴿ أنْ ﴾ تفسيرية للوحي الذي ألقاه الله في قلوب الحواريّين .

وفَصْل جملة ﴿ قالوا آمنّا ﴾ لأنّها جوابُ ما فيه معنى القول ، وهو "أوحينا" ، على طريقة الفصل في المحاورة كما تقدّم في سورة البقرة ، وهو قول نفسي حصل حين ألقى الله في قلوبهم تصديق عيسى فكأنّه خاطبهم فأجابوه .

والخطاب في قولهم : ﴿ واشهَدْ ﴾ لله تعالى وإنّما قالوا ذلك بكلام نفسي من لغتهم ، فحكى الله معناه بما يؤدّيه قوله : ﴿ واشهد بأنّنا مسلمون ﴾ .

وسمّى إيمانهم إسلاماً لأنّه كان تصديقاً راسخاً قد ارتفعوا به عن مرتبة إيمان عامّة من آمن بالمسيح غيرهم ، فكانوا مماثلين لإيمان عيسى ، وهو إيمان الأنبياء والصدّيقين ، وقد

قدّمت بيانه في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولكن كان حنفياً مسلماً ﴾ في سورة آل عمران (67) ، وفي تفسير قوله ﴿ فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ في سورة البقرة (132) فارجع إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(139/219)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) ﴾

وكلمة الحَوَارِيّ مأخوذة من المحسات . فالحُوَّارَي تطلق على الدقيق النقي الخالص . وأطلقت على كل شيء نقي بصفاء خالص ، و" الحَوَاري " هنا تعني المخلص والمحب لمنهج الخير . وسبحانه يقول : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ والوحي بمعناه العام هو الإعلام بخفاء ؛ أي أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلغ عن الله ، أي أعلمهم بخواطر القلب التي أعلم بها أُمَّ موسى ان تلقى ابنها في اليم ليلقيه اليم إلى الساحل ، وهو غير الوحي للرسول ، فالوحي للرسول هو الوحي الشرعي بواسطة رسول مبلغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام ، أما وحي الله إلى أم موسى أو إلى الحواريين فهو استقرار خاطر إيماني يلتفت بعده الموحى

إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك . وعندما لا يصادم إلهام القلب أمراً واقعاً ولا يجد الإلهام ما يصادمه في نفس الإنسان ، فهذا لون من الوحي ، أي هو إعلام بخفاء ، كأن يتوقع الرجل مَقْدَم صديق من سفر ، أو لوناً من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة .

إذن فالإلهام وارد من الله لخلق الله ما دام لا يصادم شيئاً في النفس أو في الواقع ؛ لأن الإلهام الذي يقابل صداماً ليس من الله . فالشياطين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا

.

إن الله أوحى للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام . وبمجرد مجيء عيسى وسماعهم أنه رسول من الله أعلنوا الإيمان به وصاروا من خلصائه . وساعة نرى : " إذ " فلنفهم أن معناها تذكر وقت الحدث الذي قال فيه الحواريون : نحن آمنا بعيسى نبياً من عند الله وأشهدوه أنهم مسلمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(140/219)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ

﴿ (111)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ يقول : قذفت في قلوبهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ قال : وحي قذف في قلوبهم ليس بوحي نبوّة ، والوحي وحيان : وحي تجيء به الملائكة ، ووحي يقذف في قلب العبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(141/219)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ أَنْ آمِنُوا بِي ﴾ : في " أنْ " وجهان :

أظهرهما : أنها تفسيرية ؛ لأنها وردت بعد ما هو بمعنى القولِ ، لا حروفه .

والثاني : أنها مصدريَّةٌ بتأويلٍ متكلَّف ، أي : أوْجبْتُ إليهم الأمر بالإيمان ، وهنا قالوا " آمَنَّا " ولم يُذْكَر المُؤمنُ به ، وهناك ﴿ آمَنَّا بالله ﴾ [آل عمران : 52] فذكره ، والفرق أنَّ هناك تقدَّم ذكرُ الله تعالى فقط ، فأُعيدَ المؤمَنُ به ، فقيل : " بالله " وهنا ذُكِرَ شيئان قبل

ذلك ، وهما : ﴿ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ﴾ ، فلم يُذْكَر ؛ ليشمل المذكورين ، وفيه نظرٌ ، وهنا قال " بأَنَّنَا " وهناك قال " بِأَنَّا " بحذف " نَا " ، وقد تقدَّم غيره مرة : أنَّ هذا هو الأصل ، وإنما جِيءَ هنا بالأصل ؛ لأنَّ المُؤمنَ به متعدّدٌ ، فناسَبَه التأكيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 603 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) ﴾

وإنما خصَّهم بالوحي إلهاماً وإكراماً لانبساط ضياء عيسى عليهم ، وفي الأثر : " هُمُ القومُ لا يَشْقَى بهم جليسُ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 455 ﴾

(142/219)

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من المقصود بذكر معجزات عيسى عليه السلام تنبيه الكافر ليؤمن ، والمؤمن ليزداد إيماناً ، وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتوبيخ اليهود المدعين أنهم أبناء وأحباء - إلى غير ذلك مما أراد الله ، قرعت به الأسماع ، ولم يتعلق بما يجيب به يوم القيامة عند أمره بذلك غرض فطوي ؛ ولما كان أجلّ المقاصد تأديب هذه الأمة لنبيها عليه

(143/219)

السلام لتجلّه عن أن تبدأه بسؤال أو تقترح عليه شيئاً في حال من الأحوال ، ذكر لهم شأن الحواريين في اقتراحهم بعد ما تقدم من امتداحهم بِعَدّهم في عداد أولي الوحي ومبادرتهم إلى الإيمان امتثالاً للأمر ثم إلى الإشهاد على سبيل التأكيد بتمام الانقياد وسلب الاختيار ، فقال معلقاً ب " قالوا آمنا " مقرباً لزمن تعنتهم من زمن إيمانهم ، مذكراً لهذه الأمة بحفظها على الطاعة ، ومبكتاً لبني إسرائيل بكثرة تقلبهم وعدم تماسكهم إبعاداً لهم عن درجة المحبة فضلاً عن البنوة ، وهذه القصة قبل قصة الإيحاء إليهم فتكون " إذ " هذه ظرفاً لتلك ، فيكون الإيحاء إليهم بالأمر بالإيمان في وقت سؤالهم هذه بعد ابتدائه ، ويكون فائدته حفظهم من أن يسألوا آية أخرى كما سألوا هذه بعد ما رأوا منه صلى الله عليه وسلم من

الآيات : ﴿ إذ قال ﴾ وأعاد وصفهم ولم يضمره تنصيصاً عليهم لبُعد ما يذكر من حالهم هذا من حالهم الأول فقال : ﴿ الحواريون ﴾ وذكر أنهم نادوه باسمه واسم أمه فقالوا : ﴿ يا عيسى ابن مريم ﴾ ولم يقولوا : يا رسول الله ولا يا روح الله ، ونحو هذا من التبجيل أو التعظيم ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ بالياء مسنداً إلى الرب وبالتاء الفوقانية مسنداً إلى عيسى عليه السلام ونصب الرب ، ومعناهما واحد يرجع إلى التهييج والإلهاب بسبب الاجتهاد في الدعاء بحيث تحصل الإجابة ، وتكون هذه العبارة أيضاً للتلطف كما يقول الإنسان لمن يعظمه : هل تقدر أن تذهب معي إلى كذا ؟ وهو يعلم أنه قادر ، ولكنه يكنى بذلك عن أن السائل يحب ذلك ولا يريد المشقة على

(144/219)

المسؤول ﴿ أن ينزل ﴾ أي الرب المحسن إليك ﴿ علينا مائدة ﴾ وهي الطعام ، ويقال أيضاً : الخوان إذا كان عليه الطعام ، والخوان شيء يوضع عليه الطعام للأكل ، هو في العموم بمنزلة السفرة لما يوضع فيه طعام المسافر بالخصوص ، وهي من ماده – إذا أعطاه وأطعمه .

ولما كان هذا ظاهراً في أنها سماوية ، صرحوا به احترازاً عما عوَّدهم به صلى الله عليه وسلم من أنه يدعو بالقليل من الطعام فيبارك فيه فيمده الله فيكفي فيه القيام من الناس

فقالوا : ﴿ من السماء ﴾ أي لا صنع للآدميين فيها لنختص بها عمن تقدمنا من الأمم .

ولما كان المقصود من هذا وعظنا وإرشادنا إلى أن لا نسأل نبينا صلى الله عليه وسلم شيئاً ، اكتفاء بما يرحمنا به ربنا الذي رحمنا بابتدائنا بإرساله إلينا لإيصالنا إليه سبحانه ، وتخويفاً من أن نكون مثل من مضى من المقترحين الذين كان اقتراحهم سببَ هلاكهم ؛ دل على ذلك بالنزوع من أسلوب الخطاب إلى الغيبة فقال مستأنفاً إرشاداً إلى السؤال من جوابهم : ﴿ قال ﴾ ولم يقل : فقلت ﴿ اتقوا الله ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين غضب الملك الأعظم الذي له الكمال وقاية تمنعكم عن الاجتراء على الاقتراح ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بأنه قادر وإني رسوله ، فلا تفعلوا فعل من وقف إيمانه على رؤية ما يقترح من الآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 569 . 570 ﴾

وقال ابن عاشور :

(145/219)

جملة : ﴿ إذ قال الحواريّون ﴾ يجوز أن تكون من تمام الكلام الذي يكلّم الله به عيسى يومَ يجمع الرسل ، فيكون ﴿ إذ ﴾ ظرفا متعلّقاً بفعل ﴿ قالوا آمنّا ﴾ [المائدة : 111] فيكون ممّا يذكر الله به عيسى يوم يجمع الرسل ، فحكي على حسب حصوله في الدنيا

وليس ذلك بمقتض أنّ سؤالهم المائدة حصل في أول أوقات إيمانهم بل في وقت آخر ﴿ قالوا آمنّا واشهد بأنّنا مسلمون ﴾ [المائدة: 111]؛ فإنّ قولهم ﴿ آمنّا ﴾ قد يتكرّر منهم بمناسبات، كما يكون عند سماعهم تكذيب اليهود عيسى، أو عندما يشاهدون آيات على يد عيسى، أو يقولونه لإعادة استحضار الإيمان شأن الصدّيقين الذين يحاسبون أنفسهم ويصقلون إيمانهم فيقولون في كلّ معاودة.

آمنّا واشهد بأنّنا مسلمون.

وأمّا ما قرّر به "الكشاف" ومتابعوه فلا يحسن تفسير الكلام به.

ويجوز أن يكون جملة: ﴿ إذ قال الحواريّون ﴾ ابتدائية بتقدير: اذكر، على أسلوب قوله تعالى ﴿ إذْ قال موسى لأهله إنّي آنست ناراً ﴾ في سورة النمل (7)، فيكون الكلام تخلّصاً إلى ذكر قصّة المائدة لمناسبة حكاية ما دار بين عيسى وبين الحواريّين في قوله تعالى: ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريّين أن آمنوا بي وبرسولي ﴾ [المائدة: 111] وابتدأوا خطابهم عيسى بندائه باسمه للدلالة على أنّ ما سيقولونه أمر فيه اقتراح وكلفة له، وكذلك شأن من يخاطب من يتجشّم منه كلفة أن يطيل خطابه طلباً لإقبال سمعه إليه ليكون أوعى للمقصود. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فصل

قال الفخر:

﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ قرأ الكسائي ﴿ هَلْ تَسْتَطِيعَ ﴾ بالتاء ﴿ رَبَّكَ ﴾ بالنصب وبإدغام اللام في التاء ، وسبب الإدغام أن اللام قريب المخرج من التاء لأنهما من حروف طرف اللسان وأصول الثنايا وبحسب قرب الحرف من الحرف يحسن الإدغام ، وهذه القراءة مروية عن علي وابن عباس .

(146/219)

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كانوا أعلم بالله من أن يقولوا هل يستطيع وإنما قالوا هل تستطيع أن تسأل ربك .

وعن معاذ بن جبل : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هَلْ تَسْتَطِيعَ ﴾ بالتاء ﴿ رَبَّكَ ﴾ بالنصب والباقون يستطيع بالياء ربك برفع الباء وبالإظهار فأما القراءة الأولى فمعناها : هل تسطيع سؤال ربك ؟ قالوا وهذه القراءة أولى من الثانية لأن هذه القراءة توجب شكهم في استطاعة عيسى ، والثانية توجب شكهم في استطاعة الله ، ولا شك أن الأولى أولى ، وأما القراءة الثانية ففيها إشكال ، وهو أنه تعالى حكى عنهم أنهم ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة : 111] وبعد الإيمان كيف يجوز أن يقال إنهم بقوا شاكين في اقتدار الله تعالى على ذلك ؟

والجواب عنه من وجوه : الأول : أنه تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام بل حكى عنهم ادعاءهم لهما ثم أتبع ذلك بقوله حكاية عنهم ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السماء ﴾ فدل ذلك على أنهم كانوا شاكين متوقفين فإن هذا القول لا يصدر عمن كان كاملاً في الإيمان وقالوا : ونعلم أن قد صدقتنا وهذا يدل على مرض في القلب وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم ﴿ اتقوا الله إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يدل على أنهم ما كانوا كاملين في الإيمان .

والوجه الثاني : في الجواب أنهم كانوا مؤمنين إلا أنهم طلبوا هذه الآية ليحصل لهم مزيد الطُّمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ ولكن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : 260] فإن مشاهدة مثل هذه الآية لا شك أنها تورث الطمأنينة ولهذا السبب قالوا وتطمئن قلوبنا .

(147/219)

والوجه الثالث : في الجواب أن المراد من هذا الكلام استفهام أن ذلك هل هو جائز في الحكمة أم لا وذلك لأن أفعال الله تعالى لما كانت موقوفة على رعاية وجوه الحكمة ففي الموضع الذي لا يحصل فيه شيء من وجوه الحكمة يكون الفعل ممتنعاً فإن المنافي من جهة الحكمة كالمنافي من جهة القدرة ، وهذا الجواب يتمشى على قول المعتزلة ، وأما على قولنا

فهو محمول على أن الله تعالى هل قضى بذلك وهل علم وقوعه فإنه إن لم يقض به ولم يعلم وقوعه كان ذلك محالاً غير مقدور لأن خلاف المعلوم غير مقدور .

الوجه الرابع : قال السدي : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ أي هل يطيعك ربك إن سألته ، وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة .

الوجه الخامس : لعلّ المراد بالرب : هو جبريل عليه السلام ، لأنه كان يربيه ويخصه بأنواع الإعانة ، ولذلك قال تعالى في أول الآية ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس ﴾ [المائدة : 110] يعني أنك تدعي أنه يربيك ويخصك بأنواع الكرامة ، فهل يقدر على إنزال مائدة من السماء عليك .

والوجه السادس : أنه ليس المقصود من هذا السؤال كونهم شاكين فيه بل المقصود تقرير أن ذلك في غاية الظهور كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول هل يقدر السلطان على إشباع هذا ويكون غرضه منه أن ذلك أمر جلي واضح ، لا يجوز لعاقل أن يشك فيه ، فكذا ههنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 107 . 108 ﴾

(148/219)

وقال الزمخشرى :

فإن قلت : كيف قالوا : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم ؟

قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم لهما ، ثم أتبعه قوله : ﴿ إِذْ قَالُواْ ﴾ فآذن إنّ دعواهم كانت باطلة ، وإنهم كانوا شاكين ، وقوله : (هل يستطيع ربك) كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ، ولا تقترحوا عليه ، ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها (1) ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة .

وقرىء : "هل تستطيع ربك" ، أي هل تستطيع سؤال ربك ، والمعنى : هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 1 صـ 724 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السماء ﴾ لم يكن بعد عن تحقيق واستحكام معرفة . وقيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة . وقيل المعنى هل يطيع ربك أي هل يجيبك ، واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب وأجاب . وقرأ الكسائي "تستطيع ربك" أي سؤال ربك ، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 379 . 380 ﴾

وقال النسفى :

﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هل يفعل أو هل يطيعك ربك إن سألته ، فاستطاع وأطاع بمعنى كاستجاب وأجاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 1 صـ 309 ﴾

---

(1) لا يخفى ما فى هذا الكلام من البعد فالآيات الكريمة تعدد نعم الله تعالى على نبيه عيسى عليه السلام ومن بينها أن أيده بإيمان الحواريين به ونصرتهم له . وقد وجه كثير من المفسرين هذا السؤال توجيهات حسنة ، تم ذكرها ولله الحمد والمنة .

(149/219)

وقال الثعلبى :

قرأ علي وعائشة وابن عباس وابن جبير ومجاهد : هل تستطيع بالتاء ، ربك بنصب الباء ، وهو اختيار الكسائي وأبي عبيد على معنى هل تستطيع أن تدعو ربّك كقوله ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] وقالوا : لأن الحواريين لم يكونوا شاكّين في قدرة اللّه تعالى . وقرأ الباقون بالياء قيل : يستطيع ربك برفع الباء فقالوا : إنهم لم يشكوا في قدرة اللّه تعالى وإنما معناه هل ينزل أم لا كما يقول الرجل لصاحبه : هل تستطيع أن تنهض معي وهو يعلم أنّه يستطيع وإنّما يريد هل يفعل أم لا ، وأجراه بعضهم على الظاهر ، فقالوا : غلط قوم وكانوا

مشوا ، فقال لهم عيسى عند الغلط استعظاماً لقولهم : هل يستطيع ربك ﴿ اتقوا اللهَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي أن تشكوا في قدرة اللّه تعالى أو تنسبوه إلى عجز أو نقصان ولستم بمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قرأ الكسائي وحده ﴿ هل تَّستطيع ربَّك ﴾ بالتاء والإِدغام ، وربك بالنصب ، وفيها وجهان :

أحدهما : معناه هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله ، قاله الزجاج .

والثاني : هل تستطيع أن تسأل ربك ، قاله مجاهد ، وعائشة .

وقرأ الباقون ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ بالياء والإِظهار ، وفي ذلك التأويل ثلاثة أوجه :

أحدها : هل يقدر ربك ، فكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله تعالى .

والثاني : معناه هل يفعل ربك ، قاله الحسن ، لأنهم سموا بالحواريين بعد إيمانهم .

والثالث : معناه هل يستجيب لك ربك ويطيعك .

﴿ أَن يُنَزِّلَ عَلَينَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ قاله السدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال محمد بن أبى بكر الرازى :

هذا استفهام عن الفعل لا عن القدرة كما يقول الفقير للغنى : هل تقدر أن تعطينى شيئا ؟

وهذه تسمى استطاعة المطاوعة لا استطاعة القدرة .

فإن قيل : لو كان المراد هذا المعنى لما أنكر عليهم عيسى عليه السلام بقوله ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

قلنا : إنكاره عليهم إنما كان لأنهم أتو بلفظ يحمل المعنى الذى لا يليق بالمؤمن المخلص إرادته وإن كانوا لم يريدوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الرازى صـ 128 ﴾

(150/219)

وقال ابن عطية :

وقرأ جمهور الناس " هل يستطيع ربُّك " بالياء ورفع الباء من ربك . وهي قراءة السبعة حاشا الكسائي ، وهذا ليس لأنهم شكوا في قدرة الله على هذا الأمر كامنة بمعنى هل يفعل تعالى هذا وهل تقع منه إجابة إليه ؟ وهذا كما قال لعبد الله بن زيد هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ فالمعنى هل يخف عليك وهل تفعله ؟ أما أن في اللفظة بشاعة بسببها قال عيسى ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ وبسببها مال فريق من الصحابة وغيرهم إلى غير هذه القراءة فقرأ علي بن أبي طالب

ومعاذ بن جبل وابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير " هل تستطيع ربَّك " بالتاء ونصب الباء من ربك . المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك ؟ قالت عائشة رضي الله عنها : كان الحواريون أعرف بالله من أن يقولوا هل يستطيع ربك .

قال القاضي ابو محمد : نزهتهم عائشة عن بشاعة اللفظ وإلا فليس يلزمهم منه جهل بالله تعالى على ما قد تبين آنفاً . ويمثل هذه القراءة قرأ الكسائي وزاد أنه أدغم اللام في التاء .

قال أبو علي : وذلك حسن ، و﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ أن ينزل ﴾ على هذه القراءة متعلقة بالمصدر المحذوف الذي هو سؤال . و﴿ أن ﴾ مفعول به إذ هو في حكم المذكور في اللفظ وإن كان محذوفاً منه إذ لا يتم المعنى إلا به .

قال القاضي أبو محمد : وقد يمكن أن يستغنى عن تقدير سؤال على أن يكون المعنى هل يستطيع أن يكون المعنى هل يستطيع أن ينزل ربك بدعائك أو بأثرتك عنده ونحوه هذا ، فيردك المعنى ولا بد إلى مقدر يدل عليه ما ذكر من اللفظ ، و" المائدة " فاعلة من ماد إذا تحرك ، هذا قول الزجّاج أو من ماد إذا ماد وأطعم كما قال رؤبة :

تهدى رؤوس المترفين الأنداد . . . إلى أمير المؤمنين الممتاد

أي الذي يستطعم ويمتاد منه ، وقول عيسى عليه السلام ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ تقرير لهم كما تقول افعل كذا وكذا إن كنت رجلاً ، ولا خلاف أحفظه في أن الحواريين كانوا مؤمنين ، وهذا هو ظاهر الآية ، وقال قوم قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأمر قبل علمهم بأنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى ويظهر من قوله عليه السلام ﴿ اتقوا الله ﴾ إنكار لقولهم ذلك ، وذلك على قراءة من قرأ " يستطيع " بالياء من أسفل متوجه على أمرين : أحدهما : بشاعة اللفظ ، والآخر إنكار طلب الآيات والتعرض إلى سخط الله بها والنبوات ليست مبنية على أن تتعنت وأما على القراءة الأخرى فلم ينكر عليهم إلا الاقتراح وقلة طمأنينتهم إلى ما قد ظهر من آياته .

فلما خاطبهم عليه السلام بهذه المقالة صرحوا بالمذاهب التي حملتهم على طلب المائدة ، فقالوا : نريد أن نأكل منها فنشرف في العالم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

وقرأ الكسائي : "هل تستطيع" بالتاء ، ونصْب الرب .

قال الفراء : معناه : هل تقدر أن تسأل ربك .

قال ابن الأنباري : ولا يجوز لأحدٍ أن يتوهم أن الحواريين شكُّوا في قدرة الله ، وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه : هل تستطيع أن تقوم معي ، وهو يعلم أنه مستطيع ، ولكنّه يريد :

هل يسهل عليك .

وقال أبو علي : المعنى : هل يفعل ذلك بمسألتك إِيّاه .

وزعم بعضهم أنهم قالوا ذلك قبل استحكام إِيمانهم ومعرفتهم ، فردَّ عليهم عيسى بقوله : اتقوا الله ، أن تنسبوه إِلى عجز ، والأول أصح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ﴾

قال المفسرون : هذا على المجاز ولا يجوز لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكَّوا في قدرة الله تعالى لكنه كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تقوم معي ؟ مع علمه بأنه يقدر على القيام وإنما قصد بقوله هل تستطيع هل يسهل عليك وهل يخف أن تقوم معي فكذلك .

(152/219)

معنى الآية : لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل ومعترفين بكمال قدرته وإنما قالوا ذلك ليحصل لهم مزيد الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ولكن ليطمئن قلبي .

ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة في القلب ولهذا السبب قالوا

وتطمئن قلوبنا وقال بعضهم هو على ظاهره .

وقال : غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة في قلوبهم وكانوا بشراً فقالوا هذه المقالة فرد الله عليهم عند غلطهم بقوله : ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

وقرأ الجمهور ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ بالياء وضم الباء .

وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزل مائدة من السماء ، وذلك هو الذي حمل الزمخشري على أن الحواريين لم يكونوا مؤمنين قال : (فإن قلت) : كيف قالوا ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم ؟ (قلت) : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما ثم أتبعه قوله : ﴿ إذ قالوا ﴾ فآذن أن دعواهم كانت باطلة وأنهم كانوا شاكين وقوله : ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ولذلك قول عيسى لهم معناه اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها .

﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة انتهى .

وأما غير الزمخشري من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين حتى قال ابن عطية : لا خلاف أحفظه في أن الحواريين كانوا مؤمنين ، وقال قوم : قال الحواريون هذه

المقالة في صدر الأمر قبل علمهم بأنه يبرىء الأكمة والأبرص ويحيي الموتى ، قال المفسرون والحواريون هم خواص عيسى وكانوا مؤمنين ولم يشكوا في قدرة الله تعالى على ذلك .

(153/219)

قال ابن الأنباري : لا يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة الله وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه : هل تستطيع أن تقوم معي ؟ وهو يعلم أنه مستطيع له ، ولكنه يريد هل يسهل عليك انتهى .

وقال الفارسي : معناه هل يفعل ذلك بمسألتك إياه .

وقال الحسن لم يشكوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزل أم لا فإن كان ينزل فاسأله لنا .

قال ابن عطية هل يفعل تعالى هذا وهل يقع منه إجابة إليه كما قال لعبد الله بن زيد : هل يستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ فالمعنى هل يحب ذلك وهل يفعله انتهى .

وقيل المراد من هذا الكلام استفهام أن ذلك جائز أم لا وذلك لأن أفعاله موقوفة على وجوه الحكمة فإن لم يحصل شيء من وجوه الحكمة كان الفعل ممتنعاً فإن المنافي من وجوه الحكمة

كالمنافي من وجوه القدرة .

قال أبو عبد الله الرازي هذا الجواب يمشي على قول المعتزلة ، وأما على مذهبنا فهو محمول على أنه تعالى هل قضى بذلك وهل علم وقوعه فإنه إن لم يقص به ويعلم وقوعه كان ذلك محالاً غير مقدور لأن خلاف المعلوم غير مقدور ، وقال أيضاً ليس المقصود من هذا الكلام كونهم شاكين فيه ، بل المقصود تقرير أن ذلك في غاية الظهور كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول : هل يقدر السلطان على إشباع هذا ، ويكون غرضه منه أن ذلك أمر واضح لا يجوز للعاقل أن يشك فيه ، وأبعد من قال هل ينزل ربك مائدة من السماء ويستطيع صلة ومن قال : الرب هنا جبريل لأنه كان يربي عيسى ويخصه بأنواع الإعانة ولذلك قال في أول الآية ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وروي أن الذي نحا بهم هذا المنحى من الاقتراح هو أن عيسى قال لهم مرة هل لكم في صيام ثلاثين يوماً لله تعالى ، ثم إن سألتموه حاجة قضاها فلما صاموها قالوا : يا معلم الخير ، إن حق من عمل عملاً أن يطعم فهل يستطيع ربك .

فأرادوا أن تكون المائدة عيد ذلك الصوم .

(154/219)

وقرأ الكسائي هل تستطيع ربك بالتاء من فوق ﴿ ربك ﴾ بنصب الباء وهي قراءة عليّ ومعاذ وابن عباس وعائشة وابن جبير .

قالت عائشة كان الحواريون أعرف بالله من أن يقولوا ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ نزهتهم عن بشاعة اللفظ وعن مرادهم ظاهره .

وقد ذكرنا تأويلات ذلك ومعنى هذه القراءة هل تستطيع سؤال ربك و ﴿ أَن ينزل ﴾ معمول لسؤال المحذوف إذ هو حذف لا يتم المعنى إلا به .

وقال أبو عليّ وقد يمكن أن يستغني عن تقدير سؤال على أن يكون المعنى هل تستطيع أن ينزل ربك بدعائك فيؤول المعنى ولا بد إلى مقدر يدل عليه ما ذكر من اللفظ انتهى .

ولا يظهر ما قال أبو علي لأن فعل الله تعالى وإن كان سببه الدعاء لا يكون مقدوراً لعيسى وأدغم الكسائي لام ﴿ هل ﴾ في ياء ﴿ يستطيع ﴾ وعلى هذه القراءة يكون قول عيسى ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ لم ينكر عليه الاقتراح للآيات وهو على كلتا القراءتين يكون قوله ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ تقريراً للإيمان كما تقول افعل كذا وكذا إن كنت رجلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ .

قراءة الكسائيّ وعليّ وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد "هل تستطيع" بالتاء "ربّك"

بالنصب .

وأدغم الكسائيّ اللام من "هل" في التاء .

وقرأ الباقون بالياء ، "ربُّك" بالرفع ، وهذه القراءة أشكل من الأولى ؛ فقال السدي : المعنى هل يطيعك ربك إن سألته ﴿ أَن يُنَزِّلَ ﴾ فيستطيع بمعنى يطيع ؛ كما قالوا : استجاب بمعنى أجاب ، وكذلك استطاع بمعنى أطاع .

وقيل المعنى : هل يقدر ربك ، وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل ؛ ولهذا قال عيسى في الجواب عند غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز : ﴿ اتقوا اللهَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي لا تشكوا في قدرة الله تعالى .

(155/219)

قلت : وهذا فيه نظر ؛ لأن الحواريين خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال : ﴿ مَنْ أنصاري إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله ﴾ [الصف : 14] .

وقال عليه السلام : " لكل نبيّ حواري وحواري الزبير " ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم ؛ فكيف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى ؟

إلا أنه يجوز أن يقال : إن ذلك صدر ممن كان معهم ، كما قال بعض جهال الأعراب للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط ، وكما قال من قال من قوم موسى : ﴿ اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] على ما يأتي بيانه في "الأعراف" إن شاء الله تعالى .

وقيل : إن القوم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين ، وإنما هو كقولك للرجل : هل يستطيع فلان أن يأتي وقد علمت أنه يستطيع ، فالمعنى : هل يفعل ذلك ؟ وهل يجيبني إلى ذلك أم لا ؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك ؛ كما قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى ﴾ [البقرة : 260] على ما تقدّم ، وقد كان إبراهيم علم لذلك علم خبر ونظر ، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة ، لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات ، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك ، ولذلك قال الحواريون : ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ كما قال إبراهيم : ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

قلت : وهذا تأويل حسن ، وأحسن منه أن ذلك كان من قول من كان مع الحواريين ؛ على ما يأتي بيانه .

وقد أدخل ابن العربيّ المستطيع في أسماء الله تعالى ، وقال : لم يرد به كتاب ولا سنة اسما وقد ورد فعلا ، وذكر قول الحواريين : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ .

ورده عليه ابن الحصّار في كتاب شرح السنة له وغيره ؛ قال ابن الحصار : وقوله سبحانه مخبرا عن الحواريين لعيسى : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ ليس بشك في الاستطاعة ، وإنما هو تلطف في السؤال ، وأدب مع الله تعالى ؛ إذ ليس كل ممكن سبق في علمه وقوعه ولا لكل أحد ، والحواريون هم كانوا خيرة من آمن بعيسى ، فكيف يظنّ بهم الجهل باقتدار الله تعالى على كل شيء ممكن ؟ ! وأما قراءة "التاء" فقيل : المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك ، هذا قول عائشة ومجاهد رضي الله عنهما ؛ قالت عائشة رضي الله عنها : كان القوم أعلم بالله عز وجل من أن يقولوا ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ قالت : ولكن "هل تستطيع ربّك" .

وروي عنها أيضاً أنها قالت : كان الحواريون لا يشكون أن الله يقدر على إنزال مائدة ولكن قالوا : "هل تستطيع ربك" .

وعن معاذ بن جبل قال : أقرأنا النبي صلى الله عليه وسلم " هل تستطيع ربك " قال معاذ : وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم مراراً يقرأ بالتاء " هل تستطيع ربك " وقال الزجاج : المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله .

وقيل : هل تستطيع أن تدعو ربك أو تسأله ؛ والمعنى متقارب ، ولا بد من محذوف ؛ كما

قال : ﴿ واسأل القرية ﴾ وعلى قراءة الياء لا يحتاج حذف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِذْ قَالَ الحواريون يا عيسى عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ منصوب ب ﴿ اذكر ﴾ [المائدة : 110] على أنه ابتداء كلام لبيان ما جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه منقطع عما قبله كمال يشير إليه الإظهار في مقام الاضمار .

(157/219)

وجوز أن يكون ظرفاً لِ ﴿ قَالُواْ ﴾ [المائدة : 111] وفيه على ما قيل حينئذ تنبيه على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السماء ﴾ لم يكن عن تحقيق منهم ولا عن معرفة بالله تعالى وقدرته سبحانه لأنهم لو حققوا وعرفوا لم يقولوا ذلك إذ لا يليق مثله بالمؤمن بالله عز وجل .

وتعقب هذا القول الحلبي بأنه خارق للإجماع .

وقال ابن عطية لا خلاف أحفظه في أنهم كانوا مؤمنين وأيد ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ﴾ [المائدة : 115] وبأن وصفهم بالحواريين ينافي أن يكونوا على الباطل وبأن

الله تعالى أمر المؤمنين بالتشبه بهم والإقتداء بسنتهم في قوله عز من قائل : ﴿ كُونُواْ أنصار الله ﴾ [الصف : 14] الآية وبأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مدح الزبير "إن لكل نبي حواريا وإن حواري الزبير" والتزم القول بأن الحواريين فرقتان مؤمنون وهم خالصة عيسى عليه الصلاة والسلام والمأمور بالتشبه بهم وكافرون وهم أصحاب المائدة ، وسؤال عيسى عليه الصلاة والسلام نزول المائدة وإنزالها ليلزمهم الحجة يحتاج إلى نقل ولم يوجد .

ومن ذلك أجيب عن الآية بأجوبة فقيل : إن معنى ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ ﴾ هل يفعل كما تقول للقادر على القيام : هل تستطيع أن تقوم مبالغة في التقاضي .

ونقل هذا القول عن الحسن .

والتعبير عن الفعل بالاستطاعة من التعبير عن المسبب بالسبب إذ هي من أسباب الايجاد .

وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل تسمية للسبب الذي هو الإرادة باسم المسبب الذي هو الفعل في مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ إِذَا ﴾ [المائدة : 6] الخ .

وقيل : إن المعنى هل يطيع ربك فيستطيع بمعنى يطيع ويطيع بمعنى يجيب مجازاف ونقل ذلك عن السدي .

وذكر أبو شامة أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد أبا طالب في مرض فقال له : يا ابن أخي أدع ربك أن يعافيني فقال : اللهم اشف عمي فقام كأنما نشط من عقال فقال : يا ابن أخي إن ربك الذي تعبده يطيعك فقال : يا عم وأنت لو أطعته لكان يطيعك أي يجيبك لمقصودك وحسن استعماله صلى الله عليه وسلم لذلك المشاكلة .

وقيل : هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة فكأنهم قالوا : هل إرادة الله تعالى وحكمته تعلقت بذلك أولا ؟ لأنه لا يقع شيء بقدون تعلقهما به .

واعترض بأن قوله تعالى الآتي : ﴿ اتقوا اللهَ إِن كُنتُم ﴾ لا يلائمه لأن السؤال عن مثله مما هو من علوم الغيب لا قصور فيه .

وقيل : إن سؤالهم للاطمئنان والتثبت كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الموتى ﴾ [البقرة : 260] ومعنى ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إن كنتم كاملين في الإيمان والإخلاص ومعنى ﴿ نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ نعلم علم مشاهدة وعيان بعد ما علمناه علم إيمان وإيقان .

ومن هذا يعلم ما يندفع به الاعتراض .

وقرأ الكسائي وعلي كرم الله تعالى وجهه وعائشة وابن عباس ومعاذ وجماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم (هل تستطيع ربك) بالتاء خطاباً لعيسى عليه الصلاة

والسلام ونصب ﴿ رَبَّكَ ﴾ على المفعولية .

والأكثرون على أن هناك مضافاً محذوفاً أي سؤال ربك أي هل تسأله ذلك من غير صارف .

وعن الفارسي أنه لا حاجة إلى تقدير .

والمعنى هل تستطيع أن ينزل ربك بدعائك .

وأنت تعلم أن اللفظ لا يؤدي ذلك فلا بد من التقدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

(159/219)

وجرى قوله تعالى : ﴿ هل يستطيع ربّك ﴾ على طريقة عربية في العرض والدعاء ، يقولون للمستطيع لأمر : هل تستطيع كذا ، على معنى تطلّب العذر له إن لم يجبك إلى مطلوبك وأنّ السائل لا يحبّ أن يكلّف المسؤول ما يشقّ عليه ، وذلك كناية فلم يبق منظوراً فيه إلى صريح المعنى المقتضي أنّه يشكّ في استطاعة المسؤول ، وإنّما يقول ذلك الأدنى للأعلى منه ، وفي شيء يعلم أنه مستطاع للمسؤول ، فقرينة الكناية تحقّقُ المسؤول أنّ

السائل يعلم استطاعته .

ومنه ما جاء في حديث يحيى المازني "أنّ رجلاً قال لعبد الله بن زيد : أتستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضّأ" .

فإنّ السائل يعلم أنّ عبد الله بن زيد لا يشقّ عليه ذلك .

فليس قول الحواريّين المحكي بهذا اللفظ في القرآن إلاّ لفظاً من لغتهم يدلّ على التلطّف والتأدّب في السؤال ، كما هو مناسب أهل الإيمان الخالص .

وليس شكّاً في قدرة الله تعالى ولكنّهم سألوا آية لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان بأن ينتقلوا من الدليل العقلي إلى الدليل المحسوس .

فإنّ النفوس بالمحسوس آنس ، كما لم يكن سؤال إبراهيم بقوله ﴿ ربّ أرني كيف تحيي الموتى ﴾ [البقرة : 260] شكّاً في الحال .

وعلى هذا المعنى جرى تفسير المحققين مثل ابن عطية ، والواحدي ، والبغوي خلافاً لما في "الكشاف" .

وقرأ الجمهور : ﴿ يستطيع ﴾ بياء الغيبة ورفع ﴿ ربُّك ﴾ .

وقرأه الكسائي ﴿ هل تَستطيع ربَّك ﴾ بتاء المخاطب ونصب الباء الموحّدة من قوله ﴿ ربّك ﴾ على أنّ ﴿ ربّك ﴾ مفعول به ، فيكون المعنى هل تسأل لنا ربّك ، فعبّر بالاستطاعة عن طلب الطاعة ، أي إجابة السؤال .

وقيل : هي على حذف مضاف تقديره هل تستطيع سؤال ربّك ، فأقيم المضاف إليه مُقام المضاف في إعرابه .

وفي رواية الطبري عن عائشة قالت : كان الحواريّون أعلم بالله عزّ وجل من أن يقولوا : هل يستطيع ربّك ، ولكن قالوا : هل تستطيع ربّك .

(160/219)

وعن معاذ بن جبل أقرأنا النبي ﴿ هل تستطيع ربّك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الزجاج : المائدة فاعلة من ماد يميد ، إذا تحرك فكأنها تميد بما عليها وقال ابن الأنباري سميت مائدة لأنها عطية من قول العرب : ماد فلان فلانا يميده ميداً إذا أحسن إليه ، فالمائدة على هذا القول ، فاعلة من الميد بمعنى معطية ، وقال أبو عبيدة : المائدة فاعلة بمعنى مفعولة مثل عيشة راضية ، وأصلها مميدة ميد بها صاحبها ، أي أعطيها وتفضل عليه بها ، والعرب تقول مادني فلان يميدني إذا أحسن إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح

الغيب حـ 12 صـ 108 ﴾

وقال الثعلبى :

والمائدة هي الخوان الذي عليه الطعام وهي فاعلة إذا أعطاه وأطعمه ، كقولهم : ماد يميد ، وغار يغير ، وامتاد إفتعل ومنه قول روبة :

تهدى رؤس المترفين الأنداد . . . إلى أمير المؤمنين الممتاد

أي المستعطي .

قال رؤبة : والمائدة هي المطعمة المعطية الآكلين الطعام وسمي الطعام أيضاً مائدة على الخوان لأنه يؤكل على المائدة كقولهم للمطر سماء ، وللشحم ثرى .

وقال أهل الكوفة : سميت مائدة لأنها تميد الآكلون أي تميل ومنه قوله ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] .

قال الشاعر :

وأقلقني قتل الكناني بعده . . . وكادت بي الأرض الفضاء تميد

فقال أهل البصرة : هي فاعلة بمعنى المفعول أي تميد بالآكلين إليها ، كقوله عيشة راضية أي مرضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

والمائدة في المشهور الخوان الذي عليه الطعام من ماد يميد إذا تحرك أو من ماده بمعنى أعطاه

فهي فاعلة إما بمعنى مفعولة كـ ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (القارعة ؛ 7) ، واختاره الأزهري في "تهذيب اللغة" أو بجعلها للتمكن مما عليها كأنها بنفيها معطية كقولهم للشجرة المثمرة : مطعمة .

وأجاز بعضهم أن يقال فيها ميدة واستشد عليه بقول الراجز

: وميدة كثيرة الألوان . . .

تصنع للجيران والأخوان

(161/219)

واختار المناوي أن المائدة كل ما يمد ويبسط ، والمراد بها السفرة ، وأصلها طعام يتخذه المسافر ثم سمي بها الجلد المستدير الذي تحمل به غالباً كما سميت المزادة راوية .

وجوز أن تكون تسمية الجلد المذكور سفرة لأن له معاليق متى حلت عنه انفرج فاسفر عما فيه .

وهذا غير الخوان بضم الخاء وكسرها وهو أفصح ويقال له : اخوان بهمزة مكسورة لأنه اسم لشيء مرتفع يهيأ ليؤكل عليه الطعام ، والأكل عليه بدعة لكنه جائز إن خلا عن قصد التكبر .

وتطلق المائدة على نفس الطعام أيضاً كما نص عليه بعض المحققين ، و﴿ مّنَ السماء ﴾ يجوز أن يتعلق بالفعل قبله وأن يتعلق بمحذوف وقع صفة لمائدة أن مائدة كائنة من السماء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

واسم ﴿ مائدة ﴾ هو الخوان الموضوع عليه طعام ، فهو اسم لمعنى مركّب يدلّ على طعامٍ وما يوضع عليه .

والخِوان بكسر الخاء وضمّها تخت من خشب له قوائم مجعول ليوضع عليه الطعام للأكل ، اتّفقوا على أنّه معرّب .

قال الجواليقي : هو أعجمي .

وفي حديث قتادة عن أنس قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قطّ ، ولا في سُكُرُّجَة ، قال قتادة : قلت لأنس : فعلاَم كنتم تأكلون قال : على السُّفَر ، وقيل : المائدة اسم الطعام ، وإن لم يكن في وعاء ولا على خِوان .

وجزم بذلك بعض المحقّقين من أهل اللغة ، ولعلّه مجاز مرسل بعلاقة المحلّ .

وذكر القرطبي أنّه لم تكن للعرب موائد إنّما كانت لهم السفرة .

وما ورد في الحديث من قول ابن عباس في الضبّ : لو كان حراماً ما أُكل على مائدة رسول الله ، إنّما يعني به الطعام الموضوع على سفرة .

واسم السفرة غلب إطلاقه على وعاء من أديم مستدير له معاليق ليرفع بها إذا أريد السفر به .

وسمّيت سفرة لأنّها يتّخذها المسافر .

(162/219)

وإنّما سأل الحواريّون كون المائدة منزّلة من السماء لأنّهم رغبوا أن تكون خارقة للعادة فلا تكون ممّا صنع في العالم الأرضي فتعيّن أن تكون من عالم علوي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَ اتقوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال الفخر :

فيه وجهان :

الأول : قال عيسى اتقوا الله في تعيين المعجزة ، فإنه جار مجرى التعنت والتحكم ، وهذا من العبد في حضرة الرب جرم عظيم ، ولأنه أيضاً اقتراح معجزة بعد تقدم معجزات كثيرة ، وهو جرم عظيم .

الثاني : أنه أمرهم بالتقوى لتصير التقوى سبباً لحصول هذا المطلوب ، كما قال : ﴿ وَمَن

يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : 2 ، 3] وقال : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله وابتغوا إِلَيهِ الوسيلة ﴾ [المائدة : 35] وقوله : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني إن كنتم مؤمنين بكونه سبحانه وتعالى قادراً على إنزال المائدة فاتقوا الله لتصير تقواكم وسيلة إلى حصول هذا المطلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 108 ﴾

وقال الثعلبى :

قال عيسى مجيباً لهم ﴿ اتقوا اللهَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فلا تشكوا في قدرته . وقيل : اتقوا اللّه أن تسألوه شيئاً لم يسأله الأمم قبلكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ اتقوا اللهَ إِن كنتم مؤمنين ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : اتقوه أن تسألوه البلاء ، لأنها إِن نزلت وكذّبتم ، عُذبتم ، قاله مقاتل .

والثاني : أن تسألوه ما لم تسأله الأُمم قبلكم ، ذكره أبو عبيد .

والثالث : أن تشكُّوا في قدرته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ قَالَ اتقوا الله ﴾ أي اتقوا معاصيه وكثرة السؤال ؛ فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات ؛ إذ كان الله عز وجل إنما يفعل الأصلح لعباده .

(163/219)

﴿ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم مؤمنين به وبما جئت به ، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غِنًى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ أي عيسى عليه الصلاة والسلام لهم حين قالوا ذلك : ﴿ اتقوا الله ﴾ من أمثال هذا السؤال واقتراح الآيات كما قال الزجاج .

وعن الفارسي أنه أمر لهم بالتقوى مطلقاً .

ولعل ذلك لتصير ذريعة لحصول المأمول فقد قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ، 3] وقال جل شأنه : ﴿ رَّحِيمٌ يَأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ اتقوا الله وابتغوا إِلَيهِ الوسيلة ﴾ [المائدة : 35] ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بكمال قدرته تعالى وبصحة نبوتي أو كاملين في الإيمان والإخلاص أو إن صدقتم في ادعاء الإيمان والإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقول عيسى حين أجابهم ﴿ اتّقوا اللهَ إن كنتم مؤمنين ﴾ أمر بملازمة التقوى وعدم تزلزل الإيمان ، ولذلك جاء بِـ ﴿ إن ﴾ المفيدة للشكّ في الإيمان ليعلم الداعي إلى ذلك السؤال خشية أن يكون نشأ لهم عن شكّ في صدق رسولهم ، فسألوا معجزة يعلمون بها صدقه بعد أن آمنوا به ، وهو قريب من قوله تعالى لإبراهيم المحكي في قوله : ﴿ قال أو لم تؤمن ﴾ ، أي ألم تكن غنيّاً عن طلب الدليل المحسوس .

فالمراد بالتقوى في كلام عيسى ما يشمل الإيمان وفروعه .

وقيل : نهاهم عن طلب المعجزات ، أي إن كنتم مؤمنين فقد حصل إيمانكم فما الحاجة إلى المعجزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(164/219)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الاستطاعة)

قد وردت فى القرآن على ثلاثة أَوجهٍ:

الأَوّل: بمعنى السّعةِ والغِنى بالمال: ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ ، ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ .

الثانى: بمعنى القوة والطَّاقة: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآءِ ﴾ .

الثالث: بمعنى القُدْرة والمُكْنة البدنيّة: ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً ﴾ ، ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ ﴾ .

والاستطاعة استفعالة من الطَّوع .

وذلك وجود ما يصير به الفعل (متأتيا .

وهو عن المحققين اسم للمعانى [التى] بها يتمكَّن الإِنسان مّما يريده من إِحداث الفعل) .

وهى أَربعة أَشياءَ: بِنْية مخصوصة للفاعل ، وتصوّر للفعل ، ومادّة قابلة لتأْثيره ، وآلة إِن كان الفعل آلّياً ، كالكتابة ؛ فإِن الكاتب محتاج إِلى هذه الأَربعة فى إِيجاده للكتابة .

ولذلك يقال: فلان غير مستطيع للكتابة إِذا فَقَد واحداً من هذه الأَربعة ، فصاعداً .

ويضادّه العَجْز ، وهو أَلاَّ يجد أَحد هذه الأَربعة فصاعداً .

ومتى وَجَدَ هذه الأَربعة كلَّها فمستطيع مطلقا ، ومتى فقدها فعاجز مطلقا ، ومتى وجد بعضها دون بعض فمستطيع من وجهٍ ، عاجزٌ من وجهٍ .

ولأَن يوصَف بالعجز أَولى .

والاستطاعة أَخصّ من القدرة .

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فإنَّه يحتاج إلى هذه الأَربعة.

وقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ قيل: قالوا ذلك قبل أَن يَقْوى معرفتُهم بالله.

وقيل: إنَّهم لم يقصِدوا قصد القُدْرة، وإنَّما قصدوا أَنَّه هل يقتضى الحكمةُ أَن يفعل ذلك،

وقيل: يَستطيع ويُطيع بمعنى واحدٍ، ومعناه: هل يجيب؛ كقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أى يُجاب.

(165/219)

وقرئ ﴿ هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ ﴾ على الخطاب، ونصب (ربّك) أَى سؤال ربّك؛ كقولك: هل تستطيع الأَمير أَن يفعل كذا؟ ويقال فيه استاع واسطاع؛ قال الله تعالى: ﴿ فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً ﴾ قال:

*تكثَّرْ من الإخوان ما اسطعت إنهم * عمادٌ إذا استنجدتم وظهورُ*

فما بكثير أَلف خلّ وصاحب * وإنَّ عدوّا واحدا لكثير. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 187.188 ﴾

(بصيرة فى طوع)

[الطَّوْع: الانقياد ، وضِدّ الكَره .

قال تعالى: ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾] والطاعة مثله .

لكن أَكثر ما يقال فى الائتمار فيما أُمر .

وقوله تعالى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ ، أَى أَطيعوا ، أَى لِيَكُنْ منكم طاعة معروفة بلا إِثم .

وهولى طائع ، وطَيِّعٌ ، وطاعٍ ، وطاعٌ ، والجمع: طُوَّعٌ .

وهو يَطُوع لى وطاوعته على كذا ، وأَطاع الله طاعة .

وهو مُطيع ، ومِطْواع ، ومِطواعة ، قال:

*إِذا سُدْتَه سُدْت مِطواعةً * ومهما وكَلْتَ إِليه كفاه*

وهو من ناسٍ مَطاويع .

وهو متطوِّع بكذا : مبترّع متنفّل .

وهو من المُطَّوِّعة ، أَى من الذين يتطوَّعون بالجهاد .

وقال تعالى فى صفة النبىّ صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ إِلى قوله: ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ .

والمتطوِّع [من] يتكلّف الطاعة .

, وكلّ متنفّل خير تبرّعا متطوّع .

قال تعالى: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ .

وقرأَ الكوفيّون غير عاصم: (فَمَنْ يَطَّوَّعْ) .

أَى يَتَطوَّع .

وقوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾ أَى تابَعته ، وقيل: سَهّلت له نفسُه وطاوعته .

وقال مجاهد : أَى شجّعته وأَعانته ، وأَجابته إِليه .

وقال الأَخفش: هو مثل طوّقت له ، ومعناه: رخَّصت وسهّلت .

(166/219)

والاستطاعة: والإِطاقة ، وربما قالوا : استطاع يَسْطِيع ، يحذفون التاءَ استثقالاً لها مع الطاءِ ، ويكرهون إِدغام التاءِ فيها فتُحرّكَ السّين وهى لا تحرّك أَبدا .

وقرأَ حمزة غير خلاّد ﴿ فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ بالإِدغام ، فجمع بين السّاكنين .

وذكر الأَخفش أَن بعض العرب يقول: اسْتَاع يَسْتيع فيحذف الطاء استثقالا وهون يريد استطاع يستطيع ، قال: وبعض يقولون: أَسْطاع يُسْطيع بقطع الهمزة وهو يريد أَطاع يُطيع ، ويجعل السّين عِوضاً عن ذهاب حركة العين ، أَى عين الفعل .

ويقال: تطاوَعَ لهذا الأَمر: [تكلّف استطاعته حتى] يستطيعه.

وهو [ضد] معنى قول عمرو بن معد يكرب رضى الله عنه:

*إِذا لم تستطع أَمرًا فَدَعْهُ * وجاوِزْهُ إِلى ما تستطيع*

وقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ ، أَى هل يقدر.

وقرأَ الكسائىّ: (هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) بالتَّاءِ ونصب الباءِ ، أَى هل تستدعى إِجابته فى أَن يُنزل علينا مائدة من السّماءِ ، أَو هل تستطيع سؤال ربّك ، وهو استفعال من قولك: طاع لى يطوع.

وأَصل الاستطاعة الاستطواع.

فلمَّا أُسقطت الواو جُعلت الهاءُ بدلاً منها.

والمُطَّوِّعَة: الذين يتطوَّعون بالجهاد ، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ ، أَى المتطوّعين فأَدغم.

والاستطاعة عند المحققين ، اسم للمعانى التى بها يتمكّن الإِنسان ممّا يريده من إِحداث الفعل.

وهى أَربعة أَشياء: بِنْية مخصوصة للفاعل ، وتصوّر للفعل ، ومادّة قابلة للتأثير/ وآلة: إِن كان الفعل آلِيًّا ؛ كالكتابة ، فإِنَّ الكاتب يحتاج إِلى هذه الأَربعة فى إِيجاده للكتابة ، ولذلك يقال: فلان غير مستطيع للكتابة إِذا فَقَد واحدا من هذه الأَربعة فصاعدًا.

ويضادّه العجز ، وهو أَلاّ يجد أَحَدَ هذه الأَربعة فصاعدًا .

ومتى وجدها فمستطيع مطلقًا ، ومتى فقدها فعاجز مطلقًا .

ومتى وجد بعضه دون بعض فمستطيع من وجه عاجز من وجه آخر ، ولأَن يوصف بالعجز أَولى .

(167/219)

والاستطاعة أَخصّ من القدرة .

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فإنه يحتاج إلى هذه الأَربعة .

وقوله صلَّى الله عليه وسلم: "الاستطاعة الزَّاد والراحلة" فإنه بيان لما يُحتاج إليه من الآلة ، وخصّه بالذِّكر دون الأُخر إذ كان معلومًا من حيث العقل ومقتضى الشرع أَن التكليف من دون تلك الأُخر لا يصحّ .

قوله: ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ ، الإشارة بالاستطاعة ههنا إلى عدم الآلة من المال والظَّهْر .

وقد يقال: فلان لا يستطيع كذا لما يصعب عليه فعله لعدم الرّياضة ، وذلك يرجع إلى افتقاد

الآلة وعدم التصّور ، وقد يصحّ معه التَّكليف ولا يصير به الإنسان معذورًا .

وعلى هذا الوجه قال: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ ، وقد حمل على هذه قوله: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآءِ ﴾ .

وقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ قيل: إِنَّهم قالوا ذاك قبل أَن قويت معرفتهم بالله .

وقيل: إِنَّهم لم يقصدوا قَصْد القدرة ، وإِنما قصدوا أَنه: هل تقتضى الحكمة أَن يَفعل ذلك .

وقيل: يستطيع ويُطِيع بمعنى واحد ، ومعناه: هل يجيب ، كقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أَى يُجاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 519. 522 ﴾

(168/219)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾

كان عيسى قال لهم : عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية ، لأنكم ما دمتم قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله ، وحسبكم ما أعطاه الله لي من آيات لصدق رسالتي . وعليكم ان تلزموا أنفسكم بالمنهج الذي أعلنتم أنكم مؤمنون به .

وقد توقف العلماء عند قولهم : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ وتساءل العلماء : كيف كان هذا القول ، وخصوصاً أن معناه الظاهري : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون ؟ وقال العلماء أيضاً : إن من يتكلم في اللغة عليه أن يكون متبصراً باشتقاقات الألفاظ واستعمالات الألفاظ وسمات الألفاظ ، وكلمة " يستطيع " بمعنى يطيع كما قالوا : استجاب بمعنى أجاب ، وكأن معنى سؤالهم : أيستجيب الله وينزل علينا مائدة من السماء ؟ و" استطاع " تقابل : " استجاب " وسبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء ، وهو الذي يطيعه كل شيء ، وهو الذي يرضخ لحكمه كل شيء ، والحق لا يطلب ، إنما يأمر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

الله سبحانه وتعالى لا يقول لشيء كن إلا ويعلم أنه يطيع ، ولا يأمره الحق أن يطيع إلا ويكون استعداده الانفعالي أنه حين يسمع قول الله : " كن " فلازم أن يكون ، والمثال على هذا هو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : 1-2] .

إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط . وساعة تسمع الأمر فهي تنفعل ، ومعنى تنفعل أي تطيع . وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى . أو يكون معنى هل يستطيع : هل يفعل . وذلك من باب التعبير عن المسبب بالسبب ؛ إذ الاستطاعة من أسباب إيجاد الفعل . وقيل المراد : هل تستطيع سؤال ربِّك من غير صارف ولا مانع يمنعك عن سؤاله ؟ فقد قرأ الكسائي وغيره هل تستطيع ربَّك بنصب كلمة (ربَّك) وأصلها هل تستطيع سؤال ربَّك ، فحذف المضاف (سؤال) وأقيم المضاف إليه وهو كلمة رب مقامه فنصب . وقال الزمخشري : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم ، وقولهم : (هل يستطيع) كلام لا يتأَّتى مثله من مؤمنين معظمين لربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا هل يستطيع ربك ، إنما قالوا : هل تستطيع أنت ، ربك هل تستطيع أن تدعوه .

وأخرج الحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه عن عبد الرحمن بن غنم قال : سألت معاذ بن جبل عن قول الحواريين ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ أو تستطيع ربك ؟ فقال ؟ أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هل تستطيع ربك ﴾ بالتاء .

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه قرأها " هل تستطيع ربك " بالتاء ونصب ربك .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير عن سعيد بن جبير أنه قرأها " هل تستطيع ربك " قال : هل تستطيع أن تسأل ربك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر الشعبي أن علياً كان يقرأها ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ قال : هل يعطيك ربك .

وأخرج عبد بن حميد عن يحيى بن وثاب وأبي رجاء أنهما قرآ ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ بالياء والرفع .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ قال : قالوا : هل يطيعك ربك إن سألته ، فأنزل الله عليهم مائدة من السماء فيها جميع الطعام إلا اللحم ، فأكلوا منها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ مائدة ﴾ قال : المائدة الخوان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(171/219)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في " إذ " وجهان :

أحدهما : أوحيتُ إلى الحواريّين ، إذ قال الحَوَارِيُّونَ .

الثاني : اذكر إذْ قال الحوارِيُّون .

قرأ الجمهورُ " يَسْتَطِيعُ " بياء الغيبة " رَبُّكَ " مرفوعاً بالفاعلية ، والكسائيُّ : " تَسْتَطِيعُ "

بتاء الخطاب لعيسى ، و" ربَّكَ " بالنصب على التعظيم ، وقاعدتُه أنه يُدْغِمُ لام " هلْ " [في أحرف منها هذا المكان ، وبقراءة الكسائيِّ قرأتْ عائشةُ ، وكانت تقول : " الحواريُّونَ أعْرَفُ بالله] مِنْ أن يقولوا : هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ " وإنما قالوا : هَلْ تستطيعُ أن تَسْأل ربَّكَ ؛ كأنها – رضي الله عنها – نَزهَتْهُمْ عن هذه المقالةِ الشنيعة أنْ تُنْسَبَ إليهم ، وبها قرأ معاذٌ أيضاً وعليٌّ وابن عبَّاس وسعيدُ بنُ جُبَيْر قال معاذ رضي الله تعالى عنه : أقرأني رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم " هل تَسْتَطِيعُ رَبكَ " بالتَّاء .

وحينئذ فقد اختلفوا في هذه القراءة : هل تحتاجُ إلى حَذْفِ مضافٍ أم لا ؟ فجمهور المُعْربين يقدّرونَ : هل تستطيع سُؤال ربّكَ ، وقال الفارسيُّ : " وقد يُمْكِنُ أنْ يُسْتغنَى عن تقدير " سُؤالَ " على أن يكون المعنى : هَلْ تستطيعُ أنْ يُنَزِّلَ رَبُّكَ بدُعَائِكَ ، فيردُّ المعنى – ولا بد – إلى مقدَّر يدلُّ عليه ما ذُكِر من اللفظ " ، قال أبو حيان : " وما قاله غيرُ ظاهرٍ ؛ لأنَّ فعله تعالى ، وإنْ كان مسبَّباً عن الدعاءِ ، فهو غيرُ مقدورٍ لعيسى " .

واختار أبو عُبَيْد هذه القراءةَ ، قال : " لأنَّ القراءة الأخرى تُشْبِهُ أن يكونَ الحواريُّون شَاكِّينَ ، وهذه لا تُوهِمُ ذلك " ، قال شهاب الدين : وهذا بناء من الناسِ على أنهم كانوا مؤمنينَ ، وهذا هو الحَقُّ .

قال ابن الأنباري : " لا يجوزُ لأحد أن يتوَهَّم على الحواريِّين ؛ أنهم شَكُّوا في قُدْرة الله تعالى " ، وبهذا يَظْهَرُ أنَّ قول الزمخشريِّ أنهم ليسوا مؤمنينَ ليس بجيِّدٍ ، وكأنه خارقٌ للإجْماعِ ، قال ابن عطية : " ولا خلاف أحفظُه أنَّهم كانوا مُؤمِنِينَ " ، فأمَّا القراءةُ الأولى ، فلا تَدُلُّ له ؛ لأن الناس أجابوا عن ذلك بأجوبةٍ ، منها : أنَّ معناه : هل يَسْهُلُ عليكَ أن تَسْأَلَ رَبَّكَ ؛ كقولك لآخر : هَلْ تستطيعُ أن تَقُومَ ؟ وأنت تعلمُ استطاعته لذلك ، ومنها : أنهم سألُوهُ سؤال مستَخْبِرٍ : هل يُنَزِّلُ أم لا ، فإن كان يُنَزِّلُ فاسأله لنا ، ومنها : أنَّ المعنى هل يفعلُ ذلك ، وهل يقع منه إجابةٌ لذلك ؟ ومنه ما قيل لعبد الله بن زَيْدٍ ، هَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُرِيني كيف كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَتوضَّأُ ؟ أي : هل تُحِبُّ ذلك ؟ وقيل المعنى : هل يَطْلُب ربُّكَ الطاعةَ من نُزُولِ المائدةِ ؟ قال أبو شَامَة : " مثلُ ذلك في الإشْكال ما رواه الهَيْثَمُ – وإن كان ضعيفاً – عن ثابتٍ عن أنس – رضي الله عنهما –

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عادَ أبا طالبٍ في مرض ، فقال : يَا ابْنَ أخِي ، ادعُ رَبَّكَ الذي تَعْبُدُهُ فيُعَافيني ، فقال : اللهُمَّ اشْفِ عَمِّي ، فقام أبو طالبٍ ، كأنما نَشِطَ من عقالٍ ، فقال : يا ابْنَ أخِي ، إنَّ رَبَّكَ الذي تَعْبُدُ لَيُطِيعُكَ ، قال : وأَنْتَ يا عَمَّاه ، لو أطَعْتَهُ ، أو : لَئِنْ أطَعْتَ اللَّهَ ، لَيُطِيعَنَّكَ " ، أي : لَيجيبَنَّكَ إلى مقْصُودك ، قال شهاب الدين : والذي حَسَّنَ ذلك المقابلةُ منه صلى الله عليه وسلم للفْظِ عَمِّهِ ، كقوله : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله

﴿ [آل عمران : 54] وقيل : التقدير : هَلْ يُطِيعُ ؟ فالسينُ زائدة ؛ كقولهم : اسْتَجَابَ وأجَابَ ، قال : [الطويل]

2086 - وَدَاعٍ دَعَا يا مَنْ يُجِيبُ إلَى النَّدَى . . .

(173/219)

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

وبهذه الأجوبةِ يُستغنى عن قول من قال : " إنَّ "يَسْتَطِيع " زائدةٌ " ، والمعنى : هل يُنَزِّلُ رَبُّكَ ؛ لأنَّه لا يُزادُ من الأفعال إلاَّ ["كَانَ " بشرطَيْنِ ، وشَذَّ زيادةُ غيرها في مواضعَ عَدَدْتُها في غيرِ هذا الكتاب ، على أنَّ الكوفيّين يُجيزُون زيادةَ بعض الأفعال] مطلقاً ، حَكَوْا : " قَعَدَ فلانٌ يَتَهَكَّمُ بي " ؛ وأنشدوا : [الوافر]

2087 - عَلَى مَا قَامَ يَشْتِمُنِي لَئِيمٌ . . .

كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ

وحكى البصريُّون على وجْه الشُّذُوذِ : " مَا أَصْبَحَ أَبْرَدَهَا ، ومَا أَمْسَى أَدْفَأَهَا " يعنون الدُّنْيَا .

قال ابنُ الخطيبِ : وأمَّا القراءَةُ الثَّانِيَةُ ففيها إشْكَالٌ ، وهو أنَّهُ تعالى حَكَى عنهُم أنَّهم قالُوا :

" آمنَّا واشهدْ بأنَّا مُسْلمُون " ، وبعد الإيمانِ كَيْفَ يَجُوزُ أن يقال : إنهم بقوا شاكِّين في اقتدار اللَّهِ على ذلك ؟ .

والجوابُ عنه من وُجُوهٍ :

الأول : أنَّهُ – تبارك وتعالى – ما وَصَفَهُم بالإيمان والإسلام بل حَكَى عنهم ادِّعَاءَهم لَهُمَا ، ثمَّ تَبعَ ذلك بقوله – حِكَايةً عَنْهُم – ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء ﴾ ؟ فدلَّ ذلك على أنَّهُم كَانُوا شاكِّين مُتَوقِّفِين ، فإنَّ هذا اللَّفْظَ لا يَصْدُرُ مِمَّنْ كان كَامِلاً في الإيمان .

وقالوا : ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ [المائدة : 113] ، وهذا يَدُلُّ على مَرَضٍ في القَلْب ، وكذا قَوْلُ عيسى – عليه الصلاة والسلام – لهم : ﴿ اتقوا اللهَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، يَدُلُّ على أنَّهُم ما كانوا كامِلِين في الإيمان .

الثاني : أنَّهُم كانوا مُؤمنين إلاَّ أنَّهُم طَلَبُوا هذه الآيةِ ليحْصُلَ لهم مَزِيد الطمأنينة ، فلهذا السَّبب قالوا : " وتَطْمئنَّ قُلُوبنا " .

(174/219)

الثالث : أنَّ مُرادَهُمُ استفهام أن ذلك هل هو كافٍ في الحِكْمةِ أم لا ؟ وذلك لأنَّ أفْعَال اللَّهِ تعالى لَمَّا كَانَتْ مَوْقُوفَةً على رعايَةِ وجُوهِ الحكمة ، فَفِي الموْضِعِ الَّذِي لا يَحْصُل فيه شَيْءٌ من وُجُوهِ الحِكْمَةِ يكونُ الفِعْلُ مُمْتَنِعاً ، فإنَّ المُنَافِيَ من جِهَةِ الحكمة كالمنافي جِهَةَ القُدْرَةِ ، وهذا الجوابُ يَتَمَشَّى على قَوْلِ المُعْتَزِلَة .

وأمَّا على قَوْلِنا فهو مَحْمُولٌ على أنَّه تَبارك وتعالى هل قَضَى بذلك ؟ وهل عَلِمَ وُقُوعه ؟ فإن لَمْ يَقْضِ به ، ولَمْ يعلم وُقُوعه كان ذلك محالاً غيْرَ مَقْدُورٍ ؛ لأن خلافَ المَعْلُوم غَيْرُ مَقْدُورٍ .

الرابع : قال السديُّ : إن السِّين زَائدةٌ ، على أنَّ اسْتَطَاع بمعنى أطاعَ كما تقدَّم .

الخامس : لعل المُرادَ بالرَّبِّ جبْرِيل ؛ لأنَّهُ كان يُرَبِّيهِ ويَخُصُّهُ بأنْوَاعِ الإعَانَةِ ، لقوله – تبارك وتعالى – في أوَّلِ الآية ﴿ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس ﴾ [المائدة : 110] ، والمعنى : أنَّك تَدَّعِي أنه يُرَبِّيك ، ويَخُصُّكَ بأنْوَاعِ الكَرَامَةِ ، فهل يقدر على إنْزَالِ مَائِدَةٍ من السَّمَاءِ عَلَيْك ؟ .

السادس : ليْسَ المَقْصُود من هذا السُّؤال كونَهُم شاكِّين فيه ، بل المَقْصُود تَقْرِير أن ذلك في غاية الظُّهُور ، كمن يَأخُذُ بِيَدِ ضعيفٍ ، ويقول : هل يَقْدِر السُّلْطَان على إشْبَاع هذا ، وبكون غَرَضُه أنَّ ذلكَ أمْرٌ واضِحٌ لا يجُوزُ للعَاقِل أن يَشُكَّ فيه .

قوله "أن يُنَزِّلَ" في قراءةِ الجماعة في محلِّ نصب مفعولاً به، أي: الإنْزالَ، وقال أبو البقاء – رحمه الله تعالى –: والتقدير: على أن يُنَزِّلَ، أو في أن يُنَزِّلَ، ويجوز ألاَّ يحتاج إلى حرف جرٍّ على أن يكون "يَسْتَطِيع" بمعنى "يُطِيقُ" [قلت: إنما احتاج إلى تقدير حَرْفي الجَرِّ في الأول؛ لأنه حمل الاستطاعة على الإجابة، وأمَّا قوله أخيراً: إنَّ "يَسْتَطيعُ" بمعنى "يُطِيقُ"] فإنما يَظْهرُ كلَّ الظهورِ على رأي الزمخشريِّ من كونهم ليسوا بمؤمنين، وأمَّا على قراءةِ الكسائيِّ، فقالوا: هي في محلِّ نصْبٍ على المفعولية بالسؤالِ المقدَّر، أي: هلْ تستطيعُ أنت أن تسألَ ربَّكَ الإنْزالَ، فيكون المصدرُ المقدَّرُ مضافاً لمفعوله الأوَّل، وهو "ربُّكَ"، فلمَّا حُذِفَ المصدرُ، انتصب، وفيه نظرٌ؛ من أنهم أعمَلُوا المصدر مضمراً، وهو لا يجوزُ عند البصريِّين، يُؤوِّلُونَ ما وردَ ظاهرُه ذلك، ويجوز أن يكون "أنْ يُنَزِّلَ" بدلاً من "ربُّكَ" بدل اشتمالٍ، والتقديرُ: هل تستطيعُ، أي: هل تُطِيقُ إنزال الله تعالى مائدةً بسببِ دعائِكَ؟ وهو وجهٌ حسن.

(176/219)

و " مَائِدَةً " مفعول "يُنَزِّلُ" ، والمائدة : الخِوانُ عليه طعامٌ ، فإن لم يكن عليه طعامٌ فليست بمائدةٍ ، هذا هو المشهور ، إلا أن الراغب قال : " والمائدةُ : الطبقُ الذي عليه طعامٌ ، ويقال لكلِّ واحدٍ منها مائدةٌ " ، وهو مخالفٌ لما عليه المعظمُ ، وهذه المسألة لها نظائرُ في اللغة ، لا يقال للخوانِ مائدةٌ إلا وعليه طعامٌ ، وإلا فهو خوانٌ ، ولا يقال كأسٌ إلا وفيها خَمْرٌ ، وإلا فهي قدحٌ ، ولا يقال ذنُوبٌ وسَجْلٌ إلا وفيه ماء ، وإلا فهو دَلْو ، ولا يقال جرابٌ إلا وهو مدبوغٌ وإلا فهو إهابٌ ، ولا قَلَمٌ إلاَّ وهو مَبْريٌّ وإلا فهو أُنْبُوبٌ ، واختلف اللغويون في اشتقاقها ، فقال الزجَّاج – رحمه الله تعالى – : " هي من مَادَ يَمِيدُ إذا تحرَّك ، ومنه قوله : ﴿ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء : 31] ومنه : مَيْدُ البَحْرِ " ، وهو ما يُصِيبُ راكبَه ، فكأنها تميدُ بما عليها من الطعام .

وقال أهلُ الكوفة : لأنها تميدُ بالآكِلِينَ ، قال الزجَّاج – رحمه الله تعالى – : " وهي فاعِلةٌ على الأصلِ " ، وقال أبو عُبَيْدٍ : " هي فَاعِلَةٌ بمعنى مفعُولَة مشتقَّةٌ من مادهُ بمعنى أعْطَاهُ ، وامتادَهُ بمعنى اسْتَعْطَاهُ ، فهي بمعنى مَفْعُولَة " ، قال : "كَعِيشَةٍ راضيةٍ" وأصلُها أنها ميدَ بها صاحبُها ، أي : أعْطِيَهَا ، والعربُ تقول : مَادَنِي فلانٌ يَمِيدُنِي ، إذا أدَّى إليَّ وأعْطَانِي " وقال أبو بَكْرِ بنُ الأنباريِّ : " سُمِّيتْ مائدةً ؛ لأنها غياثٌ وعطاءٌ ، من قول العرب : مَادَ فلانٌ فُلاناً إذا أحْسَنَ إلَيْه " وأنشد : [السريع]

2088 – إلى أميرِ المُؤمِنِينَ المُمْتَادْ . . .

أي : المُحْسنِ لرعيَّته ، وهي فاعلةٌ من المَيْدِ بمعنى مُعْطِيَةٍ ، فهو قريبٌ من قولِ أبي عُبَيْدٍ في الاشتقاقِ ، إلا أنَّها عنده بمعنى فاعلةٍ على بابها ، وابنُ قتيبة وافق أبا عُبَيْدٍ في كونها بمعنى مَفْعُولَة ، قال : " لأنَّها يُمَادُ بها الآكلُونَ أي يُعْطَوْنَهَا " ، وقيل : هي من المَيْدِ ، وهو الميلُ ، وهذا هو معنى قول الزجَّاج .

قوله تعالى : " مِنَ السَّماءِ " يجوز أنْ يتعلَّق بالفعلِ قبله ، وأنْ يتعلَّق بمحذوف ؛ على أنه صفةٌ لـ " مَائِدَة " ، أي : مائدةً كَائِنَةً من السَّماءِ ، أي : نازلةً منها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 604. 607 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) ﴾

طلبوا المائدةَ لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة ، فعُذِرُوا وأجيبوا إليها ؛ إذ كان مرادُهم حصولَ اليقين وزيادةَ البصيرة .

ويقال كلٌ يطلب سُؤْله على حسب ضرورته وحالته ، فمنهم من كان سكونه في مائدة من الطعام يجدها ، ومنهم من يكون سكونه في (فائدة) من الموارد يَرِدُها ، وعزيز منهم من يجد الفناء عن برهان يتأمله ، أو بيان دليل يطلبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 455 ﴾

(178/219)

قوله تعالى ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت المعجزات إنما تطلب لإيمان من لم يكن آمن ، وكان في هذا الجواب أتم زجر لهم ، تشوف السامع إلى جوابهم فقيل : لم ينتهوا بل ﴿ قالوا ﴾ إنا لا نريدها لأجل إزالة شك عندنا بل ﴿ نريد ﴾ مجموع أمور : ﴿ أن نأكل منها ﴾ فإنا جياع ؛ ولما كان التقدير : فتحصل لنا بركتها ، عطف عليه : ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ أي بضم ما رأينا منها إلى ما سبق من معجزاتك من غير سؤالنا فيه ﴿ ونعلم ﴾ أي بعين اليقين وحقه أن قد صدقتنا ﴾ أي

في كل ما أخبرتنا به ﴿ ونكون عليها ﴾ وأشاروا إلى عمومها بالتبعيض فقالوا : ﴿ من الشاهدين ﴾ أي شهادة رؤية مستعلية عليها بأنها وقعت ، لا شهادة إيمان بأنها جائزة الوقوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 570 ﴾

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ نصب بأن .

﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين ﴾ عطف كله ، بيّنوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه .

وفي قولهم : ﴿ نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وجهان : أحدهما أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها ؛ وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر ، بعضهم كانوا أصحابه ، وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو عِلّة ، إذ كانوا زَمْنى أو عميانا ، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون ، فخرج يوماً إلى موضع فوقعوا في مفازة ، ولم يكن معهم نفقة فجاعوا وقالوا للحواريين : قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل علينا مائدة من السماء ؛ فجاءه شمعون رأس الحواريين وأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو بأن تنزل عليهم مائدة من السماء ، فجاء شمعون رأس الحواريين وأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو بأن

تنزل عليهم مائدة من السماء فقال عيسى لشمعون : قل لهم ﴿ اتقوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فأخبر بذلك شمعون القوم فقالوا له : قل له : ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ الآية .

(179/219)

الثاني ﴿ نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها ، قال الماورديّ : وهذا أشبه ؛ لأنهم لو احتاجوا لم ينهوا عن السؤال وقولهم : ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها تطمئن إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبياً .

الثاني تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لدعوتنا .

الثالث تطمئن إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألنا ؛ ذكرها الماورديّ .

وقال المهدويّ : أي تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا .

قال الثعلبيّ : نستيقن قدرته فتسكن قلوبنا .

﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ بأنك رسول الله .

﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين ﴾ لله بالوحدانية ، ولك بالرسالة والنبوّة .

وقيل : ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين ﴾ لك عند من لم يرها إذا رجعنا إليهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وهذا اعتذار منهم بَيَّنُوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه فقالوا : ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ .

يحتمل وجهين :

أحدهما : أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها .

والثاني : أنهم أرادوه تبركاً بها لا لحاجة دعتهم إليها ، وهذا أشبه لأنهم لو احتاجوا لم ينهوا عن السؤال .

﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : تطمئن إلى أن الله تعالى قد بعثك إلينا نبياً .

والثاني : تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لك أعواناً .

والثالث : تطمئن إلى أن الله قد أجابنا إلى ما سألنا .

﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ في أنك نبي إلينا ، وذلك على الوجه الأول .

وعلى الوجه الثاني : صدقتنا في أننا أعوان لك .

وعلى الوجه الثالث : أن الله قد أجابنا إلى ما سألنا .

وفي قولهم ﴿ وَنَعْلَمَ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه علم مستحدث لهم بهذه الآية بعد أن لم يكن ، وهذا قول من زعم أن السؤال كان قبل استحكام المعرفة .

(180/219)

والثاني : أنهم استزادوا بذلك علماً إلى علمهم ويقيناً إلى يقينهم ، وهذا قول من زعم أن السؤال كان بعد التصديق والمعرفة .

﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ يحتمل وجهين .

أحدهما : من الشاهدين لك عند الله بأنك قد أديت ما بعثك به إلينا .

والثاني : من الشاهدين عند من يأتي من قومنا بما شاهدناه من الآيات الدالة على أنك نبي إليهم وإلينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قالوا نريد أن نأكل منها ﴾ هذا اعتذار منهم بيّنوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه .

وفي إرادتهم للأكل منها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أرادوا ذلك للحاجة ، وشدة الجوع ، قاله ابن عباس .

والثاني : ليزدادوا إيماناً ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : للتبرك بها ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : تطمئن إلى أن الله تعالى قد بعثك إلينا نبياً .

والثاني : إلى أن الله تعالى قد إختارنا أعواناً لك .

والثالث : إلى أن الله تعالى قد أجابك .

وقال ابن عباس : قال لهم عيسى : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ، ثم لا تسألونه شيئاً إلا أعطاكم ؟ فصاموا ، ثم سألوا المائدة .

فمعنى : ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ في أنّا إذا صمنا ثلاثين يوماً لم نسأل الله شيئاً إلا أعطانا .

وفي هذا العلم قولان .

أحدهما : أنه علمٌ يحدث لهما لم يكن ، وهو قول مَن قال : كان سؤالهم قبل استحكام معرفتهم .

والثاني : أنه زيادة علم إلى علم ، ويقين إلى يقين ، وهو قول مَن قال : كان سؤالهم بعد معرفتهم .

وقرأ الأعمش : "وتعلم" بالتاء ، والمعنى : وتعلم القلوب أن قد صدقتنا .

وفي قوله : ﴿ من الشاهدين ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : من الشاهدين لله بالقدرة ، ولك بالنبّوة .

والثاني : عند بني إِسرائيل إِذا رجعنا إِليهم ، وذلك أنهم كانوا مع عيسى في البرِّية عند هذا السؤال .

(181/219)

والثالث : من الشاهدين عند من يأتي من قومنا بما شاهدنا من الآيات الدالة على أنك نبي .

والرابع : من الشاهدين لك عند الله بأداء ما بعثت به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الفخر :

المعنى كأنهم لما طلبوا ذلك قال عيسى لهم : إنه قد تقدمت المعجزات الكثيرة فاتقوا الله في طلب هذه المعجزة بعد تقدم تلك المعجزات القاهرة ، فأجابوا وقالوا إنا لا نطلب هذه المائدة لمجرد أن تكون معجزة بل لمجموع أمور كثيرة : أحدها : أنا نريد أن نأكل منها فإن الجوع قد غلبنا ولا نجد طعاماً آخر ، وثانيها : أنا وإن علمنا قدرة الله تعالى بالدليل ، ولكنا إذا

شاهدنا نزول هذه المائدة ازداد اليقين وقويت الطمأنينة ، وثالثها : أنا وإن علمنا بسائر المعجزات صدقك ، ولكن إذا شاهدنا هذه المعجزة ازداد اليقين والعرفان وتأكدت الطمأنينة .

ورابعها : أن جميع تلك المعجزات التي أوردتها كانت معجزات أرضية ، وهذه معجزة سماوية وهي أعجب وأعظم ، فإذا شاهدناها كنا عليها من الشاهدين ، نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل ، ونكون عليها من الشاهدين لله بكمال القدرة ولك بالنبوة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 108 . 109 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾ لما أمرهم عيسى بتقوى الله منكراً عليهم ما تقدم من كلامهم صرحوا بسبب طلب المائدة وأنهم يريدون الأكل منها ، وذلك للشرف لا للشبع واطمئنان قلوبهم بسكون الفكر ، إذا عاينوا هذا المعجز العظيم النازل من السماء وعلم الضرورة والمشاهدة بصدقه فلا تعترض الشبه اللاحقة في علم الاستدلال وكينونتهم من المشاهدين بهذه الآية الناقلين لها إلى غيرهم ، القائمين بهذا الشرع أو من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوّة ، وقد طول بعض المفسرين في تفسير متعلق إرادتهم بهذه الأشياء وملخصها أنهم أرادوا الأكل للحاجة وشدة الجوع .

قال ابن عباس وكان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر من صاحب له وذي علة يطلب البرء ومستهزىء فوقعوا يوماً في مفازة ولا زاد فجاعوا وسألوا من الحواريين أن يسألوا عيسى نزول مائدة من السماء فذكر شمعون لعيسى ذلك فقال : قل لهم اتقوا الله ، وأرادوا الأكل ليزدادوا إيماناً .

قال ابن الأنباري أو التشريف بالمائدة ذكره الماوردي والاطمئنان إما بأن الله قد بعثك إلينا أو اختارنا عواناً لك أو قد أجابك أو العلم بالصدق في أنا إذا صمنا الله تعالى ثلاثين يوماً . لم نسأل الله شيئاً إلا أعطانا أو في أنك رسول حقاً إذ المعجز دليل الصدق وكانوا قبل ذلك لم يرو الآيات ، أو يراد بالعلم الضروري والمشاهدة انتهى .

وأنت هذه المعاطيف مرتبة ترتيباً لطيفاً وذلك أنهم لا يأكلون منها لا بعد معاينة نزولها فيجتمع على العلم بها حاسة الرؤية وحاسة الذوق فبذلك يزول عن القلب قلق الاضطراب ويسكن إلى ما عاينه الإنسان وذاقه ، وباطمئنان القلب يحصل العلم الضروري بصدق من كانت المعجزة على يديه إذ جاءت طبق ما سأل ، وسألوا هذا المعجز العظيم لأن تأثيره في العالم العلوي بدعاء من هو في العالم الأرضي أقوى وأغرب من تأثير من هو في

العالم الأرضي في عالمه الأرضي ، ألا ترى أن من أعظم معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وانشقاق القمر وهما من العالم العلوي وإذا حصل عندهم العلم الضروري بصدق عيسى شهدوا شهادة يقين لا يحتلج بها ظن ولا شك ولا وهم وبذكرهم هذه الأسباب الحاملة على طلب المائدة يترجح قول من قال : كان سؤالهم ذلك قبل علمهم بآيات عيسى ومعجزاته وإن وحي الله إليهم بالإيمان كان في صدر الأمر وعند ذلك قالوا هذه المقالة ثم آمنوا ورأوا الآيات واستمروا وصبروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(183/219)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف كما سبق ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ تمهيدُ عذرٍ وبيانٍ لِمَا دعاهم إلى السؤال ، أي لسنا نريد بالسؤال إزاحةَ شُبهتِنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحة نبوتك ، حتى يقدحَ ذلك في الإيمان والتقوى ، بل نريد أن نأكلَ منها أي أكلَ تبرّكٍ ، وقيل : أكلَ حاجةٍ وتمتُّع ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ بكمال قدرته تعالى وإن كنا مؤمنين به من قبل ، فإن انضمامَ علم المشاهدةِ إلى العلم الاستدلالي مما يوجب ازديادَ الطُمأنينة وقوةَ اليقين ﴿

وَنَعْلَمَ ﴾ أي علماً يقينياً لا يحوم حوله شائبةُ شُبهةٍ أصلاً ، وقرىء (لِيُعْلَمَ) على البناء للمفعول ﴿ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ (أنْ) هي المخففة من أنّ ، وضميرُ الشأن محذوفٌ ، أي ونعلم أنه قد صدقتنا في دعوى النبوة وأن الله يُجيب دعوتنا وإن كنا عالمين بذلك من قبل ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين ﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضُروها من بني إسرائيل ليزدادَ المؤمنون منهم بشهادتنا طُمأنينةً ويقيناً ، ويؤمنَ بسببها كفارُهم ، أو (من الشاهدين) للعَيْن دون السامعين للخبر ، و(عليها) متعلقٌ بالشاهدين إن جُعل اللامُ للتعريف ، وبيانٌ لما يشهدون عليه إن جُعلتْ موصولة ، كأنه قيل : على أي شيء يشهدون ؟ فقيل : عليها ، فإن ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول ، أو هو حال من اسم كان ، أو هو متعلق بمحذوف يفسره من الشاهدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أكل تبرك وقيل : أكل تمتع وحاجة والإرادة إما مبعناها الظاهر أو بمعنى المحبة أي نحب ذلك والكلام كما قيل تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال أي لسنا نريد من السؤال إزاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى ولكن نريد إلخ أو ليس مرادنا اقتراح الآيات لكن مرادنا ما ذكره .

﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ بازدياد اليقين كما قال عطاء ﴿ وَنَعْلَمَ ﴾ علم مشاهدة وعيان على ما قدمناه ﴿ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي أنه قد صدقتنا في ادعاء النبوة ، وقيل : في أن الله تعالى يجيب دعوتنا ، وقيل : فيما ادعيت مطلقاً .

﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين ﴾ عند من لم يحضرها من بني اسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقينا ويؤمن بسببها كفارهم أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر ، وقيل : من الشاهدين لله تعالى بالوحدانية ولك بالنبوة .

و ﴿ عَلَيْهَا ﴾ متعلق بالشاهدين إن جعل اللام للتعريف أو بمحذوف يفسره ﴿ مّنَ الشاهدين ﴾ إن جعلت موصولة .

وجوزنا تفسير ما لا يعمل للعامل ، وقيل : متعلق به ؛ وفيه تقديم ما في حيز الصلة وحرف الجر وكلاهما ممنوع .

ونقل عن بعض النحاة جواز التقديم في الظرف ، وعن بعضهم جوازه مطلقاً ، وجوز أن يكون حالاً من اسم كان أي عاكفين عليها .

وقرىء ﴿ يَعْلَمْ ﴾ بالبناء للمفعول و ﴿ تَعْلَمْ وَتَكُونُ ﴾ بالتاء والضمير للقلوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

أجابوه عن ذلك بأنّهم ما أرادوا ذلك لضعف في إيمانهم إنّما أرادوا التيمّن بأكل طعام نزل من عند الله إكراماً لهم ، ولذلك زادوا ﴿ منها ﴾ ولم يقتصروا على ﴿ أن نأكل ﴾ إذ ليس غرضهم من الأكل دفع الجوع بل الغرض التشرّف بأكل من شيء نازل من السماء .

وهذا مثل أكل أبي بكر من الطعام الذي أكَل منه ضيفه في بيته حين انتظروه بالعشاء إلى أن ذهب جزء من الليل ، وحضر أبو بكر وغضب من تركهم الطعام ، فلمّا أخذوا يطعمون جعل الطعام يربو فقال أبو بكر لزوجه : ما هذا يا أختَ بني فِراس .

وحمل من الغد بعض ذلك الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل منه .

(185/219)

ولذلك قال الحواريّون : ﴿ وتطمئنّ قلوبنا ﴾ أي بمشاهدة هذه المعجزة فإنّ الدليل الحسي أظهر في النفس ، ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ ، أي نعلم علم ضرورة لا علم استدلال فيحصل لهم العلمان ، ﴿ ونكون عليها من الشاهدين ﴾ ، أي من الشاهدين على رؤية هذه المعجزة فنبلّغها من لم يشهدها .

فهذه أربع فوائد لسؤال إنزال المائدة ، كلّها درجات من الفضل الذي يرغب فيه أمثالهم .

وتقديم الجارّ والمجرور في قوله ﴿ عليها من الشاهدين ﴾ للرعاية على الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(186/219)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) ﴾

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه . لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين ؛ لذلك سألوا عن المائدة التي صارت بعد ذلك حقيقة واضحة .

وهكذا نعرف أن هناك فارقا بين أن يؤمن الإنسان بذاته ، وأن يشهد بالإيمان عند غيره . فالذي يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(187/219)

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

هذا الدرس بطوله بقية في تصحيح العقيدة ؛ وتقويم ما دخل عليها عند النصارى من انحرافات أخرجتها عن أصلها السماوي عند قاعدتها الأساسية . إذ أخرجتها من التوحيد المطلق الذي جاء به عيسى – عليه السلام – كما جاء به كل رسول قبله ، إلى ألوان من الشرك ، لا علاقة لها أصلاً بدين الله .

ومن ثم فإن هذا الدرس كذلك يستهدف تقرير حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية – كما هي في التصور الإسلامي – تقرير هذه الحقيقة من خلال هذا المشهد العظيم الذي يعرضه ؛ والذي يقرر فيه عيسى – عليه السلام – على ملأ من الرسل ، ومن البشر جميعاً ، أنه لم يقل لقومه شيئاً مما زعموه من ألوهيته ومن تأليه أمه ؛ وأنه ما كان له أن يقول من هذا الشرك كله شيئاً !

والسياق القرآني يعرض هذه الحقيقة في مشهد تصويري من " مشاهد القيامة " التي يعرضها القرآن الكريم عرضاً حياً ناطقاً ، موحياً مؤثراً ، عميق التأثير ، يهتز له الكيان البشري وهو يتلقاه كأنما يشهده اللحظة في الواقع المنظور . الواقع الذي تراه العين ، وتسمعه الأذن . وتتجلى فيه الانفعالات والسمات النابضة بالحياة

فها نحن أولاء أمام المشهد العظيم :

﴿ يوم يجمع الله الرسل ، فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ :

يوم يجمع الله الرسل الذين فرقهم في الزمان فتتابعوا على مداره ؛ وفرقهم في المكان فذهب كل إلى قريته ؛ وفرقهم في الأجناس فمضى كل إلى قومه . . يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام ؛ حتى جاء خاتمهم – صلى الله عليه وسلم – بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان . .

(188/219)

هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام ، في شتى الأمكنة والأزمان . . ها هوذا مرسلهم فرادى ، يجمعهم جميعاً ؛ ويجمع فيهم شتى الاستجابات ، وشتى الاتجاهات . وها هم أولاء . . نقباء البشرية في حياتها الدنيا ؛ ومعهم رسالات الله إلى البشرية في شتى أرجائها ، ووراءهم استجابات البشرية في شتى أعصارها . هؤلاء هم أمام الله . . رب البشرية – سبحانه – في مشهد يوم عظيم .

وها هوذا المشهد ينبض بالحياة :

﴿ يوم يجمع الله الرسل . فيقول : ماذا أجبتم ؟ ﴾ .

﴿ ماذا أجبتم ؟ ﴾ . . فاليوم تجمع الحصيلة ، ويضم الشتات ، ويقدم الرسل حساب الرسالات ، وتعلن النتائج على رؤوس الأشهاد .

﴿ ماذا أجبتم ؟ ﴾ . . والرسل بشر من البشر ؛ لهم علم ما حضر ، وليس لديهم علم ما استتر .

لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى ؛ فاستجاب منهم من استجاب ، وتولى منهم من تولى . . وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى . فإنما له ظاهر الأمر وعلم ما بطن لله وحده . . وهم في حضرة الله الذي يعرفونه خير من يعرف ؛ والذي يهابونه أشد من يهاب ؛ والذي يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير . إنه الاستجواب المرهوب في يوم الحشر العظيم ، على مشهد من الملأ الأعلى ، وعلى مشهد من الناس أجمعين . الاستجواب الذي يراد به المواجهة . . مواجهة البشرية برسلها ؛ ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يكذبونهم . ليعلن في موقف الإعلان ، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوهم من عند الله بدين الله ؛ وها هم أولاء مسؤولون بين يديه – سبحانه – عن رسالاتهم وعن أقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون . أما الرسل فهم يعلنون أن العلم الحق لله وحده ؛ وأن ما لديهم من علم لا ينبغي أن يدلوا به في حضرة صاحب العلم ، تأدباً وحياء ، ومعرفة بقدرهم في حضرة الله :

فأما سائر الرسل – غير عيسى عليه السلام – فقد صدق بهم من صدق ، وقد كفر بهم من كفر ؛ ولقد انتهى أمرهم بهذا الجواب الكامل الشامل ، الذي يدع العلم كله لله ، ويدع الأمر كله بين يديه . سبحانه . . فما يزيد السياق شيئاً في هذا المشهد عنهم . . إنما يلتفت بالخطاب إلى عيسى بن مريم وحده ، لأن عيسى بن مريم هو الذي فتن قومه فيه ، وهو الذي غام الجو حوله بالشبهات ، وهو الذي خاض ناس في الأوهام والأساطير حول ذاته ، وحول صفاته ، وحول نشأته ومنتهاه .

يلتفت الخطاب إلى عيسى بن مريم – على الملأ ممن ألهوه وعبدوه وصاغوا حوله وحول أمه – مريم – التهاويل . . يلتفت إليه يذكره نعمة الله عليه وعلى والدته ؛ ويستعرض المعجزات التي آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته ، فكذبه من كذبه منهم أشد التكذيب وأقبحه ؛ وفتن به وبالآيات التي جاءت معه من فتن ؛ وألهوه مع الله من أجل هذه الآيات ، وهي كلها من صنع الله الذي خلقه وأرسله وأيده بالمعجزات :

﴿ إذ قال الله : يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك . إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس في المهد وكهلا . وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني . وإذ تخرج الموتى بإذني . وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال

الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين . وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ . .

(190/219)

إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى بن مريم وأمه . . من تأييده بروح القدس في مهده ، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام ؛ يبرئ أمه من الشبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال ؛ ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله . . وروح القدس جبريل – عليه السلام – يؤيده هنا وهناك . . ومن تعليمه الكتاب والحكمة ؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئاً ، فعلمه الكتابة وعلمه كيف يحسن تصريف الأمور ، كما علّمه التوراة التي جاء فوجدها في بني إسرائيل ، والإنجيل الذي آتاه إياه مصدقاً لما بين يديه من التوراة .

ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله . فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله ؛ فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله – لا ندري كيف لأننا لا ندري إلى اليوم كيف خلق الله الحياة ، وكيف يبث الحياة في الأحياء – وإذا هو يبرئ المولود أعمى – بإذن الله – حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر – ولكن الله الذي يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينيه للنور – ويبرئ الأبرص بإذن الله ، لا بدواء – والدواء وسيلة

لتحقيق إذن الله في الشفاء ، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة ، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة – وإذا هو يحيي الموتى بإذن الله – وواهب الحياة أول مرة قادر على رجعها حين يشاء – ثم يذكره بنعمة الله عليه في حمايته من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين ! ذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها – وقد شهدتها الألوف – ولم يريدوا التسليم بدلالتها عناداً وكبراً . . حمايته منهم فلم يقتلوه – كما أرادوا ولم يصلبوه . بل توفاه الله ورفعه إليه . . كذلك يذكره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله ؛ فإذا هم ملبون مستسلمون ، يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله :

(191/219)

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي . قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ . .

إنها النعم التي آتاها الله عيسى بن مريم ، لتكون له شهادة وبينة . فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ ؛ وتصوغ منها وحولها الأضاليل – فها هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من الملأ الأعلى ، ومن الناس جميعاً ، ومنهم قومه الغالون فيه . . ها هو ذا يواجه بها ليسمع

قومه ويروا ؛ وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين !

ويستطرد السياق في معرض النعم على عيسى بن مريم وأمه ، إلى شيء من نعمة الله على قومه ، ومن معجزاته التي أيده الله بها وشهدها بها الحواريون :

﴿ إذ قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا : نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : إني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ . .

ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى . . المستخلصين منهم وهم الحواريون . . فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا – صلى الله عليه وسلم – فرق بعيد . .

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى . فآمنوا . وأشهدوا عيسى على إسلامهم . . ومع هذا فهم بعد ما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة . تطمئن بها نفوسهم . ويعلمون منها أنه صدقهم . ويشهدون بها له لمن وراءهم . فأما أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم . . لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان . ولقد صدقوا

رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان . ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن . .

(192/219)

هذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى عليه السلام – وحواريي محمد – صلى الله عليه وسلم – ذلك مستوى ، وهذا مستوى . . وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون . . وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون . . ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله . .

وقصة المائدة – كما أوردها القرآن الكريم – لم ترد في كتب النصارى . ولم تذكر في هذه الأناجيل التي كتبت متأخرة بعد عيسى – عليه السلام – بفترة طويلة ، لا يؤمن معها على الحقيقة التي تنزلت من عند الله . وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى – عليه السلام – وليست هي ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذي آتاه . .

ولكن ورد في هذه الأناجيل خبر عن المائدة في صورة أخرى : فورد في إنجيل متى في نهاية الإصحاح الخامس عشر : " وأما يسوع فدعا تلاميذه ، وقال : إني أشفق على الجميع ، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معي ، وليس لهم ما يأكلون . ولست أريد أن أصرفهم صائمين

لئلا يخوروا في الطريق . فقال له تلاميذه : من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعاً هذا عدده ؟ فقال لهم يسوع : كم عندكم من الخبز ؟ فقالوا : سبعة وقليل من صغار السمك . فأمر الجموع أن يتكئوا على الأرض ؛ وأخذ السبع خبزات والسمك ، وشكر وكسر ، وأعطى تلاميذه ، والتلاميذ أعطوا الجمع ، فأكل الجمع وشبعوا ، ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة ، والآكلون كانوا أربعة آلاف ، ما عدا النساء والأولاد " . . .

وورد مثل هذه الرواية في سائر الأناجيل . .

وبعض التابعين – رضوان الله عليهم – كمجاهد والحسن – يريان أن المائدة لم تنزل . لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه : ﴿ إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ . . خافوا وكفوا عن طلب نزولها :

(193/219)

قال ابن كثير في التفسير : " روى الليث بن أبي سليم عن مجاهد قال : " هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء " (رواه ابن أبي حاتم وابن جرير) .

ثم قال ابن جرير : حدثنا الحارث ، حدثنا القاسم – هو ابن سلام – حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا

أن تنزل عليهم . . وقال أيضا ؛ حدثنا أبو المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور بن زاذان ، عن الحسن ، أنه قال في المائدة : إنها لم تنزل . . وحدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : ﴿ فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل " .

ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت . لأن الله تعالى قال : ﴿ إني منزلها عليكم ﴾ . ووعد الله حق . وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذي نعتمده في أمرها دون سواه . .

إن الله – سبحانه – يذكر عيسى بن مريم – في مواجهة قومه يوم الحشر وعلى مشهد من العالمين – بفضله عليه : ﴿ إذ قال الحواريون : يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ ﴾ . .

لقد كان الحواريون – وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم به – يعرفون أنه بشر . . ابن مريم . . وينادونه بما يعرفونه عنه حق المعرفة . وكانوا يعرفون أنه ليس ربا وإنما هو عبد مربوب لله . وأنه ليس ابن الله ، إنما هو ابن مريم ومن عبيد الله ؛ وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه ، وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة . . لذلك حين طلبوا إليه ، أن تنزل عليهم مائدة من السماء ،

لم يطلبوها منه ، فهم يعرفون أنه بذاته لا يقدر على هذه الخارقة . وإنما سألوه :

﴿ يا عيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ ﴾ . .

(194/219)

واختلفت التأويلات في قولهم : ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ . . كيف سألوا بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى – عليه السلام – على إسلامهم له . وقيل إن معنى يستطيع ليس (يقدر) ولكن المقصود هو لازم الاستطاعة وهو أن ينزلها عليهم . وقيل : إن معناها : هل يستجيب لك إذا طلبت . وقرئت : ﴿ هل تستطيع ربك ﴾ . بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء . .

وعلى أية حال فقد رد عليهم عيسى – عليه السلام – محذراً إياهم من طلب هذه الخارقة . . لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق ، ولا يقترحون على الله .

﴿ قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ . .

ولكن الحواريين كرروا الطلب ، معلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه :

﴿ قالوا : نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين ﴾ .

فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذي لا نظير له عند أهل الأرض . وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهي تتحقق أمام أعينهم ؛ ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم ، ثم يكونوا شهوداً لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة .

وكلها أسباب كما قلنا تصور مستوى معيناً دون مستوى أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز !

عندئذ اتجه عيسى – عليه السلام – إلى ربه يدعوه :

﴿ قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 996.1000 ﴾

(195/219)

ومن فوائد السعدى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ

فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا . . . الآية ﴾ .

يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام ، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم: ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ أي: ماذا أجابتكم به أممكم .

ف ﴿ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا ﴾ وإنما العلم لك يا ربنا ، فأنت أعلم منا . ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ ﴾ أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ ﴾ أي: اذكرها بقلبك ولسانك ، وقم بواجبها شكرا لربك ، حيث أنعم عليك نعما ما أنعم بها على غيرك .

﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي: إذ قويتك بالروح والوحي ، الذي طهرك وزكاك ، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله . وقيل: إن المراد "بروح القدس" جبريل عليه السلام ، وأن الله أعانه به وبملازمته له ، وتثبيته في المواطن المشقة .

﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا ﴾ المراد بالتكليم هنا ، غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام ، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب ، وهو الدعوة إلى الله .

ولعيسى عليه السلام من ذلك ، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين ، من التكليم في حال الكهولة ، بالرسالة والدعوة إلى الخير ، والنهي عن الشر ، وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهد ، فقال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ الآيات

﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ فالكتاب يشمل الكتب السابقة وخصوصا التوراة فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل –بعد موسى– بها ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه والحكمة هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ أي طيرا مصورا لا روح فيه فتنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وتبرئ الأكمه الذي لا بصر له ولا عين ﴿ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ فهذه آيات بيّنات ومعجزات باهرات يعجز عنها الأطباء وغيرهم أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ لما جاءهم الحق مؤيدا بالبينات الموجبة للإيمان به ﴿ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وهموا بعيسى أن يقتلوه وسعوا في ذلك فكفَّ الله أيديهم عنه وحفظه منهم وعصمه فهذه مِنَنٌ امتَنَّ الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ودعاه إلى شكرها والقيام بها

فقام بها عليه السلام أتم القيام وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا ﴾ .

(197/219)

إلى آخر الآيات أي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعا وأعوانا . فأوحيت إلى الحواريين أي: ألهمتهم ، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي ، أو أوحيت إليهم على لسانك ، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله ، فأجابوا لذلك وانقادوا ، وقالوا: آمنا بالله ، واشهد بأننا مسلمون ، فجمعوا بين الإسلام الظاهر ، والانقياد بالأعمال الصالحة ، والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان .

والحواريون هم: الأنصار ، كما قال تعالى كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي: مائدة فيها طعام ، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله ، واستطاعته على ذلك . وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم .

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيا للانقياد للحق ، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين

ربما أوهم ذلك ، وعظهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى ، وأن ينقاد لأمر الله ، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئًا .

(198/219)

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى ، وإنما لهم مقاصد صالحة ، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها ، ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العيانية ، فيكون الإيمان عين اليقين ، كما كان قبل ذلك علم اليقين . كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت ، ولهذا قال: ﴿ وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به ، أنه حق وصدق ، ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ فتكون مصلحة لمن بعدنا ، نشهدها لك ، فتقوم الحجة ، ويحصل زيادة البرهان بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 248.249 ﴾

(199/219)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ الجمهور : " وَنَعْلَمَ " : و" نَكُون " بنون المتكلم مبنيًّا للفاعل ، وقرأ ابن جُبَيْر – رضي الله عنه – فيما نقله عنه ابن عطيَّة – " وتُعْلَم " بضمِ التاء على أنه مبنيٌّ للمفعول ، والضميرُ عائدٌ على القلوب ، أي : وتُعْلَمَ قُلُوبُنَا ، ونُقِلَ عنه " وَنُعْلَمَ " بالنون مبنيًّا للمفعول ، وقرئ : " ويُعْلَمَ " بالياء مبنيًّا للمفعول ، والقائمُ مقام الفاعل : ﴿ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي : ويُعْلَمَ صِدْقُكَ لنا ، ولا يجوز أن يكون الفعل في هذه القراءةِ مسنداً لضميرِ القلوب ؛ لأنه جارٍ مَجْرَى المؤنَّثِ المجازيِّ ، ولا يجوز تذكيرُ فِعْلِ ضميره ، وقرأ الأعمشُ : [" وتَعْلَمَ "] بتاءٍ والفعلُ مبنيٌّ للفاعل ، وهو ضمير القُلُوبِ ، ولا يجوز أن تكون التاءُ للخطاب ؛ لفسادِ المعنى ، وروي : " وتِعْلَمَ " بكسر حرف المضارعة ، والمعنى على ما تقدَّم ، وقُرِئ : " وتكونَ " بالتاء والضمير للقلوب .

و" أنْ " في ﴿ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ مخفَّفةٌ ، واسمُها محذوفٌ ، و" قَدْ " فاصلةٌ ؛ لأنَّ الجملة الواقعةَ خبراً لها فعليةٌ متصرِّفةٌ غيرُ دُعَاءٍ ، وقد عُرِفَ ذلك مما تقدَّم في قوله : ﴿ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [المائدة : 71] ، و" أنْ " وما بعدها سادَّةٌ مسدَّ المفعولَيْن ، أو مَسَدَّ الأول فقط ، والثاني محذوفٌ ، و" عَلَيْهَا " متعلِّقٌ بمحذوفٍ يَدُلُّ عليه " الشَّاهدين " ، ولا يتعلَّقُ بما

بعده ؛ لأن " أل " لا يَعْمَلُ ما بعدها فيما قبلها عند الجمهور ، ومنْ يُجيزُ ذلك يقول : " هو متعلّقٌ بالشاهدينَ ، قُدِّم للفواصِل " .

وأجاز الزمخشريُّ أن تكون " عَلَيْهَا " حالاً ؛ فإنه قال : " أو نَكُونَ من الشاهدينَ لله بالوحدانيَّة ، ولك بالنبوَّةِ عاكِفِينَ عليها ، على أن " عَلَيْهَا " في موضع الحال " فقوله " عَاكِفِينَ " تفسيرُ معنًى ؛ لأنه لا يُضْمَرُ في هذه الأماكن إلا الأكوانُ المطلقة .

وقرأ اليمانيُّ : " وإنَّهُ " بـ " إنَّ " المشدَّدة ، والضميرُ : إما للعيد ، وإما للإنزال .

وبهذا لا يَرِدُ عليه ما قاله أبو حيان – رحمه الله تعالى – فإنه غابَ عليه ذلك ، وجعله متناقِضاً ؛ من حيث إنه لَمَّا عَلَّقَهُ بـ " عَاكِفِينَ " كان غيْرَ حال ؛ لأنه إذا كان حالاً ، تعلَّقَ بكون مُطْلَقٍ ولا أدْرِي ما معنى التناقُض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 609.608 ﴾

(200/219)

قوله تعالى ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

﴿ قال عيسى ﴾ ونسبه زيادة في التصريح به تحقيقاً ولأنه لا أب له وتسفيهاً لمن أطراه أو وضع من قدره فقال : ﴿ ابن مريم اللهم ﴾ فافتتح دعاءه بالاسم الأعظم ثم بوصف الإحسان فقال : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿ أنزل علينا ﴾ وقدم المقصود فقال : ﴿ مائدة ﴾ وحقق موضع الإنزال بقوله : ﴿ من السماء ﴾ ثم وصفها بما تكون به بالغة العجب عالية الرتب فقال : ﴿ تكون ﴾ أي هي أو يوم نزولها ﴿ لنا عيداً ﴾ وأصل العيد كل يوم فيه جمع ، ثم قيد بالسرور فالمعنى : نعود إليها مرة بعد مرة سروراً بها ، ولعل منها ما يأتي من البركات حين ترد له عليه السلام – كما في الأحاديث الصادقة ، ويؤيد ذلك قوله مبدلاً من " لنا " : ﴿ لأولنا وآخرنا ﴾ .

ولما ذكر الأمر الدنيوي ، أتبعه الأمر الديني فقال : ﴿ وآية منك ﴾ أي علامة على صدقي ﴿ وارزقنا ﴾ أي رزقاً مطلقاً غير مقيد بها ؛ ولما كان التقدير : فأنت خير المسؤولين ، عطف عليه قوله : ﴿ وأنت خير الرّازقين ﴾ أي فإنك تغني من تعطيه وتزيده عما يؤمله ويرتجيه بما لا ينقص شيئاً مما عندك ، ولا تطلب منه شيئاً غير أن ينفع نفسه بما قويته عليه من طاعتك بذلك الرزق ﴿ قال الله ﴾ أي الملك المحيط علماً وقدرة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 570 . 571 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما الكلام في ﴿ اللهم ﴾ فقد تقدم بالاستقصاء في سورة آل عمران في قوله ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ﴾ [آل عمران : 26] فقوله : ﴿ اللهم ﴾ نداء ، وقوله ﴿ رَبَّنَا ﴾ نداء ثان وأما قوله ﴿ تَكُونُ لَنَا ﴾ صفة للمائدة وليس بجواب للأمر ، وفي قراءة عبد الله ﴿ تَكُنْ ﴾ لأنه جعله جواب الأمر .

(201/219)

قال الفراء : وما كان من نكرة قد وقع عليها أمر جاز في الفعل بعده الجزم والرفع ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِى ﴾ [مريم : 65] بالجزم والرفع ﴿ فَأَرْسِلْهِ مَعِىَ رِدْءاً يُصَدّقُنِى ﴾ [القصص : 34] بالجزم والرفع ، وأما قوله ﴿ عِيداً لأَوّلِنَا وَءاخِرِنَا ﴾ أي نتخذ اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا ، ونزلت يوم الأحد فاتخذه النصارى عيداً ، والعيد في اللغة اسم لما عاد إليك في وقت معلوم ، واشتقاقه من عاد يعود فأصله هو العود ، فسمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح جديد ، وقوله ﴿ وآية منك ﴾ أي دلالة على توحيدك وصحة نبوة رسولك ﴿ وارزقنا ﴾ أي وارزقنا طعاماً نأكله وأنت خير الرازقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ

﴿ 109 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ إنما زيدت الميم في آخر اللهم مثقلة عوضاً عن حرف النداء ، فلم يجز أن يدخل عليه حرف النداء فلا يقال يا اللهم لأن الميم المُعَوِّضة منه أغنت عنه ، فأما قول الشاعر :

وما عليك أن تقولي كلما . . . سبحت أو هللت يا اللهم

أردد علينا شيخنا مسلما . . . فإننا من خيره لن نعْدَما

فلأن ضرورة الشعر جوزته .

سأل عيسى ربه ، أن ينزل عليهم المائدة التي سألوه ، وفي سؤاله وجهان :

أحدهما : أنه تفضل عليهم بالسؤال ، وهذا قول من زعم أن السؤال بعد استحكام المعرفة .

والثاني : أنه رغبة منه إلى الله تعالى في إظهار صدقه لهم ، وهذا قول من زعم أن السؤال قبل استحكام المعرفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(202/219)

وقال ابن عطية :

ذكر الله تعالى عن عيسى أنه أجابهم إلى دعاء الله في أمر المائدة . فروي أنه لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويبكي ويدعو . و﴿ اللهم ﴾ عند سيبويه أصلها يا الله فجعلت الميمان بدلاً من ياء و﴿ ربنا ﴾ منادى آخر ، ولا يكون صفة لأن ﴿ اللهم ﴾ يجري مجرى الأصوات من أجل ما لحقه من التغيير ، وقرأ الجمهور " تكون لنا " على الصفة للمائدة . وقرأ ابن مسعود والأعمش " تكن لنا " على جواب ﴿ أنزل ﴾ والعيد : المجتمع واليوم المشهود ، وعرفه أن يقال فيما يستدير بالسنة أو بالشهر والجمعة ونحوه . وهو من عاد يعود فأصله الواو ولكن لزمته الياء من أجل كسرة العين ، وقرأ جمهور الناس " لأولنا وآخرنا " وقرأ زيد بن ثابت وابن محيصن والجحدري : " لأولنا وأخرانا " . واختلف المتأولون في معنى ذلك ، فقال السدي وقتادة وابن جريج وسفيان : لأولنا معناه لأول الأمة ثم لمن بعدهم حتى لآخرها يتخذون ذلك اليوم عيداً . وروي عن ابن عباس أن المعنى يكون مجتمعاً لجميعنا أولنا وآخرنا ، قال : وأكل من المائدة حين وضعت أول الناس كما أكل آخرهم .

قال القاضي أبو محمد : فالعيد على هذا لا يراد به المستدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غَرَضاً صحيحاً في ذلك ، وأنهم لا يُقلعون عنه ، أزمعَ على استدعائها واستنزالها ، وأراد أن يُلزِمَهم الحجةَ بكمالها .

رُوي أنه عليه الصلاة والسلام اغتسل ولبس المِسْح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصرَه ثم قال : ﴿ اللهم رَبَّنَآ ﴾ ربنا ، ناداه سبحانه وتعالى مرتين ، مرةً بوصف الألوهية الجامعةِ لجميع الكمالات ، ومرةً بوصف الربوبية المُنْبئةِ عن التربية ، وإظهاراً لغاية التضرّع ، ومبالغةً في الاستدعاء ﴿ أَنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ تقديمُ الظرف على قوله : ﴿ مَائِدَةً ﴾ لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، وقوله : ﴿ مِّنَ السماء ﴾ متعلق بأنزل أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لمائدة ، أي كائنةً من السماء نازلةً منها .

(204/219)

وقوله : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً ﴾ في محل النصب على أنه صفةٌ لمائدة ، واسم تكون ضمير المائدة ، وخبرُها إما عيداً و(لنا) حال منه ، أو من ضمير (تكون) عند من يجوّز إعمالَها في الحال ، وإما (لنا) ، وعيداً حال من الضمير في لنا ، لأنه وقع خبراً فيحمِلُ ضميراً ، أو

من ضمير (تكون) عند من يرى ذلك ، أي يكون يومُ نزولها عيداً نعظمه ، وإنما أُسند ذلك إلى المائدة لأن شرَفَ اليوم مستعار من شرفها ، وقيل : العيدُ السرورُ العائد ، ولذلك سمّيَ يومُ العيد عيداً ، وقرىء (تكن) بالجزم على جواب الأمر كما في قوله : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِى ﴾ خلا أن قراءةَ الجزم هناك متواترة وها هنا من الشواذ ﴿ لأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ بدل من (لنا) بإعادة العامل ، أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا . رُوي أنها نزلت يوم الأحد ، ولذلك اتخذه النصارى عيداً ، وقيل : للرؤساء منا والأتباع ، وقيل : يأكل منها أولُنا وآخرُنا ، وقرىء (لأُولانا وأُخْرانا) بمعنى الأمة والطائفة ﴿ وَءَايَةً ﴾ عطف على عيداً ﴿ مِنكَ ﴾ متعلق بمحذوف وهو صفة لآية ، أي كائنةً منك دالةً على كمال قدرتك وصحةِ نبوتي ﴿ وارزقنا ﴾ أي المائدة أو الشكر عليها ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجْرى التعليل ، أي خيرُ من يرزق لأنه خالقُ الأرزاق ومعطيها بلا عِوَض ، وفي إقباله عليه السلام على الدعاء بتكرير النداء المُنْبىءِ عن كمال الضراعة والابتهال وزيادتِه ما لم يخطُرْ ببال السائلين من الأمور الداعية إلى الإجابة والقَبول دلالةٌ واضحةٌ على أنهم كانوا مؤمنين ، وأن سؤالهم كان لتحصيل الطمأنينة ، كما في قول إبراهيم عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(205/219)

وقال ابن عاشور :

إن كان قوله : ﴿ إذ قال الحواريّون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السماء ﴾ [المائدة : 112] من تمام الكلام الذي يلقيه الله على عيسى يوم يجمع الله الرسل كانت هذه الجملة وهي ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهمّ ربّنا أنزل علينا مائدة ﴾ الخ . . .

معترضة بين جملة ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريّين ﴾ [المائدة : 111] وجملة ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس ﴾ [المائدة : 116] الآية .

وإن كان قوله : ﴿ إذ قال الحواريّون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزّل ﴾ [المائدة : 112] الآية ابتداء كلام بتقدير فعل اذكر كانت جملة : ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربّنا ﴾ الآية مجاوبة لقول الحواريّين ﴿ يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك ﴾ [المائدة : 112] الآية على طريقة حكاية المحاورات .

وقوله : ﴿ اللهمّ ربّنا أنزل علينا مائدة ﴾ اشتمل على نداءين ، إذ كان قوله : ﴿ ربّنا ﴾ بتقدير حرفِ النداء .

كرّر النداء مبالغة في الضراعة .

وليس قوله : ﴿ ربّنا ﴾ بدلاً ولا بياناً من اسم الجلالة ، لأنّ نداء ﴿ اللهمّ ﴾ لا يتبع عند

جمهور النحاة لأنّه جار مجرى أسماء الأصوات من أجل ما لحقه من التغيير حتى صار كأسماء الأفعال .

ومن النحاة من أجاز إتْباعه ، وأيّاً ما كان فإنّ اعتباره نداء ثانياً أبلغ هنا لا سيما وقد شاع نداء الله تعالى ﴿ ربّنا ﴾ مع حذف حرف النداء كما في الآيات الخواتم من سورة آل عمران .

وجمع عيسى بين النداء باسم الذات الجامع لصفات الجلال وبين النداء بوصف الربوبية له وللحواريّين استعطافاً لله ليجيب دعاءهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فائدة

قال الثعلبى :

﴿ عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ أي عائداً من علينا وحجة وبرهاناً والعيد اسم لما أعتد به وعاد إليك من كل شيء ومنه قيل : أيام الفطر والأضحى عيد لأنهما يعودان كل سنة .

ويقال : لطيف الخيال عيد .

قال الشاعر :

يا عيد مالك من شوق وإيراق . . . ومرّ طيف على الأهوال طراق

فقال آخر :

اعتاد قلبك من جبينك عود . . . شق عناك فأنت عنه تذود

وأنشد الفراء :

فوا كبدي من لاعج الحب والهوى . . . إذا اعتاد قلبي من أميمة عيدها

وأصله عود بالواو ولأنه من عاد يعود إذا رجع فقلبت الواو بالكسرة ما قبلها مثل النيران والميقات والميعاد .

قال السدي : معناه نتخذ اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا .

وقال سفيان : نصلي فيه .

(206/219)

وقال الخليل بن أحمد : العيد كل يوم مجمع كأنهم عادوا إليه .

وقال ابن الأنصاري : سمي العيد عيداً للعود من الترح إلى الفرح فهو يوم سرور للخلق كلهم ألا ترى أن المسجونين لا يطالبون ولا يعاقبون ولا تصطاد فيه الوحوش والطيور ولا ينفذ الصبيان إلى المكتب ، وقيل : سمي عيداً لأن كل إنسان يعود إلى قدر منزلته ألا ترى إختلاف ملابسهم وأحوالهم وأفعالهم فمنهم من يضيف ومنهم من يضاف ومنهم من يظلم ومنهم من يرحم ، وقيل : سمي بذلك لأنه يوم شريف فاضل تشبيهاً بالعيد وهو فحل نجيب

كريم ومشهور في العرب وينسبون إليه فيقال : إبل عيدية . قال الراعي :

عيد به طويت على زفراتها . . . طي القناطر قد نزلن نزولا

وقوله ﴿ لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ يعني قبل زماننا ولمن يجيء بعدنا .

وقرأ زيد بن ثابت : لأولنا وآخرنا على الجميع .

وقال ابن عباس : يعني نأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

ومعنى ﴿ تكون لنا عيداً ﴾ أي يكون تذكّر نزولها بأن يجعلوا اليوم الموافق يوم نزولها من كلّ سنة عيداً ، فإسناد الكون عيداً للمائدة إسناد مجازي ، وإنّما العيد اليوم الموافق ليوم نزولها ، ولذلك قال : ﴿ لأوّلنا وآخرنا ﴾ ، أي لأوّل أمّة النصرانية وآخرها ، وهم الذين ختمت بهم النصرانية عند البعثة المحمدية .

والعيد اسم ليوم يعود كلّ سنة ، ذكرى لنعمة أو حادثة وقعت فيه للشكر أو للاعتبار .

وقد ورد ذكره في كلام العرب .

وأشهر ما كانت الأعياد في العرب عند النصارى منهم ، قال العجاج:

كمَا يعُودُ العيدَ نصرانيّ . . .

مثل يوم السباسب في قول النابغة:

يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحَان يوْمَ السَّبَاسب . . .

وهو عيد الشعانين عند النصارى .

(207/219)

وقد سمّى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفطر عيداً في قوله لأبي بكر لمَّا نهى الجواريَ اللاّء كنّ يغنّين عند عائشة "إنّ لكلّ قوم عيداً وهذا عيدنا" وسمّى يوم النحر عيداً في قوله : "شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجّة" .

والعيد مشتقّ من العَوْد ، وهو اسم على زنة فعل ، فجعلت واوه ياء لوقوعها إثر كسرة لازمة .

وجمعوه على أعياد بالياء على خلاف القياس ، لأنّ قياس الجمع أنّه يردّ الأشياء إلى أصولها ، فقياس ، جمعه أعواد لكنّهم جمعوه على أعياد ، وصغّروه على عُييد ، تفرقة بينه وبين جمع عُودٍ وتصغيره .

وقوله : ﴿ لأوّلنا ﴾ بدل من الضمير في قوله ﴿ لنا ﴾ بدلَ بعض من كلّ ، وعطف ﴿ وآخرنا ﴾ عليه يصيّر الجميع في قوة البدل المطابق .

وقد أظهر لام الجرّ في البدل ، وشأن البدل أن لا يظهر فيه العامل الذي عمل في المبدل منه

لأنّ كون البدل تابعاً للمبدل منه في الإعراب مناف لذكر العامل الذي عمل في المتبوع ، ولهذا قال النحاة : إنّ البدل على نية تكرار العامل ، أي العامل منوي غير مصرّح به .

وقد ذكر الزمخشري في "المفصّل" أنّ عامل البدل قد يصرّح به ، وجعل ذلك دليلاً على أنّه منوي في الغالب ولم يقيّد ذلك بنوع من العوامل ، ومثّله بقوله تعالى : ﴿ لجعلنا لمنْ يكفر بالرحمان لبيُوتهم سُقفاً من فضّة ﴾ [الزخرف : 33] ، وبقوله في سورة الأعراف (75) ﴿ قال الملأ الذين استكبروا . . للذين استضعفوا لمَنْ آمن منهم ﴾ وقال في الكشاف في هذه الآية ﴿ لأوّلنا وآخرنا ﴾ بدل من ﴿ لَنَا ﴾ بتكرير العامل .

وجوّز البدل أيضاً في آية الزخرف ثم قال : ويجوز أن يكون اللاّمان بمنزلة اللاّمين في قولك : وهبت له ثوباً لقميصه .

يريد أن تكون اللام الأولى متعلّقة بـ ﴿ تكون ﴾ والثانية متعلّقة بـ ﴿ عيدا ﴾ .

(208/219)

وقد استقرَيْتُ ما بلغت إليه من موارد استعماله فتحصّل عندي أنّ العامل الأصيل من فعل وشبهه لا يتكرّر مع البدل ، وأمّا العامل التكميلي لعامل غيره وذلك حرف الجرّ خاصّة فهو

الذي ورد تكريره في آيات من القرآن من قوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ في سورة الأعراف (75) ، وآية سورة الزخرف ، وقوله : ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ [الأنعام : 99] .

ذلك لأنّ حرف الجرّ مكمّل لعمل الفعل الذي يتعلّق هو به لأنّه يعدّي الفعل القاصر إلى مفعوله في المعنى الذي لا يتعدّى إليه بمعنى مصدره ، فحرف الجرّ ليس بعامل قوي ولكنّه مكمّل للعامل المتعلّق هو به .

ثمّ إنّ علينا أن نتطلّب الداعي إلى إظهار حرف الجرّ في البدل في مواقع ظهوره .

وقد جعل ابن يعيش في "شرح المفصّل" ذلك للتأكيد قال : "لأن الحرف قد يتكرّر لقصد التأكيد" .

وهذا غير مقنع لنا لأنّ التأكيد أيضاً لا بدّ من داع يدعو إليه .

فما أظهر فيه حرف الجرّ من هذه الآيات كان مقتضي إظهاره إمّا قصد تصوير الحالة كما في أكثر الآيات ، وأمّا دفع اللبس ، وذلك في خصوص آية الأعراف لئلاّ يتوهّم السامع أنّ من يتوهّم أنّ "من آمن" من المقول وأنّ "من" استفهام فيظنّ أنّهم يسألون عن تعيين من آمن من القوم ، ومعنى التأكيد حاصل على كلّ حال لأنّه ملازم لإعادة الكلمة .

وأمّا ما ليس بعامل فهو الاستفهام وقد التزم ظهور همزة الاستفهام في البدل من اسم استفهام ، نحو : أين تنزل أفي الدار أم في الحائط ، ومنْ ذا أسعيد أم عَلِي .

وهذا العيد الذي ذكر في هذه الآية غير معروف عند النصارى ولكنّهم ذكروا أنّ عيسى عليه السلام أكل مع الحواريّين على مائدة ليلة عيد الفِصح ، وهي الليلة التي يعتقدون أنّه صلب من صباحها .

(209/219)

فلعلّ معنى كونها عيداً أنّها صيّرت يوم الفصح عيداً في المسيحية كما كان عيداً في اليهودية ، فيكون ذلك قد صار عيداً باختلاف الاعتبار وإن كان اليوم واحداً لأنّ المسيحيين وفّقوا لأعياد اليهود مناسبات أخرى لائقة بالمسيحية إعفاء على آثار اليهودية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ اللهم رَبَّنَآ ﴾ الأصل عند سيبويه يا الله ، والميمان بدل من "يا" .

"رَبَّنَا" نداء ثان ، لا يجيز سيبويه غيره ، ولا يجوز أن يكون نعتا ، لأنه قد أشبه الأصوات من أجل ما لحقه .

﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً ﴾ المائدة الخوان الذي عليه الطعام ، قال قُطْرُب : لا تكون المائدة

مائدة حتى يكون عليها طعام ، فإن لم يكن قيل : خوان ، وهي فاعلة من مَادَ عبده إذا أطعمه وأعطاه ، فالمائدة تميد ما عليها أي تعطي ، ومنه قول رؤبة أنشده الأخفش :

تُهدي رؤوس المترَفين الأنداد . . .

إلى أمير المؤمنين الممتَاد

أي المستعطَى المسؤول ، فالمائدة هي المطعمة والمعطية الآكلين الطعام .

ويسمى الطعام أيضاً مائدة تجوزاً ، لأنه يؤكل على المائدة ، كقولهم للمطر سماء .

وقال أهل الكوفة : سميت مائدة لحركتها بما عليها ، من قولهم : مَادَ الشيء إذا مال وتحرّك ، قال الشاعر :

لعلك باكٍ إنْ تَغنّتْ حمامُة . . .

يَميدُ بها غُصْن من الأيكِ مائلُ

وقال آخر :

وأقلقني قتلُ الكنانيّ بعده . . .

فكادَتْ بي الأرضُ الفضاءُ تَميدُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] .

وقال أبو عبيدة : مائدة فاعلة بمعنى مفعولة ، مثل ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21

والقارعة : 7] بمعنى مرضية و﴿ مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 7] أي مدفوق .

قوله تعالى : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً ﴾ "تكون" نعت لمائدة وليس بجواب .

(210/219)

وقرأ الأعمش "تكن" على الجواب ، والمعنى : يكون يوم نزولها ﴿ عِيداً لِّأَوَّلِنَا ﴾ أي لأوّل أمتنا وآخرها ، فقيل : إن المائدة نزلت عليهم يوم الأحد غدوة وعشية ، فلذلك جعلوا الأحد عيداً .

والعيد واحد الأعياد ، وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد ، ويقال : للفرق بينه وبين أعواد الخشب ، وقد عيَّدوا أي شهدوا العيد ، قاله الجوهريّ .

وقيل : أصله من عاد يعود أي رجع فهو عِود بالواو ، فقلبت ياء لانكسار ما قبلها ، مثل الميزان والميقات والميعاد ، فقيل ليوم الفطر والأضحى : عيداً لأنهما يعودان كل سنة .

وقال الخليل : العيد كل يوم يجمع كأنهم عادوا إليه .

وقال ابن الأنباريّ : سُمّي عيدا للعود في المَرَح والفَرَح ، فهو يوم سرور الخلق كلهم ، ألا ترى أن المسجونين في ذلك اليوم لا يطالبون ولا يعاقبون ، ولا يصاد الوحش ولا الطيور ، ولا تنفذ الصبيان إلى المكاتب .

وقيل : سمي عيدا لأن كل إنسان يعود إلى قدر منزلته ، ألا ترى إلى اختلاف ملابسهم وهيئاتهم ومآكلهم فمنهم من يضيف ومنهم من يضاف ، ومنهم من يرحَم ومنهم من يُرحَم .

وقيل : سمي بذلك لأنه يوم شريف تشبيهاً بالعيد : وهو فحل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه ، فيقال : إبل عيدية ، قال :

عِيدِيَّةٌ أُرهِنَتْ فيها الدنانِيرُ . . .

وقد تقدّم .

وقرأ زيد بن ثابت "لأولانَا وأُخْرَانَا" على الجمع .

قال ابن عباس : يأكل منها آخر الناس كما يأكل منها أوّلهم .

﴿ وَآيَةً مِّنْكَ ﴾ يعني دلالة وحجة .

﴿ وارزقنا ﴾ أي أعطنا .

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين ﴾ أي خير من أعطى ورزق ، لأنك الغنيّ الحميد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الماوردى :

﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : نتخذ اليوم الذي أنزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا قاله قتادة والسدي .

وقيل : إن المائدة أنزلت عليهم في يوم الأحد غداة وعشية ، ولذلك جعلوا الأحد عيداً .

والثاني : معناه عائدة من الله تعالى علينا ، وبرهاناً لنا ولمن بعدنا .

والثالث : يعني نأكل منها جميعاً ، أولنا وآخرنا ، قاله ابن عباس .

﴿ وَءَايَةً مِّنكَ ﴾ يعني علامة الإِعجاز الدالة على توحيدك وقيل التي تدل على صدق أنبيائك .

الشكر على ما أنعمت به علينا من إجابتك ، وقيل : أرزقنا ذلك من عندك . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾ لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك ، وأخرج الترمذي في "نوادر الأصول" وغيره عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام لما رأى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله تعالى فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع بالأصابع ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره وغض بصره وطأطأ رأسه خشوعاً ثم أرسل عينيه

بالبكاء فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه فلما رأى ذلك دعا الله تعالى فقال : ﴿ اللهم رَبَّنَا ﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين على ما قيل مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات وأخرى بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء وإنما لم يجعل نداء واحداً بأن يعرب ﴿ رَبَّنَا ﴾ بدلاً أو صفة لأنهم قالوا : إن لفظ اللهم لا يتبع وفيه خلاف لبعض النحاة .

وحذف حرف النداء في الأول وعوض عنه الميم وكذا في الثاني إلا أن التعويض من خواص الاسم الجليل أي يا الله يا ربنا .

﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴾ أي خواناً عليه طعام أو سفرة كذلك ، وتقديم الظرف على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .

(212/219)

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مِّنَ السماء ﴾ متعلق إما بانزل أو بمحذوف وقع صفة لمائدة أي كائنة من السماء ، والمراد بها إما المحل المعهود وهو المتبادر من اللفظ وإما جهة العلو ، ويؤيد الأول ما أخرجه ابن حميد وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر أن المائدة التي نزلت كان

عليها من ثمر الجنة وكذا روي عن وهب بن منبه .

ويؤيد الثاني ما روي عن سلمان الفارسي من خبر طويل أن المائدة لما نزلت قال شمعون رأس الحواريين لعيسى عليه الصلاة والسلام يا روح الله وكلمته أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقير المسائل ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بسبب هذه الآية فقال شمعون : لا وإله اسرائيل ما أردت بها سواءاً يا ابن الصديقة فقال عيسى عليه الصلاة والسلام .

ليس شيء مما ترون عليها من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا إنما هو شيء ابتدعه الله تعالى في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة فقال له كن فكان في أسرع من طرفة عين فكلوا مما سألتم باسم الله واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم فإنه بديع قادر شاكر .

وقوله تعالى : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً ﴾ صفة "مائدة" و"لنا" خبر كان و"عيداً" حال من الضمير في الظرف أو في ﴿ تَكُونُ ﴾ على رأي من يجوز إعمالها في الحال ، وجوز أن يكون "عيداً" الخبر و"لنا" حينئذ إما حال من الضمير في "تكون" أو حال من ﴿ عِيداً ﴾ لأنه صفة له قدمت عليه ، والعيد العائد مشتق من العود ويطلق على الزمان المعهود لعوده في كل عام بالفرح والسرور ، وعليه فلا بد من تقدير مضاف ، والمعنى يكون نزولها لنا عيداً ، ويطلق على نفس السرور العائد وحينئذ لا يحتاج إلى التقدير ، وفي الكلام لطافة لا تخفى ، وذكر غير واحد أن العيد يقال لكل ما عاد عليك في وقت ، ومنه قول الأعشى

: فوا كبدي من لاعج الحب والهوى . . .

إذا اعتاد قلبي من أميمة عيدها

(213/219)

وهو واوي كما ينبىء عنه الاشتقاق ولكنهم قالوا في جمعه : أعياد وكان القياش أعواد لأن الجموع ترد الأشياء إلى أصولها كراهة الاشتباه كما قال ابن هشام بجمع عود ، ونظر ذلك الحريري بقولهم : هو أليط بقلبي منك أي ألصق حبا به فإن أصله الواو لكن قالوا ذلك ليفرق بينه وبين قولهم .

هو ألوط من فلان ، ولا يخفى أن هذا مخالف لما ذكره محققو أهل اللغة ، وعن الكسائي يقال : لاط الشيء بقلبي يلوط ويليط وهو ألوط وأليط ، ثم إنهم إنما لم يعكسوا الأمر في جمع عود وعيد فيقولوا في جمع الأول أعياد وفي جمع الثاني أعواد مع حصول التفرقة أيضاً اعتباراً على ما قيل للأخف في الأكثر استعمالاً مع رعاية ظاهر المفرد ، وقرأ عبد الله "تكن" بالجزم على جواب الأمر .

﴿ لأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ أي لأهل زماننا ومن يجيء بعدنا .

روي أنه نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيداً ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى

عنه أن المعنى يأكل منها أول الناس وآخرهم ، والجار والمجرور عند بعض بدل من الجار والمجرور أعني "لنا" ، وقال أبو البقاء إذا جعل "لنا" خبراً أو حالاً فهو صفة لعيداً وإن جعل صفة له كان هو بدلاً من الضمير والمجرور بإعادة الجار ، وظاهره أن المبدل منه الضمير لكن أعيد الجار لأن البدل في قوة تكرار العامل ، وهو تحكم لأن الظاهر كما أشير إبدال المجموع من المجموع ، ثم إن ضمير الغائب يبدل منه وأما ضمير الحاضر فأجازه بعضهم مطلقاً وأجازه آخرون كذلك ، وفصل قوم فقالوا إن أفاد توكيداً واحاطة وشمولاً جاز وإلا امتنع . واستظهر بعضهم على قول الحبر أن يكون "لنا" خبراً أي قوتاً أو نافعة لنا .

وقرأ زيد وابن محيصن والجحدري "لأولانا وأخرانا" بتأنيث الأول والآخر باعتبار الأمة والطائفة ، وكون المراد بالأولى والأخرى الدار الأولى أي الدنيا والدار الأخرى أي الآخرة مما لا يكاد يصح .

(214/219)

﴿ وَءايَةً ﴾ عطف على "عيداً" ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ مِنكَ ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي ﴿ وارزقنا ﴾ أي الشكر عليها على ما حكي عن الجبائي أو المائدة على ما نقل عن غير واحد

والمراد بها حينئذ كما قيل ما على الخوان من الطعام أو الأعم من ذلك وهذه ولعله الأولى ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين ﴾ تذييل جار مجرى التعليل أي خير من يرزق لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا ملاحظة عوض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

لطيفة

قال الفخر :

تأمل في هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً ، فقدموا ذكر الأكل فقالوا ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ [المائدة : 113] وأخروا الأغراض الدينية الروحانية ، فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال ﴿ وارزقنا ﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية ، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه وإشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله ﴿ وارزقنا ﴾ لم يقف عليه بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين ﴾ فقوله ﴿ رَبَّنَا ﴾ ابتداء منه بذكر الحق سبحانه وتعالى ، وقوله ﴿ أَنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ انتقال من الذات إلى الصفات ، وقوله ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وآخرنا ﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة ، بل من حيث إنها صادرة عن المنعم وقوله ﴿ وآية منك ﴾ إشارة إلى كون هذه المائدة دليلاً لأصحاب النظر والاستدلال وقوله ﴿ وارزقنا ﴾ إشارة إلى حصة النفس وكل ذلك نزول من حضرة

الجلال .

فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون .

ثم قال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين ﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ومن غير الله إلى الله ومن الأخس إلى الأشرف ، وعند ذلك تلوح لك شمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ونزولها اللهم اجعلنا من أهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 109 ﴾

(215/219)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾

وقوله الحق : ﴿ مَآئِدَةً مِّنَ السمآء ﴾ إنما يعني أن هناك لله موائد منصوبة في الأرض .

والكون كلمة مائدة فيها من الخير الكثير إن استطاع الإنسان أن يكد ويكدح .

والإنسان منا عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى الحيوانات فإنه يأتي

إلى زوجه بمخزون قد يكفيهم كأسرة لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت ، فتأخذ الزوجة طيراً فتذبحه وتطهو معه الخبز والخضراوات .

إذن فالكون كله مائدة الله المنصوبة والتي يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله . وكلمة " مائدة " لا تطلق إلا على الخوان وعليه طعام . أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها " خواناً " ؛ لأن " المائدة " مأخوذة من مادة " الميم والألف والدال " والمائدة تميد أي تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء . أو هي تعطي مما عليها من أشياء . فالمائد هو المُعْطَي .

وقول عيسى عليه السلام يمتلئ بكل المعاني القيمة ، فهو يطلب أن تكون المائدة مناسبة لعيد يفرح به الأولون والآخرون وآية من الحق سبحانه وتعالى ، ويطلب من فضل ربوبية الرازق أن يرزقهم ، ويعترف بامتنان أن الحق هو خير الرازقين .

(216/219)

والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله ، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عن عيسى . إيمان عيسى هو الإيمان القوي الناضج . أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص ، لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقى عن الله مباشرة ، أما الحواريون فليسوا كذلك ، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ عن الله وتم ذلك بواسطة رسول

، ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغة في سلم الإيمان درجة أعلى . إنه يتلقى عن الله ، ولهذا صحح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه .

إنه رسول مُصطفى مُجتَبَى ؛ لذلك يضع الأمور في نصابها اللائق فيقول : " اللهم ربنا " و" اللهم " هي في الأصل " يا الله " ، وعندما كثر النداء بها حذفنا منها حرف النداء وعوضناه بالميم في آخرها ، فصارت : " اللهم " . وكأن هذا اللفظ : " اللهم " تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة الله في تقديس وثقة في أنه سبحانه يستجيب ، وهو نداء يقوم على عشق العبد لمولاه ، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أي حرف من حروف النداء .

إننا نلحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلامه لله بصفة الألوهية : " اللهم " فهو كنبي مرسل يعلم تجليات صفة الله . وهي تجليات عبادة من معبود إلى عابد . أما تجليات كلمة " رب " فهي تجليات تربية من رب إلى مربوب ، والفارق بين عطاء الألوهية للخلق ، وعطاء الربوبية ، هو أن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد .

والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه ، أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولي للتربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب ، والرب هو رب للمؤمن وللكافر . ويتولى الرب تربية الكافر على الرغم من إنكار الكافر للألوهية . فسبحانه يربي الماديات التي تقيم حياته .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الكافرين : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحمد لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : 25] .

والحق سبحانه يبلغ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل الكفار عمن خلق السموات والأرض ، ولن يجدوا إجابة على ذلك إلا قولهم : إن الله هو الخالق . وهي إجابة الفطرة الأولى . ونرى في حياتنا أكثر من مثل على ذلك – ولله المثل الأعلى – عندما يسأل الأطفال عن شيء من الذي أحضره ؟ فإننا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن معطي كل شيء هو الله ، فإن سأل الطفل أمه : ماذا سنأكل ؟ وتجيب الأم – على سبيل المثال – سنأكل بامية مثلاً . ويسأل الطفل : من أين ؟ تجيب الأم : اشتراها والدك من بائع الخضر . ويسأل الطفل : ومن أين جاء بها بائع الخضر ؟ تقول : الأم . من تاجر في السوق . يسأل الطفل : ومن أين جاء بها التاجر ؟ تجيب الأم : من الفلاح الذي حرث الأرض وبذر فيها بذور البامية . يقول الطفل : من الذي خلق الأرض وأنبت النبات ؟ تقول الأم : إنه الله ربنا خالق كل شيء .

لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذي يستوفي فيه المؤمن والكافر ، والمؤمن هو الذي يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضاً ، وهو التكليف .

فعطاء الألوهية يعطي المؤمن عطاء الربوبية مضافاً إليه العطاء الذي لا ينفذ ، إنه يعطي

المؤمن زمانا لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه ، ويأخذ المؤمن بالمنهج يقين الإشراق والإقبال على العمل في ضوء منهج الله .

(218/219)

لقد قال عيسى ابن مريم داعيا الله : ﴿ اللهم رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء ﴾ وألزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ملتزماً بالتكليف القادم منه ثم جاء بنداء الربوبية . فيا من أنزلت علينا التكليف ويا من تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء . وأخذ نداءه زاوية القيم ثم زاوية المادية وهي الرزق ، لكن الحواريين قدموا بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام فقالوا : (نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) ، أما عيسى ابن مريم بصفائية اختياره رسولاً فقد أخر الطعام عن القيم فقال : ﴿ اللهم رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وارزقنا وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين ﴾ .

صحيح أن الرزق يمس الأكل ، ولكن الرزق ليس كله أكلاً . فالرزق هو كل شيء تحتاج إليه وتنتفع به ، فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق من عند الله ، ولذلك جاء عيسى بالكلمة العامة التي يدخل فيها

الأكل وتتسع لغيره . ويجيب الحق على دعاء عيسى ابن مريم : ﴿ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(219/219)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" اللَّهُمَّ رَبَّنَا " تقدَّم الكلامُ عليه ، قوله : " ربَّنا " نِداءٌ ثاني .

قوله تعالى : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً ﴾ : [في " تَكُونُ " ضمير يعود على " مَائِدَة " هو اسمُها ، وفي الخبر احتمالان :

أظهرهما : أنه عيد] ، و " لَنَا " فيه وجهان :

أحدهما : أنه حال من " عِيداً " ؛ لأنها صفة له في الأصل .

والثاني : أنها حال من ضمير " تَكُونُ " عند مَنْ يُجَوِّزُ إعمالها في الحال .

والوجه الثاني : أنَّ " لَنَا " هو الخبر ، و " عِيداً " حال : إمَّا من ضمير " تَكُونُ " عند مَنْ يَرَى ذلك ، وإمَّا من الضمير في " لَنَا " ، لأنه وقع خبراً فتحمَّل ضميراً ، والجملةُ في محلِّ نَصْبٍ صفةً لمائدة .

وقرأ عبدُ الله : " تَكُنْ " بالجزمِ على جوابِ الأمرِ في قوله : " أَنْزَلَ " ، قال الزمخشري – رحمه الله – : " وهما نظيرُ " يَرِثُنِيَ [ويَرِثُ "] يريد قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي ﴾ [مريم : 5 ، 6] بالرفع صفةً ، وبالجزم جواباً ، ولكن القراءتان هناك متواترتان ، والجزمُ هنا في الشاذ .

والعيدُ هنا مشتقٌّ من العود ؛ لأنه يعود كلَّ سنة ، قاله ثعلبٌ عن ابن الأعرابيِّ ، وقال ابن الأنباريِّ : " النحويُّون يقولون : يوم العيدِ ؛ لأَنَّه يعود بالفَرَحِ والسُّرورِ فهو يَوْمُ سُرُورِ الخَلْقِ كلهم ، ألا ترى أنَّ المَسْجُونين في ذلك اليَوْم لا يُطَالَبُونَ ولا يُعَاقَبُون ، ولا يُصادُ الوَحْشُ ولا الطُّيُورُ ، ولا تَغْدُو الصِّبْيَان إلى المَكَاتِب " .

(220/219)

وقيل : هو عِيدٌ ؛ لأنَّ كُلَّ إنْسَان يَعُودُ إلى قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ ؛ ألا ترى إلى اختلافِ ملابِسهم وهَيْئَاتِهم ومآكِلهم ، فمنهم من يُضيف ومنهم من يُضاف ، ومنهم من يَرْحَم ومنهم من يُرْحَم .

وقيل : سُمِّي بذلك ؛ لأَنَّهُ يَوْمٌ شريف ، تَشْبيهاً بالعيدِ وهو فحلٌ كريم مشهور عند العربِ ويَنْسِبُون إليه ، فيقالُ : إبل عيدية .

قال الشاعر : [البسيط]

2089 - . . . . . .

عِيدٌ بِهَا أزْهَرَتْ فِيهَا الدَّنَانِيرُ

وقال الخليلُ : العيدُ كل يومٍ يَجْمَعُ ، كأَنَّهُم عَادُوا إلَيْه عند العرب ؛ لأنه يعود بالفَرَح والحُزْن ، وكلُّ ما عاد إليك في وقت ، فهو عيد ؛ حتَّى قالوا لِلطَّيْفِ عِيدٌ ؛ قال الأعشى : [الطويل]

2090 - فَوَاكَبِدِي مِنْ لاعِجِ الحبِّ والهَوَى . . .

إذَا اعْتَادَ قَلْبِي مِنْ أُمَيْمَةَ عِيدُهَا

أيْ : طَيْفُهَا ، وقال تأَبَّط شَرًّا : [البسيط]

2091 - يَا عِيدُ مَا لَكَ مِنْ شَوْقٍ وإيرَاقِ . . .

وقال أيضاً : [الخفيف]

2092 - عَاد قَلْبِي مِنَ الطَّوِيلَةِ عِيدُ . . . . . .

وقال الراغبُ : والعيدُ حالةٌ تُعاوِدُ الإنسانَ ، والعائدَة : كلُّ نفْعٍ يرجع إلى الإنسانِ بشَيْء ، ومنه " العَوْدُ " للبعيرِ المُسِنِّ : إمَّا لمعاوَدَتِهِ السَّيْرَ والعمل فهو بمعنى فاعلٍ ، وإمَّا لمعاوَدَةِ [السنين] إياه [ومَرِّهَا] عليه ، فهو بمعنى مفعول ، قال امْرُؤُ القَيْسِ : [الطويل]

2093 - عَلَى لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ . . .

إذا سَافَهُ العَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرَا

وصَغَّروه على " عُيَيْدٍ " وكسَّروه على " أعْيَاد " ، وكان القياسُ عُوَيْد وأعْوَاد ؛ لزوالِ

مُوجِبِ قَلْبِ الواوِ ياء ؛ لأنها إنما قُلبتْ لسكونها بعد كَسْرةٍ ، كـ " مِيزَانٍ " ، وإنما فعلوا ذلك ؛ قالوا : فرقاً بينه وبَيْن عُودِ الخَشَبِ .

قوله : " لأوّلِنَا وآخِرِنَا " فيه وجهان :

(221/219)

أحدهما : أنه متعلّقٌ بمحذوف ؛ لأنه وقع صفةً لـ " عِيداً " .

الثاني : أنه بدلٌ من " نَا " في " لَنَا " ، قال الزمخشريُّ : " لأوّلِنَا وآخِرِنَا " بدلٌ من " لَنَا " بتكرير العامِلِ " ، ثم قال : " وقرأ زيدُ بنُ ثابتٍ ، وابن مُحَيْصِنٍ والجَحْدَرِيُّ : " لأولانَا وَأخْرَانَا " بدل " لَنَا " ، والتأنيثُ على معنى الأمّة " ، وخَصّص أبو البقاء كلَّ وجْه بشيء ؛ وذلك أنه قال : " فأمّا " لأوّلِنَا وآخِرِنَا " ، فإذا جعلت " لَنَا " خبراً أو حالاً من فاعل " تَكُونُ " فهو صفةٌ لـ " عِيداً " ، وإن جعلت " لَنَا " صفة لـ " عِيد " ، كان " لأوّلِنَا " بدلاً من الضمير المجرور بإعادة الجَارِّ " .

قال شهاب الدين : إنما فعل ذلك ؛ لأنه إذا جعل " لَنَا " خبراً ، كان " عِيداً " حالاً ، وإن جعله حالاً ، كان " عِيداً " خبراً ؛ وعلى التقديرين لا يمكنُه جَعْلُ " لأوّلِنَا " بدلاً من " لَنَا " ؛ لئلا يلزم الفصلُ بين البدلِ والمبدلِ منه : إمّا بالحال ، وإما بالخبر ، وهو " عِيد " ، بخلافِ ما

إذا جُعِل "لَنَا" صفةً لـ "عِيد"، [ولكن يُقالُ: قوله: فإن جعلت "لَنَا" صفةً لـ "عيداً"] كان "لأوّلِنَا" بدلاً مُشْكِلٌ أيضاً؛ لأنَّ الفصل فيه موجود، لا سيما أنَّ قوله لا يُحْمل على ظاهره؛ لأنَّ "لَنَا" ليس صفةً بل هو حالٌ مقدمة، ولكنه نَظَرَ إلى الأصل، وأنَّ التقدير: عيداً لَنَا لأوّلِنَا؛ فكأنه لا فَصْلَ، والظاهرُ جوازُ البدل، والفصلُ بالخبر والحال لا يَضُرُّ؛ لأنه من تمامه، فليس بأجنبيٍّ.

(222/219)

واعلم: أن البدل من ضمير الحاضر، سواءٌ كان متكلّماً أم مخاطباً، لا يجوز عند جمهور البصريّين في بدلِ الكلِّ من الكُلِّ، لو قلت: "قُمْتُ زَيْدٌ" تعْني نَفْسَكَ، و"ضَرَبْتُكَ عَمْراً"، لم يَجُزْ، قالوا: لأنَّ البدل إنما يؤتى به للبيانِ غالباً، والحاضِرُ متميّزٌ بنفسه؛ فلا فائدةَ في البدلِ منه، وهذا يَقْرُبُ من تعليلهم في مَنْعِ وصفه، وأجازَ الأخفشُ ذلك مُطْلَقاً مستدِلاًّ بظاهر هذه الآية الكريمة؛ لقول القائل: [الوافر]

2094 - أَنَا سَيْفُ العَشِيرَةِ فَاعْرِفُونِي . . .

حُمَيْداً قَدْ تَذَرَّيْتُ السَّنَامَا

ف "حُمَيْداً" بدل من ياء "اعْرِفُونِي"، وقولِ الآخر: [الطويل]

2095 - وَشَوْهَاءَ تَغْدُو بي إلى صَارِخِ الوَغَى . . .

بِمُسْتَلْئِمٍ مِثْلِ الفَنِيقِ المُدَجَّلِ

وقول الآخر : [البسيط]

2096 - بِكُمْ قُرَيْشٍ كُفِينَا كُلَّ مُعْضِلَةٍ . . .

وأَمَّ نَهْجَ الهُدَى مَنْ كَانَ ضِلِّيلا

وفي الحديث : " أَتَيْنَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم نَفَرٌ مِنَ الأَشْعَرِيين " والبصريون يُؤوِّلونَ جميعَ ذلك ، أمَّا الآية الكريمة فعلى ما تقدَّم في الوجه الأول ، وأمَّا " حُمَيْداً " ، فمنصوبٌ على الاختصاص ، وأمَّا " بِمُسْتَلئم " ، فمن باب التجريدِ ، وهو شيءٌ يعرفه أهلُ البيانِ ، يعني أنه جَرَّد من نفسه ذاتاً متصفةً بكذا ، وأمَّا " قُرَيْشٍ " فالروايةُ بالرفع على أنه منادى نُوِّنَ ضرورةً ؛ كقوله : [الوافر]

2097 - سَلامُ اللَّهِ يَا مَطَرٌ عَلَيْهَ . . .

وَلَيْسَ عَلَيْكَ يَا مَطَرُ السَّلامُ

وأمَّا " نفرٌ " ، فخبر مبتدأ مضمرٍ ، أي : نَحْنُ ، ومنع ذلك بعضهم ، إلا أنْ يُفيدَ البدلُ توكيداً ، وإحاطة شمولٍ ، واستدلَّ بهذه الآيةِ ، وبقول الآخر : [الطويل]

2098 - فَمَا بَرِحَتْ أَقْدَامُنَا فِي مُقَامِنَا . . .

ثَلاثَتِنَا حَتَّى أَزِيرُوا المَنَائِيَا

بجر " ثَلاَثِينَا " بدلاً من " نَا " ، ولا حُجَّة فيه ؛ لأنَّ " ثَلاَثَتِنَا " توكيدٌ جارٍ مَجْرى " كُلّ " .

قال القُرْطُبِي : وقرأ زَيْدُ بن ثابتٍ : " لأولَيْنَا وأُخْرَيْنَا " على الجَمْعِ قال ابنُ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – : يَأكُلُ منهما آخرُ النَّاس كما يَأكُل أوَّلُهم .

قوله : " وآيةً " : عطف على " عيداً " ، و" منك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 612.609 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) ﴾

شَتَّان بين أمة طلب لهم نبيُّهم سكوناً بإنزال المائدة عليهم ، وبين أمة بدأهم – سبحانه بإنزال السكينة عليهم ، من غير سؤال أحد ، قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : 4] .

وقال في صفتهم : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : 2] .

وفَرْقٌ بين مَنْ زيادةُ إيمانه بآياته التي تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تُبَاحُ لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 455. 456 ﴾

(224/219)

قوله تعالى ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ظاهر سؤالهم من الاستفهام عن الاستطاعة للاضطراب وإن كان للإلهاب ، أكد الجواب فقال : ﴿ إني منزلها عليكم ﴾ أي الآن بقدرتي الخاصة بي ﴿ فمن يكفر بعد ﴾ أي بعد إنزالها ﴿ منكم ﴾ وهذا السياق معشر بأنه يحصل منهم كفر ، وقد وجد ذلك حتى في الحواريين على ما يقال في يهودا الإسخريوطي أحدهم الذي دل على عيسى عليه السلام ، فألقى شبهه عليه ، ولهذا خصه بهذا العذاب فقال : ﴿ فإني أعذبه ﴾ أي على سبيل البتّ والقطع ﴿ عذاباً لا أعذبه ﴾ أي مثله أبداً فيما يأتي من الزمان ﴿ أحداً من العالمين ﴾ وفي هذا أتم زاجر لهذه الأمة عن اقتراح الآيات ، وفي ذكر قصة المائدة في هذه

السورة التي افتتحت بإحلال المآكل واختتمت بها أعظم تناسب ، وفي ذلك كله إشارة إلى تذكير هذه الأمة بما أنعم عليها بما أعطى نبيها من المعجزات ومنَّ عليها به من حسن الاتباع ، وتحذير من كفران هذه النعم المعددة عليهم ، وقد اختلف المفسرون في حقيقة هذه المائدة وفي أحوالها ؛ قال أبو حيان : وأحسن ما يقال فيه ما خرجه الترمذي في أبواب التفسير عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً ، وأمروا أن لا يدخروا لغد ولا يخونوا ، فخانوا وادخروا ورفعوا لغد ، فمسخوا قردة وخنازير " انتهى .

(225/219)

قلت : ثم صحح الترمذي وقفه على عمار وقال : لا نعلم للحديث المرفوع أصلاً ، غير أن ذلك لا يضره لكونه لا يقال من قِبَل الرأي ، ولا أعلم أحداً ذكر عماراً فيمن أخذ عن أهل الكتاب ، فهو مرفوع حكماً ، وهذا الخبر يؤكد أن الخبر في الآية على بابه ، فيدفع قول من قال : إنها لم تنزل ، لأنهم لما سمعوا الشرط قالوا : لا حاجة لنا بها ، لأن خبره تعالى لا يخلف ولا يبدل القول لديه ، وهذا الرزق الذي من السماء قد وقع مثله لآحاد الأمة ؛ روى البيهقي في أواخر الدلائل عن أبي هريرة قال : كانت امرأة من دوس يقال لها أم شريك أسلمت في

رمضان ، فأقبلت تطلب من يصحبها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيت رجلاً من اليهود فقال : ما لك يا أم شريك ؟ قالت : أطلب رجلاً يصحبني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فتعالي فأنا أصحبك ، قالت : فانتظرني حتى أملأ سقائي ماءً ، قال : معي ماء ما لا تريدين ماءً ، فانطلقت معهم فساروا يومهم حتى أمسوا ، فنزل اليهودي ووضع سفرته فتعشى وقال : يا أم شريك ! تعالي إلى العشاء ! فقالت : اسقني من الماء فإني عطشى ، ولا أستطيع أن آكل حتى أشرب ، فقال لها : لا أسقيك حتى تهودي ! فقالت : لا جزاك الله خيراً ! غربتني ومنعتني أن أحمل ماء ، فقال : لا والله لا أسقيك منه قطرة حتى تهودي ، فقالت : لا والله لا أتهود أبداً بعد إذ هداني الله للإسلام ؛ فأقبلت إلى بعيرها فعقلته ووضعت رأسها على ركبته فنامت ، قالت : فما أيقظني إلا برد دلو قد وقع على جبيني ، فرفعت رأسي فنظرت إلى ماء أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، فشربت حتى رويت ، ثم نضحت على سقائي حتى ابتل ثم ملأته ، ثم رفع بين يديّ وأنا أنظر حتى توارى عني في السماء ، فلما أصبحت جاء اليهودي فقال : يا أم شريك ! قلت : والله قد سقاني الله ، قال : من أين أنزل عليك ؟ من السماء ؟ قلت : نعم ، والله لقد أنزل الله عليّ من السماء ثم رفع بين يدي حتى توارى عني في

(226/219)

السماء ؛ ثم أقبلت حتى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصت عليه القصة ، فخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها نفسها فقالت : يا رسول الله ! لست أرضي نفسي لك ولكن بضعي لك فزوجني من شئت ، فزوجها زيداً وأمر لها بثلاثين صاعاً وقال : كلوا ولا تكيلوا ، وكان معها عكة سمن هدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لجارية لها : بلغي هذه العكة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قولي : أم شريك تقرئك السلام ، وقولي : هذه عكة سمن أهديناها لك ، فانطلقت بها الجارية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوها ففرغوها ، وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : علقوها ولا توكوها ، فعلقوها في مكانها ، فدخلت أم شريك فنظرت إليها مملوءة سمناً ، فقالت : يا فلانة ! أليس أمرتك أن تنطلقي بهذه العكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقالت : قد والله انطلقت بها كما قلت ، ثم أقبلت بها أضربها ما يقطر منها شيء ولكنه قال : علقوها ولا توكوها ، فعلقتها في مكانها ، وقد أوكتها أم شريك حين رأتها مملوءة فأكلوا منها حتى فنيت ، ثم كالوا الشعير فوجدوه ثلاثين صاعاً لم ينقص منه شيء ، قال : وروي ذلك من وجه آخر ، ولحديثه شاهد صحيح عن جابر رضي الله عنه .

وروي بإسناده عن أبي عمران الجوني أن أم أيمن هاجرت من مكة إلى المدينة وليس معها زاد ، فلما كانت عند الروحاء وذلك عند غيبوبة الشمس عطشت عطشاً شديداً ،

قالت : فسمعت هفيفاً شديداً فوق رأسي ، فرفعت رأسي فإذا دلو مدلى من السماء برشاء أبيض ، فتناولته بيدي حتى استمسكت به ، قالت : فشربت منه حتى رويت ، قالت : فلقد أصوم بعد تلك الشربة في اليوم الحار الشديد الحر ثم أطوف في الشمس كي أظمأ فما ظمئت بعد تلك الشربة .

قال : وفي الجهاد عن البخاري عن أبي هريرة قال : " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عيناً ، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم – فذكر الحديث حتى قال : فابتاع خبيباً – يعني ابن عدي الأنصاري – بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيراً ، فأخبرني عبيد الله بن عياض أن ابنة الحارث قالت : والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر ، وكانت تقول : إنه لرزق من الله رزق خبيباً " الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 571 . 573 ﴾

(227/219)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في "المائدة التي طلبها الحواريون" :

ومن الإسرائيليات التي ذكرها المفسرون عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ، قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ، قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد اختلف العلماء في المائدة : أنزلت أم لا ؟ وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا على نزولها ، وهذا هو ظاهر القرآن ، فقد وعد الله ، ووعدُهُ محقق لا محالة ، وذهب الحسن ومجاهد إلى أنها لم تنزل ؛ وذلك لأن الله سبحانه لما توعدهم على كفرهم بعد نزولها بالعذاب البالغ غاية الحد خافوا أن يكفر بعضهم ، فاستعفوا ، وقالوا : لا نريدها فلم تنزل ، ولا أدرى ما الحامل لهم على هذا ؟ !

(228/219)

وقد أحيطت المائدة بأخبار كثيرة ، أغلب الظن : أنها من الإسرائيليات رويت عن وهب بن منبه ، وكعب ، وسلمان ، وابن عباس ، ومقاتل ، والكلبي ، وعطاء ، وغيرهم ، بل رووا في ذلك حديثًا عن عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنها نزلت خبزًا ولحمًا ، وأمروا أن لا يخونوا ، ولا يدخروا لغد" وفي رواية : بزيادة "ولا يخبئوا ، فخانوا وادخروا ، ورفعوا لغد ، فمسخوا قردة وخنازير" ، ورفع مثل هذا إلى النبي غلط ، ووهم من أحد الرواة على ما أرجح ، فقد روى هذا ابن جرير في تفسيره مرفوعان وموقوفان والموقوف أصح ، وقد نص على أن المرفوع لا أصل له الإمام أبو عيسى الترمذي فقال : بعد أن روى الروايات المرفوعة : "هذا حديث قد رواه أبو عاصم وغير واحد ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن خلاس ، عن عمار بن ياسر موقوفا ، ولا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسن بن قزعة" ، وبعد أن ذكر رواية موقوفة عن أبي هريرة ، قال : "وهذا أصح من حديث الحسن بن قزعة ، ولا نعرف للحديث المرفوع أصلا" (1) .

وقد اختلفت المرويات في هذا ، فروى العوفي عن ابن عباس : أنها خوان عليه خبز وسمك ، يأكلون منه أينما نزلوا ، إذا شاءوا ، وقال عكرمة عن ابن عباس : كانت المائدة سمكة ، وأريغفة (2) ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أنزل على المائدة كل شيء إلا الخبز واللحم .

وقال كعب الأحبار : نزلت المائدة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض ، عليها كل الطعام إلا اللحم .

وقال وهب بن منبه : أنزلها من السماء على بني إسرائيل ، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة ، فأكلوا ما شاءوا من ضروب شتى ، فكان يقعد عليها أربعة ألاف ، وإذا أكلوا أنزل الله مكان ذلك لمثلهم فلبثوا على ذلك ما شاء الله عز وجل .

---

(1) سنن الترمذي ، كتاب التفسير ، باب : سورة المائدة .

(2) التصغير للتقليل هنا .

(229/219)

وقال وهب أيضا : نزل عليهم أقرصة من شعير ، وأحوات ، وحشا الله بين أضعافهن البركة ، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ، ثم يجيء آخرون فيأكلون ، ثم يخرجون ، حتى أكل جميعهم ، وأفضلوا ، وهكذا لم يتفق الرواة على شيء ، مما يدل على أنها إسرائيليات مبتدعة ، وليس مرجعها إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم والحق أبلج ، والباطل لجلج لا يُتفق عليه غالبا .

وسأكتفي بذكر الرواية الطويلة التي ذكرها ابن أبي حاتم ، في تفسيره بسنده ، عن وهب بن منبه ، عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه وخلاصتها : "أن الحواريين لما سألوا عيسى ابن مريم عليه السلام المائدة كره ذلك ؛ خشية أن تنزل عليهم ، فلا يؤمنوا بها ، فيكون فيها هلاكهم ، فلما أبوا إلا أن يدعو لهم الله لكي تنزل ، دعا الله ، فاستجاب له ، فأنزل الله تعالى سفرة حمراء بين غمامتين ؛ غمامة فوقها وغمامة تحتها ، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من السماء ، تهوي إليهم ، وعيسى عليه الصلاة والسلام يبكي خوفا من الشرط الذي اتخذ عليهم فيها فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يديه ، والحواريون حوله يجدون رائحة طيبة ، لم يجدوا رائحة مثلها قط ، وخرَّ عيسى عليه الصلاة والسلام والحواريون سجَّدًا ، شكرا لله تعالى وأقبل اليهود ينظرون إليهم ، فرأوا ما يغمهم ، ثم انصرفوا ، فأقبل عيسى عليه السلام ومن معه ينظرونها فإذا هي مغطاة بمنديل ، فقال عليه السلام : من أجرؤنا على كشفه ، وأوثقنا بنفسه ، وأحسننا بلاء عند ربه ، حتى نراها ، ونحمد ربنا سبحانه وتعالى ونأكل من رزقه الذي رزقنا ؟ فقالوا : يا روح الله وكلمته ، أنت أولى بذلك ، فقام واستأنف وضوءا جديدا ، ثم دخل

مصلاه ، فصلى ركعات ، ثم بكى طويلا ، ودعا الله تعالى أن يأن له في الكشف عنها ، ويجعل له ولقومه فيها بركة ، ورزقا ، ثم انصرف ، وجلس حول السفرة وتناول المنديل ، وقال : بسم الله خير الرازقين ، وكشف عنها ، فإذا عليها سمكة ضخمة مشوية ، ليس عليها بواسير ، وليس في جوفها شوك ، يسيل السمن .

(231/219)

منها ، قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث ، وعند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الآخر خمس رمانات ، وفي رواية : على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد (1) فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى : يا روح الله وكلمته ، أمن طعام الدنيا هذا ، أم من طعام الجنة ؟ فقال عيسى : أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات ، وتنتهوا عن تنقير المسائل ؟ ! ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال له شمعون : لا وإله إسرائيل ما أردت بهذا سؤالا (2) يا ابن الصديقة ، فقال عيسى عليه السلام ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ، ولا من طعام الجنة ، إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة .

---

(1) قديد : أي لحم مجفف .

(2) لعل مراده سؤال تعنت ، وأنهم لا يريدون بالسؤال أن يطعمهم الله من رزقه وخيره .

(232/219)

فقالوا : يا روح الله وكلمته ، إنا نحب أن يرينا الله آية في هذه الآية : فقال عليه السلام : سبحان الله تعالى أما اكتفيتم ؟ ! ثم قال : يا سمكة عودي بإذن الله تعالى حية كما كنت ، فأحياها الله ، وعادت حية طرية ، يا سمكة عودي بإذن الله تعالى كما كنت مشوية ، فعادت ، ثم دعاهم إلى الأكل فامتنعوا ، حتى يكون هو البادئ ، فأبى ، ثم دعا لها الفقراء والزمنى ، وقال : كلوا من رزق ربكم ، ودعوة نبيكم ، واحمدوا الله تعالى الذي أنزلها لكم ، فيكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم ، وافتتحوا أكلكم باسم الله تعالى ، واختتموه بحمد الله ، ففعلوا ، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة ، يصدرون عنها ، كل واحد منهم شبعان يتجشّأ ، ونظر عيسى والحواريون ، فإذا ما عليها كهيئته ، إذ نزلت من السماء ، لم ينقص منها شيء ، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون ، فاستغنى كل فقير أكل منها وبرئ كل زمن أكل منها ، وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم ، وبقيت حسرتها في قلوبهم ، إلى يوم الممات (1) .

---

(1) هذا مما يضعف القصة ويدل على الاختلاق ، وإلا فكيف يطلبونها ، ثم يمتنعون عن الأكل ؛ لأن عيسى لم يبدأ به ؟

(233/219)

وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك : أقبل إليها بنو إسرائيل يسعون من كل مكان ، يزاحم بعضهم بعضا ، فلما رأى ذلك ، جعلها نوبا تنزل يوما ولا تنزل يوما ، ومكثوا على ذلك أربعين يوما ، تنزل عليهم غبا ، عند ارتفاع النهار ، فلا تزال موضوعة يؤكل منها ، حتى إذا قالوا (1) ارتفعت عنهم إلى جو السماء ، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض ، حتى تتوارى عنهم (2) .

فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : أن اجعل رزقي لليتامى ، والمساكين ، والزمنى دون الأغنياء من الناس ، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء ، وعمصوا ذلك ، حتى شكوا فيها في أنفسهم ، وشككوا فيها الناس ، وأذاعوا في أمرها القبيح ، والمنكر ، وأدرك الشيطان منهم حاجته ، وقذف وساوسه في قلوب المرتابين ، فلما علم عيسى ذلك منهم قال : هلكتم وإله المسيح ، سألتم نبيكم أن يطلب المائدة لكم إلى ربكم ، فلما فعل ، وأنزلها عليكم رحمة ، ورزقا ، وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها ، وشككتم فيها

فأبشروا بالعذاب ؛ فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله تعالى ، وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام إني آخذ المكذبين بشرطي ، فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، فلما أمسى المرتابون بها ، وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين ، فلما كان في آخر الليل مسخهم الله خنازير ، فأصبحوا يتبعون الأقذار في الكناسات .

قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره : "هذا أثر غريب (3) جدا قطعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة ، وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم ، وأكمل ، والله سبحانه وتعالى أعلم" .

أقول : ومن هذه الروايات الغريبة دخل البلاء على الإسلام والمسلمين ؛ لأن غالبها لا يصح ، ولذا قال الإمام الجليل أحمد بن حنبل : "لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب ؛ فإنها مناكير ، وعامتها عن الضعفاء" .

---

(1) من القيلولة : الراحة وسط النهار .

(2) القرآن الكريم يدل دلالة واضحة على أن المائدة لم تنزل إلا مرة واحدة ، وهذا يدل على تكرر نزولها ، وهذا أيضا يدل على اختلاق تفاصيل القصة وأنها من تزيدات بني إسرائيل .

(3) الغريب : ما تفرد به رواته في كل السند أو بعضه ، ومنه الصحيح ، ومنه غير الصحيح وهو الغالب والكثير .

وقال الإمام مالك : "شر العلم الغريب ، وخير العلم الظاهر الذي قد رواه الناس" وقال ابن المبارك : "العلم : الذي يجيئك من ههنا وههنا" يعني المشهور الذي رواه الكثيرون . رواها البيهقي في المدخل وروى عن الزهري أنه قال : "ليس من العلم ما لا يُعرَف ، إنما العلم ما عُرِف وتواطأت عليه الألسن (1)" .

وأحب أن أنبه إلى أن أصل القصة ثابت بالقرآن الذي لا شك فيه وإنما موضع الشك في كل هذه التزيدات التي هي من الإسرائيليات .

وقد ذكر المفسرون جميعا كل ما يدور حول قصة المائدة ، وإن اختلفوا في ذلك قلة وكثرة (2) ، والعجب أن أحدا لم ينبه على أصل هذه المرويات ، والمنبع الذي نبعت منه ، حتى الإمامين الجليلين : ابن كثير والآلوسي ، وإن كان ابن كثير قد أشار من طرف خفي إلى عدم صحة معظم ما روى ، ولعلهم اعتبروا ذلك مما يباح روايته ، ويحتمل الصدق والكذب ، فذكروه من غير إنكار له ، وكان عليهم أن ينزهوا التفسير عن هذا وأمثاله .

وقد شكك في القصة الطويلة التي اختصرناها الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، فقال : قلت : في هذا الحديث مقال ، ولا يصح من قبل إسناده (3) .

ثم عرض بعد لما روي مرفوعا ، وموقوفا ، وذكر ما قاله الإمام أبو عيسى الترمذي : من أن الموقوف أصح ، وأن المرفوع لا أصل له (4) .

التفسير الصحيح للآيات :

ولأجل أن نكون على بينة من أن تفسير الآيات ، والانتفاع بها ، والاهتداء بهديها .

---

(1) تدريب الراوي ص 192 .

(2) انظر تفسير ابن جرير عند هذه الآيات ، وتفسير الدر المنثور عندها أيضا ، وتفسير الزمخشري ، والفخر الرازي ، وأبي السعود عند تفسير الآيات ، وتفسير ابن كثير والبغوي ج3 ص 274- 279 ، والآلوسي ج7 من ص 62- 65 والقرطبي ج6 من ص 369-372 إلا أنه قال : في هذا الحديث مقال ، ولا يصح من قبل إسناده .

(3) تفسير القرطبي ج6 ص 372 ط الأولى .

(4) هذه العبارة تطلق عند بعض المحدثين على ما هو موضوع وليس من شك في أن رفع هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم إن كان عمدا فهو كذب واختلاق عليه ، وإن كان غلطا وسهوا فهو ملحق بالوضع ، كما نبه إليه أئمة علوم الحديث كابن الصلاح وغيره .

ليس متوقِّفًا على ما رووا من أخبار وقصص ، تفسر لك الآيات تفسيرا صحيحا ، كما هو منهجنا في كل ما عرضنا له ، فأقول وبالله التوفيق :

قال الله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ إذ : ظرف لما مضى من الزمان ، وهو مفعول لفعل محذوف ، والتقدير : اذكر – يا محمد – ما حدث في هذا الزمن البعيد ؛ ليكون دليلًا على صدق نُبُوَّتك ، فما كنت معهم ، ولا صاحب أهل الكتاب ، ولم تكن قارئا ، ولا كاتبا .

الحواريون : جمع حواري وهم : المخلصون الأصفياء من أتباع عيسى عليه السلام ويطلق أيضا على الأصحاب المخلصين من أتباع الأنبياء ، وفي الحديث الصحيح : "إن لكل نبي حواريا وحواري : الزبير "يعني ابن العوام" .

المائدة : الخوان الذي عليه الطعام ، فإن لم يكن عليها طعام فهو خوان : السماء ؛ إما المعروفة أو المراد بها جهة العلو ؛ فإنها قد تطلق ويراد بها كل ما علا .

وليس المراد بالاستفهام هو أصل الاستطاعة ، وأنهم ما كانوا يعلمون هذا ؛ لأن السائلين كانوا مؤمنين ، عارفين ، عالمين بالله وصفاته ، بل في أعلى درجات هذه الصفات ، وإنما المراد بالسؤال : الإنزال بالفعل ، من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب ، والمعنى : هل يجيبنا ربك –يا نبينا عيسى– إلى ذلك أم لا ؟

وقال بعض العلماء : ليس ذلك بشك في الاستطاعة ، وإنما هو تلطُّف في السؤال ، وأدب مع الله تعالى بهذه الصيغة المهذبة كقول الرجل لآخر : هل تستطيع أن تعتبني على كذا ، وهو يعلم أنه يستطيع .

(236/219)

وأما قول من قال : إنه من قول من كان مع الحواريين ، فبعيد ؛ لخروجه عن ظاهر الآية ، ولا سيما أن تفسير الآية مستقيم غاية الاستقامة على ما ذكرنا .

وهذا السؤال إما لفقرهم وحاجتهم ، وإما لتعرف فضل نبيهم عيسى ، وفضلهم وكرامتهم عند ربهم .

وأما ما روي أن عيسى أمرهم بصيام ثلاثين يومًا ، ثم ليسألوا ربهم ما يشاءون ، فصاموا وسألوا ، فلست منه على ثلج ﴿ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ليس هذا شكا في إيمانهم ، وإنما هو أسلوب معهود ، حملا على التقوى ، كما قال تعالى في حق المؤمنين الصادقين ، من هذه الأمة المحمدية : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ 1 والمعنى : اتقوا الله ولا تسألوه ، فعسى أن يكون فتنة لكم ، وتوكَّلوا على الله في طلب الرزق ، أو اتقوا الله ودعوا كثرة السؤال ؛ فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عن اقتراح

الآيات ؛ لأن الله سبحانه إنما يفعل الأصلح لعباده ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾ ، من أهل الإيمان بالله ورسله ، ولا سيما أنه سبحانه آتاكم من الآيات ما فيه غنية عن غيره ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ بدأوا بالغذاء المادي ، ثم ثنوا بالغذاء الروحي ، فقالوا : ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ ، وهو مثل قول الخليل إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ . ﴿ وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي : نزداد علما ، ويقينًا بصدقك ، وحقيقة رسالتك : ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : المقرين المعترفين لله بالوحدانية ، ولك بالنبوة ، والرسالة ، أو : من الشاهدين عليها لمن لم يرها ويعاينها .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ .

العيد : يوم الفرح والسرور ، ﴿ لِأَوَّلِنَا ﴾ : لأول أمتنا ، ﴿ وَآخِرِنَا ﴾ : لآخر أمتنا أو لنا ، ولمن بعدنا .

(237/219)

﴿ وَآيَةً مِنْكَ ﴾ أي : دليلا ، وحجة على قدرتك ، على كل شيء ، وعلى إجابتك لدعوتي ، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ، ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ أي : من عندك رزقًا هنيئًا لا كلفة

فيه ، ولا تعب ، ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي : خير من أعطى ورزق ؛ لأنك الغني الحميد .

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أي : فمن يكفر أي : يكذب بها من أمتك يا عيسى ، وعاندها ، فإني أعذبه عذابا ، لا أعذبه أحدًا من عالمي زمانكم ، وهذا على سبيل الوعيد لهم ، والتهديد . وليس في الآية ما يدل على أنهم كفروا ، ولا على أن غيرهم قد كفر بها ، ولا على أنهم استعفوا من نزول المائدة ، وإنما الذي دعا بعض المفسرين إلى هذه الأقوال ما سمعت من الروايات الإسرائيلية ، وها نحن قد فسرنا الآيات تفسيرًا علميًّا صحيحًا من غير حاجة إلى ما روي ، مما يدل دلالةً قاطعةً على أن مفسر القرآن في غنية عن الإسرائيليات التى شوهت جمال القرآن وجلاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير صـ 190 . 198 ﴾

(238/219)

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر وعاصم ونافع ﴿ مُنَزِّلُهَا ﴾ بالتشديد ، والباقون بالتخفيف وهما لغتان نزل وأنزل وقيل : بالتشديد أي منزلها مرة بعد أخرى ، وبالتخفيف مرة واحدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 110 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ اللهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ مرات عديدة كما ينبىء عن ذلك صيغة التفعيل ، وورود الإجابة منه تعالى كذلك مع كون الدعاء منه عليه الصلاة والسلام بصيغة الأفعال وإظهار كمال اللطف والإحسان مع ما فيه من مراعاة ما وقع في عبارة السائلين ، وفي تصدير الجملة بكلمة التحقيق وجعل خبرها اسماً تحقيق للوعد وإيذان بأنه سبحانه وتعالى منجز له لا محالة وإشعار بالاستمرار ، وهذه القراءة لأهل المدينة والشام وعاصم وقرأ الباقون كما قال الطبرسي ﴿ مُنَزِّلُهَا ﴾ بالتخفيف ، وجعل الإنزال والتنزيل بمعنى واحد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ﴾ أي بعد إنزال المائدة ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين ﴾ قال ابن عباس : يعني مسخهم خنازير وقيل : قردة وقيل : جنساً من العذاب لا يعذب به غيرهم .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون ذلك العذاب معجلاً لهم في الدنيا ، ويجوز أن يكون مؤخراً إلى الآخرة ، وقوله ﴿ مِّن العالمين ﴾ يعني عالمي زمانهم .

قيل : إنهم سألوا عيسى عليه السلام هذا السؤال عند نزولهم في مفازة على غير ماء ولا طعام ولذلك قالا نريد أن نأكل منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 110 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ ﴾ أي بعد تنزيلها حال كونه كائناً ﴿ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ ﴾ بسبب كفره ذلك ﴿ عَذَاباً ﴾ هو اسم مصدر بمعنى التعذيب كالمتاع بمعنى التمتيع ، وقيل : مصدر محذوف الزوائد وانتصابه على المصدرية في التقديرين ، وقيل : منصوب على التوسع ، والتشبيه بالمفعول به مبالغة كما ينصب الظرف ومعمول الصفة المشبهة كذلك ،

وجوز أبو البقاء أن يكون نصبه على الحذف والإيصال ، والمراد بعذاب وهو حينئذ اسم ما يعذب به ، ولا يخفى أن حذف الجار لا يطرد في غير أن وإن عند عدم اللبس ، والتنوين للتعظيم أي عذاباً عظيماً .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لاَّ أُعَذِّبُهُ ﴾ في موضع النصب على أنه صفة له .

والهاء في موضع المفعول المطلق كما في ظننته زيداً قائماً .

ويقوم مقام العائد إلى الموصوف كما قيل .

ووجه بأنه حينئذ يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل فيكون في معنى النكرة الواقعة بعد النفي من حيث العموم فيشمل العذاب المتقدم ، ويحصل الربط بالعموم واورد عليه أن الربط بالعموم إنما ذكره النحاة في الجملة الواقعة خبراً فلا يقاس عليه الصفة وجوز أن يكون من قبيل ضربته ضرب زيد أي عذاباً لا أعذب تعذيباً مثله ، وعلى هذا التقدير يكون الضمير راجعاً على العذاب المقدم فالربط به .

(240/219)

وقيل : الضمير راجع إلى "من" بتقدير مضافين أي لا أعذب مثل عذابه .

﴿ أَحَداً مّن العالمين ﴾ أي عالمي زمانهم أو العالمين مطلقاً ، وهذا العذاب إما في الدنيا ،

وقد عذب من كفر منهم بمسخهم قردة وخنازير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن عيسى عليه السلام هل سأل المائدة لنفسه أو سألها لقومه وإن كان قد أضافها إلى نفسه في الظاهر وكلاهما محتمل والله أعلم .

واختلفوا في أنه هل نزلت المائدة .

فقال الحسن ومجاهد : ما نزلت واحتجوا عليه بوجهين : الأول : أن القوم لما سمعوا قوله ﴿ أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أعذبه أَحَداً مّن العالمين ﴾ استغفروا وقالوا لا نريدها .

الثاني : أنه وصف المائدة بكونها عيداً لأولهم وآخرهم فلو نزلت لبقي ذلك العيد إلى يوم القيامة .

وقال الجمهور الأعظم من المفسرين : أنها نزلت لأنه تعالى قال ﴿ إِنّى مُنَزّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا وعد بالإنزال جزماً من غير تعليق على شرط ، فوجب حصول هذا النزول .

والجواب عن الأول : أن قوله ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنّى أُعَذّبُهُ ﴾ شرط وجزاء لا تعلق له بقوله ﴿ إِنّى مُنَزّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾

والجواب عن الثاني : أن يوم نزولها كان عيداً لهم ولمن بعدهم ممن كان على شرعهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 110 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الماوردى :

واختلفوا في نزول المائدة على ثلاثة أقاويل .

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى لخلقه ، ينهاهم به عن مسألة الآيات لأنبيائه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم سألوا ووعدهم بالإجابة ، فلما قال لهم : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ استعفوا منها فلم تنزل عليهم ، قاله الحسن .

والثالث : أنهم سألوا فأجابهم ، ولم يستعفوا ، لأنه ما حكى الاستعفاء عنهم ، ثم أنزلها عليهم ، لأنه قد وعدهم ، ولا يجوز أن يخلف وعده .

(241/219)

ومن قال بهذا اختلفوا في الذي كان عليها حين نزلت على ستة أقاويل :

أحدها : أنه كان عليها ثمار الجنة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه كان عيها خبز ولحم ، قاله عمار بن ياسر .

والثالث : أنه كان عليها سبعة أرغفة ، قاله إسحاق بن عبد الله .

والرابع : كان عليها سمكة فيها طعم كل الطعام ، قاله عطاء ، وعطية .

والخامس : كان عليها كل طعام إلا اللحم ، قاله ميسرة .

والسادس : رغيفان وحوتان ، أكلو منها أربعين يوماً في سفرة ، وكانوا ومن معهم نحو خمسة آلاف ، قاله جويبر .

وأُمِرُوا أن يأكلوا منها ولا يخونوا ولا يدخروا ، فخانوا وادخروا فَرُفِعَتْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

قال عبد اللّه بن عمران : أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون .

واختلف العلماء في المائدة هل نزلت عليهم أم لا ؟

فقال مجاهد : ما نزلت المائدة وهذا مثل ضربه اللّه .

وقال الحسن : واللّه ما نزلت مائدة إن القوم لما سمعوا الشرط وقيل لهم ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ﴾ الآية استغفروا وقالوا : لا نريدها ولا حاجة فيها فلم ينزل ، والصواب إنها نزلت لقوله : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ولا يقع في خبره الخلف ، وتواترت . الأخبار عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه والتابعين وغيرهم من علماء الدين في نزولها ، قال كعب : نزلت يوم الأحد ، لذلك اتخذه النصارى عيداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف

والبيان حـ 4 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

روي أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفاً ، ثم قال : اللهم أنزل علينا فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وأخرى تحتها ، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عليه السلام وقال : اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة ، وقال لهم ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها .

(242/219)

فقال شمعون رأس الحواريين : أنت أولى بذلك ، فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل .

وقال : بسم الله خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية بلا شوك ولا فلوس تسيل دسماً .

وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ،

وعلى الخامس قديد ، فقال شمعون : يا روح الله : أمن طعام الدنيا أمن طعام الآخرة ؟ فقال : ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزيدكم من فضله ، فقال الحواريون : يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال يا سمكة احيي بإذن الله فاضطربت ، ثم قال لها عودي كما كنت فعادت مشوية ، ثم طارت المائدة ثم عصوا من بعدها ، فمُسِخوا قردةً وخنازير . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 110 . 111 ﴾

---

(1) هذا الكلام يفتقر إلى سند صحيح وفيه من المبالغة ما فيه ومن ذلك سؤالهم عن الطعام أهو من طعام الدنيا أنم من طعام الآخرة والجواب بأنه ليس منهما فمن أى طعام إذن ؟ ؟ ! ! ! . والله أعلم بأسرار غيبه وكتابه .

وقال الثعلبى :

واختلفوا في صفتها وكيف نزولها وما عليها .

فروى قتادة عن جلاس بن عمرو عن عمار بن ياسر عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : " نزلت المائدة خبزاً ولحماً وذلك أنهم سألوا عيسى طعاماً يأكلون منه لا ينفد ، قال ، فقيل لهم : فإنها مقيمة لكم ما لم تخونوا أو تخبوا أو ترفعوا فإن فعلتم ذلك عذبتكم ، قال : فما مضى يومهم حتى خبوا ورفعوا وخانوا " .

وقال إسحاق بن عبد اللّه : إن بعضهم سرق منها ، وقال لعلها لا تنزل أبداً فرفعت ومسخوا قردة وخنازير .

(243/219)

وقال ابن عباس : إن عيسى بن مريم قال لبني إسرائيل : صوموا ثلاثين يوماً ثم سلوا اللّه ما شئتم يعطكموه فصاموا ثلاثين يوماً فلما فرغوا قالوا : يا عيسى إنا لو عملنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا طعاماً ولأصبحنا من وجعنا ، فادع لنا اللّه أن ينزل علينا مائدة من السماء فنزل الملائكة بمائدة يحملونها ، عليه سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم وأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم .

وروى عطاء بن سائب عن باذان وميسرة قالا : كانت إذا وضعت المائدة لبني إسرائيل إختلفت عليهم الأيدي من السماء بكل طعام إلاّ اللحم .

وقال ابن جبير عن ابن عباس : أنزل على المائدة كل شيء إلاّ الخبز واللحم .

قال عطاء : نزل عليها كل شيء إلاّ السمك واللحم .

قال العوفي : نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شيء .

وقال عمار وقتادة : كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة .

وقال وهب بن منبه : أنزل اللّه أقرصة من شعير وحيتاناً ، فقيل لوهب : ما كان ذلك يغني عنهم ، قال : لا شيء ولكن اللّه أضعف لهم البركة ، فكان لهم يأكلون ثم يخرجون فيجيء آخرون فيأكلون حتى أكلوها جميعهم وفضل .

وقال الكلبي ومقاتل : إستجاب اللّه لعيسى (عليه السلام) فقال إني منزلها عليكم كما سألتم فمن أكل من ذلك الطعام ثم لا يؤمن جعلته مثلاً ، ولعنة لمن بعدهم ، قالوا : قد رضينا فدعا شمعون وكان أفضل الحواريين ، فقال : هل لكم طعام ؟ قال : نعم معي سمكتان صغيرتان وستة أرغفة ، فقال : عليّ بها فقطعهن عيسى قطعاً صغاراً ، ثم قال : اقعدوا في روضة فترفقوا رفاقاً كل رفقة عشرة ، ثم قام عيسى ودعا اللّه فاستجاب اللّه له ونزل فيها البركة فصار خبزاً صحاحاً وسمكاً صحاحاً ، ثم قام عيسى فجعل يلقي في كل رفقة ما عملت أصابعه ثم قال : كلوا بسم اللّه فجعل الطعام يكثر حتى بلغ ركبهم فأكلوا ما شاء اللّه وفضل خمس الذيل ، والناس خمسة آلاف ونيف .

(244/219)

وقال الناس جميعاً : نشهد إنك عبده ورسوله ثم سألوا مرة أخرى فدعا عيسى (عليه السلام) فأنزل اللّه خبزاً وسمكاً وخمسة أرغفة وسمكتين فصنع بها ما صنع في المرة الأولى

فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم من لم يشهدوا وقالوا لهم : ويحكم إنما سحر أعينكم . فمن أراد به الخير بثَّته على بصيرته ومن أراد فتنته رجع إلى كفره ، فمسخوا خنازير ليس فيهم صبي ولا إمرأة فمكثوا بذلك أيام ثم هلكوا ولم تبق ولم يأكلوا ولم يشربوا فكذلك كل ممسوخ .

وقال كعب الأحبار : نزلت مائدة منكوسة من السماء تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلاّ اللحم .

وقال قتادة : كانت تنزل عليهم بكرة وعشية حيث كانوا كالمن والسلوى لبني إسرائيل .

فقال يمان بن رئاب : كانوا يأكلون منها ما شاؤا .

وروى عطاء بن أبي رباح عن سلمان الفارسي إنه قال : واللّه ما اتبع عيسى (عليه السلام) شيئاً من المآذي قط ولا انتهر شيئاً ولا قهقه ضحكاً ولا ذبّ ذباباً عن وجهه ولا أخلف على أنفه من أي شيء قط ولا عتب إليه . ولما سأله الحواريون أن ينزل عليهم المائدة لبس صوفاً وبكى ، وقال : اللهم أنزل علينا مائدة من السماء الآية وارزقنا عليها طعاماً نأكله وأنت خير الرازقين فنزل اللّه سفرة حمراء بين غمامتين ، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها [وهي تجيء مرتفعة] حتى سقطت من أيديهم فبكى عيسى فقال : اللهم إجعلني من الشاكرين ، اللهم إجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة .

واليهود ينظرون إلى شيء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحاً أطيب من ريحه ، فقال عيسى : أيكم أحسنكم عملاً فيكشف عنها ويذكر اسم اللّه ويأكل منها ؟

(245/219)

فقال شمعون رئيس الحواريين : أنت بذلك أولى منا ، فقام عيسى وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى كثيراً ثم كشف المنديل عنها وقال : بسم اللّه خير الرازقين ، فإذا هو بسمكة مشوية ليس عليها ضلوعها ولا شوك فيها سيل سيلاً من الدسم وعند رأسها ملح ويمتد ذنبها خل وجهها من ألوان البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد .

فقال شمعون : يا روح اللّه أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة ؟

فقال عيسى : ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شيء فعله اللّه بالقدرة العالية فكلوا مما سألتم مني في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منكم في الآخرة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

وروي في بعض التفاسير أنهم قالوا لعيسى : رضينا بما في هذه الآية .

فقال عيسى لشمعون وكان أكبر الحواريين : هل معك شيء من الزاد ؟ قال : نعم .

فجاءه بخمسة أرغفة ، وسمكتين صغيرتين ، فقطعهما قطعاً صغاراً ثم قال : اجلسوا رفقاء .

فقعدوا عشرة عشرة .

فألقى عيسى عليه السلام بين كل رفقة قدر ما يحمله بإصبعيه ، فجعل الطعام يزيد حتى جاوز ركبتهم فشبعوا .

وفضل خمسة .

ثم عاد من الغد ففعل مثل ما فعل بالأمس .

وروي أن الرغيف والسمكتين نزلت من السماء وهم ينظرون إليها .

وقيل : كانت مائدة من در وقيل : من بلور وقفت في الهواء .

فاجتمعوا يأكلون منها .

وروي أن المائدة كان عليها الفواكه ، وكل شيء إلا الخبز واللحم .

وروي أن الجميع كانوا خمسة آلاف ونيفاً وروي اثني عشر ألفاً والله أعلم بالصواب .

وقال عامة المفسرين : إن المائدة قد أنزلت عليهم .

(246/219)

وروي عن سلمان الفارسي أن عيسى عليه السلام قام ولبس جبة من شعر ، وقام ووضع يمينه على يساره ، وطأطأ رأسه خاشعاً لله تعالى ، وبكى حتى سالت الدموع على لحيته وصدره ، وهو يدعو ويتضرع ، فنزلت مائدة من السماء فوقها منديل والناس ينظرون إليه ، وعيسى عليه السلام ينظر ويبكي ويقول : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة .

حتى استقرت المائدة بين يدي عيسى والناس حوله .

قال عيسى : بسم الله وكشف المنديل للناس ، فإذا فيه سمكة مشوية لا شوك فيها .

والوَدَكُ يسيل منها ، والخل عند رأسها ، والملح عند ذنبها ، وعليها أربعة أرغفة وعليها ألوان البقول إلا الكراث .

فقال : كلوا من رزق ربكم فأكل منها ألف رجل .

ويقال : خمسة آلاف رجل .

ورجعت المائدة كما كانت .

وقال بعضهم : نزلت يوماً واحداً ولم تنزل أكثر من ذلك .

وقال بعضهم : ثلاثة أيام ، وقال بعضهم : سبعة أيام .

وقال بعضهم : أكثر من ذلك .

فلما رجعوا عن ذلك الموضع شكوا فيه وكفروا ، فمسخهم الله خنازير .

وروي عن ابن عمر أنه قال : أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون .

وروي عن أبي عبد الرحمن السُّلمي قال : نزلت المائدة خبزاً وسمكة .

وعن عطية العوفي قال : كانت سمكة فيها طعم كل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

(247/219)

واختلف الناس في نزول المائدة ، فقال الحسن بن أبي الحسن ومجاهد : إنهم لما سمعوا الشرط في تعذيب من كفر استعفوها فلم تنزل . قال مجاهد فهو مثل ضربه الله تعالى للناس لئلا يسألوا هذه الآيات ، وقال جمهور المفسرين : نزلت المائدة ، ثم اختلفت الروايات في كيفية ذلك ، فروى الشعبي عن أبي عبد الرحمن السلمي ، قال : نزلت المائدة خبزاً وسمكاً ، وقال عطية : المائدة سمكة فيها طعم كل طعام ، قال ابن عباس نزل خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أين ما نزلوا إذا شاؤوا ، وقاله وهب بن منبه ، قال إسحاق بن عبد الله : نزلت المائدة عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ، قال : فسرق منها بعضهم فرفعت ، وقال

عمار بن ياسر : سألوا عيسى عليه السلام مائدة يكون عليها طعام لا ينفذ ، فقيل لهم : فإنها مقيمة لكم وما لم تخبئوا أو تخونوا ، فإن فعلتم عذبتم قال فما مضى يوم حتى خبؤوا وخانوا فمسخوا قردة وخنازير ، وقال ابن عباس في المائدة أيضاً ، كان طعام ينزل عليهم حيث ما نزلوا ، وقال عمار بن ياسر : نزلت المائدة عليها ثمار من ثمار الجنة ، وقال ميسرة : كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليها الأيدي بكل طعام إلا اللحم .

قال القاضي أبو محمد : وكثر الناس في قصص هذه المائدة بما رأيت اختصاره لعدم سنده وقال قوم : لا يصح أن لا تنزل المائدة لأن الله تعالى أخبر أنه منزلها .

(248/219)

قال القاضي أبو محمد : وهذا غير لازم لأن الخبر مقرون بشرط يتضمنه قوله ﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ ، وسائغ ما قال الحسن ، أما أن الجمهور على أنها نزلت وكفرت جماعة منهم فمسخهم الله خنازير قاله قتادة وغيره ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون ، ويذكر أن شمعون رأس الحواريين قال لعيسى حيت رأى طعام المائدة ، يا روح الله أمن طعام الدنيا هو أم من طعام الآخرة ؟ قال عيسى عليه السلام : ألم ينهكم الله عن هذه السؤالات ، هذا

طعام ليس من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ، بل هو بالقدرة الغالبة ، قال الله له كن فكان ، وروي أنه كان على المائدة يقول سوى الثوم والكراث والبصل ، وقيل كان عليها زيتون وتمر وحب رمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر موقوفاً ومرفوعاً .

والوقف أصح قال : أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا فمسخوا قردة وخنازير وكان الخبز من أرز على ما روي عن عكرمة .

(249/219)

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله قومه ذلك فدعا أنزل الله تعالى عليهم سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من السماء تهوي إليهم وعيسى عليه الصلاة والسلام يبكي خوفاً من الشرط الذي اتخذ عليهم فيها فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يديه والحواريون حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا رائحة مثلها قط وخر عيسى عليه الصلاة والسلام والحواريون سجدا شكراً لله

تعالى وأقبل اليهود ينظرون إليهم فرأوا ما يغمهم ثم انصرفوا فأقبل عيسى عليه الصلاة والسلام ومن معه ينظرونها فإذا هي مغطاة بمنديل فقال عليه الصلاة والسلام : من أجرؤنا على كشفه وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه حتى نراها ونحمد ربنا سبحانه وتعالى ونأكل من رزقه الذي رزقنا ؟ فقالوا : يا روح الله وكلمته أنت أولى بذلك فقام واستأنف وضوءاً جديداً ثم دخل مصلاه فصلى ركعات ثم بكى طويلاً ودعا الله تعالى أن يأذن له في الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً ثم انصرف وجلس حول السفرة وتناول المنديل وقال : بسم الله خير الرازقين وكشف عنها فإذا عليها سمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك يسيل السمن منها قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانات ، وفي رواية على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن .

وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فسأله سمعون عنها وأجابه بما تقدمت روايته .

(250/219)

ثم قالوا له عليه الصلاة والسلام : إنما نحب أن ترينا آية في هذه الآية فقال عليه السلام : سبحان الله تعالى أما اكتفيتم ثم قال : يا سمكة عودي بإذن الله تعالى حية كما كنت فأحياها الله تعالى بقدرته فاضطربت وعادت حية طرية تلمظ كما يتلمظ الأسد تدور عيناها لها بصيص وعادت عليها بواسير ففزع القوم منها وانحاشوا فقال عليه الصلاة والسلام لهم : ما لكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ما أخوفني عليكم بما تصنعون يا سمكة عودي بإذن الله تعالى كما كنت مشوية ثم دعاهم إلى الأكل فقالوا : يا روح الله أنت الذي تبدأ بذلك فقال : معاذ الله تعالى يبدأ من طلبها فلما رأوا امتناع نبيهم عليه الصلاة والسلام خافوا أن يكون نزولها سخطة وفي أكلها مثلة فتحاموها فدعا عليه الصلاة والسلام لها الفقراء والزمنى ، وقال : كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم وأحمدوا الله تعالى الذي أنزلها لكم ليكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم وافتتحوا كلكم باسم الله واختتموه بحمد الله ففعلوا فأكل منها ألف وثلثمائة إنسان بين رجل وامرأة وصدروا منها وكل واحد منهم شبعان يتجشى ونظر عيسى عليه السلام والحواريون ما عليها فإذا ما عليها كهيئته إذ نزلت من السماء لم ينتقص منه شيء ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقير أكل منها وبرىء كل زمن منهم أكل منها فلم يزالوا أغنياء صحاحاً حتى خرجوا من الدنيا وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سألت منها أشفارهم وبقيت حسرتها في قلوبهم ، وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت

بنوا اسرائيل إليها من كل مكان يسعون فزاحم بعضهم بعضاً الأغنياء والفقراء والنساء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضاً فلما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك جعلها نوبا بينهم فكانت تنزل يوماً ولا تنزل يوما فلبثوا في ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غبا عند ارتفاع الضحى فلا تزال موضوعة يؤكل منها حتى

(251/219)

إذا قالوا ارتفعت عنهم باذن الله تعالى إلى جو السماء وهو ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل رزقي لليتامى والمساكين والزمني دون الأغنياء من الناس فلما فعل الله تعالى ذلك ارتاب بها الأغنياء وغمصوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه في قلوب المرتابين فلما علم عيسى عليه السلام ذلك منهم قال : هلكتم وإله المسيح سألتم نبيكم أن يطلب المائدة لكن إلى ربكم فلما فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقا وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها وشككتم فيها فابشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله تعالى وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام إني آخذ المكذبين بشرطي وإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد

نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فلما أمسى المرتابون وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين وكان آخر الليل مسخهم الله تعالى خنازير وأصبحوا يتبعون الأقذار في الكناسات .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن عيسى عليه الصلاة والسلام قال لبني اسرائيل : هل لكم أن تصوموا ثلاثين يوماً ثم تسالوه فيعطيكم ما سألتم فإن أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا : يا معلم الخير قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ولم نكن نعمل لأحل ثلاثين يوماً إلا أطعمنا ﴿ فَهَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السماء ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَحَداً مِّن العالمين ﴾ فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم .

(252/219)

وجاء عنه أن المائدة كانت تنزل عليهم حيث نزلوا ، وعن وهب بن منبه أن المائدة كان يقعد عليها أربعة آلاف فإذا أكلوا شيئاً أبدل الله تعالى مكانه مثله فلبثوا بذلك ما شاء الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور وقد أجاد :

وقد أكثر فيه المفسَّرون بأخبار واهية الأسانيد سوى ما أخرجه الترمذي في أبواب التفسير عن الحسن بن قزعة بسنده إلى عمّار بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً " الحديث .

قال الترمذي : هذا الحديث رواه غير واحد عن عمّار بن ياسر موقوفاً ولا نعرفه مرفوعاً إلاّ من حديث الحسن بن قزعة ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً .

واختلف المفسّرون في أنّ المائدة هل نزلت من السماء أو لم تنزل .

فعن مجاهد والحسن أنّهم لمّا سمعوا قوله تعالى : ﴿ فَمَن يكفر بعد منكم ﴾ الآية خافوا فاستعفوا من طلب نزولها فلم تنزل .

وقال الجمهور : نزلت .

وهو الظاهر لأنّ قوله تعالى : ﴿ إنّي منزّلها عليكم ﴾ وعد لا يخلف ، وليس مشروطاً بشرط ولكنه معقّب بتحذير من الكفر ، وذلك حاصل أثره عند الحواريّين وليسوا ممّن يخشى العود إلى الكفر سواء نزلت المائدة أم لم تنزل .

وأمّا النصارى فلا يعرفون خبر نزول المائدة من السماء ، وكم من خبر أهملوه في الأناجيل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(253/219)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن أشد الناس عذابا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة وقد جاء في بعض الآيات ما يوهم خلاف ذلك كقوله: ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ وقوله: ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

والجواب أن آية ﴿ أدخلوا آل فرعون ﴾ وآية ﴿ إن المنافقين ﴾ لا منافاة بينهما لأن كلا من آل فرعون والمنافقين في أسفل دركات النار في أشد العذاب وليس في الآيتين ما يدل على أن بعضهم أشد عذابا من الآخر وأما قوله: ﴿ فإني أعذبه ﴾ الآية فيجاب عنه من وجهين:

الأول: وهو ما قاله ابن كثير أن المراد بالعالمين عالموا زمانهم وعليه فلا إشكال ونظيره قوله تعالى: ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ كما تقدم.

الثاني: ما قاله البعض من أن المراد به العذاب الدنيوي الذي هو مسخهم خنازير ولكن يدل على أنه عذاب الآخرة ما رواه ابن جرير عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أنه قال: "أشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون" .

وهذا الإشكال في المائدة لا يتوجه إلا على القول بنزول المائدة وأن بعضهم كفر بعد نزولها أما على قول الحسن ومجاهد أنهم خافوا من الوعيد فقالوا لا حاجة لنا في نزولها فلم تنزل فلا إشكال لكن ظاهر القول تعالى: ﴿ أني منزلها ﴾ يخالف ذلك وعلى القول بنزولها لا يتوجه الإشكال إلا إذا ثبت كفر بعضهم كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 116.115 ﴾

(254/219)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ قال اللهُ إِني منزِّلها عليكم ﴾ قرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر "منزِّلها" بالتشديد ، وقرأ الباقون خفيفة .

وهذا وعدٌ بإجابة سؤال عيسى .

واختلف العلماء : هل نزلت ، أم لا ؟ على قولين .

أحدهما : أنها نزلت ، قاله الجمهور ، فروى وهب بن منبِّه عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان الفارسي قال : لما رأى عيسى أنهم قد جدّوا في طلبها لبس جُبَّة من شعر ، ثم

توضأ ، واغتسل ، وصفَّ قدميه في محرابه حتى استويا ، وألصق الكعب بالكعب ، وحاذى الأصابع بالأصابع ، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره ، وطأطأ رأسه خضوعاً ، ثم أرسل عينيه بالبكاء ، فما زالت تسيل دموعه على خده ، وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض من دموعه حيال وجهه ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فقال : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء فبينما عيسى كذلك ، هَبَطَتْ علينا مائدةٌ من السماء ، سفرة حمراء بين غمامتين ، غمامة من تحتها ، وغمامة من فوقها ، وعيسى يبكي ويتضرَّع ، ويقول : إلهي اجعلها سلامةً ، لا تجعلها عذاباً ، حتى استقرَّت بين يديه ، والحواريون من حوله ، فأقبل هو وأصحابه حتى قعدوا حولها ، وإذا عليها منديلٌ مغطًّى ، فقال عيسى : أيكم أوثق بنفسه وأقل بلاءً عند ربه فليأخذ هذا المنديل ، وليكشف لنا عن هذه الآية .

قالوا : يا روح الله أنت أولانا بذلك ، فاكشف عنها ، فاستأنف وضوءاً جديداً ، وصلى ركعتين ، وسأل ربه أن يأذن له بالكشف عنها ، ثم قعد إليها ، وتناول المنديل ، فإذا عليها سمكة مشوية ، ليس فيها شوك ، وحولها من كل البقل ما خلا الكرَّاث ، وعند رأسها الخل ، وعند ذنبها الملح ، وحولها خمسة أرغفةٍ ، على رغيف تمر ، وعلى رغيف زيتون ، وعلى رغيف خمس رمانات ، فقال شمعون رأس الحواريين : يا روح الله أمِن طعام الدنيا

هذا ، أمِّن طعام الجنة ؟ فقال عيسى : سبحان الله أما تنتهون ! ما أخوفني عليكم .

قال شمعون : لا وإله بني إسرائيل ما أردت بهذا سوءاً .

(255/219)

قال عيسى : ليس ما ترون عليها من طعام الدنيا ، ولا من طعام الجنة ، إنما هو شيءٌ ابتدعه الله ، فقال له : "كن" فكان أسرع من طرفة عين ، فقال الحواريون : يا روح الله إنما نريد أن ترينا في هذه الآية آية ، فقال : سبحان الله ! ما اكتفيتم بهذه الآية ؟ ! ثم أقبل على السمكة فقال : عودي بإذن الله حيةً طريةً ، فعادت تضطرب على المائدة ، ثم قال : عودي كما كنت ، فعادت مشوية ، فقال : يا روح الله كن أنت أول من يأكل منها ، فقال : معاذ الله بل يأكل منها مَن سألها ، فلما رأوا امتناعه ، خافوا أن يكون نزولها عقوبة ، فلما رأى عيسى ذلك دعا لها الفقراء والزَّمنى واليتامى ، فقال : كلوا من رزق ربكم ، ودعوة نبيكم ، ليكون مهنؤها لكم ، وعقوبتها على غيركم ، فأكل منها ألف وسبعمائة إنسان ، يصدرون عنها شباعاً وهي كهيئتها حين نزلت ، فصحّ كل مريض ، واستغنى كل فقير أكل منها ، ثم نزلت بعد ذلك عليهم ، فازدحموا عليها ، فجعلها عيسى نوباً بينهم ، فكانت تنزل عليهم أربعين يوماً ، تنزل يوماً وتغبُّ يوماً ، وكانت تنزل عند ارتفاع الضحى ، فيأكلون منها حتى

إِذا قالوا ، ارتفعت إِلى السماء وهم ينظرون إِلى ظلها في الأرض .

وقال قتادة : كانت تنزل عليهم بكرةً وعشية ، حيث كانوا .

وقال غيره : نزلت يوم الأحد مرتين .

وقيل : نزلت غدوة وعشية يوم الأحد ، فلذلك جعلوه عيداً .

وفي الذي كان على المائدة ثمانية أقوال .

أحدها : أنه خبز ولحم ، روي عن عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً " .

والثاني : أنها سمكة مشوية ، وخمس أرغفة ، وتمر ، وزيتون ، ورمان .

وقد ذكرناه عن سلمان .

والثالث : ثمرٌ من ثمار الجنة ، قاله عمار بن ياسر ، وقال قتادة : ثمرٌ من ثمار الجنة ، وطعامٌ من طعامها .

والرابع : خبزٌ ، وسمكٌ ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وأبو عبد الرحمن السلمي .

(256/219)

والخامس : قطعةٌ من ثريد ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والسادس : أنه أنزل عليها كل شيء إلا اللحم ، قاله سعيد بن جبير .

والسابع : سمكةٌ فيها طعم كلِّ شيءٍ من الطعام ، قاله عطية العوفي .

والثامن : خبز أرز وبقل ، قاله ابن السائِب .

والقول الثاني : أنها لم تنزل ، روى قتادة عن الحسن أن المائِدة لم تنزل ، لأنه لما قال الله تعالى : ﴿ فمن يكفر بعدُ منكم فاني أُعذبه عذاباً لا أُعذبه أحداً من العالمين ﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ، قال : أُنزلت مائدة عليها ألوانٌ من الطعام ، فعرضها عليهم ، وأخبرهم أنه العذاب إن كفروا ، فأبوها فلم تنزل .

وروى ليث عن مجاهد قال : هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لخلقه ، لينهاهم عن مسألة الآيات لأنبيائه ، ولم ينزل عليهم شيء ، والأول أصح .

قوله تعالى : ﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ أي : بعد إنزال المائدة .

وفي العذاب المذكور قولان .

أحدهما : أنه المسخ .

والثاني : جنسٌ من العذاب لم يعذَّب به أحد سواهم .

قال الزجاج : ويجوز أن يعجل لهم في الدنيا ، ويجوز أن يكون في الآخرة .

وفي "العالمين" قولان .

أحدهما : أنه عام .

والثاني : عالمو زمانهم .

وقد ذكر المفسرون أن جماعة من أصحاب المائدة مسخوا .

وفي سبب مسخهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أمروا أن لا يخونوا ، ولا يدَّخِروا ، فخانوا وادخروا ، فمسخوا قردةً وخنازير ، رواه عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أن عيسى خصَّ بالمائدة الفقراء ، فتكلم الأغنياء بالقبيح من القول ، وشكَّكوا الناس فيها ، وارتابوا ، فلما أمسى المرتابون بها ، وأخذوا مضاجعهم ، مسخهم الله خنازير ، قاله سلمان الفارسي .

والثالث : أن الذين شاهدوا المائدة ، ورجعوا إِلى قومهم ، فأخبروهم ، فضحك بهم من لم يشهد ، وقالوا : إِنما سحر أعينكم ، وأخذ بقلوبكم ، فمن أراد الله به خيراً ، ثبت على بصيرته ، ومن أراد به فتنة ، رجع إِلى كفره .

(257/219)

فلعنهم عيسى ، فأصبحوا خنازير ، فمكثوا ثلاثة أيام ، ثم هلكوا ، قاله ابن عباس . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قال الله ﴾ عز وجل مجيباً لعيسى ﴿ إني منزلها عليكم ﴾ يعني المائدة ﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ يعني بعد نزول المائدة ﴿ فإني أعذبه عذاباً ﴾ يعني جنساً من العذاب ﴿ لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ يعني من عالمي زمانهم فجحدوا وكفروا بعد نزل المائدة فمسخوا خنازير .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون هذا العذاب معجلاً في الدنيا ويجوز أن يكون مؤخراً إلى الآخرة .

قال عبد الله بن عمر : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون .

واختلف العلماء في نزول المائدة فقال الحسن ومجاهد : لم تنزل المائدة لأن الله لما أوعدهم على كفرهم بالعذاب بعد نزول المائدة خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا : لا نريدها فلم تنزل عليهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله تعالى : ﴿ إني منزلها عليكم ﴾ إن سألتم نزولها والصحيح الذي عليه جمهور العلماء والمفسرين أنها نزلت لأن الله تعالى قال :

﴿ إني منزلها عليكم ﴾ وهذا وعد من الله بإنزالها ولا خلف في خبره ووعده ولما روي عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد ، فمسخوا قردة وخنازير أخرجه الترمذي .

وقال قد روي عن عمار من غير طريق موقوفاً وهو أصح .

وقال ابن عباس : إن عيسى عليه السلام قال لهم : صوموا ثلاثين يوماً ثم اسألوا ما شئتم يعطيكموه فصاموا فلما فرغوا قالوا يا عيسى إنا لو عملنا عملاً لأحد فقضينا عمله لأطعمنا وسألوا المائدة الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضوعها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم .

(258/219)

وقال سلمان الفارسي : لما سأل الحواريون المائدة لبس عيسى صوفاً وبكى وقال : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء الآية ، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها وهي تهوي إليهم منقضَّة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها

عقوبة واليهود ينظرون إلى شيء لم ينظروا مثله ولم يجدوا ريحاً أطيب من ريحه فقال عيسى عليه السلام ليقم أحسنكم عملاً فليكشف عنها ويسمّ الله .

فقال شمعون الصفار رأس الحواريين : أنت أولى بذلك منا .

فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيراً ثم كشف المنديل عنها وقال بسم الله خير الرازقين ، فإذا هو بسمكة مشوية ليس فيها شوك ولا عليها فلوس تسيل من الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها ألوان البقول ما خلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد .

فقال شمعون : يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟ فقال عيسى : ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة ولكنه شيء اخترعه الله بقدرته العالية . كلوا مما سألتم واشكروا يمددكم ويزدكم من فضله .

فقالوا : يا روح الله كن أول من يأكل منها فقال عيسى : معاذ الله أن آكل منها يأكل منها من سألها ، فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها أهل الفاقة والمرض والبرص والجذام والمقعدين فقال : كلوا من رزق الله لكم الشفاء ولغيركم البلاء ، فأكلوا منها وهم ألف وثلثمائة رجل وامرأة من فقير ومريض وزِمن ومبتلى وصدروا عنها وهم شباع ، وإذا السمكة بحالها حين أنزلت ثم طارت المائدة صعوداً وهم ينظرون إليها حتى توارت ولم يأكل منها مريض أو

زَمِن أو مبتلى إلا عوفي ولا فقير إلا استغنى .

وندم من لم يأكل منها .

(259/219)

وقيل : مكثت أربعين صباحاً تنزل ضحى فإذا نزلت اجتمع إليها الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يأكلون منها ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى يفيء الفيء ، فإذا فاء الفيء ، طارت وهم ينظرون إليها حتى تتوارى عنهم وكانت تنزل غباً يوماً ويوماً لا تنزل فأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها وقالوا : ترون المائدة حقاً تنزل من السماء ، فأوحى الله عز وجل عيسى لعيه السلام إني شرطت أن من كفر بعد نزولها عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فقال عيسى عليه السلام عند ذلك ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فمسخ الله منهم ثلثمائة وثلاثين رجلاً باتوا ليلتهم مع نسائهم على فرشهم ثم أصبحوا خنازير يسعون في الطرق يأكلون العذرة من الكناسات والحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعموا إلى عيسى عليه السلام وبكوا ولما أبصرت الخنزير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به

وجعل عيسى عليه السلام يدعوهم بأسمائهم فيشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا .

وقال كعب : أنزلت المائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل شيء إلا اللحم وقال ابن عباس : أنزل على المائدة كل شيء إلا الخبز واللحم .

وقال الكلبي : كان عليها خبز بر وبقل .

وقال وهب بن منبه : أنزل الله أقرصة من شعير وحيتاناً فكان القوم يأكلون ويخرجون ثم يجيء آخرون فيأكلون حتى أكلوا بأجمعهم وفضل .

وقال قتادة : كانت تنزل عليهم بكرة وعشياً حيث كانوا كالمن والسلوى لبني إسرائيل .

(260/219)

وقال الكلبي ومقاتل : أنزل الله سمكاً وخمسة أرغفة فأكلوا منها ما شاء الله والناس ألف ونيف فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك من لم يشهد منهم وقالوا ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به خيراً ثبته ومن أراد فتنته رجع إلى كفره فمسخوا خنازير وليس فيهم صبي ولا أمرأة فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين ، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق ، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير .

قال ابن عمر : إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين ﴾ .

واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا ؟ فالذي عليه الجمهور وهو الحق نزولها ، لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ .

وقال مجاهد : ما نزلت وإنما هو ضرب مَثَل ضَرَبه الله تعالى لخلقه فنهاهم عن مسألة الآيات لأنبيائه .

وقيل : وعدهم بالإجابة فلما قال لهم : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ﴾ الآية استعفوا منها ، واستغفروا الله وقالوا : لا نريد هذا ، قاله الحسن .

وهذا القول والذي قبله خطأ ، والصواب أنها نزلت .

قال ابن عباس : إن عيسى ابن مريم قال لبني إسرائيل : "صُوموا ثلاثين يوماً ثم سلوا الله ما شئتم يعطكم" فصاموا ثلاثين يوماً وقالوا : يا عيسى لو عملنا لأحد فقضينا عملنا لأطعمنا ، وإنا صُمْنا وجعنا فادع الله أن ينزّل علينا مائدة من السماء ، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها ، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحْوات ، فوضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم .

(262/219)

وذكر أبو عبد الله محمد بن عليّ الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" له : حدّثنا عمر بن أبي عمر قال حدّثنا عمّار بن هارون الثقفي عن زكرياء بن حكيم الحنظليّ عن عليّ بن زيد بن جدعان عن أبي عثمان النهديّ عن سلمان الفارسيّ قال : لما سألت الحواريون عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه المائدة قام فوضع ثياب الصوف ، ولبس ثياب المسوح وهو سربال من مسوح أسود ولِحَاف أسود فقام فألزق القدم بالقدم ، وألصق العقب بالعقب ، والإبهام بالإبهام ، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى ، ثم طأطأ رأسه ، خاشعاً لله ، ثم أرسل عينيه يبكي حتى جرى الدمع على لحيته ، وجعل يقطر على صدره

ثم قال : ﴿ اللهم رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وارزقنا وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين ﴾ ﴿ قَالَ الله إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ الآية ، فنزلت سفرة حمراء مدوّرة بين غمامتين ، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها ، والناس ينظرون إليها ، فقال عيسى : "اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها فتنة إلهي أسألك من العجائب فتعطي" فهبطت بين يدي عيسى عليه السلام وعليها منديل مغطّى ، فخرَّ عيسى ساجداً والحواريون معه ، وهم يجدون لها رائحة طيبة لم يكونوا يجدون مثلها قبل ذلك ، فقال عيسى : "أيكم أعبد لله وأجرأُ على الله وأوثق بالله فليكشف عن هذه السفرة حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمد الله عليها" فقال الحواريون : يا روح الله أنت أحقُّ بذلك ، فقام عيسى صلوات الله عليه – فتوضأ وضوءاً حسناً ، وصلّى صلاة جديدة ، ودعا دعاء كثيراً ، ثم جلس إلى السفرة ، فكشف عنها ، فإذا عليها سمكة مشوية ليس فيها شوك تسيل سيلان الدّسم ، وقد نُضّد حولها من كل البقول ما عدا الكراث ، وعند رأسها ملح وخَلّ ، وعند ذنبها خمسة أرغفة على واحد منها خمس رمّانات ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الآخر زيتون .

(263/219)

قال الثعلبيّ : على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث بيض ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قَديد .

فبلغ ذلك اليهود فجاءوا غماً وكمدا ينظرون إليه فرأوا عجباً ، فقال شمعون وهو رأس الحواريون يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الجنة ؟ فقال عيسى صلوات الله عليه : "أما افترقتم بعد عن هذه المسائل ما أخوفني أن تعذّبوا" .

فقال شمعون : وإله بني إسرائيل ما أردت بذلك سوءاً .

فقالوا : يا روح الله لو كان مع هذه الآية آية أخرى ، قال عيسى عليه السلام : "يا سمكة احْيَيْ بإذن الله" فاضطربت السمكة طريّة تبص عيناها ، ففزع الحواريون فقال عيسى : "مالي أراكم تسألون عن الشيء فإذا أعطيتموه كرهتموه ما أخوفني أن تعذبوا" وقال : "لقد نزلت من السماء وما عليها طعام من الدنيا ولا من طعام الجنة ولكنه شيء ابتدعه الله بالقدرة البالغة فقال لها كوني فكانت" فقال عيسى : "يا سمكة عودي كما كنت" فعادت مشوية كما كانت ، فقال الحواريون : يا روح الله كن أوّل من يأكل منها ، فقال عيسى : "معاذ الله إنما يأكل منها من طلبها وسألها" فأبت الحواريون أن يأكلوا منها خشية أن تكون مَثُلَة وفتنة ، فلما رأى عيسى ذلك دعا عليها الفقراء والمساكين والمرضى والزمني والمجذَّمين والمقعدين والعميان وأهل الماء الأصفر ، وقال : "كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله عليه" وقال : "يكون المهنأ لكم والعذاب على غيركم" فأكلوا حتى صدروا

عن سبعة آلاف وثلثمائة يتجشئون فبرىء كل سقيم أكل منه ، واستغنى كل فقير أكل منه حتى الممات ، فلما رأى ذلك الناس ازدحموا عليه فما بقي صغير ولا كبير ولا شيخ ولا شاب ولا غني ولا فقير إلا جاءوا يأكلون منه ، فضغط بعضهم بعضاً فلما رأى ذلك عيسى جعلها نوبا بينهم ، فكانت تنزل يوماً ولا تنزل يوماً ، كناقة ثمود ترعى يوماً وتشرب يوماً ، فنزلت أربعين يوماً تنزل ضُحاً فلا تزال هكذا حتى يفيء الفيء موضعه .

(264/219)

وقال الثعلبيّ : فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صُعُداً فيأكل منها الناس ، ثم ترجع إلى السماء والناس ينظرون إلى ظلّها حتى تتوارى عنهم ، فلما تمّ أربعون يوماً أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام "يا عيسى اجعل مائدتي هذه للفقراء دون الأغنياء" فتمارى الأغنياء في ذلك وعادوا الفقراء وشكّوا وشكّكوا الناس ، فقال الله يا عيسى : "إني آخذ بشرطي" ، فأصبح منهم ثلاثة وثلاثون خنزيراً يأكلون العَذِرة يطلبونها بالأكباء ، والأكباء هي الكُناسة واحدها كبا بعدما كانوا يأكلون الطعام الطيّب وينامون على الفرش اللينة ، فلما رأى الناس ذلك اجتمعوا على عيسى يبكون ، وجاءت الخنازير فجثوا على ركبهم قدّام عيسى ، فجعلوا يبكون وتقطر دموعهم فعرفهم عيسى فجعل يقول

: "ألست بفلان" ؟ فيومىء برأسه ولا يستطيع الكلام ، فلبثوا كذلك سبعة أيام ومنهم من يقول : أربعة أيام ثم دعا الله عيسى أن يقبض أرواحهم ، فأصبحوا لا يدري أين ذهبوا ؟ الأرض ابتلعتهم أو ما صنعوا ؟ !

قلت : في هذا الحديث مقال ولا يصح من قبل إسناده .

وعن ابن عباس وأبي عبد الرحمن السُّلَمي كان طعام المائدة خبزاً وسمكاً .

وقال ابن عطية : كانوا يجدون في السمك طيب كل طعام ؛ وذكره الثعلبي .

وقال عمّار بن ياسر وقَتَادة : كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمار من ثمار الجنة .

وقال وهب بن مُنَبِّه : أنزل الله تعالى أقرصة من شعير وحيتاناً .

(265/219)

وخرّج التِّرمذي في أبواب التفسير عن عمّار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزلت المائدةُ من السماء خبزاً ولحماً وأُمِروا ألا يَخونوا ولا يَدّخِروا لغدٍ فخانوا وادّخروا ورفعوا لغدٍ فَمُسِخوا قِرَدة وخنازير " قال أبو عيسى : هذا حديث قد رواه أبو عاصم وغير واحد عن سعيد بن أبي عَرُوبَة عن قَتَادة عن خِلاَسٍ عن عمّار بن ياسِرٍ موقوفاً ولا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قَزَعة ؛ حدّثنا حُمَيد بن مَسْعدة قال

حدّثنا سفيان بن حبيب عن سعيد بن أبي عروبة نحوه ولم يرفعه ، وهذا أصح من حديث الحسن بن قزعة ، ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً .

وقال سعيد بن جُبَير : أُنزل على المائدة كل شيء إلا الخبز واللحم وقال عطاء : نزل عليها كلّ شيء إلا السمك واللحم وقال كعب : نزلت المائدة منكوسة من السماء تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلا اللحم .

قلت : هذه الثلاثة أقوال مخالفة لحديث التِّرمذي وهو أولى منها ؛ لأنه إن لم يصح مرفوعاً فصح موقوفاً عن صحابي كبير .

والله أعلم .

والمقطوع به أنها نزلت وكان عليها طعام يؤكل والله أعلم بتعيينه .

وذكر أبو نعيم عن كعب أنها نزلت ثانية لبعض عُبَاد بني إسرائيل ، قال كعب : اجتمع ثلاثة نفر من عباد بني إسرائيل فاجتمعوا في أرض فَلاَةٍ مع كل رجل منهم اسم من أسماء الله تعالى ؛ فقال أحدهم : سَلُوني فأدعوَ الله لكم بما شئتم ؛ قالوا : نسألك أن تدعو الله أن يظهر لنا عيناً ساحّة بهذا المكان ؛ ورياضاً خُضراً وعَبْقرياً ، قال : فدعا الله فإذا عين ساحّة ورياض خُضر وعَبْقري .

(266/219)

ثم قال أحدهم : سَلُوني فأدعوَ الله لكم بمَا شئتم ؛ فقالوا : نسألك أن تدعو الله أن يطعمنا شيئاً من ثمار الجنة فدعا الله فنزلت عليهم بَسْرة فأكلوا منها لا تقلب إلا أكلوا منها لوناً ثم رفعت ؛ ثم قال أحدهم : سَلُوني فأدعوَ الله لكم بمَا شئتم ؛ فقالوا : نسألك أن تدعو الله أن ينزل علينا المائدة التي أنزلها على عيسى ؛ قال : فدعا فنزلت فقضوا منها حاجتهم ثم رفعت ؛ وذكر تمام الخبر .

مسألة جاء في حديث سلمان المذكور بيان المائدة وأنها كانت سُفْرة لا مائدة ذات قوائم ، والسُّفْرة مائدة النبي صلى الله عليه وسلم وموائد العرب ؛ خرّج أبو عبد الله التِّرمذي الحكيم : حدّثنا محمد بن بَشّار ، قال حدّثنا مُعاذ بن هِشام ، قال حدّثني أبي ، عن يونس ، عن قَتَادة ، عن أَنَس قال : " ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خُوان قَطُّ ولا في سُكُرُّجَة ولا خُبِز له مُرَقّقٌ .

قال قلت لأنس : فعلامَ كانوا يأكلون ؟ قال : على السُّفَرْ " ؛ قال محمد بن بشار : يونس هذا هو أبو الفرات الإسْكَاف .

قلت : هذا حديث صحيح ثابت اتفق على رجاله ؛ البخاري ومسلم ، وخرجه التِّرمذي قال : حدّثنا محمد بن بشّار قال حدّثنا معاذ بن هِشام فذكره وقال فيه : حسن غريب .

قال التِّرمذي أبو عبد الله : الخُوان هو شيء محدث فعلته الأعاجم ، وما كانت العرب

لتمتهنها ، وكانوا يأكلون على السُّفَر واحدها سُفْرة وهي التي تتخذ من الجلود ولها معاليق تنضم وتنفرج ، فبالإنفراج سُميت سُفْرة ؛ لأنها إذا حُلّت معاليقها انفرجت فأسفرت عما فيها فقيل لها السُّفْرة وإنما سمي السَّفَر سَفَرا لإسفار الرجل بنفسه عن البيوت .

وقوله : ولا في سُكُرُّجة ؛ لأنها أوعية الأَصْباغ ، وإنما الأصباغ للألوان ولم تكن من سِماتهم الألوان ، وإنما كان طعامهم الثَّريد عليه مقطّعات اللحم .

وكان يقول : " انهسوا اللّحم نَهْساً فإنه أَشْهى وأَمْرأُ " .

(267/219)

فإن قيل : فقد جاء ذكر المائدة في الأحاديث ؛ من ذلك حديث ابن عباس قال : لو كان الضَّب حراماً ما أُكل على مائدة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ خرّجه مسلم وغيره .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تُصلّي الملائكة على الرجل ما دامت مائدته موضوعة " خرجه الثّقات ؛ وقيل : إن المائدة كل شيء يُمدُّ ويُبسَط مثل المِنْديل والثّوب ، وكان من حقه أن تكون مادة الدال مضعَّفة ، فجعلوا إحدى الدالين ياء فقيل : مائدة ؛ والفعل واقع به فكان ينبغي أن تكون ممدودة ؛ ولكن خرجت في اللغة مخرج فاعل كما قالوا : سِرٌّ كاتم وهو مكتوم ، وعيشة راضية وهي مرضية ، وكذلك

خرج في اللغة ما هو فاعل على مخرج مفعول فقالوا : رجل مشئوم ، وإنما هو شائم ، وحجاب مستور وإنما هو ساتر ، فالخوان هو المرتفع عن الأرض بقوائمه ، والمائدة ما مُدّ وبُسط ، والسُّفْرة ما أسفر عما في جوفه ، وذلك لأنها مضمومة بمعاليقها .

وعن الحسن قال : الأكل على الخُوان فعل الملوك ، وعلى المنْديل فعل العجم ، وعلى السُّفْرة فعل العرب وهو السنة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(268/219)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

أَيْ وَاذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ حِينَ أَلْهَمْتُ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِكَ وَقَدْ كَذَّبَكَ جُمْهُورُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَجَعَلْتُهُمْ أَنْصَارًا لَكَ يُؤَيِّدُونَ حُجَّتَكَ وَيَنْشُرُونَ دَعْوَتَكَ . وَالْوَحْيُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْإِشَارَةُ السَّرِيعَةُ الْخَفِيَّةُ ، أَوِ الْإِعْلَامُ بِالشَّيْءِ بِسُرْعَةٍ وَخَفَاءٍ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ وُجِدَ هَذَا التِّلِغْرَافُ فِي عَهْدِ الْعَرَبِ الْخُلَّصِ لَسَمَّوْا خَبَرَهُ وَحْيًا ، وَالْمِصْرِيُّونَ يُسَمُّونَهُ حَتَّى فِي الرَّسْمِيَّاتِ إِشَارَةً ، وَأُطْلِقَ الْوَحْيُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَا يُلْقِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فِي نُفُوسِ الْأَحْيَاءِ مِنَ

الْإِلْهَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا) (16 : 68)
وَقَوْلِهِ : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) (28 : 7)
وَهَكَذَا أَلْقَى اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ الْحَوَارِيِّينَ الْإِيمَانَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقِيلَ : الْوَحْيُ إِلَيْهِمْ هُوَ مَا أَنْزَلَ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ .

(269/219)

وَالْحَوَارِيُّونَ جَمْعُ حَوَارِيٍّ وَهُوَ مَنْ خَلُصَ لَكَ ، وَأَخْلَصَ سِرًّا وَجَهْرًا فِي مَوَدَّتِكَ وَمَعْنَاهُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْأَبْيَضُ النَّقِيُّ اللَّوْنِ ، وَالْحَوَارِيَّاتُ مِنَ النِّسَاءِ النَّقِيَّاتُ الْأَلْوَانِ وَالْجُلُودِ لِبَيَاضِهِنَّ قَالَ فِي اللِّسَانِ : وَالْأَعْرَابُ تُسَمِّي الْأَمْصَارَ حَوَارِيَّاتٍ لِبَيَاضِهِنَّ وَتَبَاعُدِهِنَّ مِنْ قَشَفِ الْأَعْرَابِ بِنَظَافَتِهِنَّ قَالَ :

فَقُلْتُ إِنَّ الْحَوَارِيَّاتِ مَعْطَبَةٌ . . . إِذَا تَفَتَّلْنَ مِنْ تَحْتِ الْجَلَابِيبِ

وَأَمَّا الْحُورُ الْعَيْنُ فَهُمَا جَمْعُ حَوْرَاءَ وَعَيْنَاءَ مِنَ الْحَوَرِ (بِالتَّحْرِيكِ) وَهُوَ شِدَّةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ مَعَ شِدَّةِ سَوَادِهَا ، فَالْحَوْرَاءُ مُؤَنَّثُ الْأَحْوَرِ ، وَالْحَوَارِيَّةُ مُؤَنَّثُ الْحَوَارِيِّ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ الْحِوَارِيُّ بِمَعْنَى النَّقِيِّ الْخَالِصِ فِي غَيْرِ اللَّوْنِ ، قَالَ فِي اللِّسَانِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْحَوَارِيُّونَ صَفْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ خَلَصُوا لَهُمْ . قَالَ الزَّجَّاجُ : الْحَوَارِيُّونَ خُلْصَانُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

وَصَفْوَتُهُمْ قَالَ : وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الزُّبَيْرُ ابْنُ عَمَّتِي ، وَحَوَارِيِّي مِنْ أُمَّتِي " أَيْ خَاصَّتِي مِنْ أَصْحَابِي وَنَاصِرِي قَالَ : وَأَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوَارِيُّونَ ، وَتَأْوِيلُ الْحَوَارِيِّينَ فِي اللُّغَةِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا وَنَقَوْا

(270/219)

مَنْ كُلِّ عَيْبٍ اهـ . وَاللُّغَةُ لَا تَدُلُّ عَلَى النَّقَاءِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ بِهَذَا التَّحْدِيدِ ، وَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى النَّقَاءِ وَالْخُلُوصِ مُطْلَقًا ، فَيَكْفِي فِي صِحَّةِ الْإِطْلَاقِ أَنْ يَكُونُوا قَدْ خَلَصُوا لِنَصْرِهِ أَوْ خَلَصُوا وَنَقَوْا مِنَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، وَقَدْ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ هُنَا أَنَّهُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، أَيْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَشْهَدُوا اللَّهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ أَيْ مُخْلِصُونَ فِي إِيمَانِهِمْ ، مُذْعِنُونَ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَحَكَى عَنْهُمْ فِي سُورَتَيْ (آلِ عِمْرَانَ 52) وَ(الصَّفِّ 14) أَنَّهُمْ حِينَ قَالَ الْمَسِيحُ : (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) (ه) قَالُوا : (نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) .

(271/219)

(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) قَالَ أَبُو السُّعُودِ الْعِمَادِيُّ فِي تَفْسِيرِ : "إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ" مَا نَصُّهُ : كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ مَسُوقٌ لِبَيَانِ بَعْضِ مَا جَرَى بَيْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ مُنْقَطِعٌ عَمَّا قَبْلَهُ كَمَا يُنْبِئُ عَنْهُ الْإِظْهَارُ فِي مَوْقِعِ الْإِضْمَارِ ، وَ" إِذْ " مَنْصُوبٌ بِمُضْمَرٍ خُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، بِطَرِيقِ تَلْوِينِ الْخِطَابِ وَالِالْتِفَاتِ ، لَكِنَّ لَا لِأَنَّ الْخِطَابَ السَّابِقَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِخِطَابٍ وَإِنَّمَا هُوَ حِكَايَةُ خِطَابٍ ، بَلْ لِأَنَّ الْخِطَابَ لِمَنْ خُوطِبَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (اتَّقُوا اللَّهَ) الْآيَةَ فَتَأَمَّلْ كَأَنَّهُ قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقِيبَ حِكَايَةِ مَا صَدَرَ عَنِ الْحَوَارِيِّينَ مِنَ الْمَقَالَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى الْفَائِضَةِ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . اذْكُرِ النَّاسَ وَقْتَ قَوْلِهِمْ إِلَخْ . وَقِيلَ :

هُوَ ظَرْفٌ لِقَالُوا ، أُرِيدَ بِهِ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ ادِّعَاءَهُمُ الْإِيمَانَ وَالْإِخْلَاصَ لَمْ يَكُنْ عَنْ تَحْقِيقٍ وَإِيقَانٍ وَلَا يُسَاعِدُهُ النَّظْمُ الْكَرِيمُ اهـ .

(272/219)

أَقُولُ : فِي مُتَعَلَّقِ الظَّرْفِ قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ ، رَجَّحَ أَبُو السُّعُودِ الْمَشْهُورَ مِنْهُمَا وَهُوَ الْأَوَّلُ وَرَدَّ الثَّانِي الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ ، وَهُوَ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (قَالُوا آمَنَّا)

أَيِ ادَّعَوُا الْإِيمَانَ وَأَشْهَدُوا اللهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ مُخْلِصُونَ فِي إِيمَانِهِمْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي قَالُوا فِيهِ مَا يُنَافِي ذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : (يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) وَيَقُولُ الزَّمَخْشَرِيُّ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى مَا وَصَفَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَإِنَّمَا حَكَى قَوْلَهُمْ حِكَايَةً وَوَصَلَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى كَذِبِهِمْ فِيهِ وَهُوَ سُؤَالُهُمْ هَذَا وَجَوَابُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ إِذْ أَمَرَهُمْ بِتَقْوَى اللهِ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ حَقًّا ، وَإِصْرَارُهُمْ عَلَى السُّؤَالِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَوَجْهُ رَدِّ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ الْمُرَادَ لَقِيلَ : " إِذْ قَالُوا يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ " وَلَمْ يَقُلْ : (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ) وَلَمَا صَحَّ أَنْ تَكُونَ دَعْوَى الْإِيمَانِ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ نِعْمَةً مِنَ اللهِ عَلَى عِيسَى وَهِيَ كَاذِبَةٌ وَلَا أَنْ تَكُونَ عَلَى وَحْيٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَلَكِنَّ هَذَا الْأَخِيرَ لَا يَرُدُّ عَلَى الزَّمَخْشَرِيِّ ؛ لِأَنَّهُ فَسَّرَ الْوَحْيَ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ بِالْإِيمَانِ بِأَنَّهُ أَمْرُ اللهِ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ، أَيْ أَمْرِهِ إِيَّاهُمْ مَعَ غَيْرِهِمْ ؛ إِذْ كَلَّفَ النَّاسَ كَافَّةً أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا تَجِيئُهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ،

(273/219)

وَلَكِنْ يَرُدُّ قَوْلَهُ أَيْضًا تَسْمِيَتُهُمْ بِالْحَوَارِيِّينَ وَمَا فِي سُورَتَيْ آلِ عِمْرَانَ وَالصَّفِّ مِنْ إِجَابَتِهِمْ عِيسَى إِلَى نَصْرِهِ ، وَلَعَلَّهُ يَرَى أَنَّ هَذَا شَأْنُهُمْ فِي أَوَّلِ الدَّعْوَةِ ثُمَّ آمَنُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَصَارُوا أَنْصَارَ اللهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَقَدْ حَكَى أَبُو السُّعُودِ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْهُ : الْخِلَافُ فِي إِيمَانِهِمْ . وَمَنْشَأُ هَذَا الْخِلَافِ كَلِمَةُ " يَسْتَطِيعُ " وَقَدْ قَرَأَ الْكِسَائِيُّ " هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ " قَالُوا : أَيْ سُؤَالَ رَبِّكَ وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ مَرْوِيَّةٌ عَنْ عَلِيٍّ وَعَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَمُعَاذٍ مِنْ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَقَدْ صَحَّحَ الْحَاكِمُ عَنْ مُعَاذٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَأَهُ " تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ " وَمِثْلُهُ فِي ذَلِكَ غَيْرُهُ ؛ لِأَنَّ تَلْقِينَ الْقُرْآنِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى تَصْرِيحِ الصَّحَابِيِّ بِرَفْعِهِ ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ (يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) وَهَذَا الَّذِي اسْتُشْكِلَ بِأَنَّهُ لَا يَصْدُرُ عَنْ مُؤْمِنٍ صَحِيحِ الْإِيمَانِ ، وَأَجَابَ عَنْهُ الْقَائِلُونَ بِصِحَّةِ إِيمَانِهِمْ مِنْ وُجُوهٍ : (1) أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ لِأَجْلِ اطْمِئْنَانِ الْقَلْبِ بِإِيمَانِ الْعِيَانِ لَا لِلشَّكِّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ، فَهُوَ عَلَى حَدِّ

(274/219)

سُؤَالِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَةَ كَيْفِيَّةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ بِإِيمَانِ الشَّهَادَةِ وَالْمُعَايَنَةِ مَعَ إِقْرَارِهِ بِإِيمَانِهِ بِذَلِكَ بِالْغَيْبِ (2) إِنَّهُ سُؤَالٌ عَنِ الْفِعْلِ دُونَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَعَبَّرَ عَنْهُ بِلَازِمِهِ (3) إِنَّ السُّؤَالَ عَنِ الِاسْتِطَاعَةِ بِحَسَبِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ لَا بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ ، أَيْ هَلْ يُنَافِي حِكْمَةَ رَبِّكِ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ أَمْ لَا ؟ فَإِنَّ مَا يُنَافِي الْحِكْمَةَ لَا يَقَعُ وَإِنْ كَانَ مِمَّا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْقُدْرَةُ ، كَعِقَابِ الْمُحْسِنِ عَلَى إِحْسَانِهِ وَإِثَابَةِ الظَّالِمِ الْمُسِيءِ

عَلَى ظُلْمِهِ . (4) إِنَّ فِي

الْكَلَامِ حَذْفًا تَقْدِيرُهُ : هَلْ تَسْتَطِيعُ سُؤَالَ رَبِّكَ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ : هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ ؟

وَالْمَعْنَى هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْأَلَهُ مِنْ غَيْرِ صَارِفٍ يَصْرِفُكَ عَنْ ذَلِكَ ؟ (5) إِنَّ الِاسْتِطَاعَةَ

هُنَا بِمَعْنَى الْإِطَاعَةِ وَالْمَعْنَى هَلْ يُطِيعُكَ وَيُجِيبُ دُعَاءَكَ رَبُّكَ إِذَا سَأَلْتَهُ ذَلِكَ ؟

(275/219)

وَأَقُولُ : رُبَّمَا يَظُنُّ الْأَكْثَرُونَ أَنَّ هَذَا الْوَجْهَ الْأَخِيرَ تَكَلُّفٌ بَعِيدٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَالِاسْتِطَاعَةُ

اسْتِفْعَالٌ مِنَ الطَّوْعِ وَهُوَ ضِدُّ الْكُرْهِ . قَالَ تَعَالَى : (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا)

(41 : 11) وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ : الطَّوْعُ نَقِيضُ الْكُرْهِ . طَاعَهُ يَطُوعُهُ وَطَاوَعَهُ ، وَالِاسْمُ

الطَّوَاعَةُ وَالطَّوَاعِيَةُ (ثُمَّ قَالَ) وَيُقَالُ : طِعْتُ لَهُ وَأَنَا أُطِيعُ طَاعَةً ، وَلَتَفْعَلَنَّهُ طَوْعًا أَوْ كُرْهًا

وَطَائِعًا أَوْ كَارِهًا ، وَجَاءَ فُلَانٌ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ . قَالَ ابْنُ سِيدَهْ : وَطَاعَ يَطَاعُ وَأَطَاعَ لَانَ

وَانْقَادَ ، وَأَطَاعَهُ إطَاعَةً وَانْطَاعَ لَهُ كَذَلِكَ . وَفِي التَّهْذِيبِ : وَقَدْ طَاعَ لَهُ يَطُوعُ إذِ انْقَادَ لَهُ

بِغَيْرِ أَلَفٍ فَإِذَا مَضَى لِأَمْرِهِ فَقَدْ أَطَاعَهُ . فَإِذَا وَافَقَهُ فَقَدْ طَاوَعَهُ . اهـ . فَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ

إطَاعَةَ الْأَمْرِ فِعْلُهُ عَنِ اخْتِيَارٍ وَرِضًا ; وَلِذَلِكَ عَبَّرَ بِهِ عَنِ امْتِثَالِ أَوَامِرِ الدِّينِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَكُونُ

دِينًا إلَّا إذَا كَانَتْ عَنْ إذْعَانٍ وَوَازِعٍ نَفْسِيٍّ ، وَالَّذِي أَفْهَمُهُ أَنَّ الِاسْتِفْعَالَ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ

كَالِاسْتِفْعَالِ فِي مَادَّةِ الْإِجَابَةِ ، فَإِذَا كَانَ " اسْتَجَابَ لَهُ " بِمَعْنَى أَجَابَ دُعَاءَهُ أَوْ سُؤَالَهُ فَمَعْنَى اسْتَطَاعَهُ أَطَاعَهُ أَيِ انْقَادَ لَهُ وَصَارَ فِي طَوْعِهِ أَوْ طَوْعًا لَهُ . وَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِي الْمَادَّتَيْنِ عَلَى أَشْهَرِ مَعَانِيهِمَا وَهُوَ الطَّلَبُ ، وَلَكِنَّهُ طَلَبٌ دَخَلَ عَلَى فِعْلٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْمَذْكُورُ الْمُتَرَتِّبُ عَلَى الْمَحْذُوفِ ، فَأَصْلُ اسْتَطَاعَ

(276/219)

الشَّيْءَ طَلَبَ وَحَاوَلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الشَّيْءُ طَوْعًا لَهُ فَأَطَاعَهُ وَانْقَادَ لَهُ ، وَمَعْنَى اسْتَجَابَ : سُئِلَ شَيْئًا وَطُلِبَ مِنْهُ أَنْ يُجِيبَ إِلَيْهِ فَأَجَابَ; فَبِهَذَا الشَّرْحِ الدَّقِيقِ تَفْهَمُ صِحَّةَ قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ (يَسْتَطِيعُ) هُنَا بِمَعْنَى يُطِيعُ ، وَأَنَّ مَعْنَى يُطِيعُ يَفْعَلُ مُخْتَارًا رَاضِيًا غَيْرَ كَارِهٍ

فَصَارَ حَاصِلُ مَعْنَى الْجُمْلَةِ " هَلْ يَرْضَى رَبُّكَ وَيَخْتَارُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ إِذَا نَحْنُ سَأَلْنَاهُ أَوْ سَأَلْتَهُ لَنَا ذَلِكَ ؟ " وَالْمَائِدَةُ فِي اللُّغَةِ الْخِوَانُ الَّذِي عَلَيْهِ الطَّعَامُ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ طَعَامٌ لَا يُسَمَّى مَائِدَةً ، وَقَدْ يُطْلَقُ لَفْظُ الْمَائِدَةِ عَلَى الطَّعَامِ نَفْسِهِ حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ الْمَحَلِّ عَلَى الْحَالِ ، وَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ مَادَ بِمَعْنَى مَالَ وَتَحَرَّكَ أَوْ مِنْ مَادَ أَهْلَهُ

بِمَعْنَى نَعَشَهُمْ وَقَوْلُهُ : وَكُنْتُ لِلْمُنْتَجِعِينَ مَائِدًا كَمَا فِي الْأَسَاسِ أَيْ أَعَاشَهُمْ وَسَدَّ فَقْرَهُمْ كَأَنَّهَا هِيَ تَمِيدُ مَنْ يَجْلِسُ إلَيْهَا وَيَأْكُلُ مِنْهَا بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ عَلَى حَدِّ : عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ .

(277/219)

(قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أَيْ قَالَ عِيسَى لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ أَنْ تَقْتَرِحُوا عَلَيْهِ أَمْثَالَ هَذِهِ الِاقْتِرَاحَاتِ الَّتِي كَانَ سَلَفُكُمْ يَقْتَرِحُهَا عَلَى مُوسَى لِئَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً لَكُمْ ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ أَلَّا يُجَرِّبَ رَبَّهُ بِاقْتِرَاحِ الْآيَاتِ ، أَوْ أَنْ يَعْمَلَ وَيَكْسِبَ وَلَا يَطْلُبَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَعِيشَ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَعَلَى غَيْرِ السُّنَنِ الَّتِي جَرَتْ عَلَيْهَا مَعَايِشُ النَّاسِ ، أَوِ الْمَعْنَى اتَّقُوا اللَّهَ وَقُومُوا بِمَا يُوجِبُهُ الْإِيمَانُ مِنَ الْعَمَلِ وَالتَّوَكُّلِ عَسَى أَنْ يُعْطِيَكُمْ ذَلِكَ ، مِنْ بَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (65 : 2 ، 3) .

(278/219)

(قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) أَيْ نَطْلُبُهَا لِأَرْبَعِ فَوَائِدَ (إحْدَاهَا) : أَنَّنَا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا لِأَنَّنَا فِي حَاجَةٍ إلَى الطَّعَامِ ، وَلَا

نَجِدُ مَا يَسُدُّ حَاجَتَنَا ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ أَكْلُ التَّبَرُّكِ . (الثَّانِيَةُ) : نُرِيدُ أَنْ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا بِمَا نُؤْمِنُ بِهِ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ بِمُشَاهَدَةِ خَرْقِهِ لِلْعَادَةِ ، أَيْ بِضَمِّ عِلْمِ الْمُشَاهَدَةِ وَاللَّمْسِ وَالذَّوْقِ وَالشَّمِّ إِلَى عِلْمِ السَّمْعِ مِنْكَ وَعِلْمِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ . (الثَّالِثَةُ) : أَنْ نَعْلَمَ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْعِلْمِ أَيْ عِلْمِ الْمُشَاهَدَةِ أَنَّ الْحَالَ وَالشَّأْنَ مَعَكَ هُوَ أَنَّكَ قَدْ صَدَقْتَنَا مَا وَعَدْتَنَا مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ ، كَاسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَلَوْ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ . (الرَّابِعَةُ) : أَنْ نَكُونَ مِنَ الشَّاهِدِينَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيُؤْمِنُ الْمُسْتَعِدُّ لِلْإِيمَانِ وَيَزْدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا فَهَذَا مَا نَرَاهُ فِي تَوْجِيهِ أَقْوَالِهِمْ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ صِحَّةِ إِيمَانِهِمْ .

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أَيْ لَمَّا عَلِمَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ صِحَّةَ قَصْدِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ تَعْجِيزًا وَلَا تَجْرِبَةً دَعَا اللهَ تَعَالَى بِهَذَا الدُّعَاءِ ،

(279/219)

فَنَادَاهُ بِاسْمِ الذَّاتِ الْجَامِعِ لِمَعْنَى الْأُلُوهِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَالَ : (اللَّهُمَّ) وَمَعْنَاهُ يَا اللهُ ، ثُمَّ بِاسْمِ الرَّبِّ الدَّالِّ عَلَى مَعْنَى الْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْإِحْسَانِ خَاصَّةً فَقَالَ : (رَبَّنَا) أَيْ يَا رَبَّنَا وَمَالِكَنَا كُلِّنَا وَمُتَوَلِّي أُمُورِنَا وَمُرَبِّينَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً

سَمَاوِيَّةً ، جُثْمَانِيَّةً أَوْ مَلَكُوتِيَّةً ، يَرَاهَا هَؤُلَاءِ الْمُقْتَرِحُونَ بِأَبْصَارِهِمْ ، وَتَتَغَذَّى بِهَا أَبْدَانُهُمْ أَوْ أَرْوَاحُهُمْ ، وَلَوْ لَمْ يَقُلْ : مِنَ السَّمَاءِ ، لَشَمَلَ الطَّلَبُ إِعْطَاءَهُمْ مَائِدَةً مِنَ الْأَرْضِ وَلَوْ بِطَرِيقَةٍ عَادِيَّةٍ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا يُعْطَى مِنَ اللهِ تَعَالَى يُسَمَّى إِنْزَالًا لِتَحَقُّقِ مَعْنَى الْعُلُوِّ الْمُطْلَقِ غَيْرِ الْمُقَيَّدِ بِجِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْقَاهِرُ فَوْقَ جَمِيعِ عِبَادِهِ .

(280/219)

ثُمَّ وَصَفَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْمَائِدَةَ بِمَا أَحَبَّ أَنْ يُسْتَفَادَ مِنْ إِنْزَالِهَا فَقَالَ فِي وَصْفِهَا : (تَكُونُ لَنَا عِيدًا) أَيْ عِيدًا خَاصًّا بِنَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ غَيْرِنَا ، أَوْ تَكُونَ لَنَا كَرَامَةً وَمَتَاعًا لَنَا فِي عِيدِنَا ثُمَّ قَالَ : (لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا) وَهُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : (لَنَا) الَّذِي ذُكِرَ أَوَّلًا لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ وَالِاخْتِصَاصِ ، أَيْ عِيدًا لِأَوَّلِ مَنْ آمَنَ مِنَّا وَآخِرِ مَنْ آمَنَ ، وَالْمُتَبَادَرُ أَنَّهُ أَرَادَ بِأَوَّلِهِمْ مَنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ . وَبِآخِرِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بَعْدَ نُزُولِ الْمَائِدَةِ مِمَّنْ يَشْهَدُ لَهُمْ مَنْ شَهِدَهَا وَغَيْرُهُمْ ، وَيُحْتَمَلُ – عَلَى بُعْدٍ – أَنْ يُرَادَ أَوَّلُ جَمَاعَتِهِ الْحَاضِرِينَ مَعَهُ إِيمَانًا وَآخِرُهُمْ ، وَرُوِيَ أَنَّ الْمَعْنَى يَأْكُلُ مِنْهَا آخِرُ الْقَوْمِ كَمَا يَأْكُلُ أَوَّلُهُمْ ، أَوْ كَافِيَةً لِلْفَرِيقَيْنِ . وَكَلِمَةُ الْعِيدِ تُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَبِمَعْنَى الْمَوْسِمِ الدِّينِيِّ أَوِ الْمَدَنِيِّ الَّذِي يَجْتَمِعُ

لَهُ النَّاسُ فِي يَوْمٍ مُعَيَّنٍ أَوْ أَيَّامٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ السَّنَةِ لِلْعِبَادَةِ أَوْ لِشَيْءٍ آخَرَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِ الْعِبَارَةِ : أَيْ نَتَّخِذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نُعَظِّمُهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدَنَا ، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : يَعْنِي يَوْمًا نُصَلِّي فِيهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ لِعَقِبِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَقَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : عِظَةً لَنَا وَلِمَنْ بَعْدَنَا ، وَيَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى طَعَامُ الْعِيدِ عِيدًا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا .

وَقَوْلُهُ : (وَآيَةً مِنْكَ) مَعْنَاهُ وَتَكُونُ آيَةً وَعَلَامَةً مِنْكَ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِي وَدَعْوَتِي وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِنَصِّ قَوْلِهِ : (مِنْكَ) مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ تَعَالَى - وَلَا سِيَّمَا الْآيَاتُ - النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْآيَاتِ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ . أَوْ أَنْ تَكُونَ الْمَائِدَةُ مِنْ لَدُنْهُ تَعَالَى بِغَيْرِ وَسَاطَةٍ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تُشْبِهُ السَّبَبَ كَالْآيَاتِ السَّابِقَةِ ، وَمِمَّا نُقِلَ عَنْهُ وَعَنْ نَبِيِّنَا عَلَيْهِمَا

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِطْعَامُ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الطَّعَامِ الْقَلِيلِ يَخْلُقُ اللهُ الزِّيَادَةَ فِيهِ ، وَرُوِيَ عَنْ نَبِيِّنَا أَيْضًا إِسْقَاءُ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَاءِ الْقَلِيلِ إِذْ وَضَعَ يَدَهُ فِيهِ فَصَارَ يَزِيدُ وَيَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ . فَأَمْثَالُ هَذِهِ الْآيَاتِ – وَإِنْ كَانَتْ مِنَ اللهِ كَكُلِّ شَيْءٍ – تَحْصُلُ بِمَا يُشْبِهُ الْأَسْبَابَ ، وَفِيهَا مَجَالٌ لِاشْتِبَاهِ الْمُرْتَابِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَأْخُذُ مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ أَوِ الْمَاءِ فَإِنَّمَا يَأْخُذُ مِنْ شَيْءٍ كَانَ مَوْجُودًا وَهُوَ لَمْ يُشَاهِدْ حُدُوثَ الزِّيَادَةِ فِيهِ . وَيَنْقُلُ النَّاسُ مِثْلَ هَذَا عَنْ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّالِحِينَ : كَالسَّحَرَةِ وَالْمُشَعْوِذِينَ ، وَقَدْ كَانَ مَعْرُوفًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ وَلِذَلِكَ وَصَفَ الْحَوَارِيُّونَ الْمَائِدَةَ بِمَا وَصَفُوهَا بِهِ ، وَقَالَ هُوَ : (وَآيَةً مِنْكَ) لِتُوَافِقَ مَطْلُوبَهُمْ فَلَا يَقْتَرِحُوا شَيْئًا آخَرَ ، وَإِنِّي أَذْكُرُ حِكَايَتَيْنِ عَنْ بَعْضِ الْمُعَاصِرِينَ تُوَضِّحَانِ مَا أُرِيدُ :

(283/219)

حَدَّثَنِي الثِّقَةُ أَنَّ بَعْضَ رِجَالِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ عَادَ مَرِيضًا مِنَ الرِّجَالِ الْمُعْتَقِدِينَ الْمَشْهُورِينَ بِالْكَرَامَاتِ فَأَقَامَ عِنْدَهُ فِي حُجْرَةِ النَّوْمِ سَاعَةً وَكَانَ قَدْ نَقِهَ ، ثُمَّ أَرَادَ الِانْصِرَافَ فَآلَى عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَشَّى مَعَهُ ، ثُمَّ دَعَى بِالْخِوَانِ فَنُصِبَ وَلَمْ يُوضَعْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الطَّعَامِ فَجَلَسَ إِلَيْهِ الشَّيْخَانِ وَصَارَ الْمَزُورُ يَقْتَرِحُ عَلَى الزَّائِرِ أَنْ يَذْكُرَ مَا يَشْتَهِي مِنْ أَلْوَانِ الطَّعَامِ ، وَكُلَّمَا ذَكَرَ شَيْئًا مَدَّ الْمَزُورُ صَاحِبُ الدَّارِ يَدَهُ فَأَخْرَجَ صَحْنًا مِنْ تَحْتِ كُرْسِيٍّ أَوْ أَرِيكَةٍ بِجَانِبِهِ

مَمْلُوءًا بِذَلِكَ اللَّوْنِ وَهُوَ سُخْنٌ يَتَصَاعَدُ بُخَارُهُ ، حَتَّى ذَكَرَ عِدَّةَ أَلْوَانٍ لَا تَنَاسُبَ بَيْنَهَا وَلَمْ تَجْرِ عَادَةُ الْبَلَدِ بِالْجَمْعِ بَيْنَهَا ، وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ طُبِخَتْ وَوُضِعَتْ تَحْتَ ذَلِكَ الْكُرْسِيِّ وَبَقِيَتْ عَلَى حَرَارَتِهَا كُلَّ تِلْكَ الْمُدَّةِ ، فَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ يَعُدُّهَا بَعْضُ مَنْ ثَبَتَتْ رِوَايَتُهَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَوَارِقِ ، وَيَعُدُّهَا بَعْضُهُمْ مِنَ الشَّعْوَذَةِ وَالْحِيَلِ الَّتِي اكْتَشَفَ مِثْلَهَا ، وَهُوَ مَوْضُوعُ الْحِكَايَةِ الثَّانِيَةِ :

حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ كِبَارِ شُيُوخِ الطَّرِيقِ وَالْمَنَاصِبِ الْعِلْمِيَّةِ بِوَاقِعَةٍ وَقَعَتْ لِوَالِدِهِ ، وَكَانَ مُعْتَقِدًا مُحْتَرِمًا مَعَ رَجُلٍ غَرِيبٍ جَاءَ مَدِينَتَهُمْ وَظَهَرَ عَلَى يَدَيْهِ عِدَّةُ غَرَائِبَ عُدَّتْ مِنَ الْكَرَامَاتِ .

(284/219)

وَقَالَ : إِنَّ وَالِدَهُ أَخَذَ هَذَا الرَّجُلَ مَرَّةً وَطَافَ فِي ضَوَاحِي الْبَلَدِ مُدَّةً طَوِيلَةً انْتَهَوْا فِي آخِرِهَا إِلَى الْمَقْبَرَةِ الَّتِي دُفِنَ فِيهَا أَجْدَادُهُمْ فَزَارُوا قُبُورَهُمْ وَاسْتَرَاحُوا هُنَالِكَ وَشَكَوْا مَا عَرَضَ لَهُمْ مِنَ الْجُوعِ بِطُولِ الْمَشْيِ ، فَأَظْهَرَ وَالِدُ مُحَدِّثِي لِلشَّيْخِ الْغَرِيبِ أَنَّهُ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَسْتَضِيفُوا أَجْدَادَهُ السَّادَةَ الْكِرَامَ ، ثُمَّ نَادَى أَحَدُهُمْ وَاسْتَجْدَاهُ وَدَسَّ يَدَهُ فِي تُرَابِ قَبْرِهِ فَأَخْرَجَ مِنْهُ صَحْفَةً فِيهَا عِدَّةُ مُكَرَّشَاتٍ (كُرُوشِ غَنَمٍ مَطْبُوخَةٍ وَهِيَ

مَحْشُوَّةٌ بالرُّزِّ وَاللَّحْمِ وَالصَّنَوْبَرِ) فَأَكَلُوا مِنْهَا فَإِذَا هِيَ حَارَّةٌ ، وَقَدِ اسْتَطَابَهَا الرَّجُلُ الْغَرِيبُ جِدًّا حَتَّى تَوَهَّمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ طَعَامِ الدُّنْيَا ، وَلَا أَذْكُرُ أَكَانَ اخْتِيَارُ هَذِهِ الْأَكْلَةِ وَإِخْرَاجُهَا بِاقْتِرَاحِ الرَّجُلِ نَفْسِهِ أَمْ بِاقْتِرَاحِ غَيْرِهِ وَإِنَّمَا أَظُنُّ ظَنًّا قَوِيًّا أَنَّهَا اقْتُرِحَتْ .

(285/219)

قَالَ مُحَدِّثِي : وَسِرُّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ وَالِدِي أَمَرَ قَبْلَ خُرُوجِهِ بِأَنْ تُطْبَخَ عِنْدَنَا هَذِهِ الْمُكَرَّشَاتُ وَيَأْخُذَهَا أَحَدُ الْخَدَمِ أَوِ الْمُرَبِّينَ (الشَّكُّ مِنِّي) فَيَدْفِنُهَا فِي ذَلِكَ الْقَبْرِ فِي صَحْفَةٍ مُغَطَّاةٍ بِحَيْثُ تَبْقَى سُخْنَةً وَلَا يُصِيبُهَا تُرَابٌ ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِاخْتِبَارِ الرَّجُلِ وَحَمْلِهِ إِيَّاهُ عَلَى مُكَاشَفَتِهِ بِحَقِيقَةِ مَا يَعْمَلُهُ مِنَ الْغَرَائِبِ فِي مُقَابَلَةِ إِخْبَارِهِ إِيَّاهُ بِسِرِّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا أَتَذَكَّرُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّنِي سَمِعْتُ هَذِهِ الْقِصَّةَ فِي أَوَائِلِ الْعَهْدِ بِطَلَبِ الْعِلْمِ .

(286/219)

فَأَمْثَالُ هَذِهِ الْوَقَائِعِ الَّتِي يَعْهَدُهَا النَّاسُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ حِيَلٌ أَوْ صِنَاعَةٌ تَتَلَقَّى بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّمْرِينِ هِيَ الَّتِي حَمَلَتْ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى الشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ فِي آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى تَسْمِيَتِهَا سِحْرًا مُبِينًا ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى التَّثَبُّتِ فِيهَا لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَهُوَ مَا طَلَبَهُ الْحَوَارِيُّونَ لِأَجْلِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ الَّذِي تَطْمَئِنُّ بِهِ قُلُوبُهُمْ وَتَقُومُ بِهِ حُجَّتُهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ ، عَلَى مَا اخْتَرْنَاهُ مَعَ الْجُمْهُورِ مِنْ صِحَّةِ إِيمَانِهِمْ قَبْلَ طَلَبِ الْمَائِدَةِ ، أَوْ لِأَجْلِ تَحْصِيلِ الْيَقِينِ فِي الْإِيمَانِ بَعْدَ التَّسْلِيمِ فِي الظَّاهِرِ كَمَا اخْتَارَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُ ؛ وَلِهَذِهِ الْحِكْمَةِ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى الْآيَةَ الْكُبْرَى لِرِسَالَةِ خَاتَمِ رُسُلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِلْمِيَّةً حَتَّى لَا يَبْقَى مَجَالٌ لِارْتِيَابِ أَحَدٍ مِنْ طُلَّابِ الْحَقِّ الْمُخْلِصِينَ فِيهَا ، وَهِيَ إِتْيَانُ رَجُلٍ أُمِّيٍّ عَاشَ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ إِلَى سِنِّ الْكُهُولَةِ بِكِتَابٍ فِيهِ أَعْلَى الْعُلُومِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ وَالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ لَمْ يَقْرَأْ هُوَ وَلَا قَوْمُهُ عَنْهُمْ شَيْئًا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ الَّتِي ظَهَرَ صِدْقُهَا فِي زَمَنِهِ وَبَعْدَ زَمَنِهِ بِبَلَاغَةٍ عَجَزَ الْبُلَغَاءُ عَنْ مِثْلِهَا ، وَأُسْلُوبٍ أَشَدَّ إِعْجَازًا كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(287/219)

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) فَمَعْنَاهُ وَارْزُقْنَا مِنْهَا أَوْ مِنْ غَيْرِهَا مِمَّا تَتَغَذَّى بِهِ أَجْسَامُنَا أَيْضًا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِحِسَابٍ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَمِنْ مَحَاسِنِهِ أَنَّهُ أَخَّرَ فَائِدَةَ الْمَائِدَةِ الْمَادِّيَّةَ عَنْ ذِكْرِ فَائِدَتِهَا الدِّينِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ

أَوْ مَعْنَاهَا وَارْزُقْنَا الشُّكْرَ عَلَيْهَا ، وَرُبَّمَا يُقَوِّيهِ إِنْذَارُ اللهِ مَنْ يَكْفُرُ بَعْدَ إِنْزَالِهَا إِذْ قَالَ :

(288/219)

(قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ) قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَنَافِعٌ مُنَزِّلُهَا بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّنْزِيلِ الْمُفِيدِ لِلتَّكْثِيرِ أَوِ التَّدْرِيجِ ، وَالْبَاقُونَ مُنْزِلُهَا بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الْإِنْزَالِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُمَا هُنَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، أَيْ وَعَدَ اللهُ عِيسَى بِتَنْزِيلِهَا عَلَيْهِمْ مَرَّةً أَوْ مِرَارًا ، وَلَكِنَّهُ رَتَّبَ عَلَى هَذَا الْوَعْدِ شَرْطًا أَيُّ شَرْطٍ . فَقَالَ : (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) الْفَاءُ لِتَرْتِيبِ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا ، مِثْلَ (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) (108 : 1 ، 2) وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ يَكْفُرُ مِنْهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ الِاشْتِبَاهَ وَلَا التَّأْوِيلَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا لَا يُعَذِّبُ مِثْلَهُ أَحَدًا مِنْ سَائِرِ كُفَّارِ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ أَوْ عَالَمِي أُمَّتِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يُعْطَوْا مِثْلَ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَإِنَّمَا يُعَاقِبُ الْخَاطِئَ وَالْكَافِرَ

بِقَدْرِ تَأْثِيرِ الْخَطِيئَةِ أَوِ الْكُفْرِ ، وَالْبُعْدِ فِيهِ عَنِ الشُّبْهَةِ وَالْعُذْرِ ، وَمَا أُعْطِيَ مِنْ مُوجِبَاتِ الشُّكْرِ ، وَأَيُّ شُبْهَةٍ أَوْ عُذْرٍ لِمَنْ يَرَى الْآيَاتِ مِنْ رَسُولِهِ ثُمَّ يَقْتَرِحُ آيَةً بَيِّنَةً عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ تَشْتَرِكُ فِي الْعِلْمِ بِهَا جَمِيعُ حَوَاسِّهِ ، وَيَنْتَفِعُ بِهَا فِي دُنْيَاهُ قَبْلَ آخِرَتِهِ فَيُعْطَى مَا طَلَبَ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ ثُمَّ يَنْكِصُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَكُونُ مِنَ الْكَافِرِينَ .

(289/219)

وَقَدِ اخْتَلَفَ مُفَسِّرُو السَّلَفِ فِي الْمَائِدَةِ ، أَنَزَلَتْ بِالْفِعْلِ أَمْ لَا ؟ فَرُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهَا نَزَلَتْ ، وَاخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي الطَّعَامِ الَّذِي نَزَلَ أَيْ أُعْطِيَ عَلَى وَجْهِ الْمُعْجِزَةِ مِنَ اللهِ فَأَبْهَمَهُ بَعْضُهُمْ ، وَقِيلَ : هُوَ خُبْزٌ وَسَمَكٌ ، وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْخُبْزَ مِنَ الشَّعِيرِ ، وَقِيلَ : خُبْزٌ وَلَحْمٌ ، وَقِيلَ : مِنْ ثِمَارٍ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَقِيلَ : كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا اللَّحْمَ . وَقِيلَ : كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ طَعَامٌ أَيْنَمَا ذَهَبُوا كَمَا كَانَ يَنْزِلُ الْمَنُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَا يَصِحُّ مِنْ أَسَانِيدِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ شَيْءٌ ؛ وَلِذَلِكَ رَجَّحَ ابْنُ جَرِيرٍ نُزُولَهَا إِنْجَازًا لِلْوَعْدِ وَأَنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا مَأْكُولٌ لَا نُعَيِّنُهُ ، بَلْ قَالَ : غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ سَمَكًا وَخُبْزًا ، وَقَالَ : إِنَّ الْعِلْمَ بِهِ لَا يَنْفَعُ وَالْجَهْلَ بِهِ لَا يَضُرُّ وَنَقُولُ إِذًا : إِنَّهُ يُصَدَّقُ بِمِثْلِ مَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التِّيهِ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي يَجْمَعُونَهُ عَنِ الْحِجَارَةِ وَوَرَقِ الشَّجَرِ ، وَعِبَارَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ وَابْنِ الْأَنْبَارِيِّ فِي كِتَابِ الْأَضْدَادِ مِنْ

طَرِيقِ عِكْرِمَةَ : كَانَ طَعَامًا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ حَيْثُمَا نَزَلُوا ، وَيُصَدِّقُ بِمَا يَأْتِي عَنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا مِنْ إِطْعَامِ الْأُلُوفِ فِي عِيدِ الْفِصْحِ مِنْ خَمْسَةِ أَرْغِفَةٍ وَسَمَكَتَيْنِ أَكَلَ مِنْهَا أَوَّلُ ذَلِكَ الْجَمْعِ كَآخِرِهِ .

(290/219)

وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ أَلْبَتَّةَ . قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ : وَقَالَ قَائِلُونَ إِنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ ، فَرَوَى لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : (أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) قَالَ : هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَنْزِلْ شَيْءٌ . رَوَاهُ ابْنُ حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ .

حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ هُوَ ابْنُ سَلَّامٍ حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : مَائِدَةً عَلَيْهَا طَعَامٌ ، وَعَنْهُ قَالَ : أَبَوْهَا حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ إِنْ كَفَرُوا فَأَبَوْا أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَيْضًا : حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ مَنْصُورِ بْنِ زَاذَانَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ فِي الْمَائِدَةِ : إِنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ . وَحَدَّثَنَا بِشْرٌ حَدَّثَنَا يَزِيدُ ، وَحَدَّثَنَا سَعِيدُ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ : لَمَّا قِيلَ لَهُمْ : (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) قَالُوا : لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهَا فَلَمْ تَنْزِلْ . وَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ إِلَى مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ ، وَقَدْ يَتَقَوَّى ذَلِكَ بِأَنَّ خَبَرَ الْمَائِدَةِ لَا تَعْرِفُهُ النَّصَارَى وَلَيْسَ هُوَ فِي كِتَابِهِمْ

، وَلَوْ كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ لَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تُوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ ، وَكَانَ يَكُونُ مَوْجُودًا فِي كِتَابِهِمْ بِالتَّوَاتُرِ وَلَا أَقَلَّ مِنَ الْآحَادِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ . ثُمَّ ذَكَرَ الْحَافِظُ رَأْيَ الْجُمْهُورِ وَتَرْجِيحَ ابْنِ جَرِيرٍ لَهُ .

(291/219)

وَذَكَرَ الرَّازِيُّ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا بِنَفْيِ نُزُولِهَا احْتَجُّوا عَلَيْهِ بِوَجْهَيْنِ ذَكَرَهُمَا وَأَجَابَ عَنْهُمَا فَقَالَ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ : (أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) اسْتَغْفَرُوا وَقَالُوا : لَا نُرِيدُهَا . (وَالثَّانِي) أَنَّهُ وَصَفَ الْمَائِدَةَ بِكَوْنِهَا عِيدًا لِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ، فَلَوْ نَزَلَتْ لَبَقِيَ ذَلِكَ الْعِيدُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَبَعْدَ ذِكْرِ قَوْلِ الْجُمْهُورِ بِنُزُولِهَا لِوُجُوبِ إنْجَازِ الْوَعْدِ الْجَازِمِ غَيْرِ الْمُعَلَّقِ ، قَالَ : وَالْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ أَنَّ قَوْلَهُ : (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ) شَرْطٌ وَجَزَاءٌ لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِقَوْلِهِ : (إنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ) وَالْجَوَابُ عَنِ الثَّانِي أَنَّ يَوْمَ نُزُولِهَا كَانَ عِيدًا لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ كَانَ عَلَى شَرْعِهِمْ اهـ .

أَقُولُ : أَمَّا جَوَابُهُ عَنِ الْحُجَّةِ الْأُولَى فَفِي غَيْرِ مَحَلِّهِ لِوَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ خَبَرٍ إنْ صَحَّ لَا تُرَدُّ صِحَّتُهُ بِكَوْنِ جُمْلَةِ الْوَعِيدِ الشَّرْطِيَّةِ غَيْرَ مُتَعَلِّقَةٍ بِجُمْلَةِ الْوَعْدِ إلَّا إذَا قَالَهُ هَذَانِ التَّابِعِيَّانِ الْأَجِلَّاءُ مِنْ قَبِيلِ التَّفْسِيرِ بِالرَّأْيِ ، وَالْأَقْرَبُ أَنَّ لَهُ عِنْدَهُمَا أَصْلًا مَرْفُوعًا

، فَالْأَوْلَى أَنْ يُحْمَلَ عَلَى وَجْهٍ يَتَّفِقُ مَعَ صِدْقِ الْوَعْدِ ، وَهُوَ (الْوَجْهُ الثَّانِي) وَذَلِكَ بِأَنْ يُقَالَ : إِنَّ جُمْلَةَ الْوَعِيدِ مُرَتَّبَةٌ عَلَى جُمْلَةِ الْوَعْدِ لِعَطْفِهَا عَلَيْهَا بِالْفَاءِ كَمَا بَيَّنَّاهُ

(292/219)

آنِفًا ، وَهَذَا التَّرْتِيبُ كَافٍ لِحَمْلِ الْحَوَارِيِّينَ عَلَى تَرْكِ طَلَبِهَا بَلْ طَلَبِ الِاسْتِقَامَةِ مِنْ إِنْزَالِهَا .

وَمَا كَانَ مِثْلَ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ مِنْ أَئِمَّةِ التَّفْسِيرِ لِيَخْفَى عَلَيْهِمْ أَنَّ الْوَعْدَ غَيْرُ مُعَلَّقٍ بِشَرْطٍ وَأَنَّهُ إِنَّمَا جَعَلَ الْوَعِيدَ مُرَتَّبًا عَلَيْهِ تَرْتِيبًا ، وَلَكِنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ هَذَا سَبَبٌ كَافٍ فِي عَدَمِ مُعَارَضَةِ الْوَعْدِ لِمَا رَوَوْهُ مِنْ تَنَصُّلِ الْقَوْمِ وَاسْتِقَالَتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الطَّلَبِ وَإِقَالَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ مِنْهُ .

وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ عَدَمُ إِنْزَالِهَا إِخْلَافًا لِلْوَعْدِ ، فَإِنَّ مَنْ وَعَدَ غَيْرَهُ بِشَيْءٍ وَأَرَادَ أَنْ يُنْجِزَهُ لَهُ مُرَتَّبًا عَلَيْهِ تَكْلِيفًا أَوْ تَخْوِيفًا حَمَلَ الْمَوْعُودَ عَلَى عَدَمِ الْقَبُولِ لَا يُسَمَّى مُخْلِفًا .

وَأَمَّا جَوَابُهُ عَنِ الْحُجَّةِ الثَّانِيَةِ فَهُوَ دَعْوَى تَحْتَاجُ إِلَى إِثْبَاتٍ إِذْ لَا يَثْبُتُ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ أَتْبَاعِ

(293/219)

الْمَسِيحِ عِيدٌ لِلْمَائِدَةِ إلَّا بِنَصٍّ عَنِ الْمَعْصُومِ أَوْ نَقْلٍ يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ تَارِيخِهِمْ ، وَسَيَأْتِي مَا عِنْدَ النَّصَارَى مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَيْسَ بَعِيدٍ لِيَوْمِ نُزُولِ الْمَائِدَةِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الرَّازِيَّ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ يُعْلَمُ مَا فِي قَوْلِ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ : إنَّ النَّصَارَى لَا تَعْرِفُ خَبَرَ الْمَائِدَةِ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي كِتَابِهِمُ الْمُقَدَّسِ عِنْدَهُمْ ، نَعَمْ إنَّ كِتَابَهُمْ أَوْ كُتُبَهُمْ لَيْسَ لَهَا أَسَانِيدُ مُتَّصِلَةٌ لَا بِالتَّوَاتُرِ وَلَا بِالْآحَادِ ، وَلَكِنْ يُقَالُ مَعَ ذَلِكَ : إنَّهُ لَوْ كَانَ لِسَلَفِهِمْ عِيدٌ عَامٌّ لِلْمَائِدَةِ لَكَانَ مِنَ الشَّعَائِرِ الَّتِي تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهَا بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيُجَابُ بِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْعِيدِ اجْتِمَاعَ الْحَوَارِيِّينَ وَأَمْثَالِهِمْ لِصَلَاةٍ وَنَحْوِهَا كَمَا قِيلَ ، فَإِنَّ هَذَا يَجُوزُ أَنْ يُنْسَى لِإِخْفَائِهِمْ إيَّاهُ فِي زَمَنِ الِاضْطِهَادِ ، أَوْ بِأَنَّ الَّذِينَ أَظْهَرُوا النَّصْرَانِيَّةَ بَعْدَ اسْتِخْفَاءِ أَهْلِهَا بِالِاضْطِهَادِ لَا يَدْخُلُونَ عُمُومَ قَوْلِهِ : (وَآخِرِنَا) لِأَنَّهُمْ بَدَّلُوا وَهُوَ الَّذِي أَجَابَ بِهِ الرَّازِيُّ ، أَوْ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْعِيدِ الذِّكْرَى وَالْمَوْعِظَةُ لِمُؤْمِنِيهِمُ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(294/219)

وَيَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْعِيدُ بِغَيْرِ اسْمِ الْمَائِدَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ : (تَكُونُ لَنَا عِيدًا) تَكُونُ طَعَامًا لِلْعِيدِ ، وَهُوَ يُصَدَّقُ بِإِطْعَامِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ مِنَ الْخُبْزِ وَالسَّمَكِ الْقَلِيلِ فِي عِيدِ الْفِصْحِ كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا .

ثُمَّ إِنَّ كُتُبَ النَّصَارَى مِنَ الْأَنَاجِيلِ وَغَيْرِهَا قِسْمَانِ : أَحَدُهُمَا قَانُونِيٌّ وَهُوَ مَا أَقَرَّتْهُ الْكَنِيسَةُ وَاعْتَمَدَتْهُ ، وَالثَّانِي غَيْرُ قَانُونِيٍّ وَهُوَ مَا رَفَضَتْهُ الْكَنِيسَةُ وَلَمْ تَعْتَمِدْهُ ، وَمِنْهُ إِنْجِيلُ بِرْنَابَا الَّذِي صَرَّحَ فِيهِ بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالْبِشَارَةِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْجِيلِ الطُّفُولِيَّةِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ مَسْأَلَةَ جَعْلِهِ هَيْئَةً مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ نَفَخَ فِيهَا فَطَارَتْ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرُ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي بَعْضِ الْأَنَاجِيلِ الَّتِي رَفَضَتْهَا الْكَنِيسَةُ وَفُقِدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقَدْ صَرَّحَ يُوحَنَّا فِي إِنْجِيلِهِ بِأَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي عَمِلَهَا الْمَسِيحُ كَثِيرَةٌ لَوْ كُتِبَتْ كُلُّهَا لَا يَسَعُ الْعَالَمَ الْكُتُبُ الْمَكْتُوبَةُ ، وَإِنَّا نَرَى بَعْضَ أَصْحَابِ الْأَنَاجِيلِ الْأَرْبَعَةِ الْمُعْتَمَدَةِ كَتَبَ مِنْهَا مَا لَمْ يَكْتُبْهُ الْآخَرُونَ .

(295/219)

وَقَدْ صَرَّحُوا بِأَنَّ أَكْثَرَ كَلَامِ الْمَسِيحِ كَانَ أَمْثَالًا وَرُمُوزًا ، وَيَعُدُّونَ مِنْ هَذِهِ الرُّمُوزِ كُلَّ مَا وَرَدَ مِنْ خَبَرِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ فِي الْمَلَكُوتِ ، وَكَذَلِكَ بَعْضُ النُّصُوصِ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ فِي الدُّنْيَا ، فَمَا يُدْرِينَا أَنَّهُمْ أَشَارُوا إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ بِبَعْضِ التَّأْوِيلَاتِ حَسَبَ فَهْمِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ ، إِذْ كَانُوا يَنْقُلُونَ ذَلِكَ بِالْمَعْنَى ثُمَّ نُقِلَ عَنْهُمْ بِالتَّرْجَمَةِ ، وَقَدْ فُقِدَتِ الْأُصُولُ وَلَا يُعْلَمُ عَنْهَا شَيْءٌ يَقِينِيٌّ كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ بِالنُّقُولِ عَنْهُمْ .

وَأَنَا أَذْكُرُ هُنَا مَا فِي هَذِهِ الْأَنَاجِيلِ بِمَعْنَى قِصَّةِ الْمَائِدَةِ . جَاءَ فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ السَّادِسِ مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَهَبَ إِلَى بَحْرِ الْجَلِيلِ (بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ) وَتَبِعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ لِأَنَّهُمْ آيَاتُهُ ، فَصَعِدَ إِلَى جَبَلٍ وَجَلَسَ هُنَاكَ مَعَ تَلَامِيذِهِ . وَهُمُ الْحَوَارِيُّونَ قَالَ يُوحَنَّا :

(296/219)

(4 وَكَانَ الْفِصْحُ عِيدَ الْيَهُودِ قَرِيبًا 5 فَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ أَنَّ جَمْعًا كَثِيرًا مُقْبِلٌ إِلَيْهِ فَقَالَ لِفِيلِبُّسَ : مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزًا لِيَأْكُلَ هَؤُلَاءِ ؟ 6 وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِيَمْتَحِنَهُ لِأَنَّهُ هُوَ عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَ 7 أَجَابَهُ فِيلِبُّسُ لَا يَكْفِيهِمْ خُبْزٌ بِمِائَتَيْ دِينَارٍ لِيَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْئًا يَسِيرًا 8 قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ وَهُوَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ بُطْرُسَ 9 هُنَا غُلَامٌ مَعَهُ خَمْسَةُ أَرْغِفَةِ شَعِيرٍ وَسَمَكَتَانِ وَلَكِنْ مَا هَذَا لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ 10 فَقَالَ يَسُوعُ اجْعَلُوا النَّاسَ يَتَّكِئُونَ ، وَكَانَ فِي الْمَكَانِ عُشْبٌ كَثِيرٌ فَاتَّكَأَ الرِّجَالُ وَعَدَدُهُمْ خَمْسَةُ آلَافٍ 11 وَأَخَذَ يَسُوعُ الْأَرْغِفَةَ وَشَكَرَ وَوَزَّعَ عَلَى التَّلَامِيذِ ، وَالتَّلَامِيذُ عَلَى الْمُتَّكِئِينَ ، وَكَذَلِكَ كُلٌّ مِنَ السَّمَكَتَيْنِ بِقَدْرِ مَا شَاءُوا) .

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ الْمَسِيحَ عَاتَبَ التَّلَامِيذَ عَلَى الشِّبَعِ مِنْ ذَلِكَ الْخُبْزِ وَقَالَ (27 اعْمَلُوا لَا لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي ، لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ الَّتِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الْإِنْسَانِ لِأَنَّ هَذَا اللهَ الْآبَ قَدْ

خَتَمَهُ 28 فَقَالُوا لَهُ مَاذَا نَفْعَلُ حَتَّى نَعْمَلَ أَعْمَالَ اللهِ 29 أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ هَذَا هُوَ
عَمَلُ اللهِ أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ 30 فَقَالُوا لَهُ فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ مَاذَا تَعْمَلُ
؟ 31 آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ

(297/219)

خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا 32 فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ
الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ 33 لأَنَّ خُبْزَ اللهِ هُوَ النَّازِلُ
مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ 34 فَقَالُوا أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هَذَا الْخُبْزَ 35 فَقَالَ لَهُمْ
يَسُوعُ أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَدًا 36 وَلَكِنَّنِي
قُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُونِي وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ) إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ وَفِيهَا تَكْرَارُ أَنَّهُ هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ
النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ لَا الْمَنُّ الَّذِي نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِمْ ، وَأَنَّ مَنْ يَأْكُلُ جَسَدَهُ وَيَشْرَبُ دَمَهُ فَلَهُ
الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ لأَنَّهُ يَثْبُتُ فِيهِ .

(298/219)

فَهَذِهِ الْقِصَّةُ أَوَّلُهَا فِي الْمَائِدَةِ الْمَادِّيَّةِ ، وَآخِرُهَا فِي الْمَائِدَةِ الرُّوحِيَّةِ ، وَهِيَ قَدْ وَقَعَتْ فِي عِيدِ الْفِصْحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَى الْيَوْمِ ، وَلَا يَزَالُ النَّصَارَى يَحْتَفِلُونَ بِهِ وَيَأْكُلُونَ فِيهِ خُبْزًا وَيَشْرَبُونَ خَمْرًا بِاسْمِ الْمَسِيحِ وَيُسَمُّونَهُ الْعَشَاءَ الرَّبَّانِيَّ . فَهَذَا تَحْرِيفٌ مِنْهُمْ لِهَذِهِ الْآيَةِ بَيَّنَ اللهُ أَصْلَهُ عِنْدَهُمْ ، وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ أَنَّ الْقُرْآنَ مُهَيْمِنٌ عَلَى كُتُبِهِمْ ، فَمَا حَكَاهُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ فَهُوَ الْحَقُّ الْيَقِينُ ، وَمَا نَفَاهُ فَهُوَ الْمَنْفِيُّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الثُّبُوتَ ، وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ يُوحَنَّا يُثْبِتُ هُنَا أَنَّ التَّلَامِيذَ قَالُوا لِلْمَسِيحِ بَعْدَ مَا رَأَوْا إِطْعَامَهُ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ مِنَ الطَّعَامِ الْقَلِيلِ أَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ : إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُونِي وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ . فَهَذَا يُوَافِقُ قَوْلَ مَنْ قَالَ : إِنَّهُمْ سَأَلُوا امْتِحَانًا وَلَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ حَقًّا كَمَا ادَّعَوْا وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَتَيْنِ هُنَا ، وَإِنَّمَا اسْتَدْلَلْنَا عَلَى صِحَّةِ إِيمَانِهِمْ بِتَسْمِيَتِهِمْ حَوَارِيِّينَ وَبِمَا فِي آلِ عِمْرَانَ وَالصَّفِّ عَلَى أَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْهُمْ أَيْضًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالسَّرَائِرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 207.218 ﴾

(299/219)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾

وساعة يقول الحق : " إني " فهو يستخدم نون الإفراد . ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه . إنه ساعة يتحدث عن وحدانيته يأتي بنون الإفراد فيقول سبحانه : ﴿ إنني أَنَا الله ﴾ [طه : 14] .

وساعة يتحدث سبحانه وتعالى عن سيال القدرة الشاملة العامة لكل صفات الكمال التي تتطلب إيجاد الشيء يأتي بنون التعظيم فيقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

وهو سبحانه أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال : ﴿ قَالَ الله إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ . ذلك أن المائدة ستنزل من السماء ، ولا يقدر على ذلك إلا الله وحده سبحانه وتعالى .

ويتبع الحق ذلك بقوله : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين ﴾ . فسبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول : إن فلاناً بذاته من الرسل أفضل من فلان ؛ لأن الحق هو الأعلم برسله : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ . وعلينا أن نتبع الرسل ، وعندما حاول بعض من أهل الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كما يخبر القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ

نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : 31-32] .

(300/219)

وقال أهل الجاهلية : لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم من مكة أو من الطائف ؟ ! قالوا ذلك استهزاء بشأن محمد صلى الله عليه وسلم . وقال الحق سبحانه وتعالى في ذلك القول الفصل ، فليس لأحد أن يختار الرسول ؛ لأن الرسول مُصطفى من الله ، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولاً من أصحاب السلطان أو الجاه .

وسبحانه وتعالى يعد كل رسول الإعداد اللائق لمهمته ، ومقام الرسالة النبوية هو الأعلى في الدنيا والآخرة . والحق سبحانه – وهو المنظم لأمور خلقه – قسّم الموّاهب – رحمة منه – فيما بين العباد ليتساندوا ويتآزروا ويحتاج كل منهم إلى عمل الآخر . وحين يرسل سبحانه رسولاً فهو يختار الآية المناسبة له وللعصر الذي جاء فيه ، وما اقترح قوم آية وجاء بها الله ، ثم لم يؤمن الذين اقترحوا الآية بعد مجيئها إلاّ أنزل الحق سبحانه بهم العذاب الأليم .

وحين يطلب اتباع الرسول آيات معينة ، إنما يحمل هذا الطلب في طياته التفلّت والتحلل من الالتزام بمنهج الله ، كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول على الرغم من طلبهم

الآية ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَولون وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ [الإسراء : 59] .

وكذلك اقترح قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآيات غير آيات القرآن ، على الرغم من أن آيات القرآن تقنع كل من له عقل يفكر وقلب يحس ، وسنة الله مع الذين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهي العذاب الشديد ، ومثال ذلك قوم ثمود الذين طلبوا ناقة للدلالة على صدق رسالة صالح عليه السلام ، وعندما حدثت المعجزة كفروا بها فعاقبهم الله شر العقاب .

(301/219)

وبعض من قوم الرسول صلى الله عليه وسلم غالوا في طلب آيات غريبة : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السماء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 90-93] .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم رحيماً بآله وعشيرته ، لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التي أنزلها الله عليه ، وعيسى عليه السلام دعا بأدب الرسل أن ينزل المائدة . واختلف العلماء أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها ؟

إن هناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا ﴾ ، وهناك من قالوا : إن الحق سبحانه وضع شروطاً لنزول المائدة ، وهو إنزال العذاب بهم إن لم يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزالها ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا في مواصفاتها ، فمنهم من قال : إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس وقشور ولا شوك فيها . ذلك أنها مائدة من السماء ومعها خمسة أرغفة ، وعلى كل رغيف شيء مما يعرفون : رغيف عليه عسل ، وآخر عليه زيتون ، وثالث عليه سمن ، ورابع عليه جبن ، وخامس عليه قديد من اللحم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(302/219)

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا

وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) ﴾

هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: "سورة المائدة". وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة.

وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام: ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هذه قراءة كثيرين، وقرأ آخرون: "هل تَسْتَطيع ربَّك" أي: هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾.

والمائدة هي: الخوان عليه طعام. وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها، ويتقوون بها على العبادة.

قال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: فأجابهم المسيح، عليه السلام، قائلا لهم: اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين.

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أي : نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقًا لنا من السماء ﴿ وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي : ونزداد إيمانًا بك وعلمًا برسالتك ، ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ قال السُّدِّي : أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدًا نعظمه نحن ومَنْ بعدنا ، وقال سفيان الثوري : يعني يومًا نصلي فيه ، وقال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم ، وعن سلمان الفارسي : عظة لنا ولمن بعدنا . وقيل : كافية لأولنا وآخرنا .

﴿ وَآيَةً مِنْكَ ﴾ أي : دليلا تنصبه على قدرتك على الأشياء ، وعلى إجابتك دعوتي ، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ أي : من عندك رزقًا هنيئًا بلا كلفة ولا تعب ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ﴾ أي : فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : من عالمي زمانكم ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : 46] ، وكقوله : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء : 145] .

وقد روى ابن جرير ، من طريق عَوْف الأعرابي ، عن أبي المغيرة القوّاس ، عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون .

ذكر أخبار رُوِيَت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين :

قال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني حجاج ، عن لَيْث ، عن عقيل ، عن ابن عباس : أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يومًا ، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم ؟ فإن أجر العامل على من عمل له . ففعلوا ، ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يومًا ، ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يومًا إلا أطعمنا حين نَفْرُغ طعامًا ، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ

بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء ، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة ، حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

كذا رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وَهْبٍ ، عن الليث ، عن عُقَيْل ، عن ابن شِهاب ، قال : كان ابن عباس يحدث ، فذكر نحوه .

(305/219)

وقال ابن أبي حاتم أيضًا : حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا أبو زُرْعَة وهب الله بن راشد ، حدثنا عُقَيْل بن خالد ، أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس ؛ أن عيسى ابن مريم قالوا له : ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال : فنزلت الملائكة بمائدة يحملونها ، عليها سبعة أحوات ، وسبعة أرغفة ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن قَزْعَة الباهلي ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَة ، عن قتادة ، عن خِلاس ، عن عمار بن ياسر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "نزلت المائدة من السماء ، عليها خبز ولحم ، وأمروا أن لا

يخونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير"

وكذا رواه ابن جرير ، عن الحسن بن قَزْعَة (4) ثم رواه ابن جرير ، عن ابن بشار ، عن ابن أبي

---

(1) رواه الترمذي في السنن برقم (3061) وقال الترمذي : "هذا حديث قد رواه أبو عاصم وغير واحد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن خلاس ، عن عمار بن ياسر موقوفًا . ولا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث الحسن بن قزعة ، حدثنا حميد بن مسعدة ، حدثنا سفيان بن حبيب ، عن سعيد بن أبي عروبة نحوه ولم يرفعه ، وهذا أصح من حديث الحسن بن قزعة ، ولا نعلم للحديث المرفوع أصلا"

(306/219)

عَدِيّ ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن خلاس ، عن عمار ، قال : نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة ، فأمروا ألا يخونوا ولا يخبئوا ولا يدخروا . قال : فخان القوم وخَبَئوا وادخروا ، فمسخهم الله قردة وخنازير .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود ، عن سِمَاك بن حرب ، عن رجل من بني عجل ، قال : صليت إلى جنب عمار بن ياسر ، فلما فرغ قال :

هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل ؟ قال : قلت : لا قال : إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد ، قال : فقيل لهم : فإنها مقيمة لكم ما لم تَخْبَؤوا ، أو تخونوا ، أو ترفعوا ، فإن فعلتم فإني معذبكم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، قال : فما مضى يومهم حتى خبَّؤوا ورفعوا وخانوا ، فعذبوا عذابًا لم يعذبه أحد من العالمين . وإنكم – معشر العرب – كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء ، فبعث الله فيكم رسولا من أنفسكم ، تعرفون حسبه ونسبه ، وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم ، ونهاكم أن تكتنزوا الذهب والفضة . وأيم الله ، لا يذهب الليل والنهار حتى تكنزوهما ويعذبكم الله عذابًا أليمًا .

وقال : حدثنا القاسم ، حدثنا حسين ، حدثني حجاج ، عن أبي مَعْشَر ، عن إسحاق بن عبد الله ، أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم ، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ، يأكلون منها ما شاؤوا . قال : فسرق بعضهم منها وقال : "لعلها لا تنزل غدًا" . فرفعت .

وقال العَوْفِي ، عن ابن عباس : نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين ، خوان عليه خبز وسمك ، يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاؤوا . وقال خَصِيف ، عن عكرمة ومِقْسَم ، عن ابن عباس : كانت المائدة سمكة وأرغفة . وقال مجاهد : هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : نزلت المائدة خبزًا وسمكًا . وقال عطية العَوْفِي : المائدة سمك فيه طَعْمُ كل شيء .

وقال وَهْب بن مُنَبِّه : أنزلها من السماء على بني إسرائيل ، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة ، فأكلوا ما شاؤوا من ضروب شتى ، فكان يَقْعُدُ عليها أربعة آلاف ، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك لمثلهم . فلبثوا على ذلك ما شاء الله عز وجل .

وقال وهب بن مُنَبِّه : نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات ، وحشا الله بين أضعافهن البركة ، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ، ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون ، حتى أكل جميعهم وأفضلوا .

وقال الأعمش ، عن مسلم ، عن سعيد بن جبير : أنزل عليها كل شيء إلا اللحم .

وقال سفيان الثوري ، عن عطاء بن السائب ، عن زاذان ومَيْسَرَة ، وجرير ، عن عطاء ، عن ميسرة

قال : كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام إلا اللحم .

وعن عكرمة : كان خبز المائدة من الأرز . رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا جعفر بن علي فيما كتب إليّ ، حدثنا إسماعيل بن أبي أُوَيْس ، حدثني أبو عبد الله عبد القدوس بن إبراهيم بن عبيد الله بن مِرْدَاس العبدري – مولى بني

عبد الدار – عن إبراهيم بن عمر ، عن وهب بن منبه ، عن أبي عثمان النَّهْدِي ، عن سلمان الخير ؛ أنه قال : لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة ، كره ذلك جدا وقال : اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ، ولا تسألوا المائدة من السماء ، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم ، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية ، فابتلوا بها حتى كان بَوَارهم فيها . فأبوا إلا أن يأتيهم بها ، فلذلك قالوا : ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ الآية .

(308/219)

فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها ، قام فألقى عنه الصوف ، ولبس الشعر الأسود ، وجبة من شعر ، وعباءة من شعر ، ثم توضأ واغتسل ، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله ، فلما قضى صلاته قام قائمًا مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا ، فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع ، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره ، وغض بصره ، وطأطأ رأسه خشوعًا ، ثم أرسل عينيه بالبكاء ، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه ، فلما رأى ذلك دعا الله فقال : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ فأنزل الله عليهم سُفْرَة حمراء بين غمامتين : غمامة فوقها وغمامة تحتها ، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من

فلك السماء تهوي إليهم ، وعيسى يبكي خوفاً للشروط التي أتخذها الله عليهم – فيها : أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين – وهو يدعو الله من مكانه ويقول : اللهم اجعلها رحمة ، إلهي لا تجعلها عذابًا ، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني ، إلهي اجعلنا لك شَكَّارين ، إلهي أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضبًا وجزاء ، إلهي اجعلها سلامة وعافية ، ولا تجعلها فتنة ومثلة .

(309/219)

فما زال يدعو حتى استقرت السُّفْرة بين يدي عيسى ، والحواريين وأصحابه حوله ، يَجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط ، وخَرَّ عيسى والحواريون لله سجدًا شكرًا بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة ، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمرًا عجيبًا أورثهم كمدًا وغمًا ، ثم انصرفوا بغيظ شديد وأقبل عيسى . والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة ، فإذا عليها منديل مغطى . قال عيسى : من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة ، وأوثقنا بنفسه ، وأحسننا بلاء عند ربه ؟ فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ، ونحمد ربنا ، ونذكر باسمه ، ونأكل من رزقه الذي رزقنا . فقال الحواريون : يا روح الله وكلمته ، أنت أولانا

بذلك ، وأحقنا

بالكشف عنها . فقام عيسى ، عليه السلام ، واستأنف وضوءًا جديدًا ، ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات ، ثم بكى بكاء طويلا ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها ، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقًا . ثم انصرف فجلس إلى السفرة وتناول المنديل ، وقال : "باسم الله خير الرازقين" ، وكشف عن السفرة ، فإذا هو عليها سمكة ضخمة مشوية ، ليس عليها بواسير ، وليس في جوفها شوك ، يسيل السمن منها سيلا قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث ، وعند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وحول البقول خمسة أرغفة ، على واحد منها زيتون ، وعلى الآخر ثمرات ، وعلى الآخر خمس رمانات .

(310/219)

فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى : يا روح الله وكلمته ، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟ فقال : أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات ، وتنتهوا عن تنقير المسائل ؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب نزول هذه الآية ! فقال شمعون : وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالا يا ابن الصِّدِّيقة . فقال عيسى ، عليه السلام : ليس شيء مما ترون من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا ، إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة العالية القاهرة ، فقال له :

كن . فكان أسرع من طرفة عين ، فكلوا مما سألتم باسم الله واحمدوا عليه ربكم يُمدكم منه ويَزدكم ، فإنه بديع قادر شاكر .

فقالوا : يا روح الله وكلمته ، إنا نحب أن تُرينا آية في هذه الآية . فقال عيسى : سبحان الله ! أما اكتفيتم بما رأيتم في هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى ؟ ثم أقبل عيسى ، عليه السلام ، على السمكة ، فقال : يا سمكة ، عودي بإذن الله حية كما كنت . فأحياها الله بقدرته ، فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية ، تَلَمَّظ كما يتلمظ الأسد ، تدور عيناها لها بصيص ، وعادت عليها بواسيرها . ففزع القوم منها وانحازوا . فلما رأى عيسى ذلك منهم قال : ما لكم تسألون الآية ، فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون ! يا سمكة ، عودي بإذن الله كما كنت . فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول .

(311/219)

فقالوا لعيسى : كن أنت يا روح الله الذي تبدأ بالأكل منها ، ثم نحن بعد فقال عيسى : معاذ الله من ذلك ! يبدأ بالأكل من طلبها . فلما رأى الحواريون وأصحابهم امتناع نبيهم منها ، خافوا أن يكون نزولها سَخْطة وفي أكلها مَثُلةً ، فتحاموها . فلما رأى ذلك عيسى دعا لها

الفقراء والزَّمْنى ، وقال : كلوا من رزق ربكم ، ودعوة نبيكم ، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم ، فيكون مَهْنَؤُها لكم ، وعقوبتها على غيركم ، وافتتحوا أكلكم باسم الله ، واختموه بحمد الله ، ففعلوا ، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة ، يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيئته إذ أنزلت من السماء ، لم ينتقص منها شيء ، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون ، فاستغنى كل فقير أكل منها ، وبرئ كل زَمِنٍ أكل منها ، فلم يزالوا أغنياء صِحَاحًا حتى خرجوا من الدنيا .

وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة ، سالت منها أشفارهم ، وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات ، قال : فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون يزاحم بعضهم بعضاً : الأغنياء والفقراء ، والصغار والكبار ، والأصحاء والمرضى ، يركب بعضهم بعضاً . فلما رأى ذلك جعلها نوائب ، تنزل يومًا ولا تنزل يومًا . فلبثوا في ذلك أربعين يومًا ، تنزل عليهم غِبًّا عند ارتفاع الضُحَى فلا تزال موضوعة يؤكل منها ، حتى إذا قاموا ارتفعت عنهم . بإذن الله إلى جو السماء ، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم .

(312/219)

قال : فأوحى الله إلى نبيه عيسى ، عليه السلام ، أن اجعل رزقي المائدة لليتامى والفقراء والزَّمنَى دون الأغنياء من الناس ، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس ، وغَمطُوا ذلك ، حتى شَكُّوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس ، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر ، وأدرك الشيطان منهم حاجته ، وقذف وسواسه في قلوب المرتابين حتى قالوا لعيسى : أخبرنا عن المائدة ، ونزولها من السماء أحق ، فإنه قد ارتاب بها بشر منا كثير ؟ فقال عيسى ، عليه السلام : هلكتم وإله المسيح ! طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم ، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقًا ، وأراكم فيها الآيات والعبَر كذَّبْتم بها ، وشككتم فيها ، فأبشروا بالعذاب ، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله .

وأوحى الله إلى عيسى : إني آخذ المكذبين بشرطي ، فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين . قال فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين ، فلما كان في آخر الليل مسخهم الله خنازير ، فأصبحوا يتبعون الأقذار في الكناسات .

هذا أثر غريب جدًا . (1) قَطَّعَه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة ، وقد جمعته أنا له ليكون سياقه أتم وأكمل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل ، أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي

مُنزلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ الآية .

---

(1) ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول كما في تفسير القرطبي(369/6) من طريق زكريا بن حكيم ، عن على بن زيد بن جدعان ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان بنحوه ، وقال القرطبي : "وفي هذا الحديث مقال ولا يصح من جهة إسناده" .

(313/219)

وقد قال قائلون : إنها لم تنزل . فروى لَيْث بن أبي سليم ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أَنزلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ قال : هو مثل ضُرب ، ولم ينزل شيء .

رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير . ثم قال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا القاسم – هو ابن سلام – حدثنا حجاج ، عن ابن جُرَيْج ، عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام ، أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تَنزل عليهم .

وقال أيضاً : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور بن زاذان ، عن الحسن ؛ أنه قال في المائدة : لم تنزل .

وحدثنا بِشْر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قالوا : لا

حاجة لنا فيها ، فلم تنزل .

وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجودًا في كتابهم متواترًا ، ولا أقل من الآحاد ، والله أعلم . ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت ، وهو الذي اختاره ابن جرير ، قال : لأنه تعالى أخبر بنزولها بقوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : ووعد الله ووعيده حق وصدق .

(314/219)

وهذا القول هو – والله أعلم – الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم . وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب ، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر ، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، باني جامع دمشق ، فمات وهي في الطريق ، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فرآها الناس وتعجبوا منها كثيرًا لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة . ويقال إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود ، عليهما السلام ، فالله

أعلم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن سلمة بن كُهَيْل ، عن عمران بن الحكم ، عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك قال : "وتفعلون ؟" قالوا : نعم . قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : " بل باب التوبة والرحمة" .

ثم رواه أحمد ، وابن مردويه ، والحاكم في مستدركه ، من حديث سفيان الثوري ، به .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 225.232 ﴾

---

(1) المسند (242/1) والمستدرك (53/1) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (152/12) من طريق سفيان به ، وقال الهيثمي في المجمع (196/10) : "رجاله رجال الصحيح" .

(315/219)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) ﴾

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾ يقول : نتخذ اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾ قال : أرادوا أن تكون لعقبهم من بعدهم .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وأبو بكر الشافعي في فوائده المعروفة بالغيلانيات عن سلمان الفارسي قال : لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة كره ذلك جداً ، وقال : اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ، ولا تسألوا المائدة من السماء فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم ، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية ، فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها ، فأبوا إلا أن يأتيهم بها ، فلذلك ﴿ قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾ .

فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها قام فألقى عنه الصوف ، ولبس الشعر الأسود ، وجبة من شعر ، وعباءة من شعر ، ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه ، فصلى ما شاء الله ، فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبل القبلة ، وصف قدميه حتى استويا فألصق الكعب بالكعب ، وحاذي الأصابع بالأصابع ، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره ، وغض بصره ، وطأطأ رأسه خشوعاً ، ثم أرسل عينيه بالبكاء ، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه ، فلما رأى ذلك دعا الله فقال ﴿ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾ تكون عظة منك لنا ﴿ وآية منك ﴾ أي علامة منك تكون بيننا وبينك ، وارزقنا عليها طعاماً نأكله ﴿ وأنت خير الرازقين ﴾ .

فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين ، غمامة فوقها وغمامة تحتها ، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم ، وعيسى يبكي خوفاً للشروط التي اتخذ الله فيها عليهم ، إنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين ، وهو يدعو الله في مكانه ويقول : إلهي اجعلها رحمة ، إلهي لا تجعلها عذاباً ، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني ، إلهي اجعلنا لك شاكرين ، إلهي أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضباً ورجزاً ، إلهي اجعلها سلامة وعافية ولا تجعلها فتنة ومثلة ، فما زال يدعو حتى استقرت

السفرة بين يدي عيسى ، والحواريون وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط ، وخر عيسى والحواريون لله سجداً شكراً له بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا ، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة .

(317/219)

وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجباً أورثهم كمداً وغماً ، ثم انصرفوا بغيظ شديد ، وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة ، فإذا عليه منديل مغطى قال عيسى : من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ، ونحمد ربنا ، ونذكر باسمه ، ونأكل من رزقه الذي رزقنا ، فقال الحواريون : يا روح الله وكلمته ، أنت أولانا بذلك وأحقنا بالكشف عنها .

فقام عيسى : فاستأنف وضوءاً جديداً ، ثم دخل مصلاه فصلى بذلك ركعات ، ثم بكى طويلاً ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها ، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً ، ثم انصرف وجلس إلى السفرة ، وتناول المنديل وقال : بسم الله خير الرازقين ، وكشف عن السفرة ، وإذا هو عليها سمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير ، وليس في جوفها سوك ،

يسيل منها السمن سيلاً ، قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث ، وعند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الآخر خمس رمانات ، فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى : يا روح الله وكلمته أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟ فقال : أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقير المسائل ، ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب هذه الآية .

فقال شمعون : لا وإله إسرائيل ما أردت بها سوءاً يا ابن الصديقة . فقال عيسى : ليس شيء مما ترون عليها من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا ، إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة ، فقال له كن فكان أسرع من طرفة عين ، فكلوا مما سألتم بسم الله ، واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم ، فإنه بديع قادر شاكر .

(318/219)

فقال يا روح الله وكلمته إنا نحب أن ترينا آية في هذه الآية . فقال عيسى : سبحان الله . . ! أما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى ! ثم أقبل عيسى على السمكة فقال : يا سمكة عودي بإذن الله حية كما كنت ، فأحياها الله بقدرته فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية تلمظ كما يتلمظ الأسد ، تدور عيناها لها بصيص ، وعادت

عليها بواسيرها ، ففزع القوم منها وانحاسوا ، فلما رأى عيسى ذلك منهم قال : ما لكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ، ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون ! يا سمكة عودي بإذن الله كما كنت ، فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول .

فقالوا لعيسى : كن أنت يا روح الله الذي تبدأ بالأكل منها ثم نحن بعد . فقال : معاذ الله من ذلك ، يبدأ بالأكل كل من طلبها . فلما رأى الحواريون وأصحابهم امتناع نبيهم منها خافوا أن يكون نزولها سخطة وفي أكلها مثلة فتحاموها ، فلما رأى ذلك عيسى دعا لها الفقراء والزمنى وقال : كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم ، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم ، يكون مهناها لكم وعقوبتها على غيركم ، وافتتحوا أكلكم بسم الله واختتموه بحمد الله ففعلوا ، فأكل منها ألف وثلثمائة إنسان بين رجل وامرأة ، يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ .

(319/219)

ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيئة إذ نزلت من السماء لم ينتقص منه شيء ، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقير أكل منها ، وبريء كل زمن منهم أكل منها ، فلم يزالوا أغنياء صحاحاً حتى خرجوا من الدنيا ، وندم الحواريون وأصحابهم

الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سألت منها أشفارهم ، وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات . قال : فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون يزاحم بعضهم بعضاً ، الأغنياء والفقراء والنساء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضاً ، فلما رأى عيسى ذلك جعلها نوباً بينهم ، فكانت تنزل يوماً ولا تنزل يوماً ، فلبثوا في ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غباً عند ارتفاع الضحى ، فلا تزال موضوعة يؤكل منها ، حتى إذا قالوا ارتفعت عنهم بإذن الله إلى جو السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم .

(320/219)

فأوحى الله إلى عيسى أن اجعل رزقي في المائدة لليتامى والفقراء والزمنى دون الأغنياء من الناس ، فلما فعل الله ذلك ارتاب بها الأغنياء وغمصوا ذلك ، حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس ، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر ، وأدرك الشيطان منهم حاجته ، وقذف وساوسه في قلوب المرتابين ، حتى قالوا لعيسى : أخبرنا عن المائدة ونزولها من السماء حق فإنه ارتاب بها بشر منا كثير . قال عيسى : كذبتم وإله المسيح ، طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم ، فلما أن فعل وأنزلها الله عليكم رحمة

ورزقاً وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها وشككتم فيها ، فأبشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله ، وأوحى الله إلى عيسى إني آخذ المكذبين بشرطي ، فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة من نسائهم آمنين ، فلما كان من آخر الليل مسخهم الله خنازير ، وأصبحوا يتتبعون الأقذار في الكناسات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس . أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ؟ ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم ، فإن أجر العامل على من عمل له ، ففعلوا ثم قالوا : يا معلم الخير قلت لنا إن أجر العامل على من عمل له ، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا ، ﴿ هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ إلى قوله ﴿ أحداً من العالمين ﴾ فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

(321/219)

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا لغد ، فمسخوا قردة وخنازير " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من وجه آخر عن عمار بن ياسر موقوفاً مثله .

قال الترمذي : والوقف أصح .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال : نزلت المائدة عليها ثمر من ثمر الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : المائدة سمكة وأريغفة .

وأخرج سفيان بن عيينة عن عكرمة . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لولا بنو إسرائيل ما خنز الخبز ولا أنتن اللحم ، ولكن خَبَّأوه لغد فأُنتن اللحم وخنز الخبز " .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد عن أبي عبد الرحمن السلمي في قوله ﴿ أنزل علينا مائدة من السماء ﴾ قال : خبزاً وسمكاً .

وأخرج ابن الأنباري وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن جبير قال : نزلت المائدة وهي طعام يفور ، فكانوا يأكلون منها قعوداً ، فأحدثوا فرفعت شيئاً فأكلوا على الركب ، ثم أحدثوا فرفعت البتة .

وأخرج ابن الأنباري عن وهب بن منبه قال : كانت مائدة يجلس عليها أربعة آلاف فقالوا لقوم من وضعائهم : إن هؤلاء يلطخون ثيابنا علينا فلو بنينا لها دكاناً يرفعها ، فبنوا لها دكاناً فجعلت الضعفاء لا تصل إلى شيء ، فلما خالفوا أمر الله عز وجل رفعها عنهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد وأبو الشيخ عن عطية العوفي قال : المائدة سمكة فيها من طعم كل طعام .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة . أن الخبز الذي أنزل مع المائدة كان من أرز .

(322/219)

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : نزل على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك ، يأكلون منه أينما تولوا إذا شاؤوا .

وأخرج ابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضداد من طريق عكرمة عن ابن عباس في المائدة قال : كان طعاماً ينزل عليهم من السماء حيثما نزلوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : هو الطعام ينزل عليهم حيث نزلوا .

وأخرج ابن جرير عن إسحاق بن عبد الله . أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم ، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ما شاؤوا ، فسرق بعضهم منها وقال : لعلها لا

تنزل غداً فرفعت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن الأنباري وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أنها كانت مائدة ينزل عليها الثمر من ثمار الجنة ، وأمروا أن لا يخبئوا ولا يخونوا ولا يدخروا لغد بلاء أبلاهم الله به ، وكانوا إذا فعلوا شيئاً من ذلك أنبأهم به عيسى ، فخان القوم فيه فخبأوا وادَّخَروا لِغدٍ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : أنزل على المائدة كل شيء إلا اللحم . والمائدة الخوان .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ميسرة وزاذان قالا : كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت الأيدي فيها بكل طعام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه أنه سئل عن المائدة التي أنزلها الله من السماء على بني إسرائيل ؟ قال : كان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة ، فأكلوا ما شاؤوا من ضروب شتى ، فكانت يقعد عليها أربعة آلاف ، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك بمثله ، فلبثوا بذلك ما شاء الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ أنزل علينا مائدة من السماء ﴾ قال : هو مثل ضرب ولم ينزل عليهم شيء .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن ينزل عليهم .

(323/219)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن الحسن قال : لما قيل لهم ﴿ فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً ﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها فلم تنزل عليهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ قال : ذكر لنا أنهم لما صنعوا في المائدة ما صنعوا حوّلوا خنازير .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ بعد ما جاءته المائدة ﴿ فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ يقول : أعذبه بعذاب لا أعذبه أحداً غير أهل المائدة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ إني منزلها ﴾ مثقلة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(324/219)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ : " مُنَزِّلُهَا " : بالتشديد ، فقيل : إنَّ أَنْزَلَ ونَزَّلَ بمعنًى ، وقد تقدَّم تحقيق ذلك ، وقيل : التشديدُ للتكثير ، فإنها نزلت مرَّاتٍ متعددة .

قوله : " بَعْدُ " : متعلِّق بـ " يَكْفُرْ " ، وبُني ؛ لقَطْعِه عن الإضافة ؛ إذ الأصل : بَعْدَ الإنْزَالِ ، و " مِنْكُمْ " متعلِّقٌ بمحذوفٍ ؛ لأنه حال من فاعل " يَكْفُرْ " ، وقوله : " عَذَاباً " فيه وجهان : أظهرهما : أنه اسمُ مصدرٍ بمعنى التعذيب ، أو مصدرٌ على حذفِ الزوائد ؛ نحو : " عَطَاء ونَبَات " لـ " أعْطَى " و " أَنْبَتَ " ، وانتصابُهُ على المصدريَّة بالتقديرين المذكورين .

والثاني - أجازه أبو البقاء - : أن يكون مفعولاً به على السَّعَة ، يعني : جَعَلَ الحَدَثَ مفعولاً به على السَّعة ؛ مبالغةً ، وحينئذٍ يكون نصبه على التشبيه بالمفعول به ، والمنصوبُ على التشبيه بالمفعول به عند النحاة ثلاثة أنواعٍ : معمولُ الصفةِ المشبهة ، والمصدرُ ، والظرفُ

المتَّسَعُ فيهما :

أمَّا المصدرُ ، فكما تقدَّم ، وأمَّا الظرفُ ، فنحو : "يَوْمَ الجُمُعَةِ صُمْتُهُ" ، ومنه قوله في ذلك :

[الطويل]

2099 - وَيَوْمٍ شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وعَامِراً . . .

قَلِيلٌ سِوَى الطَّعْنِ النِّهَالِ نَوَافِلُهْ

قال الزمخشريُّ : " ولو أُرِيدَ بالعذاب ما يُعَذَّبُ به ، لكان لابُدَّ من البَاءِ "

قال شهاب الدين : إنما قال ذلك ؛ لأنَّ إطلاقَ العذاب على ما يُعَذَّبُ به كثيرٌ ، فخاف أن يُتوهَّمَ ذلك ، وليس لقائلٍ أن يقول : كان الأصلُ : بعَذَابٍ ، ثم حذفَ الحرف ؛ فانتصب المجرورُ به ؛ لأنَّ ذلكَ لم يَطَّرِدْ إلاَّ مع " أنْ " و " أنَّ " بشرطِ أمْنِ اللَّبْسِ .

قوله : " لاَ أعَذِّبُهُ " الهاءُ فيها ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنها عائدة على " عَذَاب " الذي تقدَّم أنه بمعنى التعْذِيب ، والتقدير : فإنِّي أعَذِّبُهُ تَعْذِيباً لا أعَذِّبُ مِثْلَ ذَلِكَ التَّعْذيبِ أحَداً ، والجملة في محلِّ نَصْبٍ صفةً لـ " عَذَاباً " ، وهذا وجه سالمٌ من تَكَلُّفٍ سَتَرَاهُ في غيره ، ولَمَّا ذكر أبو البقاء هذا لوجه - أعني عودَها على " عَذَاباً " المتقدِّم - قال : " وفيه على هذا وجهان :

أحدهما : على حَذْفِ حرف الجر ، أي : لا أعَذِّبُ به أحداً ، والثاني : أنه مفعولٌ به على

السَّعة " .

قال شهاب الدين : أمَّا قوله " حُذِفَ الحَرْف " ، فقد عرفْتَ أنه لا يجوز إلا فيما استثني .

(325/219)

الثاني – من أوجه الهاء – : أنها تعودُ على " من " المتقدّمة في قوله : " فَمَنْ يَكْفُرْ " ، والمعنى : لا أعَذِّبُ مِثْلَ عَذَابِ الكَافِرِ أحَداً ، ولا بُدَّ من تقدير هذين المضافَيْنِ ؛ لِيَصِحَّ المعنى ، قال أبو البقاء في هذا الوجهِ : " وفي الكلامِ حَذْفٌ أي : لا أعذِّبُ الكَافِرَ ، أي : مثل الكافرِ ، أي : مثل عذابِ الكَافر " .

الثالث : أنها ضميرُ المصدرِ المؤكّد ؛ نحو : " ظَنَنْتُهُ زَيْداً قَائِماً " ، ولَمَّا ذكر أبو البقاء هذا الوجه ، اعترضَ على نفسه ، فقال : " فإنْ قلْتَ : " لا أعَذِّبُهُ " صفةٌ لـ " عَذَاب " ، وعلى هذا التقدير لا يعودُ من الصفة على الموصُوف شَيْءٌ ، قيل : إنَّ الثانِيَ لما كان واقعاً موقعَ المصدر والمصدرُ جنْسٌ ، و " عَذَاباً " نكرةٌ ، كان الأوَّل داخِلاً في الثاني ، والثاني مشتملٌ على الأوَّل ، وهو مثل : زَيْدٌ نِعْمَ الرَّجُلُ " . انتهى ، فجعل الرابطَ العمومَ ، وهذا الذي ذكرهُ من أنَّ الربْطَ بالعمومِ ، إنما ذكره النحويُّون في الجملةِ الواقعةِ خبراً لمبتدأ ، ولذلك نظَّره أبو البقاء بـ " زَيْدٌ نِعْمَ الرَّجُلُ " ، وهذا لا ينبغي أن يُقاسَ عليه ؛ لأن الربطَ يحصُلُ في الخبر

بأشياءَ لا تجوز في الجملة الواقعةِ صفةً ، وهذا منها ، ثم هذا الاعتراضُ الذي ذكره واردٌ عليه في الوجه الثاني ؛ فإنَّ الجملة صفةٌ لـ " عَذَاباً " ، وليس فيها ضميرٌ ، فإن قيل : ليست هناك بصفة ، قيل : يَفْسُدُ المعنى بتقدير الاستئناف ، وعلى تقدير صحَّته ، فلتكنْ هنا أيضاً مستأنفةً ، و" أحَداً " منصوبٌ على المفعُول الصريحِ ، و" مِنَ العَالِمِينَ " صفةٌ لـ " أحداً " فيتعلَّق بمحْذُوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 614 ﴾

(326/219)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) ﴾

أجابه إلى سؤاله لهم ، ولكن توعدهم بأليم العقاب لو خالفوا بعده لِيَعْلَمَ السالكون أَنَّ المراد إذا حصل ، وأَنْ الكرامة إذا تحققت – فالخطر أشدُّ والحالُ من الآفة أقربُ ، وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى ، ومحن الأكابر إذا حلَّت جلَّت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 456 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا

وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115) ﴾

(328/219)

ثم إنه سبحانه ختم الأحكام بوصف أحوال القيامة وذكر بعض ما سيجري هناك من الخطاب والعتاب جرياً على عادته في هذا الكتاب من خلط التكاليف بالإلهيات والنبوّات وأحوال المعاد فقال ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ قال الزجاج : تقديره واتقوا الله يوم كذا لا على أنه ظرف لأنهم غير مأمورين بالتقوى في ذلك اليوم ولكن على أنه بدل أشتمال من اسم الله ، ويجوز أن يكون ظرفاً لقوله ﴿ لا يهدي ﴾ أي لا يهديهم طريق الجنة يومئذٍ ، أو منصوباً بإضمار " اذكر " ، أو ظرفاً لما يجيء بعده وهو ﴿ قالوا ﴾ وعلى هذين الوجهين تكون الآية منقطعة عما قبلها . و" ماذا " منصوب ب " أجبتم " ولكن انتصاب المصدر على معنى أيّ إجابة أجبتم ، ولو أريد الجواب لقيل : بماذا أجبتم . وفائدة السؤال توبيخ قومهم كما كان سؤال الموؤدة توبيخاً للوائد . ثم ظاهر قوله ﴿ لا علم لنا ﴾ يدل على أن الأنبياء لا يشهدون لأممهم ، فالجمع بين هذا وبين قوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : 41] الآية مشكل . فقال جمع من المفسرين : إن القيامة زلازل وأهوالاً تزيل

العقول ؛ فالأنبياء عندها ينسون أكثر الأمور فهنالك يقولون : لا علم لنا ، فإذا عادت إليهم عقولهم شهدوا للأمم .

(329/219)

ولا يرد عليه قوله ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 31] ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [يونس : 62] لأن مواقف القيامة مختلفة ، ولأن عدم الخوف من العاقبة لا ينافي الحيرة والدهشة أوّلاً . وقال آخرون المراد منه المبالغة في توبيخ الكفرة فإن ذلك هو المقصود من السؤال كما يقول الواحد لغيره : ما تقول في فلان ؟ فيقول : أنت أعلم به مني فكأنك قلت : لا يحتاج فيه الى شهادة لظهوره . وفيه مع التوبيخ إظهار لتشكي الأنبياء ممن كذبوهم وعادوهم . وقال ابن عباس : نفوا العلم عن أنفسهم عند علام الغيوب ليعلم أن علمهم هناك كلا علم . وقيل : المراد نفي العلم بخاتمة أحوالهم وما كان منهم بعد وفاتهم وإنما الأمور بخواتيمها . وقال في التفسير الكبير : إن الذي عرفوه منهم في الدنيا كان مبنياً على ظاهر أحوالهم كما قال : نحن نحكم بالظاهر وكان ظناً غالباً والأحكام في الآخرة مبنية على حقائق الأمور وبواطنها فلهذا نفوا العلم فإن الظن لا عبرة به في القيامة من أن السكوت وتفويض الأمر إلى الأعلم الأعدل أقرب إلى الأدب .

وقرىء ﴿ علام الغيوب ﴾ بالنصب على أن الكلام قد تم عند قوله ﴿ أنت ﴾ أي أنت الموصوف بالجلال والكبرياء ، ثم نصب ﴿ علام الغيوب ﴾ على الاختصاص أو على النداء . ثم عدّد أنواع نعمه على عيسى عليه السلام واحدة فواحدة تنبيهاً على أنه عبد وليس بإله وتوبيخاً للمتمردين من الأمم ، وأولى الأمم بذلك النصارى الطاعنون في ذات الله ، سبحانه باتخاذ الصاحبة والولد . وموضع ﴿ إذ قال ﴾ رفع بالابتداء على معنى ذاك إذ قال الله أو نصب بإضمار " اذكر " ، أو هو بدل من ﴿ يوم يجمع ﴾ وإنما ذكر القول بلفظ الماضي دلالة على قرب القيامة حتى كأنها قد قامت ووقعت كما يقال : الجيش قد أتى إذا قرب إتيانهم ، أو ورد على الحكاية كقول الرجل لصاحبه : كأنك بنا وقد دخلنا بلدة كذا فصنعنا كذا . ومحل ﴿ يا عيسى ﴾ مضموم على أنه منادى مفرد معرفة ، أو مفتوح لأنه وصف بابن مضاف إلى علم وهو المختار للتخفيف وكثرة الاستعمال ﴿ نعمتي عليك ﴾ أراد الجمع ووحدت لأنه مضاف يصلح للجنس . وإنما قال : ﴿ وعلى والدتك ﴾ لأن النعمة على الولد نعمة على أبويه ، ولأن مكارم الأخلاق دليل على طيب الأعراق . ﴿ إذ أيدتك ﴾ بدل ﴿ من نعمتي ﴾ أي قوّيتك ﴿ بروح القدس ﴾ أي بجبريل والقدس

هو الله كأنه أضافه إلى نفسه تعظيماً له ، أو بالروح الطاهرة المقدسة وقد تقدم في البقرة ﴿ تكلم الناس ﴾ حكاية حال ماضية ﴿ في المهد وكهلاً ﴾ في هاتين الحالتين من غير تفاوت ﴿ وإذ علمتك الكتاب ﴾ الخط أو جنس الكتب ﴿ والحكمة ﴾ النظرية والعلمية ﴿ والتوراة والإنجيل ﴾ يعني الإحاطة بالأسرار الإلهية بعد العلوم المتداولة ﴿ فتنفخ فيها ﴾ الضمير للكاف لا للهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا نفخه في شيء ، وكذلك الضمير في ﴿ فتكون ﴾ والكاف مؤنث بحسب المعنى لدلالتها على الهيئة التي هي كهيئة الطير ومذكر في الظاهر فلهذا عاد الضمير إليه مذكراً تارة كما في آل عمران ، ومؤنثاً أخرى كما في هذه السورة .

(331/219)

وكرر ﴿ بإذني ﴾ أي بتسهيلي ليعلم أن الكل بأقدار الله تعالى وتمكينه وإظهاره الخوارق على يديه وإلا فهو عبد كسائر عبيده . ﴿ وإذ كففت ﴾ يروى أنه لما أظهر هذه المعجزات العجيبة قصد اليهود قتله فخلصه الله تعالى برفعه إلى السماء . ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ من قرأ بغير ألف أشار إلى ما جاء به أو أراد أنه ذو سحر فأطلق عليه الحدث مبالغة ، ومن قرأ بالألف أشار الى الرجل . واللام في ﴿ البينات ﴾ يحتمل أن

تكون للجنس ويحتمل أن يراد بها المعجزات المذكورة . وذكر قول الكفار في حقه ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ يحتمل ان يكون من تمام القصة استطراداً ، ويمكن أن يراد بذلك تعداد النعم أيضا لأن كل ذي نعمة محسود ، فطعن الكفار فيه يدل على علو شأنه وسموّ مكانه .

وإذا أتتك مذمتي من ناقص . . . فهي الشهادة لي بأني كامل

ولابتهاجه بهذه النعم الجسام والمنن العظام كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيئاً لغد يقول مع كل يوم رزقه ، لم يكن له بيت فيخرب ، ولا ولد فيموت ، أينما أمسى بات .

(332/219)

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا ﴾ إن كانوا أنبياء فظاهر وإلا فالوحي بمعنى الإلهام كقوله ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ [النحل : 68] ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ [القصص : 7] وهذا أيضاً من جملة النعم لأن كون الإنسان مقبول القول عند الناس محبوباً في قلوبهم من أعظم نعم الله تعالى . وقدم الإيمان على الإسلام ليعلم أنهم آمنوا بقلوبهم . وانقادوا بظواهرهم ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ من قرأ بالتاء وبالنصب فظاهر والمراد هل تستطيع سؤال ربك أي هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله ؟ ومن قرأ

بالياء وبالرفع فمشكل لأنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا آمنا فكيف يتصوّر مع الإيمان شك في اقتدار الله تعالى ؟ وأجيب بوجوه منها : أن حكاية الإيمان عنهم لا يوجب كمالهم وإخلاصهم في ذلك ولهذا قال لهم عيسى ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ ومنها أنهم طلبوا مزيد الإيقان والطمأنينة ولهذا قالوا ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ ومنها أنهم أرادوا هل هو جائز في الحكمة أم لا ، وهذا على أصول المعتزلة من وجوب رعاية الأصلح ، أو أرادوا هل قضي بذلك وعلم وقوعه أم لا ، فإن خلاف معلومه غير مقدور وهذا عند الأشاعرة . ومنها قول السدّي إن السين زائدة وكذا التاء أي هل يطيع ربك ؟ ومنها لعل المراد بالرب جبريل لأنه كان يربيه . ومنها أن المراد بالاستفهام التقرير كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول : هل يقدر السلطان على إشباع هذا ؟ يريد أن ذلك أمر جلي لا يجوز للعاقل أن يشك فيه .

(333/219)

قال الزجاج : المائدة فاعلة من ماد يميد إذا تحرك فكأنها تميد بما عليها . وذلك أنها لا تسمى مائدة إلا إذا كان عليها طعام فإذا لم يكن عليها طعام فهي خوان . وقال ابن الأنباري : هي من مادة إذا أعطاه كأنها تعطي من تقدم إليه . وقال أبو عبيدة : هي بمعنى " مفعولة " مثل ﴿ عشية راضية ﴾ [الحاقة : 21] أي مرضية كأن صاحبها أعطاها الحاضرين

. قال عيسى ﴿ اتقوا الله ﴾ في تعيين المعجزة فإنه كالتحكم . وأيضاً اقتراح معجزة بعد ظهور معجزات كثيرة تعنت ، أو أمرهم بالتقوى ليتوسلوا بها إلى المطلوب ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق : 3 ، 2] فأجاب الحواريون بأنا لا نطلب هذه المعجزة بمجردها ولكنا نريد أن نأكل منها فإن الجوع قد غلب علينا ولا نجد طعاماً آخر – يروى أنهم سألوها في مفازة على غير ماء ولا طعام – وأن نزداد يقيناً وعرفاناً وطمأنينة فإن التي شاهدناها منك معجزات أرضية وهذه سماوية فتكون أعجب وأغرب ، وأن نعلم صدقك في دعوى النبوّة أو فيما وعدتنا وذلك أنه كان قال لهم : صوموا ثلاثين يوماً ، وإذا تم صومكم فكل ما سألتموه الله تعالى فإنه يعطيكم . وإذا شاهدنا المعجزة كنا عليها من الشاهدين للذين لم يحضروها من بني إسرائيل ، أو نكون من الشاهدين لله تعالى بالقدرة ولك بالنبوة ﴿ تكون لنا عيداً ﴾ صفة للمائدة أو استئناف . وقرىء بالجزم جواباً للأمر . كان نزولها يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيداً . والعيد ما يعود إليك في وقت معلوم ومنه العيد لأنه يعود كل سنة بفرح جديد ﴿ لأولنا وآخرنا ﴾ بدل من لنا بتكرير العامل أي لمن في زماننا من أهل ديننا ولمن يأتي بعدنا ، أو يأكل منها آخر الناس كما يأكل أوّلهم ، أو للمقدّمين منا والأتباع . وقرىء ﴿ لأولانا وأخرانا ﴾ بمعنى الأمة أو الجماعة . فقول عيسى ﴿ ربنا ﴾ ابتداء بذكر الحق ﴿ وأنزل علينا ﴾ انتقال من الذات إلى الصفات ، وقوله ﴿ تكون لنا عيداً ﴾

إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها بل من حيث إنها صادرة عن المنعم . وقوله ﴿ وآية منك ﴾ إشارة إلى كون المائدة دليلاً لأصحاب النظر والاستدلال وقوله ﴿ وارزقنا ﴾ إشارة إلى حصة النفس فالحواريون قدّموا غرض النفس وأخروا الأغراض الدينية ، وأن عيسى بدأ بالأشراف حتى انتهى إلى الأخس ثم قال ﴿ وأنت خير الرازقين ﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ، وعند هذا يظهر التفاوت بين النفوس الكاملة والناقصة والمشرقة والمظلمة . اللهم اجعلنا من أهل الكمال والإشراق بعميم فضلك وجسيم طولك ﴿ منزلها ﴾ بالتخفيف والتشديد بمعنى . وقيل : بالتشديد للتكثير وبالتخفيف مرة واحدة ﴿ عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ قال ابن عباس : يريد مسخهم خنازير . وقيل : قردة . وقيل جنساً من العذاب لا يكون مؤخراً إلى الآخرة . ﴿ وعذاباً ﴾ نصب على المصدر أي تعذيباً والضمير في ﴿ لا أعذبه ﴾ للمصدر ، ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء في الموضعين ، فقيل : أعذبه بعذاب لا أعذب به أحداً ، وأراد بالعالمين عالمي زمانهم .

واختلف في أن عيسى عليه السلام سأل المائدة لنفسه أو سألها لقومه وإن كان أضافها إلى نفسه في الظاهر وكلاهما محتمل . أما نزولها فقد قال مجاهد والحسن : إن المائدة ما نزلت بل القوم لما سمعوا العذاب استغفروا وقالوا : لا نريدها وأكدوا هذا القول بأنه وصف المائدة بكونها عيداً لأولهم وآخرهم ، فلو نزلت لبقي العيد إلى يوم القيامة . وقال جمهور المفسرين : إنها نزلت لأنه سبحانه وعد إنزالها بقوله ﴿ إني منزلها عليكم ﴾ ثم إن يوم نزولها كان عيداً لهم ولمن بعدهم ممن كان على شرعهم . روي أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس الصوف ثم قال : اللهم أنزل علينا فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين ، غمامة فوقها وأخرى تحتها ، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلني من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة . ثم قال لهم : ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله ويأكل منها ، فقال شمعون رأس الحواريين : أنت أولى بذلك . فقام عيسى عليه السلام فتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال : بسم الله خير الرازقين . فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسماً ، وعند رأسها ملح ، وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد . فقال شمعون : يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام

الآخرة؟ قال: ليس منهما ولكن شيء اخترعه الله بالقدرة العالية، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله. فقال الحواريون: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال: يا سمكة احيي بإذن الله فاضطربت ثم قال لها: عودي كما كنت فعادت مشوية. ثم طارت المائدة ثم عصوا الله بعدها فمسخوا قردة وخنازير. وقيل إن عيسى عليه السلام كان شرط عليهم أن لا يسرفوا في الأكل ولا يدخروا فعصوا وادخروا فمسخوا. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 3 صـ 35. 39﴾

(336/219)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/220)

الجزء العشرون بعد المائتين

من الآية ﴿ 116 ﴾ من سورة المائدة

وحتى الآية ﴿ 118 ﴾ من نفس السورة

(4/220)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ومن الأمر الجلي أن عيسى عليه السلام بعد أمر الله تعالى له بذكر هذه النعم يقول في ذلك الجمع فيذكرها ويذكر المقصود من التذكير بها ، وهو الثناء على المنعم بها بما يليق بجلاله ، فيحمد ربه تعالى بمحامد تليق بذلك المقام في ذلك الجمع ، فمن أنسب الأمور حينئذ سؤاله – وهو المحيط علماً بمكنونات الضمائر وخفيات السرائر إثر التهديد لمن يكفر – عما كفر به النصارى ، فلذلك قال تعالى عاطفاً على قوله ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك ﴾ [المائدة : 110]

﴿ وإذ قال الله ﴾ أي بما له من صفات الجلال والجمال مشيراً إلى ما له من علو الرتبة بأداة النداء : ﴿ يا عيسى بن مريم ﴾ وذلك تحقيقاً لأنه عمل بمقتضى النعمة وتبكيتاً لمن ضل فيه من النصارى وإنكاراً عليهم ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ أي الذين أرسلت إليهم من بني إسرائيل ، وكأنه عبر بذلك لزيادة التوبيخ لهم ، لكونهم اعتقدوا ذلك وفيهم الكتاب ، فكأنه لا ناس غيرهم ﴿ اتخذوني ﴾ أي كلفوا أنفسكم خلاف ما تعتقدونه بالفطرة الأولى في الله بأن تأخذوني ﴿ وأمي إلهين ﴾ .

ولما كانت عبادة غير الله – ولو كانت على سبيل الشرك – مبطلة لعبادة الله ، لأنه سبحانه أغنى الأغنياء ، ولا يرضى الشرك إلا فقير ، قال : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعلى

الذي لا كفوء له ، فيكون المعنى : اتخذوا تألهنا سلماً تتوصلون به إلى الله ، ويجوز أن يكون المعنى على المغايرة ، ولا دخل حينئذ للمشاركة .

ولما كان من المعلوم لنا في غير موضع أنه لم يقل ذلك ، صرح به هنا توبيخاً لمن أطراه ، وتأكيداً لما عندنا من العلم ، وتبجيلاً له صلى الله عليه وسلم بما يبدي من الجواب ، وتفضيلاً بالإعلام بأنه لم يحد عن طريق الصواب ، بل بذل الجهد في الوفاء بالعهد ، وتقريعاً لمن قال ذلك عنه وهو يدعي حبه واتباعه عليه السلام وتخجيلاً لهم ، فلما تشوفت لجوابه الأسماع وأصغت له الآذان ، وكان في ذكره من الحكم ما تقدمت الإشارة إليه ، ذكره سبحانه قائلاً : ﴿ قال ﴾ مفتتحاً بالتنزيه ﴿ سبحانك ﴾ أي لك التنزه الأعظم عن كل شائبة نقص ، ودل بالمضارع على أن هذا القول لا يزال ممنوعاً منه فقال : ﴿ ما يكون لي ﴾ أي ما ينبغي ولا يصح أصلاً ﴿ أن أقول ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ ما ليس لي ﴾ وأغرق في النفي كما هو حق المقام فقال : ﴿ بحق ﴾ .

(5/220)

ولما بادر عليه السلام إعظاماً للمقام إلى الإشارة إلى نفي ما سئل عنه ، أتبعه ما يدل على أنه كان يكفي في الجواب عنه : أنت أعلم ، وإنما أجاب بما تقدم إشارة إلى أن هذا القول

تكاد السماوات يتفطرن منه ومبادرة إلى تبكيت من ادّعاه له ، فقال دالاً على أنه لم يقنع بما تضمن أعظم المدح لأن المقام للخضوع : ﴿ إن كنت قلته ﴾ أي مطلقاً للناس أو حدثت به نفسي ﴿ فقد علمته ﴾ وهو مبالغة في الأدب وإظهار الذلة وتفويض الأمر كله إلى رب العزة ؛ ثم علل الإخبار بعلمه بما هو من خواص الإله فقال : ﴿ تعلم ﴾ ولما كانت النفس يعبر بها عن الذات ، وكان القول يطلق على النفس ، فإذا انتفى انتفى اللساني ، قال : ﴿ ما في نفسي ﴾ أي وإن اجتهدت في إخفائه ، فإنه خلقك ، وما أنا له إلا آلة ووعاء ، فكيف به إن كنت أظهرته .

ولما أثبت له سبحانه ذلك ، نفاه عن نفسه توبيخاً لمن ادعى له الإلهية فقال مشاكلة : ﴿ ولا أعلم ما في نفسك ﴾ أي ما أخفيته عني من الأشياء ؛ ثم علل الأمرين كليهما بقوله : ﴿ إنك أنت ﴾ أي وحدك لا شريك لك ﴿ علام الغيوب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 573 . 575 ﴾

فصل

قال الفخر :

هذا معطوف على قوله ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ اذكر نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ [المائدة : 110] وعلى هذا القول فهذا الكلام إنما يذكره لعيسى يوم القيامة ، ومنهم من قال : إنه تعالى قال هذا الكلام لعيسى عليه السلام حين رفعه إليه وتعلق بظاهر قوله ﴿ وَإِذْ قَالَ

الله ﴾ وإذ تستعمل للماضي ، والقول الأول أصح ، لأن الله تعالى عقب هذه القصة بقوله ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : 119] والمراد به يوم القيامة ، وأما التمسك بكلمة إذ فقد سبق الجواب عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 111 ﴾

وقال القرطبى :

اختلف في وقت هذه المقالة ؛ فقال قَتَادة وابن جُرَيْج وأكثر المفسرين : إنما يقول له هذا يوم القيامة .

وقال السّدي وقُطْرُب .

(6/220)

قال له ذلك حين رفعه إلى السماء وقالت النصارى فيه ما قالت ؛ واحتجوا بقوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] فإنّ "إذْ" في كلام العرب لما مضى .

والأول أصح ؛ يدل عليه ما قبله من قوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ﴾ [المائدة : 109] الآية وما بعده ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : 119] .

وعلى هذا تكون "إذ" بمعنى "إذا" كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ ﴾ [سبأ : 51]

أي إذا فَزِعوا .

وقال أبو النجم :

ثم جزاه الله عنّي إذ جَزَى . . .

جنّاتِ عَدْنٍ في السّموات العُلاَ

يعني إذا جزى .

وقال الأسود بن جعفر الأزدي :

فالآن إذْ هازلْتُهُنّ فإنّما . . .

يَقُلْنَ أَلاَ لَمْ يذهبِ الشّيخ مَذهباً

يعني إذا هازلتهنّ ، فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي ؛ لأنه لتحقيق أمره ، وظهور برهانه ، كأنه قد وقع .

وفي التنزيل ﴿ ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة ﴾ [الأعراف : 50] ومثله كثير وقد تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

في قوله ﴿ أَأنت قُلتَ لِلنّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ سؤالان :

أحدهما : أن الاستفهام كيف يليق بعلام الغيوب .

وثانيهما : أنه كان عالماً بأن عيسى عليه السلام لم يقل ذلك فلم خاطبه به ؟ فإن قلتم الغرض منه توبيخ النصارى وتقريعهم فنقول : إن أحداً من النصارى لم يذهب إلى القول بإلهية عيسى ومريم مع القول بنفي إلهية الله تعالى فكيف يجوز أن ينسب هذا القول إليهم مع أن أحداً منهم لم يقل به .

والجواب : عن السؤال الأول أنه استفهام على سبيل الإنكار .

(7/220)

والجواب : عن السؤال الثاني أن الإله هو الخالق والنصارى يعتقدون أن خالق المعجزات التي ظهرت على يد عيسى ومريم هو عيسى عليه السلام ومريم والله تعالى ما خلقها ألبتة وإذا كان كذلك فالنصارى قد قالوا إن خالق تلك المعجزات هو عيسى ومريم والله تعالى ليس خالقها ، فصح أنهم أثبتوا في حق بعض الأشياء كون عيسى ومريم إلهين له مع أن الله تعالى ليس إلهاً له فصح بهذا التأويل هذه الحكاية والرواية .

ثم قال تعالى : ﴿ سبحانك مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقّ ﴾ أما قوله ﴿ سبحانك ﴾ فقد فسرناه في قوله ﴿ سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ [البقرة : 32] .

واعلم أن الله تعالى لما سأل عيسى أنك هل قلت كذا لم يقل عيسى بأني قلت أو ما قلت بل

قال ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، وهذا ليس بحق ينتج أنه ما يكون لي أن أقول هذا الكلام ولما بيّن أنه ليس له أن يقول هذا الكلام شرع في بيان أنه هل وقع هذا القول منه أم لا فلم يقل بأني ما قلت هذا الكلام لأن هذا يجري مجرى دعوى الطهارة والنزاهة ، والمقام مقام الخضوع والتواضع ، ولم يقل بأني قلته بل فوض ذلك إلى علمه المحيط بالكل .

فقال : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ وهذا مبالغة في الأدب وفي إظهار الذل والمسكنة في حضرة الجلال وتفويض الأمور بالكلية إلى الحق سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 111.112 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . . . ﴾ الآية . ﴿ إِذْ ﴾ ها هنا بمعنى (إذا) كما قال أبو النجم :

ثم جزاك الله عني إذ جزى . . . جنات عدن في السموات العلا

يعني إذا جزى ، فأقام الماضي مقام المستقبل وهذا جائز في اللغة كما قال تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ [الأعراف : 44] .

واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين :

أحدهما : أنه تعالى سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ، ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ فى التكذيب وأشد فى التوبيخ والتقريع .

والثاني : أنه قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غُيِّرُوا بعده وادعوا عليه ما لم يقله .

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي أدعي لنفسي ما ليس من شأنها ، يعني أنني مربوب ولست برب ، وعابد ولست بمعبود .

وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين :

أحدهما : تنزيهاً له عما أضيف إليه .

الثاني : خضوعاً لعزته وخوفاً من سطوته .

ثم قال : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ فرد ذلك إلى علمه تعالى ، وقد كان الله عالماً به أنه لم يقله ، ولكن قاله تقريعاً لمن اتخذ عيسى إلهاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾ . باختصار يسير .

وقال ابن عطية :

اختلف المفسرون في وقت وقوع هذا القول . فقال السدي وغيره : لما رفع الله عيسى إليه قالت النصارى ما قالت وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك ، فسأله تعالى حينئذ عن قولهم فقال ﴿ سبحانك ﴾ الآية .

قال القاضي أبو محمد : فتجيء ﴿ قال ﴾ على هذا متمكنة في المضي ويجيء قوله آخراً ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ [المائدة : 118] أي بالتوبة من الكفر ، لأن هذا ما قاله عيسى عليه السلام وهم أحياء في الدنيا وقال ابن عباس وقتادة وجمهور الناس : هذا القول من الله إنما هو في يوم القيامة ، يقول الله له على رؤوس الخلائق ، فيرى الكفار تبرية منهم ، ويعلمون أن ما كانوا فيه باطل .

(9/220)

قال القاضي أبو محمد : وقال على هذا التأويل بمعنى يقول . ونزل الماضي موضع المستقبل دلالة على كون الأمر وثبوته ، وقوله آخراً ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ [المائدة : 118] معناه إن عذبت العالم كله فبحقك وإن غفرت وسبق ذلك في علمك فلأنك أهل لذلك لا معقب لحكمك ولا منازع لك ، فيقول عيسى هذا على جهة التسليم والتعزي عنهم مع علمه بأنهم كفرة قد حتم عليهم العذاب ، وليس المعنى أنه لا بد من أن تفعل أحد هذين الأمرين . بل قال هذا القول مع علمه بأن الله لا يغفر أن يشرك به . وفائدة هذا التوقيف على قول من قال إنه في يوم القيامة ظهور الذنب على الكفرة في عبادة عيسى وهو توقيف له يتقرر منه بيان ضلال الضالين .

وسبحانك معناه تنزيهاً لك عن أن يقال هذا وينطق به ، وقوله ﴿ ما يكون لي أن أقول ﴾ . . . . الآية . بقي يعضده دليل العقل ، فهذا ممتنع عقلاً أن يكون لبشر محدث أن يدعي الألوهية وقد تجيء هذه الصيغة فيما لا ينبغي ولا يحسن مع إمكانه ، ومنه قول الصديق رضي الله عنه : ما كان لابن قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ فوفق الله عيسى عليه السلام لهذه الحجة البالغة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين : أحدهما أنه سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب ، وأشد في التوبيخ والتقريع .

الثاني قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيَّروا بعده ، وادعوا عليه ما لم يقله .

فإن قيل : فالنصارى لم يتخذوا مريم إلهاً فكيف قال ذلك فيهم ؟ فقيل : لما كان من قولهم أنها لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً لزمهم أن يقولوا إنها لأجل البعضية بمثابة من ولدته ، فصاروا حين لزمهم ذلك بمثابة القائلين له .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ خرّج الترمذي عن أبي هُريرة قال : تَلَقَّى عيسى حجَّته وَلَقَّاهُ اللَّهُ في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إِلهين مِن دُونِ الله ﴾ قال أبو هُريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " فَلَقَّاه الله " ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ الآية كلها " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين أحدهما تنزيهاً له عما أضيف إليه .

الثاني خضوعاً لعزته ، وخوفاً من سَطْوته .

ويقال : إن الله تعالى لما قال لعيسى : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إِلهين مِن دُونِ الله ﴾ أخذته الرّعدة من ذلك القول حتى سمع صوت عظامه في نفسه فقال : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ثم قال : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي أن أدّعي لنفسي ما ليس من حقها ، يعني أنني مربوب ولست برب ، وعابد ولست بمعبود .

ثم قال : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ فردّ ذلك إلى علمه ، وقد كان الله عالماً به أنه لم يقله ، ولكنه سأله عنه تقريعاً لمن اتخذ عيسى إلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ ﴾ معطوف على (إذ قال الحواريون) منصوب بما نَصَبه من المُضمر المخاطَبِ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، أو بمُضمر مستقلَ معطوفٍ على ذلك ، أي اذكُرْ للناس وقت قولِ الله عز وجل له عليه السلام في الآخرة توبيخاً للكَفَرة وتبكيتاً لهم ، فإقرارُه عليه السلام على رؤوس الأشهاد بالعبودية ، وأمرُه لهم بعبادته عز وجل ، وصيغة الماضي لما مرّ من الد2لالة على التحقّق والوقوع ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين ﴾ الاتخاذُ إما متعدَ إلى مفعولين (فإلهين) ثانيهما ، وإما إلى واحد فهو حال من المفعول ، وليس مدارُ أصل الكلامِ أن القول متيَقَّنٌ ، والاستفهامَ لتعيين القائل كما هو المتبادَرُ من إيلاء الهمزةَ المُبتدأ على الاستعمال الفاشي ، وعليه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ءأَنتَ فَعَلْتَ هذا ﴾ ونظائرُه ، بل على أن المتيقَّنَ هو الاتخاذُ والاستفهامُ لتعيين أنه بأمره عليه السلام ، أو من تلقاء أنفسهم كما في قوله تعالى : ﴿ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلاَء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ متعلق بالاتخاذ ومحله النصب على أنه حال من فاعله ، أي متجاوزين الله ، أو بمحذوفٍ هو صفة لإلهين ، أي كائنيْن من دونه تعالى ، وأياً ما كان

فالمرادُ اتخاذُهما بطريق إشراكهما به سبحانه كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إذْ به يتأتّى التوبيخُ ويتسنّى التقريعُ والتبكيت . ومَنْ توهم أن ذلك بطريق الاستقلال ، ثم اعتذر عنه بأن النصارى يعتقدون أن المعجزاتِ التي ظهرت على يد عيسى ومريمَ عليهما الصلاة والسلام لم يخلُقْها الله تعالى ، بل هما

(12/220)

خلقاها فصح أنهم اتخذوهما في حق بعض الأشياء إلهين مستقلَّيْن ، ولم يتخذوه تعالى إلها في حق ذلك البعض ، فقد أبعد عن الحق بمراحِلَ ، وأما من تعمق فقال : إن عبادته تعالى مع عبادة غيره كلا عبادةٍ ، فمن عبده تعالى مع عبادتهما كأنه عبدهما ، ومن لم يعبُده تعالى فقد غفَل عما يُجْديه واشتغل بما لا يَعْنيه كدأب مَنْ قبلَهَ ، فإن توبيخهم إنما يحصُل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحاً ، لا بما يلزَمُه بضربٍ من التأويل ، وإظهارُ الاسم الجليل لكونه في حيّز القولِ المُسند إلى عيسى عليه السلام .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل : فماذا يقول عيسى

عليه السلام حينئذ ؟ فقيل : يقول ، وإيثارُ صيغة الماضي لما مرّ مراراً ﴿ سبحانك ﴾ (سبحان) عَلَمٌ للتسبيح ، وانتصابُه على المصدرية ، ولا يكاد يُذْكر ناصبُه ، وفيه من المبالغة في التنزيه من حيث الاشتقاق ، من السَّبْح الذي هو الذهاب والإبعادُ في الأرض ، ومن جهة النقل إلى صيغة التفعيل ، ومن جهة العدولِ من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصةً ، المشيرِ إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن ، ومن جهة إقامته مُقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى ، أي أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن أقول ذلك أو من أن يقالَ في حقك ذلك ، وأما تقديرُ من أن يكونَ لك شريكٌ في الألوهية فلا يساعده سِياقُ النظم الكريم وسياقُه ، وقوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقّ ﴾ استئنافٌ مقرِّر للتنزيه ومبين للمُنَزَّه منه ، و(ما) عبارة عن القول المذكور ، أي ما يستقيم وما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحِقّ لي أن أقوله ، وإيثارُ ليس على الفعل المنفيّ لظهور دلالتِه على استمرار انتفاءِ الحقية وإفادةِ التأكيد بما في حيزه من الباء ، فإن اسمه ضميرُه العائد إلى (ما) ، وخبرَه (بحق) والجار والمجرور فيما بينهما للتبيين كما في سُقياً لك أو نحوه .

(13/220)

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ استئناف مقرِّرٌ لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهاني ، فإن صدورَه عنه مستلزِمٌ لعلمه تعالى به قطعاً ، فحيثُ انتفى علمُه تعالى به انتفى صدورُه عنه حتماً ضرورةَ أن عدمَ اللازم مستلزِمٌ لعدم الملزوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ عطف على قوله : ﴿ إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك ﴾ [المائدة : 110] فهو ما يقوله الله يوم يجمع الرسل وليس ممّا قاله في الدنيا ، لأنّ عبادة عيسى حدثت بعد رفعه ، ولقوله : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ .

فقد أجمع المفسّرون على أنّ المراد به يوم القيامة .

وأنّ قوله : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس ﴾ قول يقوله يوم القيامة .

وهذا مبدأ تقريع النصارى بعد أن فُرغ من تقريع اليهود من قوله : ﴿ إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك ﴾ [المائدة : 110] إلى هنا .

(14/220)

وتقريع النصارى هو المقصود من هذه الآيات كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ [المائدة : 109] الآية ، فالاستفهام هنا كالاستفهام في قوله تعالى للرسل ﴿ ماذا أجبتم ﴾ [المائدة : 109] والله يعلم أنّ عيسى لم يقل ذلك ولكن أريد إعلان كذب من كفر من النصارى .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ يدلّ على أنّ الاستفهام متوجّه إلى تخصيصه بالخبر دون غيره مع أنّ الخبر حاصل لا محالة .

فقول قائلين : اتّخِذوا عيسى وأمّه إلهين ، واقع .

وإنّما ألقي الاستفهام لعيسى أهو الذي قال لهم ذلك تعريضاً بالإرهاب والوعيد بتوجّه عقوبة ذلك إلى من قال هذا القول إن تنصّل منه عيسى فيعلم أحبارهم الذين اخترعوا هذا القول أنّهم المراد بذلك .

والمعنى أنّه إن لم يكن هو قائل ذلك فلا عذر لمن قاله لأنّهم زعموا أنّهم يتّبعون أقوال عيسى وتعاليمه ، فلو كان هو القائل لقال : اتّخذوني وأمّي ، ولذلك جاء التعبير بهذين اللفظين في الآية .

والمراد بالناس أهل دينه .

وقوله : ﴿ من دون الله ﴾ متعلّق بِ ﴿ اتّخذوني ﴾ ، وحرف ﴿ من ﴾ صلة وتوكيد .

وكلمة ﴿ دون ﴾ اسم للمكان المجاوز ، ويكثر أن يكون مكاناً مجازياً مراداً به المغايرة ، فتكون بمعنى (سوى) .

وانظر ما تقدّم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً ﴾ [المائدة : 76] .

والمعنى اتّخذوني وأمّي إلهين سوى الله .

(15/220)

وقد شاع هذا في استعمال القرآن قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله ﴾ [البقرة : 165] ، وقال : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] ، وغير ذلك من الآيات التي خوطب بها المشركون مع أنّهم أشركوا مع الله غيره ولم ينكروا إلهيّة الله .

وذُكر هذا المتعلّق إلزاماً لهم بشناعة إثبات إلهية لغير الله لأنّ النصارى لمّا ادّعوا حلول الله في ذات عيسى توزّعت الإلهية وبطلت الوحدانية .

وقد تقدّم بيان هذا المذهب عند تفسير قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم ﴾ في هذه السورة (17) .

وجواب عيسى عليه السلام بقوله : ﴿ سبحانك ﴾ تنزيه لله تعالى عن مضمون تلك المقالة .

وكانت المبادرة بتنزيه الله تعالى أهمّ من تبرئته نفسه ، على أنّها مقدّمة للتبرّي لأنّه إذا كان ينزّه الله عن ذلك فلا جرم أنّه لا يأمر به أحداً .

وتقدّم الكلام على ﴿ سبحانك ﴾ في قوله تعالى : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا ﴾ في سورة البقرة (32) .

وبرّأ نفسه فقال : ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ ؛ فجملة ﴿ ما يكون لي أن أقول ﴾ مستأنفة لأنّها جواب السؤال .

وجملة ﴿ سبحانك ﴾ تمهيد .

وقوله : ﴿ ما يكون لي ﴾ مبالغة في التبرئة من ذلك ، أي ما يوجد لديّ قول ما ليس لي بحقّ ، فاللام في قوله : ﴿ ما يكون لي ﴾ للاستحقاق ، أي ما يوجد حقّ أن أقول .

وذلك أبلغ من لم أقله لأنّه نفى أن يوجد استحقاقه ذلك القول .

والباء في قوله ﴿ بحقّ ﴾ زائدة في خبر ﴿ ليس ﴾ لتأكيد النفي الذي دلّت عليه ﴿ ليس ﴾ .

واللام في قوله ﴿ ليس لي بحقّ ﴾ متعلّقة بلفظ ﴿ حقّ ﴾ على رأي المحقّقين من النحاة أنّه يجوز تقديم المتعلّق على متعلّقه المجرور بحرف الجرّ .

وقدّم الجارّ والمجرور للتنصيص على أنّه ظرف لغو متعلّق ﴿ بحقّ ﴾ لئلا يتوهّم أنّه ظرف مستقرّ صفة ل ﴿ حقّ ﴾ حتى يفهم منه أنّه نفى كون ذلك حقّاً له ولكنّه حقّ لغيره الذين قالوه وكفروا به ، وللمبادرة بما يدلّ على تنصّله من ذلك بأنّه ليس له .

وقد أفاد الكلام تأكيدَ كون ذلك ليس حقّاً له بطريق المذهب الكلامي لأنّه نفى أن يباح له أن يقول ما لا يحقّ له ، فعُلم أنّ ذلك ليس حقّاً له وأنّه لم يقله لأجل كونه كذلك .

فهذا تأكيد في غاية البلاغة والتفنّن .

ثم ارتقى في التبرّىء فقال : ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ ، فالجملة مستأنفة لأنّها دليل وحجّة لمضمون الجملة التي قبلها ، فكانت كالبيان فلذلك فصلت .

والضمير المنصوب في ﴿ قلته ﴾ عائد إلى الكلام المتقدّم .

ونصْب القول للمفرد إذا كان في معنى الجملة شائع كقوله تعالى : ﴿ كلاّ إنّها كلمة هو قائلها ﴾ [المؤمنون : 100] ، فاستدلّ على انتفاء أن يقوله بأنّ الله يعلم أنّه لم يقله ، وذلك لأنّه يتحقّق أنّه لم يقله ، فلذلك أحال على علم الله تعالى .

وهذا كقول العرب : يعلم الله أني لم أفعل ، كما قال الحارث بن عبّاد :

لَم أكُنْ من جُنَاتِعَا عَلِمَ الله وأني لِحرّها اليومَ صالٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾

فصل

قال الفخر :

المفسرون ذكروا فيه عبارات تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي وقيل : تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك ، وقيل : تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك ، وقيل : تعلم ما كان مني في الدنيا ولا أعلم ما كان منك في الآخرة ، وقيل : تعلم ما أقول وأفعل ، ولا أعلم ما تقول وتفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 112 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ يعني : ما كان مني في الدنيا ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ يعني : ولا أطلع على غيبك وما كان منك .

(17/220)

وقال أهل اللغة : نفس الشيء : جملة الشيء ، وحقيقته ، وذاته ؛ فمعناه : تعلم ما في ضميري ، ولا أعلم ما في حقيقتك وغيبك .

﴿ إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ ما كان وما يكون .

وقيل : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ التي نسبت إلي ، وأمرتني بالتسليم إليك .

﴿ وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ التي سلمت إليك ، فأنت مالكها بجميع ما كان وما يكون منها ، وأنت علام الغيوب قبل كونها وكون فعلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ تعلم ما في نفسي ﴾ بإحاطة الله به ، وخص النفس بالذكر لأنها مظنة الكتم والانطواء على المعلومات ، والمعنى : أن الله يعلم ما في نفس عيسى ويعلم كل هذه الآية على قول من قال : إن توقيف عيسى عليه السلام كان إثر رفعه مستقيمة المعنى . لأنه قال عنهم هذه المقالة وهم أحياء في الدنيا وهو لا يدري على ما يوافون . وهي على قول من قال إن التوقيف هو يوم القيامة بمعنى أن سبقت لهم كلمة العذاب كما سبقت فهم عبادك تصنع بحق الملك ما شئت لا أمره مما عسى أن يكون في نفسه ، وقوله ﴿ ولا أعلم ما في نفسك ﴾ معناه ولا أعلم ما عندك من المعلومات وما أحطت به .

وذكر النفس هنا مقابلة لفظية في اللسان العربي يقتضيها الإيجاز ، وهذا ينظر من طرف

خفي إلى قوله ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ [آل عمران : 54] ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ [البقرة : 15] ، فتسمية العقوبة باسم الذنب إنما قاد إليها طلب المقابلة اللفظية إذ هي من فصيح الكلام وبارع العبارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ أي تعلم ما في غَيْبي ولا أعلم ما في غَيْبك .

وقيل : المعنى تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم .

وقيل : تعلمْ ما أخفيه ولا أعلم ما تُخفيه .

وقيل : تعلم ما أريد ولا أعلم ما تُريد .

وقيل : تعلم سِرّي ولا أعلم سِرّك ؛ لأن السرّ موضعه النفس .

(18/220)

وقيل : تعلم ما كان مني في دار الدنيا ، ولا أعلم ما يكون منك في دار الآخرة .

قلت : والمعنى في هذه الأقوال متقارب ؛ أي تعلم سرّي وما انطوى عليه ضميري الذي خلقته ، ولا أعلم شيئاً مما استأثرت به من غَيْبك وعلمك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التعليل لما قبله كأنه قيل : لأنك تعلم ما أُخفيه في نفسي ، فكيف بما أُعلنُه ؟ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ بيانٌ للواقع وإظهارٌ لقصوره ، أي ولا أعلم ما تُخفيه من معلوماتك ، وقوله : ﴿ فِى نَفْسِكَ ﴾ للمشاكلة . وقيل : المرادُ بالنفس هو الذاتُ ، ونسبةُ المعلومات إليها لما أنها مرجعُ الصفات التي من جملتها العلمُ المتعلِّقُ بها ، فلم يكن كنسبتها إلى الحقيقة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

جملة ﴿ تعلم ما في نفسي ﴾ بيان لجملة الشرط ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ فلذلك فُصلت .

والنفس تطلق على العقل وعلى ما به الإنسان ، إنسان وهي الروح الإنساني ، وتطلق على الذات .

والمعنى هنا : تعلم ما أعتقده ، أي تعلم ما أعلمه لأنّ النفس مقرّ العلوم في المتعارف .

وقوله : ﴿ ولا أعلم ما في نفسك ﴾ اعتراض نشأ عن ﴿ تعلم ما في نفسي ﴾ لقصد الجمع بين الأمرين في الوقت الواحد وفي كلّ حال .

وذلك مبالغة في التنزيه وليس له أثر في التبرّىء ، والتنصّل ، فلذلك تكون الواو اعتراضية .

وإضافة النفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يُطلع عليه غيره ، أي ولا أعلم ما تعلمه ، أي ممّا انفردت بعمله .

وقد حسّنه هنا المشاكلة كما أشار إليه في "الكشاف" .

وفي جواز إطلاق النفس على ذات الله تعالى بدون مشاكلة خلاف ؛ فمن العلماء من منع ذلك وإليه ذهب السعد والسيد وعبد الحكيم في شروح "المفتاح" و"التخليص" .

وهؤلاء يجعلون ما ورد من ذلك في الكتاب نحو ﴿ ويحذّركم الله نفسه ﴾ [آل عمران : 28] من قبيل المتشابه .

ومن العلماء من جوّز ذلك مثل إمام الحرمين كما نقله ابن عرفة في "التفسير" عند قوله تعالى : ﴿ كتب ربّكم على نفسه الرحمة ﴾ في سورة الأنعام (54) ، ويشهد له تكرّر استعماله في القرآن وكلام النبي كما في الحديث القدسي فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(19/220)

فصل

قال الفخر :

تمسكت المجسمة بهذه الآية وقالوا : النفس هو الشخص وذلك يقتضي كونه تعالى جسماً .

والجواب من وجهين : الأول : أن النفس عبارة عن الذات ، يقال نفس الشيء وذاته بمعنى واحد ، والثاني : أن المراد تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ولكنه ذكر هذا الكلام على طريق المطابقة والمشاكلة وهو من فصيح الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 112 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

قال الماوردى :

﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : عالم السر والعلانية .

والثاني : عالم ما كان وما يكون .

وفي الفرق بين العالم والعلام وجهان :

أحدهما : أن العلام الذي تقدم علمه ، والعالم الذي حدث علمه .

والثاني : أن العلام الذي يعلم ما كان وما يكون ، والعالم الذي يعلم ما كان ولا يعلم ما يكون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال الفخر :

هذا تأكيد للجملتين المتقدمتين أعني قوله ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ وقوله ﴿ تَعْلَمُ مَا

فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 112 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الغيوب ﴾ ما كان وما يكون ، وما لم يكن وما هو كائن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ إنّك أنت علاّم الغيوب ﴾ علّة لقوله : ﴿ تعلم ما في نفسي ﴾ ولذلك جيء بِ (إنّ) المفيدة التعليل .

وقد جمع فيه أربع مؤكّدات وطريقة حصر ، فضمير الفصل أفاد الحصر ، وإنّ وصيغة الحصر ، وجمع الغيوب ، وأداة الاستغراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(20/220)

فائدة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

(ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق .

فى هذا تأكيد للنفى من وجوه ثلاثة :

أولها – أنه نفى أن يكون شأنه ذلك القول ، فلا يمكن أن يصدر عنه ، فهو لم ينف القول فقط ، بل نفى احتمال أن يقول ، ونفى احتمال القول أقوى فى الدلالة من نفى المقولة .

ثانيها – أن كلامه يدل على أن ذلك غير معقول فى ذاته ، فكيف يقول .

ثالثها – أنه أثبت أنه مستحيل قوله لأنه ليس بحق . (إن كنت قلته فقد علمته) .

ثانيها – أن كلامه يدل على أن ذلك غير معقول فى ذاته ، فكيف يقول .

ثالثها – أنه أثبت أنه مستحيل قوله لأنه ليس بحق . (إن كنت قلته فقد علمته

(تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب) .

هذه الجملة تأكيد لنفى ما سئل عنه ، وهو أنه قال : (اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) .

(21/220)

إذ إنه لو كان قد حصل لعلمه الله تعالى ، وما دام لم يعلمه ، فهو لم يقع ، ولا يمكن أن يقع ؟ لأن الله لا يغيب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وفى هذا النص فوق دلالته على

عدم الوقوع بأبلغ تعبير إثبات شمول علم الله تعالى ، وإنه بكل شيء محيط ، وقد زكى هذا المعنى الجليل بقوله : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك . ففى هذا النص إثبات قصور علم الإنسان بجوار علم الله تعالى ، وإثبات أن علم الله تعالى شامل لمطويات القلوب ، وعلم الإنسان مقصور على ما يظهر من الجوارح فالله يعلم ما يخفى فى الصدور ، والإنسان لا يعلم إلا ما هو ظاهر محسوس ، أو ما يكشف عنه الظاهر المحسوس ، فلا يعلم ما الخفى إلا ما يظهره الجلى ، والنص يدل على نفى الألوهية من جهة ثالثة ، لأن علم الله شامل لكل شيء لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وعلم عيسى من النوع القاصر الذى لا يحيط إلا بالمحسوس أو ما ينبى عنه المحسوس ، فهو نفى للألوهية من طريق العلم ، ثم هو موازنة من جهة ثانية بين نفس الإنسان المكشوفة لخالقه ، وذات الله تعالى التى لا يعلم البشر عنها إلا وحدانيتها ، وما يعلمه للإنسان منها .

وقد أكد عيسى علم الله تعالى المحيط الذى يعلو عن الصفات البشر بقوله :

(إنك أنت علام الغيوب) أى إنك يا صاحب الجلالة تقدست أسماؤك تعلم الأمور المغيبة عن حسنا ، والمكنونة فى المستقبل علما دقيقا لا يخفى منه شيء عليك ، ولذلك عبر بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة ، وعلى الدقة وعلى الإحاطة

التامة الكاملة " وأنه " سبحانه وتعالى " يعلم ما بطن كعلمه بما " ظهر ، " فإن ما اظهرا وما " بطن هو بالنسبة لنا نحن بنى الإنسان ، وأما بالنسبة لله تعالى فإن الجميع مكشوف غير

مستور .

وقد أكد علم الله تعالى للغيب بأربعة مؤكدات : أولها – ب " إن " المؤكدة .

ثانيها – بالضمير المؤكد فى قوله تعالى : (أنت .

(22/220)

وثالثها – بصيغة المبالغة التى تعد مبالغة بالنسبة للعبيد ، ولكنها حقيقة فوق ما نتصور بالنسبة لله تعالى العليم الحكيم ، وإن هذا أقصى ما تتسع له لغتنا القاصرة عن التعبير عن الحقائق الإلهية .

رابعها – جمع الغيوب ، فلم يفرد الغيب ، بل قال الغيوب بكل أنواعها ما وقع فى الماضى ، وما يقع فى المستقبل وما يتعلق بالكائنات كلها الروحانى منها والمادى ، والكل خلقه سبحانه ، من طيور فى الهواء ، وأسماك فى الماء ، وملائكة ، وجن ، وإنس ، وهكذا كل ما هو غيب فى ذاته ، أو بالنسبة للبشر ، أو لطوائف منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 2406 . 2408 ﴾

(23/220)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾

قال أبو عبيدة ﴿ إذ ﴾ زائدة وقال غيره بمعنى إذا والظاهر أنها على أصل وضعها وأن ما بعدها من الفعل الماضي قد وقع ولا يؤول بيقول .

قال السدي وغيره كان هذا القول من الله تعالى حين رفع عيسى إليه وقالت النصارى ما قالت وادعت أن عيسى أمرهم بذلك واختاره الطبري .

وقال ابن عباس وقتادة والجمهور : هذا القول من الله تعالى إنما هو يوم القيامة يقول له على رؤوس الخلائق فيعلم الكفار أن ما كانوا عليه باطل ، فيقع التجوز في استعمال ﴿ إذ ﴾ بمعنى إذا والماضي بعده بمعنى المستقبل وفي إيلاء الاستفهام الاسم ، ومجيء الفعل بعده دلالة على صدور الفعل في الوجود لكن وقع الاستفهام عن النسبة أكان هذا الفعل الواقع صادراً عن المخاطب أم ليس بصادر عنه ، بيان ذلك أنك تقول : أضربت زيداً ، فهذا استفهام هل صدر منك ضرب لزيد أم لا ، ولا إشعار فيه بأن ضرب زيد قد وقع .

فإذا قلت أنت ضربت زيداً كان الضرب قد وقع بزيد ، لكنك استفهمت عن إسناده للمخاطب ، وهذه مسألة بيانية نص على ذلك أبو الحسن الأخفش .

وذكر المفسرون أنه لم يقل أحد من النصارى بإلهية مريم ، فكيف قيل ﴿ إلهين ﴾ ، وأجابوا بأنهم لما قالوا لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً ، لزمهم أن يقولوا من حيث البغضية بإلهية من ولدته ، فصاروا بمثابة من قال : انتهى .

والظاهر صدور هذا القول في الوجود لا من عيسى ، ولا يلزم من صدور القول وجود الاتخاذ .

﴿ قال سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك .

(24/220)

قال ابن عطية : عن أن يقال هذا وينطق به ؛ وقال الزمخشري من أن يكون لك شريك ، والظاهر الأول لقوله بعد ﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ قال أبو روق : لما سمع عيسى هذا المقال ارتعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة عين من دم ، فقال عند ذلك مجيباً لله تعالى : ﴿ سبحانك ﴾ تنزيهاً وتعظيماً لك وبراءة لك من السوء .

﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ هذا نفي يعضده دليل العقل فيمتنع عقلاً ادعاء بشر محدث الإلهية و﴿ بحق ﴾ خبر ليس أي ليس مستحقاً وأجازوا في ﴿ لي ﴾ أن يكون تبييناً وأن يكون صلة صفة لقوله ﴿ بحق ﴾ لي تقدم فصار حالاً أي بحق لي ، ويظهر

أنه يتعلق ﴿ بحق ﴾ لأن الباء زائدة ، وحق بمعنى مستحقّ أي ما ليس مستحقاً ، وأجاز بعضهم أن يكون الكلام قد تم عند قوله ﴿ ما ليس لي ﴾ وجعل ﴿ بحق ﴾ متعلقاً بعلمته الذي هو جواب الشرط ، ورد ذلك بادعاء التقديم والتأخير فيما ظاهره خلاف ذلك ، ولا يصار إلى التقديم والتأخير إلا لمعنى يقتضي ذلك ، أو بتوقيف ، أو فيما لا يمكن فيه إلا ذلك ؛ انتهى هذا القول ورده ، ويمتنع أن يتعلق بعلميته لأنه لا يتقدم على الشرط شيء من معمولات فعل الشرط ولا من معمولات جوابه ، ووقف نافع وغيره من القراء على قوله ﴿ بحق ﴾ وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ قال أبو عبد الله الرازي : هذا مقام خضوع وتواضع ، فقدم ناسخ نفي القول عنه ، ولم يقل ما قلته بل فوّض ذلك إلى علمه المحيط بالكلّ وهذه مبالغة في الأدب وفي إظهار الذلة والمسكنة في حضرة الجلال ، وتفويض الأمر بالكلية إلى الحق سبحانه ، انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ خصّ النفس لأنها مظنة الكتم والانطواء على المعلومات .

قيل : المعنى : تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي .

وقيل : تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك .

وقيل : تعلم ما كان في الدنيا ولا أعلم ما تقول وتفعل .

وقيل : تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد .

وقيل : تعلم سرّي ولا أعلم سرّك .

وقال الزمخشري : تعلم معلومي ولا أعلم معلومك وأتى بقوله : ﴿ ما في نفسك ﴾ على جهة المقابلة والتشاكل لقوله ﴿ ما في نفسي ﴾ فهو شبيه بقوله : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ وقوله : ﴿ إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ﴾ ومن زعم أن النفس تطلق على ذات الشيء وحقيقته ، كان المعنى عنده تعلم كنه ذاتي ولا أعلم كنه ذاتك ، وقد استدلت المجسمة بقوله ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ قالوا : النفس هي الشخص وذلك يقتضي كونه جسماً .

تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ هذا تقرير للجملتين معاً لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ولأن ما يعلمه ﴿ علام الغيوب ﴾ لا ينتهي إليه أحد ، فإذا كنت أنت المختص بعلم الغيب فلا علم لي بالغيب فكيف تكون لي الألوهية وخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فلقاه الله ﴿ سبحانك ما يكون لي ان أقول ما ليس لي بحق ﴾ الآية

كلها .

قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(26/220)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى عِيسَى ابن مَرْيَمَ ﴾

عطف على ﴿ إِذْ قَالَ الحواريون ﴾ [المائدة : 112] منصوب بما نصبه من الفعل المضمر أو بمضمر مستقل معطوف على ذلك .

وصيغة الماضي لما مضى .

والمراد يقول له عليه الصلاة والسلام : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمِّىَ إِلهين مِن دُونِ الله ﴾ يوم القيامة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم باقراره عليه الصلاة والسلام على رؤوس الأشهاد بالعبودية وأمرهم بعبادته عز وجل .

وقيل : قاله سبحانه له عليه الصلاة والسلام في الدنيا وكان ذلك بعد الغروب فصلى عليه الصلاة والسلام المغرب ثلاث ركعات شكراً لله تعالى حين خاطبه بذلك ، وكان الأولى :

لنفي الألوهية عن نفسه .

والثانية : لنفيها عن أمه .

والثالثة : لإثباتها لله عز وجل .

فهو عليه الصلاة والسلام أول من صلى المغرب ولا يخفى أن ما سيأتي إن شاء الله تعالى في الآيات يأبى ذلك ولا يصح أيضاً خبر فيه .

ثم إنه ليس مدار أصل الكلام عند بعض المحققين أن القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من إيلاء الهمزة المبتدأ على الاستعمال المشهور وعليه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ءأَنتَ فَعَلْتَ هذا ﴾ [الأنبياء : 62] ونحوه بل على أن المتيقن هو الاتخاذ .

والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه الصلاة والسلام أو أمر من تلقاء أنفسهم كما في قوله تعالى : ﴿ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلاَء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل قَالُواْ ﴾ [الفرقان : 17] وقال بعض : لما كان القول قد وقع من رؤسائهم في الضلال كان مقرراً كالاتخاذ فالاستفهام لتعيين من صدر منه فلذا قدم المسند إليه ، وقيل : التقديم لتقوية النسبة لأنها بعيدة عن القبول بحيث لا تتوجه نفس السامع إلى أن المقصود ظاهرها حتى يجيب على طبقه فاحتاجت إلى التقوية حتى يتوجه إليها المستفهم عنها ، وفيه كمال توبيخ الكفرة بنسبة هذا القول إليه .

وفي قوله : ﴿ اتخذونى وَأُمّىَ ﴾ دون واتخذوني ومريم توبيخ على توبيخ كأنه قيل : أأنت قلت ما قلت مع كونك مولوداً وأمك والدة والإله لا يلد ولا يولد .

وأنت تعلم أن في ندائه عليه الصلاة والسلام على الكيفية المذكورة إشارة إلى إبطال ذلك الاتخاذ .

(27/220)

ولام ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ للتبليغ ، والاتخاذ إما متعد لاثنين فالياء مفعوله الأول و ﴿ إلهين ﴾ مفعوله الثاني وإما متعد لواحد فإلهين حال من المفعول و ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ حال من فاعل الاتخاذ أي متجاوزين الله تعالى أو صفة لإلهين أي كائنين من دون الله تعالى أي غيره منضماً إليه سبحانه فالله تعالى إله وهما بزعم الكفرة إلهان فالمراد اتخاذهما بطريق اشتراكهما معه عز وجل .

وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : 18] وأيد ذلك بأن التوبيخ والتبكيت إنما يتأتى بذلك .

وقال الراغب : إن ظاهر ذلك القول استقلالهما عليهما الصلاة والسلام بالألوهية وعدم اتخاذ الله سبحانه وتعالى معهما إلهاً ولا بد من تأويل ذلك لأن القوم ثلثوا والعياذ بالله تعالى فإما أن يقال : إن من أشرك مع الله سبحانه غيره فقد نفاه معنى لأنه جل شأنه وحده لا

شريك له ويكون إقراره بالله تعالى كلا إقرار .

وحينئذٍ يكون ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ مجازاً عن مع الله تعالى أو يقال : إن المراد بمن دون الله التوسط بينهما وبينه عز شأنه فيكون الدون إشارة لقصور مرتبتهما عن مرتبته جل جلاله لأنهم قالوا : هو عز اسمه كالشمس وهما كشعاعها .

وزعم بعضهم أن المراد اتخاذهما بطريق الاستقلال .

ووجهه أن النصارى يعتقدون أن المعجزات التي ظهرت على يدي عيسى وأمه عليهما الصلاة والسلام لم يخلقها الله تعالى بل هما خلقاها فصح أنهم اتخذوهما في حق بعض الأشياء إلهين مستقلين ولم يتخذوه إلهاً في حق ذلك البعض ، ولا يخفى أن الأول كالمتعين وإليه أشار العلامة ونص على اختياره شيخ الإسلام .

واستشكلت الآية بأنه لا يعلم أن أحداً من النصارى اتخذ مريم عليها السلام إلهاً .

وأجيب عنه بأجوبة .

(28/220)

الأول : أنهم لما جعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً كذلك لأن الولد من جنس من يلده فذكر ﴿ إلهين ﴾ على طريق الإلزام لهم .

والثاني : أنهم لما عظموها تعظيم الإله أطلق عليها اسم الإله كما أطلق اسم الرب على الأحبار والرهبان في قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾ [التوبة : 31] لما أنهم عظموهم تعظيم الرب .

والتثنية حينئذٍ على حد القلم أحد اللسانين .

والثالث : أنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك .

ويعضد هذا القول ما حكاه أبو جعفر الإمامي عن بعض النصارى أنه قد كان فيما مضى قوم يقال لهم : المريمية يعتقدون في مريم أنها إله .

وهذا كما كان في اليهود قوم يعتقدون أن عزيراً ابن الله عز اسمه وهو أولى الأوجه عندي .

وما قرره الزاعم من أن النصارى يعتقدون الخ غير مسلم في نصارى زماننا ولم ينقله أحد ممن يوثق به عنهم أصلاً .

وإظهار الاسم الجليل لكونه في حيز القول المسند إلى عيسى عليه الصلاة والسلام .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام وهو ظاهر .

وفي بعض الآثار أنه عليه الصلاة والسلام حين يقول له الرب عز وجل ما يقول ترتعد مفاصله وينفجر من أصل كل شعرة من جسده عين من دم خيفة من ربه جلت عظمته ، وفي بعضها أنه عليه الصلاة والسلام يرتعد خوفاً ولا يفتح له باب الجواب خمسمائة عام ثم يلهمه الله تعالى الجواب بعد فيقول : ﴿ سبحانك ﴾ أي تنزيهاً لك من أن أقول ذلك أو يقال في حقك

كما قدره ابن عطية ، وقدره بعضهم من أن يكون لك شريك فضلاً من أن يتخذ إلهان دونك ، وآخرون من أن تبعث رسولاً يدعى ألوهية غيرك ويدعو إليها ويكفر بنعمتك ، والأول أوفق بسياق النظم الكريم .

وسبحان على سائر التقادير على أحد الأقوال فيه وقد تقدمت علم للتسبيح وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه .

(29/220)

وفيه من المبالغة في التنزيه من حيث الاشتقاق من السبح وهو الإبعاد في الأرض والذهاب ، ومن جهة النقل إلى صيغة التفعيل والعدول عن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة المشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن وإقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى .

وقوله سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقّ ﴾ استئناف مقرر للتنزيه ومبين للمنزه عنه .

وما الثانية سواء كانت موصولة أو نكرة موصوفة مفعول ﴿ أَقُولُ ﴾ والمراد بها على التقديرين القول المذكور أو ما يعمه وغيره ويدخل فيه القول المذكور دخولاً أولياً ، ونصب القول للمفردات نحو الجملة والكلام والشعر مما لا شك في صحته كنصبه الجمل الصريحة فلا

حاجة إلى تفسير أقول بأذكر كما يتوهم .

واسم ﴿ لَّيْسَ ﴾ ضمير عائد إلى ما و ﴿ بِحَقّ ﴾ خبره ، والجار والمجرور فيما بينهما للتبيين فيتعلق بمحذوف كما في سقيا لك .

وإيثار ليس على الفعل المنفي على ما يحق لي لظهور دلالته على استمرار انتفاء الحقيقة وإفادة التأكيد بما في خبره من الباء المطرد زيادتها في خبر ليس .

ومعنى ﴿ مَا يَكُونُ لِى ﴾ أي لا ينبغي ولا يليق وهو أبلغ من لم أقله فلذا أوثر عليه : والمراد لا ينبغي أن أقول قولاً لا يحق لي قوله أصلاً في وقت من الأوقات ، وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ لِى ﴾ خبر ليس و ﴿ بِحَقّ ﴾ في موضع الحال من الضمير في الجار والعامل فيه ما فيه من معنى الاستقرار .

وأن يكون متعلقاً بفعل محذوف على أنه مفعول له والباء للسببية أي ما ليس يثبت لي بسبب حق .

وأن يكون خبر ليس و ﴿ لِى ﴾ صفة حق قدم عليه فصار حالاً ، وهذا مخرج على رأي من أجاز تقديم حال المجرور عليه ، وقيل : إن ﴿ لِى ﴾ متعلق بحق وهو الخبر .

وهو أيضاً مبني على قول بعض النحاة المجوز تقديم صلة المجرور على الجار .

والجمهور على عدم الجواز ولا فرق عندهم في المنع بين أن يكون الجار زائداً أو غيره .

وقوله عز وجل : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ استدلال على براءته من صدور القول المذكور عنه فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه به تعالى قطعاً والعلم به منتف فينتفي الصدور ضرورة أن انتفاء اللازم مستلزم لانتفاء الملزوم .

واستشكلت هذه الجملة بأن المعنى على المضي هنا وأن تقلب الماضي مستقبلاً .

وأجاب عن ذلك المبرد بأن كان قوية الدلالة على المضي حتى قيل إنها موضوعة له فقط دون الحدث وجعلوه وجهاً لكونها ناقصة فلا تقدر إن على تحويلها إلى الاستقبال .

وأجاب ابن السراج بأن التقدير إن أقل كنت قلته الخ وكذا يقال فيما كان من أمثال ذلك ، وقد نقل ذلك عثمان بن يعيش وضعفه ابن هشام في "تذكرته" ، والجمهور على أن المعنى إن صح قولي ودعواي ذلك فقد تبين علمك به .

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله فقوله جل شأنه : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ بيان للواقع وإظهار لقصوره عليه السلام ، وللنفس في كلامهم إطلاقات فتطلق على ذات الشيء وحقيقته وعلى الروح وعلى القلب وعلى الدم وعلى الإرادة ، قيل : وعلى العين التي تصيب وعلى الغيب وعلى العقوبة .

ويفهم من كلام البعض أنها حقيقة في الإطلاق الأولي مجاز فيما عداه ، وفسر غير واحد النفس هنا بالقلب ، والمراد تعلم معلومي الذي أخفيه في قلبي فكيف بما أعلنه ولا أعلم

معلومك الذي تخفيه وسلك في ذلك مسلك المشاكلة كما في قوله

: قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه . . .

قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

إلا أن ما في الآية كلا اللفظين وقع في كلام شخص واحد وما في البيت ليس كذلك .

وفي "الدر المصون" أن هذا التفسير مروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وحكاه عنه أيضاً في "مجمع البيان" .

(31/220)

وفسرها بعضهم بالذات وادعى أن نسبتها بهذا المعنى إلى الله تعالى لا تحتاج إلى القول بالمشاكلة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ [الأنعام : 45] ﴿ واصطنعتك لِنَفْسِي ﴾ [طه : 14] ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 82 و03] وقوله صلى الله عليه وسلم : " أقسم ربي على نفسه أن لا يشرب عبد خمراً ولم يتب إلى الله تعالى منه إلا سقاه من طينة الخبال " وقوله عليه الصلاة والسلام : " ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ولأجل ذلك مدح نفسه " وقوله صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه " إلى غير ذلك من الأخبار .

وقال المحقق الشريف في "شرح المفتاح" وغيره : إن لفظ النفس لا يطلق عليه تعالى وإن أريد به الذات إلا مشاكلة وليس بشيء لما علمت من الآيات والأحاديث ، وادعاء أن ما فيها مشاكلة تقديرية كما قيل ذلك في قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللهِ مَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : 831] لا يخفى أنه من سقط المتاع فالصحيح المعول عليه جواز إطلاقها بمعنى الذات على الله تعالى من غير مشاكلة ، نعم قيل : إن لفظ النفس في هذه الآية وإن كان بمعنى الذات لا بد معه من اعتبار المشاكلة لأن لا أعلم ما في ذاتك ليس بكلام مرضي فيحتاج إلى حمله على المشاكلة بأن يكون المراد لا أعلم معلوماتك فعبر عنه بلا أعلم ما في نفسك لوقوع التعبير عن تعلم معلومي بتعلم ما في نفسي .

وعلى ذلك حمل العلامة الثاني كلام صاحب "الكشاف" ولا يخفى ما فيه ، والتحقيق أن الآية من المشاكلة إلا أنها ليست في إطلاق النفس بل في لفظ ﴿ فِى ﴾ فإن مفادها بالنظر إلى ما في نفس عيسى عليه السلام الارتسام والانتقاش ولا يمكن ذلك نظراً إلى الله تعالى .

(32/220)

وإلى هذا يشير كلام بعض المحققين ومنه يعلم ما في كتب الأصول من الخبط في هذا المقام ، وقال الراغب : يجوز أن يكون القصد إلى نفي النفس عنه تعالى فكأنه قال : تعلم ما في

نفسي ولا نفس لك فأعلم ما فيها كقول الشاعر

: ولا ترى الضب بها ينجحر . . .

وهو على بعده مما لا يحتاج إليه .

ومثله ما ذكره بعض الفضلاء من أن النفس الثانية هي نفس عيسى عليه السلام أيضاً ، وإنما أضافها إلى ضمير الله تعالى باعتبار كونها مخلوقة له سبحانه كأنه قال : تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما فيها .

﴿ إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ تقرير لمضمون الجملتين منطوقاً ومفهوماً لما فيه من الحصر ومدلوله الإثبات فيقرر ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ويلزمه النفي فيقرر لا أعلم ما في نفسك لأنه غيب أيضاً ، ومدلول النفي أنه لا يعلم الغيب غيره تعالى شأنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(33/220)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

ونعرف أن هذا هو الحوار الذي سوف يدور بين الحق وبين عيسى ابن مريم عليه السلام يوم يجمع الحق سبحانه وتعالى الرسل : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ [المائدة : 109] .

وقد يقول قائل : ولماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار في صيغة الفعل الماضي ؟ : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] .

وكلنا يعرف أن لكل حدث زمناً ومكاناً . وزمان الحدث هو يوم القيامة . ومكان هذا الحدث في ساحة المشهد والحشر ، وسبحانه هو خالق كل زمن وكل مكان ، وله أن يتحدث عن أي أمر بأي صيغة شاء ، سواء أكانت صيغة الماضي أم الحاضر أم المستقبل ، فقد أوجد كل شيء من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل ، وبيده أمر كل ما خلق ومن خلق . وهو أزلي قيوم ، أما نحن بنو الإنسان فأمر الزمن يختلف ، الزمن بالنسبة لأفعالنا هو واحد من ثلاثة ؛ ماضٍ : أي أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم ؛ مثل قولي " قابلني زيد " ، ومعنى ذلك أن الفعل قد تم وصار محققاً .

وحاضر : أي أن يكون الحدث في حالة وقوعه ، أي يحصل الآن مثل قولي : " يقابلني زيد " وأنت تقصد الحال أي أنه يقابلني الآن .

إن معنى ذلك أن العين ترى زيداً وليس مع العين أين . ومستقبل : أي أن يكون الحادث سوف يقع مقولي : " سيقابلني زيد " . وهنا لا يملك الإنسان نفسه أن يحدث منه الحدث ، ولا يملك ألا يقع على الإنسان الذي سوف يقابله أمرٌ قد يمنعه من إتمام الحدث ، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب للمقابلة قائماً . إذن فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشيء ، لأنه لا يملك أي عنصر من عناصر الحدث . والذي يملك هذا هو الحق سبحانه وتعالى وحده . ولذلك يعلمنا القرآن شرف الصدق في الكلمة بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ [الكهف : 23-24] .

وعلى الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة ، وان يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه . وهذا لا يعني أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل ، لا ، بل يطلب منا أن نخطط وأن ندرس كل الاحتمالات ، وعلينا أن نقول : " إن شاء الله " ؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة من يملك كل أمر وهو الله – سبحانه وتعالى– .

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفذوا بسمومهم إلى عقول المسلمين بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها في بعض من آيات القرآن ، فقال قائل منهم : كيف يقول الحق – سبحانه – :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 1] .

وهذا خبر عن يوم القيامة فكيف يأتي به الله على صيغة الماضي ، ثم يقول بعد ذلك : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ؟ واستعجال الشيء لا يكون إلاّ إذا لم يكن قد حدث ، فكأن في الكلام تناقضاً ، ذلك لأنه يقول : أتى ، ويقول بعد ذلك : فلا تستعجلوه ؟

(35/220)

ونقول : إن الذي يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه . بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها . وعندما يقول سبحانه : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ فمعنى ذلك أن أمر الله آتٍ لا محالة ، لأنه لا قدرة تخرج مراده على ألاّ يكون . وأي فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان ، فإن كنا نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 100] .

فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها . ولكن لنقل : كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً ، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أولى يكون غفورا رحيما بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة . وسبحانه منزه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير ؛ لأن الزمن مخلوق من الله ، فلا تقل متى أو أين ؛ لأنهما به وجدا . والحق يأتي بالماضي لأنه متحقق الوقوع ، ليثبت

حدوث أمر لم يحدث بعد ، ذلك لأن الله إذا قال عن شيء إنه سيحدث فلا بد أن يحدث .

ويؤكد الحق سبحانه في أي كلام من عيسى ابن مريم على أنه " ابن مريم " وهنا يسأل الحق عيسى – عليه السلام – : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾

ونعرف أن السؤال إنما يأتي دائماً على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القائل : أقابلك فلان أمس ؟ وإما أن يأتي السؤال لا ليعلم السائل من المسئول ، ولكن ليقرر السائل المسئولَ .

(36/220)

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – يسأل التلميذ أستاذه ليتعلم منه وليخبره الأستاذ بعلم جديد وخبر جديد . وأيضاً يسأل الأستاذ التلميذ ليقرره بالحقيقة ويوافقه عليها لتستقر لدى التلميذ . وسؤال الله عيسى من النوع الأخير ؛ ليكون ذلك حجة على من قال بألوهية عيسى أو بنوته لله . وحاول بعض المستشرقين أن يشككوا في القرآن فقالوا : إن هناك تناقضاً في القرآن – والعياذ بالله – واستندوا على ذلك بقول الحق : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] .

أي أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل ويعتقد ، ولكنه سبحانه يقول في موضع آخر

من القرآن الكريم : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 39] .

فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا ؟ لا ، بل سوف يُسألون ليقرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا ، فهو سبحانه عليم بكل شيء .

وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين ، وجه ليعلم السائل ، ووجه ليقرر المسئول ، وسؤال الحق للناس يوم القيامة ليقرروا ما فعلوا وكان منهم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة ، وليس سؤال الحق سبحانه هو سؤال من يرغب في أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء ، وعلى الإنسان أن يحتفظ بالمقام الذي وضعه فيه ربه ، وكذلك كان عيسى ابن مريم . وكذلك يكون سؤال الله لعيسى ، إنه لتقريع وتأنيب وتوبيخ من قالوا عن عيسى ما لم يبلغهم إياه .

(37/220)

إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم ولم يطلب منهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم ، إنما يبلغ ما أُوحي إليه من ربه فقط ، ولهذا تأتي إجابة عيسى رداً على أي تزيُّد من الأتباع : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ وساعة نسمع ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ فلنعرف أنها إجمال التنزيه لله ، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق

الله ، فلله وجود ، وللإنسان وجود ، ولكن إياك أيها الإنسان أن تقول : إن وجودي كوجود الله ؛ لأن وجود الله ذاتي ، ووجودك غير ذاتي وكل ما فيك موهوب لك من الله ؛ لذلك فلا غناك مثل غنى الله ، بل غناه ذاتي وغناك موهوب منه سبحانه ، ولا أي صفة من صفاتك كصفات الله ، فله سبحانه مطلق القدرة والقوة ، وعليك أن تأخذ كل شيء يتعلق بالله في نطاق " سبحانه " " وليس كمثله شيء " .

وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ فعيسى ابن مريم يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله . ويرد عيسى على ذلك بقضية متفق عليها : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ لأن الكل متفق على أن الله يعلم كل ما يبدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْينِ وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ . والكل يعلم ارتفاع الحق وتنزهه عن أن يوجد له معلوم جديد لم يعلمه من قبل . والكل يعلم – كذلك – أن الله يعلم خفايا الصدور ؛ لذلك يقول عيسى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ويقرر أن الحق العليم بكل شيء يعلم أن ذلك لم يخطر له على بال ، وهذه هي العلة في إيراد ثلاث صور في هذه الآية .

(38/220)

الصورة الأولى هي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ وهذا تنزيه من عيسى لربه ، والصورة الثانية هي قول عيسى : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ ، والصورة الثالثة هي : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ .

إذن فلا شيء من عند عيسى ، وقد يسأل سائل : وماذا يكون في النفس ؟ الذي يكون في النفس هو ما أسِرُّ به ولم يظهر ؛ لأن النفس تُطلق مرة ويراد بها الذات التي تضم الروح والجسد معا ، وعندما تُطلق على ذات الله فنحن ننزهها عن أن تكون أبعاضاً ، ولكنها ذاته المأخوذة في نطاق التنزيه .

والمثال هو قول الحق : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ [الأنعام : 54] .

وهكذا يكون فهمنا لمجيء كلمة " نفس " منسوبة لله ، إنه المنزه أن يكون مثلنا ، فلله وجه ولنا وجه ، ولكن وجه الله نفهمه في نطاق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وكذلك يد الله وكذلك كل صفات الله . ونعلم أن لله أسماء أعلمنا ببعضها ، وعَلَّم بعضاً من خلقه بعضها ، واستأثر ببعضها لذاته . وهناك بعض من الصفات لله تأتي لمجرد المشاكلة ، كقول الحق :

﴿ إِنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] .

ولا نقول أبداً : إن الله مخادع ، ولكن الصفة هنا جاءت للمشاكلة لذكرها في مقابلة يخادعون الله . ولذلك لا نأخذ منها اسماً لله ، بل إنه جاء للرد على ما يبدو من أعداء الله

.

ويختم عيسى ابن مريم قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ هي مبالغة في ذات الحدث ، ومبالغة في تكرير الحدث ، فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما في كونه ، وهكذا جاء القرآن برد عيسى عليه السلام وهو رد يستوعب كل مجالات الإنكار على الذين قالوا مثل هذا القول :

ويتابع القرآن على لسان سيدنا عيسى عليه السلام ما يناقض ما قاله بعض من أتباعه فيقول : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(39/220)

فصل

قال فى الميزان :

(بيان) مشافهة الله رسوله عيسى ابن مريم في أمر ما قالته النصارى في حقه ، وكأن الغرض من سرد الآيات ذكر ما اعترف به (عليه السلام) وحكاه عن نفسه في حياته الدنيا : أنه لم يكن من حقه أن يدعى لنفسه ما ليس فقد كان بعين الله التى لا تنام ولا تزيغ ، وأنه لم يتعد ما حده الله سبحانه له فلم يقل إلا ما أمر أن يقول ذلك ، واشتغل بالعمل بما كلفه الله أن

يشتغل به وهو أمر الشهادة ، وقد صدقه الله تعالى فيما ذكره من حق الربوبية والعبودية .

وبهذا تنطبق الآيات على الغرض النازل لاجله السورة ، وهو بيان الحق المجعول لله على عباده أن يفوا بالعهد الذى عقدوه وأن لا ينقضوا الميثاق ، فليس لهم أن يسترسلوا كيفما أرادوا وأن يرتعوا رغدا حيث شاؤا فلم يملكوا هذا النوع من الحق من قبل ربهم ، ولا أنهم قادرون على ذلك من حيال أنفسهم ، ولله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شئ قدير ، وبذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : " وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله " " إذ " ظرف متعلق بمحذوف يدل عليه المقام ، والمراد به يوم القيامة لقوله تعالى فيها : " قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم " وقول عيسى عليه السلام فيها " وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم " .

وقد عبرت الآية عن مريم بالامومة فقيل : " اتخذوني وأمى إلهين " دون أن يقال : " اتخذوني ومريم إلهين " للدلالة على عمدة حجتهم في الالوهية وهو ولادته منها بغير أب ، فالبنوة والأمومة الكذائيتين هما الأصل في ذلك فالتعبير به وبأمه أدل وأبلغ من التعبير بعيسى ومريم .

و " دون " كلمة تستعمل بحسب المآل في معنى الغير ، قال الراغب : يقال للقاصر عن الشئ " دون " قال بعضهم : هو مقلوب من الدنو ، والادون الدنى ، وقوله تعالى : " لا تتخذوا بطانة من دونكم " أي من لم يبلغ منزلتكم في الديانة ، وقيل : في القرابة ، وقوله : " ويغفر ما دون ذلك " أي ما كان أقل من ذلك ، وقيل : ما سوى ذلك ، والمعنيان متلازمان ، وقوله : " ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله " أي غير الله ، انتهى .

وقد استعمل لفظ " من دون الله " كثيرا في القرآن في معنى الاشراك دون الاستقلال بمعنى أن المراد من اتخاذ إله أو إلهين أو آلهة من دون الله هو أن يتخذ غير الله شريكا لله سبحانه في الوهيته لا أن يتخذ غير الله إلها وتنفى الوهية الله سبحانه فإن ذلك من لغو القول الذى لا يرجع إلى محصل فإن الذى أثبته حينئذ يكون هو الإله سبحانه وينفى غيره ، ويعود النزاع إلى بعض الاوصاف التى أثبتها فمثلا لو قال قائل : " إن الاله هو المسيح ونفى إله المسيح عاد مفاد كلامه إلى إثبات الاله تعالى وتوصيفه بصفات المسيح البشرية ، ولو قال قائل : إن الاصنام أو أرباب الاصنام آلهة ونفى الله تعالى وتقدس فإنه يقول بأن للعالم إلها فقد أثبت الله سبحانه لكنه نعته بنعت الكثرة والتعدد فقد جعل لله شركاء ، أو يقول كما يقوله النصارى : إن الله ثالث ثلاثة أي واحد هو ثلاث وثلاث هو واحد .

ومن قال : إن مبدأ العالم هو الدهر أو الطبيعة ونفى أن يكون للعالم إله تعالى عن ذلك فقد أثبت للعالم صانعا وهو الله عز اسمه لكنه نعته بنعوت القصور والنقص والامكان .

(41/220)

ومن نفى أن يكون لهذا النظام العجيب مبدأ أصلا ونفى العلية والتأثير على الرغم من صريح ما تقضى به فطرته فقد أثبت عالما موجودا ثابتا لا يقبل النفى والانعدام من رأس أي هو واجب الثبوت وحافظ ثبوته ووجوده إما نفسه وليس لطرو الزوال والتغير إلى أجزائه ، وإما غيره فهو الله تبارك وتعالى ، وله نعوت كماله .

فتبين أن الله سبحانه لا يقبل النفى إصلا إلا بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى معقول .

والملاك في ذلك كله أن الإنسان إنما يثبت الإله تعالى من جهة الحاجة العامة في العالم إلى من يقيم أود وجوده ويدبر أمر نظامه ثم يثبت خصوصيات وجوده فما أثبته من شئ لسد هذه الخلة ورفع تلك الحاجة فهو الله سبحانه ثم إذا أثبت إلها غيره أو أثبت كثرة فإما أن يكون قد أخطأ في تشخيص صفاته والحد في اسمائه ، أو يثبت له شريكا أو شركاء تعالى عن ذلك ، وأما نفيه وإثبات غيره فلا معنى له .

فظهر أن معنى قوله : " إلهين من دون الله " شريكين لله هما من غيره ، وإن سلم أن الكلمة لا تؤدى معنى الشركة بوجه ، قلنا : إن معناها لا يتعدى إتخاذ إلهين هما

من سنخ غير الله سبحانه وأما كون ذلك مقارنا لنفى الوهيته تعالى أو إثباتها فهو مسكوت عنه لا يدل عليه لفظ وإنما يعلم من خارج ، والنصارى لا ينفون الوهيته تعالى مع اتخاذهم المسيح وامه إلهين من دون الله سبحانه .

وربما استشكل بعضهم الآية بأن النصارى غير قائلين بالوهية مريم العذراء (عليه السلام) ، وذكروا في توجيهها وجوها .

لكن الذى يجب أن يتنبه عليه أن الآية إنما ذكرت اتخاذهم إياها إلهة ولم يذكر قولهم بأنها إلهة بمعنى التسمية ، واتخاذ الاله غير القول بالالوهية إلا من باب الالتزام ، واتخاذ الاله يصدق بالعبادة والخضوع العبودي قال تعالى : " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه " (الجاثية : 23) وهذا المعنى مأثور عن أسلاف النصارى مشهود في أخلافهم .

(42/220)

قال الالوسى في روح المعاني : إن أبا جعفر الإمامي حكى عن بعض النصارى أنه كان فيما مضى قوم يقال لهم : " المريمية " يعتقدون في مريم أنها إله .

وقال في تفسير المنار : أما اتخاذهم المسيح إلها فقد تقدم في مواضع من تفسير هذه السورة ، وأما امه فعبادتها كانت متفقا عليها في الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين ، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التى حدثت بعد الإسلام بعدة قرون .

إن هذه العبادة التى توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح (عليه السلام) منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء واستغاثة واستشفاع ، ومنها صيام ينسب إليها ويسمى باسمها ، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورها وتماثيلها ، واعتقاد السلطة الغيبية لها التى يمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدنيا والاخرة بنفسها أو بواسطة ابنها ، وقد صرحوا بوجوب العبادة لها ، ولكن لا يعرف عن فرقة من فرقهم إطلاق كلمة " إله " عليها بل يسمونها " والدة الإله " ويصرح بعض فرقهم أن ذلك حقيقة لا مجاز .

والقرآن يقول هنا : إنهم اتخذوها وامها إلهين ، والاتخاذ غير التسمية فهو يصدق بالعبادة وهى واقعة قطعا ، وبين في آية أخرى أنهم قالوا : إن الله هو المسيح عيسى بن مريم ، وذلك معنى آخر ، وقد فسر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله تعالى في أهل الكتاب : " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " أنهم اتبعوهم فيما يحلون ويحرمون لا أنهم سموهم أربابا .

وأول نص صريح رأيته في عبادة النصارى لمريم عبادة حقيقية ما في كتاب " السواعى " من

كتب الروم الارثوذكس ، وقد اطلعت على هذا الكتاب في دير يسمى " دير التلميد " وأنا في أول العهد بمعاهد التعليم ، وطوائف الكاثوليك يصرحون بذلك ويفاخرون به .

(43/220)

وقد زين الجزويت في بيروت العدد التاسع من السنة السابعة لمجلتهم " المشرق " بصورتها وبالنقوش الملونة إذ جعلوه تذكارا لمرور خمسين سنة على إعلان البابا بيوس التاسع : أن مريم البتول " حبل بها بلا دنس الخطية " وأثبتوا في هذا العدد عبادة الكنائس الشرقية لمريم كالكنائس الغربية .

ومنه قول الاب " لويس شيخو " في مقالة له فيه عن الكنائس الشرقية : " إن تعبد الكنيسة الارمنية للبتول الطاهرة أم الله لامر مشهور " وقوله " قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتولة المغبوطة ام الله " انتهى كلامه .

ونقل أيضا بعض مقالة للاب " إنستاس الكرملى " نشرت في العدد الرابع عشر من السنة الخامسة من مجلة المشرق الكاثوليكية البيروتية قال تحت عنوان " قدم التعبد للعذراء " بعد ذكر عبارة سفر التكوين في عداوة الحية للمرأة ونسلها وتفسير المرأة بالعذراء : " ألا ترى أنك لا ترى من هذا النص شيئًا ينوه بالعذراء تنويها جليا إلى أن جاء ذلك النبي العظيم

" إيليا " الحى فأبرز عبادة العذراء من حيز الرمز والابهام إلى عالم الصراحة والتبيان " .

ثم فسر هذه الصراحة والتبيان بما في سفر الملوك الثالث (بحسب تقسيم الكاثوليك) من أن إيليا حين كان مع غلامه في رأس الكرمل أمره سبع مرات أن يتطلع نحو البحر فأخبره الغلام بعد تطلعه المرة السابعة : أنه رأى سحابة قدر راحة الرجل طالعة من البحر .

قال صاحب المقالة : فمن ذلك النشئ (أول ما ينشأ من السحاب)

قلت : إن هو إلا صورة مريم على ما أحقه المفسرون بل وصورة الحبل بلا دنس أصلى ، ثم قال : هذا أصل عبادة العذراء في الشرق العزيز ، وهو يرتقى إلى المائة العاشرة قبل المسيح ، والفضل في ذلك عائد إلى هذا النبي إيليا العظيم ، ثم قال : ولذلك كان أجداد الكرمليين أول من آمن أيضا بالاله يسوع بعد الرسل والتلامذة ، وأول من أقام للعذراء معبدا بعد انتقالها إلى السماء بالنفس والجسد ، انتهى .

(44/220)

---

(2) قوله تعالى : " قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق " إلى آخر الآية هذه الآية والتى تتلوها جواب المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام عما سئل عنه وقد أتى عليه

السلام فيه بأدب عجيب : فبدأ بتسبيحه تعالى لما فاجأه أن سمع ذكر ما لا يليق نسبته إلى ساحة الجلال والعظمة وهو اتخاذ الناس إلهين من دون الله شريكين له سبحانه فمن أدب العبودية أن يسبح العبد ربه إذا سمع ما لا ينبغي أن يسمع فيه تعالى أو ما يخطر بالبال تصور ذلك ، وعليه جرى التأديب الإلهي في كلامه كقوله : " وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه " (الأنبياء : 26) وقوله : " ويجعلون لله البنات سبحانه " (النحل : 57) .

ثم عاد إلى نفي ما استفهم عن انتسابه إليه ، وهو أن يكون قد قال للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، ولم ينفه بنفسه بل بنفي سببه مبالغة في التنزيه فلو قال : " لم أقل ذلك أو لم أفعل لكان فيه إيماء إلى إمكان وقوعه منه لكنه لم يفعل ، لكن إذا نفاه بنفي سببه فقال : " ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق " كان ذلك نفيا لما يتوقف عليه ذلك القول ، وهو أن يكون له أن يقول ذلك حقا فنفى هذا الحق نفي ما يتفرع عليه بنحو أبلغ نظير ما إذ قال المولى لعبده : لم فعلت ما لم آمرك أن تفعله ؟ فإن أجاب العبد بقوله : " لم أفعل " كان نفيا لما هو في مظنة الوقوع ، وإن قال : " إنا أعجز من ذلك " كان نفيا بنفي السبب وهو القدرة ، وإنكارا لاصل إمكانه فضلا عن الوقوع .

وقوله : " ما يكون لي إن أقول ما ليس لي بحق " إن كان لفظ " يكون " ناقصة فاسمها قوله : " أن أقول " وخبرها قوله : " لي " واللام للملك ، والمعنى : ما أملك ما لم أملكه وليس من حقي القول بغير حق ، وإن كانت تامة فلفظ " لي " متعلق بها وقوله : " أن أقول ، الخ "

فاعلها ، والمعنى : ما يقع لى القول بغير حق ، والأول من الوجهين أقرب ، وعلى أي حال يفيد الكلام نفى الفعل بنفى سببه .

(45/220)

وقوله عليه السلام : " إن كنت قلته فقد علمته " نفى آخر للقول المستفهم عنه لا نفيا لنفسه بنفسه بل بنفى لازمه فإن لازم وقوع هذا القول أن يعلم به الله لأنه الذى لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، المحيط بكل شئ .

وهذا الكلام منه عليه السلام يتضمن أولا فائدة إلقاء القول مع الدليل من غير أن يكتفى بالدعوى المجردة ، وثانيا الاشعار بأن الذى كان يعتبره في أفعاله وأقواله هو علم الله سبحانه من غير أن يعبأ بغيره من خلقه علموا أو جهلوا ، فلا شأن له معهم .

وبلفظ آخر السؤال إنما يصح طبعا في ما كان مظنة الجهل فيراد به نفى الجهل وإفادة العلم ، إما لنفس السائل إذا كان هو الجاهل بواقع الأمر ، أو لغيره إذا كان السائل عالما وأراد أن يعلم غيره بما يعلم هو من واقع الأمر كما يحمل عليه نوع السؤال الواقع في كلامه تعالى ، وقوله عليه السلام في الجواب في مثل المقام : " إن كنت قلته فقد علمته " إرجاع للامر إلى علمه تعالى وإشعار أنه لا يعتبر شيئا في أفعاله وأقواله غير علمه تعالى .

ثم أشار بقوله : " تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب " ليكون تنزيها لعلمه تعالى عن مخالطة الجهل إياه ، وهو وإن كان ثناء أيضا في نفسه لكنه غير مقصود لأن المقام ليس بمقام الثناء بل مقام التبرى عن انتساب ما نسب إليه .

فقوله عليه السلام : " تعلم ما في نفسي " توضيح لنفوذ العلم الذى ذكره في قوله : " إن كنت قلته فقد علمته " وبيان أن علمه تعالى بأعمالنا وهو الملك الحق يومئذ ليس من قبيل علم الملوك منا بأحوال رعيته بارتفاع أخبار المملكة إليه ليعلم بشئ ويجهل بشئ ، ويستحضر حال بعض ويغفل عن حال بعض ، بل هو سبحانه لطيف خبير

بكل شئ ومنها نفس عيسى ابن مريم بخصوصه .

(46/220)

ومع ذلك لم يستوف حق البيان في وصف علمه تعالى فإنه سبحانه يعلم كل شئ ، لا كعلم أحدنا بحال الآخر وعلم الاخر بحاله ، بل يعلم ما يعلم بالاحاطة به من غير أن يحيط به شئ ولا يحيطون به علما فهو تعالى إله غير محدود وكل من سواه محدود مقدر لا يتعدى طور نفسه المحدود ، ولذلك ضم عليه السلام إلى الجملة جملة أخرى فقال : " تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك " .

أما قوله : " إنك أنت علام الغيوب " ففيه بيان العلة لقوله : " تعلم ما في نفسي " " الخ " ، وفيه استيفاء حق البيان من جهة أخرى وهو رفع توهم أن حكم العلم في قوله : " تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك " مقصور بما بينه وبين ربه لا يطرد في كل شئ فبين بقوله : " إنك أنت علام الغيوب " أن العلم التام بجميع الغيوب منحصر فيه فما كان عند شئ من الأشياء وهو غيب عن غيره فهو معلوم لله سبحانه وهو محيط به .

ولازم ذلك أن لا يعلم شئ من الأشياء بغيبه تعالى ولا بغيب غيره الذى هو تعالى عالم به لأنه مخلوق محدود لا يتعدى طور نفسه فهو علام جميع الغيوب ، ولا يعلم شئ غيره تعالى بشئ من الغيوب لا الكل ولا البعض .

على أنه لو أحيط من غيبه تعالى بشئ فإن أحاط تعالى به لم يكن هذا المحيط محيطا حقيقة بل محاطا له تعالى ملكه الله بمشيئته أن يحيط بشئ من ملكه من غير أن يخرج بذلك من ملكه كما قال تعالى : " ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء " (البقرة : 255) .

وإن لم يحط سبحانه تعالى بما أحاط به كان مضروبا بحد فكان مخلوقا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 6 صـ 240 . 247 ﴾

(47/220)

وقال صاحب التفسير الواضح :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

هذا سؤال من اللّه - عز وجل - لعيسى خاصة حتى يجيب فتكون إجابته توبيخا لمن ادعى غير إجابته ، ودليلا على أن قومه غيروا بعده وبدلوا وادعوا عليه كذبا وبهتانا لم يقله ، وإنكاره بعد سؤاله أشد في التوبيخ وأبلغ في التكذيب .

المعنى :

واذكر يا محمد وقت قول اللّه لعيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين متجاوزين بذلك توحيد اللّه وإفراده بالعبادة والتقديس ؟ ! فاللّه يسأل للإنكار والتوبيخ ، أقالوا هذا القول وافتروا هذه الفرية بأمر منك أم هو افتراء واختلاق من عند أنفسهم ؟ واتخاذ الآلهة من دون اللّه يكون بعبادتهم ، أو إشراكهم في العبادة ، على معنى أن لهم تصريفا أو أنهم يقربون إلى اللّه زلفى ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى « 1 » .

وقد نعى اللّه - سبحانه وتعالى - على المسيحيين اتخاذهم المسيح إلها وكذا أمه ، وعبادته وأمه معروفة في الكنائس الشرقية والغربية . نعم قد أنكرت فرقة البروتستانت عبادة أمه .

وما العقيدة الجديدة التي أثبتها بابا روما في هذه السنين ورد عليه بعض العلماء ببعيدة .

ولا أدرى أظل الدين ناقصا حتى كمل في القرن العشرين ؟ ؟

أم أن رجال الدين عند المسيحيين لهم حق المحو والإثبات في العقائد ! اللّه أعلم بذلك ، قال عيسى : سبحانك يا رب ! وتنزيها لك وتقديسا ! ما يكون لي ، ولا ينبغي لي أن أقول ما ليس بحق أصلا وكيف يصدر هذا منى ؟

وقد عصمتني وأيدتنى بروح من عندك . إن كنت قلته فقد علمته فأنت تعلم الغيب والشهادة ، وتعلم سرى وضميري ، وأنا لا أعلم شيئا مما استأثرت به من بحار علمك إنك أنت علام الغيوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التفسير الواضح حـ 1 صـ 582.583﴾

(49/220)

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة عيسى عليه السلام]

[وفيها شبهتان]

[الأولى] تمسكوا بقوله تعالى : (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني

وامى الهين) من وجوه : * (الأول) * ان عيسى عليه السلام ان كان قال هذا الكلام فالاشكال قائم . وان لم يقل كان الاستفهام عبثا *

[الثاني] ان النفس هي الجسد فقوله تعالى (ولا أعلم ما في نفسك) ظاهره يوهم اثبات الجسم لله تعالى *

[الثالث] ان كلمة (في) للظرفية ، وهى لا تجئ الا في الأجسام * * (والجواب) * عن الأول انه عليه السلام ما قال ذلك وللاستفهام فائدة وهى تقريع من ادعى ذلك من النصارى ، وعن الثاني أن النفس في اللغة بمعنى الذات ، يقال : نفس الشئ ذاته ، وعن الثالث أن المراد حلول الصفة في الموصوف *

[الشبهة الثانية] في قوله تعالى (إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) [الجواب] المقصود من هذا الكلام تفويض الأمر إلى الله تعالى بالكلية وترك الاعتراض وتحقيق معنى (لا يسئل عما يفعل) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ عصمة الأنبياء صـ 92.91 ﴾

(50/220)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

اختَلَفُوا في هذا القَوْل ، هَلْ وقع وانْقَضَى ، أو سيقع يوم القيامة ؟ على قولين :

الأول : قال بعضُهم : لَمَّا رفعهُ إليه ، قال له ذلك ، وعلى هذا ف " إذْ " و " قَالَ " على موضوعهما منَ المُضِيِّ ، وهو الظاهر ، وقال بعضُهم : سيقولُه له يَوْمَ القيامة ؛ لقوله – تبارك وتعالى قبله ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل ﴾ [المائدة : 109] [الآية] ، وقوله بعد هذا : ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : 119] وعلى هذا ف " إذْ " ، و " قَالَ " بمعنى " يَقُولُ " ، وكونُها بمعنى " إذَا " أهونُ من قول أبي عُبَيْدٍ : إنها زائدةٌ ؛ لأنَّ زيادةَ الأسماء ليْسَتْ بالسهلة .

قوله : " أأَنْتَ قُلْتَ " دخلت الهمزةُ على المبتدأ ؛ لفائدةٍ ذكرها أهل البيان ، وهو : أن الفعل إذا عُلِمَ وجودُهُ ، وشُكَّ في نسبته إلى شخص ، أُولِيَ الاسْمُ المشكوكُ في نسبة الفعْلِ إليه للهمْزة ، فيقال : " أأَنْتَ ضَرَبْتَ زَيْداً " ، فَضَرْبُ زَيْدٍ قد صدر في الوجود ، وإنما شُكَّ في نسبته إلى المخاطَب ، وإنْ شُكَّ في أصل وقوعِ الفعلِ ، أُولِيَ الفعلُ للهمزة ، فيقال : " أَضَرَبْتَ زَيْداً " ، لم تَقْطع بوقوعِ الضرب ، بل شَكَكْتَ فيه ، والحاصلُ : أنَّ الهمزةَ يليها المشكوكُ فيه ، فالاستفهامُ في الآية الكريمة يُراد به التقريعُ والتوبيخ لغير عيسى – عليه السلام – وهم المتَّخِذُون له ولأمِّه إلهَيْنِ ، دخل على المبتدأ لهذا المعنى الذي ذكرناه ؛ لأن

الاتخاذَ قد وقع ولا بُدَّ ، واللام في " للنَّاس " للتبليغِ فقط ، و" اتَّخِذُوني " يجوز أن تكون بمعنى " صَيَّرَ " ، فتتعدَّى لاثنين ، ثانيهما " إلَهَيْنِ " ، وأن تكونَ المتعدية لواحدٍ ف " إلَهَيْنِ " حالٌ ، و﴿ مِن دُونِ الله ﴾ فيه وجهان :

أظهرهما : أنه متعلقٌ بالاتخاذ ، وأجاز أبو البقاء – رحمه الله تعالى – وبه بدأ – أن يكون متعلّقاً بمحذوفٍ ؛ على أنه صفةٌ لـ " إلَهَيْنِ " .

قوله : " سُبْحَانَك " أي : تنزيهاً لك ، وتقدَّم الكلام عليه في البقرة [الآية : 32] ، ومتعلَّقُه محذوفٌ ، فقدَّره الزمخشريُّ : " سُبْحانَكَ مِنْ أن يكُونَ لك شَرِيكٌ " ، وقدَّره ابن عطية : " عَنْ أنْ يُقالَ هذا ، ويُنْطَقَ به " ورجَّحَهُ أبو حيان – رضي الله عنه – لقوله بَعْدُ : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ﴾ .

(51/220)

قوله : " أنْ أقُولَ " في محلِّ رفع ؛ لأنه اسمُ " يكُونُ " ، والخبرُ في الجارِّ قبله ، أي : ما يَنْبَغِي لي قولُ كذا ، و" مَا " يجوز أن تكون موصولةً أو نكرةً موصوفةً ، والجملةُ بعدها صلةٌ ؛ فلا محلَّ لها ، أو صفةٌ ، فمحلُّها النصبُ ، فإنَّ " مَا " منصوبةٌ بـ " أقُولَ " نصب المفعول به ؛ لأنها متضمِّنةٌ لجملة ، فهو نظيرُ " قُلْتُ كلاماً " ، وعلى هذا فلا يحتاج أن يؤوَّل " أقُولَ " بمعنى "

أدَّعِي " أو " أذْكُرَ " ، كما فعله أبو البقاء رحمه الله وفي " لَيْسَ " ضميرٌ يعودُ على ما هو اسمها ، وفي خبرها وجهان :

أحدهما : أنه " لِي " ، أي : ما لَيْسَ مستقرّاً لي وثابتاً ، وأمَّا " بِحَقٍّ " على هذا ، ففيه ثلاثةُ أوجه ، ذكر أبو البقاء منها وجهين :

أحدهما : أنه حالٌ من الضمير في " لي " .

قال : والثاني : أن يكون مفعولاً به ، تقديره : ما ليس يَثْبُتُ لي بسببِ حقٍّ ، والباءُ متعلِّقةٌ بالفعلِ المحذُوف ، لا بنفسِ الجارِّ ؛ لأنَّ المعانِيَ لا تعملُ في المفعول به .

قال شهاب الدين : وهذا ليْسَ بجيِّدٍ ؛ لأنه قدَّر متعلَّقَ [الخبر كوناً مقيَّداً ، ثم حذفه ، وأبقى معموله .

الوجه الثالث : أنَّ قوله " بحَقٍّ " متعلقٌ] بقوله : " عَلِمْتَهُ " ، ويكون الوقْفُ على هذا على قوله " لِي " ، والمعنى : فقد عَلِمْتَهُ بِحَقٍّ ، [وقد رُدَّ] هذا بأنَّ الأصْل عدمِ التقديم والتأخير ، وهذا لا ينبغي أن يُكتفى به في ردِّ هذا ، بل الذي منه من ذلك : أنَّ معمول الشرط أو جوابه لا يتقدَّم على أداة الشرط ، لا سيَّما والمَرْوِيُّ عن الأئمةِ القُرَّاءِ الوقفُ على " بِحَقٍّ " ، ويَبْتَدِئُونَ بـ ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ ﴾ ، وهذا مَرْوِيٌّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجَبَ اتِّباعه .

والوجه الثاني في خبر " لَيْسَ " : أنه " بِحَقٍّ " ، وعلى هذا ، ففي " لِي " ثلاثةُ أوجه :

أحدها : أنه "يَتَبَيَّنُ" ؛ كما في قولهم : "سُقْياً لَهُ" ، أي : فيتعلَّقُ بمحذوف .

والثاني : أنه حالٌ من "بِحَقٍّ" ؛ لأنه لو تأخَّر ، لكان صفةً له ، قال أبو البقاء : "وهذا مُخَرَّجٌ على قول من يُجَوِّزُ تقديم حال المجرُورِ عليه" [قلتُ : قد تقدَّم لك خلافُ النَّاسِ فيه] ، وما أوردوه من الشواهد ، وفيه أيضاً تقديمُ الحالِ على عاملها المعنويِّ ، فإنَّ "بِحَقٍّ" هو العاملُ ؛ إذ "لَيْسَ" لا يجوز أن تعمل في شيء ، وإن قلنا : إنَّ "كان" أختها قد تعمل لأن "لَيْسَ" لا حدثَ لها بالإجماع .

والثالث : أنه متعلِّقٌ بنفسِ "حَقّ" ؛ لأنَّ الباءَ زائدةٌ ، و"حَقّ" بمعنى "مُسْتَحقّ" ، أي : ما لَيْسَ مستحِقًّا لي .

قوله : ﴿ إن كنت قلته ﴾ : "كنت" وإن كانت ماضية اللفظ فهي مستقبلة في المعنى ، والتقدير : إن تَصِحَّ دعواي لما ذُكر ، وقدَّره الفارسي بقوله : "إن أكن الآن قلتُه فيما مضى" لأنَّ الشرط والجزاء لا يقعان إلا في المستقبل .

وقوله : "فقد عَلِمْتَ" أي : فقد تبيَّن وظهر علمُك به كقوله : ﴿ فَصَدَقَتْ ﴾ [يوسف : 26] و﴿ فَكَذَبَتْ ﴾ [يوسف : 27] و﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ [النمل :

90] .

قوله : ﴿ تعلمُ ما في نفسي ﴾ هذه لا يجوزُ أن تكونَ عرفانيةً ، لأنَّ العرفان كما تقدم يستدعي سَبْقَ جهل ، أو يُقْتَصَرُ به على معرفةِ الذات دونَ أحوالها حَسْبَ ما قاله الناس ، فالمفعولُ الثاني محذوفٌ ، أي : تعلمُ ما في نفسي كائناً موجوداً على حقيقته لا يخفى عليك منه شيءٌ ، وأمَّا : " ولا أعلم " فهي وإن كان يجوزُ أن تكون عرفانيةً ، إلا أنها لمَّا صارت مقابلةً لما قبلها ينبغي أن يكون مثلها ، والمرادُ بالنفس هنا ما قاله الزجاج أنها تُطْلَقُ ويُراد بها حقيقةُ الشيء ، والمعنى في قوله ﴿ تعلم ما في نفسي ﴾ إلى آخره واضحٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 617.620 ﴾ . باختصار .

(53/220)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) ﴾

المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث ، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشريف .

ثم إن عيسى – عليه السلام – حفظ أدب الخطاب فلم يُزَكِّ نفسَه ، بل بدأ بالثناء على الحق – سبحانه – فقال : تنزيهاً لك ! إنني أنزهك عما لا يليق بوصفك .

ثم قال : ﴿ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ أي إني إن كنت مخصوصاً مِنْ قِبَلِكَ بالرسالة – وشرط النبوة العصمة – فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لي ؟

ثم إني ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ : كان واثقاً بأن الحقَّ – سبحانه – عليم بنزاهته من تلك القالة .

﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾ : أي علمك محيطٌ بكل معلوم .

﴿ وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ أي لا أطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعَرِّفُني بإعلامك . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ﴾ الذي لا يخرج معلوم عن علمك ، ولا مقدور عن حكمك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 456 . 457 ﴾

(54/220)

قوله تعالى ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نفى عن نفسه ما يستحق النفي ودل عليه ، أثبت ما قاله لهم على وجه مصرح بنفي غيره ليكون ما نسب إليه من دعوى الإلهية منفياً مرتين : إشارة وعبارة ، فقال معبراً عن الأمر بالقول مطابقة للسؤال ، وفسر بالأمر بياناً لأن كل ما قاله من مباح أو غيره دائر على الأمر من حيث الاعتقاد بمعنى أن المخاطب بما قاله الرسول مأمور بأن يعتقد فيه أنه بتلك المنزلة ، لا يجوز أن يعتقد فيه أنه فوقها ولا دونها ، يعبد الله تعالى بذلك : ﴿ ما قلت لهم ﴾ أي ما أمرتهم بشيء من الأشياء ﴿ إلا ما أمرتني به ﴾ ثم فسره دالاً بشأن المراد بالقول الأمر بالتعبير في تفسيره بحرف التفسير بقوله : ﴿ أن اعبدوا ﴾ أي ما أمرتهم إلا بعبادة ﴿ الله ﴾ أي الذي لم يستجمع نعوت الجلال والجمال أحد غيره ؛ ثم أشار إلى أنه كما يستحق العبادة لذاته يستحقها لنعمه فقال : ﴿ ربي وربكم ﴾ أي أنا وأنتم في عبوديته سواء ، وهذا الحصر يصح أن يكون للقلب على أن دون بمعنى غير ، وللإفراد على أنها بمعنى سفول المنزلة ، وهو من بدائع الأمثلة .

ولما فهم صلى الله عليه وسلم من هذا السؤال أن أتباعه غلوا في شأنه ، فنزه الله سبحانه وعز شأنه من ذلك وأخبره بما أمر الناس به في حقه سبحانه من الحق ، اعتذر عن نفسه بما يؤكد ما مضى نفياً وإثباتاً فقال : ﴿ وكنت عليهم ﴾ أي خاصة لا على غيرهم .

(55/220)

ولما كان سبحانه قد أرسله شاهداً ، زاد في الطاعة في ذلك إلى أن بلغ جهده كإخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال معبراً بصيغة المبالغة : ﴿ شهيداً ﴾ أي بالغ الشهادة ، لا أرى فيهم منكراً إلا اجتهدت في إزالته ﴿ ما دمت فيهم ﴾ وأشار إلى الثناء على الله بقوله : ﴿ فلما توفيتني ﴾ أي رفعتني إلى السماء كامل الذات والمعنى مع بذلهم جهدهم في قتلي ﴿ كنت أنت ﴾ أي وحدك ﴿ الرقيب ﴾ أي الحفيظ القدير ﴿ عليهم ﴾ لا يغيب عليك شيء من أحوالهم ، وقد منعتهم أنت أن يقولوا شيئاً غير ما أمرتهم أنا به من عبادتك بما نصبت لهم من الأدلة وأنزلت عليهم على لساني من البينات ﴿ وأنت على كل شيء ﴾ أي منهم ومن غيرهم حيوان وجماد ﴿ شهيد ﴾ أي مطلع غاية الاطلاع ، لا يغيب عنك شيء منه سواء كان في عالم الغيب أو الشهادة ، فإن كانوا قالوا ذلك فأنت تعلمه دوني ، لأني لما بعدت عنهم في المسافة انقطع علمي عن أحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر

حـ 2 صـ 575 ﴾

" فصل "

قال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ لم يذكر عيسى ذلك على وجه الإِخبار به لأن الله عالم به ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : تكذيباً لمن اتخذ إلهاً معبوداً .

والثاني : الشهادة بذلك على أمته فيما أمرهم به من عبادة ربه .

قوله تعالى : ﴿ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : إعلامهم أن الله ربه وربهم واحد .

والثاني : أن عليه وعليهم أن يعبدوا رباً واحداً حتى لا يخالفوا فيما عبدوه .

﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني شاهداً .

والثاني : شاهداً عليهم .

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه الموت .

والثاني : أنه رفعه إلى السماء .

﴿ . . . الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الحافظ عليهم .

والثاني : العالم بهم .

﴿ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يحتمل وجهين :

(56/220)

أحدهما : شاهداً لما حضر وغاب .

والثاني : شاهداً على من عصى ، وأطاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ

﴾

وقال الفخر :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعبدوا الله رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ أن مفسرة والمفسر هو الهاء في به الراجع إلى القول المأمور به والمعنى ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به وذلك القول هو أن أقول لهم : اعبدوا الله ربي وربكم .

واعلم أنه كان الأصل أن يقال : ما أمرتهم إلا بما أمرتني به إلا أنه وضع القول موضع الأمر ، نزولاً على موجب الأدب الحسن ، لئلا يجعل نفسه وربه أمرين معاً ، ودلّ على الأصل بذكر

أن المفسرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي كنت أشهد على ما يفعلون ما دمت مقيماً فيهم .

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ والمراد منه ، وفاة الرفع إلى السماء ، من قوله ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : 55] .

﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قال الزجاج : الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم .

﴿ وَأَنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يعني أنت الشهيد لي حين كنت فيهم وأنت الشهيد عليهم بعد مفارقتي لهم ، فالشهيد الشاهد ويجوز حمله على الرؤية ، ويجوز حمله على العلم ، ويجوز حمله على الكلام بمعنى الشهادة فالشهيد من أسماء الصفات الحقيقية على جميع التقديرات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 112 . 113 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ يعني في الدنيا بالتوحيد .

﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ "أَنْ" لا موضع لها من الإعراب وهي مفسرة مثل ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا ﴾ [ص : 6] ويجوز أن تكون في موضع نصب ؛ أي ما ذكرت لهم إلا عبادة الله .

ويجوز أن تكون في موضع خفض ؛ أي بأن اعبدوا الله ؛ وضم النون أولى ؛ لأنهم يستثقلون كسرة بعدها ضمة ، والكسر جائز على أصل التقاء الساكنين .

(57/220)

قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ أي حفيظاً بما أمرتهم ، ﴿ مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ "ما" في موضع نصب أي وقت دوامي فيهم .

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : هذا يدل على أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه ؛ وليس بشيء ؛ لأن الأخبار تظاهرت برفعه ، وأنه في السماء حي ، وأنه ينزل ويقتل الدَّجَّال على ما يأتي بيانه وإنما المعنى فلما رفعتني إلى السماء .

قال الحسن : الوفاة في كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه : وفاة الموت .

وذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : 42] يعني وقت انقضاء أجلها .

ووفاة النوم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ [الأنعام : 60] يعني الذي ينيمكم .

ووفاة الرفع ، قال الله تعالى : ﴿ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ [آل عمران : 55] .

وقوله ﴿ كُنتَ أَنتَ ﴾ "أنت هنا" توكيد ﴿ الرَّقِيبَ ﴾ خبر ﴿ كُنتَ ﴾ ومعناه الحافظ عليهم، والعالم بهم والشاهد على أفعالهم؛ وأصله المراقبة أي المراعاة؛ ومنه المَرْقَبة لأنها في موضع الرقيب من علوّ المكان.

﴿ وَأَنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي من مقالتي ومقالتهم.

(58/220)

وقيل: على من عصى وأطاع؛ خرّج مسلم " عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً بموعظة فقال: "يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُرَاةً غُرْلاً" ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 104] أَلَا وإن أوّل الخلائق يُكْسى يوم القيامة إبراهيمُ عليه السلام؛ أَلَا وإنه سيُجاءُ برجال من أُمتي فيؤخذ بهم ذاتَ الشمال فأقول يا ربّ أصحابي فيقال إنك لا تَدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ قال: "فيقال لي إنّهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم منذ فارقتَهم" ". انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ ﴾ استئناف كما قال شيخ الإسلام مسوق لبيان ما صدر عنه عليه السلام قد أدرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجه وآكده حيث حكم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايرة للمأمور به فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولاً أولياً .

والمراد عند البعض ما أمرتهم إلا بما أمرتني به إلا أنه قيل : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ ﴾ نزولاً على قضية حسن الأدب لئلا يجعل ربه سبحانه ونفسه معاً آمرين ومراعاة لما ورد في الاستفهام .

ودل على ذلك بإقحام أن المفسرة في قوله تعالى : ﴿ أَنِ اعبدوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ .

ولا يرد أن الأمر لا يتعدى بنفسه إلى المأمور به إلا قليلاً كقوله

: أمرتك الخير فافعل ما أمرت به . . .

(59/220)

فكذا ما أول به لأنه كما قال ابن هشام لا يلزم من تأويل شيء بشيء أن يتعدى تعديته كما صرحوا به لأن التعدية تنظر إلى اللفظ .

نعم قيل في جعل أن مفسرة بفعل الأمر المذكور صلته نحو أمرتك بهذا أن قم نظر أما في طريق

القياس فلأن أحدهما مغن عن الآخر .

وأما في الاستعمال فلأنه لم يوجد .

ونظر فيما ذكر في طريق القياس لأن الأول لا يغني عن الثاني والثاني لا يغني عن الأول

وللتفسير بعد الإبهام شأن ظاهر .

وادعى ابن المنير أن تأويل هذا القول بالأمر كلفة لا طائل وراءها وفيه نظر .

وجوز إبقاء القول على معناه و﴿ أَنِ اعبدوا ﴾ إما خبر لمضمر أي هو أن اعبدوا أو منصوب بأعني مقدراً ، وقيل : عطف بيان للضمير في ﴿ بِهِ ﴾ ، واعترض بأنه صرح في "المغني" بأن عطف البيان في الجوامد بمنزلة النعت في المشتقات فكما أن الضمير لا ينعت لا يعطف عليه عطف بيان ، وأجيب بأن ذلك من المختلف فيه وكثير من النحاة جوزوه .

وما في "المغني" قد أشار شراحه إلى رده ، وقيل : بدل من الضمير بدل كل من كل .

ورده الزمخشري في "الكشاف" بأن المبدل منه في حكم التنحية والطرح فيلزم خلو الصلة من العائد بطرحه ، وأجيب عنه بأن المذهب المنصور أن المبدل منه ليس في حكم الطرح مطلقاً بل قد يعتبر طرحه في بعض الأحكام كما إذا وقع مبتدأ فإن الخبر للبدل نحو زيد عينه حسنة ولا يقال حسن .

وقد يقال أيضاً : إنه ليس كل مبدل منه كذلك بل ذلك مخصوص فيما إذا كان البدل بدل

غلط ، وأجاب بعضهم بأنه وإن لزم خلو الصلة من العائد بالطرح لكن لا ضير فيه لأن الاسم الظاهر يقوم مقامه كما في قوله : وأنت الذي في رحمة الله أطمع . . .

(60/220)

ولا يخفى أن في صحة قيام الظاهر هنا مقام الضمير خلافاً لهم ، وجوز أن يكون بدلاً من ﴿ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ ﴾ ، واعترض بأن ﴿ مَا ﴾ مفعول القول ولا بد فيه أن يكون جملة محكية أو ما يؤدي مؤداها أو ما أريد لفظه وإذا كان العبادة بدلاً كانت مفعول القول مع أنها ليست واحداً من هذه الأمور فلا يقال : ما قلت لهم إلا العبادة ، وفي "الانتصاف" "أن العبادة وإن لم تقل فالأمر بها يقال وأن الموصولة بفعل الأمر يقدر معها الأمر فيقال هنا ما قلت لهم إلا الأمر بالعبادة ولا ريب في صحته لأن الأمر مقول بل قول على أن جعل العبادة مقولة غير بعيد على طريقة ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ [المجادلة : 3] أي الوطء الذي قالوا قولاً يتعلق به وقوله تعالى : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ [مريم : 80] ونحو ذلك" ، وفي "الفوائد" أن المراد ما قلت لهم إلا عبادته أي الزموا عبادته فيكون هو المراد من ﴿ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ ﴾ ويصح كون هذه الجملة بدلاً من ما أمرتني به من حيث إنها في حكم المراد لأنها مقولة و ﴿ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ ﴾ مفرد لفظاً وجملة معنى ولا يخلو عن تعسف ، وجوز

إبقاء القول على معناه وأن مفسرة إما لفعل القول أو لفعل الأمر ، واعترض بأن فعل القول لا يفسر بل يحكي به ما بعده من الجمل ونحوها وبأن فعل الأمر مسند إلى الله تعالى وهو لا يصح تفسيره بأعبدوا الله ربي وربكم بل بأعبدوني أو أعبدوا الله ونحوه ، وأجيب عن هذا بأنه "يجوز أن يكون حكاية بالمعنى كأنه عليه السلام حكى معنى قول الله عز وجل بعبارة أخرى وكأن الله تعالى قال له عليه السلام : مرهم بعبادتي أو قال لهم على لسان عيسى عليه السلام : أعبدوا الله رب عيسى وربكم فلما حكاه عيسى عليه السلام قال : ﴿ اعبدوا الله رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ فكنى عن اسمه الظاهر بضميره كما قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى

(61/220)

وَلاَ يَنسَى الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نبات شتى ﴾ [طه : 52 ، 53] فإن موسى عليه السلام لا يقول فأخرجنا بل فأخرج الله تعالى لكن لما حكاه الله تعالى عنه عليه السلام رد الكلام إليه عز شأنه وأضاف الإخراج إلى ذاته عز وجل على طريقة المتكلم لا الحاكي وإن كان أول الكلام حكاية .

ومثله قوله تعالى : ﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ [الزخرف : 119] إلى غير ذلك .

وقال أبو حيان : "يجوز أن يكون المفسر ﴿ اعبدوا الله ﴾ ويكون ﴿ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ من كلام عيسى عليه السلام على إضمار أعني (أي أعني ربي وبكم) لا على الصفة" لله عز اسمه واعتمده ابن الصائغ وجعله نظير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله ﴾ [النساء : 751] على رأي .

وفي "أمالي ابن الحاجب" إذا حكى حاك كلاماً فله أن يصف المخبر عنه بما ليس في كلام المحكي عنه ، واستبعد ذلك الحلبي والسفاقسي وهو الذي يقتضيه الإنصاف .

وقيل على الأول : إن بعضهم أجاز وقوع أن المفسرة بعد لفظ القول ولم يقتصر بها على ما في معناه فيقع حينئذٍ مفسراً له لكن أنت تعلم أنه لا ينبغي الاختلاف في أنه لا يقترن المقول المحكي بحرف التفسير لأن مقول القول في محل نصب على المفعولية والجملة المفسرة لا محل لها فلعل مراد البعض مجرد الوقوع والتزام أن المقول محذوف وهو المحكي وهذا تفسير له أي ما قلت لهم مقولاً فتدبر فقد انتشرت كلمات العلماء هنا .

﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ أي رقيباً أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك من غير واسطة ومشاهداً لأحوالهم من إيمان وكفر ، و﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ كما قال أبو البقاء متعلق بشهيداً ، لعل التقديم لما مر غير مرة ﴿ مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي مدة دوامي فيما بينهم ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾ أي قبضتني بالرفع إلى السماء كما يقال توفيت المال إذا قبضته .

وروي هذا عن الحسن وعليه الجمهور .

وعن الجبائي أن المعنى أمتني وادعى أن رفعه عليه السلام إلى السماء كان بعد موته وإليه ذهب النصارى وقد مر الكلام في ذلك .

﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي الحفيظ المراقب فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسول وإنزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ما قالوا ، وقيل : المراد بالرقيب المطلع المشاهد ، ومعنى الجملتين إني ما دمت فيهم كنت مشاهداً لأحوالهم فيمكن لي بيانها فلما توفيتني كنت أنت المشاهد لذلك لا غيرك فلا أعلم حالهم ولا يمكنني بيانها ، ولا يخفى أن الأول أوفق بالمقام ، وقد نص بعض المحققين أن الرقيب والشهيد هنا بمعنى واحد وهو ما فسر به الشهيد أولاً ولكن تفنن في العبارة ليميز بين الشهيدين والرقيبين لأن كونه عليه الصلاة والسلام رقيباً ليس كالرقيب الذي يمنع ويلزم بل كالشاهد على المشهود عليه ومنعه بمجرد القول وأنه تعالى شأنه هو الذي يمنع منع إلزام بالأدلة والبينات ، و﴿ أَنتَ ﴾ ضمير فصل أو تأكيد و﴿

الرَّقِيبَ ﴾ خبر كان .

وقرىء ﴿ الرَّقِيبَ ﴾ بالرفع على أنه خبر (أنت) ، والجملة خبر كان و ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ في القراءتين متعلق بالرقيب .

(63/220)

وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنتَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه على ما قيل إيذان بأنه سبحانه كان هو الشهيد في الحقيقة على الكل حين كونه عليه السلام فيما بينهم ، و ﴿ على ﴾ متعلقة بشهيد ، والتقديم لمراعاة الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وبعد أن تبرّأ من أن يكون أمرَ أمّته بما اختلقوه انتقل فبيّن أنّه أمرهم بعكس ذلك حسبما أمره الله تعالى فقال ﴿ ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به ﴾ ، فقوله : ﴿ ما قلت لهم ﴾ ارتقاء في الجواب ، فهو استئناف بمنزلة الجواب الأول وهو ﴿ ما يكون لي أن أقول ﴾ الخ . . .

صرّح هنا بما قاله لأنّ الاستفهام عن مقاله .

والمعنى : ما تجاوزتُ فيما قلتُ حدّ التبليغ لما أمرتني به ، فالموصول وصلته هو مقول ﴿ ما

قلت لهم ﴾ وهو مفرد دالّ على جُمل ، فلذلك صحّ وقوعه منصوباً بفعل القول .

و﴿ أنْ ﴾ مفسّرة ﴿ أمرتني ﴾ لأنّ الأمر فيه معنى القول دون حروفه وجملة ﴿ اعبدوا الله ربّي وربّكم ﴾ تفسيرية لِ ﴿ أمرتني ﴾ .

واختير ﴿ أمرتني ﴾ على (قلت لي) مبالغة في الأدب .

ولمّا كان ﴿ أمرتني ﴾ متضمّناً معنى القول كانت جملة ﴿ اعبدوا الله ربّي وربّكم ﴾ هي المأمورُ بأن يبلّغه لهم فالله قال له : قل لهم اعبدوا الله ربّي وربّكم .

فعلى هذا يكون ﴿ ربّي وربّكم ﴾ من مقول الله تعالى لأنّه أمره بأن يقول هذه العبارة ولكن لما عبّر عن ذلك بفعل ﴿ أمرتني به ﴾ صح تفسيره بحرف ﴿ أن ﴾ التفسيرية فالذي قاله عيسى هو عين اللفظ الذي أمره الله بأن يقوله .

فلا حاجة إلى ما تكلّف به في "الكشاف" على أنّ صاحب "الانتصاف" جوّز وجهاً آخر وهو أن يكون التفسير جرى على حكاية القول المأمور به بالمعنى ، فيكون الله تعالى قال له : قل لهم أن يعبدوا ربّك وربّهم .

فلمّا حكاه عيسى قال : اعبدوا الله ربّي وربّكم أ هـ .

وهذا التوجيه هو الشائع بين أهل العلم حتى جعلوا الآية مثالاً لحكاية القول بالمعنى .

وأقول : هو استعمال فصيح قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى : ﴿ مكّناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم ﴾ في سورة الأنعام (6) إذَا أخبرت أنّك قلت لغائب أو قيل له أو أمرت أن يقال له : فلك في فصيح كلام العرب أن تحكي الألفاظ المقولة بعينها ، فتجيء بلفظ المخاطبة ، ولك أن تأتي بالمعنى في الألفاظ بذكر غائب دون مخاطبة أ هـ .

وعندي أنّه ضعيف في هذه الآية .

ثمّ تبرّأ من تبعتهم فقال وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ أي كنت مشاهداً لهم ورقيباً يمنعهم من أن يقولوا مثل هذه المقالة الشنعاء .

و﴿ ما دمت ﴾ (ما) فيه ظرفية مصدرية ، و(دام) تامّة لا تطلب منصوباً ، و﴿ فيهم ﴾ متعلّق بِ ﴿ دمتُ ﴾ ، أي بينهم ، وليس خبراً لِ (دام) على الأظهر ، لأنّ (دام) التي تطلب خبراً هي التي يراد منها الاستمرار على فعل معيّن هو مضمون خبرها ، أمّا هي هنا فهي بمعنى البقاء ، أي ما بقيت فيهم ، أي ما بقيت في الدنيا .

ولذلك فرّع عنه قوله : ﴿ فلمّا توفّيتني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم ﴾ ، أي فلمّا قضيت بوفاتي ، لأنّ مباشر الوفاة هو ملك الموت .

والوفاة الموت ، وتوفّاه الله أماته ، أي قضى به وتوفّاه ملك الموت قبض روحه وأماته .

وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى ﴿ إنّي متوفّيك ﴾ في سورة آل عمران (55) .

والمعنى : أنّك لمّا توفّيتني قد صارت الوفاة حائلاً بيني وبينهم فلم يكن لي أن أنكر عليهم ضلالهم ، ولذلك قال كنتَ أنتَ الرقيب عليهم ﴾ ، فجاء بتضير الفصل الدّال على القصر ، أي كنت أنتَ الرقيب لا أنا إذ لم يبق بيني وبين الدنيا اتّصال .

والمعنى أنّك تعلم أمرهم وترسل إليهم من يهديهم متى شئت .

وقد أرسل إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم وهداهم بكلّ وجوه الاهتداء .

وأقصى وجوه الاهتداء إبلاغهم ما سيكون في شأنهم يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وأنت على كلّ شيء شهيد ﴾ تذييل ، والواو اعتراضية إذ ليس معطوفاً على ما تقدّم لئلاّ يكون في حكم جواب ﴿ لمّا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(65/220)

وقال الشيخ محمد أبو زهرة :

(ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) .

هذا الكلام السامى فى تأكيد القول الأول ، وهو إثبات تنزيه الله تعالى ، وأنه ما دعا إلا إلى

الوحدانية ، ولقد كان كل هذا فى مقام التوبيخ وإثبات الحجة عليهم ، وعقابهم على كفرهم ، وافترائهم على الله تعالى ربهم ، وعلى عيسى ابن مريم رسوله سبحانه إليهم .

والجملة السامية السابقة فيها إثبات استحالة أن يكون قد قال " اتخذونى وأمى إلهين " ، فهى تفى بالدليل ، وهى هذه الجملة السامية فيها نفى ، وإثبات . فيها نفى القول الذى نسبوه بهتانا إليه ، وفيه إثبات ما قاله ، ولم يقل سواه ، ولذلك كان فيه قصر بالنفى والإثبات ، فهو يذكر أنه دعا إلى التوحيد المطلق ، وفيه إثبات أنه لا يمكن أن يدعو إلا إلى التوحيد المطلق ، وذلك لثلاثة أمور :

أولها – أنه هو الذى أمر ربه ، ولم يؤمر بغيره ، وهو رسول من عند الله ، ولا يمكن أن يكون الرسول قد أدى الرسالة على وجهها إلا إذا بلغ ما أمر به دون سواه ، ولذا قال عليه السلام : (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به .

ما أمرتنى أن أقوله وأبلغه ، وإلا أكن غير مؤد للرسالة .

ثانيها – أنه لم يكتف ببيان أنه أدى ما أمر به إجمالا ، بل ذكر حقيقة ما دعا مفسرا غير مجمل ، إذ قال : (أن اعبدوا الله . فإن هى المفسرة ، فهو يفسر ما أمر به وهو بين لا إبهام فيه .

وثالثها – أنه اقام الدليل على استحقاقه وحده للعباده سبحانه : (ربي وربكم . أى أنه هو المستحق للعبادة لأنه هو وحده الذى خلقنى ، فأنا مخلوق ، فكيف أكون إلها ، وهو الذى

خلقكم وحده فكيف تعبدون غيره ؟ ! ، وفى هذا التعبير أثبت وحدانية الخلق والتكوين ووحدانية الذات ، كما أثبت تصريح اللفظ وحدانية العبادة .

(66/220)

وقد أكد عليه السلام أنه بلغهم تلك الحقائق ، فقال كما حكى عنه ربه : (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم . أى كنت مشاهدا لهم رقيبا عليهم تعلم ما حاولوه من الزيغ والتحريف مدة بقائى فيهم ، فما تركت تنبيههم إلى التوحيد فى العبادة والذات والصفات والتكوين مدة إقامتى بينهم ، ولما تركت الدنيا كنت أنت الرقيب .

(فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل لشيء شهيد) فى النص الكريم السابق ذكر – عليه السلام – شهادته عليهم وهو حى ، قائم برسالته مؤد لها على وجهها ، وفى هذا النص يذكر انتهاء مهمته بوفاته ، ويفوض أمرهم إلى ربهم فى ألطف تعبير وأدق إشارة .

والفاء للتفصيل كما تدل على الحالية والبعد به ، والمعنى عند حد وفاتى ومن قبلها ، ومن بعد كنت أنت وحدك الرقيب عليهم العالم بحالهم وأنت على كل شىء عالم بحالهم تعلم

خائنة الأعين وما تخفى الصدور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 2408 .

2409 ﴾

(67/220)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾

أخبر أنه لم يتعد أمر الله في أن أمر بعبادته وأقر بربوبيته .

وفي قوله : ﴿ ربي وربكم ﴾ براءة مما ادّعوه فيه ، وفي الإنجيل قال : يا معاشر بني المعمودية قوموا بنا إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم ومخلصي ومخلصكم .

وقال أبو عبد الله الرازي : كان الأصل أن يقال ما أمرتهم إلا ما أمرتني به ، إلا أنه وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب .

وقال الحسن : إنما عدل لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معاً ودل على أن الأصل ما ذكر أن المفسرة ؛ انتهى .

قال الحوفي وابن عطية : وإن في ﴿ أن اعبدوا ﴾ مفسرة ، لا موضع لها من الإعراب

ويصح أن يكون بدلاً من من ما وصح أن يكون بدلاً من الضمير في به ، زاد ابن عطية أنه يصح أن يكون في محلّ خفض على تقدير ب ﴿ أن اعبدوا ﴾ ، وأجاز أبو البقاء الجر على البدل من الهاء والرفع على إضمار هو والنصب على إضمار أعني أو بدلاً من موضع به .

قال : ولا يجوز أن تكون بمعنى أن المفسرة ، لأن القول قد صرّح به ، وأن لا تكون مع التصريح بالقول .

(68/220)

وقال الزمخشري أن في قوله ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر ، والمفسر إما فعل القول وإما فعل الأمر وكلاهما لا وجه له ، أما فعل القول فيحكى بعده الكلام من غير أن يوسط بينهما حرف التفسير لا تقول ما قلت لهم إلا ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ ولكن ما قلت لهم إلا اعبدوا الله وأما فعل الأمر فمسند إلى ضمير الله تعالى فلو فسرته باعبدوا الله ربي وربكم لم يستقم لأن الله لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم ، وإن جعلتها موصولة بالفعل لم يخلُ من أن تكون بدلاً من ما أمرتني به أو من الهاء في به وكلاهما غير مستقيم ، لأن البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه ، ولا يقال ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته لأن العبادة لا تقال وكذلك إذا جعلته بدلاً من

الهاء لأنك لو أقمت ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ لم يصح لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته .

(فإن قلت) : فكيف تصنع ؟ (قلت) : يحمل فعل القول على معناه لأن معنى ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴾ ما أمرتهم إلا بما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره ب ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ ويجوز أن تكون موصولة عطفاً على بيان الهاء لا بدلاً ؛ انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

أما قوله : وأما فعل الأمر إلى آخر المنع ، وقوله لأن الله تعالى لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم فإنما لم يستقم لأنه جعل الجملة وما بعدها مضمومة إلى فعل الأمر ، ويستقيم أن يكون فعل الأمر مفسراً بقوله ﴿ اعبدوا الله ﴾ ويكون ﴿ ربي وربكم ﴾ من كلام عيسى على إضمار أعني أي أعني ربي وربكم لا على الصفة التي فهمها الزمخشري ، فلم يستقم ذلك عنده .

وأما قوله : لأن العبادة لا تقال فصحيح لكن ذلك يصحّ على حذف مضاف ، أي : ما قلت لهم إلا القول الذي أمرتني به قول عبادة الله ، أي القول المتضمن عبادة الله .

(69/220)

وأما قوله لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته فلا يلزم في كل بدل أن يحلّ محل المبدل منه ، ألا ترى إلى تجويز النحويين : زيد مررت به أبي عبد الله ، ولو قلت زيد مررت بأبي عبد الله لم يجز ذلك عندهم إلا على رأي الأخفش .

وأما قوله عطفاً على بيان الهاء ، فهذا فيه بعد لأن عطف البيان أكثره بالجوامد الأعلام ، وما اختاره الزمخشري وجوّزه غيره من كون أن مفسرة لا يصح لأنها جاءت بعد إلا ، وكل ما كان بعد إلا المستثنى بها فلا بدّ أن يكون له موضع من الإعراب وأن التفسيرية لا موضع لها من الإعراب ، وانظر إلى ما تضمنت محاورة عيسى وجوابه مع الله تعالى لما قرع سمعه ما لا يمكن أن يكون نزه الله تعالى وبرأه من السوء ، ومن أن يكون معه شريك ثم أخبر عن نفسه أنه لا يمكن أن يقول ما ليس له بحق ، فأتى بنفي لفظ عام ، وهو لفظ ما المندرج تحته كل قول ليس بحق حتى هذا القول المعين ، ثم تبرأ تبرؤاً ثالثاً وهو إحالة ذلك على علمه تعالى وتفويض ذلك إليه ، وعيسى يعلم أنه ما قاله ، ثم لما أحال على العلم أثبت علم الله به ونفى علمه بما هو لله وفيه إشارة إلى أنه لا يمكن أن يهجس ذلك في خاطري فضلاً عن أن أفوه به وأقوله ، فصار مجموع ذلك نفي هذا القول ، ونفي أن يهجس في النفس ، ثم علل ذلك بأنه تعالى مستأثر بعلم الغيب ، ثم لما نزه الله تعالى وانتفى عنه قول ذلك وأن يخطر ذلك في نفسه انتقل إلى ما قاله لهم فأتى به محصوراً بإلا معذوقاً بأنه هو الذي أمره الله به أن يبلغهم عنه .

﴿ وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ﴾ أي رقيباً كالشاهد على المشهود عليه ، أمنعهم من قول ذلك وأن يتدينوا به ، وأتي بصيغة فعيل للمبالغة كثير الحفظ عليهم والملازمة لهم وما ظرفية ودام تامّة أي ما بقيت فيهم ، أي شهيداً في الدنيا .

(70/220)

﴿ فلما توفيتني ﴾ قيل : هذا يدل على أنه توفاه وفاة الموت قبل أن يرفعه ، وليس بشيء لأن الأخبار تظافرت برفعه حياً ، وأنه في السماء حيّ وأنه ينزل ويقتل الدجال ، ومعنى ﴿ توفيتني ﴾ قبضتني إليك بالرفع .

وقال الحسن : الوفاة وفاة الموت ووفاة النوم ووفاة الرفع .

وقال الزمخشري : ﴿ كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة ، وأنزلت عليهم من البينات وأرسلت إليهم الرسل ؛ انتهى وفيه دسيسة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(71/220)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾

لقد عرض سيدنا عيسى عليه السلام – من خلال قوله لربه تبارك وتعالى – المنهج الذي جاء به على الناس جميعاً وبلغه تمام البلاغ ، فقد أبلغ أنه عبد الله وأنه لرسوله ، ومادام الحق علاّم الغيوب فهو أعلم بكل شيء حتى بما في النفس ، كأنه يثبت أيضاً أن نفسه لم تحدثه بأي خاطر من تلك الخواطر . ويعلن أنه لم يبلغ إلا ما أمر به ربه .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : 117] .

والشهيد هو الرائي الذي لا عمل له في تحريك المشهود إلى غير ما شهده .

ويقول عيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وأمر توفيه الحق لرسالة عيسى ورفعه إليه ، قد ذكرناه من قبل في خواطرنا ولكن أضيف الآن بعضاً من اللمحات ؛ لأني أرى أنّ من حق كل قارئ أو متلق لهذه الخواطر أن يجد الخلاصة الملائمة التي تغنيه عن الرجوع إلى ما سبق من قول في هذا الأمر ، وذلك حتى تتصل المعاني في ذهن القارئ .

لقد كان لميلاد عيسى عليه السلام ضجة ، وكذلك كان لمسألة توفِّي الله له ضجة . ولقد شبه الله لقتلة عيسى أنهم قتلوه ، فعندما أرادوا أن يقتلوه دخل خوخة ، والخوخة هي باب في باب ، وهذا نظام البيوت القديمة حيث يوجد باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة وفي هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد . وفي سقف هذا البيت فتحة . وعندما دخل رجل يدعى " تطيانوس " طالباً لعيسى عليه السلام نظر عيسى لأعلى ووجد شيئاً قد رفعه ، واستبطأ القوم تطيانوس وخرج عليهم من بعد ذلك ، فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بعد أن ألقى الله شبه عيسى على تطيانوس . أو أن عيسى حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال عيسى للحواريين : أيكم يُلقى شبهي عليه وله الجنة ؟ . وكان كل حواري يعلم أنه لا رسالة له مثل عيسى عليه السلام . فماذا إذن يريد الحواري لنفسه أكثر من الجنة ؟ . وتقدم " سرخس " فألقي عليه شبه المسيح عليه السلام وقتل اليهود سرخس . أو أن الذين ذهبوا لقتل عيسى وعرفوا أنه رفع فخافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا به ، ولهذا جاء القتلة بشخص وقتلوه ، أو أن القتيل

هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود وتيقظت في نفسه ملكة التوبة فقدم نفسه بدلاً وفداءً للرسول .

ومسألة التوفي – كما نعلم – هي الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل ، ونحن – المسلمين – نعرف أن الحق رفع محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج إلى السموات وعاد إلينا مرة أخرة ليكمل رسالته ؛ لذلك نصدق أمر رفع عيسى وأن الله توفاه ، أي استرده كاملاً دون نقض للبنية ، وأنه سيعود مرة أخرى ليصلي خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله .

(73/220)

وإن أمر الرفع في الإسلام مقبول . فقد رفع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار حوار بينه وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وغيرهم من الأنبياء ، وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين في تلك الرحلة .

نحن – إذن – نصدق تماماً مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء كأمر وارد وحاصل ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ .

أما مسألة ارتباط نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض بقيام الساعة ، فالنصوص في هذه المسألة من القرآن الكريم محتملة وغير قطعية الدلالة ، وقد وردت في السنة النبوية المطهرة ،

ولكنها غير معلومة من الدين بالضرورة فلا نكفر من يتأبى عليه فهمها ، وقد أراد الحق سبحانه الرحمة بالخلق ؛ لذلك فكل شيء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام يأتي به الله في أسلوب لا يسبب الفتنة . فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكماً ولن ينقض حكماً ، ولذلك جاء الحق سبحانه بمسألة الإسراء بنص قطعي ، أما مسألة المعراج فلم تأت نصاً في القرآن بل جاءت التزاماً لأن الحق سبحانه قال : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرى * عِندَ سِدْرَةِ المنتهى * عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾ [النجم : 13-15] . وهكذا فالإسراء آية أرضية ، والمعراج آية سماوية . والآية الأرضية يمكن أن يقيم رسول الله الدليل عليها ، وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ووصفه لهم بقوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : 1] .

(74/220)

لقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أوصاف القوافل التي رآها في طريق العودة ، إذن كان الإسراء آية أرضية ، أما الآية السماوية وهي المعراج فجاءت التزاماً وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام ، فمن يرى أن ذلك جاء من طلاقة قدرة الله فهو يصدق ذلك . ومن

يقف عقله نقول له : إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين . وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة " توفيتني " نجد " توفاه " قد تعني أماته ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة : 11] .

والحق سبحانه وتعالى يقول أيضاً : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر : 42] .

إنه سبحانه يسمي النوم وفاة ، وسماه – أيضاً – موتاً .

وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض . ومعنى الموت في بعض مظاهره غياب حس الحياة ، والذي ينام إنما يغيب عن حس الحياة ، إذن فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم . ويقال أيضاً عن الدّين توفيت دَيني عند فلان أي أخذت دَيني كاملاً غير منقوص . وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق جل وعلا القول الفصل : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء : 157] .

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضاً ، فالحق يقول : ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ [آل عمران : 144] .

فالموت خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة ، أما القتل فهو إحداث إتلاف في البنية فتذهب الروح . وقد قال الحق على لسان المسيح : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أي أخذتني

كاملاً غير منقوص . وهذه مسألة لا تنقض الرفع . ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالاً للحوار بين عيسى ابن مريم والحق سبحانه يوم المشهد الأعظم جاء به القرآن لنا ليخبرنا بالذي يُثَبِّت صدق الإيمان .

(75/220)

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد شهيد على قومه في زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون لله ، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط ، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير ويمنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(76/220)

فصل

قال فى الميزان :

قوله تعالى : " ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم " لما نفى عليه السلام

القول المسؤول عنه عن نفسه بنفى سببه أولا نفاه ببيان وظيفته التى لم يتعدها ثانيا فقال : " ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به " الخ " ، وأتى فيه بالحصر بطريق النفى والإثبات ليدل على الجواب بنفى ما سئل عنه وهو القول : " أن اتخذوني وأمى إلهين من دون الله " .

وفسر ما أمره به ربه من القول بقوله : " أن اعبدوا الله " ثم وصف الله سبحانه بقوله : " ربى وربكم " لئلا يبقى أدنى شائبة من الوهم في أنه عبد رسول يدعو إلى الله ربه ورب جميع الناس وحده لا شريك له .

وعلى هذه الصراحة كان يسلك عيسى ابن مريم عليه السلام في دعوته ما دعاهم إلى التوحيد على ما يحكى عنه القرآن الشريف ، قال تعالى حكاية عنه : " إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم " (الزخرف : 64) وقال : " وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم " (مريم : 36) .

قوله تعالى : " وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد " ثم ذكر عليه السلام وظيفته الثانية من جانب الله سبحانه وهو الشهادة على أعمال أمته كما قال تعالى : " ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا " (النساء : 159) .

يقول عليه السلام ما كان لى من الوظيفة فيهم إلا الرسالة إليهم والشهادة على أعمالهم : أما الرسالة فقد أديتها على أصرح ما يمكن ، وأما الشهادة فقد كنت عليها ما دمت فيهم ، ولم

أتعد ما رسمت لى من الوظيفة فأنا براء من أن أكون القى إليهم أن اتخذوني وامى إلهين من دون الله .

(77/220)

وقوله : " فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم " الرقوب والرقابة هو الحفظ ، والمراد به في المقام بدلالة السياق هو الحفظ على الأعمال ، وكأنه أبدل الشهيد من الرقيب احتراز عن تكرر اللفظ بالنظر إلى قوله بعد : " وأنت على كل شئ شهيد " ، ولا نكتة تستدعى الاتيان بلفظ " الشهيد " ثانيا بالخصوص .

واللفظ أعنى قوله : " كنت أنت الرقيب عليهم " يدل على الحصر ، ولازمه أنه تعالى كان شهيدا ما دام عيسى عليه السلام شهيدا وشهيدا بعده ، فشهادته عليه السلام كانت وساطة في الشهادة لا شهادة مستقلة على حد سائر التدبيرات الإلهية التى وكل عليها بعض عبادة ثم هو على كل شئ وكيل كالرزق والاحياء والاماتة والحفظ والدعوة والهداية وغيرها ، والآيات الشريفة في ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها .

ولذلك عقب عليه السلام قوله : " فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم " بقوله : " وأنت على كل شئ شهيد " ليدل بذلك على أن الشهادة على أعمال أمته التى كان يتصداها

مادام فيهم كانت حصة يسيرة من الشهادة العامة المطلقة إلى هي شهادة الله سبحانه على شئ فإنه تعالى شهيد على أعيان الأشياء وعلى أفعالها التى منها أعمال عباده التى منها أعمال امة عيسى ما دام فيهم وبعد توفيه ، وهو تعالى شهيد مع الشهداء وشهيد بدونهم .

ومن هنا يظهر أن الحصر صادق في حقه تعالى مع قيام الشهداء على شهادتهم فإنه (عليه السلام) حصر الشهادة بعد توفيه في الله سبحانه مع أن لله بعده شهداء من عباده ورسله وهو (عليه السلام) يعلم ذلك .

(78/220)

ومن الدليل على ذلك بشارته عليه السلام بمجئ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) – على ما يحكيه القرآن – بقوله : " يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد " (الصف : 6) وقد نص القرآن على كون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الشهداء قال تعالى : " وجئنا بك على هؤلاء شهيدا " (النساء : 41) .

على أن الله سبحانه حكى عنه هذا الحصر : " فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم " ولم

يرده بالابطال فالله سبحانه هو الشهيد لا غير مع وجود كل شهيد أي إن حقيقة الشهادة هي لله سبحانه كما أن حقيقة كل كمال وخير هو لله سبحانه ، وأن ما يملكه غيره من كمال أو خير أو حسن فإنما هو بتمليكه تعالى من غير أن يستلزم هذا التمليك انعزاله تعالى عن الملك ولا زوال ملكه وبطلانه ، وعليك بالتدبر في أطراف ما ذكرناه .

فبان بما أورده من بيان حاله المحكى عنه في الآيتين أنه برئ مما قاله الناس في حقه وأن لا عهدة عليه فيما فعلوه ، ولذلك ختم (عليه السلام) كلامه بقوله : " إن تعذبهم فإنهم عبادك " إلى آخر الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 6 صـ 247 . 249 ﴾

(79/220)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ

عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) ﴾

أخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن أبي هريرة قال : يلقي الله عيسى والله لقاه في قوله ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ قال أبو هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم : فلقاه الله ﴿ سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ " . الآية كلها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ميسرة قال : لما ﴿ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ أرعد كل مفصل منه حتى وقع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بن صالح قال : لما قال ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ زال كل مفصل له من مكانه خيفة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ متى يكون ذلك ؟ قال : يوم القيامة ألا ترى أنه يقول ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ [المائدة : 119] .

(80/220)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ قال : لما رفع الله عيسى بن مريم إليه قالت النصارى ما قالت ، وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك ، فسأله عن قوله ﴿ قال سبحانك ما يكون لي ﴾ إلى قوله ﴿ وأنت على كل شيء شهيد ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طاوس في هذه الآية قال : احتج عيسى وربه والله وفقه ﴿ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ من طريق طاوس عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن عيسى حاجه ربه فحاج عيسى ربه ، والله لقاه حجته بقوله ﴿ أأنت قلت للناس . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول " إذا كان يوم القيامة جمعت الأمم ودعي كل أناس بإمامهم ، قال : ويدعى عيسى فيقول لعيسى ﴿ يا عيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ فيقول ﴿ سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ إلى قوله ﴿ يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ والناس يسمعون ، فراجعه بما قد رأيت ، فأقر له

بالعبودية على نفسه ، فعلم من كان يقول في عيسى ما كان يقول أنه إنما كان يقول باطلاً .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ قال : سيدي وسيدكم .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم " .

(81/220)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً ، ثم قرأ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : 104] ثم قال : ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ فيقال : أما هؤلاء لم

يزالوا مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ قال : الحفيظ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ كنت أنت الرقيب ﴾ قال : الحفيظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(82/220)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ : هذا استثناءٌ مفرغ فإنَّ " ما " منصوبةٌ بالقول ؛ لأنها وما في حيِّزها في تأويلِ مقول .

وقدَّر أبو البقاء القول بمعنى الذكر والتأدية .

و " ما " يجوزُ أن تكون موصولةً أو نكرةً موصوفةً .

قوله تعالى : " أن اعبُدوا " في " أنْ " سبعةُ أوجهٍ :

أحدها : أنها مصدرية في محلِّ جر على البدل من الهاء في " به " والتقديرُ : ما قلتُ إلا ما أمرتني بأن اعبدوا ، وهذا الوجه سيأتي عليه اعتراض .

الثاني : أنها في محلِّ نصبٍ بإضمار " أعني " ، أي : إنه فسَّر ذلك المأمور به .

الثالث : أنه في محلِّ نصب على البدل من محلِّ " به " في ﴿ ما أمرتني به ﴾ لأن محلَّ المجرور نصب .

الرابع : أن موضعها رفعٌ على إضمار مبتدأ وهو قريبٌ في المعنى من النصب على البدلِ .

الخامس : أنها في محل جر لأنها عطف بيان على الهاء في به .

السادس : أنها بدلٌ من " ما " نفسها أي : ما قلت لهم إلا أن اعبدوا .

السابع : أنَّ " أنْ " تفسيرية ، أجازه ابن عطية والحوفي ومكي .

وممن ذهب إلى جواز أنَّ " أنْ " بدلٌ مِنْ " ما " فتكونُ منصوبة المحلِّ أو من الهاء فتكونُ مجرورته أبو إسحق الزجاج ، وأجاز أيضاً أن تكون تفسيريةً لا محلَّ لها .

وهذه الأوجهُ قد منع بعضها الزمخشري ، وأبو البقاء منع منها وجهاً واحداً وهو أن تكون تفسيرية ، أما الزمخشري فإنه منع أن تكون تفسيرية إلا بتأويل ذكره وسيأتي ، وبدلاً من " ما " أو من الهاء في " به " .

(83/220)

قال – رحمه الله – : "أنْ" في قوله : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ إنْ جعلتها مفسرةً لم يكن لها بُدٌّ من مفسِّر ، والمفسِّر : إما أن يكون فعل القول أو فعل الأمر ، وكلاهما لا وجه له ؛ أما فعل القول فلأنه يُحْكى بعده الجمل ولا يتوسَّط بينه وبين محكيِّه حرفُ تفسير ، وأما فعل الأمر فمستندٌ إلى ضمير الله تعالى ، فلو فسَّرْتَه بـ ﴿ اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ لم يستقم لأن الله لا يقول : اعبدوا الله ربي وربكم ، وإن جعلتها بدلاً لم يخلُ من أن تجعلها بدلاً من " ما " في ﴿ ما أمرتني به ﴾ ، أو من الهاء في " به " ، وكلاهما غيرُ مستقيم ؛ لأنَّ البدل هو الذي يقوم مقام المبدلِ منه ، ولا يُقال : ما قلتُ لهم إلا أن اعبدوا الله ، أي : ما قلتُ لهم إلا عبادته لأنَّ العبادة لا تقال ، وكذلك لو جعلتها بدلاً من الهاء ، لأنك لو أقَمْتَ " أن اعبدوا " مقام الهاء [فقلت : إلا ما أمرتني بأن اعبدوا الله] لبقي الموصولُ بغير راجعٍ إليه من صلته ، فإن قلت : كيف تصنع ؟ قلت : يُحْمل فعلُ القول على معناه ، لأنَّ معنى ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴾ : ما أمرتُهم إلا بما أمرتني به ، حتى يستقيم تفسيره بـ ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ ، ويجوز أن تكون " أنْ " موصولةً عطفاً على بيانِ الهاء لا بدلاً .

(84/220)

وتعقَّب عليه أبو حيان كلامه فقال : " أمَّا قوله وأمَّا فعلُ الأمر إلى آخر المنع [وقوله : " لأنَّ الله لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم " فإنما لم يستقمْ لأنه جعل الجملة وما بعدها مضمومةً إلى فعل الأمر ، ويستقيم أن يكون فعلُ الأمر مفسَّراً بقوله : " اعبدوا الله " ويكون " ربي وربكم " من كلام عيسى على إضمار " أعني " أي : " أعني ربي وربكم " ، لا على الصفة التي فهمها الزمخشري فلم يستقم ذلك عنده ، وأمّا] قوله : " لأن العبادة لا تُقال " فصحيحٌ ، لكن يَصِحُّ ذلك على حذفِ مضاف أي : ما قلت لهم إلا القول الذي أمرتني به قول عبادة الله تبارك وتعالى أي : القولَ المتضمن عبادة الله تبارك وتعالى ، وأمَّا قوله " لبقي الموصول بغير راجع إليه من صلته " فلا يلزمُ في كل بدل أن يَحُلَّ محلَّ المبدل منه ، ألا ترى إلى تجويز النحويين : " زيد مررت به أبي عبد الله " ولو قلت : " زيدٌ مررتُ بأبي عبد الله " لم يجز إلا على رأي الأخفش .

وأما قوله : " عطفاً على بيان الهاء " ففيه بُعْد ، لأن عطفَ البيانِ أكثرُه بالجوامدِ الأعلامِ . وما اختاره الزمخشري وجوَّزه غيرُه لا يَصِحُّ ، لأنها جاءت بعد " إلا " ، وكلُّ ما كان بعد " إلا " المستثنى بها فلا بُدَّ أن يكون له موضعٌ من الإعراب ، و" أن " التفسيرية لا موضعَ لها من الإعراب " . انتهى .

قال شهاب الدين : أمَّا قوله : " إن ربي وربكم من كلام عيسى " ففي غاية ما يكون من البُعد عن الأفهام ، وكيف يفهم ذلك الزمخشري والسياق والمعنى يقودان إلى أنَّ " ربي " تابعٌ

للجلالة ؟ لا يتبادر للذهن – بل لا يُقْبل – إلا ذلك ، وهذا أشدُّ من قولهم " يؤدي إلى تهيئة العامل للعمل وقطعه عنه " فآل قولُ الشيخ إلى أنَّ " اعبدوا الله " من كلام الله تعالى و " ربي وربكم " من كلام عيسى ، وكلاهما مفسِّرٌ لـ " أمرتَ " المسند للباري تعالى .

(85/220)

وأمَّا قوله " يَصِحُّ ذلك على حذف مضاف " ففيه بعض جودة ، وأما قوله : " إنَّ حلول البدل محلَّ المبدل منه غيرُ لازم " واستشهاده بما ذكر فغيرُ مُسَلَّم ، لأنَّ هذا معارضٌ بنصِّهم ، على أنه لا يجوز " جاء الذي مررت به أبي عبد الله " بجرِّ " عبد الله " بدلاً من الهاء ، وعلَّلوه بأنه يلزمُ بقاءُ الموصول بلا عائدٍ ، مع أنَّ لنا أيضاً في الربط بالظاهر في الصلة خلافاً قدَّمْتُ التنبيه عليه ، ويكفينا كثرةُ قولهم في مسائل : " لا يجوزُ هذا لأن البدل يَحُلُّ محل المبدل منه " فيجعلون ذلك علةً مانعةً ، يعرف ذلك من اطلع على كلامهم ، قال شهاب الدين رحمه الله : فلولا خوفُ الإطالة لأوردْتُ منه مسائل شتى .

وأمَّا قوله : " وكلُّ ما كان بعد " إلا " المستثنى به إلى آخره " فكلامٌ صحيح لأنها إيجابٌ بعد نفي فيستدعي تسلُّط ما قبلها على ما بعدها .

ويجوز في " أنْ " الكسرُ على أصل التقاء الساكنين والضمُّ على الإتباع ، وقد تقدَّم تحقيقُه

ونسبتُه إلى من قرأ به في قوله : " فَمَنِ اضْطُرَّ " في البقرة [الآية 173] .

و" ربي " نعت أو بدل أو بيان مقطوعٌ عن الإتباع رفعاً أو نصباً ، فهذه خمسة [أوجهٍ] تقدَّم إيضاحُها .

قوله : " شهيداً " خبر " كان " ، و" عليهم " متعلق به ، و" ما " مصدريةٌ ظرفيةٌ أي : تتقدَّر بمصدر مضاف إليه زمان ، و" دام " صلتها ، ويجوز فيها التمامُ والنقصان ، فإن كانت تامةً كان معناها الإقامة ، ويكون " فيهم " متعلقاً بها ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوف على أنه حال ، والمعنى : وكنتُ عليهم شهيداً مدة إقامتي فيهم ، فلم يحتج هنا إلى منصوب ، وتكون حينئذٍ متصرفةً ، وإن كانت الناقصة لزمت لفظ المضيِّ ولم تكتفِ بمرفوع ، فيكون " فيهم " في محلِّ نصب خبراً لها ، والتقديرُ : مدة دوامي مستقراً فيهم ، وقد تقدم أنه يقال : " دِمْتُ تدام " كخِفْتُ تخاف .

(86/220)

قوله : ﴿ كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ يجوز في " أنت " أن تكون فصلاً وأن تكون تأكيداً .

وقرئ " الرقيبُ " بالرفع على أنه خبر لـ " أنت " والجملةُ خبرٌ لـ " كان " ، كقول القائل : [الطويل]

2100 - . . . . . .

وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِالمَلاَ أَنْتَ أَقْدَرُ

وقد تقدَّم اشتقاق " الرقيب " .

و" عليهم " معلَّقٌ به .

و" على كلِّ شيء " متعلِّقٌ بـ " شهيد " قُدِّمَ للفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 621.624 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) ﴾

ما دعوتُهم إلا لعبادتك ، وما أمرتهم إلا لتوحيدك وتقديسك ، وما دمت حياً فيهم كنت (. . . .) على هذه الجملة ، فلما فارقتُهم كان تصرفهم في قبضتك على مقتضى مشيئتك ، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وَصْفَي وفاقهم وخلافهم ، ونِعَمَتَيْ اقتصادهم وإسرافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 457 ﴾

مبحث فى المسيح الإله والمسيح الإنسان

للدكتور : عبد الكريم الخطيب :

نعرض فى هذا البحث قضية الألوهية ، التي ادّعاها المدّعون للمسيح ، وآمنوا عليها ، وأقاموا لها منطقا استساغوه ، وغذّوا منه مشاعرهم ، وترضّوا به عواطفهم . .

وسبيلنا فى عرض هذه القضية ، هى أن نلقاها لقاء بعيدا عن النصوص الدينية ، التي يقيمها أصحاب هذه الدعوى شاهدا على ما يدّعون ، وبمنأى كذلك عن النصوص الدينية التي جاء بها القرآن الكريم لدحض هذه الدعوى .

وإسقاط كل حجة لمدعيها .

ذلك لأن تعارض هذه النصوص حول تلك القضية فى جانبى الإثبات والنفي ، لا يتيح لمن يقف موقفا محايدا من هذه القضية سبيلا إلى الحكم فيها ، إذا هو أخذ بتلك النصوص المتعارضة ، وجعل لها عنده الاحترام والولاء ، الذي يمسكها عليه أصحابها . من طرفى الخصومة فى هذه القضية . .

إذن ، فالعقل ، والعقل وحده هو الحكومة التي يرجع إليها للقضاء فى هذه القضية ، أولا . . ثم إذا كان للنصوص الدينية بعد هذا التقاء مع العقل والمنطق أخذ بها كشاهد يؤيد العقل ويزكّى منطقه ، وإلّا انفرد العقل بالحكم الذي يطمئن إليه ، ويعيش معه فى تلك

القضية على وفاق ووئام ، وبهذا يحتفظ الإنسان بوحدته ، فلا يكون شعوره الديني فى ناحية ، واتجاهه العقلي فى ناحية أخرى . . فذلك أشأم بلاء يبتلى به الإنسان فى مسيرة الحياة .

العقل فى مواجهة المسيح :

وإن العقل إذ يواجه المسيح ، فإنما يواجه منه شخصية تاريخية ، لها وجود مادى محقق ، رآها الناس رأى العين ، كما يرون أنفسهم . . فالمسيح هو « يسوع » الذي ولد فى قرية الناصرة من مقاطعة الجليل ، بأرض اليهودية ، من بلاد الشام ، وأمه « مريم » ، وأبوه الذي ولد على فراشه ، ونسب إليه ، هو « يوسف » . . وكان مولده إبان حكم الرومان لبلاد الشام فى السنة الثالثة أو الرابعة أو السابعة قبل الميلاد ، على خلاف فى تحديد السنة التي ولد فيها .

والتاريخ يتحدث عن « يسوع » أنه ولد ميلادا طبيعيا ، حملت به أمّه مدة الحمل المعتاد للناس ، فاحتواه رحمها تسعة أشهر ، وأرضعته من ثدييها ، وكفلته كفالة الأمهات لأطفالهن . ثم كان له صبى ، وشباب ، وكهولة ، وطريق فى الحياة يسلكه ، ورسالة يقوم

عليها ، وأنه فى سبيل هذه الرسالة ـ شأنه شأن أصحاب الرسالات ـ قد دخل فى صراع مع القائمين فى طريقه ، والمتصدين لرسالته ، حتى انتهى به الأمر إلى الموت صلبا ! هذا هو مجمل الصورة التي تقع لعينى من يطالع حياة يسوع « المسيح » ويقرأ ما سطر التاريخ من سيرته ! إنه إنسان قبل كل شىء ، وفى كل شىء ؟ لم تفكر أمّه التي امتزج دمها بدمه ، ولحمها بلحمه ، وخالطت روحها روحه ، وأنفاسه ، لم تنكر شيئا من أمره ، ولم تر فيه غير ما ترى الأمهات من أبنائهن ، وإن كانت مخايل النبل ، والطهر والحكمة تفوحان من أردانه ! إنه بكرها ، وواحد من أولادها ، الذين استقبلتهم بعده « 1 » ! . . ولو أنها

(1) كان للمسيح إخوة من أمّه « مريم » ومن زوجها يوسف بن هالى ، كما تحدث بذلك الأناجيل ، بقول صريح قاطع .

رأت فيه شيئا لم تعرفه الأمهات فى أبنائهن لأنكرته ، أو لأنكرت نفسها ، ثم لكانت منها نفرة من الاتصال برجلها « يوسف » ومعاودة الحمل والولادة ! فهو ـ أي عيسى ـ إن يكن إلها فقد ولدته ، ولا يعقل أن تلد إلها أو آلهة غيره . . وإن يكن خلقا آخر ، غير الإله ، وغير البشر . فلن تطاوعها نفسها على الدخول فى تجربة جديدة ، تلد بها أعجوبة أخرى !

ولكنها إذ لم تنكر من وليدها « يسوع » شيئا ، ولم تر فيه غير ما ترى الأمهات فى أطفالهن ، مضت فى طريقها ، طريق الأمومة ، الذي تسلكه الأمهات ! واتصلت برجلها « يوسف » فولدت منه بنين وبنات ! ! أين يضع العقل المسيح ؟

والعقل إذ يواجه المسيح ، وإذ يلقاه على هذا الوجه الذي عرفته الحياة منه ، وسجله التاريخ له ـ لا يمكن أن يخرجه عن دائرة البشرية ، أو يعزله عن عالم الإنسان . .

والمسألة هنا هى : أين يأخذ المسيح مكانه من الناس ، وأين المكان الذي ينزله العقل فيه ؟

وهنا نرى « المسيح » يأخذ أوضاعا مختلفة ، وينزل منازل متباينة . .

حسب وزن العقول له ، وتقديرها لشخصيته ، وحسابها لمقومات تلك الشخصية ! وإذن فلا نستبعد أن نرى « المسيح » يأخذ مكان القمة من الإنسانية ، كما لا نستغرب إذا رأيناه ينزله منزلة الحضيض فيها . . ففى هذا الفراغ الهائل ، بين السطح والقاع ، يتحرك الناس ، وفيه يتقلّبون ، بحيث يملأ بهم هذا الفراغ كلّه ! والمسيح ـ فى هذه النظرة ـ واحد من آحاد الناس ، وللناس أن ينزلوه فيهم بالمكان الذي يرونه . . صعودا ، ونزولا . . مغالين ، أو مقتصدين ، أو ظالمين . . دون أن يخرج فى هذا كلّه عن دائرة الإنسانية ، أو يتعدّى حدودها ! فكل قول يقال فى « المسيح » ، مما يقع فى محيط الإنسانية ، يمكن أن يوضع موضع البحث والنظر ، وأن يعتبر فى معرض القبول والتسليم . . فإذا قال فيه قوم إنه نبىّ أو صدّيق . . لم يكن هذا القول مستحيلا . . إذ فى الناس الأنبياء والصدّيقون ! وإذا قال

قوم إنه فارس مغوار ، أو فيلسوف عظيم ، أو عالم كبير . .

لم يكن هذا القول مستحيلا أيضا ، إذ فى الناس الفرسان والفلاسفة والعلماء ! وإذا قال قوم إنه مشعوذ محتال . . لم يكن هذا القول مستحيلا كذلك ، لأن فى الناس المشعوذين والمحتالين ! وهكذا كل قول يقال فيه ، مدحا أو ذمّا ، مما هو واقع فى عالم البشر ، لم يكن مستحيلا ، ولا مستغربا . . والبحث ، والنظر ، هو الذي يكشف عن صدق أو كذب كل ما يقال فيه ، ويمخض ما فيه من حق أو باطل . .

ماذا عن المسيح اللّه ؟

(90/220)

فإذا جاء إلى الناس من يقول لهم : إن « يسوع » هذا الذي رأيتموه أو سمعتم أخباره ، والذي عرفتم من أمره أنه لم يكن إلا بشرا سويا . . فى هيأته وملامحه ، وفى طعامه وشرابه ، ويقظته ونومه ، وفرحه وحزنه ، ورضاه ، وسخطه ، وفى كل ما تعرفون من شئونكم ، وما تتقلّبون فيه من حياتكم . « يسوع » هذا ، هو اللّه رب العالمين ! عاش تلك الفترة المحدودة من الزمان وفى هذا الوضع المحدود من المكان فى مسلاخ الإنسان « يسوع » وفى جسده . .

ثم ترك هذا الجلد ، وزايل ذلك الجسد ، وارتفع إلى ملكوته ـ نقول إذا جاء أحد يقول للناس هذا القول ، فى شأن المسيح ، أو فى أي إنسان غيره من الناس على طول الإنسانية وعرضها ، فبأى آذان يستمع الناس إلى هذا القول ، وبأى عقول يلقونه ؟

ولنذكر أننا بمعزل عن مقولات الكتب المقدسة فى أمر « المسيح » وأننا إنما نواجه « المسيح » من خارج الدائرة العقيدية ، وأننا إنما ننظر إليه كظاهرة إنسانية ، كان لها فى حياة الناس ـ ولا يزال ـ دور كبير ، دارت وتدور حوله شئون لهم وشئون ! . .

ونعيد سؤالنا مرة أخرى : بأى آذان يستمع الناس إلى هذا القول الذي يقال فى المسيح الإله ، وبأى عقول يلقونه ؟

(91/220)

ولا نتكلّف لهذا السؤال جوابا ، فالجواب حاضر ، نأخذه من فم التاريخ الذي يحدّث عن أعداد كثيرة من الناس قد لبسوا أثواب الآلهة ، أو ألبسوا هذه الأثواب . . ويحدث التاريخ ـ قبل المسيح وبعده ـ أن الناس انخدعوا لهذه الآلهة ، وآمنوا بها ، وأنزلوها من قلوبهم وعقولهم منزلة الإله الذي يؤمن به المؤمنون بالله ! ففى مصر ، والهند ، وفارس ، وفى بلاد اليونان والرومان ، دان الناس أحقابا طويلة للالهة البشرية . . من فراعنة ، وقياصرة

وأباطرة ، وهراقلة ، وعبدوهم عبادة المؤمنين للّه رب العالمين . . ولا زالت بقايا هذه الظاهرة باقية ممتدة فى القرن العشرين إلى الحرب العالمية الثانية ، حيث كان امبراطور اليابان « الإله » المعبود من دون اللّه ، فى أمة بلغت من الحضارة والمدنية حظّا كاد يجعلها على رأس العالم المتحضر فى هذا العصر ! وفى التاريخ الإسلامى ادّعى المدعون ألوهية « علىّ » رضى اللّه . . وكادت تكون فتنة ، لولا أن صدمتها العقيدة الإسلامية صدمة قاتلة ، بيد « علىّ » نفسه ، الذي أرادوا أن يلبسوه ثوب الإله . !

ويحدث التاريخ الإسلامى أيضا أن « المقنّع » الخراسانى ، ـ واسمه عطاء ـ كان صاحب فرقة من فرق الشيعة ، وكان مشعوذا ، قد بلغ به الأمر أن ادعى الألوهية لنفسه ، وكان لا يسفر عن وجهه ، وقد اصطنع لذلك وجها من ذهب ، تقنع به ، فسمى المقنع . . وكانت له شعوذات خدع بها الأغرار من الناس ، فتبعه خلق كثير ، مما وراء النهر ، وآمنوا بألوهيته ، وكادت تكون فتنة .

« ولما اشتهر أمره ثاروا عليه ، وقصدوه الناس فى قلعته التي اعتصم بها ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وسقاهن سما ، فمتن منه ، ثم تناول شربة من ذلك السم فمات أيضا ، وذلك فى سنة ثلاث وستين ومئة هجرية « 1 » » .

---

(1) وفيات الأعيان ، لابن خلكان : جزء أول ص 402 . [. . . . .]

ويحدّث التاريخ الإسلامى كذلك عن بعض الفرق المنحرفة من الشيعة ، وعن تأليههم للخليفة الحاكم بأمر اللّه ، الذي لا زالت بقايا هذه الفرقة المارقة تتعبد له ، فى جهات منعزلة من بلاد الشام ! وليس ببعيد خبر « سليمان المرشد » الذي ظهر فى بلاد الشام منذ سنوات وادّعى الألوهية ، ووجد فى الناس من يستجيب له ويؤمن به ! وتستند دعوى الألوهية لإنسان من الناس على قوة غيبية احتوت هذا الإنسان الإلهى ، أو احتواها هو . . وبهذه القوة الغيبيّة المقدسة فيه ، صار فوق مستوى الناس ، ونزل منازل الآلهة ! وقد كان الناس قبل عصر العلم التجربي ، يفتحون آذانهم وعقولهم وقلوبهم للقوى الغيبية هذه ، ويتشوّفون إليها ، فيما وراء المادة ، وكانت حياتهم موصوله بها ، مشدودة إليها . . فإذا جاءهم من يحمل إليهم - إن صدقا وإن كذبا - خبرا من تلقائها ، أو حديثا من عندها ، وجد من يصغى إليه ، ويلهث جريّا

وراءه ! وبهذا الشعور خلق الفنانون الأساطير ، ونسجوا الخرافات ، التي كانت المورد الذي تتزاحم عليه الإنسانية ، وتروى منه أشواقها ومواجدها ، وتغذّى به آمالها وأحلامها

. .

وإذ طلع عصر العلم التجريبى على الناس واستقامت العقول على منطق التجربة ، وحكم الواقع المادىّ ـ لم يعد للقوى الغيبية هذا السلطان المتسلط على العقول والقلوب ، ولم يعد فى الناس من تستهويه هذه القوى ، أو تحمله على الوقوف طويلا عندها . . فإن يكن للناس مع هذه القوى وقفة فى هذا العصر ، فهى وقفة اللاهي العابث ، الذي يلتمس التخفف من ضغوط المادة ، وثقل الواقع . .

(93/220)

ثم لا يلبث أن يأخذ طريقه إلى عالم المادة والواقع ، الذي يتقلب فيه ، ويتعامل معه ! ولهذا ، فإن أي لباس يلبسه الإنسان اليوم غير جلده البشرىّ ، وثوبه الإنسانى ، لا يمكن أن يحجب أعين الناس عن حقيقته ، أو أن يخيّل إليهم منه أنه غير إنسان ! ! فقد يلبس الناس على المسارح جلود الحيوانات ، وأثواب الشياطين ، والجن والآلهة . . ثم هم مع هذا فى أعين المتفرجين أناس كسائر الناس . . وأن هذه الأثواب ، وتلك الأصباغ أشياء مستعارة . . لا تغير ولا تبدّل من الحقيقة الواقعة شيئا .

ولا يخرج الحال بأولئك الذين يدّعون لأنفسهم ، أو يدّعى لهم أنهم من طينة غير طينة الناس ، ومن جلود غير جلود الناس ـ لا يخرج بهم الحال عن تلك الصّور المتغايرة التي يلبسها

الممثلون والمهرجون ! إن الناس قد استقلّوا اليوم بعالمهم الأرضى ، وأجلوا عنه كل قوى غيبية كانت تعيش مع أسلافهم فيه ، وتتحكم فى مصائرهم ، وتبدل من أحوالهم !

(94/220)

وأنهم إذا شاقهم لقاء تلك القوى الغيبية أطلعوها بقدر ، للتسلية والترفيه ، ثم أرسلوها لتعود من حيث جاءت ! والسؤال هنا هو : ترى لو جاء « اللّه » إلى الناس اليوم فى صورة إنسان من الناس ، يعرفون وجهه ، وليدا وطفلا ، وصبيا ، وشابا ، وكهلا . . ثم دعاهم هو ، أو دعاهم داع غيره إلى الإيمان به إلها ، والتعبد له ربا . أكان يجد من الناس أذنا صاغية ، وقلبا واعيا ، لتلك الدعوة ؟ ربما كان بعض الأغرار ، وأصحاب الأهواء والبدع ، ممن تستهويهم المواقف الشاذة ، وتروقهم الانحرافات والشطحات . ربما كان بعض هؤلاء وأولئك يلتفتون إلى هذه الدعوة ، ويستجيبون لها . . ولكنهم مهما بلغ عددهم ، يظلون فى عزلة عقلية واجتماعية عن المجتمع الإنسانى العصرى . . لا ينظر إليهم الناس إلا نظره الشذاذ الخارجين على الجماعة الإنسانية ! ينكرهم الناس أينما التقوا بهم . . ثم لا يلبث أمرهم أن ينتهى إلى ما ينتهى إليه كل أمر لا يقوم اليوم على واقع التجربة ، ولا يستند إلى برهانها ! والصورة التي ظهر بها « يسوع » المسيح وإن تشابهت مع هذا التصور فى بعض

ملامحه ، إلا أنها تخالفه من وجهين :

(الوجه الأول) هو أن « المسيح » ظهر فى عصر غير هذا العصر . . فى عصر كانت فيه صور الآلهة البشرية تعيش فى تفكير الناس ، وفى أحلامهم ، لا ينكرونها إذا هى التقت بهم ، وتحدثت إليهم . . فلطالما التقى آباؤهم بالآلهة ، وتحدثوا إليهم وتعبّدوا لهم ، ولا تزال وجوه هذه الآلهة وأشباحها تطلّ عليهم من قريب ! (والوجه الثاني) هو أن ألوهية المسيح لم تعلن إلى الناس وهو حىّ قائم فيهم ، حتى كان يمكنهم أن يعيدوا النظر إليه ، ويملئوا عيونهم منه ، وهم يلتقون به على تلك الصفة . . وإنما كان ذلك بعد أن انتهي المسيح تلك النهاية المعروفة . .

(95/220)

فقيل للناس بعد هذا : إنه بعد أن صلب عاد إلى الحياة . . وصعد بعد أربعين يوما إلى ملكوته السماوي الذي نزل منه ! وهنا تكثر الأحاديث عن « المسيح » وعن شخصيته ! إنه ليس مجرد إنسان ! وشاهد ذلك معجزاته الكثيرة التي عرفها الناس منه فى حياته . . وإنه ابن اللّه ! . . وشاهد هذا أنه ولد من عذراء ! فليس « يوسف النجار » أباه ، وإنما هو زوج أمه ! وإنه هو اللّه ذاته ! شاهد ذلك أنه أمات نفسه ثم أحياها . . واللّه وحده هو

الذي يحيى ويميت ، ويميت ويحيى ! « يخرج الحىّ من الميت ، ويخرج الميت من الحىّ » !

وهكذا استدبر الناس حياة « المسيح » إلها ، بعد أن استقبلوا حياة المسيح إنسانا بشرا ! وبهذا لم يكن للشاهد أكثر مما للغائب فى شأن البحث عن ألوهية المسيح والتحقق منها . . إذ أن الذين شاهدوا المسيح لم يكن يقع لتفكيرهم أنهم يعيشون مع إله ، ويتحدثون أو يستمعون إلى إله . . وإنما هم مع إنسان ، وإن عظم فى الناس أمره ، وسما قدره . . فهم والذين لم يروه على سواء ، فى التحقق من الصفة الجديدة التي كان عليهم أن يروه من خلالها . . إنهم يستعيدون ذكريات ، ويتذكرون أحداثا ، على حين يطالع غيرهم ـ ممن غاب عنهم شخص المسيح ـ تلك الذكريات ، وهذه الأحداث ، مسطورة فى كتب ، مصورة فى رسائل ! وأين الإله إذن فى هذا الإنسان « يسوع » ؟

إن أحدا لم يره إلها ، ولم يتعامل معه كإله ، وإلّا كانت قد دارت الرءوس وجنّ جنون الناس ! فالأمر لا يعدو أن يكون مجرد تخريجات وتأويلات ، لذكريات وأحداث ، وأخبار ، عن تلك الذكريات وهذه الأحداث ! فاللّه الذي تجسد فى « يسوع » المسيح لم يعلن نفسه للناس الذين ظهر فيهم وولد وعاش ، وصلب ، وقام من الأموات بينهم ! وإنما كان هذا الإعلان بعد أن ترك « اللّه » هذا الجسد ، وزايل هذا المكان الذي كان فيه ! هذه واحدة !

وأخرى ، يقف العقل إزاءها متسائلا :

لماذا ظهر اللّه فى هذا الجسد المحدود ؟ فى هذا الزمن المحدود ؟ فى هذا المكان المحدود ؟

إنه لو كان يريد أن يكشف ذاته للناس لكان غير ذلك أولى به وأجدى ! ! كان ينبغى مثلا أن يظهر ظهورا متجددا متكررا . . فى أجساد كثيرة ، وفى أمكنة متعددة ، وفى أزمنة متجددة ، حتى يستطيع الناس أن يأخذوا جميعا حظهم من هذا الإعلان . . إن كان لهذا الإعلان حكمة ، وكان له أثر ! ولا بد أن يكون له حكمة وأثر ، وإلا لما كان هناك داعية له .

إن مثل هذه الاعتراضات قد دارت فى كثير من الرءوس التي واجهت تلك المقولات التي تقال فى المسيح ، وفى تجسد اللّه فى الجسد الذي اتخذه من عذراء ! وقد أجاب عليها الذين آمنوا بهذه المقولات ، ورضوا بها واطمأنوا إليها . .

وإنه لا بأس من أن نعرض هنا نماذج من تلك الاعتراضات ، ودفع المعترضين عليها ، ثم تعليقنا على هذه الدفوع .

اعتراض : ـ « إن الأنبياء كانوا يقومون بإعلان اللّه للبشر وهدايتهم إليه . . لذلك لم يكن هناك داع لأن يقوم اللّه تعالى بمهمة كان يقوم بها نفر من عبيده ! فما تأويل هذا ؟ » .

وجواب : « إن الأنبياء لم يعلنوا للبشر ذات اللّه ، بل قاموا فقط بتبليغ أقواله لهم . . إذ فضلا

عن أنهم مثل غيرهم من الناس ، غير معصومين من الخطيئة ، الأمر الذي لا يجعلهم أهلا لإعلان ذات اللّه ، فهم أيضا محدودون فى ذواتهم ، والمحدودون لا يستطيعون أن يعلنوا غير المحدود . . فإذا أضفنا إلى ذلك أن غرض التجسّد لم يكن مجرد إعلان ذاته للبشر ، بل الظهور بينهم بحالة مدركة لهم ، لكى يستطيعوا معرفته والاقتراب منه ، والتوافق معه. اتضح لنا أن هذا الاعتراض لا مجال له إطلاقا » « 1 » . . والذي يرد على هذا الاعتراض هو رجل من رجال الدين المسيحي ! وعالم من علماء المسيحية « 2 » .

(1.2) اللّه. طرق إعلانه عن ذاته للأستاذ عوض سمعان ص 82 وما بعدها .

(97/220)

وتعليق : وندع مقولته فى عصمة الأنبياء ، وأنهم لهذا ليسوا أهلا لإعلان ذات اللّه . . ونسأل ما الغاية من إعلان ذات اللّه ؟ وما أثر هذا الإعلان ؟ ألا يكفى الإعلان عن آثاره ، وأعماله ، لتكون عند الناس شاهدا على وجوده ، وعلى ماله من صفات الجلال والكمال ؟

إن الناس يتمثلون ذوات القادة ، والزعماء ، والعلماء فى آثارهم وأعمالهم ، دون أن يروهم أو يتصلوا بهم . . ومع هذا يحبّون منهم من يحبون ، ويطيعون من يطيعون ، وينقادون لمن

ينقادون ، بقدر ما يقع فى نفوسهم مما لهم من آثار وأعمال ! . .

ثم ألا يكون هذا الوجود كله ، بما فيه من آيات ، وما يشتمل عليه من عجائب وأسرار تقف أمامها العقول مشدوهة ، وتنظر إليها الأبصار خاشعة.

ألا يكون هذا إعلانا واضحا عن اللّه ؟ ثم ألا يكون فيما يجىء به رسل اللّه وأنبياؤه من دعوات تكشف عن هذا الوجود ، وتجلّى للأبصار والعقول ما غشّى عليها الجهل والضلال منه. ألا يكون فى هذا ما يكشف للناس عن وجود اللّه ، وعظمة اللّه ، وجلال اللّه ، حتى يجىء اللّه نفسه للناس ليقول لهم : ها أنا ذا ؟

(98/220)

اعتراض آخر . . يقول : إن التوافق مع اللّه لا يتوقف على رؤيته بالعين ، بل على إدراك النفس لمحبته ، وكماله ، وجماله ، ولذلك لم يكن هناك داع لأن يتجسد اللّه . . إذ أنه موجود فى كل مكان . . وفى أقواله لنا ما يكفى نفوسنا لإدراك كل شىء عنه وبالتالى للتوافق معه ! وجواب : « حقا إن التوافق مع اللّه لا يتوقف على رؤية العين ، بل على إدراك النفس لمحبته ، وكماله ، وجماله . . لكن هل تستطيع النفس أن تدرك شيئا عن اللّه من مجرد السمع أو القراءة عنه ؟ الجواب : طبعا لا ، لأن النفس كما قلنا محدودة ، واللّه غير

محدود ، والمحدود لا يدرك من تلقاء ذاته غير المحدود ، لذلك كان من البديهي أنه إذا أراد اللّه أن يجعل ذاته مدركا لنفوسنا ـ وعمل مثل هذا يتفق مع ذاته وصفاته كل الاتفاق ـ أن يظهر لنا بهيئة محسوسة ، نستطيع عن طريقها الاتصال به ، وهذه هى الهيئة التي تنازل واتخذها ، له المجد ! » « 1 » .

وتعليق : هذا الجواب ليس بالذي يسدّ هذه الثغرة التي أوجدها الاعتراض ، الذي يجاب عليه بهذا الجواب ! فإذا كان الإيمان باللّه لا يكمل ولا يتم بمجرد السمع أو القراءة عن اللّه ، بل لا بد من رؤيته مجسسدا ، فمعنى هذا أن جميع الذين لم يروا اللّه مجسدا فى المسيح هم على تلك الصفة . . إيمانهم ناقص ، لا يتم إلا برؤية اللّه مجسدا فى المسيح ،

---

(1) المصدر السابق .

ومعنى هذا أيضا أن إيمان جميع الذين سبقوا المسيح من الأنبياء والرسل وأتباعهم إيمان ناقص ، وكذلك إيمان أتباع المسيح جميعا الذين لم يروه رأى العين ! فما الجواب ؟ وأظن لا جواب ! اعتراض ثالث : « إن كان ولا بد من تجسّد اللّه . . فلما ذا لم يظهر بالهيئة التي تليق بمجده وبهائه ، حتى تهابه الناس وتخضع له ؟ » وجواب : « إن غرض اللّه من

التجسد ، لم يكن لإظهار عظمته ، أو إثارة وإعجاب الناس به (لأن تصرفا كهذا لا يصدر إلا من الناقص ، الراغب فى تعظيم الناس له) بل هو جمعهم حوله لكى يمتّعهم بحبّه وعطفه ، ويخلصهم من خطاياهم وضعفتهم ، حتى تكون لهم معه حياة روحية سعيدة ، وبما أنه لو كان تعالى قد ظهر لهم بهيئة تناسب مجده الأزلى لارتعب الناس منه ، ولما استطاع واحد منهم أن يدنو إليه ـ كان البديهي أن يظهر لهم بالهيئة المألوفة لديهم ، وهى الهيئة البشرية ، لكى تتحقق أغراضه هذه ، كما أنه لو كان قد تجنب الظهور بمجده الخاص الذي يرعب الناس ، وظهر فقط بإحدى مظاهر العظمة الأرضية ، لحرم متوسطو الحال والفقراء من التمتع به ، وهؤلاء ـ كما نعلم ـ هم السواد الأعظم من البشر ، وهم فى جملتهم أكثر من الأغنياء استعدادا لمعرفته والسير فى سبيله ، لذلك كان من البديهي أيضا ألا يظهر بأى مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية كذلك ، بل يظهر بالمظهر العادي ، الذي ظهر به فعلا ، لأنه هو الذي يفسح المجال أمام جميع الناس للاقتراب إليه والاتصال به ، والإفادة منه « 1 » .

وتعليق وهذا الجواب أيضا أبعد من أن يدفع الاعتراض المعترض به . .

فاللّه إذ ظهر هذا الظهور الذي هو أقرب إلى الخفاء والتستر ، منه إلى أي

---

(1) المصدر السابق ص 85 .

شيء آخر ، إذ لم ير الناس ـ الذين رأوه شيئا منه . . إنهم لم يروا إلا إنسانا . .

مجرد إنسان يقال عنه ، أو قيل عنه ـ فيما بعد ـ إنه هو اللّه ! فأين اللّه الذي رآه الناس على أنه اللّه ـ وأين الناس الذين رأوه على تلك الصورة ؟ لا جواب ! .

ثم إن الذين رأوه ، هم قلّة فى الناس ، لا يكادون يذكرون إلى تلك الأعداد التي لا حصر لها من الذين لم يروا المسيح ، ولم يضمهم إليه ، ويمتعهم بمحبته ! واعتراض رابع : إذا كان المسيح هو اللّه . . فلما ذا لم يعلن ذلك صراحة أمام الناس ، حتى يؤمنوا جميعا به ؟ » .

وجواب : « لا يخفى لدى العاقل أنه لو كان المسيح قد أعلن للناس عن حقيقة ذاته قبل أن يختبروها بأنفسهم ، لكانوا قد اعتبروه محترفا ومدعيا ، ولما كانوا قد آمنوا به إطلاقا . . لكن شاء أن يستنتجوا هم حقيقة ذاته ، من حياته ، وأعماله ، لكى لا يكون إيمانهم به نظريا أو سماعيا ، بل إيمانا اختباريا عمليا . . .

« ومع كل فقد أعلن السيد المسيح عن حقيقة ذاته بكل صراحة للذين كانوا يشكّون فى شخصيته ، أو لا يستطيعون الكشف عنها . .

فقد قال مرة لأعمى كان ـ له المجد ـ قد شفاه : « أ تؤمن بابن اللّه ؟ » فلما سأله هذا : « من هو يا سيد لأومن به ؟ أجاب ـ له المجد : قد رأيته ، والذي يتكلم معك هو هو » فقال له الأعمى : أومن يا سيد ، وسجد له « 1 » » .

وتعليق : المسيح ، كما هو ظاهر من هذا القول ، لم يعلن أنه هو اللّه ، بل قال إنه « ابن اللّه » . وللبنوة هذه معنى كان معروفا عند الناس إذ ذاك فى

---

(1) المصدر السابق ص 88 .

الكتب المقدسة . . وطبيعى أن هذا الأعمى لم يكن عنده علم بالأقانيم الثلاثة التي يمثل الابن وجها من وجوه اللّه بها . . والتي عرفت بعد ذلك بزمن طويل .

فإذا اعترف بأن المسيح ابن اللّه ، كان اعترافه بأن المسيح ذات مستقلة عن اللّه . .

فالمسيح ابن ، واللّه أب . . والأب غير الابن . .

أما القول بأن المسيح لم يعلن عن ألوهيته حتى يختبرها الناس فى أعماله وآثاره ، فقد كانت نتيجة هذا الاختبار هو صلب المسيح كما يؤمن بذلك الذين آمنوا بألوهيته . . وهى نتيجة ناطقة ببطلان هذا القول . .

واعتراض خامس : « إن كان ولا بد من تجسد اللّه ، فلما ذا لم يظهر فى العالم رجلا كامل النمو ، بدلا من ولادته من امرأة ، ومروره فى أدوار الطفولة والصبا ، التي لم يفعل فيها شيئا مذكورا ؟ » .

وجواب : « إن السنّة التي وضعها اللّه للأفراد والجماعات هى النمو والتقدم ، وبناء على ذلك كان من البديهي أن يظهر المسيح ـ وقد رضى أن يكون إنسانا ـ طفلا ، يتدرج فى النمو ، قامة وعقلا ، وتتدرج معه الجماعة المحيطة به يقظة ووعيا ، تتهيأ بسببه لقبول المسيح والاستماع إليه . .

كما أننا إذا وضعنا قبلة أنظارنا أن غرض اللّه من التجسد لم يكن مجرد إعلان ذاته لنا ، بل الاتحاد الجوهري بنا ، لكى يكون الرأس الفعلى أو الحقيقي لجنسنا (عوضا عن آدم الأرضىّ الذي بانتسابنا إليه ، وتوالدنا منه قد ورثنا الطبيعة الخاطئة ، وورثنا معها قضاء الموت الأبدى) حتى نستطيع بدورنا أن نتحد باللّه اتحادا عمليا حقيقيا ـ اتضح لنا أنه لو كان قد ظهر كامل النمو ، أو بتعبير آخر ظهر دون أن يأخذ جسدا من جنسنا ، لكان قد ظل غريبا عنا ، ومفارقا لنا ، وبالتبعية لما كان رأسا لنا ، ولما كان لنا نحن صلة فعلية به ، لكن بتفضله بالولادة من جنسنا ، قد اتحد بنا ، وأصبح لنا بدورنا أن نتحد به ، اتحاد

الأغصان بالكرمة ، وبذلك تحققت أغراضه السامية بالتجسد « 1 » » .

وتعليق : لقد انحرف هنا الجواب أيضا عن الرد المباشر على الاعتراض . .

وهو لما ذا لم يظهر « اللّه » حين تجسد ، رجلا كامل النمو ، بدلا من أن يمر فى تلك الأدوار التي مرّ فيها . ؟ وقد أجاب المجيب إجابة متهافتة ، وإذ شعر بهذا ، فقد اتجه اتجاها آخر بالإجابة على هذا الاعتراض ، وهو أن اللّه قد اتحد بجنسنا لكى نتحد نحن به ، لأن الجنس أشكل بجنسه ! وكان على المتصدّى للرد على هذا الاعتراض أن يعلل لتجسد اللّه -لا فى جسد إنسانى وحسب- بل وبمرور هذا التجسد فى جميع أدوار الحياة الإنسانية من الميلاد إلى الممات . ! ولو أنه فعل لوجد أن المسيح الذي تجسد اللّه فيه قد مات شابا ، فلم يمرّ فى أدوار الكهولة ، والشيخوخة ! وكان منطق الردّ يقضى بأن يمر المسيح أو اللّه المتجسد فى المسيح ، فى جميع هذه الأدوار ، حتى يلبس الإنسانية كلها ، وبهذا يمكن أن يكون رأسا لها ! ثم ماذا يقول المجيب على هذا الاعتراض ، عن حياة المسيح فى رحم أمه ، ثم فى دور طفولته ، وهو فى قيد الضعف والعجز ، لا يملك من أمر نفسه شيئا . . . ؟

واعتراض سادس : « إذا كان المسيح هو اللّه . . فلما ذا ظهر فى أماكن محدّدة ، ولم يظهر فى جميع الأمكنة ، حتى يراه جميع الناس ، ويؤمنوا به ؟

وجوابه : إذا رجعنا إلى العصر الذي عاش فيه المسيح على الأرض ، وجدنا أن الشعب الوحيد الذي كان يؤمن باللّه إيمانا خالصا من كل زيغ ، هو الشعب

---

(1) المصدر نفسه ص 100 .

اليهودي ، ولذلك كان من البديهي أن يظهر المسيح بوصفه « اللّه المتأنّس » ، بين اليهود لأنهم أقرب الناس إلى الإيمان به « 1 » ! . . وكان من البديهي أيضا أن يظل بينهم حتى يعرفوه حق المعرفة ، ويؤمنوا به كل الإيمان ، ولكن لما رفضوه على الرغم من الأدلة الكتابية والاختبارية التي تثبت حقيقة ذاته « 2 » . اختار من بينهم أشخاصا كانوا أكثر استعدادا من غيرهم لمعرفته والتوافق معه ، وقضى مدة طويلة فى تدريبهم وتعليمهم « 3 » ، حتى عرفوا بعد قيامته من بين الأموات حقيقة ذاته كل المعرفة « 4 » ، ثم كلفهم بعد ذلك أن يحملوا رسالته ، ليس إلى اليهود وحدهم ، بل إلى كل الأمم (متى 28 : 18) [و هذا يناقض ما نطق به المسيح : « إلى أمم لا تمضوا : [متى 10 : 5] « و إذا أضفنا إلى هذا : (أولا) أن فلسطين التي ظهر فيها المسيح لم يره كل شخص من سكانها ، بل إن كثيرين لم يروه إطلاقا ، وأنه لو كان قد انتقل إلى كل بلاد العالم لكان كثيرون أيضا من سكانها لا يرونه . و(ثانيا) أن معرفة اللّه فى المسيح لا تتوقف على رؤية العين ، بل على الإيمان به بالقلب ، وفى هذه الحالة يستوى الذين رأوه والذين لم يروه ، إذا كانوا قد

(1) وشاهد هذا أنهم كذبوه ، وبهتوه ، وطعنوه فى شرف مولده ، وفى عفة أمه . . ثم

ساقوه إلى الصلب ، فصلبوه ! ! كما يقولون .

(2) ومفهوم هذا أن اللّه قدر فلم يحسن التقدير ، واختار فلم يحسن الاختيار ، وهل يكون « اللّه » الذي يلبس ثوب الإنسان ، ويضع نفسه فى إهابه منزها عن هذا النقص ؟

(3) انظر إلى « اللّه » هذا الذي يعانى ما يعانى فى تعليم الناس وتدريبهم . .

أهو يخرج عن طبيعة البشر العاجزين الضعفاء ؟

(4) انظر كيف عجز « اللّه » هذا ، عن أن يعرف نفسه للخاصة الذين اختارهم من بين البشر إنه لم يستطع أن يعرفهم به إلا بعد أن مثل أمامهم عملية الموت فى نفسه ، فمات ، وقبر ، ثم قام من الأموات !

(104/220)

آمنوا به ! ! ويستوى الذين رأوه والذين لم يروه إذا كانوا لم يؤمنوا به ! » .

وتعليق : ونقف عند هذا المقطع الأخير من الجواب . . ونسأل : إذا كانت معرفة اللّه لا تتوقف على رؤيته بالعين ، بل على الإيمان به بالقلب . وفى هذه الحالة يستوى الذين رأوه والذين لم يروه من المؤمنين به وغير المؤمنين . فلما ذا إذن هذا التجسد للّه ؟ وما حكمته ، إذا كان يستوى فى ذلك الذين رأوه والذين لم يروه ؟ ثم لم هذه البلبلة وهذا الاضطراب ،

وهذه الفتن التي تجيء من وراء القول بتجسد اللّه ؟ وإن أقلّ ما فيه أنه يفتح باب الادعاء على مصراعيه ، لكل من يدّعى أنه اللّه ، وأن اللّه قد تجسّد فيه ! وفى هذا ما فيه من التعمية على الناس ، والتشويش على المؤمنين باللّه ! ؟

واعتراض سابع : « إن تجسد اللّه ، إما أن يظل إلى آخر الدهور ، فتدوم فوائده ، وإما أن يكون مؤقتا ، وحينئذ لا يكون هناك مبرر لتمتع جيل خاص برؤيته فى الجسد ، دون غيره من الأجيال » .

وجوابه : « بما أنه مع ظهور اللّه فى الجسد فى العالم ، ورؤية الناس لأعماله ومعجزاته ، استمر معظمهم فى شرورهم وآثامهم . وبما أنه تعالى يريد أن يكون الإيمان به مقترنا كل الاقتران بحياة القداسة . . وبما أن حياة القداسة لا تتأتّى بواسطة الاقتناع النظري بحقيقة اللّه ، بل بواسطة الاتصال الروحي به . . وبما أن هذا الاتصال لا يتولد عن النظر إليه بعين الجسد الخارجية ، بل عن النظر إليه بعين الإيمان الباطنية . إذن كان من البديهي أن يقتصر الرب فى أمر ظهوره بالجسد على المدة التي قضاها فى العالم (وهذه والحمد للّه . يقول المؤلف . كانت كافية كل الكفاية لإثبات شخصيته ، وإظهار محبته للبشر أجمعين ، حتى تكون علاقتهم به ليس العلاقة الجسدية ، بل العلاقة الروحية . . .) « 1 » .

والتعليق : وإذن فقد كان ظهور اللّه متجسدا فى تلك المدة المحدودة ، فى الزمان والمكان. كان ذلك لمجرد إثبات شخصيته ! ولكن لمن ؟

لجماعة معدودة من الناس . . فى جيل محدود من أجيالهم ، وفى رقعة محدودة من أوطانهم . . وإذن فقد كان على اللّه أن يقدّم « بطاقة » شخصية إلى كل إنسان ، فى كل زمان ، وفى كل مكان . . وإلا كان من حق الناس أن يجهلوه ولا يعترفوا به ! مشكلات كثيرة أثارها تجسّد اللّه فى المسيح . . فى إنسان معروف للناس ، رأوه رأى العين ، يعالج من شئون الحياة ما يعالجون ، ويأتى ما يأتون ، ويذر ما يذرون . . ثم يعود فيطلع عليهم من عالم الأموات ، فإذا هو اللّه « رب العالمين ! ! » كان يمكن أن تكون هذه الدعوى أكثر احتمالا ، وأقرب إلى الواقعية لو أن الناس قد التقوا بدعوى ألوهية المسيح حال حياته ، حيث يتاح لهم النظر إليه من قرب ، واختبار أحواله عن واقع . . وأدخل من هذا فى باب الاحتمال والواقعية لو أن المسيح لم يلتق بالناس ولم يلتق به الناس إلا رجلا كاملا ، لم يروا فيه ضعف الطفولة ، وعجزها ، وتحكّم الضرورات الإنسانية فيها ، وخضوعه خضوعا مطلقا ليد من يرعاه ويقوم بأموره !

---

(1) اللّه. طرق إعلانه عن ذاته ص. 104 .

وقد رأينا الدفوع التي دفعت بها هذه الاعتراضات وأشباهها ، وأنها كانت دفوعا هزيلة متهافته ، لا تغنى من الحق شيئا ، ولا تزيد الأمر إلا غموضا على غموض ، وشبها فوق شبه ! حلّ أضاف إلى المشكلة مشكلات :

وأمر آخر من أمر المسيح « الإله » زاد العقدة عقدا ، وأضاف إلى المشكلة مشكلات . . وهو هذا الفهم الجديد للألوهية ، ذلك الفهم الذي لم تعرفه الدعوات السماوية من أمر الإله ، فى هذا الوصف الكاشف لذاته ، والتشريح المكيّف لتلك الذات . . حيث ظهر القول بتلك الأقانيم أو التعيّنات الثلاثة « للّه » واعتباره ثلاثة فى واحد ، وواحدا فى ثلاثة . . هم : الأب ، والابن ، وروح القدس ! هذه المقولة قد وضعت المسيح « اللّه » وضعا جانبيا فى الذات الإلهية . .

فلم يكن هو « اللّه » « كلّ اللّه » وإنما هو « الابن » ظاهرا ، ثم هو فى الوقت نفسه الأب والروح القدس ، قائما وراء هذا الظاهر ! إنها عملية معقدة ! وحلقة مفرغة لا يدرى أحد أين طرفاها ! ! فالمسيح إنسان ، وإله . .

إنسان كامل . . وإله كامل . .

وانظر كيف يجتمع الإنسان والإله فى كيان واحد ! . . شخصية مزدوجة ، وجهها إله ، وظهرها إنسان ! والمسيح . . ابن ، وأب ، وروح قدس ! والابن هو اللّه . . !

والأب هو اللّه . . !

وروح القدس هو اللّه ! والأب ، والابن ، وروح القدس ، وهم اللّه ! إنها ألغاز وطلاسم ، لا يمكن أن يتصورها العقل إلا إذا اصطنع لها التشبيهات ، والتخيلات ! ولعل أقرب صورة تمثل هذا المفهوم للّه ، هو القمر ، ومنازله المختلفة . .

فالقمر يكون هلالا . . فبدرا . . فمحاقا . .

وهو هو القمر . !

(107/220)

فإذا كان هلالا ففى كيانه البدر والمحاق ! وإذا كان بدرا فمن ورائه المحاق والهلال ! وإذا كان محاقا . . فبين يديه الهلال والبدر ! ومع هذا فإن الناس لا يقولون عن الهلال إنه بدر أو محاق . ولا يقولون عن البدر إنه محاق أو هلال . . إن لكل وجه من هذه الوجوه مفهوما خاصّا عند الناس ! ولكن لو كان للّه تعينات ، ووجوه كوجوه القمر ، فإن معنى هذا أن « اللّه » متحول متغيّر . . يلبس أثوابا مختلفة ، ويبدو فى وجوه متعددة ! والمؤمنون باللّه ـ

ومنهم أتباع المسيح - مؤمنون بأن اللّه لا يتغيّر ولا يتبدّل ، ولا يتحول من حال إلى حال أبدا !

ثم من جهة أخرى . . . لا يرى الذي يؤمن بألوهية المسيح - على هذا المفهوم - إلا وجها واحدا من « اللّه » وهو وجه « الابن » أو أقنوم الابن . .

ولهذا فإنه يحدّق دائما فى هذا الوجه ، ويتعامل معه ، دون أن يكون للوجهين الآخرين حساب أو تقدير ، فى مجال الشعور والوجدان ، وإن كان لهما فى مجال البحث والدرس حساب وتقدير عند من لهم قدرة على البحث والدرس ! إن « المسيح » الذي يمثل أقنوم « الابن » فى « اللّه » هو وحده الذي يتعامل معه أتباع المسيح . . فهو اللّه المسيح ! وهو اللّه الابن ! أما « بقية » اللّه ، أو الجوانب الأخرى من اللّه ، فهى شىء وراء هذا الحساب ، وهذا التقدير ! ! والشعور الذي يقوم فى كيان « المؤمن » باللّه على هذا الوجه ، شعور يتسلط عليه إحساس منه ، بإيثار بعض « اللّه » على بعض ، وأن اللّه أبعاضا . . هذا التصور ، لا يمكن أن يتخلّص من الإحساس به أي مؤمن باللّه المسيح ، ولو حاول ذلك وأجهد نفسه فى المحاولة ! فالمؤمن باللّه المسيح ، إنما يعنيه من اللّه هذا الوجه المطل عليه فى شخص المسيح ، وهو أقنوم « الابن » الذي تجسد اللّه به فى هذا الجسد !

ألم نقل إن الحلّ الذي أريد به إيجاد تسوية لألوهية « المسيح » قد أضاف إلى المشكلة مشكلات ، وزاد عقدها عقدا ؟

وبلى ! فإن القول بأن المسيح هو « اللّه » . . كلّ اللّه . . بجميع صفاته وأقانيمه ، وتعيّناته.

هذا القول أقرب إلى العقل من القول بأن « المسيح » هو اللّه متجسدا فى أقنوم « الابن » دون الأقنومين الآخرين اللذين يقال إنهما للّه ، وهما الأب وروح القدس ! إن القول بتجسد « اللّه » فى أقنوم الابن ، الذي منه كان المسيح ، ثم القول بأن المسيح هو اللّه. يجعل المسيح ذا صور ثلاث : إنسانا ، وإلها وبعض إله .

وهذه الصور الثلاث تتخايل دائما - مجتمعة ومتفرقة - فى عينى من يعتقد فى ألوهية المسيح . . فكلما ذكر المرء « المسيح » وقعت فى تصوره هذه الصور الثلاث . . تجتمع ، وتتفرق ، ويختلط بعضها ببعض ، فتتشكل منها صور وأشكال . . !

العقل . . والمسيح الإنسان :

الوجه الإنسانى فى المسيح ، هو أبرز هذه الوجوه الثلاثة ، التي تتخايل منه ، لمن ينظر إليه على اعتبار أنه « اللّه » « مصمتا » مجملا ، أو اللّه « مفككا » مفصلا . !

(109/220)

فالمسيح الإنسان قد رآه الناس رأى العين ، وقد وصفه الواصفون وصف رؤية وعيان . .

فهو حقيقة ماثلة فى عين من يؤمنون بألوهيته . . فضلا عن الذين لا يؤمنون به إلها ! ! وقد استجاب المؤمنون بالمسيح الإله ، لهذا المعطيات التي أعطاها الشهود الحسّى لهم منه ، فتمثلوه ـ وهو اللّه ـ حاضرا معهم فى جسده ، الذي رأوه رؤية بصرية ، أو خبرية . .

فصوروه . وصنعوا له التماثيل ، وليدا ، ومصلوبا ، وصاعدا إلى السماء . بعد قيامته من الأموات ! إن المسيح الإنسان هو الذي يملأ قلوب المؤمنين بأنه هو اللّه ، وإنهم ـ مهما جهدوا ـ لن يستطيعوا أن يتمثلوا اللّه فى حال من الأحوال ، إلا فى صورة المسيح الإنسان الذي رأوه فى صوره المختلفة التي تمثلوها له ، وصوروه ، أو مثلوه عليها ! ولهذا فقد غلبت صورة المسيح الإنسان على كلّ تصور للّه ، ولهذا أيضا كانت صورة « المسيح » الإنسان فى عينى ، وفى قلب كل مؤمن بأنه « اللّه » .

ونسأل :

وماذا لو استقام المسيح على وجه واحد . . فكان إنسانا لم يخالطه شىء من الألوهية ، أو كان إلها لم تشبه شائبة من البشرية ؟ إن أعدل صورة للإنسان هو أن يكون إنسانا فى كل شىء . . فى ظاهر أمره وباطنه جميعا .

فأعضاؤه ، وحواسّه ، إذا خرج منها شىء عن حدود البشرية ، ومألوفها . .

فسد أمره ، واضطرب وجوده بين الناس ! وانظر كيف يكون حال إنسان له رجل واحدة

بدل اثنتين ، أو كان له أربع عيون بدلا من عينين ، أو أن عينيه ركبتا فوق رأسه ، أو أن حاسة بصره كانت أشبه بالمجهر ، أو أن حاسة سمعه كانت كمكبرات الأصوات . . أ ترى مثل هذا الإنسان يهنؤه طعام ، أو يستقيم له أمر ؟

(110/220)

وقل مثل هذا فى كيانه الداخلى . . فى عواطفه ونوازعه ، وفى أفكاره وخواطره . . إنه إن خرج فى شىء من ذلك عن حدود البشرية ، فى أعلا ذراها ، أو أدنى مستوياتها ، تعس وشقى ! إن الغراب الذي يلبس جلد الطاووس . . ليس غرابا ، وليس طاووسا . . بل ليس من عالم الطير إطلاقا ! والمسيح - صلوات اللّه وسلامه عليه - تحدّث سيرته عن إنسان كرم فى الإنسانية غرسه ، وطاب ثمره ، فكان غرّة فى جبينها ، ودرة فى تاجها ، ونجما لامعا فى سمائها ، ومصباحا هاديا فى أرضها . . هيهات أن تلد الأمهات من يدانيه ، نبلا ، وطهرا ، واستقامة وعفّة . . إلا من كان من الصفوة المتخيّرة من رسل اللّه وأنبيائه ! فالمسيح - الإنسان - أمل من آمال الإنسانية ، ومنزع من منازعها ، وحلم من أحلامها . . قد ظفرت به حقيقة واقعة ، فرأت فيه الإنسان كيف يستعلى على شهواته ، وكيف يقهر هواه ، وكيف يبلغ به خلقه فى العالم الأرضى ما لا تبلغ الملائكة فى

عالمها العلوي ! وإنه لكسب عظيم للإنسانية أن يكون « المسيح » الإنسان واحدا منها ، إذ به وبمن شابهه أو داناه ، من الأنبياء ، والحكماء ، والقادة ، والمصلحين - تثقل موازين الإنسانية ، ويرتفع قدرها ، ويستقيم خطوها ، وتثبت أقدامها على طريق الحق ، والخير ، والسلام ! وانظر كيف يكون حال الإنسانية من الجدب والعقم ، فى خلقها ، وفى تفكيرها ، لو أن هؤلاء العباقرة ، وأولئك الرءوس الشوامخ الذين تلدهم الحياة بين الحين والحين - أضيفوا إلى عالم غير عالم البشر ، فكانوا من الجن ، أو الملائكة ، أو الآلهة . . أو أي خلق آخر مما يكبر فى صدور الناس ؟

(111/220)

إن هذه الفتوح العظيمة التي حققتها الإنسانية على هذه الأرض ، فى ميادين العلم والفنّ ، وما أخرج العلم والفن من ثمرات عمرت بها الحياة ، وقامت بها تلك الحضارة التي تملأ وجوه الأرض ، حياة وعمرانا - هذه الفتوح العظيمة هى من صنع الإنسان ، ومن وحي العباقرة والملهمين من الناس ! فلو أن الإنسانية لم تلد هؤلاء العباقرة والملهمين من أبنائها ، لظلت تحبو فى طفولتها ، وتعيش فى هذا المستوي الطفولىّ ، الذي لا يرتفع بها كثيرا عن مرتبة الحيوان ! وحول الإنسانية ، وفى محيطها قوى غيبية لا حدّ لقدرتها ، ولا نفاد لحولها

وقوتها . . كالجن والملائكة مثلا . . ومع هذا فإن الإنسان لم يفد منها شيئا ، فى صراعه مع الحياة ، ولا فى غزواته لكشف أسرارها ! .

ولقد تتعلق عيون الناس وآمالهم قرونا وأجيالا طويلة بهذه القوى الغيبية تريد عونها ومساندتها ، فى الإمساك بسفينتها المضطربة بين متلاطم الأمواج . .

ولكن الذي كان يطلع على الإنسانية دائما ، هو واحد من أبنائها ، يستجيب لندائها ، ويحقق ما اتجهت إليه أنظارها ، وتفتحت له آمالها . .

ولو ارتفع المسيح إلى مرتبة الألوهية ، وخرج من حساب الإنسانية ، لخفّ ميزان النّاس ، ولحرموا هذا الخير الكثير الذي يجدونه فى تلك الكلمات المشرقة المسعدة ، التي تطلع عليهم من فم إنسان ، ومن قلب إنسان ، ومن تفكير إنسان . . . ثم لمّا نزعت بهم نازعة إلى تمثّل سيرته ، واقتفاء أثره ، إلا إذا حسبوه فى سجلّ الإنسانية ، وعدوّه إنسانا من الناس . . أما إذا أضيف إلى الآلهة ، وحسب فى عدادها ، فلا يقع فى نفس إنسان أن يتشبه به ، أو يحذو حذوه . . فذاك إله ، وهذا إنسان . . وأين الإنسان من الإله ؟ لذلك طريق ولهذا طريق ! .

(112/220)

والأمر أكثر من هذا خسارة على الإنسانية وتفويتا لما يرجى لها من خير . . لو أن « المسيح » كان هو « اللّه » الذي يؤمن به المؤمنون ، ويتعبّد له المتعبّدون ! وانظر كيف يكون هذا الحساب ! إنّ « اللّه » الذي يؤمن به المؤمنون . . أزلىّ أبدى . !

فهو هو لم يتغيّر ولم يتبدّل ، ولن يتغيّر أو يتبدل ، ولم يزد ولم ينقص ، ولن يزيد ولن ينقص ! و « المسيح » الذي ظهر فى فترة ما ، لأعين الناس الذين رأوه ، ليس إلا « اللّه » الأزلى الأبدى . . على ما يؤمن المؤمنون بألوهيته . .

وظهور اللّه فى هذا « الجسد » لم يغيّر من ذات اللّه شيئا !

فاللّه هو اللّه ـ فى جسد المسيح ، وفى غير جسد المسيح . . أو فى أي جسد آخر . . بشرى ، أو غير بشرى ! .

وإذن فليس هنا « اللّه » و « المسيح » . .

وإذن ـ أيضا ـ فلا ذات إلا ذات واحدة ، تمثّل الألوهية ، هى :

اللّه أو المسيح ! .

فاللّه ـ كما قلنا ـ ذات واحدة ، لم ولن تتبدل أو تتغيّر ، ولم ولن تزيد أو تنقص ، وهذا هو ما يقول به أتباع المسيح . . كما يقول به المؤمنون باللّه .

فالقول بألوهية المسيح ، وبأنه اللّه ، قول لا يدخل منه على الألوهية شىء ، فلا يضيف إلى ذات اللّه بهاء ، ولا جلالا ، بل إن العكس هو الصحيح ، إذ نزل بقدر اللّه ، وعفّر ذاته

بتراب الأرض ، وعرض وجهه للبصق والصّفع ، وأقام جسده على الصليب مشدودا ، تدقّ يداه وقدماه بالمسامير ، ويستسقى فيسقى المرّ المذاب ، ويصرخ صرخات ضارعة مستيئسة ، ولا راحم ، ولا مجيب ! وتعالى اللّه عند ذلك علوّا كبيرا .

(113/220)

إن « اللّه » المسيح ، قد كشف فى هذه الأحوال عن إله لا حول له ولا قوة ، يصارع الخطيئة التي غرسها بيده فى كيان الإنسان . . (ونعم غرسها بيده ، إذ كان الشيطان هو الذي ساقه إليها ، أو ساقها إليه ، والشيطان من صنعة يد اللّه ، بلا شك) ثم يحتال اللّه لذلك ، فلا تسعفه الحيل إلا بأن يتخلّق فى رحم امرأة ، ويولد منها ، ويرضع من ثديها ، حتى يشبّ ويكون رجلا ، فيتخذ له تلاميذ وأتباعا ، يدعوهم إلى ما يدعوهم إليه . . ثم ينتهى أمره إلى الموت صلبا ، ليكون بهذا الموت ذبيحة ، لغفران الخطيئة التي أخطأها آدم فى عصيانه أمر اللّه ! .

أرأيت أعجب من هذا العجب ! إنسان يخطىء فى حق اللّه ، ويخرج عن طاعته . . فلا يعاقبه اللّه ، ولا يأخذه بجريرته ! ولو وقف الأمر عند هذا الحد ، لكان مفهوما مقبولا . . إنسان أخطأ ، ورب غفور رحيم ! ولكن الذي لا يفهم ، ولا يقبل ، هو أن يجىء اللّه ،

لكى يغفر جريمة هذا الإنسان ، فيربّى نفسه فى حجر الإنسانية ، ثم إذا أصبح « حملا » صالحا للذبح ، ذبح نفسه ، ليكون كفارة لهذا الذنب الذي ارتكبه فى حقه عبد من عبيده ! وندع هذا الحساب المغلوط ، شكلا وموضوعا . . لمن يقيم خلله ، إن كان فى الناس من يحسن البناء على خواء ، ويقيم صرحا فى الهواء .

ونسأل : أين « المسيح » الإنسان ؟

أين ذلك الوجه المشرق الوضيء الذي طالع فيه الناس سمات الإنسانية ، فى نبلها ، وطهرها ، وعفتها ، ورحمتها ، وحكمتها ؟ أين ذلك الإنسان الذي عاش فى الناس فآنس وحشتهم ، وفتح لهم طرقا مستقيمة إلى معالم الخير ، والنور ، والسلام ؟

إنه لا وجود له فى عالم الناس . . !

إنه لم يكن إلا « اللّه » . . ولم تكن تلك الفترة التي رآه الناس فيها فى صورة إنسان - إلا حلما من تلك الأحلام المسعدة ، التي يصحون بعدها على الواقع الذي يعيشون فيه ! هكذا هو فى زى الإله الذي ألبسوه إياه .

إن المسيح « اللّه » . . لا حساب له في عالم الناس . !

وإنها لخسارة فادحة محققة للإنسانية ، إذ تفتقد المسيح إنسانا ، حين تراه إلها . .

ثم تتطلع إليه مقام الألوهية ، فلا ترى له وجودا . . لأنه عاش على الأرض وصلب ، ودفن فى الأرض . . وأن من كان هذا شأنه ، فلن يعود إلى مقام الألوهية أبدا ، على فرض أنه

كان الإله ، وكان اللّه رب العالمين . .

إن مخايل الإنسانية وصفاتها ، ومشخصاتها لن تفارقه بحال ، ولن تزايل أنظار الناظرين إليه ، والمؤمنين به على تلك الصفة . .

أما اللّه سبحانه وتعالى ، فهو اللّه الذي تنزّه عن التجسد والتشكل .

اللّه وحده . . لا شريك له ! اللّه فى عظمته وجلاله . . قبل المسيح . . وبعد المسيح !

اللّه الذي آمن به آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وجميع أنبياء اللّه ، ورسله ، ومن استجاب لهم ، وسلك سبيلهم ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 4 صـ 115.87 ﴾

(114/220)

قوله تعالى ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا الذي سلف كله سؤالاً وجواباً وإخباراً حمد الله تعالى وثناء عليه بما هو أهله بالتنزيه له والاعتراف بحقه والشهادة له بعلم الخفايا والقدرة والحكمة وغير ذلك من صفات

الجلال والجمال ، وكان هذا السؤال يفهم إرادة التعذيب للمسؤول عنهم مشيراً إلى الشفاعة فيهم على وجه الحمد لله سبحانه وتعالى والثناء الجميل عليه لأن العذاب ولو للمطيع عدل ، والعفو عن المعاصي بأيّ ذنب كان فضل مطلقاً ، وغفران الشرك ليس ممتنعاً بالذات ، قال : ﴿ إن تعذبهم ﴾ أي القائلين بهذا القول ﴿ فإنهم عبادك ﴾ أي فأنت جدير بأن ترحمهم ولا اعتراض عليك في عذابهم لأن كل حكمك عدل ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ أي تمح ذنوبهم عيناً وأثراً ﴿ فإنك أنت ﴾ أي خاصة أنت ﴿ العزيز ﴾ فلا أحد يعترض عليك ولا ينسبك إلى وهن ﴿ الحكيم ﴾ فلا تفعل شيئاً إلا في أعلى درج الإحكام ، لا قدرة لأحد على تعقيبه ولا الاعتراض على شيء منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 576 ﴾

فصل

قال الفخر :

معنى الآية ظاهر ، وفيه سؤال : وهو أنه كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ والله لا يغفر الشرك .

(115/220)

والجواب عنه من وجوه : الأول : أنه تعالى لما قال لعيسى عليه السلام : ﴿ أأنت قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] علم أن قوماً من النصارى حكوا هذا الكلام عنه ، والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافراً بل يكون مذنباً حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز ، فلهذا المعنى : طلب المغفرة من الله تعالى ، والثاني : أنه يجوز على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزُّهّاد والعُبّاد النار ، لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه ، فذكر عيسى هذا الكلام ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله ، وترك التعرض والاعتراض بالكلية ، ولذلك ختم الكلام بقوله ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ يعني أنت قادر على ما تريد ، حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك ، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية ، وقوله إن الله لا يغفر الشرك فنقول : غفرانه جائز عندنا ، وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا : لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب ، وليس في إسقاطه على الله مضرة ، فوجب أن يكون حسناً بل دلّ الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع ، فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجوداً في شرع عيسى عليه السلام .

الوجه الثالث : في الجواب أن القوم قالوا هذا الكفر فعيسى عليه السلام جوّز أن يكون بعضهم قد تاب عنه ، فقال : ﴿ إن تعذبهم ﴾ علمت أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم بسبب أنهم عبادك ، وأنت قد حكمت على كل من كفر من عبادك

بالعقوبة ، وإن تغفر لهم علمت أنهم تابوا عن الكفر ، وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة .

(116/220)

الوجه الرابع : أنا ذكرنا أن من الناس من قال : إن قول الله تعالى لعيسى ﴿ أَءنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين مِن دُونِ الله ﴾ [المائدة : 116] إنما كان عند رفعه إلى السماء لا في يوم القيامة ، وعلى هذا القول فالجواب سهل لأن قوله ﴿ إِن تُعَذّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ يعني إن توفيتهم على هذا الكفر وعذبتهم فإنهم عبادك فلك ذاك ، وان أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضاً ذاك ، وعلى هذا التقدير فلا إشكال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 113.114 ﴾

وقال السمرقندى :

فإن قيل : وكيف سأل المغفرة للكفار .

قيل له : لأن عيسى علم أن بعضهم قد تاب ورجع عن ذلك .

فقال : ﴿ إِن تُعَذّبْهُمْ ﴾ يعني : الذين ماتوا على الكفر ، فإنهم عبادك وأنت القادر عليهم ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يعني : الذين أسلموا ورجعوا عن ذلك .

وقال بعضهم : احتمل أنه لم يكن في كتابه ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء : 116] فلهذا المعنى دعا لهم ، ولكن التأويل الأول أحسن .

ويقال : ﴿ إِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يعني : لكذبهم الذي قالوا عليّ خاصة ، لا لشركهم .

وهذا التأويل ليس بسديد ، والأول أحسن .

وروي عن أبي ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ هذه الآية ذات ليلة ، فردّدها حتى أصبح : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية وقال بعضهم : في الآية تقديم وتأخير ومعناه : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ فإنهم عبادك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه قاله على وجه الاستعطاف لهم والرأفة بهم كما يستعطف العبد سيده .

والثاني : أنه قاله على وجه التسليم لأمر ربه والاستجارة من عذابه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ قال الحسن ، وأبو العالية : إِن تعذبهم ، فبإقامتهم على كفرهم ، وإِن تغفر لهم ، فبتوبة كانت منهم .

وقال الزجاج : علم عيسى أن منهم من آمن ، ومنهم من أقام على الكفر ، فقال في جملتهم : ﴿ إِن تعذبهم ﴾ أي : إِن تعذب من كفر منهم فإنهم عبادك ، وأنت العادل فيهم ، لأنك قد أوضحت لهم الحق ، فكفروا ، وإِن تغفر لهم ، أي : وإِن تغفر لمن أقلع منهم ، وآمَن ، فذلك تفضّل منك ، لأنه قد كان لك أن لا تغفر لهم بعد عظيم فريتهم ، وأنت في مغفرتك لهم عزيز ، لا يمتنع عليك ما تريد ، حكيم في ذلك .

وقال ابن الأنباري : معنى الكلام : لا ينبغي لأحدٍ أن يعترض عليك ، فإن عذبتهم ، فلا اعتراض عليك ، وإِن غفرت لهم – ولست فاعلاً إِذا ماتوا على الكفر – فلا اعتراض عليك .

وقال غيره : العفو لا ينقص عزّك ، ولا يخرج من حكمك .

وقد روى أبو ذر قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام ليلةٍ بآيةٍ يردّدِها : ﴿ إِن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإِن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل إخباراً عن عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم ﴾ يعني إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة بأن تميتهم على كفرهم ﴿ فإنهم عبادك ﴾ لا يقدرون على دفع ضر نزل بهم ولا جلب نفع لأنفسهم وأنت العادل فيهم لأنك أوضحت لهم طريق الحق فرجعوا عنه وكفروا ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ يعني لمن تاب من كفره منهم بأن تهديه إلى الإيمان فإن ذلك بفضلك ورحمتك ﴿ فإنك أنت العزيز ﴾ يعني في الانتقام ممن تريد الانتقام منه لا يمتنع عليك ما تريده ﴿ الحكيم ﴾ في أفعالك كلها وهذا التفسير إنما يصح على قول السدي لأنه قال كان سؤال الله عز وجل لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء قبل يوم القيامة .

(118/220)

أما على قول جمهور المفسرين إن هذا السؤال إنما يقع يوم القيامة ففي قوله ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ إشكال وهو أنه يليق بعيسى عليه السلام طلب المغفرة لهم مع علمه بأن الله تعالى لا يغفر لمن يموت على الشرك والجواب عن هذا الأشكال من وجوه

أحدها أنه ليس هذا على طريق المغفرة ولو كان كذلك لقال فإنك أنت الغفور الرحيم ولكنه على تسليم الأمر إلى الله وتفويضه إلى مراده فيهم لأنه العزيز في ملكه الحكيم في فعله ويجوز في حكمته وسعة مغفرته ورحمته أن يغفر للكفار ، لكنه تعالى أخبر أنه لا يفعل ذلك بقوله ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ الوجه الثاني : قيل معناه أن تعذبهم يعني أقامتهم على كفرهم إلى الموت وإن تغفر لهم يعني لمن آمن منهم وتاب ورجع عن كفره ، الوجه الثالث : قال ابن الأنباري : لما قال الله لعيسى ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ لم يقع لعيسى إلا أن النصارى حكت عنه الكذب لأنه لم يقل ذلك وقول الكذب ذنب فيجوز أن يسأل له المغفرة والله أعلم بمراده وأسراره كتابه (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ﴾ الآية وقول عيسى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي فبكى فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فاسأله ما يبكيك ، فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حتى أصبح بآية والآية ﴿ إن تعذبهم

فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أخرجه النسائي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(119/220)

وقال البيضاوى :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه ، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك . ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ فلا عجز ولا استقباح فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب ، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم ، فإن عذبت فعدل وإن غفرت ففضل . وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد والتعليق بإن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 384 . 385 ﴾

وقال ابن عجيبة :

وقال التفتازاني : ذكر المغفرة ، يوُهم أن الفاصلة : ﴿ الغفور الرحيم ﴾ ، لكن يُعرف بعد التأمل أن الواجب هو العزيز الحكيم ؛ لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد

يرد عليه حكمه ، وهو العزيز ، أي : الغالب ، ثم وجب أن يوصف بالحكمة على سبيل الاحتراس ؛ لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 94 ﴾

(120/220)

وقال أبو حيان :

﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ قال الزمخشري : ﴿ فإنهم عبادك ﴾ والذين عذبتهم جاحدين لآياتك ، مكذبين لأنبيائك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز القوي على الثواب والعقاب الحكيم الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب .

(فإن قلت) : المغفرة لا تكون للكفار ، فكيف قال : ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ ؟ (قلت) : ما قال : إنك تغفر لهم ولكنه بنى الكلام على أن يقال : إن عذبتهم عدلت لأنهم أحقاء بالعذاب ، وإن غفرت لهم مع كفرهم ، لم تعدم في المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول ، بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن .

وهذا من الزمخشري ميل إلى مذاهب أهل السنة فإن غفران الكفر جائز عندهم وعند

جمهور البصريين من المعتزلة عقلاً ، قالوا : لأن العقاب حق لله على الذنب وفي إسقاطه منفعة ، وليس في إسقاطه على الله مضرة ، فوجب أن يكون حسناً ودل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع ، فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجوداً في شرع عيسى عليه السلام ، انتهى كلام جمهور البصريين من المعتزلة .

وقال أهل السنة : مقصود عيسى تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وترك الاعتراض بالكلية ، ولذلك ختم الكلام بقوله : ﴿ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي : قادر على ما تريد في كل ما تفعل لا اعتراض عليك .

وقيل لما قال لعيسى : ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ الآية .

علم أن قوماً من النصارى حكوا هذا الكلام عنه والحاكي هذا الكفر لا يكون كافراً بل ، مذنباً حيث كذب وغفران الذنب جائز فلهذا قال : ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ .

وقيل : كان عند عيسى أنهم أحدثوا المعاصي وعملوا بعده بما لم يأمرهم به إلا أنهم على عمود دينه ، فقال : ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ ما أحدثوا بعدي من المعاصي وهذا يتوجه على قول من قال : إن قول الله له ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ كان وقت الرفع ، لأنه قال ذلك وهم أحياء لا يدري ما يموتون عليه .

وقيل : الضمير في تعذبهم عائد على من مات كافراً وفي ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ عائد على من تاب منهم قبل الموت .

وقيل : قال ذلك على وجه الاستعطاف لهم والرأفة بهم ، مع علمه بأن الكفار لا يغفر لهم ولهذا لم يقل لأنهم عصوك ؟ انتهى وهذا فيه بعد لأن الاستعطاف لا يحسن إلا لمن يرجى له العفو والتخفيف ، والكفار لا يرجى لهم ذلك والذي أختاره من هذه الأقوال أن قوله تعالى ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس ﴾ قول قد صدر ، ومعنى يعطفه على ما صدر ومضى ، ومجيئه بإذ التي هي ظرف لما مضى ويقال التي هي حقيقة في الماضي فجميع ما جاء في هذه الآيات من إذ قال هو محمول على أصل وضعه ، وإذا كان كذلك فقول عيسى ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ فعبر بالسبب عن المسبب لأنه معلوم أن الغفران مرتب على التوبة وإذا كان هذا القول في غير وقت الآخرة ، كانوا في معرض أن يرد فيهم التعذيب أو المغفرة الناشئة عن التوبة ، وظاهر قوله ﴿ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ إنه جواب الشرط والمعنى فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده ، الحكيم فيما تفعله تضل من تشاء وتهدي من تشاء ، وقرأت جماعة فإنك أنت الغفور الرحيم على ما يقتضيه قوله ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ قال عياض بن موسى : وليست من المصحف .

وقال أبو بكر بن الأنباري : وقد طعن على القرآن من قال : إن قوله : ﴿ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ لا يناسب قوله ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ لأن المناسب فإنك أنت الغفور الرحيم .

(122/220)

والجواب : أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله تعالى ومتى نقل إلى ما قال هذا الطاعن ضعف معناه ، فإنه ينفرد الغفور الرحيم بالشرط الثاني ولا يكون له بالشرط الأول تعلق وهو ما أنزله الله تعالى وأجمع على قراءته المسلمون معذوق بالشرطين كلاهما أولهما وآخرهما ، إذ تلخيصه إن تعذبهم فأنت عزيز حكيم وإن تغفر لهم فأنت العزيز الحكيم في الأمرين كلاهما من التعذيب والغفران ، فكان العزيز الحكيم أليق بهذا المكان لعمومه ، وأنه يجمع الشرطين ولم يصلح الغفور الرحيم أن يحتمل ما احتمله العزيز الحكيم ؛ انتهى .

وأما قول من ذهب إلى أن في الكلام تقديماً وتأخير تقديره إن تعذبهم فإنك أنت العزيز وإن تغفر لهم فإنهم عبادك ، فليس بشيء وهو قول من اجترأ على كتاب الله بغير علم .

روى النسائي عن أبي ذر قال : قام النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أصبح بهذه الآية ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾

فيها سؤالان الأول كيف قال وإن تغفر لهم وهم كفار والكفار لا يغفر لهم ؟ والجواب أن المعنى تسليم الأمر إلى الله ، وأنه إن عذب أو غفر فلا اعتراض عليه ، لأن الخلق عباده ، والمالك يفعل في ملكه ما يشاء ، ولا يلزم من هذا وقوع المغفرة للكفار ، وإنما يقتضي جوازها في حكمة الله تعالى وعزته ، وفرق بين الجواز والوقوع ، وأما على قول من قال : إن هذا الخطاب لعيسى عليه السلام حين رفعه الله إلى السماء ، فلا إشكال ، لأن المعنى إن تغفر لهم بالتوبة ، وكانوا حينئذ أحياء ، وكل حيّ معرض للتوبة ، السؤال الثاني : ما مناسبة قوله : فإنك أنت العزيز الحكيم ، لقوله : وإن تغفر لهم والأليق مع ذكر المغفرة أن لو قيل : فإنك أنت الغفور الرحيم ؟ والجواب من ثلاثة أوجه . الأول : يظهر لي أنه لما قصد التسليم لله والتعظيم له ، كان قوله : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ أليق ، فإن الحكمة تقتضي التسليم له ، والعزة تقتضي التعظيم له ، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد ، ولا يغلبه غيره ، ولا يمتنع عليه شيء أراده ، فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى الله في المغفرة لهم أو

عدم المغفرة ؛ لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته وأيهما فعل فهو جميل لحكمته . الجواب الثاني : قاله شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : إنما لم يقل الغفور الرحيم ؛ لئلا يكون في ذلك تعريض في طلب المغفرة لهم . فاقتصر على التسليم والتفويض دون الطلب . إذ لا تطلب المغفرة للكفار ، وهذا قريب من قولنا . الثالث : حكى شيخنا الخطيب أبو عبد الله بن رشيد عن شيخه إمام البلغاء في وقته حازم بن حازم أنه كان يقف على قوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ويجعل فإنك أنت العزيز استئنافاً وجواب إن في قوله فإنهم عبادك كأنه قال إن تعذبهم وإن تغفر لهم فإنهم عبادك على كل حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 1 صـ 195 ﴾

(124/220)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ شرط ، وجوابه ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ مثله .

روَى النَّسائي عن أبي ذرّ قال : قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية ليلةً حتى أَصبح ، والآية ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ .

واختلف في تأويله فقيل : قاله على وجه الاستعطاف لهم ، والرأفة بهم ، كما يستَعطف السيد لعبده ؛ ولهذا لم يقل : فإنهم عَصَوك .

وقيل : قاله على وجه التسليم لأمره ، والاستجارة من عذابه ، وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر .

وقيل الهاء والميم في ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ .

لمن مات منهم على الكفر ، والهاء والميم في ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ لمن تاب منهم قبل الموت ؛ وهذا حسن .

وأما قول من قال : إن عيسى عليه السلام لم يعلم أن الكافر لا يغفر له فقول مجترىء على كتاب الله عز وجل ؛ لأن الأخبار من الله عز وجل لا تُنْسَخ .

وقيل : كان عند عيسى أنهم أحدثوا معاصي ، وعملوا بعده بما لم يأمرهم به ، إلا أنهم على عَمُود دينه ، فقال : وإن تغفِر لهم ما أحدثوا بعدي من المعاصي .

وقال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ ولم يقل : فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره ، والتفويض لحكمه .

ولو قال : فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شِرْكه وذلك مستحيل ؛ فالتقدير إن تبقِهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذّبهم فإنهم عبادك ، وإن تَهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده ؛ الحكيم

فيما تفعله ؛ تضل من تشاء وتهدي من تشاء .

وقد قرأ جماعة : "فإنك أنت الغفور الرحيم" وليست من المصحف .

(125/220)

ذكره القاضي عِياض في كتاب "الشّفا" وقال أبو بكر الأَنْبَاري : وقد طعن على القرآن من قال إن قوله : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ ليس بمُشاكِل لقوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ؛ لأن الذي يُشاكل المغفرة فإنك أنت الغفور الرحيم والجواب أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله ، ومتى نقل إلى الذي نقله إليه ضَعُف معناه ؛ فإنه ينفرد الغفور الرحيم بالشرط الثاني فلا يكون له بالشرط الأوّل تعلّق ، وهو على ما أنزله الله عز وجل ، واجتمع على قراءته المسلمون مَقْرُونٌ بالشرطين كليهما أوّلهما وآخرهما ؛ إذ تلخيصه إن تعذبهم فإنك أنت عزيز حكيم ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم في الأمرين كليهما من التّعذيب والغفران ، فكان العزيز الحكيم أليق بهذا المكان لعمومه ؛ فإنه يجمع الشرطين ، ولم يصلح الغفور الرحيم إذ لم يحتمل من العموم ما احتمله العزيز الحكيم ، وما شهد بتعظيم الله تعالى وعدله والثناء عليه في الآية كلها والشرطين المذكورين أولى وأثبت معنى في الآية مما يصلح لبعض الكلام دون بعض .

خرّج مسلم من غير طريق عن عبد الله بن عمرو بن العاص : " أنّ النبي صلى الله عليه وسلم تلا قوله عز وجل في إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 36] وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه وقال : "اللهم أمتي" وبكى فقال الله عز وجل : "يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسَلْه ما يُبكيك" فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله : "يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نَسوءك" " وقال بعضهم : في الآية تقديم وتأخير ، ومعناه إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم وإن تغفر لهم فإنهم عبادك ، ووجه الكلام على نسَقِهِ أولى لما بيّناه . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ أي القويُّ القادر على جميع المقدورات ، ومن جملتها الثوابُ والعقاب ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يُريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمةٌ ومصلحة ، فإن المغفرة مستحسَنة لكل مجرم ، فإن عذّبت فعدلٌ ، وإن غفرت ففَضْلٌ ، وعدمُ غفرانِ الشرك إنما هو بمقتضى الوعيد ، فلا امتناعَ فيه لذاته ليمنعَ الترديدُ بالنسبة إلى فرقتين ، والمعنى إن تعذبْهم أي مَنْ كفر منهم ، وإن تغفرْ لهم أي من آمن منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ على معنى إن تعذبهم لم يلحقك بتعذيبهم اعتراض لأنك المالك المطلق لهم ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعله بملكه ، وقيل : على معنى : إن تعذبهم لم يستطع أحد منهم على دفع ذلك عن نفسه لأنهم عبادك الأرقاء في أسر ملكك وماذا تبلغ قدرة العبد في جنب قدرة مالكه ، وقيل : المعنى إن تعذبهم فإنهم يستحقون ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك

وخالفوا أمرك وقالوا ما قالوا ، ونسب ذلك إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وهو بعيد عن النظم ، نعم لا يبعد أن يكون في النظم إشارة إليه .

﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ أي فإن تغفر لهم ما كان منهم لا يلحقك عجز بذلك ولا استقباح فإنك القوي القادر على جميع المقدورات التي من جملتها الثواب والعقاب الحكيم الذي لا يريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمة ، والمغفرة للكافر لم يعدم فيها وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن لأنه أدخل في الكرم وإن كانت العقوبة أحسن في حكم الشرع من جهات أخر ، وعدم المغفرة للكافر بحكم النص والإجماع لا للامتناع الذاتي فيه ليمتنع الترديد والتعليق بإن .

وقد نقل الإمام "أن غفران الشرك عندنا جائز .

وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا : لأن العقاب حق الله تعالى على المذنب (وفي إسقاطه منفعة للمذنب) وليس في إسقاطه على الله سبحانه مضرة" .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي أن معنى الآية إن تعذبهم فتميتهم بنصرانيتهم فيحق عليهم العذاب فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فتخرجهم من النصرانية وتهديهم إلى الإسلام فإنك أنت العزيز الحكيم ، وهذا قول عيسى عليه السلام في الدنيا اه .

ولا يخفى أنه مخالف لما يقتضيه السباق والسياق ، وقيل : الترديد بالنسبة إلى فرقتين ، والمعنى إن تعذبهم أي من كفر منهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم وتعف عمن آمن منهم فإنك الخ وهو بعيد جداً ، وظاهر ما قالوه أنه ليس في قوله سبحانه ﴿ وَإِن تَغْفِرْ ﴾ الخ تعريض بسؤال المغفرة وإنما هو لإظهار قدرته سبحانه وحكمته ، ولذا قال سبحانه ﴿ العزيز الحكيم ﴾ دون الغفور الرحيم مع اقتضاء الظاهر لهما ، وما جاء في الأخبار مما أخرجه أحمد في "المصنف" والنسائي والبيهقي في "سننه" عن أبي ذر قال : "صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ الخ فلما أصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت قال : إني سألت ربي سبحانه الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى من لا يشرك بالله تعالى شيئاً" وما أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في حسن الظن والبيهقي في "الأسماء والصفات" وغيرهم عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما : "أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله سبحانه في إبراهيم عليه السلام

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [إبراهيم : 36] الآية ، وقوله عز وجل في عيسى ابن مريم : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الخ فرفع يديه فقال : اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله جلت رحمته : يا جبرائيل اذهب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقال له : إنا سنقر عينك في أمتك ولا نسوءك" وما أخرجه ابن مردويه عن أبي ذر قال : "قلت للنبي صلى الله عليه وسلم بأبي أنت وأمي يا رسول الله قمت الليلة بآية من القرآن يعني بها هذه الآية ومعك قرآن لو فعل هذا بعضنا تال وجدنا عليه قال : دعوت الله سبحانه لأمتي قال : فماذا أجبت ؟ قال : أجبت بالذي لو اطلع كثير منهم عليه تركوا الصلاة قلت : أفلا أبشر الناس ؟ قال : بلى فقال عمر : يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا ويتكلوا ويدعوا العبادة فناداه أن ارجع فرجع" لا يقوم دليلاً على أن في الآية تعريضاً بطلب المغفرة للكافر إذ لا يبعد منه صلى الله عليه وسلم الدعاء لأمته وطلب الشفاعة لهم بهذا النظم لكن لا على الوجه الذي قصده عيسى عليه السلام منه ، ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم اقتبس ذلك من القرآن مؤدياً به مقصوده الذي أراده وليس ذلك أول اقتباس له عليه الصلاة والسلام فقد صرح بعض العلماء أن دعاء التوجه عند الشافعية من ذلك القبيل والصلاة لا تنافي الدعاء ، وما أخرجه مسلم ومن معه ليس فيه أكثر من أن ما ذكر آثار كأمن شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته فدعا لهم بما دعا

وذلك لا يتوقف على أن في الآية تعريضاً لسؤال المغفرة للكافر ، ثم إن للعلماء في بيان سر ذكر ذينك الاسمين الجليلين في الآية كلاماً طويلاً حيث أشكل وجه مناسبتهما لسياق ما قرنا به حتى حكي عن بعض القراء أنه غيرهما لسخافة عقله فكان يقرأ فإنك أنت الغفور الرحيم إلى أن حبس وضرب سبع درر ، ووقع لبعض الطاعنين في القرآن من الملاحدة أن المناسب

(131/220)

ما وقع في مصحف ابن مسعود فإنك أنت العزيز الغفور كما نقل ذلك ابن الأنباري ، وقد علمت أحد توجيهاتهم لذلك .

وقيل : إن ذكرهما من باب الاحتراس لأن ترك عقاب الجاني قد يكون لعجز في القدرة أو لإهمال ينافي الحكمة فدفع توهم ذلك بذكرهما ، وفي "أمالي العز بن عبد السلام" أن العزيز معناه هنا الذي لا نظير له ، والمعنى وإن تغفر لهم فإنك أنت الذي لا نظير لك في غفرانك وسعة رحمتك ، وأنت أولى من رحم وأجدر من غفر وستر الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا في مستحقه وهم مستحقون ذلك لفضلك وضعفهم ، وهذا ظاهر في أن في الآية تعريضاً بطلب المغفرة ولا أظنك تقول به ، وادعى بعضهم أنهما متعلقان بالشرطين لا بالثاني فقط

وحينئذٍ وجه مناسبتهما لا سترة عليه فإن من له الفعل والترك عزيز حكيم ، وذكر أن هذا أنسب وأدق وأليق بالمقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم ﴾ فوّض أمرهم إلى الله فهو أعلم بما يجازيهم به لأنّ المقام مقام إمساك عن إبداء رغبة لشدّة هول ذلك اليوم ، وغاية ما عرّض به عيسى أنه جوّز المغفرة لهم رحمة منه بهم .

وقوله : ﴿ فإنّك أنت العزيز الحكيم ﴾ ذكر العزيز كناية عن كونه يغفر عن مقدرة ، وذكر الحكيم لمناسبته للتفويض ، أي المحكِم للأمور العالم بما يليق بهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(132/220)

فصل

قال الفخر :

احتج بعض الأصحاب بهذه الآية على شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في حق الفساق قالوا : لأن قول عيسى عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ليس في حق أهل الثواب

لأن التعذيب لا يليق بهم ، وليس أيضاً في حق الكفار لأن قوله ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ لا يليق بهم فدل على أن ذلك ليس إلا في حق الفساق من أهل الإيمان ، وإذا ثبت شفاعة الفساق في حق عيسى عليه السلام ثبت في حق محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى لأنه لا قائل بالفصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 114 ﴾

فصل

قال الفخر :

روى الواحدي رحمه الله أن في مصحف عبد الله [وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم سمعت شيخي ووالدي رحمه الله يقول ﴿ العزيز الحكيم ﴾ ها هنا أولى من الغفور الرحيم ، لأن كونه غفوراً رحيماً يشبه الحالة الموجبة للمغفرة والرحمة لكل محتاج ، وأما العزة والحكمة فهما لا يوجبان المغفرة ، فإن كونه عزيزاً يقتضي أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه لا اعتراض عليه لأحد فإذا كان عزيزاً متعالياً عن جميع جهات الاستحقاق ، ثم حكم بالمغفرة كان الكرم ها هنا أتم مما إذا كان كونه غفوراً رحيماً يوجب المغفرة والرحمة ، فكانت عبارته رحمه الله أن يقول : عز عن الكل .

ثم حكم بالرحمة فكان هذا أكمل .

وقال قوم آخرون : إنه لو قال : فإنك أنت الغفور الرحيم ، أشعر ذلك بكونه شفيعاً لهم ،

فلما قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى ، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 114 ﴾

(133/220)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم " وكذا فى سورة الممتحنة : "واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم " فورد فى هاتين الآيتين وصفه تعالى بهاتين الصفتين المشيرتين إلى العزة والقهر وإنما ورد المطرد فى الكتاب العزيز مهما جرى ذكر المغفرة طلبا أو إخبارا ورود ما به يقوى رجاء السائل ويطمع تعلقا به المتذلل الراغب كقوله تعالى : "إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين " فقوله هنا : "وأنت خير الراحمين " توسل مناسب لما تقدم من طلب المغفرة والرحمة وفى سورة يوسف قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " وفى سورة القصص : "قال رب إنى ظلمت نفسى

فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم " فهذا كله مناسب للطلب وهو كثير فى الكتاب العزيز وجار على ما تمهد وأما وصفه سبحانه بالعزة والملكية والحكمة فإنما يرد حيث يراد معنى الاقتدار والاستيلاء والقهر وإحاطة العلم وإفراده سبحانه بالخلق والأمر والربوبية والتعالى وما يرجع إلى هذا كقوله تعالى : "وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم " وقوله تعالى : "وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض . . .

" ثم قال تعالى : "وهو العزيز الحكيم " وقوله تعالى : "ولله جنود السماوات والأرض . . .

" ثم قال : "وكان الله عزيزا حكيما " وقوله تعالى : "سبح لله ما فى السماوات والأرض . . .

" ثم قال : "وهو العزيز الحكيم " وهذا كثير مطرد حيث يراد معنى القهر والملكية والإحاطة والاقتدار فللسائل أن يسأل عن وجه ورود آيتى المائدة والممتحنة معقبتين بما ذكر ؟

(134/220)

والجواب عن ذلك والله أعلم : يتفصل فى الآيتين : أما آية المائدة فمبنية على التسليم لله سبحانه وأنه المالك للكل يفعل فيهم ما يشاء فلو ورد هنا عقب آية المائدة : "وإن تغفر لهم فأنت الغفور الرحيم " لكان تعريضا بطلب المغفرة ولم يقصد ذلك بلآية وإنما قيل ذلك على لسان عيسى عليه السلام تبريا وتسليما لله سبحانه وليس موضع طلب مغفرة لهم وإنما هو تنصل من حالهم وتسليم لله فيهم قال القرطبى رحمه الله : "لم يقل "الغفور الرحيم لأن مخرجه على التسليم ولأن فى ذكر الغفور تعريضا للسائل والكلام لتسليم الأمرين والحكمة تقتضيهما وكأنه قال : فالمغفرة لا تنقص من عزك ولا تخرج عن حكمتك .

وأما قوله فى سورة الممتحنة : "ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم " فالجواب عندى هنا ان قوله : "إنك أنت العزيز الحكيم " مبنى على قوله : "لا تجعلنا فتنة للذين كفروا " فإن المراد لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيكون سبب فتنتهم فلا تفعل ذلك بنا فأنت القادر على كفهم ونصرنا عليهم فانك العزيز الذى الذى لا معارض لما تريده ولا مانع مما تشاؤه لما كان المؤمنون يعلمون أن ما يصيبهم من مصيبة إنما هى بما كسبت أيديهم سألوا المغفرة من مجترحاتهم وأورد سؤالهم مورد جمل الاعتراض فقدم وهو قوله : "واغفر لنا ربنا " فإن الكلام فى تقدير التقديم والتأخير : ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا إنك أنت العزيز الحكيم واغفر لنا ربنا ، فقد قوله : "واغفر لنا ربنا " أثناء

الكلام إحرازا لآدابهم ومعتقدهم الإيمانى فقد تبين حال المناسبة فى آية العقود وآية الممتحنة بين الآيتين وبين ما أعقبتا به وأنه لا يمكن على ما تقرر سواه والله أعلم بما أراد .

(135/220)

فإن قلت فما جوابك عما ذكر عن بعض المتأخرين من أن جواب قوله تعالى : "وإن تغفر لهم " محذوف أى وإن تغفر لهم فإنهم عبادك ثم عطف عليه قوله : "فإنك أنت العزيز الحكيم " وأن المناسبة إنما تحصل بهذا التقدير ؟ .

قلت : هنا خطأ من وجهين : توجيه المناسبة وتوجيه الإعراب أما المناسبة فقد تبينت على أتم وجه وأما الإعراب فيمتنع تقديره فيه على ما نبينه ، ثم فى هذا المرتكب فساد المعنى إذ ليس الكلام واردا مورد الاستلطاف وقد بين ، وأما امتناع ما اختاره فى الإعراب فمن وجهين : أحدهما التهيئة والقطع وهو متفق علي منافرته إذا أمكنت المندوحة والثانى وهو عاضد لهذا وقاطع فى المسألة وهو أن سيبويه رحمه الله قد نص أن العرب لا تتكلم به الا فى الشعر قال فى باب الجزاء : "وقبح فى الكلام أن تعمل أن أو شئ من حروف الجزاء فى الفعل حتى تجزمه فى اللفظ ثم لا يكون له جواب فيجزم ما قبله ألا ترى أنك تقول : آتيك إن أتيتنى ولا تقول آتيك إن تأتينى الا فى الشعر لأنك أخرت إن وما

عملت فيه فلم تجعل لها جوابا ينجزم بما قبله فهكذا جرى هذا فى كلامهم وقد زاد الإمام بسطا فى الكتاب " فهذا قاطع من سيبويه وقد تقدم قبله ما يحصل فى الكلام من التهيئة والقطع وهو كاف لاتفاق النحويين على قبح التهيئة والقطع ثم قد انضم إلى ذلك من نص سيبويه : ان العرب لا تتكلم بهذا فلا تأتى بكلام قد انجزم فيه الفعل بأداة الشرط ثم لا تأتى بجواب مجزوم فى اللفظ أما إذا أتيت بالفاء فى الجتاب فلا خلاف فى هذا كما فى الآية وعلى ما قاله سيبويه رحمه الله كافة النحويين من متقدميهم ومتأخريهم فوضح خطأ هذا القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 137.139 ﴾

(136/220)

فصل

قال ابن القيم :

قول المسيح عليه السلام ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أحسن من أن يقول وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة وهي كمال القدرة وعن حكمة وهي كمال العلم فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني [لا يكون قادرا حكيما عليما بل لا يكون ذلك إلا عجزا] فأنت لا

تغفر إلا عن قدرة تامة وعلم تام وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها فهذا أحسن من ذكر ﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ في هذا الموضع الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها وقد فاتت فإنه لو قال وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم كان في هذا من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ما ينزه عنه منصب المسيح عليه السلام لا سيما والموقف موقف عظمة وجلال وموقف انتقام ممن جعل لله ولدا واتخذه إلها من دونه فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ولم يقل : فإنك عزيز حكيم لأن المقام استعطاف وتعريض بالدعاء أي إن تغفر لهم وترحمهم بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد ومن المعصية إلى الطاعة كما في الحديث "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" .

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره والله الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 1 صـ 36 . 37 ﴾

(137/220)

وقال أيضا :

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة: 118] وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدا لغيرك فإذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له: لم تعذبهم لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحسانا عبيده لولا فرط عتوهم وإباؤهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب وقد تقدم قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: 116] أي هم عبادك وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة كما تظنه القدرية وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب ثم قال: ﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: 118] ولم يقل الغفور الرحيم وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة بل مقام براءة منهم فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب

عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه ولجهله بمقدار إساءته إليه والكمال: هو مغفرة القادر العالم وهو العزيز الحكيم وكان

(138/220)

ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب وفي بعض الآثار: حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا

وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى كقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ وقوله: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مدارج السالكين جـ 2 صـ 378 . 380 ﴾

وقال فى مفتاح دار السعادة :

وأما قوله ﴿ فإنهم عبادك ﴾ فليس المراد به أنك قادر عليهم مالك لهم وأي مدح في هذا

ولو قلت لشخص أن عذبت فلانا فانك قادر على ذلك أي مدح يكون في ذلك بل في ضمن ذلك الأخبار بغاية العدل وأنه تعالى أن عذبهم فانهم عباده الذين أنعم عليهم بإيجادهم وخلقهم ورزقهم وإحسانه إليهم لا بوسيلة منهم ولا في مقابلة بذل بذلوه بل ابتدأهم بنعمه وفضله فإذا عذبهم بعد ذلك وهم عبيده لم يعذبهم إلا بجرمهم واستحقاقهم وظلمهم فان من أنعم عليهم ابتداء بجلائل النعم كيف يعذبهم بغير استحقاق أعظم النقم

(139/220)

وفيه أيضا أمر آخر ألطف من هذا وهو أن كونهم عباده يقتضي عبادته وحده وتعظيمه واجلاله كما يجل العبد سيده ومالكه الذي لا يصل إليه نفع إلا على يده ولا يدفع عنه ضرا إلا هو فإذا كفروا به أقبح الكفر وأشركوا به أعظم الشرك ونسبوه إلى كل نقيصة مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا كانوا أحق عباده وأولاهم بالعذاب والمعنى هم عبادك الذين أشركوا بك وعدلوا بك وجحدوا حقك فهم عباد مستحقون للعذاب وفيه أمر آخر أيضا لعله ألطف مما قبله وهو أن تعذبهم فانهم عبادك وشأن السيد المحسن المنعم أن يتعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه فإن عذبت هؤلاء وهم عبيدك لا تعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم وإلا فكيف يشقى العبد بسيده وهو مطيع له متبع

لمرضاته فتأمل هذه المعاني ووازن بينها وبين قوله من يقول أن تعذبهم فأنت الملك القادر وهم المملوكون المربوبون وإنما تصرفت في ملكك من غير أن يكون قام بهم سبب العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 2 صـ 109. 110 ﴾

(140/220)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) . اتِّصَالُ هَذِهِ الْآيَاتِ بِمَا قَبْلَهَا جَلِيٌّ ظَاهِرٌ ، وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ) إِلَخْ . وَالْمَعْنَى اذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِلنَّاسِ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ . فَيَسْأَلُهُمْ جَمِيعًا عَمَّا أَجَابَتْهُمْ بِهِ أُمَمُهُمْ ، إِذْ يَقُولُ لِعِيسَى اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِلَخْ ، وَإِذْ يَقُولُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ أَيْ يَسْأَلُهُ : أَقَالُوا هَذَا الْقَوْلَ بِأَمْرٍ مِنْكَ أَمْ هُمْ ، افْتَرَوْهُ وَابْتَدَعُوهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ؟

(141/220)

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : (مِنْ دُونِ اللهِ) كَائِنِينَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْ حَالَ كَوْنِكُمْ مُتَجَاوِزِينَ بِذَلِكَ تَوْحِيدَ اللهِ وَإِفْرَادَهُ بِالْعِبَادَةِ . فَهَذَا التَّعْبِيرُ يَصْدُقُ بِاتِّخَاذِ إِلَهٍ أَوْ أَكْثَرَ مَعَ اللهِ تَعَالَى وَهُوَ الشِّرْكُ ، فَإِنَّ عِبَادَةَ الشِّرْكِ الْمُتَّخَذِ غَيْرُ عِبَادَةِ اللهِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ; سَوَاءٌ اعْتَقَدَ الْمُشْرِكُ أَنَّ هَذَا الْمُتَّخَذَ يَنْفَعُ وَيَضُرُّ بِالِاسْتِقْلَالِ وَهُوَ نَادِرٌ أَوِ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَنْفَعُ وَيَضُرُّ بِإِقْدَارِ اللهِ إِيَّاهُ وَتَفْوِيضِهِ بَعْضَ الْأَمْرِ إِلَيْهِ فِيمَا وَرَاءَ الْأَسْبَابِ ، أَوْ بِالْوَسَاطَةِ عِنْدَ اللهِ ، أَيْ بِحَمْلِهِ تَعَالَى بِمَا لَهُ مِنَ التَّأْثِيرِ وَالْكَرَامَةِ عَلَى النَّفْعِ وَالضَّرِّ ، وَهُوَ

(142/220)

الْأَكْثَرُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ عِنْدَ الْبَعْثَةِ كَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ) (10 : 18) وَقَوْلِهِ : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) (39 : 3) إِلَخْ . وَقَلَّمَا يُوجَدُ فِي مُتَعَلِّمِي الْحَضَرِ مَنْ يَتَّخِذُ إِلَهًا غَيْرَ اللهِ مُتَجَاوِزًا بِعِبَادَتِهِ الْإِيمَانَ بِاللهِ الَّذِي

هُوَ خَالِقُ الْكَوْنِ وَمُدَبِّرُهُ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ الْفِطْرِيَّ الْمَغْرُوسَ فِي غَرَائِزِ الْبَشَرِ هُوَ أَنَّ تَدْبِيرَ الْكَوْنِ كُلِّهِ صَادِرٌ عَنْ قُوَّةٍ غَيْبِيَّةٍ لَا يُدْرِكُ أَحَدٌ كُنْهَهَا ، فَالْمُوَحِّدُونَ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ يَتَوَجَّهُونَ بِعِبَادَاتِهِمُ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ إِلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْغَيْبِيَّةِ وَحْدَهُ ، مُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ هُوَ الْفَاعِلُ الْمُطْلَقُ وَحْدَهُ ، وَإِنْ كَانَ فِعْلٌ يُنْسَبُ إِلَى غَيْرِهِ فَإِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ كَذِبًا ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَهُ بِإِقْدَارِ اللهِ إِيَّاهُ عَلَيْهِ وَتَسْخِيرِهِ لَهُ بِمُقْتَضَى سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ الَّتِي قَامَ بِهَا نِظَامُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ بِمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَالْمُشْرِكُونَ يَتَوَجَّهُونَ تَارَةً إِلَيْهِ وَتَارَةً إِلَى بَعْضِ مَا يَسْتَكْبِرُونَ خَصَائِصَهُ مِنْ خَلْقِهِ ، كَالشَّمْسِ وَالنَّجْمِ ، وَبَعْضِ مَوَالِيدِ الْأَرْضِ ، وَتَارَةً يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِمَا مَعًا فَيَجْعَلُونَ الثَّانِي وَسِيلَةً إِلَى الْأَوَّلِ ، وَمَنْ يَشْعُرُ بِسُلْطَةٍ غَيْبِيَّةٍ تَتَجَلَّى لَهُ فِي بَعْضِ الْخَلْقِ

(143/220)

فَهُوَ يَخْشَى ضَرَّهَا وَيَرْجُو نَفْعَهَا ، وَلَا يَمْتَدُّ نَظَرُ عَقْلِهِ وَلَا شُعُورُ قَلْبِهِ إِلَى سُلْطَةٍ فَوْقَهَا وَلَا يَتَفَكَّرُ فِي خَلْقِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْحَيَوَانِ مِنْهُ إِلَى الْإِنْسَانِ ، فَلَا يُعَدُّ مِنَ الْعُقَلَاءِ الْمُسْتَعِدِّينَ لِفَهْمِ الشَّرَائِعِ وَحَقَائِقِ الدِّينِ ، عَلَى أَنَّهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ اتَّخَذَ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الِاتِّخَاذِ غَيْرُ مُرَادٍ هُنَا ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ شَرَعُوا لِلنَّاسِ عِبَادَةَ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ كَانُوا مِنْ شُعُوبٍ مُرْتَقِيَةٍ حَتَّى فِي وَثَنِيَّتِهَا ، وَلَهَا فَلْسَفَةٌ دَقِيقَةٌ فِيهَا ، وَهُمُ الْيُونَانُ وَالرُّومَانُ ،

وَبَعْضُ الْيَهُودِ الْمُطَّلِعِينَ عَلَى تِلْكَ الْفَلْسَفَةِ جِدَّ الِاطِّلَاعِ . وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ اتِّخَاذَ إِلَهٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُرَادُ بِهِ عِبَادَةُ غَيْرِهِ سَوَاءٌ كَانَتْ خَالِصَةً لِغَيْرِهِ أَوْ شَرِكَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ، وَلَوْ بِدُعَاءِ غَيْرِهِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ لِيَكُونَ وَاسِطَةً عِنْدَهُ (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) (98 : 5) .

أَمَّا اتِّخَاذُهُمُ الْمَسِيحَ إِلَهًا فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَأَمَّا أُمُّهُ فَعِبَادَتُهَا كَانَتْ مُتَّفَقًا عَلَيْهَا فِي الْكَنَائِسِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ بَعْدَ قُسْطَنْطِينَ ، ثُمَّ أَنْكَرَتْ عِبَادَتَهَا فِرْقَةُ الْبُرُوتِسْتَانْتِ الَّتِي حَدَثَتْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ بِعِدَّةِ قُرُونٍ .

إِنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ الَّتِي يُوَجِّهُهَا النَّصَارَى إِلَى مَرْيَمَ وَالِدَةِ الْمَسِيحِ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) مِنْهَا

(144/220)

مَا هُوَ

صَلَاةٌ ذَاتُ دُعَاءٍ وَثَنَاءٍ وَاسْتِغَاثَةٍ وَاسْتِشْفَاعٍ ، وَمِنْهَا صِيَامٌ يُنْسَبُ إِلَيْهَا ، وَيُسَمَّى بِاسْمِهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُقْرَنُ بِالْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ لِذِكْرِهَا وَلِصُوَرِهَا وَتَمَاثِيلِهَا ، وَاعْتِقَادِ السُّلْطَةِ الْغَيْبِيَّةِ لَهَا الَّتِي يُمْكِنُهَا بِهَا فِي اعْتِقَادِهِمْ أَنْ تَنْفَعَ وَتَضُرَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِنَفْسِهَا أَوْ بِوَسَاطَةِ ابْنِهَا ، وَقَدْ صَرَّحُوا بِوُجُوبِ الْعِبَادَةِ لَهَا ، وَلَكِنْ لَا نَعْرِفُ عَنْ فِرْقَةٍ مِنْ فِرَقِهِمْ إِطْلَاقَ

كَلِمَةِ (إِلَهٍ) عَلَيْهَا ، بَلْ يُسَمُّونَهَا (وَالِدَةَ الْإِلَهِ) وَيُصَرِّحُ بَعْضُ فِرَقِهِمْ بِأَنَّ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازٌ ، وَالْقُرْآنُ يَقُولُ هُنَا : إِنَّهُمُ اتَّخَذُوهَا وَابْنَهَا إِلَهَيْنِ ، وَالِاتِّخَاذُ غَيْرُ التَّسْمِيَةِ ، فَهُوَ يُصَدِّقُ بِالْعِبَادَةِ وَهِيَ وَاقِعَةٌ قَطْعًا ، وَبَيَّنَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ قَالُوا : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) (5 : 17 ، 72) وَذَلِكَ مَعْنًى آخَرُ . وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي أَهْلِ الْكِتَابِ : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) (9 : 31) أَنَّهُمُ اتَّبَعُوهُمْ فِيمَا يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ لَا أَنَّهُمْ سَمَّوْهُمْ أَرْبَابًا .

(145/220)

وَأَوَّلُ نَصٍّ صَرِيحٍ رَأَيْتُهُ فِي عِبَادَةِ النَّصَارَى لِمَرْيَمَ عِبَادَةً حَقِيقِيَّةً مَا فِي كِتَابِ (السَّوَاعِي) مِنْ كُتُبِ الرُّومِ الْأُرْثُوذُكْسِ ، وَقَدِ اطَّلَعْتُ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ فِي دَيْرٍ يُسَمَّى (بِدَيْرِ الْبَلَمَنْدِ) وَأَنَا فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ بِمَعَاهِدِ التَّعْلِيمِ . وَطَوَائِفُ الْكَاثُولِيكِ يُصَرِّحُونَ بِذَلِكَ وَيُفَاخِرُونَ بِهِ ، وَقَدْ زَيَّنَ الْجُزْوِيتِ فِي بَيْرُوتَ الْعَدَدَ التَّاسِعَ مِنَ السَّنَةِ السَّابِعَةِ لِمَجَلَّتِهِمُ (الْمَشْرِقِ) بِصُورَتِهَا وَبِالنُّقُوشِ الْمُلَوَّنَةِ إِذْ جَعَلُوهُ تَذْكَارًا لِمُرُورِ خَمْسِينَ سَنَةً عَلَى إِعْلَانِ الْبَابَا بِيُوسَ التَّاسِعِ أَنَّ مَرْيَمَ الْبَتُولَ " حَبِلَ بِهَا بِلَا دَنَسِ الْخَطِيَّةِ " وَأَثْبَتُوا فِي هَذَا الْعَدَدِ عِبَادَةَ الْكَنَائِسِ الشَّرْقِيَّةِ لِمَرْيَمَ كَالْكَنَائِسِ الْغَرْبِيَّةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ (الْأَبِ لُوِيس شِيخُو) فِي مَقَالَةٍ لَهُ فِيهِ عَنِ

الْكَنَائِسِ الشَّرْقِيَّةِ : (إِنَّ تَعَبُّدَ الْكَنِيسَةِ الْأَرْمَنِيَّةِ لِلْبَتُولِ الطَّاهِرَةِ أُمِّ اللهِ لَأَمْرٌ مَشْهُورٌ " وَقَوْلُهُ " قَدِ امْتَازَتِ الْكَنِيسَةُ الْقِبْطِيَّةُ بِعِبَادَتِهَا لِلْبَتُولِ الْمَغْبُوطَةِ أُمِّ اللهِ " .

مَنْ يَسْمَعُ أَوْ يَقْرَأُ سُؤَالَ اللهِ تَعَالَى لِعِيسَى عَنْ عِبَادَةِ النَّصَارَى .

(146/220)

لَهُ وَلِأُمِّهِ تَتُوقُ نَفْسُهُ إِلَى مَعْرِفَةِ جَوَابِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَتَوَجَّهُ إِلَى السُّؤَالِ وَالِاسْتِفْهَامِ ; فَلِذَلِكَ جَاءَ كَأَمْثَالِهِ بِأُسْلُوبِ الِاسْتِئْنَافِ (قَالَ سُبْحَانَكَ) بَدَأَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَوَابَهُ بِتَنْزِيهِ إِلَهِهِ وَرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ إِلَهٌ ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ : إِنَّ التَّنْزِيهَ هُنَا إِنَّمَا هُوَ عَنْ ذَلِكَ الْقَوْلِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ ، فَذَهَبَ إِلَى أَنَّ مَعْنَى الْجُمْلَةِ : أُنَزِّهُكَ تَنْزِيهًا لَائِقًا مِنْ أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ ، أَوْ مِنْ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ فِي حَقِّكَ ، وَظَنَّ أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ سِيَاقُ النَّظْمِ ، وَسَتَعْلَمُ مَا فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ ، وَأَنَّ مَا اخْتَرْنَاهُ هُوَ الْحَقُّ .

وَكَلِمَةُ " سُبْحَانَ " قِيلَ : إِنَّهَا عَلَمٌ لِلتَّسْبِيحِ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا مَصْدَرٌ لِـ (سَبَحَ) الثُّلَاثِيِّ كَالْغُفْرَانِ ، وَاسْتُعْمِلَتْ مُضَافَةً بِاطِّرَادٍ إِلَّا مَا شَذَّ فِي الشِّعْرِ ، وَالتَّسْبِيحُ تَنْزِيهُ اللهِ تَعَالَى عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَهُوَ مِنْ مَادَّةِ السَّبَحِ وَالسِّبَاحَةِ وَهِيَ الذَّهَابُ السَّرِيعُ الْبَعِيدُ فِي الْبَحْرِ أَوِ الْبَرِّ ، وَمِنَ الثَّانِي سَبَحَ الْخَيْلُ وَقَالُوا : فَرَسٌ سَبُوحٌ (كَصَبُورٍ) وَمِثْلُهُ التَّقْدِيسُ مِنَ الْقُدْسِ وَهُوَ الذَّهَابُ

الْبَعِيدُ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ التَّسْبِيحُ وَالتَّقْدِيسُ فِي التَّنْزِيهِ قَالُوا : إِنَّ التَّسْبِيحَ يَدُلُّ عَلَى الْإِبْعَادِ وَلَكِنْ عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَسُوءٍ ; وَلِذَا خُصَّ بِتَنْزِيهِ اللَّهِ

(147/220)

تَعَالَى ، وَيُقَابِلُهُ اللَّعْنُ ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْإِبْعَادِ وَلَكِنْ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْإِبْعَادِ وَالْبُعْدِ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي مَقَامِ الشَّرِّ (أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) (11 : 60) ، (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (14 : 3) قَالَ الرَّاغِبُ : وَالتَّسْبِيحُ تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَصْلُهُ الْمَرُّ السَّرِيعُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَجُعِلَ ذَلِكَ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ ، كَمَا جُعِلَ الْإِبْعَادُ فِي الشَّرِّ ، فَقِيلَ : أَبْعَدَهُ اللَّهُ ، وَجُعِلَ التَّسْبِيحُ عَامًّا فِي الْعِبَادَاتِ قَوْلًا كَانَ أَوْ فِعْلًا أَوْ نِيَّةً اهـ ، ثُمَّ أَوْرَدَ الشَّوَاهِدَ مِنَ الْآيَاتِ عَلَى إِطْلَاقِ التَّسْبِيحِ بِمَعْنَى الصَّلَاةِ وَبِمَعْنَى الدَّالَّةِ عَلَى التَّنْزِيهِ كَتَسْبِيحِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا . وَالْمُرَادُ بِتَسْبِيحِ النِّيَّةِ الْعِلْمُ وَالِاعْتِقَادُ ، وَفِي كَلِمَةِ " سُبْحَانَكَ " وَمِثْلِهَا " سُبْحَانَ اللَّهِ " مُبَالَغَةٌ فِي هَذَا التَّنْزِيهِ أَيُّ مُبَالَغَةٍ ، إِذْ تَدُلُّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ بِمَادَّتِهَا الدَّالَّةِ بِمَأْخَذِهَا الِاشْتِقَاقِيِّ عَلَى الْبُعْدِ وَالْإِيغَالِ وَالسَّبَحِ الطَّوِيلِ فِي هَذَا الْبَحْرِ الْمَدِيدِ الطَّوِيلِ ، وَبِصِيغَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ وَهِيَ التَّسْبِيحُ الَّتِي هِيَ مُسَمَّى اسْمِ الْمَصْدَرِ (سُبْحَانَ) وَمَدْلُولُهُ فَإِنَّ التَّفْعِيلَ يَدُلُّ عَلَى التَّكْثِيرِ ، ثُمَّ بِالْعُدُولِ عَنْ هَذِهِ الصِّيغَةِ الَّتِي هِيَ مَصْدَرٌ إِلَى الِاسْمِ الَّذِي

جُعِلَ عَلَمًا عَلَيْهَا عَلَى قَوْلِ ابْنِ جِنِّي فَإِنَّ اسْمَ الْمَصْدَرِ يَدُلُّ عَلَى الْمَصْدَرِ وَمِنَ الْمَصْدَرِ وَثَبَاتِهِ حَقِيقَتُهُ؛ لِأَنَّ مَدْلُولَهُ هُوَ لَفْظُ

(148/220)

الْمُصَدْرِ فَانْتِقَالُ الذِّهْنِ مِنْهُ إِلَى الْمَصْدَرِ وَمِنَ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَعْنَى بِمَنْزِلَةِ تَكْرَارِ لَفْظِ الْمَصْدَرِ ، بَلْ هُوَ أَبْلَغُ وَأَدَلُّ عَلَى إِرَادَةِ الْحَقِيقَةِ دُونَ التَّجَوُّزِ ، وَلَمْ أَرَ أَحَدًا سَبَقَنِي إِلَى بَيَانِ هَذَا عَلَى كَوْنِهِ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ عِنْدَ مَنْ تَأَمَّلَهُ (وَمِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ الْخَفَاءُ) .

قُلْنَا : إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَأَ جَوَابَهُ بِتَنْزِيهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ إِلَهٌ ، فَأَثْبَتَ بِهَذَا إِنَّهُ عَلَى عِلْمٍ يَقِينِيٍّ ضَرُورِيٍّ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَنْ أَنْ يُشَارِكَ فِي أُلُوهِيَّتِهِ ، وَانْتَقَلَ مِنْ هَذَا إِلَى تَبْرِئَةِ نَفْسِهِ الْعَالِمَةِ بِالْحَقِّ عَنْ قَوْلِ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ، فَقَالَ : (مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ) أَيْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِي وَلَا مِمَّا يَصِحُّ وُقُوعُهُ مِنِّي أَنْ أَقُولَ قَوْلًا لَيْسَ لِي أَدْنَى حَقٍّ أَنْ أَقُولَهُ؛ لِأَنَّكَ أَيَّدْتَنِي بِالْعِصْمَةِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْبَاطِلِ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا أَبْلَغُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنْ نَفْيِ ذَلِكَ الْقَوْلِ ، وَإِنْكَارِهِ إِنْكَارًا مُجَرَّدًا؛ لِأَنَّ نَفْيَ الشَّأْنِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْفِعْلِ نَفْيًا مُؤَيَّدًا بِالدَّلِيلِ ، فَهُوَ بِتَنْزِيهِ اللهِ تَعَالَى

(149/220)

أَوَّلًا أَثْبَتَ أَنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ الَّذِي سُئِلَ عَنْهُ تَمْهِيدًا لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى مَنِ اتَّخَذُوهُ وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ قَوْلٌ بَاطِلٌ لَيْسَ فِيهِ شَائِبَةٌ مِنَ الْحَقِّ ، ثُمَّ قَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلَا مِمَّا يَقَعُ مِنْ مِثْلِهِ أَنْ يَقُولَ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ، فَنَتِيجَةُ الْمُقَدِّمَتَيْنِ الثَّابِتَتَيْنِ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ الْقَوْلَ .

(150/220)

ثُمَّ أَكَّدَ هَذِهِ النَّتِيجَةَ بِحُجَّةٍ أُخْرَى قَاطِعَةٍ عَلَى سَبِيلِ التَّرَقِّي مِنَ الْبُرْهَانِ الْأَدْنَى الرَّاجِعِ إِلَى نَفْسِهِ وَهُوَ عِصْمَتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، إِلَى الْبُرْهَانِ الْأَعْلَى الرَّاجِعِ إِلَى رَبِّهِ الْعَلَّامِ ، فَقَالَ : (إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) أَيْ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ قَدْ وَقَعَ مِنِّي فَرْضًا فَقَدْ عَلِمْتَهُ ؛ لِأَنَّ عِلْمَكَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، تَعْلَمُ مَا أُسِرُّهُ وَأُخْفِيهِ فِي نَفْسِي ، فَكَيْفَ لَا تَعْلَمُ مَا أَظْهَرْتُهُ وَدَعَوْتُ إِلَيْهِ فَعَلِمَهُ مِنِّي غَيْرِي ؟ وَلَا أَعْلَمُ مَا تُخْفِيهِ مِنْ عُلُومِكَ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي لَا تَهْدِينِي إِلَيْهَا بِنَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ كَسْبِيٍّ ، إِلَّا مَا تُظْهِرُنِي عَلَيْهِ بِوَحْيٍ وَهْبِيٍّ . قِيلَ : إِنَّ إِضَافَةَ كَلِمَةِ " نَفْسٍ " إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ بَابِ الْمُشَاكَلَةِ ، عَلَى أَنَّهَا وَرَدَتْ بِغَيْرِ مُقَابِلٍ يُسَوِّغُ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (6 : 54) ، (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ) (3 : 28 ، 30) وَقِيلَ : إِنَّهَا بِمَعْنَى الذَّاتِ وَالْمُهِمُّ فَهْمُ الْمَعْنَى مِنْ

هَذَا الْإِطْلَاقِ . وَتَنْزِيهُ اللهِ تَعَالَى عَنْ مُشَابَهَةِ نَفْسِهِ لِأَنْفُسِ خَلْقِهِ مَعْرُوفٌ بِالنَّقْلِ وَالْعَقْلِ ، فَاسْتِشْكَالُ إِطْلَاقِ الْوَحْيِ لِلْأَسْمَاءِ مَعَ هَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْجَهْلِ (إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) أَيْ إِنَّكَ أَنْتَ الْمُحِيطُ بِالْعُلُومِ الْغَيْبِيَّةِ وَحْدَكَ؛ لِأَنَّ عِلْمَكَ الْمُحِيطَ بِكُلِّ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ عِلْمٌ ذَاتِيٌّ لَا مُنْتَزَعٌ مِنْ صُوَرِ

(151/220)

الْمَعْلُومَاتِ ، وَلَا مُسْتَفَادٌ بِتَلْقِينٍ وَلَا بِنَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ ، وَإِنَّمَا عِلْمُ غَيْرِكَ مِنْكَ لَا مِنْ ذَاتِهِ ، فَإِمَّا أَنْ يَنَالَهُ بِمَا آتَيْتَهُ مِنَ الْمَشَاعِرِ أَوِ الْعَقْلِ ، وَإِمَّا أَنْ يَتَلَقَّاهُ مِمَّا تَهَبُهُ مِنَ الْإِلْهَامِ وَالْوَحْيِ ، أَيْ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنِّي لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ الْقَوْلَ . وَشَرْطُ " إِنْ " لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ ، ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ تَنْزِيهِ رَبِّهِ ، وَتَبْرِئَةِ نَفْسِهِ ، وَإِقَامَةِ الْبُرْهَانَيْنِ عَلَى بَرَاءَتِهِ ، بَيَّنَ حَقِيقَةَ مَا قَالَهُ لِقَوْمِهِ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَكُونُ تَامَّةً كَامِلَةً ، بِحَيْثُ تَظْهَرُ لَهُمْ هُنَالِكَ حُجَّةُ اللهِ الْبَالِغَةُ ، إِلَّا بِإِثْبَاتِ مَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالتَّوْحِيدِ بَعْدَ نَفْيِ ضِدِّهِ ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِ السَّامِعِ لِمَا سَبَقَ مِنَ النَّفْيِ أَنْ يَسْأَلَ عَمَّا قَالَهُ فِي مَوْضُوعِهِ وَلِذَلِكَ قَالَ : (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)

(152/220)

فَهَذَا قَوْلٌ يَتَضَمَّنُ إِنْكَارَ أَنْ يَكُونَ أَمَرَهُمْ بِاتِّخَاذِهِ وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ وَإِثْبَاتَ ضِدِّهِ ، أَيْ مَا قُلْتُ لَهُمْ فِي شَأْنِ الْإِيمَانِ وَأَصْلِ الدِّينِ وَأَسَاسِهِ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَلَا يُعْتَدُّ بِغَيْرِهِ دُونَهُ ، إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِالْتِزَامِهِ اعْتِقَادًا وَتَبْلِيغًا وَهُوَ الْأَمْرُ بِعِبَادَتِكَ وَحْدَكَ مَعَ التَّصْرِيحِ بِأَنَّكَ رَبِّي وَرَبُّهُمْ ، وَأَنِّي عَبْدٌ مِنْ عِبَادِكَ مِثْلُهُمْ ، أَيْ إِلَّا أَنَّكَ خَصَصْتَنِي بِالرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ . فَقَوْلُهُ : (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) تَفْسِيرٌ لِلْمَأْمُورِ بِهِ ، وَإِنَّمَا

قَالَ : (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ) وَلَمْ يَقُلْ : مَا أَمَرْتُهُمْ إِلَّا بِمَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، أَدَبًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرْعَاةً لِمَا وَرَدَ فِي السُّؤَالِ (أَأَنْتَ قُلْتَ) .

(153/220)

(وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ) أَيْ وَكُنْتُ قَائِمًا عَلَيْهِمْ أُرَاقِبُهُمْ وَأَشْهَدُ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَيَفْعَلُونَ فَأُقِرُّ الْحَقَّ وَأُنْكِرُ الْبَاطِلَ مُدَّةَ دَوَامِ وُجُودِي بَيْنَهُمْ (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أَيْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي إِلَيْكَ كُنْتَ أَنْتَ الْمُرَاقِبَ لَهُمْ وَحْدَكَ إِذِ انْتَهَتْ مُدَّةُ رِسَالَتِي فِيهِمْ وَمُرَاقَبَتِي لَهُمْ وَشَهَادَتِي عَلَيْهِمْ ، فَلَا أَشْهَدُ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُمْ وَأَنَا لَسْتُ فِيهِمْ ، وَأَنْتَ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ وَشَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، بِمَا أَنَّكَ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

فِي مُلْكِكَ ، وَأَنْتَ أَكْبَرُ شَهَادَةً مِمَّنْ تَجْعَلُهُمْ شُهَدَاءَ مِنْ خَلْقِكَ (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) (6 : 19) .

وَقَدْ مَرَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا يُزَكِّي تَبْرِئَةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِنَفْسِهِ وَيُؤَيِّدُ قَوْلَهُ هُنَا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) (5 : 72) فَجُمْلَةُ " وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ " إِلَخْ . حَالِيَّةٌ ، أَيْ قَالُوا قَوْلَهُمْ ذَلِكَ وَالْحَالُ أَنَّ الْمَسِيحَ أَمَرَهُمْ بِضِدِّهِ ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ .

(154/220)

وَفِي أَنَاجِيلِهِمْ مِنْ بَقَايَا التَّوْحِيدِ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ مَا رَوَاهُ يُوحَنَّا فِي إِنْجِيلِهِ عَنْهُ وَهُوَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ (7 : 3 وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهُ الْحَقِيقِيُّ وَحْدَكَ ، وَيَسُوعُ الْمَسِيحُ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ) وَفِي إِنْجِيلِ بَرْنَابَا مِنْ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ وَحْيًا صَحِيحًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى رَسُولِهِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

(155/220)

وَلَمَّا كَانَ الْمُرَادُ مِنَ السُّؤَالِ الَّذِي أُجِيبَ عَنْهُ بِهَذَا الْجَوَابِ هُوَ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ الَّتِي يَظْهَرُ بِهَا عَدْلُ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا يُجْزَى بِهِ مَنِ اتَّخَذَ عِيسَى وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ وَغَيْرَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ فَوَّضَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْرَ الْجَزَاءِ إِلَيْهِ تَعَالَى بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ شَهَادَتُهُ تَعَالَى وَصِفَاتُهُ فَقَالَ : (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أَيْ إِنْ تُعَذِّبْ أُولَئِكَ النَّاسَ الَّذِينَ أَرْسَلْتَنِي إِلَيْهِمْ فَبَلَّغْتُهُمْ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ تَوْحِيدِكَ وَعِبَادَتِكَ وَحْدَكَ ، فَضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ ، وَقَالُوا مَا لَمْ أَقُلْهُ لَهُمْ ، وَاهْتَدَى مَنِ اهْتَدَى مِنْهُمْ فَلَمْ يَعْبُدُوا مَعَكَ أَحَدًا مِنْ دُونِكَ ، فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَأَنْتَ رَبُّهُمُ الْأَوْلَى وَالْأَحَقُّ بِأَمْرِهِمْ وَلَسْتُ أَنَا وَلَا غَيْرِي مِنَ الْخَلْقِ بِأَرْحَمَ بِهِمْ ، وَلَا بِأَعْلَمَ بِحَالِهِمْ ، وَإِنَّمَا تَجْزِيهِمْ بِحَسَبِ عِلْمِكَ بِظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ ، فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْمُؤْمِنِ الْمُوَحِّدِ ، وَالْمُشْرِكِ الْمُثَلِّثِ ، وَالطَّائِعِ الصَّالِحِ ، وَالْعَاصِي الْفَاسِقِ ، وَالْمُقِرِّ لِلْكُفْرِ وَالْفِسْقِ وَالْمُنْكِرِ لَهُمَا ، وَأَنْتَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، وَلَا تَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَالْمُرَادُ إِذًا إِنْ تُعَذِّبْ فَإِنَّمَا تُعَذِّبُ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّعْذِيبَ مِنْهُمْ ، وَلَا يَمْنَعُ إِرَادَةُ هَذَا الْمَعْنَى إِطْلَاقَ الضَّمِيرِ الرَّاجِعِ إِلَى جُمْلَتِهِمْ ، فَإِنَّهُ ضَمِيرُ

الْجِنْسِ الَّذِي يَصْدُقُ بِبَعْضِ الْأَفْرَادِ وَهُوَ لَمْ يَرِدْ بِصِيغَةٍ مِنْ صِيَغِ الْعُمُومِ وَلِذَلِكَ أَطْلَقَهُ فِي الْمُقَابِلِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : (وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) إلخ ، أَيْ وَإِنْ تَغْفِرْ فَإِنَّمَا تَغْفِرُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَغْفِرَةَ مِنْهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ، أَيِ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ، الْحَكِيمُ فِي جَمِيعِ تَصَرُّفِهِ وَصُنْعِهِ ، فَيَضَعُ كُلَّ حُكْمٍ وَجَزَاءٍ وَفِعْلٍ فِي مَوْضِعِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِ الْعَدْلِ ، وَمَوْضِعِ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ .

وَهَذَا التَّوْجِيهُ أَظْهَرُ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ : إِنْ تُعَذِّبْ مَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تُعَذِّبْ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، فَإِنَّ هَذَا تَعْيِينٌ لِمَنْ يُعَذِّبُهُ وَمَنْ يَغْفِرُ لَهُ يُنَافِيهِ إِطْلَاقُ ضَمِيرِ الْجِنْسِ فِي مَقَامِ التَّفْوِيضِ الَّذِي مَهَّدَ لَهُ بِالْبَرَاءَةِ مِمَّا قَالُوهُ فِيهِ وَفِي أُمِّهِ . مُخَالِفًا لِمَا بَلَّغَهُمْ عَنْ رَبِّهِ ، وَإِثْبَاتِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَالشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَقَعُ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لِرَبِّهِ : إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مُدَّةَ وُجُودِي بَيْنَهُمْ وَبَعْدَ وَفَاتِي وَأَنْتَ الشَّهِيدُ عَلَيْهِمْ وَلَا شَهَادَةَ أَكْبَرُ وَلَا أَصْدَقُ مِنْ شَهَادَتِكَ ، فَمَهْمَا تُوقِعْهُ فِيهِمْ مِنْ عَذَابٍ فَلَا دَافِعَ لَهُ مِنْ دُونِكَ ؛ إِذْ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ

(157/220)

أَرْحَمُ مِنْكَ بِعِبَادِكَ فَيَرْحَمُهُمْ أَوْ يَسْأَلُكَ أَنْ تَرْحَمَهُمْ وَمَهْمَا تَمْنَحْهُمْ مِنْ مَغْفِرَةٍ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ حِرْمَانَهُمْ مِنْهَا بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ؛ لِأَنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الَّذِي يَغْلِبُ وَلَا يُغْلَبُ ، وَيَمْنَعُ مَنْ شَاءَ مَا

شَاءَ وَلَا يُمْنَعُ ، وَلَا بِتَحْوِيلِكَ عَنْ إِرَادَتِكَ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْحَكِيمُ الَّذِي تَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ، فَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ غَيْرِكَ أَنْ يُرْجِعَكَ عَنْهُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ غَيْرَهُ أَوْلَى مِنْهُ . فَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ الِاسْتِدْرَاكَ أَوِ الِافْتِيَاتَ عَلَيْكَ ؟ .

(158/220)

فَهَذَا بَيَانُ مَا يَقْتَضِيهِ التَّفْوِيضُ الْمُطْلَقُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، بَلْ أَقُولُ : إِنَّ فِي جَزَاءِ الشَّرْطِ الْأَوَّلِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ تَعْذِيبَ مَنْ يَظُنُّ الْمَخْلُوقُونَ أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الْمَغْفِرَةَ إِنْ وَقَعَ مِنَ اللهِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا عَدْلًا ؛ لِأَنَّهُمْ عِبَادُ اللهِ الْمُضَافُونَ إِلَيْهِ ، وَمِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْإِضَافَةِ أَنْ تُفِيدَهُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَرَحْمَةً ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) (43 : 68) (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (39 : 53) وَأَمْثَالُهُمَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي أُضِيفَ فِيهَا لَفْظُ عِبَادٍ إِلَى اللهِ ، فَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبُهُ الَّذِي خَفِيَ عَنِ الْمَخْلُوقِينَ عَظِيمًا ، فَالْأَدَبُ التَّفْوِيضُ وَفِي جَزَاءِ الشَّرْطِ الثَّانِي إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَغْفِرَةَ إِنْ أَصَابَتْ مَنْ يَظُنُّ الْمَخْلُوقُونَ إِنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ فَلَا تَكُونُ مِنَ اللهِ تَعَالَى إِلَّا لِغَايَةٍ اقْتَضَتْهَا عِزَّةُ الْأُلُوهِيَّةِ ، وَحِكْمَةُ الرُّبُوبِيَّةِ فَلَا عِبْرَةَ بِالظَّوَاهِرِ الَّتِي تَبْدُو لِلْمَخْلُوقِينَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِ

عَلَّامِ الْغُيُوبِ وَحِكْمَتِهِ وَلَا سِيَّمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يُفَوَّضَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَبِهَذَا تَنْجَلِي نُكْتَةُ اخْتِيَارِ (الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) هُنَا عَلَى (الْغَفُورِ الرَّحِيمِ) عَلَى

(159/220)

خِلَافِ مَا يَظْهَرُ بَادِئَ الرَّأْيِ مِنْ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ فِي مُرَاعَاةِ مُنَاسَبَةِ الْمَقَامِ فِي قَرْنِ الْأَسْمَاءِ الْإِلَهِيَّةِ بِالْأَفْعَالِ وَالْأَحْكَامِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (5 : 38 ، 39)

فَذِكْرُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِاسْمَيِ اللَّهِ (الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) فِي جَزَاءِ شَرْطِيَّةِ الْمَغْفِرَةِ كَذِكْرِهِ لِكَلِمَةِ (عِبَادِكَ) فِي جَزَاءِ شَرْطِيَّةِ التَّعْذِيبِ ، كُلٌّ مِنْهُمَا وَقَعَ فِي مَحَلِّهِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْبَلَاغَةُ فِي مَقَامِ التَّفْوِيضِ فَكَانَ حُجَّةً لَهُ وَلَوْ أَرَادَ بِكَلَامِهِ الشَّفَاعَةَ وَالِاسْتِرْحَامَ لَعَكَسَ ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ . وَلَوْلَا هَذَا لَكَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا اعْتِرَاضًا عَلَى الرَّبِّ ، أَوْ تَعْرِيضًا بِحُكْمِهِ جَلَّ وَعَزَّ ، وَحَاشَا لِعِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ .

(160/220)

وَلَمَّا غَفَلَ مَنْ غَفَلَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَنْ هَذَا مَعَ تَصْرِيحِ بَعْضِهِمْ بِأَنَّ الْكَلَامَ فِي تَفْوِيضِ الْأَمْرِ إِلَى اللهِ تَعَالَى اسْتَشْكَلُوا الْعِبَارَةَ ، وَحَارُوا فِيمَا فَهِمُوهُ مِنْ دَلَالَتِهَا عَلَى جَوَازِ غُفْرَانِ الشِّرْكِ ، وَطَفِقُوا يَتَلَمَّسُونَ النُّكْتَةَ لِتَرْتِيبِ الْغُفْرَانِ عَلَى صِفَتَيِ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ ، دُونَ مَا يَتَبَادَرُ مِنْ تَرْتِيبِهِ عَلَى صِفَتَيِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَاسْتَنْجَدُوا مَذَاهِبَهُمُ الْكَلَامِيَّةَ فِي ذَلِكَ فَأَنْجَدَتْ مُفَسِّرِي الْأَشْعَرِيَّةِ بِمَا اسْتَطَالُوا بِهِ عَلَى مُفَسِّرِي الْمُعْتَزِلَةِ فَقَالُوا : إِنَّ الْمَعْنَى إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبِيدُكَ ، وَالْمَالِكُ يَتَصَرَّفُ بِعَبْدِهِ كَمَا يَشَاءُ ، فَلَا يُسْأَلُ وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ عَذَّبَ أَكْمَلَهُمْ إِيمَانًا وَإِسْلَامًا وَإِحْسَانًا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْمُرَادَ فَإِنَّهُمْ عَبِيدُكَ الْأَرِقَّاءُ إِلَى أَسْرِ مُلْكِكَ ، الضُّعَفَاءُ الْعَاجِزُونَ عَنِ الِامْتِنَاعِ مِنْ عِقَابِكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ مَا كَانَ مِنْ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْقَوِيُّ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ ، الْحَكِيمُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمَغْفِرَةَ مُسْتَحْسَنَةٌ لِكُلِّ مُجْرِمٍ : قَالَهُ أَبُو السُّعُودِ : وَقَالَ الْآلُوسِيُّ : وَالْمَغْفِرَةُ لِلْكَافِرِ لَمْ يُعْدَمْ فِيهَا وَجْهُ حِكْمَةٍ لِأَنَّ الْمَغْفِرَةَ حَسَنَةٌ لِكُلِّ مُجْرِمٍ فِي الْمَعْقُولِ ، بَلْ مَتَى كَانَ الْمُجْرِمُ أَعْظَمَ جُرْمًا كَانَ الْعَفْوُ عَنْهُ أَحْسَنَ لِأَنَّهُ أَدْخَلُ فِي الْكَرَمِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْعُقُوبَةُ أَحْسَنَ فِي حُكْمِ الشَّرْعِ مِنْ

جِهَاتٍ أُخَرَ اهـ . وَظَاهِرُ هَذَا أَنَّ حُكْمَ الشَّرْعِ فِي هَذَا الْأَصْلِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ عَلَى خِلَافِ الْمَعْقُولِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ .

وَأَجَابَ الرَّازِيُّ عَنِ الْإِشْكَالِ الْمَوْهُومِ بِأَرْبَعَةِ وُجُوهٍ :

(الْأَوَّلِ) أَنَّ مَا ذُكِرَ فِي سُؤَالِ اللهِ لِعِيسَى يُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ قَوْمًا مِنَ النَّصَارَى حَكَوْا عَنْهُ مَا هُوَ كُفْرٌ وَحَاكِي الْكُفْرِ لَيْسَ بِكَافِرٍ بَلْ مُذْنِبٌ بِكَذِبِهِ فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ فَلِهَذَا طَلَبَ الْمَغْفِرَةَ لَهُ .

وَهَذَا وَجْهٌ أَمْلَاهُ عَلَيْهِ مَا اعْتَادَ مِنَ الْجَدَلِ فِي الْأَلْفَاظِ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْ حَالِ مَنْ حَكَى اللهُ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْقَوْلَ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَدَّعُونَ أُلُوهِيَّةَ الْمَسِيحِ ، وَيَعْبُدُونَهُ وَيَعْبُدُونَ أُمَّهُ ، وَعَنْ حَالِ مَنْ حَكَوْهُمْ عَنْهُ ، وَهُوَ إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ إِلَيْهِمْ ، وَحِكَايَةُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ عَنِ الرَّسُولِ كُفْرٌ فِي نَفْسِهِ ، وَيَسْتَلْزِمُ إِمَّا الْكُفْرَ بِالرَّسُولِ وَإِمَّا الْأَخْذَ بِمَا حَكَى عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ .

(الثَّانِي) قَوْلُهُ " إِنَّهُ يَجُوزُ عَلَى مَذْهَبِنَا مِنَ اللهِ تَعَالَى أَنْ يُدْخِلَ الْكُفَّارَ الْجَنَّةَ ، وَأَنْ يُدْخِلَ الزُّهَّادَ وَالْعُبَّادَ النَّارَ ، لِأَنَّ الْمُلْكَ مُلْكُهُ وَلَا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ ، فَذَكَرَ عِيسَى هَذَا

الْكَلَامُ وَمَقْصُودُهُ مِنْهُ تَفْوِيضُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ وَتَرْكُ التَّعَرُّضِ وَالِاعْتِرَاضِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَلِذَا خَتَمَ الْكَلَامَ بِقَوْلِهِ : (فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) يَعْنِي أَنْتَ قَادِرٌ عَلَى مَا تُرِيدُ ، حَكِيمٌ فِي كُلِّ مَا تَفْعَلُ ، لَا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ عَلَيْكَ ، فَمَنْ أَنَا وَالْخَوْضُ فِي أَحْوَالِ الرُّبُوبِيَّةِ . وَقَوْلُهُ : " إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ " فَنَقُولُ : إِنَّ غُفْرَانَهُ جَائِزٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَ جُمْهُورِ الْبَصْرِيِّينَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ ، قَالُوا : لِأَنَّ الْعِقَابَ حَقُّ اللهِ عَلَى الْمُذْنِبِ وَفِي إِسْقَاطِهِ مَنْفَعَةٌ لِلْمُذْنِبِ ، وَلَيْسَ فِي إِسْقَاطِهِ عَلَى اللهِ مَضَرَّةٌ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ حَسَنًا . بَلْ دَلَّ الدَّلِيلُ السَّمْعِيُّ فِي شَرْعِنَا عَلَى أَنَّهُ لَا يَقَعُ ، فَلَعَلَّ هَذَا الدَّلِيلَ السَّمْعِيَّ مَا كَانَ مَوْجُودًا فِي شَرْعِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتَهَى بِحُرُوفِهِ .

وَهَذَا الْوَجْهُ مُخَالِفٌ لِلْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ وَصِحَاحِ الْأَحَادِيثِ مِنْ عِدَّةِ وُجُوهٍ لَا حَاجَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى تَفْصِيلِهَا وَتَرْجِيحِ مَذْهَبِ السَّلَفِ وَأَهْلِ الْأَثَرِ بِهَا عَلَى مَذْهَبِ الْأَشَاعِرَةِ فِي مَوْضُوعِ إِثْبَاتِ الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ لِلَّهِ تَعَالَى لَا عَلَيْهِ وَتَنْزِيهِهِ عَنْ ضِدِّهِمَا ، وَلَا إِلَى بَيَانِ كَوْنِ الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَتَحَقَّقَا فِيمَنْ لَا فَرْقَ فِي أَفْعَالِهِ بَيْنَ الْأَضْدَادِ ، بِحَيْثُ يَكُونُ الضِّدَّانِ عِنْدَهُ فِي الْحُسْنِ وَالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ سَوَاءً .

(163/220)

وَلَكِنَّنَا نَقُولُ : إنَّ حَاصِلَ هَذَا الْوَجْهِ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُجِيزُ وَيَسْتَحْسِنُ الْغُفْرَانَ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِهِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ حَسَنٌ مَعْقُولٌ فِي نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ مَانِعٌ يَمْنَعُ مِنْهُ فِي شَرْعِهِ . وَهَذَا يُخَالِفُ نَصَّ قَوْلِهِ تَعَالَى الْمُتَقَدِّمِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) ثُمَّ إنَّ هَذَا الْوَجْهَ يَقْتَضِي اخْتِلَافَ دِينِ اللَّهِ الْوَاحِدِ ، فِي هَذَا الْأَصْلِ مِنْ أُصُولِ الْعَقَائِدِ ، وَأَنْ تَكُونَ مِلَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبْعَدَ مِنْ مِلَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَمَغْفِرَتُهُ وَالنُّصُوصُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا أَجْدَرُ مِنْ غَيْرِهَا بِهَذِهِ السَّعَةِ ، وَمِنْهَا مَسْأَلَةُ غُفْرَانِ الشِّرْكِ لَوْ كَانَ مِمَّا يَشْرَعُهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ؛ لِأَنَّ مَنْ جَاءَ بِهَا هُوَ الَّذِي خَاطَبَهُ

اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (21 : 107) وَقَالَ فِيهِ إنَّهُ يَضَعُ عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ .

(164/220)

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّالِثُ مِنْ أَجْوِبَتِهِ فَمَبْنِيٌّ عَلَى جَوَازِ تَوْبَةِ مَنْ قَالُوا ذَلِكَ الْكُفْرَ ، وَهُوَ بَدِيهِيُّ الْبُطْلَانِ ، وَلَوْ صَحَّ لَقِيلَ : إنَّ الْمَعْهُودَ فِي الْقُرْآنِ أَنْ تُقْرَنَ الْمَغْفِرَةُ لِلتَّائِبِينَ بِذِكْرِ الْمَغْفِرَةِ

وَالرَّحْمَةِ لَا بِذِكْرِ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ .

وَأَمَّا الْوَجْهُ الرَّابِعُ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا رُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ مُخَالِفًا لِلْجُمْهُورِ مِنْ أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ وَالْجَوَابَ فِي الْآيَاتِ كَانَا بَعْدَ رَفْعِ عِيسَى إلَى السَّمَاءِ (قَالَ فِي تَصْوِيرِهِ) يَعْنِي : إنْ تُوَفِّيتَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُك فَلَك ذَاك ، وَإِنْ أَخْرَجْتَهُمْ بِتَوْفِيقِك مِنْ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ إلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَغَفَرْتَ لَهُمْ مَا سَلَفَ مِنْهُمْ فَلَك أَيْضًا ذَاك ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَلَا إشْكَالَ اهـ .

وَأَقُولُ : إنَّ هَذَا الْوَجْهَ أَضْعَفُ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي قَبْلَهُ ، فَجَمِيعُ مَا أَوْرَدَهُ الرَّازِيُّ مِنَ الْوُجُوهِ ضَعِيفٌ ، وَمَا كَانَ لِيَخْفَى ضَعْفُهَا بَلْ سُقُوطُهَا وَبُطْلَانُ كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهَا عَلَى ذَكَائِهِ النَّادِرِ ، وَاطِّلَاعِهِ الْوَاسِعِ ، لَوْلَا عَصَبِيَّةُ الْمَذَاهِبِ . وَلَكِنَّ قَوْلَهُ فِي أَثْنَاءِ شَرْحِ الْوَجْهِ الثَّانِي إنَّ مَقْصِدَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ كَلَامِهِ تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، وَقَدْ هَدَانَا اللَّهُ تَعَالَى إلَى تَفْسِيرِهِ ، وَشَرْحِ نُكْتَةِ الْبَلَاغَةِ فِيهِ بِأَوْضَحِ تَبْيِينٍ .

(165/220)

وَقَدْ عُلِمَ مِمَّا بَيَّنَّاهُ أَنَّ كَلَامَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَتَضَمَّنُ شَيْئًا مِنَ الشَّفَاعَةِ لِقَوْمِهِ ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا عِدَّةُ أَحَادِيثَ (مِنْهَا) حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى فِي إبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (رَبِّ إنَّهُنَّ

أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي) (14 : 36) الْآيَةَ . وَقَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي . وَبَكَى فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا جِبْرَائِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَسَأَلَهُ ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ فَقَالَ اللَّهُ : يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ " (وَمِنْهَا) حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ فِيهِ : " أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ : أَصْحَابِي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا

(166/220)

بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (الْحَكِيمُ) قَالَ فَيُقَالُ : " إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ " وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ بِهَذَا الْمَعْنَى زِيَادَةٌ " فَأَقُولُ بُعْدًا لَهُمْ وَسُحْقًا " وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ فِي أَلْفَاظِهَا بَعْضُ اخْتِلَافٍ لَا يُغَيِّرُ الْمَعْنَى . مِنْهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَحْدَثُوا بَعْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَادُونَ ، أَيْ يُطْرَدُونَ عَنِ الْحَوْضِ . وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِمْ ، فَقِيلَ : هُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَقَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ ، وَقِيلَ : هُمُ

الْمُنَافِقُونَ ، وَقِيلَ : هُمُ الْمُبْتَدِعَةُ . (وَمِنْهَا) حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ عِنْدَ أَحْمَدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَرْدَوَيْهِ " أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ بِهَذِهِ الْآيَةِ (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ) إِلَخْ . حَتَّى أَصْبَحَ يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ فَسَأَلَهُ أَبُو ذَرٍّ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي سُبْحَانَهُ الشَّفَاعَةَ فَأَعْطَانِيهَا وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا " .

(167/220)

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَقَامَ التَّفْوِيضِ غَيْرُ مَقَامِ الشَّفَاعَةِ وَأَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَنَالُ أَحَدًا يُشْرِكُ بِاللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا ، وِفَاقًا لِمَا جَاءَ بِهِ الْوَحْيُ عَلَى لِسَانِ عِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَعَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ ، وَوِفَاقًا لِلْآيَاتِ الَّتِي تَنْفِي الشَّفَاعَةَ فِي الْآخِرَةِ بِإِطْلَاقٍ أَوْ تَنْفِي قَبُولَهَا ، أَوْ تُقَيِّدُهَا عَلَى تَقْدِيرِ حُصُولِهَا بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (21 : 28) .

بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَفْوِيضِ عِيسَى أَمْرَ قَوْمِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِتِلْكَ الْعِبَارَةِ الْبَلِيغَةِ ، فِي إِثْرِ تِلْكَ الْأَجْوِبَةِ السَّدِيدَةِ ، تَتَوَجَّهُ النَّفْسُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَقُولُهُ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ ، وَتَسْأَلُ عَنْهُ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوِ الْمَقَالِ إِنْ لَمْ تَسْمَعْهُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 228.218 ﴾

(168/220)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) ﴾

ولقائل أن يقول : أليس في ذلك الأمر إشكالٌ واضح ؟ . لقد ادّعى بعض أتباع عيسى أنهم أبلغوا من عيسى أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله . فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة في هذه الآية .

ونقول : إن عيسى لم يقل : " يا رب اغفر لهم " ولكنه قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ أي أن عيسى قد ترك الأمر لطلاقة المشيئة الإلهية ، وهو كرسول من عند الله يعلم أن رحمة الله سبقت غضبه ، وأن له سبحانه طلاقة القدرة ، فلا قدرة تقيده فطلاقة المشيئة موجودة . وهم عباد الله باختيارهم .

إننا نعرف أن كل خلق الله هم عبيد الله . ولكن المطيعين لله والمؤمنين به خاصة هم عباد

الله . إذن فالخلق نوعان : عباد الله ذهبوا لله إيماناً ومحبة وطاعة ، والنوع الثاني هم العبيد الذي يُقهرون لقاهرية سيدهم ، وحتى الكافر لم يكفر رغما عن الله . بل كفر بما آتاه الله من قدرة اختيار في أن يفعل أو لا يفعل ، وكان الحق قادراً على أن يخلق خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يأمرهم به الله . وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة .

لكن قدرة القهر تثبت لله صفة القهار على المقهور ولا تثبت صفة المحبة ، فالمحبة تأتي من أن يكون المخلوق مختاراً أن يؤمن أو أن يكفر ، ثم يختار الإيمان . إنه بذلك آمن بالمحبة لا بالقهر . وهكذا يريد الله خلقه المؤمنين به . إن كل الوجود – ما عدا الإنسان – مقهور ، ولا يقدر على المعصية : الشمس ، والقمر ، والمطر ، والهواء ، والسحاب وكل ما في الكون مقهور لله .

(169/220)

إذن لو أراد الله خلقاً مقهورين على الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به ، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة القهر فيما دون الإنسان ، أما في الإنسان فقد خلقه الله مختاراً بين الكفر والإيمان حتى يأتي بعض من العباد ليصنعوا ما يحبه الله ويرضاه ويتبعوا منهج الله ، وهم يعلمون أن الله لم يكلفهم ما لا طاقة لهم به . فلا يكلف – سبحانه – أحداً بأن يموت أو

يمرض ، ولا يكلف فاقد آلة الاختيار وهي العقل ، ولا يكلف من لم يبلغ رشد العقل ؛ لأن التكليف للإنسان لا يتم إلا بوجود ثلاثة شروط : الأول : أن يوجد العقل ، والثاني : أن يكون العقل في تمام النضج وهو الرشد ، والثالث : ألا تكون هناك قوة تهدد حياته وتقهره على فعل ما .

وهكذا نعلم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف . وهم : المجنون وغير ناضج العقل لأنه لم يبلغ الرشد ، والمقهور بفعل فاعل . وقد أعطى الحق مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وبذلك ليس لأحد عند الله حجة ، ومن دخل التكليف طائعاً فهو من عباد الله .

ومن عصى الله وخرج عن التكليف فهو من العبيد المقهورين في كل شيء فيما عدا التكاليف التي خيّروا فيها .

إذن فالعبادة هم الذين دخلوا العبادية بأن وازنوا بين الإيمان ونقيضه الكفر . . أي بين المراد لله وغير المراد لله . فكيف إذن يقول عيسى ابن مريم على الرغم من علمه بكفرهم : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ؟ . ونقول : إن معنى " العباد " و" العبيد " الذي شرحناه سابقاً هو وضع الإنسان في الدنيا وما يكون عليه فيها ، ولكن الحوار الذي نقرؤه في القرآن بين عيسى عليه السلام والحق سبحانه وتعالى يكون في الآخرة ، وكلنا في الآخرة عباد طائعون .

وعندما نستقرئ كلمة " عباد " في القرآن نجد أن العباد هم الصفوة المختارة التي اختارت مراد الله فوق اختيارهم فاستوت مع المقهور تماماً . ومثال ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] .

أنه يأتي هنا بالخصال الجميلة لهذه الصفوة من العباد . والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إغواء العباد المخلصين كما يقرر القرآن الكريم : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 83] .

أما في الآخرة فكلنا عباد ، وها هوذا الحق سبحانه يخاطب الذين أضلوا غيرهم بقوله تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾ [الفرقان : 17] .

إن الكل عباد لله يوم القيامة ، والكل ينفذ مراد الله ، ولا ولاية لأحد على أي شيء من أبعاضه وجوارحه ، فالعين التي كانت مسخرة للعبد في الدنيا تأتمر بأمر العبد فيختار أن يرى الحلال أو يرى الحرام ، هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها في اليوم الآخر ، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم ، وكل الأبعاض . وتكون النفس الإنسانية في الدنيا كقائد لكل الأبعاض والجوارح تنفذ أوامر الإنسان سواء للخير أو للشر ، وسواء

للطاعة أو للمعصية . لكن هذه الأبعاض والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على كل ما فعل الإنسان ، فليس لأحد مراد غير مراد الله : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

(171/220)

لقد انتهت مرادات البشر وبقي مراد الله فصار الكل عباداً لله . وعلى هذا فليس هناك إشكال في قول عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ . ونعلم أيضاً أن كلمة " عبيد " تشملنا كلنا فيما نحن غير مخبرين فيه مثل إرادة التنفس أو ميعاد الميلاد أو ميعاد الموت ، ولكن المؤمنين يرتقون من " العبيدية " إلى " العبادية " بتنفيذ منهج الله ، أما الكافرون والعصاة فهم يعصون الله بما لهم من اختيار ويسيرون في درب العصيان معاندة لمنهج الله . وحتى يثبت الحق لنا جميعاً أن الكافرين مجرد عبيد فهو يصيبهم بالمرض والفاقة والآلام النفسية العميقة ولا يجرؤ واحد منهم أن يصادم مراد الله في هذه الأحداث التي يجريها عليهم .

ولذلك فالمؤمن يشكر الحق باختياره لأن الله حماه بأدوات الاختيار وجوداً ونضجاً وعدم إكراه .

ولنا أن نلحظ أننا كلنا في يوم القيامة – كما قلنا من قبل – نصير عباداً لله فلا مراد لأحد فينا على أي شيء ، وكل المراد يكون لله ، وقد أورد الحق سبحانه ما جاء على لسان عيسى عليه السلام فقال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ وهذا التذييل لكلمات عيسى ابن مريم لم يأت باعتذار أو طلب الحنان من الله على الذين كفروا بالله وأشركوا به ، فالعزيز الحكيم هو الذي لا يغلب على أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تحمي هؤلاء الناس قوة من دون الله ، فهو القادر العزيز ، إن شاء غفر لهم فلا راد لمشيئته .

(172/220)

وبعض السطحيين الذين يتلمسون الأخطاء في القرآن قالوا : ألم يكن الأجدر أن يقول عيسى : إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ؟ . ونرد على هؤلاء السطحيين فنقول : إن كل كلمة في القرآن جاذبة لمعناها ، وكل معنى في القرآن عاشق لكلمته . ولذلك جاء التذييل في هذه الآية بما يخدم طلاقة المشيئة في تعذيبهم أو في الغفران لهم ، فإن عذبهم فليس هناك قوة ثانية تستطيع أن تحميهم من عذابه ؛ لأنه – سبحانه – عزيز ، وإن غفر لهم فلا توجد قوة أعلى تسأله : كيف غفرت لهم وقد كانوا كافرين ؟

إذن فسبحانه لا يسأل عما يفعل لأنه عزيز حكيم . وأيضاً فقولهم : كان الأنسب أن يقول : فإنك أنت الغفور الرحيم . نقول لهم : هي تناسب قوله ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ولكنها لا تناسب ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ فكان لا بد أن يأتي تذييل الآية بما يناسب ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ وبما يناسب قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(173/220)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد والنسائي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي ذر قال : " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك . . . ﴾ الآية . فلما أصبح قلت : يا رسول الله ، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت ؟ ! قال : إني سألت ربي الشفاعة لأمتي فأعطانيها ، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً " .

وأخرج ابن ماجة عن أبي ذر قال " قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية حتى أصبح يرددها ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ " .

وأخرج مسلم والنسائي وابن أبي الدنيا في حسن الظن وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن عمرو بن العاص " أن نبي الله تلا قول الله في إبراهيم ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني . . . ﴾ [إبراهيم : 36] الآية . وقال عيسى بن مريم ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه فقال : اللهم أمتي أمتي وبكى . فقال الله : جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي ذر قال " بات رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة يشفع لأمته ، فكان يصلي بهذه الآية ﴿ إن تعذِّبهم فإنهم عبادك . . . ﴾ إلى آخر الآية . كان بها يسجد ، وبها يركع ، وبها يقوم ، وبها يقعد حتى أصبح " .

(174/220)

وأخرج ابن مردويه عن أبي ذر قال : " قلت للنبي صلى الله عليه وسلم بأبي أنت وأمي يا رسول الله قمت الليلة بآية من القرآن ، ومعك قرآن لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه ؟ قال :

دعوت لأمتي . قال : فماذا أجبت ؟ قال : أجبت بالذي لو اطَّلع كثير منهم عليه تركوا الصلاة . قال : أفلا أبشر الناس ؟ قال : بلى . فقال عمر : يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادة ، فناداه أن ارجع فرجع ، وتلا الآية التي يتلوها ﴿ إن تعذِّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ يقول : عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ أي من تركت منهم ومد في عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض يقتل الدجال ، فنزلوا عن مقالتهم ووحدوك ، وأقروا إنا عبيد ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ حيث رجعوا عن مقالتهم ﴿ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ يقول : إن تعذبهم تميتهم بنصرانيتهم فيحق عليهم العذاب فإنهم عبادك ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ فتخرجهم من النصرانية وتهديهم إلى الإسلام ﴿ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ هذا قول عيسى عليه السلام في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(175/220)

ومن فوائد الشيخ المراغى فى الآيات السابقة :

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟)

الخطاب فى هذه الآية للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، أي واذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع اللّه الرسل فيسألهم جميعا عما أجابت به أممهم ، حين يقول لعيسى اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك . . . وحين يقول له بعد ذلك : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين ؟ أي يسأله أقالوا هذا القول بأمر منك أم هم افتروه وابتدعوه من عند أنفسهم ؟

(176/220)

ومعنى قوله من دون اللّه أي متجاوزين بذلك توحيد اللّه وإفراده بالعبادة ، وذلك إما أن يكون باتخاذ إله أو أكثر مع اللّه تعالى وهو الشرك ، إذ عبادة الشريك المتخذ غير عبادة اللّه خالق السموات والأرض ، سواء اعتقد المشرك أن هذا الشريك ينفع ويضر استقلالا ، أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار اللّه إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب أو بالوساطة عند اللّه أي بما له من التأثير والكرامة على النفع والضر وهذا هو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة ، كما حكاه اللّه عنهم فى قوله : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ » وقوله : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ

دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى » .

وقل أن يوجد من المشركين من يتخذ إلها غير اللّه متجاوزا بعبادته الإيمان با للّه الذي هو خالق الكون ومدبره فالإيمان الفطري الذي غرس فى نفوس البشر يرشد إلى أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك كنهها أحد ، فالموحدون أتباع الأنبياء يتوجهون بعباداتهم إلى رب هذه السلطة الغيبية وحده اعتقادا منهم أنه هو الفاعل الكامل التصرف ، وإن نسب الفعل إلى غيره فبإقدار اللّه إياه وتسخيره له بمقتضى سننه فى خلقه ، والمشركون يتوجهون إليه تارة وإلى بعض ما يستكبرون من خلقه تارة أخرى كالشمس والنجم والملائكة وبعض مخلوقات أخرى ، ويتوجهون أحيانا إليهما معا فيجعلون تلك المخلوقات المعظمة وسيلة إلى خالق الأكوان ومدبر الكائنات .

والخلاصة – إن اتخاذ إله من دون اللّه يراد به عبادة غيره سواء أكانت خالصة لغيره أو شركة بينه وبين غيره ولو بدعاء هذا الغير والتوجه إليه ليكون واسطة عنده .

(177/220)

وقد نعى اللّه عليهم اتخاذ المسيح إلها فى مواضع عدة من هذه السورة ، وعبادة أمه كانت معروفة فى الكنائس الشرقية والغربية ، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانس (إصلاح

المسيحية) التي جاءت بعد الإسلام بزمن طويل .

وهذه العبادة منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود ، ومنها ما هو استغاثة واستشفاع ، ومنها ما هو صيام ينسب إليها ويسمى بصيام العذراء ، وكل أولئك يقترن بخشوع وخضوع لذكرها ولصورها وتماثيلها واعتقاد السلطة الغيبية لها وأنها تنفع وتضر فى الدنيا والآخرة إما بنفسها أو بواسطة ابنها ويسمونها (والدة الإله) .

والآية ترشد إلى أنهم اتخذوها هى وابنها إلهين (و الاتخاذ غير التسمية) فيصدق بالعبادة وهى واقعة حتما .

(قالَ سُبْحانَكَ) التسبيح تنزيه اللّه تعالى عما لا يليق به ، وأصل الكلمة من السبح والسباحة ، وهى الذهاب السريع البعيد فى البحر أو البر ومنه فرس سبوح .

أي أنزهك يا اللّه عن أن يكون معك إله آخر ، وبذا أثبت له التنزيه عن المشاركة فى الذات والصفات .

ثم انتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول ما ليس بحق فقال :

(ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ) أي ليس من شأنى ولا مما يصح أن يقع منى أن أقول قولا لا حق لى أن أقوله ، لأنك أيدتنى بالعصمة عن مثل هذا القول الباطل .

وهو بتنزيهه اللّه أوّلا أثبت أن ذلك القول الذي نسب إليه قول لا شائبة فيه من الحق وليس من شأنه ولا مما يقع من مثله .

وقد أكد هذا النفي مرة أخرى بحجة أخرى ارتقى فيها من برهان راجع إلى نفسه وهو عصمته عليه السلام إلى برهان أعلى راجع إلى ربه علام الغيوب فقال :

(178/220)

(إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ)

أي إن ذلك القول إن كان قد صدر منى فقد علمته ، إذ علمك واسع محيط بكل شيء ، فأنت تعلم ما أسره وأخفيه فى نفسى فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه وعلمه منى غيرى ؟

كما أنى لا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا ترشدنى إليها بالكسب والاستدلال ، لكنى أعلم ما تظهره لى بالوحى بواسطة ملائكتك المقربين إليك .

(إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) أي لأنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك ، ما كان منها وما سيكون وما هو كائن ، وعلم غيرك مستمد من فيضك لا من ذاته ، فهو إما أن يناله بواسطة المشاعر والحواس أو العقل ، وإما أن يتلقاه هبة منك بالوحى والإلهام .

وبعد تنزيه ربه وتبرئة نفسه وإقامة البراهين على ذلك – بين حقيقة ما قاله لقومه ، إذ الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة إلا بإثبات ما يجب أن يكونوا عليه من أمر التوحيد بعد

نفى ضده ، فقال :

(ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ - أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) أي إنى ما قلت لهم فى شأن الإيمان وأساس الدين إلا ما أمرتنى بالتزامه اعتقادا وتبليغا لهم ، بأنك ربى وربهم وأننى عبد من عبادك مثلهم إلا أنك خصصتنى بالرسالة إليهم .

(وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ) أي وكنت قائما عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون وما يفعلون ، فأقر الحق وأنكر الباطل مدة وجودى بينهم .

(فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أي فلما قبضتنى إليك كنت أنت الحفيظ عليهم دونى ، لأنى إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم ، وأنت تشهد على كل شىء إذ لا يخفى عليك شىء .

وفى هذا إيماء إلى أن اللّه إنما عرّفه أفعال القوم ومقالتهم بعد ما قبضه إليه بقوله :

(أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ) .

وقد تقدم فى هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة ، وذلك قوله : « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ

اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » .

وجاء فى إنجيل يوحنا (و هذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته) .

ثم فوّض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى فقال :

(إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أي إن تعذب من أرسلتنى إليهم فبلّغتهم ما أمرتنى به من توحيدك وعبادتك فضلّ منهم من ضل وقالوا ما لم أقله ، واهتدى منهم من اهتدى فلم يعبدوا معك سواك ، فإنهم عبادك وأنت الرحيم بهم ، ولست أنا ولا غيرى من الخلق بأرحم بهم منك ، وإنما تجزيهم بحسب علمك بما يظهرون وما يبطنون ، فأنت العليم بالمؤمن المخلص فى إيمانه ، وبمن أشرك بك غيرك أو بمن أطاعك وبمن عصاك وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

وإن تغفر فإنما تغفر لمن يستحق المغفرة ، وإنك أنت العزيز الغالب على أمره ، الحكيم فى تصرفه وصنعه ، فيضع كل جزاء وكل فعل فى موضعه .

وخلاصة المعنى – إنك إن تعذب فإنما تعذب من يستحق التعذيب ، وإن تغفر فإنما تغفر لمن هو أهل لذلك ، ومهما توقعه فيهم من عذاب فلا دافع له من دونك ، ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته ، لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يغلب

، ويمنع من شاء ما شاء ولا يمنع ، وأنت الحكيم الذي تضع كل شيء موضعه ، فلا يمكن أحدا غيرك أن يرجعك عنه .

(180/220)

ومن هذا تعلم أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئًا من الشفاعة لقومه ، ومما يؤيد هذا ما

رواه مسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص « أن النبي صلى اللّه عليه وسلم تلا قول اللّه تعالى فى إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم : « رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي » الآية ، وقول عيسى عليه السلام (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فرفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم أمتى أمتى ، وبكى ، فقال اللّه عزّ وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بما قال – وهو أعلم – فقال اللّه يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك » ،

وما رواه البخاري عن ابن عباس أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : « ألا وإنه يجاء برجال من أمتى يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال فأقول : أصحابى ، فيقال

: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ – إلى قوله – الْحَكِيمُ) قال فيقال إنهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم »

وما رواه أحمد والنسائي وابن مردويه « أنه صلى اللّه عليه وسلم قام بهذه الآية : (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ . . .) إلخ حتى أصبح يركع بها ويسجد فسأله أبوذر عن ذلك فقال : إنى سألت ربى الشفاعة فأعطانيها وهى نائلة إن شاء اللّه من لا يشرك با للّه شيئا » .

فهذه الأحاديث صريحة فى أن الشفاعة لا ينالها أحد يشرك با للّه شيئا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 7 صـ 64.61 ﴾

(181/220)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ : تقدَّم نظيره [البقرة 32] ، وهي في قراءةِ الناس ومصاحفهم " العزيزُ الحكيم " ، وفي مصحف ابن مسعود – رضي الله عنه وقرأ بها جماعة : " الغفورُ الرحيم " ، وقد عبث بعض من لا يفهم كلام العرب بهذه الآية ، وقال : " إنما كان المناسب ما في مصحف ابن مسعود " وخَفِي عليه أنَّ المعنى متعلق بالشرطين جميعاً ،

ويوضِّح هذا ما قاله أبو بكر بن الأنباري ، فإنه نَقَلَ هذه القراءة عن بعض الطاعنين ثم قال : ومتى نُقِل إلى ما قاله هذا الطاعن ضَعُفَ معناه ، فإنه ينفرد " الغفور الرحيم " بالشرط الثاني ولا يكون له بالشرط الأول تعلُّقٌ ، وهو على ما أنزل الله وعلى ما أجمع على قراءته المسلمون معروف بالشرطين كليهما : أولهما وآخرهما ، إذ تلخيصه : إنْ تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، وإن تغفرْ لهم فأنت العزيزُ الحكيم في الأمرين كليهما من التعذيب والغفران ، فكأنَّ " العزيز الحكيم " أليقُ بهذا المكان لعمومه وأنه يجمع الشرطين ، ولم يصلُحْ " الغفور الرحيم " أنْ يحتمل من العموم ما احتمله " العزيز الحكيم " .

قال شهاب الدين رحمه الله تعالى : وكلامُه فيه دقةٌ ، وذلك أنه لا يريد بقوله " إنه معروف بالشرطين إلى آخره " أنه جوابٌ لهما صناعةً ، لأنَّ ذلك فاسدٌ من حيث الصناعةُ العربية ؛ فإنَّ الأول قد أخذ جوابه وهو " فإنهم عبادُك " وهو جوابٌ مطابقٌ فإنَّ العبدَ قابل ليصرفه سيدُه كيف شاء ، وإنما يريد بذلك أنه متعلق بهما من جهة المعنى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 625.626 ﴾

(182/220)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) ﴾

بيَّن أن حكم المولى في عبيده نافذ بحكم إطلاق ملكه ، فقال إن تعذبهم يحسن منك تعذيبهم وكان ذلك لأنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم أي المُعِز لهم بمغفرتك لهم .

ويقال أنت العزيز الحكيم الذي لا يضرك كُفْرُهم .

ويقال ﴿ العَزِيزُ ﴾ القادر على الانتقام منهم فالعفو (عند) القدرة سِمَةُ الكرمِ ، وعند العجز أمارةُ الذُّل .

ويقال إن تغفر لهم فإنك أعزُّ من أن تتجمل بطاعة مطيعٍ أو تنتقص بزَلَّةِ عاصٍ . وقوله ﴿ الحَكِيمُ ﴾ ردٌّ على من قال : غفران الشّركِ ليس بصحيح في الحكمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 458 ﴾

(183/220)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والعشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والعشرون بعد المائتين

من الآية ﴿ 119 ﴾ من سورة المائدة

وحتى الآية ﴿ 120 ﴾ من نفس السورة (آخر السورة الكريمة)

(4/221)

قوله تعالى ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضى جوابه عليه الصلاة والسلام على هذا الوجه الجليل ، تشوف السامع إلى جواب الله له ، فقال تعالى مشيراً إلى كون جوابه حقاً ومضمونه صدقاً ، منبهاً على مدحه حاثاً على ما بنيت عليه السورة من الوفاء بالعقود : ﴿ قال الله ﴾ أي الملك المحيط بالجلال والإكرام جواباً لكلامه ﴿ هذا ﴾ أي مجموع يوم القيامة ؛ ولما كان ظهور الجزاء النافع هو المقصود قال : ﴿ يوم ﴾ هذا على قراءة الجماعة بالرفع ، وقراءة نافع بالنصب غير منون أيضاً لإضافته إلى متمكن بمعنى : هذا الذي ذكر واقع ؛ أو قال الله هذا الذي تقدم يوم

﴿ ينفع الصادقين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف نفعاً لا يضرهم معه شيء ﴿ صدقهم ﴾ أي الذي كان لهم في الدنيا وصفاً ثابتاً ، فحداهم على الوفاء بما عاهدوا عليه ، فكأنه قيل : ينفعهم بأيّ شيء ؟ فقال : ﴿ لهم جنات ﴾ أي هي من ريّ الأرض الذي يستلزم زكاء الشجر وطيب الثمر بحيث ﴿ تجري ﴾ ولما كان تفرق المياه في الأراضي أبهج ، بعض فقال : ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ ولما كان مثل هذا لا يريح إلا إذا دام قال : ﴿ خالدين فيها ﴾ وأكد معنى ذلك بقوله : ﴿ أبداً ﴾ .

ولما كان ذلك لا يتم إلا برضى المالك قال : ﴿ رضي الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ عنهم ﴾ أي بجميع ما له من الصفات ، وهو كناية عن أنه أثابهم بما يكون من الراضي ثواباً متنوعاً بتنوع ما له من جميع صفات الكمال والجمال ؛ ولما كان ذلك لا يكمل ويبسط ويجمل إلا برضاهم قال : ﴿ ورضوا عنه ﴾ يعني أنه لم يدع لهم شهوة إلا أنالهم إياها ، وقال ابن الزبير بعد ما أسلفته عنه : فلما طلب تعالى المؤمنين بالوفاء فيما نقض به غيرهم ، وذكّرهم ببعض ما وقع فيه النقض وما أعقب ذلك فاعله ، وأعلمهم بثمرة التزام التسليم والامتثال ، أراهم جل وتعالى ثمرة الوفاء وعاقبته ، فقال تعالى ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس ﴾ [المائدة : 116] إلى قوله - ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين ﴾ - إلى آخرها .

فيحصل من جملتها الأمر بالوفاء فيما تقدمها وحالُ من حاد ونقض ، وعاقبة من وفى ، وأنهم الصادقون ، وقد أمرنا أن نكون معهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة : 119] - انتهى .

ولما كان سبحانه قد أمرهم أول السورة بالوفاء شكراً على ما أحل لهم في دنياهم ، ثم أخبر أنه زاد الشاكرين منهم ورقاهم إلى أن أباحهم أجلّ النفائس في أخراهم ، ووصف سبحانه هذا الذي أباحه لهم إلى أن بلغ في وصفه ما لا مزيد عليه ، أخذ يغبطهم به فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي لا غيره ﴿ الفوز العظيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 576. 577 ﴾

فصل

قال الفخر :

أجمعوا على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة ، والمعنى أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في القيامة ، والدليل على أن المراد ما ذكرنا : أن صدق الكفار في القيامة لا ينفعهم ، ألا ترى أن إبليس قال : ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] فلم ينفعه هذا الصدق ، وهذا الكلام تصديق من الله تعالى لعيسى في قوله ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ ﴾ [المائدة : 117] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ

﴿114﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ يعني يوم القيامة ، وإنما نفعهم الصدق في ذلك اليوم لوقوع الجزاء فيه وإن كان في كلِّ الأيام نافعاً ، وفي هذا الصدق قولان :

أحدهما : أن صدقهم الذي كان منهم في الدنيا نفعهم في الآخرة جُوزُوا عليه من الثواب ،

فعلى هذا المراد بهذا الصدق وجهان محتملان :

أحدهما : أنه صدقهم في عهودهم .

والثاني : أنه تصديقهم لرسل الله وكتبه .

والقول الثاني : أنه صدق يكون منهم في الآخرة ينفعهم لقيامهم فيه بحق الله .

فعلى هذا في المراد بهذا الصدق وجهان محتملان :

أحدهما : أنه صدقهم في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ .

(6/221)

والثاني : صدقهم فيما شهدوا به على أنفسهم عن أعمالهم ، ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة ، فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم .

وهل هم مصروفون عنه قبل موقف العرض ؟ على قولين .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الله هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ أي صدقهم في الدنيا فأما في الآخرة فلا ينفع فيها الصدق ، وصدقهم في الدنيا يحتمل أن يكون صدقهم في العمل لله ، ويحتمل أن يكون تركهم الكذب عليه وعلى رسله ، وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم وإن كان نافعاً في كل الأيام لوقوع الجزاء فيه .

وقيل : المراد صدقهم في الآخرة وذلك في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ ، وفيما شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم ويكون وجه النفع فيه أن يُكفوَا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة ، فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ اتفق جمهور العلماء على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة والمعنى أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة لأنه يوم الإثابة والجزاء وما تقدم من صدقهم في الدنيا يتبين نفعه يوم القيامة والمراد بالصادقين النبيون والمؤمنون لأن الكفار لا ينفعهم صدقهم يوم القيامة .

قال قتادة : متكلمان لا يخطئان يوم القيامة عيسى عليه السلام لأنه يقوم فيقول ما قص الله عنه ما قلت لهم إلا ما أمرتني به الآية فكان صادقاً في الدنيا والآخرة فينفعه صدقه .

وأما المتكلم الآخرة فإبليس فإنه يقوم فيقول وقال الشيطان لما قضى الأمر الآية فصدق عدو الله فيما قال ولم ينفعه صدقه .

وقال عطاء هو يوم من أيام الدنيا لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل وذهب في هذا القول إلى ظاهر الآية من أن الصدق النافع إنما يكون في الدنيا وهذا القول موافق لمذهب السدي حيث يقول إن هذه المخاطبة جرت مع عيسى عليه السلام حين رفع إلى السماء ، والوجه ما ذهب إليه الجمهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(7/221)

وقال أبو حيان :

﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾

قرأ الجمهور هذا يوم بالرفع على أن هذا مبتدأ ويوم خبره والجملة محكية بقال وهي في موضع المفعول به ، لقال : أي هذا الوقت وقت نفع الصادقين وفيه إشارة إلى صدق عيسى عليه السلام .

وقرأ نافع ﴿ هذا يوم ﴾ بفتح الميم وخرّجه الكوفيون على أنه مبني خبر لهذا وبني لإضافته إلى الجملة الفعلية ، وهم لا يشترطون كون الفعل مبنياً في بناء الظرف المضاف إلى الجملة ، فعلى قولهم تتحد القراءتان في المعنى .

وقال البصريون : شرط هذا البناء إذا أضيف الظرف إلى الجملة الفعلية أن يكون مصدراً بفعل مبني ، لأنه لا يسري إليه البناء لا من المبني الذي أضيف إليه ، والمسألة مقررة في علم النحو فعلى قول البصريين : هو معرب لا مبني وخرج نصبه على وجهين ذكرهما الزمخشري وغيره أحدهما : أن يكون ظرفاً لقال وهذا إشارة إلى المصدر فيكون منصوباً على المصدرية ، أي : قال الله هذا القول أو إشارة إلى الخبر أو القصص ، كقولك : قال زيد شعراً أو قال زيد : خطبة فيكون إشارة إلى مضمون الجملة ، واختلف في نصبه أهو على المصدرية أو ينتصب مفعولاً به ؟ فعلى هذا الخلاف ينتصب إذا كان إشارة إلى الخبر أو القصص نصب المصدر أو نصب المفعول به .

قال ابن عطية : وانتصابه على الظرف وتقدير ﴿ قال الله هذا ﴾ القصص أو الخبر ﴿ يوم ينفع ﴾ معنى يزيل وصف الآية وبهاء اللفظ والمعنى ، والوجه الثاني أن يكون ظرفاً خبر ﴿ هذا ﴾ و ﴿ هذا ﴾ مرفوع على الابتداء والتقدير ، هذا الذي ذكرناه من كلام عيسى واقع يوم ينفع ويكون هذا يوم ينفع جملة محكية بقال .

قال الزمخشري : وقرأ الأعمش يوماً ينفع بالتنوين كقوله ﴿ واتقوا يوماً لا تجزى ﴾ وقال ابن عطية : وقرأ الحسن بن عياش الشامي ﴿ هذا يوم ﴾ بالرفع والتنوين .

(8/221)

وقرأ الجمهور ﴿ صدقهم ﴾ بالرفع فاعل ينفع وقرىء بالنصب ، وخرج على أنه مفعول له أي لصدقهم أو على إسقاط حرف الجر أي بصدقهم أو مصدر مؤكد ، أي الذين يصدقون صدقهم أو مفعول به أي يصدقون الصدق كما تقول : صدقته القتال والمعنى يحققون الصدق .

قال الزمخشري (فإن قلت) : إن أريد ﴿ صدقهم ﴾ في الآخرة فليست بدار عمل ، وإن أريد في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه ، لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة .

(قلت) : معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم انتهى ، وهذا بناء على قول من قال : إن هذا القول يكون من الله تعالى في الآخرة وقد اتبع الزمخشري الزجاج في قوله : هذا حقيقته الحكاية ومعنى ﴿ ينفع الصادقين صدقهم ﴾ الذي كان في الدنيا ينفعهم في القيامة ، لأن الآخرة ليست بدار عمل ولا ينفع أحداً فيها ما قال وإن حسن ، ولو صدق

الكافر وأقرّ بما عمل فقال : كفرت وأسأت ما نفعه ، وإنما الصادق الذي ينفعه صدقه الذي كان فيه في الدنيا والآخرة ؛ انتهى .

والظاهر أنه ابتداء كلام من الله تعالى .

وقال السدي : هذا فصل من كلام عيسى عليه السلام أي : يقول عيسى يوم القيامة : قال الله تعالى : واختلف في هذا اليوم ، فقيل : يوم القيامة كما ذكرناه وخص بالذكر لأنه يوم الجزاء الذي فيه تجنى ثمرات الصدق الدائمة الكاملة ، وإلا فالصدق ينفع في كل يوم وكل وقت .

(9/221)

وقيل : هو يوم من أيام الدنيا فإن العمل لا ينفع إلا إذا كان في الدنيا والصادقون هنا النبيون وصدقهم تبليغهم ، أو المؤمنون وصدقهم إخلاصهم في إيمانهم أو صدق عهودهم أو صدقهم في العمل لله تعالى ، أو صدقهم تركهم الكذب على الله وعلى رسله أو صدقهم في الآخرة في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ أو شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم ، ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم

أقوال ستة ، والظاهر العموم فكل صادق ينفعه صدقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(10/221)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ الله ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ خَتَم به حكايةَ ما حُكيَ ، مما يقعُ يوم يجمع الله الرسلَ عليهم الصلاة والسلام ، وأُشير إلى نتيجته ومآله ، أي يقول الله تعالى يومئذ عَقيبَ جواب عيسى عليه السلام ، مشيراً إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذين هو في زمرتهم ، وصيغةُ الماضي لما مرَّ في نظائره مراراً ، وقوله تعالى : ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ذلك اليوم ، وهو مبتدأ خبرُه ما بعده ، أي هذا اليوم الذي حُكيَ بعضُ ما يقع فيه إجمالاً وبعضُه تفصيلاً ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين ﴾ بالرفع والإضافة ، والمراد بالصادقين كما ينبىء عنه الاسم ، المستمرّون في الدارين على الصدق في الأمور الدينية التي معظمُها التوحيدُ الذي نحن بصدده ، والشرائعُ والأحكام المتعلقة به من الرسل الناطقين بالحق والصدق الداعين إلى ذلك ، وبه تحصُل الشهادةُ بصِدْق عيسى عليه السلام ، ومن الأمم المصدِّقين لهم المقتدين بهم عقداً وعملاً ، وبه يتحقق المقصودُ بالحكاية من ترغيب السامعين في الإيمان برسول الله

صلى الله عليه وسلم لا كلِّ من صدَقَ في أي شيء كان ، ضرورةَ أن الجانِيَ المعترِفَ في الدنيا بجِنايته لا ينفعُه يومئذ اعترافُه وصِدْقُه ﴿ صِدْقُهُمْ ﴾ أي صدقهم فيما ذُكر من أمور الدين في الدنيا ، إذ هو المستتبِعُ للنفع يومئذ ، واعتبارُ استمراره في الدارين مع أنه لا حاجة إليه كما عرفت ، ولا دخل له في استتباع النفع والجزاء مما لا وجه له ، وهذه القراءةُ هي التي أطبق عليها الجمهورُ وهي الأليق بسياق النظم الكريم وسباقِه ، وقد قرىء (يومَ) بالنصب إما على أنه ظرف لقال ، فهذا حينئذ إشارةٌ إلى قوله تعالى : ﴿ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ الخ ، وإما على أنه خبرٌ لهذا ، فهو حينئذ إشارة إلى جواب عيسى عليه السلام ، أي هذا الجواب منه عليه السلام واقعٌ يوم ينفع الخ ، أو إلى السؤال والجواب معاً ، وقيل : هو خبر ولكنه بني على الفتح ، وليس بصحيح عند البصريين لأنه مضافٌ إلى متمكنَ ، وقرىء (يومٌ) بالرفع والتنوين كقوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(11/221)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ الله ﴾ كلام مستأنف ختم به حكاية ما حكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل عليهم

الصلاة والسلام وأشير إلى نتيجته ومآله ، وصيغة الماضي لما تحقق ، والمراد بقول الله تعالى عقيب جواب عيسى عليه السلام مشيراً إلى صدقه ضمن بيان حال الصادقين الذين هو في زمرتهم وبذلك يزول أيضاً عنه عليه السلام خوفه من صورة ذلك السؤال لا أن إزالته هي المقصودة من القول على ما قيل .

﴿ هذا ﴾ أي اليوم الحاضر ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين ﴾ أي المستمرين على الصدق في الأمور المطلوبة منهم التي معظمها التوحيد الذي نحن بصدده والشرائع والأحكام المتعلقة به من الرسل الناطقين بالحق والصدق الداعين إلى ذلك وبه تحصل الشهادة بصدق عيسى عليه السلام ومن الأمم المصدقين لأولئك الكرام عليهم الصلاة والسلام المقتدين بهم عقداً وعملاً (وبه يتحقق المقصود بالحكاية (من ترغيب السامعين) في الإيمان) برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ صِدْقُهُمْ ﴾ أي فيما ذكر في الدنيا إذ هو المستتبع للنفع والمجازاة يومئذٍ ، وقيل : في الآخرة .

(12/221)

والمراد من الصادقين الأمم ومن صدقهم صدقهم في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ وهو ينفعهم لقيامهم فيه بحق الله تعالى وهو كما ترى ، وقيل : المراد صدقهم المستمر في دنياهم إلى

آخرتهم ليتسنى كون ما ذكر شهادة بصدق عيسى عليه السلام فيما قاله جواباً عن السؤال على ما يقتضيه السوق ، ويكون النفع باعتبار تحققه في الدنيا والمطابقة لما يقتضيه السوق باعتبار تقرره ووقوع بعض جزئياته في الآخرة ، والمستمر هو الأمر الكلي الذي هو الاتصاف بالصدق ، ولا يلزم من هذا محذور مدخلية الصدق الأخروي في الجزاء ، ولا يحتاج إلى جعل الصدق الأخروي شرطاً في نفع الصدق الدنيوي والمجازاة عليه ، ولعل فيما تقدم غنى عن هذا كما لا يخفى على الناظر ، وقيل : المراد من الصادقين النبيون ومن صدقهم صدقهم في الدنيا بالتبليغ ويكون مساق الآية للشهادة بصدقه عليه السلام في قوله : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ [المائدة : 117] وأنت تعلم أن هذا الغرض حاصل على تقدير التعميم وزيادة .

وقيل : المراد من الصدق الصدق في الدنيا إلا أن المراد من الصادقين الأمم ، والكلام مسوق لرد عرض عيسى عليه السلام المغفرة عليه سبحانه وتعالى كأنه قيل : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لا غير فلا مغفرة لهؤلاء ، ولا يخفى أن التعميم لا ينافي كون الكلام مسوقاً لما ذكر على تقدير تسليم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

﴿ قَالَ اللَّهُ ﴾ جواب عن قول عيسى ، فلذلك فصلت الجملة على طريقة الحوار .

والإشارة إلى يوم القيامة وهو حاضر حين تجري هذه المقاولة .

وجملة : ﴿ ينفع الصادقين صدقهم ﴾ مضاف إليها ﴿ يوم ﴾ ، أي هذا يوم نفْع الصدق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ جمهور القرّاء ﴿يَوْم﴾ بالرفع ، وقرأ نافع بالنصب ، واختاره أبو عبيدة .

(13/221)

فمن قرأ بالرفع ، قال الزجاج : التقدير هذا اليوم يوم منفعة الصادقين ، وأما النصب ففيه وجوه : الأول : على أنه ظرف لقال والتقدير : قال الله هذا القول لعيسى يوم ينفع .

الثاني : أن يكون التقدير : هذا الصدق واقع يوم ينفع الصادقين صدقهم ، ويجوز أن تجعل ظروف الزمان أخباراً عن الأحداث بهذا التأويل كقولك : القتال يوم السبت ، والحج يوم عرفة ، أي واقع في ذلك اليوم ، والثالث : قال الفرّاء : ﴿يَوْمِ﴾ أضيف إلى ما ليس باسم فبني على الفتح كما في يومئذ .

قال البصريون هذا خطأ لأن الظرف إنما يبنى إذا أضيف إلى المبنى كقول النابغة

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . بنى (حين) لإضافته إلى المبنيّ ، وهو الفعل الماضي ، وكذلك قوله ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ ﴾ [الإنفطار : 19] بني لإضافته إلى (لا) وهي مبنية ، أما هنا فالإضافة إلى معرب لأن ينفع فعل مستقبل ، والفعل المستقبل معرب فالإضافة إليه لا توجب البناء والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 115.114 ﴾

وقال القرطبى :

قرأ نافع وابن مُحَيْصِن "يَوْمَ" بالنصب ، ورفع الباقون وهي القراءة البيّنة على الابتداء والخبر ، فيوم ينفع خبر ل "هذا" والجملة في موضع نصب بالقول .

وأما قراءة نافع وابن مُحَيْصِن فحكى إبراهيم بن حميد عن محمد بن يزيد أن هذه القراءة لا تجوز ، لأنه نصب خبر الإبتداء ، ولا يجوز فيه البناء .

وقال إبراهيم بن السَّري : هي جائزة بمعنى قال الله هذا لعيسى ابن مريم يوم ينفع الصادقين صدقهم ؛ ف "يوم" ظرف للقول ، و"هذا" مفعول القول والتقدير ؛ قال الله هذا القول في يوم ينفع الصادقين .

وقيل : التقدير قال الله عز وجل هذه الأشياء تنفع يوم القيامة .

وقال الكسائي والفَرّاء : بني يوم ها هنا على النصب ؛ لأنه مضاف إلى غير اسم ؛ كما تقول : مضى يومئذ ؛ وأنشد الكِسائي :

على حينَ عاتبتُ المِشيبَ على الصِّبَا . . .

وقلتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

(14/221)

الزّجاج : ولا يجيز البصريون ما قالاه إذا أضفت الظرف إلى فعل مضارع .

فإن كان إلى ماض كان جيداً كما مرّ في البيت ، وإنما جاز أن يضاف الفعل إلى ظروف الزمان ؛ لأن الفعل بمعنى المصدر .

وقيل : يجوز أن يكون منصوباً ظرفاً ويكون خبر الابتداء الذي هو "هذا" لأنه مشارٌ به إلى حَدثٍ ، وظروف الزمان تكون أخباراً عن الأحداث ، تقول : القتالُ اليوم ، والخروج الساعة ، والجملة في موضع نصب بالقول .

وقيل : يجوز أن يكون "هذا" في موضع رفع بالابتداء و"يوم" خبر الابتداء والعامل فيه محذوف ، والتقدير : قال الله هذا الذي قصصناه يقع يوم ينفع الصادقين صدقهم .

وفيه قراءة ثالثة ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ ﴾ بالتنوين ﴿ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ في الكلام حذف تقديره "فيه" مثل قوله : ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ [البقرة : 48] وهي قراءة الأعمش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

واسم الإشارة مبتدأ و ﴿ يَوْمِ ﴾ بالرفع وهي قراءة الجمهور خبره .

وقرأ نافع وحده ﴿ يَوْمَ ﴾ بالنصب على أنه ظرف لقال و ﴿ هذا ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي كلام عيسى عليه السلام أو حق أو نحو ذلك أو ظرف مستقر وقع خبراً ؛ والمعنى هذا الذي مر من جواب عيسى عليه السلام أو السؤال والجواب واقع يوم ينفع ، وجوز أن يكون ﴿ هذا ﴾ مفعولاً به للقول لأنه بمعنى الكلام والقصص أو مفعولاً مطلقاً لأنه بمعنى القول ، وقيل : إن ﴿ هذا ﴾ مبتدأ و ﴿ يَوْمِ ﴾ خبره وهو مبني على الفتح بناءً على أن الظرف يبنى عليه إذا أضيف إلى جملة فعلية وإن كانت معربة وهو مذهب الكوفيين واختاره ابن مالك وغيره ، والبصريون لا يجيزون البناء إلا إذا صدرت الجملة المضاف إليها بفعل ماض كقوله

: على حين عاتبت المشيب على الصبا . . .

وألحقوا بذلك الفعل المنفي ، ويخرجون هذه القراءة على أحد الأوجه السابقة .

(15/221)

وقرأ الأعمش ﴿ يَوْمٍ ﴾ بالرفع والتنوين على أنه خبر ﴿ هذا ﴾ والجملة بعده صفته بحذف العائد ، وقرأ ﴿ صِدْقُهُمْ ﴾ بالنصب على أن يكون فاعل ﴿ ينفَعُ ﴾ ضمير الله تعالى ، و﴿ صِدْقُهُمْ ﴾ كما قال أبو البقاء إما مفعول له أي لصدقهم أو منصوب بنزع الخافض أي بصدقهم أو مصدر مؤكد أو مفعول به على معنى يصدقون الصدق كقولك : صدقته القتال ، والمراد يحققون الصدق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقد قرأ غير نافع من العشرة ﴿ يومُ ﴾ مضموماً ضمّة رفع لأنّه خبرُ ﴿ هذا ﴾ .

وقرأه نافع مفتوحاً على أنّه مبني على الفتح لإضافته إلى الجملة الفعلية .

وإضافة اسم الزمان إلى الجملة الفعلية تسوّغ بناءه على الفتح ، فإن كانت ماضوية فالبناء أكثر ، كقول النابغة:

على حينَ عَاتبتُ المشيبَ على الصّبا . . .

وإن كانت مضارعية فالبناء والإعراب جائزان كما في هذه الآية ، وهو التحقيق .

وإضافة الظرف إلى الجملة تقتضي أنّ مضمونها يحصل فيه ، فنفع الصدق أصحابه حاصل يومئذٍ .

وعموم الصادقين يشمل الصدق الصادر في ذلك اليوم والصادر في الدنيا ، فنفع كليهما يظهر يومئذٍ ؛ فأمّا نفع الصادر في الدنيا فهو حصول ثوابه ، وأمّا نفع الصادر في الآخرة كصدق

المسيح فيما قاله فهو برضى الله عن الصادق أو تجنّب غضبه على الذي يكذّبه فلا حيرة في معنى الآية .

والمراد بِ ﴿ الصادقين ﴾ الذين كان الصدق شعارهم لم يعدلوا عنه .

ومن أوّل مراتب الصدق صدق الاعتقاد بأن لا يعتقدوا ما هو مخالف لما في نفس الأمر ممّا قامَ عليه الدليل العقلي أو الشرعي .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (119) .

(16/221)

ومعنى نفع الصدق صاحبه في ذلك اليوم أنّ ذلك اليوم يوم الحقّ فالصادق ينتفع فيه بصدقه ، لأنّ الصدق حسن فلا يكون له في الحقّ إلاّ الأثر الحسن ، بخلاف الحال في عالم الدنيا عالم حصول الحقّ والباطل فإنّ الحقّ قد يجرّ ضرّاً لصاحبه بتحريف الناس للحقائق ، أو بمؤاخذته على ما أخبر به بحيث لو لم يخبر به لما اطّلع عليه أحد .

وأمّا ما يترتّب عليه من الثواب في الآخرة فذلك من النفع الحاصل في يوم القيامة .

وقد ابتلي كعب بن مالك رضي الله عنه في الصدق ثم رأى حُسن مغبّته في الدنيا .

ومعنى نفع الصدق أنّه إن كان الخبر عن أمر حسن ارتكبه المخبر فالصدق حسن والمخبَر

عنه حسن فيكون نفعاً محضاً وعليه جزاءان ، كما في قول عيسى : ﴿ سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ ﴾ [المائدة : 116] إلى آخره ، وإن كان الخبر عن أمر قبيح فإنّ الصدق لا يزيد المخبر عنه قبحاً لأنّه قد حصل قبيحاً سواء أخبر عنه أم لم يخبر ، وكان لقبحه مستحقّاً أثراً قبيحاً مثله .

وينفع الصدق صاحبه مرتكب ذلك القبيح فيناله جزاء الصدق فيخفّ عنه بعض العقاب بما ازداد من وسائل الإحسان إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

فائدة

قال الثعالبى:

﴿ قَالَ الله هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ دخل تحت هذه العِبَارَةِ كل مؤمن بالله سبحانه ، وكُلُّ ما كان أتقى ، فهو أَدْخَلُ في العبارة ، وجاءت هذه العبارة مُشِيرَةً إلى عيسى عليه السلام في حاله ، وصدْقه ؛ فيحصل له بذلك في المَوْقِفِ شَرَفٌ عظيم ، وإن كان اللفظ يعمه وسواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(17/221)

قوله تعالى ﴿ لَهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبداً رَّضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذلك الفوز العظيم ﴾

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما أخبر أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم في القيامة ، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب ، وحقيقة الثواب : أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم .

فقوله ﴿ لَهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم ، وقوله ﴿ خالدين فِيهَا أَبداً ﴾ إشارة إلى الدوام واعتبر هذه الدقيقة ، فإنه أينما ذكر الثواب قال : ﴿ خالدين فِيهَا أَبداً ﴾ وأينما ذكر عقاب الفساق من أهل الإيمان ذكر لفظ الخلود ولم يذكر معه التأبيد ، وأما قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذلك الفوز العظيم ﴾ فهو إشارة إلى التعظيم .

هذا ظاهر قول المتكلمين ، وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى ، فتحت قوله ﴿ رّضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنا الله من أهلها ، وقوله ﴿ ذلك الفوز ﴾ الجمهور على أن قوله ﴿ ذلك ﴾ عائد إلى جملة ما تقدم من قوله ﴿ لَهُمْ جنات تَجْرِي ﴾ إلى قوله ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ وعندي أنه يحتمل أن يكون ذلك مختصاً بقوله ﴿ رَّضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ فإنه ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود ، وكيف

والجنة مرغوب الشهوة ، والرضوان صفة الحق وأي مناسبة بينهما ، وهذا الكلام يشمئز منه طبع المتكلم الظاهريّ ، ولكن كل ميسرٌ لما خلق له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 115 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ تَجْرِي ﴾ في موضع الصفة .

﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ أي من تحت غُرَفها وأشجارها وقد تقدّم .

ثم بيّن تعالى ثوابهم ، وأنه راض عنهم رضاً لا يغضب بعده أبداً .

﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أي عن الجزاء الذي أثابهم به .

﴿ ذلك الفوز ﴾ أي الظفر ﴿ العظيم ﴾ أي الذي عظم خيره وكثر ، وارتفعت منزلة صاحبه وشَرُف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(18/221)

وقال أبو حيان :

﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ هذا كأنه جواب سائل ما لهم جزاء على

الصدق ؟ فقيل : لهم جنات .

﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ إشارة إلى تأبيد الديمومية في الجنة .

﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ قيل : بقبول حسناتهم ﴿ ورضوا عنه ﴾ بما آتاهم من الكرامة .

وقيل : بطاعتهم ورضوا عنه في الآخرة بثوابه .

وقال الترمذي : بصدقهم ﴿ ورضوا عنه ﴾ بوفاء حقهم .

وقيل : في الدنيا ورضوا عنه في الآخرة .

وقال أبو عبد الله الرازي : في قوله ﴿ رضي الله عنهم ﴾ هو إشارة إلى التعظيم هذا على ظاهر قول المتكلمين ، وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى فتحت قوله : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنا الله من أهلها ؛ انتهى .

وهو كلام عجيب شبيه بكلام أهل الفلسفة والتصوّف .

﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدم من كينونة الجنة لهم على التأبيد وإلى رضوان الله عنهم ، لأن الجنة بما فيها كالعدم بالنسبة إلى رضوان الله وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يطلع الله على أهل الجنة فيقول : يا أهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون : يا ربنا وكيف لا نرضى وقد بعدتنا عن نارك وأدخلتنا جنتك ، فيقول

الله تعالى : ولكم عندي أفضل من ذلك فيقولون : وما أفضل من ذلك ؟ فيقول الله عز وجل : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعدها أبداً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(19/221)

وقال أبو السعود :

﴿ لَهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان النفع المذكور كأنه قيل : ما لهم من النفع ؟ فقيل : لهم نعيمٌ دائم وثوابٌ خالد ، وقوله تعالى : ﴿ رَّضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ استئنافٌ آخرُ لبيان أنه عز وجل أفاض عليهم غيرَ ما ذُكر من الجنات ما لا قدْرَ لها عنده ، وهو رضوانُه الذي لا غايةَ وراءَه كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ إذ لا شيء أعزُّ منه حتى يمتدَّ إليه أعناقُ الهمم ﴿ وذلك ﴾ إشارةٌ إلى نيل رضوانه تعالى ، وقيل : إلى نيل الكل ﴿ الفوز العظيم ﴾ لما أن عِظَمَ شأنِ الفوز تابعٌ لعِظَم شأن المطلوب الذي تعلّق به الفوز . وقد عرفت ألا مطلبَ وراء ذلك أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لَهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ تفسير للنفع ولذا لم يعطف عليه كأنه قيل : ما لهم من النفع ؟ فقيل : لهم نعيم دائم وثواب خالد ، وقوله سبحانه : ﴿ رَّضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ بيان لكونه تعالى أفاض عليهم غير ما ذكر وهو رضوانه عز وجل الذي لا غاية وراءه كما ينبىء عن ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ إذ لا شيء أعز منه حتى تمد إليه أعناق الآمال ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى نيل رضوانه جل شأنه كما اختاره بعض المحققين أو إلى جميع ما تقدم كما اختاره في "البحر" وإليه يشير ما روي عن الحسن ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذي لا يحيط به نطاق الوصف ولا يوقف على مطلب يدانيه أصلاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ لهم جنات ﴾ مبيّنة لجملة : ﴿ ينفع ﴾ باعتبار أنّها أكمل أحوال نفع الصدق .

وجملة ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ صفة ل ﴿ جنّات ﴾ و ﴿ خالدين ﴾ حال .

وكذلك جملة ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

ومعنى : ﴿ رضوا عنه ﴾ المسرة الكاملة بما جازاهم به من الجنّة ورضوانه .

وأصل الرضا أنّه ضدّ الغضب ، فهو المحبّة وأثرها من الإكرام والإحسان .

فرضي الله مستعمل في إكرامه وإحسانه مثل محبّته في قوله : ﴿ يحبّهم ﴾ .

ورضي الخلق عن الله هو محبّته وحصول ما أمّلوه منه بحيث لا يبقى في نفوسهم متطلّع .

واسم الإشارة في قوله ﴿ ذلك ﴾ لتعظيم المشار إليه ، وهو الجنّات والرضوان . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(20/221)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ رّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أي رضي عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له ، ورضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال ولا تتصوره عقولهم ، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم ، وأعلى منازل الكرامة ، والإشارة بذلك إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبداً ، ورضوان الله عليهم .

والفوز : الظفر بالمطلوب على أتمّ الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(21/221)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾

نعرف أن هناك صدقاً ينفع يوم القيامة وهو الصدق الموصول بصدق الدنيا . وهناك صدق لا ينفع يوم القيامة ومثال ذلك قول إبليس اللعين كما يحكي القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] .

مثل هذا الصدق لا ينفع أحداً ؛ لأن الآخرة ليست دار التكليف . لكن الصدق الموصول بصدق الدنيا هو قول عيسى عليه السلام : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ . ولذلك يقول الله في الصدق الموصول : ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ .

ذلك أن صدق الصادقين يوم القيامة هو صدق موصول بصدقهم في زمن التكليف وهو الدنيا ويتلقون رضاء الله : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ وإن تساءل إنسان : كيف يرضى العبد عن ربه ؟ .

نقول : إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم في الآخرة يمتلئون بالحبور ويقولون : ﴿ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر : 74] .

هذه الآية التي تتحدث عن يوم ينفع الصادقين صدقهم بقوله : ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ كأن هناك فوزاً سطحياً ، وفوزاً عظيماً ، والفوز السطحي : هو ما يعطيه الإنسان لنفسه في دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجل فيبدو ظاهرياً وكأنه قد فاز ، وفي الحقيقة ليس هو الفوز العظيم لأن الندم سيعقبه ، وأي لذة يعقبها الندم ليست فوزاً ؛ لأن الدنيا بكل ما فيها من نعيم هو نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره ، وهو نعيم مهدد بشيئين ؛ أن يزول النعيم عن الإنسان ، وكثيراً ما رأينا منعمين زال عنهم النعيم ، أو أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ، ونرى ذلك كثيراً . أما النعيم الذي هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذي لا يمنعه أحد ، ولا يقطعه شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(23/221)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ قال : يقول هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ قال : هذا فصل بين كلام عيسى وهذا يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال : متكلمان تكلما يوم القيامة . نبي الله عيسى ، وإبليس عدو الله ، فأما إبليس فيقول ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ [إبراهيم : 42] إلى قوله ﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم ﴾ لي وصدق عدو الله يومئذ ، وكان في الدنيا كاذبا ، وأما عيسى فما قص الله عليكم في قوله ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ﴾ [المائدة : 116] إلى آخر الآية : ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ وكان صادقاً في الحياة الدنيا وبعد الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(24/221)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ الجمهور " يومُ " بالرفع تنوين ، ونافع بالنصب من غير تنوين واختاره أبو عبيدة ونقل الزمخشري عن الأعمش " يوماً " بنصبه منوناً ، وابن عطية عن الحسن بن عياش الشامي : " يوم " برفعه منوناً ، فهذه أربع قراءات .

فأما قراءة الجمهور فواضحةٌ على المبتدأ والخبر ، والجملةُ في محل نصب بالقول .

وأمَّا قراءة نافع ففيها أوجه ، أحدها : أنَّ " هذا " مبتدأ ، و" يوم " خبره كالقراءة الأولى ، وإنما بُني الظرفُ لإضافته إلى الجملة الفعلية وإن كانت معربةً ، وهذا مذهب الكوفيين ، واستدلُّوا عليه بهذه القراءةِ ، وأمَّا البصريون فلا يجيزون البناء إلا إذا صُدِّرت الجملةُ المضافُ إليها بفعلٍ ماضٍ ، وعليه قولُ النابغة : [الطويل]

2101 - عَلَى حينَ عَاتَبْتُ المشِيبَ على الصِّبَا . . .

فَقُلْتُ : أَلَمَّا أصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ

وخَرَّجوا هذه القراءة على أن " يوم " منصوبٌ على الظرف ، وهو متعلق في الحقيقة بخبر المبتدأ أي : هذا واقعٌ أو يقع في يوم ينفع ، فيستوي هذا مع تخريج القراءة الأولى والثانية أيضاً في المعنى .

ومنهم من خرَّجه على أنَّ " هذا " منصوبٌ بـ " قال " ، وأشير به إلى المصدر فنصبه على المصدر ، وقيل : بل أشير به إلى الخبر والقِصَص المتقدمةِ فيجري في نصبه خلافٌ : هل هو منصوبٌ نصب المفعول به أو نصبَ المصادر ؟ لأنه متى وقع بعد القول ما يُفْهم كلاماً نحو : "

قلت شعراً وخطبة " جَرَى فيه هذا الخلاف ، وعلى كلِّ تقدير ف " يوم " منصوبٌ على الظرف بـ " قال " أي : قال الله هذا القولَ أو هذه الأخبارَ في وقتِ نفع الصادقين ، و " ينفع " في محلِّ خفضٍ بالإضافة ، وقد تقدَّم ما يجوز إضافتُه إلى الجمل وأنه أحد ثلاثةِ أشياء .

وأمَّا قراءة التنوين فرفعه على الخبريةِ كقراءة الجماعة ، ونصبُه على الظرفِ كقراءة نافع ، إلا أنَّ الجملةَ بعده في القراءتين في محل الوصفِ لما قبلها ، والعائدُ محذوفٌ ، وهي نظيرُ قوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ [البقرة : 48] ، فيكونُ محلُّ هذه الجملة إما رفعاً أو نصباً .

(25/221)

قوله : " صِدْقُهم " مرفوع بالفاعلية ، وهذه قراءة العامة ، وقُرِئ شاذاً بنصبه وفيه أربعة أوجه ، أحدها : أنه منصوب على المفعول من أجله أي : ينفعهم لأجلِ صدقهم ، ذكر ذلك أبو البقاء ، وتبعه أبو حيان وهذا لا يجوز لأنه فات شرطٌ من شروط النصب ، وهو اتحاد الفاعل ، فإنَّ فاعلَ النفع غيرُ فاعل الصدقِ ، وليس لقائلٍ أن يقول : "يُنْصب بالصادقين فكأنه قيل : الذين يَصْدُقون لأَجل صدقهم فيلزمُ اتحادُ الفاعل " لأنه يؤدي إلى أنَّ الشيء علة لنفسِه ، وللقولِ فيه مجال .

الثاني : على إسقاط حرف الجر أي : بصدقهم ، وهذا فيه ما عرف من أن حذف الحرف لا يطَّرد .

الثالث : أنه منصوب على المفعول به ، والناصب له اسم الفاعل في " الصادقين " أي : الذين صدقوا صدقهم ، مبالغةً نحو : " صدقْت القتال " كأنك وعدتَ القتالَ فلم تَكْذِبْه ، وقد يُقَوِّي هذا نصبُه على المفعول له ، والعامل فيه اسم الفاعل قبله .

الرابع : أنه مصدرٌ مؤكد كأنه قيل : الذين يَصْدُقون الصدقَ كما تقول : " صَدَقَ الصدقَ " ، وعلى هذه الأوجه كلِّها ففاعلُ " ينفع " ضمير يعود على الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 7 صـ 626. 627 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ .

مَنْ تَعَجَّل ميراثَ صدقه في دنياه من قبولٍ حصل له من الناس ، أو رياسةٍ عقدت له ، له أو نفع وصل إليه من جاهٍ أو مالٍ . فلا شيء له في آجله من صواب صدقه ، لأن الحقَّ – سبحانه – نصّ بأنَّ يومَ القيامة ينفع فيه الصادقين صدقهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ .

ورضاءُ الحق – سبحانه – إثباتُ مَحَلّ لهم ، وثناؤه عليهم ومدحُه لهم ، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله . ورضاؤهم عن الحق – سبحانه في الآخرة وصولهم إلى مناهم ؛ فهو الفوز العظيم والنجاة الكبرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 458 ﴾

(26/221)

فصل نفيس فى منزلة الرضى للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة :

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الرضى

وقد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه واختلفوا في وجوبه على قولين

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يحكيهما على قولين لأصحاب أحمد

وكان يذهب إلى القول باستحبابه قال: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم

قال: وأما ما يروي من الأثر: من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربا سوائي فهذا أثر إسرائيلي ليس يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم

قلت: ولا سيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسبة بل هو موهبة محضة فكيف يؤمر به وليس مقدورا عليه وهذه مسألة اختلف فيها أرباب السلوك على ثلاث طرق فالخراسانيون قالوا: الرضى من جملة المقامات وهو نهاية التوكل فعلى هذا: يمكن أن يتوصل إليه العبد باكتسابه والعراقيون قالوا: هو من جملة الأحوال وليس كسبيا للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب والأحوال مجرد المواهب

وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين منهم القشيري صاحب الرسالة وغيره فقالوا: يمكن الجمع بينهما بأن يقال: بداية الرضى مكتسبة للعبد وهي من جملة المقامات ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة فأوله مقام ونهايته حال

(27/221)

واحتج من جعله من جملة المقامات: بأن الله مدح أهله وأثنى عليهم وندبهم إليه فدل ذلك على أنه مقدور لهم وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا وقال: من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا غفرت له ذنوبه وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات

الدين وإليهما ينتهي وقد تضمنا الرضى بربوبيته سبحانه وألوهيته والرضى برسوله والانقياد له والرضى بدينه والتسليم له ومن اجتمعت له هذه الأربعة: فهو الصديق حقا وهي سهلة بالدعوى واللسان وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك: تبين أن الرضى كان لسانه به ناطقا فهو على لسانه لا على حاله فالرضى بإلهيته يتضمن الرضى بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه فعل الراضي بمحبوبه كل الرضى وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له والرضى بربوبيته: يتضمن الرضى بتدبيره لعبده ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به

والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه وأما الرضى بنبيه رسولا: فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ولا يحاكم إلا إليه ولا يحكم عليه غيره ولا يرضى بحكم غيره ألبتة لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ولا في

شيء من أحكام ظاهره وباطنه لا يرضى في ذلك بحكم غيره ولا يرضى إلا بحكمه فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم وأحسن أحواله: أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور وأما الرضى بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى: رضي كل الرضى ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليما ولو كان مخالفا لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلده وشيخه وطائفته وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد فإنه والله عين العزة والصحبة مع الله ورسوله وروح الأنس به والرضى به ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب وذاق حلاوته وتنسم روحه قال: اللهم زدني اغترابا ووحشة من العالم وأنسا بك وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرد: رأى الوحشة عين الأنس بالناس والذل عين العز بهم والجهل عين الوقوف مع آرائهم وزبالة أذهانهم والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدا من الخلق ولم يبع حظه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان وغايته: مودة بينهم في الحياة الدنيا فإذا انقطعت الأسباب وحقت الحقائق وبعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور وبليت السرائر ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر: تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران وما الذي يخف أو يرجح به الميزان والله المستعان

وعليه التكلان

والتحقيق في المسألة: أن الرضى كسبي باعتبار سببه موهبي باعتبار حقيقته فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته: اجتنى منها ثمرة الرضى فإن الرضى آخر التوكل فمن رسخ قدمه في التوكل

(29/221)

والتسليم والتفويض: حصل له الرضى ولا بد ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خلقه رحمة بهم وتخفيفا عنهم لكن ندبهم إليه وأثنى على أهله وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها فمن رضي عن ربه رضي الله عنه بل رضي العبد عن الله من نتائج رضى الله عنه فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضي قبله أوجب له أن يرضى عنه ورضى بعده هو ثمرة رضاه عنه ولذلك كان الرضى باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وقرة عيون المشتاقين ومن أعظم أسباب حصول الرضى: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه فإنه يوصله إلى مقام الرضى ولابد قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى فقال إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه فيقول: إن أعطيتني

قبلت وإن منعتني رضيت وإن تركتني عبدت وإن دعوتني أجبت وقال الجنيد : الرضى هو صحة العلم الواصل إلى القلب فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضى

وليس الرضى والمحبة كالرجاء والخوف فإن الرضى والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة لا يفارقان المتلبس بهما في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة بخلاف الخوف والرجاء فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه وأمنهم مما كانوا يخافونه وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائما

لكنه ليس رجاء مشوبا بشك بل هو رجاء واثق بوعد صادق من حبيب قادر فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون وقال ابن عطاء : الرضى سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل فيرضى به قلت: وهذا رضى بما منه وأما الرضى به: فأعلى من هذا وأفضل ففرق بين من هو راض بمحبوبه وبين من هو راض بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه والله أعلم

فصل وليس من شرط الرضى ألا يحس بالألم والمكاره بل ألا يعترض على

(30/221)

الحكم ولا يتسخطه ولهذا أشكل على بعض الناس الرضى بالمكروه وطعنوا فيه وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة وإنما هو الصبر وإلا فكيف يجتمع الرضى والكراهية وهما ضدان والصواب: أنه لا تناقض بينهما وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضى كرضى المريض بشرب الدواء الكريه ورضى الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمإ ورضى المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها

وطريق الرضى طريق مختصرة قريبة جدا موصلة إلى أجل غاية ولكن فيها مشقة ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها وإنما عقبتها همة عالية ونفس زكية وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله ويسهل ذلك على العبد: علمه بضعفه وعجزه ورحمته به وشفقته عليه وبره به فإذا شهد هذا وهذا ولم يطرح نفسه بين يديه ويرضى به وعنه وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها إليه: فنفسه نفس مطرودة عن الله بعيدة عنه ليست

مؤهلة لقربه وموالاته أو نفس ممتحنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن

(31/221)

فطريق الرضى والمحبة: تسير العبد وهو مستلق على فراشه فيصبح أمام الركب بمراحل وثمرة الرضى: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى المنام وكأني ذكرت له شيئا من أعمال القلب وأخذت في تعظيمه ومنفعته لا أذكره الآن فقال: أما أنا فطريقتي الفرح بالله والسرور به أو نحو هذا من العبارة وهكذا كانت حاله في الحياة يبدو ذلك على ظاهره وينادي به عليه حاله لكن قد قال الواسطي: استعمل الرضى جهدك ولا تدع الرضى يستعملك فتكون محجوبا بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع وهذا الذي أشار إليه الواسطى هو عقبة عظيمة عند القوم ومقطع لهم فإن مساكنة الأحوال والسكون إليها والوقوف عندها: استلذاذا ومحبة: حجاب بينهم وبين ربهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم وهي عقبة لا يجوزها إلا أولو العزائم وكان الواسطي كثير التحذير من هذه العقبة شديد التنبيه عليها ومن كلامه: إياكم واستحلاء الطاعات فإنها سموم قاتلة فهذا معنى قوله: استعمل الرضى جهدك ولا تدع الرضى يستعملك أي لا يكون عملك لأجل حصول حلاوة الرضى بحيث تكون هي الباعثة لك عليه بل اجعله آلة لك وسببا موصلا إلى قصدك ومطلوبك فتكون مستعملا له لا أنه مستعمل لك وهذا لا يختص بالرضى بل هو عام في جميع الأحوال والمقامات القلبية التي يسكن إليها القلب حتى إنه أيضا لا يكون عاملا على المحبة لأجل المحبة

وما فيها من اللذة والسرور والنعيم به بل يستعمل المحبة في مرضاة المحبوب لا يقف عندها فهذا من علل المحبة وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام الرضى: ترك الاختيار قبل القضاء وفقدان المرارة بعد القضاء وهيجان الحب في حشو البلاء وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: إن أبا ذر رضي الله عنه يقول: الفقر أحب إلي من الغنى والسقم أحب إلي من الصحة فقال: رحم الله أبا ذر أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختار الله له وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: الرضى أفضل من الزهد في الدنيا لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته وسئل أبو عثمان عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: أسألك الرضى بعد القضاء فقال: لأن الرضى قبل القضا عزم على الرضى والرضى بعد القضا هو الرضى وقيل: الرضى ارتفاع الجزع في أي حكم كان وقيل: رفع الاختيار وقيل: استقبال الأحكام بالفرح وقيل سكون القلب تحت مجاري الأحكام وقيل: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد وهو ترك السخط وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما: أما بعد فإن الخير كله في الرضى فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر وقال أبو علي الدقاق: الإنسان خزف وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحق تعالى وقال أبو عثمان الحيري: منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته وما نقلني إلى غيره فسخطته والرضى ثلاثة أقسام: رضى العوام بما قسمه الله وأعطاه ورضى الخواص بما

قدره وقضاه ورضى خواص الخواص به بدلا من كل ما سواه

فصل قال صاحب المنازل:

(33/221)

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 2730] لم يدع في هذه الآية للمتسخط إليه سبيلا وشرط القاصد الدخول في الرضى والرضى اسم للوقوف الصادق حيثما وقف العبد لا يلتمس متقدما ولا متأخرا ولا يستزيد مزيدا ولا يستبدل حالا وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص وأشقها على العامة أما قوله: لم يدع في هذه الآية للمتسخط إليه سبيلا فلأنه قيد رجوعها إليه سبحانه بحال وهو وصف الرضى فلا سبيل إلى الرجوع إليه مع سلب ذلك الوصف عنها وهذا نظير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32] فإنما أوجب لهم هذا السلام من الملائكة والبشارة بقيد وهو وفاتهم طيبين فلم تبق الآية لغير الطيب سبيلا إلى هذه البشارة

والحاصل: أن الدخول في الرضى شرط في رجوع النفس إلى ربها فلا ترجع إليه إلا إذا كانت راضية قلت: هذا تعلق بإشارة الآية لا بالمراد منها فإن المراد منها: رضاها بما

حصل لها من كرامته وبما نالته عند الرجوع إليه فحصل لها رضاها والرضى عنها وهذا يقال لها عند خروجها من دار الدنيا وقدومها على الله

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : إذا توفى العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين وأرسل إليه بتحفة من الجنة فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى روح وريحان ورب عنك راض وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف

أحدها : أنه عند الموت وهو الأشهر قال الحسن: إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها ورضيت عن الله فيرضى الله عنها

(34/221)

وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث هذا قول عكرمة وعطاء والضحاك وجماعة

وقال آخرون: الكلمة الأولى وهي ارجعي إلى ربك راضية مرضية تقال لها عند الموت والكلمة الثانية وهي فادخلي في عبادي وادخلي جنتي تقال لها يوم القيامة قال أبو صالح ارجعي إلى ربك راضية مرضية هذا عند خروجها من الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل لها فادخلي في عبادي وادخلي جنتي والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ويوم القيامة فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى إن كانت

مطمئنة إلى الله وفي جنته كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلى الله ودخول الجنة فأول ذلك عند الموت وتمامه ونهايته: يوم القيامة فلا اختلاف في الحقيقة ولكن الشيخ أخذ من إشارة الآية: أن رجوعها إلى الله من الخلق في هذا العالم إنما يحصل برضاها ولكن لو استدل بالآية في مقام الطمأنينة لكان أولى فإن هذا الرجوع الذي حصل لها فيه رضاها والرضى عنها: إنما نالته بالطمأنينة وهو حظ الكسب من هذه الآية وموضع التنبيه على موقع الطمأنينة وما يحصل لصاحبها فلنرجع إلى شرح كلامه قوله: الرضى هو الوقوف الصادق يريد به الوقوف مع مراد الرب تبارك وتعالى الديني حقيقة من غير تردد في ذلك ولا معارضة وهذا مطلوب القوم السابقين وهو الوقوف الصادق مع محاب الرب تعالى من غير أن يشوب ذلك تردد ولا يزاحمه مراد

(35/221)

قوله: حيثما وقف العبد يصح أن يكون العبد فاعلا أي حيث ما وقف بإذن ربه لا يلتمس تقدما ولا تأخرا ويصح أن يكون مفعولا وهو أظهر أي حيثما وقف الله العبد فإن وقف يستعمل لازما ومتعديا أي حيثما وقفه ربه لا يطلب تقدما ولا تأخرا وهذا إنما يكون فيما يقفه فيه من مراده الكوني الذي لا يتعلق بالأمر والنهي وأما إذا وقفه في مراد ديني فكماله

بطلب التقدم فيه دائما فإنه إن لم تكن همته التقدم إلى الله في كل لحظة: رجع من حيث لا يدري فلا وقوف في الطريق ألبتة ولكن إذا وقف في مقام من الغنى والفقر والراحة والتعب والعافية والسقم والاستيطان ومفارقة الأوطان يقف حيث وقفه لا يطلب غير تلك الحالة التي أقامه الله فيها وهذا لتصحيح رضاه باختيار الله له والفناء به عن اختياره لنفسه وكذلك قوله: لا يستزيد مزيدا ولا يستبدل حالا وهذا المعنى الذي ذكره الشيخ فرد من أفراد الرضى وهو الرضى بالأقسام والأحكام الكونية التي لم يؤمر بمدافعتها وقوله: وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص يعني أن سلوك أهل الخصوص: هو بالخروج عن النفس والخروج عن الإرادة: هو مبدأ الخروج عن النفس فإذا الرضى بهذا الاعتبار من أوائل مسالك الخاصة وهذا على أصله في كون الفناء غاية مطلوبة فوق الرضى والصواب: أن الرضى أجل منه وأعلى وهو غاية لا بداية نعم فوقه مقام الشكر فهو منزلة بينه وبين منزلة الصبر وقوله: وأشقها على العامة وذلك لمشقة الخروج عن الحظوظ على العامة والرضى أول ما فيه: الخروج عن الحظوظ والله سبحانه وتعالى أعلم

(36/221)

فصل قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: رضى العامة وهو الرضى بالله ربا وتسخط عبادة ما دونه وهذا قطب رحى الإسلام وهو يطهر من الشرك الأكبر الرضى بالله ربا: أن لا يتخذ ربا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 164] قال ابن عباس رضى الله عنهما: سيدا وإلها يعني فكيف أطلب ربا غيره وهو رب كل شيء وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: 14] يعني معبودا وناصرا ومعينا وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة وقال في وسطها: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: 114] أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه وهذا كتابه سيد الحكام فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلا مبينا كافيا شافيا

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها فكثير من الناس يرضى بالله ربا ولا يبغي ربا سواه لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصرا بل يوالي من دونه أولياء ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك وهذا عين الشرك بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء وهذا

غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون ومن

(37/221)

لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه وكثير من الناس يبتغي غيره حكما يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد : أن لا يتخذ سواه ربا ولا إلها ولا غيره حكما وتفسير الرضى بالله ربا : أن يسخط عبادة ما دونه هذا هو الرضى بالله إلها وهو من تمام الرضى بالله ربا فمن أعطى الرضى به ربا حقه سخط عبادة ما دونه قطعا لأن الرضى بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية وقوله: وهو قطب رحى الإسلام يعنى أن مدار رحى الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة ربه وحده وأن يسخط عبادة غيره وقد تقدم أن العبادة هي الحب مع الذل فكل من ذللت له وأطعته وأحببته دون الله فأنت عابد له وقوله: وهو يطهر من الشرك الأكبر يعني أن الشرك نوعان: أكبر وأصغر فهذا الرضى يطهر صاحبه من الأكبر وأما الأصغر: فيطهر منه نزوله منزلة إياك نعبد وإياك نستعين

فصل قال: وهو يصح بثلاثة شروط: أن يكون الله عز وجل أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة يعني أن هذا النوع من الرضى إنما يصح بثلاثة أشياء أيضا أحدها: أن يكون الله عز وجل أحب شيء إلى العبد وهذه تعرف بثلاثة أشياء أيضا أحدها: أن تسبق محبته إلى القلب كل محبة فتتقدم محبته المحاب كلها الثاني: أن تقهر محبته كل محبة فتكون محبته إلى القلب سابقة قاهرة

ومحبة غيره متخلفة مقهورة مغلوبة منطوية في محبته الثالث: أن تكون محبة غيره تابعة لمحبته فيكون هو المحبوب بالذات والقصد الأول وغيره محبوبا تبعا لحبه كما يطاع تبعا لطاعته فهو في الحقيقة المطاع المحبوب وهذه الثلاثة في كونه أولى الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضا

(38/221)

فالحاصل: أن يكون الله وحده المحبوب المعظم المطاع فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه: فهو متكبر عليه ومتى أحب معه سواه وعظم معه سواه وأطاع معه سواه: فهو مشرك ومتى أفرده وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل قال: الدرجة الثانية: الرضى عن الله وبهذا نطقت آيات التنزيل وهو الرضى عنه في كل ما قضى وقدر وهذا من أوائل مسالك أهل الخصوص الشيخ جعل هذه الدرجة أعلى

من الدرجة التي قبلها ووجه قوله: أنه لا يدخل في الإسلام إلا بالدرجة الأولى فإذا استقر قدمه عليها دخل في مقام الإسلام وأما هذه الدرجة: فمن معاملات القلوب وهي لأهل الخصوص وهي الرضى عنه في أحكامه وأقضيته وإنما كان من أول مسالك أهل الخصوص لأنه مقدمة للخروج عن النفس والذي هو طريق أهل الخصوص فمقدمته بداية سلوكهم لأنه يتضمن خروج العبد عن حظوظه ووقوفه مع مراد الله عز وجل لا مع مراد نفسه

هذا تقرير كلامه وفي جعله هذه الدرجة أعلى من التي قبلها نظر لا يخفى وهو نظير جعله الصبر بالله أعلى من الصبر لله والذى ينبغي: أن تكون الدرجة الأولى أعلى شأنا وأرفع قدرا فإنها مختصة

وهذه الدرجة مشتركة فإن الرضى بالقضاء يصح من المؤمن والكافر وغايته التسليم لقضاء الله وقدره فأين هذا من الرضى به ربا وإلها ومعبودا وأيضا فالرضى به ربا فرض بل هو من آكد الفروض باتفاق الأمة فمن لم يرض به ربا لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال وأما الرضى بقضائه: فأكثر الناس على أنه مستحب وليس بواجب وقيل: بل هو واجب وهما قولان في مذهب أحمد

(39/221)

فالفرق بين الدرجتين فرق ما بين الفرض والندب وفي الحديث الإلهي الصحيح: يقول الله عز وجل: ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه فدل على أن التقرب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلى من التقرب إليه بالنوافل وأيضا: فإن الرضى به ربا يتضمن الرضى عنه ويستلزمه فإن الرضى بربوبيته: هو رضى العبد بما يأمره به وينهاه عنه ويقسمه له ويقدره عليه ويعطيه إياه ويمنعه منه فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضي به ربا من جميع الوجوه وإن كان راضيا به ربا من بعضها فالرضى به ربا من كل وجه: يستلزم الرضى عنه ويتضمنه بلا ريب

وأيضا: فالرضى به ربا متعلق بذاته وصفاته وأسمائه وربوبيته العامة والخاصة فهو الرضى به خالقا ومدبرا وآمرا وناهيا وملكا ومعطيا ومانعا وحكما ووكيلا ووليا وناصرا ومعينا وكافيا وحسيبا ورقيبا ومبتليا ومعافيا وقابضا وباسطا إلى غير ذلك من صفات ربوبيته وأما الرضى عنه: فهو رضى العبد بما يفعله به ويعطيه إياه ولهذا إنما يجيء إلا في الثواب والجزاء كقوله تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 2728] فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: 8]

(40/221)

والرضى به: أصل الرضى عنه والرضى عنه: ثمرة الرضى به وسر المسألة: أن الرضى به متعلق بأسمائه وصفاته والرضى عنه: متعلق بثوابه وجزائه وأيضا: فإن النبي صلى الله عليه وسلم علق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربا ولم يعلقه بمن رضي عنه كما قال: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا فجعل الرضى به قرين الرضى بدينه ونبيه وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا بها وعليها وأيضا: فالرضى به ربا يتضمن توحيده وعبادته والإنابة إليه والتوكل عليه وخوفه ورجاءه ومحبته والصبر له وبه والشكر على نعمه يتضمن رؤية كل ما منه نعمة وإحسانا وإن ساء عبده فالرضا به يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله والرضى بمحمد رسولا يتضمن شهادة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم والرضى بالإسلام دينا: يتضمن التزام عبوديته وطاعته وطاعة رسوله فجمعت هذه الثلاثة الدين كله وأيضا: فالرضى به ربا يتضمن اتخاذه معبودا دون ما سواه واتخاذه وليا ومعبودا وإبطال عبادة كل ما سواه وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾ [الأنعام: 114] وقال: ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ [الأنعام: 14] وقال: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 164] فهذا هو عين الرضى به ربا

وأيضا: فإنه جعل حقيقة الرضى به ربا: أن يسخط عبادة ما دونه فمتى سخط العبد

عبادة ما سوى الله من الآلهة الباطلة حبا وخوفا ورجاء وتعظيما وإجلالا فقد تحقق بالرضى به ربا الذي هو قطب رحى الإسلام وإنما كان قطب رحى الدين: لأن جميع العقائد والأعمال والأحوال: إنما تنبني على توحيد الله عز وجل في العبادة وسخط عبادة ما سواه فمن لم يكن

(41/221)

له هذا القطب لم يكن له رحى تدور عليه ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرحى ودارت على ذلك القطب فيخرج حينئذ من دائرة الشرك إلى دائرة الإسلام فتدور رحى إسلامه وإيمانه على قطبها الثابت اللازم

وأيضا: فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضى موقوفا على كون المرضى به ربا سبحانه أحب إلى العبد من كل شيء وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية وينتظم فروعها وشعبها

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلى المحبوب: كان ذلك الميل حاملا على طاعته وتعظيمه وكلما كان الميل أقوى: كانت الطاعة أتم والتعظيم أوفر وهذا الميل يلازم الإيمان بل هو روح الإيمان ولبه فأي شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب

الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان كما في الصحيح عنه أنه قال: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار فعلق ذوق الإيمان بالرضى بالله ربا وعلق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه ولا يتم إلا به وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله ولما كان هذا الحب التام والإخلاص الذي هو ثمرته أعلى من مجرد الرضى بربوبيته سبحانه: كانت ثمرته أعلى وهي وجد حلاوة الإيمان وثمرة الرضى: ذوق طعم الإيمان فهذا وجد حلاوة وذلك ذوق طعم والله المستعان وإنما ترتب هذا وهذا على الرضى به وحده ربا والبراءة من عبودية ما سواه وميل القلب بكليته إليه وانجذاب قوى المحب كلها إليه ورضاه عن ربه تابع

(42/221)

لهذا الرضى به فمن رضي بالله ربا رضيه الله له عبدا ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته: لم ينل بذلك درجة رضى الرب عنه إن لم يرض به ربا وبنبيه رسولا وبالإسلام دينا فإن العبد قد يرضى عن الله ربه فيما أعطاه وفيما منعه ولكن لا يرضى به

وحده معبودا وإلها ولهذا إنما ضمن رضي العبد يوم القيامة لمن رضى به ربا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: من قال كل يوم: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا إلا كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة

فصل إذا عرف هذا فلنرجع إلى شرح كلامه قال: وبهذا الرضى نطق التنزيل

شير إلى قوله عز وجل: قال الله: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: 119] وقال تعالى فى آخر سورة المجادلة ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وقال في آخر سورة لم يكن ﴿ خالدين خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ فتضمنت هذه الآيات: جزاءهم على صدقهم وإيمانهم وأعمالهم الصالحة ومجاهدة أعدائه وعدم ولايتهم بأن رضي الله عنهم فأرضاهم فرضوا عنه وإنما حصل لهم هذا بعد الرضى به ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام دينا قوله: وهو الرضى عنه في كل ما قضى ههنا ثلاثة أمور: الرضاء بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله فالرضى به فرض والرضى عنه وإن كان من أجل الأمور وأشرف أنواع العبودية فلم يطالب به العموم لعجزهم عنه ومشقته عليهم وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضى به واحتجوا بحجج

منها : أنه إذا لم يكن راضيا عن ربه فهو ساخط عليه إذ لا واسطة بين الرضى والسخط وسخط العبد على ربه مناف لرضاه به ربا قالوا : وأيضا فعدم رضاه عنه يستلزم سوء ظنه به ومنازعته له في اختياره لعبده وأن الرب تبارك وتعالى يختار شيئا ويرضاه فلا يختاره العبد ولا يرضاه وهذا مناف للعبودية قالوا : وفي بعض الآثار الإلهية من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائي فليتخذ ربا سواي ولا حجة في شيء من ذلك

أما قوله: إنه لا يتخلص من السخط على ربه إلا بالرضى عنه إذ لا واسطة بين الرضا والسخط فكلام مدخول لأن السخط بالمقضي لا يستلزم السخط على من قضاه كما أن كراهة المقضي وبغضه والنفرة عنه لا تستلزم تعلق ذلك بالذي قضاه وقدره فالمقضي قد يسخطه العبد وهو راض عمن قضاه وقدره بل قد يجتمع تسخطه والرضى بنفس القضاء كما سيأتي إن شاء الله وأما قولكم: إنه يستلزم سوء ظن العبد بربه ومنازعته له في اختياره فليس كذلك بل هو حسن الظن بربه في الحالتين فإنه إنما يسخط المقدور وينازعه بمقدور آخر كما ينازع القدر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه فينازع قدر الله بقدر الله بالله لله كما يستعيذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته ويستعيذ به منه فأما كونه يختار لنفسه خلاف ما يختاره الرب فهذا موضع تفصيل لا يسحب عليه ذيل النفي والإثبات فاختيار الرب تعالى لعبده نوعان: أحدهما : اختيار ديني شرعي فالواجب على

العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: 36] فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه ورضاه بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا

(44/221)

النوع الثاني: اختيار كوني قدري لا يسخطه الرب كالمصائب التي يبتلى الله بها عبده فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه ويدفعها ويكشفها وليس في ذلك منازعة للربوبية وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر فهذا يكون تارة واجبا وتارة يكون مستحبا وتارة يكون مباحا مستوى الطرفين وتارة يكون مكروها وتارة يكون حراما وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه مثل قدر المعائب والذنوب فالعبد مأمور بسخطها ومنهي عن الرضى بها

وهذا هو التفصيل الواجب في الرضى بالقضاء وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابا عظيما ونجا منه أصحاب الفرق والتفصيل فإن لفظ الرضى بالقضاء لفظ محمود مأمور به وهو من مقامات الصديقين فصارت له حرمة أوجبت لطائفة قبوله من غير تفصيل وظنوا

أن كل ما كان مخلوقا للرب تعالى فهو مقضى مرضي مخلوقا له ينبغي له الرضى به ثم انقسموا على فرقتين فقالت فرقة: إذا كان القضاء والرضى متلازمين فمعلوم أنا مأمورون ببغض المعاصي والكفر والظلم فلا تكون مقضية مقدرة وفرقة قالت: قد دل العقل والشرع على أنها واقعة بقضاء الله وقدره فنحن نرضى بها

والطائفتان منحرفتان جائرتان عن قصد السبيل فأولئك أخرجوها عن قضاء الرب وقدره وهؤلاء رضوا بها ولم يسخطوها هؤلاء خالفوا الرب تعالى في رضاه وسخطه وخرجوا عن شرعه ودينه وأولئك أنكروا تعلق قضائه وقدره بها واختلفت طرق أهل الإثبات للقدر والشرع في جواب الطائفتين فقالت طائفة: لم يقم دليل من الكتاب ولا السنة ولا الإجماع على جواز

(45/221)

الرضى بكل قضاء فضلا عن وجوبه واستحبابه فأين أمر الله عباده أو رسوله: أن يرضوا بكل ما قضاه الله وقدره وهذه طريقة كثير من أصحابنا وغيرهم وبه أجاب القاضي أبو يعلى وابن الباقلاني قال: فإن قيل: أفترضون بقضاء الله وقدره قيل له: نرضى بقضاء الله الذي هو خلقه الذي أمرنا أن نرضى به ولا نرضى من ذلك ما نهانا عنه أن نرضى به ولا

نتقدم بين يدي الله تعالى ولا نعترض على حكمه وقالت طائفة أخرى: يطلق الرضى بالقضاء في الجملة دون تفاصيل المقضي المقدر فنقول: نرضى بقضاء الله جملة ولا نسخطه ولا نطلق الرضى على كل واحد من تفاصيل المقضي كما يقول المسلمون: كل شيء يبيد ويهلك ولا يقولون: حجج الله تبيد وتهلك ويقولون: الله رب كل شيء ولا يضيفون ربوبيته إلى الأعيان المستخبثة المستقذرة بخصوصها وقالت طائفة أخرى: نرضى بها من جهة إضافتها إلى الرب خلقا ومشيئة ونسخطها من جهة إضافتها إلى العبد كسبا له وقياما به وقالت طائفة أخرى: بل نرضى بالقضاء ونسخط المقضي فالرضى والسخط لم يتعلقا بشيء واحد

وهذه الأجوبة لا يتمشى شيء منها على أصول من يجعل محبة الرب تعالى ورضاه ومشيئته واحدة كما هو أحد قول الأشعري وأكثر أتباعه فإن هؤلاء يقولون: إن كل ما شاءه وقضاه فقد أحبه ورضيه وإذا كان الكون محبوبا له مرضيا فنحن نحب ما أحبه ونرضى ما رضيه وقولكم: إن الرضى بالقضاء يطلق جملة ولا يطلق تفصيلا فذلك لا يمنع دخوله في جملة المرضي به فيعود الإشكال

(46/221)

وقولكم: نرضى بها من جهة كونها خلقا لله ونسخطها من جهة كونها كسبا للعبد :

فك2سب العبد إن كان أمرا وجوديا فهو خلق لله فنرضى به وإن كان أمرا عدميا فلا حقيقة له ترضى ولا تسخط وأما قولكم: نرضى بالقضاء دون المقضي: فهذا إنما يصح على قول من يجعل القضاء غير المقضي والفعل غير المفعول وأما من لم يفرق بينهما : فكيف يصح هذا على أصله وقد أورد القاضي أبو بكر الباقلانى على نفسه هذا السؤال فقال: فإن قيل: القضاء عندكم هو المقضي أو غيره قيل: هو على ضربين فالقضاء بمعنى الخلق هو المقضي لأن الخلق هو المخلوق والقضاء الذي هو الإلزام والإعلام والكتابة: غير المقضى لأن الأمر غير المأمور والخبر غير المخبر عنه

(47/221)

وهذا الجواب لا يخلصه أيضا لأن الكلام ليس في الإلزام والإعلام والكتابة وإنما الكلام في نفس الفعل المقدور المعلم به المكتوب: هل مقدره وكاتبه سبحانه راض به أم لا وهل العبد مأمور بالرضى به نفسه أم لا هذا هو حرف المسألة وقد أنكر الله سبحانه وتعالى على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمان لمحبته ورضاه فكيف بمن جعل ذلك شيئا واحدا قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: 148] وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل: 35] وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف: 20] فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه

(48/221)

بمشيئته لذلك وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه وفيه أبين الرد لقول من جعل مشيئته غير محبته ورضاه فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة ثم زادوه بجعلهم الفعل نفس المفعول والقضاء عين المقضي فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالى راضيا محبا لذلك والتزام رضاهم به والذي يكشف هذه الغمة ويبصر من هذه العماية وينجي من هذه الورطة إنما هو التفريق بين ما فرق الله بينه وهو المشيئة والمحبة فإنهما ليسا واحدا ولا هما متلازمين بل قد يشاء ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه والثاني: كمحبته إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه فإنه ما شاء الله

كان وما لم يشأ لم يكن فإذا تقرر هذا الأصل وأن الفعل غير المفعول والقضاء غير المقضي وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضى بكل ما خلقه وشاءه: زالت الشبهات وانحلت الإشكالات ولله الحمد ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر بل القدر ينصر الشرع والشرع يصدق القدر وكل منهما يحقق الآخر

إذا عرف هذا فالرضى بالقضاء الديني الشرعي واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان فيجب على العبد أن يكون راضيا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال الله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء: 65] فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه وحتى يسلموا لحكمه تسليما وهذا حقيقة الرضى بحكمه فالتحكيم: في مقام الإسلام وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان والتسليم: في مقام الإحسان

(49/221)

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين وحيى بروح الوحي وتمهدت طبيعته وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة وتلقى أحكام الرب تعالى

بصدر واسع منشرح مسلم: فقد رضي كل الرضى بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله والرضى بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة لأنه ملائم للعبد محبوب له فليس في الرضى به عبودية بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ووضع النعمة مواضعها التى يحب الله أن توضع فيها وأن لا يعصى المنعم بها وأن يرى التقصير في جميع ذلك والرضى بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له والحر والبرد والآلام ونحو ذلك والرضى بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان: حرام يعاقب عليه وهو مخالفة لربه تعالى فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه فكيف تتفق المحبة ورضى ما يسخطه الحبيب ويبغضه فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضى بالقضاء فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمرا لا يرضاه ولا يحبه وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقا وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه ومراد لغيره:

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته ولما فيه من الخير فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصودا للمريد ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة إذا علم متناوله أن فيه شفاءه وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده وكقطع المسافة الشاقة جدا إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته ولاينافي ذلك إرادته لغيره وكونه سببا إلى ما هو أحب إليه من فوته مثال أنه سبحانه خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات وهو سبب شقاوة العبيد وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى مسخوط له لعنه الله ومقته وغضب عليه ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه وجودها أحب إليه من عدمها:

منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات فخلق هذه الذات

التي هي أخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل التي هي أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها وهي مادة كل خير فتبارك الله خالق هذا وهذا كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار والضياء والظلام والداء والدواء والحياة والموت والحر والبرد

والحسن والقبيح والأرض والسماء والذكر والأنثى والماء والنار والخير والشر

(51/221)

وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته وسلطانه وملكه فإنه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وسلط بعضها على بعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته

ومنها : ظهور آثار أسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل والضار وشديد العقاب وسريع الحساب وذي البطش الشديد والخافض والمذل فإن هذه الأسماء والأفعال كمال فلا بد من وجود متعلقها ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال

ومنها : ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء

لتعطلت هذه الحكم والفوائد وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله: لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها فلا يضع الشيء في غير موضعه ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع ولا الثواب موضع العقاب ولا العقاب موضع الثواب ولا الخفض موضع الرفع ولا الرفع موضع الخفض ولا العز مكان الذل ولا الذل مكان العز ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه ولا ينهى عما ينبغي الأمر به فهو أعلم حيث يجعل رسالته وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها

(52/221)

إليه ووصولها وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله وأحكم من أن يمنعها أهلها وأن يضعها عند غير أهلها فلو قدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار ولم تظهر لخلقه ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها وفواتها شر من حصول تلك الأسباب فلو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك

الأسباب وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر فلو قدر تعطيلها لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه

فصل ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت

ولكان الحاصل بعضها لا كلها فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها : من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه وبذل النفس له في محاربة عدوه وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الرب على محاب النفس

ومنها : عبودية التوبة والرجوع إليه واستغفاره فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها ومنها : عبودية مخالفة عدوه ومراغمته في الله وإغاظته فيه وهي من أحبر

أنواع العبودية إليه فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس ومنها : أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه وسؤاله أن يجيره منه ويعصمه من كيده وأذاه ومنها : أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حل بعدوه بمخالفته وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية فلا يخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك

ومنها : أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته ومنها : أن نفس اتخاذه عدوا من أكبر أنواع العبودية وأجلها قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: 6] فاتخاذه عدوا أنفع شيء للعبد وهو محبوب للرب

ومنها : أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر والطيب والخبيث وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد فخلق الشيطان مستخرجا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ليترتب عليه آثاره وما في قوى أولئك من الشر ليترتب عليه آثاره وتظهر حكمته في الفريقين وينفذ حكمه فيهما ويظهر ما كان معلوما له مطابقا لعلمه السابق وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 30] فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى منر

وجود من يعصيه ويخالفه فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة ومنها : أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة كآية الطوفان وآية الريح وآية إهلاك ثمود وقوم لوط وآية انقلاب النار على إبراهيم بردا وسلاما والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: 68-9] فلولا كفر الكافرين وعناد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلا بعد جيل إلى الأبد ومنها : أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضا ويكسر بعضها بعضا : هو من شأن كمال الربوبية والقدرة النافذة والحكمة التامة والملك الكامل وإن كان شأن الربوبية كاملا في نفسه ولو لم تخلق هذه الأسباب لكن خلقها من لوازم كماله وملكه وقدرته وحكمته فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال وموجب من موجباته فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته

وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته: أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب قلت: هذا سؤال باطل إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه كفرض وجود الابن بدون الأب والحركة بدون المتحرك والتوبة بدون التائب فإن قلت: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضي إليه من الحكم فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه أم هي مسخوطة من جميع الوجوه

(55/221)

قلت: هذا السؤال يورد على وجهين أحدهما: من جهة الرب سبحانه وتعالى وهل يكون محبا لها من جهة إفضائها إلى محبوبه وإن كان يبغضها لذاتها والثاني: من جهة العبد وهو أنه هل يسوغ له الرضى بها من تلك الجهة أيضا فهذا سؤال له شأن فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه وهو من هذه الجهة شر وأما من جهة وجوده المحض: فلا شر فيه مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها فإنها خلقت في الأصل متحركة لا تسكن فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه وحركتها من حيث هي

حركة خير وإنما تكون شرا بالإضافة لا من حيث هي حركة والشر كله ظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه فلو وضع في موضعه لم يكن شرا

فعلم أن جهة الشر فيه: نسبة إضافية ولهذا كانت العقوبات الموضوعات في محالها خيرا في نفسها وإن كانت شرا بالنسبة إلى المحل الذى حلت به لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له فصار ذلك الألم شرا بالنسبة إليها وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه موضعه فإنه سبحانه لا يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات فإن حكمته تأبى ذلك بل قد يكون ذلك المخلوق شرا ومفسدة ببعض الاعتبارات وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر أرجح من اعتبارات مفاسده بل الواقع منحصر في ذلك فلا يمكن في جناب الحق جل جلاله أن يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه بكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما هذا من أين المحال فإنه سبحانه بيده الخير والشر ليس إليه بل كل ما إليه فخير والشر

إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه فلو كان إليه لم يكن شرا فتأمله فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شرا

(56/221)

فإن قلت: لم تنقطع نسبته إليه خلقا ومشيئة قلت: هو من هذه الجهة ليس بشر فإن وجوده هو المنسوب إليه وهو من هذه الجهة ليس بشر والشر الذي فيه: من عدم إمداده بالخير وأسبابه والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير فإن أردت مزيد إيضاح لذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد والإعداد والإمداد فهذه هي الخيرات وأسبابها فإيجاد السبب خير وهو إلى الله وإعداده خير وهو إليه أيضا وإمداده خير وهو إليه أيضا فإذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل وإنما إليه ضده فإن قلت: فهلا أمده إذ أوجده قلت: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده فإنه سبحانه يوجد ويمده وما اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده: أوجده بحكمته ولم يمده بحكمته فإيجاده خير والشر وقع من عدم إمداده فإن قلت: فهلا أمد الموجودات كلها قلت: فهذا سؤال فاسد يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة وهذا عين الجهل بل الحكمة كل الحكمة: في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها وليس في خلق كل نوع منها تفاوت فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت والتفاوت إنما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق وإلا فليس في الخلق من تفاوت فإن اعتاص ذلك عليك ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه . . . وجاوزه إلى ما تستطيع

كما ذكر: أن الأصمعي اجتمع بالخليل بن أحمد وحرص على فهم العروض منه: فأعياه ذلك فقال له الخليل يوما: قطع لي هذا البيت وأنشده: إذا لم تستطع شيئًا البيت ففهم ما أراد فأمسك عنه ولم يشتغل به وسر المسألة: أن الرضى بالله يستلزم الرضى بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه ولا يستلزم الرضى بمفعولاته كلها بل حقيقة العبودية: أن يوافقه عبده في رضاه وسخطه فيرضى منها بما يرضى به ويسخط منها ما سخطه فإن قيل: فهو سبحانه يرضى عقوبة من يستحق العقوبة فكيف يمكن العبد أن يرضى بعقوبته له قيل: لو وافقه في رضاه بعقوبته لانقلبت لذة وسرورا ولكن لا يقع منه ذلك فإنه لم يوافقه في محبته وطاعته التي هي سرور النفس وقرة العين وحياة القلب فكيف يوافقه في محبته للعقوبة التي هي أكره شيء إليه وأشق شيء عليه بل كان كارها لما يحبه من طاعته وتوحيده فلا يكون راضيا بما يختاره من عقوبته ولو قبل ذلك لارتفعت عنه العقوبة فإن قلت: فكيف يجتمع الرضى بالقضاء الذي يكرهه العبد من المرض والفقر والألم مع كراهته

قلت: لا تنافي في ذلك فإنه يرضى به من جهة إفضائه إلى ما يحب ويكرهه من جهة تألمه به كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه فإنه يجتمع فيه رضاه به وكراهته له فإن قلت: كيف يرضى لعبده شيئًا ولا يعينه عليه قلت: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن

مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة بحيث يكون وقوعها منه مستلزما لمفسدة راجحة ومفوتا لمصلحة راجحة وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله:

(58/221)

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: 46-47] فأخبر سبحانه: أنه كره انبعاثهم مع رسوله للغزو وهو طاعة وقربة وقد أمرهم به فلما كرهه منهم ثبطهم عنه ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا أي فسادا وشرا ولأوضعوا خلالكم أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم أي قابلون منهم مستجيبون لهم فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم فاقتضت الحكمة والرحمة: أن منعهم من الخروج وأقعدهم عنه فاجعل هذا المثال أصلا لهذا الباب وقس عليه فإن قلت: قد يتصور لي هذا في رضى الرب تعالى لبعض ما يخلقه من وجه وكراهته من وجه آخر فكيف لي بأن يجتمع الأمران في

حقي بالنسبة إلى المعاصي والفسوق قلت: وهو متصور ممكن بل واقع فإن العبد يسخط ذلك ويبغضه ويكرهه من حيث هو فعل له بسببه وواقع بكسبه وإرادته واختياره ويرضى بعلم الله وكتابته ومشيئته وإذنه الكوني فيه فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان وطائفة أخرى رأوا كراهة ذلك مطلقا وعدم الرضى به من كل وجه

وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون أولئك فإن العبد إذا كرهها مطلقا فإن الكراهة إنما تقع على الاعتبار المكروه منها وهؤلاء لم يكرهوا علم الرب وكتابته

ومشيئته وإلزامه حكمه الكوني وأولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها الرب وأبغضها لأجله

(59/221)

وسر المسألة: أن الذي إلى الرب منها غير مكروه والذي إلى العبد منها هو المكروه والمسخوط فإن قلت: ليس إلى العبد شيء منها قلت: هذا هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق والقدري أقرب إلى التخلص منه من الجبري وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية: هم أسعد بالتخلص منه من الفريقين فإن قلت:

كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة

قلت: هذا الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على خلاف ما هو عليه فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته في ذلك وقيل:

أصبحت منفعلا لما تختاره . . . مني ففعلي كله طاعات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية فإن الطاعة هي موافقة الأمر لا موافقة القدر والمشيئة ولو كانت موافقة القدر طاعة لله لكان إبليس من أعظم المطيعين لله وكان قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مطيعين له فيكون قد عذبهم أشد العذاب على طاعته وانتقم منهم لأجلها وهذا غاية الجهل بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله فإن قلت: ومع ذلك فاجمع لي بين الندم والتوبة وبين مشهد القيومية والحكمة قلت: العبد إذا شهد عجز نفسه ونفوذ الأقدار فيه وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين كان بالله في هذه الحال لا بنفسه

(60/221)

فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال ألبتة فإن عليه حصنا حصينا من: فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي فلا يتصور منه الذنب في هذه الحال فإذا حجب عن هذا المشهد وسقط إلى وجوده الطبيعي وبقي بنفسه: استولى عليه حكم النفس والطبع والهوى وهذا الوجود الطبيعي قد نصبت فيه الشباك والأشراك وأرسلت عليه الصيادون فلابد أن يقع في شبكة من تلك الشباك وشرك من تلك الأشراك وهذا الوجود هو حجاب بينه وبين ربه فعند ذلك يقع الحجاب ويقوى المقتضى ويضعف المانع وتشتد الظلمة وتضعف القوى فأنى له بالخلاص من تلك الأشراك والشباك فإذا انقشع ضباب ذلك الوجود الطبيعي وانجاب ظلامه وزال قتامه وصرت بربك ذاهبا عن نفسك وطبعك

بدا لك سر طال عنك اكتتامه . . . ولاح صباح كنت أنت ظلامه

فإن غبت عنه حل فيه وطنبت . . . على منكب الكشف المصون خيامه

فأنت حجاب القلب عن سر غيبه . . . ولولاك لم يطبع عليه ختامه

وجاء حديث لا يمل سماعه . . . شهي إلينا نثره ونظامه

إذا ذكرته النفس زال عناؤها . . . وزال عن القلب المعنى قتامه

فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة فإنه كان في المعصية بنفسه محجوبا فيها عن ربه وعن طاعته فلما فارق ذلك الوجود وصار في وجود آخر: بقي بربه لا بنفسه

وإذا عرف هذا فالتوبة والندم يكونان في هذا الوجود الذي هو فيه بربه وذلك لا ينافي

مشهد الحكمة والقيومية بل يجامعه ويستمد منه وبالله التوفيق

قوله: ويصح بثلاثة شرائط باستواء الحالات عند العبد وسقوط الخصومة مع الخلق والخلاص من المسألة والإلحاح

يعني: أن الرضى عن الله إنما يتحقق بهذه الأمور الثلاثة فإن الراضي الموافق تستوي عنده الحالات من النعمة والبلية في رضاه بحسن اختيار الله له وليس المراد استواؤها عنده في ملاءمته ومنافرته فإن هذا خلاف الطبع البشري بل خلاف الطبع الحيواني

(61/221)

وليس المراد أيضا استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية فإن هذا مناف للعبودية من كل وجه وإنما تستوى النعمة والبلية عنده في الرضى بهما لوجوه

أحدها: أنه مفوض والمفوض راض بكل ما اختاره له من فوض إليه ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره له

الثاني: أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله ولا راد لحكمه وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهو يعلم أن كلا من البلية والنعمة بقضاء سابق وقدر حتم

الثالث: أنه عبد محض والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح

المحسن بل يتلقاها كلها بالرضى به وعنه

الرابع: أنه محب والمحب الصادق: من رضي بما يعامله به حبيبه

الخامس: أنه جاهل بعواقب الأمور وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه

السادس: أنه لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه ولو عرف أسبابها فهو جاهل ظالم وربه تعالى يريد مصلحته ويسوق إليه أسبابها ومن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء: 19]

السابع: أنه مسلم والمسلم من قد سلم نفسه لله ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه ولم يسخط ذلك

الثامن: أنه عارف بربه حسن الظن به لا يتهمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره فحسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده ورضاه بما يختاره له سيده سبحانه

التاسع: أنه يعلم أن حظه من المقدور ما يتلقاه به من رضى وسخط فلا بد له منه فإن رضي فله الرضى وإن سخط فله السخط

العاشر: علمه بأنه إذا رضي انقلب في حقه نعمة ومنحة وخف عليه حمله وأعين عليه وإذا سخطه تضاعف عليه ثقله وكله ولم يزدد إلا شدة فلو أن السخط يجدي عليه شيئا لكان له فيه راحة أنفع له من الرضى به ونكتة المسألة: إيمانه بأن قضاء الرب تعالى خير له كما قال النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك إلا للمؤمن

الحادي عشر: أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه فلا تتم له عبوديته من الصبر والتوكل والرضى والتضرع والافتقار والذل والخضوع وغيرها إلا بجريان القدر له بما يكرهه وليس الشأن في الرضى بالقضاء الملائم للطبيعة إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع

الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضى ربه عنه فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق: رضي ربه عنه بالقليل من العمل وإذا رضي عنه في جميع الحالات واستوت عنده وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترضاه وتملقه

الثالث عشر: أن يعلم أن أعظم راحته وسروره ونعيمه: في الرضى عن ربه تعالى وتقدس في جميع الحالات فإن الرضى باب الله الأعظم ومستراح العارفين وجنة الدنيا فجدير بمن

نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه وأن لا يستبدل بغيره منه

الرابع عشر: أن السخط باب الهم والغم والحزن وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال والظن بالله خلاف ما هو أهله والرضى يخلصه من ذلك كله ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة

الخامس عشر: أن الرضى يوجب له الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره والسخط يوجب اضطراب قلبه وريبته وانزعاجه وعدم قراره

(63/221)

السادس عشر: أن الرضى ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها ومتى نزلت عليه السكينة: استقام وصلحت أحواله وصلح باله والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة وطيب العيش فمن أعظم نعم الله على عبده: تنزل السكينة عليه ومن أعظم أسبابها: الرضى عنه في جميع الحالات

السابع عشر: أن الرضى يفتح له باب السلامة فيجعل قلبه سليما نقيا من الغش والدغل والغل ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم كذلك وتستحيل سلامة القلب مع

السخط وعدم الرضى وكلما كان العبد أشد رضى كان قلبه أسلم فالخبث والدغل والغش: قرين السخط وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضى وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط وسلامة القلب منه من ثمرات الرضى

الثامن عشر: أن السخط يوجب تلون العبد وعدم ثباته مع الله فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه والمقادير تجري دائما بما يلائمه وبما لا يلائمه وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه فلا تثبت له قدم على العبودية فإذا

رضي عن ربه في جميع الحالات استقرت قدمه في مقام العبودية فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضى

(64/221)

التاسع عشر: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله وقضائه وقدره وحكمته وعلمه فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه وإن كان لا يشعر به فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولا مدخولا فإن الرضى واليقين أخوان مصطحبان والشك والسخط قرينان وهذا معنى الحديث الذي في الترمذى أو غيره: إن استطعت أن تعمل بالرضى مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيرا كثيرا

العشرون: أن الرضى بالمقدور من سعادة ابن آدم وسخطه من شقاوته كما في المسند والترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سعادة ابن آدم: استخارة الله عز وجل ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ومن شقوة ابن آدم: سخطه بما قضى الله ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة والتسخط على القضاء من أسباب الشقاوة

الحادي والعشرون: أن الرضى يوجب له أن لا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه وذلك من أفضل الإيمان أما عدم أساه على الفائت: فظاهر وأما عدم فرحه بما آتاه: فلأنه يعلم أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة ولا بد

الثاني والعشرون: أن من ملأ قلبه من الرضى بالقدر: ملأ الله صدره غنى وأمنا وقناعة وفرغ قلبه لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه ومن فاته حظه من الرضى: امتلأ قلبه بضد ذلك واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه فالرضى يفرغ القلب لله والسخط يفرغ القلب من الله

الثالث والعشرون: أن الرضى يثمر الشكر الذى هو من أعلى مقامات الإيمان بل هو حقيقة الإيمان والسخط يثمر ضده وهو كفر النعم وربما أثمر له كفر المنعم فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات: أوجب له ذلك شكره فيكون من الراضين الشاكرين وإذا فاته الرضى: كان من الساخطين وسلك سبيل الكافرين

الرابع والعشرون: أن الرضى ينفي عنه آفات الحرص والكلب على الدنيا وذلك رأس كل خطيئة وأصل كل بلية وأساس كل رزية فرضاه عن ربه في جميع الحالات: ينفي عنه مادة هذه الآفات

الخامس والعشرون: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبا عند السخط والشهوة فهناك يصطاده ولا سيما إذا استحكم سخطه فإنه يقول مالا يرضى الرب ويفعل مالا يرضيه وينوي مالا يرضيه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ابنه إبراهيم: يحزن القلب وتدمع العين ولا نقول إلا ما يرضي الرب فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لا يقول في مثل هذا المقام الذي يسخطه أكثر الناس فيتكلمون بما لا يرضي الله ويفعلون مالا يرضيه إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى ولهذا لما مات ابن الفضيل بن عياض رؤي في الجنازة ضاحكا فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك فقال: إن الله قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه فأنكرت طائفة هذه المقالة على الفضيل وقالوا: رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى يوم مات ابنه وأخبر أن: القلب يحزن والعين تدمع وهو في أعلى مقامات الرضى فكيف يعد هذا من

مناقب الفضيل والتحقيق: أن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم اتسع لتكميل جميع المراتب من الرضى عن الله والبكاء رحمة للصبي فكان له مقام الرضى ومقام الرحمة ورقة القلب والفضيل لم يتسع قلبه لمقام الرضى ومقام الرحمة فلم يجتمع له الأمران والناس في ذلك على أربع مراتب أحدها: من اجتمع له الرضى بالقضاء ورحمة الطفل فدمعت عيناه رحمة والقلب راض

الثاني: من غيبه الرضى عن الرحمة فلم يتسع للأمرين بل غيبه أحدهما عن الآخر

الثالث: من غيبته الرحمة والرقة عن الرضى فلم يشهده بل فني عن الرضى

(66/221)

الرابع: من لا رضى عنده ولا رحمة وإنما يكون حزنه لفوات حظه من الميت وهذا حال أكثر الخلق فلا إحسان ولا رضى عن الرحمن والله المستعان فالأول في أعلى مراتب الرضى والثاني دونه والثالث دون الثاني والرابع هو الساخط

السادس والعشرون: أن الرضى هو اختيار ما اختاره الله لعبده والسخط كراهة ما اختاره الله له وهذا نوع محادة فلا يتخلص منه إلا بالرضى عن الله في جميع الحالات

السابع والعشرون: أن الرضى يخرج الهوى من القلب فالراضي هواه تبع لمراد ربه منه أعني

المراد الذي يحبه ربه ويرضاه فلا يجتمع الرضى واتباع الهوى في القلب أبدا وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا فهو للغالب عليه منهما

الثامن والعشرون: أن الرضى عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضى الله عنه كما تقدم بيانه في الرضى به فإن الجزاء من جنس العمل وفي أثر إسرائيلي

أن موسى سأل ربه عز وجل: ما يدنى من رضاه فقال: إن رضاي في رضاك بقضائي

التاسع والعشرون: أن الرضى بالقضاء أشق شيء على النفس بل هو ذبحها في الحقيقة فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها ولا تصير مطمئنة قط حتى ترضى بالقضاء فحينئذ تستحق أن يقال لها: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: 27-30] الثلاثون: أن الراضي متلق أوامر ربه الدينية والقدرية بالانشراح والتسليم وطيب النفس والاستسلام والساخط يتلقاها بضد ذلك إلا ما وافق طبعه وإرادته منها وقد بينا أن الرضى بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه فإنه لم يرض به لكون الله قدره وقضاه وأمر به وإنما رضي به لموافقته هواه وطبعه فهو إنما رضي لنفسه وعن نفسه لا بربه عن ربه

الحادي والثلاثون: أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضى والطاعات كلها أصلها من الرضى وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي

الثاني والثلاثون: أن عدم الرضى يفتح باب البدعة والرضى يغلق عنه ذلك الباب ولو تأملت بدع الروافض والنواصب والخوارج لرأيتها ناشئة من عدم الرضى بالحكم الكوني أو الديني أو كليهما

الثالث والثلاثون: أن الرضى معقد نظام الدين ظاهره وباطنه فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع: فتنقسم قسمين: دينية وكونية وهي مأمورات ومنهيات ومباحات ونعم ملذة وبلايا مؤلمة

فإذا استعمل العبد الرضى في ذلك كله فقد أخذ بالحظ الوافر من الإسلام وفاز بالقدح المعلى الرابع والثلاثون: أن الرضى يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية فلو رضي لم يمسخ من الحقيقة الملكية إلى الحقيقة الشيطانية الإبليسية الخامس والثلاثون: أن جميع ما في الكون أوجبته مشيئة الله وحكمته وملكه فهو موجب أسمائه وصفاته فمن لم يرض بما رضى به ربه لم يرض بأسمائه وصفاته فلم يرض به ربا

السادس والثلاثون: أن كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه لا يخلو: إما أن يكون عقوبة على الذنب فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامي به المرض إلى الهلاك أو يكون سببا لنعمة لا تنال إلا بذلك المكروه فالمكروه ينقطع ويتلاشى وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضى عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدره

السابع والثلاثون: أن حكم الرب تعالى ماض في عبده وقضاؤه عدل فيه كما في الحديث: ماض في حكمك عدل في قضاؤك ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور وقوله: عدل في قضاؤك يعم قضاء الذنب وقضاء أثره وعقوبته فإن الأمرين من قضائه عز وجل وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب وفي قضائه بعقوبته أما عدله في العقوبة: فظاهر وأما عدله في قضائه بالذنب: فلأن الذنب

عقوبة على غفلته عن ربه وإعراض قلبه عنه فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليه ونقص إخلاصه: استحق أن يضرب بهذه العقوبة لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب والعقوبات واردة عليها من كل جهة وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى

وذكره يستحيل صدور الذنب كما قال تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24] فإن قلت: قضاؤه على عبده بإعراضه عنه ونسيانه إياه وعدم إخلاصه: عقوبة على ماذا قلت: هذا طبع النفس وشأنها فهو سبحانه إذا لم يرد الخير بعبده خلي بينه وبين نفسه وطبعه وهواه وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان وعدم الإخلاص واتباع الهوى وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام وفوات الخيرات واللذات كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها

فإن قلت: فهلا خلقه على غير تلك الصفة قلت: هذا سؤال فاسد ومضمونه: هلا خلقه ملكا لا إنسانا فإن قلت: فهلا أعطاه التوفيق الذي يتخلص به من شر نفسه وظلمة طبعه قلت: مضمون هذا السؤال: هلا سوى بين جميع خلقه ولم خلق المتضادات والمختلفات وهذا من أفسد الأسئلة وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكه لخلق ذلك

الثامن والثلاثون: أن عدم الرضى إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه: فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضره

(69/221)

التاسع والثلاثون: أن الرضى من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح: فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان قال أبو الدرداء: ذروة سنام الإيمان: الصبر للحكم والرضى بالقدر الأربعون: أن أول معصية عصي الله بها في هذا العالم: إنما نشأت من عدم الرضى فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كونا من تفضيل آدم وتكريمه ولا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة حتى ضم إليه الأكل من شجرة الحمى ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضى

(70/221)

الحادي والأربعون: أن الراضي واقف مع اختيار الله له معرض عن اختياره لنفسه وهذا من قوة معرفته بربه تعالى ومعرفته بنفسه وقد اجتمع وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم وأما اليوم: فوددت أني ميت فقال له يوسف بن أسباط: ولم فقال: لما أتخوف من الفتنة فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء فقال الثوري: ولم تكره الموت قال: لعلي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فقيل لوهيب: أي شيء تقول أنت فقال: أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلي أحبه إلى الله فقبل الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة فهذا حال عبد قد استوت عنده

حالة الحياة والموت وقف مع اختيار الله له منهما وقد كان وهيب رحمه الله له المقام العالى من الرضى وغيره الثاني والأربعون: أن يعلم أن منع الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن المحب عطاء وابتلاءه إياه عافية قال سفيان الثورى: منعه عطاء وذلك: أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم وإنما نظر فى خير عبده المؤمن فمنعه اختيارا وحسن نظر وهذا كما قال فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيرا له ساءه ذلك القضاء أو سره فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء وإن كان في صورة المنع ونعمة وإن كانت في صورة محنة وبلاؤه وعافية وإن كان في صورة بلية ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل وكان ملائما لطبعه ولو رزق من المعرفة حظا وافرا لعد المنع نعمة والبلاء رحمة وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية وتلذذ بالفقر أكثر من لذته

(71/221)

بالغنى وكان في حال القلة أعظم شكرا من حال الكثرة وهذه كانت حال السلف فالعاقل الراضي: من يعد البلاء عافية والمنع نعمة والفقر غنى وأوحى الله إلى بعض أنبيائه: إذا رأيت الفقر مقبلا فقل: مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل: ذنب عجلت عقوبته فالراضي: هو الذي يعد نعم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نعمه عليه فيما

يحبه كما قال بعض العارفين: يا ابن آدم نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب وقد قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: 216] وقد قال بعض العارفين: ارض عن الله في جميع ما يفعله بك فإنه ما منعك إلا ليعطيك ولا ابتلاك إلا ليعافيك ولا أمرضك إلا ليشفيك ولا أماتك إلا ليحييك فإياك أن تفارق الرضى عنه طرفة عين فتسقط من عينه الثالث والأربعون: أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والمظهر لكل شيء والمالك لكل شيء وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار وليس للعبد أن يختار عليه وليس لأحد معه اختيار ولا يشرك في حكمه أحدا والعبد لم يكن شيئا مذكورا فهو سبحانه الذي اختار وجوده واختار أن يكون كما قدره له وقضاه: من عافية وبلاء وغنى وفقر وعز وذل ونباهة وخمول فكما تفرد سبحانه بالخلق تفرد بالاختيار والتدبير وليس للعبد شيء من ذلك فإن الأمر كله لله وقد قال تعالى لنبيه:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله وليس له من الأمر قليل ولا كثير لم يكن له معول بعد ذلك غير الرضى بمواقع الأقدار وما يجري به من ربه الاختيار

الرابع والأربعون: أن رضى الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها لأن الرضى صفة الله والجنة خلقه قال الله تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: 72] بعد قوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 72] وهذا الرضى جزاء على رضاهم عنه في الدنيا ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال

الخامس والأربعون: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات: لم يتخير عليه المسائل وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك وجعل ذكره في محل سؤاله بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره وبلوغ رضاه فهذا يعطي أفضل ما يعطاه سائل كما جاء في الحديث من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فإن السائلين سألوه فأعطاهم الفضل الذي سألوه والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم ولا يمنع الرضى سؤاله أسباب الرضى بل أصحابه ملحون في سؤاله ذلك

السادس والأربعون: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يندب إلى أعلى المقامات فإن عجز العبد عنه: حطه إلى المقام الوسط كما قال: اعبد الله كأنك تراه فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ثم قال فإن لم تكن تراه فإنه يراك فحطه عند العجز عن المقام عن المقام الأول إلى المقام الثاني وهو العلم باطلاع الله عليه ورؤيته له ومشاهدته لعبده

في الملأ والخلاء وكذا الحديث الآخر: إن استطعت أن تعمل لله بالرضى مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا فرفعه إلى أعلى المقامات ثم رده إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى فالأول: مقام الإحسان والذي حطه إليه: مقام الإيمان وليس دون ذلك إلا مقام الخسران

(73/221)

السابع والأربعون: أنه أثنى على الراضين بمر القضاء بالحكم والعلم والفقه والقرب من درجة النبوة كما في حديث الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما أنتم فقالوا: مؤمنون فقال: ما علامة إيمانكم فقالوا: الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضى بمر القضاء والصدق في مواطن اللقاء وترك الشماتة بالأعداء فقال: حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء

الثامن والأربعون: أن الرضى آخذ بزمام مقامات الدين كلها وهو روحها وحياتها فإنه روح التوكل وحقيقته وروح اليقين وروح المحبة وصحة المحب ودليل صدق المحبة وروح الشكر ودليله قال الربيع بن أنس: علامة حب الله: كثرة ذكره فإنك لا تحب شيئًا إلا أكثرت من ذكره وعلامة الدين: الإخلاص لله في السر والعلانية وعلامة الشكر الرضى بقدر الله

والتسليم لقضائه وقال أحمد بن أبي الحواري: ذاكرت أبا سليمان في الخبر المروي أول من يدعى إلى الجنة الحمادون فقال: ويحك ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصى عليك إذا كنت كذلك فارجع إلى الصابرين إنما الحمد: أن تحمده وقلبك مسلم راض فصار الرضى كالروح لهذه المقامات والأساس الذي تنبني عليه ولا يصح شيء منها بدونه ألبتة والله أعلم التاسع والأربعون: أن الرضى يقوم مقام كثير من التعبدات التي تشق على البدن فيكون رضاه أسهل عليه وألذ له وأرفع في درجته وقد ذكر في أثر إسرائيلي: إن عابدا عبد الله دهرا طويلا فأري في المنام: أن فلانة الراعية

(74/221)

رفيقتك في الجنة فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة فقال لها: أما لك عمل غير ما رأيت قالت: ما هو والله غير ما رأيت أو قالت: إلا ما رأيت لا أعرف غيره فلم يزل يقول لها: تذكري حتى قالت: خصيلة واحدة هي في وذلك: أني إن كنت في شدة لم أتمن أني في رخاء وإن كنت في مرض لم أتمن أنى في صحة وإن كنت في الشمس لم أتمن أنى فى الظل قال: فوضع العابد يده على رأسه وقال: أهذه خصيلة هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد وقد روى ابن

مسعود رضي الله عنه: من رضي بما أنزل من السماء إلى الأرض غفر له وفي أثر مرفوع: من خير ما أعطي العبد: الرضى بما قسم الله له وفي أثر آخر: إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه وفي أثر: إن بني إسرائيل: سألوا موسى أن يسأل ربه أمرا إذا هم فعلوه رضي عنهم فقال موسى: رب إنك تسمع ما يقولون فقال: قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم وفي أثر آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ما لله عنده فإن الله ينزل العبد منه حيث ينزله العبد من نفسه وفي أثر آخر: من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل وقال بعض العارفين: أعرف في الموتى عالما ينظرون إلى منازلهم في الجنان في قبورهم يغدي عليهم ويراح برزقهم من الجنة بكرة وعشيا وهم في غموم وكروب في البرزخ لو قسمت على أهل بلد لماتوا أجمعين

(75/221)

قيل: وما كانت أعمالهم قال: كانوا مسلمين مؤمنين إلا أنهم لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضى نصيب وفي وصية لقمان لابنه: أوصيك بخصال تقربك من الله وتباعدك من سخطه: أن تعبد الله لا تشرك به شيئا وأن ترضى بقدر الله فيما أحببت وكرهت وقال بعض العارفين: من يتوكل على الله ويرض بقدر الله فقد أقام الإيمان وفرغ يديه ورجليه

لكسب الخير وأقام الأخلاق الصالحة التي تصلح للعبد أمره الخمسون: أن الرضى يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس فإن حسن الخلق من الرضى وسوء الخلق من السخط وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب الحادي والخمسون: أن الرضى يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور وطيب النفس وسكونها في كل حال وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا وبرد القناعة واغتباط العبد بقسمه من ربه وفرحه بقيام مولاه عليه واستسلامه لمولاه في كل شيء ورضاه منه بما يجريه عليه وتسليمه له الأحكام والقضايا واعتقاد حسن تدبيره وكمال حكمته ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته ولهذا سمى بعض العارفين الرضى: حسن الخلق مع الله فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر ولا يقول: هذا يوم شديد الحر أو شديد البرد ولا يقول: الفقر بلاء والعيال هم وغم ولا يسمى شيئًا قضاه الله وقدره باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى فإن هذا كله ينافى رضاه وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل

وقال ابن أبي الحواري أو قيل له إن فلانا قال: وددت أن الليل أطول مما هو فقال: قد أحسن وقد أساء أحسن حيث تمنى طوله للعبادة والمناجاة وأساء حيث تمنى ما لم يرده الله أحب ما لم يحبه الله

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت: من شدة أو رخاء وقال يوما لامرأته عاتكة أخت سعيد بن زيد وقد غضب عليها: والله لأسوأنك فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله له قال: لا فقالت: فأي شيء تسوءني به إذا تريد أنها راضية بمواقع القدر لا يسوءها منه شيء إلا صرفها عن الإسلام ولا سبيل له إليه وقال الثوري يوما عند رابعة: اللهم ارض عنا فقالت: أما تستحي أن تسأله الرضى عنك وأنت غير راض عنه فقال: أستغفر الله ثم قال لها جعفر بن سليمان: متى يكون العبد راضيا عن الله فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة

وفي أثر إلهي: ما لأوليائي والهم بالدنيا إن الهم بالدنيا يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم وقيل: أكثر الناس هما بالدنيا أكثرهم هما في الآخرة وأقلهم هما بالدنيا أقلهم هما في الآخرة فالإيمان بالقدر والرضى به: يذهب عن العبد الهم والغم والحزن وذكر عند رابعة ولي لله قوته من المزابل فقال رجل عندها: ما ضر هذا أن يسأل الله أن يجعل رزقه في غير هذا

فقالت: اسكت يا بطال أما علمت أن أولياء الله هم أرضى عنه من أن يسألوه أن ينقلهم إلى معيشة حتى يكون هو

الذي يختار لهم وفي أثر إسرائيلي: أن موسى: سأل ربه عما فيه رضاه فأوحى الله إليه: إن رضاه في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره فقال: يا رب دلني عليه فقال: إن رضاه في رضاك بقضائي وفي أثر آخر: أن موسى عليه السلام قال: يا رب أي خلقك أحب إليك فقال: من إذا أخذت منه محبوبه سالمني قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط قال: من استخارني في أمر فإذا قضيته له سخط قضائي

(77/221)

وفي أثر آخر: أنا الله لا إله إلا أنا قدرت التقادير ودبرت التدابير وأحكمت الصنع فمن رضي فله الرضى مني حتى يلقاني ومن سخط فله السخط حتى يلقاني الثاني

والخمسون: أن أفضل الأحوال: الرغبة في الله ولوازمها وذلك لا يتم إلا باليقين والرضى عن الله ولهذا قال سهل: حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضى وحظهم من الرضى على قدر رغبتهم في الله الثالث والخمسون: أن الرضى يخلصه من عيب ما لم يعبه الله ومن ذم ما لم يذمه الله فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعايب وذمه بأنواع المذام وذلك

منه قلة حياء من الله وذم لما ليس له ذنب وعيب لخلقه وذلك يسقط العبد من عين ربه ولو أن رجلا صنع لك طعاما وقدمه إليك فعبته وذممته

(78/221)

لكنت متعرضا لمقته وإهانته ومستدعيا منه: أن يقطع ذلك عنك وقد قال بعض العارفين: إن ذم المصنوع وعيبه إذا لم يذمه صانعه غيبة له وقدح فيه الرابع والخمسون: أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله الرضى بالقضاء كما في المسند والسنن: اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضى بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: سأله الرضى بعد القضاء لأنه حينئذ تبين حقيقة الرضى وأما الرضى قبله: فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه وإنما يتحقق الرضى بعده قال البيهقي وروينا في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم إني

أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضى بالقدر الخامس والخمسون: أن الرضى بالقدر يخلص العبد من أن يرضي الناس بسخط الله وأن يذمهم على ما لم يؤته الله وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله فيكون ظالما لهم في الأول وهو رضاهم وذمهم مشركا بهم في الثاني وهو حمدهم فإذا رضي بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم فخلصه الرضى من ذلك كله وقد روى عمرو بن قيس الملائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من ضعف اليقين: أن ترضي الناس بسخط الله وأن تحمدهم رزقا لله وأن تذمهم على ما لم

(79/221)

يؤتك الله إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كره كاره وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط وقد رواه الثوري عن منصور عن خيثمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم السادس والخمسون: أن الرضى يفرغ قلب العبد ويقلل همه وغمه فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعي وكان من العلماء قال: قلت لعابد: أوصني قال: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك فهو أحرى أن يفرغ قلبك

ويقلل همك وإياك أن تسخط ذلك فيحل بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم وقال بعض السلف: ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيب من العيش فإن التدبير والاختيار يكدر على الناس عيشهم وقال أبو العباس بن عطاء: الفرح في تدبير الله لنا والشقاء كله في تدبيرنا وقال سفيان بن عيينة: من لم يصلح على تقدير الله لم يصلح على تقديره نفسه وقال أبو العباس الطوسي: من ترك التدبير عاش في راحة وقال بعضهم: لا تجد السلامة حتى تكون في التدبير كأهل القبور وقال: الرضاء ترك الخلاف على الرب فيما يجريه على العبد ر

(80/221)

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لقد تركتني هؤلاء الدعوات وما لي في شيء من الأمور كلها أرب إلا في مواقع قدر الله وكان كثيرا ما يدعو: اللهم رضني بقضائك وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته ولا تأخير شيء عجلته وقال: ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل وقال شعبة: قال يونس بن عبيد: ما تمنيت شيئًا قط وقال الفضيل بن عياض: الراضي لا يتمنى فوق منزلته وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام التسليم: مقابلة القضاء بالرضى والصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء وثلاثة من أعلام

التفويض: تعطيل إرادتك لمراده والنظر إلى ما يقع من تدبيره لك وترك الاعتراض على الحكم وثلاثة من أعلام التوحيد: رؤية كل شيء من الله وقبول كل شيء عنه وإضافة كل شيء إليه وقال بعض العارفين: أصل العبادة ثلاثة: لا ترد من أحكامه شيئا ولا تسأل غيره حاجة ولا تدخر عنه شيئا وسئل ابن شمعون عن الرضى فقال: أن ترضى به مدبرا ومختارا وترضى عنه قاسما ومعطيا ومانعا وترضاه إلها ومعبودا وربا وقال بعض العارفين: الرضى ترك الاختيار وسرور القلب بمر القضاء وإسقاط التدبير من النفس حتى يحكم الله لها أو عليها وقيل: الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتأسف عليها ولله در القائل:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر . . . والدهر ذو دول والرزق مقسوم

.والخير أجمع فيما اختار خالقنا . . . وفي اختيار سواه اللوم والشوم

(81/221)

السابع والخمسون: أنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لوم المقادير إما بقالبه وإما بقلبه وحاله ولوم المقادير لوم لمقدرها وكذلك يقع في لوم الخلق والله والناس يلومونه فلا يزال لائما ملوما وهذا مناف للعبودية قال أنس رضي الله عنه: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر

سنين فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلته ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته ولا قال لي لشيء كان: ليته لم يكن ولا لشيء لم يكن: ليته كان وكان بعض أهله إذا لامني يقول: دعوه فلو قضي شيء لكان وقوله: لو قضى شيء لكان يتناول أمرين أحدهما: ما لم يوجد من مراد العبد والثاني: ما وجد مما يكرهه وهو يتناول فوات المحبوب وحصول المكروه فلو قضي الأول لكان ولو قضي خلاف الآخر لكان فإذا استوت الحالتان بالنسبة إلى القضاء فعبودية العبد: أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلى رضاه وهذا موجب العبودية ومقتضاها يوضحه:

الثامن والخمسون: أنه إذا استوى الأمران بالنسبة إلى رضى الرب تعالى فهذا رضيه لعبده فقدره وهذا لم يرضه له فلم يقدره فكمال الموافقة: أن يستويا بالنسبة إلى العبد فيرضى ما رضيه له ربه في الحالين

التاسع والخمسون: أن الله تعالى نهى عن التقدم بين يديه ويدى رسوله في حكمه الديني الشرعي وذلك عبودية هذا الأمر فعبودية أمره الكوني القدري: أن لا يتقدم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك فيكون التقدم أيضا بأمره الكوني والديني فإذا كان فرضه الصبر أو ندبه أو فرضه الرضى حتى ترك ذلك: فقد تقدم بين يدي شرعه وقدره

الستون: أن المحبة والإخلاص والإنابة: لا تقوم إلا على ساق الرضى

فالمحب راض عن حبيبه في كل حالة وقد كان عمران بن حصين رضى الله عنه استسقى بطنه فبقي ملقى على ظهره مدة طويلة لا يقوم ولا يقعد وقد نقب له في سريره موضع لحاجته فدخل عليه مطرف بن عبد الله الشخير فجعل يبكي لما رأى من حاله فقال له عمران: لم تبكي فقال: لأني أراك على هذه الحال الفظيعة فقال: لا تبك فإن أحبه إلي أحبه إليه وقال: أخبرك بشيء لعل الله أن ينفعك به واكتم علي حتى أموت إن الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها ولما قدم سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه إلى مكة وقد كف بصره جعل الناس يهرعون إليه ليدعو لهم فجعل يدعو لهم قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفني فقلت: يا عم أنت تدعو للناس فيشفون فلو دعوت لنفسك لرد الله عليك بصرك فتبسم ثم قال: يا بني قضاء الله أحب إلى من بصري وقال بعض العارفين: ذنب أذنبته أنا أبكى عليه ثلاثين سنة قيل: وما هو قال: قلت لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه أو ليته لم يكن وقال بعض السلف: لو قرض لحمى بالمقاريض كان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه وقيل لعبد الواحد بن زيد: ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال له: حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به قال: لا قال: فهل أنست به قال: لا قال: فهل رضيت عنه قال: لا قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة قال: نعم قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك: أن معاملتك خمسين سنة مدخولة يعنى أنه لم

يقربه فيجعله في مقام المقربين فيوجده مواجيد العارفين بحيث يكون مزيده لديه: أعمال القلوب التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب

لأن القناعة: حال الموفق والأنس به: مقام المحب والرضى: وصف المتوكل يعني أنت عنده في طبقات أصحاب اليمين فمزيدك عنده مزيد العموم من أعمال الجوارح وقوله: إن معاملته مدخولة يحتمل وجهين:

أحدهما: أنها ناقصة عن معاملة المقربين التى أوجبت لهم هذه الأحوال

(83/221)

الثاني: أنها لو كانت صحيحة سالمة لا علة فيها ولا غش: لأثمرت له الأنس والرضى والمحبة والأحوال العلية فإن الرب تعالى شكور إذا وصل إليه عمل عبده جمل به ظاهره وباطنه وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحسب عمله فحيث لم يجد له أثرا في قلبه من الأنس والرضى والمحبة: استدل على أنه مدخول غير سالم من الآفات

الحادي والستون: أن أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب وأما أعمال القلوب: فلا ينتهي تضعيفها وذلك لأن أعمال الجوارح: لها حد تنتهي إليه وتقف عنده فيكون جزاؤها بحسب حدها وأما أعمال القلوب: فهي دائمة متصلة وإن توارى شهود العبد لها

مثاله: أن المحبة والرضى حال المحب الراضي لا تفارقه أصلا وإن توارى حكمها فصاحبها في مزيد متصل فمزيد المحب الراضي: متصل بدوام هذه الحال له فهو في مزيد ولو فترت جوارحه بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثير من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما ويبلغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيده في حال نومه أكثر من مزيد كثير من أهل القيام وأكله أكثر من مزيد كثير من أهل الصيام والجوع فإن أنكرت هذا فتأمل مزيد نائم بالله وقيام غافل عن الله فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم لا إلى صور الأعمال وقيمة العبد: همته وإرادته فمن لا يرضيه غير الله ولو أعطي الدنيا بحذافيرها له شأن ومن

(84/221)

يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأن وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحظوظ أكثر وأشق وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وقد اختلف أرباب هذا الشأن في مسألة وهي: هل للرضى حد ينتهي إليه فقال أبو سليمان الداراني: ثلاث مقامات لا حد لها: الزهد والورع والرضى وخالفه سليمان ابنه وكان عارفا حتى إن من الناس من كان يقدمه على أبيه فقال: بل من تورع في كل شيء: فقد بلغ حد الورع ومن زهد في غير الله: فقد بلغ حد الزهد ومن رضي عن الله في كل شيء:

فقد بلغ حد الرضى

وقد اختلفوا في مسألة تتعلق بذلك وهي: أهل مقامات ثلاثة أحدهم: يحب الموت شوقا إلى الله ولقائه والثاني: يحب البقاء للخدمة والتقرب وقال الثالث: لا أختار بل أرضى بما يختار لي مولاي إن شاء أحياني وإن شاء أماتني فتحاكموا إلى بعض العارفين فقال: صاحب الرضى أفضلهم لأنه أقلهم فضولا وأقربهم إلى السلامة ولا ريب أن مقام الرضى فوق مقام الشوق والزهد في الدنيا بقي النظر في مقامي الآخرين: أيهما أعلى فرجحت طائفة مقام من أحب الموت لأنه فى مقام الشوق إلى لقاء الله ومحبة لقائه ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ورجحت طائفة مقام مريد البقاء لتنفيذ أوامر الرب تعالى واحتجوا بأن الأول محب لحظه من الله وهذا محب لمراد الله منه لم يشبع منه ولم يقض منه وطرا قالوا: وهذا حال موسى صلوات الله وسلامه عليه حين لطم وجه ملك الموت ففقأ عينه لا محبة للدنيا ولكن لينفذ أوامر ربه ومراضيه في الناس فكأنه قال: أنت عبده وأنا عبده وأنت في طاعته وأنا في طاعته وتنفيذ أوامره

(85/221)

وحينئذ فنقول في الوجه الثاني والستين: إن حال الراضي المسلم ينتظم حاليهما جميعا مع زيادة التسليم وترك الاختيار فإنه قد غاب بمراد ربه منه من إحيائه وإماتته عن مراده هو من هذين الأمرين وكل محب فهو مشتاق إلى لقاء حبيبه مؤثر لمراضيه فقد أخذ بزمام كل من المقامين واتصف بالحالين وقال: أحب ذلك إلي أحبه إليه لا أتمنى غير رضاه ولا أتخير عليه إلا ما يحبه ويرضاه وهذا القدر كاف في هذا الموضع وبالله التوفيق فلنرجع إلى شرح كلامه قال: الثاني: سقوط الخصومة عن الخلق يعني أن الرضى إنما يصح بسقوط الخصومة مع الخلق فإن الخصومة تنافي حال الرضى وتنافي نسبة الأشياء كلها إلى من بيده أزمة القضاء والقدر ففي الخصومة آفات أحدها: المنازعة التي تضاد الرضى الثاني: نقص التوحيد بنسبة ما يخاصم فيه إلى عبد دون الخالق لكل شيء الثالث: نسيان الموجب والسبب الذى جر إلى الخصومة فلو رجع العبد إلى السبب والموجب لكان اشتغاله بدفعه أجدى عليه وأنفع له من خصومة من جرى على يديه فإنه وإن كان ظالما فهو الذي سلطه على نفسه بظلمه قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: 165] فأخبر أن أذى عدوهم لهم وغلبتهم لهم: إنما هو بسبب ظلمهم وقال الله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: 30]

فإذا اجتمعت بصيرة العبد على مشاهد القدر والتوحيد والحكمة والعدل: انسد عنه باب خصومة الخلق إلا فيما كان حقا لله ورسوله فالراضي لا يخاصم ولا يعاتب إلا فيما يتعلق بحق الله وهذه كانت حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكن يخاصم أحدا ولا يعاتبه إلا فيما يتعلق بحق الله كما أنه كان لا يغضب لنفسه فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله فالمخاصمة لحظ النفس تطفىء نور الرضى وتذهب بهجته وتبدل بالمرارة حلاوته وتكدر صفوه قال:

الشرط الثالث: الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح وذلك: لأن المسألة: فيها ضرب من الخصومة والمنازعة والمحاربة والرجوع عن مالك الضر والنفع إلى من لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا بربه وفيها الغيبة عن المعطي المانع والإلحاح ينافي حال الرضى ووصفه وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافا فقال تعالى ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [البقرة: 273] فقالت طائفة: يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلى سؤاله ولكن لا يلحفون فنفى الله عنهم سؤال الإلحاف لا مطلق السؤال قال ابن عباس: إذا كان عنده غداء لم يسأل عشاء وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداء وقالت طائفة منهم الزجاج والفراء وغيرهما: بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقا لأنهم وصفوا بالتعفف والمعرفة بسيماهم دون الإفصاح بالمسألة لأنهم لو أفصحوا

بالسؤال لم يحسبهم الجاهل أغنياء ثم اختلفوا في وجه قوله تعالى: ﴿ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ [البقرة: 273]

(87/221)

فقال الزجاج: المعنى لا يكون منهم سؤال فيقع إلحاف كما قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ أي لا تكون شفاعة فتنفع وكما فى قوله: ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة: 123] أي لا يكون عدل فيقبل ونظائره قال امروء القيس: على لاحب لا يهتدى لمناره أي ليس له منار يهتدي به قال ابن الأنباري وتأويل الآية: لا يسألون ألبتة فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلى الإلحاف فيجري هذا مجرى قولك: فلان لا يرجى خيره أي ليس له خير فيرجى

وقال أبو علي: لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم لأن المعنى: ليس منهم مسألة فيكون منهم إلحاف قال: ومثل ذلك قول الشاعر: لا يفزع الأرنب أهوالها % ولا ترى الضب بها ينجحر أي ليس بها أرنب فتفزع لهولها ولا ضب فينجحر وقال الفراء: نفى الإلحاف عنهم وهو يريد نفي جميع السؤال

فصل والمسألة في الأصل حرام وإنما أبيحت للحاجة والضرورة لأنها ظلم

في حق الربوبية وظلم في حق المسئول وظلم في حق السائل أما الأول: فلأنه بذل سؤاله وفقره وذله واستعطاءه لغير الله وذلك نوع عبودية فوضع المسألة في غير موضعها وأنزلها بغير أهلها وظلم توحيده وإخلاصه وفقره إلى الله وتوكله عليه ورضاه بقسمه واستغنى بسؤال الناس عن مسألة رب الناس وذلك كله يهضم من حق التوحيد ويطفىء نوره ويضعف قوته وأما ظلمه للمسئول: فلأنه سأله ما ليس عنده فأوجب له بسؤاله عليه حقا

(88/221)

لم يكن له عليه وعرضه لمشقة البذل أو لوم المنع فإن أعطاه أعطاه على كراهة وإن منعه منعه على استحياء وإغماض هذا إذا سأله ما ليس عليه وأما إذا سأله حقا هو له عنده: فلم يدخل في ذلك ولم يظلمه بسؤاله وأما ظلمه لنفسه: فإنه أراق ماء وجهه وذل لغير خالقه وأنزل نفسه أدنى المنزلتين ورضي لها بأبخس الحالتين ورضي بإسقاط شرف نفسه وعزة تعففه وراحة قناعته وباع صبره ورضاه وتوكله وقناعته بما قسم له واستغناءه عن الناس بسؤالهم وهذا عين ظلمه لنفسه إذ وضعها في غير موضعها وأخمل شرفها ووضع قدرها وأذهب عزها وصغرها وحقرها ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسئول ويده تحت يده ولولا الضرورة لم يبح ذلك في الشرع

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سأل الناس أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره فيتصدق به على الناس: خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه " وفي صحيح مسلم عنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به عن الناس: خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه ذلك بأن اليد العليا خير من اليد السفلى "

(89/221)

وابدأ بمن تعول زاد الإمام أحمد : "ولأن يأخذ ترابا فيجعله في فيه: خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله عليه" وفي صحيح البخاري عن الزبير بن العوام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة من الحطب على ظهره فيبيعها

فيكف الله بها وجهه: خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه " وفى الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه: أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف والمسألة: "اليد العليا خير من اليد السفلى فاليد العليا : هي المنفقة واليد السفلى: هي السائلة" رواه البخارى ومسلم وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم قال: "يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى قال حكيم: فقلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا " وكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيما إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئا فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم: أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن

يأخذه فلم يرزأ حكيم رضي الله عنه أحدا من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي متفق على صحته

(90/221)

وروي عن الشعبى قال: حدثني كاتب المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: أن اكتب إلي شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب إليه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله كره لكم ثلاثا قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال " رواه البخاري ومسلم وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تلحفوا فى المسألة فوالله لا يسألني أحد منكم شيئا فتخرج له مسألته مني شيئا وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته" وفي لفظ: "إنما أنا خازن فمن أعطيته عن طيب نفس فيبارك له فيه ومن أعطيته عن مسألة وشره كان كالذي يأكل ولا يشبع " رواه مسلم وعن أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه قال: حدثنى الحبيب الأمين أما هو: فحبيب إلي وأما هو عندي: فأمين عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : "ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا حديثي عهد ببيعته فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم

قال: ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلام نبايعك قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والصلوات الخمس وتطيعوا الله وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئا فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه " رواه مسلم وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن المسئلة كد يكد بها الرجل وجهه إلا أن يسأل الرجل سلطانا أو في أمر لا بد منه " رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح وفى مسند الإمام أحمد عن زيد بن عقبة الفزاري قال: دخلت على الحجاج ابن يوسف الثقفي فقلت: أصلح الله الأمير ألا أحدثك حديثا

(91/221)

سمعته من سمرة بن

جندب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بلى قال سمعته يقول: "المسائل كد يكد بها الرجل وجهه فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك إلا أن يسأل رجل ذا سلطان أو يسأل في أمر لابد منه " وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: "من يتقبل لى بواحدة وأتقبل له بالجنة قال: قلت: أنا قال: لا تسأل الناس شيئا فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب فلا يقول لأحد: ناولنيه حتى ينزل هو فيتناوله" رواه الإمام أحمد وأهل السنن وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصابته فاقة فأنزلها بالناس: لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله: أوشك الله له بالغنى: إما بموت عاجل أو غنى عاجل" رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح وعن سهل بن الحنظلية قال: قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عيينة ابن حصن والأقرع بن حابس فسألاه فأمر لهما بما سألاه وأمر معاوية فكتب لهما بما سألا فأما الأقرع: فأخذ كتابه فلفه في عمامته وانطلق وأما عيينة: فأخذ كتابه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتابه فقال: يا محمد أراني حاملا إلى قومي كتابا لا أدري ما فيه كصحيفة المتلمس فأخبر معاوية بقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سأل وعنده ما يغنيه: فإنما يستكثر من النار وفي لفظ: من جمر جهنم قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يغنيه وفي لفظ: وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة قال: قدر ما يغديه وما يعشيه وفي لفظ: أن يكون له شبع يوم وليلة" رواه أبو داود والإمام أحمد وعن ابن الفراسي أن الفراسي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "أسأل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا وإن كنت سائلا لا بد فسل الصالحين" رواه النسائي

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم أسأله فقال: أقم حتى تأتينا الصدقة فآمر لك بها ثم قال: يا قبيضة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال: سدادا من عيش ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال: سدادا من عيش فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتا رواه مسلم وعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأعطاه فلما وضع رجله على أسكفة الباب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو يعلمون ما في المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله شيئا" رواه النسائي وعن مالك بن نضلة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الأيدي "ثلاثة فيد الله: العليا ويد المعطي: التي تليها ويد السائل: السفلى فأعط الفضل ولا تعجز عن نفسك" رواه الإمام أحمد وأبو داود وعن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من سأل مسألة وهو عنها غني كانت شينا في

وجهه يوم القيامة " رواه الإمام أحمد وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث والذي نفس محمد بيده إن كنت لحالفا عليهن: لا ينقص مال من صدقة فتصدقوا ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر رواه الإمام أحمد وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: سرحتني أمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فأتيته فقعدت قال: فاستقبلني فقال: من استغنى أغناه الله ومن استعف أعفه الله ومن استكفى كفاه الله ومن سأل وله قيمة

(93/221)

أوقية فقد ألحف فقلت: ناقتي هي خير من أوقية ولم أسأله رواه الإمام أحمد وأبو داود وعن خالد بن عدي الجهني رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله إليه " رواه الإمام أحمد فهذا أحد المعنيين في قوله: إن من شرط الرضى: ترك الإلحاح في المسألة وهو أليق المعنيين وأولاهما لأنه قرنه بترك الخصومة مع الخلق فلا يخاصمهم في حقه ولا يطلب منهم حقوقه والمعنى الثاني أنه لا يلح في الدعاء ولا يبالغ فيه فإن ذلك يقدح في رضاه

وهذا يصح في وجه دون وجه فيصح إذا كان الداعي يلح في الدعاء بأغراضه وحظوظه العاجلة وأما إذا ألح على الله في سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه: فإن ذلك لا يقدح في مقام الرضى أصلا وفي الأثر: إن الله يحب الملحين فى الدعاء وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم بدر للنبي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألححت على ربك كفاك بعض مناشدتك لربك فهذا الإلحاح عين العبودية وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم يسأل الله يغضب عليه فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافيا لرضاه" وحقيقة الرضى: موافقته سبحانه فى رضاه بل الذي ينافي الرضى: أن يلح عليه متحكما عليه متخيرا عليه ما لم يعلم: هل يرضيه أم لا كمن يلح على ربه في ولاية شخص أو إغنائه أو قضاء حاجته فهذا ينافي الرضى لأنه ليس على يقين أن مرضاة الرب في ذلك

(94/221)

فإن قيل: فقد يكون للعبد حاجة يباح له سؤاله إياها فيلح على ربه في طلبها حتى يفتح له من لذيذ مناجاته وسؤاله والذل بين يديه وتملقه والتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وتفريغ القلب له وعدم تعلقه في حاجته بغيره: ما لم يحصل له بدون الإلحاح فهل يكره له هذا

الإلحاح وإن كان المطلوب حظا من حظوظه قيل: ها هنا ثلاثة أمور أحدها: أن يفنى بمطلوبه وحاجته عن مراده ورضاه ويجعل الرب تعالى وسيلة إلى مطلوبه بحيث يكون أهم إليه منه فهذا ينافي كمال الرضى به وعنه الثاني: أن يفتح على قلبه حال السؤال من معرفة الله ومحبته والذل له والخضوع والتملق: ما ينسيه حاجته ويكون ما فتح له من ذلك أحب إليه من حاجته بحيث يحب أن تدوم له تلك الحال وتكون آثر عنده من حاجته وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاته ذلك فهذا لا ينافي رضاه وقال بعض العارفين: إنه لتكون لي حاجة إلى الله فأسأله إياها فيفتح علي من مناجاته ومعرفته والتذلل له والتملق بين يديه: ما أحب معه أن يؤخر عني قضاءها وتدوم لي تلك الحال وفي أثر: إن العبد ليدعو ربه عز وجل فيقول الله عز وجل لملائكته: اقضوا حاجة عبدي وأخروها فإني أحب أن أسمع دعاءه ويدعوه آخر فيقول الله لملائكته اقضوا حاجته وعجلوها فإني أكره صوته وقد روى الترمذي وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج وروي أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء"

وروى أيضا من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليسأل أحدكم ربه حاجته حتى يسأله الملح وحتى يسأله شسع نعله إذا انقطع وفيه أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما سئل الله شيئا أحب إليه من أن يسأل العافية وإن الدعاء لينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء"

وإذا كان هذا محبة الرب تعالى للدعاء فلا ينافي الإلحاح فيه الرضى

الثالث: أن ينقطع طمعه من الخلق ويتعلق بربه في طلب حاجته وقد أفرده بالطلب ولا يلوي على ما وراء ذلك فهذا قد تنشأ له المصلحة من نفس الطلب وإفراد الرب بالقصد والفرق بينه وبين الذي قبله: أن ذلك قد فتح عليه بما هو أحب إليه من حاجته فهو لا يبالي بفواتها بعد ظفره بما فتح عليه وبالله التوفيق

فصل قال: الدرجة الثالثة: الرضى برضى الله فلا يرى العبد لنفسه سخطا ولا رضى فيبعثه على ترك التحكم وحسم الاختيار وإسقاط التمييز ولو أدخل النار إنما كانت هذه الدرجة أعلى مما قبلها من الدرجات عنده: لأنها درجة صاحب الجمع الفاني بربه عن نفسه وعما منها قد غيبه شاهد رضى الله بالأشياء في وقوعها على مقتضى مشيئته عن شاهد رضاه هو فيشهد الرضى لله ومنه حقيقة ويرى نفسه فانيا ذاهبا مفقودا فهو

يستوحش من نفسه ومن صفاتها ومن رضاها ومن سخطها فهو عامل على التغيب عن وجوده وعما منه مترام إلى العدم المحض قد تلاشى وجوده ونفسه وصفاتها في وجود مولاه الملك الحق وصفاته وأفعاله كما يتلاشى ضوء السراج الضعيف في جرم الشمس فغاب برضى

(96/221)

ربه عن رضاه هو وعن ربه في أقضيته وأقداره وغاب بصفات ربه عن صفاته وبأفعاله عن أفعاله فتلاشي وجوده وصفاته وأفعاله في جنب وجود ربه وصفاته بحيث صار كالعدم المحض وفي هذا المقام لا يرى لنفسه رضى ولا سخطا فيوجب له هذا الفناء: ترك التحكم على الله بأمر من الأمور وترك التخير عليه فتذهب مادة التحكم وتفنى وتنحسم مادة الاختيار وتتلاشى وعند ذلك يسقط تمييز العبد ويتلاشى هذا تقدير كلامه وبعد فههنا أمران: أحدهما: أن هذا حال يعرض لا مقام يطلب ويشمر إليه فإن هذه الحال متى عرضت له وارت عنه تمييزه ولا يمكن أن يدوم له ذلك بل يقصر زمنه ويطول ثم يرجع إلى تمييزه وعقله وصاحب هذه الحال مغلوب: إما سكران بحاله وإما فان عن وجوده والكمال وراء ذلك وهو أن يكون فانيا عن إرادته بإرادة ربه منه فيكون باقيا بوجود آخر غير

وجوده الطبيعي وهو وجود مطهر كائن بالله ولله ومع الله وصاحب هذا في مقام: فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش قد فني عن وجوده الطبيعي والنفسي وبقي بهذا الوجود العلوي القدسي فيعود عليه تمييزه وفرقانه ورضاه عن ربه تعالى ومقامات إيمانه وهذا أكمل وأعلى من فنائه عنها كالسكران فإن قلت: فهل يمكن وصوله إلى هذا المقام من غير درب الفناء وعبوره إليه على غير جسره

قلت: اختلف في ذلك فطائفة ظنت أنه لا يصل إلى البقاء وإلى هذا الوجود المطهر إلا بعد عبوره على جسر الفناء فعدوه لازما من لوازم السير إلى الله وقالت طائفة: بل يمكن الوصول إلى البقاء على غير درب الفناء والفناء عندهم عارض من عوارض الطريق لا لازم وسببه: قوة الوارد وضعف المحل واستجلابه بتعاطي أسبابه

(97/221)

والتحقيق: أنه لا يصل إلى هذا المقام إلا بعد عبوره على جسر الفناء عن مراده بمراد سيده فما دام لم يحصل له هذا الفناء فلا سبيل له إلى ذلك البقاء وأما فناؤه عن وجوده: فليس شرطا لذلك البقاء ولا هو من لوازمه وصاحب هذا المقام: هو في رضاه عن ربه بربه لا بنفسه كما هو في توكله وتفويضه وتسليمه وإخلاصه ومحبته وغير ذلك من أحواله بربه لا

بنفسه فيرى ذلك كله من عين المنة والفضل مستعملا فيه قد أقيم فيه لا أنه قد قام هو به فهو واقف بين مشهد ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: 28] ومشهد ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29] والله المستعان. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مدارج السالكين حـ 2 صـ 171. 242﴾

(98/221)

قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما كان هذا الذي أباحه لهم وأباحهم إياه لا يكون إلا بأسباب لا تسعها العقول، ولا تكتنه بفروع ولا أصول، علل إعطاءه إياه وسهولته لديه بقوله مشيراً إلى أن كل ما ادعيت فيه الإلهية مما تقدم في هذه السورة وغيرها بعيد عن ذلك، لأنه ملكه وفي ملكه وتحت قهره: ﴿لله﴾ أي الملك الذي لا تكتنه عظمته ولا تضعف قدرته، لا لغيره ﴿ملك السماوات﴾ بدأ بها لأنها أشرف وأكبر، وآياتها أدل وأكثر ﴿والأرض﴾ على اتساعهما وعظمهما وتباعد ما بينهما ﴿وما فيهن﴾ أي من جوهر وعرض.

ولما كان ذلك أنهى ما نعلمه ، عمم بقوله : ﴿ وهو على كل شيء ﴾ أي من ذلك وغيره من كل ما يريد ﴿ قدير ﴾ فلذلك هو يحكم ما يريد لأنه هو الإله وحده ، وهو قادر على إسعاد من شاء وإشقاء من شاء ، وإحلال ما شاء وتحريم ما شاء ، والحكم بما يريد ونفع الصادقين الموفين بالعقود الثابتين على العهود ، لأن له ملك هذه العوالم وما فيها مما ادعى فيه الإلهية من عيسى وغيره ، والكل بالنسبة إليه أموات ، بل موات جديرون بأن يعبر عنهم ب " ما " لا ب " من " ، فمن يستحق معه شيئاً ومن يملك معه ضراً أو نفعاً ! وقد انطبق آخر السورة على أولها كما ترى أي انطباق ، واتسقت جميع آياتها أخذاً بعضها بحجز بعض أيّ اتساق ؛ فسبحان من أنزل هذا القرآن على أعظم البيان ! مخجلاً لمن أباه من الأمم ، معجزاً لأصحاب السيف والقلم ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 577 ﴾

(99/221)

فصل

قال الفخر :

قيل : إن هذا جواب عن سؤال مقدر كأنه قيل : من يعطيهم ذلك الفوز العظيم ؟ فقيل :

الذي له ملك السموات والأرض .

وفي هذه الخاتمة الشريفة أسرار كثيرة ونحن نذكر القليل منها .

فالأول : أنه تعالى قال : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا فِيهِنَّ ﴾ ولم يقل ومن فيهن فغلب غير العقلاء على العقلاء ، والسبب فيه التنبيه على أن كل المخلوقات مسخرون في قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره ، وهم في ذلك التسخير كالجمادات التي لا قدرة لها وكالبهائم التي لا عقل لها ، فعلم الكل بالنسبة إلى علمه كلا علم ، وقدرة الكل بالنسبة إلى قدرته كلا قدرة .

والثاني : أن مفتتح السورة كان بذكر العهد المنعقد بين الربوبية والعبودية فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] وكمال حال المؤمن في أن يشرع في العبودية وينتهي إلى الفناء المحض عن نفسه بالكلية .

فالأول هو الشريعة وهو البداية والآخر هو الحقيقة وهو النهاية .

فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه ، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح ، وهذا المختتم ! والثالث : أن السورة اشتملت على أنواع كثيرة من العلوم .

فمنها : بيان الشرائع والأحكام والتكاليف .

ومنها المناظرة مع اليهود في إنكارهم شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ومنها المناظرة مع

النصارى في قولهم بالتثليث فختم السورة بهذه النكتة الوافية بإثبات كل هذه المطالب .

فإنه قال : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السموات والارض وَمَا فِيهِنَّ ﴾ ومعناه أن كل ما سوى الحق سبحانه فإنه ممكن لذاته موجود بإيجاده تعالى .

وإذا كان الأمر كذلك كان مالكاً لجميع الممكنات والكائنات موجداً لجميع الأرواح والأجساد ، وإذا ثبت هذا لزم منه ثبوت كل المطالب المذكورة في هذه السورة .

(100/221)

وأما حسن التكليف كيف شاء وأراد ، فذاك ثابت ، لأنه سبحانه لما كان مالكاً للكل ، كان له أن يتصرف في الكل بالأمر والنهي والثواب والعقاب كيف شاء وأراد .

فصح القول بالتكليف على أي وجه أراده الحق سبحانه وتعالى .

وأما الرد على اليهود فلأنه سبحانه لما كان مالك الملك فله بحكم المالكية أن ينسخ شرع موسى ويضع شرع محمد عليهما الصلاة والسلام وأما الرد على النصارى فلأن عيسى ومريم داخلان فيما سوى الله لأنا بينا أن الموجد إما أن يكون هو الله تعالى أو غيره ، وعيسى ومريم لا شك في كونهما داخلين في هذا القسم .

فإذا دللنا على أن كل ما سوى الله تعالى ممكن لذاته موجود بإيجاد الله كائن بتكوين الله كان

عيسى ومريم عليهما السلام كذلك .

ولا معنى للعبودية إلا ذلك .

فثبت كونهما عبدين مخلوقين فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية التي جعلها الله خاتمة لهذه السورة برهان قاطع في صحة جميع العلوم التي اشتملت هذه السورة عليها .

والله أعلم بأسرار كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 115 .

116 ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ لله ملك السماوات ﴾ . . . الآية ، يحتمل أن يكون مما يقال يوم القيامة ، ويحتمل أنه مقطوع من ذلك مخاطب به محمد صلى الله عليه وسلم وأمته . وعلى الوجهين ففيه عضد ما قال عيسى ، إن تعذب الناس فإنهم عبادك على تقدم من تأويل الجمهور .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ الآية جاء هذا عقب ما جرى من دعوى النصارى في عيسى أنه إله ، فأخبر تعالى أن ملك السموات والأرض له دون عيسى ودون سائر المخلوقين .

ويجوز أن يكون المعنى أن الذي له ملك السموات والأرض يعطي الجنات المتقدّم ذكرها

للمطيعين من عباده ؛ جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

وفي قوله : ﴿ لله ملك السموات والأرض ﴾ تنبيهٌ على عبودية عيسى ، وتحريضٌ على تعليق الآمال بالله وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(101/221)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا فِيهِنَّ ﴾ تحقيقٌ للحق وتنبيهٌ على كذِب النصارى وفسادِ ما زعَموا في حق المسيحِ وأمّه ، أي له تعالى خاصةً مُلك السمواتِ والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرِهم ، يتصرَّفُ فيها كيف يشاء ، إيجاداً وإعداماً ، إحياءً وإماتة ، وأمراً ونهياً ، من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخلٌ في ذلك ، وفي إيثار (ما) على (من) المختصة بالعقلاء على تقدير تناولها للكل ، مراعاةٌ للأصل وإشارةٌ إلى تساوي الفريقين في استحالة الربوبية حسَب تساويهما في تحقُّق المربوبية ، وعلى تقدير اختصاصِها بغير العقلاء تنبيهٌ على كمال قصورهم عن رتبة الألوهية ، وإهابةٌ بهم بتغليب

غيرِهم عليهم ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ مبالِغٌ في القدرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(102/221)

وقال الآلوسي :

﴿ للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا فِيهِنَّ ﴾ تحقيق للحق وتنبيه بما فيه من تقديم الظرف المفيد للحصر على كذب النصارى وفساد ما زعموه في حق المسيح وأمه عليهما السلام .

وقيل : استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل : من يملك ذلك ليعطيهم إياه ؟ فقيل : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السموات ﴾ الخ فهو المالك والقادر على الإعطاء ولا يخفى بعده وفي إيثار ﴿ مَا ﴾ على من المختصة بالعقلاء على تقدير تناولها للكل مراعاة كما قيل للأصل وإشارة إلى تساوي الفريقين في استحالته الربوبية حسب تساويهما في تحقق المربوبية .

وعلى تقدير اختصاصها بغير العقلاء كما يشير إليه خبر ابن الزبعرى رضي الله تعالى عنه تنبيه على كمال قصورهم من رتبة الألوهية ، وفي تغليب غير العقلاء على العقلاء على خلاف المعروف ما لا يخفى من حط قدرهم .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أي مبالغ في القدرة .

وفسرها الغزالي بالمعنى الذي به يوجد الشيء متقدراً بتقدير الإرادة والعلم واقعاً على وفقهما ، وفسر الموصوف بها على الإطلاق بأنه الذي يخترع كل موجود اختراعاً ينفرد به ويستغني به عن معاونة غيره وليس ذاك إلا الله تعالى الواحد القهار .

والظرف متعلق بقدير والتقديم لمراعاة الفاصلة ، ولا يخفى ما في ذكر كبرياء الله تعالى وعزته وقهره وعلوه في آخر هذه السورة من حسن الاختتام ، وأخرج أبو عبيد عن أبي الزاهرية أن عثمان رضي الله تعالى عنه كتب في آخر المائدة (ولله ملك السموات والأرض والله سميع بصير) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(103/221)

وقال البيضاوى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

تنبيه على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه ، وإنما لم يقل ومن فيهن تغليباً للعقلاء وقال ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ اتباعاً لهم غير أولي العقل إعلاماً بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية ، وإهانة لهم وتنبيهاً على المجانسة المنافية للألوهية

، ولأن ما يطلق متناولاً للأجناس كلها فهو أولى بإرادة العموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 385 ﴾

فصل

قال ابن عاشور :

﴿ للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا فِيهِنَّ ﴾

تذييل مؤذن بانتهاء الكلام ، لأنّ هذه الجملة جمعت عبودية كلّ الموجودات لله تعالى ، فناسبت ما تقدّم من الردّ على النصارى ، وتضمّنت أنّ جميعها في تصرّفه تعالى فناسبت ما تقدّم من جزاء الصادقين .

وفيها معنى التفويض لله تعالى في كلّ ما ينزل ، فآذنت بانتهاء نزول القرآن على القول بأنّ سورة المائدة آخر ما نزل ، وباقتراب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما في الآية من معنى التسليم لله وأنّه الفعّال لما يريد .

وتقديم المجرور باللام مفيد للقصر أي له لا لغيره .

وجيء بالموصول (ما) في قوله ﴿ وما فيهن ﴾ دون (من) لأنّ (ما) هي الأصل في الموصول المبهم فلم يعتبر تغليب العقلاء ، وتقديم المجرور بـ ﴿ على ﴾ في قوله : ﴿ على كل شيء قدير ﴾ للرعاية على الفاصلة المبنيّة على حرفين بينهما حرف مدّ .

﴿ وما فيهنّ ﴾ عطف على ﴿ ملك ﴾ أي لله ما في السماوات والأرض ، كما في سورة

البقرة (284) ﴿ ه ما في السماوات وما في الأرض ﴾ فيفيد قصرها على كونها لله لا لغيره .

وليس معطوفاً على السماوات والأرض إذ لا يحسن أن يقال : لله مُلك ما في السماوات والأرض لأنّ الملك يضاف إلى الأقطار والآفاق والأماكن كما حكى الله تعالى : ﴿ أليس لي مُلك مصر ﴾ [الزخرف : 51] ويضاف إلى صاحب الملك كما في قوله : ﴿ على ملك سليمان ﴾ [البقرة : 102] .

ويقال : في مدّة مُلك الأشوريين أو الرومان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 5 صـ ﴾

(104/221)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) .

قَرَأَ الْجُمْهُورُ "يَوْمُ" بِالرَّفْعِ وَهُوَ خَبَرُ هَذَا ، أَيْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَنْفَعُ فِيهِ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ فِي إِيمَانِهِمْ وَشَهَادَاتِهِمْ ، وَفِي سَائِرِ أَقْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ . وَقَرَأَهُ نَافِعٌ بِالنَّصْبِ وَقِيلَ بِالْبِنَاءِ عَلَى الْفَتْحِ أَيْ قَالَ اللَّهُ : هَذَا أَيِ الَّذِي قَالَهُ عِيسَى وَاقِعٌ أَوْ كَائِنٌ

يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ . ثُمَّ بَيَّنَ هَذَا النَّفْعَ بَيَانًا مُسْتَأْنَفًا فَقَالَ :

(لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الْجُمْلَةُ الْأُولَى تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا مِرَارًا ، وَأَمَّا الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ

(105/221)

بَيَانٌ لِلنَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ بَعْدَ ذِكْرِ النَّعِيمِ الْجُثْمَانِيِّ ، فَإِنَّ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ وَرِضَاهُمْ عَنْهُ هُوَ غَايَةُ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي نَفْسِهِ ، وَفِيمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ عَطَايَاهُ تَعَالَى وَإِكْرَامِهِ ، وَمِنْ كَوْنِهِمْ يَكُونُونَ نَاعِمِينَ بِذَلِكَ الْإِكْرَامِ مُغْتَبِطِينَ بِهِ ، إِذْ لَا مَطْلَبَ لَهُمْ أَعْلَى مِنْهُ فَتَشْتَدُّ أَعْنَاقُهُمْ إِلَيْهِ وَتَسْتَشْرِفُ قُلُوبُهُمْ لَهُ حَتَّى يَتَوَقَّفَ رِضَاهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا كَوْنُهُ سَعَادَةً فِي نَفْسِهِ فَيُعْلَمُ مِنْ حَالِ كُلِّ مَنْ كَانَ فِي كَنَفِ إِنْسَانٍ وَالِدٍ أَوْ أُسْتَاذٍ أَوْ قَائِدٍ أَوْ رَئِيسٍ أَوْ سُلْطَانٍ ، فَإِنَّ عِلْمَهُ بِرِضَاهُ عَنْهُ يَجْعَلُهُ فِي غِبْطَةٍ وَهَنَاءٍ وَطُمَأْنِينَةِ قَلْبٍ ، وَيَكُونُ سُرُورُهُ وَزَهْوُهُ بِذَلِكَ عَلَى قَدْرِ مُقَامِ رَئِيسِهِ الرَّاضِي عَنْهُ ، عَلَى حَدِّ الْبَيْتِ الَّذِي يَتَمَثَّلُ بِهِ الصُّوفِيَّةُ :

قَوْمٌ تَخَالَجَهُمْ زَهْوٌ بِسَيِّدِهِمْ . . . وَالْعَبْدُ يُزْهَى عَلَى مِقْدَارِ مَوْلَاهُ .

(106/221)

عَلَى أَنَّ مَرْضَاةَ رُؤَسَاءِ الدُّنْيَا لَا يَسْتَلْزِمُ رِضَاءَ الْمَرْءُوسِينَ دَائِمًا ؛ لِأَنَّ مِنْهُمُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ لَا يُوفُونَ أَحَدًا حَقَّهُ وَإِنْ كَانُوا رَاضِينَ عَنْهُ ، وَرَضْوَانُ أَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ يَسْتَلْزِمُ رِضَا مَنْ رَضِيَ هُوَ عَنْهُ لِأَنَّهُ يُعْطِيهِ أَضْعَافَ مَا يَسْتَحِقُّ ، وَفَوْقَ مَا يُؤَمِّلُ وَيَرْجُو ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلَمِ السَّجْدَةِ : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (32 : 17) وَرِضْوَانُهُ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ بِمَعْنَى مَا هُنَا : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (9 : 72) .

(107/221)

وَالْفَوْزُ : الظَّفَرُ بِالْمَطْلُوبِ مَعَ النَّجَاةِ مِنْ ضِدِّهِ . أَوْ مِمَّا يَحُولُ دُونَهُ وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْفَوْزُ الظَّفَرُ بِالْخَيْرِ مَعَ حُصُولِ السَّلَامَةِ فَمَعْنَاهُ مُرَكَّبٌ مِنْ سَلْبٍ وَإِيجَابٍ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) (3 : 185) وَإِطْلَاقُهُ عَلَى الظَّفَرِ بِالْمَطْلُوبِ وَحْدَهُ كَمَا فِي الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا وَآيَةِ التَّوْبَةِ الَّتِي بِمَعْنَاهَا وَمَا يُشَابِهُهَا مُرَاعَى فِيهِ الْمَعْنَى السَّلْبِيُّ بِالْقَرَائِنِ الْحَالِيَّةِ ، كَمَا يُقَالُ فِي الْجَيْشِ الَّذِي يَغْلِبُ عَدُوَّهُ وَيَظْفَرُ بِالْغَنَائِمِ مِنْهُ

! إِنَّهُ فَازَ ، وَهُوَ إِذَا نَالَ مُرَادَهُ مِنْ هَدْمِ قَلْعَةٍ وَدَكِّ حِصْنٍ فَهَلَكَ تَحْتَ أَنْقَاضِهِ فَلَا يُقَالُ إِنَّهُ قَدْ فَازَ ، وَإِذَا كَانَ الْمُهِمُّ فِي الْفَوْزِ الْمَعْنَى الْإِيجَابِيَّ يُعَدَّى بِالْبَاءِ فَيُقَالُ : فَازَ بِكَذَا ، وَإِذَا كَانَ الْمُهِمُّ بَيَانَ الْمَعْنَى السَّلْبِيِّ يُعَدَّى بِمَنْ فَيُقَالُ : فَازَ مِنَ الْهَلَاكِ قَالَ تَعَالَى : (فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ) (3 : 188) وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الْفَلَاةُ مَفَازَةً عَلَى سَبِيلِ التَّفَاؤُلِ لِأَنَّهَا مَظِنَّةُ بِالْهَلَاكِ .

(108/221)

وَالْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) إِلَى كُلٍّ مِنَ النَّعِيمَيْنِ الْجُثْمَانِيِّ وَالرُّوحَانِيِّ اللَّذَيْنِ يَحْصُلَانِ بَعْدَ النَّجَاةِ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقِيلَ : إِنَّهُ لِلثَّانِي فَقَطْ ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ لِأَنَّهُ الْأَكْمَلُ وَلِأَنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِطْلَاقِ وَرَدَ فِي إِثْرِ إِطْلَاقِ الْجَزَاءِ بِالْجَنَّةِ وَحْدَهَا فِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ غَيْرَ الْآيَةِ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا آنِفًا ، وَفِي إِثْرِ إِطْلَاقِ الْجَزَاءِ بِالْجَنَّةِ مَعَ النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ كَمَا تَرَاهُ فِي آخِرِ سُورَةِ الدُّخَانِ ، وَفِي مَعْنَاهُ مَا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِ وَالْحَدِيدِ وَالصَّفِّ وَالتَّغَابُنِ ، فَإِنَّ ذِكْرَ الْمَغْفِرَةِ فِيهَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَى النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ . فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ، أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ هَذَا الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ، بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَتَوْفِيقِنَا لِأَسْبَابِ مَرْضَاتِهِ .

(109/221)

ثُمَّ خَتَمَ جَلَّ جَلَالُهُ هَذِهِ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ : (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِمَا قَبْلَهُ مُبَاشَرَةً وَمُنَاسِبٌ لِأَنْ يَكُونَ خِتَامًا لِمَجْمُوعِ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ . أَمَّا الْأَوَّلُ : فَلَمَّا بَيَّنَ مَا لِأَهْلِ الصِّدْقِ عِنْدَهُ مِنَ الْجَزَاءِ الْحَقِّ فِي مَقْعَدِ الصِّدْقِ ، بَيَّنَ عَقِبَهُ سَعَةَ مُلْكِهِ وَعُمُومَ قُدْرَتِهِ الدَّالِّينَ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ الْجَزَاءُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ . وَأَمَّا الثَّانِي : فَلَمَّا كَانَ أَكْثَرُ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَامَّةً ، وَبَسْطِ الْحُجَجِ عَلَى بُطْلَانِ أَقْوَالِ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ خَاصَّةً ، وَسَائِرُهَا فِي بَيَانِ أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، مَعَ النَّصِّ عَلَى إِكْمَالِ الدِّينِ بِالْقُرْآنِ ، وَعَلَى وَحْدَةِ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ وَاخْتِلَافِ الشَّرَائِعِ وَالْمَنَاهِجِ لِلْأُمَمِ وَلَمَّا كَانَ كُلٌّ مِنْ ذَيْنِكَ الْقِسْمَيْنِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ قَدْ تَكَرَّرَ فِيهِ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ، وَقَفَّى عَلَيْهِمَا بِذِكْرِ جَمْعِ اللَّهِ تَعَالَى لِلرُّسُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَسُؤَالِهِمْ عَنِ التَّبْلِيغِ ، وَجَوَابِ أَحَدِهِمُ الدَّالِّ عَلَى شَهَادَتِهِمْ عَلَى أَقْوَامِهِمْ بِالْحَقِّ ، وَتَفْوِيضِ أَمْرِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(110/221)

لَمَّا كَانَ مَا ذُكِرَ كَمَا ذَكَرَنَا سَبَ أَنْ نَخْتِمَ هَذِهِ السُّورَةَ بِبَيَانِ كَوْنِ الْمُلْكِ كُلِّهِ وَالْقُدْرَةِ كُلِّهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ وَأَنَّ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ الظَّرْفِ وَهُوَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ وَقَدِ اخْتِيرَتْ كَلِمَةُ " مَا " فِي قَوْلِهِ " وَمَا فِيهِنَّ " عَلَى " مَنْ " الْخَاصَّةِ بِمَنْ يَعْقِلُ ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَمْلِكَ ؛ لِأَنَّ مَدْلُولَهَا أَعَمُّ وَأَشْمَلُ ، وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ يَوْمَ الْجَزَاءِ الْحَقِّ يَسْتَوِي فِيهِ مَنْ يَعْقِلُ وَمَنْ لَا يَعْقِلُ ، فَلَا يَمْلِكُ مَعَهُ أَحَدٌ شَيْئًا ، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْمَسِيحُ وَأُمُّهُ اللَّذَانِ عُبِدَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَيَتَضَمَّنُ الْحَصْرُ التَّعْرِيضَ بِعِبَادَتِهِمَا ، وَبِالِاتِّكَالِ عَلَى شَفَاعَتِهِمَا ، إِذِ الْمُلْكُ وَالْقُدْرَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (2 : 255) وَغَايَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُمَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُكْرَمِينَ (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (21 : 26 29) . صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

خُلَاصَةُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ

انْفَرَدَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِعِدَّةِ مَسَائِلَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ ، وَبِتَفْصِيلِ عِدَّةِ أَحْكَامٍ أُجْمِلَتْ فِي غَيْرِهَا إِجْمَالًا ، وَأَكْثَرُهَا فِي بَيَانِ شُئُونِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُحَاجَّتِهِمْ ، وَنَحْنُ نُذَكِّرُ قَارِئَ تَفْسِيرِنَا بِخُلَاصَتِهَا مُرَاعِينَ مُنَاسَبَةَ بَعْضِ الْمَسَائِلِ لِبَعْضٍ لَا عَلَى تَرْتِيبِ وُرُودِهَا فِي السُّورَةِ ، وَجَعَلْنَا ذَلِكَ عَلَى قِسْمَيْنِ :

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْأُصُولِ وَالْقَوَاعِدِ الِاعْتِقَادِيَّةِ أَوِ الْعَمَلِيَّةِ) .

(1) أَهَمُّ الْأُصُولِ الَّتِي انْفَرَدَتْ بِهَا السُّورَةُ ، بَيَانُ إِكْمَالِ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ بِالْقُرْآنِ ، وَإِتْمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْلَامِ [رَاجِعْ ص 128 139 ج 6 ط الْهَيْئَةِ]

.

(2) النَّهْيُ عَنْ سُؤَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَسُوءَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أُبْدِيَتْ لَهُمْ لِمَا فِيهَا مِنْ زِيَادَةِ التَّكَالِيفِ مَثَلًا [رَاجِعْ ص 101 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ] .

(112/221)

وَقَدْ عُلِمَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي هَاتَيْنِ الْمَسْأَلَتَيْنِ الْمُتَلَازِمَتَيْنِ أَنَّ كُلَّ حُكْمٍ دِينِيٍّ مِنَ اعْتِقَادٍ أَوْ عِبَادَةٍ أَوْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ دَلَالَةً صَرِيحَةً وَلَمْ تَمْضِ بِهِ السُّنَّةُ

الْعَمَلِيَّةُ مِنْ عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَيْسَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي هُوَ حُجَّةُ اللهِ عَلَى كُلِّ مَنْ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ ، بِحَيْثُ يُطَالَبُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُسْأَلُونَ عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا فَصَّلْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِهِمَا مَعَ بَيَانِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ ، وَأَمَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ أَوِ السُّنَّةُ دَلَالَةً غَيْرَ صَرِيحَةٍ وَمِنْهُ أَكْثَرُ مَا اخْتَلَفَ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ فِي دَلَالَتِهِ فَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ فَهِمَ مِنْهُ الْحُكْمَ لَا عَلَى كُلِّ أَحَدٍ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ .

(3) بَيَانُ أَنَّ هَذَا الدِّينَ الْكَامِلَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ فِي الِاعْتِقَادِ وَالْهِدَايَةِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ ، وَأَنَّ التَّقْلِيدَ بَاطِلٌ لَا يَقْبَلُهُ اللهُ تَعَالَى ، كَمَا هُوَ صَرِيحُ الْآيَةِ 104 [رَاجِعْ ص 172 ج 7 ط الْهَيْئَةِ] وَتَقَدَّمَ مِثْلُهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(4) بَيَانُ أَنَّ أُصُولَ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ هِيَ الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(113/221)

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ، فَمَنْ أَقَامَهَا كَمَا أَمَرَتِ الرُّسُلُ مِنْ أَيَّةِ مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِ الرُّسُلِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [رَاجِعْ ص 394 ج 6 ط الْهَيْئَةِ] وَتَقَدَّمَ لَكَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(5) وَحْدَةُ الدِّينِ وَاخْتِلَافُ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْهَجِهِمْ فِيهِ .

(6) هَيْمَنَةُ الْقُرْآنِ عَلَى الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ [رَاجِعْ ص 339 ج 6 ط الْهَيْئَةِ] .

(7) بَيَانُ عُمُومِ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْرِهِ بِالتَّبْلِيغِ الْعَامِّ وَكَوْنِهِ لَا يُكَلَّفُ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ رَسُولًا إِلَّا التَّبْلِيغَ . وَأَنَّ مِنْ حُجَجِ رِسَالَتِهِ أَنَّهُ بَيَّنَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ كَثِيرًا مِمَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ كُتُبِهِمْ وَهُوَ قِسْمَانِ : (أَحَدُهُمَا) مَا ضَاعَ مِنْهُ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَاءً عَلَى الْأَصْلِ الْمُبَيَّنِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَهُوَ أَنَّهُمْ نَسُوا حَظًّا عَظِيمًا مِمَّا ذَكَّرَهُمُ اللَّهُ بِهِ بِإِنْزَالِهِ فِيهَا . (وَثَانِيهِمَا) مَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ مِنَ الْأَحْكَامِ اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ مَعَ وُجُودِهِ فِي الْكِتَابِ كَحُكْمِ رَجْمِ الزَّانِي ، وَقَدْ بَيَّنَّا كُلًّا مِنَ الْقِسْمَيْنِ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَلَوْلَا أَنَّ مُحَمَّدًا الْأُمِّيَّ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَمَا عَلِمَ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ .

(114/221)

---

(8) عِصْمَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَضُرُّوهُ أَوْ يَقْدِرُوا عَلَى صَدِّهِ عَنْ تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ ، وَهَذَا مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا ، فَكَمْ حَاوَلُوا قَتْلَهُ فَأَعْيَاهُمْ وَأَعْجَزَهُمْ [رَاجِعْ ص 391 ، 392 ج 6 ط الْهَيْئَةِ] .

(9) بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِصْلَاحَ أَنْفُسِهِمْ أَفْرَادِهَا وَجَمَاعَتِهَا . وَأَنَّهُ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ ضَلَّ مِنَ النَّاسِ إِذَا هُمُ اسْتَقَامُوا عَلَى صِرَاطِ الْهِدَايَةِ ، أَيْ لَا يَضُرُّهُمْ ضَلَالُهُ فِي دُنْيَاهُمْ

لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجْعَلُ لَهُ سَبِيلًا عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَضُرُّهُمْ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ وَآخِرَتِهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُكَلِّفْهُمْ إِكْرَاهَ النَّاسِ عَلَى الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَلَا أَنْ يَخْلُقُوا لَهُمُ الْهِدَايَةَ خَلْقًا ، وَإِنَّمَا كَلَّفَهُمْ أَنْ يَكُونُوا مُهْتَدِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَعْمَالِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْمَصَالِحِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَمِنْهَا الدَّعْوَةُ إلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ .

(10) تَأْكِيدُ وُجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِمَا بَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ لَعْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَتَعْلِيلِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ .

(11) نَفْيُ الْحَرَجِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ . [رَاجِعْ ص 214 ، 223 ج 6 ط الْهَيْئَةِ] .

(115/221)

---

(12) تَحْرِيمُ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَالتَّشَدُّدِ فِيهِ وَلَوْ بِتَحْرِيمِ الطَّيِّبَاتِ وَتَرْكِ التَّمَتُّعِ بِهَا وَتَحْرِيمِ الْخَبَائِثِ وَالِاعْتِدَاءِ وَالْإِسْرَافِ فِي الطَّيِّبَاتِ . [رَاجِعْ ص 405 ج 6 ، 16 28 ج 7 ط الْهَيْئَةِ] .

(13) قَاعِدَةُ إِبَاحَةِ الِاضْطِرَارِ لِلْمُحَرَّمِ لِذَاتِهِ فِيمَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ كَالطَّعَامِ وَمِنْهُ أَخَذَ الْفُقَهَاءُ قَوْلَهُمْ : الضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ [رَاجِعْ ص 139 ج 6 ط الْهَيْئَةِ] .

(116/221)

---

(14) قَاعِدَةُ التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ وَكَوْنِهِمَا لَا يَسْتَوِيَانِ فِي الْحُكْمِ ، كَمَا أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ فِي أَنْفُسِهِمَا وَفِيمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا ، وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فِي الطَّعَامِ وَغَيْرِهِ يَدُلُّ عَلَى تَعْلِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْحِكَمِ وَالْمَصَالِحِ . وَعَلَى عَدَمِ اسْتِوَاءِ جَزَاءِ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ مِنَ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ [رَاجِعْ ص 103 ج 7 ط الْهَيْئَةِ] وَمَا كَانَ تَعْلِيلُ الْأَحْكَامِ وَبَيَانُ حِكْمَتِهَا وَفَائِدَتِهَا إِلَّا لِأَجْلِ تَوَخِّيهَا كَأَحْكَامِ الطَّهَارَةِ وَتَحْرِيمِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَبَعْضِ الطَّعَامِ وَأَحْكَامِ الْوَصِيَّةِ وَالشَّهَادَةِ وَإِقْسَامِ الشُّهَدَاءِ الْيَمِينَ وَإِنَّكَ لَتَجِدُ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ ذَلِكَ لِإِعْرَاضٍ عَنْ حُكْمِ الْقُرْآنِ وَأَسْرَارِ السُّنَّةِ قَدْ جَعَلُوا أَمْرَ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ تَعَبُّدِيًّا مَحْضًا لَا يَسْتَلْزِمُ النَّظَافَةَ فِعْلًا وَلَا قَصْدًا ، وَزَعَمُوا أَنَّ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ تَعَبُّدِيٌّ لَا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ مُسْكِرٍ بِنَاءً عَلَى رَأْيِهِمْ أَنَّ الْخَمْرَ مَا كَانَ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ خَاصَّةً ، فَمَا الْقَوْلُ فِي فَهْمِهِمْ لِسَائِرِ الْأَحْكَامِ ؟ ! .

(15) تَحْرِيمُ الِاعْتِدَاءِ عَلَى قَوْمٍ بِسَبَبِ بُغْضِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ ; لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ

يَلْتَزِمُوا الْحَقَّ وَالْعَدْلَ وَلَا يَكُونُوا كَأَهْلِ السِّيَاسَةِ الْمَدَنِيَّةِ . [رَاجِعْ ص 106 ، 107 ، 227 ج 6 ط الْهَيْئَةِ] .

(16) وُجُوبُ الشَّهَادَةِ بِالْقَسَمِ وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ فِيهِمَا بَيْنَ غَيْرِ

(117/221)

الْمُسْلِمِينَ كَالْمُسْلِمِينَ وَلَوْ لِلْأَعْدَاءِ عَلَى الْأَصْدِقَاءِ ، وَتَأْكِيدُ وُجُوبِ الْعَدْلِ فِي سَائِرِ الْأَحْكَامِ وَالْأَعْمَالِ . [رَاجِعْ ص 226 ، 326 ، 341 ، 348 ج 6 ط الْهَيْئَةِ] .

(17) الْأَمْرُ الْمُطْلَقُ الْعَامُّ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ الَّتِي يَتَعَاقَدُ النَّاسُ عَلَيْهَا فِي جَمِيعِ مُعَامَلَاتِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ شَخْصِيَّةٍ وَمَدَنِيَّةٍ . وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَكَّلَ أَمْرَ الْعُقُودِ الَّتِي يَتَعَامَلُونَ بِهَا إِلَى عُرْفِهِمْ وَمُوَاضَعَاتِهِمْ؛ لِأَنَّهَا مِنْ مَصَالِحِهِمُ الَّتِي تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ ، فَلَمْ يُقَيِّدْهُمْ فِي أَحْكَامِهَا وَشُرُوطِهَا بِقُيُودٍ دَائِمَةٍ إِلَّا مَا أَوْجَبَهُ الشَّرْعُ مِمَّا لَا يَخْتَلِفُ الْأَحْوَالُ وَالْعُرْفُ ، كَتَحْرِيمِ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ كَالرِّبَا وَالْقِمَارِ ، فَكُلُّ عَقْدٍ يَتَعَاقَدُ عَلَيْهِ النَّاسُ لَمْ يُحِلَّ حَرَامًا وَلَمْ يُحَرِّمْ حَلَالًا مِمَّا ثَبَتَ بِالنَّصِّ وَلَوِ اقْتِضَاءً فَهُوَ جَائِزٌ .

(18) إِيجَابُ التَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَمِنْهُ تَأْلِيفُ الْجَمَاعَاتِ الْخَيْرِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ

وَتَحْرِيمُ التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .

(19) بَيَانُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، فَهُوَ جَعْلٌ تَكْوِينِيٌّ بِاعْتِبَارٍ وَشَرْعِيٌّ بِاعْتِبَارٍ آخَرَ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ الْوَاسِعِ الْمُحِيطِ بِالْأَشْيَاءِ وَالْحِكَمِ وَالْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ .

(118/221)

---

(20) النَّهْيُ عَنْ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ وَبَيَانُ أَنَّ مِنْ آيَاتِ النِّفَاقِ وَمَرَضِ الْقَلْبِ الْمُسَارَعَةَ فِي مُوَالَاتِهِمْ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، خَوْفًا أَنْ تَدُورَ الدَّائِرَةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَتَكُونَ لَهُمْ يَدٌ عِنْدَ أَعْدَائِهِمْ يَسْتَفِيدُونَ بِهَا مِنْهُمْ . [رَاجِعْ ص 352 ، 353 ، 367 ، 368 ط الْهَيْئَةِ] .

(21) تَفْصِيلُ أَحْكَامِ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ وَالتَّيَمُّمِ مَعَ بَيَانِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يُطَهِّرَ النَّاسَ وَيُزَكِّيَهُمْ بِمَا شَرَعَهُ لَهُمْ مِنْ أَحْكَامِ الطَّهَارَةِ وَغَيْرِهَا . وَشُمُولُ الطَّهَارَةِ فِي آيَةِ الْوُضُوءِ لِطَهَارَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحْكَامَ الطَّهَارَةِ كُلَّهَا مَعْقُولَةُ الْمَعْنَى كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ ، فَيَجِبُ أَنْ يَتَحَرَّى بِأَدَاءِ مَا وَرَدَ بِهِ الشَّرْعُ مَا تَتَحَقَّقُ بِهِ الْحِكْمَةُ مِنْهُ . وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَسْوَسَةَ فِي الطَّهَارَةِ مَذْمُومَةٌ مُخَالِفَةٌ لِنَصِّ الشَّرْعِ وَمَقْصِدِهِ

.

(22) تَفْصِيلُ أَحْكَامِ حَلَالِ الطَّعَامِ وَحَرَامِهِ وَبَيَانُ مَا حُرِّمَ مِنْهُ لِكَوْنِهِ خَبِيثًا فِي ذَاتِهِ كَالْمَيْتَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا وَالْخِنْزِيرِ وَمَا حُرِّمَ لِسَبَبٍ دِينِيٍّ كَالَّذِي يُذْبَحُ لِلْأَصْنَامِ .

(23) تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَهُوَ كُلُّ مُسْكِرٍ ، وَالْمَيْسِرِ وَهُوَ الْقِمَارُ ، وَمِنْهُ مَا يُسَمَّى فِي عُرْفِ النَّاسِ الْيَوْمَ بِالْمُضَارَبَاتِ .

(24) أَحْكَامُ مُحَرَّمَاتِ الْإِحْرَامِ .

(25) تَفْصِيلُ أَحْكَامِ الصَّيْدِ لِلْمُحْرِمِ وَغَيْرِهِمْ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ وَأَوَاخِرِهَا .

(119/221)

---

(26) حُدُودُ الْمُحَارِبِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ ، وَحَدُّ السَّرِقَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَدِّ كَسُقُوطِهِ بِالتَّوْبَةِ بِشَرْطِهِ .

(27) أَحْكَامُ الْأَيْمَانِ وَكَفَّارَتُهَا وَأَيْمَانُ الْأُمَنَاءِ وَالشُّهُودِ .

(28) تَأْكِيدُ أَمْرِ الْوَصِيَّةِ قَبْلَ الْمَوْتِ ، وَأَحْكَامُ الشَّهَادَةِ عَلَى الْوَصِيَّةِ وَفِي قَضَايَاهَا وَشَهَادَةُ غَيْرِ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الشَّهَادَةِ وَالْإِشْهَادِ ، وَإِنَّنَا بَعْدَ الْإِطَالَةِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ فِي الْوَصِيَّةِ وَالشَّهَادَةِ فِيهَا لَخَّصْنَا مَسَائِلَهَا فِي 15 مَسْأَلَةً .

(29) الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ تَدْخُلُ فِي جَمْعِ الْكَثْرَةِ ؛ لِأَنَّ صَلَاحَ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْتِزَامِهَا ، وَإِنَّمَا يُرْجَى بِتَكْرَارِ الْأَمْرِ بِهَا فِي كُلِّ سِيَاقٍ بِحَسَبِهِ .

(30) بَيَانُ تَفْوِيضِ أَمْرِ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ كَمَا حَكَاهُ سُبْحَانَهُ مِنْ قَوْلِ الْمَسِيحِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَقْرُونًا بِتَعْلِيلِهِ وَدَلِيلِهِ ، وَكَوْنِ النَّافِعِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ هُوَ الصِّدْقُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْ أَهْلِهِ .

(الْقِسْمُ الثَّانِي)

(مَا وَرَدَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْحِجَاجِ وَالْأَحْكَامِ فِي شَأْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ) .

(120/221)

مِنَ الْآيَاتِ فِي هَذَا الْقِسْمِ مَا نَزَلَ فِي شَأْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَامَّةً وَمِنْهُ مَا هُوَ فِي أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ خَاصَّةً . فَمِنَ الْمُشْتَرَكِ : وَصْفُهُمْ بِالْغُلُوِّ فِي دِينِهِمُ الْمُسْتَلْزِمِ لِلتَّعَصُّبِ الضَّارِّ ، وَبِاتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَ مَنْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ مِنَ الْوَثَنِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ ، وَبِالْغُرُورِ فِي دِينِهِمْ وَزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَبِأَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ نَقَضُوا مِيثَاقَ رَبِّهِمْ وَنَسُوا حَظًّا عَظِيمًا مِمَّا ذَكَّرَهُمُ اللهُ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِمْ ، وَلَمْ يُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ كَمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ فَنَّدَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاؤُهُ وَأَحِبَّاؤُهُ بِمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ قَرِيبًا وَبَيَّنَ اللهُ لَهُمْ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ

وَهِيَ أَنَّهُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ اللهُ ، لَا مَزِيَّةَ لَهُمْ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَذَوَاتِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ إِنَّمَا يَمْتَازُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، لَا بِالنَّسَبِ وَالِانْتِمَاءِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَإِنْ كَانُوا مُخَالِفِينَ لَهُمْ فِي هِدَايَتِهِمْ .

(121/221)

وَذَكَرَ مِنْ جَزَائِهِمْ عَلَى سُوءِ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا إِلْقَاءَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَهُمْ ، وَأَنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِذُنُوبِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ كَغَيْرِهِمْ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَدْحَضُ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَدَعَاهُمْ كَافَّةً لِلْإِسْلَامِ ، وَالْإِيمَانِ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، الَّذِي بَيَّنَ لَهُمْ حَقِيقَةَ دِينِهِمُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ ، وَدَحَضَ مَا زَادُوا فِيهِ بِالْبُرْهَانِ ، وَبَيَّنَ بَعْضَ مَا كَانُوا يُخْفُونَ أَوْ يَجْهَلُونَ مِنْهُ أَحْسَنَ بَيَانٍ .

وَوَصَفَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ أَحْسَنَ وَصْفٍ . وَذَكَرَ مِنْ أَخْبَارِ التَّوْرَاةِ قِصَّةَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ، وَمِنْ أَحْكَامِهَا عُقُوبَاتُ الْقَتْلِ وَإِتْلَافِ الْأَعْضَاءِ وَالْجُرُوحِ ، وَمِنْ أَخْبَارِ الْإِنْجِيلِ وَالْمَسِيحِ مَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْكِتَابَيْنِ أُنْزِلَا نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا أَقَامُوهُمَا لَكَانُوا فِي أَحْسَنِ حَالٍ ، وَلَسَارَعُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى خَاتَمِ رُسُلِهِ مُصَدِّقًا لِأَصْلِهِمَا ، وَمُبَيِّنًا لِمَا طَرَأَ عَلَيْهِمَا ، وَمُكَمِّلًا لِدِينِ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا ، عَلَى سُنَّةِ اللهِ فِي النُّشُوءِ

وَالارْتقَاءِ ، الَّتِي هِيَ أَظْهَرُ فِي الْبَشَرِ مِنْهَا فِي سَائِرِ الْأَشْيَاءِ ، وَلَكِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الْإِسْلَامَ هُزُؤًا وَلَعِبًا فِي جُمْلَتِهِ وَفِي صَلَاتِهِ ، وَوَالَوْا عَلَيْهِ الْمُنَاصِبِينَ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ ، فَنَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ .

(122/221)

وَمِمَّا جَاءَ فِي الْيَهُودِ خَاصَّةً نَعْيًا عَلَيْهِمْ وَبَيَانًا لِسُوءِ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ نَقَضُوا مِيثَاقَ اللهِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِمْ وَنَسُوا حَظًّا عَظِيمًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَحَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَتَرَكُوا الْحُكْمَ بِالتَّوْرَاةِ وَأَخْفَوْا بَعْضَ أَحْكَامِهَا ، وَحَكَّمُوا الرَّسُولَ وَلَمْ يَرْضَوْا بِحُكْمِهِ الْمُوَافِقِ لَهَا ، وَأَنَّ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِمْ قَسَاوَةَ الْقَلْبِ ، وَالْخِيَانَةَ وَالْمَكْرَ ، وَالْكَذِبَ وَقَوْلَ الْإِثْمِ ، وَالْمُبَالَغَةَ فِي سَمَاعِ الْكَذِبِ وَأَكْلَ السُّحْتِ ، وَالسَّعْيَ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَفِي إِيقَادِ نَارِ الْفِتَنِ وَالْحَرْبِ . وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَتَمَرَّدُوا عَلَى مُوسَى إِذْ أَمَرَهُمْ بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَقِتَالِ الْجَبَّارِينَ فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِالتِّيهِ فِي الْأَرْضِ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى أَنَّهُمْ يُوَالُونَ عَلَيْهِمُ الْمُشْرِكِينَ ، بِسَبَبِ مَا وَرِثُوهُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ عَنِ الْغَابِرِينَ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ عَاقَبَهُمْ عَلَى

(123/221)

ذَلِكَ كُلِّهِ بِاللَّعْنِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ، وَبِالْغَضَبِ وَالْمَسْخِ ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ فِي زَمَنِ الْبَعْثَةِ وَقَبْلَهُ تُثْبِتُهَا تَوَارِيخُهُمْ وَتَوَارِيخُ غَيْرِهِمْ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ عَامَّةً فِيهِمْ وَلَا شَامِلَةً لِجَمِيعِ أَفْرَادِهِمْ ، فَقَدْ أَنْصَفَهُمُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا بِالْحُكْمِ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْهُمْ أَوْ عَلَى أَكْثَرِهِمْ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : (مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) (5 : 66) وَبَيَّنَّا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ مَا كَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مُسَاعَدَةِ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ لِعَدْلِهِمْ فِيهِمْ عَلَى النَّصَارَى الظَّالِمِينَ لَهُمْ .

وَمِمَّا جَاءَ فِي النَّصَارَى خَاصَّةً أَنَّهُمْ نَسُوا كَالْيَهُودِ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالُوا : إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَبِبَرَاءَةِ الْمَسِيحِ مِنْهَا وَمِنْ مُنْتَحِلِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَيَّنَ لَهُمْ حَقِيقَةَ الْمَسِيحِ وَأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرَوْحٌ مِنْهُ ، وَمَا أَيَّدَهُ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ ، وَحَالَ حَوَارِيِّيهِ وَتَلَامِيذِهِ فِي الْإِيمَانِ ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ مَوَدَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ (ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) (5 : 82) فَلْيُرَاجَعْ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ السَّابِعِ .

وَجُمْلَةُ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ تَشْهَدُ لِنَفْسِهَا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى لَا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْعَرَبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ ، عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْآيَاتِ لَيْسَتْ مُوَافِقَةً لَهَا وَلَهُمْ مُوَافَقَةَ النَّاقِلِ لِلْمَنْقُولِ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا هِيَ فَوْقَ ذَلِكَ تَحْكُمُ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ وَفِيهِمْ وَفِي كُتُبِهِمْ حُكْمَ الْمُهَيْمِنِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ

أَحْكَامُ السُّورَةِ الْخَاصَّةِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ :

لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ وَضْعِ الْبَشَرِ لَشَرَعَ مُعَامَلَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمَوْصُوفِينَ بِمَا ذُكِرَ وَلَا سِيَّمَا الَّذِينَ نَاصَبُوا الْإِسْلَامَ بِالْعَدَاءِ عِنْدَ ظُهُورِهِ بِأَشَدِّ الْأَحْكَامِ وَأَقْسَاهَا . وَلَكِنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، أَمَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، بِمُعَامَلَتِهِمْ بِالْعَدْلِ ، وَالْحُكْمِ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، وَحَكَمَ بِحِلِّ مُؤَاكَلَتِهِمْ ، وَتَزَوُّجِ نِسَائِهِمْ ، وَقَبُولِ شَهَادَتِهِمْ ، وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنْهُمْ ، وَهَذِهِ الْأَحْكَامُ الَّتِي شَرَعَتْ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ الْفُضْلَى لَهُمْ نَزَلَتْ بَعْدَ إِظْهَارِ الْيَهُودِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ مُنْتَهَى الْعَدَاوَةِ وَالْغَدْرِ ، وَبَعْدَ أَنْ نَاصَبُوهُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ الْحَرْبَ ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ تَأْلِيفَ قُلُوبِهِمْ ، وَاكْتِسَابَ مَوَدَّتِهِمْ [راجع ص 161 ، 162 ج 6 ط الْهَيْئَةِ] .

وَقَدْ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى السُّورَةَ بِذِكْرِ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ بِمَا يُنَاسِبُ أَحْكَامَهَا كُلَّهَا ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ آخِرِ آيَةٍ مِنْهَا .

(125/221)

رَوَى أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ وَبَعْضُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ " حَجَجْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ لِي : يَا جُبَيْرُ تَقْرَأُ الْمَائِدَةَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَتْ : أَمَا إِنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ فَاسْتَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ . وَرَوَى أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ " آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَالْفَتْحِ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ سُورَةِ النِّسَاءِ بَعْضُ مَا وَرَدَ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مِنَ السُّوَرِ بِرُمَّتِهَا وَمِنَ الْآيَاتِ ، وَكَانَ كُلٌّ يَرْوِي مَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ) .

(126/221)

(يَقُولُ مُحَمَّد رَشِيد مُؤَلِّفُ هَذَا التَّفْسِيرِ قَدْ وَفَّقَنِي اللَّهُ تَعَالَى لِإِتْمَامِ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي أَوَائِلِ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخَرِ سَنَةَ 1334 هـ وَكُنْتُ بَدَأْتُ بِتَفْسِيرِهَا فِي مِثْلِ هَذَا الشَّهْرِ مِنْ

سَنَةِ 1331 وَسَبَبُ هَذَا الْبُطْءِ أَنِّي أَكْتُبُ التَّفْسِيرَ لِيُنْشَرَ فِي مَجَلَّةِ الْمَنَارِ فَتَارَةً أُفَسِّرُ فِي الْجُزْءِ مِنْهُ بِضْعَ آيَاتٍ ، وَتَارَةً أُفَسِّرُ آيَةً وَاحِدَةً فِي عِدَّةِ أَجْزَاءٍ وَقَدْ يَمُرُّ شَهْرٌ أَوْ أَكْثَرُ وَلَا أَكْتُبُ فِي التَّفْسِيرِ شَيْئًا ، وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنِي لِإِتْمَامِ هَذَا التَّفْسِيرِ بِمَنْعِ الْعَوَائِقِ وَالْمُبَارَكَةِ فِي الْوَقْتِ وَأَنْ يُؤَيِّدَنِي فِيهِ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِهِ) .

أَمْرَ الْجَزَاءِ إِلَيْهِ تَعَالَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 228. 236 ﴾

(127/221)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120) ﴾

والسماء والأرض هما ظرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج وكواكب وشمس وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان . فالأرض وهي المُلْك الأسفل الذي نراه وما فيه من أقوات وحيوان وإنسان . والسماء وما تحوي وتضم من الملكوت الأعلى ، هما جميعاً لله مِلْكا ومُلْكاً فهو – سبحانه – الذي يملك كل شيء ويملك كذلك المالك للشيء . وقول الحق : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ ينطبق مع قول المسيح ابن مريم : ﴿ إِن

تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] .

أي أنه ليس لشيء من خلق الله أن يخرج عن مرادات الله ، أما في الدنيا فقد جعل الله أسبابها في أيدي الناس ، رزق إنسان في يد إنسان آخر ، ومَلَّك بعضنا أمر بعض ، فهناك مالك الطعام ومالك الثوب ، ولكن ليس كل مالك مَلِكاً ؛ لأن المَلِك هو الذي يملك المالك ، وهذه سنن الكون . وفي الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين . فكأن الحق أنهى هذه السورة بالحديث عن نهاية الحياة ؛ لأنه سبحانه قد بدأها بالحديث عن أحكام الله فقال : ﴿ أَوْفُواْ بالعقود أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنعام ﴾ [المائدة : 1] .

لقد تكلم سبحانه في الأحكام عن الصيد في البر والصيد في البحر وعن الحلال والحرام من الأنعام وعن النكاح ، وعن كل ما يتعلق بمسئوليات الحياة ، ومَلَّكَ بعضنا أمر بعض ، لكن في اليوم الآخر فالمسألة مختلفة . فبدأ السورة بأمر هو ﴿ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ .

(128/221)

إن كل أمر ورد من الأمر الأعلى ، فالمأمور يفعل أو لا يفعل . فهناك من الناس من يؤمن ومن يعصي ، ومعنى ذلك أن المأمورين لهم حرية الاختيار ، فلو كان الأمر لا بد أن يفعل دون اختيار لكان الآمر قد خلق الخلق وهم مفطورون على أن يفعلوا فيكون بذلك قد قهرهم ،

لكن الآمر الأعلى ترك هذه الأوامر لاختيار البشر ، وهم صالحون للطاعة والوفاء بالعقود ، وهم صالحون للمعصية .

لقد بدأ سبحانه السورة بمنطقة الاختيار في الإنسان التي خلقها الله لينشأ عنها التكليف . وأوضح بعد ذلك أن للاختيار أمداً محدداً سينتهي ، ويجمع الله الناس يوم ينفع الصادقين صدقهم ويكون الأمر كله لله .

ويختم الحق السورة بقوله سبحانه : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ أي أنه سبحانه يملك الكون كله ، والكون – كما نعلم – مكون من أجناس متعددة . وأول جنس في الكون هو الخادم الذي لا يُخْدَم هو الجماد ، والجماد قد يكون ماءً أو جبالاً أو حديداً ، أو شمساً ، أو قمراً ، أو نجوماً ، كل هذه جمادات ، أي ليس لها حس . وهذه الجمادات تخدم أول ما تخدم النبات . والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

هكذا يكون الجماد خادماً لكل ما يعلوه من نبات وحيوان وإنسان . النبات يخدم الحيوان والإنسان .

والحيوان يخدم الإنسان . وكل هذه الأشياء التي تخدم الإنسان لا اختيار لها وكلها مقهورة لخدمة الإنسان ؛ فالشمس لم تغضب يوماً على البشر فلم تمدهم بحرارتها ولا المطية تأبت على صاحبها .

والإنسان فيه قسمان : قسم مقهور للحق فلا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه أو يسيطر

عليه مثل المرض أو الموت وهو في ذلك يشترك مع الحيوان والنبات والجماد ، وقسم يكون الإنسان فيه مختاراً وهو تطبيق المنهج .

(129/221)

إننا إذا نظرنا إلى الجانب الذي قهر فيه الحق الإنسان نجده لمصلحة الإنسان . فالإنسان لا يختار أن يتنفس ولا أن يسري الدم في عروقه ولا أن تعمل كليتاه . إنه مقهور في كل ذلك . ومن رحمة الله بالخلق أن جعلهم مسيّرين ومقهورين في هذه النواحي ، فلم يجعل تنفس أحد بيد صاحبه ولا جعل القلب يعمل بإرادة الإنسان . والإنسان – إذن – يُخير في مسائل التكليف فقط . وكأن الحق يذكر الإنسان أن منطقة الاختيار هي عقد بين المؤمن وربه ؛ لأن الاختيار سيسلب من العباد يوم القيامة ، ويكون كل العباد مقهورين ويصير الكائن البشري مثل الجماد والنبات والحيوان . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : 120] .

إنّ الإنسان يوم القيامة سيصير بلا اختيار لأن الحق استعمل " ما " هنا وهي تدل على الأشياء غير العاقلة أي التي لا اختيار لها . كأن العقل له عمل في الدنيا وهو التمييز بين البدائل ، أما في الآخرة فالكل متساوٍ أمام خالقه . وعلمنا من قبل الفارق بين " مُلْك " و "

ملكوت " وكلنا يقرأ قول الحق : ﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : 75] .

كأن الحق ينبهنا إلى أن العالم فيه ما يقع تحت الإحساس والإدراك ، وفيه ما لا يقع تحت الإحساس والإدراك . فالذي يقع تحت الحس والإدراك هو عالم المُلْك . والذي لا يقع تحت الحس والإدراك هو عالم الملكوت . ولا نعرف عن عالم الملكوت إلا ما أخبرنا به الله .

وهناك في عالم الملك ما يخفيه الله عنا ، وسبحانه وحده هو القادر على كل شيء ، والحق يطلب منا أن نعتبر بما في العالم المشهود من ظواهر . وله سبحانه مطلق العلم بعالم " الملكوت " أي ببواطن هذه الظواهر غير المشهودة . و" الملك " و" الملكوت " موجودان في الدنيا والآخرة ، إلا أن المُلْك ظاهر والملكوت خفي .

(130/221)

ويوزع الحق سبحانه وتعالى أسباب الملك في الدنيا بين أيدي خلقه ، ويملك التصرف فيما بين أيدينا وفيما خفي عنا ، ويشاء الحق أن ينهي هذه المسألة من مبررات الخلافة للإنسان على الإنسان وفي الأرض فيقول : ﴿ للَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا فِيهِنَّ ﴾ فلله الملكوت ، ولكم بعض الملك أيها العباد في ظواهر نسبة الأشياء إلى أسبابها وذلك في الدنيا

، أما يوم القيامة فكل شيء ينتهي إلى الله .

ولكن لماذا قال الحق : ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ على الرغم من أن الحق استخلف الإنسان في الأرض ، والإنسان عاقل وكان من حقه أن يُغلب فيأتي القول : ومن فيهن ؛ لأن (مَن) للعاقل ، لقد أراد الحق بذلك أن ينبئنا أن الكل أصبح لا اختيار له ، وأصبح مقهوراً على المراد منه فقد تساوى الجميع عاقلهم وغير عاقلهم فيقول لنا : ﴿ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

وبهذه الآية ختمت سورة المائدة . وهي سورة مدنية ، وهي من آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وفيها التشريع . وفيها التكاليف . وفيها الأحكام . وفيها ما يتعلق بكل السور المدنية من بيان اعوجاج أهل الكتاب .

ومن بعد ذلك جاءت سورة الأنعام ، وهي مكية . وجاءت المكية بعد المدنية في الترتيب المصحفي حسب ما انتهى إليه آخر عرض للقرآن في آخر رمضان من حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام . ومن المعلوم أن القرآن له " ترتيب نزولي " و" ترتيب مصحفي " . والترتيب النزولي حسب ما نزلت سورة القرآن في مكة أو المدنية . ورب قائل يقول : إن الحق أنزل هذا القول الكريم فوق عرفات وهو قوله سبحانه : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : 3] .

فكيف يقال ذلك ؟

نقول : لنفهم معاً معنى الاصطلاح القائل : " مدني " و" مكي " ، هناك آيات من القرآن نزلت بالمدينة ، وآيات أخرى نزلت بمكة ، وآيات ثالثة فيما بينهما ، وآيات رابعة نزلت بين السماء والأرض . وجاء الاصطلاح " مكي " على الآيات التي نزلت قبل الهجرة ، وجاء الاصطلاح " المدني " على الآيات التي نزلت من بعد الهجرة ، وإن نزلت بمكة .

وأراد الحق أن يكون للقرآن ترتيب نزولي وترتيب مصحفي ، وقد شاء سبحانه أن يعدل بالقرآن ميزان الكون الإنساني المضطرب ، واضطراب الكون الإنساني إنما يكون بواسطة أناس لا يؤمنون بإله ، أو بأناس يؤمنون بإله ويشركون معه غيره فيعبدون أوثاناً ، ويقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ﴾ أو بأناس يعبدون النار ، أو بأناس تابعين لمنهج سماوي ولكن حرفوا فيه قليلاً أو كثيراً .

إننا نجد أن الأقرب إلى الإيمان بالله هم الأجناس الذين آمنوا بالرسالات السابقة على رسول الله ، فقد جاءتهم الرسل ومعهم المعجزات ، ومعهم كتب المناهج ، والمنطق يقتضي أن يكون هؤلاء هم الأقرب للإيمان من غيرهم ، ولذلك كان من المطلوب أن نواجه أولاً الوثنيين ونصفي المعركة مع أهل الكتاب من بعد ذلك ؛ لأن أهل الكتاب لهم إلف بنزول منهج

السماء إلى الأرض بواسطة الرسل .

إذن ففي نزول القرآن كانت الأمور المكية التي تتعلق بالعقيدة الأساسية هي الظاهرة . وهي الاعتراف بألوهية واحدة تحكم الكون . أما في المدينة فد ناقش الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب في كل أمور الدين بعد أن استتب أمر التوحيد .

(132/221)

لقد كان هذا الترتيب منطقياً مع هذه الحقيقة . فقد كان في العالم موجتان اثنتان : موجة إلحاد ، وموجة تغيير في منهج الله السماوي . ولذلك كانت قلوب المسلمين مع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب ؛ لأنهم على الأقل يؤمنون بإله ، وأن الإله يرسل الرسل ومعهم المنهج الإلهي والمعجزات الدالة على صدق رسالتهم ، وحتى الذين انحرفوا من أهل الكتاب كانوا يتمسحون في هذا الكتاب المنزل إليهم بالرغم من أنهم حرفوه .

لقد وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم يقف بجانب الروم عندما واجهوا فارس .

وعندما هزمت الروم حزن المسلمون وفرح الكفار ؛ لأن الروم كانوا أهل كتاب ؛ إنهم كانوا نصارى ، وكانت هزيمتهم تعني انهزام منطق السماء أمام منطق الإلحاد ، لذلك حزن المسلمون ، وفرح الكفار . وأراد الله أن يصور لنا الموقف ، وأن يوجه قلوبنا إلى الذين

يؤمنون أيضاً بأن هناك إلهاً حتى ولو كانوا قد أخطأوا في تصور هذا الإله وفي البلاغ عنه ، أو أخطأوا في تأويل ما جاءت به الرسل فقال سبحانه : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ [الروم : 1-5] .

إنّ المسلمين يفرحون بنصر الروم على فارس ؛ لأن الروم لهم علاقة بالسماء ، والرسل ، والمناهج ، والوحي . وجعل الله الأمر واضحاً هكذا لكي يبين موقفنا وليجعلها إعجازاً لكتابه ولرسوله ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان موجوداً بمقر الدعوة وهو الجزيرة العربية ، وليس عنده سفارات ولا مخابرات ولا مكتب حربي حتى يأتيه بالأخبار وينبئه عن استعدادات الروم التي تُجري لرد الهزيمة .

(133/221)

هذا الرسول يتنبأ بخبر معركة قادمة بين الفرس والروم ، وينتصر فيها الروم ، معركة تحدث بعد سبع أو تسع سنوات . وعندما راهن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه المشركين على ذلك ، وجعل بينه وبينهم خمس سنين أجلاً لغلبة الروم وظهورهم على الفرس ، ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : " البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر

وماده في الأجل " فكانت مائة بعير إلى تسع سنين .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم كلام الواثقين ، لأنه ينقل الخبر عن الله ، وجعله الله قرآناً يتلى ويصلى به ، ومحفوظاً أبد الدهر ، ولا يمكن أن يكذب هذا القائل إنه – سبحانه – هو الذي يملك ميزان الكون كله ، وأي إنسان من رجالات الحرب المعاصرين لا يمكنه أن يتنبأ بمصير معركة قادمة ، على الرغم مما قد يُجمع لها ويحشد من معلومات عن القوة والعدة والعتاد . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ عن الله وهو واثق تمام الوثوق مما يبلغ .

وقد واجه الرسول صلى الله عليه وسلم الخصم الإلحادي ، وكان قلبه مع أهل الكتاب ، ونرى أيضاً أن أهل الكتاب كانوا يستبشرون بمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم ألم يقل بعض أهل الكتاب وهم اليهود في المدينة للأوس والخزرج : قد أظل زمان نبي يُبعث وسنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم . ولكنهم كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك ؛ لأنه سيسلب منهم السيادة ، والسلطة الزمنية .

إذن فنزول القرآن أولاً كان في مكة ، ومن بعد ذلك نزل في المدينة . لكن في الترتيب المصحفي – كما قلنا – جاءت المدنيات أولاً ، وبعد ذلك جاءت المكيات . وذلك حسب ما أراد الله عندما راجع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن مع جبريل عليه السلام في رمضان الأخير من حياة الرسول الكريم .

(134/221)

إنَّ أصل الإيمان واحد ، وهو الإيمان بإله ، ووحي ، ورسل ، ومنهج ، وكل ذلك له فائدة إقامة نظام يحكم الحياة . وهو نظام ضروري لتنصلح حال الحياة سواء آمن الناس بإله أو كفر بعضهم . وجاء هذا النظام الذي يحكم في السور المدنية أولاً ولم يغفله الحق في بعض السور المكية . إنّ الحق شاء لرسوله أن يوحد القلوب المؤمنة بإله واحد أولاً ليواجهوا معكسر الإلحاد . ولكن هناك من اختلف وتخلف عن مؤازرة موكب الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(135/221)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي

وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120) ﴾

(136/221)

﴿ وإذ قال الله ﴾ معطوف على مثله . والصحيح أن هذا القول أيضاً يوم القيامة لقوله عقيب ذلك ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ وقيل : هذا عند رفع عيسى عليه السلام نظراً إلى أن " إذ " للماضي وقد مر توجيه ذلك . ﴿ أأنت قلت ﴾ استفهام بطريق الإنكار والغرض منه توبيخ النصارى . قال بعض المشككين : إن أحداً من النصارى لم يذهب إلى القول بإلهية عيسى عليه السلام وأمه مع القول بنفي إلهية الله تعالى . وأجيب بأن الإله هو الخالق وأنهم يعتقدون أن خالق المعجزات والكرامات التي ظهرت على يد

عيسى ومريم هو عيسى ومريم وليس لقدرة الله سبحانه في ذلك مدخل ، فبهذا التأويل صح ما حكي عنهم .

(137/221)

وأقول : يشبه أن يكون المراد بقوله ﴿ من دون الله ﴾ أي بعد الله فيكون التوبيخ على التثليث . أو المراد أنه لما دل البرهان على نفي تعدد الإله فمن قال بإلهية عيسى أو أمه لزمه القول بنفي المعبود الحق تعالى عن ذلك ولهذا قال عيسى ﴿ سبحانك ﴾ أي أنزهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك . ثم لم يجب بأني قلت أو ما قلت لأن ذلك يجري مجرى الطهارة والتبرئة بل أجاب بقوله ﴿ ما يكون ﴾ أي ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله إظهاراً لغاية الخضوع والاستكانة . ثم فوّض الأمر إلى علمه المحيط بالكل فقال ﴿ أن كنت قلته فقد علمته ﴾ ثم علل ذلك بقوله ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ أي تعلم معلومي ولا أعلم معلومك . وذكر النفس ثانياً لأجل المشاكلة وهو من فصيح الكلام ، أو تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي ، أو تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك ، أو تعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ما تقول وتفعل – عبارات للمفسرين – ثم أكد ما ذكر بقوله ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ " أن " في قوله ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ إن جعلتها مفسرة فالمفسر إما

فعل القول أو فعل الأمر ولا وجه لكليهما . أما فعل القول فيحكى بعده الكلام بلا " أن " فيقال : مما قلت لهم إلا اعبدوا الله اللهم إلا أن يقال : إن المضاف محذوف والتقدير ما أمرتني بقوله ، فيكون التفسير الصريح القول المقدر ، وصريح القول المقدّر كالفعل المؤوّل بالقول في عدم الظهور حتى يجوز توسيط " أن " . وأما فعل الأمر فمسند إلى ضمير الله ، فلو فسرته ب ﴿ اعبدوا الله ﴾ لم يستقم لأن الله لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم ، وإن جعلتها مصدرية عند من يجوّز دخولها على الطلبية ، فإن كان بدلاً من ﴿ ما أمرتني ﴾ والمبدل في حكم السقوط كان المعنى ما قلت لهم إلا عبادته ولا يستقيم ، لأن العبادة لا تقال ، وإن جعلته بدلاً من الهاء في ﴿ به ﴾ لم يصح أيضاً لأنه يؤل المعنى بعد طرح المبدل إلى قولك إلا ما أمرتني بأن اعبدوا الله

(138/221)

فيبقى الموصول بلا عائد . فإذن الوجه أن يحمل فعل القول على معناه فيكون أصل المعنى ما أمرتهم إلا بما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربي وربكم إلا أنه وضع القول موضع الأمر رعاية للأدب كيلا يجعل نفسه وربه آمرين ودل على الأصل بذكر " أن " المفسرة . قال في الكشاف : ويجوز أن تكون " أن " مصدرية عطف بيان للهاء لا بدلاً ،

وحينئذ يبقى العائد بحاله ﴿ وكنت عليهم شهيداً ﴾ كالشاهد على المشهود عليه أمنعهم من التدين بما يوجب التفكير ﴿ ما دمت فيهم ﴾ مدة دوامي فيما بينهم ﴿ فلما توفيتني ﴾ بالرفع إلى السماء ﴿ كنت أنت الرقيب ﴾ الحافظ ﴿ عليهم ﴾ المراقب لأحوالهم ﴿ وأنت على كل شيء شهيد ﴾ من الشهادة أو من الشهود بمعنى الحضور .

(139/221)

﴿ وإن تغفر لهم ﴾ فيه سؤال وهو أنه كيف جاز لعيسى هذا القول والله تعالى لا يغفر الشرك ؟ والجواب أن قوله لعيسى عليه السلام ﴿ أأنت قلت الناس ﴾ مبني على أن قوماً من النصارى حكوا عنه هذا الكلام ، والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافراً بل يكون مذنباً فقط ، ولو سلم أنه أشرك فغفران الشرك جائز عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة لأن العقاب حق الله على المذنب وليس في إسقاطه على الله تعالى مضرة ، بل كلما كان الجرم أعظم كان العفو أحسن ، إلا أن الدليل السمعي في شرعنا دل على أنه لا يكون فلعل هذا الدليل السمعي لم يكن موجوداً في شرع عيسى عليه السلام ، أو لعل عيسى جوّز أن يكون بعضهم قد تاب عنه . أما من زعم أن هذه المناظرة والمحاورة إنما كانت عند رفعه إلى السماء فلا إشكال أصلاً لأن المراد إن توفيتهم على هذا الكفر وعذبتهم فإنهم عبادك

فلك ذاك ، وإن أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان وغفرت لهم ما سلف منهم ﴿ فإنك أنت العزيز ﴾ القادر على ما تريد ﴿ الحكيم ﴾ في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك ، وفي مصحف عبد الله ﴿ فإنك أنت الغفور الرحيم ﴾ وضعفه العلماء لأن ذلك يشعر بكونه شفيعاً لهم لا على تفويض الأمر بالكلية إلى حكمه تعالى ، والمقام هذا لا ذاك ، وعن بعضهم أن ذكر الغفور والرحيم يشبه الحالة الموجبة للمغفرة والرحمة ، وأما العزة والحكمة فلا يوجبان إلا التعالي عن جميع جهات الاستحقاق ، فحصول المغفرة بعد ثبوت هذا الاستغناء والعزة يكون أدل على كمال العفو والرحمة فإن العفو عند المقدرة . قال بعض العلماء : في الآية نوع شفاعة من عيسى عليه السلام لفساق أمته ، فلأن يثبت ذلك من محمد صلى الله عليه وسلم لفساق أمته أولى ﴿ هذا يوم ينفع ﴾ من قرأ بالرفع فظاهر وأنه في تقدير الإضافة أي هذا يوم منفعة الصادقين ، ومن قرأ بالنصب فإما على أنه ظرف ل ﴿ قال ﴾ ، وإما على أن هذا مبتدأ والظرف خبر أي هذا الذي ذكرنا من كلام

(140/221)

عيسى واقع في هذا اليوم كقولك : القتال يوم السبت . وقال الفراء : يوم أضيف إلى ما ليس باسم فبني على الفتح كما في " يومئذ " وخطأه البصريون وقالوا : إنما يبنى الظرف إذا

أضيف إلى المبنى كالماضي في قول النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . .

(141/221)

أو مثل " لا " في قوله تعالى ﴿ يوم لا تملك ﴾ [الانفطار : 19] وأجمعوا على أن هذا اليوم يوم القيامة . والمراد أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في القيامة كما قال قتادة : متكلمان تكلما يوم القيامة : أما إبليس فقال ﴿ إن الله وعدكم الحق ﴾ [إبراهيم : 22] فصدق وكان قبل ذلك كاذباً فلم ينفعه ، وأما عيسى فكان صادقاً في الدنيا وفي الآخرة فنفعه صدقه . وفي هذا الكلام تصديق من الله تعالى لعيسى في قوله ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴾ ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ هما متلازمان لأن رضا الله عن العبد في رعاية وظائف العبودية ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] وإذا صحح الإنسان نسبة العبودية علم أن العبد لا يكون له إرادة واختيار فتكون إرادته مغمورة في إرادة ربه . ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ إشارة إلى جميع المذكورات أو إلى الجزء الأشرف الأقرب وهو الرضوان ﴿ ما فيهن ﴾ لم يقل " ومن فيهن " ليكون أدل على العموم ، ولينبه على أن عقول ذوي العقول وعلوم أرباب العلوم بالنسبة إلى علمه كلا علم ، وإنما هم

وغيرهم تحت قهره وتسخيره سواء . واعلم أنه سبحانه افتتح السورة بقوله ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ [المائدة : 1] وهو الشريعة والبداية وختم السورة بهذه الآية الدالة على فناء الكل في جنب جلاله وكبريائه وهو الحقيقة والنهاية ، فما أحسن هذا النسق ! وأيضاً في السورة بيان الشرائع والأحكام الكثيرة والمناظرة مع اليهود والنصارى ، فهذا الاختتام ذكر فيه أن سبحانه مالك لجميع الممكنات والكائنات موجد لجميع الأرواح والأجساد ليصح التكليف على أيّ وجه أراد ، وليكون رداً على اليهود بحكم المالكية في نسخ شريعة موسى ووضع شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليكون رداً على النصارى في أن عيسى ومريم عليهما السلام داخلان في المخلوقات موجودان بإيجاد الله ولا معنى للعبودية إلا هذا . وأيضاً لما أخبر عن فناء وجودهم المجازي لم يبق هناك مجيب فأجاب

(142/221)

بنفسه ﴿ لله ملك السموات والأرض ﴾ كقوله ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] ولعل في هذه الخاتمة من الأسرار أضعاف ما عثرنا عليه والله تعالى أعلم بأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 39 . 42 ﴾

(143/221)

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

اتجه عيسى – عليه السلام – إلى ربه يدعوه :

﴿ قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ . .

وفي دعاء عيسى – بن مريم – كما يكرر السياق القرآني هذه النسبة – أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته بربه . فهو يناديه : يا الله . يا ربنا . إنني أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد ، فتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين . . فهو إذن يعرف أنه عبد ؛ وأن الله ربه . وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين ، في مواجهة قومه ، يوم المشهد العظيم !

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى بن مريم ؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه . . لقد طلبوا خارقة . واستجاب الله . على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذاباً شديداً بالغاً في شدته لا يعذبه أحداً من العالمين :

﴿ قال الله : إني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ . .

فهذا هو الجد اللائق بجلال الله ؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهواً . وحتى لا يمضي الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع !

وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة . . فأما هنا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب في الدنيا ، أو أن يكون في الآخرة .

(144/221)

ويسكت السياق بعد وعد الله وتهديده . . ليمضي إلى القضية الأساسية . . قضية الألوهية والربوبية . . وهي القضية الواضحة في الدرس كله . . فلنعد إلى المشهد العظيم فهو ما يزال معروضاً على أنظار العالمين . لنعد إليه فنسمع استجواباً مباشراً في هذه المرة في مسألة الألوهية المدعاة لعيسى بن مريم وأمه . استجواباً يوجه إلى عيسى – عليه السلام – في مواجهة الذين عبدوه . ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه في دهش وفزع من هذه الكبيرة التي افتروها عليه وهو منها بريء :

﴿ وإذا قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك : ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به

: أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد .

إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . .

وإن الله – سبحانه – ليعلم ماذا قال عيسى للناس . ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب : الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول ؛ ولكن في صورته هذه وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم . . إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها . . أن يدعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد . . فكيف برسول من أولي العزم ؟ كيف بعيسى بن مريم ؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه ؟ كيف به يواجه استجواباً عن ادعاء الألوهية ، وهو العبد الصالح المستقيم ؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب . . يبدأ بالتسبيح والتنزيه :

﴿ قال : سبحانك ! ﴾ .

ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً :

﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ .

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته ؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه :

﴿ إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك . إنك أنت علام الغيوب ﴾ . .

وعندئذ فقط ، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله ، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته :

﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ .

ثم يخلي يده منهم بعد وفاته . . وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله – سبحانه – قد توفى عيسى بن مريم ثم رفعه إليه . وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله . وليس هنالك – فيما أرى – أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض ، وأن يكون حياً عنده . فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله . أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً . وكذلك صورة حياة عيسى – عليه السلام – وهو هنا يقول لربه : إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي :

﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ . .

وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم ؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده . وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم ؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب :

﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . .

فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب !

وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة ؛ التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواجف ، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب ؟

أين هم في هذا الموقف ، في هذا المشهد ؟ . . إن السياق لا يلقي إليهم التفاته واحدة . فلعلهم يتذاوبون خزياً وندماً . فلندعهم حيث تركهم السياق ! لنشهد ختام المشهد العجيب :

(146/221)

﴿ قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم . لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم ﴾ . .

. . هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم . . إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين ؛ الذين

أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم . في أعظم القضايا كافة . . قضية الألوهية والعبودية ، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه . .

. . هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم . . إنها كلمة رب العالمين ، في ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين . . وهي الكلمة الأخيرة في المشهد . وهي الكلمة الحاسمة في القضية . ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين :

﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ . .

﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ . .

﴿ رضي الله عنهم ﴾ . .

﴿ ورضوا عنه ﴾ . .

درجات بعد درجات . . الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم :

﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ . .

ولقد شهدنا المشهد – من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة – وسمعنا الكلمة الأخيرة . . شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعداً يوعد ، ولا مستقبلاً ينتظر ؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرؤها العيون . إنما حركت به المشاعر ، وجسمته واقعاً اللحظة تسمعه الآذان وتراه العيون . .

على أنه إن كان بالقياس إلينا – نحن البشر المحجوبين – مستقبلاً ننتظره يوم الدين ، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق ، واقع حاضر . فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانين . .

وفي نهاية هذا الدرس ؛ وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول ! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى بن مريم – عليه السلام – فرية ألوهيته ؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ ، وفوض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض . .

(147/221)

في مواجهة هذه الفرية ، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها ، في ذلك المشهد العظيم . . يجيء الإيقاع الأخير في السورة ؛ يعلن تفرد الله – سبحانه – بملك السماوات والأرض وما فيهن ؛ وقدرته – سبحانه – على كل شيء بلا حدود :

﴿ لله ملك السماوات والارض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير ﴾ . .

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة ، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم ، ويتفرد بالألوهية ، ويتفرد بالقدرة ، وينيب إليه الرسل ؛ ويفوضون إليه الأمر كله ؛ ويفوض فيه عيسى بن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز

الحكيم . الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير . .

وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن " الدين " وتعرضه ممثلاً في اتباع شريعة الله وحده ، والتلقي منه وحده ، والحكم بما أنزله دون سواه . . إنه المالك الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن ، والمالك هو الذي يحكم : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ إنها قضية واحدة . . قضية الألوهية . . قضية التوحيد . . وقضية الحكم بما أنزل الله . . لتتوحد الألوهية ، ويتحقق التوحيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 2 صـ 1000 . 1003 ﴾

(148/221)

ومن فوائد السعدى فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) ﴾

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك ، وعلم مقصودهم ، أجابهم إلى طلبهم في ذلك ، فقال: ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ

﴿ أي: يكون وقت نزولها عيدا وموسما ، يتذكر به هذه الآية العظيمة ، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرا لآياته ، ومنبها على سنن المرسلين وطرقهم القويمة ، وفضله وإحسانه عليهم . ﴿ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي: اجعلها لنا رزقا ، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لها تين المصلحتين ، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية ، ومصلحة الدنيا ، وهي أن تكون رزقا .

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادا وظلما ، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد . واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها ، وتوعدهم -إن كفروا- بهذا الوعيد ، ولم يذكر أنه أنزلها ، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك ، ويدل على ذلك ، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى ، ولا له وجود . ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فنسوه .

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلا وإنما ذلك كان متوارثا بينهم ، ينقله الخلف عن السلف ، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل ، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى. فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك. ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئًا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد، مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: "لم أقل شيئًا من ذلك" وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة. ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك، ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي: ما أمرتهم

إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له ، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله ، وبيان أني عبد مربوب ، فكما أنه ربكم فهو ربي .

(150/221)

﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر ، ممن لم يقم به .

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم . ﴿ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ علما وسمعا وبصرا ، فعلمك قد أحاط بالمعلومات ، وسمعك بالمسموعات ، وبصرك بالمبصرات ، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم ، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم . ﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة ، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة .

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة .

﴿ قَالَ اللَّهُ ﴾ مبينا لحال عباده يوم القيامة ، ومَن الفائز منهم ومَن الهالك ، ومَن الشقي ومَن السعيد ، ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ والصادقون هم الذين استقامت

أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدْي القويم ، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق ، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ولهذا قال: ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ والكاذبون بضدهم ، سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم ، وثمرة أعمالهم الفاسدة .

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري ، وحكمه الشرعي ، وحكمه الجزائي ، ولهذا قال: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فلا يعجزه شيء ، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ، ومسخرة بأمره .

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير السعدى صـ 249. 250 ﴾

(151/221)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ .

تَمَدَّحَ الحقُّ – سبحانه – بقدرته القديمة الشاملة لجميع المقدورات ، الصالحة لإيجاد المصنوعات ، ولم يتجمل بإضافة غيرٍ إلى نفسه من اسمٍ أو أثرٍ ، أو عينٍ أو طلل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

من الإبعاد والإسعاد ، والصد والرد ، والدفع والنفع ، والقمع والمنع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 459 ﴾

(152/221)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109) ﴾

يَوْمَ يَجْمَعُ بدل من المنصوب « 1 » في قوله : (وَاتَّقُوا اللَّهَ) وهو من بدل الاشتمال ، كأنه

---

(1) . قال محمود : «يوم يجمع بدل من المنصوب . . . الخ» قال أحمد : ويكون انتصابه إذاً انتصاب المفعول به لا الظرف على حكم المبدل منه .

قيل : واتقوا اللَّه يوم جمعه . أو ظرف لقوله : (لا يَهْدِي) «1» أى لا يهديهم طريق الجنة يومئذ كما يفعل بغيرهم . أو ينصب على إضمار اذكر . أو يوم يجمع اللَّه الرسل كان كيت وكيت .

وما ذا منتصب بأجبتم «2» انتصاب مصدره ، على معنى : أى إجابة أجبتم . ولو أريد الجواب لقيل : بماذا أجبتم . فإن قلت : ما معنى سؤالهم ؟ قلت : توبيخ قومهم ، كما كان سؤال الموؤدة توبيخاً للوائد . فإن قلت : كيف يقولون لا عِلْمَ لَنا وقد علموا بما أجيبوا ؟ قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم ، فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم «3» وكابدوا من سوء إجابتهم ، إظهاراً للتشكى واللجإ إلى ربهم في الانتقام منهم ، وذلك أعظم على الكفرة وأفت في أعضادهم وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم ، إذا اجتمع توبيخ اللَّه وتشكى أنبيائه عليهم . ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان واطلع على كنهها وعزم على الانتصار له منه ، فيجمع بينهما ويقول له : ما فعل بك هذا الخارجي وهو عالم بما فعل به ، يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول له : أنت أعلم بما فعل بى تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه ، واتكالا عليه ،

واظهاراً للشكاية ، وتعظيما لما حل به منه . وقيل : من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون «4» عن الجواب ، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم . وقيل : معناه علمنا ساقط مع علمك ومغمور به ، لأنك علام الغيوب . ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي منها إجابة الأمم لرسلهم ، فكأنه لا علم لنا إلى جنب علمك . وقيل : لا علم لنا بما كان منهم بعدنا ، وإنما الحكم للخاتمة . وكيف يخفى عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجوه زرق العيون موبخين . وقرئ (علام الغيوب) بالنصب «5» على أنّ الكلام قد تم بقوله إِنَّكَ أَنْتَ أى إنك الموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره ثم نصب علام الغيوب على الاختصاص ، أو على النداء ، أو هو صفة لاسم أنّ إِذْ قالَ اللَّهُ بدل من (يَوْمَ يَجْمَعُ) والمعنى : أنه يوبخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم ، وبتعديد

---

(1) . عاد كلامه . قال : «أو ظرف لقوله لا يهدى القوم الفاسقين . . . الخ» قال أحمد : وهو على هذا أيضا مفعول به .

(2) . عاد كلامه . قال : «و ما ذا منتصب بأجبتم انتصاب مصدره على معنى أى إجابة . . . الخ» قال أحمد :

والتعظيم في هذا نحو التعظيم بالسكوت عن الصلة في مثل : ما حصل إلا بعد التي واللتيا .

(3) . قوله «بما منوا به منهم» أى ابتلوا . وفي الصحاح «منيته» و «منوته» إذا ابتليته . (ع)

(4) . عاد كلامه . قال : «و قيل من الهول والفزع يذهلون عن الجواب . . . الخ» قال

أحمد : وأيضا فالمسئول عنه إجابتهم عند دعائهم إياهم إلى اللَّه ، لا ما حدث بعد ذلك مما لا يتعلق به علم الرسل ، واللَّه أعلم .

(5) . عاد كلامه . قال : «وقرئ علام الغيوب بالنصب . . . الخ» قال أحمد : ويكون هذا من باب

أنا أبو النجم وشعري وشعري

وقد مر قبل بآيات . وإنما ذكرت هذه الثلاثة من الإعراب لالتباسها إلا على الحذاق وقليل ما هم .

(154/221)

ما أظهر على أيديهم من الآيات العظام ، فكذبوهم وسموهم سحرة . أو جاوزوا حدّ التصديق إلى أن اتخذوهم آلهة ، كما قال بعض بنى إسرائيل فيما أظهر على يد عيسى عليه السلام من البينات والمعجزات (هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) واتخذه بعضهم وأمه إلهين أَيَّدْتُكَ قويتك . وقرئ أيدتك ، على أفعلتك بِرُوحِ الْقُدُسِ بالكلام الذي يحيا به الدين ، وأضافه إلى القدس ، لأنه سبب الطهر من أوضار الآثام . والدليل عليه قوله تعالى تُكَلِّمُ النَّاسَ وَفِي الْمَهْدِ في موضع الحال ، لأنّ المعنى تكلمهم طفلا وَكَهْلًا إلا أن في المهد فيه دليل على حدّ من

الطفولة . وقيل روح القدس :

جبريل عليه السلام ، أيد به لتثبيت الحجة . فإن قلت : ما معنى قوله : (فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) ؟

قلت :

معناه تكلمهم في هاتين الحالتين ، من غير أن يتفاوت كلامك في حين الطفولة وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد والحدّ الذي يستنبأ فيه الأنبياء وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة ، لأن المراد بهما جنس الكتاب والحكمة . وقيل (الْكِتابَ) الخط . و(الْحِكْمَةَ) الكلام المحكم الصواب كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ هيئة مثل هيئة الطير بِإِذْنِي بتسهيلى فَتَنْفُخُ فِيها الضمير للكاف ، لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى عليه السلام وينفخ فيها ، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا من نفخه في شيء . وكذلك الضمير في فتكون تُخْرِجُ الْمَوْتى تخرجهم من القبور وتبعثهم . قيل : أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ يعنى اليهود حين هموا بقتله . وقيل :

لما قال اللَّه تعالى لعيسى (اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ) كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيئا لغد يقول : مع كل يوم رزقه ، لم يكن له بيت فيخرب ، ولا ولد فيموت ، أينما أمسى بات .

[سورة المائدة (5) : الآيات 111 إلى 115]

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (111)
إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ
اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ
صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا
مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ
(114) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً
مِنَ الْعالَمِينَ (115)

(155/221)

أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أمرتهم على ألسنة الرسل مُسْلِمُونَ مخلصون ، من أسلم وجهه للَّه

عِيسَى في محل النصب على إتباع حركة الابن ، كقولك : يا زيد بن عمرو ، وهي اللغة

الفاشية ويجوز أن يكون مضموما كقولك : يا زيد بن عمرو . والدليل عليه قوله :

أَحَارِ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّى خَمِرْ وَيَبْدُو عَلَّ الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ «1»

لأنّ الترخيم لا يكون إلا في المضموم . فإن قلت : كيف قالوا هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ بعد إيمانهم

وإخلاصهم «2» ؟ قلت : ما وصفهم اللَّه بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم

لهما ، ثم أتبعه

---

(1) أحار بن عمرو كأنى خمر ويعدو على المرء ما يأتمر

ولا وأبيك ابنة العامري لا يدعى القوم أنى أفر

لامرئ القيس بن حجر . وقيل لربيعة بن جشم اليمنى . والهمزة للنداء . و«حار» مرخم ، أصله حارث ضم على لغة من لا ينتظر المحذوف . واللغة المشهورة معاملته معاملة التام ، كما أن المشهور أيضا فتح العلم المنادى الموصوف بابن مضاف إلى علم آخر اتباعا لنصب ابن . ويجوز ضمه كما هنا ، لأن الترخيم لا يكون إلا في المضموم لأن المفتوح اتباعا كالمركب مع ما بعده . والترخيم لا يأتى في الوسط ، ولأنه لو كان مفتوحا وضم في الترخيم لكان فيه إخلال بالفتحة المجتلبة للتناسب . والخمر – كحذر – : الذي خالطه داء فغطى عقله . والخمر – كسبب – : كل ما سبّر من بناء أو شجر . ثم تذكر السبب في ذلك وهو مطاوعته ما لا تنبغي مطاوعته فقال ويعدو على الإنسان ائتماره ، أى امتثاله لأمر غيره . ويجوز أن «ما» موصولة ، أى الذي يمتثله من أمر من لا يعرف عواقب الأمور ، أو من أمر نفسه وهواه ، وشبه ذلك بمن يصح منه العدوان ، على طريق الكناية . ويروى «ويبدو على المرء» أى يشرف عليه ويظهر له عاقبة امتثاله لما لا ينبغي امتثاله . وكثير ينشد فاصلتى هذا البيت بالتنوين الغالي ، لكن أنكره الزجاج والسيرافي ، لأنه يكسر الوزن . وجعله ابن يعيش من تنوين الترنم ، بناء على أنه لجلب الترنم لا لقطعه ، فلا يختص بالقوافى ،

المطلقة ، بل يدخل المقيدة كما هنا . والمشهور تحريك ما قبله بالكسر . واختار ابن الحاجب الفتح . وجوز بعضهم تحريكه بما كان يستحقه لولا السكون . وبعض أجاز اجتماع الساكنين . ودخول «لا» النافية قبل القسم سائغ شائع في لسان العرب ، لأنه غالبا يكون لرد دعوى الخصم ونفيها . فالتقدير : ولا يحصل ذلك وحق أبيك ، ولو كانت زائدة محضا لكانت الواو في التقدير داخلة على واو القسم . وروى بحذف الواو الأولى : أى وحق أبيك يا ابنة العامري لا أفر من الحرب أصلا ، فلا يدعيه أحد على . فنفى الادعاء كناية عن نفى الفرار على أبلغ وجه . [. . . . .]

(2) . قال محمود : فان قلت كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم – في قوله : (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ) – قال : قلت ما وصفهم بالايمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما . . . الخ» قال أحمد : وقيل إن معنى (هَلْ يَسْتَطِيعُ) هل يفعل ، كما تقول للقادر على القيام : هل تستطيع أن تقوم : مبالغة في التقاضي . ونقل هذا القول عن الحسن ، فعلى هذا يكون إيمانهم سالما عن قدح الشك في القدرة ، فان استقام التعبير عن الفعل بالاستطاعة فذاك – والله أعلم – من باب التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ الاستطاعة من جملة أسباب الإيجاد وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل ، تسمية بالسبب الذي هو الارادة ، باسم المسبب الذي هو الفعل ، في مثل قوله : (إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ) وقد مضى أول السورة . وفي هذا التأويل

الحسن تعضيد لتأويل أبي حنيفة ، حيث جعل الطول المانع من نكاح الأمة وجود الحرة في العصمة . وعدمه أن لا يملكك عصمة الحرة وإن كان قادراً على ذلك ، فتباح له حينئذ الأمة . وحمل قوله : (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) على معنى : ومن لم يملك منكم ، وحمل النكاح على الوطء ، فجعل استطاعة الملك المنفية هي الملك كما ترى ، حتى أن القادر غير المالك عادم الطول عنده فينكح الأمة . وقد مضى ذكر مذهبه ، وكنت أستبعد إنهاضه لأن يكون تأويلا يحتمله اللفظ ويساعده الاستعمال ، حتى وقفت على تفسير الحسن هذا والله أعلم .

(156/221)

قوله : (إِذْ قَالَ) فإذن إنّ دعواهم كانت باطلة ، وإنهم كانوا شاكين ، وقوله : (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ، ولا تقترحوا عليه ، ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة . وقرئ :

هل تستطيع ربك ، أي هل تستطيع سؤال ربك ، والمعنى : هل تسأله ذلك من غير صارف

يصرفك عن سؤاله . والمائدة : الخوان « 1 » إذا كان عليه الطعام ، وهي من «مادّه» إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدّم إليه وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ، أو نكون من الشاهدين للَّه بالوحدانية ولك بالنبوّة ، عاكفين عليها ، على أن عليها في موضع الحال ، وكانت دعواهم لإرادة ما ذكروا كدعواهم الايمان والإخلاص . وإنما سأل عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكمالها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا . وقرئ : ويعلم ، بالياء على البناء للمفعول . وتعلم . وتكون ، بالتاء . والضمير للقلوب اللَّهُمَّ أصله يا اللَّه ، فحذف حرف النداء ، وعوضت منه الميم . وربَّنا نداء ثان تَكُونُ لَنا عِيداً أى يكون يوم نزولها عيدا . قيل : هو يوم الأحد . ومن ثم اتخذه النصارى عيداً ، وقيل : العيد السرور العائد ، ولذلك يقال : يوم عيد ، فكأنّ معناه : تكون لنا سروراً وفرحا . وقرأ عبد اللَّه : تكن ، على جواب الأمر . ونظيرهما ، يرثني ، ويرثني لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا بدل من لنا بتكرير العامل ، أى لمن في زماننا من أهل ديننا ، ولمن يأتى بعدنا . وقيل : يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم : ويجوز المقدّمين منا والأتباع . وفي قراءة زيد : لأولانا وأخرانا ، والتأنيث بمعنى الأمّة والجماعة عَذاباً بمعنى تعذيباً . والضمير في : (لا أُعَذِّبُهُ) للمصدر . ولو أريد بالعذاب ما يعذب به ، لم يكن بدّ من الباء .

وروى أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفا ، ثم قال : اللهم أنزل علينا ، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين : غمامة فوقها وأخرى تحتها ، وهم ينظرون إليها حتى

سقطت بين أيديهم ، فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلنى من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة ، وقال لهم : ليقم أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم اللَّه عليها ويأكل منها . فقال شمعون رأس الحواريين : أنت أولى بذلك ، فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى ، ثم كشف المنديل وقال : بسم اللَّه خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسما . وعند

---

(1) . قوله «و المائدة الخوان» في الصحاح «الخوان» بالكسر : الذي يؤكل عليه ، معرب . وقوله «من مادة» الذي في الصحاح «ماد الشيء» تحرك . و «مادت الأغصان» تمايلت اه . (ع)

رأسها ملح ، وعند ذنبها خل ، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكرّاث ، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد . فقال شمعون : يا روح اللَّه ، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة ؟ فقال : ليس منهما ، ولكنه شيء اخترعه اللَّه بالقدرة العالية ، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم اللَّه ويزدكم من فضله : فقال الحواريون : يا روح اللَّه ، لو أريتنا من هذه

الآية آية أخرى ، فقال يا سمكة احيى بإذن اللَّه ، فاضطربت . ثم قال لها : عودي كما كنت ، فعادت مشوية . ثم طارت المائدة ، ثم عصوا بعدها فمسخوا قردة وخنازير . وروى أنهم لما سمعوا بالشريطة وهي قوله تعالى : (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ) قالوا لا نريد فلم تنزل . وعن الحسن : واللَّه ما نزلت ، ولو نزلت لكان عيداً إلى يوم القيامة ، لقوله : (وَآخِرِنا) . والصحيح أنها نزلت .

[سورة المائدة (5) : آية 116]

وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116)

سُبْحانَكَ من أن يكون لك شريك ما يَكُونُ لِي ما ينبغي لي أَنْ أَقُولَ قولا لا يحق لي أن أقوله فِي نَفْسِي في قلبي : والمعنى : تعلم معلومى ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه ، فقيل فِي نَفْسِكَ لقوله في نفسي إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ تقرير للجملتين معاً ، لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ، ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهى إليه علم أحد .

[سورة المائدة (5) : الآيات 117 إلى 118]

ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ

فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)

«أن» في قوله أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ «1» إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر. والمفسر إما

---

(1). قال محمود: «أن في قوله: (أَنِ اعْبُدُوا) إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر ... الخ» قال أحمد: وقد أجاز بعضهم وقوع «أن» المفسرة بعد لفظ القول، ولم يقتصر بها على ما في معناه، فيجوز على هذا القول وقوعها تفسيراً لفعل القول. وقد أبى الزمخشري في مفصله وقوعها إلا بعد فعل في معنى القول كمذهبه هاهنا.

(158/221)

فعل القول وإما فعل الأمر، وكلاهما لا وجه له. أما فعل القول فيحكى بعده الكلام من غير أن يتوسط بينهما حرف التفسير، لا تقول: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا اللَّه. ولكن: ما قلت لهم إلا اعبدوا اللَّه. وأما فعل الأمر، فمسند إلى ضمير اللَّه عز وجل. فلو فسرته باعبدوا اللَّه ربي وربكم لم يستقم لأن اللَّه تعالى لا يقول: اعبدوا اللَّه ربي وربكم، وإن جعلتها موصولة بالفعل «1» لم تخل من أن تكون بدلا من ما أمرتني به، أو من الهاء «2» في به، وكلاهما غير مستقيم لأن البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه. ولا يقال: ما قلت

لهم إلا أن اعبدوا اللَّه ، بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته لأن العبادة لا تقال . وكذلك إذا جعلته بدلا من الهاء «3» لأنك لو أقمت (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) مقام الهاء ، فقلت : إلا ما أمرتنى بأن اعبدوا اللَّه ، لم يصح ، لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته . فإن قلت : فكيف يصنع ؟ «4» قلت يحمل فعل

---

(1) . عاد كلامه . قال : «وأما فعل الأمر فمسند إلى ضمير اللَّه عز وجل . . . الخ» قال أحمد : ويجوز أيضا هذا الوجه على صرف التفسير إلى المعنى ، كأنه حكى معنى قول اللَّه عز وجل له بعبارة أخرى ، وكأن اللَّه تعالى قال له :

مرهم بعبادتي ، أو قال لهم على لسان عيسى : اعبدوا اللَّه رب عيسى وربكم ، فلما حكاه عيسى عليه السلام قال : اعبدوا اللَّه ربى وربكم ، فكنى عن اسمه الظاهر بضميره ، كما قال اللَّه تعالى حكاية عن موسى (قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى) فانظر كيف جاء أول الكلام حكاية لقول موسى ، وموسى لا يقول : فأخرجنا ، ولكن فأخرج اللَّه ، فلما حكاه اللَّه تعالى عن موسى رد الكلام إليه تعالى ، وأضاف الإخراج إلى ذاته على طريقة المتكلم لا الحاكي ، وكذلك قوله تعالى : (لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) إلى قوله : (فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً) ونظائره كثيرة . وقد قدمت نحواً من هذا البحث عند قوله تعالى حكاية عن اليهود (إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ

اللَّهِ) لما استبعد الزمخشري أن تصفه اليهود بهذه الصفات المنافية لاعتقادهم فيه .

(2) . عاد كلامه . قال : «وإن جعلت أن موصولة مع فعل الأمر . . . الخ» قال أحمد : أى فلا يقدر بالعبادة ولكن بالأمر بها ، كأنه قيل : ما قلت لهم إلا الأمر بالعبادة للَّه ، والأمر مقول لقلت ، على أن جعل العبادة مقولة ليس ببعيد ، على طريقة (ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا) أى للوطء الذي قالوا قولا يتعلق به . وكقوله تعالى : (وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً) وسيأتى له تصحيح هذا الاستعمال لوروده كثيراً في القرآن الكريم .

(3) . عاد كلامه . قال : «وكذلك إذا جعلته بدلا من الهاء لأنك . . . الخ» قال أحمد : وهذا أيضا غير مانع من البدل ، وإنما يواجه المصنف بما لا يسعه إنكاره ، فقد قال في مفصله ما هذا نصه : وقولهم : إن البدل في حكم تنحية الأول ، إيذان منهم باستقلاله بنفسه ومفارقته للتأكيد والصفة في كونهما اسمين لما يتبعانه ، لا أن يعنوا إهدار الأول وإطراحه . ألا تراك تقول : زيداً رأيت غلامه رجلا صالحا ، فلو ذهبت إلى إهدار الأول لم يسند كلامك . فانظر كيف يرد كلامه في المفصل وهو الحق ما ارتكبه من رد البدل في هذه الآية ، للزوم طرح الأول فتخلو الصلة من الضمير : ولم يجعل هذا القدر مانعا في المثال المذكور . مع أنك لو طرحت الأول لخلا الخبر من الضمير العائد ولم يسند الكلام . فهذه وجوه أربعة منعها في إعراب «أن» وكلها مسندة حسبما بينا . وهذه المساجلة في هذا الإعراب من الغرر والحجول في صناعة الإعراب وعلم البيان . وفرسان هذا المضمار

قليل .

(4) . عاد كلامه . قال : فان قلت كيف يصنع ؟ قلت : يحمل فعل . . . الخ» قال أحمد : هذا التأويل لتوقع أن المفسرة بعد فعل في معنى القول ، وليس قولا صريحا . وحمل القول على الأمر مما يصحح المذهب الآخر في إجازة وقوعها بعد القول ، فانه لولا ما بين القول والأمر من التفاوت المعنوي ، لما جاز إطلاق إحداهما وإرادة الأخرى .

والعجب أن الأمر قسم من أقسام القول ، وما بينهما إلا عموم وخصوص . وليس في هذا التأويل الذي سلكه إلا كلفة لا طائل وراءها . ولو كانت العرب تأبى وقوع المفسرة بعد القول . لما أوقعتها بعد فعل ليس بقول . ثم عبرت عن ذلك الفعل بالقول لأن ذلك كالعود إلى ما وقع الفرار منه وهم بعداء من ذلك .

(159/221)

القول على معناه لأن معنى (ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ) . ما أمرتهم إلا بما أمرتني به ، حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا اللَّه ربي وربكم . ويجوز أن تكون «أن» موصولة «1» عطف بيان للهاء لا بدلا وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً رقيباً كالشاهد على المشهود عليه ، أمنعهم من أن يقولوا ذلك ويتدينوا به فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ تمنعهم من القول به بما

نصبت لهم من الأدلة ، وأنزلت عليهم من البينات ، وأرسلت إليهم من الرسل إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ الذين عرفتهم عاصين جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ القوى القادر على الثواب والعقاب الْحَكِيمُ الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب . فإن قلت : المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال : (وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) «2» ؟ قلت : ما قال إنك تغفر لهم ، ولكنه بنى الكلام على : إن غفرت ، فقال : إن عذبتهم عدلت ، لأنهم أحقاء

---

(1) . عاد كلامه . قال : ويجوز أن تكون أن موصولة . . . الخ» قال أحمد : يريد بجعله عطف بيان أن يسلم من تقدير إطراح الأول في البدل وخلو الصلة حينئذ من العائد . وقد بينا أن ذلك غير لازم في البدل . والعجب أنه أيضا في مفصله لم يفصل بين عطف البيان والبدل ، إلا في مثل قول المرار :

أنا ابن التارك البكري بشر

لأنه لو جعله بدلا للزم تكرير العامل ، وإضافة اسم الفاعل العرف بالألف واللام إلى العلم ولم يفصل بينهما في غير هذا المثال ومن حيث المعنى أن المعتمد في عطف البيان الأول . وأما الثاني فللتوضيح . والمعتمد في البدل الثاني .

وأما الأول فبساط لذكره ، لا على أنه مطرح مهدر .

(2) . قال محمود «إن قلت المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال وإن تغفر لهم . . . الخ» ؟

قال أحمد رحمه اللَّه : تذبذب الزمخشري في هذا الموضع فلا إلى أهل السنة ولا إلى القدرية . أما أهل السنة ، فالمغفرة للكافر جائزة عندهم في حكم اللَّه تعالى عقلا ، بل عقاب المتقى المخلص كذلك غير ممتنع عقلا من اللَّه تعالى ، وإذا كان كذلك فهذا الكلام خرج على الجواز العقلي ، وإن كان السمع ورد بتعذيب الكفار وعدم الغفران لهم ، إلا أن ورود السمع بذلك لا يرفع الجواز العقلي . وأما القدرية فيزعمون أن المغفرة للكافر ممتنعة عقلا ، لا تجوز على اللَّه تعالى لمناقضتها الحكمة ، فمن ثم كفحتهم هذه الآية بالرد ، إذ لو كان الأمر كزعمهم لما دخلت كلمة «إن» المستعملة عند الشك في وقوع الفعل بعدها لغة في فعل لا شك في عدم وقوعه عقلا ، ولكان ذلك من باب التعليق بالمحال ، كأن يبيض القار وأشباهه . وليس هذا مكان . فقول الزمخشري إذاً (إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) لم يعدم وجها من الحكمة في المغفرة لأن العفو عن المجرم حسن عقلا لا يأتلف بقواعد السنة ، إذ لا يلتفت عندهم إلى التحسين العقلي ، ولا يأتلف أيضا بنزغات القدرية ، لأنهم يجزمون بأنه لا وجه من الحكمة في المغفرة للكافر ، ويقطعون بمنافاتها الحكمة ، فكيف يخاطب اللَّه تعالى به ، فعلم أن عيسى عليه السلام يبرأ إلى اللَّه من هذا الإطلاق ومما اشتمل عليه من سوء الأدب ، فان قول القائل لمن يخاطبه : ما فعل كذا فلن يعدم فيه عذراً ووجهاً من المصلحة كلام مبذول وعبارة نازلة عن أوفى مراتب الأدب ، إنما يطلقها المتكلم لمن هو دونه عادة ، فنسأل اللَّه إلهام الأدب وتجنب ما في إساءته من مزلات العطب .

بالعذاب ، وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول . بل متى كان الجرم أعظم جرما كان العفو عنه أحسن .

[سورة المائدة (5) : آية 119]

قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119)

قرئ (هذا يَوْمُ يَنْفَعُ بالرفع والإضافة . وبالنصب إما على أنه ظرف لقال . وإما على أنّ (هذا) مبتدأ ، والظرف خبر . ومعناه ، هذا الذي ذكرنا من كلام عيسى واقع يوم ينفع . ولا يجوز أن يكون فتحا ، كقوله تعالى : (يَوْمَ لا تَمْلِكُ) لأنه مضاف إلى متمكن ، وقرأ الأعمش : يوم ينفع ، بالتنوين ، كقوله تعالى : (وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ) فإن قلت : ما معنى قوله يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ؟ إن أريد صدقهم «1» في الآخرة فليست الآخرة بدار عمل ، وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة ؟ قلت : معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم . وعن قتادة :

متكلمان تكلما يوم القيامة. أمّا إبليس فقال: إنّ اللَّه وعدكم وعد الحق، فصدق يومئذ وكان قبل ذلك كاذبا، فلم ينفعه صدقه. وأما عيسى عليه السلام فكان صادقا في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه.

[سورة المائدة (5): آية 120]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)

فإن قلت: في السموات والأرض العقلاء وغيرهم، فهلا غلب العقلاء، فقيل: ومن فيهنّ؟

قلت: «ما» يتناول الأجناس كلها تناولا عاما. ألا تراك تقول إذا رأيت شبحاً من بعيد: ما هو؟

قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره، فكان أولى بإرادة العموم.

عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصراني يتنفس في الدنيا» «2». انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 1 صـ 689. 697﴾

---

(1). قال محمود «إن قلت ما معناه، إن أريد صدقهم في الآخرة... الخ» قال أحمد: ولو أجاب بحمل الصادقين على الدنيا وصدقهم على الآخرة حتى يكون التقدير: هذا يوم ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم في الآخرة، لكان أوضح طباقا لتفسير قتادة، وأخرج

لإبليس وأشباهه من هذا العموم فان إبليس وإن صدق في الآخرة ، إلا أنه لم يكن من الصادقين في الدنيا ، فلم ينفعه صدقه في الآخرة ، والوجهان متقاربان .

(2) . تقدم إسناده إلى أبى بن كعب في تفسير آل عمران .

(161/221)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : أخبر عن كثرة السؤال أنها تورث الملال وذلك أن علوم القال غير علوم الحال ، والصنف الأول يحمد فيه السؤال والثاني يذم فيه ذلك إذ يحصل بالعيان لا بالبرهان كما كان حال الأنبياء عليهم السلام مع الله ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ﴾ [الأنعام : 75] ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ [النجم : 18] وقال صلى الله عليه وسلم : " أرنا الأشياء كما هي " وقال الخضر لموسى عليه السلام ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء ﴾ [الكهف : 70] وقال موسى في الثالثة ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ﴾ [الكهف : 76] فإن تعلم العلم اللدني بالحال في الصحبة والمتابعة والتسليم . وفي السؤال الانقطاع عن الصحبة ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن ﴾ أي إن كان لا بد لكم من

السؤال عن حقائق فاسألوا عنها بعد نزول القرآن ليخبركم عن حقائقها على قدر عقولكم .

(162/221)

﴿ والله غفور ﴾ لمن تاب من طلب علوم الحقائق بالقال ﴿ حليم ﴾ لمن يطلب بالحال فيصدر عنه في أثناء الطلب سؤال ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ﴾ كقدماء الفلاسفة أعرضوا عن متابعة الأنبياء وأقبلوا على مجرد القيل والقال ، فوقعوا في أودية الشبهات والضلال ﴿ ما جعل الله من بحيرة ﴾ قال الشيخ المحقق نجم الدين : المعروف بداية هم الحيدرية والقلندرية يشقون آذانهم وذكورهم ويجعلون فيها حلق حديد ويحلقون لحيتهم ﴿ ولا سائبة ﴾ هم الذين يضربون في الأرض خليعي العذار بلا لجام الشريعة وقيد الطريقة ويدعون أنهم أهل الحقيقة ﴿ ولا وصيلة ﴾ هم أهل الإباحة الذين يتصلون بالأجانب بطريق المؤاخاة والاتحاد ويرفضون صحبة الأقارب لأجل العصبية والعناد ﴿ ولا حام ﴾ وهو المغرور بالله يظن أنه بلغ مقام الحقيقة فلا يضره مخالفات الشريعة . ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله ﴾ من الأحكام ﴿ وإلى الرسول ﴾ لمتابعته ﴿ قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي مشايخنا وأهل صحبتنا ﴿ أولو كان آباؤهم لا

يعلمون شيئاً ﴾ من الشريعة والطريقة ﴿ ولا يهتدون ﴾ إلى الحقيقة . ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ أي اشتغلوا أوّلاً بتزكية نفوسكم ثم بإرشاد الغير فإن الفريق الذي لم يتعلم السباحة إذا تشبث به مثله هلكا معاً ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ فللطالبين بجذبات العناية وللمضلين بسلاسل القهر والنكاية ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ أي النفس تموت عن صفاتها الذميمة بالرياضة والمجاهدة فتوصي بصفاتها لورثتها وهم القلب وأوصافه والوصيان ﴿ اثنان ذوا عدل منكم ﴾ هما العقل والسر من الروحانيات ، ﴿ أو آخران ﴾ من غير الروحانيات هما الوهم والخيال من النفسانيات . فالعقل والسر يشهدان الحق وإن كان على ذي قرابة الروحانيات ، والوهم والخيال شهادتهما الصدق والكذب . ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرتم في السفليات ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ أي فتصيب النفس جذبة الحق فتموت ﴿ تحبسونهما ﴾ إن كنتم في بعد من

(163/221)

الروحانيات ﴿ من بعد الصلاة ﴾ من بعد حضورهما مع الله وتوجيههما إلى الحق ومراقبة تامة ، فيشدد على الشاهدين بالقسم والتخويف بالله أن يؤديا شهادة الحق ويدفعا تركة النفس وهي صفاتها إلى ورثتها وهم القلب وصفاته ، ولا يصرفانها في شيء من السفليات

فإن كل خلق إذا استعملته النفس كان صفة ذميمة ، فإذا استعمله القلب صار وصفاً محموداً كالحرص إذا استعملته النفس في طلب الدنيا ولذتها كان وصفاً مذموماً ، وإذا استعمله القلب في طلب العلوم والكمالات صار ممدوحاً . ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ بأن مالا إلى حظ من الحظوظ السفلية ﴿ فآخران ﴾ من صفات القلب هما : التذكر والفكر الصائب ينظران في عواقب الأمور ويشهدان على أن الآخرة خير من الدنيا والباقي خير من الفاني ﴿ لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ لأن الوهم والخيال مالا إلى الحظوظ بكتمان الحقوق ، والتذكر والتفكر مالا إلى حفظ الحقوق بترك الحظوظ .

(164/221)

﴿ أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أي العقل والسر يأتيان في بدو الأمر باستعمال صفات النفس في السعادات الأخروية ، أو يخافان عواقب الأمور بأن يشددوا على أنفسهم بالاستمهال وتضييع الأعمال وإفساد الاستعداد ، ثم بالتفكر والتذكر يردّ الأمر إلى وجوب رعاية الحقوق فيحتاجان إلى كثرة الرياضة . ﴿ ماذا أجبتم قالوا ﴾ وهم مستغرقون في بحر الشهود . ﴿ لا علم لنا ﴾ اي ببواطن الأمور وحقائقها . ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ أي في عالم الأرواح يوم الميثاق قالوا بسبب ذلك التعارف في عالم الأشباح آمنا

. إن بعض الحواريين المقلدين في الإيمان قالوا ﴿ يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ﴾ فما راعوا الأدب مع نبيهم حيث لم يقوموا يا رسول الله أو يا روح الله ، ولا مع ربهم حيث تشككوا في كمال قدرته . ثم أظهروا دناءة همتهم حيث طلبوا بواسطة مثل عيسى من واهب المواهب مائدة جسمانية لا فائدة روحانية فقال عيسى ﴿ اللهم ربنا أنزل علينا مائدة ﴾ الأسرار والحقائق من سماء العناية عليها أطعمة الهداية ﴿ تكون لنا ﴾ أي لأهل الحق والصدق ﴿ عيداً ﴾ نفرح بها ﴿ لأولنا وآخرنا ﴾ أي لأول أنفاسنا وآخرها فإن أهل الحق يراقبون الأنفاس لتصعد مع الله وتهوي مع الله ﴿ وأنت خير الرازقين ﴾ لأن الذي ترزق رزق منك والذي يرزق ظاهراً من غيرك فهو أيضاً منك بالواسطة ، وما بالذات خير مما بالواسطة . ﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ بأن لا يقوم بحقها ويجعلها شبكة يصطاد بها الدنيا فأني أرده من المراتب الروحانية إلى المهالك الحيوانية وهو المسخ الحقيقي ، ويوم القيامة أيضاً بحيث يحشرون على صفاتهم التي ماتوا عليها كما قال صلى الله عليه وسلم " يموت المرء على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه " ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ الخطاب مع الأمة إلا أن من سنته سبحانه أن لا يكلم الكفار فكلم عيسى بدلاً منهم ، أو المراد بالقول أمر التكوين فالمعنى أأنت خلقت فيهم اتخاذك وأمك الهين أم أنا خلقت ذلك فيهم

خذلاناً لهم ؟ ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ الغيب ما غاب عن الخلق . ويحتمل أن سيعلمه الخلق ، وغيب الغيب ما غاب عنهم ولا يمكنهم أن يعلموه ، والله حسبي ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 42.44 ﴾

وقال العلامة الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ جَعَلَ الله الكعبة البيت الحرام ﴾ هي عندهم حضرة الجمع المحرمة على الأغيار ، وقيل : قلب المؤمن ، وقيل : الكعبة المخصوصة لا باعتبار أنها جدران أربعة وسقف بل باعتبار أنها مظهر جلال الله تعالى .

(166/221)

وقد ذكروا أنه سبحانه يتجلى منها لعيون العارفين كما يشير إليه قوله عز شأنه على ما في التوراة "جاء الله تعالى من سينا فاستعلن بساعير وظهر من فاران" ﴿ قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ من موتهم الحقيقي لما يحصل لهم بواسطة ذلك ﴿ والشهر الحرام ﴾ وهو زمن الوصول أو مراعاة القلب أو الفوز بذلك التجلي الذي يحرم فيه ظهور صفات النفس أو الالتفات إلى مقتضيات القوى الطبيعية أو نحو ذلك ﴿ والهدى ﴾ وهي النفس المذبوحة بفناء حضرة

الجمع أو الواردات الإلهية التي ترد القلب أو ما يحصل للعبد من المنن عند ذلك التجلي ﴿ والقلائد ﴾ وهي النفس الشريفة المنقادة أو هي نوع مما يحصل للعبد من قبل مولاه يقوده قسراً إلى ترك السوي ﴿ ذلكِ لِتَعْلَمُواْ ﴾ بما يحصل لكم ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض وَأَنَّ الله بِكُلّ شَىْء عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : 97] أي يعلم حقائق الأشياء في عالمي الغيب والشهادة وعلمه محيط بكل شيء ﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِى الخبيث ﴾ [المائدة : 100] من النفوس والأعمال والأخلاق والأموال ﴿ والطيب ﴾ من ذلك ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث ﴾ بسبب ملاءمته للنفس فإن الأول موجب للقربة دون الثاني ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الإيمان البرهاني ﴿ لاَ تَسْأَلُواْ ﴾ من أرباب الإيمان العياني ﴿ عَنْ أَشْيَاء ﴾ غيبية وحقائق لا تعلم إلا بالكشف ﴿ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ تهلككم لقصوركم عن معرفتها فيكون ذلك سبباً لإنكاركم والله سبحانه غيور وإنه ليغضب لأوليائه كما يغضب الليث للحرب .

(167/221)

وفي هذا كما قيل تحذير لأهل البداية عن كثرة سؤالهم من الكاملين عن أسرار الغيب وإرشاد لهم إلى الصحبة مع التسليم ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ ﴾ الجامع للظاهر

والباطن المتضمن لما سئلتم عنه ﴿ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ [المائدة: 101] بواسطته ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ ﴾ وهي النفس التي شقت أذنها لسماع المخالفات ﴿ وَلاَ سَآئِبَةٍ ﴾ وهي النفس المطلقة العنان السارحة في رياض الشهوات ﴿ وَلاَ وَصِيلَةٍ ﴾ وهي النفس التي وصلت حبال آمالها بعضاً ببعض فسوفت التوبة والاستعداد للآخرة ﴿ وَلاَ حَامٍ ﴾ [المائدة: 103] وهو من اشتغل حيناً بالطاعة ولم يفتح له باب الوصول فوسوس إليه الشيطان، وقال: يكفيك ما فعلت وليس وراء ما أنت فيه شيء فارح نفسك فحمى نفسه عن تحمل مشاق المجاهدات.

ونقل النيسابوري عن الشيخ نجم الدين المعروف بداية أن البحيرة إشارة إلى الحيدرية والقلندرية يثقبون آذانهم ويجعلون فيها حلق الحديد ويتركون الشريعة، والسائبة إشارة إلى الذين يضربون في الأرض خالعين العذار بلا لجام الشريعة وقيد الطريقة ويدعون أنهم أهل الحقيقة، والوصيلة إشارة إلى أهل الإباحة الذين يتصلون بالأجانب بطريق المؤاخاة والاتحاد ويرفضون صحبة الأقارب لأجل العصبية والعناد، والحام إشارة إلى المغرور بالله عز وجل يظن أنه بلغ مقام الحقيقة فلا يضره مخالفة الشريعة، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ من الأحكام ﴿ وَإِلَى الرسول ﴾ لمتابعته ﴿ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا ﴾ من الأفعال التي عاشوا بها وماتوا عليها ﴿ أَوْلَوْ كَانَ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ ﴾ من الشريعة والطريقة ﴿ وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: 104] إلى الحقيقة.

﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ فاشتغلوا بتزكيتها ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ ﴾ عما أنتم فيه فأنكر عليكم ﴿ إِذَا اهتديتم ﴾ [المائدة : 105] وزكيتم أنفسكم ، وإنما ضرر ذلك على نفسه .

وقوله تعالى : ﴿ يأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ شهادة بَيْنِكُمْ ﴾ [المائدة : 106] الآيتين لم يظهر للعبد فيه شيء يصلح للتحرير ، وقد ذكر النيسابوري في تطبيقه على ما في الأنفس ما رأيت الترك له أنفس ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ﴾ وهو يوم القيامة الكبرى ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لهم ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ ﴾ حين دعوتم الخلق ﴿ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا ﴾ بذلك ﴿ إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ [المائدة : 109] فتعلم جواب ما سئلنا ، وهذا على ما قيل عند تراكم سطوات الجلال وظهور رداء الكبرياء وإزار العظمة ولهذا بهتوا وتاهوا وتحيروا وتلاشوا ولله سبحانه تجليات على أهل قربه وذوي حبه فيفنيهم تارة بالجلال ويبقيهم ساعة بالجمال ويخاطبهم مرة باللطف ويعاملهم أخرى بالقهر وكل ما فعل المحبوب محبوب .

وقال بعض أهل التأويل : يجمع الله تعالى الرسل في عين الجمع المطلق أو عين جمع الذات فيسألهم هل اطلعتم على مراتب الخلق في كمالاتهم حين دعوتموهم إليّ ؟ فينفوا العلم عن أنفسهم ويثبتوه لله تعالى لاقتضاء مقام الفناء ذلك ﴿ إِذْ قَالَ الله يا عيسى عِيسَى ابن مَرْيَمَ اذكر ﴾ للأحباب والمريدين ﴿ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وعلى والدتك ﴾ لتزداد رغبتهم في واشكر ذلك لأزيدك مما عندي فخزائني مملوءة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس ﴾ وهو الروح الذي أشرق من صبح الأزل وهي روحه الطاهرة ، وقيل : المراد أيدتك بجبرائيل حيث عرفك رسوم العبودية ﴿ تُكَلِّمُ الناس فِى المهد ﴾ أي مهد البدن أو المهد المعلوم والمعنى نطقت لهم صغيراً بتنزيه الله تعالى وإقرارك له بالعبودية ﴿ وَكَهْلاً ﴾ أي في حال كبرك ، والمراد أنك لم يختلف حالك صغراً وكبراً بل استمر تنزيهك لربك ولم ترجع القهقرى ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب ﴾ وهو كتاب الحقائق والمعارف ﴿ والحكمة ﴾ وهي حكمة السلوك في الله عز وجل بتحصيل الأخلاق والأحوال والمقامات والتجريد والتفريد ﴿ والتوراة ﴾ أي العلوم الظاهرة والأحكام المتعلقة بالأفعال وأحوال النفس وصفاتها ﴿ والإنجيل ﴾ العلوم الباطنة ومنها علم تجليات الصفات والأحكام المتعلقة بأحوال القلب وصفاته ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ بالتربية أو بالتصوير ﴿ مِنَ الطين ﴾ وهو الاستعداد المحض أو الطين المعلوم ﴿ كَهَيْئَةِ الطير ﴾ أي

كصورة طير القلب الطائر إلى حضرة القدس أو الطير المشهور ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ من الروح الظاهرة فيك ﴿ فَيَكُونُ طَيْرًا ﴾ نفساً مجردة طائرة بجناح الصفاء والعشق أو طيراً حقيقة ﴿ بِإِذْنِى ﴾ حيث صرت مظهراً لي ﴿ وَتُبْرِىء الأكمه ﴾ أي المحجوب عن نور الحق ﴿ والأبرص ﴾ أي الذي أفسد قلبه حب الدنيا وغلبة الهوى ﴿ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ الموتى ﴾ بداء الجهل من قبور الطبيعة ﴿

(170/221)

بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إسرائيل ﴾ وهي القوى النفسانية أو المحجوبين عن نور تجليات الصفات ﴿ عَنكَ ﴾ فلم ينقصك كيدهم شيئاً ﴿ إِذْ جِئْتَهُمْ بالبينات ﴾ [المائدة : 110] وهي الحجج الواضحة أو القوى الروحانية الغالبة ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ بطريق الإلهام ﴿ إِلَى الحواريين ﴾ وهم الذين طهروا نفوسهم بماء العلم النافع ونقوا ثياب قلوبهم عن لوث الطبائع ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ﴾ إيماناً حقيقياً بتوحيد الصفات ﴿ وَبِرَسُولِى ﴾ [المائدة : 111] برعاية حقوق تجلياتها على التفصيل .

وذكر بعض السادة أن الوحي يكون خاصاً ويكون عاماً فالخاص ما كان بغير واسطة والعام ما كان بالواسطة من نحو الملك والروح والقلب والعقل والسر وحركة الفطرة وللأولياء

نصيب من هذا النوع .

ولوحي الخاص مراتب وحي الفعل ووحي الذات .

(171/221)

فوحي الذات يكون في مقام التوحيد عند رؤية العظمة والكبرياء ، ووحي الفعل يكون في مقام العشق والمحبة وهناك منازل الأنس والانبساط ﴿ إِذْ قَالَ الحواريون يا عيسى عِيسَى ابن مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ أي المربي لك والمفيض عليك ما كملك ﴿ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴾ أي شريعة مشتملة على أنواع العلوم والحكم والمعارف والأحكام ﴿ مِّنَ السماء ﴾ أي من جهة سماء الأرواح ﴿ قَالَ اتقوا الله ﴾ أي اجعلوه سبحانه وقاية لكم فيما يصدر عنكم من الأفعال والأخلاق ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : 112] ولا تسألوا شريعة مجددة ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ بأن نعمل بها ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ فإن العلم غداء ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ في الإخبار عن ربك وعن نفسك ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين ﴾ [المائدة : 113] فنعلم بها الغائبين وندعوهم إليها ﴿ قَالَ الله إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ ﴾ بها منكم ويحتجب عن ذلك الدين ﴿ بَعْدَ ﴾ أي بعد الإنزال ﴿ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين ﴾ [المائدة : 511] وذلك بالحجاب عني

لوجود الاستعداد ووضوح الطريق وسطوع الحجة والعذاب مع العلم أشد من العذاب مع الجهل .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عِيسَى ابن مَرْيَمَ أَأَنت قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى ﴾ الخ كلام الشيخ الأكبر قدس سره وكلام الشيخ عبد الكريم الجيلي فيه شهير منتشر على ألسنة المخلصين والمنكرين فيما بيننا .

والله تعالى أعلم بمراده نسأل الله تعالى أن ينزل علينا موائد كرمه ولا يقطع عنا عوائد نعمه ويلطف بنا في كل مبدأ وختام بحرمة نبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(172/221)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة المائدة (5) : آية 82]

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (82)

الإعراب :

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (تجدن) مضارع مبني على الفتح في محلّ رفع . . . والنون نون التوكيد الثقيلة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أشد) مفعول به منصوب (الناس) مضاف إليه مجرور (عداوة) تمييز منصوب (اللام) حرف جر (الذين) اسم موصول مبني في محل جر متعلق بعداوة (آمنوا) فعل ماض مبني على الضم . . والواو فاعل (اليهود) مفعول به ثان منصوب " 1 " ، (الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول في محل

---

(1) يجوز أن يكون (اليهود) هو المفعول الأول ، و(أشد) هو المفعول الثاني ، وهذا هو الظاهر .)

رفع معطوف على اليهود (أشركوا) مثل آمنوا (الواو) عاطفة (لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا) مثل الأولى (الذين) مثل السابق مفعول به ثان (قالوا) مثل آمنوا (إنّ) حرف مشبه بالفعل و(نا) ضمير في محل نصب اسم إنّ (نصارى) خبر مرفوع وعلامة رفعة الضمة المقدرة (ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ . . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الباء) حرف جر (أن) مثل إنّ (من) حرف جر و(هم) ضمير في محل جر متعلق بمحذوف خبر مقدّم (قسّيسين) اسم أنّ مؤخر منصوب وعلامة النصب الياء (الواو)

عاطفة (رهبانا) معطوفة على قسّيسين منصوب مثله .

والمصدر المؤول (أن منهم قسّيسين) في محل جر متعلق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك .

(الواو) عاطفة (أنّ) مثل أنّ و(هم) ضمير في محل نصب اسم أنّ (لا) نافية (يستكبرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (أنهم لا يستكبرون) في محل جر معطوف على المصدر الأول .

جملة " لتجدنّ . . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدر .

وجملة " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة " لتجدن (الثانية) " لا محلّ لها جواب قسم مقدر معطوف على الأول .

وجملة " آمنوا (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الرابع .

وجملة " إنّا نصارى " في محل نصب مقول القول .

وجملة " ذلك بأنّ منهم . . . " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " لا يستكبرون " في محلّ رفع خبر أنّ .

الصرف :

(قسيسين) ، جمع قسّيس وهو مبالغة اسم الفاعل على وزن فعيل بكسر الفاء والعين المشددة كصديق ، وأصله من تقسّس الشيء إذا اتبعه وتطلبه بالليل ، وسمي القسّيس

بذلك لتتبّعه العلم .

(رهبانا) جمع الراهب وهو اسم فاعل أو اسم لمن اعتزل الناس إلى دير .

[سورة المائدة (5) : آية 83]

وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط في محل نصب متعلق بالجواب ترى (سمعوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (ما) اسم موصول " 1 " مبني في محل نصب مفعول به (أنزل) فعل ماض مبني للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إلى الرسول) جار ومجرور متعلق بـ (أنزل) ، (ترى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أعين) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (تفيض) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (من الدّمع) جار ومجرور متعلق بـ (تفيض) ، على حذف مضاف أي من كثرة الدّمع " 2 " ، (من) حرف جر

---

(1) أو نكرة موصوفة في محل نصب . . . والجملة بعدها نعت لها .

(2) يجوز أن يتعلق بحال من فاعل تفيض أي مملوءة من الدمع . . . ويجوز أن يكون تمييزا بزيادة من البيانية .

(174/221)

(ما) اسم موصول مبني في محل جر متعلق بـ (تفيض) ، (عرفوا) مثل سمعوا (من الحق) مثل من الدّمع متعلق بحال من مفعول عرفوا (يقولون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (ربّ) منادى محذوف منه أداة النداء وهو مضاف منصوب و(نا) ضمير مضاف إليه (آمنّا) فعل ماض مبني على السكون . . . (ونا) ضمير فاعل (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (اكتب) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت و(نا) ضمير مفعول به (مع) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (اكتب) ، (الشاهدين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

جملة " سمعوا . . . " في محل جر مضاف إليه .

وجملة " أنزل . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " ترى . . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " تفيض . . . " في محل نصب حال من أعين .

وجملة " عرفوا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " يقولون . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة النداء " ربنا . . . " لا محلّ لها مقول القول .

وجملة " آمنا " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " اكتبنا " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء لأنها في حيز الجواب " 1 " .

البلاغة

1 - الاستعارة : في قوله تعالى " تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ " أي تمتلئ بالدمع

---

(1) يجوز أن تكون الجملة جواب شرط مقدر أي : إن قبلتنا فاكتبنا . . .

فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها .

2 - المبالغة في التمييز : في قوله تعالى " تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ " وهذه العبارة من أبلغ العبارات وأنهاها ، وهي ثلاثة مراتب . فالأولى : فاض دمع عينه ، وهذا هو الأصل .

والثانية : محولة من هذه وهي قول القائل : فاضت عينه دمعا حولت الفعل إلى العين مجازا ومبالغة ، ثم نبهت على الأصل والحقيقة بنصب ما كان فعلا على التمييز . والثالثة فيها

هذا التحويل المذكور ، وهي الواردة في الآية ، إلا أنها أبلغ من الثانية باطراح المنبهة على الأصل وعدم نصب التمييز ، وابرازه في صورة التعليل والله أعلم . وإنما كان الكلام مع التعليل أبعد عن الأصل منه مع التمييز ، لأن التمييز في مثله قد استقر كونه فاعلا في الأصل في مثل : تصبب زيد عرقا ، واشتعل الرأس شيبا . فإذا قلت : فاضت عينه دمعا ، فهم هذا الأصل في العادة في أمثاله . وأما التعليل فلم يعهد فيه ذلك ألا تراك تقول : فاضت عينه من ذكر الله كما تقول : فاضت عينه من الدمع ، فلا يفهم التعليل ما يفهم التمييز .

[سورة المائدة (5) : آية 84]

وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام مبني في محل رفع مبتدأ (اللام) حرف جر و(نا) ضمير في محل جر متعلق بمحذوف خبر المبتدأ (لا) نافية (نؤمن) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (بالله) جار ومجرور متعلق بـ (نؤمن) ، (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبني في محل جر معطوف على لفظ الجلالة (جاء) فعل ماض و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (من الحق) جار

و مجرور متعلق بحال من فاعل جاء " 1 " ، (الواو) عاطفة (نطمع) مثل نؤمن (أن) حرف مصدري ونصب (يدخل) مضارع منصوب و(نا) ضمير مفعول به (ربّ) فاعل مرفوع و(نا) مضاف إليه (مع) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (يدخل) ، (القوم) مضاف إليه مجرور (الصالحين) نعت للقوم مجرور وعلامة الجر الياء .

والمصدر المؤوّل (أن يدخلنا) في محلّ جر بحرف جر محذوف ، والتقدير : نطمع في أن يدخلنا ربنا والجار والمجرور متعلق بـ (نطمع) .

جملة " ما لنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء " 2 " .

وجملة " لا نؤمن . . " في محلّ نصب حال .

وجملة " جاءنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " نطمع . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا نؤمن " 3 " .

وجملة " يدخلنا ربنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

[سورة المائدة (5) : آية 85]

فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (85)

(1) وجه أبو البقاء العكبري الآية توجيها آخر : فـ (الواو) حالية و(ما) موصول مبتدأ و(من الحق) خبر أي : وما لنا لا نؤمن بالله والحال أن الذي جاءنا كائن من الحق – والحق هو الله تعالى ، أو القرآن الكريم – .

(2) أو هي استئنافية . [. . . . .]

(3) مع تقدير الفعل منفيا في المعنى أي : ما لنا لا نؤمن ولا نطمع .

(177/221)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (أثاب) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الباء) حرف جر للسببية (ما) حرف مصدري " 1 " ، (قالوا) فعل ماض وفاعله (جنات) مفعول به ثان عامله أثابهم منصوب وعلامة النصب الكسرة (تجري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء (من تحت) جار ومجرور متعلق بـ (تجري) " 2 " ، و(ها) ضمير مضاف إليه على حذف مضاف أي من تحت أشجارها (الأنهار) فاعل مرفوع (خالدين) حال منصوبة من ضمير الغائب في (أثابهم) وعلامة النصب الياء (في) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بخالدين (الواو) استئنافية (ذلك) اسم

إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ . . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (جزاء) خبر مرفوع (المحسنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

والمصدر المؤول (ما قالوا) في محلّ جر بالباء متعلق بـ (أثابهم) .

جملة " أثابهم الله . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقولون " 3 " .

وجملة " قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " تجري . . . الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنات .

وجملة " ذلك جزاء . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

[سورة المائدة (5) : آية 86]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (86)

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جر . . والعائد محذوف .

(2) أو حال من الأنهار .

(3) في الآية (83) من هذه السورة .

الإعراب :

(الواو) استئنافية (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (كفروا) فعل ماض وفاعله

(الواو) عاطفة (كذّبوا) مثل كفروا (بآيات) جار ومجرور متعلق بـ (كذّبوا) (أولئك) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ . . . والكاف للخطاب (أصحاب) خبر مرفوع (الجحيم) مضاف إليه مجرور .

جملة " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة "كذّبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كفروا وهي صلة الموصول .

وجملة " أولئك أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين كفروا) .

[سورة المائدة (5) : الآيات 87 إلى 88]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)

الإعراب :

(يا) أداة نداء (أي) منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محلّ نصب و(ها) حرف تنبيه

(الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب بدل من أي أو نعت له (آمنوا) فعل ماض وفاعله

(لا) ناهية جازمة

الإعراب :

(يا) أداة نداء (أي) منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محلّ نصب و(ها) حرف تنبيه (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب بدل من أي أو نعت له (آمنوا) فعل ماض وفاعله (لا) ناهية جازمة (تحرموا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (طيبات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر مضاف إليه " 1 " ، (أحلّ) فعل ماض (الله) لفظ الجلالة فاعل

---

(1) أو نكرة موصوفة في محلّ جر ، والجملة بعده نعت ، والعائد محذوف .

(179/221)

مرفوع (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أحلّ) ، (الواو) عاطفة (لا تعتدوا) مثل لا تحرّموا (إنّ) حرف مشبه بالفعل (الله) لفظ الجلالة اسم إن منصوب (لا) نافية (يحب) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (المعتدين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة النداء " يأيها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " لا تحرموا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " أحل الله . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " لا تعتدوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة " إن الله لا يحب . . . " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " لا يحب . . . " في محلّ رفع خبر إن .

(88) (الواو) عاطفة (كلوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (من) حرف جر (ما) اسم موصول " 1 " مبني في محلّ جر متعلق بـ (كلوا) ، (رزق) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (حلالا) حال منصوبة من المفعول المحذوف أي رزقكم إياه الله " 2 " ، (طيبا) نعت منصوب (الواو) عاطفة (اتقوا) مثل كلوا (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الذي) موصول في محلّ نصب نعت للفظ الجلالة (أنتم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (مؤمنون) وهو خبر المبتدأ .

---

(1) أو نكرة موصوفة في محلّ جر ، والجملة بعده نعت ، والعائد محذوف .

(2) يجوز أن يكون مفعولا به أي طعاما حلالا ، فلما حذف المنعوت حل النعت محله (انظر الآية 168 من سورة البقرة) .

وجملة "كلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة " رزقكم الله " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " اتقوا الله " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلوا . . .

وجملة " أنتم به مؤمنون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

[سورة المائدة (5) : آية 89]

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)

الإعراب :

(لا) نافية (يؤاخذ) مضارع مرفوع و(كم) ضمير مفعول به (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (باللغو) جار ومجرور متعلق بـ (يؤاخذ) ، (في أيمان) جار ومجرور متعلق باللغو و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك لا عمل له (يؤاخذكم) مثل الأول (الباء) حرف جر (ما) حرف مصدري " 1 " ، (عقدتم) فعل ماض وفاعله (الأيمان) مفعول به .

والمصدر المؤول (ما عقدتم) في محلّ جر بالباء متعلق بـ (يؤاخذ) .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (كفارة) مبتدأ مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه

(إطعام) خبر مرفوع (عشرة) مضاف إليه مجرور

---

(1) أو اسم موصول ، عائده محذوف ، والجملة بعده صلة له .

(181/221)

(مساكين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الفتحة فهو ممنوع من الصرف على صيغة منتهى الجموع (من أوسط) جار ومجرور نعت لمفعول ثان " 1 " ، (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر مضاف إليه (تطعمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (أهلي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكر السالم ، وحذفت النون للإضافة و(كم) ضمير مضاف إليه (أو) حرف عطف للتخيير (كسوة) معطوف على إطعام مرفوع مثله و(هم) ضمير مضاف إليه (أو تحرير) مثل أو كسوة (رقبة) مضاف إليه مجرور . (الفاء) استئنافية (من) اسم شرط مبني في محلّ رفع مبتدأ (لم) حرف نفي (يجد) مضارع مجزوم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الفاء) رابطة لجواب الشرط (صيام) خبر لمبتدأ محذوف تقديره كفارته (ثلاثة) مضاف إليه مجرور (أيام) مضاف إليه مجرور .

(ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ . . . واللام للبعد والكاف للخطاب (كفارة) خبر مرفوع (أيمان) مضاف إليه مجرور و(كم) ضمير مضاف إليه (إذا) ظرف للزمن المستقبل مجرد من الشرط في محلّ نصب متعلق بكفارة " 2 " ، (حلفتم) مثل عقّدتم (الواو) عاطفة (احفظوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (أيمان) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه . (الكاف) حرف جر " 3 " ، (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلق بمحذوف مفعول مطلق لفعل يبين و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (يبين) مثل يؤاخذ (الله) فاعل مرفوع (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في

---

(1) أي إطعام عشرة مساكين قوتا من أوسط . . .

(2) أي ذلك كفارة أيمانكم وقت حلفكم .

(3) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب نعت لمفعول مطلق محذوف . . . أي مفعول مطلق نائب عن المصدر .

محلّ جر متعلق بـ (يبين) ، (آيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة و(الهاء) ضمير مضاف إليه (لعل) حرف مشبه بالفعل للترجي و(كم) اسم لعل (تشكرون) مثل

تطعمون .

جملة " لا يؤاخذكم الله " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يؤاخذكم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية .

وجملة " عقّدتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " كفارته إطعام . . . " جواب شرط مقدر أي إن حنثتم فكفارته إطعام .

وجملة " تطعمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " من لم يجد " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة : " لم يجد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة " (كفارته) صيام " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " ذلك كفارة . . . " لا محلّ لها استئنافية وجملة " حلفتم " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " احفظوا " لا محلّ لها استئنافية ذلك كفارة " 2 " .

وجملة " يبين الله " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لعلكم تشكرون " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " تشكرون " في محلّ رفع خبر لعل .

الصرف :

(إطعام) ، مصدر قياسي لفعل أطعم الرباعي ، وزنه

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) يجوز أن تكون استئنافية لا محلّ لها .

(183/221)

أفعال ، بكسر همزة الفعل وزيادة ألف قبل الآخر .

(أوسط) ، صفة مشتقة وزنه أفعل ، وقد يحمل معنى التفضيل .

الفوائد

- يمين اللغو هو الذي جرى مجرى العادة ولا يحمل في طياته القصد والنية . . .

وإننا لنرى في صريح القرآن الكريم هدر هذا اليمين واعتباره خارج نطاق الأيمان المحرجة والمغلظة وإنا لنتطلّع في هذا المقام إلى اعتبار يمين الطلاق الذي أصبح من لغو الكلام ، يحلف في مواقف اللهو ومقام العبث والمزاح ، وقد يكون لتخويف المرأة وتحذيرها من تصرف قد تتصرفه هي أو غيرها من أبناء الأسرة ولكنه لا يحمل نية الطلاق وقصده ، إنا لنتطلع إلى اعتباره من اللغو وعدم الاعتداد به واللّه الموفق .

[سورة المائدة (5) : آية 90]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90)

الإعراب :

(يأيها الذين آمنوا) مرّ إعرابها " 1 " ، (إنما) كافة ومكفوفة (الخمر) مبتدأ مرفوع (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (الميسر ، الأنصاب ، الأزلام) أسماء معطوفة على الخمر مرفوعة مثله (رجس) خبر مرفوع (من عمل) جار ومجرور متعلق بنعت لرجس " 2 " ، (الشيطان) مضاف إليه مجرور (الفاء) عاطفة لربط المسبب بالسبب " 3 " ، (اجتنبوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به

---

(1) في الآية (87) من هذه السورة . [. . . . .]

(2) أو متعلق بمحذوف خبر ثان .

(3) يجوز أن تكون رابطة لجواب شرط مقدر أي أن آمنتم وصدقتم فاجتنبوه .

(184/221)

(لعلكم تفلحون) مثل لعلكم تشكرون " 1 " .

جملة " يأيها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " الخمر . . . رجس " لا محل لها جواب النداء .

وجملة " اجتنبوه " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة " لعلكم . . . " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " تفلحون " في محلّ رفع خبر لعل .

الصرف :

(رجس) ، اسم للعمل القبيح والقذر ، وزنه فعل بكسر فسكون ويصح الفتح والسكون والفتح والكسر .

[سورة المائدة (5) : آية 91]

إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91)

الإعراب :

(إنما) مثل الأولى " 2 " ، (يريد) مضارع مرفوع (الشيطان) فاعل مرفوع (أن) حرف مصدري (يوقع) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بين) ظرف مكان منصوب متعلق بمحذوف حال من العداوة و(كم) ضمير مضاف إليه (العداوة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (البغضاء) معطوف على العداوة منصوب (في الخمر) جار ومجرور متعلق بـ (يوقع) ، وفي لمعنى السببية (الواو) عاطفة (الميسر) معطوف على الخمر

مجرور .

---

(1) في الآية السابقة (89) .

(2) في الآية السابقة (90) .

والمصدر المؤول (أن يوقع) في محل نصب مفعول به عامله يريد .

(الواو) عاطفة (يصدّ) مضارع منصوب معطوف على (يوقع) ، و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (عن ذكر) جار ومجرور متعلق بـ (يصدّكم) ، (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (عن الصلاة) مثل عن ذكر إعرابا وتعليقا (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (هل) حرف استفهام فيه معنى الأمر (أنتم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (منتهون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " يريد الشيطان " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يوقع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " يصدّكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفي .

وجملة " هل أنتم منتهون " جواب شرط مقدر أي إذا تبين لكم ذلك فهل أنتم منتهون .

الصرف :

(منتهون) ، اسم فاعل من انتهى الخماسي ، جمع المنتهي ، وفي الجمع إعلال بالحذف أصله منتهيون بضم الياء ، استثقلت الضمة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الهاء ، ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع واو منتهون .

الفوائد

1 - إنما : أصلها إنّ ودخلت عليها " ما " الزائدة فكفتها عن العمل :

واختلف معناها عن أصلها وأصبحت تفيد تحقيق الشيء وتقريره على وجه مّا وبنفس الوقت نفي غيره عنه وهو ما أطلق عليه البلاغيون معنى " الحصر " .

(186/221)

و لسيبويه كلام بهذا الخصوص فيقول :

" و اعلم أن الموضع الذي لا يجوز فيه " أنّ " لا تكون فيه " إنما " . قال كثيّر :

أراني ولا كفران للّه إنما أواخي من الأقوام كل بخيل

ملاحظة : إذا دخلت ما الزائدة على إن وأخواتها يزول اختصاصها بالأسماء فتدخل

على الجملة الاسمية والفعلية على حد سواء باستثناء "ليت" فتبقى على اختصاصها بالأسماء .

ملاحظة هامة : إذا كانت "ما" المتصلة بهذه الأحرف اسما موصولا أو حرفا مصدريا فلا تكفها عن العمل بل تبقى ناصبة للاسم رافعة للخبر ، فمثل "ما" الموصولة قوله تعالى : ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ أي إن الذي عندكم ينفد ، وإن لحقتها "ما المصدرية" كان ما بعدها في تأويل مصدر منصوب على أنه اسم "إن" نحو "إن ما تستقيم حسن ، أي إنّ استقامتك حسنة ، وفي هاتين الحالتين تكتب ما منفصلة بخلاف ما الكافة فإنها تكتب متصلة كما عرفنا فيما سلف وقد مرّ معنا ما يشبه ذلك في آيات سابقات فيمكن العودة إليه .

2 - الأصل في "هل" أن تكون حرف استفهام ولا يستفهم بها إلا في حالة "الإثبات" مثل : هل قرأت النحو ؟ وأكثر ما يليها الفعل وقلّ أن يليها الاسم كقولك "هل عليّ مجتهد" ؟ وإذا دخلت على المضارع خصصت بالاستقبال .

ملاحظة هامة : قد تخرج "هل" عن أصلها وهو حرف استفهام فتكون للأمر أو للنهي كما ورد في هذه الآية "فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ" ؟ والتقريع والتنديد وأمور أخرى تجدها في المطولات من علم المعاني في البلاغة إن شئت المزيد من ذلك .

[سورة المائدة (5) : آية 92]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

(92)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (أطيعوا) فعل أمر مبني على حذف

(187/221)

النون . . . والواو فاعل (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (أطيعوا الرسول) مثل أطيعوا الله (الواو) عاطفة (احذروا) مثل أطيعوا (الفاء عاطفة (إن) حرف شرط جازم (توليتم) فعل ماض مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . . (وتم) ضمير فاعل ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اعلموا) مثل أطيعوا (أنما) كافة ومكفوفة (على رسول) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم و(نا) ضمير مضاف إليه (البلاغ) مبتدأ مؤخر مرفوع (المبين) نعت للبلاغ مرفوع .

جملة " أطيعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف السابق .

وجملة " أطيعوا (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة أطيعوا الأولى .

وجملة " احذروا " لا محلّ لها معطوفة على جملة أطيعوا الأولى .

وجملة " توليتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أطيعوا الأولى .

وجملة " اعلموا " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء . . . وفي الكلام إيجاز حذف

أي : وأما جزاؤكم فعلينا . . .

وجملة " على رسولنا البلاغ " في محلّ نصب مفعول به لفعل اعلموا المعلق بـ (أما) .

[سورة المائدة (5) : آية 93]

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)

الإعراب :

(ليس) فعل ماض ناقص جامد (على) حرف جر (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر ليس مقدم

(188/221)

(آمنوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو ضمير في محلّ رفع فاعل (الواو) عاطفة

(عملوا) مثل آمنوا (الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (جناح) اسم ليس مؤخر مرفوع (في) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بجناح

(طعموا) مثل آمنوا (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمن معنى الشرط في محلّ نصب متعلق

بالجواب المقدر " 1 " ، (ما) زائدة (اتقوا) فعل ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (آمنوا وعملوا الصالحات) مثل الأولى (ثم) حرف عطف في الموضعين (اتقوا وآمنوا ، اتقوا وأحسنوا) مثل اتقوا وآمنوا السابقة (الواو) استئنافية (الله) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يحبّ) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (المحسنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " ليس مع اسمها وخبرها " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة " طعموا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " اتقوا " في محلّ جر مضاف إليه . . . وجواب الشرط مقدر أي لا يأثمون .

وجملة " آمنوا (الثانية) " في محلّ جر معطوفة على جملة اتقوا .

وجملة " عملوا (الثانية) " في محلّ جر معطوفة على جملة اتقوا .

وجملة " اتقوا (الثانية) " في محلّ جر معطوفة على جملة عملوا الصالحات .

---

(1) والتقدير : إذا ما اتقوا لا يأثمون ، هذا ويجوز أن يكون الظرف مجردا عن الشرط ، فيتعلق بما تدل عليه الجملة السابقة . أي لا يأثمون وقت اتقائهم .

وجملة " آمنوا (الثالثة) " في محلّ جر معطوفة على جملة اتقوا الثانية .

وجملة " اتقوا (الثالثة) " في محلّ جر معطوفة على جملة آمنوا الثالثة .

وجملة " أحسنوا " في محلّ جر معطوفة على جملة اتقوا الثالثة .

وجملة " الله يحب . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يحب المحسنين " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الله) .

البلاغة

1 - التكرار أو التكرير : في قوله تعالى " إِذا مَا اتَّقَوْا " وقوله " ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا " وقوله " ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا " وذلك لتأكيد ما يتحدث عنه ليزداد رسوخا في الذهن . وإشارة إلى العلاقات التي يرتبط بها الإنسان في حياته ، وهي علاقة الإنسان بنفسه ، وعلاقة الإنسان بغيره ، وعلاقة الإنسان بربه ، ولذلك عقّب عليها بالإحسان في الكرة الثالثة .

الفوائد

من أسباب النزول :

" لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا " هذه الآية نزلت جوابا للذين

استفسروا عن مصير شارب الخمر وآكل الميسر قبل التحريم.

فنزلت هذه الآية ترفع الإثم عنهم بشرط التقوى وبشرط الإيمان.

[سورة المائدة (5) : آية 94]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (94)

الإعراب:

يأيها الذين آمنوا مرّ إعرابها " 1 "، (اللام) لام

---

(1) في الآية (87) من هذه السورة.

القسم لقسم مقدّر (يبلونّ) مضارع مبني على الفتح . . والنون نون التوكيد و(كم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بشيء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يبلونّ)، (من الصيد) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لشيء (تنال) مضارع مرفوع و(الهاء) ضمير مفعول به (أيدي) فاعل مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (رماح) معطوف على أيدي مرفوع مثله و(كم) مضاف إليه (اللام) لام التعليل (يعلم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد

اللام (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (من) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (يخافه) مثل تناله (بالغيب) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل يخاف أو مفعوله .

والمصدر المؤوّل (أن يعلم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يبلونّكم) .

(الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (اعتدى) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر في محلّ جزم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (اعتدى) ، (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ جرّ مضاف إليه و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) حرف جرّ و(الكاف) للخطاب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أليم) نعت مرفوع .

جملة " يأيّها الذين . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " آمنوا " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " ليبلونّكم " : لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . والقسم وجوابه لا محلّ له جواب النداء .

وجملة " تناله أيديكم " : في محلّ نصب حال من الصيد .

وجملة " يعلم اللّه " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة " يخافه . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " من اعتدى . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة " اعتدى . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

(191/221)

وجملة " له عذاب " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف :

(رماح) ، جمع رمح ، اسم جامد ، وقد سمع اشتقاق فعل رمح يرمح باب فتح منه أي طعنة بالرمح وزنه فعل بضمّ فسكون ، والجمع فعال بكسر الفاء .

البلاغة

1 - التنكير : في قوله تعالى " لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ " فتنكير شيء للتحقير المؤذن بأن ذلك ليس من الفتن الهائلة التي تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس وإتلاف الأموال . وإنما هو من قبيل ما ابتلي به أهل أيلة من صيد البحر وفائدته التنبيه على أن من لم يثبت في مثل هذا كيف يثبت عند شدائد المحن .

الفوائد

- كثيرا ما يتساءل المؤمن :

كيف يختبر اللّه عباده وهو أعلم بحالهم يعلم مؤمنهم وكافرهم ، ويعلم صادقهم ومنافقهم ويعلم صالحهم من طالحهم ، ويعلم منهم المصلح من المفسد ؟

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

وكذلك الآيات التي تتعرض لعلم اللّه كقوله تعالى في هذه الآية : " لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ " .

وللفقهاء والمفسرين حول ذلك آراء نستعرض بعضها وأقواها ؟

قال صاحب " الجلالين " : المقصود بعلم اللّه الواردة في أمثال هذه الآيات " ليعلم علم ظهور " والغاية من علم الظهور هو إقامة الحجة على العباد لئلا يؤخذوا على حدّ زعمهم بظلم دون أن يخضعهم اللّه للامتحان والاختبار .

[سورة المائدة (5) : آية 95]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ

(95)

الإعراب :

(يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) واو الحال (أنتم) ضمير في محلّ رفع مبتدأ (حرم) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (من قتل) مثل من اعتدى " 2 " ، و(الهاء) ضمير مفعول به (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من فاعل قتل (متعمّدا) حال ثانية من فاعل قتل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (جزاء) مبتدأ مؤخّر والخبر محذوف أي فعليه جزاء (مثل) نعت لجزاء

---

(1) في الآية (87) من هذه السورة .

(2) في الآية السابقة (94) .

مرفوع " 1 " ، (ما) اسم موصول مبني في محلّ جرّ مضاف إليه (قتل) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من النعم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من ضمير المفعول المحذوف أي ما قتله من النعم " 2 " ، ، (يحكم) مضارع مرفوع (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يحكم) ، (ذوا) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الألف (عدل)

مضاف إليه مجرور (منكم) مثل الأول متعلّق بمحذوف نعت لـ (ذوا) ، (هديا) حال منصوبة من الضمير في (به) " 3 " (بالغ) نعت لـ (هديا) منصوب مثله (الكعبة) مضاف إليه مجرور (أو) حرف عطف للتخيير (كفّارة) معطوف على جزاء مرفوع " 4 " (طعام) عطف بيان لكفّارة " 5 " ، (مساكين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف على صيغة منتهى الجموع (أو) مثل الأول (عدل) معطوف على كفّارة – أو على جزاء – مرفوع مثله (ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ جرّ مضاف إليه . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (صياما) تمييز منصوب (اللام) لام التعليل (يذوق) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (وبال) مفعول به منصوب (أمر) مضاف إليه مجرور و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يذوق) في محلّ جرّ باللام متعلّق مقدّر يتضمّن

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي : جزاء هو مثل ما قتل . . . والجملة الاسمية نعت لجزاء .

(2) أو متعلّق بمحذوف نعت لجزاء .

(3) أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي يهديه هديا ، وقيل هو تمييز .

(4) أو مبتدأ مؤخّر خبره محذوف أي : عليه كفّارة .

(5) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . [. . . . .]

الأمور الثلاثة الواردة أي : وجب ذلك ليذوق وبال أمره " 1 " ، (عفا) فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ (عفا) ، (سلف) مثل قتل (الواو) عاطفة (من عاد) مثل من قتل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ينتقم) مثل يحكم (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (منه) مثل منكم متعلّق بـ (ينتقم) . (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (عزيز) خبر مرفوع (ذو) خبر ثان مرفوع وعلامة الرفع الواو فهو من الأسماء الخمسة (انتقام) مضاف إليه مجرور .

جملة النداء " يأيها الذين " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " آمنوا " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " لا تقتلوا . . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " أنتم حرم " : في محلّ نصب حال من فاعل تقتلوا .

وجملة " من قتله . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة " قتله . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة " (عليه) جزاء " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " قتل . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يحكم به " : في محلّ رفع نعت لجزاء " 3 " .

---

(1) يجوز تعليقه بالاستقرار الذي بني عليه الجزاء أو بطعام أو بـ (صياما) .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(3) أو في محلّ نصب حال منه لأنه وصف .

(195/221)

وجملة " يذوق . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة " عفا اللّه " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " سلف " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " من عاد " : لا محلّ لها معطوفة على جملة عفا اللّه .

وجملة " عاد . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة " ينتقم " : في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . .

والجملة الاسميّة (هو ينتقم اللّه منه) في محلّ جزّم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " اللّه عزيز . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(بالغ) ، اسم فاعل من بلغ الثلاثيّ ، ومنه فاعل .

(الكعبة) ، اسم لبيت اللّه الحرام ، وسمّيت بذلك لتكعيبها أي تربيعها إذ يقال لكل بيت مربّع كعبة ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

(وبال) ، اسم للشيء الثقيل ولا سيّما في المكروه ، وزنه فعال بفتح الفاء .

البلاغة

1 - الاستعارة المكنية التبعية : في قوله تعالى " لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ " حيث شبه سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام بالطعام المستوبل المستوخم يذوقه .

الفوائد

1 - من شعار " الإحرام " . .

قوله تعالى : " فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ " قال العلماء المقصود بذلك أن كفارة قاتل الصيد أثناء الإحرام أن يقدم فدية

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

من الأنعام تشابه في الخلقة الصيد الذي قتله : يحكم به ويقدره ذوا عدل وفطنة . وقد حكم ابن عباس وعمر وعلي رضي اللّه عنهم في النعامة بـ " بدنة " من الإبل وحكم ابن عباس وأبو عبيدة في بقر الوحش وحماره ببقرة وحكم ابن عمر وعبد الرحمن بن عوف في الظبي بشاة وعلى أساس هذا الحكم يمكن استبداله لمن لم يجد بإطعام ما يعادل ذلك من المساكين أو كسوتهم أو صيام يوم عن إطعام كل مسكين .

2 – " ذوا عدل " . .

من المتفق عليه أن " ذو " التي بمعنى صاحب هي من الأسماء الخمسة على رأي بعض النحاة أو الستة على رأي بعضهم ، وأنها تعرب بالأحرف حسب قاعدة تلك الأسماء وبشروطها : ولكن هناك أمرين تجدر الإشارة إليهما :

الأول أنّ " ذا " قد تكون اسم اشارة وقد تكون اسما موصولا ولا تكون من الأسماء الخمسة إلا إذا كانت بمعنى صاحب والتي هي من الأسماء الخمسة إذا ثنيت أعربت اعراب المثنى وإذا جمعت أعربت إعراب جمع المذكر السالم فرفعت بالواو ونصبت وجرّت بالياء .

3 – الإضافة والتعريف . . .

لدى الاستقراء لأحوال الإضافة نجدها على ثلاثة أنواع .

الأول يفيد تعريف المضاف بالمضاف إليه إن كان المضاف إليه معرفة ، وتخصيصه إن كان نكرة . الأول مثل كتاب علي والثاني مثل كتاب تلميذ .

النوع الثاني :

يفيد تخصيص المضاف دون تعريفه وذلك إذا كان المضاف من الأسماء المبهمة "كغير ومثل وشبه " .

النوع الثالث : لا يفيد تعريفا أو تخصيصا ، وذلك إذا كان المضاف اسم فاعل أو اسم مفعول أو صفة مشبهة وكل ما يشبه الفعل المضارع أي أنه يدلّ على الحال والاستقبال ، كما ورد في الآية الكريمة " هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ " .

[سورة المائدة (5) : آية 96]

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)

الإعراب :

(أحل) فعل ماض مبني للمجهول (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أحلّ) ، (صيد) نائب فاعل مرفوع (البحر) مضاف إليه مجرور و(طعام) معطوف على صيد بحرف العطف مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه (متاعا) مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (لكم) مثل الأول متعلّق بـ (متاعا) ، (الواو) عاطفة (للسيّارة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (متاعا) ، (الواو) عاطفة (حرّم عليكم صيد البر) مثل أحلّ لكم صيد البحر (ما) حرف مصدريّ (دمتم) فعل ماض ناقص . .

(وتم) ضمير اسم دمتم (حرما) خبر ما دام منصوب .

والمصدر المؤوّل (ما دمتم حرما) في محلّ نصب على الظرفيّة الزمانية متعلّق بـ (حرّم) .

(الواو) استئنافية (اتّقوا) فعل أمر مبني على الضمّ . . والواو فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به (الذي) اسم موصول مبني في محلّ نصب نعت للفظ الجلالة (إلى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تحشرون) وهو مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو نائب فاعل .

جملة " أحلّ لكم صيد . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " حرّم عليكم صيد . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه اسم المصدر لفعل متّع . . .

وجملة " دمتم . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة " اتّقوا . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " تحشرون . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

الصرف :

(السيّارة) ، جمع السيّار ، هو المسافر الكثير السفر ، صيغة مبالغة اسم الفاعل من السير ، وزنه فعال بفتح الفاء وتشديد العين ، ووزن السّيارة فعّالة بإضافة التاء في آخره .

[سورة المائدة (5) : آية 97]

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97)

الإعراب :

(جعل) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الكعبة) مفعول به منصوب (البيت) عطف بيان من الكعبة أو بدل منه منصوب (الحرام) نعت للبيت منصوب (قياما) مفعول به ثان منصوب عامله جعل " 1 " ، (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قياما) ، (الواو) عاطفة

في المواضع الثلاثة (الشهر ، الهدي ، القلائد) أسماء معطوفة على الكعبة منصوبة (الحرام) نعت للشهر منصوب (ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ " 2 " . (واللام) للبعد (والكاف) للخطاب . (اللام) للتعليل (تعلموا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل .

---

(1) وإذا كان الفعل (جعل) بمعنى خلق ، كان (قياما) حالا منصوبة .

(2) يجوز أن يكون اسم الإشارة مفعولا به لفعل محذوف تقديره شرع ، ولام التعليل متعلّقة به .

(199/221)

و المصدر المؤوّل (أن تعلموا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك .

(أنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (يعلم) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول ما (الواو) عاطفة (ما) مثل الأول ومعطوف عليه (في الأرض) مثل في السموات .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يعلم . . .) سدّ مسدّ مفعولي تعلموا .

(الواو) عاطفة (أنّ اللّه) مثل الأولى (بكل) جارّ ومجرور متعلّق بعليم (شيء) مضاف إليه مجرور (عليم) خبر أنّ مرفوع.

جملة "جعل اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة " ذلك لتعلموا " : لا محلّ لها استئناف بياني أو تعليليّة.

وجملة " تعلموا " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة " يعلم " : في محلّ رفع خبر أنّ.

[سورة المائدة (5) : آية 98]

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98)

الإعراب :

(اعلموا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (أن اللّه) مرّ إعرابها " 1 " ، (شديد) خبر مرفوع (العقاب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (أن اللّه غفور) مثل أن اللّه عليم " 2 " ، (رحيم) خبر ثان مرفوع.

(1 ، 2) في الآية السابقة (97) .

والمصدر المؤوّل (أن اللّه شديد) سدّ مسدّ مفعولي اعلموا .

والمصدر المؤوّل (أن اللّه غفور . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

وجملة " اعلموا . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة المائدة (5) : آية 99]

ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (99)

الإعراب :

(ما) نافية (على الرسول) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (إلّا) أداة حصر (البلاغ) مبتدأ مؤخّر مرفوع ، (الواو) عاطفة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يعلم) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (تبدون) مضارع مرفوع . . الواو فاعل (الواو) عاطفة (ما) مثل الأول ومعطوف عليه (تكتمون) مثل تبدون .

جملة " ما على الرسول إلّا البلاغ " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " اللّه يعلم . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " يعلم . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة " تبدون " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

---

(1) أو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل مفعول به ، أو نكرة موصوفة والجملة بعدها نعت لها ، والعائد محذوف .

(201/221)

وجملة " تكتمون " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني أو الحرفيّ .

البلاغة

1 - في الآية الكريمة : إرسال المثل في قوله تعالى " ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ " وهو عبارة عن أن يأتي المتكلم في بعض كلامه بما يجري مجرى المثل السائر من حكمة أو نعت أو غير ذلك .

2 - الطباق : بين " تبدون " و " تكتمون " .

الفوائد

- " ما " في لغة الضاد لها شأن وأي شأن ! ؟

فهي تأتي اسما موصولا بمعنى الذي . . .

وتأتي مصدرية فتؤول مع الفعل الذي يليها بمصدر يأخذ محله من الإعراب حسب موقعه من الجملة وحسب العوامل المتسلطة عليه .

وتأتي نافية حجازية فتعمل عمل ليس ترفع الاسم وتنصب الخبر وهي تختص بالجملة الاسمية.

أو تكون نافية فتهمل ويكون ما بعدها مبتدأ وخبرا مرفوعين كما أنها نافية للحصر كقوله تعالى: "وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ" . وتأتي زائدة وهي التي تتصل بـ "إنّ" وأخواتها فتكفها عن العمل مع شيء من التفصيل وتسمى كافة ومكفوفة.

وقد أخذت "ما" هذه من جهد العلماء ومداد أقلامهم ما يملأ الأسفار من كتب النحو فمن شاء المزيد فعليه بالمطولات من هذا العلم.

[سورة المائدة (5): آية 100]

قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100)

الإعراب:

(قل) فعل أمر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (لا)

نافية (يستوي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء (الخبيث) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (الطيّب) معطوف على الخبيث مرفوع (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (أعجب) فعل ماض و(الكاف) ضمير مفعول به (كثرة) فاعل مرفوع (الخبيث) مضاف إليه مجرور (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اتّقوا) مثل اعلموا " 1 "

، (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (يا) أداة نداء (أولي) منادي مضاف منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكر السالم (الألباب) مضاف إليه مجرور (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (تفلحون) مثل تبدون " 2 " .

جملة " قل . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لا يستوي الخبيث . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أعجبك كثرة . . . " : في محلّ نصب حال من فاعل يستوي .

وجملة " اتّقوا . . . " : جواب شرط مقدّر أي إن أردتم الفلاح فاتّقوا اللّه .

وجملة " النداء . . . " : لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة " لعلّكم تفلحون " : لا محلّ لها تعليليّة للأمر بالتقوى .

وجملة " تفلحون " : في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(كثرة) مصدر سماعيّ للثلاثي كثر باب كرم وزنه فعلة

---

(1) في الآية (98) من هذه السورة .

(2) في الآية (99) السابقة .

بفتح وسكون وثمة مصدر آخر هو كثارة.

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية: في قوله تعالى "قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ" .

أي لا يستوي الحلال والحرام، فشبه الحلال بالطيب في حلاوته وتقبل النفس له ترغيبا فيه، وشبه الحرام بالخبيث في كراهيته وعزوف النفس عنه تنفيرا منه وقد صرّح بالمشبه به وحذف المشبه.

[سورة المائدة (5): الآيات 101 إلى 102]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (102)

الإعراب:

(يأيها الذين آمنوا لا تسألوا) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (عن أشياء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تسألوا) ، وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف ملحق بالمنتهي بألف التأنيث

الممدودة (إن) حرف شرط جازم (تبد) مضارع مجزوم فعل الشرط مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هي (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تبد) ، (تسؤ) مضارع مجزوم جواب الشرط ، والفاعل هي و(كم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (إن) مثل الأول (تسألوا) مثل الأول فعل الشرط (عن) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تسألوا) ، (حين) ظرف زمان منصوب " 2 " متعلّق بـ (تسألوا) الثاني (ينزّل) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (القرآن) نائب فاعل مرفوع (تبد) مثل الأول جواب

---

(1) في الآية (87) من هذه السورة .

(2) جاء الظرف هنا معربا لأن ما بعده معرب . . . ويجوز تعليقه بـ (تبد) .

(203/221)

الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة (لكم) مثل الأول متعلّق بـ (تبد) ، (عفا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (عنها) مثل الأول متعلّق بـ (عفا) ، (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (غفور) خبر مرفوع (حليم) خبر ثان مرفوع .

جملة " يأيها الذين . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " آمنوا " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " لا تسألوا . . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " تبد لكم . . . " : في محلّ جرّ نعت لأشياء .

وجملة " تسؤكم " : لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة " تسألوا . . . " : في محلّ جرّ معطوفة على جملة إن تبد لكم .

وجملة " ينزّل القرآن " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " تبد لكم (الثانية) " : لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة " عفا اللّه عنها " : لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة " اللّه غفور . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

(102) (قد) حرف تحقيق (سأل) فعل ماض (ها) ضمير مفعول به (قوم) فاعل مرفوع (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سألها) ، و(كم) ضمير مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (أصبحوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . . والواو ضمير اسم أصبح (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ

---

(1) لو كان الضمير في (عنها) يعود على أشياء ، صحّ في الجملة كونها صفة لأشياء في محلّ جرّ . [. . . . .]

جرّ متعلّق بـ (كافرين) وهو خبر أصبح منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " سألها قوم . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة تعليل للنهي عن السؤال .

وجملة " أصبحوا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(أشياء) ، جمع شيء ، اسم جامد وزنه فعل بفتح فسكون ، جمعه شيئا بوزن فعلاء ، فالهمزة الأولى لام الكلمة والألف بعدها والهمزة الأخيرة زائدتان ثمّ دخله القلب المكانيّ . . قدّمت الهمزة التي هي لام الكلمة فصار أشياء وزنه لفعاء " 1 " .

(تبد) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه تفع بضمّ التاء وفتح العين .

(تسؤكم) ، ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه تفلكم .

الفوائد

1 – قوله تعالى : لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إلخ . . . " أشياء " اسم ممنوع من الصرف وقد اختلف العلماء في أصل هذه الكلمة وفي صيغة جمعها وفي المانع من الصرف لها . . .

آ – فذهب سيبويه إلى أن مفردها شيء وقد جمعت على شيئاء ثم قدمت اللام على

الألف كراهية اجتماع همزتين بينهما ألف ساكنة .

ب - وذهب الفراء إلى أن مفردها شيء وجمعها " أشيئاء " وقد حذفت الهمزة الأولى لتخفيف اللفظ .

---

(1) ثمّة أقوال أخرى في وزن أشياء وتصريفها يرجع إليها في كتب الصرف ، وقد ضربنا صفحا عن ذكرها .

ج - أما مذهب الكسائي فيتلخص بأن وزن أشياء افعال وقد منعت من الصرف قياسا لها على ما آخره ألف التأنيث الممدودة وثمة آراء وردود أخرى تجدها في كتاب " الإنصاف في مسائل الخلاف " إن شئت المزيد من هذا العلم .

[سورة المائدة (5) : آية 103]

ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (103)

الإعراب :

(ما) نافية (جعل) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (من بحيرة) جارّ زائد ومجرور

لفظا منصوب محلا مفعول به (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (لا) زائدة لتأكيد النفي في المواضع الثلاثة (سائبة ، وصيلة ، حام) أسماء مجرورة لفظا منصوبة محلا معطوفة على بحيرة بحروف العطف ، والكسرة مقدّرة على الياء في الاسم الأخير (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم لكنّ (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (يفترون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يفترون) ، (الكذب) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (أكثر) مبتدأ مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (يعقلون) مثل يفترون

جملة " جعل اللّه . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " لكنّ الذين كفروا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة "كفروا " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يفترون . . . " : في محلّ رفع خبر لكنّ .

وجملة " أكثرهم لا يعقلون " : في محلّ رفع معطوفة على جملة يفترون " 1 " .

وجملة " لا يعقلون " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (أكثرهم) .

الصرف :

(بحيرة) ، فعيلة بمعنى مفعولة واستعملت اسما جامدا . . .

اشتقاقها من البحر ، والبحر هو السعة .

(سائبة) ، لفظة اسم فاعل من ساب يسيب بمعنى جرى ، وقيل هو فاعلة بمعنى مفعولة أي مسيّبة ، كما قيل ماء دافق بمعنى مدفوق .

(وصيلة) ، صفة مشبّهة باسم الفاعل ، وزنها فعيلة وهي من الشاة أو الإبل على خلاف .

(حام) ، اسم فاعل من حمى يحمي أي منع ، وفيه إعلال بالحذف لأنه اسم منقوص حذف منه لامه للتنوين ، وزنه فاع .

الفوائد

1 – مفاهيم جاهلية . . .

من أراد أن يتصور شدة وطأة العادات وعظم مسئولية الرسل حيال تغيير عادات قوم مرنوا عليها كابرا عن كابر وجيلا إثر جيل فليتصور فحوى هذه الآية وتحريمها أمورا كان العرب قد اتخذوها من شعائر دينهم منذ مئات السنين وقد يكون من آلافها فقد أحلّت الآية ما كان حراما وحرّمت ما كان حلالا .

وقد جاء الرسول (صلّى اللّه عليه وسلّم) ليكشف زيف هذه المعتقدات ، ويرد الأمور إلى نصابها الحق رغم ما لقي في سبيل ذلك من عنت القوم وشدّة مقاومتهم ولكن اللّه تكفّل أن يظهر دينه ولو كره الكافرون .

ومن المعروف في شرح مفردات هذه الآية أن " البحيرة ، والسائبة والوصيلة

(1) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة لا محلّ لها .

(206/221)

والحامي إنما هي أسماء لأنواع مخصوصة من الأنعام كان يقفها العرب لأسباب تتعلق بها يقفونها لوجه آلهتهم ويضربون عن تخديمها أو الانتفاع بها . وقد قضى الإسلام على هذه العادات من أصلها .

[سورة المائدة (5) : آية 104]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ (104)

الإعراب :

(207/221)

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب قالوا (قيل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ

متعلّق بـ (قيل) ، (تعالوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون قياسا . . والواو فاعل (إلى) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بفعل تعالوا (أنزل) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (إلى الرسول) جارّ ومجرور متعلّق بفعل تعالوا (قالوا) مثل تعالوا (حسبنا) مبتدأ مرفوع. (ونا) ضمير مضاف إليه (ما) مثل الأول في محلّ رفع خبر (وجد) فعل ماض مبنيّ على السكون و(نا) ضمير فاعل (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (آباء) مفعول به أوّل منصوب و(نا) مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام (الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (كان) فعل ماض ناقص (آباء) اسم كان مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع والواو فاعل (شيئا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا يهتدون) مثل لا يعلمون.

جملة " قيل . . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة " تعالوا " : في محلّ رفع نائب فاعل " 1 " .

وجملة " أنزل اللّه " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة " قالوا " : لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم.

وجملة " حسبنا ما وجدنا " : في محلّ نصب مقول القول.

وجملة " وجدنا " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة "كان آباؤهم . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة "لا يعلمون . . . . " : في محلّ نصب خبر كان .

وجملة "لا يهتدون " : في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يعلمون . . . وجواب الشرط محذوف تقديره أ يقولون ذلك ؟

الفوائد

1 - "أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ إلخ" . .

الهمزة هي أصل أدوات الاستفهام ولذلك عقد النحاة لها فصلا مطولا ذكروا وفيه ما تتمتع به من امتيازات عن باقي أدوات الاستفهام والذي يهمنا هنا من أمر هذه الأداة انها قد تخرج عن الاستفهام الحقيقي إلى معان أخرى نوجزها بما يلي :

آ - التسوية : نحو " سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ " .

ب - الإنكار الابطالي : نحو " أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ " و " أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ " .

ج - الإنكار التوبيخي : نحو " أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ " .

د - التقرير : نحو " أنصرت بكرا ؟ ! ه - التهكم نحو " قالُوا يا شُعَيْبُ : أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا " .

---

(1) لدى الجمهور نائب الفاعل مقدّر أي القول والجملة تفسر هذا القول (انظر الآية 11 من سورة البقرة . . . .) .

و - الأمر نحو أَأَسْلَمْتُمْ أي أسلموا .

ز - التعجب : أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .

ح - الاستبطاء : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ! " .

[سورة المائدة (5) : آية 105]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

الإعراب :

(يأيها الذين آمنوا) مرّ إعرابها " 1 " ، (عليكم) اسم فعل أمر بمعنى الزموا مبنيّ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنتم (أنفس) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (يضرّ) مضارع مرفوع و(كم) ضمير مفعول به (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل

(ضلّ) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (إذا) مرّ إعرابه " 2 " ، (اهتديتم) ماض مبنيّ على السكون . . . (وتم) ضمير فاعل (إلى اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (مرجع) مبتدأ مؤخّر مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (جميعا) حال منصوبة من ضمير الخطاب في مرجعكم ، العامل فيها الاستقرار الذي عمل في الجارّ (الفاء) عاطفة (ينبّئكم) مثل يضرّكم (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينبّئكم) " 3 " ، (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون . . . وتم) ضمير في محلّ رفع اسم كان (تعلمون) مثل يعلمون " 4 " .

---

(1) في الآية (87) من هذه السورة .

(2) في الآية السابقة .

(3) أو حرف مصدريّ أو نكرة موصوفة بالجملة .

(4) في الآية السابقة .

جملة النداء " يأيها الذين . . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " آمنوا " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " عليكم أنفسكم " : لا محلّ لها جواب النداء ، استئنافيّة .

وجملة " لا يضرّكم من ضلّ " : لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " ضلّ " : لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " اهتديتم " : في محلّ جرّ بإضافة (إذا) إليها . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه مضمون الكلام قبله أي : إذا اهتديتم فلا يضرّكم من ضلّ .

وجملة " إلى اللّه مرجعكم " : لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

وجملة " ينبّئكم " : لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة قبلها .

وجملة " كنتم . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة " تعملون " : في محلّ نصب خبر كنتم .

الفوائد

(211/221)

عليكم : اسم فعل أمر منقول عن جار ومجرور . بمعنى الزموا أنفسكم .

والحديث عن أسماء الأفعال يقتضي التبسط ، الأمر الذي يخرجنا عن خطة الكتاب لذلك

سوف أقتصر على التعرض لاسم الفعل المنقول . فأسماء الأفعال المنقولة هي ما استعملت في غير اسم الفعل ثم نقلت إليه .

ويكون النقل عن " جار ومجرور " ك " عليك نفسك " بمعنى الزم نفسك .

وقد يكون عن ظرف مثل " دونك الكتاب " أي خذه . وقد يكون عن مصدر مثل " رويد أخاك " بمعنى أمهله . وإما عن تنبيه نحو " هاك الكتاب " أي خذه وأسماء الأفعال المنقولة سماعية كلها فلا يقاس عليها .

وسوف نتعرض في مواطن أخرى لاستيفاء أقسام أسماء الأفعال الأخرى المرتجلة والمعدولة فتمهل . . . !

[سورة المائدة (5) : الآيات 106 إلى 108]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُما اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (108)

" 1 "

الإعراب :

(يأيها الذين آمنوا) " 2 " ، (شهادة) مبتدأ مرفوع (بين)

---

(1) " هذه الآية واللتان بعدها من أشكل القرآن حكما وإعرابا وتفسيرا ، ولا يزال العلماء يستشكلونها ويكفّون عنها . . . قلت وأنا أستعين اللّه تعالى في توجيه إعرابها واشتقاق مفرداتها وتصريف كلماتها وقراءاتها ومعرفة تأليفها . . . . " أ ه - كلام الجمل في حاشيته على الجلالين مختصرا .

(2) مرّ إعرابها في الآية (87) من هذه السورة .

مضاف إليه مجرور " 1 " ، و(كم) ضمير مضاف إليه . . . وخبر المبتدأ محذوف تقديره : في ما فرض عليكم وهو مقدّم " 2 " ، (إذا) ظرف للزمن المستقبل مجرد عن الشرط في محلّ نصب متعلق بشهادة (حضر) فعل ماض (أحد) مفعول به مقدّم منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الموت) فاعل مرفوع على حذف مضاف أي أسباب الموت (حين) ظرف منصوب متعلق بـ (حضر) ، (الوصّية) مضاف إليه مجرور (اثنان) فاعل المصدر شهادة

مرفوع وعلامة الرفع الألف (ذوا) نعت لـ (اثنان) مرفوع وعلامة الرفع الألف (عدل) مضاف إليه مجرور (من) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف نعت لـ (اثنان) " 3 " ، (أو) حرف عطف (آخران) معطوف على (اثنان) مرفوع وعلامة الرفع الألف (من غير) جار ومجرور نعت لـ (آخران) ، و(كم) ضمير مضاف إليه (إن) حرف شرط جازم (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور بعده " 4 " ، (ضربتم) فعل ماض مبني على السكون . . (وتم) ضمير فاعل (في الأرض) جار ومجرور متعلق بـ (ضربتم) بتضمينه معنى سافرتم (الفاء) عاطفة (أصابت) فعل ماض . . . والتاء للتأنيث و(كم) ضمير مفعول به (مصيبة) فاعل مرفوع (الموت) مضاف إليه مجرور (تحبسون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل و(هما) ضمير مفعول به ، أي آخران ، (من بعد) جار ومجرور متعلق

---

(1) أضيفت الشهادة إلى (بين) تجاوزا وسعة ، إذ خرج (بين) عن الظرفية إلى المفعولية وذلك كناية عن التنازع والتشاجر ، لأن الشهادة يحتاج إليها حين التنازع .

(2) يجوز أن يكون (اثنان) هو الخبر على حذف مضاف أي : شهادة اثنين .

(3) أو بحال من (اثنان) لأن النكرة وصفت من قبل .

(4) بعض المعربين يجعلونه توكيدا لفاعل الفعل . . . وليس بضروري لأن الفاعل المتّصل يصبح منفصلا إن حذف الفعل .

ب (تحبسون) ، (الصّلاة) مضاف إليه مجرور (الفاء) عاطفة (يقسمان) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والألف ضمير فاعل (باللّه) جار ومجرور متعلق بـ (يقسمان) ، (إن) مثل الأول (ارتبتم) فعل ماض مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . . (وتم) ضمير فاعل (لا) نافية (نشتري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محل جر متعلق بـ (نشتري) بتضمينه معنى نستبدل (ثمنا) مفعول به منصوب (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (كان) فعل ماض ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على المشهود له أو المقسم له المفهوم من سياق الآية (ذا) خبر كان منصوب وعلامة النصب الألف (قربى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الكسرة المقدرة على الألف (الواو) عاطفة (لا) نافية (نكتم) مثل نشتري (شهادة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إنّ) حرف مشبه بالفعل و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (إذا) حرف جواب لا عمل له (اللام) هي المزحلقة تفيد التوكيد (من الآثمين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر إنّ وعلامة الجر الياء .

جملة النداء " يأيها الذين " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " آمنوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " شهادة بينكم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " حضر . . . الموت " في محلّ جر بالإضافة .

(214/221)

وجملة " (ضربتم) المقدّرة " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة " ضربتم المذكورة " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة " أصابتكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ضربتم المذكورة . . . وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي : فاستشهدوا آخرين .

وجملة " تحبسونهما " في محلّ رفع نعت لـ (آخران) .

وجملة " يقسمان . . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة تحبسونهما .

وجملة " ارتبتم مع جوابها " لا محلّ لها اعتراضية . . . والجواب محذوف تقديره فخلفوهما .

وجملة " لا نشتري . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة "كان ذا قربى " في محلّ نصب حال . . . وجواب لو محذوف دل عليه ما قبله أي لا نشهد كذبا ولا نشتري به ثمنا . . .

وجملة " لا نكتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا نشتري .

وجملة " إنا . . . لمن الآثمين " لا محلّ لها استئناف ماني وهي جواب سؤال مقدر أي : ماذا سيكون من أمركم إن فعلتم .

(107) (الفاء) عاطفة (إن) مثل الأول (عثر) فعل ماض مبني للمجهول مبني في محلّ جزم فعل الشرط (على) حرف جر (أنّ) حرف مشبه بالفعل و(هما) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (استحقّا) فعل ماض وفاعله (إثما) مفعول به منصوب .

والمصدر المؤول (أنهما استحقا) في محلّ جر بحرف الجار والمجرور نائب فاعل في محلّ رفع .

(الفاء) رابطة لجواب الشرط (آخران) خبر لمبتدأ محذوف تقديره

(215/221)

الشاهدان " 1 " ، (يقومان) مثل يقسمان (مقام) مفعول مطلق منصوب و(هما) ضمير مضاف إليه (من) حرف جر (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بحال من فاعل يقومان " 2 " ، (استحق) فعل ماض (على) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ

(استحق) بتضمينه معنى استوجب (الأوليان) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الألف " 3 " ، (الفاء) عاطفة (يقسمان) مثل الأول (بالله) جار ومجرور متعلق بـ (يقسمان) ، (اللام) لام القسم (شهادة) مبتدأ مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (أحقّ) خبر مرفوع (من شهادة) جار ومجرور متعلق بـ (أحق) ، و(هما) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) نافية (اعتدينا) فعل ماض مبني على السكون . . . (ونا) ضمير فاعل (إنا إذا لمن الظالمين) مثل إنّا . . . لمن الآثمين " 4 " .

جملة " عثر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة " استحقّا . . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

---

(1) يجوز أن يكون لفظ (آخران) مبتدأ خبره (من الذين استحقّ . . .) وجاز الابتداء به لتخصصه بالوصف . . . ويجوز أن يكون الخبر جملة يقومان ، وجاز الابتداء به لإفادته العموم . [. . . . .]

(2) يجوز أن يتعلق الجار بمحذوف نعت لـ (آخران) .

(3) أجاز العكبري في إعراب الأوليان خمسة أوجه : الأول : فاعل استحق . الثاني : مبتدأ خبره آخران على أحد أوجه إعراب آخران . . . والجملة الاسميّة على هذا الوجه هي جواب الشرط . الثالث : خبر لمبتدأ محذوف تقديره هما ، والجملة الاسمية على هذا الوجه خبر للمبتدأ (آخران) الذي وصف بجملة يقومان . الرابع : بدل من الضمير في

(يقومان) . الخامس :

صفة لـ (آخران) الذي وصف بجملة يقومان .

و(الأوليان) لم يقصد بهما اثنين بأعيانهما . . . قال – وهذا محكيّ عن الأخفش – في الحالات الأربع الأخيرة فإن فاعل (استحقّ) مقدّر هو الوصيّة المفهومة من الآية السابقة .

هذا والوجه الخامس اعتمده ابن هشام في المغني .

(4) في الآية السابقة .

(216/221)

وجملة " (الشاهدان) آخران " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " استحقّ . . . الأوليان " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يقومان . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يقومان .

وجملة " شهادتنا أحق . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة " ما اعتدينا " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم .

وجملة " إنا . . . لمن الظّالمين " لا محلّ لها استئناف بياني .

(108) (ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى شرعيّة الحكم السابق

، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (أدنى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة (أن) حرف مصدري (يأتوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون والواو فاعل (بالشّهادة) جار ومجرور متعلق بـ(يأتوا) ، (على وجه) جار ومجرور متعلق بحال من الشهادة و(ها) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يأتوا . . .) في محلّ جر بحرف جر محذوف تقديره إلى أن يأتوا متعلق بأدنى .

(أو) حرف عطف للتخيير أو بمعنى الواو (يخافوا) مثل يأتوا ومعطوف عليه (أن) مثل الأول (ترد) مضارع منصوب مبني للمجهول (أيمان) نائب فاعل مرفوع (بعد) ظرف منصوب متعلق بـ(تردّ) " 1 " ، (أيمان) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير مضاف إليه .

---

(1) أو متعلق بمحذوف نعت لأيمان .

والمصدر المؤول (أن ترد) في محلّ نصب مفعول به عامله يخافوا .

(الواو) استئنافية (اتّقوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (اسمعوا) مثل اتّقوا . (الواو) استئنافية (اللّه)

لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (لا) نافية (يهدي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (القوم) مفعول به منصوب (الفاسقين) نعت للقوم منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " ذلك أدنى . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يأتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " يخافوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفي .

وجملة " تردّ أيمان " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثاني .

وجملة " اتّقوا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " اسمعوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّقوا . . .

وجملة " الله لا يهدي . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لا يهدي القوم . . . . " في محل رفع خبر المبتدأ (الله) .

الصرف :

(آخران) ، مثنّى آخر – بفتح الخاء – اسم بمعنى غير ليس له فعل من لفظه ، وزنه فاعل .

(الأوليان) ، مثنى الأولى ، وزنه أفعل بمعنى الأقرب ، فهو على صيغة اسم التفضيل من فعل ولي يلي باب وثق يثق وولي يلي باب

ضرب . . . وقد قلبت الألف ياء في المثنّى لأنها رابعة في الكلمة .

(أدنى) ، اسم تفضيل وزنه أفعل من باب دنا ، فيه إعلال بالقلب قلبت الواو ألفا لتحرّكها وفتح ما قبلها .

(يخافوا) ، في الفعل إعلال بالقلب ، أصله يخوفوا – بسكون الخاء وفتح الواو – ثم جرى فيه إعلال بالتسكين حيث سكّنت الواو وحرّكت الخاء بالفتح . . . وحينئذ جرى الإعلال بالقلب لتحرك الواو في الأصل وفتح ما قبلها فصار يخافوا .

الفوائد

1 – إذن : هي إحدى نواصب الفعل المضارع . وقد اختلف العلماء في أصلها فمن قائل بأنها هي " إذا " الشرطية حذف شرطها وعوض عنه بتنوين العوض وعندها جرت مجرى الحروف بعد أن كانت ظرفا وذهب بعضهم إلى أنها مركبة من " إذ وإن " فإن قلت لمن سيزورك إذن أكرمك فأصل الجواب " إذ إن تزورني أكرمك " وقد حذفت الهمزة للتخفيف وأدغم اللفظان بكلمة واحدة . ورسمها في المصحف بالألف مطلقا ولكن رسم المصحف لا يقاس عليه .

ولذلك نجد أن الشائع أن تكتب بالنون سواء أكانت عاملة أم مهملة .

وقيل : إنها تكتب بالنون إذا كانت عاملة ، وبالألف إذا كانت منونة ومهملة .

أما عند الوقف فقلبت بالألف مطلقا فتأمل . . . !

2 – اللام كثيرة المعاني والأقسام وكلها ترجع إلى قسمين عاملة ، ومهملة ، والعاملة قسمان : جاره وجازمة . وغير العاملة ، ثمانية أقسام ، لام الابتداء ولام البعد ، ولام التعجب ولام الجواب واللام الزائدة ، واللام الفارقة واللام المزحلقة ، واللام الموطئة للقسم ، والذي يهمنا من هذه الأقسام الآن . هو لام الجواب فقوله تعالى :

" فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا " .

فاللام في هذه الآية واقعة جوابا للقسم ومنها قوله تعالى : تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا " وهي إحدى اللامات المهملة . فتأمل ! !

[سورة المائدة (5) : آية 109]

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109)

الإعراب :

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلق بـ (قالوا) " 1 " ، (يجمع) مضارع مرفوع (اللّه) فاعل مرفوع (الرسل) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (يقول) مثل يجمع والفاعل هو (ما) اسم استفهام مبني في محل رفع مبتدأ (ذا) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر " 2 " ، (أجبتم) فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون . . . (وتم) ضمير في محلّ رفع نائب فاعل (قالوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (لا) نافية للجنس (علم) اسم لا مبني

على الفتح في محلّ نصب (اللام) حرف جر و(نا) ضمير في محل جر متعلق بمحذوف خبر لا (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الكاف) ضمير في محل نصب اسم إنّ (أنت) ضمير فصل للتأكيد " 3 " ، (علام) خبر إنّ مرفوع (الغيوب) مضاف إليه مجرور .

جملة " يجمع الله . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

---

(1) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر . . أما تعليقه بفعل (يهدي) في الآية السابقة فليس بشيء لتباين الفكرتين في الآيتين ، ولأن الكلام في الآية الثانية مستأنف .

(2) يجوز أن يكون (ماذا) كلمة واحدة اسم استفهام في محلّ جر بباء محذوفة ، والجار والمجرور متعلق بـ (أجبتم) وجملة أجبتم مقول القول .

(3) يجوز أن يكون ضميرا منفصلا مبتدأ خبره علام والجملة خبر إنّ . . . أو ضمير مستعار لمحل النصب توكيد للكاف .

وجملة " يقول . . . " في محل جر معطوفة على جملة يجمع .

وجملة " ماذا أجبتم " لا محلّ لها صلة الموصول (ذا) " 1 " .

وجملة " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لا علم لنا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " إنك . . . علّام " لا محلّ لها تعليلية .

الصرف :

(أجبتم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون ، حذفت عين الكلمة لالتقاء الساكنين ، وزنه أفلتم .

(علّام) ، صيغة المبالغة من فعل علم ، وزنه فعّال .

(الغيوب) ، جمع الغيب . . . (انظر الآية 3 من سورة البقرة) .

الفوائد

1 – قوله تعالى " ما ذا أُجِبْتُمْ " . .

للنحاة بحث مطول حول " ما " واتصالها بـ " ذا " وللتسهيل نوجز جميع أقوال النحاة ونقتصر على المعتمد من هذه الأقوال وقد وجدنا سائر ما قاله النحاة ينحصر في أربعة أوجه :

الأول : أن تأتي " ما " مع " ذا " التي هي اسم اشارة .

الثاني : أن تأتي " ما " مع " ذا " الموصولة .

الثالث : أن تكون " ماذا " كلها اسم جنس بمعنى " شيء " أو اسما موصولا بمعنى الذي كقول المثقب العبدي :

دعي ماذا علمت سأتقيه ولكن بالمغيب نبئيني

فقد ذهب بعضهم إلى أنها بمعنى شيء وارتأى آخرون أنها بمعنى " الذي " . ولكن اتفقوا على أنها كلها كلمة واحدة .

---

(1) والعائد محذوف تقديره أجبتم به .

(220/221)

[سورة المائدة (5) : آية 110]

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110)

الإعراب :

(إذ) اسم ظرفي مبني على السكون في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 " ، (قال) فعل ماض (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (يا) أداة نداء (عيسى) منادى مفرد علم مبني على الضم في محلّ نصب (ابن) نعت لعيسى تبعه في المحل لأنه مضاف منصوب (مريم)

مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الفتحة (اذكر) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (نعمة) مفعول به منصوب و(الياء) ضمير مضاف إليه (على) حرف جر و(الكاف) ضمير في محلّ جر متعلق بحال من نعمتي " 2 " ، (الواو) عاطفة (على والدة) جار ومجرور متعلق بما تعلّق

---

(1) يجوز إعرابه بدلا من (يوم) في الآية السابقة . ويجوز أن يكون ظرفا للمستقبل لأن القول مقدّمة لما يجري يوم القيامة في قوله تعالى : " إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت . . . " .

(2) يجوز تعليقه بحال من نعمتي .

به عليك ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (إذ) ظرف لما مضى من الزمن مبني في محلّ نصب متعلق بنعمتي " 1 " ، (أيّدت) فعل ماض مبني على السكون . . . (والتاء) فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به (بروح) جار ومجرورّ متعلق بـ (أيّدت) ، (القدس) مضاف إليه مجرور (تكلّم) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (النّاس) مفعول به منصوب (في المهد) جار ومجرور متعلق بحال من فاعل تكلّم أي صغيرا (الواو) عاطفة (كهلا)

معطوف على الحال السالفة في الجار والمجرور (الواو) عاطفة (إذ علّمتك) مثل إذ أيدتك (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (الحكمة ، التوراة ، الإنجيل) أسماء معطوفة على الكتاب منصوبة مثله (إذ) مثل إذ أيدتك ومعطوف عليه (تخلق) مضارع مرفوع والفاعل أنت (من الطين) جار ومجرور متعلق بـ (تخلق) ، (الكاف) اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول به (هيئة) مضاف إليه مجرور (الطير) مضاف إليه مجرور (بإذن) جار ومجرور متعلق بـ (تخلق) " 2 " ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (تنفخ) مثل تخلق (في) حرف جر و(ها) ضمير في محل جر متعلق بـ (تنفخ) " 3 " ، (الفاء) عاطفة (تكون) مضارع ناقص مرفوع ، واسمه ضمير مستتر تقديره هي يعود على الكاف صفة الهيئة المقدّرة (طيرا) خبر تكون منصوب (بإذني) مثل الأول متعلق بنعت لـ (طيرا) ، (الواو) عاطفة (تبرئ) مثل تخلق (الأكمه) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (الأبرص) معطوف على الأكمه منصوب (بإذني) مثل الأول متعلق بحال من فاعل

---

(1) أو بمحذوف حال من نعمتي ، أو هو بدل من نعمتي بدل اشتمال .

(2) أو متعلق بحال من فاعل تخلق .

(3) الضمير في (فيها) يعود على الكاف فهي نعت لهيئة مقدرة ، أي : تخلق من الطين هيئة كهيئة الطير لأنها هي المشبه ، و(الهيئة) المذكورة مشبه به ، وهي من خلق الله تعالى .

تبرئ (الواو) عاطفة (إذ تخرج الموتى بإذني) مثل المتقدمة ومعطوفة عليها (الواو) عاطفة (إذ كففت) مثل إذ أيدت (بني) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكر السالم (إسرائيل) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الفتحة (عنك) مثل عليك متعلق بـ (كففت) ، (إذ) ظرف متعلق بـ (كففت) ، (جئت فعل ماض وفاعله و(هم) ضمير مفعول به (بالبينات) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل جئت . (الفاء) استئنافية (قال) مثل الأول (الذين) اسم موصول في محلّ رفع فاعل (كفروا) فعل ماض وفاعله (من) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بحال من فاعل كفروا (إن) حرف نفي (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة في محلّ رفع مبتدأ (إلّا) أداة حصر (سحر) خبر مرفوع (مبين) نعت مرفوع .

جملة " قال الله " في محلّ جر بإضافة (إذ) إليها .

وجملة " النداء وما في حيّزها " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " اذكر نعمتي . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " أيدتك . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " تكلم الناس " في محلّ نصب حال من الكاف في أيدتك " 1 " .

وجملة " علمتك . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " تخلق . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " تنفخ . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة تخلق .

وجملة " تكون . . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة تنفخ .

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بياني . [. . . . .]

(223/221)

وجملة " تبرئ . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة تخلق .

وجملة " تخرج . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة "كففت . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " جئتهم " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " قال الذين . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة "كفروا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " إن هذا إلا سحر " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(المهد) ، اسم جامد بمعنى السرير أو الموضع يهيأ للصبي ، وأصله مصدر استعمل اسما .

(224/221)

(كهلا) ، صفة مشبّهة من فعل كهل يكهل باب فتح وباب كرم ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(الطين – هيئة – الطير – الأكمه – الأبرص) : انظر صرفها في الآية (49) من سورة آل عمران .

الفوائد

1 – إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

يجدر بدارس اللغة أن يكون على بينة من أمر " إن " فقد تكون مخففة من " إنّ " التي تنصب الاسم وترفع الخبر ، وقد تكون شرطية تجزم فعلين مضارعين فعل الشرط وجوابه ، وقد تكون العاملة عمل ليس ترفع الاسم وتنصب الخبر كما هي في هذه الآية .

وهنا يحق للسائل أن يسأل لماذا لم تعمل عملها في هذه الآية مع أنها نافية .

والجواب على ذلك بأنّ " إن " العاملة عمل ليس لا تعمل عملها إلا بشرطين . .

الأول : أن لا يتقدم خبرها على اسمها فإن تقدم بطل عملها .

الثاني : أن لا ينتقض نفيها بـ " إلّا " كما ورد في هذه الآية ولذلك جاء الخبر مرفوعا

ومن أغرب الاصطلاحات اللغوية ما روي عن الكسائي أنه سمع أعرابيا يقول : إنا قائما .

فأنكرها عليه وظن أنها إنّ الناصبة للاسم الرافعة للخبر وكان حقها أن ترفع قائما وعند ما

استفسر منه عن مراده . فإذا هو يريد : " إن أنا قائما أي ما أنا قائما " وقد ترك همزة " أنا "

تخفيفا ثم أدغم كقوله تعالى : " لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي " .

[سورة المائدة (5) : آية 111]

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (111)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذ أوحيت) مثل إذ قال الله " 1 " ، (إلى الحواريين) جار ومجرور متعلق بـ (أوحيت) وعلامة الجر الياء (أن) حرف تفسير " 2 " ، (آمنوا) فعل أمر وفاعله (الباء) حرف جر و(الياء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (آمنوا) ، (الواو) عاطفة (برسول) جار ومجرور متعلق بـ (آمنوا) ، و(الياء) ضمير مضاف إليه ، (قالوا) مثل كفروا " 3 " ، (آمنّا) فعل ماض مبني على السكون . . . (ونا) ضمير فاعل (الواو) عاطفة (اشهد) فعل أمر ،

والفاعل أنت (الباء) حرف جر و(أنّ) حرف مشبه بالفعل و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم أن (مسلمون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو - والمصدر المؤول (أننا مسلمون) في محلّ جر بالباء متعلق

---

(1) في الآية السابقة (110) .

(2) أو حرف مصدري ، والمصدر المؤول (أن آمنوا) في محلّ نصب مفعول به عامله أوحيت . . . أو في محلّ جر بحرف جر محذوف والتقدير أوحيت إليهم بأن آمنوا . . .

(3) في الآية السابقة (110)

(226/221)

ب (اشهد) .

جملة " أوحيت . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " آمنوا بي " لا محلّ لها تفسيريّة " 1 " .

وجملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " آمنا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " اشهد " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

[سورة المائدة (5) : الآيات 112 إلى 113]

إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (113)

الإعراب :

(إذ قال الحواريون) مثل إذ قال الله " 2 " ، (يا عيسى ابن مريم) مرّ إعرابها " 3 " ، (هل) حرف استفهام (يستطيع) مضارع مرفوع (ربّ) فاعل مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (أن) حرف مصدري ونصب (ينزل) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (ينزل) ، (مائدة) مفعول به منصوب (من السماء) جار ومجرور متعلق بـ (ينزل) " 4 "

---

(1) لأن فعل (أوحيت) فيه معنى القول من دون حروفه .

(2 ، 3) في الآية (110) من هذه السورة .

(4) أو متعلق بمحذوف نعت لمائدة .

والمصدر المؤول (أن ينزل) في محلّ نصب مفعول به عامله يستطيع .

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (اتقوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . . (وتم) ضمير اسم كان (مؤمنين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " قال الحواريون . . . . " في محلّ جر بإضافة (إذ) إليها .

وجملة " يا عيسى . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " هل يستطيع ربك . . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " ينزّل . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " قال . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " اتقوا . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة "كنتم مؤمنين " لا محلّ لها استئنافية . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إن كنتم مؤمنين بقدرة الله فاتقوا الله في هذا الطلب . . . . أو فاتقوا الله كي يستجيب لكم .

(113) (قالوا) فعل ماض وفاعله (نريد) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره

نحن (أن نأكل منها) مثل أن ينزل علينا . . . . والجار متعلق بـ (نأكل) .

والمصدر المؤول (أن نأكل) في محلّ نصب مفعول به عامله نريد .

(الواو) عاطفة (تطمئن) مضارع منصوب معطوف على (نأكل) ،

(228/221)

(قلوب) فاعل مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (ونعلم) مثل وتطمئن (أن) مخففة من أنّ المشددة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي أنه (قد) حرف تحقيق (صدقتنا) فعل ماض وفاعله ومفعوله (الواو) عاطفة (نكون) مضارع ناقص منصوب معطوف على (نأكل) ، واسمه ضمير مستتر تقديره نحن (عليها) مثل علينا متعلق بالشاهدين (من الشاهدين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر نكون وعلامة الجر الياء .

وجملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " نريد . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " نأكل " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " تطمئن قلوبنا " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفي .

وجملة " نعلم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفي .

وجملة " قد صدقتنا " في محلّ رفع خبر أنّ – المخففة – .

وجملة " نكون . . . من الشاهدين " لا محلّ لها صلة معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفي .

الصرف :

(مائدة) ، اسم جامد للخوان عليه طعام " 1 " ، وهي – على رأي – فاعلة ، مشتقة من ماد يميد باب باع ، فكأنها تميد بما عليها من الطعام . وهي – على رأي آخر – مفعولة ، مشتقة من ماده بمعنى أعطاه ،

---

(1) هذا التقييد له نظائر في اللغة . . . لا يقال كأس إلا وفيها خمر وإلا فهي قدح ، ولا يقال ذنوب وسجل إلا وفيه ماء وإلا فهو دلو ، ولا يقال جراب إلا وهو مدبوغ وإلا فهو ، إناب ولا يقال قلم إلا وهو مبري وإلا فهو أنبوب .

فهي كعيشة راضية وأصلها أنها ميد بها صاحبها أي أعطيها . وقال ثالث :

سميت مائدة لأنها غياث وعطاء . وفي المصباح : مادة ميدا من باب باع أعطاه ، والمائدة مشتقة من ذلك وهي فاعلة بمعنى مفعولة لأن المالك مادها للناس أي أعطاهم إياها ، وقيل

هي مشتقة من ماد يميد أي تحرك ، فهي اسم فاعل على الباب . . . أ ه .

الفوائد

1 - " يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ " . . .

ما هي حركة اعراب المنادي " عيسى " الجواب أن النحاة قد أجازوا في مثل هذا المنادي وجهين فقالوا :

إذا كان المنادي مفردا علما وأتبع بـ " ابن " ولم يفصل بينهما فاصل ثم كان ابن مضافا إلى علم كما في الآية المذكورة فيجوز لنا أن نبنيه على الضم كما هو في المنادي " مفرد العلم " ويجوز لنا أن نتبعه لحركة " ابن " التي هي النصب مثال ذلك قول عمرو بن كلثوم .

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

فيمكن اعتبار " عمرو " مبني على الضم كما يمكن اعتباره منصوبا تبعا لحركة " ابن " وهي النصب : فتأمّل . . . !

[سورة المائدة (5) : آية 114]

قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114)

الإعراب :

(قال) فعل ماض (عيسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (ابن)

نعت لعيسى مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (ابن) نعت لعيسى مرفوع مثله أو بدل منه أو

(230/221)

عطف بيان (مريم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الفتحة (اللهم) منادى محذوف منه أداة النداء مبني على الضم في محل نصب . . . والميم المشددة عوض من ياء النداء (ربّ) نعت للفظ الجلالة تبعه في النصب لأنه مضاف و(نا) ضمير مضاف إليه (أنزل) فعل أمر دعائي ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (على) حرف جر و(نا) ضمير في محل جر متعلق (بأنزل) ، (مائدة) مفعول به منصوب (من السماء) جار ومجرور متعلق بفعل أنزل " 1 " ، (تكون) مضارع ناقص مرفوع واسمه ضمير مستتر تقديره هي (اللام) حرف جر و(نا) ضمير في محل جر متعلق بحال من (عيدا) وهو خبر الناقص منصوب (لأول) جار ومجرور بدل من (لنا) بإعادة الجار و(نا) مضاف إليه (الواو) عاطفة (آخرنا) معطوف على أولنا ويعرب مثله (الواو) عاطفة (آية) معطوف على (عيدا) منصوب (من) حرف جر و(الكاف) ضمير في محل جر متعلق بنعت لآية (الواو) عاطفة (ارزق) مثل أنزل و(نا) ضمير مفعول به (الواو) استئنافية (أنت) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (خير)

خبر مرفوع (الرازقين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

جملة " قال عيسى . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " اللهم وما في حيّزها " في محل نصب مقول القول .

وجملة " أنزل علينا . . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " تكون . . . عيدا " في محل نصب نعت لمائدة .

وجملة " ارزقنا " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة " أنت خير . . . " لا محلّ لها استئنافية .

---

(1) أو متعلق بمحذوف حال من مائدة وقد وصفت بالجار .

(231/221)

الصرف :

(عيدا) ، اسم مشتقّ من العود بفتح العين وسكون الواو لأنه يعود كلّ سنة ، ففيه إعلال قلبت الواو ياء لمجيئها ساكنة بعد كسر ، وأصله عود بكسر العين وسكون الواو ، ولكنهم صغّروه على عييد وجمعوه على أعياد وذلك فرقا بينه وبين عود الخشب .

(الرازقين) ، جمع الرازق وهو اسم فاعل من رزق يرزق باب نصر ، وزنه فاعل .

الفوائد

1 – اختص المنادي إذا كان لفظ الجلالة بأمور ليست لغيره من أقسام المنادي . منها أن همزة لفظ الجلالة تقطع وجوبا نحو قولنا " يا اللّه " .

ومنها أن الأكثر حذف حرف النداء مع لفظ الجلالة والتعويض عنه بميم مشدّدة مفتوحة ، للدلالة على التعظيم نحو " اللهم ارحمنا " .

ثالثا : لا يجوز وصف لفظ الجلالة عند ما ينادى لا على اللفظ ولا على المحل وهذا هو الصحيح لدى الجمهور ، وقد حملوا قوله تعالى :

اللَّهُمَّ ، فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ " على أنه نداء ثان ، أي يا فاطر السماوات والأرض .

2 – يستعمل لفظ " اللهم " على ثلاثة أنحاء :

الأول : أن يكون للنداء المحض نحو " اللهم اغفر لي " .

الثاني : أن تأتي تمكينا للجواب في نفس السامع كأن يقال لك : أ خالد فعل هذا فتقول : اللهم نعم .

الثالث : أن تذكر للدلالة على ندرة الشيء وقلة وقوعه كقولك للمجاهد :

إن اللّه سيثيبك على عملك اللهم إن أخلصت النية فيه .

ومن شاء أن يتكثّر من فقه النحو فعليه ببحث النداء في المطولات .

[سورة المائدة (5) : آية 115]

قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (115)

الإعراب :

(232/221)

(قال اللّه) مثل قال عيسى " 1 " ، ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (منزّل) خبر مرفوع و(ها) ضمير مضاف إليه (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق باسم الفاعل منزّل (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يكفر) مضارع مجزوم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بعد) ظرف زمان مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (يكفر) ، (منكم) مثل عليكم متعلّق بحال من فاعل يكفر (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّي أعذّبه) مثل إنّي منزّلها (عذابا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو اسم مصدر منصوب (لا) نافية (أعذّب) مضارع مرفوع - وكذلك الأول - و(الهاء) ضمير في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ضمير المصدر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (أحدا) مفعول به منصوب (من العالمين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (أحدا) ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة " قال اللّه . . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إنّي منزّلها " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " من يكفر . . . " : في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

---

(1) في الآية السابقة (114) .

وجملة " يكفر . . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة " إنّي أعذّبه . . . . " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " أعذّبه (الأولى) " : في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " أعذّبه (الثانية) " : في محلّ نصب نعت لـ (عذابا) .

الصرف :

(منزّلها) ، اسم فاعل من نزّل الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة .

(عذابا) ، اسم مصدر للفعل عذّب الرباعيّ ، مصدره القياسيّ تعذيب .

الفوائد

- " فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ " .

للنحاة اهتمام بهذين الظرفين " قبل وبعد " نلخص لك ما ورد حولهما من بحث وتمحيص أنهما ظرفان للزمان ينصبان على الظرفية أو يجّران بمن نحو " جئت قبل الظهر أو بعده ويصح من قبله أو بعده " .

وقد يأتيان للمكان نحو " داري قبل دارك أو بعدها " وهما معربان نصا أو مجروران بمن .

ويبنيان على الضم إذا قطعا عن الإضافة لفظا وبقي المعنى ملحوظا ، كما هو في الآية المذكورة . فقد بقي المضاف إليه في النية والتقدير " أي من بعد نزول المائدة ومثل ذلك قوله تعالى " للّه الأمر من قبل ومن بعد " أي من قبل الغلبة ومن بعدها . فإن قطعا عن الإضافة لفظا ومعنى كانا معربين نحو : " جئت قبلا أو بعدا ومنه قول الشاعر :

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(234/221)

فساغ لي الشراب وكنت قبلا أكاد أغصّ بالماء الفرات

ولتقرير جملة هذا البحث نقول :

إذا أردت قبليّه أو بعديّه معينتين عينت ذلك بالاضافة نحو جئت قبل الشمس أو بعدها ، أو بحذف المضاف إليه وبناء قبل وبعد على الضم نحو " جئتك قبل وبعد أو من بعد "

فالظرف هنا وإن قطع عن الإضافة لفظا لم يقطع عنها معنى . وإن أردت قبلية أو بعدية غير معينتين قلت جئتك قبلا أو بعدا أو من قبل أو من بعد وذلك بقطعهما عن الإضافة لفظا ومعنى وتنوينهما ، إذ قصد بهما إلى التنكير والإبهام .

[سورة المائدة (5) : الآيات 116 إلى 118]

وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ قال . . . مريم) مرّ إعرابها " 1 " ،

---

(1) في الآية (110) من هذه السورة . و(إذ) هنا ظرف للمستقبل لأن الكلام ما سيكون عليه الحال يوم القيامة .

(الهمزة) للاستفهام (أنت) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (قلت) فعل ماض وفاعله (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قلت) ، (اتّخذوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به أول (الواو) عاطفة (أمّ) معطوف على ضمير المتكلّم تبعه في النسب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) مضاف إليه (إلهين) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الياء (من) حرف جرّ (دون) مجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (إلهين) " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (قال) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره أسبّح ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (ما) نافية (يكون) مضارع ناقص مرفوع (اللام) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر يكون مقدّم (أن) حرف مصدريّ ونصب (أقول) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (ما) اسم موصول " 2 " مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (ليس) فعل ماض ناقص جامد ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على ما (لي) مثل الأول متعلّق بحقّ " 3 " ، (الباء) حرف جرّ زائد (حقّ) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس " 4 " .

والمصدر المؤوّل (أن أقول) في محلّ رفع اسم يكون مؤخّر .

(إن) حرف شرط جازم (كنت) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون

(1) أو هو حال من فاعل اتّخذوا ، أي متجاوزين .

(2) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب ، والجملة بعدها نعت لها .

(3) أو متعلّق بمحذوف حال من حقّ – نعت تقدّم على المنعوت – . [. . . . .]

(4) يجوز جعل الباء أصليّة ، والجارّ والمجرور حال من الياء في (لي) ، و(لي) يصبح خبرا لـ (ليس) .

(236/221)

في محلّ جزم فعل الشرط . . . والتاء اسم كان (قلت) فعل ماض وفاعله و(الهاء) ضمير مفعول به (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (علمت) مثل قلت (تعلم) مضارع مرفوع ، والفاعل أنت (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (في نفس) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما و(الياء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) نافية (أعلم ما في نفسك) مثل تعلم . . . نفسي (إنّك أنت علّام الغيوب) مرّ إعرابها " 1 " .

جملة " قال اللّه . . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " يا عيسى . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أأنت قلت . . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " قلت للناس . . . " : في محلّ رفع خبر أنت .

وجملة " اتّخذوني . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قال . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " (أسبح) سبحانك " : لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة " يكون لي " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أقول . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة " ليس لي بحقّ " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " كنت قلته . . . " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة " قلته " : في محلّ نصب خبر كنت .

وجملة " قد علمته " : في محلّ جزم جواب الشرط .

وجملة " تعلم . . . " : لا محلّ لها تعليليّة .

---

(1) في الآية (109) من هذه السورة .

وجملة " لا أعلم " : لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

وجملة " إنّك . . . علّام . . . " : لا محلّ لها تعليليّة .

(117) (ما) نافية (قلت) مثل الأولى (لهم) مثل لي متعلّق بـ (قلت) ، (إلّا) أداة حصر (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (أمرت) مثل قلت و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أمرت) ، (أن) حرف مصدريّ " 2 " ، (اعبدوا) مثل اتّخذوا (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (ربّ) نعت للفظ الجلالة منصوب مثله وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ربّكم) معطوف على ربّي منصوب مثله . . وكم مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن اعبدوا) في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . . والجملة الاسميّة مفسّرة للضمير في (به) .

(الواو) استئنافيّة (كنت) مثل الأول (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (شهيدا) وهو خبر كنت منصوب (ما) حرف مصدريّ (دمت) فعل ماض ناقص واسمه (فيهم) مثل عليهم متعلّق بمحذوف خبر ما دمت .

والمصدر المؤوّل (ما دمت فيهم) في محلّ نصب على الظرفيّة

---

(1) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب . . والجملة بعدها نعت لها .

(2) أو حرف تفسير . . ومنع العكبريّ أن يكون حرف تفسير لأن القول قد صرّح به . . ولكن يمكن التعقيب على هذا بأنّ استعمال فعل القول من قبل عيسى عليه السلام هو نزول على قضيّة الأدب الحسن كيلا يجعل نفسه آمرا مع ربّه . . ولهذا يصحّ إعرابها تفسيريّة . وهي تفسيريّة على رأي ابن هشام لفعل القول المؤوّل بـ (أمرتهم) .

(238/221)

الزمانية متعلّق بـ (شهيدا) .

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب أي راقبتهم (توفّيت) فعل ماض وفاعله و(النون) للوقاية (الياء) ضمير مفعول به (كنت) مثل الأول (أنت) ضمير فصل لا محلّ له " 1 " (الرقيب) خبر كنت منصوب (عليهم) مثل الأول متعلّق بالرقيب .

(الواو) استئنافيّة (أنت) ضمير منفصل مبتدأ (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بشهيد (شيء) مضاف إليه مجرور (شهيد) خبر المبتدأ مرفوع .

جملة " ما قلت لهم . . . " : لا محلّ لها استئناف في معرض قول عيسى .

وجملة " أمرتني " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " اعبدوا " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة "كنت . . . شهيدا " : لا محلّ لها استئناف في معرض قول عيسى .

وجملة " دمت فيهم " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة " توفّيتني " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة "كنت . . . الرقيب " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " أنت . . . شهيد " : لا محلّ لها استئناف في معرض قول عيسى .

(118) (إن) مثل الأول (تعذّب) مضارع مجزوم فعل الشرط و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (عباد)

---

(1) أو توكيد للضمير المتّصل في (كنت) في محلّ رفع .

(239/221)

خبر مرفوع و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (إن تغفر) مثل إن تعذّب (لهم) مثل الأول متعلّق بـ (تغفر) ، (فإنّك) مثل فإنّهم (أنت) ضمير فصل " 1 " ، (العزيز) خبر إنّ مرفوع (الحكيم) خبر ثان مرفوع .

وجملة " إن تعذّبهم . . . " : لا محلّ لها استئناف في معرض قول عيسى .

وجملة " إنّهم عبادك " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " إن تغفر لهم " : لا محلّ لها معطوفة على جملة إن تعذّبهم .

وجملة " إنّك . . . العزيز " : في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

البلاغة

1 - المشاكلة : في قوله تعالى " وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ " فقوله في نفسك للمشاكلة .

والمراد تعلم معلومي الذي أخفيه في قلبي فكيف بما أعلنه ولا أعلم معلومك الذي تخفيه

وسلك في ذلك مسلك المشاكلة كما في قول الشاعر :

"

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا "

إلا أن ما في الآية كلا اللفظين وقع في كلام شخص واحد وما في البيت ليس كذلك .

1 - فن التخيير : في قوله تعالى " إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " .

---

(1) أو توكيد للضمير المتّصل (الكاف) ، وقد أستعير لمحلّ النصب .

وهو فن من فنون البلاغة ، منقطع النظير ، صعب الإدراك . وحدّه أن يأتي الشاعر أو الناثر بفصل من الكلام أو بيت من الشعر يسوغ أن يقفّى بقواف شتى فيتخير منها قافية – مرجحة على سائرها ويستدل بإيثاره إياها على حسن اختياره وصدق حسه . وهو في هذه الآية حيث البداهة البدائية تقضي بأن تكون الفاصلة " إنك أنت الغفور الرحيم " لملاءمتها لقوله : " إِنْ تَغْفِرْ " ولكن هذا الوهم الناجم عن هذه البداهة سرعان ما يزول أثره عند ما يذكر المتوهم أن هؤلاء قد استحقوا العذاب دون الغفران ، فيجب أن تكون الفاصلة : " الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " .

الأصمعي والأعرابي :

كان يقرأ الأصمعي يوما " وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ " وختم الآية بقوله " والله غفور رحيم " وكان يسمعه اعرابي فاعترضه وخطأه فراجع الأصمعي الآية فإذا بها " وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " فقال للاعرابي : كيف عرفت ذلك ؟ فقال : يا هذا : عزّ فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع . فدهش الأصمعي وأفحم . فتأمّل . . . !

[سورة المائدة (5) : آية 119]

قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119)

الإعراب :

(241/221)

(قال اللّه) فعل ماض وفاعل مرفوع (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يوم) خبر مرفوع (ينفع) مضارع مرفوع (الصادقين) مفعول به مقدّم منصوب وعلامة النصب الياء (صدق) فاعل مؤخّر مرفوع و(هم) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (اللام) حرف

جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (جنّات) مبتدأ مؤخر مرفوع (تجري) مثل ينفع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (من تحت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) " 1 " ، و(ها) ضمير مضاف إليه (الأنهار) فاعل تجري مرفوع (خالدين) حال منصوبة من الضمير في (لهم) ، وعلامة النصب الياء (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخالدين (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بخالدين (رضي) فعل ماض مبنيّ على الفتح الظاهر (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (رضي) ، (الواو) عاطفة (رضوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (عنه)

مثل عنهم متعلّق بـ (رضوا) (ذلك) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . . واللام للبعد والكاف للخطاب (الفوز) خبر مرفوع (العظيم) نعت مرفوع.

جملة " قال اللّه . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة " هذا يوم . . . " : في محلّ نصب مقول القول.

وجملة " ينفع . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة " لهم جنّات . . . " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة " تجري . . . الأنهار " . في محلّ رفع نعت لجنّات.

وجملة " رضي اللّه . . . " : لا محلّ لها استئنافية.

وجملة " رضوا عنه " : لا محلّ لها معطوفة على جملة رضي اللّه عنهم.

وجملة " ذلك الفوز . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو بمحذوف حال من الأنهار ، وفيه حذف مضاف أي من تحت أشجارها . . .

(2) أو في محلّ نصب حال من الصّادقين.

الصرف :

(صدقهم) ، مصدر سماعيّ لفعل صدق يصدق باب نصر ، وزنه فعل بكسر الفاء ، وثمّة مصادر أخرى هي صدق بفتح الفاء ومصدوقة وتصداق بفتح التاء .

(رضوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله رضيوا ، بضمّ الياء ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الضاد ، التقى ساكنان – الياء وواو الجماعة – فحذفت الياء ، فأصبح رضوا ، وزنه فعوا .

الفوائد

1 – كل ما هو من أسماء الزمان مبهما لما مضى تجوز إضافته إلى الجملة التي بعده .

أما اعرابه ففيه تفصيل :

فإذا جاء ما بعده مبنيا فبناؤه على الفتح أرجح ، جريا مع البناء . ومنه قول النابغة الذبياني :

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت أَلّما أصح والشيب وازع

ففيه روايتان إحداهما " على حين " بالجرّ اعرابا والثانية " على حين " بالبناء على الفتح وهو الأرجح مشاكلة مع بناء الفعل .

وإن كان بعده فعلا معربا أوجملة اسمية فالاعراب أرجح كما ورد في الآية الكريمة " هذا يَوْمُ يَنْفَعُ " .

[سورة المائدة (5) : آية 120]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)

الإعراب :

(للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ملك) مبتدأ مؤخّر مرفوع (السموات) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة

(الأرض) معطوف على السموات مجرور مثله (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع معطوف على ملك (في) حرف جرّ و(هنّ) ضمير متّصل مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ(قدير) ، (شيء) مضاف إليه مجرور (قدير) خبر المبتدأ هو مرفوع.

جملة "للّه ملك . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة "هو . . . قدير" : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة. انتهى انتهى. اهـ

﴿الجدول حـ 7 صـ 76.3﴾

(243/221)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة المائدة (5) : آية 82]

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (82)

اللغة :

(قِسِّيسِينَ) : جمع قسّيس ، بكسر القاف وتشديد السين ، المكسورة ، بمعنى القسّ بفتح القاف وتشديد السين ، وهو من كان

بين الأسقف والشمّاس ، وهو أيضا الكاهن ، ويجمع على قسوس ، والقسّيس يجمع أيضا على قسّان ، بضم القاف ، وأقسّة وقساوسة ، قال الفرّاء : هو مثل مهالبة ، كثرت السينات فأبدلوا إحداهن واوا .

وقال الراغب : قسيسين جمع قسيس ، على فعيّل ، وهو مثال مبالغة كصدّيق ، وهو هنا رئيس النصارى وعالمهم . وأصله من تقسّس الشيء إذا اتبعه وتطلّبه بالليل ، يقال تقسّست أصواتهم أي : تتبّعتها بالليل . وقال غيره : القسّ بفتح القاف : تتبّع الشيء ، ومنه سمي عالم النصارى قسيسا لتتبعه العلم ، ويقال : قسّ الأثر وقصّه بالصاد أيضا ، ويقال : قس وقس بفتح القاف وكسرها وقسيس . فأما قسّ بن ساعدة الإيادي بضم القاف فهو علم ، ويجوز أن يكون ما غيّر عن طريق العلمية ، ويكون أصله قس أو قس بفتح

القاف وكسرها ، وكان أعلم أهل زمانه .

(رُهْباناً) يكون واحدا وجمعا ، فأما إذا كان جمعا فإن واحدهم يكون راهبا ، ويكون الراهب حينئذ فاعلا من قول القائل : رهب اللّه فلان بمعنى خافه يرهبه رهبا بفتحتين ورهبا بفتح الراء وسكون الهاء ، ومن الدليل على أنه قد يكون عند العرب جمعا قول كثير عزّة :

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا

لو يسمعون كما سمعت كلامها خرّوا لعزّة ركّعا وسجودا

(244/221)

وقد يكون الرهبان واحدا ، وإذا كان واحدا كان جمعه رهابين ، مثل قربان وقرابين ، ويجوز جمعه أيضا على رهابنة إذا كان كذلك . ومن الدليل على انه قد يكون عند العرب جمعا قول الراجز :

لو عاينت رهبان دير في القلل لانحدر الرهبان يمشي ونزل

الاعراب :

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) كلام مستأنف مسوق

لتصنيف أهل الكتاب بالنسبة إلى مودة المؤمنين ، وتكرير قبائح اليهود ، ولين عريكة النصارى ، وسهولة انصياعهم للحق . واللام جواب لقسم محذوف ، وتجدن فعل مضارع مبني على الفتح والجملة لا محل لها لأنها جواب للقسم ، وأشد الناس مفعول أول لتجد ، وعداوة تمييز ، وللذين متعلقان بأشد ، واليهود مفعول به ثان ويجوز العكس ، والذين عطف على اليهود وجملة أشركوا صلة .

(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا : إِنَّا نَصارى) الواو عاطفة ، والجملة معطوفة على ما تقدم ، وقد تقدم إعرابها ، وجملة إنا نصارى في محل نصب مقول القول (ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً) الجملة مستأنفة مبينة ، واسم الاشارة مبتدأ ، والباء حرف جر ، وأن وما في حيزها في تأويل مصدر مجرور بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ذلك ، ومنهم متعلقان بمحذوف خبر أن المقدم ، وقسيسين اسم أن ، ورهبانا عطف على قسيسين (وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) عطف على " بأن منهم " ، وجملة لا يستكبرون خبر أن .

(245/221)

[سورة المائدة (5) : الآيات 83 إلى 84]

وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ

رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84)

الإعراب :

(وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ) الواو استئنافية ، ويجوز أن تكون عاطفة ، فتكون الجملة معطوفة على قوله : " لا يستكبرون " ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، وجملة سمعوا في محل جر بإضافة الظرف إليها ، والواو فاعل ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة أنزل لا محل لها لأنها صلة الموصول ، والى الرسول متعلقان بأنزل (تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) الجملة لا محلّ لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وترى فعل مضارع ، وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ، وأعينهم مفعول ترى البصرية ، وجملة تفيض حالية ، ومن الدمع جار ومجرور في محل نصب على التمييز ، وسيأتي المزيد من بيان هذا الاعراب في باب البلاغة (مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) الجار والمجرور متعلقان بتفيض ، وجملة عرفوا صلة الموصول ، ومن الحق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (يَقُولُونَ : رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ) جملة يقولون في محل نصب حال من الضمير في " عرفوا " وهو الواو ، أو من الضمير المجرور في " أعينهم " ، وجاز مجيء الحال من المضاف اليه لأن المضاف جزؤه ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة

لجواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فما حالهم عند سماع القرآن ؟ وربنا منادى مضاف ، وآمنا فعل وفاعل ، والجملة في محل نصب مقول القول ، فاكتبنا الفاء استئنافية واكتبنا فعل أمر ومفعول به ، والفاعل مستتر ، ومع الشاهدين ظرف متعلق باكتبنا (وَما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ) الواو استئنافية ، وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ، ولنا متعلقان بمحذوف خبر ، وجملة لا نؤمن بالله في محل نصب على الحال ، وبالله متعلقان بنؤمن ، وما عطف على الله ، وجملة جاءنا لا محل لها لأنها صلة ، ومن الحق متعلقان بمحذوف حال (وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) الواو عاطفة ونطمع فعل مضارع ، وفاعله نحن ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض ، والجار والمجرور متعلقان بنطمع ، وربنا فاعل ، ومع القوم الصالحين الظرف متعلق بيدخلنا ، والجملة كلها معطوفة على جملة نؤمن ، ويجوز أن تكون الواو حالية والجملة نصب على الحال .

البلاغة :

1- المجاز في فيض الأعين ، والعلاقة هي الامتلاء .

2- المبالغة في التمييز ، وهي من أبلغ التراكيب ، لأن الترقية فيه تترقى ثلاث مراتب ، فالأولى فاض دمع عينه ، والثانية في تحويل الفاعل تمييزا ، والثالثة في إبراز التمييز في صورة التعليل ، فأفاد إلى جانب التمييز التعليل ، وإنما كان الكلام مع التعليل أبعد عن الأصل منه

مع التمييز ، لأن التمييز في مثله قد استقرّ كونه فاعلا في الأصل ، في مثل : طاب محمد نفسا ، واشتعل الرأس شيبا ، فإذا قلت : فاضت

عينه دمعا ، فهم هذا الأصل مع العادة في أمثاله ، وأما التعليل فلم يعهد فيه ذلك .

[سورة المائدة (5) : الآيات 85 إلى 86]

(247/221)

فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (86)

الإعراب :

(فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) الفاء عاطفة ، وأثابهم فعل ومفعول به مقدم ، واللّه فاعل ، والجملة معطوفة على جملة قالوا آمنا ، وبما متعلقان بأثابهم ، وجملة قالوا صلة ، ونسق الثواب على قولهم : " آمنا " ، لأن القول إذا اقترن بالعمل المخلص فهو الايمان . وجنات مفعول به ثان لأثابهم ، لأنها تضمنت معنى الإعطاء ، وجملة تجري صفة لجنات ، ومن تحتها متعلقان بتجري ، والأنهار فاعل تجري (خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ) خالدين حال من الضمير في : " أثابهم " ، وفيها متعلقان بخالدين ، والواو حالية

أو استئنافية ، وذلك مبتدأ ، وجزاء المحسنين خبره ، والجملة نصب على الحال أو مستأنفة (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا) الواو استئنافية ، والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة ، وكذبوا عطف على كفروا ، ونسق التكذيب على الكفر لأن الكذب ضرب منه ، وبآياتنا متعلقان بكذبوا (أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ) اسم الاشارة مبتدأ ، وأصحاب الجحيم خبر اسم الإشارة ، والجملة خبر الذين .

[سورة المائدة (5) : الآيات 87 إلى 88]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)

الإعراب :

)

(248/221)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) كلام مستأنف مسوق لخطاب بعض المؤمنين الذين اتفقوا على التقشّف والترهب ، ولبس الصوف والصدوف عن اللذائذ المباحة ، ونهيهم عن ذلك .

ولا ناهية ، وتحرموا فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، وطيبات مفعول به ، وما اسم موصول في محل جر بالإضافة ، وجملة أحل صلة ، واللّه فاعل ، ولكم متعلقان بأحل (وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) الواو حرف عطف ، ولا ناهية ، وتعتدوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والجملة عطف على جملة لا تحرموا ، ومعنى الاعتداء هنا تجاوز الحلال إلى الحرام ، وإن واسمها ، وجملة لا يحب المعتدين خبرها ، وجملة إن اللّه إلخ تعليلية لا محل لها (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً) الواو عاطفة ، وكلوا فعل أمر مبني على حذف النون ، ومما متعلقان بكلوا ، وجملة رزقكم اللّه صلة الموصول ، وحلالا مفعول به ، أو حال من الموصول ، أو من عائده المحذوف ، أو مفعول مطلق ، فهو صفة لمصدر محذوف ، أي : أكلا حلالا ، والأول أسهل (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ) الواو عاطفة ، واتقوا فعل أمر ، معطوف على كلوا ، واللّه مفعوله ، والذي صفة للّه ، وأنتم مبتدأ ،

وبه متعلقان ب " مؤمنون " ، والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة الموصول .

[سورة المائدة (5) : آية 89]

(249/221)

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)

اللغة :

(اللغو) من اليمين : الساقط الذي لا يتعلق به حكم ، وحوله خلاف فقهي فعند الشافعي ما يبدو من المرء من غير قصد ، كقوله :

لا واللّه وبلى واللّه ، وعند أبي حنيفة أن يحلف على الشيء يرى أنه كذلك ، وليس كما ظن .

(عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ) قرئ بالتشديد والتخفيف ، كما قرئ أيضا :

" عاقدتم " . وتعقيد الأيمان توثيقها بالقصد والنية . وقد نظم الفرزدق هذا المعنى ، فقد روي أن الحسن سئل عن لغو اليمين ، وكان عنده الفرزدق ، فقال : دعني أجب عنك يا أبا سعيد ، وأنشد :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم

أي : لست مؤاخذا باللغو الساقط من الكلام . وتعمد أصله :

تتعمد ، حذفت منه إحدى التاءين ، وعاقدات العزائم : أي العزائم الجازمات ، ونسبة

الجزاء إليها مجاز عقلي .

(فَكَفَّارَتُهُ) الكفّارة : الفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة ، أي تسترها .

الاعراب :

)

(250/221)

لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ) كلام مستأنف لتقرير حكم اللغو في الأيمان ، ولا نافية ، ويؤاخذكم اللّه فعل مضارع ومفعول به وفاعل ، وباللغو متعلقان بيؤاخذكم ، وفي أيمانكم متعلقان بمحذوف حال (وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ) الواو عاطفة ، ولكن مهملة ، وبما الباء حرف جر ، وما مصدرية مؤولة مع عقدتم بمصدر مجرور بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بيؤاخذكم ، والأيمان مفعول به (فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ) الفاء الفصيحة ، أي : إذا خنثتم فيما عقدتم الأيمان ، فهي جواب شرط مقدر . وكفارته مبتدأ ، والضمير يعود على الحنث المفهوم من الشرط المقدر كما تقدم ، وارتأى الزمخشري أن يعود على ما الموصولية ، ولا بد من تقدير مضاف ، أي : كفارة حنثه . وهناك أقوال أخرى ضربنا عنها صفحا لبعدها . وإطعام خبر ، وعشرة مساكين

مضاف اليه ، ومن أوسط متعلقان بمحذوف صفة لعشرة مساكين ، وما اسم موصول مضاف إليه ، وجملة تطعمون صلة ، والعائد محذوف ، أي : تطعمونه ، أي : لا هو بالعالي ، ولا الدون وأهليكم مفعول تطعمون .

(أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) عطف على طعام ، وكذلك تحرير رقبة (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ) الفاء استئنافية ، ومن اسم شرط

(251/221)

جازم مبتدأ ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ويجد فعل مضارع مجزوم بلم ، وهو فعل الشرط ، والفاء رابطة لجوابه ، وصيام مبتدأ خبره محذوف ، أي : فعليه صيام ، أو كفارته ، وثلاثة أيام مضاف إليه (ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ) الجملة تفسيرية ، واسم الاشارة مبتدأ ، وكفارة خبر ، وأيمانكم مضاف إليه ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب المحذوف والذي دل عليه ما قبله ، وجملة حلفتم في محل جر بالإضافة (وَاحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) الواو عاطفة ، واحفظوا فعل أمر وفاعل ، وأيمانكم مفعول به ، وكذلك جار ومجرور متعلقان بمحذوف مفعول مطلق أو حال ، ويبين اللّه فعل مضارع وفاعل ، ولكم متعلقان بيبين ، وآياته مفعول به ، ولعلكم لعل واسمها ،

وجملة تشكرون خبرها وجملة الرجاء حالية.

[سورة المائدة (5) : الآيات 90 إلى 91]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91)

الإعراب:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ

رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ)

(252/221)

كلام مستأنف لبيان أن الخمر والميسر لا ينتظمان في الطيبات التي أحلّها اللّه. وإنما كافة ومكفوفة، والخمر مبتدأ، والميسر والأنصاب والأزلام عطف عليها، ورجس خبر، ومن عمل الشيطان متعلقان بمحذوف صفة لرجس، أو هو خبر ثان للخمر (فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الفاء الفصيحة، واجتنبوه فعل أمر وفاعل ومفعول به، ولعل واسمها، وجملة تفلحون خبرها، وجملة الرجاء حالية (إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ

فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) كلام مستأنف لزيادة التوضيح للأسباب المؤدية إلى تحريمهما .

وإنما كافة ومكفوفة ، ويريد الشيطان فعل مضارع وفاعل ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول ليريد ، وبينكم ظرف متعلق بيوقع أو بمحذوف حال ، والعداوة مفعول به ، والبغضاء عطف على العداوة ، وفي الخمر متعلقان بمحذوف حال ، والميسر معطوف على الخمر .

(وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) الواو حرف عطف ، ويصدكم عطف على يوقع ، وعن ذكر اللّه متعلقان بيصدكم ، وعن الصلاة متعلقان أيضا بيصدكم ، والفاء استئنافية ، وهل حرف استفهام معناه الأمر ، وأنتم مبتدأ ، ومنتهون خبر .

[سورة المائدة (5) : الآيات 92 إلى 93]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)

الاعراب :

)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا) الواو عاطفة ، والكلام معطوف على الاستفهام في الآية المتقدمة ، لأن الاستفهام بمعنى الأمر كما تقدم . والمعنى انتهوا وأطيعوا . ولك أن تجعلها استئنافية ، وأطيعوا اللّه فعل وفاعل ومفعول به ، وأطيعوا الرسول عطف على أطيعوا اللّه ، واحذروا عطف أيضا (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) الفاء استئنافية ، وإن شرطية ، وتوليتم فعل ماض وفاعل ، وهو في محل جزم فعل الشرط ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، والجواب محذوف تقديره : فجزاؤكم علينا ، وجملة فاعلموا عطف على الجواب ، وأنما كافة ومكفوفة ، وهي مع مدخولها سدت مسد مفعولي اعلموا ، وعلى رسولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، والبلاغ مبتدأ مؤخر ، والمبين صفة (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا) الجملة مستأنفة مسوقة للرد على تساؤل بعض الصحابة الذين قالوا : يا رسول اللّه فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ؟ فنزلت : ليس . . . وليس فعل ماض ناقص ، وعلى الذين متعلقان بمحذوف خبر ليس المقدم ، وجملة آمنوا لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وجملة وعملوا الصالحات عطف على الصلة ، وجناح اسم ليس المؤخر ، وفيما متعلقان بمحذوف صفة لجناح ، وجملة طعموا لا محل لها لأنها صلة الموصول (إِذا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) إذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ، وما زائدة ، وجملة

اتقوا في محل جر بإضافة الظرف إليها ، والعامل في إذا معنى النفي في ليس ، أي : انتفى الإثم عنهم ، وجواب إذا محذوف دل عليه ما قبله ، أي : فليس عليهم جناح ، وآمنوا عطف

(254/221)

على اتقوا ، وعملوا الصالحات عطف على ما تقدم أيضا (ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا) عطف أيضا ، وسيأتي سر التكرير البديع في باب البلاغة (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) الواو استئنافية ، والله مبتدأ ، وجملة يحب خبر ، والمحسنين مفعول به .

البلاغة :

تقدم البحث في التكرار أو التكرير ، وهما مصدران لكرّر المضعفة ، وقلنا : إن حده أن يكرر الكاتب أو الشاعر الكلمة أو الكلمتين فصاعدا ، لتأكيد ما يتحدث عنه ، ليزداد رسوخا في الذهن ، أو لغرض آخر . وفي هذه الآية يحتمل أن يكون التكرار إشارة إلى العلاقات التي يرتبط بها الإنسان في حياته ، وهي : علاقة الإنسان بنفسه ، وعلاقة الإنسان بغيره ، وعلاقة الإنسان بربه ، ولذلك عقّب عليها بالإحسان في الكرة الثالثة ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى مراحل العمر الثلاث التي يجتازها الإنسان في رحلته الحياتية ، وهي : مرحلة البدء بالحياة ، ومرحلة الوسط في العمر ، ومرحلة المنتهى . ولعل الاحتمالين

مرادان في هذا التكرار البديع ، زيادة في التقوى والتجمّل وإقامة الموازين القسط في جميع مراحل حياته وحالاته الثلاث ، وسيأتي من التكرير في هذا الكتاب ما يسحر الألباب ، واستمع إلى قول البحتري متغزّلا :

ويوم تثنّت للوداع وسلّمت بعينين موصول بلحظهما السحر

توهمتها ألوى بأجفانها الكرى كرى النوم أو مالت بأعطافها الخمر

فالكرى هو النوم ، ولكن في تكريره هنا معنى يدرك بالبداهة ، أشبه بأخذة السحر .

واستمع إلى قول المساور بن هند :

جزى اللّه عنّي غالبا من عشيرة إذا حدثان الدهر نابت نوائبه

فكم دافعوا من كربة قد تلاحمت عليّ وموج قد علتني غواربه

(255/221)

فصدر البيت الثاني وعجزه يدلّان على معنى واحد ، لأن تلاحم الكرب عليه كتعالي الموج من فوقه ، وإنما سوّغ ذلك أنه مقام مدح وإطراء ، ألا ترى أنه يصف إحسان هؤلاء القوم عند حدثان دهره ، في التكرير ! وفي قبالته لو كان القائل هاجيا فإن الهجاء في هذا كالمدح.

ونحب هنا أن نستدرك فنقول ليس كل تكرير حسنا ، فبعضه يكون غثا كقول أبي الطيب المتنبي من قصيدته البديعة التي يقول في مطلعها :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطن

وهذا من أجمل الشعر وأروعه ، على أنه ما لبث أن قال :

العارض الهتن ابن العارض ال هتن العارض الهتن ابن العارض الهتن

فهذا ليس من التكرير المستحسن ، لأنه كقولك : الموصوف بكذا ابن الموصوف بكذا وكذا ، أي إنه عريق النسب بهذا الوصف ، فلم يأت بجديد ، ثم اللفظ ليس بمرضي على هذا الوجه الذي قد استعمل فيه ، فإن استعمالها في حالة التركيب يذهب بحسنها . ومن طريف التكرير قول المقنع الكندي :

وإنّ الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا

إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيّي هويت لهم رشدا

وحسبنا ما تقدم الآن .

[سورة المائدة (5) : آية 94]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (94)

اللغة :

(لَيَبْلُوَنَّكُمُ) : ليختبرن طاعتكم .

الاعراب :

)

(256/221)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ) كلام مستأنف مسوق لاختبارهم بالنسبة لما يفهم العباد ، أما حقيقة الاختبار فمحال في حقه تعالى ، وليبلونكم اللام جواب لقسم محذوف ، أي : والله ليبلونكم ، فيبلون فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، والله فاعله ، وبشيء متعلقان بيبلونكم ، ومن الصيد متعلقان بمحذوف صفة لشيء وجملة يبلونكم لا محل لها لأنها جواب القسم المحذوف (تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ) الجملة صفة لشيء ، وأيديكم فاعل تناله ، ورماحكم عطف على أيديكم ، واللام للتعليل ، ويعلم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والله فاعل يعلم ، ومن اسم موصول مفعول يعلم ، وجملة يخافه لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وبالغيب جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل يخاف ، أي :

يخاف اللّه حالة كونه غائبا عن اللّه ، أو من المفعول به ، أي يخاف اللّه حال كونه متلبسا بالغيب (فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الفاء استئنافية ، ومن اسم شرط جازم ، واعتدى فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، وبعد ذلك الظرف متعلق باعتدى ، واسم الاشارة مضاف اليه ، فله الفاء رابطة للجواب ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وعذاب مبتدأ مؤخر ، وأليم صفة ، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر " من " .

البلاغة :

في قوله : " بشيء من الصيد " تقليل واحتقار لهذا الابتلاء ،

(257/221)

كأنه يقول : إن هذا الابتلاء ليس من قبيل الفتن العظام ، والمحن العظام ، التي لا تثبت أمامها القوى ولا الأجسام ، هذا ما ذكره المفسرون الكبار ، وخاصة الزمخشري الذي نقل معظمهم عبارته بنصها تقريبا ، وهي وثبة ذهنية قوية ، ولكنها تضؤل وتشيل في الميزان عند ما نذكر أنه سبحانه استعملها في الفتن العظيمة والمحن الجسيمة ، فقال في موضع آخر : " ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين

" . وهذا اعتراض يطيح بما قاله الزمخشري وتناقله عنه الكثيرون من المفسرين كالخازن والنسفي والبيضاوي وغيرهم . وخير ما يقال في الاجابة عن هذا الاعتراض هو أن جميع المحن والأرزاء والبلاء والفتن ليست بالنسبة إلى مقدور اللّه تعالى سوى جزء يسير خليق به أن يحقّر ويصغر ، وأنه سبحانه جنح إلى خطاب المؤمنين بهذه الصيغة تخفيفا لهم ، وباعثا لهم على الصبر ، وحافزا لهم على الاحتمال تلطفا بهم ، وترفقا بما يكابدونه منه فسبحان المتفرد بهذه البلاغة .

[سورة المائدة (5) : آية 95]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (95)

اللغة :

(حُرُمٌ) : جمع حرام . والحرام يستوي فيه المذكر والمؤنث .

تقول : هذا رجل حرام ، وهذه امرأة حرام ، فإذا قيل : محرم قيل للمرأة : محرمة ، والإحرام هو الدخول فيه ، يقال : أحرم القوم إذا دخلوا في الشهر الحرام أو في الحرم . فتأويل الكلام لا

تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة .

)

(258/221)

عَدْل) : مثل .

(وَبالَ) الوبال : بفتح الواو : المكروه والضرر الذي يناله في العاقبة من عمل سوء لثقله عليه ،

قال الراغب : الوابل : المطر الثقيل القطر ، ولمراعاة الثقل قيل للأمر الذي يخاف ضرره :

وبال ، قال تعالى :

" فذاقوا وبال أمرهم " . ويقال : طعام وبيل ، وكلأ وبيل يخاف وباله ، قال تعالى : "

فأخذناه أخذا وبيلا " . واستوبلت الأرض : كرهتها خوفا من وبالها .

الاعراب :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان ما

تنطوي عليه كلمة الاعتداء في الآية السابقة .

ولا ناهية ، وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ، والواو فاعل ، والصيد مفعول به ، وأنتم

الواو حالية ، وأنتم مبتدأ ، وحرم خبره ، والجملة حال من فاعل تقتلوا (وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) الواو استئنافية ، ومن اسم شرط جازم في محل

(259/221)

رفع مبتدأ خبره جملة الشرط والجواب ، وقتله فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ، وهو في محل جزم فعل الشرط ، ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل قتل ، ومتعمدا حال من فاعل قتل أيضا ، أي : ذاكرا لإحرامه أو عالما أن ما يقتله مما يحرم عليه قتله ، والتفاصيل في كتب الفقه . فجزاء : الفاء رابطة لجواب الشرط ، وجزاء مبتدأ خبره محذوف ، أي : فعليه جزاء ، ويجوز العكس ، أي : فالواجب عليه جزاء ، والجملة في محل جزم جواب الشرط ، ومثل صفة لجزاء ، وما اسم موصول في محل جر بالإضافة لمثل ، وجملة قتل صلة ، ومن النعم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من مثل (يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ) جملة يحكم صفة ثانية لجزاء ، وبه متعلقان بيحكم ، وذوا فاعل مرفوع وعلامة رفعه الألف لأنه مثنى ، وعدل مضاف اليه ، ومنكم متعلقان بمحذوف صفة ل " ذوا " ، وهديا حال من جزاء ، أو منصوب على المصدرية ، أي يهديه هديا ، أو منصوب على التمييز ، والأوجه الثلاثة متساوية الرّجحان ، وبالغ الكعبة صفة ل

" هديا " ، لأن الاضافة غير محضة ، وهي لا تفيد تعريفا كما سيأتي في باب الفوائد (أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً) أو عاطفة ، وكفارة عطف على جزاء ، وطعام مساكين بدل من كفارة ، وأو حرف عطف ، وعدل عطف على كفارة ، وذلك مضاف اليه ، وصياما تمييز للعدل ، كقولك : لي مثله رجلا (لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ) اللام للتعليل ، ويذوق فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، والجار والمجرور متعلقان بالاستقرار المستكن في الخبر ، أي : عليه الجزاء ليذوق ، ويجوز أن يتعلقا بطعام أو صيام ويجوز أن يتعلقا ب " جزاء " ، أي :

(260/221)

فعليه أن يجازى ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ، وجملة عفا اللّه استئنافية أي : لم يؤاخذ بما سلف لكم من الصيد في حال الإحرام قبل أن يحرم ، وعما جار ومجرور متعلقان بعفا وجملة سلف صلة الموصول ، (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) الواو استئنافية ، ومن أسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ، وعاد فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، والفاء رابطه ، وينتقم اللّه فعل مضارع وفاعل ، والجملة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف ، أي : فهو ينتقم اللّه منه ، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط ، وفعل

الشرط وجوابه خبر " من " ، ومنه متعلقان بينتقم ، والواو استئنافية ، واللّه مبتدأ ، وعزيز خبر أول وذو انتقام خبر ثان .

البلاغة :

الذوق في الآية استعارة مكنية تبعية ، شبّه سوء العاقبة الناجمة عن هتك حرمة الإحرام بطعام مستوبل مستوخم يذوقه ، فحذف المشبه وأبقى شيئًا من خصائصه وهو الذوق ، وقد تقدمت نظائرها .

الفوائد :

الإضافة على ثلاثة أنواع :

1- نوع يفيد تعريف المضاف بالمضاف إليه إن كان معرفة ، أو تخصيصه به إن كان نكرة ، مثل كتاب علي ، وكتاب تلميذ .

2- نوع يفيد تخصيص المضاف دون تعريفه . وضابطه أن يكون المضاف متوغّلا في الإبهام ، كغير ومثل وشبه ، وتسمى

الإضافة في هذين النوعين محضة أو حقيقية ، ومعنى قولهم : محضة أنها خالصة من تقدير الانفصال .

3- نوع لا يفيد شيئًا من التعريف أو التخصيص ، وهو أن يكون المضاف صفة تشبه الفعل المضارع في الدلالة على الحال أو الاستقبال ، كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهه ،

وتوصف بها النكرة كالآية التي نحن بصددها فإنّ هديا نكرة منصوبة على الحال ، وبالغ الكعبة صفتها ، فمعنى " بالغ الكعبة " أن يذبح بالحرم ولا توصف النكرة بالمعرفة . ومن خصائصها أيضا أن تأتي حالا نحو :

"

(261/221)

ثاني عطفه " ، فثاني حال كما سيأتي ، والحال واجبة التنكير ، ومنه قول أبي كبير الهذلي :

فأتت به حوش الفؤاد مبطّنا سهدا إذا ما نام ليل الهوجل

فحوش صفة مشبهة معناها حديد الفؤاد ، وقد نصبت على الحال لأنها لم تكتسب معرفة ولا تخصيصا . ومن خصائصها أيضا دخول " ربّ " عليها ، كقول جرير :

يا ربّ غابطنا لو كان يطلبكم لاقى مباعدة منكم وحرمانا

فأدخل " ربّ " على " غابطنا " ، ولو كان معرفة لما صح ذلك ، ولذلك سميت هذه الاضافة لفظية ، لأنها أفادت أمرا لفظيا وهو حذف التنوين ونون التثنية والجمع ، وهي أمور مردها إلى اللفظ وحده .

وهناك أبحاث أخرى تتعلق بالإضافة يرجع إليها في مظانها من الكتب النحوية .

[سورة المائدة (5) : آية 96]

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)

اللغة :

(وَلِلسَّيَّارَةِ) أي المسافرين . جمع سيار ، وأنّث على معنى الرفقة والجماعة .

الاعراب :

)

(262/221)

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ) أحل فعل ماض مبني للمجهول ، ولكم متعلقان بأحلّ ، وصيد البحر نائب فاعل ، وطعامه عطف على " صيد " ، ومتاعا مفعول لأجله ، أي : لأجل تمتعكم ، ويصح أن يكون مفعولا مطلقا ، أي : متعكم تمتيعا . ولكم متعلقان ب " متاعا " ، وللسيارة عطف على " لكم " ، والجملة مستأنفة ، (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً) الواو عاطفة ، وحرم فعل ماض مبني للمجهول ، وعليكم

متعلقان بحرّم ، والجملة عطف على الجملة السابقة ، وصيد البر نائب فاعل ، ما دمتم فعل ماض ناقص و" ما " وما بعدها في محل نصب على الظرفية ، والظرف متعلق بحرم ، والتاء اسم ما دام ، وحرما خبرها (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) الواو عاطفة ، واتقوا اللّه فعل أمر ومفعول به ، والذي نعت ، واليه متعلقان بتحشرون ، وتحشرون فعل مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل ، وجملة تحشرون صلة الموصول .

[سورة المائدة (5) : الآيات 97 إلى 98]

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98)

الإعراب :

)

(263/221)

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ) كلام مستأنف مسوق لتوضيح الكعبة التي هي البيت الحرام . و" جعل " : لك أن تعتبرها بمعنى " صيّر " ،

وأن تعتبرها بمعنى " خلق " . وجعل اللّه فعل وفاعل ، والكعبة مفعول به ، والبيت الحرام بدل من الكعبة ، والفائدة من البدلية المديح ، وقياما على الأول مفعول به ثان ، وعلى الثاني حال من الكعبة ، وهو من ذوات الواو ، وقيل : قياما لكسرة القاف ، وإنما هي في الأصل قواما وصواما . وللناس متعلقان ب " قياما " أي : يقومون بقصدها بأمر معايشهم ومنافعهم . والشهر عطف على الكعبة ، والحرام صفة ، والهدي والقلائد عطف على الكعبة أيضا . (ذِلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) الجملة مستأنفة ، واسم الاشارة مبتدأ .

والاشارة إلى مجموع ما تقدم ذكره ، ولتعلموا اللام لام التعليل ، وتعلموا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ذلك أي : ذلك الحكم هو الحق لا غيره ، وقيل : ذلك في موضع خبر لمبتدأ محذوف ، أي : الحكم الذي قررناه ذلك . ويجوز أن يكون اسم الاشارة منصوبا بفعل مقدّر ،

ولتعلموا متعلقان به ، أي : شرعنا ذلك . والأوجه كلها متساوية الرجحان . وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي تعلموا ، وأن واسمها ، وجملة يعلم خبرها ، وما اسم موصول مفعول به ، وفي السموات متعلقان بمحذوف صلة الموصول ، وما في الأرض عطف على " ما في السموات " (وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) عطف على " أن " الأولى ، وأن واسمها ، وبكل شيء متعلقان ب " عليم " ، وعليم خبر أن (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَأَنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ) عطف على ما تقدم، وغفور رحيم خبران لأن.

[سورة المائدة (5) : الآيات 99 إلى 100]

(264/221)

ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (99) قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100)

اللغة:

(الْخَبِيثُ) ضد الطيب، والجمع خبث بضمتين، وخبثاء وأخباث وخبثة بفتحتين.

وخبثت نفسه: ثقلت وغثّت. وللخاء والباء فاء وعينا للفعل خاصة عجيبة، وهي أنهما تدلان على التأثير والسرعة في الإخفاء، يقال: خبّ أي خدع وأفسد، ولا يخفى ما فيه من معنى التأثير في المخدوع وإفساده، والخبب ضرب من العدو والسير، وخبأ الشيء ستره وأخفاه، وخبر الشيء يخبر وخبرا، بضم الخاء، وخبرا بكسرها: علمه عن تجربة، وخبز الخبز عمله، وخبس

فلانا حقه أي ظلمه وغشمه، وخبش الأشياء تناولها من هاهنا وهاهنا، وخبص الشيء بالشيء خلطه، وخبّص بالتشديد عمل الخبيصة أو الخبيص، أي: الحلواء

المخبوصة ، وخبطه خبطا أي : ضربه ضربا شديدا ، وخبله وخبّله بالتشديد : أفسده ، وخبن الثوب عطفه وخاطه ، وخبن الشاعر أتى بالخبن في شعره ، وهو حذف الثاني الساكن . وهذا من غريب أمر لغتنا الشريفة وخصائصها التي تنفرد بها .

الاعراب :

)

(265/221)

ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ) الكلام مستأنف مسوق للتشديد على إيجاب القيام بما أمر به ، أي : لقد قامت عليكم الحجة ، ولزمتكم الطاعة ، فلا عذر لكم إذا تجاوزتم الحدود . وقد جرى هذا الكلام مجرى المثل ، وسيأتي الحديث عنه مفصلا في باب البلاغة . وما نافية ، وعلى الرسول جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وإلا أداة حصر ، والبلاغ مبتدأ مؤخر (وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ) الواو استئنافية ، والله مبتدأ ، وجملة يعلم خبر ، وما اسم موصول مفعول تعلمون ، وجملة تبدون صلة الموصول ، وما تكتمون عطف على قوله ما تبدون (قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ) الجملة مستأنفة ، وقل فعل أمر ، وجملة لا يستوي الخبيث والطيب في محل نصب مقول القول ، وهذه الجملة مما سارت مسير

الأمثال أيضا (وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) الواو حالية ، ولو شرطية ، وأعجبك فعل ماض ومفعول به ، وكثرة الخبيث فاعل أعجبك ، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل لا يستوي ، أي : لا يستويان حالة كونهما على كل حال ، وجواب لو محذوف دل عليه ما قبله ، أي : فلا يستويان (فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

الفاء الفصيحة ، أي : إذا تبين لكم هذا فاتقوا اللّه ، واتقوا اللّه فعل وفاعل ومفعول به ، ويا حرف نداء ، وأولي الألباب منادى مضاف ، ولعلكم : لعل واسمها ، وجملة تفلحون خبرها .

البلاغة :

في الآية إرسال المثل ، وهو عبارة عن أن يأتي المتكلم في بعض كلامه بما يجري مجرى المثل السائر من حكمة أو نعت أو غير ذلك ، ومنه قول أبي الطيب المتنبي :

لأن حلمك حلم لا تكلفه ليس التكحل في العينين كالكحل

وقد اشتهر أبو الطيب بهذه الميزة حتى صارت مضرب المثل ، قال :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

و سيأتي من أمثاله ما يذهل العقول ، وحسبنا الآن أن نورد مختارات من قصيدة ابن زيدون :

ما على ظني بأس يجرح الدهر وياسو

ولقد ينجيك إغفا ل ويرديك احتراس

ولكم أجدى قعود ولكم أكدى التماس

وكذا الحكم إذا ما عزّ ناس ذلّ ناس

لا يكن عهدك وردا إن عهدي لك آس

فأدر ذكري كأسا ما امتطت كفّك

كاس واغتنم صفو الليالي إنما العيش اختلاس

2- الطباق بين " تبدون " و" تكتمون " .

[سورة المائدة (5) : الآيات 101 إلى 102]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (102)

الإعراب :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) كلام مستأنف مسوق للنهي عن كثرة السؤال عن أمور لا تعنيهم ، لأن التكليف بها مما يشق على النفوس . وفي ذلك من السموّ ما هو حريّ بالاتعاظ والتأدّب . ولا ناهية ، وتسألوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، وعن أشياء جار ومجرور متعلقان بتسألوا ، وأشياء ممنوعة من الصرف ، وسيأتي الحديث عنها مسهبا في باب الفوائد ، وإن شرطية ، وتبد فعل الشرط ، وهو مبني للمجهول ، ونائب الفاعل يعود على أشياء ، ولكم متعلقان ب " تبد " ، وتسؤكم جواب الشرط ، والكاف مفعول به ، وجملة الشرط صفة ل " أشياء " (وَإِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ) الواو عاطفة ، وإن شرطية ، وتسألوا

فعل الشرط ، وحين ظرف زمان متعلق بتسألوا ، وجملة ينزل القرآن في محل جر بالإضافة ، وتبد جواب الشرط ، ولكم متعلقان ب " تبد " .

)

(267/221)

عَفَا اللَّهُ عَنْها وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) جملة عفا اللّه عنها مستأنفة ، مسوقة لبيان أن النهي عنها إنما جرى لاستقصائها وتعذر القيام بها على الوجه الأكمل ، وقد عفا اللّه عنها . ويجوز أن

تكون الجملة صفة ثانية ل " أشياء " ، والواو استئنافية ، واللّه مبتدأ ، وغفور خبر أول ، وحليم خبر ثان . (قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ) .

الجملة إما مستأنفة وهو الأولى ، ولك أن تجعلها نعتا ثانيا ل " أشياء " ، وسألها فعل ماض ومفعول به مقدم ، والضمير يعود على " أشياء " ، ولا بد من تقدير مضاف ، أي : سأل مثلها ، باعتبارها مماثلة لها في المغبّة وجرّ الوبال . وقد أطالوا الكلام في عودة الضمير من غير فائدة . وقوم فاعل ، ومن قبلكم متعلقان بمحذوف صفة قوم ، وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ، وأصبحوا فعل ماض ناقص ، والواو اسمها ، وبها جار ومجرور متعلقان ب "كافرين " وكافرين خبر أصبحوا .

الفوائد :

1 - روي أن سراقة بن مالك أو عكاشة بن محصن قال :

يا رسول اللّه ، الحج علينا كل عام ؟ فأعرض عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، حتى أعاد مسألته ثلاث مرات . فقال صلى اللّه عليه وسلم :

" ويحك ما يؤمنك أن أقول نعم ! واللّه لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم فاتركوني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " .

2- أشياء : ممنوعة من الصرف ، وقد خاض علماء اللغة والنحو في سبب منعها ، ويتلخص مما أوردوه في المذاهب الآتية :

1- مذهب سيبويه والخليل وجمهور البصريين :

أنها منعت من الصرف لألف التأنيث الممدودة ، وهي اسم جمع ل " شيء " والأصل " شيئاء " بوزن فعلاء ، فقدمت اللام على الألف كراهية اجتماع همزتين بينهما ألف .

2- مذهب الفرّاء :

(268/221)

وهو أن أشياء جمع ل " شيء " وإن أصلها " أشيئاء " ، فلما اجتمع همزتان بينهما ألف حذفوا الهمزة الأولى تخفيفا .

3- مذهب الكسائي :

فقد ذهب إلى أن وزن أشياء : أفعال ، وإنما منعوا صرفه تشبيها له بما في آخره ألف التأنيث .

وهناك مذاهب أخرى أضربنا عنها لأنها لا تخرج عن هذه الفحوى .

[سورة المائدة (5) : آية 103]

ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (103)

اللغة :

(بَحِيرَةٍ) : بفتح الباء وكسر الحاء ، فعيلة بمعنى مفعولة ، ولحقتها التاء على غير قياس ، لأنها جردت من الوصفية وأصبحت بمعنى الجوامد . وقد اختلف أهل اللغة فيها اختلافا كثيرا ، وأقوى الأقوال فيها أن أهل الجاهلية كانوا إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن ، آخرها ذكر ، شقّوا أذنها وحرموا ركوبها ، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى ، وإذا لقيها المعيي لم يركبها ، وهي تختلف باختلاف عادات العرب .

(سائِبَةٍ) : كان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم : إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة . وقيل : كان الرجل إذا أعتق عبدا قال : هو سائبة . فهي اسم فاعل من ساب يسيب أي : سرح ، كسيّب الماء فهو مطاوع سيّبته ، يقال : سيّبه فساب وانساب .

(وَصِيلَةٍ) وقد اختلفوا في معناها اختلافا شديدا لا يتسع له المقام ، وأقرب ما قيل فيها أن الجاهلية كانوا إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ، فهي فعيلة بمعنى فاعلة ، فتاؤها على القياس .

(حامٍ) : اسم فاعل من حمى يحمي إذا منع ، والخلاف شديد حولها فقد كانوا يقولون : إذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قد حمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يحمل عليه ، ولا يمنع

من ماء ، ولا مرعى . وكلها عادات لم يأمر اللّه بشيء منها ، وما شرعها .

الاعراب :

(269/221)

(ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ) كلام مستأنف مسوق لشجب عادات وأعمال من عاداتهم وأعمالهم مبتدعة ، لم يأمر اللّه بها ولم يشرعها . وما نافية ، وجعل بمعنى خلق ، فهي تتعدى لواحد ، أو بمعنى صيّر فتتعدى لاثنين ، ويكون الثاني محذوفا ، أي : صيرها مشروعة . واللّه فاعل ، ومن حرف جر زائد ، وبحيرة مجرورا لفظا مفعول به منصوب محلا ، وما بعده عطف عليه (وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) الواو عاطفة أو حالية ، ولكن واسمها ، وجملة كفروا صلة الموصول لا محل لها .

وجملة يفترون خبر لكن ، وعلى اللّه متعلقان بيفترون ، والكذب مفعول به . والواو عاطفة أو حالية ، وأكثرهم مبتدأ ، وجملة لا يعقلون خبر أكثرهم .

[سورة المائدة (5) : الآيات 104 إلى 105]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ

آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ (104) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

الاعراب :

)

(270/221)

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ : تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ) الواو استئنافية أو عاطفة ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب الآتي ، وجملة تعالوا في محل نصب مقول القول ، والى ما أنزل اللّه الجار والمجرور متعلقان بتعالوا ، وأنزل اللّه فعل وفاعل ، والجملة صلة ، والى الرسول عطف عليه (قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا) جملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وحسبنا مبتدأ ، وما اسم موصول في محل رفع خبر ، وجملة وجدنا لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وعليه متعلقان بوجدنا ، وآباءنا مفعول به (أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي ، والواو عاطفة على مقدر ، تقديره : أحسبهم ذلك ؟ أو حالية ، أي : ولو كان آباؤهم جهلة ضالين . ولو شرطية وجوابها محذوف تقديره : يقولون ذلك . وكان واسمها ، وجملة لا

يعلمون خبرها ، وشيئا مفعول به ، وجملة لا يهتدون عطف على جملة لا يعلمون (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن كل إنسان مسئول عن نفسه ، ولا يرد على هذا أن فيه مندوحة لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن ذلك مرهون بالطاقة .

قال صلى اللّه عليه وسلم : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه " . وعليكم اسم فعل أمر منقول بمعنى الزموا ، وأنفسكم مفعول به لاسم الفعل (لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) الجملة مستأنفة ، ولا نافية ، يضركم فعل مضارع ، والكاف مفعول به ، ومن اسم موصول في محل رفع فاعل بضركم . وجملة ضل صلة الموصول ، وإذا ظرف مستقبل متضمن

(271/221)

معنى الشرط متعلق بالجواب المقدر ، أي : فلا يضركم ، وجملة اهتديتم في محل جر بالإضافة (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الجملة مستأنفة ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومرجعكم مبتدأ مؤخر ، وجميعا حال ، فينبئكم الفاء عاطفة ، وينبئكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، وبما متعلقان بينبئكم ، وجملة كنتم

صلة الموصول ، والتاء اسم كان ، وجملة تعملون خبرها .

الفوائد :

اختلف النحاة في الضمير المتصل ب " عليكم " و" إليكم " و" لديكم " و" مكانكم " ، والصحيح أنه في موضع جر ، كما كان قبل أن تنقل الكلمة إلى الإغراء ، فإما أن يكون مجرورا بالحرف نحو :

" عليكم " بحسب ما كان ، أو بالإضافة نحو : " لديكم " . وقيل :

إن الكاف حرف خطاب ، وهذا القول عندي أسهل ، وقد أيده ابن بابشاذ ، ونورد هنا تلخيصا هاما لأسماء الأفعال ، فهي ضربان :

1- مرتجل : وهو ما وضع من أول الأمر كذلك ، أي : اسما للفعل ، كشتان وأفّ وصه .

2- منقول : وهو ما وضع من أول الأمر لغير اسم الفعل ، ثم نقل من غيره إليه ، وهو ثلاثة أنواع :

آ- من جار ومجرور نحو : عليك بمعنى الزم .

ب- من ظرف المكان نحو : دونك الكتاب ، أي : خذه ، ومكانك ، أي : اثبت ، وأمامك ، أي : تقدم ، ووراءك ، أي : تنح .

ج- منقول من مصدر نحو : رويد خالدا ، أي : أمهله ، وبله هذا الأمر ، أي : دعه .

قال يصف السيوف :

تذر الجماجم ضاحيا هاماتها بله الأكفّ كأنها لم تخلق

واستعمله أبو الطيب المتنبي فقال :

أقلّ فعالي بله أكثره مجد وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جدّ

ولأسماء الأفعال تفاصيل أخرى يرجع إليها في مظانها .

[سورة المائدة (5) : الآيات 106 إلى 108]

(272/221)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُما اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (108)

اللغة :

(ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ) أي : سافرتم .

(الْأَوْلَيانِ) : مثنى الأولى ، أي : الأحق بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما .

الاعراب :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان أحكام تتعلق بأمور الدنيا بعد بيان الأحوال المتعلقة بأمور الآخرة . وشهادة مبتدأ ، وبينكم مضاف اليه ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب المحذوف ، أي : فشهادة اثنين ، وجملة حضر أحدكم الموت في محل جر بالإضافة ، وحين الوصية ظرف متعلق بحضر ، واثنان خبر شهادة ، ولا بد من تقدير مضاف محذوف ، وذلك ليتطابق المبتدأ

(273/221)

و الخبر ، وذلك لأن الشهادة لا تكون هي الاثنان ، إذ الجثة لا تكون خبرا عن المصدر .

وجوّز الزمخشري أن تكون شهادة مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : فيما فرض عليكم شهادة ، واثنان فاعل بشهادة ، أي :

أن يشهد اثنان . وهذا ما جرى عليه ابن هشام أيضا . وذوا عدل صفة ل " اثنان " ،

ومنكم صفة أيضا (أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ) أو حرف عطف ، وآخران عطف على " اثنان " ، ومن غيركم متعلقان بمحذوف صفة ل " آخران " أي : من غير ملتكم ، وإن شرطية ، وأنتم فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله ، أي : فالشاهدان آخران ، وجملة ضربتم مفسرة لا محل لها ، وفي الأرض متعلقان بضربتم ، وجملة الشرط معترضة لا محل لها (فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ) الفاء عاطفة للترتيب مع التعقيب ، وأصابتكم عطف على ضربتم ، ومصيبة الموت فاعل أصابتكم ، وتحبسونهما فعل مضارع ومفعول به ، وقد اختلفوا في موضع هذه الجملة ، والأظهر أنها صفة ل " آخران " .

وقال الزمخشري : " فإن قلت : ما موضع تحبسونهما ؟ قلت : هو استئناف كلام : كأنه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما : فكيف نعمل إن ارتبنا بهما ؟ فقيل : تحبسونهما " . وعقب أبو حيّان على ذلك فقال :

وما قاله الزمخشري من الاستئناف أظهر من الوصف لطول الفصل بالشرط والمعطوف عليه بين الموصوف وصفته ، ولا موجب لهذا الزعم .

ومن بعد الصلاة متعلقان بتحبسونهما (فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى) الفاء عاطفة ، ويقسمان عطف على تحبسونهما ، وبالله متعلقان بيقسمان ،

وإن شرطية ، وارتبتم فعل وفاعل في محل جزم فعل الشرط ، والجواب محذوف دل عليه ما قبله ، وتقديره : إن ارتبتم فيهما فحلفوهما . وفعل الشرط وجوابه المقدر

(274/221)

جملة لا محل لها لأنها معترضة بين القسم وجوابه ، وليست هذه الآية مما اجتمع فيه شرط وقسم فأجيب بالمتقدم منهما ، وحذف جواب الآخر لدلالة جواب الشرط عليه ، لأن تلك المسألة مشروطة بأن يكون القسم صالحا لأن يكون جوابا للشرط ، حتى يسدّ مسد جوابه ، نحو : واللّه إن تزرني لأكرمنّك ، لأنك إن قدّرت : " إن تزرني أكرمك " صح ، وهنا لا يقدر جواب الشرط ما هو جواب للقسم ، بل يقدر جوابه قسما برأسه . ألا ترى أن تقديره هنا : " إن ارتبتم فحلفوهما " ، ولو قدرته غير ذلك لم يصحّ ! وقال آخرون : إن ثمّ قولا محذوفا تقديره : فيقسمان باللّه ويقولان هذا القول في أيمانهما .

والعرب تضمر كثيرا القول ، كقوله تعالى : " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام " ، أي : يقولون : " سلام عليكم " ، ولا نافية ، ونشتري فعل مضارع مرفوع ، والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم ، وبه متعلقان بنشتري ، وثمنا مفعول به ، والواو حالية ، ولو شرطية ، وكان فعل ماض ناقص ، واسمها مستتر ، أي : المقسم له ، وذا قربى خبر كان ، وجواب " لو

" محذوف دل عليه ما قبله ، أي :

فلا نشتري به ، وجملة لو الشرطية وما في حيزها في محل نصب حال (وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ) الواو عاطفة ، وجملة لا نكتم عطف على منتظم معه في حكم القسم ، وشهادة الله مفعول به ، وإن واسمها ، وإذن حرف جواب وجزاء مهملة ، واللام المزحلقة ، ومن الآثمين متعلقان بمحذوف خبر إن ، وجملة إن وما في حيزها لا محل لها بمثابة التعليل لعدم الكتمان (فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً) الفاء استئنافية ، وإن شرطية ، وعثر فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط ، وعلى أنهما جار ومجرور نائب فاعل ، أي : فإن اطلع

(275/221)

على استحقاقهما الإثم ، وأن واسمها ، وجملة استحقا في محل رفع خبر أن ، والألف فاعل استحقا ، وإثما مفعول استحقا (فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ) الفاء رابطة لجواب الشرط ، وآخران مبتدأ ، ساغ الابتداء به لأنه وصف ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف ، وجملة يقومان في محل رفع خبر على الأول أو صفة على الثاني ، ومقامهما مفعول مطلق ، ومن الذين صفة ل " آخران " وجملة استحق لا محل لها لأنها صلة

الموصول ، وعليهم متعلقان باستحق ، والأوليان خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هما الأوليان ، أو فاعل استحق ، وجملة فآخران في محل جزم جواب الشرط (فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما) الفاء عاطفة ، ويقسمان فعل مضارع مرفوع عطفا على يقومان ، والألف فاعل ، وبالله متعلقان بيقسمان ، واللام واقعة في جواب القسم ، وشهادتنا مبتدأ ، وأحق خبر ، ومن شهادتهما متعلقان بأحق ، وجملة شهادتنا لا محل لها لأنها واقعة في جواب القسم (وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ) الواو استئنافية ، وما نافية ، واعتدينا فعل ماض وفاعل ، وإن واسمها ، وإذن حرف جواب وجزاء مهمل ، ومن الظالمين خبر إن ، والجملة تعليلية لا محل لها (ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها) اسم الإشارة مبتدأ ، وأدنى خبر ، والجملة مستأنفة ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر مضاف لأدنى ، وبالشهادة متعلقان بيأتوا ، وعلى وجهها متعلقان بمحذوف حال (أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ) أو حرف عطف ، ويخافوا عطف على يأتوا ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول ليخافوا ، وأيمان نائب فاعل ترد ، والظرف بعد متعلق ب " ترد " ، وأيمانهم مضاف إليه (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ) الواو

(276/221)

استئنافية ، واتقوا اللّه فعل أمر وفاعل ومفعول به ، واسمعوا عطف على اتقوا ، والواو استئنافية واللّه مبتدأ ، وجملة لا يهدي خبر ، والقوم مفعول به ، والفاسقين صفة للقوم .

الفوائد :

هذه الآيات الثلاث شغلت المفسرين والمعربين كثيرا فأطالوا الحديث ، وليس ثمة ما يستدعي الإطالة ، فقد ذكر مكي بن أبي طالب في كتابه المسمى ب " الكشف " أن هذه الآيات في قراءاتها وإعرابها وتفسيرها ومعانيها وأحكامها من أصعب آي القرآن . وقال السخاوي :

لم أر أحدا من العلماء تخلص كلامه فيها من أولها إلى آخرها . وقال السمين الحلبي : وأنا أستعين اللّه في توجيه إعرابها واشتقاق مفرداتها وتصريف كلماتها وقراءاتها ومعرفة تأليفها ، وأما بقية علومها فنسأل اللّه العون في تهذيبه . وقد حاولنا نحن الاختصار جهد الطاقة ، واكتفينا بقراءة حفص ، أما بقية أحكامها فلا بد من النظر في كتب الحديث وكتب التفسير المطوّلة .

[سورة المائدة (5) : الآيات 109 إلى 110]

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (109) إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ

كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110)

اللغة :

(الْأَكْمَهَ) : الأعمى المطموس البصر .

الاعراب :

(277/221)

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ : ما ذا أُجِبْتُمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان ما جرى بينه وبين الرسل جميعا . ويوم ظرف زمان متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، وجملة يجمع في محل جر بالإضافة ، والله فاعل ، والرسل مفعول به ، والفاء حرف عطف ، ويقول فعل مضارع معطوف على يجمع ، ماذا اسم استفهام في محل نصب مفعول مطلق ، أي : أيّ إجابة أجبتم ، ولك أن تعرب " ما " اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ، و" ذا " اسم موصول خبر " ما " ، وجملة أجبتم لا محل لها على كل حال ، وقد تقدمت نظائره ، وجملة ماذا أجبتم

مقول القول .

(قالُوا : لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) قالوا فعل وفاعل ، والجملة

(278/221)

مستأنفة ، ولا نافية للجنس ، وعلم اسمها المبني على الفتح ، ولنا متعلقان بمحذوف خبرها ، وجملة لا علم لنا في محل نصب مقول القول ، وإن واسمها ، وأنت مبتدأ وعلام الغيوب خبر أنت ، والجملة في محل رفع خبر إن ، وجملة إن وما في حيزها تعليلية لا محل لها (إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بما تعلق به يوم لأنه بدل منه ، وجملة قال في محل جر بالإضافة ، ويا حرف نداء وعيسى منادى مفرد علم مبني على الضم المقدر على الألف في محل نصب ، وابن بدل أو نعت لعيسى ، ومريم مضاف إليه (اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى والِدَتِكَ) الجملة كلها في محل نصب مقول القول ، واذكر فعل أمر ، ونعمتي مفعول به ، وعليك متعلقان بنعمتي ، وعلى والدتك عطف على " عليك " (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) الظرف بدل من نعمتي بدل اشتمال ، ويجوز أن يتعلق بنعمتي أيضا ، وجملة أيدتك في محل جر بالإضافة ، وبروح القدس متعلقان بأيدتك ، وجملة تكلم الناس في محل نصب حال من الكاف في أيدتك ، وفي المهد متعلقان

بمحذوف حال ، أي : حالة كونك طفلا ، وكهلا عطف عليه ، فهو حال أيضا ، والمعنى : إلحاق حالة الطفولة بحالة الكهولة ، في كمال العقل ، وتمام الرّوّية (وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ) الواو حرف عطف ، والظرف معطوف على إذ أيدتك ، وجملة علمتك في محل جر بالإضافة ، وهي فعل وفاعل ومفعول به أول ، والكتاب مفعول به ثان ، أي : الكتابة ، وما بعده عطف عليه (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي) الظرف معطوف على ما سبقه ، وجملة تخلق في محل جر بالإضافة ، ومن الطين متعلقان بتخلق ، وكهيئة الكاف اسم بمعنى مثل في محل نصب مفعول به لتخلق ، وهيئة مضاف إليه وهو مضاف ، والطير مضاف إليه ، وبإذني متعلقان بمحذوف حال (

(279/221)

فَتَنْفُخُ

فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي)

الفاء حرف عطف ، وتنفخ عطف على تخلق ، وفيها متعلقان بتنفخ ، فتكون عطف على فتنفخ ، وطيرا خبر تكون ، وبإذني متعلقان بمحذوف حال (وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي) عطف على ما تقدم (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي) عطف أيضا (وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي

إِسْرائِيلَ عَنْكَ) عطف أيضا ، وبني إسرائيل مفعول كففت ، وعنك متعلقان ب "كففت "

(إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) الظرف متعلق بكففت

لا باعتبار المجيء بالبينات فقط بل باعتبار ما يعقب ذلك ويترتب عليه حين همّهم بقتله ،

وجملة جئتهم في محل جر بالإضافة ، وبالبينات متعلقان بجئتهم ، فقال : الفاء عاطفة ،

وقال فعل ماض معطوف على جئتهم ، والذين فاعل وجملة كفروا صلة ، ومنهم متعلقان

بكفروا ، وإن نافية ، وهذا اسم إشارة في محل رفع مبتدأ ، وإلا أداة حصر ، وسحر خبر

هذا ، ومبين صفة ، والجملة في محل نصب مقول القول .

[سورة المائدة (5) : الآيات 111 إلى 113]

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (111)

إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ

اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ

صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (113)

اللغة :

)

مائِدَةً) المائدة : الخوان إذا كان عليه الطعام ، فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة ، وهذا هو المشهور كما نصّ عليه الثعالبي ، غير أن الراغب قال : المائدة الطبق الذي عليه الطعام . وتقال أيضا المطعام نفسه . إلا أن هذا مخالف لما هو مشهور متعالم عند علماء اللغة .

وهذه المسألة لها نظائر في اللغة : لا يقال للخوان مائدة إلا إذا كان عليه طعام وإلا فهو خوان ، بتثليث الخاء . ولا يقال : كأس إلا وفيها خمر ، وإلا فهي قدح . ولا يقال ذنوب وسجل إلا وفيه ماء ، وإلا فهو دلو ، ولا يقال : جراب إلا وهو مدبوغ ، وإلا فهو إهاب . ولا يقال : قلم إلا وهو مبريّ ، وإلا فهو أنبوب . ولا يقال : كوز إلا إذا كانت له عروة ، وإلا فهو كوب . ولا يقال : فرو إلا إذا كان عليه صوف . وإلا فهو جلده ولا يقال : ريطة إلا إذا كانت ذات لفقين وإلا فهي ملاءة . ولا يقال :

رمح إلا إذا كان عليه سنان ، وإلا فهو قناة . ولا يقال : لطيمة إلا إذا كان عليها طيب ، وإلا فهي عير . ولا يقال : خاتم إلا إذا كان فيه فصّ ، وإلا فهو فتخة . هذا ما ذكره الثعالبي نقلا عن أبي عبيدة .

ونقل عن غير أبي عبيدة من أئمة اللغة : أنه لا يقال : نفق إلا إذا كان له منفذ ، وإلا فهو سرب . ولا يقال : عهن إلا إذا كان مصبوغا ، وإلا فهو صوف . ولا يقال خدر إلا إذا كان مشتملا على جارية ، وإلا فهو ستر . ولا يقال : ركيّة إلا إذا كان فيها ماء قلّ أو كثر ، وإلا

فهي بئر . ولا يقال : وقود إلا إذا تقدمت فيه النار ، وإلا فهو حطب .

ولا يقال : سياع إلا إذا كان فيه تبن ، وإلا فهو طين . ولا يقال : عويل إلا إذا كان فيه رفع صوت ، وإلا فهو بكاء . ولا يقال : ثرى إلا إذا

(281/221)

كان نديا ، وإلا فهو تراب . ولا يقال للعبد : آبق إلا إذا كان ذهابه من غير خوف ولا كدّ عمل ، وإلا فهو هارب . ولا يقال لماء الفم : رضاب إلا ما دام في الفم ، وإلا فهو بزاق . ولا يقال للشجاع : كميّ إلا إذا كان شاكي السلاح ، وإلا فهو بطل . ولا يقال للمرأة ظعينه إلا ما دامت راكبة في الهودج . هذا وقد اختلف اللغويون في اشتقاق المائدة ، فقال أبو عبيدة . واختاره الزمخشريّ : هي فاعلة بمعنى مفعولة ، مشتقة من : ماده أي أعطاه ، وامتاده بمعنى استعطاه ، فهي بمعنى مفعولة كعيشة راضية .

الاعراب :

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي) الواو حرف عطف ، والكلام معطوف على ما تقدم ، وجملة أوحيت في محل جر بالإضافة ، وأن مفسرة ، لأنها وردت بعد ما هو بمعنى القول دون حروفه ، وجملة آمنوا لا محل لها لأنها مفسرة (قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا

مُسْلِمُونَ) الجملة مستأنفة ، وجملة آمنا في محل نصب مقول القول ، والباء حرف جر وأن وما في حيزها في تأويل مصدر مجرور بالباء ، والجار والمجرور متعلقان ب " اشهد " ، ومسلمون خبر أنّ (إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ) الجملة مستأنفة لحكاية حال ماضية ، والظرف متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، وجملة قال في محل جرّ بالإضافة ، والحواريون فاعل ، ويا حرف نداء ، وعيسى منادى مفرد علم مبني على الضم ، وابن بدل من " عيسى " على اللفظ أو على المعنى ، فيجوز ضم النون وفتحها ، كما سيأتي في باب الفوائد ، ومريم مضاف إليه (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ) الجملة في

(282/221)

محل نصب مقول القول ، وهل حرف استفهام ، ويستطيع ربك فعل مضارع وفاعل ، وأن ينزل أن المصدرية وما بعدها في تأويل مصدر مفعول يستطيع ، ومائدة مفعول ينزل ، ومن السماء جار ومجرور متعلقان بينزل ، ولا بأس بأن يتعلقان بمحذوف صفة لمائدة (قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما قاله لهم بصدد سؤالهم . وجملة اتقوا اللّه في محل نصب مقول القول ، وإن شرطية ، وكان واسمها وخبرها ، وكان فعل الشرط ، والجواب محذوف يفهم من سياق الكلام ، أي إن كنتم مؤمنين بقدرته تعالى وبصحة نبوتي

فتجنبوا هذه السؤالات المتعنتة (قالُوا : نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا) الكلام مستأنف مسوق لبيان ما قالوه تسويفا لسؤالهم ، وجملة نريد في محل نصب مقول القول ، وأن وما في حيزها مصدر مؤول مفعول نريد ، ومنها متعلقان بنأكل ، وتطمئن قلوبنا الجملة معطوفة على " أن نأكل منها " (وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَنَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ) الواو عاطفة ، ونعلم عطف على نأكل وتطمئن وتكون حجة لنا أمام الذين لم يشهدوها من بني إسرائيل ليزداد المؤمنون رسوخا في الإيمان ، ويزول الشك من صدور الشّاكّين والمرتابين ، ويؤمن الكافرون . وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، وجملة قد صدقتنا خبرها ، ونكون عطف على نعلم ، واسم نكون مستتر تقديره نحن ، ومن الشاهدين متعلقان بمحذوف خبر نكون ، وعليها متعلقان بالشاهدين .

الفوائد :

إذا كان المنادى مفردا علما متبوعا ب " ابن " ولا فاصل بينهما

و " ابن " مضافا إلى علم جاز في المنادى وجهان : ضمه للبناء ونصبه لاتباع حركة " ابن " ، قال عمرو بن كلثوم :

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

[سورة المائدة (5) : الآيات 114 إلى 115]

قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (115)

اللغة :

(عِيداً) العيد : معروف ، وهو مشتق من العود ، لأنه يعول كل سنة . وإنما كسرت عينه لأن الواو وقعت بعد كسرة ، والأصل :

عويد ، كميزان أصلها : موزان ، فقلبت الواو ياء لوقوعها بعد الكسرة .

الاعراب :

(قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) كلام مستأنف مسوق لشروعه بالدعاء بعد أن تبيّن له صدقهم . وقال عيسى فعل وفاعل ، وابن بدل أو نعت ، ومريم مضاف إليه (اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ)

اللهم أصله : يا اللّه ، فحذف حرف النداء وعوضت منه الميم المشددة ، وقد تقدم بحثه . وربنا نداء ثان ، وأنزل فعل أمر للدعاء ، وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ، وعلينا متعلقان بأنزل ، ومائدة مفعول به ومن السماء متعلقان بمحذوف صفة لمائدة ، أو متعلقان

بأنزل أيضا .

)

(284/221)

تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ) جملة تكون صفة ثانية لمائدة ، أي : يكون يوم نزولها عيدا ، واسم تكون مستتر تقديره هي ، وعيدا خبر تكون ، ولنا متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة تقدمت على موصوفها ، وهو قوله : " عيدا " ، ولأولنا الجار والمجرور متعلقان بمحذوف بدل من " لنا " بتكرير العامل ، وآخرنا عطف على " أولنا " ، وآية عطف على " عيدا " ، ومنك متعلقان بمحذوف صفة لآية (وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) الواو حرف عطف ، وارزقنا فعل أمر للدعاء ، وفاعله مستتر ، ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به ، والواو استئنافية أو حالية ، وأنت مبتدأ ، وخير الرازقين خبر ، والجملة لا محل لها لأنها مستأنفة أو في محل نصب على الحال (قالَ اللَّهُ : إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان استجابة اللّه لدعائه . وإني وما في حيزها في محل نصب مقول القول ، وإن واسمها ، ومنزلها خبر ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بمنزلها لأنه اسم فاعل (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ) الفاء استئنافية ، ومن اسم شرط جازم مبتدأ ، ويكفر

فعل الشرط ، وبعد ظرف قطع عن الإضافة لفظا لا معنى فبني على الضمّ وهو متعلق بيكفر ، ومنكم متعلقان بمحذوف حال (فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) الفاء رابطة للجواب ، وإن واسمها ، وجملة أعذبه خبرها ، وجملة إني أعذبه في محل جزم جواب الشرط ، وعذابا مفعول مطلق وهو اسم مصدر بمعنى التعذيب ،

ولا نافية ، وأعذبه فعل مضارع ، والضمير في " أعذبه " الثانية ناب عن المفعول المطلق لأنه يعود عليه ، والتقدير فإني أعذبه تعذيبا لا أعذب مثل ذلك التعذيب أحدا ، وأحدا مفعول به ، والجملة المنفية صفة ل " عذابا " ، ومن العالمين متعلقان بمحذوف صفة ل " أحدا " .

(285/221)

وجملة فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ " من " .

الفوائد :

ينوب عن المصدر ثلاثة عشر شيئًا فتعطى حكمه وهي :

1- اسم المصدر : أعطيتك عطاء .

2- صفته : اذكروا اللّه كثيرا .

3- ضميره العائد اليه : كالآية المتقدمة .

4- مرادفه : فرح جذلا .

5- مصدر يلاقيه في الاشتقاق : أنبتكم نباتا .

6- ما يدل على نوعه : رجع القهقرى ، وقول الأعشى :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهويني كما يمشي الوجي الوحل

7- ما يدل على آلته : ضربت اللص سوطا .

8- أيّ الاستفهامية وكم الاستفهامية أو الخبرية نحو : " وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون " ، وقول المتنبي :

كم قد قتلت وكم قد متّ عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن

9- ما يدل على عدده : " فاجلدوا كلّ واحد منهما مئة جلدة " .

10- ما ومهما وأي الشرطيات : ما تفعل أفعل ، ومهما تقف أقف وأي عمل تعمله تجاز عليه .

11- لفظا كل وبعض مضافين إلى المصدر : " فلا تميلوا كل الميل " واجتهد بعض الاجتهاد .

12- اسم الاشارة مشارا به إلى المصدر : اجتهدت ذلك الاجتهاد .

13- أيّ الكمالية : وهي التي تدل على معنى الكمال إذا وقعت مضافة للمصدر ، نحو : اجتهدت أي اجتهاد . وإذا وقعت بعد النكرة كانت صفة لها ، كقول أبي العتاهية :

إنّ الشّباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أيّ مفسده

ف "أي" صفة ل "مفسدة" ، وإذا وقعت بعد المعرفة كانت حالا ، نحو : مررت بعبد اللّه أيّ رجل .

[سورة المائدة (5) : الآيات 116 إلى 120]

(286/221)

وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)

الإعراب :

(وَإِذْ قالَ اللَّهُ : يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ) الواو حرف عطف ، والكلام منسوق على " إذ قال الحواريون " فالظرف متعلق بمحذوف تقديره :

اذكر ، وجملة قال اللّه في محل جر بالإضافة وجملة يا عيسى بن مريم في محل نصب مقول القول (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ

إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(287/221)

الهمزة للاستفهام ، وأنت مبتدأ ، وجملة قلت للناس خبر ، والجملة الاستفهامة مقول القول ، وجملة اتخذوني من فعل الأمر والفاعل والمفعول به في محل نصب مقول القول ، وأمي الواو للمعية أو العطف ، وأمي مفعول معه أو معطوف على الياء ، وإلهين مفعول به ثان لاتخذوني ، ومن دون اللّه متعلقان بمحذوف صفة لإلهين ، أي :

كائنين من دونه تعالى ، ولا مانع من تعليقهما بمحذوف حال من فاعل اتخذوني ، أي :

متجاوزين (قالَ : سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ) الجملة مستأنفة مسوقة للتبرؤ مما نسب إليه .

وقال فعل ماض ، وسبحانك مفعول مطلق والجملة مقول القول ، وما نافية ويكون فعل

مضارع ناقص ، ولي جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكون المقدم ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر اسم يكون المؤخر ، وجملة ما يكون لي استئنافية ، وجملة ليس لا محل لها لأنها صلة الموصول ، واسم ليس مستتر تقديره هو ، وبحق الباء حرف جر زائد ، وحق خبر ليس ، ولي متعلقان بمحذوف حال لأنه تقدم على موصوفه ، وما اسم موصول مفعول أقول لأنها متضمنة معنى الجملة وهناك أعاريب أخرى ضربنا عنها صفحا (إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ) الجملة مستأنفة ، وإن شرطية ، وكنت فعل ماض ناقص ، والتاء اسمها ، والفعل الناقص هو فعل الشرط ، وجملة " قلته " خبر كنت ، والفاء رابطة ، وجملة قد علمته في محل جزم جواب الشرط الجازم ، وعلمته فعل وفاعل ومفعول به (تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ) الجملة مستأنفة ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وفي نفسي جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول ، وجملة ولا أعلم ما في نفسك عطف على ما تقدم (إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) إن واسمها ، وأنت

(288/221)

مبتدأ وعلام الغيوب خبر ، والجملة خبر " إن " ، أو " أنت " ضمير فعل ، وعلام خبر " إن " ، والجملة الاسمية خبر إن وجملة إنك وما بعدها لا محل لها لأنها تعليلية (ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما

أَمَرْتَنِي بِهِ) ما نافية ، وقلت فعل وفاعل ، ولهم متعلقان بقلت ، وإلا أداة حصر ، وما اسم موصول مفعول قلت ، وجملة أمرتني به صلة الموصول (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) المصدر المؤول بدل من " ما " ، أو من الهاء في " به " ، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره " هو " ، وجعلها بعضهم مفسرة ، وأكد أن عيسى عليه السلام نقل معنى كلام اللّه بهذه العبارة ، كأنه قال : ما قلت لهم شيئا سوى قولك لي : قل لهم أن اعبدوا اللّه ربي وربكم . وربي بدل من اللّه أو صفة ، وسيأتي في باب الفوائد مزيد من إعراب هذا الكلام (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ) الواو حرف عطف ، وكان واسمها ، وشهيدا خبرها ، وعليهم متعلقان ب " شهيدا " وما دمت فعل ماض ناقص ، والتاء اسمها ، وفيهم متعلقان بمحذوف خبرها ، والظرف المنسبك من ما دمت متعلقان ب " شهيدا " ، أي مدة دوامي مستقرا فيهم (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) الفاء استئنافية ، ولما حينية أو رابطة ، فهي ظرف أو حرف متضمن معنى الشرط ، وجملة توفيتني في محل جرّ بالإضافة أو لا محل لها ، وتوفيتني فعل وفاعل ومفعول به ، أي : أخذتني أخذا وافيا بالرفع إلى السماء ، وهو الأصل في معنى الوفاة ، وجملة كنت لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وكان واسمها ، وأنت ضمير منفصل في محل رفع تأكيد للضمير في كنت ، ولك أن تعربه ضمير منفصل لا محل له ، والرقيب خبر كنت ، وعليهم متعلقان بالرقيب ، والواو استئنافية أو حالية ، وأنت مبتدأ ، وشهيد خبر ،

وعلى كل شيء متعلقان بشهيد (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) إن شرطية وتعذبهم فعل الشرط والهاء مفعول به والفاء رابطة لجواب الشرط والجملة المقترنة بالفاء في محل جزم جواب الشرط وإن واسمها وخبرها والجملة الشرطية مستأنفة مسوقة على وجه الاستعطاف ولهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصوك (قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) كلام مستأنف مسوق لاختتام ما بدأ الحديث به عند ما قال: يوم يجمع الله الرسل، وجملة الاشارة في محل نصب مقول القول وهذا مبتدأ ويوم خبر وجملة ينفع في محل جر بالإضافة، والصادقين مفعول به مقدم، وصدقهم فاعل مؤخر (لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان النفع المذكور، ولهم متعلقان بمحذوف خبر مقدم، وجنات مبتدأ مؤخر، وجملة تجري صفة لجنات، ومن تحتها متعلقان بتجري، والأنهار فاعل، وخالدين حال، وأبدا ظرف زمان متعلق بخالدين (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الجملة دعائية معترضة لا محل لها، وجملة ورضوا عنه عطف عليها، وذلك مبتدأ، والفوز خبر، والعظيم صفة (لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الجملة مستأنفة مسوقة

لتحقيق الحق ، واللّه متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وملك السماوات والأرض مبتدأ مؤخر ، والواو عاطفة ، وما اسم موصول معطوف على الملك ، وفيهن متعلقان بمحذوف صلة الموصول ، وأتى ب " ما " تغليبا لغير العاقل لأنه أدل على العظمة ، وهو مبتدأ ، وقدير خبره ، وعلى كل شيء متعلقان بقدير .

البلاغة :

في قوله : " إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت

(290/221)

العزيز الحكيم " فن من فنون البلاغة ، منقطع النظير ، صعب الإدراك ، يحتاج المتأمل فيه إلى الكثير من رهافة الحسّ ، وشعوف الطبع ، ويسمى فن التخيير . وحدّده علماء البلاغة بأن يأتي الشاعر أو الناثر بفصل من الكلام أو بيت من الشعر يسوغ أن يقفّى بقواف شتى فيتخير منها قافية مرجحة على سائرها ، ويستدل بإيثاره إياها على حسن اختياره وصدق حسه ، وقد تقضي البداهة الأولى بأن تكون غير ما اختاره ، ولكنه عزف عن ذلك لسرّ دقيق كقول أحدهم :

إنّ الغريب الطويل الذيل ممتهن فكيف حال غريب ما له قوت

فإنه يسوغ أن يقول : ما له نشب ، أو ما له سيد ، أو ما له أحد .

وإذا نظرت إلى ما قاله وهو : " ماله قوت " وجدتها أبلغ من الجميع ، وأدلّ على الفاقة والعوز ، وأمسّ بذكر الحاجة ، وأشجى للقلوب ، وأدعى للاستعطاف . فذلك رجحت على ما سواها .

القول في الآية :

ونعود بعد هذا التعريف السريع لهذا الفن إلى الآية التي نحن بصددها فنقول : إن البداهة البدائية تقضي بأن تكون الفاصلة :

" إنك أنت الغفور الرحيم " لملاءمتها لقوله : " إن تغفر " ولمناسبته ما بين الغفران والغفور ، ولكنّ هذا الوهم الناجم عن هذه البداهة سرعان ما يزول أثره عند ما يذكر المتوهم أن هؤلاء قد استحقوا العذاب دون الغفران ، فيجب أن تكون الفاصلة : " العزيز الحكيم " إذ لو

جاءت " الغفور الرحيم " بعد ذكر الغفران – وهو لا يغفر لهم – فوجب أن تكون الفاصلة كما وردت ، لأن اللّه سبحانه ممتنع عن القهر والمعارضة ، والعزيز هو الممتنع ، ولا بد من أن يصف نفسه بعد وصفه بالعزة بالحكمة ، لأنه الحكيم الذي يضع كل شيء موضعه .

طرفة الأصمعي :

وقد مرت معنا في السابق طرفة الأصمعي ، وهي ما ذكره أنه كان يقرأ يوما فقرأ : "

والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من اللّه واللّه غفور رحيم " وكان يسمعه أعرابي ، فاعترضه وغلّطه ، فراجع الأصمعي الآية ، فإذا بها " واللّه عزيز حكيم " ، فقال للأعرابيّ : كيف عرفت ذلك ؟ فقال : يا هذا عزّ فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع . فدهش الأصمعي وأفحم .

وخفي هذا السر على أبي حيان :

وقد خفي سر هذا الفن على أبي حيان – على جلالة قدره – فقال في " البحر " محاولا تعليل الاعتراض ما نصه : " وقال أبو بكر ابن الأنباري : وقد طعن على القرآن من قال : إن قوله : " فإنك أنت العزيز الحكيم " لا يناسب قوله : " وإن تغفر لهم " لأن المناسب " فإنك أنت الغفور الرحيم " . والجواب أنه لا يحتمل إلا ما أنزله اللّه تعالى ، ومتى نقل إلى ما قال والتفسير إنما يكون بجملة غير الأولى .

3 – والثالث أن يكون ما قبلها كلاما تاما لما ذكرناه من أنها وما بعدها جملة مفسرة جملة قبلها ، ولذلك قالوا في قوله تعالى :

" أن الحمد للّه رب العالمين " أنّ " أن " فيه مخففة من الثقيلة ، والمعنى :

أنه الحمد للّه ، ولا يكون تفسيرا لأنه ليس ما قبلها جملة تامة ، ألا ترى أنك لو وقفت على

قوله : " وآخر دعواهم " لم يكن كلاما " .

قلت : ولهذا جنحنا إلى ما اخترناه في إعرابها مصدرية تفاديا للوقوع في هذه المزالق .

2- إذا وقعت " ما " قبل " ليس " أو " لم " أو " لا " أو بعد " إلّا " فهي موصولة ، وإذا وقعت بعد كاف التشبيه فهي مصدرية ، وإذا وقعت بعد الباء فهي تحتملهما ، وإذا وقعت بين فعلين والأول علم أو دراية أو نظر احتملت الموصولية والاستفهامية .

3- كل ما كان من أسماء الزمان مبهما لما مضى تجوز إضافته إلى الجملة ، فإن كان ما بعده مبنيا فالبناء على الفتح أرجح للتناسب ، قال النابغة :

(292/221)

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت : ألمّا أصح والشيب وازع

يروى " على حين " بالجر على الإعراب ، و " على حين " بالبناء على الفتح ، وهو الأرجح . وإن كان ما بعده فعلا معربا أو جملة اسمية فالإعراب أرجح كما ورد في الآية : " هذا يوم ينفع " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 2 صـ 542 : حـ 3 صـ 59 ﴾

(293/221)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثانى والعشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/222)

الجزء الثانى والعشرون بعد المائتين

فصول مهمة تتعلق بالسورة

(4/222)

(سورة الأنعام)

(5/222)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الأنعام)

(6/222)

فصل

قال الفخر :

سورة الأنعام

مكية إلا الآيات 20 و23 و91 و93 و114 و141 و151 و152 و153

فمدنية وآياتها 165 نزلت بعد سورة الحجر

قال ابن عباس رضي الله عنه إنها مكيّة نزلت جملة واحدة فامتلأ منها الوادي وشيعها سبعون ألف ملك ونزلت الملائكة فملؤوا ما بين الأخشبين فدعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) الكتاب وكتبوها من ليلتهم إلا ست آيات فانها مدنيات قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ (الأنعام 151) إلى آخر الآيات الثلاث وقوله وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (الأنعام 91) الآية وقوله وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (الأنعام 93) وعن أنس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (ما نزل علي سورة من القرآن جملة غير سورة الأنعام وما اجتمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها وقد بعث بها إليّ مع جبريل مع خمسين ملكاً أو خمسين ألف ملك يزفونها ويحفونها حتى أقروها في صدري كما أقر الماء في الحوض ولقد أعزني الله وإياكم بها عزاً لا يذلنا بعده أبداً فيها دحض حجج المشركين ووعد من الله لا يخلفه) وعن ابن المنكدر لما نزلت سورة الأنعام سبّح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال (لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق)

قال الأصليون هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة والثاني أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد

والعدل والنبوّة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين وذلك يدل على أن علم الأصول في غاية الجلالة والرفعة وأيضاً فإنزال ما يدل على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزله الله تعالى قدر حاجتهم وبحسب الحوادث والنوازل وأما ما يدل على علم الأصول فقد أنزله الله تعالى جملة واحدة وذلك يدل على أن تعلم علم الأصول واجب على الفور لا على التراخي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 117 ﴾

(7/222)

وقال الآلوسى :

سورة الأنعام

كلها مكية إلا ست آيات وما قدروا الله حق قدره إلى تمام ثلاث آيات وقل تعالوا أتل إلى آخر الثلاث وعدة آياتها عند الكوفيين مائة وخمسة وستون وعند البصريين والشاميين ست وستون وعند الحجازيين سبع وستون وقد كثرت الأخبار بفضلها فقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب والاسماعيلي في معجمه عن جابر قال : لما نزلت سورة الانعام سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال عليه الصلاة والسلام : لقد شيع هذ السورة من الملائكة ما سد الأفق وخبر تشييع الملائكة لها رواه جمع من المحدثين إلا أن منهم

من روى أن المشيعين سبعون ألفا ومنهم من روى أنهم كانوا أقل ومنهم من روى أنهم كانوا أكثر وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى الفجر بجماعة وقعد في مصلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام وكل الله به سبعين ملكا يسبحون الله تعالى ويستغفرون له إلى يوم القيامة

وأخرج أبو الشيخ عن حبيب بن محمد العابد قال : من قرأ ثلاث ءايات من أول الأنعام إلى قوله تعالى تكسبون بعث الله تعالى له سبعين ألف ملك يدعون له إلى يوم القيامة وله مثل أعمالهم فإذا كان يوم القيامة ادخله الجنة وسقاه من السلسبيل وغسله من الكوثر وقال : أنا ربك حقا وأنت عبدي إلى غي ذلك من الأخبار وغالبا في هذا المطلب ضعيف وبعضها موضوع كما لا يخفى على من نقر عنها ولعل الأخبار بنزول هذه السورة جملة أيضا كذلك وحكى الامام اتفاق الناس على القول بنزولها جملة ثم استشكل ذلك بأنه كيف يمكن أن يقال حينئذ في كل مرة من آياتها إن سبب نزولها الأمر الفلاني مع أنهم يقولونه والقول بأن مراد القائل بذلك عدم تخلل نزول شيء من آيات سورة أخرى بين أوقات نزول آياتها مما لا تساعده الظواهر بل في الأخبار ما هو صريح فيما يأباه والقول بأنها نزلت مرتين دفعة وتدريجا خلاف الظاهر ولا دليل عليه

ويؤيد ما أشرنا إليه من ضعف الأخبار بالنزول جملة ما قاله ابن الصلاح في فتاويه الحديث الوارد في أنها نزلت جملة ورويناه من طريق أبي بن كعب ولم نر له سندا صحيحا وقد روي ما يخالفه أنتهى ومن هذا يعلم ما في دعوى الامام اتفاق الناس على القول بنزولها جملة فتدبر ووجه مناسبتها لآخر المائدة على ما قال بعض الفضلاء أنها افتتحت بالحمد وتلك اختتمت بفصل القضاء وهما متلازمان كما قال سبحانه : وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين

(9/222)

وقال الجلال السيوطي في وجه المناسبة : أنه تعالى لما ذكر في آخر المائدة لله ملك السموات والأرض وما فيهن على سبيل الإجمال افتتح جل شأنه هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله فبدأ سبحانه بذكر خلق السموات والأرض وضم تعالى إليه أنه جعل الظلمات والنور وهو بعض ما تضمنه ما فيهن ثم ذكر عز أسمه أنه خلق النوع الإنساني وقضى له أجلا وجعل له أجلا آخر للبعث وأنه جل جلاله منشيء القرون قرنا بعد قرن ثم قال تعالى : قل لمن ما في السموات الخ فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرف المكان ثم قال عز من قائل : وله ما

سكن في الليل والنهار فأثبت أنه جل وعلا ملك جميع المظروفات لظرف الزمان ثم ذكر سبحانه خلق سائر الحيوان من الدواب والطير ثم خلق النوم واليقظة والموت ثم أكثر عز وجل في أثناء السورة من الانشاء والخلق لما فيهن من النيرين والنجوم وفلق الاصباح وفلق الحب والنوى وانزال الماء واخراج النبات والثمار بأنواعها وانشاء جنات معروشات وغير معروشات إلى غير ذلك مما فيه تفصيل ما فيهن وذكر عليه الرحمة وجها آخر في المناسبة أيضا وهو أنه سبحانه لما ذكر في سورة المائدة يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا ما أحل الله لكم الخ وذكر جل شأنه بعده ما جعل الله من بحيرة الخ فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله تعالى افتراء على الله عز شأنه وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئا من ذلك فيشابهوا الكفار في صنعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الايجاز ساق جل جلاله هذه السورة لبيان حال الكفار في صنعهم فأتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل ثم جادلهم فيه واقام الدلائل على بطلانه وعارضهم وناقضهم إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة فكانت هذه السورة شرحا لما تضمنته تلك السورة من ذلك على سبيل الاجمال وتفصيلا وبسطا وإتماما وإطنابا وافتتحت بذكر الخلق والملك لأن الخالق والمالك هو الذي له التصرف في ملكه ومخلوقاته اباحة ومنعا وتحريما وتحليلا فيجب أن

لا يعترض عليه سبحانه بالتصرف في ملكه ولهذ السورة أيضا اعتلاق من جهة بالفاتحة لشرحها اجمال قوله تعالى : رب العالمين وبالبقرة لشرحها اجمال قوله سبحانه : الذي خلقكم والذين من قبلكم وقوله عز اسمه الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا وبآل عمران من جهة تفصيلا لقوله جل وعلا والأنعام والحرث وقوله تعالى : كل نفس ذائقة الموت الخ وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق والتقبيح لما حرموه على أزواجهم وقتل البنات وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها وقد يقال : إنه لما كان قطب هذه السورة دائرا على اثبات الصانع ودلائل التوحيد حتى قال أبو إسحاق الإسفرايني : إن في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد ناسبت تلك السورة من حيث أن فيها ابطال ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام وتوبيخ الكفرة على اعتقادهم الفاسد وافترائهم الباطل هذا ثم أنه لما كانت نعمه سبحانه وتعالى مما تفوت الحصر ولا يحيط بها نطاق العد إلا أنها ترجع اجمالا إلى إيجاد وإبقاء في النشأة الأولى وإيجاد وإبقاء في النشأة الآخرة وأشير في الفاتحة التي هي أم الكتاب إلى الجميع وفي الأنعام إلى الإيجاد الأول وفي الكهف إلى الإبقاء الأول وفي سبأ إلى الإيجاد الثاني وفي فاطر إلى الابقاء الثاني ابتدئت هذه الخمس بالتحميد ومن اللطائف أنه سبحانه وتعالى جعل في كل ربع من كتابه الكريم المجيد سورة مفتتحة بالتحميد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ 76 . 77 ﴾

فصل

قال ابن كثير :

سورة الأنعام

[وهي مكية]

قال العَوْفيّ وعِكْرمة وعَطاء ، عن ابن عباس : أنزلت سورة الأنعام بمكة .

وقال الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا حجّاج بن مِنْهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مِهْران ، عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح (1)

وقال سفيان الثوري ، عن لَيْث ، عن شَهْر بن حَوْشَب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : نزلت سورة الأنعام على النبي صلى الله عليه وسلم جملة [واحدة] وأنا آخذة بزمام ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة (2)

وقال شريك ، عن ليث ، عن شهر ، عن أسماء قالت : نزلت سورة الأنعام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) المعجم الكبير (215/12) ورواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص 129) وابن الضريس في فضائل القرآن (ص 157) من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد به ، وفي إسناده علي بن زيد وهو ضعيف .

(6) رواه الطبراني في المعجم الكبير (178/24) من طريق قبيصة عن سفيان به . وقال الهيثمي في المجمع (20/7) : " فيه شهر بن حوشب وهو ضعيف وقد وثق" .

(12/222)

وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد نظموا ما بين السماء والأرض (1)

---

(1) قال الفاضل محمد بن رزق طرهوني في كتابه "موسوعة فضائل القرآن" (258/1) : "الحديث في إسناده ثلاثة ضعفاء في الحفظ وهم المذكورون قبل أسماء ، وبالإضافة إلى هذا ، ففيه علل أخرى :

الأولى : لفظة : "في مسير" دخلت على أحدهم من حديث نزول المائدة المروي عند أحمد وغيره من حديث ليث عن شهر عن أسماء حيث قالت : "إني لآخذة بزمام العضباء ، ناقة رسول الله صلى الله علية وسلم ، إذ أنزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة" . أخرجه أحمد (455/6) : حدثنا أبو النضر ، حدثنا أبو معاوية يعني شيبان

عن ليث به .

الثانية : أن ذكر نزول الأنعام هنا وهم في الأصل من ليث أو شهر ، ولا دخل لشريك فيه ، فقد رواه أحمد بن منيع . (انظر : "إتحاف المهرة" 74/ب/4) والطبراني (178/24) ، وابن مردويه (انظر : "الدر" 2/3) وعلقه ابن كثير – والله أعلم – نقلا من تفسيره 233/3 من طريق الليث عن شهر عن أسماء قالت : "نزلت سورة الأنعام على النبي صلى الله عليه وسلم ، جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي صلى الله عليه وسلم إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة" . ورواه عن ليث سفيان الثوري وإسحاق بن يوسف . والذي من هذا الطريق هو ذكر نزول المائدة كما تقدم ، وإنما دخل الوهم في ذلك على ليث أو شهر ، وحديث أسماء فيما بعد الهجرة بالتأكيد والأنعام مكية بلا خلاف ، ولولا أن ثقل المائدة ليس فضلا خاصا بها بل هو للقرآن جملة ؛ لكنت ذكرت شواهد حديث أسماء في ذلك عند سورة المائدة .

الثالثة : وهم شريك في جعل الحديث عن أسماء ، وإنما هو من مراسيل شهر أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (265/أ/4) أخبرنا جرير ، عن ليث بن أبي سليم ، عن شهر بن حوشب : "نزلت سورة الأنعام ومعها زجل من الملائكة قد نظموا السماء الدنيا إلى الأرض" ، وفيه ليث وشهر وكلاهما ضعيف من قبل حفظه ، وأخرجه الفريابي وعبد بن حميد (انظر : "الدر" 3/3) .

وقال السُّدِّي عن مُرَة ، عن عبد الله قال : نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفًا من الملائكة .

وروي نحوه من وجه آخر ، عن ابن مسعود .

وقال الحاكم في مستدركه : حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ ، وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالا حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدي ، أخبرنا جعفر بن عَوْن ، حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي ، حدثنا محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سَبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : " لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق " . ثم قال : صحيح على شرط مسلم (1)

وقال أبو بكر بن مَرْدُوَيه : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا إبراهيم بن دُرُسْتُويه الفارسي ، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن محمد بن سالم ، حدثنا ابن أبي فديك ، حدثني عمر بن طلحة الرقاشي ، عن نافع بن مالك أبي سهيل ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة ، سَد ما بين الخَافِقَين لهم زَجَل بالتسبيح والأرض بهم تَرْتَجّ " ، ورسول الله [صلى الله عليه وسلم] يقول : " سبحان الله

العظيم ، سبحان الله العظيم " (2)

ثم روى ابن مَرْدُوَيه عن الطبراني ، عن إبراهيم بن نائلة ، عن إسماعيل بن عمرو ، عن يوسف بن عطية ، عن ابن عَوْن ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله : " نزلت عَلَيّ سورة الأنعام جملة واحدة ، وشَيَّعَها سبعون ألفا من الملائكة ، لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتحميد " (3) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 237 . 238 ﴾

---

(1) المستدرك (314/2) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (2431) من طريق الحاكم به ، وقد تعقب الذهبي الحاكم بقوله : "لا والله لم يدرك جعفر السدي ، وأظن هذا موضوعا" . قلت : "وهو على شرط مسلم في المعاصرة ، فإن وفاة السدي كانت سنة 127هـ ، وولادة جعفر بن عون سنة 109 هـ ، فاللقاء بينهما محتمل" . وقول الذهبي : "أظنه موضوعا" . لا وجه له ؛ فرجال إسناد الحديث رجال مسلم ، فالحمل فيه على من ؟!

(2) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (2434) والطبراني في المعجم الأوسط برقم (3317) "مجمع البحرين" من طرق عن أبى بكر أحمد بن محمد بن سالم ، وفي إسناده أبو بكر أحمد بن محمد بن سالم لم أعرفه .

(3) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (3316) "مجمع البحرين" ورواه أبو نعيم في

الحلية (44/3) من طريق إبراهيم بن نائلة به . قال الهيثمي في المجمع (20/7) : "فيه يوسف بن عطية الصفار وهو ضعيف" .

(14/222)

وقال القرطبى :

سورة الأنعام

وهي مكية في قول الأكثرين ؛ قال ابن عباس وقتادة : هي مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة ، قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين والأخرى قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ نزلت في ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري وقال ابن جريج : نزلت في معاذ بن جبل وقال الماوردي وقال الثعلبي سورة ﴿ الأنعام ﴾ مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى آخر ثلاث آيات و ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخر ثلاث آيات قال ابن عطية : وهي الآيات المحكمات وذكر ابن العربي : أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ ﴾ نزل بمكة يوم عرفة وسيأتي القول في جميع ذلك إن شاء الله وفي الخبر أنها نزلت جملة واحدة غير الست الآيات وشيعها سبعون ألف ملك مع آية

واحدة منها اثنا عشر ألف ملك وهي ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ نزلوا بها ليلا لهم زجل بالتسبيح والتحميد فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتبوها من ليلتهم وأسند أبو جعفر النحاس قال : حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو حاتم روح بن الفرج مولى الحضارمة قال حدثنا أحمد بن محمد أبو بكر العمري حدثنا ابن أبي فديك حدثني عمر بن طلحة بن علقمة بن وقاص عن نافع أبي سهل بن مالك عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح" والأرض لهم ترتج ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "سبحان ربي العظيم" ثلاث مرات وذكر الدارمي أبو محمد في مسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : الأنعام من عجائب القرآن . وفيه عن كعب قال : فاتحة "التوراة" فاتحة الأنعام وخاتمتها خاتمة

﴿ هُودُ ﴾ . وقاله وهب بن منبه أيضا وذكر المهدوي قال المفسرون إن ﴿ التَّوْرَاةَ ﴾ افتتحت بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ الآية وختمت بقوله ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ إلى آخر الآية وذكر الثعلبي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "من قرأ ثلاث آيات من أول سورة ﴿ الأنعام ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ وكل الله به أربعين ألف ملك يكتبون له مثله عبادتهم إلى يوم القيامة وينزل ملك من السماء السابعة ومعه مرزبة من حديد ، فإذا

أراد الشيطان أن يوسوس له أو يوحي في قلبه شيئا ضربه ضربة فيكون بينه وبينه سبعون حجابا فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : "امش في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي وكل من ثمار جنتي واشرب من ماء الكوثر واغتسل من ماء السلسبيل فأنت عبدي وأنا ربك" . وفي "البخاري" عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة ﴿ الأنعام ﴾ ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

(15/222)

تنبيه : قال العلماء : هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بنى المتكلمون أصول الدين لأن فيها آيات بينات ترد على القدرية دون السور التي تذكر والمذكورات وسنزيد ذلك بيانا إن شاء الله بحول الله تعالى وعونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 5 صـ 382 . 383 ﴾

(16/222)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الأنعام

مكية وآياتها خمس وستون ومائة أخرج ابن الضريس وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الأنعام بمكة

وأخرج أبو عبيدة وابن الضريس في فضائلهما وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح

وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : أنزلت سورة الأنعام جميعا بمكة معها موكب من الملائكة يشيعونها قد طبقوا ما بين السماء والأرض لهم زجل بالتسبيح حتى كادت الأرض أن ترتج من زجلهم بالتسبيح ارتجاجا فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم زجلهم بالتسبيح رعب من ذاك فخر ساجدا حتى أنزلت عليه بمكة

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة

وأخرج ابن مردويه عن أسماء قالت : نزلت سورة الأنعام على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد نظموا ما بين السماء والأرض

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد قالت : نزلت سورة الأنعام على النبي

صلى الله عليه وسلم جملة واحدة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي صلى الله عليه وسلم إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد "

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والسلفي في الطيوريات عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نزلت علي سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتقديس والأرض ترتج ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم "

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب والإسماعيلي في معجمه عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال " لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق "

(17/222)

وأخرج البيهقي في الشعب وضعفه والخطيب في تاريخه عن علي بن أبي طالب قال : أنزل القرآن خمسا خمسا ومن حفظ خمسا خمسا لم ينسه إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة في ألف يشيعها من كل سماء سبعون ملكا حتى أدوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما قرئت على عليل إلا شفاه الله

وأخرج أبو الشيخ عن أبي كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل "

وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس قال : سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلتا بالمدينة قل تعالوا أتل الأنعام الآيات 151 - 153 إلى تمام الآيات الثلاث

وأخرج الديلمي بسند ضعيف عن أنس مرفوعا " ينادي مناديا : قارىء سورة الأنعام هلم إلى الجنة بحبك إياها وتلاوتها "

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال : نزلت سورة الأنعام كلها جملة معها خمسمائة ملك يزفونها ويحفونها

وأخرج ابن المنذر عن أبي جحيفة قال : نزلت سورة الأنعام جميعا معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة الأنعام الآية 111 فإنها مدنية

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن المنكدر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبح النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال " لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق "

وأخرج الفريابي واسحق بن راهويه في مسنده وعبد بن حميد عن شهر بن حوشب قال : نزلت الأنعام جملة واحدة معها رجز من الملائكة قد نظموا ما بين السماء الدنيا إلى الأرض

قال : وهي مكية غير آيتين قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الأنعام الآيات 151 - 152 والآية التي بعدها

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء قال : أنزلت الأنعام جميعا ومعها سبعون ألف ملك

(18/222)

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبي قال : نزلت الأنعام كلها بمكة إلا آيتين نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود وهو الذي قال ما أنزل الله على بشر من شيء الأنعام الآية 91 الآية

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان قال : نزلت الأنعام كلها بمكة إلا آيتين نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود وهو الذي قال ما أنزل الله على بشر من شيء الأنعام الآية 91 وهو فنحاص اليهودي أو مالك بن الصيف

وأخرج أبو عبيدة في فضائله والدارمي في مسنده ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة وأبو

الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : الأنعام من مواجب القرآن

وأخرج محمد بن نصر عن ابن مسعود قال : الأنعام من مواجب القرآن

وأخرج أبو الشيخ عن حبيب أبي محمد العابد قال : من قرأ ثلاث آيات من أول الأنعام إلى تكسبون بعث الله له سبعين ألف ملك يدعون له إلى يوم القيامة وله مثل أعمالهم فإذا كان يوم القيامة أدخله الله الجنة وسقاه من سلسبيل وغسله من الكوثر وقال : أنا ربك حقا وأنت عبدي حقا

وأخرج ابن الضريس عن حبيب بن عيسى عن أبي محمد الفارسي قال : من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام بعث الله سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة وله مثل أجورهم فإذا كان يوم القيامة أدخله الله الجنة أظله في ظل عرشه وأطعمه من ثمار الجنة وشرب من الكوثر واغتسل من السلسبيل وقال الله : أنا ربك وأنت عبدي

وأخرج السلفي بسنده واه عن ابن عباس مرفوعا قال " من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى ويعلم ما تكسبون نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم وبعث إليه ملك من سبع سموات ومعه مرزبة من حديد فإن أوحى الشيطان في قلبه شيئا من الشر ضربه حتى يكون بينه وبينه سبعون حجابا فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : أنا ربك وأنت عبدي : امش في ظلي واشرب من الكوثر واغتسل من السلسبيل وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من صلى الفجر في جماعة وقعد في مصلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الانعام وكل الله به سبعين ملكا يسبحون الله ويستغفرون له إلى القيامة "

وأخرج عبد الرزاق عن حذيفة " أنه مر بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة وهو يصلي في المسجد قال : فقمت أصلي وراءه فاستفتح سورة البقرة فلما ختم قال : اللهم لك الحمد اللهم لك الحمد وترا ثم افتتح آل عمران فختمها فلم يركع وقال : اللهم لك الحمد ثلاث مرات ثم افتتح سورة المائدة فختمها فركع فسمعته يقول : سبحان ربي العظيم ويرجع شفتيه فاعلم انه يقول : غير ذلك ثم افتتح سورة الأنعام فتركته وذهبت " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ 243.246 ﴾

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها الاستدلال على ما دعا إليه الكتابُ في السورة الماضية من التوحيد بأنه الحاوي لجميع الكمالات من الإيجاد والإعدام والقدرة على البعث وغيره ، وأنسب الأشياء المذكورة فيها لهذا المقصد الأنعام ، لأن الإذن فيها – كما يأتي – مسبب عما ثبت له من الفلق والتفرد بالخلق ، تضمن باقي ذكرها إبطال ما اتخذوه من أمرها ديناً ، لأنه لم يأذن فيه ولا أذن لأحد معه ، لأنه المتوحد بالإلهية ، لا شريك له ، وحصر المحرمات من المطاعم التي هي جُلُّها في هذا الدين وغيره ، فدل ذلك على إحاطة علمه ، وسيأتي في سورة طه البرهان الظاهر على أن إحاطة العلم ملزومة لشمول القدرة وسائر الكمالات ، وذلك عين مقصود السورة ، وقد ورد من عدة طرق – كما بينتُ ذلك في كتابي " مصاعد النظر " أنها نزلت جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك ، لهم زجل بالتسبيح ، وفي رواية : إن نزولها كان ليلاً ، وإن الأرض كانت ترتج لنزولها .

وهي كلها في حجاج المشركين وغيرهم من المبتدعة والقدرية وأهل الملل الزائغة ، وعليها مبنى أصول الدين لاشتمالها على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب الملحدين ، وإنزالها على الصورة المذكورة يدل على أن أصول الدين في غاية الجلالة ، وأن تعلّمه واجب على الفور لنزولها جملة ، بخلاف الأحكام فإنها تفرق بحسب المصالح ،

ولنزولها ليلاً دليلٌ على غاية البركة لأنه محل الأنس بنزوله تعالى إلى سماء الدنيا ، وعلى أن هذا العلم لا يقف على أسراره إلا البصراء الأيقاظ من سنة الغفلات ، أولو الألباب أهل الخلوات ، والأرواح الغالبة على الأبدان وهم قليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ ﴾

(21/222)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض)

هذه السورة مكّيّة ، سوى ستّ آيات منها : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ إلى آخر ثلاث آيات .

هذه الآيات السّت نزلت بالمدينة فى مرّتين ، وبقى السّورة نزلت بمكة دفعة واحدة .

عدد آياتها مائة وخمس وستون آية عند الكوفيّين ، وستّ عند البصريّين والشّأميّين ، وسبع عند الحجازىّ .

وعدد كلماتها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة وعدد حروفها اثنا عشر ألفاً ومائتان

وأَربعون .

والمختلف فيها أَربع آيات ﴿ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ﴿ بِوَكِيلٍ ﴾ ﴿ كُنْ فَيَكُوْن ﴾ ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

فواصل آياتها (لمم ن ظ ر) يجمعها لَمَنظر) .

ولهذه السّورة اسمان: سورة الأَنعام ، لما فيه من ذكر الأَنعام مكرّرًا ﴿ وَقَالُواْ هذه أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ ﴾ ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾ ﴿ وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ ، وسورة الحُجّة ؛ لأَنَّها مقصورة على ذكر حُجّة النبوّة .

وأَيضاً تكرّرت فيه الحجّة ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ .

مقصود السّورة على سبيل الإِجمال ، ما اشتمل على ذكره: من تخليق السّموات والأَرض ، وتقدير النُّور والظلمة ، وقضاءِ آجال الخَلْق ، والرّد على منكِرى النبوّة ، وذكر إِنكار الكفَّار فى القيامة ، وتمنّيهم الرّجوع إِلى الدّنيا ، وذكر تسلية الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم عن تكذيب المكذِّبين ، وإِلزام الحجّة على الكفار ، والنَّهى عن إِيذاءِ الفقراءِ ، واستعجال الكفَّار بالعذاب ، واختصاص الحقّ تعالى بالعلم المغيّب ، وقهره ، وغلبته على المخلوقات ، والنَّهى عن مجالسة النَّاقضين ومؤانستِهم ، وإِثبات البعث والقيامة ، وولادة الخيل عليه السلام ، وعرْض الملَكزت عليه ، واستدلاله ، حال خروجه من الغار ، ووقوع نظره على

الكواكب ، والشمس ، والقمر ، ومناظرة قومه ، وشكاية أَهل الكتاب ، وذكرهم حالة النزع ، وفى القيامة ، وإِظهار بُرْهان التَّوحيد ببيان البدائع والصّنَائع ، والأَمر بالإِعراض عن المشركين ، والنّهى عن سبِّ الأَنام ، وعُبّادها ، ومبالغة الكفَّار فى الطّغيان ، والنّهى عن أَكل ذبائح الكفَّار ، ومناظرة الكفار ، ومحاورتهم فى القيامة ، وبيان شَرْع عَمْروا بن لُحىّ فى الأَنعام بالحلال والحرام ، وتفصيل محرّمات الشريعة الإِسلامية ، ومُحْكَمَات آيات القرآن ، والأَوامر والنّواهى من قوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا ﴾ إِلى آخر ثلاث آيات ، وظهور أَمارات القيامة ، وعلاماتها فى الزّمن الأَخير ، وذكر جزاءِ الإِحسان الواحد بعشرة ، وشكر الرّسول على تبرّيه من الشرك ، والمشركين ، ورجوعه إِلى الحق فى مَحياه ومَمَاته ، وذكر خلافة الخلائق ، وتفاوت درجاتهم ، وختم السّورة بذكر سرعة عقوبة الله لمستحِقّيها ، ورحمته ، ومغفرته لمستوجبيها ، بقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

(22/222)

النّاسخ والمنسوخ

الآيات المنسوخة فى السّورة أَربعَ عشرة آية ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ م ﴿ لِيَغْفِرَ

لَكَ اللَّهُ ﴾ ن ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ م ﴿ فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ ﴾ ن ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ ﴾ م ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ن ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ ﴾ م ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ ن ﴿ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 186. 189 ﴾

(23/222)

فصل

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة الأنعام

" تعريف "

سورة الأنعام قالوا إنها نزلت بعد سورة الحجر ، وإن عدد آياتها خمس وستون ومائة آية كلها

نزل بمكة ما عدا عدة آيات قالوا : إنها نزلت بالمدينة هى الآيات 20 و22 وا 9 و92 و114 وا 14 وا 15 و152 و53- وهى آيات نزلت فى بيان أحكام تتعلق بالحلال والحرام من التكليفات العملية ، وهى لهذا كانت أنسب بالمدينة ؟ ذلك لأن ما يتعلق بالعقيدة قد اختص بمكة ؟ إذ كان فيه بيان الوحدانية فى الذات وفى الصفات والخلق والإنشاء والعبادة والألوهية ، وأنه لا إله إلا هو ، وبيان رسالة الله وأخبار الرسل السابقين ، وما جاءوا به ، وما نزل بأممهم ، وما جاء من أحكام بمكة كان أكثره على ألسنة الأنبياء السابقين وما كانوا يدعون إليه أقوامهم ، فدعوة شعيب – عليه السلام – إلى الإيفاء بالكيل والميزان ، ونهيهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وغير ذلك . أما القرآن المدنى ، فقد نزلت به الأحكام التكليفية العملية ؟ لأنه قد كونت دولة للإسلام ، فكان لا بد من نظم تقيمها ، وأحكام تنظم علاقات آحادها ، وقد ابتدأت العبادات بالصلاة المفروضة فى مكة لمناسبتها للألوهية ، ومعانى العبودية ، ثم أكملت فى المدينة ليتكون رأى عام فاضل ، ومجتمع متضافر متعاون .

ابتدأت السورة ببيان استحقاق الله تعالى وحده للحمد " لأنه خالق السموات والأرض وحده ، وجاعل الظلمات والنور ، وبيان أن أصل خلق الإنسان من طين ، وبيان كمال سلطان الله تعالى فى خلقه ، وعلمه بالسر وما يخفى ، وبيان آيات الله تعالى فى كونه ،

وتلقى الجاحدين ، وما كانوا يكذبون به الحق ، إذ يجيئهم ويستهزئون به لإعراضهم عن الآيات البينات المثبتة الموضحة الكاشفة .

(24/222)

وإن كان المشركون لم يؤمنوا لإعراضهم عن البينات ، فقد أنذرهم سبحانه بعاقبة أمرهم ، ببيان عاقبة من سبقوهم بعد جحودهم ، وأشار سبحانه وتعالى إلى طموس مداركهم ، وجحود نفوسهم ، وعدم تلقيهم للنور والهداية ، وأنه لا يجدى معهم توجيه ، ولا دليل حتى أنهم – لو نزل إليهم من السماء كتاب فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الجاحدون : إن هذا إلا سحر مبين ، كما قال الجاحدون برسالة عيسى – عليه السلام – عند إحيائه الموتى ، وإبرائه الأكمه والأبرص ، ونزول المائدة ، قالوا : إن هذا إلا سحر مبين .

وأن الجاحدين شانهم الاستهزاء بالحق إذ جاءهم ، وأن على النبى أن يتأسى فى استهزائهم به بما كانوا يفعلون مع الأنبياء السابقين ، وبين سبحانه وتعالى سوء عاقبتهم .

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك طائفة من ضلال تفكيرهم باستهزائهم عند ذكر خالق السموات والأرض ، ويتولى – عليه الصلاة والسلام – الإجابة مبينا أن الله كتب على نفسه الرحمة ، وأن من رحمته أن يجمع الناس يوم القيامة ، بيق ثواب المحسن وعقاب المسىء ثم بين

سبحانه وتعالى ملكه لكل شيء وسلطانه الذى فوق كل شيء ، وإذا كان الله مالك كل شيء وفاطر السموات والأرض – لا يمكن أن يتخذ الرسول وليا نصيرا غيره سبحانه ، وأن يكون أول من يسلم وألا يكون من المشركين ، وأن يخاف عذابه إن عصى ، ولا فوز إلا لمن يصرف عنه عذاب يوم القيامة .

وإذا كان سبحانه يملك كل شيء ، فهو كاشف الضر إن مس الإنسان ، وهو القادر على النفع ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، وإذا كان المشركون يستمرون على عنادهم فالله هو الشاهد الحكيم بين الرسول وبينهم ، وشهادته أكبر شهادة ، وأن هذا القرآن أوحى به إلى الرسول لينذر به المشركين ومن يبلغه دعوة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وإن كنتم أيها المشركون تشهدون أن مع الله الهة أخرى ف النبى (صلى الله عليه وسلم) لا يمكن أن يوافق على هذه الشهادة ، بل لا بد أن يكذبها .

(25/222)

وأن أهل الكتاب الذين أوتوا علما بالرسالات يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم ، ومع ذلك لا يؤمنون لأنهم غيروا دينهم أو كتموه ، ولا أحد فى هذا الوجود أكثر ظلما ممن افترى على الله الكذب ، أو كذب بالدلائل القائمة الثابتة الدالة على الحق ، ولا يمكن أن يفلح ظالم

بكتمان الحق أو إظهار الشرك .

وقد بين سبحانه حال المشركين يوم القيامة ، وأنهم لهول يوم القيامة ينكرون أنهم كانوا مشركين .

ومن هؤلاء المشركين من يكون على قلوبهم مثل الأكنة عند الآيات البينات ، ولا يؤمنون بأى آية ، وإذا جاءوا يجادلون قالوا عن الآيات : إن هى إلا أساطير الأولين ، وهم يبتعدون عن الحق ، وينهون غيرهم عن اتباعه ، وهم فى الحالين هالكون بما يفعلون .

ثم يصور سبحانه حالهم فى الآخرة فيقرر أنها مفارقة لحالهم فى الدنيا ، إذ يبدو لهم ما كانوا يخفون ، وهم بذلك قد خسروا خسرانا مبينا وجاءتهم الساعة بغتة من حيث لا يحتسبون ، وأن الدار الآخرة هى دار البقاء ، والحياة ، وكانوا يتوهمون أنه لا حياة بعد الدنيا ، والدنيا بجوارها لهو ولعب ، وذكر سبحانه عزاء النبي صلى الله عليه وسلم بالرسل قبله إذ جحدوا ، ثم لا مناص من أن يبلغ النبى (صلى الله عليه وسلم) وألا يكبر عليه إعراضهم مهما تكن حالهم .

وليعلم أن الذين يستجيبون لدعوته الذين يسمعون ويتعظون هم الأحياء حقا ، والآخرون موتى وسيبعثهم الله ، ويعاقبهم ، وهم الذين لا يسمعون ، ويطلبون آيات أخرى غير التى أعرضوا عنها ، وقد ذكرهم سبحانه بأن الأحياء جميعا من الحيوان والطيور أمم ، والكتاب المحفوظ يحوى كل شىء .

وبين سبحانه أن الذين يعرضون عن الآيات صم لا يستمعون إليها ، وبكم لا ينطقون بالحق ، ويعيشون فى ظلمات لا يبصرون ، ولقد ذكرهم سبحانه بندائهم لله تعالى فى حال شدتهم أو موتهم أو قيامهم أيدعون غير الله ، وبين سبحانه أنه

(26/222)

يختبر الأكل بالضر يصيب أجسامهم ، وبالبؤس يصيب نفوسهم ، ولقد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فظنوه حسنا ، وأنهم كما نسوا ما ذكروا به اختبروا بالنعمة ، ثم أخذوا بغتة ، وهم لا يشعرون ، وقطع دابرهم بسبب ظلمهم ، وذكرهم سبحانه بأنه إذا أخذ سمعهم وبصرهم لا يدركون ، وذكر أنه يصرف لهم الآيات ، ويوجههم إلى الحقائق الثابتة عساهم يفقهون الأمور على وجهها . وقد بين سبحانه عمل الرسل وهو التبشير للمتقين والإنذار للمكذبين ، وأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لا يقول لهم : عندى خزائن الله أصرفها كما أشاء ، ولا يقول لهم : إنه يعلم الغيب ، ولا يقول لهم : إنه ملك ، بل إنه يتبع ما يوحى إليه ، والناس مختلفون بعد ذلك فى تلقى نور الوحى ، وجزاؤهم على حسب حالهم فلا يستوى المحسن والمسىء كما لا يستوى الأعمى والبصير .

وإن الإنذار يكون أثره فى قلوب الذين يخافون يوم القيامة وما يكون فيه من هول .

وإنه يجب أن يكرم أهل الإيمان ، ولا يطردوا لفقرهم أو ضعفهم ، فإنه من فتنة الناس بعضهم ببعض أن يوفق للحق الضعفاء ، ويكذبه الأقوياء ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، ويجب على النبى (صلى الله عليه وسلم) أن يرحب بالمؤمنين ويبين الحق لهم ، وأن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، وهى العدالة وجزاء الحسن بالحسن ، والعفو عن السئ الذى ارتكب بجهالة ، وأمر الله نبيه أن يتخذ من نفسه قدوة حسنة ، فيقول : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دونه وألا أتبع أهواءكم ، وأنه على بينة من ربه ، وأنه ليس بيده العذاب الذى يستعجلونه ، ولو كان عندى لقضى الأمر الذى بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين .

(27/222)

وإن الغيب كله عند الله تعالى ، فعنده سبحانه مفاتحه لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، ويعلم ما نكسب بالنهار ويتوفانا بالليل ، ويستمر الإنسان بين الليل والنهار ، حتى يقضى أجل مسمى ، ثم يكون المرجع إلى الله تعالى . وأنه سبحانه فوق هذا العلم المحيط ، له القوة الكاملة ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو الذى يحفظ عباده ، والمرجع إليه سبحانه ، وهو المنجى من كل سوء ، وهو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت

أرجلكم أو ينزل بكم ما هو أشد ، فيجعلكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، وأن قومك قد كذبوك وما تدعو إليه وهو الحق ، ولكل خبر عظيم مستقر يستقر عنده ، ولست عليهم بوكيل مسئول عما يسيئون به . وإنك واجد منهم لجاجة فى الإنكار ، فذكر ، ولا تقعد معهم إذ يخوضون فى آياتنا ، وما عليك ولا على من معك من المتقين من حسابهم من شىء ، فذرهم ؟ لأنهم اتخذوا دينهم هزوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا ، ولكن ذكرهم فقط حتى لا يسقطوا فى الشر إلى أقصى درجاته ، وينالوا من بعد ذلك عذاب الجحيم ، وقل لهم : أندعوا من دون الله ما لا يضرنا ولا ينفعنا ، ونرد على أعقابنا بعد ذلك إذ هدانا الله كالذى أصابته حيرة باستهواء الشياطين له فى الأرض ، فيدفعه الشيطان إلى التردى ، ويدعوه أصحابه إلى الهدى ، وهو حائر ، وأن الهدى هدى الله ، وأمرنا أن نسلم لرب العالمين وأن نقيم الصلاة ، وأن نؤمن بالله وهو الذى خلق السموات والأرض ويوم يقول : كن ، فيكون ، وقوله الحق ، وله الملك يوم القيامة ، وهو الحكيم الخبير ، عالم الغيب والشهادة .

(28/222)

ولقد بين سبحانه وتعالى قصة الخليل إبراهيم أبى الأنبياء وأخبار ذريته ، وفى هذه القصة بين سبحانه كيف يكون إدراك العقل لله سبحانه ووحدانيته ، مستمدا ذلك من الفطرة

السليمة – رأى الخليل بفطرته أن الأصنام لا يمكن أن تكون آلهة ، وخاطب أباه بذلك ، واعتبره ضلالا ، ثم اتجه إلى تعرف الإله الأوحد ، ظنه فى كوكب ، ولكنه أفل فزال ، والإله لا يزول ، ثم ظنه القمر إذ راه بازغا ، ولكنه أفل أيضا ، واعتبر نفسه تسير فى ضلالة ، وأنه إن لم يهده ربه الذى يؤمن بوجوده ليكونن من الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى ؟ لأنها أكبر ، فلما أفلت أدرك أن الله تعالى لا يكون أمرا محسوسا ، فقرر البراءة من الشرك واتجه إلى الخالق الذى تدل آثاره على وجوده ، ومخالفته لمخلوقاته ، فقال : (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) [الأنعام] ، وأخذ بعد هذه الهداية يحاج قومه ويحاجونه ويذكر لهم أن أوثانهم لا تضر ولا تنفع ، فليسوا موضع خوف منه ، وهم الجديرون بأن يخافوا ؟ لأنهم يشركون بالله ما لم ينزل به حجة تدل على صحة الإيمان بهم ، ثم قال : (. . . فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) [الأنعام] ، . لا شك أن أحق الفريقين بالأمن الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، وتلك حجة الله تعالى الذى أجراها على لسان إبراهيم – عليه السلام – وأجراها من بعده على ألسنة الأنبياء من بعده ، وعلى نوح من قبله . وقد ذكر سبحانه وتعالى الأنبياء من ذريته ، وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة ، وكان من أقوامهم من آمن ، ومنهم من كفر ، فإن يكفر المشركون من العرب الذين بعث إليهم محمد (صلى الله عليه وسلم) فغيرهم مؤمن ؟ وهم يقاومون الشرك ، وقد بين سبحانه وتعالى العبرة فى قصصهم ، فقال : (أولئك الذين هدى

الله فبهداهم اقتده قل لا أسالكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين [الأنعام] ، . وقد بين سبحانه وتعالى بعد قصة

(29/222)

إبراهيم أن الذين يشركون ما قدروا الله حق قدره ، وقد نفوا رسالة الله تعالى ، فسأل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ، وقد كان يعرف أن لليهود كتابا ، وقد بين أن اليهود يخفون بعضه وهو كثير ويظهرون بعضه ، ولا يصح أن يقتدوا بآبائهم ؟ لأنهم علموا ما لم يعلموا من قبل ، ولم يعلمه آباؤهم .

وذكر سبحانه بعد ذلك منزلة القرآن ، وهو أنه كتاب مستمر بهدايته واتباعه ، وأنه نزل على محمد الذى علمتموه أمينا عدلا لا يكذب ، ولا أحد أظلم ولا أكذب ممن يدعى أنه أوحى إليه ، ولم يوح إليه بشىء . . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله من المشركين وأشباههم ، وصور سبحانه وتعالى حال الظالمين ، وهم فى غمرات الموت بالسطى أيديهم بالمنجاة ، ويقال لهم : اليوم أخرجوا أنفسكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ، وأنهم سيذهبون إلى الله مجردين عن الأتباع والنصراء ، وتركوا ما مكنوا فيه من أموال وبنين وأولياء وراء ظهورهم ، وكانوا كما خلقهم أول مرة ، وليس معهم

الشركاء الذين زعموا أنهم يشفعون لهم : (لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) [الأنعام] ، بعد هذه الأدلة الساطعة ، والقصص المذكر ، والتوجيه المنبه ، بين سبحانه أنه

(30/222)

وحده المنشى على غير مثال سبق ، فهو الذى يفلق الحب فيكون منه النبات ، ويفلق النوى فيكون منه الشجر ، وهو يبدع الحياة فى هذا النبت الجامد ، ويخرج ذلك البذر الجامد من الأغصان الرطيبة ، وهو الذى يخرج الإصباح من الظلام ، ويجعل الليل سكنا واطمئنانا بعد كدح النهار ، وهو الذى يجعل الشمس والقمر بحسبان ، وكل ذلك بتقديره ، وهو العزيز العليم ، وهو الذى زين السماء بالنجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البحر ، وذلك ليكون أمارة وجوده ووحدانيته لقوم يعملون عقولهم ، ولا تتسلط عليهم أوهامهم ، وبعد أن بين ذلك التوجيه العام فى خلقه " اتجه إلى بيان خلق الإنسان فأنشأ بنى الإنسان من نفس واحدة ، واستقر فى هذا الوجود ، وأودع الأرحام ودائعها ، وتلك آيات لمن يؤمن ، وينفذ ببصيرته إلى حقائق الأمور ، وبين من بعد ذلك ، الثمرات التى تكون من التقاء السماء بمائها بالأرض فيكون أطيب الثمار ، وأطيب الزرع ، وما فيه من عجائب ، وبين تنوع الخلق ، فأشار سبحانه إلى النخيل والأعناب والزيتون والرمان ، والمتشابه ، وغير المتشابه ، وما يكون من

ثمرات ، وفى كل ذلك لمن يؤمن بالحق ويذعن للحقائق .

ومع كل هذه الآيات البينات التى يدركها من يعقل ، ويصل إلى الحقائق فيها من يفقه ، ويذعن لها من يؤمن بالحق ولا يمارى فيه – مع كل هذه الآيات وجد من جعلوا له شركاء من الجن وهو الذى خلقهم ، ومن يحمقون ، فيدعون أن لله بنات وبنين سبحانه وتعالى عما يصفون . إنه سبحانه خلق السموات والأرض كيف يكون له ولد ذكر أو أنثى وليست له صاحبة ، وإذا كان الله تعالى خالق كل شىء فهو وحده المستحق للعبادة وحده ، وهو سبحانه المنمى لكل شىء بعد خلقه .

(31/222)

وقد بين بعد ذلك بعض صفاته ، فهو لا تدركه الأبصار ؟ لأنه غير محسوس ، وهو يدرك الأبصار ، وهو العالم علما دقيقا لكل شىء ، وأن كل ما سبق ؟ فيه ما يبصركم بالحق ، والتبعة عليكم بعده ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ ، وإن هذا كله تصريف فى القول المعجز ، ليؤمنوا وليقولوا : درست على ربك . ومن بعد ذلك أمر الله تعالى نبيه الكريم بأن يتبع ما يوحى إليه ، وأن يعرض عن المشركين ، والله تعالى هو الذى كتب عليهم الكفر ، وما كان النبى (صلى الله عليه وسلم) حافظا يمنع عنهم الكفر

، ولا حاميا يدافع عنهم .

ولقد علم الله المؤمنين الحكمة بأن ينظروا إلى مآلات أقوالهم ولو كانت حقا ، فلا يسبوا ألهة المشركين حتى يندفعوا فيسبوا الله تعالى ظالمين جاهلين ، ثم هم معاندون ، يقسمون أنهم إن جاءتهم معجزة غير الأقران يؤمنوا ، فردهم سبحانه بأنه يختار من الآيات ما يكون مناسبا وله الحكمة ، والله سبحانه هو مقلب القلوب ، فليتركوا فى ضلالهم وعمايتهم بعد البيان المرشد الحكيم .

وأن هؤلاء كتب الله تعالى عليهم الشقوة إلا أن يرحمهم فيتركوا ما هم فيه

(32/222)

من ضلالة ، فلا تجدى فيهم الآيات إلا أن يشاء الله تعالى ، فلو أنزل الله تعالى عليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى معلنين بعثهم ، وجمع عليهم كل شىء يكون فى المستقبل ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، والله سبحانه وتعالى قد اختبر الأنبياء فجعل لهم من شياطين الأنس والجن أعداء يزخرف بعضهم لبعض القول ويغرونهم ، ولو شاء الله تعالى ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون ، وأنه لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالغيب والآخرة ، بل لا يفهمون إلا ما بين أيديهم ، وبذلك يقترفون الآثام التى يقترفونها لأنهم يقولون إن هذه الحياة الدنيا هى وحدها

الحياة . وأنه لا يمكن أن يكون للمؤمن حكم غير الله ؟ لأنه هو الذى أنزل الكتاب مبينا فيه كل شىء وأهل الكتاب يعرفون ذلك ، ولا يصح أن يكون ذلك موضع شك ، وأنه ببيان القرآن تمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، وهو السميع العليم ، ولا يجوز التقليد للآباء والبيئات ، فإنه إن يطع النبى من فى مكة أو بلاد العرب يضل عن سبيل الله ، لأن سبيل الله تعالى هى الحق والعقل ، وهم يتبعون الظن ويخرصون ، وربك أعلم بمن يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين .

(33/222)

وإن من شركهم أن يذبحوا الذبائح باسم الأصنام فنهى الله تعالى المؤمنين عن أن يأكلوا مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه ، بل إنهم يأكلون ما ذكر اسم الله تعالى عليه ، ولا يصح أن يوجد ما يمنعهم إلا من يكون فى حال اضطرار ، والله أعلم بالمعتدين ، وعلى المؤمنين أن يذروا ظاهر الإثم وباطنه ، وألا يأكلوا مما لم يذكر عليه اسم الله تعالى ، ولا شك أن المشركين سيجادلون فى تحريم هذا وإحلال غيره ، وعلى المؤمنين ألا يطيعوهم ، وإلا كانوا مشركين مثلهم ، وإنه لا يتساوى الميت مع الحى ، وكذلك لا يتساوى الضال الذى هو كالميت مع المؤمن الذى يحيا حياة طيبة وله نور يمشى به فى الظلمات ، ولكن زين لهم سوء أعمالهم .

وإنه ليس بغريب أن يناوئ محمدا أكابر من قريش ، فإن كل قرية يكون فيها اكابر مجرميها ، يمكرون فيها ويسيطرون عليها ، والعاقبة عليهم وما يشعرون ، وهم يحسدون رسل الله تعالى فيطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتى رسل الله ، وذلك شرط لإيمانهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وسيصيبهم صغار بسبب إجرامهم وعذاب شديد بسبب كفرهم ومكرهم السيء لخفض كلمة الله تعالى . ومن يرد الله تعالى الخير له يشرح صدره للإيمان ، ومن يرد غير ذلك منه يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء من شدة ضيق صدره وتوالى آنفاسه ، وبذلك يكون عليه الرجس وعلى الذين لا يؤمنون ، وهذا صراط الله تعالى مستقيما قد فصلنا الآيات وبيناها لقوم يذكرون .

ولقد بين سبحانه وتعالى اختصاص المؤمنين ، فذكر أن لهم دار الأمن والاطمئنان والسلام عند ربهم الذى خلقهم وهو وليهم ، وذلك جزاء عملهم ، وإن الله تعالى يوم يجمعهم جميعا يناديهم يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وأولياؤهم من الإنس يقولون قد استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، فذكر سبحانه أن النار هى المثوى الذى ينتهون إليه ، وكذلك يمكن بعض

الظالمين من بعض بسبب ما كانوا يكسبونه ، ثم فى هذا الجمع الجامع ينادى رب البرية (يا معشر الجن والإنس . . . هو ، ويذكرهم بمن بعث إليهم من رسل يذكرون لهم آياته سبحانه ، وينذرونهم لقاء يومهم هذا ، فيشهدون على أنفسهم ، ولكن غرتهم الدنيا وزخرفها ، وأطغاهم أن الله تعالى لا يهلك القرى بسبب ظلمها ، وأهلها غافلون . ولكل درجات بسبب أعمالهم ، والله لا يترك عمل عامل ، وهو الغنى ذو الرحمة إن شاء يذهبهم ، ويستخلف من بعدهم قوما غيرهم ، وما وعد به سبحانه آت لا محالة لأنه لا يعجزه أحد ، وأمر الله نبيه أن يدعو قومه إلى أن يعملوا ما فيه رفعة مكانتهم واجعل نفسك قدوة لهم فى العمل ، وستعلمون من تكون له عاقبة الدار .

وذكر سبحانه وهما من أوهامهم إذ جعلوا لله تعالى مما خلق من الإبل والبقر والغنم نصيبا وجزءا لما يزعمون آلهة ، فما يجعلونه للشركاء يكون لهم ، وما يكون لله لا يصل إليه ، ويصل إلى شركائهم ، وساء ما يحكمون به فى هذه القضية وغيرها .

ومنهم من كان قد زين لهم الشيطان قتل أولادهم بوهم للالهة التى يزعمون ، فأردوهم ، ولبسوا عليهم دينهم ولو شاء ربك ما فعلوه وهو افتراء فذرهم أيها الرسول بعد أن بينت ، وحرموا على أنفسهم بأوهامهم ، فجعلوا بعض الأنعام للأكل والحرث وأنعام لا يطعمها كل الناس ، وأنعام ممنوعة ، وأنعام حرم ركوبها ، وأنعام يأكلونها من غير ذكر اسم الله ، وكل ذلك افتراء سيجزيهم الله تعالى عليه ، وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام للذكور منا ، ويحرم على

أزواجنا ، هان يكن ميتة فهم فيه شركاء وسيجزيهم الله تعالى على ذلك ، إنه حكيم عليم .

وكانوا يقتلون أولادهم سفها بغير علم ، ويحرمون ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين .

ولقد بين سبحانه أنه أباح الطيبات وهو الذى خلقها وأنشأها للناس ، فذكر

(35/222)

أنه أنشأ جنات معروشات كالأعناب وغير معروشات كالبرتقال وغيره ، والنخل والزرع مختلنما أكله من قمح وشعير وفول وبقول والزيتون والرمان متشابها آحاده وأنواعه وغير متشابه ، وخلق ليؤكل ، كلوا من ثمره ، واتوا ما عليه من زكوات يوم حصاده ولا تسرفوا فى الأخذ حتى لا تطغوا إن الله لا يحب المسرفين ، وبعد أن بين النعم فيما تخرجه الأرض بين نعمه ، فمن الأنعام حمولة تحملكم من أرض إلى أرض أنتم وأمتعتكم وتتخذون من جلودها وأشعارها وأوبارها فرشا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فى طعامها وتحريم بعضها ، وتحليل بعضها ، فسبب التحريم ليس متحققا فيها ، فهى ثمانية أزواج ؟ من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، فما سبب التحريم الذى تبتدعونه فى

بعضها فهل فى الذكورة ، فتحرموا كل الذكور ؟ أم فى الأنوثة فتحرموا كل الإناث ؟ أم فيهما فتحرم كلها ؟ وأنتم تحرمون بعض الذكور دون بعض ، فلا مبرر للتحريم ، والتحريم ظلم وافتراء ، ومن أظلم ممن افترى على الله ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، ثم أمر رسوله بان يبين المحرمات من الأنعام وهى : الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وكل هذا رجس قذر ، وما أهل لغير الله وهو فسق ، وذلك كله حرام على المختار فمن اضطر غير متعد ، ولا متجاوز حد الضرورة فإن الله غفور رحيم ، ثم بين سبحانه ما حرمه على اليهود لغلظ قلوبهم ، فذكر أنه حرم عليهم كل ذى ظفر من البهائم ، وحرم من البهائم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط من الشحوم بالعظم ، وكان تهذيبا لنفوسهم الشرهة ، وجزاء لبغيهم .

(36/222)

وذكر سبحانه أن المشركين يكلون شركهم إلى تقدير ربهم ، أى يأثمون ، ولا يحملون أنفسهم إثمهم ، وكذلك كل الفاسقين حتى يروا بأس الله تعالى يوم القيامة – وهل عندهم علم سوغ أن يحملوا غيرهم إثم فعلهم ، فيحرموا ما حرموا ؟ إن يتبعون إلا الظن الكاذب والوهم ، والله عنده الحجة البالغة ، وهاتوا شهداء يشهدون أنه حرم ما حرموه على أنفسهم ، فإن

شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كانوا بأدلة الله يكذبون ، ولا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون ، ويجعلون معه شركاء .

وبعد أن ذكر سبحانه ما حرموه على أنفسهم ، وبطلان ادعائهم أمر رسوله أن يبين لهم ما حرم عليهم وهم فيه واقعون وهو . . . ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون .

وقد بين سبحانه بعد ذلك أن هذا هو صراطه المستقيم ، عليهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا السبل ، فتفرق بهم عن سبيله ، فغيرها مثارات الشيطان ، وطرائقه ، وتلك وصيته رجاء أن تتقوه فاتبعوها ؟ ويبين سبحانه أن هذه المحرمات جاءت فى شريعته (صلى الله عليه وسلم) وفى كتابه ، وقد سجلت فى القران ، فكانت شرعا لله ، فاتبعوها واتقوا الله لعلكم ترحمون ، ولا تعرضوا عنها بأن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين هم اليهود والنصارى من قبلنا ونحن غافلون عن دراستهم ، أو تعرضوا قائلين لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فها هو ذا أنزل عليكم من ربكم فيه بينة وهدى ورحمة ، وإنكم من بعد

تظلمون بتكذيبكم بايات الإعجاز فيه ، وتصدفون عنها ، وجزاؤكم على ذلك الظلم سوء العذاب .

(37/222)

هذه حجج قاطعة فإذا كنتم تعرضون عنها ، فهل تنتظرون أن تأتيكم الملائكة أو يأتى ربك ، أو يأتى بعض آيات ربك القاصمة لظهوركم ، (يوم يأتي بعض آيات) وهو يوم القيامة (. . . لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون .

وإن الذين فرقوا دينهم من اليهود والنصارى وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ، إنما أمرهم إلى ثم أنبئهم ، بما كانوا يفعلون ، ثم بين سبحانه الجزاء فجزاء الحسنة عشرة أمثالها ، وجزاء السيئة مثلها ، وطالبه (صلى الله عليه وسلم) أن يكون قدوة فأمره أن يقول : (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين قل أغير الله أبغي ربا وهو ربئ كل شيء . . وبين أن كل نفس وما تفعل ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، وإلى الله مرجع الجميع ، فينبئهم بما كانوا

فيه يختلفون .

وبين سبحانه منزلة الإنسان فى هذا الوجود ، فقال تعالت كلماته : (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 2416 . 2428 ﴾

(38/222)

فصل

قال ابن عاشور :

سورة الأنعام

ليس لهذه السورة إلا هذا الاسم من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى الطبراني بسنده إلى عبد الله بن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد " .

وورد عن عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأنس ابن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وأسماء بنت يزيد بن السكن ، تسميتها في كلامهم سورة الأنعام .

وكذلك ثبتت تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة .

وسميت سورة الأنعام لما تكرر فيها من ذكر لفظ الأنعام ست مرات من قوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ [الأنعام : 144.136]

وهي مكية بالاتفاق فعن ابن عباس : أنها نزلت بمكة ليلا جملة واحدة ، كما رواه عنه عطاء ، وعكرمة ، والعوفي ، وهو الموافق لحديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتقدم آنفا .

وروي أن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام : 52 ﴾ الآية نزل في مدة حياة أبي طالب ، أي قبل سنة عشر من البعثة ، فإذا صح كان ضابطا لسنة نزول هذه السورة .

وروى الكلبى عن ابن عباس : " أن ست آيات منها نزلت بالمدينة " ، ثلاثا من قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : 91] إلى منتهى ثلاث آيات ، وثلاثا من قوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 152,151] .

وعن أبي جحيفة أن آية ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ [الأنعام : 111] مدنية .

وقيل نزلت آية ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام :

93] الآية بالمدينة ، بناء على ما ذكر من سبب نزولها الآتي .

وقيل : نزلت آية ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ [الأنعام : 20] الآية ، وآية ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [العنكبوت : 47] الآية ، كلتاهما بالمدينة بناء على ما ذكر من أسباب نزولهما كما سيأتي .

(39/222)

وقال ابن العربي في أحكام القرآن عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ [الأنعام : 145] الآية : " أنها في قول الأكثر نزلت يوم نزول قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] الآية ، أي سنة عشر ، فتكون هذه الآيات مستثناة من مكية السورة ألحقت بها " .

وقال ابن عطية في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الآية من هذه السورة [91] : " إن النقاش حكى أن سورة الأنعام كلها مدنية " .

ولكن قال ابن الحصار : " لا يصح نقل في شيء نزل من الأنعام في المدينة " .

وهذا هو الأظهر وهو الذي رواه أبو عبيد ، والبيهقي ، وابن مردويه ، والطبراني ، عن ابن عباس ؛ وأبو الشيخ عن أبي بن كعب .

وعن ابن عباس أنها نزلت بمكة جملة واحدة ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتبوها من ليلتهم .

وروى سفيان الثوري ، وشريك عن أسماء بنت يزيد الأنصارية : نزلت سورة الأنعام على رسول الله صلى الله عليه وسلم جملة وهو في مسير وأنا آخذة بزمام ناقته إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة .

ولم يعينوا هذا المسير ولا زمنه غير أن أسماء هذه لا يعرف لها مجيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل هجرته ولا هي معدودة فيمن تابع في العقبة الثانية حتى يقال : إنها لقيته قبل الهجرة ، وإنما المعدودة أسماء بنت عمرو بن عدي .

فحال هذا الحديث غير بين .

ولعله التبس فيه قراءة السورة في ذلك السفر بأنها نزلت حينئذ .

قالوا : ولم تنزل من السور الطوال سورة جملة واحدة غيرها .

وقد وقع مثل ذلك في رواية شريك عن أسماء بنت يزيد كما علمته آنفا ، فلعل حكمة إنزالها جملة واحدة قطع تعلل المشركين في قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [الفرقان : 32] .

توهما منهم أن تنجيم نزوله يناكد كونه كتابا ، فأنزل الله سورة الأنعام .

وهي في مقدار كتاب من كتبهم التي يعرفونها كالإنجيل والزبور ، ليعلموا أن الله قادر على ذلك ، إلا أن حكمة تنجيم النزول أولى بالمراعاة .

وأيضا ليحصل الإعجاز بمختلف أساليب الكلام من قصر وطول وتوسط ، فإن طول الكلام قد يقتضيه المقام ، كما قال قيس بن خارجة يفخر بما عنده من الفضائل : " وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب الخ .

وقال أبو دؤاد بن جرير الأيادي يمدح خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة . . .

وحي الملاحظ خيفة الرقباء

واعلم أن نزول هذه السورة جملة واحدة على الصحيح لا يناكد ما يذكر لبعض آياتها من أسباب نزولها ، لأن أسباب نزول تلك الآيات إن كان لحوادث قبل الهجرة فقد تتجمع أسباب كثيرة في مدة قصيرة قبل نزول هذه السورة ، فيكون نزول تلك الآيات مسببا على تلك الحوادث ، وإن كان بعد الهجرة جاز أن تكون تلك الآيات مدنية ألحقت بسورة الأنعام لمناسبات .

على أن أسباب النزول لا يلزم أن تكون مقارنة لنزول آيات أحكامها فقد يقع السبب ويتأخر تشريع حكمه .

وعلى القول الأصح أنها مكية فقد عدت هذه السورة الخامسة والخمسين في عد نزول السور .

نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات .

وعدد آياتها مائة وسبع وستون في العدد المدني والمكي ، ومائة وخمس وستون في العدد الكوفي ، ومائة وأربع وستون في الشامي والبصري .

أغراض هذه السورة

ابتدأت بإشعار الناس بأن حق الحمد ليس إلا لله لأنه مبدع العوالم جواهر وأعراضا فعلم أنه المتفرد بالإلهية .

وإبطال تأثير الشركاء من الأصنام والجن بإثبات أنه المتفرد بخلق العالم جواهره وأعراضه ، وخلق الإنسان ونظام حياته وموته بحكمته تعالى وعلمه ، ولا تملك آلهتهم تصرفا ولا علما .

وتنزيه الله عن الولد والصاحبة .

قال أبو إسحاق الإسفرائيني : " في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد " .

وموعظة المعرضين عن آيات القرآن والمكذبين بالدين الحق ، وتهديدهم بأن يحل بهم ما حل بالقرون المكذبين من قبلهم والكافرين بنعم الله تعالى ، وأنهم ما يضرون بالإنكار إلا أنفسهم .

ووعيدهم بما سيلقون عند نزع أرواحهم ، ثم عند البعث .

وتسفيه المشركين فيما اقترحوه على النبي صلى الله عليه وسلم من طلب إظهار الخوارق تهكما .

وإبطال اعتقادهم أن الله لقنهم على عقيدة الإشراك قصدا منهم لإفحام الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان حقيقة مشيئة الله .

وإثبات صدق القرآن بأن أهل الكتاب يعرفون أنه الحق .

والإنحاء على المشركين تكذيبهم بالبعث ، وتحقيق أنه واقع ، وأنهم يشهدون بعده العذاب ، وتتبرأ منهم آلهتهم التي عبدوها ، وسيندمون على ذلك ، كما أنها لا تغني عنهم شيئا في الحياة الدنيا ، فإنهم لا يدعون إلا الله عند النوائب .

وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لا يؤاخذ بإعراض قومه ، وأمره بالإعراض عنهم .

وبيان حكمة إرسال الله الرسل ، وأنها الإنذار والتبشير وليست وظيفة الرسل إخبار الناس بما يتطلبون علمه من المغيبات .

وأن تفاضل الناس بالتقوى والانتساب إلى دين الله .

وإبطال ما شرعه أهل الشرك من شرائع الضلال .

وبيان أن التقوى الحق ليست مجرد حرمان النفس من الطيبات بل هي حرمان النفس من الشهوات التي تحول بين النفس وبين الكمال والتزكية .

وضرب المثل للنبي مع قومه بمثل إبراهيم مع أبيه وقومه ؛ وكان الأنبياء والرسل على ذلك المثل من تقدم منهم ومن تأخر .

والمنة على الأمة بما أنزل الله من القرآن هدى لهم كما أنزل الكتاب على موسى ، وبأن جعلها الله خاتمة الأمم الصالحة .

وبيان فضيلة القرآن ودين الإسلام وما منح الله لأهله من مضاعفة الحسنات .

وتخللت ذلك قوارع للمشركين ، وتنويه بالمؤمنين ، وامتنان بنعم اشتملت عليها مخلوقات الله ، وذكر مفاتح الغيب .

(42/222)

قال فخر الدين : " قال الأصوليون أي علماء أصول الدين " : السبب في إنزالها دفعة واحدة أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوءة والمعاد وإبطال مذاهب المعطلين والملحدين فإنزال ما يدل على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزله الله على قدر حاجاتهم

وبحسب الحوادث ، وأما ما يدل على علم الأصول فقد أنزله الله جملة واحدة .

"

وهي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية ، وأشدها مقارعة جدال لهم واحتجاج على سفاهة أحوالهم من قوله :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً ﴾ [الأنعام : 136] ، وفيما حرموه على أنفسهم مما رزقهم الله .

وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال : " إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام[140] : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ " .

ووردت في فضل سورة الأنعام وفضل آيات منها روايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن

ابن مسعود ، وابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وابن عباس ، وأسماء بنت يزيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ 5.9 ﴾

(43/222)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

1 – طبيعة القرآن المكي وحله لمشكلات الإنسان

هذه السورة مكية . . من القرآن المكي . . القرآن الذي ظل يتنزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثلاثة عشر عاما كاملة , يحدثه فيها عن قضية واحدة . قضية واحدة

ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة , إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان , وأنها استقرت استقرارا مكينا ثابتا في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان , التي قدر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها ; وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين .

2 – حكمة البدء بالعقيدة وليس بالقومية أو الإجتماعية أو الأخلاقية

وأصحاب الدعوة إلى دين الله , وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة ; خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة . . ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما . . لتقرير هذه العقيدة ; ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها , والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها . .

لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة . وأن يبدأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أولى خطواته في الدعوة , بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ; وأن يمضي في دعوته يعرف الناس بربهم الحق , ويعبدهم له دون سواه .

(44/222)

ولم تكن هذه – في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب – هي أيسر السبل إلى قلوب العرب ! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى: "إله" ومعنى: "لا إله إلا الله" . . كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا . . وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله – سبحانه – بها , معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام , ورده كله إلى الله . . السلطان على الضمائر , والسلطان على الشعائر , والسلطان على واقعيات الحياة . . السلطان في المال , والسلطان في القضاء , والسلطان في الأرواح والأبدان . . كانوا يعلمون أن: "لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي , الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية , وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ; وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله . . ولم يكن يغيب عن

العرب – وهم يعرفون لغتهم جيدا , ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة: "لا إله إلا الله" – ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم . . ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة – أو هذه الثورة – ذلك الاستقبال العنيف , وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام . .

فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة ؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ؟

لقد بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بهذا الدين , وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب ; إنما هي في يد غيرهم من الأجناس !

بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم , يحكمها أمراء من العرب من قبل الرومان .

وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أمراء من العرب من قبل الفرس . .

وليس في أيدي العرب إلا الحجاز ونجد وما إليهما من الصحارى القاحلة , التي تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك !

وكان في استطاعة محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو الصادق الأمين ; الذي حكمه أشراف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الأسود , وارتضوا حكمه , منذ خمسة عشر عاما ; والذي هو في الذؤابة من بني هاشم أعلى قريش نسبا . . كان في استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب , التي أكلتها الثارات , ومزقتها النزاعات , وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة ; الرومان في الشمال والفرس في الجنوب ; وإعلاء راية العربية والعروبة ; وإنشاء وحدة قوية في كل أرجاء الجزيرة . .

ولو دعا يومها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة – على الأرجح – بدلا من أن يعاني ثلاثة عشر عاما في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة !

وربما قيل: إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان خليقا بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ; وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة ; وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فوق مفرقه . . أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه , وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه !

ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم , لم يوجه رسوله (صلى الله عليه وسلم) هذا

التوجيه ! إنما وجهه إلى أن يصدع بلا إله إلا الله: وأن يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء !

(46/222)

لماذا ؟ إن الله – سبحانه – لا يريد أن يعنت رسوله والمؤمنين معه . . إنما هو – سبحانه – يعلم أن ليس هذا هو الطريق . . ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي . . إلى يد طاغوت عربي . . فالطاغوت كله طاعوت ! . . إن الأرض لله , ويجب أن تخلص لله . ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية: "لا إله إلا الله" . . وليس الطريق أن يتحرر الناس في هذه الأرض من طاغوت روماني أو طاغوت فارسي . . إلى طاغوت عربي . . فالطاغوت كله طاغوت ! إن الناس عبيد لله وحده , ولا يكونون عبيدا لله وحده إلا أن ترتفع راية: "لا إله إلا الله" . . "لا اله الا الله" كما كان يدركها العربي العارف بمدلولات لغته: لا حاكمية إلا لله , ولا شريعة إلا من الله , ولا سلطان لأحد على أحد , لأن السلطان كله لله . . ولأن الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة , التي يتساوي فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله .

وهذا هو الطريق . .

وبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بهذا الدين , والمجتمع العربي كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعا للثروة والعدالة . . قلة قليلة تملك المال والتجارة ; وتتعامل بالربا فتضاعف تجارتها ومالها . وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع . . والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة ; وجماهير كثيفة ضائعة من المال والمجد جميعا !

وكان في استطاعة محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يرفعها راية اجتماعية ; وأن يثيرها حربا على طبقة الأشراف ; وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء !

(47/222)

ولو دعا يومها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الدعوة , لانقسم المجتمع العربي صفين: الكثرة الغالبة فيه مع الدعوة الجديدة , في وجه طغيان المال والشرف . بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا في وجه: "لا إله إلا الله" التي لم يرتفع إلى أفقها في ذلك الحين إلا الأفذاذ من الناس .

وربما قيل: إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة ;

وتوليه قيادها ; فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها . . أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه , وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه !

ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم , لم يوجهه هذا التوجيه . .

لقد كان الله – سبحانه – يعلم أن هذا ليس هو الطريق . . كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل ; يرد الأمر كله لله ; ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضي به الله من عدالة في التوزيع , ومن تكافل بين الجميع ; ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله ;ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلىء قلوب بالطمع , ولا تمتلىء قلوب بالحقد ; ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ; وبالتخويف والإرهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح ; كما يقع في الأوضاع التي نراها قد قامت على غير: "لا إله إلا الله" . .

وبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل في جوانب منه شتى – إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية .

كان التظالم فاشيا في المجتمع , تعبر عنه حكمة الشاعر: زهير بن أبى سلمى:

(ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه % يهدم , ومن لا يظلم الناس يظلم)

ويعبر عنه القول المتعارف: "انصر أخاك ظالما أو مظلومًا" .

(48/222)

وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ومن مفاخرة كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلي بجملته . . كالذي يقوله طرفة بن العبد :

(فلولا ثلاث هن من زينة الفتى % وجدك لم أحفل متى قام عودي)

(فمنهن سبقي العاذلات بشربة % كميت متى ما تعل بالماء تزبد !)

. . . الخ

وكانت الدعارة - في صور شتى - من معالم هذا التجمع . . كالذي روته عائشة رضي الله عنها :

"إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته , فيصدقها ثم ينكحها . . والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته - إذا طهرت من طمثها - أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه . ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها

إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . .

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرآة, كلهم يصيبها . فإذا حملت ووضعت, ومر عليها ليال, بعد أن تضع حملها, أرسلت إليهم, فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع, حتى يجتمعوا عندها, تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم, وقد ولدت, فهو ابنك يا فلان, تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها, ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها - وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما, فمن أرادهن دخل عليهن - فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها, جمعوا لها ودعوا القافة, ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه, ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك" . . . [أخرجه البخاري في كتاب النكاح] .

وكان في استطاعة محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يعلنها دعوة إصلاحية, تتناول تقويم الأخلاق, وتطهير المجتمع, وتزكية النفوس, وتعديل القيم والموازين . .

(49/222)

وكان واحدا وقتها - كما يجد كل مصلح أخلاقي في أية بيئة - نفوسا طيبة, يؤذيها هذا الدنس; وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير . .

وربما قال قائل: إنه لو صنع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذلك فاستجابت له – في أول الأمر – جمهرة صالحة؛ تتطهر أخلاقها، وتزكو أرواحها، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها .. بدلا من أن تثير دعوة أن لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق!

ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم، لم يوجه رسوله (صلى الله عليه وسلم) إلى مثل هذا الطريق ..

لقد كان الله – سبحانه – يعلم أن ليس هذا هو الطريق! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة، تضع الموازين، وتقرر القيم وتقرر السلطة التي ترتكن إليها هذه الموازين والقيم؛ كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين. وأنه قبل تقرير تلك العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة؛ وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك؛ بلا ضابط، وبلا سلطان، وبلا جزاء!

فلما تقررت العقيدة – بعد الجهد الشاق – وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة .. لما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده .. لما تحرر الناس من سلطان العبيد، ومن سلطان الشهوات سواء .. لما تقررت في القلوب: "لا إله إلا الله" .. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون ..

تطهرت الأرض من الرومان والفرس .. لا ليتقرر فيها سلطان العرب .. ولكن ليتقرر

فيها سلطان الله . . لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانيا وفارسيا وعربيا على السواء .

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته . وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله , ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ; ويسميها راية الإسلام , لا يقرن إليها اسما آخر ; ويكتب عليها : "لا إله إلا الله" !

(50/222)

وتطهرت النفوس والأخلاق , وزكت القلوب والأرواح ; دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هنالك في الضمائر ; ولأن الطمع في رضى الله وثوابه , والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات .

وارتفعت البشرية في نظامها , وفي أخلاقها , وفي حياتها كلها , إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط ; والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام . .

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ; كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم , في صورة عقيدة وخلق وعبادة

وسلوك . وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدا واحدا , لا يدخل فيه الغلب والسلطان . . ولا حتى لهذا الدين على أيديهم . . وعدا واحدا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا . . وعدا واحدا هو الجنة . . هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضني , والابتلاء الشاق , والمضي في الدعوة , ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان , في كل زمان وفي كل مكان , وهو: "لا إله إلا الله" !

فلما أن ابتلاهم الله فصبروا ; ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم ; ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض - كائنا ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم , وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم - ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم , ولا اعتزاز بوطن ولا أرض . ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت . .

(51/222)

لما أن علم الله منهم ذلك كله , علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أمناء على هذه الأمانة الكبرى . أمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر , وفي الأرواح والأموال , وفي الأوضاع والأحوال . . وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها , وعلى عدل الله

يقيمونه , دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم ; إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته , لأنهم يعلمون أنه من الله , هو الذي آتاهم إياه .

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع , إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء , وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها . . راية لا إله إلا الله . . ولا ترفع معها سواها . . وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره ; المبارك الميسر في حقيقته .

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله , لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية , أو دعوة اجتماعية , أو دعوة أخلاقية . . أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد : "لا إله إلا الله" . .

3 – لماذا بدأ القرآن بالعقيدة ثم بالتشريعات ? وطريق الدعوة

ذلك شأن تصدي القرآن المكي كله لتقرير : "لا إله إلا الله" في القلوب والعقول , واختيار هذا الطريق – على مشقته في الظاهر – وعدم اختيار السبل الجانبية الأخرى ; والإصرار على هذا الطريق . .

فأما شأن هذا القرآن في تناول قضية الاعتقاد وحدها , دون التطرق إلى تفصيلات النظام

الذي يقوم عليها , والشرائع التي تنظم المعاملات فيها . . فذلك كذلك مما ينبغي أن يقف أمامه أصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية . .

(52/222)

إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا . . فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة . . كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير . . وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال المتشابكة الأغصان , الضاربة في الهواء . . لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة , وفي مساحات واسعة ; تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء . . فكذلك هذا الدين . . إن نظامه يتناول الحياة كلها ; ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها ; وينظم حياة الإنسان لا في هذه الحياة الدنيا وحدها , ولكن كذلك في الدار الآخرة ; ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها ; ولا في المعاملات الظاهرة المادية , ولكن في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا . . فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية . . ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا . .

هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ; يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده ; ويجعل

بناء العقيدة وتمكينها , وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها . . ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة , وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء , والضارب من جذورها في الأعماق . .

(53/222)

ومتى استقرت عقيدة: "لا إله إلا الله" في أعماقها الغائرة البعيدة , استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه: "لا إله إلا الله" ; وتعين أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة . . واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته , وقبل أن تعرض عليها تشريعاته . فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان . . وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول , لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له . وهكذا أبطلت الخمر , وأبطل الربا , وأبطل الميسر , وأبطلت العادات الجاهلية كلها , أبطلت بآيات من القرآن , أو كلمات من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بينما الحكومات الأرضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها ونظمها وأوضاعها , وجندها وسلطانها , ودعايتها وإعلامها . . فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات

;بينما المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات !

وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في هذا المنهج القويم . . إن هذا الدين منهج عملي حركي جاد . . جاء ليحكم الحياة في واقعها ; ويواجه هذا الواقع ليقضي فيه بأمره . . يقره أو يعدله أو يغيره من أساسه . . ومن ثم فهو لا يشرع إلا لحالات واقعة فعلا , في مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده .

إنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض ! إنه منهج يتعامل مع الواقع ! فلا بد أولا أن يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة أن لا إله إلا الله , وأن الحاكمية ليست إلا لله ; ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ; ويرفض شرعية أي وضع لا يقوم على هذه القاعدة . .

(54/222)

وحين يقوم هذا المجتمع فعلا , تكون له حياة واقعية , تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع . .

وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع . . لقوم مستسلمين أصلا للنظم والشرائع , رافضين ابتداء لغيرها من النظم والشرائع . .

ولا بد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من السلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع ; حتى تكون للنظام هيبته ويكون للشريعة جديتها .

. فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من الواقعية ما يقتضي الأنظمة والشرائع من فورها .

والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله . . ومن ثم لم ينزل الله في هذه الفترة تنظيمات وشرائع ; وإنما نزل لهم عقيدة , وخلقا منبثقا من العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة . . فلما صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع ; وتقرر لهم النظام ; الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ; والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاذ . .

ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة , ليختزنوها جاهزة , حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة ! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين ! إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية ! إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولا . . إنما هو يواجه الواقع بحجمه وشكله وملابساته لصوغه في قالبه الخاص , وفق حجمه وشكله وملابساته . .

والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام , وأن يصوغ تشريعات حياة . . بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها , ورفض كل شريعة سواها , مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه . . الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين , ولا كيف يعمل في الحياة ; كما يريد له الله . .

إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية , ومناهج بشرية . ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة . . إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض , تواجه مستقبلا غير موجود . . والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراده . . عقيدة تملأ القلب , وتفرض سلطانها على الضمير . عقيدة مقتضاها ألا يخضع الناس إلا لله , ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله . وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم , ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم , تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية , وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك .

كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية , أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين , يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة – حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون – يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة: لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله , وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم . . إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم , وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم . .

ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى

الإسلام أول مرة . . هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة . .

فإذا دخل في هذا الدين – بمفهومه هذا الأصيل – عصبة من الناس , فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الإسلام في حياتها الاجتماعية ; لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس ; وألا تحكم في حياتها كلها إلا الله .

(56/222)

وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامي عليه ; كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية , في إطار الأسس العامة للنظام الإسلامي . . فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامي الواقعي العملي الجاد . .

ولقد يخيل إلى بعض المخلصين المتعجلين , ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين , وطبيعة منهجه الرباني القويم , المؤسس على حكمه العليم الحكيم , وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة . . نقول لقد يخيل لبعض هؤلاء أن عرض أسس النظام الإسلامي – بل التشريعات الإسلامية كذلك – على الناس مما ييسر لهم طريق الدعوة , ويحبب الناس في

هذا الدين !

وهذا وهم تنشئه العجلة ! وهم كالذي كان يقترحه المقترحون: أن تقوم دعوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - في أولها تحت راية قومية , أو اجتماعية , أو أخلاقية , تيسيرا للطريق !

إن النفوس يجب أن تخلص أولا لله , وتعلن عبوديتها له , بقبول شرعه وحده ورفض كل شرع غيره . . من ناحية المبدأ . . قبل أن تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه !

إن الرغبة يجب أن تنبثق من الرغبة في إخلاص العبودية لله , والتحرر من سلطان سواه . . لا من أن النظام المعروض عليها . . في ذاته . . خير مما لديها في كذا وكذا على وجه التفصيل .

إن نظام الله خير في ذاته , لأنه من شرع الله . ولن يكون شرع العبيد يوما كشرع الله . . ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة . . إن قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحدة ورفض كل شرع غيره هو ذاته الإسلام . وليس للإسلام مدلول سواه . فمن رغب في الإسلام فقد فصل في هذه القضية ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته . . فهذه إحدى بديهيات الإيمان !

4 - منهج القرآن في عرض العقيدة

وبعد فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة في خلال الثلاثة عشر عاما .

. إنه لم يعرضها في صورة "نظرية" ! ولم يعرضها في صورة "لاهوت" ولم يعرضها في صورة جدل كلامي كالذي زاولهفيما بعد ما سمي ب "علم التوحيد" أو "علم الكلام" !

كلا . . لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده هو وبما في الوجود من حوله من دلائل وإيحاءات . . كان يستنقذ فطرته من الركام ; ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ; ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها . . والسورة التي بين أيدينا نموذج كامل من هذا المنهج المتفرد وسنتحدث عن خصائصها بعد قليل .

هذا بصفة عامة . وبصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية . . كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة . . في نفوس آدمية حاضرة واقعة . . ومن ثم لم يكن شكل "النظرية" هو الشكل الذي يناسب هذا الواقع الحاضر . إنما كان هو شكل المواجهة الحية للعقابيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية . . ولم يكن الجدل الذهني الذي انتهجه – في العصور المتأخرة – علم

التوحيد , هو الشكل المناسب كذلك . . فلقد كان القرآن يواجه واقعا بشريا كاملا بكل ملابساته الحية ; ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها في خضم هذا الواقع . . وكذلك لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب . فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة , إلا أنها عقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي ; ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية !

(58/222)

كان القرآن وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ; كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها وأخلاقها وواقعها . . ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة , لا في صورة نظرية , ولا في صورة لاهوت ولا في صورة جدل كلامي . . ولكن في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة , ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها . وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي , وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور , وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها . . كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدي , وترجمة حية له . . وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك . .

وإنه لمن الضروري لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه في الحركة على هذا النحو الذي بيناه . . ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التي طالت في العهد المكي على هذا النحو , لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الإسلامية , والبناء الواقعي للجماعة المسلمة . . لم تكن مرحلة تلقي "النظرية" ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معا . .

وهكذا ينبغي أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى . .

هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة ; وأن تتم خطواتها على مهل وفي عمق وتثبت . . وهكذا ينبغي ألا تكون مرحلة بناء العقيدة مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ; ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة في صورة حية , متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ; ومتمثلة في بناء جماعي يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها ; ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك ; لتتمثل العقيدة حية وتنمو نموا حيا في خضم المعركة .

(59/222)

وخطأ أي خطأ – بالقياس إلى الإسلام – أن تتبلور النظرية في صورة نظرية مجردة للدراسة النظرية . . المعرفية الثقافية . . بل خطر أي خطر كذلك . .

إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى . . كلا ! فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ; ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاما أو أكثر أو أقل , حتى يستوعبوا "النظرية الإسلامية" !

ولكن الله – سبحانه – كان يريد أمرا آخر . كان يريد منهجا معينا متفردا . كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد . كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة , وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة ! كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الفعلي , وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو صورة العقيدة . . وكان الله – سبحانه – يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة . . فلم يكن بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس والجماعة . . حتى إذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج . .

هذه هي طبيعة هذا الدين – كما تستخلص من منهج القرآن المكي – ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ; ولا نحاول أن نغيرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة , وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود , كما أخرجها الله أول مرة . .

يجب أن ندرك خطأ المحاولة , وخطرها معا , في تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي يجب أن تتمثل في واقع تام حي متحرك , إلى "نظرية" للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه "النظريات" البشرية الهزيلة بنظرية إسلامية !

(60/222)

إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حية , وفي تنظيم واقعي , وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها , كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها – بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة إلى نفوسهم وتنتزعها من الوسط الجاهلي . وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضا مساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله "النظرية" ; وتشمل – فيما تشمل – مساحة النظرية ومادتها . ولكنها لا تقتصر عليها .

إن التصور الإسلامي للألوهية وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان , تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور واقعي إيجابي . وهو يكره – بطبيعته – أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي . لأن هذا يخالف طبيعته وغايته . ويجب أن يتمثل في أناسي , وفي تنظيم حي , وفي حركة واقعية . . وطريقته في التكون أن ينمو من خلال الأناسي والتنظيم الحي

والحركة الواقعية ; حتى يكتمل نظريا في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعيا ; ولا ينفصل في صورة نظرية ; بل يظل ممثلا في الصورة الواقعية . .

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي , ولا يتمثل من خلاله , هو خطأ وخطر كذلك بالقياس إلى طبيعة هذا الدين , وغايته , وطريقة تركيبه الذاتي .

والله سبحانه يقول:

(وقرآنا فرقناه , لتقرأه على الناس على مكث , ونزلناه تنزيلًا) . .

فالفرق مقصود . والمكث مقصود كذلك . . ليتم البناء التكويني المؤلف من عقيدة في صورة "منظمة حية" لا في صورة "نظرية معرفية" !

يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدا , أنه كما أن هذا الدين دين رباني , فإن منهجه في العمل منهج رباني كذلك , متواف مع طبيعته . وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل .

(61/222)

ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين كما أنه جاء ليغير التصور الاعتقادي – ومن ثم يغير الواقع الحيوي – فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الفكري والحركي الذي يبني به التصور

الاعتقادي ويغير به الواقع الحيوي . . جاء ليبني عقيدة وهو يبني أمة . . ثم لينشىء منهج تفكير خاصا به بنفس الدرجة التي ينشىء بها تصورا اعتقاديا وواقعا حيويا . ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص وتصوره الاعتقادي وبنائه الحيوي , فكلها حزمة واحدة . فإذا عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيناه , فلنعرف أن هذا المنهج أصيل ; وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى . إنما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين إلا به .

إنه لم تكن وظيفة الإسلام أن يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب . ولكن كانت وظيفته أن يغير طريقة تفكيرهم , وتناولهم للتصور وللواقع . ذلك أنه منهج رباني مخالف في طبيعته كلها لمناهج البشر القاصرة الهزيلة .

ونحن لا نملك أن نصل إلى التصور الرباني والحياة الربانية إلا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك . منهج أراد الله أن يقيم منهج الناس في التفكير على أساسه ليصح تصورهم وتكوينهم الحيوي .

ونحن حين نريد من الإسلام أن يجعل من نفسه نظرية للدراسة نخرج عن طبيعة المنهج الرباني للتكوين ; وعن طبيعة المنهج الرباني للتفكير . ونخضع الإسلام لطرائق التفكير البشرية ! كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشرية ! وكأنما نريد لنرتقي بمنهج الله في

التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد !

والأمر من هذه الناحية يكون خطيرا . والهزيمة تكون قاتلة !

(62/222)

إن وظيفة المنهج الرباني أن يعطينا – نحن أصحاب الدعوة الإسلامية – منهجا خاصا للتفكير نبرأ به من رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة في الأرض ; والتي تضغط على عقولنا وتترسب في ثقافتنا . . فإذا نحن أردنا أن نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غريب عن طبيعته من مناهج التفكير الجاهلية الغالبة , كنا قد أبطلنا وظيفته التي جاء ليؤديها للبشرية ; وحرمنا أنفسنا فرصة الخلاص من ضغط المنهج الجاهلي السائد في عصرنا , وفرصة الخلاص من رواسبه في عقولنا وتكويننا .

والأمر من هذه الناحية كذلك يكون خطيرا , والخسارة تكون قاتلة . .

إن منهج التفكير والحركة في بناء الإسلام , لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادي والنظام الحيوي ; ولا ينفصل عنه كذلك . . ومهما يخطر لنا أن نقدم ذلك التصور وهذا النظام في صورة تعبيرية , فيجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا لا ينشىء "الإسلام" في الأرض في صورة حركة واقعية , بل يجب ألا يغيب عن بالنا أنه لن يفيد من

تقديمنا الإسلام في هذه الصورة إلا المشتغلون فعلا بحركة إسلامية واقعية . وأن قصارى ما يفيده هؤلاء من تقديم الإسلام لهم في هذه الصورة هو أن يتفاعلوا معها بالقدر الذي وصلوا إليه هم فعلا في أثناء الحركة !

ومرة أخرى أكرر أن التصور الاعتقادي يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي ; وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلا صحيحا وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي .

ومرة أخرى أكرر كذلك أن هذا هو المنهج الطبيعي للإسلام الرباني , وأنه منهج أعلى وأقوم وأشد فاعلية وأكثر انطباقا على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات كاملة مستقلة وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس , قبل أن يكون هؤلاء الناس مشتغلين بالفعل بحركة واقعية ; وقبل أن يكونوا هم أنفسهم ترجمة تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظري .

(63/222)

وإذا صح هذا في أصل النظرية فهو أصح – بطبيعة الحال – فيما يختص بتقديم أسس النظام الذي يتمثل فيه التصور الإسلامي , أو تقديم التشريعات المفصلة لهذا النظام .

إن الجاهلية التي حولنا كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة

الإسلامية فتجعلهم يستعجلون خطوات المنهج الإسلامي , كذلك هي تتعمد أحيانا أن تحرجهم فتسألهم: أين تفصيلات نظامكم الذي تدعون إليه ؟ وماذا أعددتم لتنفيذه من بحوث ومن تفصيلات ومن مشروعات ؟ وهي في هذا تتعمد أن تعجلهم عن منهجهم , وأن تجعلهم يتجاوزون مرحلة بناء العقيدة ; وأن يحولوا منهجهم الرباني عن طبيعته , التي تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة , ويتحدد فيها النظام من خلال الممارسة , وتسن فيها التشريعات في ثنايا مواجهة الحياة الواقعية بمشكلاتها الحقيقية . .

ومن واجب أصحاب الدعوة الإسلامية ألا يستجيبوا للمناورة ! من واجبهم أن يرفضوا إملاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم ! من واجبهم ألا يستخفهم من لا يوقنون ! ومن واجبهم أن يكشفوا مناورة الإحراج وأن يستعلوا عليها ; وأن يتحركوا بدينهم وفق منهج هذا الدين في الحركة . فهذا من أسرار قوته , وهذا هو مصدر قوتهم كذلك .

إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة ; ولا انفصام بينهما . . وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية . والمناهج الغربية الغريبة يمكن أن تحقق أنظمتها البشرية ; ; ولكنها لا يمكن أن تحقق نظامنا الرباني . . فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركة إسلامية . لا في الحركة الإسلامية الأولى كما يظن بعض الناس !

هذه هي كلمتي الأخيرة . . وإنني لأرجو أن أكون بهذا البيان لطبيعة القرآن المكي ، ولطبيعة المنهج الرباني المتمثل فيه ، قد بلغت ؛ وأن يعرف أصحاب الدعوة الإسلامية طبيعة منهجهم ، ويثقوا به ، ويطمئنوا إليه ؛ ويعلموا أن ما عندهم خير ، وأنهم هم الأعلون . . (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) . . صدق الله العظيم . .

ونمضي بعد ذلك لمواجهة السورة .

5 – موضوع سورة الأنعام وطريقتها في عرضه

هذه السورة – وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الظلال – نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه في الصفحات السابقة ؛ وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه ، في موضوعها الأساسي ، وفي منهج التناول ، وفي طريقة العرض سواء . . ذلك مع احتفاظها "بشخصيتها" الخاصة ؛ وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن ؛ والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة . . فلكل سورة شخصيتها ، وملامحها ، ومحورها ، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي ؛ والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ؛ والصور والظلال والجو الذي يظللها ؛ والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها ؛ وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها . . . حتى وهي تتناول موضوعا واحدا أو موضوعات متقاربة . فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية

السورة ; ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها !

وهذه السورة – مع ذلك – تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة . . إنها في كل لمحة منها وفي كل موقف , وفي كل مشهد , تمثل "الروعة الباهرة" . . الروعة التي تبده النفس , وتشده الحس , وتبهر النفس أيضا ; وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهورا !

نعم ! هذه حقيقة ! حقيقة أجدها في نفسي وحسي وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدها وإيقاعاتها . . وما أظن بشرا ذا قلب لا يجد منها لونا من هذا الذي أجد . . إن الروعة فيها تبلغ فعلا حد البهر . حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهورا مبدوها !

(65/222)

إنها – في جملتها – تعرض "حقيقة الألوهية" . . تعرضها في مجال الكون والحياة , كما تعرضها في مجال النفس والضمير , وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود , كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون . . وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية , كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين . .

وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون , وتواجه الأحداث , وتواجه النعماء والضراء , كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة

والمستكنة , وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة . . وأخيرا تعرضها في مشاهد القيامة , ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق . .

إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة , بكل مقوماتها وبكل مكوناتها . وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية , وتطوف بها في الوجود كله , وراء ينابيع العقيدة وموحياتها المستسرة والظاهرة في هذا الوجود الكبير . . إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السماوات والأرض , تلحظ فيها الظلمات والنور , وترقب الشمس والقمر والنجوم . وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات , والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها ; وتقف بها على مصارع الأمم الخالية , وآثارها البائدة والباقية . ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر , وأسرار الغيب والنفس , والحي يخرج من الميت والميت يخرج من الحي , والحبة المستكنة في ظلمات الأرض , والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم . ثم تموج بالجن والإنس , والطير والوحش , والأولين والآخرين , والموتى والأحياء , والحفظة على النفس بالليل والنهار . .

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس , وأقطار الحس . . ثم إنها اللمسات المبدعة المحيية , التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال . . وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر , جديد نابض , كأنما تتلقاه النفس أول مرة ; وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان !

وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها , متشابكة معها ; في المجرى المتصل المتدفق !

وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة , تبلغ حد "الروعة الباهرة" التي وصفنا – مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد كما سنبين – وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة , وبالحيوية الدافقة , وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة !

ونحن – سلفا – على يقين أننا لسنا ببالغين شيئا في نقل إيقاعات هذه السورة إلى أي قلب إلا بأن ندع السورة ذاتها تنطلق بسياقها الذاتي , وإيقاعها الذاتي , إلى هذا القلب . . لسنا ببالغين شيئا بالوصف البشري والأسلوب البشري . . ولكنها مجرد المحاولة لإقامة القنطرة بين المعزولين عن هذا القرآن – بحكم بعدهم عن الحياة في جو القرآن – وبين هذا القرآن !

والحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن ; وقراءته والاطلاع على علومه . . إن هذا ليس "جو القرآن" الذي نعنيه . . إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن: هو أن يعيش الإنسان في جو , وفي ظروف , وفي حركة , وفي معاناة , وفي صراع , وفي اهتمامات . . كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن . . أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم , وفي قلبه , وفي همه , وفي حركته , أن "ينشىء" الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس , وفي حياته وفي حياة الناس , مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية . بكل تصوراتها , وكل اهتماماتها وكل تقاليدها , وكل واقعها العملي ; وكل ضغطها كذلك عليه , وحربها له , ومناهضتها لعقيدتها الربانية , ومنهجه الرباني ; وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة ; بعد الكفاح والجهاد والإصرار . .

هذا هو الجو القرآني الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان ; فيتذوق هذا القرآن . . فهو في مثل هذا الجو نزل , وفي مثل هذا الخضم عمل . . والذين لا يعيشون في مثل هذا الجو معزولون عن القرآن مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه . .

والمحاولة التي نبذلها لإقامة القنطرة بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن , ليست بالغة شيئا

, إلا بعد أن يجتاز هؤلاء القنطرة ; ويصلوا إلى المنطقة الأخرى ; ويحاولوا أن يعيشوا في "جو القرآن" حقا بالعمل والحركة . وعندئذ فقط سيتذوقون هذا القرآن ; ويتمتعون بهذه النعمة التي ينعم الله بها على من يشاء . .

6 - مجالات عرض الألوهية والعبودية والحاكمية في الأنعام

(68/222)

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية . . قضية الألوهية والعبودية . . تعالجها بتعريف العباد برب العباد . . من هو ? ما مصدر هذا الوجود ? ماذا وراءه من أسرار ? من هم العباد ? من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود ? من أنشاهم ? من يطعمهم ? من يكفلهم ? من يدبر أمرهم ? من يقلب أفئدتهم وأبصارهم ? من يقلب ليلهم ونهارهم ? من يبدئهم ثم يعيدهم ? لأي شيء خلقهم ? ولأي أجل أجلهم ? ولأي مصير يسلمهم ? . . هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك . . من بثها في هذا الموات ? . . هذا الماء الهاطل . هذا البرعم النابغ . هذا الحب المتراكب . هذا النجم الثاقب . هذا الصبح البازغ . هذا الليل السادل . هذا الفلك الدوار . . هذا كله من وراءه ? وماذا وراءه من أسرار , ومن أخبار ? . . هذه الأمم , وهذه القرون , التي تذهب وتجيء , وتهلك وتستخلف . .

من ذا يستخلفها ؟ ومن ذا يهلكها ؟ لماذا تستخلف ؟ ولماذا يدركها البوار ؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء ؟ ؟ ؟

هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق , وفي هذه الأغوار والأعماق . . ولكنها تمضي في هذه كله على منهج القرآن المكي . . الذي أسلفنا الحديث عنه في الصفحات السابقة – وعلى منهج القرآن كله . . إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار . . إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق ; لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق . تعبيد ضمائرهم وأرواحهم , وتعبيد سعيهم وحركتهم , وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم , وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد . . سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء . .

(69/222)

ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد . . من أولها إلى آخرها . . فالله هو الخالق . والله هو الرازق . والله هو المالك . والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان . والله هو العليم بالغيوب والأسرار . والله هو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار . . وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد ; وألا

يكون لغيره نهى ولا أمر , ولا شرع ولا حكم , ولا تحليل ولا تحريم . فهذا كله من خصائص الألوهية , ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله , لا يخلق , ولا يرزق , ولا يحيي ولا يميت , ولا يضر ولا ينفع , ولا يمنح ولا يمنع , ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة . .

وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة ; والتي تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية , من كل درب ومن كل باب !

والقضية الكبيرة التي تعالجها السورة هي قضية الألوهية والعبودية في السماوات والأرض . في محيطها الواسع , وفي مجالها الشامل . . ولكن المناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك , المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة , هي ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم , ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد . . وهي المناسبة التي تتحدث عنها هذه الآيات في أواخر السورة:

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه , إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه , وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه , وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم , إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه , إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه , وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم , وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) . . [118 - 121]

.

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا , فقالوا : هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله , وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم , ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم , ولو شاء الله ما فعلوه , فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر , لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم , إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ; وحرموا ما رزقهم الله - افتراء على الله - قد ضلوا وما كانوا مهتدين) . . [136 - 140]

هذه هي المناسبة الحاضرة في حياة الأمة المسلمة - والجاهلية حولها - التي تتمثل فيها

تلك القضية الكبيرة . . قضية التشريع . . ومن ورائها القضية الكبرى . . قضية الألوهية والعبودية التي تعالجها السورة كلها , ويعالجها القرآن المكي كله , كما يعالجها القرآن المدني أيضا كلما جاء ذكر النظام فيه وذكر التشريع .

(71/222)

والحشد الذي يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات , وهو يواجه الجاهلية وأهلها في أمر هذه الأنعام والذبائح والنذور – وهي المناسبة التي تتمثل فيها قضية حق التشريع – وربطها بقضية العقيدة كلها – قضية الألوهية والعبودية – وجعلها مسألة إيمان أو كفر , ومسألة إسلام أو جاهلية . . هذا الحشد – على النحو الذي سنحاول أن نستعرض نماذج منه في هذا التعريف المختصر بالسورة , والذي سيتجلى على حقيقته في المواجهة التفصيلية للنصوص في السياق بعد ذلك – يوقع في النفس تلك الحقيقة الأصيلة في طبيعة هذا الدين . وهي أن كل جزئية صغيرة في الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعا مطلقا لحاكمية الله المباشرة , الممثلة في شريعته . وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة في تلك الجزئية الصغيرة .

كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التي ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله

من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر – جل أم حقر , كبر أم صغر – وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين . . وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض , كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك .

إن سياق السورة يعقب على تلك الشعائر الجاهلية في شأن الأنعام والثمار , والنذور منها ومن الأولاد تعقيبات منوعة . بعضها مباشر , لتصوير مدى السخف والتناقض في هذه الشعائر , وبعضها للربط بين مزاولة البشر لحق التحريم والتحليل وقضية العقيدة الكبرى , ولبيان أن اتباع أمر الله فيها هو صراطه المستقيم , الذي يخرج من لا يتبعه عن هذا الدين . . على النحو التالي بعد ذكر تلك الشعائر في الآيات السابقة:

وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات , والنخل والزرع مختلفا أكله , والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده , ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا , كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان , إنه لكم عدو مبين . ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل: آلذكرين

حرم أم الأنثيين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل: آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم , إن الله لا يهدي القوم الظالمين . قل: لا أجد فيما أوحي إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميته أو دما مسفوحا , أو لحم خنزير – فإنه رجس – أو فسقا أهل لغير الله به . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر , ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما – إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم – ذلك جزيناهم ببغيهم , وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل: ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول الذين أشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا , ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن , وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا , فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا , والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم بربهم يعدلون . قل: تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: ألا تشركوا به شيئا , وبالوالدين إحسانا . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم , ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن , ولا

تقتلوا النفس التي حرم الله – إلا بالحق – ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم – إلا بالتي هي أحسن – حتى يبلغ أشده , وأوفوا الكيل والميزان بالقسط – لا نكلف نفسا إلا وسعها – وإذا قلتم فاعدلوا – ولو كان ذا قربى – وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلك وصاكم به لعلكم تتقون . . [153 - 141]

وكذلك نرى أن هذه المسألة الجزئية الخاصة بالتحريم والتحليل في الأنعام والنذور في الأنعام والثمار , وفي الأولاد – على ما كان متبعا في الجاهلية – يربطها السياق بتلك القضايا الكبيرة: بالهدى والضلال . واتباع منهج الله أو اتباع خطوات الشيطان , وبرحمة الله أو بأسه وبالشهادة بوحدانية الله أو عدل غيرها به . وباتباع صراطه مستقيما أو التفرق عنه . ويستخدم نفس التعبيرات التي استخدمها وهو بصدد القضية الكبرى في محيطها الشامل . .

كما نراه يحشد لها من المؤثرات والموحيات – في هذا الموضع وحده – مشهد الخلق والإحياء في الجنات المعروشات وغير المعروشات . ومشهد النخل والزرع مختلفا ألوانه

والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه .

وموقف الإشهاد والمفاصلة . وموقف البأس والتدمير على المشركين . .

وهي ذات المشاهد التي حشدها السياق في السورة كلها من قبل , وهو يتناول قضية العقيدة بجملتها , قبل أن يتعرض لهذه المناسبة الخاصة التي تتمثل فيها . ولكل هذا دلالته التي لا تخطىء على طبيعة هذا الدين , ونظرته لقضية الحاكمية والتشريع في الكثير والقليل . .

(74/222)

ولعلنا قد سبقنا سياق السورة ; ونحن نبين منهجها الموضوعي وهي تتناول قضية العقيدة بجملتها , في مواجهة مناسبة جزئية تتعلق بأمر التشريع والحاكمية . وهي المناسبة التي لا نقول: إنها اقتضت ذلك الحشد المتجمع المتدفق من التقريرات والتأثيرات في سياق السورة كله , وهذا البيان الرائع الباهر لحقيقة الألوهية في مجالها الواسع الشامل . ولكننا نقول: إنها المناسبة التي ربطت في سياق السورة بهذا كله ; فدل هذا الربط على طبيعة هذا الدين ; ونظرته لقضية التشريع والحاكمية في الكبير والصغير , وفي الجليل والحقير من شؤون هذه الحياة الدنيا . . كما أسلفنا . .

فالآن نمضي في التعريف المجمل بالسورة وخصائصها وملامحها , على النحو الذي ألفناه في هذه الظلال , قبل الدخول في الاستعراض المفصل للسياق:

7 – مكية الأنعام ورد القول بمدنية بعض آياتها

في روايات عن ابن عباس , وعن أسماء بنت يزيد , وعن جابر , وعن أنس بن مالك وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنهم جميعا – أن هذه السورة مكية , وأنها نزلت كلها جملة واحدة .

(75/222)

وليس في هذه الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة ; وليس في موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكي . . وهي حسب الترتيب الراجح لسور القرآن يجيء ترتيبها بعد سورة الحجر ; وتكون هي السورة الخامسة والخمسين . . ولكننا – كما بينا من قبل في التعريف بسورة البقرة – لا نستطيع بمثل هذه المعلومات أن نجزم بشيء عن تاريخ محدد لنزول السور . فالمعول عليه عندهم – في الغالب – في ترتيب السور على هذا النحو هو تاريخ نزول أوائلها – لا جملتها – وقد تكون هناك أجزاء من سورة متقدمة نزلت بعد أجزاء من سورة متأخرة . إذ المعول في الترتيب على أوائل السورة . . أما في سورة الأنعام

فقد نزلت كلها جملة . ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها . غير أننا نرجح أنها كانت بعد السنوات الأولى من الرسالة . . ربما الخامسة أو السادسة . . ولا نعتمد في هذا الترجيح على أكثر من رقم الترتيب ; ثم على سعة الموضوعات التي تناولتها , والتوسع في عرضها على هذا النحو , الذي يشي بأن الدعوة والجدل مع المشركين , وطول الإعراض منهم والتكذيب لرسول الله , أصبح يقتضي التوسع في عرض القضايا العقيدية على هذا النحو ; كما يقتضي تسلية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن طول الصد والإعراض والتكذيب . .

(76/222)

وفي رواية عن ابن عباس وقتادة: أن السورة مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة . قوله تعالى: (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس , تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا , وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم , قل: الله , ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) . . وهي الآية: 91 . نزلت في مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين . وقوله تعالى: (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله , والزيتون

والرمان متشابها وغير متشابه , كلوا من ثمره إذا أثمر , وآتوا حقه يوم حصاده , ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) . .

وهي الآية 141 , نزلت في ثابت بن قيس شماس الأنصاري . . وقال ابن جريج والماوردي: نزلت في معاذ ابن جبل .

والرواية عن الآية الأولى محتملة ; بسبب أن فيها ذكرا للكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس , ومواجهة لليهود في قوله تعالى: (تجعلونه قراطيس تبدونها) . . وإن كان هناك روايات أخرى عن مجاهد , وعن ابن عباس أن الذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء هم مشركو مكة وأن الآية مكية . وهناك قراءة: قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها ويخفون كثيرًا . . فهي على هذه القراءة خبر عن اليهود وليست خطابا لهم . وسياق الآية كله عن المشركين . وقد رجح ابن جرير هذه الرواية واستحسن هذه القراءة . . وعلى هذا تكون الآية مكية . .

وأما الآية الثانية فالسياق لا يحتمل أن تكون مدنية . لأن السياق بدونها ينقطع ما قبلها فيه عما بعدها في المعنى وفي العبارة . والحديث متصل عن إنشاء الله للجنات المعروشات ,

وعن جعله حمولة وفرشا من الأنعام في الآية التي تليها :(ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله , ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) . . ثم يمضي السياق في تكملة الحديث عن الأنعام , الذي كان قد بدأه قبل آية الثمار . . يجمعها كلها موضوع واحد , هو الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة الخاصة بقضية التحريم والتحليل والنذور .

وإنما الذي جعل بعضهم يعتبرها مدنية هو ما جاء فيها من قوله تعالى: (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده) . . واعتبارهم هذا الأمر يعني الزكاة . والزكاة لم تتقرر بأنصبتها المحددة في الزروع والثمار إلا في المدينة . . ولكن هذا المعنى ليس متعينا في الآية . إذ أن هناك أقوالا مأثورة في تفسيرها بأنها تعني الصدقات , أو بأنها تعني الإطعام منها لمن يمر بهم يوم الحصاد أو جني الثمار ; أو لقرابتهم . . وأن الزكاة حددت فيما بعد بالعشر ونصف العشر . . وعلى هذا تكون الآية مكية .

وقال الثعلبي :سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة: (وما قدروا الله حق قدره) . . إلى آخر ثلاث آيات . و(قل: تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) . . إلى آخر ثلاث آيات . .

والآيات الأولى بينا مكيتها , إذ ينطبق على الآيتين الثانية والثالثة من هذه المجموعة ما ينطبق على الآية الأولى منها . .

أما المجموعة الثانية فليس هناك – فيما وصل إليه اطلاعي – رواية عن صحابي ولا تابعي عن كونها مدنية ; وليس في موضوعها ما يدعو إلى اعتبارها مدنية . وهي تتحدث عن تصورات جاهلية ; وهي متصلة بموضوع التحريم والتحليل في الذبائح والنذور الذي سبق الحديث عنه , اتصالا وثيقا . . لذلك نميل إلى اعتبارها مكية كذلك . .

(78/222)

وفي المصحف الأميري أن الآيات [153 , 152 , 151 , 141 , 114 , 92 , 91 , 23 , 20] مدنية . وقد تحدثنا عن الآيات [92 – 91] و[141] و[153 – 151] وليس في الآيات [114 , 23 , 20] ما يدعو إلى الظن بأنها مدنية إلا ذكر أهل الكتاب فيها . وهذا ليس دليلا فقد ورد مثل هذه في الآيات المكية . .

لهذا كله نحن نميل إلى اعتبار الروايات المطلقة , التي تنص على أن السورة نزلت بجملتها في مكة في ليلة واحدة . وقد وردت عن ابن عباس وعن أسماء بنت يزيد , وفي الرواية عن أسماء تحديد للرواية بحادث مصاحب على النحو التالي:

"قال سفيان الثوري عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت: "نزلت سورة الأنعام على النبي (صلى الله عليه وسلم) جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبى (صلى

الله عليه وسلم) إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة " .

أما الرواية عن ابن عباس فقد رواها الطبراني قال:

حدثنا علي بن عبد العزيز , حدثنا حجاج بن منهال , حدثنا حماد بن سلمة , عن علي بن زيد , عن يوسف بن مهران , عن ابن عباس , قال: "نزلت الأنعام بمكة ليلة ; جملة واحدة , حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح" . .

وهاتان الروايتان أوثق من الأقوال التي جاء فيها أن بعض الآيات مدنية . وذلك بالإضافة إلى التحليل الموضوعي الذي أسلفنا .

والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي تدافعه وفي تدفقه يوقع في القلب أن هذه السورة نهر يتدفق , أو سيل يتدفع , بلا حواجز ولا فواصل ; وإن بناءها ذاته ليصدق تماما هذه الروايات , أو على الأقل يرجحها ترجيحا قويا .

8 - عرض سورة الأنعام لموضوعاتها في موجات متدافقة وأمثلة على ذلك

أما موضوع السورة الأساسي وشخصيتها العامة فقد أجملنا الإشارة إليهما في مطلع الحديث عنها . ولكن لا بد من شيء من التفصيل في هذا التعريف .

روى أبو بكر بن مردويه – بإسناده – عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين, لهم زجل بالتسبيح, والأرض بهم ترتج" . ورسول الله يقول: "سبحان الله العظيم . سبحان الله العظيم . . " . .

هذا الموكب, وهذا الارتجاج, واضح ظلهما في السورة ! . . إنها هي ذاتها موكب . موكب ترتج له النفس, ويرتج له الكون ! . . إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموحيات والإيقاعات ! . . وهي – كما قلنا من قبل – تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجه تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها, ومتشابكة معها, في المجرى المتصل المتدفق !

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل; فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع, كل مقطع منها يعالج جانبا من الموضوع . . إنما هي موجات . . وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها . ومن ثم فلن نحاول عرض الموضوعات التي تحتويها السورة في هذا التعريف; وإنما سنحاول فقط عرض نماذج من هذه الموجات المتلاحقة فيها:

تبدأ السورة بمواجهة المشركين, الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى, بينما دلائل التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم . . تبدأ بمواجهتهم بحقيقة

الألوهية متجلية في لمسات عريضة تشمل الوجود كله ; وتشمل وجودهم كله . . تبدأ في لمسات ثلاث ترسم مجالي الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع:

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض , وجعل الظلمات والنور , ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا , وأجل مسمى عنده , ثم أنتم تمترون . وهو الله في السماوات وفي الأرض , يعلم سركم وجهركم , ويعلم ما تكسبون) . .

(80/222)

ثلاث آيات تذرع الوجود الكوني كله في الآية الأولى , وتذرع الوجود الإنساني كله في الآية الثانية . . ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما في الآية الثالثة !

أي إعجاز ! وأية روعة ! وأي شمول ! وأية إحاطة !

وأمام هذا الوجود الكوني الشاهد بوحدة الخالق . وأمام هذا الوجود الإنساني الشاهد بتدبيره . وأمام هذه الألوهية الحاكمة في السماوات وفي الأرض ; العالمة بالسر والجهر والكسب . . يبدو شرك المشركين , وامتراء الممترين , عجبا منكرا لا مكان له في نظام الكون , ولا مكان له في فطرة النفس , ولا سند له في القلب والعقل !

وفي هذه اللحظة تبدأ الموجة التالية تعرض موقف المكذبين بآيات الله هذه المبثوثة في الكون

والحياة ; ومع عرض الموقف المنكر الغريب , يجيء التهديد , وتعرض مصارع الغابرين , ويتجلى السلطان القاهر الذي تدل عليه هذه المصارع , وهذه القوارع . فيبدو عجيبا منكرا تعنت المنكرين أمام هذا الحق المبين ; ويبدو أن المنكرين ليس الذي ينقصهم هو الدليل ولكنه صدق النية , وتفتح القلب للدليل :

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون , ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم , وأرسلنا السماء عليهم مدرارا , وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم , فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم , لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلًا , وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزئ برسل من قبلك ; فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون . قل : سيروا في الأرض , ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين . .

ومن هنا تبدأ موجة ثالثة في التعريف بحقيقة الألوهية , متجلية في ملكية الله سبحانه لما في السماوات وما في الأرض , ولما سكن بالليل والنهار . ومتجلية في كونه الرازق الذي يطعم ولا يطعم . فهو من ثم الولي الذي لا ولي غيره . الذي يجب أن يسلم العبيد أنفسهم إليه وحده . وهو الذي يعذب العصاة في الآخرة . وهو الذي يملك الضر والخير . وهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده . وهو الحكيم الخبير . .

وتبلغ الموجة قمتها بعد هذا التمهيد كله , في الإشهاد والمفاصلة بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين القوم , وإنذارهم والتبرؤ من شركهم , وإعلان التوحيد في مواجهتهم , في رنة عالية فاصلة جازمة:

6 :لمن ما في السماوات والأرض ? قل:لله . كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه , الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم , قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض , وهو يطعم ولا يطعم ? قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم , ولا تكونن من المشركين . قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه , وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده , وهو الحكيم الخبير . قل:أي شيء أكبر شهادة ? قل الله شهيد

بيني وبينكم , وأوحيإلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل:لا أشهد . قل إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون) . .

(82/222)

ثم تبدأ موجة رابعة تتحدث عن معرفة أهل الكتاب لهذا الكتاب الجديد الذي يكذب به المشركون ; وتصف هذا الشرك بأنه أظلم الظلم ; وتقف المشركين أمام مشهدهم يوم الحشر وهم يسألون عن شركائهم فينكرون الشرك ويذهب عنهم الافتراء ; وتصور حالهم وأجهزة الاستقبال الفطرية فيهم معطلة , لا تلتقط موحيات الإيمان ولا تستجيب , وقلوبهم محجوبة لا تدرك دلائل الإيمان , وهم يدعون أن هذا القرآن أساطير الأولين ; وتقول لهم:إنهم يهلكون أنفسهم وهم ينهون غيرهم عن الهدى , وينأون عنه . ثم تصور حالهم وهم موقوفون على النار يقولون:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! ثم تعود بهم إلى الدنيا وهم ينكرون البعث والمعاد . ثم تعقب على هذا بتصوير حالهم وهم موقوفون على ربهم , وهم يسألون عن هذا الإنكار ; وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . وتنتهي الموجة بتقرير خسارة المكذبين بلقاء الله , وتفاهة الحياة الدنيا إلى جانب الدار الآخرة المدخرة للذين يتقون:

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم , الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون .
ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ; إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم
جميعا . ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن
قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم , وضل عنهم ما كانوا
يفترون . ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا , وإن
يروا كل آية لا يؤمنوا بها , حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير
الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه , وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ
وقفوا على النار , فقالوا : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم
ما كانوا يخفون من قبل , ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه , وإنهم لكاذبون . وقالوا : إن هي إلا
حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق ؟
قالوا : بلى وربنا ! قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ,
حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها , وهم يحملون أوزارهم

على ظهورهم , ألا ساء ما يزرون ! وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو , وللدار الآخرة خير للذين يتقون , أفلا تعقلون . .

(84/222)

ثم تبدأ موجة خامسة , يلتفت فيها السياق إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسليه ويسري عنه ما يحزنه من تكذيبهم له ولما جاءهم من عند الله به . ويجعل له أسوة في الرسل قبله ممن صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله . ويقرر أن سنة الله لا تتبدل , ولكنها كذلك لا تستعجل ! فإن كان (صلى الله عليه وسلم) لا يصبر على إعراضهم , فليبذل جهده البشري في إتيانهم بخارقة ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . إنما اقتضت مشيئته في خلقه - وهو وحده صاحب الأمر المتصرف - أن يستجيب الذين لا تتعطل أجهزتهم الفطرية عن التلقي . والموتى لا حياة فيهم فهم لا يستقبلون موحيات الهدى ولا يستجيبون . والله يبعثهم , وهم إليه يرجعون . .

(قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون , فإنهم لا يكذبونك , ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك , فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا , ولا مبدل لكلمات الله , ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن

استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهمبآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى , فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون , والموتى يبعثهم الله , ثم إليه يرجعون) . .

وهكذا يمضي سياق السورة موجة في إثر موجة على هذا النسق الذي عرضنا منه نماذج , لعلها تصور طبيعة السورة , كما تصور موضوعها . . وهي تبلغ في بعض موجاتها ذروة أعلى من ذرى هذه الموجات التي استعرضناها ; كما أن تدفقها في بعض المسالك أشد جيشانا وأعلى إيقاعًا . . ولكننا لا نملك أن نستعرض السورة كلها في هذا التعريف المجمل , وسيأتي شيء من ذلك في الفقرة التالية . .

9 - حقيقة الألوهية في مواقف ومشاهد مختارة من الأنعام

ولقد سبق القول بأن هذه السورة تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة , إذ أنها في كل لمحة منها وفي كل موقف وفي كل مشهد , تبلغ حد "الروعة الباهرة" التي تبده النفس وتشده الحس , وتبهر النفس وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعاتها وموحياتها . .

فالآن ندع نصوصا من السورة ذاتها تصور هذه الحقيقة بأسلوبها القرآني . ذلك أن

الوصف مهما بلغ , لا يبلغ شيئا في نقل هذه الحقيقة إلى القلب البشري !

إن تقرير حقيقة الألوهية , وتعريف الناس بربهم الحق , وتعبيدهم له وحده , هو الموضوع الأساسي للسورة . فلنسمع إذن تقرير السياق القرآني لهذه الحقيقة في مواقف منه شتى: في موقف الإشهاد والمفاصلة , حيث تتجلى تلك الحقيقة في القلب المؤمن بها ; وحيث يواجه بها المخالفين , ويصدع بها في قوة وفي يقين:

(قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض , وهو يطعم ولا يطعم ! قل:إني أمرت أن أكون أول من أسلم , ولا تكونن من المشركين . قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه , وذلك الفوز المبين , وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . قل:أي شيء أكبر شهادة ? قل:الله شهيد بيني وبينكم , وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل:لا أشهد . قل:إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون) . .

وفي موقف التهديد , حيث يتجلى سلطان الله محيطا بالعباد ; وتتعرى أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام , وتتجه إلى ربها الحق وحده وتنسى الآلهة الزائفة , أمام الهول , وأمام مصارع المكذبين:

قل: أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه – إن شاء – وتنسون ما تشركون . ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ولكن قست قلوبهم , وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء , حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة , فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين: قل: أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم , من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات , ثم هم يصدفون . قل: أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ؟ هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟ . .

وفي موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار , والأنفاس والأعمار , مع القدرة والقهر والسيطرة في البر والبحر , والنهار والليل , والدنيا والأخرة , والحياة والممات:

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو , ويعلم ما في البر والبحر , وما تسقط من ورقة إلا يعلمها , ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل , ويعلم ما جرحتم بالنهار , ثم يبعثكم فيه لتقضى أجل مسمى , ثم إليه مرجعكم , ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده , ويرسل عليكم حفظة

حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) . .

وفي موقف شهادة الفطرة , واهتدائها الذاتي إلى ربها الحق , بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته في صفحات الكون , التي تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع في أعماقها المكنونة:

(87/222)

وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر: أتتخذ أصناما آلهة ? إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا , قال: هذا ربي ; فلما أفل قال: لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربي , فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي , هذا أكبر , فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا , وما أنا من المشركين . وحاجه قومه , قال: أتحاجوني في الله وقد هدان ? ولا أخاف ما تشركون به - إلا أن يشاء ربي شيئا - وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون ? وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم

أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟

الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . .

وفي مشهد الحياة النابضة في الفصائل والأنواع , ومشهد الإصباح والإمساء , ومشهد النجوم والظلمات في البر والبحر , ومشهد الماء الهاطل , والزرع النامي , والثمر اليانع . . حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك , المبدع بلا شبيه , وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفا تنكره العقول والقلوب:

(88/222)

إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت , ومخرج الميت من الحي , ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح , وجعل الليل سكنا , والشمس والقمر حسبانا , ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر , قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع , قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء , فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا , ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب , والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه , إن في ذلكم لآيات

لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم - وخرقوا له بنين وبنات بغير علم , سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض , أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة , وخلق كل شيء , وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه , وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار , وهو اللطيف الخبير . .

وأخيرا في موقف الابتهال والإنابة إلى الله الواحد بلا شريك , والتجرد له صلاة ونسكا , ومحيا ومماتا , واستنكار ابتغاء غيره ربا وهو رب كل شيء , ورد الأمر إليه كله في الدنيا في أمر الاستخلاف والابتلاء , وفي الآخرة في أمر الحساب والجزاء , حيث تختم السورة بهذا الابتهال الخاشع المنيب:

(89/222)

(قل: إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم: دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له , وبذلك أمرت , وأنا أول المسلمين . قل: أغير الله أبغي ربا , وهو رب كل شيء , ولا تكسب كل نفس إلا عليها , ولا تزر وازرة وزر أخرى , ثم إلى ربكم مرجعكم , فينبئكم بما كنتم فيه

تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض , ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم , إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) . .

وليست هذه النماذج الستة التي اخترناها إلا نماذج تصور حد "الروعة الباهرة" الذي يبلغه سياق السورة , في كل موقف , وفي كل مشهد , وفي كل إيقاع , وفي كل إيحاء . .

كذلك سبق القول: إن سياق السورة يبلغ حد الروعة الباهرة في كل مشهد وفي كل موقف ; مع تناسق في منهج العرض للمشاهد والمواقف ; ووعدنا أن نبين ما نعنيه بهذا التناسق .

ولن نعرض هنا إلا بعض النماذج في انتظار العرض التفصيلي للنصوص بعد التعريف المجمل . ونكتفي من هذا التناسق بثلاثة ألوان منه بارزة في سياق السورة:

إن السياق يعرض المشاهد والمواقف منوعة ; ولكنها تلتقي في ظاهرة واحدة . . إنه في كل مشهد أو موقف , كأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه , وأمام المواقف يتدبره . . يقفه أمامه بحركة تكاد الألفاظ تجسمها ! كما أن المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون , يراهم السامع في وقفتهم , والسياق يقفه هو الآخر ليشاهدهم ويتملاهم !

ففي مشاهد القيامة ومشاهد الاحتضار ترد هذه الوقفات:

(ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) .

.

(ولو ترى إذ وقفوا على ربهم . قال:أليس هذا بالحق ? قالوا:بلى وربنا ! قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) . .

(90/222)

(ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت , والملائكة باسطوا أيديهم:أخرجوا أنفسكم , اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة , وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم , وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم , وضل عنكم ما كنتم تزعمون) . .

(ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا:أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ? ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا:والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) . .

وفي مواقف التهديد ببطش الله وأخذ المكذبين بسلطانه الذي لا يرد , يقفهم أمام هذا البطش كأنهم يعاينونه:

(قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ; أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ? بل

إياه تدعون , فيكشف ما تدعون إليه – إن شاء – وتنسون ما تشركون) . .

(قل: أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم , من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات , ثم هم يصدفون . . قل: أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة , هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟) .

وفي تمثيل حالة الضلال بعد الهدى , والرجوع عن الحق بعد الاهتداء إليه , يرسم مشهدا شاخصا يقف السامع أمامه يتملاه , ولو لم يكن في اللفظ أمر بالنظر أو إشارة إلى الوقوف:

قل: أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا , ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله , كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران , له أصحاب يدعونه إلى الهدى ; ائتنا . .) . .

كذلك يقف السياق السامع أمام مشهد الثمار اليانعة في الجنات التي تتمثل فيها الحياة , والتي تتجلى فيها يد الله المبدعة للألوان والثمار:

(. . . وهو الذي أنزل من السماء ماء , فأخرجنا به نبات كل شيء , فأخرجنا منه خضرا , نخرج منه حبا متراكبا , ومن النخل من طلعها قنوان دانية , وجنات من أعناب , والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن في ذلكم

لآيات لقوم يؤمنون) . .

وهكذا كل مشاهد السورة ومواقفها يتجلى فيها هذا التناسق ويكون طابعها العام .

لون آخر من ألوان التناسق , يمت إلى هذا اللون بصلة كذلك . . مواقف الإشهاد . .

إن مشاهد القيامة في السورة تعرض كأنما هي مواقف إشهاد على ما كان من المشركين والمكذبين ; ومواقف تشهير بهم ; وتوجيه للأنظار إلى هذه المواقف . . وقد سبق عرض نماذج منها . . وفي كل منها : (ولو ترى . . .)

وتلتقي بها مواقف الإشهاد على العقيدة , ومواقف الإشهاد على الشريعة . . كلتاهما سواء .

في أول السورة عند الحديث عن العقيدة في محيطها الشامل يجيء هذا الموقف:

(قل: أي شيء أكبر شهادة ? قل: الله شهيد بيني وبينكم , وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ? قل: لا أشهد . قل: إنما هو إله واحد , وإنني بريء مما تشركون) .

حتى إذا جاء السياق إلى المناسبة الخاصة في السورة , المتعلقة بالعقيدة في قضية التحريم والتحليل أقام مشهدا آخر , ودعا إلى إشهاد على هذه القضية الخاصة , كالإشهاد على تلك القضية العامة , للدلالة على أنها هي هي من ناحية الموضوع ; ولضمان التناسق الذي هو طابع التعبير القرآني العام :

(قل: هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة , وهم بربهم يعدلون) . .

لون ثالث من ألوان التناسق ; هو التناسق التعبيري الذي يقتضيه التقرير الموضوعي . والذي يتمثل في تكرار عبارات بعينها للدلالة على أنها تعبير عن حقيقة واحدة في صور متعددة .

(92/222)

وهذا كالتعبير في أول السورة عن الذين كفروا حين يشركون بالله غيره بأنهم بربهم يعدلون . ثم التعبير كذلك في أواخرها عن الذين يشرعون لأنفسهم بأنهم كذلك بربهم يعدلون . على النحو التالي:

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض , وجعل الظلمات والنور , ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) . .

(قل: هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم , ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا , والذين لا يؤمنون بالآخرة . وهم بربهم يعدلون) .

ففي الآية الأولى هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به . . وفي الثانية هم يعدلون بربهم لأنهم

يشركون به كذلك . ممثلا هذا الشرك في ادعاء حق الألوهية في التشريع . .

ولهذا دلالته الموضوعية , وجماله التعبيري أيضا . . .

كذلك يكرر كلمة الصراط , وهو يعبر عن الإسلام جملة ; وهو يعبر عن قضية التشريع على هذا النحو:

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام , ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) . .

وبعد أن يتحدث عن الأنعام والحرث , والحلال والحرام في نهاية السورة كما جاء في مقدمة التعريف بالسورة يقول:

(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه , ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله: ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) . .

فيدل على أن هذه القضية هي قضية العقيدة . وأن الالتزام فيها هو المضي على صراط الله , وأن الانحراف فيها هو الخروج عن هذا الصراط . . وأنها قضية إيمان أو كفر , وجاهلية أو إسلام . . كما فصلنا ذلك في مطلع الكلام !

وإلى هنا يحسن أن نكتفي في التعريف المجمل , لنواجه نصوص السورة في سياقها القرآني بعون الله . . ووفق طبيعة السورة سنعرضها موجة موجة – لا درسا درسا كما تعودنا

ذلك في السور المدنية – فهذه الطريقة في العرض أدنى إلى طبيعة السورة ; وإلى تحقيق التناسق بينها وبين ظلالها كذلك . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1029.1004 ﴾

(93/222)

وقال الشيخ الصابونى :

" بين يدي السورة "

سورة الأنعام

مكية وآياتها خمس وستون ومائة

بين يدي السورة

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول العقيدة وأصول الايمان وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كالبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، فهي لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم ، والحج والعقوبات ، وأحكام الاسرة ، ولم تذكر أمور القتال ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام ، كما لم تتحدث عن أهل الكتاب من إليه ود والنصارى ولا

على المنافقين ، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة والإيمان ، وهذه القضايا يمكن تلخيصها فيما يلى :

1 – قضية الألوهية

2 – قضية الوحى والرسالة

3 – قضية البعث والجزاء .

* نجد الحديث في هذه السورة مستفيضا يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية ، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة ، والدلائل الباهرة ، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والاقناع ، لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين . ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة فى غيرها من السور هما :

1 – أسلوب التقرير

2 – أسلوب التلقين .

* أما الأول : " أسلوب التقرير " فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله ، والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته ، وسلطانه وقهره ، في صورة الشأن المسلم ، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحسن الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ، ولا عقل راشد ، في انه تعالى المبدع للكائنات ، صاحب الفضل والإنعام ، فيأتى بعبارة (هو " الدالة على الخالق المدبر الحكيم ، استمع قوله تعالى [هو الذي خلقكم من طين] . . [وهو الله في السموات والأرض] . . [وهو الذي يتوفاكم بالليل] . . [وهو القاهر فوق عباده] . . [وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق . . .] الخ .

(95/222)

---

* أما الثانى : " أسلوب التلقين " فإنه يظهر جليا في تعليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) تلقين الحجة ، ليقذف بها في وجه الخصم بحيث يأخذ عليه سمعه ، ويملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها ، ويأتى هذا الاسلوب بطريق السؤال والجواب ، يسألهم ثم يجيب ، استمع إلى الآيات الكريمة [قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة] . . [قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم] . . [قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به] . [وقالوا

لولا نزل عليه آية من ربه قل ان الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون] وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين ، وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، التي تقصم ظهر الباطل . ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية (يقول الامام الرازي : " امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة : أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة ، وثانيهما أنه شيعها سبعون ألفا من الملائكة ، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وابطال مذاهب المبطلين والملحدين " ويقول الإمام القرطبي : إن هذه السورة اصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة) ، تقرر حقائقها ، وتثبت دعائمها ، وتفند شبه المعارضين لها ، بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة ، فهي تذكر توحيد الله جل وعلا في الخلق والإيجاد ، وفي التشريع والعبادة ، وتذكر موقف المكذبين للرسل ، وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين ، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة ، وتذكر يوم البعث والجزاء ، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والأفاق ، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء . وتذكر أبا الأنبياء إبراهيم وجملة من أبنائه الرسل ،

وترشد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم ، في احتمال المشاق وفي الصبر عليها ، وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر ، وتفيض في هذا بألوان مختلفة . ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتفنيد والإبطال ، ثم تختم السورة بعد ذلك – في ربع كامل – بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة ، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين [قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم . .] الآية . وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة ، وهو أنه خليفة في الأرض ، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون ، تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله ، ويقوم اللاحق منها مقام السابق ، وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي " الابتلاء والاختبار " في القيام بتبعات هذه الحياة ، وذلك شأن يرجع إليه كما له المقصود من هذا الخلق وذلك النظام [وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم] .

التسمية :

سميت ب " سورة الأنعام " لورود ذكر الأنعام فيها [وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . .] ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين مذكورة فيها ، ومن

خصائصها ما روي عن ابن عباس انه قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا ، جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 376.377 ﴾

(97/222)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الأنعام

112 - مسألة :

قوله تعالى : (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) فرق بين (خلق) و (جعل) ؟ .

جوابه :

أن السموات والأرض أجرام ، فناسب فيهما : (خلق) والظلمات والنور أعراض ومعان فناسب فيهما : (جعل)

ومثله كثير كقوله تعالى : (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) أي لا تصفوا ، (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ)

وهو كثير .

113 - مسألة :

قوله تعالى : (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) . جمع الظلمات وأفرد النور ؟

جوابه :

أما من جعل الظلمات : الكفر ، والنور : الإيمان ، فظاهر لأن أصناف الكفر كثيرة ، والإيمان شيء واحد .

ومن قال : بأن المراد - حقيقتهما ، فلأنه يقال : رجل نور ، ورجال نور ، فيقال للواحد وللجماعة ، وواحد الظلمات : ظلمة ، فجمعت جمع التأنيث . ولأن حقيقة النور واحدة ، وحقائق الظلمات مختلفة .

114 . مسألة :

قوله تعالى : (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ) وفي الشعراء : (قسيأتيهم) ؟ .

جوابه :

مع قصد التنويع في الفصاحة ، فإن المراد بآية الأنعام

الدلالة على نبوة النبى – صلى الله عليه وسلم – من الآيات والمعجزات .

والمراد بالحق القرآن ، ولكن لم يصرح به ، وفى الشعراء صرح بالقرآن بقوله : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ) فعلم أن المراد بالحق : القرآن ، فناسب :

(فسيأتيهم) تعظيما لشأن القرآن ، لأن السين أقرب من

سوف .

115 – مسألة :

قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا) وفى الشعراء : (أَوَلَمْ يَرَوْا) بالواو ، وفى سبأ بالفاء

) ؟ .

جوابه :

أنه إن كان السياق يقتضي النظر والاستدلال جاء بغير واو ، وهنا كذلك لمن يعتبر الآيات

قبله .

وإن كان يقتضي الاعتبار بالحاضر والمشاهدة جاء بالواو أو

الفاء ، لتدل الهمزة على الإنكار ، والواو على

عطفه على الجمل قبله كقوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) - ص 54 - الآية . (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

116 - مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا) .

وفى موضع آخر : بالفاء .

وقال هنا : (عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ* وفى النمل (عَاقِبَةُ الْمُجرمين) .

جوابه :

أن آية الأنعام ظاهرة في الأمر بالسير في بلاد المهلكين فناسب ثم المرتبة على السير المأمور به .

وفى المواضع الأخر : الأمر بالنظر بعد السير المتقدم كقوله تعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) فناسب أن يأتي بالفاء كأنه قيل : قد ساروا فلينظروا ، أو قد ساروا فنظروا عند سيرهم .

ولما تقدم هنا قوله تعالى : (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ) ناسب قوله : (عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) ولم يتقدم مثله في النمل .

117 - مسألة :

قوله تعالى : (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) ثم أعادها بعد ؟ .

جوابه :

أن الأول : للمشركين ، والثانية : لأهل الكتاب ليعم الفريقين .

118 - مسألة :

قوله تعالى : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . وفي يونس : (وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) ؟ .

قال هنا : (يَمْسَسْكَ) ، وفي يونس : (يُرِدْكَ) ؟ .

وقال هنا : (فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وفي يونس : (فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) ؟ "

جوابه :

مع قصد التنويع ، أن الضر إذا وقع لا يكشفه إلا الله تعالى فاستوى فيه الموضعان ، وأما الخير فقد يراد قبل نيله بزمن ، إما من الله تعالى - ، ثم ينيله بعد ذلك ، أو من غيره ، فهي حالتان :

حالة : إرادته قبل نيله ، وحالة : نيله ، فذكر الحالتين في السورتين .

فآية الأنعام : حالة نيله ، فعبر عنه بالمس المشعر بوجوده ، ثم قال : (فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي على ذلك ، وعلى خيرات بعده ، وفيه بشارة بنيل ، أمثاله .

وآية يونس : حالة إرادة الخير قبل نيله ، فقال : (يُرِدْكَ)

ثم قال : (فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) أي إذا أراده قبل نيله ، ولذلك

قال : (يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) ففي الآيتين بشارة

له بإرادة الخير ونيله إياه ، وأمثاله بالواو فيها .

119- مسألة :

قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ،

وختمها (بالظالمين) .

وفي يونس : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) بالفاء ، وختمها (بالمجرمين) ؟ .

جوابه :

أن آية الأنعام ليس ما قبلها سببا لما بعدها فجاءت بالواو المؤذنة بالاستئناف .

وأية يونس : ما قبلها سبب لما بعدها ، فجاءت بالفاء المؤذنة بالسببية من إشراكهم سببا في أظلميتم ولبثه فيهم عمرا من قبله وعلمهم بحاله سبب لكونهم أظلم كأنه قيل : إذا صح عندكم أنه صدق فمن أظلم ممن افترى .

وختم هذه "بالظالمين " لتقدم قوله : (فمن أظلم) ، وختم

تلك " بالمجرمين " لقوله : قبل ذلك (كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

120 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) وفى يونس :

(يَسْتَمِعُونَ) ، (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ) ؟ .

جوابه :

أن آية الأنعام في أبى جهل ، والنضر ، وأبى ، لما استمعوا

قراءة النبي - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الاستهزاء ، فقال النضر :

(أساطير الأولين) ، فلما قل عددهم أفرد الضمير

مناسبة للمضمرين .

وأية يونس : عامة لتقدم الآيات الدالة على ذلك كقوله

تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ)

فناسب ذلك ضمير الجمع ، وأفرد من ينظر لأن المراد نظر

المستهزئين ، فأفرد الضمير .

أو أنه لما تقدم ضمير الجمع أفرد الثاني تفننا ، واكتفى بالأول ، أو تخفيفا مع حصول

المقصود .

121 - مسألة :

قوله تعالى : (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

وفيما سواها : (نَمُوتُ وَنَحْيَا) ؟ .

جوابه :

أن (قالوا هنا عطف على قوله تعالى : (لعادوا)

أي : لعادوا وقالوا : وفى غيرها حكاية عن قولهم في الحياة

الدنيا .

122 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ) .

وكذلك في الحديد وغيرها .

وقدم في الأعراف والعنكبوت : " اللهو" على" اللعب " ؟ .

جوابه :

في الأعراف .

123 - مسألة :

قوله تعالى : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) .

وفى آخر السورة : (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ) الآية ؟

جوابه :

أنهم لا يكذبونك في الباطن ، لأنك عندهم معروف بالأمين ،

وإنما يكذبونك في الظاهر ليصدوا عنك .

124 - مسألة :

قوله تعالى (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ)

وكذلك في الآية الثالثة) .

وفى الثانية : (أَرَأَيْتُمْ) على العادة فيه .

جمع فيهما بين علامتي الخطاب ، وهما تاء الضمير وكاف

الخطاب ؟

جوابه :

أنه لما كان المتوعد به شديدا أكد في التنبيه عليه بالجمع بينهما مبالغة في الوعد .

125 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) .

وفى هود : حذف (لكم) ؟ .

جوابه :

أن آية هود تقدمها (لكم) مرات عدة ، فاكتفى به

تخفيفا . ولم يتقدم هنا سوى مرة واحدة .

126 - مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا)

وكذلك في سورة الأنبياء : (مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ) قدم النفع على الضر . وفى الحج

والفرقان وغيرهما : قدم الضر على النفع ؟ .

جوابه :

أن دفع الضر أهم من جلب النفع ، فلما تقدم ذكر نفى الملك والقدرة عنهم كان تقديم ذكر

دفع الضر ، وانتفاء القدرة عليه أهم .

ولما كان سياق غير ذلك في العبادة والدعاء والمقصود بهما

غالبا طلب النفع وجلبه كان تقديم النفع أهم ، ولذلك قال في الحج : (يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ

مِنْ نَفْعِهِ) المقصود

بالدعاء .

127 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) .

وفى يوسف : (ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) مذكرا منونا ؟ .

جوابه :

أنه تقدم في هذه السورة : (فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى)

فناسب : (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) .

928 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ) .

وفى سائر المواضع : (وَيُخْرِجُ) بالياء ؟ .

جوابه :

أن : يخرج الحي من الموت مناسب في المعنى لفالق الحب

والنوى عن الخارج عنهما فجئ بالياء كالشرح له ، ثم عطف

(مُخْرِجُ) على (فالق) لأن عطف الاسمية على الاسمية

أنسب وأفصح ، ولما فيه من المقابلة للجملة المتقدمة . وسائر

المواضع بالياء : لأن الجملة قبلها فعلية ، فعطف عليها بفعلية .

9 - 92 - - مسألة :

قوله تعالى : (قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

وبعده : (لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) وبعده : (يُؤْمِنُونَ)

ما وجه اختصاص كل آية بخاتمتها ؟

جوابه :

أن حساب الشمس والقمر والنجوم والاهتداء بها يختص

بالعلماء بذلك فناسب ختمه ب (يعلمون) .

وإنشاء الخلائق من نفس واحدة ، ونقلهم من صلب إلى رحم ، ثم إلى الدنيا ثم إلى مستقر

ومستودع ، ثم إلي حياة وموت . والنظر في ذلك والفكر فيه أدق فناسب ختمه ب

(يفقهون) أي : يفهمون ، وهو اشتغال الذهن بما يتوصل

به إلى غيره ، فيتوصل بالنظر في ذلك إلى صحة وقوع البعث

والنشور بثواب أو عقاب .

ولما ذكر ما أنعم به على عباده من سعة الأرزاق والأقوات

والثمار وأنواع ذلك ناسب ذلك ختمه بالإيمان الداعي إلى

شكره تعالى على نعمه .

130 - مسألة :

قوله تعالى : (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) وقال في سورة المؤمن : (خَالِقُ

كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ؟ .

جوابه :

(102/222)

لما تقدم هنا : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ) فناسب تقديم كلمة التوحيد النافية للشرك رداً

عليهم ، ثم ذكر الخلق .

ولما تقدم في المؤمن كونه خالقا بقوله تعالى : (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ)

ناسب تقديم كلمة الخلق ثم كلمة التوحيد .

939 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) وقال بعده :

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ) ؟ .

جوابه :

لما تقدم في الأول : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا) ،

الآية وهو تسلية له – صلى الله عليه وسلم – ناسب ذلك ولو شاء ربك الحافظ لك ما فعلوه .

وأما الثانية : فتقدمها قوله : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا) .

فناسب ذلك : ولو شاء الله الذي جعلوا له ذلك ما فعلوه .

932 – مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ)

وفى النحل وغيرها : (بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) ؟" .

جوابه :

أن الأصل دخول الباء فيه لكن تقدم قوله تعالى : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) .

ولما تقدم هنا : (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) وتأخر (وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) ناسب من يضل عَنْ سَبِيلِهِ ، وبقية الآيات

إخبار عمن سبق منه الضلال فناسب الفعل الماضى .

133 – مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) . وقال في هود : (مُصْلِحُونَ) ؟ .

جوابه :

أن آية الأنعام تقدمها قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ)

أي – يوقظونكم

بالآيات من غفلاتكم ، لأن الإنذار الإيقاظ من الغفلات عن

المنذر به ، فناسب قوله : (غَافِلُونَ)

(103/222)

وفى هود : تقدم (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ) ،

فناسب الختم

بقوله : (مُصْلِحُونَ) ، لأن ذلك ضد الفساد المقابل له .

134 – مسألة :

قوله تعالى : (إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) هنا وفى الزمر . وفى قصة شعيب في هود :

(سَوْفَ تَعْلَمُونَ) بغير فاء ؟ .

جوابه :

أن القول في آيتي الأنعام والزمر بأمر الله تعالى له بقوله : قل) فناسب التوكيد في حصول

الموعود به " (بفاء السببية .

وأية هود من قول "شعيب" فلم يؤكد ذلك .

135 – مسألة :

قوله تعالى : حكاية عن قولهم : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) الآية .

وقال في النحل : (مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) ؟ .

جوابه :

أن لفظ الإشراك مؤذن بالشريك فلم يقل : (مِنْ دُونِهِ) .

بخلاف : (عَبَدْنَا) ليس مؤذنا بإشراك غيره فلذلك جاء :

(مِنْ دُونِهِ) وأما زيادة (نَحْنُ) فإنه لما حال بين الضمير

في (عَبَدْنَا) وبين ما عطف عليه حائل وهو قوله : (مِنْ دُونِهِ) أكد بقوله : فيه (نَحْنُ) .

وها هنا لم يحل بين الضمير والمعطوف عليه حائل .

136 – مسألة :

قوله تعالى : (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) .

وفى النحل : (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

جوابه :

لما تقدم قوله : (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ)

ناسب كذلك كذب الذين من قبلهم

ولما تقدم في النحل : (مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) إلى

قوله : (وَلَا حَرَّمْنَا) قال : (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) .

137 - مسألة : -

قوله تعالى : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

وفى " سبحان " : (خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ) الآية ؟ .

جوابه :

أن قوله تعالى : (مِنْ إِمْلَاقٍ) وهو الفقر ، خطاب المقلين

(104/222)

الفقراء ، أي : لا تقتلوهم من فقر بكم ، فحسن : (نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ) ما يزول به إملاقكم ثم قال

: (وَإِيَّاهُمْ) أى

نرزقكم جميعا .

وقوله تعالى : (خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ) خطاب للأغنياء ، أي خشية

إملاق يتجدد لهم بسببهم ، فحسن : (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) .

138 - مسألة :

قوله تعالى في آخر الوصية الأولى : (تَعْقِلُونَ) وفى آخر الثانية : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . وآخر الثالثة : (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ؟ .

جوابه :

أن الوصايا الخمس إنما يحمل على تركها العقل الغالب على الهوى ، لأن الإشراك بالله لعدم استعمال العقل الدال على توحيد الله وعظمته ونعمه على عبيده ، وكذلك عقوق الوالدين لايقتضيه العقل لسبق إحسانهما إلى الولد بكل طريق ، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق مع وجود الرازق الكريم ، وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل ، وكذلك قتل النفس لغيظ أو غضب في القاتل فحسن بعده : (تَعْقِلُونَ) .

وأما الثانية : فلتعلقها بالحقوق المالية والقولية ، أي : لعلكم تذكرون في أنفسكم أن لو كان الأيتام أولادكم وكنتم أنتم المقايضين لأنفسهم ما يكال أو يوزن ، أو المشهود عليه ، أو المقر له ، أو الموعود ، أكنتم ترضونه لأنفسكنم ؟ فما لا ترضونه لأنفسكم لا ترضونه لغيركم .

وأما الثالثة : فلأن ترك اتباع الشرائع الدينية مؤد

إلى غضب الله تعالى وإلى جهنم لما فيه من معصية الله تعالى ،

فحسن : (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ذلك ، أو تتقون عذاب الله سبحانه بسببه .

139 - مسألة :

قوله تعالى : (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) .

وفى الأنبياء : (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ)

قدم الإنزال ههنا وأخره في الأنبياء ؟ .

جوابه :

قدم الإنزال ههنا ردا على قول فنحاص بن عازوراء : (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

فبدأ به اهتماما به ،

ولأن الكتب سماوية فناسب البداءة بالإنزال .

(105/222)

وأية الأنبياء في الذكر ، فجاءت على الأصل في تقديم الوصف المفرد في النكرة على الجملة .

1 ، 0 – مسألة :

قوله تعالى : (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) .

وقال تعالى في البقرة : (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ) الآية .

جوابه :

أن آية الأنعام : لمطلق الحسنات ، وآية البقرة خاصة في النفقة في سبيل الله السالمة من المن والأذى ، وقد تقدم في البقرة (6) .

فإن قيل : ففي البقرة : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ) الآية .

قلنا : وروده بعد قوله تعالى : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ،

يدل على ما قدمناه أو المراد بهذه الآية العشر فما زاد .

141 – مسألة :

قوله تعالى : (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

وقال في يونس عن نوح : (مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

وفى موسى : (أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) ؟ .

جوابه :

أن المراد أول المسلمين من أهل مكة شرفها الله تعالى ، لأنه

أول المسلمين منهم ، ولم يكن نوح أول من أسلم في زمانه ،

ومثله قول سحرة فرعون : (أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)

يريد أولهم من قوم فرعون وآله .

وأما قول موسى (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) أراد أول المصدقين

بامتناع الرؤية في الدنيا " ولم يرد الإيمان الذي هو : الدين .

142 – مسألة :

قوله تعالى : (خَلَائِفَ الْأَرْضِ) .

وفى فاطر : (فِي الْأَرْضِ) . يأتي فيها .

143 – مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ) . وفى الأعراف :

(لَسَرِيعُ الْعِقَابِ) ؟ .

جوابه :

أنه لما تقدم ما يؤذن بالكرم والإحسان في قوله : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)

الآيات

ناسب ترك التوكيد في جانب العقاب .

وفى الأعراف : لما تقدم ما يؤذن بغضب الله وعذابه من

اتخاذهم العجل ، وحل السبت ، ناسب توكيد جانب العذاب

بدخول اللام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 53.73 ﴾

(106/222)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

قوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ ﴾ وفى الشعراء ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ لأَنَّ سورة الأَنعام متقدّمة فقيّد التكذيب بقوله : ﴿ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ ثمّ قال : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ ﴾ على التمام ، وذكر فى الشعراءِ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ مطلقا ؛ لأَن تقييده فى هذه السّورة يدلّ عليه ، ثمّ اقتصر على السّين هناك بد (فسوف) ليتّفق اللفظان فيه على الاختصار .

قوله ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ فى بعض المواضع بغير واو ؛ كما فى هذه السّورة ، وفى بعضها بالواو ، وفى بعضها بالفاءِ ؛ هذه الكلمة تأتى فى القرآن على وجهين : أَحدهما متَّصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة ، فذكره بالأَلف والواو ، ليدلّ الأَلف على الاستفهام ، والواو على عطف جملة على جملة قبلها ، وكذا الفاءُ ، ولكنَّها أَشدّ اتّصالاً بما قبلها ، والثانى متَّصل بما الاعتبارُ فيها بالاستدلال ، فاقتُصِر على الأَلف دون الواو والفاءِ ،

ليجرى مَجْرَى الاستئناف ؛ ولا يَنْقُصُ هذا الأَصلَ قوله ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ ﴾ فى النَّحل ؛ لاتِّصالها بقوله ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ وسبيله الاعتبار بالاستدلال ، فبنى عليه ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ ﴾ .

قوله ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ [ثُمَّ انظُرُواْ ﴾ فى هذه السورة فحسب .

(107/222)

وفى غيرها : ﴿ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ[فَانظُرُواْ ﴾ لأَنَّ ثُمَّ للتراخى ، والفاءَ للتعقيب ، وفى هذه السّورة تقدّم ذكرُ القرون فى قوله ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ ثمّ قال ﴿ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ فأُمِرُوا باستقراءِ الدّيار ، وتأَمُّل الآثار ، وفيها كثرة فيقع ذلك (فى) سير بعد سير ، وزمان بعد زمان ، فخصّت بثمّ الدّالة على التَّراخى بعد الفعلين ، ليُعلَم أَنَّ

السّير مأمور به على حِدَة ؛ ولم يتقدّم فى سائر السّور مثلُها ، فخُصّت بالفاءِ الدَّالة على التعقيب .

قوله ﴿ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ليس بتكرار لأَنَّ الأَوّل فى حقِّ الكفَّار ، (والثانى) فى حقِّ أَهل الكتاب .

قوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ [لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقال في يونس (فمن) بالفاءِ ، وخَتم الآية بقوله ﴿ إِنَّهُ] لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُوْنَ ﴾ لأَنَّ الآيات الَّتى تقدّمت فى هذه السّورة عُطِف بعضها على بعض بالواو ، وهو قوله ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ .

.

.

وَإِنَّنِي بَرِيءٌ ﴾ ثمّ قال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ وخَتَم الآية بقوله : ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ ليكون آخر الآية [موافقا للأول .

وأَما فى سورة يونس فالآيات التى تقدمت عطف بعضها على بعض بالفاءِ وهو قوله : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ثم قال : فمن أَظلم (بالفاءِ وختم الآية] بقوله : ﴿ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيضاً موافقة لما قبلها وهو قوله : ﴿ كَذلك نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فوصفهم بأَنَّهم مجرمون ، وقال بعده ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم ﴾ فختم الآية بقوله : المجرمون ليعلم أَنَّ سبيل (هؤُلاءِ سبيل) مَن تقدّمهم .

(108/222)

قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ وفى يونس ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ لأَنَّ ما فى هذه السّورة نزل فى أَبى سفيان ، والنَّضْر بن الحارث ، وعُتْبَة ، وشَيْبَة ، وأُمَيَّة ، وأُبىّ بن خَلَفَ ، فلم يكثروا ككثرة قوله (مَن) فى يونس لأَنَّ المراد بهم جميع الكفَّار ، فحمل ههنا مرَّة على لفظ (مَنْ) فوُحِّدَ ؛ لقلَّتهم ، ومرَّة على المعنى ، فجمع ؛ لأَنَّهم وإشن قلُّوا جماعةٌ .

وجُمع ما فى يونس ليوافق اللَّفظ المعنى .

وأَمَّا قوله فى يونس : ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ فسيأْتى فى موضعه إن شاءَ الله تعالى .

قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ ﴾ ثمّ أَعاد فقال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ لأَنَّهم أَنكروا النَّار فى القيامة ، وأَنكروا الجزاءَ والنّكال ، فقال فى الأُولى : ﴿ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ ﴾ ، وفى الثَّانية ﴿ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ أَى جزاءِ ربِّهم ونكالِه فى النار ، وختم بقوله : ﴿ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ليس غيره .

وفى غيرها بزيادة (نموت ونحيا) لأَنَّ ما فى هذه السّورة عند كثير من المفسرين متَّصل بقوله ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وقالوا إن هى إِلاَّ حياتنا الدنيا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولم يقولوا ذلك ، بخلاف ما فى سائر السُّوَر ؛ فإِنهم قالوا ذلك ؛ فحكى الله تعالى عنهم .

قوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ قدّم اللَّعب على اللَّهو فى موضعين هنا ، وكذلك فى القتال ، والحديد ، وقدّم اللَّهو على اللَّعب فى الأَعراف ، والعنكبوت ، وإِنما

قدّم اللَّعب فى الأَكثر لأَنَّ اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب ، وزمان الصبا مقدّم على زمان الشباب .

(109/222)

يُبَيِّنه ما ذكر فى الحديد ﴿ اعْلَمُوْا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ كلعب الصبيان ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ كلهو الشبَّان ﴿ وَزِيْنَةٌ ﴾ كزينة النِّسوان ﴿ وَتَفَاخُرٌ ﴾ كتفاخر الإِخوان ﴿ وَتَكَاثُرٌ ﴾ كتكاثر السُّلطان .

وقريب من هذا فى تقديم لفظ اللعب على اللَّهو قوله ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ وقدّم اللَّهو فى الأَعراف لأَنَّ ذلك فى القيامة ، فذكر على ترتيب ما انقضى ، وبدأَ بما به الإِنسان انتهى من الحالتين .

وأَما العنكبوت فالمراد بذكرها زمانُ الدُّنيا ،

وأَنَّه سريع الانقضاءِ ، قليل البقاءِ ، وإِنَّ الدَّار الآخرة لهى الحيوان أَى الحياة الَّتى لا بداية لها ، ولا نهاية لها ، فبدأَ بذكر اللهو ؛ لأَنَّه فى زمان الشَّباب ، وهو أَكثر من زمان اللعب ، وهو زمان الصِّبا .

قوله : ﴿ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ ثمّ قال : ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ

عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ وليس لهما ثالث .

وقال : فيما بينهما ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ وكذلك فى غيرها ، ليس لهذه الجملة فى العربيّة نظير ، لأَنَّه جمْع بين علامَتَى خطاب ، وهما التاءُ والكاف ، والتَّاءُ اسم بالإِجماع ، والكاف حرف عند البصريين يفيد الخطاب فحسْبُ ، والجمع بينهما يدلُّ على أَن ذلك تنبيه على شىء ، ما عليه من مزيد ، وهو ذكر الاستئصال بالهلاك ، وليس فيما سواهما ما يدلّ على ذلك ، فاكتُفِىَ بخطاب واحد والله أَعلم .

قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ فى هذه السورة ، وفى الأَعراف : ﴿ يَضَّرَّعُونَ ﴾ بالإِدغام لأَنَّ ههنا وافق ما بعده وهو قوله : ﴿ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ ومستقبل تضرَّعوا يتضرَّعون لا غير .

(110/222)

قوله : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ مكرّر ؛ لأَنَّ التقدير : انظر كيف نصرّف الآيات ثمّ هم يصْدِفُونَ عنها ؛ فلا نُعرض عنهم بل نكرّرها لعلهم يفقهون .

قوله : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ فكرّر ﴿ لَكُمْ ﴾ وقال فى هود ﴿ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ فلم يكرّر ﴿ لَكُمْ ﴾ لأَنَّ فى هود تقدّم

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ وعَقِبه ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ ﴾ وبعده ﴿ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ فلمّا تكرّر ﴿ لَكُمْ ﴾ فى القصّة أَربع مرّات اكتفى بذلك .

قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ فى هذه السّورة ، وفى سورة يوسف : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ منوّناً ؛ لأَنَّ فى هذه السّورة

تقدّم ﴿ بَعْدَ ﴾ ﴿ وَلَكِنْ ذِكْرَى ﴾ فكان ﴿ الذِّكْرَى ﴾ أَليقَ بها .

قوله : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ فى هذه السّورة ؛ وفى آل عمران : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ وكذلك فى الرّوم ، ويونس ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ لأَنَّ [ما] فى هذه السّورة وقعت بين أَسماءِ الفاعلين وهو فالق الحبّ ، فالق الإِصباح وجاعل اللَّيل سكناً ، واسم الفاعل يُشْبِه الاسم من وجه ، فيدخله الأَلفُ واللاَّم ، والتنوينُ ، والجرُّ (من وجه) وغير ذلك ، ويشبه الفعل من وجه ، فيعمل عمل الفعل ، ولا يثنى و(لا) يجمع إِذا عمل ، وغير ذلك .

ولهذا جاز العطف عليه بالاسم نحو قوله : الصّابرين والصّادقين ، وجاز العطف عليه بالفعل نحو قوله : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ ، ونحو قوله : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ فلمّا وقع بينهما ذكر ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ بلفظ الفعل و ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ بلفظ الاسم ؛ عملا بالشّبَهَين وأُخّر لفظ الاسم ؛ لأَنَّ الواقع بعده اسمان ، والمتقدّم اسم واحد ، بخلاف ما فى آل عمران ؛ لأَنَّ ما قبله وما بعده أَفعال .

وكذلك فى يونس والرّوم قبله وبعده أَفعال .

فتأَمّل فيه ؛ فإِنّه من معجزاتِ القرآن .

قوله ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ثمّ قال : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ وقال بعدهما ﴿ إِنَّ فِي ذَالِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأَنَّ مَن أَحاط بما فى الآية الأُولى صار عالِماً ، لأَنَّه أَشرف العلوم ، فختم بقوله : يعلمون ؛ والآية الثانية مشتملة على ما يَستدعى تأَمُّلاً وتدبُّراً ، والفقه علم يحصل بالتفكُّر والتدبُّر ، ولهذا لا يوصف به الله سبحانه وتعالى ، فختم الآية بقوله : ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ ومَنْ أَقَرَّ بما فى الآية الثالثة صار مؤمناً حَقًّا ، فختم الآية بقوله ﴿ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ وقوله ﴿ ذَالِكُمْ لآيَاتٍ ﴾ فى هذه السّورة ، لظهور الجماعات وظهور الآيات (عمَ جميع) الخطاب وجُمع الآيات .

قوله : ﴿ أَنشَأَكُمْ ﴾ ، وفى غيرها ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ لموافقة ما قبلها ، وهو ﴿ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ وما بعدها ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ ﴾ .

(112/222)

قوله : ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ ، وفى الآية الأُخرى ﴿ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ لأَنَّ أَكثر ما جاءَ فى القرآن من هاتين الكلمتين جاءَ بلفظ التَّشابه ، نحو قوله : ﴿ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ ﴿ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ فجاءَ ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ فى الآية الأُولى و ﴿ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ فى الآية الأُخرى على تلك القاعدة .

ثمّ كان لقوله "تشابه" معنيان : أَحدهما التَبس ، والثانى تساوى ، وما فى البقرة معناه : التبس فحَسْب ، فبيّن بقوله : ﴿ مُشْتَبِهاً ﴾ ومعناه : ملتبساً أَنَّ ما بعده من باب الالتباس أَيضاً ، لا من باب التساوى والله أَعلم .

قوله : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فى هذه السورة ، وفى المؤمن ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ ؛ لأَنَّ فيها قبله ذكر الشركاء ، والبنين ، والبنات ، فدفع قول قائله بقوله : لا إِلهَ إِلاَّ هو ، ثمّ قال ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وفى المؤْمن قبله ذكر الخَلْق

وهو ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ لا على نفى الشَّريك ، فقدم فى كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات .

قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ وقال فى الآية الأُخرى من هذه السّورة : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ لأَنَّ قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ﴾ وقع عقِيب آيات فيها ذِكر الرَب مرّات وهى ﴿ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ الآيات .

.

.

فختمها بذكر الرّب ؛ ليوافق ﴿ أُخْرَاهَا أُوْلاَهَا ﴾ .

قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ وقع بعد قوله ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ فختم بما بدأَ .

(113/222)

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ وفى ن : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ بزيادة الباء ، ولفظ الماضى ؛ لأَنَّ إثبات الباء هو الأَصل ؛ كما فى ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ وغيرها من السّور ؛ لأَن المعنى لا يعمل فى المفعول به ، فقُوِّى بالباءِ .

وحيث حُذفت أَضمِيرَ فعل يعمل فيما بعده .

وخصّت هذه السّورة بالحذف موافقة لقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وعُدِل إلى لفظ المستقبل ؛ لأَنَّ الباءَ لمّا حُذِفتْ التبس اللفظ بالإِضافة – تعالى الله عن ذلك – فنبّه بلفظ المستقبل على قطع الإِضافة ؛ لأَنَّ أَكثر ما يستعمل بلفظ (أَفعل مَنْ) يستعمل مع الماضى ؛ أَعلم مَن دَبّ ودَرَجَ ، وأَحسنَ مَن قام وقعدَ ، وأَفضل من حجَ واعتمر .

فتنبّهْ فإِنَّه مِن أَسرار القرآن .

قوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ بالفاءِ حيث وقع ، وفى هود ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ بغير فاء ؛ لأَنَّه تقدّم فى هذه السورة وغيرها (قل) فَأَمرهم أَمْرَ وعيد بقوله (اعملوا) أَى اعملوا فستجزَونَ ، ولم يكن فى هود (قل) فصار استئنافاً .

وقيل : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ فى سورة هود صفة لعامل ، أَى إِنّى عامل سوف تعلمون ، فحَذَفَ الفاءَ .

(114/222)

قوله ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ ، وقال فى النحل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فزاد ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ مرّتين ، وزاد (نحن) لأَنَّ لفظ

الإِشراك يدل على إِثبات شريك لا يجوز إِثباته ، ودلَّ على تحريم أَشياءَ ، وتحليل أَشياءَ من دون الله ، فلم يحتج إِلى لفظ ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ ؛ بخلاف لفظ العبادة ؛ فإِنَّها غير مستنكرة وإِنَّما المستنكرة عبادة شيء مع الله سبحانه وتعالى ولا يدل على تحريم شيء مما دلَّ عليه (أَشرك) ، فلم يكن بُدٌّ (من تقييده بقوله : "من دونه" .

ولَمَّا حذف "من دونه" من الاية مرَّتين حذف معه (نحن) لتطَّرد الآية فى حكم التَّخْفيف .

قوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وفى سبحان ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ على الضِّدّ ؛ لأَنَّ التقدير : من إِملاق [بكم] نحن نرزقكم وإِياهم وفى سبحان : خشية إِملاق يقع بهم نحن نرزقهم وإِيَّاكم .

قوله : ﴿ ذِلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وفى الثانية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وفى الثالثة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ﴾ لأَنَّ الآية (الأُولى) مشتملة على خمسة أَشياء ، كلُّها عظام جسَام ، وكانت الوصيّة بها من أَبلغ الوصايا ، فختم الآية بما فى الإِنسان من أَشرف السّجايا (وهو العقل) الَّذى امتاز به الإِنسان عن سائر الحيوان ؛ والآية الثانية مشتملة على خمسة أَشياء يقبح تعاطيها وارتكابها ، وكانت الوصيّة بها تجرى مجْرَى الزَّجر والوعظ ، فختم الآية بقوله : ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ أَى تتَّعظون بمواعظ الله ؛ والآية الثالثة مشتملة على ذكر الصّراط المستقيم ، والتَّحريض على اتباعه ، واجتناب مُنافيه ، فختم الآية بالتَّقوى الَّتى هى مِلاك العمل وخير الزَّاد .

قوله : ﴿ جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ فى هذه السّورة ، وفى يونس والملائكة ﴿ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ ﴾ لأَنَّ فى هذه العشر الآيات تكرّر ذكر المخاطبي مرّات ، فعرّفهم بالإِضافة ؛ وقد جاءَ فى السّورتين على الأَصل ، وهو ﴿ جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ﴿ جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِيْنَ فِيْهِ ﴾ .

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال فى الأَعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لأَنَّ ما فى هذه السّورة وقع بعد قوله ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِيْ جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ فقُيِّد قوله : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ باللّام ترجيحاً للغفران على العقاب .

ووقع ما فى الأَعراف بعد قوله : ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ وقوله : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ فقيّد العقاب باللّام لما تقدّم من الكلام ، وقيّد المغفرة أَيضا بها رحمةً منه للعباد ؛ لئلاَّ يترجّح جانب الخوف على الرّجاءِ .

وقدّم ﴿ سَرِيْعُ الْعِقَابِ ﴾ فى الآيتين مراعاة لفواصل الآى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 186 . 200 ﴾

وقال العلامة الكرماني رحمه الله

سورة الأنعام

92 - قوله فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم 5 وفي الشعراء فقد كذبوا

فسيأتيهم 6 لأن سورة الأنعام متقدمة

فقيد التكذيب بقوله بالحق لما جاءهم ثم قال فسوف يأتيهم على التمام وذكر في الشعراء

فقد كذبوا مطلقا لأن تقييده في هذه السورة يدل عليه ثم اقتصر على السين هنا بدل سوف

ليتفق اللفظان فيه على الاختصار

93 - قوله ألم يروا كم أهلكنا 6 في بعض المواضع بغير واو كما في هذه السورة وفي بعضها

بالواو وفي بعضها بالفاء هذه الكلمة تأتي في القرآن على وجهين أحدهما متصل بما كان

الاعتبار فيه بالمشاهدة فذكره بالألف والواو لتدل الألف على الاستفهام والواو على

عطف جملة على جملة قبلها وكذا الفاء لكنها أشد اتصالا بما قبلها والوجه الثاني متصل

بما الاعتبار فيه بالاستدلال فاقتصر على الألف دون الواو والفاء لتجري مجرى الاستئناف

ولا ينقض هذا الأصل قوله أو لم يروا إلى الطير 79 في النحل لاتصالها بقوله والله أخرجكم

من بطون أمهاتكم 78 وسبيله الاعتبار بالاستدلال فبنى عليه أو لم يروا إلى الطير

94 - قوله قل سيروا في الأرض ثم انظروا 11 في هذه السورة فحسب وفي غيرها سيروا في الأرض فانظروا 3 137 و16 36 و27 69 و30 42 لأن ثم للتراخي والفاء للتعقيب وفي هذه السورة تقدم ذكر القرون في قوله كم أهلكنا من قبلهم من قرن 6 ثم قال وأنشأنا بعدهم قرنا آخرين 6 فأمروا باستقراء الديار وتأمل الآثار وفيها كثرة فيقع ذلك سيرا بعد سير وزمانا بعد زمان

فخصت بثم الدالة على التراخي بين الفعلين ليعلم أن السير مأمور به على حدة والنظر مأمور به على حدة ولم يتقدم في سائر السور مثله فخصت بالفاء الدالة على التعقيب

95 - قوله الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون 12 20 ليس بتكرار لأن الأول في حق الكفار والثاني في حق أهل الكتاب

(117/222)

---

96 - قوله ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون 21 وقال في يونس فمن أظلم 17 وختم الآية بقوله إنه لا يفلح المجرمون 17 لأن الآيات التي تقدمت في هذه السورة عطف بعضها على بعض بالواو وهو قوله وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم

به ومن بلغ إلى وإنني بريء مما تشركون 19 ثم قال ومن أظلم وختم الآية بقوله الظالمون ليكون آخر الآية لفقا لأول الأولى

وأما في سورة يونس فالآيات التي تقدمت عطف بعضها على بعض بالفاء وهو قوله فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون 16 ثم قال فمن أظلم بالفاء وختم الآية بقوله المجرمون أيضا موافقة لما قبلها وهو كذلك نجزي القوم المجرمين 13 فوصفهم بأنهم مجرمون وقال بعده ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم 14 فختم الآية بقوله المجرمون ليعلم أن سبيل هؤلاء سبيل من تقدمهم

97 – قوله ومنهم من يستمع إليك 25 وفي يونس يستمعون 42 لأن ما في هذه السورة نزل في أبي سفيان والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة وأمية وأبي بن خلف فلم يكثروا كثرة من في يونس لأن المراد بهم في يونس جميع الكفار فحمل ههنا مرة على لفظ من فوحد لقلتهم ومرة على المعنى فجمع لأنهم وإن قلوا كانوا جماعة وجمع ما في يونس ليوافق اللفظ المعنى وأما قوله في يونس ومنهم من ينظر إليك 43 فسيأتي في موضعه إن شاء الله

98 – قوله ولو ترى إذ وقفوا على النار 27 ثم أعاد فقال ولو ترى إذ وقفوا على ربهم 30 لأنهم أنكروا النار في القيامة وأنكروا جزاء الله ونكاله فقال في الأولى إذ وقفوا على النار وفي الثانية وقفوا على ربهم أي على جزاء ربهم ونكاله في النار وختم بقوله فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون 30

---

99 - قوله إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين 29 ليس غيره وفي غيرها بزيادة يموت ونحيا 23 37 و45 24 لأن ما في هذه السورة عند كثير من المفسرين متصل بقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون 28 وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين 29 ولم يقولوا ذلك أي نموت ونحيا بخلاف ما في سائر السور فإنهم قالوا ذلك فحكى الله عنهم ذلك

100 - قوله وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو 32 قدم اللعب على اللهو في هذه السورة في موضعين وكذلك في سورتي القتال 36 والحديد 20

وقدم اللهو على اللعب في الأعراف والعنكبوت وإنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر في الحديد اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب كلعب الصبيان ولهو كلهو الشبان وزينة كزينة النسوان وتفاخر كتفاخر الإخوان وتكاثر كتكاثر السلطان

وقريب من هذا في تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله تعالى وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا 21 17 18

وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة فذكر على ترتيب ما انقضى وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء وإن الدار

الآخرة لهي الحيوان 64 أي الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لأبدها بدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا

(119/222)

---

101 - قوله أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة 40 ثم قال قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة 47 وليس لهما ثالث وقال فيما بينهما قل أرأيتم 46 وكذلك في غيرها وليس لهذه الجملة في العربية نظير لأنه جمع بين علامتي خطاب وهما التاء والكاف والتاء اسم بالإجماع والكاف حرف عند البصريين يفيد الخطاب فحسب والجمع بينهما يدل على أن ذلك تنبيه على شيء ما عليه من مزيد وهو ذكر الاستئصال بالهلاك وليس فيما سواهما ما يدل على ذلك فاكتفى بخطاب واحد والعلم عند الله

102 - قوله لعلهم يتضرعون 42 في هذه السورة وفي الأعراف يضرعون 94 بالإدغام لأن ههنا وافق ما بعده وهو قوله جاءهم بأسنا تضرعوا 43 ومستقبل تضرعوا يتضرعون

لا غير

103 - قوله انظر كيف نصرف الآيات 46 65 مكرر لأن التقدير انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون عنها فلا تعرض عنهم بل تكررها لهم لعلهم يفقهون

104 - قوله قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك 50 فكرر لكم وقال في هود ولا أقول إني ملك 31 فلم يكرر لكم لأن في هود تقدم إني لكم نذير 25 وعقبه وما نرى لكم 27

وبعده أن أنصح لكم 34 فلما تكرر لكم في القصة أربع مرات اكتفى بذلك

105 - قوله إن هو إلا ذكرى للعالمين 90 في هذه السورة وفي سورة يوسف عليه السلام إن هو إلا ذكر للعالمين 104 منون لأن في هذه السورة تقدم بعد الذكرى 68 ولكن ذكرى 69 فكان الذكرى أليق بها

(120/222)

---

106 - قوله إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي 95 في هذه السورة وفي آل عمران تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي 27 وكذلك في الروم 19 ويونس 31 يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي لأن ما في هذه السورة

وقعت بين أسماء الفاعلين وهو فالق الحب والنوى 95 فالق الإصباح وجعل الليل سكنا

96 واسم الفاعل يشبه الاسم من وجه فيدخله الألف واللام والتنوين والجر وغير ذلك

ويشبه الفعل من وجه فيعمل عمل الفعل ولا يثنى ولا يجمع إذا عمل وغير ذلك ولهذا جاز

العطف عليه بالفعل نحو قوله إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا 57

18 وجاز عطفه على الفعل نحو قوله سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون 7 193

فلما وقع بينهما ذكر يخرج الحي من الميت لفظ الفعل ومخرج الميت من الحي بلفظ الاسم

عملا بالشبهين وأخر لفظ الاسم لأن الواقع بعده اسمان والمتقدم اسم واحد بخلاف ما في

آل عمران لأن ما قبله وما بعده أفعال فتأمل فيه فإنه من معجزات القرآن

107 – قوله قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون 97 ثم قال قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون 98

وقال بعدهما إن في ذلك لآيات

لقوم يؤمنون 99 لأن من أحاط علما بما في الآية الأولى صار عالما لأنه أشرف العلوم فختم

الآية بقوله يعلمون والآية الثانية مشتملة على ما يستدعي تأملا وتدبرا والفقه علم يحصل

بالتدبر والتأمل والتفكر ولهذا لا يوصف به الله سبحانه وتعالى فختم الآية بقوله يفقهون

ومن أقر بما في الآية الثالثة صار مؤمنا حقا فختم الآية بقوله يؤمنون حكاه أبو مسلم عن

الخطيب

وقوله إن في ذلكم لآيات 99 في هذه السورة بحضور الجماعات وظهور الآيات عم الخطاب

وجمع الآيات

108 - قوله أنشأكم 98 وفي غيرها خلقكم 21 و14 و26 و7 189 الخ لموافقة ما قبلها وهو وأنشأنا من بعدهم 6 وما بعدها وهو الذي أنشأ جنات معروشات 141

(121/222)

---

109 - قوله مشتبها وغير متشابه 99 وفي الآية الأخرى متشابها وغير متشابه 141 لأن أكثر ما جاء في القرآن من هاتين الكلمتين جاء بلفظ التشابه نحو قوله وأتوا به متشابها 5 إن البقر تشابه علينا 70 تشابهت قلوبهم 118 وأخر متشابهات 3 7 فجاء قوله مشتبها وغير متشابه في الآية الأولى ومتشابها وغير متشابه في الآية الأخرى على تلك القاعدة

ثم كان لقوله تشابه معنيان أحدهما التبس والثاني تساوى وما في البقرة معناه التبس فحسب فبين بقوله متشابها ومعناه ملتبسا لأن ما بعده من باب التساوي والله أعلم

110 - قوله ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء 102 في هذه السورة وفي المؤمن خالق كل شيء لا إله إلا هو 62 لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات فدفع قول قائله بقوله لا إله إلا هو ثم قال خالق كل شيء وفي المؤمن قبله ذكر الخلق وهو لخلق السموات

والأرض أكبر من خلق الناس فخرج الكلام على إثبات خلق الناس لا على نفي الشريك فقدم في كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات

111 - قوله ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون 112 وقال في الآية الأخرى من هذه السورة ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون 137 لأن قوله ولو شاء ربك وقع عقيب آيات فيها

ذكر الرب مرات ومنها جاءكم بصائر من ربكم 104 فختم بذكر الرب ليوافق آخرها أولها وقوله ولو شاء الله ما فعلوه وقع بعد قوله وجعلوا لله مما ذرأ 136 فختم بما بدأ فيه

---

112 - قوله إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله 117 وفي ن والقلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله 7 بزيادة الباء ولفظ الماضي لأن إثبات الباء هو الأصل كما في ن والقلم وغيرها من السور لأن المعنى لا يعمل في المفعول به فنوى الباء وحيث حذفت أضمر فعل يعمل فيما بعده وخصت هذه السورة بالحذف موافقة لقوله الله أعلم حيث يجعل رسالته 124 وعدل هنا إلى لفظ المستقبل لأن الباء لما حذفت التبس اللفظ بالإضافة تعالى الله عن ذلك فنبه بلفظ المستقبل على قطع الإضافة لأن أكثر ما يستعمل لفظ أفعل من يستعمله

مع الماضي نحو أعلم من دب ودرج وأحسن من قام وقعد وأفضل من حج واعتمر فتنبه فإنه من أسرار القرآن لأنه لو قال أعلم من ضل بدون الياء مع الماضي لكان المعنى أعلم الضالين

113 – قوله اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون 135 بالفاء حيث وقع وفي هود سوف تعلمون 93 بغير فاء لأنه تقدم في هذه السورة وغيرها قل فأمرهم أمر وعيد بقوله اعملوا أي

اعملوا فستجزون ولم يكن في هود قل فصار استئنافا وقيل سوف تعلمون في سورة هود صفة لعامل أي إني عامل سوف تعلمون فحذف الفاء

114 – قوله سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء 148 وقال في النحل وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء 35 فزاد من دونه مرتين وزاد نحن لأن لفظ الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته ودل على تحريم أشياء وتحليل أشياء من دون الله فلم يحتج إلى لفظ من دونه بخلاف لفظ العبادة فإنها غير مستنكرة وإنما المستنكر عبادة شيء مع الله سبحانه وتعالى ولا يدل على تحريم شيء كما يدل عليه أشرك فلم يكن لله هنا من يعتبره بقوله من دونه ولما حذف من دونه مرتين حذف معه نحن لتطرد الآية في حكم التخفيف

115 - قوله نحن نرزقكم وإياهم 15 وقال في سبحان نحن نرزقهم وإياكم 31 على الضد لأن التقدير من إملاق بكم نحن نرزقكم وإياهم وفي سبحان خشية إملاق يقع بهم نحن نرزقهم وإياكم

116 - قوله ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون 151 وفي الثانية لعلكم تذكرون 152 وفي الثالثة لعلكم تتقون 153 لأن الآية الأولى مشتملة على خمسة أشياء كلها عظام جسام فكانت الوصية بها من أبلغ الوصايا فختم الآية الأولى بما في الإنسان من أشرف السجايا وهو العقل الذي امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان

والآية الثانية مشتملة على خمسة أشياء يقبح تعاطي ضدها وارتكابها وكانت الوصية بها تجري مجرى الزجر والوعظ فختم الآية بقوله تذكرون أي تتعظون بمواعظ الله

والآية الثالثة مشتملة على ذكر الصراط المستقيم والتحريض على اتباعه واجتناب مناهيه فختم الآية بالتقوى التي هي ملاك العمل وخير الزاد

117 - قوله جعلكم خلائف الأرض في هذه السورة وفي يونس والملائكة جعلكم خلائف في الأرض لأن في هذا العشر

تكرر ذكر المخاطبين كرات فعرفهم بالإضافة وقد جاء في السورتين على الأصل وهو جاعل في الأرض خليفة جعلكم مستخلفين

118 - قوله إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم وقال في الأعراف إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم لأن ما في هذه السورة وقع بعد قوله من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وقوله وهو الذي جعلكم خلائف الأرض 165 فقيد قوله غفور رحيم باللام ترجيحا للغفران على العقاب

ووقع ما في الأعراف بعد قوله وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس وقوله كونوا قردة خاسئين فقيد رحمة منه للعباد لئلا يرجح جانب الخوف على الرجاء وقدم سريع العقاب في الآيتين مراعاة لفواصل الآي. انتهى انتهى. اهـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 64. 77﴾

(124/222)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله:

سورة الأنعام

الحمد: هو الثناء الحسن والذكر الجميل، والظلمة: الحال التي يكون عليها كل مكان لا نور

فيه ، والنور قسمان : حسى وهو ما يدرك بالبصر ، ومعنوى عقلى يدرك بالبصيرة ، والجعل : هو الإنشاء والإبداع كالخلق ، إلا أن الجعل مختص بالإنشاء التكويني كما فى هذه الآية ، والتشريعي كما فى قوله : " ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ " الآية ، والخلق عام .

ولم يذكر النور فى القرآن إلا مفردا والظلمة إلا جمعا ، لأن النور واحد وإن تعددت مصادره ، والظلمة تحدث مما يحجب النور من الأجسام غير النيرة وهى كثيرة وكذلك النور المعنوي شىء واحد ، والظلمات متعددة فالحق واحد لا يتعدد والباطل الذي يقابله كثير ، والهوى واحد والضلال المقابل له كثير ، فالتوحيد يقابله التعطيل ، والشرك فى الألوهية بأنواعه والشرك فى الربوبية بضروبه المختلفة .

وقدمت الظلمات فى الذكر على النور لأن جنسها مقدم فى الوجود فقد وجدت مادة الكون وكانت دخانا مظلما أو سديما كما يقول علماء الفلك ، ثم تكونت الشموس بما حدث فيها من الاشتعال لشدة الحركة ، وإلى هذا يشير حديث عبد اللّه ابن عمرو عند أحمد والترمذي " إن اللّه خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل " .

وكذلك الظلمات المعنوية أسبق وجودا ، فإن نور العلم والهداية كسبى فى البشر ، وغير الكسبي منه كالوحى ، فتلقيه كسبى ، وفهمه والعمل به كسبيان أيضا ، وظلمات الجهل

والأهواء سابقة على هذا النور " وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " .

(125/222)

و يعدلون أي يعدلون به غيره ، أي يجعلون عديلا مساويا له فى العبادة والدعوة لكشف الضر وجلب النفع ، فهو بمعنى يشركون به ويتخذون له أندادا ، والأجل هو المدة المضروبة للشيء أي المقدار المحدود من الزمان وقضاء الأجل : تارة يطلق على الحكم به ، وضربه للشيء كما قضى شعيب عليه السلام أجلا لخدمة موسى له ثمانى سنوات وأجلا اختيار يا سنتين ، ويطلق أخرى على القيام بالشيء وفعله كما قال : " فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ " الآية ، وتمترون أي تشكّون فى البعث

الآيات هنا : آيات القرآن المرشدة إلى آيات الأكوان والمثبتة لنبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، والإعراض : التولي عن الشيء ، والحق : هو دين اللّه الذي جاءهم به خاتم رسله من عقائد وعبادات ومعاملات وآداب ، والأنباء : ما فى القرآن من وعد بنصر اللّه لرسله وإظهار لدينه . ووعيد لأعدائه بخذلانهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة ، والقرن من الناس : القوم المقترنون فى زمن واحد وجمعه قرون ، وقد جاء فى القرآن مفردا وجمعا

ومكنه فى الأرض أو فى الشيء : جعله متمكنا من التصرف فيه ، ومكن له : أعطاه أسباب التمكن فى الأرض كقوله : " وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ " وقوله : " أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَما آمِناً ؟ " والسماء : المطر والمدرار : الغزير .

الكتاب : الصحيفة المكتوبة ومجموعه الصحف فى غرض واحد ، والقرطاس (مثلث القاف) الورق الذي يكتب فيه ، واللمس كالمس : إدراك الشيء بظاهر البشر وقد يستعمل بمعنى طلب الشيء والبحث عنه ، ويقال لمسه والتمسه وتلمسه ، ومنه " أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ " وسحر : أي خداع وتمويه يرى ما لا حقيقة له فى صورة الحقائق ، لقضى الأمر أي لتم أمر هلاكهم ، لا ينظرون أي لا يمهلون ، اللبس : الستر والتغطية

(126/222)

يقال لبس الثوب يلبسه (بكسر الباء فى الأول وفتحها فى الثاني) ولبس الحق بالباطل يلبسه (بفتح الباء فى الأول وكسرها فى الثاني) بمعنى ستره به ، أي جعله مكانه ليظن أنه الحق ، ولبست عليه أمره أي جعلته بحيث يلتبس عليه فلا يعرفه .

الهزؤ : (بضمتين أو ضم فسكون) والاستهزاء : السخرية . والاستهزاء بالشخص :

احتقاره وعدم الاهتمام بأمره ، وحاق به المكروه يحيق حيقا : أحاط به فلم يكن له منه مخلص

(127/222)

كتب على نفسه : أي أوجب إيجاب فضل وكرم ، سكن : من السكون ضد الحركة ، وفيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله أي له ما سكن وما تحرك كما جاء في قوله تعالى " سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ " أي والبرد ، والولي : الناصر ، ومتولى الأمر : المتصرف فيه ، فاطر السموات والأرض أي مبدعهما على غير مثال سابق ، وأصل الفطر : الشّق ومنه " إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ " وهو يطعم ولا يطعم ، أي هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد ، يصرف عنه أي يبعد عنه ، رحمة أي بإنجائه من الهول الأكبر ، المس : أعم من اللمس فيقال مسه السوء والكبر والعذاب والتعب أي أصابه ، والضر : الألم والحزن والخوف وما يفضى إليها أو إلى أحدها ، والنفع اللذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما ، والخير : ما كان فيه منفعة حاضرة أو مستقبلة ، والشر : ما لا منفعة فيه البتة أو ما كان ضره أكبر من نفعه ، قال تعالى " وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ " والقهر : الغلبة والإذلال ، وشهادة الشيء : حضوره ومشاهدته ، والشهادة به : الإخبار به عن

علم ومعرفة واعتقاد مبنى على المشاهدة بالبصر أو بالعقل والوجدان ، والإنذار : التخويف ، واكتفى به عن ذكر البشارة لمناسبته للمقام أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه القرآن ووصل إليه من الأسود والأحمر ، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة ، مما تشركون أي من الأصنام .

الأكنة واحدها كنان كأسنة وسنان : وهو الغطاء ، والوقر (بِالْفَتْحِ) الثقل فى السمع ، والآية : العلامة الدالة على صدق الرسول ، يجادلونك : يخاصمونك وينازعونك ، والأساطير واحدها إسطارة وأسطورة : وهى الخرافات والترهات ، والنأى عنه : يشمل الإعراض عن سماعه ، والإعراض عن هدايته .

(128/222)

يقال وقف الرجل على الأرض وقوفا ، ووقف على الشيء : عرفه وتبينه ، ووقف نفسه على كذا وقفا حبسها كوقف العقار على الفقراء .

الساعة فى اللغة : الزمن القصير المعين ، ثم أطلق على الوقت الذي ينقضى به أجل هذه الحياة ويخرب العالم وما يتبع ذلك من البعث والحساب ، سمى بذلك لسرعة الحساب فيه كأنه ساعة ، وبغتة : فجأة ، يقال بغته إذا هجم عليه من غير شعور ، والحسرة

الغم على ما فات والندم عليه كأنّ المتحسر قد انحسر وانكشف عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكب ، والتفريط : التقصير ممن قدر على الجد والتشمير ، من الفرط وهو السبق ومنه الفارط والفرط وهو الذي يسبق المسافرين لإعداد الماء لهم ، والأوزار جمع وزر (بالكسر) وهو الحمل الثقيل ، ووزره (بزنة وعده) حمله على ظهره ثم أطلق فى الدين على الإثم والذنب كأنه لثقله على صاحبه كالحمل الذي يثقل الظهر ، واللعب :

الفعل الذي لا يقصد به فاعله مقصدا صحيحا من تحصيل منفعة أو دفع مضرة كأفعال الصبيان التي يتلذذون بها ، واللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، وقد يسمى كل ما به استمتاع لهوا ، ويقال لهوت بالشيء ألهو به لهوا وتلهيت به إذا تشاغلت وغفلت به عن غيره .

الحزن : ألم يحلّ بالنفس عند فقد محبوب ، أو امتناع مرغوب ، أو حدوث مكروه ولا سبيل لعلاجه إلا التسلي والتأسى كما قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن أسلّى النفس عنه بالتأسى

(129/222)

وكذّبه : رماه بالكذب ، والجحود والجحد : نفى ما فى القلب إثباته أو إثبات ما فى القلب نفيه ، ويقال جحده حقه وبحقه ، وكلمات اللّه : هى وعده ووعيده ، ومن ذلك وعده للرسل بالنصر ووعيده لأعدائهم بالغلب والخذلان كقوله : "كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي " وقوله : " وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ " والنبأ : الخبر ذو الشأن العظيم ، وكبر على فلان الأمر أي عظم عنده وشق عليه وقعه ، والإعراض : التولي والانصراف عن الشيء رغبة عنه أو احتقارا له ، واستطعت الشيء : صار فى طوعك منقادا لك باستيفاء الأسباب التي تمكنك من فعله ، والابتغاء : طلب ما فى طلبه كلفة ومشقة من البغي وهو تجاوز الحد

ويكون فى الخير كابتغاء رضوان اللّه وهو غاية الكمال ، وفى الشر كابتغاء الفتنة وهو غاية الضلال ، والنفق : السرب فى الأرض ، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج ، والسلم : المرقاة من السلامة ، لأنه الذي يسلمك إلى مصعدك ، وتذكيره أفصح من تأنيثه ، والآية : المعجزة ، والجهل هنا : ضد العلم ، وليس كل جهل عيبا ، لأن المخلوق لا يحيط بكل شىء علما ، وإنما يذم الإنسان بجهل ما يجب عليه علمه ، ثم بجهل ما ينبغى له ويعدّ كمالا فى حقه إذا لم يكن معذورا فى جهله .

أجاب الدعوة : إذا أتى ما دعى إليه من قول أو عمل ، وأجاب الداعي واستجاب له

واستجاب دعاءه : إذا لبّاه وقام بما دعاه إليه .

والقرآن الكريم استعمل أفعال الإجابة فى المواضع التي تدل على حصول المسئول

(130/222)

كله بالفعل دفعة واحدة ، واستعمل أفعال الاستجابة فى المواضع المفيدة لحصول المسئول بالتهيؤ والاستعداد كقوله : " الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ " إذ الآية نزلت فى وقعة حمراء الأسد بعد وقعة أحد فالمرد أنهم تهيئوا للقتال ، أو المفيدة للدلالة على حدوث الفعل بالتدريج كاستجابة دعوة الدين التي تبدأ بالنطق بالشهادتين ثم بباقي أعماله بالتدريج .

والاستجابة من اللّه يعبر بها فى الأمور التي تقع فى المستقبل ويكون من شأنها أن تقع بالتدريج كاستجابة الدعاء بالوقاية من النار بالمغفرة وتكفير السيئات وإيتاء ما وعد به المؤمنين فى الآخرة كما قال " فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ " الآية .

والسمع والسماع : يطلق على إدراك الصوت ، وعلى فهم ما يسمع من الكلام وهو ثمرة السمع ، وعلى قبول ما يفهم والعمل به وهذا ثمرة الثمرة ، والمراد بالموتى هنا :

الكفار الراسخون فى الكفر المطبوع على قلوبهم الميئوس من سماعهم سماع تدبر تتبعه

الاستجابة للداعى . والبعث : لغة إثارة الشيء وتوجيهه يقال بعثت البعير أي أثرته من مبركه وسيّرته إلى المرعى ونحوه ، ولولا : كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، والآية لمعجزة المخالفة لسنن اللّه فى خلقه .

الدابة : كل ما يدب على الأرض من الحيوان ، والدبّ والذبيب المشي الخفيف والطائر : كل ذى جناح يسبح فى الهواء وجمعه طير كراكب وركب ، والأمم واحدها أمة : وهى كل جماعة يجمعهم أمر كدين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد أو صفات وأفعال واحدة ، والتفريط فى الأمر التقصير فيه وتضييعه حتى يفوت ، يقال فرّطه وفرّط فيه ، والكتاب هنا : هو اللوح المحفوظ . وقيل القرآن ، والحشر : الجمع والسّوق

(131/222)

أرأيتكم أي أخبرونى ، وهو أسلوب يذكر للتعجيب والتنبيه إلى أن ما يذكر بعده غريب عجيب تقوم به الحجة على المخالف ، يكشف أي يزيل ما تدعونه إلى كشفه إن شاء ، والبأساء : تطلق على الحرب والمشقة ، والبأس : الشدة فى الحرب ، والعذاب الشديد ، والقوة ، والشجاعة ، والضراء من الضر ضد النفع ، والتضرع : إظهار الضراعة والخضوع بتكلف ، والأخذ بالبأساء والضراء : إنزالهما بهم ، مبلسون : أي متحسرون يائسون من

النجاة ، دابر القوم : آخرهم الذي يكون فى أدبارهم ، وقطع دابرهم أي هلكوا واستأصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد .

نصرف الآيات : أي نكررها على وجوه مختلفة ، ومنه تصريف الرياح ، ويصدفون : يعرضون عن ذلك . والمس : اللمس باليد ، ويطلق على ما يصيب المدرك مما يسوءه غالبا من ضر وشر وكبر ونصب وعذاب .

الخزائن واحدها خزينة أو خزانة : وهى ما يخزن فيها الشيء الذي يراد حفظه ومنع التصرف فيه : " وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ " والغيب : ما غيّب علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به ، وهو قسمان :

(1) غيب حقيقى : وهو ما غاب عن جميع الخلق حتى الملائكة وهو المعنىّ بقوله عز اسمه : " قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ " .

(2) غيب إضافى : وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض كالذى يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر .

أما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها فليس بداخل فى عموم الغيب الوارد فى كتاب اللّه .

وهذه الأسباب ضروب :

(1) ما هو علمى كالدلائل العقلية والعلمية ، فعلماء الرياضة يستخرجون من دقائق

المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعه بألوف الأعوام .

(132/222)

---

(2) ما هو عملى كالبرق الأثيرى (التلغراف اللاسلكى) الذي يعلم به المرء ما يقع فى أقاصى البلاد من وراء البحار وبينه وبينها ألوف الأميال .

(3) ما هو إدراكات نفسية خفية تصل إلى مرتبة العلم كالفراسة والإلهام ، وأكثر هذا النوع هواجس تلوح للنفس ولا يجزم بها الإنسان إلا بعد وقوعها . والأعمى والبصير : هنا الضال والمهتدى ، والإنذار : العظة والتخويف ، الطرد : الإبعاد ، والغداة والغدوة كالبكرة : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والعشى : آخر النهار أو من المغرب إلى العشاء : وحسابهم : أي حساب إيمانهم وأعمالهم الباطلة . وفتنا : أي ابتلينا واختبرنا : ومن بيننا : أي من دوننا . منّ اللّه عليهم : أي أنعم عليهم بنعم كثيرة .

السلام والسلامة : البراءة والعافية من الآفات والعيوب ، والسلام : من أسمائه تعالى يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من نقص وعجز وفناء ، واستعمل السلام فى التحية بمعنى السلامة من كل ما يسوء ، وبمعنى تأمين المسلم عليه من كل أذى يناله من المسلم فهو دليل

المودة والصفاء ، وهو تحية أهل الجنة يحييهم بها ربهم جل وعلا وملائكته الكرام ، ويحيى بها بعضهم بعضا ، وكتب . أوجب ، والجهالة : السفه والخفة التي تقابل الحكمة والروية ، وتستبين : تتضح وتظهر ، يقال : استبنت الشيء وتبينته : أي عرفته بينا واضحا .

النهى : الزجر عن الشيء بالقول نحو اجتنب قول الزور ، والكف عنه بالفعل كما قال تعالى : " وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى " والدعاء : النداء لطلب إيصال الخير أو دفع الضر ، ولا يكون عبادة إلا إذا كان فيما وراء الأسباب العادية التي سخرها اللّه للعباد وينالونها بكسبهم واجتهادهم وتعاونهم عليها . والبينة : كل ما يتبين به الحق من الحجج العقلية أو الآيات الحسية ، ومن ذلك تسمية الشهادة بينة . والقصص : ذكر الخبر أو تتبع الأثر ، والفصل : القضاء والحكم .

(133/222)

المفاتح واحدها مفتح : (بفتح الميم) وهو المخزن : (وبكسرها) هو المفتاح الذي تفتح به الأقفال ، والبحر : كل مكان واسع حاو للكثير من الماء ، والبرّ : ما يقابله ، والتوفى : أخذ الشيء وافيا أي تاما كاملا ويقابله التوفية ، وهو إعطاء الشيء تاما كاملا ، ويقال وفاه حقه فتوفاه منه قال تعالى : " وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ " ويقال توفاه واستوفاه :

أحصى عدده ثم أطلق التوفى على الموت ، لأن الأرواح تقبض وتؤخذ أخذا تاما ، وأطلق على النوم كما فى الآية وفى آية الزمر ، والجرح : يطلق على العمل والكسب بالجوارح وعلى التأثير الدامي من السلاح وما فى معناه كالبراثن والأظفار والأنياب من سباع الطير والوحش ، وتسمى الخيل والأنعام المنتجة جوارح أيضا ، لأن نتاجها كسبها ، والجرح كالكسب يطلق على الخير والشر ، والاجتراح فعل الشر خاصة فى قوله تعالى : " أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ "

ويبعثكم : يوقظكم من النوم ، ويقضى : ينفذ ، والأجل المسمى : هو مدة بقائه فى الدنيا .

والحفظة : هم الكرام الكاتبون من الملائكة " وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ " .

ظلمات البر والبحر : ضربان ، ظلمات حسية كظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر ، وظلمات معنوية كظلمة الجهل بالمسالك والطرق ، وظلمة فقد الأعلام والمنار ، وظلمة الشدائد والأخطار كالعواصف والأعاصير وهياج البحار ، إلى نحو ذلك من الشدائد التي تبطل الحواس وتدهش العقول ، قال الزجاج : العرب تقول لليوم الذي فيه شدة : يوم مظلم ويوم ذو كواكب أي إنه قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل فى ظلمته ، وفى المثل : رأى الكواكب ظهرا ، أي أظلم عليه يومه لاشتداد الأمر فيه

حتى كأنه أبصر النجم نهارا ، والتضرع : المبالغة فى الضراعة ، وهى الذل والخضوع ، والمراد ، له هنا ما كان صادرا عن الإخلاص الذي يثيره الإيمان الفطري الطوىّ فى أنفس البشر ، والخفية (بالضم والكسر) الخفاء والاستتار ، والدعاء قد يكون بالجهر ورفع الصوت مع البكاء ، وقد يكون بالإسرار هربا من الرياء ، فتارة يجأر المرء بالدعاء رافعا صوته متضرعا مبتهلا ، وأخرى يسر الدعاء ويخفيه مخلصا محتسبا ، ويتحرى ألا تسمعه أذن ولا يعلم به أحد ، ويرى أنه يكون بذلك أجدر بالقبول ، وأرجى لنيل المسئول ، والكرب : الغم الشديد .

الشيع : واحدهم شيعة ، وهم كل قوم اجتمعوا على أمر ، قال تعالى "كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ" ويلبسكم : أي يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفة لا فرقة واحدة ، ونصرف الآيات : نحولها من نوع إلى آخر من فنون الكلام تقريرا للمعنى وتقريبا إلى الفهم ، والفقه : فهم الشيء بدليله وعلته المفضى إلى الاعتبار والعمل به .

والوكيل : هو الذي توكل إليه الأمور . ومستقر : وقت استقرار ووقوع .

أصل الخوض : الدخول فى الماء والمرور فيه سيرا أو سباحة ، ثم استعمل فى الاندفاع فى الحديث والاسترسال فيه ، والدخول فى الباطل مع أهله ، وقد استعمله القرآن بهذين المعنيين ، وأعرض عنهم . انصرف عنهم بدلا من القعود معهم والإقبال عليهم بوجهك ،

والذكرى الأولى بمعنى التذكر ، والثانية بمعنى التذكير ، والبسل : حبس الشيء ومنعه بالقهر ، ومنه شجاع باسل ، أي مانع لما يريد حفظه أن ينال وفسر هنا بالحبس فى النار ، وبالحرمان من الثواب وبالفضيحة ، وتعدل : تفد والعدل : الفداء ، والحميم : الشديد الحرارة وأليم : شديد الألم .

الأعقاب : واحدها عقب : وهو مؤخر الرجل ، وتقول العرب فيمن عجز بعد قدرة أو سفل بعد رفعة أو أحجم بعد إقدام على محمدة : نكص على عقبيه وارتد على عقبيه

(135/222)

ورجع القهقرى ، ثم صار يطلق على كل تحول مذموم ، واستهوته الشياطين . ذهبت بعقله وهواه ، وكانت العرب فى الجاهلية تزعم أن الجنون كله من تأثير الجن ، ومنه قولهم : جن فلان ، أي مسته الجن فذهبت بعقله ، وكانوا يقولون إن الجن تظهر لهم فى المهامة وتتلوّن لهم بألوان مختلفة ، فتذهب بلبّ من يراها فيهيم على وجهه لا يدرى أين يذهب حتى يهلك ، وهذه الشياطين التي تتلون هى التي يسمونها الغيلان والأغوال والسعالى ، وقوله حيران : أي تائها ضالا عن الجادة لا يدرى ما يصنع ، والصور فى اللغة : القرن وقد ثقب الناس قرون الوعول والظباء وغيرها فجعلوا منها أبواقا ينفخون فيها لها صوت شديد يدعى به

الناس إلى الاجتماع ويعزفون بها كغيرها من آلات الطرب ، وقد جاء فى سفر الأيام الأول من كتب العهد العتيق : فكان جميع بنى إسرائيل يصعدون تابوت عهد الرب بهتاف وبصوت الأصوات والأبواق والصنوج ويصوّتون بالرّباب والعيدان

إبراهيم اسم خليل الرحمن أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوح ، وهو العاشر من أولاد سام كما فى سفر التكوين ، ولد فى بلدة (أور) أي النور من بلاد الكلدان ، وهى المعروفة الآن باسم (أورفا) فى ولاية حلب كما يرجح ذلك بعض المؤرخين .

وفى سفر التكوين – إن اللّه تعالى ظهر له فى سن التاسعة والتسعين من عمره وكلمه وجدد عهده له بأن يكثر نسله ويعطيه أرض كنعان (فلسطين) ملكا له وسماه لذريته ا ه .

ومعنى إبراهيم أبو الجمهور العظيم : أي أبو الأمة وهو تبشير من اللّه له بتكثير نسله من ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام .

وقد أثبت علماء الآثار أن عرب الجزيرة استعمروا منذ فجر التاريخ بلاد الكلدان ومصر وغلبت لغتهم فيهما .

ونقل بعض المؤرخين أن الملك حمورابى الذي كان معاصر الإبراهيم عليه السلام عربى .

وقد أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه هاجر المصرية فى الوادي الذي بنيت فيه مكة وأن اللّه سخر لهما جماعة من جرهم سكنوا معهما هناك .

وأبو إبراهيم سماه اللّه آزر ، وفى سفر التكوين اسمه تارح ، ومعناه متكاسل ، وقال البخاري فى تاريخه إبراهيم بن آزر وهو فى التوراة تارح واللّه سماه آزر ا ه .

وجزم الضحاك وابن جرير أن اسمه آزر ، والضلال : العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التي يطلبها العاقل من سيره الحسى والمعنوي ، وملك اللّه وملكوته : سلطانه وعظمته ، وجنه الليل وأجنه ستره ، والكوكب والكوكبة : واحد الكواكب ، وهى النجوم ، ربى أي مولاى ومدبر أمرى ، الأفول : غيبوبة الشيء بعد ظهوره ، وبزوغ القمر ابتداء طلوعه ، وتوجيه الوجه للّه تعالى تركه يتوجه إليه وحده فى طلب حاجته وإخلاص عبوديته ، وفطر السموات والأرض : أخرجهما إلى الوجود لا على مثال سابق ، والحنيف : المائل عن الضلال

المحاجة : المجادلة والمغالبة فى إقامة الحجة ، والحجة تطلق تارة على الدلالة المبينة للمقصد ، وتارة على ما يدلى به أحد الخصمين فى إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه ، وهى بهذا الاعتبار تنقسم إلى حجة دامغة يثبت بها الحق ، وإلى حجة داحضة يموّه بها الباطل ، وقد اصطلحوا على تسمية مثل هذه شبهة ، والسلطان : الحجة والبرهان ، لم يلبسوا : لم يخلطوا ، والظلم هنا هو الشرك فى العقيدة أو العبادة كاتخاذ ولى من دون اللّه يدعى معه أو من دونه

قدر الشيء ومقداره : مقياسه الذي يعرف به ، ويقال قدره يقدره : إذا قاسه ، والقدر والقدرة والمقدار : القوة أيضا ، والقدر : الغنى واليسار والشرف ، قراطيس : واحدها قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق أو جلد أو غيرهما ، البركة : الزيادة والسعة ، ومبارك : بارك اللّه فيه بما فضل به ما قبله من الكتب فى النظم والمعنى ، وأم القرى : مكة ، وسميت بذلك لأنها قبلة أهل القري ، أو لأنهم يعظمونها كالأم ، أو لأن فيها أول بيت وضع للناس

(137/222)

الافتراء : اختلاق الكذب ، وافتراء الكذب على اللّه : الاختلاق عليه والحكاية عنه ما لم يقله ، أو اتخاذ الأنداد والشركاء ، والغمرات : واحدها غمرة ، وهى الشدة ، واليوم : الزمن المحدود والمراد به هنا يوم القيامة الذي يبعث اللّه فيه الناس للحساب والجزاء ، والهون (بالضم) والهوان الذل ، ومنه قوله : " أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ " والهون (بِالْفَتْحِ) اللين والرفق ، ومنه قوله : " الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً " وفرادى : واحدهم فرد ، وخولناكم أعطيناكم ، والترك وراء الظهر : يراد به عدم الانتفاع بالشيء ، والبين الصلة ، والمسافة الحسية أو المعنوية الممتدة بين شيئين أو أشياء ، ويضاف إلى المثنى

كقوله : " فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ " والجمع كقوله : " أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ " ولا يضاف إلى المفرد إلا إذا كرر نحو : " هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ " وضل عنكم أي غاب عنكم .

الفلق والفرق والفتق : الشق ، والحب : الحنطة وغيرها مما يكون فى السنبل والأكمام ، والنوى واحدها نواة : وهى ما يكون فى داخل التمر والزبيب ، والإصباح : الصبح ، يقال أصبح الرجل : دخل فى وقت الصباح ، والسكن : السكون ، وما يسكن فيه من مكان كالبيت وزمان كالليل ، وما يسكن الإنسان ويطمئن إليه استئناسا به من زوج أو حبيب ، والحساب (بالكسر) والحسبان (بالضم) استعمال العدد فى الأشياء والأوقات والمستقر : موضع القرار والإقامة كما قال : " لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ " والمستودع : موضع الوديعة ، وهى ما يتركه المرء عند غيره ليأخذه بعد ، والفقه :

(138/222)

النظر فى عمق الشيء وباطنه ، خضرا أي نباتا غضا أخضر ، متراكبا : أي بعضه فوق بعض ، والنخل والنخيل واحدهما نخلة ، والطلع : أول ما يطلع أي يظهر من زهرها قبل أن ينشق عنه غلافه ، والقنوان واحدها قنو : وهو العذق الذي يكون فيه الثمر وهو من النخل كالعقود من العنب والسنبلة من القمح ، ودانية : أي قريبة التناول ، مشتبها وغير متشابه :

أي متشابها فى بعض الصفات وغير متشابه فى بعض آخر ، وينعه أي حين يينع ويبدو صلاحه وينضج .

فى اللسان : خلق الكلمة واختلقها وخرقها واخترقها : إذا ابتدعها كذبا ، وقال الراغب : الخرق قطع الشيء على سبيل الفساد قال تعالى : " أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا " والخلق : فعل الشيء بتدبير ورفق ، والبدع (بالكسر) والبديع : الشيء الذي يكون أولا ، ومنه البدعة فى الدين ، وقال الراغب : الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء ، والبديع من أسمائه تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، والإدراك : اللحاق والوصول إلى الشيء ، يقال تبعه حتى أدركه قال تعالى : " فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ " والبصر حاسة الرؤية ، واللطيف من الأجرام : ضد الكثيف والغليظ واللطيف من الطباع : ضد الجافي ، واللطف فى العمل : الرفق فيه .

البصائر واحدها بصيرة ، ولها عدة معان : منها عقيدة القلب ، والمعرفة الثابتة باليقين ، والعبرة ، والشاهد المثبت للأمر ، والحجة ، والقوة التي تدرك بها الحقائق العلمية ، ويقابلها البصر الذي تدرك به الأشياء الحسية ، والمراد بها هنا الآيات الواردة فى هذه السورة أو القرآن بجملته ، نصرف الآيات أي نأتى بها متواترة حالا بعد حال مفسرين لها فى كل مقام بما يناسبه ، ودرس الشيء يدرس : إذا عفا وزال فهو دارس ودرسته الريح وغيرها ،

ودرس اللابس الثوب درسا : أخلقه وأبلاه فهو دريس ، ودرسوا القمح : داسوه ليتكسر فيفرق بين حبه وتبنه ، ودرس الناقة : راضها ، ودرس

(139/222)

الكتاب والعلم يدرسه درسا ودراسة ومدارسة أي ذللّه بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليه من ذلك ، والمعنى العام للدرس تكرار المعالجة ، وتتابع الفعل على الشيء حتى يذهب به أو يضل إلى الغاية منه .

قبلا : مواجهة ومعاينة ، وقيل إن واحده قبيل كرغف ورغيف – أي قبيلا قبيلا وصنفا صنفا أي كل صنف منه على حدة . قال ابن عباس : كل عات متمرد من الجن والإنس فهو شيطان – الإيحاء : الإعلام بالأشياء من طريق خفى سريع كالإيماء ، والزخرف : الزينة كالأزهار للرياض والذهب للنساء وما يصرف السامع عن الحقائق إلى الأوهام – والغرور : الخداع بالباطل – صغى إليه : كرضى يصغى : ، مال ، ومثله أصغى –

ويقول صغى فلان وصغوه معك : أي ميله وهواه كما يقال ضلعه معك ، واقترف المال : اكتسبه ، والذنب : اجترحه – والعدو : ضد الصديق – ويستعمل للواحد والجمع والمذكر والأنثى . قال تعالى : " فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ "

الحكم : من يتحاكم إليه الناس ويرضون حكمه – مفصلا : مبينا فيه الحق والباطل والحلال والحرام ، إلى غير ذلك من الأحكام – الممترين : المترددين الشاكّين ، والكلمة هنا : القرآن ، وتمام الشيء كما قال الراغب : انتهاؤه إلى حد لا يحتاج معه إلى شيء خارج عنه ، وتمامها هنا : أنها كافية وافية فى الإعجاز والدلالة على صدق الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، والصدق يكون فى الأخبار ومنها المواعيد ، والعدل : يكون فى الأحكام .

والتبديل : التغيير بالبدل .

المثل : الصفة والنعت . الأكابر واحدهم أكبر أو كبير : وهو الرئيس ، والمجرمون : فاعلو الإجرام ، والإجرام : هو ما فيه الفساد والضرر من الأعمال ، والقرية . البلد الجامع للناس (العاصمة فى عرف هذا العصر) وقد تطلق بمعنى الشعب أو الأمة ، ويرادفها البلد فى اصطلاح هذا العصر فيقولون ثروة البلد ، مصلحة البلد ويريدون الأمة ، والمكر :

صرف المرء غيره عما يريده إلى غيره بضرب من الحيلة فى الفعل ، أو الخلابة فى القول .

الصغار والصّغر (بالتحريك) : الذل والهوان جزاء الكفر والطغيان ، وهو قلة فى الأمور المعنوية . والصّغر (بزنة عنب) قلة فى الأمور الحسية ، والصاغر : الراضي بالمنزلة الدنيّة .

وشرح الصدر : توسعته ، ويراد به جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها وخلوها مما يكدرها ، والضيق (بالتشديد والتخفيف) كهين وهين : ضد الواسع .

والحرج : شديد الضيق من الحرجة وهى الشجر الكثير الملتف بعضه ببعض بحيث يصعب الدخول فيه . روى أن عمر سأل أعرابيا من بنى مدلج عن الحرجة فقال :

هى الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ، فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شىء من الخير . والرجس : كل ما يستقذر حسا أو عقلا أو شرعا ، أو هو ما لا خير فيه ، أو هو اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، صراط ربك :

أي طريقه الذي ارتضاه وسنته التي اقتضتها حكمته ، والمستقيم : ما لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، دار السلام : هى الجنة ، أو هى دار السلامة من المنغّصات والكروب ، وليهم :

أي متولى أمورهم وكافيهم كل ما يهمّهم .

المعشر والنفر والقوم والرهط : الجمع من الرجال فحسب ، ولا واحد لها من لفظها ، وقال الليث : المعشر كل جماعة أمرهم واحد نحو معشر المسلمين ومعشر الكافرين ، ويطلق على الإنس والجن بدليل الآية ، واستكثر : أخذ الكثير ، يقال استكثر من الطعام : أكل كثيرا ، وأولياؤهم : هم الذين تولوهم أي أطاعوهم فى وسوستهم وما ألقوه إليهم من الخرافات والأوهام ، والاستمتاع بالشيء : جعله متاعا ، والمتاع ما ينتفع به انتفاعا طويلا

ممتدا وإن كان قليلا ، وبلغنا أجلنا : أي وصلنا يوم البعث والجزاء ، والمثوى : مكان الثواء ، أي الإقامة والسكنى ، والخلود : المكث الطويل غير المؤقت بوقت .

(141/222)

يذهبكم أي يهلككم ، يستخلف ، أي ينشىء الذرية والنسل ، بمعجزين أي جاعلى من طلبكم عاجزا غير قادر على إدراككم ، والمكانة : الحال التي هم عليها ، والدار : هى الدنيا ، والمراد بالعاقبة : عاقبة الخير إذ لا اعتداد بعاقبة الشر ، لأن اللّه جعل الدنيا مزرعة الآخرة ، وقنطرة المجاز إليها ، وأراد من عباده أعمال الخير لينالوا حسن العاقبة . ذرأ : أي خلق على وجه الاختراع والإبداع ، لشركائنا : أي الأوثان التي يتقربون بعبادتها إلى اللّه تعالى ، لشركائهم أي سدنة الآلهة وخدمها ، أو الشياطين الذين يوسوسون لهم ما يزين ذلك فى أنفسهم ، ويردوهم : أي يهلكوهم بالإغواء ، وليلبسوا أي يخلطوا ، حجر : أي محجور ممنوع ، كما قالوا : ذبح وطحن أي مذبوح ومطحون ، وجزاه بكذا جعله جزاء له على عمله قال تعالى : " أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا " وصفهم : أي جزاء وصفهم . الإنشاء : إيجاد الأحياء وتربيتها وكل ما يكمل بالتدريج كإنشاء السحاب والدور والشعر ، والجنات البساتين والكروم الملتفة الأشجار ، لأنها تجنّ الأرض وتسترها ، والمعروشات

: المحمولات على العرائش ، وهى الدعائم التي يوضع عليها مثل السقف من العيدان والقصب ، وغير المعروشات : ما لم يعرش منها ، والمراد أن الجنات نوعان :

معروشات كالكروم ، وغير معروشات من سائر أنواع الشجر الذي يستوى على سوقه ولا يتسلق على غيره ، والأكل (بضم الهمزة والكاف) ما يؤكل ، متشابها أي فى النظر ، وغير متشابه أي فى الطعم ، والحمولة : الكبير من الإبل والبقر الذي يحمل عليه الناس الأثقال ، والفرش : ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل والبقر ، أو هو ما يتخذ الفرش من صوفه ووبره وشعره والخطوات واحدها خطوة (بالضم) :

وهى المسافة التي بين القدمين ، ما اشتملت عليه الأرحام : هى الأجنّة .

(142/222)

الطاعم : الآكل ، والميتة : البهيمة ماتت حتف أنفها ، والمسفوح : المصبوب السائل كالدم الذي يجرى من المذبوح ، رجس أي قذر قبيح ، الإهلال : رفع الصوت ، والمراد به الذبح باسم الأصنام ، اضطر أي أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شىء منه ، وباغ : أي طالب لذلك قاصد له ، عاد : أي متجاوز قدر الضرورة ، الذين هادوا :

هم اليهود لقولهم : " إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ " أي رجعنا وتبنا ، الظفر للانسان وغيره مما لا يصيد ،

والمخلب لما يصيد ، والشحم : ما يكون على الأمعاء والكرش والكلى من المادة الدهنية ، حملت ظهورها أي علقت بها ، والحوايا : المباعر أو المرابض (مجتمع الأمعاء فى البطن) أو المصارين والأمعاء ، بأسه : أي عذابه .

الخرص : الحزر والتخمين ويراد به لازمه وهو الكذب ، الحجة : الدلالة المبينة للقصد المستقيم ، هلم أي أحضروا ، يعدلون أي يتخذون له مثلا وعديلا يعادله ويشاركه .

قيما ، أي يقوم به أمر الناس فى معاشهم ومعادهم ، حنيفا أي مائلا عن الأديان الباطلة ، والنسك : العبادة ، ومحياى ومماتى للّه : أي وما آتيه فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح كله للّه رب العالمين ، الوزر لغة الحمل الثقيل ، ووزره يزره حمله يحمله ، والخلائف واحدهم خليفة ، وهو من يخلف من كان قبله فى مكان أو عمل أو ملك ، والابتلاء الاختبار والامتحان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 7 صـ 70 : حـ 8 صـ 88 ﴾ . باختصار .

(143/222)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة الأنعام

مكية وآياتها 165 آية

بسم الله الرحمن الرحيم سورة الانعام وهي مكية قال أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس قال حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى حدثنا أبو حاتم روح بن الفرج مولى الحضارمة قال حدثنا أحمد بن محمد (أبو بكر العمري) قال حدثنا ابن أبي فديك قال حدثني عمر بن طلحة بن علقمة بن وقاص عن نافع أبي سهيل بن مالك عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (نزلت سورة الانعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والارض لهم ترتج ورسول الله يقول سبحان ربي العظيم ثلاث مرات

1 قوله جل وعز (الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور) قال قتادة خلق الله السماء قبل الأرض والليل قبل النهار والجنة قبل النار فأما قوله (والارض بعد ذلك دحاها) فمعناه بسطها 2 وقوله جل وعز (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) قال مجاهد أي يشركون

قال الكسائي يقال عدلت الشئ بالشئ عدولا إذا ساويته به وهذا القول يرجع إلى قول مجاهد لانهم إذا عبدوا مع الله غيره فقد ساووه به وأشركوا

3 وقوله جل وعز (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) قال الحسن ومجاهد وعكرمة وخصيف وقتادة وهذا لفظ الحسن قضى أجل الدنيا من يوم

خلقك إلى أن تموت (وأجل مسمى عنده) يعني الآخرة (ثم أنتم تمترون) أي تشكون وتعبدون معه غيره 4 وقوله جل وعز (وهو الله في السموات وفي الارض) والالف واللام في أحد قولي سيبويه مبدلة من همزة والاصل عنده اله

فالمعنى على هذا هو المعبود في السموات وفي الأرض ويجوز أن يكون المعنى وهو الله المنفرد بالتأليه تعالى في السموات وفي الأرض كما تقول هو في حاجات الناس وفي الصلاة ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر ويكون المعنى وهو الله في السموات وهو الله في الأرض 5 وقوله جل وعز (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن)

(144/222)

قيل القرن ستون عاما وقيل سبعون فيكون التقدير على هذا من أهل قرن وأصح من هذا القول القرن كل عالم في عصر لأنه مأخوذ من الاقتران أي عالم مقترن بعضهم إلى بعض وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الناس القرن

الذي أنا فيه يعني أصحابه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (وأكثر أصحاب الحديث على أن القرن مائة سنة واحتجوا بأن النبي قال لعبد الله بن بسر (تعيش قرنا) فعاش مائة سنة 6 وقوله جل وعز (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) أي تدر عليهم ومدرار فإن على التكثير

كما يقال امرأة مذكار إذا كثرت ولادتها للذكور ومئناث 7 وقوله جل وعز (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين)

أي قد جعلوا في أنفسهم الكفر والعناد فإذا رأوا آية قالوا سحر كما أنهم سألوا انشقاق القمر فلما انشق قالوا (هذا سحر مستمر) كذلك أيضا لو نزل الله عليهم كتابا من السماء لقالوا ان هذا الا سحر مبين 8 وقوله جل وعز (وقالوا لولا أنزل عيه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الامر) قال ابن أبي نجيح عن مجاهد أي لقامت القيامة والمعنى عند أهل اللغة لحتم بهلاكهم وهو يرجع إلى ذلك القول 9 وقوله جل وعز (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) قال قتادة أي في صورة بني آدم

10 ثم قال تعالى (وللبسنا عليهم ما يلبسون) قال الضحاك يعني أهل الكتاب لانهم غيروا صفة النبي صلى الله عليه وسلم في كتابهم وعصوا ما أمروا به قال الكسائي يقال لبست عليهم الامر ألبسه لبسا إذا خلطته أي أشكلته عمر 11 وقوله جل وعز (فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون) الحيق في اللغة ما يعود على الانسان من مكروه فعله ومنه (ولا يحيق المكر السئ الا بأهله)

12 وقوله جل وعز (قل لمن ما في السموات والارض قل لله) هذا احتجاج عليهم لانهم مقرون أن ما في السموات والارض لله فأمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يحتج عليهم بأن الذي خلق ما في السموات والارض قادر على أن يحييهم بعد الموت

13 ثم قال جل وعز (كتب ربكم على نفسه الرحمة) لأنه أمهلهم إلى يوم القيامة ويجوز أن يكون هذا تمام الكلام ويجوز أن تكون (ما) هذه تبيينا لأن قوله (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) معناه يمهلكم فهذا من رحمته جل وعز

14 وقوله جل وعلا (وله ما سكن في الليل والنهار) أي ثبت وهذا احتجاج عليهم أيضا

15 وقوله جل وعز (وهو يطعم ولا يطعم) كما تقول هو يرزق ولا يرزق ويعول ولا يعال وروي عن الاعمش أنه قرأ (وهو يطعم ولا يطعم) وهي قراءة حسنة أي ولا يأكل 16 وقوله جل وعز (من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه) المعنى من يصرف عنه العذاب ثم حذف لعلم

السامع وكذلك معنى (من يصرف) 17 وقوله جل وعز (وأوحي إلي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) المعنى ومن بلغه القرآن ثم حذف الهاء لطول الاسم وقال مجاهد ومن أسلم من فصيح وأعجم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (بلغوا القرآن عن الله جل وعز ومن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله) وقيل المعنى ومن بلغ الحلم كما يقال قد بلغ فلان

18 وقوله جل وعز (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ويجوز أن يكون المعنى القرآن والحديث يدل أن المعنى يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم وروي أن عمر قال لعبد الله بن سلام (أتعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك فقال نعم وأكثر بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته وابني لا أدري ما كان من أمه 19 وقوله جل وعز (ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) قال أبو سحاق تأويل هذه الآية لطيف جدا أخبر الله جل وعز بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم ثم أخبر أن فتنتهم

(146/222)

لم تكن حين رأوا الحقائق الا أن انتفوا من الشرك ونظير هذا في اللغة أن ترى انسانا يحب غاويا فإذا وقع في هلكة تبرأ منه فيقول له ما كانت محبتك اياه الا أن تبرأت منه فأما معنى قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) وقال في موضع آخر (ولا يكتمون الله حديثا) معطوف على ما قبله والمعنى وودوا أن لا يكتموا النبي الله حديثا والدليل على على صحة هذا القول أنه روي عن سعيد بن جبير في قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) قال اعتذروا وحلفوا وكذلك قال ابن أبي نجيح وقتادة وروي عن مجاهد أنه قال لما رأوا الذنوب تغفر الا الشرك

والناس يخرجون من النار الا المشركين قال (والله ربنا ما كنا مشركين)

وقول بعض أهل اللغة انما قالوا هذا على أنهم صادقون عند أنفسهم ولم يكونوا ليكذبوا وقد عاينوا ما عاينوا وقطرب يذهب إلى هذا القول وهو قول مردود لأنه قال لم يكونوا ليكذبوا وبعدها (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) ويبين لك الغلط في هذا القول قوله جل وعز (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له) الآية قال مجاهد كذبهم الله وقيل معنى (ولا يكتمون الله حديثا) أنه ظاهر عنده 20 وقوله جل وعز (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا)

قيل فعل بهم هذا مجازاة على كفرهم وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون ولا

ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم ثم خبر بعنادهم فقال (وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) لانهم لما رأوا القمر منشقا قالوا سحر فأخبر الله عز وجل بردهم الآيات بغير حجة وقال (حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الاولين)

فخبر أن هذا مقدار احتجاجهم 21 وقوله جل وعز (وهم ينهون عنه وينأون عنه) أكثر أهل التفسير يذهب إلى أن المعنى للكفار أي ينهون

عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ويبعدون عنه قال مجاهد يعني به قريش وكذلك قال قتادة والضحاك يعني به الكفار وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت قال أخبرني من سمع ابن عباس يقول نزلت في (أبي طالب) كان ينهى عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم ويتباعد عنه والقول الاول أشبه لأنه متصل بأخبار الكفار وقولهم

22 وقوله جل وعز (وان يهلكون الا أنفسهم) أي وبال ذلك يرجع عليهم لأن الله جل وعز يبدد جموعهم وينصره عليهم 23 ثم قال جل وعز (وما يشعرون) أي وما يشعرون أن وبال ذلك يرجع عليهم

24 وقوله جل وعز (ولو ترى إذ وقفوا على النار) في معناه ثلاثة أقوال 1 منها أن معنى (وقفوا على النار) أدخلوها كما يقال وقفت على ما عند فلان أي عرفت حقيقته 2 وقيل معناه رأوها 3 وقيل جاوزا عليها وهي من تحتهم

25 ثم قال جل وعز (فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) المعنى ونحن لا نكذب بآيات ربنا رددنا أو لم نرد قال سيبويه ومثله دعني ولا أعود أي ولا أعود تركتني أو لم تتركني ومن قرأ (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) فمعناه عنده يا ليتنا وقع لنا الرد وأن لا نكذب قال أبو اسحاق وفيه معنى ان رددنا لم نكذب وقرأ ابن عامر (يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) بالنصب وقرأ عبد الله بن مسعود (ولا

نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين)

وقرأ أبي بن كعب (ولا نكذب بآيات ربنا أبدا) 26 وقال جل وعز (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من

قبل) المعنى بل ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة لأن بعده (وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وقال بعض أهل اللغة ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه فيه شئ محذوف والمعنى ولو ردوا قبل أن يعاينوا العذاب لانهم لا يكفرون بعد ما عاينوا وهذا القول مردود لأن الله جل ثناؤه أخبر عنهم أنهم يقولون

(148/222)

هذا يوم القيامة وقد خبر جل وعز عن ابليس أنه كفر بعد ما رأى وعنهم أنهم كفروا عنادا وايثارا للرئاسة 27 وقوله جل وعز (جاءتهم الساعة بغتة) البغتة الفجاءة يقال بغتهم الامر يبغتهم بغتا وبغتة 28 ثم قال جل وعز (قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) الفائدة في نداء الحسرة وما كان مثلها مما لا يجيب أن العرب إذا أرادت تعظيم الشئ والتنبيه عليه نادته ومنه قولهم يا عجباه قال سيبويه إذا قلت يا عجباه فمعناه أحضر وتعال يا عجب فان هذا من أزمانك وإن فهذا أبلغ من قولك تعجبت ومنه قول الشاعر

فيا عجبا من رحلها المتحمل 29 وقوله جل وعز (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) واحد الاوزار وزر والفعل منه وزر يزر يراد به الاثم وهو تمثيل وأصله الوزر وهو الجبل ومنه الحديث في النساء اللواتي خرجن في جنازة فقال لهن (ارجعن موزورات غير مأجورات) قال أبو عبيد والعامة تقول (مأزورات) كأنه لا وجه له عنده لأنه من الوزر ومنه قيل وزير كأنه يحمل الثقل عن صاحبه

30 وقوله جل وعز (فانهم لا يكذبونك) هكذا روي عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنه قرأ وهو اختيار أبي عبيد واحتج بأنه روي أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك ولكنا نكذب ما جئت به فأنزل الله عز وجل (فانهم لا يكذبونك) وقد خولف أبو عبيد في هذا وروي (لا نكذبك) فأنزل الله جل وعز (فانهم لا يكذبونك) ويقوي هذا أنه روي أن رجلا قرا على ابن عباس (فانهم لا يكذبونك) فقال له ابن عباس (فانهم لا يكذبونك) لانهم كانوا يسمون النبي صلى الله عليه وسلم الامين ومعنى (يكذبونك) عند أهل اللغة ينسبونك إلى الكذب ويروون عليك ما قلت

ومعنى (لا يكذبونك) لا يجدونك كاذبا كما تقول أحمدته إذا وجدته محمودا ويجوز أن يكون معنى المخففه لا يبينون عليك أنك كاذب لأنه يقال أكذبته إذا احتججت عليه وبينت أنه كاذب حدثنا محمد بن جعفر الانباري حدثنا شعيب بن أيوب الواسطي عن معاوية بن هشام عن سفيان الثوري عن أبي اسحاق عن ناجية بن كعب عن علي قال قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم انا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله عز وجل

(فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) والقول في هذا مذهب أبي عبيد واحتجاجه لازم لأن عليا رحمة الله عليه هو الذي روى الحديث وقد صح عنه أنه قرأ بالتخفيف وحكى الكسائي عن العرب أكذبت الرجل أخبرت أنه جاء بالكذب ورواه وكذبته أخبرت أنه كاذب 31 وقوله جل وعز (فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء) قال قتادة النفق الشرب في الأرض والسلم الدرج وكذلك هو في اللغة ومنه النافقاء أحد جحر اليربوع

قال أبو اسحاق والسلم مشتق من السلامة كأنه

يسلمك إلى الموضع الذي تريد والمعنى ان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية فافعل ثم حذف هذا لعلم السامع أي ليس لك من الامر شئ 32 ثم قال جل وعز (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أي لاراهم كما آية تضطرهم إلى الايمان

ولكنه أراد جل وعز أن يثيب من آمن منهم ومن أحسن ويجوز أن يكون المعنى لطبعهم على الايمان 33 ثم قال جل وعز (انما يستجيب الذين يسمعون) قال الحسن ومجاهد يراد به المؤمنون والمعنى الذين

(150/222)

يسمعون سماع قبول 34 ثم قال جل وعز (والموتى يبعثهم الله) قال الحسن ومجاهد يراد به الكفار وقال غيرهما يراد به كل ميت 35 وقوله جل جلاله (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) وأكثر أهل التفسير يذهب إلى أن المعنى أنهم يخلقون كما يخلقون ويبعثون كما يبعثون وكذلك قال أبو هريرة يحشر الله جل وعز يوم القيامة الطير والبهائم فيبلغ من عدله أن يأخذ من القرناء للجماء ثم

يقول كوني ترابا فعند ذلك يقول الكافر (يا ليتني كنت ترابا) وقال مجاهد في قوله جل وعز (الا أمم أمثالكم) قال أصناف لهن أسماء تعرف بها كما تعرفون ومعنى (يطير بجناحيه) على التوكيد لانك قد تقول طرت في حاجتي 36 وقوله جل وعز (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) والمعنى أو أتتكم الساعة التي تبعثون فيها 37 ثم قال جل وعز (أغير الله تدعون ان كنتم صادقين)

في هذا أعظم الاحتجاج عليهم لانهم كانوا يعبدون الاصنام فإذا وقعوا في شدة دعوا الله 38 وقال جل وعز (بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه ان شاء) هذا مجاز والمعنى فيكشف الضر الذي من أجله دعوتموه وهو مثل (واسأل القرية) في المجاز 39 وقوله جل وعز (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء) قيل البأساء الجوع والفقر والضراء نقص الاموال والانفس بالمرض والثمرات 40 ثم قال جل وعز (لعلهم يتضرعون)

أي ليكون العباد على رجاء من التضرع 41 ثم قال تعالى (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أي فهلا وأعلم الله النبي أنه قد ارسل قبله رسولا إلى قوم بلغ من قسوتهم هو أن أخذوا بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا 42 وقوله جل وعز (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ) قال مجاهد من رخاء الدنيا ويسرها والتقدير عند أهل اللغة فتحنا عليهم أبواب كل شئ كان

(151/222)

مغلقا عنهم 43 وقوله جل وعز (فإذا هم مبلسون) قال أبو عبيدة المبلس الحزين النادم قال الفراء المبلس المنقطع الحجة 44 وقوله جل وعز (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) الدابر في

اللغة الآخر يقال دبرهم يدبرهم إذا جاء آخرهم وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود من الناس من لا يأتي الصلاة الا دبريا أي في آخر الوقت

45 وقوله جل وعز (قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم

وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به) المعنى من اله غير الله يأتيكم بما أخذ منكم والهاء كناية عن المصدر فلذلك وحدت ويجوز أن يكون تعود على السمع مثل والله ورسوله أحق أن يرضوه 46 ثم قال تعالى (انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون) قال قتادة أي يصدفون عنها 47 وقوله جل وعز (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة) قال مجاهد البغتة أن يأتيهم فجاءة آمنين والجهرة أن يأتيهم وهم ينظرون

48 ثم قال جل وعز (هل يهلك الا القوم الظالمون) أي هل يهلك الا أنتم لانهم كفروا وعاندوا

49 وقوله جل ثناؤه (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) أي لم نرسلهم ليأتوا بالآيات المقترحات وانما يأتون من الآيات بما تظهر معه براهينهم وانما مذهبهم التبشير والانذار 50 وقوله جل وعز (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب) هذا متصل بقوله جل وعز (لولا نزل عليه آية من ربه) أي لا أقول لكم عندي خزائن الله التي يرزق منها ويعطي ولا أعلم الغيب فأخبركم بما غاب عنكم الا بوحي (ولا أقول لكم اني ملك) لأن الملك يشاهد من أمر الله جل وعلا ما لا يشاهد البشر

51 وقوله جل وعز (قل هل يستوي الاعمى والبصير) قال مجاهد يعني المسلم والكافر

52 وقوله جل وعز (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) أي بالقرآن وخص من يخاف الحشر لأن الحجة عليهم أوكد فان كان مسلما أنذر ليترك المعاصي وان كان من أهل الكتاب أنذر ليتبع الحق 53 ثم قال جل وعز (ليس لهم من دونه من ولي ولا شفيع) لأن اليهود والنصارى قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه

54 وقوله جل وعز (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) قال سعد نزلت في ستة أنا وعبد الله بن مسعود وأربعة قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم (انا نستحيي أن نكون تبعا لهؤلاء) فأنزل الله عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) إلى قوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) قال مجاهد نزلت في بلال وعبد الله بن مسعود

وقال غيره انما أراد المشركون بهذا أن يحتجوا على النبي صلى الله عليه وسلم لأن أتباع الانبياء الفقراء فطلبوا أن يطردهم فيحتجوا

عليه بذلك فعصمه الله مما أرادوا منه 55 وقوله جل وعز (وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين) المعنى ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين وما من حسابك من شئ فتطردهم على التقديم والتأخير 56 ثم قال جل وعز (وكذلك فتنا

بعضهم ببعض) أي اختبرنا وابتلينا لأن الفقراء صبروا على الجهد مع فقرهم فكان ذلك أوكد على الأغنياء في الحجة 57 ثم قال جل وعز (ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) أي ليقول الاغنياء 58 وقوله جل وعز (فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) السلام والسلامة بمعنى واحد ومعنى سلام عليكم سلمكم الله في دينكم وأنفسكم والسلام أسم من أسماء الله جل وعز معناه ذو السلامة وقرأ الحسن وعاصم وعيسى (كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) بفتحها جميعا فالاولى بدل من الرحمة والثانية مؤكدة مكررة لطول الكلام

(153/222)

هذا مذهب سيبويه وقرأ أبو عمر والكسائي والاعمش وابن كثير وشبل بكسرهما جميعا والمعنى الاولى قال انه وكسر الثانية لانها مبتدأة بعد الفاء

وقرأ أهل المدينة بفتح الاولى لانها تبيين للرحمة وكسروا الثانية لما تقدم 59 وقوله جل وعز (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) المعنى على هذه القراءة ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين فان قيل فقد كان صلى الله عليه وسلم يستبينها فالجواب عند الزجاج أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب لامته بالمعنى ولتستبينوا سبيل المجرمين فان

قيل فلم لم تذكر سبيل المؤمنين ففي هذا جوابان

أحدهما أنه إذا استبينت سبيل المجرمين فقد استبينت سبيل المؤمنين والجواب الآخر أن يكون مثل قوله (سرابيل تقيكم الحر) فالمعنى وتقيكم البرد ثم حذف وكذلك هذا يكون المعنى

ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف 60 وقوله جل وعز (قل اني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به) أي ما تستعجلون من اقتراح الآيات ويجوز أن يكون المعنى ما تستعجلون به من العذاب

61 ثم قال جل وعز (ان الحكم الا لله يقضي الحق) كذلك قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبو عبد الرحمن السلمي وسعيد بن المسيب واحتج بعض من قرأ هذه القراءة بأن بعده (وهو خير الفاصلين) والفصل لا يكون الا في القضاء والحكم وقرأ ابن عباس ومجاهد والاعرج (يقص الحق) قال ابن عباس كما قال جل وعز (نحن نقص عليك أحسن القصص) واحتج بعض من قرأ هذه القراءة بأنه في السواد بلا ياء قال ولو كانت يقضي لكانت بالحق وهذا الاحتجاج لا يلزم لأن مثل هذه الياء تحذف

كثيرا وأما قوله لو كانت يقضي لكانت بالحق فلا يلزم أيضا لأن معنى يقضي يأتي ويصنع فالمعنى يأتي الحق

ويجوز أن يكون المعنى يقضي القضاء الحق 62 وقوله جل وعز (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) (جمع مفتح مفاتح وجمع مفتاح مفاتيح أي الوصلة إلى علم الغيب

(154/222)

حدثنا محمد بن الحسن يعرف بابن بدينا قال حدثنا أبو مصعب الزهري قال حدثنا صالح بن قدامة الجحمي عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمسة لا يعلمها الا الله لا يعلم ما تغيض الارحام الا الله ولا يعلم ما في غد الا الله ولا يعلم متى يأتي المطر الا الله ولا تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ولا يعلم متى تقوم الساعة الا الله جل وعز 63 وقوله تعالى (وما تسقط من ورقة الا يعلمها) المعنى أنه يعلمها سقطت أو لم تسقط كما تقول ما يجيئك أحد الا وأنا أعرفه فليس أنك لا تعرفه الا في حال مجيئه و (من) للتوكيد والدليل على أنها للتوكيد أن الحسن قرأ

(ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) أي الا يعلمه علما يقينا ويجوز أن يكون المعنى الا قد كتبه قبل أن يخلقه والله أعلم بما أراد فان قيل ما الفائدة عل هذا الجواب في كتبه وهو يعلمه فالجواب عن هذا أنه لتعظيم الامر أي اعلموا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب

مكتوب فكيف بما فيه ثواب وعقاب 64 وقوله جل وعز (وهو الذي يتوفاكم بالليل) أي ينيمكم فيتوفى الانفس التي تميزون بها كما قال الله عز وجل (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها)

65 ثم قال جل وعز (ويعلم ما جرحتم بالنهار) قال ابن أبي نجيح أي كسبتم ومعروف في اللغة أنه يقال جرح إذا كسب ومنه (وما علمتم من الجوارح مكلبين) 66 ثم قال جل وعز (ثم يبعثكم فيه) قال ابن أبي نجيح أي في النهار 67 ثم قال جل عز (ليقضى أجل مسمى) أي لتستوفوا أجلكم 68 وقوله جل وعز (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) قال ابراهيم النخعي يعني أعوان ملك الموت يتوفون

الارواح ويدفعونها إلى ملك الموت أو يرفعونها كذا في الحديث

---

69 ثم قال جل وعز (وهم لا يفرطون) قال أبو عبيدة لا يتوانون وقال غيره معنى فرطت قدمت العجز 70 وقوله جل وعز (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) الظلمات ها هنا الشدائد والعرب تقول يوم مظلم إذا كان شديدا فإذا عظمت ذلك قالت يوم ذو كواكب وأنشد سيبويه

بني أسد لو تعلمون بلاءنا إذا كان يوم ذو كواكب أشنعا 71 ثم قال جل وعز (تدعونه تضرعا وخفية) أي تظهرون التضرع وهو أشد الفقر إلى الشئ والحاجة إليه (وخفية) أي وتبطنون وسلم مثل ذلك فأمر الله النبي صلى الله عيه وسلم أن يوبخهم إذ كانوا يدعون الله تبارك وتعالى في الشدائد ثم يدعون معه في غير الشدائد الاصنام وهي لا تضر ولا تنفع 72 وقوله جل وعز (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) قال عامر بن عبد الله كان ابن عباس يقول أما العذاب (من فوقكم) فأئمة السوء وأما العذاب (من تحت أرجلكم) فخدم السوء

وقال الضحاك (من فوقكم) من كباركم (أو من تحت أرجلكم) من سفلتكم

قال أبو العباس (من فوقكم) يعني الرجم (أو من تحت أرجلكم) يعني الخسف 73 ثم قال جل وعز (أو يلبسكم شيعا) الشيع الفرق والمعنى شيعا متفرقة مختلفة لا متفقة ولبست خلطت ويبينه قوله جل وعز (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال ابن أبي نجيح عن مجاهد يعني الفتن والاختلاف 74 وقوله عز وجل (وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل) هذا من قبل أن يؤمر بالحرب أي لست أحاربكم عنه حتى

تؤمنوا أي لست بمنزلة الموكل بكم حتى تؤمنوا 75 ثم قال جل وعز (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) وهذا تهديد اما بعذاب يوم القيامة واما بالامر بالحرب 76 وقوله جل وعز (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره)

روى شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال هم الذين يستهزئون بكتاب الله نهاه الله أن يجلس معهم الا أن ينسى فإذا ذكر قام قال تعالى (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم

(156/222)

الظالمين) وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال هم الذين يقولون في القرآن غير الحق

77 ثم قال جل وعز (وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ) قال مجاهد أي لو جلسوا ولكن لا يجلسوا أي لأن الله قد نهاهم 79 وقوله عز وجل (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا) قال قتادة هذا منسوخ نسخه قوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) 80 ثم قال جل وعز (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت) قال مجاهد تسلم وقال الكسائي والاخفش أي تجزى

وقال الفراء أي ترتهن وهذه المعاني متقاربة وقول مجاهد حسن أي تسلم بعملها لا تقدر على التخلص لأنه يقال استبسل فلان للموت أي رأى ما لا يقدر على دفعه وينشد وابسالي إن بني بغير جرم بعوناه ولا بدم مراق

قال أبو جعفر بعوناه أي جنيناه 80 وقوله جل وعز (وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها)

قال قتادة العدل الفدية وقد بيناه فيما تقدم 81 وقوله جل وعز (قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا) قال مجاهد يعني الاوثان 82 ثم قال جل وعز (ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله) أي إلى الكفر قال أبو عبيدة يقال لمن رد عن حاجته ولم يظفر بها قد رد على عقبيه وقال أبو العباس محمد بن يزيد معناه يعقب بالشر بعد الخير وأصله من العاقبة والعقبى وهما ما كان تاليا للشئ راجيا أن يتبعه ومنه (والعاقبة للمتقين) ومنه عقب الرجل ومنه العقوبة لانها تالية للذنب وعنه تكون

83 وقوله جل وعز (كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران) معنى استهوته زينت له هواه 84 ثم قال جل وعز (له أصحاب يدعونه إلا إلى الهدى ائتنا) 85 وقوله جل وعز (وهو الذي خلق السموات والارض بالحق

(157/222)

ويوم يقول كن فيكون) والمعنى اتقوا يوم يقول كن فيكون ويجوز أن يكون معطوفا على قوله تعالى (وهو الذي خلق السموات والارض بالحق) فان قيل ما معنى وخلق يوم يقول كن فيكون فالجواب أن ما أخبر الله جل وعز أنه كائن فهو بمنزلة ما قد كان ويجوز أن يكون المعنى واذكروا وهذا أحسن الاجوبة لأن بعده (وإذ قال ابراهيم)

وقيل المعنى ويوم يقول كن فيكون للصور وقيل المعنى فيكون ما أراد من موت الخلائق وبعثهم والتمام على هذين الجوابين عند قوله (فيكون) وقيل المعنى فيكون قوله أي فيكون يأمر به ويكون التمام على هذا (فيكون قوله الحق) قال أبو عبيدة الصور جمع صورة وهذا القول مما رد عليه لأن عبد الله بن مسعود قال الصور قرن وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لم يزل صاحب الصور ملتقمه فيه منذ خلقه الله ينتظر متى يؤمر بالنفخ فيه

وقال عمرو بن عبيد قرأ عياض (يوم ينفخ في الصور) وهذا يعني به الخلق والله أعلم 86 وقوله جل وعز (واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما

آلهة) فقرأ الحسن (آزر) بالرفع وفي حرف أبي يا آزر قال الحسن هو اسم أبيه وذهب الحسن إلى أنه نداء وقال سليمان التيمي معنى آزر يا أعوج وقيل كان لابيه اسمان كان يقال له تارح وآزر وقيل آزر اسم صنم والمعنى على هذا القول أتتخذ آزر أي أتتخذ أصناما 87 وقوله جل وعز (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض) ملكوت في اللغة بمعنى ملك الا أن فيه معنى المبالغة وروى سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال يعني الآيات وروى ابن جريج عن القاسم عن ابراهيم النخعي قال فرجت له السموات السبع فنظر اليهن حتى انتهى إلى العرش وفرجت له الأرضون فنظر اليهن 88 وقوله جل وعز

(فلما جن عليه الليل) جن عليه وأجنة إذا ستره بظلمته 89 ثم قال جل وعز (رأى كوكبا)
قال قتادة كنا نحدث أنه الزهرة

(158/222)

قال السدي هو المشتري 90 ثم قال جل وعز (هذا ربي) في هذا أجوبة قال قطرب يجوز أن يكون على الاستفهام وهذا خطأ لأن الاستفهام لا يكون الا بحرف أو يكون في الكلام (أم) وقال بعض أهل النظر انما قال لهم هذا من قبل أن يوحى إليه واستشهد صاحب هذا القول بقوله تعالى (لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) قال أبو اسحاق هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله

وقد أخبر الله جل وعز عن ابراهيم أنه قال (واجنبني وبني أن نعبد الاصنام) وقال جل وعز (بقلب سليم) أي لم يشرك قط قال والجواب عندي أنه قال هذا ربي على قولكم لانهم كانوا يعبدون الاصنام والشمس والقمر ونظير هذا قول الله جل وعز (أين شركائي) وهو جل وعز لا شريك له والمعنى أين شركائي على قولكم ويجوز أن يكون المعنى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا يقولون هذا ربي ثم حذف القول كما قال جل وعز (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) فحذف القول

91 وقوله جل وعز (فلما أفل) قال قتادة أي ذهب قال الكسائي يقال أفل النجم أفولا إذا غاب 92 وقوله جل وعز (فلما رأى القمر بازغا) يقال بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع 93 وقوله جل وعز (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا) فطر خلق والحنيف المائل إلى الاسلام كل الميل 94 وقوله جل وعز (وحاجه قومه) المعنى وحاجه قومه أي في توحيد الله 95 وقوله جل وعز (ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئا)

المعنى الا أن يشاء ربي أن يلحقني شيئا بذنب عملته وهذا استثناء ليس من الاول 96 وقوله جل وعز (فأي الفريقين أحق بالامن) المعنى المؤمن أحق بالامن أم المشرك 97 ثم قال جل وعز (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) يجوز أن يكون هذا اخبار عن ابراهيم صلى الله عليه وسلم أنه قاله ويجوز أن يكون مستأنفا من قول الله جل وعز

وفي بعض الروايات عن مجاهد ما يدل أنه اخبار عن ابراهيم وروي عن مجاهد أنه قال في قول الله جل وعز (وتلك

حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) قال هو قوله (فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال أبو بكر وعلي رضي الله عنهما وسلمان وحذيفة في قوله تعالى (ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) أي بشرك وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لا يظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس كما تظنون انما هو كما قال لقمان (ان الشرك لظلم عظيم) 98 وقوله جل وعز (ومن ذريته داود وسليمان) ويجوز أن يكون المعنى وهدينا داود وسليمان ويكون معطوفا على (كل) ويجوز أن يكون المعنى ووهبنا له داود وسليمان 100 وقوله جل وعز (واجتبيناهم) قال مجاهد أخلصناهم وهو عند أهل اللغة بمعنى اخترناهم 101 وقوله تعالى (فان يكفر بها هؤلاء) قال مجاهد يعني أهل مكة وقال قتادة يعني قوم محمد عليه السلام 102 (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) قال مجاهد يعني أهل المدينة وقال قتادة يعني النبيين الذين قص الله عز وجل

وهذا القول أشبه بالمعنى لأنه قال بعد (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وحدثني محمد بن ادريس قال حدثنا ابراهيم حدثنا عثمان المؤذن عن عوف عن أبي رجاء في قول الله جل وعز (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) قال هم الملائكة 103 وقوله جل وعز (وما قدروا الله حق قدره) قال أبو عبيدة أي ما عرفوا الله حق معرفته هذا قول

حسن لأن معنى قدرت الشئ وقدرنه صلى عرفت مقداره ويدل عليه قوله جل وعلا (إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ) أي لم يعرفوه حق معرفته إذ أنكروا أن يرسل رسولا

وقال غير أبي عبيدة المعنى وما عظموا الله حق عظمته ومن هذا لفلان قدر

والمعنيان متقاربان ويروى أن هذا نزل في بعض اليهود ممن كان يظهر العبادة

(160/222)

ويتنعم في السر فقيل له ان في الكتاب أن الله لا يحب الحبر السمين فقال (ما أنزل الله على بشر من شئ) 104 وقوله جل وعز (ولتنذر أم القرى ومن حولها) المعنى ولتنذر أهل أم القرى قال قتادة كنا نتحدث أنها مكة لأن الأرض منها دحيت

وقيل انما سميت أم القرى لانها تقصد من كل قرية 105 وقوله جل وعز (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي الي ولم يوح إليه شئ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قال قتادة بلغنا أن هذا أنزل في مسيلمة قال أبو اسحاق وهذا جواب لقولهم (لو نشاء لقلنا مثل هذا) وروي عن ابن عباس الذي افترى على الله كذبا مسيلمة والذي قال (سأنزل مثل ما أنزل الله) (عبد الله بن سعد بن أبي سرح)

وروى حفص بن عمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة أن هذه الآية نزلت في النضر بن

الحارث لأنه عارض القرآن فقال (والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا فالخابزات خبزا فاللاقمات لقما) 106 ثم قال جل وعز (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت) أي شدائده (والملائكة باسطوا أيديهم) أي باسطوا أيديهم بالعذاب 107 وقوله جل وعز (لقد تقطع بينكم) قال مجاهد أي تواصلكم ومن قرأ (بينكم) فالمعنى لقد تقطع الامر بينكم

108 وقوله جل وعز (ان الله فالق الحب والنوى) قال مجاهد يعني الشق فيها وقال الضحاك فالق خالق 109 وقوله جل وعز (فالق الاصباح) ويقرأ (الاصباح) وقرأ به الحسن وعيسى وهو جمع صبح والاصباح كما تقول الامساء وقرأ النخعي (فلق الاصباح)

110 ثم قال جل وعز (وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا)

والحسبان والحساب واحد أي ذوي حساب يعني دورانهما وقال ابن عباس في قوله جل وعز (الشمس والقمر بحسبان) أي بحساب

111 وقوله جل وعز (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع) قال عطاء ومجاهد وقتادة والضحاك وألفاظهم متقاربة فمستقر في الرحم ومستودع في الصلب وقرأ جماعة بالفتح وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال المستقر الرحم والمستودع الأرض التي تموت بها

والفتح على معنى ولكم في الارحام مستقر وفي الاصلاب مستودع والكسر بمعنى فمنكم مستقر وقال سعيد بن جبير قال ابن عباس هل تزوجت فقلت لا فقال ان الله جل وعز يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما (فمستقر) بالكسر (ومستودع) وقال ابراهيم النخعي المعنى فمستقر في الرحم ومستودع في الصلب وقال الحسن فمستقر في القبر ومستودع في الدنيا يوشك أن يلحق بصاحبه حدثني محمد بن ادريس قال حدثنا ابراهيم بن مرزوق

قال حدثنا أبو داود عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله جل وعز (فمستقر ومستودع) قال المستقر ما كان في الرحم والمستودع الصلب 112 ثم قال جل وعز (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) قال قتادة فصلنا بمعنى بينا 113 وقوله عز وجل (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا) (خضرا) بمعنى أخضر 114 وقوله عز وجل (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) قال قتادة القنوان العذوق وكذلك هو عند أكثر أهل اللغة

يقال عذق وقنو بمعنى واحد فأما العذق فالنخلة وقيل القنوان الجمار وقال البراء بن عازب دانية قريبة والمعنى ومنها قنوان بعيدة كما قال تعالى (سرابيل تقيكم الحر) 115 وقوله جل وعز (والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) أي مشتبها في المنظر وغير متشابه في

الطعم 116 ثم قال جل وعز (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) أي ونضجه

يقال ينع وينع وأينع وينع إذا نضج وأدرك

وقال الحجاج في خطبته (أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها) 117 وقوله جل وعز (وجعلوا لله شركاء الجن) قيل معناه انهم أطاعوهم كطاعة الله وقيل معناه نسبوا إليهم الافاعيل التي لا تكون الا لله جل وعز أي فكيف يكون الشريك لله المحدث الذي لم يكن ثم كان 118 وقوله جل وعز (وخلقهم) يجوز أن يكون المعنى وخلق الشركاء ويجوز أن يكون المعنى وخلق الذين جعلوا وقرأ يحيى بن يعمر (وخلقهم) باسكان اللام قال ومعناه وجعلوا خلقهم لله شركاء

(162/222)

وسئل الحسن عن معنى (وخرقوا له بنين وبنات) بالتشديد فقال انما هو (وخرقوا) بالتخفيف كلمة عربية كان الرجل إذا كذب في النادي قيل خرقها ورب الكعبة وقال أهل اللغة معنى خرقوا اختلفوا وافتعلوا خرقوا على التكثير 119 وقوله جل وعز (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) أي من أين يكون له ولد والولد لا يكون له الا من صاحبة (وخلق كل شئ) أي فليس شئ مثله فكيف يكون له

ولد 120 وقوله جل وعز (لا تدركه الابصار) قيل معناه في الدنيا

وقال الزجاج أي لا يبلغ كنه حقيقته كما تقول أدركت كذا وكذا لأنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم الاحاديث في الرؤية يوم القيامة 121 وقوله جل وعز (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه) المعنى فلنفسه نفع ذلك (ومن عمي فعليها) أي فعليها ضرر ذلك 122 وقوله جل وعز (وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست) هذه قراءة أهل المدينة وأهل الكوفة وابن الزبير ومعناها تلوت وقرأت

وقرأ علي بن أبي طالب (دارست) وهو الصحيح من قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وأبي عمرو وأهل مكة قال ابن عباس معنى دارست تاليت قال سعيد بن جبير أي دارست أهل الكتاب وقرأ قتادة (درست) أي قرئت وقرأ الحسن (درست) أي امحت وقدمت

وروى سفيان بن عيينه عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه قرأ (دارست) وكان أبو حاتم يذهب إلى أن هذه القراءة لا تجوز قال لأن الآيات لا تدارس

وقال غيره القراءة بهذا تجوز وليس المعنى على ما ذهب إليه أبو حاتم ولكن معناه دارست أمتك أي دارستك أمتك فان كان لم يتقدم لها ذكر فانه يكون مثل قوله تعالى (حتى توارت بالحجاب) وحكى الاخفش (وليقولوا درست) وهو بمعنى درست الا أنه أبلغ وحكى أبو العباس أنه يقرأ (وليقولوا درست) باسكان اللام على الامر وفيه معنى التهديد أي فليقولوا ما شاءوا فان الحق بين كما قال جل وعز (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) فأما من كسر اللام فانها عنده لام كي قال أبو اسحاق وأهل اللغة يسمونها لام الصيرورة أي

صار إلى هذا كما قال جل وعز (ربنا ليضلوا عن سبيلك) وكما تقول كتب فلان هذا الكتاب لحتفه أي فصار أمره إلى ذلك وهذه القراءات كلها يرجع اشتقاقها إلى شئ واحد إلى التليين والتذليل

ودرست قرأت وذللت ودرست الدار ذلت وأمحقت وقال ودرس الحنطة أي داسها

123 وقوله جل وعز (ولو شاء الله ما أشركوا) قيل معنا لو شاء الله لاستأصلهم والله أعلم بما أراد

124 ثم قال جل وعز (وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل) وهذا قبل أن يؤمر بالقتال 125 وقوجل وعز (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) قال قتادة كان المسلمون يسبون الاصنام فيسب المشركون الله عدوا بغير علم وروي أن في قراءة أهل مكة (عدوا بغير علم) والقراءة حسنة ومعنى (عدوا) بمعنى

أعداء كما قال تعالى (ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) وتقرأ (عدوا) يقال إذا تجاوز في الظلم عدا يعدو

عدوا وعدوا وعدوانا وعداء 126 ثم قال جل وعز (كذلك زينا لكل أمة عملهم) قيل معناه مجازاة على كفرهم وقيل أعمالهم يعني الاعمال التي يجب أن يعملوا بها وهي الايمان والطاعة والله أعلم بحقيقة ذلك

127 وقوله جل وعز (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أي اجتهدوا في الحلف (لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) يعنون آية مما يقترحون 128 وقوله جل وعز (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون)

(164/222)

قال مجاهد معناه وما يدريكم قال ثم ابتدأ فقال (انها إذا جاءت لا يؤمنون) وقرأ أهل المدينة (أنها إذا جاءت) قال الكسائي (لا) ها هنا زائدة والمعنى وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون وشبهه بقوله جل وعز (قال ما منعك الا تسجد إذ أمرتك) وهذا عند البصريين غلط لأن (لا) لا تكون زائدة في موضع تكون فيه نافيه قال الخليل المعنى لعلها وشبهه بقول العرب ايت السوق أنك تشتري لنا شيئًا بمعنى لعلك

وروي أنها في قراءة أبي (وما يشعركم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون) وأنشد أهل اللغة في (أن) بمعنى (لعل) أريني جوادا مات هزلا لانني

أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا وقيل في الكلام حذف والمعنى وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ثم حذف هذا لعلم السامع ويروى أن المشركين قالوا ادع الله أن ينزل علينا الآية التي قال فيها (ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) ونحن والله نؤمن فقال المسلمون يا رسول الله

ادع الله أن ينزلها فأنزل الله عز وجل (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) 129 ثم قال جل وعز (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) و (أفئدة) جمع فؤاد 130 وقوله جل وعز (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله) ويروى أنهم سألوا هذه الاشياء فنزل هذا قال مجاهد (قبلا) أفواجا أي قبيلا قبيلا يذهب إلى أنه جمع قبيل وهو الفرقة وقيل هو جمع قبيل و (وقبيل) بمعنى كفيل أي لو كفل لهم الملائكة وغيرهم بصحة هذا لم يؤمنوا كما قال تعالى (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) ويجوز أن يكون معنى (قبلا) كمعنى مقابلة كما قال

تعالى (ان كان قميصه قد من قبل) ومن قرأ (قبلا) فمعناه عنده معاينة 131 وقوله جل وعز (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا) أي كما جعلنا لك ولامتك أعداء وعدو بمعنى أعداء

132 ثم قال جل وعز (شياطين الانس والجن) وقرأ الاعمش (شياطين الجن والانس) والمعنى واحد

(165/222)

---

133 ثم قال تعالى (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) قال مجاهد أي يزينون لهم ذاك أي يزينون لهم العمل القبيح وكذلك الزخرف في اللغة هو التزيين ومنه قيل للذهب زخرف 134 ثم قال جل وعز (ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) أي لو شاء لمنعهم من وسوستهم الانس ولكنه يبتلي بما شاء ليجزل الثواب 135 وقوله جل وعز (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) يقال صغى يصغى وصغا أنه يصغو وأصغى يصغي إذا مال كما قال الشاعر

تصغي إذا شدها بالرحل جانحة

حتى إذا ما استوى في غرزها تثب 136 ثم قال جل وعز (وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) أي وليكتسبوا ويقال قرفت الجلد إذا قلعته ويقرأ (وليقترفوا) وفيه معنى التهديد قال قتادة صدقا فيما وعد وعدلا فيما حكم 137 وقوله جل وعز (ان يتبعون الا الظن) أعلم جل وعز أنهم ليسوا على بصائر ولا يقين وأنهم لا يتبعون الحق ويقرأ (ان ربك هو أعلم

من يضل عن سبيله)

وهذا على حذف المفعول وفتح الياء أحسن لأن بعده (وهو أعلم بالمهتدين) 138 وقوله جل وعز (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) أي مما أخلص لله وتحريم الميتة داخل في هذا 139 ثم قال جل وعز (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) وروى عكرمة عن ابن عباس أن المشركين قالوا للمسلمين لم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله لكم فأنزل الله جل وعز (وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم)

140 وقوله جل وعز (وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم إليه)

قال قتادة فصل بين وقرأ عطية العوفي (وقد فصل لكم) خفيفة ومعناه أبان وظهر كما قرئ (آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) أي استبانت 141 وقوله جل وعز (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) قال قتادة أي علانيته وسره وقال غيره ظاهر الاثم الزنا وباطنه اتخاذ الاخدان والاشبه باللغة قول قتادة 142 ثم قال جل وعز (ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون)

أي يكسبون ويعملون ويقال قرفت الجلد أي قلعته قال أبو جعفر اختلف أهل العلم في معنى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) فكان مذهب ابن عباس أن هذا جواب للمشركين حين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم وتخاصموا فقالوا كيف لا نأكل مما قتل ربك ونأكل مما قتلنا فأنزل الله عز وجل (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ورواه عنه سعيد بن جبير وعكرمة فالمعنى على هذا ولا تأكلوا من الميتة وقال الشعبي ومحمد بن سيرين لا يؤكل من الذبائح التي لم يسم الله جل وعز عليها كان ذلك عمدا أو نسيانا

وقال سعيد بن جبير وعطاء إذا ترك التسمية عمدا لم يؤكل وإذا نسي أكل وهذا حسن لأنه لا يسمى فاسقا إذا كان ناسيا

143 ومعنى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) مما لم يخلص لله (وانه لفسق) أي خروج من الطاعة ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها 144 ثم قال جل وعز (وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) أي يوسوسون إليهم وقد ذكرت معنى ليجادلوكم 145 ثم قال جل وعز (وان أطعتموهم انكم لمشركون) وقال أهل النظر في هذا دليل على أنه من أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله فقد أشرك

وقيل له مشرك لأنه اتبع غير الله فأشرك به غيره جل وعز 146 وقوله جل وعز (أو من كان ميتا فأحييناه) قال مجاهد المعنى أو من كان ضالا فهديناه (وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) أي هدى (كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)

قال مجاهد أي في الضلالة قال السدي هذا نزل في (عمر بن الخطاب رحمة الله عليه) وأبي جهل والذي يوجب المعنى أن يكون عاما الا أن تصح فيه رواية

(167/222)

---

147 وقوله جل وعز (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها) قال مجاهد أي عظماءهم وقال غيره وخص العظماء والرؤساء لانهم أقدر على الفساد 148 ثم قال تعالى (وما يمكرون الا بأنفسهم) أي ان وبال ذلك يرجع عليهم 149 وقوله جل وعز (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله) وان كانوا أعزاء في الدنيا فستلحقهم وهو الذلة يوم القيامة وفي الآية ثلاثة أقوال أحدهما أن المعنى سيصيب الذين أجرموا عند الله صغار على التقديم والتأخير والقول الثاني أن المعنى سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت عند الله

وهذا أحسن الاقوال لأن (عند) في موضعها والقول الثالث ذكره الفراء أنه يجوز أن يكون المعنى

سيصيب الذين أجرموا صغار من عند الله وهذا خطأ عند البصريين لأن (من) لا تحذف في مثل هذا 150 وقوله جل وعز (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) روي أن عبد الله بن مسعود قال يا رسول الله هل ينشرح الصدر فقال نعم يدخل القلب نور فقال

وهل لذلك من علامة فقال صلى الله عليه وسلم (التجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل الموت

151 ثم قال جل وعز (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) أي شديد الضيق وقرأ عمر وابن عباس (ضيقا حرجا) وروي أن عمر أحضر أعرابيا من كنانة من بني مدلج فقال له ما الحرجة فقال شجرة لا تصل إليها وحشية ولا راعية فقال كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شئ من الايمان والخير 152 ثم قال جل وعز (كأنما يصعد في السماء) وقرأ ابن محيص وابن كثير وشبل (كأنما يصعد في السماء) وقرأ ابن عبد الرحمن المقرئ وابراهيم النخعي (كأنما يصاعد)

(168/222)

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ (كأنما يتصعد) ومعنى هذه القراءة وقراءة من قرأ يصعد ويصاعد واحد والمعنى فيها أن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لا يقدر على ذلك كأنه يستدعي ذلك ومن قرأ (يصعد) فمعناه أنه من ضيق صدره كأنه في حال صعود قد كلفه وقال أبو عبيد من هذا قول عمر (مات صعدتني صلى الله عليه وسلم خطبة ما تصعدتني خطبة النكاح) وقد أنكر هذا على أبي عبيد وقيل انما

هذا من الصعود

وهي العقبة الشاقة قال الله جل وعز (سأرهقه صعودا) 153 ثم قال جل وعز (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) قال مجاهد الرجس ما لا خير فيه وكذلك الرجس عند أهل اللغة هو النتن فمعنى الآية والله أعلم ويجعل اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة على الذين لا يؤمنون 154 وقوله جل وعز (قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) أي بينا 155 ثم قال جل وعز (لهم دار السلام عند ربهم)

ويجوز أن يكون المعنى دار السلامة أي التي يسلم فيها من الآفات ويجوز أن يكون المعنى دار الله جل وعز وهو السلام

156 وقوله جل وعز (ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) المعنى فيما يقال لهم يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس أي كثر من أغويتم 157 ثم قال جل وعز (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) ففي هذا قولان أحدهما ان الجن أغوت إذا الانس وقبلت الانس منهم والقول الآخر أن الرجل كان إذا سافر في الجاهلية فخاف قال أعوذ بصاحب هذا الوادي من شر ما أحذر فهذا استمتاع الانس بالجن واستمتاع الجن بالانس أنهم يعترفون أن الجن يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يجدون والقول الاول أحسن ويدل عليه (يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) 158 وقوله جل وعز (قال النار مثواكم) المثوى المقام

159 ثم قال جل وعز (خالدين فيها الا ما شاء الله) في هذا قولان أحدهما أنه استثناء ليس من الاول والمعنى على هذا الا ما شاء الله من الزيادة في عذابهم

(169/222)

وسيبويه يمثل هذا بمعنى (لكن) والفراء يمثله بمعنى (سوى) كما تقول لاسكننك فقال هذه الدار حولا الا ما شئت أي سوى ما شئت من الزيادة ومثله (خالدين فيه ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك) أي سوى ما شاء ربك من الزيادة قال أبو جعفر وقال أبو اسحاق معنى الاستثناء عندي ها هنا والله أعلم انما هو من يوم القيامة أي الا ما شاء ربك من مقدار محشرهم ومحاسبتهم ويدل على هذا الجواب (ويوم يحشرهم جميعا) لأن هذا يراد به يوم القيامة ويجوز أن يكون معنى ما شاء الله عز وجل أن يعذبهم من أصناف العذاب

160 وقوله جل وعز (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) والرسل من الانس ففي هذ جوابان أحدهما أنه روي عن ابن عباس أنه قال رسل الجن الذين لقوا قومهم فبلغوهم

يعني ابن عباس الذين قالوا (انا سمعنا قرآنا عجبا) وهم بمنزلة الرسل إلى قومهم لانهم قد

بلغوهم وكذلك قال مجاهد الرسل في الانس والنذارة في الجن والقول الآخر أنه لما كانت الانس والجن ممن يخاطب ويعقل قيل ألم يأتكم رسل منكم وان كانت الرسل من الانس خاصة 161 وقوله جل وعز (كما أنشاكم أي من ذرية قوم آخرين) الانشاء ابتداء الخلق 162 وقوله جل عز (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم) فيه قولان أحدهما أن المعنى على تمكنكم والقول الآخر أنه كما تقول أثبت مكانك أي اثبت على ما أنت عليه فان قيل كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار فالجواب أن هذا تهدد كما قال جل وعز (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) ودل عليه قوله (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) والمعنى على هذا اثبتوا على ما انتم عليه ان رضيتم بالنار 163 وقوله جل وعز (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام

نصيبا)

(170/222)

في الكلام حذف والمعنى وجعلوا لاصنامهم نصيبا ودل عليه (فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) قال مجاهد كانوا يجعلون لله جزء ولشركائهم جزءا فإذا ذهب ما لشركائهم عوضوا منه مما لله وإذا ذهب ما لله لم يعوضوا منه شيئًا قال الانعام البحيرة والسائبة وقال

قتادة كانوا يجعلون لله نصيبا ولشركائهم نصيبا فإذا هلك بعير لشركائهم أخذوا مما لله فجعلوه لشركائهم وإذا هلك بعير مما لله جل وعز تركوه وقالوا الله مستغن عن هذا وإذا أصابهم سنة أخذوا ما لله جل وعز فنحروه وأكلوه

164 وقال الله عز وجل (ساء ما يحكمون) فذم الله ذلك من فعلهم ويقال ذرأ يذرأ ذرء أي خلق 165 وقوله جل وعز (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) يعني الموءودة قال مجاهد زين لهم الشياطين قتل البنات وخوفوهم العيلة قال غير مجاهد (شركاؤهم) ههنا الذين يخدمون

الاصنام 166 وقوله عز وجل (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) قال قتادة الحجر الحرام وقيل هذه أشياء كانوا يجعلونها لاصنامهم لا يأكل منها الا من يشاؤهم خدم الاصنام والحرث هو الذي يجعلونه لنفقة أوثانهم ويحرمونها على الناس الا خدمها 167 ثم قال جل وعز (وأنعام حرمت ظهورها) قال قتادة يعني السائبة والوصيلة 168 وقوله جل وعز (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) أي يذبحونها لآلهتهم ولا يذكرون عليها اسم الله فأعلم الله جل وعز أنه لم يأمرهم بهذا ولا جاءهم به نبي فقال تعالى (افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون) وقيل معنى (وأنعام حرمت ظهورها) هو الحامي الذي ذكره الله جل وعز في قوله (ولا وصيلة ولا حام)

وقيل معنى (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) السائبة لانها لا تركب فيذكر اسم الله عليها

وقيل يذبحونها لاصنامهم فلا يذكرون اسم الله عليها والمحرمة ظهورها (السائبة والحامي والبحيرة) وأصحها

(171/222)

ما بدأنا به 170 وقوله جل وعز (وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا) قال مجاهد يعني البحيرة والسائبة قال غيره كانوا إذا جعلوا لاصنامهم شيئا مما في بطون الانعام فولدت مولودا حيا ذكرا كان للذكران دون الاناث وإذا ولدت ميتا ذكرا اشترك فين الذكران والاناث فذلك قوله تعالى (وان يكن ميتة فهم فيه شركاء)

وقال قطرب إذا أتأمت عشرا فما ولدت بعد ذلك فهو للذكور الا أن يموت فيشترك فيه أكله الذكر والانثى وقرأ الاعمش (وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالص لذكورنا) قال الكسائي معنى خالص وخالصة واحد الا أن (الهاء) للمبالغة كما يقال رجل داهية وعلامة

وقال الفراء الخاء لتأنيث الانعام لأن ما في بطون الانعام مثلها وقرئ (خالصه لذكورنا)

والمعنى على هذه القراءة ما خلص منه حيا لذكورنا (ومحرم على أزواجنا) أي الاناث قال مجاهد معنى (سيجزيهم وصفهم) أي سيجزيهم كذبهم

والتقدير عند النحويين سيجزيهم جزاء وصفهم الذي هو كذب 170 وقوله جل وعز (قد

خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم) يعني قتلهم البنات جهلا 171 ثم قال جل وعز

(وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) قال أبو رزين ولم يكونوا

مهتدين قبل ذلك 172 وقوله جل وعز (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير

معروشات) أنشأ خلق وابتدع والجنات البساتين

وقيل المعروشات الكروم (والنخل والزرع مختلفا أكله) أي ثمره لأنه مما يؤكل (والزيتون

والرمان متشابها وغير متشابه) قيل مشتبه في المنظر ومختلف في المطعم فيه حلو وحامض

وقيل يشبه بعضه بعضا في الطعم ومنه ما لا يشبه بعضه بعضا في الطعم 173 ثم قال جل

وعز (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم

حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) في هذه الآية ثلاثة أقوال

فمذهب ابن عمر وأبي الدرداء وسعيد بن جبير وأبي العالية ومجاهد وعطاء أن عليه أن

يصدق منه سوى الزكاة المفروضة والقول الثاني أن الآية منسوخة قال ابراهيم النخعي

نسخها العشر ونصف العشر وروى عن الحسن قولان روى سفيان عن يونس عن الحسن

قال نسختها الزكاة المفروضة والقول الآخر وهو القول الثالث في الآية رواه شعبة عن أبي

الرجاء قال سألت الحسن عن قوله جل وعز (وآتوا حقه يوم حصاده) فقال الزكاة المفروضة وكذلك قال ابن عباس وأنس بن مالك وابن الحنفية وجابر بن زيد وسعيد ابن المسيب وطاووس وقتادة والضحاك وراه ابن وهب عن مالك قال هي الصدقة المفروضة والقول الاول أولاها لأنه يبعد أن يعني به الزكاة المفروضة لأن الانعام مكية والزكاة انما فرضت بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ويقوي القول الاول حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن

جذاذ الليل قال سفيان كي يحضر المساكين قال سعيد بن المسيب ومعنى (ولا تسرفوا) ولا تمتنعوا

من الصدقة فتهلكوا وقال غيره معنى (ولا تسرفوا) لا تدفعوا كل ما لكم إلى الغرباء وتتركوا عيالكم كما روي (ابدأ بمن تعول) السرف في اللغة المجاوزة إلى ما لا يحل وهو اسم ذم أي لا تنفقوا في الوجوه المحرمة حتى لا يجد السائل شيئا وقيل معنى (ولا تسرفوا) لا تنفقوا أموالكم فيما لا يحل لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا (وهذا لشركائنا) 174 وقوله جل وعز (ومن الانعام حمولة وفرشا) وروى أبو الاحوص عن عبد الله بن مسعود أنه قال (الحمولة) ما أطاق الحمل من الابل والفرش ما لم يطق الحمل وكان صغيرا

قال أبو جعفر وهذا المعروف عند أكثر أهل اللغة وقال الضحاك الحمولة من الابل والبقر

والفرش الغنم واستشهد لصاحب هذا القول بقوله (ثمانية أزواج) قال فثمانية بدل من قوله (حمولة وفرشا) قال الحسن الحمولة الابل والفرش الغنم

(173/222)

---

175 ثم قال جل وعز (كلوا مما رزقكم الله) وهو أمر على الاباحة 176 ثم قال جل وعز (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) يعني طرقه أي طريقه الذي يحسنه لكم

وقيل تخطيه الحلال إلى الحرام وقيل يعني آثاره 177 وقوله جل وعز (ثمانية أزواج) كل فرد يحتاج إلى آخر عند العرب زوج 178 ثم قال تعالى (من الضأن اثنين) وهو جمع ضائن كما يقال راكب وركب 179 ثم قال جل وعز (ومن المعز اثنين) وهذا احتجاج عليهم أي ان كان حرم الذكور فكل ذكر حرام وان كان حرم الاناث فكل أنثى حرام واحتج عليهم بهذا لانهم أحلوا ما ولد حيا ذكرا للذكور وحرموه على الاناث ان كان انثى قال قتادة أمره الله جل وعز أن يقول لهم (آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) ان كان ما اشتملت عليه أرحام الانثيين حراما فكل مولود منها حرام وكلها مولود فكلها إذا حرام وان كان التحريم من جهة الذكور من

الضأن والمعز فكل ذكر حرام عليكم وان كان من جهة الاناث

فكل أنثى حرام عليكم وكانوا يحرمون الوصيلة وأخاها على الرجال والنساء 180 ثم قال جل وعز (نبئوني بعلم ان كنتم صادقين) أي ليس عندكم علم لانهم لا يؤمنون بكتاب 181 ثم قال جل وعز (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) أي لستم تؤمنون بكتاب فهل شهدتم الله عز وجل حرم هذا 182 ثم بين ظلمهم فقال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا)

ثم بين أنه لا يحرم الله شيئا الا بوحي فقال (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه) روي عن عائشة رحمة الله عليها (على طاعم طعمه) وعن أبي جعفر محمد بن علي (طاعم يطعمه) 184 ثم قال جل وعز (الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا) قال قتادة المسفوح المصبوب فحرم ما كان مصبوبا خاصة فأما ما كان مختلطا باللحم فهو حلال 184 ثم قال جل وعز (فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به) أي ذبح لغير الله وذكر عليه غير اسم الله وسماه فسقا لأنه خارج عن الدين

(174/222)

والمعنى أو دما مسفوحا أو لحم خنزير أو فسقا أهل لغير الله به فانه رجس والموقوذة والمتردية والنطيحة داخلة في هذه الآية عند قوم لانها أصناف الميتة فأما ما لم يدخل في

هذه الآية عند قوم ففيه قولان أحدهما أنه روي عن عائشة وابن عباس أن الآية جامعة لجميع ما حرم من الحيوان خاصة وأنه ليس في الحيوان محرم الا ما ذكر فيها والقول الآخر أن هذه الآية محكمة جامعة للحيوان وغيره وثم أشياء قد حرمها الله سوى هذه وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه (نهى عن لحوم الحمر الاهلية وعن

كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير فقيل هذا قول قوي في اللغة لأن (ما) مبهمة فقوله جل وعز (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما) يجب أن يكون عاما للحيوان وغيره والله أعلم بما أراد 185 ثم قال جل وعز (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) أحسن ما قيل في الباغي الذي يأكل مضطرا لا متلذذا والعادي الذي يجاوز ما يقيم رمقه

186 وقوله جل وعز (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر)

قال مجاهد وقتادة والضحاك (كل ذي ظفر) الابل والنعام قال قتادة وهو من الطير ما لم يكن مشقوق الظفر نحو البط وما أشبهه وهو عند أهل اللغة من الطير ما كان ذا مخلب ودخل في ذا ما يصطاد بظفره من الطير وجميع أنواع السباع والكلاب والسنانير 187 ثم قال جل وعز (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما) قال قتادة هي شحوم الثروب خاصة ومذهب ابن جريج أنه كل شحم لم يكن مختلطا بعظم ولا على عظم وهذا أولى لعموم الآية وللحديث المسند (قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها) (الا ما حملت ظهورهما) أي الا شحوم الجنب وما علق بالظهر

فانها لم تحرم عليهم (أو الحوايا) قال مجاهد وقتادة الحوايا المباعر قال أبو عبيدة هي عندي ما تحوى من البطن أي استدار قال الكسائي واحدها حاوية وحوية

(175/222)

وحكى سيبويه حاوياء قيل المعنى حرمنا عليهم شحومها ثم استثنى فقال (الا ما حملت ظهورهما) ثم عطف على الاستثناء فقال (أو الحوايا أو ما اختلط بعظم) أي الا هذه الاشياء فانها حلال وقيل المعنى حرمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم الا ما حملت ظهورهما فيكون ما بعد (الا) استثناء على هذا القول داخلا في التحريم ويكون مثل قوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) و (أو) ها هنا بخلاف معنى الواو أي لا تطع هذا الضرب وقال الكسائي (الا ما حملت ظهورهما) (ما) في موضع نصب على الاستثناء والحوايا في موضع رفع بمعنى وما حملت الحوايا فعطف الحوايا على الظهور 188 ثم قال جل وعز (أو ما اختلط بعظم)

قال فعطفه على المستثنى وهذا أحد قولي الفراء وهذا أصح هذه الاقوال والله أعلم 189 ثم قال جل وعز (ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون) قال قتادة حرمت عليهم هذه الاشياء عقوبة لهم على بغيهم 190 وقوله جل وعز (فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة

واسعة) قال مجاهد يعني اليهود

191 وقوله جل وعز (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ) قال مجاهد يعني كفار قريش أي لو شاء الله ما حرمنا البحيرة ولا السائبة وقال غيره فأنكر الله جل وعز عليهم هذا القول وقال (كذلك كذب الذين من قبلهم) لأنه ليس لهم أن يحتجوا بأنه من كان على معصية قد شاء الله أن تكون فهو له عذر لأنه لو كان هكذا لكان لمن خالفهم في دينهم عذر لأن الله لو شاء أن يهديه هداه 192 ثم قال جل وعز (قل فلله الحجة البالغة) أي بارساله الرسل واظهاره البينات 193 وقوله جل وعز (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا) والاصل عند الخليل (ها) ضمت إليها (لم) ثم حذفت الالف لكثرة الاستعمال وقال غيره الاصل (هل) زيدت عليها (لم)

(176/222)

وقيل هي على لفظها تدل على معنى (هات) وأهل الحجاز يقولون للواحد والاثنين والجماعة هلم وأهل نجد يأتون بالعلامة كما تكون في سائر الافعال 194 وقوله حل وعز (وهم بربهم يعدلون)

أي يجعلون له عدلا فيعبدون غيره جل وعز 195 وقوله عز وجل (قل تعالوا أتل ما حرم

ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) قيل الذي تلاه عليهم (قل لا أجد فيما أوحي الي محرما على طاعم يطعمه) إلى آخر الآية ويكون معنى (أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) (كذا هذا) أن تقولوا

وبعض النحويين يقول المعنى لئلا تقولوا ولا يجوز عند البصريين حذف (لا) وقيل المعنى وصاكم أن لا تشركوا وقيل المعنى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أنه بين ما حرم فقال ألا تشركوا به شيئا 197 ثم قال جل وعز (وبالوالدين احسانا) أي وأحسنوا بالوالدين احسانا قال ابن عباس الآيات المحكمات (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) إلى آخر ثلاث آيات 197 وقوله جل وعز (ولا تقتلوا أولادكم من املاق)

قال قتادة الاملاق الفاقة وقال الضحاك (كان أحدهم إذا ولدت له ابنة دفنها حية مخافة الفقر)

198 وقوله جل وعز (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال قتادة يعني سرها وعلانيتها قال وكانوا يسرون الزنا بالحرة ويظهرونه بالامة قال مجاهد (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن) التجارة فيه ولا تشتر منه شيئا ولا تستقرض 199 وقوله جل وعز (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه)

وقرأ ابن أبي اسحاق ويعقوب (وأن هذا صراطي مستقيما) بتخفيف (أن) وتقرأ إن بكسر الهمزة فمن قرأ (وأن هذا) فهو عنده بمعنى واتل عليهم أن هذا ويجوز أن يكون المعنى ووصاكم بأن هذا ومن قرأ بتخفيف (أن) فيجوز أن يكون معناه على هذا ويجوز أن تكون (أن) زائدة للتوكيد كما قال جل وعز (فلما أن جاء البشير) ومن قرأ (وان هذا) قطعه مما قبله وروي عن عبد الله بن مسعود رحمه الله أنه خط خطا في الأرض فقال هكذا الصراط المستقيم والسبل حواليه مع كل سبيل شيطان

قال مجاهد السبل البدع والشبهات

200 وقوله جل وعز (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن) قال مجاهد المعنى على المؤمن المحسن وقال الحسن كان فيهم محسن وغير محسن وأنزل الكتاب تماما على الذي أحسن والدليل على صحة هذا القول أن ابن مسعود قرأ (تماما على الذين أحسنوا) وقيل المعنى (تماما على الذي أحسن) موسى من طاعة الله واتباع أمره

وقرأ ابن يعمر وابن أبي اسحاق (على الذي أحسن) والمعنى على الذي هو أحسن الاشياء فأما معنى (ثم) وهي تدل على أن الثاني بعد الاول وقصة موسى صلى الله عليه وسلم وايتائه الكتاب قبل هذا فان القول أنه اخبار من الله جل وعز والمعنى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ثم اتل ما آتينا موسى 201 وقوله جل وعز (أن تقولوا انما أنزل الكتاب

على طائفتين من قبلنا)

أحسن ما قيل في هذا كراهة أن تقولوا قال أبو جعفر قد بينا ما قيل فيه

قال قتادة يعني بالطائفتين اليهود والنصارى وقال يعني بالدراسة التلاوة 202 ثم قال جل وعز (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) (اهدى منهم) أفهم منهم لانهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم وهم أميون 203 وقوله عز وجل (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها)

(178/222)

قال قتادة في قوله (وصدف عنها) أي أعرض 204 وقوله جل وعز (هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة) قال قتادة أي بالموت (أو يأت ربك) قال قتادة يعنى يوم القيامة وقال غيره المعنى اهلاك ربك إياهم 205 ثم قال جل وعز (أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا) روى وكيع عن ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل (يوم يأتي بعض آيات ربك) قال طلوع الشمس من مغربها

لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا

وروى ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن عمرو قال (الآية التي لا ينفع نفسا ايمانها عندها إذا طلعت الشمس من مغربها مع القمر في وقت واحد) 206 وقوله عز وجل (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شئ) الشيع الفرق ومعنى شايعت في اللغة تابعت ومعنى (وكانوا شيعا) وكانوا فرقا كل فرقة يتبع بعضها بعضا الا أن الشيع كلها متفقة 208 ثم قال جل وعز (لست منهم في شئ انما أمرهم إلى الله)

قيل هذا قبل الامر بالقتال وروى أبو غالب عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (فرقوا دينهم وكانوا شيعا) قال هم الخوارج وقيل إن الآية تدل على أن من ابتدع من خارجي وغيره فليس النبي صلى الله عليه وسلم منهم في شئ لانهم إذا ابتدعوا تخاصموا وتفرقوا وكانوا شيعا 208 وقوله جل وعز (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) روى الاعمش عن أبي صالح قال الحسنة لا اله الا الله والسيئة الشرك

(179/222)

والمعنى ان ما كان عنده هو النهاية في المجازاة أعطى عشرة أمثاله 209 وقوله جل وعز (قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم) الصراط الطريق والمعنى عرفني الدين الذي هو

الحق 210 ثم قال جل وعز (دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا) والقيم المستقيم ومن قرأ (قيما) فهو مصدر مثل الصغر والكبر 211 وقوله جل وعز (قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) النسك جمع النسيكة وهي الذبيحة وأصل هذا من التقرب لله جل وعز ومنه (قيل رجل) ناسك

وانما قيل هذا لانهم كانوا يذبحون لغير الله جل وعز 213 وقوله جل وعز (قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شئ) معنى أبغي أريد وأطلب 213 وقوله جل وعز (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل لانهم آخر الامم فقد خلفوا من كان قبلهم

الارض) يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل لانهم آخر الامم فقد خلفوا من كان قبلهم وقيل لأن بعضهم يخلف بعضا حتى تقوم الساعة عليهم والحديث يقوي هذا القول 214 ثم قال جل وعز (ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) أي فضل بعضكم على بعض في الزرق (ليبلوكم فيما آتاكم) أي ليختبركم فيما أعطاكم فينظر كيف شكركم وقد علم ما يكون علم غيب وانما تقع المجازاة على الشهادة 215 قم قال جل وعز (ان ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) فعقابه جل وعز وإن كان أكثره يوم القيامة فان كل آت قريب

وروي عن ابن عباس أنه قال نزلت سورة الانعام بمكة جملة واحدة الا ثلاث آيات منها فانهن

انزلن بالمدينة وهو قوله جل وعز (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا)

إلى آخر الآيات.

(تم بعونه تعالى تفسير سورة الانعام). انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للنحاس حـ 2

صـ 395. 538﴾

(180/222)

وقال الفراء:

ومن سورة الأنعام:

قوله تبارك وتعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ (6) القرن ثمانون سنة. وقد قال

بعضهم: سبعون «1».

وقوله «2»: وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا (9): فى صورة رجل لأنهم لا يقدرون على

النظر إلى صورة الملك.

وقوله: كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (12) إن شئت جعلت (الرحمة) غاية كلام، ثم

استأنفت بعدها لَيَجْمَعَنَّكُمْ وإن شئت جعلته «3» فى موضع نصب كما قال: كَتَبَ

«4» رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ والعرب تقول فى الحروف التي يصلح معها

جواب الأيمان بأن المفتوحة وباللام. فيقولون: أرسلت إليه أن يقوم، وأرسلت إليه ليقومنّ.

وكذلك قوله: ثُمَّ «5» بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ وهو فى القرآن كثير ألا ترى أنك لو قلت: بدا لهم أن يسجنوه كان صوابا.

وقوله: قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ (14) مخفوض «6» فى الإعراب تجعله صفة من صفات اللّه تبارك وتعالى. ولو نصبته على المدح كان صوابا، وهو معرفة. ولو نويت الفاطر الخالق نصبته على القطع

---

(1) والصحيح أن القرن مائة سنة، راجع ج 9 شرح القاموس.

(2) سقط ما بين القوسين فى ش، وثبت فى ج.

(3) أي «ليجمعنكم».

(4) آية 54 سورة الأنعام.

(5) آية 35 سورة يوسف.

(6) أي «فاطر».

إذ لم يكن فيه ألف ولام. ولو استأنفته فرفعته كان صوابا كما قال:

رَبِّ السَّماواتِ «1» وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ:

وقوله: وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ (18) كلّ شيء قهر شيئا فهو مستعل عليه.

وقوله: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ (19) يريد: ومن بلغه القرآن من بعدكم، و(بلغ) صلة ل (من). ونصبت (من) بالإنذار. وقوله: آلِهَةً أُخْرى ولم يقل: أخر لأن الآلهة جمع، (والجمع) «2» يقع عليه التأنيث كما قال اللّه تبارك وتعالى: وَلِلَّهِ «3» الْأَسْماءُ الْحُسْنى وقال اللّه تبارك وتعالى: فَما «4» بالُ الْقُرُونِ الْأُولى ولم يقل: الأول والأوّلين. وكلّ ذلك صواب.

وقوله: يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ (20) ذكر أنّ عمر بن الخطاب قال لعبد اللّه بن سلام: ما هذه المعرفة التي تعرفون بها محمدا صلى اللّه عليه وسلم؟ قال: واللّه لأنا به إذا رأيته أعرف منى بابني وهو يلعب مع الصبيان لأنى لا أشكّ فيه أنه محمد صلى اللّه عليه وسلم ولست أدرى ما صنع النساء فى الابن. فهذه المعرفة لصفته فى كتابهم.

وجاء التفسير فى قوله: خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يقال: ليس من مؤمن ولا كافر إلا له منزل فى الجنة وأهل وأزواج، فمن أسلم وسعد صار إلى منزله وأزواجه

---

(1) آية 37 سورة النبأ. وقراءة رفع «رب» و«الرحمن» عند نافع وابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر، وقراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب بجرّهما.

(2) سقط ما بين القوسين فى ج، وثبت فى ش.

(3) آية 180 سورة الأعراف. [. . . . . .]

(4) آية 51 سورة طه.

(ومن «1» كفر صار منزله وأزواجه) إلى من أسلم وسعد. فذلك قوله الَّذِينَ «2» يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ يقول: يرثون منازل الكفار، وهوقوله: الَّذِينَ «3» خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ.

وقوله: وَاللَّهِ رَبِّنا (23) تقرأ «4»: ربّنا وربّنا خفضا ونصبا. قال الفرّاء: وحدّثنى الحسن بن عيّاش «5» أخو أبى بكر بن عياش عن الأعمش عن الشعبىّ عن علقمة «6» أنه قرأ وَاللَّهِ رَبِّنا قال: معناه: واللّه يا ربّنا. فمن قال رَبِّنا جعله محلوفا به.

وقوله: وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ. . . (32)

جعلت الدار هاهنا اسما، وجعلت الآخرة من صفتها، وأضيفت فى غير هذا الموضع «7». ومثله ممّا يضاف إلى مثله فى المعنى قوله إِنَّ «8» هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ والحق هو اليقين كما أنّ الدار هى الآخرة. وكذلك أتيتك بارحة الأولى، والبارحة الأولى. ومنه: يوم الخميس، وليلة الخميس. يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه كما اختلف الحق

واليقين ، والدار [و«9»] الآخرة ، واليوم والخميس .

فإذا اتفقا لم تقل العرب : هذا حقّ الحقّ ، ولا يقين اليقين لأنهم يتوهمون إذا

---

(1) سقط ما بين القوسين فى ج ، وثبت فى ش .

(2) آية 11 سورة المؤمنون .

(3) آية 15 سورة الزمر ، 45 سورة الشورى .

(4) النصب قراءة حمزة والكسائىّ وخلف ، والجر قراءة الباقين .

(5) هو أبو محمد الكوفىّ . روى عن الأعمش وغيره . مات سنة 172 ه . وأخوه أبو بكر مات سنة 193

(6) هو علقمة بن قيس النخعىّ . مات سنة 62

(7) كما فى الآية 109 سورة يوسف . على أن ابن عامر قرأ هنا : «ولدار الاخرة» بالإضافة .

(8) آية 95 سورة الواقعة .

(9) سقطت الواو فى ش ، ج . وما أثبتناه هو المناسب للمقام .

اختلفا فى اللفظ أنهما مختلفان فى المعنى . ومثله فى قراءة عبد اللّه وذلك «1» الدين القيّمة وفى قراءتنا دِينُ الْقَيِّمَةِ والقيّم والقيّمة بمنزلة قولك : رجل راوية وهّابة للأموال ووهّاب وراو ، وشبهه .

وقوله : فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ (33) قرأها العامّة بالتشديد . قال : حدّثنا الفراء قال حدّثنى قيس بن الربيع الأسدىّ عن أبى إسحاق السبيعىّ «2» عن ناجية «3» بن كعب عن علىّ أنه قرأ «4» يُكَذِّبُونَكَ مخفّفة .

ومعنى التخفيف - واللّه أعلم - : لا يجعلونك كذّابا ، وإنما يريدون أن ما جئت به باطل لأنهم لم يجرّبوا عليه صلى اللّه عليه وسلم كذبا فيكذّبوه وإنما أكذبوه «5» أي ما جئت به كذب لا نعرفه . والتكذيب «6» : أن يقال : كذبت . واللّه أعلم .

وقوله : فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ . . . (35)

فافعل «7» ، مضمرة ، بذلك . جاء التفسير ، وذلك معناه . وإنما تفعله العرب فى كل موضع يعرف فيه معنى الجواب ألا ترى أنك تقول للرجل : إن استطعت أن تتصدق ، إن رأيت أن تقوم معنا ، بترك الجواب لمعرفتك بمعرفته به «8» . فإذا جاء

---

(1) آية 5 سورة البينة .

(2) هو عمرو بن عبد اللّه الهمدانىّ الكوفىّ . توفى سنة 127 ه .

(3) صحابىّ جليل. توفى فى أيام معاوية.

(4) وهى قراءة نافع والكسائىّ. [. . . . . .]

(5) كذا فى ج. وهو يوافق عبارة اللسان. وفى ش: «يكذبوه».

(6) حاصل هذا أن التكذيب: النسبة إلى الكذب. والإكذاب للرجل أن يجد كلامه باطلا، وإن لم يكن القائل كاذبا فيه عارفا بكذبه.

(7) هذا جواب الشرط المحذوف.

(8) ثبت فى ج، وسقط فى ش.

(184/222)

ما لا يعرف جوابه إلا بظهوره أظهرته كقولك للرجل: إن تقم تضب خيرا، لا بدّ فى هذا من جواب لأن معناه لا يعرف إذا طرح.

وقوله: وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ . . . (38)

(الطائر) مخفوض. ورفعه «1» جائز (كما «2» تقول: ما عندى من) رجل ولا امرأة، وامرأة من رفع قال: ما عندى من رجل ولا عندى امرأة. وكذلك قوله:

وَما «3» يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ ثم قال وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ، وَلا أَكْبَرَ، وَلا أَكْبَرَ إذا

نصبت (أصغر) فهو فى نيّة خفض ، ومن رفع ردّه على المعنى .

وأمّا قوله وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ فإنّ الطائر لا يطير إلا بجناحيه . وهو فى الكلام بمنزلة قوله (له «4» تسع وتسعون نعجة [ولى نعجة] أنثى) ، وكقولك للرجل : كلّمته بفىّ ، ومشيت إليه على رجلىّ ، إبلاغا فى الكلام .

يقال : إنّ كل صنف من البهائم أمّة ، والعرب تقول صنف [وصنف «5»] .

ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ حشرها : موتها ، ثم تحشر مع الناس فيقال لها : كونى ترابا . وعند ذلك يتمنّى الكافر أنه كان ترابا مثلها .

---

(1) وبه قرأ الحسن وعبد اللّه بن أبى إسحاق .

(2) سقط ما بين القوسين فى ج ، وثبت فى ش .

(3) آية 61 سورة يونس ، وآية 3 سورة سبأ ، والقراءة بالوجهين فى الآية الأولى . فقرأ حمزة ويعقوب وخلف بالرفع ، والباقون بالفتح . فأما فى آية سبأ فقد اتفق على الرفع إلا فى رواية عن المطوعى كما فى الإتحاف .

(4) آية 23 سورة ص . وهذه قراءة ابن مسعود كما فى البديع .

(5) زيادة يقتضيها السياق .

وقوله : قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ . . . (40)

العرب لها فى (أرأيت) لغتان ، ومعينان .

أحدهما أن يسأل الرجل الرجل : أرأيت زيدا بعينك ؟ فهذه مهموزة . فإذا أوقعتها على الرجل منه قلت : أرأيتك على غير هذه الحال ؟ تريد : هل رأيت نفسك على غير هذه الحال . ثم «1» تثنّى وتجمع ، فتقول للرجلين : أرايتما كما ، وللقوم : أرأيتموكم ، وللنسوة : أرأيتنّكنّ «2» ، وللمرأة : أرأيتك ، تخفض التاء والكاف ، لا يجوز إلا ذلك .

والمعنى الآخر أن تقول : أرأيتك ، وأنت تريد : أخبرنى (وتهمزها) «3» وتنصب التاء منها وتترك الهمز إن شئت ، وهو أكثر كلام العرب ، وتترك التاء موحّدة مفتوحة للواحد والواحدة [والجميع «4» فى] مؤنّثه ومذكّره . فتقول للمرأة : أرايتك زيدا هل خرج ، وللنسوة : أرايتكنّ زيدا ما فعل . وإنما تركت العرب التاء واحدة لأنهم لم يريدوا أن يكون الفعل منها واقعا على نفسها ، فاكتفوا بذكرها فى الكاف ، ووجّهوا التاء إلى المذكّر والتوحيد إذ لم يكن الفعل واقعا . وموضع الكاف نصب وتأويله رفع كما أنك إذا قلت للرجل : دونك زيدا وجدت الكاف فى اللفظ خفضا وفى المعنى رفعا لأنها مأمورة .

والعرب إذا أوقعت فعل شىء على نفسه قد كنى فيه عن الاسم قالوا فى الأفعال التامّة

غير ما يقولون فى الناقصة . فيقال للرجل : قتلت نفسك ، وأحسنت إلى نفسِك ، ولا يقولون: قتلتَكَ ولا أحسنتَ إليك .

---

(1) سقط هذا الحرف فى ش ، وثبت فى ج .

(2) رسم فى اللسان (رأى) : «أرأتن كن» وظاهر أن «أرأتن» تحريف عن «أ رأيتن» .

(3) فى عبارة اللسان : «فتهمزها» .

(4) ثبت ما بين الجاصرين فى عبارة اللسان ، و

(4) هو عامر بن الحارث النميرىّ عند صاحب القاموس تبعا للصاغانىّ . وعند الجوهرى : المستورد .

وقد لقب جران العود لهذا الشعر . والعود : البعير المسنّ وجرانه مقدّم عنقه . كان له امرأتان لا ترضيانه ، فاتخذ من جران العود سوطا قدّه من جران عود نحره ، وهو أصلب ما يكون . فقوله : «يا جارتى» يريد زوجتيه .

(5) كذا فى ج . وفى ش : «لولاك» .

(6) آية 10 سورة المنافقين .

كذلك قال الله تبارك وتعالى ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ فى كثير من القرآن ؛ كقوله ﴿ وما ظلمناهم ولكِن ظلموا أنفسهم ﴾ فإذا كان العفل ناقصا – مثل حسبت وظننت – قالوا : أَظُنُّنى خارجا ، وأَحسِبنى خارجا ، ومتى تراك خارجا . ولم يقولوا : متى ترى نفسك ، ولا متى تظنّ نفسك . وذلك أنهم أرادوا أن يفرُقوا بين الفعل الذى قد يُلْغى ، وبين الفعل الذى لا يجوز إلغاؤه ؛ ألا ترى أنك تقول: أنا – أظنّ – خارج ، فتبطل (أظنّ) ويعمل فى الاسم فعله . وقد قال الله تبارك وتعالى ﴿ إن الإِنسان ليطغى . أَن رآه استغنى ﴾ ولم يقل: رأى نفسه . وربما جاء فى الشعر: ضربتَكَ أو شبهُ من التّامّ . من ذلك قول الشاعر:

خُذَا حَذراً يا جارتىَّ فإننى * رأيتُ جِرَان العَوْدِ قد كاد يُصْلح

لقد كان لى فى ضَرّتين عدِمتُنى * وما كنت أَلْقَى من رزينة أَبرحُ

والعربِ يقولون: عدِمتِنى ، ووجدتُنى ، وفقدتُنى ، وليس بوجه الكلام .

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَاكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ . . . ﴾

معنى (فلولا) فهلاَّ . ويكون معناها على معنى لولا ؛ كأنك قلت: لولا عبد الله لضربتك . فإذا رأيت بعدها اسما واحدا مرفوعا فهو بمعنى لولا التى جوابها اللام ؛ وإذا لم تر بعدها

اسما فهى استفهام ؛ كقوله: ﴿ لولا أَخَّرْتَنِى إلى أَجلٍ قريب [فأصدّق وأَكُن مِنَ الصالِحِين] ﴾

(187/222)

وكقوله : فَلَوْلا «1» إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ [تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ] وكذلك (لوما) فيها ما فى لولا : الاستفهام والخبر .

وقوله : فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ (44) يعنى أبواب الرزق والمطر وهو «2» الخير فى الدنيا لنفتنهم فيه . وهو مثل قوله :

حَتَّى «3» إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً ومثله وَأَنْ «4» لَو اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ

والطريقة طريقة «5» الشرك أي لو استمرّوا عليها فعلنا ذلك بهم .

وقوله : فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ المبلس : اليائس المنقطع رجاؤه . ولذلك قيل للذى يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب : قد أبلس وقد قال الراجز «6» :

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قال نعم أعرفه ، وأبلسا

أي لم يحر إلىّ جوابا .

وقوله : يَأْتِيكُمْ بِهِ (46) كناية عن ذهاب «7» السمع والبصر والختم على الأفئدة . وإذا كنيت عن الأفاعيل وإن كثرت وحّدت الكناية كقولك للرجل : إقبالك وإدبارك يؤذينى . وقد يقال : إن الهاء التي فى «8» بِهِ كناية عن الهدى ، وهو كالوجه الأوّل .

---

(1) آيتا 76 ، 77 سورة الواقعة .

(2) ثبت فى ج ، وسقط فى ش .

(3) آية 24 سورة يونس .

(4) آيتا 16 ، 17 سورة الجنّ

(5) هذا أحد وجهين فى تفسير الطريقة .

والوجه الآخر أنها طريقة الهدى والإسلام . والنعمة والخير يكونان للكافر استدراجا ، وللمؤمن ابتلاه .

(6) هو العجاج . و«مكرسا» أي فيه الكرس - بكسر فسكون - أي أبوال الإبل وأبعارها يتلبد بعضها على بعض فى الدار .

(7) هذا تسمح فى التعبير ، والمراد : كناية عن السمع والبصر الذاهبين والأفئدة المختوم عليها .

(8) كذا فى ج . وفى ش : «به» .

وقوله : وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ (51) يقول : يخافون أن يحشروا إلى ربهم علما بأنه سيكون . ولذلك «1» فسّر المفسرون يَخافُونَ : يعلمون .

وقوله : وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ (52) يقول القائل : وكيف يطرد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من يدعو ربه حتى ينهى عن ذلك ؟ فإنه بلغنا أن عيينة بن حصن الفزاريّ دخل على النبيّ صلى اللّه عليه وسلم وعنده سلمان وبلال وصهيب وأشباههم ، فقال عيينة : يا رسول اللّه لو نحيّت هؤلاء عنك لأتاك أشراف قومك فأسلموا . فأنزل اللّه تبارك وتعالى : وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ .

وقوله : كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ (54) تكسر الألف من (أنّ) والتي بعدها «2» فى جوابها على الائتناف ، وهى قراءة «3» القرّاء «4» .

وإن شئت فتحت الألف من (أنّ) تريد : كتب ربكم على نفسه أنه من عمل .

ولك فى (أنّ) التي بعد الفاء الكسر والفتح . فأمّا من «5» فتح فإنه يقول : إنما يحتاج الكتاب إلى (أنّ) مرة واحدة ولكن الخبر هو موضعها ، فلما دخلت فى ابتداء

---

(1) كذا فى ش . وفى ج : «ذلك» . [. . . . .]

(2) ثبت هذا الحرف فى ج، وسقط فى ش.

(3) كذا فى ج. وفى ش: «فى قراءة».

(4) الكسر فى إنّ الأولى وإنّ الثانية قراءة ابن كثير وأبى عمرو وحمزة والكسائىّ.

(5) الفتح فى الموضعين قراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب.

(189/222)

الكلام أعيدت إلى موضعها كما قال: أَيَعِدُكُمْ «1» أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ فلمّا كان موقع أنّ: أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم دخلت فى أوّل الكلام وآخره. ومثله: كُتِبَ «2» عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ بالفتح. ومثله: أَلَمْ «3» يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ ولك أن تكسر «4» (إن) التي بعد الفاء فى هؤلاء الحروف على الاستئناف ألا ترى أنك قد تراه حسنا أن تقول: «كتب أنه من تولاه فهو يضله» بالفتح. وكذلك «وأصلح فهو غفور رحيم» لو كان لكان صوابا. فإذا حسن دخول (هو) حسن الكسر.

وقوله: وليستبين سبيل المجرمين (55) ترفع (السبيل) بقوله: (وليستبين) لأنّ «5» الفعل له. ومن «6» أنّث السبيل قال:

وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ. وقد يجعل «7» الفعل للنبىّ صلى اللّه عليه وسلم فتنصب «8» السبيل، يراد به: ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين.

وقوله: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يقض الحقّ (57) كتبت بطرح الياء لاستقبالها الألف واللام كما كتب سَنَدْعُ «9» الزَّبَانِيَةَ بغير واو، وكما كتب فَما «10» تُغْنِ النُّذُرُ بغير ياء على اللفظ. فهذه قراءة أصحاب «11»

---

(1) آية 35 سورة المؤمنون.

(2) آية 4 سورة الحج.

(3) آية 63 سورة التوبة.

(4) فتح الأولى وكسر الثانية قراءة نافع وأبى جعفر.

(5) وهذه القراءة بالياء فى الفعل ورفع السبيل قراءة أبى بكر وحمزة والكسائىّ وخلف.

(6) وهذه قراءة ابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وحفص.

(7) كذا فى ش. وفى ج: «جعل».

(8) وهذه قراءة نافع وأبى جعفر.

(9) آية 18 سورة العلق.

(10) آية 5 سورة القمر. [.....]

(11) وهى قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائىّ، فهى قراءة سبعية.

عبد اللّه . وذكر عن علىّ «1» أنه قال : (يَقُصُّ الْحَقَّ) بالصاد . قال حدّثنا الفرّاء قال : وحدّثنى سفيان «2» بن عيينة عن عمرو «3» بن دينار عن رجل عن ابن عباس أنه قرأ (يقضى بالحق) قال الفرّاء : وكذلك هى فى قراءة عبد اللّه .

وقوله : وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ (59) يجوز رفعها .

وقوله : قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً (63) يقال : خفية وخفية . وفيها لغة بالواو ، - ولا تصلح فى القراءة - : خفوة وخفوة كما قيل : قد حلّ حبوته وحبوته وحبيته .

وقوله : لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ (63) قراءة أهل الكوفة ، - وكذلك هى فى مصاحفهم - «أن «4» ج ى ن ألف» وبعضهم «5» بالألف (أنجانا) وقراءة الناس (أنجيتنا) بالتاء .

وقوله : قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ (65) كما فعل بقوم نوح : المطر والحجارة والطوفان أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ : الخسف أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً : يخلطكم شيعا ذوى أهواء .

---

(1) وهى قراءة نافع وابن كثير وعاصم .

(2) كانت وفاته سنة 198

(3) هو أبو محمد المكيّ. توفى سنة 116

(4) رسمها هكذا، يريد أنجانا بألف بعد الجيم ممالة، فرسمها ياء للدلالة على إمالتها.

وهذه قراءة حمزة والكسائي وخلف.

(5) أي بعض أهل الكوفة وهو عاصم.

(191/222)

وقوله: وَلَكِنْ ذِكْرى (69) فى موضع نصب أو رفع النصب بفعل مضمر (ولكن) نذكرهم (ذكرى) والرفع على قوله (ولكن) هو (ذكرى).

وقوله: وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً . . . (70)

يقال: ليس من قوم إلّا ولهم عيد فهم يلهون فى أعيادهم، إلا أمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم فإن أعيادهم برّ وصلاة وتكبير وخير.

وقوله: وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ أي ترتهن «1» (والعرب «2» تقول: هذا عليك بسل أي حرام. ولذلك قيل: أسد باسل أي لا يقرب) والعرب تقول: أعط الراقي بسلته، وهو أجر الرقية.

وقوله : يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا . . . (71)

كان أبو بكر الصدّيق وامرأته يدعوان عبد الرحمن ابنهما إلى الإسلام . فهوقوله : إِلَى الْهُدَى ائْتِنا أي أطعنا ، ولو كانت «إلى الهدى أن ائتنا» لكان صوابا كما قال : إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ «3» فى كثير من أشباهه ، يجىء بأن ، ويطرحها .

وقوله : وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ . . . (72)

مردودة على اللام التي فى قوله : وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ والعرب تقول : أمرتك لتذهب (وأن «4» تذهب) فأن فى موضع نصب بالردّ على الأمر . ومثله فى القرآن كثير .

---

(1) فى ش ، ج : «يرتهن» .

(2) ثبت ما بين القوسين فى ج ، وسقط فى ش .

(3) آية 1 سورة نوح .

(4) ثبت ما بين القوسين فى ش ، وسقط فى ج .

وقوله : كُنْ فَيَكُونُ . . . (73)

يقال إنّ قوله : فَيَكُونُ للصّور خاصّة ، أي يوم يقول للصّور : كُنْ فَيَكُونُ .

ويقال إن قوله : كُنْ فَيَكُونُ لقوله «1» هو الحقّ من نعت القول ، ثم تجعل فعله يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ يريد : يكون قوله الحقّ يومئذ . وقد يكون أن تقول :

وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ لكل شيء فتكون كلمة مكتفية وترفع القول بالحقّ ، وتنصب (اليوم) لأنه محل لقوله الحقّ .

والعرب تقول : نفخ فى الصور ونفخ ، وفى قراءة عبد اللّه : كهيئة الطير فأنفخها فتكون طيرا بإذنى «2» وقال الشاعر :

لولا ابن جعدة لم يفتح قهندزكم ولا خراسان حتى ينفخ الصور «3»

ويقال : إن الصور قرن ، ويقال : هو جمع للصور «4» ينفخ فى الصور فى الموتى .

واللّه أعلم بصواب ذلك .

وقوله : وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ . . . (74)

يقال : آزر فى موضع خفض ولا يجرى لأنه أعجمىّ . وقد أجمع أهل النسب على أنه ابن تارح ، فكأن آزر لقب له . وقد بلغني أن معنى (آزر) فى كلامهم معوّج ، كأنه عابه بزيغه وبعوجه عن الحقّ . وقد قرأ بعضهم «5» لِأَبِيهِ آزَرَ بالرفع على النداء (يا) وهو وجه حسن . وقوله : أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً نصبت الأصنام بإيقاع الفعل عليها ، وكذلك الآلهة .

---

(1) يريد أن «قوله» فاعل «يكون» . و«الحق» نعمت القول . وقوله : «هو» المناسب : «و» .

(2) هذا فى الآية 110 سورة المائدة.

(3) القهندز كلمة أعجمية معناها الحصن أو القلعة فى وسط المدينة. وهو اسم لأربعة مواضع.

(4) كذا. والمراد أنه جمع مرادف للصور - بضم الصاد وفتح الواو - فى أنه جمع صورة. وقد يكون الأصل: «للصورة». [.....]

(5) هو يعقوب.

(193/222)

وقوله: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ... (76)

يقال: جنّ عليه الليل، وأجنّ، وأجنّه الليل وجنّه الليل وبالألف «1» أجود إذا ألقيت (على) وهى أكثر من جنّه الليل.

يقال فى قوله: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي قولان: إنما قال: هذا ربّى استدراجا للحجّة على قومه ليعيب «2» آلهتهم أنها ليست بشىء، وأن الكوكب والقمر والشمس أكبر منها ولسن بآلهة ويقال: إنه قاله على الوجه «3» الآخر كما قال اللّه تبارك وتعالى لمحمد صلى اللّه عليه وسلم: أَلَمْ «4» يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى

واحتجوا ها هنا بقول إبراهيم : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ .

وقوله : وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ (83) وذلك أنهم قالوا له : أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لسبّك إياها ؟ فقال لهم :

أفلا تخافون أنتم ذلك منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير والذكر والأنثى أن يغضب الكبير إذ سوّيتم به الصغير . ثم قال لهم : أمن يعبد إلها واحدا أحقّ أن يأمن أم من يعبد آلهة شتّى ؟ قالوا : من يعبد إلها واحدا ، فغضبوا على أنفسهم . فذلك قوله : وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ .

---

(1) سقط حرف العطف فى ش ، وثبت فى ج .

(2) كذا فى ج . وفى ش : «يعيب» .

(3) يريد أن إبراهيم كان يعتقد ما ذكره أولا ، يقولون : كان هذا فى صغره حيث لا يكون كفر ولا إيمان .

(4) آيتا 6 ، 7 سورة الضحى .

وقوله : وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ . . . (84)

هذه الهاء لنوح : و(هدينا) من ذرّيته داود وسليمان . ولو رفع داود وسليمان على هذا المعنى إذ لم يظهر الفعل كان صوابا كما تقول : أخذت صدقاتهم لكل مائة (شاة «1» شاة) وشاة .

وقوله : وَالْيَسَعَ . . . (86)

يشدّد «2» أصحاب عبد اللّه اللام ، وهى أشبه بأسماء العجم من الذين «3» يقولون وَالْيَسَعَ لا تكاد العرب تدخل الألف واللام فيما لا يجرى مثل يزيد ويعمر إلا فى شعر أنشد بعضهم :

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا شديدا بأحناء الخلافة كاهله «4»

وإنّما أدخل فى يزيد الألف واللام لمّا أدخلها فى الوليد . والعرب إذا فعلت ذلك فقد أمسّت الحرف مدحا .

وقوله : فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ . . . (89)

يعنى أهل مكّة فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً يعنى أهل المدينة لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ بالآية «5» .

---

(1) سقط ما بين القوسين فى ج ، وثبت فى ش .

(2) هؤلاء عندهم تشديد اللام مفتوحة وسكون الياء . وهى قراءة حمزة والكسائي وخلف .

(3) هم أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم.

(4) من قصيدة لابن ميادة الرماح بن أبرد. والوليد بن يزيد هو الخليفة الأمويّ وقد قتل سنة 126 وقوله: «بأحناء الخلافة» فالأحناء جمع الحنو وهو الجهة، والجانب. ويروى: «بأعباء الخلافة».

(5) كذا في ج، وفي ش: «بالأمة».

(195/222)

وقوله: وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (91) ما عظّموه حقّ تعظيمه. وقوله تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ يقول: كيف قلتم: لم ينزل اللّه على بشر من شيء وقد أنزلت التوراة على موسى تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ والقرطاس «1» في هذا الموضع صحيفة. وكذلك قوله: وَلَوْ «2» نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ يعني: في صحيفة.

تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً يقول: تبدون ما تحبون، وتكتمون صفة محمد صلى اللّه عليه وسلم.

وقوله: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ أمر محمد صلى اللّه عليه وسلم أن يقول قُلِ اللَّهُ أي: أنزله اللّه عليكم. وإن شئت قلت: قل (هو) اللّه.

وقد يكون قوله قُلِ اللَّهُ جوابا لقوله : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى ، قُلِ اللَّهُ أنزله .

وإنما اخترت رفع اللَّهَ بغير الجواب لأن اللّه تبارك وتعالى الذي أمر محمدا صلى اللّه عليه وسلم أن يسألهم : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ وليست بمسألة منهم فيجابوا ، ولكنه جاز لأنه استفهام ، والاستفهام يكون له جواب .

وقوله : ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ لو كانت جزما لكان صوابا كما قال ذَرْهُمْ «3» يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا .

---

(1) كذا فى ج ، وفى ش : «القراطيس» .

(2) آية 7 سورة الأنعام .

(3) آية 3 سورة الحجر .

وقوله : وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى . . . (92)

يقال فى التفسير : إنّ «1» أمّ القرى مكّة .

وقوله : وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ الهاء تكون لمحمد صلى اللّه عليه وسلم وللتنزيل .

وقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً . . . (93)

يقال : إنها نزلت فى مسيلمة الكذّاب ، وذلك أنه ادّعى النبوة .

وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ ومن فى موضع خفض . يريد : ومن أظلم من هذا ومن هذا الذي قال : سأنزل مثل ما أنزل اللّه . نزلت فى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح .

وذلك أنه كان يكتب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فإذا قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ كتب سَمِيعٌ عَلِيمٌ أو عَزِيزٌ حَكِيمٌ فيقول له النبي صلى اللّه عليه وسلم : سواء حتى أملّ عليه قوله : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ «2» إلى قوله : ثُمَّ «3» أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فقال ابن أبى سرح فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ تعجّبا من تفصيل خلق الإنسان ، قال فقال له النبىّ صلى اللّه عليه وسلم : هكذا أنزلت علىّ ، فشكّ وارتدّ . وقال : لئن كان محمد صلى اللّه عليه وسلم صادقا لقد أوحى إلىّ (كما «4» أوحى إليه) ولئن كان كاذبا لقد قلت مثل ما قال ، فأنزل اللّه تبارك وتعالى فيه : وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ .

---

(1) ثبت هذا الحرف فى ج ، وسقط فى ش . [. . . . .]

(2) آية 12 سورة المؤمنون .

(3) آية 14 سورة المؤمنون .

(4) سقط ما بين القوسين فى ش ، وثبت فى ج .

وقوله : وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ ويقال : باسطو أيديهم بإخراج أنفس الكفار . وهو مثل قوله : يَضْرِبُونَ «1» وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ولو كانت (باسطون) كانت (أيديهم) ولو كانت «باسطو أيديهم أن أخرجوا» كان صوابا . ومثله مما تركت فيه أن قوله : يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا وإذا طرحت من مثل هذا الكلام (أن) ففيه القول مضمر كقوله : وَلَوْ «2» تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يقولون : رَبَّنا .

وقوله : وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى . . . (94)

وهو جمع . والعرب تقول : [قوم «3»] فرادى وفراد يا هذا فلا يجرونها ، شبهت بثلاث ورباع . وفرادى واحدها فرد ، وفرد ، وفريد وفراد «4» للجمع ، ولا يجوز فرد فى هذا المعنى . وأنشدنى بعضهم :

ترى النعرات الزرق تحت لبانه فراد ومثنى أصعقتها صواهله «5»

وقوله : لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ . . . (94)

قرأ حمزة ومجاهد بَيْنَكُمْ يريد وصلكم . وفى قراءة عبد اللّه لقد تقطع ما بينكم وهو وجه الكلام . إذا جعل الفعل لبين ترك نصبا كما قالوا : أتانى دونك من الرجال فترك نصبا وهو

فى موضع رفع لأنه صفة. وإذا قالوا: هذا

---

(1) آية 50 سورة الأنفال.

(2) آية 12 سورة السجدة.

(3) زيادة من اللسان فى عبارة الفرّاء (فرد)

(4) كذا فى ج. وفى ش: «فردان» وهو يوافق عبارة اللسان. وكأن الصواب ما أثبت. يريد أن (فراد) تأتى فى التكرير عند الجمع، وليس كذلك فرد.

(5) «فراد» كذا فى اللسان، وهو المناسب. وفى ش، ج: «فرادى». وتقدّم البيت.

(198/222)

دون من الرجال رفعوه فى موضع الرفع. وكذلك تقول: بين الرجلين بين بعيد، وبون بعيد إذا أفردته أجريته «1» فى العربية وأعطيته الإعراب.

وقوله: فالِقُ الْإِصْباحِ... (96)

والإصباح مصدر أصبحنا إصباحا، والأصباح «2» صبح كل يوم بمجموع.

وقوله: وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً الليل فى موضع نصب فى المعنى.

فردّ الشمس والقمر على معناه لما فرق بينهما بقوله: سَكَناً فإذا لم تفرق بينهما بشىء آثروا

الخفض . وقد يجوز أن ينصب وإن لم يحل بينهما بشيء أنشد بعضهم :

وبينا نحن ننظره أتانا معلّق شكوة وزناد راع «3»

وتقول : أنت أخذ حقّك وحقّ غيرك فتضيف فى الثاني وقد نوّنت فى الأوّل لأن المعنى فى قولك : أنت ضارب زيدا وضارب زيد سواء . وأحسن ذلك أن تحول بينهما بشيء كما قال امرؤ القيس :

فظلّ طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قدير معجّل «4»

فنصب الصفيف وخفض القدير على ما قلت لك .

---

(1) ثبت فى ج ، وسقط فى ش .

(2) وقد قرأ بهذا الحسن وعيسى بن عمر .

(3) نسبه سيبويه فى الكتاب 1/ 87 إلى رجل من قيس عيلان . وقوله : «ننظره» أي ننتظره .

والشكوة وعاء كالدلو أو كالقربة الصغيرة أو وعاء من أدم يبرد فيه الماء . وفى رواية «وفضة» فى مكان (شكوة) وهى خريطة كالجعبة من الجلد يحمل فيها الراعي متاعه وزاده .

(4) هذا من معلقته . يصف صيده وما فعل به . والصفيف : اللحم يشرح ، أو هو الذي يغلى إغلاءة ثم يرفع ، أو هو ما صف على الجمر ليشوى . والقدير : ما يطبخ فى القدر .

وقوله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ . . . (98)

يعنى فى الرحم «1» وَمُسْتَوْدَعٌ فى صلب الرجل . ويقرأ «2» فَمُسْتَقَرٌّ يعنى الولد فى الرحم وَمُسْتَوْدَعٌ فى صلب الرجل . ورفعها على إضمار الصفة كقولك : رأيت الرجلين عاقل وأحمق ، يريد منهما كذا وكذا .

وقوله : فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ . . . (99)

يقول : رزق كل شىء ، يريد ما ينبت ويصلح غذاء لكل شىء . وكذا جاء التفسير ، وهو وجه الكلام . وقد يجوز فى العربية أن تضيف النبات إلى كل شىء وأنت تريد بكل شىء النبات أيضا ، فيكون مثل قوله : إِنَّ «3» هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ واليقين هو الحقّ . وقوله : مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ الوجه الرفع فى القنوان لأن المعنى : ومن النخل قنوانه دانية . ولو نصب : وأخرج من النخل من طلعها قنوانا دانية لجاز فى الكلام ، ولا يقرأ بها لمكان الكتاب «4» .

وقوله : وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ نصب ، إلا أن جمع المؤنث بالتاء يخفض فى موضع النصب ، ولو رفعت «5» الجنات تتبع «6» القنوان كان صوابا .

وقوله : وَ«7» فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ الوجه فيه الرفع ، تجعلها تابعة للقطع .

ولو نصبتها وجعلتها تابعة للرواسى والأنهار كان صوابا .

---

(1) كذا فى ج. وفى ش : «الرجل» .

(2) وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو . [. . . . .]

(3) آية 95 سورة الواقعة .

(4) يريد الكتابة ورسم المصحف .

(5) قرأ به الأعمش ، ويروى عن عاصم .

(6) أي فى الإعراب لا فى حكمه «من النخل» . والتقدير : لهم جنات أو ثم جنات .

(7) آية 4 سورة الرعد .

وقوله : وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ يريد شجرة الزيتون وشجر الرمان ، كما قال :

وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ «1» يريد أهل القرية .

وقوله : انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ يقول : انظروا إليه أول ما يعقد (وينعه) : بلوغه وقد قرئت (وينعه «2» ، ويانعه «3») . فأما قوله : وَيَنْعِهِ فمثل نضجه ، ويانعه مثل ناضجه وبالغه .

وقوله : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ (100) إن «4» شئت جعلت الْجِنَّ تفسيرا للشركاء .

وإن شئت جعلت نصبه على :

جعلوا الجنّ شركاء للّه تبارك وتعالى .

وقوله : وَخَرَقُوا : واخترقوا وخلقوا واختلقوا ، يريد : افتروا .

وقوله : ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (102) يرفع خالِقُ على الابتداء «5» ، وعلى أن يكون خبرا . ولو نصبته إذ لم يكن فيه الألف واللام على القطع «6» كان صوابا ، وهو مثل قوله : غافِرِ «7» الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ . وكذلك : فاطِرِ «8» السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لو نصبته إذا كان قبله معرفة تامّة جاز ذلك لأنك قد تقول : الفاطر السموات ، الخالق كل شىء ،

---

(1) آية 82 سورة يوسف .

(2) وهى قراءة ابن محيصن وابن أبى إسحق .

(3) وهى قراءة محمد بن السميفع .

(4) كذا فى ج . وفى ش : «وإن شئت» .

(5) وخبره «ذلكم اللّه ربكم» وفى الطبري : «يقول - تعالى ذكره - ، الذي خلق كل شىء وهو بكل شى عليم هو اللّه ربكم» .

(6) يريد نصبه على الحال .

(7) آية 3 سورة غافر .

(8) آية 1 سورة فاطر .

(201/222)

القابل التوب ، الشديد العقاب . وقد يجوز أن تقول : مررت بعبد اللّه محدّث زيد ، تجعله معرفة وإن حسنت فيه الألف واللام إذا كان قد عرف بذلك ، فيكون مثل قولك : مررت بوحشيّ قاتل حمزة ، وبابن ملجم قاتل عليّ ، عرف به حتى صار كالاسم له .

وقوله : وَكَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ (105) يقولون : تعلمت من يهود . وفى قراءة عبد اللّه وليقولوا درس يعنون محمدا صلى اللّه عليه وسلم . وهو كما تقول فى الكلام : قالوا لى : أساء ، وقالوا لى : أسأت . ومثله : قُلْ «1» لِلَّذِينَ كَفَرُوا سيغلبون وسَتُغْلَبُونَ .

وقرأ بعضهم «2» (دارست) يريد : جادلت اليهود وجادلوك . وكذلك قال ابن عباس .

وقرأها مجاهد (دارست) وفسّرها : قرأت على اليهود وقرءوا عليك .

وقد قرئت «3» (درست) أي قرئت وتليت . وقرءوا (درست) وقرءوا (درست) يريد : تقادمت ، أي هذا الذي يتلوه علينا شىء قد تطاول ومرّبنا .

وقوله : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ (109) المقسمون الكفار . سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأتيهم بالآية التي نزلت فى الشعراء إِنْ «4» نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ

---

(1) آية 12 سورة آل عمران . وقراءة الياء (سيغلبون) قراءة حمزة والكسائي وخلف . وقراءة التاء للباقين . وانظر ص 191 من هذا الجزء . [. . . . .]

(2) من هؤلاء أبو عمرو وابن كثير ، ووافقهما ابن محيصن واليزيدي .

(3) هى قراءة قتادة والحسن وزيد بن على .

(4) آية 4 .

والمراد بالآية فى هذه الآية آية كونية ظاهرة يكون العلم عنها ضروريا . والظاهر أن المراد هنا ما يقترحونه من الآيات ، وإن لم تكن ملجئة حتى تنسق مع ختام الآية . وجرى على ذلك البيضاوي .

(202/222)

فسألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن ينزلها وحلفوا ليؤمنن ، فقال المؤمنون :

يا رسول اللّه سل ربك ينزلها عليهم حتى يؤمنوا ، فأنزل اللّه تبارك وتعالى : قل للذين آمنوا :

وما يشعركم أنهم يؤمنون . فهذا وجه النصب فى أنّ وما يشعركم أنهم يؤمنون (و) نحن نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا ، وقرأ بعضهم :

(إنها) مكسور الألف (إذا جاءت) مستأنفة ، ويجعل قوله (وما يشعركم) كلاما مكتفيا .

وهى فى قراءة عبد اللّه : وما يشعركم «1» إذا جاءتهم أنهم لا يؤمنون .

و(لا) فى هذا الموضع «2» صلة كقوله : وَحَرامٌ «3» عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ : المعنى : حرام عليهم أن يرجعوا . ومثله : ما مَنَعَكَ «4» أَلَّا تَسْجُدَ معناه : أن تسجد .

وهى فى قراءة أبىّ : لعلها إذا جاءتهم لا يؤمنون وللعرب فى (لعلّ) لغة بأن يقولوا : ما أدرى أنك صاحبها ، يريدون : لعلك صاحبها ، ويقولون :

ما أدرى لو أنك صاحبها ، وهو وجه جيد أن تجعل (أنّ) فى موضع لعل .

وقوله : وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ (111) هذا أمر قد كانوا سألوه ، فقال اللّه تبارك وتعالى : لو فعلنا بهم ذلك لم يؤمنوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ .

وقوله : (قبلا) جمع قبيل . والقبيل : الكفيل . وإنما اخترت ها هنا أن يكون القبل فى معنى الكفالة لقولهم : أَوْ تَأْتِيَ «5» بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا يضمنون «6»

---

(1) كذا فى ش . وفى ج : «يشعرهم» . وهذه القراءة تؤيد قراءة الفتح فى «أنها» .

(2) أي على القراءة الأولى .

(3) آية 95 سورة الأنبياء .

(4) آية 12 سورة الأعراف.

(5) آية 92 سورة الإسراء.

(6) كذا في ج. وفي ش: «يمضون».

(203/222)

ذلك. وقد يكون (قبلا): من قبل وجوههم كما تقول: أتيتك قبلا ولم آتك دبرا. وقد يكون القبيل «1» جميعا للقبيلة كأنك قلت: أو تأتينا بالله والملائكة قبيلة قبيلة وجماعة جماعة. ولو قرئت «2» قبلا على معنى: معاينة كان صوابا، كما تقول: أنا لقيته قبلا.

وقوله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ (112) نصبت العدوّ والشياطين بقوله: جعلنا.

وقوله: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فإن إبليس - فيما ذكر - جعل فرقة من شياطينه مع الإنس، وفرقة مع الجنّ، فإذا التقى شيطان «3» الإنسيّ وشيطان الجنيّ «4» قال: أضللت صاحبي بكذا وكذا، فأضلل به صاحبك، ويقول «5» له (شيطان «6» الجنيّ) مثل ذلك. فهذا وحي بعضهم إلى بعض. قال الفرّاء: حدّثني بذلك حيان عن الكلبيّ عن أبي

صالح عن ابن عباس .

وقوله : وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113) الاقتراف : الكسب تقول العرب : خرج فلان يقترف «7» أهله .

وقوله : مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) من الشاكّين أنهم يعلمون أنه منزل من ربك .

---

(1) كذا في ج . وفي ش : «القبيلة» .

(2) هي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر .

(3) كذا في ج . وفي ش : «شياطين» .

(4) كذا في ج . وفي ش : «الجن» .

(5) في ش ، ج : «تقول» . [. . . . .]

(6) كذا في ج . وفي ش : «شياطين الجن» .

(7) في الأساس : «يقترف لعياله» . وفي اللسان : «يقترف لعياله» . وكأن الحرف سقط هنا توسعا ، والأصل : لأهله ، وإلا فالاقتراف يتعدى إلى المال .

وقوله : وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (116) فى أكل الميتة يُضِلُّوكَ لأن أكثرهم كانوا ضلّالا . وذلك أنهم قالوا للمسلمين : أتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربّكم ! فأنزلت هذه الآية وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ .

وقوله : هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ (117) (من) فى موضع «1» رفع كقوله : لِنَعْلَمَ «2» أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى إذا كانت (من) بعد العلم والنظر والدراية - مثل نظرت وعلمت ودريت - كانت فى مذهب أىّ . فإن كان بعدها فعل لها رفعتها به ، وإن كان بعدها فعل يقع عليها نصبتها «3» كقولك :

ما أدرى من قام ، ترفع (من) بقام ، وما أدرى من ضربت ، تنصبها بضربت .

وقوله : وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ (120) فأما ظاهره فالفجور والزنى ، وأما باطنه فالمخالّة : «4» أن تتخذ المرأة الخليل وأن يتخذها .

وقوله : وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ (121) يقول : أكلكم ما لم يذكر اسم اللّه عليه فسق أي كفر . وكنى عن الأكل ، كما قال :

فَزادَهُمْ «5» إِيماناً يريد : فزادهم قول الناس إيمانا .

---

(1) على أنه اسم استفهام ، فهو مبتدأ ، وخبره جملة «يضل» . وجملة المبتدأ والخبر فى محل نصب علق عنه العامل . وهذا مبنى على جواز عمل اسم التفضيل فى المفعول به . وهو مذهب كوفى .

والبصريون يأبونه ، ويجعلون «من» معمولا لفعل محذوف ، تقديره : «يعلم» .

(2) آية 12 سورة الكهف .

(3) كذا فى ش . وفى ج : «نصبها» .

(4) كذا فى ج . وفى ش : «فالمخالفة» .

(5) آية 173 سورة آل عمران . يريد أن الضمير فى قوله : «وإنه لفسق» . عائد على الأكل المفهوم من قوله : «ولا تأكلوا» كما فى آية آل عمران هذه ، فإن الضمير المستتر فى «فزادهم» يعود على القول المفهوم من قوله : «قال لهم الناس» .

(205/222)

وقوله : أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ (122) أي كان ضالّا فهديناه .

وقوله : نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ يعنى إيمانه .

وقوله : الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ (124) أي من عند اللّه ، كذلك قال المفسرون .

وهو فى العربية كما تقول : سيأتينى رزق عندك ، كقولك : سيأتينى الذي عند اللّه .

سيصيبهم «1» الصغار الذي عنده ، ولمحمد صلى اللّه عليه وسلم أن ينزله بهم . ولا يجوز فى العربية أن تقول : جئت عند زيد ، وأنت تريد : من عند زيد .

وقد يكون قوله : صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ أنهم اختاروا الكفر تعزّزا وأنفة من اتباع محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فجعل اللّه ذلك صغارا عنده .

وقوله : فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ (125) [من «2»] ومن فى موضع رفع بالهاء التي عادت : يخرج من بعضهما ، ومن أحدهما .

---

(1) فى ش ، ج : «الواحد» .

(2) كذا فى ج . وفى ش : «تقول» .

(3) وهى قراءة أبى بكر والنخعي .

(4) هى قراءة ابن كثير . ووافقه ابن محيصن . [. . . . .]

(5) كأنه يريد : فارق حيه أو رفقته .

(6) أي سادتهم وكبراؤهم الذين يستعاذ بهم .

(7) آية 19 سورة الرحمن .

(8) آية 22 سورة الرحمن .

وقوله : ذِلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ (131) إن شئت جعلت (ذلك) فى موضع نصب ، وجعلت (أن) مما يصلح فيه الخافض فإذا حذفته كانت نصبا . يريد : فعل ذلك أن لم يكن مهلك القرى .

وإن شئت جعلت (ذلك) رفعا على الاستئناف إن لم يظهر الفعل . ومثله : ذِلِكَ «1» بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وذِلِكَ «2» بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ . ومثله : ذِلِكَ «3» لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وذِلِكُمْ «4» وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ الرفع والنصب فيه كله جائز .

وقوله : مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ يقول : لم يكن ليهلكهم بظلمهم وهم غافلون لمّا يأتهم رسول ولا حجّة . وقوله فى هود : وَما «5» كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ يقول : لم يكن ليهلكهم بظلمهم ، يقول : بشركهم (وأهلها مصلحون) يتعاطون الحقّ فيما بينهم . هكذا جاء التفسير . وفيها وجه – وهو أحبّ إلىّ من ذا لأن الشرك أعظم الذنوب – والمعنى والله أعلم : لم يكن ليهلكهم بظلم منه وهم مصلحون .

وقوله : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ (135) (من «6» تكون له) فى موضع «7» رفع ، ولو نصبتها «8» كان صوابا كما قال الله تبارك وتعالى : وَاللَّهُ «9» يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ .

---

(1) آية 10 سورة الحج .

(2) آية 182 سورة آل عمران .

(3) آية 52 سورة يوسف.

(4) آية 18 سورة الأنفال.

(5) آية 117.

(6) ثبت فى ج. وسقط فى ش.

(7) على أنه اسم استفهام مبتدأ. والفعل معلق.

(8) على أنه اسم موصول.

(9) آية 220 سورة البقرة.

(207/222)

وقوله: مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إذا «1» كان الفعل فى مذهب مصدر مؤنثا مثل العاقبة، والموعظة، والعافية، فإنك إذا قدّمت فعله قبله أنّثته وذكّرته كما قال اللّه عزّ وجلّ: فَمَنْ «2» جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ بالتذكير، وقال «3»: قَدْ «4» جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ بالتأنيث. وكذلك وَأَخَذَ «5» الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ وَأَخَذَتِ «6» فلا تهابنّ من هذا تذكيرا ولا تأنيثا.

وقوله: هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ (136) وبزعمهم، وزعمهم، ثلاث لغات. ولم يقرأ بكسر «7»

الزاى أحد نعلمه . والعرب قد تجعل الحرف فى مثل هذا فيقولون : الفتك «8» والفتك والفتك ، والودّ والودّ والودّ ، فى أشباه لها . وأجود ذلك ما اختارته القرّاء الذين يؤثر عنهم القراءة . وفى قراءة عبد اللّه «وهذا لشركائهم» وهو كما تقول فى الكلام : قال عبد اللّه : إنّ له مالا ، وإنّ لى مالا ، وهو يريد نفسه . وقد قال الشاعر :

رجلان من ضبّة أخبرانا إنا رأينا رجلا عريانا

ولو قال : أخبرانا أنهما رأيا كان صوابا .

---

(1) يذكر الوجه فى قراءتى «يكون» و«تكون» . والأولى قراءة حمزة والكسائي . والثانية قراءة الباقين . [. . . . .]

(2) آية 275 سورة البقرة .

(3) كذا فى ج . وسقط هذا الفعل فى ش .

(4) آية 57 سورة يونس .

(5) آية 67 سورة هود .

(6) آية 94 سورة هود .

(7) وإنما قرى بفتحها وضمها . والضمّ قراءة الكسائي ويحيى بن وثاب والسلمى والأعمش ، وهو لغة بنى أسد . والفتح قراءة الباقين ، وهو لغة أهل الحجاز .

(8) هو مصدر فتك إذا ركب ما هتم به من الأمور ودعت إليه نفسه. وفى ش، وج: «القتل» وهو تحريف.

(208/222)

وقوله: وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ (137) وهم قوم كانوا يخدمون آلهتهم، فزيّنوا لهم دفن البنات وهنّ أحياء. وكان أيضا أحدهم يقول: لئن ولد لى كذا وكذا من الذكور لأنحرنّ واحدا. فذلك قتل أولادهم. والشركاء رفع لأنهم الذين زيّنوا.

وكان بعضهم يقرأ: «وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم» فيرفع القتل إذا لم يسمّ فاعله، ويرفع (الشركاء «1») بفعل ينويه كأنه قال: زيّنه لهم شركاؤهم. ومثله قوله: يُسَبِّحُ «2» لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ ثم قال: رِجالٌ «3» لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ. وفى بعض «4» مصاحف أهل الشام (شركايهم) بالياء، فإن تكن مثبتة «5» عن الأوّلين فينبغى أن يقرأ (زيّن) وتكون الشركاء هم الأولاد لأنهم منهم فى النسب والميراث. فإن كانوا يقرءون (زيّن) فلست أعرف جهتها إلا أن يكونوا فيها آخذين بلغة قوم يقولون: أتيتها عشايا «6» ثم يقولون فى تثنية (الحمراء «7»):

حمرايان) فهذا وجه أن يكونوا قالوا : «زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم

---

(1) كذا في ج. وسقط في ش.

(2) آية 36 سورة النور. وفتح الباء في «يسبح» قراءة ابن عامر وأبي بكر عن عاصم.

(3) آية 37 سورة النور.

(4) وعليها قراءة ابن عامر.

(5) كذا في ج. وفي ش: «على».

(6) أي يبقون حرف العلة في الطرف بعد الألف الزائدة على أصله ولا يبدلونه همزة فيقولون بنيت بنايا لا بناء. وانظر في هذه اللغة اللسان (حمو). وهو يريد أنه اتباعا لهذه اللغة ولما ذكر بعد من قولهم في تثنية حمراء: حمرايان ينطق بالهمزة ياء. وعلى ذلك فالشركاء يقال فيها الشركاى. ويحمل على هذا ما في بعض مصاحف أهل الشام.

(7) في ش: «أحمر أحمريان» وما هنا عن ج. [.....]

شركايهم» وإن شئت جعلت (زيّن) إذا فتحته فعلا لإبليس ثم تخفض الشركاء بإتباع الأولاد. وليس قول «1» من قال: إنما أرادوا مثل قول الشاعر:

فزججتها متمكّنا زجّ القلوص أبى مزاده «2»

بشىء . وهذا مما كان يقوله نحويّو أهل الحجاز ، ولم نجد مثله فى العربية .

وقوله : وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا (139) وفى قراءة عبد اللّه «خالص لذكورنا» وتأنيثه لتأنيث الأنعام لأن ما فى بطونها مثلها فأنث لتأنيثها . ومن ذكّره فلتذكير (ما) وقد قرأ بعضهم «خالصه لذكورنا» يضيفه إلى الهاء وتكون الهاء لما . ولو نصبت الخالص «3» والخالصة «4» على القطع وجعلت خبر ما فى اللام التي فى قوله (لذكورنا) كأنك قلت : ما فى بطون هذه الأنعام لذكورنا خالصا وخالصة كما قال : «وله الدّين واصبا «5»» والنصب فى هذا الموضع قليل لا يكادون يقولون : عبد اللّه قائما فيها ، ولكنه قياس .

وقوله : وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ إن شئت رفعت «6» الميتة ، وإن شئت نصبتها «7» فقلت (ميتة) ولك أن تقول تكن «8» ويكن بالتاء والياء .

---

(1) قيل هذا فى توجيه قراءة ابن عامر ببناء «زين» للمفعول ، ورفع «قتل» ونصب «أولادهم» ، وجرّ «شركائهم» .

(2) قيل المراد : زججت الكتيبة أي دفعتها . والقلوص : الناقة الفتية ، وأبو مزادة كنية رجل .

(3 ، 4) قرأ بنصب الخالص «خالصا» ابن جبير ، وبنصب الخالصة «خالصة» ابن

عباس والأعرج وقتادة وابن جبير فى رواية ، كما فى البحر .

(5) آية 52 سورة النحل . وقد ترك جواب لو . وهو محذوف أي لساغ مثلا .

(6) هو قراءة ابن عامر .

(7) هى قراءة الباقين بعد ابن عامر وأبى جعفر .

(8) هى قراءة ابن عامر وأبى جعفر .

(210/222)

وقد تكون الخالصة مصدرا لتأنيثها كما تقول : العاقبة والعافية . وهو مثل قوله :

إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ «1» .

وقوله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ (141) هذه الكروم ، ثم قال : وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً فى لونه وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ فى طعمه ، منه حلو ومنه حامض .

وقوله : وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ هذا لمن حضره من اليتامى والمساكين .

وقوله : وَلا تُسْرِفُوا فى أن تعطوا كله . وذلك أن ثابت «2» بن قيس خلّى بين الناس وبين نخله ، فذهب «3» به كله ولم يبق لأهله منه شىء ، فقال اللّه تبارك وتعالى :

وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

وقوله : وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً (142) يقول : وأنشأ لكم من الأنعام حمولة ، يريد ما أطاق الحمل والعمل :

والفرش : الصغار . ثم قال :

وقوله : ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ (143) فإن شئت جعلت الثمانية مردودة على الحمولة . وإن شئت أضمرت لها فعلا «4» .

وقوله : ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ الذكر زوج ، والأنثى زوج ، ولو رفعت «5» اثنين واثنين

---

(1) آية 46 سورة ص .

(2) هو ثابت بن قيس بن شماس الأنصاريّ الخزرجيّ ، خطيب الأنصار ، قتل فى وقعة اليمامة .

(3) كذا فى ش . وفى ج : «قد ذهب» .

(4) أي أنشأ .

(5) وقد قرأ بذلك أبان بن عثمان .

لدخول (من) كان صوابا كما تقول : رأيت القوم منهم قاعد ومنهم قائم ، وقاعدا وقائما .

والمعنى فى قوله : قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ يقول : أجاء كم التحريم فيما حرمتم من السائبة والبحيرة والوصيلة والحام من الذكرين أم من الأنثيين ؟ فلو قالوا : من قبل الذكر حرم عليهم كل ذكر ، ولو قالوا : من قبل الأنثى حرمت عليهم كل أنثى .

ثم قال : أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ يقول أم حرّم عليكم اشتمال الرحم ؟ فلو قالوا ذلك لحرّم عليهم الذكر والأنثى لأن الرحم يشتمل على الذكر والأنثى . و(ما) فى قوله : «أمّا اشتملت» فى موضع نصب ، نصبته بإتباعه «1» الذكرين والأنثيين .

وقوله : أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا (144) يقول : أوصّاكم اللّه بهذا معاينة ؟

وقوله : قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً (145) ثم قال جلّ وجهه : إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً وإن شئت (تكون «2») وفى (الميتة) وجهان الرفع والنصب . ولا يصلح «3» الرفع فى القراءة لأنّ الدم منصوب بالردّ على الميتة وفيه ألف تمنع من جواز الرفع . ويجوز (أن تكون) لتأنيث الميتة ، ثم تردّ «4» ما بعدها عليها .

---

(1) أي عطفه على ما ذكر .

(2) وهى قراءة ابن عامر وأبى جعفر . [. . . . .]

(3) بل يصلح الرفع ، وقرأ به ابن عامر . وقوله : «أو دما» عطف على موضع «أن يكون» أي على المستثنى .

(4) كأنه يريد أنه يصح تأنيث (تكون) بالنظر إلى «ميتة» وإن عطف عليها «دما» المذكر ، وهذا كما تقول جاءت هند ومحمد .

(212/222)

ومن رفع (الميتة) جعل (يكون) فعلا لها ، اكتفى بيكون بلا فعل «1» . وكذلك (يكون) «2» فى كل الاستثناء لا تحتاج إلى فعل ، ألا ترى أنك تقول : ذهب الناس إلا أن يكون أخاك ، وأخوك . وإنما استغنت كان ويكون عن الفعل كما استغنى ما بعد إلا عن فعل يكون للاسم . فلما قيل : قام الناس إلا زيدا وإلا زيد فنصب بلا فعل ورفع بلا فعل صلحت كان تامة . ومن نصب : قال كان من عادة كان عند العرب مرفوع ومنصوب ، فأضمروا فى كان اسما مجهولا ، وصيّروا الذي بعده فعلا لذلك المجهول . وذلك جائز فى كان ، وليس ، ولم يزل ، وفى أظنّ وأخواتها : أن تقول (أظنه زيد أخوك «3» و) أظنّه فيها زيد . ويجوز فى إنّ وأخواتها كقول اللّه تبارك وتعالى : يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ «4» وكقوله : إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «5» فتذكّر الهاء وتوحّدها ، ولا يجوز تثنيتها ولا جمعها مع جمع ولا غيره . وتأنيثها مع المؤنث وتذكيرها مع المؤنث جائز فتقول : إنها ذاهبة جاريتك ، وإنه ذاهبة جاريتك .

فإن قلت : كيف جاز التأنيث مع الأنثى ، ولم تجز التثنية مع الاثنين ؟

قلت : لأن العرب إنما ذهبت إلى تأنيث الفعل وتذكيره ، فلما جاز وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ وَأَخَذَتِ جاز التأنيث ، والتذكير . ولما لم يجز :

قاما أخواك ولا قاموا قومك ، لم يجز تثنيتها ولا جمعها .

فإن قلت : أتجيز تثنيتها فى قول من قال : ذهبا أخواك ؟ قلت : لا ، من قبل أنّ الفعل واحد ، والألف التي فيها كأنها تدلّ على صاحبى الفعل ، والواو فى الجمع

---

(1) أي خبر . يريد : جعلها تامة .

(2) جعل (يكون) فى الآية استثناء ، وجعل ضميرها الضمير المجهول ، وهو ما يسمى ضمير الشأن . وهذا مذهب كوفى . والبصريون يجعلون الضمير فى «يكون» للمطعوم ، ونحوه مما يفهم من المقام .

(3) سقط ما بين القوسين فى ج .

(4) آية 16 سورة لقمان .

(5) آية 9 سورة النمل .

تدل على أصحاب الفعل ، فلم يستقم أن يكنى عن فعل واسم فى عقدة ، فالفعل واحد أبدا لأن الذي فيه من الزيادات أسماء .

وتقول فى مسألتين منه يستدلّ بهما على غيرهما : إنها أسد جاريتك ، فأنثت لأن الأسد فعل «1» للجارية ، ولو جعلت الجارية فعلا «2» للأسد ولمثله من المذكر لم يجز إلا تذكير الهاء . وكذلك كل اسم مذكّر شبهته بمؤنث فذكّر فيه الهاء ، وكل مؤنث شبهته بمذكر ففيه تذكير الهاء وتأنيثها فهذه واحدة . ومتى ما ذكّرت فعل مؤنث فقلت : قام جاريتك ، أو طال صلاتك ، (ثم «3» أدخلت عليه إنه) لم يجز إلا تذكيرها ، فتقول : إنه طال صلاتك فذكّرتها «4» لتذكير الفعل ، لا يجوز أن تؤنث وقد ذكّر الفعل .

وإذا رأيت الاسم مرفوعا بالمحالّ – مثل عندك ، وفوقك ، وفيها – فأنّث وذكّر فى المؤنث ولا تؤنث فى المذكر . وذلك أن الصفة لا يقدر فيها على التأنيث كما يقدر (فى «5» قام) جاريتك على أن تقول : قامت جاريتك . فلذلك كان فى الصفات الإجراء «6» على الأصل .

وإذا أخليت كان باسم واحد جاز أن ترفعه «7» وتجعل له الفعل . وإن شئت أضمرت فيه مجهولا ونصبت ما بعده فقلت : إذا كان غدا فأتنا . وتقول :

اذهب فليس «8» إلا أباك ، وأبوك . فمن رفع أضمر أحدا كأنه قال : ليس أحد

---

(1) أي خبر عنها . وذلك يجعل «جاريتك» مبتدأ مؤخرا ، و«أسد» خبر مقدّم .

(2) بأن تكون خبرا عن «أسد» ويكون القصد مسببية الأسد بالجارية.

(3) ثبت ما بين القوسين فى ش، وسقط فى ج.

(4) كذا فى ش. وفى ج: «ذكرتها».

(5) كذا فى ج. وفى ش: «مقام».

(6) كذا فى ج. وفى ش: «للإجراء».

(7) كذا فى ج. وفى ش: «تعرفه». [.....]

(8) سقط هذا الحرف فى ش.

(214/222)

إلا أبوك، ومن نصب أضمر الاسم المجهول فنصب لأن المجهول معرفة فلذلك نصبت. ومن قال: إذا كان غدوة فأتنا لم يجز له أن يقول: إذا غدوة كان فأتنا، كذلك الاسم المجهول لا يتقدمه منصوبه. وإذا قرنت بالنكرة فى كان صفة فقلت:

إن كان بينهم شرّ فلا تقربهم، رفعت. وإن بدأت بالشر وأخرت الصفة كان الوجه الرفع فقلت: إن كان شر بينهم فلا تقربهم، ويجوز النصب. قال وأنشدنى بعضهم:

فعينىّ هلّا تبكيان عفاقا إذا كان طعنا بينهم وعناقا «1»

فإذا أفردت النكرة بكان اعتدل النصب والرفع . وإذا أفردت المعرفة بكان كان الوجه النصب يقولون : لو كان إلا ظله لخاب ظله . فهذه على ما وصفت لك .

وقوله : وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما (146) حرّم عليهم الثّرب «2» ، وشحوم الكلى .

ثم قال : إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما و(ما) فى موضع نصب بالفعل بالاستثناء .

و(الحوايا) فى موضع رفع ، تردّها على الظهور : إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا ، وهى المباعر «3» وبنات «4» اللبن . والنصب على أن تريد (أو شحوم الحوايا) فتحذف الشحوم وتكتفى بالحوايا كما قال : وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ، يريد : واسأل أهل القرية .

وقوله : أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ وهى الألية . و(ما) فى موضع نصب .

---

(1) انظر ص 186 من هذا الجزء .

(2) هو الشحم الرقيق الذي يكون على الكرش .

(3) واحدها مبعر ومبعر بفتح الميم وكسرها . وهو حيث يجتمع البعر من الأمعاء .

(4) بنات اللبن : ما صغر من الأمعاء . وانظر اللسان (هو) .

وقوله : قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً (151) إن شئت جعلت (لا تشركوا) نهيا أدخلت عليه (أن) . وإن شئت جعلته خبرا و(تشركوا) فى موضع نصب كقولك : أمرتك أَلّا تذهب (نصب) إلى زيد ، وأن لا تذهب (جزم) وإن شئت جعلت ما نسقته على (أَلّا تشركوا به) بعضه جزما ونصبا بعضه كما قال : قُلْ «1» إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ ، فنصب أوله ونهى عن آخره كما قال الشاعر :

حجّ وأوصى بسليمى الأعبدا أَلّا ترى ولا تكلم أحدا

ولا تمشّ بفضاء بعدا فنوى الخبر فى أوّله ونهى فى آخره . قال : والجزم فى هذه الآية أحبّ إلىّ لقوله :

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ

. فجعلت أوّله نهيا لقوله : وَأَوْفُوا الْكَيْلَ

.

وقوله : وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً (153) تكسر «2» إنّ إذا نويت الاستئناف ، وتفتحها من وقوع (أتل) عليها . وإن شئت جعلتها خفضا ، تريد ذِلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ وأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ .

وقوله : وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ يعنى اليهودية والنصرانية . يقول : لا تتبعوها فتضلوا .

(1) آية 14 سورة الأنعام.

(2) وهى قراءة حمزة والكسائي وخلف.

(216/222)

وقوله: ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ (154) تماما على المحسن.

ويكون المحسن فى مذهب جمع كما قال: إِنَّ الْإِنْسانَ «1» لَفِي خُسْرٍ. وفى قراءة عبد اللّه تماما على الذين أحسنوا تصديقا لذلك.

وإن شئت جعلت (الذي) على معنى «2» (ما) تريد: تماما على ما أحسن موسى، فيكون المعنى: تماما على إحسانه. ويكون (أحسن) مرفوعا «3» تريد على الذي هو أحسن، وتنصب (أحسن) ها هنا تنوى بها «4» الخفض لأن العرب تقول:

مررت بالذي هو خير منك، وشرّ منك، ولا يقولون: مررت بالذي قائم لأن (خيرا منك) كالمعرفة إذ لم تدخل فيه الألف واللام. وكذلك يقولون: مررت بالذي أخيك، وبالذي مثلك، إذا جعلوا صلة الذي معرفة أو نكرة لا تدخلها الألف واللام جعلوها تابعة للذى أنشدنى الكسائىّ:

إن الزّبيرىّ الذي مثل الحلم مشّى بأسلابك فى أهل العلم «5»

وقوله : وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ (155) جعلت مباركا من نعت الكتاب فرفعته . ولو نصبته على الخروج «6» من الهاء فى (أنزلناه) كان صوابا .

---

(1) آية 2 سورة العصر .

(2) يريد أن تكون مصدرية .

(3) وبه قرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحق كما فى القرطبي .

(4) سقط فى ش . والخفض على أنه نعت للذى .

(5) الحلم واحده حلمة ، وهى الصغيرة من القردان أو دودة تقع فى الجلد فتأكله . يريد أن هذا الرجل الضعيف ابترك ثيابك وسلبك .

(6) يريد أن يكون حالا .

(217/222)

وقوله : أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ (156) (أن) فى موضع نصب من مكانين . أحدهما : أنزلناه لئلا تقولوا إنما أنزل . والآخر من قوله : واتقوا أن تقولوا ، (لا) يصلح فى موضع (أن) ها هنا كقوله : يُبَيِّنُ «1» اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا يصلح فيه لا تضلون كما قال : سَلَكْناهُ «2» فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لا يُؤْمِنُونَ بِهِ .

وقوله : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ (158) لقبض أرواحهم : أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ : القيامة أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ :

طلوع الشمس من مغربها .

وقوله : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ (159) قرأها عليّ «3» (فارقوا) ، وقال : والله ما فرّقوه ولكن فارقوه . وهم اليهود والنصارى . وقرأها الناس فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكلّ وجه .

وقوله : لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ يقول من قتالهم فى شىء ، ثم نسختها :

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «4» .

وقوله : فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها (160) من خفض يريد : فله عشر حسنات أمثالها . ولو قال هاهنا : فله عشر مثلها يريد عشر حسنات مثلها كان صوابا . ومن قال :

---

(1) آية 176 سورة النساء . [. . . . .]

(2) آيتا 200 ، 201 سورة الشعراء .

(3) وهى قراءة حمزة والكسائي .

(4) آية 5 سورة التوبة .

.

عشر أمثالها جعلهنّ من نعت العشر . و(مثل) يجوز توحيده : أن تقول فى مثله من الكلام : هم مثلكم ، وأمثالكم قال اللّه تبارك وتعالى : إِنَّكُمْ «1» إِذاً مِثْلُهُمْ فوحّد ، وقال : ثُمَّ «2» لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ فجمع . ولو قلت : عشر أمثالها «3» كما تقول «4» : عندى خمسة أثواب لجاز .

وقوله : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ : بلا إله إلا اللّه ، والسيئة : الشّرك .

وقوله : دِيناً قِيَماً (161) و«5» «قيّما» . حدّثنا «6» محمد قال حدّثنا الفراء قال حدّثنى عمرو بن أبى المقدام عن رجل عن عمران بن حذيفة قال : رآنى أبى حذيفة راكعا قد صوّبت رأسى ، قال ارفع رأسك ، دينا قيما . (دينا قيما) منصوب على المصدر .

وملّة إِبْراهِيمَ كذلك .

وقوله : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ (165) جعلت أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم خلائف كل الأمم وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ فى الرزق (ليبلوكم) بذلك (فيما آتاكم) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 1 صـ 328 . 367 ﴾

---

(1) آية 140 سورة النساء .

(2) آية 38 سورة محمد .

(3) أي بالرفع . وقد قرأ بذلك الحسن وسعيد بن جبير والأعمش .

(4) سقط في ج.

(5) الأولى قراءة الكوفيين وابن عامر . والثانية قراءة الباقين .

(6) هو محمد بن الجهم السمري راوى الكتاب .

(219/222)

وقال الأخفش :

سورة (الأنعام)

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

فأمّا قوله عز وجل ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ فـ ﴿ أَجَلٌ ﴾ على الابتداء وليس على ﴿ قَضَى ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾

[قال تعالى] ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ ﴾ ثم قال ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن

لَّكُمْ ﴾ كأنه أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ثم خاطبه معهم كما قال ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ فجاء بلفظ الغائب وهو يخاطب لأنه هو المخاطب .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

وقال: ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ فنصب لام ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ لأن معنى "كَتَبَ" كأنه قال "والله لَيَجْمَعَنَّكُمْ" ثم أبدل فقال ﴿ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: لَيَجْمَعَنَّ الذين خَسِرُوا أَنفُسَهُم .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[وقال] ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ على النعت . وقال بعضهم ﴿ فاطرُ ﴾ بالرفع على الابتداء أيْ: هُوَ فاطرُ .

(220/222)

وقال بعضهم ﴿ وهو يُطْعِمُ ولا يَطْعَم ﴾ وقال بعضهم ﴿ ولا يُطْعَمُ ﴾ و ﴿ يَطْعَمُ ﴾ هو الوجه ، لأَنَّكَ إنَّما تقول: "هُوَ يُطْعَمُ" لمن يَطْعَمُ فتخبر أَنَّهُ لا يأكل شيئًا . وإنّما تقرأ

﴿يُطْعَمُ﴾ لاجتماع الناس عليها .

وقال ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ﴾ أي: وقيل لي: "لا تَكُونَنَّ" .

وصارت ﴿أُمِرْتُ﴾ بَدَلاً من ذلك لأنه حين قال ﴿أُمِرْتُ﴾ قد أخبر أَنَّهُ قد قيل له .

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

وقال ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا﴾ على الصفة . وقال بعضهم ﴿رَبَّنَا﴾ على "يا ربنا [108] . وأمَّا ﴿والله﴾ فجره على القسم ، ولو لم تكن فيه الواو نصبت فقلت " اللهَ رَبَّنا " . ومنهم من يجر بغير واو لكثرة استعمال هذا الاسم وهذا في القياس رديء . وقد جاء مثله شاذا قولهم: [من الرجز وهو الشاهد التاسع والثمانون بعد المئة]:

* وَبَلَدٍ عامِيَّةٍ أَعْماؤُهُ *

[و] إِنَّما هُوَ: رُبَّ بَلَدٍ وقال: [من الوافر وهو الشاهد التسعون بعد المئة]

نَهَيْتُكَ عَنْ طِلابِكَ أُمَّ عَمْرٍو * بِعاقِبَةٍ وَأَنْتَ إِذٍ صَحِيحُ

يقول: "حِينَئِذٍ" فالقى "حينَ" وأَضمْرها . وصارت الواو عوضا من "رُبَّ" في "وَبَلَدٍ" .

وقد يضعون "بَلْ" في هذا الموضع . قال الشاعر: [من الرجز وهو الشاهد الحادي والتسعون بعد المئة]:

ما بالُ عَيْنٍ عَنْ كَراها قَدْ جَفَتْ * مُسْبِلَةً تَسْتَنُّ لَمّا عَرَفَتْ

دارًا لِلَيْلى بَعْدَ حَوْلٍ قَدْ عَفَتْ * بَلْ جَوْزِ تَيْهاءَ كَظَهْرِ الحَجَفَتْ

فيمن قال "طَلَحَتْ"

(221/222)

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

[و] قال: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ وواحد "الأَكِنَّةِ": الكِنان. و"الوَقْرُ" في الأُذُن [بالفتح]، و"الوِقْرُ" على الظهر بالكسر. وقال يونس: "سألتُ رؤبة" فقال: "وَقِرَتْ أُذُنُهُ" "تَوْقَرُ" اذا كان فيها "الوَقْر". وقال أبو زيد: "سمِعت العرب تقول: "أُذُنٌ مَوْقُورَةٌ" فهذا يقول: "وُقِرَتْ". قال الشاعر: [من الرمل وهو الشاهد الثاني والتسعون بعد المئة]:

وكَلامٍ سَيِّىءٍ قَدْ وُقِرَتْ * أُذُنِي مِنْهُ وَما بِي مِنْ صَمَمْ

[108 ب] وقال ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فبعضهم يزعم أنَّ واحدَه "أُسْطُورَة" وبعضهم "إِسّطارَة"، ولا أُراهُ إلاّ من الجمع الذي ليس له واحدٌ نحو: عَبادِيد" و"مَذاكِير"

و"أَبابِيل" . وقال بعضُهم: "واحد الأَبابيل" : إِبّيل ، وقال بعضهم: "إِبَّوْل" مثل: "عِجَّوْل" ولم أجد العرب تعرف له واحدا . فأمّا "الشَّماطِيطُ" فإِنهم يزعمون أنّ واحدَهُ "شِمْطاط" . وكل هذه لها واحد الا انه ليس يستعمل ، ولم يُتَكَلَّمْ به لأن هذا المثال لا يكون إلا جميعاً . وسمعت العرب الفصحاء يقولون: "أَرْسَلَ إِبِلَهُ أَبابيلَ" يريدون "جماعات" فلم يُتَكَلَّمْ لها بواحد .

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

وأَمّا قوله: ﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ فانه من: "نَأَيْتُ" "يَنْأَى" "نَأْياً" .

(222/222)

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال: ﴿ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ نصب لأَنَّه جواب للتمني وما بعد الواو كما بعد الفاء ، وان شئت رفعت وجعلته على مثل اليمين ، كأنهم قالوا "وَلاَ نُكَذِّبُ و اللهِ بآياتِ رَبِّنا وَنَكُونُ و اللهِ منَ المُؤمنين" . هذا اذا كان ذا الوجه منقطعاً من الأول . والرفع وجه الكلام وبه نقرأ الآية [و] اذا نصب جعلها واو عطف ، فكأنهم قد تمنوا الا يكذبوا

وان يكونوا . وهذا – والله أعلم – لا يكون ، لأنهم لم يتمنوا الايمان انما تمنوا الرد وأخبروا أنهم لا يكذبون ويكونون من المؤمنين .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ اللّهِ حَتَّى إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

وقال ﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ لأنه من "وَزَرَ" "يَزِرُ" [109] "وِزْراً" ويقال أيضاً : "وُزِرَ" فـ"هُوَ مَوْزُورٌ" . وزعم يونس انهما جميعاً يقالان .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

وقال ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ﴾ بكسر "إِنَّ" لدخول اللام الزائدة بعدها .

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾

وقال ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ كما تقول: "قَدْ أَصَابَنا من مَطَرٍ" و"قَدْ كَانَ مِنْ حَدِيث" .

(223/222)

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

وقال ﴿ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَآءِ ﴾ فـ"النَفَقُ" ليس من "النَفقَةِ" ولكنه من "النَّافِقاءِ" ، يريد دخولا في الأرض .

وقال ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَآءِ ﴾ ولم يقل "فَافْعَلْ" وذلك أَنَّهُ أَضْمَر . وقال الشاعر: [من الخفيف وهو الشاهد الثاني والثلاثون بعد المئة]:

فَبِحَظٍّ مِمّا نَعِيشُ ولا تَذْ * هَبْ بِكِ التُرَّهاتِ فِي الأَهْوالِ

فأضمر "فَعِيشى" .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ يريدُ : جماعة أمة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وقال ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ فهذا الذي بعد التاء من قوله: ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ ﴾ إنما جاء للمخاطبة . وترك التاء مفتوحة كما كانت للواحد ، وهي مثل كاف "رُوَيْدَكَ زَيْداً" اذا قالت: أَرْوِدْ زَيْداً" . فهذه الكاف ليس لها موضع

فتسمى بجر ولا رفع ولا نصب ، وانما هي من المخاطبة مثل كاف "ذاك" . ومثل ذلك قول العرب: "أَبْصِرْكَ زَيْداً" يدخلون الكاف للمخاطبة وانما هي "أَبْصِرْ زيداً" .

(224/222)

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَّنْ اله غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾

وقال ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ [109 ب] سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ ثم قال ﴿ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ حمله على السمع أو على ما أخذ منهم .

﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

وقال ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فالأولى ان ينصب جواباً لقوله ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ والأخرى [أَنْ] ينصب بقوله ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ﴾ و ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقوله ﴿أَنَّهُ﴾ بَدَلٌ من قوله ﴿الرَّحْمَةَ﴾ أي: كَتَبَ أَنَّهُ مَنْ عمِلَ. وقوله ﴿فَإِنَّهُ﴾ على الابتداء أي: فَلَه المغفرة والرَّحْمَةُ فَهوَ غَفُورٌ رَحيم. وقال بعضهم ﴿فأَنَّهُ﴾ أراد به الاسم وأضمر الخبر. أراد "فَأَنَّ".

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

(225/222)

وقال ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ لأَنَّ أَهْلَ الحِجازِ يَقُولن: "هِيَ السَّبِيلُ" وقال بعضهم ﴿ولتستبين﴾* يعني النبيّ صلى الله عليه. وقال بعضهم ﴿وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلُ﴾ في لغة بني تميم.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

وقالَ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ وقال بعضهم ﴿ضَلَلْتُ﴾ وهما لغتان. من قال "ضَلِلْتُ" قال "تَضَلُّ" ومن قال "ضَلَلْتُ" قال "تَضِلُّ" ونقرأ بالمفتوحة*.

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

وقال ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ جر على ﴿ مِنْ ﴾ وإِنْ شِئْتَ رَفَعْتَ على "تسْقط" ، [110] وإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ على الابتداءِ وَتَقْطَعُهُ من الأول .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَاذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

وقال ﴿ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ وقال في موضع آخر ﴿ وَخِيفَةً ﴾ . و"الخُفْيَةُ": الإِخفاء و"الخِيفَةُ" من الخَوْف والرَّهْبَة .

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

(226/222)

وقال ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ لأنها من "لَبَسَ" "يَلْبِسُ" "لَبْساً" .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا

كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾

وقال ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وهي من "أَبْسَلَ" "إِبْسالاً" .

[و] قال ﴿ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ ﴾ .

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وأمَّا قوله ﴿ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ ﴾ فإنّ كلَّ "فَعْلان" له "فَعْلى" فإنَّه لا ينصرف في المعرفة ولا النكرة.

وأمّا قَوْلُه ﴿ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ﴾ فان الألف التي في ﴿ ائْتِنا ﴾ الف وصل ولكن بعدها همزة من الأصل هي التي في "أَتَى" وهي الياء التي في قولك "إِيتِنا" ، ولكنها لم تهمز حين ظهرت ألف الوصل . لأن الف الوصل مهموزة اذا استؤنفت فكرهوا اجتماع همزتين . وقال ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يقول: إنَّما أُمِرْنا كَيْ نُسْلِمَ لِرَبِّ العالَمين" كما قال ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: إنما أُمِرت بذلك .

﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

ثم قال ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أي: وَأُمِرْنا أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ واتَّقُوهُ. أَوْ يَكُونُ أَوْصَلَ الفِعْلَ باللّامِ، والمعنى: أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ. كما أوصل باللام في قوله ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

وقال ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ قال ﴿ يَوْمَ ﴾ مضاف إلى قوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وهو نصب [110 ب] وليس له خبر ظاهر والله اعلم. وهو على ما فسرت لك.

وكذلك ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ وقال بعضهم ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ وقال بعضهم ﴿ يَنْفُخُ ﴾ ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاما آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾

وقال ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ فتح اذا جعلت ﴿ آزَرَ ﴾ بدلاً من ﴿ أَبِيهِ ﴾ وقد قرئت رفعا على النداء كأنه قال "يا آزَرُ"*. وقال الشاعر: [من الرجز وهو الشاهد الثالث والتسعون بعد المئة]:

إِنَّ عَلَيَّ اللهَ أَنْ تُبايِعا * تُقْتَلَ صُبْحاً أَوْ تَجِيءَ طائِعا

فابدل "تُقْتَلَ صُبْحاً" من "تُبايِعَ".

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾

وقال ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ وقال بعضهم ﴿ أَجَنَّ ﴾ . وقال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الرابع والتسعون بعد المئة]:

فَلَمّا أَجَنَّ اللَّيْلُ بِتْنا كَأَنَّنا * على كَثْرَةِ الأَعْداءِ مُحْتَرِسَانِ

وقالُ: [من الرجز وهو الشاهد الخامس والتسعون بعد المئة]:

* أَجَنَّكَ اللَّيلُ وَلَمَّا تَشْتَفِ *

(228/222)

فجعل "الجَنَّ" مصدرا لـ"جَنَّ" . وقد يستقيم أنْ يكون "أَجَنَّ" ويكون ذا مصدره كما قال "العَطاء" و"الإعطاء" . وأما قوله ﴿ أَكْنَنتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ فإنهم يقولون في مفعولها: "مَكْنُونٌ" ويقول بعضهم "مُكَنّ" وتقول: "كَنَنْتُ الجارِيَةَ" إذا صُنتها و"كَنَنْتُها مِن الشَّمْسِ" و"أَكْنَنْتُها مِن الشَّمْسِ" أيضاً . ويقولون "هِيَ مَكْنُونَة" و"مُكَنَّةٌ" وقال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد السادس والتسعون بعد المئة]:

قَدْ كُنْتُ أُعْطِيهُمُ مالِي وَأَمْنَحُهُمْ * عِرْضِي وَعِنْدَهُمُ في الصَّدْرِ مَكْنُونُ

لأنَّ قَيْساً تقول: "كَنَنْتُ العِلْمَ" فهو "مَكْنُونٌ" . [111] وتقول بنو تميم "أَكْنَنْتُ العِلْمَ" فـ"هُوَ مُكَنٌّ" ، و"كَنَنْتُ الجارِيَةَ فَـ"هِيَ مَكْنُونَةٌ" . وفي كتاب الله عز وجل ﴿ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي

أَنْفُسِكُمْ ﴾ وقال ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ وقال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد السابع والتسعون بعد المائة]:

قَدْ كُنَّ يَكْنُنَّ الوُجُوهَ تَسَتُّرًا * فَاليومَ حينَ بَدَوْنَ للنُّظّارِ

وقيسٌ تنشد "قَدْ كُنَّ يُكْنِنَّ" .

وقال ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ فهو من "يَأْفِل" "أُفُولاً" .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَاذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

وأما قوله للشمس ﴿ هذا رَبِّي ﴾ فقد يجوز على "هذا الشيءُ الطالِعُ رَبِّي" .

أَوْ على أَنَّه ظهرت الشمس وقد كانوا يذكرون الرب في كلامهم قال لهم ﴿ هذا رَبِّي ﴾ .

وانما هذا مثل ضربه لهم ليعرفوا اذا هو زال انه لا ينبغي ان يكون مثله آلها ، وليدلهم على وحدانية الله ، وأنه ليس مثله شيء . وقال الشاعر: [من الرجز وهو الشاهد الثامن والتسعون بعد المئة]:

مَكَثْتَ حَوْلاً ثُمَّ جِئْتَ قَاشِرًا * لا حَمَلَتْ مِنْكَ كِرَاعٌ حَافِرا

(229/222)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قال ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ يعني: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ وكذلك ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

وقفال بعضهم ﴿ وَالْيَسَعَ ﴾ وقال بعضهم ﴿ وَاللَّيْسعَ ﴾ ونقرأ بالخفيفة .

﴿ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾

وقال ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ . وكلّ شيء من بنات الياء والواو في موضع الجزم فالوقف عليه بالهاء ليلفظ به كما كان .

﴿ وَهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

وقال ﴿ وَهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ [111 ب] مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي ﴾ رفع على الصفة ، ويجعل نصبا حالا لـ ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ

سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(230/222)

وقال ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ فنراه يريد : يقولون ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ والله اعلم . وكان في قوله ﴿ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ دليل على ذلك لأنه قد أخْبَرَ انهم يريدون منهم شيئاً .

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذلك تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

وقال ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ ﴾ جعله مصدرا من "أَصْبَحَ" . وبعضهم يقول ﴿ فالِقُ الأَصْباحِ ﴾ جماع "الصُّبْح" .

وقال ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ﴾ أي: بِحِساب . فحذف الباء كما حذفها من قوله ﴿ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أَيْ: أَعْلَمُ بمن يَضِلّ . و"الحُسْبانُ" جماعة "الحِساب" مثل "شِهاب" و"شُهْبَان" ، ومثله "الشَمْسُ والقَمرُ بحُسْبانٍ" أي: بحساب .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

وقال ﴿ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ فنراه يعنى: فمنها مُسْتَقِرٌّ ومنها مُسْتَوْدَعٌ والله اعلم. وتقرأ ﴿ مُسْتَقَرّ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَالِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

وقال ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ يريد "الأَخْضَرَ" كقول العرب: "أرنيها نَمِرَةً أُرِكَها مَطِرَةً" .

(231/222)

وقال ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ثم قال ﴿ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي: "وَأَخْرَجْنا بِهِ جَنّاتٍ مِنْ أَعنابٍ" .

ثم قال ﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾ وواحد: "القِنْوان": قِنْوٌ، وكذلك "الصِّنْوانُ" واحدها: صِنْوٌ.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

وقال [112 ب] ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ ﴾ على البدل كما قال ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [12] صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ . وقال الشاعر: [من الوافر وهو الشاهد المئتان]:

ذَرِيني إِنَّ أمرَكِ لَن يُطاعا * وَمَا أَلفَيْتِني حِلْمِي مُضاعا

وقال: [من البسيط وهو الشاهد الحادي بعد المئتين]:

إِنّي وَجَدْتُكَ يا جُرْثُومُ مِنْ نَفَرٍ * جُرْثُومَةِ اللُّؤْمِ لا جُرْثُومَةِ الكَرَمِ

[وقال الآخر]: [من البسيط وهو الشاهد الخامس والخمسون بعد المئة]:

إِنَّا وَجَدْنا بَنِي جِلاّنَ كُلَّهم * كساعِدِ الضَّبِّ لا طُولٌ ولا عِظَمُ*

وقال: [من الرجز وهو الشاهد الثاني بعد المئتين]:

ما لِلجِمالِ مَشْيِها وَئِيدا * أَجَنْدَلاً لا يَحْمِلْنَ أَمْ حَدِيدا

ويقال: ما للجمالِ مشيُها وَئِيدا . كما قيل: [من الوافر وهو الشاهد الثالث بعد المئتين]:

فكيفَ تَرَى عَطِيَّةَ حِينَ تَلْقَى * عِظاماً هامُهُنَّ قُرآسِيات

﴿ وَكَذلك نُصَرِّفُ الآياتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ أي: دَارَسْتَ أَهْلَ الكتابِ ﴿ وَكَذلك نُصَرِّفُ الآياتِ ﴾

يعني: هكذا . وقال بعضهم[112] ﴿ دَرَسْتَ ﴾ وبها نقرأ لأنها اوفق للكتاب . وقال

بعضهم ﴿ دَرَسَتْ ﴾ .

(232/222)

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

وقال ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ثقيلة مشددة و ﴿ عَدْوًا ﴾ خفيفة، والأصل من "العُدْوانِ". وقال بعضهم ﴿ عَدُوًّا ﴾ بغير علم. أي: سبّوه في هذه الحال. ولكن "العَدُوّ" جماعة كما قال ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ وكما قال ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ونقرأ ﴿ عَدْوًا ﴾ لأنها أكثر في القراءة وأجود في المعنى لأنك تقول: [عُدا] عَدْوًا علينا" مثل "ضَرَبَهُ ضَرْبًا".

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ أَنَّها] وبها نقرأ وفسر على "لعلها" كما تقول العرب: "اِذْهَبْ إلى السوق أَنَّكَ تشتري لي شيئاً" أي: لَعَلَّك. وقال الشاعر: [من الرجز وهو الشاهد التاسع والتسعون بعد المئة]:

قُلْتُ لِشَيْبانَ اذْنُ من لِقائِهِ * أَنَّا نُغَذِّي القَومَ مِن شِوائِه

في معنى "لَعَلَّنا".

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

قال ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ﴾ أيْ: قَبيلاً قَبيلا، جماعة "القَبيل" "القُبُل". ويقال "قِبَلا" أي: عِيانا. وقال ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾ أي: عِيانا. وتقول: "لا قِبَلَ لي بهذا" أي: لا طَاقَةَ*. وتقول: "لِي قِبَلَك حقٌّ" أي: عندَك.

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾

[و] قال ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ هي من "صَغَوْتُ" "يَصْغا" مثل "مَحَوْتُ" "يُمْحا".

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ يقول – والله اعلم – "وَأَيّ شَيْءٍ لَكُمْ في أَلاّ تَأْكُلُوا" وكذلك ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ ﴾ يقول: "أيُّ شَيْءٍ لَنا في تَركِ القِتال". ولو كانت ﴿ أَنْ ﴾ زائدة لارتفع الفعل، ولو كانت في معنى "وما لَنا وكَذا" لكانت "وَمَالَنا وَأَلاّ نُقَاتِلَ".

وقال ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم ﴾ ويقرأ ﴿ لَيُضِلُّونَ ﴾. أوقع "أنَّ" على النكرة لأنَّ

الكلام اذا طال احتمل ودل بعضه على بعض .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(234/222)

وقال ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ [113] فبناه على "أَفاعِل" ، وذلك انه يكون على وجهين يقول "هؤلاء الأكابر" و"الأكبرون" وقال ﴿ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ وواحدهم "أَخْسَرُ" مثل "الأَكْبَر" .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ لأن الشركاء زينوا .

ثم قال ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ من "أَرْدى" "إِرْداءً" .

﴿ وَقَالُواْ هَاذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

وقال ﴿ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ ﴾ و"الحِجْر" "الحَرام" وقد قرئت بالضم ﴿ حُجْرٌ ﴾ ، وكذلك

قرئت ﴿ حُجْراً مَحْجُورا ﴾ بضم الحاء و ﴿ حِجْراً ﴾ في معنى واحد . وقد يكون "الحِجْرُ": العَقْل ، قال الله تعالى ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ أي ذي عقل . وقال بعضهم: "لا يكون في قوله ﴿ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ إلا الكسر . وليس ذا بشيء لأنه حرام . وأما "حَجْرُ المرأة" ففيه الفتح والكسر و"حَجْرُ اليَمامة"* بالفتح و"الحِجْرُ" ما حَجَرْتَه وهو قول أصْحاب الحجر .

﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَاذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(235/222)

وقوله عز وجل ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَاذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ رَفْعٌ أي** : وإنْ تَكُن فِي بُطُونِهَا مِيتَةٌ . وقد يجوز الرفع اذا قلت ﴿ يَكُن ﴾ لأن المؤنّث قد يذكر فعله . و ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ انثت لتحقيق الخلوص كأنه لما حقق لهم الخلوص اشبه الكثرة فجرى مجرى "رَاوِية" و"نَسّابة" .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ

تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

[وقال] ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جرٌ لأن تاء الجميع في موضع النصب [113 ب] مجرورة بالتنوين .

﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

ثم قال ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾ أَي: وأَنْشَأَ من الأَنعامِ حَمُولَةً وَفَرْشا .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ثم قال ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أي: أَنْشَأَ حَمُولَةً وَفَرْشاً ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ. أي: أَنْشَأَ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ، على البدل أو التبيان أو على الحال .

(236/222)

ثم قال: "أَنْشَأَ ﴿ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ وانما قال ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ لأنَّ كُلَّ واحدٍ "زَوْجٌ" . تقول للاثنين: "هذان زَوْجانِ" وقال الله عز وجل ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ وتقول للمرأة: "هي زَوْجٌ" و"هي زَوْجَةٌ" و: "هو زَوْجُها" . وقال ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعني المرأة وقال ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ وقال بعضهم "الزَوْجَةُ" وقال

الأَخْطَل: [من البسيط وهو الشاهد السابع والشعرون بعد المئة]:

زَوْجَةُ أَشْمَطَ مَرْهُوبٌ بَوادِرُهُ * قَدْ صار في رَأْسِهِ التَخْوِيصَ والنَزَعُ

وقد يقال للاثنين أيضاً: "هما زَوْجٌ" و["الزَوْجُ" النَمَط يُطْرَحُ على الهَوْدَج] قال لَبيد: [من الكامل وهو الشاهد السادس والعشرون بعد المئة]:

مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ * زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وقِرامُها

وأمّا ﴿الضَأن﴾ فمهموز وهو جماع على غير واحد. ويقال ﴿الضَئِين﴾ مثل "الشَعِير" وهو جماعة "الضَأْن" والأُنْثى "ضائِنَة" والجماعة: "الضَوَائِن".

و﴿المَعْزُ﴾ جمع على غير واحد وكذلك "المِعْزَى"، فاما "المَواعِز" فواحدتها "الماعِزْ" و"الماعِزَةُ" والذكر الواحد "ضائِنْ" فيكون "الضَأْن" جماعة "الضائِنْ" [104] مثل صاحِب" و"صَحْب" و"تاجِر" و"تَجْر" وكذلك "ماعِزْ" و"مَعْز". وقال بعضهم ﴿ضأْنْ﴾ و﴿مَعَز﴾ جعله جماعة "الضَائِن" و"الماعِز" مثل "خَادِم" و"خَدَم"، و"حافِد" و"حَفَدَةْ" مثله إلاَّ أَنَّهُ أُلحق فيه الهاء.

وأمّا قَوْله ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾ فانتصب بـ"حرّم".

(237/222)

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقال ﴿ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً ﴾ يقول: "إلاَّ أَنْ يكونَ مِيتَةً أَوْ فِسقاً فإنَّه رِجْسٌ" .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

وقال ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا ﴾

فواحد "الحَوايا": "الحاوِياءُ" "والحَاوِيَةُ" . ويريد بقوله – والله أعلم – ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ﴾ أي: والبقر والغنم حرمنا عليهم . ولكنه أدخل فيها "مِنْ" والعرب تقول: "قَدْ كانَ مِنْ حَديثٍ" يريدون: قَدْ كانَ حَدِيثٌ" وإن شئت قلت: "وَمِنْ الغَنَمِ حَرَّمْنا الشُّحُومَ" كما تقول: "مِنَ الدّارِ أُخِذَ النّصفُ والثُّلُثُ" فأضفت على هذا المعنى كما تقول: "مِنَ الدّارِ أُخِذَ نِصْفُها" و"مِنْ عَبْدِ اللهِ ضُرِبَ وَجْهُهُ" .

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

وقال ﴿ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ﴾ لأن "هَلُمَّ" قد تكون للواحد والاثنين والجماعة .

﴿ أَن تَقُولُواْ إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾

وقال ﴿ أَن تَقُولُواْ إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ على ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ [154] كراهية ﴿ أَن تَقُولُواْ إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً ﴾ [114 ب] وقال بَعْضُهُم ﴿ فارَقُوا ﴾ من "المُفارَقَةِ" .

﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾

وقال ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ على العدد كما تقول: "عَشْرُ سُودٍ" فان قلت كيف قال "عَشْر" و"المِثْل" مذكر؟ فانما أنث لأنه أضاف إلى مؤنث وهو في المعنى أيضاً "حَسَنَةٌ" أو "دَرَجةٌ" . فإِنْ أَنَّثَ على ذلك فهو وجه . وقال بعضهم ﴿ عَشْرٌ أَمْثالُها ﴾ جعل "الأمثال" من صفة "العشر" . وهذا الوجه الا انه لا يقرأ . لأَنَّه ما كان من صفة لم تضف اليه العدد . ولكن يقال: "هُمْ عَشْرَةُ قيامٌ" و"عشرةُ قُعُودٌ" لا يقال: "عشرةُ قيامٍ" .

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴾

وقال ﴿ دِيناً قِيَماً ﴾ أيْ: مستقيما وهي قراءة العامة وقال أَهْلُ المدينة ﴿ قِيَما ﴾ وهي حسنة ولم أَسمَعها من العرب وهي في معنى المفسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 1 صـ 293.318 ﴾

(239/222)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الأنعام

مكية كلها : إلّا ثلاث آيات نزلت بالمدينة من قوله : قل تعالوا إلى قوله : تتقون

2 - ثُمَّ قَضى أَجَلًا بالموت . وَأَجَلٌ مُسَمًّى عنده للدنيا إذا فنيت .

6 - و(القرن) يقال : هو ثمانون سنة . قال أبو عبيدة : يروون أن أقل ما بين القرنين ثلاثون سنة .

مِدْراراً بالمطر . أي غزيرا . من درّيدرّ .

7 - وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ أي صحفية . وكذلك قوله : تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ [سورة الأنعام أية : 91] أي صحفا . قال المرّار :

عفت المنازل غير مثل الأنقس بعد الزمان عرفته بالقرطس

فوقفت تعترف الصحيفة بعد ما عمس الكتاب وقد يرى لم يعمس

والأنقس : جمع نقس مثل قدح وأقدح وأقداح. أراد : غير مثل النّقس

(240/222)

عرفته بالقرطاس. ثم قال : «فوقفت تعترف الصحيفة» فأعلمك ان القرطاس هو الصحيفة. ومنه يقال للرامي إذا أصاب : قرطس. إنما يراد أصاب الصحيفة.

8 - وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ يريد : لو أنزلنا ملكا فكذبوه أهلكناهم.

9 - وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً أي لو جعلنا الرسول إليهم ملكا.

؟ ط لَجَعَلْناهُ رَجُلًا أي في صورة رجل. لأنه لا يصلح ان يخاطبهم بالرسالة ويرشدهم إلا من يرونه.

وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ أي أضللناهم بما ضلّوا به قبل أن يبعث الملك.

12 - كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أي أوجبها على نفسه لخلقه.

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ هذا مردود إلى قوله : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [سورة الأنعام أية : 11] . . .

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ .

14 - فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي مبتدئهما . ومنه

قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «كل مولود يولد على الفطرة «1»»

أي على ابتداء الخلقة . يعني الإقرار باللّه حين أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم .

22 - أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ أي أين آلهتكم التي جعلتموها لي شركاء .

فنسبها إليهم لما ادّعوا لها من شركته جلّ وعز .

---

(1) أخرجه الترمذي بلفظ مقارب عن أبي هريرة برقم 2138 .

(241/222)

---

23 - ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ أي مقالتهم . ويقال حجّتهم . وقد ذكرت هذا في كتاب «تأويل المشكل» في باب الفتنة . وبينت كيف هو .

24 - وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أي ذهب عنهم ما كانوا يدعون ويختلقون .

25 - الوقر الصّمم . والوقر : الحمل على الظهر .

26 - وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ أي عن محمد .

وَيَنْأَوْنَ أي يبعدون .

31 - يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أي آثامهم . وأصل الوزر : الحمل على الظهر . قال اللّه سبحانه : وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ [سورة الشرح آية : 1/ 3] أي أثقله حتى سمع نقيضه .

33 - فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ أي لا ينسبونك إلى الكذب . ومن قرأ «لا يكذبونك» . أراد : لا يلفونك كاذبا .

وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ والجحود [الإنكار] عي ما بيناه .

35 - (النّفق) في الأرض : المدخل . وهو السّرب . و(السّلم في السماء) : المصعد .

36 - إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ أي يجيبك من يسمع . فأما الموتى فاللّه يبعثهم . شبههم بالموتى .

38 - ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ أي ما تركنا شيئا ولا أغفلناه ولا ضيعناه .

(242/222)

---

42 - بِالْبَأْساءِ : الفقر . وهو البؤس وَالضَّرَّاءِ : البلاء .

43 - فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا أي فهلّا إذ جاءهم بأسنا .

44 - أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فجأة وجهرة ، معاينة .

فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ يائسون ملقون بأيديهم .

45 – فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ أي آخرهم . كما يقال : اجتثّ أصلهم .

46 – يَصْدِفُونَ يعرضون . يقال : صدف عني وصد ، أي أعرض .

53 – وكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أي ابتلينا بعضا ببعض .

55 – نُفَصِّلُ الْآياتِ أي نأتي بها متفرّقة شيئا بعد شيء ، ولا ننزلها جملة .

58 – قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من عقوبة اللّه . لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أي لعجّلته لكم فأنقضي ما بيننا .

60 – جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ أي كسبتم ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ أي يبعثكم في النهار من نومكم .

لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى : الموت .

65 – عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ : الحجارة والطوفان . أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ : الخسف . أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً : من الالتباس عليكم حتى تكونوا شيعا ، أي فرقا مختلفين . وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ :

بالقتال والحرب .

67 – لِكُلِّ نَبَإٍ أي خبر مُسْتَقَرٌّ . أي غاية .

68 - يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنا بالاستهزاء .

70 - أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ أي تسلم للهلكة . قال الشاعر :

وإبسالي بنيّ بغير جرم بعوناه ولا بدم مراق

أي بغير جرم أجرمناه . والبعو : الجناية .

لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وهو الماء الحار . ومنه سمي الحمام .

71 - كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ أي هوت به وذهبت حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا يقولون له : ائتنا نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر . وأصحابه : أبوه وأمه .

74 - وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ قد ذكرته في كتاب «تأويل المشكل» .

75 - مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ملكهما . زيدت فيه الواو والتاء وبني بناء جبروت ورهبوت .

76 - جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أظلم . يقال : جنّ جنانا وجنونا وأجنّة الليل إجنانا «1» .

77 - بازغاً طالعا يقال : بزغت الشمس تبزغ أَفَلَتْ غابت 78 - الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أي لم يخلطوه بشرك . ومنه قول لقمان : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [سورة لقمان آية :

13].

---

(1) المعنى: ستره.

(244/222)

---

91 - وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أي ما وصفوه حقّ صفته، ولا عرفوه حقّ معرفته. يقال: قدرت الشيء وقدّرته. وقدرت فيك كذا وكذا، وقدرته.

92 - أُمَّ الْقُرى: مكة لأنها أقدمها.

93 - عَذابَ الْهُونِ: أي الهوان.

94 - فُرادى جمع فرد. وكأنه جمع فردان. كما قيل: كسلان وكسالي، وسكران وسكاري.

وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ أي ملّكناكم.

الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ أي زعمتم انهم لي في خلقكم شركاء.

لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ أي تقطعت الوصل التي كانت بينكم في الدنيا من القرابة الحلف والمودّة.

96 - و(الحسبان) الحساب. يقال: خذ كل شيء بحسبانه [أي بحسابه].

98 - فَمُسْتَقَرٌّ في الصلب. وَمُسْتَوْدَعٌ في الرحم.

99 - (القنوان) عذوق النّخل . واحدها قنو . جمع على لفظ تثنيته ، غير أن الحركات تلزم نونه في الجمع ، وهي في الاثنين مكسورة ، مثل :

صنو وصنوان في التّثنية . وصنوان في الجمع .

انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إذا أَثْمَرَ وهو غضّ .

(وينعه) أي إدراكه ونضجه . يقال : ينعت الثّمرة وأينعت : إذا أدركت . وهو الينع والينع والينوع .

100 - وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ يعني الزّنادقة ، جعلوا إبليس يخلق

(245/222)

الشرّ ، والله يخلق الخير .

وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ أي اختلقوا وخلقوا ذلك بمعنى واحد ، كذبا وإفكا .

105 - وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ أي قرأت الكتب . و«دارست» : أي دارست أهل الكتاب .

و«دَرَسَتْ» : انمحت .

111 - وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا جماعة قبيل . أي أصنافا ، ويقال : القبيل : الكفيل كقوله تعالى : أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا [سورة الإسراء آية : 92] أي ضمناء .

ومن قرأها «قبلا» أراد : معانية .

112 - زُخْرُفَ الْقَوْلِ ما زيّن منه وحسّن وموّه . وأصل الزخرف :

الذهب .

113 - وَلِيَقْتَرِفُوا أي ليكتسبوا وليدعوا ما هم مدّعون .

116 - يَخْرُصُونَ : يحدسون ويوقعون . ومنه قيل للحازر :

خارص .

120 - ظاهِرَ الْإِثْمِ : الزنا . وَباطِنَهُ المخالّة .

121 - وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ أي يقذفون في قلوبهم ، أن يجادلوكم .

122 - أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ أي كان كافرا فهديناه . وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً : إيمانا . يَمْشِي بِهِ

فِي النَّاسِ أي يهتدي به .

كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ أي في الكفر .

123 - وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها أي جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر .

وأكابر لا ينصرف . وهم العظماء .

124 - صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ : أي ذلة .

125 - يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ أي يفتحه . ومنه يقال : شرحت الأمر . وشرحت اللحم : إذا فتحته .

(الحرج) الذي ضاق فلم يجد منفذا إلا أن يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ وليس يقدر على ذلك .

127 - لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي الجنة . ويقال : السلام اللّه ويقال : السلام السلامة «1» .

128 - يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ أي أضللتم كثيرا منهم .

وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ أي أخذ كل من كل نصيبا .

بَلَغْنا أَجَلَنَا أي الموت .

135 - يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ أي على موضعكم . يقال :

مكان ومكانة . ومنزل ومنزلة . وتسع وتسعة . ومتن ومتنة . وعماد وعمادة .

136 - مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ أي : مما خلق من الحرث وهو الزرع . والأنعام الإبل والبقر والغنم . نَصِيباً أي حظا .

وكانوا إذا زرعوا خطّوا خطا فقالوا : هذا للّه ، وهذا لآلهتنا . فإذا حصدوا ما جعلوا للّه فوقع منه شيء فيما جعلوا لآلهتهم تركوه . وقالوا : هي إليه محتاجة .

---

(1) أي المصادقة .

وإذا حصدوا ما جعلوا لألهتهم فوقع منه شيء فيما جعلوه للّه ، أعادوه ألى موضعه .

وكانوا يجعلون من الأنعام شيئا للّه . فإذا ولدت إناثها ميتا أكلوه . وإذا جعلوا لآلهتهم شيئا من الأنعام فولد ميتا ، عظموه ولم يأكلوه فقال اللّه :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ . وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ .

137 - لِيُرْدُوهُمْ أي ليهلكوهم . والرّدى : الهلاك .

138 - وقوله : وَحَرْثٌ حِجْرٌ أي زرع حرام . وإنما قيل للحرام : حجر ، لأنه حجر على الناس أن يصيبوه يقال : حجرت على فلان كذا حجرا . ولما حجرته وحرّمته : حجرا .

وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها يعني «الحامي» .

وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا يعني «البحيرة» : لأنها لا تركب ولا يحمل عليها شيء ، ولا يذكر اسم اللّه عليها .

139 - وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا يعني «الوصيلة» من الغنم ، و «البحيرة» من الإبل .

وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا يعني الإناث .

سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ أي بكذبهم .

140 - قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً أي جهلا .

141 - مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ أي : ثمرة سماه أكلا : لأنه يؤكل تصدّقوا منه ، وَلا تُسْرِفُوا في ذلك .

(248/222)

وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ أي تصدّقوا منه ، وَلا تُسْرِفُوا في ذلك .

142 - و(الحمولة) : كبار الإبل التي يحمل عليها .

و(الفرش) : صغارها التي لم تدرك . أي لم يحمل عليها وهي ما دون الحقاق والحقاق : هي التي صلح أن تركب . أي حق ذلك .

143 - ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ أي ثمانية أفراد . والفرد يقال له : زوج .

والاثنان يقال لهما : زوجان وزوج . وقد بينت تأويل هذه الآية في كتاب «المشكل» .

145 - أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أي سائلا .

أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ أي : ما ذبح لغيره وذكر عليه غير اسمه .

146 - حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ أي كلّ ذي مخلب من الطير ، وكلّ ذي ظلف ليس بمشقوق .

يعني الحافر.

شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما يقال: الألية. أَوِ الْحَوايا المباعر، واحدها حاوية وحويّة «1».

151 - (الإملاق) الفقر. يقال: أملق الرجل فهو مملق: إذا افتقر.

153 - وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ يريد السبل التي تعدل عنه يمينا وشمالا. والعرب يقول: الزم الطريق ودع البنيات.

154 - ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ مفسر في كتاب «المشكل».

---

(1) الحوايا: الأمعاء جمع حوية.

(249/222)

---

156 أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ يريد هذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا: إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى قبلنا. فحذف «لا».

وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ أي قراءتهم الكتب وعلمهم بها (غافلين).

157 - (أو) لئلا تقولوا: لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ.

صَدَفَ عَنْها: أعرض.

158 - هَلْ يَنْظُرُونَ أي هل ينتظرون إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ عند الموت أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ يومن القيامة أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ طلوع الشمس من مغربها .

159 - وكانُوا شِيَعاً أي فرقا وأحزابا .

لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ أي ليس إليك شيء من أمرهم .

162 - نُسُكِي : ذبائحي . جمع نسيكة . وأصل النّسك : ما تقربت به إلى اللّه .

165 - خَلائِفَ الْأَرْضِ أي سكان الأرض يخلف بعضكم بعضا : واحدهم خليفة .

وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ أي فضّل في المال والشرف .

لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ أي يختبركم فيعلم كيف شكركم . [. . .] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 131. 141 ﴾

(250/222)

وقال الغزنوى :

ومن سورة الأنعام

1 الْحَمْدُ لِلَّهِ : جاء على صيغة الخبر في معنى الأمر لينتظم المعنى [ويلتئم] «1» اللفظ «2» .

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ : أي : يعدلون به الأصنام .

2 ثُمَّ قَضَى أَجَلًا : أجل الحياة ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى : أجل الموت إلى البعث «3» .

6 مِنْ قَرْنٍ : أهل كل عصر قرن لاقتران الخالف بالسالف «4» .

8 لَقُضِيَ الْأَمْرُ : لحق إهلاكهم ، وأصل «القضاء» : انقطاع الشيء وتمامه «5» .

---

(1) في الأصل : «و تعليم» ، والمثبت في النص عن «ج» .

(2) عن تفسير الماوردي : 1/ 507 . ونص كلام الماوردي : «و قوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر ، وذلك أنه أولى من أن يجيء بلفظ الأمر فيقول : أحمد الله ، لأمرين :

أحدهما : أنه يتضمن تعليم اللفظ والمعنى ، وفي الأمر المعنى دون اللفظ .

الثاني : أن البرهان إنما يشهد بمعنى الخبر دون الأمر» .

وانظر تفسير الطبري : 11/ 249 .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 11/ 256 عن الحسن ، وقتادة ، والضحاك .

ونقله الماوردي في تفسيره : 1/ 509 عن الحسن وقتادة .

وذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 3 وقال : «روي عن ابن عباس ، والحسن ، وابن المسيب ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل» .

(4) معاني القرآن للزجاج : 2/ 229 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 400 ، وزاد

المسير: (3/ 4 - 6)، وعزاه ابن الجوزي إلى ابن الأنباري.

(5) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 2/ 230.

(251/222)

---

9 لَجَعَلْناهُ رَجُلًا لأن الجنس إلى الجنس أميل وعنه أفهم، ولئلا يقولوا: إنما قدرت على ما أتيت به من آية بلطفك ولو كنا ملائكة لفعلنا مثله «1».

وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ: أي: إذا جعلناه رجلا شبهنا عليهم فلا يدرى أملك أو آدميّ.

13 وَلَهُ ما سَكَنَ: لأن الساكن أكثر من المتحرك «2»، ولأن سكون الثقيل من غير عمد أعجب من حركته إلى جهة الهويّ.

19 لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ: أي: ومن بلغه القرآن «3».

[29/أ] 23 ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ: أي: بليّتهم «4» التي غرتهم إلا/ مقالتهم

---

(1) قال الفخر الرازي في تفسيره: 12/ 171: «و ذلك لأن أي معجزة ظهرت عليه قالوا: هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك، ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القدرة والقوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلته أنت . . .».

(2) ذكره الماوردي في تفسيره: 1/ 512، والبغوي في تفسيره: 2/ 87، وابن الجوزي

في زاد المسير : 3/ 10 وقال ابن عطية في المحرر الوجيز : 5/ 141 : «وسكن» هي من السكنى ونحوه ، أي : ما ثبت وتقرر ، قاله السدي وغيره .

وقال فرقة : هو من السكون ، وقال بعضهم : لأن الساكن من الأشياء أكثر من المتحرك إلى غير هذا من القول الذي هو تخليط ، والمقصد في الآية عموم كل شيء ، وذلك لا يترتب إلا أن يكون «سكن» بمعنى استقر وثبت وإلا فالمتحرك من الأشياء المخلوقات أكثر من السواكن ، ألا ترى إلى الفلك والشمس والقمر والنجوم السابحة والملائكة وأنواع الحيوان والليل والنهار حاصران للزمان» .

وذكر القرطبي في تفسيره : 6/ 396 مثل قول المؤلف ثم قال : «وقيل : المعنى ما خلق ، فهو عام في جميع المخلوقات متحركها وساكنها ، فإنه يجري عليه الليل والنهار ، وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق ، وهذا أحسن ما قيل لأنه يجمع شتات الأقوال» .

(3) معاني القرآن للفراء : 1/ 329 ، وتفسير الطبري : 11/ 290 ، ومعاني القرآن للنحاس :

2/ 406 ، وتفسير الفخر الرازي : 12/ 186 .

(4) نقل الماوردي في تفسيره : 1/ 515 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 16 عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال : «يعني بليتهم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة» .

ما كُنَّا مُشْرِكِينَ.

ونصب فِتْنَتُهُمْ «1» بخبر كان. وإِلَّا أَنْ قالُوا: أحق بالاسم لأنه أشبه المضمر من حيث لا يوصف، والمضمر أعرف من المظهر ولأن «الفتنة» قد تكون نكرة «وإن قالوا» لا تكون إلا معرفة «2».

وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ: ذلك قولهم في موقف الذهول والدهش في القيامة.

25 أَكِنَّةً: جمع «كنان»، وهو الغطاء «3»، وكانوا يؤذون النبي - عليه السلام - إذا سمعوا القرآن فصرفهم اللّه عنه «4».

26 وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ: أي: عن متابعة الرسول، وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ: يبعدون عنه بأنفسهم «5».

وقيل»

: إنه أبو طالب . . . . . .

---

(1) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وعاصم في رواية شعبة.

ينظر السبعة لابن مجاهد: 255، والتبصرة لمكي: 191.

(2) الحجة لأبي علي : 3/ 290 ، والبحر المحيط : 4/ 95 ، والدر المصون : 4/ 572 . [. . . . .]

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 188 ، وتفسير الطبري : 11/ 305 ، ومعاني القرآن للزجاج :

2/ 236 ، والمفردات للراغب : 442 .

(4) عن تفسير الماوردي : 1/ 516 ، ونص كلامه : «فصرفهم اللّه عن سماعه بإلقاء النوم عليهم وبأن جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه» .

(5) تفسير الطبري : 11/ 311 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 238 ، ونقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 1/ 517 عن محمد بن الحنفية ، والحسن ، والسدي .

وذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 21 وقال : «رواه الوالبي عن ابن عباس ، وبه قال ابن الحنفية ، والضحاك ، والسدي» .

(6) أخرجه الطبري في تفسيره : (11/ 313 ، 314) عن ابن عباس ، وعطاء بن دينار ، والقاسم بن مخيمرة ، وأخرجه الحاكم في المستدرك : 2/ 315 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة الأنعام ، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما وقال : «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي .

وأخرجه الواحدي في أسباب النزول : 247 عن ابن عباس أيضا .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 3/ 260 وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد الرازق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، والبيهقي في الدلائل - كلهم - عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

قال ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 21 : «فعلى هذا القول يكون قوله : وَهُمْ كناية عن واحد وعلى الثاني عن جماعة» .

(253/222)

[كان] «1» ينهاهم عن إيذاء الرسول ثم يبعد عن الإيمان به .

28 بَلْ بَدا لَهُمْ : للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة تخفى من أمر الحشر والنشر «2» .

29 وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا : إنما استبعدوا النّشأة الثانية لجريان العادة بخلافها على مرور الأزمان ، والدليل على صحة الثانية صحة الأولى ، لأنها إن صحّت بقادر دبرها بحكمته فيه تصح الثانية وهو الحق ، وإن صحّت على زعمهم بطبيعة فيها تصح الثانية حتى إنها لو صحّت بالاتفاق لصحّت بها الثانية أيضا .

30 وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ : على مسألته «3» .

33 فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ «4» : على نحو : ما كذّبك فلان وإنما كذبني .

---

(1) عن نسخة «ج» .

(2) عن معاني القرآن للزجاج : 2/ 240 ، ونص كلام الزجاج : «أي بل ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والنشور لأن المتصل بهذا قوله عز وجل : وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

وانظر تفسير الطبري : 11/ 322 ، وتفسير الفخر الرازي : 12/ 204 ، وتفسير القرطبي :

6/ 410 .

(3) ينظر تفسير البغوي : 2/ 92 ، والكشاف : 2/ 13 ، وتفسير الفخر الرازي : 12/ 206 .

(4) قراءة التشديد لعاصم ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وابن كثير ، وحمزة .

وقرأ نافع والكسائي : لا يُكَذِّبُونَكَ بالتخفيف .

ينظر السّبعة لابن مجاهد : 257 ، والتبصرة لمكي : 192 .

قال أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 111 : «قيل هما بمعنى واحد نحو كثر وأكثر» .

وقيل بينهما فرق ، حكى الكسائي أن العرب تقول : «كذّبت الرجل» إذا نسبت إليه الكذب ، وأكذبته إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دون أن تنسبه إليه ، وتقول العرب أيضا : «أكذبت الرجل إذا وجدته كذابا كما تقول : أحمدت الرجل إذا وجدته محمودا . –

- فعلى القول بالفرق يكون معنى التخفيف : لا يجدونك كاذبا ، أو لا ينسبون الكذب إليك .

وعلى معنى التشديد يكون إما خبرا محضا عن عدم تكذيبهم إياه . . . وإما أن يكون نفي التكذيب لانتفاء ما يترتب عليه من المضار» .

(254/222)

أو لا يجدونك كاذبا ، كقولك : عدّلته وفسّقته وكذا لا يُكَذِّبُونَكَ ، كقولك : أبخلته وأجبنته «1» .

قال أبو جهل : ما أكذبناك ولكنا نكذب ما جئتنا به «2» .

35 نَفَقاً : سربا في الأرض «3» .

ونفّق : اتخذ نفقا ، وتنفّقته : أخرجته من نفقه «4» .

فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ : لا تجزع في مواطن الصّبر فتقارب الجاهلين بعواقب الأمور ، وحسن تغليظ الخطاب للتبعيد من هذه الحال «5» .

36 إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ : إنما يسمع الأحياء لا الأموات .

وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ : أي : الكفار «6» الذين هم في الحياة موتى .

---

(1) معاني القرآن للفراء : 1/ 331 ، وتفسير الطبري : 11/ 331 ، ومعاني القرآن للنحاس :

2/ 418 ، والبحر المحيط : 4/ 111 ، والدر المصون : (4/ 603 ، 604) .

(2) تفسير الطبري : 11/ 334 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 418 ، وأسباب النزول للواحدي :

249 .

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 153 ، وتفسير الطبري : 11/ 337 .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 244 : «و النفق الطريق النافذ في الأرض . . .» .

(4) اللسان : (10/ 358 ، 359) (نفق) .

(5) قال الفخر الرازي في تفسيره : (12/ 218 ، 219) : «و هذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة كما أن قوله : وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ لا يدل على أنه صلّى اللّه عليه وسلّم أطاعهم ، وقبل دينهم ، والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم ، ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك ، فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل ، والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة ، واللّه أعلم . . .» .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (11/ 341 ، 342) عن الحسن ، ومجاهد

، وقتادة.

ونقله النحاس في معاني القرآن: 2/ 421 عن الحسن ومجاهد.

والماوردي في تفسيره: 1/ 521، وابن الجوزي في زاد المسير: 3/ 33 عن الحسن، ومجاهد، وقتادة. -

- قال الماوردي: «ويكون معنى الكلام: إنما يستجيب المؤمنون الذين يسمعون، والكفار لا يسمعون إلا عند معاينة الحق اضطرارا حين لا ينفعهم حتى يبعثهم اللّه كفارا ثم يحشرون كفارا». [.....]

(255/222)

---

37 وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ: ما عليهم في الآية من البلاء لو أنزلت، ولا ما وجه تركها «1».

38 يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ: إذ يقال للمسرع: طر «2».

[29/ب] إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ: في حاجة النّفس، أو الحاجة/ إلى من يدبرهم ويريح عللهم، أو في اختلاف الصّور والطبائع، أو في الدلالة على الصانع.

ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ: اللوح «3»، ففيه أجل كل دابة وطير وأرزاقها. أو القرآن «4»،

ففيه كل شيء إما جملة أو تفصيلا .

44 مُبْلِسُونَ : الإبلاس : السكوت مع اكتئاب «5» .

---

(1) قال الطبري في تفسيره : 11/ 343 : «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ يقول : ولكن أكثر الذين يقولون ذلك فيسألونك آية ، لا يعلمون ما عليهم في الآية ، إن نزّلها من البلاء ، ولا يدرون ما وجه ترك إنزال ذلك عليك . ولو علموا السبب الذي من أجله لم أنزلها عليك ، لم يقولوا ذلك ، ولم يسألوكه ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك» .

وانظر هذا المعنى في تفسير الماوردي : 1/ 522 ، وزاد المسير : 3/ 34 ، وتفسير الفخر الرازي : 12/ 221 .

(2) قال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 245 : «وقال يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ على جهة التوكيد ، لأنك قد تقول للرجل : طر في حاجتي أي أسرع ، وجميع ما خلق اللّه عز وجل فليس يخلو من هاتين المنزلتين ، إما أن يدب أو يطير» .

(3) زاد المسير : 3/ 35 ، وتفسير القرطبي : 6/ 420 .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 1/ 523 ، وقال : «وهو قول الجمهور» .

وذكر الفخر الرازي هذا القول في تفسيره : 12/ 226 وقال : «وهذا أظهر لأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق ، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن ، فوجب أن يكون المراد من الكتاب في هذه الآية

القرآن» .

وانظر زاد المسير : 3/ 35 ، وتفسير القرطبي : 6/ 420 .

(5) معاني القرآن للفراء : 1/ 335 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 192 ، واللسان : (6/ 29 ، - - 30) (بلس) وقال الطبري في تفسيره : 11/ 362 : «وأصل الإبلاس في كلام العرب ، عند بعضهم : الحزن على الشيء والندم عليه . وعند بعضهم : انقطاع الحجة ، والسكوت عند انقطاع الحجة ، وعند بعضهم : الخشوع . وقالوا : هو المخذول المتروك . . . » .

(256/222)

---

45 دابِرُ الْقَوْمِ : آخرهم الذي يدبرهم ويعقبهم «1» ، والتدبير : النظر في العواقب «2» .

46 أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ : جواب إِنْ محذوف أغنى عنه مفعول «رأيت» وموضعها نصب على الحال ، كقولك : اضربه إن خرج ، أي : خارجا «3» وموضع مَنْ رفع على الابتداء وإِلهٌ خبره ، وغَيْرُ صفة ل إِلهٌ ، وكذا يَأْتِيكُمْ «4» ، والجملة في موضع مفعولي «رأيتم» والهاء في بِهِ عائد على المأخوذ المدلول عليه ب «أخذ» «5» .

ولفظ الزّجّاج «6» : هو عائد على الفعل ، أي : يأتيكم بما أخذ منكم .

50 خَزائِنُ اللَّهِ : مقدوراته «7» .

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 192 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 154 ، وتفسير الطبري : 11/ 464 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 425 ، وتفسير الفخر الرازي : 12/ 237 .

(2) اللسان : 4/ 273 (دبر) .

(3) البحر المحيط : 4/ 132 ، والدر المصون : 4/ 635 .

(4) أي : وكذا يَأْتِيكُمْ صفة ثانية لـ إِلهٌ .

(5) الدر المصون : 4/ 636 . وقال الطبري في تفسيره : (11/ 366 ، 367) :

«فإن قال قائل :

وكيف قيل : مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ، فوحد «الهاء» ، وقد مضى الذكر قبل بالجمع فقال : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ ؟ .

قيل : جائز أن تكون «الهاء» عائدة على السمع» ، فتكون موحّدة لتوحيد «السمع» ، وجائز أن تكون معنيا بها : من إله غير اللّه يأتيكم بما أخذ منكم من السمع والأبصار والأفئدة ، فتكون موحدة لتوحيد «ما» ، والعرب تفعل ذلك ، إذا كنّت عن الأفعال ، وحّدت الكناية ، وإن كثر ما يكنى بها عنه من الأفاعيل ، كقولهم : «إقبالك وإدبارك

يعجبني» .

(6) نص هذا القول عن الزجاج في زاد المسير : 3/ . 41

ولفظ الزجاج في كتابه معاني القرآن : 2/ 349 : «أي بسمعكم ، ويكون ما عطف على السمع داخلا في القصة إذ كان معطوفا على السمع» .

(7) قال القرطبي في تفسيره : 6/ 430 : «والخزانة ما يخزن فيه الشيء . . . وخزائن اللّه – مقدوراته ، أي لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون» .

(257/222)

---

52 وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ : مثل سلمان «1» والموالي «2» .

مِنْ حِسابِهِمْ : حساب عملهم «3» . أو حساب رزقهم «4» ، أي : مؤنة فقرهم .

53 فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ : امتحنا الفقراء بالأغنياء في السّعة والجدة والأغنياء بالفقراء في سبق الإسلام وغيره ليتبين صبرهم وشكرهم ومنافستهم في الدين أو الدنيا .

لِيَقُولُوا : لكي يقولوا ، لام العاقبة «5» .

---

(1) هو سلمان الفارسي رضي اللّه تعالى عنه .

وورد ذكر سلمان في نزول هذه الآية الكريمة في رواية أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره : 1/ 261 (تفسير سورة الأنعام) عن الربيع بن أنس ، وكذا الواحدي في أسباب النزول : 251 .

وذكره – أيضا – السّهيلي في التعريف والأعلام : 54 ، ثم قال : «إلّا أن سلمان الأصح فيه أنه أسلم بالمدينة ، والسّورة مكية» .

(2) ذكر منهم بلال بن رباح ، وابن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان .

ينظر المحرر الوجيز : 5/ 207 ، والتعريف والأعلام : 54 .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه : 4/ 1878 ، كتاب فضائل الصحابة ، باب «في فضل سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه» عن سعد قال : «كنا مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ستة نفر ، فقال المشركون للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : اطرد هؤلاء عنك لا يجترءون علينا ، قال : كنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ما شاء اللّه أن يقع ، فحدّث نفسه ، فأنزل اللّه عز وجل : وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . [. . . . .]

(3) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 1/ 527 عن الحسن ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 47 .

(4) عن تفسير الماوردي : 1/ 527 .

وانظر تفسير البغوي : 2/ 100 ، وزاد المسير : 3/ 47 ، وتفسير الفخر الرازي : 12/ 248 .

(5) إعراب القرآن للنحاس : 2/ 68 ، والتبيان للعكبري : 1/ 499 ، وتفسير القرطبي : 6/ 434 .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 139 : «و اللام في لِيَقُولُوا الظاهر أنها لام كي ، أي : هذا الابتلاء لكي يقولوا هذه المقالة على سبيل الاستفهام لأنفسهم والمناجاة لها ، - ويصير المعنى : ابتلينا أشراف الكفار بضعفاء المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك ، ويكون سببا للنظر لمن هدى . . . » .

(258/222)

---

54 وَإِذا جاءَكَ : العامل في «إذا» قل «1» ، وموضع جاءَكَ جرّ بإضافة «إذا» إليه ، كقولك : حين جاءك .

55 وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ : السّبيل مؤنثة «2» ، كقوله «3» : قُلْ هذِهِ سَبِيلِي ، وإن جعلت الاستبانة متعدية ونصبت «السّبيل» «4» فالخطاب للنبي أو للسامع «5» .

57 يَقُصُّ الْحَقَّ : يقضي القضاء الحق أو يضع الحق «6» .

59 وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها : ليعلم أن الأعمال أولى بالإحصاء للجزاء «7» .

إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ : في إِلَّا معنى الواو ، وكذا كل استثناء بعد استثناء ، كقولك : ما زيد إلا عند عمرو إلا في داره ، بخلاف الاستثناء من الاستثناء .

---

(1) قال السّمين الحلبي في الدر المصون : 4/ 648 : «أي : فقل : سلام عليكم وقت مجيئهم ، أي : أوقع هذا القول كلّه في وقت مجيئهم إليك ، وهذا معنى واضح» .

(2) وهي لغة الحجاز ، وتذكير «السبيل» لغة نجد وتميم .

تفسير الطبري : 11/ 396 ، والدر المصون : 4/ 655 .

(3) سورة يوسف : آية : 108 .

(4) وهي قراءة نافع كما في السبعة لابن مجاهد : 257 ، والتبصرة لمكي : 193 .

(5) معاني القرآن للفراء : 1/ 337 ، وتفسير الطبري : 11/ 395 ، ومعاني القرآن للزجاج :

2/ 254 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 432 ، والحجة لأبي علي الفارسي : 3/ 315 .

(6) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 2/ 256 .

وانظر معاني القرآن للنحاس : 2/ 435 ، وتفسير الماوردي : 1/ 529 ، وزاد المسير :

3/ 52 ، وتفسير القرطبي : 6/ 439 .

(7) هذا قول الكوفيين كما في الإنصاف لابن الأنباري : 1/ 266 ، وذهب البصريون إلى أنها لا تكون بمعنى الواو .

وعزاه المرادي في الجنى الداني : 473 إلى الأخفش والفراء .

ينظر - أيضا - رصف المباني : 177 ، والبحر المحيط : 4/ 146 ، والدر المصون : 4/ 661 .

(259/222)

---

60 يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ : يقبضكم عن التصرف «1» ، أو يحصيكم بالليل ، من «توفى العدد» «2» ، ومنه أيضا : تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا «3» أي : الحفظة ، ومنه :

[30/ أ] يَتَوَفَّاكُمْ/ مَلَكُ الْمَوْتِ «4» أي : يستوفيكم .

65 يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً : يخلطكم فرقا مختلفين تتحاربون .

70 اتَّخَذُوا دِينَهُمْ : إذ ما من قوم إلا ولهم عيد لهو ، إلا أمّة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأعيادهم صلاة وتكبير وبرّ وخير .

70 تُبْسَلَ : تسلم وتحبس «5» .

71 اسْتَهْوَتْهُ : استزلّته ، من «الهويّ» ، أو استمالته ، من «الهوى» «6» .

73 فِي الصُّورِ «7» : في الصور «8» ك «السّور» ، والسّور جمع سورة .

---

(1) في تفسير الماوردي : 1/ 529 ، وزاد المسير : 3/ 55 : «يعني به النوم لأنه يقبض الأرواح فيه عن التصرف كما يقبضها بالموت» .

(2) قال الطبري في تفسيره : 11/ 405 : «و معنى «التوفي» في كلام العرب استيفاء العدد . . .» .

(3) سورة الأنعام : آية : 61 .

(4) سورة السجدة : آية : 11 . [. . . . .]

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 155 ، وتفسير الطبري : (11/ 442 ، 443) ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 443 ، وزاد المسير : 3/ 65 .

(6) تفسير الطبري : (11/ 450 ، 451) ، وتفسير الماوردي : 1/ 537 ، وزاد المسير : 3/ 66 .

وقال الفخر الرازي في تفسيره : 13/ 31 : «اختلفوا في اشتقاق اسْتَهْوَتْهُ على قولين : القول الأول : أنه مشتق من الهوي في الأرض ، وهو النزول من الموضع العالي إلى الوهدة السافلة العميقة في قعر الأرض ، فشبه اللّه تعالى حال هذا الضال به ، وهو قوله : وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ ، ولا شك أن حال هذا الإنسان عند هويه من المكان

العالي إلى الوهدة العميقة المظلمة يكون في غاية الاضطراب والضعف والدهشة .

والقول الثاني : أنه مشتق من إتباع الهوى والميل ، فإن من كان كذلك فإنه ربما بلغ النهاية في الحيرة ، والقول الأولى أولى لأنه أكمل في الدلالة على الدهشة والضعف» .

(7) يضم الصاد وفتح الواو ، وهي قراءة تنسب إلى الحسن وعمرو بن عبيد ، وعياض كما في البحر : 4/ 161 ، وتفسير القرطبي : 7/ 21 .

(8) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 196 : «يقال إنها جمع «صورة» تنفخ فيها روحها -- فتحيا ، بمنزلة قولهم : سور المدينة واحدتها سورة» .

وينظر تفسير الطبري : 11/ 463 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 264 .

وقيل في معنى «الصور» إنه قرن ينفخ فيه نفختان ، وهو ما رجحه الطبري في تفسيره : 11/ 463 .

وابن كثير في تفسيره : 3/ 276 لما أخرجه الإمام أحمد في مسنده : 2/ 192 عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : قال أعرابي : يا رسول اللّه ، ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه» .

وأخرجه الترمذي في سننه : 4/ 620 ، أبواب صفة القيامة ، باب «ما جاء في الصور» حديث رقم (2430) وقال : «هذا حديث حسن صحيح» .

والحاكم في المستدرك : 2/ 436 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة الزمر» .

وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

(260/222)

---

75 وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ : أي : نريه الملكوت ليستدل به وليكون . . .

و«الملكوت» : أعظم الملك «الرهبوت» أعظم الرهبة «1» .

76 جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ : جنّه جنانا وجنونا وأجنّه إجنانا : غشيه وستره «2» ، وجاء جَنَّ عَلَيْهِ لأنه بمعنى أظلم عليه ، وليس في «جنّه» سوى ستره «3» .

هذا رَبِّي : على وجه تمهيد الحجة وتقرير الإلزام ، ويسميه أصحاب القياس : القياس الخلفيّ ، وهو أن تفرض الأمر الواجب على وجوه لا يمكن ليجب به الممكن «4» .

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : (1/ 197 ، 198) ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 156 ، وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 265 : «و الملكوت بمنزلة الملك ، إلا أن الملكوت أبلغ في اللّغة من الملك لأن الواو والتاء تزادان للمبالغة ، ومثل الملكوت الرّغبوت ، والرّهبوت ، ووزنه من الفعل «فعلوت» . . . » .

(2) معاني القرآن للفراء : 1/ 341 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 198 ، وتفسير

غريب القرآن لابن قتيبة : 156 ، وتفسير الطبري : 11/ 478 ، والمفردات للراغب : 98 .

قال الماوردي في تفسيره : 1/ 539 : «و معنى جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أي : ستره ، ولذلك سمّي البستان جنّة لأن الشجر يسترها ، والجن لاستتارهم عن العيون ، والجنون لأنه يستر العقل ، والجنين لأنه مستور في البطن ، والمجن لأنه يستر المتترس» .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 198 ، وتفسير الطبري : (11/ 478 ، 479) ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 266 ، وتفسير الفخر الرازي : 13/ 47 .

(4) معاني القرآن للفراء : 1/ 341 ، والمبين في شرح ألفاظ المتكلمين : 84 . –

– قال الفخر الرازي في تفسيره : 13/ 52 : « . . . إن إبراهيم – عليه السلام – لم يقل هذا رَبِّي على سبيل الإخبار ، بل الفرض منه أنه كان يناظر عبدة الكوكب ، وكان مذهبهم أن الكوكب ربهم وإلهم ، فذكر إبراهيم – عليه السلام – ذلك القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى يرجع إليه فيبطله ، ومثاله : أن الواحد منا إذا ناظر من يقول بقدم الجسم ، فيقول : الجسم قديم فإذا كان كذلك ، فلم نراه ونشاهده مركبا متغيرا ؟ فهو إنما قال :

الجسم قديم إعادة لكلام الخصم حتى يلزم المحال عليه ، فكذا هاهنا قال : هذا رَبِّي ، والمقصود منه حكاية قول الخصم ، ثم ذكر عقبيه ما يدل على فساده ، وهو قوله : لا أُحِبُّ

الْآفِلِينَ ، وهذا الوجه هو المتعمد في الجواب ، والدليل عليه : أنه تعالى دل في أول الآية على هذه المناظرة بقوله تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ . . . » اه .

(261/222)

---

80 أَتُحاجُّونِّي : أصله «أ تحاجّونني» الأولى علامة الرفع في الفعل ، والثانية لسلامة بناء الفعل من الجر «1» .

وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً : بحسبه وبقدره ، أو معناه : لكن أخاف مشيئة ربي يعذبني بذنب سلف مني «2» ، استثناء منقطع .

83 وَتِلْكَ حُجَّتُنا : وهي أن لا يجوز عبادة من لا يملك الضر والنفع ، وأن من عبده أحق بالخوف ، ومن عبد من يملك ذلك أحق بالأمن .

86 وَالْيَسَعَ : دخلته الألف واللام لأنه اسم أعجمي وأفق أوزان العرب «3» .

وَكُلًّا فَضَّلْنا : «كلّ» بالصيغة نكرة من غير إضافة ، ومن حيث التقدير أي : وكل الأنبياء فضلنا ، معرفة .

89 فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ : أهل مكة ، فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً : أهل المدينة «4» .

---

(1) يطلق النحاة على هذه النون نون الوقاية .

(2) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 2/ 269 .

(3) ينظر هذا القول في تفسير الطبري: (11/ 511، 512) ، والحجة لأبي علي الفارسي:

3/ 350 ، والدر المصون: 5/ 29 .

(4) ذكره الفراء في معاني القرآن: 1/ 342 ، وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره:

(11/ 515، 516) عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وابن جريج. -

- ونقله النحاس في معاني القرآن: 2/ 455 عن مجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 3/ 312 وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما . ونسبه - أيضا - إلى عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة.

(262/222)

---

90 فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ: الهاء للاستراحة، لأجل الوقف «1» . أو هاء الضمير للمصدر المقدّر، أي: فبهداهم اقتد اقتداء «2» ، أو زيدت الهاء عوضا من الياء المحذوفة في «اقتد» فإذا وصلت صار حرف الوصل عوضا وسقط .

91 ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ : لم يجزم يَلْعَبُونَ لأنه ليس بجواب ، بل/ توبيخ في موضع الحال «3» ، وأما قوله «4» : ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا [30/أ] فكان يجوز سبب أكلهم تركه لهم ، إذ يحسن ذلك ولا يقبح قبح إحالة اللعب إلى تركه .

94 فُرادى جمع «فريد» ك «رديف» ، و«ردافى» أو جمع «فردان» ك «سكران» و«سكارى» ، وتقول العرب : «فراد» أيضا ك «ثلاث» و«رباع» «5» .

---

(1) الكشاف : 2/ 34 ، والبحر المحيط : 4/ 176 ، والدر المصون : 5/ 31 .

قال الفخر الرازي في تفسيره : 13/ 75 : «قرأ ابن عامر : اقْتَدِهْ بكسر الدال وثم الهاء للكسر من غير بلوغ ياء ، والباقون : اقْتَدِهْ ساكنة الهاء ، غير أن حمزة والكسائي يحذفانها في الوصل ويثبتانها في الوقف ، والباقون يثبتونها في الوصل والوقف .

والحاصل : أنه حصل الإجماع على إثباتها في الوقف . قال الواحدي : الوجه الإثبات في الوقف والحذف في الوصل لأن هذه الهاء هاء وقعت في السكت بمنزلة همزة الوصل في الابتداء ، وذلك لأن الهاء للوقف ، كما أن همزة الوصل للابتداء بالساكن ، فكما لا تثبت الهمزة حال الوصل ، كذلك ينبغي أن لا تثبت الهاء . . . » .

(2) تفسير الفخر الرازي : 13/ 76 ، والدر المصون : 5/ 32 . [. . . . .]

(3) الكشاف : 2/ 35 .

(4) سورة الحجر : آية : 3 .

(5) معاني القرآن للفراء : 1/ 345 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 157 ، وتفسير الطبري :

11/ 544 ، والمفردات للراغب : 375 ، والدر المصون : 5/ 44 .

(263/222)

تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ : ذهب تواصلكم «1» وليس بظرف بل اسم ل «الوصل» «2» فإنه من الأضداد «3» ، ومن نصبه «4» أقره على الظرف على تقدير : تقطّع ما بينكم «5» بل تقطّع السبب بينكم لأن الصلة والموصول كاسم واحد فلا يحذف الموصول .

95 فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى : ففلق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة «6» .

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ : النبات الغض النامي من الحب اليابس ، وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ الحب اليابس ، مِنَ الْحَيِّ النبات النامي «7» .

وقيل «8» : النطفة من الإنسان والإنسان من النطفة .

---

(1) هذا المعنى على قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، وعاصم في رواية أبي بكر برفع النون في بَيْنَكُمْ .

ينظر السّبعة لابن مجاهد : 263 ، وحجة القراءات : 261 ، والكشف لمكي : 1/

.440

(2) قال أبو علي الفارسي في الحجة : 3/ 358 : «والدليل على جواز كونه اسما قوله : وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ [فصلت : 5] ، وهذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ [الكهف : 78] ، فلما استعمل اسما في هذه المواضع جاز أن يسند إليه الفعل الذي هو تَقَطَّعَ في قول من رفع . . .» .

(3) الأضداد لابن الأنباري : 75 ، واللسان : 13/ 62 (بين) .

(4) وهي قراءة نافع والكسائي وعاصم في رواية حفص .

السبعة لابن مجاهد : 263 ، والتبصرة لمكي : 196 .

(5) ينظر معاني القرآن للفراء : 1/ 345 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 459 ، والكشف لمكي :

1/ 441 .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 11/ 551 عن قتادة ، والسّدي ، وابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 1/ 546 عن الحسن ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 90 ، وقال : «روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والسدي ، وابن زيد» .

(7) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 2/ 273 .

ورجحه الطبري في تفسيره: 11/ 553. وأخرج - نحوه - عن السدي، وأبي مالك.

(8) أخرجه الطبري في تفسيره: (11/ 553، 554) عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ونقله الفخر الرازي في تفسيره: 13/ 92 عن ابن عباس أيضا.

(264/222)

---

96 فالِقُ الْإِصْباحِ: شاق عمود الصبح عن سواد الليل «1».

حُسْباناً: حسابا مصدر «حسبته» «2»، أو جمع «حساب» ك «شهاب» و«شهبان» «3»، أي: سيّرهما بحساب معلوم. أو حساب الشهور والأعوام بمسيرهما «4».

97 لِتَهْتَدُوا بِها: النجوم المهتدى بها هي المختلفة مواضعها في الجهات الأربع.

98 فَمُسْتَقَرٌّ في الصّلب، أو على الأرض، وَمُسْتَوْدَعٌ: في الرحم، أو في القبر «5».

---

(1) عن تفسير الطبري: 11/ 554.

وانظر معاني القرآن للزجاج: 2/ 274.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 11/ 559 فقال: «وقد قيل إن «الحسبان» في هذا الموضع مصدر من قول القائل: حسبت الحساب أحسبه حسابا وحسبانا. وحكى عن

العرب : على اللّه حسبان فلان وحسبته ، أي : حسابه» .

وانظر : زاد المسير : 3/ 91 ، وتفسير الفخر الرازي : 13/ 99 .

(3) نص هذا القول في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 201 .

وانظر تفسير الطبري : 11/ 559 ، والكشاف : 2/ 38 ، وتفسير الفخر الرازي : 13/ 105 . [. . . . .]

(4) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 11/ 558 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 91 عن مقاتل .

(5) قال البغوي في تفسيره : 2/ 118 : «روى عن أبيّ أنه قال : مستقر في أصلاب الآباء ، ومستودع في أرحام الأمهات» .

ونقل ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 92 عن ابن بحر قال : «المستقر في الأصلاب ، والمستودع في الأرحام» .

وذكر الفخر الرازي في تفسيره : 13/ 109 : أنّ المستقر صلب الأب والمستودع رحم الأم لأن النطفة حصلت في صلب الأب لا من قبل الغير وهي حصلت في رحم الأم بفعل الغير ، فحصول تلك النطفة في الرحم من قبل الرجل مشبه بالوديعة لأن قوله : فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ يقتضي كون المستقر متقدما على المستودع ، وحصول النطفة في صلب الأب

مقدم على حصولها في رحم الأم ، فوجب أن يكون المستقر ما في أصلاب الآباء ، والمستودع ما في أرحام الأمهات . –

وجمهور المفسرين على أن المراد ب «المستقر» الرحم ، وب «المستودع» الصلب .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (11/ 565 – 571) عن ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وعطاء ، وإبراهيم النخعي ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : (3/ 331 ، 332) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، والحاكم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

قال الطبري – رحمه اللّه – في تفسيره : 11/ 571 : «وأولى التأويلات في ذلك بالصواب أن يقال : وإنّ اللّه جل ثناؤه عمّ بقوله : فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، كلّ خلقه الذي أنشأ من نفس واحدة ، مستقرا ومستودعا ، ولم يخصص من ذلك معنى دون معنى . ولا شك أنّ من بني آدم مستقرا في الرحم ، ومستودعا في الصلب ، ومنهم من هو مستقر على ظهر الأرض أو بطنها ، ومستودع في أصلاب الرجال ، ومنهم مستقر في القبر ، مستودع على ظهر الأرض . فكلّ «مستقر» أو «مستودع» بمعنى من هذه المعاني ، فداخل في عموم قوله : فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ومراد به ، إلّا أن يأتي خبر يجب التسليم له بأنه معني به معنى دون معنى ، وخاص دون عام» .

---

99 نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ : رزقه ، وقيل : نبات كل صنف من النبات «1» ، كقوله «2» : لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ .

وليس إنزال الماء سببا مولدا ولكنه مؤدّ .

حَبًّا مُتَراكِباً : السنبل الذي تراكب حبه .

وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها : ذكر الطلع «3» مع النخل لأنه طعام وإدام بخلاف سائر الأكمام «4» .

---

(1) عن معاني القرآن للفراء : 1/ 347 ، ونص كلام الفراء : «يريد ما ينبت ويصلح غذاء لكل شيء ، وكذا جاء التفسير ، وهو وجه الكلام .

وقد يجوز في العربية أن تضيف النبات إلى كل شيء وأنت تريد بكل شيء النبات أيضا ، فيكون مثل قوله : إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ، واليقين هو الحق» ا ه .

(2) سورة الواقعة : آية : 95 .

(3) نقل الفخر الرازي في تفسيره : 13/ 114 عن أبي عبيدة قال : «و الطلع أول ما يرى من عذق النخلة ، الواحدة طلعة» .

وانظر كتاب النخل لأبي حاتم : 68 ، واللسان : 8/ 238 (طلع) .

(4) تفسير الفخر الرازي : 13/ 115 .

(266/222)

قِنْوانٌ جمع على حد التثنية «1» مثل صِنْوانٌ «2» .

والقنو : العذق «3» .

دانِيَةٌ : متدلية قريبة «4» ، أو دانية بعضها من بعض .

وَيَنْعِهِ : نضجه وإدراكه .

100 وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ : ذلك قولهم : الملائكة بنات اللّه «5» ، سموا جنا لاجتنانهم عن العيون «6» .

والْجِنَّ هو المفعول الأول أي : جعلوا للّه الجن شركاء «7» .

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 202 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 157 ، وتفسير الطبري : 11/ 575 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 275 .

(2) من آية : 4 سورة الرعد .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 202 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 157 ،

والمفردات للراغب : 414 ، واللسان : 15/ 204 (قنا) .

(4) تفسير الطبري : 11/ 576 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 464 ، وزاد المسير : 3/ 94 .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 275 : «و دانية» أي قريبة المتناول ، ولم يقل : ومنها قنوان بعيدة لأن في الكلام دليلا أن البعيدة السحيقة من النخل قد كانت غير سحيقة ، واجتزأ بذكر القريبة عن ذكر البعيدة ، كما قال عز وجل : سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ولم يقل : وسرابيل تقيكم البرد لأن في الكلام دليلا على أنها تقي البرد لأن ما يستر من الحر يستر من البرد» .

(5) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 1/ 549 وعزاه إلى قتادة ، والسدي ، وابن زيد ، ثم قال : «كقوله تعالى : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ، فسمى الملائكة لاختفائهم عن العيون جنة» .

وانظر هذا القول في زاد المسير : 3/ 96 .

(6) تفسير الماوردي : 1/ 549 ، والمفردات للراغب : 99 ، وتفسير الفخر الرازي : 13/ 199 .

(7) معاني القرآن للفراء : 1/ 348 ، وتفسير الطبري : 12/ 7 ، وإعراب القرآن للنحاس :

.87/2

وقال الزجاج في معاني القرآن: 2/ 277: «أما نصب الجن فمن وجهين، أحدهما: أن يكون «الجن» مفعولا، فيكون المعنى: وجعلوا للّه الجن شركاء، ويكون «الشركاء» مفعولا ثانيا كما قال: وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ا ه.

(267/222)

[31/أ] وَخَرَقُوا: كذبوا لأن الكذب خرق/ لا أصل «1» له. ومن شدّد «2» ذهب إلى التكثير والمبالغة «3».

105 وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ: موضع الكاف نصب على صيغة المصدر «4»: أي: نصرف الآيات في غير هذه الصورة «5» تصريفا مثل التصريف في هذه.

وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ: ودارست «6» أي: قرأت وكتبت الكتب وذاكرت

---

(1) معاني القرآن للفراء: 1/ 348، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 157، وتفسير الطبري:

12/ 8، ومعاني القرآن للزجاج: 2/ 278، وتفسير الماوردي: 1/ 550.

[.....]

(2) أي «خرّقوا» بتشديد الراء ، وهي قراءة نافع كما في السّبعة لابن مجاهد : 264 ، والتبصرة لمكي : . 196

(3) معاني القرآن للنحاس : 2/ 466 ، والحجة لأبي علي الفارسي : 3/ 373 ، وزاد المسير :

3/ 97 ، وتفسير القرطبي : 7/ . 53

(4) على صيغة المصدر المحذوف .

وانظر هذا التقدير الذي ذكره المؤلف في تفسير الطبري : 12/ 25 ، والدر المصون :

5/ 93 ، وقدره الزجاج في معاني القرآن : 2/ 279 : «ونصرف الآيات في مثل ما صرفناه فيما تلي عليك» .

(5) في «ك» : «السورة» .

(6) «دارست» بألف ، قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو .

السبعة لابن مجاهد : 264 ، والتبصرة لمكي : 196 .

قال الطبري في تفسيره : 12/ 26 : «اختلفت القراء في قراءة ذلك . فقرأته عامة قراء أهل المدينة والكوفة : وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ، يعني : قرأت أنت ، يا محمد ، بغير ألف . وقرأ ذلك جماعة من المتقدمين ، منهم ابن عباس ، على اختلاف عنه ، وغيره وجماعة من التابعين ، وهو قراءة بعض قراء أهل البصرة : وليقولوا دارست ، بألف ، بمعنى : قارأت

وتعلمت من أهل الكتاب . . . وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب ، قراءة من قرأه : وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ بتأويل قرأت وتعلمت ، لأن المشركين كذلك كانوا يقولون للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد أخبر اللّه عن قبلهم ذلك بقوله : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .

فهذا خبر من اللّه ينبئ عنهم أنهم كانوا يقولون : إنما يتعلم محمد ما يأتيكم به من غيره . . . » .

(268/222)

أهلها ، لام العاقبة «1» ، وقيل «2» : اللام في معنى النفي ، أي : لئلا يقولوا دارست .

108 زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ : أي : العمل المأمور به «3» ، وقيل : التزيين بميل الطباع إلى ابتغاء المحاسن واجتناب الفواحش .

109 وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها : فتح أَنَّها «4» على حذف اللام أي : وما

---

(1) ذكره الزجاج في معاني القرآن : 2/ 280 ، وقال : «و هذه اللّام يسميها أهل اللّغة لام الصيرورة ، وهذا كقوله تعالى : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً فهم لم يلتقطوه يطلبون بأخذه أن يعاديهم ولكن كانت عاقبة أمره أن صار لهم عدوا وحزنا . وكما تقول :

كتب فلان هذا الكتاب لحتفه ، فهو لم يقصد بالكتاب أن يهلك نفسه ، ولكن العاقبة كانت الهلاك» .

وانظر هذا القول في معاني القرآن للنحاس : 2/ 469 ، والتبيان للعكبري : 1/ 528 ، والبحر المحيط : 4/ 198 ، والدر المصون : 5/ 93 .

(2) قال الماوردي في تفسيره : 1/ 551 : «وفي الكلام حذف ، وتقديره : ولئلا يقولوا درست ، فحذف ذلك إيجازا كقوله تعالى : يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا : أي : لئلا تضلوا» .

(3) ذكر الزجاج نحو هذا القول في معاني القرآن : 2/ 281 ، وردّه .

وأورده النحاس في معاني القرآن : 2/ 472 دون عزو ، وعزاه الماوردي في تفسيره : 1/ 552 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 2/ 200 إلى الحسن .

قال أبو حيان : «وما فسر به الحسن قد أوضحه بعض المعتزلة ، فقال : المراد بتزيين العمل تزيين المأمور به لا المنهي عنه ، ويحمل على الخصوص ، وإن كان عاما ، لئلا يؤدي إلى تناقض النصوص ، لأنه نص على تزيين اللّه للإيمان وتكريهه للكفر في قوله : حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ فلو دخل تزيين الكفر في هذه الآية في المراد لوجب التناقض بين الآيتين ، ولذلك أضاف التزيين إلى الشيطان بقوله : فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فلا يكون اللّه مزينا ما زينه الشيطان ، فنقول اللّه يزين ما يأمر به ، والشيطان يزين ما ينهى عنه حتى يكون ذلك عملا بجميع النصوص» انتهى .

قال أبو حيان - وأجيب أن لا تناقض لاختلاف التزيين ، تزيين اللّه بالخلق للشهوات وتزيين الشيطان بالدعاء إلى المعاصي . فالآية على عمومها في كل أمة وفي عملهم» .

(4) على قراءة نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص كما في السبعة لابن مجاهد 265 ، ورجح مكي هذه القراءة في الكشف : 1/ 445 .

(269/222)

يشعركم إيمانهم ؟ لأنها إذا جاءت لا يؤمنون «1» ، أو لا صلة «2» وفي الكلام حذف ، أي : وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو لا يؤمنون ؟ .

وقيل «3» : معنى أَنَّها لعلها .

وكسر إنها «4» لتمام الكلام بقوله : قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ، ثم قال : أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ على الاستئناف «5» .

110 وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ في جهنم على لهب النار «6» ، أو نقلبها في الدنيا

---

(1) الحجة لأبي علي الفارسي : (3/ 377 ، 378) ، والكشف لمكي : 1/ 445 ، وزاد المسير :

3/ 104 .

(2) أي زائدة ، وهو قول الفراء في معاني القرآن : 1/ 350 ، وقال : «كقوله : وَحَرَامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ المعنى : حرام عليهم أن يرجعوا . . .» .

ونسب النحاس في إعراب القرآن : 2/ 90 ، وكتابه معاني القرآن : 2/ 473 هذا القول إلى الكسائي ثم قال : «و هذا عند البصريين غلط ، لأن «لا» لا تكون زائدة في موضع تكون فيه نافية» .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 283 : «و الذي ذكر أن «لا» لغو غالط ، لأن ما كان لغوا لا يكون غير لغو في مكان آخر» .

وانظر الحجة لأبي علي : (3/ 380 ، 381) ، والكشف لمكي : 1/ 444 .

(3) نقله سيبويه في الكتاب : 2/ 123 ، والزجاج في معاني القرآن : 2/ 282 ، والنحاس في إعراب القرآن : 2/ 90 ، وأبو علي الفارسي في الحجة : 3/ 380 عن الخليل ، ورجح الطبري هذا القول في تفسيره : 12/ 43 .

(4) وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو .

السبعة لابن مجاهد : 265 ، والتبصرة لمكي : 197 .

(5) الكتاب لسيبويه : 3/ 123 عن الخليل .

وانظر هذا القول في تفسير الطبري : 12/ 40 ، والحجة لأبي علي الفارسي : (2/ 376 ، 377) ، والكشف لمكي : 1/ 445 ، والبحر المحيط : 4/ 201 ، والدر

المصون: 4/ 101. [. . . . .]

(6) نص هذا القول في تفسير الفخر الرازي: 13/ 154 عن الجبائي.

وردّه الفخر الرازي بقوله: «أما الوجه الذي ذكره الجبائي فمدفوع لأنّ اللّه تعالى قال: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ ثم عطف عليه فقال: وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ ولا شك أن قوله: وَنَذَرُهُمْ إنما يحصل في الدنيا، فلو قلنا: المراد من قوله: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ إنما يحصل في الآخرة، كان هذا سوءا للنظم في كلام اللّه تعالى حيث - - قدم المؤخر وآخر المقدم من غير فائدة. . .».

(270/222)

بالخير «1».

كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أنزلت الآيات فهم لا يؤمنون ثانيها «2»، وعلى الأول كما لم يؤمنوا أول مرّة في الدنيا.

111 قُبُلًا معاينة ومقابلة «3»، رأيته قبلا وقبلا، وقبلا «4».

أو جمع «قبيل» وهو الكفيل «5»، أي: لو حشرنا كل شيء فكفل بما تقول لم يؤمنوا، أو «القبل» جمع «قبيل» والقبيل جمع قبيلة «6»، أي: لو جاءهم كل شيء قبيلة قبيلة

وصنفا صنفا لم يؤمنوا .

113 وَلِتَصْغى إِلَيْهِ : لام العاقبة ، أي : ليصير أمرهم إلى ذلك «7» .

---

(1) تفسير الماوردي : 1/ 553 .

(2) تفسير البغوي : 2/ 123 ، وزاد المسير : 3/ 106 .

وقال الفخر الرازي في تفسيره : 13/ 156 : «دخلت الكاف على محذوف تقديره : فلا يؤمنون بهذه الآيات كما لم يؤمنوا بظهور الآيات أول مرة أتتهم الآيات مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات ، والتقدير : فلا يؤمنون في المرة الثانية من ظهور الآيات كما لم يؤمنوا في المرة الأولى .

(3) ورد هذا المعنى على قراءة نافع وابن عامر : قُبُلًا بكسر القاف وفتح الباء .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 266 ، والتبصرة لمكي : 197 ، وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 12/ 49 عن ابن عباس وقتادة .

(4) قال أبو زيد الأنصاري في النوادر : 235 : ويقال : لقيت فلانا قبلا ، ومقابلة وقبلا ، وقبلا ، وقبليا ، وقبيلا ، وكلّه واحد وهو المواجهة» .

وانظر الحجة لأبي علي الفارسي : 3/ 384 ، واللسان : 11/ 528 (قبل) .

(5) معاني القرآن للفراء : 1/ 350 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 204 ، وتفسير الطبري :

12/ 48 ، ومعاني القرآن للزجاج: 2/ 283 ، ومعاني القرآن للنحاس: 2/ 475 .

(6) معاني القرآن للفراء: 1/ 351 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 204 .

وقال الطبري في تفسيره: (12/ 48 ، 49): «فيكون القبل» حينئذ جمع «قبيل» الذي هو جمع «قبيلة» فيكون «القبل» جمع الجمع» .

(7) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 2/ 284 .

وانظر هذا القول في الكشاف: 2/ 45 ، والبحر المحيط: 4/ 208 ، والدر المصون: 5/ 117 .

(271/222)

---

114 أَبْتَغِي حَكَماً الحكم من كان أهلا أن يتحاكم إليه ، والحاكم من شأنه أن يحكم وإن كان لا يحكم بالحق «1» .

115 وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ: وجبت النصرة لأوليائه .

117 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ: مَنْ يَضِلُّ في موضع نصب وتقديره: بمن يضل ، بدليل ظهور الباء بعده في وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ، أو هو رفع بالابتداء على الاستفهام ويَضِلُّ خبره ، أي: هو أعلم أيهم يضل ، ولا يجوز جرا «2» بإضافة أَعْلَمُ لأن أفعل في الإضافة بعض

المضاف [إليه] «3». وتعالى اللّه عنه.

[31/ب] ولا يجوز أن يكون أَعْلَمُ/ بمعنى: يعلم «4» لأنه لا يطابق وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

118 فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ: فيه ما يخشى على مستحل متروك التسمية الكفر، وهو اقترانه بقوله: إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ.

122 أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ: أي: ضالا فهديناه.

---

(1) قال الماوردي في تفسيره: 1/ 556: «والفرق بين الحكم والحاكم أن الحكم هو الذي يكون أهلا للحكم فلا يحكم إلّا بحق، والحاكم قد يكون من غير أهله فيحكم بغير حق، فصار الحكم من صفات ذاته، والحاكم من صفات فعله، فكان الحكم أبلغ في المدح من الحاكم».

(2) تفسير الطبري: 12/ 66، وقال العكبري في التبيان: 1/ 534: «ولا يجوز أن يكون «من» في موضع جر بالإضافة على قراءة من فتح الياء لئلا يصير التقدير: هو أعلم الضالين، فيلزم أن يكون سبحانه ضالا، تعالى عن ذلك».

وأورد السمين الحلبي في الدر المصون: (5/ 126، 127) وجوه الإعراب التي ذكرها المؤلف، وأورد وجها آخر فقال: «الرابع: أنها منصوبة بفعل مقدّر يدل عليه أفعل، قاله الفارسي...»، ورجح السمين الحلبي هذا القول فقال: «والراجح من هذه الأقوال نصبها بمضمر وهو قول الفارسي، وقواعد البصريين موافقة له».

(3) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(4) رد هذا القول - أيضا - الطبري في تفسيره : (12/ 66 ، 67) .

وانظر البحر المحيط : 4/ 210 ، والدر المصون : 5/ 126 .

(272/222)

---

125 فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ : وهو تسهيل السبيل إلى الإسلام بالدلائل الشارحة للصدر .

والإضلال تصعيبها «1» بالشّبه التي يضيق بها الصدر .

ضَيِّقاً حَرَجاً : ذا حرج «2» ، أو هو بمنزلة «قمن» «3» و «قمن» صفة لا مصدر «4» .

كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ : من ضيق صدره عن الإسلام كمن يراد على ما لا يقدر «5» .

يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ : العذاب في الآخرة واللعنة في الدنيا .

127 لَهُمْ دارُ السَّلامِ : السلامة من الآفات ، عِنْدَ رَبِّهِمْ مضمون عند ربهم .

وَهُوَ وَلِيُّهُمْ : يتولى أمرهم ، أو ينصرهم على عدوهم .

---

(1) في «ج» : تضييعها .

(2) قال الطبري في تفسيره : 12/ 103 : «والحرج ، أشد الضيق ، وهو الذي لا ينفذه

، من شدة ضيقه ، وهو هنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة ، ولا يدخله نور الإيمان ، لرين الشّرك عليه» .

وقال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 290 : «والحرج في اللغة أضيق الضيق» .

[. . . . .]

(3) قمن : بفتح الميم .

قال ابن الأثير في النهاية : 4/ 111 : «يقال : قمن وقمن : أي : خليق وجدير ، فمن فتح الميم لم يثنّ ولم يجمع ولم يؤنث ، لأنه مصدر ، ومن كسر ثنى وجمع ، وأنث ، لأنه وصف ، وكذلك القمين» .

وانظر اللسان : 13/ 347 (قمن) .

(4) هذا المعنى على قراءة : حرجا بكسر الراء ، وهي لنافع ، وعاصم في رواية شعبة . السبعة لابن مجاهد : 268 .

وانظر توجيه هذه القراءة في تفسير الطبري : (12/ 106 ، 107) ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 290 ، والحجة لأبي علي الفارسي : 3/ 401 ، والدر المصون : (5/ 142 ، 143) .

(5) قال النحاس في معاني القرآن : 2/ 487 : «كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لا يقدر على ذلك ، كأنه يستدعي ذلك» .

---

128 يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ : من إغوائهم «1» .

واستمتع الإنس بالجن بتزيين الشهوات والعون على الهوى ، والجن بالإنس باتباعهم خطوات الجن «2» .

إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ : من الفائت قبله إذ الفائت من العقاب ، يجوز تركه بالعفو عنه ، ومن الثواب لا يجوز لأنه بخس .

129 نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً : نسلّط «3» ، أو نكل بعضهم إلى بعض «4» ، كقوله «5» : نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى . وقيل «6» : هو من الموالاة والتتابع في النار .

130 هِدْنا عَلى أَنْفُسِنا

: بوجوب الحجة علينا وتبليغ الرسل إلينا «7» .

135 عَلى مَكانَتِكُمْ : طريقتكم «8» ، أو تمكنكم إن رضيتم بالعقاب .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (12/ 115 ، 116) عن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 1/ 562 عن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد .

وانظر زاد المسير : 3/ 123 .

(2) تفسير الماوردي : 1/ 562 ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 123 وقال : «روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس ، وبه قال محمد بن كعب ، والزجاج» .

(3) أي نسلّط بعض الظلمة على بعض .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 12/ 119 عن ابن زيد ، ونقله الماوردي في تفسيره : 1/ 564 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 124 عن ابن زيد أيضا .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 1/ 563 ، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 124 إلى الماوردي .

(5) سورة النّساء : آية : 115 .

(6) أخرجه الطبري في تفسيره : 12/ 112 عن قتادة .

وانظر تفسير الماوردي : 1/ 564 ، وزاد المسير : 3/ 124 .

(7) تفسير الطبري : 12/ 123 ، وتفسير الماوردي : 1/ 565 ، وزاد المسير : 3/ 126 .

(8) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 1/ 566 .

136 مِمَّا ذَرَأَ : خلق «1» ، مِنَ الْحَرْثِ : سمّوا للّه حرثا «2» ولأصنامهم حرثا ، ثم ما اختلط من حرث اللّه بحرث الأصنام تركوه ، وقالوا : اللّه غنيّ عنه وعلى العكس .

ساءَ ما يَحْكُمُونَ موضع «ما» رفع «3» ، أي : ساء الحكم حكمهم ، أو نصب «4» ، أي : ساء حكما حكمهم .

137 وَلِيَلْبِسُوا : لبست الثّوب ألبسه ، ولبست عليه الأمر ألبسه «5» .

142 حَمُولَةً : كبار الإبل التي يحمل عليها ، وَفَرْشاً : صغارها «6» .

143 ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ : أي : أنشأ الأنعام ثمانية أزواج «7» / من أربعة [32/أ] أصناف ، من كل صنف اثنين ، ذكرا وأنثى ، فذكر الضأن والمعز ثم البقر والإبل .

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 206 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 160 ، وتفسير الطبري : 12/ 130 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 495 .

(2) أي : زرعا .

(3) إعراب القرآن للنحاس : 2/ 97 ، والبيان لابن الأنباري : 1/ 342 . [. . . . .]

(4) قال أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 228 : «ويجوز أن تكون ما تمييزا على مذهب من يجيز ذلك في «بئسما» ، فيكون في موضع نصب ، التقدير : ساء حكما حكمهم» .

وانظر الدر المصون : 5/ 160 .

(5) قال الراغب في المفردات : 447 : «وأصل اللّبس ستر الشيء ، ويقال ذلك في المعاني ، يقال : لبست عليه أمره» .

(6) ينظر معنى «الحمولة» و«الفرش» في معاني القرآن للفراء : 1/ 359 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 207 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 162 ، وتفسير الطبري : 12/ 178 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 503 .

قال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 298 : «وأجمع أهل اللغة على أن الفرش صغارها» .

(7) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 162 : «أي ثمانية أفراد . والفرد يقال له : زوج.

والاثنان يقال لهما : زوجان وزوج» .

وانظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : 498 ، وتفسير الطبري : (12/ 183 ، 184) ، وتفسير المشكل لمكي : 168 .

(275/222)

قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ : إن كان التحريم من جهة الذكر فكل ذكر حرام ، أو من جهة الأنثيين فكل أنثى حرام ، أم الجميع حلال في الحال ثم حرم ما يتولد منه فكله حرام لأن الأرحام تشتمل على الجميع «1» .

نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ : خبروني بعلم .

144 أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ : فخبروني عن مشاهدة فالكلام على أتم قسمة في الإلزام .

146 كُلَّ ذِي ظُفُرٍ : يدخل فيه الإبل والنّعام «2» .

وأظفار الإبل : مناسم أخفافها «3» ، وأظفار السباع : براثنها .

الْحَوايا : المباعر «4» ، بل ما يحوى عليه البطن «5» ، «فواعل» واحدها «حاوياء» «6» ، و«حاوية» مثل : «قاصعاء» «7» ، و«قواصع» ، وإن كان

---

(1) ينظر ما سبق في معاني القرآن للفراء : 1/ 360 ، وتفسير الطبري : (12/ 184 ، 185) ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 299 .

(2) قال الطبري في تفسيره : 12/ 198 : «وهو من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع ، كالإبل والنّعام والأوز والبط» . وأخرج هذا القول عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 2/ 301 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 510 ، وزاد المسير :

3/ 141 .

(3) أي : أطراف أخفافها .

اللسان : 12/ 574 (نسم) .

(4) معاني القرآن للفراء : 1/ 363 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 163 ، ومعاني القرآن للزجاج : 2/ 301 ، قال الطبري في تفسيره : 12/ 203 : «و «الحوايا» جمع واحدها «حاوياء» ، و«حاوية» ، «حويّة» ، وهي ما تحوي من البطن فاجتمع واستدار ، وهي بنات اللبن ، وهي المباعر ، وتسمى «المرابض» ، وفيها الأمعاء» وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (12/ 203 ، 204) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي .

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 1/ 575 عن علي بن عيسى .

(6) عن سيبويه في معاني القرآن للنحاس : 2/ 512 ، وعن الأصمعي في زاد المسير : 3/ 143 .

(7) القاصعاء : جحر الفأر أو اليربوع . اللسان : 8/ 275 (قصع) .

(276/222)

واحدها : «حويّة» فهي «فعائل» ، ك «سفينة وسفائن» .

149 قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ : القرآن ومحمد «1» .

150 قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ : أي : لا يعلم ما ذهبتم إليه بعقل ولا سمع ، وما لا يصح أن يعلم بوجه فهو فاسد ، وإنما أمر بأن يدعوهم إلى الشهادة مع ترك قبولها إذ لم يشهدوا على الوجه الذي دعوا إليه من بينة يوثق بها .

وهَلُمَّ يكون بمعنى تعالوا «2» . . . فلا يتعدى ، وبمعنى ، هاتوا «3» ، فيتعدى تماما .

154 عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ : أي : أحسنه موسى من طاعة اللّه «4» ، أو تماما على إحسان اللّه إلى موسى بالنبوة «5» .

وتَماماً : مفعول له .

---

(1) لم أقف على هذا القول .

وقال البغوي في تفسيره : 2/ 140 : «التامة على خلقه بالكتاب والرسول والبيان» .

وقال ابن كثير في تفسيره : 3/ 352 : «أي : له الحكمة التامة ، والحجة البالغة في هداية من هدى ، وإضلال من أضل . . .» .

(2) مشكل إعراب القرآن : 1/ 227 ، وزاد المسير : 3/ 146 ، وتفسير القرطبي : 7/ 130 .

قال السّمين الحلبي في الدر المصون : 5/ 213 : «و «هلمّ» تكون متعدية بمعنى أحضر ،

ولازمة بمعنى أقبل ، فمن جعلها متعدية أخذها من اللّمّ وهو الجمع ، ومن جعلها قاصرة أخذها من اللّمم وهو الدنو والقرب» .

(3) اختاره أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 248 فقال : «و «هلم» هنا على لغة الحجاز ، وهي متعدية ، ولذلك انتصب المفعول به بعدها ، أي : أحضروا شهداءكم وقربوهم . . .» . [. . . . .]

(4) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 2/ 306 ، وذكره النحاس في معاني القرآن :

2/ 519 ، والماوردي في تفسيره : 1/ 579 .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 154 عن الحسن وقتادة .

(5) ذكره النحاس في إعراب القرآن : 2/ 108 عن المبرد .

(277/222)

---

156 أَنْ تَقُولُوا : لئلا تقولوا «1» ، أو كراهة أن تقولوا «2» .

158 أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ : يصير الأمر كله لله .

بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ : أشراط الساعة «3» .

أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِها خَيْراً : بعمل النوافل ووجوه البر «4» .

159 وَكَانُوا شِيَعاً : اليهود ، شايعوا المشركين على المسلمين «5» .

160 عَشْرُ أَمْثَالِها : عشر حسنات أمثالها «6» .

---

(1) ذكره الفراء في معاني القرآن : 1/ 366 ، وقال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 163 :

«يريد هذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا : إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى قبلنا ، فحذف «لا» .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 2/ 306 ، والبحر المحيط : (4/ 256 ، 257) ، والدر المصون : 5/ 229 .

(2) ذكره الطبري في تفسيره : 12/ 239 عن بعض نحويي البصرة .

قال الزجاج في معاني القرآن : 2/ 307 : «وقال البصريون : معناه أنزلناه ، كراهة أن تقولوا ، ولا يجيزون إضمار «لا» ، لا يقولون جئت أن أكرمك ، أي لئلا أكرمك ، ولكن يجوز فعلت ذلك أن أكرمك ، على إضمار محبة أن أكرمك ، وكراهة أن أكرمك ، وتكون الحال تنبئ عن الضمير . فالمعنى : أنزل الكتاب كراهة أن يقولوا : إنما أنزلت الكتب على أصحاب موسى وعيسى» .

وانظر هذا الوجه في إعراب القرآن للنحاس : 2/ 108 ، ومعاني القرآن للنحاس أيضا :

2/ 521 ، والدر المصون : 5/ 229 .

(3) أخرج الإمام أحمد في مسنده : 3/ 31 عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في قول اللّه عز وجل : يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ قال : طلوع الشمس من مغربها » .

وأخرج نحوه الترمذي في سننه : 5/ 264 ، كتاب التفسير ، باب «ومن سورة الأنعام» ، وقال : «هذا حديث حسن غريب ، ورواه بعضهم ، ولم يرفعه» .

وأخرج الطبري في تفسيره : 12/ 247 عن أبي سعيد الخدري أيضا .

(4) تفسير الطبري : (12/ 266 ، 267) .

(5) لم أقف على هذا القول ، والمراد ب «شيعا» في الآية الكريمة : فرقا وأحزابا ، ويدخل في ذلك اليهود والنصارى ، وليست من المشايعة التي بمعنى المناصرة كما ذكر المؤلف ، والآية فسّرت ذلك : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً . . . .

(6) معاني القرآن للفراء : 1/ 366 ، وتفسير الطبري : 12/ 274 .

(278/222)

و «عشر أمثالها» على صفة عشر «1» .

163 وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ : أي : من هذه الأمة «2» .

164 قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا : استفهام في معنى الإنكار «3» إذ لا جواب لصاحبه إلا أن يبغي اللّه ربا .

165 خَلَائِفَ : يخلف أهل كلّ عصر أهل عصر قبلهم «4» .

وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ : إذ ذاك يدعو إلى طاعة من يملكها رغبة في المرغوب فيه منها ، ورهبة من أضدادها «5» . / ونصب دَرَجاتٍ على [32/ ب] وقوعه موقع «6» المصدر كأن القول رفعه بعد رفعه .

---

(1) بالتنوين ورفع «أمثالها» وتنسب هذه القراءة إلى الحسن ، وسعيد بن جبير ، ويعقوب ، والأعمش ، وعيسى بن عمر .

ذكر النحاس هذه القراءة في إعراب القرآن : 2/ 110 وقال : «و تقديرها : فله حسنات عشر أمثالها ، أي : له من الجزاء عشرة أضعاف مما يجب له ، ويجوز أن يكون له مثل ويضاعف المثل فيصير عشرة» .

ينظر البحر المحيط : 4/ 261 ، والدر المصون : 5/ 238 ، والنشر : 3/ 70 .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 12/ 285 عن قتادة .

وذكره الماوردي في تفسيره : 1/ 583 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 161 عن

الحسن ، وقتادة .

(3) المحرر الوجيز : 5/ 419 ، وتفسير القرطبي : 7/ 156 .

قال أبو حيان في البحر المحيط : 4/ 263 : «الهمزة للاستفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ ، وهو رد عليهم إذ دعوه إلى آلهتهم ، والمعنى أنه كيف يجتمع لي دعوة غير اللّه ربا وغيره مربوب له ؟» .

(4) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 164 ، وتفسير الطبري : 12/ 288 ، ومعاني القرآن للنحاس : 2/ 526 ، وتفسير الماوردي : 1/ 584 ، وزاد المسير : 3/ 163 .

(5) قال الماوردي في تفسيره : 1/ 584 : «يعني ما خالف بينهم في الغنى بالمال ، وشرف الآباء ، وقوة الأجسام ، وإن ابتدأه تفضلا من غير جزاء ولا استحقاق ، لحكمة منه تضمنت ترغيبا في الأعلى وترهيبا من الأدنى لتدوم له الرغبة والرهبة» .

وانظر تفسير الفخر الرازي : 14/ 15 .

(6) في «ج» : موضع . [. . . . .]

في الحديث «1» : «سورة الأنعام من نواجب القرآن» ، ويروى «2» :

«نجائب القرآن» ، [والنجيبة] «3» التي قشرت نجبته ، أي : لحاؤه وبقي لبابه» . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ معاني القرآن / للغزنوي حـ 1 صـ 289. 318 ﴾

---

(1) أخرجه الدارمي في سننه : 2/ 545 كتاب «فضائل القرآن» ، باب «فضائل الأنعام والسور» عن عمر رضي اللّه تعالى عنه .

وفي إسناده زهير بن معاوية عن أبي إسحاق بن سليمان بن أبي سليمان الشيباني الكوفي عن عبد اللّه بن خليفة .

أما زهير فهو ثقة ، وكذلك أبو إسحاق ، ولكنه سمع عن أبي إسحاق بعد اختلاطه .

ينظر التقريب : (218 ، 252) ، والكواكب النيرات : 350 .

وأما عبد اللّه بن خليفة فهو مقبول كما في التقريب : 301 .

وعليه يكون إسناد الدارمي ضعيفا .

والحديث ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث : 2/ 391 ، وابن الأثير في النهاية : 5/ 17 .

(2) غريب الحديث لابن الجوزي : 2/ 391 ، والنهاية : 5/ 17 .

(3) في الأصل : النجيب ، والمثبت في النص عن «ج» .

(4) قال ابن الأثير في النهاية : 5/ 17 : «نواجب القرآن : أي من أفاضل سوره .

فالنجائب :

جمع نجيبة ، تأنيث النجيب . وأما النواجب : فقال شمر : هي عتاقه ، من قولهم : نجبته ، إذا قشرت نجبه ، وهو لحاؤه وقشره ، وتركت لبابه وخالصه» .

(280/222)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والعشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/223)

الجزء الثالث والعشرون بعد المائتين

تابع معانى السورة الكريمة

(4/223)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الأنعام

عدد 5 - 55 - 6

نزلت بمكة بعد الحجر عدا الآيات 2/ 32 و92/ 93 و114/ 141 و151/ 152 و153 فإنها نزلت بالمدينة وهي مئة وخمس وستون آية ، وثلاثة آلاف وخمسون كلمة ، واثنا عشر ألفا وأربعمائة واثنان وعشرون حرفا ، وتقدمت السور المبدوءة بما

بدئت فيه في سورة الفاتحة في ج 1 ، ولا يوجد مثلها في عدد الآي .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

قال تعالى : "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ" ابتدأ جل شأنه الخلق بالحمد في هذه الآية ، وختمه بالحمد ، في قوله جل قوله (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) آخر سورة الزمر الآتية ، وبدأ الربع الأول بحسب ترتيب القرآن الموافق لما هو في علم اللّه بالحمد في سورة الفاتحة ، التي ذكرنا فيها معاني الحمد وما يتعلق فيه في ج 1 ، وفي المقدمة في بحث الحمد أيضا ما به كفاية عن الإعادة في موضع آخر ، وبدأ ربعه الثاني في هذه السورة ، وربعه الثالث بالحمد في سورة الكهف ، وربعه الرابع بالحمد في سورة فاطر ، كل ذلك لتعظيم الحمد لديه تعالى ولحث عباده على المداومة عليه لما فيه من الفضل الجزيل والثواب الكثير وحق التأدية لنعم اللّه تعالى ، وبين لهم كيفيته ليحمدوه بها ، وجملة الحمد هنا وفي كل موضع خبرية لفظا إنشائية معنى ، إلى أن من يقول الحمد للّه كأنما قال أحمده على الدوام والاستمرار ، وخص السموات والأرض لأنهما من أعظم مخلوقاته فيما يراه الناس ، وإلا فالعرش والكرسي أعظم بكثير ، وقد جاء في الخبر أن أرضكم هذه بالنسبة لعرش الرحمن كحلقة ملقاة بفلاة ، وال فيها للجنس فتشمل جميع أفرادها ، وإذا كانت للعهد فالمعهود كلاهما أيضا ، وإذا أريد الاستغراق فكذلك فهي صالحة للجميع .

قال تعالى "وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ" فيها إذ خلقها بعد خلقها ، وجعل فيهما منافع جمة للعباد والحيوان والجماد ، ومنهما جعل الليل والنهار ، وفي هذه الآية رد على الثنوية القائلين بقدم النور والظلمة ، وقد أفرد النور لإرادة الجنس فيصدق على الواحد والمتعدد ، وجميع الظلمات باعتبار الإفراد يشمل ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الموقع وظلمة البطن لمخالفة كل منها الأخرى ، والنور لا يختلف .

مطلب نشأة الكون ومبدأ الخلق وأن لكل إنسان أجلين وما يتعلق بذلك :

ومن هذا الترتيب يفهم أن خلق السموات قبل الأرض والظلمة قبل النور ، إلا أن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب كما هو ظاهر .

قال تعالى (خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) وقال تعالى (يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ) الآية الأولى من سورة تبارك الملك الآتية ، والثانية الآية 55 من المائدة في ج 3 ، وقدمنا ما يتعلق بنشأة الكون في الآية 27 من سورة الحجر المارة وما يتعلق بمبدأه ولبحثها صلة في الآية 30 من سورة الأنبياء الآتية "ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ 1" يساوون به غيره من الأوثان بعد أن علموا أنه الخالق ، لذلك كله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وبعد أن جعل هذه المخلوقات لمنافعهم ذكرهم بأصول خلقهم علهم ينتهون فقال "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ" ابتدأ خلق أبيكم آدم منه ، أخرج أبو داود والترمذي عن أبي موسى الأشعري قال : سمعت رسول الله

صلّى اللّه عليه وسلم يقول إن اللّه تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض (أي ألوانها) منهم الأحمر ومنهم الأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك .

(6/223)

وقد نزلت هذه الآية ردا على المشركين الذين ينكرون البعث بعد الموت يفهمهم فيها أن الذي يخلق من الطين بشرا ألا يقدر على إعادته بعد فنائه وإحيائه بعد إماتته ، بلى ، وهو أهون عليه ، لأن الخلق الأول على غير مثال سابق والإعادة عبارة عن خلقه على حالته الأولى ، فالذين يعملون الآن السيارات والطيارات والدبابات والقذائف والألغام وغيرها لا فضل لهم بها لأن الفضل كله إلى الذي ابتكر صنعها إبداعا بتعليم اللّه إياه ، ولهذا يقول اللّه تعالى (أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ) الآية 15 من سورة ق في ج 1 ، وإنما قال ذلك لأن الخلق الثاني عبارة عن إعادة ما خلقه أولا وليس بشيء عنده ، واعلم أن ما يخلقه الإنسان هو من خلق اللّه ، قال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) الآية 97 من الصافات الآتية ، وإن عملهم هذا تقليد للمخترع الأول الذي ابتكر صنعها ليس إلا ، لأن الشيء بعد إيجاده يسهل

تقليده والعسر كل العسر في إبداعه وتصويره وإنشائه ، ولا سواء بين الخالق والمخلوق ، لأن المخلوق يحتاج للتعب والتفكر والتدبر وما يعتمد

(7/223)

عليه من آلات ومعادن واحتياجه إلى المعونة ، والله تعالى يقول للشيء كن فيكون حالا إذا أراده بين الكاف والنون ، أنظر بساط سليمان عليه السلام المشار إليه في الآية 12 من سورة سبأ الآتية ، وسفينة نوح عليه السلام الملمع إليها في الآية 41 من سورة هود المارة وقس بينهما وبين طائراتنا ومراكبنا وخذ العبرة ، فإن البساط يطير والسفينة تجري بمجرد قولهما بسم الله وينزل البساط وترسو السفينة بمجرد قولهما باسم الله أيضا دون حاجة إلى رجال وآلات وزيت وكاز وغيرها ، ومصنوعات البشر تحتاج لذلك كله فضلا عن أنها معرضة للخراب وهلاك ركابها ، وصنع الله لا يخرب وأهلها في مأمن من ذلك "ثُمَّ قَضَى أَجَلًا" لكل شيء خلقه من وقت بروزه وتكوينه ، أي وقت ولادته ووجوده ومن الولادة والوجود إلى وقت الموت والفناء "وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ" قضاء أيضا لهذه المخلوقات غير الأجلين المذكورين وهو من الموت والفناء إلى البعث والنشور ، ومنهما إلى دخول الجنة والنار ، فيكون لكل أجلان في الدنيا والآخرة لا يعلم مقدارهما ووقتهما إلا هو ، لأنه من

جملة الخمسة التي اختص بها نفسه المقدسة المذكورة آخر سورة لقمان الآتية ، قال ابن عباس رضي عنهما في تفسير هذه الآية : لكل أحد أجلان (يريد في الدنيا والآخرة كما جرينا عليه) فإن كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث إلى أجل العمر أي في الدنيا ، وإن كان فاجرا قاطعا للرحم نقص له من أجل العمر وزيد في أجل البعث ، مستدلا بقوله تعالى (وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ) الآية 7 من سورة فاطر المارة في ج 1 ، ولهذا البحث صلة في الآية 39 من سورة الرعد في ج 3 ، وفي الآية 4 من سورة نوح ، والآية 9 من سورة إبراهيم الآتيتين ، وبهذا قال قتادة والحسن والضحاك ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : الأول أجل الدنيا والثاني أجل الآخرة ، أي

بقطع النظر عن أجل البرزخ لدخوله في أجل الآخرة ، والظاهر هو ما جرينا عليه في تفسير الآية ، ومعنى قضى قدر وحكم وكتب في الأزل ، ويراد بالكتابة ما تعلمه الملائكة ، كما جاء في حديث الصحيحين : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح

ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد "ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ 2" في آلهتنا وتشكون في وحدانيتنا ، مأخوذ من المرية أو تجادلون إذا كان المراء ، وقد أتى بحرف التراخي في الآيتين للاستبعاد في هذا الشك بعد أن ثبت أن الفاعل لخلق السموات وما بعدها الوارد ذكره في الآية والقادر على الإحياء والإماتة والبعث هو اللّه وحده ، ومع هذا يشكون ويجادلون "وَهُوَ اللَّهُ" الإله الواحد المعبود بحق "فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ" وهذه على حد قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ) الآية 48 من سورة الزخرف الآتية "يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ" في أعمالكم وأقوالكم "وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ 3" من خير أو شر في الخفاء والجهر ، وما يستحقه كل منكم من ثواب وعقاب "وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ" ومالك أمرهم ومربيهم على يد رسولهم "إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ 4" لا يلتفتون إليها ولا يحترمونها ولا ينظرون إلى من أنزلت عليه ولا لمن أنزلها لهم ، ووصف اللّه تعالى كفار مكة بكثرة التهاون في ذلك حتى كأنهم لم يرسل إليهم رسولا ولم يظهر لهم آية "فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ" المنزل إليهم وهو القرآن الذي شرفنا به نبيهم آية عظيمة على صدقه "لَمَّا جاءَهُمْ" به وتلاه عليهم "فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ 5" عند نزول العذاب عليهم في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء ، ويوم القيامة بالإحراق بالنار ، وحينذاك يعرفون عاقبة استهزائهم وأخبار سخريتهم وإعلام تكذيبهم ، وفيها من الوعيد ما لا يخفى .

قال تعالى "أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ" من زمن نوح إلى زمنهم ، لأن القرن هنا عبارة عن كل أمة هلكت ولم يبق منها أحد وهو المراد والله أعلم ، وإن كان القرن يطلق على مطلق الوقت ، والزمن ما بين عشر سنين ومئة سنة على أقوال فيه ، راجع الآية 38 من سورة الفرقان في ج 1 وهؤلاء المهلكون قد "مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ" جعلناها قرارا لهم ومكنّا لهم فيها وملكناهم وزودناهم بالأموال والأولاد "وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً" لتكثير خيراتهم ودوامها بتتابع الغيث على أراضيهم "وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ" زيادة في التنعيم وسقي جناتهم ولابتهاج النظر إليها ، و لما أرسلنا الرسل ودعوهم للإيمان بنا وبرسلنا والوفاء بالعهد الذي أخذ عليهم في عالم الذر وترك الأوثان والتمسك بطرق الخير وترك سبل الشر والإيمان بالبعث بعد الموت (راجع الآية 172 من سورة الأعراف في ج 1) لم يلتفتوا إليهم وأنكروا عليهم دعوتهم وكذبوهم "فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ" لأنهم لم يراعوا حقّ نعمتنا المتوالية عليهم ولم يصدقوا رسلهم "وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ 6" بمقتضى سنتنا المطردة وهي أنا كلما أنشأنا قرنا ودعوناه للإيمان بنا فلم يؤمن أهلكناه وأنشأنا غيره ،

وأنتم يا أهل مكة سيكون مصيركم الهلاك إن لم تؤمنوا بنبيكم لأنا لا نخرم سنتنا ، قال النضر بن الحارث وعبد اللّه بن أمية ونوفل بن خويلد :

(11/223)

لا نؤمن بك يا محمد حتى تأتينا بكتاب من عند اللّه مع أربعة من الملائكة يشهدون على أنه من عند اللّه وأنك رسول اللّه ، فأنزل اللّه "وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ" وظهر لهم كما أرادوا ، لأن اللمس أبلغ من المشاهدة "لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا" والمقترحون خاصة "إِنْ هذا" ما هو بقرآن ولا هو مكتوب على ورق وليس بشيء وإن كنا نراه ما هو "إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ 7" تخيّل علينا به ووقّه كما قالو في انشقاق القمر تعنتا وعنادا لأنهم لا ينتفعون بالآيات بسبب إصرارهم على الكفر "وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ" يشهد له بأنه مرسل من اللّه لآمنا به وصدقناه .

قال تعالى "وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً" على رسولهم محمد كما طلبوا "لَقُضِيَ الْأَمْرُ" بإهلاكم لأنا لا نرسل الملائكة إلا لتنفيذ أوامرنا وإنجاز وعيدنا وقد جرت عادتنا أن كل أمة اقترحت على نبيها شيئا وآتاهم ما اقترحوه ولم يؤمنوا استأصلناهم بالعذاب ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ 8" إذ لا تقبل التوبة عند نزوله ، وإنما لم نفعل ذلك لما هو ثابت في علمنا أزلا أن منهم من يؤمن "وَلَوْ

جَعَلْناهُ" ذلك الرسول "مَلَكاً" وهذا رد لقولهم لو شاء ربك لأنزل ملائكة لهداية البشر ، لأن البشر لا يهدي مثله بزعمهم الباطل "لَجَعَلْناهُ رَجُلًا" على صفة المرسل إليهم ، لأن البشر لا يستطيع النظر إلى صورة الملك الحقيقية ، ولذلك حينما نرسل الملائكة إلى البشر نرسلهم بصورة البشر كما فعلنا ذلك مع داود ولوط وابراهيم وكما جاء جبريل إلى محمد بصورة

(12/223)

دحية الكلبي مرارا وبصورة اعرابي غير معروف وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة في الحديث المشهور "وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ 9" بأن نجعل الملك بصورة البشر فنوهم عليهم ونشبّه لهم فنشكل الملك بالبشر حتى يختلط عليهم الأمر فلا يعرفوه أبشر هو أم ملك ، فيظنونه بشرا ويقولوا مقالتهم هذه بأنهم لا يرضون برسالة البشر ، وتعود المسألة بحالها دورا وتسلسلا ، وإذ ذاك أيضا يقولون ما هو إلا بشر مثلكم فكيف تطيعونه ، هذا وإن محمدا صلّى اللّه عليه وسلم في الحقيقة بشر ولكنه ليس مثلهم ، لأن اللّه تعالى فضله بوحيه وشرفه برسالته ، وأعطاه ميزة على جميع خلقه وخصّه بأشياء لم يطلع عليها غيره ، لهذا فإنه صار بحقيقة سامية وصفة كريمة لا يقدره إلا الذي أرسله ، وللّه در القائل :

محمد بشر وليس كالبشر محمد جوهر والناس كالحجر

وقال الأبو صيري :

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق اللّه كلهم

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

ثم شرع يسليه ربه بذكر ما وقع لإخوانه الرسل قبله مع أممهم فقال جل قوله "وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ" كما استهزأ بك قومك "فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ" العذاب الذي لا مرد له ، وحاق بمعنى حل ونزل وتفيد معنى الإحاطة ولا تكاد تستعمل إلا بالبشر وقيل في المعنى :

فأوطأ جرد الخيل عقر ديارهم وحاق بهم من بأس ضربة حائق

وهذه الإحاقة جزاء "ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ 10" فاهلكوا جميعا بسبب إيذائهم أنبيتهم ، وفيه تحذير لكفار مكة بأنهم إذا لم يقلعوا عما هم عليه من الإيذاء لحضرة الرسول فإن اللّه يسلط عليهم عذابا يهلكهم به كما فعل بغيرهم

(13/223)

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا" ببصركم وتأملوا ببصيرتكم على تأويل النظر بالاعتبار ، وقد يؤول السير أيضا بالاعتبار وبالشيء على الأقدام ، أي اعتبروا وانظروا "كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ 11" أمثالكم إذ أورثهم كفرهم

وتكذيبهم الدمار حتى صارت أطلال بلادهم عظة لمن يمر بها وقصتهم عبرة لمن يتفكر بها ، فيا أكرم الرسل سل كفرة قومك و"قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" فإن أجابوك بأنها وما فيها ملك لله فعليهم أن يؤمنوا به لأن المملوك تابع لسيده ، وإن لم يجيبوك فأخبرهم أنت و"قُلْ لِلَّهِ" وحده فإنهم لا يستطيعون أن يجادلوك في ذلك ، لأنهم يعرفون أن أصنامهم مملوكة لا مالكة ويعلمون أنهم وأصنامهم وما تملكه أيديهم لله يتصرف فيه حسبما يشاء ولا يقدرون أن يقولوا خلاف هذا ، لأنهم يتحاشون عن الكذب وينتقد بعضهم بعضا به ، ومنهم من يقتلون الكاذب كقوم يونس قبل إيمانهم ، قاتلهم الله ولا يتحاشون عن الكفر .

ولما بين تعالى كمال قدرته بمخلوقاته أردفه بكمال إحسانه إليهم فقال "كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" لعباده وهو منجز وعده بها لهم لا محالة وعليهم أن يكونوا أهلا لها ليحلّها عليهم .

مطلب في الرحمة ومعنى كتبها على نفسه المقدسة وأن الضار والنافع هو الله تعالى :

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي .

وفي البخاري :

إن اللّه كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش .

(14/223)

وروى مسلم عن سلمان الفارسي قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه خلق يوم خلق السموات والأرض مئة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها فى الأرض رحمة واحدة (أي وأخر التسعة والتسعين كما مر في الآية 50 من سورة الحجر المارة) فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة .

وروى البخاري ومسلم عن عمر قال : قدم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم سبي فإذا امرأة من السبي تبتغي (تطلب وتتحرى) إذ وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا لا واللّه وهي تقدر أن لا تطرحه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم للّه أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها .

راجع الآية 50 المذكورة آنفا تجد ما يتعلق بهذا البحث "لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ

فِيهِ" بأنه آت بلا شك "الَّذِينَ" نصب بفعل الذم المقدر

ينبىء عنه "خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ" باختيارهم ورضى منهم "فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ 12" لشقائهم الأزلي بسوء نياتهم وخبث صنايعهم "وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ" وما تحرك فيهما من إنسان وحيوان من كل نام وجامد في البر والبحر والهواء ملك للّه وحده.

(15/223)

وقد اكتفى بذكر أحدهما عن الآخر على حد قوله (سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) الآية 82 من سورة النحل الآتية للعلم به "وَهُوَ السَّمِيعُ" لأقوال وأفعال وإحساس كل متحرك وجامد ونام قالا أو حالا على اختلاف لغاتهم وأصواتهم "الْعَلِيمُ 13" بما يحتاجه كل منهم وما يفعله سرا وعلانية وما يفعل به من خير أو شر والفاعل أيضا ، فيا أكرم الرسل "قُلْ" لهؤلاء الكفرة الذين يعبدون الأوثان ويدعونك لعبادتها "أَغَيْرَ اللَّهِ" أيها الجهلة يسوغ لي "أَتَّخِذُ وَلِيًّا" وهو ولي كل شيء القادر على كل شيء كلا لا يصح ولا يستقيم لي أن أتخذ غيره أبدا ، وكيف يسوغ لي التصدي لذلك مع الإله العظيم "فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" قرىء بالجر صفة للفظ الجليل ، وبالنصب على المدح أو الاختصاص ، وبالرفع على الابتداء وهو أولى بالنسبة لقوله تعالى "وَهُوَ يُطْعِمُ" جميع خلقه بما يدرّه عليهم من الرزق لكل بما يناسبه وبقدر حاجته

"وَلا يُطْعَمُ" من قبل أحد لاستغنائه عن مخلوقاته واحتياج الكل إليه فهو الغني وهم الفقراء ومن هذه صفته وجب أن يتخذ إلها ووليا لا غير "قُلْ" هذا لهم يا حبيبي وقل لهم أيضا "إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ" من هذه الأمة الموجودة على البسيطة وأنقاد لطاعة ربي الذي قال لي أسلم "وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ 14" بي أحدا غيري ولا شيئا من خلقي ، هذا ومن عطف هذه الجملة على الأمر تكلف بتحوير لفظ الفعل إذ يكون المعنى وأمرت أن لا أكون من المشركين ، لهذا فإن انقطاعها على الاستئناف وحملها على غيره صلّى

(16/223)

اللّه عليه وسلم من أمته كما هو الشأن في الآيات المماثلة المارة آخر سورة القصص والآية أواخر سورة الزمر أولى كما جرينا عليه أي أمرت بالإسلام وقد نهيت ونهيتم أيها الناس عن الشرك وهي رد على غواة قومه الذين كلفوه أن يكون على دينهم "قُلْ" لهم أيضا "إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي" بعبادة غيره خلافا لما أمرني به وكلفني بتبليغه إليكم "عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

15 " لا مخلص منه لأحد "مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ" أي ذلك العذاب ويتخلص من وباله "يَوْمَئِذٍ" عند حلوله في موقف القيامة المهيب "فَقَدْ رَحِمَهُ" اللّه بالنجاة منه وفاز بخير الدنيا والآخرة

لأنهما حالتان واقعتان لا ثالث لهما ، إما الرحمة والجنة أو العذاب والنار "وَذَلِكَ" صرف العذاب الناتج عنه دخول الجنة "الْفَوْزُ الْمُبِينُ 16" الذي لا غبار عليه "وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ" أيها الإنسان "بِضُرٍّ" من كلّ ما تكرهه نفسك "فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ" وحده جل جلاله "وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ" من كل ما تحبه نفسك فكذلك لا راد له إلا هو "فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ 17" ومن جملة الأشياء المقدورة دفع الضر وجلب الخير لمن يشاء ، وهذا الخطاب وإن كان خاصا بحضرة الرسول إلا أنه عام له ولأمته .

فيعلم من هذه الآية أن الضار

الحقيقي والنافع هو اللّه تعالى وحده لا دخل لأحد من خلقه به البتة ، وإن ما نراه من وجود النفع والضر بواسطة بعض خلقه هو بتقديره أيضا ، لأنه عبارة عن واسطة وأسباب ظاهرية اقتضت حكمته وجودها على أيديهم وفقا لسابق علمه الأزلي بحدوثها كذلك فسخرهم للقيام بها .

(17/223)

أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : كنت خلف النبي صلّى اللّه عليه وسلم يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده تجاهك

، إذا سألت فاسأل اللّه ، وإذا استعنت فاستعن باللّه ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، أي بما هو كائن بحيث لا يبدل ولا يغير ولو أطبقت عليه أهل السماء والأرض لأنه من كلام اللّه ، وقد قال جل شأنه (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) الآية 84 من سورة الإسراء في ج 1 ، وقد زاد رزين بالحديث السابق .

(تعرّف إلى اللّه في الرخاء يعرفك في الشدة ، وفيه أيضا : إن استطعت أن تعمل للّه بالرضاء باليقين فافعل ، فإن لم تستطع فاصبر فإن الصبر على ما تكره خير كثير) واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسرا ، ولن

يغلب عسر يسرين .

ومثله في سند أحمد بن حنبل ، فينبغي لكل مؤمن أن يجعل هذا الحديث الصحيح أمام عينيه ، ومرآة قلبه ، وشعار حديثه ، فيعمل به ويأمر به غيره ، ففيه العزّة باللّه والراحة لنفسه ، ورفع العتب عن الغير ، وفي هذه الآية الجليلة ردّ على من يرجو كشف الضر من غيره تعالى ، وعلى من يؤمل قضاء مصلحته من غيره ، وليس فيها ما يمنع الأسباب الظاهرة

والتوسل بها ، بل ذلك مطلوب ، وإنما عليه بعد ذلك أن يجزم بأن ما يكون له هو المقدر عليه أو له لا غير ، وأن اللّه تعالى مجريه لا محالة سعى أو لم يسع .

(18/223)

قال تعالى "وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ" المتسلط عليهم فلا يقدر أحد أن يخرج من تحت قهره ، وهذا هو معنى القاهر لأنه عال على المقهور ، فهو جل شأنه يدبر أمر خلقه فيما يريده لا يحول دونه حائل ، ينعّم ويعذب ، ويفرح ويحزن ، ويغني ويفقر ، ويصح ويمرض ، ويعز ويذل ، ويحيي ويميت ، لا يستطيع أحد رد شيء مما قدره "وَهُوَ الْحَكِيمُ" بما يفعل بعباده "الْخَبِيرُ 18" بما يقع في ملكه ، وهذه الآية من آيات الصفات التي ألمعنا إليها في الآية 5 من سورة طه في ج 1 ، وبما في الآية 3 من سورة يونس المارة المحال التي تبحث عن آيات الصفات كهذه فراجعها ، وهي لا تقضي إثبات الفوقية بمعنى الجهة للّه ، تعالى اللّه عنها ، وإنما هي بمعنى العلو والغلبة كما ذكرنا ، على أن مذهب السلف الصالح جعلنا اللّه من أتباعهم إثبات الفوقية المطلقة للّه تعالى تحاشيا عن ضدّها لما فيها مما لا يليق بجانبه العالي كما أثبته الإمام الطحاوي وغيره بأدلة كثيرة ، روى الإمام وأحمد في حديث الأوعال عن العباس رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : والعرش فوق ذلك ، واللّه فوق ذلك كله .

وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن مطعم عن أبيه عن جده قوله صلّى اللّه عليه وسلم للرجل الذي استشفع باللّه تعالى : ويحك أتدري ما اللّه تعالى ؟ إن اللّه تعالى فوق عرشه ، وعرشه فوق سمائه ، وقال بأصابعه مثل (القبة) وانه ليئط أطيط الرحل الجديد بالراكب .

وأخرج الأموي في مغازيه من حديث صحيح أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال لسعد يوم حكم في بني قريظة : لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات .

وروى ابن ماجه يرفعه قال : بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم فإذا

(19/223)

الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال يا أهل الجنة سلام عليكم ، ثم قرأ صلّى اللّه عليه وسلم قوله تعالى (سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) الآية 59 من سورة يس المارة في ج 1 ، فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه .

وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى حكاية عن إبليس لعنه اللّه (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) الآية 17 من سورة الأعراف في ج 1 ، أنه قال لم يستطع أن يقول من فوقهم لأنه قد علم أن اللّه تعالى فوقهم .

وجاء فيما أخرجه مسلم من قوله صلّى اللّه عليه وسلم وأنت الظاهر فليس فوقك شيء

، وقوله تعالى (تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) الآية 43 من فصلت الآتية ولا يكون التنزيل إلا من الفوق ، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة ، كقوله تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ الآية 10 من سورة فاطر المارة في ج 1 ، وقوله تعالى (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) الآية 158 من سورة النساء في ج 3 ، وقوله جل شأنه (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) الآية 5 من سورة المعارج الآتية والصعود والرفع والعروج لا تكون إلا لجهة الفوق ، وقد سأل أبو مطيع البلخي أبا حنيفة رضي الله عنهما عمن قال لا أعرف ربي سبحانه في السماء أو في الأرض ، فقال قد كفر لأن الله تعالى يقول (الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى) وعرشه فوق سمواته ، فقال قلت فإن قال إنه على العرش ، ولكن لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ، فقال هو كافر ، لأنه أنكر آية في السماء ، ومن أنكر آية في السماء فقد كفر ، فقد ثبت لك من أقوال الله ورسوله والأئمة من المسلمين بأنه لا مانع من إطلاق الفوقية على الله تعالى ، وأنه لا يجوز عليه سواها ، تدبر .

(20/223)

قال تعالى "قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً" نزلت هذه الآية في المشركين القائلين لحضرة الرسول أرنا من يشهد لك أنك رسول الله لأن أهل الكتاب يزعمون أن ليس لك ذكر في كتبهم ، أي

عليك يا سيد الرسل أن تقول لهم اللّه يشهد بذلك ولا أعظم من شهادته فإن صدقوك فيها وإلا "قُلِ اللَّهُ" ربي وربكم ورب كل شيء هو "شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" على دعوى رسالته إليكم "وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ" من لدنه يا قوم "لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ" من سوء ما يحل بكم إذا لم تركنوا لأمره

ونهيه وأخوفكم عاقبة عدم إيمانكم به فهي عاقبة وخيمة "وَ" وأنذر أيضا "مَنْ بَلَغَ" أمره إليه ممن يأتي بعدكم إلى يوم القيامة .

روى البخاري عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : بلّغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج .

أي مهما قلتم عن بني إسرائيل فقولوا فلا ضيق عليكم بالمنع ولا إثم في ذلك ، لأنهم كانوا في حال أكثر مما قلتم وأوسع .

وفي هذا الحديث رخصة عن جواز التحدث عنهم على معنى البلاغ ، وإذا لم يتحقق فقل لتعذر تحققه عنهم لطول المدة وعدم الضبط ، وليس في هذا الحديث ما يفهم منه إباحة الكذب في الإخبار عنهم وإنما جواز نقل الأخبار الواردة عنهم في كتبهم ، وفي بعض القصص التي لم ينص على كذبها ولم تخالف صراحة ما جاء في كتاب اللّه وحديث رسوله ، فقد أخرج الترمذي عن ابن مسعود قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول نضّر اللّه امرأ سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى له من سامع .

وعن زيد ابن ثابت قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول نضّر اللّه امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى بلّغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه .

(21/223)

"أَإِنَّكُمْ" أيها الناس الكافرون "لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى " وتقرّه عقولكم أيها الحمقاء فيا أكرم الرسل إذا أصر هؤلاء على مقالتهم هذه ولم يتعظوا بما تقدمت إليهم من النصح ولم يصغوا لكلام ربك "قُلْ لا أَشْهَدُ" أنا البتة بذلك وأكد لهم قولك هذا و"قُلْ إِنَّما هُوَ" الإله المعبود في السموات والأرض "إِلهٌ واحِدٌ" لا إله غيره واقطع أطماعهم بقولك "وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ" 19 " به من الأوثان .

هذا وقد استنبط العلماء من هذه الآية استحباب قول الرجل أو المرأة أو غيرهما كل يوم : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدا رسول اللّه برئت من كل دين يخالف دين الإسلام .

وتدل هذه الآية على جواز اطلاق الشيء على اللّه لأنه اسم للموجود ، ولا يطلق على العدم ، قال في بدء الأمالي :

فسمّى اللّه شيا لا كالاشيا وذاتا عن جهات الست خالي

وما المعدوم مرئيا وشيئا لفقه لاج في ضوء الهلال

وقال المتكلمون (والشيء عندنا هو الموجود) وهذه الآية المدنية الأولى من هذه السورة ، قال تعالى "الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ" على يد رسلهم ولسانه من اليهود والنصارى الذين منهم من ينكر صفة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ورسالته في كتبهم هم أنفسهم "يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ" وقد كذبوا بما قالوه من إنكارهم نعته فيها ، خصّ تعالى ذكر الأنبياء لأن الناس أشد معرفة بهم من غيرهم ومع هذا بأنهم يعرفون محمدا بما وضح من وصفه في كتبهم أكثر معرفة من أبنائهم الذين يشاهدونهم صباح مساء ، هذا قول اللّه ولا أصدق من اللّه قولا ، وقد حدث به رسول اللّه ولا أصدق منه حديثا ، قال عبد اللّه بن سلام إلى عمر بن الخطاب حين أسلم :

(22/223)

يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد مني بابني ، فقال عمر وكيف ذلك ، قال أشهد أنه رسول اللّه حقّا بإخبار اللّه تعالى في كتابه وعلى لسان رسله ، ولا أصدق من هذا الإخبار ، أما ابني ففي مظاهر الحال ابني ولكن لا أدري ما تصنع النساء إن النساء المتزوجات قد يحملن من غير أزواجهن فلا يدري الرجل إلا ان المولود

ولد من زوجته التي هي في حجره وفراشه ، فينسب إليه وقد يلحقه الشك في ذلك ، أما محمد صلّى اللّه عليه وسلم فلا مرية ولا شبهة أنه رسول اللّه حقا لما رأينا من أوصافه وعلاماته في التوراة ومعجزاته في القرآن .

ولهذا فإن الجاحدين نبوته هم "الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ" وباعوها بالكذب والإنكار "فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ 20" به ولا يوفقون للإيمان باللّه الذي أرسله جزاء جحودهم له عتوا وعنادا .

انتهت الآية المدنية وهي كما ذكرنا في غيرها من كونها كالمعترضة بين ما قبلها وما بعدها ، قال تعالى منددا من نسب إليه ما لا يليق بذاته المقدسة وأنكر ما جاء به على لسان رسله "وَمَنْ أَظْلَمُ" لا أحد أشد ظلما وأكثر بغيا وأعظم بهتا "مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" وزعم أن له شريكا أو أنه لم يرسل محمدا أو لم ينزل كتابا عليه "أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ" المنزلة عليه ومعجزاته التي أظهرها اللّه على يديه وكذلك سائر الأنبياء ، فلا أقبح ولا أشنع ولا أفظع ممن هذه سجيته ، ولا أخسر منه صفقة ولا أشد عنادا ولا اخطأ فعلا ولا أكبر كفرا ولا أكثر بغيا ، لأنهم كذبوا على اللّه باتخاذ الشريك وكذبوه بإرسال الرسل ، وكذبوا الرسل بأنهم

رسل اللّه وأنه لم ينزل عليهم كتابا ، هؤلاء المشئومون أكثر الناس ظلما واللّه تعالى يقول "إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ 21" بالنجاة من العذاب ولا يفوزون بخير ولا ينجحون بأمل ، واذكر يا أكرم الرسل لقومك وغيرهم "يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً" العابدون والمعبودون والمقترحون والمكذبون والجاحدون والمنكرون "ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا" في الموقف يوم القيامة "أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ 22" في الدنيا أنها تشفع لكم وعبدتموها من دون اللّه الملائكة وغيرهم من الإنسان والكواكب والحيوان والجماد فيسكتون بدليل حرف التراخي المبين بقوله "ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ" معذرتهم التي يعتذرون بها لأن الفتنة هي التجربة ، ولما كان سؤالهم هذا تجربة لإظهار ما في قلوبهم من الكفر ، وسمى جوابهم فتنة لأنهم كانوا مفتونين في محبة أوثانهم التي يعبدونها من دون اللّه في الدنيا كما يفتتن العاشق بمعشوقته ، فإذا أصابته محنة من أجلها تبرأ منها بعد قضاء وطره ، ومثلهم في الدنيا كمثل بعض الأكراد والحوارنه الذين يغرون الفتيات والنساء ويخطفونهنّ ويفترسونهنّ حالا بسائق الشهوة الخبيثة ، حتى إذا أدركتهم الحكومة وحبسوا وعذّبوا أنكروا إغواءهنّ ليتخلصوا من الجزاء الشاق ، وما هو بنافعهم ، وهؤلاء الكفرة كذلك يوم القيامة حين يشاهدون العذاب والمحنة التي تحل بهم من أجل معبوديهم ، يتبرأون منهم ما يكون جوابهم بعد السكوت الطويل المستفاد من أداة التراخي "إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ 23" وحين يصرون على إنكارهم هذا ويجحدون إشراكهم تشهد عليهم جوارحهم ، ولا يقال هنا كيف يجوز

تعذيب الشاهد لأن شهادة الأعضاء بمثابة الاعتراف عما اقترفت في الدنيا ، والاعتراف لا يكون مسقطا للعقوبة ، فإن القاتل إذا اعترف لا يعفى من القصاص ، وكذلك الشارب والزاني لا يعفوان من

(24/223)

الحد إذا اعترفا ، تدبر .

فيا أكرم الرسل "انْظُرْ" إلى هؤلاء "كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ" بإنكارهم الشرك الذي كانوا يتفاخرون به في الدنيا ويحاربون الرسل بهم "وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ 24" في الدنيا من وجود معبود غير اللّه إذ لم يروا شيئا أو أحدا يناصرهم أو يعترف لهم بالعبادة راجع الآية 29 من سورة يونس

(25/223)

فيما يتعلق في هذا البحث "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ" حين تتلو القرآن كأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وأمية ابن خلف والحارث بن عامر ، ويقولون لمن معهم النضر بن

الحارث ما يقول محمد ؟ فيقول لهم ما أدري أراه يحرك لسانه بأساطير الأولين كما كنت أحدثكم عنه ، فقال أبو سفيان إني لأرى بعض ما يقوله حقّا ، فقال أبو جهل كلا لا تقرّ له بشيء الموت أهون علينا من إقرارك بشيء مما يقوله محمد ، فأنزل اللّه "وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً" أغطية كثيفة "أَنْ يَفْقَهُوهُ" لئلا يعوه ويفهموه فيعلموه "وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً" ثقلا شديدا وذلك أن اللّه تعالى بشرح قلوب بعض عباده لتقبل الهدى والإيمان والرشد ويضيق بعضها حتى لا تعي شيئا من ذلك ولا تسمعه فيبقى على ضلاله "وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها" لذلك السبب "حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ" فيما أنزل عليك من لدنا يا سيد الرسل "يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا" الذي تتلوه علينا ليس بقرآن وليس من عند اللّه وما هو "إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ 25" أكاذيبهم وخرافاتهم جمع أسطورة أي أكذوبة وخرافة "وَهُمْ يَنْهَوْنَ" يمنعون الناس "عَنْهُ" أي القرآن فلا يتركونهم يسمعونه ويحذرونهم من الإيمان به والتصديق بما أنزل عليه "وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ" يتباعدون بأنفسهم عن سماعه وعن المنزل عليه لئلا يراهم قومهم فيقلدونهم "وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ" بهذا النبي والنأي "وَما يَشْعُرُونَ 26" بأن الوبال يخصهم وحدهم ويضاعف عليهم لصدهم أنفسهم وغيرهم من سماع الحق واتباع الهدى وسلوك طريق الرشد .

مطلب لا يصح نزول الآية في أبي طالب وفي حمل الأوزار والآية العظيمة التي نزلت في حق الرسول صلّى اللّه عليه وسلم :

نزلت هذه الآية في الكفرة المذكورين أعلاه وهي عامة في كل من يتباعد عن الحق وينهى من يتقرب منه ، أما ما روي أن رءوس الكفر قالوا لأبي طالب بعد أن تذاكروا معه بشأن محمد وتعديه على آلهتهم خذ شابا من أصبحنا وجها وادفع إلينا محمدا نقتله ، وانه قال لهم ما أنصفتموني أدفع إليكم ابني لتقتلوه وأربي لكم ابنكم ، وانه كان من جملتهم وكان ينهاهم عن أذاه ويتباعد عن الإيمان به ، فلا

يصح أن يكون سببا للنزول ، لأن أبا طالب توفى نصف شوال السنة العاشرة من البعثة كما أشرنا إليه في الآية 56 من القصص المارة في ج 1 أي قبل نزول هذه الآية بكثير ، وكذلك ما روي أن حضرة الرسول دعاه إلى الإيمان فقال لو لا أن تعيرني قريش لأفررت بها عينك ، ولكن أذب عنك ، وقال في ذلك أبياتا منها :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منه عيونا

ودعوتني وعرفت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

فنزلت هذه الآية لما ذكرنا وان الرواية قد وقعت منه لأن له مواقف هامة في الذب عن الرسول والوقوف بوجوه صناديد قريش من أجله ، وكانت تهاب محمدا لمهابته لديهم ولقد صدق رحمه اللّه في قوله لأن قريشا لم توقع فيه أذى إلا بعد موته ولكن هذا كله قبل نزول هذه الآية حتى انه مرة كلف ابن أخيه ذات يوم أن يصفح عن التصريح بدعوته بإلحاح من عظماء قريش عليه لأنهم عرضوا عليه أمورا كثيرة من أمور الدنيا على أن يكف عن سب آلهتهم ولم يفعل فقال يا عم واللّه لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بشمالي ما تركت هذا الأمر حتى يظهره اللّه تعالى ، وهذه القصة مفصلة في سيرة ابن هشام ، على أن هذه الآية واللائي قبلها واردة في ذم المشركين ، فلا يناسب المقام ذكر النهي عن أذيته صلّى اللّه عليه وسلم ، قال تعالى "وَلَوْ تَرى" بأكمل الرسل "إِذْ وُقِفُوا" هؤلاء المشركون الذين ينهون الناس عن الإيمان بك ويتباعدون عنه أيضا فلو رأيتهم حين يشرفون "عَلَى النَّارِ" لرأيت أمرا فظيعا هالك مرآه وموقفا عجيبا عظم بلاء "فَقَالُوا" في ذلك الموقف الرهيب والمشهد العام "يا لَيْتَنا نُرَدُّ" إلى الدنيا فنصدق هذا الرسول وما جاء به من اللّه "وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا" ورسله بعد ردنا إلى الدنيا أبدا "وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ 27" باللّه وكتابه ورسوله .

ونصب الفعلين بأن مضمرة على جواب التمني أو بإبدال الواو من الفاء وجاز فيهما الرفع

عطفًا على نرد وعليه فتكون الأفعال الثلاثة داخلة في التمني فيكونون تمنوا الرد إلى الدنيا وأن لا يكذبوا وأن يكونوا من المؤمنين أو بقطع ولا نكذب ونكون عن فعل

(28/223)

نرد وعليه يكون المعنى يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين فرد اللّه تعالى عليهم بقوله ليس الأمر كما ذكروا "بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ" من الكفر والجحود أي إنما قالوا هذا القول لظهور كفرهم الذي نطقت به جوارحهم ولم يغن عنهم سكوتهم ولا إخفاء فظائعهم.

لا إنهم قالوه تائبين.

ومع هذا لو أجيب تمنيهم لما وفوا بوعدهم "وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ" أولا في الدنيا ولفعلوا فيها ما فعلوه قبلا "وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ 28" في قولهم هذا بأنهم إذا رجعوا إلى الدنيا يؤمنون كلا لا يؤمنون البتة لسابق شقائهم بحسب خبث طويتهم "وَقالُوا" هؤلاء الكفرة "إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا" لا حياة بعدها كما يقول محمد وضمير هي يعود إلى الحياة ويجوز عوده على المتأخر رتبة ولفظا قال المتنبي:

هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

لأن ما بعده خبر له وكذلك يجوز إذا كان ضمير الشان وقد منعه الجمهور لاشتراطه في خبره أن يكون جملة والأحسن عود الضمير إلى ما هو في الذهن أي ما هي الحياة إلا حياتنا الدنيا لا غير "وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ 29" مرة ثانية كما كانوا يقولون قبل لا محالة فلا فائدة من إجابة طلبهم على تقدير إمكانها "وَلَوْ تَرى" يا سيد الرسل "إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ" للحكم والقضاء حيث يعرضون عليه يوم الجزاء "قالَ" اللّه تعالى لهم "أَلَيْسَ هذا" البعث بعد الموت الذي كنتم تجحدونه في الدنيا وتكذبون رسلكم إذ يخبرونكم به وتنكرون كلامي المنزل بذلك "بِالْحَقِّ" الذي لا مرية فيه "قالُوا" إذ لم يروا بدا من الإقرار "بَلى وَرَبِّنا" إنه الحق لا شبهة ولا شك فيه "قالَ" تعالى بعد أن شهدوا على أنفسهم "فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ 30" بذلك وتنكرونه إذ لا فائدة لكم الآن أأقررتم أم كذبتم ، ثم يقول الحق تبارك وتعالى على ملأ الأشهاد

"قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ" غبنوا وخابوا وفاتهم الثواب المؤدي إلى الجنة المنعم به على المصدقين وتلبسوا بالعقاب الموصل إلى النار إذ تمادوا في الدنيا على تكذيبهم ولم يحسوا بأنفسهم "حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً" فجاة على حين غرة

وغفلة في وقت لا يعلمه إلا اللّه وسميت القيامة ساعة لأنها تباغت الناس بسرعة بحيث لا يستطيع القائم أن يقعد ولا القاعد أن يقوم "قالُوا" منكروا الساعة "يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا" قصرنا من العمل الصالح "فِيها" في الدنيا وفاتنا كسب هذه الصفقة إذ بعنا ما يستوجب الرضا بالسخط .

(30/223)

روى الطبري بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم في قوله يا حسرتنا إلخ قال : يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون يا حسرتنا "وَهُمْ" والحال أنهم "يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ" أي أثقال ذنوبهم وهذا الحمل إما معنوي بحيث يتخيّلون جزاءها الثقيل فهم كالحاملين له ، وإما أن تتجسم لهم فيحملونها راجع الآية 18 من سورة فاطر في ج 1 .

جاء في الأخبار والآثار : يتبع الميت ثلاث ماله ويفارقه عند خروج روحه ، وأهله ويفارقونه عند ما يوارونه بالتراب ، وعمله يبقى معه إلى يوم القيامة ، فإن كان خيرا أوصله إلى الجنّة وإن كان شرا أدخله النار .

ولهذا يقول اللّه تعالى لأهل الشر "أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ 31" بئس الحمل الذي يحملونه لما فيه

من الخزي والعار "وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ" باطل وغرور لأن اللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع واللهو الميل عن الجد والهزل ، وهذا رد لقولهم (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا) إلخ يعني أن حياة الكافرين أمثالكم لعب لا تعقبه منفعة أما حياة المؤمنين فهي تفكير وعبادة فتعقب عليهم منفعتها في الآخرة خيرا ولهذا قال تعالى "وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ" من الدنيا الفانية لأنها باقية "لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ" اللّه ويؤمنون برسله وكتبه "أَفَلَا تَعْقِلُونَ 32" هذا أيها الكفرة فتعلمون أن الدنيا شر الذين يجحدون لقاء اللّه في الآخرة ، قال تعالى "قَدْ نَعْلَمُ" يا حبيبي "إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ" فيك ما لا يليق بحضرتك من التكذيب والسخرية "فَإِنَّهُمْ" بعملهم هذا "لَا يُكَذِّبُونَكَ" وإنما يكذبون الذي أرسلك إليهم لأن تكذيبك تكذيب للحضرة الكريمة وانك صادق أمين مبجّل عند ربك "وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ 33" وهذا غاية في الظلم لأن تكذيب اللّه أعظم من كل ظلم وهو نهاية في الضلال .

(31/223)

وهذه الآية من أعظم آيات القرآن في التبكيت على الكفرة وفيها تسلية لحضرة الرسول بما يعتريه من الحزن على جحودهم آيات اللّه وإنكارهم

رسالته إليهم لأن اللّه تعالى يقول له لا تأس بما يقولون لك لأن هذا الذي يصمونك به هو

تكذيب للذي أرسلك وأنزل عليك الكتاب الذي جئتهم به فبعد أن يتعدى تكذيبهم للحضرة الإلهية المقدسة ولم يقتصروا فيه عليك فقد بلغوا الذروة القصوى في الكفر ، فاعرض عنهم والله يتولى أمرك فيهم .

نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق حين قال لأبي جهل يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فليس أحد يسمع كلامك غيري ، فقال أبو جهل والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة اللائي أقررنا لهم بها فإذا صدقناهم بالنبوة أيضا فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله هذه الآية .

أخرج الترمذي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن أبا جهل قال للنبي صلّى الله عليه وسلم :

إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، وقال ناجية بن كعب : قال أبو جهل للنبي صلّى الله عليه وسلم ما نتهمك ولا نكذبك ولكنا نكذب الذي جئت به من الدين المخالف لدين آبائنا وإذعانك أن هناك حياة أخرى نحاسب فيها على ما كان منا في هذه الدنيا .

(32/223)

وإنما سلى اللّه رسوله في هذه الآية لأنهم مع اعتقادهم صدقه على ما علمت من قول أبي جهل المار ذكره لا يؤمنون بما جاءهم به حسدا ، ويضاهي هذه الآية ما أنزله اللّه بحق غيرهم في قوله عزّ قوله (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً) الآية 14 من سورة النمل المارة في ج 1 ، قال تعالى "وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ" من أقوامهم وأتباعهم "فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا" ألا تصبر أنت يا محمد على تكذيب قومك "وَأُوذُوا" أيضا بأكثر مما أوذيت به وانتظروا وعد اللّه بنصرتهم عليهم وبقوا متحملين أذاهم "حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا" فلك أسوة بهم فثابر على الصبر حتى يأتي الوقت المقدر لذلك "وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ" التي وعد بها عباده المخلصين المنوه بها بقوله عزّ قوله (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ) الآية 172 و 173 من الصافات الآتية ، وقوله تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا) الآية 51 من سورة المؤمن الآتية أيضا ، وقوله تعالى (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) الآية 21 من سورة المجادلة في ج 3 والآية 103 من سورة يونس المارة فراجعها ، ولا خلف لوعد اللّه

(33/223)

كيف وهو يأمر عباده بالوفاء ويعيب الناكثين والمخلفين ، إلا أن لوعده أجلا لا يتخطاه "وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ 34" أخبارهم التي قصصناها عليك من قبل وظفرهم بعد صبرهم فما عليك إلا الانتظار لهذا الظفر القادم "وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ" عن الإيمان بك واستعظمت ذلك ولم تركن إلى الصبر فافعل ما بدا لك "فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ" سريا ومنفذا من تحتها بدليل الظرفية فانفذ فيه "أَوْ سُلَّماً" تصعد عليه "فِي السَّماءِ" فاصعد إليها ، وفي هنا بمعنى إلى لأن حروف الجر تخلف بعضها والسلّم يذكر ويؤنث .

قال أوس في تأنيثه :

لنا سلم في المجد لا يرتقونها وليس لهم في سورة المجد سلم

وقال في تذكيره :

الشعر صعب وطويل سلّمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

(34/223)

أي إذا كان لك شيء من ذلك فافعل "فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ" تدل على صدقك وتمنعهم من تكذيبك فافعل ولكنك لست بفاعل ما لم نقدرك على فعله وحيث كان كذلك فما عليك إلا أن

تتحمل وتصبر ، نزلت هذه الآية العظيمة في المنزل عليه صلّى اللّه عليه وسلم حين عظم عليه استهزاء قومه وتكذيبهم إياه وإصرارهم على الإعراض عن الإيمان وتاقت نفسه الكريمة أن يظهر اللّه تعالى على يده الآيات التي طلبها قومه ليسلّموا له ويؤمنوا بربه فأخبره اللّه بهذه الآية بما يقطع أمله من ذلك لأن إنزال الآيات مقدر على أوقات وأسباب لا تتعداها وكذلك الإيمان وعدمه موقت بأوقات لا يتخطاها سواء أجيب طلبهم أم لا ، ثم أخبره بما هو مراده في الأزل فقال "وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى " من دون إرسالك إليهم ولكنه لم يشأ فلا تتعب نفسك وتتأذى بما تراه منهم لأن المشيئة قضت بذلك وفاقا لما هو مقدر عليهم في الأزل الذي لا يتغير ولا يتبدل ، فاعلم هذا وتبه وإياك أن يخطر ببالك ما لم يكن في مراد اللّه فإنه لا يكون "فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ 35" الذين يشوبهم الجزع ويضيق صدرهم لكل بادرة فأنت على ما أنت عليه من سعة الخلق وشرح الصدر وطول البال ولين الجانب . وإنما غلظ تبارك وتعالى لحبيبه هذا الخطاب في

(35/223)

هذه الآيات ليبعد جنابه العالي عن هذه الحالة ولا يحرص على إيمانهم إذ سبق في قضائه عدم إيمانهم لأنهم في معزل عن الإجابة لدعوته لانهماكهم في مهاوي الكفر واقتصارهم على

الأقوال الفارغة وإذ زاد القول فقد نقص العمل ، واعلم أن هذه في أناس مخصوصين علم اللّه موتهم على الكفر ولهذا قال تعالى "إِنَّما يَسْتَجِيبُ" لك ويقبل دعوتك "الَّذِينَ يَسْمَعُونَ" تلاوتك سماع قبول بآذانهم وتعيها قلوبهم "وَالْمَوْتى " الكفار الذين لا يصغون لقولك ولا يتعظون بوعظك "يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ" يوم القيامة فيسألهم عن عدم إذعانهم هذا "ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ 36" بعد الحساب فيجازيهم على إعراضهم قد شبههم اللّه تعالى بالموتى بجامع عدم الإجابة والإسماع في كل منهما ولأن الجاهل ميت قال الشاعر :

لا يعجبن الجهول بزيه فذاك ميت ثيابه كفن

وقال : أبا سامعا ليس السماع بنافع إذا أنت لم تفعل فما أنت سامع

إذا كنت في الدنيا عن الخير عاجزا فما أنت في يوم القيامة صانع

(36/223)

"وَقالُوا" أولئك الكفرة "لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ" تشهد على رسالته مثل الأنبياء قبله لآمنا به فأنزل اللّه تعالى إنزاله "قُلْ" لهؤلاء الكفرة يا سيد الرسل "إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً" مثل ما أنزل على من قبلك "وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ 37" عاقبتها لأنهم إذا لم يؤمنوا بالآيات المقترحة يستأصلون بالعذاب دون مهلة ما كأمم الأنبياء قبلهم الذين أعطوا ما اقترحوه ولم

يؤمنوا فأخذهم اللّه واللّه تعالى عالم بأن هؤلاء المقترحين لا يؤمنون وان الذين سيؤمنون منهم لم يحن وقت إيمانهم المقدر لهم وان البلاء إذا نزل عم راجع الآية 25 من سورة الأنفال في ج 3 ، على أن من يريد الإيمان عن صدق فلديه القرآن أكبر آية وأعظم معجزة وأجل برهان ولكن لا يقصدون من ذلك إلا العناد والتمادي في الضلال "وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ" من كل ما دب على ظهرها "وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ" أي أن كل جنس من الحيوان أمة مثل البشر والجن ، فالطير أمة والوحش أمة والحوت أمة والجراد أمة والديدان أمة وهلم جرا من كل ما كان من خلق اللّه بالولادة أو التوالد سواء كان على وجه

(37/223)

الأرض أو داخلها أو كان عائما في الماء أو الهواء لأنه إذا اتصل بالأرض دب عليها فالكل داخل في معنى الآية ووجه المماثلة هو أن كل حيوان يعرف خالقه ويوحده ويسبحه ويصلي له بحسبه قالا أو حالا ، قال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الآية 44 من الإسراء المارة في ج 1 ، وكما أن البشر مخلوق للّه فهي مخلوقة له وكما أن البشر يألف بعضه بعضا فهي يألف بعضها بعضا أيضا ، وكما يفهم بعضه على بعض يفهم بعضها على بعض ، وكما أنه يموت ويبعث فهي أيضا كذلك وقد اقتصر اللّه تعالى

على ما في الأرض في هذه الآية وإن كان ما في السماء أمما أيضا مخلوقة له جل شأنه ولكنها غير مشاهدة وقد جاءت الآية بمعرض الاحتجاج والاحتجاج بالمعاين أولى منه فيما لم يعاين وفي ذكر الجناح للطائر إشارة إلى أنه تعالى سيحدث طائرا بلا جناح يتحرك بطبعه مما هو داخل في قوله تعالى بمعرض ذكر الأنعام (وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ) مما كان من الدواب والملك التي تركب ومما سيكون من هذا النوع بعمل البشر الكائن بتعليم اللّه إياه وإلا فما هو الموجب لتقييد الطير بالجناح ومن المعلوم أن الطائر لا يكون بلا جناح فتنبه رحمك اللّه إلى معجزات القرآن العظيم التي تظهر أولا بأول وقد ظهرت الأفلاك العظام كما وصفها اللّه بقوله (وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ) الآية 24 من سورة الرحمن في ج 3 ، ثم السيارات ثم الطائرات ولا تزال تظهر هذه المصنوعات البشرية بما يفوق العقل تصورها راجع الآية الثانية من هذه السورة .

مطلب كل شيء في القرآن مما كان ومما سيكون والآية الخارقة لعقيدة المعتزلة :

(38/223)

وهنا يظهر سر قوله تعالى "ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ" مما علمه البشر ومما لم يعلمه بدليل التنكير والتفريط يتعدى بعن وقد ضمن هنا معنى ما أغفلنا ولا تركنا شيئا إلا وقد

أشرنا إليه في اللوح المحفوظ وألمعنا إلى بعض ما في علمنا في هذا القرآن من أمر الدين والدنيا والآخرة ، روى البخاري عن ابن مسعود أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : لعن اللّه الواشمات والمستوشمات والمتنمّصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق اللّه ، فقالت له امرأة في ذلك فقال ومالي لا ألعن من لعن رسول اللّه وهو في كتاب اللّه فقالت له قرأت ما بين اللوحين (تريد القرآن كله)

فما وجدت فيه ما تقول قال لئن قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت (ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) الآية 8 من سورة الحشر في ج 3 ، قالت بلى قال فإنه عليه الصلاة والسلام قد نهى عنه .

(39/223)

وقال الشافعي رحمه اللّه مرة في مكة سلوني عما شئتم أخبركم عنه في كتاب اللّه فقيل له ما تقول في المحرم يقتل الزنبور فأجاب بأنه يقتله واستدل عليه بنحو ما استدل ابن مسعود من أن الرسول أمر بقتل الهوام المؤذية وقد أمر اللّه في كتابه بالأخذ بكلامه هذا ، وقد أخرج أبو الشيخ في كتاب الفطرة عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه سبحانه وتعالى لو أغفل شيئا لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة راجع الآية 26 من سورة

البقرة في ج 3 والآية 23 من سورة الشورى الآتية والآية 44 من سورة الأنبياء الآتية تجد ما تريده وما قاله ابن الجوزي في هذا المعنى ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه قال : أنزل اللّه في هذا القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن ، وقال الشافعي : لا تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب اللّه الهدى فيها ، وقال ابن عباس : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب اللّه ، وقال المرسى : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما إلا المتكلم به والمنزل عليه عدا ما استأثر اللّه به لنفسه "ثُمَّ إِنَّهم إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ 38" كما يحشر البشر ويحاسبون كما يحاسب البشر بحيث يجعل اللّه في كل منها قوة النطق والادعاء والدفاع والعفو والإصرار ثم تكون ترابا وحينذاك يتمنى الكافر لو كان مثلها لشدة ما يرى من العذاب راجع الآية الأخيرة من سورة النبأ الآتية ، روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : لتردن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء "وَالَّذِينَ

(40/223)

كَذَّبُوا بِآيَاتِنا" الواضحة إنما كذبوا بها لأنهم "صُمٌّ" عن سماعها "وَبُكْمٌ" عن النطق بها لكونهم غارقين "فِي الظُّلُماتِ" المتكاثفة راجع الآية 40 من سورة النور في ج 3 ، أي أنهم يكونون في الآخرة كما هم في الدنيا وهي ظلمة الكفر وظلمة الجهل وظلمة الحيرة لذلك تراهم غافلين عن التأمل في آيات اللّه لاهين عن التفكير فيها ساهين عن النظر إليها وهم في معزل عن معانيها

لسابق شقائهم والحقيقة التي لا غبار عليها هي ما ذكره اللّه بقوله "مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ" فلا يهتدي أبدا "وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ 29" فيهديه للإسلام وهذا عدل منه تعالى فهو الفاعل المختار المتصرف في ملكه يفعل ما يشاء كيف يشاء كما أن أحدكم إذا هدم داره هل يسأل عنها وهل يعد مقترفا جرما كلا واللّه لا يسأل عما يفعل بل خلقه يسألون إذا تجاوزوا على أحد ، وهذه الآية دليل قاطع على عدم خلق الأفعال وإرادة المعاصي من العاصي ونفي الأصلح وأن الكفر والإيمان بإرادته تعالى والإرادة لا تتخلف عن المراد كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا لأهل العقائد الفاسدة من المعتزلة وأضرابهم الذين لما رأوا هذه الآية خارقة لعقيدتهم وعجزوا عن مقاومتها لوّوا أعناقهم فراموا رفضها وأوّلوا يضلله بيخذله ولم يلطف به ، وقالوا إن معنى يجعله يلطف به كأن اللّه تعالى عاجز أن يقول ما قالوا لو كان المراد كما قالوا وله القول الفصل أو أنه تعالى ضاق كلامه عن التعبير بما أولوه حاشا ثم حاشا ، وقدمنا في الآية 12 من سورة الحجر المارة ما يتعلق

في هذا البحث فراجعها .

قال تعالى يا

(41/223)

سيد الخلق "قُلْ" لهؤلاء المعاندين "أَ رَأَيْتَكُمْ" أخبروني ، تقول العرب أرأيتك أي أخبرني عن حالك والمراد بهذا الاستخبار تبكيتهم والقامهم الحجر بما لا سبيل إلى إنكاره "إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ" في الدنيا كما أتى على من قبلكم من الموت الفجائي بخسف أو رجم أو غرق أو صيحة أو غيرها فصعقتم حالا دون مهلة أتدعون أحد يكشف ما حل بكم أو أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ" على حين غرة "أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ" لكشف ذلك عنكم وهل تغيثكم أصنامكم إذا استغثتم بها على كشفه أجيبوني "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ 40" أنها تنجيكم من ذلك فإن قالوا لك شيئا أو لم يقولوا فقل يا سيد الرسل

"بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ" لا غير لأنكم تعرفون أنها لا تنفعكم في مهماتكم ولا في غيرها ولكنكم إذا دعوتم اللّه عن صدق نية وحسن عقيدة وحقيقة يقين "فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ 41" لشدة الهول النازل بكم فتتضرعون إلى اللّه بادىء الرأي

وتدعون أصنامكم لعلمكم بعجزها عن دفع الضر عن نفسها فضلا عن غيرها ، فإذا كان كذلك وهو كذلك أيليق بكم وأنتم تدعون العقل أن تتركوا

(42/223)

الإله الواحد الذي يلجأ إليه في المهمات وتعبدوا غيره حال الرخاء وهو جماد أو حيوان مخلوق لله لا يتمكن من عمل شيء أما بكم من عقل يمنعكم من هذا أما تعتبرون بمن مضى قبلكم "وَ" أنت يا أكمل الرسل لا تجزع لما ترى منهم "لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ" رسلا كثيرة فخالفوهم وكذبوهم وآذوهم أقوامهم مثل ما فعلت بك عشيرتك وأمتك وقد أمهلناهم حتى انقضى الأجل المضروب لهم فأصروا على كفرهم ولم يؤمنوا "فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ" الفاقة والشدة والسوء "وَالضَّرَّاءِ" نقص الأموال والأنفس والثمرات والأولاد "لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ 42" لنا ويخضعون لأوامر رسلنا ويتذللون فيتوبون فنعفو عنهم ولكنهم لم يفعلوا "فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا" لنا لعلنا تكشفه عنهم كما كشفناه عن قوم يونس راجع الآية 98 من سورة يونس المارة "وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ" فلم يتضرعوا لنا عنادا هذا على أن لولا هنا نافية كما هي في الآية المذكورة من سورة يونس المارة إلا أن الجمهور على أنها أداة تحضيض بمعنى هلا كما في أكثر المواضع ، وحملوا المغني على التوبيخ والتنديم وهو

يفيد عدم الشرك وعدم الوقوع بدليل أداة الاستدراك تدبر "وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ 43 فأعجبتهم صنايع كفرهم ومعاصيهم وقدمنا ما يتعلق بهذا في الآية 38 من سورة الحجر فراجعها "فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ" ولم يتعظوا بما أصابهم لكثافة الرّين الذي على قلوبهم وطبقات الصّدأ "فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ" من السعة والرخاء والصحة والسلامة والحياة والرياسة بدل الفقر والشدة ونقص الأموال والثمرات والذل والمهانة لنستدرجهم "حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا" من الخيرات والقوة والسلطان وظنوا أن ما كان بهم لم يكن للانتقام بل للسعادة والرضاء "أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً" فجأة

(43/223)

وهم على أحسن حال يتمنونه لتشتد حسرتهم ويتضاعف ندمهم على ما تركوا من اللذات والشهوات لأنهم لو أخذوا حال الضيق لهان عليهم الأمر لأن كثيرا من المبتلين يتمنون الموت ليتخلصوا من بؤسهم وقد قال قائلهم :

ألا موت يباع فأشتريه فهذا الحال مما لا خير فيه

ولا تجد أحدا من المنعمين يريده بل أكره ما عليهم ذكره "فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ 44" آيسون كثيروا الأسف والحسرة حزنا على ما فاتهم فيها لأن المبلس المطرق رأسه

أسى على ما حل به من الندم وعدم تلافي ما فرط به ، روى عامر بن عقبة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال إذا رأيت اللّه يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته فإنما ذلك استدراج ثم تلا هذه الآية أسنده الطبري وذكره البغوي بغير سند "فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا" أنفسهم وأهلكوا عن آخرهم يقال دبر فلان القوم إذا كان آخرهم ، أي فكأنهم لم يلبثوا فيها وقد انقلب فرحهم ترحا وعزهم ذلة كما قال القائل :

ألا إنما الدنيا كظل سحابة أظلتك يوما ثم عنك اضمحلت

فلا تك فرحانا إذا هي أقبلت ولا تك جزعانا إذا هي ولت

وقيل : إذا جاءت الدنيا عليك فجد بها على الناس طرا قبل أن تتفلت

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا البخل يبقيها إذا هي ولت

ولكن هؤلاء كلهم جزع لأن ما هم قادمون عليه أشر مما فاتهم "وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ 45" على تأييد رسله وإهلاك أعدائهم ، وهذا تعليم من اللّه لأنبيائه والمؤمنين أن يحمدوه عند كفايته شر معانديهم ومناوئيهم وعند قضاء حوائجهم ، وهذا الحمد واجب لأنه بمقابلة نعمته وهكذا يجب على كل من أولاء اللّه نعمة من مال أو ولد أو صحة أو غيرها ، أما في غير مقابلة نعمه فهو مسنون في كل حال لأن نعم اللّه على العباد لا تحصى وقيل في المعنى :

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهنّ نجابة الأولاد

قال بعض المفسرين إن اللّه تعالى حمد نفسه بنفسه على ما فعل بهم أي لم يقصد به التعليم والأول أولى ، قال تعالى "قُلْ" يا أكرم الرس لهؤلاء الكفرة "أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ" فصرتم عميا صما بكما عميا "مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ" أي بما أخذه منكم من تلك القوى فسيقولون لك حتما لا أحد يقدر على الإتيان لهم بشيء من ذلك إلا اللّه وانهم بفقدها يكونون كالجماد لأن الإنسان بغير هذه الحواس يختل نظامه ويفسد أمره وتتعطل مصالحه الدينية والدنيوية ولا يقدر على إيجادها إلا الذي خلقها ، فيا سيد الرسل "انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ" ونكررها لهم ليستدلوا بها معالم التوحيد وآثار النبوة وعلائم الآخرة "ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ 46" يصدّون ويعرضون ويميلون عنها ، قال أبو سفيان عليه السلام في هذا المعنى :

عجبت لحكم اللّه فينا وقد بدا له صدفنا عن كل حق منزّل

أي أنه يتعجب كيف رحمهم اللّه وأخر عذابهم إلى أن وفقوا إلى التوبة والإيمان مع شدة إعراضهم عنه فيكون صدف هنا بمعنى أعرض وبمعنى مال وأصل الصدف الجانب والناحية ومنه الصدفة وتطلق على البناء المرتفع وجاء في الخبر أنه صلى اللّه عليه وسلم

مرّ بصدف مائل (أي بناء عال مائل) فأسرع ثم بكّتهم ثالثا بقوله عز قوله "قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً" عيانا أو خفية ليلا أو نهارا "هَلْ يُهْلَكُ" فيه أحد هلاك خسارة وحرمان "إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ 47" أنفسهم وغيرهم بسبب كفرهم وطغيانهم وبغيهم كلا لا يهلك غيرهم.

مطلب من هلك بسائق غيره لا يعذب وتبرؤ حضرة الرسول من قول قومه وقوله تعالى (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ) إلخ:

(45/223)

أما إذا كان الهلاك عاما وهلك فيه غير الظالم فإن هلاكه هذا بسائق غيره فلا يعد خسارة عليه وحرمانا بل إن اللّه تعالى يكافئه في الآخرة خيرا على عمله وخيرا على هلاكه كما أنه يجازي المضل على ضلاله وإضلاله غيره راجع الآية 25 من سورة الأنفال في ج 3 والآية 88 من سورة النحل الآتية، "وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ" المؤمنين بالثواب "وَمُنْذِرِينَ" الكافرين بالعقاب "فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ" عمله بعد إيمانه "فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" حين يخاف الناس "وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ 48" إذا حزنوا بل الأمن لهم والبشرى في الدنيا والآخرة "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا" في الدنيا وأصروا على تكذيبهم حتى هلكوا فهؤلاء "يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ" بالآخرة

حتما سواء سلموا من عذاب الدنيا أو عذبوا فيها جزاء "بِما كانُوا يَفْسُقُونَ" 49 يخرجون عن الطاعة "قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ" أجري عليكم منها ما تريدون "وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ" لأخبركم بما تقترحون أيكون أم لا "وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ"

(46/223)

أقوى على ما لا يقواه البشر لأفتك بكم أي لا أدعي الإلهية ولا الملكية ولا الغنى ولهذا فلا يفهم من معنى هذه الآية أن الملك أفضل من الرسول راجع الآية 30 من سورة هود المارة وإنما أنا بشر مفتقر إلى اللّه في كل أموري "إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ" فأعمل به وأخبركم وأدعوكم للعمل به لا غير "قُلْ" لهم يا سيد الرسل "هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ" الضال والمهتدي "أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ 50" في عدم التسوية بينهما تدل هذه الآية الكريمة على أن حضرة الرسول ما كان مجتهدا في شيء من الأحكام بل كان يتبع وحي اللّه فقط فيعمل به وهو الصحيح لأنه لا ينطق عن هوى ، وسبب نزول هذه الآية الرد على الكفرة الذين يقترحون على الرسول إنزال الآيات السماوية ليصدقوه فأمره اللّه تعالى أن يقول لهم ما ذكره في هذه الآية حسما للباب ،

قال تعالى "وَأَنْذِرْ بِهِ" بما أوحي إليك من لدنا "الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ" المقرين

بالبعث وخص المؤمنين مع أن إنذاره عليه السلام عام لجميع الخلق لأن الحجة على هؤلاء أولى من غيرهم ، والمراد بالحشر المحل الذي يريده اللّه تعالى لجمع الخلق وهو الموقف لا إليه ذاته جلت عن المكان فلا حجة في هذه الآية إلى المجسمة القائلين إن إلى (فِي إِلَى رَبِّهِمْ) تفيد الغاية إلى المكان فيكون تعالى شأنه مختصا بمكان تنزه عن ذلك .

(47/223)

هذا ويدخل في حكم هذه الآية المجوزون للحشر سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب ، وبعض المشركين المترددين في شفاعة آبائهم الأنبياء كالأولين المعترفين بالبعث بعد الموت أو في شفاعة الأصنام كالآخرين المجوزين للحشر الجازمين فيه من أهل الكتاب وبعض المشركين أي المترددين بهما معا كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم أنهم إذا سمعوا بحديثه يخافون أن يكون حقا ، وأما المنكرون للحشر رأسا والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام فهم خارجون عمن أمر بإنذارهم هكذا ، قال شيخ الإسلام أما ما قيل إن المراد بهم المؤمنون المفرطون أو الكافرون معا بداعي أن الكل يخاف الحشر لأن الرسول مبعوث للكل فهو وجيه إلا أن سياق الكلام لا يساعده وسباقه ينافيه ومما يرد القول الأخير قوله تعالى "لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ" أي اللّه "وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ" يشفع لهم

أو يواليهم لأن الشفاعة لا تكون إلا لمن يأذن اللّه له بها قال تعالى (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) الآية 255 من البقرة في ج 3 ، والكافرون ليس لهم ولي ولا شفيع لقوله تعالى (وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ) الآية 18 من سورة غافر الآتية وعلى هذا فلا يدخلون في مضمون هذه الآية ، أما المؤمنون المذنبون فتشفع لهم أنبياؤهم والملائكة والأولياء أيضا فيدخلون في مضمونها دخولا أوليا واللّه أعلم .

(48/223)

هذا وإنما أمر اللّه تعالى رسوله أن يتقدم لمثل هؤلاء بالإنذار رحمة بهم "لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ 51" الكفر ودواعيه فيدخلون في زمرتهم ، ولما أمر اللّه غير المتقين ليتقوا أمر بتقريب المتقين إليه وأن لا يقصيهم عن مجلسه فقال عز قوله "وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ" إرضاء للكفرة الذين يأنفون مجالستهم فإياك إياك أن تفعل ذلك ، وتشعر هذه الآية بالثناء على هؤلاء المذكورين فيها لمواصلتهم ذكر اللّه ومواظبتهم على عبادته صباح مساء ولذلك وصفهم بالإخلاص المستفاد من قوله جل قوله "يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" ذاته المقدسة بدعائهم لا غير وهؤلاء يا حبيبي "ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ" لأن حسابهم على اللّه وحده "وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ" لأن حسابك أيضا على اللّه وذلك أن المشركين طعنوا

في دين هؤلاء وإخلاصهم على حد قوله تعالى حكاية عن قوم نوح عليه السلام (ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا) الآية 27 من سورة هود المارة فأخبره اللّه تعالى بأنك لا تكلف أمرهم كما هم لم يتكلفوا أمرك لأن وظيفة الرسل النظر إلى ظواهر الأمور وتفويض البواطن إلى اللّه أي ليس لك يا محمد أن تطردهم بداعي أن إيمانهم غير خالص لأنك لا تعلم ما في قلوبهم ، ولهذا حذّره بقوله "فَتَطْرُدَهُمْ" وتبعدهم عنك وهذا جواب ما عليك أي إن طردتهم وأجبت رغبة الكفرة "فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ 52" نفسك بإبعادهم عن مجلسك بل عليك أن تقربهم وتدنيهم منك لمجرد تقواهم وطاعتهم لا أن تبعدهم فتظلمهم اتباعا لقول أعدائهم ، قال تعالى "وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ" أي اتباع الرسل قبلك ففتنة الغني بالفقير والشريف بالوضيع والصحيح بالمريض هي الأنفة منهم وبالعكس هي الحسد لأن الفقير يرى سعة الغني وخصب عيشه والمريض يرى تمتع

(49/223)

الصحيح بالعافية والراحة ، والوضيع يرى مرح الشريف وكبير جاهه وان الأشراف والأغنياء والمعافين يرون تقدم أولئك عليهم عند الأنبياء بسبب إسلامهم وإيمانهم وهم يأنفون مجالستهم فيمتنعون من الإيمان فيبقون مفتتنين ببعضهم وانهم "لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ" بالإيمان والقرب من الرسل "مِنْ بَيْنِنا" ونحن أفضل منهم وأقدم وأحسن لأنهم لا مكانة لهم ولا مال ولا حسب وهذا اعتراض على اللّه ولذلك رد عليهم بقوله عزّ قوله "أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ 53" نعمه من خلقه بلى هو أعلم بذلك ، واعلم أن سبب المنة عليهم شكرهم وسبب حرمان الآخرين كفرهم وما منعهم أن يكونوا مثلهم إلا عدم إيمانهم باللّه وعدم شكرهم أفضاله عليهم إذ صرفوا جوارحهم إلى ما لم تخلق لها ، ثم إن اللّه أمر رسوله بإكرام المؤمنين مهما كانوا فقراء أو ضعفاء أو مرضاء بقوله جل قوله "وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا" أمثال أولئك المذكورين في الآية السابقة المتطهرين بالإيمان بنا لأنهم مؤمنون حقا "فَقُلْ" لهم يا سيد الرسل على رغم أنف أولئك المتطاولين بنعمتنا عليهم "سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" لكم أي بشرهم بقبولهم عند اللّه وعدهم برحمته وعدا مؤكدا لأن كتب بمعنى وجب وهو لا وجوب عليه وإنما قال كتب لزيادة التأكيد برحمتهم تفضلا منه وقل لهم يقول اللّه تبارك وتعالى "أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ" أيها المؤمنون "سُوءاً" ذنبا "بِجَهالَةٍ" به عن غير قصد ولا يعلم ما ينشأ عنه من المضرة وما ينتج عن فعله "ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ" نفسه وتباعد عن اقتراف مثله "فَأَنَّهُ غَفُورٌ" ستار له لا يفضحه به في الدنيا ولا يعاقبه في الآخرة "رَحِيمٌ 54" بعباده التائبين لأن الذنب مهما كان إذا لم يكن تعمدا أو مضرا بالغير فهو للرحمة قريب وللعفو عنه أقرب ، و

سبب نزول هذه الآيات من وأنذر ألى هنا ما روي عن سعد ابن أبي وقاص قال : كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلّى اللّه عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسمهما فوقع في نفس رسول اللّه ما شاء اللّه أن يقع فحدث نفسه فأنزل اللّه عليه ولا تطرد إلخ الآيات أخرجه مسلم .

وجاء عن عكرمة وابن مسعود

والكلبي ما بمعناه ، وهذا أولى من قول من قال إن هذه الآيات نزلت في سلمان وجماعة من فقراء المسلمين لأن سلمان رضي اللّه عنه أسلم بالمدينة وهذه السورة مكية وليست هذه الآيات من

(51/223)

المستثنيات منها وأولى من قول من قال إنها نزلت في المؤلفة قلوبهم المنوه بهم في قلوله تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ) الآية 49 من سورة الكهف الآتية وهي مدنية وكان إسلام هؤلاء بعد فتح مكة وهذه الآيات التي نحن بصددها نزلت قبل

الهجرة في مكة وبينهما بعد عظيم وفرق كثير قال عكرمة فكان صلّى اللّه عليه وسلم إذا رأى الذين نهى عن طردهم بدأهم بالسلام امتثالا لأمر اللّه له بذلك وقيل إن الآية الأخيرة أي وإذا جاءك إلخ نزلت في عمر رضي اللّه عنه لأنه قيل إنه قال لحضرة الرسول حينما طلب منه المشركون طرد أولئك الأبرار لو أجبتهم لما قالوا لعل اللّه يأتي بهم (وهذا الذي وقع في نفس رسول اللّه المذكور بالحديث المروي عن سعد بن أبي وقاص) ولم يعلم المضرة الناتجة عن كلامه هذا وعدم رضاء اللّه بها ثم إنه صار يبكي وقال معتذرا ما أردت إلا خيرا ولكن المقرر أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب فالقول بإطلاق هذه الآية على كل مؤمن أولى وأنسب بالمقام ويدخل فيها السيد عمر وغيره دخولا أوليا "وَكَذٰلِكَ" مثل ما قصصنا لك هذا وبيناه "نُفَصِّلُ الْآيَاتِ" بذكر أوصاف المطيعين والعاصين "وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ 55" الذين صاروا إلى النار يوم القيامة ليظهر لك الحق الذي أنت عليه وأصحابك والبطل الذي عليه أعداؤك ، وقرئ الفعل بالياء لأن السبيل تذكر وتؤنث قال تعالى (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) الآية 145 من الأعراف المارة في ج 1 وقال تعالى (يَبْغُونَهَا عِوَجاً) الآية 44 منها فالتذكير على لغة تميم والتأنيث على لغة الحجاز وهو بالرفع كأنه قال ليظهر الحق وليستبين سبيل إلخ وحذف المعطوف عليه من المحسنات البديعة وقرئ بنصب سبيل على المفعولية على أن يعود الفاعل لحضرة الرسول ويكون المعنى سايرهم حتى تستوضح

طريقهم وإذ ذاك تعاملهم على ما يليق بهم في الدنيا ومرجعهم إلينا في الآخرة فنعاملهم على ما عاشوا عليه "قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" من الأوثان كافة ، لأن أدلة العقل و أدلة السمع تأبى ذلك ، وهذه الآية رد على المشركين الذين يكلفون حضرة الرسول اتباع دينهم دين آبائهم ، وقطع لأطماعهم الفارغة لأنها عبارة عن هوى أنفسهم وضلال صرف محض ولذلك نهى عنه رسوله صلّى اللّه عليه وسلم بقوله "قُلْ لا أَتَّبِعُ" في هذا ولا في طرد المؤمنين "أَهْواءَكُمْ" النفسية البحتة "قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً" إن أنا فعلت أو ملت لشيء من ذلك "وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ 56" بهداية ربي وفيها إشارة إلى أنهم هم الضالون عن الهدى "قُلْ إِنِّي" فيما أنا عليه "عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي" وبصيرة ظاهرة ناصعة لأني في طاعته وعبادته "وَكَذَّبْتُمْ بِهِ" على غير بيّنة تبعا لهدى أنفسكم فأشركتم به غيره ما لا يستحق العبادة وإذا دمتم على هذه ولم تقلعوا عنه فأنذركم عذاب اللّه فقالوا له ائتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنت صادقا لنصدقك فأوحى اللّه إليه أن يقول لهم "ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ" من العذاب ولا أقدر على إنزاله "إِنِ الْحُكْمُ" في إنزاله حالا أو تأخيره لأجل معلوم عنده لا يكون "إِلَّا لِلَّهِ" وحده وهو "يَقُصُّ الْحَقَّ" يبرمه وقرىء يقض والمعنى واحد

لأن القضاء قول مبرم وهذه من القراءات الجائزة إذ لا تبديل فيها بالمعنى واللفظ عبارة عن تصحيف في النقط لأن الصاد أخو الضاد وقد ذكرنا غير مرة أن القراءة الغير جائزة وهي التي فيها تبديل كلمة أو حرف مباين أو زيادة أو نقص شيء من ذلك "وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ 57" بين الحق والباطل إذ لا يقع في حكمه جور ولا حيف ، يا أكرم الرسل إذا ألح عليك قومك بطلب إنزال العذاب "قُلْ" لهم "لَوْ أَنَّ

(53/223)

عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ" لأوقعته عليكم حالا وما أمهلتكم به وقد رأيت منكم ما رأيت يدل على هذا قوله "لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" لأني بشر وقد نفد صبري عليكم لولا أن اللّه يأمرني بالصبر ولأوقعته عليكم غضبا للّه الذي قابلتم نعمه بالجحود لا تشفيا لنفسي ولكنه بيده وهو صبور لا يستفزه الغضب وهو حليم لا يعجل بالعقوبة "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ 58" أمثالكم هل تعجيل العذاب أصلح لهم أو تأخيره وهو أعلم بالوقت والمحل الذي ينزله عليكم بهما ونوع العذاب الذي تستحقونه

وما أنتم عليه من الحال "وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ" بفتح الميم جمع مفتح اي المخزن وعليه يكون المعنى

خزائن الغيب أما إذا كان جمع مفتح بكسر الميم فإنه تعالى جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المغلوقة بالأقفال فالذي يعلم تلك المفاتيح وكيفية استعمالها يمكنه أن يتوصل إلى الخزائن بها المدخرة فيها ولما كان جل جلاله عالما بجميع المعلومات عبر عن هذا المعنى بذلك وعليه يكون المعنى المراد أن العلم بالغيب عنده وحده لا يشاركه فيه أحد ، أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : مفاتيح الغيب خمسة وتلا قوله تعالى عنده علم الساعة إلخ الآية الأخيرة من سورة لقمان الآتية ، وروي نحوه عن ابن مسعود ، وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن ابن عمر مثله ، والآية عامة تشمل بإطلاقها جميع ما غاب عن العباد من آجال وأحوال وعذاب وثواب وغير ذلك "لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ" وحده إذ انفرد جل جلاله بعلمه "وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" من نبات وحيوان وجواهر ومعادن ومفاوز وقفار وقرى وأمصار وجزر وأنهار مما علمه البشر وما لا يعلمه "وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ" من جميع الأشجار والنبات "إِلَّا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ" تسقط من كافة أصناف الحبوب مما يخصّ الإنسان والحيوان والطير والحوت "فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ" إلا يعلمها أيضا وسكت عما في ضياء الأرض لأن الذي يعلم

ما في ظلماتها فهو لما في ضيائها أعلم وهو جل جلاله لا فرق عنده بين الظلمة والنور ويعلم تلك الورق قبل نباتها وبعده ومن هي رزقه وما يصير منها وما هو مقداره "وَلا رَطْبٍ" من ماء وحي "وَلا يابِسٍ" من أرض وميت أي أنه يعلم كل الأشياء لأنها إما أن تكون رطبة أو يابسة وهي إن كانت داخلة في قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب إلا أن ذلك على طريق الإجمال وهذا على طريق التفصيل والتفصيل بعد الإجمال أوقع في النفس ولذلك عد من أبواب البديع في الكلام "إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ

(55/223)

59" ظاهر وكل شيء فيه ثابت مدون مما كان ومما سيكون قبل خلق السموات والأرض وإلى آخر الكون وما بعده في الآخرة "وَ" اعلموا أيها الناس أن ذلك الإله العظيم الموصوف بما ذكر من صفات الكمال والقدرة "هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ" يميتكم فيه لأن النوم وفاة لما بينها وبين الموت من المشاكلة في زوال الإحساس

وغفلة الحواس الظاهرة والباطنة وفقد الشعور والتمييز "وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ" كسبتم وفعلتم بجوارحكم "بِالنَّهارِ" مما يستحق الثواب ويستوجب العقاب "ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ" يوقظكم بالنهار بعد استيفاء أجل نومكم المعبر عنه بالتوفي ولا يفهم من هذا أن اللّه تعالى لا يعلم ما

جرحنا بالليل ولا أنه لا يتوفانا في النهار لأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه كما أن انتفاء الدليل لا يستلزم انتفاء المدلول وأن عدم وجود الخلق من الأزل لا يستوجب عدم وجود الخالق لتولي أمرهم في الآخرة كما كان يتولى أمرهم في الدنيا وقيل الردّ إلى من ربّاك خير من البقاء مع من آذاك "لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى" لاستيفاء أعماركم والفعل متعلق ببعثكم "ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ" في الآخرة "ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 60" في هذه الدنيا لا يخفى عليه شيء من أمركم حتى انه يعلم ما ترونه في نومكم وما توقعون فيه من حركات وسكنات راجع الآية 12 من سورة الزمر الآتية ،

قال تعالى "وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ" المتسلط عليهم بالغلبة المتعالي عليهم بالقدرة راجع معنى الفوقية في الآية 18 المارة "وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً" من ملائكة يسجلون أعمالكم راجع الآية 18 من سورة ق في ج 1 "حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ" بانقضاء أجله المبرم "تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ" الرسل الموكلون بالوفاة "لا يُفَرِّطُونَ 61" في أمرنا ولا يتوانون فيه البتة .

(56/223)

مطلب الجمع بين آيات الوفاة وسرعة الحساب وقول الفلاسفة فيه ومعنى يذيق بعضكم بأس بعض :

واعلم أن المتوفي في الحقيقة هو اللّه تعالى فإذا حضر أجل العبد أمر اللّه الملك بقبض روحه والملك الموكل بقبض الأرواح له أعوان وكل أمرهم إليه فيأمرهم بنزع روحه حتى إذا وصلت للحلقوم قبضها هو بنفسه ، وهذا التأويل يجمع بين قوله تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ) الآية 42 من الزمر المنوه بها أعلاه وقوله تعالى (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ) الآية 12 من سورة السجدة الآتية وبين هذه الآية تيقظ "ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ" بعد استيفاء آجالهم في البرزخ وإنما قال تعالى الحق لأنهم أي الكفرة كانوا يزعمون أن مولاهم الصنم الذي اتخذوه فنبههم اللّه بأن زعمهم

(57/223)

ذلك باطل من أصله وقد أظهر لهم بطلانه وبين لهم أنه هو سيدهم ومالكهم لا غير فتنبه أيها العاقل "أَلا لَهُ الْحُكْمُ" وحده يومئذ في حسابهم على ما كان منهم "وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ 62" لا يحتاج إلى رؤية وفكر ولا يشغله حساب بعض عن آخرين يحاسب ، الخلائق كلها بنفسه محاسبة رجل واحد في أسرع وقت وأقصر زمان والمقصود منه على زعم الفلاسفة استعلام ما بقي من الدخل والخرج ولما كان لكل ذرة من الأعمال أثر حسن أو قبيح بحسب حسن العمل وقبحه إذ لا شك أن تلك الأعمال كانت مختلفة فلا جرم كان

بعضها معارضا للبعض وبعد حصول المعارضة يبقى في النفس قدر مخصوص من الخلق الحميد وقدر آخر من الذميم فإذا مات الجسد ظهر مقدار ذلك وهو إنما يحصل في الآن الذي لا ينقسم وهو الآن الذي فيه فينقطع فيه تعلق النفس من البدن فعبّر عن هذه الحالة بسرعة الحساب وزعمهم هذا هو أن كثرة الأفعال وتكررها يوجب حدوث الملكات الراسخة وأنه يجب أن يكون لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الملكة بل كان يجب أن يكون لكل جزء من أجزاء العمل الواحد من تلك الأعمال أثر بوجه ما في حصول تلك الملكة وحينئذ يقال إن الأفعال الصادرة من اليد هي المؤثرة في حصول الملكة المخصوصة وكذلك الأفعال الصادرة من الرجل فتكون الأيدي والأرجل شاهدة على الإنسان بمعنى أن تلك الآثار النفسانية إنما حصلت في جواهر النفوس بواسطة هذه الأفعال الصادرة من هذه الجوارح فكأن ذلك الصدور جاريا مجرى الشهادة بحصول تلك الآثار في جواهر النفس وعلى هذا فيقصد من الحساب ما ذكر آنفا وزعم من نقل هذا عنهم أنه من تطبيق الحكمة النبوية على الحكم الفلسفية ، قال الآلوسي رحمه اللّه متمثلا في هذا البيت :

راحت مشرقة ورحت مغربا شتان بين مشرق ومغرب

أي أن هذا الذي تقوله الفلاسفة لا ينطبق على ما نحن فيه ولا يقرب منه إلا كقرب المشرق من المغرب وأنا أتمثل بقول الآخر :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك اللّه كيف يلتقيان

فالثريا شامية إذا ما استهلت وسهيل إذا ما استهل يمان

ولا يرد هنا قولهم إن اللّه تعالى لا يتولى حسابهم بنفسه لقوله جل قوله (لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ . . .

وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) الآية 77 من آل عمران في ج 3 ، لأن الكلام غير المحاسبة أي لا يكلمهم كما يكلم المؤمنين ولا ينظر إليهم نظرهم لأن الكلام والنظر يختلفان باختلاف المكلم والمكلم وبحالة الرضا والغضب ، تدبر .

(59/223)

قال تعالى "قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ" ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمه الرياح "وَالْبَحْرِ" ظلماته المارة في الآية 38 وهي ثلاثة والرابعة ظلمته لأن البحر كلما عمق اشتد سواده فتراه في الساحل أبيض فإذا سرت فيه ازداد عمقه فصار أخضر فأزرق فأسود ، أي إذا ضللتم الطرق فيها وتحيرتم أأصنامكم تخلصكم من الخوف الذي يلحقكم من التيه والغرق وترشدكم إلى طريق النجاة والأمن أم اللّه الذي "تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً" جهرا وعلانية

"وَخُفْيَةً" سرا في أنفسكم وتقولون حينما يشتد بكم الفزع "لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ" الشدة المؤدية للهلاك يا إلهنا الحق ومولانا الصدق "لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ 63" لك إحسانك علينا وإنعامك ونؤمن بك وبكتابك ورسلك "قُلِ" يا سيد الرسل لهؤلاء الجاحدين إن أجابوك وإن لم "اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها" من تلك الظلمات المؤدية لهلاككم "وَ" وينجيكم أيضا هو وحده "مِنْ كُلِّ كَرْبٍ" لا أحد غيره "ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ 64" به غيره بعد إنجائكم وتكفرون نعمه التي أسداها لكم وتنسون لطفه بكم ، فيا أكرم الرسل "قُلْ" لهؤلاء الكفرة افعلوا ما شئتم وتحصنوا بما تصورتم فلا وزر لكم منه لأنه "هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ" فيمطركم به كما أمطر على قوم لوط وأصحاب الفيل راجع قصتهما في الآية 82 من سورة هود المارة والآية من آخر سورة الفيل في ج 1 "أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ" كما خسف بقارون ورفيقه المار ذكره في الآية 82 من سورة القصص في ج 1 ، وهذا مثل للإهلاك في البحر ، أما الإهلاك في البر فهو المبين بقوله عز قوله "أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً" يخلطكم خلط اضطراب فيجعلكم فرقا مختلفين يتعصب بعضكم لبعض ضد الآخرين منكم فتقتتلون وتتباغضون ، قال السلمي :

وكتيبة لبّستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي

"وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ" أي يقتل بعضكم بعضا ، والبأس يطلق على الموت والسيف والشدة والمكروه كما أذاق ذلك بني إسرائيل إذ لم يقبل توبتهم إلا بقتل أنفسهم ففعلوا لأجل قبول توبتهم تخلصا من العذاب الأخروي الدائم لأنهم رحمهم اللّه عرفوا أن هذه الدنيا فانية وعذابها مهما كان عظيما فهو فان أيضا فاختاروا الدار الباقية طلبا لرضاء ربهم ففادوا بأنفسهم .

راجع قصتهم في الآية 54 من سورة البقرة في ج 3 ، جاء في الخبر عن سيد البشر أنه قال : سألت اللّه أن لا يبعث على أمتي عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف .

وروى البخاري عن جابر قال : لما نزلت (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ) الآية المارة قال أعوذ بوجهك (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال أعوذ بوجهك (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً) قال هذا أهون أو هذا أيسر .

وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بني أمية دخل فركع ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألت ربي أن لا

يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها .

وأخرج عن خباب بن الأرت قال : صلى بنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم صلاة فأطالها فقالوا يا رسول اللّه صليت صلاة لم تكن تصليها قال أجل إنها صلاة رغبة ورهبة إني سألت اللّه تعالى ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها .

(61/223)

والأخبار في هذا كثيرة ولم نأت بها استدلالا على سبب النزول لأن منها ما لا يصح لعدم وقوعه إلا بعد نزول الآية بسنين وإنما أتينا بها استدلالا لإيقاع البأس بين هذه الأمة من بعضها وهو واقع لا محالة ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، ولهذا فإن من قال إنها نزلت في أمة خاصة لا يصح إلا إذا قيل باعتبار آخرها ولهذا قال أبو العاليه في هذه الآية : هن أربع وكلهنّ عذاب وقعت اثنتان بعد موت النبي صلّى اللّه عليه وسلم بخمس وعشرين سنة يريد حادثة عثمان رضي اللّه عنه وما وقع بين علي كرم اللّه وجهه ومعاوية إذ ألبسوا شيعا وأذاق بعضهم بأس بعض وبقيت

اثنتان لا بد واقعتان وهما الخسف والرجم وبهذا قال أبي بن كعب ومجاهد وغيرهما فيا أكرم الرسل "انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ" ونكررها بالوعد والوعيد والرجاء والخوف والرضاء والغضب "لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ 65" معانيها ويتدبرون مغازيها فينزجروا عما هم فيه "وَكَذَّبَ بِهِ" بهذا القرآن "قَوْمُكَ" يا محمد "وَهُوَ الْحَقُّ" الذي لا مرية فيه ولا أصدق منه "قُلْ" لهم إذ جرأوا على ذلك قوا أنفسكم من عذاب اللّه لأني "لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ 66" حتى أقيكم منه ولا بمنتقم حتى أجازيكم عليه ولا بحفيظ حتى أحفظكم من عذابه إنما أنا منذر مبلغ مرشد فقط ولكن عليكم أن تعلموا أن "لِكُلِّ نَبَإٍ" من أخبار القرآن "مُسْتَقَرٌّ" ينتهي إليه إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما معا في الوقت والمكان الذي قدر وقوعه فيه لا يتقدم ولا يتأخر ولا يتخلف ، ولا تزالون أيها الكفرة تتلبسون في حالتي التكذيب والجحود حتى يأتيكم أمر اللّه "وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ 67" إذ ذاك مغبة عملكم وقساوة جزائه ، وهذه الآية محكمة بدليل وقوع التهديد والوعيد في آخرها ، وما قيل إنها منسوخة بآية السيف قيل لا يصح لأن صاحب هذا القيل فسر وكيل بعبارة (لم أومر بجربكم) وهذا المعنى أبعد من عنقاء مغرب لأن وكيلا بمعنى حفيظ ورقيب ومدافع وزعيم وحميل ومحام

ليس إلا ومتى كان كذلك فإنه إنما يطالبهم بالظاهر من الإقرار والعمل لا بما تحتويه ضمائرهم بدلالة قوله (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ) تدبر هذا .

مطلب النهي عن مجالسة الغواة وذم اللغو وتهديد فاعليه ومدح من يعرض عنه :

(63/223)

واعلم أن اللّه تعالى يقول "وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا" المنزلة عليك يا سيد الرسل وهذا خطاب له ولأمته لأن الآية صالحة للعموم أكثر منها للخصوص ، وهذا الخوض هو ما يقع منهم من السخرية والاستهزاء والطعن والذم والتكذيب والإنكار بوجود الإله والنبوة والمعاد ومعناه لغة الشروع في الماء والعبور فيه ويستعار للأخذ بالحديث والشروع فيه بطريق التنقيد والتفنيد ، يقال

تخاوضوا وتفاوضوا في الحديث وأكثر استعماله في ذلك قال تعالى (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ) الآية 45 من سورة المدثر المارة في ج 1 ، وقال تعالى (إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) الآية 65 من سورة التوبة في ج 3 ، وقال تعالى (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا) الآية 7 منها وأكثر استعمالها في الذم ، أي إذا رأيت أيها الإنسان الخوض من أناس ما في آيات ربك "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ" واحذر مجالستهم وتباعد عنهم وإياك مقاربتهم "حَتَّى يَخُوضُوا فِي

حَدِيثٍ غَيْرِهِ "مما يحل سماعه ويندب الاشتراك فيه فجالسهم "وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ" على الفرض والتقدير الاعراض عنهم ومجالستهم بسائق الغفلة التي هي من شأن البشر أو انشغال فكرك بالله .

(64/223)

هذا على أن الخطاب لسيد المخاطبين إذ لم يقع منه قط شيء من ذلك وأنّى للشيطان أن يشغل فكره وليس له عليه سبيل ولهذا عبر بان الشرطية المؤكدة بما لأنهما تفيد الشك وإذا كان الخطاب لغيره فلا مانع من وقوعه ، والنسيان مرفوع إثمه عن الناس إذا ترك حين تذكر بأن فارقهم حالا أو أنه جالسهم قبل الخوض فقام زمنه حالا وإلا فهو مؤاخذ به بلا شك ويخشى على إيمانه إذا داوم الجلوس معهم بعد الخوض وحكم كل مجلس يتعدى فيه على حدود الله كذلك "فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 68" أنفسهم بالتجاوز على آيات الله وهذا نهي قاطع ألا فلينته الغافلون عنه ، نزلت هذه الآية في جماعة من المؤمنين كانوا يجالسون المشركين بأنديتهم فيقعون بالاستهزاء بالقرآن والسخرية بمحمد صلّى الله عليه وسلم والجحود لله فنهى الله رسوله والمؤمنين كافة عن مجالستهم في تلك الحالة وإنما كان الخطاب لحضرة الرسول الذي لم يجالسهم في تلك الحالات وأراد المؤمنين

الذين وقع منهم ذلك ليكون المنع أبلغ والنّهي أشد ، هذا وقد مدح اللّه الذين يعرضون عن اللغو فقال جل قوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) الآية 3 من المؤمنين الآتية ، وقال عز قوله (وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ) الآية 55 من القصص ، وقال تعالى قوله (وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً) الآية 72 من الفرقان المارتين في ج 1 ، هذا مطلق اللغو فكيف بما يقع في أمور الدين وفي اللّه وكتبه ورسله إذ يجب المنع منه باليد فإن لم يستطع فباللسان وعليه حالا ترك ذلك المجلس ، فعلى العاقل

(65/223)

أن يتجنب اللغو ومجالسة أهله لئلا يعرض نفسه لما يكره في الدنيا والآخرة ، واعلم أن النسيان الذي لا يكون مبعثه انشغال السر بالوساوس والخطرات الشيطانية مما لم يكن في الأفعال البلاغية والعبادات جائز بالنسبة لحضرة الرسول الأعظم أما النسيان الذي في الأقوال البلاغية والعبارات فهو مستحيل عليه وكذلك السهو والخطأ في شيء من ذلك فهو ممتنع في حقه قطعا ، أما السهو والخطأ والنسيان في الأقوال الدنيوية وفيما ليس سبيله البلاغ في الكلام الذي لا يتعلق بالأحكام ولا أخبار القيامة ولا ما يتعلق فيها وكل ما لا يضاف إلى وحي فهو جائز في حقه صلّى اللّه عليه وسلم إذ لا مفسدة فيه ولا يجوز عليهم أي الأنبياء

أجمع خلف في خبر لا عمدا ولا سهوا ولا خطأ لا في صحة ولا في مرض ولا في رضى ولا في غضب وهنا يؤول قوله تعالى (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى) الآية من سورة والليل المارة في ج 1 الذي استدل به بعض الشيعة على عدم جواز نسبة النسيان له مطلقا في كل ما يؤديه عن اللّه تعالى من القرآن والوحي لما فيه من المفسدة أما فيما عدا ذلك مما لم يؤد إلى إخلال بالدين فهو جائز وهذا هو القول الجامع بين قول أهل السنة والجماعة وبين إخوانهم الشيعة إذا فلا منافاة ولا اختلاف وهكذا الأنبياء كافة عليهم الصلاة والسلام .

هذا وإن سيرة حضرة الرسول وحالته وكلامه وأفعاله مجموعة يفتى بها على ممر الزمان ويتناولها المؤمن و

المنافق والمخالف والموافق والمرتاب والمصدق فلم يأت في شيء منها استدراك غلط في قول ولا اعتراف بوهم في كلمة واحدة ولو كان لنقل عنه كما نقل سهوه في الصلاة في قصة ذي اليدين وغيرها ونومه عنها وانشغاله في حادثة الخندق وكما نقل عنه استدراك رأيه في تلقيح النخل وقوله بعد ذلك أنتم أعلم بأمور دنياكم وفي نزوله بأدنى مياه بدر إلى غير ذلك من الاعتقادات في أمور الدنيا فلم يمتنع نسبتها إليه وإلى غيره من إخوانه الأنبياء عليهم

السلام ، ولهذا البحث صلة في الآية 53 من سورة الحج في ج 3 ، وفي الآية 121 من سورة طه المارة في ج 1 فراجعها ، قال تعالى "وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ" قبائح أحوال الخائضين وأعمالهم "مِنْ حِسابِهِمْ" آثامهم التي يحاسبون عليها وجزاؤهم التي يعذبون بسببها "مِنْ شَيْءٍ" أبدا وجيء بمن لتأكيد الاستغراق إذا كانوا متقين ذلك "وَلكِنْ ذِكْرى"

(67/223)

أي عليهم أن يتذكروا ويتعظوا وينبهوا غيرهم ويمنعوهم بما أمكن من العظة ويظهروا لهم الكراهة ليتيقظوا "لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" 69 ذلك الخوض ويتركونه وينفضوا عنه حياء أو كراهية لمساءتهم ، نزلت هذه الآية لما قال المسلمون لئن كنا نقوم كلما استهزأ المشركون بالقرآن لم نستطيع أن نجلس بالمسجد الحرام ولا نطوف بالبيت وإنا نخاف الإثم إذا لم ننهاهم فبين اللّه تعالى أن لا بأس لمن يتقي أعمال الخائضين والاكتفاء بتذكيرهم على ما يدل على المنع ، هذا إذا كانوا في المسجد ولم يقدروا على منعهم أما في غير المسجد فعليهم ترك المكان الذي هم فيه إذا لم يقدروا على منعهم من الخوض ، وهذه الآية محكمة لأنها خبر من الأخبار والأخبار لا يدخلها النسخ راجع الآية 41 من سورة يونس المارة ، وغاية معناها أن كل إنسان مختص بحساب نفسه ، وما قيل إنها منسوخة بآية النساء 14 في ج 3 لا وجه له لأن

تلك مؤيدة هذه ومؤكدة لها باللفظ والمعنى وهي مدنية وهذه مكية تدبر ، راجع تمحيص القول في هذا عند تفسيرها ، ومن هنا يعلم كراهة جلوس المرء في المجالس التي يقع اللهو واللعب واللغو والرفث وغيره إذا لم يستطع النهي عنه ، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان .

(68/223)

أقول ولا ضرورة تقضي بأن يتصف الرجل بضعف الإيمان لأنه لا يقدر إلا على عدم رضاء قلبه في ذلك بل عليه أن يترك هذا المجلس على الأقل فإن بقائه مع عدم قدرته على النهي فعلا أو قولا رضاء به وبما يقع فيه والرضاء بالذنب ذنب كما أن الرضاء بالكفر كفر ، لهذا فإن الأحسن للعاقل التقي أن يتجنب هكذا مجالس سوء ويحتفظ بقوة دينه إذ يجب النهي على القادر باللسان وإن لم يسمع منه لأن العمل ثمرة الإيمان وأعلى الإيمان النهي باليد حتى إذا قتل كان شهيدا ، قال تعالى حاكيا حال لقمان (يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ) الآية 18 من سورته الآية إذ أمره بالصبر على ما يصيبه من جراء ذلك وإن النهي بالكلام قد ينال منه في هذا الزمن ما يفضي إلى التحمل

والصبر أو الإهانة والضرب فلذلك الأحسن بمقام الرجل الاعراض بالكلية ليدخل في قوله تعالى (وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً) الآية 73 من سورة الفرقان في ج 1 وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في الآية 53 من سورة يوسف والآية 113 من سورة هود المارتين والآية 36 من سورة الإسراء في ج 1 وله صلة في الآية 3 من سورة المؤمنين الآتية وفي الآية 254 من سورة البقرة في ج 3 على أنه يكفي في هذا الباب الآيتان المفسرتان لمن كان له قلب حي وفي هذه الآية الثالثة الذي يقول الله جل جلاله فيها "وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً" أعرض عنهم لا تخالطهم أبدا لأنهم جهلوا معبودهم الحق ولم يعرفوا قدرته "وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا" بزخرفها وخدعتهم بشهواتها وأطمعتهم في الباطل إذ غلب حبها على قلوبهم فأفقدتهم الوعي ومالوا عن السداد وانهكوا في الفساد والإفساد "وَذَكِّرْ بِهِ" يا سيد الرسل خاصتك وقومك واتلوه عليهم فإن فيه حياتهم وصلاحهم لاحتوائه على علوم الأولين والآخرين وأدم قراءته عليهم مخافة "أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ" ترتهن

وتستسلم قال زهير :

وفارقتك برهن لا فكاك له يوم الوداع وقلبي مبسل علقا

أي لئلا تحبس نفس "بِما كَسَبَتْ" من السوء فتهلك به وتحرم من الثواب في يوم "لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ" لأن كلا مشغول بنفسه فلا قريب ولا صديق ينفع ولا شفيع إلا بإذن اللّه لمن يأذن به ويرتضيه راجع الآية 28 من سورة الأنبياء الآتية ، واعلم أن النفس الخبيثة لا مخلص لها من العذاب "وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ" تفتدي بكل فداء لننجو به من العذاب "لا يُؤْخَذْ مِنْها" ذلك إذ لا يقبل الفداء لو فرض أن هناك فداء ولكن لا فداء ولا يملك أحد شيئا لأن الملك كله للّه ، وسمي الفداء عدلا لأن الفادي يعدل المفدى بمثله "أُولئِكَ" المتخذون دينهم لهوا ولعبا المغرورون في الحياة الدنيا هم "الَّذِينَ أُبْسِلُوا" أسلموا أنفسهم للهلاك وحبسوها بالعذاب "بِما كَسَبُوا" من القبائح في دنياهم ولم يتورعوا حتى عن مجالسة الأشقياء "لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ 70" بسبب كفرهم الذي ماتوا عليه ولا وجه لقول من قال إن هذه الآية منسوخة بآية السيف لأنها خارجة مخرج التهديد فهي على حد قوله تعالى (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً) الآية 13 من سورة المدثر في ج 1 ، وان ما من شأنها ذلك لا يدخلها النسخ لأنها من قبيل الإخبار والإخبار لا يدخلها النسخ ولهذا فهي محكمة ، قال تعالى يا سيد الرسل

"قُلْ" لهؤلاء المشركين الذين يدعونك لعبادة آلهتهم "أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا" ونترك النافع الضار "وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا" فنرجع إلى الشرك السافل لأن العقب مؤخر الرجل يقال رجع على عقبه إذا انثنى راجعا ، أي أنرجع إلى الضلال "بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ" للإسلام أيكون هذا منا ونحن عقلاء فنصير "كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ" خبطته "الشَّياطِينُ" المبثوثة "فِي الْأَرْضِ" وذهبت به في هوئها ، والهوى النزول من الأعلى إلى الأسفل على غير انتظام فصار "حَيْرانَ" تائها لا يدري ما يعمل وهذا الممثل به "لَهُ أَصْحابٌ" رفقاء "يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى" لينقذوه مما هو فيه فيقولون له ائتنا "لتنجو وهو لا يأتيهم لاستيلاء الحيرة عليه ، هذا مثل ضربه اللّه تعالى لمن يدعو لعبادة الأصنام ولمن يدعو لعبادة الملك العلام يقول فيه مثل هذين كمثل رجل في رفقة ضل عن الطريق المستقيم فطفق أصحابه ينادونه هلم إلينا لا تضل فتهلك ، وشرع الشيطان يدعوه إليه ليوغله في الحيرة فاحتار إلى أين يذهب فإن أجاب الشيطان هلك وإن أجاب أصحابه نجى وفيها دلالة على وجود الغيلان المتعارفة على ألسنة العامة قديما وحديثا المعنية بقوله صلى اللّه عليه وسلم إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان راجع الآية 29 من سورة الأحقاف الآتية وما ترشدك إليها لتثق بوجود

الجن وأنهم كالإنس ، قيل إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه وابنه عبد الرحمن إذ كان يدعو أباه إلى عبادة الأوثان بعد أن صار كامل الإيمان وأن أباه يدعوه للإسلام ليكون في المسلمين إمام وإن توجه الخطاب إلى سيد المخاطبين كان تعظيما لشأن ابي بكر فعلى فرض صحته لا يمنع أن تكون الآية عامة مطلقة لعموم لفظها لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب إلا أن هذا القيل لا يوثق به إذ لم ينزل في عبد الرحمن قرآن كما سنراه في الآية 17 من سورة

(72/223)

الأحقاف الآتية ومما يؤيد عمومها

ضرب المثل فيها إذ لا يتصور الرّد في الشرك منه رضي اللّه عنه كما لا يتصور لحضرة المخاطب في هذه الآية ان يدعو أحدا أو شيئا من دون اللّه وعليه يكون المعنى أيليق بنا معشر المؤمنين ذلك على طريق الاستفهام الإنكاري أي كلا لا يليق أبدا فيا أكرم الرسل "قُلْ" لهؤلاء التائهين الحائرين "إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى" الموصل إلى المطلوب الذي ما وراءه ضلال البتّه فاتبعوه أيها الناس تهتدوا فما بعده إلا الضلال فهلموا إليه لأنا الزمنا "وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ" وننقاد "لِرَبِّ الْعالَمِينَ 71" لا لغيره ونخلص له العبادة وحده ونرفض ما سواه ، قال

تعالى "وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ" المفروضة عليكم أيها المؤمنون "وَاتَّقُوهُ" أن يراكم ذلك الرب العظيم حيث نهاكم فهو الذي بدأ خلقكم "وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ 72" يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وهذا الإله الجليل الذي أنشأكم من لا شيء "هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ" خلقا متلبسا "بِالْحَقِّ" لا باطلا ولا عبثا "وَيَوْمَ يَقُولُ" أي اذكر يا محمد لقومك عظمته وقدرته وأخبرهم بأنه إذا أراد إيجاد شيء أو إعدامه يقول له "كُنْ فَيَكُونُ" حالا بين الكاف والنون "قَوْلُهُ الْحَقُّ" الذي لا مرية فيه ولا تخلّف له "وَلَهُ الْمُلْكُ" بما فيه فلا ترى في ذلك اليوم الذي تجتمع فيه الخلائق من يدعيه وكل من كان له ملك في الدنيا من الجبابرة والملوك يتنصّل عنه إذ يكون الكل للّه "يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ" القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ويسمى بوقا وتسميه العامة (طواطه)

مطلب في الصور وأن آزر هو أبو ابراهيم لا غير وما وقع له مع أبيه وقومه وملكهم :

روي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : جاء اعرابي إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال ما الصور ؟ قال قرن ينفخ فيه أخرجه أبو داود والترمذي وهو بلغة أهل اليمن ومن هنا اتخذه الملوك وجعلوا النداء به علامة على الجمع والطلب وغيره ، أخرج الترمذي عن

أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنا جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول اللّه فقال كيف نفعل يا رسول اللّه وكيف نقول قال قولوا حسبنا

(74/223)

اللّه ونعم الوكيل على اللّه توكلنا ، وهذا أحسن من تفسيره بأنه جمع صورة والنفخ فيه إحياؤها لعدم ما يؤيده ولأن جمع الصورة صور بفتح الواو ولم يقرأ بهذه القراءة إلا قتادة راجع الآية 68 من سورة الزمر الآتية تجد ما يتعلق بهذا مفصلا ، واعلموا أيها الناس أن هذا الإله الكبير الفعال لذلك كله وكل شيء هو "عالِمُ الْغَيْبِ" الأسرار الخفية "وَالشَّهادَةِ" الأمور العلنية لا يخفى عليه شيء من أعمال وأقوال خلقه "وَهُوَ الْحَكِيمُ" في تدبير خلقه "الْخَبِيرُ 13" بما يصلحهم وما يفعلونه ويكتمونه لا يخفى عليه شيء أبدا "وَ" اذكر لقومك يا سيد الرسل "إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ" قيل هذا لقبه واسمه تارخ مثل يعقوب وإسرائيل ، وإنما سماه اللّه بلقبه دون اسمه لأنه مشهور به أكثر من الاسم وهذا أي كون آزر أباه لا عمه أصح ما قيل في هذا من أقوال كثيرة بدليل ما أخرج البخاري في افراده من حديث أبي هريرة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى

وجه آزر فترة وغبرة ، فلم يبق للقول بأنه عمه قيمة ما بعد صراحة القرآن والحديث وقد ثبت أن اسمه الشائع هو آزر كما جاء نصا لا تارخ كما يقال ، ثم بين ما قاله لأبيه بقوله يا أبت "أَتَتَّخِذُ أَصْنَاما آلِهَةً" من دون اللّه الواحد "إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ" السائرين على سيرتك "فِي ضَلالٍ مُبِينٍ 74" ظاهر لا يخفى على أحد ممن له مسكة من عقل أو ذرة من إدراك فقال له إذا نحن في ضلال قال لأنكم تعبدون حجرا وأخشابا لا تضر ولا تنفع ، وإنما ذكر اللّه تعالى حبيبه في هذه القصة توبيخا لقومه الذين يعبدون الأوثان وتعريضا للاحتجاج عليهم بها لأنهم كانوا يعظمون إبراهيم عليه السلام المعظم لدى كل أمة "وَكَذلِكَ" مثل ما أريناه قبح الشرك وعرفناه فيه "نُرِي إِبْراهِيمَ" جاء بالظاهر بدل المضمر إذ صرح باسمه تعظيما له ولهذا

(75/223)

لم يقل "مَلَكُوتَ" مبالغة ملك كالرحموت مبالغة الرحمة والجبروت والرهبوت والرغبوت مبالغة الجبر والرهبة والرغبة زيد في بعضها الواو والتاء وفي بعضها الواو فقط وفي بعضها التاء للمبالغة كما زيد في طالوت وجالوت وهاروت وماروت وأصلها الطول والجول وهار ومار أي تطلعه على ما في "السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" من عجائب ولطائف وبدائع وذلك لما أراه

اللّه تعالى أن أباه وقومه

على غير الحق انتقدهم وخالفهم فجزاه اللّه تعالى بأن فرج له السموات السبع فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى إلى العرش والكرسي وفرج له الأرضين فنظر فيهن حتى أسفلهن ورأى ما فيهن من عجائب وبدائع أيضا ليطمئن بعلم ما فيهن "وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ 75" بخالقهن إيقانا كاملا زيادة على إيقانه على حد قوله تعالى :

(76/223)

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا) الآية 135 من النساء في ج 3 ، واعلم أن الإيقان عبارة عن علم يحصل بالتأمل بعد زوال الشبهة لأن الإنسان أول أمره لا ينفك عن شبهة وشك فإذا كثرت الدلائل عليه وتوافقت البراهين وتطابقت الحجج صار سببا لحصول اليقين والطمأنينة في القلب فيعلمه حسا كما علمه خبرا ويلمه فعلا كما تكلم به قولا ويراه عيانا كما سمعه بيانا ، قال البغوي وروي عن سلمان ورفعه إلى علي عليه السلام قال : لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر رجلا آخر فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال تبارك وتعالى يا إبراهيم أنت رجل مجاب الدعوة فلا تدعو على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال إما أن يتوب فأتوب عليه

وإما أن أخرج منه نسمة تعبدني وإما أن يبعث إليّ فإن شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته وفي رواية وإن تولى فإن جهنم من ورائه وظاهر القرآن أن هذه الرؤية بصرية لا قلبية إذ لا يوجد ما يصرفها عن الظاهر الحقيقي ولا يجنح إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة تأمل قوله تعالى "فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ" أظلم وغطّى كل شيء بسواده لأن الجنّ في الأصل الستر عن الحاسة ولمّا أمعن عليه السلام النظر في السماء "رَأَى كَوْكَبًا" هو الزهراء لأنها من القدر الأول من حيث قوة نورها كالسماك الأعزل والدبرين راجع الآية 36 من سورة الحجر المارة تعلم هذا "قالَ هذا رَبِّي" يخاطب أهله وقومه ويستفهم منهم على طريق الإنكار والاستهزاء لأنهم كانوا يعبدون الكواكب وقد صنعوا لكل كوكب صنما بما يناسبه ووضعوها في بيت العبادة ليسجدوا لها ويطلبوا حاجتهم منها وكأنهم قالوا له إنه أحد الأرباب "فَلَمَّا أَفَلَ" غاب وتوارى "قالَ" لهم "لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ 76" لأن حق الرب أن يكون باقيا أبدا حاضرا لإغاثة مربوبيه ثابتا لا يتغير لأن من يتبدل أو يتغير من حال

إلى حال أو يغيب كهذا لا يستحق العبادة فكيف تتخذونه ربا وهو يطرأ عليه ما يطرأ على المخلوق فلو كان ربا لصان نفسه من ذلك قالوا لنا رب أكبر منه "فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا" طالعا خاطبهم أيضا "قَالَ هَذَا رَبِّي" الذي تزعمون أنه أكبر من ذلك قالوا له نعم "فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ" لهم هذا وذاك سواء وكل منهما لا يصلح للربوبية وإني "لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي" إلى الطريق القويم المؤدي إلى معرفة حقيقته وهذا على حد قوله تعالى (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي) الآية 43 من سورة يس المارة في ج 1 أي لئن لم يهدكم ربكم وهو أبلغ في قبول الدعوة وهذا القول منه على سبيل إرخاء العنان مجاراة لأبيه وقومه المولعين بعبادة الكواكب لأن المستدل على فساد قول يحكيه أولا ثم يكر عليه بالابطال ثم نبه قومه بما خص به نفسه وعناهم بقوله جوابا لقسمه "لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ 77" إذا اتخذت ربا سواه لأن هذين الكوكبين لا تصلح للألوهية لأنهما مسيرتين مسخرتين فإذا اتخذتهما إلها فأنا ضال إذا يريد بهذا أباه وقومه ، قالوا له إن لنا ربا أكبر وأكبر من هذين "فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ" من الزهراء والقمر حقيقة "فَلَمَّا أَفَلَتْ" كالأولين وتوارت عن الأنظار ومحي نورها ولم يبق له أثر بعد غيابها "قَالَ يَا قَوْمِ" هذا أيضا ليس بإله لأنه اعتراه ما اعترى الأولين لذلك أقول لكم "إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ 78" في الإله الواحد الذي لا يتغير ولا يطرأ عليه ما يطرأ على خلقه مما هو قابل للتحول والانتقال فيتأثر بعوامل طبيعية وغير طبيعية وقد نبههم على خطأهم هذا فيما يعتقدون ألوهيته تدريجا وأفهمهم بأنها غير صالحة للعبادة وأرشدهم

إلى النظر والاستدلال واحتج عليهم بالأقوال دون البزوغ مع أن كلا منهما انتقال وتبدل من حال

(78/223)

لآخر لأنه أبلغ وأظهر لكونه انتقال مع خفاء واحتجاب ، والبزوغ انتقال مع وضوح وظهور ، وقد أراد عليه السلام إبطال قولهم بربوبية الكواكب إلا أنه كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح لهم بالدعوة إلى اللّه رأسا لم يقبلوا ولم يلتفتوا إليه فمال إلى طريق استدراجهم لاستماع هذه الحجج لأنه ذكر كلاما يوهم كونه مساعدا لهم على مذهبهم مع أن قلبه كان مطمئنا بالإيمان باللّه وحده وموقن بأن هذه الكواكب مخلوقة لله

(79/223)

لا تعبد ولا يليق بها أن تعبد وقصده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطال عبادتها ولما لم يقبلوا أعرض عنهم وقال معلنا براءته مما هم عليه من الشرك وعبادة الأوثان

والكواكب مبينا الأسباب الداعية إلى عدم أهليتها للعبادة ومصرحا بعقيدته بقوله "إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ" شقهما بعضهما عن بعض وابتدعهما الذي دل عقلاء خلقه بتغيير الكواكب في السماء والأنهار في الأرض على أنه منشئهما وقادر على طمس الكواكب في السماء وتغوير الأنهار في الأرض "حَنِيفاً" مائلا عن كل ما تعبدونه وعن كل دين لا يكون مرماه عبادة اللّه الواحد الأحد "وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ 79" به غيره البتة ، وما قيل إن مخاطبة إبراهيم بلفظ الضلال وغيره كانت بقصد إيذاء أبيه لا صحة له لأن مثله لا يجوز أن يقع منه مثل ذلك كيف وقد وصفه اللّه بالحلم والحليم لا يستفزه الغضب ولا يليق أن يصدر منه بل لا يجوز أن ينسب صدور الجفاء منه على أبيه بل لا يتصور إيقاعه على الغير منه ، لهذا فإن هذا القيل مردود على أن ما صدر من إبراهيم عليه السلام على أبيه لا يعد من الإيذاء ولو فرض أنه نوع منه فلا يكون محرما لأنه للّه وفي طريق اللّه ويقصد إرشاده إلى اللّه وما قصد به إلا نفعه وخيره ورشده لا إضلاله واحترامه لا إهانته ، ولا يرد عليه أن موسى عليه السلام كلم فرعون باللين والرقة كما مر في الآية 44 فما بعدها من سورة طه المارة في ج 1 مراعاة لحق التربية وإبراهيم خاطب أباه بالخشونة والغلظة ولم يراع حق الأبوة لما ذكرنا ولم يذكر صاحب هذا القيل مخاطبته لأبيه في الآية 42 من سورة مريم فما بعدها المارة في ج 1 التي هي على غاية من اللين والأدب .

مطلب القساوة المنطقية مطلوبة ، وقصة إبراهيم ، وجواز حذف حرف الاستفهام :

هذا على أن الإنسان قد يقسو أحيانا على شخص لمنفعته وأي منفعة أكبر من الهداية إلى الله ، هذا والأمور بمقاصدها والأعمال بالنيات قال أبو تمام :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من رحم

وقال المعري في هذا المعنى :

اضرب وليدك وادلله على رشد ولا تقل هو طفل غير محتلم

فربّ شق برأس جرّ منفعة وقس على شق رأس السهم والقلم

وقال ابن خفاجه الأندلسي :

نبه وليدك من صباه بزجره فلربما أغضى هناك ذكاؤه

وانهره حتى تستهل دموعه في وجنتيه وتلتظي أحشاؤه

فالسيف لا يذكو لكفك ناره حتى يسيل بصفحتيه دماؤه

هذا وكون الرفق أكثر تأثيرا على الإطلاق غير مسلم لأن المقامات متفاوته يدلك على هذا إرشاده تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم في دعاء قومه فمرة يقول له (وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وتارة (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) وقال لقمان عليه السلام ضرب الوالد ولده كالسماد للزرع ، وقد أجاز الشارع ضرب الولد للتعليم ولكفه عن المساويء ، حتى ان اليتيم الذي أرضى اللّه به يجوز ضربه لهذه الغاية ، لأن المنهي عنه الضرب عبثا أو عدوانا ، قال تعالى "وَحاجَّهُ قَوْمُهُ" خاصموء في توحيد اللّه لما أظهر عيوب آلهتهم وصرح لهم بعقيدته وصدع بما أمره اللّه به "قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ" الحق الذي يجب أن يعبد "وَقَدْ هَدانِ" إلى سبيله المستقيم وتخوفوني بآلهتكم العاجزة المحتاجة لكم "وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ" يإلهي القادر القوي المستغني عن كل شيء ، وإن أوثانكم مهما بلغ أمرها لا وزن لها ولا قيمة عندي ، لأنها أحجار وأخشاب من صنع أيديكم لا تقدر أن تدفع ضرا عن نفسها ولا تضر من يعتدي عليها ولا تنفع من يلتجيء إليها ، وإني معتمد على ربّي لا أخاف من كل شيء تتصورونه أو تظنون أنه يوقع في مكروها أبدا "إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللّه رَبِّي شَيْئاً" من إضراري وإذلالي فهو وحده القادر على ذلك ، وهو الذي يخاف ويخشى منه ، وهذا الاستثناء منقطع لا علاقة له بما قبله ، وإلا فيه بمعنى لكن "وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً" أي وسع علمه كل شيء لأن علما تمييز محول عن الفاعل ، كقولك تفقأ زيد شحما أي تفقأ شحم زيد ، فلا يخرج شيء عن علم اللّه ، ولا يصاب أحد بشيء إلا بعلمه ، فهو المحيط بكل شيء "أَفَلا

تَتَذَكَّرُونَ 80"

يا قوم فتميزون بين القادر والعاجز وتعلمون أن الضار والنافع هو خالق السموات والأرض وما فيهما

(82/223)

"وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ" مع علمي أن الأمن والخوف من اللّه لا من أوثانكم "وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ" من لا يصلح للإلهية وإن الإشراك أعظم ذنب ارتكب على وجه الأرض ، وإذا تدبرتم وتفكرتم علمتم أن هذا مما "لَمْ يُنَزِّلْ" اللّه تعالى "بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً" حجة ولا برهانا لأن الإشراك محض اختلاق وبهت خالص وكذب مفترى ، وانكم تجرون الأمور معكوسة فتجعلون الأمن موضع الخوف والخوف موضع الأمن "فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ" أنا أم أنتم نبئوني "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ 81" علما حقيقيا يعرف به الحق من الباطل ، ولم يقل فأيّنا احترازا من تزكية النفس ومن المكابرة في الرّد عليه عتوا وعنادا ، وهذه الآية على حد قوله تعالى (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الآية 24 من سورة سبأ الآتية ، على أني أقول لكم إن الأحق بالأمن من العذاب "الَّذِينَ آمَنُوا" إيمانا خالصا "وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ" بشرك ، روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال لما نزلت هذه الآية شق على

المسلمين وقالوا أينا لا يظلم نفسه ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم ليس ذلك إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه (يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) الآية 13 من سورة لقمان الآتية ، تدل هذه الآية على أن من مات لا يشرك باللّه شيئا كانت عاقبته الأمن من النار أي من الخلود فيها ، لأن العصاة لا بد وأن يطهروا من درن عصيانهم فيها ، لأن من أسلم ولم يعمل خيرا ما ثم مات فجدير أن يدخل الجنة ، لأن الإيمان يجب ما قبله "أُولَئِكَ" المؤمنون الموصوفون "لَهُمُ الْأَمْنُ" من مخاوف الدنيا والآخرة "وَهُمْ مُهْتَدُونَ 82" بهداية اللّه إلى سبيل الرشد والسداد وهذا فضل من اللّه تعالى وقضاء بين إبراهيم وقومه ، إذ بين فيه الذين يستحقون

الأمن من الذين يستوجبون الخوف "وَتِلْكَ حُجَّتُنا" الإشارة إلى ما حاج به إبراهيم قومه بما صار له من الغلبة عليهم بحكم اللّه القائل "آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ" بإلهام ووحي منا وهي حجة واضحة دامغة أفحمتهم وأخرستهم لأنهم تكلموا معه عن جهل ، وهو خاطبهم عن علم "نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ" من عبادنا بالعلم والنبوة والحكم والحكمة "إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ"

برفعة من يشاء "عَلِيمٌ 83" بمن يؤهله لهذه الرفعة ، فهو جل شأنه لا يفضل أحدا على غيره ولا يعزّ ولا يذل ولا يغني ولا يفقر ولا يصح ولا يمرض ولا يعطي ولا يمنع ولا يخفض ولا يرفع إلا لحكمة ، وخلاصة القصة على ما ذكره الأخباريون أن نمرود بن كنعان أول من وضع تاج الملك على رأسه إذ لم يعرف قبله ، وأول من دعا الناس إلى عبادته ، ولم يعرف الناس قبله غير عبادة اللّه والأوثان ، وكان له كهان ومنجمون أخبروه بأنه يولد ولد في بلده يكون هلاكه على يده وزوال ملكه ، وكان هو رأى كوكبا طلع وقاد الشمس والقمر ، فانتبه فزعا مرعوبا مما رأى ، وقصها على السحرة والكهنة والمنجمين ، فأولوها بما ذكروا له فأمر بعزل الرجال عن النساء وذبح كل من يولد ونصب حراسا على النساء والحبالى ، وكانت أم إبراهيم صغيرة لا يظن فيها الحبل ، ولما أتمت مدتها خافت على مولودها من الذبح فأخفت نفسها عن الحرس حتى إذا وضعته جعلته في نهر يابس خارج البلدة وخبأته بين الحلفاء وأخبرت زوجها بذلك ، فذهب وحفر له سربا ووضعه فيه وسدّ بابه في حجرة خوفا عليه من السباع ، وصارت أمه تتعاهده وتتردد عليه خلسة فترضعه وتنظفه وتتركه بمكانه وتعود لبيتها ، وكانت تراه يمص إصبعيه فيخرج منها حليبا وعسلا وماء ، وتراه يشب في اليوم ما

لا يشبه غيره في الشهر ، وهكذا جميع الأنبياء يكون نموهم واحدا وكلامهم مع أقوامهم واحدا وطريقهم مع ربهم واحدا ، لأن إلههم واحد يرسلهم على نهج واحد ويلهمهم الحجج المتوافقة ، كما أن رد أقوامهم عليهم متشابه ، قالوا ولما كبر أخرجته أمه من الرب وجاءت به إلى المدينة وكان من يراه لا يظنه من المواليد الذين ولدوا بعد الأمر بذبح الأولاد لكبر جثته وحسن مخاطبته وفصاحة لسانه ، وهذا من أسباب حفظ اللّه له ومن يحفظه لا خوف عليه من أحد البتة ، وقد أمنت أمه وأبوه عليه لأن أحدا لا

(85/223)

يشك أنه ولد بعد الأمر بذبح الأولاد ، وقالوا فقال لأمه ذات يوم يا أماه من ربي ؟ قالت أنا ، قال وأنت من ربك ؟ قالت أبوك ، قال ومن رب أبي ؟ قالت له أسكت وأخبرت زوجها ، وقالت لا شك

إن هذا المولود هو الذي أخبر عنه الكهنة بأنه يغير الدين ويسلب الملك من الملك ، وهو المقصود في الرؤيا التي رآها الملك وعبرها له المنجمون والسحرة ، فجاء إليه أبوه وقال له يا بني إن ربي الذي سألت عنه أمك هو النمروذ ، قال ومن رب النمروذ ؟

(86/223)

فاطمه وقال له أسكت ، وصارا دائما يحذرانه من أن يتكلم بذلك لئلا يصاب بسوء من قبل الملك ، وحذرا من أن يفسد دينهم وبسبب هلاك الملك وضياع الملك كما أخبر الكهنة ، ثم صنع له أبوه أصناما من حجر وأعطاه إياها ليبيعها في السوق ، فأخذها وصار ينادي من يشتري ما لا يضره ولا ينفعه ، وصار يسخر ويستهزىء بها ، فلما رآه أبواه كذلك أخذا منه الأصنام وحذراه من الطعن بها لئلا تمسه بسوء أي جنون ، ووضعاه في بيت فيه صنم عظيم ليستأنس به ويتمرن على عبادته ، ورغباه بذلك ، ولما رأى إصرارهم عليه بملازمة الصنم ترك أمه وأباه وصار يتفكر في مخلوقات اللّه ويتدبر في تكوين السموات والأرض والطير والحوت والحيوان والجماد ويهزأ بما عليه أبواه وقومه من توغلهم في عبادة الأصنام والكواكب ، ولم يزل يتحمل أبويه ويرفض عبادة الصنم الذي أمراه به ويعتبر بما في الكون من آيات وعظات حتى شرفه اللّه بالنبوة ، فأراد أن يبين لهم أن هذه الكواكب والأصنام المنكبين على عبادتها ليست بشيء ولا تصلح للعبادة ، لأن الكواكب من صنع اللّه الواحد والأصنام من صنع أيديهم وأنها لا تستحق العبادة ، وكذلك الشمس والقمر والكوكب ليست بآلهة ، فاجتمع بقومه ذات ليلة وخاطبهم بما قصه اللّه علينا من الآيات المارة ، وكانت كلها في ليلة واحدة لأن القمر كان متأخرا عن أول الليل فاحتج عليهم بالزهراء إذ كانت مشرفة على المغيب ، وبعد غيابها احتجّ عليهم بالقمر ، ولما طلعت الشمس غطت

نوره فاحتج عليهم بذلك على طريق التقريع والتوبيخ ، فأراهم النقص الداخل على الزهراء بغيابها وعلى القمر بتغطية نوره بالشمس حتى صار كأن لم يكن ، ولما قالوا له هذا الإله الأكبر يعنون الشمس قال مصيرها كذلك ، وعلموا أنهم إذا أنكروا عليها الأفول وقت القول فإنها تغيب حتما بالمساء ، فكتوا وبهتوا من قوة حجته ، وقد أثبت خطأهم في اعتقادهم إلهيتها ، وبين لهم عدم صلاحيتها

(87/223)

للعبادة ، وأن الذي يجب أن يعبد هو الذي لا يفنى ولا يغيب ، وأن الكواكب والأوثان عليها علائم النقص بادية والإله لا يكون إلا كاملا من كل وجه ، وأنه عليه السلام لم يقل لهم (أ هذا ربي) بحرف الاستفهام لأن العرب تكتفي بنغمة الصوت عن حرف الاستفهام ، وأن الأنبياء كلهم يحسنون اللغة العربية ، ولم ينزل وحي إلا بها ، كما أشرنا إليه في المقدمة ، وأنهم يسقطون حرف الاستفهام لهذه النكتة ، ومثله في القرآن كثير منه (فَهُمُ الْخَالِدُونَ) الآية 34 من سورة الأنبياء الآتية ، ومنه (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) الآية 10 من سورة البلد المارة في ج 1 ، ومنه (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) الآية 87 من سورة هود المارة ، ومنها (تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ) الآية 32 من سورة الشعراء المارة في ج 1 ، وغيرها كثير ، وفي أقوال

العرب كثير أيضا فمنه قوله :

ثم قالوا تحبّها قلت بهرا ومنه : فقلت وأنكرت الوجوه هم هم وستأتي تتمة هذه القصة في الآية 83 فما بعدها من سورة الصافات الآتية إن شاء اللّه ، وإنما فعلنا ذلك أي لم نأت ببعض القصص كاملة حذرا من التكرار لأنا إذا اكملنا كل قصة عند ذكرها يحصل تطويل وملال ، وإذا أتينا بها تدريجا كنا قد أوفينا بوعدنا من عدم التكرار إلا لحاجة ماسة وأبقينا القارئ يتشوق لإكمالها وسيأتي في الآية 288 من البقرة في ج 3 ما يتعلق ببقية قصص إبراهيم مع قومه ، ومع ربه ، ومع النمروذ قبل إلقائه في النار ، وبعد تكسير الأصنام ، فراجعها .

(88/223)

قال تعالى بعد أن أظهره ونجاه وأهلك عدوه وأمره بالهجرة إلى الأرض المقدسة "وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ" وهبنا لإسحق "يَعْقُوبَ" حفيدا لإبراهيم بحياته ، وفي هذه الآية بشارة من اللّه بطول عمر إبراهيم بحيث يبقى حيا حتى يكبر ويزوج ابنه إسحق ويولد له ولدا ليراه "كُلًّا هَدَيْنا" إلى طريقنا المستقيم إذ جعل فيهم النبوة والكتاب "وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ" إبراهيم وولده وحفيده لأنه هو أبو البشر الثاني على القول بأن دعوته شملت كل من على وجه

الأرض والغرق عمها كلها وهو القول المعتمد المناسب لظاهر القرآن والأولى من غيره راجع الآية 25 فما بعدها من سورة هود المارة وما ترشدك إليه "وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ" ذرية نوح إذ عد يونس ولوطا وهما ليسا من ذرية إبراهيم ، أمّا "داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ" فكلهم من ذريته "وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 84" كما جزينا إبراهيم وآله "وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى " من ذريته أيضا .

(89/223)

ومن هنا استدل بجواز النسب للأم ، ولما أنكر الحجاج كون أولاد فاطمة رضي اللّه عنها أولاد محمد صلّى اللّه عليه وسلم أفحم في هذه الآية ، إذ ذكر عيسى في عداد الأنبياء المنسوبين إلى إبراهيم ، لأن أمه منهم وألقمه الحجر وأنه سيلقمه في سقر إن لم تشمله الرحمة "وَإِلْياسَ" ابن سنا بن فتحاص بن العيزار بن هارون ، وقد أخطأ من قال إنه إدريس جد نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه السلام "كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ 85" لرسالتي وهداية الخلق "وَإِسْماعِيلَ" أخّره مع أنه أخو إسحق إذ ذكر إسحاق وأولاده وأحفاده على نسق واحد ، ثم إسماعيل لأنه لم يأت منه ولد نبي غير محمد صلّى اللّه عليه وسلم فيكون أولى بالترتيب ، وهؤلاء كلهم من ذرية إبراهيم "وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً" من

ذرية نوح وإبراهيم من ذريته أيضا ، وإنما سمي إبراهيم أبا الأنبياء لأن الأنبياء الذين جاءوا بعده كلهم من ذريته أما لوط فكان معاصرا له وهو من ذرية نوح "وَكُلًّا" من هؤلاء الصالحين "فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ 86" جمع عالم وهو اسم لكل موجود سوى اللّه .

(90/223)

واعلم أن اللّه تعالى ذكر في هذه الآية ثمانية عشر نبيا لا بحسب الزمان والفضل ، لأن العطف جاء بالواو وهو لا يفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، بل ذكر أولا أصول الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ، ثم أهل الملك والسلطان وهما داود وسليمان ، ثم أهل الصبر أيوب وممن جمع بين الصبر والملك وهم يوسف وموسى وهرون ، ثم أهل الزهد وهم زكريا وعيسى ويحيى وإلياس ، ثم من لم يبق له أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط ، قال تعالى "وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ" من هنا للتبعيض إذ لم يكن كل آبائهم وأبنائهم أنبياء وصالحين ، ولم يولد لكل منهم "وَإِخْوانِهِمْ" الذين على نهجهم القديم "وَاجْتَبَيْناهُمْ" للنبوة والرسالة "وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ 87" هو الدين الحق الموصل لخير الدنيا والآخرة ، وهذه الآية تدل على أن سعي الغير ينفع كما نوهنا به في الآية 39 من

(91/223)

سورة والنجم في ج 1 ومثلها الآية 20 من سورة الطور الآتية "ذِلكَ" الذي دان به هؤلاء الكرام هو "هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ" الذين قدر لهم السعادة الأبدية في الأزل "وَلَوْ أَشْرَكُوا" على فرض المحال والتقدير الباطل "لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ 88" من الطاعات وبطل ثوابها ، قال تعالى (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) الآية 65 من الزمر الآتية ، مع أن الإشراك مستحيل بحقه مقضى باستحالته أزلا ، يعني أن الأنبياء على ما هم عليه من الفضل والقرب لو فرض أنهم حادوا عن طريق الصواب لأبطل عملهم وخسروا الدنيا والآخرة واستحقوا العذاب ، فكيف بغيرهم ممن هم بعيدون عن اللّه بعيدون عن الخير "أُولئِكَ" المحسنون المهديون هم "الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها" بالكتاب والحكم والنبوة أو بأحدها "هؤُلاءِ" المتلو عليهم وحينا هذا من قومك يا أكرم الرسل "فَقَدْ وَكَّلْنا بِها" الثلاثة المذكورة "قَوْماً" عظاما شرفاء وهم الأنبياء وأتباعهم الصادقون الذين قدرنا لهم في أزلنا أنهم "لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ 89" أبدا يدل على هذا قوله تعالى "أُولئِكَ" الموكلون هم "الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ" ومن يهد اللّه فلا مضل له البتة "فَبِهُداهُمُ" يا سيد الرسل "اقْتَدِهْ" أثبت الهاء هنا استحسانا لإيثار الوقف ، وقرأ حمزة وعلي بلا هاء ، أمر اللّه جل أمره في هذه الآية رسوله محمد صلّى اللّه عليه وسلم أن يقتفي آثار الأنبياء بأصول الدين الثلاثة التوحيد والإيمان بالنبوة والبعث بعد الموت ، فهؤلاء فيها الهدى والخير

لكلل الأنبياء وأتباعهم ، وليس القصد اتباع شرايعهم لأنها مختلفة في الفروع وشريعته صلّى اللّه عليه وسلم نسختها ، وما قيل إن المراد بالموكلين هم الملائكة لا يصح ، لأن لفظ قوم لا يطلق عليهم بل هو خاص ببني آدم ، وفي هذه

(92/223)

الآية دليل على أن اللّه تعالى ينصر نبيه محمدا ويقوّي دينه ويجعله غالبا على الأديان كلها ، وقد جعله واللّه فتكون هذه الآية من الإخبار بالغيب ، أما تأخر نفوذ هذا الدين في هذا العصر فبسبب تأخر أهله عن القيام به وأنهم إذا عادوا إليه وتمسكوا به كما كان فإن اللّه تعالى لا بد وأن يعيد لهم الشوكة والغلبة على سائر أهل الأديان ، كيف وقد قال كَانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

الآية 47 من سورة الروم الآتية ،

وقال جل قوله إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ)

الآية 113 من سورة الصافات الآتية وغيرها من الآيات والأحاديث المؤيدة لها قال صلّى اللّه عليه وسلم : لازلتم منصورين ما دمتم متبعين سنتي ، فمتى اختلفتم سلط عليكم عدوكم .

وسنأتي على هذا البحث عند تفسير الآيتين المذكورتين بصورة مفصلة إن شاء اللّه ، فيا سيد الرسل "قُلْ" لقومك إني "لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ" على تبليغكم وحي ربي وإرشادكم بقوله ونصحي لكم بما هو خير لكم في دنياكم وآخرتكم "أَجْراً" جعلا أو مالا أو شيئا آخر إنما أجري على ربي "إِنْ هُوَ" ما هو الذي أبلغكم إياه "إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ 90" ومن حق التذكير باللّه والهداية إليه أن تكون مجانا لئلا يتهم الداعي إليها بأن قصده عرض الدنيا وليتمحض عند السامع إخلاصه .

مطلب عموم رسالته صلّى اللّه عليه وسلم والآية المدنية وبحث في النسخ :

(93/223)

وتدل هذه الآية على عموم رسالته صلّى اللّه عليه وسلم إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم ، لأن لفظ العالمين يشملها كما في الآية 158 من سورة الأعراف في ج 1 ، وتدل على فضله على سائر الأنبياء ، لأنه اتصف بجميع خصالهم من احتمال الأذى ومجاهدة النفس والصبر على البلاء والمحن وقتال البغاة وإظهار المعجزات والاتصاف بالزهد والوفاء بالعهد والوعد والصدق والإخبات والنبوة والرسالة والملك ، ولهذا أمره اللّه أن يقتدي بهم جميعا إذ لم يترك خلة من خلالهم ولا خصلة من خصالهم ولا شيئا من أخلاقهم إلا اتصف بها

وتأدب بتأديب ربه وزاد عليهم بالشّرف برؤية ربه وباخمس المذكورة بالحديث الصحيح الذي أثبتناه في الآية 159 من سورة الأعراف ج 1 ، وقد أسهبنا فيها البحث عن هذا فراجعها ، وهذه الآية المدنية الثالثة ،

قال تعالى "وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ" وما عرفوه حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه "إِذْ قالُوا" أي اليهود "ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ" وحي ولا كتاب إلى أحد من خلقه ، قال ابن عباس : قالت اليهود يا محمد أنزل اللّه عليك كتابا قال نعم فقالوا واللّه ما أنزل اللّه من السماء كتابا فأنزل اللّه تكذيبا لهم وألزمهم الحجة بقوله "قُلْ" لهم يا سيد الرسل "مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى" إليهم "وجعله نورا وهُدىً لِلنَّاسِ" من بني إسرائيل

فمن بعدهم حتى بعثتك ، فما هذا الإنكار والمكابرة والعناد وقل لهم يا محمد "تَجْعَلُونَهُ" أي ذلك الكتاب العظيم "قَراطِيسَ" متقطعة وأوراقا متفرقة تثبتون فيها ما يوافقكم منها فتظهرونه وهو معنى قوله تعالى "تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً" منه مما لا يوافقكم إظهاره مما فيه نعت محمد وما جاء به من الأحكام في القرآن المنزل عليه وما قصصناه فيه من القصص الموجودة في التوراة "وَعُلِّمْتُمْ" بسببه من أمور الدين والدنيا "ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ"

الأقدمون ، وقد أنزلناه على نبيكم جملة واحدة حاويا على ذلك كله "قُلْ" يا أكمل الرسل لهؤلاء المتعنتين الذين فرقوا كتابهم بحسب أهوائهم إن القرآن الذي جئتكم به أنزله "اللَّهَ" الذي أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من بعده وقد كذبتم به أيضا وجحدتم نبوته "ثُمَّ ذَرْهُمْ" بعد أن تذكر لهم هذا "فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ 91" بالباطل ويستهزئون بالحق لأن اللّه طبع على قلوبهم فلا فائدة من إتعاب نفسك معهم ، وما قيل إن هذه الآية منسوخة بآية السيف لا مبرر له لأنها عبارة عن تهديد ووعيد ، وكل آية مقرونه بشيء من هذا لا يتصور نسخها ، فرحم اللّه علماء الناسخ والمنسوخ كم تغالوا في النسخ حتى على ما هو في الحقيقة محكم ، على أنه لا نسخ في كتاب اللّه هذا بالمعنى المراد من قبلهم وهو ناسخ لغيره من الكتب والصحف المتقدمة عليه ، وباق حكمه ما بقي الملوان ، وما يعبرون عنه بالنسخ عبارة عما فيه من آيات عامة ومطلقة قيدت وخصصت بآيات أخر ، وما فيه من التدريج في الأحكام مما يوافق مصلحة الخلق في الحال والمستقبل ، راجع ما بيناه في المقدمة في بحث الناسخ والمنسوخ ، وللبحث صلة في الآية 106 من سورة البقرة في ج 3 ، كما أننا ألمعنا إلى أن كل آية قيل إنها منسوخة بما يرد ذلك القيل عند تفسيرها واللّه ولي التوفيق ، قال تعالى "وَهذا كِتابٌ

أَنْزَلْنَاهُ" عليك يا محمد "مُبارَكٌ" ميمون لمن نمسك به وهو "مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ" من التوراة والإنجيل والكتب والصحف الإلهية المشتملة على توحيده وتنزيهه والتبشير والإنذار "وَلِتُنْذِرَ به أُمَّ الْقُرى" أهل مكة من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه بدليل قوله "وَمَنْ حَوْلَها" من أطرافها الأربع فتشمل جميع المدن والقرى التي على وجه الأرض لأنها لا بد وأن تكون بجبهة من أطرافها بعدت أو قربت ، لذلك فلا دليل فيها لمن زعم أن رسالة محمد صلى اللّه عليه وسلم خاصة بالعرب الذين في مكة وجوارها ، وإنما سميت أما لأنها قبلة أهل الأرض أجمع فعلا لأمة الإجابة وبالقوة لغيرهم لأن الكل أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وهذا تأييد للرد على اليهود بأنه إذا كان اللّه تعالى أنزل التوراة على موسى ولا سبيل لإنكارها ، فلم لا يجوز إنزال القرآن على محمد وكلاهما مرسل من اللّه ؟ وفي إنكارهم إنزال القرآن إنكار الإنجيل أيضا لأنهم ينفون نزول شيء بعد التوراة من قبل اللّه على أحد من رسله وقد كفروا بعيسى عليه السلام فضلا عن إنكار كتابه ، قاتلهم اللّه وغضب عليهم ولعنهم في الدنيا والآخرة .

(96/223)

قال تعالى "وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" البعث بعد الموت والحساب والجزاء والثواب والعقاب "يُؤْمِنُونَ بِهِ" أي القرآن لأن أصل الدين الخوف من العاقبة فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن بالله "وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ 94" خص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان ، فمن حافظ عليها فهو على غيرها أحفظ ، وهذه الآية المدنية الرابعة قال تعالى "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" كهؤلاء اليهود المنكرين نزول القرآن والإنجيل على محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، ومن هؤلاء الظالمين مالك بن الصيف وأضرابه من اليهود "أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ" من الله بشرع وحاشا الله القائل

"وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ" كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي الذين ادعيا النبوة في زمنه صلّى الله عليه وسلم وعموم الآية يشمل كل من تجرأ على ادعاء النبوة بعده أيضا إلى يوم القيامة لأن الله تعالى ختم النّبيين به فكل ادعاء وقع أو يقع في هذا الشأن فهو زور وبهتان وإفك "وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ" أي أنه قادر على مثل ذلك ، وهؤلاء كالذين قالوا كذبا (لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا) الآية 31 من الأنفال في ج 3 ، ومثله الطاعن في نبوته صلّى الله عليه وسلم كعبد الله بن أبي سرح الذي أملى عليه صلّى الله عليه وسلم (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ) إلى قوله (ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ) الآية 14 من سورة المؤمنين الآتية ، فعجب من ذلك وقال إنه وقع في قلبه لزيادة تفكره فيها (فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ) فأجراها على لسانه فقال له

صلّى اللّه عليه وسلم اكتبها فهكذا نزلت ، فشك وقال إن كان محمد صادقا فقد أوحي إلي كما أوحي إليه ، وإن كان كاذبا فقد قلت كما قال ، فارتد ولحق بمكة .

(97/223)

وهذه الحادثة وقعت في المدينة بدليل قوله املى وقوله صلّى اللّه عليه وسلم هكذا نزلت ، أي قبل لا ان نزولها بمكة ، بل كان نزولها بالمدينة قبل إملائها عليه ، وإلا لتلاها حضرة الرسول أولا ، ثم أملاها عليه دفعة واحدة ، ويؤكد هذا قوله ولحق بمكة ، فيكون هذا سببا لنزول هذه الآية ، وذلك أن مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة الملقب بالكذاب ادعى النبوة باليمامة وزعم أن اللّه أوحى إليه ، وكان صاحب نيرجات وكهانة ، والأسود العنسي عبهلة بن كعب ذو الخمار ادعى النبوة باليمن وتبعه جماعة من قومه ، وأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أرسل إليهما وأمر بقتلهما فقتل الأسود فيروز الديلمي قبل وفات النبي صلّى اللّه عليه وسلم بيومين ، وقد أخبر النبي صلّى اللّه عليه وسلم أصحابه بقتله قبل ورود خبره ، وقال لهم فاز فيروز ، وأما مسيلمة فقتله وحسني قاتل حمزة بن عبد المطلب في خلافة أبي بكر رضي اللّه عنهم ، وكان يقول قتلت خير الناس وأنا كافر يعني حمرة ، وقتلت شرّ الناس وأنا مؤمن يعني مسيلمة ، وكل هذا يؤيد أن هذه الآية مدنية كما ذكرنا أول

السورة وهو الصحيح ، لأن هذه الحوادث أي قول مالك ابن الصيفي وادعاء مسيلمة والأسود كلها وقعت في المدينة ، ومن قال إن هذه الآية نزلت بمكة لم يحقق عن تاريخ هذه الحوادث ومحلها ، ولم يقف على أن هذه الآية مستثناة من هذه السورة فقال إنها مكية ، ولما لم يرد بدا من نفي أسباب نزولها قال إنها من الإخبار بالغيب ، وليس بشيء ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يدي سوارين من ذهب ، فكبرا علي وأهمّاني ، فأوحى اللّه إلي ان انفخهما فنفختهما فطارا ، (وفي رواية انفحهما بالحاء لا بالخاء من النفخ وهو الرمي والدفع والرمح تقول نفحت الدابة برجلها أي رمحت ورفست ، والمعنى قريب من الأول) فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما

(98/223)

صاحب صنعاء وصاحب اليمامة ، والمعنى لا أحد أكثر ظلما ولا أعظم خطأ ولا أجهل فعلا ولا أقل عقلا ممن اختلق شيئا من الأشياء الثلاثة المذكورة في هذه الآية ، وهي عامة في كل من يزعم هذا الزعم إلى يوم القيامة ، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، قال تعالى "وَلَوْ تَرى " يا سيد الرسل "إِذِ الظَّالِمُونَ"

أمثال هؤلاء وغيرهم "فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ" سكراته وشدائده حين نزع أرواحهم "وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ" إليهم يقولون لهم توبيخا وتقريعا هلموا "أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ" من أجسادكم قسرا ، وهذا القول عبارة عن التشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ، وإلا فلا حاجة لهذا القول ولو كان بأيديهم منه شيء ما فعلوه ، لأن روح الكافر ثمينة عنده فلو قدر على تأخيرها أو عدم إخراجها من جسده لحظة واحدة بما يملك في الدنيا لفعل ، ثم قال تعالى "الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ" المهانة والمذلة وقت الإماتة "بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ" من أمثال الأقوال المتقدمة من الإنكار والتكذيب والجحود والإشراك "وَ" بما "كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ 93" عن قبولها وتأنفون من سماعها بدلا من أن تصدقوها وتؤمنوا بها ، وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا فظيعا هالك مرآه ، انتهت الآية المدنية الرابعة .

(99/223)

قال تعالى مخاطبا جميع خلقه في موقف الحشر يذكرهم أن حالتهم هذه أول يوم ورودهم الآخرة تشبه حالتهم أول يوم قدومهم إلى الدنيا بقوله عز قوله "وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى" وحدانا لا مال معكم ولا ولد ولا لباس ولا نشب "كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ" في الدنيا إذ جئتم

إليها كذلك ، لأن هذا الخطاب بعد البعث وهو خلق ثان "وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ" أعطيناكم في الدنيا من الأموال والأولاد والخدم والسلطة والجاه وملكناكم العقارات ومكناكم من استغلال ما في الدنيا "وَراءَ ظُهُورِكُمْ" أبقيتم كل ذلك في الدنيا الكائنة الآن وراءكم ، لأن ما الدنيا لا يكون للآخرة "وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ" من الملائكة والإنس والكواكب والأصنام "الَّذِينَ زَعَمْتُمْ" وأنتم في الدنيا "أَنَّهُمْ فِيكُمْ" في استبعادكم "شُرَكاءُ" معنا وكنا أخبرناكم على لسان رسلنا أنهم ليسوا بشيء وأنهم من خلقنا ومن صنع أيديكم الذي هو أيضا من خلقنا "لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ" بالنصب أي تقطع الوصل بينكم على إضمار الفاعل ، و قرىء بضم النون على أنه فاعل بمعنى وصلكم ، لأن البين من أسماء الأضداد فيكون بمعنى الهجر وبمعنى الوصل قال :

فو اللّه لو لا البين لم يكن هوى ولو لا الهوى ما حنّ للبين آلف

فقد جاء بمعنى الوصل وبمعنى الهجر فيه "وَضَلَّ عَنْكُمْ" غاب وضاع وبطل "ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ 94" فيهم في الدنيا من الشفاعة والنفع وزعم هنا نعى في الباطل وقد تستعمل في الحق ، قال فيه :

تقول هلكنا إن هلكت وإنما على اللّه أرزاق العباد كما زعم

و قد مر في الآيتين 80/ 95 من سورة مريم في ج 2 ما يتعلق في هذا البحث وله صلة في الآية 57 من سورة الكهف الآتية فراجعها ، روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس إنكم تحشرون إلى اللّه حفاة عراة عزلا (خلقا) قال تعالى (كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) الآية 104 من سورة الأنبياء الآتية .

ورويا عن عائشة قالت سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول :

تحشر الناس حفاة عراة عزلا ، قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال الأمر أشدّ من أن يهمهم ذلك .

وفي رواية الطبري عنها قالت واسوءتاه إن النساء والرجال يحشرون جميعا ينظر بعضهم إلى سوءة بعض ؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض .

مطلب الدلائل على قدرة اللّه ومنافع الخلق فيها ومعنى المستقر والمستودع وأصل الخلقة :

ثم شرع جل شأنه يعدد دلائل وجوده وكمال عظمته وقدرته وجليل حكمته بقوله عز قوله "إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ" شاقه عن النبات لأن الحبة حينما تزرع يخرج من شقها الأعلى النبات الصاعد في الهواء الذي يصير فيه السنبل ومن شقها الأسفل العروق التي تغوص في الأرض

ولولا ذلك لما ثبت نبات "وَالنَّوى" عن النخل وشبهه هكذا أيضا ، وهو جل خلقه "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ" كالإنسان من النطفة والفرخ من البيضة "وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ" كالنطفة من الإنسان والبيضة من الدجاجة عكس الجملة المعطوفة عليها ، لأن مخرج معطوف على خالق وهو بيان له ، لأن خلق الحب اليابس وإخراج الحنطة والشعير والذرة والعدس وغيرها منه ، وفلق النوى اليابس وإخراج الرطب والخوخ والمشمش والاجاص وغيرها

(101/223)

منه من جنس إخراج الفرخ من البيضة والبيضة من الدجاجة ، لأن النّامي من النبات في حكم النامي من الحيوان ، فسبحان من أخرج من الحب والنوى نباتا وأشجارا صاعدات في الهواء وعروقا وجذورا ضاربة هاوية في الأرض ، وخلق من نطفة صغيرة حيوانا عظيما ، مما يدل على كمال قدرته وعظيم حكمته ، وتنبيها للغافل على أن القصد معرفته بصفاته وأفعاله وأنه مبدع الأشياء وخالقها وصانع العجائب وبارئها لا عن مثال سابق ، وأنه هو وحده المستحق للعبادة المنزه عن الشريك والمثيل تعالى اللّه عما يصفه الكفرة "ذَلِكُمُ" أيها الناس الفعّال لذلك ، الخلاق لكل ما هنالك "اللَّهُ" الذي لا إله غيره "فَأَنَّى

تُؤْفَكُونَ 95" وتصرفون الحق إلى الباطل والصدق إلى الكذب ، فتعبدون الأوثان وتتركون الملك الديان ، وفي هذه الآية دليل على البعث بعد الموت باعتبار ما يشاهدونه من خلقه ليعلمهم فيه أن الذي يخلق هذه الأشياء العظيمة من تلك الأشياء التافهة قادر على بعثهم بعد موتهم ، وإنما جاء بهذا الدليل والأدلة الآتية تنبيها على أن المقصود والأصل من كل بحث عقلي أو نقلي هو معرفة اللّه تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله ، وهذا الدليل الثاني المبين بقوله "فالِقُ الْإِصْباحِ" بكسر الهمزة جمع صبح بضم الصاد ، أي مظهر نورها من سواد الليل وقرأ الحسن بفتح الهمزة جمع صبح بفتح الصاد قال امرؤ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

بكسر الهمزة على الأول وقال الآخر :

أفنى رباحا وبني رباح تناسخ الأمساء والأصباح

(102/223)

على الثاني والأول أولى لأنه أكثر استعمالا "وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً" لخلقه وراحة لهم من كدّ المعيشة إلى النوم "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" جعلهما "حُسْباناً" معينا لا ينخرم على مر العصور "ذلِكَ" العلم بالحساب الحاصل من سيرها "تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ" الغالب عليهما الذي سخرهما

قهرا "الْعَلِيمِ 96" بما يؤول إليه أمرهما وما ينشأ عنه من منافع للعباد والدليل الثالث قوله عز قوله "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها" إلى الطرق التي تقصدونها "فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" فإذا ضللتم الجهة المطلوبة وتحيرتم ونظرتم إليها عرفتم القبلة من الشمال والشرق من الغرب فتستدلون على ما أنتم ذاهبون إليه "قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ" الدالة على وحدانيتنا ومنافع خلقنا "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ 97" أن ذلك مما يستدل به على كمال القدرة ورأفة الرب بخلقه.

(103/223)

والدليل الرابع قوله جل قوله "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ" نفس آدم عليه السلام إذ خلق منه حواء زوجته ومنها تناسل البشر كله، فتنبه أيها العاقل واحذر من قول الجاهل الذي زعم أن أصل البشر القرد، وما يزعم هذا الزعم إلا ذوو النفوس الخبيثة الشاكين في القدرة الإلهية، واعلم أن الخلق كله من بعد آدم "فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ" أي أن كل نفس لها قرار في الأرض وفي الرحم ومستودع في الأرض وفي الصلب لأن النطفة لا تبقى في صلب الأب زمنا طويلا ويبقى الجنين في بطن أمه مدة طويلة "قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ 98" خصهم بالفقه لأن الدلالة هنا أدق من الدلالة في الآية التي قبلها المختومة بلفظ (يعلمون) لأن

الإنشاء من نفس واحدة وتصريف البشر بين أحوال مختلفة أدق من الاهتداء بالنجوم المتوقف معرفتها على علم الفلك ، وما جرينا عليه هنا هو ما روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن حبرتيما سأله عن المستقر والمستودع فأجابه بما ذكرناه ، وهو مؤيد بقوله تعالى (وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ) الآية 5 من سورة الحج في ج 3 ، وقال جماعة من المفسرين : إن الاستقرار في الأصلاب أو فوق الأرض والاستيداع في الأرحام أو في القبر وجعلوا الصلب مقر النطفة والرحم مستودعها لأنها تحصل في الصلب لا من قبل شخص آخر وفي الرحم من قبل الأب فاشبهت الوديعة فكأن الرجل أودعها ما كان عنده وجعل وجه الأرض مستقرا وبطنها مستودعا لتوطنهم في الأول واتخاذهم المنازل والبيوت فيه وعدم شيء من ذلك في الثاني ولأن الصلب مقر طبيعي للنطفة ووجه الأرض مقر طبيعي للإنسان والرحم مستودع طبيعي للنطفة والقبر

مستودع طبيعي للإنسان وليسا بمقر طبيعي لها والأول أولى وعليه الجمهور ، قال الألوسي :

وأنا أقول لعل حمل المستودع على الصلب باعتبار أن اللّه تعالى بعد أن أخرج من بني آدم عليه السلام من ظهورهم ذريتهم المشار إليه في الآية 872 من سورة الأعراف المارة في ج 1 وأشهدهم على أنفسهم بأخذ الميثاق منهم وكان ما كان .

ردّهم إلى ما أخرجهم منه فكأنهم وديعة هناك تخرج حين يشاء اللّه ذلك وقد أطلق ابن عباس رضي اللّه عنهما اسم الوديعة على ما كان في الصلب صريحا فقد أخرج عبد الرزاق عن سعيد بن جبير قال : قال لي ابن عباس أتزوجت ؟ قلت لا وما ذاك في نفسي اليوم قال إن كان في صلبك وديعة فستخرج ، وروى تفسير المستودع في الدنيا والمستقر في القبر عن الحسن وكان يقول يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك ويوشك أن تلحق بصاحبك وأنشد قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

وقال سلمان بن زيد العدوي في هذا

فجع الأحبة بالأحبة قبلنا فالناس مفجوع به ومفجع

مستودع أو مستقر قد خلا فالمستقر يزوره المستودع

وقال أبو مسلم الأصفهاني : المستقر الذكر والمستودع الأنثى ، وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في الآية 90 من سورة مريم المارة في ج 1 والآية 4 من سورة هود المارة فراجعها تعلم أن كل إنسان مستقر من جهة ، مستودع من أخرى لأنه استقر فيه شيء ممن قبله فصار

مستودعا عنده لمن بعده وهكذا من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الأرض من عليها بإرثها ولهذا قالوا إن لكل نسمة حظا من نشأة آدم عليه السلام على طريق التسلسل حسا وقد يكون معنى

مطلب نبذة فيما يتعلق بالرابطة لدى السادة الصوفية تابع لما مر في الآية 57 من الإسراء في ج 1 :

(105/223)

ومن هنا يعلم أن نظر المريد الصادق إلى شيخه الكامل نظر إلى وجه الصديق رضي اللّه عنه لأن شيخه كان نظر إلى شيخه فسطع على وجهه من نوره وهكذا شيخه وشيخ شيخه وهلم جرا فيصير كل منهم آخذا ومعطيا فيكون لكل حظ منه وهو مقتبس من مشكاة النبوة المستفيض من الحضرة الإلهية فنال نصيبه منه أيضا ، وعلى هذا اتخذ السادة الصوفية الرابطة فجعلوها من شروط أورادهم التي يلقنونها إلى المريد واقتبسوها من قوله تعالى (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) الآية 38 من سورة المائدة في ج 3 وسنبين فيها إن شاء ما يقتضي لهذا البحث ، ومما يؤيد هذا هو قول المصلي

في التحيات السلام عليك أيها النبي ورحمة اللّه بأنه يستلزم تشخيص حضرة الرسول عند

ذلك لتصح الإشارة كما سنبينه في تفسير آية المائدة المذكورة إن شاء اللّه بصورة أوضح وقد مر في الآية 57 من سورة الإسراء ما يتعلق بهذا البحث فراجعه في ج 1 .

(106/223)

والدليل الخامس قوله عز قوله "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً" جاء على الغيبة ثم التفت جل شأنه إلى التكلم فقال "فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ" عمم جل وعلا ثم فصل فقال (فَأَخْرَجْنا مِنْهُ" أي النبات "خَضِراً" شيئا غضا وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبّة "نُخْرِجُ مِنْهُ" من هذا الخضر "حَبًّا مُتَراكِباً" بعضه على بعض كسنبلة الحنطة والأرز وعرنوس الذرة وشبهها "وَمِنَ النَّخْلِ" وأبدل منها قوله "مِنْ طَلْعِها" لأن النخل يخرج منها الطلع ويخرج الثمر من الطلع "قِنْوانٌ" بكسر القاف عذوق جمع قنو كصنو وصنوان ويجوز فتح القاف وضمه ، ولا يوجد في اللغة مثنى مفرد ويستوي فيه مثناه وجمعه إلا خمس أسماء : قنو وصنو ورئد بمعنى مثل وشقو وحش بمعنى الثعبان ، ولا يفرق بين جمعه ومثناه إلا الإعراب ، وقال الرازي في تفسيره إن المثنى منه بكسر النون ، وبهذا يكون الفرق بين جمعه وتثنيته بالحركة "دانِيَةٌ" لمن يجتنيها ويقطفها لأنها تثقل بالثمر فتنحني وتتدلى إلى الأسفل ، وتأتي قنوان بمعنى نائية بعيدة فتكون من الأضداد ، واكتفى بذكر الدانية عن

النائية لمعلوميتها على حد قولة تعالى (سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) أي والبرد كما سيأتي في الآية 81 من سورة النحل ، ولأن الدانية أيسر تناولا وأسهل للقطف من النائية العالية البعيدة التناول ، وهذا الفرق إنما يكون في أشجار الدنيا وثمارها ، أما الآخرة فالقريب والبعيد بالتناول سواء ، لأنك متى نظرت إلى ثمرة وأردتها صارت بين يديك ، والطلع هو الإغريضي الخارج من قلب النخلة الذي ينبثق عنه العثوق ، والعثق الذي فيه التمر بمنزلة العنقود من العنب ، والمتشعّب منه يسمى عرجون ، ويسميه أهل (عانه) شرموخ ، وهو الذي ينبت فيه التمر "وَجَنَّاتٍ" عطف على نبات "مِنْ أَعْنابٍ" متنوعة عرائش وكروم "وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ" أخرجناه أيضا "مُشْتَبِهاً" بعضه مع بعض

(107/223)

"وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ" أنواع كثيرة منها ما يشابه بعضه ويوافقه باللون والطعم والشكل والحجم والرائحة والورق والأغصان وغير ذلك ، ومنه ما هو مباين في بعض الصفات موافق في الأخرى ، ومنها ما هو مخالف بالكلية فسبحان من أخرج من الماء الأبيض في رأي العين أصنافا من النبات والأشجار والثمار قال تعالى (يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) الآية 5 من سورة الرعد الآتية في ج 3 ، وقيل في

وصف المطر :

يمد إلى الآفاق بيض خيوطه فينسج منها للثرى حلة خضرا

(108/223)

و قد أجاد في هذا الوصف ، هذا ، وان اللّه جل جلاله قدم الزرع لأنه غذاء وهو مقدم على الفواكه ثم النخل على الفواكه ، لأن ثمره يجري مجرى الغذاء مع كونه فاكهة وفيه من المنافع ما ليس في غيره وعقبه بالعنب لأنه من أشرف الفواكه ، ثم الزيتون لبركته وزيادة الحاجة إليه أكلا وأدما ، ثم الرمان لأنه فاكهة ودواء ، وقد ذكر اللّه تعالى في القرآن العظيم أمهات الفواكه كهذه والتين والموز وأشار إلى البقية بلفظ الفاكهة ، كما أشار إلى بقية النبات بلفظ الأب فلم يخرج عن هاتين اللفظتين شيء مما ينبت بالأرض ، فسبحان من أودع في كتابه كل شيء وأكده بقوله (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 38 المارة فراجعها والآية 31 من سورة عبس في ج 1 ، واحمد اللّه أن جعلك من أهل هذا الكتاب "انْظُرُوا" أيها الناس "إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ" إدراكه ونضجه واعتبروا بها أيها الناس كيف أنبته حبة وأخرج منها ذلك راجع الآية 141 الآتية في هذا البحث "إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ" عظيمات دالات على قدرة القدير الحكيم وهي عظة "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ 99" بأن اللّه الذي أخرج النبات

الأخضر من الحب اليابس والأشجار من النوى والفواكه الرطبة منها قادر على إحياء الموتى بعد البلى ، هذا وقد ذكر اللّه خمسة براهين مجملة وعلى التفصيل فهي أكثر وكل منها حجج ظاهرات قاطعات على دلائل العالم السفلي والعلوي على ثبوت الإلهية وكمال القدرة ، وذكر أن هؤلاء الكفرة فضلا عن أنهم لم يلتفتوا إليها ولم يتعظوا بها قد كفروا بها "وَجَعَلُوا" مع هذا كله "لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ" في ألوهيته وعبادته بالنصب على أنه بدل من شركاء وجمع الشركاء باعتبارهم أعوانا لإبليس ، وبالرفع على الحذف ،

(109/223)

فكأنه قيل من هم الشركاء فقيل الجن وبالجر على الإضافة لشركاء ، وإنما قالوا الجن من حيث لم يشاهدوهم ، لأن الكفرة أصاخوا لتسويلاتهم وانصاعوا لوساوسهم ، فكأنهم أطاعوهم طاعة المشاهد فعبدوا الأوثان انقيادا لهم ، فصاروا كأنهم جعلوهم شركاء للّه ، تعالى اللّه عن ذلك ، وعلى هذا فتكون هذه الآية نازلة في كفار العرب كما روي عن الحسن بن صالح واختاره الزجاج ، وقال الكلبي نزلت في الزنادقة ونقل هذا القول ابن الجوزي عن ابن السائب ونقله الإمام الرازي عن ابن عباس ، وادعى أنه أحسن الوجوه المنقولة في سبب نزولها .

مطلب معتقد الزنادقة والمجوس وتحقيق رؤية اللّه تعالى :

وذلك أنهم يقولون إن كل ما في الكون من خير فهو من يزدان يعني النور ، وجميع ما في العالم من الشر فهو من الظلمة يعني إبليس وهذا مذهب المجوس ، لأن الكتاب الذي زعم زردشت أنه نزل من السماء سماه (زاندا) والمنسوب إليه زندى ، ثم عرب إلى زنديق ويجمع على زنادقة ، ومنهم من يقول إن إبليس قديم ، ومنهم من يقول إنه محدث ، وكلهم متفقون على أنه شريك للّه في تدبير هذا العالم (تنزه عن ذلك) فما كان من خير فمن اللّه وما كان من شر فمن إبليس .

(110/223)

هذا ، وان اليزيدية الموجودين الآن في جبل سنجار على تخوم العراق يدينون بما يشابه هذا الدين ويعتقدون بالشيطان اعتقاد المجوسي بإبليس ، وقال بعض المفسرين إن المراد بالجنّ هم الملائكة ، لأن العرب عبدتهم وسمتهم بنات اللّه ، كما مرّ في كثير من الآيات الدالة على ذلك وتسميتهم جنا مجاز لاجتنانهم أي استتارهم واختفائهم عن الأعين ، وعبر بالجن عن الملائكة للحط بشأنهم بالنسبة لمقام الإلهية ، ونقل هذا القول عن قتادة والسدي ، والقول الأول أولى لموافقته ظاهر القرآن وهو الحقيقة وخلافها مجاز ، ولا يصار إلى المجاز إلا إذا

تعذرت الحقيقة ، ولا يوجد هنا صارف لمعناها كي يلجأ إليه في اعتبار المجاز ، قال تعالى "وَخَلَقَهُمْ" أي أنهم يقولون هذا القول والحال أن اللّه خلقهم ، فكيف يجعلونهم شركاء له ، تعالى عن ذلك وتعاظم "وَخَرَقُوا" اختلقوا وافتعلوا وافتروا "لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ" فاليهود تقولت بأن عزيرا ابنه والنصارى بهتت بأن عيسى ابنه ، وكفار العرب

زعمت بأن الملائكة بناته وكله زور محض اختلقوه كما اختلقوا الأوثان من تلقاء أنفسهم "بِغَيْرِ عِلْمٍ" جهلا منهم بعظمة اللّه ، وإفكا مختلقا ، وكانت العرب عند ما تسمع من الرجل كذبة في نواديهم تقول اخترقها واللّه ، أي استعظاما لقول الزّور وتوبيخا للكاذب ، راجع الآية 12 المارة من هذه السورة وذكر البنات هنا مما يؤيد أن المراد بالجن الشياطين كما جرينا عليه لا الملائكة لأنه لو كان المراد بالجن الملائكة لما أتى بذكرها ثانيا لأن الملائكة لا توصف بذكورة ولا بأنوثة واللّه أعلم ثم نزه اللّه نفسه المقدسة بنفسه المنزهة عن ذلك كله فقال "سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ 100" جلاله بما لا يليق بجلاله كيف وهو

(111/223)

"بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" قد أبدعهما ومن فيهما وكونهما على غير مثال سابق ، وهذا هو معنى الإبداع ومن كان كذلك "أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ" وهو المنفرد المنزه عن الأزواج كيف

"وَلَمْتَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ"

زوجة لأن الولد لا يكون إلا منها عادة ، ولا تكون الزوجة إلا من جنس الزوج حتى يتم التوالد بينهما وهو ليس كمثله شيء ، ولأن الولادة من صفات الأجسام وهو مخترعها وليس بجسم ، تعالى عن ذلك ، ومن لا يكون جسما لا يكون له ولد ، والولد لا يكون بلا زوجة عادة وهو منزه عن اتخاذها "وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ" ومن هذا شأنه فهو غني عن كل شيء من الصاحبة والولد والمعين وغيره ، "وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ 101" لأنه خالق كل شيء ، ومن يخلق فهو أعلم بما يخلق علم اليقين ، فلا يعزب عن علمه شيء ، لأنه محيط بكل شيء "ذِلِكُمُ" الموصوف بما تقدم هو "اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ" وحده لا تشركوا به شيئا ، إذ هو المستحق للعبادة لا مخلوقه الذي بيده إعدامه وإعادته ونفعه وضره "وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ 102" رقيب فلا تقع حركة في ملكوته ولا سكون إلا بعلمه قال تعالى منزها ذاته الكريمة عما هو من شأن البشر "لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ" من خلقه لا إدراك إحاطة ولا مطلق إدراك ، كما أن القلوب تعرفه بلا إحاطة "وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ" من جميع خلقه بحيث يراها ويحيط بها علما ، والمراد بها النور الذي به تدرك المبصرات ، فإنه لا يدركه مدرك بخلاف جرم العين فإنه

يرى ، وهذا هو السر من الإظهار بمقام الإضمار ، وقيل المراد إن كل عين لا ترى نفسها وهو كذلك ولكن هذا ليس مرادا هنا "وَهُوَ اللَّطِيفُ" العالم بدقائق الأمور ومشكلاتها ، الرفيق بعباده ، وهو عائد إلى الجملة الأولى ، لأنه يناسب كونه غير مدرك "الْخَبِيرُ 103" العالم بظواهر الأمور وخفياتها وهو عائد إلى الجملة الثانية لأنه يناسب كونه مدركا بكسر الراء على اللف والنشر المرتب ، وفي هذه الآية إشارة لرؤية اللّه في الآخرة لا نفيها كما استدلت به المعتزلة ، لأنه جل شأنه قد تمدح على عباده بذلك على طريق الإعجاز فلو لم يكن جائز الرؤية لما كان هذا التمدح واقعا لأن المعدوم لا يتمدح به ولا يلزم من عدم الرؤية مدح ، ولو لم يكن جائز الرؤية لما سألها موسى عليه السلام إذ مثله لا يسأل عما لا يجوز ، ويدل على جوازها تعليق اللّه جلت عظمته الرؤية على استقرار الجبل واستقراره جائز والمعلق على الجائز جائز ، وهذا إثبات جواز الرؤية من حيث العقل ويدل عليها من الكتاب قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ) الآية 23 من سورة القيامة المارة في ج 1 ، وقوله تعالى في حق الكفار (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) الآية 16 من سورة المطففين الآتية إذ يفهم أن المؤمنين غير محجوبين عنه ، قال الإمام مالك : لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعبر تبارك وتعالى عن الكفار بالحجاب ، وقد أجمع المفسرون على أن كلمة وزيادة وقوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ) الآية 26 من سورة يونس المارة هي رؤية اللّه تعالى ، ومما

يدل عليها من السنة كثير صحيح قدمناه في الآية 17 من سورة والنجم والآية 13 من سورة القيامة والآية 114 من سورة الأعراف المارات في ج 1 ، أما ما تمسك به أهل البدع والأهواء والمرجئة من أنه تعالى مستحيل الرؤيا احتجاجا بمطلع هذه الآية ولأن الإدراك

(113/223)

فيها عبارة عن الرؤية لا عدم الإحاطة كما درجت عليه أهل السنة والجماعة إذ لا فرق عندهم بين أدركته ورأيته وهو خطأ صريح ، لأن الإدراك الإحاطة بكنه الشيء وحقيقية الرؤية معاينة الشيء ومشاهدته لأنها قد تكون بغير إدراك ، قال تعالى في قصة أصحاب موسى (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) قال (كَلَّا) الآية 62 من سورة الشعراء المارة في ج 1 ، وكان قوم فرعون رأوا قوم موسى إلا أنهم

لم يدركوهم فنفى موسى عنهم الإدراك مع إثبات الرؤية بقوله كلا ، ومما لا شك فيه أن رؤية اللّه في الآخرة تكون من غير إدراك لاستحالة الإحاطة به لأنه منزه عن الحد والجهة والأبعاد الثلاثة والجهات الست ، قال في بدء الأمالي :

يراه المؤمنون بغير كيف وإدراك وضرب من مثال

فينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال

أي يا قوم احذروا خسران المعتزلة من رؤية اللّه لأنهم يقولون بعدمها فجزاهم اللّه حرمانها جزاء وفاقا ، أما إذا قالوا إنه لا يرى في الدنيا فهذا مما لا جدال فيه وما وقع لسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم فهو خاص به وما عموم إلا وخص منه البعض ، هذا وقد أوضحنا كيفية رؤيته تعالى وثبوتها بالصحائف المشار إليها أعلاه فراجعها ترشد لما تريده وزيادة ، قال تعالى يا أيها الناس "قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ" جمع بصيرة وهو نور القلب وأبصار جمع بصر وهو نور العين ، وقد سمى اللّه تعالى آيات القرآن بصائر لأنها يهتدى بها إلى الرشد والسداد وهي بصائر القلوب الحية "مِنْ رَبِّكُمْ" لتبصروا بها حقائق الأشياء وتفقهوا مقاصدها فتعلموا المراد منها "فَمَنْ أَبْصَرَ" معانيها وآمن بها وصدق من جاء بها "فَلِنَفْسِهِ" أبصر وإياها نفع ولها عمل وتحذّر من كل سوء "وَمَنْ عَمِيَ" عنها وضل عن هداها وجهل أو تجاهل معناها ولم يستدل بها إلى الطريق المستقيم المؤدي إلى جنات النعيم "فَعَلَيْها" جنى وعمي وإياها ضر خسر وكان وبال عماه عليه ، واللّه غني عنه "وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ 104" إنما علي البلاغ والإنذار واللّه هو الرقيب عليكم ، وشاهد لأعمالكم وهو الذي يجازيكم عليها فلا يخفى عليه شيء منها ، وعلى هذا فالآية محكمة ، ومن قال إنها

منسوخة قال في تفسيرها أنا لا آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ الوكيل ، وهو ليس بشيء ، وظاهر الآية لا يحتمل هذا المعنى ، وبعد أن أتم سبحانه وتعالى ما يتعلق في الإلهيّات شرح بما يدل على إثبات النبوة التي هي الأصل الثاني من الأصول الثلاثة ، فابتدأ بحكاية شبه المنكرين لها فقال "وَكَذَلِكَ" مثل هذا التصريف البديع "نُصَرِّفُ" نكرر ونبين "الْآيَاتِ" الدالات على توحيدنا ونبوة أنبيائنا "وَلِيَقُولُوا" لك يا سيد الرسل "دَرَسْتَ" قرأت الكتب القديمة

(115/223)

و تعلمتها من الغير بطريق المباحثة والمداومة حتى حفظتها ، وجئتنا تزعم أنه من عند اللّه ، وأنا أعلم أنك لم تدرس شيئا ولم تتعلمه ، فدع قومك وخاصتك يقولوا لك ذلك ويصموك بالكذب وهم الكاذبون ، وان ما تتلوه عليهم من وحينا وتعليمنا إياك واللام هنا لام الأمر وقيل لام كي بالنظر إلى المعطوف عليه بعد ، وتهمتهم هذه لحضرة الرسول هو أنه كان عبدان من سبي الروم يسار وخيبر في مكة وكانا يأتيان محمدا لأنهما من أهل الكتاب ليسمعا منه وكانا يقرآن الكتب القديمة فظن كفار مكة أن محمدا يقرأ عليهما أو يسمع منهما وأنه يتلو ما يسمعه ويقرأه على قومه ، فأنزل اللّه هذه الآية تكذيبا لهم وردا عليهم وأين

هذين من كلام اللّه وهما لا يفقهانه وقد تحدى اللّه جميع البشر على الإتيان بمثله فلم تقدر ولن تقدر .

(116/223)

هذا ، وما قيل إن المراد أنك علمت ما فقرأه من اليهود لا أصل له ، لأن الآية مكية ولا يحث مع اليهود في مكة ، وما قيل إن المعنى لئلا يقولوا درست لا صحة له لأنه غير مناسب للفظ ولا وجيه في المعنى ولأن حمل الإثبات على النفي تحريف وتغيير لكلام اللّه ولا يجوز فتح هذا الباب لما فيه من وضع المنفي مقام المثبت وبالعكس ، لذلك يجب اجراء كلام اللّه على ما هو عليه وعدم التطاول على ما يخل بمعناه أو يزيد في مبناه بصورة قطعية "وَلِنُبَيِّنَهُ" نوضحنّ هذا القرآن المعبر عنه بالبصائر ونكشفن ما يرمي إليه "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ 105" أنه كلام اللّه منزل عليك من لدنا لم تتلقه من أحد ما ، فيا أكرم الرسل "اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ" من هذا القرآن ولا تلتفت إلى تقولاتهم ، وقل إنما هو من اللّه الذي "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ 106" من قومك المتخذين آلهة من دوني واتركهم الآن إلى أن يأتيك قضائي بينك وبينهم ، وفي هذه الآية تسلية لحضرة الرسول مما يلاقيه من جفاهم وتعزية لما يصمونه به وإزالة لما حصل له من الحزن بنسبة الافتراء إليه على ربه تنزه عن ذلك

وتبرأ القائل "وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا" به غيره وهذا نص بأن الإشراك بمشيئته تعالى وكذلك التوحيد والعصيان والإيمان راجع الآية 98 من سورة يونس المارة ، وذلك أن اللّه قد شاء إيمان من علم منه

اختيار الإيمان فهداه إليه فآمن ، وشاء كفر من علم منه اختيار

(117/223)

الشرك فساقه إليه فكفر وهذا كله بإرادة اللّه وتقديره ومشيئته "وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ" يا سيد الرسل "حَفِيظاً" تحفظهم من الكفر وتراقب أعمالهم وتقوم بأمرهم وتدبر مصالحهم وإنما أنت مبلغ لهم ما نوحيه إليك فترغبهم بطاعة اللّه وترهبهم معصيته وتبشر الطائع بثواب اللّه وتنذر العاصي بعقابه ، وما قيل إن هذه الآية منسوخة بآية السيف قيل لا وجه له وغاية احتجاجه بالنسخ تأويل وكيل على زعمه (لم أومر بجربكم) وهو تأويل عندي لأن معنى وكيل ما ذكرناه في الآية 67 المارة ليس إلا ولهذا قال تعالى "وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ 107" لتردهم عما قدرناه لهم كلا ولا مسيطر ولا مسلط ولا موكل من جهتهم لتدافع عنهم ، قال تعالى "وَلا تَسُبُّوا" أيها المؤمنون آلهة "الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" آلهة أخرى وهذا النهي ليس لاحترام تلك الأصنام المهانة ولا لأنه لا يجوز سبها وإنما السبب فيه ما

ذكره اللّه تعالى في جواب هذا النهي بقوله "فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً" عدوانا وهاتين الكلمتين معناهما التجاوز عن الحق إلى الباطل كأنهم بقولهم ذلك تعدوا وظلموا "بِغَيْرِ عِلْمٍ" جهلا منهم بعظمة اللّه وما يجب أن يذكر به وحقيقة النهي هذا هو النهي عن سب اللّه لا عن سب الأوثان لأن سبهم مباح ولكنه لما كان يترتب عليه سب اللّه وسب رسوله المتسبب عن سبّها ، نهاهم اللّه عنه درءا لهذه المفاسد ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، كما أن اجتناب المناهي مفضل على فعل الأوامر ، وسبب نزول هذه الآية أن المؤمنين كانوا يسبّون أوثان الكفار فيردون عليهم فنزلت بالمنع لتلك الغاية ، وما قيل إنها نزلت لما نزلت آية (إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ) الآية 99 من سورة الأنبياء الآتية قال المشركون إذ ذاك لتنتهين عن سب آلهتنا يا محمد أو لنهجونّ ربك ، لا يصح ، لأن هذه

(118/223)

الآية لم تنزل بعد ، وكذلك ما قاله السدي من أنه لما حضرت وفاة أبي طالب قالت قريش انطلقوا بنا لندخل على هذا الرجل فلنأمرنه بنهي ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان عمه يمنعه فلما مات قتلوه فتوصم وصمة لا خلاص لنا منها ، فانطلق

منهم أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن أبي البحتري

(119/223)

إلى أبي طالب ، فقالوا له أنت كبيرنا وسيدنا وإن ابن أخيك محمد قد آذانا وآلهتنا فنحب أن تدعوه وتنهاه عن ذكر آلهتنا بسوء وإنا سندعه وإلهه فدعاه فجاء فقال له يا ابن أخي قد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال صلّى اللّه عليه وسلم أرأيتكم إن أعطيتكم هذا فهل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم وأدّت لكم الخراج فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي ؟ قال قولوا لا إله إلا اللّه ، فأبوا وتفرقوا فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخي فقال يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها ، قال هذا صلّى اللّه عليه وسلم على فرض المحال إرادة إلى يأسهم ، فقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمن إلهك ، لا يصح هذا ، لأن هذه حادثة قديمة وقعت قبل نزول هذه الآية عند وفات أبي طالب كما أشرنا إليها في الآية 56 من سورة القصص في ج 1 ونوهنا بها في الآية 26 من هذه السورة وبين وفاته ونزول هذه السورة ما يقارب السنتين ، قال تعالى "كَذَلِكَ" مثل ما زينا لهؤلاء المشركين عبادة

الأوثان وطاعة الشيطان "زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ" في هذه الدنيا على علاته فرأوه حسنا إن كان خيرا وطاعة أو شرا ومعصية "ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ" في الآخرة "فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ 108" فيها ويجازيهم عليه فيثيب المؤمن الجنة ويزج الكافر بالنار إن شاء وقدمنا ما يتعلق في بحث التزيين والإضلال وان اللّه تعالى ليس عليه رعاية الأصلح للعبد وإنما عليه لا على طريق الوجوب تبين الطريقين له راجع الآية 12 من سورة الحجر المارة وفيها ما يرشدك إلى مراجعته من الآيات المتعلقة في هذا البحث تعلم أن المزين في الحقيقة هو اللّه "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ" هؤلاء الكفرة "جَهْدَ أَيْمانِهِمْ" أشدها وأوكدها "لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها" قالت

(120/223)

قريش يا محمد أما أخبرتنا أن صالحا أخرج لقومه ناقة من الجبل وأن موسى قلبت عصاه حية وضرب بها الحجر فتفجر الماء منها ، وأن عيسى كان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ؟

قال بلى ، قالوا فأتنا به نصدقك ونؤمن ، قال أي شيء تحبون قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا

وابعث لنا موتانا نسألهم عنك ونزل لنا الملائكة ليشهدوا نبوتك ، قال صلّى اللّه عليه وسلم إن فعلت بعض ما تقولون أتصدقون ؟ قالوا نعم ، واللّه نتبعنّك أجمعين ، ثم إن

(121/223)

المسلمين سألوا رسول اللّه ذلك رغبة بإيمانهم فقام صلّى اللّه عليه وسلم يدعو ربه أن يجعل الصفا ذهبا فنزل جبريل وقال ما شئت إن شئت أصبح ذهبا ولكن إذا لم يصدقوك ينزل بهم العذاب فيستأصلهم دفعة واحدة وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : بل حتى يتوب تائبهم ، فأنزل اللّه هذه الآية وأمره بأن يقول لهم ما قال تعالى "قُلْ" يا محمد لهؤلاء المقترحين "إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ" هو يأتيكم بها وليست عندي ولا لي قدرة على الإتيان بها إذا لم يشأ اللّه وأنتم أيها المؤمنون أعرضوا عن هذا ولا تقولوا إنهم يؤمنون ، واللّه تعالى يقول لكم "وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ" تلك الآيات المقترحة من عند اللّه "لَا يُؤْمِنُونَ 109" بها وحينئذ ينزل بهم العذاب ويستأصلهم كما استأصل قوم صالح إذ جرت عادة اللّه أن كل أمة اقترحت على نبيها آية فأعطاها اللّه لهم ولم يؤمنوا عذبهم جميعا وأحاط بهم عقابه الذي لا مرد له خاطب صلّى اللّه عليه وسلم أصحابه الذين سألوه إنزال الآيات حبا بإيمان المشركين من قومهم بما أوحى اللّه به إليه ليرتدعوا عن ذلك

لأنهم لا يعلمون أنهم يؤمنون بها إذا نزلت ولا يعلمون أنها إذا نزلت ولم يؤمنوا يحيق بهم الداب لذلك جاءت هذه الآية إخبارا بمعرض النهي وإنما لم ينزل اللّه عليهم ما اقترحوه لعلمه أن أيمانهم فاجرة كاذبة وأن إيمانهم كلهم في زوايا العدم ، ولم يحن الوقت لإيمان من يؤمن منهم ، كما أنه لم يحن أجل تعذيب من يعذبه منهم لأن أقداره تعالى مدونة في لوحه ثابتة في علمه الأزلي لا تقدم ولا تؤخر .

(122/223)

وهذا التفسير على قراءة لا يؤمنون بالياء وهي الأوفق للمعنى والأحسن للسياق والأليق بالسياق ، وأما على قراءة (لا تُؤْمِنُونَ) بالتاء الفوقية فيكون الخطاب للمشركين وقد مشى عليها بعض المفسرين والمعول على الأول لأن المؤمنين أحبوا نزول الآيات لما رأوا قومهم قد وثقوا الأيمان لحضرة الرسول بأنهم يؤمنون إذا نزلت طمعا بإيمانهم كما ذكرنا .

مطلب الاستفهام الإنكاري له معنيان وتمحيص لا في هذه الآية وما يناسبها :

وما في الآية استفهامية إنكارية والاستفهام الإنكاري له معنيان بمعنى لم وبمعنى لا فإن كان بمعنى لم يقال وما يشعركم انّها إذا جاءت يؤمنون بدون لا على معنى لم قلتم أنها إذا جاءت يؤمنون وتوقعتم ذلك والحال بخلافه .

وإن كانت بمعنى لا يقال وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، على معنى لا تعلمون أنهم لا يؤمنون ، فلذا توقعتم إيمانهم وهذا هو المراد بالآية والله أعلم ، ويرجع إلى إقامة عذر المؤمنين في طلبهم ذلك ورغبتهم فيه ، وقال بعض المفسرين إنّ لا زائدة وهو غير سديد إذ لا زائد في القرآن وكل حرف فيه له معنى لا يؤديه غيره ، ويزعم هذا القائل أن لا هنا مثل لا في قوله تعالى (ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ) الآية 12 من سورة الأعراف في ج 1 ، وقوله تعالى (وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ) الآية 96 من سورة الأنبياء الآتيه ، على أن لا فيهما غير زائدة كما مر في تفسير الآية الأولى وسيأتي في الثانية أيضا لأن المعنى مستقيم بوجودها كما ستقف عليه .

(123/223)

كما أنهم قدروا (لا) في الآية المفسرة آنفا عدد 105 لتصير لئلا يقولوا درست وفي (عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ) الآية 185 من البقرة في ج 3 ، وشبهها من الآيات مع أن المعنى جار على المطلوب بدون هذا التقدير كما مر في تفسير الآية الأولى ، وما سيأتي في الثانية إن شاء الله ، بأن تقدير لا لا لزوم له راجع الآية 96 من سورة يوسف المارة ، وقال بعض المفسرين إن (إنّ) من انها بمعنى لعل كقولهم أئت السوق إنك تشتري لنا شيئا أي لعلك

تشتري ، وقول عدي بن زيد :

أعاذل ما يدريك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى غد

أي لعلّ منيّتي ، وقول امرئ القيس :

عوجوا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خزام

أي لعلّنا ، وقول الأخر :

أريني جوادا مات هولا لأنني أرى ما تريني أو بخيلا مخلدا

وقول الآخر :

هل أنتم عائجون بنا لأنا نرى العرصات أو أثر الخيام

وهذا وإن كان مثله كثيرا لجريانه في كلام العرب إلا أن الآية لا تنطبق عليه ولا حاجة إلى الركون لما هو خلاف الظاهر ، وأما ما احتج به من أن أبي بن كعب قرأ لعلها إذا جاءت فلا عبرة به لأنها تفسير لا قراءة ، ولو فرض محالا أنها قراءة فهي شاذة ، ولم تثبت في المصاحف ولم يقرأ بها غيره ، لذلك فإن ما جرينا

عليه هو الأولى بالمقام والأنسب لظاهر التنزيل والأليق بسياق التأويل والله تعالى أعلم

"وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ" عن قبول الحق فنحول بينه وبين أن تعيه قلوبهم لئلا يؤمنوا "وَأَبْصارَهُمْ" كي لا يروه فيما لو كان مرئيا ولا يروا المنزل عليه على حقيقته التي جعله الله عليها حتى لا يصدقوه فيما يتلو عليهم من تلك الآيات ، وهذا تقرير لحكم الآية الأولى واثبات لعدم إيمانهم وذلك لما سبق في علم الله سوء استعدادهم الكامن في ما هيّاتهم أفاض عليهم ما يقتضيه وفعل بهم ما سألوه بلسان الاستعداد بعد أن رغبهم ورهبهم وأقام الحجة عليهم وأوضح لهم الحجة ولله الحجة البالغة وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ، وإنما حال بينهم وبين الإيمان بالآيات ولم يتركهم يرونها كما أنزلت لا عند نزولها ولا بعده "كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ" أي كما أنهم لم يؤمنوا بمحمد عند إراءتهم الآيات المتقدمة مثل انشقاق القمر والإخبار بالغيب والإسراء والمعراج وما وقع فيها من الآيات وغيرها ، فلو أنزلنا عليهم الآن آية حسب طلبهم لكفروا بها أيضا كما كفروا بما قبلها وكذبوا رسولهم ، ولهذا أنزل عليهم آية "وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ 110" يترددون في الحيرة لا يهتدون إلى الحق لأن قلوبهم هواء منه ولا يرونه لغفلتهم عنه ، واعلم يا أكمل الرسل أن من قومك من لم يؤمن وخاصة المقترحين

"وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى "كما طلبوا منك "وَحَشَرْنا" جمعنا وسقنا "عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا" بضمتين وقرىء بضم القاف وفتح الباء وبكسر القاف وفتح الباء ، وبكسر الباء وضم القاف ، وعلى الكل معناه المشاهدة مقابلة وعيانا ، أي لو جعلنا لهم ذلك كله فواجهوا الملائكة والموتى وتكلموا معهم إلخ "ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا" وهذه الجملة جوابلو التي هي حرف امتناع أي امتنع إنزال الملائكة إلخ لامتناع إيمانهم ، واعلم أن جواب لو إذا كان منفيا لا تدخله اللام ، راجع بحثها في مغني اللبيب إذ أحاطه بجميع ما يتعلق بها ، وقد وهم بعض المفسرين فقدروها وعللوا هذا الحكم بسوء استعدادهم الثابت أزلا في علم اللّه المتعلق بالأشياء حسبما هي عليه في نفس الأمر وعلله بعضهم بسبق القضاء عليهم بالكفر واعترض عليه بعض الأفاضل بأن فيه تعليق الحوادث بالتقدير الأزلي ولا يخفى فساده ،

(126/223)

على أنه لا خفاء بأن القضاء الأزلي الذي هو سبب لوقوع الحوادث ولا فساد فيه وفي هذا المقال بحث أعرضنا عنه إذ لا طائل تحته ، وفسر بعضهم قبلا وعليه يكون المعنى لو جمعنا

كل الأشياء فأحضرناها وجعلناها كفلاء بصحة ما تقول من أحقية الإيمان لم يؤمنوا وهو كما ترى وفي الحقيقة لا يستطيع أحد أن يؤمن "إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ" إيمانه "وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ 111" ذلك ويزعمون أن الإيمان بأيديهم وهو زعم باطل وقول عاطل وهذه الآية كالجواب للمؤمنين الذين طلبوا من حضرة الرسول إنزال الآيات المذكورة حبّا بإيمان المشركين الذين اقترحوها وسبب لنزولها قال تعالى "وَكَذلِكَ" مثل ما جعلنا لك يا محمد أعداء من قومك وغيرهم "جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا" ثم بين هذا العدو بأن أبدل من لفظه قوله "شَياطِينَ" وعتات "الْإِنْسِ وَالْجِنِّ" والشيطان يطلق على كل عات تمرد من الإنس والجن قال مالك بن دينار شياطين الإنس أشد من شياطين الجن ، لأن الأخير إذا تعوذت منه يهرب ، والأول يثبت ، ولذلك قدمه الله تعالى ، روى الطبري عن أبي ذر ما يؤيد هذا القول ، ورواه البغوي أيضا ولكن بغير سند ، وهذا القول أولى من جعل الشياطين كلها من الجن أي أن إبليس يرسل أعوانه لإغواء الإنس والجن لمخالفة ظاهر الآية وقد جاء بالخبر : قرناء السوء شر من شياطين الجن بما يؤيد ما ذكرناه لأن قرين السوء يوقع صاحبه في المهالك بما يسول له من سلوك سبل الشر وقد يقره عليها أحيانا أما شيطان الجن فيقصر عمله على الوسوسة بتحسين كل قبيح ليس إلا لقوله تعالى "يُوحِي" يسر ويشير "بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ" أي يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس وبعض الإنس إلى الإنس وبعض الجن إلى الجن

فيفتنون بعضهم أيضا ولا يقال يوسوس الإنس إلى الجن لأنه لا يقدر أن يجري منه مجرى الدم كما يفعل الجن ذلك بالإنس قال صلّى اللّه عليه وسلم إن الشيطان يجري

(127/223)

من أحدكم مجرى الدم وأنّى للإنسان من ذلك ، وهذه الوساوس التي تلقى بقصد الإغراء "زُخْرُفَ الْقَوْلِ" بالنصب على أنها مفعول يوحي وهو عبارة عن القول الباطل المموه الذي ظاهره غير باطنه كالإناء المطلي ليكون "غُرُوراً" خداعا حيث يأخذونهم بما يزينون لهم من الأعمال القبيحة على غرة منهم وغفلة "وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ"

البتة إذ لا يقع شيء دون مشيئته كما مر في الآية السابقة وهي مؤيدة لما جاء في الآية 110 المارة بشأن الإرادة لأنه تعالى قادر على منعهم من الوسوسة وقادر على حفظ عباده من قبولها من بعضهم ومن الجن أيضا ، وإنما يسلطهم امتحانا على من يشاء واختبارا لبعض عباده راجع الآية 36 من سورة الحجر المارة "فَذَرْهُمْ" اترك هؤلاء الكفرة يا أكرم الخلق ودعهم "وَما يَفْتَرُونَ 112" من القول فيك وفي ربك وكتابك فإني سأخزيهم وأنصرك عليهم "وَلِتَصْغى إِلَيْهِ" تذعن وتنقاد إلى تمويه الشياطين ووساوسهم "أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" ممن سبق في علم اللّه شقاؤهم "وَلِيَرْضَوْهُ" لأنفسهم طوعا واختيارا ورغبة إذ تميل

إليه قلوبهم حبا به "وَلِيَقْتَرِفُوا" من هذه الزخارف الآخذة بهم إلى قبيح العمل وسوء الفعل وخطأ القول "ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ 113" من أنواع الآثام مما يزين لهم شياطينهم من الكفر والشرك والعصيان والاستهزاء والسخرية بنا فإنا من ورائهم ، وفي هذه الآية من التهديد والوعيد ما لا يخفى ولما قال المشركون

(128/223)

يا محمد اجعل بيننا وبينك حكما من أعيان العرب نتقاضى إليه في أمرنا وأمرك أنزل اللّه جل إنزاله قل يا أكرم الرسل "أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً" يقضي بيننا "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ" علي "مُفَصَّلًا" فيه كل شيء من الحلال والحرام والأمر والنهي والوعد والوعيد والقصص والأخبار والحدود والأحكام والحوادث والأمثال ، وموضحا فيه الحق من الباطل والصدق من الكذب ، فهو وحده الحكم الحق بيني وبينكم وهو يحتوي على ما في الكتب القديمة والصحف وفيه ما لا يوجد فيها ، وهذا القول وقع بالمدينة والحكم الذي أرادوه من أحبار اليهود وأساقفة النصارى الموجودين فيها لأن هذه الآية الخامسة المدنية من هذه السورة المستثناة منها "وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ" من اليهود والنصارى الذين أرادهم المشركون حكما "يَعْلَمُونَ" حق العلم ويوقنون حق الإيقان "أَنَّهُ" أي القرآن المنزل

عليك والذي تحدثهم به "مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ" لما هو ثابت في كتبهم بالدلائل القاطعة على صحته وصدق نبوتك "فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ 114" الشاكين في ذلك بل أيقن وتحقق أنهم عالمون به علم اليقين فلا يخطر ببالك عدم

(129/223)

علمهم به أصلا وإنما يجادلونك به عنادا "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ" يا سيد الرسل بالحكم على صدق نبوتك وكون الموحى إليك من عنده وقرىء كلمات ، وهي لسياق الآية الآتية ، على أنه قد يراد بها الجمع أيضا عند الإضافة "صِدْقاً" في قوله "وَعَدْلًا" في قضائه "لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ" ولا راد لحكمه ولا مغيّر لقضائه "وَهُوَ السَّمِيعُ" لأقوال عباده "الْعَلِيمُ 115" بما يفعلونه فقد حكم اللّه جل حكمه لنبيه وهو أحكم الحاكمين بأن رسالته حق وكتابه حق وما يدعو له حق ، قال تعالى "وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ" من الكفرة لأنهم الأكثر قلّلهم اللّه ولا يزال أهل البدع والأهواء والبغاة أكثر "يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" دينه السوي الذي شرعه لعباده وبعثك به وهو الطريق الذي يفوز من يتبعه "إِنْ يَتَّبِعُونَ" أي ما يتبع هؤلاء المجادلون في معتقداتهم "إِلَّا الظَّنَّ" بأن آبائهم كانوا عليه وتلقوه من آبائهم ويزعمون أنه الحق "وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ 116" يكذبون في ظنهم هذا ، كما أن آباءهم كاذبون في ادعائهم أحقية دينهم ،

وسبب نزول هذه الآية أن الكفرة جادلوا المؤمنين في أكل الميتة بقولهم كيف تأكلون ما تقتلون أي تذبحون ولا تأكلون ما يقتله ربكم مع أنكم تأكلون ما يقتله طيوركم وكلابكم ونبالكم والنتيجة واحدة وهذا كقولهم (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا) على التسوية بينهما ، وهو جهل محض منهم لعدم علمهم حكمة اللّه تعالى فيهما وما يترتب عليهما من المضار وسنأتي على بيانه إن شاء اللّه في مطلع سورة المائدة وأواخر سورة البقرة في ج 3 قال عكرمة إن المجوس سألت المشركين عن ذلك فنزلت ، وقال ابن عباس إن اليهود سألت الرسول عنه فنزلت والأول أولى ، قال تعالى يا سيد الرسل ذرهم على غيهم هذا "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ" وهم الكفرة على اختلاف نحلهم ومللهم "عَنْ

سَبِيلِهِ" السوي العدل "وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ 117" وهم عباده المؤمنون وهو العالم بما يستوجبه الأول وما يستحقه الثاني "فَكُلُوا" أيها المؤمنون "مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ" أثناء ذبحه ولا تأكلوا مما أمانه اللّه "إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ 118" مصدقين بها متحققين أحقيتها وهذا جواب لأولئك القائلين لما ذا لا تأكلون مما يقتل اللّه وتأكلون مما تقتلون "وَما لَكُمْ" أيها الناس أي شيء عرض لكم ومنعكم من "أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ" وهذا تأكيد

في إباحة ما ذبح على اسم اللّه دون غيره "وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ" في كتابه مما لم يحرم ووضحه لكم فمنه ما أنزله ومنه ما سينزله بعد ، لأنه تعالى أنزل الكتاب جملة واحدة إلى بيت العزة كما تقدم في المقدمة في بحث إنزال القرآن وقد استوفى ذكره في سورة المائدة التي هي قبل هذه السورة في ترتيب القرآن كما هو في علم اللّه وبعدها بالنزول فتلك مدنية وهذه مكية لهذا فإن بعض المفسرين قال إن هذا التفصيل المشار إليه هنا يعود إلى سورة المائدة بالنظر إلى هذا لكنه قول غير سديد لما فيه من البعد وعليه فإن المراد بالتفصيل ما ذكره في هذه السورة وما سيذكره بعد في المائدة وغيرها ، وقال بعضهم إن الضمير

(131/223)

يعود إلى قوله تعالى (قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً) الآية الآتية بعد بضع وعشرين آية وقد اختاره الإمام الرازي بداعي أن هذا التصور من المتأخر لا يمنع أن يكون المراد به الآن وهو وجيه لو كان عود الضمير إلى المتأخر جائز مطلقا وحيث لا فلا كما أشرنا إليه في الآية 29 المارة بأنه يمكن عوده لما يليه أما عوده لكلام بعد جمل كثيرة فلم يقل به أحد ويحتمل أن الرازي رحمه اللّه نظر إلى أن التأخير في التلاوة لا يوجب التأخير في النزول ، وعليه فلا يضر تأخر هذه الآية التي نحن بصددها لأنها من صورة واحدة تدبر .

مطلب الضرورات تبيح المحظورات والضرورة تقدر بغيرها وأن طاعة اللّه واجبة مطلقا :

واعلم أن اللّه تعالى بين لكم ، ما حرم عليكم ومنعكم من تعاطيه "إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ" بأن مسكم الحاجة "إِلَيْهِ" وأقسرتم على أكل شيء من المحرمات أو شربه من قبل الغير أو أنهككم الجوع والعطش لتناوله بحيث لا يوجد غيره ، وفي عدم التناول يتحقق الهلاك فعلا أو في غالب الظن ، فإذ ذاك يجوز تناول المحرم أكلا وشربا بقدر الحاجة الدافعة لمظنة الهلاك ، إذ يكون هذا في هذه الحالة مباحا لأنه صار من جملة ما أحله اللّه عند الحاجة ، والقاعدة الفقهية أن الضرورات تبيح المحظورات والضرورة تقدر بقدرها ولذلك قلنا بجواز تناول ما يوقع مظنة الهلاك لأن من غص

(132/223)

بالأكل ولا ماء عنده جاز له أن يسوغها بالخمر ، ومن أنهكه الجوع ولا شيء عنده جاز له أكل الميتة والدم والخنزير بقدر ما يدفع به الغصة وضرر الهلاك وفاقا للقاعدتين المذكورتين ، وليعلم أن ما يحصل للوجود من الضرر بشرب أو أكل شيء من ذلك أهون من ضرر الإتلاف والقاعدة الشرعية الثالثة هي اختيار أهون الأمرين ضررا ، هذا "وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ" فيحرّمون ويحللون كما تشتهي أنفسهم "بِغَيْرِ عِلْمٍ" جهلا منهم بحكم اللّه

وعدم معرفتهم بحقائق ما حرم عليهم غير ملتفتين إلى أسبابه لأن اللّه تعالى لم يحرم علينا شيئا إلا لمنفعتنا ودرأ للمضار عنا فمخالفته اعتداء عليه تعالى أولا وثانيا على النفس التي أوجب اللّه علينا محافظتها من المضار ، وجاء في الخبر : من أكل التراب فقد أعان على قتل نفسه "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ 119" المتجاوزين قدر الحاجة في تناول المحرمات زيادة عن الضرورة ، هذا وليعلم أن طاعة اللّه واجبة مطلقا سواء كان المنهي عنه بسبب ظاهر أو لا لأن أحكام اللّه لا تعلل كما نوهنا به في الآية 96 من سورة يونس المارة ، قال تعالى "وَذَرُوا" أيها الناس "ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ" اتركوه وتباعدوا عنه وأعرضوا عن كل ما نهيتم عنه إذا كنتم تريدون الطهارة الحسية والمعنوية ، واجتنبوا ما يطلق عليه لفظ الإثم سرا وعلانية قليلا أو كثيرا لأن التلبس بالذنوب سرا يفضي إلى الجهر ، ومقارفة القليل منها تؤدي إلى الكثير ، ومن مال حول الحمى يوشك أن يقع فيه ثم هدد جل ثناؤه أمثال هؤلاء بقوله "إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ" أي إثم كان ومجيئه معرفا لا يمنع من عمومه لشموله جميع المنهيات الكبائر والصغائر "سَيُجْزَوْنَ" يوم القيامة إن لم تعجل لهم العقوبة في الدنيا ولم يتوبوا أو يقاصصوا ، لأن اللّه تعالى قد يغفر بعض الإثم بمقابل ما يصيب مكتسبه من البلاء "بِما

كانُوا يَقْتَرِفُونَ 120" بقدر اقترافهم منه لأن لكل إثم جزاء عند اللّه يجازيه عليه بحسبه وسبب ارتكابه إياه ، وقدمنا ما يتعلق بالإثم في الآية 32 من سورة الأعراف في ج 1 .

هذا وما قاله بعض المفسرين بأن ظاهر الآية يخصص ظاهر الإثم في نكاح المحارم من زوجة الأب والابن وغيرها وباطنه في الزنى أو أن الظاهر بالزنى بأولى الرايات المعلنات البغاء ، إذ كان في الجاهلية

الزانيات المعلنات يضعن رايات على محلهنّ علامة على ذلك ، والباطن هو الزنى بالأخدان وهو أن يتخذ الرجل صديقة له من الأجانب فيأتيها سرا إذا كان لها زوج وعلنا إن لم يكن لها زوج أو ولي أما الخدن التي لا زوج لها ولا ولي فهي من قسم الزانيات المعلنات أو أن الظاهر طواف الرجال بالبيت نهارا عراة والباطن طواف النساء به ليلا عراة وغير ذلك أقوال لا مستند لها ولا مناسبة لها في هذه الآية التي لا يوجد ما يقيدها بشيء من ذلك ، في عامة لهذه الأشياء وغيرها من جميع الآثام كبيرة كانت أو صغيرة ،

قال تعالى "وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ" هذا نهي عام أيضا لا يستثنى منه إلا النسيان والخطأ والإكراه والشك في التسمية ، وذبيحة الكتابي مستثناة أيضا روي أنه صلّى اللّه عليه وسلم سئل عن متروك التسمية نسيانا فقال كلوا فان تسمية اللّه تعالى في قلب كل مسلم وقال صلّى اللّه عليه وسلم رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي اللّه عنها قالت قلت يا رسول اللّه ان

هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك يأتوننا بلحمان فما ندري يذكرون اسم اللّه عليها أم لا قال أذكروا أنتم وكلوا ، فعلى هذا ليس لنا أن نقول انهم لا يذكرون اسم اللّه على ذبائحهم وهم أهل كتاب بل نعتقد أنهم يذكرون كيف وقد قال تعالى (وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ) الآية 5 من سورة المائدة في ج 3 .

مطلب النهي عن كل ما لم يذكر اسم اللّه عليه والحكم الشرعي في التسمية وما هو مفعولها .

أما ترك التسمية عمدا على الذبيحة فيحرم أكلها بنص هذه الآية لأن عدم ذكرها ظاهرا عمدا ينفي تخطرها في قلبه وإن ما جاء في الخبر ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم اللّه تعالى أو لم يذكر محمول على النسيان لا على العمد لأن فيها تهاونا وعدم مبالاة وهذا هو الحكم الشرعي في ذلك "وَإِنَّهُ" أي كل متروك التسمية عمدا "لَفِسْقٌ" خروج عن طاعة اللّه "وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ" يسرون ويشيرون "إِلى أَوْلِيائِهِمْ" من المشركين بذلك "لِيُجادِلُوكُمْ" فيه جهلا وعنادا "وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ" أيها المؤمنون في تناول شيء مما حرم عليكم دون

مسوغ أو أكلتم مما ذكر اسم الصنم عليه وحده أو مع اللّه "إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ 121" مثلهم ، لأن اللّه لا يقبل الشركة معه وان من اتبع غير اللّه في دينه فقد أشرك به ومن آمن به وأشرك معه غيره فقد أشرك وكفر أيضا هذا ومن أول هذه الآية بغير ما ذكرناه فقد خالف ظاهرها وكلف نفسه ما لا يعنيها وعرضها للخطأ ولا سيما وان هنا مزالق الأقدام لأنك إذا أرخيت للعنان لنفسك تبعها هواها فتسترسل في كتاب اللّه فاياك أن تتجاوز حده فاحفظ نفسك حفظك اللّه "أَ وَمَنْ كانَ مَيْتاً" من كان قلبه ميتا بالكفر لأن الكافر في حكم الميت "فَأَحْيَيْناهُ" بالإيمان والمعرفة "وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً" في قلبه يستضيء به طريقه بدل الكفر والضلال الكامنين فيه فصار "يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ" أي بينهم آمنا منهم بما هو عليه من الإيمان الكامل "كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ" ظلمة الكفر وظلمة الجهل وظلمة القلب "لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها" أي ليس هذا وذاك سواء وهذا مثل ضربه اللّه للمؤمن والكافر ، لأن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتا فأحيي وأعطي نورا يهتدي به في مصالحه فهو في مخبأة من المهالك والكافر بمنزلة المنغمس في الظلمات يبقى متحيرا لا يعرف كيف يتخلص منها ، قال ابن عباس رضي اللّه عنه نزلت هذه الآية في حمزة بن عبد المطلب رضي اللّه عنه وفي أبي جهل بن هشام لأنه قبحه اللّه أمر عقبة ابن أبي معيط بأن يرمي النبي صلّى اللّه عليه وسلم بفرث فأخبر حمزة بما فعل فغضب وأقبل على أبي جهل وصار يضربه بالقوس فطفق أبو

جهل يتضرع إليه ويقول له يا أبا يعلى أما تراه سفه عقولنا وأحلامنا وآلهتنا ، فقال ومن أسفه منكم عقولا تعبدون الحجارة من دون اللّه ، وأسلم في ذلك اليوم رضي اللّه عنه وأرضاه ، وهناك أقوال أخر بأنها نزلت في النبي صلّى اللّه عليه وسلم أو في عمر أو في عثمان وأبي جهل أو في عامة المؤمنين والكافرين والأول

(136/223)

أولى لنبوت واقعة إسلام حمزة فيه وهي أيضا عامة في كل مؤمن مهتد وفي كل كافر ضال ، لأن خصوص نزولها لا يقيد عمومها "كَذَلِكَ" كما زين للمؤمن إيمانه "زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ 122" من الكفر والمعاصي و"كَذَلِكَ" مثل ما جعلنا في مكة كبراء للمكر والكيد "جَعَلْنا" أيضا "فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها" أي مجرمين أكابر

من اضافة الصفة إلى الموصوف وقيل إن مجرميها بدل من أكابر وقيل مفعول أول وأكابر مفعول ثاني لأنه معرفة فيتعين أنه المبتدأ بحسب الأصل ، والأول أولى ، وإنما جعل المجرمين أكابر لأنهم أقدر على المكر والكيد وترويج الباطل بين الناس من غيرهم ، وإنما حصل ذلك لأجل الرياسة وقد جرت سنة اللّه أن ينقاد الناس لرؤسائهم في الجاه والمال وكثرة الأنصار وأن يكون اتباع الرسل أول أمرهم ضعفاؤهم "لِيَمْكُرُوا فِيها" ليتجبروا على الناس بالمكر

والخديعة والحيل والغرور والفجور وأنواع المكايد "وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ" لأن المكر يحيق بصاحبه راجع الآية 63 من سورة فاطر في ج 1 ، "وَما يَشْعُرُونَ 123" أن مكرهم يعود عليهم ويضرهم قال بعض الأفاضل ويدخل في المكر الغيبة والنميمة والكذب وترويج الباطل بين الناس والأيمان الكاذبة وغيرها "فَإِذا جاءَتْهُمْ" بلغت هؤلاء المشركين ، من آيات اللّه المنزلة على رسوله "آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ" بها وحدها ولا نؤمن "حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ" من النبوة ويأتينا جبريل بالوحي من عند اللّه ، قال تعالى ردا على هؤلاء الفسقة "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ" ومن هو صالح لنبوته وخلافته على خلقه فيشرفه بها وهذا مما يؤيد أنهم طلبوا النبوة لا كما قاله الغير من أنهم طلبوا نزول الملائكة فقط لتشهد برسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلم .

(137/223)

وقد نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة حين قال زاحمنا بني عبد المطلب في الشرف حتى صرنا كفرسي رهان ، قالوا منّا نبي يوحى إليه واللّه لا نؤمن به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه .

ولا مانع بأن يكون نزولها فيهما معا ، وهذا من المكر الذي تضمنته هذه الآية الشريفة

السابقة .

قال أهل المعاني : الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل البعثة مطاعين لأن الطعن يتوجه عليهم فيقال إنهم كانوا رؤساء فاتبعهم قومهم ، فكان اللّه تعالى أعلم بمن يستحقها فجعلها في محمد بن عبد اللّه وهو يتيم ويوجد من أهله من هو أقدم منه في الرياسة لقومه ولم يجعلها في المجرمين الأكابر كأبي جهل والوليد "سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا" من هؤلاء المتطاولين "صَغَارٌ" ذل وهوان "عِنْدَ اللَّهِ" في الآخرة غير الذي حل بهم في الدنيا "وَعَذابٌ شَدِيدٌ" فيها أيضا غير عذاب القتل والأسر والجلاء في الدنيا وذلك "بِما كانُوا يَمْكُرُونَ 124" بسبب مكرهم وصدهم وطلبهم ما لا يستحقونه وتمنيهم على اللّه الأماني مع إصرارهم على الكفر واستخفافهم بالإيمان باللّه وبمن يأمرهم به "فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ" للإيمان "يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ" فيوسعه وينوره ويصيره مستعدا لقبوله فيؤمن .

مطلب ما يوجب ضيق الصدر والمثل المضروب لذلك من معجزات القرآن :

أسند الطبري عن ابن مسعود قال : سئل رسول اللّه حين نزلت هذه الآية عن شرح الصدر قال نور يقذفه اللّه في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح .

قيل فهل لذلك أمارة ؟ قال نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت .

"وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً" حتى لا يدخله الإيمان لأنه يشمئز من ذكر اللّه ويرتاح لذكر الأوثان ، والحرج هو المكان الضيق والغابة الأشجار الملتفة التي لا يصل إليها شيء من الحيوانات الراعية السائمة والوحشية – شبه اللّه قلب الكافر الذي لا يصل إليه الخير بالحرجة الشجرة الملتفة بجامع الضيق في كل ، وجعله بحيث لا يعي علما ولا استدلالا على توحيد اللّه تعالى والإيمان به وفي هذه الآية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة اللّه تعالى وإرادته من إيمان المؤمن وكفر الكافر وهو كذلك وقد ألمعنا لهذا في الآية 39 – 107 من هذه السورة وفيها ما يرشدك لمراجعة غيرهما فترى ذلك الضال "كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ" وهذا تمثيل لشدة ضيق الصدر على طريق المبالغة إذ شبهه بمن يزاول ما لا يقدر عليه لأن صعود السماء بدون جناحين أو خاصة أكرم بهما وبعض البشر خارج عن دائرة الاستطاعة ولهذا مثل فيه ، وفي الآية تنبيه على أن الإيمان يمتنع ممن هذا شأنه كما يمتنع عليه صعود السماء ، وقيل كأنه يكلف صعودها إذا دعي للإيمان إذ يرى أن الأرض ضاقت به ، وفيها إيذان بأمر آخر وهو أن أو كسجين الهواء ينقص في طبقات الجو وكلما ارتفع تناقص وأن الإنسان إذا صعد لتلك الطبقة ولو بالطائرة أو غيرها من الآلات المحدثة لا بطريق الكرامة أو المعجزة يشعر فيها بعوارض الاختناق من صعوبة التنفس حتى يقارب

إلى أن يترشح الدم من مسام وجوده فتضعف قواه لضعف الضربة الدموية في قلبه ، وقد يؤدي ذلك إلى الموت ،

(139/223)

و هذا من معجزات القرآن العظيم ، إذ لا يوجد زمن الرسول من يعرف هذا أو يخبر عنه حتى يضرب اللّه تعالى به المثل الذي لم يطلع عليه إلا الماهرون في علم الفلك وطبقات الجو ومن اجتاز طبقة عليا من الطيارين في هذا الزمن قرن العشرين ميلادي والرابع عشر هجري فاعتبروا يا أولي الأبصار وأجيلوا النظر في قوله تعالى (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) "كَذلِكَ" مثل ذلك الجعل "يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ" والعذاب الفظيع في الآخرة واللعنة المعقدة في الدنيا "عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ 125" به مثل ما جعل صدورهم ضيقة عن قبول الإيمان وأصل الرجس الشيء القذر ويراد منه الخذلان وكل ما لا خير فيه وفي هذه الآية رد صريح على المعتزلة القائلين بعدم الإرادة والمشيئة كما ذكرنا في الآية 124 المارة ، قال تعالى "وَهذا صِراطُ رَبِّكَ" يا محمد "مُسْتَقِيماً" عدلا فيمن اقتضت حكمته وسنته أن يشرح صدر من شاء من عباده إرادة هدايته من شاء أن يضيق صدره إرادة خذلانه ، وهو منصوب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة لأن ذا يتضمن معناها كقولك هذا زيد

قائما أي أشير إليه حال قيامه ، واعلم أنه إذا كان العامل في الحال معنى الفعل لم يجز تقديم الحال عليه فلا يجوز أن تقول قائما هذا زيد ويجوز ضاحكا جاء زيد "قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ 126" بمعانيها فيتعظون بها ، وإنما ختم هذه الآية بالتذكر لأنه تقرر في عقل كل أحد أن طرفي الممكن لا يترجح على الآخر إلا بمرجح فكأنه تعالى يقول لأهل الاعتزال تذكروا ما تقرر في عقولكم أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح حتى تزول الشبهة عن قلوبكم بالكلية في مسألة القضاء والقدر وهؤلاء المتذكرون "لَهُمْ دارُ السَّلامِ" الأمان من كل خوف وكدر وهي الجنة أضافها اللّه تعالى إليه تعظيما لها بقوله "عِنْدَ رَبِّهِمْ" في الآخرة "وَهُوَ وَلِيُّهُمْ" في الدنيا و

(140/223)

الآخرة "بِما كانُوا يَعْمَلُونَ 126" من الخير "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ" لموقف الحساب في الآخرة "جَمِيعاً" الأنس والجن برهم وفاجرهم فيقول لهم "يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ" في الإضلال حتى صيرتموهم أتباعا لكم "وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ" أولياء الجن "مِنَ الْإِنْسِ" الذين أطاعوهم وقبلوا وساوسهم "رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ"

كما استمتع الجن بدلالتنا على الشهوات المنهي عنها وأوصلونا إليها استمتعنا بطاعتهم

وإغوائهم بحيث صار بينهم القبيح والخبيث متقابلا "وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا" في الدنيا وحضرنا يوم الجزاء الذي وعدتنا به وهذا اعتراف بما كان منهم

(141/223)

في الدنيا من طاعة الشيطان واتباع الهوى والتكذيب بالبعث والقضاء زمن الاستمتاع وإبداء زمن الحسرة والندم على مافات ، فأجابهم اللّه بقوله "قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ" مأواكم ومنزلكم ومقركم "خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ" من مقدار مبعثهم من قبورهم ومدة حشرهم وزمن حسابهم ووقوفهم إلى وقت دخولهم النار لأن الاستثناء من يوم القيامة المعنى بقوله تعالى ويوم نحشرهم أي منذ يبعثون ولا وجه لقول من قال إلا أوقات نقلهم من النار إلى الزمهرير وبالعكس ، أو كلما يستغيثون من عذاب فينقلون لغيره ، لأن هذا كله عذاب واختلاف تنوعه يكون فيما بعد يوم القيامة لا فيه ، وقال ابن عباس المستثنيون قوم سبق في علم اللّه أنهم مؤمنون وتقدم بحثهم مستوفيا في الآيتين 107 - 108 من من سورة هود المارة ، والقول الحق أنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على اللّه تعالى في خلقه أن لا ينزلهم جنة أو نارا لأنه الفعال لما يريد "إِنَّ رَبَّكَ" يا سيد الرسل "حَكِيمٌ" فيما يفعل بأوليائه وأعدائه "عَلِيمٌ 128" بما يصيرون إليه قبل أن يلقوه "وَكَذلِكَ" مثل ما أنزلنا العذاب بالجن

والإنس الذين انتفعوا وتمتعوا ببعضهم في الدنيا في عصياننا وتكذيب رسلنا وإنكار ما جاءوهم به من عندنا "نُوَلِّي" في الآخرة "بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً" في النار ليذوقوا العذاب فيها سوية مثل ما ذاقوا المعاصي في الدنيا "بِما كانُوا يَكْسِبُونَ 129" من الآثام وكما جعلنا المؤمنين بعضهم أولياء بعض في الدنيا ، فبعضهم كذلك أولياء بعض في الآخرة ، كذلك الكفرة بعضهم أولياء بعض في الدنيا وفي الآخرة يتبع بعضهم بعضا ونقول لهم على جهة التوبيخ والتقريع ا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ"
الذين ضللتم وأضللتم في الدنيا لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ"

(142/223)

من جنسكم ليعود الضمير إلى الأخير وهم الإنس لأن الجن لم يرسل لهم رسولا منهم ما عدا الذين سمعوا القرآن من حضرة الرسول وأنذروا به قومهم فهم رسل محمد صلّى اللّه عليه وسلم إليهم مثل الحواريين الذين أرسلهم عيسى
عليه السلام لبث دعوته باسمه راجع الآية 36 من سورة الأحقاف الآتية والآية 13 من سورة يس في ج 1 .

(143/223)

هذا وإن رجوع الضمير إلى أحد المذكورين جائز في كل ما اتفق في أصله ولما اتفق ذكر الجن والإنس جاز مخاطبتهما بما ينصرف لأحدهما كقوله تعالى (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) الآية 22 من سورة الرحمن في ج 3 وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب لأن ذكرهما قد جمع في قوله تعالى (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ) الآية 19 منها ، والظاهر أنه تعالى أرسل إليهم رسلا منهم لأنهم مكلفون بالعبودية كالبشر الذين أرسل إليهم رسلا منهم ، وعليه فإن ما جرينا عليه تأويل على خلاف الظاهر تبعنا فيه أقوال المفسرين الأعلام ، والسائق إليه عدم العلم بإرسال رسل إلى الجن منهم من قبل اللّه تعالى وما جاء في هذه الآية صرف إلى غير الظاهر بما ذكر من التأويل المار ذكره مع أن الآية تدل دلالة صريحة لا غبار عليها أن اللّه أرسل إلى الجن كما أرسل إلى الإنس وإذا عرفت أن الجن سكنوا هذه الأرض التي أنت عليها قبل الإنس أي قبل آدم عليه السلام وذريته من بعده آلاف السنين اعترفت بجواز إرسال الرسل إليهم ، وأنهم أهلكوا بعد أن عاثوا في الأرض فسادا بعذاب من عند اللّه كما أهلكت الأقوام العاصية من البشر ، يدل على هذا الآية 30 من سورة البقرة في ج 3 فراجعها ، ولما لم يبق منهم إلا إبليس ألحقه اللّه تعالى بالملائكة لما كان عليه من العبادة والطاعة في الظاهر وشهرته بهما عند الملائكة ، قال تعالى (كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) الآية 50 من سورة الكهف الآتية وضمير الجمع في قوله تعالى قُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي "

بما حللت وحرمت وأوجبت وأبحت ووعدت وأوعدت يؤيد إرسال الرسل إليهم كغيرهم

والضمير في يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا "

أي البعث بعد الموت يؤيد إرسال الرسل إليهم منهم أيضا

" قالُوا "

أي كفار الفريقين شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا "

(144/223)

بأن الرسل بلغونا آياتك وأنذرونا عقابك وحذرونا هول هذا اليوم ، وقد كذبناهم لأنا

استبعدنا ما أخبرونا به ولم نصدق الإعادة بعد الموت غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا "

بما فيها من الشهوات المموهة المزخرفة شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ

130 " إذ لم يروا بدا من الاعتراف ولا مناص من الهرب واعترافهم هذا لا ينافي جحدهم

الشرك في قولهم (وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ) الآية 23 المارة ، وقد مر أن

يوم القيامة طويل وأحواله مختلفة ولكل مقام مقال فإنهم إذا رأوا ما حصل للمؤمنين من

الكرامة أنكروا الشرك وإذا رأوا الحساب جادلوا وإذا رأوا شركاءهم طرحوا اللوم عليهم

وإذا أدخلوا النار تجادلوا مع أوليائهم ورؤسائهم وهكذا إلا أن كل ذلك لا ينفعهم ولا

يخلّصهم من العذاب المتحتم عليهم وقدمنا في الآية 27 المارة والآية 83 من سورة النمل في ج 1 ، ما يتعلق بهذا البحث فراجعه

(145/223)

"ذِلكَ" إشارة لما تقدم في قوله تعالى ويوم نحشرهم إلى هنا "أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ" أقدموا عليه قبل ان نرسل إليهم رسولا يأمرهم وينهاهم ويرشدهم لما يأتون ويذرون "وَأَهْلُها غافِلُونَ 131" لم ينبهوا من قبل رسل اللّه أن ذلك يكون ظلما عليهم واللّه تعالى لا يحب الظلم ولا يفعله كيف وقد نهى عنه عباده أما إذا جاءهم رسول من عند اللّه وأنذرهم عذابه إن لم يؤمنوا ويقلعوا عن المعاصي ولم يفعلوا فأوقع عليهم العذاب فيكون عدلا منه لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بعدم الامتثال لأوامر الرسل وتماديهم في الشرك والظلم ، والعدل الذي أمر اللّه به عباده هو الحق الخالص روح كل نظام وحياة كل كمال وهو الأصل الراسخ وقوام كل خير في السماء والأرض يهتدي إليه كل ذي عقل سليم ويؤيده العلم الصحيح ويؤدي إلى النظر القويم فيرتاح إليه القلب ويطمئن له الضمير وتركن إليه الجوارح "وَلِكُلٍّ" من الفريقين "دَرَجاتٌ" للمؤمنين في الجنة ودركات للكافرين في النار "مِمَّا عَمِلُوا" لكل بمقتضى عمله وسببه جزاء له وثوابا للطائعين وعقابا للعاصين "وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا

يَعْمَلُونَ 132 " سرا وعلنا خيرا أو شرا لأن كلا من الفريقين مدون عملهما من قبل الحفظة ومسجل في اللوح المحفوظ وثابت في علمه الأزلي "وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ" عنهما وعن عملهما وهو "ذُو الرَّحْمَةِ" الواسعة "إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ" أيها الناس صالحكم وطائعكم "وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ" من خلقه أطوع وأحسن وأمثل منكم وينشئهم "كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ 133 " أهلكوا قبلكم بذنوبهم .

واعلموا أيها الناس "إِنَّ ما تُوعَدُونَ"

(146/223)

به من العذاب إذا أصررتم على كفركم "لَآتٍ" إليكم وواقع بكم لا محالة كما أن ما توعدون به من البعث والحساب على الأعمال والعقاب عليها كائن البتة "وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ 134 " اللّه ولا فائتين عذابه ولا مفلتين منه ، لأنه يدرككم حيثما كنتم ويدخلكم النار ، كما أن ما وعده للمؤمنين من الثواب آت إليهم ، قال تعالى لرسوله "قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ" حالتكم التي أنتم عليها وقرىء مكاناتكم جمع مكانة بمعنى المكان وقيل على تمكنكم أي حسبما تستطيعون من الأعمال والأقوال "إِنِّي عامِلٌ" على حالتي وتمكني "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" غدا في الآخرة "مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ" المحمودة أنا أم أنتم فاتقوا اللّه قبل أن يحل بكم

عذابه وأقلعوا عن الظلم "إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ 135" بمطلوبهم ولا يفوزون بمرغوبهم إذ لا يسعد من كفر بالله ، وما قيل إن هذه الآية منسوخة لأن المراد منها ترك القتال لا وجه له بل هي محكمة وغاية ما فيها التهديد والوعيد وهي من الأخبار والأخبار لا يدخلها النسخ ، تأمل ما قدمناه في الآيات 69 - 70 و91 - 104 من هذه السورة وهذا طريق لطيف في الإنذار جاء على حد قوله تعالى (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ) الآية 81 من هذه السورة أيضا .

مطلب الأشياء التي ذم الله بها العرب وعدم جواز الوقف على الذكور وتخصيصهم دون الإناث بشيء :

(147/223)

قال تعالى "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ" خلق وبرأ "مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً" حظا وسهما ولأصنامهم مثله كما يدل عليه قوله جل قوله "فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا" بزعمهم أيضا من حيث أن الله لم يأمرهم بذلك ولم يشرع لهم هذه القسمة ولهذا "فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ" أصنامهم أو غيرها "فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ" لأنه ليس له خالصا وهو جل شأنه لا يقبل الشركة ولأنهم لم يعطوه للمساكين ولم ينفقوه على الأرحام والفقراء والضيوف "وَما كانَ لِلَّهِ

فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ" لأنهم ينفقونه على سدنة الأوثان ويسمونه للّه تسمية فقط ، وهكذا كان حكمهم السيء ولهذا عابه اللّه عليهم بقوله "ساءَ ما يَحْكُمُونَ

136 " في هذا التقسيم المجحف إذ يؤثرون آلهتهم على اللّه واللّه أحق أن يراعى جانبه ويحفظ حقه ، فبئس القضاء قضاؤهم .

(148/223)

روي أنهم كانوا يعينون أشياء من حرث وأنعام للّه تعالى ومثلها لآلهتهم فإذا رأوا ما جعلوه للّه زاكيا ناميا رجعوا فجعلوه للأوثان ، وإذا رأوا ما جعلوه للأوثان زاكيا ناميا تركوه لها وقالوا إن اللّه غني عنه ، قاتلهم اللّه يعرفونه غنيا وقادرا وضارا ونافعا ويعبدون غيره ويرجحونه عليه "وَكَذلِكَ" مثل ما زين لهم تجزئة أحوالهم "زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ" شياطينهم لأنهم أطاعوا وسوستهم بوأد البنات وسموا شركاء لهذا المعنى لأن الشريك قد يسمع كلام شريكه راجع الآية 31 من سورة الإسراء والآية 29 من سورة التكوير المارتين في ج 1 ، وسماعهم هذا لأوامرهم ما هو لخيرهم بل لشرهم لقوله تعالى "لِيُرْدُوهُمْ" يدمروهم ويهلكوهم "وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ" يشوشوه عليهم ويخلطوا به ما ليس منه من إفكهم وما تسوله له أنفسهم ، بأن يدخلوا عليهم الشك فيه لأن العرب في

الأصل كانوا على دين إسماعيل عليه السلام فلبست عليهم شياطينهم أمر ذلك الدين تدريجا ولم يكن لهم كتاب يرجعون إليه فيما اندرس من أمر دينهم وبقوا كذلك يصغون لوساوسهم حتى أخرجوهم عنه وحسنوا لهم ما يلقونه إليهم من الأفعال والأقوال ووضعوا لهم هذه الأوضاع الفاسدة وزينوها لهم فتبعوها "وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ" إذ لا يقع شيء في كونه إلا بإرادته ومشيئته راجع الآيات 125 ، 107 ، 112 المارات من هذه السورة ، وجاءت هذه الجملة تأكيدا لمثلها في الآية 112 بأن كل ما فعله المشركون وغيرهم بمشيئة اللّه تعالى خلافا للمعتزلة "فَذَرْهُمْ" يا سيد الرسل "وَما يَفْتَرُونَ 137" على ربك وعليك من الإفك والبهت فإن ضرر افترائهم عليهم لا يضرك منه شيء وهذه الجملة على حد قوله تعالى (اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ) الآية 40 من سورة فصلت الآتية وفيها من التهديد ما لا يخفى ، وفيها دلالة على كذبهم من نسبة هذا التحريم والتحليل والتقسيم

(149/223)

والقتل إليه تعالى عن ذلك ، ومن جملة أوضاعهم الفاسدة عدا ما تقدم ما ذكره اللّه بقوله "وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ" حرام لأن الحجر معناه المنع وهم يريدون أنها لا ينتفع بها ، لأنها مخصصة لأوثانهم فقط لقوله "لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ" من سدنة الأوثان وخدمهم

الرجال منهم دون النساء "بِزَعْمِهِمْ" الفاسد بأن النساء لا يستحقون ذلك ويطلق الزعم على القول بالظن المشوب بالكذب "وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها" عن الركوب وهي البحائر والسوائب والحوامي الآتي ذكرها في الآية 101 من سورة المائدة في ج 3 "وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا" عند الذبح اكتفاء بذكر أوثانهم ويفترون هذا وغيره "افْتِراءً عَلَيْهِ" تعالى إذ نسبوا ذلك اليه كذبا محضا تعالت حضرته المقدسة عنه "سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ 138" من تلك النسبة بهتا وعدوانا وفي هذه الآية أيضا تهديد ووعيد لا يخفى على من له لب واع وفكر سديد "وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا" أي أن نسائهم لا يجوز لهن أكلها كأنها وقف على الذكور "وَإِنْ يَكُنْ" المولود منها "مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ" نساؤهم ورجالهم يأكلون منها على السواء فاتركهم يا سيد الرسل "سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ" أي جزاء وصفهم الكذب على اللّه في هذا وغيره ، قال تعالى (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) الآية 63 من سورة النحل الآتية ونسق هذه الجملة من بديع الكلام وبليغه لأنهم يقولون وصف كلامه الكذب إذا كذب وعينه تصف السحر أي أنه ساحر وقده يصف الرشاقة بمعنى انه رشيق القامة مبالغة كأن من رآه أو سمعه وصف له ذلك بما يشرحه له قال أبو العلاء

المعري :

سرى برق العرة بعد وهن فبات برامة يصف الملالا

و هذا كله من مقتضى الحكمة "إِنَّهُ" اللّه تعالى "حَكِيمٌ" بما يفعل بعباده "عَلِيمٌ 139" بما يفعلون له ولغيره وهذا تعليل للوعد بالجزاء فإن للعليم الحكيم بما صدر عنهم لا يترك جزاءهم الذي هو من مقتضى الحكم واستدل بهذه الآية على أنه لا يجوز الوقف على الذكور دون الإناث وأنه إذا فعل ذلك يفسخ ولو بعد الموت لأن هذا من فعل الجاهلية وقد نهى صلّى اللّه عليه وسلم عن التأسي بأفعالهم أخرج البخاري عن عائشة رضي اللّه عنها قالت يعمد أحدكم إلى المال فيجعله الذكور من ولده ان هو الا كما قال اللّه تعالى (خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا) وخالصة مصدر كالعاقبة وضع موضع الخالص مبالغة أو بتقدير ذو وهو شائع في كلام العرب يقولون فلان خالص أي ذو خلوص قال الشاعر :

كنت أمنيتي وكنت خالصتي وليس كل أمر بمؤتمن

قال تعالى "قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً" لخفة عقولهم وقلة إدراكهم "بِغَيْرِ عِلْمٍ" جهلا بان اللّه تعالى لم يرزقهم وهو الرزاق لهم ولأولادهم والحافظ لهم جميعا وذلك من سبب الوأد وهو مخافة الفقر والسبي للبنات وهاتان الجريمتان قد تقع وقد لا تقع ، فاستعجالهم على قتل أولادهم مع عدم معرفتهم العاقبة بمجرد ظنهم ووهمهم خسران لهم

بازالة نعمة الولد التي هي أعظم النعم فاذا تسبب بإزالتها استوجب الذم ونقص عدده في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة وسبب نزول هذه الآية أن مضر وربيعة كانت تفعل ذلك فنعى اللّه عليهم قلة إخلاصهم له وعدم توكلهم عليه وكثرة جهلهم فيه وظاهر هذه الآية أنهم كانوا يقتلون الأولاد ذكرا وأنثى وعليه يكون السبب في قتلهم هو مخافة الفقر فقط أما مخافة السبي فلا يكون إلا بالإناث وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 59 من سورة النحل الآتية إن شاء اللّه تعالى القائل في فضح أعمالهم وتشنيع صنيعهم أيضا .

(151/223)

"وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ" من بعض الحروث والأنعام وغيرها زاعمين ان اللّه الذي حرم وحلل ذلك "افْتِراءً عَلَى اللَّهِ" واختلاقا من أنفسهم "قَدْ ضَلُّوا" في هذه المناسبة واقتراف تلك الأمور عن طريق الرشد والسداد "وَما كانُوا مُهْتَدِينَ 140" إلى الحق والصواب وقد ختم اللّه هذه الآية بلفظ الاهتداء يشير بها إلى أن الإنسان قد يضل عن الحق ولكنه يعود للاهتداء ، وهؤلاء قد توغلوا في الضلال والاهتداء لم يحصل لهم قط وانهم أهل الذم لفعلهم الأمور السبعة المارة التي هي نقمة لهم لو كانوا يعقلون ، فقد حرموا نعمة الولد بالقتل ، ونعمة العقل بالسفاهة ، ونعمة العلم بالجهل ، ونعمة التحليل بالتحريم ، ونعمة الصدق بالافتراء ،

ونعمة الرشد بالضلال ، ونعمة الرجوع إلى الهدى بالإصرار على الكفر والضلال ، ومن يضلل اللّه فماله من هاد ، روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام أي إلى هذه الآية ، وهذه الآية المدنية السادسة

(152/223)

قال تعالى "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ" مرفوعات عن الأرض "وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ" منبسطة على وجه الأرض ، وذلك أن أشجار العنب منه ما هو منبسط على الأرض ويسمى كرما عرفا على أن هنالك أخبارا بعدم جواز اطلاق لفظ الكرم على شجر العنب ومنه ما هو مرتفع على الأعواد كهيئة السقف ويسمى عريشا ، هذا على تخصيص هذه الجنّات في الآية على العنب فقط أما إذا أطلق لفظ الجنات فإن المعروش منها كل ما انبسط على وجه الأرض وانتشر كالكرم والقرع والبطيخ والقثاء وشبهها من الأزهار غير المثمرة ، وغير المعروش كل ما قام على ساق ونسق كالنخل والموز والتفاح وأشباهه ، والزروع كالحنطة والذرة والرز وغيرها من النبات الغير مثمر أيضا ، ولكن قوله تعالى بعد ذلك "وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ" يؤيد الأول وقد جعل اللّه كلا من ذلك "مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ" في الطعم كاختلاف

شجره وثمره في اللون والشكل والحجم والرائحة "وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً" في طعمه ولونه وشكله ورائحته أيضا "وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" في شيء من ذلك ، فيا أيها الناس "كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ" وهذا أمر إباحة بتناول ثمر تلك الأشجار نضجت أو لا إذ لم يقل إذا نضج فيجوز أكله عند بدو إدراكه إذا لم يضر بالصحة فإذا علم ضرره حرم أكله لأن منها ما ينفع نضيجه ويضر نيئه ومنها ما لا ، لأن القصد من خلقها والإنعام بها على عباده هو الأكل لما تشتهيه النفس منها راجع الآية 99 المارة "وَآتُوا حَقَّهُ" زكاته التي أوجها اللّه عليكم وبينها حضرة الرسول "يَوْمَ حَصَادِهِ" وبعد تصفيته وجفافه وقد آذنت هذه الآية بجواز الأكل من تلك قبل إعطاء الزكاة لا لبيع وغيره .

مطلب ما تجب فيه الزكاة من الحبوب وغيرها والحكم الشرعي في قدرها :

وإن الزكاة لا تجب إلا بعد الحصاد

(153/223)

حذرا من وقوع آفة سماوية أو أرضية على الحبوب والأثمار فيتضرر بها ، ولا زكاة وهو في السنبل والجربان والعثوق لعدم معرفة القدر الواجب ، وهذا مما يؤيد بأن المراد بالمعروشات الأعناب إذ تجب فيها الزكاة ، وكذلك ما عطفت عليها ، وبأن هذه الآية مدنية ، لأن الزكاة

لم تفرض في مكة بل في المدينة وظاهر الأمر للوجوب إذ لا يوجد ما يصرفه عنه وهي محكمة سارية في كل نوع من أنواع ما تجب فيه الزكاة .

الحكم الشرعي :

(154/223)

وجوب الزكاة في جميع حواصل الزروع مما يكال أو يوزن ومن الفواكه التي تدخر فقط ، فإذا كانت تسقى بالسيح أو المطر أو الندى من كل ما يسمى بعلا فقيه العشر ، وإذا كانت تسقى بساقية أو نضح من كل ما كان بواسطة الإنسان أو الحيوان والآلات مثل المضخة والدولاب والغراف وغيرها فنصف العشر من كل ما بلغ النصاب وهو خمسة أوسق عبارة عن ثلاثمائة صاع ، لأن الوسق ستون صاعا والصاع أربعة أمداد فتكون ألفا ومئتي مد ، والمد رطل وثلث بالوزن العراقي والرطل مائة وثلاثون درهما ، وقيل مئة وثمان وعشرون درهما وثلث الدرهم ، فيكون القدر الذي تجب فيه الزكاة على الضبط خمسمائة حقه وعشر حقق ، كل حقة أربعمائة درهم ، وهذا ما يسمونه الآن قنطاران في بلاد سورية الشمالية ، لأن رطلهم حقتان ونصف وسبعة عشر درهما ، والقنطار مئة رطل ، هذا وما قيل إن هذه الآية مكية وإنها منسوخة بآية الزكاة 267 من سورة البقرة في ج 3 ، وإن الأمر

فيها للندب وإن المراد بالحق هنا صدقة التطوع فقيل أضعف من قيل لا عبرة به لأن الآية مدنية وإن صرف اللفظ على حقيقته للواجب أولى من صرفه على المجاز للندب والله أعلم "وَلا تُسْرِفُوا" أيها الناس فتتجاوزوا الحد ، فتبخلوا فلا تؤدوا حق الله كاملا طلبا لترضية عيالكم وتتركوا عيال الله وتبخسوهم حقهم الذي فرضه الله لهم وهم لم يأخذوه منكم إلا بأمر الله ، فيكون في الحقيقة الآخذ للزكاة هو الله الذي من عليكم وأهلكم للصدقة وكذلك لا تكثروا بأن تعطوا زيادة على الواجب أو على قدرتكم طلبا للشهرة والصيت لأن فيه ضياع المال والحرمان من الأجر والندامة فيما بعد ، ولهذا عد إسرافا ، قال تعالى : (وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ) الآية 29 من سورة الإسراء ، وقال تعالى (وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا) الآية 67 من الفرقان في ج 1

(155/223)

فراجعها واعلم "إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ 141" وكل شيء لا يحبه الله لا خير فيه ، وسبب نزول هذه الآية أن ثابت بن قيس بن شماس صرم خمسمائة نخلة في يوم واحد وفرقها كلها ولم يترك لأهله شيئا ، وهذا مما يؤيد أن الآية مدنية لأن الرجل من أهل المدينة والنخل فيها ، قال تعالى "وَمِنَ الْأَنْعامِ" أنشأ لكم أيها

الناس "حَمُولَةً" لأثقالكم وأنفسكم إلى أمكنة بعيدة لم تبلغوها إلا بمشقة كالإبل والبغال والحمير والخيل راجع الآية 7 من سورة النحل الآتية "وَفَرْشاً" كالصوف والوبر والشعر لأن منه ما ينسج ويلبد ويدحي فيكون فراشا ، وقيل مما لا يصلح للحمل كالغنم والمعز وصغار الإبل والبغال والخيل ، وإنما سمي فرشا لدنوه من الأرض التي جعلها اللّه فراشا والأول أولى بالمقام وأنسب بالسياق أيضا "كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ" منها ومن نتاجها ولا تحرموا منها ما أحله اللّه لكم "وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ" طرقه ودسائسه مما يسوّل ويوسوس لكم فتبخلوا أو تسرفوا أو تحرّموا وتخصّصوا وتفضلوا مما ذكر في الآيات السابقة من 130 إلى 140 واحذروا أيها الناس نزعات شياطين الإنس والجن "إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ 142" إذ أظهر عداوته لأبيكم آدم واقتفى ذريته من بعده بالعداء .

واعلم أن لفظ عدو يأتي بمعنى أعداء قال ابن الانباري :

إذا أنا لم أنفع صديقي لوده فإن عدوي لم يضرّهم بغضي

(156/223)

أي أعدائي بدليل ضمير الجمع وله نظائر في القرآن منها قوله تعالى (ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) فقد جعل المكرمين نعت لضيف وهو مفرد الآية 24 من سورة الذاريات الآتية

، وفي قوله تعالى (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) الآية 10 من سورة ق في ج 1 ، وقوله تعالى (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) الآية 36 من سورة النور في ج 3 ، ومنها قوله تعالى (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ) الآية 93 من آل عمران ج 3 إذ أكد المفرد بما يؤكد فيه الجمع وإذا علمتم أنه عدو لكم فاتهموه فيما يلقى إليكم ولا تقروه في قلوبكم لسابق عداوته وتمسكوا بأوامر اللّه وشرعه الذي أنشأ لكم من الأنعام "ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ" زوجين "اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ" ذكر وأنثى ويقال لكل منها زوج إذا كان معه من جلسه وإذا كان وحده سمي فردا .

فيا سيد الرسل "قُلْ" لهؤلاء الفسقة "آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ" عليكم "أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ" على طريق الاستفهام الإنكاري "أَمِ" حرم "أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ" من تلك الأنعام لأنها لا تشتمل إلا على ذكر وأنثى مثلها

مطلب المحرم والمحلل هو اللّه وأن أمر الرسول هو أمر اللّه والتحريم لنفع العباد والحكم الشرعي بذلك :

ولم يحرم اللّه شيئا منها "نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ" صحيح عن العلم الذي أتاكم من اللّه وجاءكم رسله بتحريم ذلك "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ 143" بما حرمتم وحللتم تبعا لأمر اللّه ورسوله وحاشا اللّه ورسوله أن يأمرا بذلك ولكنكم كاذبون بنسبة ذلك إليهما "وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا" التحريم كلا لم يوصكم ولا حجة لكم على ذلك ولا برهان ولا دليل ثم وبخهم اللّه على ذلك بقوله "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ" جهلا منه وجرأة على ربه "إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ 144" إلى طريق الحق ولا يوفقهم إلى الرشد ، إذ لا أشد ظلما وأبعد عن السداد ممن يكذب على اللّه فينسب إليه التحريم والتحليل من حيث لم يحلل ولم يحرم ، قال صلّى اللّه عليه وسلم من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار فكيف من يكذب على اللّه "قُلْ" يا أكرم الخلق لهؤلاء المفترين "لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ" آكل يأكله "إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً" حتف أنفها أو ما هو في حكم الميتة كالموقوذة والمتردية والنطيحة وغيرها الوارد ذكرها في الآية 5 من سورة المائدة في ج 3 من كل ما لم تبق فيه حياة معتبرة ويزكى زكاة شرعية وهذا عام خص منه السمك والجراد كما خص مما بعده الكبد أو الطحال لأنه متجمد خلقة وهو "أَوْ دَماً مَسْفُوحاً" حال الحياة أو عند الذبح أما الذي يبقى في العروق وبين اللحم فهو عفو ، وقال

صلّى اللّه عليه وسلم : أحل لكم دمان الكبد والطحال وميتتان السمك والجراد "أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ" قذر نجس ضار أكله يورث الجذام و

(158/223)

الدودة الوحيدة وقلة الغيرة وأمر آخر لم نطلع عليه بعد وكذلك الميتة والدم تورث أضرارا في الوجود لأن اللّه تعالى لم يحرم علينا شيئا إلا لمنفعتنا ، على أنه لو فرض أن لا ضرر فيما حرم اللّه فيجب علينا اجتنابه امتثالا لأمره ولا حق للعبد أن يقول لم حرّم الخالق ، ولا أن نطلب العلة بالتحريم ، لأن أفعال اللّه لا تعلل وأمره مطاع جزما لأنا إذا كنا نتمثل أمر الطبيب فنمتنع عن أكل ما يحذرنا عنه ونتمثل أمر السلطان فننتهي عما ينهانا عنه فلأن نتمثل أمر اللّه من باب أولى "أَوْ فِسْقاً" ذبيحة ما "أُهِلَّ" رفع الصوت عند ذبحها بذكر ما "لِغَيْرِ اللَّهِ" بأن ذكر عليها اسم صنم أو غيره وهذا النّص في أن التحريم والتحليل لا يكونان إلا بوحي اللّه تعالى وأن المحرمات محصورة فيما حرمه اللّه نصّا في القرآن في هذه الآيات وآيات المائدة وغيرها في ج 3 ، ولا شك أن التحريم الوارد في القرآن عبارة عن خبر والأخبار لا يدخلها النسخ كما ذكرنا في الآية 135 المارة لا سيما وأن هذه الآية المكية تعضدها بالتأييد الآيات المدنيات في سورة المائدة وآية البقرة المصدرة بأداة الحصر وعددها 134 وهذه

أيضا تفيد الحصر وكلها مطابقة بعضها لبعض في الحكم ، مما يدل على أن لا شيء محرم غير ما ذكر فيها ، وقد جاء تحريم بعض الأشياء بالسنّة مثل الحمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير وغير ذلك يجب علينا أيضا الاجتناب عنها وامتثال أمر الرسول لأنه من أمر اللّه قال تعالى (ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا الآية 7 من سورة الحشر في ج 3 .

(159/223)

راجع الآية 37 من هذه السورة تجد ما يكفيك في هذا البحث "فَمَنِ اضْطُرَّ" اجهد لتناول شيء من هذه المحرمات وكان "غَيْرَ باغٍ" على مسلم مضطر مثله تارك لمواساته مستحل لأكل الميتة بغير ضرورة "وَلا عادٍ" قاطع طريق أو متعمد أو متجاوز قدر حاجته كما أشرنا إليه في الآية 119 المارة فهو عفو لما فيه من الضرورة الماسة وقد رخص اللّه تعالى ورسوله للمضطر تناول المحرّم بقدر الحاجة ولهذا ختم اللّه تعالى هذه الآية بقوله "فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ" لمن أخذ من هذه المحرمات قدر حاجته شريطة أنه غير باغ ولا عاد "رَحِيمٌ 145" به بمقتضى منّه ولطفه على عباده فلا يؤاخذهم على ما تفضل به عليهم من الرخص وترك العزائم عند الاقتضاء .

الحكم الشرعي : اعلم أن الحرام ما ورد النص بتحريمه سواء كان من اللّه أو من رسوله ، وقال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) الآية

30 من سورة البقرة في ج 3 فهذه الآية مطلقة تفيد حل كل شيء على وجه الأرض وما في المياه من حيوان وعامة الطير ، وقيدت بما نص اللّه ورسوله على تحريمه ، كما نوهنا به آنفا وسنتم بحثه في الآية 7 من سورة الخسر والآية 30 من البقرة في ج 3 إن شاء اللّه فراجعها ، روى مسلم عن ابن عباس قال : نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير .

وروى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل .

وعلى هذا فإن كل ما جاء النهي بنص الشارع فهو حرام ولهذا يحرم تناول ما أمر الشارع بقتلها مما ورد في الحديث الصحيح خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم وهي : الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور .

(160/223)

وروي عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أمر بقتل الوزغ ، وعن جابر أنه صلّى اللّه عليه وسلم نهى عن أكل الهرة ، وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال : نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب النملة النحلة والهدهد والصرد وهو طائر فخم الرأس يصطاد العصافير والوزغ جمع وزغة بالتحريك هو سام أبرص وابن الماء الآتي هو طير يسمى القرلي يعوم فوق الماء فإذا رأى شيئا خرّ عليه فكل ما ورد نص صحيح بقتله أو النهي عن أكله أو تحريمه فهو حرام لا يحل تناوله ، وما لم يرد فهو بالخيار إن شاء أكله وإن شاء تركه ، وقالوا ما استطابة العرب فهو طيب ، وما استكرهته فهو مكروه ، وهذا ليس مطردا لاختلاف العادات والنفوس ، فلينظر العاقل صاحب النفس السليمة ما تطلبه نفسه من غير ما ورد النص بتحريمه ، وما تعافه منها ، لأن اللّه تعالى قال أحل لكم الطيبات فما استطابه الأكثر فهو طيب ، لأن العبرة للغالب ، لأن ما تستحسنه العرب أو تستخبثه لم يدخل تحت الضبط ، وقد قدم لحضرة الرسول الضب فلم يأكله وقد أكله أصحابه بحضوره ولم ينههم عنه ، وغاية ما قاله فيه يعافه طبعي ، فيكون أكله حلالا لأنه لو كان حراما لما أقرهم على أكله ، وانما قلنا العبرة للغالب لأن من العرب من لا يستقذر شيئا ويفهم من الآية جواز الانتفاع بجلد الميتة وعظمها وشعرها لأن النهي عن أكلها فقط أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال ماتت شاة لسودة بنت زمعة ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لو أخذتم مسكها أي جلدها فقالت نأخذ مسك شاة قد ماتت فقال عليه

الصلاة والسلام ، إنما قال اللّه تعالى (قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ)

الآية المارة وانكم لا تطعمونه ان تدبغوه فتنتفعوا به .

(161/223)

قال تعالى "وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا" اليهود وسموا يهودا لقولهم فيما أخبر اللّه عنهم إنا هدنا إليك الآية 156 من الأعراف المارة في ج 2 وما قيل انهم لقبوا بذلك على اسم ملك صار منهم لا قيمة له لأنه إنما صار بعد أن صاروا أهلا للملك وبعد وفاة موسى عليه السلام "حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ" مثل البعير والنعامة وكل ما لم يكون مشقوق الأصابع من البهائم والطير كالاوز والبط وكل ذي مخلب من الطير وذي حافر من الدواب وكل ذي ناب من السباع والأرنب وابن الماء وأراد بالظفر هنا الحافر مجازا على طريق الاستعارة "وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما) التي في جوفهما وعلى الكليتين وبما أن لفظ الشحوم جاء عاما فقد استثنى منه ما هو حلال وهو ما جاء بقوله عزّ قوله "إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما" يدخل فيه الإلية لأنه مما يتعلق بالظهر ، إلا أن اليهود لا يأكلونها "أَوِ الْحَوايا" الأمعاء والمصارين والمباعر مما تحتوي عليه في البطن "أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ" من الشحوم وهذا صريح في حل الإلية لأنها

مختلطة بعظم وهو العصعص ، وكذلك الشحم الذي في الرأس والعين وسائر العظام فهو حلال ، روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد اللّه قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول عام الفتح ان اللّه تعالى حرم بيع الخمر ولحم الخنزير والأصنام ، فقيل يا رسول اللّه أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ويدعن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال لا هو حرام ، ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عند ذلك قاتل اللّه اليهود ، إن اللّه لما حرم عليهم شحومها جملوه (أي أذابوه) يقال أجملت الشحم وجملته إذا أذبته وجملته أكثر وأفصح "ذِلِكَ" التحريم عقوبة لهم "جَزَيْناهُمْ" به وأوجبنا عليهم التحريم "بِبَغْيِهِمْ" على أنفسهم وغيرهم و

(162/223)

أعظم بغيهم قتل الأنبياء وأقله أكل الربا "وَإِنَّا لَصادِقُونَ 146" فيما أخبرناك به يا سيد الرسل من أفعالهم

هذه "فَإِنْ كَذَّبُوكَ" في شيء من هذا أو غيره "فَقُلْ رَبُّكُمْ" أيها الناس قادر على أن يأخذهم حالا بعذاب لا يستطيعون رده ولا يتمكنون من النّجاة منه على تكذيبهم ، هذا ولكنه أي ربك يا أكرم الرسل "ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ" لا يعجل عقوبة الكافر والعاصي لعظيم حلمه أما

إذا أصرّ ولم يرتدع ، فلا شك أنه ينزل به عذابه الذي لا مرد له "وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ" إذا حان أجله "عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ 147 " لأنه لا يوقعه بهم إلا إذا تحقق عليهم ولم يكن لهم عذر بدفعه ، ألا فلا يغتر أحد بالإمهال فإنه استدراج لا إهمال ، وان ما يدره اللّه على المجرمين من السعة والعافية والجاه والسلطان هو نقمة لا نعمة بالنسبة لعاقبتها الوخيمة مما يترتب عليها من العذاب الأليم فلا يغفلنكم أيها الناس طول الأمل عن التوبة والرجوع إلى اللّه .

مطلب في المشيئة والإرادة واختيار العبد ودحض حجج المعتزلة وغيرهم :

واعلموا أنه يوم يأتي عذابه "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا" حينما لم يجدوا عذرا يعتذرون به ولا بدا من الخلاص إذ لزمتهم الحجة ولم يبلغوا الحجة "لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا" أشرك "آباؤُنا" من قبل إشراكنا ولم نقلدهم بالشرك "وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ" مما ذكر على أنفسنا وغيرنا ولكن اللّه تعالى شاء ذلك كله ففعلناه تبعا لإرادة اللّه "كَذلِكَ" مثل هذا الكذب المحض "كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" أنبياءهم من الأمم السابقة واحتجوا عليهم بهكذا مفتريات وانكبوا عليها "حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا" فكبوا على وجوههم في النار .

(163/223)

وفي قوله تعالى ، ذاقوا ، إيماء إلى أن لهم عذابا مؤخرا عند اللّه غير الذي ذاقوه لأن الذوق أول قربان الشيء أو أن الإذاقة في الدنيا والأشد منها بالآخرة "قُلْ" لهم يا سيد الرسل "هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ" يصح الاحتجاج به على زعمكم ذلك "فَتُخْرِجُوهُ لَنا" على أن إشراككم كان بمشيئة اللّه وأنكم فعلتموه تبعا لإرادته فإذا كان كذلك فلا شيء عليكم بل تستحقون الثواب لأنكم اتبعتم ما أراده اللّه عن علم ولكنكم فعلتم ذلك عنادا وعتوا وتبعا لشهوات أنفسكم وتسويلات شياطينكم وجهلا بمقام الإلهية المقدسة واستهزاء برسله العظام وسخرية بكلامه الجليل ولم تتبعوا في ذلك حقيقة ناصعة "إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ" الذي لا يغني عن الحق شيئا "وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ 148" تكذبون على اللّه وتختلقون أشياء من أنفسكم باطلة لا أصل لها في الشرائع السماوية .

وليعلم أن اللّه تعالى حكى عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا لو شاء اللّه ما أشركنا ثم ذكر عقبه قوله (كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

و هذا التكذيب ليس هو في قولهم (لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا) لأنه قول حق وصدق إذ لا يقع شيء إلا بإرادته ومشيئته بل هو في قولهم (وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها) ورضي ما نحن عليه كما أخبر

عنهم في سورة الأعراف الآية 28 في ج 1 ، فردّ اللّه عليهم بقوله (إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ) ثم جهلهم وأنّبهم إذ ختم الآية بقوله (أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ) والدليل على التكذيب هو في قولهم (وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها) ورضيه منا لا في قولهم (لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا) ولهذا صار قوله تعالى (كَذِلِكَ كَذَّبَ) بتشديد الفعل ولو كان إخبارا عنهم بالكذب في قوله (لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا) لقال كذب بالتخفيف بأن ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب ولو أنهم قالوا هذه المقالة تعظيما للّه وإجلالا لحضرته ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عاب اللّه عليهم قولهم ذلك ، ولكنهم قالوها تكذيبا وجدلا من غير معرفة باللّه وبما يقولون ، وعليه فلا دلالة إذا في هذه الآية الكريمة لمذهب القدرية والمعتزلة ، ولا يتجه تأويلهم إياها على رأيهم بخلاف ما هي عليه من قولهم إنّ الكفار لما قالوا (لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا) كذبهم اللّه ورد عليهم بقوله (كَذِلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) كما مر تفصيله ، وأيضا فإن اللّه تعالى حكى عن هؤلاء القوم مذهب الجبرية القائلين لو شاء اللّه منا أن لا نشرك لم نشرك ولمنعنا من الشرك ، وإذ لم يمنعنا عنه ثبت أنه مريد له وإذ أراده منا امتنع تركه لنا إذ لا يقع في ملكه إلا ما يريد ، والجواب عن زعمهم هذا ما قدمناه في الآية 98 من سورة يونس ، والآية 118 من سورة هود المارتين لأن أمر اللّه تعالى بمعزل عن مشيئته وإرادته لأنه مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريده ، فعلى العبد أن يتبع أمره الذي أمر به على لسان رسله وليس له أن يتعلق بمشيئته التي لا

يعلمها ، فإن مشيئته لا تكون عذرا لأحد عليه في فعله ، فهو جل شأنه يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ، قال تعالى (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) الآية 7 من سورة الزمر الآتية ، ومع هذا فإنه يبعث الرسل إلى عباده يأمرهم بالإيمان مع إرادته الكفر منهم ، وإنك أيها الإنسان قد تأمر عبدك أحيانا بشيء لا تريده بل تريد منه فعل غيره راجع نفسك وتفكر في هذا وتدبره تجده واقعا لا مرية فيه فعلى هذا أن كل خير يقع هو بمشيئة اللّه ورضاه وكل شر بإرادته وقضاه ، قال في بدء الأمالي :

مريد الخير والشر القبيح ولكن ليس يرضى بالنكال

ولا يخفى أن ورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع ، لهذا فإن ما قيل إنهم كانوا يقولون الحق في هذه المقالة (أي لو شاء اللّه ما أشركنا) إلا أنهم كانوا يعدّونه عذرا لأنفسهم ويجعلونه حجة لهم في ترك الايمان قول لا حقيقة له هذا وإن اللّه تعالى حكى عن الكفار انهم يتمسكون بمشيئة اللّه في شركهم وكفرهم ، وأخبر أن هذا التمسك فاسد باطل غير

ثابت فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة للّه تعالى في كل الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام واللّه أعلم.

(166/223)

قال تعالى يا أكرم الرسل "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ" عليكم أيها الناس بإرسال الرسل وإنزال الكتب ولا حجة لكم عليه بإرادته ومشيئته "فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ 149" ولكنه لم يشأ ذلك ولم يرده لأنه خلق أناسا إلى الجنة وآخرين إلى النار (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) الآية 5 من سورة القمر ج 1 فبطلت حجة المعتزلة وغيرهم لأن هذا دليل على عدم إشائته إيمان الكافر وثبت الحق وزهق الباطل لأنه جل شأنه هدى من صرف اختياره إلى طرق الهدى وأضل من صرف اختياره إلى سبل الضلال (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) الآية 24 من سورة الأنبياء الآتية، وإن استعداد الفريقين يقتضي ما صرف كل منهما اتباعا لما قدر له في قضاء اللّه الأزلي ولا يقال حينئذ لا فائدة من إرسال الرسل كما زعم القائلون الذين حكى اللّه عنهم بقوله، (لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً) الآية 164 من سورة الأعراف في ج 1، لأن فائدة إرسال الرسل تحريك الدواعي للفعل والترك باختيار المكلف الناشئ من ذلك الاستعداد وقطع اعتذار الظالمين

إذ قال جل قوله جوابا للسائلين آخر تلك الآية (مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) هذا وإذا تدبرت صدر الآية المفسرة وجدته دافعا لصدور الجبرية ، وإذا تأملت عجزها وجدته معجزا للمعتزلة إذ الأول مثبت أن للعبد اختيارا وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة

(167/223)

و العصيان ، والثاني مثبت لنفوذ مشيئة اللّه تعالى في العبد وان جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلهية ، وبذلك تقوم الحجة البالغة لأهل السنة والجماعة على المعتزلة ومن نهج نهجهم ، واقتفى أثرهم ، ولهذا البحث صلة في الآية 35 من سورة النحل الآتية فراجعه وقل الحمد للّه رب العالمين القائل "قُلْ" يا محمد لهؤلاء المعاندين "هَلُمَّ" هذه كلمة دعوة إلى الشيء يستوي فيها المذكر والمؤنث والجمع والمفرد وفيها لغة أخرى وهي هلم للواحد وهلما للاثنين وهلموا للجمع وهلمي للأنثى والأول أفصح أي ها توا "شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا" الذي ذكرتموه في هذه السورة وغيرها مما لم يحرمه اللّه "فَإِنْ شَهِدُوا" على زعمهم بالتحريم فشهادتهم زور وقولهم بهت وكلامهم إفك "فَلا تَشْهَدْ" أنت يا حبيبي "مَعَهُمْ" لأنهم كاذبون "وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا" وعليك أن تتمسك بما

أوحي إليك في ذلك وتتبعه وترفض افتراءهم ، لأنهم كفرة لا يهمم الكذب ، إذ ليس بعد الكفر ذنب فليس ببعيد ان اتبعوا أهواءهم في الشهادة الكاذبة "وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" لا يكترثون بذلك كيف "وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ 150" به غيره فيسوون أصنامهم الباطلة التي صنعوها واتخذوها بجلال الإله العظيم الجليل ومن كان كذلك استوى عنده الحق والباطل تبعا لهوى نفسه لهذا عليك باتباع الوحي وإدامة نشر الدعوة ولا يضرك فجورهم وليس لك أن تقاتلهم عليه الآن فاهجرهم هجرا جميلا حتى يأتي الوقت المقدر لاقارهم على الإيمان .

وهذه الآيات المدنيات الثلاث الأخيرة المتضمنة الوصايا العشر الموجودة في الكتب القديمة المكلف بها جميع الأمم من لدن آدم إلى يوم القيامة

(168/223)

قال تعالى يا محمد "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ" حقا يقينا لا مرية فيه ولا زعما ولا ظنا ولا تقليدا ، وليس مما تزعمونه وتنسبونه إلى اللّه جهلا وتطاولا وتجاوبون به مكابرة وعنادا وتصرون عليه تجبرا أو عتوا ، فاعلموا أن أول وأعظم ما حرم عليكم هو "أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" من خلقه ولا من صنعكم ولا تطيعوا مخلوقا في معصية وقد حرم عليكم

عقوق الوالدين بعد الإشراك به وأوجب عليكم برهما فقال "وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً" أحسنوا إليهما إحسانا

(169/223)

كثيرا إذ لا نعمة أعظم بعد نعمة اللّه على عبده بالإيمان الذي أخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الهدى إلا نعمة حق الوالدين لما لهما من حق التربية والحفظ حال الصغر ولأنهما السبب الظاهري في وجود الولد ، لذلك قرن الإحسان إليهما بعبادته وتوحيده قال تعالى (وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً) الآية 23 من سورة الإسراء في ج 1 وقرن الشكر لحقهما بحقه فقال تعالى (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ) الآية 15 من سورة لقمان الآتية وقد اسهبنا ما يتعلق بحقهما في هاتين الآيتين فراجعهما تعلم أن عقوقهما محرم كبير موجب لعقاب كبير والمحرم الثالث "وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ" خوف الفقر وخشية الفاقة والإملاق هو الافتقار ، لأنا "نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" لا نكلفكم رزقهم وانكم لو علمتم انكم لا تقدرون أن ترزقوا أنفسكم فكيف تقدرون على رزقهم لأنا ضمنا لكم رزقكم قبل خلقكم أنتم وإياهم والخلق أجمع راجع الآية 23 من الذاريات الآتية ولا تقتلوهم أيضا لمظنة السبي فإنا نحفظهم لا أنتم ، ثم ذكر المحرم الرابع فقال "وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ" تقدم ذكرها

وبيانها في الآية 32 من سورة الأعراف فراجعها ، ولا يخفى أن النهي عن القربان يؤذن بشدة جرم الوقوع وهو أشد من التحريم ، لأنه إذا كان قربانها محرما منهي عنه ، فكيف بالوقوع فيها والعياذ بالله ؟ ولفظ الآية شامل لكل ما يستقبح ويستفحش مادة ومعنى سرا وجهرا قليلا أو كثيرا مألوفا أو غير مألوف ، ثم أكد هذا التعميم بقوله "ما ظَهَرَ مِنْها" بينك وبين الخلق "وَما بَطَنَ" فيما بينك وبين الخالق لأنه إذا امتنع بالعلانية وفعل بالسر كان مثل الجاهلية الذين لا يرون بأسا بالسر فيكون امتناعه ليس خوفا من الله وحياء منه بل خجلا من العبد فيضاعف له العذاب لمخالفته أمر الله ويكون امتناعه رياء ، والمحرم الخامس "وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ

(170/223)

الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ" بأن ارتد عن الإسلام بعد أن دخل فيه أو قتل نفسا تعمدا أو زنى وهو محصن فيكون قتله بحق إذا ارتكبت احدى هذه الثلاث ، روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة .

"ذِلِكُمْ" ما ذكر من التكاليف الخمسة المارة الذكر "وَصَّاكُمْ بِهِ" بالكتب المنزلة قبلا على لسان الرسل السالفة ربكم الجبار المنتقم وأكده الآن لكمال أهمية هذه الوصية فحافظوا عليها أيها الناس "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ 151" فوائدها وتعون منافعها فتستعملون عقولكم بكف نفوسكم وحبس شهواتكم عن مباشرة شيء منها وأجيبوا دعوة ربكم بالمحافظة عليها لتفوزوا برضائه وتدخلوا جنته ، والمحرم السادس هو أكل مال اليتيم لقوله تعالى "وَلَا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"

له إذ لا يجوز في حال من الأحوال قربان ماله إلا في حالة واحدة وهي ما يكون له فيها الحظ والنفع كحفظه وتنميته وإصلاحه والمداومة على ذلك "حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ"

راشدا ، لأن مطلق البلوغ لا يكفي بل يشترط الرشد معه فادفعوه إليه كاملا مع ربحه يعمل هو برأيه فيه ، أما إذا بلغ سفيها فيبقى المال بيد الولي أو الوصي راجع الآيتين 5 و6 من سورة النساء في ج 3 والآية 34 من سورة الإسراء في ج 1 تقف على التفاصيل المتعلقة بهذا ، وإذا كان قربانه منهي عنه فكيف بأكله أجارنا اللّه منه ، والمحرم السابع نقص الكيل والميزان لقوله تعالى "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ"

بالحق العدل ، والأمر بالإيفاء يتضمن النهي عن التطفيف والتنقيص ومعنى القسط يؤذن بعدم الزيادة كما يحرم القص ، واعلم أن الوفاء فيها من كرم الإنسان ومروءته التي يحمد عليها عند اللّه والناس ، ومن جملة الوصايا العشر المذكورة في التوراة

والملمح إليها في الإنجيل بلفظ لا تسرق لأن نقص الكيل وتطفيف الوزن سرقة فيكونان داخلين فيها وإذا كان هذا النقص منهى عنه فالسرقة من باب أولى كيف وقد جعل اللّه حدها قطع اليد راجع الآية 38 من سورة المائدة ج 3 ، وقال تعال في عدم الحرج "لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا"

طاقتها لأن الوسع هو الطاقة وهو عندنا بذل الإنسان جهده في عدم قربان شيء من المحرمات ولهذا لم يأمر اللّه بالزيادة لما فيها من الحرج على البائع ونهى عن النقص لما فيه من الظلم على المشتري والضيق لحاجته ، فأمر اللّه تعالى ببلوغ الوسع في ذلك ، وما وراء الوسع عفو مع لزوم الضمان لأن للجائع الذي لا يجد شيئا وقد أشرف على الهلاك ، أكل مال غيره دون اذنه ، بقصد الضمان سواء كان بطريق السرقة والغصب ، ثم ذكر المحرم الثامن فقال "وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا"

في قولكم وشهادتكم وحكمكم لأن القول يشمل ذلك كله وضدها حرام وهي الكذب وشهادة الزور والجور في القضاء وكذلك الغيبة والنميمة والسب والشتم والقذف أيضا "وَلَوْ كانَ"

المقول فيه والمشهود عليه والمقضي له "ذا قُرْبى "

ويدخل في القول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير زجر ولا شدة ولا ميل للغير ولا غضب لنفسه ويكون حنقه من أجل المنكر للّه تعالى ليكون أرجى للإجابة وأكثر تأثيرا للقبول وأدعى للامتثال ، والمحرم التاسع الغدر ونقض العهد ، قال تعالى "وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا"

(172/223)

لأن الأمر بالمحافظة على العهد يقتضي تحريم نقضه وهو يشمل عهد العبد مع ربه وعهده مع عباده وعهد العباد فيما بينهم والنّذر الواجب لأنه من جملة العهود أيضا والوعود ، وقدمنا ما يتعلق بهذا الشان في تفسير الآية 24 من الإسراء في ج 1 ، ولا يخفى أن الوفاء بالوعود والعهود من أخلاق المؤمن والخلف والنكث من خلق المنافق قال صلّى اللّه عليه وسلم : آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أوتمن خان "ذِلِكُمْ"

التكاليف الأربعة المتممة مع الخمسة الأول تسعة "وَصَّاكُمْ"

بها الرب الجليل المنعم "بِهِ"

على من قبلكم والتي وصى بها آبائكم الأقدمين والأمم السالفة بواسطة أنبيائهم "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"

في هاتين الآيتين المتضمنة تسعة من الأمور المهمة لتأمروا بالمأمور منها وتنهوا عن المنهي عنها ، ثم بين الوصية العاشرة الجامعة لأنواع كثيرة من المحلات المانعة عن تعاطي كثير من المحرمات والتي هي نبراس يهتدى بها في الظلمات المبينة بقوله عز قوله "وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً" لا عوج فيه ولا زيغ له ولا حيف فيه ولا محيد عنه لمن أراد الوصول إليّ والتنعم بجنّتي والخلاص من عذابي ، وكلمة مستقيما منصوبة على الحال بمعنى الإشارة كما أشرنا إليه في الآية 126 المارة ، لا تحيدوا عنه أبدا ليهديكم إلى الرشد ويقودكم إلى الصواب ويوصلكم إلى الدين الذي ارتضاه لكم بعد أن رضيه لنفسه المقدسة فاقتفوا أثره واعملوا به فهو الطريق السوي الذي يأخذ من اتبعه إلى السداد ويدله على سبل الخير والرشاد ، واعلم أن جميع ما تقدم في الآيتين المارتين والخمس عشرة آية

(173/223)

من سورة الإسراء من 23 إلى 38 وما قبلها وما بعدها والآيات العشر من سورة الفرقان من 165 إلى 175 المارة في ج 1 من الأوامر والنواهي ، والأحكام الشرعية داخلة في هذه الآية العظيمة ومؤذنة بان كل ما بينه الرسول الأعظم هو من دين اللّه القويم الواجب اتباعه .

ثم أكد الأمر بسلوكه والنهي عن الانحراف عنه بقوله "وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ" الطريقات الصغار المتشعبات عن الطريق العام والجادة المسلوكة ، المختلفة يمينا وشمالا ، المكنّى فيها عن اتباع الأهواء الفاسدة والبدع المضلة وشهوات النفوس الخبيثة وزخارف الدنيا الدّنية التي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك لأنها توصل المعقود ، وغايتها الضياع ونهايتها التلف كما كنّ عن الطريق المستقيم باتباع الدين الحق والمنهج الصدق الواضح المؤدي بصاحبه إلى النجاة بايصاله لمقصوده ونهايته الفوز بالمطلوب وإنما نهى اللّه تعالى عن اتباع السبل (نيات الطريق) لأن في اتباعها البعد عن اللّه ورسوله المنوه عنه بقوله "فَتَفَرَّقَ بِكُمْ" أيها المتبعون لها "عَنْ سَبِيلِهِ" السوي وتميل بكم إلى الدمار "ذَلِكُمْ" المذكور في الوصايا التي وصى اللّه بها أسلافكم بواسطة أنبيائهم من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام وأوجب عليكم العمل بها "وَصَّاكُمْ بِهِ" الآن فعضوا عليها

(174/223)

بالنواجذ وتمسكوا بوصية ربكم "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 153" طرق الهلاك ومواقع الضّلال وتصلون إلى بغيتكم في الدنيا والآخرة روى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال خط لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم خطا ثم قال هذا سبيل اللّه ثم خط خطوطا عن يمينه

وشماله فقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه وقرأ هذه الآية ، هذا وإنه تعالى ضرب مثلا في هذه الآية لدينه القويم الناصع بطريق عام معبد مار بالبيداء يوصل من يسلكه إلى البلد الذي يريده فاذا سلكه أوصله إلى قصده بأمن وسلام وللأديان المعوجة الباطلة بطرق صغار متشعبة عن يمين وشمال الطريق السوي الضاربة في الصحاري لا يعلم مداها ، ولا يعرف منتهاها ، فإذا ترك الرجل ذلك الطريق المستقيم وسلك هذه الطرق تاه وتحير ووقع في حيص بيص فلا يزال يتخبط فيها حتى يهلك جوعا وعطشا وليعلم أن هذه الآيات مذكورة في الكتب السماوية كلها المنزلة على الرسل كما أشرنا إلى هذا قبل والوصايا العشر المذكورة في التوراة والإنجيل داخلة فيها

(175/223)

بدليل قوله تعالى عند ختام كل آية من الآيات الثلاث (ذِلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) أي وصى بها من قبلنا وأنزلها على رسولنا ليعمل بها هو وأمته إلى يوم القيامة ولا تزال طائفة من هذه الأمة عاملة بها حتى لا يبقى على الأرض من يقول اللّه قال تعالى "ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ" التوراة الجليلة "تَماماً" للنعمة عليه وكرامة له "عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ" أي على من كان محسنا صالحا لائقا للقيام به كائنا من كان ، لأن الذي هنا للجنس ، ولهذا قرأ ابن مسعود على الذين

أحسنوا وقرأ الحسن على المحسنين وهما قراءتان تفسيريتان لأنهما مخالفتان لما في المصاحف ، وقد ذكرنا أن كل قراءة لا تطابق ما في المصاحف لا عبرة بها ولا يجوز قراءتها لعدم ثبوتها بالتواتر المطلوب في صحة القراءة وإن هكذا قرئت لا تعد قراءة وإنما هي تفسير لبعض الألفاظ القرآنية وسبك بعضها ببعض ليس إلا قال الفراء إن الذي هنا في هذه الآية مثلها في قوله :

وإنّ الذي جادت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

(176/223)

و إنما قلنا تفسير لأن الذي تأتي بمعنى الذين على اعتبار الجنسية في القراءة الأولى مثل من تأتي للفرد والجمع ، والثانية مأخوذة من قوله (الَّذِي أَحْسَنَ) في الآية ، فقال على المحسنين وهو تفسير لا قراءة كما لا يخفى "وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ" يحتاج إليه قومه في دينهم ودنياهم "وَهُدىً" من الضلال "وَرَحْمَةً" عظيمة له ولقومه شاملة من تبعه في دينه ومات عليه إلى بعثة محمد صلّى اللّه عليه وسلم "لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ 154" بالبعث والحساب على الأعمال والجزاء عليها لأن من أيقن بهذا خاف فانتهى عن المنكر وعمل بالمعروف ، قال تعالى "وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ" إليك يا سيد الرسل "مُبارَكٌ" كثير النفع والخير "فَاتَّبِعُوهُ" أيها

الناس واعملوا بما فيه يا أمة محمد من الأوامر والنواهي وحافظوا على أحكامه "وَاتَّقُوا" مخالفته وخافوا منزله "لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ 155" في الدنيا بالعافية وسعة الرزق وفي الآخرة بالنعيم الدائم ، واعلموا أن ما أنزلناه إليكم إلا كراهية "أَنْ تَقُولُوا" لنبيكم إذا أمركم أو نهاكم "إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا" وهم اليهود والنصارى "وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ" جمع باعتبار

(177/223)

أن ما فوق الواحد جمع على حد قوله تعالى (فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ) الآية 36 من سورة النمل المارة ، ولبحثها صلة في الآية 78 من الأنبياء الآتية وما ترشد لغيرها وأن أل في الكتاب للجنس فيشمل الزبور وغيره من الصحف المتقدمة ولذلك جاء الضمير بلفظ الجمع أي عن قراءتهم "لَغافِلِينَ 156" عن ما فيها من الأحكام لأنها لم تبلغنا وليست بلغتنا ، وان هنا مخففة من الثقيلة واللام في لغافلين هي الفارقة بينها وبين ان النافية وهكذا كلما جاءت المخففة أعقبها اللام وإذا لم يعقبها فهو دليل على أنها نافية لا مخففة ، قال تعالى "أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ" كما أنزل على من قبلنا "لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ" أي من الأمم قبلهم الذين أنزل عليهم الكتب والجمع هنا باعتبار الفرقة والطائفة أو كما تقدم آنفا ، وفي

هذه الآية والتي قبلها إثبات الحجة على أهل مكة وقطع عذرهم لأن اللّه تعالى أنزل عليهم القرآن الكريم بلغتهم فلم يبق لهم ما يعتذرون به من أن الكتب القديمة أنزلت على من قبلهم وبلغتهم فهي خاصة بهم لأنها ليست بلغتهم كي يتعلموها ، ونظير هذه الآية الآية 42 من سورة فاطر المارة في ج 1 فراجعها ، قال تعالى "فَقَدْ جاءَكُمْ" يا أهل مكة "بَيِّنَةٌ" واضحة وحجة قاطعة وبرهان ساطع "مِنْ رَبِّكُمْ" الذي منّ عليكم بهذا القرآن الذي هو نور "وَهُدىً" لكم من الضلال "وَرَحْمَةٌ" بكم لتسلكوا سبل الرشد والسداد وترجعوا عن غيكم "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ" بعد أن جاءته على يد رسوله "وَصَدَفَ" أعرض ومال "عَنْها" ولم يلتفت إليها أي أن هذا لا أحد أشد منه ظلما البتة ومن هذا شأنه يكون داخلا في قوله تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى) الآية 124 من سورة طه في ج 1 ، وقال تعالى (وَمَنْ

يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الآية 27 من سورة الزخرف الآتية ، ولهذا أعقب اللّه هذه الآية بالتهديد والوعيد فقال "سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ 157 " أي بسبب ميلهم وانصرافهم وإعراضهم عما

أمروا به من الحق "هَلْ يَنْظُرُونَ" هؤلاء المكذبون ، وهذا استفهام بمعنى النفي كأن الله تعالى يقول لا يؤمن بك هؤلاء

يا سيد الرسل "إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ" لقبض أرواحهم بالدنيا أو بالعذاب الأسوأ بالآخرة ، بدليل قوله تعالى "أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ" لفصل القضاء بين الناس والحكم بالجنة والنار قال تعالى (وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) الآية 22 من سورة الفجر في ج 1 .

مطلب آيات الصفات وعلامات الساعة وإيمان اليأس واعتبار كل الأمم من ملة الإسلام والتفرقة في الدين :

(179/223)

وهذه الآية من آيات الصفات من قسم المتشابه الذي ذهب السلف الصالح إلى إبقائه على ظاهره وتأوله الخلف بما يلائم المقام ، راجع الآية المذكورة آنفا والآية 18 من هذه السورة وما يرشدانك إليه وسنأتي على توضيحها عند الآية 210 من البقرة والآية 7 من آل عمران في ج 3 إن شاء الله "أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ" من علامات الساعة كالخسف والزلزال وظهور عيسى بن مريم والدجال والنار ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ودابة الأرض راجع الآية 82 من سورة النمل في ج 1 ، "يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ"

من علاماتها كالدابة أو الموت "لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها" إذ ذاك لأنه اضطراري للتخلص من العذاب مثل إيمان فرعون المار ذكره في الآية 90 من سورة يونس المارة ، وأن إيمان اليأس والبأس عند مشاهدة العذاب لا يقبل لقوله تعالى "لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ" حضور الموت أو القتل والغرق أو وصول الروح الحلقوم "أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً" إخلاصا للّه تعالى قبل اليأس فتنتفع بالإيمان وإلا فلا ، وكما لا يقبل إيمان الكافر في مثل هذه الأوقات لا تقبل توبة الفاسق ولا إخلاص المنافق ولا توبته أيضا ، راجع الآية 159 من الشعراء في ج 1 والآيتين 83 و84 من سورة غافر الآتية ، ثم هددهم ثانيا بقوله "قُلِ" يا محمد لهؤلاء المعاندين "انْتَظِرُوا" مغبة تسويفكم وإصراركم احدى هذه الآيات القاطعة لآمالكم لتعضوا أصابعكم ندما وأسفا وتتفطر قلوبكم من التحسر على ما فاتكم من زمن قبول التوبة والإيمان "إِنَّا مُنْتَظِرُونَ 158" نزول أحدها بكم وناظرون ما يحل بكم .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى تطلع

الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها .

ولكن لا ينفعهم إيمانهم إذ ذاك ، راجع الآيات المارة والآية 18 من سورة النساء في ج 3 ،

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب اللّه عليه .

وأخرج الترمذي من رواية صفوان بن عسال المرادي قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم باب من قبل المغرب مسيرة عرضه أو قال يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه اللّه تعالى يوم خلق السموات والأرض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها ، وقال حديث حسن صحيح .

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : بادروا بالأعمال قبل ست : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويّصة أحدكم وأمر العامة .

وأخرج مسلم من رواية أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض .

وروى مسلم عن أبي حذيفة بن أسد الغفاري قال : طلع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون ؟ قلنا الساعة فقال إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدجال والدخان والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم

عليه السلام وثلاث خسوف ، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم .

وروى مسلم عن عبد اللّه بن عمرو ابن العاص قال حفظت من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا .

وقال في سوق العروس لابن الجوزي إن الشمس تطلع من مغربها ثلاثة أيام بلياليها ثم يقال لها ارجعي من مطلعك .

(181/223)

والمشهور أنها تطلع يوما واحدا من المغرب فتسير إلى خط الاستواء ثم ترجع إلى المغرب وتطلع بعد ذلك من المشرق كعادتها قيل والكل أمر ممكن واللّه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير .

روى البخاري في تاريخه وأبو الشيخ وابن عساكر في كيفية ذلك عن كعب رضي اللّه عنه قال : إذا أراد اللّه تعالى أن تطلع الشمس من مغربها أدارها بالقطب فجعل شرقها غربا

ومغربها مشرقها .

وزعم

(182/223)

أهل الهيئة ومن نهج طريقهم أن ذلك محال ويقولون إن الشمس وغيرها من الكواكب والفلكيات بسيطة لا تختلف مقتضياتها جهة وحركة وغير ذلك ولا يتطرق إليها تغيير عما هي عليه مع قولهم بجواز انطباق منطقة فلك البروج المسمى بفلك التواريث على المعدل وهي منطقة الفلك الأعظم المسمى بالفلك الأطلس إذ يصير المشرق مغربا والمغرب مشرقا ، والبحث في هذا طويل لا محل له هنا ومن أيقن بقدرته تعالى هان عليه تصديق هذا ومن لا فلا إذ لو ملأت له الأرض أدلة لا يصدق لأنه من الذين ختم اللّه على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وقانا اللّه من ذلك وجعلنا من الموقنين بكل ما جاء عن اللّه ورسوله إيقانا لا شك ولا شبهة ولا مرية فيه ، قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ" اختلفوا فيه بينهم "وَكَانُوا شِيَعاً" فرقا وأحزابا لأن الأصل هو دين إبراهيم عليه السلام الحنيف السهل فغيرت فيه اليهود وتلتهم النصارى وكل تشيع لما يرى منه وتبعه ذووه ، وزادت في الاختلاف العرب والمجوس إذ أحلوا المحرمات وحرموا الحلال وعبدوا الأصنام والكواكب والملائكة وغيرها

وأعقبه اختلاف الأمم حتى الآن فصاروا أحزابا منهم باسم الدين ومنهم باسم العروبة ومنهم باسم القومية ومنهم ومنهم وهم كما أخبر اللّه عنهم (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) الآية 32 من سورة الزمر الآتية ، ولهذا قال تعالى لحبيبه إن هؤلاء الأقوام المتفرقين في الدين "لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ" فأعرض عنهم وتبرأ منهم ومن أفعالهم وأقوالهم ما داموا مصرين على ما هم عليه من الاختلاف واتركهم فلست بمسؤول عنهم ، أسند الطبري عن أبي هريرة مرفوعا قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وليسوا منك ، هم أهل البدع والأهواء والشبهات والضلالة .

(183/223)

واقتباسا من هذه الآية (القول السائد) إن فعلت كذا فلست منك ولست مني ، روي عن الغرباض بن سارية قال صلى بنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل بوجهه علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل يا رسول اللّه كأن هذه موعظة مودع فما تعهد إلينا فقال أوصيكم بتقوى اللّه والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم

ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة . - أخرجه أبو داود والترمذي - وعن معاوية قال : قام فينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفرق على ثلاث وسبعين فرقة ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة .

زاد في رواية : وانه يخرج من

أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ، أخرجه أبو داود .

وأراد بالتجاري هنا على قول بعضهم الوقوع في الأهواء الفاسدة تشبيها بجري الفرس والكلب ، ولا أراه سديدا بل أراد واللّه أعلم داء الكلب ، أي تتداخل بهم الأهواء كتداخل داء الكلب في الوجود بدليل ما بعده .

وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : إن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملّة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملّة كلها في النار إلّا ملّة واحدة ، قالوا من هي يا رسول اللّه قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي - أخرجه الترمذي - .

وفي هذين الحديثين دلالة كافية على أن جميع أهل الملل المتفرقة في المذاهب والطرق من ملة الإسلام إذ جعلهم الرسول صلّى اللّه عليه وسلم من أمته بنص قوله (أمتى) في الحديث الأخير فنسأل اللّه تعالى أن يجمع كلمتهم على طريق الحق ويوحد صفوفهم على الصدق ويشد أزرهم بعضهم ببعض ، وينزع الخلاف من بينهم ويوحد كلمة هؤلاء الأحزاب المتضاربة المتحزبة بعضها لبعض الآن بما يزيد عن التعصّب الكائن في الجاهلية بسبب القرابة ويسدد خطاهم إلى الهدى والصواب ويلهمهم الرشد ويزيل عنهم الحجاب ونظير هذه الآية 13 من سورة الشورى الآتية فراجعها وهذه الآية عامة محكمة وحكمها باق إلى آخر الدوران فمن قال منسوخة احتج بانها خاصة باليهود والنصارى والكفار من حيث لا دليل يخصصها بأحد من هؤلاء من كتاب أو سنة لهذا فلا عبرة بهذا القول لأن معناها عام والعام يبقى على عمومه ما لم يخصص ولا مخصص له .

مطلب حكاية بنكتة وعظيم فضل اللّه :

(185/223)

كان السيد محمود الألوسي رحمه اللّه صاحب تفسير روح البيان اجتمع بأحد متعصبي الشيعة وكان اسمه حمد وقد روى الحديثين المذكورين آنفا وجعل بدل واحدة في الحديث الأول وصلته في الحديث الثاني (فرقة) وقال إن فيها إشارة إلى نجاة الشيعة وأنهم هم المرادون بالفرقة الناجية من الثلاث والسبعين ، قال والحجة على هذا أن عدد حروف فرقة بالجمل وعدد حروف شيعة سواء فكأنه عليه الصلاة والسلام قال إلا شيعة والمشهور في هذا العنوان هم الشيعة الإمامية لا غير ، فأجابه على الفور دون أن يتعرض لتبديل كلمة واحدة وفرقة وملة : يلزم من هذا أن تكون كلبا وحاشاك لأن عدد حروف كلب بحروف الجمل مثل عدد حروف حمد ، فألقم الحجر ولم ينبس ببنت شفة قال تعالى "إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ" وحده في تفرقهم وتعصبهم لبعضهم ليس لك يا سيد الرسل فأنا وليهم إن شئت عذبتهم في الدنيا والاخرة وإن شئت هديتهم في الدنيا وعفوت عنهم في الآخرة ، وإن شئت عذبتهم في الدنيا والاخرة وإن شئت هديتهم في الدنيا ونعمتهم في الاخرة فاتركهم فان أمرهم اليّ في الدنيا ومرجعهم إلي في الآخرة "ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ 159" لا يعزب عن علمه شيء من أعمالهم وأنه سيجازيهم عليها الشر بمثله والخير بأحسن منه قال تعالى "مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ" في هذه الدنيا "فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها" في الآخرة وقد يضاعفه إلى سبعمئة وإلى ما لا يحصى "وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ" فيها "فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها" فيها وهذا من عظيم فضل اللّه على عباده إذ يفيض على الطائعين من جوده العميم ويقاصص العاصين

بمقدار عصيانهم "وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ 160" في ذلك إذ لا يزاد في عقابهم كما لا ينقص من ثواب الطائعين ، وهذا عدل منه جلّ عدله في حق العاصي وفضل منه في حق الطائع ، على أن له تعالى أن يعذب الطائع ويرحم العاصي لأن الكل ملكه يتصرف فيه كيف يشاء ،

(186/223)

فإذا أراد إبلاغ ثواب الطائع إلى ما لا يحصى وعقاب المسيء إلى ما لا يطاق فعل ولا راد لقضائه ولا يسأل عما يفعل ، وهذه الآية عامة في كل حسنة وسيئة والتقدير ليس للتحديد لأن اللّه يضاعف لمن يشاء ، فالثواب فضل منه والعقاب عدل منه .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال صلّى اللّه عليه وسلم إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى اللّه تعالى .

وروى مسلم عن أبي ذر رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول اللّه تبارك وتعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها وأغفر ، ومن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ، ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة بعد أن لا يشرك بي

شيئا لقيته بمثلها مغفرة .

وهذا من أحاديث الصفات وهي كآيات الصفات التي أشرنا إليها في الآية 158 المارة من هذه السورة وفي مواضع كثيرة قبلها وفي الآية 30 من سورة ق في ج 1 وبينا أن السلف الصالح يتركونها على حالها والخلف الناجح يؤولونها فيقولون في مثل هذا الحديث : من تقرب إلي بالطاعات تقربت برحمتي ومن أتاني أتته رحمتي أو خيري وبركتي بحسب ما يناسب المقام ، وإذا أردت أن تقف على هذا راجع الآيات التي أشرنا إليك عنها آنفا وما تدلك عليها .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : يقول اللّه تبارك وتعالى وإذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة .

(187/223)

هذا لفظ البخاري ، ولفظ مسلم : إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة وإن لم يعملها فإن عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها ، وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة فأنا

أغفر له ما لم يعملها ، فإن عملها فأنا أكتبها له بمثلها ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قالت الملائكة رب ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به ، فقال

ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، فإنما تركها من جرائي .

زاد الترمذي : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها .

وقدمنا ما يتعلق في هذا في الآية 20 من سورة يوسف المارة وفيها أيضا ما يرشدك للمواقع المتعلق فيها هذا البحث فراجعها ، فنعم الرب ربكم أيها الناس هذا لطفه بكم ورأفته عليكم ، فأين المتعرض لألطافه المتطلب

لرحماته ، فيا ويل الظالمين من مشهد يوم عظيم ، ويا خسارة المفرطين من انعام رب العالمين ، فيا أكرم الرسل

(188/223)

"قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ" موصل إلى النجاة ، ثم بين هذا الطريق بقوله "دِيناً قِيَماً" عدلا لا عوج فيه بالتخفيف وجاء في الآية الثانية من سورة الكهف الآتية قيما بالتشديد وجاء معرفا ومشددا في الآية 30 من سورة الروم الآتية والآية 37 من سورة

التوبة في ج 3 "مِلَّةَ إِبْراهِيمَ" السوية السهلة التي ملتم عنها واختلفتم فيها أيها المشركون والمجوس وأهل الكتابين ، وقد اتبعتها أنا لكونه أي سيدنا إبراهيم كان "حَنِيفاً" مائلا عن الضلال إلى الاستقامة وعن الباطل إلى الحق وكانت العرب تسمي كل من حج واختتن حنيفا إعلاما بأنه على دين إبراهيم عليه السلام الذي كان مسلما مؤمنا "وَما كانَ" من يوم وعيه "مِنَ الْمُشْرِكِينَ 161" قط وهو الذي سمى المؤمنين به مسلمين ، راجع الآية الأخيرة من سورة الحج في ج 3 ، نزلت هذه الآية في كفار قريش لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم مع أنهم يعبدون الأوثان وعبادتها شرك محض ، فرد اللّه عليهم بأن إبراهيم ما كان مشركا ولم يعبد الصنم قط ، وأنتم مشركون تعبدون الأوثان ، فادعاؤكم أنكم على دينه بهت واختلاق ، وإنما ذكرنا المجوس وأهل الكتابين مع أن الآية مكية ولا يوجد في مكة مجوس ولا يهود ونصارى وقع لهم مجادلة مع حضرة الرسول في ذلك ، بل لأنهم داخلون في معنى الآية بسبب ما هم عليه من التفرقة في دينهم وتعصب بعضهم لبعض فيشملهم إطلاق لفظها ، إذ لا مقيد لها ، تدبر .

(189/223)

قال تعالى "قُلْ" يا سيد الرسل موبخا مقرعا من عاندك في توحيد اللّه أو جادلك في إثبات الشرك بوحدانية اللّه المقدسة وهو مع سفه عقله وقلة إدراكه يتوقع موافقتك لاتباع دينه الباطل "إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي" حجي وذبحي وكل عبادتي "وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ 162" وحده "لا شَرِيكَ لَهُ" في ذاته ولا في شيء من صفاته جلت حضرته عما يقول الكفرة وتنزهت مما تصفه ، فإذا أردتم الخير لأنفسكم أيها الناس في الدارين فأخلصوا له الدين الذي أرسلت به إليكم "وَبِذلِكَ" الإخلاص والتوحيد والتنزيه "أُمِرْتُ" من قبل ربي عزّ وجل "وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ 163" في هذه الأمة

(190/223)

لأن إسلام النبي متقدم على إسلام أمته وقومه ، وإن هذه الآية دليل على أن جميع العبادات يجب أن تؤدي على وجه التمام والكمال ، لأن ما كان للّه لا ينبغي إلا أن يكون كاملا تاما مع إخلاص ليكون مقبولا عند اللّه ، ولذلك أمر رسوله صلّى اللّه عليه وسلم أن يصرح بذلك ويقول إن حياته للّه فهو يملكها ، وما كان للّه فينبغي أن يقضيها في عبادته وموته للّه على الإيمان الكامل به ، ليكون حياته حياة طيّبة ومماته ميتة طيبة ولا يقبل اللّه إلا الطيب "قُلْ" يا أكرم الرسل لمن يريد أن توافقه على طريقه المعوج ويريدك على عبادة الصنم الذي اتخذه ربا

وهو جماد لا يعقل "أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ" مربي ومالك ومدبر "كُلِّ شَيْءٍ" وسيده لا يشاركه في ربوبيته أحد وهو الواحد في ذاته المنفرد في ألوهيته المختص بصفاته ، وأنت يا حبيبي بعد أن أبلغتهم ما أمرت به لا يهمك شأنهم وعدم قبولهم ، فدعهم يكون وبالهم عليهم "وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ" من الأوزار "إِلَّا عَلَيْها" إثمه وعقابه كما أن ما تكسبه من الخير يكون لها أجره وثوابه ، قال ابن عباس : كان الوليد بن المغيرة يقول لكفار مكة اتبعوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم ، كما أشار اللّه إليه في قوله (اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ) الآية 12 من سورة العنكبوت الآتية فأكذبه اللّه تعالى بما أنزله في هذه الآية بقوله "وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى" وهذه الآية مكررة في الآية 38 من سورة والنجم والآية 38 من سورة فاطر والآية 88 من سورة الإسراء المارات في ج 1 والآية 7 من سورة الزمر الآتية ، أي لا يؤاخذ أحد بذنب غيره عما يرتكبه في هذه الدنيا بل يكون هو نفسه رهين بما كسب ضمين لما اقترف ، قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) الآية 20 من سورة المدثر المارة في ج 1 ، وسيتبين لكم يوم القيامة المحق من المبطل والمضل من المهتدي عند

ما يصدر أمره المطاع وهو قوله جل قوله (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) الآية 60 من سورة يس المارة ، ولهذا يقول اللّه تعالى "ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ" في الآخرة "فَيُنَبِّئُكُمْ" في الموقف على رؤوس الأشهاد "بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ 164" من الأديان و غيرها وما كنتم تتفرقون من أجله ويتعصب بعضكم لبعض في غير الحق ويجازي كلا يحسبه

(192/223)

ويدخل المؤمن الجنة والكافر النار ، قال تعالى "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ" لمن قبلكم من الأمم في "الْأَرْضِ" لأنكم آخر الأمم ورسولكم خاتم الرسل "وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ" في المال والجاه والعقل والخلق والقوة والفضل والولد والرزق والشرف "دَرَجاتٍ" كثيرة وجعل بينكم تفاوتا عظيما كما بين العالم والجاهل والحسن والقبيح والشريف والوضيع والغني والفقير والمريض والصحيح ، وهو قادر على أن يجعلكم متساوين في ذلك كله ، ولكن فعل ما فعل بمقتضى الحكمة "لِيَبْلُوَكُمْ" يختبركم ويمتحنكم "فِي ما آتاكُمْ" من ذلك وليظهر للناس هل يصرفونه في طرق الخير شكرا لنعمته أو تضيعونه في الشر كفرا لربوبيته ليطلعوا على مناقبكم ومثالبكم حتى يصفوكم بالمزايا أو الرذائل ، وإلا فاللّه تعالى عالم بكم وبما وقع

منكم ولكن ليعلم الناس من منكم يحمد على الطاعة ويذم على المعصية ، ومن يصرف نعم اللّه لما خلقت له ومن يضعها بغير موضعها فيكون الثواب والعقاب من اللّه على حسب أعمالكم ونياتكم في كل ما خولكم به ، لأن اللّه لا يعجزه أن يجعلكم سواسية في الرزق وغيره ولا ينقص من جوده مثقال ذرة وإنما لم يفعل لما تقدم من الأسباب وليعرف الناس الصابر منكم من الجازع والشاكر من الكافر "إِنَّ رَبَّكَ" يا محمد "سَرِيعُ الْعِقَابِ" لأعدائه في الدنيا والآخرة إذا أراد ، وان ما ترونه من الإمهال فهو لحكمة قدرها في الأزل وان مقدوراته تعالى لا تغير عن أوقاتها ولا تبدل بغيرها "وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ" لذنوب أوليائه وأهل طاعته الشاكرين نعمه "رَحِيمٌ 165" بعباده أجمع ، قال ابن عباس لما نزلت هذه السورة جملة (عدا الآيات المدنيات) ليلا بمكة وحولها سبعون ألف ملك قد سدوا ما بين الخافقين لهم زجيل بالتسبيح والتحميد ، قال النبي صلى اللّه عليه وسلم سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم وخر ساجدا ، قال البغوي : وروي عنه مرفوعا من قرأ سورة الأنعام صلى

عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره .

وتسمى هذه السورة المشيعة وهكذا كل سورة وآية نزل معها ملائكة غير جبريل والحفظة

الأربعة الذين ينزلون معه عند نزول كل آية وسورة شاهدين وحافظين كسورة يس وآية الكرسي وآية (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا) الآية 45 من سورة الزخرف الآتية ، وما لم ينزل

معها إلا جبريل والحفظة تسمى المفردة ، وقد ختمت سورتا المزمل والأحزاب بما ختمت به هذه السورة فقط ، هذا والله أعلم وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 3 صـ 318.437 ﴾

(194/223)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الأنعام

مكية

يعدلون تام قضى أجلا حسن وقال أبو عمرو كاف وهذا الأجل أجل الحياة والأجل في قوله وأجل مسمى عنده أجل ما بين الموت والبعث تمترون حسن وقال أبو عمرو تام وفي الأرض

حسن وجهركم جائز تكسبون وقال أبو عمرو تام معرضين كاف يستهزؤن تام بذنوبهم
صالح وقال أبو عمرو كاف آخرين حسن وكذا سحر مبين وقال أبو عمرو فيهما تام عليه
ملك صالح لاينتظرون تام وكذا يلبسون ويستهزؤن والمكذبين قل الله كاف وكذا الرحمة لا
ريب فيه تام لا يؤمنون حسن وقال أبو عمرو تام والنهار كاف العليم ولا يطعم كاف من أسلم
صالح وقال أبو عمرو كاف من المشركين حسن وكذا عظيم وقال أبو عمرو فيهما وفي بقية
رؤس الآي الآتية تام فقد رحمه كاف وكذا المبين إلا هو صالح قدير حسن فوق عباده صالح
الخبير حسن أكبر شهادة مفهوم وقال أبو عمرو كاف بيني وبينكم كاف ومن بلغ حسن وكذا
قل لا أشهد وقال أبو عمرو فيهما كاف مما تشركون تام أبنائهم حسن وقال أبو عمرو كاف لا
يؤمنون تام بآياته كاف الظالمون حسن تزعمون كاف مشركين حسن وقال أبو عمرو كاف
يفترون تام من يستمع إليك صالح وقرا كاف وكذا لا يؤمنون بها أساطير الأولين وينأون عنه
حسن وكذا يشعرون ولو ترى إذ وقفوا على النار هنا وعلى ربهم فيما يأتي كاف وجواب
لو محذوف أي لرأيت أمرا فظيعا ياليتنا نرد على قراءة رفع الفعلين بعده استئنافا أي ونحن لا
نكذب ونحن من المؤمنين رددنا أم لا وليس بوقف على قراءة نصبهما جوابا للتمني ولا على
قراءة رفعهما ما عطفا على نرد فيدخلان في التمني ولا على قراءة رفع الأول ونصب الثاني
إذ لا يجوز الفصل بين التمني وجوابه من المؤمنين كاف وكذا من قبل لكاذبون حسن وكذا
بمبعوثين بالحق كاف وكذا بلى وربنا تكفرون تام بلقاء الله مفهوم عند بعضهم وكذا فرطنا

فيها على ظهورهم حسن وكذا ما يزرون ولهو للذين يتقون كاف افلا يعقلون تام الذي يقولون صالح يجحدون تام نصرنا صالح وكذا لكلمات الله المرسلين كاف بآية حسن وكذا من

(195/223)

الجاهلين وقال أبو عمرو في الأول كاف يسمعون تام يبعثهم الله صالح يرجعون تام آية من ربه كاف لا يعلمون تام أمثالكم حسن من شيء مفهوم يحشرون تام في الظلمات كاف يضلله صالح مستقيم تام صادقين تام بل اياه تدعون جائز ما يشركون تام يتضرعون كاف قلوبهم جائز يعملون كاف أبواب كل شيء صالح مبلسون كاف رب العالمين تام يأتيكم به حسن يصدفون تام الظالمون ومنذرين كاف عليهم جائز يحزنون حسن يفسقون تام خزائن الله جائز وكذا ولا اعلم الغيب أني ملك مفهوم ما يوحي إلى كاف وكذا البصير تتفكرون تام لعلهم يتقون حسن يريدون وجهه كاف وكذا من الظالمين من بيتنا حسن وكذا بالشاكرين سلام عليكم حسن وقال أبو عمرو كاف الرحمة حسن وقال أبو عمرو كاف وهذا على قراءة انه بكسر الهمزة استئنافا وأما على قراءته بالفتح بجعله مع ما بعده بيانا للرحمة فليس بوقف فان جعل ذلك على هذه القراءة حبر مبتدأ محذوف كان الوقف على اللاحمة كافيا غفور رحيم حسن وقال أبو عمرو تام نفصل الايات جائز سبيل المجرمين حسن من دون الله

كاف من المهتدين تام وكذبتم به حسن وكذا ما تستعجلون به يقص الحق جائز الفاصلين تام بيني وبينكم كاف بالظالمين حسن وكذا إلا هو وما في البر والبحر وفي كتاب مبين أجل مسمى صالح تعملون تام فوق عبادة مفهوم وكذا حفظة لا يفرطون صالح مولاهم الحق حسن الحاسبين تام من الشاكرين حسن وكذا تشكرون وبأس بعض يفقهون كاف كذا وهو الحق عليكم بوكيل حسن مستقر كاف تعملون حسن في حديث غيره الظالمين حسن يتقون كاف الحياة الدنيا صالح ولا شفيع كاف لا يؤخذ منها حسن بما كسبوا كاف يكفرون تام حيران حسن وكذا ائننا وقال أبو عمرو في الأول كاف هو الهدى كاف لرب العالمين جائز وليس بحسن وان كان رأس آية لتعلق ما بعده بما قبله واتقوه صالح وقال أبو عمرو كاف تحشرون كاف بالحق كاف إن نصب قوله ويوم يقول باذكر مقدرا وليس بوقف إن عطف ذلك على هاء واتقوه أو على السموات للفصل بين

(196/223)

المتعاطفين كن صالح وتقدم الكلام عليه في سورة البقرة فيكون حسن وقال أبو عمرو تام قوله الحق حسن يوم ينفخ في الصور كاف إن رفع ما بعده خبر المبتدأ محذوف وليس بوقف

إن رفع ذلك نعتا للذي خلق والشهادة كاف وكذا الخبير وقال أبو عمرو تام لأبيه آزر صالح فأن قرئ آزر بالضم على النداء جاز الوقف على قوله لأبيه

(197/223)

للفرق بين القراءتين أصناما آلهة صالح مبين حسن والأرض كاف وكذا وليكون من الموقنين واللام متعلقة بمحذوف أي ونريه الملكوت ومنهم من جعل الواو زائدة فلا يوقف على الأرض بل على الموقنين هذا ربي صالح الآفلين كاف هذا ربي صالح الضالين كاف هذا أكبر صالح تشركون حسن وقال أبو عمرو كاف حنيفا كاف من المشركين حسن وقال أبو عمرو كاف وحاجة قومه صالح وكذا وقد هدان ربي شيئا حسن وقال أبو عمرو كاف علما كاف أفلا تتذكرون حسن وقال أبو عمرو كاف سلطانا صالح تعلمون تام الأمن جائز وعم مهتدون كاف وقال أبو عمرو تام من نشاء كاف وكذا عليم وقوله ويعقوب ومن قبل كلا هدينا جائز وهرون كاف وكذا المحسنين وقوله والياس ومن الصالحين وقوله ولوطا والعالمين وإخوانهم صالح مستقيم كاف وكذا من عبادة يعملون حسن والحكم والنبوة كاف وكذا بكافرين وفبهداهم اقتده ذكرى للعالمين تام من شيء حسن وهدى للناس كاف سواء قرئ ما بعده بالغيبة أم بالحضور وقيل إن قرئ ذلك بالغيبة فالوقف كاف لأن ما بعده استئناف

أو بالحضور فليس بوقف لأن خطاب الذي تقدمه قي قوله قل من أنزل الكتاب قل الله حسن فأن وقف على قوله ولا آباؤكم لم يقف على قل الله وأطلق أبو عمرو وأن الوقف على قل الله كاف يلعبون تام وقال في الأصل حسن ومن حولها حسن أبو عمرو وأن يحافظون تام ما أنزل الله حسن ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت كاف وجواب لو محذوف أنفسكم حسن غير الحق كاف إن جعل ما بعده استئنافا لا معطوفا على كنتم تستكبرون حسن وراء ظهوركم كاف شركاء حسن بينكم كاف تزعمون تام والنوى حسن من الحي كاف تؤفكون حسن فالق الاصباح حسن على قراءة وجعل الليل وأم على قراءة وجاعل الليل فالوقف على حسابنا وهو على القراءتين كاف العليم حسن وقال أبو عمرو تام والبحر كاف يعلمون حسن وقال أبو عمرو تام ومستودع كاف يفهقون حسن نبات كل شيء مفهوم وكذا حضرا متراكبا حسن وقال أبو عمرو كاف دانية كاف من أعناب صالح وغير

(198/223)

متشابه حسن وكذا وينعه ولقوم يؤمنون شركاء الجن كاف وكذا خلقهم بغير علم حسن يصفون تام والأرض صالح ولم تكن له صاحبة كاف وكذا كل شيء عليم حسن وكذا لا اله إلا هو فاعبدوه كاف وكيل حسن الخبير تام من ربكم صالح فعليها كاف وكذا بحفيظ

يعملون تام من ربك كاف إلا هو صالح المشركين حسن ما أشركوا صالح وكذا حفيظا بوكيل
حسن بغير حسن بغير علم كاف عملهم صالح يعملون حسن وكذا ليؤمن بها عند الله تام
وما يشعركم تام على قراءة إنها بكسر الهمزة استئنافا وليس بوقف على قراءتها بالفتح
على الأولى وما يشعركم إيمانهم لا يؤمنون كاف أول مرة صالح يعمهون تام إلا أن يشاء الله
مفهوم عند بعضهم يجهلون حسن وكذا غرورا يفترون كاف مقترفون حسن صالح من
الممترين حسن وعدلا كاف لكلماته صالح العليم تام عن سبيل الله حسن إلا يخرصون تام
عن سبيله كاف وكذا بالمهتدين ومؤمنين ما اضطررتم إليه حسن وكذا بغير علم وبالمعتدين
وباطنه تام وكذا يقترفون ولفسق ليجادلوكم كاف لمشركون تام بخارج منها يعملون حسن
وكذا ليمكروا فيها وما يشعرون كاف رسل الله تام رسالاته حسن وقال أبو عمرو كاف
يمكرون حسن للإسلام كاف وكذا في السماء ولا يؤمنون مستقيما حسن يذكرون تام وقال
أبو عمرو كاف عند ربهم مفهوم يعملون حسن وقال أبو عمرو إنما يوقف عليه إن قرئ ويوم
نحشرهم بالنون لأنه استئناف وأخبار من الله تعالى بلفظ الجمع للتعظيم فهو منقطع عما
قبله وأما على قراءة من قرأه بالياء فلا يوقف عليه لأن ذلك أخبار عن الله المتقدم في قوله
وهو وليهم فهو متعلق به فلا يقطع عنه من الإنس كاف وكذا أجلت لنا وما شاء الله حكيم
عليم حسن يكسبون تام يومكم هذا كاف على أنفسنا حسن كافرين تام وكذا غافلون مما
عملوا كاف وقال أبو عمرو إنما يوقف عليه على قراءة عما تعملون بالتاء الفوقية لأنه

استئناف وأما على قارئته بالتحتية فلا يوقف عليه لأن ما بعده متعلق بما قبله وهو ولكل درجات مما عملوا عما تعملون

(199/223)

تام وكذا آخرين لآت صالح بمعجزين تام أني عامل صالح عاقبة الدار جائز لا يفلح الظالمون حسن نصيبا جائز وكذا بزعمهم ولشركائنا إلى شركائهم حسن وكذا بزعمهم ولشركائنا إلى شركائهم حسن وكذا ما يحكمون دينهم كاف ما فعلوه صالح وما يفترون حسن حجر كاف وكذا افتراء عليه يفترون حسن شركاء كاف وكذا وصفهم حكيم

(200/223)

عليميم تام على الله حسن مهتدين تام مختلفا أكله مفهوم متشابه كاف وكذا يوم حصاده وكذا ولا تسرفوا المسرفين حسن حمولة وفرشنا صالح خطوات الشيطان كاف مبين حسن وقال أبو عمرو كاف وهذا إن نصب ثمانية أزواج بالعطف على معمول أنشأ أو بإضمار كلوا فان نصب بدلا من حمولة أو مما رزقكم الله فليس ذلك وقفا لتعلق ما بعده بما قبله إذ

وصاكم الله بهذا حسن وقال أبو عمرو كاف بغير علم كاف الظالمين تام طاعم يطعمه جائز
عند بعضهم إلا أن يكون ميتة حسن عند بعضهم فأنه رجس حسن وكذا الغير الله به
ورحيم كل ذي ظفر صالح بعظم كاف لصادقون حسن واسعة كاف المجرمين تام من شيء
كاف وكذا بأسنا فتخرجوه لنا حسن إلا تخرصون تام وكذا أجمعين هذا كاف فلا تشهد
معهم حسن بربهم يعدلون تام وبالوالدين إحسانا حسن من إملاق صالح واياهم كاف وكذا
ما بطن وبالحق لعلكم تعقلون حسن حتى يبلغ أشده صالح بالقسط كاف إلا وسعها صالح
ذا قربى مفهوم وبعهد الله أوفوا كاف تذكرون حسن وقال أبو عمرو تام وهذا على قراءة
وان هذا بكسر الهمزة أما على قراءة فتحها فليس ذلك وقفا فاتبعوه حسن عن سبيله
كاف وكذا تتقون يؤمنون حسن فاتبعوه كاف لعلكم ترحمون جائز وليس بحسن وان كان
رأس آية لتعلق ما بعده بما قبله أهدى منهم صالح ورحمة كاف وصدف عنها حسن وكذا
بما كانوا يصدفون وقال أبو عمرو فيه تام بعض آيات ربك كاف في إيمانها خيرا حسن وقال
أبو عمرو كاف منتظرون تام في شيء كاف يفعلون تام فله عشرا مثالها كاف لا يظلمون تام
صراط مستقيم صالح حنيفا كاف من المشركين تام لله رب العالمين حسن لا شريك له كاف
وكذا وبذلك أمرت أول المسلمين تام ورب كل شيء حسن وقال أبو عمرو كاف إلا عليها
كاف وزر أخرى صالح فيما آتاكم حسن وقال أبو عمرو كاف ولا وقف على سريع العقاب

بل على غفور رحيم آخر السورة للمقارنة بينهما ومثله في قوله في الأعراف لسريع العقاب . على الله حسن مهتدين تام مختلفا أكله مفهوم متشابه كاف

(201/223)

وكذا يوم حصاده وكذا ولا تسرفوا المسرفين حسن حمولة وفرشنا صالح خطوات الشيطان كاف مبين حسن وقال أبو عمرو كاف وهذا إن نصب ثمانية أزواج بالعطف على معمول أنشأ أو بإضمار كلوا فان نصب بدلا من حمولة أو مما رزقكم الله فليس ذلك وقفا لتعلق ما بعده بما قبله إذ وصاكم الله بهذا حسن وقال أبو عمرو كاف بغير علم كاف الظالمين تام طاعم يطعمه جائز عند بعضهم إلا أن يكون ميتة حسن عند بعضهم فأنه رجس حسن وكذا الغير الله به ورحيم كل ذي ظفر صالح بعظم كاف لصادقون حسن واسعة كاف المجرمين تام من شيء كاف وكذا بأسنا فتخرجوه لنا حسن إلا تخرصون تام وكذا أجمعين هذا كاف فلا تشهد معهم حسن بربهم يعدلون تام وبالوالدين إحسانا حسن من إملاق صالح واياهم كاف وكذا ما بطن وبالحق لعلكم تعقلون حسن حتى يبلغ أشده صالح بالقسط كاف إلا وسعها صالح ذا قربى مفهوم وبعهد الله أوفوا كاف تذكرون حسن وقال أبو عمرو تام وهذا على قراءة وان هذا بكسر الهمزة أما على قراءة فتحها فليس

ذلك وقفا فاتبعوه حسن عن سبيله كاف وكذا تتقون يؤمنون حسن فاتبعوه كاف لعلكم ترحمون جائز وليس بحسن وان كان رأس آية لتعلق ما بعده بما قبله أهدى منهم صالح ورحمة كاف وصدف عنها حسن وكذا بما كانوا يصدفون وقال أبو عمرو فيه تام بعض آيات ربك كاف في إيمانها خيرا حسن وقال أبو عمرو كاف منتظرون تام في شيء كاف يفعلون تام فله عشرا مثالها كاف لا يظلمون تام صراط مستقيم صالح حنيفا كاف من المشركين تام لله رب العالمين حسن لا شريك له كاف وكذا وبذلك أمرت أول المسلمين تام ورب كل شيء حسن وقال أبو عمرو كاف إلا عليها كاف وزر أخرى صالح فيما آتاكم حسن وقال أبو عمرو كاف ولا وقف على سريع العقاب بل على غفور رحيم آخر السورة للمقارنة بينهما ومثله في قوله في الأعراف لسريع العقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 291.263 ﴾

(202/223)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني

سورة الأنعام

مكية روى سليمان بن مهران عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أَنَّه قال نزلت سورة

الأنعام ليلاً بمكة جملة واحدة يقودها أو معها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح من قرأها صلى الله عليه أولئك ليله ونهاره قال الصاغاني في العباب في حديث ابن مسعود الأنعام من نواجب أو من نجائب القرآن قال نجائبه أفضله ونواجبه لبابه الذي ليس عليه نجب وهي مائة وخمس وستون آية في الكوفي وست في البصري وسبع في المدني والمكي اختلافهم في أربع آيات وجعل الظلمات والنور عدها المدنيان والمكي قل لست عليكم بوكيل وكلهم عدّ إلى صراط مستقيم الأول وكلمها ثلاثة آلاف واثنان وخمسون كلمة وحروفها اثنا عشر ألفاً وأربعمائة واثنان وخمسون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع خمسة مواضع من طين إنَّما يستجيب الذين يسمعون إلاَّ مبشرين ومنذرين وهذا صراط ربك مستقيماً فسوف يعلمون

والنور (حسن) عدَّها المدنيان والمكي آية لأنَّ الحمد لا يكون واقعاً على ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فثم لترتيب الأخبار وليست عاطفة بل هي للتعجب والإنكار قال الحلبي على الأزهرية عن بعضهم إذا دخلت ثم على الجمل لم تفد الترتيب وليست لترتيب الفعل كقوله الله الذي خلقكم ثم رزقكم فهذا وصله وتجاوزه أحسن ويبتدأ بثم إذا كان أول قصة كقوله ثم بعثنا من بعدهم ثم أرسلنا رسلنا تترى فليست هنا عاطفة بل هي تعجب وإنكار يعدلون (تام)

من طين ليس منصوصاً عليه

أجلاً (حسن) قال مجاهد هو أجل الدنيا وأجل مسمى أجل البعث أي ما بين الموت والبعث لا يعلمه غيره أو أجل الماضين والثاني أجل الباقين أو الأول النوم والثاني الموت قاله الصفدي في تاريخه

تمترون (كاف)

(203/223)

وهو الله (حسن) إن جعل هو ضميراً عائداً على الله تعالى وما بعده خبر وجعل قوله في السموات وفي الأرض متعلقاً بيعلم أي يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض فتكون الآية من المقدم والمؤخر نظيرها الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً أي أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً وليس بوقف إن جعلت الجملة خبراً ثانياً أو جعلت هي الخبر والله بدل أو جعل ضمير هو ضمير الشأن وما بعده مبتدأ خبره يعلم انظر أبا حيان

وفي الأرض (حسن) أي معبود فيهما

وجهركم (جائز)

تكسبون (كاف) ومثله معرضين

لما جاءهم (جائز) لأنَّ سوف للتهديد فيبتدأ بها لأنَّها لتأكيد الواقع

يستهزؤن (تام) ولا وقف من قوله ألم يروا إلى بذنوبهم فلا يوقف على من قرن ولا على ما لم

نمكن لكم لعطف ما بعده على ما قبله ولا على مدراراً

بذنوبهم (حسن)

آخرين (أحسن مما قبله)

مبين (كاف)

عليه ملك (حسن)

لا ينظرون (كاف) ومثله ما يلبسون ماضيه لبس مفتوح الموحدة ومضارعه بكسرها

مأخوذ من الإلباس في الأمر لا من اللبس الذي ماضيه مكسوراً الباء ومضارعه بفتحها

من قبلك (حسن) عند بعضهم

يستهزؤن (تام) ومثله المكذبين

قل لله (كاف)

الرحمة (حسن) إن جعلت اللام في ليجمعنكم جواب قسم محذوف كأنه قال والله

ليجمعنكم وليس بوقف إن جعلت اللام جواباً لكتب لأنّ كتب أجري مجري القسم

فأجيب بجوابه وهو ليجمعنكم كما في قوله لأغلبن أنا ورسلي قال السجاوندي قال الحسن

أقسم وأحلف وأشهد ليس بيمين حتى يقول بالله أو نواه والأصح أنها في جواب قسم

محذوف لأنَّ قوله كتب وعدنا جز وليجمعنكم وعيد منتظر

لا ريب فيه (تام) إن رفع الذين على الابتداء والخبر فهم لا يؤمنون وليس بوقف إن جعل الذين في موضع خفض نعتاً للمكذبين أو بدلاً منهم

لا يؤمنون (تام)

والنهار (كاف)

العليم (تام)

والأرض (حسن)

ولا يطعم (كاف)

من أسلم (حسن)

من المشركين (كاف) ومثله عظيم

فقد رحمه (كاف)

(204/223)

المبين (تام) للابتداء بالشرط

إلاَّ هو (حسن)

قدير (تام)

فوق عباده (حسن)

الخبير (تام)

أكبر شهادة (حسن) وقال نافع الوقف على قل الله ثم يبتديء شهيد بيني وبينكم

والوقف على وبينكم (حسن)

ومن بلغ (أحسن) والتفسير يدل على ما قاله محمد بن كعب القرظي من بلغته آية من كتاب

الله فكأنما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تلا وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به

ومن بلغ وقيل من بلغ أي احتلم لأنَّ من لم يبلغ الحلم غير مخاطب وقال نافع الوقف على قل الله

فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره قل هو الله ويبتديء شهيد على أنَّه خبر مبتدأ محذوف

تقديره هو شهيد بيني وبينكم

قل لا أشهد (حسن) وقال أبو عمرو كاف

تشركون (تام)

أبناءهم (كاف) وقيل تام إن جعل الذين في محل رفع على الابتداء والخبر فهم لا يؤمنون

ودخلت الفاء في الخبر لما في إبهام الذين من معنى الشرط وليس بوقف إن جعل الذين نعتاً

لقوله الذين آتيناهم الكتاب أو بدلاً منهم

لا يؤمنون (تام)

بآياته (كاف) ومثله الظالمون وقيل تام إن علق يوم باذكر محذوفة مفعولاً به وليس بوقف إن علق بمحذوف متأخر تقديره ويوم نحشرهم كان كيت وكيت فترك ليبقى على الإبهام الذي هو أدخل في التخويف

تزعمون (كاف) ومثله مشركين و يفترون

إليك (تام) عند الأخفش ومثله وقراً

لا يؤمنوا بها (حسن)

أساطير الأولين (كاف) على استئناف ما بعده

وينأون عنه (حسن) للابتداء بالنفي مع واو العطف

وما يشعرون (كاف)

ولو ترى إذ وقفوا على النار (حسن) وجواب لو محذوف أي لرأيت أمراً فظيعاً شنيعاً وحذف ليذهب الوهم إلى كل شيء فيكون ذلك أبلغ في التخويف

(205/223)

يا ليتنا نردّ (جائز) على قراءة رفع الفعلين بعده على الاستئناف أي ونحن لا نكذب ونحن من المؤمنين رددنا أم لا وأيضاً العامل قد أخذ معموليه لأنَّ نا اسم ليت وجملة نردّ في محل رفع

خبر وذلك من مقتضيات الوقف وليس بوقف على قراءة نصبهما جواباً للتمني ولا على قراءة رفعهما عطفاً على نرد قيد خلان في التمني ولا على قراءة رفع الأول ونصب الثاني إذ لا يجوز الفصل بين التمني وجوابه

من المؤمنين (كاف)

من قبل (حسن)

لما نهوا عنه (جائز) على أنَّ التكذيب إخبار من الله على عادتهم وما هم عليه من الكذب في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون منقطعاً عما قبله وليس بوقف إن رجع إلى ما تضمنته جملة التمني بالوعد بالإيمان إذ التقدير يا ليتنا يكون لنا رد مع انتفاء التكذيب وكوننا من المؤمنين

لكاذبون (كاف)

الدنيا (حسن) للابتداء بالنفي

بمبعوثين (كاف) وقيل تام ونقل عن جماعة ممن يجعل اللغة إنهم يكرهون الوقف على هذا وأشباهه كقوله إنكم إذا مثلهم وقوله إنكم لسارقون وقوله فإنَّ مصيركم إلى النار وقوله ولن تفلحوا إذا أبداً وقوله وقالوا اتخذ الله ولداً وليس كما ظنوا وذلك جهل منهم لأنَّ الوقف على ذلك كله وما أشبهه مما ظاهره كفر تقدم أنَّ الابتداء بما ظاهره ذلك غير متعقد لمعناه لا يكره ولا يحرم لأنَّ ذلك حكاية قول قائلها حكاها الله عنهم ووعيد ألحقه الله بالكفار

والوقف والوصل في ذلك في المعتقد سواء بل ومثل ذلك المستمع أيضاً وتقدم ما يغني عن إعادته

على ربهم (حسن) ومثله بالحق وكذا وربنا

تكفرون (تام)

بلقاء الله (جائز) إن جعلت حتى ابتدائية وليس بوقف إن جعلت غائية لتكذيبهم لا لخسرانهم لأَّنه لا يزال بهم التكذيب إلى قولهم يا حسرتنا وقت مجيء الساعة فالساعة ظرف للحسرة والعامل في إذا قوله يا حسرتنا

فرطنا فيها (تام) عند نافع على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده جملة حالية وذو الحال الضمير في قالوا

على ظهورهم (حسن)

(206/223)

ما يزرون (أحسن مما قبله) و ولهو و يتقون كلها حسان

يعقلون (تام) وعند من قرأ تعقلون بالفوقية أتم

الذي يقولون (جائز) ومثله فإنهم لا يكذبونك قال بعضهم لكن إذا كان بعدها جملة صلح

الابتداء بها

يجحدون (تام)

نصرنا (حسن)

لكلمات الله (أحسن) مما قبله

المرسلين (كاف) اتفق علماء الرسم على زيادة الياء في تسعة مواضع أفائن مات ومن نبأي المرسلين وتلقايء نفسي وإيتايء ذي القربي ومن آنايء الليل وأفائن مت وأو من ورايء حجاب وبأييد وبأييكم المفتون ورسموا هذه كلها بزيادة الياء وترسم بالجمرة كما ترى لحكم علمها من علمها وجهلها من جهل سنة متبعة

بآية (حسن) لأنَّ جواب الشرط محذوف تقديره فافعل أحد الأمرين ابتغاء النفق وابتغاء السلم ومثله الهدى

من الجاهلين (كاف)

يسمعون (حسن)

يبعثهم الله (جائز)

يرجعون (تام)

آية من ربه (حسن)

على أن ينزل آية ليس بوقف لحرف الاستدراك

لا يعلمون (تام)

أمثالكم (حسن) ومثله من شيء

يحشرون (تام)

الظلمات (كاف) للابتداء بالشرط

يضلله (حسن)

مستقيم (تام)

صادقين (كاف)

إياه تدعون (جائز) لأنَّ جواب إن الشرطية منتظر محذوف تقديره إن كنتم صادقين

فأجيبوا

إن شاء (حسن) ومفعول شاء محذوف تقديره إن شاء كشفه

ما تشركون (تام)

يتضرعون (كاف)

تضرعوا (جائز) كذا قيل

قلوبهم مثله على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعلت الجملة داخلة تحت الاستدراك

فيكون الحامل على ترك التضرع قسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي كان الشيطان سبباً

في تحسينها لهم وهذا أولى

يعملون (كاف) وقيل تام

أبواب كل شيء (حسن)

مبلسون (كاف) على استئناف ما بعده

الذين ظلموا (جائز)

رب العالمين (تام)

يأتيكم به (حسن) وقيل كاف وقيل تام

(207/223)

يصدفون (تام) أو جهرة لم ينص أحد عليه لكن نصوا على نظيره ووسموا بالتمام في قوله ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد للاستفهام بعده وشرطوا في النظير أن يكون منصوصاً عليه فهذا مثله لأنَّ جملة هل يهلك معناها النفي أي ما يهلك إلاَّ القوم الظالمون ولذلك دخلت إلاَّ فهو جائز

الظالمون (كاف)

ومنذرين (حسن)

عليهم (جائز)

يحزنون (تام) ومثله يفسقون

خزائن الله (حسن)

الغيب (أحسن مما قبله)

إنَّي ملك (جائز) وهذه الأجوبة الثلاثة لما سأله المشركون فالأول جواب لقولهم إن كنت رسولاً فاسأل الله يوسع علينا خيرات الدنيا والثاني جواب إن كنت رسولاً فأخبرنا بما يقع في المستقبل من المصالح والمضار فنستعد لتحصيل تلك ودفع هذه والثالث جواب قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق

ما يوحي إليّ (كاف) ومثله البصير للابتداء بالاستفهام

تتفكرون (تام)

إلى ربهم و ولا شفيع ليسا بوقف لأنَّ ليس لهم في موضع الحال وذو الحال الواو وفي يحشرون والعلة في الثاني الابتداء بحرف الترجي وهو في التعلق كلام كي وأنذرهم رجاء أن تحصل لهم التقوى

يتقون (تام) ولا وقف من قوله ولا تطرد الذين إلى الظالمين فلا يوقف على من شيء فيهما لأنَّ فتطردهم جواب للنفي وفتكون جواب النهي لأنَّ ولا تطرد نهي وجوابه فتكون وبعده في التقدير ما عليك من حسابهم من شيء فهو نفي مقدم من تأخير لأنَّه لو تأخر لكان في موضع الصفة وعليك في موضع خبر المبتدأ كأنَّه قال ما شيء من حسابهم عليك وجواب

النفي فتطردهم إلى التقديم والتأخير فينتفي الحساب والطرد وصار جواب كل من النهي والنفي على ما يناسبه فجملة النفي وجوابه معترضة بين النهي وجوابه

الظالمين (كاف)

من بيننا (حسن) للاستفهام بعده

بالشاكرين (كاف)

سلام عليكم (حسن)

(208/223)

الرحمة (كاف) على قراءة من قرأ إنَّه بكسر الهمزة استئنافاً وبها قرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو والكسائي بكسر الهمزة فيهما وعاصم وابن عامر يفتحان الأولى والثانية وليس بوقف لمن فتحهما بجعله مع ما بعده بياناً للرحمة فلا يوقف على ما قبل الأولى ولا على ما قبل الثانية لأنَّ الثانية معطوفة على الأولى فهي منصوبة من حيث انتصبت فلو أضمر مبتدأ أي فأمره أنه غفور رحيم أو هو أنه غفور رحيم حسن وقال أبو عمرو تام

نفصل الآيات ليس بوقف لأنَّ اللام في ولتستبين متعلقة بما قبلها

المجرمين (تام)

من دون الله (كاف)

أهواءكم ليس بوقف لأنَّ إذا متعلقة بقوله لا أتبع وإذا معناها الجزاء أي قد ضللت إن

اتبعت أهواءكم

من المهتدين (كاف)

من ربي (جائز)

وكذبتم به (حسن) ومثله ما تستعجلون به 0

إلاَّ الله (جائز) ومثله يقض الحق وعند من قرأ يقصّ بالصاد أحسن وتقدم إن رسم يقض

بغير ياء بعد الضاد

الفاصلين (كاف) وقيل تام

بيني وبينكم (كاف)

بالظالمين (تام)

إلاَّ هو (حسن) وقال العباس بن الفضل تام

(209/223)

والبحر (حسن) ومثله في ظلمات الأرض لمن قرأ ولا رطب ولا يابس بالرفع على الابتداء وبها قرأ الحسن وهي قراءة شاذة وليس بوقف لمن رفع ذلك على أنَّه معطوف على المحل وفي قوله من ورقة لأنَّ من زائدة وورقة فاعل تسقط ويعلمها مطلقاً قبل السقوط ومعه وبعده ويعلمها في موضع الحال من ورقة وهي حال من النكرة كما تقول ما جاء أحداً إلاَّ راكباً بعضهم وقف على قوله ولا يابس ثم استأنف خبراً آخر بقوله إلاَّ في كتاب مبين بمعنى وهو في كتاب مبين أيضاً قال لأنَّك لو جعلت قوله إلاَّ في كتاب متصلاً بالكلام الأول لفسد المعنى إن اعتقد أنَّه استثناء آخر مستقل يعمل فيه يعلمها فينقلب معناه إلى الإثبات أي لا يعلمها إلاَّ في كتاب وإذا لم يكن إلاَّ في كتاب وجب أن يعلمها في كتاب فإذا الاستثناء الثاني بدل من الأول أي وما تسقط من ورقة إلاَّ هي في كتاب ويعلمها اهـ سمين أما لو جعله استثناءً مؤكداً للأول لم يفسد المعنى وجعله أبو البقاء استثناءً منقطعاً تقديره لكن هو في كتاب مبين وبهذا التقدير يزول الفساد

إلاَّ في كتاب مبين (تام)

أجل مسمى (جائز) لأنَّ ثم لترتيب الأخبار مع اتحاد المقصود

تعلمون (تام)

فوق عباده (جائز) ومثله حفظة

لا يفرّطون (حسن)

مولاهم الحق (كاف) للاستفهام بعده

الحاسبين (تام)

وخفية (جائز) لاحتمال الإضمار أي يقولون لئن أنجيتنا وتعلق لئن بمعنى القول في تدعونه

أصح وفي لئن أنجيتنا اجتماع الشرط والقسم وقرأ الكوفيون أنجانا والباقون أنجيتنا

بالخطاب وقد قرأ كل بما رسم في مصحفه

الشاكرين (كاف) وكذا تشركون و بأس بعض و يفقهون و وهو الحق و بوكيل و مستقر

للابتداء بالتهديد مع شدة اتصال المعنى وتعلمون للابتداء بالشرط و في حديث غيره و

الظالمين كلها وقوف كافية وقيل كلها حسان

من شيء (جائز) ولكن إذا كان بعدها جملة صلح الابتداء بها أي ولكن هي ذكرى

يتقون (تام)

الحياة الدنيا (جائز)

(210/223)

بما كسبت (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعلت صفة نفس

ولا شفيع (حسن) وقيل كاف للابتداء بالشرط مع العطف

لا يؤخذ منها (حسن)

بما كسبوا (كاف) على استئناف ما بعده

يكفرون (تام) ولا وقف إلى حيران فلا يوقف على قوله ولا يضرنا ولا على بعد إذ هدانا الله

حيران (تام) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل صفة لحيران وهو أولى لأنَّ تمام

التمثيل حيران والمعنى أنَّ أبويه والمسلمين يقولون له تابعنا على الهدى

ائتنا (حسن) ومثله الهدى

العالمين (جائز) قال شيخ الإسلام وليس بحسن وإن كان رأس آية لتعلق ما بعده بما قبله لأنَّ

التقدير وأمرنا بأن نسلم وأن أقيموا الصلاة

واتقوه (حسن) وقال أبو عمرو كاف

تحشرون (كاف) ومثله بالحق إن نصب يوم باذكر مقدراً مفعولاً به وليس بوقف إن عطف

على هاء واتقوه أو جعل يوم خبر قوله قوله الحق والحق صفة والتقدير قوله الحق كائن يوم

يقول كما تقول اليوم القتال أو الليلة الهلال أو عطف على السموات للفصل بين المتعاطفين

كن (جائز) وكن معمول لقوله يقول وقوله فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو يكون وهذا

تمثيل لإخراج الشيء من العدم إلى الوجود بسرعة لا أنَّ ثم شيأً يؤمر أو يرجع إلى القيامة

يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا فيقومون

فيكون (حسن) ومثله قوله الحق 0

في الصور (كاف) إن رفع ما بعده خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن رفع نعتاً للذي خلق أو قريء بالخفض بدلاً من الهاء في قوله وله الملك وهي قراءة الحسن والأعمش وعاصم والشهادة (كاف)

الخبير (تام) إن علق إذ باذكر مقدراً مفعولاً به

(211/223)

لأبيه (جائز) لمن رفع آزر على النداء ثم يبتديء آزر وليس بوقف لمن خفضه بدلاً من الهاء في أبيه أو عطف بيان وبذلك قرأ السبعة وهو مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنَّه اسم لا ينصرف والمانع من الصرف العلمية ووزن الفعل وكذا إن جعل آزر خبر مبتدأ محذوف أي هو آزر فيكون بياناً لأبيه نحو قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار على معنى هي النار

أصناما آلهة (حسن) للابتداء بأن مع اتحاد المقول

مبين (حسن) ومثله الأرض وليكون من الموقنين واللام متعلقة بمحذوف أي أريناه الملكوت وبعضهم جعل الواو في وليكون زائدة فلا يوقف على الأرض بل على الموقنين واللام متعلقة بالفعل قبلها إلاَّ أنَّ زيادة الواو ضعيفة ولم يقل بها إلاَّ الأخفش أو أنها عاطفة على علة محذوفة أي ليستدل وليكون أو ليقيم الحجة على قومه بإفراد الحق وكونه لا يشبه المخلوقين

الموقنين (كاف)

هذا ربي (حسن)

الآفلين (كاف)

هذا ربي (حسن) على حذف همزة الاستفهام أي أهذا ربي كقوله :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

وقوله وتلك نعمة تمنها على تقديره وأذو الشيب وأتلك

الضالين (كاف)

هذا أكبر (حسن)

تشركون (كاف) وكذا حنيفاً و من المشركين

وحاجه قومه (حسن)

وقد هدان (أحسن) مما قبله لانتهاء الاستفهام لأنَّ وقد هدان جملة حالية وصاحبها الياء

في أتحاجونني فيه حال كوني مهديا من عنده ولا أخاف استئناف أخبار وقوله في الله أي في

شأنه ووحدانيته قال نافع قال المعرب والظاهر انقطاع الجملة القولية عما قبلها

شيأً (حسن) ومثله علماً وقيل كاف

أفلا تتذكرون (كاف)

سلطاناً (حسن)

تعلمون (تام) لتناهي الاستفهام إلى ابتداء الإخبار ولو وصله بما بعده لاشتبه بأن الذين آمنوا متصل بما قبله بل هو مبتدأ خبره أولئك لهم إلاَّ من لأنَّ جواب إن منتظر محذوف تقديره إن كنتم من أهل العلم فأخبروني أيّ الفريقين المشركين أم الموحدين أحق بالأمن وأضاف أياً إلى الفريقين ويعني فريق المشركين وفريق الموحدين وعدل عن ابنا أحق بالأمن أنا أم أنتم احترازاً من تجريد نفسه فيكون ذلك تزكية لها

بظلم ليس بوقف لأنَّ خبر المبتدأ لم يأت وهو أولئك لهم إلاَّ من أو الذين مبتدأ وأولئك مبتدأ ثان ولهم إلاَّ من خبر أولئك والجملة من أولئك وما بعده خبر عن الأول لا إن جعل الذين خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين ووقف نافع على بظلم كان التقدير عنده فأي الفريقين أحق بالأمن الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أم الذين لم يؤمنوا فعلى هذا وصلت الذين بما قبله وابتدأت بأولئك

لهم الأمن (جائز)

وهم مهتدون (تام)

على قوله (كاف) على استئناف ما بعده من نشاء كذلك

عليم (تام)

ويعقوب (حسن) ومثله كلاً هدينا لأنَّ نوحاً مفعول لما بعده ولو وصل بما بعده لالتبس بأنَّه مفعول لما قبله

ونوحاً هدينا (حسن)

(213/223)

من قبل (كاف) على أنَّ الضمير في ومن ذريته عائد على نوح لأنَّه أقرب مذكور لأنَّه ذكر لوطاً وليس هو من ذرية إبراهيم لأنَّ لوطاً ابن أخي إبراهيم فهو من ذرية نوح والمعنى ونوحاً هدينا من قبل إبراهيم وإسحق ويعقوب وعدّ من جملة الذرية يونس وليس هو أيضاً من ذرية إبراهيم إلاَّ أن يقال أرادوا هدى يونس ولوطاً فعلى هذا التقدير يكون الوقف على وإليسع كافياً وقال ابن عباس هؤلاء الأنبياء مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان منهم من لم تلحقه ولادة من جهتين من قبل أب وأم لأنَّ لوطاً ابن أخي إبراهيم والعرب تجعل العم أباً كما أخبر الله عن ولد يعقوب قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق فإسمعيل عم يعقوب فعلى هذا لم يكن الوقف على كلاً هدينا ولا على نوحاً هدينا من قبل والوقف على هذا التأويل على قوله وإلياس وإسمعيل منصوب بفعل مضمر وما بعده معطوف عليه

بتقدير ووهبنا له اهـ نكزاوي

وهرون (حسن)

المحسنين (كاف)

واليأس (حسن)

الصالحين (كاف)

ولوطاً (حسن)

العالمين (كاف) على استئناف ما بعده ويكون التقدير ومن هو من آبائهم وكذا إن قدرته وهدينا بعض آبائهم فمن على هذا التقدير للتبعيض لأنَّ هذه الأسماء ترتب آخرها على أولها

وإخوانهم (جائز) على إضمار الخبر المعنى ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم من هو صالح ثم قال واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم

ومستقيم (كاف)

من عباده (حسن)

يعلمون (كاف)

والنبوة (كاف) للابتداء بالشرط مع الفاء

بكافرين (تام)

اقتده (حسن) وقيل تام وأكثر القراء يستحسنون الوقف على كل هاء سكت لأنَّ هاء السكت إنَّما اجتلبت للوقف خاصة

أجراً (حسن) للابتداء بالنفي لأنَّ أن بمعنى ما

للعالمين (تام)

(214/223)

من شيء (حسن) ومثله للناس سواء قريء ما بعده بالغيبة أم بالخطاب وقيل إن قرئت أي الأفعال الثلاثة وهي يجعلونه قراطيس ويبدونها ويخفون بالغيبة مخاطبة لليهود وقوله وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم مخاطبة للمسلمين كان كافياً لأنَّ ما بعده استئناف وهي قراءة مجاهد وابن كثير وأبي عمرو ومخاطبة لمشركي العرب وإن قرئت بالتاء الفوقية فليس بوقف لأنَّ ما بعده خطاب متصل بالخطاب الذي تقدم في قوله قل من أنزل الكتاب فلا يقطع بعضه من بعض

قل الله (حسن) الجلالة فاعل بفعل محذوف أي قل أنزله الله أو هو مبتدأ والخبر محذوف أي الله أنزله

يلعبون (تام) وقال نافع التام قل الله

ومن حولها (حسن)

والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به (جائز) والذين مبتدأ خبره يؤمنون ولم يتحد المبتدأ والخبر لتغاير متعلقهما

يحافظون (كاف) وقيل تام

مثل ما أنزل الله (حسن) وقيل تام

غمرات الموت (كاف) وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً والظالمون مبتدأ خبره في غمرات الموت

باسطو أيديهم (جائز) قال ابن عباس باسطو أيديهم بالعذاب

أنفسكم (حسن) على تقدير محذوف أي يقولون أخرجوا أنفسكم وهذا القول في الدنيا وقيل في الآخرة والمعنى خلصوا أنفسكم من العذاب والوقف على قوله اليوم والابتداء بقوله تجزون عذاب الهون وقيل اليوم منصوب بتجزون والوقف حينئذ على أنفسكم والابتداء بقوله اليوم والمراد باليوم وقت الاحتضار أو يوم القيامة

غير الحق (كاف) إن جعل ما بعده مستأنفاً وليس بوقف إن عطف على بما كنتم معللاً جزاء العذاب بكذبهم على الله وباستكبارهم عن آياته

تستكبرون (كاف) وقيل تام لأنَّه آخر كلام الملائكة

وراء ظهوركم (حسن) للابتداء بالنفي

شركاء (أحسن)

بينكم (كاف)

تزعمون (تام)

والنوى (حسن) وقيل كاف على استئناف ما بعده

من الحي (كاف)

تؤفكون (حسن) وقيل وصله أحسن لأنَّ فالق الإصباح تابع لما قبله

(215/223)

الإصباح (حسن) على قراءة وجعل فعلاً ماضياً أي فلق وجعل ونصب الليل والشمس والقمر وهي قراءة الكوفيين وأما على قراءة الباقين وجاعل فالوقف على حسباناً فعلى قراءة غير الكوفيين الناصب للشمس والقمر فعل مقدر تقول هذا ضارب زيداً الآن أو غداً وعمراً فنصب عمراً بفعل مقدر لا على موضع المجرور باسم الفاعل وعلى رأي الزمخشري النصب على محل الليل ومنه قول :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخي عون بن مخراق

بنصب عبد

حسباناً (حسن) على القراءتين

العليم (كاف)

والبحر (حسن)

يعلمون (تام)

ومستودع (حسن)

يفقهون (تام) قال ابن عباس مستقر في الأرض ومستودع عند الله وقال ابن مسعود مستقر في الرحم ومستودع في القبر أو مستودع في الدنيا

كل شيء (جائز)

والوقف على خضراً وعلى متراكباً حسن

دانية (كاف) لمن رفع جنات مبتدأ والخبر محذوف تقديره لهم جنات أو مبتدأ والخبر محذوف تقديره وجنات من أعناب أخرجناها وهي قراءة الأعمش ولا يصح رفعه عطفاً على قنوان لأنَّ الجنة من الأعناب لا تكون من القنوان ومعنى دانية أي قريبة تدنو بنفسها لمن يجنيها وليس بوقف لمن نصب جنات عطفاً على حباً أو على نبات وإن نصبتها بفعل مقدر أي وأخرجنا به جنات كانت الوقوف على خضراً وعلى متراكباً وعلى دانية كافية

من أعناب (جائز)

وغير متشابه (حسن) وقيل كاف

وينعه (كاف) وينعه من باب ضرب يقال ينع الثمر يينع ينعاً وينوعاً إذا نضج وأدرك وأينع مثله أي وانظروا إلى إدراكه واحمراره قرأ الأخوان إلى ثمره بضمتين والباقون بفتحتين

يؤمنون (تام)

(216/223)

شركاء الجن (كاف) ومثله وخلقهم وهو أكفى لمن قرأ وخلقهم بفتح اللام وفي الجن الحركات الثلاث فالرفع على تقديرهم الجن جواباً لمن قال من الذين جعلوا لله شركاء فقيل هم الجن وبها قرأ أبو حيوة والنصب على أنَّه مفعول ثان لجعل وضعف قول من نصبه بدلاً من شركاء لأنَّه لا يصح للبدل أن يحل محل المبدل منه فلا يصح وجعلوا لله الجن وبالنصب قرأ العامة والجن بالجر والإضافة وبها قرأ شعيب بن أبي حمزة ويزيد بن قطيب

بغير علم (كاف) وقيل تام للابتداء بالتنزيه

يصفون (تام) على استئناف ما بعده خبر مبتدأ محذوف أي هو بديع أو مبتدأ وخبره ما بعده من قوله أنى يكون له ولد وعليه فلا يوقف على الأرض لئلاَّ يفصل بين المبتدأ وخبره وإن جعل بديع بدلاً من قوله لله أو من الهاء في سبحانه أو نصب على المدح جاز الوقف على الأرض

ولم تكن له صاحبة (حسن) ومثله كل شيء

عليم (أحسن منهما)

إلاَّ هو و فاعبدوه ووكيل كلها حسان ومثلها الأبصار الثاني

الخبير (تام)

من ربكم (حسن) للابتداء بالشرط

فعليها (كاف) للابتداء بالنفي ومثله بحفيظ

يعلمون (تام) للابتداء بالأمر

من ربك (كاف)

إلاَّ هو (حسن)

المشركين (كاف)

ما أشركوا (حسن) ومثله حفيظاً

بوكيل (تام)

من دون الله ليس بوقف لمكان الفاء

بغير علم (كاف)

عملهم (حسن) وثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الفعل

يعملون (كاف) ومثله ليؤمنن بها

عند الله (تام)

(217/223)

وما يشعركم (أتم) على قراءة إنها بكسر الهمزة وبها قرأ ابن كثير وأبو عمرو استئناف إخبار عنهم إنهم لا يؤمنون إذا جاءت الآية وما يشعركم أي وما يدريكم إيمانهم إذا جاءت فأخبر الله عنهم بما علمه منهم فقال إنَّها إذا جاءت لا يؤمنون على الاستئناف وليس بوقف على قراءتها بالفتح وما استفهامية مبتدأ والجملة بعدها خبرها وهي تتعدى لمفعولين الأول ضمير الخطاب والثاني محذوف أي وأي شيء يدريكم إذا جاءتهم الآيات التي يقترحونها لأنَّ التقدير على فتحها لأنَّها إذا جاءت لا يؤمنون أو بأنها وقد سأل سيبويه الخليل عنها فقال هي بمنزلة قول العرب أين السوق إنك تشتري لنا شيأً أي لعلك فعلى قوله وقفت على يشعركم كما وقفت في المكسورة أيضاً فمن أوجه الفتح كونها بمعنى لعل أو كونها على تقدير العلة قال الزمخشري وما يشعركم وما يدريكم أنَّ الآيات التي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون يعني أنا أعلم إنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون وذلك أنَّ المؤمنين كانوا طامعين إذا جاءت تلك الآيات ويتمنون مجيئها فقال تعالى وما يدريكم أنَّهم لا يؤمنون لما

سبق في علمي إنهم لا يؤمنون فعلى هذا لا يوقف على يشعركم وقد قرأ أبو عمرو بإسكان الراء وقرأ الدوري راويه بالاختلاس مع كسر همزة إنها فيهما وقرأ ابن كثير بصلة الميم بالضم مع كسر همزة إنَّها وقرأ الباقون بضم الراء مع فتح همزة إنها وإما بإسكان الراء وفتح الهمزة فلا يقرؤها أحد لا من السبعة ولا من العشرة والكلام على سؤال سيبويه لشيخه الخليل بن أحمد وما يتعلق بذلك يطول أضربنا عنه تخفيفاً وفيما ذكرنا غاية ولله الحمد (وروى) عن قنبل أنه قال سمعت أحمد بن محمد القواس يقول نحن نقف حيث انقطع النفس إلاَّ في ثلاثة مواضع نتعمد الوقف عليها في آل عمران وما يعلم تأويله إلاَّ الله ثم نبتديء والراسخون في العلم وفي الأنعام وما يشعركم ثم نبتديء أنَّها إذا جاءت لا يؤمنون بكسر الهمزة وفي النحل إنما

(218/223)

يعلمه بشر ثم نبتديء لسان الذي وزيد عنه موضع رابع في يس من مرقدنا ثم نبتديء هذا ما وعد الرحمن اهـ النكزاوي

لا يؤمنون (كاف)

أول مرة (حسن)

يعمهون (تام)

إلاَّ أن يشاء الله ليس بوقف لحرف الاستدراك بعده

يجهلون (كاف) ومثله غروراً

ما فعلوه (جائز)

وما يفترون (كاف) على أنَّ قوله ولتصغي متعلق بمحذوف تقديره وفعلوا ذلك وقيل لا يوقف على هذه المواضع الثلاثة لأنَّ قوله ولتصغي معطوف على زخرف القول وهو من عطف المصدر المسبوك على المصدر المفكوك فلا يفصل بين المعطوف والمعطوف عليه لأنَّ ترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة لأنَّه أولا يكون الخداع فيكون الميل فيكون الرضا فيكون فعل الاقتراف فكأنَّ كل واحد مسبب عما قبله فلا يفصل بينهما بالوقف

مقترفون (كاف)

حكماً (حسن) عند نافع على استئناف ما بعده ومثله مفصلاً

من الممترين (تام)

وعدلاً (حسن)

لكلماته (كاف) للابتداء بالضمير المنفصل

العليم (تام)

عن سبيل الله (حسن)

يخرصون (كاف) وكذا عن سبيله للابتداء بالضمير المنفصل

بالمهتدين (تام)

مؤمنين (كاف) ومثله إليه و بغير علم و بالمعتدين و باطنه كلها وقوف كافية

يقترفون (تام)

لفسق (حسن)

ليجادلوكم (حسن)

لمشركون (تام)

بخارج منها (حسن)

يعملون (كاف)

ليمكروا فيها (حسن)

وما يشعرون (كاف)

رسل الله (تام)

رسالاته (كاف)

يمكرون (كاف) وقيل تام للابتداء بالشرط

للإسلام (كاف) ومثله في السماء

لا يؤمنون (تام)

مستقيماً (كاف)

يذكرون (تام)

عند ربهم (حسن)

يعملون (تام) لمن قرأ نحشرهم بالنون لأَنَّه استئناف وإخبار من الله تعالى بلفظ الجمع فهو منقطع عما قبله ومن قرأه بالتحتية يقف على يعملون أيضاً لأَنَّه إخبار عن الله في قوله وهو وليهم فهو متعلق به من جهة المعنى فهو أنزل من التام فلا يقطع عنه

(219/223)

من الإنس الأول (حسن) ومثله أجلت لنا وفي السجاوندي يسكت على قال ثم يبتديء بقوة الصوت النار إشارة إلى أنَّ النار مبتدأ بعد القول وليست فاعلة بقال إيماء لأَنَّه واقف واصل وأن قال منفصل عما بعده لفظاً

إلاَّ ما شاء الله (كاف)

عليم (تام) وكذا يكسبون ومعنى نولي نسلط بعضهم على بعض حتى ننتقم من الجميع وكذلك ظلمة الجن على ظلمة الإنس وقيل نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر كما نكلهم غداً إلى رؤسائهم الذين لا يقدرون على تخليصهم من العذاب أي كما نفعل ذلك

في الآخرة كذل نفعل بهم في الدنيا وهذا أولى قاله النكزاوي

هذا (حسن) ومثله على أنفسنا

الحياة الدنيا (جائز)

كافرين (تام) ومثله غافلون وكذا درجات مما عملوا على قراءة تعملون بالفوقية لأنه

استئناف خطاب على معنى قل لهم يا محمد وليس بوقف على قراءته بالتحتية حملاً على

ما قبله من الغيبة لتعلقه بما قبله وهو ولكل درجات مما عملوا فلا يفصل بعضه من بعض

تعملون (تام) على القراءتين

ذو الرحمة (حسن)

آخرين (تام)

لآت (حسن) وقيل كاف اتفق علماء الرسم على أنَّ إن ما كلمتان إنّ كلمة وما كلمة في هذا

المحل وليس في القرآن غيره

بمعجزين (تام)

إنَّي عامل (حسن) لأنَّ سوف للتهديد فيبتدأ بها الكلام لأنها لتأكيد الواقع

فسوف تعلمون (كاف) إن جعلت من مبتدأ والخبر محذوف تقديره من له عاقبة الدار فله

جزاء الحسنى وليس بوقف إن جعلت من في موضع نصب لأنَّ من للاستفهام ووقوع تعلمون

على الجملة الاستفهامية أي فسوف تعلمون أيكم تكون له عاقبة الدار ومن حيث كونه

رأس آية يجوز

عاقبة الدار (حسن)

الظالمون (تام)

نصيباً (حسن)

بزعمهم (جائز) ومثله لشركائنا وكذا فلا يصل إلى الله للفصل بين الجملتين المتضادتين

إلى شركائهم (حسن)

ما يحكمون (كاف) ومثله دينهم

ما فعلوه (جائز)

يفترون (كاف) وكذا حجر ومثله افتراء عليه

يفترون (كاف)

على أزواجنا (حسن) للابتداء بالشرط

شركاء (كاف) ومثله وصفهم

(220/223)

حكيم عليم (تام)

على الله (حسن)

مهتدين (تام)

أكله (تام) عند نافع وخولف لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله

وغير متشابه (كاف)

حصاده (حسن)

ولا تسرفوا (أحسن)

المسرفين (كاف) على استئناف ما بعده وإن عطف على جنات أي وأنشأ من الأنعام

حمولة وفرشاً كان جائزاً لكونه رأس آية ومثل هذا يقال في مبين لأنَّ ثمانية منصوب بإضمار

أنشأ كأنَّه قال وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ومن الأنعام ثمانية أزواج

حمولة وفرشاً (جائز) عند نافع

خطوات الشيطان (كاف)

مبين (حسن) إن نصب ثمانية بالعطف على معمول أنشأ أو نصب بفعل مقدر وليس بوقف

إن نصب بدلاً من حمولة أو مما رزقكم الله لتعلق ما بعده بما قبله

ومن المعز اثنين (جائز) لأنَّ ما بعده استئناف أمر من الله تعالى ومثله أم الأنثيين إن كان حرّم

الذكور فكل ذكر حرام وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام واحتج عليهم بهذا لأنهم أحلوا

ما ولد حياً ذكراً للذكور وحرموه على الإناث وكذا إن قالوا الأنثيان وكانوا يحرمون أيضاً الوصيلة وأخاها على الرجال والنساء وإن قالوا حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فكل مولود منها حرام وكلها مولود فكلها إذاً حرام فتخصيص التحريم للبعض دون البعض تحكم فمن أين جاء هذا التحريم

أرحام الأنثيين (جائز) لأنَّ أم الأنثيين منصوب بأنشأ

صادقين (حسن) أي أنَّ الله حرم ذلك

ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين (جائز) أيضاً وكذا الأنثيين ومثله أرحام الأنثيين

(221/223)

إذا وصاكم الله بهذا (كاف) فإنَّه لم يأتكم نبيّ به ولستم تؤمنون بكتاب فهل شهدتم الله حرم هذا وقيل لا وقف من قوله ثمانية أزواج إلى قوله إذ وصاكم الله بهذا لأنَّ ذلك كله داخل في قوله أم كنتم شهداء أي على تحريم ذلك لأنَّه لو جاء التحريم بسبب الذكور لحرم جميع الذكور ولو جاء التحريم بسبب الإناث لحرم جميع الإناث ولو جاء بسبب اشتمال الرحم عليه لحرم الكل اتفق علماء الرسم على أنَّ ما كان من الاستفهام فيه الفان أو ثلاثة نحو آلذكرين وأءله مع الله فهو بألف واحدة اكتفاء بها كراهة اجتماع صورتين متفقتين

بغير علم (كاف)

الظالمين (تام)

يطعمه (جائز) إن جعل الاستثناء منقطعاً لأنَّ المستثنى منه ذات والمستثنى معنى وذلك لا يجوز وكذا لا يجوز إن جعل مفعولاً من أجله والعامل فيه أهل مقدماً عليه نظيره في تقديم المفعول من أجله على عامله قوله

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

فاسم يكون ضمير مذكر يعود على محرماً أي إلاَّ أن يكون المحرم ميتة وليس بوقف إن جعل الاستثناء متصلاً أي إلاَّ أن يكون ميتة والإدماء مسفوحاً وإلاَّ لحم خنزير

رجس ليس بوقف لأنَّ قوله أو فسقاً مقدم في المعنى كأنَّه قال إلاَّ أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو فسقاً فهو منصوب عطفاً على خبر يكون أي إلاَّ أن يكون فسقاً أو نصب على محل المستثنى وقيل وقف إن نصب فسقاً بفعل مضمر تقديره أو يكون فسقاً وقرأ ابن عامر إلاَّ أن تكون ميتة بالتأنيث ورفع ميتة فتكون تامة ويجوز أن تكون ناقصة والخبر محذوف أي إلاَّ أن تكون تلك ميتة

أهل لغير الله به (حسن)

رحيم (كاف)

ظفر (حسن) وهو للإبل والنعام وعند أهل اللغة إن ذا الظفر من الطير ما كان ذا مخلب

وقوله شحومهما قال ابن جريج هو كل شحم لم يكن مختلطاً بعظم ولا على عظم وهذا أولى

لعموم الآية وللحديث المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل الله اليهود حرمت

عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها إلاَّ ما حملت ظهورهما أي إلاَّ شحوم الجنب وما علق

بالظهر فإنَّها لم تحرم عليهم أو الحوايا واحدتها حاوية بتخفيف الياء وحوية بتشديد الياء

هي ما تحوي من البطن أي ما استدار منها

بعظم (حسن) ومثله ببغيهم

لصادقون (تام) أي حرمنا عليهم هذه الأشياء لأنهم كذبوا فقالوا لم يحرمها الله علينا وإنَّما

حرمها إسرائيل على نفسه فاتبعناه

واسعة (كاف)

المجرمين (تام)

من شيء (حسن) ومثله بأسنا وكذا فتخرجوه لنا

تخرصون (تام)

الحجة البالغة (حسن) للابتداء بالمشيئة

أجمعين (كاف)

هذا (حسن) ومثله معهم وكذا بالآخرة على استئناف ما بعده وقطعه عما قبله وليس بوقف إن عطف على ما قبله

يعدلون (تام) أي يجعلون له عديلاً وشريكاً

ما حرم ربكم (حسن) ثم يبتديء عليكم أن لا تشركوا على سبيل الإغراء أي إلزموا نفي الإشراك وإغراء المخاطب فصيح نقله ابن الأنباري وأما إغراء الغائب فضعيف والوقف على عليكم جائزان جعل موضع أن رفعاً مستأنفاً تقديره هو أنَّ لا تشركوا أو نصباً أي وحرم عليكم أن لا تشركوا ولا زائدة ومعناه حرم عليكم الإشراك وليس بوقف إن علق عليكم بحرم وهو اختيار البصريين أو علق بأتل وهو اختيار الكوفيين فهو من باب الأعمال فالبصريون يعملون الثاني والكوفيون يعملون الأول وكذا إن جعلت أن بدلاً من ما أو جعلت أن بمعنى لئلاَّ تشركوا أو بأن لا تشركوا التعلق الثاني بالأول

شيأً (حسن) ومثله إحساناً على استئناف النهي بعده أي وأحسنوا بالوالدين إحساناً فإحساناً مصدر بمعنى الأمر

من إملاق (جائز)

وإياهم (كاف) ومثله وما بطن للفصل بين الحكمين وكذا بالحق

تعقلون (كاف)

أشده (حسن) ومثله بالقسط على استئناف ما بعده للفصل بين الحكمين وليس بوقف إن جعل ما بعده حالاً أي أوفوا غير مكلفين

إلاَّ وسعها (جائز) ولا يوقف على فاعدلوا لأنَّ قوله ولو كان مبالغة فيما قبله بالأمر بالعدل ولو كان ذا قربى (جائز)

أوفوا (كاف) لأنَّه آخر جواب إذا

تذكرون (تام) على قراءة حمزة والكسائي وإن هذا بكسر همزة إن وتشديد النون ويؤيدها قراءة الأعمش وهذا صراطي بدون إن وجائز على قراءة من فتح الهمزة وشدد أن وبها قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير وعاصم وكذا على قراءة ابن عامر ويعقوب وإن هذا بفتح الهمزة وإسكان النون وعلى قراءتهما تكون أن معطوفة على أن لا تشركوا فلا يوقف على تعقلون وجائز أيضاً على قراءة ابن عامر غير أنه يحرك الياء من صراطي وإن عطفتها على أتل ما حرم أي وأتل عليكم إنَّ هذا فلا يوقف على ما قبله إلى قوله فاتبعوه

والوقف على فاتبعوه (حسن) ومثله عن سبيله

تتقون (كاف)

ورحمة ليس بوقف لأنَّه لا يبدأ بحرف الترجي

يؤمنون (تام)

فاتبعوه (حسن)

ترحمون (جائز) وما بعده متعلق بما قبله أي فاتبعوه لئلاَّ تقولوا لأنَّ أن منصوبة بالإنزال كأنه

قال وهذا كتاب أنزلناه لئلاَّ تقولوا إنما أنزل

من قبلنا (جائز)

لغافلين ليس بوقف لعطف أو تقولوا على أن تقولوا ومن حيث كونها رأس آية يجوز

ورحمة (حسن) وقيل كاف للابتداء بالاستفهام

وصدف عنها (كاف)

يصدفون (تام) للابتداء بالاستفهام

آيات ربك الأولى (حسن) ويوم منصوب بلا ينفع وإيمانها فاعل ينفع واجب تأخيره لعود

الضمير على المفعول نحو ضرب زيداً غلامه ونحو وإذ ابتلى إبراهيم ربه

خيراً (كاف)

منتظرون (تام)

في شيء (كاف)

يفعلون (تام) للابتداء بالشرط

أمثالها (كاف) على القراءتين أعني تنوين عشر ورفع أمثالها أو بالإضافة

إلاَّ مثلها (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده في موضع الحال من الفريقين ولا يوقف على أمثالها لأنَّ العطف يصير الشيئين كالشيء الواحد

(224/223)

يظلمون (تام)

مستقيم (جائز) إن نصب ديناً بإضمار فعل تقديره هداني ديناً قيماً أو على أنَّه مصدر على المعنى أي هداني هداية دين قيم أو نصب على الإغراء أي ألزموا ديناً وليس بوقف إن جعل بدلاً من محل إلى صراط مستقيم لأنَّ هدى تارة يتعدى بإلى كقوله إلى صراط وتارة بنفسه إلى مفعول ثان كقوله وهديناهما الصراط المستقيم

حنيفاً (كاف) للابتداء بالنفي

المشركين (تام)

العالمين (حسن)

لا شريك له (أحسن) منه لانتهاء التنزيه

وبذلك أمرت (أحسن) منهما

أول المسلمين (تام)

كل شيء (حسن)

إلاَّ عليها (كاف)

وزر أخرى (حسن) لأنَّ ثم لترتيب الأخبار مع اتحاد المقصود

تختلفون (تام) هو من الوقوف المنصوص عليها ولعل إسقاط شيخ الإسلام له سبق قلم أوانه

تبه فيه الأصل الذي اختصره

في ما آتاكم (كاف)

سريع العقاب (جائز) فصلاً بين التحذير والتبشير وارتضاه بعضهم فرقاً بين الفريقين المقابلين

ولا يخلط أحدهما بالآخر وقال أبو حاتم السجستاني لا أقف على سريع العقاب حتى أقول

وإنه لغفور رحيم ومثله ما في سورة الأعراف لأنَّ الكلام مقرون بالأول وهو بمنزلة قوله نبيء

عبادي أني أنا الغفور الرحيم وإن عذابي هو العذاب الأليم فإنَّ الثاني مقرون بالأول

ومحمول عليه فلا يوقف على أحدهما حتى يؤتى بالثاني هذا ما ذهب إليه أبو حاتم

السجستاني ووافقه على ذلك يحيى بن نصير الشهير بالنحوي رحم الله الجميع وجزاهما

الله أحسن الجزاء

آخر السورة (تام) اتفق علماء الرسم على قطع في ما أوحى في وحدها وما وحدها وفي

آتاكم في وحدها وما وحدها كما مر التنبيه عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى في

بيان الوقف والابتدا صـ 263 . 291 ﴾

(225/223)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والعشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/224)

الجزء الرابع والعشرون بعد المائتين

فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة

(4/224)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ومن ذلك قراءة الأعرج : "وهُمْ لا يُفْرِطُون" 1 .

قال أبو الفتح : يقال : أفرط في الأمر إذا زاد فيه ، وفرَّط فيه "52ظ" : إذا قصَّر ، فكما أن قراءة العامة : ﴿ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ : لا يقصرون فيما يؤمرون به من تَوَفِّي من تحضر منيته ، فكذلك أيضاً لا يزيدون ، ولا يَتَوَفَّوْنَ إلا من أُمروا بتَوَفِّيه . ونظيره قوله جل وعز : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار ﴾ 2 .

ومن ذلك قراءة أُبي وابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك وابن يزيد المدني ويعقوب ، ورُويت عن سليمان التيمي 3 : "لِأَبِيهِ آزَرُ" 4 .

وقرأ ابن عباس بخلاف : "أَأَزْرًا تَتَّخِذ" بهمزتين ، واستفهام ، وينصبهما ، وينون .

وقرأ أبو إسماعيل رجل من أهل الشام : "أَئزرًا" مسكورة الألف منونة "تتَّخذ" .

قال أبو الفتح : أما "آزَرُ" فنداء ، وأما "أَئِزْرًا" فقيل : "إِزْرًا" هو الصنم ، و"أَزْرًا" بالفتح أيضًا .

ومن ذلك قراءة الأعرج : "قَنْوَان"5 بالفتح .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون قَنْوَان هذا اسمًا للجمع غير مكسر ، بمنزلة رَكْب عند سيبويه والجامل والباقر6 ؛ وذلك أن فَعْلان ليس من أمثلة الجمع .

---

1 سورة الأنعام : 61 .

2 سورة الرعد : 8 .

3 هو سليمان ابن قَتَة – بفتح القاف ومثناة من فوق مشددة – وقتة أمه ، التيمي مولاهم ، البصري ، ثقة . عرض على ابن عباس عرضات ، وعرض عليه عاصم الجحدري .

طبقات القراء : 1/ 314 .

4 سورة الأنعام : 74 .

5 سورة الأنعام : 99 .

6 الجامل : القطيع من الإبل مع رعاته وأربابه ، والباقر : جماعة البقر مع رعاتها .

وقرأت على أبي علي في بعض كتب أبي زيد قوله :

خلع الملوك وسار تحت لوائه شَجَرُ العُرا وعُرَاعِرُ الأقوام1

وقال أبو زيد : عُراعِر جمع عُرْعُرة ، فقلت لأبي علي : كيف يكون هذا وأوله مضموم ؟

فقال – يعني أبو زيد : إنه اسم للجمع يفيد مفاد التكسير .

ومن ذلك قراءة ابن يعمر : "وخَلْقَهم"2 بجزم اللام .

قال أبو الفتح : أي وخَلْق الجن ، يعني ما يَخْلُقونه : ما يأفكون فيه ويتكذَّبونه . يقول : جعلوا له الجن شركاء ، وأفعالهم شركاء أفعاله أو شركاء له إذا عَني بذلك الأصنام ونحوها .

ومن ذلك قراءة عمر وابن عباس رضي الله عنهما : "وحَرَّفُوا له" بالحاء والفاء .

وقال أبو الفتح : هذا شاهد بكذبهم ، ومثله : ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ 3

وأصله من الانحراف ؛ أي : الانعدال عن القصد ، وكلاهما من حرْفِ الشيء ؛ لأنه زائل عن المقابلة والمعادلة ، وهو أيضًا معنى قراءة الجماعة : ﴿وَخَرَقُوا﴾ بالخاء والقاف ، ومعنى الجميع : كَذبوا .

ومن ذلك قراءة إبراهيم : "وَلَم يَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ"4 بالياء .

قال أبو الفتح : يحتمل التذكير هنا ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يكون في "يكن" ضمير اسم الله ؛ أي : لم يكن الله له صاحبة ، و تكون الجملة التي هي "له صاحبة" خبر كان .

والثاني : أن يكون في "يكن" ضمير الشأن والحديث على شريطة التفسير ، وتكون الجملة بعده تفسيرًا له وخبرًا ، كقولك : كان زيد قائم ؛ أي : كان الحديث والشأن زيد قائم .

---

1 لمهلهل . شجر العرا : الذي يبقى على الجدب ، وفي الصحاح : والعروة أيضًا من الشجر : الشيء الذي لا يزال باقيًا في الأرض لا يذهب ، وجمعة عرا ، والعراعر : الشريف من الرجال ، وهو هنا اسم جمع كما روى المؤلف ، ويروى : عَراعر بالفتح جمع عُراعر بالضم . اللسان : "عرعر" ، والصحاح : "عرو" .

2 "وخلقهم وخرقوا" في الآية 100 من سورة الأنعام . وقال في البحر 4/ 194 : وقرأ ابن عمر وابن عباس : "وحرفوا" بالحاء المهملة والفاء ، وشدد ابن عمر الراء وخففها ابن عباس .

3 سورة النساء : 46 .

4 سورة الأنعام : 101 .

والثالث : أن تكون "صاحبة" اسم "كان" ، وجاز التذكير هنا للفصل بين الفاعل والفعل بالظرف الذي هو الخبر ؛ كقولنا : كان في الدار هند .

ومثل ما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : حضر القاضيَ اليوم امرأةٌ .

وأنا أرى أن تذكير "كان" مع تأنيث اسمها أسهل من تذكير الأفعال سواها وسوى أخواتها مع فاعليها .

وكان في الدار هند أسوغ من قام في الداره هند ؛ وذلك أنه إنما احتيج إلى تأنيث الفعل عند تأنيث فاعله ؛ لأن الفعل انطبع "53و" بالفاعل حتى اكتسى لفظه من تأنيثه ، فقيل : قامت هند وانطلقت جُمْل ، من حيث كان الفعل والفاعل يجريان مجرى الجزء الواحد ، وإنما كان ذلك كذلك لأن كل واحد منهما لا يستغني عن صاحبه ، فأنث الفعل إيذانًا بأن الفاعل الموقع بعده مؤنث ، وليس كذلك حديث كان وأخواتها ؛ لأنه ليست "كان" مع اسمها كالجزء الواحد ، من قِبَل أنك لو حذفت "كان" لاستقل ما بعدها برأسه ، فقلت في قولك : كان أخوك جالسًا : أخوك جالس ، فلما أن قام ما بعدها برأسه ، ولم يحتج إليها ؛ لم يتصل به اتصال الفاعل بفعله ، نحو : قام جفعر وجلس بِشر .

ألا تراك لو حذفت الفعل هنا لانفرد الفاعل جزءًا برأسه ، فلم يستقل بنفسه استقلال الجملة بعد "كان" بنفسها ؟ فلما لم تَقْوَ حاجته إلى "كان" قوة حاجة الفاعل إلى الفعل

انحطت رتبته في حاجته إلى "كان" ، فامتاز منها امتيازاً قد أحطنا به ، فساغ لذلك ألا يلزم تأنيث "كان" لاسمها إذا كان مونثًا تأنيث الفعل لفاعله إذا كان مؤنثًا ، ولم يذكر أحد من أصحابنا هذا ، فافهمه ؛ فإن هذه حاله .

ومن ذلك قراءة ابن عباس بخلاف وقتادة ، ورُويت عن الحسن : "دُرِسَتْ" 1 ، ابن مسعود وأُبي : "دَرَسَ" . ابن مسعود أيضًا : "دَرسْن" .

---

1 سورة الأنعام : 105 . وفي البحر المحيط 4/ 197 : وقرأ ابن عامر وجماعة من غير السبعة : "دُرست" مبنيًّا للمفعول مضمرًا فيه ؛ أي : درست الآيات ؛ أي : ترددت على أسماعهم حتى بليت وقدمت في نفوسهم وأمحيت . وقرأ باقي السبعة : "دَرَسْتَ" يا محمد في الكتب القديمة .

قال أبو الفتح : أما "دُرِسَتْ" ففيه ضمير الآيات ، معناه : وليقولوا درستَها أنت يا محمد ، كالقراءة العامة "دراسْتَ" 1 .

ويجوز أن يكون "دُرِسَتْ" أي : عفت وتنوسيت ؛ لقراءة ابن مسعود : "دَرَسْن" أي : عفون ، فيكون كقوله : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ 2 ، ونحو ذلك .

وأما "دَرَس" ففيه ضمير النبي – صلى الله عليه وسلم – وشاهد هذا : دارسْتَ ؛ أي : فإذا جئتهم بهذه القصص والأنباء قالوا : شيء قرأه أو قارأه فأَتى به ، وليس من عند الله ؛ أي : يفعل هذا بهم لتقوى أثرة التكليف عليهم زيادة في الابتلاء لهم ؛ كالحج والغزو وتكليف المشاق المستحق عليها الثواب ، وإن شئت كان معناه فإذا هم يقولون كذا ، كقوله :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ 3 أي : فإذا هو عدو لهم .

ومن ذلك قراءة الحسن وأبي رجاء وقتادة وسلام4 يعقوب وعبد الله بن يزيد : ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عُدُوًّا ﴾ 5 ، ورُوي عنهم أيضاً : "بَغْيًا وعُدُوًّا" 6 .

قال أبو الفتح : العَدْوُ والعُدُوُّ جميعًا : الظلم والتعدي للحق ، ومثلهما العدوان والعداء ، قال الراعي :

كتبوا الدُّهَيْمَ على العَداء لمسرِف عادٍ يريدُ خيانةً وغُلُولا7

ومثله الاعتداء ، قال أبو نُخَيْلَة :

ويعتدى ويعتدى ويعتدى وهو بعين الأسد المسوَّد

---

1 في البحر 4/ 197 : وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : "دارسْتَ" أي : دراست يا محمد غيرك في هذه الأشياء .

2 سورة الأنعام : 25 .

3 سورة القصص : 8 .

4 هو سلام بن سليمان الطويل أبو المنذر المزني مولاهم ، البصري ثم الكوفي ، ثقة جليل ومقرئ كبير . أخذ القراءة عرضاً عن عاصم بن أبي النجود وأبي عمرو بن العلاء وعاصم الجحدري وغيرهم . وقرأ عليه يعقوب الحضرمي وغيره . ومات سنة 171 . طبقات القراء : 1/ 309 .

5 سورة الأنعام : 108 .

6 سورة يونس : 90 .

7 رُوي : "كتب" مكان "كتبوا" ، و"من" مكان "على" ، و"مخانة" مكان "خيانة" ، الدهيم : تضربها العرب مثلاً في الشر والداهية . الجمهرة : 356 .

(8/224)

ومثل العُدُوِّ والعَدْوِ من التعدي الرُّكوب والرَّكب ، قال :

أو رَكب البراذين

يريد : ركوب .

ومن ذلك قراءة الحسن وأبي رجاء وقتادة وسلام ويعقوب وعبد الله بن يزيد والأعمش والهمذاني : "وَيَذرْهُم" 1 بالياء وجزم الراء .

قال أبو الفتح : قد تقدم ذكر إسكان المرفوع تخفيفًا ، وعليه قراءة مَن قرأ أيضًا : "وَمَا يُشْعِرِكُم"2 بإسكان الراء ، وكأن "يشعركم" أعذر من "يَذَرْهُم" ؛ لأن فيه "53ظ" خروجًا من كسر إلى ضم ، وهو في "يَذَرْهُم" خروج من فتح إلى ضم .

ومن ذلك قراءة عطية العَوْفِي : "وقدْ فَصَلَ لكم"3 خفيفة .

قال أبو الفتح : هو من قولك : قد فَصَلَ إليكم وخرج نحوكم .

ومن ذلك قراءة الحسن وابن شرف : "ولْتَصْغَى ، ولَيَرْضَوْه ، ولْيَقْتَرِفُوا"4 بجزم اللام في جميع ذلك .

قال أبو الفتح : هذه اللام هي الجارة ؛ أعني : لام كي ، وهو معطوفة على الغرور من قول الله تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أي : للغرور "وَلِأَنْ تصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ" ، إلا أن إسكان هذه اللام شاذ في الاستعمال على قوته في القياس ؛ وذلك لأن هذا الإسكان إنما كثر عنهم في لام الأمر نحو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا ﴾ 5 ، وإنما أُسكنت تخفيفًا لثقل الكسرة فيها ، وفرقوا بينها وبين لام كي بأن لم يسكنوها ، فكأنهم إنما اختاروا

---

1 سورة الأنعام : 110 .

2 في إتحاف فضلاء البشر 129 : وقرأ "يشعركم" بإسكان الراء وباختلاس حركتها أبو عمرو من روايتيه .

3 سورة الأنعام : 119 .

4 سورة الأنعام : 113 .

5 سورة الحج : 29 .

(9/224)

السكون للام الأمر ، والتحريك للام كي من حيث كانت لام كي نائبة في أكثر الأمر عن أن ، وهي أيضاً في جواب كان سيفعل إذا قلت : ما كان ليفعل ، محذوفة مع اللام ألبتة ، فلما نابت عنها قووها بإقرار حركتها فيها ؛ لأن الحرف المتحرك أقوى من الساكن ، والأقوى أشبه بأن ينوب عن غيره من الأضعف .

نعم ، وقد رأيناهم إذا أسكنوا بعض الحروف أنابوه عن حركته وعاقبوا بينه وبينها ، وذلك نحو : الجواري والغواشي ، صارت الياء في موضع الرفع والجر معاقِبة لضمتها وكسرتها في قولك : هؤلاء الجواري ومررت بالجواري ، فكأن لام كي على هذا إذا أُسكنت معاقبة لأن ، وكالمعاقِبة أيضاً لكسرتها ؛ فلذلك أقروها على كسرتها ، ولم يجمعوا عليها منابها في أكثر الأمر عن أن وقد ابْتُزَّت حركة نفسها أيضاً .

وأيضاً فإن الأمر موضع إيجاز واستغناء ، ألا تراهم قالوا : صه ومه ، فأنابوهما عن الفعل

المتصرف ، وكذلك حاءِ وعاءِ وهاءِ .

ومن ذلك قراءة الحسن : "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِه" 1 بضم الياء .

قال أبو الفتح : لا يجوز أن تكون "مَنْ" في موضع جر بإضافة "أعلم" إليها ، لا فيمن ضم ياء يُضل ، ولا فيمن فتحها ؛ من حيث كانت "أعلم" أفعل ، وأفعل هذه متى أضيفت إلى شيء فهو بعضه ، كقولنا : زيد أفضل عشيرته ؛ لأنه واحد منهم ، ولا نقول : زيد أفضل إخوته ؛ لأنه ليس منهم ، لا نقول أيضًا : النبي – صلى الله عليه وسلم – أفضل بني تميم على هذا ؛ لأنه ليس منهم ؛ لكن تقول : محمد – صلى الله عليه وسلم – أفضل بني هاشم ؛ لأنه منهم ، والله يتعالى علوًّا عظيمًا أن يكون بعضَ المضلين أو بعض الضالين .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ 2 فليس من هذا ؛ إنما تأويل ذلك – والله أعلم – وجده ضالًّا ، كقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ 3 ، وذلك مشروح في موضعه ، فقوله أيضًا : "أَعْلَمُ مَنْ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ" أي : يُجيرُه عن الحق ويصد عنه .

---

1 سورة الأنعام : 117 .

2 سورة الجاثية : 23 .

3 سورة الضحى : 7 .

كما أن قراءة مَن قرأ : "أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ" : مَنْ يجور عنه ، ألا ترى إلى قوله قبل ذلك : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فلا محالة "54و" أنه – سبحانه – أراد بمن يضل عن سبيله ، فحذف الباء وأوصل "أعلم" هذه بنفسها ، أو أضمر فعلًا واصلًا تدل هذه الظاهرة عليه ، حتى كأنه قال : يعلم ، أو علم مَن يُضِلُّ عن سبيله . يؤكد ذلك ظهور الباء بعده معه في قوله : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ، وقوله بعده : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وقد يجوز أن تكون "مَنْ" هذه مرفوعة بالابتداء ، و"يُضل" بعدها خبر عنها ، و"أعلم" هذه معلقة عن الجملة ، حتى كأنه قال : إن ربك هو أعلم أيُّهم يُضِلُّ عن سبيله ، كقوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ 1 .

فأما الجر فمدفوع من حيث ذكرنا ، وإذا كان ذلك كذلك علمت أن "مَن" في قول الطائي :

غدوتُ بهم أَمَدَّ ذَوِيَّ ظِلًّا وأكثَرَ مَنْ ورائي ماءَ وادِي2

لا يجوز أن تكون "مَنْ" في موضع جر بإضافة أكثر إليه ؛ إذ ليس واحدًا ممن وراءه ، فهو إذن منصوب الموضع لا محالة بأكثر أو بما دل عليه أكثر ؛ أي كَثَرتُهم : كنتُ أكثرَهم ماء واد .

ولا يجوز فيه الرفع الذي جاز مع العلم ؛ لأن كثرت ليس من الأفعال التي يجوز تعليقها ؛ إنما تلك ما كان من الأفعال داخلًا على المبتدأ وخبره ، وأظنني قد ذكرت نحو هذا في صدر

هذا الكتاب.

ومن ذلك قراءة أبي عبد الرحمن السلمي: "وَكَذَلِكَ زَيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ"3.

قال أبو الفتح: يحتمل رفع شركاء تأويلين:

أحدهما: وهو الوجه؛ أن يكون مرفوعًا بفعل مضمر دل عليه قوله: "زُين"؛ كأنه لما قال: زُين لكثير من المشركين قتل أولادهم، قيل: مَن زينه لهم؟ فقيل: زينه لهم شركاؤهم، فارتفع الشركاء بفعل مضمر دل عليه "زُين"، فهو إذن كقولك: أُكل اللحمُ زيدٌ، ورُكِبَ

---

1 سورة الكهف: 12.

2 من قصيدة لأبي تمام في مدح أحمد بن أبي داود والاعتذار إليه، وضمير "بهم" لإياد في بيت سابق. انظر: الديوان بشرح التبريزي: 1/ 375.

3 سورة الأنعام: 123، وقرأ الجمهور ﴿زَيَّنَ﴾ مبنيًّا للفاعل، ونصب ﴿قَتْلَ﴾ مضافًا إلى ﴿أَوْلادِهِمْ﴾ ورفع ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ فاعلًا بزين. البحر: 4/ 229.

الفرسُ جعفرٌ ، وترفع زيدًا وجعفرًا بفعل مضمر دل عليه هذا الظاهر ، وإياك وأن تقول : أنه ارتفع بهذا الظاهر ؛ لأنه هو الفاعل في المعنى لأمرين :

أحدهما : أن الفعل لا يرفع إلا الواحد فاعلًا أو مفعولًا أقيم مقام الفاعل ، وقد رفع هذا الفعل ما أقيم مقام فاعله وهو "قَتْلُ أَوْلادِهِمْ" ، فلا سبيل له إلى رفع اسم آخر على أنه هو الفاعل في المعنى ؛ لأنك إذ انصرفت بالفعل نحو إسنادك إياه إلى المفعول لم يجز أن تتراجع عنه فتسنده إلى الفاعل ؛ إذ كان لكل واحد منهما فعل يخصه دون صاحبه ، كقولك : ضَرَبَ وضُرِبَ ، وقَتَلَ وقُتِلَ ، وهذا واضح .

والآخر : أن الفاعل عندنا ليس المراد به أن يكون فاعلًا في المعنى دون ترتيب اللفظ ، وأن يكون اسمًا ذكرته بعد فعل وأسندته ونسبته إلى الفاعل ؛ كقام زيد وقعد عمرو . ولو كان الفاعل الصناعي هو الفاعل المعنوي للزمك أن تقول : مررت برجلٍ يقرأ ، فترفعه لأنه قد كان يفعل شيئًا وهو القراءة ، وأن تقول : رأيت رجلٌ يحدث ، فترفعه بحديثه ، وأن تقولم في رفع زيد من قولك : زيد قام : إنه مرفوع بفعله ؛ لأنه الفاعل في المعنى ؛ لكن طريق الرفع في "شركاؤهم" هو ما أَريتك من إضمار الفعل له لترفعه به ، ونحوه ما أنشده صاحب الكتاب من قول الشاعر :

لِيُبْكِ يزيد ضارعٌ لخصومة ومُخْتَبِطٌ مما تُطيح الطوائح 1

كأنه لما قال : ليبك يزيد ، قيل : مَن يبكيه ؟ فقال : ليبكه ضارع لخصومة ، والحمل على

المعنى كثير جدًّا ، وقد أفردنا له فصلًا في جملة شجاعة العربية من كتابنا الموسوم بالخصائص2 .

فهذا هو الوجه المختار في رفع الشركاء "54ظ" وشاهده في المعنى قراءة الكافة : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ ، ألا ترى أن الشركاء هم المزيِّنون لا محالة ؟

وأما الوجه الآخر : فأجازه قطرب ؛ وهو أن يكون الشركاء ارتفعوا في صلة المصدر الذي هو القتل بفعلهم ، وكأنه : وكذلك زُين لكثير من المشركين أنْ قَتَلَ شركاؤهم أولادَهم ، وشبهه بقوله : حُبِّبَ إليَّ ركوبُ الفرس زيدٌ ؛ أي : أن ركب الفرسَ زيدٌ . هذا – لعمري – ونحوه صحيح المعنى ، فأما الآية فليست منه ، بدلالة القراءة المجتمع عليها ، وأن المعنى أن المزيِّن هم الشركاء ، وأن القاتل هم المشركون ، وهذا واضح .

---

1 للحارث بن نهيك . المختبط : الطالب المعروف ، وأصل الاختباط ضرب الشجر للإبل ليسقط ورقها فتعلفه الإبل ، تطيح : تذهب وتهلك . الكتاب : 1/ 145 ، 183 .

2 الخصائص : 2/ 360 – 441 .

ومن ذلك قراءة إبراهيم : "وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ" 1 بفتح الباء .

قال أبو الفتح : المشهور في هذا لَبِست الثوب أَلْبَسه ، ولَبَست عليهم الأمر أَلْبِسُه .

فأما أن تكون هذه لغة لم تتأد إلينا : لبِست عليهم الأمر ألبَسه ، في معنى لبَسته ألبِسه .

وإما أن تكون غير هذا ؛ وهو أن يراد به شدة المخالطة لهم في دينهم ، فالاعتراض فيه بينه وبينهم ليشكُّوا فيه ولا يتمكنوا من التفرد به ، كما أن لابس الثوب شديد المماسة له والالتباس به ، فيقول على هذا : لبِست إليك طاعتَك ، واشتملْتُ الثقة بك ؛ أي : خالطت هذه الأشياء وماسستها ؛ تحققًا بها وملابسة لها ، وعليه قول القُلاخ السعدي :

نكسوهُم مخشونةً لِبَاسًا

يعني : السيوف . وقد مر به لفظًا ألبتة شاعرنا فقال :

وإنا إذا ما الموت صرَّح في الوغى لَبِسنا إلى حاجاتنا الضرب والطعنا 2

فإما أن يكون هذا الشاعر نظر إلى هذه القراءة ، وإما أن يكون أراد المراد بها فسلك سنة قارئها ، فاعرف ذلك ولا تقل ما يقوله من ضعفت نحيزته 3 ، وركَّت طريقته : هذا شاعر مُحْدث ، وبالأمس كان معنا ، فكيف يجوز أن يحتج به في كتاب الله جل وعز ؟ فإن المعاني لا يرفعها تقدُّم ، ولا يُزري بها تأخر . فأما الألفاظ فلعمري إن هذا الموضع معتبرٌ فيها ، وأما المعاني ففائتة بأَنفسها إلى مغرسها ، وإذا جاز لأبي العباس أن يحتج بأبي تمام في اللغة كان

الاحتجاج في المعاني بالمولَّد الآخر أشبه .

ومن ذلك قراءة أُبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وابن الزبير والأعمش وعكرمة وعمرو بن دينار : "حَرْثٌ حِرْج"4 ، وقراءة الناس : ﴿ حِجْرٌ ﴾ .

قال أبو الفتح : قد قدمنا في كتابنا الخصائص5 صدرًا صالحًا من تقلب الأصل الواحد والمادة الواحدة إلى صور مختلفة يَخْطِمها6 كلها معنى واحد ، ووسمناه بباب الاشتقاق الأكبر ،

---

1 سورة الأنعام : 137 .

2 للمتنبي ، الديوان : 2/ 388 .

3 النحيزة : الطبيعة .

4 سورة الأنعام : 138 .

5 انظر : الخصائص : 2/ 133 - 139 .

6 خطم البعير بالخطام : جعله في أنفه ، والخطام : كل ما وضع في أنف البعير ليقتاد به ، يريد : ينظمها ويقودها .

نحو : ك ل م ، ك م ل ، م ل ك ، م ك ل ، ل ك م ، ل م ك ، وإنها مع التأمل لها ولين مَعطِف الفكر إليها آئلة إلى موضع واحد ومترامية نحو غرض غير مختلف ، كذلك أيضاً يقال : ح ج ر ، ج ر ح ، ح ر ج ، ر ج ح ، ج ح ر . وأما ر ح ج فمهمل فيما علمنا ، فالتقاء معانيها كلها إلى الشدة والضيق والاجتماع ، من ذلك الحِجْر وما تصرف منه ، نحو : انحجر ، واستحجر الطين ، والحُجرة وبقيته ، وكله إلى التماسك في الضيق . ومنه الحرَج : الضيق ، والحِرْج مثله ، والْحَرجَةُ : "55و" ما التف من الشجر فلم يكن دخوله ، ومنه الْحُجر وبابه لضيقه ، ومنه الْجَرْح لمخالطة الحديد للحم وتلاحمه عليه ، ومنه رجح الميزان ؛ لأنه مال أحد شقيه نحو الأرض ؛ فقرب منها ، وضاق ما كان واسعًا بينه وبينها .

فإن قلت : فإنه إذا مال أحدهما إلى الأرض فقد بعُد الآخر منها ، قيل : كلامنا على الراجح ، والراجح هو الداني إلى الإرض . فأما الآخر فلا يقال له : راجح ، فليزم ما ألزمته ، وإذا ثبت ذلك – وقد ثبت – فكذلك قوله تعالى : "حَرثٌ حِرْج" في معنى "حِجْر" ، معناه عندهم : أنها ممنوعة محجورة أن يَطْعَمَها إلا من يشاءون أن يُطعموه إيَّاها بزعمهم .

ومن ذلك قراءة ابن عباس بخلاف والأعرج وقتادة وسفيان بن حسين : "خالِصَةً" 1 .

وقرأ : "خالصًا" سعيد بن جبير .

وقرأ : "خالِصُه" ابن عباس بخلاف والزهري والأعمش وأبو طالوت .

وقرأ : "خالِصٌ" ابن عباس وابن مسعود والأعمش بخلاف .

قال أبو الفتح : أما قراءة العامة : ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ فتقديره : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لنا ؛ أي : خالص لنا ، فأنث للمبالغة في الخلوص ، كقولك : زيد خالِصَتِي ، كقولك : صَفِيّي وثقتي ؛ أي : المبالغ في الصفاء والثقة عندي ، ومنه قولهم : فلان خاصَّتي من بين الجماعة ؛ أي : خاصِّي الذي يخصني ، والتاء فيه للمبالغة وليكون أيضًا بلفظ المصدر ، نحو : العاقبة والعافية ، والمصدر إلى الجنسية ، فهي أعم وأوكد .

ويدلك على إرادة اسم الفاعل هنا - أي : خالص - قراءة سعيد بن جبير "خَالِصًا" ، وعليه

---

1 سورة الأنعام : 139 .

القراءة الأخرى : "خَالِصٌ لذكورنا" ، والقراءة الأخرى : "خالِصُه لذكورنا" 1 ، ألا تراه اسم فاعل وإن كان مضافًا ؟ لكن الكلام في نصب خَالِصًا وخالِصةً ، وفيه جوابان :

أحدهما : أن يكون حالًا من الضمير في الظرف الجاري صلة على "ما" ، كقولنا : الذي في الدار قائمًا زيد .

والآخر : أن يكون حالًا من "ما" على مذهب أبي الحسن في إجازته تقديم الحال على

العامل فيها إذا كان معنى بعد أن يتقدم صاحب الحال عليها ، كقولنا : زيد قائمًا في الدار .

واحتج في ذلك بقول الله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ 2 ، فيجوز على هذا في العربية لا في القراءة ؛ لأنها سنة لا تُخالَف "وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ" 3 .

فإن قلت : فهل يجوز أن يكون "خالصًا" "وخالصةً" حالًا من الضمير في لنا ؟ 4 قيل : هذا غير جائز ؛ وذلك أنه تَقدَّم على العامل فيه وهو معنى وعلى صاحب الحال ، وهذا ليس على ما بَيَّنَا .

ولا يجوز أن يكون "خالصةً" حالًا من الأنعام ؛ لأن المعنى ليس عليه ، ولعزَّة الحال من المضاف إليه .

ومن ذلك قراءة علي – عليه السلام – والأعرج وعمرو بن عبيد : "خُطُؤات" 5 بالهمز مثقلًا ، وقرأ : "خَطَوات" أبو السمال .

قال أبو الفتح : أما "خُطُؤات" بالهمز فواحدها خُطْأَة ؛ بمعنى الخَطَأ ، أثبت ذلك أحمد بن يحيى .

وأما "خَطَوات" فجمع خَطْوة ، وهي الفَعْلَة الواحدة من خَطوت ، كغزوت غزوة ، ودعوت دعوة . والمعنى : لا تتبعوا خَطوات الشيطان ؛ أي : آثاره ، لا تقتدوا به ، وتقديره على هذا حذف المضاف ؛ أي : لا تتبعوا مواضع خَطوات الشيطان .

وإن شئت أجريته على ظاهره من غير تقدير حذف كقولك : لا تتبع أفعال المشركين

"55ظ"

---

1 في الأصل : "خالص لنا" و"خالصة لنا" ، والآية : "لذكورنا" .

2 سورة الزمر : 67 .

3 من الآية السابقة .

4 الآية : "لذكورنا" كما تقدم .

5 سورة الأنعام : 142 .

(15/224)

ولا تأْتَم بأديان الكافرين . ومن قرأ : "خُطُوات" بلا همز فأمره واضح ، وهو جمع خُطْوة ، وهي ذَرْع ما بين القدمين ، وهذا واضح .

ومن ذلك قراءة طلحة : "الضَّأَن" 1 بفتح الهمزة .

قال أبو الفتح : الضَّأْنُ جمعٌ ، واحدته ضائِن وضائنة ، وصرَّفوا فعله فقالوا : ضَئِنَت العَنْز ضَأَنًا ، إذا أشبهت الضأن . وأما الضَّأَن بفتح الهمزة في هذه القراءة ، فمذهب أصحابنا فيه وفي مثله مما جاء في فَعْل وفَعَل وثانيه حرف حلق ؛ كالنهْر والنهَر ، والصخْر والصخَر ، والنعْل والنعَل ، وجميع الباب ، أنها لغات كغيرها مما ليس الثاني فيه حرفًا حلقيًّا ، كالنشْز

والنشَز ، والقص والقصَص .

ومذهب البغداديين أن التحريك في الثاني من هذا النحو إنما هو لأجل حرف الحلق ، وقد ذكرنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب وغيره ، ويؤنسني بصحة ما قالوه أني أسمع ذلك فاشيًا في لغة عُقيل ، حتى لسمعت بعضهم يومًا قال : نَحَوَه ، يريد : نَحْوه . فلو كانت الفتحة في الحاء هنا أصلًا معتزمة غير إتباع لكونها حرفًا حلقيًّا لوجب إعلال اللام التي هو واو ألفًا ؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها ، كعَصَاة وشَجَاة2 ، فكان يقال : نحاة ، وهذا واضح ، غير أن لأصحابنا ألا يقبلوا من اللغة إلا ما رُوي عن فصيح موثوق بعربيته ، ولست أُثبت هذه الفصاحة المشروطة لمن سمعت منه هذه اللفظة ؛ أعني : نَحَوَه .

ومن ذلك قراءة ابن يعمر : "تَمَامًا عَلَى الَّذي أَحْسَنُ"3 .

قال أبو الفتح : هذا مستضعف الإعراب عندنا ؛ لحذفك المبتدأ العائد على الذي ؛ لأن تقديره : تمامًا على الذي هو أحسن ، وحذْف "هو" من هنا ضعيف ؛ وذلك أنه إنما يُحذف من صلة الذي الهاء المنصوبة بالفعل الذي هو صلتها ، نحو : مررت بالذي ضربتَ ؛ أي : ضربتَه ، وأكرمتَ الذي أهنتَ ؛ أي : أهنتَه ، فالهاء ضمير المفعول ، ومن المفعول بُدٌّ ، وطال الاسم بصلته ، فحذفت الهاء لذلك ، وليس المبتدأ بنيِّف ولا فضلة فيحذف تخفيفًا ، لاسيما وهو عائد الموصول ،

---

1 سورة الأنعام : 143 .

2 الغضاة : واحدة الغضا لنوع من الشجر ، أما الشجاة فلم نعثر عليها فيما بين أيدينا من معاجم .

3 سورة الأنعام : 154 .

(16/224)

وأن هذا قد جاء نحوه عنهم ؛ حكى سيبويه عن الخليل : "ما أنا بالذي قائل لك شيئًا سوءًا" أي : بالذي هو قائل ، وقال :

لم أرَ مثل الفتيان في غبن الأيام ينسَون ما عواقبها 1

أي : ينسون الذي هو عواقبها .

ويجوز أن يكون "ينسون" معلقة كما علقوا نقيضتها التي هي يعلمون ، وتكون "ما" استفهامًا وعواقبها خبر "ما" ، كقولك : قد علمت مَن أبوك وعرفت أيُّهم أخوك ؟ ، وعلى الوجه الأول حمله أصحابنا .

ومن ذلك قراءة يحيى وإبراهيم : "مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللهِ" 2 خفيفة الذال .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون دخول الباء هنا حملًا على المعنى ؛ وذلك لأنه في معنى مَكَرَ بها ، وكفر بها ، وما أكثر هذا النحو في هذه اللغة ، وقد ذكرناه فيما مضى ، ومنه قوله :

ألم يأْتيك والأنباءُ تَنمي بما لاقت لبون بني زياد 3

زاد الباء في بما لاقت لما كان معناه ألم تسمع بما لاقت لبونهم ، وفيه ما أنشدَناه أبو علي :

"56و"

أم كيف ينفعُ ما تعطى العَلوقُ به رئْمانَ أنف إذا ما ضُنَّ باللبِن 4

ألحق الباء في به لما كان تعطى في معنى تسمح به ، ألا تراه قال في آخر البيت : إذا ما ضُنَّ باللبن ؟ فالضن نقيضُ السماحة والبذل .

---

1 لعدي بن زيد ، ويروى : عقب ، جمع عقبة بضم فسكون وهي الشدة ، وفي الأصل : غبر ، وهو تحريف . قال ابن الشجرى : قوله : "في غبن الأيام" يدل على أنهم قد استعملوا الغبن المتحرك الأوسط في البيع ، والأشهر غبنته في البيع غبنًا بسكون وسطه ، والأغلب على الغبن المفتوح أن يستعمل في الرأي ، وفعله غبن يغبن مثل فرح يفرح ، يقال : غبن رأيه ، والمعنى : في رأيه ، ومفعول الغبن في البيت محذوف ؛ أي : في غبن الأيام إياهم . وانظر : الأغاني ، طبعة دار الكتب : 2/ 147 ، والخزانة : 2/ 21 .

2 سورة الأنعام : 157 .

3 انظر الصفحة 67 من هذا الجزء .

4 لأُفنون التغلبي ، ويروى : "تأتي" مكان "تعطي" ، العلوق : التي عطفت على ولد غيرها

فلم تدر ، وقال اللحياني : هي التي ترأم بأنفها وتمنع درتها ، رئمت الناقة ولدها ترأمه رأمًا ورأمانًا : عطفت عليه ولزمته ، وفي التهذيب : رئمانًا : أحبته . اللسان : "رأم ، وعلق" .

(17/224)

ومن ذلك قراءة زهير الفُرْقُبي 1 : "يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ" 2 بالرفع .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون ارتفاع اليوم بالابتداء ، والجملة التي هي قوله تعالى : ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ خبر عنه ، والعائد من الجملة محذوف لطول الكلام والعلم به ، وإذا كانوا قد قالوا : السمن مَنَوان بدرهم ، فحذفوا وهم يريدون "منه" مع قصر الكلام ؛ كان حذف العائد هنا لطول الكلام أسوغ ، وتقديره : لا ينفع فيه نفسًا إيمانها ، ومثله قولهم : البُرُّ الكُرُّ 3 بستين ؛ أي : الكُرُّ منه .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ 4 ثلاثة أقوال :

أحدها : أن يكون على حذف العائد ؛ أي : إنا لا نضيع أجر من أحسن عملًا منهم ، وله نظائر كثيرة ؛ لكنا نحذف 5 الإطالة إذ كان هذا كتابًا مختصرًا ليقرب على القراء ولا يلطُف عنهم ، وقد كان شيخنا أبو علي عمل كتاب الحجة في قراءة السبعة ، فأغمضه وأطاله

حتى منع كثيرًا ممن يدّعي العربية – فضلًا على القَرَأة – منه ، وأجفاهم عنه .

ومن ذلك قراءة أبي العالية : "لا تَنْفع نفسًا إيمانُها" بالتاء فيما يروى عنه ، قال ابن مجاهد : وهذا غلط .

قال أبو الفتح : ليس ينبغي أن يُطْلَق على شيء له وجه في العربية قائم – وإن كان غيره أقوى منه – أنه غلط ، وعلى الجملة فقد كثر عنهم تأنيث فعل المضاف المذكر إذا كانت إضافته

---

1 هو زهير الفرقبي النحوي ، يُعرف بالكسائي ، له اختيار في القراءة يروى عنه ، وكان في زمن عاصم . روى عنه الحروف نعيم بن ميسرة النحوي . وإنما قيل له : الفرقبي ؛ لأنه كان يتجر إلى ناحية فرقب ، ومات سنة 155 ، وقيل : سنة 156 . وفي الأصل : العرقبي بالعين ، في البحر المحيط 4/ 260 : القروى ، وكل تحريف . وفي القاموس : زهير بن ميمون الفرقبي الهمداني قارئ نحوي ، أو هو بقافين . وفي معجم البلدان : فرقب بضم أوله وسكون ثانيه وقاف وباء موحدة : موضع . قال الفراء : ينسب إليه زهير الفرقبي من أهل القرآن . وانظر : طبقات القراء : 1/ 295 ، وإنباه الرواة : 2/ 18 .

2 سورة الأنعام : 158 .

3 الكر بالضم : مكيال للعراق ، وستة أوقار حمار ، أو هو ستون قفيزًا ، أو أربعون إردبًّا .

4 سورة الكهف : 30 .

5 كذ بالأصل ، ويظهر أنها محرفة عن "نحذر" .

إلى مؤنث ، وكان المضاف بعض المضاف إليه أو منه أو به . وأنشدنا أبو علي لابن مقبل :

قد صرَّح السيرُ عن كُتْمَان وابتُذِلت وقعُ المحاجن بالْمَهرية الذُّقُن 1

فأنث "الوقع" وإن كان مذكرًا لَمَّا كان مضافًا إلى "المحاجن" ، وهي مؤنثة ؛ إذ كان الوقع منها . وكذلك قول ذي الرمة :

مشَيْن كما اهتزَّت رماح تسفهت أعاليَهَا مرُّ الرياح النواسِم 2

فأنث "الْمَر" لإضافته إلى الرياح وهي مونثة ؛ إذ كان "الْمَر" من الرياح ، ونظائر ذلك كثيرة جدًّا لا وجه للإطالة بذكرها ، فهذا وجه يشهد لتأنيث الإيمان ؛ إذ كان من النفس وبها . وإن شئت حملته على تأنيث المذكر لَمَّا كان يعبر عنه بالمؤنث ، ألا ترى إلى قول الله سبحانه : ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ 3 ، فتأنيث الْمِثل لأنه في المعنى حَسَنة .

فإن قلت : فهلَّا حملته على حذف الموصوف ، فكأنه قال : فله عشر حسنات أمثالها ، قيل : حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه قبلُ ليس بمستحسن في القياس ، وأكثر ما أتاه إنما هو في الشعر ؛ ولذلك ضعف حمل "دانيةً" من قوله : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ﴾ 4 على أنه وصف جنة ؛ أي : وجنةً دانيةً عليهم ظلالها ، عطفًا على جنة من قوله :

﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ وجَنةً دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا ؛ لما فيه من حذف الموصوف "56ظ" وإقامة الصفة مقامه حتى عطفوها على قوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ ودانيةً عليهم ظلالها ، فكانت حالًا معطوفة على حال قبلها ، فلهذا يضعف أن يكون تقدير الآية على : فله عشر حسنات أمثالها ؛ بل تكون أمثالها غير صفة لكنه محمول على المعنى ؛ إذ كن حسنات كما ترى .

وعليه أيضًا قوله تعالى : "تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ"5 ؛ لما كان ذلك البعض سيارة في المعنى .

---

1 صرح السير : كشف ، كتمان : اسم موضع ، وقيل : اسم جبل ، المحاجن : العصي المعوجة ، المهرية : يريد بها الإبل المنسوبة إلى مهرة إحدى قبائل اليمن ، الذقن : جمع الذقون ؛ وهي من الإبل التي تميل ذقنها إلى الأرض تستعين بذلك على السير . يريد : أن السير قد كشف لهم عن هذا الموضع ببلوغهم إياه ، وأن إبلهم قد ابتذلت بوقع المحاجن عليها تستحث على السير ، ففي الكلام قلب . انظر : اللسان" "كتم" ، ومعاني القرآن : 1/ 187 ، والخصائص : 2/ 418 .

2 رُوي : "رويدًا" مكان "مشين" ، و"مرضى" مكان "مر" . تسفهت الريح الغصون : حركتها واستخفتها . وانظر : ديوان ذي الرمة : 616 ، واللسان "سفه" ، والكتاب : 1/ 25 ، 33 ، والديوان : 303 .

3 سورة الأنعام : 160 .

4 سورة الإنسان : 14 .

5 سورة يوسف : 10 .

(19/224)

وحكى الأصمعي عن أبي عمرو قال : سمعت رجلًا من اليمن يقول : فلان لَغُوب 1 ، جاءته كتابي فاحتقرها ، قال : فقلت له : أتقول جاءته كتابي ؟ فقال : نعم ، أليس بصحيفة ؟ فلا تعجب إلا من هذا الأعرابي الجافي وهو يعلل هذا التعليل في تأنيث المذكر ، وليس في شعر منظوم فيُحتمل ذلك له ، إنما هو في كلام منثور ، فكذلك يكون تأنيث الإيمان ، ألا تراه طاعة في المعنى ؟ فكأنه قال : لا تنفع نفسًا طاعتها ، والشواهد كثيرة ؛ لكن الطريق التي نحن عليها مختصرة قليلة قصيرة .

ومن ذلك قراءة النخعي وأبي صالح مولى ابن هانئ ، ويُروى أيضًا عن الأعمش ويحيى : "الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ" 2 بالتخفيف .

قال أبو الفتح : أما "فَرَقُوا" بالتخفيف فتأويله أنهم مازُوه عن غيره من سائر الأديان ، هذا ظاهر "فرَقوا" بالتخفيف . وقد يحتمل أن يكون معناه معنى القراءة بالتثقيل ؛ أي : فرَّقوه ، وعضَّوْه أعضاء ، فخالفوا بين بعضه وبعض ؛ وذلك أن فَعَل بالتخفيف يكون فيها معنى

التثقيل ، ووجه هذا أن الفعل عندنا موضوع على اغتراق جنسه ، ألا ترى أن معنى "قام زيد" : كان منه القيام ، و"قعد" : كان منه القعود ؟ والقيام – كما نعلم – والقعود جنسان ، فالفعل إذن على اغتراق جنسه ، يدل على ذلك عمله في جميع أجزاء ذلك الجنس من مفرده ومثناه ومجموعه ، ونكرته ومعرفته ، وما كان في معناه ، وذلك قوله : قمت قومة وقومتين وألفَ قومة ، وقمت قيامًا وقيامًا طويلًا ، وجلست جلوسًا وجلوسًا قصيرًا ، وقمت القيام الذي تعلم . وقال :

لعمري لقد أحْبَبْتُكَ الحبَّ كُلَّه3

وقالوا : قعد القرفصاء ، وعَدَا البَشَكَى4 ، ووثب الْحَجَزى5 ، فعمل الفعل في جميع أجزاء

---

1 اللغوب : الضعيف الأحمق .

2 سورة الأنعام : 159 .

3 عجزه :

وزدتك حبًّا فلم يكن قبل يعرف

وانظر : الخصائص : 2/ 448 .

4 أي : عدوًا سريعًا خفيفًا .

5 أي : وثبًا سريعًا .

المصادر من لفظه ومن غير لفظه كما كان معناه ، يدل على أن وضعه لاغتراق جنسه ؛ إذ الفعل لا يعمل من المصادر إلا فيما كان عليه دليل ، ألا تراك لا تقول : قمت قعودًا ، ولا خرجت دخولًا ؛ لأنه لا دليل في الفعل على ذلك ؟ وهذا واضح مُتَنَاهٍ في البيان .

وإذا كان كذلك عُلم منه وبه أن جميع الأفعال ماضيها وحاضرها ومتلقاها مجاز لا حقيقة ، ألا تراك تقول : قمت قومة ، وقمت على ما مضى ، دال على الجنس ؟ فوضعك القومة الواحدة موضع جنس القيام ، وهو فيما مضى وما هو حاضر وفيما هو متلقى مستقبل ، من أذهب شيء في كونه مجازاً .

ولذلك ما 1 كان شيخنا أبو علي يقول : إن قولنا : قام زيد في كونه مجازاً بمنزلة قول القائل : خرجت فإذا الأسد ، يريد بذلك : أن الأسد هنا لاغتراق الجنس ؛ وإنما وجد ببابه أسدًا واحدًا ، فأطلقه "57و" على جميع جنسه الذي لا يحيط به إلا خالقه جل وعز .

فهذا كقولك : قام زيد في وضعه إياه على البعض وإن كان مفادُ "قام" الاغتراقَ للكل ؛ إذ كان قيام زيد جزءًا مما لا يحاط به ، ولا يحاط2 الوهم إلا على كلَا ولَا 3 على قصوره .

وهذا موضع يسمعه الناس مني ويتناقلونه دائمًا عني ، فيُكبرونه ويكثرون العجب به ، فإذا

أوضحته لم يسأل عنه استحياء ، وكان يستغفر الله لاسيحاشه كان منه .

وكشفت هذا الموضع يومًا لبعض من كان له مذهب في المشاغبة – عفا الله عنا وعنه – فتوقف فيه ، ثم قال : أوكذلك أفعال القديم عندك ؟ فقلت : هذا موضع لا تعلُّق له بذكر القدم والحدوث ؛ وإنما هو طريق مسلوكة يتعاقبها القديم والمحدَث تعاقبًا واحدًا ، ألا تراك تقول : خلق الله كذا ؟ أفتظن أن هذا ينتظم كل خلق في الوهم ؟ فإن قلت : نعم ، لزمك أن يكون هو الخالق لأفعال العباد ، ومذهبك نافٍ لهذا عندك ، فلما بلغ الموضعُ بنا إلى هذا أَمسك ، ثم مضى فقرأ شيئًا من كلام شيخنا فعاد معترفًا بما قلت له منه ، غير أننا أُعلمنا بذلك أن العلل عنده مروية غير مدرية ، وليست بحقائق ولا عقلية .

---

1 ما زائدة .

2 كذا في الأصل ، والمعروف أن يستعمل هنا : يحيط .

3 في اللسان "لا" : إذا أرادوا تقليل مدة فعل أو ظهور شيء خفي قالوا : كان فعله "كلا" ، وربما كرروا فقالوا : كلا ولا ؛ كأنه يريد : ولا يحيط الوهم – على قصوره – بما يحيط به من القيام إلا في وقت قليل بالنسبة إلى جملة الزمن الذي يقع القيام فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 1 صـ 222. 238 ﴾

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الأنعام

مكية إلا ست أيات قل تعالوا أتل الآيات الثلاث وقوله ما قدروا الله حق قدره وقوله ومن أظلم ممن افترى الآيتين وآيها مائة وستون وخمس وكوفي وست شامي وبصري وسبع حرمي خلافها خمس وجعل الظلمات والنور حرمي من طين مدني أول بوكيل كوفي فيكون وربي إلى صراط مستقيم غيره شبه الفاصلة خمس من طين يستجيب الذين يسمعون ومنذرين ربك مستقيما فسوف تعلمون ولا عكس

القراآت عن الحسن الحمد لله الدال وتقدم وعنه إسكان لام الظلمات وعن البزي عن ابن محيصن من المفردة لقضى أجلا بلام مكسورة بعدها ياء من تحت بدلا من ثم مع إسكان القاف وكسر الضاد وأمال قضى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ورقق راء سركم ومر الخلف في وهو ومر إمالة جاءهم لحمزة وخلف وابن ذكوان وهشام بخلفه ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على انبوا على رسمه بواو في بعض المصاحف باثني عشر وجها خمسة على القياس وهي إبدالها ألفا مع المد والقصر والتوسط والتسهيل بين بين مع المد والقصر وسبعة على إبدال الهمزة واوا على الرسم وهي المد والتوسط والقصر مع سكون الواو ومع إشمامها والسابع روم حركتها مع القصر وإذا سكت حمزة على الميم من

يأتيهم فله الإثنا عشر المذكورة فتصير أربعة وعشرين وضم يعقوب هاء يأتيهم وتقدم أول البقرة وقف حمزة على يستهزؤن وعن البزي عن ابن محيصن ولبسنا بلام واحدة هي فاء الفعل وعن ابن محيصن من المبهج كذلك لكن مع تشديد الباء للمبالغة وعنه أيضا تشديد اللام على إدغامها في اللام مع تخفيف الباء يلبسون بضم الياء وفتح اللام وتشديد الباء وكسر دال ولقد استهزىء وصلا أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وضمها الباقون وأبدل همزة استهزىء باء مفتوحة أبو جعفر وأمال (فحاق) الآية 10 حمزة وفتحه الباقون

(22/224)

وقرأ لا ريب بالمد المتوسط حمزة بخلفه وعن الحسن والمطوعي ولا يطعم بفتح الياء والعين بمعنى ولا يأكل وفتح ياء الإضافة من إني أمرت نافع وابو جعفر وفتحها من إني أخاف نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر

واختلف في ( ) من يصرف ( ) الآية 16 فأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الياء وكسر الراء بالبناء للفاعل والمفعول محذوف ضمير العذاب وافقهم الحسن والأعمش والباقون بضم الياء وفتح الراء بالبناء للمفعول والنائب ضمير العذاب والضمير في عنه يعود على من

وقرأ ( ) أئنكم لتشهدون ( ) الآية 19 بتسهيل الهمزة الثانية كالياء مع الفصل بالألف قالون وأبو عمرو وأبو جعفر وقرأ ورش وابن كثير بالتسهيل كذلك لكن بلا فصل وقرأ ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وروح بالتحقيق بلا فصل وبه قرأ هشام من طريق الداجوني ومن طريق الجمال عن الحلواني وقرأ بالمد مع التحقيق من طريق ابن عبدان عن الحلواني وجاء أيضا من طريق الجمال عنه ومن طريق الشذائي عن الداجوني وكذا اختلف عن رويس في هذا الموضع فحققه من طريق أبي الطيب فخالف أصله وأجرى له الوجهين التحقيق والتسهيل في الطيبة وغيرها وهو بالقصر على أصله ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على ( ) بريء ( ) الآية 19 للإدغام فقط وتجوز الإشارة بالروم والإشمام واختلف في ( ) نحشرهم جميعا ثم نقول ( ) الآية 22 هنا وفي سبأ الآية 40 فيعقوب بياء الغيبة فيها والفاعل هو الله تعالى وافقه ابن محيصن والمطوعي وقرأ حفص كذلك في سبأ فقط والباقون بنون العظمة فيهما في السورتين

(23/224)

واختلف في ( ) تكن فتنتهم (الآية 23 فنافع وأبو عمرو وشعبة من غير طريق العليمي وأبو جعفر وخلف في اختياره بتاء التأنيث (فتنتهم) بالنصب خبر مقدم وإلا أن قالوا اسم

مؤخر لأنه أعرف وأنث الفعل لتأنيث الخبر على حد من كانت أمك أو قولهم في قوة مقالتهم وافقهم اليزيدي والشنبوذي وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص بالتأنيث والرفع على أن فتنتهم اسم تكن ولذا أنث الفعل وإلا أن قالوا خبرها وافقهم ابن محيصن وقرأ أبو بكر من طريق العليمي وحمزة والكسائي ويعقوب بالتذكير والنصب وهي أفصح وافقهم المطوعي واختلف في (والله ربنا) الآية 23 فحمزة والكسائي وخلف بنصب الباء إما على النداء وإما على المدح أو إضمار أعني وعلى كل فالجملة معترضة بين القسم وجوابه وافقهم الأعمش والباقون بالجر نعت أو بدل أو عطف بيان

واختلف في (ولا نكذب ونكون) الآية 27 فحفص وحمزة ويعقوب بنصب الباء والنون منهما على إضمار أن بعد واو المعية في جواب التمني وإن ومدخولهما في تأويل مصدر معطوف بالواو على مصدر متوهم من الفعل أي يا ليتنا لنا رد وانتفاء تكذيب وكون من المؤمنين أي يا ليتنا لنا رد مع هذين الأمرين وافقهم الأعمش وقرأ ابن عامر برفع الأول ونصب الثاني وعن الشنبوذي عكسه والباقون برفعهما عطفا على نرد أي يا ليتنا نرد ونوفق للتصديق والإيمان أو الواو للحال والمضارع خبر لمحذوف والجملة حال من مرفوع نرد أي نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين فيكون نمني الرد مقيدا بهاتين الحالتين فيدخلان في التمني وعن المطوعي ( ) ولو ردوا (الآية 31 بكسر الراء وعن الحسن بغتة بفتح الغين حيث جاء

وأمال) بلى حمزة والكسائي وخلف وشعبة من طريق أبي حمدون عن يحيى بن آدم عنه وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو وصححهما عنه في النشر في روايتيه لكن قصر الخلاف في طيبته على الدوري وكذا حكم الدنيا غير شعبة فله الفتح فقط وإن أبا عمرو له الفتح والصغرى وللدوري عنه الكبرى أيضا

(24/224)

واختلف في ( ) وللدار الآخرة (الآية 32 فابن عامر بلام واحدة كما هي في المصحف الشامي وهي لام الابتداء وتخفيف الدال و(الآخرة) بخفض التاء على الإضافة إما على حذف الموصوف أي لدار الحياة أو الساعة الآخرة كمسجد الجامع أي المكان الجامع وإما للاكتفاء باختلاف لفظ الموصوف وصفته في جواز الإضافة والباقون بلامين لام الابتداء ولام التعريف مع التشديد للإدغام ورفع الآخرة على أنها صفة للدار وخير خبرها وعليه بقية الرسوم ولا خلاف في حرف يوسف أنه بلام واحدة لاتفاق الرسوم عليه

واختلف في ( ) أفلا تعقلون (الآية 32 هنا والأعراف الآية 169 ويوسف الآية 109 ويس الآية 68 فنافع وابو جعفر ويعقوب بتاء الخطاب في الأربعة على الالتفات وافقهم هنا الحسن وقرأ ابن عامر وحفص كذلك هنا والأعراف ويوسف وقرأ أبو بكر كذلك في

يوسف واختلف عن ابن عامر في يس فالداجوني من أكثر طرقه عن هشام والأخفش كذلك عن ابن ذكوان بالخطاب وقرأ الباقون بالغيب في الأربعة وبه قرأ الحلواني عن هشام والشذائي عن الداجوني عن أصحابه عنه والصوري عن ابن ذكوان من طريق زيد في موضع يس خاصة

وقرأ (ليحزنك) الآية 33 بضم الياء وكسر الزاي من أحزن الرباعي نافع

واختلف في (لا يكذبونك) الآية 33 فنافع والكسائي بالتخفيف من أكذب والباقون بالتشديد من كذب قيل هما بمعنى كنزل وأنزل وقيل بالتشديد نسبة الكذب إليه والتخفيف نسبة الكذب إلى ما جاء به روي أن أبا جهل كان يقول ما نكذبك وإنك عندنا لصادق وإنما نكذب ما جئتنا به وأمال آتاهم حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

(25/224)

وكذا كل ما وقع من هذا اللفظ بقصر الهمزة بمعنى المجيء نحو أتاكم أتاها أتى أتاك فأتاهم أتانا الجملة سبع كلمات وأدغم دال ولقد جاءك أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وأمال جاء حمزة وخلف وابن ذكوان وهشام بخلفه ويوقف لحمزة وهشام على من نبايء بإبدال الهمزة ألفا لوقوعها ساكنة للوقف بعد فتح وبإبدالها ياء ساكنة لأنها رسمت

بياء بعد الألف وصوب في النشر أن الياء صورة الهمزة وبياء مكسورة بحركة نفسها فإذا سكنت للوقف اتحد مع ما قبله وتجوز الإشارة بالروم وبالتسهيل بين بين فهي أربعة وتقدم للأزرق تفخيم راء إعراضهم من أجل حرف الاستعلاء بعد

وقرأ يعقوب (يرجعون) الآية 36 بفتح الياء وكسر الجيم مبنيا للفاعل وخفف ( ) أن ينزل ( ) الآية 37 ابن كثير وحده وافقه ابن محيصن وقرأ صراط بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة

وقرأ ( ) أرأيتكم ( ) الآية 40 وبابه وهو رأى الماضي المسبوق بهمزة الاستفهام المتصل بتاء الخطاب بتسهيل الهمزة الثانية بين بين قالون وورش من طريقيه وأبو جعفر ولورش من طريق الأزرق وجه آخر وهو إبدالها ألفا خالصة مع إشباع المد للساكنين وتقدم أن الجمهور عنه على الأول كالأصبهاني وقرأ الكسائي بحذف الهمزة الثانية في ذلك كله وهي لغة فاشية والباقون بإثباتها محققة على الأصل ويوقف عليه لحمزة بوجه واحد بين بين وأدغم ذال إذ جاءهم أبو عمرو وهشام

(26/224)

واختلف في (فتحنا) الآية 44 هنا والأعراف الآية 96 والقمر الآية 11 (فتحت) بالأنبياء الآية 96 فابن عامر وابن وردان بتشديد التاء في الأربعة للتكثير ووافقهما ابن جماز وروح في القمر والأنبياء ورويس في الأنبياء فقط واختلف عنه في الثلاثة الباقية فروى النخاس عنه تشديدها وروى أبو الطيب التخفيف واختلف عن ابن جماز هنا والأعراف فروى الأشناني عن الهاشمي عن إسماعيل تشديدهما وكذا روى ابن حبيب عن قتيبة كلاهما عنه وروى عنه الباقون التخفيف وبه قرأ الباقون في الأربعة

وقرأ (به انظر) الآية 46 بضم الهاء الأصبهاني عن ورش

وقرأ (يصدفون) الآية 46 بإشمام الصاد الزاي حمزة والكسائي وخلف ورويس بخلفه وعن ابن محيصن يهلك بفتح الياء وكسر اللام مبنيا للفاعل

وقرأ يعقوب) لا خوف عليهم ( ) الآية 48 بفتح الفاء على البناء كما مر وضم مع حمزة هاء وعليهم وأمال يوحى حيث جاء حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وكذا الأعمى

واختلف في ﴿ بالغدوة ﴾ الآية 52 هنا والكهف الآية 28 فابن عامر بضم الغين وإسكان الدال وواو مفتوحة والأشهر أنها معرفة بالعلمية الجنسية كأسامة في الأشخاص فهي غير مصروفة ولا يلتفت إلى من طعن في هذه القراءة بعد تواترها من حيث كونها أعني غدوة علما وضع للتعريف فلا تدخل عليها أل كسائر الأعلام وأما كتابتها بالواو

فكالصلوة والزكوة وجوابه أن تنكير غدوة لغة ثابتة حكاها سيبويه والخليل تقول أتيتك غدوة بالتنوين على أن ابن عامر لا يعرف اللحن لأنه عربي والحسن يقرأ بها وهو ممن يستشهد بكلامه فضلا عن قراءته وقرأ الباقون بفتح الغين والدال وبالألف لأن غداة اسم لذلك الوقت ثم دخلت عليها لام التعريف وعن الحسن فتنا بتشديد التاء

(27/224)

واختلف في ( ) أنه من عمل ( ) فأنه غفور رحيم ( ) الآية 54 فنافع وابو جعفر بفتح الهمزة في الأولى والكسر في الثانية وابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح فيهما وافقهم الحسن والشنبوذي والباقون بالكسر فيهما ففتح الأولى على أنها بدل من الرحمة بدل شيء من شيء أو على الابتداء والخبر محذوف أي عليه أنه الخ أو على تقدير حرف الجر اللام وفتح الثانية على أن محلها رفع مبتدأ والخبر محذوف أي فغفرانه ورحمته حاصلان وكسر الأولى على انها مستأنفة وإن الكلام قبلها تام وكذا كسر الثانية بمعنى أنها في صدر جملة وقعت خبرا لمن الموصولة أو جوابا لها أن جعلت شرطا

واختلف في ( ) ولتستبين سبيل ( ) الآية 55 فنافع وكذا أبو جعفر بتاء الخطاب سبيل بالنصب وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص وكذا يعقوب بتاء التأنيث والرفع وافقهم

ابن محيصن واليزيدي والحسن وعنه سكون لام لتستبين وأبو بكر وحمزة والكسائي وكذا خلف بياء التذكير والرفع وافقهم الأعمش وجه الأولى أنه من استبنت الشيء المعدي أي ولتستوضح يا محمد وسبيل مفعوله ووجه الثانية أن الفعل لازم من استبان الصبح ظهر وأسند إلى السبيل على لغة تأنيثه على حد هذه سبيلي والثالثة كذلك لكن على لغة تذكيره على حد سبيل الرشد لا يتخذوه وأدغم دال قد ضللت ورش وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في ( ) يقص الحق ( ) الآية 57 فنافع وابن كثير وعاصم وكذا أبو جعفر بالصاد المهملة المشددة المرفوعة من قص الحديث أو الأثر تتبعه وافقهم ابن محيصن والباقون بقاف ساكنة وضاد معجمة مكسورة من القضاء ولم ترسم إلا بضاد كأن الياء حذفت خطأ تبعا للفظ للساكنين كما في تغن النذر وكحذف الواو في سندع الزبانية ويمح الله ونصب الحق بعده صفة لمصدر محذوف أي القضاء الحق أو ضمن معنى يفعل فعداه للمفعول به أو قضى بمعنى صنع فيتعدى بنفسه بلا تضمين أو على إسقاط الباء أي يقضي بالحق على حد يمرون الديار ووقف عليه يعقوب بالياء

(28/224)

وأمال يتوفاكم وليقضى حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق

وأما ( ) جاء أحدكم (الآية 61 فهمزتان مفتوحتان من كلمتين تقدم حكمهما في جاء أحد منكم بالنساء

واختلف في ( ) توفته رسلنا (الآية 61 فحمزة بألف ممالة بعد الفاء وهو إما فعل مضارع فأصله تتوفاه حذفت إحدى التاءين كتنزل وبابه وإما ماض وهو الأظهر وحذفت منه تاء التأنيث لكونه مجازيا أو للفصل بالمفعول وافقه الأعمش وفي الدر للعلامة السمين وقرأ الأعمش ﴿ يتوفاه ﴾ بياء الغيب فليراجع والباقون بتاء ساكنة من غير ألف ولا إمالة وأسكن سين رسلنا أبو عمرو وعن الحسن مولاهم الحق بالنصب على المدح

واختلف في ( ) قل من ينجيكم ( ) قل الله ينجيكم ( ) الآية 63 والآية 64 بعدها وفي يونس الآية 92 ( ) فاليوم ننجيك ( ) و( ) ننجي رسلنا (و) ننجي المؤمنين ( ) الآية 103 وفي الحجر الآية 59 ( ) إنا لمنجوهم ( ) وفي مريم الآية 72 ( ) ثم ننجي الذين اتقوا (وفي العنكبوت الآية 32 33 ( ) لننجينه (و) إنا منجوك ( ) وفي الزمر الآية 61 ( ) وينجي الله (وفي الصف الآية 10 (تنجيكم) فنافع وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان بتسكين النون وتخفيف الجيم في الثاني من هذه السورة فقط وافقهم ابن محيصن والكسائي وحفص كذلك في ثالث يونس وافقهما المطوعي وقرأ حمزة والكسائي وكذا خلف كذلك في الحجر والأول من العنكبوت وافقهم المطوعي وقرأ الكسائي كذلك في موضع مريم وافقه ابن

محيصن بخلف وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي وكذا خلف الثاني من العنكبوت كذلك وافقهم ابن محيصن والأعمش وقرأ يعقوب بتخفيف ما عدا الزمر والصف وهي تسعة أحرف وأما موضع الزمر فخففه روح وحده والباقون بالتشديد في سائرهن وأما حرف الصف فشدده ابن عامر وخففه الباقون وذلك من نجى بالتضعيف وأنجى بالهمز

(29/224)

واختلف في (خفية) الآية 63 هنا والأعراف الآية 55 فأبو بكر بكسر الخاء والباقون بضمها وهما لغتان كإسوة وأسوة وأما خيفة آخر الأعراف فليس من هذا بل هو من الخوف

واختلف في ( ) أنجيتنا من هذه (الآية 63 فحمزة والكسائي وكذا خلف بألف ممالة بعد الجيم من غير ياء ولا تاء بلفظ الغيبة وافقهم الأعمش وقرأ عاصم كذلك لكنه بغير إمالة والباقون بياء ساكنة بعد الجيم بعدها تاء مفتوحة على الخطاب حكاية لدعائهم وأبدل همز باس أبو عمرو بخلفه وأبو جعفر وحققه الباقون ومنهم الأصبهاني وقرأ بكسر التنوين من بعض انظر أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقنبل من طريق ابن شنبوذ وابن ذكوان من طريق النقاش عن الأخفش عنه

واختلف في (ينسينك) الآية 68 فابن عامر بتشديد السين وفتح النون من نسى وقرأ

الباقون بتخفيفها وسكون النون من أنسى وهما لغتان والمفعول الثاني محذوف أي ما أمرت به من ترك مجالسة الخائضين فلا تقعد بعد ذلك معهم وسبق إمالة الدنيا وهدانا

واختلف في (استهوته) الآية 71 فحمزة بألف ممالة بعد الواو وافقه الأعمش والباقون بالتاء الساكنة من غير ألف وعن المطوعي الشيطان بالتوحيد وعن الحسن بالواو وفتح النون وهي لغة ردية ورقق الأزرق الراء من حيران بخلف عنه وقطع به في التيسير وتعقبه في النشر بأنه خرج به عن طريقه وذكر الخلاف في الشاطبية ويوقف لحمزة على الهدى ائتنا بإبدال الهمزة ألفا بلا إمالة فهو وجه واحد ونقل في النشر عن الداني إحتمالا في الإمالة على أنها ألف الهدى دون المبدلة من الهمزة والأقيس أنها يعني الألف الموجودة في اللفظ هي المبدلة من الهمز قال والحكم في وجه الإمالة للأزرق كذلك والصحيح المأخوذ به عنهما الفتح وعن الحسن (فيكون) الآية 73 بالنصب وعنه الصور حيث جاء بفتح الواو والجمهور بسكونها فقيل جمع صورة كصوف وصوفة وثوم وثومة وليس هذا جمعا صناعيا وإنما هو اسم جنس وقيل الصور القرن

(30/224)

واختلف في (آزر) الآية 74 فيعقوب بضم الراء على أنه منادى ويؤيده ما في مصحف أبي يا آزر بإثبات حرف النداء وافقه الحسن والباقون بفتحها نيابة عن الكسرة للعلمية أو الوصفية والعجمة وهو بدل من أبيه أو عطف بيان له إن كان لقبا ونعت لأبيه أو حال إن كان وصفا بمعنى المعوج أو المخطىء أو الشيخ الهرم وقيل اسم صنم فنصبه بفعل تقديره أتعبد وفتح ياء الإضافة من إني أراك نافع وابن كثير وابو عمرو وابو جعفر وأمال أراك أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان من طريق الصوري وقلله الأزرق

(31/224)

وأما (رأى) الآية 76 77 78 الماضي ويكون بعده متحرك وساكن والأول يكون ظاهرا أو مضمرا فالظاهر سبعة مواضع رأى كوكبا هنا وباقيها تقدم في باب الإمالة مفصلا والمضمر تسعة نحو رآك بالأنبياء وذكرت ثمة وأما الذي بعده ساكن ففي ستة مواضع رأى القمر رأى الشمس هنا والباقي سبق ثمة فالأزرق بالتقليل في الراء والهمزة معا في القسمين الأولين الظاهر والمضمر قبل متحرك وأبو عمرو بفتح الراء وإمالة الهمزة في القسمين وما ذكره الشاطبي رحمه الله تعالى من الخلاف عن السوسي في إمالة الراء فتقدم عن النشر أنه ليس من طرقه فضلا عن طرق الشاطبية ولذا تركه في الطيبة وإن حكاه بقيل في آخر الباب

وقرأ ابن ذكوان بإمالتهما معا مع المظهر وأما مع المضمر فأمالهما النقاش عن الأخفش عنه وفتحهما ابن الأخرم عن الأخفش وأمال الهمزة وفتح الراء الجمهور عن الصوري واختلف عن هشام فالجمهور عن الحلواني بفتحهما معا في القسمين فالأكثرون عن الداجوني بإمالتهما فيهما والوجهان صحيحان عن هشام كما تقدم واختلف عن أبي بكر فيما عدا الأولى وهي ( ) رأى كوكبا ( ) الآية 76 هنا فلا خلاف عنه في إمالة حرفيها معا أما الستة الباقية التي مع الظاهر فأمال الراء والهمزة معا يحيى بن آدم وفتحهما العليمي أما فتحها في السبعة وفتح الراء وإمالة الهمزة في السبعة فانفرادتان لا يؤخذ بهما ولذا لم يعرج عليهما في الطيبة وأما التسعة مع المضمر ففتح الراء والهمزة معا فيها العليمي عنه وأمالهما يحيى بن آدم وقرأ حمزة والكسائي وخلف بإمالة الراء والهمزة معا في الجميع وافقهم الأعمش والباقون بالفتح وأما الذي بعده ساكن فأمال الراء وفتح الهمزة أبو بكر وحمزة وخلف والباقون بالفتح وما حكاه الشاطبي رحمه الله تعالى من الخلاف في إمالة الهمزة عن أبي بكر وفي إمالة الراء والهمزة معا عن السوسي تعقبه صاحب النشر بأن ذلك لم يصح عنهما من طرق الشاطبية بل ولا من طرق النشر وإن حكاه بقيل آخر الباب

(32/224)

من طيبته والله تعالى أعلم

ووقف حمزة وهشام بخلفه على ( ) بريء ( ) الآية 78 بالبدل مع الإدغام فقط لزيادة الياء وتجوز الإشارة بالروم والإشمام وفتح ياء الإضافة من وجهي للذي الآية 79 نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر

واختلف في ( ) أتحاجوني ( ) الآية 80 فنافع وابن ذكوان وهشام من طريق ابن عبدان عن الحلواني والداجوني من جميع طرقه إلا المفسر عن زيد عنه وأبو جعفر بنون خفيفة والباقون بنون ثقيلة على الأصل لأن الأولى نون الرفع والثانية نون الوقاية وفيها لغات ثلاث الفك مع تركهما والإدغام والحذف لإحداهما والمحذوفة هي الأولى عند سيبويه ومن تبعه والثانية عند الأخفش ومن تبعه وبذلك قرأ الجمال عن الحلواني والمفسر وحده عن الداجوني وأمال الكسائي وحده هدان وقلله

الأزرق بخلفه وأثبت الياء بعد نونها وصلا أبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين يعقوب

وقرأ ( ) ما لم ينزل ( ) الآية 81 بالتخفيف ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعن الحسن يرفع ويشاء بياء الغيبة فيهما والباقون بنون العظمة

واختلف في (درجات) الآية 83 هنا يوسف الآية 76 فعاصم وحمزة والكسائي وكذا خلف بالتنوين فيهما فيحتمل النصب على الظرف ومن مفعول أي نرفع من نشاء مراتب ومنازل أو على أنه مفعول ثان قدم على الأول بتضمين نرفع معنى فعل يتعدى لاثنين وهو

نعطي مثلا أي نعطي بالرفع من نشاء درجات أي رتبا فالدرجات هي المرفوعة وإذا رفعت رفع صاحبها أو على إسقاط حرف الجر إلى أو على الحال أي ذوي درجات وافقهم الأعمش وقرأ يعقوب بالتنوين هنا فقط والباقون بغير تنوين فيهما على الإضافة فدرجات مفعول ترفع

وقرأ) من نشاء إن (الآية 83 بتحقيق الهمزة الأولى وإبدال الثانية واوا مكسورة وبتسهيلها كالياء نافع وابن كثير وابو عمرو وابو جعفر ورويس وأما تسهيلها كالواو فتقدم رده عن النشر غير مرة

وقرأ (زكريا) الآية 85 بلا همز حفص وحمزة والكسائي وخلف والباقون بالهمز

(33/224)

واختلف في (اليسع) الآية 86 هنا وفي ص الآية 48 فحمزة والكسائي وكذا خلف بتشديد اللام المفتوحة وإسكان الياء في الموضعين على أن أصله ليسع كضيغم وقدر تنكيره فدخلت ال للتعريف ثم أدغمت اللام في اللام وافقهم الأعمش والباقون بتخفيفها وفتح الياء فيهما على أنه منقول من مضارع والأصل يوسع كيوعد وقعت الواو بين ياء مفتوحة وكسرة تقديرية لأن الفتح إنما جيء به لأجل حرف الحلق فحذفت كحذفها في يدع

ويضع ويهب وبابه

وقرأ (صراط) الآية 87 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة

وقرأ (النبوة) الآية 89 بالهمز نافع واتفقوا على إثبات هاء السكت في (اقتده) الآية 90 وقفا على الأصل سواء قلنا أنها للسكت أو للضمير واختلفوا في إثباتها وصلا فأثبتها فيه ساكنة نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وكذا أبو جعفر وافقهم

الحسن وابن محيصن من المبهج وأثبتها مكسورة مقصورة هشام وأشبع الكسرة ابن ذكوان بخلف والإشباع رواية الجمهور عنه والاختلاس رواية زيد عن الرملي عن الصوري عنه كما في النشر قال فيه وقد رواها الشاطبي رحمه الله تعالى عنه ولا أعلمها وردت عنه من طريقه ولا شك في صحتها عنه لكنها عزيزة من طرق كتابنا انتهى ووجه الكسر أنها ضمير الاقتداء المفهوم من اقتده أو ضمير الهدى وقرأ بحذف الهاء وصلا حمزة والكسائي وخلف ويعقوب على أنها للسكت فمحلها الوقف وافقهم الأعمش وابن محيصن من المفردة واليزيدي وعن الحسن حق قدره بفتح الدال ومر حكم إمالة ذكرى وكذا جاء موسى وللناس

واختلف في ﴿ يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون ﴾ الآية 91 فابن كثير وأبو عمرو

بالغيب في الثلاثة على إسناده للكفار مناسبة لقوله تعالى وما قدروا الله حق قدره الخ

وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بالخطاب فيهن أي قل لهم ذلك

(34/224)

واختلف في ( ) ولتنذر ( ) الآية 92 فأبو بكر بياء الغيبة والضمير للقرآن أو للرسول للعلم به عليه الصلاة والسلام والباقون بتاء الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام وأمال القربى أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان من طريق الصوري وقلله الأزرق وكذا نرى وعن الحسن صلواتهم بالجمع وأدغم دال ولقد جئتمونا أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام وأمال فرادى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على فيكم شركؤا ونحوه مما رسمت الهمزة فيه واوا باثني عشر وجها تقدمت في أنبؤا أول السورة

واختلف في ( ) تقطع بينكم ( ) الآية 94 فنافع وحفص والكسائي وكذا أبو جعفر بنصب النون ظرف لتقطع والفاعل مضمر يعود على الاتصال لتقدم ما يدل عليه وهو لفظ شركاء أي تقطع الاتصال بينكم وافقهم الحسن والباقون بالرفع على أنه اتسع في هذا الظرف فأسند الفعل إليه فصار اسما ويقويه هذا فراق بيني وبينك ومن بيننا وبينك حجاب

فاستعمله مجرورا أو على أن بين اسم غير ظرف وإنما معناه الوصل أي تقطع وصلكم وأمال النوى حمزة والكسائي وخلف وبالفتح الصغرى الأزرق

وقرأ (الميت) الآية 95 بتشديد الياء المكسورة نافع وحفص وحمزة والكسائي وكذا أبو جعفر ويعقوب وخلف والباقون بالتخفيف وعن المطوعي ﴿ فلق الحب) ﴾ الآية 95 بفتح اللام والقاف بلا ألف فعلا ماضيا ونصب الحب وعن الحسن و(الإصباح) الآية 96 بفتح الهمزة وهو جمع صبح كقفل وأقفال والجمهور بالكسر على المصدر

(35/224)

واختلف في ﴿ وجاعل الليل ﴾ الآية 96 فعاصم وحمزة والكسائي وكذا خلف بفتح العين واللام من غير ألف فعلا ماضيا و(الليل) بالنصب مفعول به مناسبة لما بعده من جعل لكم النجوم الخ وافقهم الأعمش والباقون بالألف وكسر العين ورفع اللام وخفض الليل بالإضافة فجاعل محتمل للمضي وهو الظاهر والماضي عند البصريين لا يعمل إلا مع ال خلافا لبعضهم في منع إعمال المعرف بها فسكنا منصوب بفعل دل عليه جاعل لا به لما ذكر أو به على ان المراد جعل مستمر في الأزمنة المختلفة وعن ابن محيصن) والشمس والقمر ( ) الآية 96 بالرفع فيهما على الابتداء والخبر محذوف أي مجعولان والجمهور بالنصب عطفا

على محل الليل حملا على معنى المعطوف عليه والأحسن نصبها بجعل مقدرا

واختلف في (فمستقر) الآية 98 فابن كثير وابو عمرو وكذا روح بكسر القاف اسم فاعل مبتدأ والخبر محذوف أي فمنكم شخص قار في الأصلاب أو البطون أو القبور وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بفتحها مكانا أو مصدرا أي فلكم مكان تستقرون فيه أو استقرار وعن الحسن ضم تاء فمستقر وفتحها الجمهور وعن المطوعي يخرج منه بالياء مبنيا للمفعول وحب بالرفع على النيابة وعنه أيضا قنوان بضم القاف وعنه وعن الحسن وجنات من أعناب بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي ثم أو من الكرم أو لهم أواخر جناها

وقرأ بكسر التنوين من) متشابه انظروا (الآية 99 أبو عمرو وعاصم وحمزة وكذا يعقوب واختلف عن قنبل فكسره ابن شنبوذ عنه وضمه ابن مجاهد واختلف أيضا عن ابن ذكوان فكسره النقاش عن الأخفش والرملي عن الصوري فيما رواه أبو العلاء وضمه الصوري من طريقيه

(36/224)

واختلف في (إلى ثمره) الآية 99 موضعي هذه السورة وفي يس من ثمره فحمزة والكسائي وخلف بضم الثاء والميم جمع كخشبة وخشب وافقهم الأعمش والباقون بفتحهما فيهن اسم جنس كشجر وشجرة وبقر وبقرة وخرز وخرزة وأما موضعا الكهف فيأتيان إن شاء الله تعالى (وعن) ابن محيصن وينعه بضم الياء لغة

واختلف في (وخرقوا) الآية 100 فنافع وأبو جعفر بتشديد الراء للتكثير والباقون بالتخفيف بمعنى الاختلاق يقال خلق الإفك وخرقه واختلقه وافتراه وافتعله بمعنى كذب وأمال وتعالى حيث جاء حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وكذا أنى إلا أن الدوري عن أبي عمرو فيها كالأزرق بالفتح والصغرى وسبق قريبا حكم قد جاءكم

واختلف فيدرست) الآية 105 فابن كثير وابو عمرو بألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء على وزن قابلت أي دارست غيرك وافقهما ابن محيصن واليزيدي وقرأ ابن عامر وكذا يعقوب بغير ألف وفتح السين وسكون التاء بزنة ضربت أي قدمت وبلت وافقهما الحسن إلا أنه ضم الراء والباقون بغير ألف وسكون السين وفتح التاء أي حفظت وأتقنت بالدرس أخبار الأولين وتقدم إمالة شاء لحمزة وخلف وابن ذكوان وهشام بخلفه وضم هاء عليهم لحمزة ويعقوب

واختلف في (عدوا) الآية 108 فيعقوب بضم العين والدال وتشديد الواو وافقه الحسن والباقون بالفتح والسكون والخف يقال عدا عدوا وعداء وعدوانا ونصبه على المصدر أو

مفعول لأجله أو لوقوعه موقع الحال المؤكدة لأنه لا يكون إلا عدوا وقرأ (يشعركم) الآية 109 بإسكان الراء وباختلاس حركتها أبو عمرو من روايتيه وروى الإتمام للدوري عنه كالباقين

(37/224)

واختلف في ( ) أنها إذا ( ) الآية 109 فابن كثير وابو عمرو وأبو بكر بخلف عنه ويعقوب وخلف في اختياره بكسر همزة إنها وهي رواية العليمي عن أبي بكر وأحد الوجهين عن يحيى عنه قال في الدر وهي قراءة واضحة لأن معناها استئناف أخبار بعدم إيمان من طبع على قلبه ولو جاءتهم كل آية وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بالفتح وهو رواية العراقيين قاطبة عن أبي بكر من طريق يحيى على أنها بمعنى لعل وهي في مصحف أبي كذلك أو على تقدير لام العلة والتقدير إنما الآيات التي يقترحونها عند الله لأنها إذا جاءت لا يؤمنون وما يشعركم اعتراض بين العلة والمعلول

واختلف في (لا يؤمنون) الآية 109 فابن عامر وحمزة بالخطاب مناسبة ليشعركم على أنها للمشركين وافقهما الأعمش وقرأ الباقون بالغيب على توجيه الكاف للمؤمنين والياء للمشركين وحرف الجاثية يأتي في محله إن شاء الله تعالى وعن المطوعي وتقلب بالتأنيث

مبنيا للمفعول وأفئدتهم وأبصارهم بالرفع للنيابة وعن الأعمش ويذرهم بياء الغيبة والجزم عطفا على يؤمنوا والمعنى ونقلب الخ جزاء على كفرهم وإنه لم يذرهم في طغيانهم بل بين لهم وأمال طغيانهم الدوري عن الكسائي وضم هاء إليهم حمزة ويعقوب في الحالين وافقهما وصلا الكسائي وخلف كسر الميم أبو عمرو وصلا وضمها الباقون

واختلف في (قبلا) الآية 111 فنافع وابن عامر وكذا أبو جعفر بكسر القاف وفتح الباء بمعنى مقابلة أي معاينة ونصب على الحال وقيل بمعنى ناحية وجهة فنصبه على

(38/224)

الظرف نحو في قبل زيد دين والباقون بضم القاف والباء جمع قبيل بمعنى كبيل كرغيف ورغف ونصبه على الحال ايضا وقيل بمعنى جماعة جماعة وصنفا صنفا أي حشرنا عليهم كل شيء فوجا فوجا ونوعا نوعا من سائر المخلوقات ويأتي حرف الكهف في محله إن شاء الله تعالى وتقدم همز نبي لنافع وإمالة شاء وأمال لتصغى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ويوقف لحمزة على إليه أفئدة بتحقيق الهمزة الأولى وإبدالها ياء مفتوحة كلاهما مع نقل الثانية إلى الفاء وعن الحسن وليرضوه وليقترفوا بسكون اللام فيهما على أنها لام الأمر

واختلف في (منزل من ربك) الآية 114 فابن عامر وحفص بتشديد الزاي والباقون بتخفيفها

واختلف في ﴿ كلمات ربك) ﴾ الآية 115 هنا ويونس الآية 33 96 وغافر الآية 6 فعاصم وحمزة والكسائي وكذا يعقوب وخلف بغير ألف على التوحيد في الثلاثة على إرادة الجنس وافقهم الحسن والأعمش وقرأ ابن كثير وابو عمرو كذلك في غافر ويونس وافقهم ابن محيصن واليزيدي ووقف الكسائي ويعقوب على الثلاث بالهاء ممالة للكسائي وابن كثير وأبو عمرو كذلك بالهاء في الأخيرين والباقون بالجمع في الثلاث لأن كلماته تعالى متنوعة أمرا ونهيا وغير ذلك وقد أجمع على الجمع في لا مبدل لكلماته ولا مبدل لكلمات الله وعن الحسن يضل عن سبيله بضم الياء

واختلف في ( ) فصل لكم ما حرم عليكم ( ) الآية 119 فابن كثير وكذا أبو عمرو وابن عامر بضم الفعلين على بنائهما للمفعول وافقهم ابن محيصن واليزيدي وقرأ نافع وحفص وابو جعفر ويعقوب بالفتح فيهما على البناء للفاعل وافقهم الحسن وقرأ الأول بالفتح والثاني بالضم أبو بكر وحمزة والكسائي وكذا خلف وافقهم الأعمش ولم يقرأ بالعكس وغلظ الأزرق لام فصل وصلا واختلف عنه في الوقف كما تقدم وقرأ (اضطررتم) بكسر الطاء ابن وردان بخلف عنه كما مر بالبقرة

واختلف في (ليضلون) الآية 119 هنا و( ) ربنا ليضلوا عن ( ) الآية 88 بيونس فعاصم وحمزة والكسائي وكذا خلف بضم الياء فيهما وافقهم الحسن والمطوعي في يونس ففتحه والباقون بالفتح فيهما يقال ضل في نفسه وأضل غيره

فالمفعول محذوف على قراءة الضم وقرأ ميتا بتشديد الياء نافع وأبو جعفر ويعقوب

واختلف في (رسالته) الآية 124 فابن كثير وحفص بالإفراد مع نصب التاء وافقهما ابن محيصن والباقون بالجمع مكسور التاء

واختلف في (ضيقا) الآية 125 هنا والفرقان فابن كثير بسكون الياء مخففا والباقون بالكسر مشددا وهما لغتان كميت وميت وقيل التشديد في الأجرام والتخفيف في المعاني ووزن المشدد فيعل كميت وسيد ثم أدغم ويجوز تخفيفه

واختلف في (حرجا) الآية 125 فنافع وأبو بكر وكذا أبو جعفر بكسر الراء مثل دنف وافقهم ابن محيصن والحسن والباقون بفتحها وهما بمعنى وقيل المفتوح مصدر والمكسور اسم فاعل وقيل المكسور أضيق الضيق

واختلف في (يصعد) الآية 125 فابن كثير بإسكان الصاد تخفيف العين بلا ألف مضارع صعد ارتفع وافقه ابن محيصن من المفردة وقرأ أبو بكر ﴿ يصاعد ﴾ بتشديد الصاد وبعده ألف وتخفيف العين وأصلها يتصاعد أي يتعاطى الصعود ويتكلفه فأدغم التاء في

الصاد تخفيفا وعن المطوعي بتاء بعد الياء وتخفيف الصاد وتشديد العين في أحد وجهيه والباقون بفتح الصاد مشددة وبتشديد العين دون ألف بينهما من تصعد تكلف الصعود وافقهم ابن محيصن من المبهج والمطوعي في وجهه الثاني وتقدم سين صراط وإشمام صادها

(40/224)

واختلف في ( ) ويوم نحشرهم (الآية 127 هنا وثاني يونس الآية 96 ( ) يحشرهم كأن لم ( ) فحفص بالياء فيهما مسندا إلى ضمير الله تعالى وافقهم ابن محيصن والمطوعي وقرأ روح بالياء هنا فقط والباقون بالنون فيهما إسنادا إلى اسم الله تعالى على وجه العظمة وخرج أول يونس نحشرهم جميعا المتفق عليه بالنون لأجل فزيلنا إلا ما يأتي عن ابن محيصن والمطوعي وأمال مثواكم حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وأمال كافرين أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي ورويس وقلله الأزرق

واختلف في (عما يعملون) الآية 132 هنا وآخر هود الآية 123 والنمل الآية 93 فابن عامر بالخطاب في الثلاثة مراعاة هنا لقوله بذهبكم وافقه الحسن هنا وهود وقرأ نافع وحفص وكذا أبو جعفر ويعقوب بالخطاب في هود والنمل والباقون بالغيب فيهن لقوله هنا

ولكل درجات وعن ابن محيصن ضم ميم يا قوم اعملوا

واختلف فيمكانتهم) الآية 67 من سورة يس و(مكانتكم) الآية 135 حيث وقعا وهو هنا وهود الآية 93 121 معا ويس الآية 67 والزمر الآية 39 فأبو بكر بألف على الجمع فيها ليطابق المضاف إليه وهو ضمير الجماعة ولكل واحد مكانة وافقه الحسن والباقون بالإفراد على إرادة الجنس

واختلف في (تكون له) الآية 135 هنا والقصص الآية 37 فحمزة والكسائي كذا خلف بالتذكير فيهما وافقه الأعمش والباقون بالتأنيث وهما ظاهران إذ التأنيث غير حقيقي

واختلف في (بزعمهم) الآية 136 138 في الموضعين فالكسائي بضم الزاي فيهما لغة بني أسد وافقه الشنبوذي والباقون بفتحها لغة أهل الحجاز فقيل هما بمعنى وقيل المفتوح مصدر والمضموم اسم

(41/224)

واختلف في) وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ( ) الآية 137 فابن عامر زين بضم الزاي وكسر الياء بالبناء للمفعول (قتل) برفع اللام على النيابة عن الفاعل (أولادهم) بالنصب على المفعول بالمصدر (شركائهم) بالخفض على إضافة المصدر إليه

فاعلا وهي قراءة متواترة صحيحة وقارئها ابن عامر أعلى القراء السبعة سندا وأقدمهم هجرة من كبار التابعين الذين أخذوا عن الصحابة كعثمان بن عفان وأبي الدرداء ومعاوية وفضالة بن عبيد وهو مع ذلك عربي صريح من صميم العرب وكلامه حجة وقوله دليل لأنه كان قبل أن يوجد اللحن فكيف وقد قرأ بما تلقى وتلقن وسمع ورأى إذ هي كذلك في المصحف الشامي وقد قال بعض الحفاظ إنه كان في حلقته بدمشق أربعمائة عريف يقومون عليه بالقراءة قال ولم يبلغنا عن أحد من السلف أنه أنكر شيئا على ابن عامر من قراءته ولا طعن فيها وحاصل كلام الطاعنين كالزمخشري أنه لا يفصل بين المتضايفين إلا بالظرف في الشعر لأنهما كالكلمة الواحدة أو أشبها الجار والمجرور ولا يفصل بين حروف الكلمة ولا بين الجار ومجروره انتهى وهو كلام غير معول عليه وإن صدر عن أئمة أكابر لأنه طعن في المتواتر وقد انتصر لهذه القراءة من يقابلهم وأوردوا من لسان العرب ما يشهد لصحتها نثرا ونظما بل نقل بعض الأئمة الفصل بالجملة فضلا عن المفرد في قولهم غلام إن شاء الله أخيك وقرىء شاذا) مخلف وعده رسله (بنصب وعده وخفض رسله وصح قوله فهل أنتم تاركو إلى صاحبي ففصل بالجار والمجرور وقال في التسهيل ويفصل في السعة بالقسم مطلقا وبالمفعول إن كان المضاف مصدرا نحو أعجبني دق الثوب القصار وقال صاحب المغرب يجوز فصل

المصدر المضاف إلى فاعله بمفعولة لتقدير التأخير وأما في الشعر فكثير بالظرف وغيره منها

قوله

فسقناهم سوق البغال الأداجل

وقوله

سقاها الحجى سقي الرياض السحائب

وقوله

لله در اليوم من لامها

وقوله

فزججتها بمزجة

زج القلوص أبي مزاده

(42/224)

وقد علم بذلك خطأ من قال إن ذلك قبيح أو خطأ أو نحوه وأما من زعم أنه لم يقع في الكلام المنثور مثله فلا يعول عليه لأنه ناف ومن أسند هذه القراءة مثبت وهو مقدم على النفي اتفاقا ولو نقل إلى هذا الزاعم عن بعض العرب ولو أمة أو راعيا أنه استعمله في النثر لرجع إليه فكيف وفيمن أثبت تابعي عن الصحابة عمن لا ينطق عن الهوى فقد بطل قولهم

وثبتت قراءته سالمة من المعارض ولله الحمد

وقرأ الباقون (زين) بفتح الزاي والياء مبنيا للفاعل ونصب (قتل) به (أولادهم) بالخفض على الإضافة (شركاؤهم) بالرفع على الفاعلية بزين وهي واضحة أي زين لكثير من المشركين شركاؤهم إن قتلوا أولادهم بنحرهم لآلهتهم أو بالوأد خوف العار والعيلة وعن المطوعي (حجر) بضم الحاء والجيم أما مصدر كحكم أو جمع حجر بالفتح أو الكسر كسقف وسقف وجذع وجذع وعن الحسن (حجرا) بضم الحاء وسكون الجيم مخفف المضموم

وقرأ (حرمت ظهورها) الآية 138 بإدغام التاء في الظاء أبو عمرو والأزرق وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ورقق الأزرق راء افتراء عليه وافتراء على الله بخلفه والوجهان في جامع البيان وضم الهاء من سيجزيهم يعقوب وعن المطوعي (خالصة) برفع الصاد والهاء وبحذف التنوين على أنه مبتدأ ولذكورنا خبره والجملة خبر الموصول والجمهور خالصة بالتأنيث إما حملا على المعنى لأن الذي في بطونها أنعام ثم حمل على اللفظ في قوله ومحرم وإما للمبالغة كعلامة ونسابة

واختلف في ﴿ وإن تكن ميتة ﴾ الآية 141 فنافع وأبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي وكذا يعقوب وخلف يكن بالتذكير ميتة بالنصب وافقهم اليزيدي والأعمش وقرأ ابن عامر

من غير طريق الداجوني عن هشام وكذا أبو جعفر تكن بالتأنيث ميتة بالرفع وافقهما ابن محيصن وأبو جعفر على أصله في تشديد ميتة وقرأ ابن كثير والداجوني من

(43/224)

أشهر طرقه عن هشام يكن بالتذكير ميتة بالرفع فلا خلاف عن هشام في رفع ميتة وقرأ أبو بكر تكن بالتأنيث ميتة بالنصب وافقه الحسن والتذكير والتأنيث واضحان ومن نصب ميتة فعلى خبر كان الناقصة ومن رفع فعلى جعلها تامة ويجوز أن يكون خبرها محذوفا أي وإن يكن هناك ميتة فتكون ناقصة أيضا وضم الهاء من سيجزيهم يعقوب

وقرأ (قتلوا) الآية 140 بتشديد التاء ابن كثير وابن عامر وأدغم دال قد ضلوا ورش وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (أكله) الآية 141 بإسكان الكاف نافع وابن كثير

وقرأ (من ثمره) الأية 141 بضم التاء والميم حمزة والكسائي وخلف

واختلف في (حصاده) الآية 141 فأبو عمرو وابن عامر وعاصم وكذا يعقوب بفتح الحاء وافقهم اليزيدي والباقون بالكسر وهما لغتان في المصدر كقولهم جداد وجداد

وقرأ (خطوات) الآية 142 بالضم قنبل والبزي بخلفه وابن عامر وحفص والكسائي وأبو

جعفر ويعقوب

واختلف في (ومن المعز) الآية 143 فابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان وهشام من غير طريق الداجوني ويعقوب بفتح العين وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن وروى الداجوني عن أصحابه عن هشام بسكون العين وبه قرأ الباقون وهما لغتان في جمع ماعز كخادم وخدم وتاجر وتجر ويجمع أيضا على معزى واتفقوا على تسهيل آلذكرين معا هنا واختلفوا في كيفيته فالجمهور كما تقدم على إبدال همزة الوصل الواقعة بعد همز الاستفهام ألفا خالصة مع إشباع المد للساكنين للكل وهو المختار وذهب آخرون إلى تسهيلها بين بين وهما صحيحان في الشاطبية وغيرها وكذا الحكم في آلآن موضعي يونس والله بها والنمل وتقدم في الهمز المفرد الكلام على نبؤني بعلم من حيث حذف همزة مع ضم ما قبل الواو لأبي جعفر وإنه كمتكون في ذلك كما نقله في النشر عن نص الأهوازي وغيره

(44/224)

وقرأ (شهداء إذ) الآية 144 بتسهيل الثانية كالياء نافع وابن كثير وابو عمرو وأبو جعفر ورويس وأمال وصيكم ذلكم وصيكم حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والتقليل الأزرق واختلف في ( ) إلا أن يكون ميتة ( ) الآية 145 فنافع وأبو عمرو وعاصم والكسائي

وكذا يعقوب وخلف في اختياره بالتذكير ميتة بالنصب واسم يكون يعود على قوله محرما وافقهم اليزيدي والحسن والأعمش لكن التذكير من غير طريق المطوعي وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالتأنيث والرفع على أنها تامة بمعنى توجد ميتة وقرأ ابن كثير وحمزة بالتأنيث والنصب على أن اسمها ضمير يعود على مجرما أو الماكول وأنث الفعل لتأنيث الخبر وافقهما ابن محيصن

وقرأ (فمن اضطر) الآية 145 بكسر النون أبو عمرو وعاصم وحمزة وكذا يعقوب وقرأ بكسر طائه أبو جعفر

وعن الحسن (ظفر) الآية 146 بسكون الفاء لغة وأدغم تاء حملت ظهورهما أبو عمرو والأزرق وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وأمال الحوايا حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق

واختلف في (تذكرون) الآية 152 حيث وقع إذا كان بالتاء فقط خطابا فحفص وحمزة والكسائي وكذا خلف بتخفيف الذال حيث وقع على حذف إحدى التاءين لأن الأصل تتذكرون وافقهم الأعمش والباقون بتشديدها فأدغموا التاء في الذال

واختلف في ﴿ وإن هذا ﴾ الآية 153 فحمزة والكسائي وكذا خلف بكسر الهمزة وتشديد النون على الاستئناف وهذا محله نصب اسمها وصراطي خبرها وفاء فاتبعوه عاطفة للجمل وقرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة وتخفيف النون والباقون بفتح الهمزة

وتشديد النون على تقدير اللام أي ولأن هذا وقال القراء معمولة اتل وأجاز جرها بتقدير وصيكم به وبأن فتكون نسقا على المضمر على طريق الكوفيين ووجه قراءة ابن عامر أنها خففت من الثقيلة على اللغة القليلة

وقرأ (صراطي) الآية 153 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة وفتح ياء الإضافة منها ابن عامر وسكنها الباقون

(45/224)

وقرأ (فتفرق) الآية 153 بتشديد التاء البزي بخلفه وعن الحسن والأعمش الذي أحسن بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو أحسن فحذف العائد وإن لم تطل الصلة وهو نادر وعن ابن محيصن من المفردة وأن تقولوا أو تقولوا بالغيب فيهما وأمال أهدى منهم حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وأدغم دال فقد جاءكم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف ومر إمالة جاء غير مرة وغلظ الأزرق لام أظلم بخلفه واشم صاد يصدفون حمزة والكسائي وخلف ورويس بخلفه

واختلف في (تأتيهم الملائكة) الآية 158 هنا والنحل الآية 33 فحمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير فيهما والباقون بالتأنيث لأن لفظه مؤنث

واختلف في (فرقوا) الآية 159 هنا والروم الآية 32 فحمزة والكسائي بألف بعد الفاء وتخفيف الراء من المفارقة وهي الترك لأن من آمن بالبعض وكفر بالبعض فقد ترك الدين القيم أو فاعل بمعنى فعل من التفرقة والتجزئة أي آمنوا ببعضه وافقهما الحسن والباقون بتشديد الراء بلا ألف فيهما

واختلف في ( ) فله عشر أمثالها ( ) الآية 160 فيعقوب عشر بالتنوين أمثالها بالرفع صفة لعشر وعن الأعمش عشر بالتنوين أمثالها بالنصب والباقون وعشر بغير تنوين أمثالها بالخفض على الإضافة وأمال يجزى حيث جاء حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

وقرأ (ربي إلى) الآية 161 بفتح ياء الإضافة نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وتقدم الخلف في صراط قريبا

(46/224)

واختلف في (دينا قيما) الآية 161 فابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وكذا خلف بكسر القاف وفتح الياء مخففا كالشبع مصدر قام دام وافقهم الأعمش لي دينا دائما والباقون بفتح القاف وكسر الياء مشددة كسيد مصدر على فيعل فاصله قيوم اجتمعت

الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت أي دينا مستقيما وقرأ إبراهيم بالألف هشام وابن ذكوان بخلفه وعن الحسن ونسكى بسكون السين وسكن ياء الإضافة من محياي نافع وابو جعفر لكن بخلف عن الأزرق والوجهان صحيحان عنه خلافا عنه خلافا لمن ضعف الإسكان عنه كما تقدم وأماله الدوري عن الكسائي وقلله الأزرق بخلفه وإذا وقف من فتح الياء فله ثلاثة الوقف لعروض السكون أما من سكنها فبإشباع المد للساكنين وصلا ووقفا للزوم السكون وفتح ياء الإضافة من مماتي لله نافع وأبو جعفر وتقدم لحمزة مد لا التي للتبرئة في نحو لا شريك له مدا وسطا

وقرأ (وأنا أول) الآية 163 بالمد نافع وأبو جعفر وتقدم غير مرة أن للأزرق في نحو أتاكم طرقا خمسة من تثليث مد البدل وفتح الألف وتقليلها فراجعها إن شئت وتقدم أيضا الخلف له في ترقيق راء وزر والوجهان في جامع البيان

المرسوم اتفق على رسم الهمزة المكسورة ياء في أئنكم لتشهدون وكتب أرأيتم أرأيتكم في بعضها بألف بعد الراء وفي بعضها بلا ألف واختلف في أنبوا ما كانوا

(47/224)

فرسمت الهمزة في بعضها واوا مع زيادة ألف بعدها وحذف الألف قبلها وجعله في الأصل هنا من المتفق عليه بالواو مع أنه قدم في وقف حمزة تبعا للنشر أنه من المختلف فيه أما فيكم شركوا فمن المتفق عليه بالواو وكتبوا ولدار الآخرة بلام واحدة في الشامية وبلامين في بقيتها واتفقوا على رسم من نباي المرسلين بياء بعد الألف وصوب في النشر أنها صورة الهمزة وكتبوا في الكل بالغدوة هنا والكهف بالواو وكتبوا لئن لم يهدني بالياء وكذا اتحاجوني ويوم يأتي وهذا روى نافع عن المدني حذف ألف ولا طئر وذريتهم وألف قرية أكبر وكتبوا فالق الحب وجعل الليل سكنا بألف في بعضها وفي بعضها بالحذف وكتبوا لئن أنجينا بثنتين في الكوفي وبثلاث في بقيتها وكتب في العراقية إلى أولياهم وقال أولياهم بحذف الياء والواو وكذا أولياءكم بالأحزاب ونحن أولياءكم بفصلت وكتبوا أولادهم شركائهم بالياء في الشامي وبواو في غيره وكتبوا في الكل فرقوا دينهم بلا ألف بعد الفاء هنا وفي الروم

المقطوع والموصول اتفقوا على قطع إن عن لم حيث جاء نحو (إن لم يكن وكأن لم تغن) وعلى وصل أم بما الاسمية نحو (أما اشتملت) واختلف في قطع في عن ما في قوله فيما أوحى وليبلوكم فيما آتيكم إن ويأتي بقية العشر إن شاء الله تعالى واتفق على قطع أن المكسورة عن ما هنا فقط إن ما توعدون لآت واختلف في إنما عند الله بالنحل واتفقوا على كتابه وتمت كلمت بالتاء كأول يونس واخلف في ثانيه كموضع غافر

آيات الإضافة ثمان (إني أمرت) الآية 14 (إني أخاف) الآية 15 (إني أراك) الآية 74

(وجهي لله) الآية 79 (صراطي مستقيما) الآية 153 ( ) ربي إلى صراط (الآية 161 (محياي ومماتي) الآية 162

الزوائد واحدة (وقد هدان) الآية 80 وذكر كل في محله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر صـ 260 . 279 ﴾

(48/224)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الأنعام "

" وهو " جلي .

" سركم " رقق الراء ورش .

" تأتيهم " أبدل الهمز مطلقا ورش والسوسي وأبو جعفر ، وعند الوقف حمزة وضم يعقوب الهاء ومثله يأتيهم .

" أنباء " رسمت الهمزة فيه على واو ، ففيه لحمزة وهشام وقفا اثنا عشر وجها : خمسة على القياس ، وسبعة على الرسم ، وقد سبق بيانها في " وذلك جزاؤ الظالمين " بالمائدة .

" يستهزءون " لا يخفى ما فيه من ثلاثة البدل لورش ، ولأبي جعفر الحذف في الحالين ولحمزة

في الوقف ثلاثة أوجه: الحذف ، والتسهيل ، والإبدال ياء وقد تقدمت غير مرة .

" عليهم " جلي .

" مدرارا " في رائه التفخيم لجميع القراء للتكرار .

" وأنشأنا " أبدل الهمز السوسي وأبو جعفر مطلقا وحمزة وقفا ، وله في الأولى التحقيق والتسهيل وقفا .

" قرنا آخرين " لا يخفى ما فيه لورش وحمزة وقفا .

" قرطاس " فخم الجميع الراء لحرف الاستعلاء بعدها .

" فلمسوه " جعلناه ، لجعلناه ، وصل الهاء في الجميع ابن كثير .

" بأيديهم " ضم الهاء يعقوب .

" سحر مبين " سخروا ، سيروا ، خسروا ، رقق الراء في الجميع ورش .

" عليهم " جلي .

" ولقد استهزئ " كسر الدال وصلا البصريان وعاصم وحمزة ، وضمها الباقون ، وأبدل أبو جعفر الهمزة ياء محضة مفتوحة وصلا وساكنة وقفا ، وليس لحمزة فيه وقفا إلا الإبدال ياء ساكنة مدية .

" يستهزءون " تقدم قريبا .

" يؤمنون " جلي ، وهو آخر الربع .

الممال

يا عيسى ابن مريم معا لدى الوقف ، والموتى وعيسى ابن مريم لدى الوقف بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، التوراة تقدم ، للناس لدوري البصري . قضى ومسمى لدى الوقف ، بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه ، جاءهم بالإمالة لابن ذكوان وخلف وحمزة ، فحاق لحمزة وحده بالإمالة ، القيامة وقفا للكسائي بلا خلف عنه .

المدغم

" الصغير " وإذ تخلق وإذ تخرج قد صدقتنا للبصري وهشام والأخوين وخلف ، إذ جئتهم للبصري وهشام ، هل تستطيع للكسائي وإن تغفر لهم للبصري بخلف عن الدوري .

(49/224)

" الكبير " تعلم ما . ولا أعلم ما . قال الله هذا . خلقكم . ويعلم ما . عليك كتابا .

" وهو معا ، أغير ، فهو ، القاهر " جلي .

" إني أمرت " فتح الياء المدنيان وأسكنها غيرهما .

" إني أخاف " فتح الياء المدنيان والبصري والمكي ، وأسكنها الباقون .

" من يصرف " قرأ شعبة والأخوان وخلف ويعقوب بفتح الياء وكسر الراء ، والباقون بضم الياء وفتح الراء .

" القرآن " نقل المكي حركة الهمزة إلى الراء قبلها ، وحذفها في الحالين ، وكذلك وقف حمزة .

" لأنذركم " رقق الراء ورش ، ولحمزة في الوقف عليه تحقيق الهمزة وإبدالها ياء محضة ، وتسهيلها بين بين .

" أئنكم " سهل الهمزة الثانية بينها وبين الياء ، وأدخل ألفا بينها وبين الأولى قالون وأبو عمرو وأبو جعفر ، وسهلها من غير إدخال ورش ، وابن كثير ورويس ، ولهشام وجهان: تحقيقها مع الإدخال وعدمه ، وللباقين التحقيق بلا إدخال ، ولحمزة عند الوقف التحقيق والتسهيل .

" برئ " أبدل حمزة وهشام عند الوقف الهمزة ياء ، وأدغم الياء قبلها فيها مع السكون المحض والإشمام والروم وليس لهما غير ذلك لزيادة الياء .

" نحشرهم ثم نقول " قرأ يعقوب بالياء التحتية فيهما ، والباقون بالنون فيهما كذلك .

" لم تكن فتنتهم " قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وشعبة وخلف بتأنيث يكن ونصب فتنتهم وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص بالتأنيث والرفع . وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بالتذكير والنصب .

" والله ربنا " قرأ الأخوان وخلف بنصب الباء ، والباقون بجرها .

" أساطير الأولين " جلي لورش وحمزة .

" وينأون " وقف عليه حمزة بنقل حركة الهمزة إلى النون وحذف الهمزة ، فيصير النطق بنون مفتوحة وبعدها الواو الساكنة .

" ولا نكذب . ونكون " قرأ حفص وحمزة ويعقوب بنصب الباء في الفعل الأول ونصب النون في الثاني . وقرأ ابن عامر بالرفع في الأول والنصب في الثاني . وقرأ الباقون بالرفع في الفعلين معا .

" عنه " وصل الهاء ابن كثير .

" خسر " رقق الراء ورش .

(50/224)

" وللدار " قرأ ابن عامر بلام واحدة وتخفيف الدال وجر الآخرة ، والباقون بلامين وتشديد الدال ورفع الآخرة ، ورقق ورش راء الآخرة ، وكذا راء خير .

" تعقلون " قرأ المدنيان والشامي وحفص ويعقوب بتاء الخطاب ، والباقون بياء الغيب .

" ليحزنك " قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي ، والباقون بفتح الياء وضم الزاي .

" لا يكذبونك " قرأ نافع والكسائي بإسكان الكاف وتخفيف الذال ، والباقون بفتح الكاف وتشديد الذال .

" من نبأ " رسمت الهمزة فيه على ياء ، ففيه لحمزة وهشام في الوقف عليه أربعة أوجه . الأول: إبدال الهمزة ألفا . الثاني: تسهيلها مع الروم . الثالث والرابع: إبدالها ياء خالصة على الرسم مع السكون والروم .

" إعراضهم " راؤه مفخمة لجميع القراء ورش وغيره .

" الجاهلين " آخر الربع .

الممال

والنهار والنار للبصري والدوري بالإمالة ، ولورش بالتقليل . أخرى وافترى وترى معا بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . الدنيا معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . آذانهم: بالإمالة لدوري الكسائي . جاءوك وجاءتهم وجاءك وشاء لابن ذكوان وخلف وحمزة . بلى وأتاهم والهدى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، ولا إمالة في بدا ، لأنه واوي .

المدغم

" الصغير " ولقد جاءك للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " هو وإن ، أظلم ممن ، كذب بآياته ، نقول للذين ، ولا نكذب بآيات ، العذاب بما ،

ولا مبدل لكلمات الله .

" إليه يرجعون " وصل ابن كثير هاء الضمير . وقرأ يعقوب يرجعون بفتح الياء وكسر الجيم ، والباقون بضم الياء وفتح الجيم .

" على أن ينزل " قرأ المكي وحده بالتخفيف ، والباقون بالتشديد .

" يطير بجناحيه " رقق الراء ورش ، ووصل المكي هاء الكناية .

" من يشأ الله " لا إبدال فيه لأحد في حالة الوصل ، وأما في حالة الوقف فلا يبدله إلا أبو جعفر وحمزة .

" ومن يشأ يجعله " أبدله أبو جعفر وحده في الحالين وحمزة عند الوقف ، وهو من المستثنيات للسوسي .

" صراط " لا يخفى .

(51/224)

" أرأيتكم معا ، وأرأيتم " قرأ نافع وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية المتوسطة بينها وبين الألف ، ولورش وجه ثان ، وهو إبدالها ألفا خالصة مع إشباع المد للساكنين . وقرأ الكسائي بحذف هذه الهمزة ، والباقون بإثباتها محققة في الحالين إلا حمزة فسهلها عند

الوقف .

" أغير الله ، إياه ، إليه " كله ظاهر .

" بالبأساء . بأسنا " أبدل الهمز في الحالين أبو جعفر والسوسي وفي الوقف حمزة .

" ذكروا " رقق الراء ورش .

" فتحنا عليهم " قرأ ابن عامر وأبو جعفر ورويس بتشديد التاء ، والباقون بتخفيفها .

وضم هاء عليهم حمزة ويعقوب .

" دابر ، ظلموا " رقق الراء وغلظ اللام ورش .

" يصدقون " قرأ الأخوان وخلف ورويس بإشمام الصاد صوت الزاي ، والباقون بالصاد الخالصة .

" وأصلح " غلظ اللام ورش .

" فلا خوف عليهم " تقدم مرارا .

" إلى " وقف يعقوب بهاء السكت .

" بالغداة " قرأ ابن عامر بضم الغين وإسكان الدال وبعدها واو مفتوحة . والباقون بفتح الغين والدال وبعدها ألف .

" إنه من . فإنه " قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الهمزة في الأولى والكسر في الثانية . وقرأ الشامي وعاصم ويعقوب بالفتح فيهما ، والباقون بالكسر فيهما .

" سوءا " فيه لحمزة وقفا النقل والإدغام .

" ولتستبين سبيل " قرأ نافع وأبو جعفر بتاء الخطاب ونصب لام سبيل . وقرأ شعبة والأخوان وخلف بالياء ورفع سبيل ، والباقون بالتاء والرفع .

" يقص الحق " قرأ المدنيان والمكي وعاصم بضم القاف وبعدها صاد مهملة مضمومة مشددة ، والباقون بسكون القاف . وبعدها ضاد معجمة مكسورة مخففة . ويقف هؤلاء بحذف الياء إجراء للوقف مجرى الوصل واكتفاء عن الياء بالكسرة إلا يعقوب فيقف بإثبات الياء على أصله .

" وهو خير " جلي .

" بالظالمين " آخر الربع .

الممال

والمولى للأصحاب بالإمالة ، وللبصري وورش بالتقليل بخلف عن ورش . آتاكم معا والأعمى ويوحى للأصحاب بالإمالة ، ولورش بالتقليل بخلفه . شاء وجاءهم وجاءك لابن ذكوان وخلف وحمزة .

المدغم

" الصغير " ، إذ جاءهم للبصري وهشام . قد ضللت للبصري وورش والشامي والأخوين وخلف . " الكبير " وزين لهم . الآيات ثم ، العذاب بما . أقول لكم معا ، بأعلم بالشاكرين أعلم بالظالمين ، ولا إدغام في بالعشي يريدون للتشديد .

" إلا هو " وقف عليه يعقوب بهاء السكت .

" وهو " جلي .

جاء أحدكم ، سبق في سورتي النساء والمائدة .

" توفته " قرأ حمزة وحده بألف ممالة بعد الفاء ، والباقون بتاء ساكنة مكان الألف .

" رسلنا " أسكن أبو عمرو السين وضمها غيره .

" من ينجيكم " قرأ يعقوب بإسكان النون وتخفيف الجيم ، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم .

" وخفية " قرأ شعبة بكسر الخاء ، والباقون بضمها .

" أنجانا " قرأ الكوفيون بألف بعد الجيم من غير ياء ولا تاء ، والباقون بياء تحتية ساكنة بعد الجيم وبعدها تاء فوقية مفتوحة .

" قل الله ينجيكم " قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الجيم ، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم .

" القادر " رقق الراء ورش .

" بأس " أبدل الهمز السوسي وأبو جعفر مطلقا ، وحمزة وقفا .

" بعض انظر " قرأ البصريان وابن ذكوان وعاصم وحمزة بكسر التنوين وصلا ، والباقون بالضم

" نبأ " فيه لحمزة وهشام وقفا الإبدال ألفا والتسهيل بالروم .

" حديث غيره " أخفى أبو جعفر التنوين في الغين مع الغنة ، وأظهره غيره .

" ينسينك " قرأ ابن عامر بفتح النون التي قبل السين وتشديد السين ، والباقون بإسكان النون وتخفيف السين .

" لعبا ولهوا وغرتهم " أدغم خلف عن حمزة التنوين في الواو بلا غنة ، والباقون بالإدغام والغنة .

" استهوته " حكمها حكم توفته للقراء جميعا .

" حيران " فيه لورش التفخيم والترقيق .

" الهدى ائتنا " أبدل ورش والسوسي وأبو جعفر همز ائتنا ألفا عند وصل الهدى بائتنا سواء وقفوا على ائتنا أم وصلوها بما بعدها وكذلك حمزة إذا وصل الهدى بائتنا ووقف عليها .

أما عند الوقف على الهدى والابتداء بائتنا فجميع القراء يبتدئون بهمزة وصل مكسورة مع إبدال همزة ائتنا حرف مد ، أي ياء ساكنة مدية .

" لرب " لا ترقيق لورش فيه لعدم أصالة الكسرة .

" الصلاة ، واتقوه . وهو . إليه " كله واضح .

" فيكون " أجمع القراء العشرة على رفع نونه .

" الخبير " آخر الربع .

الممال

يتوفاكم ، وليقضى ، ومسمى لدى الوقف مولاهم وهدانا والهدى وهدى لدى الوقف عليهما ، والهدى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلفه . أنجانا بالإمالة للأصحاب ، ولا تقليل فيه لورش لأنه يقرأ بالتاء .

توفاه ، واستهواه ، بالإمالة لحمزة وحده لأن غيره يقرأ بالتاء ، ولا تقليل فيه لورش لذلك .

بالنهار للبصري والدوري ولورش بالتقليل ، جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة خفية للكسائي بالإمالة بلا خلاف ، الذكرى وذكرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . الدنيا بالإمالة للأصحاب وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

واعلم أن ورشا لا يقلل الألف التي بعد الدال في الهدى ائتنا إلا عند الوقف كما ذكرنا أما

عند وصل الهدى بائتنا فلا تقليل له على الصحيح لأن الألف التي بعد الدال في حالة الوصل هي المبدلة من الهمزة على الصحيح .

وأما ألف الهدى فإنها تحذف لوجود الساكن بعدها وهو الهمزة سواء حققت الهمزة أم أبدلت لأن المقصود من الإبدال إنما هو التخفيف ، والتخفيف عارض ، وكذلك لا إمالة لحمزة في ألف الهدى عبد وصلها بائتنا مع الوقف على ائتنا للعلة السابقة . ولذلك قال ابن الجزري والصحيح المأخوذ به عن ورش وحمزة فيه الفتح . انتهى .

المدغم

" الكبير " هو ويعلم ما في البر . ويعلم ما جرحتم ، الموت توفته ، وكذب به ، هدى الله هو ،

.

" آزر " قرأ يعقوب بضم الراء ، والباقون بفتحها ، وورش على أصله في البدل .

" إبى أراك " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم ،

" برئ " فيه لحمزة وهشام وقفا الإدغام فقط مع السكون والإشمام والروم ، وتقدم مثله أول السورة .

" وجهي للذي " فتح الياء المدنيان والشامي وحفص ، وسكنها الباقون .

" أتحاجوني في الله " قرأ المدنيان وابن ذكوان وهشام بخلف عنه بتخفيف النون ، والباقون بتشديدها ، وهو الوجه الثاني لهشام .

" وقد هدان " قرأ البصري وأبو جعفر باثبات الياء وصلا ، ويعقوب باثباتها في الحالين والباقون بحذفها كذلك .

" ما لم ينزل " خففه المكي والبصريان ، وشدده الباقون .

" درجات " قرأ الكوفيون ويعقوب بتنوين التاء ؛ والباقون بحذفه .

" نشاء إن " قرأ المدنيان والمكي والبصري ورويس بتسهيل الهمزة الثانية ، وعنهم إبدالها واوا محضة ، والباقون بتحقيقها .

" وزكريا " قرأ حفص والأخوان وخلف بترك الهمز وصلا ووقفا ، والباقون باثبات الهمز مفتوحا وصلا وساكنا وقفا ، ووقف هشام عليه كوقفه على شاء ، ولا شيء فيه لحمزة وقفا لأنه يقرأ بترك الهمز .

" واليسع " قرأ الأخوان وخلف بلام مشددة مفتوحة وبعدها ياء ساكنة ، والباقون بلام خفيفة ساكنة وبعدها ياء مفتوحة .

" صراط والنبوة " جلي .

" اقتده " قرأ المدنيان والمكي والبصري وعاصم بإثبات الهاء ساكنة وصلا ووقفا . وقرأ

الأخوان ويعقوب وخلف بحذفها وصلا وإثباتها ساكنة وقفا . وقرأ هشام بإثباتها مكسورة من غير إشباع وصلا ، وبإثباتها ساكنة وقفا . وقرأ ابن ذكوان بإثباتها مكسورة مع الإشباع وصلا ، وبإثباتها ساكنة وقفا .

وأما ما ذكره الشاطبي لابن ذكوان من أن له وجهين وصلا: القصر والإشباع فخروج عن طريقه ، إذ طريقه الإشباع فقط ، وهذا هو المقروء به من طريق الشاطبي . والخلاصة أنه لا خلاف بين القراء في إثباتها ساكنة في حال الوقف ، وإنما الخلاف في حال الوصل كما علمت .

" تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون " قرأ المكي والبصري بياء الغيب في الأفعال الثلاثة ، والباقون بتاء الخطاب فيها .

"كثيرا " رقق الراء ورش .

" ولتنذر " قرأ شعبة بياء الغيب ؛ والباقون بتاء الخطاب ، ورقق ورش راءه .

" صلاتهم ، أظلم ، أيديهم "كله جلي .

(55/224)

" شركاؤا " رسمت فيه الهمزة على واو ، ففيه لحمزة وهشام اثنا عشر وجها : خمسة القياس وسبعة الرسم ، وسبق بيانها في جزاء بالمائدة .

" بينكم " قرأ المدنيان وحفص والكسائي بفتح النون ، والباقون بضمها .

" تزعمون " آخر الربع .

الممال

أراك بالإمالة للأصحاب والبصري ، وبالتقليل لورش ، رأى كوكبا ، قلل ورش الراء ، والهمزة معا ، وهو على أصله في البدل من القصر والتوسط والمد ، وأمال أبو عمرو الهمزة فقط مع فتح الراء . وما ذكره الشاطبي من الخلاف للسوسي في إمالة ليس من طريقه فلا يقرأ به .

وقرأ ابن ذكوان وشعبة والأخوان وخلف بإمالة الراء والهمزة معا ، رأى القمر ، ورأى الشمس عند الوقف على رأى من كل منهما يكون حكمهما كحكم رأى كوكبا . وعند وصلها بالقمر أو الشمس يتغير حكمها ، فيقرأ بإمالة الراء وحدها شعبة وحمزة وخلف ، ولم يمل أحد من القراء الهمزة . وما ذكره الشاطبي من الخلاف في إمالة الهمزة لشعبة ، وفي إمالة الراء والهمزة معا للسوسي ، فلا يصح من طرق الشاطبية ، بل ولا من طرق النشر فلا يقرأ به أصلا ، هداني بالإمالة للكسائي والتقليل لورش بخلفه ، موسى معا وعيسى ويحيى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . ذكرى والقرى وافترى وترى

ونرى بالإمالة للأصحاب ، والبصري والتقليل لورش بلا خلاف عنه .

هدى الله وهدى الله وهدى لدى الوقف عليها ، وفبهداهم ، وفرادى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه . بكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس ، والتقليل لورش .

جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، الناس لدوري البصري .

المدغم

" الصغير " ولقد جئتمونا ، للبصري وهشام والأخوين وخلف ، لقد تقطع لجميع القراء .

" الكبير " إبراهيم ملكوت . الليل رأى . قال لا أحب . قال لئن . أظلم ممن . ولا إدغام في حق قدره ، لوجود التشديد .

" الميت معا " قرأ نافع وحفص والأخوان ويعقوب وخلف وأبو جعفر بتشديد الياء مكسورة ، والباقون بتخفيفها ساكنة .

(56/224)

" تؤفكون " أبدل الهمز في الحالين ورش للسوسي وأبو جعفر وفي الوقف حمزة .

" وجعل الليل " قرأ الكوفيون بفتح العين واللام من غير ألف بينهما ، وبنصب الليل ،

والباقون بالألف بعد الجيم ، وكسر العين ، ورفع اللام ، وخفض الليل .

" تقدير " رقق الراء ورش .

" أنشأكم " سهل الهمزة الثانية وقفا حمزة .

" فمستقر " قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بكسر القاف ، والباقون بفتحها ، ولا خلاف بينهم في فتح دال ومستودع .

" خضرا " رقق ورش راءه ، وكذلك راء وغير .

" متشابه انظروا قرأ البصري وابن ذكوان وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر التنوين وصلا والباقون بضمه كذلك .

" ثمره " قرأ الأخوان وخلف بضم الثاء والميم ، والباقون بفتحهما .

" وخرقوا " قرأ المدنيان بتشديد الراء ، والباقون بتخفيفها .

" وهو " جلي .

" بصائر " رقق الراء ورش .

" درست " قرأ المكي والبصري بألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء . وقرأ ابن عامر ويعقوب بغير ألف مع فتح السين وسكون التاء . والباقون بغير ألف ، وإسكان السين ، وفتح التاء .

" عليهم " معا جلي .

" عدوا " قرأ يعقوب بضم العين والدال ، وتشديد الواو ، والباقون بفتح العين وإسكان الدال .

" فينبئهم " وقف عليه حمزة بتسهيل الهمزة بينها وبين الواو وبإبدالها ياء خالصة .

" وما يشعركم " قرأ البصري بخلف عن الدوري بإسكان الراء . والوجه الآخر للدوري اختلاس ضمتها ، والباقون بالضمة الكاملة . وعلى وجه الإسكان لابد من ترقيق الراء لسكونها بعد كسرة لازمة . وعلى وجه الاختلاس لابد من تفخيمها ، لأن الاختلاس حركة وإن لم تكن كاملة فحكمها حكم الحركة التامة .

" أنها إذا قرأ المكي والبصريان وخلف عن نفسه وشعبة بخلف عنه بكسر الهمزة ، والباقون بفتحها ، وهو الوجه الثاني لشعبة .

" لا يؤمنون " قرأ ابن عامر وحمزة بتاء الخطاب ، والباقون بياء الغيبة .

" يعمهون " آخر الربع .

الممال

والنوى وتعالى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه ، فأنى وأنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري ولورش بخلفه ، جاءكم وشاء وجاءتهم وجاءت لابن ذكوان وحمزة وخلف ، طغيانهم لدوري الكسائي ولا تقليل فيه لورش .

المدغم

" الصغير " قد جاءكم للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " جعل لكم . وخلق كل شيء . خالق كل شيء . وهو وأعرض .

" إليهم الملائكة " قرأ البصري وصلا بكسر الهاء والميم . والأخوان وخلف ويعقوب وصلا بضمهما . فاذا وقفوا فالبصري بكسر الهاء وإسكان الميم ، وحمزة ويعقوب بضم الهاء وإسكان الميم ، والكسائي وخلف بكسر الهاء وإسكان الميم . وقرأ الباقون وصلا بكسر الهاء وضم الميم ، ووقفا بكسر الهاء وإسكان الميم .

" عليهم " جلي .

" قبلا " قرأ المدنيان والشامي بكسر القاف وفتح الباء ، والباقون بضمهما .

" لكل نبي " قرأ نافع بالهمز ، والباقون بالياء المشددة .

" أفئدة " وقف حمزة عليه بنقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة فيصير النطق بفاء مكسورة وبعدها الدال .

" أفغير " رقق الراء ورش .

" وهو " سبق غير مرة .

" مفصلا " فخم اللام ورش .

" منزل " قرأ ابن عامر وحفص بفتح النون وتشديد الزاي ، والباقون بإسكان النون وتخفيف الزاي .

" وتمت كلمت " قرأ الكوفيون ويعقوب بغير ألف بعد الميم ، والباقون بإثباتها . وهو مكتوب بالتاء في جميع المصاحف فمن قرأه بالألف وقف بالتاء ، ومن قرأه بحذفها فمنهم من يقف بالتاء ، وهم عاصم وحمزة وخلف . ومنهم من يقف بالهاء على أصل مذهبه ، وهما الكسائي ويعقوب .

" وهو " كله ظاهر .

" ذكر اسم الله " معا رقق الراء ورش .

" مؤمنين " جلي .

(58/224)

" فصل لكم ما حرم " قرأ نافع وحفص وأبو جعفر ويعقوب بفتح الفاء والصاد في الأول وفتح الحاء والراء في الثاني ، وقرأ شعبة والأخوان وخلف بفتح الفاء والصاد في الأول وضم

الحاء وكسر الراء في الثاني . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم الفاء وكسر الصاد في الأول وضم الحاء وكسر الراء في الثاني ، وفخم ورش لام فصل وصلا وله في الوقف التفخيم والترقيق ، والأول أرجح .

" كثيرا " فيه الترقيق لورش .

" ليضلون " قرأ الكوفيون بضم الياء ، والباقون بفتحها .

" بأهوائهم " لحمزة وقفا تحقيق الأولى وإبدالها ياء خالصة ، وعلى كل تسهيل الثانية مع المد والقصر فله أربعة أوجه .

" ظاهر " فيه الترقيق لورش .

" عليه " وصل الهاء ابن كثير وكذلك: فأحييناه .

" أو من كان ميتا " قرأ المدنيان ويعقوب بتشديد الياء مع كسرها ، والباقون بإسكانها .

" رسالته " قرأ حفص وابن كثير بغير ألف بعد اللام ونصب التاء ، والباقون بإثبات الألف وكسر التاء .

" ضيقا " قرأ المكي بإسكان الياء ، والباقون بكسرها مشددة .

" حرجا " قرأ المدنيان وشعبة بكسر الراء ، والباقون بفتحها .

" يصعد " قرأ المكي بإسكان الصاد وتخفيف العين من غير ألف بينهما ، وقرأ شعبة بتشديد الصاد وتخفيف العين وألف بينهما ، والباقون بتشديد الصاد والعين من غير ألف

بينهما .

" صراط " جلي .

" يذكرون " آخر الربع .

الممال

الموتى للأصحاب بالإمالة ، وللبصري وورش بالتقليل بخلف عن ورش ، شاء وجاءتهم لابن ذكوان وحمزة وخلف ، ولتصغى ونؤتى للأصحاب بالإمالة ولورش بالتقليل بخلفه .

الناس لدوري البصري للكافرين للبصري والدوري ورويس بالإمالة ، ولورش بالتقليل .

المدغم

" الكبير " لا مبدل لكلماته ، أعلم من ، أعلم بالمهتدين ، فصل لكم ، أعلم بالمعتدين ، زين للكافرين يجعل رسالته ، والله تعالى أعلم .

" وهو " جلي .

" يحشرهم " قرأ حفص وروح بالياء التحتية ، والباقون بالنون .

" وينذرونكم " رقق الراء ورش .

" عما يعملون " قرأ ابن عامر بالتاء الفوقية ، والباقون بالياء التحتية .

" إن يشأ " أبدله أبو جعفر في الحالين وحمزة عند الوقف ، ولا إبدال فيه لورش ولا للسوسي .

" مكانتكم " قرأ شعبة بألف بعد النون ، والباقون بغير ألف .

" من تكون " قرأ الأخوان وخلف بياء التذكير ، والباقون بتاء التأنيث .

" بزعمهم " معا قرأ الكسائي بضم الزاي ، والباقون بفتحها .

" فهو ، شركائنا شركائهم . ساء " كله واضح .

" زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم " قرأ ابن عامر بضم الزاي في زين وكسر يائه ورفع لام قتل ونصب دال أولادهم وخفض همزة شركاؤهم ، والباقون بفتح الزاي والياء ونصب لام قتل وكسر دال أولادهم ورفع همزة شركاؤهم .

وقراءة ابن عامر ثابتة بطريق التواتر . وقد طعن فيها بعض القاصرين فانبرى للرد عليهم ، وتوجيه هذه القراءة علماء الإسلام وساقوا من الشواهد والأدلة على تواترها وشد أزرها من منثور العرب ومنظومهم ما لا يدع مجالا لمنكر . ولا شبهة لمرتاب . ومرجع هذا الكتب المطولة في القراءات والتفسير ففيها الكفاية والغناء .

" حجر . افتراء " رقق الراء فيهما ورش .

" سيجزيهم " معا ضم الهاء يعقوب .

" وإن يكن ميتة " قرأ نافع وأبو عمرو وحفص والأخوان وخلف ويعقوب بتذكير يكن ونصب ميتة . وقرأ ابن عامر بتأنيث يكن ورفع ميتة ، ومثله أبو جعفر إلا أنه يشدد الياء حسب مذهبه ، وقرأ المكي بتذكير يكن ورفع ميتة . وقرأ شعبة بالتأنيث والنصب .

" شركاء " فيه لحمزة وهشام وقفا خمسة القياس ، وهي معلومة .

" قتلوا " قرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد التاء ، والباقون بالتخفيف .

" مهتدين " آخر الربع .

الممال

مثواكم للأصحاب بالإمالة ، ولورش بالتقليل بخلفه ، ولا يميله البصري لأنه على زنة مفعل ، شاء معا لابن ذكوان وحمزة وخلف ، الدنيا وقربى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلفه . كافرين للبصري والدوري ورويس ، ولورش بالتقليل .

الدار للسابقين ما عدا رويسا .

المدغم

" الصغير " حرمت ظهورها . قد ضلوا ، كلاهما لورش والبصري والشامي والأخوين وخلف .

" الكبير " وهو وليهم ، زين لكثير .

" وهو " جلي وكذلك وغير معا .

" أكله " قرأ نافع وابن كثير بإسكان الكاف ، والباقون بضمها .

" من ثمره " قرأ الأخوان وخلف بضم الثاء والميم ، والباقون بفتحهما .

حصاده ، قرأ البصريان والشامي وعاصم بفتح الحاء ، والباقون بكسرها .

" خطوات " قرأ حفص وقنبل والشامي وعلي أبو جعفر ويعقوب بضم الطاء والباقون بإسكانها .

" الضأن " أبدل الهمز السوسي وأبو جعفر مطلقا ، وعند الوقف حمزة .

" المعز " قرأ المكي والشامي والبصريان بفتح العين ، والباقون بإسكانها .

" آلذكرين " معا اجتمع في هذه الكلمة همزة الاستفهام وهمزة الوصل وقد أجمع القراء على إبقاء همزة الوصل وعلى تغييرها ، ونقل عنهم في كيفية هذا التغيير وجهان: الأول: إبدالها ألفا خالصة فتجتمع هذه الألف مع ما بعدها من الساكن اللازم المدغم فيمد لأجل ذلك مدا مشبعا . والوجه الثاني: بينها وبين الألف ، والوجهان صحيحان مقروء بهما لجميع القراء .

وعلى وجه التسهيل لا يجوز إدخال ألف بين همزة الاستفهام وهمزة الوصل . وإذا أبدل ورش ثلث البدل في نبئوني ، وإذا سهل وسط أو مد فقط .

" نبئوني " فيه لأبي جعفر الحذف في الحالين ، ولحمزة وقفا ما في يستهزءون من الأوجه الثلاثة ، ولورش تثليث البدل .

" شهداء إذ " سهل الثانية بين بين المدنيان والمكي والبصري ورويس ، وحققها غيرهم ولا خلاف في تحقيق الأولى .

" إلا أن يكون ميتة " قرأ نافع والبصريان وعاصم والكسائي وخلف في اختياره: يكون بالتذكير ، وميتة بالنصب . وقرأ ابن عامر وأبو جعفر يكون بالتأنيث وميتة بالرفع مع تشديد ميتة لأبي جعفر . وقرأ ابن كثير وحمزة: يكون بالتأنيث ، وميتة بالنصب .

" فمن اضطر " تقدم في سورة البقرة .

" غير " رققه ورش .

" بأسه . بأسنا . فتخرجوه ، يؤمنون . بالآخرة " لا يخفى ما في كل منها .

" يعدلون " آخر الربع .

الممال

وصاكم والحوايا ولهداكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه والإمالة في الحوايا في الألف التي بعد الياء – افترى بالإمالة للأصحاب والبصري وبالتقليل لورش واسعة ، والمبالغة للكسائي بخلف عنه . شاء سعا لابن ذكوان وحمزة وخلف .

المدغم

" الصغير " حملت ظهورهما . لورش والبصري والشامي والأخوين وخلف .

" الكبير " رزقكم ، الأنثيين ، نبئوني . أظلم ممن ، كذلك كذب:

تذكرون ، قرأ حفص والأخوان وخلف بتخفيف الذال ، والباقون بتشديدها .

" وأن هذا صراطي " قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة وتشديد النون . وقرأ ابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة وتخفيف النون ، والباقون بفتح الهمزة وتشديد النون ، وقرأ الشامي بفتح الياء في صراطي وصلا وإسكانها وقفا ، وغيره بإسكانها مطلقا ، ولا يخفى ما فيه من السين والإشمام .

" فاتبعوه " وصل الهاء المكي .

" فتفرق " قرأ البزي بتشديد التاء ، والباقون بالتخفيف .

" يؤمنون ، أنزلناه . فاتبعوه " كله جلي .

" دراستهم " يرقق ورش الراء لأصالة الكسرة قبلها .

" أظلم " غلظ اللام ورش .

" يصدفون " قرأ الأخوان وخلف ورويس بإشمام الصاد زايا ، والباقون بالصاد الخالصة .

" إلا أن تأتيهم " قرأ الأخوان وخلف بياء التذكير ، والباقون بتاء التأنيث . وإبدال همزه ظاهر .

" قل انتظروا " لا خلاف في كسر اللام وصلا ، ورقق ورش راءه ، وكذلك راء منتظرون .

" فرقوا " قرأ حمزة والكسائي بألف بعد الفاء وتخفيف الراء . والباقون بغير ألف وتشديد الراء .

" عشر أمثالها " قرأ يعقوب بتنوين عشر ورفع لام أمثالها ، والباقون بحذف التنوين وخفض اللام .

" لا يظلمون " غلظ اللام ورش .

ربي إلى " فتح الياء المدنيان والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" قيما " قرأ المدنيان والمكي والبصريان بفتح القاف وكسر الياء وتشديدها ، والباقون بكسر القاف وفتح الياء وتخفيفها .

" إبراهيم " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها ، الباقون بكسرها وياء بعدها .

" صلاتي " غلظ اللام ورش .

" ومحياي " قرأ قالون وأبو جعفر بإسكان الياء الثانية وصلا ووقفا ، وحينئذ يمدان مدا مشبعا لأجل الساكنين ، ولورش وجهان: الأول: كهذا الوجه ، والثاني: فتح الياء وحينئذ لا مد وهو قراءة الباقين . وكل من فتح الياء في الوصل يجوز له في الوقف الأوجه الثلاثة من أجل السكون العارض .

" ومماتي " قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الياء والباقون بإسكانها .

" وأنا أول " قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف أنا وصلا ، والباقون بحذفها كذلك ، وأجمعوا على إثباتها حالة الوقف ، ولا يخفى أن من يثبتها وصلا يكون المد عنده منفصلا فيجري كل حسب مذهبه .

" أغير ، وهو شيء . تزر ، وازرة ، وزر " لا يخفى ما في كل من القراءات .

" رحيم " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

وصاكم الثلاثة ، هدى معا لدى الوقف ، وأهدى ، ويجزي ، وهداني ، وآتاكم ، بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، قربى وموسى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . أخرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش جاءكم وجاء معا لابن ذكوان وخلف وحمزة . ومحياى بالإمالة لدوري

الكسائي ، والتقليل لورش بخلف عنه . وحينئذ يكون له أربعة أوجه: إسكان الياء وفتحها وكل منهما مع الفتح والتقليل .

المدغم

" الصغير " فقد جاءكم للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " نحن نرزقكم ، بإدغاميه ، أظلم ممن ، كذب بآيات ، العذاب بما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة صـ 115.99 ﴾

(63/224)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

سورة الأنعام

قوله تعالى من يصرف عنه يقرأ بفتح الياء وضمها فالحجة لمن ضم أنه جعله فعل ما لم يسم فاعله والضمير الذي في الفعل من ذكر العذاب مرفوع لأنه قام مقام الفاعل والحجة لمن فتح أنه جعل الفعل لله عز وجل والفاعل مستتر في النية والمفعول به هاء محذوفة كانت متصلة بالفعل هي كناية عن العذاب قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم يقرأ بالياء والنصب وبالتاء والرفع

فالحجة لمن قرأ بالتاء أنه أراد تأنيث لفظ الفتنة ورفع الفتنة باسم كان والخبر إلا أن قالوا لأن معناه إلا قولهم والحجة لمن قرأ بالياء ما قدمناه آنفا ونصب الفتنة بالخبر وجعل

(64/224)

إلا أن قالوا الاسم وهو الوجه لأن الفتنة قد تكون نكرة فهي بالخبر أولى وقوله إلا أن قالوا لا يكون إلا معرفة ومن شرط كان وأخواتها إذا اجتمع فيهن معرفة ونكرة كانت المعرفة أولى بالاسم والنكرة أولى بالخبر إلا في ضرورة شاعر ولذلك أجمع القراء على قوله فما كان جواب قومه إلا أن قالوا وكانت الياء أولى لأن الفعل للقول لا للفتنة فأما من قرأ بالتاء والنصب فالحجة له أن القول فتنة والفتنة قول فجاز أن يحل أحدهما محل الآخر وأيضا فإن هذا المصدر قد يمكن أن يؤنث على معنى المقالة ويذكر على معنى القول قوله تعالى ويوم نحشرهم يقرأ بالنون والياء فالحجة لمن قرأ بالنون أنه جعله من إخبار الله تعالى عن نفسه تعظيما وتخصيصا والحجة لمن قرأه بالياء أنه أراد يا محمد ويوم يحشرهم الله قوله تعالى والله ربنا يقرا بخفض الباء ونصبها فالحجة لمن قرأه بالخفض أنه جعله تابعا لاسم الله تعالى لئلا يذهب الوهم إلى أنه غيره إذ قد غير عن إعرابه والحجة لمن نصب أنه جعله منادى مضافا يريد يا ربنا ما كنا مشركين لأن الله تعالى قد تقدم ذكره فنادوه بعد ذلك مستغيثين به قوله

تعالى ولا نكذب بآيات ربنا ونكون يقرآن بالرفع والنصب فالحجة لمن قرأ بالنصب أنه جعله جوابا للتمني بالواو لأن الواو في الجواب كالفاء كقول الشاعر

(65/224)

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم ودليله أنه في حرف عبد الله بالفاء في الأول وبالواو في الثاني والنصب فيهما والحجة لمن رفع أنه جعل الكلام خبرا ودليله أنهم تمنوا الرد ولم يتمنوا الكذب والتقدير يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب بآيات ربنا ونكون ويحتمل أن يكونوا تمنوا الرد والتوفيق ومن التوفيق مع الرد ترك الكذب قوله تعالى وللذين يتقون أفلا تعقلون يقرأ بالتاء والياء في خمسة مواضع ها هنا وفي الأعراف ويوسف والقصص ويس فالحجة لمن قرأهن بالتاء أنه جعلهم مخاطبين على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم والحجة لمن قرأهن بالياء أنه جعلهم غيبا مبلغين عن الله عز وجل قوله تعالى فإنهم لا يكذبونك يقرأ بتشديد الذال وتخفيفها فالحجة لمن شدد أنه أراد لا يجدونك كاذبا لأنهم ما كانوا يشكون في صدقه ولذلك كان يدعي فيهم بالأمين ولكنهم يكذبون بما جئت به وقيل معناه فأنهم لا يأتون بدليل يدل على كذبك والحجة لمن خفف أنه أراد فإنهم لا يكذبونك في نفسك

ولكنهم يكذبونك فيما تحكيه عن الله عز وجل قوله تعالى إنه ليحزنك يقرأ بضم الياء وكسر الزاي وفتحها وضم الزاي وقد ذكر وجه علله فيما سلف

(66/224)

قوله تعالى أرأيتكم وما كان مثله من الاستفهام في القرآن يقرأ بإثبات الهمزة الثانية وطرحها وتليينها فالحجة لن أثبتها أنها عين الفعل وهي ثابتة في رأيت والحجة لمن طرحها أن هذه الهمزة لما كانت تسقط من الفعل المضارع في كلام فصحاء العرب ولا تستعمل إلا في ضرورة شاعر كقوله أري عيني ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات كان الماضي في القياس كالمضارع إذا قاربه همزة الاستفهام والحجة لمن لينها أنه كره اجتماع همزتين في كلمة واحدة فخفف الثانية بالتليين وحقق الأولى لأنها حرف جاء لمعنى قوله تعالى إنه من عمل منكم سوءا بجهالة فإنه يقرآن بكسر الهمزتين وفتحهما وبفتح الأولى وكسر الثانية فالحجة لمن كسرهما أنه جعل تمام الكلام في قوله كتب ربكم على نفسه الرحمة ثم ابتدأ بقوله إنه وعطف الثانية عليها ويجوز أن يحكي ما كتب كما يحكي ما قال ولا يعمل كتب في ذلك كما قال الشاعر وجدنا في كتاب بني تميم أحق الخيل بالركض المعار فحكى ما وجد ولم يعمل الفعل في ذلك والحجة لمن فتحهما أنه أعمل الكتابة في الأولى وجعل الثانية معطوفة عليها والمعنى كتب

ربكم على نفسه الرحمة بأنه أو لأنه من عمل فلما سقط الخافض وصل الفعل إلى أن فعمل والهاء في قوله إنه من عمل كناية عن اسم مجهول وما بعدها من الشرط والجواب الخبر لأنه جملة والجمل

(67/224)

تكون أخبارا والحجة لمن فتح الأولى أنه أعمل الكتابة فيها وفتحها بفقد الخافض عند الكوفيين وبتعدي الفعل عند البصريين ولمن كسر الثانية أنها جاءت بعد الفاء وما جاء بعدها مستأنف كقوله تعالى ومن يعص الله ورسولة فإن له قوله تعالى بالغداة والعشي يقرأ بالألف وبالواو في موضع الألف مع إسكان الدال ها هنا وفي الكهف فالحجة لمن قرأه بالالف أنه حذا ألفاظ العرب وما تستعمله في خطابها إذا قالوا جئتك بالغداة والعشي وإنما كان ذلك الاختيار لأن قولهم غداة نكرة فإذا عرفت بالألف واللام جاءت مطابقة للعشي فاتفقا في التعريف بالألف واللام والحجة لمن قرأه بالواو أنه أتبع الخط لأنها في السواد بالواو وليس هذا بحجة قاطعة لأنها إنما كتبت بالواو كما كتبت الصلاة والزكاة والحياة ودل على ضعف هذه القراءة أن غدوة إذا أردت بها غدوة يومك فلا تستعمل إلا معرفة بغير ألف ولام كما استعملوا ذلك في سحر وما كان تعريفه من هذا الوجه فدخول الألف واللام

عليه محال لأنه لا يعرف الاسم من وجهين وإنما جاز في الغداة لأنه لم يقصد بها قصد غداة بعينها فتعرفت بالألف واللام كما تعرف العشي لأنهما مجولان غير مقصود بهما وقت بعينه والحجة له أنه اراد أن العرب قد تجعلها نكرة في قولهم لدن غدوة كما يقولون عشرون درهما فعرفها على هذا اللفظ بالألف واللام قوله تعالى يقص الحق يقرا بالضاد والصاد فالحجة لمن قرا بالضاد أنه استدل بقوله تعالى عند تمام الكلام وهو خير الفاصلين والفصل لا يكون إلا في

(68/224)

القضاء ومنه قوله تعالى وفصل الخطاب والحجة لمن قرأه بالصاد أنه قال لو كان ذلك من القضاء لبثت في الفعل الياء علامة للرفع واستدل على أنها بالصاد بقوله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص وبقوله فاقصص القصص يريد به القرآن فكذلك الحق يريد به القرآن فأما احتجاجه بحذف الياء فلا وجه له لأنه قد حذف من السواد ياءات وواوات هن علامات الرفع لالتقاء الساكنين لأنهن لما ذهبن لفظا سقطن خطا قوله تعالى ولتستبين سبيل المجرمين يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه جعل الفعل للسبيل فرفعها بالحديث عنها ومن نصب جعل الخطاب بالفعل للنبي صلى الله عليه وسلم وكان اسمه مستترا في الفعل ونصب السبيل بتعدي الفعل إليها قوله تعالى تضرعا وخفية يقرا بضم الخاء وكسرها وهما

لغتان فصيحتان قوله تعالى قل من ينجيكم قل الله ينجيكم يقرآن بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أخذه من نجى ينجي وهو علامة لتكرير الفعل ومداومته والحجة لمن خفف أنه أخذه من أنجى ينجي فأما من شدد الثانية وخفف الأولى فإنه أتى باللغتين ليعلم أن القراءة بكلتيهما صواب قوله تعالى لئن أنجيتنا يقرأ بالياء والتاء وبالألف مكان الياء فالحجة لمن

(69/224)

قرأ بالتاء أنه أتى بدليل الخطاب سائلا لله عز وجل ضارعا إليه والحجة لمن قرأ بالألف أنه أخبر عن الله عز وجل على طريق الغيبة لأنه عز وجل غائب عن الأبصار وإن كان شاهدا للجهر والأسرار قوله تعالى وإما ينسينك الشيطان يقرا بتشديد السين وتخفيفها فالحجة لمن شدد أنه فرق بين نسي الرجل ونساه غيره واستدل بقوله عليه السلام إنما أنسى لأسن لكم فشدد لأن غيره نساه والحجة لمن خفف أنه قال هما لغتان تستعمل إحداهما مكان الأخرى واستدل بقوله تعالى نسوا الله فنسيهم يريد والله أعلم تركوا الله من الطاعة فتركهم من الثواب لأن أصل النسيان الترك وقيل في قوله تعالى واذكر ربك إذا نسيت يريد إذا عصيت قوله تعالى كالذي استهوته يقرأ بالتاء والألف وقد ذكرت علة ذلك في قوله تعالى

فنادته الملائكة ومعنى استهوته زينت له هواه بالوسوسة والغلبة قوله تعالى رأى كوكبا يقرا بالإمالة والتفخيم وبين ذلك وبكسر الراء والهمزة وفتحهما فالحجة لمن فخم أنه أتى باللفظة على أصل ما وجب لها لأن الياء قد انقلبت بالحركة ألفا وإنما كتبت في السواد ياء للفرق بين ذوات الواو والياء والحجة لمن أمال أنه أعمل اللسان من وجه واحد طلبا للتخفيف فأمال الياء في اللفظ ثم نحا بالكسرة إلى الهمزة فأمالها للمجاورة لا لأن الإمالة واجبة لها في الأصل كما كسرت الميم في قوله تعالى ولكن الله رمى والضاد من قوله وقضى ربك لقربهما من الياء والحجة لمن قرأها بين بين أنه عدل بين اللفظين وأخذ بأوسط اللغتين

(70/224)

والحجة لمن أمال الهمزة والراء قبلها فإنه أتبع بعض الحروف بعضا بالإمالة وكسر الياء بواجب الإمالة وكسر الهمزة لمجاورة الياء وكسر الراء لمجاورة الهمزة كما في قوله أم من لا يهدي لكسر الهاء والياء معا فأما قوله رأى القمر وما شاكله مما تستقبله ألف ولام فالوجه فيه التفخيم والإمالة مطروحة لأنها إنما استعملت من أجل الياء فلما سقطت الياء لفظا لالتقاء الساكنين سقط ما استعمل من أجل لفظها إلا ما روي عن بعضهم أنه كسر الراء وفتح الهمزة ليدل على أن أصل الكلمة ممال وهذا ضعيف والوجه ما بدأنا به قوله تعالى

أتحاجوني في الله يقرا بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أن الأصل فيه أتحاجونني بنونين الأولى علامة الرفع والثانية مع الياء اسم المفعول به فأسكن الأولى وأدغمها في الثانية فالتشديد لذلك كما قرأت القراء قوله تعالى قل أفغير الله تأمروني بتشديد النون والحجة لمن خفف أنه لما اجتمعت نونان تنوب إحداهما عن لفظ الأخرى خفف الكلمة بإسقاط إحداهما كراهية لاجتماعهما كما قال الشاعر رأته كالثغام يعل مسكا يسوء الفاليات إذا فليني أراد فليني فحذف إحدى النونين ومثله فبم تبشرون بنون واحدة يذكر في موضعه

(71/224)

قوله تعالى وقد هدان يقرأ بالإمالة والتفخيم فالحجة لمن أمال أنه في الأصل من ذوات الياء وذوات الياء معرضة للإمالة فلما اتصلت به الكناية بقاه على أصله الذي كان له والحجة لمن فخم أنه اتى بالكلمة على الأصل ولم يلتفت إلى الفرع قوله تعالى نرفع درجات من نشاء يقرأ بالتنوين والإضافة فالحجة لمن نون أنه نوى التقديم والتأخير فكأنه قال نرفع من نشاء درجات فيكون من في موضع نصب ودرجات منصوبة على أحد أربعة أوجه إما مفعولا ثانيا وإما بدلا وإما حالا وإما تمييزا والحجة لمن أضاف أنه أوقع الفعل على درجات فنصبها وأضافها إلى من فخفضه بالإضافة وخزل التنوين للإضافة ونشاء صلة ل من قوله

تعالى واليسع يقرأ بإسكان اللام وتخفيفها وبفتحها وتشديدها فالحجة لمن أسكن أن الاسم كان قبل دخول اللام عليه يسع ثم دخلت عليه الألف واللام فشاكل من الأسماء قول العرب اليحمد اسم قبيلة واليرمع اسم حجارة براقه فدخولها على ذلك عند الكوفيين للمدح والتعظيم وأنشدوا وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا شديدا بأحناء الخلافة كاهله ودخولها عند البصريين على ما كان في الأصل صفة ثم نقل إلى التسمية كقولهم الحرث والعباس فعلى هذا إن كان يسع عربيا فأصله يوسع سقطت منه الواو لوقوعها بين ياء وكسرة ثم دخلت عليه الألف واللام وإن كان أعجميا لا يعرف اشتقاقه فوزنه فعل الياء فيه أصل دخلت عليه الألف واللام والحجة لمن شدد أن وزنه عنده فيعل مثل صيرف وأصله ليسع فاللام فيه أصل والياء زائدة فإذا دخل عليها لام التعريف وهي ساكنة أدغمت في المتحركة فصارتا لاما مشددة

(72/224)

قوله تعالى فبهداهم أقتده يقرأ بإثبات الهاء وحذفها وقد ذكرت علله في البقرة فأما من كسر هذه الهاء في الوصل فقد وهم لأنها إنما جيء بها في الوقف ليبين بها حركة ما قبلها وليست بهاء كناية قوله تعالى تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن

قراه بالياء أنه رده إلى قوله للناس يجعلونه والحجة لمن قرأه بالتاء أنه جعل الخطاب للحاضرين ودليله قوله تعالى وعلمتم ولم يقل وعلموا قوله تعالى ولتنذر أم القرى يقرا بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالتاء أنه أراد به النبي صلى الله عليه وسلم ودليله إنما أنت منذر وأم القرى مكة والحجة لمن قرأه بالياء أنه أراد الكتاب المقدم ذكره وهو القرآن قوله تعالى لقد تقطع بينكم يقرا بضم النون وفتحها فالحجة لمن قرأ بالضم أنه جعله اسما معناه وصلكم فرفعه لأنه اسم ها هنا لا ظرف قال الشاعر كأن رماحهم أشطان بئر بعيد بين جالبها شطون ويروى جرور والحجة لمن قرأ بالفتح أنه جعله ظرفا ومعناه الفضاء بين الغايتين ودليله قراءة عبد الله لقد تقطع ما بينكم ومن الأسماء ما يكون ظرفا واسما كقولك زيد دونك وزيد دون من الرجال وزيد وسط الدار وهذا وسطها

(73/224)

قوله تعالى وجاعل الليل يقرأ بإثبات الألف وخفض الليل وبطرحها ونصب الليل فالحجة لمن أثبت الألف وخفض أنه رد لفظ فاعل على مثله وأضاف بمعنى ما قد مضى وثبت وهو الأحسن والأشهر والحجة لمن حذفها ونصب أنه جعله فعلا ماضيا وعطفه على فاعل معنى لا لفظا كما عطفت العرب اسم الفاعل على الماضي لأنه بمعناه قال الراجز يا ليتني

علقت غير خارج أم صبي قد حبا أو دارج قوله تعالى فمستقر يقرأ بكسر القاف وفتحها فالحجة لمن كسر أنه جعله اسم الفاعل من قولهم قر الشيء فهو مستقر ومعناه مستقر في الأصلاب ومستودع في الارحام وقيل في الأحياء وفي الأموات والحجة لمن فتح أنه أراد الموضع من قولهم هذا مستقري وقيل معناه مستقر في الدنيا أو القبر ومستودع في الجنة أو النار قوله تعالى وجنات من أعناب يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه رده على قوله قنوان دانية وجنات والحجة لمن نصب أنه رده على قوله نخرج منه حبا متراكبا وجنات قوله تعالى انظروا إلى ثمره يقرا بضم الثاء والميم وفتحهما فالحجة لمن ضم أنه أراد به جمع ثمار وثمر كما قالوا إزار وأزر والحجة لمن فتح أنه أراد جمع

(74/224)

ثمرة وثمر فأما التي في الكهف فالضم إلا ما روى من الفتح عن عاصم ومن الإسكان عن أبي عمرو فإن قيل فما الفرق بينهما فقل الفرق أن التي في الأنعام من أثمار الشجر والتي في الكهف من تثمير المال لقوله بعد انقضاء وصف الجنتين وكان له ثمر أي ذهب وأثاث ودليله قوله أنا أكثر منك مالا قوله تعالى وخرقوا له يقرأ بتشديد الراء وتخفيفها وقد ذكر الفرق بين التشديد والتخفيف فأما معناه فكمعنى اختلقوا وتلخيصه كذبوا ودليله قوله إن هذا إلا

اختلاق معناه إلا كذب لأنهم قالوا ما لم يعلموا قوله تعالى دارست يقرأ بإثبات الألف وحذفها فالحجة لمن أثبت الألف أنه أراد قارأت وذاكرت غيرك فاستفدت والحجة لمن حذفها أنه أراد قرأت لنفسك وعلمت فأما من قرأه بضم الدال وإسكان التاء فله وجهان أحدهما أنه أراد قرئت وعلمت وهو الوجه والثاني أنه أراد محيت وذهبت من قولهم درس المنزل إذا ذهبت آثاره ومعالمه قوله تعالى أنها إذا جاءت يقرا بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتح أنه جعلها بمعنى لعل وكذلك لفظها في قراءة عبد الله وأبي والحجة لمن كسر أنه جعل الكلام تاما عند قوله وما يشعركم وابتدأ بإن فكسرها قوله تعالى لا يؤمنون يقرأ بالتاء والياء فالحجة لمن قرأ بالتاء معنى المخاطبة ودليله قوله وما يشعركم والحجة لمن قرأ بالياء أنه أرادا معنى الغيبة ودليله قوله نقلب أفئدتهم

(75/224)

قوله تعالى كل شيء قبلا يقرا بضم القاف والباء وبكسر القاف وفتح الباء فالحجة لمن ضم أنه أراد جمع قبيل يعني قبيلا قبيلا والحجة لمن كسر أنه أراد مقابلة وعيانا قوله تعالى وتمت كلمات ربك يقرا بالتوحيد والجمع في أربعة مواضع ها هنا وفي يونس في موضعين وفي المؤمن وإنما عملوا في ذلك على السواد لأنهن مكتوبات فيه بالتاء فالحجة لمن جمع قوله بعد ذلك لا

مبدل لكلماته والحجة لمن وحد أنه ينوب الواحد في اللفظ عن الجميع ودليله قوله وتمت كلمة ربك الحسنى وكل قريب قوله تعالى وقد فصل لكم ما حرم عليكم يقرا بضم الفاء والحاء وكسر الصاد والراء وفتحهن وبفتح الفاء وضم الحاء فالحجة لمن ضم أنه دل بالضم على بناء ما لم يسم فاعله وكانت ما في موضع رفع والحجة لمن فتح أنه جعلهما فعلا لله تعالى لتقدم اسمه في أول الكلام وكانت ما في موضع نصب والحجة لمن فتح وضم أنه أتى بالوجهين معا وكانت ما في موضع نصب قوله تعالى ليضلون بأهوائهم يقرأ بضم الياء وفتحها والحجة لمن ضم أنه جعل الفعل متعديا منهم إلى غيرهم فدل بالضم على أن ماضي الفعل على أربعة أحرف والحجة لمن فتح أنه جعل الفعل لازما لهم غير متعد إلى غيرهم فدل بالفتح على أن ماضيه على ثلاثة أحرف وعلى ذلك يقرأ ما كان مثله في يونس وإبراهيم والحجر

(76/224)

ولقمان والزمر قوله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه يقرا بالتشديد والتخفيف وقد ذكرت علته آنفا والمعنى أفمن كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإيمان قوله تعالى ضيقا حرجا يقرأ بتشديد الياء وتخفيفها وفتح الراء وكسرها فالحجة لن شدد أنه أكد الضيق ودليله قوله تعالى مكانا ضيقا فكأنه ضيق بعد ضيق والحجة لمن خفف أنه استثقل الكسرة على الياء

مع التشديد فخفف وأسكن كما قالوا هين وهين والحجة لمن فتح الراء أنه أراد المصدر ولمن كسرها أنه أراد الاسم ومعناهما الضيق فإن قيل فما وجه إعادته فقل في ذلك وجوه أولها أنه أعاده لاختلاف اللفظين والثاني أنه أعاده تأكيدا والثالث أن الحرج الشك فكأنه قال ضيقا شاكا قوله تعالى كأنما يصعد في السماء يقرأ بالتشديد والتخفيف وإثبات الألف فالحجة لمن شدد أنه أراد يتصعد فأسكن التاء وأدغمها في الصاد تخفيفا فشدد لذلك وكذلك الحجة في إثبات الألف مع التشديد والحجة لمن خفف أنه أخذه من قولهم صعد يصعد وذلك كله إن كان لفظه من الارتقاء فالمراد به المشقة والتكلف من قولهم عقبة صعود إذا كانت لا ترتقي إلا بمشقة والمعنى أن الكافر لو قدر لضيق صدره أن يرتقي في السماء لفعل قوله تعالى اعملوا على مكانتكم يقرأ بالإفراد والجمع فالحجة لمن أفرد

(77/224)

أنه أراد على تمكينكم وأمركم وحالكم ومنه قولهم لفلان عندي مكان ومكانة أي تمكن محبة وقيل وزنها مفعلة من الكون فالميم فيها زائدة والألف منقلبة من واو وقيل وزنه فعال مثل ذهاب من المكنة ودليل ذلك جمعه أمكنة على وزن أفعلة فالميم ها هنا أصل والألف زائدة والحجة لمن قراه بالجمع أنه جعل لكل واحد منهم مكانة يعمل عليها فجمع على هذا

المعنى ويحتمل أن يكون اراد بالجمع الواحد كقوله تعالى يأيها الرسل كلوا من الطيبات والمخاطب بذلك محمد عليه السلام فإن قيل فكيف أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يثبتوا على عمل الكفر وقد دعاهم إلى الإيمان فقل إن هذا أمر معناه التهديد والوعيد كقوله اعملوا ما شئتم توعدا لهم بذلك قوله تعالى من تكون له عاقبة الدار يقرا بالياء والتاء وقد تقدم القول في علله قبل قوله تعالى بزعمهم يقرا بضم الزاي وفتحها فقيل هما لغتان وقيل الفتح للمصدر والضم للاسم قوله تعالى وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم يقرا بفتح الزاي ونصب قتل ورفع شركائهم وبضم الزاي وفتح قتل ونصب أولادهم وخفض شركائهم فالحجة لمن قرا بفتح الزاي أنه جعل الفعل للشركاء فرفعهم به ونصب القتل بتعدي الفعل إليه وخفض أولادهم بإضافة القتل إليهم والحجة لمن قرأه بضم الزاي أنه دل بذلك على بناء الفعل لما لم يسم فاعله ورفع به القتل وأضافه إلى

(78/224)

شركائهم فخفضهم ونصب أولادهم بوقوع القتل عليهم وحال بهم بين المضاف والمضاف إليه وهو قبيح في القرآن وإنما يجوز في الشعر كقول ذي الرمة كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس أنقاض الفراريج وإنما حمل القارئ بهذا عليه أنه وجده في مصاحف أهل

الشام بالياء فاتبع الخط قوله تعالى وإن تكن ميتة يقرا بالياء والتاء وقد تقدم القول في علل ذلك ويقرأ بنصب ميتة ورفعها فالحجة لمن رفع أنه جعل كان بمعنى حدث ووقع فلم يأت لها بخبر والحجة لمن نصب أنه أضمر في يكون الاسم وجعل ميتة الخبر لتقدم قوله ما في بطون هذه الأنعام قوله تعالى خالصة لذكورنا يقرأ بهاء التأنيث والتنوين وبهاء الكناية والضم فالحجة لمن قرأ بهاء التأنيث أنه رده على معنى ما لأنه للجمع والحجة لمن جعلها هاء كناية أنه ردها على لفظ ما قوله تعالى يوم حصاده يقرأ بفتح الحاء وكسرها فرقا بين الاسم والمصدر

(79/224)

على ما قدمنا القول فيه أو على أنهما لغتان قوله تعالى ومن المعز يقرا بفتح العين وإسكانها وهما لغتان والأصل الإسكان وإنما جاز الفتح فيه لمكان الحرف الحلقي فإن قيل فكذلك يلزم في الضأن فقل إن الهمزة وإن كانت حلقية فهي مستثقلة لخروجها من أقصى مخارج الحروف فتركها على سكونها أخف من حركتها قوله تعالى وأن هذا صراطي يقرأ بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن كسرها أنه ابتدأها مستأنفا والحجة لمن فتح أنه أراد وجهين أحدهما أنه رده على قوله ذلكم وصاكم به وبأن هذا صراطي والآخر أنه رده على قوله ألا

تشركوا به شيئا وأن هذا صراطي قوله تعالى فرقوا دينهم يقرأ بإثبات الألف والتخفيف وبطرحها والتشديد فالحجة لمن أثبتها أنه أراد تركوه وانصرفوا عنه والحجة لمن طرحها أنه أراد جعلوه فرقا ودليله قوله وكانوا شيعا أي أحزابا قوله تعالى دينا قيما يقرأ بفتح القاف وكسر الياء والتشديد وبكسر القاف وفتح الياء والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد دينا مستقيما خالصا ودليله قوله وذلك دين القيمة والحجة لمن خفف أنه أراد جمع قيمة وقيم كقولهم حيلة وحيل قوله تعالى فله عشر أمثالها يقرا بالتنوين ونصب الأمثال وبطرحه والخفض

فالحجة لمن نصب أن التنوين يمنع من الإضافة فنصبت على خلاف المضاف والحجة لمن أضاف أنه أراد فله عشر حسنات فأقام الأمثال مقام الحسنات ولهذا المعنى خزلت الهاء من العدد لأنه لمؤنث فاعرفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 136 - 153﴾.

(80/224)

وقال ابن زنجلة :

6 - سورة الأنعام

من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه 16

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر من يصرف بفتح الياء وكسر الراء أي من يصرف الله عنه العذاب يؤمئذ

وحجتهم قوله قبلها قل لمن ما في السموات والأرض قل لله فكذلك من يصرف الله وأخرى أنه ختم الكلام بمثل معنى يصرف فقال فقد رحمه ولم يقل فقد رحم فيكون على نظيره مما لم يسم فاعله فكان التوفيق بين أوله وآخره أولى من أن يخالف بينهما فجعل آخره مثل الأول ملحقا به

وقرأ الباقون من يصرف عنه بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله وحجتهم أن هذا الوجه أقل إضمارا لأنه إذا قال من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه أي فقد رحمه الله لأنه تقدمه إن عصيت ربي 15 وفي يصرف ذكر العذاب وإذا قال من يصرف أضمر ذكر العذاب وفي قراءتهم ذكر العذاب في يصرف فحسب

ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين 23

قرأ ابن كثير وابن عامر وحفص ثم لم تكن بالتاء فتنتهم رفع جعلوا الفتنة اسم كان والخبر إلا أن قالوا لأن أن مع الفعل في تقدير المصدر المعنى ثم لم تكن فتنتهم إلا قولهم

وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو بكر ثم لم تكن بالتاء فتنتهم نصب جعلوا الفتنة خبرا والاسم إلا أن قالوا وتقدير الكلام ثم لم تكن فتنتهم إلا قولهم يقال لم أنث تكن والاسم مذكر الجواب إنما أنث

لأن الفعل لما جاء ملاصقا للفتنة أنث لتانيثها وإنما جاز ذلك لأن الفتنة هي القول والقول هو الفتنة فجاز أن يحل محله

ولا يؤثر في الخبر إلا فيما كان الأول بعينه نحو كان زيد أخاك فالخبر هو الاسم فكذلك الفتنة هي القول

وجواب آخر وهو أن المصدر قد يقدر مؤنثا ومذكرا التقدير ثم لم تكن فتنتهم إلا مقالتهم والاسم مؤنث

(81/224)

قرأ حمزة والكسائي ثم لم يكن بالياء فتنتهم نصبا جعلا أن قالوا الاسم التقدير ثم لم يكن فتنتهم إلا قولهم وحجتهما إجماع القراء على نصب قوله فما كان جواب قومه إلا أن قالوا

وأخرى وهي أن في حرف عبد الله فما كان فتنتهم فهذا دليل على التذكير

قرأ حمزة والكسائي والله ربنا بالنصب أي يا ربنا على النداء وحجتهما أن الآية ابتدئت بمخاطبة الله إياهم إذ قال للذين أشركوا أين شركاؤكم فجرى جوابهم إياه على نحو سؤاله لمخاطبتهم إياه فقالوا والله ربنا بمعنى والله يا ربنا ما كنا مشركين فأجابوه مخاطبين له كما سألهم مخاطبين

وقرأ الباقون والله ربنا خفضا على النعت والثناء وحجتهم في ذلك أنك إذا قلت أحلف بالله ربي كان أحسن من أن تقول أحلف بالله يا رب

فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين 27

قرأ حمزة وحفص فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون بنصب الياء والنون جعلاه جواب التمني لأن الجواب بالواو ينصب كا ينصب بالفاء قال الشاعر . . . لا تنه عن خلق وتأتي مثله . . . عار عليك إذا فعلت عظيم . . .

وكما تقول ليتك تصير إلينا ونكرمك المعنى ليت مصيرك يقع وإكرامنا ويكون المعنى ليت ردنا وقع ولا نكذب أي إن رددنا لم نكذب

وقرأ ابن عامر يا ليتنا نرد ولا نكذب بالرفع ونكون بالنصب جعل الأول نسقا والثاني جوابا كأنه قال ونحن لا نكذب ثم رد الجواب إلى يا ليتنا المعنى يا ليتنا نرد فنكون من المؤمنين وحجته قوله لو أن لي كرة فأكون من المحسنين

(82/224)

وقرأ الباقون يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون بالرفع فيهما جعلوا الكلام منقطعا عن الأول قال الزجاج المعنى أنهم تمنوا الرد وضمنوا أنهم لا يكذبون المعنى يا ليتنا نرد ونحن لا

نكذب بآيات ربنا رددنا أم لم نرد ونكون من المؤمنين أي عاينينا وشاهدنا ما لا نكذب معه أبدا قال ويجوز الرفع على وجه آخر على معنى يا ليتنا نرد ويا ليتنا لا نكذب بآيات ربنا كأنهم تمنوا الرد والتوفيق للتصديق

وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون 32

قرأ ابن عامر ولدار الآخرة بلام واحدة الآخرة جر وحجته في ذلك إجماع الجمي على قوله في سورة يوسف كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة بلام واحدة فرد ابن عامر ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

وقرأ الباقون وللدار الآخرة بلامين الآخرة رفع نعت وحجتهم ما في سورة الأعراف والدار الآخرة خير للذين يتقون

قرأ نافع وابن عامر وحفص أفلا تعقلون بالتاء أي قل لهم أفلا تعقلون

وقرأ الباقون بالياء وحجتهم أن صدر الآية خبر

قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون 33

قرأ نافع ليحزنك بضم الياء وكسر الزاي في جميع القرآن إلا في سورة الأنبياء فإنه قرأ لا يحزنهم بفتح الياء وضم الزاي فإن سأل سائل فقال لم خالف أصله الجواب عنه ما ذكره سيبويه أن بين أحزنته وحزنته فرقانا وهو أن أحزنته أدخلته في الحزن وحزنته أوصلت إليه

الحزن فقولهم لا يحزنهم الفزع الأكبر أي لا يصيبهم أدنى حزن فإذا قلت أحزنته أي أدخلته في الحزن أي أحاط به وما اهتدى إلى هذا الفرقان غير نافع

(83/224)

قرأ نافع والكسائي فإنهم لا يكذبونك بإسكان الكاف وتخفيف الذال قال الكسائي معنى لا يكذبونك أنهم ليسوا يكذبون قولك فيما سوى ذلك قال والعرب تقول أكذبت الرجل إذ إخبرت أنه جاء بالكذب وكذبته أخبرت أنه كاذب فكان الكسائي يذهب إلى أن الإكذاب يكون في بعض حديث الرجل وأخباره التي يرويها والتكذيب يكون في كل ما أخبر أو حدث به وهذا معنى قول الفراء وذاك أنه قال معنى التخفيف والله أعلم لا يجعلونك كذابا وإنما يريدون أن ما جئت به باطل لأنهم لم يجربوا عليه كذبا فيكذبوه إنما أكذبوه أي ما جئت به كذب لا نعرفه والتفسير يصدق قولهم

روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال إن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وآله إنا لا نكذبك إنك عندنا لصادق ولكن نكذب الذي جئت به فأنزل الله الاية

وحجتهم في ذلك قوله جل وعز وكذب به قومك وهو الحق أي قالوا ما جئتنا به كذب إذ لم يقل وكذبك قومك وهو الحق كأنهم قالوا هو كذب أخذته عن غيرك كما قال جل وعز إنما

يعلمه بشر

وقد اختلف في ذلك المتقدمون فقال محمد بن كعب فإنهم

لا يكذبونك أي لا يبطلون ما في يديك وقال قطرب أكذبت الرجل إذا دللت على كذبه

فكان تأويل ذلك لا يدلون على كذبك ببرهان يبطل ما جئتهم به وقال ابن مسلم فإنهم لا

يكذبونك أي لا يجدونك كاذبا تقول أكذبت الرجل إذا وجدته كاذبا كما تقول أحمدت

الرجل إذا وجدته محمودا

وكان قوم من أهل العربية يذهبون إلى أنهما لغتان مثل أوفيت الرجل حقه ووفيته و أعظمته

وعظمته

وقرأ الباقون فإنهم لا يكذبونك بالتشديد قال ابن عباس لا يسمونك كذابا ولكنهم ينكرون

آيات الله بألسنتهم وقلوبهم موقنة بأنها من عند الله وحجتهم ما وراه اليزيدي عن أبي عمرو

فقال

وتصديقها قوله بعدها ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا فتأويل ابي عمرو

فإن الكفار لا يكذبونك جهلا منهم بصدق قولك بل هم موقنون بأنك رسول من عند ربهم

ولكنهم يكذبونك قولا

وقال الزجاج وتفسير لا يكذبونك أي لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتبهم كذبت ووجه آخر أنهم لا يكذبونك بقلوبهم أي يعلمون أنك صادق والذي يدل على هذا القول أنهم لا يكذبونك بقلوبهم قوله ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون والجحد أن تنكر بلسانك ما تستيقنه في نفسك ألا ترى أنك تقول جحدني حقي قال الله جل وعز وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم وكان ابن عباس يحتج بهذا

وقد اختلف في ذلك أهل العربية فقال عبد الله ابن مسلم فإنهم لا يكذبونك أي لا ينسبونك إلى الكذب تقول كذبت الرجل أي نسبته إلى الكذب وظلمته أي نسبته إلى الظلم

وقال بعض أهل العربية فإنهم لا يكذبونك أي لا يصححون عليك الكذب تقول كذبته أي صححت عليه الكذب

قل أرءيتكم إن أتكم عذاب الله 40

قرأ نافع قل أرايتكم وأرايتم بالألف من غير همز وحجته في ذلك أنه كره أن يجمع بين همزتين ألا ترى أنه قرأ وإذا رأيت بالهمز لأنه لم يتقدمه همزة الاستفهام فيترك الثانية

وقرأ الكسائي أريتكم بغير همزة ولا ألف وحجته إجماع العرب على ترك الهمزة في المستقبل في وقولهم ترى ونرى فبني الماضي على المستقبل مع زيادة الهمزة في أولها فإذا لم تكن في أولها همزة الاستفهام لم يترك الهمزة مثل رأيت لأن من شرطه إذا تقدمها همزة الاستفهام

فحينئذ يستثقل الجمع بينهما وأخرى وهي أنها كتبت في المصافح بغير ألف

وقرأ الباقون أرأيتكم و أرأيتم بالهمزة وحجتهم أنهم لم يختلفوا فيما كان من غير استفهام

فكذلك إذا دخل حرف الاستفهام فالحرف على أصله ألا ترى أنهم لم يختلفوا في قوله رأيت

المنافقين و رأيت الناس

فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء 44

قرأ ابن عامر فتحنا عليهم بالتشديد أي مرة بعد مرة وحجته قوله أبواب كل شيء الأبواب

فذكر الأبواب ومع الأبواب تشدد كما قال مفتحة لهم الأبواب وكذلك قرأ في الأعراف

والأنبياء والقمر بالتشديد

(85/224)

وقرأ الباقون بالتخفيف وحجتهم أن التخفيف يصلح للقليل وللكثير

ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي 52

قرأ ابن عامر بالغدوة والعشي بالواو وضم الغين وحجته في ذلك أنه وجده في المصحف

بالواو فقرأ ذلك اتباعا للخط فإن قيل لم أدخل الألف واللام على المعرفة فالجواب أن العرب

تدخل الألف واللام على المعرفة إذا جاورتها فيه الألف واللام ليزدوج الكلام كما قال

الشاعر . . . رأيت الوليد بن اليزيد مباركا . . . شديدا بأحناء الخلافة كاهله . . .

فأدخل الألف واللام في اليزيد لما جاور الوليد فكذلك أدخل الألف واللام في الغدوة لما جاور العشي

وقرا الباقون بالغداة وهذا هو الوجه لأن غداة نكرة و غدوة معرفة ولا تستعمل بالأل واللام ودخلت على غداة لأنها نكرة والمعنى والله أعلم ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي أي غداة كل يوم

كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم 54

قرأ عاصم وابن عامر كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل فأنه غفور رحيم الألف فيهما مفتوحة

قال الزجاج موضع أن الأولى النصب المعنى كتب ربكم على نفسه المغفرة وهي بدل من الرحمة كأنه قال كتب ربكم على نفسه الرحمة وهي المغفرة للمذنبين التائبين لأن معنى أنه غفور رحيم المغفرة منه فيجعل أنه بدلا من الرحمة وتفسيرا عنها قال ويجوز أن تكون أن الثانية وقعت مؤكدة للأولى لأن المعنى كتب ربكم أنه غفور رحيم فلما طال الكلام أعيد ذكر أن

وقال أبو حاتم يجوز أن تكون في موضع رفع على ضمير هي أنه كأنه فسر الرحمة فقال هي

أنه وحمل الثاني على الأول لأن المعنى كتب ربكم أنه غفور رحيم للذي يتوب ويصلح

وقرأ نافع أنه من عمل منكم بفتح الألف فإنه غفور رحيم بالكسر جعل الفاء جواب الشرط

ل من واستأنف كقوله ومن عاد فينتقم الله منه وكقوله ومن يعص الله ورسوله فإن له نار

جهنم وقال الزجاج من فتح الأولى وكسر الثانية فالمعنى

(86/224)

راجع إلى المصدر وكأنك لم تذكر إن الثانية المعنى كتب ربكم على نفسه الرحمة إنه غفور

رحيم

وقرأ الباقون إنه فإنه بكسر الألف فيهما على مذهب الحكاية كأنه لما قال كتب ربكم على

نفسه الرحمة قال إنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم

ولتستبين سبيل المجرمين 55

قرأ نافع ولتستبين بالتاء سبيل نصب أي ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين فإن قال قائل

أفلم يكن النبي صلى الله عليه وآله مستبينا سبيل المجرمين فالجواب في هذا إن جميع ما

يخاطب به المؤمنون يخاطب به النبي صلى الله عليه فكأنه قيل ولتستبينوا سبيل المجرمين

أي لتزدادوا استبانة لها ولم يحتج إلى أن يقول ولتستبين سبيل المؤمنين مع ذكر سبيل المجرمين

لأن سبيل المجرمين إذا بانت فقد بان معها سبيل المؤمنين

وقرأ حمزة والكسائي وابو بكر وليستبين بالياء سبيل رفع وقرأ الباقون بالتاء

اعلم أن السبيل يذكر ويؤنث جاء القرآن بالوجهين فالتأنيث قوله ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا و قل هذه سبيلي والتذكير قوله وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا

إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين 57

قرأ نافع وابن كثير وعاصم إن الحكم إلا لله يقص الحق بضم القاف والصاد المعنى إن جميع ما أنبأ به أو أمر به فهو من أقاصيص الحق واحتج ابن عباس على هذه القراءة بقوله نحن نقص عليك وقال إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل و ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وأخرى قال مجاهد لو كان يقضي لكانت يقضي بالحق والعرب تقول قضيت بالحق قال الله جل وعز والله يقضي بالحق بإثبات الياء والباء مع القضاء

(87/224)

وقرأ الباقون يقضي الحق بالضاد وسكون القاف من قضى يقضي إذا حكم وفصل وحجتهم قوله وهو خير الفاصلين والفصل يكون في القضاء لا في القصص وكان أبو عمرو

يعتبر بهذه وقال إنما الفصل في القضاء لا في القصص وكان الكسائي يعتبرها بقراءة ابن مسعود قال وفي قراءته يقضي بالحق

توفته رسلنا وهم لا يفرطون 61

قرأ حمزة توفه رسلنا بالياء وقرأ الباقون بالتاء الوجهان جميعا جائزان لأن الجماعة يلحقها اسم التأنيث لأن معناها معنى جماعة ويجوز أ يعبر عنها بلفظ التذكير كما يقال جمع الرسل والتأنيث

كما قال قد جاءت رسل ربنا بالحق

تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجنا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب 63 و64

قرأ عاصم وحمزة والكسائي لئن أنجانا من هذه بغير تاء على لفظ الخبر عن غائب بمعنى لئن أنجانا الله وحجتهم أنها في مصاحفهم بغير تاء

وقرأ الباقون لئن أنجيتنا بالتاء على الخطاب لله أي لئن أنجيتنا يا ربنا وحجتهم ما في يونس لئن أنجيتنا من هذه وهذا مجمع عليه فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

قرأ عاصم وحمزة والكسائي قل الله ينجيكم منها بالتشديد من نجى ينجي وحجتهم إجماعهم على تشديد قوله قبلها قل من ينجيكم من ظلمات فكان إلحاق نظير لفظه به أولى من المخالفة بين اللفظين

وقرأ الباقون قل الله ينجيكم بالتخفيف وحجتهم قوله لئن أنجيتنا من هذه ولم يقل نجيتنا

قرأ أبوبكر تضرعا وخفية بكسر الخاء وفي الأعراف مثله وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان

مثل رشوة ورشوة من أخفيت الشيء إذا سترته والتي في خاتمة الأعراف تضرعا وخيفة

وهو من الخوف فتقلب الواو ياء للكسرة التي في الخاء

وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين 68

قرأ ابن عامر وإما ينسينك الشيطان بالتشديد تقول نسيت الشيء وأنساني غيري

ونساني أيضا وحجته ما جاء في الحديث لا يقولن أحدكم نسيت آية كذا وكذا بل هو نسي

(88/224)

وقرأ الباقون وإما ينسينك بالتخفيف من أنساني غيري وحجتهم قوله فأنساه الشيطان

ذكر ربه ولم يقل فنساه

كالذي استهوته الشيطين 71

قرأ حمزة كالذي استهوته الشياطين بالياء ذهب إلى جمع الشياطين

وقرأ الباقون استهوته بالتاء ذهبوا إلى جماعة الشياطين

فلما جن عليه الليل رأى كوكبا فلما رأى القمر فلما رأى الشمس 76 78

قرأ أبو عمرو فلما جن عليه الليل رأى كوكبا بفتح الراء وكسر الهمزة وإنما كسر الهمزة لمجاورة الياء والألف هي الممالة وأشير إلى كسر الهمزة كما يشار إلى كسر الميم في قوله ولكن الله رمى وإلى كسر الضاد في قوله ثم قضى فكذلك كسر الهمزة لمجاورة الألف الممالة

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر رإى كوكبا بكسر الراء وإنما كسروا الراء لمجاورة الهمزة ومن العرب من يقول رمى بكسر الراء والميم

وقرأ أهل الحجاز وحفص بفتح الراء والهمزة على أصل الكلمة والأصل رأى مثل رعى فقلبوا الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فصارت ألفا في اللفظ ياء في الخط

قرأ حمزة وأبو بكر رأى القمر و رأى الشمس بكسر الراء وفتح الهمزة

وقرأ الباقون بفتح الراء وحجتهم في ذلك أن الراء إنما كسرت لمجاورة الهمزة المكسورة والهمزة كسرت لمجاورة الياء فلما سقطت الياء عادت الهمزة إلى أصلها فلما عادت الهمزة إلى أصلها عادت الراء إلى أصلها

وحجة من كسر الراء وفتح الهمزة أن الياء لما سقطت فعادت الهمزة إلى الفتح الذي هو أصلها لم يبق في الفعل ما يدل على مذهبه فترك في الراء من الكسر ما يدل على مذهبه

أتحاجوني في الله 80

قرأ نافع وابن عامر أتحاجوني بتخفيف النون

وقرأ الباقون أتحاجوني بالتشديد الأصل أتحاجونني بنونين الأولى علامة الرفع والثانية مع ياء

المتكلم في موضع النصب

فاجتمع حرفان من جنس واحد فأدغموا الأولى في الثانية ومثله أفغير الله تأمروني

(89/224)

وأما نافع فإنه كره الجمع بين نونين فحذف إحدى النونين طلبا للتخفيف وحجته قول الشاعر

. . . تراه كالثغام يعل مسكا . . . يسوء الفاليات إذا فليني . . .

أراد فليننيي فحذف إحدى النونين

نرفع درجات من نشاء 83

قرأ عاصم وحمزة والكسائي نرفع درجات من نشاء بالتنوين جعلوا المرفوع هو الإنسان

وحجتهم في ذلك أن الله قد بين معنى هذا الكلام في غير موضع من القرآن فجعل المرفوع هو

الإنسان وبين فضل من أحب أن يفضله بأن يرفعه فقال يرفع الله الذين آمنوا منكم وقال

وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما فجعلهم هم المرفوعين دون الدرجات

وفي الآية تقديم و تأخير المعنى نرفع من نشاء درجات و من في موضع النصب ونجعل

درجات مفعولا ثانيا أو حالا

وقرأ الباقون نرفع درجات بغير تنوين وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال كقولك نرفع أعمال من

نشاء فجعل اليزيدي

الرفع للأعمال دون الإنسان والذي يدل على هذا أن الآثار قد جاءت في الدعاء مضافة كقولهم للميت اللهم شرف بنيانه وارفع درجته ولا يقال ارفعه وقد روي في التفسير في قوله نرفع درجات من نشاء أي في العلم وإسمعيل واليسع 86

قرأ حمزة والكسائي والليسع بلامين وحجتهما في ذلك أن الليسع اشبه بالأسماء الأعجمية ودخول الألف واللام في اليسع قبيح لأنك لا تقول اليزيد ولا اليحي وتشديد اللام أشبه بالأسماء العجمية

وقرأ الباقون واليسع بلام واحدة وحجتهم ذكرها اليزيدي عن أبي عمرو فقال هو مثل اليسر وإنما هو يسر و يسع فردت الألف واللام فقال اليسع مثل اليحمد قبيلة من العرب و اليرمع الحجارة والأصل يسع مثل يزيد وإنما تدخل الألف واللام عند الفراء للمدح فإن كان عربيا فوزنه يفعل والأصل يوسع مثل يصنع وإن كان أعجميا لا اشتقاق له فوزنه فعل تجعل الياء أصلية

قال الأصمعي كان الكسائي يقرأ الليسع ويقول لا يكون

اليفعل كما لا يكون اليحي قال فقلت له اليرمع واليحمد حي من اليمن فسكت

ومن قرأ بلامين وزنه فيعل اللام أصلية مثل صيرف ثم أدخلت الألف واللام للتعريف فقلت الليسع مثل الصيرف والله أعلم

فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجرا 90

قرأ حمزة والكسائي اقتد قل لا أسألكم بغير هاء في الوصل وحجتهما في ذلك أن الهاء إنما دخلت للوقف ولبيان الحركة في حال الوقف فإذا وصل القارئ قراءته اتصلت الدال بما بعدها فاستغنى عن الهاء لزوال السبب الذي أدخلها من أجله فطرحها

وقرأ الباقون بإثبات الهاء في الوصل وحجتهم في ذلك أنها مثبتة في المصحف فكرهوا إسقاط حرف من المصاحف

وقرأ ابن عامر اقتدهي بالإشباع جعلها اسما قال بعض أهل البصرة جعل ابن عامر الهاء فيه ضميرا لمصدر وهو الاقتداء كأن الأصل فيه فبهداهم اقتد اقتداء ثم أضمر الاقتداء فقال بهداهم اقتدهي

قل من أنزل الكتب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم 91

قرأ ابن كثير وأبو عمرو يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون

كثيرا والياء قال أبو عمرو يعني أهل الكتاب وعلمتم ما لم تعلموا يعني المسلمين لأن العرب لم

يكن لها قبل ذلك كتاب وحجته قوله جاء به موسى نورا وهدى للناس أي يجعله الناس قراطيس يعني اليهود فلما قرب الفعل منهم جعل الفعل لهم

وقرأ الباقون بالتاء قال أبو عبيد التاء تختار للمخاطبة قبلها وبعدها فالتي قبل قوله قل من أنزل الكتاب والتي بعدها قوله وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم يعني وعلمتم فيما أنزله عليكم في الكتاب ما لم تعلموا فكأن قراءتهم ما توسط بين الخطابين من الكلام على لفظ ما قبله وما بعده ليأتلف نظام الكلام على سياق واحد أولى

وهذا كتب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها 92

قرأ أبو بكر ولينذر أم القرى وحجته قوله وهذا كتاب أنزلناه مبارك أي لينذر الكتاب أهل مكة

وقرأ الباقون بالتاء أي لتنذر أنت يا محمد أهل مكة وحجتهم قوله إنما أنت منذر

(91/224)

لقد تقطع بينكم 94

قرأ نافع والكسائي وحفص لقد تقطع بينكم بالفتح أي لقد تقطع ما بينكم كذا قال أهل الكوفة واستدلوا عليه بقراءة عبد الله لأن في قراءته لقد تقطع ما بينكم ف ما عندهم

موصولة و بين صلة وحذفوا الموصول وهو ما وبقيت الصلة وهي بينكم

وعند أهل البصرة غير جائز هذا لأن الصلة والموصول اسم واحد ومحال أن يحذف صدر الاسم ويبقى آخر الاسم ولكن التقدير لقد تقطع الأمر بينكم والسبب بينكم لأن الأمر والسبب ليسا مما يحتاج إلى صلة ف بين إذا نصب على الظرف عند أهل البصرة والكوفة وإنما اختلفوا في تقدير الكلام

فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا 96

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وجعل الليل سكنا بغير ألف

وقرأ الباقون وجاعل الليل بالألف وكسر الليل وحجتهم قوله فالق الإصباح فأجروا جاعل الليل على لفظ ما تقدمه إذ أتى في سياقه ونصبوا والشمس والقمر على تأويل وجعل الشمس والقمر حسبانا قال الزجاج لأن في جاعل معنى جعل وبه نصب سكنا قال أبو عمرو ونصب الشمس والقمر على الإتباع لما قلت سكنا أتبعت النصب النصب

وحجة من قرأ وجعل اليل سكنا هي أن الأفعال التي عطفت عليه جاءت بلفظ الماضي وهو قوله بعدها وهو الذي جعل لكم النجوم 97 وهو الذي أنشأكم 98 وهو الذي أنزل 99 فلأن تكون معطوفة على شبهها ويكون ما تقدمها جرى بلفظها أولى

وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع 98

قرأ ابن كثير وأبو عمرو فمستقر بكسر القاف جعلا الفعل

له أي فمنكم مستقر ومنكم مستودع تقول قر الشيء يقر واستقر يستقر بمعنى واحد وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال فمستقر في الرحم يعني الولد ومستودع في أصلاب الرجال كما تقول هذا ولد مستقر في رحم أمه وأنا مستقر في مكان كذا وعن الحسن البصري قال مستقر في القبر ومستودع في الدنيا يوشك أن يلحق بصاحبه قال الزجاج وجائز أن يكون فمستقر أي فمنكم مستقر في الأحياء ومنكم مستودع في الثرى فجعل أبو عمرو المستقر فاعلا و المستودع مفعولا

وقرأ الباقون فمستقر بالفتح وحجتهم إجماع الجميع على فتح الدال في مستودع على معنى أن الله استودعه فكذلك مستقر موجه إلى أن الله استقره في مقره فهو مستقر كما هو مستودع في مستودعه وقوله ويعلم مستقرها ومستودعها يشهد للفتح

والوجهان يتداخلان لأن الله إذا أقره استقر ولا شك أنه لا يستقر حتى يقره فهو مفعول وفاعل

قال الزجاج أما رفع فمستقر ومستودع فعلى معنى لكم مستقر ولكم مستودع أي فلكم في الأرحام مستقر ولكم في الأصلاب مستودع وجائز أن يكون مستقر في الدنيا ومستودع في

الأصلاب لم يخلق بعد

فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه 99

قرأ الأعشى عن أبي بكر وجنات قال الفراء ولو رفعت الجنات تتبع القنوان كان صوابا

وقرأ الباقون جنات نصب نسق على قوله خضرا أي فأخرجنا من الماء خضرا وجنات من اعناب

قرأ حمزة والكسائي أنظروا إلى ثمره بضم الثاء والميم أراد جمع الجمع تقول ثمرة وثمار وثمر كما تقول أكمة وإكام وأكم

وقرأ الباقون ثمره بفتح الثاء والميم جمع ثمرة مثل بقر وبقرة و شجرة وشجر

وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم100

قرأ نافع وخرقوا بالتشديد أي مرة بعد مرة مثل قتل وقتل

وقرأ الباقون وخرقوا بالتخفيف ومعنى خرقوا واخترقوا واختلقوا كذبوا

وليقولوا درست 105

(93/224)

قرأ أبو عمرو وابن كثير دارست بالألف أي ذاكرت أهل الكتاب وعن ابن عباس قارأت وتعلمت

وقرأ ابن عامر درست بفتح السين وتسكين التاء أي درست

هذه الأخبار التي تتلوها علينا أي مضت وامحت

وقرأ أهل المدينة وأهل الكوفة درست بسكون السين وفتح التاء أي قرأت أنت وتعلمت أي درست أنت يا محمد كتب الأولين وتعلمت من اليهود والنصارى وحجتهم قراءة عبد الله وليقولوا درس دل على أن الفعل له وحده

قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون 109

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر وما يشعركم إنها إذا جاءت بكسر الألف قال اليزيدي الخبر متناه عند قوله وما يشعركم أي ما يدريكم ثم ابتدأ الخبر عنهم إنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم وكسروا الألف على الاستئناف قال سيبويه سألت الخليل عن قوله وما يشعركم إنها إذا جاءت ما منعها أن تكون كقولك وما يدريك أنه لا يفعل فقال لا يحسن ذلك في هذا الموضع إنما قال وما يشعركم ثم ابتدأ فأوجب فقال إنها إذا جاءت لا يؤمنون لو قال وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون كان عذرا لهم وحجتهم قوله بعدها ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة إلى قوله ما كانوا ليؤمنوا فأوجب لهم الكفر وقال ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة أي إن الآية إن جاءتهم لم يؤمنوا

كما لم يؤمنوا أول مرة

وقرأ الباقون أنها إذا جاءت بالفتح قال الخليل إن معناها لعلها إذا جاءت لا يؤمنون قال

وهذا كقولهم إيت السوق أنك تشتري لنا شيئا أي لعلك أنشد أبو عبيدة . . . أريني جوادا

مات هزلا لأنني . . . أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا . . .

يريد لعلني أرى ما ترين

(94/224)

يروى في التفسير أنهم اقترحوا الآيات وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا إلى

قوله حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه فأنزل الله قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا

جاءت لا يؤمنون أي لعلها إذا جاءت لا يؤمنون على رجاء المؤمنين وقال آخرون بل المعنى

وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون فتكون لا مؤكدة للجحد كما قال وحرام على قرية

أهلكناها أنهم لا يرجعون بمعنى وحرام عليهم أن يرجعوا قال الفراء سأل الكفار رسول الله

صلى الله عليه أن يأتيهم بالآية التي نزلت في الشعراء إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية

فظلت أعناقهم لها خاضعين وقال المؤمنون يا رسول الله سل ربك أن ينزلها حتى يؤمنوا

فأنزل الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أي إذا

جاءت يؤمنون و لا صلة كقوله ما منعكم ألا تسجد إذ أمرتك أي أن تسجد

قرأ حمزة وابن عامر إذا جاءت لا تؤمنون بالتاء وحجتهما قوله وما يشعركم قال مجاهد قوله

وما يشعركم خطاب للمشركين الذين أقسموا فقال جل وعز وما يدريكم أنكم تؤمنون وقرأ

الباقون بالياء إخبارا عنهم وحجتهم قوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ولم يقل أفئدتكم

وحشرنا عليهم كل شيء قبلا 111

قرأ نافع وابن عامر قبلا بكسر القاف أي عيانا كما تقول لقته قبلا

وقرأ الباقون قبلا بضمتين جمع قبيل والمعنى وحشرنا عليهم كل شيء قبيلا قبيلا أي جماعة

جماعة قال الزجاج ويجوز أن يكون قبلا جمع قبيل ومعناه الكفيل ليكون المعنى لو حشرنا

عليهم كل شيء فتكفل لهم بصحة ما يقول ما كانوا ليؤمنوا

وقال الفراء ويجوز أن يكون قبلا من قبل وجوههم أي

ما يقابلهم والمعنى لو حشرنا عليهم كل شيء فقابلهم

يعلمون أنه منزل من ربك بالحق 114

قرأ ابن عامر وحفص أنه منزل من ربك بالتشديد من نزل ينزل جمعا بين اللغتين لأنه قد تقدم

قوله وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا ولم يقل وهو الذي نزل

وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلمته 115

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وتمت كلمة ربك على التوحيد وحجتهم إجماع الجميع على التوحيد في قوله وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

وقرأ الباقون كلمات ربكم على الجمع وحجتهم في ذلك أنها مكتوبة بالتاء فدل ذلك على الجمع وعلى أن الألف التي قبل التاء اختصرت في المحصف وأخرى أن الكلمات جاءت بعدها بلفظ الجمع فقال لا مبدل لكلماته وفيها إجماع فكان الجمع في الأول أشبه بالصواب للتوفيق بينهما إذ كانا بمعنى واحد

وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم 119

قرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي وقد فصل

بفتح الفاء والصاد وحجتهم ظهور اسم الله في قوله وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه فلما قرب اسم الله من الفعل قرؤوا فصل لقرب اسمه منه فكان معناه وقد فصل الله لكم ثم قرؤوا ما حرم بترك تسمية الفاعل بدلالة ما جاء في القرآن من التحريم بترك تسمية الفاعل في قوله حرمت عليكم الميتة والدم و حرم عليكم صيد البر جرى الكلام فيها بترك تسمية الفاعل فأجروا ما اختلفوا فيه من ذلك بلفظ ما اتفقوا عليه وأخرى أن الكلام أتى عقيبه

بترك تسمية الفاعل وهو قوله إلا ما اضطررتم إليه فألحق قول حرم ليكون لفظا المستثنى والمستثنى منه متفقين

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وقد فصل بضم الفاء ما حرم بضم الحاء على ما لم يسم فاعله وحجتهم قوله ثم فصلت من لدن حكيم خبير وهذه أحسن أعنى فصل و حرم ليأتلف اللفظان على نظام واحد إذ كان المفصل هو المحرم ولا ضرورة تدعو إلى المخالفة بين اللفظين

وقرأ نافع وحفص فصل بفتح الفاء و حرم بالفتح أي بين الله لكم ما حرمه عليكم

(96/224)

قرأ عاصم حمزة والكسائي وإن كثيرا ليضلون بضم الياء وحجتهم في وصفهم بالإضلال أن الذين أخبر الله عنهم بذلك قد ثبت لهم أنهم ضالون بما تقدم من وصفه جل وعز إياهم بالكفر به قبل أن يصفهم بالإضلال فلا معنى إذا لوصفهم بالضلال وقد تقدم أنهم ضالون فكان وصفهم بأنهم يضلون الناس يأتي بفائدة غير ما تقدم من وصفهم في الكلام الأول فهم الآن ضالون بشركهم ويضلون غيرهم بما جاؤوا به

جاء في التفسير أنها نزلت في قوم من المشركين قالوا للمسلمين تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما

قتل الله قالوا فإذا قرئ ليضلون بفتح الياء لم يكن في الكلام فائدة غير أنهم ضالون فقط وقد علم ضلالتهم بما تقدم من وصفهم فكأنه كرر كلامين ومعناه واحد

وقرأ أهل الحجاز والشام والبصرة ليضلون أي ليضلون هم وحجتهم قوله إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وقوله وأولئك هم الضالون وصفهم بالضلال لا بالإضلال

أو من كان ميتا فأحييناه 122

قرأ نافع أو من كان ميتا بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وقد ذكره فيما تقدم

حتى يؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته 124

قرأ ابن كثير وحفص الله أعلم حيث يجعل رسالته على واحد

وقرأ الباقون على الجمع وحجتهم أن الله جل وعز ذكر الرسل

قبله فقال حتى يؤتى مثل ما أوتي رسل الله وما بعده يجب أن يكون الجمع ليأتلف اللفظ والمعنى ومن قرأ بالتوحيد اجتزأ بالواحد عن الجميع

ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء 125

قرأ ابن كثير ضيقا خفيفا وقرأ الباقون بالتشديد والأصل ضييق على وزن فيعل ابن كثير حذف الياء الثانية والباقون أدغموا الياء ولم يحذفوا من الكلمة شيئًا ومثله هين وهين

قرأ نافع وأبو بكر حرجا بكسر الراء وقرأ الباقون بالفتح وهما لغتان مثل الدنف الدنف

وحجة من فتح قوله وما جعل عليكم في الدين من حرج فإن قال قائل لم قال الله صدره ضيقا مثقلا الجواب إن الحرج أشد الضيق فكأنه قال ضيق جدا

(97/224)

قرأ ابن كثير كأنما يصعد خفيفا من صعد يصعد وحجته قوله إليه يصعد الكلم الطيب وقرأ أبو بكر يصاعد الأصل يتصاعد فأدغم التاء في الصاد لقربها من الصاد

وقرأ الباقون يصعد الأصل يتصعد فأدغموا التاء في الصاد ومعنى يصعد و يصاعد و يصعد كله واحد

وما ربك بغافل عما يعملون 132

قرأ ابن عامر وما ربك بغافل عما تعملون بالتاء على الخطاب وقرأ الباقون بالياء وحجتهم قوله قبلها ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون

قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار 135

قرأ أبو بكر اعملوا على مكاناتكم على الجمع في كل القرآن

وقرأ الباقون على مكانتكم أي على تمكنكم وأمركم وحالكم والتوحيد هو الاختيار لأن الواحد ينوب عن الجمع ولا ينوب الجمع عن الواحد قوله مكانتكم وزنه مفعلة من الكون

والميم زائدة والألف منقلبة عن الواو من كان يكون مفعلة وقال قوم وزنه فعال مثل ذهاب والألف زائدة والميم أصلية والدليل على ذلك أن فعالا تجمعه على أفعلة تقول أمكنة ولو كان مفعلا لم يجمع على أفعلة

قرأ حمزة والكسائي من يكون بالياء وكذلك في القصص لأن تأنيثهما غير حقيقي العاقبة والآخر واحد وحجتهما قوله فانظر كيف كان عاقبة مكرهم وقوله ثم كان عاقبة الذين وقرأ الباقون من تكون بالتاء لتأنيث العاقبة

هذا لله بزعمهم 136

قرأ الكسائي بزعمهم بضم الزاي وقرأ الباقون بالفتح وهما لغتان

وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم 137

قرأ ابن عامر وكذلك زين بضم الزاي قتل بالرفع أولادهم نصب شركائهم بالخ زين على ما لم يسم فاعله قتل اسم ما لم يسم فاعله أولادهم نصب بوقو الفعل عليهم شركائهم جر بالإضافة على تقدير قتل شركائهم أولادهم ففرق بين المضاف والمضاف إليه وحجته قول الشاعر . . . فزججتها متمكنا . . . زج القلوص ابي مزاده . . .

أراد زج أبي مزادة القلوص وأهل الكوفة يجوزون الفرق بين المضاف والمضاف إليه

وقرأ الباقون وكذلك زين بفتح الزاي قتل نصب أولادهم جر شركاؤهم رفع وهم الفاعلون والتقدير وكذلك زين شركاؤهم أن قتل كثير من المشركين أولادهم

قال الزجاج شركاؤهم ارتفعوا بتزيينهم ويقال إن هؤلاء المزينين كانوا يخدمون الأوثان وقيل شركاؤهم شياطينهم

وقالوا ما في بطون هذ الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء 139

قرأ ابن عامر وإن تكن بالتاء ميتة رفع و تكن بمعنى الحدوث والوقوع أي وإن تقع أو تحدث ميتة

وقرأ ابن كثير وإن يكن بالياء ميتة رفع جعل أيضا يكن بمعنى الوقوع إلا أنه ذكر الفعل لأن تأنيث الميتة غير حقيقي فلذلك ذكر الفعل

وقرأ أبو بكر وإن تكن بالتاء ميتة نصب المعنى وإن تكن تلك الحمول التي في البطون ميتة ويجوز أن ترد على الأنعام أو على معنى ما ولك أن ترجع عن لفظ ما و من إلى معناهما ومن معناهما إلى لفظهما لأن لفظهما واحد ومعناهما الجمع والتأنيث وقد جاء في التنزيل حرف قد حمله على اللفظ ثم رجع إلى المعنى ثم حمله ثانيا على اللفظ وهو قوله ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات فوحد وحمله على اللفظ ثم قال خالدين فيها أبدا فجمع على

المعنى ثم قال قد أحسن الله له رزقا فرجع بعد الجمع إلى التوحيد وحمله أيضا على التوحيد وكذلك قوله هنا وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا على معنى ما ومحرم مذكر بعد مؤنث على لفظ ما فهو حرف ثان وهو حسن

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة الكسائي وحفص وإن يكن بالياء ميتة نصب جعلوها خبر كان والاسم المضمر في يكن ردوه على لفظ ما المعنى وإن يكن في في البطون ميتة وإن يكن الذي في البطون ميتة قال أبو عمرو الوجه يكن بالياء لقوله فهم فيه ولم يقل فيها

قد خسر الذين قتلوا 140

قرأ ابن كثير وابن عامر قد خسر الذين قتلوا بالتشديد أي مرة بعد مرة كما يقال رجل قتال إذا كثر منه القتل وقرأ الباقون قتلوا بالتخفيف

وآتوا حقه يوم حصاده 141

(99/224)

قرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر يوم حصاده بفتح الحاء وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان مثل الصرام والصرام قال الفراء بالكسر حجازية وأهل نجد وتميم بالفتح

ومن المعز اثنين 143

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر من المعز بفتح العين وقرأ الباقون ساكنة العين وهما لغتان والأصل تسكين العين لأنه جمع ماعز مثل تاجر وتجر وصاحب وصحب وحجتهم إجماع الجميع على تسكين الهمزة في الضأن وهو جمع ضائن كماعز والهمزة والعين من حروف الحلق فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه واعلم أنه إنما جاز فيهما الفتح وإن كان الأصل الإسكان لأن فيها حرفا من حروف الحلق والعرب تفتح إذا كان فيها حرف من حروف الحلق وذلك نحو النهر والنهر والزهر والزهر والظعن والظعن وإنما جاز فتحها لأن الحركات ثلاث ضمة وفتحة وكسرة فالفتحة من الألف فهي من حيز حروف الحلق هذا قول سيبويه فإن قال قائل هلا فتحت الهمزة من الضأن إذ كانت من حروف الحلق كما فتحت العين من المعز الجواب أن الهمزة أثقل من العين لأنها تخرج من أقصى الحلق وتحريكها أثقل من تحريك العين وكذلك فرق بينهما

قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا

145

قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم والكسائي إلا أن يكون بالياء ميتة نصب هذا هو الوجه لأن الاسم المضمر في يكون مذكر وهو قوله قل لا أحد فيما أوحي إلي محرما ولم يقل محرمة قال الزجاج تقديره إلا أن يكون المأكول ميتة أو ذلك الشيء ميتة

وقرأ ابن عامر إلا أن تكون بالتاء ميتة رفع يكون في هذه القراءة بمعنى ا الحدوث والوقوع

المعنى إلا أن تقع ميتة

وقرأ ابن كثير وحمزة إلا أن تكون بالتاء ميتة نصب

ذلكم وصكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه 152 و153

(100/224)

قرأ حمزة والكسائي وإن هذا صراطي بالكسر على الاستئناف وذلك أن الكلام متناه عند انقضاء الآية نكسر إن للابتداء بها وحجتهما في أن المراد من الكلام هو الاستئناف قوله في هذه السورة وهذا صراط ربك مستقيما 126 على الابتداء بالخبر عن صفة الصراط

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأن هذا بفتح الألف وتشديد النون وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال على معنى وصاكم به وبأن هذا صراطي مستقيما وقال آخرون بل نسق على قوله أتل ما حرم ربكم 151 أي أتل ما حرم ربكم وأتل أن هذا صراطي مستقيما

وقرأ ابن عامر وأن هذا بفتح الألف وتخفيف النون عطف على قوله أن لا تشركوا به شيئا وأن هذا عطف أن على أن

هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملئك 158

قرأ حمزة والكسائي هل ينظرون إلا أن يأتيهم الملائكة بالياء ذهب إلى جمع الملائكة وقد ذكرت الحجة في آل عمران

وقرأ الباقون بالتاء ذهبوا إلى جماعة الملائكة وحجتهم قوله تحمله الملائكة وقوله وإذ قالت الملائكة واعلم أن فعل

الجموع إذا تقدم يذكر ويؤنث تذكره إذا قدرت الجمع وتؤنثه إذا أردت الجماعة

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء 159

قرأ حمزة والكسائي إن الذين فارقوا بالألف وفي الروم أيضا ومعنى فارقوا أي زايلوا وقد روي أن رجلا قرأ عند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إن الذين فرقوا دينهم فقال علي لا والله ما فرقوه ولكن فارقوه ثم قرأ إن الذين فارقوا دينهم أي تركوا دينهم الحق الذي أمرهم الله باتباعه ودعاهم إليه

وقرأ الباقون فرقوا دينهم من التفريق تقول فرقت المال تفريقا وحجتهم قوله بعد وكانوا شيعا أي صاروا أحزابا وفرقا قال عبد الوارث وتصديقها قوله كل حزب بما لديهم فرحون يدلك على أنهم صاروا أحزابا وفرقا والمعنيان متقاربان لأنهم إذا فرقوا الدين فقد فارقوه

دينا قيما 161

قرأ ابن عامر وأهل الكوفة دينا قيما بكسر القاف أي مستقيما

ما

قال الزجاج قيم مصدر كالصغر والكبر إلا أنه لم يقل قوما مثل لا يبغون عنها حولا لأن قيما من قولك قام قياما والأصل قوم فقلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار قام فلما اعتل الفعل اعتل المصدر فقيل قيم

وقرأ الباقون بالتشديد وحجتهم قوله ذلك دين القيمة و فيها كتب قيمة قال الفراء في هذه الكلمة لغات للعرب تقول هذا قيام أهله وقوام أهله وقيم أهله وقيم أهله

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين 162

قرأ نافع ومحياي ساكنة الياء ومماتي لله بفتح الياء

وقرأ الباقون ومحياي بفتح الياء ومماتي ساكنة الياء وقد بينت في سورة البقرة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 242 . 279 ﴾

أسئلة وأجوبة فى السورة الكريمة

قال الخطيب الإسكافى :

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

الآية الأولى منها

قوله عز وجل : فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف أتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون ، الأنعام : 5

وقال في سورة الشعراء : فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون .

للسائل أن يسأل فيقول : قد ذكر في الآية التي في الأنعام ما كذبوا به وهو الحق لما جاءهم وقال ، فسوف يأتيهم ، وفي سورة الشعراء لم يذكر ما كذبوا به ، وجعل بدل سوف السين ، فهل كان يجوز أحدهما مكان الآخر ؟

فالجواب أن يقال إن الآية والأولى قد وفي المعنى فيها حقه من اللفظ ، لأنها سابقة للثانية وإن كانتا مكيتين فاشبعت ألفاظ الأولى مستوفية لمعناها .

وفي الآية الثانية اعتمد على الاختصار لما سبق في الأولى من البيان اقتصر على قوله كذبوا وهذا اللفظ إذا أطلق كان لمن كذب بالحق ، ألا ترى قوله عز وجل ويل يومئذ للمكذبين المرسلات وإذا قيد جاز أن يقول :

كذب وكذب الصدق ، وكذب مسيلمة وكذب النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه إذا عري عن التقييد لم يصح إلا لمن كذب بالحق ، فصار قوله تعالى في الشعراء من هذا القبيل بعد البيان الذي سبق في سورة الأنعام .

ولما بنيت هذه الثانية على الاختصار والاكتفاء بالقليل من الكثير جعل فيها بدل سوف السيف وحدها ، وهي مؤدية معناها .

ومن النحويين من ذهب إلى أنها من سوف وإن كان ذلك عندنا ليس بصحيح .

الآية الثانية :

قوله عز وجل متصلا بالآية التي تقدم ذكرها : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم . الأنعام .

وقال في سورة الشعراء متصلا بذلك بتلك الآية التي ذكرنا : أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من زل زوج كريم ، الشعراء 7

(103/224)

للسائل أن يسأل فيقول : ما با الألف في الأية الأولى دخلت على لم وفي الآية الثانية دخلت على ولم فكان بين الألف ولم واو العطف ولم يكن في سورة الأنعام ؟ وما الفصل بين ألم وألأو

فهل ما في الشعراء مكان ما في سورة الأنعام أم لا .

والجواب أن يقال : إن الألف تدخل على واو العطف في الاستخبار والإنكار والتقريع على تقدير أن تكون الجملة التي فيها الواو معطوفة على الكلام مثلها يقتضيها وذلك كقولك لقائل : هل رأيت زيدا ثمة ؟ أو زيد ؟ ممن يكون ثمة فصورته بصورة من ثبت ذلك عنده أو قاله ، فاستفهمه وعطفت على ما توهمت أنه في علمه أو وهمه .

فكل موضع فيه بعد ألف الإنكار واو ففيه تبكيت على ما يسهل الطريق إلى ما بعد الواو ، فالاعتبار به لكثرة أمثاله كقوله تعالى : أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ، كأن قائلا قال : كذبوا الرسول وغفلوا عن الفكر والتدبر فقد فعلوا ذلك ولم ينظروا إلى المشاهدات التي تنبه الفكر فيها من الغفلة .

وكذلك قوله تعالى : ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير أو لم يروا إى الطير فوقهم صافات ، الملك ، 19/18 . كأنه قال : كذبوا ولم ينظروا إلى ما يردع عن الغفلة من الفكر في المشاهدات .

وكذلك قوله : أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتقيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ، النحل : 48 ، لأن ذلك مشاهد .

وكل ما فيه واو مثل أولم يروا فهو تنبيه على ما تقدمه في التقدير أمثال منبهة ولكثرتها ، فالتكبيت فيه أعظم ، هذا كله في المشاهد وما في حكمه .

وما ليس فيه واو مثل ألم يروا فهو مما لم يقدر قبله ما يعطف عليه ما بعده ، لأنه من باب ما لا يكثر مثله ، وذلك فيما يؤدي إلى علمه الاستدلالات كقوله تعالى في سورة الأنعام : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكانهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم ، الأنعام : 6 وهذا مما لم يشاهدوه ولكن علموه .

وكذلك قوله : ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ، يس : 31 هو ما الطريق إلى العلم به الاستدلال لا المشاهدة .

فهذا ونحوه مما لم يكثر في معلومهم أشباهه ، فهم ينبهون عليه ابتداء من غير تقدير تنبيه على شيء مثله مما قبله .

فإن عارض معارض بقوله تعالى : ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ، النحل : 79 ، وقال هذا من القسم الذي يشاهد ، وحقه أن يكون ملحقا بقوله ، أولأم كما كان قوله أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ، الملك : 19 ، وهما في شيء واحد ، فما بالك اختلفا من حيث وجب أن يتفقا ؟

والانفصال أن يقال : إنا عللنا موضع ألم بما يوجب أن يكون هذا الموضع من أماكنها ، ألا ترى أنا قلنا ، هو كل موضع ينبهون عليه ابتداءا من غير تنبيه على شيء مثله مما قبله ، فعللنا المشاهدات بما يخرج هذا عنها ، لأن قبل هذه الآية : والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفدة لعلكم تشكرون ، الم يروا إلى الطير مسخرات ، النحل : 78-79 . فبنيت هذه الآية على التي أخبر الله فيها عز وجل عن أول أحوال الإنسان ، وأنه أخرجهم أطفالا صغارا ، من بطون أمهاتهم ، لا يعلمون شيئًا من منافعهم فيقصدونها ولا من مضارهم فيتجنبونها ، ثم بصرهم حتى عرفوا ونبههم على ما يشاهده كل حي من تصرف الطير في الهواء وعجزه عن مثل ذلك . وكان هذا مقرونا بأولى الأحوال ، ولم يتقدمه أمثاله له يقع التنبيه عليها قبله فيكون في حكم ما يعطف على ما تقدمه .

(105/224)

فإن عارض بقوله عز وجل : وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقطنون ، أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، الروم : 36-37 ، وقال إن ذلك مما لا يعلم ولا يشاهد ، وحكمه أن يكون بألم .

قيل له : التوسعة في الرزق والتقتير فيه لما كانت لهما أمارات ترى وتشاهد من أحوال الغنى والفقر صار أمرهما كالمشاهدات فكانا مما شوهدت أمثال لهما فعطف عليها .

فإن سأل عما جاء بالفاء في قوله تعالى : أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، سبأ : 9 ، وقال : ما الفرق بين هذا المكان الذي جاءت فيه الفاء وبين الأماكن التي جاءت فيها الواو ؟ وهل كان يصح في اختيار الكلام الواو مكان الفاء ها هنا ؟

فالجواب أن يقال : الفاء ها هنا أولى / لأن قبلها : وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ، أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ، أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، سبأ : 7-9 فكأنه قيل فيهم ، أنهم كذبوا الله ورسوله بما أنكروه من البعث ، فلم يتفكروا ولم يخشوا عقيب هذا المقال نقمة تنزل بهم فقيل : لم يتفكروا ولم يخشوا أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، أي : هم لا ينفكون من أرض تقلهم وسماء تظلهم ، والذي جعلها تحتهم وفوقهم قادر على أن يخسف الأرض بهم ، أو يسقط السماء عليهم ، فهذا موضع الفاء ، لا موضع غيرها ، لما بيّنها .

الآية الثالثة منها :

قوله تعالى : قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، الأنعام : 11 .

وفي سورة النمل : 29 : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين .

وقال في سورة العنكبوت 20 : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير .

(106/224)

وقال في سورة الروم 42 : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين .

للسائل أن يسأل فيقول : التي في سورة الأنعام ما بين السر والنظر فيها مهلة متراخية ، عبر عنها بـ ثم وسائر الآي المهلة بينهما فيها أقل فعبر عنها بالفاء ، فما الذي خصص الأولى بـ ثم والباقية بالفاء ؟

والجواب عن ذلك أن يقال : إن قوله : . . . سيروا في الأرض فانظروا ، يدل على أن السير يؤدي إلى النظر فيقع بوقوعه ، وليس كذلك ثم ألا ترى الفاء وقعت في الجزاء ، ولم تقع فيه ثم .

فقوله في سورة الأنعام : قل سيروا في الأرض ثم انظروا لم يجعل النظر فيه واقعا عقيب السير ، متعلقا وجوده بوجوده ، لأنه بعث على سير بعد سير لما تقدم من الآية التي تدل على أنه تعالى حداهم على استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد ، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثرا

بعد اثر ، في ديار بعد ديار قد عمم أهلها بدمار ، لقوله تعالى : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكانهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، ثم قال : فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . الأنعام : 6

(107/224)

فذكر في قوله : كم أهلكنا من قبلهم من قرن أي : قرونا كثيرة أهلكانهم ، ثم قال ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فدعا إلى العلم بذلك بالسير في البلاد ومشاهدة هذه الآثار ، وفي ذلك ذهاب أزمنة كثيرة ومدد طويلة تمنع النظر من ملاصقة السير ، كما قال في المواضع الآخر التي دخلها الفاء لما قصد فيها من معنى التعقيب واتصال النظر بالسير ، إذ ليس في شيء من الأماكن التي استعملتها فيها الفاء ما في هذا المكان من البعث على استقراء الديار وتأمل الآثار ، فجعل السير في الأرض في هذا المكان مأمورا به على حدة ، والنظر بعده مأمورا به على حدة ، وسائر الأماكن التي دخلتها الفاء علق فيها وقوع النظر بوقوع السير ، لأنه لم يتقدم الآية ما يحدوا على السير الذي حدا عليه فيما قبل هذه الآية ، فلذلك خصت بـ ثم التي تفيد تراخي المهلة بين الفعلين والله أعلم .

الآية الرابعة منها :

قوله تعالى : وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ، الأنعام : 17

وقال في سورة يونس : 107 ، وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله .

للسائل أن يسأل فيقول : ما الذي أوجب أن يقرن إلى جملتي الشرط والجزاء في الآية الأولى : وإن يمسسك ، ويجعل جواب الشرط الثاني : فهو على كل شيء قدير ثم قرن في الآية الثانية إلى جملتي الشرط والجزاء وإن يردك بخير ويجعل جوابه فلا راد لفضله فخالف الأول ؟

والجواب أن يقال : إن السورتين اللتين وقعت فيهما الآيتان مكيتان ، والأولى منها قبل الثانية .

فأما التي في سورة الأنعام وهي : وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو فمعناها ، إن يمسسك الله ضرا وهو سوء الحال ، فلا مزيل لع غير الله ولا يملك ما يعبد من دونه كشفه .

ومعنى يمسسك ينلك لأن المماسة في الأعراض مجاز وتوسع في اللغة فمعنى مسه الله بضر : أنا له الله ضرا وأوصله إليه .

(108/224)

وقوله : وإن يمسسك بخر فهو على كل شيء قدير أي : إن ينلك خيرا يرج الأكثر منه ، لأنه قادر عليه وعلى أمثاله ، والدليل على أن المعنى هذا .

أن الجزاء إذا كان جملة ابتداءا وخبر فإن معنى الخبر يكون جزاءا ومقدرا في مكان الفاء ، كقولك : إن زرتي فأنا مكرم لك ، وإن أحسنت إلي فأنا قادر على مقابلتك ، والتقدير : إن زرتي أكرمك ، وإن أحسنت إلى قدرت على مقابلتك ، وفي قولك : قدرت على مقابلتك ضمان المقابلة .

وأنت إذا قدرت قوله تعالى : وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ، وإن ينلك خيرا يقدر عليه ، لم يستقم الكلام ، لأن الجزاء حقه أن يكون بعد الشرط ، والقدرة على الفعل لا تكون بعده ، والمعنى ، إن ينلك خيرا يرج لأمثاله ، لأنه قادر عليه ، وعلى كل شيء قدير ، وكونه تعالى قادرا من صفات النفس ، وإنالة الخير فعل من أفعاله ، فلا يصح أن يكون كونه قادرا متأخرا عنها .

فالمعنى : إن نقلك إلى سوء حال لم يملك كشفه عنك غيره ، وذلك كشدائد الدنيا من الأمراض والآلام والنقصان في الأموال . وإن نقلك إلى حسن حال ، كان بعده قادرا على أمثاله ، ومالكا لأضعافه ، لأنه قادر على كل ما يصح أن يكون مقدورا عليه له ، فهذا وصفه بالقدرة على النفع والضر .

وأما الآية الثانية ففيها نفي أن يغالبه مغالب ، ويمنعه عما يريد فعله مانع ، لأن معناها : إذا

أنزل بك مكروها لم يقدر أحد على دفع ما يريد إيقاعه بك ، وإن أراد إحلال خير بك لم يرده أحد عنك ، وهو معنى : لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت .

ورتبة هذا الوصف بعد رتبة الوصف الأول ، لأنه يوصف الفاعل أولا بقدرته على الضدين ، وليس كل من كان كذلك كان ممتنعا عن أن يقهره قاهر فيحول بينه وبين ما يريد فعله ، فإذا وصفه بأنه قادر غالب للقادرين لا يدفعه عن مراد له دافع وصفا ثانيا ، فلاق بكل موضع ما ورد فيه ونطق القرآن به .

(109/224)

فالذي اقتضى هذا الوصف في الآيتين قوله تعالى قبل الأولى : (. . قل إني أمرت أن أكون أول مسلم ولا تكونن من المشركين) (الأنعام : 14) أي : إني لا أعبد إلها معه فأشرك به .

و قوله قبل الآية الثانية : (ولا تدع من دون الله ما لا ينفع ولا يضر فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) (يوسف : 106) ، ومثلها قوله تعالى : (. . قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته . .) (الزمر : 38) .

(47) الآية الخامسة منها :

قوله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون) (الأنعام : 21) .

وقال تعالى في سورة يونس (17) : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون) .

للسائل أن يسأل عن موضعين في الآيتين :

أحدهما : عن الواو في الأول الآية الأولى وهو (ومن أظلم) ، والفاء في أول الآية الثانية وهو (فمن أظلم) ؟

والثاني : عن اختصاص آخر الآية الأولى بقوله : (الظالمون) واختصاص آخر الآية الثانية بقوله : (المجرمون) ؟

والجواب عن الأول أن يقال : إن ما تقدم الآية الأولى من قوله : (قل أي شئ أكبر شهادة . .) إلى قوله : (و من أظلم . .) جمل عطف صدور بعضها على بعض الواو ، ولم تتعلق الثانية بالأولى تعلق ما هو من سببها ، فأجرى قوله : (و من أظلم) مجراها ، وعطف بالواو عليها ، ألا ترى قوله : (. . وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . .) وبعده : (. . وإنني بريء مما تشركون) (الأنعام : 19) .

وأما الآية الثانية فإن ما قبلها عطف بعضها على بعض بالفاء كقوله تعالى : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم به فقد لبث فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) (يونس : 16) فتعلق كل ما بعد الفاء بما قبله تعلق المسبب بسببه ، لأنه المعنى : لو أراد الله أن لا يوحي إلي هذا القرآن لما تلوته عليكم ولا عرفكم إياه في هذا الوقت الذي أخبرتكم أن الله بعثني به إليكم ، وهذا يؤديكم إلى أن تعلموا أني طويت فيكم شيئا مما تلوته الآن ، فيؤديكم هذا إلى أن تعرفوا صحة ما أقول إنه من عند الله ، لا من فعلي وقولي ، فعطف بعض هذا الكلام على بعض بالفاء . وقوله بعده : (فمن أظلم) أي : إذا عرفتم أنه ليس من قولي لظهوره مني بعد ما لم يكن فيما مضى من عمري ، فليس أحد أشد إضرارا بنفسه منكم في قولكم على الله ما لم يقله ، فهذا موضع الفاء . وكل موضع في القرآن يكون بعد

هاتين الآيتين بالواو أو بالفاء فاعتبره بما بينه لك . وفي الأعراف أيضا : (فمن أظلم) بالفاء فالجواب عنه مثل ما مضى .

والجواب عن السؤال الثاني أنه لما قال في الآية الأولى : (و من أظلم ممن افترى على الله كذبا . .) وكان المعنى أنه لا أحد أظلم لنفسه ممن وصف الله تعالى بخلاف وصفه فأوردها العذاب الدائم ، كان قوله : (إنه لا يفلح) عائدا إلى من فعل هذا الفعل ، أي : لا يظفر برحمه الله ولا يفوز بنجاة نفسه من كان ما ذكر من فعله ، فبناء الآخر على الأول

اقتضى أن يكون : (إنه لا يفلح الظالمون) .

وأما الآية الثانية في سورة يونس وتعقيبها بقوله : (إنه لا يفلح المجرمون) دون قوله : (إنه لا يفلح الظالمون) وإن كان الوصفان لفريق واحد ، فلأنهما تقدمتها الآية التي تضمنت وصف هؤلاء القوم بما عاقبهم به فقال : (و لقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتكم رسلكم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين) (يونس : 14-15) فوصفهم بأنهم مجرمون عند تعليق الجزاء بهم .

(111/224)

وقال بعده : (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعلمون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات . .) (يونس : 14- إلى الموضع الذي أبطل فيه حجتهم ودفع سؤالهم وهو (. . ائت بقرآن غير هذا أو بدله) يونس : 15 فقال تعالى : (إنه لا يفلح المجرمون) ليعلم أن هؤلاء سبيلهم في الضلال سبيل القوم الذين أخبر عن هلاكهم وقال : (كذلك نجزي القوم المجرمين) يونس : 13 ليوقع التسوية بينهم في الوصف كما أوقع التسوية بينهم في الوعيد .

48 الآية السادسة منها

قوله تعالى : (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) الأنعام : 25 .

وقال في سورة يونس 42-43 : (ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون* ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون) .

للسائل أن يسأل عن قوله تعالى : (من يستمع إليك) في الآية الأولى ، وتوحيد الضمير العائد إلى من حملا على فظها ؟ وعن قوله : (من يستمعون إليك) في الآية الثانية ، وجمع الضمير العائد إلى من حملا على معناها ؟ ولماذا اختص الأول بالتوحيد والثاني بالجمع ؟ وهل كان يجوز في الختيار عكس ذلك في المكانين ؟

(112/224)

والجواب أن يقال : إن لكل من الموضعين ما يوجب اختصاصه باللفظ الذي جاء فيه فأما قوله تعالى : (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا كل قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) ، فقد قيل فيه : إنه في قوم من الكفار كانوا يستمعون إلى النبي وإلى قراءته بالليل ، فإذا عرفوا بها مكانه رجموه وآذوه ومنعوه من الصلاة خوفا من أن يسمعه منهم من تدعوه دواعي الحق

فيسلم . وهذا قوم قليلي العدد يرصدونه عليه السلام بالليل ، وكان الله عز وجل يمنعهم عنه بنوم يلقيه عليهم ، وحجاب يحجبه به عنهم لقوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) الإسراء : 45 فصار ذلك كالكنان على قلوبهم ، وكالصم في آذانهم .

وأما قوله تعالى : (ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون* ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون) الآيتين ، فهو في كل الكفار الذين يستمعون مسموعا هو حجة عليهم ، وهو القرآن ولا ينتفعون بسماعه ، فكأنهم صم عنه .

فلما كانت من تصلح للواحد فما فوقه ، ويجوز أن يعود الضمير إلى لفظه وهو لفظ الواحد وإلى معناه ، وهو ما يراد به من الواحد أو اثنين أو ثلاث ، واختلف هذان المكانان في القلة والكثرة حملت في موضع القلة على حكم اللفظ ، وعاد الضمير إليها بلفظ الواحد فقال : (ومنهم من يستمع إليك) وفي موضع الكثرة على حكم المعنى ، وعاد الضمير إليها بلفظ الجمع ، فقال : (ومنهم من يستمعون إليك) ليفاد بالاختلاف هذا المعنى ، فلم يصلح في كل مكان إلا اللفظ الذ خصه مع القصد الذي ذكرت .

فإن قال قائل : فعلى هذا وجب في الاختيار : ومنهم من ينظرون إليك ، لأنهم الأكثرون كالمستمعين ؟

قلت : إن المستمعين لما كانوا محجوجين بما يستمعون من القرآن كانوا الأكثرين في الحجاج ، وليس كذلك المنظور إليه ، لأن الآيات التي رئيت بالعين لم تكثر كثرة آيات القرآن التي سمعت بالآذان ، فباين السامعون الناظرين في الكثرة عند الحجاج ، فلذلك عاد الضمير إليهم بلفظ الواحد .

49 الآية السابعة منها

قوله تعالى : (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين) الأنعام : 40 .

وقال بعدها : (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون) الأنعام : 47 .

فقال في هذين الموضعين : (أرأيتم) .

وقال في هذه السورة : (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) الأنعام : 46 .

وقال في سورة يونس : 50 : (قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه

المجرمون) .

للسائل أن يسأل فيقول : لأي معنى قال في الموضعين الأولين اللذين قدمنا ذكرهما : (أرأيتم) وفي الموضعين الأخريين : (أرأيتم) ، وهل كان الاختيار أن يكون أحدهما مكان الآخر أم لا .

فالجواب أن يقال : إن النحويين في قوله تعالى : (أرأيتكم) على مذهبين :

أحدهما : مذهب أهل البصرة ، وهو أن الكاف في أرأيتك زيدا عاقلا للخطاب كالكاف في أرأيتك زيدا عاقلا للخطاب كالكاف في ذلك وليست باسم ، ويقولون للاثنين : أرأيتكما زيدا عاقلا ، وللجماعة أرأيتكم زيدا عاقلا ، وأرأيتك زيدا عاقلا ؟ بمعنى : أعلمته عاقلا ؟ والتاء لا تتغير عن الفتح ، وهي علامة الضمير دون الكاف ، واكتفى بتثنية الكاف وجمعها عن تثنية التاء وجمعها .

ومن مذهب أهل الكوفة في الآيتين أن التاء اسم ، والكاف اسم مضمر ، والتقدير : أرأيتم أنفسكم إن أتاكم عذاب الله . والتاء موحدة اللفظ مع الكاف التي تختلف باختلاف المخاطبين اكتفاء باختلافها عن اختلاء التاء .

(114/224)

ولا اختلاف في ترادف الخطابين التاء والكاف على المذهبين ، ولا يترادفان إلا عند المبالغة في التنبيه ، والمبالغة فيه هو أن يعلم المخاطب أنه لا تنبيه بعد .

وما يتصل بقوله : (أرأيتكم) في الموضعين كلام يدل على ما إذا وقع لم ينفع عنده الزجر والتنبيه .

وما يتصل بقوله : (أرأيتكم) في الموضعين كلام يدل على ما إذا وقع لم ينفع عنده الزجر والتنبيه .

ألا تراه يقول : (أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون . .) وعند إتيان العذاب وقيام الساعة لا ينفع الانتباه ولا يقع التنبيه وأرأيتكم فعل متعد إلى مفعولين ، والجملة التي هي : (إن أتاكم عذاب الله) مضمنة مفعوليه .

وكذلك قوله : (أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون) معناه : أعلمتم إن أتاكم العذاب مفاجأة من حيث لا يعلم ، أو عيانا من حيث يشاهد ، هل يهلك عنده إلا القوم الظالمون ، وهم المخاطبون ، أي هل يهلك غيركم ؟ .

فلما علق ب أرأيتكم جملة تتضمن مفعوليها ، معنى الجملة تناهي الأمر في تخويفهم بالخشونة إلى حيث ينقطع التنبيه عندها ، كان هذا الموضع أحق المواضع بالمبالغة فيه لمرادفة التنبيه ، فلذلك

أتى بالتاء والكاف التين لا تخلوان من الخطاب على مذهبين .

على أن مذهب الكوفيين في الآيتين صحيح محتمل ، الآية الأولى تقديرها : أرأيتم أنفسكم داعية غير الله إن أتاكم عذاب الله ؟

والآية الثانية تقديرها : أرأيتم أنفسكم غير هالكة إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ؟

وأرأيتم أنفسكم هل يهلك غيرها ؟ لأنهم هم الظالمون .

أما الآيتين الأخريان اللتان اقتصر فيهما على أرأيتم ولم يترادف في كل واحدة منهما الخطابان الدالان على التناهي في التنبيه إلى حيث لا تنبيه بعده بذكر ما يفزعون به وينذرون قرب حلوله ، فلأن الجملتين بعدهما لم تتضمنا من المبالغة فيما يحذرون ما ينقطع التنبيه عنده .

(115/224)

أما الأولى فقوله (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) أي : أعلمتم إن سلبكم الله صحة ما تحسون به المشاهدات ، وتعلمون به المغيبات إلها غير الله يردها عليكم ؟ وليس هذا استئصالا كما في الآيتين المتقدمتين .

وأما قوله : (أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون) فلأن قبله : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) يونس : 48 . مخبرا أنهم استعجلوا العذاب وقيام الساعة فنزلوا منزلة من لا يخافون ما أوعدوا به ، ولذلك قال : (ماذا يستعجل منه

المجرمون) فلم يكن فيه صريح الاستئصال والإفصاح بالهلاك ، فكأنه لم يبلغ حدا لا مزيد للتنبيه فيه ، بل هم في تلك الحال أحوج ما كانوا إلى الزجر ، إذ لم يبلغ منتهاه ، كما بلغ في اللآيتين الأخريين ، يستعجلون هلاكهم ولا يعلمون ومعناه : أعلموا هم طالبين هلاك أنفسهم ما يستعجلونه من نزل عذاب الله بهم ؟

فقد بان هذا الفرق بين الآيات وما ترادفت فيه علامتا الخطاب وغيره مما جرى على أصل الكلام والعلم عند الله تعالى .

50 الآية الثامنة منها

قوله عز وجل : (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا . .) الأنعام : 70 .

وقال في سورة الأعراف 50-51 : (قالوا إن الله حرمهما على الكافرين* الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا . .)

وقال في سورة العنكبوت 64 (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهم ولعب) فقدم اللهو على اللعبفي هاتين الآيتين .

وجاء في سورة الحديد 20 : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة) فقدم اللعب هنا على اللهو

كما قدمه في سورة الأنعام .

للسائل أن يسأل فيقول : إذ كانت الواو للجمع بين الشيئين والأشياء بلا ترتيب ، فهل لتقديم أحد الاسمين على الآخر في موضع دون موضع ، وتقديم الآخر عليه في غير ذلك الموضع فائدة تخصه أم كان جائزا في كل مكان تقديم أيهما شاء المتكلم لا لغرض يخصه ؟

(116/224)

فالجواب أن يقال : إن الآية الأولى التي في سورة الأنعام في قوم من الكفار ، كانوا إذا سمعوا آيات الله هزلوا عندها واستهزأوا بها ، فهذا اتخاذهم دين الله لعبا ، وهو كما قال في آية أخرى : (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر ويستهزأ بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم . .) النساء : 140 .

وقوله عز وجل (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا . .) كقوله : (. . فلا تقعدوا معهم . .) النساء 140 فهؤلاء قوم حضروا النبي وسمعوا القرآن ، وعبثوا عند سماعه ولعبوا بآياته ، وأجروها مجرى أفعال يستروح إليها ، ولا نفع في عقباها ، ثم شغلوا بدنياهم عن تدبرها وألهتهم حلاوتها عن الفكر في صحتها ، فأول أفعالهم لعب ، وثانيها لهو ، واللعب فعل في غاية الجهل تتعجل منه مسرة

واللهو قال فيه صاحب العين : ما شغل الإنسان من هوى وطرب .

فهؤلاء لما فعلوا عند سماع القرآن من الاستهزاء والعبث أطلق على فعلهم اسم اللعب ، ثم شغلوا عنه باستحلاء الدنيا كان هذا لهوا منهم بعد اللعب وكان أول دينهم لعبا وما بعده لهوا ، فلذلك قدم لعب على لهو في هذه الآية .

وأما قوله في سورة الأعراف : (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين* الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا . .) الأعراف : 50-51 ، وتقديم اللهو على اللعب في هذه الآية فلأن الكافرين هنا لعامة الكفار ، غير مختص بمن سمع الآيات ، فقدم فعل أكثرهم على فعل أقلهم ، وهم الذين شغلتهم الحياة الدنيا وحلاوتها ، والولاية وغباوتها ، واستحلاء ما مرنت عليه طباعها ، وهذا هو اللهو .

ثم كانت أفعالهم التي اقتدوا فيها بآبائهم لما طابت لهم ولم يجدوا في العاقبة نفعا عليهم كاللعب الذي ينطوي على أفعال تبطل في الآجل وإن سرت في العاجل ، وهذا بعد الأول .

(117/224)

وأكثر الكفار دأبهم اللهو وإن شغلتهم الحال التي استصحبوها عن الفكر فيما يطرأ عليها فوجب لهذا تقديم ذكر اللهو لوجهين : لتقدمه على ما هو كالعب ولأنه أكثرهم . واللعب

الذي أريد به في الآية الأولى فعل أقلهم وهو هناك أول ما رد به ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله تعالى في سورة الحديد : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد . .) ، وتقديم اللعب فيع على اللهو فلأن معناه : الحياة الدنيا لمن اشتغل بها ولم يتعب لغيرها من أعمال الآخرة مقسومة من الصبا ، وهو وقت اللعب ، وبعده اللهو ، وهو الترويح عن النفس بملاعبة النساء ويتبع ذلك أخذ الزينة لهن ولغيرهم ، ومن أخذ الزينة تنشأ مباهاة الأكفاء ومفاخرة الأشكال والنظراء ، ثم بعده المكاثرة بالأموال والأولاد ، فترتيب الحياة على هذه الأحوال يوجب تقديم حال اللعب على حال اللهو .

واللهو إذا أطلق في كلامهم فهو اجتلاب المسرة بمخالطة النساء ، ولذلك قال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم انني كبرت وألا يحسن اللهو أمثالي

وقال الآخر :

لهونا بمنجول البراقع حقبة فما بال دهر لزنا بالوصاوص

وقيل في قوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين* لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) الأنبياء : 16-17 .

قيل في تفسير الهو : المرأة ، وقال قتادة : اللهو بلغة أهل اليمن : المرأة أي : لفعلناه من حيث

يختص بعلمنا ، فلا يطلع عليه غيرنا ، تعالى الله عن الصاحبة والولد ، فعلى هذا سميت المرأة لهوا باسم الفعل لكثرة ما يقع ذلك بها .

(118/224)

وأما قوله تعالى في سورة العنكبوت 64 : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وغن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) ، فليس المراد به أن الحياة الدنيا كلها لهو ولعب ، وليست شيئًا غيرها ، لقوله : ما هي إلا هما ، لأنه لو كان المراد هذا لكان لقائل أن يقول : ما هذه الحياة الدنيا إلا خوف وحزن ، فالخوف اضطراب القلب لتوقع مكروه ، والحزن ألمه لفقد محبوب ثم إن هذه الحياة تنطوي على أنواع من عبادة الله تعالى وعلى تلاوة كتابة ، وعلى ما يكسب رضي الله عز وجل ، ويوجب ثوابه الدائم ، فكيف يقال فيما يتضمن كل هذه الخيرات : ليس هو إلا لهوا ولعبا ، بل المراد : المبالغة في وصف قصر مدة الدنيا بالإضافة إلى مدة الأخرى ، فكأنه قال : ما أمد الحياة الدنيا إلا كأمد أزمنة اللهو واللعب ، فهي أزمنة لشغل النفس بحلاوة ما يتعجل كما قال القائل :

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار وقال آخر :

وليلة إحدى الليالي الزهر لم تك غير شفق وفجر

والدليل على أن المراد هذا ذكرت قبل ، وما ذكروه الله تعالى بعد من قوله عز وجل : (وإن الدار

الآخرة لهي الحيوان) العنكبوت : 64 أي : أن حياتها تبقى أبدا ، ولا تعزب أمدا . وإنما قدم الله على اللعب هنا ، لأن الأزمنة التي يقصرها الله أكثر من الأزمنة التي يقصرها اللعب ، لأن التشاغل به أكثر .

فلما كان معظم ما يستقصر وجب تقديم ما يكثر على ما هو دونه في الكثرة ، لأن ذلك آخذ بالشبه ، وأبلغ في وصف المشبه ، ولا خلاف أن الناس أزمنة المشغولة باللهو أكثر من أزمنتهم المشغولة باللعب ، وإن طيبها لهم يخيل قصرها إليهم ، ويتفاوت طيبها على حسب تفاوت ميل النفس إلى محبوبها .

فمعظم ما يرى الزمان الطويل قصيرا زمان اللهو بالنساء ، وهو الذي نشأت منه فتنة الرجال وهلاك أهل الحب فهذا الكلام في هذه الآي والسلام .

51 الآية التاسعة منها

قوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي) الأنعام : 95 .

وقال في سور أخر قبلها وبعدها : (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) الروم : 19 .

للسائل أن يسأل فيقول : لم عطف الاسم على لفظ الفعل ولم يعطف عليه لفظ الفعل ، كما قال في السور الأخر ؟ وإذا عطف عليه بلفظ الاسم وهو (مخرج الميت من الحي) ، هلا ذكر اللفظ الأول بالاسم فيقول : مخرج الحي من الميت ، فما الفائدة في ذلك ؟ وما الفرق بينها وبين الآي الأخر ؟

والجواب أن يقال : إن أول هذه الآية ذكر بلفظ الاسم وهو (فالق الحب والنوى) فكان اللائق به أن يقال : ومخرج الحي من الميت ولكنه لما اجتمع ثلاثة حروف من حروف العلة دفعة واحدة ، وهي : الواو من النوى والياء من النوى والواو من مخرج وهي واو العطف ، ونقل عن لفظ الاسم إلى لفظ الفعل لما كان يخرج ومخرج بمعنى واحد ، فقال : (يخرج الحي من الميت) فجعل الجملة وهي : (يخرج الحي من الميت) خبر الابتداء ، كما تقول : إن زيدا ضارب عمرو يكرم بكرا ، ومكرم جعفرا ، فهذا أفصح من أن تقول : إن زيدا ضارب عمرو ، ومكرم بكر ، ومكرم جعفر ، فلهذا المعنى قال : (يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي) .

فلما انتهى إلى العاطف من قرينه لم تكن فيه تلك العلة التي كانت في المعطوف عليه فأجري على ما أجري عليه اول الآيى ، وهو : (فالق الحب) وما بعده : (فالق الاصباح وجعل الليل ساكنا) الأنعام : 96 ، وعاد إلى لفظ الاسم وهو : (ومخرج الميت من الحي) ، وعطفه على (فالق الحب) ،

وليس في الآي الأخر ما في هذه الآية قبلها وبعدها من الاسمية ، فذكر فيها على لفظ الفعل عاطفها ومعطوفها فبان الفرق بينهما على ما بينت . والله أعلم .

52 الآية العاشرة منها

قوله تعالى : (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) الأنعام : 97 .

والآية الثانية بعدها : (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) الأنعام : 98 .

(120/224)

والآية الثالثة : (. . إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) الأنعام : 99 .

للسائل أن يسأل فيقول : ما الذي أوجب في اختيار الكلام أن يقال في الأولى يعلمون وفي الثانية يفقهون وفي الثالثة يؤمنون ؟ وهل صلح بعض ذلك مكان بعض أم في كل معنى يخص اللفظ الذي جاء عليه ؟ .

فالجواب أن يقال : إن قوله تعالى : (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) جاء بعد آيات نبهت على معرفة الله تعالى ، وهي من قوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى . .) إلى قوله : (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر . . .) الأنعام : 95-97 فكان جميع ذلك دالا على العلم بالله تعالى وبوحدانيته ، وهو أشرف معلوم .

ولا لفظ من ألفاظ يعلمون ويعقلون ويفقهون ويشعرون إلا ولفظة يعلمون أعلى منه ، ولذلك صحت في الخبر عن الله تعالى ولم يصح فيه غيرها من الألفاظ التي ذكرت فلما كان المعلوم أشرف المعلوم المعلومات عبر عن الآيات التي نصبت للدلالة عليه باللفظ الأشرف .

وأما ما استعمل في يفقهون فهو بعد قوله : (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع .) الأنعام : 98 فأخبر عن ابتدائه الإنسان وإنشائه إياه ، ثم نبهه بما أراه من تنقله من حال إلى حال ، من عدم إلى وجود ، ومن مكان إلى مكان ، ومن صلب إلى رحب ، ومن بطن أم إلى وجه الأرض ، ومن وجه الأرض إلى بطنها ، على أنه كما نقل من موت إلى حياة ، ومن حياة إلى موت ، كذلك ينقل من الموت إلى الحياة ، ومن القبر إلى المحشر ، ومنه إلى إحدى الدارين ، لأن الاستيداع في الدنيا ، والمستقر في العقبى كما نقل في التفاسير فنطقت تلك الأحوال الحادثة لمن يفهمها ويفطن لها ، ويستدل بمشاهدها على مغيبها أن بعد الموت بعثا وحشرا وثوابا وعقابا ، وهذا مما يفطن له ، فيفقهون أولى به .

وأما قوله تعالى : إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ، الأنعام : 99 ، بعد ما عد نعمه على خلقه ، وما وسعه من رزقه من الحب المعد للأقوات ، ومن ضروب الأشجار وصنوف الثمار ، وكان هذا

مستدعيا للإيمان ، المشتمل على شكر نعمته ، والقيام بما فرض من طاعته ، وأوجب من عبادته ، كانت الآيات في ذلك معرضة لمن آمن بالله ، فلذلك قال في الأخير ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ، والله أعلم .

53 الآية الحادية عشر منها :

قوله تعالى : ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، الأنعام : 102 .

وقال في سورة المؤمن 62 : ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون .

للسائل أن يسأل فيقو : لماذا في سورة الأنعام لا إله إلا هو على قوله : خالق كل شيء ، وقدم في سورة المؤمن ، : خالق كل شيء ، على قوله تعالى : لا إله إلا هو ؟

والجواب أن يقال : لأن ما في هذه السورة جاء بعد قوله تعالى : وجعلوا الله شركاء الجن وخلقكم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، الأنعام : 100 ، فلما قال : ذلكم الله ربكم ، أتى بعده بما يدفع قول من جعل لله شريكا ، فقال : لا إله إلا هو ، ثم قال : خالق كل شيء .

وفي سورة المؤمن جاء هذا بعد قوله تعالى : لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، غافر : 57 فكان الكلام على تثبيت خلق الإنسان ، لا على نفي الشريك عنه هنا ، كما كان في الآية الأولى فكان تقديم خالق كل شيء ها هنا أولى .

والله أعلم .

54 الآية الثانية عشرة منها :

قوله تعالى : ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، الأنعام : 112 ، وقال بعده : ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، الأنعام : 137 .

للسائل أن يسأل فيقول : كيف قال : وقال ربك ، في الأولى ، وفي الثانية ولو شاء الله ؟ وهل في المكانين ما يوجب اختلاف الاسمين ؟

(122/224)

والجواب أن يقال : إن الأولى قبلها : وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، الأنعام : 112 ، أي : كا للأنبياء قبلك من قبل العدو من الإنس والجن ، ولو شاء من رباك وربك وقام بمصالحك لألجأهم إلى موافقتك وترك مخالفتك ، كان من يقوم بتربيتك يحجزهم عم مضرتك ، وأن يظفروا بمرادهم من

عداوتك فقد تضمن قوله ربك هذا المعنى .

وقوله في الآية الأخرى : ولو شاء الله ما فعلوه جاء بعد قوله تعالى : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، الأنعام : 136 ، فأخبر أنهم أقاموا لله الذي يحق إفراده بالعبادة شركاء ولو شاء الله أي : ولو شاء من نعمته عليهم نعمة توجب التأله إلا يعبدوا سواه ما تمكنوا من فعله ، فهذا موضع لم يلق به إلا الإسم الذي يفيد معنى فيه حجة عليهم دون غيره من ألسماء فأفاد كل اسم من الإسمين في مكانه ما لم يكن ليستفاد بغيره . والله أعلم .

55 الآية الثالثة عشرة منها :

قوله تعالى : إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، الأنعام : 117 .

وفي سورة القلم : 7 : (إن ربك هو أعلم بمن ظل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .

للسائل أن يسأل عن الفرق بين اللفظين ، وحذف الباء وإثباتها ، وهل كان يصح ما في سورة القلم أن يكون في سورة الأنعام ، وما في سورة الأنعام أن يكون مكانها ؟

والجواب أن يقال : إن مكان كل واحد يقتضي ما وقع فيه ، وبين اللفظين فرق في المعنى يوجب اختصاص اللفظ الذي جاء له بمكانه .

فقوله : (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) معناه : الله أعلم أي المأمورين يضل عن سبيله ، أزيد أم عمرو ؟ وهذا المعنى يقتضيه ما تقدم هذه الآية وما جاء بعدها مما تعلق بها ، فالذي قبلها : (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله . .) الأنعام : 116 أي : إن تطع الكفار يضلوك عن طاعة الله وعبادته ، ثم أخبر أنه يعلم من الذين يغوونه ويضلونه ومن الذين لا يتمكنون من إضلاله ؟ ولعد هذه الآية : (وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله . .) الأنعام : 119 .

وأما قوله : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) فمعناه غير معنى الآية الأولى أي : الله أعلم بأحوال من ضل ، كيف كان ابتداء ضلاله ، وما يكون من مآلهظ أيصر على باطله أم يرجع عنه إلى حقه ، وقبلها : (فتبصر ويبصرون* بأييكم المفتون) القلم : 5-6 .

من جعل المفتون كالمعقول بمعنى العقل ، كان معناه فستعلم ويعلمون ، بك أو بهم الفتون ، وخبال العقل وفساد الرأي ؟

ومن جعل المفتون : المبتلى بفساد التمييز ، حكاية معنى قولهم : إنه مجنون ، كان كما يقال : في أي الفرقتين المجنون ؟ أفي فرقة الإسلام أم في فرقة الكفر ؟ والباء تقارب معنى في كما يقال : فيه عيب ، فينوب كل واحد من الحرفين مناب الآخر في أداء المعنى .

ويجوز أن تكون الباء بمعناها على ما يقال : فلان : بالله وبك أي : ثباته به وبك ، معناه : ستعلم بأي

الطائفتين ثبات الجنون ودوام الفتون .

وإذا كان مدار الكلام على أنه سيبصر بأيكم الخبال والجنون كان قوله تعالى بأي (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) أي : الله أعلم بي وبكم ، وبالمخبل والمجنون مني ومنكم .

وإذ قال : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) أي : هو أعلم بابت

اء ضلالة ، وانتهاء أمره ، وهل يقيم على كفره أم يقلع عن غية لرشده فقد بان لك أن كل

موضع أتى فيه بما اقتضاه المعنى من اللفظ .

56 الآية الرابعة عشرة منها :

(124/224)

قوله تعالى : كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ، الأنعام : 122

وقال في سورة يونس 12 : كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ، للسائل أن يسأل فيقول :

ما فائدة اختصاص الأول بالكافرين ، والثاني بالمسرفين ؟

والجواب أن يقال : إن الأول قبله ، أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس

كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، الأنعام : 122

والمراد بالميت هاهنا : الكافر ، والنور الإيمان وحياته به ، ومن في الظلمات : من استمر به

الكفر ولم يتنقل عنه ، فكان ذكر الكافرين بعده أولى .

وأما المكان الثاني فإن القبلة : إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، يونس : 7 ، فهذا صفة كفار نعموا أبدانهم ودنسوا أديانهم ، واقتصروا على عمارة الحياة الدنيا واطمأنوا بها ، ولم يتبعوا لطلب الأخرى ، وهم المسرفون الذين قال الله تعالى فيهم : وأن المسرفين هم أصحاب الناس ، غافر : 43 ، لأنهم غلوا في غيثار الدنيا وتعجل نعيمها ، وتجاوزها الحد في عمارتها ، والإعراض عما هو أهم لهم منها .

ويجوز أن يكون الكفار سموا مسرفين لمجاوزتهم الحد في العصيان ، إذ يقال لمن أفرط في ظلم : أسرف ، والذين رضوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا بها وغفلوا عن تدبر آيات الله تعالى يقال لهم : مسرفون على وجهين :

أحدهما المبالغة في تنعيم النفوس وجعلهم الدنيا حظهم مما عرضوا له من النعيم .

والثاني : مجاوزتهم الحد في معصية الله تعالى .

فلما قال : فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ، يونس : 11 ، واشار إلى من التقديم ذكرهم في قوله : إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا ، يونس : 7 ، ثم وصف

حال الانسان في الشدة والرخاء ، وانقطاعه في الشدة إلى الدعاء ، ونسيانه له في الرخاء ، فسمى الذين هذه صفتهم مسرفين على أحد الوجهين اللذين ذكرنا لإسرافهم في الحالين .

والله أعلم .

57 الآية الخامسة عشرة منها :

(125/224)

قوله تعالى : ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، الأنعام : 131

وقال في سورة هود 117 : وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

للسائل أن يسأل فيقول : لم كان في الأول غافلون وفي الثاني مصلحون ؟

والجواب : إن ذلك إشارة إلى ما تقدم ذكره من العقاب في قوله : قال النار مثواكم خالدين فيها ن الأنعام : 128 ، وبعده : يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، الأنعام : . 130

وأما الموضوع الثاني الذي ذكر فيه : وأهلها مصلحون فللبناء على ما تقدم : وهو قوله تعالى :

(فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) هود : 116 . فدل أن القوم كانوا مفسدين حتى نهاهم أولو بقية عن الفساد في الأرض فإن نقيض الفساد الصلاح ، فقال : لم يكن الله

ليهلكهم وهم مصلحون ، فاقتضى ما تقدم في كل آية ما اتبعت من الغافلين والمصلحين .

58 الآية السادسة عشرة منها :

قوله تعالى : (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون) الأنعام : 135 .

وقال في سورة هود 93 في قصة شعيب (يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون) .

وقال في سورة الزمر 39 : (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون)

للسائل أن يسأل عن الآية التي في سورة هود : لم جاءت بحذف الفاء من سوف وجاءت الآيتان الأخريان بإثباتها فقال : (فسوف تعملون) ، وهل يصلح ما فيه الفاء مكان ما لا فاء فيه ؟

والجواب أن يقال : أمر الله نبيه في سورة الأنعام بأن يخاطب الكفار على سبيل الوعيد : اعملوا على طريقتكم وجهتكم ، أو على تمكنكم فسوف تعملون ، أي : اعملوا فستجزون وتعملون وإساءتكم إلى أنفسكم .

(126/224)

فالعمل سبب للجزاء الذي عبر عنه بقوله : (فسوف تعلمون) فالفاء متعلقة بقوله : (اعملوا) ، والتقدير : اعملوا فسوف تعلمون ، إني عامل فسوف أعلم ، فحذف للعلم به .

وكذلك ما في سورة الزمر خطاب من الله تعالى لنبيه على هذا الوجه .

وأما في سورة هود فإنه حكاية عن شعيب عليه السلام لما تجاهل قومه عليه فقالوا له : (. . يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) هود : 91 فقال لهم : (. . اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون) وتعرفون عملي ، وإن قلتم إنا لا نفقه أكثر ما تقوله ، فجعل (سوف تعلمون) مكان الوصف لقوله : (عامل) فلم يصح على هذا المعنى دخول الفاء ، وقصد هذا المعنى لما أظهروا من جهلهم به وأنهم لا يعرفون كثيرا مما يقول لهم فقال لهم : (إني عامل سوف تعلمون) عملي وتعرفونه بعد ما أنكرتموه .

59 الآية السابعة عشرة منها

قوله تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم . .) الأنعام : 148 .

وقال في سورة النحل 35 : (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم) النحل : 35 .

للسائل أن يسأل هنا عن مسألتين :

إحداهما : أنه ذكر في الثانية : (من دونه من شيء) ولم يذكره في الأولى . وهل كان يجوز لو وصلت إحداهما بما وصلت به الأخرى ؟ .

والثانية : تأكيد الضمير في سورة النحل ، ثم العطف عليه ، وفي سورة الأنعام لم يؤكد ، وعطف عليه : (ولا آباؤنا) والفصل الذي يقول مقام التأكيد في المكانين حاصل .

والجواب أن يقال : إن قوله : (ما أشركنا) مستغن عن ذكر المفعول به ، وإن كان في الأصل متعديا إليه ، كقوله ("ألا تشركوا به شيئا) الأنعام : 151 وإنما

59 الآية السابعة عشرة منها

(127/224)

قوله تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم . .) الأنعام : 148 .

وقال في سورة النحل 35 : (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم . .) الأنعام : 148 .

وقال في سورة النحل 35 : (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء

نحن ولا آباؤنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم . .) النحل : 35 .

للسائل أن يسأل هنا مسألتين :

إحداهما : أنه ذكر في الثانية : (من دونه من شيء) ولم يذكره في الأولى وهل كان يجوز لو وصلت إحداهما بما وصلت به الأخرى ؟

والثانية : تأكيد الضمير في سورة النحل ، ثم العطف عليه ، وفي سورة الأنعام لم يؤكد ، وعطف عليه : (ولا آباؤنا) والفصل الذي يقوم مقام التأكيد في المكانين حاصل .

والجواب أن يقال : إن قوله : (ما أشركنا) مستغن عن ذكر المفعول به ، وإن كان في الأصل متعديا إليه ، كقوله (. . ألا تشركوا به شيئًا . .) الأنعام 151 إنما لم يحتج إلى ذكر المفعول به كما احتاج إليه (عبدنا) ، لأن الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته ، والعبادة لا تدل على إثبات معبود لا يجوز إثباته ، لأنها تدل على معبود ، هو مثبت لا يصح نفيه ، فقوله : (ما عبدنا) غير مستنكر أن يعبدوا ، وإنما المستنكر أن يعبدوا غير الله شيئًا ، فكان تمام المعنى بذكر قوله : (من دونه من شيء) .

وكذلك : (ولا حرمنا من دونه من شيء) : لا بد مع قوله : (حرمنا) من قوله : (من دونه من شيء) ولم يحتج إليه بعد قوله : (ما أشركنا) ، لأن الإشراك دال على أن صاحبه يعبد شيئًا من دون الله ، ولا يدل (عبدنا) على ذلك ، فوفي اللفظان في سورة النحل حقهما من التمام .

والجواب عن السؤال الثاني ، وهو تأكيد علامة الإضمار في سورة النحل ب نحن وترك ذلك في سورة الأنعام مع أن بعد واو العطف لا في الموضعين : هو أن كل ما أكد معنى الفعل الذي ضمير الفاعل كالجزء منه إذا وليه ، ولم تكثر الحواجز بينهما ، مقام التأكيد بعلامة الإضمار مثل أنا ونحن .

وقوله : (ما أشركنا ولا آباؤنا) : أشركنا منه منفي ب ما ولا بعد الواو مؤكد معنى ما الداخلة على

الفعل ، وكأنها مؤكدة للفعل وإذا أكدت الفعل وعلامة الإضمار جزء منه فكأنما أكدتها ، ومثله قوله : (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك . .) هود : 112 ، و (من تاب) عطف على المضمر في قوله : (فاستقم) وصح ، لأن قوله : (كما أمرت) بمعنى استقامة مثل ما أمرت به ، ف (كما امرت) في موضع المصدر ، والمصدر هو تأكيد للفعل نفسه ، فصار مثل تأكيد ما هو جزء منه ، فكان هذا التأكيد للفعل يليه في هذا المكان ، وفي قوله : (ما أشركنا ولا آباؤنا) .

فأما قوله : (ما عبدنا من دونه من شيء) لم يكن الفصل مؤكدا لنفس الفعل ، كما كان

المصدر في قوله : (فاستقم) وكما كان لا بعد واو العطف فيقوله : (ولا آباؤنا) مؤكدة معنى ما التي تنفي الفعل فتصير كأنها مؤكدة ما هو كبعض الفعل ، لأن الفصل هاهنا بالمفعول به ، وهو من شيء وبقوله من دونه ، ومعناه : ما عبدنا غير شيئا ، فيكون بمعنى الاستثناء ، وليس شيء من هذين مؤكداها ، وجاءت : (ولا آباؤنا) وكانت لا مؤكدة إلا أنها لم تل علامة الضمير المعطوف عليها لحجزه بينهما بقوله : (من دونه من شيء) .

(129/224)

والحواجز إذا كثرت وبعدت ما بين الكلمتين اختير إعادة العامل مع أن في المتقدم كفاية كقوله عز وجل : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) الكهف : 30 ، وكقوله : (أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) النمل : 67 وكقوله : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) المؤمنون : 35 فلما بعد الخبر وهو مخرجون من أنكم الأولى أعيدت .

وإذا كان الإختيار ما ذكرنا فيما طال الفصل فيه ، وكان الفصل في قوله تعالى : (ما عبدنا من دونه من شيء) قد طال بجارين ومجرورين بين علامة الضمير في (عبدنا) وبين لا المؤكدة ل ما التي تنفي الفعل الذي علامة الضمير في تضاعيفه ، كجزء من أجزائه وكحرف من

حروفه ، احتاج الضمير في العطف عليه إلى ما يؤكده ، فلذلك أدخل نحن هاهنا ، ولم تدخل في قوله : (ما أشركنا ولا آباؤنا) فافهمه ، فإنه من دقيق النحو ، وفقنا الله وإياكم لمعرفته .

60 الآية الثامنة عشرة منها

قوله تعالى : (قل تعالوا أتلوا ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم . .) الأنعام : 151 .

وقال في سورة بني إسرائيل 31 : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نرزقهم وإياكم . .) .

للسائل أن يسأل فيقول : قوله عز وجل : (نحن نرزقكم وإياهم) هو ما عليه الإختيار في كلام العرب من تقديم ضمير المخاطب على ضمير الغائب بناء على قولك : أعطيتكه . والآية في سورة بني اسرائيل قدم فيها الضمير الغائب على المخاطب ، فكأنها بنيت على قولك : أعطكيتهك ، وهذا ليس بمختار ، فما الذي أوجب اختصاص الأول بتقديم ضمير المخاطب ، وأوجب اختصاص الثاني بتقدم ضمير الغائب ؟

(130/224)

والجواب أن يقال أولا : ليس الضميران إذا اتصلا بالفعل كالضميرين إذا انفصل أحدهما وعطف على الآخر ، لأن قوله : أكرمته وإياك ، مثل قوله : أكرمتك وإياه في أن كل واحد منهما مختار في مكانه الذي يوجب تقديم ما قدم وتأخير ما أخر بخلاف ما يختار إذا اتصل بالفعل في مثل : أعطيتكه .

فأما قوله في سورة الأنعام : (نحن نرزقكم وإياهم) فلأن قبله : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) أي : من أجل إملاق وانقطاع مال وزاد ، وهذا نهي عن قتلهم مع فقرهم وخوفهم على أنفسهم إذا لزمتهم مؤونة غيرهم ، فكأنه قال : الذي يدعوكم إليه من حالكم في أنفسكم ثم في غيركم لا يجب أن تشفقوا منه فإني أرزقكم وإياهم .

وأما الآية الثانية فإنه قال فيها : (خشية إملاق) والإملاق غير واقع ، فكأنه قال : خوف الفقر على الأولاد ، وكان عقب هذا إزالة الخوف عنهم ، ثم عن القاتلين ، أي : لا تقتلوهم لما تخشون عليهم من الفقر ، فالله يرزقهم وإياكم ، فقدم في كل موضع من الموضعين ما اقتضى تقديمه ، وأخر ما اقتضى الموضع تأخيره والله أعلم .

61 الآية التاسعة عشرة منها

قوله تعالى في الوصية الأولى من هذه السورة : (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) الأنعام : 151 .

وفي الثانية : (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) الأنعام : 152 .

وفي الثالثة : (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) الأنعام : 153 .

للسائل أن يسأل فيقول : ما الذي اقتضى في الأولى (تعقلون) وفي الثانية (تذكرون) وفي الثالثة (تتقون) ؟ وهل صلحت الثانية مكان الأولى في اختيار الكلام ؟

(131/224)

والجواب أن يقال : قدم الله تعالى الوصية بالأشرف الأعظم وهو الإيمان بدل الشرك ، وفيه أداء حق أكبر المنعمين ثم الإحسان إلى الوالدين ونعمتهما على الولد أكبر النعم بعد نعمة الله تعالى ، فحقها يتلو حقه ، ثم الإحسان إلى الأولاد بترتيبهم ، وترك ما كانت عليه العرب في جاهليتها من أود البنات للفقر والإملاق ، ثم أن لا يقربوا ما لعله يكون سبب ولد لا يصح نسبه وهذا في النهي

عن سبب الإحداث كالأول في النهي عن سبب الإهلاك ، ثم أن يحقنوا الدماء ولا يسفكوها إلا بحقها ، وهو أن يقتلوها للقصاص ، والزنى بعد الإحصان ، والكفر بعد الإيمان .

فهذه خمسة تتعلق بأكبر الحقوق وأوكد الأصول ، فالشرك اعتقاد مذهب باطل بهوى ، وترك الإحسان إلى الوالدين يكون إما لمحبة مال لا يسمح به لهما ، أو إتباع هوى يدعو إلى

مخالفتهما ، ووأود البنات لخوف الفقر والعار ، والزنى وما يقبح جدا من المعاصي التي تحمل عليها الشهوة ، وقتل النفس بغير حق يدعو إليه شفاء غيظ النفس الأمارة بالسوء وكل ذلك قبيح في العقول يحتاج في ذب النفس عنها إلى زاجر من عقل يدفع الهوى ، فلذلك قال : (لعلكم تعقلون) أي تستعملون العقل الذي يحبس نفوسكم عن قبيح الإرادات وفواحش الشهوات .

(132/224)

وبعد هذه الخمسة خمسة أخرى هي متعلقة بالحقول في الأموال دون النفوس ، فأولها حفظ مال اليتيم عليه ، لأنه لا يقوى على حفظه ، والأطماع تمتد إلى ماله ، وذو الولد يفكر في حاله وما يكرهه لولده فلا يستجيزه لولد غيره ، وبعده العدل في الكيل ، وإيفاء الكيل والوزن بالقسط ، وهو الذي توعد الله تعالى عليه في قوله : (ويل للمطففين* الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون* وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) المطففين : 1-3 ومعنى قوله (لا نكلف نفسا إلا وسعها الأنعام : 152 أي : إذا اجتهدت في التحري وتوخي القسط ، فقد أسقط عنها ما يتعذر تجنبه من أقل القليل فيما يكال ويوزن ، والرابع القول بالعدل ، وهو في الحكم والشهادة ، والخامس الوفاء بعهد الله ، وهو أن يحلف بالله في غير

معصية .

وكل هذه قد دعي فيها الإنسان إلى تذكر حاله ورضاه ف نفسه لو كان هو المعامل بما يعامل هو به غيره ، أي : لو كان ولده اليتيم ، أو كان الذي يكال له ويوزن ، أو كان الذي يحكم به عليه ، أو تقام الشهادة بما لا يلزمه ، أو يحلف بالله على إذهاب حق له ، أو يحلف له بما يلزمه الوفاء به ، فلا يرضين من ذلك لغيره إلا ما يرضاه لنفسه ، فذكرهم حالا مرت لهم ، أو يخافون مرورها عليهم ؟ فلذلك قال : (لعلكم تذكرون) .

وأما الآية الأخيرة وهي : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) الأنعام : 152 فمعناه : الشرع الذي شرعته لكم هو طريق أشرعته إلى نعيمكم الدائم فاسلكوه ، ولا تتبعوا الديانات المخالفة له فتبعدكم عن سبيله المؤدي إلى نعيمه ، لعلكم تتجنبون بلزومه معصيته ، وتتقون بطاعته عقوبته ، فأتبع كل صنف من الوصية ما اقتضاه معناها وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ درة التنزيل صـ 77 . 101 ﴾

(133/224)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

" سورة الأنعام "

مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة من قوله تعالى (﴿ قل تعالوا ﴾) إلى قوله تعالى (﴿ لعلكم تتقون ﴾) هذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء بن يسار والكلبي وأخبرنا أحمد بن فارس المكي قال أنا محمد بن إبراهيم قال أنا سعيد بن عبد الرحمن قال أنا سفيان عن الكلبي قال نزلت سورة الأنعام بمكة إلا آيتين نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود وهو الذي قال (﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ﴾) قال الذي قاله فنحاص اليهودي أو مالك بن الصيف

ولا نظير لها في عددها

أخبرنا خلف بن إبراهيم المقرىء قال أنا أحمد بن محمد المكي قال أنا علي ابن عبد العزيز قال أنا أبو عبيد قال أنا حجاج عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال نزلت سورة الأنعام ليلا بمكة جملة ونزل معها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح

وكلمها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة

وحروفها اثنا عشر ألفا وأربع مئة واثنان وعشرون حرفا

وهي مئة وخمس وستون آية في الكوفي وست في البصري والشامي وسبع في المدنيين والمكي

اختلافها أربع آيات (﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾) عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ كن فيكون ﴾ إلى صراط مستقيم) الثاني بعده (﴿ دينا قيما ﴾) لم يعدهما الكوفي وعدها الباقون وكلهم عد (﴿ إلى صراط مستقيم ﴾) الأول

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع خمسة مواضع (﴿ من طين ﴾ إنما يستجيب الذين يسمعون) (﴿ إلا مبشرين ومنذرين ﴾ وهذا صراط ربك مستقيما) (﴿ فسوف تعلمون ﴾

ورؤوس الآي

يَعْدِلُونَ

تَمْتَرُونَ

تَكْسِبُونَ

مُعْرِضِينَ

يَسْتَهْزِؤُونَ

آخَرِينَ

مُّبِينٌ

لاَ يُنظَرُونَ

يَلْبِسُونَ

يَسْتَهْزِؤُونَ

الْمُكَذِّبِينَ

لاَ يُؤْمِنُونَ

الْعَلِيمُ

(134/224)

الْمُشْرِكِينَ

عَظِيمٍ

الْمُبِينُ

قَدِيرٌ

الْخَبِيرُ

تُشْرِكُونَ

لاَ يُؤْمِنُونَ

الظَّالِمُونَ

تَزْعُمُونَ

مُشْرِكِينَ

يَفْتَرُونَ

الأَوَّلِينَ

يَشْعُرُونَ

الْمُؤْمِنِينَ

لَكَاذِبُونَ

بِمَبْعُوثِينَ

تَكْفُرُونَ

يَزِرُونَ

تَعْقِلُونَ

يَجْحَدُونَ

الْمُرْسَلِينَ

الْجَاهِلِينَ

يُرْجَعُونَ

يَعْلَمُونَ

يُحْشَرُونَ

مُّسْتَقِيمٍ

صَادِقِينَ

تُشْرِكُونَ

يَتَضَرَّعُونَ

يَعْمَلُونَ

مُّبْلِسُونَ

الْعَالَمِينَ

يَصْدِفُونَ

الظَّالِمُونَ

يَحْزَنُونَ

يَفْسُقُونَ

تَتَفَكَّرُونَ

يَتَّقُونَ

الظَّالِمِينَ

بِالشَّاكِرِينَ

رَّحِيمٌ

الْمُجْرِمِينَ

الْمُهْتَدِينَ

الْفَاصِلِينَ

بِالظَّالِمِينَ

مُّبِينٍ

تَعْمَلُونَ

يُفَرِّطُونَ

الْحَاسِبِينَ

الشَّاكِرِينَ

تُشْرِكُونَ

يَفْقَهُونَ

بِوَكِيلٍ

تَعْلَمُونَ

الظَّالِمِينَ

يَتَّقُونَ

يَكْفُرُونَ

الْعَالَمِينَ

تُحْشَرُونَ

الْخَبِيرُ

73 مبين

74 الموقنين

75 الآفلين

76 الضالين

77 تشركون

78 المشركين

79 تتذكرون

80 تعلمون

81 مهتدون

82 علم

83 المحسنين

84 الصالحين

85 العالمين

86 مستقيم

87 يعملون

88 بكافرين

89 للعالمين

90 يلعبون

91 يحافظون

92 تستكبرون

93 تزعمون

94 تؤفكون

95 العليم

96 يعلمون

97 يفقهون

98 يؤمنون

99 يصفون

100 عليم

101 وكيل

102 الخبير

103 بحفيظ

104 يعلمون

105 المشركين

106 بوكيل

107 يعملون

108 لا يؤمنون

109 يعمهون

110 يجهلون

111 يفترون

112 مقترفون

113 الممترين

114 العليم

115 يخرصون

116 بالمهتدين

117 مؤمنين

118 بالمعتدين

119 يقترفون

120 لمشركون

121 يعملون

122 يشعرون

123 يمكرون

124 لا يؤمنون

125 يذكرون

126 يعملون

127 عليم

128 يكسبون

129 كافرين

130 غافلون

131 يعملون

132 آخرين

133 بمعجزين

134

الظالمون

135 يحكمون

136 يفترون

137 يفترون

138 عليم

139 مهتدين

140 المسرفين

141 مبين

142 صادقين

143 الظالمين

144 رحيم

145 لصادقون

146 المجرمين

147 تخرصون

148 أجمعين

(135/224)

---

149 يعدلون

150 تعقلون

151 تذكرون

152 تتقون

153 يؤمنون

154 ترحمون

155 لغافلين

156 يصدقون

157 منتظرون

158 يفعلون

159 لا يظلمون

160 مستقيم

* المشركين

161 العالمين

162 المسلمين

163 تختلفون

164 رحيم. انتهى انتهى. اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 151.154﴾

(136/224)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى:

سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (بربهم) الباء تتعلق ب (يعدلون) أي الذين كفروا يعدلون بربهم غيره، والذين كفروا مبتدأ، ويعدلون الخبر، والمفعول محذوف.

ويجوز على هذا أن تكون الباء بمعنى عن ، فلا يكون في الكلام مفعول محذوف ، بل يكون يعدلون لازما : أي يعدلون عنه إلى غيره ، ويجوز أن تتعلق الباء بكفروا فيكون المعنى : الذين جحدوا ربهم مائلون عن الهدى .

قوله تعالى (خلقكم من طين) في الكلام حذف مضاف : أي خلق أصلكم ومن طين متعلق بخلق ، ومن هنا لابتداء الغاية ، ويجوز أن تكون حالا : أي خلق

أصلكم كائنا من طين (وأجل مسمى) مبتدأ موصوف ، و (عنده) الخبر .

قوله تعالى (وهو الله) وهو مبتدأ والله الخبر .

و(في السموات) فيه وجهان : أحدهما يتعلق ب (يعلم) أي يعلم سركم وجهركم في السموات والأرض ، فهما ظرفان للعلم فيعلم على هذا خبر ثان ، ويجوز أن يكون الله بدلا من هو ويعلم الخبر .

والثانى أن يتعلق " في " باسم الله لأنه بمعنى المعبود : أي وهو المعبود في السموات والأرض . ويعلم على هذا خبر ثان أو حال من الضمير في المعبود أو مستأنف .

وقال أبو علي : لا يجوز أن تتعلق " في " باسم الله لأنه صار بدخول الألف واللام والتغيير الذى دخله كالعلم ولهذا قال تعالى " هل تعلم له سميا " وقيل قد تم الكلام على قوله " في السموات وفى الأرض " يتعلق بيعلم ، وهذا ضعيف لأنه سبحانه معبود في السموات وفى الأرض ويعلم مافى السماء والأرض فلا اختصاص لإحدى الصفتين بأحد الظرفين ، و

(سركم وجهركم) مصدران بمعنى المفعولين: أي مسركم ومجهوركم ، ودل على ذلك قوله " يعلم ما تسرون وما تعلنون " أي الذى ، ويجوز أن يكونا على بابهما .

قوله تعالى (من آية) موضعه رفع بتأتى ، ومن زائدة ، و (من آيات) في موضع جر صفة لآية ، ويجوز أن تكون في موضع رفع على موضع آية .

(137/224)

قوله تعالى (لما جاءهم) لما ظرف لكذبوا ، وهذا قد عمل فيها وهو قبلها ، ومثله إذا ، و (به) متعلق ب (يستهزئون) .

قوله تعالى (كم أهلكنا) كم استفهام بمعنى التعظيم .

فلذلك لا يعمل فيها يروا وهى في موضع نصب بأهلكنا ، فيجوز أن تكون كم مفعولا به ، ويكون (من قرن) تبيينا لكم ، ويجوز أن يكون ظرفا ، ومن قرن مفعول أهلكنا ، ومن زائدة أي كم أزمنة أهلكنا فيها من قبلهم قرونا ، ويجوز أن يكون كم مصدرا : أي كم مرة وكم إهلاكا وهذا يتكرر في القرآن كثيرا (مكناهم) في موضع جر صفة القرن ،

وجمع على المعنى (ما لم نمكن لكم) رجع من الغيبة في قوله " ألم يروا " إلى الخطاب في لكم ، ولو قال لهم لكان جائزا و " ما " نكرة موصوفة ، والعائد محذوف: أي شيئا لم نمكنه لكم ،

ويجوز أن تكون " ما " مصدرية والزمان محذوف أي مدة ما لم نمكن لكم: أي مدة تمكنهم أطول من مدتكم ، ويجوز أن تكون " ما " مفعول نمكن على المعنى ، لأن المعنى أعطيناهم ما لم نعطكم ، و (مدرارا) حال من السماء ، و (تجرى) المفعول الثاني لجعلنا أو حال من الأنهار إذا جعلت جعل متعدية إلى واحد ، و (من تحتهم) يتعلق بتجرى ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في تجرى: أي وهى من تحتهم ، ويجوز أن يكون من تحتهم مفعولا ثانيا لجعل أو حالا

من الأنهار .

وتجرى في موضع الحال من الضمير في الجار: أي وجعلنا الأنهار من تحتهم جارية: أي استقرت جارية ، و (من بعدهم) يتعلق بأنشأنا ، ولايجوز أن يكون حالا من قرن لأنه ظرف زمان .

قوله تعالى (في قرطاس) نعت لكتاب ، ويجوز أ يتعلق بكتاب على أنه ظرف له ، والكتاب هنا المكتوب في الصحيفة لانفس الصحيفة ، والقرطاس بكسر القاف وفتحها لغتان وقد قرئ بهما ، والهاء في (لمسوه) يجوز أن ترجع على قرطاس ، وأن ترجع على كتاب .

قوله تعالى (ما يلبسون) " ما " بمعنى الذى وهو مفعول " لبسنا " .

قوله تعالى (ولقد استهزئ) يقرأ بكسر الدال على أصل التقاء الساكنين ، وبضمها على أنه أتبع حركتها حركة التاء لضعف الحاجز بينهما ، و (ما) بمعنى الذى ، وهو فاعل حاق ، و (به) يتعلق ب (يستهزءون) ومنهم الضمير للرسل فيكون منهم متعلقا بسخروا لقوله " فيسخرون منهم " ويجوز في الكلام سخرت به ، ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى المستهزئين فيكون منهم حالا من ضمير الفاعل

في سخروا .

قوله تعالى (كيف كان) كيف خبر كان ، و (عاقبة) اسمها ، ولم يؤنث الفعل لأن العاقبة بمعنى المعاد فهو في معنى المذكر ، ولأن التأنيث غير حقيقي .

قوله تعالى (لمن) من استفهام ، و (ما) بمعنى الذى في موضع مبتدإ ، ولمن خبره (قل لله) أي قل هو لله (ليجمعنكم) قيل موضعه نصب بدلا من للرحمة وقيل لا موضع له بل هو مستأنف واللام فيه جواب قسم محذوف وقع كتب موقعه (لاريب فيه) قد ذكر في آل عمران والنساء (الذين خسروا) مبتدأ (فهم) مبتدأ ثان ، و (لا يؤمنون) خبره ، والثانى وخبره خبر الأول ، ودخلت الفاء لما في الذين من معنى الشرط .

وقال الأخفش : للذين خسروا : بدل من المنصوب في ليجمعنكم ، وهو بعيد لأن ضمير المتكلم والمخاطب لا يبدل منهما لوضوحهما غاية الوضوح ، وغيرهما دونهما في ذلك .

قوله تعالى (أغير الله) مفعول أول (أتخذ) و (وليا) الثاني ، ويجوز أن يكون أتخذ متعديا إلى واحد وهو ولى ، وغير الله صفة له قدمت عليه فصارت حالا ولايجوز أن تكون غير هنا استثناء (فاطر السموات) يقرأ بالجر وهو المشهور ، وجره على البدل من اسم الله ، وقرئ شاذا بالنصب وهو بدل من ولى ، والمعنى

(139/224)

على هذا : أجعل فاطر السموات والأرض غير الله ، ويجوز أن يكون صفة لولى ، والتنوين مراد ، وهو على الحكاية: أي فاطر السموات (وهو يطعم) بضم الياء وكسر العين (ولايطعم) بضم الياء وفتح العين وهو المشهور ، ويقرأ " ولايطعم " بفتح الياء والعين ، والمعنى على القراءتين يرجع إلى الله ، وقرئ في الشاذ " وهو يطعم " بفتح الياء والعين ، ولايطعم بضم الياء وكسر العين ، وهذا يرجع إلى الولى الذى هو غير الله (من أسلم) أي أول فريق أسلم (ولا تكونن) أي وقيل لى لا تكونن ،

ولو كان معطوفا على ما قبله لقال وأن لاأكون .

قوله تعالى (من يصرف عنه) يقرأ بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله ، وفى القائم مقام الفاعل وجهان: أحدهما (يومئذ) أي من يصرف عنه عذاب يومئذ فحذف المضاف

، ويومئذ مبنى على الفتح .

والثانى أن يكون مضمرا في يصرف يرجع إلى العذاب فيكون يومئذ ظرفا ليصرف أو للعذاب أو حالا من الضمير ، ويقرأ بفتح الياء وكسر الراء على تسمية الفاعل: أي من يصرف الله عنه العذاب ، فمن على هذا مبتدأ ، والعائد عليه الهاء في عنه ، وفى (رحمه) والمفعول محذوف وهو العذاب ، ويجوز أن يكون المفعول يومئذ : أي عذاب يومئذ ، ويجوز أن تجعل " من " في موضع نصب بفعل محذوف تقديره: من يكرم يصرف الله عنه العذاب ، فجعلت يصرف تفسيرا للمحذوف ، ومثله " فإياى فارهبون " ويجوز أن ينصب من يصرف ، وتجعل الهاء في عنه للعذاب: أي أي إنسان يصرف الله عنه العذاب فقد رحمه ، فأما " من " على القراءة الأولى فليس فيها إلا الرفع على الابتداء ، والهاء في عنه يجوز أن ترجع على " من " وأن ترجع على العذاب .

قوله تعالى (فلا كاشف له) له خبر كاشف (إلا هو) بدل من موضع لا كاشف ، أو من الضمير في الظرف ، ولايجوز أن يكون مرفوعا بكاشف ، ولابد لا من الضمير فيه لأنك في الحالتين اسم " لا " ومتى أعملته ظاهرا نونته .

(140/224)

قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) هو مبتدأ ، والقاهر خبره ، وفى فوق وجهان: أحدهما هو أنه في موضع نصب على الحال من الضمير في القاهر: أي وهو القاهر مستعليا أو غالبا .

والثانى هو في موضع رفع على أنه بدل من القاهر أو خبر ثان .

قوله تعالى (أي شئ) مبتدأ و (أكبر) خبره ، (شهادة) تمييز ، وأى بعض ما تضاف إليه ، فإذا كانت استفهاما اقتضى الظاهر أن يكون جوابها مسمى باسم ما أضيف إليه: أي وهذا يوجب أن يسمى الله شيئا ، فعلى هذا يكون قوله (قل الله)

جوابا والله مبتدأ والخبر محذوف: أي أكبر شهادة ، وقوله (شهيد) خبر مبتدإ محذوف ، ويجوز أن يكون الله مبتدأ وشهيد خبره ، ودلت هذه الجملة على جواب أي من طريق المعنى ، و (بينكم) تكرير للتأكيد ، والأصل شهيد بيننا ، ولك أن تجعل بين ظرفا يعمل فيه شهيد ، وأن تجعله صفة لشهيد فيتعلق بمحذوف (ومن بلغ) في موضع نصب عطفا على المفعول في أنذركم وهو بمعنى الذى ، والعائد محذوف ، والفاعل ضمير القرآن: أي وأنذر من بلغه القرآن (قل إنما هو إله واحد) في ما وجهان: أحدهما هي كافة لإن عن العمل فعلى هذا هو مبتدأ وإله خبره ، وواحد صفة مبينة .

وقد ذكر مشروحا في البقرة .

والثانى أنها بمعنى الذى في موضع نصب بأن وهو مبتدأ وإله خبره ، والجملة صلة الذى ، وواحد خبر إن وهذا أليق بما قبله .

قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) في موضع رفع بالابتداء ، و (يعرفونه) الخبر والهاء ضمير الكتاب ، وقيل ضمير النبي صلى الله عليه وسلم (الذين خسروا أنفسهم) مثل الأولى .

قوله تعالى (ويوم نحشرهم) هو مفعول به ، والتقدير : واذكر يوم نحشرهم و (جميعا) حال من ضمير المفعول ومفعولا (تزعمون) محذوفان : أي تزعمونهم شركاءكم ، ودل على المحذوف ما تقدم .

(141/224)

قوله تعالى (ثم لم تكن) يقرأ بالتاء ، ورفع الفتنة على أنها اسم كان ، و (أن قالوا) الخبر ، ويقرأ كذلك إلا أنه بالياء لأن تأنيث الفتنة غير حقيقي ، ولأن الفتنة هنا بمعنى القول ، ويقرأ بالياء ، ونصب الفتنة على أن اسم كان أن قالوا وفتنتهم الخبر ، ويقرأ كذلك إلا أنه بالتاء على معنى أن قالوا ، لأن أن قالوا بمعنى القول والمقالة والفتنة (ربنا) يقرأ بالجر صفة لاسم الله ، وبالنصب على النداء أو على إضمار

أعني وهو معترض بين القسم والمقسم عليه ، والجواب (ما كنا) .

قوله تعالى (من يستمع) وحد الضمير في الفعل حملا على لفظ " من " وما جاء منه على لفظ الجمع ، فعلى معنى " من " نحو : " من يستمعون " و " من يغوصون له " (أن يفقهوه) مفعول من

أجله: أي كراهة أن يفقهوه ، و (وقرا) معطوف على أكنة ، ولا يعد الفصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف فصلا لأن الظرف أحد المفاعيل ، فيجوز تقديمه وتأخيره ، ووحد الوقر هنا لأنه مصدر ، وقد استوفى القول فيه في أول البقرة (حتى إذا) إذا في موضع نصب بجوابها ، وهو يقول:

وليس لحتى هنا عمل وإنما أفادت معنى الغاية كما لا تعمل في الجمل ، و (يجادلونك) حال من ضمير الفاعل في جاءوك .

والأساطير جمع .

واختلف في واحده ، فقيل هو أسطورة ، وقيل واحدها إسطار ، والأسطار جمع سطر بتحريك الطاء ، فيكون أساطير جمع الجمع ، فأما سطر بسكون الطاء فجمعه سطور وأسطر .

قوله تعالى (وينأون) يقرأ بسكون النون ، وتحقيق الهمزة وبإلقاء حركة الهمزة على النون وحذفها فيصير اللفظ بها ينون بفتح النون وواو ساكنة بعدها ، و (أنفسهم) مفعول يهلكون .

قوله تعالى (ولو ترى) جواب " لو " محذوف تقديره: لشاهدت أمرا عظيما ووقف متعد ، وأوقف لغة ضعيفة ، والقرآن جاء بحذف الألف ، ومنه وقفوا فبناؤه لما لم يسم فاعله ومنه وقفوهم (ولا نكذب ، ونكون) يقرآن بالرفع .

وفيه وجهان: أحدهما هو معطوف على نرد ، فيكون عدم التكذيب والكون من المؤمنين متمنين أيضا كالرد ، والثاني أن يكون خبر مبتدإ محذوف: أي ونحن لانكذب ، وفي المعنى وجهان: أحدهما أنه متمنى أيضا ، فيكون في موضع نصب على الحال من الضمير في نرد . والثاني أن يكون المعنى أنهم ضمنوا أن لايكذبوا بعد الرد ، فلا يكون للجملة موضع .

ويقرآن بالنصب على أنه جواب التمني ، فلا يكون داخلا في التمني ، والواو في هذا كالفاء .

ومن القراء من رفع الأول ونصب الثاني ، ومنهم من عكس ، ووجه كل واحدة منهما على ما تقدم .

قوله تعالى (إن هي إلا) هي كناية عن الحياة ، ويجوز أن يكون ضمير القصة .

قوله تعالى (وقفوا على ربهم) أي على سؤال ربهم ، أو على ملك ربهم .

قوله تعالى (بغتة) مصدر في موضع الحال: أي باغتة ، وقيل هو مصدر لفعل محذوف ، أي تبغتهم بغتة وقيل هو مصدر بجاءتهم من غير لفظه (يا حسرتنا) نداء الحسرة والويل على

المجاز ، والتقدير : يا حسرة احضرى فهذا أوانك ، والمعنى تنبيه أنفسهم لتذكر أسباب الحسرة ، و (على) متعلقة بالحسرة ، والضمير في (فيها) يعود على الساعة ، والتقدير : في عمل الساعة ، وقيل يعود على الأعمال ، ولم يجر لها صريح ذكر ، ولكن في الكلام دليل عليها (ألا ساء ما يزرون) ساء بمعنى بئس ، وقد تقدم إعرابه في مواضع .

ويجوز أن تكون ساء على بابها ويكون المفعول محذوفا ، وما مصدرية أو بمعنى الذى أو نكرة موصوفة ، وهى في كل ذلك فاعل ساء ، والتقدير : ألا ساءهم وزرهم .

قوله تعالى (وللدار الآخرة) يقرأ بالألف واللام ، ورفع الآخرة على الصفة والخبر (خير) ويقرأ " ولدار الآخرة " على الإضافة : إى دار الساعة الآخرة ، وليست الدار مضافة إلى صفتها لأن الصفة هي الموصوف في المعنى ، والشئ لا يضاف إلى نفسه ، وقد أجازه الكوفيون .

(143/224)

قوله تعالى (قد نعلم) أي قد علمنا ، فالمستقبل بمعنى الماضي (لا يكذبونك) يقرأ بالتشديد على معنى لا ينسبونك إلى الكذب ، أي قبل دعواك النبوة ، بل كانوا يعرفونه بالأمانة والصدق ، ويقرأ بالتخفيف وفيه وجهان : أحدهما هو في معنى

المشدد ، يقال أكذبته وكذبته إذا نسبته إلى الكذب .

والثانى لايجدونك كذبا يقال: أكذبته إذا أصبته ، كذلك كقولك: أحمدته إذا أصبته محمودا (بآيات الله) الباء تتعلق ب (يجحدون) وقيل تتعلق بالظالمين كقوله تعالى " وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها " .

قوله تعالى (من قبلك) لا يجوز أن يكون صفة لرسل لأنه زمان ، والجثة لاتوصف بالزمان وإنما هي متعلقة بكذبت (وأوذوا) يجوز أن يكون معطوفا على كذبوا ، فتكون (حتى) متعلقة بصبروا ، ويجوز أن يكون الوقف تم على كذبوا ، ثم أستأنف فقال: وأوذوا ، فتتعلق حتى به ، والأول أقوى (ولقد جاءك) فاعل جاءك مضمر فيه ، قيل المضمر المجئ ، وقيل المضمر النبأء ، ودل عليه ذكر الرسل لأن من ضرورة الرسل الرسالة وهى نبأء ، وعلى كلا الوجهين يكون (من نبإ المرسلين) حالا من ضمير الفاعل ، والتقدير: من جنس نبأ المرسلين ، وأجاز الأخفش أن تكون من زائدة والفاعل نبأ المرسلين وسيبويه لا يجيز زيادتها في الواجب ولايجوز عند الجميع أن تكون من صفة لمحذوف لأن الفاعل لا يحذف ، وحرف الجر إذا لم يكن زائدا لم يصح أن يكون فاعلا لأن حرف الجر يعدى ، وكل فعل يعمل في الفاعل بغير معد ، ونبأ المرسلين بمعنى إنبائهم ، ويدل على ذلك قوله تعالى " نقص عليك من أنباء الرسل " .

قوله تعالى (وإن كان كبر عليك) جواب إن هذه (فإن استطعت) فالشرط الثاني جواب

الأول .

وجواب الشرط الثاني محذوف تقديره: فافعل ، وحذف لظهور معناه وطول الكلام (في الأرض) صفة لنفق ، ويجوز أن يتعلق بتبتغى ، ويجوز أن يكون حالا من ضمير الفاعل: أي وأنت في الأرض ، ومثله (في السماء) .

(144/224)

قوله تعالى (والموتى يبعثهم الله) في الموتى وجهان: أحدهما هو في موضع نصب بفعل محذوف: أي ويبعث الله الموتى ، وهذا أقوى لأنه اسم قد عطف على اسم عمل فيه الفعل .

والثانى أن يكون مبتدأ وما بعده الخبر .

ويستجيب بمعنى يجيب .

قوله تعالى (من ربه) يجوز أن يكون صفة لآية ، وأن يتعلق بنزل .

قوله تعالى (في الأرض) يجوز أن يكون في موضع جر صفة لدابة ، وفى موضع رفع صفة لها أيضا على الموضع ، لأن من زائدة (ولا طائر) معطوف على لفظ دابة وقرئ بالرفع على الموضع (بجناحيه) يجور أن تتعلق الباء بيطير ، وأن تكون حالا وهو توكيد ، وفيه رفع مجاز

، لأن غير الطائر قد يقال فيه طار إذا أسرع (من شئ) " من " زائدة " وشئ " هنا واقع موقع المصدر : أي تفريطا ، وعلى هذا التأويل لا يبقى في الآية حجة لمن ظن أن الكتاب يحتوى على ذكر كل شئ صريحا .

ونظير ذلك " لا يضركم كيدهم شيئا " : أي ضررا ، وقد ذكرنا له نظائر ، ولايجوز أن يكون شيئا مفعولا به ، لأن فرطنا لا تتعدى بنفسها بل بحرف الجر ، وقد عديت بفى إلى الكتاب فلا تتعدى بحرف اخر ، ولا يصح أن يكون المعنى ما تركنا في الكتاب من شئ ، لأن المعنى على خلافه ، فبان أن التأويل ما ذكرنا .

قوله تعالى (والذين كذبوا) مبتدأ ، و (صم بكم) الخبر مثل حلو حامض والواو لا تمنع ذلك ، ويجوز أن يكون صم خبر مبتدأ : محذوف تقديره: بعضهم صم وبعضهم بكم (في الظلمات) يجوز أن يكون خبرا ثانيا ، وأن يكون حالا من الضمير المقدر في الخبر ، والتقدير : أي هم في الظلمات ، ويجوز أن يكون في الظلمات خبر مبتدإ محذوف: أي هم في الظلمات ، ويجوز أن يكون صفة لبكم: أي كائنون في الظلمات ، ويجوز أن يكون ظرفا لصم أو بكم أو لما ينوب عنهما من الفعل (من يشإ الله) من في موضع مبتدإ ، والجواب الخبر ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بفعل محذوف ، لأن التقدير : من يشإ الله إضلاله أو عذابه ،

فالمنصوب بيشأ من سبب " من " فيكون التقدير : من يعذب أو من يضلل .

ومثله ما بعده .

قوله تعالى (قل أرأيتكم) يقرأ بإلقاء حركة الهمزة على اللام فتنفتح اللام وتحذف الهمزة ، وهو قياس مطرد في القرآن وغيره ، والغرض منه التخفيف .

ويقرأ بالتحقيق وهو الأصل ، وأما الهمزة التى بعد الراء فتحقق على الأصل ، وتلين للتخفيف وتحذف ، وطريق ذلك أن تقلب ياء وتسكن ثم تحذف لالتقاء الساكنين قرب ذلك فيها حذفها في مستقبل هذا الفعل ، فأما التاء فضمير الفاعل فإذا اتصلت بها الكاف التى للخطاب كانت بلفظ واحد في التثنية والجمع والتأنيث ، وتختلف هذه المعاني على الكاف فتقول في الواحد أرأيتك ، ومنه قوله تعالى " أرأيتك هذا الذى كرمت على " وفى التثنية أرأيتكما ، وفى الجمع المذكر أرأيتكم ، وفى المؤنث أرأيتكن والتاء في جميع ذلك مفتوحة ، والكاف حرف للخطاب وليست اسما ، والدليل على ذلك أنها لو كانت اسما لكانت إما مجرورة وهو باطل إذ لاجار هنا ، أو مرفوعة ، وهو باطل أيضا لأمرين: أحدهما أن الكاف ليست من ضمائر المرفوع .

والثانى أنه لارافع لها ، إذ ليست فاعلا لأن التاء فاعل ، ولايكون لفعل واحد فاعلان ، وإما أن تكون منصوبة ، وذلك باطل لثلاثة أوجه: أحدها أن هذا الفعل يتعدى إلى مفعولين

كقولك: أرأيت زيدا ما فعل ، فلو جعلت الكاف مفعولا لكان ثالثا ، والثانى أنه لو كان مفعولا لكان هو الفاعل في المعنى ، وليس المعنى على ذلك إذ ليس الغرض أرأيت نفسك بل أرأيت غيرك ، ولذلك قلت أرأيتك زيدا ، وزيد غير المخاطب ، ولاهو بدل منه ، والثالث أنه لو كان منصوبا على أنه مفعول لظهرت علامة التثنية والجمع والتأنيث في التاء ، فكنت تقول: أرأيتما كما وأرأيتموكم وأرأيتكن .

وقد ذهب الفراء إلى أن الكاف اسم مضمر منصوب في معنى المرفوع ، وفيما ذكرناه إبطال لمذهبه .

(146/224)

فأما مفعول أرأيتكم في هذه الآية ، فقال قوم هو محذوف دل الكلام عليه تقديره: أرأيتكم عبادتكم الأصنام هل تنفعكم عند مجئ الساعة ، ودل عليه قوله " أغير الله تدعون " وقال آخرون: لا يحتاج هذا إلى مفعول لأن الشرط وجوابه قد حصل معنى المفعول ، وأما جواب الشرط الذى هو قوله (إن أتاكم عذاب الله) فما دل عليه الاستفهام في قوله (أغير الله) تقديره: إن أتتكم الساعة دعوتم الله ، وغير منصوب ب (تدعون) .

قوله تعالى (بل إياه) هو مفعول (تدعون) الذى بعده (إليه) يجوز أن يتعلق بتدعون ، وأن

يتعلق بيكشف: أي يرفعه إليه ، و " ما " بمعنى الذى ، أو نكرة موصوفة ، وليست مصدرية إلا أن تجعلها مصدرا بمعنى المفعول .

قوله تعالى (بالبأساء والضراء) فعلاء فيهما مؤنث لم يستعمل منه مذكر لم يقولوا بأس وبأساء وضر وضراء كما قالوا أحمر وحمراء .

قوله تعالى (فلولا إذ) " إذ " في موضع نصب ظرف ل (تضرعوا) أي فلولا تضرعوا إذ (ولكن) استدراك على المعنى: أي ما تضرعوا ولكن .

قوله تعالى (بغتة) مصدرية في موضع الحال من الفاعل: أي مباغتين أو من المفعولين: أي مبغوتين ، ويجوز أن يكون مصدرا على المعنى لأن أخذناهم بمعنى بغتناهم (فإذا هم) إذا هنا للمفاجأة ، وهى ظرف مكان وهم مبتدأ ، و (مبلسون) خبره ، وهو العامل في إذا .

قوله تعالى (إن أخذ الله سمعكم) قد ذكرنا الوجه في إفراد السمع مع جمع الأبصار والقلوب في أول البقرة (من) استفهام في موضع رفع بالابتداء ، و (إله) خبره و (غير الله) صفة الخبر ، و (يأتيكم) في موضع الصفة أيضا ، والاستفهام هنا بمعنى الإنكار ، والهاء في (به) تعود على السمع لأنه المذكور أولا ، وقيل

تعود على معنى المأخوذ والمختوم عليه ، فلذلك أفرد (كيف) حال ، والعامل فيها (نصرف) .

قوله تعالى (هل يهلك) الاستفهام هنا بمعنى التقرير ، فلذلك ناب عن جواب الشرط: أي إن أتاكم هلكتم .

(147/224)

قوله تعالى (مبشرين ومنذرين) حالان من المرسلين (فمن آمن) يجوز أن يكون شرطا وأن يكون بمعنى الذى وهى مبتدأ في الحالين ، وقد سبق القول على نظائره .

قوله تعالى (بما كانوا يفسقون) ما مصدرية: أي بفسقهم ، وقد ذكر في أوائل البقرة ، ويقرأ بضم السين وكسرها وهما لغتان .

قوله تعالى (بالغداة) أصلها غدوة ، فقلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها وهى نكرة .

ويقرأ " بالغدوة " بضم الغين وسكون الدال وواو بعدها ، وقد عرفها بالألف واللام وأكثر ما تستعمل معرفة علما ، وقد عرفها هنا بالألف واللام .

وأما (العشى) فقيل هو مفرد ، وقيل هو جمع عشية و (يريدون) حال (من شئ) " من " زائدة وموضعها رفع بالابتداء ، وعليك الخبر .

ومن حسابهم صفة لشئ قدم عليه فصار حالا ، وكذلك الذى بعده إلا أنه قدم من حسابك على عليهم ، ويجوز أن يكون الخبر من حسابهم ، وعليك صفة لشئ مقدمة عليه

(فتطردهم) جواب لما النافية فلذلك نصب (فتكون) جواب النهى وهو " لا تطرد " .

قوله تعالى (ليقولوا) اللام متعلقة بفتنا : أي اختبرناهم ليقولوا فنعاقبهم بقولهم ، ويجوز أن تكون لام العاقبة ، و (هؤلاء) مبتدأ ، و (من الله عليهم) الخبر ، والجملة في موضع نصب بالقول ، ويجوز أن يكون هؤلاء في موضع نصب بفعل محذوف فسره ما بعده تقديره: أخص هؤلاء أو فضل ، و (من) متعلقة بمن:

أي ميزهم علينا ، ويجوز أن تكون حالا: أي من عليهم منفردين ، (بالشاكرين)

يتعلق بأعلم لأنه ظرف ، والظرف يعمل فيه معنى الفعل بخلاف المفعول ، فإن أفعل لا يعمل فيه .

قوله تعالى (وإذا جاءك) العامل في إذا معنى الجواب: أي إذا جاءك سلم عليهم ، و (سلام) مبتدأ ، وجاز ذلك وإن كان نكرة لما فيه من معنى الفعل (كتب ربكم) الجملة محكية بعد القول أيضا (أنه من عمل) يقرأ بكسر إن وفتحها ، ففى الكسر وجهان: أحدهما هي مستأنفة والكلام تام قبلها .

(148/224)

والثانى أنه حمل "كتب" على قال فكسرت إن بعده ، وأما الفتح ففيه وجهان: أحدهما هو بدل من الرحمة: أي كتب أنه من عمل .

والثانى أنه مبتدأ وخبره محذوف: أي عليه أنه من عمل ، ودل على ذلك ما قبله ، والهاء ضمير الشأن ، ومن بمعنى الذى أو شرط ، وموضعها مبتدأ ، و (منكم) في موضع الحال من ضمير الفاعل و (بجهالة) حال أيضا : أي جاهلا ويجوز أن يكون مفعولا به: أي بسبب الجهل ، والهاء في (بعده) تعود على العمل أو على السوء (فإنه) يقرأ بالكسر وهو معطوف على أن الأولى ، أو تكرير للأولى عند قوم ، وعلى هذا خبر من محذوف دل عليه الكلام ، ويجوز أن يكون العائد محذوفا : أي فإنه غفور له ، وإذا جعلت " من " شرطا فالأمر كذلك ، ويقرأ بالفتح وهو تكرير للأولى على قراءة من فتح الأولى أو بدل منها عند قوم .

وكلاهما ضعيف لوجهين: أحدهما أن البدل لا يصحبه حرف معنى إلا أن تجعل الفاء زائدة وهو ضعيف .

والثانى أن ذلك يؤدى إلى أن لا يبقى لمن خبر ولا جواب إن جعلتها شرطا .

والوجه أن تكون أن خبر مبتدأ محذوف: أي فشأنه أنه غفور له ، أو يكون المحذوف ظرفا : أي فعليه أنه فتكون أأن إما مبتدأ وإما فاعلا .

قوله تعالى (وكذلك) الكاف وصف لمصدر محذوف: أي نفصل الآيات تفصيلا مثل الذى (وليستبين) يقرأ بالياء ، و (سبيل) فاعل: أي يتبين ، وذكر السبيل وهو لغة فيه ، ومنه قوله

تعالى " وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا "

ويجوز أن تكون القراءة بالياء على أن تأنيث السبيل غير حقيقي ، ويقرأ بالتاء والسبيل فاعل مؤنث وهو لغة فيه ، ومنه " قل هذه سبيلى " ويقرأ بنصب السبيل ، والفاعل المخاطب ، واللام تتعلق بمحذوف: أي لتستبين فصلنا .

قوله تعالى (وكذبتم) يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون حالا ، وقد معه مزادة ، والهاء في (به) يعود على ربى ، ويجوز أن تعود على معنى البينة لأنها في معنى البرهان والدليل (يقضى الحق) يقرأ بالضاد من القضاء ، وبالصاد من القصص ، والأول أشبه بخاتمة الآية .

(149/224)

قوله تعالى (مفاتح) هو جمع مفتح ، والمفتح الخزانة ، فأما ما يفتح به فهو مفتاح وجمعه مفاتيح ، وقد قيل مفتح أيضا (لا يعلمها) حال من مفاتح ، والعامل فيها ما تعلق به الظرف ، أو نفس الظرف إن رفعت به مفاتح ، و (من ورقة) فاعل (ولاحبة) معطوف على لفظ ورقة ، ولو رفع على الموضع جاز (ولارطب ولا يابس) مثله ، وقد قرئ بالرفع على الموضع (إلا في كتاب) أي إلا هو في كتاب ، ولايجوز أن يكون استثناء يعمل فيه (يعلمها) لأن المعنى يصير:

وما تسقط من ورقة إلا يعلمها إلا في كتاب فينقلب معناه (1) إلى الاثبات: أي لا يعلمها في كتاب ، وإذا لم يكن إلا في كتاب وجب أن يعلمها في الكتاب ، فإذا يكون الاستثناء الثاني بدلا من الأول: أي وما تسقط من ورقة إلا هي في كتاب وما يعلمها .

قوله تعالى (بالليل) الباء هنا بمعنى في ، وجاز ذلك لأن الباء للالصاق ، والملاصق للزمان والمكان حاصل فيهما (ليقضى أجل) على ما لم يسم فاعله ، ويقرأ على تسمية الفاعل ، وأجلا نصب .

قوله تعالى (ويرسل عليكم) يحتمل أربعة أوجه: أحدها أن يكون مستأنفا ، والثانى أن يكون معطوفا على قوله يتوفاكم ، وما بعده من الأفعال المضارعة .

والثالث أن

يكون معطوفا على القاهر ، لأن اسم الفاعل في معنى يفعل ، وهو نظير قولهم الطائر فيغضب زيد الذباب .

والرابع أن يكون التقدير وهو يرسل ، وتكون الجملة حالا إما من الضمير في القاهر ، أو من الضمير في الظرف .

وعليكم فيه وجهان: أحدهما هو متعلق بيرسل ، والثانى أن يكون في نية التأخير .

وفيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بنفس (حفظة) والمفعول محذوف: أي يرسل من يحفظ عليكم أعمالكم .

والثانى أن يكون صفة لحفظة قدمت فصار حالا (توفته) يقرأ بالتاء على تأنيث الجماعة ، وبألف ممالة على إرادة الجمع ، ويقرأ شاذا " تتوفاه " على الاستقبال (يفرطون) بالتشديد : أي ينقصون مما أمروا ، ويقرأ شاذا بالتخفيف: أي يزيدون على ما أمروا ، قوله تعالى (ثم ردوا) الجمهور على ضم الراء وكسرة الدال الأولى محذوفة ليصلح الإدغام ، ويقرأ بكسر الراء على نقل كسرة الدال الأولى إلى الراء (مولاهم الحق) صفتان ، وقرئ الحق بالنصب على أنه صفة مصدر محذوف: أي الرد الحق أو على إضمار أعنى .

---

(1) (قوله فينقلب معناه إلخ) كذا في جميع النسخ التى بأيدينا ، ولا يخفى ما فيه ، فليتأمل اه .

(*)

قوله تعالى (ينجيكم) يقرأ بالتشديد والتخفيف ، والماضي أنجا ونجى ، والهمزة والتشديد للتعدية (تدعونه) في موضع الحال من ضمير المفعول في ينجيكم (تضرعا) مصدر والعامل فيه تدعون من غير لفظه بل معناه ، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال ، وكذلك (خفية) ويقرأ بضم الخاء وكسرها وهما لغتان ، وقرئ " وخيفة " من الخوف وهو مثل قوله

تعالى " واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية " (لئن أنجيتنا) على الخطاب: أي يقولون لئن أنجيتنا ويقرأ لئن أنجانا على الغيبة وهو موافق لقوله يدعونه (من هذه) أي من هذه الظلمة والكربة .

قوله تعالى (من فوقكم) يجوز أن يكون وصفا للعذاب وأن يتعلق بيبعث

وكذلك (من تحت) ، (أو يلبسكم) الجمهور على فتح الياء : أي يلبس عليكم أموركم .

فحذف حرف الجر والمفعول .

والجيد أن يكون التقدير .

يلبس أموركم ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، ويقرأ بضم الياء : أي يعمكم بالاختلاف ، و (شيعا) جمع شيعة وهو حال ، وقيل هو مصدر والعامل فيه يلبسكم من غير لفظه ، ويجوز على هذا أن يكون حالا أيضا : أي مختلفين .

قوله تعالى (لست عليكم) على متعلق ب (وكيل) ويجوز على هذا أن يكون حالا من وكيل على قول من أجاز تقديم الحال على حرف الجر .

(151/224)

قوله تعالى (مستقر) مبتدأ والخبر الظرف قبله أو فاعل ، والعامل فيه الظرف وهو مصدر بمعنى الاستقرار ، ويجوز أن يكون بمعنى المكان .

قوله تعالى (غيره) إنما ذكر الهاء لأنه أعادها على معنى الآيات لأنها حديث وقرآن

(ينسينك) يقرأ بالتخفيف والتشديد وماضيه نسى وأنسى والهمزة والتشديد لتعدية الفعل إلى المفعول الثاني وهو محذوف: أي ينسينك الذكر أو الحق .

قوله تعالى (من شئ) من زائدة ، ومن حسابهم حال ، والتقدير: شئ من حسابهم (ولكن ذكرى) أي ولكن نذكرهم ذكرى فيكون في موضع نصب ، ويجوز أن يكون في موضع رفع: أي هذا ذكرى ، أو عليهم ذكرى .

قوله تعالى (أن تبسل) مفعول له: أي مخافة أن تبسل (ليس لها) يجوز أن تكون الجملة في موضع رفع صفة لنفس ، وأن تكون في موضع حال من الضمير في كسبت ، وأن تكون مستأنفة (من دون الله) في موضع الحال: أي ليس لها ولى من دون الله ، ويجوز أن يكون من دون الله خبر ليس ولها تبيين .

وقد ذكرنا

مثاله (كل عدل) انتصاب كل على المصدر ، لأنها في حكم ما تضاف إليه (أولئك الذين) جمع على المعنى ، وأولئك مبتدأ .

وفى الخبر وجهان: أحدهما الذين أبسلوا ،

فعلى هذا يكون قوله (لهم شراب) فيه وجهان: أحدهما هو حال من الضمير في أبسلوا ، والثانى هو مستأنف .

والوجه الآخر أن يكون الخبر لهم شراب ، والذين أبسلوا بدل من أولئك أو نعت ، أو يكون خبرا أيضا ، ولهم شراب خبرا ثانيا .

(152/224)

قوله تعالى (أندعوا) الاستفهام بمعنى التوبيخ ، " وما " بمعنى الذى أو نكرة موصوفة ، و (من دون الله) متعلق بندعو ، ولايجوز أن يكون حالا من الضمير في (ينفعنا) ولا مفعولا لينفعنا لتقدمه على " ما " والصلة والصفة لاتعمل فيما قبل الموصول والموصوف (ونرد) معطوف على ندعو ، ويجوز أن يكون جملة في موضع الحال: أي ونحن نرد ، و (على أعقابنا) حال من الضمير في نرد : أي ترد منقلبين أو متأخرين (كالذى) في الكاف وجهان: أحدهما هي حال من الضمير في نرد ، أو بدل من على أعقابنا : أي مشبهين للذى (استهوته) والثانى أن تكون صفة لمصدر محذوف: أي ردا مثل رد الذى استهوته ، يقرأ استهوته واستهواه مثل توفته وتوفاه وقد ذكر ، والذى يجوز أن يكون هنا مفردا : أي كالرجل الذى أو كالفريق الذى ، ويجوز أن يكون جنسا ، والمراد الذين (في الأرض) يجوز أن يكون متعلقا باستهوته ، وأن

يكون حالا من (حيران) أي حيران كائنا في الأرض ويجوز أن يكون حالا من الضمير في حيران ، وأن يكون حالا من الهاء في استهوته وحيران حال من الهاء أو الضمير في الظرف ، ولم ينصرف لأن مؤنثه حيرى (له أصحاب) يجوز أن تكون الجملة مستأنفة ، وأن تكون حالا من الضمير في حيران ، أو من الضمير في الظرف ، أو بدلا من الحال التى قبلها (ائتنا) أي يقولون ائتنا (لنسلم) أي أمرنا بذلك لنسلم ، وقيل اللام بمعنى الباء ، وقيل هي زائدة: أي أن نسلم .

قوله تعالى (وأن أقيموا الصلاة) أن مصدرية ، وهى معطوفة على لنسلم ، وقيل هو معطوف على قوله " إن الهدى هدى الله " والتقدير: وقل أن أقيموا ، وقيل

هو محمول على المعنى: أي قيل لنا أسلموا ، وأن أقيموا .

قوله تعالى (ويوم يقول) فيه جملة أوجه: أحدها هو معطوف على الهاء في اتقوه: أي واتقوا عذاب يوم يقول .

والثانى هو معطوف على السموات: أي خلق يوم يقول .

والثالث هو خبر (قوله الحق) أي وقوله الحق يوم يقول ، والواو

داخلة على الجملة المقدم فيها الخبر ، والحق صفة لقوله .

والرابع هو ظرف لمعنى الجملة التى هي قوله الحق: أي يحق قوله في يوم يقول كن .

والخامس هو منصوب على تقدير واذكر .

وأما فاعل " فيكون " ففيه أوجه: أحدها هو جميع ما يخلقه الله في يوم القيامة .

والثانى هو ضمير المنفوخ فيه من الصور دل عليه قوله " يوم ينفخ في الصور " والثالث هو ضمير اليوم: والرابع هو قوله الحق: أي فيوجد قوله الحق ، وعلى هذا يكون قوله بمعنى مقوله: أي فيوجد ما قال له كن ، فخرج مما ذكرنا أن قوله يجوز أن يكون فاعلا ، والحق صفته أو مبتدأ ، واليوم خبره والحق صفته ، وأن يكون مبتدأ ، والحق صفته ، ويوم ينفخ خبره أو مبتدأ ، والحق خبره .

قوله تعالى (يوم ينفخ) يجوز أن يكون خبر قوله على ما ذكرنا ، وأن يكون ظرفا للملك أو حالا منه ، والعامل له أو ظرفا لتحشرون أو ليقول ، أو لقوله الحق أو لقوله عالم الغيب (عالم الغيب) الجمهور على الرفع ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، وأن يكون فاعل يقول كن ، وأن يكون صفة للذى ، وقرئ بالجر بدلا من رب العالمين ، أو من الهاء في له .

قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم) إذ في موضع نصب على فعل محذوف: أي واذكروا وهو معطوف على أقيموا ، و (آزر) يقرأ بالمد ووزنه أفعل ، ولم ينصرف للعجمة والتعريف على قول من لم يشتقه من الآزر أو الوزر ، ومن اشتقه من واحد منهما قال هو عربي ولم يصرفه

للتعريف ووزن الفعل ، ويقرأ بفتح الراء

على أنه بدل من أبيه ، وبالضم على النداء .

وقرئ في الشاذ بهمزتين مفتوحتين وتنوين الراء وسكون الزاى ، والأزر الخلق مثل الأسر ، ويقرأ بفتح الأولى وكسر الثانية ، وفيه وجهان: أحدهما أن الهمزة الثانية فاء الكلمة وليست بدلا ، ومعناها النقل ، والثانى هي بدل من الواو ، وأصلها وزر كما قالوا وعاء وإعاء ووسادة وإسادة والهمزة الأولى على هاتين القراءتين للاستفهام بمعنى الإنكار ، ولا همزة في تتخذ .

وفى انتصابه على هذا وجهان: أحدهما هو مفعول من أجله: أي لتحيرك واعوجاج دينك تتخذ .

(154/224)

والثانى هو صفة لأصنام قدمت عليها وعلى العامل فيها فصارت حالا: أي أتتخذ أصناما ملعونة أو معوجة ، و (أصناما) مفعول أول ، و (آلهة) ثان ، وجاز أن يجعل المفعول الأول نكرة لحصول الفائدة من الجملة ، وذلك يسهل في المفاعيل مالا يسهل من المبتدإ .

قوله تعالى (وكذلك) في موضعه وجهان: أحدهما هو نصب على إضمار وأريناه .

تقديره: وكما رأى أباه وقومه في ضلال مبين أريناه ذلك: أي ما رآه صوابا باطلاعنا إياه عليه ، ويجوز أن يكون منصوبا ب (نرى) التى بعده على أنه صفة لمصدر محذوف تقديره: نريه ملكوت السموات والأرض رؤية كرؤيته ضلال أبيه ، وقيل الكاف بمعنى اللام: أي ولذلك نريه .

والوجه الثاني أن تكون الكاف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف: أي والأمر كذلك: أي كما رآه من ضلالتهم .

قوله تعالى (وليكون) أي وليكون (من الموقنين) أريناه .

وقيل التقدير: ليستدل وليكون .

قوله تعالى (رأى كوكبا) يقرأ بفتح الراء والهمزة والتفخيم على الأصل ، وبالإمالة لأن الألف منقلبة عن ياء كقولك: رأيت رؤية ، ويقرأ بجعل الهمزتين بين بين ، وهو نوع من الإمالة ، ويقرأ بجعل الراء كذلك إتباعا للهمزة ، ويقرأ بكسرهما .

وفيه وجهان: أحدهما أنه كسر الهمزة للإمالة ثم أتبعها الراء .

والثانى أن أصل الهمزة الكسر بدليل قولك في المستقبل يرى ، أي يرأى ، وإنما فتحت من أجل حرف الحلق كما تقول وسع يسع ، ثم كسرت الحرف الأول في الماضي إتباعا لكسرة الهمزة ، فإن لقى الألف ساكن مثل رأى الشمس فقد قرئ بفتحهما على الأصل

وبكسرهما على ما تقدم ، وبكسر الراء وفتح الهمزة ، لأن الألف سقطت من اللفظ لأجل

الساكن بعدها ، والمحذوف هنا في تقدير الثابت ، وكان كسر الراء تنبيها على أن الأصل كسر الهمزة ، وأن فتحها دليل على الألف المحذوفة (هذا ربى) مبتدأ وخبر ، تقديره: أهذا ربى ، وقيل هو على الخبر: أي هو غير استفهام .

(155/224)

قوله تعالى (بازغة) هو حال من الشمس ، وإنما قال للشمس هذا على التذكير ، لأنه أراد هذا الكوكب أو الطالع أو الشخص أو الضوء أو الشئ أو لأن التأنيث غير حقيقي .

قوله تعالى (للذى فطر السموات) أو لعبادته أو لرضاه .

قوله تعالى (أتحاجوني) يقرأ بتشديد النون على إدغام نون الرفع في نون الوقاية والأصل تحاجوننى ، ويقرأ بالتخفيف على حذف إحدى النونين .

وفي المحذوفة وجهان: أحدهما هي نون الوقاية لانها الزائدة التى حصل بها الاستثقال ، وقد جاء ذلك في الشعر .

والثانى المحذوفة نون الرفع ، لأن الحاجة دعت إلى نون مكسورة من أجل الياء ونون الرفع لا تكسر ، وقد جاء ذلك في الشعر كثيرا قال الشاعر: كل له نية في بغض صاحبه * بنعمة الله نقليكم وتقلونا

أي تقلوننا ، والنون الثانية هنا ليست وقاية بل هي من الضمير ، وحذف بعض الضمير لا يجوز وهو ضعيف أيضا ، لأن علامة الرفع لا تحذف إلا بعامل (ما تشركون به) " ما " بمعنى الذى: أي ولا أخاف الصنم الذى تشركونه به: أي بالله ، فالهاء

في به ضمير اسم الله تعالى ، ويجوز أن تكون الهاء عائدة على ما : أي ولا أخاف الذى تشركون بسببه ولا تعود على الله ، ويجوز أن تكون " ما " نكرة موصوفة ، وأن تكون مصدرية (إلا أن يشاء) يجوز أن يكون استثناء من جنس الأول تقديره: إلا في حال مشيئة ربى: أي لا أخافها في كل حال إلا في هذه الحال ، ويجوز أن يكون من غير الأول: أي لكن أخاف أن يشاء ربى خوفى ما أشركتم ، و (شيئا) نائب عن المصدر: أي مشيئة ، ويجوز أن يكون مفعولا به: أي إلا أن يشاء ربى أمرا غير ما قلت ، و (علما) تمييز .

(156/224)

وكل شئ مفعول وسع: أي علم كل شئ ، ويجوز أن يكون علما على هذا التقدير مصدرا لمعنى وسع ، لأن ما يسع الشئ فقد أحاط به ، والعامل بالشئ محيط بعلمه: قوله تعالى (وكيف أخاف) كيف حال ، والعامل فيها أخاف وقد ذكر ، و (ما أشركتم) يجوز أن

تكون " ما " بمعنى الذى أو نكرة موصوفة ، والعائد محذوف ، وأن تكون مصدرية (ما لم) " ما " بمعنى الذى أو نكرة موصوفة ، وهى في موضع نصب بأشركتم ، و (عليكم) متعلق بينزل ، ويجوز أن يكون حالا من (سلطان) أي ما لم ينزل به حجة عليكم ، والسلطان مثل الرضوان والكفران ، وقد قرئ بضم اللام وهى لغة أتبع فيها الضم .

قوله تعالى (الذين آمنوا) فيه وجهان: أحدهما هو خبر مبتدإ محذوف: أي هم الذين .

والثانى هو مبتدأ ، و (أولئك) بدل منه أو مبتدأ ثان ، (لهم الأمن) مبتدأ وخبر الجملة خبر لما قبلها ، ويجوز أن يكون الأمن مرفوعا بالجار لأنه معتمد على ما قبله .

قوله تعالى (وتلك) هو مبتدأ ، وفى (حجتنا) وجهان: أحدهما هو بدل من تلك ، وفي (آتيناها) وجهان: أحدهما هو خبر عن المبتدإ ، و (على قومه)

متعلق بمحذوف: أي آتيناها إبراهيم حجة على قومه أو دليلا .

والثانى أن تكون حجتنا خبر تلك ، وآتيناها في موضع الحال من الحجة ، والعامل معنى الإشارة ، ولا يجوز أن يتعلق على بحجتنا لأنها مصدر وآتيناها خبر أو حال ، وكلاهما لا يفصل بين الموصول والصلة (نرفع) يجوز أن يكون في موضع الحال من آتيناها ،

ويجوز أن يكون مستأنفا ، ويقرأ بالنون والياء ، وكذلك في نشاء والمعنى ظاهر ،

(درجات) يقرأ بالإضافة وهو مفعول نرفع ، ورفع درجة الإنسان رفع له ، ويقرأ بالتنوين ، و

(من) على هذا مفعول نرفع ، ودرجات ظرف أو حرف الجر محذوف منها : أي إلى درجات .

(157/224)

قوله تعالى (كلا هدينا) كلا منصوب بهدينا ، والتقدير : كلا منهما (ونوحا هدينا) أي وهدينا نوحا ، والهاء في (ذريته) تعود على نوح والمذكورون بعده من الأنبياء ذرية نوح ، والتقدير : وهدينا من ذريته هؤلاء ، وقيل تعود على إبراهيم : وهذا ضعيف لأن من جملتهم لوطا وليس من ذرية إبراهيم (وكذلك نجزى) الكاف في موضع نصب نعتا لمصدر محذوف : أي ونجزى المحسنين جزاء مثل ذلك ، وأما (عيسى) فقيل هو أعجمى لا يعرف له اشتقاق ، وقيل هو مشتق من التعيش وهو البياض ، وقيل من العيس وهو ماء الفحل ، وقيل هو من عاس يعوس إذا صلح ، فعلى هذا تكون الياء منقلبة عن واو ، وأما (اليسع) فيقرأ بلام ساكنة خفيفة وياء مفتوحة .

وفيه وجهان : أحدهما هو اسم أعجمى علم ، والألف واللام فيه زائدة كما زيدت في النسر وهو الصنم لأنه صنم بعينه ، وكذلك قالوا في عمر والعمر ، وكذلك اللات والعزى .

والثانى أنه عربي ، وهو فعل مضارع سمى به ولا ضمير فيه ، فأعرب ثم نكر ثم عرف

بالألف واللام ، وقيل اللام على هذا زائدة أيضا ، ويسع أصله يوسع بكسر السين ثم حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة ثم فتحت السين من

أجل حرف الحلق ولم ترد الواو لأن الفتحة عارضة ، ومثله يطأ ويقع ويدع (وكلا) منصوب بفضلنا .

قوله تعالى (ومن آبائهم) هو معطوف على وكلا: أي وفضلنا كلا من آبائهم ، أو وهدينا كلا من آبائهم .

قوله تعالى (ذلك) مبتدأ ، و (هدى الله) خبره ، و (يهدى به) حال من الهدى ، والعامل فيه الإشارة ، ويجوز أن يكون حالا من اسم الله تعالى ، ويجوز أن يكون هدى الله بدلا من ذلك ، ويهدى به الخبر ، و (من عباده) حال من " من " أو من العائد المحذوف ، والباء في (بها) الأخيرة تتعلق ب (كافرين) والباء في بكافرين زائدة: أي ليسوا كافرين بها .

قوله تعالى (اقتده) يقرأ بسكون الهاء وإثباتها في الوقف دون الوصل ، وهى على هذا هاء السكت ، ومنهم من يثبتها في الوصل أيضا لشبهها بهاء الإضمار ، ومنهم من يكسرها .

(158/224)

وفيه وجهان: أحدهما هي هاء السكت أيضا شبهت بهاء الضمير وليس بشئ ، والثانى هي هاء الضمير والمضمر المصدر: أي اقتد الاقتداء ومثله: هذا سراقة للقرآن يدرسه * والمرء عند الرشا إن يلقها ذيب فالهاء ضمير الدرس لا مفعول ، لأن يدرس قد تعدى إلى القرآن ، وقيل من سكن الهاء جعلها هاء الضمير وأجرى الوصل مجرى الوقف ، والهاء في (عليه) ضمير القرآن والتبليغ .

قوله تعالى (حق قدره) حق منصوب نصب المصدر وهو في الأصل وصف: أي قدره الحق ، ووصف المصدر إذا أضيف إليه ينتصب نصب المصدر ، ويقرأ " قدره " بسكون الدال وفتحها ، و (إذ) ظرف لقدروا ، و (من شئ) مفعول أنزل ، ومن زائدة (نورا) حال من الهاء في به أو من الكتاب .

وبه يجوز

أن تكون مفعولا به ، وأن تكون حالا ، و (تجعلونه) مستأنف لا موضع له ، وقراطيس) أي في قراطيس ، وقيل ذا قراطيس ، وقيل ليس فيه تقدير محذوف ، والمعنى: أنزلوه منزلة القراطيس التى لا شئ فيها في ترك العمل به ، و (تبدونها) وصف للقراطيس (وتخفون)

كذلك ، والتقدير : وتخفون كثيرا منها ، ويقرأ في المواضع الثلاثة بالياء على الغيبة حملا على ما قبلها في أول الآية ، وبالتاء على الخطاب وهو مناسب لقوله (وعلمتم) أي وقد علمتم ، والجملة في موضع الحال من ضمير الفاعل في تجعلونه على قراءة التاء ، وعلى قراءة الياء يجوز أن يكون وعلمتم مستأنفا ، وأن يكون رجع من الغيبة إلى الخطاب ، و (قل الله) جواب " قل من أنزل الكتاب وارتفاعه بفعل محذوف: أي أنزله الله ، ويجوز أن يكون التقدير: هو الله ، أو المنزل الله ، أو الله أنزله (في خوضهم) يجوز أن يتعلق بذرهم على أنه ظرف له " وأن يكون حالا من ضمير المفعول: أي ذرهم خائضين ، وأن يكون متعلقا (يلعبون) ويلعبون في موضع الحال ، وصاحب الحال ضمير المفعول في ذرهم إذا لم يجعل في خوضهم حالا منه ، وإن جعلته حالا منه كان الحال الثانية من ضمير الاستقرار في الحال الأولى ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير المجرور في خوضهم ، ويكون العامل المصدر ، والمجرور فاعل في المعنى .

قوله تعالى (أنزلناه) في موضع رفع صفة لكتاب ، و (مبارك) صفة أخرى ، وقد قدم الوصف بالجملة على الوصف بالمفرد ، ويجوز النصب في غير القرآن على الحال من ضمير المفعول أو على الحال من النكرة الموصوفة ، و (مصدق الذى) التنوين

في تقدير الثبوت لأن الإضافة غير محضة (ولتنذر) بالتاء على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وبالياء على أن الفاعل الكتاب ، وفى الكلام حذف تقديره: ليؤمنوا ولتنذر أو نحو ذلك ، أو ولتنذر (أم القرى) أنزلناه (ومن) في موضع نصب

عطفا على أم ، والتقدير ولتنذر أهل أم (والذين يؤمنون) مبتدأ ، و (يؤمنون به) الخبر ، ويجوز أن يكون الذين في موضع نصب عطفا على أم القرى ، فيكون يؤمنون به حالا .

و(على) متعلقة ب (يحافظون) .

قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) ويجوز أن يكون كذبا مفعول افترى ، وأن يكون مصدرا على المعنى : أي افتراء ، وأن يكون مفعولا من أجله ، وأن يكون مصدرا في موضع الحال (أو قال) عطف على افترى و (إلى) في موضع رفع على أنه قام مقام الفاعل ، ويجوز أن يكون في موضع نصب ، والتقدير : أوحى الوحى أوالإيحاء (ولم يوح إليه شئ) في موضع الحال من ضمير الفاعل في قال أو الياء في إلى (ومن قال) في موضع جر عطفا على من افترى : أي وممن قال ، و (مثل ما) يجوز أن يكون مفعول سأنزل ، و " ما " بمعنى الذى أو نكرة موصوفة ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف ، وتكون " ما " مصدرية و (إذ) ظرف لترى والمفعول محذوف : أي ولو ترى الكفار أو نحو ذلك و (الظالمون) مبتدأ ، والظرف بعده خبر عنه (والملائكة) مبتدأ وما بعده الخبر ، والجملة حال من الضمير في الخبر قبله ، و (باسطوا أيديهم) في تقدير التنوين : أي باسطون أيديهم (أخرجوا) أي يقولون

أخرجوا ، والمحذوف حال من الضمير في باسطوا .

و(اليوم) ظرف لأخرجوا فيتم الوقف عليه ، ويجوز أن يكون ظرفا ل (تجزون) فيتم الوقف على أنفسكم (غير الحق) مفعول تقولون: ويجوز أن يكون وصفا لمصدر محذوف: أي قولا غير الحق (وكنتم) يجوز أن يكون معطوفا على كنتم الأولى: أي وبما كنتم ، وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (فرادى) هو جمع مفرد ، والألف للتأنيث مثل كسالى ، وقرئ في الشاذ بالتنوين على أنه اسم صحيح ، ويقال في الرفع فراد مثل نوام ورجال وهو جمع قليل ، ومنهم من لا يصرفه يجعله معدولا مثل ثلاث ورباع ، وهو حال من ضمير

(161/224)

الفاعل (كما خلقناكم) الكاف في موضع الحال ، وهو بدل من فرادى ، وقيل هي صفة مصدر محذوف: أي مجيئا كمجيئكم يوم خلقناكم ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في فرادى: أي مشبهين ابتداء خلقكم ، و (أول) ظرف لخلقناكم .

والمرة في الأصل مصدر مر يمر ، ثم استعمل ظرفا اتساعا ، وهذا يدل على قوة شبه الزمان بالفعل (وتركتم) يجوز أن يكون حالا ، أي وقد تركتم ، وأن يكون مستأنفا (وما نرى) لفظه

لفظ المستقبل ، وهى حكاية حال ، و (معكم) معمول نرى ، وهى من رؤية العين ، ولا يجوز أن يكون حالا من الشفعاء إذ المعنى يصير أن شفعاءهم معهم ولا نراهم: وإن جعلتها بمعنى نعلم المتعدية إلى اثنين جاز أن يكون معكم مفعولا ثانيا ، وهو ضعيف في المعنى (بينكم) يقرأ بالنصب وفيه ثلاثة أوجه: أحدها هو ظرف لتقطع والفاعل مضمر: أي تقطع الوصل بينكم ، ودل عليه شركاء ، والثانى هو وصف محذوف: أي لقد تقطع شئ بينكم أو وصل ، والثالث أن هذا المنصوب في موضع رفع وهو معرب ، وجاز ذلك حملا على أكثر أحوال الظرف ، وهو قول الأخفش ، ومثله: منا الصالحون ومنا دون ذلك ، ويقرأ بالرفع على أنه فاعل ، والبين هنا : الوصل وهو من الأضداد .

قوله تعالى (فالق الحب) يجوز أن يكون معرفة لأنه ماض ، وأن يكون نكرة على أنه حكاية حال ، وقرئ في الشاذ " فلق " و (الإصباح) مصدر أصبح ، ويقرأ بفتح الهمزة على أنه جمع صبح كقفل وأقفال و (جاعل الليل) مثل فالق الإصباح في الوجهين و (سكنا) مفعول جاعل إذا لم تعرفه ، وإن عرفته كان منصوبا بفعل محذوف: أي جعله سكنا ، والسكن ما سكنت إليه من أهل ونحوهم ، فجعل الليل بمنزلة الأهل ، وقيل التقدير: مسكونا فيه ، أو ذا سكن ، و (الشمس) منصوب بفعل محذوف أو بجاعل إذا لم تعرفه ، وقرئ في الشاذ بالجر عطفا على الإصباح

أو على الليل ، و (حسبانا) فيه وجهان: أحدهما هو جمع حسبانة ، والثانى هو مصدر

مثل الحسب والحساب ، وانتصابه كانتصاب سكنا .

قوله تعالى (فمستقر) يقرأ بفتح القاف .

(162/224)

وفيه وجهان: أحدهما هو مصدر ورفعه باللابتداء : أي فلكم استقرار .

والثاني أنه اسم مفعول ويراد به المكان: أي فلكم مكان تستقرون فيه إما في البطون ، وإما في القبور ، ويقرأ بكسر القاف فيكون مكانا يستقر لكم ، وقيل تقديره ، فمنكم مستقر ، وأما (مستودع) فبفتح الدال لا غير ، ويجوز أن يكون مكانا يودعون فيه ، وهو إما الصلب أو القبر ، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الاستيداع .

قوله تعالى (فأخرجنا منه خضرا) أي بسببه ، والخضر بمعنى الأخضر ، ويجوز أن تكون الهاء في منه راجعة على النبات وهو الأشبه ، وعلى الأول يكون

فأخرجنا بدلا من أخرجنا الأولى (نخرج) في موضع نصب لخضرا ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، والهاء في (منه) تعود على الخضر ، و (قنوان) بكسر القاف وضمها وهما لغتان ، وقد قرئ بهما والواحد قنو مثل صنو وصنوان .

وفي رفعه وجهان: أحدهما هو مبتدأ .

وفى خبره وجهان: أحدهما هو ، ومن النخل ومن طلعها بدل بإعادة الخافض .

والثانى أن الخبر من طلعها ، وفي من النخل ضمير تقديره: ونبت من النخل شئ أو ثمر فيكون من طلعها بدلا منه ، والوجه الآخر أن يرتفع قنوان على أنه فاعل من طلعها ، فيكون في من النخل ضمير تفسيره قنوان ، وإن رفعت قنوان بقوله " ومن النخل " على قول من أعمل أول الفعلين جاز ، وكان في من طلعها ضمير مرفوع ، وقرئ في الشاذ " قنوان " بفتح القاف ، وليس بجمع قنو لأن فعلانا لا يكون جمعا ، وإنما هو اسم للجمع كالباقر (وجنات) بالنصب عطفا على قوله " نبات كل شئ " : أي وأخرجنا به جنات ، ومثله (والزيتون والرمان) ويقرأ بضم التاء على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، والتقدير: من الكرم جنات ، ولا يجوز أن يكون معطوفا على قنوان لأن العنب لا يخرج من النخل .

(163/224)

ومن أعناب صفة لجنات و (مشتبها) حال من الرمان ، أو من الجميع ، و (إذا) ظرف لانظروا ، و (ثمره) يقرأ بفتح الثاء والميم جمع ثمرة مثل تمرة وتمر ، وهو جنس التحقيق لا جمع ، ويقرأ بضم الثاء والميم وهو جمع ثمرة مثل خشبة وخشب ، وقيل هو جمع ثمار مثل كتاب وكتب فهو جمع جمع ، فأما الثمار فواحدها ثمرة مثل خيمة وخيام ، وقيل هو جمع ثمر ، ويقرأ

بضم الثاء وسكون الميم وهو مخفف من المضموم (وينعه) يقرأ بفتح الياء وضمها وهما لغتان ، وكلاهما مصدر ينعت الثمرة ، وقيل هو اسم للمصدر والفعل أينعت إيناعا ، ويقرأ في الشاذ " يانعه " على أنه أسم فاعل .

قوله تعالى (وجعلوا) هي بمعنى صبروا ومفعولها الأول (الجن) والثانى شركاء .

ولله يتعلق بشركاء ، ويجوز أن يكون نعتا لشركاء قدم عليه فصار حالا ، ويجوز أن يكون المفعول الاول شركاء ، والجن بدلا منه ، ولله المفعول الثاني (وخلقهم) أي وقد خلقهم ، فتكون الجملة حالا ، وقيل هو مستأنف ، وقرئ في الشاذ و " خلقهم " بإسكان اللام وفتح القاف ، والتقدير : وجعلوا لله وخلقهم شركاء (وخرقوا) بالتخفيف والتشديد للتكثير (بغير علم) في موضع الحال من الفاعل في خرقوا ، ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف: أي خرقا بغير علم .

قوله تعالى (بديع السموات) في رفعه ثلاثة أوجه: أحدهما هو فاعل تعالى ، والثانى هو خبر مبتدأ محذوف: أي هو بديع ، والثالث هو مبتدأ وخبره (أنى يكون له) وما يتصل به ، وأنى بمعنى كيف أو من أين ، وموضعه حال ، وصاحب الحال (ولد) والعامل يكون ، ويجوز أن تكون تامة ، وأن تكون ناقصة (ولم تكن)

يقرأ بالتاء على تأنيث الصاحبة ، ويقرأ بالياء وفيه ثلاثة أوجه: أحدها أنه للصاحبة ولكن جاز التذكير لما فصل بينهما .

والثانى أن اسم كان ضمير اسم الله ، والجملة خبر عنه: أي ولم يكون الله له صاحبته .

والثالث أن اسم كان ضمير الشأن والجملة مفسرة له .

(164/224)

قوله تعالى (ذلكم) مبتدأ ، وفى الخبر أوجه: أحدها هو (الله) و (ربكم) خبر ثان ، و (لاإله إلا هو) ثالث ، و (خالق كل) رابع .

والثانى أن الخبر الله ، وما بعده إبدال منه .

والثالث أن الله بدل من ذلكم ، والخبر ما بعده .

قوله تعالى (قد جاءكم بصائر) لم يلحق الفعل تاء التأنيث للفصل بين المفعول ، .

ولأن تأنيث الفاعل غير حقيقي ، و (من) متعلقة بجاء ، ويجوز أن تكون صفة للبصائر فتتعلق بمحذوف (فمن أبصر) من مبتدأ فيجوز أن تكون شرطا ، فيكون الخبر أبصر والجواب من كلاهما ، ويجوز أن تكون بمعنى الذى ، وما بعد الفاء الخبر ، والمبتدأ فيه محذوف تقديره: فإبصاره لنفسه ، وكذلك قوله (ومن عمى فعليها) .

قوله تعالى (وكذلك) الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف: أي (نصرف الآيات) تصريفا مثل ما تلوناها عليك (وليقولوا) أي وليقولوا درست صرفنا ، واللام لام العاقبة: أي

أن أمرهم يصير إلى هذا ، وقيل إنه قصد بالتصريف أن يقولوا درست عقوبة لهم

(دارست) يقرأ بالالف وفتح الياء : أي دارست أهل الكتاب ، ويقرأ كذلك إلا أنه بغير ألف: أي درست الكتب المتقدمة ، ويقرأ كذلك إلا أنه بالتشديد ، والمعنى كالمعنى الأول ، ويقرأ بضم الدال مشددا على ما لم يسم فاعله ، ويقرأ " دورست " بالتخفيف والواو على ما لم يسم فاعله ، والواو مبدلة من الألف في دارست ، ويقرأ بفتح الدال والراء والسين وسكون التاء : أي انقطعت الآيات وانمحت ، ويقرأ كذلك إلا أنه على ما لم يسم فاعله ، ويقرأ

درس من غير تاء ، والفاعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل الكتاب لقوله (ولنبينه) .

قوله تعالى (من ربك) يجوز أن تكون متعلقة بأوحى ، وأن تكون حالا من الضمير المفعول المرفوع في أوحى ، وأن تكون حالا من ما (لاإله إلا هو) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا من ربك: أي من ربك منفردا ، وهى حال مؤكدة .

قوله تعالى (ولو شاء الله) المفعول محذوف: أي ولو شاء الله إيمانهم ، و (جعلناك) متعدية إلى مفعولين ، و (حفيظا) الثاني .

(165/224)

وعليهم يتعلق بحفيظا ، ومفعوله محذوف: أي وما صيرناك تحفظ عليهم أعمالهم ، وهذا يؤيد قول سيبويه في إعمال فعيل .

قوله تعالى (من دون الله) حال من " ما " أو من العائد عليها (فيسبوا) منصوب على جواب النهى ، وقيل هو مجزوم على العطف كقولهم لاتمددها فتثقفها ، و (عدوا) بفتح العين وتخفيف الدال ، وهو مصدر .

وفى انتصابه ثلاثة أوجه: أحدها هو مفعول له .

والثانى مصدر من غير لفظ الفعل لأن السب عدوان في المعنى .

والثالث هو مصدر في موضع الحال ، وهي حال مؤكدة ، ويقرأ بضم العين والدال وتشديد الواو وهو مصدر على فعول كالجلوس والقعود ، ويقرأ بفتح العين والتشديد وهو واحد في معنى الجمع: أي أعداء ، وهو حال (بغير علم) حال أيضا مؤكدة (كذلك) في موضع نصب صفة لمصدر محذوف: أي كما (زينا لكل أمة عملهم) زينا لهؤلاء عملهم .

قوله تعالى (جهد أيمانهم) قد ذكر في المائدة (ومايشعركم) " ما " استفهام في موضع رفع بالابتداء ، ويشعركم الخبر ، وهو يتعدى إلى مفعولين (أنها)

يقرأ بالكسر على الاستئناف ، والمفعول الثاني محذوف تقديره: ومايشعركم إيمانهم ويقرأ بالفتح .

وفيه ثلاثة أوجه: أحدها أن " أن " بمعنى لعل ، حكاه الخليل عن العرب ، وعلى هذا يكون

المفعول الثاني أيضا محذوفا ، والثانى أن " لا " زائدة ، فتكون " أن " وما عملت فيه في موضع المفعول الثاني ، والثالث أن " أن " على بابها ولاغير زائدة ، والمعنى: وما يدريكم عدم إيمانهم ، وهذا جواب لمن حكم عليهم بالكفر أبدا ويئس من إيمانهم ، والتقدير: لا يؤمنون بها فحذف المفعول .

قوله تعالى (كما لم يؤمنوا) " ما " مصدرية والكاف نعت لمصدر محذوف أي تقليبا ككفرهم: أي عقوبة مساوية لمعصيتهم ، و (أول مرة) ظرف زمان ،

وقد ذكر (ونذرهم) يقرأ بالنون وضم الراء وبالياء كذلك ، والمعنى مفهوم ويقرأ بسكون الراء .

(166/224)

وفيه وجهان: أحدهما أنه سكن لثقل توالى الحركات ، والثانى أنه مجزوم عطفا على يؤمنوا ، والمعنى: جزاء على كفرهم ، وأنه لم يذرهم في طغيانهم يعمهون بل بين لهم .

قوله تعالى (قبلا) يقرأ بضم القاف والباء وفيه وجهان: أحدهما هو جمع قبيل مثل قليب وقلب ، والثانى أنه مفرد كقبل الإنسان ودبره ، وعلى كلا الوجهين هو حال من كل ، وجاز ذلك وإن كان نكرة لما فيه من العلوم ، ويقرأ بالضم وسكون الباء على تخفيف الضمة ،

ويقرأ بكسر القاف وفتح الباء .

وفيه وجهان أيضا : أحدهما هو ظرف كقولك: لى قبله حق ، والثانى مصدر في موضع الحال: أي عيانا أو معاينة (إلا أن يشاء الله) في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ، وقيل هو متصل .

والمعنى: ما كانوا ليؤمنوا في كل حال إلا في حال مشيئة الله تعالى .

قوله تعالى (وكذلك) هو نعت لمصدر محذوف كما ذكرنا في غير موضع ، و (جعلنا) متعدية إلى مفعولين .

وفى المفعول الأول وجهان: أحدهما هو عدوا

والثانى (لكل نبى) ، و (شياطين) بدل من عدو .

والثانى المفعول الأول شياطين .

وعدوا المفعول الثاني مقدم ، ولكل نبى صفة لعدو قدمت فصارت حالا (يوحى) يجوز أن يكون حالا من شياطين وأن يكون صلة لعدو ، وعدو في موضع أعداء (غرورا) مفعول له ، وقيل مصدر في موضع الحال ، والهاء في (فعلوه) يجوز أن تكون ضمير الإيحاء ، وقد دل عليه يوحى ، وأن تكون ضمير الزخرف أو القول أو الغرور (وما يفترون) " ما " بمعنى الذى ، أو نكرة موصوفة ، أو مصدرية ، وهى في موضع نصب عطفا على المفعول قبلها ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع .

قوله تعالى (ولتصغى) الجمهور على كسر اللام وهو معطوف على غرور: أي ليغروا ولتصغى ، وقيل هي لام القسم كسرت لما لم يؤكد الفعل بالنون ، وقرئ بإسكان اللام وهى مخففة لتوالى الحركات ، وليست لام الأمر لأنه لم يجزم الفعل ، وكذلك القول في (وليرضوه وليقترفوا) و " ما " بمعنى الذى ، والعائد محذوف: أي وليقترفوا الذى هم مقترفوه ، وأثبت النون لما حذف الهاء .

(167/224)

قوله تعالى (أفغير الله) فيه وجهان: أحدهما هو مفعول أبتغى و (حكما) حال منه .

والثانى أن حكما مفعول أبتغى ، وغير حال من حكما مقدم عليه ، وقيل حكما تمييز ، و (مفصلا) حال من الكتاب ، و (بالحق) حال من الضمير المرفوع في منزل .

قوله تعالى (صدقا وعدلا) منصوبان على التمييز ، ويجوز أن يكون مفعولا من أجله ، وأن يكون مصدرا في موضع الحال (لا مبدل) مستأنف ، ولا يجوز أن يكون حالا من ربك لئلا يفصل بين الحال وصاحبها بالأجنبى ، وهو قوله " صدقا وعدلا " إلا أن يجعل صدقا وعدلا حالين من ربك لا من الكلمات .

قوله تعالى (أعلم من يضل) في " من " وجهان: أحدهما هي بمعنى الذى ، أو نكرة موصوفة بمعنى فريق ، فعلى هذا يكون في موضع نصب بفعل دل عليه أعلم لا بنفس أعلم ، لأن أفعل لا يعمل في الاسم الظاهر النصب ، والتقدير: يعلم من يضل .

ولا يجوز أن يكون " من " في موضع جر بالاضافة على قراءة من فتح الياء لئلا يصير التقدير: هو أعلم الضالين ، فيلزم أن يكون سبحانه ضالا ، تعالى عن ذلك ، ومن قرأ بضم الياء فمن في موضع نصب أيضا على ما بينا : أي يعلم المضلين ، ويجوز أن يكون في موضع جر ، إما على معنى هو أعلم المضلين: أي من يجد الضلال وهو من أظللته أي وجدته ضالا مثل أحمدته وجدته محمودا ، أو بمعنى أن يضل عن الهدى .

والوجه الثاني أن " من " استفهام في موضع مبتدإ ، ويضل الخبر ، وموضع الجملة نصب بيعلم المقدرة ، ومثله " لنعلم أي الحزبين أحصى " .

قوله تعالى (ومالكم) " ما " استفهام في موضع رفع بالابتداء ، ولكم الخبر ، و (أن لا تأكلوا) فيه وجهان: أحدهما حرف الجر مراد معه: أي في أن لا تأكلوا ولما حذف حرف الجر كان في موضع نصب ، أو في موضع جر على اختلافهم في ذلك ، وقد ذكر في غير موضع .

(168/224)

والثانى أنه في موضع الحال: أي وأى شئ لكم تاركين الأكل ، وهو ضعيف لأن " أن " تمحض الفعل للاستقبال وتجعله مصدرا فيمتنع الحال ، إلا أن تقدر حذف مضاف تقديره: ومالكم ذوى أن لا تأكلوا ، والمفعول محذوف: أي شيئا مما ذكر اسم الله عليه (وقد فصل) الجملة حال ، ويقرأ بالضم على ما لم يسم فاعله ، وبالفتح في تسمية الفاعل ، وبتشديد الصاد وتخفيفها ، وكل ذلك ظاهر (إلا ما اضطررتم) " ما " في موضع نصب على الاستثناء من الجنس من طريق المعنى ، لأنه وبخهم بترك الأكل مما سمى عليه ، وذلك يتضمن إباحة الأكل مطلقا ، وقوله " وقد فصل لكم ما حرم عليكم " أي في حال الاختيار ، وذلك حلال في حال الاضطرار .

قوله تعالى (إنكم لمشركون) حذف الفاء من جواب الشرط وهو حسن إذا كان الشرط بلفظ الماضي ، وهو هنا كذلك وهو قوله " وإن أطعتموهم " .

قوله تعالى (أو من كان) " من " بمعنى الذى في موضع رفع بالابتداء و (يمشى به) في موضع نصب صفة لنور ، و (كمن) خبر الابتداء ، و (مثله) مبتدأ ، و (في الظلمات) خبره ، و (ليس بخارج) في موضع الحال من الضمير في الجار ، ولا يجوز أن يكون حالا من الهاء في مثله للفصل بينه وبين الحال بالخبر (كذلك زين – وكذلك جعلنا) قد سبق إعرابهما ، وجعلنا بمعنى صيرنا ، و (أكابر) المفعول الأول ، وفى كل قرية الثاني ، و (مجرميها) بدل من أكابر ، ويجوز أن تكون " في " ظرفا ، ومجرميها المفعول الأول ، وأكابر مفعول ثان ، ويجوز أن يكون

أكابر مضافا إلى مجرميها ، وفى كل المفعول الثاني ، والمعنى على هذا مكنا ونحو ذلك

(ليمكروا) اللام لام كى أو لام الصيرورة .

قوله تعالى (حيث يجعل) حيث هنا مفعول به ، والعامل محذوف ، والتقدير : يعلم موضع رسالاته ، وليس ظرفا لأنه يصير التقدير يعلم في هذا المكان كذا وكذا ، وليس المعنى عليه ، وقد روى " حيث " بفتح الثاء ، وهو بناء عند الأكثرين ، وقيل هي فتحة إعراب (عند الله) ظرف ليصيب أو صفة لصغار .

(169/224)

قوله تعالى (فمن يرد الله) هو مثل " من يشأ الله يضلله " ، وقد ذكر (ضيقا) مفعول ثان ليجعل ، فمن شدد الياء جعله وصفا ، ومن خففها جاز أن يكون وصفا كميت وميت ، وأن يكون مصدرا : أي ذا ضيق (حرجا) بكسر الراء صفة لضيق ، أو مفعول ثالث كما جاز في المبتدإ أن تخبر عنه بعده أخبارا ، ويكون الجميع في موضع خبر واحد : كحلو حامض ، وعلى كل تقدير هو مؤكد للمعنى ، ويقرأ بفتح الراء على أنه مصدر : أي ذا حرج ، وقيل هو جمع حرجة مثل قصبة وقصب ، والهاء فيه للمبالغة

(كأنما) في موضع نصب خبر آخر ، أو حال من الضمير في حرج أو ضيق (يصعد) ويصاعد

بتشديد الصاد فيهما أي يتصعد ، ويقرأ " يصعد " بالتخفيف .

قوله تعالى (مستقيما) حال من صراط ربك ، والعامل فيها التنبيه أو الإشارة .

قوله تعالى (لهم دار السلام) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون في موضع

جر صفة لقوم ، وأن يكون نصبا على الحال من الضمير في يذكرون ، (عند ربهم) حال من دار السلام ، أو ظرف للاستقرار في لهم .

قوله تعالى (ويوم نحشرهم) أي واذكر يوم ، أو ونقول يوم نحشرهم (يا معشر الجن) ، و (من الإنس) حال من (أولياؤهم) وقرئ (آجالنا) على الجمع (الذى) على التذكير والإفراد .

وقال أبو علي: هو جنس أوقع الذى موقع التى (خالدين فيها) حال ، وفى العامل فيها وجهان: أحدهما المثوى على أنه مصدر بمعنى الثواء ، والتقدير: النار ذات ثوائكم .

والثانى العامل فيه معنى الإضافة ومثواكم مكان والمكان لا يعمل (إلا ما شاء الله) هو استثناء من غير الجنس ، ويجوز أن يكون من الجنس على وجهين: أحدهما أن يكون استثناء من الزمان ، والمعنى يدل عليه لأن الخلود يدل على الأبد ، فكأنه قال: خالدين فيها في كل زمان إلا ما شاء الله إلا زمن مشيئة الله .

والثانى أن تكون " من " بمعنى " ما " (1) .

قوله تعالى (يقصون) في موضع رفع صفة لرسل ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في منكم .

قوله تعالى (ذلك) هو خبر مبتدإ محذوف: أي الأمر ذلك (أن لم) أن مصدرية أو مخففة من الثقيلة ، واللام محذوفة: أي لأن لم (يكن ربك) وموضعه نصب أو جر على الخلاف (بظلم) في موضع الحال أو مفعول به يتعلق بمهلك .

قوله تعالى (ولكل) أي ولكل أحد (مما) في موضع رفع صفة لدرجات .

قوله تعالى (كما أنشأكم) الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف: أي استخلافا كما ، و (من ذرية) لابتداء الغاية ، وقيل هي بمعنى البدل: أي كما أنشأكم بدلا من ذرية (قوم) .

قوله تعالى (إنما توعدون) ما بمعنى الذى ، و (لآت) خبر إن ولا يجوز أن تكون " ما " ها هنا كافة ، لأن قوله لآت يمنع ذلك .

قوله تعالى (من تكون) يجوز أن تكون " من " بمعنى الذى ، وأن تكون استفهاما مثل قوله: أعلم من يضل .

قوله تعالى (مما ذرأ) يجوز أن يتعلق بجعل ، وأن يكون حالا من نصيب ، و (من الحرث) يجوز أن يكون متعلقا بذرأ ، وأن يكون حالا من " ما " أو من العائد المحذوف .

---

(1) قوله " أن تكون بمعنى ما " كذا بالنسخ التى بأيدينا ، وصوابه: أن يقول " أن تكون ما بمعنى من " كما لا يخفى ليكون استثناء من الجنس تأمل اه .

(*)

قوله تعالى (وكذلك زين) يقرأ بفتح الزاى ، والياء على تسمية الفاعل ، وهو (شركاؤهم) والمفعول قتل ، وهو مصدر مضاف إلى المفعول ، ويقرأ بضم الزاى وكسر الياء على ما لم يسم فاعله ، وقتل بالرفع على أنه القائم مقام الفاعل ، وأولادهم بالنصب على أنه مفعول القتل ، شركائهم بالجر على الإضافة ، وقد فصل بينهما بالمفعول وهو بعيد ، وإنما يجئ في ضرورة الشعر ، ويقرأ كذلك إلا أنه بجر أولادهم على الإضافة وشركائهم بالجر أيضا على البدل من الأولاد ، لأن أولادهم شركاؤهم في دينهم وعيشهم وغيرهما ، ويقرأ كذلك إلا أنه برفع الشركاء .

وفيه وجهان: أحدهما أنه مرفوع بفعل محذوف كأنه قال: من زينه ؟ فقال شركاءهم: أي زينه شركاؤهم ، والقتل في هذا كله مضاف إلى المفعول .

والثانى أن يرتفع شركاؤهم بالقتل ، لأن الشركاء

(171/224)

تثير بينهم القتل قبله ، ويمكن أن يكون القتل يقع منهم حقيقة (وليلبسوا) بكسر الباء من لبست الأمر بفتح الباء في الماضي إذا شبهته ، ويقرأ في الشاذ بفتح الباء ، قيل إنها لغة ،

وقيل جعل الدين لهم كاللباس عليهم .

قوله تعالى (لا يطعمها) في موضع رفع كالذى قبله ، والجمهور على كسر الحاء في " حجر " وسكون الجيم ويقرأ بضمهما ، وضم الحاء وسكون الجيم ، ومعناه محرم ، والقراءات لغات فيها ، ويقرأ " حرج " بكسر الحاء وتقديم الراء على الجيم وأصله حرج بفتح الحاء وكسر الراء ولكنه خفف ونقل مثل فخذ وفخذ ، وقيل هو من المقلوب مثل عميق ومعيق

(بزعمهم) متعلق بقالوا ، ويجوز فتح الزاى وكسرها وضمها وهى لغات (افتراء) منصوب على المصدر ، لأن قولهم المحكى بمعنى افتروا ، وقيل هو مفعول من أجله ، فإن نصبته على المصدر كان قوله (عليه) متعلقا بقالوا لا بنفس المصدر ، وإن جعلته مفعولا من أجله علقته بنفس المصدر ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أن يكون صفة لافتراء .

قوله تعالى (ما في بطون) " ما " بمعنى الذى في موضع رفع بالابتداء ، و (خالصة) خبره وأنث على المعنى لأن ما في البطون أنعام ، وقيل التأنيث على المبالغة كعلامة ونسابة ، و (لذكورنا) متعلق بخالصة أو بمحذوف على أن يكون صفة لخالصة (ومحرم) جاء على التذكير حملا على لفظ " ما " ويقرأ " خالص " بغير تاء على الأصل ، ويقرأ " خالصة " بالتأنيث والنصب على الحال ، والعامل فيها ما في بطونها من معنى الاستقرار ، والخبر لذكورنا ، ولا يعمل في الحال لأنه لا يتصرف ، وأجازه الأخفش ، ويقرأ " خالصة " بالرفع والإضافة إلى هاء الضمير وهو مبتدأ ،

وللذكور خبره ، والجملة خبر " ما " (تكن ميتة) يقرأ بالتاء ونصب ميتة: أي إن تكن الأنعام ميتة ، ويقرأ بالياء حملا على لفظ " ما " ويقرأ بالياء ورفع ميتة

على أن كان هي التامة (فهم فيه) ذكر الضمير حملا على " ما " .

قوله تعالى (قتلوا أولادهم) يقرأ بالتخفيف والتشديد على التكثير .

(172/224)

و (سفها) مفعول له أو على المصدر لفعل محذوف دل عليه الكلام (بغير علم) في موضع الحال ، و (افتراء) مثل الأول .

قوله تعالى (مختلفا أكله) مختلفا حال مقدرة ، لأن النخل والزرع وقت خروجه لا أكل فيه حتى يكون مختلفا أو متفقا ، وهو مثل قولهم: مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، ويجوز أن يكون في الكلام حذف مضاف تقديره: ثمر النخل وحب الزرع فعلى هذا تكون الحال مقارنة ، و (متشابها) حال أيضا ، و (حصاده) يقرأ بالفتح والكسر وهما لغتان .

قوله تعالى (حمولة وفرشا) هو معطوف على جنات: أي وأنشأ من الأنعام حمولة .

قوله تعالى (ثمانية أزواج) في نصبه خمسة أوجه: أحدها هو معطوف على جنات: أي وأنشأ ثمانية أزواج ، وحذف الفعل وحرف العطف وهو ضعيف .

والثانى أن تقديره: كلوا ثمانية أزواج.

والثالث هو منصوب بكلوا تقديره: كلوا مما رزقكم ثمانية أزواج، ولا تسرفوا معترض بينهما .

والرابع هو بدل من حمولة وفرشا .

والخامس أنه حال تقديره: مختلفة أو متعددة (من الضأن) يقرأ بسكون الهمزة وفتحها وهما لغتان، و (اثنين) بدل من ثمانية، وقد عطف عليه بقية الثمانية، و (المعز) بفتح العين وسكونها لغتان قد قرئ بهما (آلذكرين) هو منصوب ب (حرم) وكذلك (أم الانثيين) أي أم حرم الأنثيين (أم ما اشتملت) أي أم حرم ما اشتملت .

قوله تعالى (أم كنتم شهداء) أم منقطعة: أي بل أكنتم، و (إذ) معمول شهداء .

قوله تعالى (يطعمه) في موضع جر صفة لطاعم، ويقرأ " يطعمه " بالتشديد وكسر العين، والأصل يتطعمه، فأبدلت التاء طاء وأدغمت فيها الأولى (إلا أن تكون) استثناء من الجنس وموضعه نصب: أي لا أجد محرما إلا الميتة، ويقرأ يكون بالياء و (ميتة) بالنصب: أي إلا أن يكون المأكول ميتة أو ذلك، ويقرأ

بالتاء إلا أن تكون المأكولة ميتة ، ويقرأ برفع الميتة على أن تكون تامة ، إلا أنه ضعيف لأن المعطوف منصوب (أو فسقا) عطف على لحم الخنزير ، وقيل هو معطوف على موضع إلا أن يكون ، وقد فصل بينهما بقوله " فإنه رجس " .

قوله تعالى (كل ذى ظفر) الجمهور على ضم الظاء والفاء ، ويقرأ بإسكان الفاء ، ويقرأ بكسر الظاء والإسكان (ومن البقر) معطوف على كل ، وجعل (حرمنا عليهم شحومهما) تبيينا للمحرم من البقر ، ويجوز أن يكون من البقر ، متعلقا بحرمنا الثانية (إلا ما حملت) في موضع نصب استثناء من الشحوم (أو الحوايا) في موضع نصب عطفا على " ما " وقيل هو معطوف على الشحوم فتكون محرمة أيضا ، وواحدة الحوايا حوية أو حاوية أو حاويا ، وأوهنا بمعنى الواو لتفصيل مذاهبهم لاختلاف أماكنها ، وقد ذكرناه في قوله "كونوا هودا أو نصارى " (ذلك) في موضع نصب ب (جزيناهم) وقيل مبتدأ ، والتقدير: جزيناهموه ، وقيل هو خبر المحذوف: أي الأمر ذلك .

قوله تعالى (فإن كذبوك) شرط وجوابه (فقل ربكم ذو رحمة) والتقدير: فقل يصفح عنكم بتأخير العقوبة .

قوله تعالى (ولا آباؤنا) عطف على الضمير في أشركنا ، وأغنت زيادة " لا " عن تأكيد الضمير ، وقيل ذلك لا يغنى لأن المؤكد يجب أن يكون قبل حرف العطف ولا بعد حرف العطف (من شئ) من زائدة .

قوله تعالى (قل هلم) للعرب فيها لغتان: إحداهما تكون بلفظ واحد في الواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث ، فعلى هذا هي اسم للفعل ، وبنيت لوقوعها موقع الأمر المبنى ، ومعناها أحضروا شهداءكم .

واللغة الثانية تختلف فتقول: هلما وهلموا وهلمي وهلممن ، فعلى هذا هي فعل .

واختلفوا في أصلها فقال البصريون: أصلها ها ألم: أي أقصد ، فأدغمت الميم في الميم وتحركت اللام فاستغنى عن همزة الوصل فبقى لم ثم حذفت ألف ها التى هي للتنبيه لأن اللام في لم في تقدير الساكنة إذ كانت حركتها عارضة ، ولحق حرف التنبيه مثال الأمر كما يلحق غيره من المثل .

(174/224)

فأما فتحة الميم ففيها وجهان: أحدهما أنها حركت بها لالتقاء الساكنين ولم يجز الضم ولا الكسر كما جاز في رد ورد ورد لطول الكلمة بوصل " ها " بها ، وأنها لا تستعمل إلا معها ، والثانى أنها فتحت من أجل التركيب كما فتحت خمسة عشر وبابها .

وقال الفراء .

أصلها هل أم ، فألقيت حركة الهمزة على اللام وحذفت ، وهذا بعيد لأن لفظه أمر ،

وهل إن كانت استفهاما فلا معنى لدخوله على الأمر ، وإن كانت بمعنى قد فلا تدخل على الأمر ، وإن كانت هل اسما للزجر فتلك مبنية على الفتح ، ثم لا معنى لها هاهنا .

قوله تعالى (ما حرم) في " ما " وجهان: أحدهما هي بمعنى الذى والعائد محذوف: أي حرمه ، والثانى هي مصدرية (أن لا تشركوا) في أن وجهان: أحدهما هي بمعنى أي ، فتكون لا على هذا نهيا ، والثانى هي مصدرية وفي موضعها وجهان: أحدهما هي بدل (1) من الهاء المحذوفة أو من " ما " ولا زائدة: أي حرم ربكم أن تشركوا ، والثانى أنها منصوبة على الإغراء ، والعامل فيها عليكم ، والوقف على ما قبل على: أي ألزموا ترك الشرك .

والوجه الثاني أنها مرفوعة .

والتقدير المتلو: أن لا تشركوا أو المحرم أن تشركوا ، ولا زائدة على هذا التقدير ، و (شيئا) مفعول تشركوا ، وقد ذكرناه في موضع آخر .

ويجوز أن يكون شيئا في موضع المصدر: أي إشراكا و (وبالوالدين إحسانا) قد ذكر في البقرة (من إملاق) أي من أجل الفقر

(ما ظهر منها وما بطن) بدلان من الفواحش ، بدل الاشتمال ، ومنها في موضع الحال من ضمير الفاعل ، و (بالحق) في موضع الحال (ذلكم) مبتدأ ، و (وصاكم به) الخبر ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على تقدير: ألزمكم ذلكم ، ووصاكم تفسير له .

قوله تعالى (إلا بالتى هي أحسن) أي إلا بالخصلة ، و (بالقسط) في موضع الحال: أي مقسطين ، ويجوز أن يكون حالا من المفعول: أي أوفوا الكيل تاما ، والكيل ها هنا مصدر في معنى المكيل والميزان كذلك ، ويجوز أن يكون فيه حذف مضاف تقديره: مكيل الكيل وموزون الميزان (لا نكلف) مستأنف (ولو كان ذا قربى) أي ولو كان المقول له أو فيه .

قوله تعالى (وأن هذا) يقرأ بفتح الهمزة والتشديد ، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها تقديره: ولأن هذا ، واللام متعلقة بقوله (فاتبعوه) أي ولأجل استقامته اتبعوه ، وقد ذكرنا نحو هذا في قوله "كما أرسلنا " والثانى أنه معطوف على ما حرم: أي وأتلو عليكم أن هذا صراطي .

والثالث هو معطوف على الهاء في وصاكم به ، وهذا فاسد لوجهين: أحدهما أنه عطف على الضمير من غير إعادة الجار ، والثانى أنه يصير المعنى وصاكم باستقامة الصراط ، وهو فاسد ، ويقرأ بفتح الهمزة وتخفيف النون وهى كالمشددة ، ويقرأ بكسر الهمزة على الاستئناف ومستقيما حال ، والعامل فيه هذا

---

(1) قوله " أحدهما هي بدل الخ " كذا بالنسخ ، وكان المناسب أن يقول أحدهما أنها منصوبة وفيه وجهان: أحدهما . . . الخ لتستقيم بقية الأقسام بعد اه .

(*)

(فتفرق) جواب النهى ، والأصل فتتفرق ، و (بكم) في موضع المفعول: أي فتفرقكم ، ويجوز أن يكون حالا .

أي فتتفرق وأنتم معها .

قوله تعالى (تماما) مفعول له أو مصدر : أي اتممناه إتماما ، ويجوز أن يكون في موضع الحال من الكتاب (على الذى أحسن) يقرأ بفتح النون وعلى أنه فعل ماض ، وفى فاعله وجهان: أحدهما ضمير اسم الله والهاء محذوفة: أي على الذى أحسنه الله: أي أحسن إليه وهو موسى ، والثانى هو ضمير موسى لأنه أحسن في فعله ويقرأ بضم النون على أنه اسم ، والمبتدأ محذوف ، وهو العائد على الذى .

أي على الذى هو أحسن ، وهو ضعيف .

وقال قوم: أحسن بفتح النون في موضع جر صفة للذى ، وليس بشئ لأن الموصول لابد له من صلة ، وقيل تقديره: على الذين أحسنوا .

(176/224)

قوله تعالى (وهذا) مبتدأ ، و (كتاب) خبره ، و (أنزلناه) صفة أو خبر ثان .

و(مبارك) صفة ثانية أو خبر ثالث ، ولو كان قرئ مباركا بالنصب على الحال جاز .

قوله تعالى (أن تقولوا) أي أنزلناه كراهة أن تقولوا (أو تقولوا) معطوف عليه ، وإن كنا إن مخففة من الثقيلة ، واللام في لغافلين عوض أو فارقة بين إن وما .

قوله تعالى (ممن كذب) الجمهور على التشديد ، وقرئ بالتخفيف وهو في معنى المشدد ، فيكون (بآيات الله) مفعولا ، ويجوز أن يكون حالا ، أي كذب ومعه آيات الله (يصدقون) يقرأ بالصاد الخالصة على الأصل ، وبإشمام الصاد زايا وبإخلاصها زايا لتقرب من الدال ، وسوغ ذلك فيها سكونها .

قوله تعالى (يوم يأتي) الجمهور على النصب ، والعامل في الظرف (لا ينفع) وقرئ بالرفع ، والخبر لا ينفع ، والعائد محذوف: أي لا ينفع (نفسا إيمانها) فيه والجمهور على الياء في ينفع ، وقرئ بالتاء وفيه وجهان: أحدهما أنه أنث المصدر على المعنى ، لأن الإيمان والعقيدة بمعنى ، فهو مثل قولهم: جاءته كتابي فاحتقرها : أي صحيفتي أو رسالتي ، والثانى أنه حسن التأنيث لأجل الإضافة إلى المؤنث (لم

تكن) فيه وجهان: أحدهما هي مستأنفة ، والثانى هي في موضع الحال من الضمير المجرور ، أو على الصفة لنفس وهو ضعيف .

قوله تعالى (فرقوا دينهم) يقرأ بالتشديد من غير ألف ، وبالتخفيف وهو في معنى المشدد ،

ويجوز أن يكون المعنى: فصلوه عن الدين الحق ، ويقرأ فارقوا أي تركوا (لست منهم في شئ) أي لست في شئ كائن منه .

قوله تعالى (عشر أمثالها) يقرأ بالإضافة: أي فله عشر حسنات أمثالها ، فاكتفى بالصفة ، ويقرأ بالرفع والتنوين على تقدير: فله حسنات عشر أمثالها ، وحذف التاء من عشر لأن الأمثال في المعنى مؤنثة ، لأن مثل الحسنة حسنة ، وقيل أنث لأنه أضافة إلى المؤنث .

(177/224)

قوله تعالى (دينا) في نصبه ثلاثة أوجه: هو بدل من الصراط على الموضع ، لأن معنى هداني وعرفني واحد ، وقيل منصوب بفعل مضمر: أي عرفني دينا ، والثالث أنه مفعول هداني ، وهدى يتعدى إلى مفعولين ، و (قيما) بالتشديد صفة لدين ، ويقرأ بالتخفيف ، وقد ذكر في النساء والمائدة ، و (ملة) بدل من دين ، أو على إضمار أعنى ، و (حنيفا) حال ، أو على إضمار أعنى .

قوله تعالى (ومحياى) الجمهور على فتح الياء ، وأصلها الفتح لأنها حرف مضمر فهى كالكاف في رأيتك والتاء في قمت وقرئ بإسكانها كما تسكن في أنى ونحوه ، وجاز ذلك وإن كان قبلها ساكن لأن المدة تفصل بينهما ، وقد قرئ في الشاذ بكسر الياء على أنه اسم

مضمر كسر لالتقاء الساكنين (لله) أي ذلك كله لله .

قوله تعالى (قل أغير الله) هو مثل قوله " ومن يبتغ غير الإسلام " وقد ذكر .

قوله تعالى (درجات) قد ذكر في قوله تعالى " نرفع درجات من نشاء " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 1 صـ 234. 267 ﴾

(178/224)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الأنعام

[سورة الأنعام (6) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)

"الْحَمْدُ لِلَّهِ" الحمد مبتدأ للّه لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بمحذوف خبره ، والجملة الاسمية مستأنفة "الَّذِي" اسم موصول في محل جر صفة اللّه وجملة "خَلَقَ السَّماواتِ" الجملة صلة الموصول لا محل لها وجملة "وَجَعَلَ الظُّلُماتِ" معطوفة عليها "ثُمَّ الَّذِينَ" اسم

موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ وخبره جملة "يَعْدِلُونَ" "ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" جملة كفروا صلة الموصول لا محل لها . "بِرَبِّهِمْ" متعلقان بكفروا أو بيعدلون أي يعدلون بربهم غيره ، وجملة "الَّذِينَ" . . معطوفة على جملة الحمد للّه . .

[سورة الأنعام (6) : آية 2]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2)

"هُوَ" ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول في محل رفع خبر والجملة مستأنفة "خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده والكاف مفعوله ، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب . "ثُمَّ قَضى أَجَلًا" فعل ماض ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَأَجَلٌ" الواو استئنافية . أجل مبتدأ "مُسَمًّى" صفة مرفوعة بالضمة المقدرة "عِنْدَهُ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها . "ثُمَّ" حرف عطف . "أَنْتُمْ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ "تَمْتَرُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة في محل رفع خبر المبتدأ . وجملة أنتم تمترون معطوفة على الجملة قبلها .

[سورة الأنعام (6) : آية 3]

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (3)

"وَهُوَ" ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبره مرفوع "فِي السَّماواتِ" متعلقان بالخبر بجمله على المشتق أي المعبود "وَفِي الْأَرْضِ" عطف ، والجملة الاسمية هو اللّه مستأنفة لا محل لها . "يَعْلَمُ سِرَّكُمْ" فعل مضارع ومفعوله والفاعل ضمير مستتر تقديره هو والجملة في محل نصب حال ، أو في محل رفع خبر ثان "وَجَهْرَكُمْ" عطف على سركم . "وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ" ما اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به وجملة تكسبون صلة الموصول لا محل لها وجملة ويعلم معطوفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 4]

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4)

"وَما تَأْتِيهِمْ" فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل . والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به . وما نافية . "مِنْ آيَةٍ" من حرف جر زائد . آية اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل

"مِنْ آياتِ" متعلقان بمحذوف صفة آية . "رَبِّهِمْ" مضاف إليه مجرور ، والهاء في محل جر بالإضافة والجملة الفعلية تأتيهم مستأنفة بعد الواو . وجملة "كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ" في محل نصب حال .

[سورة الأنعام (6) : آية 5]

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (5)

(180/224)

"فَقَدْ" الفاء استئنافية . قد حرف تحقيق "كَذَّبُوا بِالْحَقِّ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله "لَمَّا جاءَهُمْ" لما ظرفية حينية مبنية على السكون وجملة جاءهم في محل جر بالإضافة . "فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ" سوف حرف استقبال ، يأتيهم فعل مضارع والهاء مفعوله والجملة مستأنفة "أَنْباءُ" فاعل مرفوع "ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ" ما اسم موصول في محل جر بالإضافة وجملة كانوا صلة الموصول وجملة يستهزئون في محل نصب خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : آية 6]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6)

(181/224)

"أَلَمْ يَرَوْا" الهمزة للاستفهام ، يروا مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "كَمْ" خبرية للتكثير مبنية على السكون في محل نصب مفعولبه مقدم للفعل أهلكنا وقيل استفهامية مبنية على السكون . "أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا ضمير متصل في محل رفع فاعل . "مِنْ قَرْنٍ" من حرف جر زائد . قرن اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه تمييز كم وجملة كم أهلكنا سدت مسد مفعولي يروا أو مفعوله إن كانت يروا بصرية "مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ، ونا فاعله والهاء مفعوله والجملة في محل جر صفة لقرن . "ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ" ما نكرة تامة مبنية على السكون في محل نصب مفعول مطلق أي مكناهم شيئا من التمكين والأحسن إعرابها اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة لمصدر محذوف مكناهم في الأرض التمكين الذي لم نمكنه لكم نمكن مضارع تعلق به الجار والمجرور والجملة صلة الموصول لا محل لها على الوجه الثاني . "وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً" أرسلنا فعل ماض تعلق به الجار والمجرور عليهم ونا فاعله والسماء مفعوله . ومدرارا حال والجملة معطوفة على جملة مكناهم "وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ" الجملة معطوفة على ما قبلها وجملة "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ" في محل نصب حال إن كانت جعلنا متعدية لمفعول واحد ، وفي محل نصب مفعول به ثان إن كانت متعدية لمفعولين . وجملة "فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ" معطوفة على جملة "مَكَّنَّاهُمْ" ومثلها

جملة "وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً" معطوفة. "آخَرِينَ" صفة منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم.

[سورة الأنعام (6) : آية 7]

وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

(182/224)

"وَلَوْ" الواو استئنافية. لو حرف شرط غير جازم "نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً" نزلنا فعل ماض متعلق به الجار والمجرور ونا فاعله وكتابا مفعوله "فِي قِرْطاسٍ" متعلقان بمحذوف صفة كتاب. والجملة الفعلية مستأنفة

لا محل لها. "فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ" لمسوه فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة معطوفة على جملة "نَزَّلْنا" "لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا" لقال فعل ماض واسم الموصول فاعله، واللام واقعة في جواب الشرط فالجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم والجملة الفعلية كفروا لا محل لها صلة الموصول. "إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ" هذا سحر مبتدأ وخبر وإن نافية وإلا أداة حصر والجملة مقول القول "مُبِينٌ" صفة.

[سورة الأنعام (6) : آية 8]

وَقالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (8)

في الآية فعلان مبنيان للمعلوم وفاعلهما هما : قالوا ، أنزلنا وثلاثة مبنية للمجهول ونائب فاعلها أنزل ملك ، قضي الأمر ، ينظرون . وجملة قالوا مستأنفة ، وجملة أنزل بعدها مقول القول ، وجملة أنزلنا مستأنفة كذلك . وجملة لقضى جواب لولا لا محل لها وجملة ينظرون معطوفة عليها .

[سورة الأنعام (6) : آية 9]

وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (9)

"وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً" الواو استئنافية ، لو حرف شرط غير جازم . جعلنا فعل ماض مبني على السكون ، ونا فاعله والهاء مفعوله الأول وملكا مفعوله الثاني والجملة مستأنفة ، وجملة "لَجَعَلْناهُ رَجُلًا" لا محل لها جواب شرط غير جازم "وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله والجملة معطوفة "ما يَلْبِسُونَ" ما اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به والجملة الفعلية يلبسون صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 10]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

"وَلَقَدِ" الواو استئنافية. اللام واقعة في جواب القسم المقدر. قد حرف تحقيق "اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ" فعل ماض مبني للمجهول، والجار والمجرور نائب فاعل "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بمحذوف صفة رسل، والجملة مستأنفة "فَحاقَ بِالَّذِينَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بالذين "سَخِرُوا" ماض والجملة صلة "مِنْهُمْ" متعلقان بسخروا "ما" اسم الموصول فاعل حاق "كانُوا بِهِ" وجملة كانوا صلة الموصول وجملة "يَسْتَهْزِؤُنَ" في محل نصب خبر كانوا. والفعل يستهزئون تعلق به الجار والمجرور به.

[سورة الأنعام (6) : آية 11]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "سِيرُوا فِي الْأَرْضِ" فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، وكذلك "ثُمَّ انْظُرُوا" وجملة سيروا مقول القول وجملة انظروا معطوفة "كَيْفَ" اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب خبر مقدم للفعل كان. و"عاقِبَةُ" اسمها. "الْمُكَذِّبِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر. وجملة "كَيْفَ كانَ" في محل نصب مفعول به للفعل انظروا.

[سورة الأنعام (6) : آية 12]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (12)

(184/224)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "لِمَنْ" اللام حرف جر ومن اسم استفهام في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "ما" اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة ما والجملة الاسمية مقول القول .

"وَالْأَرْضِ" عطف "قُلْ لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو للّه ، والجملة الاسمية المقدرة مقول القول وجملة قل للّه مستأنفة لا محل لها .

"كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وفاعله ضمير مستتر يعود على اللّه والرحمة مفعوله ، والجملة مستأنفة . "لَيَجْمَعَنَّكُمْ" اللام واقعة في جواب القسم المقدر ، يجمعن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، والكاف في محل نصب مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى اللّه ، والميم لجمع الذكور ، والجملة لا محل لها جواب القسم "إِلى يَوْمِ" متعلقان بالفعل قبلهما "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "لا رَيْبَ فِيهِ" لا نافية للجنس واسمها . "فِيهِ" متعلقان بالخبر "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع

مبتدأ "خَسِرُوا" الجملة صلة "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به "فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ" الفاء فيها زائدة وهم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وجملة يؤمنون في محل رفع خبره ، وجملة الذين خسروا استئنافية لا محل لها ، وجملة هم لا يؤمنون خبر الذين .

[سورة الأنعام (6) : آية 13]

وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13)

"وَلَهُ" الواو عاطفة له متعلقان بخبر مقدم محذوف "ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ" سكن فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والجملة صلة الموصول ما "وَالنَّهارِ" معطوف "ما" اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر .

"وَهُوَ السَّمِيعُ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "الْعَلِيمُ" خبر ثان .

[سورة الأنعام (6) : آية 14]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)

"قُلْ" فعل أمر والفاعل أنت "أَغَيْرَ اللَّهِ" الهمزة للاستفهام ، غير مفعول به مقدم للفعل

المضارع "أَتَّخِذُ" واللّه لفظ الجلالة مضاف إليه ، "أَتَّخِذُ وَلِيًّا" وليا مفعول به ثان منصوب بالفتحة ، وجملة أتخذ مقول القول ، وجملة قل مستأنفة لا محل لها "فاطِرِ" نعت أو بدل من اللّه "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" عطف "وَهُوَ" الواو حالية ، هو ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ والجملة الفعلية "يُطْعِمُ" في محل رفع خبره "وَلا يُطْعَمُ" الواو عاطفة ولا نافية ويطعم مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة معطوفة . "قُلْ"

الجملة مستأنفة "إِنِّي أُمِرْتُ" إن حرف مشبه بالفعل والياء اسمها . أمرت ماض مبني للمجهول مبني على السكون والتاء نائب فاعل والجملة في محل رفع خبر إن وجملة إني أمرت مقول القول "أَنْ أَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن ، وأن والفعل الناقص في تأويل مصدر في محل جر بحرف الجر : وأمرت بكوني والجار والمجرور متعلقان بأمرت . "أَوَّلَ" خبر أكون واسمها ضمير مستتر تقديره أنا . "مَنْ" اسم موصول في محل جر بالإضافة "أَسْلَمَ" الجملة صلة الموصول لا محل لها . "وَلا تَكُونَنَّ" الواو عاطفة ، لا ناهية جازمة .

تكونن : مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم بلا والجار والمجرور "مِنَ الْمُشْرِكِينَ" متعلقان بمحذوف خبر تكونن ، والجملة مقول القول لفعل محذوف تقديره : وقيل لي : لا تكونن من المشركين .

[سورة الأنعام (6) : آية 15]

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

(186/224)

"قُلْ" فعل أمر ثالث للرد على الكافرين "إِنِّي" إن واسمها "أخاف عذاب" فعل مضارع ومفعوله والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا "إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي" إن حرف شرط جازم. عصيت فعل ماض والتاء فاعله وهو في محل جزم فعل الشرط "رَبِّي" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم، والياء في محل جر بالإضافة وجملة "إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ" معترضة بين الفعل ومفعوله وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله: إن عصيت ربي فإني أخاف عذاب. "يَوْمٍ" مضاف إليه. "عَظِيمٍ" صفة يوم مجرورة مثله.

[سورة الأنعام (6) : آية 16]

مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16)

"مَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "يُصْرَفْ عَنْهُ" فعل مضارع مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور بعده، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى العذاب "يَوْمَئِذٍ" يوم ظرف زمان إذ ظرف للزمن الماضي مبني على السكون، وحرك بالكسر منعا لالتقاء

الساكنين وتنوينه تنوين عوض عن جملة محذوفة أي يوم يأتيهم العذاب . "فَقَدْ" الفاء رابطة لجواب الشرط قد حرف تحقيق "رَحِمَهُ" فعل ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملة "يُصْرَفْ" خبر المبتدأ عند بعضهم "ذِلكَ الْفَوْزُ" الجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "الْمُبِينُ" صفة الفوز .

[سورة الأنعام (6) : آية 17]

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)

(187/224)

"وَإِنْ" إن شرطية "يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ" فعل مضارع مجزوم بإن لأنه فعل الشرط ، وقد تعلق به الجار والمجرور والله لفظ الجلالة فاعله والكاف مفعوله والجملة مستأنفة . "فَلا" الفاء رابطة لجواب الشرط ولا نافية للجنس "كاشِفَ لَهُ" اسم لا مبني على الفتح في محل نصب ، تعلق به الجار والمجرور له ، وخبر لا محذوف تقديره موجود والجملة في محل جزم جواب شرط . "إِلَّا" أداة حصر . "هُوَ" بدل من محل اسم لا أو بدل من محل لا واسمها . وجواب الشرط "إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ" محذوف تقديره : فلا راد له

ثم يأتي تعليل ذلك كله "فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" وهو مبتدأ الجار والمجرور على كل متعلقان بالخبر قدير. "شَيْءٍ" مضاف إليه وقدير خبر.

[سورة الأنعام (6) : آية 18]

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)

"وَهُوَ" الواو حرف استئناف. هو ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ "الْقاهِرُ" خبر تعلق به الظرف "فَوْقَ" بعده "عِبادِهِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة وجملة "وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ" معطوفة عليها. وهو مبتدأ والحكيم الخبير خبراه

[سورة الأنعام (6) : آية 19]

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)

(188/224)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً" أي اسم استفهام مبتدأ، أكبر: خبره. شهادة تمييز منصوب والجملة مقول القول. "قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" اللّه لفظ الجلالة

مبتدأ . شهيد خبره تعلق به الظرف بيني وهو ظرف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم وبينكم معطوف . "وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ" أوحي فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور ، واسم الإشارة المبني على السكون نائب فاعله . القرآن بدل والجملة معطوفة . "لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ" اللام لام التعليل . أنذر مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل ، والمصدر المؤول من أن والفعل بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بأوحي أوحي إلي لإنذاركم "بِهِ" متعلقان بأنذركم "وَمَنْ" الواو عاطفة من اسم موصول مبني على السكون في محل نصب معطوف على الكاف المفعول به في أنذركم أي لأنذركم وأنذر الذي بلغه هذا القرآن وجملة "بَلَغَ" صلة الموصول لا محل لها . "أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ" الهمزة للاستفهام . إن والكاف اسمها وجملة تشهدون في محل رفع خبرها واللام المزحلقة ، والجملة مستأنفة .

"أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى " مع : ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر أن ، "آلِهَةً" اسمها . "أُخْرى " صفة منصوبة . وأن وما بعدها في تأويل مصدر سد مسد مفعولي تشهدون . "قُلْ" أمر فاعله مستتر "لا أَشْهَدُ" الجملة مقول القول . "قُلْ" الجملة مستأنفة "إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ" مبتدأ وخبر وواحد صفة ، إنما كافة ومكفوفة والجملة مقول القول . "وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ" بريء خبر إن والياء اسمها وما مصدرية والمصدر المؤول منها ومن الفعل بعدها في محل جر بمن وإنني بريء من شرككم ويمكن أن تكون ما موصولة بريء من الذي تشركون

به والجملة صلة الموصول ، أو صفة ما المصدرية . وجملة وإنني معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأنعام (6) : آية 20]

(189/224)

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20)

"الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ "آتَيْناهُمُ الْكِتابَ" آتينا فعل ماض مبني

على السكون ، ونا فاعله والهاء مفعوله الأول ، الكتاب مفعوله الثاني والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب "يَعْرِفُونَهُ" فعل مضارع والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة في محل رفع خبر المبتدأ "كَما يَعْرِفُونَ" الكاف حرف جر ما مصدرية يعرفون مضارع والواو فاعله "أَبْناءَهُمُ" مفعوله وما والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالكاف ، والجار والمجرور متعلقان بالمفعول المطلق المحذوف التقدير يعرفونه معرفة كمعرفة أبنائهم . "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ ، أو خبر لمبتدأ محذوف هم الذين وجملة "خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ" صلة الموصول "فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ" الفاء رابطة لما في الموصول من شبه الشرط هم مبتدأ وجملة

يؤمنون خبره وجملة فهم لا يؤمنون خبر اسم الموصول .

[سورة الأنعام (6) : آية 21]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)

"وَمَنْ" الواو استئنافية من اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "أَظْلَمُ" خبره "مِمَّنِ" من اسم موصول في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بأظلم "افْتَرى" ماض فاعله مستتر "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بالفعل افترى "كَذِباً" مفعول به . وجملة "أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ" معطوفة على ما قبلها . "إِنَّهُ" إن واسمها وجملة "لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" في محل رفع خبر إن وجملة "إِنَّهُ لا يُفْلِحُ" تعليلية لا محل لها من الإعراب .

[سورة الأنعام (6) : آية 22]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22)

"وَيَوْمَ" الواو استئنافية . يوم مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر "نَحْشُرُهُمْ" فعل مضارع والهاء مفعوله والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن "جَمِيعاً" حال "ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا" للذين متعلقان بنقول وجملة نقول معطوفة على نحشرهم فهي مثلها في محل جر بالإضافة ،

وجملة أشركوا صلة الموصول لا محل لها . "أَيْنَ" اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية متعلق بخبر محذوف "شُرَكاؤُكُمُ" مبتدأ مرفوع والكاف في محل جر بالإضافة . والميم للجمع والجملة مقول القول "الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع صفة لشركاء "كُنْتُمْ" فعل ماض ناقص والتاء اسمه وجملة "تَزْعُمُونَ" خبره وجملة كنتم تزعمون صلة الموصول لا محل لها . ومفعولا تزعمون محذوفان لدلالة ما قبلهما عليهما أي : تزعمونهم شركاء .

[سورة الأنعام (6) : آية 23]

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (23)

"ثُمَّ" عاطفة "لَمْ" جازمة "تَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم بلم "فِتْنَتُهُمْ" اسمها مرفوع "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" حرف مصدري ونصب "قالُوا" فعل ماض مبني على الضم والواو فاعله والمصدر المؤول في محل نصب خبر تكن : إلا قولهم . وجملة تكن معطوفة . "وَاللَّهِ" الواو حرف قسم وجر . الله لفظ الجلالة اسم مجرور والجار والمجرور متعلقان بالفعل المحذوف أقسم والجملة مقول القول . "رَبِّنا" بدل

من اللّه مجرور ونا في محل جر بالإضافة . "ما كُنَّا" ما نافية . كان فعل ماض ناقص ونا اسمه و"مُشْرِكِينَ" خبره المنصوب بالياء وجملة ما كنا مشركين جواب القسم لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 24]

انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24)

"انْظُرْ" فعل أمر فاعله مستتر "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب حال "كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله ، والجملة في محل نصب مفعول به للفعل انظر . وجملة انظر مستأنفة . "وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا" ضل فعل ماض تعلق به الجار والمجرور واسم الموصول ما فاعله وجملة كانوا صلة الموصول لا محل لها وجملة "يَفْتَرُونَ" في محل نصب خبر كانوا . ويجوز أن تعرب ما مصدرية وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ضل أي ضل عنهم افتراؤهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 25]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25)

"وَمِنْهُمْ" الواو استئنافية منهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَنْ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ والجملة مستأنفة لا محل لها "يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والفاعل ضمير مستتر تقديره هو والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَجَعَلْنا

عَلى قُلُوبِهِمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور على قلوبهم إذا كانت جعلنا بمعنى أسدلنا ، وهما متعلقان بمحذوف مفعول به ثان إذا كانت جعلنا من أفعال التحويل التي تأخذ مفعولين أي : جعلنا أكنة ملقاة على قلوبهم . "أَنْ يَفْقَهُوهُ" أن حرف مصدري ونصب "يَفْقَهُوهُ" مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله .

(192/224)

و المصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف جر لئلا يفقهوه . وقيل المصدر المؤول في محل نصب مفعول لأجله أي : لأجل كراهية فقهه ، على حذف مضاف ، وجملة "وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ" معطوفة على الجملة الاسمية قبلها ، وجملة "جعلنا فِي آذانِهِمْ وَقْراً" المقدرة معطوفة عليها . "وَإِنْ" الواو استئنافية "أَنْ" حرف شرط جازم . "يَرَوْا كُلَّ" فعل الشرط المجزوم بحذف النون والواو فاعله وكل مفعوله والجملة مستأنفة "آيَةٍ" مضاف إليه . "لا يُؤْمِنُوا بِها" جواب الشرط المجزوم ، تعلق به الجار والمجرور ، ولا نافية لا محل لها والجملة لا محل لها جواب شرط لم يقترن بالفاء "حَتَّى" ابتدائية "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاؤُكَ" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "يُجادِلُونَكَ" الجملة الفعلية المؤلفة من الفعل المضارع والفاعل والمفعول به كذلك في محل نصب حال .

"يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا" الذين اسم موصول في محل رفع فاعل للفعل قبله ، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم وجملة كفروا صلة الموصول . "إِنْ هذا" إن نافية وذا اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "أَساطِيرُ" خبر "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء . والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة الأنعام (6) : آية 26]

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (26)

"وَهُمْ" الواو استئنافية هم ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ وجملة "يَنْهَوْنَ عَنْهُ" خبره وجملة "وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ" معطوفة عليها . "وَإِنْ" الواو حالية . إن نافية "يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ" فعل مضارع وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر والجملة في محل نصب حال "وَما يَشْعُرُونَ" الجملة معطوفة وما نافية .

[سورة الأنعام (6) : آية 27]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)

"وَلَوْ" الواو استئنافية . لو حرف شرط غير جازم "تَرى " مضارع والجملة استئنافية "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمن متعلق بالفعل قبله "وُقِفُوا عَلَى النَّارِ" فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور والواو نائب فاعله ، والجملة في محل جر بالإضافة ، وجواب لو محذوف أي لرأيت أمرا عظيما يومذاك "فَقالُوا" فعل ماض وفاعل والجملة معطوفة "يا لَيْتَنا" الياء للنداء ، والمنادى محذوف ، أو للتنبيه وليت حرف مشبه بالفعل ، ونا اسمها "نُرَدُّ" مضارع مبني للمجهول ، ونائب الفاعل نحن والجملة في محل رفع خبر ليت "وَلا نُكَذِّبَ" الواو واو المعية ، لا نافية ، نكذب مضارع منصوب بأن المضمرة بعد واو المعية ، والفاعل نحن "بِآياتِ" متعلقان بنكذب "رَبِّنا" مضاف إليه . والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل بعدها معطوف على مصدر مقدر والتقدير : يا ليت لنا ردا وعدم تكذيب "وَنَكُونَ" عطف على نرد "مِنَ" حرف جر "الْمُؤْمِنِينَ" اسم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص "نكن" واسمه ضمير مستتر تقديره نحن .

[سورة الأنعام (6) : آية 28]

بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (28)

"بَلْ" حرف إضراب "بَدا لَهُمْ ما" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف للتعذر ، تعلق به الجار والمجرور واسم الموصول ما فاعله ، والجملة معطوفة بحرف العطف بل "كانُوا" الجملة صلة "يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ" قبل ظرف زمان مبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة في محل جر بمن ، والجار والمجرور متعلقان بيخفون والجملة في محل نصب خبر كانوا "وَلَوْ رُدُّوا" ردوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة بعد واو الاستئناف . وجملة "لَعادُوا" لا محل لها جواب شرط غير جازم . "لِما" ما اسم موصول مبني على السكون في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بعادوا "نُهُوا عَنْهُ" فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجار والمجرور متعلقان بنهوا والجملة صلة الموصول "وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ" الواو حالية وإن واسمها وخبرها والجملة حالية ، واللام المزحلقة .

[سورة الأنعام (6) : آية 29]

وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)

"وَقالُوا" الواو عاطفة عطفت جملة وقالوا على جملة "لَعادُوا" أو "نُهُوا عَنْهُ" "إِنْ" نافية بمعنى ما لا عمل لها "هِيَ" ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "حَياتُنَا" خبر

"الدُّنْيا" صفة مرفوعة بالضمة المقدرة على الألف وجملة إن هي إلا حياتنا مقول القول .

"وَما" الواو عاطفة ما الحجازية تعمل عمل ليس "نَحْنُ" ضمير رفع منفصل مبني على الضم في محل رفع اسمها "بِمَبْعُوثِينَ" الباء حرف جر زائد مبعوثين اسم مجرور لفظا منصوبا محلا على أنه خبر ما ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها .

[سورة الأنعام (6) : آية 30]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30)

(195/224)

"وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ" إعرابها كإعراب الآية "27" . "أَلَيْسَ هذا" الهمزة للاستفهام ، وليس فعل ماض ناقص ، واسم الإشارة في محل رفع اسمها "بِالْحَقِّ" الباء حرف جر زائد الحق اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس والجملة مقول القول . "قالُوا" فعل ماض وفاعل "بَلى " حرف جواب "وَرَبِّنا" الواو حرف جر وقسم ، ربنا اسم مجرور ، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف نقسم "قالَ" الجملة مستأنفة "فَذُوقُوا" الفاء هي الفصيحة ، إذ سئلتم فاعترفتم فذوقوا العذاب . وذوقوا فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله "الْعَذابَ" مفعوله "بِما" الباء حرف جر وما

مصدرية ، "كُنْتُمْ" كان والتاء اسمها ، وجملة "تَكْفُرُونَ" في محل نصب خبرها ، وما والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالباء أي : بسبب كفركم .

[سورة الأنعام (6) : آية 31]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (31)

(196/224)

"قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا" الذين اسم موصول فاعل وجملة كذبوا صلة "بِلِقاءِ" متعلقان بالفعل قبلهما "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "حَتَّى" حرف ابتداء "إِذا" ظرفية شرطية "جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ" فعل ماض ومفعول به وفاعل والجملة في محل جر بالإضافة "بَغْتَةً" حال "قالُوا" الجملة مستأنفة "يا حَسْرَتَنا" يا أداة نداء ، حسرة منادى مضاف منصوب ، ونا في محل جر بالإضافة "عَلى ما فَرَّطْنا فِيها" فرطنا فعل ماض والجار والمجرور متعلقان بحسرة يا حسرتنا على تفريطنا فيها . "وَهُمْ" الواو حالية هم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ والجملة الفعلية "يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ" خبره . "أَلا" حرف تنبيه . "ساءَ" فعل ماض جامد لإنشاء الذم وفاعله ضمير مستتر يفسره ما بعده و"ما" نكرة موصوفة مبنية

على السكون في محل نصب على التمييز أي ساء عملهم وزرا معمولا به ، والجملة صفة .

ويمكن أن يكون "ساءَ ما يَزِرُونَ" فعل متصرف وما اسم موصول في محل رفع فاعل أو ما مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر في محل رفع فاعل ، ساء وزرهم أو على تقدير المفعول المحذوف ، ساء هم وزرهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 32]

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (32)

"وَمَا" الواو استئنافية ما نافية لا عمل لها "الْحَياةُ" مبتدأ و"الدُّنْيا" صفة مرفوعة بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "إِلَّا" أداة حصر . "لَعِبٌ" خبر "وَلَهْوٌ" معطوف "وَلَلدَّارُ" الواو حالية ، واللام للابتداء ، الدار مبتدأ "الْآخِرَةُ" صفة "خَيْرٌ" خبر "لِلَّذِينَ" متعلقان بخبر والجملة حالية وجملة "يَتَّقُونَ" صلة الموصول لا محل لها . "أَفَلا تَعْقِلُونَ" الهمزة للاستفهام ، الفاء استئنافية ، لا نافية وجملة تعقلون مستأنفة لا محل لها .

(197/224)

[سورة الأنعام (6) : آية 33]

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ

"قَدْ" تفيد التقليل مع المضارع ، أما بالنسبة للّه فيراد بها التكثير "نَعْلَمُ" مضارع يتعدى لمفعولين ولكنه علق بسبب لام الابتداء في خبر إن ولهذا كسرت همزتها بعد نعلم "إِنَّهُ" إن واسمها "لَيَحْزُنُكَ" فعل مضارع والكاف مفعوله ، واللام المزحلقة والجملة في محل رفع خبر إن ، والهاء اسمها "الَّذِي" اسم موصول فاعل والجملة الفعلية "يَقُولُونَ" صلة الموصول لا محل لها ، وجملة قد نعلم استئنافية لا محل لها . "فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ" يكذبونك فعل مضارع وفاعل ومفعول به والجملة في محل رفع خبر إن والهاء اسمها ، الفاء تعليلية وعلى ذلك فالجملة لا محل لها "لكِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الظَّالِمِينَ" اسمها المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور قبله "بِآياتِ" ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة في محل رفع خبر لكن وجملة ولكن الظالمين معطوفة على ما قبلها بالواو العاطفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 34]

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم المقدر أي ، واللّه لقد كذبت ، قد حرف تحقيق "كُذِّبَتْ رُسُلٌ" فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والتاء الساكنة

للتأنيث "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بمحذوف صفة لرسل ، وجملة كذبت لا محل لها لأنها واقعة في جواب القسم المقدر .

(198/224)

"فَصَبَرُوا" فعل ماض والواو فاعله ، والجملة معطوفة . "عَلى ما كُذِّبُوا" ما مصدرية وهي مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بعلى ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما .

"وَأُوذُوا" كذلك فعل ماض مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل والجملة معطوفة فهي تؤول بمصدر أيضا أي : صبروا على تكذيبهم وإيذائهم "حَتَّى" حرف غاية وجر "أَتاهُمْ نَصْرُنا" فعل ماض ومفعوله وفاعله "وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ" الواو حالية ، لا نافية للجنس تعمل عمل إن "مُبَدِّلَ" اسمها مبني على الفتح .

"لِكَلِماتِ" متعلقان بمحذوف خبرها . "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه ، والجملة في محل نصب حال .

"وَلَقَدْ جاءَكَ" فعل ماض والكاف مفعوله ، فاعله محذوف تعلق بصفته الجار والمجرور "مِنْ نَبَإِ" أي

جاءك بعض من نبأ المرسلين . والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم مقدر كسابقتها .

[سورة الأنعام (6) : آية 35]

وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35)

(199/224)

"وَإِنْ" الواو استئنافية إن شرطية جازمة "كانَ" فعل ماض ناقص واسمها ضمير الشأن المحذوف وخبرها الجملة الفعلية "كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ" عليك متعلقان بكبر، وجملة إن كان مستأنفة لا محل لها من الإعراب. "فَإِنِ اسْتَطَعْتَ" الفاء رابطة لجواب الشرط، إن شرطية، استطعت فعل ماض والتاء فاعله وهو في محل جزم فعل الشرط، والجملة في محل جزم جواب الشرط "أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً" مضارع منصوب بأن ومفعوله وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت، وأن والفعل في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به والتقدير إن استطعت ابتغاء "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صفة نفق. "أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ" عطف على "نَفَقاً فِي الْأَرْضِ" وإعرابها كإعرابها. "فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ" مضارع معطوف على تبتغي، تعلق به الجار والمجرور والهاء مفعوله وفاعله أنت وجواب الشرط محذوف تقديره إن استطعت فافعل. "وَلَوْ شاءَ اللَّهُ" فعل ماض ولفظ الجلالة فاعل ولو حرف شرط غير جازم "لَجَمَعَهُمْ

عَلَى الْهُدى " فعل ماض ومفعوله وفاعله هو واللام واقعة في جواب لو والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم "فَلا تَكُونَنَّ" الفاء الفصيحة ، لا ناهية جازمة ، تكونن مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، والنون حرف لا محل له ، وهو في محل جزم بلا .

"مِنَ الْجاهِلِينَ" متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص تكونن ، والجملة لا محل لها جواب شرط مقدر إذا علمت ذلك فلا تكونن من الجاهلين .

[سورة الأنعام (6) : آية 36]

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)

(200/224)

"إِنَّما" كافة ومكفوفة "يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ" فعل مضارع واسم موصول فاعله وجملة "يَسْمَعُونَ" صلة الموصول لا محل لها ، وجملة إنما يستجيب مستأنفة لا محل لها ، "وَالْمَوْتى " الواو عاطفة الموتى اسم منصوب على الاشتغال بفعل مضمر يفسره ما بعده ، والجملة المقدرة معطوفة وجملة "يَبْعَثُهُمُ" مفسرة لا محل لها ، ويجوز أن تكون الواو استئنافية و"الْمَوْتى " مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وجملة "يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ" الفعلية في

محل رفع خبر. "ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" فعل مضارع مبني للمجهول، تعلق به الجار والمجرور قبله، والواو نائب فاعله، والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الأنعام (6): آية 37]

وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (37)

"وَقالُوا" فعل ماض والواو فاعله وجملة نزل مفعوله "لَوْلا" حرف تحضيض "نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ" فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور وآية نائب فاعله "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان بمحذوف صفة آية "قُلْ"

فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ومفعوله جملة "إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ" اللّه لفظ الجلالة اسم إن وقادر خبرها "عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً" فعل مضارع منصوب بأن وآية مفعوله، وأن والفعل في تأويل مصدر في محل جر بعلى، والجار والمجرور متعلقان باسم الفاعل قادر. "وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ" الواو حالية. لكن حرف مشبه بالفعل وأكثرهم اسمها وجملة "لا يَعْلَمُونَ" خبرها وجملة ولكن حالية.

[سورة الأنعام (6): آية 38]

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)

"وَما مِنْ دَابَّةٍ" كلام مستأنف ، ما نافية لا عمل لها ، من حرف جر زائد دابة اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صفة دابة "وَلا" الواو عاطفة ، لا نافية "طائِرٍ" معطوف على دابة "يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ" جناحيه اسم مجرور بحرف الجر وعلامة جره الياء لأنه مثنى ، وحذفت النون للإضافة ، والجار والمجرور متعلقان بيطير والهاء في محل جر بالإضافة . "إِلَّا أُمَمٌ" إلا أداة حصر أمم خبر دابة مرفوع "أَمْثالُكُمْ" صفة "ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ" فعل ماض ، تعلق به الجار والمجرور ، ونا فاعله ، وما نافية لا عمل لها ، والجملة لا محل لها اعتراضية اعترضت بين الجملتين المتعاطفتين "مِنْ شَيْءٍ" من حرف زائد ، شيء اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه نائب مفعول مطلق ، "ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" فعل مضارع مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور قبله ، والواو نائب فاعل ، والجملة معطوفة على جملة وما من دابة .

[سورة الأنعام (6) : آية 39]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

"وَالَّذِينَ" الواو استئنافية الذين اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ "كَذَّبُوا بِآيَاتِنا" فعل ماض والواو فاعله ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل والجملة صلة الموصول لا محل لها ، "صُمٌّ" خبر المبتدأ "وَبُكْمٌ" معطوف على صم "فِي الظُّلُماتِ" متعلقان بمحذوف خبر ثان للمبتدأ ، "مَنْ" اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ "يَشَأِ" مضارع مجزوم بالسكون ، فعل الشرط وحرك بالكسر منعا لالتقاء الساكنين "اللَّهُ" فاعله ، ومفعوله محذوف والتقدير من يشأ اللّه إضلاله . و "يُضْلِلْهُ" جواب الشرط مجزوم والهاء مفعوله وفاعله هو والجملة لا محل لها لم تقترن بالفاء وجملة يشأ خبر من والجملة الاسمية : من يشأ اللّه مستأنفة لا محل لها ، وجملة "وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ" معطوفة ، ومفعول يشأ محذوف كذلك أي ومن يشأ هدايته يجعله .

[سورة الأنعام (6) : آية 40]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (40)

"قُلْ" فعل أمر "أَرَأَيْتَكُمْ" أي أخبروني الهمزة للاستفهام رأيت فعل ماض مبني على السكون ، والتاء ضمير

متصل في محل رفع فاعل ، والكاف حرف خطاب ، والميم للجمع ومفعولا رأيت محذوفان أي أرأيتم آلهتكم ، هل تغني عنكم إن أتاكم عذاب اللّه ؟ . . والجملة مقول القول ، "إِنْ" شرطية جازمة "أَتاكُمْ" فعل ماض ، والكاف مفعوله وهو في محل جزم فعل الشرط "عَذابُ" فاعله "اللَّهِ" مضاف إليه "أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ" عطف ، وجواب إن محذوف والتقدير : فمن تدعون ؟ "أَغَيْرَ" الهمزة حرف استفهام ، غير مفعول به مقدم "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون ، والواو فاعله ، والجملة مستأنفة "إِنْ كُنْتُمْ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها والميم للجمع و "صادِقِينَ" خبرها المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله : إن كنتم صادقين فادعوا آلهتكم .

[سورة الأنعام (6) : آية 41]

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (41)

"بَلْ" حرف إضراب وعطف "إِيَّاهُ" ضمير منفصل مبني على الضم في محل نصب مفعول به مقدم "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على جملة "أَغَيْرَ اللَّهِ

تَدْعُونَ ؟" . "فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ" الفاء عاطفة وجملة يكشف معطوفة على ما قبلها وما اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به ، وجملة تدعون صلة الموصول لا محل لها ومفعول تدعون محذوف أي ما تدعون إليه ، وجواب الشرط "إِنْ شاءَ" محذوف دل عليه ما قبله أي "إن شاء فإنه يكشف ما تدعون إليه" والجملة معترضة "وَتَنْسَوْنَ" فعل مضارع وفاعل والجملة معطوفة "ما" اسم موصول مفعول به جملة "تُشْرِكُونَ" صلة الموصول لا محل لها والمفعول به محذوف أي "ما تشركونه" .

[سورة الأنعام (6) : آية 42]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر ، اللام واقعة في جواب القسم المقدر ، قد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله ومفعوله محذوف أرسلنا رسلا إلى أمم قبلك و"مِنْ" حرف جر زائد . "قَبْلِكَ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه ظرف زمان ، والجملة الفعلية لا محل لها جواب القسم . "فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ، ونا فاعله والهاء مفعوله ، والجملة معطوفة بالفاء .

"وَالضَّرَّاءِ" عطف "لَعَلَّهُمْ" حرف مشبه بالفعل والهاء اسمها وجملة "يَتَضَرَّعُونَ" في محل رفع خبرها ، وجملة لعلهم يتضرعون تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 43]

فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (43)

"فَلَوْلا" الفاء استئنافية لولا : حرف تحضيض . "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمن متعلق بالفعل تضرعوا بعده "جاءَهُمْ بَأْسُنا" فعل ماض ومفعوله وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة ، وجملة "فلولا تضرعوا" استئنافية لا محل لها ، "وَلكِنْ" الواو عاطفة ، لكن مخففة للاستدراك "قَسَتْ قُلُوبُهُمْ" فعل

ماض وفاعله والتاء للتأنيث والجملة معطوفة "وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والشيطان فاعله واسم الموصول "ما" مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "كانُوا يَعْمَلُونَ" كان والواو اسمها وجملة يعملون خبرها وجملة كانوا صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 44]

فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية لما ظرفية "نَسُوا" فعل ماض والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها . "ما ذُكِّرُوا" ما اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به "ذُكِّرُوا بِهِ" فعل ماض مبني للمجهول ، تعلق به الجار والمجرور ، والواو نائب فاعله ، والجملة صلة الموصول لا محل لها "فَتَحْنا عَلَيْهِمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ، ونا فاعله "أَبْوابَ" مفعوله "كُلِّ" مضاف إليه "شَيْءٍ" مضاف إليه مجرور "حَتَّى" حرف ابتداء "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة متعلقة بالجواب أخذناهم .

"فَرِحُوا" فعل ماض وفاعل "بِما" ما اسم موصول في محل جر بالباء . والجار والمجرور متعلقان بفرحوا ، والجملة في محل جر بالإضافة "أُوتُوا" فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل ، والجملة صلة الموصول لا محل لها . "أَخَذْناهُمْ" فعل ماض ، ونا فاعله والهاء مفعوله والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم "بَغْتَةً" حال منصوبة "فَإِذا" الفاء حرف عطف "إِذا" فجائية وهي حرف "هُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ "مُبْلِسُونَ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأنعام (6) : آية 45]

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (45)

"فَقُطِعَ دابِرُ" الفاء عاطفة ، قطع فعل ماض مبني للمجهول ، "دابِرُ" نائب فاعل "الْقَوْمِ"

مضاف إليه "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر صفة وجملة "ظَلَمُوا" صلة الموصول لا محل لها وجملة قطع معطوفة ، "وَالْحَمْدُ لِلَّهِ" الحمد مبتدأ ولفظ الجلالة وحرف الجر متعلقان بمحذوف خبره "رَبِّ" بدل من اللّه مجرور مثله بالكسرة "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، وجملة "الْحَمْدُ لِلَّهِ . . . " مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 46]

(206/224)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46)

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ" أخبروني الهمزة للاستفهام ، رأيتم فعل ماض والتاء فاعله والميم للجمع ، وقد اختلف في مفعولي أرأيتم كما اختلف في مفعولي أرأيتكم من قبل ، فقيل إن الأول محذوف أرأيتم سمعكم والمفعول الثاني الجملة الاستفهامية من إله غير اللّه ؟ ولعل الأقرب الذي لا يحيج إلى تقدير اعتبار الفعل معلق عن العمل بسبب الاستفهام وأن جملة "مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ" سدت مسد المفعولين ، والجمل المعطوفة : "إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ" معترضة وجملة أرأيتم مقول القول ، وجملة القول مستأنفة . "إِنْ" حرف شرط جازم "أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ" فعل

ماض وفاعله ومفعوله ، وهو في محل جزم فعل الشرط ، وجواب الشرط محذوف "وَأَبْصارَكُمْ" عطف "وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ" الجار والمجرور متعلقان بختم ، "مَنْ إِلٰهٌ" من اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وإله : خبره ، "غَيْرُ" صفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه وجملة "يَأْتِيكُمْ بِهِ" صفة ثانية . "انْظُرْ" أمر فاعله مستتر "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب حال "نُصَرِّفُ الْآياتِ" فعل مضارع ومفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم وفاعله نحن وجملة نصرف الآيات في محل نصب مفعول به "ثُمَّ" حرف عطف "هُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وجملة "يَصْدِفُونَ" في محل رفع خبر ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأنعام (6) : آية 47]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47)

(207/224)

"قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ" ينظر في إعراب هذه الآية ، الآية رقم 40 . "يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ" فعل مضارع مبني للمجهول والقوم نائب فاعله ، وإلا أداة حصر "الظَّالِمُونَ" صفة مرفوعة بالواو لأنه جمع مذكر سالم ، والجملة سدت مسد مفعولي أرأيتكم أو هي مفعولها الثاني ، والأول

محذوف.

[سورة الأنعام (6) : آية 48]

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (48)

"وَما" الواو استئنافية، ما نافية "نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ" فعل مضارع ومفعوله المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم، وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن "إِلَّا" أداة حصر "مُبَشِّرِينَ" حال منصوبة بالياء "وَمُنْذِرِينَ" عطف، "فَمَنْ" الفاء استئنافية "من" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وجملة آمن خبره عند بعضهم أو هي ابتدائية وجملتا الشرط والجواب خبر "وَأَصْلَحَ" عطف، "فَلا خَوْفٌ" الفاء واقعة في جواب الشرط لا نافية لا عمل لها "خَوْفٌ" مبتدأ مرفوع "عَلَيْهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. "وَلا هُمْ" الواو عاطفة لا نافية "هُمْ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ وجملة "يَحْزَنُونَ" خبره وجملة "وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" معطوفة على جملة فلا خوف فهي مثلها في محل جزم جواب الشرط.

[سورة الأنعام (6) : آية 49]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (49)

"وَالَّذِينَ" الواو عاطفة ، الذين اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ "كَذَّبُوا بِآياتِنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله ، والجملة صلة الموصول لا محل لها . "يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ" فعل مضارع ومفعوله وفاعله ، والجملة خبر اسم الموصول "بِما" الباء حرف جر ، ما مصدرية ، وهي والفعل بعدها كانوا في تأويل مصدر في محل جر بحرف الجر أي بسبب فسقهم ، وجملة "يَفْسُقُونَ" في محل نصب خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : آية 50]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (50)

(209/224)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "لا أَقُولُ لَكُمْ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور ، لا نافية لا عمل لها والجملة مفعول به للفعل قل وجملة قل : مستأنفة لا محل لها . "عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ" عندي ظرف مكان منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم متعلق بمحذوف خبر المبتدأ خزائن "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة مقول القول . "وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ" أعلم فعل

مضارع ومفعوله ولا نافية ، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية قبلها ، وجملة ولا أقول لكم معطوفة على جملة لا أقول قبلها . "إِنِّي مَلَكٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مفعول به . "إِنْ" نافية "أَتَّبِعُ" فعل مضارع "إِلَّا" أداة حصر "ما" اسم موصول مفعوله "يُوحى إِلَيَّ" فعل مضارع مبني للمجهول ، تعلق به الجار والمجرور ونائب الفاعل ضمير مستتر ، والجملة صلة الموصول ، وجملة "قُلْ" مستأنفة لا محل لها . "هَلْ" حرف استفهام "يَسْتَوِي الْأَعْمى" فعل مضارع وفاعل مرفوع بالضمة المقدرة عل الألف للتعذر ، "وَالْبَصِيرُ" عطف والجملة مقول القول "أَفَلا" الهمزة للاستفهام ، والفاء حرف عطف لا نافية "تَتَفَكَّرُونَ" فعل مضارع وفاعل والجملة مستأنفة ، أو معطوفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 51]

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51)

(210/224)

"وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ" أنذر فعل أمر تعلق به الجار والمجرور واسم الموصول في محل نصب مفعول به "يَخافُونَ" الجملة صلة "أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ" فعل مضارع مبني للمجهول تعلق به الجار

والمجرور ، والواو نائب فاعله . والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به

"لَيْسَ" ماض ناقص "لَهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص ليس "مِنْ دُونِهِ" متعلقان

باسم ليس المؤخر "وَلِيٌّ" "وَلا" الواو حرف عطف لا نافية "شَفِيعٌ" عطف على "وَلِيٌّ" ،

وجملة الفعل الناقص في محل نصب حال . "لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" لعل واسمها وجملة يتقون في محل رفع

خبرها ، وجملة لعلهم يتقون تعليلية .

[سورة الأنعام (6) : آية 52]

وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ

وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)

"وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ" فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وحرك بالكسر منعا من التقاء الساكنين ،

والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ، واسم الموصول مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها

"يَدْعُونَ رَبَّهُمْ" فعل مضارع وفاعل ومفعول به والجملة صلة الموصول لا محل لها "بِالْغَداةِ"

متعلقان بالفعل يدعون

"وَالْعَشِيِّ" عطف "يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" الجملة الفعلية في محل نصب حال . "ما عَلَيْكَ" ما نافية

"عَلَيْكَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ شيء ومثل ذلك "مِنْ حِسابِهِمْ" متعلقان

بمحذوف هذا الخبر .

"مِنْ شَيْءٍ" من حرف جر زائد ، شيء اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ وأعرب بعضهم ما الحجازية العاملة عمل ليس وشيء اسمها وعليك خبرها المتقدم "وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ" إعرابها كسابقها "فَتَطْرُدَهُمْ" مضارع منصوب بأن المضرة بعد فاء السببية والهاء مفعوله ، ومثله المضارع الناقص "فَتَكُونَ" واسمها ضمير مستتر تقديره أنت وخبره "مِنَ الظَّالِمِينَ" . وجملة ما عليك من حسابهم . . مستأنفة لا محل لها وجملة ما من حسابك معطوفة ، والمصدر المؤول من فاء السببية والفعل تطردهم معطوف والتقدير لا يكن منك طرد وكون من الظالمين .

[سورة الأنعام (6) : آية 53]

وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53)

(212/224)

"وَكَذلِكَ" الواو استئنافية والكاف حرف جر وذا اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق أي وفتنا بعضهم

فتونا كائنا كذلك الفتون واللام للبعد والكاف حرف خطاب "فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ، ونا فاعله وبعضهم مفعوله ، والجملة مستأنفة لا محل لها .

"لِيَقُولُوا" اللام لام التعليل . يقولوا مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون . والواو فاعل ، والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بفتنا "أَهؤُلاءِ" الهمزة للاستفهام "هؤُلاءِ" اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ . "مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وفاعله والجملة خبر "مِنْ بَيْنِنا" متعلقان بمحذوف حال "أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ" ليس فعل ماض ناقص اللّه لفظ الجلالة اسمها وبأعلم الباء حرف جر زائد . أعلم اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس ، مجرور بالفتحة بدلا من الكسرة ممنوع من الصرف للوصفية ووزن أفعل "بِالشَّاكِرِينَ" متعلقان باسم التفضيل أعلم . وجملة "أَلَيْسَ اللَّهُ" مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 54]

وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54)

"وَإِذا" الواو استئنافية. "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَكَ الَّذِينَ" فعل ماض والكاف مفعوله واسم الموصول فاعله، والجملة في محل جر بالإضافة، "يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والجملة صلة الموصول "فَقُلْ" الجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب "سَلامٌ عَلَيْكُمْ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "كَتَبَ رَبُّكُمْ" فعل ماض وفاعل "عَلى نَفْسِهِ" متعلقان بكتب. والجملة مستأنفة. "الرَّحْمَةَ" مفعول به "أَنَّهُ" حرف مشبه بالفعل. والهاء اسمها. وجملة "مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً" خبرها "مَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "عَمِلَ.. سُوءاً" فعل ماض ومفعول به، وهو في محل جزم فعل الشرط، والجملة في محل رفع خبر المبتدأ "مَنْ" عند بعضهم. "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال من الفاعل وكذلك "بِجَهالَةٍ" متعلقان بمحذوف حال أيضا. "ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور. معطوف على آمن، ومثله الفعل "وَأَصْلَحَ" معطوف وفاعله ضمير مستتر. "فَأَنَّهُ" الفاء رابطة لجواب الشرط من وأن حرف مشبه بالفعل والهاء اسمها. "غَفُورٌ" خبرها "رَحِيمٌ" خبر ثان وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره فمصيره غفران اللّه ورحمته.

[سورة الأنعام (6) : آية 55]

وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55)

"وَكَذِلِكَ" الواو استئنافية. والكاف حرف جر. واسم الإشارة ذا مبني على السكون في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق والتقدير: نفصل الآيات تفصيلا واضحا كذلك التفصيل. "نُفَصِّلُ" فعل مضارع "الْآيَاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والفاعل نحن، والجملة مستأنفة. "وَلِتَسْتَبِينَ" الواو حرف عطف، اللام لام التعليل، تستبين مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل، والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل بعدها في محل جر باللام، والجار والمجرور معطوفان على جار ومجرور مقدرين قبلهما متعلقان "بنفصل" والتقدير: نفصل الآيات ليستبين الحق "وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ" تستبين مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل.

"سَبِيلُ" فاعل "الْمُجْرِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة الأنعام (6) : آية 56]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "إِنِّي" إن والياء اسمها "نُهِيتُ" فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة في محل رفع خبر إن "أَنْ أَعْبُدَ" فعل مضارع منصوب بأن ، وأن والفعل في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر أي : نهيت عن عبادة ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل نهيت "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب مفعول به "تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه ، والجملة صلة الموصول لا محل لها ، وجملة "قُلْ" الجملة مستأنفة "لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ" مقول القول "قَدْ ضَلَلْتُ" فعل ماض والتاء فاعله وقد حرف تحقيق . "إِذاً" حرف جواب وجزاء . والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَما" الواو عاطفة ، ما نافية لا عمل لها "أَنَا" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ "مِنَ الْمُهْتَدِينَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ ، والجملة معطوفة . ويمكن أن تعرب "ما" الحجازية تعمل عمل ليس و"أَنَا" اسمها والجار والمجرور متعلقان بخبرها .

[سورة الأنعام (6) : آية 57]

قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (57)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر إن ، والياء اسمها والجملة مقول القول . "مِنْ رَبِّي" اسم مجرور بالكسرة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء في محل بالإضافة ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة "بَيِّنَةٍ" . "وَكَذَّبْتُمْ بِهِ" فعل ماض ، تعلق به الجار والمجرور والتاء فاعله . والجملة في محل نصب حال بعد واو الحال . "ما عِنْدِي" ما نافية "عِنْدِي" ظرف زمان منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم . والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة "ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ" مضارع تعلق به الجار والمجرور ، والواو فاعله واسم الموصول "ما" مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، وخبره الظرف عندي . وجملة تستعجلون الفعلية صلة الموصول لا محل لها . "إِنِ" نافية بمعنى ما "الْحُكْمُ" مبتدأ مرفوع "إِلَّا" أداة حصر "لِلَّهِ" متعلقان بمحذوف خبره والجملة مستأنفة "يَقُصُّ الْحَقَّ" فعل مضارع ومفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، والجملة في محل نصب حال . "وَهُوَ" الواو حالية هو مبتدأ "خَيْرُ" خبر "الْفاصِلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء ، والجملة في محل نصب حال .

[سورة الأنعام (6) : آية 58]

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "عِنْدِي" ظرف زمان منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم، والياء في محل جر بالإضافة، متعلق بمحذوف خبر أن "ما" اسم موصول في محل نصب اسم إن "تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ" مضارع تعلق به الجار والمجرور، والواو فاعله، والجملة صلة الموصول لا محل لها، وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لفعل محذوف: لو ثبت استعجالهم . . . وجملة لو وما بعدها مقول القول.

"لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي" فعل مضارع مبني للمجهول ونائب فاعله "بَيْنِي" ظرف مكان منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة، والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم "وَبَيْنَكُمْ" معطوف، "وَاللَّهُ" الواو استئنافية، اللّه لفظ الجلالة مبتدأ "أَعْلَمُ" خبره وتعلق به الجار والمجرور "بِالظَّالِمِينَ" والجملة مستأنفة لا محل لها.

[سورة الأنعام (6) : آية 59]

وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (59)

"وَعِنْدَهُ" ظرف مكان منصوب متعلق بمحذوف خبر المبتدأ المؤخر "مَفاتِحُ الْغَيْبِ" مضاف إليه والجملة

(218/224)

مستأنفة لا محل لها "لا يَعْلَمُها" مضارع مرفوع والهاء مفعوله ولا نافية "إِلَّا" أداة حصر "هُوَ" توكيد للضمير المستتر في الفعل يعلمها أو هو فاعل، والجملة في محل نصب حال. "وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ" فعل مضارع واسم الموصول مفعوله، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول، والجملة مستأنفة، "وَالْبَحْرِ" عطف "وَما" الواو استئنافية وما نافية "مِنْ وَرَقَةٍ" من حرف جر زائد، ورقة اسم مجرور لفظا مرفوع محلا لأنه فاعل "تَسْقُطُ" "إِلَّا" أداة حصر "يَعْلَمُها" مضارع ومفعوله والجملة حال من ورقة، وساغ ذلك لسبقها بنفي "وَلا حَبَّةٍ" عطف، ولا نافية. "فِي ظُلُماتِ" متعلقان بمحذوف صفة حبة "الْأَرْضِ" مضاف إليه "وَلا رَطْبٍ" عطف على حبة "وَلا يابِسٍ" عطف على ما قبله "إِلَّا" أداة حصر "فِي كِتابٍ" بدل من قوله "إِلَّا يَعْلَمُها" "مُبِينٍ" صفة.

[سورة الأنعام (6) : آية 60]

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60)

(219/224)

"وَهُوَ" ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ ، والواو استئنافية "الَّذِي" اسم موصول في محل رفع خبر "يَتَوَفَّاكُمْ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف ، والكاف ضمير متصل في محل نصب مفعول به ، والميم للجمع ، والفاعل يعود إلى الاسم الموصول "بِاللَّيْلِ" متعلقان بالفعل قبلهما ، والجملة صلة الموصول لا محل لها . "وَيَعْلَمُ ما" فعل مضارع واسم الموصول مفعوله ، وفاعله ضمير مستتر تقديره هو والجملة معطوفة "جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده والتاء فاعله ، والجملة صلة الموصول لا محل لها . "ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ" الجملة معطوفة "لِيُقْضى أَجَلٌ" فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل ، وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الألف والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل "يَبْعَثُكُمْ" "أَجَلٌ" نائب فاعل "مُسَمًّى" صفة أجل "ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ" إليه : متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ مرجعكم والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها وكذلك جملة "ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ" بعدها معطوفة

، "بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" ما اسم موصول في محل جر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما ، وجملة "كُنْتُمْ" صلة الموصول لا محل لها ، وجملة "تَعْمَلُونَ" في محل نصب خبر كنتم .

[سورة الأنعام (6) : آية 61]

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (61)

(220/224)

"وَهُوَ الْقاهِرُ" مبتدأ وخبر "فَوْقَ" متعلق باسم الفاعل القاهر "عِبادِهِ" مضاف إليه مجرور ، والجملة الاسمية مستأنفة "وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور وحفظة مفعوله وفاعله ضمير مستتر والجملة معطوفة على الجملة الاسمية قبلها "حَتَّى" ابتدائية "إِذا" ظرفية شرطية "جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ"

فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر "تَوَفَّتْهُ" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف المحذوفة ، والتاء للتأنيث ، والهاء مفعول به "رُسُلُنا" فاعل ، ونا مضاف إليه .

"وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ" الواو حالية ، هم ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ وجملة "لا يُفَرِّطُونَ" خبره ، والجملة الاسمية "هُمْ لا يُفَرِّطُونَ" حالية أو مستأنفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 62]

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (62)

"ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ" فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور والواو نائب فاعل ، والجملة معطوفة على جملة "تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا" . "مَوْلاهُمُ" بدل من اللّه مجرور مثله بالكسرة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر ، والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة ، والميم لجمع الذكور . "الْحَقِّ" صفة مولى مجرورة مثلها بالكسرة "أَلا" حرف تنبيه واستفتاح "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "الْحُكْمُ" ، والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها ، وكذلك الجملة الاسمية "وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ" مستأنفة مثلها .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 63 الى 64]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "مَنْ" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة ، تعلق به الجار والمجرور ، والكاف مفعوله ، وفاعله ضمير مستتر

تقديره هو والجملة مقول القول "الْبَرِّ" مضاف إليه "وَالْبَحْرِ" معطوف ، "تَدْعُونَهُ" فعل مضارع والواو فاعله والهاء مفعوله "تَضَرُّعاً" حال منصوبة "وَخُفْيَةً" عطف والجملة في محل نصب حال . "لَئِنْ أَنْجانا" اللام موطئة للقسم ، "إن" حرف شرط جازم "أَنْجانا" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة ، ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط . والجملة مقول لقول محذوف تقديره : تدعونه وتقولون : لئن أنجانا ويمكن أن تكون ابتدائية لأنها جملة الشرط . "مِنْ هذِهِ" اسم إشارة في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما "لَنَكُونَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم نكونن فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، واسمها ضمير مستتر تقديره نحن . "مِنَ الشَّاكِرِينَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، والجملة لا محل لها جواب القسم ، وقد حذف جواب الشرط إن ، لدلالة جواب القسم عليه حسب القاعدة : إذا اجتمع قسم وشرط فالجواب للسابق . "قُلِ" أمر فاعله مستتر "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يُنَجِّيكُمْ" مضارع ومفعول والفاعل مستتر والجملة خبر "مِنْها" متعلقان بالفعل "وَمِنْ كُلِّ" معطوف "كَرْبٍ" مضاف إليه "ثُمَّ" عاطفة "أَنْتُمْ" مبتدأ "تُشْرِكُونَ" الجملة خبر .

[سورة الأنعام (6) : آية 65]

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(65)

"قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة الاسمية "هُوَ الْقادِرُ" المؤلفة من المبتدأ والخبر مقول القول ، "عَلى" حرف جر والمصدر المؤول من "أَنْ" والفعل "يَبْعَثَ" في محل جر بعلى "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "عَذاباً" مفعول به "مِنْ فَوْقِكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة "عَذاباً" . "أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ" عطف "أَوْ يَلْبِسَكُمْ" فعل مضارع والكاف مفعوله "شِيَعاً" حال والجملة معطوفة على جملة "يَبْعَثَ" . "وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ" مضارع ومفعول به أول وفاعله مستتر "بَأْسَ" مفعوله الثاني ، والجملة معطوفة "بَعْضٍ" مضاف إليه "انْظُرْ" أمر فاعله مستتر "كَيْفَ" اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال "نُصَرِّفُ الْآياتِ" مضارع ومفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم وفاعله أنت والجملة الفعلية سدت مسد مفعولي انظر ، وجملة "انْظُرْ" مستأنفة لا محل لها ، "لَعَلَّهُمْ" لعل والهاء في محل نصب اسمها وجملة "يَفْقَهُونَ" في محل رفع خبرها ، والجملة الاسمية لعلهم يفقهون تعليلية .

[سورة الأنعام (6) : آية 66]

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66)

"وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وقومك فاعله ، والكاف في محل جر

بالإضافة.

والجملة مستأنفة "وَهُوَ الْحَقُّ" مبتدأ وخبر والجملة في محل نصب حال والجملة الفعلية: "قُلْ" مستأنفة.

"لَسْتُ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها "عَلَيْكُمْ" متعلقان بوكيل. "بِوَكِيلٍ" الباء حرف جر زائد في خبر لست. وكيل اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر لست والجملة مقول القول.

[سورة الأنعام (6): آية 67]

لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)

"لِكُلِّ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر "نَبَإٍ" مضاف إليه "مُسْتَقَرٌّ" مبتدأ مؤخر، "وَسَوْفَ" الواو استئنافية، وسوف حرف استقبال "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعله. والجملتان مستأنفتان.

[سورة الأنعام (6): آية 68]

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا

يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68)

"وَإِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "رَأَيْتَ الَّذِينَ" فعل ماض والتاء فاعله واسم الموصول مفعوله والجملة في محل جر بالإضافة بعد الظرف إذا "يَخُوضُونَ فِي آياتِنا" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ" الجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم. "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَخُوضُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد حتى وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله. والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر بحتى، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما وكذلك "فِي حَدِيثٍ" متعلقان بالفعل يخوضوا قبلهما "غَيْرِهِ" صفة. "وَإِمَّا" إن حرف شرط جازم يجزم فعلين مضارعين، ما زائدة. "يُنْسِيَنَّكَ" فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم فعل الشرط، والكاف ضمير متصل في محل نصب مفعول به

"الشَّيْطانُ" فاعل، والجملة مستأنفة. . "فَلا تَقْعُدْ" مضارع مجزوم بلا الناهية تعلق به الظرف "بَعْدَ" والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، والجملة في محل جزم جواب الشرط.

"الذِّكْرى" مضاف إليه.

"مَعَ" ظرف مكان متعلق بتقعد "الْقَوْمِ" مضاف إليه "الظَّالِمِينَ" صفة مجرورة بالياء.

[سورة الأنعام (6) : آية 69]

وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69)

"وَما" الواو استئنافية ، ما نافية "عَلَى الَّذِينَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ شيء "يَتَّقُونَ" فعل مضارع وفاعل والجملة صلة الموصول لا محل لها "مِنْ حِسابِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال من شيء لأنه تقدم عليه بعد أن كان صفة له "مِنْ شَيْءٍ" من حرف جر زائد "شَيْءٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ ، والجملة الاسمية مستأنفة . "وَلكِنْ" حرف استدراك ، والواو عاطفة "ذِكْرى" مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والخبر محذوف والتقدير : ولكن عليهم ذكرى وهذا أسهل من تقدير فعل محذوف : ذكروهم ذكرى "لَعَلَّهُمْ" لعل والهاء اسمها وجملة "يَتَّقُونَ" في محل رفع خبر . والجملة الاسمية معطوفة

[سورة الأنعام (6) : آية 70]

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

"وَذَرِ" فعل أمر مبني على السكون وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين ، والفاعل أنت واسم الموصول "الَّذِينَ" مفعوله والجملة معطوفة "اتَّخَذُوا دِينَهُمْ" فعل ماض وفاعله ومفعوله الأول و"لَعِباً" مفعوله الثاني "وَلَهْواً" عطف والجملة صلة الموصول لا محل لها . "وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ" فعل ماض ومفعوله وفاعله "الدُّنْيا" صفة والجملة معطوفة "وَذَكِّرْ بِهِ" معطوفة أيضا "أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ" مضارع منصوب ونائب فاعله ، والمصدر المؤول من أن والفعل بعدها في محل جر بحرف الجر والتقدير : لئلا تبسل "بِما كَسَبَتْ" ما مصدرية وهي مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل تبسل والتقدير أن تبسل بكسبها . "لَيْسَ لَها" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص ليس "مِنْ دُونِ اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه متعلقان بمحذوف حال من ولي أو شفيع "وَلِيٌّ" اسم ليس مرفوع "وَلا شَفِيعٌ" عطف وجملة الفعل الناقص في محل رفع صفة نفس . "وَإِنْ تَعْدِلْ" إن شرطية وتعدل فعل الشرط وفاعله ضمير مستتر "كُلَّ" نائب مفعول مطلق "عَدْلٍ" مضاف إليه "لا يُؤْخَذْ مِنْها" جملة المضارع المبني للمجهول جواب الشرط ، ونائب الفاعل ضمير مستتر ، ومنها متعلقان بالفعل قبلهما ، ولا نافية والجملة لا محل لها جواب شرط لم يقترن

بالفاء أو إذا الشرطية ، وجملة إن تعدل معطوفة . "أُولَئِكَ" اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ ، والكاف للخطاب "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع خبر "أُبْسِلُوا" فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعله ، والجملة صلة

(226/224)

الموصول لا محل لها "بِما كَسَبُوا" المصدر المؤول المؤلف من ما المصدرية والفعل في محل جر بحرف الجر ، وجملة كسبوا صلة . "لَهُمْ شَرابٌ" لهم متعلقان بخبر مقدم وشراب مبتدأ "مِنْ حَمِيمٍ" متعلقان بمحذوف صفة من شراب "وَعَذابٌ أَلِيمٌ" عطف "بِما كانُوا يَكْفُرُونَ" المصدر المؤول في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بعذاب أو بمحذوف صفة : لهم عذاب بكفرهم . وجملة لهم عذاب خبر ثان لاسم الإشارة أولئك .

[سورة الأنعام (6) : آية 71]

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (71)

(227/224)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ" فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل ، تعلق به الجار والمجرور والهمزة للاستفهام "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "لا يَنْفَعُنا" فعل مضارع ونا مفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَلا يَضُرُّنا" عطف ، وجملة أتدعو مقول القول ، "وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا" مضارع مبني للمجهول ، تعلق به الجار والمجرور ونائب الفاعل نحن والجملة معطوفة على جملة "أَنَدْعُوا" . "بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بنرد . "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمن ، مبني على السكون في محل جر بالإضافة "هَدانَا اللَّهُ" فعل ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله ، والجملة في محل جر بالإضافة "كَالَّذِي" الكاف اسم بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف نرد ردا مثل رد الذي استهوته الشياطين ، واسم الموصول في محل جر بالإضافة أو الكاف حرف جر واسم الموصول في محل جر بحرف الجر ، وهما متعلقان بمحذوف صفة المفعول المطلق . "اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف المحذوفة والتاء للتأنيث ، والهاء مفعول به ، والشياطين فاعل ، والجملة صلة الموصول لا محل لها "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بحال محذوفة "حَيْرانَ" حال "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "أَصْحابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها ، والجملة الفعلية "يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى" في محل رفع صفة أصحاب . "ائْتِنا" فعل أمر مبني على حذف حرف العلة من

آخره لأنه معتل الآخر أتى وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ، ونا مفعوله ، والجملة مقول القول لفعل محذوف تقديره يقولون ائتنا ، والجملة المقدرة حالية وجملة "قُلْ" بعدها مستأنفة لا محل لها "إِنَّ هُدَى اللَّهِ" إن واسمها واللّه لفظ الجلالة مضاف إليه "هُوَ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ "الْهُدَى" خبره ، والجملة الاسمية "هُوَ الْهُدى" في محل

(228/224)

رفع خبر إن ، وجملة إن هدى اللّه مقول القول . "وَأُمِرْنا" فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون ، ونا ضمير متصل في محل رفع نائب فاعل ، والجملة معطوفة على جملة بأن المضمرة بعد لام التعليل ، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل وأمرنا ، أمرنا بالإسلام لرب العالمين . "لِرَبِّ" متعلقان بالفعل نسلم "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم .

[سورة الأنعام (6) : آية 72]

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72)

"وَأَنْ أَقِيمُوا" فعل أمر مبني على حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعله ، والمصدر المؤول من أن والفعل بعدها معطوف على المصدر المؤول من نسلم وأن قبلها

والتقدير : أمرنا بالإسلام وإقامة الصلاة .

"الصَّلاةَ" مفعول به "وَاتَّقُوهُ" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله والهاء مفعوله .

والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَهُوَ" الواو استئنافية ، هو ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ واسم الموصول "الَّذِي" خبره . والجملة مستأنفة "إِلَيْهِ" جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما . "تُحْشَرُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعله ، والجملة صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 73]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

(229/224)

"وَهُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة ، وجملة "خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ" صلة الموصول "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال خلق السموات مقدرا بالحق "وَيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بالفعل المحذوف "اذكر" والجملة الفعلية مستأنفة ، وجملة "يَقُولُ" في محل جر بالإضافة . "كُنْ" فعل أمر تام وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت يرجع إلى كل ما خلق اللّه .

"فَيَكُونُ" فعل مضارع تام معطوف على الفعل كن قبله ، والجملتان مقول القول . "قَوْلُهُ الْحَقُّ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "وَلَهُ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "الْمُلْكُ" . والجملة معطوفة "يَوْمَ" ظرف زمان بدل من يوم يقول قبله منصوب بالفتحة مثله "يُنْفَخُ" مضارع مبني للمجهول والجار والمجرور "فِي الصُّورِ" نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة . "عالِمُ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو عالم "الْغَيْبِ" مضاف إليه "وَالشَّهادَةِ" عطف والجملة مستأنفة . "وَهُوَ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "الْخَبِيرُ" خبر ثان مرفوع .

[سورة الأنعام (6) : آية 74]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناما آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (74)

"وَإِذْ" ظرف لما مضى من الزمن ، مبني على السكون ، متعلق بالفعل المحذوف اذكر والواو استئنافية ، فالجملة مستأنفة ، والجملة الفعلية "قالَ إِبْراهِيمُ" في محل جر بالإضافة "لِأَبِيهِ" متعلقان بالفعل قبلهما وعلامة جره الياء لأنه من الأسماء الخمسة ، والهاء في محل جر بالإضافة "آزَرَ" بدل مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة للعلمية والعجمة . "أَتَتَّخِذُ" مضارع "أَصْناماً" مفعوله الأول "آلِهَةً" مفعوله الثاني والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والجملة مقول القول ، وجملة "إِنِّي أَراكَ" مستأنفة . "أَراكَ" فعل مضارع

مرفوع بالضمة المقدرة على الألف . والكاف مفعوله الأول في ضلال متعلقان بأراك وهما المفعول الثاني ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا "وَقَوْمَكَ" اسم معطوف على الكاف منصوب بالفتحة ، والكاف ضمير متصل في محل جر بالإضافة . "فِي ضَلالٍ" سبق إعرابها "مُبِينٍ" صفة مجرورة بالكسرة . وجملة أراك خبر إن .

[سورة الأنعام (6) : آية 75]

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)

"وَكَذَلِكَ" الكاف حرف جر واسم الإشارة في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر مقدر والتقدير : نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض رؤية كرؤية ضلال أبيه ، والواو قبلهما اعتراضية . "نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ" فعل مضارع ، فاعله نحن وإبراهيم مفعوله الأول ، وملكوت مفعوله الثاني "السَّماواتِ" مضاف إليه . "وَالْأَرْضِ" عطف "وَلِيَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل ، والمصدر المؤول من أن والفعل الناقص في محل جر باللام ، والجار والمجرور معطوفان على معطوف مقدر محذوف أي : فعلناه ليؤمن وليوقن . "مِنَ الْمُوقِنِينَ" متعلقان بمحذوف خبر يكون وجملة "وَكَذَلِكَ نُرِي . . " اعتراضية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 76]

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76)

(231/224)

"فَلَمَّا" الفاء عاطفة ، لما ظرفية حينية "جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والليل فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "رَأى كَوْكَباً" فعل ماض ومفعوله والجملة لا محل لها جواب لما الشرطية وجملة "قالَ" استئنافية لا محل لها . "هذا" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "رَبِّي" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة ، والجملة الاسمية مقول القول . "فَلَمَّا أَفَلَ" ، مثل "فَلَمَّا جَنَّ" . وجملة "قالَ" جواب الشرط لا محل لها "لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ" فعل مضارع ومفعوله المنصوب بالياء ، والجملة مقول القول .

[سورة الأنعام (6) : آية 77]

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)

"فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ" سبق اعراب مثلها وكذلك "قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ . . " "بازِغاً"

حال منصوبة لأن رأى بصرية وليست قلبية "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية . "لَمْ" حرف جازم "يَهْدِنِي" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والنون للوقاية ، والياء مفعول به "رَبِّي" فاعل "لَأَكُونَنَّ" فعل مضارع ناقص ، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ، واللام واقعة في جواب القسم ، والجملة لا محل لها جواب القسم الذي سبق الشرط فسد مسد جوابه "مِنَ الْقَوْمِ" متعلقان بمحذوف خبر الفعل الناقص "الضَّالِّينَ" صفة مجرورة بالياء .

[سورة الأنعام (6) : آية 78]

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78)

(232/224)

سبق اعراب صدر الآية "هذا أَكْبَرُ" مثل هذا ربي في الآية السابقة "مِمَّا تُشْرِكُونَ" ما : مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان "بريء" والتقدير إني بريء من إشراككم ويمكن أن تكون موصولة أي : من الذين تشركون مع اللّه ، والجملة صفة على الأول ، وصلة الموصول على الثاني .

[سورة الأنعام (6) : آية 79]

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

"إِنِّي" إن واسمها "وَجَّهْتُ" فعل ماض وفاعل "وَجْهِيَ" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم ، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة "لِلَّذِي" متعلقان بالفعل قبلهما "فَطَرَ السَّماواتِ" فعل ماض ومفعوله والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَالْأَرْضَ" عطف "حَنِيفاً" حال منصوبة "وَما" الواو عاطفة ، ما نافية لا عمل لها أو ما الحجازية التي تعمل عمل ليس "أَنَا" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ "مِنَ الْمُشْرِكِينَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ ، هذا على الوجه الأول في إعراب ما ، والجملة معطوفة ، وجملة "إِنِّي" مستأنفة لا محل لها ، والجملة الفعلية "وَجَّهْتُ" في محل رفع خبر إن .

[سورة الأنعام (6) : آية 80]

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80)

"وَحاجَّهُ قَوْمُهُ" فعل ماض ومفعوله وفاعله والجملة مستأنفة "قالَ" ماض وفاعله مستتر "أَتُحاجُّونِّي" الهمزة للاستفهام تحاجوني فعل مضارع مرفوع بثبوت النون ، والنون للوقاية والياء ضمير متصل في محل نصب مفعول به ، والواو فاعل ، والجملة مقول القول "فِي اللَّهِ" متعلقان بالفعل قبلهما . "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "هَدانِ" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف للتعذر والنون للوقاية ، والياء المحذوفة في محل نصب مفعول به ، والجملة في محل نصب حال . "وَلا أَخافُ" الواو استئنافية ، لا نافية أخاف فعل مضارع "ما" اسم موصول مبني على السكون في محجل نصب مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا ، والجملة مستأنفة "تُشْرِكُونَ بِهِ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها . "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ يَشاءَ" مضارع منصوب بأن "رَبِّي" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل الياء المتكلم ، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة ، "شَيْئاً" مفعول به أو نائب مفعول مطلق ، والمصدر المؤول من أن والفعل بعدها في محل رفع مبتدأ وخبره محذوف والتقدير ولكن مشيئة ربي أخافها . "وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ" فعل ماض وفاعل ومفعول به وشيء مضاف إليه والجملة تعليلية "عِلْماً" تمييز "أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ" فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله ، ولا نافية والهمزة للاستفهام والفاء استئنافية وجملة "تَتَذَكَّرُونَ" مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 81]

وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)

(234/224)

"وَكَيْفَ" اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال ، والواو استئنافية "أَخافُ" فعل مضارع واسم الموصول "ما" مفعوله والجملة مستأنفة "أَشْرَكْتُمْ" فعل ماض وفاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها . "وَلا تَخافُونَ" فعل مضارع والواو فاعله ولا نافية والجملة معطوفة أو حالية إن كانت الواو قبلها حالية . "أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ" أن والكاف اسمها وجملة أشركتم خبرها "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل قبلهما .

"ما" اسم موصول مفعول به "لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ" مضارع مجزوم تعلق به الجار والمجرور "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "سُلْطاناً" مفعول به والجملة صلة الموصول لا محل لها . "فَأَيُّ" الفاء الفصيحة أي اسم استفهام مبتدأ "الْفَرِيقَيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى "أَحَقُّ" خبر "بِالْأَمْنِ" متعلقان باسم التفضيل أحق "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" كان فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط ، والتاء اسمها وجملة تعلمون خبرها ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله : إن كنتم تعلمون فأخبروني : أي الفريقين أحق بالأمن ؟ وجملة أي الفريقين مستأنفة

لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 82]

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82)

(235/224)

"الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع مبتدأ وجملة آمنوا صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ، والجملة الاسمية الذين آمنوا مستأنفة لا محل لها "وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ" فعل مضارع مجزوم ، وفاعله ، ومفعوله ، والجار والمجرور متعلقان به والجملة معطوفة . "أُولئِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "لَهُمُ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر "الْأَمْنُ" مبتدأ مؤخر وجملة "لَهُمُ الْأَمْنُ" في محل رفع خبر أولئك ، وجملة أولئك لهم الأمن في محل رفع خبر اسم الموصول الذين "وَهُمْ مُهْتَدُونَ" مبتدأ وخبر والجملة في محل نصب حال بعد واو الحال . هذا إذا كان الكلام من كلام اللّه تعالى ، فإن كان من كلام سيدنا إبراهيم فالإعراب يغاير هذا ويكون إعراب الذين : خبر لمبتدأ محذوف تقديره : أحق بالأمن : الذين آمنوا .

[سورة الأنعام (6) : آية 83]

وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

(83)

"وَتِلْكَ" الواو استئنافية واسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ ، واللام للبعد ، والكاف حرف خطاب "حُجَّتُنا" خبر ، ونا ضمير متصل في محل جر بالإضافة "آتَيْناها" فعل ماض وفاعله ومفعوله "إِبْراهِيمَ" مفعول به ثان والجملة في محل نصب حال والجملة الاسمية وتلك حجتنا استئنافية لا محل لها "عَلى قَوْمِهِ" متعلقان بحجة "نَرْفَعُ" فعل مضارع والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن "دَرَجاتٍ" حال منصوبة بالكسرة بدل الفتحة لأنها جمع مؤنث سالم. "مَنْ" اسم موصول مفعول به. وجملة "نَشاءُ" صلة الموصول لا محل لها ، وجملة نرفع في محل نصب حال. "إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ" إن واسمها وخبرها "عَلِيمٌ" خبر ثان والجملة مستأنفة.

[سورة الأنعام (6) : آية 84]

(236/224)

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)

"وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله والحق مفعوله "وَيَعْقُوبَ"

عطف والجملة معطوفة على ما قبلها . "كُلًّا" مفعول به مقدم للفعل بعده "هَدَيْنا" فعل ماض وفاعل والجملة مستأنفة لا محل لها "وَنُوحاً هَدَيْنا" مفعول به مقدم وفعل ماض وفاعل والجملة معطوفة "مِنْ" حرف جر . "قَبْلُ" ظرف زمان مبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة : في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . "وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ" متعلقان بمحذوف حال والتقدير وهدينا هم حال كونهم من ذريته . و"داوُدَ وَسُلَيْمانَ" عطف على نوح. "وَكَذِلِكَ" الواو للاستئناف . الكاف حرف جر . ذا اسم إشارة في محل جر بحرف الجر . والجار والمجرور متعلقان بمحذوف مفعول مطلق نجزي المحسنين جزاء كذلك الجزاء . "نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" فعل مضارع ومفعوله والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 85]

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85)

"وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ" عطف على موسى وهارون . "كُلٌّ" مبتدأ مرفوع ، وساغ الابتداء بالنكرة لما فيه من الإضافة المقدرة وكل رجل منهم . "مِنَ الصَّالِحِينَ" اسم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ، والجملة الاسمية "كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ" اعتراضية .

[سورة الأنعام (6) : آية 86]

وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (86)

(237/224)

"وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً" عطف على إلياس "وَكُلًّا" مفعول به مقدم والواو عاطفة "فَضَّلْنا" فعل ماض وفاعله "عَلَى الْعالَمِينَ" متعلقان بالفعل قبلهما ، والجملة معطوفة على جملة : كلا هدينا .

[سورة الأنعام (6) : آية 87]

وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (87)

"وَمِنْ آبائِهِمْ" عطف على داود وسليمان أي : ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان "وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ" عطف على ما قبله . "وَاجْتَبَيْناهُمْ" فعل ماض وفاعل ومفعول به ومثلها "وَهَدَيْناهُمْ" "إِلى صِراطٍ" إلى صراط متعلقان بالفعل قبلهما "مُسْتَقِيمٍ" صفة ، والجملتان معطوفتان على جملة "وَكُلًّا فَضَّلْنا" .

[سورة الأنعام (6) : آية 88]

ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (88)

"ذِلكَ" اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، واللام للبعد ، والكاف للخطاب "هُدَى"

(238/224)

خبره "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "يَهْدِي بِهِ مَنْ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور ومن اسم موصول مفعوله "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر . "مِنْ عِبادِهِ" متعلقان بمحذوف حال أي كائنا من عباده وجملة "يَشاءُ" صلة الموصول لا محل لها وجملة "يَهْدِي بِهِ" في محل نصب حال من هدى اللّه . "وَلَوْ" لو حرف شرط غير جازم والواو للاستئناف "أَشْرَكُوا" فعل ماض وفاعل والجملة مستأنفة لا محل لها "لَحَبِطَ عَنْهُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور واللام واقعة في جواب الشرط واسم الموصول "ما" فاعل حبط والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . ويمكن أن تكون "ما" مصدرية ، والمصدر المؤول منها ومن الفعل بعدها في محل رفع فاعل التقدير : حبط عنهم عملهم . "كانُوا يَعْمَلُونَ" فعل ماض ناقص والواو اسمها وجملة يعملون خبرها وجملة الفعل الناقص صلة الموصول لا محل لها على إعراب "ما" اسم موصول .

[سورة الأنعام (6) : آية 89]

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (89)

"أُولئِكَ" اسم إشارة مبتدأ "الَّذِينَ" اسم موصول خبره "آتَيْناهُمُ" فعل ماض وفاعله ومفعوله الأول "الْكِتابَ" مفعول به ثان "وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ" عطف والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها والجملة الاسمية أولئك الذين مستأنفة لا محل لها "فَإِنْ" الفاء استئنافية وإن شرطية جازمة تجزم فعلين مضارعين.

(239/224)

"يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ" فعل مضارع مجزوم تعلق به الجار والمجرور واسم الإشارة هؤلاء فاعله، والجملة مستأنفة لا محل لها. "فَقَدْ" حرف تحقيق والفاء واقعة في جواب الشرط "وَكَّلْنا بِها قَوْماً" فعل ماض تعلق الجار والمجرور ونا فاعله وقوما مفعوله، والجملة في محل جزم جواب الشرط "لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ" فعل ماض ناقص، والواو اسمها بكافرين الباء حرف جر زائد كافرين اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس، "بِها" متعلقان باسم الفاعل "كافرين" والجملة في محل نصب صفة "قَوْماً".

[سورة الأنعام (6) : آية 90]

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (90)

"أُولَئِكَ الَّذِينَ" مبتدأ وخبر كالآية السابقة والجملة مستأنفة لا محل لها "هَدَى اللَّهُ" فعل ماض وفاعل والجملة صلة الموصول لا محل لها والعائد محذوف والتقدير هداهم اللّه. "فَبِهُداهُمُ" الفاء هي الفصيحة، والجار والمجرور متعلقان بالفعل اقتده بعدهما "اقْتَدِهْ" فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، والهاء للسكت، والجملة لا محل لها جواب شرط مقدر إذا كان الأمر كما ذكر فاقتد بهم. "قُلْ" فعل أمر والفاعل أنت والجملة مستأنفة "لا أَسْئَلُكُمْ" فعل مضارع فاعله أنا والكاف مفعوله الأول، ولا نافية لا عمل لها، والجملة مقول القول "عَلَيْهِ" متعلقان بمحذوف حال من "أَجْراً" و"أَجْراً" مفعوله الثاني. "إِنْ" النافية "هُوَ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "ذِكْرى" خبر "لِلْعالَمِينَ" متعلقان بذكرى، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

[سورة الأنعام (6) : آية 91]

(240/224)

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

"وَما" الواو استئنافية ، ما نافية "قَدَرُوا اللَّهَ" فعل ماض وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها "حَقَّ" نائب مفعول مطلق "قَدْرِهِ" مضاف إليه مجرور "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمن مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل قدروا "قالُوا" فعل ماض وفاعل والجملة في محل جر بالإضافة .

(241/224)

"ما أَنْزَلَ اللَّهُ" فعل ماض ولفظ الجلالة فاعل وما نافية والجملة مقول القول "عَلى بَشَرٍ" متعلقان بالفعل قبلهما "مِنْ شَيْءٍ" من حرف جر زائد شيء اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به "قُلْ" فعل أمر "مِنْ" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة أنزل خبره . "الَّذِي" اسم موصول في محل نصب صفة "جاءَ بِهِ مُوسى" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وموسى فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها "نُوراً" حال "وَهُدىً" عطف "لِلنَّاسِ" متعلقان بهدى "تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ" فعل مضارع والواو فاعله والهاء مفعوله

قراطيس حال ، والجملة في محل نصب حال من الكتاب "تُبْدُونَها" فعل مضارع وفاعل ومفعول به والجملة في محل نصب صفة قراطيس وجملة "وَتُخْفُونَ كَثِيراً" معطوفة .

"وَعُلِّمْتُمْ" فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون ، والتاء نائب فاعل "ما" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به والجملة في محل نصب حال "لَمْ تَعْلَمُوا" مضارع مجزوم بحذف النون ، والواو فاعل "أَنْتُمْ" ضمير رفع منفصل مبني على السكون في محل رفع تأكيد للواو قبله "وَلا" الواو عاطفة لا نافية "آباؤُكُمْ" عطف على أنتم ، وجملة تعلموا صلة الموصول لا محل لها . "قُلْ" الجملة مستأنفة "اللَّهَ" لفظ الجلالة مبتدأ وخبره محذوف تقديره : الله أنزلها والجملة مقول القول "ثُمَّ" عاطفة "ذَرْهُمْ" فعل أمر والهاء في محل نصب مفعول به ، والميم علامة جمع الذكور "فِي خَوْضِهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما أو بعدهما والجملة معطوفة وجملة "يَلْعَبُونَ" في محل نصب حال .

[سورة الأنعام (6) : آية 92]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (92)

"وَهذا" مبتدأ "كِتابٌ" خبره والجملة مستأنفة "أَنْزَلْناهُ" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل رفع صفة أولى "مُبارَكٌ" صفة ثانية "مُصَدِّقُ" صفة ثالثة "الَّذِي" اسم موصول في محل جر بالإضافة "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول "يَدَيْهِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى والهاء

ضمير متصل في محل جر بالإضافة. "وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والفاعل أنت، وأم مفعول به، والقرى: مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الألف والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام أي: ولإنذار أم القرى "وَمَنْ" اسم موصول معطوف على أم "حَوْلَها" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول. "وَالَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ وجملة "يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" بعده صلة الموصول وجملة "يُؤْمِنُونَ بِهِ" خبره. "وَهُمْ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ، والواو حالية، "عَلى صَلاتِهِمْ" متعلقان بالفعل يحافظون بعدهما وجملة "يُحافِظُونَ" في محل رفع خبر المبتدأ هم والجملة الاسمية "هم يحافظون" حالية.

[سورة الأنعام (6): آية 93]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا

أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

(243/224)

"وَمَنْ" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ "أَظْلَمُ" خبره والجملة استئنافية لا محل لها "مِمَّنِ" اسم موصول في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان باسم التفضيل أظلم "افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وكذبا مفعوله والفاعل ضمير مستتر تقديره هو . والجملة صلة الموصول لا محل لها . "أَوْ قالَ" الجملة معطوفة "أُوحِيَ إِلَيَّ" فعل ماض مبني للمجهول والجار والمجرور نائب فاعل والجملة مقول القول "وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ" فعل مضارع مبني للمجهول مجزوم بحذف حرف العلة ، وقد تعلق به الجار والمجرور وشيء نائب فاعله ، والجملة في محل نصب حال . "وَمَنْ قالَ" عطف على ممن أي وممن قال "سَأُنْزِلُ مِثْلَ" فعل مضارع ومفعوله والسين للاستقبال والجملة مقول القول "ما" اسم موصول في محل جر بالإضافة "أَنْزَلَ اللَّهُ" فعل ماض ولفظ الجلالة فاعل والجملة صلة الموصول لا محل لها والعائد محذوف تقديره أنزله اللّه . "وَلَوْ تَرى" الواو استئنافية ، لو حرف شرط غير جازم "إِذِ" ظرف لما مضى من الزمن متعلق بالفعل ترى "الظَّالِمُونَ" مبتدأ مرفوع بالواو "فِي

غَمَراتِ الْمَوْتِ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ وخبر لو محذوف التقدير : ولو تراهم إذ الظالمون في غمرات الموت لرأيت أمرا فظيعا "وَالْمَلائِكَةُ" مبتدأ مرفوع والواو حالية "باسِطُوا" خبر مرفوع بالواو "أَيْدِيهِمْ" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الياء للثقل ، والجملة في محل نصب حال . "أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ" فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة مقول لقول محذوف أي يقولون لهم "الْيَوْمَ" ظرف زمان متعلق بالفعل تجزون بعده ، أو بالفعل أخرجوا قبله "تُجْزَوْنَ عَذابَ" فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعله وعذاب مفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "الْهُونِ" مضاف إليه "بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ" ما مصدرية وهي مؤولة مع الفعل الناقص بعدها بمصدر في

(244/224)

محل جر بالباء أي تجزون عذاب الهون بسبب قولكم "عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ" "غَيْرَ" مفعول به . "وَكُنْتُمْ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها والجملة معطوفة على ما قبلها "عَنْ آياتِهِ" متعلقان بالفعل تستكبرون وجملة "تَسْتَكْبِرُونَ" في محل نصب خبر الفعل الناقص ومثلها جملة "تَقُولُونَ" .

[سورة الأنعام (6) : آية 94]

وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

(245/224)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية ، اللام واقعة في جواب القسم المقدر ، قد حرف تحقيق "جِئْتُمُونا" فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بتاء الفاعل المتحركة ، والميم لجمع الذكور ، ونا مفعول به ، والواو لإشباع الضمة "فُرادى" حال منصوبة بالفتحة المقدرة ، والجملة لا محل لها جواب القسم . "كَما" الكاف حرف جر ، ما مصدرية "خَلَقْناكُمْ" فعل ماض مبني على السكون ونا فاعل والكاف مفعول به والميم للجمع . والمصدر المؤول من ما المصدرية والفعل في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمصدر محذوف والتقدير جئتمونا مجيئا كخلقكم أول مرة "أَوَّلَ" ظرف زمان متعلق بالفعل قبله "مَرَّةٍ" مضاف إليه . "وَتَرَكْتُمْ" فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بتاء الفاعل ، والواو حالية والجملة حالية "ما" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به . "خَوَّلْناكُمْ" فعل ماض ونا فاعله والكاف مفعوله والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَراءَ" ظرف متعلق بالفعل قبله

"ظُهُورِكُمْ" مضاف إليه "وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ" فعل مضارع تعلق به الظرف بعده وفاعله نحن وشفعاء مفعوله والجملة معطوفة على جملة "كَما خَلَقْناكُمْ" . "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب صفة "زَعَمْتُمْ" فعل ماض وفاعل والجملة صلة الموصول لا محل لها "أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ" أن واسمها وخبرها الذي تعلق به الجار والمجرور قبله . وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي زعم . "لَقَدْ" اللام واقعة في محل جواب القسم المقدر ، "قد" حرف تحقيق "تَقَطَّعَ" فعل ماض والفاعل تقديره الوصل . "بَيْنَكُمْ" ظرف متعلق بالفعل تقطع "وَضَلَّ عَنْكُمْ ما" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور واسم الموصول مفعوله والجملة معطوفة .

"كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها وجملة تزعمون خبرها ومفعولا تزعمون محذوفان والتقدير : ضل عنكم ما كنتم تزعمونهم شفعاء .

[سورة الأنعام (6) : آية 95]

(246/224)

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95)

"إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ" إن واسمها وخبرها "الْحَبِّ" مضاف إليه "وَالنَّوى" عطف. "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والحي مفعوله والجملة في محل رفع خبر ثان. "وَمُخْرِجُ" عطف على فالق "الْمَيِّتِ" مضاف إليه "مِنَ الْحَيِّ" متعلقان باسم الفاعل مخرج "ذِلِكُمُ اللَّهُ" مبتدأ ولفظ الجلالة خبر والجملة مستأنفة "فَأَنَّى" الفاء هي الفصيحة: إذا كان اللّه هو فالق الحب ومخرج الميت

فكيف تصرفون عن عبادته؟ "أنى" اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب حال "تُؤْفَكُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعله والجملة لا محل لها، جواب شرط غير جازم أو استئنافية.

[سورة الأنعام (6): آية 96]

فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)

"فالِقُ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره: اللّه فالق.. "الْإِصْباحِ" مضاف إليه "وَجَعَلَ" فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو "اللَّيْلَ" مفعول به أول "سَكَناً" مفعول به ثان، والجملة معطوفة على الجملة الاسمية "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" عطف على الليل "حُسْباناً" مفعول به لفعل محذوف تقديره جعله حسبانا "ذلِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "تَقْدِيرُ" خبر "الْعَزِيزِ" مضاف إليه "الْعَلِيمِ" صفة.

والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، وكذلك جملة "فالِقُ الْإِصْباحِ".

[سورة الأنعام (6) : آية 97]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97)

(247/224)

"وَهُوَ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبره والجملة معطوفة "جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والنجوم مفعوله والجملة صلة الموصول لا محل لها "لِتَهْتَدُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد الام التعليل وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل . والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل جعل أي جعل لكم النجوم للاهتداء بها . "بِها" متعلقان بتهتدوا "فِي ظُلُماتِ" متعلقان بمحذوف حال لتهتدوا بها سائرين في ظلمات "الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" "قَدْ" حرف تحقيق . "فَصَّلْنَا الْآياتِ" فعل ماض وفاعل ومفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "لِقَوْمٍ" متعلقان بفصلنا "يَعْلَمُونَ" الجملة في محل جر صفة وجملة قد فصلنا استئنافية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 98]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98)

"وَهُوَ الَّذِي" الجملة الاسمية معطوفة "أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وفاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة صلة الموصول لا محل لها "واحِدَةٍ" صفة "فَمُسْتَقَرٌّ" مبتدأ وخبره محذوف تقديره: فلكم مستقر "وَمُسْتَوْدَعٌ" عطف، والجملة معطوفة "قَدْ فَصَّلْنَا" إعرابها كإعراب الآية السابقة.

[سورة الأنعام (6): آية 99]

(248/224)

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

"وَهُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبر "أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً" الجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها "فَأَخْرَجْنا بِهِ

(249/224)

نَباتَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله ونبات مفعوله والجملة معطوفة ، "كُلِّ" مضاف إليه "شَيْءٍ" مضاف إليه مجرور "فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً" الجملة الفعلية معطوفة "نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور وفاعله نحن وحبا مفعوله ومتراكبا صفة ، والجملة في محل نصب صفة خضرا . "وَمِنَ النَّخْلِ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، الواو اعتراضية "مِنْ طَلْعِها" بدل من النخل بدل بعض من كل "قِنْوانٌ" مبتدأ مؤخر "دانِيَةٌ" صفة والجملة الاسمية لا محل لها اعتراضية . "وَجَنَّاتٍ" عطف على نبات "مِنْ أَعْنابٍ" متعلقان بمحذوف صفة جنات "وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ" عطف على جنات "مُشْتَبِهاً" حال منصوبة "وَغَيْرَ" عطف على ما قبلها "مُتَشابِهٍ" مضاف إليه مجرور بالكسرة "انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله ، والجملة مستأنفة لا محل لها "إِذا" ظرف لما مضى من الزمن مبني على السكون في محل نصب ، متعلق بالفعل قبله ، ويجوز أن تكون إذا شرطية وجوابها محذوف دل عليه ما قبله وعلى الوجهين فجملة "أَثْمَرَ" في محل جر بالإضافة . "وَيَنْعِهِ" عطف على ثمره . "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر إن "لَآياتٍ" اسم إن منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة جمع مؤنث سالم ، واللام ابتدائية للتوكيد "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة لآيات "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة في محل جر صفة لقوم ، وجملة إن في ذلكم مستأنفة

لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 100]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (100)

(250/224)

"وَجَعَلُوا لِلَّهِ" فعل ماض وفاعله والجار والمجرور متعلقان بمفعول جعل الثاني وهو "شُرَكاءَ" و"الْجِنَّ" مفعوله الأول أي : وجعلوا الجنّ شركاء للّه ، والجملة مستأنفة لا محل لها "وَخَلَقَهُمْ" فعل ماض ومفعوله ، والجملة في محل نصب حال "وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ" فعل ماض وفاعل ومفعول به منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع بالمذكر السالم والجار والمجرور متعلقان بخرقوا "وَبَناتٍ" عطف على بنين منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة معطوفة "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال من فاعل خرقوا .

"عِلْمٍ" مضاف إليه . "سُبْحانَهُ" مفعول مطلق منصوب بالفتحة والهاء ضمير متصل في محل جر بالإضافة "وَتَعالى" فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر ، ولفظ الجلالة فاعل والجملة معطوفة على الجملة المقدرة : أنزله اللّه سبحانه وتعالى فهي مثلها

مستأنفة لا محل لها "عَمَّا يَصِفُونَ" ما مصدرية ، وهي مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل تعالى والتقدير تعالى عن وصفهم ، ويمكن أن تكون ما موصولية .

[سورة الأنعام (6) : آية 101]

بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)

(251/224)

"بَدِيعُ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره اللّه بديع "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" عطف "أَنَّى" اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب حال "يَكُونُ" فعل مضارع تام مرفوع بالضمة "لَهُ" متعلقان بمحذوف حال من ولد كان صفة له ، فلما قدّم عليه صار حالا "وَلَدٌ" فاعل مرفوع ويمكن أن تعرب "يَكُونُ" ناقصة والجار والمجرور له خبرها . "وَلَمْ تَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبرها "صاحِبَةٌ" اسمها المؤخر والجملة في محل نصب حال ، ، وجملة "أَنَّى يَكُونُ" استئنافية لا محل لها . وجملة "وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ" في محل نصب حال "وَهُوَ" الواو حالية "هُوَ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ "عَلِيمٌ" خبر

متعلق به الجار والمجرور "بِكُلِّ" قبله ، و"شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة الاسمية حالية .

[سورة الأنعام (6) : آية 102]

ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)

"ذِلِكُمُ" اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، واللام للبعد والكاف للخطاب والميم لجمع الذكور "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر أول "رَبُّكُمْ" خبر ثان "لا إِلهَ" لا نافية للجنس وخبرها محذوف إله اسمها مبني على الفتح في محل نصب "إِلَّا" أداة حصر "هُوَ" بدل من الضمير المقدر في الخبر المحذوف .

وجملة : لا إله إلا هو خبر ثالث . "خالِقُ" خبر رابع . "كُلِّ" مضاف إليه وهو مضاف "شَيْءٍ" مضاف إليه . "فَاعْبُدُوهُ" الفاء هي الفصيحة التقدير إذا كان اللّه ربكم خالق كل شيء "اعبدوه" فعل أمر مبني على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة ، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل والهاء في محل نصب مفعول به ، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم . "وَهُوَ" مبتدأ والواو عاطفة "وَكِيلٌ" خبر تعلق به الجار والمجرور قبله "عَلى كُلِّ" "شَيْءٍ" مضاف إليه ، والجملة الاسمية معطوفة .

(252/224)

[سورة الأنعام (6) : آية 103]

لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

"لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ" فعل مضارع ومفعول به وفاعل ، ولا نافية ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَهُوَ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ ، والواو حالية "يُدْرِكُ الْأَبْصارَ" فعل مضارع ومفعوله والجملة خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية "وَهُوَ يُدْرِكُ" في محل نصب حال "وَهُوَ اللَّطِيفُ" مبتدأ وخبر والجملة الاسمية معطوفة "الْخَبِيرُ" خبر ثان .

[سورة الأنعام (6) : آية 104]

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104)

"قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ" فعل ماض ومفعوله وفاعله و"قَدْ" حرف تحقيق "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة بصائر أو بالفعل ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "فَمَنْ" من اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، والفاء استئنافية "أَبْصَرَ" فعل ماض وهو في محل جزم فعل الشرط ، والجملة في محل رفع خبر المبتدأ "فَلِنَفْسِهِ" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف والتقدير فإبصاره

لنفسه ، والجملة الاسمية المقدرة في محل جزم جواب الشرط بعد الفاء الرابطة ، وجملة "من أبصر" مستأنفة لا محل لها . "وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها" إعرابها كإعراب سابقتها ، والجملة

معطوفة عليها . "وَما" ما الحجازية تعمل عمل ليس ، والواو استئنافية "أَنَا" ضمير رفع في محل رفع اسم ما "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالخبر بعدهما "بِحَفِيظٍ" الباء حرف جر زائد "حفيظ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما ، والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 105]

وَكَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105)

(253/224)

"وَكَذٰلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف مصدر أي نصرف الآيات تصريفا كذلك التصريف "نُصَرِّفُ الْآيَاتِ" فعل مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "وَلِيَقُولُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور معطوفان على محذوف مقدر : ليدبروا وليقولوا .

"دَرَسْتَ" فعل ماض وفاعله والجملة في محل نصب مقول القول .

"وَلِنُبَيِّنَهُ" مثل ليقولوا . والمصدر المؤول معطوف على المصدر المقدر ليدبروا ولنبينه .

"لِقَوْمٍ" متعلقان بالفعل قبلهما "يَعْلَمُونَ" مضارع والجملة في محل جر صفة لقوم .

[سورة الأنعام (6) : آية 106]

اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)

"اتَّبِعْ ما" فعل أمر واسم موصول مفعوله وفاعله أنت والجملة ابتدائية "أُوحِيَ إِلَيْكَ" فعل ماض مبني للمجهول، تعلق به الجار والمجرور بعده ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة الموصول لا محل لها "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بمحذوف حال أي: منزلا من ربك. "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" تقدم إعرابها. "وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ" الجملة معطوفة على جملة اتبع.

[سورة الأنعام (6) : آية 107]

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107)

"وَلَوْ" حرف شرط غير جازم. والواو استئنافية "شاءَ اللَّهُ" فعل ماض وفاعله والمفعول به محذوف:

هدايتهم . . . والجملة مستأنفة لا محل لها "ما أَشْرَكُوا" فعل ماض وفاعله وما نافية لا عمل لها، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم. "وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً" فعل ماض وفاعله والكاف مفعوله الأول، وحفيظا مفعوله الثاني تعلق به الجار والمجرور عليهم

، والجملة معطوفة "وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" مثل وما أنا عليكم بحفيظ .

[سورة الأنعام (6) : آية 108]

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (108)

"وَلا تَسُبُّوا" فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب مفعول به . وجملة "يَدْعُونَ" صلة الموصول لا محل لها "مِنْ دُونِ"

متعلقان بمحذوف حال : معبودين من دون اللّه . "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه ، "فَيَسُبُّوا اللَّهَ" الفاء عاطفة ، يسبوا مضارع معطوف على تسبوا مجزوم بحذف النون ، والواو فاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة معطوفة ، ويمكن أن تكون الفاء فاء السببية الناصبة .

"عَدْواً" حال منصوبة "بِغَيْرِ" متعلقان بعدوا "عِلْمٍ" مضاف إليه . "كَذلِكَ" الكاف حرف جر . ذا اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف ، والجار والمجرور متعلقان بمصدر محذوف التقدير : زيّنا للكافرين أعمالهم تزيينا كتزييننا لكل أمة عملهم . "زَيَّنَّا

. . .

"عَمَلَهُمْ" فعل ماض وفاعل ومفعول به "لِكُلِّ" متعلقان بالفعل قبلهما "أُمَّةٍ" مضاف إليه ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "ثُمَّ" عاطفة "إِلى رَبِّهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر "مَرْجِعُهُمْ" مبتدأ مرفوع والجملة الاسمية معطوفة على جملة "كَذلِكَ زَيَّنَّا" قبلها . "فَيُنَبِّئُهُمْ" فعل مضارع والهاء مفعوله ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، والجملة معطوفة "بِما كانُوا يَعْمَلُونَ" ما : مصدرية والمصدر المؤول في محل جر بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما فينبئهم بعملهم . وجملة "يَعْمَلُونَ" خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : آية 109]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (109)

"وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله ، والجملة مستأنفة لا محل لها "جَهْدَ" مفعول مطلق منصوب "أَيْمانِهِمْ" مضاف إليه "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم "جاءَتْهُمْ آيَةٌ" فعل ماض ومفعوله وفاعله والجملة الابتدائية لا محل لها لأنها جواب القسم . "لَيُؤْمِنُنَّ بِها" بها متعلقان بالفعل قبلهما . "قُلْ" فعل أمر "إِنَّمَا الْآياتُ" الآيات مبتدأ مرفوع وإنما كافة ومكفوفة "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر والجملة مقول القول والجملة الفعلية قل مستأنفة لا محل لها "وَما" اسم استفهام مبني على السكون في

محل رفع مبتدأ . والواو استئنافية . وجملة "يُشْعِرُكُمْ" في محل رفع خبر ما "أَنَّها" أن واسمها ، وجملة إذا وما دخلت عليه في محل رفع خبرها . "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَتْ" الجملة في محل جر بالإضافة وجملة "لا يُؤْمِنُونَ" لا محل لها جواب شرط غير جازم ، وجملة أن واسمها وخبرها تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 110]

(256/224)

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

"وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ" فعل مضارع ومفعوله والفاعل نحن والجملة مستأنفة لا محل لها "وَأَبْصارَهُمْ" عطف "كَما" الكاف حرف جر ما : مصدرية وهي مؤولة مع الفعل "لَمْ يُؤْمِنُوا" بمصدر في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمصدر محذوف التقدير : نقلب أفئدتهم وأبصارهم تقليبا كبعدهم عن الإيمان . "بِهِ" متعلقان بالفعل قبله "أَوَّلَ" ظرف زمان متعلق بالفعل قبله "مَرَّةٍ" مضاف إليه . "وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والهاء مفعول به وفاعله نحن وجملة "يَعْمَهُونَ" في محل نصب حال وجملة نذرهم معطوفة على جملة نقلب أفئدتهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 111]

وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)

(257/224)

"وَلَوْ" الواو استئنافية ، لو شرطية غير جازمة . "أَنَّنا" أنّ واسمها . "نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وفاعله والملائكة مفعوله ، والجملة خبر أن ، ونا اسمها . وأن واسمها وخبرها مؤولة بمصدر في محل رفع فاعل لفعل محذوف تقديره تبين إنزالنا . "وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى " فعل ماض ومفعوله والموتى فاعله والجملة معطوفة "وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ" فعل ماض وفاعله وكل مفعوله والجملة معطوفة "قُبُلًا" حال منصوبة . "ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا" يؤمنوا مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام الجحود وعلامة نصبه حذف النون ، والواو فاعله ، وأن المضمرة والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر باللام والتقدير ما كانوا مستحقين للإيمان . والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر كانوا . "إِلَّا" حرف استثناء "أَنْ يَشاءَ اللَّهُ" مضارع منصوب ولفظ الجلالة فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب حال . "وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ" لكن حرف مشبه بالفعل ، أكثرهم اسمها

وجملة يجهلون خبرها ، والجملة الاسمية ولكن أكثرهم . استئنافية .

[سورة الأنعام (6) : آية 112]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (112)

(258/224)

"وَكَذلِكَ" الواو استئنافية ، ذا اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف نعت لمصدر محذوف يبينه ما بعده والتقدير جعلنا لكل نبي جعلا كذلك الجعل الذي جعلناه لك من العداء . "جَعَلْنا لِكُلِّ" فعل ماض ونا فاعله "نَبِيٍّ" مضاف إليه . "عَدُوًّا" مفعوله الثاني "لِكُلِّ" متعلقان بمحذوف حال من عدوا لأنه قدّم عليه . "شَياطِينَ" مفعول به أول "الْإِنْسِ" مضاف إليه . "وَالْجِنِّ" معطوف ، "يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ" فعل مضارع وفاعله ومفعول والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبله و"الْقَوْلِ" مضاف إليه . "غُرُوراً" حال منصوبة ، أو مفعول لأجله . وجملة "يُوحِي" في محل نصب صفة عدوا أو حال من الشياطين . "وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ" فعل ماض وفاعل ولو حرف شرط غير جازم والجملة مستأنفة لا محل لها "ما فَعَلُوهُ" فعل ماض وفاعل ومفعول به وما

نافية والجملة لا محل لها جواب لو "فَذَرْهُمْ" الفاء هي الفصيحة. ذرهم فعل أمر والهاء مفعوله. "وَما يَفْتَرُونَ" ما مصدرية مؤولة مع الفعل بعدها بمصدر معطوف على ضمير النصب قبله التقدير فذرهم وافتراءهم. ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على الهاء أيضا. وجملة فذرهم لا محل لها جواب الشرط المقدر.

[سورة الأنعام (6) : آية 113]

وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

(259/224)

"وَلِتَصْغى" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الألف للتعذر، والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام، والجار والمجرور معطوفان على غرورا. "إِلَيْهِ" متعلقان بتصغى قبلهما "أَفْئِدَةُ" فاعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر بالإضافة "لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها.

"وَلِيَرْضَوْهُ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والمصدر المؤول معطوف على ما قبله وهو في محل جر باللام. ومثلها

"وَلِيَقْتَرِفُوا" . "ما" اسم موصول في محل نصب مفعول به "هُمْ" ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ "مُقْتَرِفُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم. والجملة صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 114]

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114)

(260/224)

"أَفَغَيْرَ" الهمزة حرف استفهام. غير مفعول به مقدم والتقدير أأبتغي غير اللّه حكما ؟ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه. و"حَكَماً" تمييز أو حال. "أَبْتَغِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء ، والجملة معطوفة بالفاء على جملة القول المقدرة قل لهم يا محمد أأجنح إلى زخارف القول فأبتغي حكما غير اللّه ؟ "وَهُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبر والواو حالية فالجملة في محل نصب حال. "أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ومفعوله والفاعل ضمير مستتر ، والجملة صلة الموصول لا محل لها "مُفَصَّلًا" حال "وَالَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ وخبره جملة يعلمون. "آتَيْناهُمُ الْكِتابَ" فعل ماض ونا فاعله والهاء مفعوله

الأول والكتاب مفعوله الثاني ، والجملة صلة الموصول لا محل لها . "يَعْلَمُونَ" مضارع والواو فاعله "أَنَّهُ مُنَزَّلٌ" أن واسمها وخبرها وقد سدت مسد مفعولي يعلمون "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بمنزل "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في اسم المفعول منزل . "فَلا تَكُونَنَّ" الفاء هي الفصيحة ، تكونن مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم بلا الناهية قبله . واسمها ضمير مستتر تقديره أنت "مِنَ الْمُمْتَرِينَ" جار ومجرور متلعقان بمحذوف خبر تكونن . والجملة لا محل لها جواب شرط مقدر إذا كان ذلك حاصلا فلا تكونن .

[سورة الأنعام (6) : آية 115]

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115)

(261/224)

"وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ" فعل ماض وفاعله ومضاف إليه والجملة مستأنفة بعد الواو ، "صِدْقاً" تمييز أو مفعول لأجله أو حال على تأويلها بمعنى صادقا . "وَعَدْلًا" عطف على "صِدْقاً" وهي مثلها . "لا مُبَدِّلَ" لا نافية للجنس . مبدل اسمها المبني على الفتح "لِكَلِماتِهِ" متعلقان بمحذوف خبر لا ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَهُوَ السَّمِيعُ" مبتدأ وخبر والجملة

مستأنفة "الْعَلِيمُ" خبر ثان.

[سورة الأنعام (6) : آية 116]

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116)

"وَإِنْ" الواو استئنافية. إن حرف شرط جازم "تُطِعْ أَكْثَرَ" فعل مضارع مجزوم ومفعوله وفاعله ضمير مستتر "مَنْ" اسم موصول في محل جر بالإضافة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" فعل مضارع مجزوم بحذف النون تعلق به الجار والمجرور بعده والواو فاعله، والكاف مفعوله. اللّه لفظ الجلالة مضاف إليه، والجملة لا محل لها جواب شرط جازم لم يقترن بالفاء.

"إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ" فعل مضارع والواو فاعله والظن مفعوله، إلا أداة حصر، إن نافية والجملة مستأنفة لا محل لها، "وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ" فعل مضارع والواو فاعله، إلا أداة حصر وإن نافية، هم ضمير رفع منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ وجملة يخرصون خبره والجملة الاسمية هم يخرصون معطوفة على ما قبلها.

[سورة الأنعام (6) : آية 117]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117)

"إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل لا محل لها من الإعراب "أَعْلَمُ" خبر إن مرفوع. ويمكن أن تعرب "هُوَ" ضمير رفع منفصل مبتدأ و"أَعْلَمُ" خبر والجملة الاسمية هو أعلم خبر إن. "مَنْ" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب بنزع الخافض أي هو أعلم بمن يضل. "عَنْ سَبِيلِهِ" متعلقان بالفعل يضل. "وَهُوَ" مبتدأ "أَعْلَمُ" خبر "بِالْمُهْتَدِينَ" متعلقان بأعلم.

[سورة الأنعام (6) : آية 118]

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118)

"فَكُلُوا" الفاء هي الفصيحة دلت على شرط مقدر بينه ما بعده إن كنتم مؤمنين حقا فكلوا مما ذكر اسم اللّه عليه. "كلوا" فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله "مِمَّا" ما اسم موصول في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة لا محل لها من الإعراب. "ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ" فعل ماض مبني للمجهول، تعلق به الجار والمجرور واسم نائب فاعله، واللّه لفظ الجلالة مضاف إليه، والجملة صلة الموصول لا محل لها. "إِنْ" حرف شرط جازم "كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ" كان واسمها وخبرها. والجار والمجرور متعلقان بالخبر مؤمنين، والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله والتقدير إن كنتم بآياته مؤمنين فكلوا.

[سورة الأنعام (6) : آية 119]

وَما لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119)

(263/224)

"وَما لَكُمْ" الواو استئنافية ، ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ لكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ما ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "أَلَّا تَأْكُلُوا" مضارع منصوب بحذف النون ، والواو فاعله ، ولا نافية لا عمل لها . والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف الجر ، والتقدير ما لكم في عدم الأكل ؟ والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ما . "مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ" فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور ، ونائب فاعله اسم . "مِمَّا" ما اسم موصول مبني على السكون في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما ، وجملة ذكر اسم صلة الموصول لا محل لها . "وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ، وفاعله ضمير مستتر والجملة في محل نصب حال بعد واو الحال . "ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والجملة صلة الموصول لا محل لها واسم الموصول "ما" في محل نصب مفعول به . "أَلَّا" أداة استثناء "مَا اضْطُرِرْتُمْ" ما اسم موصول

في محل نصب على الاستثناء "اضْطُرِرْتُمْ" فعل ماض مبني للمجهول ، والتاء نائب فاعله ، والميم للجمع "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل قبلهما ، والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ" إن واسمها وجملة يضلون خبرها ، واللام هي المزحلقة ، والجملة الاسمية وإن كثيرا استئنافية . "بِأَهْوائِهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما . "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال والتقدير متلبسين بغير علم . "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها "هُوَ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبر والجملة في محل رفع خبر إن .

"بِالْمُعْتَدِينَ" متعلقان باسم التفضيل أعلم . والجملة مستأنفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 120]

وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (120)

(264/224)

"وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ" فعل أمر مبني على حذف النون وفاعله ومفعوله والإثم مضاف إليه ، والجملة مستأنفة لا محل لها ، "وَباطِنَهُ" عطف على ظاهر "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسم الموصول اسمها "يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ" فعل مضارع وفاعل ومفعول به والجملة صلة الموصول لا محل لها .

"سَيُجْزَوْنَ" فعل مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل والجملة في محل رفع خبر إن

"بِما" اسم موصول مبني على السكون في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . "كانُوا يَقْتَرِفُونَ" كان واسمها وجملة يقترفون خبرها وجملة كانوا . صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 121]

وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)

"وَلا تَأْكُلُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة بالواو على جملة وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، "مِمَّا" متعلقان بالفعل قبلهما "لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ" فعل مضارع مبني للمجهول مجزوم بلم واسم نائب فاعله "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَلَيْهِ" متعلقان بيذكر والجملة صلة الموصول لا محل لها . "وَإِنَّهُ" الواو حالية ، أو عاطفة أو مستأنفة ولكل إعراب

(265/224)

حكم فقهي في كل ما لم يذكر اسم اللّه عليه ، اختلف فيه الفقهاء والمجتهدون "1" . "وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ" إن واسمها وخبرها واللام هي المزحلقة والجملة حالية . "وَإِنَّ الشَّياطِينَ" إن

واسمها والواو حالية وجملة "لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ" خبرها واللام هي المزحلقة ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما "لِيُجادِلُوكُمْ" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعله والكاف مفعوله ، والميم للجمع . والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل يوحون . "وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ" فعل ماض مبني على السكون لا تصاله بتاء الفاعل ، والتاء ضمير متصل في محل رفع فاعل ، وهو في محل جزم فعل الشرط . والميم لجمع الذكور وقد أشبعت ضمتها فصارت واوا للتحسين . والهاء في محل نصب مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها . "إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ" إن واسمها وخبرها واللام هي المزحلقة ، والجملة في محل جزم جواب الشرط وحذفت منه الفاء لأن الشرط بلفظ الماضي .

[سورة الأنعام (6) : آية 122]

أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (122)

"أَوَمَنْ" الهمزة للاستفهام ، الواو حرف عطف . من اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ . "كانَ مَيْتاً" كان وخبرها واسمها ضمير مستتر تقديره هو ، والجملة صلة الموصول لا محل لها .

"فَأَحْيَيْناهُ" فعل ماض مبني على السكون ونا فاعله ونورا مفعوله والفاء عاطفة فالجملة معطوفة "وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وفاعله ومفعوله ، والجملة معطوفة ، "يَمْشِي بِهِ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور وفاعله ضمير مستتر "فِي النَّاسِ" متعلقان بالفعل قبلهما أو بمحذوف حال من الفاعل يمشي به مستنيرا في الناس . "كَمَنْ" الكاف حرف جر و "مَنْ" اسم موصول في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "مَنْ" . "مَثَلُهُ" مبتدأ "فِي الظُّلُماتِ" متعلقان بمحذوف خبره ، والجملة صلة الموصول لا محل لها . "لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها" بخارج الباء حرف جر زائد ، خارج اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس ، واسمها ضمير مستتر تقديره هو "مِنْها" متعلقان باسم الفاعل خارج ، والجملة في محل نصب حال من اسم الموصول . "كَذلِكَ" ذا اسم إشارة

---

(1) "وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ" فسق : هل هو فعل المكلف ، إهمال التسمية أو تسمية غير اللّه ؟ أو الذبيحة التي لم يسم عليها ؟ هل الترك بنسيان أو عمد ؟ ولتعارض الأخبار ذهب المجتهدون في حكم التسمية على ثلاثة أقوال : الأول : هي فرض على الإطلاق : وهو قول أهل الظاهر وابن عمر وابن سيرين . والثاني : هي فرض مع الذكر ساقطة مع النسيان قال

بها المالكية والحنفية والثوري . والثالث : هي سنة مؤكدة ، به قال الشافعي وأصحابه .

انظر تفسير القرطبي ، وبداية المجتهد لابن رشد . وغيرها .

(267/224)

في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق زين للكافرين تزيينا كائنا مثل تزيين عمل المؤمن . "زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما" فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور بعده ، واسم الموصول "ما" نائب فاعله ، والجملة مستأنفة لا محل لها .

"كانُوا" كان واسمها والجملة صلة الموصول لا محل لها . وجملة "يَعْمَلُونَ" في محل نصب خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : آية 123]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ (123)

"وَكَذلِكَ" إعرابها كما تقدم في الآية السابقة أي كما جعلنا في قومك أكابر مجرميهم كذلك .

"جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ" فعل ماض وفاعله "فِي كُلِّ" مفعوله الثاني "قَرْيَةٍ" مضاف إليه "أَكابِرَ" مفعول به أول "مُجْرِمِيها" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم ، وحذفت النون

للإضافة والهاء في محل جر بالإضافة ، والجملة معطوفة . "لِيَمْكُرُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل . والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل "جَعَلْنا" والواو فاعل "فِيها" متعلقان بيمكروا . "وَما يَمْكُرُونَ" فعل مضارع وفاعله وما النافية والواو حالية ، والجملة في محل نصب حال "إِلَّا" أداة حصر "بِأَنْفُسِهِمْ" متعلقان بيمكرون "وَما يَشْعُرُونَ" الجملة مستأنفة أو معطوفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 124]

وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (124)

(268/224)

"وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ" الواو استئنافية ، إذا ظرفية شرطية غير جازمة وماض ومفعوله وآية فاعله ، والجملة الفعلية بعدها في محل جر بالإضافة ، وجملة "قالُوا" الفعلية لا محل لها جواب شرط غير جازم . "لَنْ نُؤْمِنَ" مضارع منصوب تعلق به الجار والمجرور ، والجملة مفعول به "حَتَّى نُؤْتى" حتى حرف غاية وجر نؤتى مضارع مبني للمجهول منصوب بأن

المضمرة بعد حتى ، وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الألف ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره نحن ، وهو المفعول الأول "مِثْلَ" مفعول به ثان . "ما" اسم موصول في محل جر بالإضافة "أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ" فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعله ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة صلة الموصول لا محل لها . "اللَّهُ أَعْلَمُ" لفظ الجلالة مبتدأ وأعلم خبره والجملة مستأنفة "حَيْثُ" مفعول فيه ظرف مكان مبني على الضم ، والجملة الفعلية "يَجْعَلُ رِسالَتَهُ" في محل جر بالإضافة "سَيُصِيبُ الَّذِينَ" فعل مضارع واسم الموصول مفعوله "أَجْرَمُوا" ماض وفاعل و"صَغارٌ" فاعله يصيب والسين للاستقبال والجملة مستأنفة لا محل لها ، وجملة "أَجْرَمُوا" صلة الموصول لا محل لها "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف مكان متعلق بسيصيب . "وَعَذابٌ شَدِيدٌ" عطف على صغار "بِما" ما مصدرية والمصدر المؤول من ما والفعل بعدها "كانُوا" في محل جر بالباء أي بسبب مكرهم وجملة "يَمْكُرُونَ" في محل نصب خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : آية 125]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (125)

"فَمَنْ" من اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، والفاء استئنافية "يُرِدِ اللَّهُ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط ولفظ الجلالة فاعله والجملة في محل رفع خبر من . "أَنْ يَهْدِيَهُ" مضارع منصوب والهاء مفعوله ، والمصدر المؤول من أن والفعل بعدها في محل نصب مفعول به والتقدير هدايته . "يَشْرَحْ" فعل مضارع جواب الشرط المجزوم وقد تعلق به الجار والمجرور "لِلْإِسْلامِ" "صَدْرَهُ" مفعوله ، وفاعله ضمير مستتر تقديره هو "وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ" إعرابه كسابقه . "ضَيِّقاً" مفعول به ثان للفعل يجعل "حَرَجاً" صفة "كَأَنَّما" كافة ومكفوفة لا عمل لها "يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ" فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور وفاعله مستتر والجملة في محل نصب حال من صدره . "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق بمحذوف يجعل اللّه الرجس على الذين لا يؤمنون جعلا كجعل صدر الكافر "يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ" فعل مضارع والجار والمجرور متعلقان بالمفعول الثاني المحذوف والرجس مفعوله الأول والجملة مستأنفة لا محل لها . "لا يُؤْمِنُونَ" فعل مضارع والواو فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 126]

وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126)

"وَهذا" الواو استئنافية . الها للتنبيه . ذا اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع

مبتدأ . "صِراطُ" خبره "رَبِّكَ" مضاف إليه "مُسْتَقِيماً" حال منصوبة . "قَدْ" حرف تحقيق "فَصَّلْنَا" فعل ماض وفاعله "الْآياتِ" مفعول به منصوب بالكسرة "لِقَوْمٍ" متعلقان بالفعل فصلنا . "يَذَّكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة في محل جر صفة لقوم .

[سورة الأنعام (6) : آية 127]

لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (127)

(270/224)

"لَهُمْ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم . "دارُ" مبتدأ مؤخر . "السَّلامِ" مضاف إليه . "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف حال . "رَبِّهِمْ" مضاف إليه ، والهاء في محل جر بالإضافة والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَهُوَ وَلِيُّهُمْ" مبتدأ وخبر والجملة في محل نصب حال بعد واو الحال . "بِما" الباء حرف جر ، ما اسم موصول في محل جر والجار والمجرور متعلقان باسم الفاعل وليّهم . "كانُوا" كان واسمها وجملة "يَعْمَلُونَ" خبرها . وجملة كانوا صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 128]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128)

(271/224)

"وَيَوْمَ" مفعول فيه ظرف زمان لفعل محذوف تقديره اذكر "يَحْشُرُهُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مضاف إليه "جَمِيعاً" حال وجملة ويوم يحشرهم معطوفة. "يا مَعْشَرَ" يا أداة نداء ومعشر منادى مضاف "الْجِنِّ" مضاف إليه. "قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ" فعل ماض وفاعل والجملة في محل نصب حال، وجملة النداء في محل نصب مقول القول. "مِنَ الْإِنْسِ" متعلقان باستكثرتم. "وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ" فعل ماض وفاعل والجملة معطوفة على ما قبلها. "مِنَ الْإِنْسِ" متعلقان بمحذوف حال من أولياؤهم "رَبَّنَا" منادى مضاف. "اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا" فعل ماض وفاعل والجار والمجرور "بِبَعْضٍ" متعلقان بالفعل والجملة في محل نصب مقول القول. "وَبَلَغْنا أَجَلَنَا" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة "الَّذِي" اسم موصول في محل نصب صفة. "أَجَّلْتَ لَنا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والتاء فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها. "قالَ" ماض "النَّارُ" مبتدأ "مَثْواكُمْ" خبره والجملة

الاسمية مقول القول وجملة قال النار مثواكم استئنافية لا محل لها . "خالِدِينَ" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "فِيها" متعلقان بخالدين . "إِلَّا" أداة استثناء "ما" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب على الاستثناء "شاءَ اللَّهُ" فعل ماض ولفظ الجلالة فاعل والجملة صلة الموصول لا محل لها . "إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ" إن واسمها وخبرها . "عَلِيمٌ" خبر ثان والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 129]

وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (129)

(272/224)

"وَكَذلِكَ" الواو استئنافية . كذلك جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف تقديره نولي بعض الظالمين بعضا تولية كائنة كإنزال العقاب بالإنس . ويجوز أن تعرب الكاف اسم بمعنى مثل في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر مثل تولية بعض الظالمين . "نُوَلِّي بَعْضَ" فعل مضارع ومفعوله الأول والفاعل نحن و "بَعْضاً" مفعوله الثاني . "الظَّالِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء . "بِما كانُوا يَكْسِبُونَ" مثل بما كانوا يعملون الآية "127" .

[سورة الأنعام (6) : آية 130]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (130)

ا"

أداة نداء عَشْرَ"

منادى مضاف منصوب . لْجِنِّ"

مضاف إليه . اَلْإِنْسِ"

معطوف ، وجملة النداء مقول القول لفعل محذوف تقديره يقال لهم . لَمْ يَأْتِكُمْ"

مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة لأنه معتل الآخر والكاف مفعولهُ سُلٌ"

فاعله . نْكُمْ"

متعلقان بمحذوف صفة رسل وجملة ألم يأتكم مقول القول لفعل محذوف أيضا . قُصُّونَ عَلَيْكُمْ"

فعل مضارع نعلق به الجار والمجرور والواو فاعله . يأتِي"

مفعول به منصوب وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم . وياء المتكلم مضاف إليه والجملة في محل رفع صفة ثانية لرسل . يُنْذِرُونَكُمْ"

فعل مضارع وفاعل ومفعول به أول . قاءَ"

مفعول به ثان . وَمِكُمْ"

مضاف إليه . ذا"

اسم إشارة في محل جر صفة والجملة معطوفة . وجملة قالوا استئنافية لا محل لها . هِدْنا

عَلى أَنْفُسِنا"

فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ونا فاعله والجملة مقول القول . غَرَّتْهُمُ"

فعل ماض ومفعوله والواو اعتراضية . لْحَياةُ"

فاعله ، لدُّنْيا"

(273/224)

صفة والجملة اعتراضية لا محل لها . شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ"

فعل ماض مبني على الضم تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله ، والجملة معطوفة على

شهدنا أَنَّهُمْ"

أن واسمها . انُوا"

كان واسمها . افِرِينَ"

خبر كان منصوب بالياء والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في محل جر بحرف الجر المحذوف والتقدير شهدوا بكونهم كافرين . وجملة كان واسمها وخبرها في محل رفع خبر أن .

[سورة الأنعام (6) : آية 131]

ذِلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (131)

"ذِلِكَ" اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ وخبره ، ما بعده أي ذلك مؤكد . أو خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك . "أَنْ" مخففة من الثقيلة واسمها محذوف والتقدير أنه . "لَمْ يَكُنْ" فعل مضارع ناقص مجزوم بالسكون . "رَبُّكَ مُهْلِكَ" اسمها وخبرها . "الْقُرى " مضاف إليه . "بِظُلْمٍ" متعلقان بمهلك أو بالضمير المستتر فيه . وأن المخففة وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف الجر المحذوف ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ ذلك . والجملة الاسمية "وَأَهْلُها غافِلُونَ" في محل نصب حال بعد واو الحال .

[سورة الأنعام (6) : آية 132]

وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132)

"وَلِكُلٍّ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم . "دَرَجاتٌ" مبتدأ مؤخر ، "مِمَّا" ما موصولة أو مصدرية مبنية على السكون في محل جر بمن والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لدرجات . "عَمِلُوا" الجملة صلة "وَما" الواو استئنافية أو حالية . وما الحجازية تعمل

عمل ليس. "رَبُّكَ" اسمها. "بِغافِلٍ" الباء حرف جر زائد، غافل اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما، والجملة مستأنفة لا محل لها أو حالية.

"عَمَّا" مثل مما أي ما موصولة أو مصدرية والمصدر المؤول في محل جر بعن والجار والمجرور متعلقان بغافل وجملة "يَعْمَلُونَ" صلة الموصول لا محل لها.

(274/224)

[سورة الأنعام (6) : آية 133]

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133)

"وَرَبُّكَ" الواو استئنافية، ربك مبتدأ. "الْغَنِيُّ" صفة أولى. "ذُو" صفة ثانية مرفوعة بالواو لأنها من الأسماء الخمسة. "الرَّحْمَةِ" مضاف إليه. "إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ" إن حرف شرط جازم ويشأ فعل الشرط ويذهبكم جوابه والجملة في محل رفع خبر المبتدأ. ويجوز أن يكون الغني خبر أول. ذو خبر ثان والجملة خبر ثالث. "وَيَسْتَخْلِفْ" الجملة معطوفة "مِنْ بَعْدِكُمْ" متعلقان بالفعل قبلهما "ما يَشاءُ" ما اسم موصول في محل نصب مفعول به والجملة معطوفة وجملة يشاء صلة الموصول لا محل لها. "كَما أَنْشَأَكُمْ"

الكاف حرف جر . ما مصدرية والمصدر المؤول من ما والفعل بعدها في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بمحذوف نعت لمصدر محذوف . "مِنْ ذُرِّيَّةِ" متعلقان بالفعل "قَوْمٍ" مضاف إليه "آخَرِينَ" صفة مجرورة بالياء لأنها جمع مذكر سالم .

[سورة الأنعام (6) : آية 134]

إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل . "ما" اسم موصول في محل نصب اسمها ، "تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب فاعله ، والجملة صلة الموصول لا محل لها . "لَآتٍ" اللام المزحلقة ، آت خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة وجملة إن ما توعدون لآت مستأنفة لا محل لها . "وَما" الواو عاطفة ، ما الحجازية . "أَنْتُمْ" اسمها ، "بِمُعْجِزِينَ" الباء حرف جر زائد . معجزين اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم ، وجملة وما أنتم معطوفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 135]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)

"قُلْ" فعل أمر والجملة مستأنفة لا محل لها . "يا قَوْمِ" منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة . "اعْمَلُوا" أمر وفاعله "عَلى مَكانَتِكُمْ" جار ومجرور متعلقان بالفعل اعملوا والجملة مقول القول في محل نصب ، "إِنِّي عامِلٌ" إن واسمها وخبرها والجملة تعليلية لما قبلها وجملة "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" أيضا تعليلية تؤكد ما قبلها ، والفاء قبلها حرف تعليل وسوف حرف استقبال . "مَنْ" اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به "تَكُونُ" الجملة صلة الموصول لا محل لها .

"لَهُ عاقِبَةُ" عاقبة اسم تكون مؤخر والجار والمجرور له متعلقان بمحذوف خبرها . "الدَّارِ" مضاف إليه .

"إِنَّهُ" إن والهاء اسمها وجملة "لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" خبرها والجملة الاسمية مستأنفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 136]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (136)

"وَجَعَلُوا لِلَّهِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والواو فاعله والجملة مستأنفة . "مِمَّا"

متعلقان بمحذوف حال من نصيبا ، لتقدمه عليه . "ذَرَأَ" فعل ماض والجملة صلة الموصول لا محل لها . "مِنَ الْحَرْثِ" متعلقان بمحذوف حال من "وَالْأَنْعامِ" عطف "نَصِيباً" أيضا . "فَقالُوا" الجملة معطوفة . "هذا" اسم الإشارة مبتدأ "لِلَّهِ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ هذا وكذلك الجار والمجرور "بِزَعْمِهِمْ" ومثلها "هذا لِشُرَكائِنا" . "فَما كانَ"

(276/224)

الفاء حرف تفريع . ما اسم موصول مبتدأ . كان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر . "لِشُرَكائِهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر كان . "فَلا" الفاء رابطة لجواب الشرط لما في الموصول من معنى الشرط . لا نافية وجملة "لا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ" في محل رفع خبر إن . "وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ" جملة يصل إلى شركائهم في محل رفع خبر المبتدأ هو . "ساءَ" فعل ماض جامد لإنشاء الذم .

"ما" اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعل . أو بمعنى شيء مبنية على السكون في محل نصب على التمييز والفاعل ضمير مستتر والتقدير ساء الحكم حكما حكمهم . وجملة المضارع "يَحْكُمُونَ" صلة الموصول أو صفة ما .

[سورة الأنعام (6) : آية 137]

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137)

(277/224)

"وَكَذَلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف نعت لمفعول مطلق محذوف زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم تزيينا كائنا مثل ذلك التزيين في شركهم يزين لما مضى . "لِكَثِيرٍ" متعلقان بالفعل قبلهما ومن المشركين متعلقان بمحذوف صفة لكثير . "قَتْلَ" مفعول به مقدم . "أَوْلَادِهِمْ" مضاف إليه . "شُرَكَاؤُهُمْ" فاعل مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها . "لِيُرْدُوهُمْ" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل . والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بزيّن . "وَلِيَلْبِسُوا" مثل يردوا ، فعل مضارع تعلق به الجار والمجرور بعده "عَلَيْهِمْ" والواو فاعله و"دِينَهُمْ" مفعوله ، والجملة معطوفة . "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ" فعل ماض ولفظ الجلالة فاعله ولو حرف شرط غير جازم والجملة مستأنفة . "ما فَعَلُوهُ" فعل ماض وفاعل ومفعول به وما نافية والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . "فَذَرْهُمْ" الفاء الفصيحة . وأمر ومفعوله وفاعله مستتر "وَما" الواو عاطفة أو للمعية . ما

اسم موصول أو مصدرية أي ذرهم وافتراءهم . "يَفْتَرُونَ" الجملة صلة الموصول .

[سورة الأنعام (6) : آية 138]

وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلاَّ مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (138)

"وَقالُوا" الجملة مستأنفة . "هذِهِ أَنْعامٌ" مبتدأ وخبر . "وَحَرْثٌ" معطوف . "حِجْرٌ" صفة أنعام وحرث .

(278/224)

"لا يَطْعَمُها" فعل مضارع والهاء مفعوله . "إِلَّا" أداة حصر . "مَنْ" فاعل يطعمها "نَشاءُ" مضارع والجملة صلة الموصول لا محل لها . "بِزَعْمِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال من الواو في قالوا قالوا متلبسين بزعمهم . "وَأَنْعامٌ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره وهذه أنعام والجملة معطوفة ، "حُرِّمَتْ ظُهُورُها" فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة في محل رفع صفة لأنعام . وكذلك "وَأَنْعامٌ" بعدها معطوفة وجملة "لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا" في محل رفع صفة أيضا . "افْتِراءً" حال منصوبة أو مفعول لأجله . وقد تعلق به الجار والمجرور "عَلَيْهِ" . "سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ" تقدم ما يشبهها .

[سورة الأنعام (6) : آية 139]

وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139)

"وَقالُوا" الجملة مستأنفة "ما" اسم موصول مبتدأ . "فِي بُطُونِ" متعلقان بمحذوف صفة ما ، "هذِهِ" اسم إشارة في محل جر بالإضافة . "الْأَنْعامِ" بدل مجرور ، "خالِصَةٌ" خبر ما . "لِذُكُورِنا" متعلقان بخالصة "وَمُحَرَّمٌ" عطف على خالصة . والجملة الاسمية مقول القول "عَلى أَزْواجِنا" متعلقان بمحرّم قبلها . "وَإِنْ" الواو استئنافية إن شرطية جازمة . "يَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم لأنه فعل الشرط واسمها ضمير مستتر .

(279/224)

"مَيْتَةً" خبرها والجملة استئنافية . "فَهُمْ" الفاء رابطة لجواب الشرط . هم ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ . "فِيهِ شُرَكاءُ" خبره تعلق به الجار والمجرور قبله ، والجملة في محل جزم جواب الشرط "سَيَجْزِيهِمْ" السين للاستقبال . "يجزي" فعل مضارع والهاء مفعوله الأول و "وَصْفَهُمْ" مفعوله الثاني ، والجملة مستأنفة لا محل لها . "إِنَّهُ حَكِيمٌ" إن والهاء اسمها و "حَكِيمٌ عَلِيمٌ" خبراها . والجملة تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 140]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (140)

"قَدْ" حرف تحقيق "خَسِرَ" فعل ماض "الَّذِينَ" اسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة وجملة "قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ" الفعلية صلة الموصول. "سَفَهاً" مفعول لأجله. "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال من الواو في قتلوا. "عِلْمٍ" مضاف إليه. "وَحَرَّمُوا ما" فعل ماض والواو فاعله واسم الموصول مفعوله والجملة معطوفة. "رَزَقَهُمُ اللَّهُ" فعل ماض والهاء مفعوله والله لفظ الجلالة فاعله والجملة صلة الموصول.

"افْتِراءً عَلَى اللَّهِ" حال أو مفعول لأجله. تعلق به الجار والمجرور بعده و"قَدْ ضَلُّوا" الجملة تأكيد لجملة قد خسر الأولى. "وَما كانُوا مُهْتَدِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة وما نافية لا عمل لها.

[سورة الأنعام (6) : آية 141]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141)

"وَهُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة. "أَنْشَأَ جَنَّاتٍ" فعل ماض ومفعوله المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم. "مَعْرُوشاتٍ" صفة. "وَغَيْرَ" اسم معطوف على معروشات وهو مضاف و"مَعْرُوشاتٍ" مضاف إليه. "وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ" عطف "مُخْتَلِفاً" حال منصوبة. "أُكُلُهُ" فاعل لاسم الفاعل مختلف. "وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ" عطف "مُتَشابِهاً" حال منصوبة. "وَغَيْرَ" معطوف. "مُتَشابِهٍ" مضاف إليه "كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور، مبني على حذف النون والواو فاعله، والجملة مستأنفة. "إِذا" ظرف شرط غير

جازم. وجملة "أَثْمَرَ" في محل جر بالإضافة. "وَآتُوا" فعل أمر مثل كلوا، والواو فاعله، "حَقَّهُ" مفعوله الأول ومفعوله الثاني محذوف تقديره المحتاجين. "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بآتوا. "حَصادِهِ" مضاف إليه والجملة معطوفة. "وَلا تُسْرِفُوا" فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل والجملة معطوفة "إِنَّهُ" إن واسمها "لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" مضارع ومفعوله ولا نافية وجملة "لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" خبر إنّ، وجملة إنه لا يحب المسرفين تعليلية لا محل لها.

[سورة الأنعام (6): آية 142]

وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبِينٌ (142)

"وَمِنَ الْأَنْعامِ" متعلقان بفعل محذوف تقديره وخلق من الأنعام "حَمُولَةً" مفعول به للفعل المحذوف.

(281/224)

"وَفَرْشاً" معطوف والجملة معطوفة على ما قبلها. "كُلُوا مِمَّا" فعل أمر تعلق به الجار والمجرور بعده وهو مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مستأنفة وجملة "رَزَقَكُمُ اللَّهُ" الجملة صلة الموصول لا محل لها. "وَلا تَتَّبِعُوا" فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة. "خُطُواتِ" مفعول به منصوب بالكسرة. "الشَّيْطانِ" مضاف إليه. "إِنَّهُ" إن واسمها "عَدُوٌّ" خبرها والجار والمجرور "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف حال من عدو، كان صفة له فلما تقدم عليه صار حالا.

مبين صفة والجملة تعليلية لا محل لها.

[سورة الأنعام (6) : آية 143]

ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (143)

"ثَمانِيَةَ" بدل من حمولة منصوب . "أَزْواجٍ" مضاف إليه ، "مِنَ الضَّأْنِ" متعلقان بمحذوف حال من اثنين كان صفة له قبل أن يتقدم عليه . "اثْنَيْنِ" بدل من ثمانية . "مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ" مثلها . "قُلْ" فعل أمر وفاعله أنت والجملة مستأنفة . "آلذَّكَرَيْنِ" الهمزة للاستفهام والذكرين مفعول به مقدم للفعل "حَرَّمَ" .

(282/224)

"أَمِ" حرف عطف "الْأُنْثَيَيْنِ" اسم معطوف منصوب بالياء لأنه مثنى والجملة مقول القول .

"أم" حرف عطف . "ما" اسم موصول مبني على السكون معطوف على الأنثيين .

"اشْتَمَلَتْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور "عَلَيْهِ" و"أَرْحامُ" فاعله . والجملة صلة الموصول لا محل لها . "الْأُنْثَيَيْنِ" مضاف إليه مجرور بالياء . "نَبِّئُونِي" فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة ، والواو فاعل ، والنون للوقاية والياء مفعوله . "بِعِلْمٍ" متعلقان بالفعل قبلهما والجملة مستأنفة . "إِنْ" حرف شرط جازم . "كُنْتُمْ صادِقِينَ" كان واسمها وخبرها . وكنتم فعل الشرط وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله . والجملة الشرطية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 144]

وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

(283/224)

و من الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين . . . تقدم إعراب ما يشبهها في الآية السابقة . "أَمِ" حرف عطف بمعنى بل كنتم شهداء "كُنْتُمْ شُهَداءَ" كان واسمها وخبرها . "إِذْ" ظرف زمان متعلق بشهداء . "وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والكاف مفعوله و"اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله . والجملة في محل جر بالإضافة ، وجملة كنتم معطوفة . "فَمَنْ" الفاء استئنافية . من اسم استفهام مبتدأ و"أَظْلَمُ" خبره والجملة مستأنفة . "مِمَّنِ" متعلقان باسم التفضيل أظلم "افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور ومفعوله ، والجملة صلة الموصول لا محل لها "لِيُضِلَّ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام لإضلال والجار والمجرور متعلقان بالفعل افترى والفاعل هو "النَّاسَ" مفعول به "بِغَيْرِ" متعلقان بافترى . "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها وجملة "لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" خبرها و"الظَّالِمِينَ" صفة منصوبة بالياء لأنها جمع

مذكر سالم وجملة إن اللّه . تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 145]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145)

"قُلْ" فعل أمر . "لا أَجِدُ" مضارع مرفوع فاعله أنا ولا نافية لا عمل لها . "فِي ما" متعلقان بفعل أجد .

(284/224)

"أُوحِيَ" فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور بعده ، و"مُحَرَّماً" مفعوله والجملة صلة الموصول لا محل لها . وجملة لا أجد مقول القول . "عَلى طاعِمٍ" متعلقان باسم المفعول محرّم ، وجملة "يَطْعَمُهُ" في محل جر صفة لمحرّم . "إِلَّا" أداة استثناء . "أَنْ يَكُونَ" مضارع ناقص منصوب ، واسمه هو وخبره "مَيْتَةً" . والمصدر المؤول من أن والفعل بعدها في محل نصب على الحال . "أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ" عطف "خِنزِيرٍ" مضاف إليه "فَإِنَّهُ رِجْسٌ" إن واسمها وخبرها والفاء للتعليل والجملة تعليلية لا محل لها . "أَوْ فِسْقاً" عطف على لحم .

"أُهِلَّ" ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور "بِهِ" ، ونائب الفاعل مستتر وكذلك الجار والمجرور "لِغَيْرِ" . "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه ، والجملة في محل نصب صفة .

"فَمَنِ" الفاء استئنافية . ومن اسم شرط جازم مبتدأ . "اضْطُرَّ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل هو . "غَيْرَ" حال منصوبة . "باغٍ" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الياء المحذوفة لأنه اسم منقوص . "وَلا عادٍ" عطف . "فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" الفاء واقعة في جواب الشرط ، وإن واسمها وخبراها والجملة لا محل لها جواب شرط جازم وفعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر من .

[سورة الأنعام (6) : آية 146]

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (146)

"وَعَلَى الَّذِينَ" متعلقان بالفعل المؤخر حرمنا . والجملة بعدها "هادُوا" صلة الموصول لا محل لها وجملة "حَرَّمْنا" مستأنفة لا محل لها "كُلَّ" مفعول به "ذِي" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة .

"ظُفُرٍ" مضاف إليه. "وَمِنَ الْبَقَرِ" متعلقان بحرّمنا "وَالْغَنَمِ" عطف "حَرَّمْنا" ماض وفاعله "شُحُومَهُما" مفعول به والهاء في محل جر بالإضافة. وما للتثنية. "إِلَّا" أداة استثناء. "ما" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء، "حَمَلَتْ ظُهُورُهُما" الجملة صلة الموصول لا محل لها "أَوِ الْحَوايا" عطف وكذلك "أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ" مثلها. "ذِلِكَ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ. "جَزَيْناهُمْ" فعل ماض وفاعله ومفعوله.

"بِبَغْيِهِمْ" متعلقان بالفعل قبلهما والجملة في محل رفع خبر المبتدأ. وجملة ذلك جزيناهم استئنافية لا محل لها. "وَإِنَّا لَصادِقُونَ" إن ونا اسمها وصادقون خبرها مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم. واللام المزحلقة.

والجملة في محل نصب حال بعد واو الحال أو مستأنفة.

[سورة الأنعام (6) : آية 147]

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

"فَإِنْ" الفاء استئنافية. إن حرف شرط جازم. "كَذَّبُوكَ" فعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة.

"فَقُلْ" الفاء رابطة لجواب الشرط والجملة في محل جزم جواب الشرط "رَبُّكُمْ" مبتدأ "ذُو" خبر مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة. "رَحْمَةٍ" مضاف إليه. "واسِعَةٍ" صفة والجملة

مقول القول . "وَلا يُرَدُّ" فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع . ولا نافية لا عمل لها . "بَأْسُهُ" نائب فاعل . "عَنِ الْقَوْمِ" متعلقان بيرد "الْمُجْرِمِينَ" صفة مجرورة بالياء . وجملة لا يرد معطوفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 148]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148)

(286/224)

"سَيَقُولُ" فعل مضارع والسين للاستقبال ، واسم الموصول "الَّذِينَ" فاعله وجملة "أَشْرَكُوا" صلة الموصول لا محل لها "لَوْ شاءَ اللَّهُ" فعل ماض وفاعله و"لَوْ" حرف شرط غير جازم والجملة مقول القول . وجملة "ما أَشْرَكْنا" لا محل لها جواب شرط غير جازم . "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "آباؤُنا" معطوفة على الضمير نا في الفعل أشركنا "وَلا حَرَّمْنا" عطف "مِنْ شَيْءٍ" من حرف جر زائد . شيء اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به . والجملة معطوفة على ما أشركنا . "كَذلِكَ" الكاف حرف جر واسم الإشارة في محل جر

بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" تكذيبا كائنا . والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها . "حَتَّى" حرف غاية وجر والمصدر المؤول من الفعل "ذاقُوا" وأن المقدرة بعد حتى في محل جر بحرف الجر حتى ذوقهم "بَأْسَنا" . "قُلْ" فعل أمر فاعله مستتر . "هَلْ" حرف استفهام . "عِنْدَكُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر . "مِنْ عِلْمٍ" من حرف جر زائد وعلم اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول . "فَتُخْرِجُوهُ" الفاء فاء السببية وتخرجوه مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والمصدر المؤول معطوف على ما قبله أعندكم علم فإخراج . ؟ "لَنا" متعلقان بالفعل قبلهما . "إِنْ تَتَّبِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله ، "إِلَّا" أداة حصر "الظَّنَّ" مفعوله "إِنْ" نافية لا عمل لها والجملة استئنافية "أَنْتُمْ" مبتدأ وجملة "تَخْرُصُونَ" خبره وجملة وإن أنتم إلا تخرصون معطوفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 149]

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (149)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "فَلِلَّهِ" الفاء هي الفصيحة لأنها دلت على شرط مقدر إن لم يكن لكم حجة فلله الحجة البالغة. "للّه" متعلقان بمحذوف خبر الحجة البالغة للّه. "الْبالِغَةُ" صفة والجملة مقول القول.

"فَلَوْ" الفاء حرف استئناف ولو حرف شرط غير جازم. "شاءَ" فعل الشرط "لَهَداكُمْ" اللام واقعة في جواب الشرط وهداكم فعل ماض ومفعوله. "أَجْمَعِينَ" توكيد للكاف منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم.

[سورة الأنعام (6) : آية 150]

قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

"قُلْ" أمر فاعله أنت "هَلُمَّ" اسم فعل أمر بمعنى احضروا مبني على الفتحة والفاعل ضمير مستتر تقديره أنتم.

(288/224)

و "شُهَداءَكُمُ" مفعوله والجملة مقول القول. "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب صفة وجملة "يَشْهَدُونَ" صلة الموصول لا محل لها "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها وجملة "حَرَّمَ"

بعدها خبرها والفاعل هو "هذا" اسم إشارة مفعول به والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في محل جر بحرف الجر ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل يشهدون أي بتحريم هذا . "فَإِنْ" الفاء استئنافية ، إن شرطية جازمة والفعل الماضي "شَهِدُوا" في محل جزم جواب الشرط . "فَلا تَشْهَدْ" مضارع مجزوم بلا الناهية والفاء رابطة لجواب الشرط والجملة في محل جزم جواب الشرط . "مَعَهُمْ" ظرف مكان متعلق بالفعل قبله . "وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ" فعل مضارع ومفعوله وفاعله أنت والجملة معطوفة . "الَّذِينَ" اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة . "كَذَّبُوا بِآياتِنا" فعل ماض مبني على الضم تعلق به الجار والمجرور بعده والواو فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها . "وَالَّذِينَ" اسم موصول معطوف ، "لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" مضارع وفاعله وجار ومجرور متعلقان بالفعل . "وَهُمْ" مبتدأ . "بِرَبِّهِمْ" متعلقان بالفعل بعدهما "يَعْدِلُونَ" الجملة خبر والجملة الاسمية معطوفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 151]

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "تَعالَوْا" فعل أمر مبني على حذف النون ، والواو فاعله والجملة مقول القول . "أَتْلُ" مضارع مجزوم جواب الطلب بحذف حرف العلة واسم الموصول "ما" مفعوله . "حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وربكم فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها "أَلَّا تُشْرِكُوا" أن ناصبة فعل مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعله "بِهِ" والجار والمجرور متعلقان بالفعل . "شَيْئاً" مفعول به . والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب بدل من ما حرم ولا نافية لا عمل لها . "وَبِالْوالِدَيْنِ" اسم مجرور بالياء لأنه مثنى ، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره تحسنوا . "إِحْساناً" مفعول مطلق والجملة معطوفة . "وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ" فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله وأولادكم مفعوله . "مِنْ إِمْلاقٍ" متعلقان بالفعل قبلهما والجملة معطوفة . "نَحْنُ" ضمير رفع منفصل مبتدأ وجملة "نَرْزُقُكُمْ" خبره والجملة الاسمية نحن نرزقكم تعليلية أو مستأنفة . "وَإِيَّاهُمْ" عطف على الكاف في نرزقكم . و"لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ" لا ناهية وفعل مضارع مجزوم وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "ما ظَهَرَ مِنْها" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور بعده ، واسم الموصول ما في محل نصب بدل من الفواحش ، والجملة بعده صلته ، "وَما بَطَنَ" عطف . "وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ" الجملة معطوفة . "الَّتِي" اسم موصول في محل نصب صفة وجملة "حَرَّمَ اللَّهُ" صلة الموصول لا محل لها . "إِلَّا" أداة حصر . "بِالْحَقِّ"

متعلقان بمحذوف حال من الواو في تقتلوا أي حال ملابستكم بالحق . "ذِلِكُمْ" اسم إشارة في محل رفع مبتدأ . "وَصَّاكُمْ بِهِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور والكاف مفعوله والميم للجمع والجملة في محل رفع خبر "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" لعل والكاف اسمها وجملة تعقلون في محل رفع خبرها . وجملة لعلكم تعقلون

(290/224)

تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 152]

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذِلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152)

"وَلا تَقْرَبُوا"

مضارع مجزوم بحذف النون لسبقه بلا الناهية والواو فاعله و"مالَ الْيَتِيمِ"

مفعول به واليتيم مضاف إليه والجملة معطوفة . "إِلَّا"

أداة حصر "بِالَّتِي"

متعلقان بتقربوا . "هِيَ أَحْسَنُ"

مبتدأ وخبر والجملة صلة الموصول لا محل لها . "حَتَّى"

حرف غاية وجر "يَبْلُغَ"

مضارع منصوب بأن المضمرة بعد حتى والمصدر المؤول في محل جر بحرف الجر حتى ،

والجار والمجرور متعلقان بالفعل أيضا . "أَشُدَّهُ"

مفعول به . "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ"

فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة . "وَالْمِيزانَ"

معطوف على الكيل "بِالْقِسْطِ"

متعلقان بمحذوف حال من فاعل أوفوا . "لا نُكَلِّفُ نَفْساً"

فعل مضارع ومفعوله ولا نافية لا عمل لها . "إِلَّا"

أداة حصر . "وُسْعَها"

مفعول به ثان والجملة مستأنفة لا محل لها أو معترضة .

"وَإِذا"

ظرفية شرطية غير جازمة . وجملة "قُلْتُمْ"

في محل جر بالإضافة "فَاعْدِلُوا"

فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والفاء رابطة لجواب الشرط . "وَلَوْ"

الواو حالية ، لو شرطية غير جازمة "كانَ ذا"

ذا خبر كان منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة ، واسم كان محذوف تقديره المحكوم عليه .

"قُرْبى"

مضاف إليه مجرو بالكسرة المقدّرة على الألف . والجملة في محل نصب حال . "بِعَهْدِ" متعلقان بالفعل أوفوا بعدهما ، والجملة معطوفة . "ذِلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" تقدم نظيره فيما سبق .

(291/224)

[سورة الأنعام (6) : آية 153]

وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذِلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

"وَأَنَّ هذا" أن واسم الإشارة اسمها و"صِراطِي" خبرها مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم .

"مُسْتَقِيماً" حال منصوبة ، والجملة معطوفة . "فَاتَّبِعُوهُ" الفاء هي الفصيحة ، اتبعوه فعل

أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله ، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم . "وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ" لا ناهية وفعل مضارع مجزوم وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة . "فَتَفَرَّقَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية أصلها تتفرق والمصدر المؤول من أن المصدرية والفعل معطوف على مصدر مقدّر سبقه والتقدير ليكن منكم اتباع وعدم تفرق . "بِكُمْ" متعلقان بمحذوف حال والتقدير مبتعدة بكم عن سبيله . "عَنْ سَبِيلِهِ" متعلقان بالفعل تفرق أو بمحذوف حال . "ذٰلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" سبق مثيله .

[سورة الأنعام (6) : آية 154]

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154)

"ثُمَّ" عاطفة "آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ" فعل ماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة . "تَماماً" مفعول لأجله منصوب أو حال . "عَلَى الَّذِي" متعلقان بتماما ، "أَحْسَنَ" فعل ماض والجملة صلة الموصول لا محل لها "وَتَفْصِيلاً" عطف على تماما "لِكُلِّ" متعلقان بتفصيلا . "شَيْءٍ" مضاف إليه "وَهُدىً وَرَحْمَةً" عطف . "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها وجملة "يُؤْمِنُونَ" خبرها "بِلِقاءِ" متعلقان بالفعل المؤخر يؤمنون وجملة لعلهم بلقاء ربهم تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 155]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155)

"وَهذا كِتابٌ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة لا محل لها . "أَنْزَلْناهُ" فعل ماض ونا فاعله والهاء مفعوله والجملة في محل رفع صفة أولى . "مُبارَكٌ" صفة ثانية . "فَاتَّبِعُوهُ" الفاء هي الفصيحة ، اتبعوه فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها . "وَاتَّقُوا" مثل اتبعوا والجملة معطوفة . "لَعَلَّكُمْ" لعل والكاف اسمها . "تُرْحَمُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعله والجملة في محل رفع خبر لعل وجملة لعلكم تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 156]

أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (156)

"أَنْ تَقُولُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعله . والمصدر المؤول في محل جر باللام والتقدير لئلا تقولوا وقيل مفعول لأجله والتقدير كراهية قولكم . والجار والمجرور متعلقان بالفعل أنزلناه . "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أُنْزِلَ الْكِتابُ" فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعل تعلق به الجار والمجرور "عَلى طائِفَتَيْنِ" بالفعل "مِنْ قَبْلِنا" متعلقان

بصفة لطائفتين . "وَإِنْ" الواو حالية . وإن مخففة من الثقيلة لا عمل لها . "كُنَّا" فعل ماض ناقص ونا ضمير متصل في محل رفع اسمها . "عَنْ دِراسَتِهِمْ" جار ومجرور متعلقان بالخبر "لَغافِلِينَ" . واللام الفارقة بين إن العاملة ، وإن المخففة غير العاملة ، والجملة في محل نصب حال .

[سورة الأنعام (6) : آية 157]

(293/224)

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (157)

"أَوْ تَقُولُوا" عطف على تقولوا الأولى . "لَوْ" حرف شرط غير جازم . "أَنَّا" أن واسمها . "أُنْزِلَ" فعل ماض مبني للمجهول تعلق به الجار والمجرور بعده ، و"الْكِتابُ" نائب فاعل . "لَكُنَّا أَهْدى" كان واسمها وخبرها واللام واقعة في جواب الشرط "مِنْهُمْ" متعلقان بأهدى . والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم . "فَقَدْ" الفاء هي الفصيحة والتقدير لا تقولوا ذلك فقد جاءكم بينة . "جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور

والكاف مفعوله وبينة فاعله ، والجملة لا محل لها جواب شرط مقدر . "وَهُدىً وَرَحْمَةٌ" عطف . "فَمَنْ" الفاء استئنافية ومن اسم استفهام مبتدأ "أَظْلَمُ" خبره "مِمَّنْ" اسم موصول في محل جر بمن والجار والمجرور متعلقان بأظلم . "كَذَّبَ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور "بِآياتِ" والجملة صلة الموصول لا محل لها وجملة "وَصَدَفَ عَنْها" معطوفة عليها . "سَنَجْزِي الَّذِينَ" فعل مضارع واسم الموصول مفعوله والسين حرف استقبال . "يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا" مضارع

مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "سُوءَ" مفعوله الثاني والجملة صلة الموصول لا محل لها كذلك وجملة سنجزي استئنافية لا محل لها . "بِما" ما مصدرية مبنية على السكون ، "كانُوا" كان والواو اسمها وجملة "يَصْدِفُونَ" خبرها . والمصدر المؤول من ما والفعل بعدها في محل جر بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل نجزي أي نجزيهم بصدفهم عن آياتنا .

[سورة الأنعام (6) : آية 158]

(294/224)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا

مُنْتَظِرُونَ (158)

"هَلْ" حرف استفهام يفيد النفي . "يَنْظُرُونَ" مضارع والواو فاعله "إِلَّا" أداة حصر . "أَنْ" ناصبة "تَأْتِيَهُمُ" مضارع منصوب والهاء مفعوله "الْمَلائِكَةُ" فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به .

ومثلها أو يأتي ربك . "أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ" والتقدير هل ينظرون إلا إتيان الملائكة أو إتيان ربك . إلخ "آياتِ" مضاف إليه . و"رَبُّكَ" مضاف إليه . "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بالفعل المؤخر لا ينفع . "لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها" لا نافية وفعل مضارع ومفعوله وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها وجملة يأتي بعض في محل جر بالإضافة بعد الظرف يوم . "لَمْ تَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم واسمه ضمير مستتر والجملة في محل نصب صفة نفسا . "آمَنَتْ" فعل ماض والتاء للتأنيث . "مِنْ قَبْلُ" من حرف جر ، قبل ظرف زمان مبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . والجملة في محل نصب خبر تكن . "أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور وخيرا مفعوله والفاعل هي والجملة معطوفة . "قُلِ" فعل أمر والجملة مستأنفة لا محل لها "انْتَظِرُوا" فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول القول . "إِنَّا" إن واسمها .

"مُنْتَظِرُونَ" خبرها . والجملة تعليلية لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 159]

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (159)

(295/224)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب اسم إن. "فَرَّقُوا دِينَهُمْ" فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل رفع خبر إن "وَكانُوا شِيَعاً" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة. "لَسْتَ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها. "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر ليس وكذلك الجار والمجرور "فِي شَيْءٍ" متعلقان به أيضا. "إِنَّما" كافة ومكفوفة. "أَمْرُهُمْ" مبتدأ "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. "ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ" فعل مضارع والهاء مفعوله وفاعله هو "بِما" الباء حرف جر. "ما" مصدرية. "كانُوا" كان والواو اسمها وجملة "يَفْعَلُونَ" خبرها. والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ينبئهم. وجملة ينبئهم معطوفة.

[سورة الأنعام (6) : آية 160]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ

(160)

"مَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ . "جاءَ بِالْحَسَنَةِ" فعل ماض تعلق به الجار والمجرور . "فَلَهُ" الفاء رابطة لجواب الشرط . والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر . "عَشْرُ" مبتدأ مؤخر "أَمْثالِها" مضاف إليه مجرور والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملة فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ من . "فَلا" الفاء رابطة لجواب الشرط . لا نافية . "يُجْزى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، وهو المفعول الأول . "إِلَّا" أداة حصر . "مِثْلَها" مفعول به ثان ، والجملة جواب الشرط "وَهُمْ" ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ . "لا يُظْلَمُونَ" لا نافية ، يظلمون مضارع مبني للمجهول . والواو نائب فاعل والجملة خبر هم . وجملة وهم لا يظلمون مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 161]

(296/224)

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(161)

"قُلْ" فعل أمر . "إِنَّنِي" إن والياء اسمها والنون للوقاية "هَدانِي" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف للتعذر ، والنون للوقاية ، والياء في محل نصب مفعول به "رَبِّي" فاعل والياء مضاف إليه "إِلى صِراطٍ" متعلقان بالفعل هداني . "مُسْتَقِيمٍ" صفة وجملة إنني . مقول القول وجملة هداني في محل رفع خبر إن . "دِيناً" بدل من محل إلى صراط وهو المفعول الثاني للفعل هداني في الأصل لأن هدى يتعدى مباشرة كما في قوله تعالى "اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ" أو بحرف الجر كما في الآية "قِيَماً" صفة لدينا . "مِلَّةَ" بدل من دينا . "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة . "حَنِيفاً" حال منصوبة . "وَما" الواو استئنافية ، ما نافية . "كانَ" ماض ناقص "مِنَ الْمُشْرِكِينَ" متعلقان بمحذوف خبر كان واسمها ضمير مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 162]

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (162)

"قُلْ" فعل أمر والجملة مستأنفة لا محل لها ، "إِنَّ صَلاتِي" إن واسمها "وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي" معطوفة "لِلَّهِ" جار ومجرور متعلقان بالخبر . "رَبِّ" بدل من لفظ الجلالة مجرور بالكسرة "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم . وجملة إن صلاتي مقول القول مفعول به .

[سورة الأنعام (6) : آية 163]

لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)

(297/224)

"لا" نافية للجنس تعمل عمل إن. "شَرِيكَ" اسمها مبني على الفتحة الظاهرة. "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر لا والجملة مستأنفة لا محل لها "وَبِذلِكَ" الواو عاطفة. الباء حرف جر ذا اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل المؤخر "أُمِرْتُ". واللام للبعد والكاف للخطاب. والجملة معطوفة. "وَأَنَا أَوَّلُ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "الْمُسْلِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة الأنعام (6) : آية 164]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164)

"قُلْ" الجملة مستأنفة "أَغَيْرَ" مفعول به مقدم منصوب بالفتحة والهمزة للاستفهام "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "أَبْغِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل، والفاعل أنا

"رَبًّا" تمييز منصوب .

"

(298/224)

وَهُوَ رَبُّ" مبتدأ وخبر والواو حالية والجملة في محل نصب حال وجملة أبغي مقول القول . "كُلِّ" مضاف إليه "شَيْءٍ" مضاف إليه . "وَلا تَكْسِبُ كُلُّ" فعل مضارع وفاعله "نَفْسٍ" مضاف إليه ولا نافية لا عمل لها والجملة معطوفة على ما قبلها . "إِلَّا" أداة حصر . "عَلَيْها" متعلقان بالفعل تكسب "وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ" فعل مضارع وفاعله ومفعوله ولا نافية والجملة معطوفة . "أُخْرى" مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر . "ثُمَّ" عاطفه "إِلى رَبِّكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ المؤخر "مَرْجِعُكُمْ" والجملة معطوفة . "فَيُنَبِّئُكُمْ" فعل مضارع فاعله هو والكاف مفعوله والجملة معطوفة . "بِما" اسم موصول في محل جر بالباء والجار والمجرور متلعقان بالفعل قبلهما . "كُنْتُمْ" كان والتاء اسمها . "فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون تعلق به الجار والمجرور قبله والواو فاعله ، والجملة في محل نصب خبر كنتم . وجملة كنتم صلة الموصول لا محل لها .

[سورة الأنعام (6) : آية 165]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)

"

(299/224)

وَهُوَ" ضمير رفع منفصل في محل رفع مبتدأ . "الَّذِي" اسم موصول خبره والجملة معطوفة . "جَعَلَكُمْ" فعل ماض فاعله مستتر والكاف مفعوله الأول و "خَلَائِفَ" مفعوله الثاني . "الْأَرْضِ" مضاف إليه مجرور . "وَرَفَعَ" فعل ماض تعلق به الظرف "فَوْقَ" "بَعْضَكُمْ" مفعوله و "بَعْضٍ" مضاف إليه "دَرَجَاتٍ" منصوب بنزع الخافض إلى درجات "لِيَبْلُوَكُمْ" فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والكاف مفعوله وفاعله ضمير مستتر والميم علامة جمع الذكور . والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل يبلوكم . "فِي مَا" ما موصولية مجرورة متعلقان بالفعل "آتَاكُمْ" فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف والكاف مفعوله والفاعل هو والجملة صلة الموصول لا محل لها . "إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ" إن واسمها وخبرها والجملة مستأنفة لا محل لها وجملة "وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ

رَحِيمٌ" معطوفة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن/ لدعاس حـ 1 صـ 289.

349 ﴾

(300/224)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والعشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/225)

الجزء الخامس والعشرون بعد المائتين

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

(4/225)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْأَنْعَام

ذكر فِيهَا خَمْسَة عشر حَدِيثا

441 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام نزل عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي صورته

قلت فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن الشّعبيّ عَن مَسْرُوق عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

رَأَى جِبْرِيل فِي صورته مرَّتَيْنِ رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي تَفْسِيره سُورَة النَّجْم وَمُسلم فِي الْإِيمَان

وَفِي لفظ لَهما رَأَى جِبْرِيل لَهُ سِتّمائَة جنَاح

442 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن جِبْرِيل نزل عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي صُورَة دحْيَة الْكَلْبِيّ

قلت رَوَى البُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث أبي عُثْمَان النَّهْدِيّ عَن سلمَان الْفَارِسِي قَالَ نبئت أَن جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام أَتَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعِنْده أم سَلَمَة قَالَ فَجعل يتحدث ثمَّ قَامَ فَقَالَ نَبِي الله لأم سَلَمَة من هَذَا فَقَالَت دحْيَة الْكَلْبِيّ قَالَت أم سَلَمَة مَا حسبته إِلَّا إِيَّاه حَتَّى سَمِعت خطْبَة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يخبر عَن جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام

وَرَوَى الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتَاب الْفَضَائِل عَن مَسْرُوق عَن عَائِشَة قَالَت لقد رَأَيْت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُنَاجِي فِي حُجْرَتِي رجلا شبهته بِدِحْيَة الْكَلْبِيّ فَقَالَ لِي هَذَا جِبْرِيل وَهُوَ يُقْرِئك السَّلَام مُخْتَصرا

(5/225)

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده قَالَت رَأَيْت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَاضِعا يَدَيْهِ عَلَى معرفَة فرس وَهُوَ يكلم رجلا قلت رَأَيْتُك عَلَى معرفَة فرس دحْيَة الْكَلْبِيّ وَأَنت تكلمه قَالَ وَرَأَيْتِيهِ قَالَت نعم قَالَ ذَاك جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام وَهُوَ يُقْرِئك السَّلَام قَالَت وَعَلِيهِ السَّلَام

وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث عفير بن معدان حَدثنِي قَتَادَة عَن أنس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يَقُول يأتيني جِبْرِيل عَلَى صُورَة دحْيَة الْكَلْبِيّ قَالَ أنس وَكَانَ دحْيَة رجلا جسيما جميلا أَبيض انْتَهَى

وَرَوَى أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من حَدِيث سَلمَة بن شبيب ثَنَا أَبُو الْمُغيرَة عَن صَفْوَان بن عَمْرو عَن شُرَيْح بن عبيد عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ رَأَيْت جِبْرِيل فِي خلقته الَّذِي خلق عَلَيْهِ وَكنت أرَاهُ قبل ذَلِك فِي صور مُخْتَلفَة وَأَكْثر مَا كنت أرَاهُ فِي صُورَة دحْيَة الْكَلْبِيّ مُخْتَصر

وَرَوَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا عَفَّان بن مُسلم ثَنَا حَمَّاد بن سَلمَة عَن إِسْحَاق بن سُوَيْد عَن يَحْيَى بن يعمر عَن ابْن عمر قَالَ كَانَ جِبْرِيل يَأْتِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي صُورَة دحْيَة الْكَلْبِيّ انْتَهَى

443 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ مَا عرفت فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يختصمان فِي بِئْر فَقَالَ أَحدهمَا أَنا فطرتها أَي ابْتَدَأتهَا

قلت رَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث فِي بَاب كَلَام التَّابعين فِي تَرْجَمَة أبي وَائِل فَقَالَ حَدثنَا يَحْيَى بن سعيد الْقطَّان عَن سُفْيَان الثَّوْريّ عَن إِبْرَاهِيم بن مهَاجر عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كنت لَا أَدْرِي

مَا فاطر السَّمَوَات . . . إِلَى آخِره بحُرُوفِهِ

وَرَوَاهُ كَذَلِك فِي كتَاب الْفَضَائِل الْقُرْآن سَوَاء

وَمن طَرِيق أبي عبيد رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السَّابِع عشر بِسَنَدِهِ وَمَتنه وَعَجبت من الْبَيْهَقِيّ كَيفَ قَالَ فِي كِتَابه الْأَسْمَاء وَالصّفَات عِنْد كَلَامه عَلَى الفاطر من أَسْمَائِهِ تَعَالَى أخْبرت عَن أبي سُلَيْمَان الْخطابِيّ أَنه قَالَ أَخْبرنِي الْحسن ابْن عبد الرَّحِيم ثَنَا عبد الله بن زَيْدَان قَالَ قَالَ أَبُو روق عَن ابْن عَبَّاس . . . فَذكره وَهُوَ قد رَوَاهُ مُتَّصِلا فِي شعب الْإِيمَان وَالله أعلم

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ ثَنَا ابْن وَكِيع ثَنَا يَحْيَى بن سعيد بِهِ

وَأَعَادَهُ الْمُصَنّف فِي سُورَة فاطر وَهَكَذَا رَوَاهُ الطَّبَرِيّ

444 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَنهم اجْتَمعُوا إِلَى أبي طَالب وَأَرَادُوا برَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سوء فَقَالَ (وَالله لن يصلوا إِلَيْك بِجَمْعِهِمْ . . . حَتَّى أُوَسَّد فِي التُّرَاب دَفِينا)

(فَاصْدَعْ بِأَمْرِك مَا عَلَيْك غَضَاضَة . . . وَابْشَرْ بِذَاكَ وقر مِنْهُ عيُونا)

(وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمت أَنَّك نَاصح . . . وَلَقَد صدقت وَكنت ثمَّ أَمينا)

(وَعرضت دينا لَا محَالة أَنه . . . من خير أَدْيَان الْبَرِيَّة دينا)

(لَوْلَا الْمَلَامَة أَو حذَارِي مسبَّة . . . لَوَجَدْتنِي سَمحا بِذَاكَ مُبينًا) فَنزلت

(7/225)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة عَن أبي عبد الله الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّد بن إِسْحَاق حَدثنِي يَعْقُوب بن عتبَة بن الْمُغيرَة بن الْأَخْنَس أَنه حدث أَن قُرَيْشًا حِين قَالَت لأبي طَالب هَذِه الْمقَالة بعث إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لَهُ يَا ابْن أخي إِن قَوْمك قد جَاءُونِي وَقَالُوا كَذَا وَكَذَا فَاكْفُفْ عَن قَوْمك مَا يكْرهُونَ فَظن النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ أَنه خاذله وَمُسلمُهُ فَبَكَى وَوَلَّى فَأَقبل عَلَيْهِ أَبُو طَالب وَقَالَ يَا بن أخي امْضِ عَلَى أَمرك وَافْعل مَا أَحْبَبْت فوَالله لَا أسلمك لشَيْء أبدا قَالَ ابْن إِسْحَاق ثمَّ قَالَ الشّعْر . . . فَذكره سَوَاء مُخْتَصرا

445 - الْحَدِيث الرَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من مَاتَ فقد قَامَت قِيَامَته

قلت غَرِيب

وَرَوَى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا أَبُو كريب ثَنَا وَكِيع ثَنَا سُفْيَان عَن زِيَاد بن علاقَة عَن الْمُغيرَة بن شُعْبَة قَالَ يَقُولُونَ الْقِيَامَة الْقِيَامَة وَإِنَّمَا قِيَامَة الرجل مَوته

وَذكر أَبُو شُجَاع الديلمي فِي كتاب الفردوس من حَدِيث أنس مَرْفُوعا إِذا مَاتَ أحدكُم فقد قَامَت قِيَامَته

وَبِه عَن سُفْيَان عَن أبي قيس قَالَ شهدت جَنَازَة فِيهَا عَلْقَمَة فَلَمَّا دفن قَالَ أما هَذَا فقد قَامَت قِيَامَته انْتَهَى

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُمَا الثَّعْلَبِيّ كِلَاهُمَا فِي سُورَة الْقِيَامَة

وَرَوَى أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة زِيَاد بن عبد الله النميري من حَدِيث دَاوُد ابْن المحبر ثَنَا عبد الْوَاحِد بن الْخطاب قَالَ سَمِعت زِيَاد بن عبد الله النميري وَنحن فِي جَنَازَة وَذكروا الْقِيَامَة فَقَالَ زِيَاد من مَاتَ فقد قَامَت قِيَامَته انْتَهَى

(8/225)

والْحَدِيث مَعْنَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن عَائِشَة قَالَت كَانَت الْأَعْرَاب إِذا قدمُوا عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَأَلُوهُ عَن السَّاعَة فَينْظر إِلَى أحدث إِنْسَان مِنْهُم فَيَقُول

إِن يَعش هَذَا لم يُدْرِكهُ الْهَرم حَتَّى تقوم عَلَيْكُم سَاعَتكُمْ قَالَ هِشَام يَعْنِي مَوْتهمْ انْتَهَى

446 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن ابْن عَبَّاس كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُسمى الْأَمين

قلت غَرِيب من حَدِيث ابْن عَبَّاس

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات من حَدِيث يعْلى بن أُمَيَّة قَالَ بلغ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خمْسا وَعشْرين سنة وَلَيْس لَهُ بِمَكَّة اسْم إِلَّا الْأَمين لما تَكَامل فِيهِ من خِصَال الْخَيْر

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث عَلّي بن أبي طَالب نَحوه

447 - الْحَدِيث السَّادِس

رُوِيَ أَن رُؤَسَاء من الْمُشْركين قَالُوا لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَو طردت هَؤُلَاءِ الْأَعْبد عَنَّا يعنون فُقَرَاء الْمُسلمين وهم عمار وصهيب وخباب وسلمان وَأَضْرَابه وأرواح جبَابهمْ وَكَانَت عَلَيْهم جباب من صوف جلسنا إِلَيْك وحدثناك فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا أَنا بطارد الْمُؤمِنِينَ قَالُوا فأقمهم عَنَّا إِذا جِئْنَا فَإِذا قمنا فَأَقْعَدَهُمْ مَعكُمْ إِن شِئْت قَالَ نعم طَمَعا فِي إِيمَانهم

وَرُوِيَ أَن عمر قَالَ لَهُ لَو فعلت حَتَّى نَنْظُر إِلَى مَا يصيرون قَالَ فَاكْتُبْ بذلك كتابا فَدَعَا بالصحيفة وبعلي ليكتب فَنزلت فَرَمَى بالصحيفة وَاعْتذر عمر من مقَالَته

قَالَ سلمَان وخباب فِينَا نزلت وَكَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقْعد

(9/225)

مَعنا وَنَدْنُو مِنْهُ حَتَّى تمس ركبنَا ركبته وَكَانَ يقوم عَنَّا إِذا أَرَادَ الْقيام فَنزلت واصبر نَفسك مَعَ الَّذين يدعونَ رَبهم فَترك الْقيام عَنَّا إِلَى أَن نقوم وَقَالَ الْحَمد لله الَّذِي لم يُمِتْنِي حَتَّى أَمرني أَن أَصْبِر نَفسِي مَعَ قوم من أمتِي مَعكُمْ الْمحيا وَمَعَكُمْ الْمَمَات

(10/225)

قلت رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي كتاب الزّهْد مَعَ تغير يسير من حَدِيث أبي سعيد الْأَزْدِيّ عَن أبي الكنود عَن خباب بن الْأَرَت فِي قَوْله تَعَالَى وَلَا تطرد الَّذين يدعونَ رَبهم بِالْغَدَاةِ والعشي إِلَى قَوْله فَتَكون من الظَّالِمين قَالَ جَاءَ الْأَقْرَع بن حَابِس وعيينة بن حصن الْفَزَارِيّ فوجدوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَعَ صُهَيْب وبلال وعمار وخباب قَاعِدا فِي نَاس من الضُّعَفَاء من الْمُؤمنِينَ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حول النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَقرُوهُمْ فَأَتوهُ فَخلوا وَقَالُوا إِنَّا نُرِيد أَن نجْعَل لنا مِنْك مَجْلِسا تعرف لنا الْعَرَب فضلنَا فَإِن وُفُود الْعَرَب تَأْتِيك ونستحي أَن ترَانَا الْعَرَب مَعَ هَذِه الْأَعْبد فَإِذا نَحن جِئْنَاك فأقمهم عَنْك فَإِذا نَحن

فَرغْنَا فَاقْعُدْ مَعَهم إِن شِئْت قَالَ نعم قَالُوا فَاكْتُبْ لنا عَلَيْك كتبا فَقَالَ دَعَا بِصَحِيفَة ودعا عليا ليكتب وَنحن قعُود فِي نَاحيَة فَنزل جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ (وَلَا تطرد الَّذين يدعونَ رَبهم بِالْغَدَاةِ والعشي يُرِيدُونَ وَجهه مَا عَلَيْك من حسابهم من شَيْء وَمَا من حِسَابك عَلَيْهِم من شَيْء فَتَطْرُدهُمْ فَتكون من الظَّالِمين) ثمَّ ذكر الْأَقْرَع بن حَابِس وعيينة فَقَالَ وَكَذَلِكَ فتنا بَعضهم ببَعْض لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ من الله عَلَيْهِم من بَيْننَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَم بِالشَّاكِرِينَ ثمَّ قَالَ وَإِذا جَاءَك الَّذين يُؤمنُونَ بِآيَاتِنَا فَقل سَلَام عَلَيْكُم كتب ربكُم عَلَى نَفسه الرَّحْمَة قَالَ فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضعنَا ركبنَا عَلَى ركبته وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَام يجلس مَعنا فَإِذا أَرَادَ أَن يقوم قَامَ وَتركنَا فَأَنْزل الله واصبر نَفسك مَعَ الَّذين يدعونَ رَبهم بِالْغَدَاةِ والعشي يُرِيدُونَ وَجهه

(11/225)

وَلَا تعد عَيْنَاك عَنْهُم وَلَا تجَالس الْأَشْرَاف وَلَا تُطِع من أَغْفَلنَا قلبه عَن ذكرنَا يَعْنِي عُيَيْنَة والأقرع وَاتبع هَوَاهُ وَكَانَ أمره فرطا هَلَاكًا قَالَ أَمر عُيَيْنَة والأقرع ثمَّ ضرب لَهُم مثلا الرجلَيْن وَمثل الْحَيَاة الدُّنْيَا قَالَ الْخَبَّاب فَكُنَّا نقعد مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَإِذا بلغنَا السَّاعَة الَّتِي نقوم قمنا وَتركْنَاهُ حَتَّى يقوم انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كتاب الْفَضَائِل ثَنَا أَحْمد بن الْمفضل ثَنَا أَسْبَاط بن نصر

عَن السّديّ عَن أبي سعيد الْأَزْدِيّ بِهِ

وَمن طَرِيق ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة خباب وَرَوَاهُ ابْن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي وَكَذَلِكَ الْبَزَّار وَقَالَ لَا نعلم رَوَاهُ إِلَّا خباب وَلَا طَرِيقا لَهُ غير هَذَا الطَّرِيق انْتَهَى

(12/225)

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالسبْعين والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول من حَدِيث سُلَيْمَان بن عَطاء الْحَرَّانِي عَن مسلمة بن عبد الله الْحَنَفِيّ عَن عَمه أبي مشجعَة بن ربعي عَن سلمَان قَالَ جَاءَت الْمُؤَلّفَة قُلُوبهم إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عُيَيْنَة بن بدر والأقرع بن حَابِس وذووهم فَقَالُوا يَا رَسُول الله إِنَّك لَو جَلَست فِي صدر الْمَسْجِد ونفيت عَنَّا هَؤُلَاءِ وأرواح جِبَابهمْ يعنون أَبَا ذَر وسلمان وفقراء الْمُسلمين وَكَانَت عَلَيْهِم جباب صوف وَلم يكن عَلَيْهِم غَيرهَا جلسنا إِلَيْك وحدثناك وأخذنا عَنْك فَأنْزل الله تَعَالَى واصبر نَفسك مَعَ الَّذين يدعونَ رَبهم بِالْغَدَاةِ والعشي إِلَى قَوْله إِنَّا أَعْتَدْنَا للظالمين نَارا فَقَامَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يلتمسهم حَتَّى أَصَابَهُم فِي مُؤخر الْمَسْجِد يذكرُونَ الله فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْحَمد لله الَّذِي لم يُمِتْنِي حَتَّى أَمرنِي أَن

أَصْبِر نَفسِي مَعَ قوم من أمتِي مَعكُمْ الْمحيا وَالْمَمَات انْتَهَى وَالله الْمُوفق

448 - الْحَدِيث السَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَأَلت الله أَن لَا يبْعَث عَلَى أمتِي عذَابا من فَوْقهم أَو من تَحت أَرجُلهم فَأَعْطَانِي ذَلِك وَسَأَلته أَن لَا يَجْعَل بأسهم بَينهم فَمَنَعَنِي وَأَخْبرنِي جِبْرِيل أَن فنَاء أمتِي بِالسَّيْفِ

(13/225)

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَأقرب مَا وجدته إِلَى هَذَا اللَّفْظ مَا رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنِي عبد الله بن مُحَمَّد بن يزِيد حَدثنِي الْوَلِيد بن أبان ثَنَا جَعْفَر ابْن مُنِير ثَنَا أَبُو بدر شُجَاع بن الْوَلِيد ثَنَا عَمْرو بن قيس عَن رجل عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة قل هُوَ الْقَادِر عَلَى أَن يبْعَث عَلَيْكُم عذَابا من فَوْقكُم أَو من تَحت أَرْجُلكُم أَو يلبسكُمْ شيعًا وَيُذِيق بَعْضكُم بَأْس بعض قَالَ فَقَامَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَتَوَضَّأ ثمَّ قَالَ اللَّهُمَّ لَا ترسل عَلَى أمتِي عذَابا من فَوْقهم وَلَا من تَحت أَرجُلهم وَلَا تَلبسهمْ شيعًا وَلَا تذق بَعضهم بَأْس بعض قَالَ فَأَتَاهُ جِبْرِيل فَقَالَ يَا مُحَمَّد إِن الله قد أَجَارَ أمتك أَن يُرْسل عَلَيْهِم عذَابا من فَوْقهم أَو من تَحت أَرجُلهم انْتَهَى

وَقد ورد هَذَا الحَدِيث من طرق كَثِيرَة بِأَلْفَاظ مُخْتَلفَة

فروَى مُسلم فِي صَحِيحه فِي الْفِتَن عَن سعد بن أبي وَقاص عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ سَأَلت رَبِّي ثَلَاثًا سَأَلته أَن لَا يهْلك أمتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلته أَن لَا يهْلك أمتِي بِالسنةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلته أَن لَا يَجْعَل بأسهم بَينهم فَمَنَعَنِيهَا

قَالَ وَفِي الْمُوَطَّأ مَالك عَن عبد الله بن عبد الله بن جَابر بن عتِيك عَن ابْن عمر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دَعَا لأمته بِثَلَاث أَن لَا يظْهر عَلَيْهِم عدوا من غَيرهم وَلَا يُهْلِكهُمْ بالسّنِينَ فَأَعْطَانِيهَا ودعا بِأَن لَا يَجْعَل بأسهم بَينهم فَمَنَعَنِيهَا

قَالَ ابْن عمر فَلَنْ يزَال الْهَرج إِلَى يَوْم الْقِيَامَة مُخْتَصر

وَرَوَى ابْن ماجة فِي سننه نَحوه عَن معَاذ بن جبل

(14/225)

وَعند النَّسَائِيّ عَن أنس بن مَالك مَرْفُوعا سَأَلت رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي شَيْئَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَة سَأَلته أَلا يَبْتَلِي أمتِي بِالسّنِينَ فَفعل وَسَأَلته أَن لَا يظْهر عَلَيْهِم عدوا من غَيرنَا وَسَأَلته أَن لَا يلْبسهُمْ شيعًا فَأَبَى عَلَيّ أخرجه فِي الصَّلَاة

قَالَ النَّوَوِيّ فِي الْخُلَاصَة إِسْنَاده صَحِيح

وَعند التِّرْمِذِيّ فِي الْفِتَن وَابْن حبَان فِي صَحِيحه عَن خباب بن الْأَرَت مَرْفُوعا سَأَلت رَبِّي ثَلَاث خِصَال فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْن وَمَنَعَنِي وَاحِدَة سَأَلت رَبِّي أَن لَا يُهْلِكنَا بِمَا أهلك بِهِ الْأُمَم الْمَاضِيَة فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلته أَن لَا يظْهر علينا عدوا من غَيرنَا فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلته أَن لَا يلْبِسنَا شيعًا فَمَنَعَنِيهَا انْتَهَى

وَعند أَحْمد فِي مُسْنده عَن أبي بصرة الْغِفَارِيّ مَرْفُوعا سَأَلت رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَرْبعا فَأَعْطَانِي ثَلَاثه وَمَنَعَنِي وَاحِدَة سَأَلت الله أَن لَا يجمع أمتِي عَلَى ضَلَالَة فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلته أَن لَا يُهْلِكهُمْ بِالسِّنِينَ كَمَا أهلك الْأُمَم قبلهم فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلته أَن لَا يلْبِسهُمْ شيعًا وَيُذِيق بَعضهم بَأْس بعض فَمَنَعَنِيهَا انْتَهَى

وَعند الطَّبَرَانِيّ عَن عَلِي مَرْفُوعا سَأَلت رَبِّي ثَلَاث خِصَال أَعْطَانِي اثْنَتَيْن وَمَنَعَنِي وَاحِدَة قلت يَا رب لَا تهْلك أمتِي جوعا قَالَ هَذِه لَك قلت يَا رب لَا تسلط عَلَيْهِم عدوا من غَيرهم يَعْنِي أهل الشّرك فتجتاحهم قَالَ هَذِه لَك قلت يَا رب لَا تجْعَل بأسهم بَينهم فَمَنَعَنِيهَا انْتَهَى

وَعند ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا دَعَوْت رَبِّي أَن يرفع عَن أمتِي أَرْبعا فَرفع عَنْهُم ثِنْتَيْنِ وَأَبَى فِي ثِنْتَيْنِ دَعَوْت رَبِّي أَن يرفع عَنْهُم الرَّجْم

(15/225)

من السَّمَاء وَالْغرق من الأَرْض وَألا يلْبسهُمْ شيعًا وَألا يُذِيق بَعضهم بَأْس بعض فَرفع الله عَنْهُم الرَّجْم من السَّمَاء وَالْغرق من الأَرْض وَأَبَى أَن يرفع عَنْهُم الْهَرج وَالْقَتْل انْتَهَى

وَفِي هَذَا الْبَاب أَحَادِيث كَثِيرَة وَلَكِن مَا ذكرته أَجودهَا إِسْنَادًا

وَلم أجد لفظ الْمُصَنّف إِلَّا فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ من غير سَنَد وَلَا راو

449 - الْحَدِيث الثَّامِن

عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما نزلت عذَابا من فَوْقكُم أعوذ بِوَجْهِك فَلَمَّا نزلت أَو من تَحت أَرْجُلكُم أَو يلْبسكُمْ شيعًا قَالَ هَاتَانِ أَهْون

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب الِاعْتِصَام من حَدِيث عَمْرو ابْن دِينَار عَن جَابر قَالَ لما نزل عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قل هُوَ الْقَادِر عَلَى أَن يبْعَث عَلَيْكُم عذَابا من فَوْقكُم قَالَ أعوذ بِوَجْهِك أَو من تَحت أَرْجُلكُم قَالَ أعوذ بِوَجْهِك فَلَمَّا نزلت (أَو يلْبسكُمْ شيعًا وَيُذِيق بَعْضكُم بَأْس بعض) قَالَ هَاتَانِ أَهْون أَو أيسر انْتَهَى

450 - الْحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لمَالِك بن الصَّيف وَهُوَ من أَحْبَار الْيَهُود وَرُؤَسَائِهِمْ أنشدك بِالَّذِي أنزل التَّوْرَاة عَلَى مُوسَى هَل تَجِد فِيهَا أَن الله يبغض الحبر السمين فَأَنت الحبر السمين قد سمنت من مَالك الَّذِي تُطْعِمُك الْيَهُود فَضَحِك الْقَوْم فَغَضب ثمَّ

الْتفت إِلَى عمر فَقَالَ مَا انْزِلْ الله عَلَى بشر من شَيْء فَقَالَ لَهُ قومه وَيلك مَا هَذَا الَّذِي بلغنَا عَنْك قَالَ إِنه أَغْضَبَنِي فنزعوه وَجعلُوا مَكَانَهُ كَعْب ابْن الْأَشْرَف وَقيل الْقَائِلُونَ قُرَيْش

(16/225)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا ابْن حميد ثَنَا يَعْقُوب القمي عَن جَعْفَر بن أبي الْمُغيرَة عَن سعيد بن جُبَير قَالَ جَاءَ رجل من الْيَهُود يُقَال لَهُ مَالك بن الصَّيف . . . إِلَى قَوْله فَغَضب وَزَاد فَأنْزل الله وَمَا قدرُوا الله حق قدره إِذْ قَالُوا مَا أنزل الله عَلَى بشر من شَيْء قل من أنزل الْكتاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى انْتَهَى

وَكَذَلِكَ ذكره الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول عَن سعيد بن جُبَير أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لمَالِك بن الصَّيف . . . إِلَى قَوْله فَغَضب وَزَاد ثمَّ قَالَ مَا أنزل الله عَلَى بشر من شَيْء

قلت وَقيل الْقَائِلُونَ قُرَيْش رَوَاهُ الطَّبَرِيّ عَن مُجَاهِد

451 - الْحَدِيث الْعَاشِر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ رَأَيت فِيمَا يرَى النَّائِم كَأَن فِي يَدي سِوَارَيْنِ من ذهب

فَكبرَا عَلّي وَأَهَمَّانِي فَأَوْحَى الله إِلَيّ انْفُخْهُمَا فَنَفَخْتهمَا فطَارَا عني فَأَوَّلْتهمَا الْكَذَّابين اللَّذين أَنَا بَينهمَا كَذَّاب الْيَمَامَة مُسَيْلمَة وَكَذَّاب صنعاء الْأَسود الْعَنسِي

(17/225)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي الْمَغَازِي وَمُسلم فِي الرُّؤْيَا من حَدِيث نَافِع بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قدم مُسَيْلمَة الْكَذَّاب عَلَى عهد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمَدِينَة فَجعل يَقُول إِن جعل لِي مُحَمَّد الْأَمر من بعده تَبعته فَقَدمهَا فِي بشر كثير من قومه فَأَقبل إِلَيْهِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَمَعَهُ ثَابت بن قيس بن شماس وَفِي يَد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قِطْعَة جَرِيدَة حَتَّى وقف عَلَى مُسَيْلمَة فِي أَصْحَابه قَالَ لَو سَأَلتنِي هَذِه الْقطعَة مَا أعطيتكها وَلَنْ أَتَعَدَّى أَمر الله فِيك وَلَئِن أَدْبَرت ليَعْقِرنك الله وَإِنِّي لأراك الَّذِي أريت فِيك مَا رَأَيْت فَأَخْبرنِي أَبُو هُرَيْرَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ بَيْنَمَا أَنا نَائِم رَأَيْت فِي يَدي سِوَارَيْنِ من ذهب فَأَهَمَّنِي شَأْنهمَا فَأُوحي إِلَيّ فِي الْمَنَام أَن أَنْفُخهُمَا فَنَفَخْتهمَا فطَارَا فَأَوَّلْتهمَا كَذَّابين يخرجَانِ بعدِي فَكَانَ أَحدهمَا الْعَنسِي صَاحب صنعاء وَالْآخر مُسَيْلمَة صَاحب الْيَمَامَة انْتَهَى

وَوهم الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فَرَوَاهُ فِي كتاب الرُّؤْيَا وَقَالَ عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجاهُ

452 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

(18/225)

رُوِيَ أَن عبد الله بن سعد بن أبي سرح الْقرظِيّ هُوَ الْقَائِل سَأُنْزِلُ مثل مَا أنزل الله وَكَانَ يكْتب لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَكَانَ إِذا أَمْلَى عَلَيْهِ سميعا كتب هُوَ عليما حكيما وَإِذا قَالَ عليما حكيما كتب غَفُورًا رحِيما فَلَمَّا نزل وَلَقَد خلقنَا الْإِنْسَان من سلالة من طين إِلَى آخر الْآيَة عجب عبد الله من تَفْصِيل خلق الْإِنْسَان فَقَالَ تبَارك الله أحسن الْخَالِقِينَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام اكْتُبْهَا فَهَكَذَا نزلت فَشك عبد الله وَقَالَ إِن كَانَ مُحَمَّد صَادِقا لقد أُوحِي إِلَيّ كَمَا أُوحِي إِلَيْهِ وَإِن كَانَ كَاذِبًا فقد قلت كَمَا قَالَ فَارْتَد عَن الْإِسْلَام وَلحق بِمَكَّة ثمَّ رَجَعَ مُسلما قبل فتح مَكَّة قيل وَهُوَ النَّضر بن الْحَارث

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ مُخْتَصرا حَدثنِي مُحَمَّد بن الْحُسَيْن ثَنَا أَحْمد بن الْمفضل ثَنَا أَسْبَاط عَن السّديّ فِي قَوْله تَعَالَى (وَمن أظلم مِمَّن افترَى عَلَى الله كذبا أَو قَالَ أُوحِي إِلَيّ وَلم يُوح إِلَيْهِ شَيْء) إِلَى قَوْله (تُجْزونَ عَذَاب الْهون) قَالَ نزلت فِي عبد الله بن سعد بن أبي سرح أسلم وَكَانَ يكْتب للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانَ إِذا أَمْلَى عَلَيْهِ سميعا عليما كتب هُوَ

عليما حكيما وَإِذا قَالَ عليما حكيما كتب سميعا عليما فَشك وكفر وَقَالَ إِن كَانَ مُحَمَّد يُوحَى إِلَيْهِ

فقد أُوحِي إِلَيّ وَإِن كَانَ الله ينزله فقد أنزلت مثل مَا أنزل الله قَالَ مُحَمَّد سميعا عليما فَقلت أَنا عليما حكيما فلحق بالمشركين

وَذكره الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول عَن الْكَلْبِيّ عَن ابْن عَبَّاس بِلَفْظ الْمُصَنّف . . . إِلَى قَوْله فَارْتَد عَن الْإِسْلَام

(19/225)

وَقد ورد فِي هَذِه الْوَاقِعَة أَنَّهَا كَانَت من ابْن خطل رَوَى ابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث أَصْرَم بن حَوْشَب عَن أبي سِنَان عَن الضَّحَّاك عَن النزال بن سُبْرَة عَن عَلّي بن أبي طَالب قَالَ كَانَ ابْن خطل يكْتب للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَكَانَ إِذا نزل غَفُور رَحِيم كتب رَحِيم غَفُور وَإِذا نزل سميع عليم كتب عليم سميع فَقَالَ لَهُ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْمًا اعْرِض عَلّي مَا كتبت فَعرض عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ مَا هَكَذَا أمليتك غَفُور رَحِيم وَرَحِيم غَفُور وَسميع عليم وَعَلِيم سميع وَاحِد فَقَالَ ابْن خطل إِن كَانَ مُحَمَّد نَبيا فَإِنِّي مَا كنت أكتب إِلَّا مَا أُرِيد ثمّ كفر وَلحق بِمَكَّة فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قتل ابْن خطل فَلَهُ الْجنَّة

فَقتل يَوْم فتح مَكَّة وَهُوَ مُتَعلق بِأَسْتَارِ الْكَعْبَة فَأَرَادَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يسْتَكْتب مُعَاوِيَة فكره أَن يَأْتِي مُعَاوِيَة مَا أَتَى من ابْن خطل فَاسْتَشَارَ جِبْرِيل فَقَالَ اسْتَكْتَبَهُ فَإِنَّهُ أَمِين انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن عدي رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات وَقَالَ الْمُتَّهم بِهِ أَصْرَم قَالَ الْبُخَارِيّ وَمُسلم وَالنَّسَائِيّ مَتْرُوك وَقَالَ ابْن حبَان كَذَّاب يضع الحَدِيث عَلَى الثِّقَات وَقَالَ ابْن معِين كَذَّاب خَبِيث انْتَهَى كَلَامه

(20/225)

وَقَالَ أَبُو الْفَتْح الْيَعْمرِي فِي أَوَاخِر سيرته عُيُون الْأَثَر بعد أَن ذكر حَدِيث ابْن عدي هَذَا إِنَّه وهم وَالْحمل فِيهِ عَلَى من دون النزال وَإِنَّمَا هَذِه الْوَقْعَة مَعْرُوفَة عَن ابْن أبي سرح وَهُوَ مِمَّن أهْدر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دَمه يَوْم الْفَتْح كَابْن خطل وَتشفع ابْن أبي سرح بعثمان بن عَفَّان فَقبله عَلَيْهِ السَّلَام بعد تلوم وَحسن بعد ذَلِك إِسْلَامه حَتَّى لم ينقم عَلَيْهِ فِيهِ شَيْء وَمَات سَاجِدا رَحْمَة الله تَعَالَى انْتَهَى

453 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

رَوَى أَبُو وَائِل عَن ابْن مَسْعُود عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه خطّ خطا ثمَّ قَالَ هَذِه

سَبِيل الرشد ثمَّ خطّ عَن يَمِينه وَعَن شِمَاله خُطُوطًا ثمَّ قَالَ هَذِه سبل عَلَى كل سَبِيل مِنْهَا شَيْطَان يَدْعُو إِلَيْهِ ثمَّ تَلا وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبعُوهُ الْآيَة

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير أخبرنَا يَحْيَى بن حبيب ثَنَا حَمَّاد عَن عَاصِم عَن أبي وَائِل عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ خطّ لنا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْمًا خطا فَقَالَ هَذِه سَبِيل الله ثمَّ خطّ خُطُوطًا عَن يَمِين الْخط وَعَن شِمَاله فَقَالَ هَذِه سَبِيل عَلَى كل سَبِيل مِنْهَا شَيْطَان يَدْعُو إِلَيْهِ ثمَّ تَلا وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبعُوهُ لِلْخَطّ الأول وَلَا تتبعوا السبل لِلْخُطُوطِ فَتفرق بكم عَن سَبِيله ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الْحَادِي عشر من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

(21/225)

وَرَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم قَالَ الْبَزَّار وَرَوَاهُ عَن أبي وَائِل غير وَاحِد

وَرَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده وَسَنَده عَن حَمَّاد بن زيد عَن عَاصِم ابْن أبي النجُود بِهِ

454 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن الْبَراء بن عَازِب كُنَّا نتذاكر السَّاعَة إِذْ أشرف علينا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ فيمَ تتذاكرون قُلْنَا نتذاكر السَّاعَة قَالَ إِنَّهَا لَا تقوم حَتَّى تروا قبلهَا عشر آيَات الدُّخان ودابة الأَرْض وخسفا بالمشرق وخسفا بالمغرب وخسفا بِجَزِيرَة الْعَرَب

والدجال وطلوع الشَّمْس من مغْربهَا ويأجوج وَمَأْجُوج ونزول عِيسَى وَنَارًا تخرج من عدن

قلت غَرِيب من حَدِيث الْبَراء

وَرَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الْفِتَن من حَدِيث حُذَيْفَة قَالَ أطلعنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنحن نتذاكر السَّاعَة فَقَالَ إِن السَّاعَة لَا تقوم حَتَّى تكون عشرَة الدُّخان والدجال وطلوع الشَّمْس من مغْربهَا وَالدَّابَّة وَثَلَاثَة خُسُوف خف بالمشرق وَخسف بالمغرب وَخسف فِي جَزِيرَة الْعَرَب ونزول عِيسَى بن مَرْيَم وَفتح يَأْجُوج وَمَأْجُوج ونار تخرج من عدن انْتَهَى

455 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

فِي الحَدِيث افْتَرَقت الْيَهُود عَلَى إِحْدَى وَسبعين فرقة كلهَا فِي الهاوية إِلَّا وَاحِدَة وَهِي النَّاجِية وافترقت النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسبعين فرقة كلهَا فِي الهاوية إِلَّا وَاحِدَة وتفترق أمتِي عَلَى ثَلَاث وَسبعين كلهَا فِي الهاوية إِلَّا وَاحِدَة

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث أنس وَمن حَدِيث سعد ابْن أبي وَقاص وَمن حَدِيث مُعَاوِيَة وَمن حَدِيث عَمْرو بن عَوْف الْمُزنيّ وَمن حَدِيث عَوْف بن مَالك وَمن حَدِيث أبي أُمَامَة وَمن حَدِيث جَابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهم

أما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب السّنة وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن ماجة فِي كتاب الزّهْد من حَدِيث مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلَمَة عَن

أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افْتَرَقت الْيَهُود عَلَى إِحْدَى وَسبعين فرقة وافترقت النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسبعين فرقة وَسَتَفْتَرِق أُمتِي عَلَى ثَلَاث وَسبعين فرقة انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح زَاد أَبُو دَاوُد فِي رِوَايَة مِنْهَا ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّار وَوَاحِدَة فِي الْجنَّة وَزَاد التِّرْمِذِيّ كلهم فِي النَّار إِلَّا مِلَّة وَاحِدَة قَالُوا من هِيَ يَا رَسُول الله قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وأصحابي انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السَّادِس من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْعلم وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ وَقَالَ وَقد احْتج مُسلم بِمُحَمد بن عَمْرو واستدرك عَلَيْهِ الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره فَقَالَ لم يحْتَج بِهِ مُنْفَردا وَلَكِن مَقْرُونا بِغَيْرِهِ انْتَهَى

وَأما حَدِيث أنس فَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة زيد بن أسلم فَقَالَ حَدثنَا حبيب بن الْحسن ثَنَا عمر بن حَفْص السدُوسِي ثَنَا عَاصِم بن عَلّي ثَنَا أَبُو معشر عَن يَعْقُوب بن زيد بن طَلْحَة عَن زيد بن أسلم عَن أنس بن مَالك قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افْتَرَقت أمة مُوسَى عَلَى إِحْدَى وَسبعين فرقة مِنْهُم فِي النَّار سَبْعُونَ فرقة وَوَاحِدَة فِي الْجنَّة وَتَفَرَّقَتْ أمة عِيسَى عَلَى ثِنْتَيْن وَسبعين فرقة مِنْهَا فِي الْجنَّة وَاحِدَة وَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّار وَتَعْلُو أمتِي عَلَى الْفرْقَتَيْن جَمِيعًا بملَّة وَاحِدَة فِي الْجنَّة وثنتان وَسَبْعُونَ فِي النَّار قَالُوا من هم يَا رَسُول الله قَالَ الْجَمَاعَات مُخْتَصر

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا عبد الله بن جَعْفَر ثَنَا أَحْمد بن يُونُس الضَّبِّيّ ثَنَا عَاصِم بن عَلّي بِهِ سَوَاء

وَأما حَدِيث سعد بن أبي وَقاص فَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُسْنده ثَنَا أَحْمد ابْن عبد الله بن يُونُس عَن أبي بكر عَن مُوسَى بن عُبَيْدَة عَن عبد الله بن عُبَيْدَة عَن ابْنه سعد عَن أَبِيهَا سعد عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحوه

وَأما حَدِيث عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْعلم من

حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن زِيَاد الإِفْرِيقِي بِهِ عَنهُ نَحوه وَقَالَ لَا تقوم بِهِ حجَّة وَإِنَّمَا ذكره شَاهدا وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَسكت عَنهُ

(24/225)

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْمدْخل من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن زِيَاد بن أنعم عَن عبد الله بن يزِيد عَن عبد الله بن عَمْرو مَرْفُوعا إِن بني إِسْرَائِيل تفرقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسبعين مِلَّة وَإِن أمتِي سَتَفْتَرِق عَلَى ثَلَاث وَسبعين فرقة كلهَا فِي النَّار إِلَّا وَاحِدَة قيل وَمَا هِيَ يَا رَسُول الله قَالَ مَا أَنا عَلَيْهِ الْيَوْم وأصحابي مُخْتَصر

وَأما حَدِيث مُعَاوِيَة فَرَوَاهُ الْحَاكِم أَيْضا من حَدِيث عبد الله بن لحي الْهَوْزَنِي عَن مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَحوه وَقَالَ إِسْنَاده تقوم بِهِ الْحجَّة

رَوَاهُ أَحْمد والدارمي فِي مسنديهما وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْمدْخل وَقَالَ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه

وَأما حَدِيث عَمْرو بن عَوْف الْمُزنِيّ فَرَوَاهُ الْحَاكِم أَيْضا عَن كثير بن عبد الله ابْن عَمْرو بن عَوْف عَن أَبِيه عَن جده عَمْرو بن عَوْف عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن بني إِسْرَائِيل افْتَرَقت عَلَى سبعين فرقة كلهَا ضَالَّة إِلَّا وَاحِدَة ثمَّ افْتَرَقت عَلَى عِيسَى بن مَرْيَم

إِحْدَى وَسبعين فرقة كلهَا ضَالَّة إِلَّا وَاحِدَة وَإِنَّكُمْ تفْتَرِقُونَ اثْنَتَيْنِ وَسبعين فرقة كلهَا ضَالَّة إِلَّا وَاحِدَة الْإِسْلَام وجماعته وَفِيه قصَّة

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه قَالَ الْحَاكِم وَكثير بن عبد الله لَا تقوم بِهِ حجَّة

وَأما حَدِيث عَوْف بن مَالك فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث عباد ابْن يُوسُف عَن صَفْوَان بن عَمْرو عَن رَاشد بن سعد عَن عَوْف بن مَالك

(25/225)

قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم افْتَرَقت الْيَهُود عَلَى إِحْدَى وَسبعين فرقة وافترقت النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسبعين فرقة وَسَتَفْتَرِق أُمتِي عَلَى ثَلَاث وَسبعين فرقة وَأمتِي تزيد عَلَيْهِم فرقة كلهَا فِي النَّار إِلَّا السوَاد الْأَعْظَم انْتَهَى قَالَ وَلم يروه عَن سلم بن رزين إِلَّا أَبُو عَلّي الْحَنَفِيّ

وَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي تَارِيخ أَصْبَهَان فِي تَرْجَمَة أبي غَالب ثَنَا أَحْمد بن جَعْفَر ابْن معبد ثَنَا يَحْيَى بن مطرف ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن الْمُبَارك ثَنَا قُرَيْش بن حبَان ثَنَا أَبُو غَالب بِهِ

وَأما حَدِيث جَابر بن عبد الله فَرَوَاهُ أسلم بن سهل الوَاسِطِيّ الْمَعْرُوف ببَحْشَلٍ فِي كِتَابه تَارِيخ وَاسِط ثَنَا مُحَمَّد بن الْهَيْثَم ثَنَا شُجَاع بن الْوَلِيد عَن عَمْرو بن قيس عَمَّن حَدثهُ عَن

جَابر بن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَفَرَّقت الْيَهُود عَلَى إِحْدَى وَسبعين فرقة كلهَا فِي النَّار وَتَفَرَّقَتْ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسبعين فرقة كلهَا فِي النَّار وَإِن أمتِي سَتَفْتَرِق عَلَى ثَلَاث وَسبعين فرقة كلهَا فِي النَّار إِلَّا وَاحِدَة فَقَالَ عمر بن الْخطاب أخبرنَا يَا رَسُول الله من هم قَالَ السوَاد الْأَعْظَم انْتَهَى

456 - الْحَدِيث الْخَامِس عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أنزلت عَلّي سُورَة الْأَنْعَام جملَة وَاحِدَة يشيعها سَبْعُونَ أَلف ملك لَهُم زجل بالتسبيح والتحميد فَمن قَرَأَ الْأَنْعَام صَلَّى عَلَيْهِ واستغفر لَهُ أُولَئِكَ السبعون أَلف ملك بِعَدَد كل آيَة من سُورَة الْأَنْعَام يَوْمًا وَلَيْلَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث أبي عصمَة عَن يزِيد الْعمي

(26/225)

عَن أبي نَضرة عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أنزلت عَلّي سُورَة الْأَنْعَام . . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَفِي مُعْجم الطَّبَرَانِيّ الصَّغِير بعضه قَالَ الطَّبَرَانِيّ ثَنَا إِبْرَاهِيم بن نائلة ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عَمْرو البَجلِيّ ثَنَا يُوسُف بن عَطِيَّة الصفار ثَنَا عبد الله بن عون عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نزلت عَلّي سُورَة الْأَنْعَام جملَة وَاحِدَة يشيعها سَبْعُونَ أَلف ملك لَهُم زجل بالتسبيح والتحميد انْتَهَى

وَعَن الطَّبَرَانِيّ أَيضا رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسَنَدِهِ وَمَتنه وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه حَدِيث الْكتاب بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان وَمتْن الْمُصَنّف سَوَاء

وَعَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عبد الله بن عَوْف وَقَالَ غَرِيب من حَدِيث ابْن عون وَلم نَكْتُبهُ إِلَّا من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن يُوسُف انْتَهَى

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 1 صـ 433. 451 ﴾

(27/225)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الأنعام

قوله تعالى : (وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا) ، الآية : 68 .

فأمر نبيه بالإعراض عن الذين يخوضون في آيات اللّه ، وذلك يدل على وجوب اجتناب مجالس الملحدين ، وسائر الكفرة ، عند إظهارهم الشرك والكفر وما يستحيل على اللّه «1» .

ونظيره قوله تعالى : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ) إلى قوله تعالى : (كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ) «2» .

---

(1) أنظر الإكليل للسيوطي .

(2) سورة المائدة آية 78 - 79 .

(28/225)

وقال تعالى : (وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) «1» .

وقال : (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً) إلى قوله تعالى (وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ) «2» .

قال قائلون : هي منسوخة بآيات القتال .

وقال آخرون : إنها ليست منسوخة لكنها على وجه التعزيز ، كقوله تعالى : (ذَرْنِي وَمَنْ

خَلَقْتُ وَحِيداً) «3» .

قوله تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ) «4» .

يستدل به على وجوب اتباع شرائع الأنبياء والتزامها .

قوله تعالى : (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الآية : 108 .

يدل على الكف عن سب السفهاء الذين يتسرعون إلى سبه على وجه المقابلة ، لأنه بمنزلة البعث على المعصية .

قوله تعالى : (وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) .

الآية : 121 .

حمله الشافعي على النهي عن الميتات ، ويدل عليه ما روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : قال المشركون : تأكلون مما مات من قبلكم ولا تأكلون

---

(1) سورة هود آية 113 . [. . . . .]

(2) سورة الانعام آية 70 .

(3) سورة المدثر آية 11 .

(4) سورة الانعام آية 90 .

مما مات من قبل ربكم ، فنزلت هذه الآية «1» .

قال : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ) «2» في ذبائح المشركين ، ولم تكن المناظرة في هذه المسألة ظاهرة فيما بينهم ، وإنما كانت المجادلة في الميتة .

قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً) ، الآية : 136 .

قال ابن عباس : كانوا يجعلون من حرثهم ومواشيهم جزءا للّه وجزءا لشركائهم ، فكان إذا خالط مما جعلوه جزءا لشركائهم ما جعلوه للّه ، رجعوا فيما جعلوه للّه تعالى فجعلوه لشركائهم ، وكانوا إذا أجدبوا أخذوا ما جعلوه للّه تعالى لأنفسهم ، فنزلت الآية «3» .

قوله تعالى : (وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ) ، الآية : 138 :

أما الأنعام التي ذكرها أولا ، فهي ما جعلوه لأوثانهم . والأنعام التي ذكرت ثانيا ، فالسائبة والوصيلة والحام .

قوله تعالى : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً) ، الآية : 140 .

أراد به : قتلوهم سفها خوف الإملاق ، وحجروا على أنفسهم في أموالهم ، ولم يحسوا فيه الإملاق ، فأبان عن تناقض آرائهم .

---

(1) أخرجه اصحاب السنن والامام أحمد في مسنده .

(2) سورة الأنعام آية 121 .

(3) روي عن علي بن أبي طلحة والصوفي ، والواحد النيسابوري وابن كثير والقرطبي .

أنظر أسباب النزول للواحدي ، وأحكام القرآن لابن عربي ، ومحاسن التأويل للقاسمي ، وتفسير القرطبي وابن كثير .

(30/225)

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : إذا أردت أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ) «1» .

قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ) ، الآية 141 .

استدل به من أوجب العشر في الخضروات ، وأنه تعالى قال : (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ) ، والمذكور قبله الزيتون والرمان ، والمذكور عقيب جملة ينصرف إلى الأخير بلا خلاف .

ومن يخالف ذلك يقول : الظاهر منه الحبوب ، فإن الحصاد لا يطلق حقيقة إلا عليه ، وإنما يطلق على ما سواه مجازا فاعلمه .

وأمكن أن يقال : إن المراد بقوله : (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ) :

حقه الانفاق منه على ذويه وأقربائه وعلى نفسه ، وصرفه في المصارف الواجبة ، فإن ذلك بمعنى العشر أو نصف العشر ، ويدل على ذلك أن اللّه تعالى قال : (وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) ، وإنما يقال ذلك فيما ليس مقدرا ، بل هو مفوض إلى اختيار الإنسان واجتهاده ، فعليه أن يراعي حد الاقتصاد والاجتهاد ، فأما إذا كان الواجب محدودا مقدرا فلا يقال فيه : ولا تسرفوا ، وهذا هو الظاهر من الكلام ، وليس فيه دليل على العشر من الخضروات «2» .

قوله تعالى : (قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً) ، الآية :

145 .

---

(1) أنظر الشهاب ، والسيوطي في الإكليل ، وابن كثير ، وفتح البيان .

(2) انظر الإكليل للسيوطي

(31/225)

احتج به كثير من السلف في إباحة ما عدا المذكور في هذه الآية .

فمنها لحوم الحمر الأهلية ، روى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن

زيد : إنهم يزعمون أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نهى عن لحوم الحمر الأهلية ، قال :

قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، قال :

ولكن أبى ذلك البحر يعني ابن عباس ، وقرأ : (قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً) الآية .

وعن عائشة أنها كانت لا ترى بلحوم السباع والدم يكون في أعلى العروق بأسا ، وقد قرأت هذه الآية :

(قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً) الآية .

واعلم أن ظاهر الآية لا يمنع من تحريم غير المذكور ، إلا أنه لا يدل على أنه لا يحرم في الشرع الآن ، ويجوز أن يكون قد تجدد بعده .

وقد قيل : (قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً) ، مما كنتم تستبيحونه وتتناولونه ولا تعدونه من الخبائث إلا هذه الأمور ، وإلا فقد اشتمل القرآن على أشياء محرمة كالمنخنقة والموقوذة ، واشتمل الإجماع على تحريم أشياء كالقاذورات والخمر والآدمي ، والأشياء التي أوجب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قتلها ، وقد شرحنا ذلك في أصول الفقه ، إلا أن ظهور « 1 » الآية ، لا يدفع قبل بيان التأويل ، وعليه بنى الشافعي تحليل كل مسكوت عنه أخذا من هذه الآية ، إلا ما دل عليه الدليل .

وبالجملة ، الاتفاق على تحريم أشياء لا ذكر لها في الآية مع خصوص السبب الذي قاله المفسرون يقوي التأويل ويجوز قبول أخبار الآحاد فيه .

(1) أي ظاهر .

(32/225)

قوله تعالى : (وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا) . الآية : 146 .

هذا يحتج به الشافعي ، في أن من حلف لا يأكل الشحم ، حنث بأكل شحم الظهور ، لاستثناء اللّه تعالى ما على ظهورها من جملة الشحم .

قوله تعالى : (وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)

«1» :

إنما خص اليتيم بالذكر فيما أمرنا به من ذلك ، لعجزه عن الإنتصار لنفسه ، وتأكد الأطماع في ماله ، فلاجرم أكد النهي عن أخذ ماله بتخصيصه بالذكر .

وقوله تعالى : (إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

: يدل على أن للوصي أن يدفع مال اليتيم مضاربة . وجعل المرد بلوغ الأشد ، وذلك هو البلوغ .

لأن الأشد والكمال لا يعرف إلا بوجود الحد الشرعي وهو البلوغ .

وأبو حنيفة يقول : بلوغ الأشد : بلوغ خمس وعشرين سنة ، وهذا تحكم منه لا وجه له .

ولا دليل عليه لا لغة ولا شرعا .

قوله تعالى : (وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) . الآية : 153 .

يدل على منع الارتياء «2» والنظر مع وجود النص ومنع من الاختلاف .

---

(1) سورة الانعام آية 152 . انظر سنن ابي داود في هذه الآية

(2) اي الرأي .

وكذلك قوله : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً) ، الآية : 159 .

وإنما قال ذل لأن بعض هؤلاء يكفر بعضا ، من حيث لم يكن من السنة المأثورة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وحرفوا الكلم تعصّبا وهوى ، فحذر اللّه تعالى من ذلك ودعا إلى الاجتماع والألفة .

قوله تعالى : (قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) - إلى قوله تعالى - (وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) ، الآية : 161 ، 162 .

استدل به الشافعي على افتتاح الصلاة بهذا الذكر ، فإن اللّه تعالى أمر نبيه به وأنزله في كتابه .

وروي عن علي رضي اللّه عنه أن النبي عليه السلام كان إذا افتتح الصلاة قال :

«وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي - إلى قوله - وأنا من المسلمين» «1» .

وروي عن عائشة ، أن النبي عليه السلام كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه ثم قال :

«سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك وعلا جدك ولا إله غيرك» «2» .

والأول كان يقوله قبل أن ينزل : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ

---

(1) أخرجه الامام مسلم في صحيحه عن أبي خيثمة زهير بن حرب عن عبد الرحمن بن مهدي .

(2) أخرجه الامام أحمد في مسنده .

تَقُومُ) «1» ، فلما نزل ذلك وأمر بالتسبيح عند القيام إلى الصلاة ، ترك الأول على زعم أبي حنيفة .

وأصحاب الشافعي يقولون : الأمر بالتسبيح لا ينافي الذكر عند افتتاح الصلاة ، ويجوز أن يقول عند القيام : سبحان اللّه وبحمده ، وإذا قام من القراءتين ، وكذلك قوله :

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ) ، وذلك يدل على ما قلناه من أن ذلك التسبيح ليس ذكرا في الصلاة .

قوله تعالى : (وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها) ، الآية :

164 .

يحتج به في عدم نفوذ تصرف زيد على عمرو ، إلا ما قام الدليل عليه .

قوله تعالى : (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) ، الآية : 164 .

يحتج به في ألّا يؤاخذ زيد بفعل عمرو ، وأن كل مباشر لجريمته فعليه مغبتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 3 صـ 123 . 130 ﴾

---

(1) سورة الطور آية 48 . [. . . . .]

(35/225)

وقال العلامة القنوجى :

سورة الأنعام

[مائة وخمس وستون آية]

مكيّة إلا ست آيات نزلت بالمدينة وهي وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إلى آخر ثلاث آيات مع اختلاف في العدد «1».

[الآية الأولى]

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (108).

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ الموصول عبارة عن الآلهة التي كانت تعبدها الكفار.

والمعنى: لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التي يدعونها من دون اللّه فيتسبب عن ذلك سبهم اللّه، عدوانا وتجاوزا عن الحق، وجهلا منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق، والناهي عن الباطل، إذا خشي أن يتسبب عن ذلك، ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد، كان الترك أولى به، بل كان واجبا عليه.

---

(1) قال ابن العربي: مكية كلها إلا آيات تسعا نزلت بالمدينة.

قلت: وذلك على اختلاف الروايات، والآيات التسع المدنيات هي على المشهور [20، 23، 91، 93، 114، 141، 151 - 153] وروي عن ابن عباس أنها مكية

غير ست آيات منها ، فإنها مدنيات (151 - 153) و(91) . . . وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين (20) وروي عن ابن عباس أيضا . وقتادة . وكذلك (141) ، وانظر في ذلك : الأحكام لابن العربي (2/ 726) ، والناسخ والمنسوخ (2/ 210) ومحاسن التأويل (6/ 2230) . [. . . . .]

(36/225)

قال الشوكاني في «فتح القدير» «1» : وما أنفع هذه الآية ، وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج اللّه ، المتصدين لبيانها للناس ، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه ، وتركوا غيره من المعروف ، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه ، وفعلوا غيره من المنكرات ، عنادا للحق ، وبغضا لاتباع المحقين ، وجرأة على اللّه ، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف ، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة ، وجعل المخالفة لها ، والتجرؤ على أهلها ديدنه ، وهجيراه كما يشاهد ذلك في أهل البدع إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل ، وإذا أرشدوا إلى السنة قابلوها بما لديهم من البدعة ! فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين ، المتهاونون بالشرائع ، وهم أشر من الزنادقة ، لأنهم يحتجون بالباطل ، وينتمون إلى البدع ، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين .

والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام، وتحاماهم أهله، وقد ينفق كيدهم، ويتم باطلهم وكفرهم، نادرا على ضعيف من ضعفاء المسلمين، مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل.

انتهى.

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة، غير منسوخة، وهي أصل في سد الذرائع، وقطع التطرق إلى الشبه.

وقوله: عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (108) منصوب على الحال، أو على المصدر، أو على أنه مفعول له.

[الآيتان: الثانية والثالثة]

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119).

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ: قيل إنها نزلت في سبب خاص، كما أخرج أبو داود والترمذي وحسنه، والبزار وغيرهم، عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى

---

(1) انظره في (2/ 150).

النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فقالوا : إنا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل اللّه ، فأنزل اللّه هذه الآية «1» .

ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل ما ذكر الذبح عليه اسم اللّه حل ، إن كان مما أباح اللّه أكله .

وقال عطاء : في هذه الآية الأمر بذكر اللّه على الشراب والذبح ، وكل مطعوم «2» .

[. . . . .] «3» إلى قوله : وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ : أي بين لكم بيانا مفصلا يدفع الشك ويزيل الشبهة بقوله : قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً [الأنعام : 145] إلى آخر الآية .

ثم استثنى فقال : إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ : أي من جميع ما حرمه اللّه عليكم فإن الضرورة تحلل الحرام . وقد تقدم تحقيقه في البقرة «4» .

[الآية الرابعة]

وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) .

وَلا تَأْكُلُوا : نهى اللّه سبحانه عن الأكل :

مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم اللّه عليه ، وفيه دليل تحريم أكل

ما لم يذكر اسم اللّه عليه «5» .

وقد اختلف أهل العلم في ذلك فذهب ابن عمر ونافع مولاه ، والشعبي وابن

---

(1) إسناده ضعيف : رواه أبو داود (2819) ، والطبري (13825) ، والبيهقي في «الكبرى» (9/ 240) عن ابن عباس فذكره .

وأورده السيوطي في «الدر» (8/ 346 ، 347) وزاد ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه .

وعلته في الضعف : عطاء بن السائب ، لا يحتج بحديثه إلا ما رواه الثقات عنه قبل اختلاطه .

وفيه أيضا : عمران بن عيينة وزياد البكائي ، ليسا من الثقات .

(2) صحيح : رواه ابن جرير في «تفسيره» (13790) بسند صحيح رجاله ثقات .

(3) يبدو من السياق وجود سقط وهو شرح نهاية الآية (118) مع أول الآية (119) .

(4) انظر ما سبق من تفسير سورة البقرة آية رقم (173) .

(5) انظر التعليق السابق عند آية (4) من سورة المائدة .

سيرين ، وهو رواية عن مالك وعن أحمد بن حنبل ، وبه قال أبو ثور وأبو داود الظاهري ، إلى أن ما لم يذكر اسم اللّه عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسي لهذه الآية ، ولقوله تعالى في آية الصيد : فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ [المائدة : 4] .

ويزيد هذا الاستدلال تأكيدا قوله سبحانه في هذه الآية : وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة الأمر بالتسمية ، في الصيد وغيره .

وذهب الشافعي وأصحابه - وهو رواية عن مالك ورواية عن أحمد - إلى أن التسمية مستحبة لا واجبة ، وهو مروي عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح .

وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير اللّه وهو تخصيص بالآية بغير مخصص .

وقد روى أبو داود في «المراسيل» «1» أن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قال : «ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم اللّه عليه أو لم يذكر» ، وليس في هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : إن قوما يأتوننا بلحمان لا ندري أذكر اسم اللّه عليه أم لا ؟ فقال : «سموا أنتم وكلوا» «2» يفيد أن التسمية عند الأكل تجزىء مع التباس وقوعها عند الذبح .

وذهب مالك وأحمد في المشهور عنه وأبو حنيفة وأصحابه ، وإسحاق بن راهوية أن التسمية إن تركت نسيانا لم تضر ، وإن تركت عمدا لم يحل أكل الذبيحة ، وهو مروي عن

علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاووس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبي عبد الرحمن .

واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس عن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قال : «المسلم إن نسي أن يسمي حين يذبح فليذكر اسم اللّه وليأكله» «3» .

---

(1) إسناده ضعيف : رواه أبو داود في «المراسيل» (378) ، والبيهقي في «الكبرى» (9/ 240) . وأورده الزيلعي في «نصب الراية» (4/ 183) ، وقال عن ابن القطان : وفيه مع الإرسال أن الصلت السدوسي لا يعرف له حال ، ولا يعرف بغير هذا ، ولا روى عنه غير ثور بن يزيد . اه . .

(2) حديث صحيح : رواه البخاري (9/ 634) .

(3) صحيح موقوفا : رواه البيهقي في «الكبرى» (9/ 239) عن ابن عباس مرفوعا . ورواه عبد الرزاق (8548) ، والبيهقي أيضا (9/ 239) .

قلت : وعلة المرفوع - معقل بن عبيد اللّه الجزري - صدوق يخطىء .

(39/225)

وهذا الحديث رفعه خطأ وإنّما هو من قول ابن عباس .

وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر .

نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى : رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا [البقرة : 286] ، وبقوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» «1» .

وأما حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن عدي : «أن رجلا جاء إلى النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فقال : يا رسول اللّه أرأيت الرجل ذبح ونسي أن يسمي ؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «اسم اللّه على كل مسلم» ، فهو حديث ضعيف قد ضعفه البيهقي وغيره «2» .

والضمير في قوله : إنه وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ يرجع إلى (ما) بتقدير مضاف ، أي وإن أكل ما لم يذكر لفسق ، ويجوز أن يرجع إلى مصدر تأكلوا ، أي فإن الأكل لفسق .

وقد تقدم تحقيق الفسق «3» .

وقد استدل من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير اللّه بقوله : وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، ووجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقا ، بل الفسق الذبح لغير اللّه .

ويجاب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه اللّه عليه غير ممتنع شرعا «4» .

أما الموقوف فرجاله ثقات .

(1) حديث صحيح : رواه الطبراني في «الصغير» (10/ 270) ، والدارقطني في «سننه» (4/ 170 ، 171) ، والحاكم في «المستدرك» (2/ 198) ، والبيهقي في «الكبرى» (7/ 356) ، وابن حبان في «صحيحه» (7219) ، والطحاوي في «شرح المعاني» (3/ 95) عن ابن عباس مرفوعا بنحوه .

(2) حديث ضعيف : رواه ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (6/ 385) ، والبيهقي في «الكبرى» (9/ 240) عن أبي هريرة مرفوعا .

قلت : وضعفه ابن عدي وكذا البيهقي .

(3) وذلك عند تفسير الآية (3) من سورة المائدة .

(4) انظر في تفسير هذه الآية : الناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/ 214 ، 216) ، والأحكام له (2/ 740) ، الزجاج (2/ 316) ، ابن قتيبة (161) ، النكت (1/ 558) ، زاد المسير (3/ 115) ، اللباب (104) ، القرطبي (7/ 77) .

[.....]

(40/225)

[الآية الخامسة]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) .

وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ قد اختلف أهل العلم : هل هذه محكمة ؟ أو منسوخة ؟

أو محمولة على الندب ؟ فذهب ابن عمر وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير إلى أن الآية محكمة ، وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطي من حضر من المساكين القبضة والضّغث «1» ونحوهما .

وذهب ابن عباس ومحمد بن الحنفية والحسن والنخعي وطاووس وأبو الشعثاء ، وقتادة والضحاك وابن جريج إلى أن هذه الآية منسوخة بالزكاة ، واختاره ابن جرير «2» .

ويؤيده أن هذه الآية مكية وآية الزكاة مدنية في السنة الثانية بعد الهجرة ، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف .

وقالت طائفة من العلماء : إن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب .

وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) : ومثلها في الأعراف «3» ، أي لا تسرفوا في التصدق .

وأصل الإسراف في اللغة : الخطأ .

وفي الفقه : التبذير .

وقال سفيان : ما أنفقت في غير طاعة اللّه تعالى فهو إسراف ، وإن كان قليلا .

وقيل : هو خطاب للولاة يقال لهم : لا تأخذوا فوق حقكم ، وقيل : المعنى : لا تأخذوا الشيء بغير حقه ، ولا تضعوه في غير مستحقه .

---

(1) الضغث : القبضة من الحشيش مختلطة الرطب باليابس [اللسان ! ضغث] .

(2) انظر : تفسير الطبري (8/ 59) .

(3) عند الآية (31) .

(41/225)

[الآية السادسة]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) .

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ : أمره اللّه سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد في شيء مما أوحى إليه أي القرآن ، وفيه إيذان بأن مناط الحل والحرمة هو الوحي لا مجرد العقل .

مُحَرَّماً : غير هذه المذكورات ، فدل ذلك على انحصار المحرمات فيها لو لا أنها مكية وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة ، وزيد فيها على هذه المحرمات المنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة «1» .

وصحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم تحريم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير «2» .

وتحريم الحمر الأهلية «3» ، والكلاب «4» ، ونحو ذلك .

وبالجملة فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات ، كما يدل عليه السياق ، ويفيده الاستثناء ، فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب والسنة ، مما يدل على تحريم شيء من الحيوانات ، وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرمه اللّه من حيوان وغيره ، فإنه يضم إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء .

وقد روي عن ابن عباس وابن عمر وعائشة أنه لا حرام إلا ما ذكره اللّه في هذه الآية ، وروي ذلك عن مالك وهو قول ساقط ومذهب في غاية الضعف لاستلزامه إهمال غيرها مما نزل بعدها من القرآن ، وإهمال ما صح عن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أنه قال بحرمة شيء مثلا ، بعد نزول هذه الآية بلا سبب يقتضي ذلك ، ولا موجب يوجبه ، مع أن

---

(1) تقدّم الكلام عليها في تفسير سورة المائدة آية (3) .

(2) حديث صحيح : رواه البخاري (9/ 657) ، (10/ 249) ، ومسلم (13/

81 ، 83) ، عن أبي ثعلبة الخشني نحوه .

(3) حديث صحيح : رواه البخاري (7/ 481) ، ومسلم (13/ 90 ، 91) ، ابن عمر مرفوعا ، وذلك النهي كان في يوم خيبر ، وروي عن جمع من الصحابة أيضا .

(4) تدخل ضمن تحريم كل ذي ناب من السباع .

(42/225)

التمسك بقول أحد ، ولو كان صحابيا ، في مقابلة قوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم من سوء الاختيار وعدم الإنصاف .

وقوله مُحَرَّماً : صفة لموصوف محذوف ، أي طعاما محرما .

عَلى أي طاعِمٍ يَطْعَمُهُ : من المطاعم ، وفي يَطْعَمُهُ زيادة تأكيد وتقرير لما قبله .

إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً : أي ذلك الشيء ، أو ذلك الطعام ، أو العين ، أو الجثة ، أو النفس ، قرىء بالتحتية والفوقية وقرىء : ميتة ، بالرفع على أن يكون تامة .

أَوْ دَماً مَسْفُوحاً وهو الجاري ، وغير المسفوح معفو عنه ، كالدم الذي يبقى في العروق بعد الذبح ، ومنه الكبد والطحال ، وهكذا ما يتلطخ به اللحم من الدم .

وقد حكى القرطبي الإجماع على هذا «1» .

أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ : ظاهر تخصيص اللحم أنه لا يحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم ، والضمير في : فَإِنَّهُ رِجْسٌ ، راجع إلى اللحم أو إلى الخنزير .

والرجس : النجس ، وقد تقدم تحقيقه .

أَوْ فِسْقاً عطف على لَحْمَ خِنزِيرٍ .

وأُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ : صفة فسق ، أي ذبح على الأصنام وغيرها ، وسمي فسقا لتوغله في باب الفسق ، ويجوز أن يكون فسقا مفعولا له لأهلّ ، أي أهلّ به لغير اللّه فسق على عطف أهلّ على يكون ، وهو تكلف لا حاجة إليه .

فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ : قد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة فلا نعيده «2» .

فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ : أي كثير المغفرة .

رَحِيمٌ (145) : أي كثير الرحمة ، فلا يؤاخذ المضطر لما دعت إليه ضرورته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 290 ـ 297 ﴾

---

(1) انظر تفسيره (7/ 124) ، ومراتب الإجماع لابن حزم (ص 172 ، 173) .

(2) وذلك عند تفسير الآية (173) من سورة البقرة .

وانظر في تفسير هذه الآية : المشكل لمكي بن أبي طالب (1/ 297) ، والزجاج (2/ 330) ، والتبيان (1/ 264) ، والفراء (1/ 260) ، وزاد المسير (3/ 138) .

وقال السايس :

من سورة الأنعام

قال اللّه تعالى : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119)

لما قال المشركون : يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «اللّه قتلها» ، قالوا : فتزعم أنّ ما قتلت أنت وأصحابك حلال ، وما قتل الصقر والكلب حلال ، وما قتله اللّه حرام فأنزل اللّه قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إلخ .

وجمهور المفسّرين على أنّ في الآية الأولى حصرا مستفادا من عدم اتباع المضلين المشار إليه بقوله تعالى قبل هذه الآية : وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ومستفاد أيضا من الشرط إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ فيكون المعنى : اجعلوا أكلكم مقصورا على ما ذكر اسم اللّه عليه ، ولا تتعدوه إلى الميتة ، ولولا هذا القصر لم يلاق الجواب الاعتراض ، ويكون الكلام متعرضا لما لا يحتاج إليه ، وساكتا عما يحتاج إليه .

وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى ترك الأكل مما ذكر اسم اللّه عليه من البحائر والسوائب ونحوها . وفي ذلك إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يعولوا على عوائد الجاهلية في تحريم ما لم يحرّمه اللّه ، ولا أن يعولوا على اعتراضاتهم وشبههم الواهية .

وقوله : وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ حال مؤكدة للإنكار ، أي أنه ليس هناك سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم اللّه عليه ، والحال أنه قد بيّن المحرّم عليكم في قوله تعالى : قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى إلخ فبقي ما عدا ذلك على الحل .

وقوله تعالى : إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ معناه لكن الذي اضطررتم إلى أكله مما هو محرّم عليكم حلال لكم حال الضرورة .

وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ معناه أن كثيرا من الكفار ليضلون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام كما حرموا البحيرة والسائبة ،

(44/225)

وأحلوا الميتة بأهوائهم وشهواتهم الباطلة ، وبغير علم أصلا ، إنما هو محض الهوى ، وسيجازيهم اللّه على هذا الاعتداء لا محالة .

قال اللّه تعالى : وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) قيل : المراد اتركوا جميع المعاصي ما أعلنتم وما أسررتم . وقيل : ما عملتم وما نويتم . وقيل : ظَاهِرَ الْإِثْمِ أفعال الجوارح وَبَاطِنَهُ أفعال القلوب .

وقيل : اتركوا الزنى في الحوانيت واتخاذ الأخدان .

وقد روي أنّ أهل الجاهلية كانوا يرون أنّ الزنى إذا ظهر كان إثما ، وإذا استتر فلا إثم فيه . ثم أخبر اللّه أنه لا بدّ سيجازي مرتكبي المعاصي على عصيانهم .

قال اللّه تعالى : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) المتبادر من المقام تخصيص ما لم يذكر اسم اللّه عليه بالحيوان ، فيكون ذلك نهيا عن الأكل من الحيوان الذي لم يذكر اسم اللّه عليه ، فتحرم الميتة وما ذكر عليه اسم غير اللّه ومتروك التسمية عمدا كان تركها أم سهوا ، وإلى ذلك ذهب داود ، وروي عن الحسن وابن سيرين .

وقال الشافعي : متروك التسمية حلال مطلقا ، وهو رواية عن مالك .

وذهب الحنفية إلى التفرقة بين العمد والنسيان ، فحرموا متروك التسمية عمدا ، وأحلّوا متروك التسمية نسيانا . وهذا هو الصحيح من مذهب مالك . وعن أحمد ثلاث روايات أصحها عندهم وهي المشهورة عنه : أن التسمية شرط للإباحة ، فإن تركها عمدا أو سهوا في صيد فهو ميتة ، وفي الذبيحة إن تركها سهوا حلّت ، وإن تركها عمدا فعنه

روايتان.

وحجة داود ومن قال بقوله هذه الآية الكريمة، وهي ظاهرة في ذلك.

وللحنفية في تقرير مذهبهم من الآية طريقان:

الأول: أن ظاهر الآية يقتضي شمولها لمتروك التسمية نسيانا، إلا أنّ الشارع جعل الناسي ذاكرا، لعذر من جهته، وفي ذلك رفع للحرج، فإنّ الإنسان كثير النسيان، فيكون متروك التسمية سهوا مخصوصا من حكم الآية.

والثاني: أنّ الناسي ليس بتارك التسمية، بل هي في قلبه على ما

روي عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال: «تسمية اللّه على كل مسلم»

وحينئذ يكون متروك التسمية عمدا أو سهوا بقوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ [المائدة: 3] إلى قوله تعالى: إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ

(45/225)

[المائدة: 3] فأباح المذكى، ولم يذكر التسمية، وليست التسمية جزءا من مفهوم الذكاة، فإنّ الذكاة لغة الشق والفتح وقد وجدا. وبحديث البخاري وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: إنهم قالوا: يا رسول اللّه إن قومنا حديثو عهد

بالجاهلية يأتون بلحمان لا ندري أذكروا اسم اللّه عليه أم لم يذكروا أفنأكل منها ؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «سموا وكلوا» «1»

قال أصحاب الشافعي هذه التسمية المستحبة عند أكل كل طعام ، وشرب كل شراب .

وأجابوا عن هذه الآية بأنّ المراد فيها ما ذبح للأصنام ، يدل على ذلك وجوه :

الأول : أنّ من أكل متروك التسمية ليس بفاسق ، وقد قال اللّه : وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .

والثاني : أن قوله تعالى : وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ يدل على أن المراد ما ذبح على اسم الأصنام ، فإن معناه إنّكم لو رضيتم بهذه الذبيحة التي ذبحت على اسم الأصنام فقد رضيتم بألوهيتها ، وذلك يوجب الشرك .

والثالث : أن قوله تعالى : وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ لا يجوز أن يكون معطوفا على النهي قبله ، لأنّ عطف الخبر على الإنشاء ضعيف إن لم يكن ممنوعا ، فكان قوله : وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ قيدا في النهي ، فصار هذا النهي مخصوصا بما إذا كان الأكل فسقا ، ثم طلبنا في كتاب اللّه تعالى أنه متى يكون الأكل فسقا فوجدناه مفسّرا في آية أخرى ، وهي قوله تعالى : قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلى أن قال : رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فصار الفسق في هذه الآية مفسّرا بما أهلّ به لغير اللّه ، وإذا كان كذلك كان قوله :

وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ مخصوصا بما أهلّ به لغير اللّه .

وأجاب بعض الشافعية بجواب آخر وهو حمل النهي على كراهة التنزيه جمعا بين الأدلة .

ومع هذا فالأولى بالمسلم أن يجتنب متروك التسمية ، لأنّ ظاهر هذا النص قوي .

وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ أي وإن إبليس وجنوده ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا محمدا وأصحابه في أكل الميتة ، كما سبق .

وقال عكرمة : المراد بالشياطين مردة المجوس من أهل فارس ، وكانوا قد كتبوا إلى قريش أنّ محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتّبعون أمر اللّه ، ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال ، وما يذبحه اللّه حرام ، فوقع في أنفس المسلمين من ذلك شيء فأنزل اللّه هذه الآية «2» .

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (6/ 281) ، 72 - كتاب الذبائح ، 21 - باب ذبيحة الأعراب حديث رقم (5507) ، وأبو داود في السنن (3/ 19) ، كتاب الأضاحي ، باب ما جاء في أكل اللحم حديث رقم (2829) ، والنسائي في السنن (7 - 8/ 272) ، كتاب الضحايا ، باب ذبيحة من لم يعرف حديث رقم (4448) ، وابن ماجه في السنن (2/ 1059) ، كتاب الذبائح ، باب التسمية حديث رقم (3174) .

(2) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان (8/ 12) .

وقوله تعالى : وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ يعني وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ في تحليل الميتة ، أو في تحليل ما أهلّ به لغير اللّه إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ وفيه دليل على أنّ من استحل الحرام واتبع غير اللّه في دينه كان كافرا ، لأنه أشرك باللّه غيره ، بل آثر حكمه على حكم اللّه . وهذا الكلام على تقدير القسم وحذف اللام الموطئة ، أي ولئن أطعتموهم إنّكم جواب القسم أغنى عن جواب الشرط ، وأجاز المبرّد أن يكون الجواب للشرط بلفظ الماضي .

قال اللّه تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141)

المعروشات من الكرم : ما يحمل على العريش ، وهو عيدان تصنع كهيئة السقف ، ويوضع الكرم عليها .

وغير المعروشات : الملقيات على وجه الأرض من الكرم أيضا . وقيل المعروش ما يحتاج إلى عريش يحمل عليه من الكرم وما يجري مجراه . وغير المعروش : الشجر المستغني باستوائه على سوقه عن التعريش . والأكل : الثمر المأكول .

والحصاد : حصد الزرع إذا انتهى وجاء زمانه .

سيقت هذه الآية هي ومثيلتها السابقة في قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ الآية لإقامة الدلائل على تقرير التوحيد .

المعنى : أنّ اللّه وحده هو الذي خلق وأظهر هذه الجنات من غير أن يكون معه شريك .

وقوله : كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ أمر إباحة ، وفائدة التقييد بقوله : إِذا أَثْمَرَ الترخيص للمالك في الأكل منه قبل أداء حقّ اللّه تعالى .

واختلف العلماء في الحق الواجب في الثمر المفهوم من قوله تعالى : وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ فعن ابن عباس أنه الزكاة الواجبة ، وهي العشر ، أو نصفه . وفي رواية أخرى على الخبر أيضا أنه ما كان يتصدق به يوم الحصاد بطريق الوجوب من غير تعيين المقدار ، ثم نسخ بالزكاة ، واختار هذه الرواية بعض العلماء ، لأنّ الزكاة فرضت بالمدينة ، وهذه السورة مكية .

وأجاب الإمام الرازي «1» عن ذلك بأنّا لا نسلّم أنّ الزكاة لم تكن واجبة بمكة ، وكون آيتها مدنية لا يدلّ على ذلك . على أنه قد قيل : إنّ هذه الآية من سورة الأنعام مدنية . وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

---

(1) انظر تفسير مفاتيح الغيب للإمام الرازي (13/ 213) .

لما أباح اللّه للمالك أن يأكل من الثمر قبل أداء حق اللّه تعالى فيه نهى عن الإسراف في الأكل المرخّص فيه قبل الحصاد ، كيلا يؤدي إلى بخس حق الفقراء ، وقال الزهري : المعنى لا تنفقوا في معصية اللّه ، ويروى نحوه عن مجاهد ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال : لو كان أبو قبيس ذهبا فأنفقه رجل في طاعة اللّه تعالى لم يكن مسرفا ، ولو أنفق درهما في معصية اللّه تعالى كان مسرفا .

ومن هنا قال بعض الحكماء : لا سرف في الخير ، ولا خير في السرف . وقال مقاتل : لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام «إنّ اللّه لا يحب المسرفين» بل يبغضهم من حيث إسرافهم ويعذّبهم عليه إن شاء .

قال اللّه تعالى : قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145)

روي عن طاوس أنّ أهل الجاهلية كانوا يستحلّون أشياء ، ويحرمون أشياء ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية «1» .

وقد ذكر اللّه قبل هذه الآية ما كانوا يحرمون من الأنعام ، وذمّهم على تحريم ما أحله ، وعنّفهم ، وأبان عن جهلهم ، لأنّهم حرّموا بغير وحي من اللّه ، ثم أتبع ذلك البيان الصحيح فقال : قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إلخ فبيّن بذلك أنّ التحليل والتحريم لا يثبت كلّ منهما إلا

بالوحي .

وإذ ليس في الوحي محرّم غير أربعة أشياء : الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والفسق الذي أهل لغير اللّه به : ثبت أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة .

واستشكلت هذه الآية بأنها حصرت المحرمات في هذه الأربعة ، ولا شك أنها أكثر من ذلك . وأجيب عن ذلك بأجوبة :

الأول : أن المعنى لا أجد محرّما مما كان أهل الجاهلية يحرّمونه من البحائر والسوائب كما يشير إلى ذلك سبب النزول والآيات السابقة على هذه الآية . وعلى هذا المعنى يكون الاستثناء منقطعا ، أي لا أجد ما حرّموه ، لكن أجد الأربعة محرّمة ، والاستثناء المنقطع ليس كالمتصل في إفادة الحصر ، كما نبهوا على ذلك .

والجواب الثاني : أن المعنى لا أجد إلى الآن محرّما على طاعم يطعمه إلا الأربعة ، ولم يرتض الإمام الرازي «2» هذين الجوابين ، لأنّه ورد في القرآن الكريم غير

---

(1) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان (8/ 50) .

(2) انظر تفسير مفاتيح الغيب للإمام الرازي (13/ 219) .

هذه الآية ثلاث آيات كلّها تفيد حصر المحرمات في هذه الأربعة ففي سورة النحل قوله تعالى : إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ [النحل : 115] وفي سورة البقرة قوله تعالى : إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ [البقرة : 173] وإنما تفيد الحصر ، فالآيتان تفيدان الحصر وفي سورة المائدة قوله تعالى : أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ [المائدة : 2] وهذه جملة حاصرة ، وأجمع المفسرون على أنّ مراد اللّه بما يتلى هو قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ [المائدة : 3] إلخ . وليس فيه إلا الأربعة ، وأما المنخنقة وما معها فإنما هي من أقسام الميتة ، وخصّت بالذكر لأنّهم كانوا يستحلّونها ، وإذ كانت الآيات الثلاث تدل على حصر المحرم في الأربعة وجب القول بدلالة الآية التي معنا على الحصر ، لتطابق الآيات التي ذكرنا ، لأنّها كلها في موضوع واحد ، وإن من هذه الآيات ما نزل بعد استقرار الشريعة ، فآية البقرة مدنية ، وليس قبلها ذكر ما كانوا يحرّمون من البحائر والسوائب ، وكذلك آية المائدة مدنية ، وهي من آخر القرآن نزولا ، ولا شيء قبلها يقتضي تقييدها ، والأصل عدم التقييد ، فيدل ذلك على أنّ الحكم الثابت في الشريعة من أولها إلى آخرها ليس إلا حصر المحرمات في هذه الأشياء .

والجواب الثالث : وهو المرضي أنّ الآية وإن دلت على الحصر مخصوصة بالآيات والأخبار الدالّة على تحريم ما حرّم من غير الأربعة ، مثل قوله تعالى : وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ [الأعراف : 157] فذلك يقتضي تحريم كلّ الخبائث المستقذرة ، كالنجاسات وهوام

الأرض ، ومثل ما

رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن جابر رضي اللّه عنه قال : نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية «1»

. وما رواه «2» عن أبي ثعلبة الخشني أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع.

وفي رواية ابن عباس : وأكل كل ذي مخلب من الطير «3» . وما

رواه «4» عن عائشة وحفصة وابن عمر من قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «خمس من الدواب كلّهن فاسق يقتلن في

---

(1) رواه البخاري في الصحيح (6/ 285) ، 72 - كتاب الذبائح ، 27 - باب لحوم الخيل ، حديث رقم (5524) ، ومسلم في الصحيح (3/ 1541) ، 34 - كتاب الصيد ، 6 - باب في أكل لحوم الخيل حديث رقم (36/ 1941) .

(2) رواه البخاري في الصحيح (6/ 286) ، 72 - كتاب الذبائح ، 29 - باب أكل كل ذي ناب حديث رقم (5530) ، ومسلم في الصحيح (3/ 1533) ، 34 - كتاب الصيد ، 3 - باب تحريم أكل كل ذي ناب حديث رقم (12/ 1932) .

(3) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1534) ، 34 - كتاب الصيد ، 3 - باب تحريم أكل

ذي ناب حديث رقم (16/ 1934) .

(4) سبق تخريجه .

(49/225)

الحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب والفأر ، والكلب العقور»

ففي الأمر بقتلهنّ دلالة على تحريم أكلهنّ ، لأنّها لو كانت مما يؤكل لأمر بالتوصل إلى دفع أذاها بذكاتها ، فلما أمر بقتلها ، والقتل إنما يكون لا على وجه الذكاة ، ثبت أنها غير مأكولة .

وكذلك ما نهى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن قتله ، لأنّ ما يؤكل لا ينهى عن قتله .

والشافعية يخصّصونها أيضا بما

روي عنه صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : ما استخبثته العرب فهو حرام .

وشنع عليهم الإمام الرازي «1» في ذلك ، ولكن كلامه لا يخلو عن وهن ، ورأي الشافعية في ذلك أن الحيوان الذي لم يرد فيه بخصوصه نصّ بالتحليل أو بالتحريم ، ولم يؤمر بقتله ، ولم ينه عن قتله ، فإن استطابته العرب فهو حلال ، وإن استخبثته فهو حرام . ومعتمدهم في ذلك قوله تعالى : وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ [الأعراف : 157] وقوله تعالى : يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ [المائدة : 4] قالوا : وليس المراد

بالطيب هنا الحلال ، لأنّه لو كان المراد الحلال لكان تقديره أحل لكم الحلال ، وليس فيه بيان ، وإنما المراد بالطيبات ما يستطيبه العرب ، وبالخبائث ما يستخبثونه ، قالوا : ولا يرجع في ذلك إلى طبقات الناس ، وينزل كل قوم على عادتهم في الاستطياب والاستخباث ، لأنه يؤدي إلى اختلاف الأحكام في الحلال والحرام واضطرابها ، وذلك يخالف قواعد الشرع ، فيجب اعتبار العرب ، فهم أولى الأمم بأن يؤخذ باستطيابهم واستخباثهم ، لأنهم المخاطبون أولا ، وهم جيل معتدل لا يغلب فيهم الانهماك على المستقذرات ، ولا العفافة المتولدة من التنعم .

قالوا : وإنما يرجع إلى العرب الذين هم سكان القرى والريف ، دون سكان البوادي الذين يأكلون ما دب ودرج من غير تمييز ، وتعتبر عادة أهل اليسار والثروة ، وحال الخصب والرفاهية .

وبعد فقد احتجّ بظاهر الآية : قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إلخ كثير من السلف فأباحوا ما عدا المذكور فيها .

فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير قالت : قُلْ لا أَجِدُ إلخ .

وعن ابن عباس أنه قال : ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرّم اللّه تعالى في كتابه : قُلْ لا

أَجِدُ الآية.

هذا واستدل بقوله سبحانه: عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ على أنه إنما حرّم من الميتة ما

---

(1) انظر كتاب أحكام القرآن للإمام الرازي (3/ 21).

(50/225)

يتأتى فيه الأكل منها، فلم يتناول الجلد المدبوغ والشعر ونحوه، وقد فهم النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم من النظم الكريم ذلك.

أخرج أحمد «1» وغيره عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة - وفي بعض الروايات أنها كانت لميمونة - فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: «لو أخذتم مسكها» فقالت:

نأخذ مسك شاة قد ماتت! فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما قال اللّه تعالى: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً وإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه تنتفعوا به».

وقوله تعالى: أَوْ دَماً مَسْفُوحاً يدلّ على أنّ المحرم من الدم ما كان سائلا. قال ابن عباس: يريد ما خرج من الأنعام وهي أحياء، وما يخرج من الأوداج عند الذبح، فلا يدخل فيه

الكبد والطحال لجمودهما ، ولا الدم المختلط باللحم في المذبح ، ولا ما يبقى في العروق من أجزاء الدم ، فإنّ ذلك كله ليس بسائل .

واستدل الشافعية بقوله سبحانه : فَإِنَّهُ رِجْسٌ على نجاسة الخنزير بناء على عود الضمير على خنزير ، لأنّه أقرب مذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 419.412 ﴾

---

(1) في المسند (6/ 334) ، والنسائي في السنن (7 - 8/ 193) ، حديث رقم (4245/ 000) .

(51/225)

تأملات في سورة الأنعام

للشيخ صالح المغامسي

(الجزء الأول)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له خلق فسوى وقدر فهدى وأخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ، وأشهد أن سيدنا

ونبينا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعلى سائر من اقتفى أثره واتبع منهجه بإحسان إلى يوم الدين أما بعد :

أيها الإخوة المؤمنون: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إن من المقدمات المهمة في تفسير سورة الأنعام أن هذه السورة سورة مكية وأن أكثر أهل العلم يقول : " إنها نزلت جملة واحدة "كما روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وأنه نزل معها سبعون ألف ملك يشيعها .

وقلنا إن هذه السورة أصل في حجة إثبات الحجة على المشركين وأنها اعتمدت على أسلوبين هما :

أسلوب التقرير وأسلوب التلقين ، وبينا هذا في موطنه واليوم بإذن الله تعالى نتخذ وقفات مع آيات من هذه السورة المباركة سائلين الله فيها التوفيق والسداد :

قال الله عز وجل: ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ (50) سورة الأنعام .

(1/1)

قلنا مرارا إن التفسير الحقيقي: ليس بيانا للمفردات والمعاني فهذا أمر متيسر لكن التفسير الحقيقي أن تفهم المراد من كتاب الله في سياقه العام وأن تفقه الآية من السورة والسورة من القرآن ، زمانا ومكانا ومناسبة حتى تتضح لك ما المقصود من كلام الرب تبارك وتعالى ، النبي عليه الصلاة والسلام لما بعث عانده الكفار من قريش فتارة يطالبونه بحجج منها أنه يقسم الأرزاق بينهم وهذا لا يقدر عليه إلا الله ، وتارة يسألونه عن أمور غيبية لا يعلمها إلا الله وتارة يعيبون عليه أنه يمشي في الأسواق ويأكل الطعام والشراب وأن هذا ليس من شأن الرسل ، وتارة وهو الشق الثاني من الحجج تارة يقولون له إنك بدينك هذا إنما تريد أن تدعي الألوهية ! هذان الضربان هما اللذان يجمعان نقمة كفار قريش على رسولنا صلى الله عليه وسلم .

(2/1)

(53/225)

هذه الآية التي أنزلها الله من باب أسلوب التلقين رد على مزاعم أولئك الكفار ، (قل) أي يا محمد (قل لا أقول لكم) أي يا كفار قريش (عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم

إني ملك) النبي صلى الله عليه وسلم يأمره ربه أن يبين للناس أنما غاية المراد من دعوته أنه بشر يبلغ رسالة ربه ولا يملك قدرة على التغيير جبرية (لست عليهم بمصيطر) [الغاشية : 22] ويخبرهم أن خزائن الله لا يملكها ولا يدعي أصلا أنه يملكها لماذا ؟ لأن ملك خزائن الله أمر من خصائص الرب وحده جل وعلا وهذا مقام الألوهية والنبي صلى الله عليه وسلم ليس له من مقام الألوهية شيء ، فلا يمكن له أن يقسم الأرزاق ولا الرحمة ولا الخيرات ولا العطاءات بين الناس لأن هذا من خصائص الرب والنبي صلى الله عليه وسلم لم يدع يوما أنه إله ، (ولا أعلم الغيب) كما يخبر نبينا صلى الله عليه وسلم بأمر ربه كفار قريش أنه لا يعلم الغيب . والغيب قلنا مرارا ضده الشهادة فيخبر صلوات الله وسلامه عليه أن ربه يأمره أن يبلغ الناس أنه لا يعلم الغيب فإذا بان ضعف الرسول في علم الغيب بالضد يظهر ماذا ؟ كمال الله في العلم ، وهذا الأمر هو المقصود من السورة كلها ، أن يظهر الله للناس ضعفهم وعجزهم حتى يظهر لهم من باب أولى كمال خالقهم وعظمته جل وعلا وأنه منزه من كل عيب ونقص . ولذلك قال الله لما ذكر خلق السماوات والأرض قال (وما مسنا من لغوب) [ق : 38] أي لم يمسه جل وعلا إعياء لأن ذاته غير ذات المخلوقين فصفاته بالأمر اللازم غير صفات المخلوقين ، (ولا أعلم الغيب) وهذا الأمر الذي قرره النبي صلى الله عليه وسلم وقع حالا ومعنى , عليه وعلى الملائكة وعلى الأنبياء والرسل من قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(3/1)

الملائكة بين يدي ربها : لما علم الله آدم الأسماء قال جل ذكره : ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين*قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ (31-32) سورة البقرة .

(54/225)

وخليل الله إبراهيم: وهو أبو الأنبياء وثاني الرسل من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يأتيه الملائكة في صورة ضيوف فيذهب عجلا إلى بيته فيأخذ العجل ويذبحه ويشويه ويقدمه كل هذا وهو لا يعلم أن الضيوف ملائكة لا يأكلون الطعام ، فلو كان يعلم لما فعل هذا كله وتعنى لهم ، لكن حتى يبين الله لك وأنت تقرأ كتابه ضعف المخلوقين أيا كانوا وعظمة الرب جل جلاله وحده .

ونبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام: كان ابنه يوسف في أرض مصر عزيزا على كرسي الوزارة يأمر وينهى ويأتيه الناس من كل مكان ويعقوب في أرض كنعان في بادية الشام والعراق قد ابيضت عيناه من الحزن على فقد ولده ! وهو نبي يوحى إليه ومع ذلك كان عليه السلام يجهل أن ابنه في مقام عزيز ومكان رفيع ولو كان يعلم لما دمعت عيناه ولا اغتبط فرحا ولكنه شيء من الغيب الذي أخفاه الله جل وعلا عن هذا النبي الكريم .

ورسولنا صلى الله عليه وسلم: كان في المدينة وحوله من يكيد له الكيد ويحيق به الدوائر ربه يقول له ﴿ ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ (101) سورة التوبة .

وسليمان: يعطى الملك والريح ومعه الجن والشياطين تأتمر بأمره وتذعن لخبره وتنفذ ما يطلب وتفعل ما يأمرها به ومع ذلك رغم هؤلاء الجند كلهم من يبصرهم ومن لا يبصربهم الناس يخفى عليه أن بلقيس كانت تعبد الشمس ثم يأتي طائر عجمي لا ينطق ليقول له: ﴿ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين ﴾ (22) سورة النمل .

(4/1)

هذا ما جرى على أنبياء الله ورسله وأخذنا منهم بعض الأمثلة . وما يقال عنا من باب أولى وأكثر وهذا يدل على أن علم الغيب أمر اختص الله جل وعلا به وحده وسيأتي الحديث عن مفاتيحه بعد قليل .

(55/225)

(ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك) تستنكرون علي أن أمشي في الأسواق ! وأن آكل الطعام والشراب وهذا لا يكون إلا للملائكة وأنا أي محمد لم أقل يوما من الدهر إني ملك ،

(ولا أقول لكم إني ملك) إذن من أنت ؟ (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) فهو صلى الله عليه وسلم يأتيه الوحي من السماء يأمره بكذا بالنذارة والبشارة فيفعل ما أمره الله جل وعلا به قال الله تعالى عنه : (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) ثم بعد بيان هذا كله أنني أنا رسول وأدعو إلى رب بيده خزائن كل شيء ويعلم الغيب والشهادة يستحق العبادة فالأمر واضح جلي بين ، قال بعدها (قل هل يستوي الأعمى والبصير) [الأنعام : 50] وهذا استفهام إنكاري لأن (هل) أداة استفهام بمعنى لا يستوي الأعمى والبصير ، والمقصود بالأعمى والبصير هنا الضال والمهتدي العالم والجاهل الموحد والمشرك كلها يمكن أن تدخل في تفسير قول الله جل وعلا : (قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) وقول الله جل وعلا : (أفلا تتفكرون) دلالة على أن العقول مخاطبة بشرع الله تبارك وتعالى .

لكن خذ قاعدة:

عندما تجادل إنسانا في قضايا العقل هل له دخل في الشريعة أو ليس له دخل ؟ هذه مسألة تتكرر كثيرا بين طلبة العلم لكن فصل الخطاب فيها :

أن تعلم أن العقل مكتشف للدليل وليس منشئ له ، فالدليل يضعه الله في كتابه أو على لسان رسوله وإنما أصحاب العقول يكتشفون تلك الأدلة ويتوصلون إليها بعد أن وضعها الله لهم في كتابه أو على لسان رسوله أو كانت آية من الآيات العامة المنثورة في الخلق .

هذه الآية الأولى التي نريد أن نقف عندها .

(5/1)

الآية الثانية : آيات مسترسلات ست آيات بعضها بعد بعض ، قال الله تعالى:

(56/225)

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين*وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون*وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون*ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين*قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين*قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون*قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ (59-65) سورة الأنعام .

نبدأ بالأولى:

(وعنده مفاتح الغيب) هذا أسلوب حصر مر معنا كثيرا وقلنا إن من أساليب الحصر في اللغة تقديم ما حقه التأخير وأصل الآية (مفاتح الغيب عنده) ، فقدم الله الخبر على المبتدأ ليصبح المقام مقام حصر ، فيصبح المعنى وعنده مفاتح الغيب أي ليست لأحد غيره مفاتح الغيب .

لكن لو قال: (ومفاتح الغيب عنده) يحتمل المعنى :

(6/1)

مفاتح الغيب عنده وعند غيره لكنه قال (وعنده مفاتح الغيب) جعل الأمر محصورا لأنه قدم الخبر على المبتدأ وقلنا تقديم ما حقه التأخير أسلوب من أساليب الحصر في بلاغة العرب .

(وعنده) أي عند الله (مفاتح الغيب) مفاتح جمع مفتاح وهي عند النحويين اسم ممنوع من الصرف لأنه على وزن مفاعل .

لكن الذي يعنينا هنا أن مفاتح الغيب – والقرآن يفسر بعضه بعضا – خمسة:

(57/225)

وقد مرت معنا في خطب ودروس عدة لذلك سنعيدها إجمالا لا على وجه التفصيل ، يقول الله جل وعلا : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) النفي مع الاستثناء كذلك أسلوب من أساليب الحصر (لا يعلمها إلا هو) ثم لم يذكر الله في هذه الآية ما هي مفاتح الغيب لكن السنة فسرت القرآن قال صلى الله عليه وسلم كما في حديث ابن عمر : (مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله) ثم تلا : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ (34) سورة لقمان . خاتمة سورة لقمان .

نقول إن مفاتح الغيب أمر لا يعلمه إلا الله لا يعطى لأحد . أما الغيب الباقي يمكن أن يطلع الله جل وعلا عليه بعض عباده قال الله جل وعلا : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا*إلا من ارتضى من رسول . . ﴾ [(27) سورة الجن] ، فقد يطلع الله بعض عباده على بعض غيبه لكن مفاتح الغيب أمر اختص الله جل وعلا به وحده لا يطلع عليه أحدا كائنا من كان إلا وقت المراد من الغيب نفسه .

فقلنا بناء على آية لقمان أصبح أعظم الغيبيات :

(7/1)

علم الساعة : وهي أعظم الغيبيات بدلالة القرآن والسنة فجبرائيل سيد الملائكة يسأل نبينا صلى الله عليه وسلم (أخبرني عن الساعة ؟ قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)

أي علمي وعلمك فيها سواء والله يقول: (لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت) بل إن إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور لتقوم الساعة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إنه قد أحنى جبهته وأصغى أذنه والتقم القرن ينتظر متى يؤمر بالنفخ فينفخ) فإذا الذي سينفخ إسرافيل لا يعلم متى ينفخ من باب أولى ألا يعلم الناس ، فالساعة يا أخي أعظم الغيبيات .

(إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث)

(58/225)

إنزال المطر: تحديد وقته لا يعلمه إلا الله أما ما تراه من إرهاصات هذه مقدمات تصيب وتخطئ عوارض غالب الظن أنه يقع غالب الظن أنه لا يقع لكن لا يجزم بهذا أحد وقد نقل القرطبي رحمه الله عن بعض علماء المسلمين أن من جزم بنزول الغيب قال غدا مطر يكفر لأنه خالف صريح القرآن .

(ويعلم ما في الأرحام) قلنا مرارا إن (ما) هنا موصولة تدل على العموم أي يعلم ما في الأرحام إن كان ما في الرحم سقطا سينزل أو سيتم خلقه يعلم الله جل وعلا إن كان شقيا أو سعيدا يعلم الرب تبارك وتعالى إن كان سيعمر أو لا يعمر أمور شتى تتعلق به إن كان ذكرا أو أنثى إن كان كاملا أو خديجا ، غير ذلك مما يتعلق به لا يعلمه إلا الرب تبارك وتعالى .

(ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) ونقول إنه فرق ما بين جدول العمل وبين ما تحصل عليه من العمل فإن المعلم يعلم جدول حصصه قبل العام وكذلك كثير من الناس ممن لهم أمور مرتبة وجداول وأعمال ، لكن هل يحصل هذا العمل ؟ هو الذي يسمى في اللغة كسبا وهذا لا يعلمه إلا الرب تبارك وتعالى فقد يحول الله بين المرء وبين ما يريد قبل أن يقع الأمر بلحظات .

)

(8/1)

ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض) وفي المسند : (أن من أراد الله أن يقبض روحه في أرض جعل له حاجة إليها) . ومن جهل المكان من باب أولى أن يجهل الزمان والمقصود من هذا كله إجمالا لأنه قد مر معنا كثيرا أن مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الرب تبارك وتعالى .

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) . هذه يا أخي من أعظم آيات الربوبية في القرآن .

(59/225)

يخبر الله جل وعلا فيها عن سعة علمه وعظيم إحاطته بخلقه وأن ما تراه العيون وما لا تراه مثاقيل الجبال ومكاييل البحار وورق الأشجار على كثرته واتساعه وعظيم عدده لا يعلمه إلا الرب تبارك وتعالى وهي على اتساعها أينما كانت وأينما غابت عن عيوننا الغيب والمجهول غياهب البحار ومفاوز البر كل ذلك ما يقع فيه وما يكون في ليل أو في نهار في أي زمان أو في أي مكان الله جل وعلا مطلع عليه قد علمه وكتبه وأراده وشاءه قال الله تعالى : (ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة) ثم تسقط ثم تتناقلها الرياح ميمنة وميسرة شمالا وجنوبا ثم تذوب ثم تهوي كل ذلك يعلمه الله جل وعلا لا يخفى عليه من خلقه خافية أينما كانت ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ (16) سورة لقمان .

(9/1)

والإنسان ستره الظلام أو كان في الضوء فالله جل وعلا مطلع عليه علم الناس ما فعل أو لم يفعل الله جل وعلا مطلع عليه أسر في نفسه أم أعلن الله جل وعلا يعلم ذلك كله فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية ولا تخفى عليه من خلقه خافية .

(ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة ولا حبة) أي ولا حبة تسقط (في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس) وقوله جل وعلا : (ولا رطب ولا يابس) أسلوب قرآني يسمى

عطف عام على خاص لأن كل ما سلف لا يخلو من كونه إما رطب وإما يابس إما حي وإما ميت وهذا معنى رطب أو يابس . (ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس) كل ذلك (إلا في كتاب مبين) أي في اللوح المحفوظ فإن الله أول ما خلق القلم قال : اكتب , فقال ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

فما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، جفت الأقلام وطويت الصحف وأنت تسعى وراء رزق سيأتي إليك أو تطلب شيئًا لن يأتيك أبدا ، فالعاقل من أحسن صلته مع ربه جل وعلا ز

(60/225)

وأهل العلم والفضل يقولون: " من خسر مع الله جل وعلا ماذا ربح ؟ ومن ربح مع الله تبارك وتعالى ماذا خسر ؟ " فمن ربح مع الله لم يخسر شيئًا ومن خسر مع الله لم يربح شيئًا ولو أوتيت له الدنيا بحذافيرها . (إلا في كتاب مبين) .

(10/1)

ثم قال جل شأنه: ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه

ليقضى أجل مسمى ﴾ نسب الله جل وعلا هنا الوفاة إلى ذاته العلية رغم أنه نسبها كما سيأتي إلى الملائكة في آيات أخر لكن يقال إن نسبة الأمر إلى الله نسبة حقيقة ونسبة الأمر إلى غير الله نسبة تكليف أي كلف الله أحدا أن يقوم بها كما كلف الملائكة ، وقول الرب : (وهو الذي يتوفاكم بالليل) المقصود به المنام وليس المقصود به الوفاة الحقيقية .

وقد قلنا في تأملاتنا في سورة المائدة أن الوفاة في القرآن تأتي على ثلاثة معاني:

تأتي بمعنى الموت وقلنا منها قول الله تعالى (توفته رسلنا) .

وتأتي بمعنى النوم مثل هذه الآية (وهو الذي يتوفاكم بالليل) وقول الله تعالى في سورة الزمر (الله يتوفى الأنفس حين موتها الله) .

وتأتي بمعنى الرفع وقلنا إن الله قال لعيسى (إني متوفيك ورافعك إلي) .

والمقصود من هذا كله أن الوفاة هنا بمعنى النوم والنبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور) فسمى النوم موتة صغرى.

وصفوة القول أن يقال:

إن للروح علاقة مع الجسد تختلف من حال إلى حال علاقة قبل أن يوجد الجسد ، يوم كانت أرواحنا في ظهر أبينا آدم ، وعلاقة بعد أن نفخ فينا الروح يوم كنا أجنة في بطون أمهاتنا وعلاقة شبه كمال وهي علاقة الروح بالجسد في حال اليقظة وعلاقة أقل من هذا وهي

علاقة الروح بالجسد في حال النوم وعلاقة لا نعلم كنهها وهي علاقة الروح بالجسد في حياة البرزخ فإن الإنسان ينعم ويعذب في حياة البرزخ وعلاقة وهي علاقة الكمال والتمام تكون بعد البعث والنشور لأنه لا موت بعدها .

(61/225)

نجم عن هذا ست علاقات:

(11/1)

قلنا علاقة في عالم الأرواح وعلاقة في عالم الأجنة وعلاقة في عالم اليقظة وعلاقة في عالم النوم وعلاقة في عالم البرزخ والسادسة علاقة بعد البعث والنشور ، هذه العلاقة علاقة الروح مع البدن حال النوم .

(وهو الذي يتوفاكم بالليل) ثم تعود الروح ولم تكن قد أخذت بالكلية أما الكيفية فمسألة لا يعلمها إلا الله . (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) جرت سنة الله في خلقه أن النهار للمعاش فلما كان الإنسان في النهار يعمل ويكد من أجل عيشه يكد بماذا ؟ يكد بجوارحه ولذلك قال الله جل وعلا : (ويعلم ما جرحتم بالنهار) فلما كان يكد الإنسان بالجارحة أخذ الله منها الفعل فجعله ملتبسا بالمعاش بالنهار فقال (ويعلم ما جرحتم

بالنهار) أي ما كسبتم فعبر عن الآلة عما تسبب به الآلة فالذي يتسبب بالرزق الجارحة فعبر عنها الله لأنها تؤدي نفس الغرض .

(ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه) يبعثكم أي يوقظكم من منامكم (فيه) أي في النهار لماذا ؟ (ليقضى أجل مسمى) وهذا باعتبار الأفراد لا باعتبار الجماعات بمعنى أن كل فرد له أجل مسمى كتبه الله جل وعلا عليه (ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) [الأنعام : 60] وهذه مرت معنا كثيرا .

(12/1)

(62/225)

ثم قال جل ذكره: ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ بما أنه قاهر وقلنا إن السورة حجة في إثبات توحيد الربوبية والألوهية بما أنه جل وعلا قاهر مالك لجميع الخلق فإنه يفعل في خلقه ما يشاء . فكما أنه تبارك وتعالى خلقهم ورزقهم وجعل لهم طريقا موصلا إليه وقال : (لتركبن طبقا عن طبق) [الانشقاق : 19] أي أن الخلق أطوار منذ أن كانوا في ظهر أبيهم ثم في بطون أمهاتهم حتى وصلوا ثم أصبحوا ينامون بالليل ثم يبعثون بالنهار وانظر تسلسل الآيات بقي المرد إلى الله فقال الله جل وعلا ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ فلما كان قاهرا مالكا

ملكا حقيقيا متصرفا قال : (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون)[الأنعام : 61] .

هذه (إذا) في اللغة تأتي على ثلاث معاني:

تأتي قبل التلبس بالفعل تقول إذا قمت إلى الصلاة فتوضأ أي قبل أن تقوم إلى الصلاة ماذا تفعل ؟ تتوضأ ، إذا وقفت بين يدي الله فكبر هذا حال التلبس بالفعل ، إذا صليت فاقرأ القرآن أي بعد دخولك في الصلاة بعد التلبس بالفعل .

هنا (حتى إذا جاء أحدكم الموت) أي حتى إذا قرب الموت وجاءت علاماته ودنت ساعته وحان الأجل ما الذي يحصل ؟ قال الله : (توفته رسلنا وهم لا يفرطون) الرسل هنا هم من ؟ الملائكة .

وينبغي أن تعلم أن قرب الله من خلقه من عباده على طريقين:

(13/1)

قرب بذاته وقرب بملائكته فالقرب بالملائكة هذا واحد منها وقد فسره الله جل وعلا في سورة الواقعة قال سبحانه ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ (85) سورة الواقعة ، وليس قرب الله بذاته إنما قرب الله بماذا ؟بملائكته . (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) الأصل أن الموكل بقبض الأرواح ملك لكن هذا الملك له أعوان .

ومفهوم الآية لا يخلو من أحد أمرين وبهما قال العلماء :

إما أن تكون الملائكة هي التي تخرج الروح حتى إذا دنت من الحلقوم تركتها لملك الموت فهو الذي يقبضها والله يقول : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ (11) سورة السجدة .

الجمع بين هذه الآية وبين آية السجدة :

الله يقول في هذه الآية آية الأنعام : (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) وقال في السجدة : (قل يتوفاكم ملك الموت) نقول : قال بعض العلماء : إن الملائكة تقبض الروح تستلها من الجسم كله استلالا يختلف من روح المؤمن إلى روح الكافر وليس هذا موضع بيانه فإذا دنت الروح من الحلقوم قام ملك الموت بالنزع الكلي أو الآخر هذا قول .

وقول آخر : أن ملك الموت هو الذي ينزع الروح وقد جعل الله له العالم كالمأدبة بين يدي من يريد أن يأكل يأخذ منها كيفما يشاء فإذا كثر عليه في يوم قبض الأرواح مجرد أن يناديها تأتي وكل ذلك بأمر الله وسواء صح هذا أو لم يصح العقل لا يرده والشرع لا ينافيه ، والمقصود هذا رأي .

الرأي الثاني : أن يكون ملك الموت هو الذي يقبض الروح وحده ، وليس لأحد غيره من

الملائكة يعينه في قبض الروح ثم إذا قبضها لا تلبث في يده حتى يعطيها ملائكة آخرين فإن كانت روحا مؤمنة أعطاها لملائكة الرحمة – جعل الله جل وعلا أرواحنا وأرواحكم كذلك . وإن كانت روحا كافرة أعطاها ملائكة العذاب وهذا الرأي الثاني هو الذي تميل النفس إليه والله أعلم .

(14/1)

(حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون)[الأنعام : 61] .أي لا يضيعون في قبض الأرواح وإنما لا يتقدمون قبل الأجل ولا يتأخرون بعد الأجل فحيثما أمرهم الله زمانا ومكانا يكونوا عليهم السلام .

(ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) و(ثم) حرف عطف لكنه يفيد التراخي ، التعقيب والتراخي فيه فترة زمنية ما بين قبض الروح وأن ترجع إلى الله ليحكم بينهم هي التي تسمى حياة البرزخ (توفته رسلنا وهم لا يفرطون) .

(64/225)

(ثم ردوا) أي الخلق (إلى الله مولاهم الحق) بكسر القاف لأنها صفة للفظ الجلالة .

(ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) تبقى مسألة لغوية هنا : الله هنا يتكلم عن جميع الأرواح

مؤمنها و كافرها فكل الأرواح مردها إلى الله وقال الله في نعت ذاته العلية هنا (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) مع أنه قال في سورة محمد ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ (11) سورة محمد .

فكيف يستقيم الجمع بين أن الله يقول في كتابه (وأن الكافرين لا مولى لهم) ثم يقول في آية عامة (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) ؟

والجواب عن هذا أن يقال: إن كلمة مولى لفظ مشترك لعدة معان يأتي بمعنى المعتق ويأتي بمعنى المعتق فيقال للسيد الذي أعتق: مولى ، ويقال للعبد للذي أعتق: مولى ، هذا أحد معانيها .

(15/1)

ويقال مولى بمعنى مالك الملك وهو المراد بالآية هنا فقول الله جل وعلا : (ثم ردوا إلى الله مولاهم) أي مالكهم وأما قول الله في سورة محمد ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ﴾ أي ناصرهم وقول الله ﴿ وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ أي لا ناصر لهم ، و إلا الكفار والمؤمنون ملك لمن ؟ ملك لله ، فمعنى مولى في سورة محمد ناصر ومعنى مولى في سورة الأنعام مالك الملك ، والله مالك ملك أهل الكفر وأهل الإيمان أما أن الله ناصر لأهل الإيمان بلا شك وليس الله بنصير لأهل الكفر . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم (من كنت مولاه فعلي مولاه) أي من كنت ناصره وحاميه فعلي ناصره وحاميه ، هذا معنى مولى في هذا الحديث

الشريف . قلنا يتحرر من هذا أن معنى مولى لفظ مشترك لعدة معان وهي في سورة الأنعام بمعنى مالك الملك ولا شك أن الله كما بينا مالك للعباد كلهم .

(ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) [الأنعام : 62] وقول الله (ألا له الحكم) فيه إشارة خفية إلى أنه ليس لأحد أمر لازم على الله ، وإنما الله يحكم بما شاء يدخل من يشاء برحمته ويعذب من يشاء بعدله .

(65/225)

(ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) الله جل وعلا ليس ذاته كذات المخلوقين فلا يقاس ما في أذهاننا من الحساب على ما نعلمه من محاسبة المخلوقين بعضهم لبعض فالله جل وعلا كما أن خلقه خلقهم تبارك وتعالى خلقا واحدا قادر على أن يخلقهم جملة وقادر على أن يميتهم جملة وقادر على أن يبعثهم جملة كذلك قادر سبحانه وتعالى على أن يحاسبهم جملة فهو جل وعلا له الحكم وهو أسرع الحاسبين .

(16/1)

ثم قال الله جل وعلا : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين*قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم

تشركون ﴾ .

ما زال السياق في أن القضية سورة مكية والمقصود منها في المقام الأول إثبات توحيد الألوهية لكن إثبات توحيد الألوهية لا يقوم إلا إذا ثبت توحيد الربوبية .

وقلنا إن هذا أسلوبان: أسلوب تقرير وأسلوب تلقين .

(17/1)

(66/225)

بيان ذلك أن الله جل وعلا يخاطب هؤلاء أهل الإشراك الذين يشركون مع الله يخاطبهم بأرض الواقع ويقول لهم جل وعلا: إنكم تسافرون في البر وتسافرون في البحر ويصيبكم من المشاق والكوارث والمصائب ما يجعلكم وأنتم مشركون في حال الرخاء يجعلكم توحدون الله ولا تسألون معه غيره ، كما قال الله جل وعلا في عدة سور أنهم يلجؤون إلى ربهم وحده دون سواه: ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ (22) سورة يونس ، والله تبارك وتعالى يبتلي عباده كائنا من كان ويدلل جل وعلا في خلقه المنثور وكتابه المسطور في الأرض على أنه الرب الأوحد والمالك الذي لا يقدر على النفع ولا على الضر إلا هو لا يكشف بلوى ولا يدفع ضرا إلا هو ولا يعطي عطاء ولا يمنح رحمة

إلا هو (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) وليس المقصود عين الظلمة وإنما المقصود ما في البر والبحر من مشاق ومن مفاوز ومن أمور تصيب الرجل والمرأة والجماعة والفرد على السواء فإذا أصابهم الأمر وتيقنوا بالهلاك وعظم عليهم الأمر واشتد عليهم الكرب علموا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فلجؤوا إلى الله جل وعلا مخلصين يتضرعون بالدعاء سرا وإعلانا فردا وجماعات خفية وتضرعا فإذا نجاهم الله واستجاب دعاءهم ونقلهم من حال الخوف إلى حال الأمن ومن حال الضراء إلى حال السراء نسوا ـ عياذا بالله ـ كل ذلك الأمر ولجئوا من جديد إلى شركهم قال الله جل وعلا : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ (12) سورة يونس ، وهذا أمر يتحقق في القريب والبعيد في الزمن الماضي وفي الزمن الحاضر وفي الزمن المستقبل كم من تاجر خاف على تجارته وأيقن بغرقها أو بتسلط غيره عليها أو أيقن بالخسران فزع إلى الله في

(18/1)

(67/225)

ظلمات الليل يسأل الله ويدعوه فلما نجا الله له تجارته وأنعم عليه ورزقه أخذ تلك الأموال التي اكتسبها فأنفقها في غير طاعة الله وربما سافر بها سفر معصية ، وهذا مرحلة أدنى ، لكن المرحلة الأعظم التي عناها الله في هذه السورة أن أولئك أهل الإشراك يرون الموت عيانا فيفزعون إلى الله بقلوبهم وجوارحهم وألسنتهم ويصرون على الدعاء ويلحون ثم إن الله لعظمته وحلمه وكمال رحمته ينعم عليهم وينجيهم حتى إذا شعروا بالأمان والرخاء لجأوا إلى أصنامهم وأوثانهم وما غلوا فيه يعبدونه ويسألونه من دون الله وحتى تعلم أنه لا شيء أعظم من أن تشرك مع الله جل وعلا غيره وأن يكون قلبك الذي فطره الله وخلقه وسواه وجبله على التوحيد وعلى إخلاص العبادة له أن يعطى بعد ذلك كله لغير الله وأن يلهج لسانك بأي فرد ملكا أو أميرا أو سلطانا أو عالما أو داعية أو والدا أو ولدا أو زوجة أو ابنا أو محبا تحبه تجعله مقدما على حبك لله جل وعلا ومن أراد ما عند الله من النعيم وخاف ما عند الله من الجحيم لم يقدم على ذات الله أحدا كائنا من كان لا والدا ولا ولدا ولا أما ولا زوجة ولا أحدا كائنا من كان لا يتعلق قلبه لا بممثل ولا بلاعب ولا بمعلم ولا بطالب ولا بسائر أحد وإنما يجعل فؤاده وقلبه للرب تبارك وتعالى .

(19/1)

هذا هو التوحيد الذي بعث الله من أجله الرسل وأنزل الله من أجله الكتب وأقام النبي صلى الله عليه وسلم من أجله الجهاد ، أما غير ذلك فكلما نقص حظ الله منك نقص حظك من الله ، كلما ابتعدت عن الله في توحيده وذكره وإجلاله ومحبته كنت من رحمة الله جل وعلا أبعد وإلى عذابه أدنى ، قال الله جل وعلا : (قل الله ينجيكم منها) أي من هذا الكرب المخصوص الذي تسألونه بل إن الله لا يكتفي بأن ينجيكم من كرب مخصوص تدعونه بعينه قال الله : (ومن كل كرب) أي ومن كل كرب عام علمته أو لم تعلمه وقد ينجيك الله من كرب لم تدعه أن ينجيك منه لا تعلم أن ذلك الكرب في طريقك لكن الله جل وعلا يزيله عن طريقك من غير أن تعلم .

ثم يقول الله جل وعلا بعد ذلك وبالا وعارا عليهم : (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) أي مع تلك النجاة وتلك الرحمة وذلك الحلم من الرب تعودون كما كنتم تشركون مع الله جل وعلا غيره .

والمقصود من هذا كله:

أنه لا يعقل أن نفسر سورة الأنعام وقد جعلها الله جملة في أغلب آياتها خصيصة للتوحيد ودعوة إلى الإيمان به ونبذا للشرك ودفعا للإشراك ثم لا يخرج الإنسان منها بثمرة تجعله يسير في سائر أيامه حتى يلقى الله وليس في قلبه أحد يحبه ويوالي ويبغض ويعادي عليه إلا الرب

تبارك وتعالى . - جعل الله قلوبنا وقلوبكم على تلك الفطرة السليمة - .

ثم نقول قال الله بعدها : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض . . ﴾ (65) سورة الأنعام .

مناسبة الآية لما قبلها : أن الله كما بين أنه قادر على أن ينجي من المهالك قادر على أن يلقيكم فيها .

)

(20/1)

(69/225)

قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) مثل الرجم (أو من تحت أرجلكم) مثل الخسف (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) هذه الآية لا تحتاج إلى كلفة في الشرح لأن النبي صلى الله عليه وسلم كما روى البخاري وغيره لما نزلت هذه الآية جاء بها جبرائيل فجبرائيل وهو يتلوها على النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) فقال صلى الله عليه وسلم: (أعوذ بوجهه) فهذا النبي استعاذ بوجه من ؟ بوجه الله ، فلما استعاذ النبي بوجه ربه أعاذه الله ، تفهم من هذا أن

هذه الأمة لا يمكن أن تهلك بعذاب عام من السماء ، قال جبرائيل: (أو من تحت أرجلكم) فقال صلى الله عليه وسلم: (أعوذ بوجهه) ومن هذا تعلم أن هذه الأمة كأمة مجتمعة لا يمكن أن تهلك بخسف من الأرض ، ثم قال جبرائيل يتلو كلام الله : (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) هنا لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهه ، ليمضي قدر الله قال صلى الله عليه وسلم : (هذه أهون) وفي رواية (أيسر) وفي رواية أخرى (هاتان أهون وأيسر) , ولم يستعذ بالله ليمضي قدر الله ، وهذا أمر مشاهد واضح جلي أن الأمة ذاق بعضها بأس بعض ، فمنذ أن قتل عثمان رضي الله عنه إلى يومنا هذا والأمة يذيق بعضها بأس بعض ، ونتكلم بوضوح آخر ما حصل في قامعة الدولة الإرهابيين الذين ماتوا من الطائفة هذه مسلمين ومن الطائفة هذه مسلمين ، هذا ما يقوله الله جل وعلا : (ويذيق بعضكم بأس بعض) صحيح أنهم خارجون عن طاعة ولي الأمر وأن ما فعلوا خطأ محض وأن ما فعلوه أمر لا يجوز شرعا لكن هذا لا يخرجهم عن دائرة الإسلام ، والذين ماتوا ممن كانوا تحت طاعة ولي الأمر مسلمين ، فهذا معنى قول الله : (ويذيق بعضكم بأس بعض) .

)

(21/1)

أو يلبسكم شيعا) الشيع الفرق والأحزاب (ويذيق بعضكم بأس بعض) الأمة منذ مقتل عثمان في أكثر أزمنتها وهي متفرقة أهواء وفرقا وشيعا ويذيق بعضها بأس بعض .

وأعلم أن هذه الأمة فنبينا صلى الله عليه وسلم زويت له الأرض وقال: (إن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض) أي ملك فارس وملك الروم ، (وإنه زويت لي الأرض وسيبلغ ملكي ما زوي لي منها) . ثم دعا صلى الله عليه وسلم ربه ألا يهلك أمته غرقا فاستجاب الله جل وعلا له ، فمن خوف الأمة أنها ستموت كلها غرقا لا تخوف لأن هذا أمر سأله النبي صلى الله عليه وسلم ربه وأعطاه الله إياه ثم سأله ألا يسلط عليها عدوا يستبيح بيضتها ، سأله ألا يسلط عليها عدوا يستبيح بيضتها بيضتها : يعني مركزها مقامها أصلها جرثومتها هذا كله يطلق على البيضة العصبة الرئيسة ، فاستجاب الله جل وعلا كلام نبيه صلى الله عليه وسلم ، وسأله ألا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعه الله جل وعلا ذلك ، وأخبره (أنني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد) .

تفهم من هذا أمور وهذه مزية العلم:

(22/1)

لما حصل غزو العراق من قبل أمريكا خاف الناس وبعضهم أرجف بقول أن تسلط أمريكا على دولة الحرمين وتهلك مكة والمدينة ولا شك أن الذين خافوا قوم غيورون يريدون الخير للأمة ، لكن من كان لديه بضاعة قوية من العلم كان يعلم أن هذا لا يمكن أن يقع لا يمكن أن يقع قدرا ولا شرعا لأن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاه ربه وعد أنه لا يسلط عدوا من خارج الأمة على أمة الإسلام يستبيح بيضتها وكل من كان منصفا علم أن بيضة الإسلام اليوم هي دولة الحرمين ومكة والمدينة بالذات ، الدولة الحامية لها ، هذه بيضة الإسلام اليوم لا يمكن أن تمكن لا لأمريكا ولا لغيرها أن يسلط تسلط عسكري على أرض الحرمين يستبيح بها بيضتها وتهلك فيها بالكلية هذا أمر لا يمكن أن يقع لا على يد أمريكا ولا على يد غيرها ؛ لأن هذا أمر سأله نبينا صلى الله عليه وسلم ربه فأعطاه الله إياه ، لكن الله منع نبيه صلى الله عليه وسلم لأمره وقضائه وحكمته لما سأله ألا يسلط بعضهم على بعض هذه قال الله جل وعلا فيها (إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد) وهذا أمر مشاهد فإن الأمة تفرقت فرقا وأحزابا وشيعا منذ القدم منذ مقتل عثمان وحرب علي ومعاوية رضي الله تعالى عنهما وغيرهما بعد ذلك والأمة يذيق بعضها بأس بعض للأسف ، والمفر من هذا كله أن يعتصم الإنسان بكلمة المسلمين وأن يلزم طاعة ولي الأمر وأن يعلم أن يد الله جل وعلا مع الجماعة وأنه من خرج عن الإيمان قيد شبر مات ميتة جاهلية وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالصبر وأمر بأمور عدة تقوى بها شوكة الإسلام والتفاف الناس بعضهم إلى بعض

كلما كانوا متحدين متفقين على إمام واحد كان ذلك أغيض للعدو وأعظم لإقامة شرائع الله وحدوده والكمال عزيز والنقص موجود لكن لا يسدد مثل ذلك إلا بالتناصح والتشاور والسمع والطاعة في غير معصية الله تبارك وتعالى .

المقصود من هذا :

(23/1)

(72/225)

بيان أن الله سبحانه وتعالى بين وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم كثيرا من الأمور التي يسترشد بها العاقل ويستنير بها المؤمن ويتقي بها البصير ويعرف الجميع الطريق الموصل إلى الله وهذه مزية أهل العلم على غيرهم في أنهم يعلمون من كتاب الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ما يثبت الله جل وعلا به فؤادهم ويهديهم إلى صراط مستقيم .

لذلك الله قال بعد هذا كله : ﴿ انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ ولا ريب أن الله فصل الآيات وأبان لعباده طرائق الحق والطريق المستقيم وأوضح ما يقرب منه وما يدل عليه وما يرشد في أمر الدين وأمر الدنيا لكن الناس يتفاوتون في مقدار العلم وحتى أهل العلم يتفاوتون في مقدار الأخذ بالعلم والسمع والطاعة لله والعمل بما يعملون فكم من إنسان

حافظ للقرآن متدبر له لكنه لا يعمل به ويعلم معانيه ومواطن نزوله وناسخه ومنسوخه لكنه لا يعمل به شيء ومنهم من أضله الله على علم يقرأ ويأخذ لكنه لا يستفيد منه في واقع الحياة شيئا ، وهذه رحمة من الله وفضل يؤتيه الله من يشاء ومن أخلص لله النية وصدق مع الله بلغه الله مناله وأعطاه مراده .

سائلين الله جل وعلا لنا ولكم التوفيق . وصلى الله على محمد وعلى آله .

(73/225)

تأملات في سورة الأنعام

للشيخ صالح المغامسي

(الجزء الثاني)

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين وإله الآخرين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله آخر الأنبياء في الدنيا عصرا وأرفعهم وأجلهم يوم القيامة شأنا وذكرا ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعلى سائر من اقتفى أثره واتبع منهجه بإحسان إلى يوم الدين أما بعد :

أيها الإخوة المؤمنون: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الآيات التي سنقف عندها اليوم قول الله عز وجل: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين*وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ (75) سورة الأنعام ، إلى ما بعدها من آيات ثم ننتقل إلى قول الله عز وجل: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . . ﴾ (93) سورة الأنعام .

ثم نقول مستعينين بالله عز وجل:

إنه لما كانت السورة تتكلم عن العقيدة تتكلم عن عقيدة التوحيد التي بها بعث الله الرسل ومن أجلها أنزل الكتب ذكر الله جل وعلا في هذه السورة إمام الموحدين خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

(1/1)

(74/225)

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أبو الأنبياء وشيخ الحنفاء ونسب الله جل وعلا الملة إليه في كتابه قال الله تبارك وتعالى : (ملة أبيكم إبراهيم) . وهذا النبي الكريم مر معنا كثيرا الثناء والمدح عليه من الله جل وعلا ، وهو أهل لكل مدح فهو أرفع الأنبياء قدرا بعد نبينا صلى

الله عليه وسلم . ومع اتفاق المسلمين على أن إبراهيم بعد نبينا عليه الصلاة والسلام وعلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم أرفع العباد قدرا إلا أنه ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه لما دخل مكة عام الفتح أمر أن يخرج ما في الكعبة من صور حتى يستطيع دخولها فكان مما أخرج صورة فيها صورة إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام جعلها المشركون له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (قاتلهم الله) يقصد كفار قريش (قاتلهم الله والله لقد علموا ما استقسم شيخنا بها قط) . موضع الشاهد أن النبي صلى الله عليه وسلم سمى إبراهيم شيخه ، ولم يسم النبي صلى الله عليه وسلم أحدا من الأنبياء بأنه شيخه إلا إبراهيم .

وهذه يجب أن تحفظ وتحرر فهي من فرائد العلم الذي يستبينه طالب العلم لنفسه :

أن النبي صلى الله عليه وسلم سمى هذا النبي الصالح سماه شيخه مع الاتفاق على أن النبي عليه الصلاة والسلام أفضل من إبراهيم . وفي ليلة المعراج لما عرج به صلى الله عليه وسلم قابله إخوانه من النبيين فلما مر على إبراهيم قال إبراهيم لنبينا : (السلام عليك أيها النبي الصالح والابن الصالح) لأن الله جل وعلا جعل كل نبي بعد إبراهيم من ذرية إبراهيم ، قال العلماء ما أنزل كتاب بعد إبراهيم من السماء على نبي من الأنبياء وإلا ذلك النبي من ذرية إبراهيم وسيأتي هذا إن شاء الله تعالى .

(2/1)

المقصود: هذا جملة ما يمكن أن يقال عن إمام الحنفاء أبينا إبراهيم عليه السلام، الله جل وعلا هنا يخبر أن إبراهيم كان يدعو الناس جميعا من أهل عصره الذين بعث فيهم وفي مقدمتهم أبوه وهو هنا يدعو أباه قال الله جل وعلا: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) أهل التاريخ يقولون إن اسم أبي إبراهيم تارح وليس آزر وحجتهم في هذا اتفاق كثير من النسابة على أن والد إبراهيم اسمه تارح وعلى أنه هذا المذكور في التوراة .

لكنه في مثل يقول: "إذا جاء سيل الله بطل سيل معقل"، وقلنا ونحن نؤصل في الدروس السابقة أن الإنسان يستمسك بأصل ثم إذا جاءت شبهات وعوارض على هذا الأصل يبقي على الأصل ويترك العوارض, فلو أجمعوا أهل النسب على أن اسم والد إبراهيم اسمه تارح هذا مردود لأن الآية لا تحتمل أكثر من النص الصريح الله يقول: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ﴾ فالله أسماه آزر فلا معدل عما سماه الله جل وعلا به .

قالوا هذا عمه، قالوا هذا لقب لأبيه، قالوا عدة أمور يخرجون بها المقصود فنبقى على المقصود الذي هو أصل لأنه لا يوجد ما يعارضه ويقاومه .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ﴾

(اتخذ) فعل يتعدى إلى مفعولين:

مفعوله الأول هنا أصنام ومفعوله الثاني آلهة، (أتتخذ أصناما آلهة) .

ويمكن أن تقول معنى الآية : تتخذ آلهة أصناما وكلا المعنى صحيح ، لكن القرآن نزل : (أتتخذ أصناما آلهة) .

(3/1)

(76/225)

فهذا إبراهيم عليه السلام يعيب على أبيه أن يعبد الأصنام ويترك عبادة الله الواحد القهار ﴿ أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ وهذا الخطاب الذي قاله إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه جاء مبينا في سور عدة في آيات أخر بين الله جل وعلا فيها الأسلوب الدعوي الذي كان يخاطب به إبراهيم أباه ، (قال سلام عليك) كما جاء في سورة مريم ، كلها دلالة على أن الإنسان يجب أن يعلم وهذا ما تبينه الآيات التي تليها أننا نحن المسلمون ندعو إلى شيء واحد هو توحيد الله ودين الإسلام فلا يختلف ما ندعو إليه لكن ما الذي يختلف ؟ طرائق الدعوة ، فالإنسان يدعو ويتغير أسلوبه بحسب حال المدعو ، أما ما تدعو إليه هذا شيء ثابت لا يتغير نحن ندعو إلى الله إلى ما أمر الله به وما أمر به رسوله صلى الله عليه وسلم ، هذه دعوة الأنبياء و نحن مجرد متبعون ، والأنبياء تنوعت طرائق الدعوة وتنوع طرائق الدعوة من لديهم . فخطاب إبراهيم لأبيه ليس كخطابه لقومه

كما سيأتي .

ثم قال الله جل وعلا :

﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ (75) سورة الأنعام .

فضل الله جل وعلا على هذا العبد الصالح لا يعد ولا يحصى ومنه أن الله أراه ملكوت السماوات والأرض ، وملكوت هذه التاء زائدة للمبالغة .

التاء في (ملكوت) زائدة للمبالغة والمعنى :

أن هناك ملك وهناك ملكوت فالملك ما تشاهده بعينك والملكوت ما وراء ما تشاهده بعينيك .

فالله جل وعلا من على إبراهيم بأن أراه ملكوت السماوات والأرض قد يكون رؤيا بصرية تؤدي إلى يقين قلبي ، وقد تكون مجرد يقين قلبي في صدر إبراهيم ، والمقصود أن الإنسان ينظر إلى ما حوله .

والناظرون إلى ما حولهم ينقسمون إلى قسمين:

قوم ينظرون نظر إبصار وقوم ينظرون نظر اعتبار .

(4/1)

بالطبع نظر الاعتبار خير من نظر الإبصار لأن الإبصار يشترك فيه كل من يبصر ولكن نظر الاعتبار يختلف عن نظر الإبصار ، ثم ليس كل من نظر نظر اعتبار يوفق إلى المقصود .

حتى الذين ينظرون نظر اعتبار ينقسمون إلى قسمين:

مهتدون وغير مهتدين ، فمثلا يوجد من النصارى من القسيسين والذين يتأملون في السماوات يتأملون في الأرض يتأملون في الناس ويكتبون ويدونون من ينظرون نظر اعتبار لكنهم لم يحصلوا على المقصود فهؤلاء وإن نظروا نظر اعتبار إلا إنه لم يحصلوا على المقصود .

فالهداية من الله ، ونظر الاعتبار لا يتعدى كونه وسيلة من وسائل الحصول على الهداية ، و إلا الهداية يا أخي من الله ، فمن رام شيئًا يطلبه من ربه . الله جل وعلا رب كل شيء كما سيأتي .

الله جل وعلا يقول : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ﴾ (185) سورة الأعراف ، هنا يقول الله تعالى : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ واليقين درجة عالية من أحوال المؤمنين ، ولا شك أن إبراهيم عليه السلام من أعظم الموقنين .

هذه (وليكون من الموقنين) تبقى أصل وإلا فرع؟ الأصل ، لأن الله قالها نصا : (وليكون

من الموقنين) سيأتي الحديث عنها الآن .

(5/1)

ثم قال الله جل وعلا بعدها : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين*فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين*فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين*فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ (76-78) سورة الأنعام .

قبل أن نشرع في التفسير نقول:

(78/225)

لا يمكن أبدا أن يصدق قول من قال من المفسرين أن إبراهيم قال هذا على الحقيقة ، أن إبراهيم قال هذا على الحقيقة وأن هذا قاله في طفولته ، هذا أمر لا يمكن أن يعقل لماذا ؟ لأن الله سمى إبراهيم في كتابه أنه إمام للحنفاء وقال عنه أنه من الموقنين وأن القرآن والسنة تواترت على أن هذا العبد الصالح من أعظم من أيقن بالله ، فكيف ينسب له الشرك في مرحلة من مراحل عمره لا يعقل ! لكن القضية أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال هذا كله

في موضع المناظرة والمحاجة مع قومه .

(فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي) كان كوكب الزهرة لم يقصد أن يقول أنه ربه يقينا يستحيل أن يطبق هذا على إبراهيم عليه السلام .

وقلنا من القواعد :

(6/1)

تأخذ أصلا ثم ما جاء من شبهات وعوارض تفندها بثباتك على الأصل فالتفنيد يكون بأننا نقول إن إبراهيم عليه السلام قال هذا في موضع المناظرة والمحاجة إلى قومه , وقد قلنا إن طرائق الدعوة تختلف مع الناس فكان ثلة من قومه لا يعبدون الأصنام يعبدون الكواكب يعبدون المشتري والشمس والقمر وفريق يعبدون الأصنام تعامل مع كل فريق بطريقة معينة أهل الأصنام ذهب إلى الأصنام وهدمها ، أما أهل الكواكب ليس له سبيل على الكواكب حتى يهدمها فتعامل معهم بعقلياتهم قال الله جل وعلا : (فلما جن عليه الليل) جن بمعنى غشاه ولذلك سميت الجنة جنة وسمي الطفل في بطن أمه جنينا وسميت الجن جن لأنها لا ترى بالأعين ، كل ما غاب واستتر وتغطى يدخل في مادة جن .

هنا الله يقول: (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا) والكواكب لا ترى في النهار فلما رأى كوكبا قال لمن حوله بأسلوب يبين له أنه يريد أن يصل معهم إلى الحق : (قال هذا ربي فلما أفل قال لا

أحب الآفلين) وبالطبع إبراهيم رأى الكواكب مائة مرة قبل هذا اليوم كل يوم يرى الكواكب تأفل ويرى القمر يأفل ويرى الشمس تأفل لكن هو الآن يتعامل مع ناس هذه عقلياتهم .

(79/225)

(فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي) ، يقال إنه الزهرة الذي يعنينا أنه كوكب ، (فلما أفل قال لا أحب الآفلين) يعني يقول لهم لا يصلح أن يكون رب يسير ويؤمر ويحرك من مكان إلى مكان .

)

(7/1)

فلما رأى القمر بازغا) طبعا في اليوم التالي (قال هذا ربي فلما أفل) هم ينظرون كيف ردة فعل إبراهيم هو يريد أن يشعرهم أنه واحد منهم يبحث عن الحق حتى يشعروا أنه غير متسلط عليهم (قال هذا ربي فلما أفل) ما قال لا أحب الآفلين لأن هذه مرت جاب شيء جديد قال (لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) حتى يبين لهم أنه متعطش أعظم العطش والظمأ إلى الهداية .

(لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) جاء اليوم الثالث مع الصبح ظهرت الشمس

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر) حتى يهيئهم للجواب (فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ ولم يقل ابرؤوا مما تشركون قال (إني بريء مما تشركون) .

ولم يقل ابرؤوا مما تشركون والسبب:

أن الإنسان لا يقبل الناس منه شيء في الغالب حتى يطبقه على نفسه فالناس يأخذون علم من يرونه يأخذ بالعلم على نفسه وإن كان هذا ليس فيه حجة للناس ، لكن الناس إنما يتبعون في الغالب من يرون أنه يطبق ما يدعوهم إليه كما قال شعيب عليه السلام : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ (88) سورة هود ، وقال غيره ذلك متكرر في القرآن ، فالمقصود انه قال : (إني بريء مما تشركون) فالآن بريء مما يشرك به قومه وهم الأصنام .

أصبح الناس ينتظرون منه , إذن أنت تبرأت مما نشرك ستعبد من ؟

(8/1)

(80/225)

قال: ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ (79) سورة الأنعام ، ﴿ وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ﴾ لم يقل عليه

السلام وجهت وجهي لمن خلق الشمس والقمر والنجوم التي كان يحاج بها وإنما شمل كل المخلوقات أدرجها لأن الله رب المخلوقات جميعا قال : (إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) فهو عليه السلام كما قلنا إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وإليه تنسب الملة .

تنسب إليه الملة وكان شيخ الحنفاء لأربعة أمور :

أولها : أنه جعل ماله للضيفان .

الثاني : أنه جعل بدنه للنيران .

الثالث : أنه جعل ولده للقربان .

الرابع : أنه جعل قلبه للرحمن .

والثلاثة الأولى مندرجة في الأخير .

نقول ثم قال : (وما أنا من المشركين) مع هذا كله لم يقتنع قومه . قال الله جل وعلا : ﴿ وحآجه قومه ﴾ أخذوا يحاجونه فيما يقول ﴿ وحآجه قومه ﴾ فرد عليهم ﴿ قال أتحاجوني في الله وقد هدان ﴾ أي كيف يعقل أن أقبل أقوالكم الباطلة وآراءكم الفاسدة والله جل وعلا قد من علي بالهداية . وأصلا العاقل لا يترك الحق من أجل الباطل ولا يترك الشيء البين الواضح من أجل الشيء المختلط الفاسد هذا لا يفعله صغار العقلاء فما بالك بشيخ الأنبياء عليه السلام ؟

قال الله جل وعلا : ﴿ وحآجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون ﴾ (80) سورة الأنعام ، وهذه (أفلا تتذكرون) لوحدها تدل على بلاغة القرآن .

يا بني لما تقول لإنسان: تذكر ، معناه أن الشيء هذا يعرفه من قبل ، لكن تعلم غير تذكر . (9/1)

تذكر غير تعلم , تعلم شيء جديد لكن تذكر شيء لك علاقة به من قبل .

(81/225)

فالعقائد توحيد الله جل وعلا شيء مفطور في النفوس فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه : (أفلا تتذكرون) يعني مجرد لو رجعتم إلى أنفسكم قليلا تذكرتم الشيء الذي فطره الله في قلوبكم لعرفتم أنه لا رب غيره ولا إله سواه . هذا يدل على أن عقيدة التوحيد أمر مفطور في النفوس يعرفه كل أحد إذا من الله جل وعلا عليه بالهداية . (أفلا تتذكرون)

ثم قال: ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون*الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ . مجمل الآية معناها يقول :

أنا إبراهيم اتبعت وعبدت من بيده الضر والنفع وأنتم تعبدون من ليس بيده لا ضر ولا نفع

.

فمن الذي مفروض يخاف ؟ هم لما عبد الله قالوا نخاف عليك من آلهتنا نخاف عليك من أصنامنا نخاف عليك من الشمس نخاف عليك من القمر نخشى عليك من النجوم فالله يعلمه أن يقول لهم كما قال إبراهيم لهم : (وكيف أخاف ما أشركتم) يعني كيف أخاف أنا من الذين أشركتم من أصنامكم وأنتم لا تخافون من الله ! مع أن المفروض الذي يخشى منه من ؟ الله لأن بيده الضر والنفع أما أصنامكم هذه لا تضر ولا تنفع ولا تقدم ولا تؤخر وكل من عبد من غير الله لا يقدم ولا يؤخر ولا يضر ولا ينفع ، هذه الأمور كلها بيد الله .

)

(10/1)

(82/225)

وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن) استفهام استنكاري (فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) ؟ ثم جاء الجواب: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) هذه الآية

لما نزلت شق ذلك على الصحابة كما روى البخاري وغيره ، فقالوا يا نبي الله وأينا لم يظلم نفسه قط ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ليس بالأمر الذي تعنون) أو (تذهبون إليه إنما الأمر كما قال العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم) فيصبح معنى قول الله جل وعلا (يلبسوا إيمانهم بظلم) معناها ولم يلبسوا إيمانهم بشرك .

(ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) وقد جرت – كما بينا سلفا – سنة الله في خلقه أن هناك أمنين وهناك خوفين:

من خاف الله في الدنيا أمن يوم القيامة ، ومن لم يخف الله في الدنيا خاف يوم القيامة ، فلا يجمع الله على عبد خوفين ولا يعطي عبدا أمنين ، إنما الأمن الموجود في الدنيا السكينة والرضا بالله لكن لا يعني ذلك عدم الخوف من الله ، الله جل وعلا قال لما ذكر الساعة قال: ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ (18) سورة الشورى ، أي خائفون من الساعة فالخوف لا بد منه في الحياة الدنيا . (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

(11/1)

(83/225)

ثم قال جل ذكره: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ (83) سورة الأنعام ، (وتلك حجتنا) أي هذه الحجج التي أعطيناها إبراهيم ليرد بها على قومه فضل من الله على هذا العبد الصالح (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) فلما كانت من الله كانت فضلا منه قال الله بعدها : (نرفع درجات من نشاء) وإبراهيم من أعظم من رفعهم الله جل وعلا درجات . (نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) . ثم قال جل وعلا : (ووهبنا له) فبعد أن من الله عليه بالعطاء من النبوة والرسالة من الله عليه بالذرية قال الله: ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين*وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين*وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ (86) سورة الأنعام .

الآن نترك الوعظ نرجع قليلا للناحية العلمية :

نحن قلنا في دروس كثيرة أن الأنبياء المذكورين في القرآن خمسة وعشرون نبيا هذه الآية آية الأنعام تسمى آية (وتلك حجتنا) ذكر الله فيها كما تلوناها ثمانية عشر نبيا بقي سبعة هم :

في تلك حجتنا منهم ثمانية * من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا * ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

هؤلاء السبعة الذين ذكروا في القرآن في غير هذه الآيات ، ذكر الله ذي الكفل وذكر آدم وذكر

محمد صلى الله عليه وسلم وذكر شعيبا وهودا وإدريس وصالحا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

.

نبدأ نفصل فيما لم نشرحه عنهم :

(12/1)

قلنا إن الله جل وعلا قال: (ووهبنا له) لإبراهيم (إسحق ويعقوب) ولما ذكرنا يعقوب في درس النافلة قلنا إن النافلة الزيادة على الأصل وقلنا إنها تختلف كل شيء زاد عن الأصل يسمى نافلة فقلنا قيام الليل يسمى نافلة لأنها زيادة على الصلوات المكتوبة .

(84/225)

قال الله جل وعلا – نتعلم القرآن من القرآن – قال الله: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ (79) سورة الإسراء, فصلاة الليل أو أي نافلة يسمونها العامة سنة زيادة على الأصل تسمى نافلة .

الناس عندما يغزون ماذا يريدون ؟ يريدون النصر ، عندما يحصل النصر ما الزائد ؟ الغنائم فلذلك قال الله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ (1) سورة الأنفال ، سماها زيادة

الأنفال الغنائم الزيادة على مقصود الحرب ، قال الله : (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة . .) , (ومن وراء إسحاق يعقوب) ، فذكر الله جل وعلا أنه رزقه بعد إسماعيل إسحاق ثم زيادة على الأبناء أبناء الأبناء فسمى يعقوب نافلة لأنه زيادة على الأصل وهو الولد .

نعود هنا للآية: (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل) من قبل إبراهيم وهذا يسمى إضافة منقطعة وقبل وبعد إذا أضيفت تجر وإذا لم تضف تبنى على الضم ﴿ من قبل صلاة الفجر ﴾ (58) سورة النور . فمن قبل لما أضيفت إلى صلاة كسرت لكن قال: ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ (4) سورة الروم ، حذف المضاف إليه تضم ، هنا نفس الشيء قال الله : (ونوحا هدينا من قبل) أي من قبل هداية إبراهيم زمنيا وإن كان إبراهيم أفضل من نوح .

(ونوحا هدينا من قبل) ونوح يسمى شيخ الأنبياء ؟ لأنه أطولهم عمرا وإبراهيم يسمى أبو الأنبياء ؟ لأن كل الأنبياء بعده من سلالته وذريته . (ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان) إلى آخر الآيات .

(13/1)

هذه (ومن ذريته) موضع إشكال لماذا ؟

لأنه لا يدرى أن تعود على نوح أو تعود على إبراهيم ، وأنا قلت سأترك الوعظ الآن .

(ومن ذريته) إذا قلنا إنها تعود إلى نوح يؤيدها أمران:

الأول: أن قواعد اللغة تقول أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور ، وأقرب مذكور هو نوح.

(85/225)

والأمر الثاني: قال الله جل وعلا : (ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين*وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين) في الآية الثالثة هي : (وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) ، قالوا إن لوط بالاتفاق ليس من ذرية إبراهيم ، ابن أخيه ، لوط ابن هاران وهاران أخو إبراهيم ، فمن حيث النسب الصريح لوط ليس ابنا لإبراهيم إنما ابن أخيه . فقالوا : هذان دليلان على أن المقصود نوح.

يبقى الجواب عليها ـ طبعا لا يوجد مرجح– : الذين قالوا إن (ومن ذريته) عائدة إلى إبراهيم قالوا: إن الآيات أصلا في مقام الثناء على إبراهيم ، وهذا واضح إن الله يتكلم عن إبراهيم (ونوحا هدينا من قبل) جملة اعتراضية هذه الأمر الأول.

الأمر الثاني: قالوا إن الله سمى في القرآن العم أبا ، في سورة البقرة ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم

وإسماعيل وإسحق ﴾ (133) سورة البقرة ، هؤلاء أبناء يعقوب يقولون لأبيهم : (نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) فإبراهيم أبو يعقوب جده وإسحاق أبو يعقوب مباشرة لكن إسماعيل ليس أبا ليعقوب إنما عم له ، فقالوا هذا من الأدلة على أن الله سمى في كتابه العم أبا .

طبعا ما الراجح ؟ :

(14/1)

لا يوجد راجح ، لأنه لا يوجد مرجح ، لا يكون القول راجح حتى يكون في شيء مرجح ولا يوجد مرجح هذان قولان كلاهما متكافئان ، فنقول تحتمل الآية الأمرين والله أعلم بمراد الله منها ، تأدبا مع كتاب الله .

(ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى) كلهم مروا معنا وقدم الله داود وسليمان لأن الله أعطاهم الملك والنبوة .

(86/225)

(ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون) وكلهم مروا معنا (وكذلك نجزي المحسنين*وزكريا ويحيى) ويحيى ابن لزكريا وأيهم مات قبل الآخر ؟ مات يحيى

مقتولا عليه السلام في حياة أبيه زكريا ، وقلنا إن زكريا رزق الولد وهذا معروف بعد انقطاع ، رزق يحيى ، وقلنا : إن الله لماذا سمى يحيى يحيى ؟ طبعا لم يكن أحد يسمى يحيى قبل هذا الاسم الله قال: (لم نجعل له من قبل سميا)[مريم : 7] قلنا : أسماه يحيى لأن يحيى عليه السلام مات شهيدا ، فناسب الاسم المسمى فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

(وزكريا ويحيى وعيسى) ما القرابة بين يحيى وعيسى ؟ ابني خالة ، وقد ورد حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه : (ما من عبد من ولد آدم إلا وعصى الله إلا يحيى بن زكريا) لم يعصي الله طرفة عين قال صلى الله عيه وسلم : (ما من أحد من ولد آدم إلا وقد عصى الله طرفة عين ليس يحيى بن زكريا) أي إلا يحيى بن زكريا ، ويظهر من نصوص التواريخ أنه مات صغيرا عليه السلام . لكن كما قلنا قد يوجد مفضول ما هو أفضل من الفاضل .

)

(15/1)

وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين) إلياس ذكره لله ست مرات تقريبا في القرآن وبعثه الله جل وعلا إلى أهل بعلبك شرقي دمشق في لبنان حاليا ، وقد قال الله جل وعلا في كتابه: ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين*إذ قال لقومه ألا تتقون*أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ﴾ (123-125) سورة الصافات . (وإلياس كل من الصالحين) ثم قال: (وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) .

وقلنا إن الخلاف في لوط وأن لوطا بالاتفاق ليس ابنا لإبراهيم ولكنه ابن لهاران وهاران أخ لإبراهيم ،

فإبراهيم عم له لكن قلنا إن الله سمى العم أبا في كتابه والاحتجاج بالقرآن ليس بعده احتجاج .

يفهم من السياق الذي سلف أن مراتب التفضيل أربعة:

طبعا نتكلم عن المؤمنين:النبوة والصديقية والشهادة والصلاح .

(87/225)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ (69) سورة النساء .

ثم قال جل وعلا: (وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين) أي فضلناهم بالنبوة . (وكلا فضلنا على العالمين)

﴿ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ (87) سورة الأنعام .

عندما قال (آبائهم) يعني الأصول ، ثم قال (وذرياتهم) ذكر الآباء في الأول لأنهم أصول ثم

قال: ﴿ ومن آبائهم وذرياتهم ﴾ ماقال من إخوانهم لأن الأبناء فروع ، ما دام ذكر الأصول سيذكر الفروع ثم قال (وإخوانهم) والإخوان لا هم أصول وليسوا فروع يسمون حواشي ، (16/1)

فترتيب القرآن ترتيب منطقي ذكر الله أولا الأصول ثم ذكر الفروع ثم ذكر الحواشي ، فالله يريد أن يقول أن نعمة الله على إبراهيم ليست فقط محصورة في هؤلاء الصالحين في أنفسهم وإنما في أصولهم وفروعهم وحواشيهم .

﴿ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ من الذي اجتباهم ؟ الله ، ومن الذي هداهم ؟ الله (وهديناهم إلى صراط مستقيم) لأجل ذلك قال بعدها :

﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ (88) سورة الأنعام .

كل من يلتمس شيء لن يلتمس شيئا أعظم من الهداية . والهداية إنما تطلب من الله وسيأتي قصة تبين لك هذا بعد قليل ، لا يطلب شيء في الدنيا أعظم من الهداية ، في الدنيا لاشيء أعظم من الهداية والهداية إنما تطلب من الله ، ولذلك قال الله : (ذلك هدى الله) نسبه وأضافه إلى نفسه (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا) على الفرض وإلا لا يعقل أنهم سيشركون (لحبط عنهم ما كانوا يعملون) نستفيد منها إجمالا أن

الشرك يحبط كل عمل (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) .

إلى هنا ننتهي في هذا المقطع .

بقي المقطع الأخير الذي نريد أن نقف عليه في التفسير:

(17/1)

(88/225)

قال الله جل وعلا: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملآئكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ (93) سورة الأنعام.

يا بني لأنك طالب علم اخترنا هذه الآيات حتى تعيها:

لا شيء أعظم من أن يفتري الإنسان على الله الكذب (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أي لا أحد أعظم جرما ولا أشد شناعة ممن يفتري الكذب على الله وليس بمعقول أن يأتي إنسان ينتسب إلى الملة ويفتري على الله الكذب، يعني حاشاكم بإذن الله .

لكن المقصود بالنسبة لنا : عدم الجرأة في العلم والقول على الله بلا علم ﴿ ولا تقولوا لما

تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ﴾ (116) سورة النحل ، هذا الذي يعنينا لكن الآية في الأصل المخاطب بها كفار قريش ، وكانوا يكذبون على الله ويفترون على الله الكذب وينسبون إلى الله جل وعلا ما لم يقله الله ولم ينزله على أحد ، فأخبرهم الرب جل وعلا أن هذا ظلم شنيع وتحد عظيم وأنه لا أحد أعظم فرية من ذلك ، (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) يدخل في هذا مسيلمة ويدخل فيها الأسود العنسي .

إلا أنه تبقى قصة :

(18/1)

(89/225)

من الذين أسلموا قديما صحابي اسمه عبد الله بن سعد ابن أبي السرح وهذا الرجل أرضعته أم عثمان رضي الله عنه فهو أخو عثمان من الرضاعة ، هذا لما أسلم كان يحسن الكتابة فجعله النبي صلى الله عليه وسلم كاتبا للوحي فلما أنزل الله سورة المؤمنون على الحكاية وفيها : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين*ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ (13) سورة المؤمنون ، الرسول يتلوها وهذا يكتب حتى وصل إلى قول الله جل

وعلا : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ فكتبها قبل أن يمليه الرسول قال: تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (هكذا أنزلت علي) ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

(19/1)

(90/225)

دخله في تلك الحقبة زلة غر بنفسه فترك كتابة الوحي وقال: " إن كان محمد صادقا فيما يقول فأنا يوحى إلي كما يوحى إليه وإن كان محمد كاذبا فيما يقول فأنا أقول كما يقول" .

وترك الإسلام والتحق بكفار قريش ولذلك قال الله (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) لكن الله يعلم أزلا أنه سيتوب فلم يسمه باسمه الصريح في القرآن فلما ذهب إلى مكة حصل فتح مكة في العام الثامن ودخلها النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر عن رجال فأمر بقتل عبد الله بن خطل ورجل آخر وعبد الله بن سعد وعكرمة ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ، فأما عبد الله بن خطل تعلق بأستار الكعبة فلم تنجه وقتل ، ورجل آخر يقال له ابن يسار قتل في السوق ، وعكرمة وعبد الله بن سعد هذان فرا ، فذهب عثمان رضي الله عنه إلى أخيه من الرضاعة الذي هو عبد الله وطلب منه أن يدخل به ليأمن له من رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، فدخل عثمان رضي الله عنه وأرضاه بأخيه عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم ورسول الله كاره لتوبته لأنه قال ما قال ، فطلب عثمان الأمان لعبد الله فسكت صلى الله عليه وسلم طويلا قبل أن يعطيه الأمان رجاء أن يقوم أحد فيقتله ، فلم يقم أحد لم يفطن الصحابة لهذا ليمضي قدر الله ، ثم قال صلى الله عليه وسلم (نعم) فأعطى عثمان الأمان ، فلما خرج قال عليه الصلاة والسلام (لقد أطلت الصمت رجاء أن يقوم أحدكم فيقتله) فقال رجل من الأنصار هلا أومأت لي يا رسول الله ! قال (إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين) صلوات الله وسلامه عليه .

(20/1)

(91/225)

حتى نرجع قليلا قبل قليل أنا قلت (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء) حتى تعلم أن القلوب كلها بيد الله يفعل بها ما يشاء ، هذا الذي حصل من هذا أسلم وحسن إسلامه فلما كانت ولاية عثمان رضي الله تعالى عنه أصبح أميرا للمؤمنين جعل عبد الله بن سعد هذا واليا على مصر ، وهو الذي قاد معركة ذات الصواري وهي أول معركة حربية في الإسلام ، وكان كثير من فتح بلدان إفريقيا على يديه ، ثم لما رجع جاءت الفتنة بين علي ومعاوية

فاعتزلها ولم يبايع لا لعلي ولا لمعاوية ، وسكن في الرملة المدينة المعروفة في فلسطين ، ثم مكث فيها ما شاء الله إلى قبل انتهاء ولاية علي ثم إنه ذات يوم قال: " اللهم اقبضني إليك في صلاة الصبح " ، فصلى بالناس صلاة الصبح قرأ في الأولى الفاتحة والعاديات ضبحا ، وقرأ في الثانية لم يضبطهم عنه الرواة ثم سلم التسليمة الأولى ومات قبل أن يسلم التسليمة الثانية .

هذا كله يدل على أن القلوب يا أخي بيد الله وقد يكون الإنسان متلبسا بالمعصية وقد يكون الإنسان يحب أن يهتدي ، وأنا أرى في الدرس اليوم شباب مباركين أسأل الله أن يهدينا وإياهم سواء السبيل .

هذا كله عندما يأتي الإنسان إلى بيت من بيوت الله أنت لو رحت إلى قصر واستطعت تدخل إلى القصر يستحي الأمير أن يردك ومعك شيء ، وهو بشر ، فكيف وقد دخلنا أجمعين بيت أرحم الراحمين ! فأنت في صلاتك هنا في دعائك في استغفارك ليكن قلبك متعلقا بالله تطلب من الله الهداية تطلب من الله غنى النفس ، تطلب من الله الرحمة تطلب من الله التوفيق تطلب الله أن يرزقك حسن الخاتمة تطلب من الله أن يقيك عذاب القبر أن يقيك عذاب النار تطلب من الله أعظم المطالب دخول الجنة .

والمقصود كلما آمن الإنسان أن الهداية والرحمة والفضل والإحسان بيد الله وطلبها بقلبه قبل أن يطلبها بلسانه أعطاه الله جل وعلا إياها لكن لا تستعجل وكن صادقا مع ربك

يصدقك الله تبارك وتعالى . هذا السياق الأول من الآية .

(21/1)

(92/225)

ثم قال الله جل وعلا : (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملآئكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) هذا تصوير لكيفية نزع روح أهل الإشراك وقد مر معنا كثيرا والمقصود أن قبض الأرواح موكل به ملائكة وأن النفس إما أن تكون مؤمنة وإما أن تكون كافرة ولأن الكفر والإيمان لا يستويان فطبيعة الحال لا يستوي قبض روح المؤمن وقبض روح الكافر والله يصور هنا قبض أرواح الكفار .

والغمرة في اللغة : لجج الماء التي تغطي صاحبها . والإنسان يضربه الموج وغمرات الماء تنقله من مكان إلى مكان يصيبه الخوف الشديد والرعب فالله جل وعلا يقول إن هؤلاء الكفار تتخبط روحهم في أجسادهم قبل أن تخرج والملائكة تضربهم وتقول لهم (أخرجوا أنفسكم) أي جدوا لأنفسكم خلاصا ومنجى ومخرجا إن استطعتم ولا يجدون لا هم ولا من يحيطون بهم (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) وليس المقصود أنه ليس بعده عذاب لكن هذا أول مراحل العذاب (اليوم تجزون عذاب الهون) عذاب الذلة عذاب

الصغار ثم ذكر السبب (عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) .

والاستكبار عن آيات الله أعظم طرائق الموصلة إلى الضلالة كما أن انسياق القلب وانقياده إلى الرب تبارك وتعالى واللين فيه أعظم ما يجعله سببا في أن ينال الإنسان به رحمة الله تبارك وتعالى .

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى ورحمتك التي وسعت كل شيء أن تهدينا أجمعين سواء السبيل وأن تختم لنا بخير وأن تجعل الجنة دارنا وقرارنا إنك سميع مجيب .

هذا وصلى الله على محمد وعلى آله ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴾

تأملات في سورة الأنعام

للشيخ صالح المغامسي ﴾

(93/225)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

«سورة الأنعام» (6)

«وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ» (1) أي خلق ، والنور الضوء .

«بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» (1) : مقدم ومؤخر ، مجازه يعدلون بربهم ، أي :

يجعلون له عدلا ، تبارك وتعالى عما يصفون .

«وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ» (2) مقدم ومؤخر ، مجازه وعنده أجل مسمّى ، أي وقت مؤقّت .

«ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ» (2) أي تشكّون .

«أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» (5) أي أخبار .

«مِنْ قَرْنٍ» (6) أي : من أمة [يروون أن ما بين القرنين أقلّه ثلاثون سنة] . «1»

---

(1) «يروون . . . سنة» : روى هذا الكلام عنه فى القرطين 1/ 151 ، وانظر البحر المحيط لأبى حيان 4/ 65 .

«مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ» (6) أي : جعلنا لهم منازل فيها وأكالا ، وتثبيتا ومكناهم مكّنتك ومكنت لك واحد ، يقال : أكل وأكال وآكال واحدها أكل .

قال الأثرم: قال أبو عمرو: يقال له أكل من الملوك، إذا كان له قطايع. «1»

«وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً» (6) مجاز السماء هاهنا مجاز المطر، يقال: ما زلنا فى سماء، أي فى مطر، وما زلنا نطأ السماء، أي أثر المطر، وأنّى أخذتكم هذه السماء؟ ومجاز «أرسلنا»: أنزلنا وأمطرنا «مِدْراراً» (6) أي غزيرة دائمة.

---

(1) «أكل . . . قطايع» وفى اللسان: والأكل ما يجعله الملوك مأكلة.

(95/225)

[قال الشاعر:

وسقاك من نوء الثريّا مزنة غرّاء تحلب وابلا مدرارا

أي غزيرا دائما].

«وَأَنْشَأْنا» (6) أي ابتدأنا، ومنه قولهم: فأنشأ فلان فى ذلك أي ابتدأ فيه.

«الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» (12) أي غبنوا «1» أنفسهم وأهلكوها، قال الأعشى:

لا يأخذ الرشوة فى حكمه ولا يبالى غبن الخاسر «2»

أي: خسر الخاسر.

«فاطِرِ السَّماواتِ» (14) أي خالق السموات. «هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ» (3/67) أي:

من صدوع ، ويقال : انفطرت زجاجتك أي انصدعت ، ويقال فطر ناب الجمل ، أي انشقّ فخرج.

---

(1) «غبنوا . . . وأهلكوها» كذا فى الطبري 7/ 94 .

(2) : فى ديوانه 105 والطبري 7/ 94 .

(96/225)

«ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ «1» إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا» (23) مرفوعة إذا عملت فيها «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ» فتجعل قولهم الخبر ل «تكن» ، وقوم ينصبون «فتنتهم» لأنهم يجعلونها الخبر ، ويجعلون قولهم الاسم ، بمنزلة قولك ثم لم يكن قولهم إلا فتنة ، لأن «إلّا أن قالوا» فى موضع «قولهم» ، ومجاز فتنتهم : مجاز كفرهم وشركهم الذي كان فى أيديهم .

«أَكِنَّةً «2» أَنْ يَفْقَهُوهُ» (25) واحدها كنان ، ومجازها عطاء ، قال [عمر بن أبى ربيعة :

أينا بات ليلة بين غصنين يوبل] «3»

تحت عين كنانها ظلّ برد مرحّل

أي غطاؤنا الذي يكنّنا .

(1) «فتنتهم» قرأها ابن كثير وابن عامر وحفص بالفتح والباقون بالنصب.

أنظر الداني 102.

(2) «أكنة»: وفى البخاري: أكنة واحدها كنان وقال ابن حجر: وهو قول أبى عبيدة قال فى قوله تعالى: أكنة... واحدها... وستأتى (فتح الباري 8/216).

[.....]

(3) البيتان فى الجمهرة وهما مع ثالث فى اللسان (كنن)، والبيت الأخير فى الطبري 7/100.

(97/225)

«وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً» (25) مفتوح، ومجازه: الثّقل والصمم، وإن كانوا يسمعون، ولكنهم صمّ عن الحق والخير والهدى والوقر هو الحمل إذا كسرته.

«أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (25) واحدتها أسطورة، وإسطارة لغة، ومجازها مجار الترّهات «1» [البسابس «2» ليس له نظام، وليس بشىء].

«وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ» (26) أي يتباعدون عنه، قال النّابغة:

فأبلغ عامرا عنى رسولا وزرعة إن دنوت وإن نأيت

«3»

---

(1) «أساطير . . . الترهات» : هذا الكلام فى البخاري ببعض نقص وزيادة وقال ابن حجر : هو كلام أبى عبيدة أيضا وذكر قوله برمته فى فتح الباري 8/ 216 .

وقال الطبري (7/ 101) قال بعض أهل العلم . وهو أبو عبيدة معمر بن المثنى ، بكلام العرب يقول : الإسطارة لغة الخرافات والترهات وكان الأخفش يقول : قال بعضهم : واحدة أسطورة ، وقال بعضهم : إسطارة ، قال : ولا أراه إلا من الجميع الذي ليس له واحد نحو العبابيد والمذاكير والأبابيل . . . إلخ وقال فى اللسان (سطر) : وقال أبو عبيدة : جمع سطر على أسطر ثم جمع أسطر على أساطير وقال أبو الحسن لا واحد له .

(2) البسابس الكذب والبسبس القفر والترهات البسابس (اللسان) .

(3) : فى ديوانه ورقة مصورة دار الكتب .

(98/225)

«ما فَرَّطْنا» (31) مجازه : ما ضيّعنا .

«أَوْزارَهُمْ» (31) واحدها : وزر مكسورة ، ومجازها : آثامهم ، [و الوزر والوزر واحد ، يبسط الرجل ثوبه فيجعل فيه المتاع فيقال له : أحمل وزرك ، ووزرك ، ووزرتك] . «1»

«تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ» (35) يريد أهوية ومنه نافقاء اليربوع الجحر «2» الذي ينفق منه فيخرج ينفق نفقا مصدر .

«أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ» (35) أي مصعدا ، قال ابن مقبل :

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا تبنى له فى السموات السلاليم

«3»

---

(1) «يبسط . . . وزرتك» : قال القرطبي : قال أبو عبيدة : ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع : احمل وزرك أي ثقلك (6/ 413) لعله مصحف أبى عبيدة .

(2) «ناقفاء . . . الحجر» : انظر الطبري 7/ 109 ، والقرطبي 6/ 416 ، واللسان (نفق) .

(3) : فى الطبري 8/ 109 واللسان (حجا) وشواهد المغني 227 منسوبا إلى تميم بن أبى عقيل - أحجاء البلاد : نواحيها وأطرافها (اللسان) .

«لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ» (37) مجازها : هلّا نزل عليه ، قال :

تعدّون عقر النّيب أفضل مجدكم بنى ضوطرى لولا الكمىّ المقنّعا (63)

أي فهلا تعدّون الكمىّ .

«وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ» (38) مجازه : إلا أجناس يعبدون اللّه ، ويعرفونه ، وملك . «1»

«ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ » (38) مجازه : ما تركنا ولا ضيعنا ولا خلقنا .

«صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ» (39) مثل للكفار ، لأنهم لا يسمعون الحق والدين وهم قد يسمعون غيره ، وبكم لا يقولونه ، وهم ليسوا بخرس .

«بِالْبَأْساءِ» (42) «2» هى البأس من الخوف والشر والبؤس .

«وَالضَّرَّاءِ» (42) من الضرّ .

«بَغْتَةً» (44) أي فجأة ، يقال : بغتني أي فاجأنى .

---

(1) وملك : معطوف على الأجناس .

(2) «البأساء» : وفى البخاري : البأساء من البأس ويكون من البؤس ، قال ابن حجر : هو معنى كلام أبى عبيدة ، قال فى قوله تعالى . . . هى البأساء . . . والبؤس (فتح الباري 8/ 217) .

«فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ» (44) المبلس : الحزين الدائم ، قال العجّاج :

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قال نعم أعرفه وأبلسا «1»

وقال رؤبة :

وحضرت يوم خميس الأخماس وفى الوجوه صفرة وإبلاس «2»

أي اكتئاب وكسوف وحزن .

«فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ» (45) أي آخر القوم الذي يدبرهم . «3»

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ» (46) مجازه : إن أصم اللّه أسماعكم وأعمى أبصاركم ، تقول العرب : قد أخذ اللّه سمع فلان ، وأخذ بصر فلان .

«ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ» (46) مجازه : يعرضون ، يقال : صدف عنى بوجهه ، أي أعرض . «4»

---

(1) : ديوانه 16 . - والكامل 343 ، والطبري 7/ 116 ، والقرطبي 6/ 427 ، واللسان والتاج (بلس) .

(2) : ديوانه 67 - واللسان (بلس) .

(3) «القوم الذي يدبرهم» : روى الطبري (7/ 116) عن أبى زيد أنه قال : استأصلوا دابر القوم الذي يدبرهم .

(4) «يقال . . . أعرض» : هذا الكلام فى الطبري 7/ 116 .

«إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً» (47) مجاز بغتة : فجأة وهم لا يشعرون . «أو جهرة» أي : أو علانية وهم ينظرون .

«وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ» (55) أي نميزها ونبيّنها . [قال يزيد ابن ضبّة فى البغتة :

ولكنّهم بانوا ولم أدر بغتة وأفظع شىء حين يفجؤك البغت] «1»

«قَدْ ضَلَلْتُ» (56) تضلّ تقديرها : فررت تفرّ وضللت تضلّ ، تقديرها :

مللت تملّ ، لغتان .

«عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» (57) أي بيان ، وقال :

أبيّنة تبغون بعد اعترافه وقول سويد قد كفيتكم بشرا «2»

أي : بيانا .

---

(1) : يزيد بن ضبة : مولى لثقيف واسم أبيه مقسم ، وضبة أمه ، غلبت على نسبه لأن أباه مات وخلفه صغيرا . . . وهو شاعر إسلامى . انظر أخباره فى الأغانى 6/ 146 - 150 وترجم له ابن حبيب فى كتاب من نسب إلى أمه ص 88 . . . والبيت فى

الكامل 520 واللسان (بغت) . [. . . . .]

(2) : فى الطبري 7/ 125 .

(102/225)

«جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ» (60) أي كسبتم .

«وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ» (61) أي : لا يتوانون «1» ولا يتركون شيئا ، ولا يخلفونه ولا يغادرون .

«رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ» (62) مجازه : مولاهم ربهم .

«تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً» (63) أي : تخفون فى أنفسكم .

«أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً» (65) يخلطهم ، وهو من الالتباس و«شيعا» : فرقا ، واحدتها : شيعة .

«الذِّكْرى» (68) والذّكر واحد .

«أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ» (70) أي : ترتهن وتسلم ، قال عوف ابن الأحوص [بن جعفر] :

وإبسالى بنىّ بغير جرم بعوناه ولا بدم مراق «2»

---

(1) لا يتوانون : روى القرطبي (7/ 7) تفسيره هذا عن أبى عبيدة .

(2) : عوف . . . جعفر بن كلاب بن عامر بن صعصعة يكنى أبا يزيد شاعر جاهلى مترجم فى المعجم للمرزبانى 275 والسمط 377 . - والبيت فى نوادر أبى زيد 151 وكتاب المعاني الكبير 1114 والطبري 7/ 139 والقرطبي 7/ 16 وشواهد الكشاف 200 واللسان والتاج (بسل ، وبعو) .

(103/225)

بعوناه ، أي : جنيناه ، «1» [وكان حمل عن غنىّ لبنى قشير دمّ ابني السّجفيّة ، فقالوا : لا نرضى بك ، فرهنهم بنيه ، «2» قال النابغة الجعدىّ :

ونحن رهنّا بالافاقة عامرا بما كان فى الدّرداء رهنا فأبسلا] «3»

وقال الشّنفرى :

هنالك لا أرجو حياة تسرّنى سميرا الليالى مبسلا بالجرائر «4»

أي أبد الليالى . وكذلك فى آية أخرى : «أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا» (70) .

«وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها» (70) مجازه : إن تقسط كل قسط لا يقبل منها . لأنّما التوبة فى الحياة .

---

(1) «بعوناه أي جنيناه» ، وفى القرطبي : بعوناه بالعين المهملة معناه جنيناه والبعو الجناية .

(2) «وكان . . . بنيه» . هذا الكلام فى القرطبي والصحاح واللسان والتاج (بلس) .

(3) فى القرطبي 7/ 16 واللسان (بسل) ومعجم البلدان 1/ 324 .

(4) : الشنفري : شاعر جاهلى وهو من صعاليك العرب وفتاكهم انظر الأغانى 21/ 87 وشرح المفضليات 195 والسمط 414 والخزانة 2/ 16 . - والبيت فى ديوانه والطرف الأدبية 25 والمفضّليات 197 والشعراء 19 والطبري 7/ 139 والأغانى 21/ 89 واللسان والتاج (بسل) .

(104/225)

«وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا» (71) يقال : ردّ فلان على عقيبيه ، «1» أي رجع ولم يظفر بما طلب ولم يصب شيئًا .

«كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ» (72) وهو : الحيران الذي يشبّه له الشياطين فيتبعها حتى يهوى فى الأرض فيضلّ .

«يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» (73) «2» يقال إنها جمع صورة تنفخ فيها روحها فتحيا ، بمنزلة قولهم : سور المدينة واحدتها سورة ، وكذلك كل [ما] علا وارتفع ، كقول النابغة :

ألم تر أنّ اللّه أعطاك سورة ترى كلّ ملك دونها يتذبذب (2)

وقال العجّاج:

[فربّ ذى سرادق محجور سرت إليه فى أعالى السّور (4)

---

(1) «يقال . . . عقبيه» : الذي ورد فى الفروق روى القرطبي (7/ 17) هذا الكلام عنه.

(2) الصور : قال فى اللسان (صور) قال أبو الهيثم : اعترض قوم فأنكروا أن يكون قرنا كما أنكروا العرش والميزان والصراط وادعوا أن الصور جمع الصورة كما أن الصوف جمع الصوفة والثوم جمع النومة ورووا ذلك عن أبى عبيدة ، قال أبو الهيثم :

وهذا خطأ فاحش وتحريف لكلمات اللّه عز وجل عن مواضعها لأن اللّه عز وجل قال : «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» ففتح الواو ، قال ولا نعلم أحد من القراء قرأها فأحسن صوركم . وكذلك قال : (و نفخ فى الصور) فمن قرأ ونفخ فى الصور أو قرأ فأحسن صوركم فقد افترى الكذب وبدل كتاب اللّه . وكان أبو عبيدة صاحب أخبار وغريب ولم يكن له معرفة بالنحو . . . قال الأزهرى قد احتج أبو الهيثم فاحسن الاحتجاج. وهذا التفسير المردود على أبى عبيدة قد ارتضاه البخاري فى الجامع الصحيح (5/ 195) وعزاه ابن حجر إلى أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 217 .

ومنها : سورة المجد أعاليه] وقال جرير :

لمّا أتى خبر الزّبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع «1»

«مَلَكُوتَ السَّماواتِ» (75) «2» أي : ملك السموات ،

---

(1) : ديوانه 345 والنقائض 969 والكتاب 1/ 19 ، 25 - والكامل للمبرد 312 والطبري 1/ 145 واللسان والتاج (سور) والخزانة 2/ 166 . وقال عبد القادر البغدادي : وذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى أن السور جمع سورة وهو كل ما علا . . . وبها سمى سور المدينة وعلى هذا لا شاهد فى البيت .

(2) «ملكوت السموات» : وفى البخاري : ملكوت وملك رهبوت رحموت وتقول ترهب خير أن ترهب . وقال ابن حجر : كذا لأبى ذر وفيه تشويش ولغيره ملكوت ملك مثل رهبوت خير من رحموت ، وتقول ترهب خير أن ترحم وهذا هو الصواب فسر معنى ملكوت بملك وأشار إلى وزنه رهبوت ورحموت ، ويوضحه كلام أبى عبيدة فإنه قال فى قوله تعالى : «وَكَذلِكَ نُرِي . . . السَّماواتِ وَالْأَرْضِ» أي ملك . . . من رحمة . انتهى (فتح الباري 8/ 218) ولعل البخاري أخذه عن أبى عبيدة مع أن الشارح ابن حجر لم

ينبه على أن ما عند البخاري هو كلام أبى عبيدة ، لأنه اطلع على نسخة من مجاز القرآن غير التي اطلع عليها ابن حجر

(106/225)

خرجت مخرج قولهم فى المثل : رهبوت خير من رحموت ، أي : رهبة خير من رحمة .

«1»

«فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» (76) «2» أي : غطّى عليه وأظلم عليه ، ومصدره :

جنّ الليل جنونا ، قال دريد بن الصّمّة :

ولولا جنون الليل أدرك ركضنا بذي الرّمث والأرطي عياض بن ناشب «3»

وبعضهم ينشده : ولولا جنان الليل ، أي غطاؤه وسواده ، وما جنّك من شىء فهو جنان لك ، [و قال سلامة بن جندل :

---

(1) «رهبوت . . . رحمة» هذا المثل مع تفسيره فى الطبري 7/ 147 واللسان والتاج (رهب) ومجمع الأمثال 1/ 194 والفرائد 1/ 240 .

(2) «فلما . . . الليل» : نقل ابن حجر تفسير أبى عبيدة هذا ونصه : قال أبو عبيدة فى قوله تعالى : فلما جن عليه الليل أي غطى . . . . . ما أي غطاء (فتح الباري 8/

217) .

(3) : من كلمة له فى الأصمعيات 12 وبعضها فى الأغانى 9/ 6 والخزانة 3/ 166 ، وهو فى القرطبي 7/ 25 واللسان والتاج (جنن) ومعجم البلدان 2/ 816 وقيل إنه لخفاف بن ندبة . [. . . . .]

(107/225)

ولولا جنان الليل ما آب عامر إلى جعفر سربالة لم يمزّق] «1»

قال ابن أحمر يخاطب ناقته :

جنان المسلمين أودّ مسّا وإن جاورت أسلم أو غفارا «2»

أي : سوادهم ، [يقول : دخولك فى المسلمين أودّ لك] «فَلَمَّا أَفَلَ» (76) أي غاب يقال : أين أفلت عنا ، أي أين غبت عنا ، وهو يأفل مكسورة الفاء ، والمصدر : أفل أفولا كقوله :

إذا ما الثّريّا أحسّت أفولا «3»

أي : غيبوبة . [قال ذو الرّمّة :

مصابيح ليست باللواتي تقودها نجوم ولا بالآفلات الدّوالك] «4»

---

(1) : البيت هو 28 من رقم 3 فى ديوانه وهو فى اللسان والتاج (جنن) والعيني 3/

.210

(2) : فى اللسان والتاج (جنن) .

(3) : لم أجده فى مظانه .

(4) : ديوانه 425 - والطبري 7/ 151 واللسان والتاج (ذلك) .

(108/225)

«لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ» (76) أي من الأشياء ، ولم يقصد قصد الشمس والقمر والنجوم فيجمعها على جميع الموات .

«فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً» (77) أي طالعا .

«ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ [عَلَيْكُمْ] سُلْطاناً» (81) أي ما لم يجعل لكم فيه حجة ، ولا برهانا ، ولا عذرا .

«وَاجْتَبَيْناهُمْ» (87) أي اخترناهم ، يقال : اجتبى فلان كذا لنفسه ، أي اختار .

«فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً» (89) أي فقد رزقناها قوما .

«وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» (91) أي ما عرفوا اللّه حقّ معرفته .

«تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ» (93) مضموم ، وهو الهوان ، وإذا فتحوا أوله ، فهو الرفق

والدّعة.

«فُرادى» (94) أي فردا فردا.

«تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ» (94) [أي وصلكم] مرفوع لأن الفعل عمل فيه، كما قال مهلهل:

(109/225)

كأنّ رماحهم أشطان بئر بعيد بين جاليها جرور «1»

«وجاعل «2» اللّيل سكنا والشّمس والقمر» (96) منصوبتين، لأنه فرق بينهما وبين الليل المضاف إلى جاعل قوله: «سكنا»، فأعملوا فيهما الفعل الذي عمل فى قوله: «سكنا»، فنصبوهما كما أخرجوهما من الإضافة، كما قال [الفرزدق]:

قعودا لدى الأبواب طالب حاجة عوان من الحاجات أو حاجة بكرا «3»

«وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً» (96)، وهو جميع حساب، فخرج مخرج شهاب، والجميع شهبان.

«فَمُسْتَقَرٌّ «4» وَمُسْتَوْدَعٌ» (98) مستقرّ فى صلب الأب، ومستودع فى رحم الأم.

«5»

---

(1): فى الكامل 212، 354 والطبري 7/ 170، واللسان (بين).

(2) «وجاعل» : قرأ الكوفيون على وزن «فعل» و«الليل سكنا» بنصب اللام والباقون على وزن «فاعل» وجر اللام من الليل وانظر الداني 105 .

(3) : ديوانه 227 والطبري 7/ 173 .

(4) «فمستقر» : بالكسر قراءة ابن كثير وأبى عمر . وانظر الداني 105 .

(5) «فمستقر . . . الأم» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 217 .

(110/225)

« [قِنْوانٌ]» (99) . القنو «1» هو العذق ، والاثنان : قنوان ، النون مكسورة ، والجميع قنوان على تقدير لفظ الاثنين ، غير أن نون الاثنين مجرورة فى موضع الرفع والنصب والجر ، ونون الجميع يدخله الرفع والجر والنصب ، ولم يجد مثله غير قولهم صنو ، وصنوان ، والجميع صنوان .

«وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ» (99) ، ينعه : مصدر من ينع إذا أينع أي : من مدركه ، واحده يانع والجميع ينع ، بمنزلة تاجر والجميع تجر ، وصاحب والجميع صحب ، ويقال : قد ينع الثمر فهو يينع ينوعا ، فمنه اليانع ويقال : قد ينعت الثمرة وأينعت لغتان ، فالآية فيها اللغتان جميعا ، قال :

فى قباب حول دسكرة حولها الزيتون قد ينعا «2»

---

(1) «القنو» : وفى البخاري : القنو العذق والاثنان قنوان والجماعة أيضا قنوان مثل صنوان وصنوان . قال الشارح ابن حجر : كذا وقع لأبى ذر تكرير صنوان الأولى مجرورة النون والثانية مرفوعة وسقت الثانية لغير أبى ذر ويوضح المراد كلام أبى عبيدة الذي هو منقول منه . قال أبو عبيدة فى قوله تعالى «وَمِنَ النَّخْلِ . . . قِنْوانٌ» . قال القنو . . . صنوان (فتح الباري 8/ 218) .

(2) : فى الكامل 118 والطبري 7/ 180 والقرطبي 13/ 67 واللسان والتاج (ينع ، دسكر) . قال المبرد : قال أبو عبيدة هذا الشعر مختلف فيه ، فبعضهم ينسبه إلى الأحوص وبعضهم ينسبه إلى يزيد بن معاوية . وقال صاحب اللسان : قال ابن برى هو للأحوص أو يزيد بن معاوية أو عبد الرحمن بن حسان . ولسبه صاحب اللسان فى مادة «دسكر» إلى الأخطل .

(111/225)

«وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ» (100) افتعلوا للّه بنين وبنات وجعلوها له واختلقوه من كفرهم كذبا .

«بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ» (101) أي مبتدع.

«عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» (102) أي حفيظ ومحيط.

«قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ» (104) واحدتها بصيرة، ومجازها:

حجج بيّنة واضحة ظاهرة.

«دارست» (105) «1» من المدارسة، و«درست» أي امتحنت.

«فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ» (108) عدوا أي اعتداء.

---

(1) «دارست»: فى الداني: هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو، قال الطبري (7/ 187) وهو قراءة بعض قراء أهل البصرة وقرأها ابن عامر بغير ألف وفتح السين وإسكان التاء، والباقون بغير ألف وإسكان السين وفتح التاء، وانظر الداني 105.

«وَما يُشْعِرُكُمْ» (109) أي ما يدريكم.

«أَنَّها إِذا جاءَتْ» (109) ألف «إنها» مكسورة على ابتداء «إنها»، أو تخبير عنها ومن فتح ألف «أنها» فعلى إعمال «يشعركم» فيها، فهى فى موضع اسم منصوب.

«وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا» (111) «1» ومجاز «حشرنا»، سقنا وجمعنا

«قبلا» جميع ، قبيل قبيل أي : صنف صنف ومن قرأها «قبلا» فإنه يجعل مجازها عيانا ، كقولهم : «من ذى قبل» ، وقال آخرون «قبلا» أي مقابلة ، كقولهم : «أقبل قبله ، وسقاها قبلا ، لم يكن أعدّ لها الماء ، فاستأنفت سقيها ، وبعضهم يقول : «من ذى قبل» . «2»

---

(1) «قبلا» : قرأ نافع وابن عامر بكسر القاف وفتح الباء ، والباقون بضمها .

انظر الداني 106 .

(2) «ومجاز . . . قبل» : وفى البخاري : قبل كل ضرب منها قبيل . قال ابن حجر : هو كلام أبى عبيدة أيضا لكن بمعناه فى قوله تعالى «وَحَشَرْنا» الآية .

فمعنى . . . إلخ (فتح الباري 8/ 223) . [. . . . .]

(113/225)

«زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً» (112) كل شىء حسنته وزيّنته وهو باطل فهو زخرف «1»

ويقال : زخرف فلان كلامه وشهادته .

«وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ» (113) من صغوت إليه أي ملت إليه وهويته وأصغيت إليه لغة ، [قال ذو الرمة :

تصغى إذا شدّها بالرّحل جانحة حتى إذا ما استوى فى غرزها تثب «2»

«وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ» (113) مجاز الاقتراف «3» القرفة والتّهمة والادعاء.

ويقال: بئسما اقترفت لنفسك، قال رؤبة:

أعيا اقتراف الكذب المقروف تقوى التقيّ وعفّة العفيف «4»

---

(1) «زخرف... فهو زخرف» كذا فى البخاري: قال ابن حجر: هو كلام أبى عبيدة وزاد: يقال... وشهادته (فتح الباري 8/ 223).

(2): ديوانه 9 - وجمهرة الأشعار 179 والموشح 174 والقرطبي 7/ 69 واللسان والتاج (صفى).

(3) «الاقتراف... إلخ»: قال الطبري: (7/ 70) وكان بعضهم يقول: هو التهمة والادعاء، يقال للرجل أنت فرقتنى... اقترفت لنفسك.

(4): الشطران فى الطبري 8/ 6 والقرطبي 7/ 70 ولم أجدهما فى ديوان رؤبة.

(114/225)

يقال: أتت قرفتى، وقارفت الأمر أي واقعته.

«يَخْرُصُونَ» (116) أي: يظنون ويوقعون، ويقال: يتخرص، أي يتكذب.

«أَكابِرَ مُجْرِميها» (123) أي العظماء.

«لِيَمْكُرُوا فِيها» (123) مصدره المكر، وهو الخديعة والحيلة بالفجور والغدر والخلاف.

[«صَغارٌ»] (124) الصغار: هو أشدّ الذّلّ.

الرجز و«الرِّجْسَ» (125) سواء، وهما العذاب.

«وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» (134) أي فائتين، ويقال: أعجزني فلان فاتني وغلبني «1» وسبقني، وأعجز مني، وهما سواء.

«اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ» (135) أي على حيالكم وناحيتكم. «2»

«ذَرَأَ» (136) بمنزلة برأ، ومعناهما خلق.

---

(1) «فائتين . . . وغلبني»: أخذ القرطبي (7/ 88) هذا الكلام برمته.

(2) «حيالكم وناحيتكم» كذا في الطبري (8/ 27).

«حِجْرٌ» (138) أي حرام، قال المتلمّس:

حنّت إلى النّخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا ثمّ الدّهاريس «1»

الدهاريس: الدواهي.

«جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ» (141) قد عرش عنبها .

«وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ» (141) من سائر الشجر الذي لا يعرش ، ومن النخل .

«كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ «2» إِذا أَثْمَرَ» (141) جميع ثمرة ، ومن قرأها :

«مِنْ ثَمَرِهِ» فضمّها ، فإنه يجعلها ثمر .

«حَمُولَةً وَفَرْشاً» (143) أي ما حملوا عليها ، والفرش : صغار الإبل لم تدرك أن يحمل عليها .

«أَوْ دَماً مَسْفُوحاً» (145) أي مهراقا مصبوبا ، ومنه قولهم : سفح دمعى ، أي : سال قال الشاعر :

---

(1) من قصيدته فى مختارات شعراء العرب 33 وشعراء الجاهلية 333 وهو فى الطبري 8/ 31 ، 2/19 والقرطبي 13/ 21 واللسان (دهرس) .

(2) «ثمرة» . بالفتح لغة كنانة وبالضم لغة تميم . (ما ورد فى القرآن فى لغات القبائل 1/ 130) .

هاج سفح دموعى ما تحنّ ملوعى]

«قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ» (150) : هلّم فى لغة أهل العالية للواحد والاثنين والجميع من الذكر والأنثى سواء .

قال الأعشى :

وكان دعا قومه بعدها هلمّ إلى أمركم قد صرم «1»

وأهل نجد يقولون للواحد هلّم ، وللمرأة هلّمى ، وللاثنين هلمّا ، وللقوم :

هلمّوا ، وللنساء هلمن ، يجعلونها من هلممت «2» [وأهل الحجاز لا يجعلون لها فعلا] .

«وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ» (151) من ذهاب ما فى أيديكم يقال : أملق فلان ، أي ذهب ماله ، [واحتاج ، وأقفر مثلها] .

«مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» (161) أي دين إبراهيم يقال من أي ملة أنت ، وهم أهل ملتك .

---

(1) ديوانه 58 - والطبري 8/ 77 والقرطبي 7/ 158 واللسان والتاج ربع) .

(2) «هلم . . . هلمت» : انظر تفسير الطبري 8/ 158 .

«وَنُسُكِي وَمَحْيايَ» (162) وهو مصدر نسكت ، وهو تقربت بالنسائك ، وهى النسيكة ، وجمعها أيضا نسك متحركة بالضمة .

«خَلائِفَ الْأَرْضِ» (165) : واحدهم : خليفة فى الأرض بعد خليفة ، قال الشّماخ [و هو الرجل المتكبر] :

تصيبهم وتخطئنى المنايا وأخلف فى ربوع عن ربوع «1»

الربع : الدار والجميع ربوع ، والرّبع أيضا : قبيلة ، قال : يقال رجل من ربعه يعنى من قبيلته .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 1 صـ 185. 209 ﴾

---

(1) ديوانه 58 - ، والطبري 8/ 77 ، القرطبي 7/ 158 ، اللسان والتاج (ربع)

(118/225)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها الأنعام

[سورة الأنعام (6) : الآيات 45 الى 46]

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (45) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ

وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46)

قوله تعالى «1» : فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ [45] وهذه استعارة. لأن الأصل فى هذه اللفظة : دابرة الفرس ، وجمعها دوابر ، وهى ما يلى حافره من خلفه. ودابرة الطائر : هى الشاخصة التي خلف رجله ، وتدعى الصّيصيّة «2» أيضا .

فالمراد بقوله سبحانه : فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا [45] والله أعلم : أي قطعت عنهم الأمداد اللاحقة بهم من خلفهم ، والتالون لهم فى غيهم وضلالهم. أو قطع خلفهم. من نسلهم ، فلم تثبت لهم ذرية ، ولم يبق لهم بقية .

وقوله سبحانه : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ [46]

وهذه استعارة. والمراد بالأخذ هاهنا إبطال حواسهم. وإذا بطلت فكأنها قد أخذت منهم ، وغيّبت عنهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 59]

وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (59)

وقوله تعالى : وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ [59] وهذه استعارة. والمراد : وعنده

الوصلة إلى علم الغيب ، فإذا شاء فتحه لأنبيائه وملائكته «3» ، وإن شاء أغلق عنهم علمه . ومنعهم فهمه . وعبر تعالى عن ذلك بالمفاتح ، وهى أحسن عبارة ، وأوقع استعارة . لأن كل ما يتوصل به إلى فتح المبهم ، وبيان المستعجم سمّى بذلك . ألا ترى إلى قول الرجل لصاحبه إذا أشكل عليه أمر أو اختلّ له حفظ : افتح علىّ . أي : بيّن لى وفهّمنى ما عزب عنى .

---

(1) هنا ورقة ضائعة من الأصل من أول سورة الأنعام إلى الآية رقم 45 .

(2) الصيصية والصيصة : شوكة الحائك ، وشوكة الديك أو الطائر . والجمع صياص .

(3) فى الأصل «و مليكته» وهى طريقة الناسخ فى الإملاء .

[سورة الأنعام (6) : آية 68]

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68)

وقوله تعالى : وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ [68] فهذه استعارة . والمراد بها إثارة أحاديث الآيات ليستشفّوا بواطنها ، ويعلموا

حقائقها ، كالخابط فى غمرة الماء ، لأنه يثير قعرها ، ويسبر غمرها . وقد مضى الكلام على نظير ذلك فى (النساء) .

[سورة الأنعام (6) : آية 80]

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80)

وقوله سبحانه : وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً [80] وهذه استعارة . لأن صفة الشيء بأنه يسع غيره . لا يطلق إلا على الأجسام التي فيها الضيق والاتساع ، والحدود والأقطار . تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا . فالمراد أن علمه سبحانه يحيط بكل شىء ، فلا تخفى عليه خافية ، ولا تدق عنه غامضة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 92 الى 96]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (92) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ

شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94) إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)

وقوله سبحانه : وَلِتُنْذِرَ «1» أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها [92] وهذه استعارة . والمراد بأم القرى مكة ، وإنما سماها سبحانه بذلك ، لأنها كالأصل للقرى ، فكل قرية فإنما هى طارئة عليها ، ومضافة إليها . وقد روى فى تقدم اختطاطها ما لا يحتمل كتابنا هذا ذكره .

وقوله تعالى : وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ [93] وهذه استعارة عجيبة . لأنه سبحانه شبه الذين يعتورهم كرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه . وقد سميت الكربة غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان ، آخذة «2» بكظمه ، وخاتمة «3» . على متنفسه . والأصل فى جميع ذلك غمرة الماء .

وقوله تعالى : لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ [94] على قراءة من قرأ برفع النون من بينكم . وهذه استعارة . لأنه لا فصائل «4» هناك على الحقيقة فتوصف بالتقطّع ، وإنما المراد :

---

(1) بالأصل «لتنذر» بغير واو . والصواب ما أثبتناه من نص الآية الكريمة .

(2- 3) فى الأصل «آخذه» و«خاتمه» بدون نقط على التاء المربوطة ولعلها : «و جاثمة»

(4) فى الأصل «لا فضايل» بالضاد المعجمة. وليس المقام مقام فضائل ورذائل وإنما هو مقام فصائل ووصائل.

(120/225)

لقد زال ما كان بينكم من شبكة المودة وعلاقة الألفة، التي تشبّه لاستحكامها بالحبال المحصدة، والقرائن المؤكدة.

وقوله تعالى: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ [95] فهذه استعارة على بعض الأقوال، وهو أن يكون معناها أنه سبحانه يشق الحبة الميتة، والنواة اليابسة، فيخرج منها ورقا خضرا «1»، ونباتا ناضرا، ويخرج الحبّ اليابس الذاوي «2» من النبت الحي النامي. وقال بعضهم: يخرج الإنسان الحي من النطفة وهى موات، ويخرج النطفة الموات من الإنسان الحي. واللّه أعلم بالصواب.

وقوله سبحانه: فالق الإصباح وجاعل «3» اللّيل سكنا [96] وهذه استعارة.

والمعنى: شاقّ الصبح ومستخرجه من غسق الليل. وقوله سبحانه: فالِقُ الْإِصْباحِ أبلغ من قوله شاقّ الإصباح، إذ كانت قوة الانفلاق أشد من قوة الانشقاق. ألا تراهم يقولون: انشقّ الظفر، وانفلق الحجر؟ وقوله تعالى وجاعل اللّيل سكنا استعارة أخرى. ومعناها

على أحد القولين أنه سبحانه جعل الليل بمنزلة الشيء المحبوب الذي تسكن إليه النفوس وتحبّه «4» القلوب. يقال: فلان سكن فلان. على هذا المعنى. والتأويل الآخر يخرج الكلام عن معنى الاستعارة. وهو أن يكون المراد أنه تعالى جعل الليل مظنة لانقطاع الأعمال، والسكون بعد الحركات.

---

(1) الورق الخضر هو الأخضر. ووزنها مثل فرح.

(2) فى الأصل الداوي بالدال المهملة. والصواب إعجامها.

(3) هكذا بالأصل على قراءة رويس عن يعقوب. وهى قراءة أهل المدينة. أما قراءتنا نحن «وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً» فهى قراءة الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائي.

(4) فى الأصل «وتحبقه». والقاف زيادة من الناسخ حرف بها الكلم عن موضعه...

(121/225)

[سورة الأنعام (6): آية 100]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (100)

وقوله سبحانه: وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ [100] فى قراءة من قرأ: وخرقوا

بالتخفيف ، وفى قراءة من قرأ خرّقوا بالتثقيل . فهذه استعارة . والمراد أنهم دعوا له سبحانه بنين وبنات بغير علم ، وذلك مأخوذ من «الخرق» وهى الأرض الواسعة ، وجمعها خروق ، لأن الريح تتخرق فيها ، أي تتسع . والخرق من الرجال : الكثير العطاء ، فكأنه يتخرق . والخرقة : جماعة الجراد مثل الحرقة ، والخريق : الريح الشديد الهبوب .

فكأن معنى قوله تعالى : وَخَرَقُوا لَهُ أي اتّسعوا فى دعوى البنين والبنات له ، وهم كاذبون فى ذلك . ومن قرأ وخرّقوا «1» فإنما أراد تكثير الفعل من هذا الجنس .

والاختراق ، والاختلاق ، والاختراع ، والانتسال بمعنى واحد ، وهو الادعاء للشىء على طريق الكذب والزور .

[سورة الأنعام (6) : آية 112]

وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (112)

وقوله سبحانه : يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً [112] وهذه استعارة .

لأن الزخرف فى لغة العرب : الزينة . ومن ذلك قولهم : دار مزخرفة أي مزيّنة .

فكأنه تعالى قال : يزينون لهم القول ليغتروا به ، وينخدعوا بظاهره ، كما يستغرّ بظاهر جميل ، على باطن مدخول .

[سورة الأنعام (6) : آية 110]

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

وقوله تعالى : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ [110] وهذه استعارة . لأن تقليب القلوب والأبصار على الحقيقة وإزالتها عن مواضعها ، وإقلاقها عن مناصبها لا يصح والبنية صحيحة والجملة حيّة متصرفة . وإنما المراد - والله أعلم - أنا نرميها بالحيرة والمخافة ، جزاء على الكفر والضلالة . فتكون الأفئدة مسترجعة لتعاظم أسباب المخاوف ، وتكون الأبصار منزعجة لتوقع طلوع المكاره . وقد

---

(1) وقرىء : «وحرفوا» بالحاء المهملة والفاء . أي زوروا . انظر «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» طبع دار الكتب العربية الكبرى ، ج 2 ص 201 . [. . . . .]

(122/225)

قيل إن «1» المراد بذلك تقليبها على قراميص «2» الجمر فى نار جهنم ، وذلك يخرج الكلام عن حيز الاستعارة إلى حيز الحقيقة .

[سورة الأنعام (6) : آية 113]

وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

وقوله تعالى : وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ [113] .

وهذه استعارة. والمعنى: ولتميل إليه أفئدة هؤلاء المذكورين. ويقال: صغى فلان إلى فلان. أي مال إليه. وصغوه معه: أي ميله. ومنه أصغى بسمعه إلى الكلام. إذا أماله إلى جهته، ليقرب من استماعه. وميل القلب إلى المعتقدات، كميل السمع إلى المسموعات.

[سورة الأنعام (6): آية 127]

لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (127)

وقوله تعالى: لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ [127]. وهى استعارة. والمراد: لهم محل الأمنة والسلامة والمنجاة من المخافة. وتلك صفة الجنة. والسلام ها هنا: جمع سلامة «3».

[سورة الأنعام (6): آية 130]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (130)

وقوله تعالى: الُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا

[130] وهذه استعارة. لأنهم لما اغتروا بالحياة الدنيا حسن أن يقال إنها غرتهم. ولما كان فيها ما تميل إليه شهواتهم جاز أن يقال: إنها استمالت شهواتهم.

[سورة الأنعام (6): آية 153]

وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ

بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

وقوله تعالى : وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ [153] وهى استعارة .

والسبل التي هى الطرق لا تتفرق بهم ، وإنما هم الذين يفارقون نهجها «4» ، ويتبعون عوجها .

---

(1) كتب الناسخ «أن» بوضع همزة فوقها فتحة ، وعجيب أن يكون ذلك بعد مادة القول .

(2) القراميص : جمع قرماص وهو فى الأصل الحفرة الواسعة الجوف الضيقة الرأس يستدفىء فيها الصرد ، أو هى موضع خبز الملة .

(3) ويصح أن يكون السلام اسما من اسم اللّه تعالى . فتكون دار السلام دار اللّه . كما يقال للكعبة بيت اللّه .

(4) فى الأصل «بهجتها» وهو تحريف من الناسخ . ولعل الصواب نهجها ، أو محجتها .

(123/225)

[سورة الأنعام (6) : آية 164]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164)

وقوله سبحانه: وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى [164] فهذه استعارة. والمعنى: ولا تحمل حاملة حمل أخرى. يريد تعالى فى يوم القيامة. أي لا يخفف أحد عن أحد ثقلا، ولا يشاطره حملا. لأن كل إنسان فى ذلك اليوم مشغول بنفسه، ومقروح «1» بحمله. وليس أن هناك على الحقيقة أحمالا على الظهور، وإنما هى أثقال الآثام والذنوب.

ونظير ذلك قوله تعالى: وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً «2». انتهى انتهى. اهـ

﴿ تلخيص البيان صـ 136. 141 ﴾

---

(1) هكذا بالأصل، ولعلها «مفدوح» لأن الحمل الفادح هو الذي يثقل صاحبه فيعيا به فهو مفدوح.

يقال: فدحه الأمر.

(2) سورة البقرة الآية رقم 48، والآية رقم 123 وهما من المتشابه.

(124/225)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى:

سورة الأنعام

سورة الأنعام هى السورة المكية الأولى فى السبع الطوال التى بدأ بها المصحف الشريف . والقرآن النازل كان يخاطب أول ما يخاطب الوثنيين الغافلين عن الله الجاحدين لوحدانيته . وهم قوم كانوا يتعصبون لأصنامهم ويجمدون علي مواريثهم ويقاومون بعنف كل صيحة للتحرر العقلى . بيد أن القرآن الكريم اعتمد على إطالة الإقناع ومضاعفة الأدلة والحديث عن الله سبحانه حديثا يكشف عن عظمته ، وينبه إلى آياته فى الأنفس والآفاق ، ويستثير ما يكمن فى النفوس من خشية وإنابة ، أى يستثير بقايا الفطرة التى غطت عليها ظلمات الجاهلية . وتمتاز سورة الأنعام بخاصتين شاعتا فيها هما كثرة التقريرات والتلقينات لاستنقاذ العقل العربى مما تردى فيه . والتقرير إرسال حكم واضح محدد فى شأن من شئون الألوهية . ونلحظ ذلك عند أول آية تقرؤها " الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور . . . . " . فالله خالق العالم ومضىء شموسه وأقماره . ومع عظمة ما صنع وانفراده به فإن بعض الجهلة يسوى به من لا يحسن صنع شئ ! ! كيف تتم هذه التسوية ؟ . وعلى أية حال فالناس على ظهر الأرض لهم آجال محدودة ينتهى كل فرد إليها ثم يعود كل امرئ إلى بارئه . وللإنسانية جمعاء أجل تنتهى إليه هو الساعة الكبرى . . ثم يحكم عالم السر والعلن بين عباده على الطريقة التى عاشوا بها فى الدنيا .

وتقرير الحمد لله فى الأولى والآخرة يتبعه تقرير آخر "وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون" .

(125/225)

ويكثر فى هذه السورة التحدث عن الله بضمير الغائب ، واسم الموصول المفرد مثل " وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر . . " ، " وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . . . " . والحق أن ضمير الغيبة هنا يجعل المستمع فى حالة حضور ، كأن الله يخاطبه ! ويضع يده على مظاهر عظمته فلا يملك ، إلا الإذعان . ولا تحسبن هذا الأسلوب يؤثر فى المشركين وحدهم ، كلا . . إن أهل الكتاب يرون فيه جديدا من المعرفة الحية لا يرونها فى كتبهم مما يترك فى سرائرهم أعظم الآثار ! ! إنه لم ينزل كتاب من السماء يتحدث عن الله بمثل هذه اللهجة من الصدق ، وهذه الدقة من الوعى . فهو يخلع الناس خلعا عن التقاليد التى ألفوها ، ويصدع الغفلات التى سادت بينهم . ! !

وإلى جانب التقريرات التى ذكرنا نماذج لها نجد التلقينات المتتابعة فى هذه السورة ، والتى يقول الله فيها لنبيه وهو يجادل المشركين: قل لهم كذا قل لهم كذا . ربما تكرر هل اللفظ مرتين فى آية واحدة " قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة

ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . . " . وربما تكرر أربع مرات فى آية واحدة مثل " قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون" . أرأيت هذا الحوار النابض بالحق واليقين ؟ . أرأيت كلمة قل يسعف الله بها نبيه ليرد على مخالفيه ؟ . لقد تكررت هذه الكلمة فى سورة الأنعام أربعا وأربعين مرة . . ! ! وظاهر أن السورة الكريمة نزلت فى ذروة المعركة المحتدمة بين الحق والباطل . والمشهور من أقوال العلماء أنها نزلت – على طولها – جملة واحدة . وقد رويت أقوال بأن آيات منها نزلت فى المدينة المنورة ، بعضها باطل ، وبعضها ضعيف . وعلتها أن بعض القراء يحسب أن كل ما يتصل بأهل الكتاب لا علاقة له بمكة ! ! وهذا خطأ .

(126/225)

كما أن البعض تصور أن فرض الزكاة كان فى المدينة والحق أنه بدأ فى مكة وفصلت الأنصبة فى المدينة . والسورة نزلت فى نفس واحد واحتف لنزولها عشرات الألوف من الملائكة . ووعاها الرسول كلها ساعة نزلت فقد كان ذهنه ألمع من البرق ! وكانت ذاكرته أدق من الأشرطة التى تتم عليها التسجيلات اليوم . فلما استوعبها استدعى الحفظة

والكتبة وأملى عليهم ما جاء من عند الله . . . . ! ! ونحب أن نستعرض التقارير والتلقينات التى حوتها السورة وشتى القضايا التى تناولتها . . من أول ما ذكرته السورة من مقررات مصير الظلمة مهما طال عليهم الأمد . إن تكذيبهم للأنبياء يأخذ مراحل متتابعة تبدأ بالإعراض ، ثم بالتكذيب المتجهم ، ثم بالاستهزاء المتواصل ، ثم بالعدوان الآثم ! والقدر الحكيم يطاولهم فى هذه الأثناء ابتلاء للمؤمنين ، والكافرين جميعا . وهذه طبيعة الحياة الدنيا ، ولكن عقبى الصراع وخيمة على الكافرين . ومن ثم يقول الله لكفار العرب " ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين " . هذه مصاير الحضارات عندما تتفسخ ، ومصاير الأمم عندما تستكبر وتطغى . تبقى على ظهر الأرض حينا ثم تختفى تحتها مخلية المكان لآخرين ! ! ونسأل: هل هذا شأن الكفر المحض ؟ أم القانون عام يشمل مع الكافرين أمما أخرى خلطت الحق بالباطل والهوى بالهدى ؟ أو بعبارة أخرى: هل يستوى الذين أعرضوا عن الإيمان كله ، والذين لم يكسبوا فى إيمانهم خيرا ؟ ؟ . الظاهر من الآيات الواردة فى السورة تشرح هذه القضية أن الكل سواء . وتدبر قوله تعالى يشرح أسلوب أخذه للأمم : " ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا

تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون " . إن الله مكر بهؤلاء ، وبدا كأنه أهملهم ! وهيهات فما كادوا يستمرئون

(127/225)

شرورهم حتى أخذهم بغتة " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين " .

وفى استقرائى لأحوال الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها وجدت هذه السنة الإلهية تتكرر ، وأن ما هُدد به المشركون ظهر فى الأبناء المنحرفين . " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون * وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل * لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون " ! ! إن الحليم قد تطول أناته ، ولكنه عندما يضرب يوجع " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد " . * * * * عندما تنصح إنسانا فتقول له: احترام عقلك ، واستند إليه فى أحكامك ! فيقول لك: هات معجزة تؤيد هذه النصيحة ! ماذا تصنع له ؟ . إنك تلفته إلى خطأ فيه فيلفتك إلى قصور عندك ! ! إن المعجزات لا تجدى مع عقل بليد وفكر غبى ، وآفة المشركين القدامى والجدد أنهم محبوسون وراء قصورهم العقلى . ولذلك يقول الله

سبحانه كاشفا عن عدم جدوى المعجزات مع هؤلاء: " ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين" إنهم صرعى فكرة واحدة استبدت بهم فلا يقبلون غيرها . وقد زعموا أن الرسول لو صحبه ملك يؤيده فهم مؤمنون به ! ! " وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون " . والمعنى أنهم – بعد نزول الملك – سوف يبقون على كفرهم ، وعندئذ يحل بهم عذاب الاستئصال . فإن غيرهم طلب المعجزات ثم كفر بعد ما جاءته قالوا " فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون" ؟ .

(128/225)

ثم بين الله أن رؤية الملك مستحيلة على البشر ، فإن أبصار الناس ترى أجساما معينة على مسافات معينة ومن هنا فهى لا ترى الجن ولا الملائكة . وعندما يتشكل هؤلاء وأولئك فى صور مادية فسوف تبقى الريبة لدى رؤيتهم . ولذلك قال: " ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون" ! . على أن مشركى العرب قاوموا الإسلام ، وكذبوا رسوله ، وسخروا منه ، ولم يتحركوا عن موقفهم ، فكانت وصاة الله لنبيه أن يصبر ، ويبقى على منهجه فى الدعوة يحاول تحريك العقول الجامدة . " ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق

بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون" . ولكن النبى عليه الصلاة والسلام خامره الحزن وأثر فيه ! إن الرجل الشريف يؤلمه التكذيب والاستهزاء ، وطالما تاق إلى تدخل سماوى يحسم الموقف ! ! وهنا يقول الله له: " قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " إن جريمتهم فى جنب من أرسلك أكبر من تكذيبهم لك ، إن محاربتهم لك ترجمة لمحاربتهم لربك وجحدهم لآياته ، فاصبر على ما يقولون " ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين" . ولكن نفس النبى تتوق إلى خارق يخرس ألسنتهم فكان الرد الأعلى " وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية " . . . أى فافعل ، ولن تستطيع فإن الأمر بيد الله الذى يملك مقادير الأمم ، وإليه يرجع الأمر كله ، " ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين" . أحسب أشد الناس حمقا من يرتاب فى أن القرآن من السماء ، وأنه نزل على محمد ولا دخل لمحمد فيه . إن الله يحكم عباده بسنن ثابتة لا يغيرها أحد ، أنبياؤه مبتلون بأعباء الدعوة ، ومعاناة الجماهير التائهة ، ومحاربة الأعراف والتقاليد السيئة . وللجماهير فى غياب الحرية العقلية أمد محدود عند الله تسرح فيه وتمرح حتى إذا استوفت الأجل

الذى كان من الممكن أن تعقل فيه قال القدر كلمته ! !

وقد أفهم الله نبيه أن آفة هؤلاء من عقولهم التى جعلتهم ينادون من مكان بعيد ، إنهم صخم عن سماع الحق " إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون " ويعود القوم إلى طلبهم الأول " وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون " . وأنا أعجب: إذا كان النظام الكونى لايدل على الله فهل خرق هذا النظام أحيانا هو الذى يدذ على الله ؟ . إن القمر يدور حول الأرض من دهور خلت ، لايتباطأ ولا يغؤفي . فهل هذا الاطراد لايشهد للخالق القدير ، ويشهد له انشقاق القمر بضع دقائق ؟ . هل السراج الوهاج الذى لايخبو ؤقحه على اختلاف الليل والنهار لايدل على الله العظيم ؟ ويدل عليه تأخر الغروب بضع دقائق ليوشع غلا ! موسى ؟ . إننى أشهد عالم الحيوان والإنسان والحشرات الزاحفة والطائرة فأدهش ل ! تن الله في حياتها وبقائها وضمان الرزق لما دق وجل منها . ولعل مانذكر هو السر في سوق هذه الاية لمن يطلبون خوارق العادات من صاحب الرسالة العظمى ، أعنى قوله تعالى: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، مافرطنا في الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون " . ولقد استوقفنى منظر العصفورة الأم . وهى تطوف بين الحقول ثم ترجع بالغذاء في جوفها ، ثم تفتح منقار وليدها في الدشر لتطعمه وتسقيه ! ! صنع الله الذى أتقن كل شىء

ومع ذلك يجهل المشركون الله الواحد ، ويعكفون على حجر أصم ، ويقولون لمحمد : هات لنا خارقا من خوارق العادات حتى نؤمن بك " والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم " والغريب أنهم يحلفون أنهم سوف يؤمنون عندما يجيء هذا الخارق المطلوب "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم

(130/225)

يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون" . هيهات ! إن الأعمى لا يبصر مادام مصمما على إغلاق أجفانه . .

ويذهب الخلل بالنفس الوثنية بعيدا عندما تطلب من النبى أن يطرد من حوله الضعفاء الذين آمنوا به حتى يخلو المجلس لهم وحدهم ! . ولكن الله يقول لنبيه: " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . . " بل يأمره أن يسوق البشرى إلى هؤلاء المؤمنين بأن الله معهم بمغفرته ورضاه . " وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه

غفور رحيم " . ويمضى الرسول الكريم على خطه القويم يدعو إلى الله على بصيرة ويشرح المقررات العلمية التى أوحيت إليه . ويرد - بالإرشاد الإلهى - الشبهات التى قد تثار حوله ، وإن المرء ليشعر بالرقة والأسى ، لهذا النبى الصبور الجلد وهو يواجه المشركين المتعنتين بهذا الخطاب . "قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين * قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين . . " . تدبر هذه المناشدة الجليلة ، إنه يريد من وضوح الإيمان فى نفسه أن يسكب فى قلوبهم إيمانا يهديهم إلى الصراط المستقيم بيد أن القوم يتعجلون العقاب . "قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين" . وهكذا بالتلقين الهادى والتعليم المستمر يؤدى صاحب الرسالة رسالته ! ***** بعد تلاوة متأنية لسورة الأنعام ، ومتابعة آيات التقرير والتلقين وهى تعرض أمجاد الألوهية وتقمع الشبهات البشرية تساءلت: ماذا تفعل الخوارق فى الدلالة على الله أكثر من ذلك ؟ . بل قلت: إن الخوارق الواقعة والمقترحة لو وضعت فى كفة ، ووضعت هذه السورة فى الكفة الأخرى ، لكانت فى الدلالة على الله أرجح ، وفى بيانها عن عظمة الله أفصح .

واقرأ بتأمل هذه الآية " وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " إن الغيوب بالنسبة إلينا عماء ، وهى عند رب العالمين رؤية شهود . وأغلب الموجودات بالنسبة إلينا غيوب محجوبة ! إنك قد ترى إنسانا وتحادثه ، ماذا تعلم عنه ؟ قد ترى وجهه وملابسه ولكنك لا ترى أفكاره وأحشاءه . أما رب العالمين فهو يراه ظاهرا وباطنا على سواء ، وهو فى الوقت نفسه يرى خمسة مليارات من البشر معه رؤية شمول ! بل إن هذه الرؤية الموقوتة !جزء ضئيل من رؤيته الإنسان فى أطوار حياته كلها بين المهد واللحد " إنه بكل شئ بصير" . مفاتيح الغيوب كلها عنده ، وكما يعلم البشر على هذا النحو المحيط يعلم ما فى البر والبحر ! كنت أرمق التلفاز فى بيتي فرأيت منظرا فى أحد المحيطات ، والموج ثائر يلعب بباخرة جبارة يكاد يوردها الأعماق . قلت: إن الله هنا وهناك يسمع ويرى ! يسمع ويرى فقط ؟ بل يصنع ويدبر ويحيى ويميت ! كل ما فى البر والبحر طوع مشيئته . ومضيت مع الآية الوصافة لأمجاد الله ! من مع الحبة فى ظلمة التراب يخلق منها الزروع والثمار ، ويطعمنا الجنى الطيب ؟ . من مع كل شجرة نابتة فى أقطار الأرض يعلم عدد ما يسقط منها من ورق "وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " إنه ليس علما نظريا فقط ، إنه مسطور فى كتبه " وكل صغير

وكبير مستطر" وبعد هذا الإحصاء الكشاف يجئ عرض للحياة الإنسانية على ظهر الأرض ، وأعمال الناس كلهم بين شقئ وسعيد وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى . . "إننا نستغرق فى النوم بعد كدح النهار ، وأرواحنا على الحالين بيده يأخذها ثم يردها حتى نستوفى الأجل المكتوب لنا فى هذه الدنيا .

(132/225)

فإذا استوفيناه أخذ أرواحنا فلم يردها ثانية ، لقد حان وقت الجزاء على ما قدمنا "ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون" واقرأ بعد ذلك آية من آيات الجلال ، تعقبها آية من آيات الجمال . أما الأولى فقوله "وهو القاهر فوق عباده . . . "إننا مسيرون فى أغلب ما نعانى ونسعى . لا خيرة لنا فى مكان الميلاد ولا زمانه . لا خيرة لنا فى قيمة المواهب التى نزود بها ولا خط الحياة التى نسلكها ! حتى الأنبياء فيهم شموس ، وفيهم أقمار متفاوتة الأحجام . بيد أن كل امرئ محاسب على قدر ما أوتى ، مُساءل فى حدود وضعه "حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين" . أما آية الجمال التى تعقب هذا السرد المخوف الحاسم فهى

"قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون" إن الأسلوب القرآنى يقلب بين الرغبة والرهبة والخوف والرجاء حتى لا نطيش أو نطغى . ليت شعرى: ماذا أستفيد من خارق للعادة يقلب الحجر ذهبا ! ! ماذا يضئ عقلى ويرفع مستواى ؟ . إن هذه المعجزة القرآنية أجدى وأهدى . . . ومن أجل ذلك كلف المسلمون باحتقار المجالس اللاغية ضد القرآن الكريم ، وعدم الاكتراث لما يدور فيها ، وهجرها وهجر أصحابها " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . . . . " وتكرر الأمر بهذا الهجر فى قوله تعالى بعد ذلك " وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا . . . " إنه يتركهم بعد أن تم تبليغهم . ولا يزال هذا التبليغ قائما ، فالإعراض عنهم ترفع عن المشاركة فى اللغو ، والخوض فى العبث . وهؤلاء المغرورون الجهال سوف يستيقظون على الدواهى التى تصيبهم بما يصنعون . .

(133/225)

وهنا يجئ تلقين آخر للرسول الكريم ، فيه توبيخ للمشركين مقرون بالأسى على مستقبلهم الضائع برغم النصائح الحارة . " قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا . . . " . انظر صدق العاطفة فى تصوير موقف أولئك الحائرين البائسين وجهد الرسول وصحبه فى هدايتهم ، وعنادهم القاتل بعد الإخلاص المبذول فى استنقاذهم . . . " قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين" ويترك القرآن الكريم هذا الحاضر المعقد ، ويعود بالناس قرونا إلى الوراء ، فيذكر قصة إبراهيم مع عباد الكواكب ، وكيف حاول اقتيادهم إلى الله الواحد ! لقد ترخص فى مخاطبتهم وتنزل إلى عقولهم ، فنظر إلى نجم ساطع – لعله المشترى أو الزهرة – ثم قال: هذا ربى كما تقولون ، لكنه غاب بعد ظهور ! ثم نظر إلى القمر قائلا: هذا ربى كما تزعمون ! لكنه أيضا اختفى . ثم نظر إلى الشمس قائلا: هذا ربى ـ فى زعمكم ـ هذا أكبر ، لكن الشمس غربت وأظلم الكون . . إن الإله لا يغيب عن ملكوته فمن يديره بعده ؟ ؟ . إن الأرض التى تسبح بنا فى الفضاء لو غاب عنها ربها لحظة لطغى الماء ـ وهو ثلاثة أرباع مساحتها ـ على اليابسة فلم يبق حى على ظهرها . إن زمام الوجود بين أصابع القدرة لو اضطرب قليلا لهلكت المشارق والمغارب ، بل لغاب كل شىء فى ظلمات العدم المحض ! ! " إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده " . وليس يتصور

فى جانب الإله الحق أنه يأفل ، أو يختفى لحظة أو لحظات ، إنه قيوم تستند ديمومة الوجود إلى وجوده . إنه القائم على كل نفس بما كسبت ، إنه قيم السموات والأرض ومن فيهن . . .

إن أسلوب إبراهيم عليه السلام فى التعريف بالله الواحد نقله القرآن الكريم إلى عرب الجاهلية مختوما بهذه النتيجة " إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين" .

(134/225)

فهل يعى ذلك المشركون الذين يخاطبهم خاتم الأنبياء بالمنطق نفسه ؟ إنه منطق معقول منصف ! وتتفاوت درجات الدعاة إلى الله بمدى براعتهم فى التعريف به واقتياد الناس إليه ، ولذلك يقول جل شأنه " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم" . جذور الإسلام ضاربة فى التاريخ القديم ، إن الدين الذى بعث محمد به ليس فكرا جديدا ظهر فى العصور الوسيطة ، إنه فكر الأنبياء كلهم حول إله واحد يجب أن نعرفه معرفة صحيحة وأن نسمع ونطيع لما يأمر به . والقرآن الكريم يهش لأسماء الأنبياء جميعا ، ويؤكد أن أسرتهم الطاهرة ما كانت تدندن إلا حول هذه الحقيقة . الله حق ! وهو واحد ! وعلينا أن نسلم وجوهنا إليه . . ! ! قبل إبراهيم كان نوح عليه

السلام يقول: " وأمرت أن أكون من المسلمين" وفى هذه السورة ذكر الحق جهاد إبراهيم الخليل فى تعريف الناس بالله تبارك اسمه ، ثم ذكر أسماء سبعة عشر نبيا معه قاموا جميعا بالدعوة إلى الله . "ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين" . وقد صدف الله وعده ، فإن الجيل الكافر بمكة انقرض وتلاشى وآمن سائر العرب به بعد كفاح لم يطل أمده . ثم دخل النصارى فى وادى النيل والشمال الإفريقى وآسيا الصغرى ، دخلوا فى الإسلام وكانوا قوام الأمة التى تحمل دعوته إلى يوم الناس هذا .

(135/225)

وتوكيدا لأن الإسلام امتداد للماضى وترديد لأصوات النبوات الأولى يقول الله لنبيه: " أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين " إن أتباع محمد هم الورثة الحقيقيون لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهم حملة الوحى الصحيح ، وهم الذين يخاصمون الشرك والعصيان ، ويقومون ، ويقيمون الناس معهم على

التوحيد والتسليم لرب العالمين . الكفر قديما وحديثا هو الجهل بالله وعصيان أمره . والدين قديما وحديثا هو حسن معرفة الله وإخلاص الطاعة له وذلك ما انفردنا نحن المسلمين الآن به ! ! وفى الدنيا من ينكر أن لله وحيا ، وليس ذاك بمستغرب على من ينكر أن لله وجودا . . ! ! فعل ذلك الوثنيون قديما ويفعله الآن العلمانيون والماديون من مختلف النحل . . ورب العالمين أكرم بعباده من أن يدعهم حيارى لا ينزل عليهم هدى ينير لهم الطريق ، أو يرسل إليهم من يأخذ بنواصيهم إلى الخير . . " وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . . . " والجميل فى رد القرآن على هؤلاء أن يتساءل " قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس " ؟ إن صاحب القرآن لا يذكر نفسه هنا ، وإنما يذكر كتاب موسى وما أودع فيه من نور وهدى ! ! وأى عجب فى هذا ؟ إن الإسلام كما أوضحنا إيمان بجميع الرسل وجميع الكتب . إنه يمثل الحقيقة من أزل الدنيا إلى أبدها ، وعيب أهل الكتاب أنهم ما أنصفوا الوحى النازل عليهم . لقد أضاعوا بعضا وأخفوا بعضا وعصوا بعضا وعاشوا بعد ذلك يصدون عن سبيل الله ويحاربون النبى الخاتم بحقد وضراوة ! ! لقد جعلوا التوراة قراطيس يبدو منها القليل ويخفى الكثير . . وفى القراءة الشائعة بيننا يقول الله لليهود " قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا " وفى قراءات أخرى تحدث عنهم بضمير الغيبة " يبدونها ويخفون كثيرا " وأيا ما كان الأمر فاليهود المعنيون .

أما جملة "وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم" فهى للعرب خاصة . اختارهم الله ليكونوا الأمة الوسط فهل قدروا هذه النعمة ؟ وارتفعوا إلى مستواها ؟ إن الكتب التى تنتسب إلى السماء موجودة بين أيدى القراء يستطيعون الاطلاع عليها واستقصاء ما فيها ، وأنا أريد أن ينظر الناس إلى ما حوت ومعهم عقولهم ، فإن فاقد عقله لا خير فيه ولا وزن لحكمه: لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان إننى بعقلى أدركت أن للكون سيدا أبدعه ودبر أمره وأيقنت أن هذا السيد واحد لا اثنان ولا ثلاثة . وأنه أمر بالعدل والإحسان ونهى عن الجور والعصيان . وأنه سوف يسترجع الناس بعد هذه الحياة ليحاسبهم على الطريقة التى عاشوا بها فى دنياهم . . ! والسؤال: أى الكتب السماوية أنصف هذه الحقائق وجلاها ؟ . وأيها كان أعلى صوتا وأصدق نبرة فى توحيد الله والتذكير بلقائه ؟ . وأيها كان أقدر على تزكية النفوس ، وفطامها عن الشرور ؟ . وإلى أن يصل المنصفون إلى الحكم الذى يرونه نذكر بكلمات القرآن فى هذا المجال: " ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله . . . " ؟ ؟ وبعد هذا التساؤل المتتابع يشرح القرآن أجزية الظالمين منذ بدء مفارقتهم

للحياة إلى أن يوقفوا للحساب الأخير " ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون" ! ! . أهذه لهجة كاذب على الله ؟ أهذا وحى مفتعل ؟ ألا شاهت الوجوه ! ! وبعد هذه الوخزة الموجعة لأصحاب الأفئدة المغلقة يعود القرآن الكريم إلى سرد الأمجاد الإلهية فى صورة تقارير حاسمة ! ! أرأيت إلى الأرض تهتز زرعا والحقول تكسو الأرجاء بخضرتها ؟ . أرأيت إلى النخيل تتدلى شماريخ البلح تحت سعفها ؟ .

(137/225)

من الذى ملأ السنابل بالحبوب ، ودلى الطلع النضيد على صدور النخل ؟ ؟ . " إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون " . وكما يقع ذلك على التراب يقع مثله فى الفضاء الرحب "فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم" . وتمضى الآيات القرآنية فى وصف الآيات الكونية واستخلاص الدلائل منها على عظمة الله وإبداعه ، وعلى أنه وحده الجدير بالإعظام والعبادة ، فمن كان له عقل وعى ، ومن فقد عقله هوى . " قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ" ماذا يطلبه عشاق

المعجزات الحسية بعد هذا البيان المشرق ؟ . إن جهود المرسلين على امتداد السنين لا تنشد إلا هذا الإيمان العاقل . ولذلك يجئ على لسان الرسول الخاتم هذا القول: " أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا" ؟ . إن الراسخين فى العلم من أهل الكتاب الأولين يعرفون عظمة القرآن وصدق صاحبه " والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين" ! ! فى ربط الأمة بكتابها يقول الله تعالى فى هذه السورة : "اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين " . ويقول: " وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون " . ويقول مبينا البلد الذى تنطلق منه الدعوة العالمية " وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به . . . . " .

(138/225)

وكانت الرسالات الأخيرة فى بنى إسرائيل بعد هلاك العرب العاربة ، ورفضهم لرسالات هود وصالح وشعيب وغيرهم . . ثم عادت رسالة السماء إلى العرب مرة أخرى وفى ذلك يقول الله تعالى: " وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون" . فهل يعرف العرب وظيفتهم العالمية بعد نزول القرآن الكريم . والحساب الإلهى على الجهد البشرى

المبذول فلا جبر ولا قسر " ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون" . ولكن البشر مجادلون بطبعهم ، يسيئون الفعل ثم يتملصون منه بزعم أن الله شاء ذلك وساقهم إليه وهذا كذب: " سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون" . . وقبل ذلك بين سبحانه أن من قبل الإيمان شرح الله به صدره ويكمل هدايته ، وإلا ضيق عليه الآفاق وتركه فى شر حال . والآية الدالة على هذا مفتاح فهمها فى الجملة الأخيرة منها "كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون" . فمن رفض الإيمان لم يشرح الله له صدرا ، ولم يسق له هديا ، وإنما يشرح صدر من انقاد للدعوة وتهيأ لإجابتها . . وقد شاء العزيز الغنى أن يصوغ العبارة على هذا النحو حتى يقف الناس عند حدود العبودية الفقيرة فقال " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء" . فليس المراد أن المشيئة العليا سابقة على الإيمان أو الكفر ، وإلا ما قال بعد ذلك "كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون" . إن كل امرئ سيوقف للحساب ويقال له " اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " فهل يقال ذلك لمغلوب على أمره ؟ .

والناس مع الإيمان الذى طولبوا به مكلفون بطاعة الله فيما شرع من حلال وحرام ، فليس الإيمان دعوى مصحوبة بفوضى . وقد بينت هذه السورة أن الجاهليين اخترعوا عبادات ما أنزل الله من سلطان وشرعوا يتحاكمون إليها ، فتركوا الوحى وتبعوا البدع وجادلوا بالباطل . وقد حذر الله المؤمنين من هذا العبث "وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون" وقال "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين" . وقد لاحظت أن المتدينين فى بيئات شتى يتواضعون على أمور معينة يجعلونها مقياس الخير أو الشر ، فيضفون إلى الدين ما ليس منه ويتمسكون بما ابتدعوا ويتهاونون بما كلفوا به ! ! لذلك قال الله لهم: "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" ! ! قال أحد حكماء العرب وقد سمع هذه الوصايا " لو لم يكن هذا دينا لكان فى خلق الناس

حسنا . . . " . إن التدين الفاسد يعتمد على مسالك غبية موهما أنها مسالك غيبية .

ونحن عندما نتأمل فى الوصايا العشر السابقة نجدها تعتمد على التعقل والتذكر والتقوى ، ولا مكان فيها لبدع أو أهواء أو خزعبلات على النحو الذى أخذ على عبادات الجاهليين ، من قدامى ومحدثين . وقد كان العرب الأوائل يقولون نحن أصفى معادن وأذكى قرائح من اليهود والنصارى ، ولو أنا أوتينا كتابا مثل ما أوتوا لكان لنا شأن ! ! فها قد

(140/225)

جاءكم كتاب ، وبعث فيكم رسول فماذا صنعتم ؟ "أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون"

(141/225)

والوعيد فى الآية يتجه إلى العرب البعثيين والقوميين والعلمانيين الضائقين بالوحى ، والكارهين للانتماء الإسلامى "هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة – تتوفاهم – أو يأتي ربك

– أمره ووعيده – أو يأتي بعض آيات ربك – يعنى أمورا غير عادية – تصيبهم بذنوبهم "
فلا يفيقون إلا بكارثة تنزل بهم – . وقد جاء فى السنة أنه فى آخر الزمان يقع انقلاب
فلكى تطلع به الشمس من مغربها . . وعندئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو
كسبت فى إيمانها خيرا . إن الإيمان عند الغرق أو عند الغرغرة أو عند النوازل الداهمة لا
جدوى منه . فهل يرجع العرب إلى المنهج الذى شرعه الله لهم وشرفهم به قبل وقوع هذه
الأقضية ؟ . إن العرب هواة تفرق وانقسام ، ولو أنهم اختلفوا : هل يجهر بالتأمين وراء الإمام
أو يسر به لألف كلا الفريقين حزبا يخاصم الآخر ويستبيحه ! إن هذا الاختلاف ستار
لشهوات كامنة مفسدة للقلوب "إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما
أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون" وفى ختام السورة جاءت ثلاثة تلقينات تشير إلى
وحدة الدين وإخلاص العبادة . ونقاء التوحيد وعدالة الجزاء . هذه التلقينات تكمل 44
قولا أمر الرسول بترديدها خلال السورة كلها : " قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم
دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا . . . " " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب
العالمين . . . " . " قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء . . . " والأقوال المذكورة إذ تتم
ما قبلها تشير إلى سيرة إنسان تمحض لله ودعوته والنصح لعباده ، وبلغ فى ذلك أوجا لم
يبلغه أحد من قبله ، ذلكم هو محمد خاتم المرسلين . أما التقرير الأخير فى هذه السورة ،

فهو

شرح لطبيعة الحياة الدنيا من البدء إلى النهاية ، إنها اختبار متتابع شديد .

(142/225)

المرء يختبر بكل من يعرف من البشر ، ويختبر بكل ما حوله من سراء وضراء . ونتائج هذه الاختبارات تكشف هناك . . . فى الدار الآخرة . الحياة هنا ممر لا مقر ومن حقيقة السير فيها يكون المثوى الأخير " وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 91.108 ﴾

(143/225)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والعشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/226)

الجزء السادس والعشرون بعد المائتين

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 3 ﴾ من نفس السورة

(4/226)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الانعام

قال بعضهم: مناسبة هذه السورة لآخر المائدة: أنها افتتحت بالحمد ، وتلك ختمت بفصل القضاء ، وهما متلازمتان كما قال: (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) وقد ظهر لي بفضل الله مع ما قدمت الإشارة إليه في آية (زين للناس) أنه لما ذكر في آخر المائدة (للَهِ مُلكُ السموات والأَرض وما فيهن) على سبيل الإجمال ، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله فبدأ بذكر: أنه خلق السموات والأرض ، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه قوله: (وما فيهن) في آخر المائدة وضمن قوله: (الحمد لله) أول الأنعام أن له ملك جميع المحامد ، وهو من بسط: (للَهِ مُلكُ السمواتِ والأَرض وما فيهن) في آخر المائدة:

ثم ذكر: أنه خلق النوع الإنساني ، وقضى له أجلاً مسمى ، وجعل له أجلاً آخر للبعث ، وأنه منشئ القرون قرنا بعد قرن ، ثم قال: (قل لمن ما في السموات والأَرض) فأثبت له ملك جميع المنظورات ثم قال: (قل لمن ما في السموات والأرض) فأثبت له ملك جميع المنظورات ثم قال: (وله ما سكن في الليل والنهار) فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرفي الزمان ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان ، من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة ، والموت والحياة ، ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن ، من النيرين ، والنجوم ، وفلق الإصباح ، وخلق الحب والنوى ، وإنزال الماء ، وإخراج النبات والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات ، والأنعام ، ومنها حمولة وفرش وكل ذلك تفصيل لملكه ما فيهن: وهذه مناسبة جليلة ثم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك ، أكثر فيها من ذكر الرب الذي هو بمعنى المالك والخالق والمنشئ ، واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنساني والملكوتي ، والملكي والشيطاني ، والحيواني والنباتي ، وما تضمنته من الوصايا ، فكلها متعلق بالقوام والمعاش الدنيوي ، ثم أشار إلى أشراط الساعة فقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها ، وما يتعلق بها ، وما يرجع إليها ، فظهر

بذلك مناسبة افتتاح السور المكية بها ، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها وهي في جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير صورة البقرة في جمعها العلوم والمصالح الدينية ما ذكر فيها من العبادات المحضة ، فعلى سبيل الإيجاز والإيماء ، كنظير ما وقع في البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه ، فإنه على سبيل الاختصار والإشارة فإن قلت: فلم لا أفتتح القرآن بهذه السورة ، مقدمة على سورة البقرة ، لأن بدء الخلق مقدم على الأحكام والتعبدات ؟ قلت: للإشارة إلى أن مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح المعاش والدنيا ، وأن المقصود إنما هو العبادة ، فقدم ما هو الأهم في نظر الشرع ، ولأن علم

(7/226)

بدء الخلق كالفضلة ، وعلوم الأحكام والتكاليف متعين على كل واحد فلذلك لا ينبغي النظر في علم بدء الخلق وما جرى مجراه من التواريخ إلا بعد النظر في علم الأحكام وإتقانه ثم ظهر لي بحمد الله وجه آخر ، أتقن مما تقدم وهو أنه لما ذكر في سورة المائدة (يا أَيُّها الذينَ آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) إلى آخره ، فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله افتراء عليه ، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئاً مما أحل الله ، فيشابهوا بذلك الكفار في صنيعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز ، ساق

هذه السورة لبيان ما حرمه الكفار في صنيعهم ، فأتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل ، ثم جادلهم فيه ، وأقام الدلائل على بطلانه ، وعارضهم وناقضهم ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة فكانت هذه السورة شرحاً لما تضمنته المائدة من ذلك على سبيل الإجمال ، وتفصيلاً وبسطاً ، وإتماماً وإطناباً وافتتحت بذكر الخلق والملك ، لأن الخالق والمالك هو الذي له التصرف في ملكه ، ومخلوقاته ، إباحة ومنعاً ، وتحريماً وتحليلاً ، فيجب ألا يتعدى عليه بالتصرف في ملكه وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال قوله: (ربِ العالمين) وللبقرة من حيث شرحها لإجمال قوله: (الذي خلقَكُم والذين من قبلكم) وقوله: (هو الذي خلقَ لكُم ما في الأَرض جميعاً) وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله: (والأنعام والحرب) وقوله: (كُلُ نفسٍ ذائقة الموت) الآية وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق ، والتقبيح لما حرموه على أزواجهم ، وقتل البنات بالوأد وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها وفي افتتاح السور المكية بها وجهان آخران من المناسبة الأول: افتتاحها بالحمد والثاني: مشابهتها للبقرة ، المفتتح بها السور المدنية ، من حيث أن كلاً منهما نزل مشيعاً ففي حديث أحمد : (البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً) وروى

الطبراني وغيره من طرق: (أن الأنعام شيعها سبعون ألف ملك) وفي رواية (خمسمائة ملك) ووجه آخر ، وهو: أن كل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد وهذه للربع الثاني ، والكهف للربع الثالث ، وسبأ وفاطر للربع الرابع

وجميع هذه الوجوه التي استنبطتها من المناسبات بالنسبة للقرآن كنقطة من بحر ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق ، ذكر فيها ما وقع عند بدء الخلق ، وهو قوله: (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ففي الصحيح: (لما فرغ الله من الخلق ، وقضى القضية ، كتب كتاباً عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 97. 101﴾

(9/226)

قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

﴿ بسم الله ﴾ الذي بين دلائل توحيده بأنه الجامع لصفات الكمال ﴿ الرحمن ﴾ الذي أفاض على سائر الموجودات من رحمته بالإيجاد والإعدام ما حيَّر لعمومه الأفهام ، فضاقت به الأوهام ﴿ الرحيم ﴾ الذي حبا أهل الإيمان بنور البصائر حتى كان الوجود ناطقاً لهم ، بالإعلام بأنه الحي القيوم السلام .

﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ .

لما ختم سبحانه تلك بتحميد عيسى عليه السلام لجلاله في ذلك اليوم في ذلك الجمع ، ثم تحميد نفسه المقدسة بشمول الملك والقدرة ، إذ الحمد هو الوصف بالجميل ؛ افتتح سبحانه وتعالى هذه السورة بالإخبار بأن ذلك الحمد وغيره من المحامد مستحق له استحقاقاً ثابتاً دائماً قبل إيجاد الخلق وبعد إيجاده سواء شكره العباد أو كفروه ، لما له سبحانه وتعالى من صفات الجلال والكمال – على ما تقدمت الإشارة إليه في الفاتحة – فأتى بهذه الجملة الاسمية المفتتحة باسم الحمد الكلي الجامع لجميع أنواعه الدالة على الاستغراق ، إما بأن اللام له عند الجمهور ، أو بأنها للجنس – كما هو مذهب الزمخشري ، ويؤول إلى مذهب الجمهور ، فإن الجنس إذا كان مختصاً به لم يكن فردٌ منه لغيره ، إذ الجنس لا يوجد إلا ضمن أفراده ، فمتى وجد فرد منه لغيره كان الجنس موجوداً فيه فلم يكن الجنس مختصاً به وقد قلنا : إنه مختص ، وهذا التحميد صار بوصفه فرداً من أفراد تحميد

الفاتحة تحقيقاً لكونها أمّاً ، وعقبها سبحانه بالدليل الشهودي على ما ختم به تلك من الوصف بشمول القدرة بوصفه بقوله : ﴿ الذي خلق ﴾ .

(10/226)

ولما كان تعدد السماوات ظاهراً بالكواكب في سيرها وحركاتها في السرعة والبطوء واستتار بعضها ببعض عند الخسوف وغيره وغير ذلك مما هو محرر عند أهله : جمعها فقال : ﴿ السماوات ﴾ أي على علوها وإحكامها ، قدمها لما تقدم قريباً ﴿ والأرض ﴾ أي على تحليها بالمنافع وانتظامها .

(11/226)

ولما كان في الجعل معنى التضمن فلا يقوم المجعول بنفسه قال : ﴿ وجعل ﴾ أي أحدث وأنشأ لمصالحكم ﴿ الظلمات ﴾ أي الأجرام المتكاثفة كما تقدم ﴿ والنور ﴾ وجمع الأول تنبيهاً على أن طرق الشر والهلاك كثيرة تدور على الهوى ، وقد تقرر بهذا ما افتتح به السورة ، لأن من تفرد باختراع الأشياء كان هو المختص بجميع المحامد ، ومن اختص بجميع

المحامد لم يكن إله سواه ولم يكن له شريك ، لا ثاني اثنين ولا ثالث ثلاثة ولا غير ذلك ، وما أحسن ختمها – بعد الإشارة إلى هذه المقاصد المبعدة لأن يكفر به أو يعدل به شيء – بقوله : ﴿ ثم الذين كفروا ﴾ أي ستروا ما دلتهم عليه عقولهم من أدلة وحدانيته التي لا خفاء بها عن أحد جرّد نفسه من الهوى ، وعالج أدواءه بأنفع دواء ، لإحاطته بجميع صفات الكمال ، وزاد الأمر تقبيحاً عليهم بإبدال ما كان الأصل في الكلام من الضمير بقوله : ﴿ بربهم ﴾ أي المحسن إليهم الذي لم يروا إحساناً إلا منه ﴿ يعدلون ﴾ أي يجعلون غيره ممن لا يقدر على شيء معادلاً له مع معرفتهم به بأنه الذي أبدع الأشياء ، كفراً لنعمته وبُعداً من رحمته ، فبعضهم عدل به بعض الجواهر من خلقه من السماء كالنجوم ، أو من الأرض كالأصنام ، أو بعض ما ينشأ عن بعض خلقه من الأعراض وهو خلقه كالنور والظلمة ، والحال أن تقلباتهما تدل بأدنى النظر على أمرين : الأول بُعدهما عن الصلاحية للإلهية لتغيرهما ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ [الأنعام : 76] ، والثاني قدرة خالقهما ومغيرهما على البعث لإيجاد كل منهما بعد إعدامه كما هو شأن البعث – إلى غير ذلك من الأسرار التي تدق عن الأفكار ، وتقديمُ الظلمة مناسب لسياق العادلين ، والتعبير بثم للتنبيه على ما كان ينبغي لكل راوٍ لهذا الخلق من الإبعاد عن الكفر لبعده عن الصواب ، فقد لاح أن مقصد السورة الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب الذي تبين أنه الهدى من توحيد الله والاجتماع عليه والوفاء بعهوده بأنه سبحانه وحده الخالق الحائز لجميع

(12/226)

الكمالات من القدرة على البعث وغيره ، وما أنسب ذلك بختم المائدة بذكر يوم الجمع وأن لِمَلِكِه جميع الملك ، وهو على كل شيء قدير ، وهذه السورة أول السور الأربع المشيرة إلى جميع النعم المندرجة تحت النعم الأربع التي اشتملت عليها الفاتحة ، وكل سورة منها مشيرة إلى نعمة من النعم الأربع ، فقوله : ﴿ خلق السماوات والأرض ﴾ - الآية ثم ﴿ خلقكم من طين ﴾ ثم

﴿ وما من دابة في الأرض ﴾ [الأنعام : 38] - الآية ، متكفل بتفصيل نعمة الإيجاد الأول لجميع العالمين من السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من آدمي وغيره المشار إليه في الفاتحة برب العالمين كما تقدم .

(13/226)

ولما تكفلت السور المتقدمة بالرد على مشركي العرب واليهود والنصارى مع الإشارة إلى إبطال جميع أنواع الشرك ، سيق مقصود هذه السورة في أساليب متكفلة بالرد على بقية

الفرق ، وهم الثنوية من المجوس القائلون بإلهين اثنين وبأصلين : النور والظلمة ، ويقرون بنبوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقط ، والصابئة القائلون بالأوثان السماوية والأصنام الأرضية متوسطين إلى رب الأرباب ، وينكرون الرسالة في الصورة البشرية ، وأصحاب الروحانيات ، أعني مدبرات الكواكب والأفلاك ، وينتسبون إلى ملة إبراهيم عليه السلام ، ويدعون أنه منهم – وقد أعاذه الله من ذلك ، والسُّمْنية القائلون بإلهية الشمس ، مع تأكيد الرد على الفرق المتقدمة على أن جميع فرقهم يجتمعون في اعتبار النجوم ، يتبين ذلك لمن نظر في كتب فتوح بلاد الفرس في أيام الصديق والفاروق رضي الله عنهما ، وقال تنكلوشا البابلي في أول كتابه في أحكام الدرج الفلكية : إن القدماء من الكسدانيين استنبطوا غوامض أسرار الفلك ، وكان عندهم أجل العلوم ولم يكونوا يظهرون علم الفلك لكل الناس ، بل كانوا يخفون أكثره عن عامتهم ، ويعطونهم منه بمقدار ما يصلح ، ويتدارسون الباقي بينهم مطوياً بين علمائهم وحكمائهم ، ثم ذكر تقسيمهم درج الفلك على ثلاثمائة وستين ، ثم قال : وقسموا الدرج أقساماً كثيرة حتى قالوا : إن بعضها ذكور وبعضها إناث ، وبعضها مسعدة وبعضها منحسة ، ثم قال : كل ذلك يريدون فيه الدلالة منها على ما تدل عليه في عالمنا وعلى أحوالنا حتى جعلوا لكل درجة عالماً وخلقاً منفرداً بمدته ، وأن ذلك العالم والخلق يندرسون وينشأ بعدهم غيرهم – إلى غير ذلك من الكلام الذي يرجع إلى اعتقاد

تأثير النجوم بنفسها – تعالى الله عن أن يكون له شريك أو يكون له كفواً أحد . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 579.581 ﴾

(14/226)

اللغة :

[يعدلون] يسوون به غيره ، ويجعلون له عدلا وشريكا يقال : عدل فلانا بفلان أى سواه به

[تمترون] تشكون يقال امترى في الأمر إذا شك فيه

[قرن] القرن : الأمة المقترنة في مدة من الزمان ، ومنه حديث " خير القرون قرني " وأصل القرن مائة سنة ثم أصبح يطلق على الأمة من الناس التي تعيش في ذلك العصر ، قال الشاعر : إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم وخلفت في قرني فأنت غريب

[مدرارا] غزيرة دائمة

[قرطاس] القرطاس : الصحيفة التى يكتب فيها

[لبسنا] خلطنا يقال لبست عليه الأمر أى خلطته عليه حتى اشتبه

[حاق] نزل بهم وأصابهم

[وليا] ناصرا ومعينا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 378 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وأنشأنا ﴾ بغير همز حيث كان : أبو عمرو ويزيد والأعشى وورش من طريق الأصفهاني وحمزة في الوقف . ﴿ ولقد استهزىء ﴾ وبابه بالهمز : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعاصم ، وقرأ يزيد والشموني وحمزة في الوقف بغير همز الباقون بغير همز مطلقاً ﴿ فحاق ﴾ بالإمالة حيث كان حمزة .

الوقوف : ﴿ والنور ﴾ ط لأن " ثم " لترتيب الأخبار ﴿ يعدلون ﴾ ه ﴿ أجلاً ﴾ ط ﴿ تمترون ﴾ ه ﴿ وفي الأرض ﴾ ج وقيل : لا وقف ليصير التقدير وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض وفيه بعد ، بل المعنى وهو المستحق للعبودية في أهل السموات وأهل الأرض . ﴿ تكسبون ﴾ ه ﴿ معرضين ﴾ ه ﴿ لما جاءهم ﴾ ط للابتداء بالتهديد ﴿ يستهزؤن ﴾ ه ﴿ مدراراً ﴾ ص لعطف المتفقين ﴿ آخرين ﴾ ه ﴿ سحر مبين ﴾ ه ﴿ عليه ملك ﴾ ط ﴿ لا ينظرون ﴾ ه ﴿ يلبسون ﴾ ه ﴿

يستهزؤن ﴾ ه ﴿ المكذبين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 45 .

46 ﴾

(16/226)

فائدة

قال الثعلبى :

﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ الآية .

قال مقاتل : قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم من ربك ؟ قال : الذي خلق السماوات والأرض فكذبوه فأنزل اللّه عز وجل حامداً نفسه دالاّ بصفته على وجوده وتوحيده . ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات ﴾ في يومين : يوم الأحد ويوم الأثنين ﴿ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

فصل في الفرق بين المدح والحَمْد والشُّكْر

قال الفخر :

اعلم أن المدح أعم من الحمد ، والحمد أعم من الشكر .

أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل ، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع فضائله ، فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله ولطافة خلقته ، ويمدح الياقوت على نهاية صفائه وصقالته ! فيقال : ما أحسنه وما أصفاه ، وأما الحمد : فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان ، فثبت أن المدح أعم من الحمد .

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر ، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام سواء كان ذلك الإنعام واصلاً إليك أو إلى غيرك ، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك وحصل عندك .

فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد ، وهو أعم من الشكر .

إذا عرفت هذا فنقول : إنما لم يقل المدح لله ولأنا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار ، فقد يحصل لغيره .

أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار .

(17/226)

فكان قوله ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ تصريحاً بأن المؤثر في وجود هذا العالم فاعل مختار خلقه بالقدرة والمشيئة وليس علة موجبة له إيجاب العلة لمعلولها ، ولا شك أن هذه الفائدة عظيمة في الدين وإنما لم يقل الشكر لله ، لأنا بينا أن الشكر عبارة عن تعظيمة بسبب انعام صدر منه ووصل إليك ، وهذا مشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة فحينئذ يكون المطلوب الأصلي به وصول النعمة إليه وهذه درجة حقيرة ، فأما إذا قال : الحمد لله ، فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقاً للحمد لا لخصوص أنه تعالى أوصل النعمة إليه ، فيكون الإخلاص أكمل ، واستغراق القلب في مشاهدة نور الحق أتم ، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 118 ﴾

فصل

قال الفخر :

الحمد : لفظ مفرد محلى بالألف واللام فيفيد أصل الماهية .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ يفيد أن هذه الماهية لله ، وذلك يمنع من ثبوت الحمد لغير الله ، فهذا يقتضي أن جميع أقسام الحمد والثناء والتعظيم ليس إلا لله سبحانه .

فإن قيل : إن شكر المُنْعِم واجب ، مثل شكر الأستاذ على تعليمه ، وشكر السلطان على عدله ، وشكر المحسن على إحسانه ، كما قال عليه الصلاة والسلام : " من لم يشكر الناس

لم يشكر الله " .

قلنا : المحمود والمشكور في الحقيقة ليس إلا الله ، وبيانه من وجوه : الأول : صدور الإحسان من العبد يتوقف على حصول داعية الإحسان في قلب العبد ، وحصول تلك الداعية في القلب ليس من العبد ، وإلا لافتقر في حصولها إلى داعية أخرى ولزم التسلسل ، بل حصولها ليس إلا من الله سبحانه فتلك الداعية عند حصولها يجب الفعل ، وعند زوالها يمتنع الفعل فيكون المحسن في الحقيقة ليس إلا الله ، فيكون المستحق لكل حمد في الحقيقة هو الله تعالى .

(18/226)

وثانيها : أن كل من أحسن من المخلوقين إلى الغير ، فإنه إنما يقدم على ذلك الإحسان إما لجلب منفعة أو دفع مضرة ، أما جلب المنفعة : فإنه يطمع بواسطة ذلك الإحسان بما يصير سبباً لحصول السرور في قلبه أو مكافأة بقليل أو كثير في الدنيا أو وجدان ثواب في الآخرة . وأما دفع المضرة ، فهو أن الإنسان إذا رأى حيواناً في ضر أو بلية فإنه يرق قلبه عليه ، وتلك الرقة ألم مخصوص يحصل في القلب عند مشاهدة وقوع ذلك الحيوان في تلك المضرة فإذا حاول إنقاذ ذلك الحيوان من تلك المضرة زالت تلك الرقة عن القلب وصار فارغ القلب

طيب الوقت ، فذلك الإحسان كأنه سبب أفاد تخليص القلب عن ألم الرقة الحسيّة ، فثبت أن كل ما سوى الحق فإنه يستفيد بفعل الإحسان إما جلب منفعة أو دفع مضرة ، أما الحق سبحانه وتعالى ، فإنه يحسن ولا يستفيد منه جلب منفعة ولا دفع مضرة ، وكان المحسن الحقيقي ليس إلا الله تعالى ، فبهذا السبب كان المستحق لكل أقسام الحمد هو الله ، فقال : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾

وثالثها : أن كل إحسان يقدم عليه أحد من الخلق فالانتفاع به لا يكمل إلا بواسطة إحسان الله ، ألا ترى أنه لولا أن الله تعالى خلق أنواع النعمة وإلا لم يقدر الإنسان على إيصال تلك الحنطة والفواكه إلى الغير ، وأيضاً فلولا أنه سبحانه أعطى الإنسان الحواس الخمس التي بها يمكنه الانتفاع بتلك النعم وإلا لعجز عن الانتفاع بها .

ولولا أنه سبحانه أعطاه المزاج الصحيح والبنية السليمة وإلا لما أمكنه الانتفاع بها ، فثبت أن كل إحسان يصدر عن محسن سوى الله تعالى ، فإن الانتفاع به لا يكمل إلا بواسطة إحسان الله تعالى .

وعند هذا يظهر أنه لا محسن في الحقيقة إلا الله ، ولا مستحق للحمد إلا الله .

فلهذا قال : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾

ورابعها : أن الانتفاع بجميع النعم لا يمكن إلا بعد وجود المنتفع بعد كونه حياً قادراً عالماً ، ونعمة الوجود والحياة والقدرة والعلم ليست إلا من الله سبحانه والتربية الأصلية والأرزاق المختلفة لا تحصل إلا من الله سبحانه من أول الطفولية إلى آخر العمر .

ثم إذا تأمل الإنسان في آثار حكمة الرحمن في خلق الإنسان ووصل إلى ما أودع الله تعالى في أعضائه من أنواع المنافع والمصالح علم أنها بحر لا ساحل له ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] فبتقدير : أن نسلم أن العبد يمكنه أن ينعم على الغير إلا أن نعم العبد كالقطرة ، ونعم الله لا نهاية لها أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً فلهذا السبب كان المستحق للحمد المطلق والثناء المطلق ليس إلا الله سبحانه فلهذا قال : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 118.119 ﴾

وقال ابن عاشور :

جملة ﴿ الحمد لله ﴾ تفيد استحقاق الله تعالى الحمد وحده دون غيره لأنّها تدلّ على الحصر .

واللام لتعريف الجنس ، فدلّت على انحصار استحقاق هذا الجنس لله تعالى .

وقد تقدّم بيان ذلك مستوفى في أول سورة الفاتحة .

ثم إنّ جملة ﴿ الحمد لله ﴾ هنا خبر لفظاً ومعنىً إذ ليس هنا ما يصرف إلى قصد إنشاء

الحمد بخلاف ما في سورة الفاتحة لأنّه عقّب بقوله : ﴿ إيّاك نعبد ﴾ [الفاتحة : 5] إلى آخر السورة ، فمن جوّز في هذه أن تكون إنشاء معنى لم يُجد التأمّل .

فالمعنى هنا أنّ الحمد كُلّه لا يستحقّه إلاّ الله ، وهذا قصر إضافي للردّ على المشركين الذين حمدوا الأصنام على ما تخيّلوه من إسدائها إليهم نعماً ونصراً وتفريج كربات ، فقد قال أبو سفيان حين انتصر هو وفريقه يوم أحُد : أعلُ هُبل لنا العُزّى ولا عُزّى لكم .

(20/226)

ويجوز أن يكون قصراً حقيقياً على معنى الكمال وأنّ حمد غيره تعالى من المنعمين تسامح لأنّه في الحقيقة واسطة صورية لجريان نعمة الله على يديه ، والمقصود هو هو ، وهو الردّ على المشركين ، لأنّ الأصنام لا تستحقّ الحمد الصوري بله الحقيقي كما قال إبراهيم عليه السلام "لِمَ نعْبُدُ ما لا يسمع ولا يُبْصر ولا يُغْني عنك شيئاً" .

ولذلك عقّبت جملة الحمد على عظيم خلق الله تعالى بجملة ﴿ ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ .

والموصول ، في محلّ الصفة لاسم الجلالة ، أفاد مع صلته التذكير بعظيم صفة الخلق الذي عمّ السماوات والأرض وما فيهنّ من الجواهر والأعراض .

وذلك أوجز لفظ في استحضار عظمة قدرة الله تعالى .

وليس في التعريف بالموصولية هنا إيذان بتعليل الجملة التي ذكرت قبله ، إذ ليست الجملة إنشائية كما علمت .

والجملة الخبرية لا تعلّل ، لأنّ الخبر حكاية ما في الواقع فلا حاجة لتعليله .

فالمقصود من الأوصاف التمهيد لقوله بعدُ ﴿ ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

إنما قال : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ ولم يقل : أحمد الله ، لوجوه : أحدها : أن الحمد صفة القلب وربما احتاج الإنسان إلى أن يذكر هذه اللفظة حال كونه غافلاً بقلبه عن استحضار معنى الحمد والثناء ، فلو قال في ذلك الوقت أحمد الله ، كان كاذباً واستحق عليه الذم والعقاب ، حيث أخبر عن دعوى شيء مع أنه ما كان موجوداً .

أما إذا قال : الحمد لله ، فمعناه : أن ماهية الحمد وحقيقته مسلمة لله تعالى .

وهذا الكلام حق وصدق سواء كان معنى الحمد والثناء حاضراً في قلبه أو لم يكن ، وكان تكلمه بهذا الكلام عبادة شريفة وطاعة رفيعة فظهر الفرق بين هذين اللفظين .

وثانيها : روي أنه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يأمره بالشكر ، فقال داود : يا رب وكيف أشكرك ؟ وشكري لك لا يحصل إلا أن توفقني لشكرك وذلك التوفيق نعمة زائدة وإنها توجب الشكر لي أيضاً وذلك يجر إلى ما لا نهاية له ولا طاقة لي بفعل ما لا نهاية له . فأوحى الله تعالى إلى داود : لما عرفت عجزك عن شكري فقد شكرتني .

إذا عرفت هذا فنقول : لو قال العبد أحمد الله كان دعوى أنه أتى بالحمد والشكر فيتوجه عليه ذلك السؤال .

إنما لو قال : الحمد لله فليس فيه ادعاء أن العبد أتى بالحمد والثناء ، بل ليس فيه إلا أنه سبحانه مستحق للحمد والثناء سواء قدر على الإتيان بذلك الحمد أو لم يقدر عليه فظهر التفاوت بين هذين اللفظين من هذا الوجه ، وثالثها : أنه لو قال أحمد الله كان ذلك مشعراً بأنه ذكر حمد نفسه ولم يذكر حمد غيره .

أما إذا قال : الحمد لله ، فقد دخل فيه حمده وحمد غيره من أول خلق العالم إلى آخر استقرار المكلفين في درجات الجنان ودركات النيران ، كما قال تعالى : ﴿ وآخر دعواهم فِيهَا سبحانك اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [يونس : 10] فكان هذا الكلام أفضل وأكمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 119 . 120 ﴾

لطيفة

قال الفخر :

اعلم أن هذه الكلمة مذكورة في أول سور خمسة .

أولها : الفاتحة ، فقال : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] وثانيها : في تأويل هذه السورة ، فقال : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والارض ﴾ [الأنعام : 1] والأول أعم لأن العالم عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى ، فقوله ﴿ الحمد لله ربّ العالمين ﴾ يدخل فيه كل موجود سوى الله تعالى .

أما قوله الحمد لله ربّ العالمين يدخل فيه كل موجود سوى الله تعالى .

(22/226)

أما قوله ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ لا يدخل فيه إلا خلق السموات والأرض والظلمات والنور ، ولا يدخل فيه سائر الكائنات والمبدعات ، فكان التحميد المذكور في أول هذه السورة كأنه قسم من الأقسام الداخلة تحت التحميد المذكور في سورة الفاتحة .

وتفصيل لتلك الجملة .

وثالثها : سورة الكهف ، فقال : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [الكهف :

1] وذلك أيضاً تحميد مخصوص بنوع خاص من النعمة وهو نعمة العلم والمعرفة والهداية والقرآن ، وبالجملة النعم الحاصلة بواسطة بعثة الرسل ، ورابعها : سورة سبأ وهي قوله ﴿ الحمد للَّهِ الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الارض ﴾ [سبأ : 1] وهو أيضاً قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ وخامسها : سورة فاطر ، فقال : ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ [فاطر : 1] وظاهر أيضاً أنه قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ فظهر أن الكلام الكلي التام هو التحميد المذكور في أول الفاتحة وهو قوله ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ وذلك لأن كل موجود فهو إما واجب الوجود لذاته ، وإما ممكن الوجود لذاته .

وواجب الوجود لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى وما سواه ممكن وكل ممكن فلا يمكن دخوله في الوجود إلا بإيجاد الله تعالى وتكوينه والوجود نعمة فالإيجاد إنعام وتربية ، فلهذا السبب قال : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ وأنه تعالى المربي لكل ما سواه والمحسن إلى كل ما سواه .

فذلك الكلام هو الكلام الكلي الوافي بالمقصود .

أما التحميدات المذكورة في أوائل هذه السور فكان كل واحد منها قسم من أقسام ذلك التحميد ونوع من أنواعه .

فإن قيل : ما الفرق بين الخالق وبين الفاطر والرب ؟ وأيضاً لم قال ههنا ﴿ خَلَقَ السموات

والأرض ﴾ بصيغة فعل الماضي ؟ وقال في سورة فاطر ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ بصيغة اسم الفاعل .

(23/226)

فنقول في الجواب عن الأول : الخلق عبارة عن التقدير وهو في حق الحق سبحانه عبارة عن علمه النافذ في جميع الكليات والجزئيات الواصل إلى جميع ذوات الكائنات والممكنات وأما كونه فاطراً فهو عبارة عن الإيجاد والإبداع ، فكونه تعالى خالقاً إشارة إلى صفة العلم ، وكونه فاطراً إشارة إلى صفة القدرة ، وكونه تعالى رباً ومربياً مشتمل على الأمرين ، فكان ذلك أكمل .

والجواب عن الثاني : أن الخلق عبارة عن التقدير وهو في حق الله تعالى عبارة عن علمه بالمعلومات ، والعلم بالشيء صح تقدمه على وجود المعلوم .

ألا ترى أنه يمكننا أن نعلم الشيء قبل دخوله في الوجود .

أما إيجاد الشيء ، فإنه لا يحصل إلا حال وجود الأثر بناء على مذهبنا أن القدرة إنما تؤثر في وجود المقدور حال وجود المقدور .

فلهذا السبب قال : ﴿ خَلَقَ السموات ﴾ والمراد أنه كان عالماً بها قبل وجودها ، وقال :

﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ والمراد أنه تعالى إنما يكون فاطراً لها وموجداً لها عند وجودها .

فصل

قال الفخر :

في قوله ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ قولان :

الأول : المراد منه احمدوا الله تعالى ، وإنما جاء على صيغة الخبر لفوائد : إحداها : أن قوله ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ يفيد تعليم اللفظ والمعنى ، ولو قال : احمدوا لم يحصل مجموع هاتين الفائدتين .

وثانيها : أنه يفيد أنه تعالى مستحق الحمد سواء حمده حامد أو لم يحمده .

وثالثها : أن المقصود منه ذكر الحجة فذكره بصيغة الخبر أولى .

والقول الثاني : وهو قول أكثر المفسرين معناه قولوا الحمد لله .

قالوا : والدليل على أن المراد منه تعليم العباد أنه تعالى قال في أثناء السورة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهذا الكلام لا يليق ذكره إلا بالعباد .

والمقصود أنه سبحانه لما أمر بالحمد وقد تقرر في العقول أن الحمد لا يحسن إلا على الإنعام ، فحينئذ يصير هذا الأمر حاملاً للمكلف على أن يتفكر في أقسام نعم الله تعالى عليه .

ثم إن تلك النعم يستدل بذكرها على مقصودين شريفين : أحدهما : أن هذه النعم قد حدثت بعد أن كانت معدومة فلا بدّ لها من محدث ومحصل وليس ذلك هو العبد لأن كل أحد يريد تحصيل جميع أنواع النعم لنفسه ، فلو كان حصول النعم للعبد بواسطة قدرة العبد واختياره ، لوجب أن يكون كل واحد واصلاً إلى جميع أقسام النعم إذ لا أحد إلا وهو يريد تحصيل كل النعم لنفسه ، ولما ثبت أنه لا بدّ لحدوث هذه النعم من محدث وثبت أن ذلك المحدث ليس هو العبد ، فوجب الاقرار بمحدث قاهر قادر ، وهو الله سبحانه وتعالى .

والنوع الثاني : من مقاصد هذه الكلمة أن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها فإذا أمر الله تعالى العبد بالتحميد ، وكان الأمر بالتحميد مما يحمله على تذكر أنواع نعم الله تعالى ، صار ذلك التكليف حاملاً للعبد على تذكر أنواع نعم الله عليه ، ولما كانت تلك النعم كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ، صار تذكر تلك النعم موجبة رسوخ حب الله تعالى في قلب العبد .

فثبت أن تذكير النعم يفيد هاتين الفائدتين الشريفتين .

إحداهما : الاستدلال بحدوثها عن الاقرار بوجود الله تعالى .

وثانيهما : أن الشعور بكونها نعماً يوجب ظهور حب الله في القلب ، ولا مقصود من جميع العبادات إلا هذان الأمران .

فلهذا السبب وقع الابتداء في هذا الكتاب الكريم بهذه الكلمة ، فقال : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ .

واعلم أن هذه الكلمة بحر لا ساحل له ، لأن العالم اسم لكل ما سوى الله تعالى ، وما سوى الله إما جسم أو حال فيه أو لا جسم ولا حال فيه ، وهو الأرواح .

ثم الأجسام إما فلكية ، وإما عنصرية .

أما الفلكيات فأولها العرش المجيد ، ثم الكرسي الرفيع .

(25/226)

ويجب على العاقل أن يعرف أن العرش ما هو ، وأن الكرسي ما هو ، وأن يعرف صفاتهما وأحوالهما ، ثم يتأمل أن اللوح المحفوظ ، والقلم والرفرف ، والبيت المعمور ، وسدرة المنتهى ما هي ، وأن يعرف حقائقها ، ثم يتفكر في طبقات السموات وكيفية اتساعها وأجرامها وأبعادها ، ثم يتأمل في الكواكب الثابتة والسيارة ، ثم يتأمل في عالم العناصر الأربعة والمواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان ، ثم يتأمل في كيفية حكمة الله تعالى في خلقه الأشياء الحقيرة والضعيفة كالبق والبعوض ، ثم ينتقل منها إلى معرفة أجناس الأعراض وأنواعها القريبة والبعيدة ، وكيفية المنافع الحاصلة من كل نوع من أنواعها ، ثم

ينتقل منها إلى تعرف مراتب الأرواح السفلية والعلوية والعرشية والفلكية ، ومراتب الأرواح المقدسة عن علائق الأجسام المشار إليها بقوله ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ [الأنبياء : 19] فإذا استحضر مجموع هذه الأشياء بقدر القدرة والطاقة ، فقد حضر في عقله ذرة من معرفة العالم ، وهو كل ما سوى الله تعالى .

ثم عند هذا يعرف أن كل ما حصل لها من الوجود وكمالات الوجود في ذواتها من صفاتها وأحوالها وعلائقها ، فمن إيجاد الحق ومن جوده ووجوده ، فعند هذا يعرف من معنى قوله ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ ذرة ، وهذا بحر لا ساحل له ، وكلام لا آخر له والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 121 . 122 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنا وإن ذكرنا أن قوله ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ أُجري مجرى قوله قولوا : الحمد لله ربّ العالمين فإنما ذكرناه لأن قوله في أثناء السورة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لا يليق إلا بالعبد فلهذا السبب افتقرنا هناك إلى هذا الإضمار .

أما هذه السورة وهي قوله ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ فلا يبعد أن يكون المراد منه ثناء الله تعالى به على نفسه .

وإذا ثبت هذا فنقول : إن هذا يدل من بعض الوجوه ، على أنه تعالى منزّه عن الشبيه في اللذات والصفات والأفعال وذلك لأن قوله ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ جار مجرى مدح النفس وذلك قبيح في الشاهد ، فلما أمرنا بذلك دلّ هذا على أنه لا يمكن قياس الحق على الخلق ، فكما أن هذا قبيح من الخلق مع أنه لا يقبح من الحق ، فكذلك ليس كل ما يقبح من الخلق وجب أن يقبح من الحق .

وبهذا الطريق وجب أن يبطل كلمات المعتزلة في أن ما قبح منا وجب أن يقبح من الله .

إذا عرفت بهذا الطريق أن أفعاله لا تشبه أفعال الخلق ، فكذلك صفاته لا تشبه صفات الخلق ، وذاته لا تشبه ذوات الخلق ، وعند هذا يحصل التنزيه المطلق والتقديس الكامل عن كونه تعالى مشابهاً لغيره في الذات والصفات والأفعال ، فهو الله سبحانه واحد في ذاته ، لا شريك له في صفاته ، ولا نظير له واحد في أفعاله لا شبيه له تعالى وتقدس والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 122 ﴾

قوله سبحانه ﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾

أسئلة وأجوبة

السؤال الأول : أن قوله ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ جار مجرى ما يقال : جاءني الرجل الفقيه .

فإن هذا يدل على وجود رجل آخر ليس بفقيه ، وإلا لم يكن إلى ذكر هذه الصفة حاجة

كذا ههنا قوله ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ يوهم أن هناك إلهاً لم يخلق السموات والأرض ، وإلا فأي فائدة في هذه الصفة ؟

والجواب : أنا بينا أن قوله (الله) جار مجرى اسم العلم .

فإذا ذكر الوصف لاسم العلم لم يكن المقصود من ذكر الوصف التمييز ، بل تعريف كون ذلك المعنى المُسَمّى ، موصوفاً بتلك الصفة .

مثاله إذا قلنا الرجل العالم ، فقولنا : الرجل اسم الماهية ، والماهية تتناول الأشخاص المذكورين الكثيرين .

فكان المقصود ههنا من ذكر الوصف تمييز هذا الرجل بهذا الاعتبار عن سائر الرجال بهذه الصفة .

(27/226)

أما إذا قلنا : زيد العالم ، فلفظ زيد اسم علم ، وهو لا يفيد إلا هذه الذات المعينة ، لأن أسماء الأعلام قائمة مقام الإشارات .

فإذا وصفناه بالعلمية امتنع أن يكون المقصود منه تمييز ذلك الشخص عن غيره ، بل

المقصود منه تعريف كون ذلك المسمى موصوفاً بهذه الصفة .

ولما كان لفظ (الله) من باب أسماء الأعلام ، لا جرم كان الأمر على ما ذكرناه والله أعلم .

السؤال الثاني : لم قدم ذكر السماء على الأرض ، مع أن ظاهر التنزيل يدل على أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء ؟

والجواب : السماء كالدائرة ، والأرض كالمركز ، وحصول الدائرة يوجب تعين المركز ولا ينعكس ، فإن حصول المركز لا يوجب تعين الدائرة لإمكان أن يحيط بالمركز الواحد دوائر لا نهاية لها ، فلما كانت السماء متقدمة على الأرض بهذا الاعتبار وجب تقديم ذكر السماء على الأرض بهذا الاعتبار .

السؤال الثالث : لم ذكر السماء بصيغة الجمع والأرض بصيغة الواحد مع أن الأرضين أيضاً كثيرة بدليل قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الأَرضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] .

والجواب : أن السماء جارية مجرى الفاعل والأرض مجرى القابل .

فلو كانت السماء واحدة لتشابه الأثر ، وذلك يخل بمصالح هذا العالم .

أما لو كانت كثيرة اختلفت الاتصالات الكوكبية فحصل بسببها الفصول الأربعة ، وسائر الأحوال المختلفة ، وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم .

أما الأرض فهي قابلة للأثر والقابل الواحد كاف في القبول ، وأما دلالة الآية المذكورة على تعدد الأرضين فقد بينا في تفسير تلك الآية كيفية الحال فيها والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 123 ﴾

وقال ابن عاشور :

وجمع : ﴿ السماوات ﴾ لأنّها عوالم كثيرة ، إذ كلّ كوكب منها عالم مستقلّ عن غيره ، ومنها الكواكب السبعة المشهورة المعبّر عنها في القرآن بالسماوات السبع فيما نرى .

(28/226)

وأفرد الأرض لأنّها عالم واحد ، ولذلك لم يجيء لفظ الأرض في القرآن جمعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر الدلالة على وجود الصانع .

وتقريره أن أجرام السموات والأرض تقدرت في أمور مخصوصة بمقادير مخصوصة ، وذلك لا يمكن حصوله إلا بتخصيص الفاعل المختار .

أما بيان المقام الأول فمن وجوه : الأول : أن كل فلك مخصوص اختص بمقدار معين مع جواز أن يكون الذي كان حاصلاً مقداراً أزيد منه أو أنقص منه .

والثاني : أن كل فلك بمقدار مركب من أجزاء ، والجزء الداخل كان يمكن وقوعه خارجاً وبالعكس .

فوقوع كل واحد منها في حيزه الخاص أمر جائز .

والثالث : أن الحركة والسكون جائزان على كل الأجسام بدليل أن الطبيعة الجسمية واحدة .

ولوازم الأمور الواحدة واحدة .

فإذا صح السكون والحركة على بعض الأجسام وجب أن يصحا على كلها : فاختصاص الجسم الفلكي بالحركة دون السكون اختصاص بأمر ممكن .

والرابع : أن كل حركة ، فإنه يمكن وقوعها أسرع مما وقع وأبطأ مما وقع ، فاختصاص تلك الحركة المعينة بذلك القدر المعين من السرعة والبطء اختصاص بأمر ممكن .

والخامس : أن كل حركة ، وقعت متوجهة إلى جهة ، فإنه يمكن وقوعها متوجهة إلى سائر الجهات .

فاختصاصها بالوقوع على ذلك الوجه الخاص اختصاص بأمر ممكن .

والسادس : أن كل فلك فإنه يوجد جسم آخر إما أعلى منه وإما أسفل منه ، وقد كان وقوعه على خلاف ذلك الترتيب أمراً ممكناً ، بدليل أن الأجسام لما كانت متساوية في الطبيعة الجسمية ، فكل ما صحّ على بعضها صح على كلها ، فكان اختصاصه بذلك

الحيز والترتيب أمراً ممكناً .

والسابع : وهو أن لحركة كل فلك أولاً ، لأن وجو ، حركة لا أول لها محال .

لأن حقيقة الحركة انتقال من حالة إلى حالة .

وهذا الانتقال يقتضي كونها مسبوقة بالغير .

والأول ينافي المسبوقية بالغير ، والجمع بينهما محال .

(29/226)

فثبت أن لكل حركة أولاً ، واختصاص ابتداء حدوثه بذلك الوقت ، دون ما قبله وما بعده اختصاص بأمر ممكن .

والثامن : هو أن الأجسام ، لما كانت متساوية في تمام الماهية كان اتصاف بعضها بالفلكية وبعضها بالعنصرية دون العكس ، اختصاصاً بأمر ممكن .

والتاسع : وهو أن حركاتها فعل لفاعل مختار ، ومتى كان كذلك فلها أول .

بيان المقام الأول أن المؤثر فيها لو كان علة موجبة بالذات لزم من دوام تلك العلة دوام آثارها ، فيلزم من دوام تلك العلة ، دوام كل واحد من الأجزاء المتقومة في هذه الحركة .

ولما كان ذلك محالاً ثبت أن المؤثر فيها ليس علة موجبة بالذات ، بل فاعلاً مختاراً .

وإذا كان كذلك ، وجب كون ذلك الفاعل متقدماً على هذه الحركات ، وذلك يوجب أن يكون لها بداية .

العاشر : أنه ثبت بالدليل أنه حصل خارج العالم خلاء لا نهاية له بدليل أنا نعلم بالضرورة أنا لو فرضنا أنفسنا واقفين على طرف الفلك الأعلى فإنا نميز بين الجهة التي تلي قدامنا وبين الجهة التي تلي خلفنا ، وثبوت هذا الامتياز معلوم بالضرورة .

وإذا كان كذلك ثبت أنه حصل خارج العالم خلاء لا نهاية له ، وإذا كان كذلك فحصول هذا العالم في هذا الحيز الذي حصل فيه دون سائر الأحياز أمر ممكن ، فثبت بهذه الوجوه العشرة : أن أجرام السموات والأرضين مختلفة بصفات وأحوال ، فكان يجوز في العقل حصول أضدادها ومقابلاتها ، فوجب أن لا يحصل هذا الاختصاص الخاص إلا لمرجح ومقدر وإلا فقد ترجح أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال .

وإذا ثبت هذا فنقول : إنه لا معنى للخلق إلا التقدير .

فلما دل العقل على حصول التقدير من هذه الوجوه العشرة ، وجب حصول الخلق من هذه الوجوه العشرة .

فلهذا المعنى .

قال : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ والله أعلم ، ومن الناس من قال المقصود من ذكر السموات والأرض والظلمات والنور التنبيه على ما فيها من المنافع .

واعلم أن منافع السموات أكثر من أن تحيط بجزء من أجزائها المجلدات ، وذلك لأن السموات بالنسبة إلى مواليد هذا العالم جارية مجرى الأب والأرض بالنسبة إليها جارية مجرى الأم فالعلل الفاعلة سماوية والعلل القابلة أرضية وبها يتم أمر المواليد الثلاثة . والاستقصاء في شرح ذلك لا سبيل له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 125.123 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾

فصل

قال الفخر :

لفظ ﴿ جَعَلَ ﴾ يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير كقوله ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثا ﴾ [الزخرف : 19] والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير ، وفي الجعل معنى التضمين والتصيير كإنشاء شيء من شيء ، وتصيير شيء شيئاً ، ومنه : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : 189] وقوله

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [الرعد : 38] وقوله ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [ص : 5] وإنما حسن لفظ الجعل ههنا لأن النور والظلمة لما تعاقبا صار كأنه كل واحد منهما إنما تولد من الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 125 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ أشار في "الكشاف" أنّ (جعلَ) إذا تعدّى إلى مفعول واحد فهو بمعنى أحدث وأنشأ فيقارب مرادفة معنى (خلق) .

والفرق بينه وبين (خلق) ؛ فإنّ في الخلق ملاحظة معنى التقدير ، وفي الجعل ملاحظة معنى الانتساب ، يعني كون المجعول مخلوقاً لأجل غيره أو منتسباً إلى غيره ، فيعْرف المنتسب إليه بمعونة المقام .

فالظلمات والنور لمّا كانا عرضين كان خلقهما تكويناً لتُكيّف موجودات السماوات والأرض بهما .

(31/226)

ويعرف ذلك بذكر ﴿ الظلمات والنور ﴾ عقب ذكر ﴿ السماوات والأرض ﴾ ، وباختيار لفظ الخلق للسماوات والأرض ، ولفظ الجعل للظلمات والنور ، ومنه قوله تعالى:

﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ﴾ [الأعراف : 189] فإنّ الزوج وهو الأنثى مراعى في إيجاده أن يكون تكملة لخلق الذكر ، ولذلك عقّبه بقوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾ [الأعراف : 189] والخلق أعمّ في الإطلاق ولذلك قال تعالى في آية أخرى ﴿ يا أيها النّاس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ [النساء : 1] لأنّ كلّ تكوين لا يخلو من تقدير ونظام .

وخَصّ بالذكر من الجواهر والأعراض عرضين عظيمين ، وهما : الظلمات والنور فقال ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ لاستواء جميع الناس في إدراكهما والشعور بهما .

وبذكر هذه الأمور الأربعة حصلت الإشارة إلى جنسي المخلوقات من جواهر وأعراض .

فالتفرقة بين فعل (خلق) وفعل (جعل) هنا معدود من فصاحة الكلمات .

وإنّ لكلّ كلمة مع صاحبتها مقاماً ، وهو ما يسمّى في عرف الأدباء برشاقة الكلمة ففعل (خلق) أُليق بإيجاد الذوات ، وفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها .

والاقتصار في ذكر المخلوقات على هذه الأربعة تعريض بإبطال عقائد كفار العرب فإنّهم بين مشركين وصابئة ومجوس ونصارى ، وكلّهم قد أثبتوا آلهة غير الله ؛ فالمشركون أثبتوا آلهة من الأرض ، وَالصابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية ، والنصارى أثبتوا إلهية عيسى أو عيسى ومريم وهما من الموجودات الأرضية ، والمجوس وهم المانوية ألّهوا النور والظلمة ،

فالنور إله الخير والظلمة إله الشرّ عندهم .

فأخبرهم الله تعالى أنّه خالق السماوات والأرض ، أي بما فيهم ، وخالق الظلمات والنور .

(32/226)

ثم إنّ في إيثار الظلمات والنور بالذكر دون غيرهما من الأعراض إيماء وتعريضاً بحالِيْ المخاطبين بالآية من كفر فريق وإيمان فريق ، فإنّ الكفر يشبه الظلمة لأنّه انغماس في جهالة وحيرة ، والإيمان يشبه النور لأنّه استبانة الهدى والحقّ .

قال تعالى : ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ [البقرة : 257] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

في لفظ ﴿ الظلمات والنور ﴾ قولان :

الأول : أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر والذي يقوي ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما .

وأيضاً هذان الأمران إذا جعلا مقرونين بذكر السموات والأرض ، فإنه لا يفهم منهما إلا

هاتان الكيفيتان المحسوستان والثاني : نقل الواحدي عن ابن عباس أنه قال ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ أي ظلمة الشرك والنفاق والكفر والنور يريد نور الإسلام والإيمان والنبوّة واليقين .

ونقل عن الحسن أنه قال : يعني الكفر والإيمان ، ولا تفاوت بين هذين القولين ، فكان قول الحسن كالتلخيص لقول ابن عباس .

ولقائل أن يقول حمل اللفظ على الوجه الأول أولى ، لما ذكرنا أن الأصل حمل اللفظ على حقيقته ، ولأن الظلمات والنور إذا كان ذكرهما مقروناً بالسموات والأرض لم يفهم منه إلا ما ذكرناه .

قال الواحدي : والأولى حمل اللفظ عليهما معاً .

وأقول هذا مشكل لأنه حمل اللفظ على مجازه ، واللفظ الواحد بالاعتبار الواحد لا يمكن حمله على حقيقته ومجازه معاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 125 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ قال السدي : يعني ظلمة الليل ونور النهار .

وقال الواقدي : كل ما في القرآن من الظلمات والنور يعني الكفر والإيمان .

وقال قتادة : يعني الجنة والنار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

(33/226)

إنما قدم ذكر الظلمات على ذكر النور لأجل أن الظلمة عبارة عن عدم النور عن الجسم الذي من شأنه قبول النور ، وليست عبارة عن كيفية وجودية مضادة للنور ، والدليل عليه أنه إذا جلس إنسان بقرب السراج ، وجلس إنسان آخر بالبعد منه ، فإن البعيد يرى القريب ويرى ذلك الهواء صافياً مضيئاً ، وأما القريب فإنه لا يرى البعيد ويرى ذلك الهواء مظلماً ، فلو كانت الظلمة كيفية وجودية لكانت حاصلة بالنسبة إلى هذين الشخصين المذكورين ، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن الظلمة ليست كيفية وجودية .

وإذ ثبت هذا فنقول : عدم المحدثات متقدم على وجودها ، فالظلمة متقدمة في التقدير والتحقق على النور ، فوجب تقديمها في اللفظ ، ومما يقوي ذلك ما يروى في الأخبار الإلهية أنه تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 125 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقدّم ذكر الظلمات مراعاة للترتّب في الوجود لأنّ الظلمة سابقة النور ، فإنّ النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة ، وكانت الظلمة عامّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

سؤال : لقائل أن يقول : لم ذكر الظلمات بصيغة الجمع ، والنور بصيغة الواحد ؟

فنقول : أما من حمل الظلمات على الكفر والنور على الإيمان ، فكلامه ههنا ظاهر ، لأن الحق واحد والباطل كثير ،

وأما من حملها على الكيفية المحسوسة ،

فالجواب : أن النور عبارة عن تلك الكيفية الكاملة القوية ، ثم إنها تقبل التناقص قليلاً قليلاً ، وتلك المراتب كثيرة .

فلهذا السبب عبّر عن الظلمات بصيغة الجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 125 ﴾

وقال ابن عاشور :

وإنّما جُمع ﴿ الظلمات ﴾ وأفرد ﴿ النور ﴾ اتّباعاً للاستعمال ، لأنّ لفظ (الظلمات) بالجمع أخفّ ، ولفظ (النور) بالإفراد أخفّ ، ولذلك لم يرد لفظ (الظلمات) في القرآن إلاّ جمعاً ولم يرد لفظ (النور) إلاّ مفرداً .

وهما معاً دالاّن على الجنس ، والتعريف الجنسي يستوي فيه المفرد والجمع فلم يبق للاختلاف سبب لاتّباع الاستعمال ، خلافاً لما في "الكشاف" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

وإنما جمع الظلمات ووحد النور لأن النور يتعدى والظلمة لا تتعدى .

وقال أهل المعاني : جعل ها هنا صلة والعرب تريد جعل في الكلام .

وقال أبو عبيدة : وقد جعلت أرى الاثنين أربعة والواحد اثنين لمّا هدّني الكبر مجاز الآية : الحمد للّه الذي خلق السماوات والأرض والظلمات والنور ، وقيل : معناه خلق السماوات والأرض وقد جعل الظلمات والنور لأنه خلق الظلمة والنور قبل خلق السماوات والأرض .

وقال قتادة : خلق اللّه السماوات قبل الأرض والظلمة قبل النور والجنة قبل النار .

وقال وهب : أول ما خلق اللّه مكاناً مظلماً ثم خلق جوهرة فصارت ذلك المكان ، ثم نظر إلى الجوهرة نظر الهيئة فصارت دماً فارتفع بخارها وزبدها ، فخلق من البخار السماوات ومن الزبد الأرضين . (1)

وروى عبد اللّه بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن اللّه عز وجل خلق

خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه يومئذ من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلّ" . (2) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

---

(1) هذا الكلام يفتقر إلى سند صحيح . والله أعلم بأسرار غيبه .

(2) أخرجه الترمذي في الإيمان ، باب افتراق هذه الأمة : 7 / 401 ، وقال : هذا حديث حسن . وصححه ابن حبان ص(449) والحاكم : 1 / 30 ، 31 . وأخرجه الإمام أحمد : 2 / 176 ، 197 . قال الهيثمي : رواه أحمد بإسنادين ، والبزار والطبراني ، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات . مجمع الزوائد : 7 / 194 . وذكره الخطيب في مشكاة المصابيح : 1 / 37 وصححه الألباني .

(35/226)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

قال الفخر :

اعلم أن العدل هو التسوية .

يقول : عدل الشيء بالشيء إذا سواه به ، ومعنى ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ يشركون به غيره .

فإن قيل : على أي شيء عطف قوله ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

قلنا : يحتمل أن يكون معطوفاً على قوله ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ على معنى أن الله حقيق بالحمد على كل ما خلق لأنه ما خلقه إلا نعمة ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ فيكفرون بنعمته ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على قوله ﴿ خَلَقَ السموات والارض ﴾ على معنى أن خلق هذه الأشياء العظيمة التي لا يقدر عليها أحد سواه ، ثم إنهم يعدلون به جماداً لا يقدر على شيء أصلاً .

فإن قيل : فما معنى ثم ؟

قلنا : الفائدة فيه استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته ، والله أعلم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 126 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ .

قال قطرب : هو مختصر يعني الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون الأوثان أي يشركون وأصله من مساواة الشيء بالشيء يقال : عدلت هذا بهذا إذا ساويته به .

وقال النضر بن شميل : الباء في قوله : ﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ بمعنى عن ، وقوله : ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ من العدول . أي يكون ويعرفون .

وأنشد :

وسائلة بثعلبة بن سير . . . وقد علقت بثعلبة العلوق

وأنشد :

شربن بماء البحر ثم ترفعت . . . متى لجج خضر لهن نئيج

أي من البحر قال اللّه تعالى : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ [الإنسان : 6] أي منها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ .

عُطفت جملة ﴿ ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ على جملة : ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات ﴾ .

ف ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي الدالّ على أنّ ما بعدها يتضمّن معنى من نوع ما قبله ، وهو أهمّ في بابه .

وذلك شأن (ثم) إذا وردت عاطفة جملة على أخرى ، فإنّ عدول المشركين عن عبادة الله مع علمهم بأنّه خالق الأشياء أمر غريب فيهم أعجب من علمهم بذلك .

(36/226)

والحجّة ناهضة على الذين كفروا لأنّ جميعهم عدا المانوية يعترفون بأنّ الله هو الخالق والمدبّر للكون ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكّرون ﴾ [النحل : 17] .

والخبر مستعمل في التعجيب على وجه الكناية بقرينة موقع ﴿ ثم ﴾ ودلالة المضارع على التجدّد ، فالتعجيب من شأن المشركين ظاهر وأمّا المانوية فالتعجيب من شأنهم في أنّهم لم يهتدوا إلى الخالق وعبدوا بعض مخلوقاته .

فالمراد بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ كلّ من كفر بإثبات إله غير الله تعالى سواء في ذلك من جعل له شريكاً مثل مشركي العرب والصابئة ومن خصّ غير الله بالإلهية كالمانوية .

وهذا المراد دلّت عليه القرينة وإن كان غالب عرف القرآن إطلاق الذين كفروا على المشركين .

ومعنى ﴿ يعدلون ﴾ يُسوّون .

والعدل : التسوية .

تقول : عدلت فلاناً بفلان ، إذا سوّيته به ، كما تقدّم في قوله : ﴿ أو عَدْل ذلك صياماً ﴾ [المائدة : 95] ، فقوله ﴿ بربّهم ﴾ متعلّق بـ ﴿ يعدلون ﴾ ولا يصحّ تعليقه بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك .

وحذف مفعول ﴿ يعدلون ﴾ ، أي يعدلون بربّهم غيره وقد علم كلّ فريق ماذا عدل بالله .

والمراد يعدلونه بالله في الإلهيّة ، وإن كان بعضهم يعترف بأنّ الله أعظم كما كان مشركو العرب يقولون : لَبَّيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

وكما قالت الصابئة في الأرواح ، والنصارى في الابن والروح القدس .

ومعنى العجيب عامّ في أحوال الذين ادّعوا الإلهيّة لغير الله تعالى سواء فيهم من كان أهلاً للاستدلال والنظر في خلق السماوات والأرض ومن لم يكن أهلاً لذلك ، لأنّ محلّ التعجيب أنّه يخلقهم ويخلق معبوداتهم فلا يهتدون إليه بل ويختلقون إلهيّة غيره .

ومعلوم أنّ التعجيب من شأنهم متفاوت على حسب تفاوت كفرهم وضلالهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(37/226)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ .

في قوله تعالى ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ وجهان للعلماء :

أحدهما : أنه من العدول عن الشيء بمعنى الانحراف ، والميل عنه ، وعلى هذا فقوله ﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ متعلق بقوله ﴿ كَفَرُوْا ﴾ ، وعليه فالمعنى : إن الذين كفروا بربهم يميلون

وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال ، وقيل على هذا الوجه : إن " الباء " متعلقة بيعدلون ، ومعنى يعدلون يجعلون له نظيراً في العبادة من قول العرب : عدلت فلاناً بفلان إذا جعلته له نظيراً وعديلاً . ومنه قول جرير :

أثعلبة الفوارس أم رياحاً . . . عدلت بهم طهية والخشابا

(38/226)

يعني أجعلت طهية والخشاب نظراء وأمثالاً لبني ثعلبة ، وبني رياح ، وهذا الوجه الأخير يدل له القرآن ، كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره : ﴿ تاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 97-98] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله ﴾ [البقرة : 165] ، وأشار تعالى في آيات كثيرة إلى أن الكفار ساووا بين المخلوق والخالق – قبحهم الله تعالى – كقوله : ﴿ أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار ﴾ [الرعد : 16] ، وقوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 17] ، وقوله : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ [الروم : 28] ، الآية إلى غير ذلك من

الآيات ، وعدل الشيء في اللغة مثله ، ونظيره ، قال بعض علماء العربية : إذا كان من جنسه ، فهو عدل – بكسر العين – وإذا كان من غير جنسه ، فهو عدل – بفتح العين – ومن الأول قول مهلهل :

على أن ليس عدلاً من كليب . . . إذا برزت مخبأة الخدور

على أن ليس عدلاً من كليب . . . إذا اضطرب العضاه من الدبور

على أن ليس عدلاً من كليب . . . غداة بلابل الأمر الكبير

يعني أن القتلى الذين قتلهم من بكر بن وائل بأخيه كليب الذي قتله جساس بن مرة البكري لا يكافؤونه ، ولا يعادلنه في الشرف .

(39/226)

ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ﴾ [المائدة : 95] ، لأن المراد نظير الإطعام من الصيام ، وليس من جنسه ، وقوله : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ [الأنعام : 70] ، وقوله : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة : 123] والعدل : الفداء ، لأنه كأنه قيمة معادلة للمفدي تؤخذ بدله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(40/226)

" لطيفة "

قال الخازن :

قال النضر بن شميل : الباء في قوله بربهم بمعنى عن أي عن ربهم يعدلون وينحرفون من العدول عن الشيء وقبل دخول ثم في قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون دليل على معنى لطيف وهو أنه تعالى دل به على إنكاره على الكفار العدل به وعلى تعجيب المؤمنين من ذلك ومثال ذلك : أن تقول لرجل أكرمتك وأحسنت إليك وأنت تنكرني وتجحد إحساني إليك فتقول ذلك منكراً عليه ومتعجباً من فعله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر ، وذلك أولى من أن يجيء بلفظ الأمر فيقول احْمِدِ الله ، لأمرين :

أحدهما : أنه يتضمن تعليم اللفظ والمعنى ، وفي الأمر المعنى دون اللفظ .

والثاني : أن البرهان إنما يشهد بمعنى الخبر دون الأمر .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَمَوَاتِ والأرضَ ﴾ لأن خلق السموات والأرض نِعَمٌ تستوجب الحمد ،

لأن الأرض تقل ، والسماء تظل ، وهي من أوائل نعمه على خلقه ، ولذلك استحمد بخلقها وأضاف خلقها إلى نفسه عند حمده ، على أن مستحق الحمد هو خالق السموات والأرض ، ليكون باستحقاق الحمد منفرداً لانفراده بخلق السموات والأرض .

وفي جمع السموات وتوحيد الأرض وجهان :

أحدهما : لأن السموات أشرف من الأرض ، والجمع أبلغ في التفخيم من الوحيد كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ [الحجر : 9] .

والثاني : لأن أوامره إلى الأرض تخترق جميع السماوات السبع .

وفي تقديم السموات على الأرض وجهان :

أحدهما : لتقدم خلقها على الأرض .

والثاني : لشرفها فقدمها على ذكر الأرض وإن كانت مخلوقة بعد الأرض .

وهذان الوجهان من اختلاف العلماء أيهما خُلِقَ أولاً .

(41/226)

﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ يعني وخلق ، فغاير بين اللفظ ليكون أحسن في النظم ، والمراد بالظلمات والنور هنا ثلاثة أوجه : أحدها : وهو المشهور من قول قتادة ، قدم

الظلمة على النور لأنه قدم خلق الظلمة على خلق النور ، وجمع الظلمات ووحد النور لأن الظلمات أعم من النور .

والثاني : أن الظلمات : الليل ، والنور : النهار .

والثالث : أن الظلمات : الكفر ، والنور : الإيمان ، قاله السدي .

ولأصحاب الخواطر ، فيه ثلاثة أوجه أُخَر :

أحدها : أن الظلمات : الأجسام ، والنور : الأرواح .

الثاني : أن الظلمات : أعمال الأبدان ، والنور : ضمائر القلوب .

والثالث : أن الظلمات : الجهل ، والنور : العلم .

﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يجعلون له مع هذه النِّعَمْ عِدْلاً ، يعني مثلاً .

وفيه قولان :

أحدهما : أنهم يعدلون به الأصنام التي يعبدونها .

والثاني : أنهم يعدلون به إلهاً غيره لم يُخْلَق مثل خلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ وخاتمتها خاتمة سورة هود : ﴿ وَلِلَّهِ

غَيْبُ السماوات والأرض وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : 123] وقوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ حمد الرب نفسه ، ودلّ بصنعه على توحيده ، ﴿ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ يعني : خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم ، وخلق الأرض وما فيها ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ يعني : خلق الليل والنهار .

ويقال : الكفر والإسلام .

وقال الضحاك : هذه الآية نزلت في شأن المجوس .

(42/226)

قالوا : الله خالق النور ، والشيطان خالق الظلمة ، فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم ، ورداً عليهم ، فقال : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ يعني : أن الله واحد لا شريك له ، وهو الذي خلق السموات والأرض ، وهو الذي خلق الظلمات والنور ﴿ ثْمَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : المجوس ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ يعني : يشركون .

ويقال ﴿ ثْمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ يعني : مشركي مكة ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ يعني : يعبدون الأصنام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) ﴾

هذا تصريح بأن الله تعالى هو الذي يستحق الحمد بأجمعه . لأن الألف واللام في ﴿ الحمد ﴾ لاستغراق الجنس ، فهو تعالى له الأوصاف السنية والعلم والقدرة والإحاطة والإنعام ، فهو أهل للمحامد على ضروبها وله الحمد الذي يستغرق الشكر المختص بأنه على النعم ، ولما ورد هذا الإخبار تبعه ذكر بعض أوصافه الموجبة للحمد ، وهي الخلق " للسماوات والأرض " قوام الناس وأرزاقهم ، ﴿ والأرض ﴾ ها هنا للجنس فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها ، والبادي من هذا الترتيب أن السماء خلقت من قبل الأرض ، وقد حكاه الطبري عن قتادة ، وليس كذلك لأن الواو لا ترتب المعاني ، والذي ينبني من مجموع آي القرآن أن الله تعالى خلق الأرض ولم يدحها ثم استوى إلى السماء فخلقها ثم دحا الأرض بعد ذلك ، و ﴿ جعل ﴾ ها هنا بمعنى خلق لا يجوز غير ذلك ، وتأمل لم خصت ﴿ السماوات والأرض ﴾ ب ﴿ خلق ﴾ و ﴿ الظلمات والنور ﴾ ب ﴿ جعل ﴾ ؟ وقال الطبري ﴿ جعل ﴾ هذه هي التي تتصرف في طرق الكلام كما تقول جعلت كذا فكأنه قال وجعل إظلامها وإنارتها .

(43/226)

قال القاضي أبو محمد : وهذا غير جيد ، لأن ﴿ جعل ﴾ إذا كانت على هذا النحو فلا بد أن يرتبط معها فعل آخر كما يرتبط في أفعال المقاربة كقولك كاد زيد يموت ، " جعل " زيد يجيء ويذهب ، وأما إذا لم تربط معها فعل فلا يصح أن تكون تلك التي ذكر الطبري ، وقال السدي وقتادة والجمهور من المفسرين : ﴿ الظلمات ﴾ الليل و﴿ النور ﴾ النهار ، وقالت فرقة : ﴿ الظلمات ﴾ الكفر و﴿ النور ﴾ الإيمان .

قال القاضي أبو محمد : وهذا غير جيد لأنه إخراج لفظ بين في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة ، وهذا هو طريق اللغز الذي برىء القرآن منه ، و﴿ النور ﴾ أيضاً هنا للجنس فإفراده بمثابة جمعه .

(44/226)

وقوله تعالى : ﴿ ثم ﴾ دالة على قبح فعل ﴿ الذين كفروا ﴾ لأن المعنى أن خلقه " السموات والأرض " وغيرهما قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وأنعامه بذلك قد تبين ثم بعد

هذا كله عدلوا بربهم ، فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني ، أي بعد مهلة من وقوع هذا كله ، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه ب ﴿ ثم ﴾ ، ﴿ الذين كفروا ﴾ في هذا الموضع هم كل من عبد شيئاً سوى الله قال قتادة : هم أهل الشرك صراحية ، ومن خصص من المفسرين في ذلك بعضاً دون بعض فلم يصب إلا أن السابق من حال النبي صلى الله عليه وسلم أن الإشارة إلى عبدة الأوثان من العرب لمجاورتهم له ، ولفظ الآية أيضاً يشير إلى المانوية ويقال المانتية العابدين للنور القائلين إن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلام ، وقول ابن أبزى إن المراد أهل الكتاب بعيد ، و ﴿ يعدلون ﴾ معناه يسوون ويمثلون ، وعدل الشيء قرينه ومثيله ، والمنوية مجوس ، وورد في مصنف أبي داود حديث وهو القدرية مجوس هذه الأمة ومعناه الإغلاظ عليهم والذم لهم في تشبيههم بالمجوس وموضع الشبه هو أن المجوس تقول الأفعال خيرها خلق النور وشرها خلق الظلمة فجعلوا خالقاً غير الله ، والقدرية تقول الإنسان يخلق أفعاله فجعلوا خالقاً غير الله تعالى عن قولهم ، وذهب أبو المعالي إلى التشبيه بالمجوس إنما هو قول القدرية : إن الخير من الله وإن الشر منه ولا يريده ، وإنما قلنا في الحديث إنه تغليظ لأنه قد صرح أنهم من الأمة ولو جعلهم مجوساً حقيقة لم يضفهم إلى الأمة ، وهذا كله أن لو صح الحديث والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأُولى قوله تعالى ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ بدأ سبحانه فاتحتها بالحمد على نفسه ، وإثبات الألوهية ؛ أي أن الحمد كله له فلا شريك له .

فإن قيل : فقد افتتح غيرها بالحمد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائره ؛ فيقال : لأن لكل واحدة منه معنى في موضعه لا يؤدِّي عنه غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة ، وأيضاً فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدِلون .

وقد تقدّم معنى "الحمد" في الفاتحة .

الثانية قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال : الذي خلق أي اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع .

والخلق يكون بمعنى الاختراع ، ويكون بمعنى التقدير ، وقد تقدّم ، وكلاهما مراد هنا ؛ وذلك دليل على حدوثهما ؛ فرفع السماء بغير عمد ، وجعلها مستوية من غير أَوَدٍ ، وجعل

فيها الشمس والقمر آيتين ، وزينها بالنجوم ، وأودعها السحاب والغيوم علامتين ؛ وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات ، وبث فيها من كل دابّة آيات ؛ وجعل فيها الجبال أوتاداً ، وسبلاً فجاجاً ، وأجرى فيها الأنهار والبحار ، وفجر فيها العيون من الأحجار دلالات على وحدانيته ، وعظيم قدرته ، وأنه هو الله الواحد القهار ، وبين بخلقه السموات والأرض أنه خالق كل شيء .

الثالثة خرّج مسلم قال : حدّثني سُرَيْج بن يونس وهرون بن عبد الله قالا حدّثنا حجاج بن محمد قال قال ابن جريج أخبرني إسماعيل بن أُمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أُمّ سلمة عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدِي فقال : " خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبَثّ فيها الدوابّ يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل " .

(46/226)

قلت : أدخل العلماء هذا الحديث تفسيراً لفاتحة هذه السورة ؛ قال البَيْهَقيّ : وزعم أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ لمخالفة ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ .

وزعم بعضهم أن إسماعيل بن أُميّة إنما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى عن أيوب بن خالد ، وإبراهيم غير محتج به .

وذكر محمد بن يحيى قال : سألت عليّ بن المدِينيّ عن حديث أبي هُريرة " خلق الله التُّربة يوم السبت " فقال عليّ : هذا حديث مدنيّ ، رواه هشام بن يوسف عن ابن جُرَيْج عن إسماعيل بن أُميّة عن أيوب بن خالد عن أبي رافع مولى أُمّ سَلَمة عن أبي هُريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ؛ قال عليّ : وشَبَّك بيدي إبراهيم بن أبي يحيى ، فقال لي : شَبّك بيدي أيوب بن خالد ، وقال لي : شَبَّك بيدي عبد الله بن رافع ، وقال لي : شَبَّك بيدي أبو هُريرة ، وقال لي : شَبَّك بيدي أبو القاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " خلق الله الأرض يوم السبت " فذكر الحديث بنحوه .

قال عليّ بن المَدِيني : وما أرى إسماعيل بن أُمية أخذ هذا الأمر إلا من إبراهيم ابن أبي يحيى ، قال البيهقيّ : وقد تابعه على ذلك موسى بن عُبيدة الرَّبَذِي عن أيوب بن خالد ؛ إلا أن موسى بن عُبيدة ضعيف .

وروى عن بكر بن الشَّرُود ، عن إبراهيم بن أبي يحيى عن صفوان بن سُلَيْم ، عن أيوب بن خالد وإسناده ضعيف عن أبي هُرَيرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن في

الجمعة ساعة لا يوافقها أحد يسأل الله عز وجل فيها شيئاً إلا أعطاه إياه " قال فقال عبد الله بن سَلاَم : إنّ الله عز وجل ابتدأ الخلق فخلق الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين وخلق السموات يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وخلق الأقوات وما في الأرض يوم الخميس ويوم الجمعة إلى صلاة العصر ، وما بين صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس خلق آدم ، خرّجه البيهقي .

(47/226)

قلت : وفيه أن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد لا يوم السبت وكذلك تقدّم في "البقرة" عن ابن مسعود وغيره من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وتقدّم فيها الاختلاف أيما خلق أوّلاً الأرض أو السماء مستوفى .

والحمد لله .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ ذكر بعد خلق الجواهر خلق الأعراض لكون الجوهر لا يستغنى عنه ، وما لا يستغنى عن الحوادث فهو حادث .

والجوهر في اصطلاح المتكلمين هو الجزء الذي لا يتجزأ الحامل للعَرَض ؛ وقد أتينا على ذكره في الكتاب الأسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى في اسمه "الواحد" .

وسمى العَرَض عَرَضا ؛ لأنه يعرض في الجسم والجوهر فيتغير به من حال إلى حال ، والجسم

هو المجتمع ، وأقل ما يقع عليه اسم الجسم جوهران مجتمعان ؛ وهذه الاصطلاحات وإن لم تكن موجودة في الصدر الأوّل فقد دل عليها معنى الكتاب والسنة فلا معنى لإنكارها .

وقد استعملها العلماء واصطلحوا عليها ، وبَنَوا عليها كلامهم ، وقَتلوا بها خصومهم ، كما تقدّم في "البقرة" .

واختلف العلماء في المعنى المراد بالظّلمات والنّور ؛ فقال السّديّ وقَتَادة وجمهور المفسرين : المراد سواد الليل وضياء النهار .

وقال الحسن : الكفر والإيمان .

قال ابن عطية : وهذا خروج عن الظاهر .

قلت : اللفظ يعمه ؛ وفي التنزيل : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ [الأنعام : 122] .

والأرض هنا اسم للجنس فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها ؛ وكذلك "والنور" ومثله ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [غافر : 67] وقال الشاعر :

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا . . .

وقد تقدّم .

وجعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النَّسق ؛ فيكون الجمع معطوفاً على الجمع والمفرد معطوفاً على المفرد ، فيتجانس اللفظ وتظهر الفصاحة ، والله أعلم .

(48/226)

وقيل : جمع "الظُّلُمَاتِ" ووحّد "النور" لأن الظلمات لا تتعدّى والنور يتعدّى .

وحكى الثعلبيّ أن بعض أهل المعاني قال : "جعل" هنا زائدة ؛ والعرب تزيد "جعل" في الكلام كقول الشاعر :

وقد جَعلتُ أَرَى الاثنين أربعةً . . .

والواحد اثنين لَمّا هَدَّنِي الكِبَرُ

قال النحاس : جعل بمعنى خلق ، وإذا كانت بمعنى خلق لم تتعدّ إلا إلى مفعول واحد ، وقد تقدّم هذا المعنى ، ومحامل جعل في "البقرة" مستوفى .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ابتداء وخبر ، والمعنى : ثم الذين كفروا يجعلون لله عدلاً وشريكاً ، وهو الذي خلق هذه الأشياء وحده .

قال ابن عطية : ف "ثم" دالة على قبح فعل الكافرين ؛ لأن المعنى : أن خلقه السموات والأرض قد تقرّر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تَبيّن ، ثم بعد ذلك كله عدلوا

بربهم ؛ فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تَشتمني .

ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بثُمَّ ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(49/226)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

ومناسبة افتتاح هذه السورة لآخر المائدة أنه تعالى لما ذكر ما قالته النصارى في عيسى وأمه من كونهما إلهين من دون الله ، وجرت تلك المحاورة وذكر ثواب ما للصادقين ، وأعقب ذلك بأن له ملك السموات والأرض وما فيهنّ وأنه قادر على كل شيء ، ذكر بأن الحمد له المستغرق جميع المحامد فلا يمكن أن يثبت معه شريك في الإلهية فيحمد ، ثم نبه على العلة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية ، كون ملك السموات والأرض وما فيهنّ له بوصف ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ لأن الموجد للشيء المنفرد باختراعه له الاستيلاء والسلطنة عليه ، ولما تقدّم قولهم في عيسى وكفرهم بذلك وذكر الصادقين وجزاءهم أعقب ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ ﴿ يجعل الظلمات والنور ﴾ فكان ذلك مناسباً للكافر

والصادق ، وتقدّم تفسير ﴿ الحمد لله ﴾ في أول الفاتحة وتفسير ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ في قوله : ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ في البقرة وجعل هنا .

قال ابن عطية : لا يجوز غير ذلك وتأمل لم خصت السموات والأرض في البقرة وجعل هنا .

قال ابن عطية : لا يجوز غير ذلك وتأمل لم خصت السموات والأرض بخلق والظلمات والنور بجعل .

وقال الزمخشري ﴿ جعل ﴾ يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كقوله : ﴿ جعل الظلمات والنور ﴾ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير كقوله : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إناثاً ﴾ والفرق بين الخلق والجعل ، أن الخلق فيه معنى التقدير وفي الجعل معنى التصيير كإنشاء من شيء أو تصيير شيء شيئاً أو نقله من مكان إلى مكان ، ومن ذلك ﴿ وجعل منها زوجها ﴾ ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ لأن الظلمات من الأجرام المتكافئة والنور من النار ﴿ وجعلناكم أزواجاً ﴾ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؛ انتهى .

(50/226)

وما ذكره من أن جعل بمعنى صير في قوله : ﴿ وجعلوا الملائكة ﴾ لا يصح لأنهم لم يصيروهم إناثاً ، وإنما قال بعض النحويين : إنها بمعنى سمى وقول الطبري ﴿ جعل ﴾ هنا هي التي تتصرف في طرف الكلام كما تقول : جعلت أفعل كذا فكأنه قال : وجعل إظلامها وإنارتها تخليط ، لأن تلك من أفعال المقاربة تدخل على المبتدأ والخبر وهذه التي في الآية تعدت إلى مفعول واحد ، فهما متباينان معنى واستعمالاً وناسب عطف الصلة الثانية بمتعلقها من جمع الظلمات وإفراد النور على الصلة الأولى المتعلقة بجمع السموات وإفراد الأرض ، وتقدّم في البقرة الكلام على جمع السموات وإفراد الأرض وجمع الظلمات وإفراد النور واختلف في المراد هنا ب ﴿ الظلمات والنور ﴾ فقال قتادة والسدّي والجمهور : الليل والنهار .

وقال ابن عباس : الشرك والنفاق والكفر والنور الإسلام والإيمان والنبوّة واليقين .

وقال الحسن : الكفر والإيمان ، وهو تلخيص قول ابن عباس واستدل لهذا بآية البقرة .

وقال قتادة أيضاً : الجنة والنار خلق الجنة وأرواح المؤمنين من نور ، والنار وأرواح الكافرين من ظلمة ، فيوم القيامة يحكم لأرواح المؤمنين بالجنة لأنهم من النور خلقوا ، وللكافرين بالنار لأنهم من الظلمة خلقوا .

وقيل : الأجساد والأرواح .

وقيل : شهوات النفوس وأسرار القلوب .

وقيل : الجهل والعلم .

وقال مجاهد : المراد حقيقة الظلمة والنور ، لأن الزنادقة كانت تقول : الله يخلق الضوء وكل شيء حسن ، وإبليس يخلق الظلمة وكل شيء قبيح فأنزلت رداً عليهم .

وقال أبو عبد الله الرازي : فيه قولان أحدهما : أنهما الأمران المحسوسان وهذا هو الحقيقة .

والثاني ما نقل عن ابن عباس والحسن قبل وهو مجاز .

وقال الواحدي : يحمل على الحقيقة والمجاز معاً لا يمكن حمله عليهما انتهى ملخصاً .

(51/226)

وقال أبو عبد الله الرازي : ليست الظلمة عبارة عن كيفية وجودية مضادة للنور ، والدليل عليه أنه إذا جلس اثنان بقرب السراج وآخر بالبعد منه ، فالبعيد يرى القريب ويرى ذلك الهواء صافياً مضيئاً والقريب لا يرى البعيد .

ويرى ذلك الهواء مظلماً ، فلو كانت الظلمة كيفية وجودية لكانت حاصلة بالنسبة إلى هذين الشخصين المذكورين ، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن الظلمة ليست كيفية وجودية وإذا ثبت ذلك ، فنقول : عدم المحدثات متقدم على وجودها فالظلمة متقدمة في

التحقيق على النور فوجب تقديمها عليه في اللفظ ، ومما يقوي ذلك ما روي في الأخبار الإلهية أنه تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره .

وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقي عليهم النور ، فمن أصابه يومئذ من ذلك النور اهتدى ومن أخطأ ضل " . انتهى .

وقال أبو عبد الله بن أبي الفضل : قوله في الظلمة خطأ بل هي عبارة عن كيفية وجودية . مضادة للنور ، والدليل على ذلك قوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ والعدم لا يقال فيه جعل ﴿ ثم ﴾ كما تقرر في اللسان العربي أصلها للمهلة في الزمان .

وقال ابن عطية : ﴿ ثم ﴾ دالة على قبح فعل ﴿ الذين كفروا ﴾ لأن المعنى : أن خلقه ﴿ السموات والأرض ﴾ وغيرها قد تقرر وآياته قد سطعت وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ، ثم تشتمني أي : بعد وضوح هذا كله ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو ، لم يلزم التوبيخ كلزومه ب ﴿ ثم ﴾ انتهى .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : فما معنى ثم ؟ (قلت) : استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته وكذلك ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ استبعاد لأن تمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم ؛ انتهى .

وهذا الذي ذهب إليه ابن عطية من أن ﴿ ثم ﴾ للتوبيخ ، والزمخشري من أن ﴿ ثم ﴾ للاستبعاد ليس بصحيح لأن ﴿ ثم ﴾ لم توضع لذلك ، وإنما التوبيخ أو الاستبعاد مفهوم من سياق الكلام لا من مدلول ، ثم ولا أعلم أحداً من النحويين ذكر ذلك بل ﴿ ثم ﴾ هنا للمهلة في الزمان وهي عاطفة جملة اسمية على جملة اسمية ، أخبر تعالى بأن الحمد له ونبه على العلة المقتضية للحمد من جميع الناس وهي خلق السموات والأرض والظلمات والنور ثم أخبر أن الكافرين به ﴿ يعدلون ﴾ فلا يحمدونه .

وقال الزمخشري (فإن قلت) : علامَ عطف قوله : ﴿ ثم الذين كفروا ﴾ .

(قلت) : إما على قوله : ﴿ الحمد لله ﴾ على معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق ، لأنه ما خلقه إلا نعمة ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ فيكفرون نعمه وإما على قوله ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ على معنى أنه خلق ما خلق ، مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه ؛ انتهى .

(53/226)

وهذا الوجه الثاني الذي جوزه لا يجوز ، لأنه إذ ذاك يكون معطوفاً على الصلة والمعطوف على الصلة صلة ، فلو جعلت الجملة من قوله : ﴿ ثم الذين كفروا ﴾ صلة لم يصح هذا التركيب لأنه ليس فيها رابط يربط الصلة بالموصول ، إلا إن خرج على قولهم أبو سعيد الذي رويت عن الخدري يريد رويت عنه فيكون الظاهر قد وقع موقع المضمر ، فكأنه قيل : ﴿ ثم الذين كفروا به يعدلون ﴾ وهذا من الندور ، بحيث لا يقاس عليه ولا يحمل كتاب الله عليه مع ترجيح حمله على التركيب الصحيح الفصيح ، ﴿ والذين كفروا ﴾ الظاهر فيه العموم فيندرج فيه عبدة الأصنام وأهل الكتاب ، عبدت النصارى المسيح واليهود عزيراً واتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله والمجوس عبدوا النار والمانوية عبدوا النور ، ومن خصص الذين كفروا بالمانوية كقتادة أو بعبدة الأصنام أو بالمجوس حيث قالوا : الموت من أهرمن والحياة من الله ، أو بأهل الكتاب كابن أبي أبزى فلا يظهر له دليل على التخصيص والباء في ﴿ بربهم ﴾ يحتمل أن تتعلق ب ﴿ يعدلون ﴾ وتكون الباء بمعنى عن أي : يعدلون عنه إلى غيره مما لا يخلق ولا يقدر ، أو يكون المعنى يعدلون به غيره أي : يسوون به غيره في اتخاذه رباً وإلهاً وفي الخلق والإيجاد وعدل الشيء بالشيء التسوية به ، وفي الآية رد على القدرية في قولهم : الخير من الله والشر من الإنسان فعدلوا به غيره في الخلق والإيجاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات وَالأَرْضَ ﴾

أخبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد ، ونبه على أنه المستحق له على هذه النعم الجسام حمد أو لم يحمد ، ليكون حجة على الذين هم بربهم يعدلون ، وجمع السموات دون الأرض وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات ، وقدمها لشرفها وعلو مكانها وتقدم وجودها . ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ أنشأهما ، والفرق بين خلق وجعل الذي له مفعول واحد أن الخلق فيه معنى التقدير والجعل فيه معنى التضمن . ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنوية ، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها ، أو لأن المراد بالظلمة الضلال ، وبالنور الهدى والهدى واحد والضلال متعدد ، وتقديمها لتقدم الإِعدام على الملكات . ومن زعم أن الظلمة عرض يضاد النور احتج بهذه الآية ولم يعلم أن عدم الملكة كالعمى ليس صرف العدم حتى لا يتعلق به الجعل . ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ عطف على قوله الحمد لله على معنى أن الله سبحانه وتعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد ، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته ، ويكون بربهم تنبيهاً على أنه خلق هذه

الأشياء أسباباً لتكونهم وتعيشهم ، فمن حقه أن يحمد عليها ولا يكفر ، أو على قوله خلق على معنى أنه سبحانه وتعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه ، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه . ومعنى ثم : استبعاد عدولهم بعد هذا البيان ، والباء على الأول متعلقة بكفروا وصلة يعدلون محذوفة أي يعدلون عنه ليقع الإنكار على نفس الفعل ، وعلى الثاني متعلقة ب ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ والمعنى أن الكفار يعدلون بربهم الأوثان أي يسوونها به سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 387 . 390 ﴾

(55/226)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الحمد للَّهِ ﴾ تعليقُ الحمد المعرَّفِ بلام الحقيقة أولاً باسم الذات عليه يدور كافةُ ما يوجبه من صفات الكمال ، وإليه يؤُول جميعُ نعوتِ الجلال والجمال ، للإيذان بأنه عز وجل هو المستحِقُّ له بذاته ، لما مر من اقتضاء اختصاصِ الحقيقة به سبحانه ، لاقتصار جميعِ أفرادِها عليه بالطريق البرهاني ، ووصفه تعالى ثانياً بما يُنْبىء عن تفصيل بعض موجباته المنتظمةِ في سلك الإجمالِ من عظائم الآثارِ وجلائلِ الأفعال ، من قوله عز وجل : ﴿ الذى

خَلَقَ السموات والأرض ﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له واستقلالِه به باعتبار أفعالِه العِظام ، وآلائِه الجِسام أيضاً . وتخصيصُ خلقِهما بالذكر لاشتمالهما على جملة الآثار العُلوية والسُفلية وعامةِ الآلاءِ الجليةِ والخفية ، التي أجلُها نعمةُ الوجودِ الكافية في إيجاب حمدِه تعالى على كل موجود ، فكيف بما يتفرَّع عليها من فنون النعم الأنفسية والآفاقية ، المنوطِ بها مصالحُ العباد في المعاش والمعاد ؟ أي أنشأهما على ما هما عليه من النّمط الفائِق والطراز الرائق ، منطويَتَيْن من أنواع البدائعِ وأصنافِ الروائع على ما تتحيَّر فيه العقولُ والأفكار ، من تعاجيب العبر والآثار ، تبصرةً وذكرى لأولي الأبصار . وجمعُ السموات لظهور تعدّدِ طبقاتِها واختلاف آثارها وحركاتِها ، وتقديمُها لشرفها وعلوِّ مكانها وتقدُّمها وجوداً على الأرض كما هي .

(56/226)

﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ عطْفٌ على (خَلَق) مترتب عليه لكون جعلهما مسبوقاً بخلق مَنْشَئِهما ومحلّهما ، داخلٌ معه في حكم الإشعار بعِلَّة الحمد ، فكما أن خلقَ السموات والأرضِ وما بينهما لكونه أثراً عظيماً ونعمةً جليلة موجبٌ لاختصاص الحمد بخالقهما جل وعلا ، كذلك جعلُ الظلماتِ والنور لكونه أمراً خطيراً ونعمةً عظيمةً مقتضٍ

لاختصاصه بجاعلهما ، والجعلُ هو الإنشاءُ والإبداع كالخلق ، خلا أن ذلك مختصٌّ بالإنشاء التكوينيّ ، وفيه معنى التقدير والتسوية ، وهذا عام له كما في الآية الكريمة ، والتشريعيّ أيضا كما في قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ ﴾ الآية . وأياً ما كان فهو إنباءٌ عن ملابسةِ مفعولِه بشيءٍ آخرَ بأن يكونَ فيه ، أوْ له ، أوْ منه ، أو نحوُ ذلك ، ملابسةٌ مصحّحةٌ لأن يتوسّطَ بينهما شيءٌ من الظروف لغواً كان أو مستقراً ، لكن لا على أن يكونَ عُمدةً في الكلام بل قيداً فيه ، كما في قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واجعل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ الآية ، فإن كل واحد من هذه الظروف ، إما متعلقٌ بنفس الجعل أو بمحذوفٍ وقع حالاً من مفعولِه تقدّمت عليه لكونه نكرة ، وأياً ما كان فهو قيدٌ في الكلام حتى إذا اقتضى الحالُ وقوعَه عمدةً فيه يكون الجعلُ متعدياً إلى اثنين هو ثانيهما ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أصابعهم فِى ءاذَانِهِم ﴾ وربما يَشتبِهُ الأمرُ فيُظن أنه عمدةٌ فيه ، وهو في الحقيقة قيدٌ بأحد الوجهين كما سلف في قوله تعالى : ﴿ إِنّي جَاعِلٌ فِى الأرض خَلِيفَةً ﴾ حيث قيل : إن الظرف مفعولٌ ثان لجاعل ، وقد أشير هناك إلى أن الذي يقضي به الذوق السليم وتقتضيه جزالةُ النظم الكريم ، أنه متعلقٌ بجاعل أو بمحذوفٍ وقع حالاً من المفعول ، وأن المفعولَ الثانيَ هو خليفة ، وأن الأول محذوف على ما مر

تفصيله . وجمعُ الظلمات لظهور كثرةِ أسبابها ومَحالّها عند الناس ، ومشاهدتهم لها على التفصيل ، وتقديمُها على النور لتقدم الإعدام على المَلَكات مع ما فيه من رعاية حسن المقابلة بين القرينتين ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ معطوفٌ على الجملة السابقة الناطقةِ بما مر من موجبات اختصاصِه تعالى بالحمد ، المستدعي لاقتصار العبادة عليه ، كما حُقِّق في تفسير الفاتحة الكريمة ، مَسوقٌ لإنكار ما عليه الكفرة واستبعادِه من مخالفتهم لمضمونها واجترائِهم على ما تقضي ببُطلانه بديهةُ العقول . والمعنى أنه تعالى مختصٌّ باستحقاق الحمدِ والعبادةِ باعتبار ذاتِه وباعتبار ما فصَّل من شؤونه العظيمة الخاصة به ، الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ، ثم هؤلاء الكفرةُ لا يعملون بموجبه ويعدِلون به سبحانه ، أي يسوُّون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر الذي رأسُه الحمدُ ، مع كونِ كلِّ ما سواه مخلوقاً له غيرَ متّصفٍ بشيء من مبادىء الحمد ، وكلمة (ثم) لاستبعاد الشرك بعد وضوحِ ما ذُكر من الآيات التكوينية القاضية ببطلانه ، لا بعد بيانِه بالآياتِ التنزيلية ، والموصولُ عبارةٌ عن طائفةِ الكفار جارٍ مَجرى الاسمِ لهم ، من غير أن يُجعل كفرُهم بما يجب أن يُؤْمَنَ به كلاًّ أو بعضاً عنواناً للموضوع ، فإن ذلك مُخِلٌّ باستبعاد ما أُسند إليهم من الإشراك ، والباء متعلقة بيعدلون ، ووضعُ الربِّ موضعَ ضميرِه تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح ، والتقديم لمزيد الاهتمامِ والمسارعةِ إلى تحقيق مدارِ الإنكار

والاستبعادِ ، والمحافظةِ على الفواصل ، وتركُ المفعولِ لظهوره أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل بتنزيله منزلةَ اللازم ، إيذاناً بأنه المدارُ في الاستبعاد والاستنكار لا خصوصيةُ المفعول ، هذا هو الحقيقُ بجزالة التنزيل والخليقُ بفخامة شأنه الجليل . وأما جعلُ الباء صلةً لكفروا على أنّ (يعدلون) من

(58/226)

العدول ، والمعنى أن الله تعالى حقيقٌ بالحمد على ما خلقه نعمةً على العباد ، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمتَه فيردّه أن كفرهم به تعالى لا سيما باعتبار ربوبيته تعالى لهم ، أشدُّ شناعةً وأعظمُ جنايةً من عدولهم عن حمده عز وجل لتحققه ، مع إغفاله أيضاً ، فجعلُ أهون الشرَّين عمدةً في الكلام مقصودُ الإفادة ، وإخراجُ أعظمِهما مُخرجَ القيدِ المفروغِ عنه مما لا عهدَ له في الكلام السديد ، فكيف بالنظم التنزيلي ؟ هذا وقد قيل : إنه معطوف على (خلَقَ السموات) والمعنى أنه تعالى خلق ما خلق مما لا يقدِر عليه أحدٌ سواه ، ثم هم يعدلون به سبحانه ما لا يقدِر على شيءٍ منه ، لكن لا على قصد أنه صلةٌ مستقلة ليكونَ بمنزلة أن يقالَ : الحمدُ لله الذي عدَلوا به ، بل على أنه داخلٌ تحت الصلة بحيث يكون الكلُّ صلةً واحدة ، كأنه قيل : الحمد لله الذي كان منه تلك النعمُ العظامُ ، ثم

من الكفرة الكفّرُ ، وأنت خبير بأن ما ينتظِمُ في سلك الصلة المنبئةِ عن موجبات حمده عز وجل حقُّه أن يكون له دخلٌ في ذلك الإنباء ولو في الجملة ، ولا ريب في أن كفرهم بمعزلٍ منه ، وادعاءُ أن له دَخْلاً فيه لدلالته على كمال الجود ، كأنه قيل : الحمد لله الذي أنعم بمثل هذه النعمِ العِظام على من لا يحمَده ، تعسّفٌ لا يساعده النظام ، وتعكيسٌ يأباه المقام ، كيف لا ومَساقُ النظم الكريم كما تُفصِحُ عنه الآياتُ الآتية تشنيعُ الكفرة وتوبيخُهم ببيانِ غايةِ إساءتِهم مع نهاية إحسانه تعالى إليهم ، لا بيانِ نهايةِ إحسانِه تعالى إليهم مع غاية إساءتهم في حقه تعالى ، كما يقتضيه الادعاءُ المذكور ، وبهذا اتضح أنه لا سبيلَ إلى جعل المعطوف من روادف المعطوف عليه ، لما أن حقَّ الصلة أن تكون غيرَ مقصودةِ الإفادة ، فما ظنُّك بما هو من روادفها ؟ وقد عرفت أن المعطوف هو الذي سيق له الكلام فتأمل وكن على الحق المبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(59/226)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾

﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ جملة خبرية أو إنشائية .

وعين بعضهم الأول لما في حملها على الإنشاء من إخراج الكلام عن معناه الوضعي من غير ضرورة بل لما يلزم على كونها إنشائية من انتفاء الاتصاف بالجميل قبل حمد الحامد ضرورة أن الإنشاء يقارن معناه لفظه في الوجود .

وآخرون الثاني لأنه لو كانت جملة الحمد إخباراً يلزم أن لا يقال لقائل الحمد لله حامد إذ لا يصاغ للمخبر عن غيره لغة من متعلق إخباره اسم قطعاً فلا يقال لقائل زيد له القيام قائم واللازم باطل فيبطل الملزوم .

ولا يلزم هذا على تقدير كونها إنشائية فإن الإنشاء يشتق منه اسم فاعل صفة للمتكلم به فيقال لمن قال : بعت بائع .

واعترض بأنه لا يلزم من كل إنشاء في ذلك وإلا ليقيل لقائل : ضرب ضارب والله تعالى شأنه القائل ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أولادهن ﴾ [البقرة : 233] مرضع بل إنما يكون ذلك إذا كان إنشاء لحال من أحوال المتكلم كما في صيغ العقود ولا فرق حينئذ بينه وبين الخبر فيما ذكر ، والذي عليه المحققون جواز الاعتبارين في هذه الجملة .

وأجابوا عما يلزم كلاً من المحذور .

نعم رجح هنا اعتبار الخبرية لما أن السورة نزلت لبيان التوحيد وردع الكفرة والإعلام بمضمونها على وجه الخبرية يناسب المقام وجعلها لإنشاء الثناء لا يناسبه ، وقيل : إن

اعتبار خبريتها هنا ليصح عطف ما بعد ثم الآتي عليها .

ومن اعتبر الإنشائية ولم يجوز عطف الإنشاء على الإخبار جعل العطف على صلة الموصول أو على الجملة الإنشائية بجعل المعطوف لإنشاء الاستيعاد والتعجب .

ولا يخفى ما في ذلك من التكلف والخروج عن الظاهر وفي تعليق الحمد أولاً : باسم الذات ووصفه تعالى ثانياً : بما وصف به سبحانه تنبيه على تحقق الاستحقاقين تحقق استحقاقه عز وجل الحمد باعتبار ذاته جل شأنه وتحقق استحقاقه سبحانه وتعالى باعتبار الإنعام المؤذن به ما في حيز الموصول الواقع صفة .

ومعنى استحقاقه سبحانه وتعالى الذاتي عند بعض استحقاقه جل وعلا الحمد بجميع أوصافه وأفعاله وهو معنى قولهم : إنه تعالى يستحق العبادة لذاته وأنكر هذا صحة توجه التعظيم والعبادة إلى الذات من حيث هي .

وقد صرح الإمام في "شرح الإشارة" عند ذكر مقامات العارفين أن الناس في العبادة ثلاث طبقات .

(60/226)

فالأولى : في الكمال والشرف الذين يعبدونه سبحانه وتعالى لذاته لا لشيء آخر .

والثانية : وهي التي تلي الأولى في الكمال الذين يعبدونه لصفة من صفاته وهي كونه تعالى مستحقاً للعبادة .

والثالثة : وهي آخر درجات المحققين الذين يعبدونه لتكمل نفوسهم في الانتساب إليه .

ولا يشكل تصور تعظيم الذات من حيث هي لأنه كما قال الشهاب لو وقع ذلك ابتداء قبل التعقل بوجوه الكمال كان مشكلاً أما بعد معرفة المحمود جل جلاله بسمات الجمال وتصوره بأقصى صفات الكمال فلا بدع أن يتوجه إلى تمجيده تعالى وتحميده عز شأنه مرة أخرى بقطع النظر عما سوى الذات بعد الصعود بدرجات المشاهدات .

ولذا قال أهل الظاهر

: صفاته لم تزد معرفة . . .

لكنها لذة ذكرناها

فما بالك بالعارفين الغارقين في بحار العرفان وهم القوم كل القوم .

والذي حققه السالكوتي وجرينا عليه في الفاتحة أن الاستحقاق الذاتي ما لا يلاحظ معه خصوصية صفة حتى الجميع لا ما يكون الذات البحت مستحقاً له فإن استحقاق الحمد ليس إلا على الجميل .

وسمي ذاتياً لملاحظة الذات فيه من غير اعتبار خصوصية صفة أو لدلالة اسم الذات

عليه أو لأنه لما لم يكن مسنداً إلى صفة من الصفات المخصوصة كان مسنداً إلى الذات .

وذكر بعض محققي المتأخرين كلاماً في هذا المقام رد به فيما عنده على كثير من العلماء الأعلام .

(61/226)

وحاصله أن اللام الجارة في "لله" لمطلق الاختصاص دون الاختصاص القصري على التعيين بدليل أنهم قالوا في مثل ﴿ له الحمد ﴾ [سبأ : 1] إن التقديم للاختصاص القصري فلو أن اللام الجارة تفيده أيضاً لما بقي فرق بين الحمد لله وله الحمد غير كون الثاني أوكد من الأول في إفادة القصر والمصرح به التفرقة بإفادة أحدهما القصر دون الآخر وأن الاختصاصات على أنحاء وتعيين بعضها موكول إلى العلة التي يترتب عليها الحكم وتجعل محموداً عليه غالباً وغيرها من القرائن فإذا رأيت الحكم على أوصافه تعالى المختصة به سبحانه وتعالى وجب كون الحمد مقصوراً عليه تعالى فيحمل الحكم المعلل على القصر ليطابق المعلول علته ومع ذلك إذا كانت الأوصاف المختصة به عز وجل مما يدل على كونه عز شأنه منعماً على عباده وجب كون الحمد حقاً لله تعالى واجباً على عباده سبحانه فيحمل الحكم المعلل على الاستيجاب للتطابق أيضاً وإذا لم يعلل الحكم بشيء أو قطع النظر

عن العلة التي رتب عليها الحكم فإنما يثبت في الحكم أدنى مراتب الاختصاص الذي هو كونه تعالى حقيقاً بالحمد مجرداً عن القصر والاستيجاب .

ويعضد ما أشير إليه اختلاف عبارات العلامة البيضاوي في بيان مدلولات جمل الحمد وأن المراد من الاستيجاب الذي جعله بعض النحاة من معاني اللام ما هو بمنزلة مطلق الاختصاص الذي قرره لا المعنى الذي رمز إليه فعلى هذا يكون مفهوم جملة ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ فيما نحن فيه أنه تعالى حقيق بالحمد ولا دلالة فيها من حيث هي هي مع قطع النظر عن المحمود عليه الذي هو علة الحكم على قصر الحقيقية بالحمد عليه سبحانه وتعالى ولا على بلوغها حد الاستيجاب ، نعم في ترتب الحكم على ما في حيز الصفة تنبيه على كون الحمد حقاً لله تعالى واجباً على عباده مختصاً به عز شأنه مقصوراً عليه سبحانه حيث إن ترتب الحكم كما قالوا على الوصف يشعر بمنطوقه بعلية الوصف للحكم وبمفهومه بانتفاء الحكم عمن ينتفي عنه الوصف .

(62/226)

ثم قال : وبالجملة إن جملة ﴿ الحمد الله ﴾ مدعى ومدلول .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ الخ دليل وعلة وليس هناك إلا حمد واحد معلل

بما في حيز الوصف لا حمد معلل بالذات المستجمع لجميع الصفات أو بالذات البحت أولاً على ما قيل وبالوصف ثانياً حتى يكون بمثابة حمدين باعتبار العلتين لأن لفظ الجلالة علم شخصي ولا دلالة له على الأوصاف بإحدى الدلالات الثلاث فكيف يكون محموداً عليه وعلة لاستحقاق الحمد ، ولذلك لا يكاد يقع الحكم باستحقاق الحمد إلا معللاً بالأمور الواضحة الدالة على صفاته سبحانه وتعالى الجليلة وأفعاله الجميلة ولا يكتفي باسم الذات اللهم إلا في تسبيحات المؤمنين وتحميداتهم لا في محاجة المنكرين التي نحن بصدد بيانها ، وأيضاً اقتضاء الذات البحت من حيث هو الذات ماذا يفيد في الاحتجاج على القوم الذين عامتهم لا يبصرون ولا يسمعون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل .

وأما ما يقال : إنما قيل ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ بذكر اسم الذات المستجمع لجميع الصفات ولم يقل للعالم أو للقادر إلى غير ذلك من الأسماء الدالة على الجلال أو الإكرام لئلا يتوهم اختصاص الحمد بوصف دون وصف فكلام مبني على ما ظهر لك فساده من كون الذات محموداً عليه .

وقد يقال : إن ذكر اسم الذات ليس إلا لأن المشركين المحجوبين الجهال لا يعرفونه تعالى ولا يذكرونه فيما بينهم ولا عند المحاجة إلا باسمه سبحانه العليم لا بالصفات كما يدل على ذلك أنه تحكى أجوبتهم بذكر ذلك الاسم الشريف في عامة السؤالات إلا ما قل حيث كان جوابهم فيه بغير اسم الذات كقوله تعالى : ﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ [الزخرف :

9] على أن البعض جعل هذا لازم مقولهم .

وما يدل عليه إجمالاً أقيم مقامه فكأنهم قالوا : الله كما حكى عنهم في مواضع وحينئذ فكأنه قيل : الإله الذي يعرفونه ويذكرونه بهذا الاسم هو المستحق للحمد لكونه خالق السموات والأرض ولكونه كذا وكذا .

(63/226)

وإذا عرفت أن الذات لا يلائم أن يكون محموداً عليه وإنما الحقيق لأن يكون محموداً عليه هو الصفات وأن ما يترتب عليه الحمد في كل موضع بعض الصفات بحسب اقتضاء المقام لا جميع الصفات عرفت أن من ادعى أن ترتيب الحمد على بعض الصفات دون بعض يوهم اختصاص استحقاق الحمد بوصف دون وصف يلزم عليه أن يقع في الورطة التي فر منها كما لا يخفى .

فالحق أن المحمود عليه هو الوصف الذي رتب عليه استحقاق الحمد وأن تخصيص بعض الأوصاف لأن يترتب عليه استحقاق الحمد في بعض المواقع إنما هو باقتضاء ذلك المقام إياه

فإن قلت : فما الرأي في الحمد باعتبار الذات البحت أو باعتبار استجماعه جميع الصفات على ما قيل : هل له وجه أم لا ؟ قلت : أما كون الذات الصرف محموداً عليه ،

وكذا كون الذات محموداً عليه باستجماعه جميع الصفات في أمثال هذه المواضع التي نحن فيها فلا وجه له .

(64/226)

وأما ما ذكروه في شرح خطب بعض الكتب من أن الحمد باعتبار الذات المستجمع لجميع الصفات فلعل منشأه هو أن الحمد لما اقتضى وصفاً جميلاً صالحاً لأن يترتب عليه الحكم باستحقاق الحمد ويكون محموداً عليه فحيث لم يذكر معه وصف كذلك ولم يدل عليه قرينة بل اكتفى بذكر الذات المتصف بجميع الصفات الجميلة ثبت اعتبار الوصف الجميل هناك اقتضاء ، ثم من أجل أن تعيين البعض بالاعتبار دون البعض الآخر لا يخلو عن لزوم الترجيح بلا مرجح يلزم اعتبار الصفات الجميلة برمتها فيكون الحمد باعتبار جميعها وحيث ذكر معه وصف جميل صالح لأن يكون محموداً عليه ودل عليه بعينه قرينة استغنى عن ذلك الاعتبار لأن المصير إليه كان عن ضرورة ولا ضرورة حينئذ كما لا يخفى ، ومن لم يهتد إلى الفرق بين ما وقع في القرآن المجيد لمقاصد وما وقع في خطب الكتب لمجرد التيمن ولا إلى الفرق بين ما ذكر فيه المحمود عليه صريحاً أو دلت عليه بعينه قرينة وبين ما لم يكن كذلك

ركب متن عمياء وخبط خبط عشواء فخلط مقتضيات بعض المقامات ببعض ولم يدر أن كلام الله تعالى على أي شرف وكلام غيره في أي واد .

(65/226)

وقصارى الكلام أن ترتب الحكم الذي تضمنته جملة ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ هنا على الوصف المختص به سبحانه من خلق السموات والأرض وما عطف عليه يفيد الاختصاص القصري على الوجه الذي تقدم ، ويشير إلى ذلك كلام العلامة البيضاوي في تفسيره الآية لمن أمعن النظر إلا أن ما ذكره عليه الرحمة في أول سبأ من الفرق بين ﴿ الحمد للَّهِ الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [سبأ : 1] وبين ﴿ وَلَهُ الحمد فِى الآخرة ﴾ [سبأ : 1] مما محصله أن جملة ﴿ لَهُ الحمد ﴾ جيء بها بتقديم الصلة ليفيد القصر لكون الإنعام بنعم الآخرة مختصاً به تعالى بخلاف جملة ﴿ الحمد للَّهِ الذى لَهُ ﴾ الخ فإنها لم يجيء بها بتقديم الصلة حتى لا يفيد القصد لعدم كون الإنعام مختصاً به تعالى مطلقاً بحيث لا مدخل فيه للغير إذ يكون بتوسط الغير فيستحق ذلك لغير الحمد بنوع استحقاق بسبب وساطته آب عنه ، إذ حاصل ما ذكره في تلك السورة هو أنه لا قصر في جملة ﴿ الحمد للَّهِ الذى لَهُ ﴾ الخ بخلاف جملة ﴿ لَهُ الحمد ﴾ ، وحاصل ما أشار إليه في هذه وكذا في الفاتحة هو أن جملة

﴿ الحمد للَّهِ ﴾ إذا رتب على الأوصاف المختصة كالخلق والجعل المذكورين مفيد للقصر أيضاً غاية ما في البال أن طريق إفادة القصر في البابين متغاير ، ففي إحداهن تقديم الصلة وفي الآخرى مفهوم العلة فتدبر ذاك والله تعالى يتولى هداك .

وجمع سبحانه السموات وأفرد الأرض مع أنها على ما تقتضيه النصوص المتعددة متعددة أيضاً والمؤاخاة بين الألفاظ من محسنات الكلام فإذا جمع أحد المتقابلين أو نحوهما ينبغي أن يجمع الآخر عندهم .

ولذا عيب على أبي نواس قوله

: ومالك فاعلمن فينا مقالا . . .

إذا استكملت آجالاً ورزقاً

حيث جمع وأفرد إذ جمع لنكتة سوغت العدول عن ذلك الأصل ، وهي الإشارة إلى تفاوتهما في الشرف فجمع الأشرف اعتناء بسائر أفراده وأفرد غير الأشرف .

(66/226)

وأشرفية السماء لأنها محل الملائكة المقدسين على تفاوت مراتبهم وقبلة الدعاء ومعراج الأرواح الطاهرة ولعظمها وإحاطتها بالأرض على القول بكريتها الذاهب إليه بعض منا

وعظم آيات الله فيها ولأنها لم يعص الله تعالى فيها أصلاً وفيها الجنة التي هي مقر الأحباب ولغير ذلك .

والأرض وإن كانت دار تكليف ومحل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فليس ذلك إلا للتلبيغ وكسب ما يجعلهم متأهلين للإقامة في حضيرة القدس لأنها ليس بدار قرار ، وخلق أبدان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منها ودفنهم فيها مع كون أرواحهم التي هي منشأ الشرف ليست منها ولا تدفن فيها لا يدل على أكثر من شرفها ، وأما أنه يدل على أشرفيتها فلا يكاد يسلم لأحد ، وكذا كون الله تعالى وصف بقاعاً منها بالبركة لا يدل على أكثر مما ذكرنا ، ولهذا الشرف أيضاً قدمت على الأرض في الذكر ، وقيل : إن جمع السموات وإفراد الأرض لأن السماء جارية مجرى الفاعل والأرض جارية مجرى القابل فلو كانت السماء واحدة لتشابه الأثر وهو يخل بمصالح هذا العالم ، وأما الأرض فهي قابلة والقابل الواحد كاف في القبول .

وحاصله إن اختلاف الآثار دل على تعدد السماء دلالة عقلية والأرض وإن كانت متعددة لكن لا دليل عليه من جهة العقل فلذلك جمعها دون الأرض .

واعترض بأنه على ما فيه ربما يقتضي العكس ، وقال بعضهم : إنه لا تعدد حقيقياً في الأرض ، ولهذا لم تجمع ، وأما التعدد الوارد في بعض الأخبار نحو قوله صلى الله عليه وسلم : " من غصب قيد شبر من أرض طوقه إلى سبع أرضين " فمحمول على التعدد باعتبار

الأقاليم السبعة ، وكذا يحمل ما أخرجه أبو الشيخ والترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : " هل تدرون ما هذه هذه أرض هل تدرون ما تحتها ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم قال : أرض أخرى وبينهما مسيرة خمسمائة عام حتى عد سبع أرضين بين كل أرضين خمسمائة عام "

(67/226)

والتحتية لا تأبى ذلك فإن الأرض كالسماء كروية ، وقد يقال للشيء إذا كان بعد آخر هو تحته ، والمراد من قوله صلى الله عليه وسلم : " بينهما خمسمائة عام أن القوس من إحدى السموات المسامت لأول إقليم وأول الآخر خمسمائة عام " ولا شك أن ذلك قد يزيد على هذا المقدار وكثيراً ما يقصد من العدد التكثير لا الكم المعين .

وقوله تعالى : ﴿ الله الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : 12] محمول على المماثلة في السبعة الموجودة في الأقاليم لا على التعدد الحقيقي ، ولا يخفى أن هذا من التكلف الذي لم يدع إليه سوى اتهام قدرة الله تعالى وعجزه سبحانه عن أن يخلق سبع أرضين طبق ما نطق به ظاهر النص الوارد عن حضرة أفصح من نطق بالضاد وأزال بزلال كلامه الكريم أوام كل صاد ، وحمل المماثلة في الآية أيضاً على المماثلة التي زعمها

صاحب القيل خلاف الظاهر .

ولعل النوبة تفضي إن شاء الله تعالى إلى تتمة الكلام في هذا المقام .

وذكر بعض المحققين في وجه تقديم السموات على الأرض تقدم خلقها على خلق الأرض ولا يخفى أنه قول لبعضهم .

وعن الشيخ الأكبر قدس سره أن خلق المحدد سابق على خلق الأرض وخلق باقي الأفلاك بعد خلق الأرض ، وقد تقدم بعض الكلام في هذا المقام .

وتخصيص خلقهما بالذكر لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية وعامة الآلاء الجلية والخفية التي أجلها نعمة الوجود الكافية في إيجاب حمده تعالى على كل موجود فكيف بما يتفرع عليها من صنوف النعم الآفاقية والأنفسية المنوط بها مصالح العباد في المعاش والمعاد .

والمراد بالخلق الإنشاء والإيجاد أي أوجد السموات والأرض وأنشأهما على ما هما عليه مما فيه آيات للمتفكرين .

(68/226)

﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ عطف على ﴿ خَلَقَ السموات ﴾ داخل معه في حكم الإشعار بعلة الحمد وإن كان مترتباً عليه لأن جعلهما مسبوق بخلق منشئهما ومحلهما كما قيل ، والجعل كما قال شيخ الإسلام الإنشاء والإبداع كالخلق خلا إن ذلك مختص بالإنشاء التكويني ، وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما في الآية وللتشريعي أيضاً كما في قوله سبحانه : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ ﴾ [المائدة : 301] وأياً ما كان ففيه إنباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر بأن يكون فيه أو له أو منه أو نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شيء من الظروف لغواً كان أو مستقراً لكن لا على أن يكون عمدة في الكلام بل قيداً فيه ، وقيل : "الفرق بين الجعل والخلق أن الخلق فيه معنى التقدير والجعل فيه معنى التضمين" أي كونه محصلاً من آخر كأنه في ضمنه ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنوية .

واعترض بأن الثنوية يزعمون أن النور والظلمة جسمان قديمان سميعان بصيران أولهما خالق الخير والثاني خالق الشر فهما حينئذٍ ليسا بالمعنى الحقيقي المتعارف فمدعاهم الفاسد يبطل بمجرد هذا ، وأيضاً أن الرد يحصل لكونهما محدثين بقطع النظر عما اعتبر في مفهوم الجعل ولو أتى بالخلق بدله حصل المقصود منه ، وأيضاً أن الجعل المتعدي لواحد كما فيما نحن فيه لا يقتضي كونه غير قائم بنفسه ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأَنعامِ بُيُوتًا ﴾ [النحل : 80] ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ [الفرقان : 53] إلى

غير ذلك .

وأجيب بما لا يخلو عن نظر .

وجمع الظلمات وأفرد النور ليحسن التقابل مع قوله سبحانه : ﴿ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ أو لما قدمناه في البقرة .

(69/226)

وقيل : لأن المراد بالظلمة الضلال وهو متعدد وبالنور الهدى وهو واحد ، ويدل على التعدد والوحدة قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 153] واختار غير واحد حمل الظلمة والنور هنا على الأمرين المحسوسين وإن جاء في الكتاب الكريم بمعنى الهدى والضلال وكان له هنا وجه أيضاً لأن الأصل حمل اللفظ على حقيقته وقد أمكن مع وجود ما يلائمه ويقتضيه اقتضاءً ظاهراً حيث قرنا بالسموات والأرض .

وعن قتادة أن المراد بهما الجنة والنار ولا يخفى بعده .

وللعلماء في النور والظلمة كلام طويل وبحث عريض حتى أنهم ألفوا في ذلك الرسائل ولم يتركوا بعد مقالاً لقائل .

وذكر الإمام أن النور كيفية هي كمال بذاتها للشفاف من حيث هو شفاف أو الكيفية التي لا يتوقف الإبصار بها على الإبصار بشيء آخر ، وأن من الناس من زعم أنه أجسام صغار تنفصل عن المضيء وتتصل بالمستضيء وهو باطل ، أما أولاً : فلأن كونها أنواراً إما أن يكون هو عين كونها أجساماً وإما أن يكون مغايراً لها والأول باطل لأن المفهوم من النورية مغاير للمفهوم من الجسمية ولذلك يعقل جسم مظلم ولا يعقل نور مظلم ، وأما إن قيل : إنها أجسام حاملة لتلك الكيفية تنفصل عن المضيء وتتصل بالمستضيء فهو أيضاً باطل لأن تلك الأجسام الموصوفة بتلك الكيفيات إما أن تكون محسوسة أو لا فإن كان الأول لم يكن الضوء محسوساً وإن كان الثاني كانت ساترة لما تحتها ويجب أنها كلما ازدادت اجتماعاً ازدادت ستراً لكن الأمر بالعكس ، وأما ثانياً : فلأن الشعاع لو كان جسماً لكانت حركته بالطبع إلى جهة واحدة لكن النور مما يقع على كل جسم في كل جهة ، وأما ثالثاً : فلأن النور إذا دخل من كوة ثم سددناها دفعة فتلك الأجزاء النورانية إما أن تبقى أو لا فإن بقيت فإما أن تبقى في البيت وإما أن تخرج فإن قيل : إنها خرجت عن الكوة قبل السد فهو محال وإن قيل : إنها عدمت فهو أيضاً باطل فكيف يمكن أن يحكم أن جسماً لما تخلل بين جسمين

عدم أحدهما فإذن هي باقية في البيت ولا شك في زوال نوريتها عنها .

وهذا هو الذي نقول من أن مقابلة المستضيء سبب لحدوث تلك الكيفية وإذا ثبت ذلك في بعض الأجسام ثبت في الكل .

وأما رابعاً : فلأن الشمس إذا طلعت من الأفق يستبين وجه الأرض كله دفعة ومن البعيد أن تنتقل تلك الأجزاء من الفلك الرابع إلى وجه الأرض في تلك اللحظة اللطيفة سيما والخرق على الفلك محال عندهم ، واحتج المخالف بأن الشعاع متحرك وكل متحرك جسم فالشعاع جسم (بيان الصغرى بثلاثة أوجه) ، الأول : أن الشعاع منحدر من ذيه والمنحدر متحرك بالبديهة .

والثاني : أنه يتحرك وينتقل بحركة المضيء .

(71/226)

والثالث : أنه قد ينعكس عما يلقاه إلى غيره والانعكاس حركة والجواب : أن قولهم : الشعاع منحدر فهو باطل وإلا لرأيناه في وسط المسافة بل الشعاع يحدث في المقابل القابل دفعة ولما كان حدوثه من شيء عال توهم أنه ينزل .

وأما حديث الانتقال فيرد عليه أن الظل ينتقل مع أنه ليس بجسم فالحق أنه كيفية حادثة في

المقابل ، وعند زوال المحاذاة عنه إلى قابل آخر يبطل النور عنه ويحدث في ذلك الآخر ، وكذلك القول في الانعكاس فإن المتوسط شرط لأن يحدث الشعاع من المضيء في ذلك الجسم .

ثم القائلون بأنه كيفية اختلفوا فمنهم من زعم أنه عبارة عن ظهور اللون فقط وزعموا أن الظهور المطلق هو الضوء ، والخفاء المطلق هو الظلمة ، والمتوسط بين الأمرين هو الظل وتختلف مراتبه بحسب مراتب القرب والبعد عن الطرفين وأطالوا الكلام في تقرير ذلك بما لا يجدي نفعاً ولا يأبى أن يكون الضوء كيفية وجودية زائدة على ذات اللون كما يدل عليه أمور .

الأول : أن ظهور اللون إشارة إلى تجدد أمر فهو إما أن يكون اللون أو صفة غير نسبية أو صفة نسبية ، والأول : باطل لأنه لا يخلو إما أن يجعل النور عبارة عن تجدد اللون أو عن اللون المتجدد والأول يقتضي أن لا يكون الشيء مستنيراً إلا أن تجدده .

والثاني : يوجب أن يكون الضوء نفس اللون فلا يبقى لقولهم الضوء ظهور اللون معنى ، وإن جعلوا الضوء كيفية ثبوتية زائدة على ذات اللون وسموه بالظهور عاد النزاع لفظياً .

وإن زعموا أن ذلك الظهور تجدد حالة نسبية فذاك باطل لأن الضوء أمر غير نسبي فلا يمكن أن يفسر بالحالة النسبية .

الثاني : أن البياض قد يكون مضيئاً ومشرقاً وكذلك السواد فإن الضوء ثابت لهما جميعاً

فلو كان كون كل منهما مضيئاً نفس ذاته لزم أن يكون الضوء بعضه مضاداً للبعض وهو محال إذ الضوء لا يقابله إلا الظلمة .

(72/226)

الثالث : أن اللون يوجد من غير الضوء فإن السواد مثلاً قد لا يكون مضيئاً وكذلك الضوء قد يوجد بدون اللون مثل الماء والبلور إذا كانا في ظلمة ووقع الضوء عليه وحده فإنه حينئذٍ يرى ضوؤه فذلك ضوء وليس بلون فإذا وجد كل منهما دون الآخر فلا بد من التغاير .

الرابع : أن المضيء للون تارة ينعكس منه الضوء وحده إلى غيره وتارة ينعكس منه الضوء واللون وذلك إذا كان قوياً فيهما جميعاً فلو كان الضوء ظهور اللون لاستحال أن يفيد غيره بريقاً ساذجاً ، وكون هذا البريق عبارة عن إظهار لون ذلك القابل يرد عليه أنه لماذا إذا اشتد لون الجسم المنعكس منه وضوؤه أخفى لون المنعكس إليه وأبطله وأعطاه لون نفسه إلى غير ذلك من الأدلة ، وفرق الإمام بين النور والضوء والشعاع والبريق بأن الأجسام إذا صارت ظاهرة بالفعل مستنيرة فإن ذلك الظهور كيفية ثابتة فيها منبسطة عليها من غير أن يقال : إنها سواد أو بياض أو حمرة أو صفرة ، والآخر اللمعان وهو الذي يترقرق على الأجسام ويستر لونها وكأنه شيء يفيض منها وكل واحد من القسمين إما أن يكون من ذاته

أو من غيره فالظهور للشيء الذي من ذاته كما للشمس والنار يسمى ضوءاً والظهور الذي للشيء من غيره يسمى نوراً ، والترقرق الذي للشيء من ذاته كما للشمس يسمى شعاعاً . والذي يكون للشيء من غيره كما للمرآة يسمى بريقاً .

وقد تقدم لك الكلام في الفرق بين النور والضوء في سورة البقرة أيضاً ، وكذا الكلام في الظلمة والنسبة بينها وبين النور ، والمشهور أن بينهما تقابل العدم والملكة ، ولهذا قدمت الظلمات على النور في الآية الكريمة فقد صرحوا بأن الإعدام مقدمة على الملكات .

(73/226)

وتحقيق ذلك على ما ذكره بعض المحققين أنه إذا تقابل شيئان أحدهما وجودي فقط فإن اعتبر التقابل بالنسبة إلى موضوع قابل للأمر الوجودي إما بحسب شخصه أو بحسب نوعه أو بحسب جنسه القريب أو البعيد فهما العدم والملكة الحقيقيان أو بحسب الوقت الذي يمكن حصوله فيه فهما العدم والملكة المشهوران ، وإن لم يعتبر فيهما ذلك فهما السلب والإيجاب ، فالعدم المشهوري في العمى والبصر هو ارتفاع الشيء الوجودي كالقدرة على الإبصار مع ما ينشأ من المادة المهيئة لقبوله في الوقت الذي من شأنها ذلك فيه كما حقق في "حكمة العين وشرحها" ، فإذا تحقق أن كل قابل لأمر وجودي في ابتداء قابليته واستعداده

متصف بذلك العدم قبل وجود ذلك الأمر بالفعل تبين أن كل ملكة مسبوقة بعدمها لأن وجود تلك الصفة بالقوة وهو متقدم على وجودها بالفعل .

وقال المولى ميرزاجان : لا بد في تقابل العدم والملكة أن يؤخذ في مفهوم العدمي كون المحل قابلاً للوجودي ، ولا يكفي نسبة المحل القابل للوجودي من غير أن يعتبر في مفهوم العدمي كون المحل قابلاً له ، ولذا صرحوا بأن تقابل العدم والوجود تقابل الإيجاب والسلب .

قال في "الشفاء" : العمى هو عدم البصر بالفعل مع وجوده بالقوة ، وهذا مما لا بد منه في معناه المشهور انتهى ، وبه يندفع بعض الشكوك التي عرضت لبعض الناظرين في هذا المقام ، وقيل في تقدم عدم الملكة على الوجود : إن عدم الملكة عدم مخصوص والعدم المطلق في ضمنه وهو متقدم على الوجود في سائر المخلوقات .

ولذا قال الإمام : إنما قدم الظلمات على النور لأن عدم المحدثات متقدم على وجودها كما جاء في حديث رواه أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره ، وفي أخرى ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه نوره اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك جف القلم بما هو كائن .

(74/226)

وعليه الظلمة في الخبر بمعنى العدم والنور بمعنى الوجود ولا يلائمه سياق الحديث ، والظاهر ما قيل الظلمة عدم الهداية وظلمة الطبيعة والنور الهداية ، ومن المتكلمين من زعم أن الظلمة عرض يضاد النور واحتج لذلك بهذه الآية ولم يعلم أن عدم الملكة كالعمى ليس صرف العدم حتى لا يتعلق به الجعل ، وتحقيقه على ما قيل أن الجعل هنا ليس بمعنى الخلق والإيجاد بل تضمين شيء شيئاً وتصييره قائماً به قيام المظروف بالظروف أو الصفة بالموصوف والعدم من الثاني فصح تعلق الجعل به وإن لم يكن موجوداً عينياً ، وفي "الطوالع" أن العدم المتجدد يجوز أن يكون بفعل الفاعل كالوجود الحادث فافهم ذاك والله تعالى يتولى هداك .

(75/226)

﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ فيه من العدل بمعنى العدول أو منه بمعنى التسوية ، والكفر يحتمل أن يكون بمعنى الشرك المقابل للإيمان أو بمعنى كفران النعمة ، والباء يحتمل أن تتعلق بكفروا وأن تتعلق بيعدلون ، وعلى التقادير فالجملة إما إنشائية لإنشاء الاستبعاد أو إخبارية واردة للإخبار عن شناعة ما هم عليه ، ثم هي إما معطوفة على جملة ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ إنشاءً أو إخباراً أو على قوله سبحانه : ﴿ خَلَقَ

﴿ صلة ﴿ الذى ﴾ أو على ﴿ الظلمات ﴾ مفعول ﴿ جَعَلَ ﴾ فالاحتمالات ترتقي إلى أربعة وستين حاصلة من ضرب ستة عشر احتمالات المعطوف في أربعة أعني احتمالات المعطوف عليه وإذا لوحظ هناك أمور أخر مشهورة بلغت الاحتمالات أربعة آلاف وزيادة ولكن ليس لنا إلى هذه الملاحظة كبير داع ، والذي اختاره كثير من المحققين من تلك الاحتمالات أن تكون الجملة معطوفة على جملة الحمد والعدل بمعنى العدول أي الانصراف والجار متعلق بكفروا وهو من الكفر بمعنى الشرك أو كفران النعمة ويقدر مضاف بعد الجار ، والمعنى أن الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلق من النعم الجسام التي أنعم بها على الخاص والعام ثم الذين أشركوا به أو كفروا بنعمه يعدلون فيكفرون نعمه ، وأن تكون معطوفة على جملة الصلة والعدل بمعنى التسوية والجار متعلق به والكفر بأحد المعنيين .

والمعنى أنه سبحانه خلق هذه النعم الجسام والمخلوقات العظام التي دخل فيها كل ما سواه ، ثم إن هؤلاء الكفرة أو هؤلاء الجاحدين للنعم يسوون به غيره ممن لا يقدر عليها وهم في قبضة تصرفه ومهاد تربيته .

(76/226)

و ﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد ما وقع من الذين كفروا أو للتوبيخ عليه كما قال ابن عطية ، وجعلها أبو حيان لمجرد التراخي في الزمان وهو وإن صح هنا باعتبار أن كل ممتد يصح فيه التراخي باعتبار أوله والفور باعتبار آخره كما حققه النحاة إلا أن ما ذكر أوفق بالمقام ، ونكتة وضع الرب موضع ضميره تعالى على كل تقدير تأكيد أمر الاستبعاد ، ووجه جعل الباء متعلقة بيعدلون على أحد احتماليه وبكفروا على الاحتمال الآخر أنه إذا كان من العدل بمعنى التسوية يقتضي التوصل بالباء بخلاف ما إذا كان منه بمعنى العدول ، فالظاهر أنها حينئذٍ متعلقة بما قبلها ، وما قاله المحقق التفتازاني من أنه لا مخصص لكل من توجيهي ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ بواحد من العطفين يمكن دفعه بأن وجه تخصيص كل بما خصص به اتساق نظم الآية حينئذٍ وظهور شدة المناسبة بين ما عطف بثم الاستبعادية وبين ما عطف عليه ، وذلك لأنه إذا قيل مثلاً في الصورة الأولى إن الله تعالى استحق جميع المحامد من العباد فهم أن العدول عنه تعالى والإعراض عن حمده سبحانه في غاية الاستبعاد فيناسب أن يقال : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون عنه فلا يحمدونه ولا يلتفتون لفتة ، ولا يناسب أن يقال : إنهم يسوون به غيره إذ لم يسبق صريحاً وبالقصد الأولي ما ينفي التسوية ، وإذا قيل مثلاً في الصورة الثانية : إنه جعل شأنه خلق هذه الأجسام العظام مما لا يقدر عليه أحد ناسب في الاستبعاد أن يقال : ثم الذين كفروا يسوون به ما لا يقدر على شيء لا أنهم لا يحمدونه ويعرضون عنه .

وقال بعض المحققين : إذا كان المعنى على الأول : الحمد والثناء مستحق للمنعم بهذه النعم الشاملة سائر الأمم فكيف يتأتى من الكفرة والمشركين المستغرقين في بحار إحسان العدول عنه ، وعلى الثاني : المعروف بالقدرة على إيجاد هذه المخلوقات العظام التي دخل فيها كل ما سواهه من الخاص والعام كيف يتسنى لهؤلاء الكفرة أو لهؤلاء الجاحدين للنعم أن يسووا به غيره وهم في قبضته ، فوجه التخصيص في الأول : أنه لا يخفى استبعاد انصراف العبد عن سيده وولى نعمته إلى سواه بخلاف التسوية فإن المنعم قد يساويه غيره ممن يحسن إلى غيره ، وفي الثاني : أن استبعاد التسوية عليه مما لا يكاد يتصور بخلاف العدول عنه فإنه قد يتصور لجهل العادل بحقه وما يليق بحقه فإن العدول لا ينافي عدم المعرفة بخلاف التسوية فإنه لا يسوي بين شيئين لا يعرفهما بوجه ما فتدبر .

واعترض غير واحد على العطف على الصلة بأنه لا وجه لضم ما لا دخل له في استحقاق الحمد إلى ماله ذلك ثم جعل المجموع صلة في مقام يقتضي كون الصلة محموداً عليه .

وأجيب بأن في الكلام على ذلك التقدير إشارة إلى علو شأنه تعالى وعموم إحسانه للمستحق وغيره حيث ينعم بمثل تلك النعم الجليلة على من لا يحمده ويشرك به جل شأنه ،

وفي ذلك تعظيم منبىء عن كمال الاستحقاق ، وقد يقال : وقوع هذا المعطوف موقع المحمود عليه باعتبار معنى التعظيم المستفاد من إنكار مضمونه فكأنه قيل الحمد لله جل جنابه عن أن يعدل به شيء لكن لا يخفى أن المحمود عليه يجب في المشهور أن يكون جميلاً اختيارياً ، وما ذكر ليس كذلك فعليه لا بد من التأويل .

(78/226)

وذكر شيخ الإسلام في الاعتراض على العطف المذكور "أن ما ينتظم في سلك الصلة المنبئة عن موجبات حمده تعالى حقه أن يكون له دخل في ذلك الإنباء (ولو) في الجملة ولا ريب في أن كفرهم بمعزل عنه ، وادعاء أن له دخلاً فيه لدلالته على كمال الجود كأنه قيل : الحمد لله الذي أنعم بمثل هذه النعم العظام على من لا يحمده تعسف لا يساعده النظام وتعكيس يأباه المقام كيف لا وسياق النظم الكريم كما تفصح عنه الآيات (الآتية) (1) لتوبيخ الكفرة ببيان غاية إساءتهم في حقه سبحانه وتعالى مع نهاية إحسانه تعالى إليهم لا بيان (نهاية) (1) إحسانه تعالى إليهم مع غاية إساءتهم في حقه عز وجل كما يقتضيه الادعاء المذكور ، وبهذا اتضح أنه لا سبيل إلى جعل المعطوف من روادف المعطوف عليه لما أن حق الصلة أن تكون غير مقصودة الإفادة فما ظنك بروادفها ؛ وقد عرفت أن المعطوف هو الذي سيق له

الكلام" انتهى .

ورد بأنه لا شك في أنه على هذا الوجه يراد الحمد لله الذي أنعم بهذه النعم الجسام على من لا يحمده ولا تعسف فيه لبلاغته ، وادعاء التعكيس ممنوع فإن المقام مقام الحمد كما تفيده الجملة المصدر بها وما بعده كلام آخر ولا يترك مقتضى مقام لأجل مقتضى مقام آخر إذ لكل مقام مقال .

واعترض أيضاً بأنه لا يصح من جهة العربية لأن الجملة خالية من رابط يربطها بالموصول اللهم إلا أن يخرج على نحو قولهم : أبو سعيد رويت عن الخدري حيث وضع الظاهر موضع الضمير وكأنه قيل : ثم الذين كفروا به يعدلون إلا أن هذا من الندور بحيث لا يقاس عليه فلا ينبغي حمل كتاب الله تعالى على مثله مع إمكان حمله على الوجه الصحيح الفصيح .

(79/226)

وأجيب بأنه لا يلزم من ضعف ذلك في ربط الصلة ابتداء ضعفه فيما عطف عليها فكثيراً ما يغتفر في التابع ما لا يغتفر في غيره ، والجواب بأن هذا العطف لا يحتاج إلى الرابط عجيب لأنه لم يقل أحد من النحاة : إن المعطوف على الصلة بثم يجوز خلوه عن الرابط وغاية ما ذكروه أنه نكتة للربط بالاسم .

واعترض شيخ الإسلام على احتمال أن يراد بالعدل العدول مع اعتبار التشنيع عليهم بعدم الحمد "بأن كفرهم به تعالى لا سيما باعتبار ربوبيته أشد شناعة وأعظم جناية من عدولهم عن حمده سبحانه (لتحققه مع إغفاله أيضاً) فجعل أهون الشرين عمدة في الكلام مقصوداً بالإفادة وإخراج أعظمهما مخرج القيد المفروغ منه مما لا عهدة له في الكلام السديد فكيف بالنظم التنزيلي"؛ وأجيب بأنه لما كان المقام مقام الحمد ناسب التشنيع عليهم بذلك فلا يرد اعتراض الشيخ وقد ذكر هو قدس سره توجيهاً للآية وادعى أنه الحقيق بجزالة التنزيل، وحط عليه الشهاب فيه ولعل الأمر أهون من ذلك، والذي تصدح به كلماتهم أن صلة ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ على تقدير أن يكون من العدل بمعنى العدول متروكة ليقع الإنكار على نفس الفعل، وإنما قدروا له مفعولاً على تقدير أن يكون من العدل بمعنى التسوية فقالوا: غيره أو الأوثان لأنه لا يحسن إنكار العدل بخلاف إنكار العدول، ونظر في ذلك بأن مجرد العدول بدون اعتبار متعلقه غير منكر ألا ترى أن العدول عن الباطل لا ينكر فالظاهر اعتبار المتعلق إلا أنه حذف لأجل الفاصلة كما أن تقديم ﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ على احتمال تعلقه بما بعد لذلك، ويجوز أن يكون للاهتمام.

(80/226)

وقال بعض المحققين : إن هذا وإن تراءى في بادىء النظر لكنه عند التحقيق ليس بوارد لأن العدول وإن كان له فردان أحدهما مذموم وهو العدول عن الحق إلى الباطل وممدوح وهو العدول عن الباطل إلى الحق لكن العدول الموصوف به الكفار لا يحتمل الثاني فلتعينه لا يحتاج إلى تقدير متعلق وتنزيله منزلة اللازم أبلغ عند التأمل بخلاف التسوية فإنها من النسب التي لا تتصور بدون المتعلق فلذا قدروه .

ومن هذا يعلم أن تنزيل الفعل منزلة اللازم الشائع فيما بينهم إنما يكون أو يحسن فيما ليس من قبيل النسب .

هذا وأخرج ابن الضريس في "فضائل القرآن" .

وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن كعب قال : فتحت التوراة ب ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ وختمت ب ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : 111] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(81/226)

ومن فوائد الشيخ محمد أبو زهرة فى الآية

قال رحمه الله :

كان ختام السورة السابقة إثبات سلطان الله تعالى الكامل ، وقدرته الشاملة ، وأنه لا يعجزه شىء فى السماء ولا فى الأرض ، إذ قال سبحانه : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير . وفى هذه الآية يبين سبحانه السبب فى كمال سلطانه ، والمظهر الأعظم لكمال قدرته ، وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، فإن هذا من أسباب السلطان الكامل على السموات والأرض ومن فيهن ، وهو مظهر كامل لكمال قدرته سبحانه وتعالى ، وهذا قوله تعالى :

(الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)

الحمد معناه اللغوى : الثناء على المحمود بالفعل الاختيارى الذى يقوم به ، فلا يحمد على فعل كان بالجبلة والتسخير ، إنما الحمد يكون ثناء على فعل اختيارى ، الحمد بمعنى الثناء مراتب ، أدناه الثناء على العباد فى أعمالهم الاختيارية . واستعماله فى القرآن فى الثناء على العباد قليل إلا إذا كان فى التنديد بطلبهم للحمد مثل قوله تعالى : (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . . . .

وأعلى من هذا مرتبة الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، وذكر صفاته ، والإحساس بجلائل

نعمه ، ولهج لسان العبد بهذه النعم .

والمرتبة العليا شكر هذه النعم والخضوع المطلق له سبحانه ، والقيام بحق عبادته ، وإفراده بالعبودية ، وإن ذلك هو المطلوب من العباد ، وهو أعلى الشكر ، وقد قال سبحانه : (. . . لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . . . ،

(82/226)

والشكر امتلاء القلب بذكر الله تعالى وذكر نعمه ، وشكرها ، وهو الذى طالب به القرآن الكريم كما قال تعالى : (. . . اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم . . . ، و" أل " هنا للاستغراق ، والمعنى أن المستحق لكل أنواع الحمد ومراتبها هو الله تعالى ، فهو المستحق للعبادة ، وهى أعلى درجات الحمد ، وهو الجدير بكل حمد ، دون غيره ، وإذا كان ثمة حمد للعباد فهو إن كان على خير أسدوه كان حمد الله تعالى لتوفيقهم وعونهم ، وإن كان الدافع على الثناء غير الخير ، فهو ليس بحمد ، وإنما هو كذب وافتراء على الحق وتعاون على الشر . وقد ذكر سبحانه أسباب ذلك الحمد الذى بلغ أعلى درجاته ، فقال تعالت كلماته : (الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) هذا وصف لله سبحانه وتعالى يثبت كمال حق العبودية له وحده ، وأنه لا يستحق الحمد الكامل سواه ،

ولقد يقول الصوفية : إن العبودية لله تعالى ثلاث مراتب : أولاها – أن يعبدوه لذاته ، والثانية – أن يعبدوه لصفة من صفاته كصفة الخلق والتكوين ، والثالثة – أن يعبدوه لتكمل نفوسهم ، ويحسوا بفضل الطاعة ، وهذا النص يفيد أن حمد الله تعالى ؟ لأنه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، والحق أن المراتب الثلاث لا تباعد بينها ، فمن يعبد الله لذاته ، فإن ذاته تعرف بصفاته ، ومن يرى شرفه فى عبادة الله وحده ، فهو يتسامى .

والقول الجملى – أن الذكر لخلق السموات والأرض لبيان سلطان الله تعالى وقدرته واستحقاقه وحده الألوهية ؟ بدليل قوله سبحانه بعد ذلك : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)

وهنا بعض المباحث اللفظية التى نتعرض لها ؟ لأنه يكون تقريبا لمعانى الإعجاز فى النص :

(83/226)

المبحث الأول – التعبير فى خلق السموات والأرض ب " خلق " ، وفى الظلمات والنور بـ " جعل " ، فنقول : الخلق معناه الإنشاء الابتدائى هنا ، والجعل يتضمن معنى تكوين شىء من

شيء أو شيئين ، وقد يتضمن الخلق ذلك المعنى بقرينة ؟ وهنا المتبادر من المعنى أن الله تعالى أنشأ السموات والأرض إنشاء ، وجعل منها الظلمات والنور ، فمن اختفاء الشمس عن الأرض يكون ظلام الليل ، ومن بزوغ الشمس على الأرض يكون النور ، وذلك كله بجعل الله تعالى ، وبأصل التكوين والتقدير من العزيز العليم .

المبحث الثانى – لماذا جمع " الظلمات " وأفرد " النور " ؟ والجواب عن ذلك : أن النور واحد ، من نتائجه الكشف والظهور ، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته ، أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها . . فهناك ظلمة الليل ، وهناك ظلمة المحابس ، وهناك ظلمة القبور ، وهناك ظلمة الغمام ، وهى تتغير حقائقها بتغير أسبابها ، ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوى ، وهى أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها ، فهناك ظلمة الانحراف ، وظلمة الأهواء والشهوات وطمس القلوب ، والنور واحد ، (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . .) ، فالنور فى هذا واحد .

المبحث الثالث – لماذا أفردت الأرض وجمعت السموات مع أنه قد وردت نصوص تعتبر الأرض سبعا كالسموات ؟ والجواب عن ذلك : أنه فى كثير من المواضع تفرد وتجمع السماء فى مثل قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) ، وإنما تعدد السموات لعظمها ، ولإحاطتها

بالأرض ، ولما فيها من الآيات البارزة ، ولتزيينها بالنجوم ، ولأنه لم يعلم أن الله تعالى قد عصى فيها ، ولأن طبقاتها متمايزة ينفصل بعضها عن بعض ، والأرض طبقاتها متصلة .

(84/226)

المبحث الرابع – ما الذى كان العطف عليه فى قوله تعالى : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) ولماذا عطف ب " ثم " ؟ أما الجواب عن الجزء الأول فهو أن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، وهو وحده يستحق الحمد ، ثم مع ذلك يجعل الذين كفروا بسبب ضلالهم مثلا يعدلونه به ، وهو أصنامهم ، أو ما يزعمون من آلهة ، والتعبير ب " ثم " للبعد بين الحقيقتين ، فالحقيقة الأولى التى توجب توحيد الله تعالى وحده ، والثانية – ما يقع من هؤلاء الكافرين على غير بينة ولا إدراك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 2429 . 2432 ﴾

(85/226)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

ويبدأ سبحانه سورة الأنعام بقوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

وساعة تسمع كلمة الحمد ، فعليك أن تفهم أنها كلمة المدح والثناء والشكر . فالحمد أمر فطري موجود ونوجهه لله ، فقد أخذ – سبحانه – بأيدينا ووضح وبين لنا أن الحمد لله حتى لا نختلف في مجال توجيهه ؛ لأنه سبحانه هو الذي أمد كل إنسان بشيء من أسبابه . وحين تسأل أحداً عن شيء فإن سلسلات ما أمدك به منسوبة لله . إذن فكل حمد يجب أن يتوجه إلى الله .

وأضرب هذا المثل : هب أن إنساناً وقعت به طائرة في مكان ما موحش ، لا يوجد به أي شيء من أسباب الحياة ، وأراد ان يأكل ويشرب ويستتر حتى ينام ، لكنه لم يجد شيئاً من هذا : وأخذته سنة من النوم ثم استيقظ فجأة فوجد مائدة عليها كل أطايب الطعام والشراب ، وبجانب ذلك وجد خيمة فيها فراش وغطاء وصنبور للغسيل . وساعة يرى كل ذلك فهو لا يبدأ في استخدام أي شيء قبل أن يتساءل عن مصدره ، لأنه يريد أن يشكر الذي أنعم عليه كل هذه النعم السابغة . فكأنك أيها الإنسان حين واجهت الكون ووجدت

أشياء تخدمك ولا عمل لك فيها ، ولا للسابقين عليك عمل فيها ؛ لأن أحداً لم يدعها لنفسه ، فوجدت شمساً تشرق ، وهواءً يهب ، وماءً يروى ، وأرضاً تُزرع ، وغير ذلك من كل ما يخدمك ، وأخبرك الحق أنه هو الذي منحك كل هذا ألا تشكره إذن ؟

(86/226)

إن البشرية عندما استفادت من المصباح الكهربائي قامت الضجة لتكريم اديسون الذي اخترعه ، فما بالنا بخالق الشمس التي تنير الكون كله ؟ إن الاختراعات البشرية تخلد أصحابها وتقوم الضجة لتكريمهم . فما بالنا بخالق الكون كله ؟ ما بالنا نكرم صانع المصباح الذي ينير مساحات ضيقة مهما اتسعت بالقياس إلى الأرض ويغفل بعضنا عن تنزيه خالق الشمس التي تنير الأرض في النهار وتختفي نصف اليوم حتى يستريح الإنسان ؟ ولكنها تسير سيرا دائماً ، فإن غابت عنك فقد أشرقت على غيرك فهي في فلكها تسبح .

إذن فالحمد لله حينما استقبل الإنسان هذا الوجود . ووجد كل مقومات الحياة التي لا يمكن أن تخضع لقوة بشر ، ولا لادعاء بشر . إن الحمد أمر واجب الوجود وإن اختلف الناس حول من يوجه له الحمد . إننا نوجهه إلى الله تعالى لأنه هو واهب النعم .

وسور القرآن التي بدأها الخالق بالحمد لله خمس سور هي : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ،

وسبأ ، وفاطر ، وتتركز حول شيئين : تربية مادية بإقامة البنيان بالقوت أو بقاء النوع بالتزاوج أو بتربيتهم تربية روحية قيمية ، فيمدهم بمنهج السماء . فمرة يقول الحق : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ .

وكلمة " رب " تعني أنه تولى تربية الخلق إلى غاية ومهمة ، والتربية تحتاج إلى مقومات مادية ومقومات معنوية ، روحية ومنهجية ؛ لذلك يأتي بها الحق شاملة للكون كله كما في فاتحة الكتاب : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] .

فهو سيد كل العالمين ومالكهم ومربيهم ، وهو الذي ينشئهم التنشئة التي تجعلهم صالحين لأداء مهمتهم في الحياة بقوة البنيان وببقاء النوع بالتزاوج وبقوة القيم . ومرة ثانية يأتي الحق بالمنهج وحده ، مثل قوله الحق سبحانه : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] .

(87/226)

ومرة أخرى يأتي الحق بالأشياء المنظورة فقط فيقول : ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] .

إنه سبحانه يأتي هنا بأشياء تختص بالمادة المنظورة ، كالسموات والأرض ، والظلمات

والنور ، وهي أشياء يمكنك أن تراها بوضوح ، ومرة يأتي الحق بأشياء غير منظورة مع الأشياء المنظورة كقوله الحق : ﴿ الحمد للَّهِ فَاطِرِ السماوات والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر : 1] .

ويأتي بالمجموع كله في فاتحة الكتاب ، ويأتي بالمنهج فقط كما في سورة الكهف ، ويأتي بالكون المادي كما في سورة الأنعام ، ويأتي بالكون المادي والمعنوي كما في سورة فاطر .

إذن فالحمد مُسْتَحَقٌّ مستحق ، ويُوجه الله حتى ولو كانت أسبابه الظاهرة من غير الله ؛ لأن كل أسباب الدنيا والكون تنصرف أخيراً إلى الله . وهنا – في سورة الأنعام – خص الحق الحمد لله خالق السموات والأرض بما فيهما من كائنات ، وأتى من بعد ذلك بالظلمات والنور . والخلق كما نعلم إيجاد من عدم . والجعل يأتي لشيء مخلوق ويوجه إلى الغاية منه . ولذلك قال الحق : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ والظلمة أمر عدمي ، والنور أمر إيجابي ، والنور يبدد الظلمة .

إذن فالأصل هو وجود الظلمة التي تختلف في ألوانها ، مثال ذلك : ظلمة الكهف ، وظلمة البحر ، وظلمة البر ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [النور : 40] .

إنها يده يعرف اتجاهها ولكنه لا يكاد يراها . إذن فالحق يخصص الحمد هنا لخلق السموات والأرض لأنها ظرف كل الكائنات . وقال العلماء : لا تأخذ الظلمة على أنها الظلمة المادية التي لا ترى فيها الأشياء لا غير ، ولا تأخذ النور على أنه النور الحسي الذي ترى به الأشياء فقط ، ولكن لنأخذ الظلمات والنور على الأمر المعنوي والأمر الحسي كذلك – وسبحانه – جعل الظلمات في هذه الآية جمعا وجعل النور مفردا ، لأن الظلمات تتعدد أسبابها لكن النور ليس له إلا سبب واحد .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 153] .

والسبل هي جمع ، وسبيل الله مفرد لأنه واحد . كأن سبل الشيطان متعددة ، وسبل الناس كذلك متعددة حسب أهوائهم ، لكن سبيل الله واحد ؛ لذلك يجعل الهداية نوراً والضلال ظلمات .

﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ونقول : – ولله المثل الأعلى – إنك إيها الإنسان عندما يفيض الله عليك ويجعل من بين يديك ما تعديه من جميل إلى غيرك فأنت تقول : أنا صنعت لفلان كذا وكذا ثم ينكر من بعد ذلك .

كأن " ثم " تأتي هنا للاستبعاد . إن " ثم " تأتي للعطف مثل حرف " الفاء " . ولكن الفاء

تكون للجمع بين شيئين ليست بينهما مسافة زمنية ، مثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس : 21] .

ومن يحب إنساناً ومات هذا الإنسان فهو يعجل بدفنه ، وذلك حتى لا يرم ويتعفن أمامه .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد الإقبار : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : 22] .

(89/226)

كأن فترة زمنية قد تطول حتى تقوم القيامة فينشر الحق خلقه . وقد يكون البعد بُعْدَ رتبة أو منزلة ، ولذلك يأتي الحق ب " ثم " هنا كفاصلة بين خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وبين الذين كفروا بربهم ، ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ إنهم الذين يساوون الله بغيره . ونستطيع أن نجعل " يعدلون " من متعلقات كفرهم . . أي أنه بسبب كفرهم يسوون الله بغيره . أو يكون المراد أنهم يعدلون أي يميلون عن الإله الحق إلى غير الإله ، أو يجعلون لله شركاء . وهو قول ينطبق على الملحدين أو المشركين بالله . لقد أوجد سبحانه السموات والأرض من عدم وليس لأحد أن يجترئ ليقول الله : كيف خلقت السموات والأرض ؟ لأنه سبحانه يقول في آية أخرى : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

وأوجد سبحانه السموات والأرض من عدم ، فالسماء والأرض ظرف للكون وتم خلقهما قبل الإنسان وقبل سائر الخلق ، ولم يشهد خلقهم أحد من الخلق ، فلا يصح أن يسأل أحد عن كيفية الخلق ، بل عليه أن يأخذ خبر الخلق من خالقهما وهو الله . وقد أتى بعض الناس وقالوا : إن الإرض انفصلت عن الشمس ثم بردت ، وهذا مجرد ظنون لا تثبت ؛ لأن أحداً منهم لم ير خلق السموات والأرض . وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

(90/226)

لقد قال القرآن ذلك من قبل أن يأتي هؤلاء . وكأنه سبحانه يعطينا التنبؤ بمجيء هؤلاء المضلين قبل أن يوجدوا ، فهم لم يشهدوا أمر الخلق ، بل طرأوا – مثلنا جميعاً – على السموات والأرض ، وكان من الواجب ألا يخوضوا في أمر لم يعرفوه ولم يشاهدوه . وكذلك قولهم عن خلق الإنسان كقرد وهم لم يكونوا مع الله لحظة خلق الكون والإنسان ، ولا كانوا شركاء له ، ولذلك يعلمنا الحق الأدب معه فيقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أُولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] .

وعلينا أن نأخذ خبر الخلق عن الله القائل : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ . . . ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(91/226)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) ﴾

أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن كعب قال : فتحت التوراة ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ وختمت ب ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ الى قوله ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ قال : هي في التوراة بستمائة آية .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ حمد نفسه

فأعظم خلقه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي . أنه أتاه رجل من الخوارج فقال : الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون أليس كذلك ؟ . قال : نعم . فانصرف عنه ثم قال : ارجع . فرجع فقال : أي قل إنما أنزلت في أهل الكتاب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه أنه أتاه رجل من الخوارج فقرأ عليه ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ الآية . ثم قال : أليس الذين كفروا بربهم يعدلون ؟ قال : بلى . فانصرف عنه الرجل ، فقال له رجل من القوم : يا ابن ابزى إن هذا أراد تفسير الآية غير ما ترى إنه رجل من الخوارج . قال : ردوه علي . فلما جاء قال : أتدري فيمن أنزلت هذه الآية ؟ قال : لا . قال : نزلت في أهل الكتاب فلا تضعها في غير موضعها .

(92/226)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية في الزنادقة ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ قال قالوا : إن الله لم يخلق الظلمة ، ولا الخنافس ، ولا العقارب ، ولا شيئاً قبيحاً ، وإنما خلق النور وكل شيء حسن ، فأنزل

فيهم هذه الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : نزل جبريل مع سبعين ألف ملك معهم سورة الأنعام ، لهم زجل من التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد ، وقال : الحمد لله الذي خلق السموات والأرض فكان فيه رد على ثلاثة أديان منهم ، فكان فيه رد على الدهرية لأن الأشياء كلها دائمة ، ثم قال ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ فكان فيه رد على المجوس الذين زعموا أن الظلمة والنور هما المدبران ، وقال : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ فكان فيه رد على مشركي العرب ، ومن دعا دون الله إلهاً .

وأخرج ابن جرير عن أبي روق قال : كل شيء في القرآن (جعل) فهو خلق .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ قال : الكفر والإيمان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ قال : خلق الله السموات قبل الأرض ، والظلمة قبل النور ، والجنة قبل النار ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ قال : كذب العادلون بالله فهؤلاء أهل الشرك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ قال : الظلمات ظلمة الليل ، والنور نور النهار ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ قال : هم المشركون .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ قال : يشركون .

(93/226)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ قال : الآلهة التي عبدوها عدلوها بالله تعالى وليس لله عدل ، ولا ند ، وليس معه آلهة ، ولا اتخذ صاحبة ولا ولداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(94/226)

من الإعجاز العلمى فى الآية الكريمة

بحث للدكتور / زغلول النجار

قال حفظه الله :

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالي : ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور

ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾

* ذكر الطبري (رحمه الله) في مختصر تفسيره ما نصه :(الحمد لله) : الشكر لله وحده دون غيره (وجعل الظلمات) : ظلمات الليل , وجعل بمعني : وأظلم ليلها , وأنار نهارها ,(والنور) نور النهار (يعدلون) يشركون , يقال : عدلت هذا بهذا اذا ساويته به .

* ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : يقول الله تعالي مادحا نفسه الكريمة , وحامدا لها علي خلقه السماوات والأرض قرارا لعباده , وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم , فجمع لفظ الظلمات , ووحد لفظ النور لكونه أشرف . . . ثم قال تعالي :(ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أي ومع هذا كله كفر به بعض عباده , وجعلوا له شريكا وعدلا , واتخذوا له صاحبة وولدا , تعالي الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا . . . .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه :(الحمد) وهو الوصف بالجميل ثابت (لله) وهل المراد الإعلام بذلك للإيمان به , أو : الثناء به , أو : هما ؟ احتمالات أفيدها الثالث [أي للإيمان والثناء معا] قاله الشيخ الجلال المحلي في تفسير أول سورة الكهف (الذي خلق

السماوات والأرض) خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين (وجعل) خلق (الظلمات والنور) أي : كل ظلمة ونور , وجمعها دونه لكثرة أسبابها , وهذا من دلائل

وحدانيته (ثم الذين كفروا) مع قيام هذا الدليل (بربهم يعدلون) يسوون به غيره في العبادة

.

(95/226)

---

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه : إنها اللمسات الأولي . . تبدأ بالحمد لله , ثناء عليه , وتسبيحا له , واعترافا بأحقيته للحمد والثناء , علي ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء . . . بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولي . . . الخلق , وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود . . . السماوات والأرض . . . ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السماوات والأرض وفق تدبير مقصود . . . الظلمات والنور . . . فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور , والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام , والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك . . . لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم , وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون , بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه :(ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) . . .

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه) ما نصه :(الحمد لله) إعلام بأنه

تعالي حقيق بالحمد والثناء , مستوجب لهما , لخلقه السماوات والأرض , علي ما هما عليه من بديع الصنع والإحكام , وخلقه الظلمات والنور , أو ظلمات الليل ونور النهار , منفعة للعباد , وآيات للمتفكرين , ودلائل علي وحدانيته وقدرته وتدبيره ,(وجعل) أي أحدث وخلق (ثم الذين كفروا) أي ثم الذين كفروا مع قيام هذه الدلائل الظاهرة يسوون بربهم غيره مما لا يقدر علي شئ من ذلك , فيكفرون به , أو يجحدون نعمته , فأي شئ أعجب من ذلك وأبعد عن

الحق !, من العدل بمعني التسوية , وقوله (بربهم) متعلق بقوله (يعدلون), أو ثم الذين كفروا بربهم يميلون عنه , وينصرفون إلي غيره من خلقه , فيعبدون ما لا يستحق العبادة , من العدول . . .

(96/226)

---

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) ما نصه : الثناء والذكر الجميل لله , الذي خلق السماوات والأرض , وأوجد الظلمات والنور لمنفعة العباد بقدرته وعلي وفق حكمته , ثم مع هذه النعم الجليلة يشرك به الكافرون , ويجعلون له شريكا في العبادة ! .

* وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبها خيرا) ما نصه : بدأ سبحانه وتعالي هذه السورة بالحمد لنفسه تعليما لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلاما بأنه المستحق لجميع المحامد فلا ند له ولا شريك , ولا نظير ولا مثيل ومعني الآية : احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذي أوجد وأنشأ وابتدع خلق السماوات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع , وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة بما يدهش العقول والافكار تبصرة وذكري لأولي الابصار (وجعل الظلمات والنور) أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر , وجمع الظلمات لأن شعب الضلال متعددة , ومسالكه متنوعة , وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منور الأكوان . .

(ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة علي وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم . . . .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولا : خلق السماوات والأرض من أعظم الأدلة علي طلاقة القدرة الإلهية المبدعة :

فقد أدرك العلماء حقيقة توسع الكون في مطلع القرن العشرين , وأدي إدراك تلك الحقيقة إلي الاستنتاج الصحيح بأن كوننا بدأ خلقه من نقطة

متناهية الضالة في الحجم , ومتناهية الضخامة في كم المادة والطاقة , وأن هذه النقطة انفجرت فتحولت إلي سحابة من الدخان الذي خلقت منه الأرض والسماوات .

(97/226)

ومع توسع الكون تم تبرده من مئات البلايين من الدرجات المطلقة إلي حوالي الثلاث درجات المطلقة تقاس اليوم علي جميع أطراف الجزء المدرك لنا من السماء الدنيا , تخلقت المادة ونقائضها , ومختلف صور الطاقة وأضدادها علي مراحل متتالية يحددها العلماء في النقاط التالية :

(1) عصر الكواركات والجليونات :

وقد استمر لجزء من مائة ألف مليون جزء من الثانية بعد عملية الانفجار العظيم وفيه خلقت اللبنات الأولية للمادة كما خلقت أضدادها من الدخان الكوني وذلك من مثل الكواركات وأضدادها النيوترينوات ونقائضها .

وكان الدخان الكوني كثيفا مظلما معتما , وكانت الجاذبية قوة منفصلة رابطة أجزاء هذا الدخان الكوني , بينما انفصلت القوة الشديدة عن القوة الكهربية الضعيفة , ويعتقد أن أعداد هذه الجسيمات الأولية كان يفوق أعداد نقائضها وإلا ما وجد الكون , أو أن إرادة

عليا فصلت بين تلك الجسيمات ونقائضها حتي تقوم السماوات والأرض بأمر الله . وكانت هذه الفترة فترة تمدد ملحوظ وتوسع مذهل للكون .

(2) عصر اللبتونات :

وقد استمر إلي جزء من مليون جزء من الثانية بعد عملية الانفجار العظيم , وفيه تمايزت اللبتونات (وهي أخف اللبنات الأولية للمادة مثل الإليكترونات والنيوترينوات وأضدادها عن الكواركات , كما تمايزت البوزونات , وانفصلت القوة الضعيفة) عن اتحاد القوي المعروف باسم القوة الكهربية الضعيفة .

(3) عصر النيوكليونات وأضدادها :

وقد استمر إلي 225 ثانية بعد عملية الانفجار العظيم , وفيه اتحدت الكواركات مع بعضها البعض لتكون النيوكليونات وأضدادها من مثل البروتونات ونقائضها , والنيوترونات ونقائضها , وكانت الطاقة علي قدر من الضعف لايسمح بتكون النيوكليونات وأضدادها علي نطاق واسع وإلا ماوجد الكون .

(4) عصر تخلق نوي ذرات العناصر :

وقد استمر في الفترة من 225 ثانية إلي ألف ثانية بعد عملية الانفجار العظيم , وفيه تكونت الديوترونات الثابتة وهي تنتج عن ترابط بروتون مع نيوترون , ومع تكوينها بدأت عملية الاندماج النووي في تكوين نوي ذرات الايدروجين . وباتحادها تكونت نوي ذرات الهيليوم وبعض نوي الذرات الأثقل حتي وصلت نسبة الايدروجين إلي 74%, والهيليوم إلي 25%, ونوي بعض العناصر الأثقل وزنا إلي 1% .

(5) عصر تخلق الأيونات :

وقد استمر في الفترة من ألف ثانية إلي عشرة تريليونات ثانية بعد الانفجار العظيم , وفيه تكونت أيونات كل من غازي الإيدروجين والهيليوم , واستمر الكون في الاتساع والتبرد .

(6) عصر تخلق الذرات :

ويمتد في الفترة من عشرة تريليونات ثانية إلي ألف تريليون ثانية بعد عملية الانفجار العظيم , وفيه تكونت ذرات العناصر , وترابطت بقوي الجاذبية وأصبح الكون شفافا .

(7) عصر تخلق النجوم والمجرات :

وقد امتد في الفترة من ألف تريليون ثانية (أي نحو 32 مليون سنة من سنينا الراهنة) بعد عملية الانفجار العظيم إلي اليوم (أي نحو عشرة بلايين من السنين) , وفيه تخلقت أغلب العناصر المعروفة لنا (وهي أكثر من مائة وخمسة عناصر) بعملية الاندماج النووي في داخل النجوم حتي تكون عنصر الحديد في داخل المستعرات والمستعرات العظمي ,

وتكون العناصر الأعلي وزنا ذريا من نوي ذرات الحديد باصطيادها للبنات الأولية للمادة المنتشرة في صفحة السماء .

ولقد سبق القرآن الكريم هذه المعارف العلمية بأربعة عشر قرنا وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي):

- أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء :30) .

وقوله (عز من قائل):

- ثم استوي إلي السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (فصلت :11) .

وقوله (سبحانه وتعالي):

- والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون

(الذاريات :47) .

(99/226)

وهذه المراحل تؤكد الحكمة والتدبير الفائقين في خلق السماوات والأرض لأن أدني مفارقة في الحساب كان من الممكن أن تبطل بناء الكون , وذلك يشمل حسابات الكم والكيف , ودرجات الحرارة , ومعدلات التوسع , وانضباط التفاعلات , خاصة أن العملية كلها ناتجة عن انفجار الجرم الأولي , وأن من طبيعة الانفجار أن يؤدي إلي الدمار وإلي بعثرة كل شيء وتناثره , أما انفجار يؤدي إلي بناء كون بهذه السعة , وضخامة أعداد الأجرام , وانضباط حركاتها , وسرعات دورانها , وعلاقاتها ببعضها البعض , لابد وأن يكون قد سبقه وزامنه وتبعه من دقة التقدير , وإبداع التكوين , وحسن الرعاية ما أوصله إلي ما نراه في الأنفس والآفاق من حولنا , وهو ما يشهد للخالق العظيم بطلاقة القدرة , وكمال الصنعة , ودقة التقدير . . . ! ! .

ثانيا : خلق الظلمات والنور من الأدلة علي طلاقة القدرة الإلهية المبدعة والمستوجبة الحمد لله (تعالي) :

من الراجح علميا أن كوننا بدأ بحالة من الدخان الداكن الكثيف التي استمرت علي مدي ثلاثين مليون سنة من سنينا الحالية علي أقل تقدير , ثم بدأ الكون من بعدها في التحول من الشفافية القادرة علي استقبال الضوء الناتج عن عملية الاندماج النووي في داخل النجوم , والتي استمرت علي مدي فترة تقدر بعشرة مليارات من السنين علي أقل تقدير إلي زماننا الحالي , وإلي أن يشاء الله (تعالي) . ولما كان ضوء النجوم - في غالبيته - غير مرئي تعددت

الظلمات في كوننا علي النحو التالي :

(1) الظلمة الأولية للكون :

وقد استغرقت الفترة من بعد عملية الانفجار العظيم وحتي بدايات عملية الاندماج النووي , وتقدر بنحو الثلاثين مليون سنة من سنينا الحالية . وقد تميزت هذه الفترة بالكثافة العالية لمادة الكون في صورها الأولية , وبالعتمة الكاملة , والإظلام التام .

(2) الظلمة الحالية للكون :

بعد عملية الانفجار العظيم بنحو الثلاثين مليون سنة تخلقت النجوم وبدأت عملية الاندماج النووي الحراري بداخلها , ولاتزال مستمرة إلي يومنا الحالي بعد أكثر من عشرة مليارات من السنين وإلي أن يشاء الله (سبحانه وتعالي) , وبذلك بدأت النجوم في إرسال أضوائها إلي فسحة السماء وإن كانت أغلب تلك الأضواء غير مرئية لتكونها من سلسلة متصلة من الأمواج الكهرو ـ مغناطيسية التي تشمل موجات الراديو بمختلف أطوالها , والأشعة تحت الحمراء , وأطياف الضوء المرئي , والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية , وأشعة جاما , وهذه الموجات الكهرومغناطيسية لاتختلف فيما بينها إلا في تردداتها وأطوال

موجاتها , ويمتد الطول الموجي للطيف الكهرومغناطيسي بين عدة كيلومترات لموجات الراديو (الموجات اللاسلكية) وبين جزء من بليون جزء من المليمتر لأشعة جاما , أما الأشعة البصرية فتتراوح أطوال موجاتها بين 0,01 ميكرون ومائة ميكرون (والميكرون =0,001 ملليمتر) , وتضم موجات الضوء المرئي والأشعة تحت الحمراء , والأشعة فوق البنفسجية . وتميز عين الإنسان من أطياف الضوء المرئي : الأحمر (وهو أطولها وأقلها ترددا) ثم البرتقالي , فالأصفر , والاخضر , والأزرق , والنيلي والبنفسجي (وهو أقصر موجات الطيف المرئي وأعلاها ترددا) , وهذه الموجات لاتري بوضوح إلا في طبقة النهار وهي جزء يسير من الغلاف الغازي للأرض المحيط بنصفها المواجه للشمس لايتعدي سمكه مائتي كيلومتر , وفيه يتم انعكاس هذه الأطياف بواسطة هباءات الغبار وقطيرات الماء , واختلاطها مع بعضها البعض لتعطينا نور النهار الأبيض الذي يتمتع به أهل الأرض وأهل كل كوكب له غلاف غازي مماثل . وعلي ذلك فإننا إذ تجاوزنا طبقة النهار فإننا نري الشمس قرصا أزرق في صفحة سوداء شديدة الإظلام

وهذه هي ظلمة الكون الحالي التي وصفها الحق (تبارك وتعالي) بقوله (عز من قائل) :

ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (الحجر :14 و15) .

وقوله (سبحانه) في وصف السماء :

وأغطش ليلها وأخرج ضحاها (النازعات :29) .

هذه ظلمة ليل السماء , وهي ظلمة تزداد حلوكة عندما تلتقي مع ظلمة ليل الأرض , ويحدثها دوران الأرض حول محورها أمام الشمس فيتقاسم سطح الأرض الليل والنهار , الليل في نصف الكرة الأرضية غير المواجه للشمس , والنهار في نصفها المواجه للشمس .

(3) ظلمة أعماق البحار والمحيطات :

من الثابت علميا أن قيعان البحار العميقة والمحيطات تغرق في ظلام دامس , وذلك لأن أعماقها تتراوح بين مئات الأمتار ,11034 مترا , بمتوسط يقدر بنحو 3795 مترا , وأشعة الشمس لايمكنها الوصول إلي تلك الأعماق أبدا , فمن الثابت أن نطاق الأوزون في الغلاف الغازي للأرض يرد أغلب الموجات فوق البنفسجية إلي خارج نطاق الأرض , بينما تعكس السحب نحو 30% وتمتص نحو 19% من باقي أشعة الشمس , وبذلك لايصل إلي سطح الماء في البحار والمحيطات أكثر من 51% من أشعة الشمس الساقطة عليها وبمجرد سقوط هذه النسبة تعكس الأمواج السطحية 5% منها , وتستهلك 35% من الأشعة تحت الحمراء في تبخير الماء وفي عمليات التمثيل الضوئي التي تقوم بها بعض النباتات

البحرية .

وعند نفاذ الجزء المتبقي من أشعة الشمس إلي داخل كتلة الماء فإنه يتعرض للعديد من عمليات الانكسار , والتحلل إلي أطيافه المختلفة التي تمتص بالتدريج حسب أطوال موجاتها بدءا بالأحمر وانتهاء بالبنفسجي .

(102/226)

وبذلك فان معظم موجات الضوء المرئي من أشعة الشمس يمتص علي عمق يصل إلي 100 م تقريبا من مستوي سطح الماء في البحار والمحيطات , ويعرف هذا النطاق باسم النطاق المضيء ويستمر 1% فقط من أشعة الشمس إلي عمق 150 م , 0,01% إلي عمق 200 م في الماء الصافي الخالي من العوالق , ويظل هذا القدر الضئيل من الضوء المرئي يتعرض للانكسار والتشتت والامتصاص حتي يتلاشي تماما علي عمق لايكاد يصل إلي الألف متر تحت مستوي سطح البحر حيث لايبقي من ضوء الشمس شيء يذكر (جزء واحد من عشرة تريليونات جزء) , هذا إذا لم تحل الأمواج العميقة حيلولة كاملة دون وصول الضوء إلي تلك الأعماق , ويبدأ تكون تلك الأمواج علي عمق 40 م تقريبا من مستوي سطح البحر , وقد تتكرر علي أعماق دون ذلك . . ويصف القرآن الكريم ظلمة

قيعان البحار العميقة بقول الحق (تبارك وتعالي) :

أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب , ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور . (النور :40) .

(4) ظلمات الأرحام :

ويصفها الحق (تبارك وتعالي) بقوله :

. . . يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث . . (الزمر :6) .

وقد فسرت هذه الظلمات الثلاث بظلمة البطن , يليها إلي الداخل ظلمة الرحم , يليها إلي الداخل ظلمة المشيمة بأغشيتها السلوية ومابها من سائل مخاطي .

(5) ظلمة القبر كنموذج لظلمة كل مكان مغلق في باطن الأرض أو علي سطحها :

(103/226)

من السنة النبوية الشريفة أن يعمق القبر قدر قامة وبسطة , وأن يشق اللحد في جانب القبر جهة القبلة ويوضع فيه جسد الميت علي جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة , ثم علي اللحد ينصب الطوب اللبن (الطوب النيىء) ثم يملأ القبر بالرمال أو التراب , ويرفع قدر شبر عن الأرض . وقد يكتفي بشق حفرة في وسط القبر تبني جوانبها باللبن , ثم يوضع فيها الميت

ويسقف عليه بشيء مما لم يدخل النار من مثل الخشب ثم تهال عليه الرمال أو التراب إلي ارتفاع شبر فوق الأرض , إلا أن اللحد أولي .

وبعد إغلاق القبر تكون الظلمة فيه كاملة , ومنها استعاذ رسول الله (صلي الله عليه وسلم) .

وتشبه ظلمة القبر ظلمة الكهوف , والمغائر (المغارات) والمناجم , والحفر الأرضية العميقة , وكذلك ظلمة المخابيء , والأماكن المغلقة إغلاقا محكما .

أما نور النهار الأبيض الجميل فلا يري إلا في الجزء السفلي من الغلاف الغازي المحيط بنصف الأرض المواجه للشمس إلي سمك مائتي كيلومتر فقط حيث يتوافر القدر الكافي من هباءات الغبار وقطيرات الماء وجزيئات الغازات الهوائية التي تعكس وتشتت وتخلط موجات الطيف المرئي حتي تعطي لنا ذلك النور الأبيض المبهر الذي يميز النهار , والذي يصفه الحق (تبارك وتعالي) بقوله :

والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها (الشمس : 1-3) .

وأشار إلي رقة طبقة النهار بقوله (عز من قائل) : وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون

(يس : 37) .

وقوله : الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . . (غافر : 61) .

فسبحان الذي أنزل في محكم كتابه قوله الحق :

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون

(الأنعام : 1)

فجمع الظلمات لتعددها وسيادتها في الكون , وأفرد النور لخصوصيته ومحدوديته في الوجود , وعدم تعدده , وهي حقائق لم تدرك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين , وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة علي نبي أمي (صلي الله عليه وسلم) وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لما يجزم بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , وبأن الرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , فصلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه , ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإعجاز العلمى للدكتور / زغلول النجار ﴾

(104/226)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ .

" جَعَلَ " هنا تتعدَّى لمعفول واحد ؛ لأنها بمعنى " خَلَقَ " ، هكذا عِبَارةُ النحويين ، ظاهرها أنهما مُتَرَادِفَانِ ، إلاَّ أنَّ الزَّمخْشَرِيَّ فَرَّقَ بينهما فقال : " والفَرقُ بين الخَلْقِ والجَعْلِ أنَّ الخَلْقَ فيه معنى التقدير ، وفي الجَعْلِ معنى التَّصْيِيرِ كإنشاء شيء من شيء أو تَصْيِيرِ شيء شيئاً ، أو نَقْلِهِ فيه معنى التقدير ، وفي الجَعْلُ التَّصْيِيرِ كإنشاء شيء أو تَصْيِيرِ شيء شيئاً ، أو نَقْلِهِ من مكان إلى مكان ، ومن ذلك ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف : 189] ، ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ ؛ لأنَّ الظُلمَاتِ من الأجْرَامَ المُتَكَاثِفَةِ ، والنُّور مِنَ النَّارِ " .

وقال الطَّبرِيُّ : " جَعَلَ " هنا هي التي تتصرَّفُ في طَرَفِ الكلام ، كما تقول : " جَعَلْتُ أفعل كذا " .

فكأنه قال : " جَعَلَ إظلامها وإنارتها " ، وهذا لا يُشبه كلام أهل اللسان ، ولكونها عند الزمخشري لَيْست بمعنى " خَلَقَ " فسَّرها هُنا بمعنى " أحدث " و " أنشأ " .

وكذا الراغب جعلها بمعنى " أوْجَدَ " .

ثم إنَّ أبا حيَّان اعْتَرَضَ عليه هنا لمَّا اسْتَطْرَدَ ، وذكر أنها تكون بمعنى صَيَّر ومثل بقوله :

﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ [الزخرف : 19] .

فقال وما ذكر من أن جعل بمعنى صَيَّر في قوله ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة ﴾ [الزخرف : 19] لا يصحُّ ؛ لأنهم لم يُصَيِّروهم إناثاً وإنما بعضُ النحويين أنها هنا بمعنى " سمَّى " .

قال شهابُ الدين : ليس المُرَادُ بالتصيير بالفعل ، بل المُراد التصيير بالقول ، وقد نصَّ الزمخشري على ذلك ، على ما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى ، وقد ظهر الفرقُ بين تخصيص السَّمواتِ والأرض بالخَلْقِ ، والظُّلُمَاتِ والنور بالجَعْل بما ذكره الزمخشري .

فصل

قال أبو العباس المقري : ورد لفظ الجَعْل في القرآن على خمسة أوجه :

الأول : بمعنى " خلق " قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة ﴾ ، وقوله ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ [فصلت : 10] ، وقوله : ﴿ جَعَلَ الليل والنهار ﴾ [الفرقان : 62] .

والثاني : بمعنى " بعث " قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرا ﴾ [الفرقان : 62] .

والثالث : بمعنى " قدره " قال تعالى ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ [الزمر : 8] وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ [الزخرف : 19] وقوله تعالى : ﴿

قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ [فصلت : 9] أي تقولون .

الرابع : بمعنى " بَيّن " قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ ﴾ [الزخرف : 3] أي : بَيَّنَّاه بحَلالِه وحَرَامِهِ .

(106/226)

الخامس : بمعنى " صَيَّرَ " قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّة ﴾ [الإسراء : 46] أي : صيرنا ، وقوله ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج ﴾ [التوبة : 19] ، وقوله ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين ﴾ [النمل : 61] ، وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِم ﴾ [يس : 8] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ .

" ثُمَّ " هذه ليست للتَّرْتيبِ الزَّمَاني ، وإنّما هي للتَّراخي بين الرُّتبتينِ ، والمُرَادُ اسْتِبْعَادُ أَنْ يَعْدِلوا به غيره مع ما أوضحَ من الدّلالاتِ ، وهذه عطفٌ : إمَّا على قوله : " الحمدُ لله " ، وإمَّا على قوله : " خَلَقَ السَّمواتِ " .

قال الزمخشري : " فإن فما معنى " ثم " ؟ قلت : استبعاد أنْ يَعْدِلُوا به بعد وضوح آيَاتِ قُدْرَتِهِ ، وكذلك " ثُمَّ أَنْتُم تَمْتَرُونَ " استبعاد لأنْ يمتروا فيه بعد ما ثبتَ أَنَّه مُحْيِيهِمْ ،

ومُميتُهُمْ وباعثهم " .

وقال ابن عطية : " ثُمَّ " دَالَّةٌ على قُبْحِ فَعْلِ الذين كَفَرُوا ، فإنَّ خلْقَهُ للسموات والأرض وغيرهما قد تَقَرَّرَ ، وآيَاتُهُ قَدْ سَطَعَتْ ، وإنْعَامُه بذلك قد تَبَيَّنَ ، ثمَّ مع هذا كُلِّهِ يَعْدِلُون به غيره .

قال أبو حيَّان : ما قَالاَهُ من أنَّها للتَّوبيخ والاسْتِبْعَادِ ليس بصحيح ؛ لأنها لم تُوضع لذلك ، والاسْتِبعَادُ والتَّوْبِيخُ مُسْتَفَادٌ من السِّيَاقِ لا من " ثُمَّ " ، ولم أعلم أحداً من النحويين ذكر ذلك ، بل " ثمَّ " هنا للمُهْلَةِ في الزَّمَانِ ، وهي عَاطِفَةٌ جملةً اسمية [على جملةٍ اسميةٍ] يعني على " الحَمْدُ للّهِ " .

ثُمَّ اعترض على الزمخشري في تَجْوِيزِه أن تكون معطوفةً على " خَلَقَ " [لأنَّ " خَلَقَ "] صِلَةٌ ، فالمعطوف عليها يُعطى حكمها ، ولكن ليس ثم رابطٌ يعودُ [منها] على الموصول .

(107/226)

ثُمَّ قال : " إلاَّ أنْ يكون على رَأي من يَرَى الرَّبْطَ بالظَّاهِرِ كقولهم : " أبو سعيدٍ الذي رَوَيْتُ عن الخدري " وهو قليلٌ جداً لا ينبغي أنْ يُحْمَلَ عليه كتابُ اللّهِ " .

قال شهابُ الدين : إنَّ الزمخشري إنَّما يريدُ العَطْفَ بـ " ثم " لتراخي ما بين الرتبتين ، ولا يريدُ

التَّرَاخي في الزَّمَانِ كما قد صَرَّحَ به هو ، فكيف يلزمه ما ذكر من الخُلُوِّ عن الرابط ؟ .

وكيفَ يتخيل كونها لِلمُهْلَة في الزمان كما أبو حيان .

قوله : " بربِّهِمْ " يجوز أن يتعلَّق بـ "كَفَرُوا " ، فيكون "يَعْدلُون " وقدِّم للفَوَاصِلِ ، وفي " الباء " حينئذٍ احتمالان :

أحدهما : أن تكون بمعنى " عن " و "يَعْدلون " مِنَ العدول أي : يعدلون عن ربهم إلى غيره .

والثاني : أنها للتعدية ويعدلون من العَدْلِ وهو التسوية بين الشَّيْئَيْنِ ، أي : ثُمَّ الذين كفروا يُسَوونَ بربِّهم غَيْرَه من المَخْلُوقِينَ ، فيكون المَفْعُولُ محذوفاً .

وقيل معنى الآية كقول القائل " أَنْعَمْتُ عليكم بكذا ، وتَفَصَّلْتُ عليكم بكذا ، ثُم تكفرون نعمتي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 9.13 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم .

باسمه استنارت القلوب واستقلت ، وباسمه زالت الكروب واضمحلت ، وبرحمته عرفت الأرواح وارتاحت ، (وبها) انخنست العقول فطاحت .

ويقال باسم الله نال كل مؤمل مأموله ، وبرحمة الله وجد كل واحد وصوله .

بدأ الله – سبحانه – بالثناء على نفسه ، فحمد نفسه بثنائه الأزليّ وأخبر عن سنائه الصمدي ، وعلائه الأحدي فقال : ﴿ الحمد لله ﴾ .

(108/226)

وقوله عز وجل : ﴿ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ : " فالذي " إشارة و ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ عبارة . استقلت الأسرارُ بسماع " الذي " لتحققها بوجوده ، ودوامها لشهوده ، واحتاجت القلوب عند سماع " الذي " إلى سماع الصلة لأن " الذي " من الأسماء الموصولة بكوْنِ القلوب تحت ستر الغيب فقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ .

خَلَقَ ظلمةَ الليل وضياءَ النهار ، ووحشةَ الكفر والشِرْك ، ونور العرفان والاستبصار .

ويقال جَعَلَ الظلماتِ نصيبَ قوم لا لجُرْمٍ سَلَفَ ، والنورَ نصيبَ قومٍ لا لاستحقاقٍ سبق ، ولكنه حُكْمٌ به جرى قضاؤه .

ويقال جعل ظلماتِ العصيان محنةَ قومٍ ، ونور العرفان نزهةَ قوم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 459. 460 ﴾

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر سبحانه أنه هو الذي خلق السماوات والأرض اللتين منهما وفيهما الأصنام والكواكب والأجرام التي عنها النور والظلمة ، فثبت وجوده على ما هو عليه من الإحاطة بأوصاف الكمال التي أثبتها الحمد ، فبطلت جميع مذاهبهم ، فعجب منهم بكونهم يعدلون به غيره ، أتبع ذلك اختصاصه بخلق هذا النوع البشري ، وهو – مع ما فيه من الشواهد له بالاختصاص بالحمد والرد على المُطرِين لعيسى عليه السلام المخلوق من الطين بخلق أبيهم آدم عليه السلام – مؤكدٌ لإبطال مذهب الثنوية ، وذلك أنهم يقولون : إن النار خالق الخير ، والظلمة خالقة الشر ، فإذا ثبت أنه الخالق لنوع الآدميين الذين منهم الخير والشر من شيء واحد ، وهو الطين الذي ولد منه المني الذي جعل منه الأعضاء المختلفة في اللون والصورة والشكل من القلب وغيره من الأعضاء البسيطة كالعظام والغضاريف ، والرباطات

والأوتار ، ثبت أن خالق أوصافهم من الخير والشر واحد قدير عليم ، لأن توليد الصفات المختلفة من المادة المتشابهة لا يكون إلا ومبدعه واحد مختار ، لا اثنان ، وهو الذي خلق الأرض التي منها أصلهم ، وهو الله الذي اختص بالحمد فقال : ﴿ هو الذي خلقكم ﴾ ولما كانوا يستبعدون البعث لصيرورة الأموات تراباً واختلاط تراب الكل بعضه ببعض وبتراب الأرض ، فيتعذر التمييز ، وكان تمييز الطين لشدة اختلاط أجزائه بالماء أعسر من تميز التراب قال : ﴿ من طين ﴾ أي فميز طينة كل منكم – مع أن منكم الأسود والأبيض وغير ذلك والشديد وغيره – من طينة الآخر بعد أن جعلها ماء ثخيناً له قوة الدفق ونماها إلى حيث شاء من الكبر .

(110/226)

ولما كان من المعلوم أن ما كانا من شيء واحد كانت مدة بقائهما واحدة ، نبه بأداة التراخي على كمال قدرته واختياره من المفاوتة بين الآجال فقال : ﴿ ثم قضى ﴾ أي حكم حكماً تاماً وبتّ وأوجد ﴿ أجلاً ﴾ أي وقتاً مضروباً لانقضاء العمر وقطع التأخر لكل واحد منكم خيراً كان أو شريراً ، قوياً كان أو ضعيفاً ، من أجل يأجل أجولاً – إذا تأخر ، وجعل تلك الآجال – مع كونها متفاوتة – متقاربة لا مزية لأحد منكم بصفة على آخر بصفة

مغائرة لها ، وفاعل ذلك لا يكون إلا واحداً فاعلاً باختيار .

ولما ذكر الأجل الأول الذي هو الإبداع من الطين إشارة إلى ما فرع منه من الآجال المتفاوتة ، ذكر الأجل الآخر الجامع للكل ، لأن ذكر البداية يستدعي ذكر النهاية ، فقال مشيراً إلى تعظيمه بالاستئناف والتنكير : ﴿ وأجل ﴾ أي عظيم ﴿ مسمى ﴾ أي لكم أجمعين لانقضاء البرزخ للإعادة التي هي في مجاري عاداتكم أهون من الابتداء لمجازاتكم والحكم بينكم الذي هو محط حكمته ومظهر نعمته ونقمته في وقت واحد ، يتساوى فيه الكل ، وستر علمه عن الكل كما أشار إليه بالتنكير ، وهذا لا يصح أن يكون إلا لواحد ، لا متعدد ، وإلا لتباينت المقادير والإرادات وانشق كل مقدور في صنف لا يتعداه ، وإلا لعلا بعضهم على بعض وانهتكت أسرار البعض بالبعض - سبحان الله وتعالى عما يصفون ، وغير السياق إلى الاسمية إشارة إلى اختصاصه بعلمه وأنه ثابت لا شك فيه ! ويؤكده إثبات قوله : ﴿ عنده ﴾ في هذه الجملة وحذفها من الأولى هنا وفي قوله ﴿ ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى ﴾ [الأنعام : 60] ، وقدم المبتدأ مع تنكيره - والأصل تأخيره - إفادة لتعظيمه .

(111/226)

ولما كان في هذا البيان لوحدانيته وتمام قدرته لا سيما على البعث الذي هو مقصود حكمته ما يبعد معه الشك في الإعادة ، أشار إليه بأداة التراخي وصيغة الافتعال فقال : ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ أي تكلفون أنفسكم الشك في كل من الوحدانية والإعادة التي هي أهون على مجاري عاداتكم من الابتداء بتقليد الآباء ، والركون إلى مجرد الهوى والإعراض عن الأدلة التي هي أظهر من ساطع الضياء ، وهذه الآية نظير آية الروم ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ [الروم : 8] أي كيف خلقهم الله من طين ، وسلط بعضهم على بعض بالظلم والعدوان ، وجعل لهم آجالاً فاوت بينها وساوى في ذلك بين الأصل والفرع ، فأنتج هذا أنه ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، أي بسبب إقامة العدل في جميع ما وقع بينكم من الاختلاف كما هو شأن كل مالك في عبيده ﴿ وأجل مسمى ﴾ - الآية .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما بين سبحانه وتعالى حال المتقدمين وهو الصراط المستقيم ، وأوضح ما يظهر الحذر من جانبي الأخذ والترك ، وبين حال من تنكب عنه ممن كان قد يلمحه ، وهم اليهود والنصارى ، وكونهم لم يلتزموا الوفاء به وحادوا عما أنهج لهم ، وانقضى أمر الفريقين ، ذماً لحالهم وبياناً لنقضهم وتحذيراً للمتقين أن يصيبهم ما أصابهم ، وختم ذلك ببيان حال المؤقنين في القيامة يوم ينفع الصادقين صدقهم ، وقد كان انجرّ مع ذلك ذكر مشركي العرب وصممهم عن الداعي وعماهم عن الآيات ، فكانوا أشبه بالبهائم منهم

بالأناسي ، أعقب ذلك تعالى بالإشارة إلى طائفة مالت إلى النظر والاعتبار ، فلم توفق لإصابة الحق وقصرت عن الاستضاءة بأنوار الهدى .

(112/226)

وليسوا ممن يرجع إلى شريعة قد حرفت وغيرت ، بل هم في صورة من هَمَّ ، أن يهتدي بهدى الفطرة ويستدل بما بسط الله تعالى في المخلوقات فلم يمعن النظر ولم يوفق فضلاً وهم المجوس وسائر الثنوية ممن كان قصارى أمره نسبة الفعل إلى النور والإظلام ، ولم يكن تقدم لهؤلاء ذكر ولا إخبار بحال فقال تعالى : ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ فبدأ تعالى بذكر خلق السماوات والأرض التي عنها وجد النور والظلمة ، إذ الظلمة ظلال هذه الأجرام ، والنور عن أجرام نيرة محمولة فيها وهي الشمس والقمر والنجوم ، فكان الكلام : الحمد لله الذي أوضح الأمر لمن اعتبر واستبصر ، فعلم أن وجود النور والظلمة متوقف بحكم السببية التي شاءها تعالى على وجود أجرام السماوات والأرض وما أودع فيها ، ومع بيان الأمر في ذلك حاد عنه من عمي عن الاستبصار ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [الأنعام : 1] وقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ [الأنعام : 2] مما يزيد هذا المعنى وضوحاً ، فإنه تعالى ذكر أصلنا والمادة التي عنها

أوجدنا ، كما ذكر للنور والظلمة ما هو كالمادة ، وهو وجود السماوات والأرض ، وأشعر لفظ ﴿ جعل ﴾ بتوقف الوجود بحسب المشيئة على ما ذكر ، وكان قد قيل : أيّ فرق بين وجود النور والظلمة عن وجود السماوات والأرض وبين وجودكم عن الطين حتى يقع امتراء فيه عن نسبة الإيجاد إلى النور والظلمة ، وهما لم يوجدا إلا بعد مادة أو سبب كما طرأ في إيجادكم ؟ فالأمر في ذلك أوضح شيء ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ [الأنعام : 2] ثم مرت السورة من أولها إلى آخرها منبهة على بسط الدلالات في الموجودات مع التنبيه على أن ذلك لا يصل إلى استثمار فائدته إلا من هيئ بحسب السابقة فقال تعالى : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ [الأنعام : 36] ثم قال تعالى : ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ [الأنعام : 36] ، وهو – والله أعلم – من نمط ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ ، أجمل هنا ثم فسر بعد في

(113/226)

السورة بعينها ، والمراد أن من الخلق من جعله الله سامعاً مطيعاً متيقظاً معتبراً بأول وهلة ، وقد أري المثال سبحانه وتعالى في ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : 75] ، فكأنه يقول لعباده المتقين : تعالوا فانهجوا طريق الاعتبار ملة أبيكم إبراهيم كيف نظر عليه السلام نظر السامع

المتيقظ ! فلم يعرج في أول نظره على ما سبب وجوده بيّنٌ فيحتاج فيه إلى غرض في الكواكب والقمر والشمس ، بل نظر فيما عنه صدر النور ، لا في النور ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، فتأمل كونه عليه السلام لم يطول النظر بالتفات النور ، ثم كان يرجع إلى اعتبار الجرم الذي عنه النور ، بل لما رأى النور عن أجرام سماوية تأمل تلك الأجرام وما قام بها من الصفات ، فرأى الأفول والطلوع والانتقال والتقلب فقال : هذا لا يليق بالربوبية لأنها صفات حدوث ، ثم رقى النظر إلى القمر والشمس فرأى ذلك الحكم جارياً فيهما فحكم بأن وراءها مدبراً لها يتنزه عن الانتقال والغيبة والأفول فقال : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : 79] وخص عليه السلام ذكر هذين لحملهما أجرام النور وسببيتهما في وجود الظلمة ، ثم تأمل هذا النظر منه عليه السلام وكيف خص بالاعتبار أشرف الموجودين وأعلاهما ، فكان في ذلك وجهان من الحكمة : أحدهما علو النظر ونفوذ البصيرة في اعتبار الأشرف الذي إذا بان منه الأمر فهو فيما سواه أبين ، فجمع بين قرب التناول وعلو التهدي ، والوجه الثاني التناسب بين حال الناظر والمنظور فيه والتناول والجري على الفطرة العلية " وهو من قبيل أخذ نبينا صلى الله عليه وسلم اللبن حين عرض عليه اللبن والخمر فاختار اللبن ، فقيل له : اخترت الفطرة ! فكان قد قيل : هذا النظر والاعتبار بالهام ، لا نظر من أخلد إلى الأرض فعمد الضياء والظلام ، وينبغي أن يعتمد في قصة إبراهيم عليه السلام في هذا

(114/226)

الاعتبار أنه صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ هذا ربي ﴾ إنما قصد قطع حجة من عبد شيئاً من ذلك إذ كان دين قومه ، فبسط لهم الاعتبار والدلالة ، وأخذ يعرض ما قد تنزه قدرُه عن الميل إليه ، فهو كما يقول المناظر لمن يناظره : هب أن هذا على ما تقول .

(115/226)

يريد بذلك إذعان خصمه واستدعاءه للاعتبار حتى يكون غير مناظر له ما لا يعتقده ، ليبني على ذلك مقصوده ليقلع خصمه وهو على يقين من أمره ، فهذا ما ينبغي أن يعتمد هنا لقول يوسف عليه السلام ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ [يوسف : 38] ، فالعصمة قد اكتنفتهم عما يتوهمه المبطلون ويتقوله المفترون ، ويشهد لما قلناه قوله تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ [الأنعام : 83] فهذه حال من علت درجته من الذين يسمعون ، فمن الخلق من جعله الله سامعاً بأول وهلة وهذا مثال شاف في ذلك ، ومنهم الميت ، والموتى على ضربين : منهم من يزاح عن جهله وعمهه ، ومنهم من

يبقى في ظلماته ميتاً لا حراك به ، يبين ذلك قوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [الأنعام : 122] ؛ ولما كانت السورة متضمنة جهات الاعتبار ومحركة إلى النظر ومعلنة من مجموع آيها أن المعتبر والمتأمل – وإن لم يكن متيقظاً بأول وهلة ، ولا سامعاً أول محرك ، ولا مستجيباً لأول سامع – قد ينتقل حاله عن جموده وغفلته إلى أن يسمع ويلحق بمن كان يتيقظ في أول وهلة ؛ ناسب تحريكُ العباد وأمرهم بالنظر أن تقع الإشارة في صدر السورة إلى حالتين : حالة السامعين لأول وهلة ، وحالة السامعين في ثاني حال ، فقيل : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ﴾ [الأنعام : 36] ولم تقع هنا إشارة إلى القسم الثالث مع العلم به ، وهو الباقي على همود وموته ممن لم يحركه زاجر ولا واعظ ولا اعتبار ، ولأن هذا الضرب لو ذكر هنا لكان فيه ما يكسل من ضعفت همته ، رجعت حالةُ ابتدائه ، فقيل : ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ وأطلق ليعمل الكل على هذا البعث من الجهل والتيقظ من سِنة الغفلة كما دعا لكل إلى الله دعاء واحداً فقيل : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ ثم اختلفوا في إجابة الداعي بحسب السوابق هكذا ، وردّ هذا ﴿ والموتى يبعثهم

الله ﴾ إسماعاً للكل ، وفي صورة التساوي مناسبة للدعاء لتقوم الحجة على العباد ، حتى إذا انبسطت الدلائل وانشرحت الصدور لتلقيها وتشبثت النفوس وتعلقت بحسب ما قدر ، وفاز بالخير أهله ، قال تعالى بعد آي : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ [الأنعام : 122] وكان قد قيل لمن انتقل عن حالة الموت فرأى قدر نعمة الله عليه بإحيائه : هل يشبه الآن حالك النيرة – بما منحت حين اعتبرت – بحالك الجمادية ؟ فاشكر ربك واضرع إليه في طلب الزيادة ، واتعظ بحال من لزم حال موته فلم تغن عنه الآيات ، وهو المشار إليه بقوله : ﴿ كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ ﴿ سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ [البقرة : 6] وكان القسم المتقدم الذي سمع لأول وهلة لم يكن ليقع ذكره هنا من جهة قصد أن أراه قدر هذه النعمة وإنقاذ المتصف بها من حيرة شك موقعها فيما تقدم من قوله ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ [الأنعام : 36] فذكر هنا ما هو واقع في إراءة قدر نعمة الإنقاذ والتخليص من عمى الجهل ، هذا حال من انتقل بتوفيق الله وحال من بقي على موته ، أو يكون الضربان قد شملهما قوله ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] وأما الثاني وهو الذي ثبتت فيه صورة النقل فأمره صريح من الآية وأما الضرب الأول وهو السامع لأول وهلة المكفي المؤنة لواقي العصمة من طوارق

الجهل والشكوك ، فدخوله تحت مقتضى هذا اللفظ من حيث إن وقايته تلك أو سماعه بأول وهلة ليس من جهته ولا بما سبق أو تكلف ، بل بإسداء الرحمة وتقديم النعمة ، ولو أبقاه لنفسه أو وكله إليها لم يكن كذلك ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل : 53] ، فبهذا النظر قد تكون الآية قد شملت الضروب الثلاثة وهو أولى ، أما سقوط الضرب

(117/226)

الثالث من قوله : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ [الأنعام : 36] فلِما تقدم – والله أعلم بما أراد ؛ ولما تضمنت هذه السورة الكريمة من بسط الاعتبار وإبداء جهات النظر ما إذا تأمله المتأمل علم أن حجة الله قائمة على العباد ، وأن إرسال الرسل رحمة ونعمة وفضل وإحسان ، وإذا كانت الدلالات مبسوطة والموجودات مشاهدة مفصحة ، ودلالة النظر من سمع وأبصار وأفئدة موجدة ، فكيف يتوقف عاقل في عظيم رحمته تعالى بإرسال الرسل ! فتأكدت الحجة وتعاضدت البراهين ، فلما عرف الخلق لقيام الحجة عليهم بطريقي الإصغاء إلى الداعي والاعتبار بالصنعة ؛ قال تعالى : ﴿ قل فللّه الحجة البالغة ﴾ [الأنعام : 149] ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ [الأنعام : 157] فيما عذر المعتذر بعد هذا ؟ أتريدون كشف الغطاء ورؤية الأمر عياناً ! لو استبصرتم

لحصل لكم ما منحتم ، ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ﴾ [الأنعام : 158] ، ثم ختمت السورة من التسليم والتفويض بما يجدي مع قوله : ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [الأنعام : 149] وحصل من السور الأربع بيان أهل الصراط المستقيم وطبقاتهم في سلوكهم وما ينبغي لهم التزامه أو تركه ، وبيان حال المتنكبين عن سلوكه من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والمجوس – انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 581.586 ﴾

(118/226)

فصل

قال الثعلبي :

قال السدي : بعث اللّه جبرئيل إلى الأرض ليأتيه بطينة منها فقالت الأرض : إني أعوذ باللّه منك أن تنقص مني فرجع ولم يأخذ ، وقال : يا ربّ إنها عاذت بك ، فبعث ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث ملك الموت فعاذت منه باللّه فقال : أنا أعوذ باللّه أن أخالف أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط التربة الحمر والسودا والبيضاء فلذلك اختلفت ألوان بني آدم ثم عجنها بالماء العذب والمالح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم فقال اللّه عز وجل لملك

الموت رَحِمَ جبرئيل وميكائيل الأرض ولم ترحمها لا جرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن اللّه خلق آدم من تراب جعله طيناً ثم تركه حتى كان حمأً مسنوناً خلقه وصوّره ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار [فكان إبليس يمرّ به فيقول] خلقت لأمر عظيم ثم نفخ اللّه فيه روحه " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

---

(1) أيضا هذه الرواية تفتقر إلى سند صحيح .

فصل

قال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ﴾ الآية خبر ، وفي معناه قولان : أحدهما وهو الأشهر ، وعليه من الخلق الأكثر ، أن المراد آدم عليه السلام والخلق نَسْله ، والفرع يضاف إلى أصله ؛ فلذلك قال : "خَلَقَكُمْ" بالجمع ؛ فأخرجه مخرج الخطاب لهم إذ كانوا ولده ؛ هذا قول الحسن وقَتَادة وابن أبي نَجِيح والسُّديّ والضّحاك وابن زيد وغيرهم .

الثاني أن تكون النطفة خلقها الله من طين على الحقيقة ثم قلبها حتى كان الإنسان منها ؛ ذكره النحاس .

قلت : وبالجملة فلما ذكر جل وعز خلق العالم الكبير ذكر بعدهُ خلق العالم الصغير وهو

الإنسان ، وجعل فيه ما في العالم الكبير ، على ما بيّناه في "البقرة" في آية التوحيد (والله أعلم) والحمد لله .

(119/226)

وقد روى أبو نعيم الحافظ في كتابه عن مُرَّة عن ابن مسعود أن المَلك الموكَّل بالرَّحم يأخذ النطفة فيضعها على كفه ثم يقول : يا رب مُخلّقة أو غير مخلّقة ؟ فإن قال مُخلّقة قال : يا رب ما الرزق ، ما الأثر ، ما الأجل ؟ فيقول : انظر في أُمّ الكتاب ، فينظر في اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأثره وأجله وعمله ، ويأخذ التراب الذي يدفن في بقعته ويعجن به نطفته ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه : 55] .

وخرّج عن أبي هُريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا وقد ذُرَّ عليه من تُراب حُفْرته " .

قلت : وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقاً من طين وماء مهين ، كما أخبر جل وعز في سورة "المؤمنون" ؛ فتنتظم الآيات والأحاديث ، ويرتفع الإشكال والتعارض ، والله أعلم .

وأما الإخبار عن خلق آدم عليه السلام فقد تقدّم في "البقرة" ذكره واشتقاقه ، ونزيد هنا طرفاً من ذلك ونعته وسِنّه ووفاته ؛ ذكر ابن سعد في "الطَّبقات" عن أبي هُريرة قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الناس ولد آدم وآدم من التراب " وعن سعيد بن جُبير قال : خلق الله آدم عليه السلام من أرض يقال لها دَجْنَاء ؛ قال الحسن : وخلق جُؤْجُؤه من ضَرِّية ؛ قال الجوهريّ : ضَرِيَّة قرية لبني كلاب على طريق البصرة وهي إلى مكة أقرب ، وعن ابن مسعود قال : "إن الله تعالى بعث إبليس فأخذ من أَدِيم الأرض من عَذْبها وما لحها فخلق منه آدم عليه السلام فكل شيء خلقه من عَذْبها فهو صائر إلى الجنة وإن كان ابن كافر ، وكل شيء خلقه من مالحها فهو صائر إلى النار وإن كان ابن تقيّ ؛ فمن ثَمّ قال إبليس : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء : 61] لأنه جاء بالطينة ؛ فسمى آدم ؛ لأنه خلق من أَدِيم الأرض .

وعن عبد الله بن سَلاَم قال : خلق الله آدم في آخر يوم الجمعة .

(120/226)

وعن ابن عباس قال : لما خلق الله آدم كان رأسه يَمسُّ السماء قال ؛ فوَطَده إلى الأرض حتى صار ستين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً .

وعن أُبيّ بن كعب قال : كان آدم عليه السلام طُوَالاً جَعْدا كأنه نخلة سَحُوق .

وعن ابن عباس في حديث فيه طول وحج آدم عليه السلام من الهند إلى مكة أربعين حجة

على رجليه ، وكان آدم حين أُهبِط تمسح رأسه السماء ؛ فمن ثم صَلِع وأورث ولده الصَّلَع ، ونَفَرت من طوله دواب البرّ فصارت وحشا من يومئذ ، ولم يمت حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً ، وتُوفي على ذِرْوة الجبل الذي أنزل عليه ، فقال شيث لجبريل عليهما السلام : "صَلِّ على آدم" فقال له جبريل عليه السلام : تقدّم أنت فَصَلِّ على أبيك وكَبِّر عليه ثلاثين تكبيرة ، فأما خمس فهي الصلاة ، وخمس وعشرون تفضيلاً لآدم .

وقيل : كبّر عليه أربعاً ؛ فجعل بنو شيث آدم في مغارة وجعلوا عليها حافظاً لا يقربه أحد من بني قابيل ، وكان الذين يأتونه ويستغفرون له بنو شيث ، وكان عمر آدم تسعمائة سنة وستا وثلاثين سنة . (1)

---

(1) شأن هذه الروايات كشأن ما تقدمها تحتاج إلى سند صحيح . والله أعلم .

ويقال : هل في الآية دليل على أن الجواهر من جنس واحد ؟ الجواب نعم ؛ لأنه إذا جاز أن ينقلب الطين إنساناً حياً قادراً عليما ، جاز أن ينقلب إلى كل حال من أحوال الجواهر ؛ لتسوية العقل بين ذلك في الحكم ، وقد صح انقلاب الجماد إلى الحيوان بدلالة هذه الآية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ يعني أنه تعالى خلق آدم من طين وإنما خاطب ذريته بذلك

لأنه أصلهم وهم من نسله وذلك لما أنكر المشركون البعث وقالوا مَن يحيي العظام وهي رميم أعلمهم بهذه الآية أنه خلقهم من طين وهو القادر على إعادة خلقهم وبعثهم بعد الموت .

(121/226)

قال السدي : لما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بقبضة منها ، فقالت الأرض : إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني فراجع ولم يأخذ منها شيئاً فقال : يا رب عاذت بك فبعث الله ميكائيل فاستعاذت فرجع فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره وأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء ؛ فلذا اختلفت ألوان بني آدم ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم ثم قال الله لملك الموت رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها لا جرم اجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب " أخرجه أبو داود والترمذي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا الكلام يحتمل أن يكون المراد منه ذكر دليل آخر من دلائل إثبات الصانع تعالى ، ويحتمل أن لا يكون المراد منه ذكر الدليل على صحة المعاد وصحة الحشر .

أما الوجه الأول : فتقريره : أن الله تعالى لما استدل بخلقه السموات والأرض وتعاقب الظلمات والنور على وجود الصانع الحكيم أتبعه بالاستدلال بخلقه الإنسان ، على إثبات هذا المطلوب فقال : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ ﴾ والمشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم وآدم كان مخلوقاً من طين .

(122/226)

فلهذا السبب قال : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ ﴾ وعندي فيه وجه آخر ، وهو أن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث ، وهما يتولدان من الدم ، والدم إنما يتولد من الأغذية ، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، فإن كانت حيوانية كان الحال في كيفية تولد ذلك الحيوان كالحال في كيفية تولد الإنسان ، فبقي أن تكون نباتية ، فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية ، ولا شك أنها متولدة من الطين ، فثبت أن كل إنسان متولد من الطين .

وهذا الوجه عندي أقرب إلى الصواب .

إذا عرفت هذا فنقول : هنا الطين قد تولدت النطفة منه بهذا الطريق المذكور ، ثم تولد من النطفة أنواع الأعضاء المختلفة في الصفة والصورة واللون والشكل مثل القلب والدماغ والكبد ، وأنواع الأعضاء البسيطة كالعظام والغضاريف والرباطات والأوتار وغيرها ، وتولد الصفات المختلفة في المادة المتشابهة لا يمكن إلا بتقدير مقدر حكيم ومدبر رحيم وذلك هو المطلوب .

وأما الوجه الثاني : وهو أن يكون المقصود من هذا الكلام تقرير أمر المعاد ، فنقول لما ثبت أن تخليق بدن الإنسان إنما حصل ، لأن الفاعل الحكيم والمقدر الرحيم ، رتب حلقة هذه الأعضاء على هذه الصفات المختلفة بحكمته وقدرته ، وتلك القدرة والحكمة باقية بعد موت الحيوان فيكون قادراً على إعادتها وإعادة الحياة فيها ، وذلك يدل على صحة القول بالمعاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 126 . 127 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ ظاهره أنا مخلوقون من طين ، وذكر ذلك المهدوي ومكي والزهراوي عن فرقة فالنطفة التي يخلق منها الإنسان أصلها ﴿ من طين ﴾ ثم يقلبها الله نطفة .

قال ابن عطية : وهذا يترتب على قول من يقول : يرجع بعد التولد والاستحالات الكثيرة

نطفة وذلك مردود عند الأصوليين ؛ انتهى .

وقال النحاس : يجوز أن تكون النطفة خلقها الله ﴿ من طين ﴾ على الحقيقة ثم قلبها حتى كان الإنسان منها ؛ انتهى .

(123/226)

وقد روى أبو نعيم الحافظ عن بريد بن مسعود حديثاً في الخلق آخره : "ويأخذ التراب الذي يدفن في بقعته ويعجن به نطفته" ، فذلك قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ الآية .

وخرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يولد إلا وقد در عليه من تراب حفرته " .

وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه : وعندي فيه وجه آخر وهو أن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث المتولدين من الأغذية ، والأغذية حيوانية والقول في كيفية تولدها ، كالقول في الإنسان أو نباتية فثبت تولد الإنسان من النباتية وهي متولدة ﴿ من الطين ﴾ فكل إنسان متولد .

﴿ من الطين ﴾ وهذا الوجه أقرب إلى الصواب ؛ انتهى .

وهذا الذي ذكر أنه عنده وجه آخر وهو أقرب إلى الصواب ، هو بسط ما حكاه المفسرون عن فرقة .

وقال فيه ابن عطية : هو مردود عند الأصوليين يعني القول : بالتوالد والاستحالات والذي هو مشهور عند المفسرين ، أن المخلوق ﴿ من الطين ﴾ هنا هو آدم .

قال قتادة ومجاهد والسدي وغيرهم : المعنى خلق آدم ﴿ من طين ﴾ والبشر من آدم فلذلك قال : ﴿ خلقكم من طين ﴾ وذكر ابن سعد في الطبقات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الناس ولد آدم وآدم من تراب " .

وقال بعض شعراء الجاهلية :

إلى عرق الثرى وشجت عروقي . . .

وهذا الموت يسلبني شبابي

وفسره الشراح بأن عرق الثرى هو آدم ، فعلى هذا يكون التأويل على حذف مضاف إما في ﴿ خلقكم ﴾ أي خلق أصلكم ، وإما في ﴿ من طين ﴾ أي من عرق طين وفرعه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ ﴾ استئناف مسوق لبيان (بطلان) كفرهم بالبعث

والخطاب وإن صح كونه عاماً لكنه هنا خاص بالذين كفروا كما يدل عليه الخطاب الآتي ففيه التفات .

(124/226)

والنكتة فيه زيادة التشنيع والتوبيخ ، وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر أدلة صحة البعث مع أن ما تقدم من أظهر أدلته لما أن دليل الأنفس أقرب إلى الناظر من دليل الآفاق الذي في الآية السابقة ، ومعنى خلق المخاطبين من طين أنه ابتدأ خلقهم منه فإنه المادة الأولى (للكل) لما أنه أصل آدم عليه الصلاة والسلام وهو أصل سائر البشر ، ولم ينسب سبحانه الخلق إليه عليه الصلاة والسلام مع أنه المخلوق منه حقيقة وكفاية ذلك في الغرض الذي سيق له الكلام توضيحاً لمنهاج القياس ومبالغة في إزاحة الشبهة والالتباس ، وقيل في توجيه خلقهم منه : إن الإنسان مخلوق من النطفة والطمث وهما من الأغذية الحاصلة من التراب بالذات أو بالواسطة .

وقال المهدوي في ذلك : إن كل إنسان مخلوق ابتداءً من طين لخبر " ما من مولود يولد إلا ويذر على نطفته من تراب حفرته " وفي القلب من هذا شيء ، والحديث إن صح لا يخلو عن ضرب من التجوز ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي خلق (آباءكم) ، وأياً ما كان

ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى شأنه على البعث ما لا يخفى فإن من قدر على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط كان على إحياء ما قارنها مدة أظهر قدرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾

استئناف لغرض آخر للتعجيب من حال المشركين إذ أنكروا البعث ، فإنّه ذكّرهم ابتداء بخلق السماوات والأرض ، وعجّب من حالهم في تسويتهم ما لم يخلق السماوات ولا الأرض بالله تعالى في الإلهيّة .

ثم ذكّرهم بخلقهم الأول ، وعجّب من حالهم كيف جمعوا بين الاعتراف بأنّ الله هو خالقهم الخلق الأول فكيف يمترون في الخلق الثاني .

(125/226)

وأتي بضمير (هو) في قوله ﴿ هو الذي خلقكم ﴾ ليحصل تعريف المسند والمسند إليه معاً ، فتفيد الجملة القصر في ركني الإسناد وفي متعلّقها ، أي هو خالقكم لا غيره ، من طين لا من غيره ، وهو الذي قضى أجلاً وعنده أجل مسمّى فينسحب حكم القصر على

المعطوف على المقصور .

والحال الذي اقتضى القصر هو حال إنكارهم البعث لأنّهم لمّا أنكروه وهو الخلق الثاني نزّلوا منزلة من أنكر الخلق الأول إذ لا فرق بين الخلقين بل الإعادة في متعارف الصانعين أيسرُ كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] وقال ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خَلق جديد ﴾ [ق : 15] .

والقصر أفاد نفي جميع هذه التكوينات عن غير الله من أصنامهم ، فهو كقوله : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ [الروم : 40] .

والخطاب في قوله ﴿ خلقكم ﴾ موجّه إلى الذين كفروا ، ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لقصد التوبيخ .

وذكر مادّة ما منه الخلق بقوله : ﴿ من طين ﴾ لإظهار فساد استدلالهم على إنكار الخلق الثاني ، لأنّهم استبعدوا أن يعاد خلق الإنسان بعد أن صار تراباً .

وتكرّرت حكاية ذلك عنهم في القرآن ، فقد اعترفوا بأنّهم يصيرون تراباً بعد الموت ، وهم يعترفون بأنّهم خلقوا من تراب ، لأنّ ذلك مقرّر بين الناس في سائر العصور ، فاستدلّوا على إنكار البعث بما هو جدير بأن يكون استدلالاً على إمكان البعث ، لأنّ مصيرهم إلى تراب يقرّب إعادة خلقهم ، إذ صاروا إلى مادة الخلق الأوّل ، فلذلك قال الله هنا ﴿ هو الذي

خلقكم من طين ﴾ وقال في آيات الاعتبار بعجيب تكوينه ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ [الإنسان : 2] ، وأمثال ذلك .

وهذا القدح في استدلالهم يسمّى في اصطلاح علم الجدل القولَ بالموجَب ، والمنبّهُ عليه من خطأ استدلالهم يسمّى فساد الوضع .

(126/226)

ومعنى ﴿ خلقكم من طين ﴾ أنّه خلق أصل النّاس وهو البشر الأوّل من طين ، فكان كلّ البشر راجعاً إلى الخلق من الطين ، فلذلك قال ﴿ خلقكم من طين ﴾ .

وقال في موضع آخر ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ [الإنسان : 2] أي الإنسان المتناسل من أصل البشر .

و﴿ ثم ﴾ للترتيب والمهلة عاطفة فعل ﴿ قضى ﴾ على فعل ﴿ خلق ﴾ فهو عطف فعل على فعل وليس عطف جملة على جملة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾

فصل

قال الفخر :

لفظ القضاء قد يرد بمعنى الحكم والأمر .

قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الأسراء : 23] وبمعنى الخبر والاعلام .

قال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إلى بَنِى إسرائيل فِى الكتاب ﴾ [الإسراء : 4] وبمعنى صفة الفعل إذا تمّ .

قال تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 12] ومنه قولهم قضى فلان حاجة فلان .

وأما الأجل فهو في اللغة عبارة عن الوقت المضروب لانقضاء الأمد ، وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانقضاء عمره ، وأجل الدين محله لانقضاء التأخير فيه وأصله من التأخير يقال أجل الشيء يأجل أجولاً ، وهو آجل إذا تأخر والآجل نقيض العاجل .

إذا عرفت هذا فقوله ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾ معناه أنه تعالى خصص موت كل واحد بوقت معين وذلك التخصيص عبارة عن تعلق مشيئته بإيقاع ذلك الموت في ذلك الوقت .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون : 15] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ﴾

فاعلم أن صريح هذه الآية يدل على حصول أجلين لكل إنسان .

واختلف المفسرون في تفسيرهما على وجوه :

الأول : قال أبو مسلم قوله ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾ المراد منه آجال الماضين من الخلق وقوله ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ المراد منه آجال الباقين من الخلق فهو خص هذا الأجل .

(127/226)

الثاني : بكونه مسمى عنده ، لأن الماضين لما ماتوا صارت آجالهم معلومة ، أما الباقون فهم بعد لم يموتوا فلم تصر آجالهم معلومة ، فلهذا المعنى قال : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾

والثاني : أن الأجل الأول هو أجل الموت والأجل المسمى عند الله هو أجل القيامة ، لأن مدة حياتهم في الآخرة لا آخرة لها ولا انقضاء ولا يعلم أحد كيفية الحال في هذا الأجل إلا الله سبحانه وتعالى .

والثالث : الأجل الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت .

والثاني : ما بين الموت والبعث وهو البرزخ .

والرابع : أن الأول : هو النوم والثاني : الموت .

والخامس : أن الأجل الأول مقدار ما انقضى من عمر كل أحد ، والأجل الثاني : مقدار ما بقي من عمر كل أحد .

والسادس : وهو قول حكماء الإسلام أن لكل إنسان أجلين : أحدهما : الآجال الطبيعية .

والثاني : الآجال الاخترامية .

أما الآجال الطبيعية : فهي التي لو بقي ذلك المزاج مصوناً من العوارض الخارجية لانتهت مدة بقائه إلى الوقت الفلاني ، وأما الآجال الاخترامية : فهي التي تحصل بسبب من الأسباب الخارجية : كالغرق والحرق ولدغ الحشرات وغيرها من الأمور المعضلة ، وقوله ﴿ مُّسمًّى عِندَهُ ﴾ أي معلوم عنده أو مذكور اسمه في اللوح المحفوظ ، ومعنى عنده شبيه بما يقول الرجل في المسألة عندي أن الأمر كذا وكذا أي هذا اعتقادي وقولي .

فإن قيل : المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفاً وجب تأخيره فلم جاز تقديمه في قوله ﴿ وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ﴾

قلنا : لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة كقوله ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ [البقرة : 221] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 127 . 128 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قضى أَجَلاً ﴾ مفعول .

﴿ وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ﴾ ابتداء وخبر .

قال الضحاك : "أَجَلاً" في الموت ﴿ وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ﴾ أجل القيامة ؛ فالمعنى على هذا : حَكَم أجلاً ، وأعلمكم أنكم تقيمون إلى الموت ولم يعلمكم بأجل القيامة .

وقال الحسن ومجاهد وعِكْرمة وخصيف وقَتَادة وهذا لفظ الحسن : قضى أجل الدنيا من يوم خلقك إلى أن تموت ﴿ وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ﴾ يعني الآخرة .

وقيل : ﴿ قضى أَجَلاً ﴾ ما أُعلمناه من أنه لا نبيّ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَأَجَلٌ مُّسمًّى ﴾ من الآخرة .

وقيل : ﴿ قضى أَجَلاً ﴾ مما نعرفه من أوقات الأهلّة والزرع وما أشبههما ، ﴿ وَأَجَلٌ مُّسمًّى ﴾ أجل الموت ؛ لا يعلم الإنسان متى يموت .

وقال ابن عباس ومجاهد : معنى الآية ﴿ قضى أَجَلاً ﴾ بقضاء الدنيا ، ﴿ وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ﴾ لابتداء الآخرة .

وقيل : الأوّل قبض الأرواح في النوم ، والثاني قبض الروح عند الموت ؛ عن ابن عباس أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثم قضى أجلاً وأجلّ مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴾ ﴿ قضى ﴾ إن كانت هنا بمعنى قدر وكتب ، كانت ﴿ ثم ﴾ هنا للترتيب في الذكر لا في الزمان لأن ذلك سابق على

خلقنا ، إذ هي صفة ذات وإن كانت بمعنى أظهر ، كانت للترتيب الزماني على أصل وضعها ، لأن ذلك متأخر عن خلقنا فهي صفة فعل والظاهر من تنكير الأجلين أنه تعالى أبهم أمرهما .

وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وخصيف وقتادة : الأول أجل الدنيا من وقت الخلق إلى الموت ، والثاني أجل الآخرة لأن الحياة في الآخرة لا انقضاء لها ، ولا يعلم كيفية الحال في هذا الأجل إلا الله تعالى ، وروي عن ابن عباس أن الأول هو وفاته بالنوم والثاني بالموت .

وقال أيضاً : الأول أجل الدنيا والثاني الآخرة .

وقال مجاهد أيضاً : الأول الآخرة .

والثاني الدنيا .

وقال ابن زيد : الأول هو في وقت أخذ الميثاق على بني آدم حين استخرجهم من ظهر آدم ، والمسمى في هذه الحياة الدنيا .

(129/226)

وقال أبو مسلم : الأول أجل الماضين ، والثاني أجل الباقين ، ووصفه بأنه مسمى عنده لأنه تعالى مختص به بخلاف الماضين ، فإنهم لما ماتوا علمت آجالهم .

وقيل : الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت ، والثاني ما بين الموت والبعث ، وهو البرزخ .

وقيل : الأول مقدار ما انقضى من عمر كل إنسان ، والثاني مقدار ما بقي .

وقيل : الأول أجل الأمم السالفة ، والثاني أجل هذه الأمة .

وقيل : الأول ما علمناه أنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، والثاني من الآخرة ،

وقيل : الأول ما عرف الناس من آجال الأهلة والسنين والكوائن ، والثاني قيام الساعة .

وقيل : الأول من أوقات الأهلة وما أشبهها ، والثاني موت الإنسان .

وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً ﴿ قضى أجلاً ﴾ بانقضاء الدنيا والثاني لابتداء الآخرة .

وروي عن ابن عباس أنه قال : لكل أحد أجلان ، فإن كان تقياً وصولاً للرحم زيد له من أجل البعث في أجل العمر ، وإن كان بالعكس نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث .

وقال أبو عبد الله الرازي : لكل إنسان أجلان الطبيعي والاخترامي .

فالطبيعي : هو الذي لو بقي ذلك المزاج مصوناً عن العوارض الخارجة لانتهت مدة بقائه إلى الأوقات الفلكية .

والاخترامي : هو الذي يحصل بسبب الأسباب الخارجية كالحرق والغرق ولدغ الحشرات ، وغيرها من الأمور المنفصلة ، انتهى .

وهذا قول المعتزلة وهو نقله عنهم وقال : هذا قول حكماء الإسلام ، انتهى ومعنى ﴿

مسمى عنده ﴾ معلوم عنده أو مذكور في اللوح المحفوظ ، وعنده مجاز عن علمه ولا يراد به المكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(130/226)

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ قَضَى ﴾ أي قدر وكتب ﴿ أَجَلاً ﴾ أي حداً معيناً من الزمان للموت .

و ﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب في الذكر دون الزمان لتقدم القضاء على الخلق ، وقيل : الظاهر الترتيب في الزمان ، ويراد بالتقدير والكتابة ما تعلم به الملائكة وتكتبه كما وقع في حديث "الصحيحين" " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد " مُّسَمًّى ﴾ أي حد معين للبعث من القبور ، وهو مبتدأ وصح الابتداء به لتخصيصه بالوصف أو لوقوعه في موقع التفصيل و ﴿ عِندَهُ ﴾ هو الخبر ، وتنوينه لتفخيم شأنه وتهويل أمره .

وقدم على خبره الظرف مع أن الشائع في النكرة المخبر عنها به لزوم تقديمه عليها وفاء بحق التفخيم ، فإن ما قصد به ذلك حقيق بالتقديم فالمعنى وأجل أي أجل مستقل بعلمه

سبحانه وتعالى لا يقف على وقت حلوله سواه جل شأنه لا إجمالاً ولا تفصيلاً .

وهذا بخلاف أجل الموت فإنه معلوم إجمالاً بناءاً على ظهور أماراته أو على ما هو المعتاد في أعمال الإنسان .

وقيل : وجه الإخبار عن هذا أو التقييد بكونه عنده سبحانه وتعالى أنه من نفس المغيبات الخمس التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، والأول : أيضاً وإن كان لا يعلمه إلا هو قبل وقوعه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : 34] لكنا نعلمه للذين شاهدنا موتهم وضبطنا تواريخ ولادتهم ووفاتهم فنعلمه سواء أريد به آخر المدة أو جملتها متى كان وكم مدة كان .

وذهب بعضهم إلى أن الأجل الأول ما بين الخلق والموت ، والثاني : ما بين الموت والبعث .

(131/226)

وروي ذلك عن الحسن وابن المسيب وقتادة والضحاك واختاره الزجاج ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه حيث قال : قضى أجلاً من مولده إلى مماته وأجل مسمى عنده من الممات إلى البعث لا يعلم ميقاته أحد سواه سبحانه فإذا كان الرجل صالحاً واصلاً لرحمه زاد الله تعالى له في أجل الحياة من أجل الممات إلى البعث وإذا كان غير صالح

ولا واصل نقصه الله تعالى من أجل الحياة وزاد في أجل الممات ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر : 11] وعليه فمعنى عدم تغير الأجل عدم تغير آخره ، وقيل : الأجل الأول الزمن الذي يحيى به أهل الدنيا إلى أن يموتوا والأجل الثاني أجل الآخرة الذي لا آخر له ، ونسب ذلك إلى مجاهد وابن جبير واختاره الجبائي .

ولا يخفى بعد إطلاق الأجل على المدة الغير المتناهية ، وعن أبي مسلم أن الأجل الأول أجل من مضى والثاني أجل من بقي ومن يأتي ، وقيل : الأول النوم والثاني الموت .

(132/226)

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وأيده الطبرسي بقوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر : 42] ولا يخفى بعده لأن النوم وإن كان أخا الموت لكنه لم تعهد تسميته أجلاً وإن سمي موتاً ، وقيل : إن كلا الأجلين للموت ولكل شخص أجلان أجل يكتبه الكتبة وهو يقبل الزيادة والنقص وهو المراد بالعمر في خبر "إن صلة الرحم تزيد في العمر" ونحوه وأجل مسمى عنده سبحانه وتعالى لا يقبل التغيير ولا يطلع عليه غيره عز شأنه وكثير من الناس قالوا : إن المراد بالزيادة الواردة في غير

ما خبر الزيادة بالبركة والتوفيق للطاعة ، وقيل : المراد طول العمر ببقاء الذكر الجميل كما قالوا : ذكر الفتى عمره الثاني وضعفه الشهاب ، وقيل : الأجلان واحد والتقدير وهذا أجل مسمى فهو خبر مبتدأ محذوف و ﴿ عِندَهُ ﴾ خبر بعد خبر أو متعلق بمسمى وهو أبعد الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

قال الفخر :

وأما قوله ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ فنقول : المرية والامتراء هو الشك .

واعلم أنا إن قلنا المقصود من ذكر هذا الكلام الاستدلال على وجود الصانع كان معناه أن بعد ظهور مثل هذه الحجة الباهرة أنتم تمترون في صحة التوحيد ، وإن كان المقصود تصحيح القول بالمعاد فكذلك ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 128 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تشكون في البعث كما أخرجه أبن أبي حاتم عن خالد بن معدان ، وعن الراغب المرية التردد في المتقابلين وطلب الإمارة مأخوذ من مرى الضرع إذا مسحه للدر .

ووجه المناسبة في استعماله في الشك أن الشك سبب لاستخراج العلم الذي هو كاللبن الخالص من بين فرث ودم .

قيل : الامتراء الجحد ، وقيل : الجدال .

وأياً ما كان فالمراد استبعاد امترائهم في وقوع البعث وتحققه في نفسه مع مشاهدتهم في أنفسهم من الشواهد ما يقطع مادة ذلك بالكلية فإن من قدر على إفاضة الحياة وما يتفرع عليها على مادة غير مستعدة لشيء من ذلك كان أوضح اقتداراً على إفاضته على مادة قد استعدت له وقارنته مدة .

ومن هذا يعلم أن شطراً من تلك الأوجه السابقة آنفاً لا يلائم مساق النظم الكريم ، وتوجيه الاستبعاد إلى الامتراء على التفسير الأول مع أن المخاطبين جازمون بانتفاء البعث مصرون على جحوده وإنكاره كما ينبىء عنه كثير من الآيات للدلالة على أن جزمهم ذلك في أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار .

وذكر بعض المحققين أن الآية الأولى دليل التوحيد كما أن هذه دليل البعث ، ووجه ذلك بأنها تدل على أنه لا يليق الثناء والتعظيم بشيء سواه عز وجل لأنه المنعم لا أحد غيره ويلزم منه أنه لا معبود ، ولا إله سواه بالطريق الأولى ، وزعم بعضهم أنها لا تدل على ذلك إلا بملاحظة برهان التمانع إذ لو قطع النظر عنه لا تدل على أكثر من وجود الصانع ، ومنشأ ذلك حمل

الدليل على البرهان العقلي أو مقدماته التي يتألف منها أشكاله وليس ذلك باللازم .

ومن الناس من جعل الآية الأولى أيضاً دليلاً على البعث على منوال قوله تعالى : ﴿ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء بناها رَفَعَ ﴾ [النازعات : 72] ولا يخفى أنه خلاف الظاهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 7 صـ ﴾

(134/226)

فائدة

قال ابن عاشور :

والمهلة هنا باعتبار التوزيع ، أي خلق كلّ فرد من البشر ثم قضى له أجله ، أي استوفاه له ، ف ﴿ قضى ﴾ هنا ليس بمعنى (قدّر) لأنّ تقدير الأجل مقارن للخلق أو سابق له وليس متأخّراً عنه ولكن ﴿ قضى ﴾ هنا بمعنى (أوفى) أجل كلّ مخلوق كقوله : ﴿ فلمّا قضينا عليه الموت ﴾ [سبأ : 14] ، أي أمتناه .

ولك أن تجعل (ثم) للتراخي الرتبي .

وإنّما اختير هنا ما يدلّ على تنهية أجل كلّ مخلوق من طين دون أن يقال : إلى أجل ، لأنّ دلالة تنهية الأجل على إمكان الخلق الثاني ، وهو البعث ، أوضح من دلالة تقدير الأجل ،

لأنّ التقدير خفي والذي يعرفه الناس هو انتهاء أجل الحياة ، ولأنّ انتهاء أجل الحياة مقدمة للحياة الثانية .

وجملة ﴿ وأجل مسمّى عنده ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ .

وجملة ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ .

وفائدة هذا الاعتراض إعلام الخلق بأنّ الله عالم آجال الناس ردّاً على قول المشركين ﴿ ما يهلكنا إلاّ الدهر ﴾ [الجاثية : 24] .

وقد خولفت كثرة الاستعمال في تقديم الخبر الظرف على كلّ مبتدأ نكرة موصوفة ، نحو قوله تعالى : ﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ [ص : 23] ، حتّى قال صاحب "الكشاف" : إنّه الكلام السائر ، فلم يقدّم الظرف في هذه الآية لإظهار الاهتمام بالمسند إليه حيث خولف الاستعمال الغالب من تأخيره فصار بهذا التقديم تنكيره مفيداً لمعنى التعظيم ، أي وأجل عظيم مسمّى عنده .

ومعنى : ﴿ مسمّى ﴾ معيّن ، لأنّ أصل السمة العلامة التي يتعيّن بها المعلّم .

والتعيين هنا تعيين الحدّ والوقت .

والعندية في قوله : ﴿ عنده ﴾ عندية العلم ، أي معلوم له دون غيره .

فالمراد بقوله : ﴿ وأجل مسمّى ﴾ أجل بعث الناس إلى الحشر ، فإنّ إعادة النّكرة بعد

نكرة يفيد أنّ الثانيّة غير الأولى ، فصار : المعنى ثم قضى لكم أجلين : أجلاً تعرفون مدّته بموت صاحبه ، وأجلاً معيّن المدّة في علم الله .

(135/226)

فالمراد بالأجل الأول عمر كلّ إنسان ، فإنّه يعلمه الناس عند موت صاحبه ، فيقولون : عاش كذا وكذا سنة ، وهو وإن كان علمه لا يتحقّق إلاّ عند انتهائه فما هو إلاّ علم حاصل لكثير من النّاس بالمقايسة .

والأجل المعلوم وإن كان قد انتهى فإنّه في الأصل أجل ممتدّ .

والمراد بالأجل الثاني ما بين موت كلّ أحد وبين يوم البعث الذي يبعث فيه جميع الناس ، فإنَّه لا يعلمه في الدنيا أحد ولا يعلمونه يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلاّ ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ [يونس : 45] ، وقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ [الروم : 55] .

وقوله : ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ عطفت على جملة : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ ، فحرف ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي كغالب وقوعها في عطف الجمل لانتقال من خبر إلى أعجب منه ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ [الأنعام : 1] ،

أي فالتعجيب حقيق ممّن يمترون في أمر البعث مع علمهم بالخلق الأول وبالموت .

والمخاطب بقوله : ﴿ أنتم تمترُون ﴾ هم المشركون .

وجيء بالمسند إليه ضميراً بارزاً للتوبيخ .

والامتراء : الشكّ والتردّد في الأمر ، وهو بوزن الافتعال ، مشتقّ من المرية بكسر الميم اسم للشكّ ، ولم يرد فعله إلاّ بزيادة التاء ، ولم يسمع له فعل مجرّد .

وحذف متعلّق ﴿ تمترون ﴾ لظهوره من المقام ، أي تمترون في إمكان البعث وإعادة الخلق .

والذي دلّ على أنّ هذا هو المماري فيه قوله : ﴿ خَلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمّى عنده ﴾ إذ لولا قصد التذكير بدليل إمكان البعث لما كان لذكر الخلق من الطين وذكر الأجل الأول والأجل الثاني مُرجّح للتخصيص بالذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(136/226)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ يعني : آدم ، وذلك أنه لما شك المشركون في البعث ، وقالوا : من يحيي هذه العظام ؟ أعلمهم أنه خلقهم من طين ، فهو قادر على إِعادة خلقهم .

قوله تعالى : ﴿ ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ﴾ فيه ستة اقوال .

أحدها : أن الأجل الأول : أجل الحياة إلى الموت ، والثاني : أجل الموت إلى البعث ، روي عن ابن عباس ، والحسن ، وابن المسيب ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل .

والثاني : أن الأجل الأول : النوم الذي تُقْبَضُ فيه الروح ، ثم ترجع في حال اليقظة ؛ والأجل المسمى عنده أجل : موت الإِنسان .

رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أن الأجل الأول : أجل الآخرة متى يأتي ، والأجل الثاني : أجل الدنيا ، قاله مجاهد في رواية .

والرابع : أن الأول : خلق الأشياء في ستة أيام ، والثاني : ما كان بعد ذلك إلى يوم القيامة ، قاله عطاء الخراساني .

والخامس : أن الأول : قضاه حين أخذ الميثاق على خلقه ، والثاني : الحياة في الدنيا ، قاله ابن زيد ، كأنه يشير إِلى أجل الذرية حين أحياهم وخاطبهم .

والسادس : أن الأول : أجل من قد مات من قبل ، والثاني : أجل من يموت بعد ، ذكره

الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ ثم أنتم ﴾ أي بعد هذا البيان ﴿ تمترون ﴾ وفيه قولان.

أحدهما: تشكّون، قاله قتادة، والسدي.

وفيما شكوا فيه قولان أحدهما: الوحدانية، والثاني: البعث.

والثاني: يختلفون: مأخوذ من المراء، ذكره الماوردي. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(137/226)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان بطلان كفرهم بالبعث، مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمانَ به إثرَ بيانِ بطلانِ إشراكِهم به تعالى، مع معاينتهم لموجبات توحيدِه، وتخصيصُ خلقِهم بالذكر من بين سائر دلائل صِحةِ البعث، مع أن ما ذُكر من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ *** السموات والأرض ** بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ لما أن ملحَ النزاعِ

بعثُهم ، فدلالةُ بدءِ خلقِهم على ذلك أظهرُ وهم بشؤون أنفسهم أعرفُ ، والتعامي عن الحجة النيّرة أقبح ، والالتفاتُ لمزيد التشنيع والتوبيخ ، أي ابتدأ خلقَكم منه ، فإنه المادة الأولى للكل لما أنه منشأ آدمَ عليه السلام ، وهو المخلوقُ منه حقيقةً بأن يقال : هو الذي خلق أباكم الخ ، مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه في إيجاب الإيمانِ بالبعثِ وبطلانِ الامتراءِ لتوضيحِ منهاجِ القياس ، وللمبالغة في إزاحةِ الاشتباه والالتباس ، مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمةٍ خفية هي أن كل فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من إنشائه عليه السلام منه ، حيث لم تكن فطرتُه البديعة مقصورةً على نفسه بل كانت أُنموذَجاً منطوياً على فطرة سائرِ آحادِ الجنس انطواءً إجمالياً مستتبِعاً لجَرَيان آثارِها على الكل ، فكأن خلقَه عليه السلام من الطين خلقٌ لكل أحد من فروعه منه ، ولما كان خلقُه على هذا النمط الساري إلى جميع أفراد ذريتِه أبدعَ من أن يكون ذلك مقصوراً على نفسه كما هو المفهومُ من نسبة الخلق المذكورِ إليه وأدلَّ على عِظَم قُدرة الخلاق العليم وكمالِ علمِه وحكمتِه وكان ابتداءُ حال المخاطَبين أولى بأن يكون معياراً لانتهائها فعلَ ما فعل ، ولله درُ شأن التنزيل ، وعلى هذا السرّ مدارُ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم ﴾ الخ ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾

كما سيأتي ، وقيل : المعنى خلق أباكم منه على حذف المضاف . وقيل : المعنى خلقهم من النطفة الحاصلةِ من الأغذية المتكوّنة من الأرض ، وأياً ما كان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرتِه تعالى على البعث ما لا يخفى ، فإن من قدرَ على إحياء ما لم يشَمَّ رائحةَ الحياة قط كان على إحياءِ ما قارنها مدةً أظهرَ قدرة .

﴿ ثُمَّ قَضَى ﴾ أي كتب لموتِ كلِّ واحد منكم ﴿ أَجَلاً ﴾ خاصاً به أي حداً معيناً من الزمان يفنى عند حلولِه لا محالة ، وكلمةُ (ثم) للإيذان بتفاوتِ ما بين خلقِهم وبين تقديرِ آجالِهم حسبما تقتضيه الحِكَم البالغة ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي حدٌّ معينٌ لبعثكم جميعاً وهو مبتدأ لتخصُّصه بالصفة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ ولوقوعِه في موقع التفصيل كما في قول من قال :

إذا ما بكَى مِنْ خلفِها انصرَفَتْ له . . . بشِقَ وشقٌ عنْدنا لمْ يُحوَّلِ

(139/226)

وتنوينُه لتفخيم شأنه وتهويلِ أمره ، ولذلك أُوثر تقديمُه على الخبر الذي هو ﴿ عِندَهُ ﴾ مع أن الشائعَ المستفيضَ هو التأخير كما في قولك : عندي كلامٌ حقٌّ ولي كتابٌ نفيسٌ كأنه قيل :

وأيُّ أجلٍ مسمى مُثْبتٍ معينٍ في علمه لا يتغيرُ ولا يقفُ على وقت حلولِه أحدٌ لا مجملاً ولا مفصّلاً ، وأما أجلُ الموت فمعلومٌ إجمالاً وتقريباً بناءً على ظهور أَماراتِه أو على ما هو المعتادُ في أعمار الإنسان ، وتسميتُه أجلاً إنما هي باعتبار كونِه غايةً لمدة لُبْثهم في القبور ، لا باعتبار كونِه مبدأً لمدةِ القيامة ، كما أن مدار التسمية في الأجل الأول هو كونُه آخِرُ مدة الحياةَ لا كونُه أولِ مدةِ الممات لِما أن الأجلَ في اللغة عبارةٌ عن آخِرِ المدة لا عن أولها ، وقيل : الأجلُ الأول ما بين الحياة والموت ، والثاني ما بين الموت والبعث من البرزخ ، فإن الأجل كما يُطلق على آخِرِ المدة يُطلق على كلِّها وهو الأوفق ، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن الله تعالى قضى لكل أحدٍ أجلين : أجلاً من مولده إلى موته ، وأجلاً من موته إلى مبعثه ، فإن كان بَرّاً تقياً وَصولاً للرحِم زيد له من أجل البعث في أجَل العمر ، وإن كان فاجراً قاطعاً نُقِصَ من أجل العُمُر وزيد في أجل البعث ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ فمعنى عدمِ تغييرِ الأجل حينئذ عدمُ تغيُّر آخره ، والأولُ هو الأشهرُ الأليقُ بتفخيم الأجل الثاني المنوطِ باختصاصه بعلمه تعالى ، والأنسبُ بتهويله المبنيِّ على مقارنته للطامّة الكبرى ، فإن كونَ بعضِه معلوماً للخلق ومُضيِّه من غير أن يقعَ فيه شيءٌ من الدواهي كما يستلزمه الحملُ على المعنى الثاني مُخِلٌّ بذلك قطعاً ، ومعنى زيادةِ الأجل ونقصِه فيما رُوي تأخيرُ الأجل الأول وتقديمُه .

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ استبعادٌ واستنكارٌ لامترائهم في البعث بعد معاينتهم لما ذُكر من الحُجج الباهرة الدالةِ عليه ، أي تمترون في وقوعه وتحقّقِه في نفسه مع مشاهدتكم في أنفسِكم من الشواهدِ ما يقطع مادةَ الامتراءِ بالكلية ، فإن مَنْ قدَر على إفاضة الحياة وما يتفرّع عليها من العلم والقدرة وسائرِ الكمالاتِ البشرية على مادةٍ غيرِ مستعدّةٍ لشيء منها أصلاً كان أوضحَ اقتداراً على إفاضتها على مادةٍ قد استعدت لها وقارنَتْها مدةً ، ومن هاهنا تبين أن ما قيل من أن الأجلَ الأولَ هو النومُ والثانيَ هو الموتُ أو أن الأول أجلُ الباقين أو أن الأول مقدارُ ما مضى من عُمُر كلِّ أحدٍ والثانيَ مقدارُ ما بقِيَ منه مما لا وجهَ له أصلاً ، لما رأيتَ مِنْ أن مَساقَ النظم الكريم استبعادُ امترائهم في البعث الذي عبَّر عن وقته بالأجل المسمّى ، فحيثُ أُريد به أحدُ ما ذُكر من الأمور الثلاثة ففي أيِّ شيء يمترون ؟ ووصْفُهم بالامتراء الذي هو الشكُّ ، وتوجيهُ الاستبعاد إليه مع أنهم جازمون بانتفاءِ البعث مُصِرّون على إنكاره كما يُنْبىء عنه قولُهم : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ونظائرُه للدلالة على أن جزمَهم المذكورَ في أقصى مراتبِ الاستبعاد والاستنكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(141/226)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا ﴾

هو سبحانه يأتي لنا بأمر الخلق فأوضح أنه خلقنا من طين ، بعد أن تكلم عن أمر خلق السموات والأرض ، وهو – سبحانه – قد أخبرنا من قبل ذلك أنه خلقنا من تراب وحمأ مسنون ومن صلصال كالفخار ، وهي متكاملات لا متقابلات ، وكذلك أوضح الحق أنه خلق كل شيء من ماء ، فاختلط الماء بالتراب فصار طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً كالفخار وكلها حلقات متكاملة . ونحن لم نشهد الخلق ولكنا نتلقى أمر الخلق عنه – سبحانه – ونعلم أن الطين مادة للزرع والخصوبة .

وعندما قام العلماء بتحليل الطين وجدوه يحتوي على العديد من العناصر ، وأكبر كمية من هذه العناصر الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم الفلور ، ثم الكلور ، ثم الصوديوم ، ثم المغنسيوم ، ثم البوتاسيوم ، ثم الحديد ، ثم السيلوز ، ثم المنجيز وغيرها . والعناصر في هذا الكون أكثر من مائة ، ولكنها لا تدخل كلها في تركيب الإنسان ، إنما تدخل في تركيب ما ينفع الإنسان من بناء وزينة وغير ذلك . مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفِي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت :

. [53

لقد قام أهل الكفر من العلماء بهذا التحليل وذكروا تلك النتائج التي أخبرنا بها الرسول الكريم في الكتاب المعجز الباقي المحفوظ بأمر الله كحجة مؤكدة . وصان الحق لنا هذه الحجة حتى يأتي عالم غير مؤمن ويتوصل إلى بعضٍ من الحقائق الموجودة في القرآن .

(142/226)

ولم يحضر أحد منا لحظة الخلق ، ولكنا نشهد الموت وهو نقض للحياة ، ونقض الشيء يكون على عكس بنائه . ونرى من يهدمون بناء يبدأون بهدم آخر ما تم بناؤه وتركيبه ، فيخلعون الزجاج أولاً وهو آخر ما تم تركيبه ، ثم الأخشاب ، ثم الأحجار ، كذلك نقض الحياة بالموت . تخرج روح الإنسان أولاً ثم بعد ذلك ييبس ويجف ليصير صلصالاً كالفخار ثم حمأ مسنوناً أي يصيبه النتن والعفن ثم يتبخر منه الماء فيصير تراباً . ولذلك نحن نصدق الذي خلقنا في أمر خلقنا ونصدقه في أمر السموات والأرض ، وعندما يقول قائل بغير ذلك ، نقول له كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

ويخبرنا الحق هنا بقضية الرجل : ﴿ ثُمَّ قضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

ولا أحد فينا يعلم أجله مهما عرض نفسه على الأطباء ، والأجل الأول هو الأجل المحدد لكل منا ، والأجل المسمى عنده هو زمن البرزخ ومن بعده نبعث من قبورنا ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] .

وقد يعرف الأنسان مجيء مقدمات نهايته واقتراب موته بواسطة ما كشف الله عنه من أسراره بواسطة تقدم العلماء .

فليس هذا من الغيب وفي بعض الحالات يصح هذا المريض ويشفى ويبرأ ، ويقولون : قد حدثت معجزة ، أما الأجل المسمى فلا نستطيع أن نعرفه ، وحدد الحق سبحانه ذلك في خمس مسائل : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : 34] .

(143/226)

وقد تكلم الحق عن المكان ولم يتكلم عن الزمان : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾ أي قضى أجلاً لكل واحد ، ثم جعل أجلاً لكل شيء مسمى . والآجال في الآحاد تتوارد إلى أن يأتي أجل الكل وهو يوم القيامة ، ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ والدلائل التي أوردها الحق كفيلة بألا تجعل

أحداً يشك ، ولكن هناك من يماري في ذلك بعد كل هذه المقدمات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(144/226)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ يعني آدم ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ يعني أجل الموت ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ أجل الساعة والوقوف عند الله .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ قال : أجل الدنيا . وفي لفظ : أجل موته ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ قال : الآخرة لا يعلمه إلا الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ قضى أجلاً ﴾ قال : هو النوم ، يقبض الله فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه حين اليقظة ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ قال : هو أجل

موت الإِنسان .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ قال : هذا بدء الخلق ، خلق آدم من طين ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ [السجدة : 8] ﴿ ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ﴾ يقول : أجل حياتك إلى يوم تموت ، وأجل موتك إلى يوم البعث ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ قال : تشكون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ قال : أجل الدنيا الموت ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ قال : الآخره البعث .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة والحسن في قوله ﴿ قضى أجلاً ﴾ قالا : أجل الدنيا منذ خلقت إلى أن تموت ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ قال : يوم القيامه .

وأخرج أبو الشيخ عن يونس بن يزيد الأيلي ﴿ قضى أجلاً ﴾ قال : ما خلق في ستة أيام ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ قال : ما كان بعد ذلك إلى القيامة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ قال : تشكون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن خالد بن معدان في قوله ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ يقول : في البعث .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ يقول : ما يأتيهم من شيء من كتاب الله إلا أعرضوا عنه . وفي قوله ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ يقول : سيأتيهم يوم القيامة أنباء ما استهزأوا به من كتاب الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(146/226)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " مِنْ طِينٍ " فيه وَجْهَان :

أظهرهما : أنه متعلّق بـ " خَلَقَكُمْ " ، و " مِنْ " لابتداء الغَايَةِ .

أظهرهما : أنه متعلّقٌ بمحذوف على أنه حَالٌ ، وهل يحتَاج في هذا الكلام إلى حذف مضاف أم لا ؟ فيه خلاف .

ذهب [جماعة] كالمهدويّ ومكي ، إلى أنه لا حَذْفَ ، وأنَّ الإنسان مَخْلُوقٌ من الطين .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ مَولُودٍ يُولَدُ إلاَّ ويُذَرُّ على النُّطْفَةِ مِنْ تُرَابِ حُفْرَتِهِ " .

وقيل : إنَّ النُّطْفَةَ أَصْلُهَا الطِّينُ كما تقدَّم .

وقال أَكْثَرُ المُفَسِّرِينَ : ثَمَّ محذوفٌ ، أي : خَلَقَ أَصْلكم أو أباكم من طينٍ ، يعنون آدم وقَصَّتُهُ مشهورة .

وقال امرؤ القيس : [الوافر]

2102 - إلَي عِرْقِ الثَّرَى رَسَخَتْ عُرُوقِي . . .

وهَذَا المَوْتُ يَسْلُبُنِي شَبَابِي

قالوا : أراد بِعِرْقِ الثَّرى آدم عليه الصلاة والسلام لأَنَّه أصلُه .

قوله : " ثُمَّ قَضَى " إذا كان " قَضَى " بمعنى أظهر ف " ثُمَّ " للترتيب الزماني على أصلها ؛ لأنَّ ذلك متأخِرٌ عن خَلْقِنا ، وهي صفة فعل ، وإن كان بمعنى " كَتَب " و " قَدَّر " فهي للترتيب في الذِّكر ؛ لأَنَّها صِفَةُ ذاتٍ ، وذلك مُقدَّمٌ على خَلْقِنا .

قوله : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ﴾ مبتدأ وخبر ، وسوِّغَ الابتداء هنا شيئان :

أحدهما : وَصْفُهُ ، كقوله : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِن ﴾ [البقرة : 221] .

والثاني : عَطْفُهُ بـ " ثمَّ " والعطفُ من المُسَوِّغَاتِ .

قال الشاعر : [البسط]

2103 - عِنْدِي اصْطِبَارٌ وشَكْوَى عِنْدَ قَاتِلَتِي . . .

فَهَلْ بأَعْجَبَ مِنْ هَذَا امْرُؤٌ سَمِعَا ؟

والتنكير في الأجلين لإبهام ، وهنا مُسَوِّغٌ آخر ، وهو التفصيل كقوله : [الطويل]

2104 إذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَه . . .

بِشِقٍّ وَشِقٌّ عِنْدَنَا لَمْ يُحَوَّلِ

ولم يَجِبْ هُنا تقديمُ إن كان المبتدأ نكرةً ، والخبرُ ظرفاً ، قال الزمخشري :

" لأَنَّه تخصَّصَ بالصفة فقاربَ المعرفة " .

(147/226)

قال أبو حيَّان : " وهذا الذي ذَكَر من كَوْنِهِ مُسَوِّغاً للابتداء بالنكرة لكونها وُصِفَتْ لا تتعيَّنُ ، لجواز أنْ يكونَ المُسَوِّغُ التفصيلَ " ثُمَّ أنشد البيت :

- 2105 إذَا مَا بَكَى . . . . . .

قال شهابُ الدين : والزمخشري لم يَقُلْ : إنَّهُ تعيَّن ذلك حتَّى يُلْزِمَهُ به ، وإنَما ذكر أشْهَرَ المسَوِّغات فإنَّ العطف والتفصيل قَلَّ مَنْ يذكرُهما في المسوِّغات .

قال الزمخشري : " فإنْ قلت : الكلامُ السَّائِرُ أن يُقال : " عندي ثَوْبٌ جيِّدٌ ، ولي عبدٌ كَيِّسٌ

" فما أوجب التقديم ؟ .

قلت : أوجبه أنَّ المعنى : وأيُّ أجَلٍ مسمى عنده ، تعظيماً لشأن الساعة ، فلمَّا جرى فيها هذا المعنى أوجب التقديم " .

قال أبو حيان : وهذا لا يجوز ؛ لأنه إذا كان التقدير : وأيُّ أجلٍ مسمى عنده كانت " أي " صفة لموصوف محذوف تقديره : وأجل مسمى عنه ولا يجوز حذفُ الصفةِ إذا كانت " أيا " ولا حَذْفُ موصوفها وإبقاؤها .

لو قلت : " مررتُ بأيِّ رجل " تريدُ برجلٍ أيِّ رجل م يَجُزْ .

قال شهاب الدين : ولم أدْرِ كيف يؤاخَذُ من فَسَّر معنّى بلفظٍ لم يَدّعِ أن ذلك اللَّفْظَ هُوَ أصْلُ كلام المفسر ، بل قال : معناه كيت وكيت ؟ فكيف يلزمه أنْ يكون ذلك الكلام الذي فَسَّر به هو أصْل ذلك المُفَسِّر ؟ على أنَّه قَدْ وَرَدَ حَذْفُ موضوف " أيّ " وإبقاؤها كقوله : [المتقارب]

2106 - إذا حَارَبَ الحَجَّاجُ أيَّ مُنَافِقٍ . . .

عَلاَهُ بِسَيفٍ كُلَّمَا هَزَّ يَقْطَعُ

فصل في معنى " قضى "

والقضاء قد يَرِدُ بمعنى الحكم ، والأمر قال تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 23] وبمعنى صفة الفعل إذا تَمَّ ، قال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي

الكتاب ﴾ [الإسراء : 4] وبمعنى صفة الفعل إذا تَمَّ ، قال تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَات ﴾ [فصلت : 12] ومنه قولهم : " قضى فلان حاجةَ فلانٍ " .

(148/226)

وأمَّا الأجَلُ فهو في اللُّغَةِ عبارةٌ عن الوَقْتِ المضروب لإنقضاء المُدَّةِ ، وأجَلُ الإنسان هو المؤقت المضروب ؛ لانقضاء عُمْرِه .

وأجَلُ الدَّيْنِ : مَحلُّهُ لانْقِضَاءِ التأخير فيه ، وأصْلُهُ من التَّأخيرِ يُقال : أجلَ الشَّيء يَأجَلُ أجُولاً وهو آجلٌ إذا تأخَّرَ ، والآجلُ نقيض العَاجِلِ ، وإذا عُرِفَ هذا فقوله ، " ثُمَّ قَضَى أجَلاً " معناه : أنَّهُ – تعالى – خَصَّصَ موت كُلِّ واحَد بوقتٍ مُعَيَّنٍ ، " وأجلٌ مُسَمًّى عِنْدهُ " قال الحَسَنُ : وقتادة ، والضحَّاكُ : الأجَلُ الأوّل من الولادَةِ إلى الموت .

والأجَلُ الثاني : مِنَ الموتِ إلى البَعْثِ ، وهو البَرْزَخُ وروي عن ابن عبَّاس ، وقال : لِكُلِّ أحَدٍ أجلان أجل من الولادة إلى الموت أدنى البعث في أجل العُمر ، فإن كان بالعكس قاطِعاً للرحَمِ نُقِصَ من أجَل العُمر وزيد في أجَلِ البَعْثِ مخافة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 14.18 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) ﴾

أثبت الأصل من الطين وأودعها عجائب (السير) وأظهر عليها ما لم يظهر على مخلوق ، فالعِبْرَةُ بالوَصْلِ لا بالأصل ؛ فالوَصْلُ قُرْبَةٌ وَالأصل تُرْبَةٌ ، الأصل من حيث النَّطفة والقطرة ، والوصل من حيث القربة والنَّصرة .

قوله ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ : جعل للامتحان أجلاً ، ثم جعل للامتنان أجلاً ، فَأَجَلُ الامتحان في الدنيا ، وأَجَلُ الامتنان في العُقْبى .

ويقال ضَرَبَ للطلب أجلاً وهو وقت المهلة ، ثم عقبه بأجل بعده وهو وقت الوصلة ؛ فالمهلة لها مدًى ومنتهى ، والوصلة بلا مدًى ولا منتهى ؛ فوقتُ الوجودِ له ابتداء وهو حين تطلع شموس التوحيد ثم يتسرمد فلا غروب لها بعد الطلوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 460 ﴾

(149/226)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان علم جميع أحوال المخلوق دالاً على أن العلم بها هو خالقه ، وأن من ادعى أن خالقه عاجز عن ضبط مملكته : عن كشف غيره لعوراتها وعلم ما لا يعلمه هو منها ، فلم يكن إلهاً ، وكان الإله هو العالم وحده ، وكان المحيط العلم لا يعسر عليه تمييز التراب من التراب ، وكان صلى الله عليه وسلم يخبرهم عن الله من مغيبات أسرارهم وخفايا أخبارهم مما يقصون منه العجب ويعلمون منه إحاطة العلم حتى قال أبو سفيان بن حرب يوم الفتح : لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء ، قال تعالى عاطفاً ﴿ وهو الله ﴾ دالاً على الوحدانية بشمول العلم بعد قيام الدليل على تمام القدرة والاختيار ، لأن إنكارهم المعاد لأمرين : أحدهما ظن أن المؤثر في الأبدان امتزاج الطبائع وإنكار أن المؤثر هو قادر مختار ، والثاني أنه – على تقدير تسليم الاختيار – غير عالم بالجزئيات ، فلا يمكنه تمييز بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو ، فإذا قام الدليل على كمال قدرته سبحانه واختياره وشمول علمه لجميع المعلومات : الكليات والجزئيات ، زالت جميع الشبهات : ﴿ وهو الله ﴾ أي الذي له هذا الاسم المستجمع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى المدعو به تألهاً له وخضوعاً وتعبداً ، وعلق بهذا المعنى قوله : ﴿ في السماوات ﴾ لأن من في الشيء يكون متصرفاً فيه .

ولما كان الخطاب لمنكري البعث أكد فقال : ﴿ وفي الأرض ﴾ أي هذه صفته دائماً على هذا المراد من أنه سبحانه ثابت له هذا الاسم الذي تفرد به على وجه التأله والتعبد في كل من جهتي العلو والسفل ، ولا يفهم ذو عقل صحيح ما يقتضيه الظاهر من أنه محوي ، فإن كل محوي منحصر محتاج إلى حاويه وحاصره ، ضعيف التصرف فيما وراءه ، ومن كان محتاجاً نوع احتياج لا يصلح للألوهية والمشيئة لحديث الجارية : أين الله ؟ قالت : في السماء ، ومحجوج بحديث : " أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء " فإن ظاهره منافٍ لظاهر الأول ، وظاهر هذا مؤيد بقاطع النقل من أنه غير محتاج ، ومؤيد بصحيح النقل ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ أي لا في ذاته ولا صفاته ولا شيء من شؤونه ، و" قد كان الله ولا شيء معه " ، وحديث " ليس فوقك شيء " – رواه مسلم والترمذي وابن ماجه في الدعوات وأبو داود في الأدب عن أبي هريرة رضي الله عنه – والله الموفق .

ولما كان المراد إثبات أن علمه تعالى محيط ، نسبة كُل من الخفي والجلي إليه على السواء ، وكان السياق هنا للخفي فإنه في بيان خلق الإنسان وعجيب صنعه فيه بما خلق فيه من

إدراك المعاني وهيأه له من قبل أن يقدر على التعبير عنه ، ثم أقدره على ذلك ؛ قدم الخفي فقال شارحاً لكونه لا يغيب عنه شيء : ﴿ يعلم سركم ﴾ .

ولما كان لا ملازمة بين علم السر والجهر لأنه قد يكون في الجهر لفظ شديد يمنع اختلاط الأصوات فيه من علمه ، صرح به فقال : ﴿ وجهركم ﴾ ونسبة كل منها إليه على حد سواء ، ولا توصف واحدة منها بقرب في المسافة إليه ولا بد ؛ ولما كان السر والجهر شائعين في الأقوال ، وكانت الأقوال تتعلق بالسمع ، ذكر ما يعمهما وهو شائع في الأفعال المتعلقة بالبصر فقال : ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ فأفاد ذلك صفتي السمع والبصر مع إثبات العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 587 . 588 ﴾

(151/226)

وقال الفخر :

اعلم أنا إن قلنا : إن المقصود من الآية المتقدمة إقامة الدليل على وجود الصانع القادر المختار .

قلنا : المقصود من هذه الآية بيان كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات ، فإن الآيتين المتقدمتين يدلان على كمال القدرة ، وهذه الآية تدل على كمال العلم وحينئذٍ يكمل العلم بالصفات

المعتبرة في حصول الإلهية ، وإن قلنا : المقصود من الآية المتقدمة إقامة الدلالة على صحة المعاد ، فالمقصود من هذه الآية تكميل ذلك البيان ، وذلك لأن منكري المعاد إنما أنكروه لأمرين أحدهما : أنهم يعتقدون أن المؤثر في حدوث بدن الإنسان هو امتزاج الطبائع وينكرون أن يكون المؤثر فيه قادراً مختاراً .

والثاني : أنهم يسلمون ذلك إلا أنهم يقولون إنه غير عالم بالجزئيات فلا يمكنه تمييز المطيع من العاصي ، ولا تمييز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو ثم إنه تعالى أثبت بالآيتين المتقدمتين كونه تعالى قادراً ومختاراً لا علة موجبة ، وأثبت بهذه الآية كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات ، وحينئذٍ تبطل جميع الشبهات التي عليها مدار القول بإنكار المعاد ، وصحة الحشر والنشر فهذا هو الكلام في نظم الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 128 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السماوات وَفِي الأرض ﴾ يقال : ما عامل الإعراب في الظرف من ﴿ فِي السماوات وَفِي الأرض ﴾ ؟ ففيه أجوبة : أحدها أي وهو الله المعظَّم أو المعبود في السموات وفي الأرض ؛ كما تقول : زيد الخليفة في الشرق والغرب أي حُكْمه . ويجوز أن يكون المعنى وهو الله المنفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض ؛ كما تقول : هو في حاجات الناس وفي الصلاة ، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر ويكون المعنى : وهو الله في

السموات وهو الله في الأرض .

وقيل : المعنى وهو الله يعلم سِرّكم وجهركم في السموات وفي الأرض فلا يخفى عليه شيء ؛

قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فيه .

(152/226)

وقال محمد بن جَرير : وهو الله في السموات ويَعلم سِرّكم وجهركم في الأرض ؛ فيعلم مقدّم في الوجهين ، والأول أسلم وأبعد من الإشكال .

وقيل غير هذا .

والقاعدة تنزيهه جل وعز عن الحركة والانتقال وشَغْل الأمكنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾

لما تقدم ما يدل على القدرة التامة والاختيار ، ذكر ما يدل على العلم التام فكان في التنبيه على هذه الأوصاف دلالة على كونه تعالى قادراً مختاراً عالماً بالكليات والجزئيات وإبطالاً لشبه منكر المعاد ، والظاهر أن ﴿ هو ﴾ ضمير عائد على ما عادت عليه الضمائر قبله

، ﴿ وهو الله ﴾ وهذا قول الجمهور قاله الكرماني .

وقال أبو علي : ﴿ هو ﴾ ضمير الشأن و﴿ الله ﴾ مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة مفسرة لضمير الشأن وإنما فر إلى هذا لأنه إذا لم يكن ضمير الشأن ، كان عائداً على الله تعالى فيصير التقدير الله و﴿ الله ﴾ فينعقد مبتدأ وخبر من اسمين متحدين لفظاً ومعنى لا نسبة بينهما إسنادية ، وذلك لا يجوز فلذلك والله أعلم تأول .

أبو علي الآية على أن الضمير ضمير الأمر و﴿ الله ﴾ خبره يعلم ﴿ في السموات وفي الأرض ﴾ متعلق بيعلم والتقدير الله يعلم ﴿ في السموات وفي الأرض ﴾ ﴿ سركم وجهركم ﴾

ذهب الزجاج إلى أن قوله : ﴿ في السموات ﴾ متعلق بما تضمنه اسم الله من المعاني ، كما يقال : أمير المؤمنين الخليفة في المشرق والمغرب .

(153/226)

قال ابن عطية : وهذا عندي أفضل الأقوال وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ وجزالة المعنى وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وإيثار قدرته وإحاطته واستيلائه ، ونحو هذه الصفات فجمع هذه كلها في قوله ﴿ وهو الله ﴾ أي الذي له هذه كلها ﴿ في السموات

وفي الأرض ﴾ كأنه قال : وهو الخالق الرازق والمحيي المحيط في السموات وفي الأرض كما تقول : زيد السلطان في الشام والعراق ، فلو قصدت ذات زيد لقلت محالاً وإذا كان مقصد قولك زيد السلطان الآمر الناهي الناقض المبرم الذي يعزل ويولي في الشام والعراق ، فأقمت السلطان مقام هذه كلها كان فصيحاً صحيحاً فكذلك في الآية أقام لفظة ﴿ الله ﴾ مقام تلك الصفات المذكورة ؛ انتهى .

وما ذكره الزجاج وأوضحه ابن عطية صحيح من حيث المعنى ، لكن صناعة النحو لا تساعد عليه لأنهما زعما أن ﴿ في السموات ﴾ متعلق بلفظ ﴿ الله ﴾ لما تضمنه من المعاني ولا تعمل تلك المعاني جميعها في اللفظ ، لأنه لو صرح بها جميعها لم تعمل فيه بل العمل من حيث اللفظ لواحد منها ، وإن كان ﴿ في السموات ﴾ متعلقاً بها جميعها من حيث المعنى ، بل الأولى أن يعمل في المجرور ما تضمنه لفظ ﴿ الله ﴾ من معنى الألوهية وإن كان لفظ ﴿ الله ﴾ علماً لأن الظرف والمجرور قد يعمل فيهما العلم بما تضمنه من المعنى كما قال : أنا أبو المنهال بعض الأحيان .

فبعض منصوب بما تضمنه أبو المنهال كأنه قال أنا المشهور بعض الأحيان .

(154/226)

وقال الزمخشري نحواً من هذا قال : ﴿ في السموات ﴾ متعلق بمعنى اسم الله ، كأنه قيل : وهو المعبود فيهما ومنه قوله ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ أي : وهو المعروف بالإلهية أو المتوحد بالإلهية فيها ، أو هو الذي يقال له : الله فيها لا يشرك في هذا الاسم ؛ انتهى ، فانظر تقاديره كلها كيف قدر العامل واحداً من المعاني لا جميعها ، وقالت فرقة ﴿ هو ﴾ على تقدير صفة حذفت وهي مرادة في المعنى ، كأنه قيل : هو الله المعبود ﴿ في السموات وفي الأرض ﴾ وقدرها بعضهم وهو الله المدبر ﴿ في السموات وفي الأرض ﴾ ، وقالت فرقة : ﴿ وهو الله ﴾ تم الكلام هنا .

ثم استأنف ما بعده وتعلق المجرور ب ﴿ يعلم ﴾ وقالت فرقة : ﴿ وهو الله ﴾ تام و ﴿ في السموات وفي الأرض ﴾ متعلق بمفعول ﴿ يعلم ﴾ وهو ﴿ سركم وجهركم ﴾ والتقدير يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، وهذا يضعف لأن فيه تقديم مفعول المصدر الموصول عليه والعجب من النحاس حيث قال : هذا من أحسن ما قيل فيه ، وقالت فرقة : هو ضمير الأمر والله مرفوع على الابتداء وخبره ﴿ في السموات ﴾ والجملة خبر عن ضمير الأمر وتم الكلام .

ثم استأنف فقال : ﴿ وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ﴾ أي : ويعلم في الأرض .

وقال ابن جرير نحواً من هذا إلا أن ﴿ هو ﴾ عائد على ما عادت عليه الضمائر قبل وليس ضمير الأمر .

وقيل : يتعلق ﴿ في السموات ﴾ بقوله : ﴿ تكسبون ﴾ هذا خطأ ، لأن ﴿ ما ﴾ موصولة ب ﴿ تكسبون ﴾ وسواء كانت حرفاً مصدرياً أم اسماً بمعنى الذي ، فإنه لا يجوز تقديم معمول الصلة على الموصول .

وقيل ﴿ في السموات ﴾ حال من المصدر الذي هو ﴿ سركم وجهركم ﴾ تقدم على ذي الحال وعلى العامل .

وقال الزمخشري : يجوز أن يكون ﴿ الله في السموات ﴾ خبراً بعد خبر على معنى أنه الله وأنه في السموات والأرض بمعنى أنه عالم بما فيهما ، لا يخفى عليه شيء منه كأن ذاته فيها وهو ضعيف ، لأن المجرور بفي لا يدل على وصف خاص إنما يدل على كون مطلق وعلى هذه الأقوال ينبني إعراب هذه الآية ، وإنما ذهب أهل العلم إلى هذه التأويلات والخروج عن ظاهر ﴿ في السموات وفي الأرض ﴾ لما قام عليه دليل العقل من استحالة حلول الله تعالى في الأماكن ومماسة الإجرام ومحاذاته لها وتحيزه في جهة ، قال معناه وبعض لفظه ابن عطية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(155/226)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الله ﴾ جملةٌ من مبتدأ وخبر ، معطوفةٌ على ما قبلها مَسوقةٌ لبيان شُمولِ أحكام إلاهيّته تعالى لجميع المخلوقات وإحاطةِ علمِه بتفاصيلِ أحوال العباد وأعمالِهم المؤديةِ إلى الجزاء إثرَ الإشارةِ إلى تحقّق المعادِ في تضاعيفِ بيانِ كيفية خلْقِهم وتقديرِ آجالِهم ، وقوله تعالى : ﴿ فِي السموات وَفِى الأرض ﴾ متعلقٌ بالمعنى الوصفيِّ الذي يُنبىء عنه الاسم الجليل ، إما باعتبار أصلِ اشتقاقِه وكونِه علماً للمعبودِ بالحق كأنه قيل : وهو المعبودُ فيهما ، وإما باعتبار أنه اسمٌ اشتهر بما اشتهرَتْ به الذاتُ من صفات الكمال فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقامُ من المالكية الكليةِ والتصرُّفِ الكامل حسبما تقتضيه المشيئةُ المبنيَّةُ على الحِكَم البالغة ، فعُلّق به الظرفُ من تلك الحيثية فصار كأنه قيل : وهو المالكُ أو المتصرفُ المدبّرُ فيهما كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله ﴾ وليس المراد بما ذُكر من الاعتبارَيْن أن الاسمَ الجليل يُحملُ على معناه اللغويِّ أو على معنى المالك أو المتصرِّف أو نحوِ ذلك ، بل مجردُ ملاحظة أحدِ المعاني المذكورة في ضمنه كما لوحظ معَ اسْم الأسد في قوله : (أسدٌ عليَّ) الخ ، ما اشتهرَ به من وصف الجَراءة التي اشتهر بها مُسمَّاه ، فجَرى مَجرى جريءٌ عليَّ ، وبهذا تبين أن ما قيل بصدد التصوير والتفسير أي هو المعروفُ بذلك في السموات وفي الأرض ، أو هو المعروفُ المشتهرُ بالصفات الكمالية ، بالإلهية فيهما أو نحوُ ذلك بمعزلٍ من التحقيق ، فإن المعتبرَ مع

الاسم هو نفسُ الوصف الذي اشتهر به ، إذ هو الذي يقتضيه المقامُ حسبما بيّن آنفاً لاشتهاره به . ألا يُرى أن كلمة (عليّ) في المثال المذكور لا يمكن تعليقُها باشتهار الاسم بالجَراءة قطعاً ، وقيل : هو متعلق بما يفيده التركيبُ الحَصْريُّ من التوحّد والتفرّد كأنه قيل : وهو المتوحِّدُ بالإلهية

(156/226)

فيهما ، وقيل : بما تقرر عند الكل من إطلاق هذا الاسم عليه خاصة كأنه قيل : وهو الذي يقال له : الله فيهما لا يُشرك به شيءٌ في هذا الاسم على الوجه الذي سبق ، من اعتبار معنى التوحّد أو القول في فحوى الكلام بطريق الاستتباع ، لا على حمل الاسم الجليل على معنى المتوحِّد بالإلهية ، أو على تقدير القول . وقد جوّز أن يكون الظرفُ خبراً ثانياً على أن كونَه سبحانه فيهما عبارةٌ عن كونه تعالى مبالِغاً في العلم بما فيهما بناءً على تنزيل علمِه المقدس عن حصول الصور والأشباح لكونه حضورياً منزلةَ كونِه تعالى فيهما ، وتصويرُه به على طريقة التمثيل المبنيِّ على تشبيه حالةِ علمه تعالى بما فيهما بحالة كونه تعالى فيهما ، فإن العالَم إذا كان في مكانٍ كان عالِماً به وبما فيه على وجهٍ لا يخفى عليه منه شيء فعلى هذا يكون قولُه عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(157/226)

وقال الآلوسى :

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ اللهُ ﴾ جملة من مبتدأ عائد إليه سبحانه كما قال الجمهور وخبر معطوفه على ما قبلها مسوقة لبيان شمول أحكام إلهيته لجميع المخلوقات وإحاطة علمه بتفاصيل أحوال العباد وأعمالهم المؤدية إلى الجزاء إثر الإشارة إلى تحقق المعاد في تضاعيف ما تقدم ، والحمل ظاهر الفائدة إذا اعتبر ما يأتي وإلا فهو على حد

أنا أبو النجم وشعري شعري . . . .

وقوله تعالى : ﴿ فِي السموات وَفِى الأرض ﴾ متعلق على ما قيل بالمعنى الوصفي الذي تضمنه الاسم الجليل كما في قولك : هو حاتم في طيىء على معنى الجواد .

(158/226)

والمعنى الذي يعتبر هنا يجوز أن يكون هو المأخوذ من أصل اشتقاق الاسم الكريم أعني المعبود أو ما اشتهر به الاسم من صفات الكمال إلا أنه يلاحظ في هذا المقام ما يقتضيه منها

أو ما يدل عليه التركيب الحصري لتعريف طرفي الإسناد فيه من التوحيد والتفرد بالألوهية أو ما تقرر عند الكل من إطلاق هذا الاسم عليه تعالى خاصة فكأنه قيل : وهو المعبود فيهما أو وهو المالك والمتصرف المدبر فيهما حسبما يقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة أو وهو المتوحد بالألوهية فيهما أو وهو الذي يقال له : الله فيهما لا يشرك به شيء في هذا الاسم ، ومعنى ذلك مجرد ملاحظة أحد المعاني المذكورة في ضمن ذلك الاسم الجليل ويكفي مثل ذلك في تعلق الجار لا أنه يحمل لفظ الله على معناه اللغوي أو على نحو المالك والمتصرف أو المتوحد أو يقدر القول ، وعلى كل تقدير يندفع ما يقال : إن الظرف لا يتعلق باسم الله تعالى لجموده ولا بكائن لأنه حينئذ يكون ظرفاً لله تعالى وهو سبحانه وتعالى منزه عن المكان والزمان .

ومن الناس من جوز تعلقه بكائن على أنه خبر بعد خبر والكلام حينئذ من التشبيه البليغ أو كناية على رأي من لم يشترط جواز المعنى الأصلي أو استعارة تمثيلية بأن شبهت الحالة التي حصلت من إحاطة علمه سبحانه وتعالى بالسموات والأرض وبما فيهما بحالة بصير تمكن في مكان ينظره وما فيه والجامع بينهما حضور ذلك عنده .

وجوز أن يكون مجازاً مرسلاً باستعماله في لازم معناه وهو ظاهر ، وأن يكون استعارة بالكناية بأن شبه عز اسمه بمن تمكن في مكان وأثبت له من لوازمه وهو علمه به وبما فيه ، وليس هذا من التشبيه المحظور في شيء .

وعليه يكون قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ أي ما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال أو منها ومن الأفعال بياناً للمراد وتوكيداً لمن يفهم من الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(159/226)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ في السموات وفي الأرض ﴾ متعلّق بالكون المستفاد من جملة القصر ، أو بما في ﴿ الحمد لله ﴾ [الأنعام : 1] من معنى الإنفراد بالإلهية ، كما يقول من يذكر جواداً ثم يقول : هو حاتم في العرب ، وهذا لقصد التنصيص على أنّه لا يشاركه أحد في صفاته في الكائنات كلّها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

القائلون بأن الله تعالى مختص بالمكان تمسكوا بهذه الآية وهو قوله ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السموات ﴾ وذلك يدل على أن الإله مستقر في السماء قالوا : ويتأكد هذا أيضاً بقوله تعالى : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السماء أَن يَخْسِفَ ﴾ [الملك : 16] قالوا : ولا يلزمنا أن يقال فيلزم

أن يكون في الأرض لقوله تعالى في هذه الآية ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السموات وَفِى الارض ﴾ وذلك يقتضي حصوله تعالى في المكانين معاً وهو محال لأنا نقول أجمعنا على أنه ليس بموجود في الأرض ، ولا يلزم من ترك العمل بأحد الظاهرين ترك العمل بالظاهر الآخر من غير دليل ، فوجب أن يبقى ظاهر قوله ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السموات ﴾ على ذلك الظاهر ، ولأن من القراء من وقف عند قوله ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السموات ﴾ ثم يبتدىء فيقول ﴿ وَفِى الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ ﴾ والمعنى أنه سبحانه يعلم سرائركم الموجودة في الأرض فيكون قوله ﴿ فِى الأرض ﴾ صلة لقوله ﴿ سِرَّكُمْ ﴾ هذا تمام كلامهم .

(160/226)

واعلم أنا نقيم الدلالة أولاً على أنه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره ، وذلك من وجوه :

الأول : أنه تعالى قال في هذه السورة ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى السموات والارض قُل لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : 12] فبيّن بهذه الآية أن كل ما في السموات والأرض فهو ملك لله تعالى ومملوك له ، فلو كان الله أحد الأشياء الموجودة في السموات لزم كونه ملكاً لنفسه ، وذلك محال ، ونظير هذه الآية قوله في سورة طه ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [طه : 6] فإن قالوا قوله ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى السموات والأرض ﴾ هذا يقتضي أن كل ما في السموات فهو لله

إلا أن كلمة ما مختصة بمن لا يعقل فلا يدخل فيها ذات الله تعالى .

قلنا : لا نسلم والدليل عليه قوله ﴿ والسماء وَمَا بناها والأرض وَمَا طحاها وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 75] ونظيره ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] ولا شك أن المراد بكلمة ما ههنا هو الله سبحانه .

والثاني : أن قوله ﴿ وَهُوَ الله فِى السموات ﴾ إما أن يكون المراد منه أنه موجود في جميع السموات ، أو المراد أنه موجود في سماء واحدة .

والثاني : ترك للظاهر والأول : على قسمين لأنه إما أن يكون الحاصل منه تعالى في أحد السموات عين ما حصل منه في سائر السموات أو غيره ، والأول : يقتضي حصول المتحيز الواحد في مكانين وهو باطل ببديهة العقل .

والثاني : يقتضي كونه تعالى مركباً من الأجزاء والأبعاض وهو محال .

والثالث : أنه لو كان موجوداً في السماوات لكان محدوداً متناهياً وكل ما كان كذلك كان قبوله للزيادة والنقصان ممكناً ، وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بالمقدار المعين لتخصيص مخصص وتقدير مقدر وكل ما كان كذلك فهو محدث .

والرابع : أنه لو كان في السموات فهل يقدر على خلق عالم آخر فوق هذه السموات أو لا يقدر ، والثاني : يوجب تعجيزه والأول : يقتضي أنه تعالى لو فعل ذلك لحصل تحت هذا العالم ، والقوم ينكرون كونه تحت العالم والخامس : أنه تعالى قال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] وقال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] وقال : ﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله ﴾ [الزخرف : 84] وقال ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ [البقرة : 115] وكل ذلك يبطل القول بالمكان والجهة لله تعالى ، فثبت بهذه الدلائل أنه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره فوجب التأويل وهو من وجوه : الأول : أن قوله ﴿ وَهُوَ الله فِى السموات وَفِى الأرض ﴾ يعني وهو الله في تدبير السموات والارض كما يقال : فلان في أمر كذا أي في تدبيره وإصلاح مهماته ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله وَفِى الأرض إله ﴾ والثاني : أن قوله ﴿ وَهُوَ الله ﴾ كلام تام ، ثم ابتدأ وقال : ﴿ فِي السموات وَفِى الأرض يَعلمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ والمعنى إله سبحانه وتعالى يعلم في السموات سرائر الملائكة ، وفي الأرض يعلم سرائر الإنس والجن .

والثالث : أن يكون الكلام على التقديم والتأخير والتقدير : وهو الله يعلم في السموات وفي الأرض سركم وجهركم ، ومما يقوي هذه التأويلات أن قولنا : وهو الله نظير قولنا هو الفاضل العالم ، وكلمة هو إنما تذكر ههنا لإفادة الحصر ، وهذه الفائدة إنما تحصل إذا جعلنا لفظ الله اسماً مشتقاً فأما لو جعلناه اسم علم شخص قائم مقام التعيين لم يصح إدخال هذه اللفظة

عليه ، وإذا جعلنا قولنا : الله لفظاً مفيداً صار معناه وهو المعبود في السماء وفي الأرض ، وعلى هذا التقدير يزول السؤال والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 129.128 ﴾

(162/226)

قوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾

فائدة

قال الفخر :

المراد بالسر صفات القلوب وهي الدواعي والصوارف ، والمراد بالجهر أعمال الجوارح ، وإنما قدم ذكر السر على ذكر الجهر لأن المؤثر في الفعل هو مجموع القدرة مع الداعي ، فالداعية التي هي من باب السر هي المؤثرة في أعمال الجوارح المسماة بالجهر ، وقد ثبت أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول ، والعلة متقدمة على المعلول ، والمتقدم بالذات يجب تقديمه بحسب اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 129 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ أي ما أسررْتُموه وما جهرتم به من الأقوال أو ما أسررتموه وما

أعلنتموه كائناً ما كان من الأقوال والأعمال بياناً وتقريراً لمضمونه وتحقيقاً للمعنى المراد منه ، وتعليقُ علمِه عز وجل بما ذُكر خاصةً مع شموله لجميع ما فيهما حسبما تفيدُه الجملةُ السابقة لانسياق النظمِ الكريم إلى بيان حال المخاطبين وكذا على الوجه الثاني فإن

(163/226)

ملاحظةَ الاسم الجليلِ من حيث المالكيةُ الكلية والتصرفُ الكاملُ الجاري على النمط المذكور مستتبعةٌ لملاحظة علمِه المحيطِ حتماً ، فيكونُ هذا بياناً وتقريراً له بلا ريب ، وأما على الأوجه الثلاثة الباقية فلا سبيل إلى كونه بياناً ، لكن لا لما قيل من أنه لا دلالةَ لاستواء السرِّ والجهر في علمه تعالى على ما اعتُبر فيهما من المعبودية والاختصاص بهذا الاسم ، إذ ربما يُعبد ويُختصّ به من ليس له كمالُ العلم فإنه باطل قطعاً ، إذ المراد بما ذكره هو المعبوديةُ بالحق والاختصاصُ بالاسم الجليل ، لا ريبَ في أنهما مما لا يتصور فيمن ليس له كمالُ العلم بديهةً ، بل لأن ما ذُكر من العلم غيرُ معتبرٍ في مدلول شيءٍ من المعبودية بالحق والاختصاصِ بالاسم حتى يكونَ هذا بياناً له ، وبهذا تبين أنه ليس ببيانٍ على الوجه الثالث أيضاً ، لما أن التوحدَ بالإلهية لا يُعتبر في مفهومه العلمَ الكاملَ ليكون هذا بياناً له ، بل هو معتبرٌ فيما صدَق عليه المتوحِّد وذلك غيرُ كاف في البيانية . وقيل : هو خبر بعد خبر عند من يجوِّز

كونَ الخبر الثاني جملةً كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ وقيل : هو الخبر ، والاسمُ الجليل بدلٌ من (هو) ، وبه يتعلق الظرف المتقدم ، ويكفي في ذلك كونُ المعلوم فيهما كما في قولك : رميتُ الصيدَ في الحرَم ، إذا كان هو فيه وأنت في خارجَه ، ولعل جعْلَ سرهم وجهرهم فيهما لتوسيع الدائرة وتصويرِ أنه لا يعزُب عن علمه شيءٌ منهما في أي مكان كان ، لا

لأنهما قد يكونان في السموات أيضاً ، وتعميمُ الخطاب لأهلها تعسُّفٌ لا يخفى . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(164/226)

وقال الآلوسى :

﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ أي ما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال أو منها ومن الأفعال بياناً للمراد وتوكيداً لمن يفهم من الكلام .

وتعليق علمه سبحانه بما ذكر خاصة مع شموله لجميع من في السموات وصاحبتها لانسياق النظم الكريم إلى بيان حال المخاطبين وكذا يعتبر بياناً على تقدير اعتبار ما اشتهر به الاسم الجليل من صفات الكمال عند تعلق الجار على ما علمت فإن ملاحظته من حيث المالكية

الكاملة والتصرف الكامل حسبما تقدم مستتبعة لملاحظة علمه تعالى المحيط حتماً .

وعلى التقادير الأخر لا مساغ كما قيل لجعله بياناً لأن ما ذكر من العلم غير معتبر في مفهوم شيء من المعبودية واختصاص إطلاق الاسم عليه تعالى ، وكذا مفهوم المتوحد بالألوهية فكيف يكون هذا بياناً لذلك .

واعتبار العلم فيما صدق عليه المتوحد غير كاف في البيانية ، وقيل في بيانها على تقدير اعتبار المتوحد بالألوهية : إن حصر الألوهية بمعنى تدبير الخلق ، ومن تفرد بتدبير جميع أمور أحد لزمه معرفة جميعها حتى يتم له تدبيرها فملاحظة المتوحد بالألوهية مستتبعة لملاحظة علمه تعالى المحيط على طرز ما تقرر في ملاحظة اسمه عز اسمه من حيث المالكية الكاملة والتصرف الكامل على الوجه المتقدم .

(165/226)

ومن هذا يعلم اندفاع ما أورد على احتمال تعلق الجار السابق باعتبار ملاحظة المتوحد بالألوهية من أن التوحيد بها أمر لا تعلق له بمكان فلا معنى لجعله متعلقاً بمكان فضلاً عن جميع الأمكنة فإن تدبير الخلق مما يتعلق بما في حيز الجار من الحيز ، وكذا بما فيه .

وتعقب ذلك بمنع تفسير الألوهية بما ذكر ؛ ولعل الجملة على هاتيك التقادير خبر ثالث ،

وقد جوز غير واحد الإخبار بالجملة بعد الإخبار بالمفرد ، وبعضهم جعلها كذلك مطلقاً ، والقرينة على إرادة المراد من الجملة الظرفية حينئذ عقلية ، وهي أن كل أحد يعلم أنه تقدس وتعالى منزه عما يقتضيه الظاهر من المكان ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] إذ لم يردف بما يبينه ، وجوز أن تكون كلاماً مبتدأ وهو استئناف نحوي .

ورجحه غير واحد لخلوه عن التكلف أو استئناف بياني ويتكلف له تقدير سؤال ، وقيل : إن الجملة هي خبر ﴿ هُوَ ﴾ والاسم الجليل بدل منه والظرف متعلق بيعلم .

ويكفي في ذلك كون المعلوم فيما ذكر ولا يتوقف على كون العالم فيه ليلزم تحيزه سبحانه وتعالى المحال .

وهذا ما قيل كقولك : رميت الصيد في الحرم فإنه صادق إذا كنت خارجه والصيد فيه .

ونقل بعض المدققين عن الإمام التمرتاشي في الأيمان إذا ذكر ظرف بعد فعل له فاعل كما إذا قلت : إذا ضربت في الدار أو في المسجد فإن كان معاً فيه فالأمر ظاهر وإن كان الفاعل فيه دون المفعول أو بالعكس فإن كان الفعل مما يظهر أثره في المفعول كالضرب والقتل والجرح فالمعتبر كون المفعول فيه وإن كان مما لا يظهر أثره فيه كالشتم فالمعتبر كون الفاعل فيه فلذا قال بعض الفقهاء : لو قال إن شتمته في المسجد أو رميت إليه فكذا فشرط حنثه كون الفاعل فيه .

وإن قال : إن ضربته في المسجد أو جرحته أو قتلته أو رميته فكذا فشرطه كون المفعول فيه .

(166/226)

وفرق بين الرميين المتعدي بإلى والمتعدي بنفسه بأن الأول : إرسال السهم من القوم بنية وذلك مما لا يظهر له أثر في المحل ولا يتوقف على وصول فعل الفاعل .

والثاني : إرسال السهم أو ما يضاهيه على وجه يصل إلى المرمى إليه فيؤثر فيه ولذا عد كل منهما في قبيل .

وعلى هذا يشكل ما نحن فيه لأن العلم لا يظهر له أثر في المعلوم فيلزم أن يكون الكلام من قبيل شتمته في المسجد ويجيء المحال وكون العلم هنا مجازاً عن المجازاة وهي مما يظهر أثرها في المفعول فيكون الكلام من قبيل إن ضربته في المسجد ويكفي كون المفعول فيه دون الفاعل في القلب منه شيء على أن كون المفعول هنا أعني سر المخاطبين وجهرهم في السموات مما لا وجه له .

والقول بأن المعنى حينئذ يعلم نفوسكم المفارقة الكائنة في السموات ونفوسكم المقارنة لأبدانكم الكائنة في الأرض تعسف وخروج عن الظاهر على أن الخطاب حينئذ يكون

للمؤمنين وقد كان فيما قبل للكافرين فتفوت المناسبة والارتباط ، ومثله القول بتعميم الخطاب بحيث يشمل الملائكة وظاهر أن سرهم وجهرهم في السموات .

وأجيب بأنه يمكن أن يكون جعل سر المخاطبين وجهرهم فيها لتوسيع الدائرة وتصوير أنه سبحانه وتعالى لا يعزب عن علمه شيء في أي مكان كان لا أنهما يكونان في السموات أيضاً ، وقيل : المراد بالسر ما كتم عنهم من عجائب الملك وأسرار الملكوت مما لم يطلعوا عليه وبالجهر ما ظهر لهم من السموات والأرض .

وإضافة السر والجهر إلى ضمير المخاطبين مجازية وليس بشيء كما لا يخفى .

وجوز بعضهم أن يكون الجار متعلقاً بالمصدر على سبيل التنازع ، واعترض بأن معمول المصدر لا يتقدم عليه .

ويلزم أيضاً التنازع مع تقدم المعمول .

(167/226)

وأجيب بأن منهم من يجوز التنازع مع تقدم المعمول ومن يقول : بجواز تقديم الظرف على المصدر لتوسعهم فيه ما لم يتوسع في غيره ، ونقل عن ابن هشام أنه قال : إنما يمتنع تقدم متعلق المصدر إذا قدر بحرف مصدري وفعل وهذا ليس كذلك فليس مما منعوه ، وقال مولانا

صدر الدين : يرد على منع تعلق الجار بالمصدر المتأخر تعلقه بإله في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى فِى السماء إله ﴾ [الزخرف : 84] مع أن إلهاً مصدر وصرح بتعلقه به غير واحد فإن أول بالصفة مثل المعبود فليؤول السر والجهر بالخفي والظاهر .

وعن أبي علي الفارسي أنه جعل ﴿ هُوَ ﴾ ضمير الشأن و ﴿ الله ﴾ مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر عن ضمير الشأن أي الشأن والقصة ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ يعلم سرّكم وجهركم ﴾ جملة مقرّرة لمعنى جملة ﴿ وهو الله ﴾ ولذلك فصلت ، لأنّها تتنزّل منا منزلة التوكي لأنّ انفراده بالإلهية في السماوات وفي الأرض ممّا يقتضي علمه بأحوال بعض الموجودات الأرضية .

ولا يجوز تعليق ﴿ في السماوات وفي الأرض ﴾ بالفعل في قوله : ﴿ يعلم سرّكم ﴾ لأنّ سرّ النّاس وجهرهم وكسبهم حاصل في الأرض خاصّة دون السماوات ، فمن قدّر ذلك فقد أخطأ خطأً خفيّاً .

وذكر السرّ لأنّ علم السرّ دليل عموم العلم ، وذكر الجهر لاستيعاب نوعي الأقوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

قال الفخر :

قوله ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ فيه سؤال : وهو أن الأفعال إما أفعال القلوب وهي المسماة بالسر ، وإما أعمال الجوارح وهي المسماة بالجهر .

فالأفعال لا تخرج عن السر والجهر فكان قوله ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ يقتضي عطف الشيء على نفسه ، وأنه فاسد .

والجواب : يجب حمل قوله ﴿ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ على ما يستحقه الإنسان على فعله من ثواب وعقاب والحاصل أنه محمول على المكتسب كما يقال : هذا المال كسب فلان أي مكتسبه ، ولا يجوز حمله على نفس الكسب ، وإلا لزم عطف الشيء على نفسه على ما ذكرتموه في السؤال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 130 ﴾

(168/226)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي ما تفعلونه لجلب نفعٍ أو دفعِ ضرَ من الأعمال المكتسَبةِ بالقلوب أو بالجوارح سراً أو علانية ، وتخصيصُها بالذكر مع اندراجها فيما سبق على التفسير الثاني للسر والجهر لإظهار كمال الاعتناء بها ، لأنها التي يتعلق بها الجزاءُ وهو السرُّ

في إعادة يعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي ما تفعلونه لجلب نفع أو دفع ضر من الأعمال المكتسبة بالقلوب والجوارح سراً وعلانية .

وتخصيص ذلك بالذكر مع اندراجه فيما تقدم على تقدير تعميم السر والجهر لإظهار كمال الاعتناء به لأنه مدار فلك الجزاء وهو السر في إعادة ﴿ يَعْلَمْ ﴾ .

ومن الناس من غاير بين المتعاطفين بجعل العلم هنا عبارة عن جزائه وإبقائه على معناه المتبادر فيما تقدم .

وتفسير المكتسب بجزاء الأعمال من المثوبات والعقوبات غير ظاهر .

وكذا حمل السر والجهر على ما وقع والمكتسب على ما لم يقع بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والمراد بـ ﴿ تكسبون ﴾ جميع الاعتقادات والأعمال من خير وشر فهو تعريض بالوعد والوعيد .

والخطاب لجميع السامعين ؛ فدخل فيه الكافِرون ، وهم المقصود الأول من هذا الخطاب ، لأنّه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير

والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

الآية تدل عى كون الإنسان مكتسباً للفعل والكسب هو الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع أو دفع ضر ، ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنه كسب لكونه تعالى منزهاً عن جلب النفع ودفع الضرر . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 130 ﴾

(169/226)

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن معنى الكلام وهو الله المُدبِّر في السموات وفي الأرض .

﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ أي ما تخفون ، وما تعلنون . والثاني : وهو الله المعبود في السموات ، وفي الأرض .

والثالث : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، لأن في السموات الملائكة ، وفي الأرض الإِنس والجن ، قاله الزجاج .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي ما تعلمون من بعد ، ولا يخفى عليه ما كان منكم ، ولا ما سيكون ، ولا ما أنتم عليه في الحال من سر ، وجهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾

قاعدة الكلام في هذه الآية أن حلول الله تعالى في الأماكن مستحيل وكذلك مماسته للأجرام أو محاداته لها أو تحيز لا في جهة لامتناع جواز التقرب عليه تبارك وتعالى ، فإذا تقرر هذا فبين أن قوله تعالى : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ ليس على حد قولنا زيد في الدار بل هو على وجه من التأويل آخر ، قالت فرقة ذلك على تقدير صفة محذوفة من اللفظ ثابتة في المعنى ، كأنه قال وهو الله المعبود في السماوات وفي الأرض ، وعبر بعضهم بأن قدر هو الله المدبر للأمر في " السماوات وفي الأرض " ، وقال الزجاج ﴿ في ﴾ متعلقة بما تضمنه اسم الله تعالى من المعاني كما يقال : أمير المؤمنين الخليفة في المشرق والمغرب .

قال القاضي أبو محمد : وهذا عندي أفضل الأقوال وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ وجزالة المعنى ، وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وإيثار قدرته وإحاطته واستيلائه ونحو هذه الصفات فجمع هذه كلها في قوله : ﴿ وهو الله ﴾ أي الذي له هذه كلها " في السماوات وفي الأرض " كأنه وهو الخالق الرازق المحيي المحيط " في السماوات وفي الأرض " كما تقول زيد السلطان في الشام والعراق ، فلو قصدت ذات لقلت محالاً ، وإذا كان مقصد قوله زيد الأمر الناهي المبرم الذي عزل ويولي في الشام والعراق فأقمت السلطان مقام هذه كان فصيحاً صحيحاً ، فكذلك في الآية أقام لفظة ﴿ الله ﴾ مقام تلك الصفات المذكورة ، وقالت فرقة ﴿ وهو الله ﴾ ابتداء وخبر تم الكلام عنده ، ثم استأنف ، وتعلق قوله ﴿ في السماوات ﴾ بمفعول ﴿ يعلم ﴾ ، كأنه قال " وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض " فلا يجوز مع هذا التعليق أن يكون ﴿ هو ﴾ ضمير أمر وشأن لأنه يرفع ﴿ الله ﴾ بالابتداء ، و ﴿ يعلم ﴾ في موضع الخبر ، وقد فرق ﴿ في السماوات وفي الأرض ﴾ بين الابتداء والخبر وهو ظرف غريب من الجملة ، ويلزم قائلي هذه المقالة أن تكون المخاطبة في الكاف في قوله : ﴿ سركم وجهركم ﴾ لجميع المخلوقين الإنس والملائكة ، لأن الإنس لا سر ولا جهر لهم في السماء ، فترتيب الكلام على هذا القول وهو الله يعلم يا جميع المخلوقين " سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض " وقالت فرقة ﴿

وهو ﴾ ضمير الأمر والشأن و" الله في السماوات " ابتداء وخبر تم الكلام عنده ، ثم ابتدأ كأنه قال " ويعلم في الأرض سركم وجهركم " ، وهذا القول إذ قد تخلص من لزوم المخاطبة الملائكة فهو مخلص من شبهة الكون في السماء بتقدير حذف المعبود أو المدبر على ما تقدم ، وقوله تعالى ﴿ يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ خبر في ضمنه تحذير وزجر ، و﴿ تكسبون ﴾ لفظ عام لجميع الاعتقادات والأفعال والأقوال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(171/226)

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال ، بعد الاتفاق على تخطئة قول الجَهْمِيَّة الأول القائلين بأنه – تعالى عن قولهم علوًا كبيرًا – في كل مكان ؛ حيث حملوا الآية على ذلك ، فأصح الأقوال أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض ، أي : يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَغَبًا ورَهَبًا ، إلا من كفر من الجن

والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ [الزخرف : 84] ، أي : هو إله مَنْ في السماء وإله مَنْ في الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ خبرًا أو حالا .

والقول الثاني : أن المراد أن الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض ، من سر وجهر . فيكون قوله : ﴿ يَعْلَمُ ﴾ متعلقًا بقوله : ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾ تقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون .

والقول الثالث أن قوله ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال : ﴿ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي : جميع أعمالهم خيرها وشرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 239 . 240 ﴾

(172/226)

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السموات وَفِى الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

قيل : إن في السموات وفي الأرض متعلق باسم الله باعتبار ما يدل عليه من كونه معبوداً ومتصرفاً ومالكاً ، أي هو المعبود أو المالك أو المتصرف في السموات والأرض كما تقول : زيد الخليفة في الشرق والغرب ، أي حاكم أو متصرف فيهما ؛ وقيل المعنى : وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، فلا تخفى عليه خافية ، فيكون العامل فيهما ما بعدهما .

قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فيه .

وقال ابن جرير : هو الله في السموات ويعلم سركم وجهركم في الأرض .

والأوّل أولى ، ويكون ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ جملة مقرّرة لمعنى الجملة الأولى ، لأن كونه سبحانه في السماء والأرض ، يستلزم علمه بأسرار عباده وجهرهم ، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشرّ ، وجلب النفع ودفع الضرر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(173/226)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾

أي : المعبود فيهما ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ أي : من الأقوال أو الدواعي والصوارف القلبية وأعمال الجوارح ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي : ما تفعلونه من خير أو شر ، فيثيب عليه ويعاقب . وتخصيصه بالذكر ، مع اندراجه فيما سبق ، على التفسير الثاني للسر والجهر –لإظهار كمال الاعتناء به الذي يتعلق به الجزاء . وهو السر في إعادة يعلم .

قال الناصر في " الانتصاف " : وما هاتان الآياتان الكريمتان – يعني هذه الآية وآية الزخرف ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ [الزخرف : 84] –إلاَّ تَوْأَمَتَانِ . فإن التمدح في آية الزخرف ، وقع بما وقع التمدح به هاهنا من القدرة على الإعادة والاستئثار بعلم الساعة والتواجد في الألوهية ، وفي كونه تعالى المعبود في السماوات والأرض .

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : للمفسرين في هذه الآية أقوال ، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية ، الأول القائلين – تعالى عن قولهم علواً كبيراً – بأنه في كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك . فلأصح من الأقوال أنه المدعوّ في السماوات والأرض ، أي : يعبده ويوحده ويقرّ له بالآلهية من في السماوات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [الأنبياء : 90] . إلا من كفر من الجن والإنس . وهذه الآية – على هذا القول – كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ . أي :

هو إله من في السماء وإله من في الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ خبراً أو حالاً .

(174/226)

والقول الثاني – إن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض من سر وجهر . فيكون قوله : ﴿ يَعْلَمُ ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾ تقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات . . . . الخ .

والقول الثالث – إن قوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال : ﴿ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير . انتهى .

ورجح ابن عطية في الآية : أنه الذي يقال له : ﴿ الله ﴾ فيهما . قال : وهذا عندي أفضل الأقوال ، وأكثرها إحرازاً لفصاحة اللفظ ، وجزالة المعنى ، وإيضاحه : أنه أراد أن يدل على خلقه ، وآيات قدرته ، وإحاطته واستيلائه ، ونحو هذه الصفات . فجمع هذه كلها في قوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ –الذي لَهُ هَذِهِ كُلُّهَا – : ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كأنه قال : وهو الخالق والرازق والمحيي والمميت فيهما . تنبيه :

قال الرازي : الآية تدل كون الْإِنْسَانْ مكتسباً للفعل ، والكسب هو الفعل المفضِي إلى

اجتلاب نفع ، أو دفع ضرّ . ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنه كسب ، لكونه تعالى منزهاً عن جلب النفع ، ودفع الضرّ –والله أعلم– . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 318.320 ﴾

(175/226)

ومن فوائد الشيخ الشنقيطى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللهِ فِي السماوات وَفِي الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام : 3] الآية في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه للعلماء من التفسير وكل واحد منها له مصداق في كتاب الله تعالى :

الأول : أن المعنى ، وهو الله في السماوات وفي الأرض ، اي وهو الإله المعبود في السماوات وفي الأرض ، لأنه جل وعلا هو المعبود وحده بحق في الأرض والسماء ، وعلى هذا فجملة " يعلم " حال ، أو خبر وهذا المعنى يبينه ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله ﴾ [الزخرف : 84] أي ، وهو المعبود في السماء والأرض بحق ، ولا عبرة بعبادة الكافرين غيره ، لأنها وبال عليهم يخلدون بها في النار الخلود الأبدي ،

ومعبوداتهم ليست شركاء لله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : 23] ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس : 66] .

وهذا القول في الآية اظهر الأقوال ، واختاره القرطبي .

الوجه الثاني : أن قوله ﴿ فِي السماوات وَفِي الأرض ﴾ يتعلق بقوله ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ ﴾ أي وهو الله يعلم سركم في السماوات وفي الأرض ويبين هذا القول ويشهد له قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ [الفرقان : 6] الآية .

قال النحاس : وهذا القول من أحسن ما قيل في الآية نقله عنه القرطبي .

(176/226)

الوجه الثالث : وهو اختيار ابن جرير ، أن الوقف تام على قوله في ﴿ السماوات ﴾ وقوله ﴿ وَفِي الأرض ﴾ يتعلق بما بعده ، أي يعلم سركم وجهركم في الأرض ، ومعنى هذا القول : إنه – جل وعلا – مستو على عرشه فوق جميع خلقه ، مع أنه يعلم سر أهل الأرض وجهرهم لا يخفى عليه شيء من ذلك .

(177/226)

ويبين هذا القول ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (*) أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِي السمآء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ [الملك : 16- 17] ؟ الآية ، وقوله : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] ، مع قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] ، وقوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف : 7] وسيأتي إن شاء الله تحقيق هذا المقام بإيضاح في سورة الأعراف .

واعلم أن ما يزعمه الجهمية " من أن الله تعالى في كل مكان " مستدلين بهذه الآية على أنه في الأرض ضلال مبين ، وجهل بالله تعالى ، لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيء منها رب السماوات والأرض الذي هو أعظم من كل شيء ، وأعلى من كل شيء ، محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء ، فالسماوات والأرض في يده جل وعلا أصغر من حبة خردل في يد أحدنا ، وله المثل الأعلى ، فلو كانت حبة خردل في يد رجل فهل يمكن أن يقال : إنه حال فيها ، أو في كل جزء من أجزائها . لا وكلا ، هي أصغر وأحقر من ذلك ، فإذا علمت ذلك فاعلم أن رب السماوات والأرض أكبر من كل شيء وأعظم من كل " شيء محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء ، ولا يكون فوقه شيء ﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 3] ، سبحانه وتعالى علواً كبيراً لا نحصي ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه ﴿ يَعْلَمُ مَا

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه : 110] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(178/226)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْأَنْعَامِ .

(وَهِيَ السُّورَةُ السَّادِسَةُ ، وَآيَاتُهَا 165 عِنْدَ الْقُرَّاءِ الْكُوفِيِّينَ ، وَعَلَيْهِ مُصْحَفُ الْحُكُومَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَفُلُوجَلَ و166 عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ و167 عِنْدَ الْحِجَازِيِّينَ) .

هِيَ مَكِّيَّةٌ قِيلَ : إِلَّا آيَةً وَاحِدَةً هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ) (111) فَإِنَّهَا مَدَنِيَّةٌ . رَوَاهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ وَقِيلَ : إِلَّا آيَتَيْنِ نَزَلَتَا فِي الْمَدِينَةِ فِي رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ قَالَ : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، فَنَزَلَ فِيهِمْ : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) (91) الْآيَتَيْنِ رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ عَنِ

(179/226)

الْكَلْبِيِّ وَسُفْيَانَ وَقِيلَ : هُمَا (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ) (151) إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ ، رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ ، وَمَا قَبْلَهُ أَقْوَى مِنْ جِهَةِ مَعْنَى الْآيَتَيْنِ ، فَإِنَّهُ فِي مُحَاجَّةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْمَدِينَةِ ، وَأَمَّا (قُلْ تَعَالَوْا) الْآيَتَيْنِ فَمَعْنَاهُمَا مِنْ مَوْضُوعِ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ ، وَهُمْ مُتَّصِلَتَانِ بِمَا بَعْدَهُمَا ، وَقِيلَ : إِنَّ الْآيَةَ الثَّالِثَةَ بَعْدَهُمَا مَدَنِيَّةٌ أَيْضًا ، كَمَا رَوَاهُ ابْنُ النَّحَّاسِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَيَأْتِي قَرِيبًا وَقِيلَ : إِلَّا سِتَّ آيَاتٍ (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا وَ (قُلْ تَعَالَوْا) إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا : وَهَذَا جَمْعٌ بَيْنَ الْأَقْوَالِ السَّابِقَةِ كُلِّهَا .

وَقَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الْإِتْقَانِ : قَالَ ابْنُ الْحَصَّارِ : اسْتَثْنَى مِنْهَا تِسْعَ آيَاتٍ وَلَا يَصِحُّ بِهِ نَقْلٌ ، خُصُوصًا مَعَ مَا قَدْ وَرَدَ أَنَّهَا نَزَلَتْ جُمْلَةً (قُلْتُ) قَدْ صَحَّ النَّقْلُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِاسْتِثْنَاءِ (قُلْ تَعَالَوْا) الْآيَاتِ الثَّلَاثَ كَمَا تَقَدَّمَ . وَالْبَوَاقِي (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) لِمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ ، وَقَوْلُهُ : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) (21 ، 93) الْآيَتَيْنِ ، نَزَلَتَا فِي مُسَيْلِمَةَ . وَقَوْلُهُ : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ) (20) وَقَوْلُهُ : (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) (114) اهـ .

أَقُولُ : قَدْ ثَبَتَ أَنَّ بَعْضَ الْآيَاتِ كَانَتْ تَصْدُقُ عَلَى وَقَائِعَ تَحْدُثُ بَعْدَ نُزُولِهَا أَوْ قَبْلَهُ لِلِاسْتِشْهَادِ أَوِ الِاحْتِجَاجِ بِهَا فِي الْوَاقِعَةِ مِنْهَا ، فَيَظُنُّ مَنْ سَمِعَهَا حِينَئِذٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَمْ يَكُنْ سَمِعَهَا مِنْ قَبْلُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي تِلْكَ الْوَاقِعَةِ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ الصَّحَابَةُ : إِنَّ آيَةَ كَذَا نَزَلَتْ فِي كَذَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي إِثْبَاتِ هَذَا الْأَمْرِ أَوْ حُكْمِهِ أَوْ دَالَّةً عَلَيْهِ ، فَيَظُنُّ الرَّاوِي عَنْهُ أَنَّهَا عِنْدَ حُدُوثِ ذَلِكَ الْأَمْرِ ، وَالصَّحَابِيُّ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ . وَقَدْ نَقَلَ السُّيُوطِيُّ هَذَا الْمَعْنَى عَنِ ابْنِ تَيْمِيَةَ وَالزَّرْكَشِيِّ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا يُعَدُّ مِنَ التَّفْسِيرِ لَا مِنَ الْحَدِيثِ الْمُسْنَدِ . وَلَمَّا كَانَ وُجُودُ آيَاتٍ مَدَنِيَّةٍ فِي سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ أَوْ آيَاتٍ مَكِّيَّةٍ فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ خِلَافَ الْأَصْلِ ، فَالْمُخْتَارُ عَدَمُ قَبُولِ الْقَوْلِ بِهِ إِلَّا إِذَا ثَبَتَ بِرِوَايَةٍ صَحِيحَةِ السَّنَدِ صَرِيحَةِ

الْمَتْنِ سَالِمَةٍ مِنَ الْمُعَارَضَةِ وَالِاحْتِمَالِ ، وَإِنَّنَا لَمْ نَرَهُمْ صَحَّحُوا مِمَّا رَوَاهُ مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ إِلَّا رِوَايَةَ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي اسْتِثْنَاءِ ثَلَاثِ آيَاتٍ هُنَّ مِنْ مَوْضُوعِ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ ، وَلَعَلَّهُمْ لَوْ ذَكَرُوا لَنَا الرِّوَايَةَ بِنَصِّهَا لَمَا وَجَدْنَا فِيهَا حُجَّةً عَلَى مَا قَالُوا .

وَأَمَّا مَا رُوِيَ فِي نُزُولِ الْأَنْعَامِ جُمْلَةً وَاحِدَةً فَقَدْ أَخْرَجَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ

عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَفِي الْإِتْقَانِ أَنَّهُ أَخْرَجَهُ أَبُو عَبِيدٍ وَالطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ طَرِيقِ يُوسُفَ بْنِ عَطِيَّةَ وَهُوَ مَتْرُوكٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ ، وَفِي كُلِّ رِوَايَةٍ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهَا نَزَلَتْ يُشَيِّعُهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِلَّا أَثَرَ مُجَاهِدٍ فَإِنَّهُ قَالَ فِيهِ خَمْسُمِائَةِ مَلَكٍ . قَالَ السُّيُوطِيُّ : فَهَذِهِ شَوَاهِدُ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا ، ثُمَّ نَقَلَ عَنِ ابْنِ الصَّلَاحِ أَنَّهُ رَوَى ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ وَقَالَ : وَلَمْ نَرَ لَهُ إِسْنَادًا صَحِيحًا ، وَقَدْ رُوِيَ مَا يُخَالِفُهُ ، فَرُوِيَ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ جُمْلَةً بَلْ نَزَلَتْ آيَاتٌ مِنْهَا بِالْمَدِينَةِ اخْتَلَفُوا فِي عَدَدِهَا فَقِيلَ ثَلَاثٌ وَقِيلَ سِتٌّ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ انْتَهَى . وَعَزَاهُ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ إِلَى آخَرِينَ أَخْرَجُوهُ أَيْضًا عَمَّنْ ذَكَرَ وَعَنْ أَنَسٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ مَرْفُوعًا وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ وَأَبِي جُحَيْفَةَ وَعَلِيٍّ الْمُرْتَضَى ، فَكَثْرَةُ الرِّوَايَاتِ فِي مَسْأَلَةٍ لَا مَجَالَ فِيهِ لِلرَّأْيِ فَتَكُونُ اجْتِهَادِيَّةً ، وَلَا لِلْهَوَى فَتَكُونُ مَوْضُوعَةً ، وَلَا لِغَلَطِ الرُّوَاةِ فَتَكُونُ مَعْلُولَةً لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا أَصْلٌ صَحِيحٌ .

(182/226)

وَنَقُولُ : إِنَّهُ لَمْ يَرْوِ أَحَدٌ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ جُمْلَةً وَاحِدَةً بِهَذَا اللَّفْظِ الْمُنَاقِضِ لِتِلْكَ الرِّوَايَاتِ الْمُصَرِّحَةِ بِنُزُولِهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً كَحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ " نَزَلَتْ عَلَيَّ سُورَةُ الْأَنْعَامِ جُمْلَةً وَاحِدَةً يُشَيِّعُهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ " وَإِنَّمَا مُرَادُ ابْنِ الصَّلَاحِ بِذَلِكَ مَا رُوِيَ مِنَ اسْتِثْنَاءِ بَعْضِ الْآيَاتِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ نَصٌّ صَحِيحٌ صَرِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، فَرِوَايَةُ نُزُولِهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً أَرْجَحُ بِمُوَافَقَتِهَا لِلْأَصْلِ وَبِكَوْنِهَا مُثْبِتَةً ، وَرِوَايَاتُ الِاسْتِثْنَاءِ نَافِيَةٌ ، وَالْمُثْبِتُ مُقَدَّمٌ عَلَى النَّافِي ، وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا مَنْ قَالَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَاسْتَثْنَى كَابْنِ عَبَّاسٍ (وَالِاسْتِثْنَاءُ مِعْيَارُ الْعُمُومِ) وَإِذْ كَانَ مَا صَحَّحَهُ السُّيُوطِيُّ مِنَ اسْتِثْنَاءِ ثَلَاثِ آيَاتٍ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ مَا رَوَاهُ ابْنُ النَّحَّاسِ عَنْهُ فِي نَاسِخِهِ فَقَدِ انْحَلَّ الْإِشْكَالُ ، فَإِنَّ نَصَّ عِبَارَتِهِ : سُورَةُ الْأَنْعَامِ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فَهِيَ مَكِّيَّةٌ إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ) إِلَى تَمَامِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ اهـ . فَقَدْ صَحَّ بِهَذِهِ الرِّوَايَةِ إِذًا أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ الطَّوِيلَةَ نَزَلَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، وَهَذَا نَصٌّ تَوْقِيفِيٌّ عُرِفَ أَصْلُهُ الْمَرْفُوعُ فَهُوَ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، عَلَى أَنَّ اسْتِثْنَاءَ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ فِيهِ يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ لَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ مِمَّنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ وَيَرْوِي

(183/226)

الْحَدِيثَ ، فَإِنَّهُ وُلِدَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ أَوْ خَمْسٍ ، وَإِنَّمَا رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِثْنَاءُ مِنْ رَأْيِهِ أَوْ رَأْيِ مَنْ رَوَى هُوَ عَنْهُ ، وَأَنْ يَكُونَ مَرْوِيًّا عَنْهُ بِالْمَعْنَى وَيَكُونُ بَعْضُ

(184/226)

الرُّوَاةِ هُوَ الَّذِي عَبَّرَ بِالِاسْتِثْنَاءِ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا الِاسْتِثْنَاءُ صَحِيحًا فَقُصَارَاهُ أَنَّ السُّورَةَ بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً أُلْحِقَ بِهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ مِمَّا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ ، فَبَطَلَ بِذَلِكَ مَا قَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ الصَّلَاحِ وَمَا يَظُنُّهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ شَيْءٌ مِنَ السُّوَرِ الطِّوَالِ وَلَا سُوَرِ الْمِئِينَ جُمْلَةً وَاحِدَةً ؛ لِأَنَّ مَا اشْتُهِرَ نُزُولُهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً غَيْرَ هَذِهِ السُّورَةِ كُلُّهُ مِنَ الْمُفَصَّلِ (وَسُوَرُ الْمُفَصَّلِ مِنْ " ق " أَوْ " الْحُجُرَاتِ " إِلَى آخِرِ الْمُصْحَفِ فِي الْأَشْهَرِ) وَقَدْ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (26 : 214) نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ نَزَلَ بِمَكَّةَ ، وَأَنَّهُ لَمَّا جَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُطُونَ قُرَيْشٍ وَأَنْذَرَهُمْ عَمَلًا بِالْآيَةِ قَالَ لَهُ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا دَعَوْتَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) (111 : 1) السُّورَةَ ، وَإِنَّمَا يَرْوِي ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ مِثْلَ هَذَا مُرْسَلًا إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا رِوَايَةٌ مَرْفُوعَةٌ إِلَّا بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِسِنِينَ ، وَقَدْ صَرَّحَ

الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ بِأَنَّ رِوَايَتَهُمَا لِنُزُولِ آيَةِ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ) مُرْسَلَةً وَكِلْتَاهُمَا فِي الْبُخَارِيِّ .

(185/226)

وَقَدْ مَالَ السَّيِّدُ الْآلُوسِيُّ فِي رُوحِ الْمَعَانِي إِلَى الْقَوْلِ بِضَعْفِ مَا وَرَدَ فِي نُزُولِ الْأَنْعَامِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، وَنُقِلَ عَنِ الْإِمَامِ حِكَايَةُ الِاتِّفَاقِ عَلَى الْقَوْلِ بِنُزُولِهَا جُمْلَةً وَأَنَّهُ اسْتَشْكَلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ حِينَئِذٍ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ آيَاتِهَا : إِنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا الْأَمْرُ الْفُلَانِيُّ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَهُ ؟ ثُمَّ أَشَارَ إِلَى ضَعْفِ حِكَايَةِ الْإِمَامِ الِاتِّفَاقَ .

وَيُمْكِنُ أَنْ يُدْفَعَ الْإِشْكَالُ (أَوَّلًا) بِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بِأَنَّ لِكُلِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ سَبَبًا ، وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ فِي زُهَاءِ عَشْرٍ مِنْ آيَاتِهَا . (وَثَانِيًا) أَنَّ مَا قِيلَ فِي أَسْبَابِ نُزُولِ تِلْكَ الْآيَاتِ بَعْضُهُ لَا يَصِحُّ وَالْبَعْضُ الْآخَرُ لَا يَدُلُّ عَلَى نُزُولِ تِلْكَ الْآيَاتِ مُتَفَرِّقَةً ، وَإِنَّمَا قَالُوا إِنَّ آيَةَ كَذَا نَزَلَتْ فِي كَذَا أَوْ فِي قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَهَذَا هُوَ الْأَكْثَرُ ، فَإِذَا صَحَّ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ تِلْكَ الْآيَاتِ نَزَلَتْ بَعْدَ تِلْكَ الْوَقَائِعِ وَالْأَقْوَالِ مُبَيِّنَةً حُكْمَ اللَّهِ فِيهَا ، وَهَذَا لَا يُنَافِي نُزُولَهَا دَالَّةً عَلَى ذَلِكَ فِي ضِمْنِ السُّورَةِ .

وَقَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ السُّورَةِ قَالَ الْأُصُولِيُّونَ : هَذِهِ السُّورَةُ اخْتُصَّتْ بِنَوْعَيْنِ مِنَ الْفَضِيلَةِ أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا نَزَلَتْ دُفْعَةً وَاحِدَةً . وَالثَّانِي : أَنَّهَا

(186/226)

شَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَالسَّبَبُ فِيهِ أَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ وَإِبْطَالِ مَذَاهِبِ الْمُبْطِلِينَ وَالْمُلْحِدِينَ ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عِلْمَ الْأُصُولِ فِي غَايَةِ الْجَلَالَةِ وَالرِّفْعَةِ ، وَأَيْضًا فَإِنْزَالُ مَا يَدُلُّ عَلَى الْأَحْكَامِ قَدْ تَكُونُ الْمَصْلَحَةُ أَنْ يُنْزِلَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَدْرَ حَاجَتِهِمْ وَبِحَسَبِ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ ، وَأَمَّا مَا يَدُلُّ عَلَى عِلْمِ الْأُصُولِ فَقَدْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى جُمْلَةً وَاحِدَةً . وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَعَلُّمَ عِلْمِ الْأُصُولِ وَاجِبٌ عَلَى الْفَوْرِ لَا عَلَى التَّرَاخِي . اهـ .

وَمُرَادُهُ بِالْأُصُولِ عَقَائِدُ الدِّينِ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ تَعَلُّمُهَا عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ لَا عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَفَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ . وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الْكَلَامِ عَنِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِهَا مَا نَقَلَهُ عَنِ الْآلُوسِيِّ فَلَعَلَّهُ ذَكَرَهُ فِي أَثْنَاءِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ ، فَإِنَّ لَقَبَ " الْإِمَامِ " إِذَا أُطْلِقَ فِي كُتُبِ مَنْ بَعْدَ الرَّازِيِّ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالْأُصُولِيِّينَ وَالْمَنْطِقِيِّينَ فَإِنَّمَا يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ . وَفِي فَتْحِ الْبَيَانِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : قَالَ الْعُلَمَاءُ هَذِهِ السُّورَةُ أَصْلٌ فِي مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُبْتَدِعِينَ

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، وَهَذَا يَقْتَضِي إِنْزَالَهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً لِأَنَّهَا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ مِنَ الْحُجَّةِ وَإِنْ تَصَرَّفَ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ، وَعَلَيْهَا بَنَى الْمُتَكَلِّمُونَ أُصُولَ الدِّينِ اهـ .

(187/226)

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ السُّورَةِ لِمَا قَبْلَهَا :

مَنْ نَظَرَ تَرْتِيبَ السُّوَرِ كُلِّهَا فِي الْمُصْحَفِ يَرَى أَنَّهُ قَدْ رُوعِيَ فِي تَرْتِيبِهَا الطُّولُ وَالتَّوَسُّطُ وَالْقِصَرُ فِي الْجُمْلَةِ ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّ فِي ذَلِكَ عَوْنًا عَلَى تِلَاوَتِهِ وَحِفْظِهِ ، فَالنَّاسُ يَبْدَءُونَ بِقِرَاءَتِهِ مِنْ أَوَّلِهِ فَيَكُونُ الِانْتِقَالُ مِنَ السَّبْعِ الطِّوَالِ إِلَى الْمِئِينَ فَالْمَثَانِي فَالْمُفَصَّلِ أَنْفَى لِلْمَلَلِ وَأَدْعَى إِلَى النَّشَاطِ ، وَيَبْدَءُونَ بِحِفْظِهِ مِنْ آخِرِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ أَسْهَلُ عَلَى الْأَطْفَالِ ، وَلَكِنْ فِي كُلِّ قِسْمٍ مِنَ الطِّوَالِ وَالْمِئِينَ وَالْمُفَصَّلِ تَقْدِيمًا لِسُوَرٍ قَصِيرَةٍ عَلَى سُوَرٍ أَطْوَلَ مِنْهَا ، وَمِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ إِنَّهُ قَدْ رُوعِيَ التَّنَاسُبُ فِي مَعَانِي السُّوَرِ ، مَعَ التَّنَاسُبِ فِي الصُّوَرِ ، أَيْ مِقْدَارِ الطُّولِ وَالْقِصَرِ .

(188/226)

وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذِهِ السُّورَةَ أَرْبَعُ السُّوَرُ الطُّولَى ، وَهِيَ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ الَّتِي لَا يُرَاعَى مُنَاسَبَتُهَا لِمَا بَعْدَهَا وَحْدَهُ؛ إِذْ هِيَ فَاتِحَةُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ ، وَهَذِهِ السُّوَرُ الْأَرْبَعُ مَدَنِيَّةٌ وَبَيْنَهَا مِنَ التَّنَاسُبِ فِي التَّرْتِيبِ مَا بَيَّنَّاهُ . وَقَدْ جَاءَ بَعْدَهُنَّ سُورَتَا الْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَافِ الْمَكِّيَّتَانِ ، وَبَعْدَهُمَا سُورَتَا الْأَنْفَالِ وَالتَّوْبَةِ الْمَدَنِيَّتَانِ ، وَيَقَعَانِ فِي أَوَائِلِ الرُّبُعِ الثَّانِي مِنَ الْقُرْآنِ ، وَمَا بَعْدَهُمَا مِنْ سُوَرِ النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقُرْآنِ كُلُّهُ مَكِّيٌّ ، وَسُوَرُ الرُّبُعِ الثَّالِثِ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ أَيْضًا إِلَّا سُورَةَ النُّورِ فَإِنَّهَا مَدَنِيَّةٌ ، وَإِلَّا سُورَةَ الْحَجِّ فَهِيَ مُخْتَلَفٌ فِيهَا وَالتَّحْقِيقُ إِنَّهَا مُخْتَلِطَةٌ ، وَأَمَّا الرُّبُعُ الرَّابِعُ فَهُوَ مُخْتَلِطٌ وَأَكْثَرُهُ سُوَرُ الْمُفَصَّلِ الَّتِي تُقْرَأُ كَثِيرًا فِي الصَّلَاةِ ، فَيَنْبَغِي بَيَانُ مُنَاسَبَةِ جَعْلِ سُورَتَيِ الْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَافِ بَعْدَ الْأَرْبَعِ الْمَدَنِيَّةِ الْأُولَى وَقَبْلَ السُّورَتَيْنِ الْمَدَنِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَهُمَا ثُمَّ مُنَاسَبَةِ الْأَنْعَامِ لِلْمَائِدَةِ خَاصَّةً .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ أَجْمَعُ سُوَرِ الْقُرْآنِ لِأُصُولِ الْإِسْلَامِ وَفُرُوعِهِ ، فَفِيهَا بَيَانُ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَالرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَبَيَانُ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَبَيَانُ أَحْوَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي دَعْوَةِ الْقُرْآنِ ، وَمُحَاجَّةِ الْجَمِيعِ وَبَيَانُ أَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ

الْمَالِيَّةِ وَالْقِتَالِ وَالزَّوْجِيَّةِ ، وَالسُّوَرُ الطِّوَالُ الَّتِي بَعْدَهَا مُتَمِّمَةٌ لِمَا فِيهَا ، فَالثَّلَاثُ الْأُوَلُ مِنْهَا مُفَصِّلَةٌ لِكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَلَكِنَّ الْبَقَرَةَ أَطَالَتْ فِي مُحَاجَّةِ الْيَهُودِ خَاصَّةً ، وَسُورَةُ آلِ عِمْرَانَ أَطَالَتْ فِي مُحَاجَّةِ النَّصَارَى فِي نِصْفِهَا الْأَوَّلِ ، وَسُورَةُ النِّسَاءِ حَاجَّتْهُمْ فِي أَوَاخِرِهَا ، وَاشْتَمَلَتْ فِي أَثْنَائِهَا عَلَى بَيَانِ شُئُونِ الْمُنَافِقِينَ مِمَّا أُجْمِلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، ثُمَّ أَتَمَّتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ مُحَاجَّةَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِيمَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ وَفِيمَا يَنْفَرِدُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِهِ . وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ الْعَقَائِدِ هُوَ الْأَهَمُّ الْمُقَدَّمُ فِي الدِّينِ ، وَكَانَ شَأْنُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْ شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ ، قُدِّمَتِ السُّوَرُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى مُحَاجَّتِهِمْ بِالتَّفْصِيلِ ، وَنَاسَبَ أَنْ يَجِيءَ بَعْدَهَا مَا فِيهِ مُحَاجَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِالتَّفْصِيلِ وَتِلْكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ لَمْ تَسْتَوْفِ ذَلِكَ سُورَةٌ مِثْلُهَا ، فَهِيَ مُتَمِّمَةٌ لِشَرْحِ مَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقَائِدِ ، وَجَاءَتْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ بَعْدَهَا مُتَمِّمَةً لِمَا فِيهَا وَمُبَيِّنَةً لِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ وَشُئُونِ أُمَمِهِمْ مَعَهُمْ وَهِيَ حُجَّةٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ جَمِيعًا ، وَلَكِنْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ فَصَّلَتِ الْكَلَامَ فِي إِبْرَاهِيمَ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ الْعَرَبُ وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِي النَّسَبِ وَالدِّينِ ، وَسُورَةُ الْأَعْرَافِ فَصَّلَتِ الْكَلَامَ فِي مُوسَى الَّذِي

يَنْتَمِي إِلَيْهِ أَهْلُ

الْكِتَابِ وَيَتَّبِعُ شَرِيعَتَهُ جَمِيعُ أَنْبِيَائِهِمْ حَتَّى عِيسَى الْمَسِيحُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَلَمَّا تَمَّ بِهَذِهِ الصُّورَةِ تَفْصِيلُ مَا أُجْمِلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنَ الْعَقَائِدِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ وَالنُّبُوَّاتِ وَالْبَعْثِ ، نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بَعْدَهَا مَا يُتِمُّ مَا أُجْمِلَ بِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَلَا سِيَّمَا أَحْكَامَ الْقِتَالِ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَكَانَ قَدْ فَصَّلَ بَعْضَ التَّفْصِيلِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ، فَكَانَتْ سُورَتَا الْأَنْفَالِ وَالتَّوْبَةِ هُمَا الْمُفَصِّلَتَيْنِ لِذَلِكَ وَبِهِمَا يَتِمُّ ثُلُثُ الْقُرْآنِ .

وَقَدْ عُلِمَ بِمَا شَرَحْنَاهُ أَنَّ رُكْنَ الْمُنَاسَبَةِ الْأَعْظَمِ بَيْنَ سُورَتَيِ الْمَائِدَةِ وَالْأَنْعَامِ أَنَّ الْمَائِدَةَ مُعْظَمُهَا فِي مُحَاجَّةِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالْأَنْعَامِ مُعْظَمُهَا بَلْ كُلُّهَا فِي مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ ، وَمِنَ التَّنَاسُبِ بَيْنَهُمَا فِي الْأَحْكَامِ أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ قَدْ ذَكَرَتْ أَحْكَامَ الْأَطْعِمَةِ الْمُحَرَّمَةِ فِي دِينِ اللهِ وَالذَّبَائِحِ بِالْإِجْمَالِ ، وَسُورَةُ الْمَائِدَةِ ذَكَرَتْ ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ وَهِيَ قَدْ أُنْزِلَتْ أَخِيرًا كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ وَمِنَ التَّفْصِيلِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ ، وَمَا فِي الْمَائِدَةِ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى طَعَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ .

هَذَا مَا أَرَاهُ مِنْ وُجُوهِ التَّنَاسُبِ فِي الْكُلِّيَّاتِ بَيْنَ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي شَرَعْتُ فِي تَفْسِيرِهَا وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً ، وَمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا مُطْلَقًا . ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى مَا ذُكِرَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنْ ذَلِكَ دُونَ تَصَفُّحِ آيَاتِ السُّورَةِ فَرَأَيْتُ فِي رُوحِ الْمَعَانِي مَا نَصُّهُ :

" وَوَجْهُ مُنَاسَبَتِهَا لِآخِرِ الْمَائِدَةِ عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ أَنَّهَا افْتُتِحَتْ بِالْحَمْدِ وَتِلْكَ اخْتُتِمَتْ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (39 : 75) وَقَالَ الْجَلَالُ السُّيُوطِيُّ فِي وَجْهِ الْمُنَاسَبَةِ : أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ فِي آخِرِ .

الْمَائِدَةِ (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ) عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ ، افْتَتَحَ جَلَّ شَأْنُهُ هَذِهِ السُّورَةَ بِشَرْحِ ذَلِكَ وَتَفْصِيلِهِ ، فَبَدَأَ سُبْحَانَهُ بِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَضَمَّ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنَّهُ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ وَهُوَ بَعْضُ مَا تَضَمَّنَهُ مَا فِيهِنَّ ، ثُمَّ ذَكَرَ عَزَّ اسْمُهُ أَنَّهُ خَلَقَ النَّوْعَ الْإِنْسَانِيَّ وَقَضَى لَهُ أَجَلًا وَجَعَلَ لَهُ أَجَلًا آخَرَ لِلْبَعْثِ ، وَأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مُنْشِئُ الْقُرُونِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) إِلَخْ . فَأَثْبَتَ لَهُ مِلْكَ جَمِيعِ الْمَظْرُوفَاتِ لِظَرْفِ الْمَكَانِ ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) فَأَثْبَتَ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا مَلَكَ جَمِيعَ الْمَظْرُوفَاتِ

لِظَرْفِ الزَّمَانِ ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ خَلْقَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ مِنَ الدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ ، ثُمَّ خَلْقَ النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ وَالْمَوْتِ ، ثُمَّ ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ مِنَ الْإِنْشَاءِ وَالْخَلْقِ لِمَا فِيهِنَّ مِنَ النَّيِّرَيْنِ وَالنُّجُومِ وَفَلْقِ الْإِصْبَاحِ وَفَلْقِ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَإِنْزَالِ الْمَاءِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَالثِّمَارِ بِأَنْوَاعِهَا وَإِنْشَاءِ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ تَفْصِيلُ مَا فِيهِنَّ .

(193/226)

" وَذَكَرَ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ وَجْهًا آخَرَ فِي الْمُنَاسَبَةِ أَيْضًا ، وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) (5 : 87) إلَخْ . وَذَكَرَ جَلَّ شَأْنُهُ بَعْدَهُ (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ) إلَخْ . فَأَخْبَرَ عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ حَرَّمُوا أَشْيَاءَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ عَزَّ شَأْنُهُ ، وَكَانَ الْقَصْدُ بِذَلِكَ تَحْذِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُحَرِّمُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَيُشَابِهُوا الْكُفَّارَ فِي صُنْعِهِمْ ، وَكَانَ ذِكْرُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَازِ سَاقَ جَلَّ جَلَالُهُ هَذِهِ السُّورَةَ لِبَيَانِ حَالِ الْكُفَّارِ فِي صُنْعِهِمْ فَأَتَى بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَبْيَنِ وَالنَّمَطِ الْأَكْمَلِ ، ثُمَّ جَادَلَهُمْ فِيهِ وَأَقَامَ الدَّلَائِلَ عَلَى بُطْلَانِهِ وَعَارَضَهُمْ وَنَاقَضَهُمْ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْقِصَّةُ ، فَكَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ شَرْحًا لِمَا تَضَمَّنَتْهُ تِلْكَ السُّورَةُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ

وَتَفْصِيلًا وَبَسْطًا وَإِتْمَامًا وَإِطْنَابًا ، وَافْتُتِحَتْ بِذِكْرِ الْخَلْقِ وَالْمُلْكِ؛ لِأَنَّ الْخَالِقَ الْمَالِكَ هُوَ الَّذِي لَهُ التَّصَرُّفُ فِي مُلْكِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ إبَاحَةً وَمَنْعًا وَتَحْرِيمًا وَتَحْلِيلًا ، فَيَجِبُ أَلَّا يُعْتَرَضَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِالتَّصَرُّفِ فِي مُلْكِهِ .

(194/226)

" وَلِهَذِهِ السُّورَةِ أَيْضًا اعْتِلَاقٌ مِنْ وَجْهٍ بِالْفَاتِحَةِ لِشَرْحِهَا إجْمَالَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (رَبِّ الْعَالَمِينَ) وَبِالْبَقَرَةِ لِشَرْحِهَا إجْمَالَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ (الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) (2 : 21) وَقَوْلِهِ عَزَّ اسْمُهُ : (الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (2 : 29) وَبِآلِ عِمْرَانَ مِنْ جِهَةِ تَفْصِيلِهَا لِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : (وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ) (3 : 14) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) (3 : 185) إلَخْ . وَبِالنِّسَاءِ مِنْ جِهَةِ مَا فِيهَا مِنْ بَدْءِ الْخَلْقِ وَالتَّقْبِيحِ لِمَا حَرَّمُوهُ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ وَقَتْلِ الْبَنَاتِ ، وَبِالْمَائِدَةِ مِنْ حَيْثُ اشْتِمَالِهَا عَلَى الْأَطْعِمَةِ بِأَنْوَاعِهَا .

" وَقَدْ يُقَالُ : إنَّهُ لَمَّا كَانَ قُطْبُ هَذِهِ السُّورَةِ دَائِرًا عَلَى إثْبَاتِ الصَّانِعِ وَدَلَائِلِ التَّوْحِيدِ حَتَّى قَالَ أَبُو إسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِيُّ : إنَّ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ كُلَّ قَوَاعِدِ التَّوْحِيدِ نَاسَبَتْ تِلْكَ السُّورَةَ مِنْ حَيْثُ إنَّ فِيهَا إبْطَالَ أُلُوهِيَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَوْبِيخَ الْكَفَرَةِ عَلَى اعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ وَافْتِرَائِهِمُ الْبَاطِلِ .

" وَهَذَا - ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا كَانَتْ نِعَمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِمَّا تَفُوتُ الْحَصْرَ ، وَلَا يُحِيطُ بِهَا نِطَاقُ الْعَدِّ ، إِلَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِجْمَالًا إِلَى إِيجَادٍ وَإِبْقَاءٍ فِي النَّشْأَةِ الْأُولَى ، وَإِيجَادٍ وَإِبْقَاءٍ فِي النَّشْأَةِ الْآخِرَةِ وَأُشِيرَ فِي الْفَاتِحَةِ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْكِتَابِ إِلَى الْجَمِيعِ ، وَفِي الْأَنْعَامِ إِلَى الْإِيجَادِ الْأَوَّلِ ، وَفِي الْكَهْفِ إِلَى الْإِبْقَاءِ الْأَوَّلِ ، وَفِي سَبَأٍ إِلَى الْإِيجَادِ الثَّانِي ، وَفِي فَاطِرٍ إِلَى الْإِبْقَاءِ الثَّانِي ابْتُدِئَتْ هَذِهِ الْخَمْسُ بِالتَّحْمِيدِ ، وَمِنَ اللَّطَائِفِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ فِي كُلِّ رُبُعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ الْمَجِيدِ سُورَةً مُفْتَتَحَةً بِالتَّحْمِيدِ " انْتَهَى وَسَتَعْلَمُ مَا فِيهِ .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) .

افْتَتَحَ اللهُ كِتَابَهُ بِالْحَمْدِ ، ثُمَّ افْتَتَحَ بِهِ أَرْبَعَ سُوَرٍ مَكِّيَّاتٍ أُخْرَى مُشْتَمِلَةً كُلٌّ مِنْهَا عَلَى دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَمُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ فِيهَا ، الْأُولَى " الْأَنْعَامُ " وَهِيَ آخِرُ سُورَةٍ كَامِلَةٍ فِي الرُّبُعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَالثَّانِيَةُ " الْكَهْفُ " وَهِيَ مُشْتَرِكَةٌ بَيْنَ آخِرِ الرُّبُعِ الثَّانِي وَأَوَّلِ الرُّبُعِ الثَّالِثِ وَالثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ " سَبَأٌ " وَ " فَاطِرٌ " ، وَهُمَا آخِرُ الرُّبُعِ الثَّالِثِ ، وَلَيْسَ فِي الرُّبُعِ الرَّابِعِ سُورَةٌ مُفْتَتَحَةٌ بِالْحَمْدِ ، وَقَدْ قَرَنَ الْحَمْدَ فِي الْأُولَى بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَعْلِ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ ، وَفِي الثَّانِيَةِ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى عَبْدِهِ الْكَامِلِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا سُمِّيَ نُورًا بَلْ هُمَا أَعْظَمُ أَنْوَارِ الْهِدَايَةِ وَفِي الثَّالِثَةِ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبِحَمْدِهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ ، وَبِصِفَاتِ الْحِكْمَةِ وَالْخِبْرَةِ وَالْعِلْمِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَالرَّابِعَةِ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَعْلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ وَوَصْفُهُ بِسَعَةِ الْقُدْرَةِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَالَّتِي تَعْرُجُ فِيهَا . فَظَهَرَ بِهَا أَنَّ السُّوَرَ الثَّلَاثَ مُفَصَّلَةٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي الْأُولَى " الْأَنْعَامِ " مِمَّا حَمِدَ اللهُ عَلَيْهِ ، كَمَا أَنَّهَا مُؤَيِّدَةٌ لِمَا فِيهَا مِنْ إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ وَالْبَعْثِ .

(197/226)

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) الْحَمْدُ هُوَ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ وَالذِّكْرُ بِالْجَمِيلِ كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ، وَإِسْنَادُ الْحَمْدِ إِلَى اللهِ تَعَالَى خَبَرٌ مِنْهُ تَعَالَى عَلَى الْمُخْتَارِ ، وَالْعَبْدُ يَحْكِيهِ بِالتِّلَاوَةِ مُؤْمِنًا بِهِ فَيَكُونُ حَامِدًا لِمَوْلَاهُ ، وَيَذْكُرُهُ فِي غَيْرِ التِّلَاوَةِ إِنْشَاءً لِلْحَمْدِ وَتَذَكُّرًا لَهُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْحَمْدُ هُنَا إِنْشَاءً مِنْهُ تَعَالَى ، وَإِنَّ إِنْشَاءَ الْحَمْدِ بِالْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ جَمْعٌ بَيْنَ الْخَبَرِ وَالْإِنْشَاءِ ، أَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا عَلَّمَ بِهِ عِبَادَهُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ ، فَأَثْبَتَ أَنَّ كُلَّ ثَنَاءٍ حَسَنٍ فَهُوَ ثَابِتٌ لَهُ بِالِاسْتِحْقَاقِ وَبِمَا هُوَ مُتَّصِفٌ بِهِ مِنَ الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ وَالْإِعْدَادِ وَالْإِمْدَادِ . فَذَاتُهُ تَعَالَى مُتَّصِفَةٌ بِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وُجُوبًا فَالْكَمَالُ الْأَعْلَى دَاخِلٌ فِي مَفْهُومِ حَقِيقَتِهَا أَوْ لَازِمٌ بَيِّنٌ مِنْ لَوَازِمِهِ .

وَقَدْ وَصَفَ تَعَالَى نَفْسَهُ فِي مَقَامِ هَذَا الْحَمْدِ بِصِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ الْفِعْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ مُوجِبَاتِ الْحَمْدِ لَهُ ، وَهُمَا خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَعْلُ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ .

أَمَّا خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَمَعْنَاهُ إِيجَادُ هَذِهِ الْعَوَالِمِ الْعُلْوِيَّةِ الَّتِي نَرَى كَثِيرًا مِنْهَا فَوْقَنَا ، وَهَذَا الْعَالَمُ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ إِيجَادًا مُرَتَّبًا مُنَظَّمًا . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي مَعْنَى الْخَلْقِ لُغَةً وَشَرْعًا .

وَأَمَّا جَعْلُ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ فَهُوَ فِي الْحِسِّيَّاتِ بِمَعْنَى إِيجَادِهِمَا لِأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى الْجَعْلِ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ مَعْنَاهُ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ جَعَلَ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى أَحْدَثَ وَأَنْشَأَ كَقَوْلِهِ : (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وَإِلَى مَفْعُولَيْنِ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى صَيَّرَ كَقَوْلِهِ : (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا) (43 : 19) وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْجَعْلِ أَنَّ الْخَلْقَ فِيهِ مَعْنَى التَّقْدِيرِ ، وَفِي الْجَعْلِ مَعْنَى التَّضْمِينِ ، كَإِنْشَاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ ، أَوْ تَصْيِيرِ شَيْءٍ شَيْئًا ، أَوْ نَقْلِهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، وَمِنْ ذَلِكَ (وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) (7 : 189) (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) لِأَنَّ الظُّلُمَاتِ مِنَ الْأَجْرَامِ الْمُتَكَاثِفَةِ وَالنُّورَ مِنَ النَّارِ (وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا) (13 : 38) (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا) (38 : 5) اهـ . وَقَدْ أَخَذَهُ الرَّازِيُّ مِنْ غَيْرِ عَزْوٍ وَزَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : وَإِنَّمَا حَسُنَ لَفْظُ الْجَعْلِ هُنَا لِأَنَّ النُّورَ وَالظُّلْمَةَ لَمَّا تَعَاقَبَا صَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَأَنَّمَا تَوَلَّدَ مِنَ الْآخَرِ انْتَهَى . وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ : وَالْجَعْلُ هُوَ الْإِنْشَاءُ وَالْإِبْدَاعُ كَالْخَلْقِ خَلَا أَنَّ ذَلِكَ مُخْتَصٌّ بِالْإِنْشَاءِ التَّكْوِينِيِّ .

(199/226)

وَفِيهِ مَعْنَى التَّقْدِيرِ وَالتَّسْوِيَةِ ، وَهَذَا عَامٌّ لَهُ كَمَا فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَلِلتَّشْرِيعِيِّ أَيْضًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ) الْآيَةَ انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ ، وَفِيهِ كَلَامٌ آخَرُ فِيمَا يُلَابِسُ مَفْعُولَهُ مِنَ الظُّرُوفِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ) (5 : 97) أَنَّ الْجَعْلَ فِيهَا خَلْقٌ تَكْوِينِيٌّ وَأَمْرٌ شَرْعِيٌّ مَعًا . وَقَدْ بَيَّنَ الرَّاغِبُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وُجُوهَ اسْتِعْمَالِ الْجَعْلِ فَكَانَتْ خَمْسَةً فَلْيُرَاجِعْهَا فِي مُفْرَدَاتِهِ مَنْ شَاءَ .

(200/226)

وَالظُّلْمَةُ الْحَالَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا كُلُّ مَكَانٍ لَيْسَ فِيهِ نُورٌ ، لَا عَدَمُ النُّورِ أَيْ فَقْدُهُ كَمَا يُوهِمُهُ كَلَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَعَ قَوْلِهِمْ إِنَّ الظُّلْمَةَ هِيَ الْأَصْلُ كَمَا سَيَأْتِي . قَالَ الرَّاغِبُ : الظُّلْمَةُ عَدَمُ النُّورِ ، وَقَالَ : النُّورُ الضَّوْءُ الْمُنْتَشِرُ الَّذِي يُعِينُ عَلَى الْإِبْصَارِ ، وَقَالَ : الضَّوْءُ مَا انْتَشَرَ مِنَ الْأَجْسَامِ النَّيِّرَةِ ، وَيُقَالُ : ضَاءَتِ النَّارُ وَأَضَاءَهَا غَيْرُهَا انْتَهَى . وَفَرَّقَ بَعْضُهُمْ بَيْنَ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ بِمَا لَا مَحَلَّ لِذِكْرِهِ هُنَا . وَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ مِنَ الْعَالَمِ أَظْهَرُ وَلَا أَغْنَى عَنِ التَّعْرِيفِ مِنَ الْمَظَاهِرِ الْحِسِّيَّةِ لِلرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . عَلَى أَنَّ بَيَانَ حَقِيقَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ مِنْ أَعْسَرِ الْأُمُورِ ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ الْخَفَاءُ مِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ ، وَأَقْرَبُ مَا نُعَرِّفُهُ بِهِ لِلْجُمْهُورِ أَنْ نَقُولَ : هُوَ اشْتِعَالٌ يَحْدُثُ فِي أَجْسَامٍ لَطِيفَةٍ مُنْبَثَّةٍ فِي الْهَوَاءِ وَفِي الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ الَّتِي تَسْتَوْقِدُ بِهَا

النَّارَ .

وَالنُّورُ قِسْمَانِ : حِسِّيٌّ صُورِيٌّ ، وَهُوَ مَا يُدْرَكُ بِالْبَصَرِ ، وَمَعْنَوِيٌّ عَقْلِيٌّ أَوْ رُوحِيٌّ وَهُوَ مَا يُدْرَكُ بِالْبَصِيرَةِ ، وَقَدْ أُطْلِقَتْ كَلِمَةُ النُّورِ فِي التَّنْزِيلِ عَلَى الْقُرْآنِ ، وَعَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَتَيِ النِّسَاءِ وَالْمَائِدَةِ .

وَقَدْ أُفْرِدَ النُّورُ وَجُمِعَتِ الظُّلْمَةُ هُنَا وَفِي كُلِّ آيَةٍ قُوبِلَ فِيهَا بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ سَوَاءٌ

(201/226)

كَانَ ذَلِكَ فِي الْحِسِّيِّ أَوِ الْمَعْنَوِيِّ ، بَلْ لَمْ يُذْكَرِ النُّورُ فِي الْقُرْآنِ ، إِلَّا مُفْرَدًا وَالظُّلْمَةُ إِلَّا جَمْعًا وَحِكْمَةُ ذَلِكَ أَنَّ النُّورَ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَإِنْ تَعَدَّدَتْ مَصَادِرُهُ ، وَلَكِنَّهُ يَكُونُ قَوِيًّا وَيَكُونُ ضَعِيفًا وَأَمَّا الظُّلْمَةُ فَهِيَ تَحْدُثُ بِمَا يَحْجُبُ النُّورَ مِنَ الْأَجْسَامِ غَيْرِ النَّيِّرَةِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، وَكَذَلِكَ النُّورُ الْمَعْنَوِيُّ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِهِ أَوْ جُزْئِيٍّ مِنْ جُزْئِيَّاتِهِ ، وَيُقَابِلُ كُلًّا مِنْهُمَا ظُلُمَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ ، فَالْحَقُّ وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ وَالْبَاطِلُ الَّذِي يُقَابِلُهُ كَثِيرٌ ، وَالْهُدَى وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ وَالضَّلَالُ الَّذِي يُقَابِلُهُ كَثِيرٌ ، مِثَالُ ذَلِكَ تَوْحِيدُ اللهِ تَعَالَى وَمَا يُقَابِلُهُ مِنَ التَّعْطِيلِ وَالشِّرْكِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ بِأَنْوَاعِهِ ، وَالشِّرْكِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ بِأَنْوَاعِهِ وَفَضِيلَةُ الْعَدْلِ وَمَا يُقَابِلُهَا مِنْ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَالْمَائِدَةِ .

وَقُدِّمَتِ الظُّلُمَاتُ فِي الذِّكْرِ عَلَى النُّورِ لِأَنَّ جِنْسَهَا مُقَدَّمٌ فِي الْوُجُودِ ، فَقَدْ وُجِدَتْ مَادَّةُ الْكَوْنِ وَكَانَ دُخَانًا مُظْلِمًا أَوْ سَدِيمًا كَمَا يَقُولُ عُلَمَاءُ الْفَلَكِ ثُمَّ تَكَوَّنَتِ الشُّمُوسُ بِمَا حَدَثَ فِيهَا مِنَ الِاشْتِعَالِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرَكَةِ كَمَا يَقُولُونَ ، وَيُشِيرُ إِلَيْهِ أَوْ يُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ

(202/226)

بْنِ عَمْرٍو عِنْدَ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ وَفِي رِوَايَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ نُورُهُ اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا النُّورَ هُوَ الْمَعْنَوِيُّ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُشَبَّهٌ بِالنُّورِ الْحِسِّيِّ فِي تَكْوِينِهِ . وَأَمَّا حَدِيثُ عَائِشَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ " خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ " فَالظَّاهِرُ أَنَّ النُّورَ فِيهِ هُوَ الْحِسِّيُّ ، وَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ أَنْ تُرَى الْمَلَائِكَةُ كَمَا يُرَى النُّورُ فَالْفَرْقُ بَيْنَ الشَّيْءِ وَمَا خُلِقَ مِنْهُ أَصْلُهُ عَظِيمٌ كَمَا نَرَاهُ فِي أَنْفُسِنَا . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ نُورٍ غَيْرِ هَذَا الَّذِي نَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا .

وَسَبْقُ الظُّلُمَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلنُّورِ الْمَعْنَوِيِّ أَظْهَرُ ، فَإِنَّ نُورَ الْعِلْمِ وَالْهِدَايَةِ كَسْبِيٌّ فِي الْبَشَرِ وَمَا كَانَ غَيْرُ كَسْبِيٍّ فِي ذَاتِهِ كَالْوَحْيِ فَتَلَقِّيهِ كَسْبِيٌّ وَفَهْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ كَسْبِيَّانِ ، وَظُلُمَاتُ الْجَهْلِ وَالْأَهْوَاءِ سَابِقَةٌ عَلَى هَذَا النُّورِ ، فَالرَّسُولُ لَا يُولَدُ رَسُولًا وَإِنَّمَا يُؤْتَى الرِّسَالَةَ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ

وَاسْتَوَى ، وَالْعَالِمُ لَا يُولَدُ عَالِمًا ، وَلَا الْفَاضِلُ فَاضِلًا " إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ " (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (16 : 78) .

(203/226)

وَقَدِ اخْتَلَفَ مُفَسِّرُو السَّلَفِ فِي الْمُرَادِ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ هُنَا فَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ " وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ " قَالَ : الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ . وَأَخْرَجَ هُوَ وَغَيْرُهُ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ : " خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ قَبْلَ الْأَرْضِ وَالظُّلْمَةَ قَبْلَ النُّورِ وَالْجَنَّةَ قَبْلَ النَّارِ " إِلَخْ وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ قَالَ : الظُّلُمَاتُ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَالنُّورُ نُورُ النَّهَارِ . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الزَّنَادِقَةِ . قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقِ الظُّلْمَةَ وَلَا الْخَنَافِسَ وَلَا الْعَقَارِبَ وَلَا شَيْئًا قَبِيحًا وَإِنَّمَا خَلَقَ النُّورَ وَكُلَّ شَيْءٍ حَسَنٍ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) رَدٌّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ الْمُنْكِرِينَ لِوُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَوْلَهُ : (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) رَدٌّ عَلَى الْمَجُوسِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الظُّلْمَةَ وَالنُّورَ هُمَا الْمُدَبِّرَانِ وَقَوْلُهُ : (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) رَدٌّ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَمَنْ دَعَا دُونَ اللَّهِ إِلَهًا .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالظُّلُمَاتِ هُنَا الظُّلُمَاتُ الْحِسِّيَّةُ وَبِالنُّورِ النُّورُ الْحِسِّيُّ ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ بِمَا يُقَابِلُ ذَلِكَ ، وَفِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ رَدٌّ عَلَى الْمَجُوسِ أَوِ الثَّنَوِيَّةِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ لِلْعَالَمِ رَبَّيْنِ ، أَحَدُهُمَا النُّورُ وَهُوَ الْخَالِقُ لِلْخَيْرِ ، وَالثَّانِي الظُّلْمَةُ وَهُوَ خَالِقُ الشَّرِّ . وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ إِرَادَةِ الْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ مِنْ كُلٍّ مِنَ اللَّفْظَيْنِ . وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ : الْأَوَّلُ حَمَلَ اللَّفْظَيْنِ عَلَيْهِمَا وَاسْتَشْكَلَهُ الرَّازِيُّ ؛ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْقَوْلِ بِجَوَازِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا جَوَازُهُ وَجَوَازُ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ أَوْ مَعَانِيهِ إِذَا احْتَمَلَ الْمَقَامُ

ذَلِكَ بِلَا الْتِبَاسٍ كَمَا هُنَا ، وَالتَّعْبِيرُ بِالْجَعْلِ دُونَ الْخَلْقِ يُلَائِمُ هَذَا ، فَإِنَّ الْجَعْلَ يَشْمَلُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ أَيِ الشَّرْعَ كَمَا تَقَدَّمَ فَيُفَسَّرُ جَعْلُ كُلِّ نُورٍ بِمَا يَلِيقُ بِهِ ، فَجَعْلُ الدِّينِ شَرْعُهُ وَالْقُرْآنِ إِنْزَالُهُ وَالرَّسُولِ إِرْسَالُهُ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَى تَهْيِئَةُ أَسْبَابِهِمَا .

وَقَدْ ذُكِرَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ عَلَى خَلْقِ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَشْرَفُ ، وَقِيلَ : لِأَنَّهَا خُلِقَتْ قَبْلَ الْأَرْضِ كَمَا ذُكِرَ عَنْ قَتَادَةَ آنِفًا وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ ، وَفِي الثَّانِي خِلَافٌ مَعْرُوفٌ .

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) أَوْ عَلَى جُمْلَةِ "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" وَقَدْ عُطِفَتْ بِثُمَّ الدَّالَّةِ عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَ مَدْلُولَيِ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ؛ لِإِفَادَةِ اسْتِبْعَادِ مَا فَعَلَهُ الْكَافِرُونَ وَكَوْنِهِ ضِدَّ مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ لِلْإِلَهِ الْحَقِيقِ بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ؛ لِكَوْنِهِ هُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْكَوْنِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ وَمَا

(206/226)

فِيهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ ، وَالْهَادِي لِمَا فِيهِ مِنَ النُّورِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ الْمُوَفَّقُونَ فِي كُلِّ ظُلْمَةٍ مِنْهَا ، كَأَنَّهُ قَالَ : وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَعْدِلُونَ بِهِ غَيْرَهُ أَيْ يَجْعَلُونَهُ عَدْلًا لَهُ ، أَيْ عَدِيلًا مُسَاوِيًا لَهُ فِي كَوْنِهِ يُعْبَدُ وَيُدْعَى لِكَشْفِ الضُّرِّ وَجَلْبِ النَّفْعِ ، فَهُوَ بِمَعْنَى يُشْرِكُونَ بِهِ ، وَيَتَّخِذُونَ لَهُ أَنْدَادًا وَقِيلَ : يَعْدِلُونَ بِأَفْعَالِهِ عَنْهُ وَيَنْسُبُونَهَا إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَجْعَلْهُ سَبَبًا لِتِلْكَ الْأَفْعَالِ ، كَالْمَعْبُودَاتِ الَّتِي يَنْسُبُونَ إِلَيْهَا مَا لَيْسَ لَهَا أَدْنَى تَأْثِيرٍ فِيهِ ، وَأَدْنَى مِنْ هَذَا أَنْ تُنْسَبَ إِلَى الْأَسْبَابِ مَعَ نِسْيَانِ فَضْلِ اللهِ الَّذِي سَخَّرَ لَهُمْ تِلْكَ الْأَسْبَابَ ، وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ مَعْرِفَةُ السَّبَبِ وَالْخَالِقِ الْوَاضِعِ لِلْأَسْبَابِ رَحْمَةً مِنْهُ بِالْعِبَادِ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ يَعْدِلُونَ عَنِ

الْحَقّ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنْ حَمْدِ الْخَالِقِ وَشُكْرِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ : عَدَلَ عَنِ الشَّيْءِ عُدُولًا إِذَا جَارَ عَنْهُ وَانْحَرَفَ ، وَمَالَ إِلَى غَيْرِهِ وَانْصَرَفَ .

(207/226)

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) هَذَا كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ جَاءَ عَلَى الِالْتِفَاتِ عَنْ وَصْفِ الْخَالِقِ تَعَالَى بِمَا دَلَّ عَلَى حَمْدِهِ وَتَوْحِيدِهِ إِلَى خِطَابِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَدَلُوا بِهِ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ ، يُذَكِّرُهُمْ بِهِ بِمَا هُوَ أَلْصَقُ بِهِمْ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ ، وَهُوَ خَلْقُهُمْ مِنَ الطِّينِ ، وَهُوَ التُّرَابُ الَّذِي يُخَالِطُهُ الْمَاءُ فَيَكُونُ كَالْعَجِينِ وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ مِنَ الطِّينِ كَمَا خَلَقَ أُصُولَ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ إِذْ كَانَتْ حَالَتُهَا مُنَاسِبَةً لِحُدُوثِ التَّوَلُّدِ الذَّاتِيِّ ، بَلْ خَلَقَ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْبَشَرِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ فَبِنْيَةُ الْإِنْسَانِ مُكَوَّنَةٌ مِنَ الْغِذَاءِ ، وَمِنْهُ مَا فِي رَحِمِ الْأُنْثَى مِنْ جَرَاثِيمِ النَّسْلِ وَمَا يُلَقِّحُهُ مِنْ مَاءِ الذَّكَرِ ، فَهُوَ مُتَوَلِّدٌ مِنَ الدَّمِ ، وَالدَّمُ مِنَ الْغِذَاءِ ، وَالْغِذَاءُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ أَوْ مِنْ لُحُومِ الْحَيَوَانِ الْمُتَوَلِّدِ مِنَ الْأَرْضِ ، فَمَرْجِعُ كُلٍّ إِلَى النَّبَاتِ مِنَ الطِّينِ ، وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي هَذَا ظَهَرَ لَهُ ظُهُورًا جَلِيًّا أَنَّ الْقَادِرَ عَلَيْهِ لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يُعِيدَ هَذَا الْخَلْقَ كَمَا بَدَأَهُ ، إِذَا هُوَ أَمَاتَ

هَذِهِ الْأَحْيَاءَ بَعْدَ انْقِضَاءِ آجَالِهَا الَّتِي قَضَاهَا لَهَا فِي أَجَلٍ آخَرَ يَضْرِبُهُ لِهَذِهِ الْإِعَادَةِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ .

(208/226)

وَالْأَجَلُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْمُدَّةُ الْمَضْرُوبَةُ لِلشَّيْءِ ، أَيِ الْمِقْدَارُ الْمَحْدُودُ مِنَ الزَّمَانِ ، وَقَضَاءُ الْأَجَلِ يُطْلَقُ عَلَى الْحُكْمِ بِهِ وَضَرْبِهِ لِلشَّيْءِ وَعَلَى الْقِيَامِ بِالشَّيْءِ وَفِعْلِهِ ، إِذْ أَصْلُ الْقَضَاءِ : فَصْلُ الْأَمْرِ قَوْلًا كَانَ ذَلِكَ أَوْ فِعْلًا كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ مِثَالُ الْأَوَّلِ : أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَضَى أَجَلًا لِخِدْمَةِ مُوسَى لَهُ ثَمَانِيَ سِنِينَ وَأَجَلًا آخَرَ اخْتِيَارِيًّا سَنَتَيْنِ ، فَهَذَا قَضَاءٌ قَوْلِيٌّ ، وَقَدْ قَضَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأَجَلَ الْمَضْرُوبَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ) (28 : 29) الْآيَةَ وَذَلِكَ قَضَاءٌ فِعْلِيٌّ . وَالْقَضَاءُ قَدْ يَكُونُ نَفْسِيًّا ، كَأَنْ يَضْرِبَ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ أَجَلًا لِعَمَلٍ يَعْمَلُهُ بِأَنْ يَكُونَ فِي نَهَارٍ أَوْ سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ ، وَيُعَدُّ هَذَا مِنَ الْقَضَاءِ الْقَوْلِيِّ ; لِأَنَّهُ مِنْ مُتَعَلِّقِ الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى مُقْتَضَى الْعِلْمِ وَقَدْ يَقْضِيهِ وَيُفَصِّلُ فِيهِ كِتَابَةً ، فَالْقَضَاءُ الْقَوْلِيُّ يَشْمَلُ الْكَلَامَ النَّفْسِيَّ وَمَا هُوَ مُظْهِرٌ لَهُ مِنْ لَفْظٍ أَوْ كِتَابٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ .

(209/226)

وَقَدْ أَخْبَرَنَا عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَضَى لِعِبَادِهِ أَجَلَيْنِ أَجَلًا لِمُدَّةِ حَيَاةِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ يَنْتَهِي بِمَوْتِ ذَلِكَ الْفَرْدِ وَأَجَلًا لِإِعَادَتِهِمْ وَبَعْثِهِمْ بَعْدَ مَوْتِ الْجَمِيعِ وَانْقِضَاءِ عُمُرِ الدُّنْيَا ، وَقِيلَ : إِنَّ الْأَجَلَ الْآخَرَ هُوَ أَجَلُ حَيَاةِ مَجْمُوعِهِمُ الَّذِي يَنْقَضِي بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ ، جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ الْأَجَلَيْنِ مَا نَصُّهُ : قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ " ثُمَّ قَضَى أَجَلًا " يَعْنِي الْمَوْتَ " وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ " يَعْنِي الْآخِرَةَ . (وَعَزَاهُ أَيْضًا إِلَى عَشَرَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ) وَقَوْلُ الْحَسَنِ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : " ثُمَّ قَضَى أَجَلًا " وَهُوَ مَا بَيْنَ أَنْ يُخْلَقَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ " وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ " وَهُوَ مَا بَيْنَ أَنْ يَمُوتَ إِلَى أَنْ يُبْعَثَ هُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ وَهُوَ تَقْدِيرُ الْأَجَلِ الْخَاصِّ وَهُوَ عُمُرُ كُلِّ إِنْسَانٍ . وَتَقْدِيرُ الْأَجَلِ الْعَامِّ وَهُوَ عُمُرُ الدُّنْيَا بِكَمَالِهَا ثُمَّ انْتِهَاؤُهَا وَقَضَاؤُهَا وَزَوَالُهَا وَالْمَصِيرُ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ : " ثُمَّ قَضَى أَجَلًا " يَعْنِي مُدَّةَ الدُّنْيَا " وَأَجَلٌ مُسَمًّى " يَعْنِي عُمُرَ الْإِنْسَانِ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ . وَكَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا : (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) (6 : 60) الْآيَةَ وَقَالَ عَطِيَّةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : " ثُمَّ قَضَى أَجَلًا " يَعْنِي النَّوْمَ يَقْبِضُ اللَّهُ فِيهِ الرُّوحَ ثُمَّ يُرْجِعُ أَيِ الرُّوحَ إِلَى

صَاحِبِهِ عِنْدَ الْيَقَظَةِ " وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ " يَعْنِي أَجَلَ مَوْتِ الْإِنْسَانِ . وَهَذَا قَوْلٌ غَرِيبٌ . انْتَهَى مَا أَوْرَدَهُ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي اسْتَغْرَبَهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) (39 : 42) وَلَكِنَّ الْأَجَلَ الْمُسَمَّى هُنَا هُوَ الْمَوْتُ وَلَمْ يُسَمِّ التَّوَفِّي الْأَوَّلَ وَهُوَ النَّوْمُ أَجَلًا ، عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ اسْتَدَلَّ عَلَى الْبَعْثِ بِالنَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ الْآتِيَةِ وَآيَةِ الزُّمَرِ وَغَيْرِهِمَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ النَّمْلِ : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) (27 : 86) .

(211/226)

هَذَا وَإِنَّ مَنْ تَتَبَّعَ ذِكْرَ الْأَجَلِ الْمُسَمَّى فِي الْقُرْآنِ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنِ النَّاسِ يَرَاهُ قَدْ وَرَدَ فِي عُمُرِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْمَوْتِ فَرَاجِعْ فِي ذَلِكَ سُورَةَ هُودٍ (11 : 3) وَالنَّحْلِ (16 : 61) وَطَهَ (20 : 129) وَالْعَنْكَبُوتِ (29 : 53) وَفَاطِرٍ (35 : 45) وَالزُّمَرِ (39 : 42) وَغَافِرٍ (40 : 67) وَنُوحٍ (71 : 4) وَقَدْ ذُكِرَ بَعْضُهَا آنِفًا فَإِذَا عُدَّ هَذَا مُرَجِّحًا

يَتَّسِعُ مَجَالُ تَأْوِيلِ الْأَجَلِ الْأَوَّلِ فِي الْآيَةِ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُوصَفْ بِالْمُسَمَّى ، فَيُحْتَمَلُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ النَّوْمُ وَغَيْرُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي قَالَهَا مُفَسِّرُو الْخَلْفِ وَمِنْهَا مَا عَزَاهُ الرَّازِيُّ إِلَى حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ " أَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَجَلَيْنِ أَحَدُهُمَا الْآجَالُ الطَّبِيعِيَّةُ وَالثَّانِي الْآجَالُ الِاخْتِرَامِيَّةُ . أَمَّا الْآجَالُ الطَّبِيعِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي لَوْ بَقِيَ ذَلِكَ الْمِزَاجُ مَصُونًا مِنَ الْعَوَارِضِ الْخَارِجِيَّةِ لَانْتَهَتْ مُدَّةُ بَقَائِهِ إِلَى الْوَقْتِ الْفُلَانِيِّ ، وَأَمَّا الْآجَالُ الِاخْتِرَامِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي تَحْصُلُ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الْعَارِضَةِ كَالْغَرَقِ وَالْحَرْقِ وَلَدْغِ الْحَشَرَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُعْضِلَةِ " انْتَهَى . وَمِنْهَا أَنَّهُ مَا انْقَضَى مِنْ عُمُرِ كُلِّ أَحَدٍ . وَمِنْهَا قَوْلُ أَبِي مُسْلِمٍ : إِنَّهُ مَا انْقَضَى مِنْ آجَالِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ . وَالْمُسَمَّى عِنْدَهُ أَجَلُ مَنْ يَأْتِي مِنَ الْأُمَمِ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ غَيْبًا

.

(212/226)

وَمَعْنَى " مُسَمًّى " عِنْدَهُ أَيْ لَا يَعْلَمُهُ ، غَيْرُهُ كَذَا قَالُوا . وَهَذَا إِنَّمَا يَظْهَرُ إِذَا أُرِيدَ بِهَذَا الْأَجَلِ السَّاعَةُ أَيِ الْقِيَامَةُ ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا . وَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْمَوْتُ فَالْأَظْهَرُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى كَوْنِهِ مُسَمًّى عِنْدَهُ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَ بِهِ مَقَادِيرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَفِيمَا يَكْتُبُهُ الْمَلَكُ عِنْدَمَا يَنْفُخُ الرُّوحَ فِي الْجَنِينِ ، كَمَا

ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ " وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ " فَمَعْنَى الْعِنْدِيَّةِ إذَا اخْتِصَاصُ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ الَّذِي لَا يَصِلُ إلَيْهِ كَسْبُنَا ، فَهِيَ عِنْدِيَّةُ تَشْرِيفٍ وَخُصُوصِيَّةٍ وَهَذِهِ الْكِتَابَةُ كَالْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ بِالشَّيْءِ لَا تَقْتَضِي الْجَبْرَ وَلَا سَلْبَ اخْتِيَارِ الْعَبْدِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) هُوَ كَقَوْلِهِ قَبْلَهُ : (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) فِي دَلَالَتِهِ عَلَى اسْتِبْعَادِ الِامْتِرَاءِ وَهُوَ الشَّكُّ فِي الْبَعْثِ مِنَ الْإِلَهِ الْقَدِيرِ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَقَدَّرَ آجَالَكُمْ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ دَلَالَةً لَا تُبْقِي لِاسْتِبْعَادِ الْبَعْثِ

(213/226)

وَجْهًا ، فَإِذَا كَانَ سَبَبُ الِاسْتِبْعَادِ عَدَمَ رُؤْيَةِ مِثَالٍ لِهَذَا الْبَعْثِ وَهُوَ الْوَاقِعُ فَمَثَلُهُ أَنَّكُمْ لَا تَرَوْنَ مَثَلًا لِخَلْقِ أَصْلِكُمْ وَجَدِّكُمُ الْأَوَّلِ مِنْ تُرَابٍ ، وَلَا لِخَلْقِ غَيْرِكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ; فَإِنَّ التَّوَلُّدَ الذَّاتِيَّ لَا يَقَعُ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ ، خِلَافًا لِمَا كَانَ يَتَوَهَّمُهُ عُلَمَاءُ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي تَوَلُّدِ دُودِ الْفَاكِهَةِ وَالْجُبْنِ وَالْفِيرَانِ .

(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) اسْمُ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ) عَلَمٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مَعْرُوفًا عِنْدَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ . قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ

الْعَنْكَبُوتِ : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (29 : 61) وَمِثْلُهَا فِي سُورَةِ الزُّمَرِ : (39 : 38) وَفِي مَعْنَى هَذَا السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ رَاجِعْ مِنْ آيَةِ 80 إِلَى 90 مِنْ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ وَآيَةِ 60 وَمَا بَعْدَهَا مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ . فَمِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ تَعْلَمُ أَنَّ اسْمَ الْجَلَالَةِ يَشْمَلُ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَوْ يَسْتَلْزِمُهَا ، فَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ اللَّهُ الْمُتَّصِفُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَعْرُوفَةِ الْمُعْتَرَفِ لَهُ بِهَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كَمَا تَقُولُ :

إِنَّ حَاتِمًا هُوَ حَاتِمُ فِي طَيٍّ وَفِي جَمِيعِ الْقَبَائِلِ

(214/226)

أَيْ هُوَ الْمَعْرُوفُ بِالْجُودِ الْمُعْتَرَفِ لَهُ بِهِ فِي كُلِّ قَوْمِهِ وَفِي غَيْرِهِمْ ، وَأَنَّ فُلَانًا هُوَ الْخَلِيفَةُ فِي مَمْلَكَتِهِ وَفِي جَمِيعِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَفِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَاخِرِ الزُّخْرُفِ (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) (43 : 84) إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمُ الْمَعْنَى الِاشْتِقَاقِيَّ فِي الِاسْمِ الْكَرِيمِ إِمَّا الْمَعْبُودَ وَإِمَّا الْمَدْعُوَّ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى " الْإِلَهِ " وَهُوَ دَاخِلٌ فِي مَفْهُومِ الِاسْمِ الْأَعْظَمِ ، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا : كَمَعْنَى آيَةِ الزُّخْرُفِ أَيْ وَهُوَ الْمَعْبُودُ أَوِ الْمَدْعُوُّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : إِنَّهُ

الْأَصَحُّ مِنَ الْأَقْوَالِ ، وَفِي الْآيَاتِ وُجُوهٌ أُخْرَى : فَمِنْهَا أَنَّهُ الْمَعْرُوفُ بِالْإِلَهِيَّةِ أَوِ الْمُتَوَحِّدُ بِالْإِلَهِيَّةِ فِيهِمَا وَمِنْهَا أَنَّهُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ اللهُ فِيهِمَا لَا يُشْرَكُ بِهِ فِي هَذَا الِاسْمِ وَقِيلَ : إِنَّ " فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ " مُتَعَلِّقٌ بِمَا بَعْدَهُ ، وَفِيهِ إِشْكَالٌ نَحْوِيٌّ وَإِشْكَالٌ مَعْنَوِيٌّ .

وَزَعَمَتِ الْجَهْمِيَّةُ أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى كَائِنٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمِنْهُ أَخَذُوا قَوْلَهُمْ . إِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَاللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ مِمَّا قَالُوا ، فَهُوَ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ غَيْرُ حَالٍّ فِيهِ كُلِّهِ وَلَا فِي جُزْءٍ مِنْهُ ، وَمَا صَحَّ مِنْ إِطْلَاقِ كَوْنِهِ فِي السَّمَاءِ لَيْسَ مَعْنَاهُ إِنَّهُ

(215/226)

حَالٌّ فِي هَذِهِ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ كُلِّهَا أَوْ بَعْضِهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ إِطْلَاقٌ لِإِثْبَاتِ عُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ غَيْرَ مُشَابِهٍ لَهُمْ فِي شَيْءٍ بَلْ هُوَ بَائِنٌ مِنْهُمْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

وَأَمَّا جُمْلَةُ (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) فَهِيَ تَقْرِيرٌ لِمَعْنَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى لِأَنَّ الَّذِي اسْتَوَى فِي عِلْمِهِ السِّرُّ وَالْعَلَانِيَةُ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ ، وَإِلَّا فَهُوَ كَلَامٌ مُبْتَدَأٌ بِمَعْنَى : هُوَ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ أَوْ خَبَرٌ ثَانٍ ، قِيلَ : أَوْ ثَالِثٌ (وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 237 . 250 ﴾

(216/226)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾

والله هو علم على واجب الوجود ، وهو الاسم الذي اختاره الله لنفسه شاملاً لكل صفات الكمال ، والصفات الأخرى نحن نسميها الأسماء الحسنى : مثل القادر ، والسميع ، والبصير ، والحي ، والقيوم ، والقهار ، كلها صفات صارت أسماء لأنها مطلقة بالنسبة لله . وهذه الصفات حين تنصرف على إطلاقها فهي الله ، ومن الجائز أن تضاف في نسبتها الحادثة إلى غير الله . أما اسم " الله " فلا يطلق إلا على الحق سبحانه وتعالى .

ويتحدى الله الكافرين به أن يسمي أحدهم أي شيء غيره ب " الله " . ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] .

وسمع الكافرون ذلك ولم يجرؤ أحدهم أن يسمي أي شيء باسم " الله " . وهو لون من التحدي باقٍ إلى قيام الساعة ولا يجرؤ أحد أن يقول عكسه أو أن يقبله فيسمي شيئاً أو كائناً غير الله ب " الله " .

ولا نعرف شيئاً وجد بذاته أزلا وقبل أن يوجد الكون إلا الله ، أما أتفه الأشياء في حياتنا والتي نعتبرها من غير الأساسيات فهي لا توجد بذاته بل لا بد من صانع لها . فكوب الماء

مثلاً لا يؤدي ضرورة قصوى في الحياة ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يشرب الماء بكفه أو بفمه مباشرة ، هذا الكوب احتاج من الإنسان إلى علم وإمكانات وقدرة وحكمة . وجاء العلم للإنسان بما وهبه الله للإنسان من قدرة بحث عن المادة التي في الكون ، فنظر الإنسان إلى الرمل واكتشف وسيلة لصهر الرمال ، واكتشف وسيلة لتنقية الزجاج بمواد كيماوية ، واكتشف أسلوباً آلياً لإنتاج هذه الأكواب .

(217/226)

لقد أخذت رحلة صناعة الكوب من الإنسان رحلات علمية وصناعة كبيرة ، وهو غير ضروري كضرورة قصوى في الحياة ، إنما هو من الترف ، فما بالنا بالضروريات من شمس ، وقمر وهواء وماء ؟ هذه الأشياء – إذن – لا بد لها من صانع وإذا كان صانع أتفه شيء في حياة الإنسانية يذهب إلى إدارة لتسجيل اختراعه ؛ ليستفيد منها ، فما بالنا بالذي صنع كل شيء ، ولم يصنعها ليستفيد منها ولكن ليستفيد خلقه منها .

إن البشرية تعرف من صنع المصباح وتاريخه ، وأين ولد ، وأين عاش ، وأين تعلم . فما بالنا بالذي صنع الشمس والنجوم والأرض والإنسان ؟ ورحمنا الحق فدل على نفسه وأخبرنا أنه سبحانه الذي خلق . ولم يأت أحد ليعارضه سبحانه ويدعي صناعة الكون ، وما دام

لا يوجد شيء له أثر إلا بمؤثر ، فلا بد لنا أن نعرف أنه سبحانه ما دام قد قال : إنه هو الذي خلق وأبدع ولم تنشأ معارضة له فإن قوله هو الصدق . وإن كان هناك صانع للكون ولم يعلم أن الله قد أخبرنا أنه سبحانه الذي خلق الكون فذلك الصانع النائم التائه عما صنع لا يصلح أن يكون إلهاً .

وإن كان قد علم أن الله أخبرنا أنه سبحانه خلق لنا الكون ولم يجرؤ هذا الصانع على أن يبلغنا بالحقيقة فهذا – الصانع المدعي – ليس له حق في الألوهية .

أما الحق سبحانه ، فقد أعلمنا وعلمنا بالدليل القطعي أنه الذي خلق الكون ، وما دام الأمر كذلك فيجب أن نستمع له ، والترجمة العملية لسماع الحق هي عبادته وطاعته فيما أمر وفيما نهى ، بل إن عالم الملكوت الذي لا ترونه يعبده سبحانه . وكل شيء في الوجود مؤتمر بأمره ويسبح بحمده . ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [الإسراء : 44] .

(218/226)

وتدل السموات السبع والأرض وكل من فيهن من مخلوقات على دقة الصنعة وعلى ملكية الله لها وتنزهه سبحانه وتقدسه بأنه لا شريك له ، وكل شيء له وسيلة للتسبيح والتنزيه ،

ولكنا لا نرى ذلك ولا نفهمه ولا نفقهه . ويبلغنا الحق هنا أنه المعبود الموجود في كل الوجود . ﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السماوات وَفِي الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ وما دام معبوداً فينبغي أن يكون مطاعاً في الأوامر والنواهي . ولكن بعضنا يطيع ، وبعضنا يعصي . ولذلك رتب الحق على الطاعة جزاء ؛ : إما نعيماً وإما عقاباً . وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك الشيء ، وإياك أن تخلط بين إدراك الوجود ، والوجود ، فالذي لا تدرك وجوده إياك أن تقول إنه غير موجود .

ومثال ذلك ما نراه على مر تاريخ البشرية . لقد ترك الخالق في الوجود أسراراً يستنبطونها فتبرز لهم بالمنافع وكانت قبل أن يعرفها البشر ويقفوا عليها تؤدي مهمتها في الوجود ، ومثال ذلك الجاذبية الأرضية ؛ لقد كانت موجودة قبل اكتشاف الإنسان لها وتؤدي عملها قبل أن يعرفها الإنسان ، وجاء ذكرها في القرآن بشكل لا يثير بلبلة ساعة نزل القرآن : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [فاطر : 41] .

أوجد الحق قوانين الجاذبية لتمارس السموات والأرض أعمالها ويحفظهما بقدرته من الزوال ، وجعل من الجاذبية نظاماً بديعاً يحفظ الكون من الاختلال . إذن فالجاذبية كانت موجودة ، ولم يعرفها الإنسان إلا مؤخراً ، وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين وجود الشيء وبين إدراك الشيء .

فإذا قيل لك : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام : 103] .

(219/226)

فأنت أيها المؤمن تصدق ذلك ؛ فذات الحق لا تبصرها العيون وهو يعلم كل ما هو خفي عنك ولا تدركه عيونك . وفي الكون أشياء قد لا ندركها على الرغم من أنه سبحانه وتعالى خلقها وعملت في خدمتك ، وبعد أن أدركتها ظلت تعمل في خدمتك ، فإن حدثك الحق بشيء لا تدركه فلا تقل : ما دام هذا الشيء غير مدرك فهو غير موجود . وعلى سبيل المثال أنت لا تدرك الكهرباء ، ولا الجاذبية ، ولا قمة أسرار الحياة وهي الروح التي تعطيك سر الحياة ، وتنفعل بها كل جوارحك ، وإن خرجت الروح صرت جثة هامدة ، إن أحداً لا يعرف مكان الروح ولا يدركها ، ولا سمعها أحد أو شمها أو ذاقها أو لمسها . إن الروح موجودة في ذاتك ولا تدركها ، هأنتذا – إذن – لا تستطيع أن تدرك مخلوقاً لله فكيف تدرك خالقك وهو الله ؟ إنك لو أدركته لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً فقد قدرت عليه جوارحك ، ويصير مقدوراً عليه لعينك أو ليدك ، والقادر المطلق لا ينقلب مقدوراً أبداً ، ومن عظمته أنه لا يُدرك .

مثال آخر : الرؤيا التي تراها وتتحرك فيها . هل الرؤيا موجودة في جسمك ؟ أو ماذا ؟ والحِلْم وهو الصبر على غيرك لأن تتحمله وتعطف عليه وتضحك له ، هذا الحلم يجعلك تنفعل ، فهل تدرك أنت هذا الحلم ؟ أنه معنى من بعض المعاني في نفسك التي تحرك جوارحك ولا تدركها ، مثله مثل الشجاعة التي تصول بها وتجول ولا تراها محيزة ، ولا تعرف شكلها أو لونها أو طعمها ، فالأعلى الذي يدير هذا الكون غير مدرَك بالأبصار . والذي يُتعب الناس أنهم يحاولون الجمع بين الإدراك والوجود ، ولذلك نقول : ابحث أيها الإنسان في كونك ولسوف تجد فارقاً بين الإدراك والوجود .

(220/226)

ونعلم أن اسم الله نفسه وهو لفظ ننطقه لنفهم ونستدل به على أنه الخالق الأعلى وهو متحدًى به . وأنت أيها الإنسان قد اخترعت – على سبيل المثال – التليفزيون وكان من قبل أن يوجد معدوماً لا اسم له ، وصار له اسم منذ أن أوجده الإنسان ، صالحاً لمهمة معينة ، أما اسم الله فهو موجود وقديم من قبلك وأخبرك به الرسل ، وهو سبحانه وتعالى له اسم في كل لغة من اللغات ، ووجود هذا الاسم في كل اللغات بنطق مختلف هو دليل على أسبقية وجود الذات وهو الله . وبعد ذلك جاء الكفر ، وعرفنا أن الكفر كان محاولة لستر

الوجود الأول ، وبذلك دلت كلمة الكفر على الإيمان . والذي يرهق الإنسان هو محاولته لحصر الموجود الأعلى في شكل طبقاً لإمكانات وحدود البشر . ولا أحد يستطيع أن يحصر وجوده سبحانه في شكل معين ؛ لأن من عظمته أننا لا نقدر على تصوره ، والإيمان به سبحانه يدل عليه وهو يقول عن نفسه ما شاء . وأحب أن تحفظوا هذا المثل وتضربوه لصغاركم :

لنفترض أن إنساناً يجلس مع أسرته في حجرة ، ثم طُرق الباب ، وكل من يجلس في الحجرة يتيقن أن طارقاً بالباب ولا يختلف أحد منهم في هذه المسألة . فيقول أحد الأبناء : " الطارق محمد " ويقول الثاني : " إنه محمود " ويقول الثالث : " لا ، إنه إبراهيم " فتقول الزوجة : " إن الطارق امرأة " ، لكن أحد الأبناء يقول : " لا ، إنه رجل " فيقول الأب : " لعله شرطي جاء يسألني عن أمر " ترد الزوجة : " توقع خيراً ، إنك تصنع كل خير ولا بد أن يأتي لك كل طارق بخير " .

هنا اختلفت الأسرة لا في تعقل الطارق ، ولكن في تصور الطارق ، يقول الأب : " بدلا من الحيرة لنسألة من أنت ؟ " ، فيجيب الطارق : " أنا فلان " .

وهكذا الكون ، طرأ الإنسان عليه وتساءل من الذي خلقه . ذلك أن الإنسان جاءته الغفلة بعد أن عرف آدم ربه وبعد أن أشهد الحق ذرية آدم أنه ربهم . ثم أرسل الحق الرسل ليبلغوا الخلق منهجه واسمه وصفاته . وأراد سبحانه بذلك ألا يرهق خلقه ، وأبلغ الناس من خلال الرسل أنه الخالق الأكرم .

وآفة الفلاسفة أنهم لم يكتفوا بتعقل الإله ، بل أرادوا أن يتصوروه ، وهذا أمر غير ممكن .

لذلك نقول : علينا أن نستمع إلى الحق يقول ما شاء عن نفسه ولا داعي للخلاف .

وسبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السماوات وَفِي الأرض ﴾ وإياك أيها المسلم أن تفهم أن السماء والأرض هنا ظرفية ، لأن الظرفية وعاء وحيز ، وإذا كنت لم تعلم مكان روحك في جسدك ، فكيف تعلم مكان الله ؟ لقد قصد الله بذلك القول أنه معبود في السموات ومعبود في الأرض .

ولنلحظ أن بعض آيات القرآن توقف الذهن عندها كي تظل الأذهان دائماً مشغولة بكلمات الله ، ولو جاء القرآن بكلمات يسهل على الفهم العادي إدراك معانيها لما تجددت معاني الكتاب العظيم في كل زمان ، وكأن الحق قد قصد ذلك حتى يثبت الناس في كل العصور من إيمانهم . وها هم أولاء بعض من الذين يحاولون الخوض في القرآن تساءلوا عن معنى قوله الحق : ﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله وَهُوَ الحكيم العليم ﴾ [الزخرف : 84] .

تساءلوا عن معنى التكرار أنه إله في السموات وإله في الأرض . وظن بعض السطحيين أنه قصد القول بأن هناك إلهاً في السموات وإلهاً آخر في الأرض ، ولم يفطنوا إلى أن المعنى المقصود هو : إنه إله يعبد في السماء ويعبد في الأرض ، وهو صاحب الحكمة المطلقة في كل أفعاله وهو المحيط بكل كونه . وأن الحق إنما يريد بهذا القول أن يشغل الأذهان به .

(222/226)

ونقول أيضاً لهولاء الذين لم يفهموا المعنى : هناك قاعدة في اللغة تحدد النكرة وتحدد المعرفة ؛ فعندما نقول : " جاءني الرجل " فهذا الرجل يكون معروفاً للقائل والسامع . ولكن عندما نقول : " جاءني رجل " فهذا غير معروف للسامع وقد يكون معروفاً للقائل . وإذا قلنا : " جاءني رجل وأكرمت رجلاً " فمعنى ذلك أن القائل يتحدث عن رجلين ؛ أحدهما جاء ، والآخر كان موضع التكريم . أما إن قال القائل : " جاءني رجل فأكرمت الرجل " فالحديث هنا عن رجل واحد .

إذن فالنكرة إن أعيدت نكرة تكون مختلفة ، والنكرة إن أعيدت معرفة تكون هي بعينها .

وعندما قال الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله ﴾ [الزخرف : 84] .

تصور البعض أن " إله " نكرة ، عندما أعيدت صارت غيرها ، ولو كان الأمر كذلك لفسدت الدنيا . ولكن القاعدة الغالبة من العلماء عرفوا روح النص . وقال أهل العلم بالتوحيد : لا بد لنا أن نلتفت إلى أنه سبحانه قال : ﴿ وَهُوَ الذي ﴾ ، وكلمة " الذي " اسم موصول واحد يدلنا على أن الحق صلته بالسماء وبالأرض واحدة ، ولهذا نقول لمن وقفوا عند هذه الآية : لا تبحثوا عن النكرة المكررة بمعزل عن الاسم الموصول ، لأن الاسم الموصول معرفة .

(223/226)

﴿ وَهُوَ اللهُ فِي السماوات وَفِي الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ إنه إله واحد يعلم السر والجهر ، ويترتب على هذا أساس الثواب والعقاب . فلا تظن أيها الإنسان أنك تفلت من حساب ربك ، وإن كان سبحانه يعلم السر فمن باب أولى أن يعلم الجهر . ولو قال إنه يعلم السر فقط لظن بعض الناس أنه سبحانه لا يعلم إلا المستور لكونه – سبحانه – غيبا ، ونقول : لا . هو – جل شأنه – وإن كان غيبا إلا أنه يعلم الغيب ويعلم المشهد ، أو أنه – سبحانه – لم ينتظر علمه إلى أن يبرز الشيء جهرا بل هو بكمال علمه وطلاقة إحاطته يعلمه من أول ما كان سراً ويعلمه ويحيط به بعد أن برز وظهر ووجد وكأنه – سبحانه – يؤرخ للعلم في

ذات الإنسان الواحد ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ .

وهو سبحانه يعلمنا انه لا يقف عند السر فقط : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] .

إنه – سبحانه وتعالى – يعلم السر من قبل أن يكون سراً . وكل أمر قبل أن يصبح جهراً يكون سراً ، وقبل أن يكون سراً هو أخفى من السر . ويذيل الحق تلك الآية بقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ والكسب إنما ينشأ من عملية تجارة في رأس مال ما والزائد عليه يكون هو الكسب ، وقد يكون الكسب خيراً أو شراً ، فالذي يكسب شراً هو الذي يأخذ فوق ما أحل الله له .

والكسب كذلك يكون خيراً ، فإن قدّم الإنسان حسنة يكسب عشر حسنات . والمتكلم هو الله الذي له الحمد لأنه خالق السموات والأرض والظلمات والنور . ولكن الكافرين يترصدون لكلمة التوحيد ، ويأتيهم الخبر بأن الحق خلقنا من طين ، ويعلم السر وما هو أخفى من السر ، ويعلم ما نكسب من خير أو شر ، ولا يؤثر ذلك كله في المنصرفين عن دعوة الحق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يميلهم ويعطفهم إلى الصراط المستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

من فوائد الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

إنها اللمسات العريضة للحقيقة الكبيرة ؛ والإيقاعات المديدة في مطلع السورة . وهي ترسم القاعدة الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة :

﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ . .

إنها اللمسات الأولى . . تبدأ بالحمد لله . ثناء عليه ، وتسبيحاً له ، واعترافاً بأحقيته للحمد والثناء ، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء . . بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى . . الخلق . . وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود . . السماوات والأرض . . ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السماوات والأرض وفق تدبير مقصود . . الظلمات والنور . . فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور ، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام ، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك . . لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم ، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون ؛ بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه :

﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ . .

فيا للمفارقة الهائلة بين الدلائل الناطقة في الكون ، وآثارها الضائعة في النفس ! يا للمفارقة التي تعدل الأجرام الضخمة ، والمسافات الشاسعة ، والظواهر الشاملة . . بل تزيد . .

واللمسة الثانية :

﴿ هو الذي خلقكم من طين ، ثم قضى أجلاً ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون ﴾ :

(225/226)

إنها لمسة الوجود الإنساني ، التالي في وجوده للوجود الكوني . ولظاهرتي الظلمات والنور . لمسة الحياة الإنسانية في هذا الكون الخامد . لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم إلى نور الحياة البهيج ؛ تتناسق تناسقاً فنياً جميلاً مع ﴿ الظلمات والنور ﴾ . . وإلى جانبها لمسة أخرى متداخلة : لمسة الأجل الأول المقضى للموت ، والأجل الثاني المسمى للبعث . . لمستان متقابلتان في الهمود والحركة كتقابل الطين الهامد والخلق الحي في النشأة . . وبين كل متقابلين مسافة هائلة في الكنه والزمن . . وكان من شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله ، واليقين بلقائه . ولكن المخاطبين بالسورة يشكون في هذا ولا يستيقنون :

﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ . .

واللمسة الثالثة تضم اللمستين الأوليين في إطار واحد ؛ وتقرر ألوهية الله في الكون والحياة الإنسانية سواء :

﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون ﴾ . .

إن الذي خلق السماوات والأرض هو الله في السماوات وفي الأرض . هو المتفرد بالألوهية فيهما على السواء . وكل مقتضيات الألوهية متحققة عليهما ، من خضوع للناموس الذي سنه الله لهما ، وائتمار بأمره وحده . وكذلك ينبغي أن يكون الشأن في حياة الإنسان . فلقد خلقه الله كما خلق السماوات والأرض ؛ وهو في تكوينه الأول من طين هذه الأرض ؛ وما رزقه من خصائص جعلت منه إنساناً رزقه إياه الله ؛ وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الذي سنه الله له – رضي أم كره – يعطى وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله ، لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه : فهما يلتقيان ولكن لا يملكان أن يعطيا جنيناً وجوده ! وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة ! وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه ؛ ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له .

وهو يحس ويتألم ، ويجوع ويعطش ، ويأكل ويشرب . . وبالجملة يعيش . . وفق ناموس الله ، على غير إرادة منه ولا اختيار . . شأنه في هذا شأن السماوات والأرض سواء .

والله – سبحانه – يعلم سره وجهره . ويعلم ما يكسب في حياته في سره وجهره .

والأليق به أن يتبع – إذن – ناموس الله في حياته الاختيارية – فيما يتخذه من تصورات اعتقادية ، وقيم اعتبارية ، وأوضاع حيوية – لتستقيم حياته الفطرية المحكومة بناموس الله ؛ مع حياته الكسبية حين تحكمها شريعة الله . ولكي لا يناقض بعضه بعضاً ، ولا يصادم بعضه بعضاً ؛ ولا يتمزق مزقاً بين ناموسين وشرعين : أحدهما إلهي والأخر بشري وما هما بسواء . .

إن هذه الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة ، إنما تخاطب القلب البشري والعقل البشري بدليل " الخلق " ودليل " الحياة " ممثلين في الآفاق وفي الأنفس . . ولكنها لا تخاطب بهما الإدراك البشري خطاباً جدلياً لاهوتياً أو فلسفياً ! ولكن خطاباً موحياً موقظاً للفطرة ، حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء ؛ وحركة التدبير والهيمنة ؛ في صورة التقرير لا في صورة الجدل ؛ وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله ؛ ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه .

ووجود السماوات والأرض ، وتدبيرهما وفق هذا النظام الواضح ؛ ونشأة الحياة – وحياة الإنسان في قمتها – وسيرها في هذا الخط الذي سارت فيه . . كلاهما يواجه الفطرة

البشرية بالحق ، ويوقع فيها اليقين بوحدانية الله . . والوحدانية هي القضية التي تستهدف السورة كلها – بل القرآن كله – تقريرها . وليست هي قضية " وجود " الله . فلقد كانت المشكلة دائماً في تاريخ البشرية هي مشكلة عدم معرفة الإله الحق ، بصفاته الحقة ؛ ولم تكن هي مشكلة عدم الإيمان بوجود إله !

(227/226)

ومشركو العرب الذين كانت هذه السورة تواجههم ما كانوا يجحدون الله البتة ؛ بل كانوا يقرون بوجوده سبحانه ، وبأنه الخالق الرازق ، المالك ، المحيي المميت . . إلى كثير من الصفات – كما يقرر القرآن ذلك في مواجهتهم ، وفي حكاية أقوالهم – ولكن انحرافهم الذي وصمهم بالشرك هو أنهم ما كانوا يعترفون بمقتضى اعترافهم ذاك : من تحكيم الله – سبحانه – في أمرهم كله ؛ ونفي الشركاء له في تدبير شؤون حياتهم ؛ واتخاذ شريعته وحدها قانوناً ، ورفض مبدأ تحكيم غير الله في أي شأن من شؤون الحياة .

هذا هو الذي وصمهم بالشرك وبالكفر ؛ مع إقرارهم بوجود الله سبحانه ، ووصفه بتلك الصفات ، التي من مقتضاها أن يتفرد سبحانه بالحكم في شأنهم كله ، بما أنه الخالق الرازق المالك ، كما كانوا يعترفون .

. ومواجهتهم في مطلع هذه السورة بصفات الله هذه من الخلق للكون وللإنسان ، ومن تدبيره لأمر الكون وأمر الإنسان ؛ ومن علمه وإحاطته بسرهم وجهرهم وعملهم وكسبهم . . إنما هو المقدمة التي يرتب عليها ضرورة إفراده سبحانه بالحاكمية والتشريع ، كما أوضحنا في التعريف المجمل بخط السورة ومنهجها .

ودليل الخلق ودليل الحياة كما أنهما صالحان لمواجهة المشركين لتقرير الوحدانية ، ولتقرير الحاكمية ، هما كذلك صالحان لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله . .

والحقيقة أن هناك شكاً كثيراً فيما إذا كان هؤلاء الملحدون يصدقون أنفسهم ! فأغلب الظن أنها بدأت مناورة في وجه الكنيسة ؛ ثم استغلها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية ، كي لا يبقى على وجه الأرض من يقوم على هذه القاعدة غيرهم – كما يقولون في بروتوكولات حكماء صهيون – ومن ثم تنهار البشرية وتقع تحت سيطرتهم ، بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة الحقيقية الذي توفره العقيدة !

(228/226)

واليهود – مهما بلغ من كيدهم ومكرهم – لا يملكون أن يغلبوا الفطرة البشرية ، التي تجد في قرارتها الإيمان بوجود إله – وإن كانت تضل فقط في معرفة الإله الحق بصفاته الحقة ؛ كما

أنها تنحرف بعدم توحيد سلطانه في حياتها ، فتوصم بالشرك والكفر على هذا الأساس – ولكن بعض النفوس تفسد فطرتها ، وتتعطل فيها أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . وهذه النفوس وحدها هي التي يمكن أن يفلح معها كيد اليهود الذي يستهدف نفي وجود الله فيها . ولكن هذه النفوس المعطلة الفطرة ستظل قليلة وشاذة في مجموع البشر في كل زمان . . والملحدون الحقيقيون على ظهر الأرض اليوم لا يتجاوزون بضعة ملايين في روسيا والصين من بين مئات الملايين الذين يحكمهم الملحدون بالحديد والنار ؛ على الرغم من الجهد الناصب خلال أربعين عاماً في نزع الإيمان بكل وسائل التعليم والإعلام !

إنما يفلح اليهود في حقل آخر . وهو تحويل الدين إلى مجرد مشاعر وشعائر . وطرده من واقع الحياة . وإيهام المعتقدين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله ؛ مع أن هناك أرباباً أخرى هي التي تشرع لحياتهم من دون الله ! ويصلون بذلك إلى تدمير البشرية فعلاً ، حتى مع وهمها أنها لا تزال تؤمن بالله .

وهم يستهدفون الإسلام – قبل كل دين آخر – لأنهم يعرفون من تاريخهم كله ، أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة . وأنهم غالبوا أهله طالما أهله لا يحكمونه في حياتهم ؛ مع توهمهم أنهم ما يزالون مسلمين مؤمنين بالله ! فهذا التخدير بوجود الدين – وهو غير موجود في حياة الناس – ضروري لتنجح المؤامرة . . أو يأذن الله فيصحو الناس !

وأحسب – والله أعلم – أن اليهود الصهيونيين ، والنصارى الصليبيين ، كليهما ، قد يئسوا من هذا الدين في هذه المنطقة الإسلامية الواسعة في إفريقية وآسيا وأوربا كذلك . . يئسوا من أن يحولوا الناس فيها إلى الإلحاد – عن طريق المذاهب المادية – كما يئسوا كذلك من تحويلهم إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير أو الاستعمار . . ذلك أن الفطرة البشرية بذاتها تنفر من الإلحاد وترفضه حتى بين الوثنيين – فضلاً على المسلمين – وأن الديانات الأخرى لا تجرؤ على اقتحام قلب عرف الإسلام ، أو حتى ورث الإسلام !

وأحسب – والله أعلم – أنه كان من ثمرة اليأس من هذا الدين أن عدل اليهود والصهيونيون والنصارى الصليبيون عن مواجهة الإسلام جهرة عن طريق الشيوعية أو عن طريق التبشير ؛ فعدلوا إلى طرائق أخبث ، وإلى حبائل أمكر . . لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تتزيا بزي الإسلام ؛ وتتمسح في العقيدة ؛ ولا تنكر الدين جملة . . ثم هي تحت هذا الستار الخادع ، تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكولات صهيون ، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل !

(230/226)

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام – أو على الأقل تعلن احترامها للدين – بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله ؛ وتقصي شريعة الله عن الحياة ؛ وتحل ما حرم الله ؛ وتنشر تصورات وقيماً مادية عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية ؛ وتسلط جميع أجهزة التوجيه والإعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية ، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية ؛ وتنفذ ما نصت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين ، من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع ، وجعلها فتنة للمجتمع ، باسم التطور والتحضر ومصلحة العمل والإنتاج ؛ بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف ! وتيسر وسائل الانحلال وتدفع الجنسين إليها دفعاً بالعمل والتوجيه . . كل ذلك وهي تزعم أنها مسلمة وأنها تحترم العقيدة ! والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم ، وأنهم هم كذلك مسلمون ! أليس الطيبون منهم يصلون ويصومون ؟ أما أن تكون الحاكمية لله وحده أو تكون للأرباب المتفرقة ، فهذا ما قد خدعتهم عنه الصليبية والصهيونية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الإعلام الموجهة ؛ وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين . وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين ؛ وفي دين الله ؛ بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين !

وإمعاناً في الخداع والتضليل ؛ وإمعاناً من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي ، فإنها تثير حروباً مصطنعة – باردة أو ساخنة – وعداوات مصطنعة في شتى الصور ،

بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية ، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية ، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة !

(231/226)

تثير هذه الحروب المصطنعة والعداوات المصطنعة ، لتزيد من عمق الخدعة ؛ ولتبعد الشبهة عن العملاء ، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد ؛ من تدمير القيم والأخلاق ؛ وسحق العقائد والتصورات ؛ وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول . . وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم . . وتنفيذ المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين ؛ في غفلة من الرقباء والعيون !

فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة ؛ ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف ؛ وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه ؛ ولوصف الكفر بأنه الإسلام ؛ والفسق والفجور والانحلال ، بأنه تطور وتقدم وتجدد . . إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة ؛ وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقاً ، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء

عمياء ! ! !

ذلك بينما الطيبون السذج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية ، أو طائفية ، لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مع هذا الدين ؛ ويروحون يشتغلون في سذاجة بلهاء – من تأخذه الحمية للدين منهم وللأخلاق – بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة ، وإلى منكرات صغيرة ، ويحسبون أنهم أدوا واجبهم كاملاً بهذه الصيحات الخافتة . . بينما الدين كله يسحق سحقاً ، ويدمر من أساسه ؛ وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصبون ، وبينما الطاغوت – الذي أمروا أن يكفروا به – هو الذي يحكم حياة الناس جملة وتفصيلاً !

إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحاً بنجاح الخطة وجواز الخدعة ؛ بعدما يئسوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة باسم الإلحاد ، أو يحولوا الناس عنه باسم التبشير ، فترة طويلة من الزمان . .

(232/226)

إلا أن الأمل في الله أكبر ؛ والثقة في هذا الدين أعمق ، وهم يمكرون والله خير الماكرين . وهو الذي يقول : ﴿ وقد مكروا مكرهم ، وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ أما مواجهة دليل

الخلق ودليل الحياة للوثة الإلحاد ، فهي مواجهة قوية ، لا يجد الملحدون إزاءها إلاّ المماحلة والمغالطة والالتواء :

إن وجود هذا الكون ابتداء ، بهذا النظام الخاص ، يستلزم – بمنطق الفطرة البديهي وبمنطق العقل الواعي على السواء – أن يكون وراءه خالق مدبر . .

فالمسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يملك الإدراك البشري أن يعبرها ، إلا بتصور إله ينشئ ويخلق ويوجد هذا الوجود .

والذين يلحدون يعمدون إلى هذه الفجوة فيريدون ملأها بالمكابرة . ويقولون : إنه لا داعي لأن نفترض أنه كان هناك عدم قبل الوجود ! . . ومن هؤلاء فيلسوف عرف بأنه فيلسوف " الروحية " المدافع عنها في وجه " المادية " . وعلى هذا الأساس ربما أشاد به بعض المخدوعين من " المسلمين " واستأنسوا بأقواله لدينهم كأنما ليؤازروا دين الله بقول عبد من العبيد . . هذا الفيلسوف هو " برجسون " . . اليهودي ! ! !

إنه يقول : إن هذا الوجود الكوني لم يسبقه عدم ! وإن فرض الوجود بعدم العدم ناشئ من طبيعة العقل البشري الذي لا يستطيع أن يتصور إلا على هذا النحو .

فإلى أي منطق يا ترى يستند برجسون إذن في إثبات أن الوجود الكوني لم يسبقه عدم ؟ إلى العقل ؟ لا . فإن العقل – كما يقرر – لا يمكن أن يتصور إلا وجوداً بعد عدم ! إلى وحي من الله ؟ إنه لا يدعي هذا . وإن كان يقول : إن حدس المتصوفة كان دائماً يجد إلهاً ولا بد

أن نصدق هذا الحدس المطرد (الإله الذي يتحدث عنه برجسون ليس هو الله إنما هو الحياة !) . . فأين المصدر الثالث الذي يعتمد عليه (برجسون) إذن في إثبات أن الوجود الكوني غير مسبوق بعدم ؟ لا ندري !

(233/226)

إنه لا بد من الالتجاء إلى تصور خالق خلق هذا الكون . . لا بد من الالتجاء إلى هذا التصور لتعليل مجرد وجود الكون . . فكيف إذا كان الحال أنه لم يوجد مجرد وجود . ولكنه وجد محكوماً بنواميس لا تتخلف ، محسوباً فيها كل شيء بمقاييس ، قصارى العقول البشرية أن تدرك أطرافاً منها ، بعد التدبر الطويل ؟ !

كذلك نشأة هذه الحياة . والمسافة بينها وبين المادة – أياً كان مدلول المادة ولو كان هو الإشعاع – لا يمكن تعليلها إلا بتصور وجود إله خالق مدبر . يخلق الكون بحالة تسمح بنشأة الحياة فيه ؛ وتسمح بكفالة الحياة أيضاً بعد وجودها . والحياة الإنسانية بخصائصها الباهرة درجة فوق مجرد الحياة . . وأصله من طين . . أي من مادة هذه الأرض وجنسها ؛ ولا بد من إرادة مدبرة تمنحه الحياة ، وتمنحه خصائص الإنسان عن قصد واختيار .

وكل المحاولات التي بذلها الملحدون لتعليل نشأة الحياة باءت بالفشل – عند العقل البشري

ذاته – وآخر ما قرأته في هذا الباب محاولة (ديورانت) المتفلسف الأمريكي للتقريب بين نوع الحركة الذي في الذرة – وهو يسميه درجة من الحياة – ونوع الحياة المعروف في الأحياء . وذلك في جهد مستميت لملء الفجوة بين المادة الهامدة والحياة النابضة . بقصد الاستغناء عن الإله الذي ينشئ الحياة في الموات !

ولكن هذه المحاولة المستميتة لا تنفعه ولا تنفع الماديين في شيء . . ذلك أنه إن كانت الحياة صفة كامنة في المادة ، ولم يكن وراء هذه المادة قوة أخرى ذات إرادة ، فما الذي يجعل الحياة التي في المادة الكونية تتبدى في درجات بعضها أرقى وأعقد من بعض ؟ فتتبدى في الذرة مجرد حركة آلية غير واعية . ثم تتبدى في النبات في صورة عضوية . ثم تتبدى في الأحياء المعروفة في صورة عضوية أكثر تركيباً وتعقيداً . .

(234/226)

ما الذي جعل المادة – المتضمنة للحياة كما يقال – يأخذ بعضها من عنصر الحياة أكثر مما يأخذ البعض الأخر ، بلا إرادة مدبرة ؟ ما الذي جعل الحياة الكامنة في المادة ، تختلف في مدارجها المترقية ؟ !

إننا نفهم هذا التفاوت يوم نقدر أن هناك إرادة مدبرة هي التي تصنع ذلك مختارة مريدة .

فأما حين تكون المادة (الحية ولنفرض ذلك !) هي وحدها ، فإنه يستحيل على العقل البشري ذاته أن يفهم هذا التفاوت أو يعلله !

إن التعليل الإسلامي لانبثاق الحياة في درجاتها المتفاوتة هو الحل الوحيد لهذه الظاهرة التي لا تعللها المحاولات المادية البائسة !

وإذ كنا – في هذه الظلال – لا نخرج عن المنهج القرآني ؛ فإننا لا نمضي أكثر من هذا في مواجهة لوثة الإلحاد ببراهين الخلق والتدبير والحياة . . فالقرآن الكريم لم يجعل قضية وجود الله قضيته . لعلم الله أن الفطرة ترفض هذه اللوثه . إنما القضية هي قضية توحيد الله ؛ وتقرير سلطانه في حياة العبد ؛ وهي القضية التي تتوخاها السورة في هذه الموجة التي استعرضناها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1030 . 1035 ﴾

(235/226)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وهُوَ اللّهُ في السَّموات " في هذه الآية أقْوالٌ كثيرة ، وقد لُخِصَّتْ في اثْنَيْ عشر وَجْهاً ؛ وذلك أن " هو " فيه قولان :

أحدهما : هو ضمير اسم الله – تعالى – يعودُ على ما عَادَتْ عليه الضَّمائِرُ قبله .

الثاني : أَنَّهُ ضميرُ القِصَّةِ ، قال أبو عليّ .

قال أبو حيَّان : وإنَّما فرَّ إلى هذا ؛ لأنه لو أعاد على اللّهِ لَصَارَ التقديرُ : اللَّهُ اللَّهُ ، فتركَّب الكلام من اسمين مُتَّحِدَيْنِ لفظاً ومعنى لا نِسْبَةَ بينهما إسنادية .

قال شهاب الدين : الضَّميرُ إنما هو عَائِدٌ على ما تقدَّمَ من المَوْصُوفِ بتلك الصِّفات الجلية ، وهي خَلْقُ السَّموات والأرض ، وجعل الظُّلُماتِ والنُّور ، وخَلْق النَّاس من طين إلى آخرها ، فصَارَ في الإخبار بذلك فَائِدَةٌ من غير شَكّ ، فعلى قول الجُمْهُور يكون " هو " مبتدأ ، و " اللَّهُ " خبره ، و " في السَّمَوَات " متعلقٌ بنفس الجلالة لمَّا تَضمَّنَتْهُ من معنى العِبَادةِ ، كأَنَّهُ قيل : وهو المَعْبُود في السَّموات ، وهذا قول الزَّجَّاج ، وابن عطيَّة ، والزمخشري .

قال الزَّمخشري : " في السَّمَوَات متعلّقٌ بمعنى اسم اللَّهِ ، كأَنَّهُ قيل : هو المَعْبُود فيها ، ومنه : ﴿ وَهُوَ الذي فِي السماء إله وَفِي الأرض إله ﴾ [لزخرف : 84] أو هو المعروف بالإلهية والمتوحد بالإلهيّة فيها ، أو الذي يُقَالُ له " اللَّه " [لا يشركه في هذا الاسم غيره] .

وقال شهابُ الدين : إنما قال : أو هو المَعْرُوفُ ، أو هو الذي يُقال له : اللَّهُ ؛] لأنَّ الاسم الشَّريف تقدَّم فيه خلافٌ ، هل هو مُشْتَقٌ أوْ لا ؟ فإن كان مُشْتقاً ظَهَرَ تلُّق الجَارّ بِهِ ، وإنْ كان لَيْسَ بمشتقّ ، فإمَّا أن يكون يتأوّل ذلك على كل قول من هذه الأقوال الثلاثة .

فقوله : " المَعْبُود " راجعٌ للاشتقاقِ ، وقوله : " المَعْرُوف " راجع لكونه عَلماً مَنْقُولاً ، وقوله :

" الَّذي يُقَال له : اللَّهُ " راجع إلى كونه مُرْتجلاً ، وكأنه – رحمه الله – اسْتَشْعَرَ بالاعتراض المذكور .

والاعْتِراضُ مَنْقُولٌ عن الفَارسيِّ .

(236/226)

قال : " وإذا جَعَلْتَ الظَّرْفَ متعلّقاً بام اللّهِ جَازَ عندي على قياس مَنْ يقول : إنَّ الله أصْلُه " الإله " ومن ذَهَبَ بهذا الاسم مذهب الأعلام وجب ألاَّ يتعلَّقَ به " عنده " إلاَّ أنْ تُقدّر فيه ضَرْباً من معنى الفِعْلِ " ، نقل عن أبي عليّ أنه لا يتعلَّقُ " في " باسم اللَّهِ ؛ لأنَّه صار بدخول الألف واللام ، والتغيير الذي دخله كالعلم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّا ﴾ [مريم : 65] فظاهرُ هذا النقل أنه يمنعُ التعلُّق به وإنْ كاني في الأصْل مُشْتَقاً .

وقال الزَّجَّاج : " وهو مُتَعَلِّقٌ بما تَضَمَّنَهت اسْمُ من المَعَاني ، كقولك : أميرُ المؤمنين الخَلِيفَة في المَشْرِق والمغْرِب " .

قال ابن عطيّة : " هذا عندي أفْضَلُ الأقوالِ ، وأكثرها إحْرَازاً لفَصَاحَةِ اللَّفْظِ ، وجَزَالَةِ المعنى .

وإيضاحُهُ أنَّهُ أراد أنْ يَدُلَّ على خَلْقِهِ وآثَارِ قُدْرتِهِ وإحاطتِهِ واستيلائه ، ونحو الصفات ،

فجمع هذه كُلَّها في قوله : " وَهُوَ اللَّهُ " ؛ أي : الذي له هذه كُلُّها في السَّموات ، وفي الأرضِ كأنه قال : وهو الخالق ، والرازق ، والمحيي ، والمحيط في السموات وفي الأرض كما تقول : زيد السُّلطانُ في " الشام " و" العراق " فلو قصدت ذات زَيْدٍ لكان مُحَالاً ، فإذا كان مَقْصِدُ قولك [: زيد] الآمر النّاهي الذي يُوَلِّي ويَعْزِلُ كان فَصِيحاً صَحِيحاً ، فأقمت السَّلطَنَةَ مَقَامَ هذه الصِّفَاتِ ، كذلك في الآية الكريمة أَقَمْتَ " الله " مقام تلك الصِّفات " .

(237/226)

قال أبو حيَّان : ما ذكره الزَّجَّاجُ ، وأوضحه ابن عطيَّةَ صحيحٌ من حيث المعنى ، لكنَّ صَنَاعَةَ النحو لا تُسَاعِدُ عليه ؛ لأنهما زَعَمَا أن " في السموات " متعلِّقٌ باسم الله ؛ لما تَضَمَّنَهُ من تلك المعاني ، ولو صَرَّحَ بتلك المعاني لم تَعْمَلْ فيه جَمِيعُهَا ، بل العَمَلُ من حيث اللفظُ لواحد منها ، وإن كان " في السموات " متعلّقاً بجميعها من حيث المعنى ، بل الأولى أن يتعلَّق بلفظ " اللّه " لما تَضَمَّنَهُ من معنى الأُلُوهِيَّة ، وإن كان عَلَماً ؛ لأن العَلَمَ يَعْمَلُ في الظَّرْفِ لما يتضمنه من المعنى كقوله : [الزجر]

2107 - . . .

أَنَا أَبُو المِنْهَالِ بَعْضَ الأَحْيَانْ

لأنَّ "بَعْضَ" نُصَبَ بالعَلَمِ ؛ لأنَّه في معنى أنا المشهور .

عَمَلُهَا على سبيل التَّنَازُع ، مع أنه لو سَكَتَ عن الجواب واضحاً .

ولما ذكر أبو حيَّان ما قاله الزَّمَخْشَرِيُّ قال : " فانظر كيف قدّرَ العامِلَ فيها واحِداً لا جميعها " .

يعني : أنَّهُ اسْتَنْصَرَ به فيما ردَّ على الزَّجَّاج ، وابن عطية .

الوجه الثاني : أن " في السَّمَوَات " متعّلق بمحذوفٍ هو صِفَةٌ لله تعالى حُذِفت لفهم المَعْنَة ، فقدَّرها بعضهم : وهو الله المعبود ، وبعضهم : وهو اللَّهُ المُدبِّرُ ، وحذفُ الصِّفة قليلٌ جداً لم يَرِدْ منه إلاَّ مواضع يسيره على نَظَرٍ فيها ، فمنها ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ [الأنعام : 66] أي : المعاندون ، ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : 46] أي : النَّاجين ، فلا ينبغي أن يُحْمَلَ هذا عليه .

الوجه الثالث : قال النَّحَّاس – وهو أحْسَنُ ما قيل فيه – : إنَّ الكلام تَمَّ عند قوله : " وَهُوَ اللَّهُ " والمَجْرُور متعلِّقٌ بمفعول "يَعْلَمُ" ، وهو " سِرَّكم وجَهْرَكُم " أي : يَعْلَمُ سِرَّكُم ، وجَهْرَكُم فيهما .

وهذا ضعيفٌ جداً لما فيه من تَقْدِيمِ مَعْمُولِ المصجر عليه ، وقد عرف ما فيه .

الوجه الرابع : أنَّ الكلامَ تمَّ أيضاً عند الجلالةِ ، وتعلّق الظرفُ بنفس "يَعْلَمُ" وهذا ظاهِرٌ ، و"يَعْلَمُ" على هذين الوَجْهَيْنِ مُسْتَأنَفٌ .

الوجه الخامس : أنَّ الكلامَ تمَّ عند قوله : "في السموات" فيتعلَّق "في السموات" باسم الله على ما تقدَّمَ ، ويتعلَّقُ "في الأرض" بـ "يعلم" وهو قول الطَّبري .

وقال أبو البقاء : "وهو ضعيفٌ ؛ لأنِّ اللَّهَ – تعالى – مَعْبودٌ في السَّمَوات وفي الأرض ، ويَعْلَمُ ما في السَّموات ، وما في الأرض ، فلا تتخصَّصُ إحْدى الصِّفَتَيْنِ بأحَدِ الظرفين" .

وهخو رَدٌّ جميلٌ .

الوجه السادس : أنَّ "في السموات" متعلِّقٌ محذوفٍ على أنَّهُ حالٌ من "سِرَّكم" ، ثُمَّ قُدِّمَتِ الحالُ على صَاحبهَا ، وعلى عاملها .

السابع : أنه متعلّق بـ "يَكْسِبُونَ" ، وهذا فَاسِدٌ من جهة أنه يَلْزَمُ منه تقديم مَعْمُولِ الصِّلةِ على الموصول ؛ لأن "ما" مَوْصُولةٌ اسمية ، أو حرفيةٌ ، وأيضاً فالمُخَاطبُونَ كيف يكيبون في السموات ؟ ولو ذهب هذا القائلُ إلى أنَّ الكلام تَمَّ عند قوله : "في السموات" وعلّق "في الأرض" بـ "يَكْسِبونَ" لسَهُل الأمْرُ من حيث المعنى لا من حَيْثُ الصناعيةُ .

الوجه الثامن : أنَّ "الله" خَبَرٌ أوَّلُ ، و"في السموات" خبر ثانٍ .

قال الزمخشري : "على معنى : أنَّه الله ، وأنَّهُ في السموات وفي الأرض ، وعلى معنى : أنَّهُ

عالمٌ بما فيهما لا يَخْفَى عليه شيءٌ ، كأنَّ ذاتَهُ فيهما " .

قال أبو حيَّان : " وهذا ضعيفٌ ؛ لأن المجرور بـ " في " لا يدُلُّ على كونٍ مُقيَّدٍ ، إنما يَدُلُّ على كونس مُطْلَقٍ ، وتقدَّم جوابه مراراً " .

الوجه التاسع : أنْ يكون " هو " مبتدأ ، و " اللَّهُ " بَدَلٌ منه ، و " يَعْلَمُ " خبره و " في السموات " على ما تقدَّم .

الوجه العاشر : أنْ يكون " اللَّهُ " بَدَلاً أيضاً ، و " في السموات " الخبرُ بالعنى الذي قاله الزمخشري .

(239/226)

الحادي عشر : أنَّ " هو " ضمير الشَّأنِ في مَحَلِّ رفع بالابتداء ، والجلالةُ مبتدأ ثانٍ ، وخبرها " في السموات " بالمعنى المتقدِّمِ ، أو " يَعْلَمُ " ، والجملة خبر الأول مفسرة له وهو الثاني عشر .

وأمَّا " يَعْلَمُ " فقد عرفت من تَفَاصِيلِ ما تقدَّمَ أنَّه يَجُوزُ أن يكون مُسْتَأنَفاً ، فلا مَحَلَّ له ، أو في مَحَلِّ رفع خبراً ، أو في مَحَلِّ نَصْبِ على الحال ، و " سِرَّكم وجَهْرَكم " :

يجوز أن يَكُونَا على بابهما من المَصْدَرِيّة ، ويكونان مضافين إلى الفاعل .

وأجاز أبو البَقَاء أن يكونا وَاقِعَيْنِ المفعول به ، أي : مُسَرَّكم ومجهوركم ، واسْتَدَلَّ بقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة : 77] ولا دَلِيلَ فيه ، لأنه يجوز " ما " مصدرية وهو الأَلْيَقُ لمُنَاسَبَةِ المصدرين قبلها ، وأن تكون بمعنى " الذي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 20 . 23 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3) ﴾

وهو الذي هو معبودُ مَنْ في السماء ، مقصود مَنْ في الأرض ، وهو الموجود قبل كل سماءٍ وفضاء ، وظلام وضياء ، وشمس وقمر ، وعين وأثر ، وغيْر وغَبَر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 461 ﴾

(240/226)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والعشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والعشرون بعد المائتين

من الآية ﴿ 4 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 12 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فلما تظاهرت الأدلة وتظافرت الحجج وهم عنها ناكبون ، وصل بذلك في جملة حالية قوله ، معرضاً عنهم إيذاناً باستحقاقهم شديد الغضب : ﴿ وما تأتيهم ﴾ أي هؤلاء الذين هم أهل للإعراض عنهم ، وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من آية ﴾ أي علامة على صحة ما دعاهم إليه رسولهم صلى الله عليه وسلم ، وبعض بقوله : ﴿ من آيات ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بنصب الأدلة وإفاضة العقول وبعث الرسول ﴿ إلاّ كانوا عنها معرضين ﴾ أي هذه صفتهم دائماً قصداً للعناد لئلا يلزمهم الحجة ، ويجوز أن يكون ذلك معطوفاً على " يعدلون " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 588 . 589 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما تكلم ، أولاً : في التوحيد ، وثانياً : في المعاد ، وثالثاً : فيما يقرر هذين المطلوبين ذكر بعده ما يتعلق بتقرير النبوة وبدأ فيه بأن بين كون هؤلاء الكفار معرضين عن تأمل الدلائل ، غير ملتفتين إليها وهذه الآية تدل على أن التقليد باطل .

والتأمل في الدلائل واجب .

ولولا ذلك لما ذم الله المعرضين عن الدلائل .

قال الواحدي رحمه الله : من في قوله ﴿ مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ لاستغراق الجنس الذي يقع في النفي كقولك ما أتاني من أحد والثانية وهي قوله ﴿ مِّنْ ءايات ربهم ﴾ للتبعيض والمعنى وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاعتبار إلا كانوا عنه معرضين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 130 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءايات رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ولم يتفكروا فيها ليعتبروا في توحيد الله تعالى .

وذلك أن مشركي مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم علامة .

وقالوا : إنا نريد أن تدعو لينشق القمر نصفين لنؤمن بك ، وبربك ، ونصدقك .

(5/227)

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانشق القمر شقين ، وذهب أحد النصفين إلى جانب حراء ، والآخر إلى جانب آخر وهم ينظرون إليه .

وقال ابن مسعود : أنا رأيت حراء بين فلقتي القمر .

فأعرضوا عنه فلم يؤمنوا .

وقالوا : هذا سحر مبين .

فنزلت ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : 1 ، 2] ونزلت هذه الآية : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : انشقاق القمر ﴿ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ ﴾ أي علامة كانشقاق القمر ونحوها .

و"مِنْ" لاستغراق الجنس ؛ تقول : ما في الدار من أحد .

﴿ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ "مِنْ" الثانية للتبعيض .

و﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ خبر "كَانُوا" .

والإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله جل وعز من خلق السموات والأرض وما بينهما ، وأنه يرجع إلى قديم حي غنيّ عن جميع الأشياء ، قادر لا يعجزه شيء ، عالم لا يخفى عليه شيء من المعجزات التي أقامها لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ ليُستَدلّ بها على صدقه في جميع ما أتى به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى

حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وما تأتيهم من آية من ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾

﴿ من ﴾ الأولى زائدة لاستغراق الجنس ، ومعنى الزيادة فيها أن ما بعدها معمول لما قبلها فاعل بقوله ﴿ تأتيهم ﴾ فإذا كانت النكرة بعدها مما لا يستعمل إلا في النفي العام ، كانت ﴿ من ﴾ لتأكيد الاستغراق نحو ما في الدار من أحد ، وإذا كانت مما يجوز أن يراد بها الاستغراق ، ويجوز أن يراد بها نفي الوحدة أو نفي الكمال كانت ﴿ من ﴾ دالة على الاستغراق نحو ما قام من رجل ، و ﴿ من ﴾ الثانية للتبعيض .

(6/227)

قال الزمخشري : يعني وما يظهر لهم قط دليل من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار إلا كانوا عنه ﴿ معرضين ﴾ تاركين للنظر ، لا يلتفتون إليه ولا يرفعون به رأساً لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب ؛ انتهى .

واستعمال الزمخشري قط مع المضارع في قوله : وما يظهر لهم قط دليل ليس بجيد ، لأن قط ظرف مختص بالماضي إلا إن كان أراد بقوله : وما يظهر وما ظهر ولا حاجة إلى استعمال

ذلك .

وقيل : الآية هنا العلامة على وحدانية الله وانفراده بالألوهية .

وقيل : الرسالة .

وقيل : المعجز الخارق .

وقيل : القرآن ومعنى ﴿ عنها ﴾ أي : عن قبولها أو سماعها ، والإعراض ضد الإقبال وهو مجاز إذ حقيقته في الأجسام ، والجملة من قوله : ﴿ كانوا ﴾ ومتعلقها في موضع الحال فيكون ﴿ تأتيهم ﴾ ماضي المعنى لقوله : ﴿ كانوا ﴾ أو يكون ﴿ كانوا ﴾ مضارع المعنى لقوله : ﴿ تأتيهم ﴾ وذو الحال هو الضمير في ﴿ تأتيهم ﴾ ، ولا يأتي ماضياً إلا بأحد شرطين أحدهما : أن يسبقه فعل كما في هذه الآية ، والثاني أن تدخل على ذلك الماضي قد نحو ما زيد إلا قد ضرب عمراً ، وهذا التفات وخروج من الخطاب إلى الغيبة والضمير عائد على ﴿ الذين كفروا ﴾ .

وتضمنت هذه الآية مذمة هؤلاء ﴿ الذين كفروا ﴾ بأنهم يعرضون عن كل آية ترد عليهم ، ولما تقدّم الكلام أولاً في التوحيد وثانياً في المعاد وثالثاً في تقرير هذين المطلوبين ، ذكر بعد ذلك ما يتعلق بتقرير النبوة وبين فيه أنهم أعرضوا عن تأمل الدلائل ، ويدل ذلك على أن التقليد باطل وأن التأمل في الدلائل واجب ولذلك ذموا بإعراضهم عن الدلائل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ ﴾

كلام مستأنَفٌ واردٌ لبيان كفرهم بآيات الله وإعراضِهم عنها بالكلية بعد ما بيّن في الآية الأولى إشراكَهم بالله سبحانه وإعراضَهم عن بعض آيات التوحيد ، وفي الآية الثانية امتراءَهم في البعث وإعراضَهم عن بعض آياته . والالتفاتُ للإشعار بأن ذكْرَ قبائحِهم قد اقتضى أن يضرِبَ عنهم الخطابَ صفحاً ، وتعددُ جناياتهم لغيرهم ذماً لهم وتقبيحاً لحالهم ، فما نافية ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ، أو للدلالة على الاستمرار التجدُّديّ ، و(مِنْ) الأولى مزيدة للاستغراق ، والثانيةُ تبعيضيةٌ واقعةٌ مع مجرورها صفةً لآية ، وإضافةُ الآيات إلى اسم الربِّ المضافِ إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتْبِعِ لتهويل ما اجترأوا عليه في حقها . والمراد بها إما الآياتُ التنزيليةُ فإتيانُها نزولُها ، والمعنى ما ينزِلُ إليهم آيةٌ من الآيات القرآنية التي من جملتها هاتيك الآياتُ الناطقةُ بما فُصِّل من بدائعِ صنعِ الله عز وجل المُنْبِئةِ عن جَرَيان أحكام ألوهيتِه تعالى على كافة الكائنات ، وإحاطةِ علمه بجميع أحوالِ الخلقِ وأعمالهم الموجبةِ للإقبال عليها والإيمانِ بها ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

أي على وجه التكذيبِ والاستهزاء كما ستقف عليه ، وأما الآياتُ التكوينيةُ الشاملةُ للمعجزات وغيرِها من تعاجيب المصنوعاتِ فإتيانُها ظهورُها لهم .

(8/227)

والمعنى ما يظهر لهم آيةٌ من الآيات التكوينية التي من جملتها ما ذُكر من جلائِلِ شؤونه تعالى الشاهدةِ بوحدانيته إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيحِ فيها . المؤدّي إلى الإيمان بمُكوّنها ، وإيثارُه على أن يقال : إلا أعرضوا عنها كما وقع مثلُه في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسَبَ استمرارِ إتيانِ الآيات ، و(عن) متعلقةٌ (بمعرضين) قُدّمت عليه مراعاةً للفواصل ، والجملة في محل النصب على أنها حال من مفعول تأتي أو من فاعِله المتخصّصِ بالوصف لاشتمالها على ضمير كا منهما . وأياً ما كان ففيها دلالة بينةٌ على كمال مسارعتهم إلى الإعراض ، وإيقاعِها له في آنِ الإتيان كما يُفصح عنه كلمةُ (لما) في قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(9/227)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان كفرهم بآيات الله تعالى وإعراضهم عنها بالكلية بعد بيان كفرهم بالله تعالى وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد وامترائهم في البعث وإعراضهم عن بعض (أدلته) ، والإعراض عن خطابهم للإيذان بأن إعراضهم السابق قد بلغ مبلغاً اقتضى أن لا يواجهوا بكلام بل يضرب عنهم صفحاً وتعدد جناياتهم لغيرهم ذماً لهم وتقبيحاً لحالهم .

فما نافية وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية كما أشار إليه العلامة البيضاوي ولله تعالى دره أو للدلالة على الاستمرار التجددي ، ومن الأولى : مزيدة للاستغراق أو لتأكيده .

والثانية : للتبعيض وهي متعلقة بمحذوف مجرور أو مرفوع وقع صفة لآية ، وجعلها ابن الحاجب للتبيين لأن كونها للتبعيض ينافي كون الأولى للاستغراق إذ الآية المستغرقة لا تكون بعضاً من الآيات .

ورد بأن الاستغراق ههنا لآية متصفة بالاتيان فهي وإن استغرقت بعض من جميع الآيات على أن كلامه بعد لا يخلو عن نظر وإضافة الآيات إلى الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها .

والمراد بها إما الآيات التنزيلية أو الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب

المصنوعات .

والإتيان على الأول : بمعنى النزول ، وعلى الثاني : بمعنى الظهور على ما قيل ، ويفهم من كلام بعض المحققين أنه مطلقاً بمعنى الظهور استعمالاً له في لازم معناه وهو المجيء الذي لا يوصف به إلا الأجسام مجازاً لا كناية كما قيل وحاصل المعنى على الأول : ما تنزل إليهم آية من الآيات القرآنية الجليلة الشأن التي من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى شأنه المنبئة عن جريان أحكام ألوهيته على كافة الكائنات وإحاطة علمه بجميع أحوال العباد وأعمالهم الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها .

(10/227)

﴿ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ غير مقبلين عليها ولا معتنين بها ، وعلى الثاني : ما تظهر لهم آية من الآيات التكوينية التي من جملتها ما ذكر من جلائل شؤونه سبحانه وتعالى الشاهدة بوحدانيته عز وجل إلا كانوا (عنها معرضين) تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدي إلى الإيمان بمكونها ، وأصل الإعراض صرف الوجه عن شيء من المحسوسات .

واستعماله في عدم الاعتناء أو ترك النظر مجاز على ما حققه البعض .

وفسر شيخ الإسلام الإعراض على الوجه الأول بما كان على وجه التكذيب والاستهزاء ،

و(عن) متعلقة بمعرضين .

والتقديم لرعاية الفواصل .

والجملة بعد إلا كما قال الكرخي في موضع النصب على أنها حال من مفعول تأتي أو من فاعله المخصص بالوصف كما قيل وهي مشتملة على ضمير كل منهما .

وإيثارها على أعرضوا عنها كما وقع مثله في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ ﴾ [القمر : 2] للدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات .

وفي الكلام إشارة إلى غاية انهماكهم في الضلال حيث آذن أن إعراضهم عما يأتيهم من الآيات أن الإتيان كما يصفح عنه كلمة ﴿ لَّمَّا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

هذا انتقال إلى كفران المشركين في تكذيبهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن أقيمت عليهم الحجّة ببطلان كفرهم في أمر الشرك بالله في الإلهية ، وقد عطف لأنّ الأمرين من أحوال كفرهم ولأنّ الذي حملهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم هو دعوته إياهم إلى التوحيد ، فمن أجله نشأ النزاع بينهم وبينه فكذبوه وسألوه الآيات على صدقه .

وضمائر جمع الغائبين مراد منها المشركون الذين هم بعض من شملته ضمائر الخطاب في الآية التي قبلها ، ففي العدول عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم إلتفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم ، تنصيصاً على ذلك ، وإعراضاً عن خطابهم ، وتمحيضاً للخطاب للمؤمنين ، وهو من أحسن الالتفات ، لأنّ الالتفات يحسنّه أن يكون له مقتض زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المرادُ منه تجديد نشاط السامع .

وتكون الواو استئنافية وما بعدها كلاماً مستأنفاً ابتدائياً .

واستعمل المضارع في قوله : ﴿ تأتيهم ﴾ للدلالة على التجدّد وإن كان هذا الإتيان ماضياً أيضاً بقرينة المضي في قوله : ﴿ إلا كانوا ﴾ .

والمراد بإتيانها بلوغها إليهم وتحدّيهم بها ، فشبّه البلوغ بمجيء الجائي ، كقول النابغة :

أتاني أبيت اللعن أنّك لمتني

وحذف ما يدّل على الجانب المأتي منه لظهوره من قوله : ﴿ من آيات ربّهم ﴾ ، أي ما تأتيهم من عند ربّهم آية من آياته إلاّ كانوا عنها معرضين .

و﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من آية ﴾ لتأكيد النفي لقصد عموم الآيات التي أتت وتأتي .

و﴿ من ﴾ التي في قوله : ﴿ من آيات ربّهم ﴾ تبعيضية .

والمراد بقوله : ﴿ من آية ﴾ كلّ دلالة تدلّ على انفراد الله تعالى بالإلهية .

من ذلك آيات القرآن التي لإعجازها لم كانت دلائل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به من الوحدانية .

وكذلك معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام مثل انشقاق القمر .

وتقدّم معنى الآية عند قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ﴾ في سورة البقرة (39) .

وإضافة الربّ إلى ضميرهم هم ﴾ لقصد التسجيل عليهم بالعقوق لحقّ العبودية ، لأنّ من حقّ العبد أن يُقبل على ما يأتيه من ربّه وعلى من يأتيه يقول له : إنّي مُرسل إليك من ربّك ، ثمّ يتأمّل وينظر ، وليس من حقّه أن يعرض عن ذلك إذ لعلّه يعرض عمّا إن تأمله علم أنّه من عند ربّه .

والاستثناء مفرّغ من أحوال محذوفة .

(12/227)

وجملة : ﴿ كانوا عنها معرضين ﴾ في موضع الحال .

واختير الإتيان في خبر كان بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أنّ هذا الإعراض متحقّق من دلالة فعل الكون ، ومتجدّد من دلالة صيغة اسم الفاعل لأنّ المشتقّات في قوة الفعل

المضارع.

والاستثناء دلّ على أنّهم لم يكن لهم حال إلاّ الإعراض.

وإنّما ينشأ الإعراض عن اعتقاد عدم جدوى النظر والتأمّل، فهو دليل على أنّ المعرض مكذّب للمخبِر المعرِض عن سماعه.

وأصل الإعراض صرف الوجه عن النظر في الشيء وهو هنا مجاز في إباء المعرفة، فيشمل المعنى الحقيقي بالنسبة إلى الآيات المبصرات كانشقاق القمر، ويشمل ترك الاستماع للقرآن، ويشمل المكابرة عن الاعتراف بإعجازه وكونه حقّاً بالنسبة للذين يستمعون القرآن ويكابرونه، كما يجيء في قوله: ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾.

وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(13/227)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) ﴾

كأن الآيات الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدق البلاغ عن ربه لا تقنعهم، بل يعرضون عنها . مع أن الواجب كان يقتضي أن يرهفوا الآذان لما يحل لهم لغز

الحياة . وما زال الإعراض مستمراً حتى زماننا هذا بالرغم من أننا توصلنا إلى معرفة العمر الافتراضي لبعض الأشياء التي من صناعتنا مثل مصباح الكهرباء الذي يتغير بعد كل فترة ، وغيره من الأجهزة ، ولكنا لا نعرف العمر الافتراضي للشمس ولم تحتج إلى صيانة ذات مرة ، ولم نجد من يسأل : (وكيف يحدث كل هذا الإعجاز ؟) .

وقد أتى الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين لنا أن الذي خلق الخلق كله يخبرنا بمطلوبه ويفسر لنا الكون ، ولكن الإنسان يعرض عن ذلك .

إن أول " مطب " يقع فيه الإنسان ، أنه تأتيه الآيات التي تدل على لغز هذا الوجود من خالق الوجود ، وكيفية تدبير الكون قبل وجود الإنسان ، وكيفية جعل ما في الكون من قوت يقيم به حياته ويستبقي نوعه ، وبرغم ذلك ينصرف عن سماع كل ذلك . إن الكفار لم يعرضوا فقط ، بل انتقلوا إلى المرحلة الثانية وهي التكذيب ، فلم يكتفوا بترك خبر الإيمان والإعراض عنه ولكنهم يزيدون في ذلك ما يوضحه الحق بقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بالحق . . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(14/227)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

" فاعل زيدت فيه " مِنْ " لوُجُودِ الشرطين ، فلا تَعَلُّقَ لها .

و " من آيات " صفة لـ " آية " ، فهي في مَحَلِّ جرٍ على اللَّفْظِ ، أو رفعٍ على الموضع .

وقال الوَاحِدِيّ : " مِنْ " في قوله : " مِنْ آية " صفةٌ لـ " آية " أي : آية لاستغراق الجنْسِ الذي يقع في النَّفيِ ، كقولك : ما أتاني من أحدٍ " .

والثانية : في قوله : " من آياتِ رَبِّهم " للتبعيض .

والمعنى : وما يظهر لهم دَلِيلٌ قط من الدَّلائِل التي جيب فيها النَّظَرُ والاعتبار ، إلاَّ كانوا عنها مُعْرِضينَ ، والمُرادُ بهم أهل " مكة " ، والمرادُ بالآيات : إنْشِقاقُ القمر وغيره .

وقال عطاء : يريد : من آيات القرآن .

قوله : " إلاَّ كَانُوا " هذه الجملة الكَوْنِيَّةُ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحال ، وفي صاحبها وجهان : أحدهما أَنَّهُ الضميرُ في " تأتيهم " .

(15/227)

و " تأتيهم " يحتمل أن يكون ماضي المعنى لقوله : " كَانُوا " ، ويحتمل أنْ يكون مُسْتَقْبَلَ المعنى ؛ لقوله " تَأْتِيهِمْ " .

واعلم أنَّ الفعْلَ الماضي لا يَقَعُ بَعْدَ " إلاَّ " بأحد شَرْطَيْنِ : إمَّا وقوعه بَعْدَ فِعْلٍ كهذه الآية ، أو يقترن بـ " قد " نحو : " ما زيدٌ إلاَّ قد قام " وهنا الْتِفَاتٌ من خطاه بقوله " خلقكم " إلى آخره إلى الغيبةِ بقوله : " وَمَا تَأْتِيهِم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 26 ـ 27 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) ﴾

أي لا يزيدهم كشفاً ولطفاً إلا قابلوهُ جحداً وكفراً ، ولا يُولِيهم إقبالاً إلا قابلوه بإعراض ، ولا يلقاهم بَسْطًا إلاَّ (. . . .) بانقباض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 461 ﴾

(16/227)

قوله تعالى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إعراضهم عن النظر سبباً لتكذيبهم ، وهو سبب لتعذيبهم قال : ﴿ فقد كذبوا ﴾ أي أوقعوا تكذيب الصادق ﴿ بالحق ﴾ أي بسبب الأمر الثابت الكامل في الثبات كله . لأن الآيات كلها متساوية في الدلالة على ما تدل عليه الواحدة منها ﴿ لما جآءهم ﴾ أي لم يتأخروا عند المجيء أصلاً لنظر ولا لغيره ، وذلك أدل ما يكون على العناد .

ولما كان الإعراض عن الشيء هكذا فعل المكذب المستهزئ الذي بلغ بتكذيبه الغايةَ القصوى ، وهي الاستهزاء ، قال : ﴿ فسوف يأتيهم ﴾ أي بوعد صادق لا خلف فيه عند نزول العذاب بهم وإن تأخر إتيانه ﴿ أنباء ما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ به يستهزئون ﴾ أي يجددون الهزء به بغاية الرغبة في طلبه ، وهو أبعد شيء عن الهزء ، والنبأ : الخبر العظيم ، وهو الذي يكون معه الجزاء ، وأفاد تقديم الظرف أنهم لم يكونوا يهزؤون بغير الحق الكامل – كما ترى كثيراً من المترفين لا يعجب من العجب ويعجب من غير العجب ، أو أنه عد استهزاءهم بغيره بالنسبة إلى الاستهزاء به عدماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 489 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب ، فالمرتبة الأولى : كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكر في البينات ، والمرتبة الثانية : كونهم مكذبين بها وهذه المرتبة أزيد مما قبلها ، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به ، بل يكون غافلاً عنه غير متعرض له ، فإذا صار مكذباً به فقد زاد على الأعراض ، والمرتبة الثالثة : كونهم مستهزئين بها لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء ، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار ، فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب .

واختلفوا في المراد بالحق فقيل إنه المعجزات : قال ابن مسعود : انشق القمر بمكة وانفلق فلقتين فذهبت فلقة وبقيت فلقة ، وقيل إنه القرآن ، وقيل : إنه محمد صلى الله عليه وسلم وقيل إنه الشرع الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم والأحكام التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم وقيل إنه الوعد والوعيد ، الذي يرغبهم به تارة ويحذرهم بسببه أخرى ، والأولى دخول الكل فيه .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ المراد منه الوعيد والزجر عن ذلك الاستهزاء ، فيجب أن يكون المراد بالأنباء لا نفس الأنباء بل العذاب الذي أنبأ الله تعالى به ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : 88] والحكيم إذا توعد فربما قال ستعرف نبأ هذا الأمر إذ نزل بك ما تحذره ، وإنما كان كذلك لأن الغرض بالخبر الذي هو الوعيد حصول العلم بالعقاب الذي ينزل فنفس العقاب إذا نزل يحقق ذلك الخبر ، حتى تزول عنه الشبهة .

ثم المراد من هذا العذاب يحتمل أن يكون عذاب الدنيا ، وهو الذي ظهر يوم بدر ويحتمل أن يكون عذاب الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 130 . 131 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ ﴿ الحق ﴾ القرآن أو الإسلام أو محمد صلى الله عليه وسلم أو انشقاق القمر أو الوعد أو الوعيد ، أقوال والذي يظهر أنه الآية التي تأتيهم وكأنه قيل : ﴿ فقد كذبوا ﴾ بالآية التي تأتيهم وهي ﴿ الحق ﴾ فأقام الظاهر مقام المضمر ، لما في ذلك من وصفه بالحق وحقيقته كونه من آيات الله تعالى ، وظاهر قوله ﴿ فقد كذبوا ﴾ أن الفاء للتعقيب وأن إعراضهم عن الآية أعقبة التكذيب .

وقال الزمخشري : ﴿ فقد كذبوا ﴾ مردود على كلام محذوف كأنه قيل : إن كانوا

معرضين عن الآيات .

﴿ فقد كذبوا ﴾ بما هو أعظم آية وأكبرها وهو الحق ، لما جاءهم يعني القرآن الذي تحدوا به على تبالغهم في الفصاحة فعجزوا عنه ؛ انتهى .

ولا ضرورة تدعو إلى شرط محذوف إذ الكلام منتظم بدون هذا التقدير .

(18/227)

﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ هذا يدل على أنهم وقع منهم الاستهزاء ، فيكون في الكلام معطوف محذوف دل عليه آخر الآية وتقديره واستهزؤوا به ، ﴿ فسوف يأتيهم ﴾ وهذه رتب ثلاث صدرت من هؤلاء الكفار ، الإعراض عن تأمل الدلائل ثم أعقب الإعراض التكذيب ، وهو أزيد من الإعراض إذ المُعْرِض قد يكون غافلاً عن الشيء ثم أعقب التكذيب الاستهزاء ، وهو أزيد من التكذيب إذ المكذب قد لا يبلغ إلى حدّ الاستهزاء وهذه هي المبالغة في الإنكار ، والنبأ الخبر الذي يعظم وقعه وفي الكلام حذف مضاف أي : ﴿ فسوف يأتيهم ﴾ مضمن ﴿ أنباء ﴾ فقال قوم : المراد ما عذبوا به في الدنيا من القتل والسبي والنهب والإجلاء وغير ذلك ، وخصص بعضهم ذلك بيوم بدر .

وقيل : هو عذاب الآخرة ، وتضمنت هذه الجملة التهديد والزجر والوعيد كما تقول : اصنع ما تشاء فسيأتيك الخبر ، وعلق التهديد بالاستهزاء دون الإعراض والتكذيب لتضمنه إياهما ، إذ هو الغاية القصوى في إنكار الحق .

وقال الزمخشري : وهو القرآن أي أخباره وأحواله بمعنى سيعلمون بأي شيء استهزؤوا وسيظهر لهم أنه لم يكن موضع استهزاء ، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته ؛ انتهى .

وهو على عادته في الإسهاب وشرح اللفظ والمعنى مما لا يدلان عليه ، وجاء هنا تقييد الكذب بالحق والتنفيس ب ﴿ سوف ﴾ وفي الشعراء ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم ﴾ لأن الأنعام متقدمة في النزول على الشعراء ، فاستوفى فيها اللفظ وحذف من الشعراء وهو مراداً حالة على الأول وناسب الحذف الاختصار في حرف التنفيس ، فجاء بالسين والظاهر أن ما في قوله : ﴿ ما كانوا ﴾ موصولة اسمية بمعنى الذي والضمير في ﴿ به ﴾ عائد عليها .

(19/227)

وقال ابن عطية : يصح أن تكون مصدرية التقدير ﴿ أنباء ﴾ كونهم مستهزئين فعلى هذا يكون الضمير في ﴿ به ﴾ عائداً على الحق لا على مذهب الأخفش حيث زعم أن ﴿ ما ﴾ المصدرية اسم لا حرف ، ولا ضرورة تدعو إلى كونها مصدرية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾

إن الحق عبارة عن القرآن الذي أعرضوا عنه حين أعرضوا عن كل آية آية منه .

وعبر عنه بذلك إظهاراً لكمال فظاعة ما فعلوا به .

والفاء على تقدير أن يراد بالآيات الآيات التنزيلية كما هو الأظهر على ما قرره مولانا شيخ الإسلام لترتيب ما بعدها على ما قبلها لا باعتبار أنه مغاير له حقيقة واقع عقيبه أو حاصل بسببه بل على أنه عينه في الحقيقة والترتيب بحسب التغاير الاعتباري حيث إن مفهوم التكذيب بالحق أشنع من الإعراض المذكور إذ هو مما لا يتصور صدوره من أحد .

ولذلك أخرج مخرج اللازم البين البطلان وترتب عليه بالفاء إظهاراً لغاية بطلانه .

ثم قيد ذلك بكونه بلا تأمل (بل آن المجيء) تأكيداً لشناعة فعلهم الفظيع .

وعلى تقدير أن يراد الآيات التكوينية داخلة على جواب شرط محذوف .

والمعنى على الأول : حيث أعرضوا عن تلك الآيات حين إتيانها فقد كذبوا بما لا يمكن

لعاقل تكذيبه أصلاً من غير أن يتدبروا في حاله ومآله ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الموجبة لتصديقه .

وعلى الثاني : أنهم إن كانوا معرضين عن الآيات حال إتيانها فلا تعجب من ذلك فقد فعلوا بما هو أعظم منها ما هو أعظم من الإعراض حيث كذبوا بالحق الذي هو أعظم الآيات .

واختار في "البحر" كون الفاء سببية وما بعدها مسبب عما قبلها .

(20/227)

وجوز أيضاً كونها سببية على معنى أن ما بعدها سبب لما قبلها فقد قال الرضي : وقد تكون فاء السببية بمعنى لام السببية وذلك إذا كان ما بعدها سبباً لما قبلها نحو قوله تعالى : ﴿ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر : 34 ، ص : 77] وأطلق عليها الكثير حينئذ الفاء التعليلية .

وهل تفيد الترتيب حينئذ أم لا ؟ لم يصرح الرضي بشيء من ذلك ، ويفهم كلام البعض أنها للترتيب والتعقيب أيضاً .

واستشكل بأن السبب متقدم على المسبب لا متعقب إياه .

وتكلف صاحب "التوضيح" لتوجيه بأن ما بعد الفاء علة باعتبار معلول باعتبار ودخول

الفاء عليه باعتبار المعلولية لا باعتبار العلية .

ورد بأنها لا تتأتى في كل محل ، وفي "التلويح" الأقرب ما ذكره القوم من أنها إنما تدخل على العلل باعتبار أنها تدوم فتتراخى عن ابتداء الحكم ، وفي "شرح المفتاح الشريفي" فإن قلت : كيف يتصور ترتب السبب على المسبب ؟ قلت : من حيث إن ذكر المسبب يقتضي ذكر السبب انتهى .

وعليه يظهر وجه الترتيب هنا مطلقاً لكن ظاهر كلام النحاة وغيرهم أن هذه الفاء تختص بالوقوع بعد الأمر كأكرم زيداً فإنه أبوك ، واعبد الله فإن العبادة حق إلى غير ذلك فالوجه الأول أولى .

وليست الفاء فصيحة كما توهمه بعضهم من قول العلامة البيضاوي في بيان معنى الآية كأنه قيل : لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا بالقرآن لأن الفاء الفصيحة لا تقدر جواب لما لأن جوابها الماضي لا يقترن بالفاء على الفصيح فكيف يقدر للفاء ما يقتضي عدمها فما مراد العلامة إلا بيان حاصل المعنى ولذا أسقط الفاء نعم قيل : إن هذا المعنى مما ينبغي تنزيه التنزيل عنه وفيه تأمل .

وقد صرح بعض المحققين أن أمر الترتيب يجري في الآية سواء كانت الآية بمعنى الدليل أو المعجزة أو الآية القرآنية لتغاير الإعراض والتكذيب فيها .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ للترتيب أيضاً بناء على أن ما تقدم لكونه أمراً عظيماً يقتضي ترتب الوعيد عليه ، وقيل : يستهزئون إيذاناً بأن ما تقدم كان مقروناً بالاستهزاء .

واستدل به أبو حيان على أن في الكلام معطوفاً محذوفاً أي فكذبوا بالحق واستهزؤا به .

ولا يخفى أن ذلك مما لا ضرورة إليه .

و(ما) عبارة عن الحق المذكور .

وعبر عنه بذلك تهويلاً لأمره بإبهامه وتعليلاً للحكم بما في حيز الصلة .

والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الذي يعظم وقعه .

والمراد بأنباء القرآن التي تأتيهم ويتحقق مدلولها فيهم ويظهر لهم آيات وعيده وإخباره بما يحصل بهم في الدنيا من القتل والسبي والجلاء ونحو ذلك من العقوبات العاجلة ، وقيل : المراد ما يعم ذلك والعقوبات التي تحل بهم في الآخرة من عذاب النار ونحوه ؛ وقيل المراد بأنباء ذلك ما تضمن عقوبات الآخرة أو ظهور الإسلام وعلو كلمته ، وظاهر ما يأتي من الآيات يرجح الأول .

وصرح بعض المحققين بأن إضافة ﴿ أَنْبَاء ﴾ بيانية وهو احتمال مقبول .

وادعاء أنه مقحم وأن المعنى سيظهر لهم ما استهزؤا به من الوعيد الواقع فيه أو من نبوة

محمد صلى الله عليه وسلم أو نحو ذلك لا وجه له إذ لا داعي لإقحامه .

وفي "البحر" "إنما قيد الكذب بالحق هنا وكان التنفيس بسوف وفي الشعراء (6) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ بدون تقيد الكذب والتنفيس بالسين لأن الأنعام متقدمة في النزول على الشعراء فاستوفى فيها اللفظ وحذف من الشعراء وهو مراد إحالة على الأول .

وناسب الحذف الاختصار في حرف التنفيس فجيء بالسين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾

(22/227)

الفاء فصيحة على الأظهر أفصحت عن كلام مقدّر نشأ عن قوله : ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ ، أي إذا تقرّر هذا الإعراض ثبت أنّهم كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم من عند الله ، فإنّ الإعراض علامة على التكذيب ، كما قدّمته آنفاً ، فما بعد فاء الفصيحة هو الجزاء . ومعناه أنّ من المعلوم سوء عواقب الذين كذّبوا بالحق الآتي من عند الله فلمّا تقرّر في الآية السابقة أنّهم أعرضوا آيات الله فقد ثبت أنّهم كذّبوا بالحقّ الوارد من الله ، ولذلك فرّع عليه

قوله : ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ تأكيداً لوعد المؤمنين بالنصر وإظهار الإسلام على الدين كلّ وإنذار للمشركين بأن سيحلّ بهم ما حلّ بالأمم الذين كذّبوا رسلهم ممّن عرفوا مثل عاد وثمود وأصحاب الرسّ .

وبهذا التقدير لم تكن حاجة إلى جعل الفاء تفريعاً محضاً وجعل ما بعدها علّة لجزاء محذوف مدلول عليه بعلّته كما هو ظاهر "الكشاف" ، وهي مضمون ﴿ فقد كذّبوا ﴾ بأن يقدّر : فلا تعجب فقد كذّبوا بالقرآن ، لأنّ من قدّر ذلك أوهمه أنّ تكذيبهم المراد هو تكذيبهم بالآيات التي أعرضوا عنها ما عدا آية القرآن .

وهذا تخصيص لعموم قوله : ﴿ من آية ﴾ بلا مخصّص ، فإنّ القرآن من جملة الآيات بل هو المقصود أولاً ، وقد علمت أنّ ﴿ فقد كذّبوا ﴾ هو الجزاء وأنّ له موقعاً عظيماً من بلاغة الإيجاز ، على أنّ ذلك التقدير يقتضي أن يكون المراد من الآيات في قوله : ﴿ من آيات ربّهم ﴾ ما عدا القرآن .

وهو تخصيص لا يناسب مقام كون القرآن أعظمها .

والفاء في قوله : ﴿ فسوف ﴾ فاء التسبّب على قوله : ﴿ كذّبوا بالحقّ ﴾ ، أي يترتّب على ذلك إصابتهم بما توعّدهم به الله .

وحرف التسويف هنا لتأكيد حصول ذلك في المستقبل .

واستعمل الإتيان هنا في الإصابة والحصول على سبيل الاستعارة .

والأنباء جمع نبأ ، وهو الخبر الذي بـأهميّة .

وأطلق تحقّق نبئِه ، لأنّ النبأ نفسه قد علم من قبل .

(23/227)

و ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ هو القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ ذلكم بأنّكم اتَّخذتم آيات الله هزؤاً ﴾ فإنّ القرآن مشتمل على وعيدهم بعذاب الدنيا بالسيف ، وعذاب الآخرة .

فتلك أنباءٌ أنبأهم بها فكذّبوه واستهزؤا به فتوعّدهم الله بأنّ تلك الأنباء سيصيبهم مضمونها .

فلمّا قال لهم : ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ علموا أنّها أنباء القرآن لأنّهم يعلمون أنّهم يستهزئون بالقرآن وعلم السامعون أنّ هؤلاء كانوا مستهزئين بالقرآن .

وتقدّم معنى الاستهزاء عند قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ إنّما نحن مستهزئون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(24/227)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5) ﴾

فهذا خروج من الإعراض إلى التكذيب ، فالإعراض أمر سلبي ، والتكذيب هو الوقوف إيجابياً في موقف الضد والصد عن سبيل الله ، ثم ينتقلون إلى المرحلة الثالثة وهي الاستهزاء . إننا إذن أمام ثلاث مراحل : إعراض ، تكذيب ، استهزاء . وكل ذلك لعلهم يصرفون المتّبع عن الاتباع . ومثال ذلك ما ضربه الحق لنا في أمر نوح : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : 37-38] .

فقد أوحى سبحانه إلى نوح البلاغ الحق وأمره أن يصنع الفلك تحت عنايته سبحانه وألا يخاطبه في شأن الكافرين الظالمين الذين لم يستجيبوا لدعوة الله ويَشْرَع نوح في إنشاء الفُلْك ، ولكن الكافرين يستهزئون به لجهلهم ولعدم الوثوق من الغرض والهدف . ويسخر نوح من كل من يسخر منه .

ومثال آخر وهو انتصار الإسلام بعد أن كان أهل الكفر قوة ، ولكن المتكبر الطاغي منهم يأتي بعد صلفه وكبريائه صاغراً . ومنهم من قتل وأسر وذاق مرارة الذل النفسي . وقد كانوا من قبل يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومثال على ذلك الوليد بن المغيرة

، وهو السيد في قومه ، يأتي فيه قول الحق : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين * سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ [القلم : 15-16] .

وكان الوليد صاحب ثراء من المال ومنعة وقوة من البنين ، وأعرض عن القرآن وسخر منه . فجعل الحق منه أمثولة للناس ، وطبع على أنفه علامة لازمة افتضح بها ، وكانت سُبّةً له وعاراً لا يفارقه كلما ذكر .

(25/227)

وقد نزل هذا القول في القرآن وقت ضعف المسلمين ، ثم يأتي خبر ضربه على أنفه الذي هو محل الأنفة والكبرياء والعنجهية ، ثم تأتي بدر ليرى المسلمون تحقيق ذلك ، إنه كلام إلهي متحدًى به ومتعبد بتلاوته . وهكذا تصدق كل قضية يأتي بها الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(26/227)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " وفى سورة الشعراء : "فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " فانفردت آية الأنعام بزيادة قوله "بالحق لما جاءهم " وبقوله "فسوف " من حرفى التنفيس بدل السين فيسأل عن وجه ذلك ؟

والجواب والله أعلم : أن آية الأنعام لما ترتبت على إطناب وبسط آيات من حمده سبحانه وانفراده بالخلق والاختراع فقال تعالى : "الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " فذكر سبحانه خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور فالظلمات عن أجرام هذه المخلوقات والأنوار عن أجرام ما جعل فى السماوات وزينها بها من شمس وقمر وكواكب للقتداء والضياء .

ثم ذكر خلقهم كم طين وقد تردد فى الكتاب العزيز تنبيه المكلفين بما صدرت به سورة الأنعام فقال تعالى : "إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين " وقال تعالى : "تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا " .

ثم قال بعد آية الأنعام : "وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين " فلما تقدم

هذا الإطناب ناسبه ما أتبع به من قوله تعالى : "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا يستهزئون " فناسب الإطناب الإطناب .

(27/227)

وقال تعالى قبل آية الشعراء : "تلك آيات الكتاب المبين " ثم اعترض بتسلية نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " وليس هذا المعترض به مما ذكروا به ثم قال بعد : "إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين " وهذا راجع إلى تسليته عليه السلام فلم يبق مجردا لتذكيرهم سوى قوله تعالى : "تلك آيات الكتاب المبين " وما بعد من وعيدهم وتهديهم بقوله : "وما يأتيهم من ذكر . . "الآية ، وهذا إيجاز فناسبه ما نيط به من قولهم : "فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " إيجازا لإيجازا وإطنابا لإطناب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 140 ﴾

(28/227)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" الفاء " هنا للتَعْقِيب ، يعني : أنَّ الإعْرَاض عن الآيات أعْقَبَهُ التَّكْذِيبُ .

وقال الزمخشري : " فَقَدْ كَذَّبوا " مردودٌ على كلام محذوف ، كأنه قيل : إن كانوا معرضين عن الآيات ، فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها .

وقال أبو حيان : ولا ضرورة تدعو إلى في انتظام الكلام وقوله : " بالحق " من إقامة الظاهر مقام المُضْمَرِ ، إذ الأصل : فقد كذبوا بها أي : بالآية .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

" الأنباء جمع " نبأ " وهو ما يعظم وقعه من الأخبار ، وفي الكلام حَذْفٌ ، أي : يأتيهم مَضْمونُ الأنباء ، و" به " متعلّق بخبر " كانوا " .

و" لمّا " حرف وجوب أو ظرف زمان ، والعامل فيه " كذبوا "

و" ما " يجوز أن تكون موصولةٌ اسمية ، والضميرُ في " به " عائد عليها ، ويجوز أن تكون مصدرية .

قال ابن عطيّة : أي : أنباء كونهم مستهزئين ، وعلى هذا فالضميرُ لا يعودُ عليها ؛ لأنها حرفية ؛ بل تعود على الحقِّ ، وعند الأخفش يعود عليها ؛ لأنها اسم عنده .

ومعنى الآية : وسوف يأتيهم أخبارُ اسْتِهْزَائِهِمْ وجَزَاؤُهُ ، أي : سيعلمون عاقبة اسْتِهْزَائِهِمْ إذا عُذِّبُوا ، فقيل : يوم " بدر " وقيل : يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 27 ـ 28 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5) ﴾

إنهم أصَرُّوا على الخلافِ مستكبرين ، وعن قريب يقاسون وبالَ أمرهم ، ويذوقون غِبَّ جُحْدِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 461 ﴾

(30/227)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر بتكذيبهم على هذا الوجه وتوعدهم بتحتم تعذيبهم ، أتبعه ما يجري مجرى الموعظة والنصيحة ، فعجب من تماديهم مع ما علموا من إهلاك من كان أشد منهم قوة وأكثر جمعاً وجنى من سوابغ النعم بما لم يعتبروه فيه مع ما ضموه إلى تحقق أخبارهم من مشاهدة آثارهم وعجيب اصطناعهم في أبنيتهم وديارهم مستدلاً بذلك على تحقيق ما قبله من التهديد على الاستهزاء ، فقال مقرراً منكراً موبخاً معجباً : ﴿ ألم يروا ﴾ ودل على كثرة المخبر عنهم تهويلاً للخبر بقوله : ﴿ كم أهلكنا ﴾ .

ولما كان المراد ناساً معينين لم يستغرقوا زمن القبل ، وهم أهل المكنة الزائدة كقوم نوح وهود وصالح ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ وبيَّنَ ﴿ كم ﴾ بقوله : ﴿ من قرن ﴾ أي جماعة مقترنين في زمان واحد ، وهم أهل كل مائة سنة – كما صححه القاموس لقول النبي صلى الله عليه وسلم لغلام : " عش قرناً " ، فعاش مائة .

هذا نهاية القرن ، والأقرب أنه لا يتقدر ، بل إذا انقضى أكثر أهل عصر قيل : انقضى القرن ، ودل على ما شاهدوا من آثارهم بقوله : ﴿ مكناهم ﴾ أي ثبتناهم بتقوية الأسباب من البسطة في الأجسام والقوة في الأبدان والسعة في الأموال ﴿ في الأرض ﴾ أي بالقوة والصحة والفراغ ما لم نمكنكم ، ومكنا لهم بالخصب والبسطة والسعة ﴿ ما لم نمكن ﴾ أي تمكيناً لم نجعله ﴿ لكم ﴾ أي نخصكم به ، فالآية من الاحتباك أو شبهه ، والالتفات من

الغيبة إلى الخطاب لئلا يلتبس الحال ، لأن ضمير الغائب يصلح لكل من المفضول والفاضل ، ولا يُبقي اللبس التعبيرُ بالماضي في قوله ﴿ وأرسلنا السماء ﴾ أي المطر تسمية للشيء باسم سببه أو السحاب ﴿ عليهم ﴾ .

ولما كان المراد المطر ، كان التقدير : حال كونه ﴿ مدراراً ﴾ أي ذا سيلان غزير متتابع لأنه صفة مبالغة من الدر ، قالوا : ويستوي فيه المذكر والمؤنث .

ولما ذكر نفعهم بماء السماء ، وكان غير دائم ، أتبعه ماء الأرض لدوامه وملازمته للبساتين والرياض فقال : ﴿ وجعلنا الأنهار تجري ﴾ ولما كان عموم الماء بالأرض وبُعده مانعاً من تمام الانتفاع بها ، أشار إلى قربه وعدم عموم الأرض به بالجار فقال : ﴿ من تحتهم ﴾ أي على وجه الأرض وأسكناه في أعماقها فصارت بحيث إذا حفرت نَبَعَ منها من الماء ما يجري منه نهر .

ولما كان من المعلوم أنه من الماء كل شيء حي ، فكان من أظهر الأشياء أنه غرز نباتهم واخضرت سهولهم وجبالهم ، فكثرت زروعهم وثمارهم ، فاتسعت أحوالهم وكثرت أموالهم فتيسرت آمالهم ، أعلم سبحانه أن ذلك ما كان إلاّ لهوانهم استدراجاً لهم بقوله مسبباً عن ذلك : ﴿ فأهلكناهم ﴾ أي بعظمتنا ﴿ بذنوبهم ﴾ أي التي كانت عن بطرهم النعمةَ ولم نبال بهم ولا أغنت عنهم نعمهم .

ولما كان الإنسان ربما أبقى على عبده أو صاحبه خوفاً من الاحتياج إلى مثله ، بين أنه سبحانه غير محتاج إلى شيء فقال : ﴿ وأنشأنا ﴾ ولما كان سبحانه لم يجعل لأحد الخلد ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعدهم ﴾ أي فيما كانوا فيه ﴿ قرناً ﴾ ودل على أنه لم يُبق من المهلكين أحداً ، وأن هذا القرن الثاني لا يرجع إليهم بنسب بقوله : ﴿ آخرين ﴾ ولم ينقص ملكُنا شيئاً ، فاحذروا أن نفعل بكم كما فعلنا بهم ، وهذه الآية مثل آية الروم ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ [الروم : 9] - الآية ، فتمكينهم هو المراد بالشدة هناك ، والتمكين لهم هو المراد بالعمارة ، والإهلاكُ بالذنوب هو المراد بقوله ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ [الروم : 9] و[التوبة : 70] - إلى آخر الآيتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 590.589 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الله تعالى لما منعهم عن ذلك الإعراض والتكذيب والاستهزاء بالتهديد والوعيد أتبعه بما يجري مجرى الموعظة والنصيحة في هذا الباب فوعظهم بسائر القرون الماضية ، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم .

فإن قيل : ما القرن ؟ قلنا قال الواحدي : القرن القوم المقترنون في زمان من الدهر فالمدة التي

يجتمع فيها قوم ثم يفترقون بالموت فهي قرن ، لأن الذين يأتون بعدهم أقوام آخرون اقترنوا فهم قرن آخر ، والدليل عليه قوله عليه السلام : " خير القرون قرني " واشتقاقه من الأقران ، ولما كان أعمار الناس في الأكثر الستين والسبعين والثمانين لا جرم قال بعضهم : القرن هو الستون ، وقال آخرون : هو السبعون ، وقال قوم هو الثمانون والأقرب أنه غير مقدر بزمان معين لا يقع فيه زيادة ولا نقصان ، بل المراد أهل كل عصر فإذا انقضى منهم الأكثر قيل قد انقضى القرن .

واعلم أن الله تعالى وصف القرون الماضية بثلاثة أنواع من الصفات :

(32/227)

الصفة الأولى : قوله ﴿ مكناهم فِى الأرض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ ﴾ قال صاحب "الكشاف" مكن له في الأرض جعل له مكاناً ونحوه في أرض له ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾ [الكهف : 84] ﴿ أَوَلَمْ نُمَكّن لَّهُمْ ﴾ [القصص : 57] وأما مكنته في الأرض ، فمعناه أثبته فيها ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ [الأحقاف : 26] ولتقارب المعنيين جمع الله بينهما في قوله ﴿ مكناهم فِى الأرض مَا لَمْ نُمَكّن لَّكُمْ ﴾ والمعنى لم نعط أهل مكة مثل ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم من البسطة في

الأجسام والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا .

والصفة الثانية : قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السماء عَلَيْهِم مِدْرَاراً ﴾ يريد الغيث والمطر ، فالسماء معناه المطر ههنا ، والمدرار الكثير الدر وأصله من قولهم در اللبن إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير فالمدرار يصلح أن يكون من نعت السحاب ، ويجوز أن يكون من نعت المطر يقال سحاب مدرار إذا تتابع أمطاره .

ومفعال يجيء في نعت يراد المبالغة فيه .

قال مقاتل ﴿ مِدْرَاراً ﴾ متتابعاً مرة بعد أخرى ويستوي في المدرار المذكر والمؤنث .

والصفة الثالثة : قوله ﴿ وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ ﴾ والمراد منه كثرة البساتين .

واعلم أن المقصود من هذه الأوصاف أنهم وجدوا من منافع الدنيا أكثر مما وجده أهل مكة ، ثم بيّن تعالى أنهم مع مزيد العز في الدنيا بهذه الوجوه ومع كثرة العدد والبسطة في المال والجسم جرى عليهم عند الكفر ما سمعتم وهذا المعنى يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 131.132 ﴾

(33/227)

وقال الثعلبي :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ يعني الأمم الماضية والقرن الجماعة من الناس وجمعه قرون ، وقيل : القرن مدة من الزمان ، يقال ثمانون سنة ، ويقال : مائة سنة ، ويكون معناه على هذا القول من أهل قرن ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ يعني أعطيناهم ما لم نعطكم .

قال ابن عباس : أمهلناهم في العمر والأجسام والأولاد مثل قوم نوح وعاد وثمود ، ويقال : مكنته ومكنت له فجاء [. . . . .] جميعاً ﴿ وَأَرْسَلْنَا السمآء ﴾ يعني المطر ﴿ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً ﴾ .

تقول العرب : مازلنا نطأ السماء حتى آتيناكم مدراراً أي غزيرة كثيرة دائمة ، وهي مفعال من الدر ، مفعال من أسماء المبالغة ، ويستوي فيه المذكر والمؤنث .

قال الشاعر :

وسقاك من نوء الثريا مزنة . . . سعراً تحلب وابلاً مدراراً

وقوله : ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ من خطاب التنوين كقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : 22] .

وقال أهل البصرة : أخبر عنهم بقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ وفيهم محمد وأصحابه ثم خاطبهم ، والعرب تقول : قلت لعبد الله ما أكرمه وقلت لعبد الله أكرمك ﴿ وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي

مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا ﴾ وخلقنا وابتدأنا ﴿ مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(34/227)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾

القرن : اسم أهل كل عصر .

وسمُّوا بذلك ، لاقترانهم في الوجود ، وللمفسرين في المراد بالقرن سبعة أقوال .

أحدها : أنه أربعون سنة ، ذكره ابن سيرين عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : ثمانون سنة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : مائة سنة ، قاله عبد الله بن بشر المازني ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

والرابع : مائة وعشرون سنة ، قاله زُرارة بن أوفى ، وإياس بن معاوية .

والخامس : عشرون سنة ، حكاه الحسن البصري .

والسادس : سبعون سنة ، ذكره الفراء .

والسابع : أن القرن : أهل كل مدة كان فيها نبيٌّ ، أو طبقة من العلماء ، قلَّتِ السِّنون ، أو

كثرت ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : " "خيركم قرني" يعني : أصحابي "ثم الذين يلونهم" يعني : التابعين "ثم الذين يلونهم" " يعني : الذين أخذوا عن التابعين ، فالقرن : مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان ، فهو في كل قوم على مقدار أعمارهم ، واشتقاق القرن : من الاقتران .

وفي معنى ذلك الاقتران قولان .

أحدهما : أنه سمي قرنا ، لأنه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل ذلك الزمان في بقائهم ، هذا اختيار الزجاج .

والثاني : أنه سمي قرناً ، لأنه يَقْرِنُ زماناً بزمانٍ ، وأُمَّةً بأمَّةٍ ، قاله ابن الأنباري ، وحكى ابن قتيبة عن أبي عبيدة قال : يرون أن أقل ما بين القرنين : ثلاثون سنة .

قوله تعالى : ﴿ مكناهم في الأرض ﴾ قال ابن عباس : أعطيناهم ما لم نُعطِكم .

يقال : مكَّنتُه ومكَّنتُ له : إذا أقدرته على الشيء باعطاء ما يصح به الفعل من العدة .

وفي هذه الآية رجوع من الخبر إلى الخطاب .

فأما السماء : فالمراد بها المطر .

ومعنى "أرسلنا" : أنزلنا .

"والمدرار" مفعال ، من درَّ ، يَدِرُّ والمعنى : نرسلها كثيرة الدَّرِّ .

ومِفعال : من أسماء المبالغة ، كقولهم : امرأة مذكار : إذا كانت كثيرة الولادة للذكور ، وكذلك مئناث .

(35/227)

فإن قيل : السماء مؤنَّثَة ، فلم ذكَّر مدراراً .

فالجواب : أن حكم ما انعدل من النعوت عن منهاج الفعل وبنائه ، أن يلزم التذكير في كلِّ حال ، سواء كان وصفاً لمذكر أو مؤنث ؛ كقولهم : امرأة مذكار ، ومعطار ؛ وامرأة ، مذكر ، ومؤنث ؛ وهي : كفور ، وشكور ولو بُنيتْ هذه الأوصاف على الفعل ، لقيل : كافرة ، وشاكرة ، ومُذْكِرَة ؛ فلما عدل عن بناء الفعل ، جرى مجرى ما يستغني بقيام معنى التأنيث فيه عن العلامة ؛ كقولهم : النعلَ لبستُها ، والفأسَ كسرتُها ، وكان إيثارهم التذكير للفرق بين المبني على الفعل ، والمعدول عن مِثْلِ الأفاعيل ، والمراد بالمدرار : المبالغة .

في اتصال المطر ودوامه ؛ يعني : أنها تَدِرُّ وقت الحاجة إليها ، لا أنها تدوم ليلاً ونهاراً ، فتفسد ، ذكره ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(36/227)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾

هذا حض على العبرة ، والرؤية هنا رؤية القلب ، و﴿ كم ﴾ في موضع نصب ب ﴿ أهلكنا ﴾ ، والقرن والأمة المقترنة في مدة من الزمان ، ومنه قوله عليه السلام : خير الناس قرني الحديث ، واختلف الناس في مدة القرن كم هي ؟ فالأكثر على أنها مائة سنة ، ويرجح ذلك الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد " قال ابن عمر : يريد أنها تحرم ذلك القرن ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بشير : تعيش قرناً فعاش مائة سنة ، وقيل : القرن ثمانون سنة ، وقيل سبعون وقيل ستون ، وتمسك هؤلاء بالمعترك وحكى النقاش أربعين وذكر الزهراوي في ذلك أنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحكى النقاش أيضاً ثلاثين ، وحكى عشرين ، وحكى ثمانية عشر وهذا كله ضعيف ، وهذه طبقات وليست بقرون إنما القرن أن يكون وفاة الأشياخ ثم ولادة الأطفال ، ويظهر ذلك من قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ وإلى مراعاة الطبقات وانقراض الناس بها أشار ابن الماجشون في الواضحة في تجويز شهادة السماع في تقادم خمسة عشر عاماً فصاعداً ، وقيل القرن الزمن نفسه ، وهو على حذف

مضاف تقديره من أهل قرن ، والضمير في ﴿ مكناهم ﴾ عائد على القرن ، والمخاطبة في ﴿ لكم ﴾ في للمؤمنين ولجميع المعاصرين لهم من سائر الناس ، فكأنه قال : ما لم نمكن يا أهل العصر لكم ، فهذا أبين ما فيه ، ويحتمل أن يقدر في الآية معنى القول لهؤلاء الكفرة ، كأنه قال يا محمد قل لهم : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ، ما لم نمكن لكم ﴾ وإذا أخبرت أنك قلت لغائب أو قيل له أو أمرت أن يقال ذلك في فصيح كلام العرب أن تحكي الألفاظ المقولة بعينها فتجيء بلفظ المخاطبة ، ولك أن تأتي بالمعنى في الألفاظ بذكر غائب دون مخاطبة ﴿ السماء ﴾ المطر ومنه قول الشاعر :

(37/227)

إذا نزل السماء بأرض قوم . . . رعيناه وإن كانوا غضابا

و ﴿ مدراراً ﴾ بناء تكثير كمذكار ومئناث ، ومعناه يدر عليهم بحسب المنفعة ، لأن الآية إنما سياقها تعديد النعم وإلا فظاهرها يحتمل النعمة ويحتمل الإهلاك وتحتمل الآية أن تراد السماء المعروفة على تقدير وأرسلنا مطر السماء لأن مدراراً لا يوصف به إلا المطر ، وقوله تعالى : ﴿ فأهلكناهم ﴾ معناه فعصوا وكفروا ﴿ فأهلكناهم ﴾ ، ﴿ وأنشأنا

﴿ اخترعنا وخلقنا ، وجمع ﴿ آخرين ﴾ حملاً على معنى القرن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(38/227)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ "كم" في موضع نصب بأهلكنا لا بقوله : "أَلَمْ يَرَوْا" لأن لفظ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، وإنما يعمل فيه ما بعده ؛ من أجل أن له صدر الكلام .

والمعنى ألاَ يعتبرون بمن أهلكنا من الأُمم قبلهم لتكذيبهم أنبياءهم ؛ أي ألمَ يَعْرفوا ذلك .

والقَرْن الأُمَّةُ من الناس ، والجمع القرون ؛ قال الشاعر :

إذا ذَهَبَ القرنُ الذي كنتَ فيهم . . .

وخُلِّفتَ في قَرْنٍ فأنت غريبُ

فالقَرْن كل عالَم في عصره ؛ مأخوذ من الاقتران ، أي عالَم مقترن بعضهم إلى بعض ؛ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خير الناس قَرْني يعني أصحابي ثم الذين يَلُونهم ثم الذين يَلُونهم " هذا أصح ما قيل فيه .

وقيل : المعنى من أهل قَرْن فحذف ، كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ .

فالقَرْن على هذا مدة من الزمان ؛ قيل : ستون عاماً ، وقيل : سبعون ، وقيل : ثمانون ؛ وقيل : مائة ؛ وعليه أكثر أصحاب الحديث أن القَرْن مائة سنة ؛ واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بُسْر : "تَعيشُ قَرْناً" فعاش مائة سنة ؛ ذكره النحاس .

وأصل القرن الشيء الطالع كقَرْن ماله قَرْن من الحيوان .

﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب ؛ عكسه ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس : 22] .

وقال أهل البصرة .

أخبر عنهم بقوله : "أَلَمْ يَرَوْا" وفيهم محمد عليه السلام وأصحابه ؛ ثم خاطبهم معهم ؛ والعرب تقول : قلت لعبد الله ما أكرمه : وقلت لعبد الله ما أكرمك ؛ ولو جاء على ما تقدّم من الغيبة لقال : ما لم نمكن لهم .

ويجوز مكّنه ومكّن له ؛ فجاء باللغتين جميعاً ؛ أي أعطيناهم ما لم نعطكم من الدنيا .

﴿ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً ﴾ يريد المطر الكثير ؛ عبر عنه بالسماء لأنه من السماء ينزِل ؛ ومنه قول الشاعر :

إذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بأرضِ قَوْمٍ . . .

و"مِدْرَاراً" بناء دالٌّ على التكثير ؛ كمِذكار للمرأة التي كثرت ولادتها للذكور ؛ ومئناث

للمرأة التي تلد الإناث ؛ يُقال : درَّ اللّبنُ يدرُّ إذا أقبل على الحالب بكثرة .

وانتصب "مِدْرَاراً" على الحال .

(39/227)

﴿ وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ ﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم ؛ ومنه قول فرعون : ﴿ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي ﴾ [الزخرف : 51] والمعنى : وسعنا عليهم النعم فكفروها .

﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بكفرهم فالذنوب سبب الإنتقام وزوال النعم .

﴿ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ أي أوجدنا ؛ فليحذر هؤلاء من الإهلاك أيضاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾

لما هددهم وأوعدهم على إعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم ، أتبع ذلك بما يجري مجرى الموعظة والنصيحة ، وحض على الاعتبار بالقرون الماضية و ﴿ يروا ﴾ هنا بمعنى يعلموا ، لأنهم لم يبصروا هلاك القرون السالفة و ﴿ كم ﴾ في موضع المفعول ب ﴿ أَهْلَكْنَا

﴿ و ﴿ يروا ﴾ معلقة والجملة في موضع مفعولها ، و ﴿ من ﴾ الأولى لابتداء الغاية و ﴿ من ﴾ الثانية للتبعيض ، والمفرد بعدها واقع موقع الجمع ووهم الحوفي في جعله ﴿ من ﴾ الثانية بدلاً من الأولى وظاهر الإهلاك أنه حقيقة ، كما أهلك قوم نوح وعاداً وثمود غيرهم ويحتمل أن يكون معنوياً بالمسخ قردة وخنازير ، والضمير في ﴿ يروا ﴾ عائد على من سبق من المكذبين المستهزئين و ﴿ لكم ﴾ خطاب لهم فهو التفات ، والمعنى أن القرون المهلكة أعطوا من البسطة في الدنيا والسعة في الأموال ما لم يعط هؤلاء الذين حضوا على الاعتبار بالأمم السالفة وما جرى لهم ، وفي هذا الالتفات تعريض بقلة تمكين هؤلاء ونقصهم عن أحوال من سبق ، ومع تمكين أولئك في الأرض فقد حل بهم الهلاك ، فكيف لا يحل بكم على قلتكم وضيق خطتكم ؟ فالهلاك إليكم أسرع من الهلاك إليهم .

(40/227)

وقال ابن عطية : والمخاطبة في ﴿ لكم ﴾ هي للمؤمنين ولجميع المعاصرين لهم وسائر الناس كافة ، كأنه قال : ﴿ ما لم نمكن ﴾ يا أهل هذا العصر لكم ويحتمل أن يقدر معنى القول لهؤلاء الكفرة ، كأنه قال ﴿ يا محمد قل لهم ألم يروا كم أهلكنا ﴾ الآية .

وإذا أخبرت أنك قلت لو قيل له أو أمرت أن يقال له فلك في فصيح كلام العرب أن تحكي

الألفاظ المقولة بعينها ، فتجيء بلفظ المخاطبة ، ولك أن تأتي بالمعنى في الألفاظ ذكر غائب دون مخاطبة ، انتهى .

فتقول : قلت لزيد ما أكرمك وقلت لزيد ما أكرمه ، والضمير في ﴿ مكناهم ﴾ عائد على ﴿ كم ﴾ مراعاة لمعناها ، لأن معناها جمع والمراد بها الأمم ، وأجاز الحوفي وأبو البقاء أن يعود على ﴿ قرن ﴾ وذلك ضعيف لأن ﴿ من قرن ﴾ تمييز ﴿ لكم ﴾ فكم هي المحدث عنها بالإهلاك فتكون هي المحدث عنها بالتمكين ، فما بعده إذ ﴿ من قرن ﴾ جرى مجرى التبيين ولم يحدث عنه ، وأجاز أبو البقاء أن يكون ﴿ كم ﴾ هنا ظرفاً وأن يكون مصدراً ، أي : كم أزمنة أهلكنا ؟ أو كم إهلاكاً أهلكنا ؟ ومفعول ﴿ أهلكنا من قرن ﴾ على زيادة من وهذا الذي أجازه لا يجوز ، لأنه لا يقع إذ ذاك المفرد موقع الجمع بل تدل على المفرد ، لو قلت : كم أزماناً ضربت رجلاً أو كم مرة ضربت رجلاً ؟ لم يكن مدلوله مدلول رجال ، لأن السؤال إنما هو عن عدد الأزمان أو المرات التي ضرب فيها رجل ، ولأن هذا الموضع ليس من مواضع زيادة ﴿ من ﴾ لأنها لا تزاد إلا في الاستفهام المحض أو الاستفهام المراد به النفي ، والاستفهام هنا ليس محضاً ولا يراد به النفي والظاهر أن قوله ﴿ مكناهم ﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل : ما كان من حالهم ؟ فقيل : ﴿ مكناهم في الأرض ﴾ .

وقال أبو البقاء : ﴿ مكناهم ﴾ في موضع خبر صفة ﴿ قرن ﴾ وجمع على المعنى وما قاله أبو البقاء ممكن ، ﴿ وما ﴾ في قوله : ﴿ ما لم نمكن لكم ﴾ جوزوا في إعرابها أن تكون بمعنى الذي ويكون التقدير التمكين ، الذي ﴿ لم نمكن لكم ﴾ فحذف المنعوت وأقيم النعت مقامه ، ويكون الضمير العائد على ﴿ ما ﴾ محذوفاً أي ما لم نمكنه لكم وهذا لا يجوز ، لأن ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي لا يكون نعتاً للمعارف وإن كان مدلولها مدلول الذي ، بل لفظ الذي هو الذي يكون نعتاً للمعارف لو قلت ضربت الضرب ما ضرب زيد تريد الذي ضرب زيد لم يجز ، فلو قلت : الضرب الذي ضربه زيد جاز وجوزوا أيضاً أن يكون نكرة صفة لمصدر محذوف تقديره تمكيناً لم نمكنه لكم ، وهذا أيضاً لا يجوز لأن ﴿ ما ﴾ النكرة الصفة لا يجوز حذف موصوفها ، لو قلت : قمت ما أو ضربت ما وأنت تريد قمت قياماً ما وضربت ضرباً ما لم يجز ، وهذان الوجهان أجازهما الحوفي وأجاز أبو البقاء أن يكون ﴿ ما ﴾ مفعولاً به بنمكن على المعنى ، لأن المعنى أعطيناهم ما لم نعطكم ، وهذا الذي أجازه تضمين والتضمين لا ينقاس ، وأجاز أيضاً أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية والزمان محذوف أي مدة ﴿ ما لم نمكن لكم ﴾ ويعني مدة انتفاء التمكين لكم ، وأجاز أيضاً أن تكون نكرة موصوفة بالجملة المنفية بعدها أي شيئاً لم نمكنه لكم ، وحذف العائد من الصفة على الموصوف وهذا أقرب إلى الصواب وتعدى مكن هنا للذوات بنفسه

وبحرف الجر ، والأكثر تعديته باللام ﴿ مكنا ليوسف في الأرض ﴾ ﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ أو لم نمكن لهم .

وقال أبو عبيد مكناهم ومكنا لهم لغتان فصيحتان ، كنصحته ونصحت له والإرسال والإنزال متقاربان في المعنى لأن اشتقاقه من رسل اللبن ، وهو ما ينزل من الضرع متتابعاً و ﴿ السماء ﴾ السماء المظلة قالوا : لأن المطر ينزل منها إلى السحاب ، ويكون على حذف مضاف أي مطر ﴿ السماء ﴾ ويكون ﴿ مدراراً ﴾ حالاً من ذلك المضاف المحذوف .

(42/227)

وقيل : ﴿ السماء ﴾ المطر وفي الحديث : " في أثر سماء كانت من الليل " ، وتقول العرب : ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم ، يريدون المطر وقال الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم . . .

رعيناه وإن كانوا غضبانا

﴿ ومدراراً ﴾ على هذا حال من نفس ﴿ السماء ﴾ .

وقيل : ﴿ السماء ﴾ هنا السحاب ويوصف بالمدرار ، فمدراراً حال منه ﴿ ومدراراً

﴿ يوصف به المذكر والمؤنث وهو للمبالغة في اتصال المطر ودوامة وقت الحاجة ، لا إنها ترفع ليلاً ونهاراً فتفسد قاله ابن الأنباري .

ولأن هذه الأوصاف إنما ذكرت لتعديد النعم عليهم ومقابلتها بالعصيان ، ﴿ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴾ تقدّم ذكر كيفية جريان الأنهار من التحت في أوائل البقرة .

(43/227)

وقد أعرب من فسر ﴿ الأنهار ﴾ هنا بالخيل كما قيل في قوله : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ وإذا كان الفرس سريع العدو واسع الخطو وصف بالبحر وبالنهر ، والمعنى أنه تعالى مكنهم التمكين البالغ ووسع عليهم الرزق فذكر سببه وهو تتابع الأمطار على قدر حاجاتهم وإمساك الأرض ذلك الماء ، حتى صارت الأنهار تجري من تحتهم فكثر الخصب فأذنبوا فأهلكوا بذنوبهم ، والظاهر أن الذنوب هنا هي كفرهم وتكذيبهم برسل الله وآياته ، والإهلاك هنا لا يراد به مجرد الإفناء والإماتة بل المراد الإهلاك الناشىء عن الذنوب والأخذ به كقوله تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ﴾ لأن الإهلاك بمعنى الإماتة مشترك فيه الصالح والطالح ، وفائدة ذكر إنشاء قرن ﴿ آخرين ﴾ بعدهم ، إظهار

القدرة التامّة على إفناء ناس وإنشاء ناس فهو تعالى لا يتعاظمه أن يهلك ﴿ قرناً ﴾ ويخرب بلاده وينشىء مكانه آخر يعمر بلاده وفيه تعريض للمخاطبين ، بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم ووصف قرناً بِ ﴿ آخرين ﴾ وهو جمع حملاً على معنى قرن ، وكان الحمل على المعنى أفصح لأنها فاصلة رأس آية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(44/227)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ ﴾

استئنافٌ مَسوقٌ لتعيين ما هو المرادُ بالإنباء التي سبق بها الوعيد ، وتقرير إتيانِها بطريق الاستشهاد ، وهمزةُ الإنكار لتقرير الرؤية ، وهي عِرْفانية مستدعيةٌ لمفعول واحد ، و(كم) استفهاميةً كانت أو خبريةً معلّقةٌ لها عن العمل مقيّدةٌ للتكثير سادّةٌ مع ما في حيّزها مسدَّ مفعولِها ، منصوبةٌ بأهلكنا على المفعولية على أنها عبارةٌ عن الأشخاص ، و(من قرن) مميِّزٌ لها على أنه عبارةٌ عن أهل عصر من الأعصار ، سُمّوا بذلك لاقترانهم بُرهةً من الدهر كما في قوله عليه الصلاة والسلام : " خيرُ القرون قَرني ثم الذين يلونهم " الحديث . وقيل :

هو عبارة عن مدة من الزمان والمضافُ محذوف ، أي من أهلَ قرن ، وأما انتصابها على المصدرية أو على الظرفية على أنها عبارة عن المصدر أو عن الزمان فتعسفٌ ظاهر ، و(من) الأولى ابتدائية متعلقة بأهلكنا أي ألم يعرِفوا بمعايَنةِ الآثارِ وسَماعِ الأخبار كم أمةٍ أهلكنا من قبلِ أهل مكة ؟ أي من قبلِ خلقِهم ، أو من قبل زمانهم على حذف المضاف ، وإقامةِ المضاف إليه مُقامَه ، كعادٍ وثمودَ وأضرابِهم ، وقوله تعالى : ﴿ مكناهم فِى الأرض ﴾ استئناف لبيان كيفيةِ الإهلاك وتفصيلِ مباديه مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من صدر الكلام ، كأنه قيل : كيف كان ذلك ؟ فقيل : مكناهم الخ ، وقيل : هو صفةٌ لقرنٍ لما أن النكرةَ مفتقرةٌ إلى مخصص ، فإذا وَلِيهَا ما يصلُح مخصّصاً لها تعيّن وصفيتُه لها ، وأنت خبير بأن تنوينَه التفخيميَّ مُغنٍ له عن استدعاء الصفة ، على أن ذلك مع اقتضائه أن يكون مضمونُه ومضمونُ ما عُطف عليه من الجُمل أمراً مفروغاً عنه غيرَ مقصود بسياق النظم ، مؤدَ إلى اختلال النظم الكريم ، كيف لا والمعنى حينئذٍ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرنٍ موصوفين بكذا وكذا ، وبإهلاكنا إياهم بذنوبهم ، وأنه بيِّنُ الفساد . وتمكينُ الشيء في الأرض جعلُه قارّاً فيها ، ولمّا لزِمه جعلُها مقراً له ، ورد

الاستعمالُ بكلَ منهما فقيل : تارةً مكّنه في الأرض ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ وأخرى مكّن له في الأرض ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأرض ﴾ حتى أُجرِيَ كلٌّ منهما مُجرَى الآخرَ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ مكناهم فِى الأرض ﴾ ، كأنه قيل في الأول : مكنا لهم ، وفي الثاني : ما لم نمكنْكم . و(ما) نكرةٌ موصوفةٌ بما بعدها من الجملة المنفية ، والعائد محذوف ، محلُها النصبُ على المصدرية ، أي مكناهم تمكيناً لم نمكنْه لكم ، والالتفاتُ لما في مواجهتهم بضَعف الحال مزيدُ بيانٍ لشأن الفريقين ، ولدفعِ الاشتباه من أول الأمر عن مرجِعَي الضميرين ﴿ وَأَرْسَلْنَا السماء ﴾ أي المطرَ أو السحابَ أو الظلة لأنها مبدأ المطر ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ متعلق بأرسلنا ﴿ مِّدْرَاراً ﴾ أي مِغزاراً حال من السماء ﴿ وَجَعَلْنَا الأنهار ﴾ أي صيّرناها فقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ﴾ مفعولٌ ثانٍ لجعلنا ، أو أنشأناها فهو حال من مفعوله ، و(من تحتهم) متعلق بتجري وفيه من الدلالة على كونها مسخّرةً لهم مستمرةً على الجريان على الوجه المذكور ما ليس في أن يقالَ : وأجرينا الأنهارَ من تحتهم ، وليس المرادُ بتَعدادِ هاتيك النعم العظامِ الفائضةِ عليهم بعد ذكر تمكينهم بيانَ عِظَم جنايتهم في كفرانها واستحقاقَهم بذلك لأعظم العقوبات بل بيانَ حيازتهم لجميع أسباب نيل المآرب ومبادِي الأمن والنجاة من المكاره والمعاطب ، وعدمَ إغناءِ ذلك عنهم شيئاً .

والمعنى : أعطيناهم من البسطة في الأجسام والامتدادِ في الأعمار والسَّعةِ من الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا في استجلاب المنافع واستدفاع المضارّ ما لم نُعط أهلَ مكةَ ففعلوا ما فعلوا ﴿ فأهلكناهم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أهلكنا كلَّ قرن من تلك القرون بسبب ما يخُصّهم من الذنوب ، فما أغنى عنهم تلك العُدَدُ والأسباب ، فسيحِلُّ بهؤلاء مثلُ ما حل بهم من العذاب ، وهذا كما ترى آخِرُ ما به الاستشهادُ والاعتبار ، وأما قولُه سبحانه : ﴿ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن ﴿ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ بدلاً من الهالكين فلبيان كمالِ قدرته تعالى وسَعة سُلطانه وأن ما ذُكر من إهلاك الأمم الكثيرة لم يَنْقُصْ من ملكه شيئاً بل كلما أهلك أمةً أنشأ بدلها أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ استئناف مسوق لتعيين ما هو المراد بما تقدم ، وقيل : شروع في توبيخهم ببذل النصح لهم والأول أظهر .

والرؤية عرفانية ، وقيل : بصرية ، والمراد في أسفارهم وليس بشيء .

وهي على التقديرين تستدعي مفعولاً واحداً .

و﴿ كَمْ ﴾ استفهامية كانت أو خبرية معلقة لها عن العمل مفيدة للتكثير سادة مع ما في حيزها مسد مفعولها ، وهي منصوبة بأهلكنا على المفعولية ، وهي عبارة عن الأشخاص ، وقيل : إن الرؤية علمية تستدعي مفعولين والجملة سادة مسدهما .

و﴿ مِّن قَرْنٍ ﴾ مميز لكم على أنه عبارة عن أهل عصر من الأعصار سموا بذلك لاقترانهم مدة من الزمان فهو من قرنت .

واختلف في مقدار تلك المدة فقيل : مائة وعشرون سنة ، وقيل : مائة ، وقيل : ثمانون ، وقيل : سبعون ، وقيل : ستون ، وقيل : ثلاثون ، وقيل : عشرون ، وقيل : مقدار الأوسط في أعمار أهل كل زمان .

ولما كان هذا لا ضابط له يضبط قال الزجاج : إنه عبارة عن أهل عصر فيهم نبي أو فائق في العلم على ما جرت به عادة الله تعالى .

ويحتمل أن يعتبر ذلك مائة سنة لما ورد أن الله تعالى قيض لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة

من يجدد لها أمر دينها .

وقيل : هو عبارة عن مدة من الزمان اختلف فيها على طرز ما تقدم .

واختار بعضهم أنه حقيقة في الزمان المعين وفي أهله .

والمراد به هنا الأهل من غير تجشم تقدير مضاف أو ارتكاب تجوز .

وجوز بعضهم انتصاب ﴿ كَمْ ﴾ على المصدرية بأهلكنا بمعنى إهلاك أو على الظرفية بمعنى أزمنة وهو تكلف .

و(من) الأولى ابتدائية متعلقة بأهلكنا .

وهمزة الإنكار لتقرير الرؤية .

والمعنى ألم يعرف هؤلاء المكذبون المستهزئون بمعاينة الآثار وتواتر الأخبار كم أمة أهلكنا من قبل خلقهم أو من قبل زمانهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأضرابهم فالكلام على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه .

وقوله تعالى : ﴿ مكناهم فِى الأرض ﴾ استئناف بياني كأنه قيل ما كان حالهم ؟ ، وقال أبو البقاء : إنه في موضع جر صفة ﴿ قَرْنٍ ﴾ لأن الجمل بعد النكرات صفات لاحتياجها إلى التخصيص .

وجمع الضمير باعتبار معناه .

وتعقبه مولانا شيخ الإسلام "بأن تنوينه التفخيمي مغن له عن استدعاء الصفة ، على أن

ذلك مع اقتضائه أن يكون مضمونه ومضمون ما عطف عليه من الجمل الأربع (أمراً) مفروغاً عنه غير مقصود لسياق النظم مؤد إلى اختلاف النظم الكريم ، كيف لا والمعنى حينئذ : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن موصوفين بكذا وكذا وبإهلاكنا لهم بذنوبهم وأنه بين الفساد " انتهى .

(48/227)

ولا يخفى أن التنوين التفخيمي لا يأبى الوصف .

وما ورد فيه ذلك من النكرات أكثر من أن يحصى ، وأما ما ذكره بعد فقد قال الشهاب : إنه غفلة منه أو تغافل عن تفسيرهم ﴿ فأهلكناهم ﴾ الخ الآتي بقولهم لم يغن ذلك عنهم شيئاً .

وتمكين الشيء في الأرض على ما قيل جعله قاراً فيها .

ولما لزم ذلك جعلها مقراً له ورد الاستعمال بكل منهما فقيل تارة مكنه في الأرض ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ ﴾ [الأحقاق : 26] وأخرى مكن له في الأرض ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرض ﴾ [الكهف : 84] حتى أجرى كل منهما مجرى الآخر ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ بعد ما تقدم كأنه قيل في الأول :

مكنا لهم وفي الثاني : ما لم نمكنكم .

وفي "التاج" أن مكنته ومكنت له مثل نصحته ونصحت له .

وقال أبو علي : اللام زائدة مثل ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] .

وكلام الراغب في مفرداته يؤيده .

وذكر بعض المحققين أن مكنه أبلغ من مكن له ، ولذلك خص المتقدم بالمتقدمين والمتأخر بالمتأخرين و ﴿ مَا ﴾ إما موصولة صفة لمحذوف تقديره التمكين الذي لم نمكنه لكم أو نكرة موصوفة أي تمكيناً لم نمكنه .

وعليهما فهي مفعول مطلق والعائد إليها من الصلة أو الصفة محذوف ، وقيل : إنها مفعول به لأن المراد من التمكين الإعطاء كما يشير إليه ما روي عن قتادة أي أعطيناهم ما تمكنوا به من أنواع التصرف ما لم نعطكم .

وقيل : إنها مصدرية ظرفية أي مدة عدم تمكينكم ولا يخفى بعده والخطاب للكفرة .

وقيل : لجميع الناس .

وقيل : للمؤمنين .

والظاهر الأول والالتفات لما في مواجهتهم بضعف حالهم من التبكيت ما لا يخفى .

وقيل : ليتضح مرجع الضميرين ولا يشتبه من أول الأمر ، وهي نكتة في الالتفات لم يعرج عليها أهل المعاني .

﴿ وَأَرْسَلْنَا السماء ﴾ أي المطر كما روي عن هارون التيمي ، ونسب إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً .

(49/227)

وقيل : السحاب واستعمالها في ذلك مجاز مرسل .

وقيل : هي على حقيقتها بمعنى المظلة والمجاز في إسناد الإرسال إليها لأن المرسل ماء المطر وهي مبدأ له ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى .

"والإرسال والإنزال كما في "البحر" متقاربان في المعنى لأن اشتقاقه من رسل اللبن وهو ما ينزل من الضرع متتابعاً" ﴿ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً ﴾ أي غزيراً كثير الصب ، وهو صيغة مبالغة يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وهو حال من السماء والظرف متعلق بأرسلنا ﴿ وَجَعَلْنَا الأنهار ﴾ أي صيرناها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ﴾ أي من تحت مساكنهم .

والمراد أنهم عاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار .

والجملة في موضع المفعول الثاني لجعلنا .

ولم يقل سبحانه : أجرينا الأنهار كما قال عز شأنه : ﴿ أَرْسَلْنَا السماء ﴾ للإيذان بكونها مسخرة مستمرة الجريان لا لأن النهر لا يكون إلا جارياً فلا يفيد الكلام لأن النظم حينئذ

ناظر إلى كونها من تحتهم فالفائدة ظاهرة ، ولو كان ما ذكر صحيحاً لما ورد في النظم الكريم كقوله تعالى :

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [المائدة : 119] واستظهر كون الجعل بمعنى الإنشاء والإيجاد وهو مخصوص به تعالى فلذا غير الأسلوب ، وعليه فالجملة في موضع الحال من المفعول .

وليس المراد على ما قيل بتعداد هاتيك النعم العظام الفائضة عليهم بعد ذكر تمكينهم بيان عظم جنايتهم في كفرانها واستحقاقهم بذلك لأعظم العقوبات بل بيان حيازتهم لجميع أسباب نيل المآرب ومبادىء الأمن من المكاره والمعاطب وعدم إغناء ذلك عنهم شيئاً . وينبىء عن عدم الإغناء عند جمهور المفسرين .

(50/227)

قوله تعالى : ﴿ فأهلكناهم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ والفاء للتعقيب وقيل : فصيحة والمراد فكفروا فأهلكناهم ورجح الأول ، والباء للسببية أي أهلكنا كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب كتكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَأَنشَأْنَا ﴾ أي أوجدنا ﴿ مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ أي بعد إهلاكهم بسبب ذلك ﴿ قَرْناً ءاخَرِينَ ﴾ بدلاً من الهالكين .

وهذا بيان لأنه تعالى لا يتعاظمه أن يهلك قرناً ويخلي بلاده منهم فإنه جل جلاله قادر على أن ينشيء مكانهم آخرين يعمر بهم البلاد فهو كالتتميم لما قبله نحو قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ [الشمس : 51] وفيه إشارة إلى أنهم قلعوا من أصلهم ولم يبق أحد من نسلهم لجعلهم آخرين وكونهم من بعدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾

الجملة بيان لجملة : ﴿ فسوف يأتيهم أنبار ما كانوا به يستهزئون .

جاء بيانها بطريقة الاستفهام الإنكاري عن عدم رؤية القرون الكثيرة الذين أهلكتهم حوادث خارقة للعادة يدلّ حالها على أنّها مسلّطة عليهم من الله عقاباً لهم على التكذيب .

والرؤية يجوز أن تكون قلبية ، أي ألم يعلموا كثرة القرون الذين أهلكناهم ، ويجوز أن تكون بصرية بتقدير : ألم يروا آثار القرون التي أهلكناها كديار عاد وحِجْر ثمود ، وقد رآها كثير من المشركين في رحلاتهم ، وحدّثوا عنها الناس حتى تواترت بينهم فكانت بمنزلة المرئي وتحقّقتها نفوسهم .

وعلى كلا الوجهين ففعل يَرَوا ﴾ معلّق عن العمل في المفعولين أو المفعول ، باسم الاستفهام

وهو ﴿ كم ﴾ .

و(كم) اسم للسؤال عن عدد مبهم فلا بدّ بعده من تفسير ، وهو تمييزه .

كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ سَل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية ﴾ في سورة البقرة (211) وتكون خبرية فتدلّ على عدد كبير مبهم ولا بدّ من مفسّر هو تمييز للإبهام .

(51/227)

فأمّا الاستهامية فمفسّرها منصوب أو مجرور ، وإن كانت خبرية فمفسّرها مجرور لا غير ، ولمّا كان (كم) اسماً في الموضعين كان له موقع الأسماء بحسب العوامل رفعٌ ونصب وجرّ ، فهي هنا في موضع مفعول أو مفعولين ليرَوا ﴾ .

و(مَنْ) فزائدة جارّة لمميّز ﴿ كم ﴾ الخبرية لوقوع الفصل بينها وبين مميّزها فإنّ ذلك يوجب جرّه بـ (من) ، كما بيّناه عند قوله تعالى : ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة في سورة البقرة .

والقرن أصله الزمن الطويل ، وكثر إطلاقه على الأمّة التي دامت طويلاً .

قال تعالى : من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ .

وفسّر القرن بالأمّة البائدة .

ويطلق القرن على الجيل من الأمّة ، ومنه حديث ﴿ خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ﴾ .

ويطلق على مقدار من الزمن قدره مائة سنة على الأشهر ، وقيل : غير ذلك .

وجملة : ﴿ مكّنّاهم ﴾ صفة ل ﴿ قرن ﴾ وروعي في الضمير معنى القرن لأنّه دالّ على جمع .

ومعنى : ﴿ مكّنّاهم في الأرض ﴾ ثبّتناهم وملّكناهم ، وأصله مشتقّ من المكان .

فمعنى مكّنه ومكّن له ، وضع له مكاناً .

قال تعالى : ﴿ أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً ﴾ .

ومثله قولهم : أرَضَ له .

ويكنّى بالتمكين عن الإقدار وإطلاق التصرّف ، لأنّ صاحب المكان يتصرّف في مكانه وبيته ثم يطلق على التثبيت والتقوية والاستقلال بالأمر .

ويقال : هو مكين بمعنى مُمَكّن ، فعيل بمعنى مفعول .

قال تعالى : ﴿ إنّك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ فهو كناية أيضاً بمرتبة ثانية ، أو هو مجاز مرسل مرتّب على المعنى الكنائي .

والتمكين في الأرض تقوية التصرّف في منافع الأرض والاستظهار بأسباب الدنيا ، بأن يكون

في منعة من العدوّ وفي سعة في الرزق وفي حسن حال ، قال تعالى : ﴿ إمّا مكنّا له في الأرضأ ، وقال : الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة ﴾ الآية .

(52/227)

فمعنى مكَّنه : جعله متمكّناً ومعنى مكّن له : جعله متمكّناً لأجله ، أي رعيا له ، مثل حمده وحمد له ، فلم تزده اللام ومجروورها إلاّ إشارة إلى أنّ الفاعل فعل ذلك رغبة في نفع المفعول ، ولكن الاستعمال أزال الفرق بينهما وصيّر مكّنه ومكّن له بمعنى واحد ، فكانت اللام زائدة كما قال أبو علي الفارسي .

ودليل ذلك قوله تعالى : هنا ﴿ مكّنّاهم في الأرض ما لم نمكّن لكم ﴾ فإنّ المراد بالفعلين هنا شيء واحد لتعيّن أن يكون معنى الفعلين مستوياً ، ليظهر وجه فوت القرون الماضية في التمكين على تمكين المخاطبين ، إذ التفاوت لا يظهر إلاّ في شيء واحد ، ولأنّ كون القرون الماضية أقوى تمكّنا من المخاطبين كان يقتضي أن يكون الفعل المقترن بلام الأجل في جانبهم لا في جانب المخاطبين ، وقد عكس هنا .

وبهذا البيان نجمع بين قول الراغب باستواء فعل مكّنه ومكّن له ، وقول الزمخشري بأن : مكّن له بمعنى جعل له مكاناً ، ومكّنه بمعنى أثبته .

وكلام الراغب أمكن عربية .

وقد أهملت التنبيه على هذين الرأيين كتب اللغة .

واستعمال التمكين في معنى التثبيت والتقوية كناية أو مجاز مرسل لأنّه يستلزم التقوية .

وقد شاع هذا الاستعمال حتى صار كالصريح أو كالحقيقة .

و﴿ ما ﴾ موصولة معناها التمكين ، فهي نائبة عن مصدر محذوف ، أي تمكيناً لم نمكّنه لكم ، فتنتصب (ما) على المفعولية المطلقة المبيّنة للنوع .

والمقصود مكّناهم تمكيناً لم نمكّنه لكم ، أي هو أشدّ من تمكينكم في الأرض .

والخطاب في قوله : ﴿ لكم ﴾ التفات موجّه إلى الذين كفروا لأنّهم الممكّنون في الأرض وقت نزول الآية ، وليس للمسلمين يومئذٍ تمكين .

والالتفات هنا عكس الالتفات في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ .

والمعنى أنّ الأمم الخالية من العرب البائدة كانوا أشدّ قوة وأكثر جمعاً من العرب المخاطبين بالقرآن وأعظم منهم آثار حضارة وسطوة .

وحسبك أنّ العرب كانوا يضربون الأمثال للأمور العظيمة بأنّها عادية أو ثمودية أو سبئية قال تعالى : ﴿ وعمروها أكثر ممّا عمروها ﴾ أي عمَرَ الذين من قبل أهل العصر الأرض أكثر ممّا عمرها أهل العصر .

والسماء من أسماء المطر ، كما في حديث "الموطأ" من قول زيد بن خالد : صلىّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على إثر سماء ، أي عقب مطر .

وهو المراد هنا لأنّه المناسب لقوله : ﴿ أرسلنا ﴾ بخلافه في نحو قوله : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ .

والمدرار صيغة مبالغة ، مثل منحار لكثير النحر للأضياف ، ومذكار لمن يولد له الذكور ، من درّت الناقة ودرّ الضرع إذا سمح ضرعها باللبن ، ولذلك سمّي اللبن الدّر .

ووصفُ المطر بالمدرار مجاز عقلي ، وإنّما المدرار سحابه .

وهذه الصيغة يستوي فيها المذكّر والمؤنّث .

والمراد إرسال المطر في أوقات الحاجة إليه بحيث كان لا يخلفهم في مواسم نزوله .

ومن لوازم ذلك كثرة الأنهار والأودية بكثرة انفجار العيون من سعة ري طبقات الأرض ، وقد كانت حالةَ معظم بلاد العرب في هذا الخصب والسعة ، كما علمه الله ودلّت عليه آثار مصانعهم وسدودهم ونسلان الأمم إليها ، ثم تغيّرت الأحوال بحوادث سماوية كالجدب الذي حلّ سنين ببلاد عاد ، أو أرضية ، فصار معظمها قاحلاً فهلكت أممها وتفرّقوا أيادي

سَبا .

وقد تقدّم القول في معنى الأنهار تجري من تحتهم في نظيره وهو ﴿ أنّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ﴾ في سورة البقرة (25) .

والفاء في قوله : فأهلكناهم ﴾ للتعقيب عُطف على ﴿ مكّناهم ﴾ وما بعده .

ولمّا تعلّق بقوله : ﴿ فأهلكناهم ﴾ قوله : ﴿ بذنوبهم ﴾ دلّ على أنّ تعقيب التمكين وما معه بالإهلاك وقع بعد أن أذنبوا .

فالتقدير : فأذنبوا فأهلكناهم بذنوبهم ، أو فبطروا النعمة فأهلكناهم ، ففيه إيجاز حذف على حدّ قوله تعالى : ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت ﴾ الآية ، أي فضرب فانفجرت الخ .

(54/227)

ولك أن تجعل الفاء للتفصيل تفصيلاً ل ﴿ أهلكنا ﴾ الأول على نحو قوله تعالى : ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ في سورة الأعراف (4) .

والإهلاك : الإفناء ، وهو عقاب للأمّة دالّ على غضب الله عليها ، لأنّ فناء الأمم لا يكون إلاّ بما تجرّه إلى نفسها من سوء فعلها ، بخلاف فناء الأفراد فإنْه نهاية محتّمة ولو استقام المرء

طول حياته ، لأنّ تركيب الحيوان مقتض للانتهاء بالفناء عند عجز الأعضاء الرئيسية عن إمداد البدن بمواد الحياة فلا يكون عقاباً إلاّ فيما يحفّ به من أحوال الخزي للهالك .

والذنوب هنا هي الكفر وتكذيب الرسل ونحو ذلك ممّا دلّ عليه التنظير بحال الذين قال الله فيهم هنا : بربهم يعدلون ثم أنتم تمترون وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحقّ لمّا جاءهم ، وما قاله بعد ذلك ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ : الإنشاء الإيجاد المبتكَر ، قال تعالى : ﴿ إنّا أنشأناهن إنشاء ﴾ .

والمراد به إنشاؤهم بتلك الصفات التي كان القرن الذين من قبلهم من التمكين في الأرض والإسعاف بالخصب ، فخلفوا القرن المنقرضين سواء كان إنشاؤهم في ديار القوم الذين هلكوا ، كما أنشأ قريشاً في ديار جرهم ، أم في ديار أخرى كما أنشأ الله ثموداً بعد عاد في منازل أخرى .

والمقصود من هذا تعريض بالمشركين بأنّ الله مهلكهم ومنشىء من بعدهم قرن المسلمين في ديارهم .

ففيه نذارة بفتح مكّة وسائر بلاد العرب على أيدي المسلمين .

وليس المراد بالإنشاء الولادة والخلق ، لأنّ ذلك أمر مستمرّ في البشر لا ينتهي ، وليس فيه

عظة ولا تهديد للجبابرة المشركين .

وأفرد ﴿ قرناً ﴾ مع أنّ الفعل الناصب له مقيّد بأنّه من بعد جمع القرون ، على تقدير مضاف ، أي أنشأنا من بعد كلّ قرن من المهلكين قرناً آخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

أسئلة وأجوبة

(55/227)

السؤال الأول : ليس في هذا الكلام إلا أنهم هلكوا إلا أن هذا الهلاك غير مختص بهم بل الأنبياء والمؤمنون كلهم أيضاً قد هلكوا فكيف يحسن إيراد هذا الكلام في معرض الزجر عن الكفر مع أنه مشترك فيه بين الكافر وبين غيره .

والجواب : ليس المقصود منه الزجر بمجرد الموت والهلاك ، بل المقصود أنهم باعوا الدين بالدنيا ففاتهم وبقوا في العذاب الشديد بسبب الحرمان عن الدين .

وهذا المعنى غير مشترك فيه بين الكافر والمؤمن .

السؤال الثاني : كيف قال ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ مع أن القوم ما كانوا مقرين بصدق محمد عليه السلام فيما يخبر عنه وهم أيضاً ما شاهدوا وقائع الأمم السالفة .

والجواب : أن أقاصيص المتقدمين مشهورة بين الخلق فيبعد أن يقال إنهم ما سمعوا هذه الحكايات ولمجرد سماعها يكفي في الاعتبار .

والسؤال الثالث : ما الفائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم .

والجواب : أن الفائدة هي التنبيه على أنه تعالى لا يتعاظمه أن يهلكهم ويخلي بلادهم منهم ، فإنه قادر على أن ينشىء مكانهم قوما آخرين يعمر بهم بلادهم كقوله ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ [الشمس : 15] والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 132 ﴾

(56/227)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) .

أَرْشَدَتِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ السَّابِقَةُ إِلَى دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ ، وَأَنَّهَا عَلَى ظُهُورِهَا لَمْ تَمْنَعِ الْكَافِرِينَ مِنَ الشِّرْكِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ ، وَأَرْشَدَتِ إِلَى دَلَائِلِ الْبَعْثِ وَإِلَى أَنَّهَا عَلَى قُوَّتِهَا لَمْ تَمْنَعِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الشَّكِّ فِيهِ ، وَبَيَّنَتِ الثَّالِثَةُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى الْمُتَّصِفُ

بِالصِّفَاتِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا وَلَا يُنْكِرُونَهَا هُوَ اللَّهُ فِي عَالَمَيِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، الْمُحِيطُ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّخَذَ مَعَهُ إِلَهٌ فِيهَا . وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ جَهِلُوا ذَلِكَ فَجَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ غَيْرُ الرَّبِّ إِلَهًا وَعَبَدُوا مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى فَبَيَّنَ لَهُمُ الْوَحْيُ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّ اللَّهَ الَّذِي يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ هُوَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ بِالْحَقِّ فِيهِنَّ ثُمَّ أَرْشَدَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ اللَّاحِقَةُ إِلَى سَبَبِ عَدَمِ اهْتِدَائِهِمْ بِالْوَحْيِ ، وَأَنْذَرَتْهُمْ عَاقِبَةَ التَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ ، وَيَتْلُو ذَلِكَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي بَعْدَهُنَّ كَشْفُ شُبُهَاتِهِمْ عَلَى الْوَحْيِ وَبَعْثَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِي أُصُولِ الدِّينِ كُلِّهَا وَكُلُّ السُّورَةِ تَفْصِيلٌ لَهُ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(57/227)

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) أَيْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَدِلُّوا بِمَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنَ الْبَيِّنَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ ، وَلَا بِمَا ذَكَرَ فِي الثَّانِيَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَلَمْ يَنْظُرُوا فِيمَا يَسْتَلْزِمُهُ كَوْنُهُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ، الْمُحِيطُ عِلْمُهُ بِالسِّرِّ وَالْجَهْرِ وَكَسْبِ الْعَبْدِ ، بَلْ يُعْطَفُ عَلَى هَذَا وَيُزَادُ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ أَضَافُوا إِلَى عَدَمِ الِاهْتِدَاءِ بِالْآيَاتِ الثَّابِتَةِ الدَّائِمَةِ الَّتِي يَرَوْنَهَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ عَدَمَ الِاهْتِدَاءِ بِالْآيَاتِ الْمُتَجَدِّدَةِ الَّتِي تَهْدِيهِمْ إِلَى تِلْكَ وَتُبَيِّنُ لَهُمْ وَجْهَ دَلَالَتِهَا وَهِيَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُرْشِدَةُ إِلَى آيَاتِ

الْأَكْوَانِ ، وَالْمُثْبِتَةِ لِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَفِي مَعْنَاهَا كُلُّ مَا يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا تَأْتِيهِمْ آيَةٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهُ إِلَّا كَانُوا مُعْرِضِينَ عَنْهَا ، غَيْرَ مُتَدَبِّرِينَ لِمَعْنَاهَا ، وَلَا نَاظِرِينَ فِيمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ وَتَسْتَلْزِمُهُ فَيَهْتَدُوا

(58/227)

بِهِ . وَأَصْلُ الْإِعْرَاضِ التَّوَلِّي عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ عَرَضُ الْمُتَوَلِّي الْمُدْبِرِ عَنْهُ ، أَيْ فَهُمْ لِهَذَا الْإِعْرَاضِ عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ وَاللَّفْظِيِّ يَظَلُّونَ مُعْرِضِينَ عَنِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الدَّائِمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ هَذَا الرَّبَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الْحَقِيقُ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُدْعَى غَيْرُهُ وَلَا أَنْ يُعْبَدَ سِوَاهُ ؛ لِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ وَالْأُلُوهِيَّةَ مُتَلَازِمَتَانِ . فَلَوْلَا إِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ وَالتَّأَمُّلِ فِيهَا عِنَادًا مِنْ رُؤَسَائِهِمْ ، وَجُمُودًا عَلَى التَّقْلِيدِ مِنْ دَهْمَائِهِمْ ، وَهُوَ الْمَانِعُ مِنَ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ لَنَظَرُوا فِي النَّوْعَيْنِ نَظَرَ الِاسْتِقْلَالِ فِي الِاسْتِدْلَالِ فَظَهَرَ لَهُمْ ظُهُورًا لَا يَحْتَمِلُ الْمِرَاءَ وَلَا يَقْبَلُ الْجِدَالَ ، فَالْآيَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا مُتَمِّمَةٌ لِمَعْنَاهُ وَالْمُضَارِعُ الْمَنْفِيُّ فِيهَا عَلَى إِطْلَاقِهِ دَالٌّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ ، أَوْ عَلَى بَيَانِ الشُّؤُونِ وَشَرْحِ الْحَقَائِقِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ

كُلُّ أُنْثَى) (13 : 8) فَلَا يُلَاحَظُ فِيهِ حَالٌ وَلَا اسْتِقْبَالٌ وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ آيَةٌ أَوَّلَ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ وَسَتَأْتِي قَرِيبًا ، وَآيَةٌ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَهِيَ : (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) (21 : 2 ، 3) .

(59/227)

وَقَوْلُهُ : (مِنْ آيَةٍ) يَدُلُّ عَلَى اسْتِغْرَاقِ النَّفْيِ أَوْ تَأْكِيدِهِ ، وَإِضَافَةُ الْآيَاتِ إِلَى الرَّبِّ تُفِيدُ أَنَّ إِنْزَالَهُ الْوَحْيَ ، وَبَعْثَهُ لِلرُّسُلِ وَتَأْيِيدَهُمْ ، وَهِدَايَتَهُ لِلْخَلْقِ بِهِمْ ، كُلُّهُ مِنْ مُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ ، أَيْ مُقْتَضَى كَوْنِهِ هُوَ السَّيِّدُ الْمَالِكُ الْمُرَبِّي لِخَلْقِهِ الْمُدَبِّرُ لِأُمُورِهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الْمُوَافِقِ لِلْحِكْمَةِ . وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالرَّبِّ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ يَجْهَلُونَ قَدْرَ رُبُوبِيَّتِهِ وَكُنْهَ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَاتِ هُنَا الدَّلَائِلُ الْكَوْنِيَّةُ الثَّابِتَةُ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ ، فَإِنَّ هَذِهِ لَا يَكَادُ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالْإِتْيَانِ ; لِأَنَّهَا مَاثِلَةٌ دَائِمًا لِلْبَصَائِرِ وَالْأَبْصَارِ ، وَإِنَّمَا يُعَبَّرُ بِالْإِتْيَانِ عَنْ آيَاتِ الْوَحْيِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ وَعَمَّا يَتَجَدَّدُ مِثْلُهَا مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَمِصْدَاقُ الْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ ، كَالْإِخْبَارِ بِنَصْرِ الرُّسُلِ وَخِذْلَانِ أَقْوَامِهِمْ وَآيَاتِ السَّاعَةِ ، مِثَالُ ذَلِكَ آيَتَا الْأَنْبِيَاءِ وَالشُّعَرَاءِ الْمُشَارُ إِلَيْهِمَا آنِفًا وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ

رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) (40 : 50) (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا) (7 : 132) (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ) (12 : 107) .

(60/227)

وَلَمَّا بَيَّنَ أَنَّ شَأْنَهُمُ الْإِعْرَاضُ عَنِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ وَسَائِرِ مَا يُؤَيِّدُ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ ، رَتَّبَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ) أَيْ فَبِسَبَبِ ذَلِكَ الشَّأْنِ الْكُلِّيِّ الْعَامِّ وَهُوَ اسْتِمْرَارُهُمْ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ فَلَمْ يَتَرَيَّثُوا وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا ، وَإِنَّمَا كَذَّبُوا مَا جَهِلُوا ، وَمَا جَهِلُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَسَالِكَ الْعِلْمِ ، وَهَذَا الْحَقُّ الَّذِي كَذَّبُوا بِهِ هُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ خَاتَمُ رُسُلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْآدَابِ ، وَأَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْمُعَامَلَاتِ ، وَقَدْ دَعَاهُمْ أَوَّلًا بِمِثْلِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى كُلِّيَّاتِهِ مُجْمَلَةً ثُمَّ مُفَصَّلَةً وَإِنَّمَا كَانَ يَكُونُ التَّفْصِيلُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ ، إِلَى أَنْ تَمَّ الدِّينُ كُلُّهُ فَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ النِّعْمَةَ ، وَالْحَقُّ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْمُوَافَقَةُ وَالْمُطَابَقَةُ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ ، أَوِ الْأَمْرُ الثَّابِتُ الْمُتَحَقِّقُ بِنَفْسِهِ ، فَهُوَ كُلِّيٌّ لَهُ جُزْئِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَكُلَّمَا أُطْلِقَ فِي مَقَامٍ يُعْرَفُ الْمُرَادُ مِنْهُ بِالْقَرَائِنِ اللَّفْظِيَّةِ أَوِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَقَدْ أُطْلِقَ فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ

الْمُطْلَقِ وَعَلَى الْبَارِئِ تَعَالَى وَعَلَى الْقُرْآنِ وَعَلَى الدِّينِ ، وَذِكْرُ الدِّينِ مُضَافًا إِلَى الْحَقِّ إِضَافَةً بَيَانِيَّةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ

(61/227)

الْحَقِّ) (9 : 33) وَقَوْلُهُ (وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) (9 : 29) وَأُطْلِقَ بِمَعَانٍ أُخْرَى تُفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَالْأَظْهَرُ عِنْدَنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَقِّ هُنَا الدِّينُ الْمُبَيَّنُ فِي الْقُرْآنِ ، وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ تَفْسِيرُهُ بِالْقُرْآنِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ هُوَ عَيْنُ

(62/227)

التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ الَّذِي نَزَلَ بِهَذَا الدِّينِ ، وَلَكِنَّ الْأَظْهَرَ فِي تَوْجِيهِ اللَّفْظِ وَالتَّنَاسُبِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا وَعَطْفِهَا عَلَيْهَا بِفَاءِ السَّبَبِيَّةِ : أَنْ يُقَالَ : إِنَّ إِعْرَاضَهُمْ عَنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الدَّالَّةِ بِإِعْجَازِهَا عَلَى كَوْنِهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَعَلَى رِسَالَةِ مَنْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ وَبِمَعَانِيهَا عَلَى دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ ، وَعَلَى أَحْكَامِ الشَّرَائِعِ وَالْآدَابِ ، قَدْ كَانَ سَبَبًا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ تَكْذِيبُهُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِبَيَانِهِ ، وَهُوَ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ دِينُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِذَا فُسِّرَ

الْحَقُّ هُنَا بِالْقُرْآنِ نَفْسِهِ يَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُعْرِضُونَ عَنْ كُلِّ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِتَكْذِيبِهِمْ بِالْقُرْآنِ ، وَأَنَّ الْمُعْرِضَ عَنْهُ وَالْمُكَذِّبَ بِهِ وَاحِدٌ ، وَوَجَّهَهُ أَبُو السُّعُودِ ، بِضَرْبٍ مِنْ تَكَلُّفِهِ الْمَعْهُودِ ، وَقَدْ يَتَخَرَّجُ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ فَاءَ السَّبَبِيَّةِ تَأْتِي بِمَعْنَى لَامِ الْعِلَّةِ فَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا بَعْدَهَا سَبَبٌ لِمَا قَبْلَهَا ، وَفِي هَذَا الْقَوْلِ مَقَالٌ وَفِي التَّخْرِيجِ عَلَيْهِ مَا لَا يَخْفَى مِنَ الضَّعْفِ ، وَلَكِنْ يَظْهَرُ ذَلِكَ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي شَأْنُهُمُ الْإِعْرَاضُ عَنْهَا هِيَ دَلَائِلُ الْأَكْوَانِ أَوِ الْمُعْجِزَاتِ مُطْلَقًا ، إِذْ يُقَالُ حِينَئِذٍ فِي تَقْدِيرِ الرَّبْطِ : إِنْ كَانُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الْآيَاتِ فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا هُوَ أَعْظَمُ آيَةً ، وَأَظْهَرُ دَلَالَةً ، وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَحَدَّوْا بِهِ ، فَعَجَزُوا عَنِ

(63/227)

الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ . وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْمُخْتَارَ فِي الْآيَاتِ الْأُوَلِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْحَقَّ هُنَا هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ . وَقِيلَ : الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ .

(فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أَيْ فَعَاقِبَةُ هَذَا التَّكْذِيبِ أَنَّهُ سَوْفَ يَحِلُّ بِهِمْ مِصْدَاقُ الْأَخْبَارِ الْعَظِيمَةِ الشَّأْنِ مِمَّا كَانُوا يَسْتَهْزِءُونَ بِهِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ . وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الْأَنْبَاءِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْوَعْدِ بِنَصْرِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ ، وَوَعِيدِ أَعْدَائِهِ بِتَعْذِيبِهِمْ وَخِذْلَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ بِهَلَاكِهِمْ فِي الْآخِرَةِ وَقَدْ أَتَاهُمْ ذَلِكَ فَكَانَ مِنْ أَوَائِلِهِ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ

الْقَحْطِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ فِي بَدْرٍ ، ثُمَّ تَمَّ ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْفَتْحِ وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى مَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي سُورَةٍ أُخْرَى مِنَ اسْتِهْزَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَالْكَلَامِ فِيهِمْ بِوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ ، وَكَذَا بِآيَاتِهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى تَقْدِيرِ ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ ، فَهُوَ وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْ مِنْ بَدَائِعِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ اسْتِهْزَائِهِمْ وَاسْتِهْزَاءُ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ بِالرُّسُلِ ، وَبِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَإِنْذَارِهِمْ عَاقِبَةَ هَذَا الِاسْتِهْزَاءِ فِي آيَاتٍ وَبَيَانِ نُزُولِ الْعَذَابِ

(64/227)

بِهِمْ فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ : (وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) وَهُوَ فِي سُورَةِ هُودٍ : 8 وَالنَّحْلِ 16 : وَالْأَنْبِيَاءِ وَالزُّمَرِ : 48 وَأَكْثَرِ الْحَوَامِيمِ .

جَاءَ الْوَعِيدُ عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ هُنَا بِحَرْفِ التَّسْوِيفِ . وَجَاءَ فِي آيَتَيْنِ مِثْلِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي أَوَّلِ الشُّعَرَاءِ بِحَرْفِ التَّنْفِيسِ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (26 : 5 ، 6)

وَقَدْ حُذِفَ هُنَا مَفْعُولُ كَذَّبُوا ، وَذَكَرَ السَّيِّدُ الْآلُوسِيُّ فِي رُوحِ الْمَعَانِي تَعْلِيلَ ذَلِكَ بِمَا نَصُّهُ : وَفِي الْبَحْرِ إِنَّمَا قَيَّدَ الْكَذِبَ بِالْحَقِّ هُنَا وَكَانَ التَّنْفِيسُ بِسَوْفَ وَفِي الشُّعَرَاءِ (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ) بِدُونِ تَقْيِيدِ الْكَذِبِ ، وَالتَّنْفِيسُ بِالسِّينِ لِأَنَّ الْأَنْعَامَ مُتَقَدِّمَةٌ فِي النُّزُولِ عَلَى

الشُّعَرَاءِ ، فَاسْتَوْفَى فِيهَا اللَّفْظَ وَحَذَفَ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَهُوَ مُرَادُ إِحَالَةٍ عَلَى الْأَوَّلِ ، وَقَدْ نَاسَبَ الْحَذْفُ الِاخْتِصَارَ فِي حَرْفِ التَّنْفِيسِ فَجِيءَ بِالسِّينِ اهـ .

أَقُولُ : وَيَحْسُنُ أَنْ يُزَادَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِعْلُ الِاسْتِقْبَالِ الْمَقْرُونِ بِسَوْفَ أَبْعَدَ زَمَانًا مِنَ الْمَقْرُونِ بِالسِّينِ تَعَيَّنَ الْأَوَّلُ فِيمَا نَزَلَ أَوَّلًا وَالثَّانِي فِيمَا نَزَلَ آخِرًا .

(65/227)

وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَتَّبَ أَحْوَالَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ : (فَالْمَرْتَبَةُ الْأُولَى) كَوْنُهُمْ مُعْرِضِينَ عَنِ التَّأَمُّلِ فِي الدَّلَائِلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْبَيِّنَاتِ ، (وَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ) كَوْنُهُمْ مُكَذِّبِينَ بِهَا ، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ أَزْيَدُ مِمَّا قَبْلَهَا لِأَنَّ الْمُعْرِضَ عَنِ الشَّيْءِ قَدْ لَا يَكُونُ مُكَذِّبًا بِهِ ، بَلْ يَكُونُ غَافِلًا عَنْهُ غَيْرَ مُتَعَرِّضٍ لَهُ ، فَإِذَا صَارَ مُكَذِّبًا بِهِ فَقَدْ لَا يَبْلُغُ تَكْذِيبُهُ بِهِ إِلَى حَدِّ الِاسْتِهْزَاءِ . فَإِذَا بَلَغَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ فَقَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ الْقُصْوَى فِي الْإِنْكَارِ فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ أُولَئِكَ الْكُفَّارَ وَصَلُوا إِلَى هَذِهِ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ اهـ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ عِبْرَةٌ لَنَا فِي حَالِ الَّذِينَ أَضَاعُوا الدِّينَ ، مِنْ أَهْلِ التَّقْلِيدِ الْجَامِدِينَ ، وَأَهْلِ التَّفَرُّنْجِ الْمُلْحِدِينَ ، فَهِيَ تُنَادِي بِقُبْحِ التَّقْلِيدِ وَتُصَرِّحُ بِوُجُوبِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا ، وَبِأَنَّ التَّكْذِيبَ بِالْحَقِّ وَالْحِرْمَانَ مِنْهُ مَعْلُولٌ لِلْإِعْرَاضِ عَنْهَا ، وَتُثْبِتُ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ

مَبْنِيٌّ عَلَى أَسَاسِ الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ ، لَا كَالْأَدْيَانِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى وَعْثِ التَّقْلِيدِ لِلْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ أَوِ الرُّؤَسَاءِ وَالْكُهَّانِ ، وَمَاذَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ هَذَا التِّبْيَانِ ؟ تَبِعَ جَمَاهِيرُهُمْ سَنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ

(66/227)

وَأَضَاعُوا حُجَّةَ دِينِهِمْ بِتَقْلِيدِ فُلَانٍ وَعِلَّانٍ ، وَعَكَسُوا الْقَاعِدَةَ الْمَأْثُورَةَ عَنْ سَلَفِهِمْ وَهِيَ " اعْرِفِ الرِّجَالَ بِالْحَقِّ لَا الْحَقَّ بِالرِّجَالِ " وَلَوْلَا حِفْظُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَتَوْفِيقُهُ سَلَفَ الْأُمَّةِ لِلْعِنَايَةِ بِتَدْوِينِ سُنَّةِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْذُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ بِهَدْيِهِمَا فِي كُلِّ زَمَانٍ ، لَضَاعَ مِنَ الْوُجُودِ هَذَا الْإِسْلَامُ كَمَا ضَاعَتْ مَنْ قَبْلِهِ سَائِرُ الْأَدْيَانِ ، وَلَمْ يُغْنِ عَنْ ذَلِكَ وُجُودُ الْأُلُوفِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ وَكُتُبِ الْكَلَامِ .

كَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ صَارَ مَجْهُولًا فِي نَفْسِهِ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ ، فَتَوَاطَأَ الْفَرِيقَانِ عَلَى اضْطِهَادِ حَمَلَةِ الْحُجَّةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُسْتَقِلِّينَ ، وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْكَيَاسَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا السِّيَاسَةُ ، وَيُحْفَظُ بِهَا أَمْرُ الْمُلْكِ وَالرِّيَاسَةِ ، وَمَا كَانَ إِلَّا فِتْنَةً لَهُمْ ، أَضَاعُوا بِهَا دِينَهُمْ وَمُلْكَهُمْ عَلَى أَيْدِي أَقْوَامٍ مِنْ أُمَمِ الشَّمَالِ ، اقْتَبَسُوا مِنَ

الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ الْأَوَّلِينَ ذَلِكَ الِاسْتِقْلَالَ فَنَسَخُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ ظُلُمَاتِ التَّقْلِيدِ بِنُورِ الِاسْتِدْلَالِ ، فَبَلَغُوا مِنَ الْعِزَّةِ وَالسِّيَادَةِ أَوْجَ الْكَمَالِ .

(67/227)

ثُمَّ اسْتَدَارَ الزَّمَانُ فَافْتَتَنَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا رَأَوْا عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَقِلِّينَ ، وَلَكِنْ دَاءُ التَّقْلِيدِ الْعُضَالُ لَمْ يُفَارِقْهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، فَطَفِقُوا يُقَلِّدُونَهُمْ فِي الْأَزْيَاءِ وَالْعَادَاتِ وَظَوَاهِرِ الْأَحْكَامِ وَالْأَعْمَالِ فَازْدَادُوا بِذَلِكَ خِزْيًا عَلَى خِزْيٍ وَضَلَالًا عَلَى ضَلَالٍ؛ إِذْ هَدَمُوا مُقَوِّمَاتِ أُمَّتِهِمْ وَمُشَخِّصَاتِهَا وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُكَوِّنُوهَا بِمُقَوِّمَاتٍ وَمُشَخِّصَاتٍ غَيْرِهَا .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ حُجَّةٌ عَلَى مُقَلِّدَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى مُقَلِّدَةِ الْأُورُبِّيِّينَ ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَضَاعُوا الدُّنْيَا وَالدِّينَ ، وَأَعْجَبُ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَرْنِجِينَ أَنَّهُمْ يَدَّعُونَ الِاسْتِقْلَالَ ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ مَا يَهْذُونَ بِهِ مِنَ الشُّبَهَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ ضَرْبٌ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ ، فَهَلُمَّ دَلَائِلَكُمْ عَلَى مَا تَرَكْتُمْ مِنْ هِدَايَةٍ ، وَمَا اسْتَحْدَثْتُمْ مِنْ غَوَايَةٍ فَإِنَّنَا لِمُنَاظَرَتِكُمْ مُسْتَعِدُّونَ ، وَكَمْ دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ وَأَنْتُمْ لَا تُجِيبُونَ ؟ .

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ) الرُّؤْيَةُ هُنَا

عِلْمِيَّةٌ وَ (الْقَرْنُ) مِنَ النَّاسِ الْقَوْمُ الْمُقْتَرِنُونَ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ ، جَمْعُهُ قُرُونٌ ، وَقَدِ اسْتُعْمِلَ فِي الْقُرْآنِ بِهَذَا الْمَعْنَى مُفْرَدًا وَجَمْعًا ، وَاخْتُلِفَ فِي الزَّمَنِ الْمُحَدَّدِ

(68/227)

لِلْقَرْنِ ، فَأَوْسَطُ الْأَقْوَالِ أَنَّهُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ سَنَةً ، وَقِيلَ : مِائَةٌ أَوْ أَكْثَرُ ، وَقِيلَ سِتُّونَ أَوْ أَرْبَعُونَ ، وَالْمَعْقُولُ أَنَّهُ مِقْدَارُ مُتَوَسِّطِ أَعْمَارِ النَّاسِ فِي كُلِّ زَمَنٍ . وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى تَحْدِيدِ الْقَرْنِ بِالْحَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْقَوْمُ . فَقَالَ الزَّجَّاجُ : أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ أَهْلِ عَصْرٍ فِيهِمْ نَبِيٌّ أَوْ فَائِقٌ فِي الْعِلْمِ أَوْ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ قَرْنٌ وَإِنِ امْتَدَّ زَمَنُهُ فِيهِمْ زُهَاءَ أَلْفِ سَنَةٍ وَقَوْمُ عَادٍ قَرْنٌ وَقَوْمُ صَالِحٍ قَرْنٌ ، وَيُطْلَقُ الْقَرْنُ عَلَى الزَّمَانِ نَفْسِهِ ،

وَالْمَشْهُورُ فِي عُرْفِ الْكُتَّابِ الْيَوْمَ أَنَّ الْقَرْنَ مِائَةُ سَنَةٍ . وَ (التَّمْكِينُ) يُسْتَعْمَلُ بِاللَّامِ وَفِي ، يُقَالُ : مَكَّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ جَعَلَ لَهُ مَكَانًا فِيهَا وَنَحْوَهُ أَرْضٌ لَهُ ، وَمِنْهُ (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) (18 : 84) وَيُقَالُ : مَكَّنَهُ فِي الْأَرْضِ أَيْ أَثْبَتَهُ فِيهَا ، وَمِنْهُ (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ) (46 : 26) كَذَا فِي الْكَشَّافِ . قَالَ وَلِتَقَارُبِ الْمَعْنَيَيْنِ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي

هَذِهِ الْآيَةِ . وَقِيلَ إِنَّ " مَكَّنَهُ وَمَكَّنَ لَهُ كَوَهَبَهُ وَوَهَبَ لَهُ " ، وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ اللَّامُ زَائِدَةٌ كَرِدْفٍ لَهُ ، وَسَيَأْتِي تَحْقِيقُ مَعْنَى الِاسْتِعْمَالَيْنِ .

(69/227)

وَالسَّمَاءُ الْمَطَرُ ، وَالْمِدْرَارُ الْمِغْزَارُ فَهُوَ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنَ الدَّرِّ ، وَهُوَ مَصْدَرُ دَرَّ اللَّبَنُ دَرًّا أَيْ كَثُرَ وَغَزُرَ ، وَيُسَمَّى اللَّبَنُ الْحَلِيبُ دَرًّا كَالْمَصْدَرِ .

وَالْإِرْسَالُ وَالْإِنْزَالُ مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى لِأَنَّ اشْتِقَاقَ الْإِرْسَالِ مِنْ رُسُلِ اللَّبَنِ وَهُوَ مَا يَنْزِلُ مِنَ الضَّرْعِ مُتَتَابِعًا ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : أَصْلُ الرِّسْلِ الِانْبِعَاثُ عَلَى التُّؤَدَةِ وَيُقَالُ نَاقَةٌ رَسْلَةٌ سَهْلَةُ السَّيْرِ ، وَإِبِلٌ مَرَاسِيلُ مُنْبَعِثَةٌ انْبِعَاثًا سَهْلًا ، وَمِنْهُ الرَّسُولُ الْمُنْبَعِثُ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْإِرْسَالَ يَكُونُ بِبَعْثِ مَنْ لَهُ اخْتِيَارٌ كَإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَبِالتَّسْخِيرِ كَإِرْسَالِ الرِّيحِ وَالْمَطَرِ وَبِتَرْكِ الْمَنْعِ نَحْوَ قَوْلِهِ : (أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ) (19 : 83) وَيُسْتَعْمَلُ فِيمَا يُقَابِلُ الْإِمْسَاكَ نَحْوَ (وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ) (35 : 2) .

(70/227)

وَالْكَلَامُ اسْتِئْنَافٌ لِبَيَانِ مَا تَوَعَّدَهُمْ بِهِ وَكَوْنُهُ مِمَّا سَبَقَتْ بِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُكَذِّبِينَ مِنْ أَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالْمَعْنَى أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الْمُكَذِّبُونَ بِالْحَقِّ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ أَعْطَيْنَاهُمْ مِنَ التَّمْكِينِ وَالِاسْتِقْلَالِ فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَابِ التَّصَرُّفِ فِيهَا مَا لَمْ نُعْطِهِمْ هُمْ مِثْلَهُ ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْمَوَاهِبُ وَالنِّعَمُ بِمَانِعَةٍ لَهُمْ مِنْ عَذَابِنَا لِمَا اسْتَحَقُّوهُ بِذُنُوبِهِمْ (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) (54 : 43) ؟ لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ ، فَإِمَّا الْإِيمَانُ وَإِمَّا الْهَلَاكُ .

(71/227)

وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ : مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَيِ الْقُرُونَ مَا لَمْ نُمَكِّنْهُمْ أَيِ الْكُفَّارَ الْمَحْكِيَّ عَنْهُمُ الْمُسْتَفْهَمَ عَنْ حَالِهِمْ ، فَعَدَلَ عَنْ ذَلِكَ بِالِالْتِفَاتِ عَنِ الْغِيبَةِ إِلَى الْخِطَابِ لِمَا فِي إِيرَادِ الْفِعْلَيْنِ بِضَمِيرَيِ الْغَيْبَةِ مِنْ إِيهَامِ اتِّحَادِ مَرْجِعِهِمَا وَكَوْنِ الْمُثْبَتِ عَيْنَ الْمَنْفِيِّ . فَقِيلَ : مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ : وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ : " مَا لَمْ نُمَكِّنْكُمْ " أَوْ : " وَمَكَّنَّا لَهُمْ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ " وَهُوَ مُقْتَضَى الْمُطَابَقَةِ لِنُكْتَةٍ دَقِيقَةٍ لَا يُدْرِكُهَا إِلَّا مَنْ فَقُهَ الْفَرْقَ بَيْنَ مَكَّنَهُ وَمَكَّنَ لَهُ ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْهُ جَمَاهِيرُ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ " وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ مَعْنَى مَكَّنَهُ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الشَّيْءِ : جَعَلَهُ مُتَمَكِّنًا مِنَ التَّصَرُّفِ تَامَّ الِاسْتِقْلَالِ فِيهِ . وَأَمَّا مَكَّنَ لَهُ فَقَدِ اسْتُعْمِلَ فِي الْقُرْآنِ مَعَ

التَّصْرِيحِ بِالْمَفْعُولِ بِهِ وَمَعَ حَذْفِهِ ، فَالْأَوَّلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ) (24 : 55) وَقَوْلِهِ : (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا) (28 : 57) وَالثَّانِي كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) (12 : 21) وَقَوْلِهِ فِي ذِي الْقَرْنَيْنِ : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) (18 : 84) فَلَا بُدَّ فِي مِثْلِ هَذَا مِنْ تَقْدِيرِ الْمَفْعُولِ الْمَحْذُوفِ مَعَ مُرَاعَاةِ مَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ

(72/227)

مِنْ نُكَتِ الْحَذْفِ ، كَكَوْنِ الْمَفْعُولِ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ عَامًّا يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يَصْلُحُ لِلْمَقَامِ ، كَأَنْ يُقَالُ : مَكَّنَّا لِيُوسُفَ وَلِذِي الْقَرْنَيْنِ فِي الْأَرْضِ جَمِيعَ أَسْبَابِ الِاسْتِقْلَالِ فِي التَّصَرُّفِ . إذَا فَقِهْتَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ احْتِبَاكًا تَقْدِيرُهُ " مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْكُمْ ، وَمَكَّنَّا لَهُمْ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ " وَمَعْنَى الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَتَمَكُّنًا فِي أَرْضِهِمْ ، فَلَمْ يَكُنْ يُوجَدُ حَوْلَهُمْ مَنْ يُضَارِعُهُمْ فِي قُوَّتِهِمْ ، وَيَقْدِرُ عَلَى سَلْبِ اسْتِقْلَالِهِمْ ، وَمَعْنَى الثَّانِي أَنَّا أَعْطَيْنَاهُمْ مِنْ أَسْبَابِ التَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ وَضُرُوبِ التَّصَرُّفِ وَأَنْوَاعِ النِّعَمِ مَا لَمْ نُعْطِكُمْ . فَحَذَفَ مِنْ كُلٍّ مِنَ الْمُتَقَابِلَيْنِ مَا أَثْبَتَ نَظِيرَهُ فِي الْآخَرِ ، وَهَذَا مِنْ أَعْلَى فُنُونِ الْإِيجَازِ ، الَّذِي وَصَلَ فِي الْقُرْآنِ إلَى أَوْجِ الْإِعْجَازِ ، وَيَصْدُقُ كُلٌّ مِنَ التَّمْكِينَيْنِ عَلَى قَوْمِ عَادٍ

وَثَمُودَ وَقَوْمِ فِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا يُعْلَمُ مِنْ قَصَصِ الرُّسُلِ فِي الْقُرْآنِ وَمِنَ التَّارِيخِ الْعَامِّ .
ثُمَّ عَطَفَ عَلَى هَذَا مَا امْتَازَتْ بِهِ الْقُرُونُ عَلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ مِنَ النِّعَمِ الْإِلَهِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِمَوَاقِعِ بِلَادِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ : (وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا) إِرْسَالُ السَّمَاءِ عِبَارَةٌ عَنْ إِنْزَالِ الْمَطَرِ ، وَالْمِدْرَارُ الْغَزِيرُ كَمَا تَقَدَّمَ (وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ)

(73/227)

أَيْ وَسَخَّرْنَا لَهُمُ الْأَنْهَارَ وَهِيَ مَجَارِي الْمِيَاهِ الْفَائِضَةِ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى الِاسْتِمْتَاعِ بِهَا بِجَعْلِهَا تَجْرِي دَائِمًا مِنْ تَحْتِ مَسَاكِنِهِمُ الَّتِي يَبْنُونَهَا عَلَى ضِفَافِهِ ، أَوْ فِي الْجَنَّاتِ وَالْحَدَائِقِ الَّتِي تَتَفَجَّرُ خِلَالَهَا ، فَيَتَمَتَّعُونَ بِالنَّظَرِ إِلَى جَمَالِهَا ، وَسَائِرِ ضُرُوبِ الِانْتِفَاعِ مِنْ أَمْوَاهِهَا .

(74/227)

(فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) (أَيْ فَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ لَمَّا كَفَرُوا بِتِلْكَ النِّعَمِ وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ أَنْ أَهْلَكْنَا كُلَّ قَرْنٍ مِنْهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَقْتَرِفُونَهَا .
وَأَنْشَأْنَا أَيْ أَوْجَدْنَا مِنْ بَعْدِ الْهَالِكِينَ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمْ قَرْنًا آخَرِينَ يُعَمِّرُونَ الْبِلَادَ وَيَكُونُونَ أَجْدَرَ

بِشُكْرِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ فِيهَا . وَالذُّنُوبُ الَّتِي يُهْلِكُ اللهُ بِهَا الْقُرُونَ وَيُعَذِّبُ بِهَا الْأُمَمَ قِسْمَانِ : (أَحَدُهُمَا) مُعَانَدَةُ الرُّسُلِ وَالْكُفْرُ بِمَا جَاءُوا بِهِ . (وَثَانِيهِمَا) كُفْرُ النِّعَمِ بِالْبَطَرِ وَالْأَشَرِ وَغَمْطُ الْحَقِّ وَاحْتِقَارُ النَّاسِ وَظُلْمُ الضُّعَفَاءِ ، وَمُحَابَاةُ الْأَقْوِيَاءِ ، وَالْإِسْرَافُ فِي الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ ، وَالْغُرُورُ بِالْغِنَى وَالثَّرْوَةِ ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْكُفْرِ بِنِعَمِ اللهِ وَاسْتِعْمَالُهَا فِي غَيْرِ مَا يُرْضِيهِ مِنْ نَفْعِ النَّاسِ وَالْعَدْلِ الْعَامِّ ، وَالْأَيَّامُ النَّاطِقَةُ بِتِلْكَ الذُّنُوبِ مُجْتَمِعَةٌ وَمُتَفَرِّقَةٌ كَثِيرَةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) (28 : 58 ، 59) (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (11 : 102) (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً

(75/227)

يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (16 : 112) (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا 17 : 16)

وَالْعَذَابُ الَّذِي يُعَذِّبُ اللهُ بِهِ الْأُمَمَ وَيُهْلِكُ الْقُرُونَ وَيُدِيلُ الدُّوَلَ قِسْمَانِ أَيْضًا . الْجَوَائِحُ وَالِاسْتِئْصَالُ ، وَفَقْدُ الِاسْتِقْلَالِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا وَذَاكَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى كُفَّارِ مَكَّةَ وَهَدْمٌ لِغُرُورِهِمْ بِقُوَّتِهِمْ وَثَرْوَتِهِمْ بِإِزَاءِ ضَعْفِ عَصَبِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَقْرِهِ ، وَقَدْ حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ

أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (34 : 35) .

(76/227)

أَمَّا الْقَوْمُ أَوِ الْقَرْنُ الْآخَرُونَ الَّذِينَ يَخْلُفُونَ مَنْ نَزَلَ بِهِمْ عَذَابُ اللهِ تَعَالَى ، فَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا مُخَالِفِينَ لَهُمْ فِي صِفَاتِهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ جِبِلَّتِهِمْ وَأَبْنَاءِ جِيلِهِمْ ، فَالشُّعُوبُ الَّتِي نُكِبَتْ بِالْحَرْبِ الْمُشْتَعِلَةِ الْآنَ فِي أُورُبَّا لَا بُدَّ أَنْ يَخْلُفَ الْهَالِكِينَ فِيهَا خَلَفٌ يَتْرُكُونَ كَثِيرًا مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَكُفْرِ نِعَمِهِ ، وَيَكُونُوا أَقَلَّ مِنْهُمْ بَطَرًا وَقَسْوَةً وَانْغِمَاسًا فِي التَّرَفِ وَالسَّرَفِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُمَا مِنَ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ ، قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْقِتَالِ : (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (47 : 38) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار جـ 7 صـ 251. 258 ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾

هذا ما شاهدته قريش في رحلات الشتاء والصيف . رأوا آثار عاد قوم هود وبقايا ثمود قوم صالح . وكانت إمكانات عاد وثمود أكبر من إمكانات قريش . إن قريشاً لا سيادة لها إلا بسبب وجود الكعبة ، ولو كان الحق ترك أبرهة يهدم الكعبة لما مكن لهم في الأرض . ها هي ذي حضارات قد سبقت وأبادها الحق سبحانه وتعالى : ويوضح القرآن ذلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : 6-13] .

إنها حضارات كبيرة لهم صيت وخبر في آذان الدنيا مثل حضارة الفراعنة . وكل ذلك الصولجان لا يحميه أحد من أمر الله . وزالت الحضارات وأصبحت أثراً بعد عين ، وصدق عليها قول الحق : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ

أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] .

(78/227)

والحق يجازي كل كافر الجزاء الوافي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر قومه بما حدث لغيرهم من أقوام آخرين ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ والقرن عادة هو الجيل الذي يحكمه زمن محدود أو حال محدود ، فإن نظرنا إلى الزمن فالقرن مائة سنة كأقصى ما يمكن ، والجيل الذي يعيش هذا القدر يرى حفيده وقد صار رجلاً . ونعلم أن نوحاً عليه السلام عاش تسعمائة وخمسين سنة . يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [العنكبوت : 14] .

وحياة نوح على طولها تسمى قرناً . إذن فالقرن هو جيل يجمعه ضابط إما زمني وإما معنوي ، والقرن الزمني مدته مائة سنة ، أما القرن المعنوي فقد يكون عمر رسالة أو مُلْك .

ويخبر الحق أهل الكفر بأنه قد قدر على غيرهم وأبادهم بعد أن مكن لهم في الأرض وذلك بألوان مختلفة من أنواع التمكين : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السماء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ ، وهذا الخبر يأتي من

السماء بما حدث لقوم سابقين مثل قوم سبأ ، فقد قال عنهم الحق في موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : 15] .

(79/227)

ومسكن سبأ باليمن آية دالة على قدرة الله ؛ حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ؛ ليأكل أهل سبأ من رزق الله ويشكروا نعمة الله . وكان لهم سد مأرب ، ووهبهم الله القدرة لبنائه ، فقطعوا من الجبال التي ليس عمل فيها ليحجزوا ماء المطر الساقط من السماء ، كل شيء إذن فعلوه وإنما فعلوه لأن الله قد أراده ، وهم أعرضوا عن أمرين : عن الرزق الوفير الذي منحهم الله إياه وأرادوا أن يعتمدوا على أنفسهم كما فعل قارون حيث قال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ .

ظنوا أنهم قادرون على رزق أنفسهم وكذلك لم يشكروا الله ، ولذلك أرسل الله عليهم سيل العرم ، أي أنه عقاب من جنس العمل ، وهكذا تكون عاقبة الإعراض والكفر بنعم الله .

فقد سلط الله عليهم حيوانا من أضعف الحيوانات وأحقرها وهو الفأر فنقب السد فأغرق أموالهم ودفن بيوتهم .

ويخبر الحق رسوله بكل هذه الأخبار ليلفت بها وينبه إليها قوماً رأوا آثار حضارة عاد وثمود ، والرؤية سيدة الأدلة ، وطالبهم الرسول بها حتى يعرفوا عاقبة الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، ولم يطلب الحق من رسوله إلا البلاغ فقط ، أما إيمان القوم فليس مكلفاً به صلى الله عليه وسلم ، إن هؤلاء قد خافوا من سيطرة " لا إله إلا الله " فهم الذين صنعوا من أنفسهم آلهة وتسلط بعضهم على بعض . فتخيل القوي أنه إله على الضعيف . وتخيل الغني أنه إله على الفقير ، وتخيل العالم أنه إله على الجاهل ، أما " لا إله إلا الله " فهي تساوي بين الناس جميعاً ، وهم يرفضون ذلك لأنهم يريدون السيادة . . ومثال ذلك قولهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

(80/227)

فهم لم يجرؤوا على الطعن في القرآن ، إنما طلبوا أن تكون السيادة لغني من أغنياء القريتين مكة أو الطائف وتناقض هذا القول مع عملهم وسلوكهم مع الرسول ، فقد حفظوا كل نفيس حرصوا عليه عند محمد صلى الله عليه وسلم . ولو كان الواحد منهم يرى شيئاً أو مغمزاً في أمانة رسول الله لما فعلوا ذلك . ولكن الواحد منهم بالرغم من التكذيب بمحمد لم يكن يأتمن إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالإنسان حينما تقع مصلحته أمام تكذيبه فهو

يغلب مصلحته على تكذيبه .

ويبين الحق سبحانه أن إعراض هؤلاء ، وتكذيب هؤلاء واستهزاء هؤلاء ، لا يمت إلى حقيقة أمرك يا رسول الله ، ولا إلى حقيقة القرآن في شيء ، وإنما هو العناد ، مثلهم مثل آل فرعون الذين جحدوا آيات الله على الرغم من أن أعماقهم رأت هذه الآيات بيقين لا تكذيب فيه . ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ [النمل : 14] .

فقد أنكر قوم فرعون رسالة موسى عليه السلام مع أنهم تأكدوا من صدقها ، ولكنهم أنكروها بالاستكبار والعلو والظلم ، فكانت عاقبتهم من أسوأ العواقب ، وهذا هو حال المنكرين دائماً لآيات الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(81/227)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم " وفى سورة الشعراء : "أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم " ، للسائل أن يسأل

هنا عن شيئين : أحدهما ثبوت الواو العاطفة فى آية الشعراء وسقوطها من آية الأنعام ؟

والثانى وجه اختصاص كل واحدة منهما بموضعهما وإبداء المناسبة ؟

والجواب عن ذلك : إن آية الأنعام لم يتقدم قبلها التنبيه على ما به التذكار والاعتبار مفصحا به تنبيها مع تخويف وتهديد متأكد مكرر يستدعى التقريع والتوبيخ بمقتضى الهمزة الداخلة على واو العطف كما فى سورة الشعراء وان كان المتقدم فى كل واحدة من السورتين متضمنا ما يحصل به الاعتبار مع ما فى المتقدم فى الأنعام من التفصيل والإطناب إلا أن المتقدم فى سورة الشعراء أوضح وأنص من حيث التخويف لعدم الاعتبار بالدلائل المنصوبة مشاهدة للمعتبرين فلما لم يكن وضوح التنبيه فيما قبل آية الأنعام كوضوحه فى السورة الأخرى بما انجر معه من التخويف المتكرر وإنما المتقدم قبل قوله : "ألم يروا " إيماء إلى الاعتبار بأحوال القرون السابقة وليس كالواقع قبل آية الشعراء لم يرد ما بعده مما هو تنبيه مخوف معطوفا عليه إذ لا يناسبه "كفروا " المتقدم من شديد التخويف المنجر فيما بعده أما آية الشعراء فإن قوله تعالى قبلها : "تلك آيات الكتاب المبين " تحريك وتنبيه ، ثم إن ما يتلوه من قوله تعالى : "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " وإن كان تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم فى طيه أعظم وعيد وتهديد لمن اعتبر ثم بعد ذلك قوله تعالى : "إن نشأ عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين " إلى ما بعده فهذا أوضح تنبيه بما صحبه من

مخوف التهديد فعطف عليه قوله : "ألم يروا إلى الأرض كم آتينا فيها " . . . الآية وناسبه أوضح مناسبة .

(82/227)

فصل : ومما تعلق بهذه الآية من المغفل زيادة "من " فى قوله تعالى : "ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض " وفى سورة السجدة : "ألم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم " وفى ص : "كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا . . . " . وردت هذه الآى الثلاث بزيادة "من "فيها وسائر ما ورد فى القرآن من مثل هذه الآى لم ترد فيها "من "كقوله تعالى فى سورة مريم : "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا " وفى آخرها : " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد " وفى طه : "أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم " ، وفى يس : "ألم يروا من أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون "وفى سورة ق : "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا " فهذه خمسة مواضع لم ترد فيها "من " فيسأل عن وجه زيادتها فى الآى الثلاث الأول وسقوطها فى هذه الخمس مع اتحاد المقصود أو تقاربه ؟

(83/227)

والجواب والله أعلم : أن "من " إنما تزاد فى هذه الآى حيث يراد تأكيده ضمن الآى من المعطيات ولإشارة إلى الوعيد وهى أبدا فى أمثال هذه المواضع محرزة معنى التأكيد لا تنفك عن ذلك ثم إن حذفها أوجز من إثباتها ولكل مقام مقال ، فحيث ورد فى هذه الآى ما قبله استيفاء تفصيل وعيدين فى أمة بعينها أو أكثر أو تكرر التهديد وشدة التخويف من مقتضى السياق وفحوى الكلام فذلك موضع زيادتها والتأكيد بإثباتها وحيث لا يتقدم فى اقتضاء مقتضاها نفوذ الوعيد فهذا يناسبه الإيجاز بحذفها إذ لا يراد من تأكيد الوعيد ما يراد فى الآى الأخر فهذا إن شاء الله يوضح ما ورد من الحذف ولإثبات فى هذا الحرف ثم نقول : أما آية الأنعام فقد تقدمها قوله تعالى : "الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور " ، وقد كانوا يعترفون بأنه تعالى الخالق "ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله " ثم تتابع ما بعد على هذا إلى قوله "وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين " على بيان الأمر ووضوحه ثم قال "فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " فحصل التسجيل ببقائهم على اظفعراض وإنفاذ الوعيد عليهم ولا أشد من هذا ونحوع بل مثله فى الشدة والإشارة إلى إنفاذ الوعيد قوله تعالى فى سورة السجدة "ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها " فاكتنف الآية ما تضمنته الآيتان من الوعيد والتهديد فناسب ذلك ما اقتضته زيادة "من " من مناسبة التأكيد فقيل "ومن قبلهم " وأما

آية ص فحسبك ما تضمنته من أولها إلى قوله "وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق " ثم قال تعالى مخبرا عن حالهم فى تكذيبهم واستبعادهم "عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب " ولعظيم تمردهم ووعيدهم المحكى عنهم فى هذه الآى ما أمر به صلى الله عليه وسلم من الصبر فى قوله تعالى "اصبر على ما يقولون " ثم أعقب تعالى بقصة داود عليه السلام أعلاما لنبيه بأن ذلك مراده منهم بما قدر لهم فى الأزل

(84/227)

فقد سخر الجبال والطير لداود وألان له الحديد فلو شاء لهدى هؤلاء فلعظيم ما ورد فى هذه الآى من مرتكبات كفار قريش وغيرهم لذلك ما ورد التأكيد بزيادة "من " فى قوله بعد ذكر شقاقهم واغترارهم "كم أهلكنا من قبلهم من قرن " فهذا وجه زيادة "من " فى هذه الآى أما الآى الأخرى خمستها فلم يرد فيها ولا فيما اتصل بها ما ورد فى هذه من التغليظ فى الوعيد ومتوالى التهديد وإن كانت قل ما ترد إلا لذلك ولكن اشتداد التهديد إنما هو بحسب ما يقارن أو يكنف أو يتقدم أو ينجر معها من التغليظ فى الوعيد فبحسب ذلك يقوى الرجاء أو يضعف وإذا تأملت قوله تعالى فى الآية الأولى من سورة مريم "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا " لم تجدها فى نفسها أو فيما انتظم معها متقدما أو

متأخرا توازن فى التهديد واحدة من تلك الآى الثلاث ألا ترى فيما نوظر بين المعنيين بهذه الآية والمهلكين قبلهم من القرون السالفة وأن ذلك إنما هو فيما غرهم من سعة الحال وكثرة المال حسبما أشار إليه قوله تعالى عن المهلكين قبل هؤلاء أنهم كانوا أحسن أثاثا ورئيا فهذه الآية كقولهم "نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين " ولو استبصروا لاهتدوا من قوله تعالى "إنما نملى لهم ليزدادوا إثما " ومع ما أعقبت هذه الآية من المنتظم معها من قوله "فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا " فليست فى التغليظ كتلك الآى إذا حقق ما قبلها وكذلك الآية الثانية وهى قوله "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد . . . "الآية فى نفسها وفيما انتظمت به وأما آية طه فأوضح فى إيحاء الرجاء فى نفسها وما نتظمت به ألا ترى ما قوله تعالى "أفلم يهد لهم " وما تضمن تذكيرهم بهذا إلى قوله "لأولى النهى " من عظيم الحلم وعلى الرفق وكذا ما بعد فإن هذا من منتظم تلك الآى الثلاث وأما آية يس وآية ق فأوضح فيما ذكرنا وتأمل مفهومها وما انتظم معهما وإنما حاصلهما بما اتصل بهما تحريك للاعتبار وتذكير بالالاء والنعم وتأمل قوله فى المنتظم

بآية يس والمعقبة به من

قوله " أفلا يشكرون " وعلى ما يترتب الشكر إذ لا يمكن إلا مرتبا على حصول الإيمان والتصديق وقوله عقب آية ق " إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " فقد وضح ما بين الضربين وورود كل منهما على ما يناسب ويجب والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 140 . 143 ﴾

(86/227)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

"كم " يجوز أن تكون اسْتِفْهامِيَّةً وخبَرِيَّةً ، وفي كِلاَ التقديرين فهي معلقة للرؤية عن العَمَلِ ، لأنَّ الخَبَرِيَّةَ تجري مجرى اسْتِفْهامِيَّةٍ في ذلك ، ولذلك أعطيت أحكامها من وجوب التَّصْدِيرِ وغيره ، والرُّؤْيَةُ هنا عِلْمِيَّةٌ ، ويضعف كونها بصرية ، وعلى ككلا التقديرين فهي معلّقة عن العمل ؛ لأنَّ البصرية تجر مجراها ، فإن كانت عِلْمِيَّةً ف "كم " وما في حيِّزها سادَّة مسدَّ مفعولين ، وإن كانت بَصَرِيَّةً فمسدّ واحد .

و "كم " يجوز أن تكون عبارة عن الأشخاص ، فتكون مفعولاً بها ، نَاصِبُهَا " أَهْلَكْنا " أي :

إهلاكاً ، و" من قرنٍ " على هذا صِفَةٌ لمفعول " أَهَلَكْنَا " أي : أهلكنا قوماً ، أو فوجاً من القُرُونِ ؛ لأنَّ قرناً يُرَادُ به الجَمْعُ ، و" مِنْ " تبعيضية ، والأولى لابتداء الغاية .

وقال الحُوفِي : " من " الثانية بَدَلٌ من " مِنْ " الأولى ، وهذا لا يُعْقَلُ فهو وَهْمٌ بَيِّنٌ ، ويجوز أن تكون " كم " عبارة عن الزَّمَانِ ، فتنتصبُ على الظرف .

قال أبو حيان : تقديره : كم أزمنةٍ أهلكنا فيها .

وجعل أبو البقاء على هذا الوجه " مِنْ قَرْن " هو المفعول به ، و" منْ " مَزِيدَةٌ فيه ، وجاز ذلك ؛ لأن الكلام غير موجب ، والمجرور نكرة ، إلاَّ أنَّ أبا حيَّان مَنَعَ ذلك بأَنَّهُ لا يقع إذ ذاك المفرد موقع الجمع لو قلت : " كم أزماناً ضَرَبْت رجلاً " أو كم مرة ضربت رجلاً لم يكن مدلولُ رجلٍ رجلاً ، لأنَّ السؤال إنما يَقَعُ عن عدد الأزمنة أو المَرَّاتِ التي ضربت فيها ، وبأن هذا ليس مَوْضَعَ زيادة " مِنْ " لأَنَّها لا تُزَادُ في الاستفهام ، إلاَّ وهو استفهامٌ مَحْضٌ أو يكون بمعنى النَّفي ، والاستفهام هنا لَيْسَ مَحْضاً ولا مُرَاداً به النفي انتهى .

قال شهابُ الدِّين : وجوابه لا يسلم .

و" قَرْن " الجماعة من النَّاسِ وجمعه " قرون " .

وقيل : القَرْنُ مُدَّة من الزمان ، يقال : ثمانون سنةً ، [ويقال : ستُّون سَنَةً] ويُقال : أربعون سَنَةً ، ويقال : ثلاثون سَنَةً ، ويقال : مائة سنة ؛ لما روي أَنَّه – عليه السلامُ – قال لعبد الله بن بشر المازني : " تَعِيْشُ قَرْناً " فعاش مائة سَنَةٍ ، فيكون معنى الآية على هذه الأَقَاوِيلِ من

أهل قرنٍ ؛ لأنَّ القَرْنَ الزمان ، ولا حَاجَةَ إلى ذلك إلاَّ على [اعتقاد] أنه حقيقة فيه مَجَازٌ في النَّاسِ ، وسيأتي بَقِيَّةُ الكلام عليه في الصَّفْحَةِ الثانية .

(87/227)

قوله : " مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ " في موضع جرٍّ صفة لـ " قرن " ، وعاد الضميرُ عليه جمعاً باعتبارِ معناه .

قاله أبو البقاء – رضي الله عنه – ، والحوفي رحمه الله .

وضعَّفه أبو حيان بأن " من قرن " تمييز لـ " كم " ، ف " كم " هي المُحَدَّثُ عنا بالإهلاكِ ، فهي المُحَدَّثُ عنها بالتَّمْكينِ لا ما بَعْدَهَا ؛ إذ " من قرن " يجري مجرى التَّبْيِنِ ، ولم يُحَدَّث عنه .

وجوَّز أبو حيَّان – رحمه اللَّهُ تعالى – أنْ تكون هذه الجُمْلَةُ اسْتِئْنَافاً جواباً لسؤال مُقَدَّرٍ ، قال : كأنَّه قيل : ما كان من حَالِهِمْ ؟ فقيل : مَكَّنَّاهم ، وجعله هو الظَّاهر ، وفيه نظرٌ ، فإنَّ النكرة مُفْتَقِرةٌ للصِّفَةِ فَجَعْلُهَا صفة أَلْيَقُ ، والفَرْقُ بين قوله تبارك وتعالى : ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض ﴾ وقوله : ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [أن " مكنة في كذا] أثبته فيها ، ومنه ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ ﴾ [الأحقاف : 26] وأما مكَّنَا جعل له مكاناً ، ومنه : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي

الأرض ﴾ [الكهف: 84] ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ ﴾ [القصص: 57].

ومثله "أرضٌ له" أي: جعل له أرضاً، هذا قول الزمخشري - رحمه الله تعالى - وأما أبو حيَّان - رضي الله عنه - فإنَّهُ يَظْهَرُ من كلامه التَّسْوِيَةُ بيهما، فإنَّهُ قال: وتعدِّي "مَكَّن" هنا للذَّوَات بنفسه وبحرف الجَرِّ، والأَكْثَرُ تَعْدِيَتُهُ باللام [نحو] ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف: 21] ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ ﴾ [الكهف: 84]، ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ ﴾ [القصص: 57].

وقال أبو عُبَيْدَة: "مكَّنَّاهُمْ ومكَّنَّا لهم: لغتانِ فصيحتان، نحو: نَصَحْتُه، ونَصَحْتُ له" وبهذا قال أبو علي والجرجانيُّ.

قوله: "ما لم نُمكِّنْ لكم" في "ما" هذه همسة أوجه:

(88/227)

أحدهما: أنْ تكون مَوْصُولةً بمعنى "الذِّي"، وهي حينئذٍ صفةٌ لموصوف محذوف، [والتقديرُ: التمكين الذين لم نُمَكِّنْ لكم، مَحْذُوفٍ تقديره: تمكيناً ما لم نُمَكِّنْهُ لَكُمْ.

الثاني: أنها نكرةٌ صفةٌ لمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ تقديره: ما لم نُمَكِّنْهُ لكم، ذكرهما الحُوفِيُّ رحمه الله تعالى.

وردَّ أبو حيَّان – رحمه الله تعالى – الأوَّلَ بأنَّ " ما " بمعنى " الذي " لا تكون صِفَةً لمعرفةٍ ، وإن كان " الذي " يقع صِفَةً لها ، لو قلت : " ضَرَبْتُ الضَّرْبَ ما ضَرَبَ زيدٌ " تريد الضربَ الذي ضربه زَيْدٌ ، لم يَجُزْ ، فإن قلت : " الضَّرْبَ الذي ضربه زيد " جاز .

وَرَدَّ الثاني بأن " ما " النكرة التي تَقَعُ صِفَةً لا يجوزُ حَذْفُ موصوفها ، لو قلت : " قُمْتُ ما وضَرَبْتُ مَا " وأنت تعني : قُمْتُ قياماً ما وضربت ضرباً ما لم يَجُزْ .

الثالث : أن تكون مَفْعُولاً بها لـ " مَكَّنَ " على المعنى ، لأنَّ معنى مكَّنَّاهُمْ : أعطيناهم ما لم نُعْطِكُمْ ، ذكره أبو البقاءِ – رحمه الله – .

قال أبو حيَّان – رحمه الله – : " هذا تَضْمِينٌ ، لا يَنْقَاسُ " .

الرابع : أن تكون " ما " مَصْدريَّةً ، والزَّمَان محذوف ، أي : مُدَّةَ ما لم نمكِّن لكم ، والمعنى : مُدَّةَ انْتِفَاءِ التمكين لكم .

الخامس : أن تكون نكرةً موصُوفَةً بالجملة المنفيَّة بعدها ، والعائد محذوف ، أي : شيئاً لم نمكِّنه لكم ، ذكرهما أيضاً أبو البقاء قال أبو حيان – رحمه الله تعالى – في الأخير : " وهذا أقْرَبُ إلى الصَّوابِ " .

قال شهاب الدين – رحمه الله تعالى – : ولو قدَّره أبو البقاءِ بخاصٍّ لكان أحْسَنَ من تقديرِه بلفظ " شيء " ، فكان يقول : مَكَّنَّاهُمْ تمكيناً لم نمكِّنه لكم .

والضمير في " يروا " قيل : عائدٌ على المُسْتَهْزِئين ، والخطابُ في " الكم " راجعٌ إليهم أيضاً ، فيكون على هذا التِفَاتاً فائدتُهُ التَّعْرِيض بقلَّةِ تمكُّنِ هؤلاء ، ونَقْصِ أحوالهم عن حَالِ أولئك ، ومع تمكينهم وكثرتهم فقد حَلَّ بهم الهَلاَكُ ، فكيف وأنتم أقَلُّ منهم تمكيناً وعدداً ؟ .

وقال ابن عطيَّة – رحمه الله تعالى – : " والمُخَاطَبَةُ في " الكم " هي للمؤمنين ولجميع المُعَاصرين لهم ولسائِرِ النَّاس كافَّةً ، كأنه قيل : لم نُمَكِّن يا أهل هذا العَصْرِ لكم ، ويحتمل أن يُقدَّر معنى القول لهؤلاء الكَفَرَةِ ، كأنه قال : يا مُحَمَّدُ قُل لهم : " أَلَمْ يَرَوا كَمْ أَهْلَكْنَا " الآية ، فإذا أخبرت أنك قُلْتَ – أو أَمَرْتَ أن يُقال – فلك في فَصيح كلام العرب أن تحكي الأَلْفَاظَ المَقُولَةَ بعينها ، فتجيءَ بلفظ المُخَاطبة ، ولك أن تجيء بالمعنى في الألفاظ بالغَيْبَةِ دون الخطاب " انتهى .

ومثاله : " قُلْتُ لزيد : ما أكرمك ، أو ما أكرمه " .

و " القَرْنُ " يقع على مَعَانٍ كثيرة : فالقرن : الأُمَّةُ من النَّاس ، سُمُّوا بذلك لاقْتِرَانِهِمْ في مُدَّةٍ من الزَّمانِ ، ومنه قوله – عليه الصلاة والسلام – : " خَيْرُ القُرونِ قَرْني "

وقال الشاعر [في ذلك المعنى :] [الطويل]

– . . .

2108 أَخَبِّرُ أَخْبَارَ القُرُونِ التي مَضَتْ

أدِبٌ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ . . .

وقال قَسُّ بنُ سَاعِدَةَ : [مجزوء الكامل]

2109 - . . .

فِي الذَّاهبينَ الأوَّلِي

نَ مِنَ القُرُونِ لَنَا بَصَائِر . . .

وقيل : أصله الانتفاعُ ، ومنه قَرْنُ الثَّوْرِ وغيره ، فَسُمُّوا بذلك لارتفاع السِّنِّ .

وقيل : لأنَّ بعضهم يُقْرَنُ ببعض ، ويُجْعَلُ مجتمعاً معه ، ومنه القرنُ للحَبْلِ يُجْمَعُ به بين البَعيرَيْنِ ، ويُطلَقُ على المُدَّة من الزَّمان أيضاً .

(90/227)

وهل إطلاقُهُ على النَّاسِ والزَّمان بطريق الاشْتَرَاكِ ، أو الحقيقة والمجاز ؟ يُرَجَّعُ الثَّاني ؛ لأنَّ المجَازَ خيرٌ من الاشْتِرَاكِ .

وإذا قُلنا بالراجح ، فإنها الحقيقة ، الظاهر أنه القَوْمُ ؛ لأنَّ غالب ما يُطْلَقُ عليهم ، والغَلَبَةُ مُؤذِنَةٌ الأصَالَةِ غالباً .

وقال ابنُ عطيَّة - رحمه الله تعالى : - القَرْنُ أنْ يكون وفاةُ الأشيخ وولادةُ الأطفال ، ويَظْهَرُ

ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : 6] فجعله مَعْنًى ، وليس بواضح وقيل : القَرْنُ : النَّاسُ المجتمعون كما تقدَّم ، قلّت السِّنُون أو كثُرتْ ، واستدلُّوا بقوله عليه الصلاة والسلام : " خَيْرُ القُرونِ قَرْنِي " وبقوله : [مجزوء الكامل]

2110 - فِي الذَّاهبين الأوَّلِي . . .

نَ مِنَ القُرُونِ لَنَا بَصَائِر

وبقول القائل في ذلك : [الطويل]

211 - إذَا ذَهَبَ القَوْمُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِمُ . . .

وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ

فأطلقوه على النَّاسِ ليفيد الاجتماع .

ثم اختلفت النَّاسِ فِي كميةِ القَرْنِ حالة إطلاقه على الزَّمان ، فالجمهور على أَنَّهُ مائة سنة ، واستدلُّوا له بقوله عليه السلام : " تَعيشُ قَرْناً " فعاش مائة سَنَةٍ ، وقيل : مائة وعشرون سنة ، قاله إِيَاسُ مُعَاوِيَةَ ، وزارة بن أبي أوفى .

وقيل : ثمانون نقله أبو صالح عن ابن عبَّاسٍ .

وقيل : سبعون ؛ قاله الفرّاء .

وقيل : ستُّون لقوله عليه السلام : " مُعْتَرَكُ المنَايَا ما بَيْنَ السِّتِّينَ إلى السّبعينَ "

وقيل : أربعُون ، حكاه محمد بن سيرين ، يرفعه إلى النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلامُ ، وكذلك

الزَّهراوي أيضاً يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقيل : ثلاثون حكاهُ النَّحَّاش عن أبي عُبَيْدة ، كانوا يرون أن ما بين القرنين ثلاثون سنة .

وقيل : عشرون سنةً ، وهو رأي الحَسَنِ البصري .

وقيل : ثمانية عشر عاماً .

(91/227)

وقيل : المقدار الوَسَطُ مثل أعمار أهل ذلك الزمان ، واسْتُحْسِنَ هذا بأنَّ أهل الزَّمَنِ القديم كانوا يعيشون أربعمائة سَنَةً ، وثلاثمائة سنة ، وألفاً وأكثر وأقلَّ .

ومعنى الآية : أعطيناهم ما لم نُعْطِكُمْ .

وقال ابن عبَّاس : أمهلناهم في العمر مثل قوم نوح وعادٍ وثمود .

قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السماء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً ﴾ يعني المَطَرَ " مِنفْعَال " من الدَّرِّ و " مِدْرَاراً " حالٌ من " المساء " إنْ أُريد بها السحاب ، فإن السحاب يوصف بكثرةِ التَّتَابُع أيضاً .

قال ابنُ عبَّاسٍ : مِدْرَاراً مُتَتَابِعاً في أوْقاتِ الحَاجَاتِ ، وإن أُرِيد بها الماء فكذلك ، ويَدُلُّ على أنه يُرَادُ به المَاءُ قوله في الحديث : " في أثر سماءٍ كَانَتْ من اللَّيلِ " ويقولون : ما زلنا نَطَأُ السماء حتى أتيناكم ، ومنه : [الوفر]

2112 - إذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بأرْضِ قَوْم . . .

رَعَيْنَاهُ وإنْ كَانُوا غِضَابا

أي : رَعَيْنَا ما نشأ عنه ، وإن أُريدَ بها هذه المِظَلَّةُ ، فلابُدّ من حذف مُضافٍ حينئذٍ ، أي : مَطَر السماء ، ويكون " مِدْرّاراً " حالاً منه .

و" مِدْرَاراً " مِفعال للمُبالغةِ كامرأة مِذْكارٍ ومئناث .

قالوا : وأصله من " دَرَّ اللَّبَن " وهو كَثْرةُ ورودِه على الحالِبِ .

ومنه : " لا دَرَّ دَرُّهُ " في الدُّعَاءِ عليه بقلَّةِ الخير .

وفي المَثَلِ " سَبَقَتْ درَّتُه غِزَارَهُ " وهي مثلُ قولهم : " سَبَقَ سَيْلُهُ مَطَرَه " و" استدَّرت المِعْزَى " كناية عن طلبها الفَحْلَ .

قالوا : لأنَّها إذا طَلَبَتْهُ حَمَلَتْ فَوَلَدَتْ فَدَرَّتْ .

قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ ﴾ إن جعلنا " جَعَلَ " تَصْيِيرِيةً كان " تجري " مفعولاً ثانياً ، وإن جعلناها إيجادِيَّةً كان حالاً .

و" من تحتهم " يجوز فيه أوجه :

أن يكون متعلّقاً بـ " تجري " ، وهو أظهرها ، وأن كون حالاً ، إمَّا من فاعل " تجري " ، أو من " الأنهار " ، وأنْ يكون مفعولاً ثانياً " جَعَلْنَا " و " تجري " على هذا حالٌ من الضمير في الجَارّ ، وفيه ضَعْفٌ لتقدُّمِهَا على العامل المَعْنَوِيّ ، ويجوز أن يكون " من تحتهم " حالاً من " الأَنْهَار " كما تقدَّم ، و " تجري حالٌ من الضمير المُسْتَكِنّ فيه ، الضَّعْفُ المتقدّمُ .

و " من بعدهم " متعلِّق بـ " أنشأنا " .

قال أبو البقاء : ولا يجوز أن يكون حَالاً من " قرن " ؛ لأنه ظَرفُ زمان يعني : أنه منه ؛ لكنه منعن ذلك كونُهُ ظرف زمان والزَّمَانُ لا يُخْبَرُ به عن الحَدَث ولا يُوصَفُ ، وقد تقدَّمَ أنه يصحُّ ذلك بتأويل في " البقرة " عند قوله تعالى : ﴿ والذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : 21] و " آخرين " صِفَةٌ لـ " قَرْن " ؛ لأنه اسم جَمْع كـ " قوم " و " رهط " ، فذلك اعْتُبر معنها ، ومن قال : إنَّهُ قدَّرَ مُضَافاً ، أي : أهل قرن آخرين ، وقد تقدَّمَ أنَّهُ مرْجُوحٌ ، واللَّهُ أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 28 . 36 ﴾ . باختصار .

(93/227)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (6) ﴾

يعني مَنْ تَقَدَّمَهُم كانوا أشدَّ تمكناً في إمهالنا ، وأكثرَ نصيباً – في الظاهر – من أقوالنا ؛ سهَّلنا لهم أسبابَ المعاش ، ووسَّعنا عليهم أبواب الانتعاش ، فحين وَطَّنُوا على كواذب المنى قلوبَهم ، وأدركوا من الدنيا محبوبهم ومطلوبَهم فتحنا عليهم من مكامن التقدير ، وأبرزنا لهم من غوامض الأمور ما فزعوا عليه من النَّدَم ، وذاقوا دونه طعم الألم . ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، وأورثناهم مساكنهم ، وأسكناهم أماكنهم ، فلمَّا انخرطوا – في الغيّ – عن سلكهم ، ألحقناهم في الإهلاك بهم ، سُنَّةً منا في الانتقام قضيناها على أعدائنا ، وعادةً في الإكرام أجريناها لأوليائنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 461 . 462 ﴾

(94/227)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت ترجمة ما مضى : ثم هم يعدلون بربهم غيرَه ويكذبونك فيما جئت به من الحق مع ما أوضحت عليه من الحجج ونصبت من الدلائل ، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمانهم ، كان المقام يقتضي أن يقول لسان الحال : أنزل عليهم يا رب ما ينتقلون به من النظر بالفكر إلى العيان كما اقترحوا عليّ ، فأخبره أنهم لا يؤمنون بذلك ، بقوله عطفاً على ﴿ وما تأتيهم من آية ﴾ تحقيقاً له وتصويراً في جريته : ﴿ ولو نزلنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ عليك كتاباً ﴾ أي مكتوباً من السماء ﴿ في قرطاس ﴾ أي ورق ، إجابة لما أشار عليهم اليهود باقتراحه ، ثم حقق أنه واضح الأمر ، ليس بخيال ولا فيه نوع لبس بقوله : ﴿ فلمسوه ﴾ أي زيادة على الرؤية .

وزاد في التحقيق والتصوير ودفع التجوز بقوله : ﴿ بأيديهم لقال ﴾ وأظهر ولم يضمر تعليقاً للحكم بالوصف وتنبيهاً على أن من الموجودين من يسكت ويؤمن ولو بعد ذلك فقال : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي حكماً بتأبد كفرهم ستراً للآيات عناداً ومكابرة ، ولعله أسقطُ منهم إشارة إلى عموم دعوته ، أي من العرب ومن غيرهم من أمة دعوتك ولا سيما اليهود المشار إلى تعنتهم وكذبهم بقوله ﴿ يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾ [النساء : 153] ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا إلاّ سحر ﴾ أي تمويه وخيال لا حقيقة له ،

وزادوا في الوقاحة فقالوا : ﴿ مبين ﴾ أي واضح ظاهر ، قال صاحب كتاب الزينة : معنى السحر في كلام العرب التعليل بالشيء والمدافعة به والتعزير بشيء لا محصول له ، يقال : سحره – إذا علله وعزره وشبه عليه حتى لا يدري من أين يتوجه ويقلب عن وجهه ، فكأن السحرة يعللون الناس بالباطل ويشبهون الباطل في صورة الحق ويقلبونه عن جهته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 591 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الذين يتمردون عن قبول دعوة الأنبياء طوائف كثيرة ، فالطائفة الأولى الذين بالغوا في حب الدنيا وطلب لذاتها وشهواتها إلى أن استغرقوا فيها واغتنموا وجدانها ، فصار ذلك مانعاً لهم عن قبول دعوة الأنبياء ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في الآية المتقدمة وبين أن لذات الدنيا ذاهبة وعذاب الكفر باق ، وليس من العقل تحمل العقاب الدائم لأجل اللذات المنقرضة الخسيسة ، والطائفة الثانية الذين يحملون معجزات الأنبياء عليهم السلام ، على أنها من باب السحر لا من باب المعجزة ، هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 132 . 133 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ ذلك أن النضر بن الحارث وعبد الله بن أمية

وغيرهما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً من السماء .

(95/227)

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ يقول : مكتوباً في صحيفة ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ يقول : عاينوه وأخذوه بأيديهم ما يصدقونه ﴿ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : يقول الذين كفروا : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ولا يؤمنون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ ﴾ الآية .

المعنى : ولو نزلنا يا محمد بمرأى منهم كما زعموا وطلبوا كلاماً مكتوباً "في قرطاس" .

وعن ابن عباس : كتاباً معلّقاً بين السماء والأرض ؛ وهذا يبيّن لك أن التنزيل على وجهين ؛ أحدهما على معنى نزل عليك الكتاب بمعنى نزول الملك به .

والآخر ولو نزلنا كتاباً في قرطاس يمسكه الله بين السماء والأرض ؛ وقال : "نَزَّلْنَا" على المبالغة بطول مكث الكِتاب بين السماء والأرض .

والكتاب مصدر بمعنى الكتابة ؛ فبيّن أن الكتابة في قرطاس ؛ لأنه غير معقول كتابة إلاَّ في قرطاس أي في صحيفة ، والقرطاس الصحيفة ؛ ويُقال : قُرْطاس بالضم ؛ وقَرطَس فلان إذا رمى فأصاب الصحيفة الملزقة بالهَدف .

﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي فعاينوا ذلك ومسُّوه باليد كما اقترحوا وبالغوا في مَيْزه وتقليبه جسّاً بأيديهم ، ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كل إشكال ، لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم ، وقالوا : سحر مبين إنما سكِّرت أبصارُنا وسُحِرنا ؛ وهذه الآية جواب لقولهم : ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ فأعلم الله بما سبق في علمه من أنه لو نزل لكذّبوا به .

قال الكَلْبيّ : نزلت في النَّضْر بن الحرث وعبد الله بن أبي أُميّة ونوفل بن خُويلد قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرضِ يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء : 90] الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(96/227)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴾

سبب نزولها : أن مشركي مكة قالوا : يا محمد ، والله لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من

عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله ، وأنك رسوله ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب ، قال ابن قتيبة : والقرطاس : الصحيفة ، يقال للرامي إذا أصاب الصحيفة : قَرْطَسَ ، قال شيخنا أبو منصور اللغوي : القرطاس .

قد تكلموا به قديماً .

ويقال إن أصله غير عربي .

والجمهور على كسر قافه ، وضمها أبو رزين ، وعكرمة ، وطلحة ، ويحيى بن يعمر .

فأما قوله تعالى : ﴿ فلمسوه بأيديهم ﴾ فهو توكيد لنزوله ، وقيل : إنما علَّقه باللمس باليد إبعاداً له عن السحر ، لأن السحر يُتَخَيَّلُ في المرئيات ، دون الملموسات ، ومعنى الآية : إنهم يدفعون الصحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

لما أخبر عنهم عز وجل بأنهم كذبوا بكل ما جاءهم من آية تبع ذلك إخبار فيه مبالغة مضمنه أنه لو جاءهم أشنع مما جاء لكذبوا أيضاً ، والمعنى ﴿ لو نزلنا ﴾ بمرأى منهم عليك ﴿ كتاباً ﴾ أي كلاماً مكتوباً ﴿ في قرطاس ﴾ أي في صحيفة ، ويقال " قُرطاس " بضم القاف ﴿ فلمسوه بايديهم ﴾ يريد أنهم بالغوا في ميزه وتقليبه ليرتفع كل ارتياب لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم وقالوا هذا سحر مبين ، ويشبه أن سبب هذه الآية اقتراح عبد الله بن أبي امية وتعنته إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم ، لا أؤمن لك حتى تصعد إلى

السماء ثم تنزل بكتاب فيه من رب العزة إلى عبد الله بن أبي أمية ، يأمرني بتصديقك ، وما أراني مع هذا كنت أصدقك ، ثم أسلم بعد ذلك عبد الله وقتل شهيداً في الطائف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(97/227)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾

سبب نزولها اقتراح عبد الله بن أبي أمية وتعنته إذ قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لا أؤمن لك حتى تصعد إلى السماء ، ثم تنزل بكتاب فيه من ربّ العزة إلى عبد الله بن أمية يأمرني بتصديقك .

وما أراني مع هذا كنت أصدقك .

ثم أسلم بعد ذلك وقتل شهيداً بالطائف ولما ذكر تعالى تكذيبهم الحق لما جاءهم ثم وعظهم وذكرهم بإهلاك القرون الماضية بذنوبهم ذكرهم مبالغتهم في التكذيب بأنهم لو رأوا كلاماً مكتوباً ﴿ في قرطاس ﴾ ومع رؤيتهم جسوه بأيديهم ، لم تزدهم الرؤية واللمس إلا تكذيباً وادعوا أن ذلك من باب السحر لا من باب المعجز عناداً وتعنتاً وإن كان من له أدنى مسكة

من عقل لا ينازع فيما أدركه بالبصر عن قريب ولا بما لمسته يده ، وذكر اللمس لأنهم لم يقتصروا على الرّؤية لئلا يقولوا سكرت أبصارنا ، ولما كانت المعجزات مرئيات ومسموعات ذكر الملموسات مبالغة في أنهم لا يتوقفون في إنكار هذه الأنواع كلها حتى إن الملموس باليد هو عندهم مثل المرئي بالعين والمسموع بالأذن ، وذكر اليد هنا فقيل مبالغة في التأكيد ولأن اليد أقوى في اللمس من غيرها من الأعضاء .

وقيل : الناس منقسمون إلى بصراء وأضراء ، فذكر الطريق الذي يحصل به العلم للفريقين .

وقيل : علقه باللمس باليد لأنه أبعد عن السحر .

وقيل : اللمس باليد مقدمة الإبصار ولا يقع مع التزوير .

وقيل : اللمس يطلق ويراد به الفحص عن الشيء والكشف عنه ، كما قال : ﴿ وأنا لمسنا السماء ﴾ فذكرت اليد حتى يعلم أنه ليس المراد به ذلك اللمس ، وجاء ﴿ لقال الذين كفروا ﴾ لأن مثل هذا الغرض يقتضي انقسام الناس إلى مؤمن وكافر ، فالمؤمن يراه من أعظم المعجزات والكافر يجعله من باب السحر ، ووصف السحر ب ﴿ مبين ﴾ إما لكونه بيناً في نفسه ، وإما لكونه أظهر غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾

استئناف سيق بطريق تلوين الخطاب لبيان شدة شكيمتهم في المكابرة وما يتفرع عليها من الأقاويل الباطلة إثر بيان ما هم فيه من غير ذلك .

وعن الكلبي وغيره أنها نزلت في النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله ، والكتاب المكتوب ، والجار بعده متعلق بمحذوف وقع صفة له أو متعلق به ، وقيل : إن جعل اسماً كالإمام فالجار في موضع الصفة له ، وإن جعل مصدراً بمعنى المكتوب فهو متعلق به .

وجوز أن يتعلق بنزلنا وفيه بعد ، والقرطاس بكسر القاف وضمها ، وقرىء بهما معرب كراسة كما قيل ، وممن نص على أنه غير عربي الجواليقي ، وقيل : إنه مشترك ومعناه الورق ، وعن قتادة الصحيفة ، وفي "القاموس" "القرطاس مثلثة القاف وكجعفر ودرهم الكاغد" ، وقال الشهاب : هو مخصوص بالمكتوب أو أعم منه ومن غيره .

﴿ فَلَمَسُوهُ ﴾ أي الكتاب أو القرطاس ، واللمس كما قال الجوهري المس باليد فقوله تعالى : ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ لزيادة التعيين ودفع احتمال التجوز الواقع في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا

لَمَسْنَا السماء ﴾ [الجن : 8] أي تفحصنا ، وقيل : إنه أعم من المس باليد ، فعن الراغب المس إدراك بظاهر البشرة كاللمس ، وبالتقييد به يندفع احتمال التجوز أيضاً .

وقيل : إنما قيد بذلك لأنه الإحساس باللصوق يكون بجميع الأعضاء ولليد خصوصية في الإحساس ليست لسائرها .

(99/227)

وأما التجوز باللمس عن الفحص فلا يندفع به إذ لا بعد في أن يكون ذلك لمباشرتهم للفحص بأنفسهم بل يندفع لكون المعنى الحقيقي أنسب بالمقام وليس بشيء كما لا يخفى ، وقيل : إن ذكر الأيدي ليفيد أن اللمس كان بكلتا اليدين ولا يظهر وجه الإفادة وتخصيص اللمس لأنه يتقدمه الإبصار حيث لا مانع ولأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إذا ترك العناد والتعنت : إنما سكرت أبصارنا .

واعترض بأن اللمس هنا إنما يدفع احتمال كون المرئي مخيلاً وأما نزوله من السماء فلا يثبت به .

وأجيب بأنه إذا تأيد الإدراك البصري في النزول بالإدراك اللمسي في المنزل يجزم العقل بديهة بوقوع المبصر حزماً لا يحتمل النقيض فلا يبقى بعده إلا مجرد العناد مع أن حدوثه هناك من

غير مباشرة أحد يكفي في الإعجاز كما لا يخفى ، وقال ابن المنير "الظاهر أن فائدة زيادة (لمسهم) بأيديهم تحقيق القراءة على قرب أي فقرؤه وهو بأيديهم لا بعيد عنهم لما آمنوا2 .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ جواب ﴿ لَوْ ﴾ على الأفصح من اقتران جوابها المثبت باللام .

والمراد لقالوا تعنتاً وعناداً للحق .

وإنما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على اتصافهم بما في حيز الصلة من الكفر الذي (لا يخفى) كما قيل حسن موقعه باعتبار معناه اللغوي أيضاً ، وجوز أن يكون المراد بهم قوم معهودون من الكفرة فحديث الوضع حينئذ موضوع و ﴿ إن ﴾ في قوله سبحانه ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الكتاب نافية أي ما هذا ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر كونه سحراً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابا فِى قِرْطَاسٍ ﴾

يجوز أن تكون الواو عاطفة والمعطوف عليه جملة ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم ﴾ الخ ، وما بينهما جملاً تعلّقت بالجملة الأولى على طريقة الاعتراض ، فلمّا ذكر الآيات في الجملة الأولى على وجه العموم ذكر هنا فرض آية تكون أوضحَ الآيات دلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهي أن ينزّل الله عليه كتاباً من السماء على صورة الكتب المتعارفة ، فرأوه بأبصارهم ولمسوه بأيديهم لمَّا آمنوا ولادّعوا أنّ ذلك الكتاب سحر .

ويجوز أن تكون الواو للحال من ضمير ﴿ كذّبوا ﴾ في قوله : ﴿ فقد كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم ﴾ أي أنكروا كون القرآن من عند الله ، وكونه آية على صدق الرول ، وزعموا أنّه لو كان من عند الله لنزل في صورة كتاب من السماء ، فإنّهم قالوا : ﴿ لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ وقالوا ﴿ حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ فكان قوله : ﴿ فقد كذّبوا بالحقّ لما جاءهم ﴾ مشتملاً بالإجمال على أقوالهم فصحّ مجيء الحال منه .

وما بينهما اعتراض أيضاً .

وعلى الوجه الأول فالكتاب الشيء المكتوب سواء كان سفراً أم رسالة ، وعلى الثاني فالمراد بكتابٍ سفرٌ أي مثل التوراة .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم لا محالة لأنّ كلّ ينزل من القرآن موجّه إليه لأنّه المبلّغ ، فانتقال الخطاب إليه بعد الحديث عن ذوي ضمائر أخرى لا يحتاج إلى مناسبة في الأنتقال .

وليس يلزم أن يكون المراد كتاباً فيه تصديقه بل أعمّ من ذلك .

وقوله : ﴿ في قرطاس ﴾ صفة لكتاب ، والظرفية مجازية من ظرفية اسم الشيء في اسم جزئه .

والقرطاس بكسر القاف على الفصيح ، ونقل ضمّ القاف وهو ضعيف .

وهو اسم للصحيفة التي يكتب فيها ويكون من رَقّ ومن بَرْدى ومن كاغد ، ولا يختصّ بما كان من كاغد بل يسمّى قرطاساً ما كان من رقّ .

ومن النّاس من زعم أنّه لا يقال قرطاس إلاّ لما كان مكتوباً وإلاّ سمّي طَرساً ، ولم يصحّ .

(101/227)

وسمّى العرب الأديم الذي يجعل غرضاً لمتعلّم الرمي قرطاساً فقالوا : سَدّد القرطاس ، أي سدّد رميه .

قال الجواليقي : القرطاس تكلّموا به قديماً ويقال : إنّ أصله غير عربي .

ولم يذكر ذلك الراغب ولا لسان العرب ولا القاموس ، وأثبته الخفاجي في شفاء الغليل .

وقال : كان معرّباً فلعلّه معرّب عن الرومية ، ولذلك كان اسم الورقة في لغة بعضهم اليوم (كارتا) .

وقوله : ﴿ فَلَمسوه ﴾ عطف على ﴿ نزّلنا ﴾ .

واللمس وضع اليد على الشيء لمعرفة وجوده ، أو لمعرفة وصف ظاهره من لين أو خشونة ، ومن برودة أو حرارة ، أو نحو ذلك .

فقوله : ﴿ بأيديهم ﴾ تأكيد لمعنى اللمس لرفع احتمال أن يكون مجازاً في التأمّل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإنّا لمسنا السماء فوجدناها مُلئَت حرساً شديداً وشهباً ﴾ ، وللإفصاح عن منتهى ما اعتيد من مكابرتهم ووقاحتهم في الإنكار والتكذيب ، وللتمهيد لقوله : ﴿ لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين ﴾ لأنّ المظاهر السحرية تخيّلات لا تلمس .

وجاء قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ دون أن يقول : لقالوا ، كما قال : ﴿ فلمسوه ﴾ إظهاراً في مقام الإضمار لقصد تسجيل أنّ دافعهم إلى هذا التعنّت هو الكفر ، لأنّ الموصول يؤذن بالتعليل .

ومعنى : ﴿ إن هذا إلاّ سحر مبين ﴾ أنّهم يغالطون أنفسهم ويغالطون قومهم لستر مكابرتهم ولدفع ما ظهر من الغلبة عليهم .

وهذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلّق بالمعاذير الكاذبة .

والمبين : البيّن الواضح ، مشتقّ من (أبان) مرادف (بان) .

وتقدّم معنى السحر عند قوله تعالى : ﴿ يعلّمون الناس السحر ﴾ في سورة البقرة (102) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

بيّن الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفار لو أنهم شاهدوا نزول كتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا محمد لم يؤمنوا به ، بل حملوه على أنه سحر ومخرقة ، والمراد من قوله ﴿ فِى قِرْطَاسٍ ﴾ أنه لو نزل الكتاب جملة واحدة في صحيفة واحدة ، فرأوه ولمسوه وشاهدوه عياناً لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر .

فإن قيل : ظهور الكتاب ونزوله من السماء هل هو من باب المعجزات أم لا ، فإن لم يكن من باب المعجزات لم يكن إنكارهم لدلالته على النبوّة منكراً ، ولا يجوز أن يقال : أنه من باب المعجزات لأن الملك يقدر على إنزاله من السماء ، وقبل الإيمان بصدق الأنبياء والرسل لم تكن عصمة الملائكة معلومة ، وقبل الإيمان بالرسل ، لا شك أنا نجوز أن يكون نزول ذلك الكتاب من السماء من قبل بعض الجن والشياطين ، أو من قبل بعض الملائكة الذين لم تثبت عصمتهم ، وإذا كان هذا التجويز قائماً فقد خرج نزول الكتاب من السماء عن كونه دليلاً على الصدق .

قلنا : ليس المقصود ما ذكرتم ، بل المقصود أنهم إذا رأوه بقوا شاكين فيه ، وقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، فإذا لمسوه بأيديهم فقد يقوى الادراك البصري بالادراك اللمسي ، وبلغ

الغاية في الظهور والقوة ، ثم هؤلاء يبقون شاكين في أن ذلك الذي رأوه ولمسوه هل هو موجود أم لا ، وذلك يدل على أنهم بلغوا في الجهالة إلى حد السفسطة ، فهذا هو المقصود من الآية لا ما ذكرتم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 133 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال القاضي : دلت هذه الآية على أنه لا يجوز من الله تعالى أن يمنع العبد لطفاً . علم أنه لو فعله لآمن عنده لأنه بيّن أنه إنما لا ينزل هذا الكتاب من حيث إنه لو أنزله لقالوا هذا القول ، ولا يجوز أن يخبر بذلك إلا والمعلوم أنهم لو قبلوه وآمنوا به لأنزله لا محالة فثبت بهذا وجوب اللطف ، ولقائل أن يقول : أن قوله لو أنزل الله عليهم هذا الكتاب لقالوا هذا القول لا يدل على أنه تعالى ينزله عليهم ، لو لم يقولوا هذا القول إلا على سبيل دليل الخطاب ، وهو عنده ليس بحجة ، وأيضاً فليس كل مما فعله الله وجب عليه ذلك ، وهذه الآية إن دلّت فإنما تدل على الوقوع لا على وجوب الوقوع والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 133 ﴾

(103/227)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ ﴾

أي : مكتوباً في ورق : ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي : فمسوه ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا ﴾ أي : ليس هذا المعظم بهذه الوجوه الدالة على أنه لا يكون إلا من الله ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ تعنتاً وعناداً ، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا ، ولأنه يتقدمه الإبصار ، حيث لا مانع . وتقييده بـالأيدي لرفع التجوز ، فإنه قد يتجوز به للفحص ، كقوله : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ [الجن : 8] - أفاده البيضاوي .

قال الناصر في " الانتصاف " : والظاهر أن فائدة زيادة لمسهم له بأيديهم ، تحقيق القراءة على قرب . أي : فقرؤوه وهو في أيديهم ، لا بعيد عنهم ، لما آمنوا .

وقال ابن كثير : وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : 14 - 15] . ولقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ [الطور : 44] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 321 - 322 ﴾.

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾

هذا الكتاب – القرآن – لو نزل إلى هؤلاء المكذبين مكتوباً في ورق من الحس المشاهد فلمسوه بأيديهم لقالوا ما قاله كل مكذب ، إنه سحر ظاهر . وقد طالب المكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط من ضمن شروط أخرى قال عنها الحق مصوراً جحودهم : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 90-93] .

فبعد أن وضح لهم إعجاز القرآن حاولوا زوراً ، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا ، كان يفجر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ينبوعاً في أرض مكة لا ينقطع ماؤه ، أو يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بستان من نخيل وعنب . تتخلله الأنهار ، أو أن يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُنزل السماء عليهم قطعاً كعذاب شديد ، أو أن يتجسد لهم الله والملائكة ليَروْهم رأي العين ، أو أن يكون لرسول الله بيت من ذهب مزخرف ، أو أن يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله يقرر صدق رسالته ، ولكن الله برحمته واتساع حنانه ينزه ذاته أن يتحكم فيه أحد أو أن يشاركه في قدرته فيعلن لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 93] .

لأن الذي يبعث الآيات هو رب العالمين ، ولا أحد يجرؤ أن يفرض على الله آياته . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو مُستَقْبِل لآيات الله لا مقترح للآيات ، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن من يقترح على الله آية ثم يأتي فيكذب بها يصيبه وينالـه الهلاك ، هذه سنة الله ، ورسول الله يعلم أنه النبي الخاتم ؛ لذلك لن يطلب أي آية من الله حتى لا ينزل عقاب الله من بعدها إن كذبوا بها . ويبلغ الحق رسوله عتو المتجبرين المنكرين واستكبارهم . ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

الحق يعلم أن قلوب بعض المنكرين قد صارت غفلاً لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الباطل – كما أراد هو لهم – فلو نزّل إليهم كتاباً في قرطاس ليكون في مجال رؤية العين ولمسوه بأيديهم فلن يؤمنوا . ويأتي أمر لمس الكتاب بالأيدي ؛ لأن اللمس هو الحاسة التي يشترك فيها الجميع حتى الأعمى منهم ، وبرغم ذلك فسيكذبون قائلين : ﴿ إِنْ هَاذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ومثل هذا الرد لا ينبع عن عقل أو تدبر أو حكمة .

ولا يتناسب مع القوم الذين عُرفوا بالبلاغة والفصاحة ، وبحسن القول وصياغته ؛ لأن السحر إنما يغير من رؤية الناس للواقع ، وما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم متهماً بالسحر منهم فلماذا لم يسحرهم هم ، ولماذا استعصموا هم بالذات على السحر ؟ والمسحور ليس له عمل ولا إرادة مع الساحر ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحراً لصنع من السحر ما يجعلهم يؤمنون .

إن من العجيب وهم أبصر الناس بفن القول ، وهم أهل النبوغ في الأداء ، ويعرفون القول الفصل والرأي الصحيح ويميزون بين فنون القول : خطابةً ، وكتابةً ، ونثراً ، وشعراً ، والقول المسجوع ، والقول المرسل ، من العجيب أنهم يقفون أمام معجزة القرآن مبهوتين لا يعرفون من أمرهم رشداً ، فمرة يقولون إنه سحر ، ومرة يقولون : إنه كلام كهنة ، وثالثة يقولون : إنه كلام مجنون .

والقرآن ليس بسحر ، لأنه يملك من البيان ما يملكون وفوق ما يملكون ويحسنون ، ولا يفعل رسول الله معهم ما يجعلهم يؤمنون على الرغم منهم ، وليس القرآن كذلك بكلام كهنة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ بينهم ويعلمون أنه الصادق الأمين الذي لم يتلق علماً من أحد ، فضلا عن أن كلام الكهان له سمت خاص وسجع معروف ، والقرآن ليس كذلك . ويعلمون أنه كلام رجل عاقل ، فكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه ، وها هوذا الحق يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 2-4] .

وقد أعد الله رسوله ليستقبل النبوة بقوة الفعل ، لا بسفه الرأي ، وله في إبلاغ رسالة ربه ثوابٌ لا مقطوع ولا ممنوع ، وهو على الخُلق العظيم . والخُلُقُ العظيم – كما نعلم – هو استقبال الأحداث بملكات متساوية وليست متعارضة ولا يملك ذلك إلا عاقل . وقد شهدوا بخُلُق محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يأتي هذا الخلق العظيم من مجنون ؟ وكيف يصدر السلوك المتصف بالسلامة والصلاح والخير من مجنون ؟ كانت – إذن – كل اتهاماتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبع من إصرارهم على الكفر ، لا من واقع

لمسوه ، فكل ما قالوه في رسول الله هم أول الناس الذين شهدوا عكسه ولمسوا نقيضه .

وجاءوا – إصراراً على الكفر – يطلبون أية أخرى : ﴿ وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . . .

﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(108/227)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فِي قِرْطَاسٍ " يجوز أن يتعلَّق بمحذوف على أنه صِفَةٌ لـ " كتاب " ، سواء أريد بـ " كتاب " المصدرُ ، أم الشيْ المكتوب ، ومن مجيء الكتاب بمعنى مكتوب قوله : [الطويل]

2113 . . . . . .

صَحِيفَة . . .

أَتَتْكَ مِنَ الحَجَّاجِ يُتْلَى كِتَابُهَا

ومن النَّاس من جعل " كتاباً " في الآية الكريمة مَصْدَراً ؛ لأن نَفْسَ الكُتُبِ لا تُوصَفُ

والقِرْطاس : الصَّحِيفةُ يُكتبُ فيها تكُون من رقٍّ وكَاغِدٍ ، بكسر القاف وضمها ،

والفصيح الكسر ، وقرئ بالضّم شاذّاً نَقَلَهُ أبو البقاء – رحمه الله تعالى – والقِرْطَاسُ : اسم

أعْجمِيٌّ مُعَرَّبٌ ، ولا يقال : قِرْطَاس إلاَّ إذا كان مكتوباً ، وإلاَّ فهو طِرْسٌ وكَاغِدٌ ، وقال زهير : [البسيط]

2114 . . . - لَهَا أخَادِيدُ مِنْ آثَارِ سَاكِنِها

كَمَا تَردَّدَ فِي قِرْطَاسِهِ القَلَم . . .

قوله : " فَلَمَسُوهُ " الضمير المنصوب يجوز أن يَعُودَ على " القِرْطاس " ، وأن يعود على " كتاب " بمعنى مَكْتُوب .

و " بأيديهم " متعلّق بـ " لَمَسَ " .

و " الباء " للاستعانة كعملت بالقَدُّوم .

و " لَقَال " جواب " لو " جاء على الأفصح من اقتران جوابها المُثْبَتِ باللام .

(109/227)

قوله : " إنْ هذا " [و] و " إنْ " نافية ، و " هذا " و " إلاَّ سحرٌ " خبره ، فهو استثناء مُفَرَّغٌ ، والجُمْلَة المَنْفِيَّةُ في مَحَلِّ نصب بالقول ، وأوقع الظَّاهرَ مَوْقَعَ المضمر في قوله : " لَقَالَ الذين كَفَرُوا " شَهَادَةً عليهم بالكُفْرِ ، والجملة الامتنَاعِيَّةُ لا مَحَلَّ لها من الإعراب لاستئنافها . ومعنى الآية الكريمة : أنَّهُ لا يَنْفَعُ معهم شيءٌ لما سبق فيهم من علمي ، واللَّهُ أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 36 . 37 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾

يُخْبِرُ عن كمالِ قدرته في إبداء ما يريده بعد ما قَضَى لهم الضلالَ ، فلو أشهدهم كُلَّ دليل ، وأوْضَحَ لهم كل سبيل ما ازدادوا إلاّ تمادياً في الضلال والنفرة ، وانهماكاً في الجهل والغيّ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 462 ﴾

(110/227)

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين ما يترتب على الإجابة إلى ما أشار إلى أن اليهود اقترحوه من إنزال الكتاب ، أخبر أنهم اقترحوا ظهور الملك لهم ، وبين لوازمه ، فإنهم قالوا : لو بعث الله رسولاً لوجب كونه

ملكاً ليكون أكثر علماً وأقوى قدرة وأظهر امتيازاً عن البشر ، فتكون الشبهة في رسالته أقل ، والحكيم إذا أراد تحصيل مهم كان الأولى تحصيله بما هو أسرع إيصالاً إليه ، فقال : ﴿ وقالوا لولا ﴾ أي هلا ولِمَ لا ﴿ أنزل عليه ملك ﴾ أي من المساء ظاهراً لنا يكلمنا ونكلمه ولا يحتجب عنا .

ولما ذكر قولهم مشيراً إلى شبهتهم ، نقضه بقوله : ﴿ ولو ﴾ أي والحال أنا لو ﴿ أنزلنا ﴾ وأسقط أداة الاستعلاء لعدم الاحتياج في رد كلامهم إلى ذكرها .

ولئلا يكون فيه تسليهم لما لوحوا إليه من إنكارهم نزول الملك عليه بالوحي ﴿ ملكاً ﴾ أي كما اقترحوه ، فلا يخلو إما أن يكون على صورته أولاً ، فإن كان على صورته التي خلق عليها لم يثبتوا لرؤيته ، ولو كان كذلك ﴿ لقضي الأمر ﴾ أي بهلاكهم ، وبناه للمفعول إشارة على طريق كلام القادرين إلى غاية السرعة لسهولة الأمر وخفة مؤنته ، فإنه لا ينظره أحد منهم إلاّ صعق ، ولئن أعطيناهم قوة يثبتون بها لنظره ليكونن قضاءٌ للأمر وانفصال للنزاع من وجه آخر ، وهو أن ذلك كشف للغطاء وفوات للإيمان بالغيب ، وقد جرت عادتنا بالإهلاك عند ذلك ، فإذا هم هالكون على كل من هذين التقديرين ، وهو معنى قوله مهولاً لرتبته بحرف التراخي : ﴿ ثم لا ينظرون ﴾ أي على حالة من هاتين ، وأما إن جعلناه على صورة يستطيعون نظرها فإنا نجعله على صورة رجل ، فإنها أكمل الصور ؛ وحينئذٍ يقع لهم اللبس الذي وقع لهم بدعائك ، وهو معنى ﴿ ولو جعلناه ﴾ أي مطلوبَهم ﴿ ملكاً ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 591.592 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا النوع الثالث من شبه منكري النبوّات فإنهم يقولون : لو بعث الله إلى الخلق رسولاً لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة فإنهم إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت علومهم أكثر ، وقدرتهم أشد ، ومهابتهم أعظم ، وامتيازهم عن الخلق أكمل ، والشبهات والشكوك في نبوّتهم ورسالتهم أقل .

والحكيم إذا أراد تحصيل مهم فكل شيء كان أشد إفضاءً إلى تحصيل ذلك المطلوب كان أولى .

فلما كان وقوع الشبهات في نبوّة الملائكة أقل ، وجب لو بعث الله رسولاً إلى الخلق أن يكون ذلك الرسول من الملائكة هذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ .

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجهين : أما الأول : فقوله ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ﴾ ومعنى القضاء الإتمام والإلزام .

وقد ذكرنا معاني القضاء في سورة البقرة .

ثم ها هنا وجوه : الأول : أن إنزال الملك على البشر آية باهرة ، فبتقدير إنزال الملك على هؤلاء اللكفار فربما لم يؤمنوا كما قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملئكة ﴾ إلى قوله ﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الأنعام : 111] وإذا لم يؤمنوا وجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، فإن سنّة الله جارية بأن عند ظهور الآية الباهرة إن لم يؤمنوا جاءهم عذاب الاستئصال ، فها هنا ما أنزل الله تعالى الملك إليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب والوجه الثاني : أنهم إذا شاهدوا الملك رهقت أرواحهم من هول ما يشهدون ، وتقريره : أن الآدمي إذا رأى الملك فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر .

فإن كان الأول لم يبقَ الآدمي حياً ، ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية غشي عليه ، وإن كان الثاني فحينئذ يكون المرئي شخصاً على صورة البشر ، وذلك لا يتفاوت الحال فيه سواء كان هو في نفسه ملكاً أو بشراً .

ألا ترى أن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم ، وأضياف لوط ، وكالذين تسوروا المحراب ، وكجبريل حيث تمثل لمريم بشراً سوياً .

والوجه الثالث : أن إنزال الملك آية باهرة جارية مجرى الالجاء ، وإزالة الاختيار ، وذلك مخل بصحة التكليف .

الوجه الرابع : أن إنزال الملك وإن كان يدفع الشبهات المذكورة إلا أنه يقوي الشبهات من وجه آخر ، وذلك لأن أي معجزة ظهرت عليه قالوا هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك ، ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القدرة والقوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلته أنت ، فعلمنا أن إنزال الملك وإن كان يدفع الشبهة من الوجوه المذكورة لكنه يقوي الشبهة من هذه الوجوه . وأما قوله ﴿ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ فالفائدة في كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ التنبيه على أن عدم الانظار أشد من قضاء الأمر ، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 133.134 ﴾

(112/227)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليك ملك ﴾ الآية حكاه عمن تشطط من العرب بأن طلب أن ينزل ملك يصدق محمداً في نبوءته ويعلم عن الله عز وجل أنه حق ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ﴾ وقال مجاهد : معناه لقامت القيامة . قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا ضعيف ، وقال قتادة والسدي وابن عباس رضي الله عنه : في الكلام حذف تقديره ولو " أنزلنا ملكاً فكذبوا به لقضي الأمر " بعذابهم

ولم ينظروا حسبما سلف في كل أمة اقترحت بآية وكذبت بعد أن ظهرت إليها ، وهذا قول حسن ، وقالت فرقة ﴿ لقضي الأمر ﴾ أي لماتوا من هول رؤية الملك في صورته ، ويؤيد هذا التأويل ما بعده من قوله : ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ فإن أهل التأويل مجمعون أن ذلك لأنهم لم يكونوا يطيقون رؤية الملك في صورته ، فالأولى في قول ﴿ لقضي الأمر ﴾ أي لماتوا من هول رؤيته ، ﴿ ينظرون ﴾ معناه يؤخرون ، والنظرة التأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(113/227)

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

قال ابن عباس قال النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خالد : يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة ، يشهدون أنه من عند الله وإنك رسوله ؛ انتهى .

والظاهر أن قوله ﴿ وقالوا ﴾ استئناف إخبار من الله ، حكى عنهم أنهم قالوا ذلك ويحتمل أن يكون معطوفاً على جواب لو أي : ﴿ لقال الذين كفروا ﴾ ولقالوا ﴿ لولا أنزل

عليه ملك ﴾ فلا يكون إذ ذاك هذان القولان المرتبان على تقدير إنزال الكتاب ﴿ في قرطاس ﴾ واقعين ، لأن التنزيل لم يقع وكان يكون القول الثاني غاية في التعنت ، وقد أشار إلى هذا الاحتمال أبو عبد الله بن أبي الفضل قال : في الكلام حذف تقديره ولو أجبناهم إلى ما سألوا لم يؤمنوا ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ وظاهر الآية يقتضي أنها في كفار العرب ، وذكر بعض الناس أنها في أهل الكتاب والضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى ﴿ ملك ﴾ نشاهده ويخبرنا عن الله تعالى بنبوته وبصدقه ، و ﴿ لولا ﴾ بمعنى هلا للتحضيض وهذا قول من تعنت وأنكر النبوات .

﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ﴾ أي ﴿ ولو أنزلنا ﴾ عليه ﴿ ملكاً ﴾ يشاهدونه لقامت القيامة قاله مجاهد .

وقال ابن عباس وقتادة والسدّي : في الكلام حذف تقديره ﴿ ولو أنزلنا ملكاً ﴾ فكذبوه ﴿ لقضي الأمر ﴾ بعذابهم ولم يؤخروا حسب ما سلف في كل أمة .

وقالت فرقة : معنى ﴿ لقضي الأمر ﴾ لماتوا من هول رؤية الملك في صورته ، ويؤيد هذا التأويل ولو جعلناه ملكاً إلى آخره فإن أهل التأويل مجمعون على أنهم لم يكونوا ليطيقوا رؤية الملك في صورته .

وقال ابن عطية : فالأولى في ﴿ لقضي الأمر ﴾ أي لماتوا من هول رؤيته .

وقال الزمخشري : لقضي أمر إهلاكهم .

﴿ ثم لا ينظرون ﴾ بعد نزوله طرفة عين إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته ، وهي أنه لا شيء أبين منها وأيقن ، ثم لا يؤمنون كما قال ولو إننا نزلنا إليهم الملائكة لم يكن بد من إهلاكهم كما أهلك أصحاب المائدة ، وأما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة ، فيجب إهلاكهم وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ؛ انتهى .

والترديد الأول بإما قول ابن عباس ، والثالث قول تلك الفرقة ، وقوله : كما أهلك أصحاب المائدة ، لأنهم عنده كفار وقد تقدّم الكلام فيهم في أواخر سورة العقود ، وذكر أبو عبد الله الرازي الأوجه الثلاثة التي ذكرها الزمخشري ببسط فيها .

وقال التبريزي في معنى ﴿ لقضي الأمر ﴾ قولان : أحدهما : لقامت القيامة لأن الغيب يصير عندها شهادة عياناً .

الثاني : الفزع من إهلاكهم لأن السنة الإلهية جارية في إنزال الملائكة بأحد أمرين : الوحي أو الإهلاك ، وقد امتنع الأول فيتعين الثاني ؛ انتهى .

فعلى هذا القول يكون معنى قوله ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ أي بإهلاكنا .

قال الزمخشري : ومعنى ثم بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الإنظار جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر ، لأن مفاجأة الشدّة أشد من نفس الشدّة ؛ انتهى . انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(115/227)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

شروع في قدحهم في نبوته عليه السلام صريحاً بعد ما أُشير إلى قدحهم فيها ضِمناً . وقيل : هو معطوفٌ على جواب (لو) ، وليس بذاك ، لما أن تلك المقالةَ الشنعاءَ ليست مما يُقدَّر صدورُه عنهم على تقدير تنزيلِ الكتابِ المذكور ، بل هي من أباطيلهم المُحقّقة ، وخُرافاتهم المُلفّقة ، التي يتعللون بها كلما ضاقتْ عليهم الحيلُ وعيَّت بهم العلل ، أي هلا أُنزل عليه عليه السلام مَلكٌ بحيث نراه ويكلمنا أنه نبيٌّ حسبما نُقل عنهم فيما رُويَ عن الكلبي ومقاتل ، ونظيرُه قولهم : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ ولما كان مدارُ هذا الاقتراح على شيئين : إنزالِ الملَك كما هو وجعلِه معه عليه السلام نذيراً ، أجيب عنه بأن ذلك مما لا يكاد يدخُل تحت الوجود أصلاً ، لاشتماله على أمرين متباينين لا يجتمعان في

الوجود : لِما أن إنزالَ المَلَك على صورته يقتضي انتفاءَ جعلِه نذيراً ، وجعلُه نذيراً يستدعي عدمَ إنزاله على صورته لا مَحالة .

(116/227)

وقد أشير إلى الأول بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ﴾ أي لو أنزلنا ملَكاً على هيئته حسْبما اقترحوه والحالُ أنه مِن هِوْل المنظر بحيث لا تُطيقُ بمشاهدته قوى الآحاد البشرية . ألا يرى أن الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكةَ ويفاوضونهم على الصور البشرية كضيف إبراهيمَ ولوطٍ وخصْمِ داودَ عليهم السلام وغير ذلك . وحيث كان شأنُهم كذلك وهم مؤيَّدون بالقُوى القدُسية فما ظنُّك بمن عداهم من العوام ؟ فلو شاهدوه كذلك لقُضِيَ أمرُ هلاكهم بالكلية ، واستحال جعلُه نذيراً ، وهو مع كونه خلافَ مطلوبِهم مستلزِمٌ لإخلاءِ العالم عما عليه يدور نظامُ الدنيا والآخرة من إرسال الرُّسل ، وتأسيسِ الشرائع ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وفيه كما ترى إيذانٌ بأنهم في ذلك الاقتراحِ كالباحث عن حَتْفه بظِلْفه ، وأن عدم الإجابة إليه للبُقيا عليهم ، وبناءُ الفعل الأول في الجواب للفاعل الذي هو نونُ العَظمة مع كونه في السؤال مبنياً للمفعول لتهويلِ الأمر وتربية المهابة ، وبناء الثاني للمفعول للجري على سَنن

الكِبرياء ، وكلمةُ (ثم) في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يُمْهَلون بعد نزوله طرفةَ عينٍ فضلاً عن أن يُنْذَروا به كما هو المقصودُ بالإنذار ، للتنبيه على تفاوت ما بين قضاءِ الأمر وعدمِ الإنظار ، فإن مفاجأة العذابِ أشدُّ من نفس العذاب وأشق . وقيل : في سبب إهلاكهم أنهم إذا عاينوا الملَك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته وهي آيةٌ لا شيءَ أبينُ منها ثم لم يؤمنوا لم يكنْ بدّ من إهلاكهم ، وقيل : إنهم إذا رأَوه يزول الاختيارُ الذي هو قاعدةُ التكليف ، فيجبُ إهلاكُهم ، وإلى الثاني أُشير بقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(117/227)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

الظاهر أنه استئناف لبيان قدحهم بنبوته عليه الصلاة والسلام بما هو أصرح من الأول ، وقيل : إنه معطوف على جواب لو ويغتفر في الثواني ما لا يغتفر في الأوائل ، واعترض بأن تلك المقالة الشنعاء ليست مما يقدر صدوره عنهم على تقدير تنزيل الكتاب المذكور بل هي

من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل ، وأجيب بأنه لا بعد في تقدير صدور هذه المقالة على تقدير ذلك التنزيل لأنه مما يوقع الكافر المعاند في حيص بيص فلا يدري بماذا يقابله وأي شيء يتشبث به .

وكلمة ﴿ لَوْلاَ ﴾ هنا للتحضيض ، والمقصود به التوبيخ على عدم الإتيان بملك يشاهد معه حتى تنتفي الشبهة بزعمهم .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال : "دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فيما بلغني فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب .

والنضر بن الحرث بن كلدة وعبدة بن عبد يغوث وأبي بن خلف بن وهب والعاص بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك فأنزل الله تعالى قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ ﴾ الخ أي هلا أنزل عليه ملك يكون معه يحدث الناس عنه ويخبرهم أنه رسول من ربه سبحانه إليهم ، ولعل هذا نظير ما حكى الله تعالى عنهم بقوله جل شأنه : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 7] .

ولما كان مدار هذا الاقتراح على شيئين .

إنزال الملك على صورته وجعله معه صلى الله عليه وسلم يحدث الناس عنه وينذرهم .

أجيب عنه بأن ذلك مما لا يكاد يوجد لاشتماله على المتباينين فإن إنزال الملك على صورته يقتضي انتفاء جعله محدثاً ونذيراً وجعله محدثاً ونذيراً يستدعي عدم إنزاله على صورته .

(118/227)

وقد أشير إلى الأول بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا ﴾ عليه ﴿ مَلَكًا ﴾ على صورته الحقيقية فشاهدوه بأعينهم : ﴿ لَقُضِيَ الأمر ﴾ أي لأتم أمر إهلاكهم بسبب مشاهدتهم له لمزيد هول المنظر مع ما هم فيه من ضعف القوى وعدم اللياقة .

(119/227)

وقد قيل : إن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم إنما رأوا الملك في صورة البشر ولم يره أحد منهم على صورته غير النبي صلى الله عليه وسلم رآه كذلك مرتين مرة في الأرض بجياد ومرة في السماء ، ولا يخفى أن هذا محتاج إلى نقل عن الأحاديث الصحيحة والذي صح من رواية الترمذي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام مرتين كما ذكر على صورته الأصلية لكن ليس فيه أن أحداً

من إخوانه الأنبياء غيره عليه الصلاة والسلام لم يره كذلك ، ولم يرد هذا كما قال ابن حجر وناهيك به حافظاً في شيء من كتب الآثار ، وإما رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وكذا رؤية غيره من الأنبياء غير جبريل عليه السلام على الصورة الأصلية فهي جائزة بلا ريب ، وظاهر الأخبار وقوعها أيضاً لنبينا عليه الصلاة والسلام ، وأما وقوع رؤية سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلم أقف فيها على شيء لا نفياً ولا إثباتاً ، وعدم وقوع رؤية جبريل عليه السلام لو صح لا يدل على عدم رؤية غيره إذ ليست صور الملائكة كلهم كصورته عليه الصلاة والسلام في العظم ، وخبر الخصمين والأضياف لإبراهيم ولوط وداود عليهم السلام ليس فيه دلالة على أكثر من رؤية هؤلاء الأنبياء للملائكة بصورة الآدميين وهي لا تستلزم أنهم لا يرونهم إلا كذلك وإلا لاستلزمت رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام بصورة دحية بن خليفة الكلبي رضي الله تعالى عنه مثلاً عدم رؤيته عليه الصلاة والسلام إياهم إلا بالصورة الآدمية وهو خلاف ما تفهمه الأخبار ، وبناء الفعل الأول في الجواب للفاعل مسنداً إلى نون العظمة مع كونه في السؤال مبنيا للمفعول لتهويل الأمر وتربية المهابة ، وبناء الثاني للمفعول للجري على سنن الكبرياء .

(120/227)

وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يمهلون بعد إنزاله ومشاهدتهم له طرفة عين فضلاً عن أن يحظوا منه بكلمة أو يزيلوا به بزعمهم شبهة للتنبيه على بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الإنظار فإن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة ، وقيل : إنها للإشارة إلى أن لهم مهلة قدر أن يتاملوا .

واعترض بأن قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ عطف على قوله عز وجل : ﴿ لَقُضِيَ ﴾ ولا يمهل للتأمل بعد قضاء الأمر .

وقيل في سبب إهلاكهم على تقدير إنزال الملك حسبما اقترحوه : إنهم إذا عاينوه قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته الأصلية وهي آية لا شيء أبين منها ثم لم يؤمنوا لم يكن بد من إهلاكهم فإن سنة الله تعالى قد جرت بذلك فيمن قبلهم ممن كفر بعد نزول ما اقترح وروي هذا عن قتادة ، وقيل : إنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزوله لأن هذه آية ملجئة قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 58] فيجب إهلاكهم لئلا يبقى وجودهم عارياً عن الحكمة إذ ما خلقوا إلا للابتلاء بالتكليف وهو لا يبقى مع الإلجاء ، وفيه أنه مخالف لقواعد أهل السنة ولا يتسنى إلا على قواعد المعتزلة وهي أوهن من بيت العنكبوت ومع هذا هو غير صاف عن الإشكال كما لا يخفى على المتتبع ، وذكر بعض الفضلاء أن هذا الوجه ينافي ما قبله لدلالة ما قبل على بقاء الاختيار وأنهم لا يؤمنون إذا عاينوا الملك قد نزل ودلالة هذا على سلب

الاختيار وزواله وإن الإيمان إيمان يأس .

وقال ابن المنير : "لا يحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك فإنه ربما يفهم من ذلك أن الآيات التي لزمهم الإيمان بها دون نزول الملك في الوضوح وليس الأمر كذلك .

(121/227)

فالوجه والله تعالى أعلم أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك وعدم إيمانهم أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز من حيث كونه معجزاً لا المعجز الخاص فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم فلم ينجع فيهم كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب لعدم النظرة" ، ولعل الوجه الذي عولنا عليه هو الأولى ، وقد أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، والاعتراض عليه بأن ﴿ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ يدل على إهلاكهم لا على هلاكهم برؤية الملك يندفع بما أشرنا إليه كما لا يخفى ، وليس بتكلف يترك له كلام ترجمان القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

عطف على قوله : ﴿ ولو نزّلنا عليك كتاباً ﴾ ، لأنّ هذا خبر عن تورّكهم وعنادهم ، وما قبله بيان لعدم جدوى محاولة ما يقلع عنادهم ، فذلك فُرض بإنزال كتاب عليهم ، من السماء فيه تصديق النبي صلى الله عليه وسلم وهذا حكاية لاقتراح منهم آية يصدّقونه بها .

وفي سيرة ابن إسحاق أنّ هذا القول واقع ، وأنّ من جملة من قال هذا زمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث بن كَلدة ، وعبدة بن عبد يغوث ؛ وأُبَي ابن خلف ، والعاصي بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومن معهم ، أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم سل ربّك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك .

فقوله : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ أي لولا أنزل عليه ملك نشاهده ويخبرنا بصدقه ، لأنّ ذلك هو الذي يتطلّبه المعاند .

أمّا نزول الملك الذي لا يرونه فهو أمر واقع ، وفسّره قوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكونَ معه نذيراً ﴾ في سورة الفرقان (7) .

والضمير عائد إلى الذين كفروا ﴾ وإن كان قاله بعضهم ، لأنّ الجميع قائلون بقوله : وموافقون عليه .

و ﴿ لولا ﴾ للتحضيض بمعنى (هلاً) .

والتحضيض مستعمل في التعجيز على حسب اعتقادهم .

وضمير ﴿ عليه ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم ومعاد الضمير معلوم من المقام ، لأنّه إذا جاء في الكلام ضمير غائب لم يتقدّم له معاد وكان بين ظهرانيهم من هو صاحب خبر أو قصة يتحدّث الناس بها تعيّن أنَّه المراد من الضمير .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين استأذنه في قتل ابن صيّاد : "إن يكْنه فلن تسلّط عليه وإلاّ يكْنه فلا خير لك في قتلة" .

يريد من مائر الغيبة الثلاثة الأولى الدجّال لأنّ الناس كانوا يتحدّثون أنّ ابن صيّاد هو الدجّال .

ومثل الضمير اسم الإشارة إذا لم يذكر في الكلام اسم يشار إليه .

كما ورد في حديث أبي ذرّ أنّه قال لأخيه عند بعثة محمد صلى الله عليه وسلم " اذهب فاستعلم لنا علم هذا الرجل " وفي حديث سؤال القبر " فيقال له (أي للمقبور) : ما علمك بهذا الرجل " يعني أنّ هذا قولهم فيما بينهم ، أو قولهم للذي أرسلوه إلى النبي أن يسأل الله أن يبعث معه ملكاً .

وقد افهوه به مرة أخرى فيما حكاه الله عنهم : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك

لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ فإنّ (لَوْما) أخت (لولا) في إفادة التحضيض .

وقوله : ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ معناه : لو أنزلنا ملكاً على الصفة التي اقترحوها يكلّمهم لقضي الأمر ، أي أمرهم ؛ فاللام عوض عن المضاف إليه بقرينة السياق ، أي لقضي أمر عذابهم الذي يتهدَّدهم به .

ومعنى : ﴿ قُضي ﴾ تُمّم ، كما دلّ عليه قوله : ﴿ ثم لا ينظرون ﴾ ؛ ذلك أنّه لا تنزل ملائكة غير الذين سخّرهم الله للأمور المعتادة مثلِ الحفظة ، وملك الموت ، والملك الذي يأتي بالوحي ؛ إلاّ ملائكة تنزل لتأييد الرسل بالنصر على من يكذّبهم ، مثل الملائكة التي نزلت لنصر المؤمنين في بدر .

(123/227)

ولا تنزل الملائكة بين القوم المغضوب عليهم إلاّ لإنزال العذاب بهم ، كما نزلت الملائكة في قوم لوط .

فمشركو مكة لمّا سألوا النبي أن يريهم ملكاً معه ظنّوا مقترحهم تعجيزاً ، فأنبأهم الله تعالى بأنّهم اقترحوا أمراً لو أجيبوا إليه لكان سبباً في مناجزة هلاكهم الذي أمهلهم إليه فيه رحمة

منه .

ولعلّ حكمة ذلك أنّ الله فطر الملائكة على الصلابة والغضب للحقّ بدون هوادة ، وجعل الفطرة الملكية سريعة لتنفيذ الجزاء على وفق العمل ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى ﴾ ، فلذلك حجزهم الله عن الاتّصال بغير العباد المكرّمين الذين شابهن نفوسهم الإنسانية النفوس الملكية ، ولذلك حجبهم الله عن النزول إلى الأرض إلاّ في أحوال خاصّة ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وما تتنزّل إلاّ بأمر ربّك ﴾ ، وكما قال : ﴿ ما تنزّل الملائكة إلاّ بالحقّ ﴾ فلو أنّ الله أرسل ملائكة في الوسط البشري لما أمهلوا أهل الضلال والفساد ولنا جزوهم جزاء العذاب ، ألا ترى أنّ الملائكة الذين أرسلهم الله لقوم لوط لمّا لقوا لوطاً قالوا : ﴿ يا لوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ .

ولمّا جادلهم إبراهيم في قوم لوط بعد أن بشّروه واستأنس بهم ﴿ قالوا يا إبراهيم أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمر ربّك ﴾ وهو نزول الملائكة ؛ فليس للملائكة تصرف في غير ما وجهّوا إليه .

فمعنى الآية أنّ ما اقترحوه لو وقع لكان سيء المغبّة عليهم من حيث لا يشعرون .

وليس المراد أنّ سبب عدم إنزال الملك رحمة بهم بل لأنّ الله ما كان ليظهر آياته عن اقتراح الضالّين ، إذ ليس الرسول صلى الله عليه وسلم بصدد التصدّي لرام كلّ من عُرضت عليه

الدعوة أن تظهر له آية حسب مقترحه فيصير الرسول صلى الله عليه وسلم مضيّعاً مدّة الإرشاد وتلتفّ عليه الناس التفافهم على المشعوذين ، وذلك ينافي حرمة النبوة ، ولكن الآيات تأتي عن محض اختيار من الله تعالى دون مسألة .

(124/227)

وأنّما أجاب الله اقتراح الحواريّين إنزال المائدة لأنّهم كانوا قوماً صالحين ، وما أرادوا إلاّ خيراً .

ولكنّ الله أنبأهم أنّ إجابتهم لذلك لحكمة أخرى وهي تستتبع نفعاً لهم من حيث لا يشعرون ، فكانوا أحرياء بأن يشكروا نعمة الله عليهم فيما فيه استبقاء لهم لو كانوا موفّقين .

وسيأتي عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربّه قل إنّ الله قادر على أن ينزلّ آية ﴾ زيادة بيان لهذا .

ومن المفسّرين من فسّر ﴿ قضي الأمر ﴾ بمعنى هلاكهم من هول رؤية الملك في صورته الأصبية .

وليس هذا بلازم لأنّهم لم يسألوا ذلك .

ولا يتوقّف تحقّق ملكيّته عندهم على رؤية صورة خارقة للعادة ، بل يكفي أن يروه نازلاً من السماء مثلاً حتى يصاحب النبي صلى الله عليه وسلم حين يدعوهم إلى الإسلام ، كما يدلّ عليه قوله الآتي : ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(125/227)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

أي : ليكون معه فيكلمنا أنه نبي ، كقوله : ﴿ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 7] .

﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ جواب لمقترحهم ، وبيان لمانعه ، وهو البقيا عليهم ، كيلا يكونوا كالباحث عن حتفه بظلفه . والمعنى : أن الملك لو أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته ، وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ، ثم لم يؤمنوا ، لحاق بهم العذاب ، وفرغ الأمر . فإن سنة الله قد جرت في الكفار أنهم متى اقترحوا آية . ثم لم يؤمنوا

، استؤصلوا بالعذاب ، كما قال تعالى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ ﴾ [الحجر : 8] . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : 22] .

﴿ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ ﴾ أي : لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين ، فضلاً عن أن ينذروا به . ومعنى ثم بعد ما بين الأمرين ، قضاء الأمر ، وعدم الإنظار جعل عدم الإنظار . أشد من قضاء الأمر ، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة .

تنبيه :

(126/227)

ذكر الزمخشري وجهاً ثانياً في تعجيل عذابهم ، عند نزول الملائكة ، وهو أنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف ، فيجب إهلاكهم ، وفي " الكشف " الاختيار قاعدة التكليف ، وهذه آية ملجئة . قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] . فوجب إهلاكهم ، لئلا يبقى وجودهم عارياً عن الحكمة ، إذ ما خلقوا إلا للابتلاء بالتكليف ، وهو لا يبقى مع الإلجاء . هذا تقريره على مذهبهم ، وهو غير صاف عن الإشكال . انتهى . وفيه إشارة إلى أنه ليس على قواعد السنة ، وكأن وجه إشكاله أنه

وقع في القرآن ، والواقع ما ينافيه ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ [البقرة : 259] . -كذا في " العناية " -وذكر أيضاً وجهاً ثالثاً . وهو أنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته ، زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون .

قال في " الانتصاف " : ويقوي هذا الوجه قوله : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ .

قال ابن عباس . ليتمكنوا من رؤيته ، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته ، انتهى .

وهذا الوجه آثره أبو السعود في التقديم حيث قال : أي : لو أنزلنا ملكاً على هيئته حسبما اقترحوه ، والحال أنه من هول المنظر ، بحيث لا تطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية . ألا يرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصورة البشرية ؟ كضيف إبراهيم ولوط ، وخصم داود عليهم السلام ، وغير ذلك . وحيث كان شأنهم كذلك ، وهم مؤيدون بالقوى القدسية ، فما ظنك بمن عداهم من العوام ؟ فلو شاهدوه كذلك لقضي أمر هلاكهم بالكلية ، واستحال جعله نذيراً ، وهو – مع كونه خلاف مطلوبهم –مستلزم لإخفاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة ، من إرسال الرسل ، وتأسيس الشرائع ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] . انتهى .

وفي " العناية " أن الوجه الثالث لا يناسب قوله : ﴿ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ ، لأنه يدل على إهلاكهم ، لا على هلاكهم ، برؤية الملك ، إلا بتكلف .

هذا وقال الناصر في " الانتصاف " : على الوجه الأول لا يحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك . فإنه ربما يُفهم هذا الكلام أن الآيات التي لزمهم الإيمان بها دون نزول الملك في الوضوح ، وليس الأمر كذلك . فالوجه –والله أعلم –أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك وعدم إيمانهم ، أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه ، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز من حيث كونه معجزاً ، لا المعجز الخاص ، فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم ، فلم ينجع فيهم ، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب لعدم النظرة – والله أعلم – .

قال المهايمي : لا دليل على النبوة سوى شهادة الملك ، وتنزيل الملك بصورته الملكوتية يقطع أمر التكليف ، إذ لا ينفع الإيمان بعد انكشاف عالم الملكوت ، فلا يمهلون ، لأن الإمهال للنظر . والمعجزة – وإن أفادت علماً ضروريّاً –لا تخلو عن خفاء يحتاج إلى أدنى نظر ، ولا خفاء مع انكشاف عالم الملكوت ، فلا وجه للإمهال للنظر ، فلا يقبل الإيمان معه ، فلا بد من المؤاخذة عقيبه . انتهى – فليتأمل – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 322.323 ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8) ﴾

ما المَلَك ؟ المَلَك جنس جعله الله من الغيب ، ونحن لا نؤمن به إلا لأن الله الذي آمنا به قال : إن له ملائكة مثلما قال : إن هناك جنّاً ، والملائكة من جنس الغيب ، والجن مستور عنا . وهؤلاء المنكرون الجاحدون يطلبون نزول مَلَك حتى يؤمنوا . إذن فهم قد عرفوا أن هناك غيباً وأن فطرتهم الأولى تحمل أثراً من منطق السماء لكنهم ينكرون ، وقولهم بالمَلَك دليل على أن في أعماقهم رواسب من دين إبراهيم ودين إسماعيل ، وبقيت تلك الآثار في النفوس لأنها مسألة لا تمس السيادة ، ولو أنزل الحق لهم ملَكاً لما آمنوا أيضاً ، فهم مكذبون . ولا يريد الحق أن يطبق عليهم سنته بنزول الآية التي يطلبونها حتى لا ينزل بهم عقابه إن كفروا بها . فلو أنزل الحق عليهم ملَكاً كما يطلبون ثم كفروا لقضي الأمر وأهلكوا بدون إمهال . إذ لو تجلى المَلَك لهم وظهر على طبيعته ما تحملته كياناتهم البشرية .

ولقد نزل المَلَكُ بآثاره الدامغة وهو غيب أنزله – سبحانه وتعالى – بالوحي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل في رسول الله ما فعل ، ولم يظهر من عمله مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم إلا أثره فحسب . وها هوذا رسول الله يشرح لنا ذلك لحظة مجيء الملك أول مرة في غار حراء :

فقال الملك : اقرأ .

(129/227)

" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ : فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ الذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم * الذى عَلَّمَ بالقلم * عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته يرجف فؤاده ودخل على زوجه السيدة خديجة بنت خويلد ، فقال : (زملوني زملوني) . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . وأخبرها الخبر وقال : " لقد خشيت على نفسي " فقالت خديجة – رضي الله عنها – وهي تعدد صفات وخلق رسول الله العظيمة : " كلا والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر " .

هكذا كان الإيمان الأول من خديجة من فور أن عرفت خبر الوحي . ويطمئن الحق رسوله من بعد ذلك قائلاً : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: 1-4] .

وشرح الله صدر رسوله فصار هذا الصدر مهبط الأسرار والعلم وحط عن ظهر الرسول الكريم الأعباء الثقال ، وارتبط اسم الرسول صلى الله عليه وسلم بأصل الإيمان والعقيدة حتى صار اسم رسول الله مقروناً باسمه – جل شأنه – في الشهادة الأولى للإسلام " أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله " .

(130/227)

إذن كان هذا حال رسول الله حين تجلَّى له المَلَك لا بالحقيقة الملكية ، ذلك أن هناك فارقاً بين البنيان البشري والبنيان الملكي . فالبنيان البشري يستقبل الأشياء المادية التي تناسب تكوينه ، فإن جاءت له طاقة أعلى منه فلا يمكنه أن يستقبلها إلا إذا أعد الله المَلَك وصَوَّره بصورة تجعله قابلاً للإرسال ، وأعد الله الرسول ليكون قابلاً للاستقبال . ونعلم جميعاً قصة موسى لما جاء لميقات ربه ، وقال الله في وصف ذلك اللقاء : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ

مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ [الأعراف : 143] .

والمانع لرؤية الله هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية بالله ، فعندما تجلى الله للجبل المتماسك الصلب صار الجبل دكاً ، أي مفتتاً وخر موسى عليه السلام مصعوقاً من هول ما رأى ، ولما أفاق تاب الله وأعلن أنه أول المؤمنين به سبحانه فإذا كان الإنسان قد صعق من تجلي الحق للجبل ، فكيف يقدر على أن يتجلى الحق له ؟

(131/227)

إننا نعلم أن كل تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء ، وضربنا لذلك مثلاً من دنيانا العلمية – ولله المثل الأعلى دائماً وهو منزه عن كل مثال – نجد الإنسان منا عندما يدخل الكهرباء إلى بيته لرغبته في الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول وبفوائد الكهرباء المتعددة ، ولكنه عندما يريد أن ينام فهو يطلب الانتفاع بقانون الظلمة ، فيطفئ المصابيح ، ويضع مصباحاً صغيراً لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوي ؛ لذلك يأتي الإنسان بمحول للطاقة فيستقبل المحول طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويخفضها بصورة تناسب المصباح الصغير . وهكذا نحتفظ بضوء ضعيف في الليل

لنستفيد من قانون الظلمة لننام .

وقد امتن الحق علينا أنه خلق النور وخلق الظلام ، وكل منهما له مهمة . فإذا كان خَلْقُ النور والضوء والكهرباء قد أتاح للإنسان بناء حضارة ، فالظلام أتاح للإنسان أن يرتاح وتسكن نفسه فيقوم ممتلئاً بالنشاط والحيوية . وإذا كنا نحتفظ في الليل ببصيص نور لا يزعج ، فنحن نفعل ذلك حتى لا نحطم الأشياء أو نصطدم بها إذا ما قمنا في الليل لقضاء حاجة .

وكذلك الإنسان . . إنه لا يستطيع بضعفه أن يأخذ عن الله مباشرة . . ومن رحمة الحق بالخلق أن جعل بينه وبين الخلق وسائط ، بتلقي المَلَك عن الله ، والملك وسيط ، والمَلك ينقل إلى الرسول المصطفى ، والرسول المصطفى وسيط ، ومن تغفيل أهل الكفر أنهم طالبوا بإنزال ملك رسول .

ويرد الله عليهم في موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94-95] .

لقد طالبوا – جهلاً – أن ينزل إليهم ملك رسول بالهدى ، ويأمر الحق رسوله أن يرد عليهم بأنه لو كان بين البشر ملائكة . . أي لو كان هناك ملائكة يمشون في الأرض لنزل إليهم الملك كرسول . ولما كان هذا غير حاصل ، فقد أرسل الحق رسولاً من البشر ؛ لأن المفروض أن يُبلغ الرسول وأن يكون كذلك أسوة سلوكية للمنهج ، بأن يطبق المنهج على نفسه ، فلو نزل ملك كرسول وطبق المنهج على نفسه لقال له البشر : إنك مَلَك تقدر على ما لا نقدر عليه وأنت لا تصلح أسوة لنا ؛ لذلك كان لا بد أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم أنفسهم حتى يكون أسوة لهم وقدوة .

إن هذا هو ما يبطل الادعاء بألوهية عيسى عليه السلام أو بنوته لله ؛ لأن عيسى عليه السلام طالبهم أن يفعلوا مثله . وأراد الحق ببشرية الرسل أن يؤكد القدوة والأسوة في الرسل ، ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمر ﴾ ؛ لأن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشراقات المَلَك لأنهم غير معدّين لاستقبال تلك الإشعاعات والإشراقات . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(133/227)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8)

بيَّنَ أَنَّ العبرة بالقسمة دون الاعتبار بالحجة ، وما يغني السراج عند مَنْ فَقَدَ البصر ؟ كذلك ما تغني الحجَجُ عند مَنْ عدم عناية الأزل ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 462 ﴾

(134/227)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ ولو جعلناه ﴾ أي مطلوبَهم ﴿ ملكاً ﴾ أي يمكن في مجاري العادات في هذه الدار رؤيتهم له وبقاؤهم بعد رؤيته ﴿ لجعلناه رجلاً ﴾ أي في صورة رجل ، ولكنه عبر بذلك إشارة إلى تمام اللبس حتى أنه لا يشك أحد يراه في كونه رجلاً ، كما كان جبريل عليه السلام ينزل في بعض الأوقات على النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي ، فإذا رآه

بعض الصحابة رضي الله عنهم لم يشك أنه دحية رضي الله عنه ﴿ و ﴾ لو جعلناه رجلاً ﴿ للبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ أي لخلطنا عليهم بجعلنا إياه رجلاً ما يخلطونه على أنفسهم وعلى غيرهم في قولهم : إن الرسالة لا تصح من البشر ، فلو كان هذا الذي يقول : إنه رسول رسولاً لكان ملكاً ، فوقع اللبس عليهم بأنه لما كان هذا الذي يقول : إنه رسول ، ملكاً كان رجلاً ، ويجوز أن يقرر ذلك على وجه آخر ، وهو أن يكون ﴿ ولو نزلنا ﴾ في حيز ﴿ كانوا عنها معرضين ﴾ ، أي أعرضوا عنا لو نزلناها عليك في غير قرطاس ، ولو نزلنا عليك من السماء كتاباً في قرطاس فجعلنا لهم في ذلك بين حس البصر واللمس لأعرضوا ، وقال الذين أَبَدْنا كفرَهم عناداً ومكابرة : ما هذا إلاّ سحر ظاهر ، ويكون ﴿ وقالوا ﴾ معطوفاً على ﴿ لقال الذين كفروا ﴾ ويكون ذلك قبل اقتراحهم لذلك بما حكاه الله تعالى عنهم في سورة الإسراء بقوله ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] - إلى آخرها ، فيكون إخباراً بمغيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 592 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ أي لجعلناه في صورة البشر .

والحكمة فيه أمور : أحدها : أن الجنس إلى الجنس أميل .

وثانيها : أن البشر لا يطيق رؤية الملك ، وثالثها : ان طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر ، وربما لا يعذرونهم في الاقدام على المعاصي .

ورابعها : أن النبوّة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده ، سواء كان ملكاً أو بشراً .

(135/227)

ثم قال : ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ قال الواحدي : يقال لبست الأمر على القوم ألبسه لبساً إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلاً ، وأصله من التستر بالثوب ، ومنه لبس الثوب لأنه يفيد ستر النفس والمعنى أنا إذا جعلنا الملك في صورة البشر فهم يظنون كون ذلك الملك بشراً فيعود سؤالهم أنا لا نرضى برسالة هذا الشخص .

وتحقيق الكلام أن الله لو فعل ذلك لصار فعل الله نظيراً لفعلهم في التلبيس ، وإنما كان ذلك تلبيساً لأن الناس يظنون أنه بشر مع أنه ليس كذلك ، وإنما كان فعلهم تلبيساً لأنهم يقولون للقومهم إنه بشر مثلكم والبشر لا يكون رسولاً من عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 134 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً ﴾ يعني ولو أرسلنا إليهم ملكاً ﴿ لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ يعني في صورة رجل آدمي لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة ﴿ وَلَلَبَسْنَا ﴾ ولشبهنا وخلطنا ﴿ عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ يخلطون ويشبهون على أنفسهم حتى يشكوا فلا يدرى أملك هو أم آدمي .

وقال الضحاك وعطية عن ابن عباس : هم أهل الكتاب فرقوا دينهم وكذبوا رسلهم وهو تحريف الكلام عن مواضعه فلبس اللّه عليهم ما لبسوا على أنفسهم .

وقال قتادة : ما لبس قوم على أنفسهم إلاّ لبس الله عليهم .

وقرأ الأزهري : وللبسنا بالتشديد على التكرير يقال : ألبست العرب ألبسه لبساً وإلتبس عليهم الأمر ألبسه لبساً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً ﴾ يعني : لو أنزلنا ملكاً بالنبوة ﴿ لجعلناه رَجُلاً ﴾ يعني : لأنزلناه على شبه رجل ، على صورة آدمي .

ألا ترى أنهم حين جاؤوا إلى إبراهيم عليه السلام جاؤوا على صورة الضيفان .

وعلى داود عليه السلام مثل خصمين .

وكان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة دحية الكلبي .

ثم قال : ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ يعني لو نزل الملك على أشباه الآدميين لا يزول عنهم الاشتباه .

والتلبس وروى بعضهم عن ابن عامر أنه قرأ : ﴿ مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ بنصب الباء يعني : جعلنا عليه من الثياب ما يلبسونه على أنفسهم .

ظنوا أنه آدمي .

والقراءة المعروفة : بالكسر .

يقال : لبس يلبس إذا لبس الثوب .

ولبس يلبس : إذا خلط الأمر .

وقال القتبي : ﴿ وَلَلَبَسْنَا ﴾ يعني : أضللناهم بما ضلوا به من قبل أن يبعث الملك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ أي ولجعلنا الرسول ملكاً ، كما اقترحوا ، لأنهم كانوا يقولون : لولا أنزل على محمد ملك ، وتارة يقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ولو شاء ربنا لأنزل

ملائكة ، ومعنى ﴿ لجعلناه رجلاً ﴾ أي لصيرناه في صورة رجل ، كما كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غالب الأحوال في صورة دحية ، وتارة ظهر له وللصحابة في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة ، وفي الحديث : " وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً " ، وكما تصوّر جبريل لمريم بشراً سوياً والملائكة أضياف إبراهيم وأضياف لوط ومتسوّر والمحراب ، فإنهم ظهروا بصورة البشر وإنما كان يكون بصورة رجل ، لأن الناس لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد ، ويؤيده هلاك الذي سمع صوت ملك في السحاب يقول : أقدم حيزوم فمات لسماع صوته فكيف لو رآه في خلقته .

قال ابن عطية : ولا يعارض هذا برؤية النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل وغيره في صورهم ، لأنه عليه السلام أعطى قوة يعني غير قوى البشر وجاء بلفظ رجل ردًّا على المخاطبين بهذا ، إذ كانوا يزعمون أن الملائكة إناث .

(137/227)

وقال القرطبي : لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقاربته وما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب من كلامه ما يلكنهم عن كلامه ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة

ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا : لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم ؛ انتهى .

وهو جمع كلام من قبله من المفسرين ، وفي هذه الآية دليل على من أنكر نزول الملائكة إلى الأرض وقالوا : هي أجسام لطيفة ليس فيها ما يقتضي انحطاطها ونزولها إلى الأرض ، ورد ذلك عليهم بأنه تعالى قادر أن يودع أجسامها ثقلاً يكون سبباً لنزولها إلى الأرض ثم يزيل ذلك ، فتعود إلى ما كانت عليه من اللطافة والخفة فيكون ذلك سبباً لارتفاعها ؛ انتهى .

هذا الردّ والذي نقول إن القدرة الإلهية تنزل الخفيف وتصعد الكثيف من غير أن يجعل في الخفيف ثقلاً وفي الكثيف خفة وليس هذا بالمستحيل ، فيتكلف أن يودع في الخفيف ثقلاً وفي الكثيف خفة ، وفي الآية دليل على إمكان تمثيل الملائكة بصورة البشر وهو صحيح واقع بالنقل المتواتر .

﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان : هذا إنسان وليس بملك ، فإني أستدل بأني جئت بالقرآن المعجز وفيه أني ملك لا بشر كذبوه كما كذبوا الرسل فخذلوا كما هم مخذولون ، ويجوز أن يكون المعنى ﴿ وللبسنا عليهم ﴾ حينئذ مثل ﴿ ما يلبسون ﴾ على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله قاله الزمخشري وفيه بعض تلخيص .

وقال ابن عطية : ولخلطنا عليهم ما يخلطون به على أنفسهم وضعفتهم ، أي : لفعلنا لهم في

ذلك تلبساً يطرّق لهم إلى أن يلبسوا به وذلك لا يحسن ، ويحتمل الكلام مقصداً آخر أي ﴿ للبسنا ﴾ نحن ﴿ عليهم ﴾ كما يلبسون هم على ضعفتهم ، فكنا ننهاهم عن التلبيس ونفعله نحن ؛ انتهى .

(138/227)

وقال قوم : كان يحصل التلبيس لاعتقادهم أن الملائكة إناث فلو رأوه في صورة رجل حصل التلبيس عليهم كما حصل منهم التلبيس على غيرهم .

وقال قوم منهم الضحاك : الآية نزلت في اليهود والنصارى في دينهم وكتبهم حرفوها وكذبوا رسلهم ، فالمعنى في اللبس زدناهم ضلالاً على ضلالهم .

وقال ابن عباس : لبس الله عليهم ما لبسوا على أنفسهم بتحريف الكلام عن مواضعه ، و﴿ ما ﴾ مصدرية وأضاف اللبس إليه تعالى على جهة الخلق ، وإليهم على جهة الاكتساب .

وقرأ ابن محيصن : ولبسنا بلام واحدة والزهري ﴿ وللبسنا ﴾ بتشديد الباء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ أي لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلاَّ بعد التجسم بالأجسام الكثيفة ؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه ؛ فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكاً لنفروا من مقاربته ، ولما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب من كلامه والإتقاء له ما يَكفُّهم عن كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تَعمّ المصلحة ؛ ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا : لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم .

وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر فأتوا إبراهيم ولوطاً في صورة الآدميين ، وأتى جبرائيل النبيّ عليهما الصَّلاة والسَّلام في صورة دِحْية الكَلْبيّ .

أي لو نزل ملك لرَأوه في صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء ، ولو نزل على عادته لم يروه ؛ فإذا جعلناه رجلاً التبس عليهم فكانوا يقولون : هذا ساحر مثلك .

(139/227)

وقال الزّجاج : المعنى ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم ﴾ أي على رؤسائهم كما يلْبِسون على ضَعفتهم ، وكانوا يقولون لهم : إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق ، فيلبسون عليهم بهذا ويُشكِّكونهم ؛ فأعلمهم الله عزّ وجلّ أنه لو أنزل مَلِكاً في صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى

اللَّبْس كما يفعلون .

واللَّبْس الخَلْط ؛ يُقال : لَبَست عليه الأمر أَلْبِسه لَبْساً أي خَلَطته ؛ وأصله التّستر بالثوب ونحوه .

وقال : "لَبَسْنَا" بالإضافة إلى نفسه على جهة الخلق ، وقال : ﴿ مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ فأضاف إليهم على جهة الاكتساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وقد أشير إلى الثاني بقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ على أن الضمير الأول للنذير المحدث للناس عنه عليه الصلاة والسلام المفهوم من فحوى الكلام بمعونة المقام والضمير الثاني للملك لا لما رجع إليه الأول أي ولو جعلنا النذير الذي اقترحتم إنزاله ملكاً لمثلنا ذلك الملك رجلاً لعدم استطاعتكم معاينة الملك على هيكله الأصلي ، وفي إيثار "رجلاً" على بشراً إيذان على ما قيل بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة وتعيين لما يقع به التمثيل ، وفيه إشعار كما قال عصام الدين وغيره بأن الرسول لا يكون امرأة وهو متفق عليه وإنما الاختلاف في نبوتها .

والعدول عن ولو أنزلناه ملكاً إلى ما في النظم الجليل يعلم سره مما تقدم في بيان المراد ، وقيل : العدول لرعاية المشاكلة لما بعد .

ووجه شيخ الإسلام عدم جعل الضمير الأول للملك المذكور قبل "بأن يعكس ترتيب المفعولين ويقال : ولو جعلناه نذيراً لجعلناه رجلاً مع فهم المراد منه أيضاً بأنه لتحقيق أن مناط إبراز الجعل الأول في معرض الفرض والتقدير ومدار استلزامه للثاني إنما هو ملكية النذير لا نذيرية الملك ، وذلك لأن الجعل حقه أن يكون مفعوله الأول مبتدأ والثاني خبراً لكونه بمعنى التصيير المنقول من صار الداخل على المبتدأ والخبر ، ولا ريب في أن مصب الفائدة ومدار اللزوم بين طرفي الشرطية هو محمول المقدم لا موضوعه فحيث كانت "لو" امتناعية أريد بيان انتفاء الجعل الأول لاستلزامه المحذور الذي هو الجعل الثاني وجب أن يجعل مدار الاستلزام في الأول مفعولاً ثانياً لا محالة ولذلك جعل مقابله في الجعل الثاني كذلك إبرازاً لكمال التنافي بينهما الموجب لانتفاء الملزوم" ولا يخلو عن حسن .

وجوز غير واحد كون قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه ﴾ الخ جواب اقتراح ثان ، وذلك أن للكفرة اقتراحين ، أحدهما : أن ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ملك في صورته الأصلية بحيث يعاينه القوم ؛ والآخر أن ينزل إلى القوم ويرسل إليهم مكان الرسول البشر ملك فانهم كما كانوا يقولون : لولا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ملك فيكون معه نذيراً كانوا يقولون : ﴿ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَوْ شَاء الله لأَنزَلَ ملائكة ﴾ [المؤمنون : 24] فأجيبوا عن قولهم الأول بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً ﴾ [الأنعام : 8

] الخ وعن قولهم الأخير بما ذكر فضمير ﴿ جعلناه ﴾ للرسول المنزل إلى القوم ، ولا يخفى أن جعله جواباً عن اقتراح آخر غير ظاهر من النظم الكريم ولا داعي إليه أصلاً .

وبعضهم جعله جواباً آخر وجعل الضمير للمطلوب .

(141/227)

واعترض بأن المطلوب أيضاً ملك ولا معنى لقولنا لو جعلنا الملك ملكاً إلا أن يقال : المراد لو جعلنا المطلوب ملكيته ملكاً ، وتعقب بأن المطلوب هو النازل المقارن للرسول صلى الله عليه وسلم وحينئذ لا غبار في الكلام خلا أن لزوم جعل الملك النازل رجلاً لجعله ملكاً كما هو مفهوم الآية الثانية ينافي لزوم هلاكهم له كما هو مفهوم الآية الأولى لتوقف الثاني على عدم الأول لأن مبناه على نزوله في صورته لا في صورة رجل فحينئذ يجب أن تكون الآية جواباً عن اقتراح آخر لا جواباً آخر عن الاقتراح الأول حتى لا يلزم المنافاة .

وأجيب بأنه على تقدير كونه جواباً آخر يكون جواباً على طريق التنزل ، والمعنى ولو أنزلناه كما اقترحوا لهلكوا ولو فرضنا عدم هلاكهم فلا بد من تمثله بشراً لأنهم لا يطيقون رؤيته على صورته الحقيقية فيكون الارسال لغواً لا فائدة فيه ، وأنت تعلم أن ما عولنا عليه وهو المروي عن حبر الأمة سالم عن مثل هذه الاعتراضات .

نعم ذكر بعض الفضلاء إشكالاً وهو أن المقرر عند أهل الميزان أن صدق العكس لازم لصدق الأصل فعلى هذا يلزم من كذب اللازم كذب الملزوم فههنا عكس القضية الصادقة وهي ﴿ لَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ غير صادق إذ هو لو جعلناه رجلاً لجعلناه ملكاً ولا خفاء في عدم تحققه فإن الله تعالى قد جعله رجلاً ولم يجعله ملكاً والجواب بأن ما ذكره أهل الميزان اصطلاح طار فلا يجب موافقة قاعدتهم لقاعدة أهل اللسان غير مرضي فإنه قد تقرر أن تلك القاعدة غير مخالفة لقاعدة اللغة وأنها مما لا خلاف فيه .

(142/227)

وأجيب عن ذلك بعد تمهيد مقدمة وهي أن للو الشرطية استعمالين لغوياً وهي فيه لانتفاء الثاني لانتفاء الأول كما في لو جئتني أكرمتك ومفهوم القضية عليه الأخبار بأن شيئاً لم يتحقق بسبب عدم تحقق شيء آخر ، وعرفياً تعارفه الميزانيون فيما بينهم وذلك أنهم جعلوها من أدوات الاتصال لزومياً واتفاقياً وصدق القضية التي هي فيها بمطابقة الحكم باللزوم للواقع وكذبها بعدمها ويحكمون بكذبها وإن تحقق طرفاها إذا لم يكن بينهما لزوم وقد استعملها اللغويون أيضاً في هذا المعنى إما بالاشتراك أو بالمجاز كما يقال : لو كان زيد في البلد لرآه أحد .

وفي بعض الآثار "لو كان الخضر حيا لزارني" ، ومن البين أن المقصود الاستدلال بالعدم على العدم لا الدلالة على أن انتفاء الثاني سبب انتفاء الأول ، وجعلوا من هذا الاستعمال ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] .

وقد اشتبه هذان الاستعمالان على ابن الحاجب حتى قال ما قال بأن قول المستشكل : إن عكس القضية الصادقة الخ إن أراد به أن القضية الصادقة هي المأخوذة باعتبار الاستعمال الأول فلا نسلم أن عكسه ما ذكر فإن عكس لو جئتني أكرمتك ليس لو أكرمتك لجئتني وإنما يكون كذلك لو كان الحكم في هذا الاستعمال بين الشرط والجزاء بالاتصال وليس كذلك بل القضية هي الجملة الجزائية والشرط قيد لها كما صرح به السكاكي على أن بعض أئمة التفسير قالوا : المراد من الآية ولو جعلناه ملكاً لجعلناه على صورة رجل وأن المقصود بيان انتقاض غرضهم من قولهم :

(143/227)

﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] يعني أن نزول الملك لا يجديهم لأنهم وهم هم لا يقدرون على مشاهدة الملك على صورته التي هو عليها إلا أن يجعله متمثلاً على صورة البشر في مرتبة من مراتب التنزل حتى تحصل لهم معه مناسبة فيروه فتكون الآية على هذا

بمراحل عن أن يبحث فيها عن أن عكسها ماذا أو كيف حالها في الصدق والكذب فإنها لم تسق لبيان لزوم الجعل الثاني للجعل الأول حتى يستدل بالعدم على العدم أو بالوجود على الوجود فنسبة هذا البحث إلى الآية كنسبة السمك إلى السماك وإن أراد به أن القضية الصادقة هي المأخوذة باعتبار الاستعمال العرفي المنطقي فمسلم أنه لا بد من صدق عكسها على تقدير صدق أصلها لكن لا نسلم كذب العكس هنا على ذلك التقدير فإنه إذا فرض لزوم الجعل رجلاً للجعل الأول كلياً على جميع التقادير يصدق لزوم الجعل ملكاً للجعل رجلاً على بعض الأوضاع والتقادير وهو اللازم المقرر في قواعدهم على أن قوله إن الله تعالى قد جعله رجلاً ولم يجعله ملكاً لا يليق أن يصدر مثله من مثله لأنه استدلال بعدم اللازم مع وجود الملزوم على بطلان اللزوم وهو كما لو قال قائل : إذا قلنا إن كان زيد صاهلاً كان حيواناً لا يصدق عكسه ، وهو قد يكون إذا كان زيد حيواناً كان صاهلاً لأنه ليس بصاهل في الواقع ، ومنشأ هذا هو ظن أن عدم تحقق أحد الطرفين ، أو كليهما ينافي اللزوم . وأنت خبير بأن صدق اللزوم لا يتوقف على تحقق الطرفين ولا تحقق المقدم اه .

وبحث فيه المولى العلائي أما أولاً : فبأن كون القضية هي الجملة الجزائية والشرط قيد لها كلام ذكره بعض أهل العربية ورده السيد السند وحقق اتفاق الفريقين على كون الجملة هي المجموع وحينئذ كيف يصح بناء الجواب على ذلك .

وأما ثانياً : فبأن المستشكل لم يستدل بعدم اللازم مع وجود الملزوم على بطلان اللزوم كما لا

يخفى على الناظر في عبارته ، فالصواب أن يقال : أكثر استعمال لو عند أهل العربية لمعنيين .

(144/227)

الأول ما ذكره المجيب من انتفاء الثاني لانتفاء الأول .

والثاني الدلالة على أن الجزاء لازم الوجود في جميع الأزمنة في قصد المتكلم .

وذلك إذا كان الشرط يستبعد استلزامه لذلك الجزاء ويكون نقيض ذلك الشرط أنسب وأليق باستلزام ذلك الجزاء فيلزم استمرار وجود الجزاء على تقدير وجود الشرط وعدمه كما في "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله تعالى لم يعصه" .

وقد صرح المحققون أن الآية إما من قبيل الأول أي لو جعلناه قرينا لك ملكاً يعاينونه أو الرسول المرسل إليهم ملكاً لجعلنا ذلك الملك في صورة رجل وما جعلنا ذلك الملك في صورة رجل لأنا لم نجعل القرين أو الرسول المرسل إليهم ملكاً .

وإما من قبيل الثاني أي ولو جعلنا الرسول ملكاً لكان في صورة رجل فكيف إذا كان إنساناً وكل منهما لا يقبل العكس المذكور ولا ثالث فلا إشكال فتدبر .

فالبحث بعد محتاج إلى بسط كلام ولو بسطناه لأمل الناظرين .

﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ جعله بعضهم جواب محذوف أي ولو جعلناه رجلاً للبسنا الخ ، وكأن الداعي إليه إعادة لام الجواب فإنه يقتضي استقلاله وأنه لا ملازمة بين إرسال الملك ، واللبس عليهم فإنه ليس سبباً له بل لعكسه ، ويجوز أن يكون عطفاً على جواب لو المذكور ولا ضير في عطف لازم الجواب عليه ، ونكتة إعادة اللام أن لازم الشيء بمنزلته فكأنه جلماب ، واللبس في الأصل الستر بالثوب ويطلق على منع النفس من إدراك الشيء بما هو كالستر له يقال لبست الأمر على القوم ألبسه إذا شبهت عليهم وجعلته مشكلاً .

قال ابن السكيت : يقال لبست عليه الأمر إذا خلطته عليه حتى لا يعرف جهته أي لخلطنا عليهم بتمثيله رجلاً ما يخلطون على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له : إنما أنت بشر ولست بملك ، ولو استدل على ملكيته بالمعجز كالقرآن ونحوه كذبوه كما كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وإسناد اللبس إليه تعالى لأنه بخلقه سبحانه وتعالى أو للزومه لجعله رجلاً .

(145/227)

ويحتمل أن يكون المعنى للبسنا عليهم حينئذ ما يلبسون على أنفسهم الساعة في تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم ونسبة آياته البينات إلى السحر ، و﴿ مَا ﴾ على ما اختاره في

"الكشف" على الأول موصولة وعلى الثاني يجوز أن تكون مصدرية وهو الأظهر لاستمرار حذف المثل في نحو ضربت ضرب الأمير ، وأن تكون موصولة أي مثل الذي يلبسونه .

ومتعلق ﴿ يَلْبِسُونَ ﴾ على الوجهين على أنفسهم .

ويفهم من كلام الزجاج أنه على ضعفائهم حيث قال : كانوا يلبسون على ضعفائهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون : إنما هذا بشر مثلكم فأخبر سبحانه وتعالى أنه لو جعلنا المرسل إليهم ملكاً لأريناهم إياه في صورة الرجل وحينئذ يلحقهم فيه من اللبس مثل ما لحق ضعفاءهم منه .

وقرأ ابن محيصن ﴿ ولبسنا ﴾ بلام واحدة والزهري ﴿ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ بالتشديد ، هذا وقد ذكر الإمام الرازي في بيان وجه الحكمة في جعل الملك على تقدير إنزاله في صورة البشر أموراً .

"الأول : أن الجنس إلى الجنس أميل .

الثاني : أن البشر لا يطيق رؤية الملك .

الثالث : أن طاعات الملك قوية فيستحقرون طاعات البشر وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي .

الرابع : أن النبوة فضل من الله تعالى فيختص بها من يشاء من عباده سواء كان ملكاً أو بشراً" .

ولا يخفى أنه يرد على الوجه الثالث أنه إنما يتم إذا تبدلت حقيقة الملك المقدر نزوله بحقيقة البشر وهو مع كونه من انقلاب الحقائق خلاف ما يفهم من كتب أئمة التفسير من أن التبدل صوري لا حقيقي ، وأن الوجه الرابع لا يظهر وجه كونه حكمة لتصوير الملك بصورة البشر .

(146/227)

وقول العلائي : لعل وجهه أن المصور الذي قدر كونه نبياً لما اشتمل على جهتين البشرية صورة والملكية حقيقة لم يبعد أن يكون دليلاً على أن النبوة فضل من الله تعالى يختص بها من يشاء من عباده سواء كان ملكاً كهذا المصور باعتبار حقيقته أو بشرا مثله باعتبار صورته مما لا يتبلج له وجه القبول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ عطف على قوله : ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ﴾ فهو جواب ثان عن مقترحهم ، فيه ارتقاء في الجواب ، وذلك أنّ مقترحهم يستلزم الاستغناء عن بعثة رسول من البشر لأنّه إذا كانت دعوة الرسول البشري غير مقبولة عندهم إلاّ إذا قارنه ملك يكون معه نذيراً كما قالوه وحكي عنهم في غير هذه الآية ، فقد صار مجيء رسول بشري إليهم غير مجد للاستغناء عنه بالملك الذي يصاحبه ، على أنّهم

صرّحوا بهذا اللازم فيما حكي عنهم في غير هذه الآية ، وهو قوله تعالى : ﴿ قالوا لو شاء ربّنا لأنزل ملائكة ﴾ ، فجاء هذا الجواب الثاني صالحاً لردّ الاقتراحين ، ولكنّه رُوعي في تركيب ألفاظه ما يناسب المعنى الثاني لكلامهم فجيء بفعل ﴿ جعلنا ﴾ المقتي تصيير شيء آخر أو تعويضه به .

فضمير ﴿ جعلناه ﴾ عائد إلى الرسول الذي عاد إليه ضمير ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ ، أي ولو اكتفينا عن إرسال رسول من نوع البشر وجعلنا الرسول إليهم ملكاً لتعيّن أن نصّور ذلك الملك بصورة رجل ، لأنّه لا محيد عن تشكّله بشكل لتمكّن إحاطة أبصارهم به وتحيّزه فإذا تشكّل فإنّما يتشكّل في صورة رجل ليطيقوا رؤيته وخطابه ، وحينئذٍ يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم

فجملة ﴿ ولبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ من تمام الدليل والحجّة عليهم بعدم جدوى إرسال الملك .

واللّبس : خلط يعرض في الصفات والمعاني بحيث يعسر تمييز بعضها عن بعض .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولا تلبسوا الحقّ بالباطل ﴾ في سورة البقرة (42) .

وقد عدّي هنا بحرف (على) لأنّ المراد لبس فيه غَلبة لعقولهم .

والمعنى : وللبسنا على عقولهم ، فشكّوا في كونه ملكاً فكذّبوه ، إذ كان دأب عقولهم تطلّبَ خوارق العادات استدلالاً بها على الصدق ، وتركَ إعمال النظر الذي يعرف به صدق الصادق .

وما ﴾ في قوله : ﴿ ما يلبسون ﴾ مصدرية مجرّدة عن الظرفية ، والمعنى على التشبيه ، أي وللبسنا عليهم لبَسهم الذي وقع لهم حين قالوا : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ ، أي مثل لبَسهم السابق الذي عرض لهم في صدق محمد عليه الصلاة والسلام .

وفي الكلام احتباك لأنّ كلا اللبسين هو بتقدير الله تعالى ، لأنّه حرمهم التوفيق .

فالتقدير : وللبسنا عليهم في شأن الملك فيلبسون على أنفسهم في شأنه كما لبسنا عليهم في شأن محمد صلى الله عليه وسلم إذ يلبسون على أنفسهم في شأنه .

وهذا الكلام كلّه منظور فيه إلى حمل اقتراحهم على ظاهر حاله من إرادتهم الاستدلال ، فلذلك أجيبوا عن كلامهم إرخاء للعنان ، وإلاّ فإنّهم ما أرادوا بكلامهم إلاّ التعجيز والاستهزاء ، ولذلك عقّبه بقوله : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (9) ﴾

إذن فلو أراد الله أن يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم معاينة المَلَك على صورته الأصلية ، وقد يهلكون عند رؤيته ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ أي ولخلطنا عليهم بتمثيله رجلا ما يخلطون هم على أنفسهم فإنهم سيقولون – حينئذ – إنما أنت بشر ولست بملك ، وقد أنزل الله المَلَك على صورة البشر كما حدث مع خليل الله إبراهيم عليه السلام يقول تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : 51-53] .

لقد أنزل الله الضيف من الملائكة على إبراهيم عليه السلام فخاف منهم بعد أن قرَّب العجل ورآهم لا يأكلون إلى أن قالوا له ما يطمئنه من خبر ببشارة من الله ، بأن يولد له الغلام إسحاق من زوجته " سارة " بعد أن رزقه الله من قبل إسماعيل من " هاجر " .

وكذلك أنزل الحق إلى مريم البتول مَلَكاً وتمثل لها بشراً سوياً لينبئها بحملها بعيسى عليه السلام . إذن فالمَلَك يتجسد في صورة بشرية عندما يرسله الله في مهمة إلى البشر ؛ لأن الملك لا يأتي إلى البشر على حقيقته . ومن امتنان الله على رسوله أنه أعطى له الفرصة

ليرى جبريل على حقيقته مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة حين تجسد له على هيئة دحية الكلبي ومرة في صفة رجل مسافر جاء يسأل الرسول عن الإسلام والإيمان ، وحدثنا عنه عبد الله بن عمر قائلاً :

(149/227)

" حدثني أبي عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه . قال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال :

أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله وأعلم . قال : إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم "

إذن ، فنحن ببشريتنا لا نستطيع رؤية الملَك إلا بعد أن يجسده الله بشراً . ولذلك قال الحق : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ إذن فاللَّبس موجود بدليل أن الله أرسل الملائكة في صوة بشر لإبراهيم عليه السلام ومريم ابنة عمران ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو جالس بين قومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(150/227)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُون ﴾ في " ما " قولان :

أحدهما : أنها مَوْصولةٌ بمعنى " الذي " ، أي : ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم ، أو على غيرهم ، قاله أبو البقاء – رحمه الله تعالى – وتكون " ما " حينئذٍ مفعولاً بها .

الثاني : أَنَّها مَصْدَرِيَّةٌ ، أي : ولَلَبْسنا عليهم مَثْلَ ما يلبسون على غيرهم ويسلكونهم ، والمعنى شَبَّهوا على ضعفائهم فشُبِّهَ عليهم .

قال ابن عباس : هُمْ أَهْلُ الكتاب ، فَرَّقُوا دينهم وحَرَّفُوا الكَلِمَ عن مَوَاضِعِه ، فَلَبَسَ اللَّهُ عليهم ما يلبسون .

وقرأ ابن مُحَيْصِن : " وَلَبَسْنا " بلام واحدة هي فاء الفَعْلِ ، ولم يأت بلامٍ في الجواب اكْتِفَاءً بها في المَعْطُوف عليه .

وقرأ الزهري : " وَلَلَبَّسْنا " بلامين وتشديد الفعل على التَّكْثِيرِ .

قال الواحدي : يقال لَبَّسْتُ الأَمْرَ على القَوْمِ أَلَبِّسُهُ إذا شَبَّهْتَه عليهم ، وجعلته مُشْكِلاً ، وأصله من التَّسَتُّرِ بالثوب ، ومنه لُبْسُ الثوب ، لأنه يُفيد سَتْرَ النفس ، والمعنى : إذا جَعَلْنَا الملكَ في صيورة البَشَرِ ، فهم يظنون أن ذلك المَلَكَ بَشَراً ، فيعود سؤالهم أَنَّا لا نرضى برسالة هذا الشَّخْصِ ، واللَّهُ أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 39 .

40 ﴾

(151/227)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قطع الرجاء لهداية من حكم بشقاوته ، وكان طلبهم لإنزال الملك ونحوه إنما هو على سبيل التعنت والاستهزاء ، وكان ذلك يشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رضي الله عنهم غاية المشقة ، التفتت النفس إلى الإراحة منهم وتوقعته لما تقدم من مظاهر العظمة ، فأخبره أنه فاعل ذلك في سياق متكفل بتسليته ، وأن ذلك لم يزل سنته فيمن فعل فعلهم ، فقال – عاطفاً على قوله ﴿ فسوف يأتيهم أنباؤا ﴾ [الأنعام : 5] – : ﴿ ولقد ﴾ أي هذا منهم إنما هو استهزاء بك ﴿ ولقد استهزئ ﴾ أي أوقع الهزء وأوجد من الأمم ، وبني للمفعول لأن المنكي الاستهزاء ، لا كونه من معين ، وإشارة إلى أنه كان يقع لهم ذلك من الأعلى والأدنى ﴿ برسل ﴾ .

ولما كان القرب في الزمن في مثل هذا مما يسلي ، وكان كل من الاستهزاء والإرسال لم يستغرق الزمن ، أدخل الجار فاقل : ﴿ من قبلك ﴾ فأهلكنا من هزأ بهم ، وهو معنى ﴿ فحاق ﴾ أي فأحاط ﴿ بالذين سخروا منهم ﴾ أي من أولئك الرسل ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي من العذاب الذي كانوا يتوعدون به ، وكان سبباً لهزئهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر

﴿ حـ 2 صـ 592. 593 ﴾

فصل

قال السمرقندى :

﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ يا محمد كما استهزأ بك قومك في أمر العذاب ﴿ فَحَاقَ بالذين ﴾ يقول : وجب ونزل بالذين ﴿ سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ بالرسل .

ويقال : ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي : رجع .

وقال أهل اللغة : الحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فَعَلَتْه نفسه .

كقوله : ﴿ استكبارا فِى الأرض وَمَكْرَ السيىء وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] وقال الضحاك : كان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد الحرام مع المستضعفين من المؤمنين بلال بن رباح وصهيب بن سنان وعمار بن ياسر وغيرهم .

فمر بهم أبو جهل بن هشام في ملأ من قريش وقال : يزعم محمد أن هؤلاء ملوك أهل الجنة فأنزل الله تعالى على رسوله هذه الآية ليثبت بها فؤاده ، ويصبره على أذاهم فقال : ﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ يعني : إن سخر أهل مكة من أصحابك فقد فعل ذلك الجهلة برسلهم فجعل الله تعالى دائرة السوء على أهل ذلك الاستهزاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن بعض الأقوام الذين كانوا يقولون إن رسول الله يجب أن يكون ملكاً من الملائكة كانوا يقولون هذا الكلام على سبيل الاستهزاء ، وكان يضيق قلب الرسول عند سماعه فذكر ذلك ليصير سبباً للتخفيف عن القلب لأن أحداً ما يخفف عن القلب المشاركة في سبب المحنة والغم .

(152/227)

فكأنه قيل له إن هذه الأنواع الكثيرة من سوء الأدب التي يعاملونك بها قد كانت موجودة في سائر القرون مع أنبيائهم ، فلست أنت فريداً في هذا الطريق .

وقوله ﴿ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ ﴾ الآية ونظيره قوله ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] وفي تفسيره وجوه كثيرة لأهل اللغة وهي بأسرها متقاربة .

قال النضر : وجب عليهم .

قال الليث (الحيق) ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء يعمله فنزل ذلك به ، يقول أحاق الله بهم مكرهم وحاق بهم مكرهم ، وقال الفرّاء (حاق بهم) عاد عليهم ، وقيل (حاق بهم) حل بهم ذلك .

وقال الزجاج "حاق" أي أحاط.

قال الأزهري: فسّر الزجاج (حاق) بمعنى أحاط وكان مأخذه من الحوق وهو ما استدار بالكمرة.

وفي الآية بحث آخر وهو أن لفظة (ما) في قوله ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فيها قولان:

الأول: أن المراد به القرآن والشرع وهو ما جاء به محمد عليه السلام.

وعلى هذا التقدير فتصير هذه الآية من باب حذف المضاف، والتقدير فحاق بهم عقاب ما كانوا به يستهزؤن.

والقول الثاني: أن المراد به أنهم كانوا يستهزؤن بالعذاب الذي كان يخوفهم الرسول بنزوله وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى هذا الإضمار. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 135 ﴾

وقال أبو حيان:

﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ ﴾

هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما كان يلقى من قومه وتأسّ بمن سبق من الرسل وهو نظير وإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك لأن ما كان مشتركاً من ما لا يليق أهون على النفس مما يكون فيه الانفراد وفي التسلية والتأسي من التخفيف ما لا يخفى.

وقالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي . . .

على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن . . .

أسلي النفس عنه بالتأسي

وقال بعض المولدين :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة . . .

يواسيك أو يسليك أو يتوجع

(153/227)

ولما كان الكفار لا ينفعهم الاشتراك في العذاب ولا يتسلون بذلك ، نفى ذلك تعالى عنهم فقال : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ قيل : كان قوم يقولون : يجب أن يكون ملكاً من الملائكة على سبيل الاستهزاء ، فيضيق قلب الرسول عند سماع ذلك فسلاه الله تعالى بإخباره أنه قد سبق للرسل قبلك استهزاء قومهم بهم ليكون سبباً للتخفيف عن القلب ، وفي قوله تعالى : ﴿ فحاق ﴾ إلى آخره ، إخبار بما جرى للمستهزئين بالرسل قبلك ووعيد متيقن لمن استهزأ بالرسول عليه السلام وتثبيت للرسول

على عدم اكتراثه بهم ، لأن مآلهم إلى التلف والعقاب الشديد المرتب على الاستهزاء ، وأنه تعالى يكفيه شرهم وإذايتهم كما قال تعالى : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ ومعنى ﴿ سخروا ﴾ استهزؤوا إلا أن استهزأ تعدّى بالباء وسخر بمن كما قال : ﴿ إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ وبالباء تقول : سخرت به وتكرر الفعل هنا لخفة الثلاثي ولم يتكرر في ﴿ ولقد استهزئ ﴾ فكان يكون التركيب ، ﴿ فحاق بالذين ﴾ استهزؤوا بهم لثقل استفعل ، والظاهر في ﴿ ما ﴾ أن تكون بمعنى الذي وجوّزوا أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية ، والظاهر أن الضمير في ﴿ منهم ﴾ عائد على الرسل ، أي ﴿ فحاق بالذين سخروا ﴾ من الرسل وجوز الحوفي وأبو البقاء أن يكون عائداً على غير الرسل .

قال الحوفي : في أمم الرسل .

وقال أبو البقاء : على المستهزئين ، ويكون ﴿ منهم ﴾ حالاً من ضمير الفاعل في ﴿ سخروا ﴾ وما قالاه وجوزاه ليس بجيد ، أما قول الحوفي فإن الضمير يعود على غير مذكور وهو خلاف الأصل ، وأما قول أبي البقاء فهو أبعد لأنه يصير المعنى : ﴿ فحاق بالذين سخروا ﴾ كائنين من المستهزئين فلا حاجة لهذه الحال لأنها مفهومة من قوله ﴿ سخروا ﴾ وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة بكسر دال ﴿ ولقد استهزئ ﴾ على أصل التقاء الساكنين .

وقرأ باقي السبعة بالضم اتباعاً ومراعاة لضم التاء إذ الحاجز بينهما ساكن ، وهو حاجز غير حصين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ ﴾

تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من قومه كالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل وأضرابهم أي أنك لست أول رسول استهزأ به قومه فكم وكم من رسول جليل الشأن فعل معه ذلك فالتنوين للتفخيم والتكثير و(من) ابتداء متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسل والكلام على حذف مضاف ، وفي تصدير الجملة بالقسم وحرف التحقيق من الاعتناء ما لا يخفى .

وكون التسلية بهذا المقدار مما خفي على بعض الفضلاء وهو ظاهر ، ولك أن تقول : إن التسلية به وبما بعده من قوله تعالى : ﴿ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ لأنه متضمن أن من استهزأ بالرسل عوقب فكأنه سبحانه وتعالى وعده صلى الله عليه وسلم بعقوبة من استهزأ به عليه والسلام إن أصر على ذلك .

وحاق بمعنى أحاط كما روي عن الضحاك واختاره الزجاج ، وفسره الفراء بعاد عليه وبال أمره ، وقيل : حل واختاره الطبرسي ، وقيل : نزل وهو قريب من سابقه ومعناه يدور على الإحاطة والشمول ولا يكاد يستعمل إلا في الشر كما قال

: فاوطا جرد الخيل عقر ديارهم . . .

وحاق بهم من بأس ضربة حائق

وقال الراغب : أصله حق فأبدل من أحد حرفي التضعيف حرف علة كتظننت ، وتظنيت أو هو مثل ذمة وذامة ، والمعروف في اللغة ما اختاره الزجاج .

وقال الأزهري : جعل أبو إسحاق حاق بمعنى أحاط ، وكأنه جعل مادته من الحوق "بالضم وهو ما أحاط بالكمرة من حروفها" وقد يفتح كما في "القاموس" وجعل أحد معاني الحوق بالفتح الإحاطة ؛ وفيه أيضاً "حاق به يحيق حيقاً وحيوقا وحيقانا بفتح الياء أحاط به كأحاق وفيه السيف حاك وبهم الأمر لزمهم ووجب عليهم ونزل ، وأحاق الله تعالى بهم مكرهم .

والحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله" .

(155/227)

وظاهره أن حاق يائي وعليه غالب أهل اللغة وهو مخالف لظاهر كلام الأزهري من أنه واوي.

و﴿ مِنْهُمْ ﴾ متعلق بسخروا والضمير للرسل.

ويقال: سخر منه وبه كهزأ منه وبه فهما متحدان معنى واستعمالاً.

وقيل: السخرية والاستهزاء بمعنى لكن الأول قد يتعدى بمن والباء.

وفي "الدر المصون" لا يقال إلا استهزأ به ولا يتعدى بمن.

وجوز أبو البقاء أن يكون الضمير للمستهزئين والجار والمجرور حينئذ متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير الفاعل في "سخروا" ورد بأن المعنى حينئذ فحاق بالذين سخروا كائنين من المستهزئين ولا فائدة لهذه الحال لانفهامها من سخروا وأجيب بأن هذا مبني على أن الاستهزاء والسخرية بمعنى وليس بلازم فلعل من جعل الضمير للمستهزئين يجعل الاستهزاء بمعنى طلب الهزء فيصح بيانه ولا يكون في النظم تكرار.

فعن الراغب الاستهزاء ارتياد الهزء وإن كان قد يعبر به عن تعاطي الهزء كالاستجابة في كونها ارتياداً للإجابة وإن كان قد يجري مجرى الإجابة.

وجوز رجوع الضمير إلى أمم الرسل ونسب إلى الحوفي ورده أبو حيان بأنه يلزم إرجاع الضمير إلى غير مذكور وأجيب عنه بأنه في قوة المذكور.

و﴿ بالذين ﴾ متعلق بحاق وتقديمه على فاعله وهو (ما) للمسارعة إلى بيان لحوق الشر

بهم .

وهي إما مصدرية وضمير به للرسول الذي في ضمن الرسل .

وإما موصولة والضمير لها والكلام على حذف مضاف أي فأحاط بهم وبال استهزائهم أو وبال الذي كانوا يستهزؤون به .

وقد يقال : لا حاجة إلى تقدير مضاف ، وفي الكلام إطلاق السبب على المسبب لأن المحيط بهم هو العذاب ونحوه لا الاستهزاء ولا المستهزأ به لكن وضع ذلك موضعه مبالغة .

وقيل : إن المراد من الذي كانوا يستهزؤون هو العذاب الذي كان الرسل يخوفونهم إياه فلا حاجة إلى ارتكاب التجوز السابق أو الحذف وقد اختار ذلك الإمام الواحدي .

(156/227)

والاعتراض عليه بأنه لا قرينة على أن المراد بالمستهزأ به هو العذاب بل السياق دليل على أن المستهزأ بهم الرسل عليهم الصلاة والسلام يدفعه أن الاستهزاء بالرسل عليهم الصلاة والسلام مستلزم لاستهزائهم بما جاؤوا به وتوعدوا قومهم بنزوله وان مثله لظهوره لا يحتاج إلى قرينة .

ومن الناس من زعم أن ﴿ نَخْسِفْ بِهِمُ ﴾ كناية عن إهلاكهم وإسناده إلى ما أسند إليه

مجاز عقلي من قبيل أقدمني بلدك حق لي على فلان إذ من المعلوم من مذهب أهل الحق أن المهلك ليس إلا الله تعالى فإسناده إلى غيره لا يكون إلا مجازاً وأنت تعلم أن الحيق الإحاطة ونسبتها إلى العذاب لا شبهة في أنها حقيقة ولا داعي إلى تفسيره بالإهلاك وارتكاب المجاز العقلي ، ولعل مراد من فسر بذلك بيان مؤدى الكلام ومجموع معناه .

نعم إذا قلنا : إن الإحاطة إنما تكون للأجسام دون المعاني فلا بد من ارتكاب تجوز في الكلام على تقدير إسنادها إلى العذاب لكن لا على الوجه الذي ذكره هذا الزاعم كما لا يخفى .

وفي جمع "كانوا ويستهزؤون" ما مر غير مرة في أمثاله .

و﴿ بِهِ ﴾ متعلق بما بعده وتقديمه لرعاية الفواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مّن قَبْلِكَ ﴾

عطف على جملة : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ لبيان تفنّنهم في المكابرة والعناد تصلّباً في شركهم وإصراراً عليه ، فلا يتركون وسيلة من وسائل التنفير من قبول دعوة الإسلام إلاّ توسّلوا بها .

ومناسبة عطف هذا الكلام على قوله : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ أنّهم كانوا في

قولهم ذلك قاصدين التعجيز والاستهزاء معاً ، لأنّهم ما قالوه ألاّ عن يقين منهم أنّ ذلك لا يكون ، فابتدىء الردّ عليهم بإبطال ظاهر كلامهم بقوله : ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ﴾ .

ثم ثنّى بتهديدهم على ما أرادوه من الاستهزاء ، والمقصود مع ذلك تهديدهم بأنّهم سيحيق بهم العذاب وأنّ ذلك سنة الله في كلّ أمّة استهزأت برسول له .

(157/227)

فقوله : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ يدلّ على جملة مطوية إيجازاً ، تقديرها : واستهزأوا بك ولقد استهزأ أمم برسل من قبلك ، لأنّ قوله من ﴿ قبلك ﴾ ، لأنّ قوله من ﴿ قبلك ﴾ يؤذن بأنّه قد استهزىء به هو أيضاً وإلاّ لم تكن فائدة في وصف الرسل بأنّهم من قبله لأنّ ذلك معلوم .

وحُذف فاعل الاستهزاء فبنى الفعل إلى المجهول لأنّ المقصود هنا هو ترتّب أثر الاستهزاء لا تعيين المستهزئين .

واللام للقسم ، و﴿ قد ﴾ للتحقيق ، وكلاهما يدلّ على تأكيد الخبر .

والمقصود تأكيده باعتبار ما تفرّع عنه ، وهو قوله : ﴿ فحاق بالذين سخروا ﴾ الخ ، لأنّ

حال المشركين حال من يتردّد في أنّ سبب هلاك الأمم السالفة هو الاستهزاء بالرسل ، إذ لولا تردّدهم في ذلك لأخذوا الحيطة لأنفسهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذي جاءهم فنظروا في دلائل صدقه وما أعرضوا ، ليستبرئوا لأنفسهم من عذاب متوقّع ، أو نزّلوا منزلة المتردّد إن كانوا يعلمون ذلك لعدم جريهم على موجب علمهم .

واستهزاؤهم له أفانين ، منها قولهم : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ .

ومعنى الاستهزاء تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إنّما نحن مستهزئون في سورة البقرة .

وهو مرادف للسخرية في كلام أئمّة اللغة ، فذكر استهزىء ﴾ أولاً لأنّه أشهر ، ولمّا أعيد عبّر بـ ﴿ سخروا ﴾ ، ولمّا أعيد ثالث مرّة رّجع إلى فعل ﴿ يستهزئون ﴾ ، لأنّه أخفّ من (يسخرون) .

وهذا من بديع فصاحة القرآن المعجزة .

و ﴿ سخروا ﴾ بمعنى هزأوا ، ويتعدّى إلى المفعول بـ ﴿ من ﴾ ، قيل : لا يتعدّى بغيرها .

وقيل : يتعدّى بالباء .

وكذا الخلاف في تعدية هزأ واستهزأ .

والأصحّ أنّ كلا الفعلين يتعدّى بحرف (من) والباء ، وأنّ الغالب في (هزأ) أن يتعدّى بالباء ، وفي ﴿ سخر ﴾ أن يتعدّى بـ ﴿ من ﴾ .

وأصل مادّة ﴿ سخر ﴾ مؤذن بأنّ الفاعل اتّخذ المفعول مسخّراً يتصرف فيه كيف شاء بدون حرمة لشدّة قرب مادّة ﴿ سخر ﴾ المخفّف من مادّة التسخير ، أي التطويع فكأنّه حوّله عن حقّ الحرمة الذاتية فاتّخذ منه لنفسه سخرية .

وفعل ﴿ حاق ﴾ اختلف أئمّة اللغة في معناه .

فقال الزجّاج : هو بمعنى أحاط ، وتبعه الزمخشري ، وفسّره الفرّاء بمعنى عاد عليه .

وقال الراغب : أصله حقّ ، أي بمعنى وجب ، فأبدل أحد حرفي التضعيف حرف علّة تخفيفاً ، كما قالوا تظنّي في تظنّن ، أي وكما قالوا : تقضّى البازي ، بمعنى تقضّض .

والأظهر ما قاله أبو إسحاق الزجّاج .

واختير فعل الإحاطة للدلالة على تمكّن ذلك منهم وعدم إفلاته أحداً منهم .

وإنّما جيء بالموصول في قوله : ﴿ بالذين سخروا ﴾ ولم يقل بالساخرين للإيماء إلى تعليل الحكم ، وهو قوله ﴿ فحاق ﴾ .

و ﴿ منهم ﴾ يتعلّق بـ ﴿ سخروا ﴾ ، والضمير المجرور عائد إلى الرسل ، لزيادة تقرير كون العقاب لأجلهم ترفيعاً لشأنهم .

و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ موصولة .

والباء في ﴿ به ﴾ لتعدية فعل الاستهزاء .

ووجود الباء مانع من جعل ﴿ ما ﴾ غير موصولة .

وهو ما أطال التردّد فيه الكاتبون .

والمراد بـ ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ ما أنذرهم الرسل به من سوء العاقبة وحلول العذاب بهم ، فحصل بذلك فائدة أخرى ، وهي أنّ المستهزئين كانوا يستهزئون بالرسل وخاصّة بما ينذرونهم به من حلول العذاب إن استمّروا على عدم التصديق بما جاءوا به .

فاستهزاؤهم بما أنذروا به جعل ما أنذروا به كالشخص المهزوء به إذا جعلنا الباء للتعدية ، أو استهزاؤهم بالرسل بسبب ما أنذروهم به إذا جعلت الباء للسببية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(159/227)

موعظة

قال فى روح البيان :

حكي أن شيعياً يقال له ابن هيلان كان يتكلم بما لا ينبغي في حق الصحابة فبينما هو يهدم

حائطاً إذ سقط عليه فهلك فدفن بالبقيع مقبرة المدينة فلم يوجد ثاني يوم في القبر الذي دفن فيه ولا التراب الذي ردم به القبر بحيث يستدل بذلك لنبشه وإنما وجدوا اللبن على حاله حسبما شاهده الجم الغفير حتى كان ممن وقف عليه القاضي جمال الدين ، وصار الناس يجيئون لرؤيته إرسالاً إلى أن اشتهر أمره وعدّ ذلك من الآيات التي يعتبر بها من شرح الله صدره نسأل الله السلامة كذا في "المقاصد الحسنة" للإمام السخاوي ، فعلم منه عاقبة الطعن والاستهزاء وأن الله تعالى ينقل جيفة الفاسق من المحل المتبرك به إلى المكان المتشائم منه .

كما ورد في الحديث الصحيح "من مات من أمتي يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشر معهم" . (1)

كما في "الدرر المنتثرة" للإمام السيوطي وهذا صريح في نقل جسده لأن الحشر بالروح والجسد جميعاً فكما أن الله تعالى ينقل أجساد الأشرار من مقام شريف إلى محل وضيع كذلك ينقل أجسام الأخيار من مكان وضيع إلى مقام شريف كالبقيع والحجون مقبرتي المدينة ، ومكة فإن الله تعالى يسوق الأهل إلى الأهل وهذا آخر الزمان وقلما يوجد فيه من هو متوجه إلى القبلة في الظاهر والباطن والحياة والممات ، ونعم ما قيل : ذهب الناس وما بقي إلا النسناس وهم الذين يتشبهون بالناس وليسوا بالناس وهم يأجوج ومأجوج أو حيوان بحري صورته كصورة الإنسان أو خلق على صورة الناس أشبهوهم في شيء

وخالفوهم في شيء وليسوا من بني آدم وقيل هم من بني آدم .

روي أن حيّاً من عاد عصوا رسولهم فمسخهم الله نسناساً لكل رجل منهم يد ورجل من شق واحد ينقز كما ينقز الطير ويرعون كما ترعى البهائم فأين الأخيار واين أولو الأبصار مضوا والله ما بقي إلا القليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 18 ﴾

---

(1) ذكره العجلونى فى "كشف الخفاء " (2 / 369)

(160/227)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) ﴾

قال ابن عادل :

قرأ حمزة ، وعاصمٌ ، وأبو عمرو بكسر الدَّال على أصل الْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ، والباقون بالضمن على الإتباع ، ولم يبالِ بالساكن ؛ لأنه حَاجِزٌ غير حصين وقد تَقَرَّرَتْ هذه القاعدة بدلائلها في سورة " البقرة " عند قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضطر ﴾ [الآية : 173] و " برسلٍ " متعلّق بـ " استهزئ " و " منْ قبلك " صفة لـ " رسل " ، وتأويلُه ما تقدَّم في وقوع " من قبل "

صلة .

والمرادُ من الآية : التَّسْليةِ لِقَلْبِ الرسول صلى الله عليه وسلم أي : أن هذه الأنواع الكثيرة التي يعاملونك بها كنت موجودة في سائِر القرون .

قوله : " فحاق بالذين سخِروا " ن فاعل " حاق " : " ما كانوا " ، و" ما " يجوز أن تكون موصُولةٌ اسمية ً ، والعائد " الهاء " في " به " و" به " يتعلَّق بـ " يستهزئون " ، و" يستهزئون " خبر لـ " كان " ، و" منهم " متعلّق بـ " سخروا " على أنَّ الضمير يعود على الرُّسل ، قال تبارك وتعالى : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ [هود : 38] .

ويجوز أن يتعدَّى بالباء نحو : سَخِرْت به ، ويجوز أن يتعلّق " منهم " بمحذوفٍ على أنَّهُ حالٌ من فاعل " سَخِروا " والضمير في " منهم " يعود على الساخرين .

وقال أبو البقاء : " على المستهزئين " .

وقال : الحوفي : " على أمَمِ الرسل " .

وقد رَدَّ أبو حيَّان على الحوفي بأنه يَلْزَمُ إعادته على غير مذكور .

وجوابُهُ في قوة المذكور ، وردَّ على أبي البقاء بأنه يصير المعنى : فحاق بالذين سَخِرُوا كائنين من المستهزئين ، فلا حَاجَةَ إلى هذه الحال ؛ لأنها مفهومةٌ من قوله : " سخروا "

وجوَّزوا أن تكون " ما " مصدريَّةً ، ذكره أبو حيَّانَ ولم يتعرض للضمير في " به " .

والذي يظهر أنه يعود على الرسول الذي يَتَضَمَّنُهُ الجَمْعُ ، فكأنه قيل : فَحَاقَ بهم عَاقِبَةُ استهزائهم بالرسول المُنْدَرِجِ في جملة الرُّسُلِ ، وأمَّا على رأى الأَخْفَشِ ، وابن السراج فتعود على " ما " المصدريّة ؛ لأنها اسم عندهما .

و" حاق " ألفه مُنْقَلِبَةٌ عن " ياء " بدليل " يَحِيق " ن ك " باع " " يبيع " ، والمصدر حَيْق وحُيُوق وحَيَقان كالغَلَيان والنَّزَوان .

وزعم بعضهم أنه من " الحَوْق " ، والمستدير بالشيء ، وبعضهم أنه من " الحقّ " ، فأبدلت إحدى القافين ياءً كَتَظَنَّنتُ ، وهذان لَيْسَا بشيء .

أمَّا الأول فلاختلاف المَادَّةِ ، إلاَّ أن يريدوا الاشتقاق الأكبر .

وأما الثاني : فلأنها دَعْوَى مُجَرَّدَةٌ من غير دليلٍ ، ومعنى " حاق " أحاط .

وقيل : عاد عليه وبَالُ مَكْرِهِ ، قاله الفراء .

وقيل : دَارَ .

وقال الربيع بن أنس : نَزَلَ .

وقال عطاء : حَلَّ ، والمعنى يدور على الإحاطة والشمول ، ولا تستعمل إلا في الشر .

قال الشاعر : [الطويل]

2115 . . . - فأَوْطَأَ جُرْدَ الخَيْلِ عُقْرَ دِيَارِهِمْ

وَحَاقَ بِهِمْ مِنْ بأسِ ضَبَّةَ حَائِقُ . . .

وقال الراغب : " قيل : وأصله : حَقَّ ، فقلب نحو " زَلَّ وزَال " وقد قرئ " فأزلهما وأزلَهُمَا " وعلى هذا ذَمَّهُ وذّامه " .

وقال الأزهري : " جعل أبو إسحاق " حاق " بمعنى " أحاط " ، كأنَّ مَأخَذَهُ من " الحَوْق " وهو ما اسْتَدَارَ بالكَمَرَة " .

قال : " وجائز أن يكون الحَوْق فِعْلاً من " حاق يحيق " ، كأنه في الأصل : حُيْق ، فقلبت الياء واواً لانْضِمَامِ ما قلبها " .

وهل يحتاج إلى تقدير مضاف قبل " ما كانوا " ؟

(162/227)

نقل الوَاحِدِيُّ عن أكثر المفسرين ذلك ، أي : عقوبة ما كانوا ، أو جَزَاء ما كانوا ، ثم قال : " وهذا إذا جعلت " ما " عبارة عن القرآن والشريعة وما جاء به النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وإن جعلْتَ " ما " عبارة عن العذاب الذي كان صلى الله عليه وسلم يُوعدهم به إن لم يؤمنوا استَغْنَيْتَ عن تقدير المضاف ، والمعنى : فَحَاقَ بهم العذابُ الذي يستهزئون به ، وينكرونه " .

والسُّخْرِيَةُ : الاسْتِهْزَاءُ والتَهَكُّمُ ؛ يقال : سَخِرَ منه وبه ، ولا يُقَالُ إلاَّ اسْتَهْزَاءً به فلا يَتَعَدَّى بـ " مِنْ " .

وقال الراغب : " سَخَرْتُهُ إذا سِخَّرْتَهُ للهُزْءِ منه ، يقال : رجل سُخَرَةٍ بفتح الخاء إذا كان يَسْخَرُ من غيره ، وسُخْرَةٍ بسُكُونها إذا كان يُسْخَر منه ومثله : " ضُحَكة وضُحْكة " ، ولا ينقاس " .

وقوله : ﴿ فاتخذتموهم سِخْرِيّاً ﴾ [المؤمنون : 110] يحتمل أن يكون من التسخير ، وأن يكون من السُّخْرية .

وقد قرئ سُخْرياً وسِخْرياً بضم السين وكسرها .

وسيأتي له مزيدُ بيان في موضعه إن شاء اللَّهُ تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 40.42 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) ﴾

أي سَبَقَكَ – يا محمد – مَنْ كُذِّب به كما كُذِّبْتَ ، فحقَّ لهم نصرنا ، فانتقمنا ممن ناؤوهم ، فعاد إليهم وبال كُيدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 462 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم الله تعالى أنهم يقولون في جواب هذا : إن هذا إلا أساطير الأولين ، أمره صلى الله عليه وسلم بعد ما مضى من التعجيب من كونهم لم ينظروا بقلوبهم أو أبصارهم مصارع الماضين في قوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا ﴾ [الأنعام : 6] أن يأمرهم بأن يشاهدوا مصارع من تمكن في قلوبهم علم أنهم أهلكوا بمثل تكذيبهم من قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم ليغنيهم ذلك عن مشاهدة ما اقترحوا فقال تعالى : ﴿ قل سيروا ﴾ أي أوقعوا السير للاعتبار ولا تغتروا بإمهالكم وتمكينكم ﴿ في الأرض ﴾ - الآية ، وهي كالدليل على قوله تعالى : ﴿ لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ [الأنعام : 6] .

ولما كان السياق للتهديد بالتحذير من مثل أخذ الأمم الماضية ، وكان قد سلف أنه لا تقدمهم عن آجالهم ، أمهلهم في النظر فإنه أقوى في التهديد ، وأدل على القدرة ، وأدعى إلى النصفة ولا سيما والسورة من أوائل القرآن نزولاً وأوائله ترتيباً فقال : ﴿ ثم انظروا ﴾

وأشار إلى أن هذا أهل لأن يسأل عنه بقوله : ﴿كيف كان عاقبة﴾ أي آخر أمر ﴿المكذبين﴾ أي أنعموا النظر وبالغوا في التفكر وأطيلوا التدبر إذا رأيتم آثار المعذبين لأجل تكذيب الرسل ، فإنكم إذا شاهدتم تلك الآثار كمل لكم الاعتبار وقوي الاستبصار ، وذلك إشارة إلى أن الأمر في غاية الانكشاف ، فكلما طال الفكر فيه ازداد ظهوراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 2 صـ 593﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى كما صبر رسوله بالآية الأولى ، فكذلك حذر القوم بهذه الآية ، وقال لرسوله قل لهم لا تغتروا بما وجدتم من الدنيا وطيباتها ووصلتم إليه من لذاتها وشهواتها ، بل سيروا في الأرض لتعرفوا صحة ما أخبركم الرسول عنه من نزول العذاب على الذين كذبوا الرسل في الأزمنة السالفة ، فإنكم عند السير في الأرض والسفر في البلاد لا بدّ وأن تشاهدوا تلك الآثار ، فيكمل الاعتبار ، ويقوى الاستبصار .

فإن قيل : ما الفرق بين قوله ﴿ الأرض فانظروا ﴾ [آل عمران : 137] وبين قوله ﴿ ثُمَّ انظروا ﴾ .

قلنا : قوله ﴿ فانظروا ﴾ يدل على أنه تعالى جعل النظر سبباً عن السير ، فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين .

وأما قوله ﴿ سِيرُواْ فِى الأرض ثُمَّ انظروا ﴾ فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع ، وإيجاب النظر في آثار الهالكين ، ثم نبّه الله تعالى على هذا الفرق بكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ لتباعد ما بين الواجب والمباح . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 135.136 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذبين : سافروا في الأرض فانظروا واستخبروا لتعرفوا ما حلّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب ؛ وهذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأُمم وأهل الديار ، والعاقبة آخر الأمر .

والمكذِّبون هنا من كذّب الحق وأهله لا من كذّب بالباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

لما ذكر تعالى ما حل بالمكذبين المستهزئين وكان المخاطبون بذلك أمّة أمّية ، لم تدرس الكتب ولم تجالس العلماء فلها أن تظافر في الإخبار بهلاك من أهلك بذنوبهم أمروا بالسير في الأرض ، والنظر فيما حل بالمكذبين ليعتبروا بذلك وتتظافر مع الأخبار الصادق الحس فللرؤية من مزيد الاعتبار ما لا يكون كما قال بعض العصريين :

لطائف معنى في العيان ولم تكن . . .

لتدرك إلا بالتزاور واللقا

والظاهر أن السير المأمور به ، هو الانتقال من مكان إلى مكان وإن النظر المأمور به ، هو نظر العين وإن الأرض هي ما قرب من بلادهم من ديار الهالكين بذنوبهم كأرض عاد ومدين ومدائن قوم لوط وثمود .

(165/227)

وقال قوم : السير والنظر هنا ليسا حسيين بل هما جولان الفكر والعقل في أحوال من مضى من الأمم التي كذبت رسلها ، ولذلك قال الحسن : سيروا في الأرض لقراءة القرآن أي : اقرؤوا القرآن وانظروا ما آل إليه أمر المكذبين ، واستعارة السير ﴿ في الأرض ﴾ لقراءة

القرآن فيه بعد ، وقال قوم : ﴿ الأرض ﴾ هنا عام ، لأن في كل قطر منها آثاراً لهالكين وعبراً للناظرين وجاء هنا خاصة ﴿ ثم انظروا ﴾ بحرف المهلة وفيما سوى ذلك بالفاء التي هي للتعقيب .

وقال الزمخشري : في الفرق جعل النظر متسبباً عن السير فكان السير سبباً للنظر ، ثم قال : فكأنه قيل : ﴿ سيروا ﴾ لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين ، وهنا معناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع ، وإيجاب النظر في آثار الهالكين ونبه على ذلك ب ﴿ ثم ﴾ لتباعد ما بين الواجب والمباح ، انتهى .

وما ذكره أولاً متناقض لأنه جعل النظر متسبباً عن السير ، فكان السير سبباً للنظر ثم قال : فكأنما قيل : ﴿ سيروا ﴾ لأجل النظر فجعل السير معلولاً بالنظر فالنظر سبب له فتناقضا ، ودعوى أن الفاء تكون سببية لا دليل عليها وإنما معناها التعقيب فقط وأما مثل ضربت زيداً فبكى وزنى ماعز فرجم ، فالتسبيب فهم من مضمون الجملة لأن الفاء موضوعة له وإنما يفيد تعقيب الضرب بالبكاء وتعقيب الزنا بالرجم فقط ، وعلى تسليم أن الفاء تفيد التسبيب فلم كان السير هنا سير إباحة وفي غيره سير واجب ؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضع وبين تلك المواضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

خطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم بإنذار قومه وتذكيرهم بأحوال الأمم الخالية وما حاق بهم لسوء أفعالهم تحذيراً لهم عما هم عليه مما يحاكي تلك الأفعال .

(166/227)

وفي ذلك أيضاً تكملة لتسليته عليه الصلاة والسلام بما في ضمنه من العدة اللطيفة بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم الأولين ، وقد أنجز سبحانه وتعالى ذلك إنجازاً أظهر من الشمس يوم بدر ، والمراد من النظر التفكر ، وقيل : النظر بالأبصار ، وجمع بينهما الطبرسي بناء على القول بجواز مثل ذلك .

و ﴿ كَيْفَ ﴾ خبر مقدم لكان أو حال وهي تامة .

والعاقبة مآل الشيء وهي مصدر كالعافية ، والتعبير بالمكذبين دون المستهزئين قيل : للإشارة إلى أن مآل من كذب إذا كان كذلك فكيف الحال في مآل من جمع بينه وبين الاستهزاء .

وأورد عليه أن تعريف الذكبين للعهد وهم الذين سخروا فيكونون جامعين بين الأمرين مع إن الاستهزاء بما جاؤوا به يستلزم تكذيبه .

ولا يخفى أن مقصود القائل إن أولئك وإن جمعوا الأمرين لكن في الإشارة إليهم بهذا العنوان هنا ما لا يخفى من الإشارة إلى فظاعة ما نالهم ، وقيل : إن وضع المكذبين موضع المستهزئين لتحقيق أنه مدار ما أصابهم هو التكذيب لينزجر السامعون عنه لا عن الاستهزاء فقط مع بقاء التكذيب بحاله بناء على توهم أنه المدار في ذلك ، وعطف الأمر بالنظر على الأمر بالسير بثم قيل للإيذان بتفاوت ما بينهما وإن كان كل من الأمرين واجباً لأن الأوّل إنما يطلب للثاني كما في قولك : توضأ ثم صل ، وقيل : للإيذان بالتفاوت لأن الأول لإباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع .

والثاني لايجاب النظر في آثار الهالكين ، ولا ريب في تباعد ما بين الواجب والمباح .

وأورد عليه كما قال الشهاب أنه يأباه سلامة الذوق لأن فيه إقحام أمر أجنبي وهو بيان إباحة السير للتجارة بين الإخبار عن حال المستهزئين وما يناسبه وما يتصل به من الأمر بالاعتبار بآثارهم وهو مما يخل بالبلاغة إخلالاً ظاهراً .

(167/227)

وتعقب بأن هذا وإن تراءى في بادىء النظر لكنه غير وارد إذ ذاك غير أجنبي لأن المراد خذلانهم وتخليتهم وشأنهم من الإعراض عن الحق بالتشاغل بأمر دنياهم كقوله تعالى : ﴿

وَلِيَتَمَتَّعُواْ ﴾ [العنكبوت : 66] .

وهذا حاصل ما قيل : إن الكلام مجاز عن الخذلان والتخلية وإن ذلك الأمر متسخط إلى الغاية كما تقول لمن عزم على أمر مؤد إلى ضرر عظيم فبالغت في نصحه ولم ينجع فيه أنت وشأنك وافعل ما شئت فإنك لا تريد بذلك حقيقة الأمر كيف والآمر بالشيء مريد له وأنت شديد الكراهة متحسر ولكنك كأنك قلت له : إذ قد أبيت النصح فأنت أهل لأن يقال لك : افعل ما شئت .

ولا يخفى أن انفهام ذلك من الآية في غاية البعد .

وفرق الزمخشري بين هذه الآية وقوله تعالى في سورة النمل : [69] ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فَانْظُرُواْ ﴾ بحمل الأمر بالسير هنا على الإباحة المذكورة آنفاً ، وحمل الأمر به هناك على السير لأجل النظر .

ولهذا كان العطف بالفاء في تلك الآية .

ونظر فيه بعضهم بغير ما أشرنا إليه أيضاً .

وذكر أن التحقيق أنه سبحانه قال هنا : ﴿ ثُمَّ انظروا ﴾ وفي غير ما موضع ﴿ فانظروا ﴾ [آل عمران : 137 ، النمل : 36 ، العنكبوت : 20 ، الروم : 42] لأن المقام هنا يقتضي ثم دونه في هاتيك المواضع وذلك لتقدم قوله تعالى فيما نحن فيه ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ مكناهم فِى الأرض ﴾ مع قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأنشأنا من

بعدهم قرناً آخرين ﴾ [الأنعام : 6] والأول يدل على أن الهالكين طوائف كثيرة .

والثاني يدل على أن المنشأ بعدهم أيضاً كثيرون فيكون أمرهم بالسير دعاء لهم إلى العلم بذلك فيكون المراد به استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد على كثرتها ليروا الآثار في ديار بعد ديار وهذا مما يحتاج إلى زمان ومدة طويلة تمنع من التعقيب الذي تقتضيه الفاء ولا كذلك في المواضع الآخر اه ، ولا يخلو عن دغدغة .

(168/227)

واختار غير واحد أن السير متحد هناك وهنا ولكنه أمر ممتد يعطف النظر عليه بالفاء تارة نظراً إلى آخره وبم أخرى نظراً إلى أوله وكذا شأن كل ممتد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ﴾

هذه الجملة وزانها وزان البيان لمضمون الجملة التي قبلها ولذلك فصلت ، فإنّ الجملة التي قبلها تخبر بأنّ الذين استهزأوا بالرسل قد حاق بهم عواقب استهزائهم ، وهذه تحدوهم إلى مشاهدة ديار أولئك المستهزئين .

وليس افتتاح هذه الجملة بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم منافياً لكونها بياناً لأنّه خوطب بأن يقول ذلك البيان .

فالمقصودُ ما بعد القول .

وافتتاحها بالأمر بالقول لأنّها واردة مورد المحاورة على قولهم ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 1] .

وهذه سلسلة ردود وأجوبة على مقالتهم المحكية آنفاً لتضمّنها التصميم على الشرك وتكذيب الرسالة ، فكانت منحلّة إلى شبه كثيرة أريد ردّها وتفنيدها فكانت هاته الردود كلّها مفتتحة بكلمة ﴿ قل ﴾) عشر مرات .

و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي ، كما هو شأنها في عطف الجمل ، فإنّ النظر في عاقبة المكذّبين هو المقصد من السير ، فهو ممّا يُرتقى إليه بعد الأمر بالسير ، ولأنّ هذا النظر محتاج إلى تأمّل وترسّم فهو أهمّ من السير .

والنظر يحتمل أن يكون بصرياً وأن يكون قلبياً ، وعلى الاحتماليين فقد علّقه الاستفهام عن نصب مفعوله أو مفعوليه .

و﴿ كيف ﴾ خبرِ ﴿ كان ﴾ مقدّم عليها وجوباً .

والعاقبة آخر الشيء ومآله وما يعقبه من مسبّباته .

ويقال : عاقبة وعقبى ، وهي اسم كالعافية والخاتمة .

وإنّما وصفوا بِ ﴿ المكذّبين ﴾ دون المستهزئين للدلالة على أنّ التكذيب والاستهزاء كانا خلقين من أخُلاقهم ، وأنّ الواحد من هذين الخلقين كاف في استحقاق تلك العاقبة ، إذ قال في الآية السابقة ﴿ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [الأنعام : 10] وقال في هذه الآية ﴿ كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾ .

وهذا ردّ جامع لدحض ضلالاتهم الجارية على سنن ضلالات نظرائهم من الأمم السالفة المكذّبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

" لطيفة "

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

اعلم أنه سبحانه قال ههنا ﴿ ثم انظروا ﴾ وفي موضع آخر ﴿ فانظروا ﴾ [آل عمران : 137] فالفاء لمجرد اعتبار ترتيب النظر على السير . وثم لتباعد ما بين المباح والواجب فإن السير مباح والنظر واجب . وأيضاً شتان بين السير الصوري بقدم الأشباح وبين السير المعنوي بقدم الأرواح والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 53 ﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

أي : سيروا في الأرض لتعرّف أحوال أولئك الأمم ، وتفكروا في أنهم كيف أُهلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا ، فتعرفوا صحة ما توعظون به . وفي السير في الأرض ، والسفر في البلاد ، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها – تكملة للاعتبار ، وتقوية للاستبصار . أي : فلا تغتروا بما أنتم عليه من التمتع بلذات الدنيا وشهواتها .

وفي هذه الآية تكملة للتسلية ، بما في ضمنها من العدة اللطيفة ، بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين ، وقد أنجز ذلك يوم بدر أي : إنجاز .

لطيفة :

وقع هنا : ﴿ ثُمَّ انظُرُواْ ﴾ . وفي النمل : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا ﴾ [النمل : 69] . وكذا في العنكبوت . فتكلف بعضهم لتخصيص ما هنا بـ [ثم] ، كما هو مبسوط في " العناية " ، مع ما عليه . ونقل عن بعضهم أن السير متحداً فيهما ، ولكنه أمر ممتد ، يعطف بالفاء تارةً ، نظراً لآخره ، وبـ [ثم] نظراً لأوله ، ولا فرق بينهما .

وفي " الانتصاف " : الأظهر أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحداً ، ليكون ذلك سبباً في

النظر ، فحيث دخلت الفاء ، فالإظهار السببية . وحيث دخلت ثم ، فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير . وشتان بين المقصود والوسيلة -والله أعلم- . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 325.326 ﴾

(171/227)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) ﴾

نعلم أن الحق لم يقل أبداً : سيروا على الأرض ؛ لأن الأرض ظرف يسير فيه الإنسان ، والإنسان مظروف في الأرض . وقد حدث هذا البلاغ من الله قبل أن نصل بالعلم إلى معرفة أن الأرض كروية ومعلقة في الهواء ، والهواء يحيط بها ، وأن الهواء هو أقوات الإنسان بما فيه من أوكسجين وبما يغذي النبات من ثاني أوكسيد الكربون ، ونعلم أن الإنسان يصبر على الطعام لأسابيع ويصبر على الماء لأيام ولا يصبر على انقطاع الهواء عنه للحظات . ولذلك لا يملَّك الله الهواء لأحد أبدا ، وهكذا عرفنا أن الهواء من جنس الأرض . وعندما يسير الإنسان فالهواء يحيطه ، وعلى ذلك فهو يسير في الأرض . وهذا من الإعجاز الأدائي في القرآن ونقرأ قوله الحق : ﴿ فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ [

النحل : 36] .

وهنا في سورة الأنعام يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ [الأنعام : 11] .

ما الفرق بين الاثنتين ؟ خصوصاً ونحن نعلم أن الفاء من حروف العطف وكذلك " ثم " هي أيضاً من حروف العطف وكلتاهما حرف يُفيد الترتيب ، ولكن الفارق أن الفاء تعني الترتيب مع التعقيب أي من غير تراخٍ ومضى مدة . . مثل قولنا : جاء زيد فعمرو ، أي أن عَمْراً جاء من فور مجيء زيدٍ من غير مهلة . ولكن " ثم " تعني طول المسافة الزمنية الفاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه ، فعندما يقول الحق : ﴿ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ [النحل : 36] .

فكأن النظر والتدبر هو المراد من السير وبذلك يكون سيرَ الاعتبار .

(172/227)

ويقول الحق : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ يعني أن الإنسان قد يسير في الأرض للتجارة أو الزراعة أو لأي عمل ، وعليه أن يتفكر في أثناء ذلك وأن يتأمل إذن فهناك سير للاعتبار وسير للمصلحة . والسير للاعتبار يعني أن يأخذ

الإنسان العبرة مباشرة ، أما السير للمصلحة . والسير للاعتبار يعني أن يأخذ الإنسان العبرة مباشرة ، اما السير للمصلحة فهو أن يأخذ الإنسان العبرة ضمن المصلحة . وكان سير قريش بقوافلها إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم . وكان عليهم أن يأخذوا العبرة في أثناء سعيهم لتجارتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(173/227)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " وفى سورة النمل " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة " وفى سورة الروم : " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين "

هنا سؤالان أحدهما : اختلاف حالاتهم فيما وسموا به فى أعقاب الآى من التكذيب والاجرام ومن التعامى عن النظر فى البدأة والنشأة الآخرة والاشراك مع أن الأمر للكل

باعتبار إنما وقع بلفظ ولحد وهو قوله : "قل سيروا فى الأرض فانظروا " ثم تنوع ما أحيل عليه فى النظر واختلف وإذا لحظ الجواب عما وقع به التعقيب فى كل واحدة من هذه الآى تفصل إلى أربعة أسئلة والسؤال الثانى : اختلاف حرف العطف .

والجواب عن السؤال الأول على رعى التفصيل أنه لما تقدم آية الأنعام قوله تعالى : "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم "والإشارة إلى أصناف المكذبين من المخاطبين وغيرهم ثم أشير إليهم بعد فى قوله : "ألم يروا كم أهكلنا من قبلهم من قرن "وكلهم إنما أهلك بإعراضه وتعاميه المؤديين إلى تكذيبه أح – يل من بعدهم على كل حال من تقدمهم فيما ذكر مكتفى الإعراض والتعامى بما تقدم فى الآى المذكورة قبل ومفصحا بالتكذيب المسبب عن ذلك فى قوله تعالى : "ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " والتحم هذا بقوله : "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم " على أتم مناسبة وأصحها .

وأما آية النمل فمنزلة على ما تقدم من قوله تعالى : "بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون " وإنكارهم العودة بقولهم : "أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين " وذلك بعد ما ذكر مما بسط لهم من واضح الدلالات وقدم لهم الشواهد البينة من لدن قوله تعالى : "أم من خلق السماوات والأرض " . . . الآية

المتكلم فيها فذكروا بما يشاهدونه ويعلمون أن آلهتهم لا تفعل ذلك فكان مرتكبهم بعد هذا إجراما وتعاميا عن الاعتبار بما ذكروا به فقيل لهم : سيروا فى الأرض فانظروا عواقب أمثالكم من المتعامين عن النظر ولم يقع قبل تفسير صريح وتكذيب وقد بسط من الاعتبار فى هذه الآى ما لم يبسط قبل آية الأنعام ، فورد التعقيب هنا بوسمهم – أعنى الممحال – بالإجرام فقيل : "انظروا كيف كان عاقبة المجرمين" مناسب لما تقدم من اجترامهم مع الوضوح ومتابعة التذكير وإراءة البراهين .

وأما آية العنكبوت فإن الله سبحانه لما قدم ذكر العودة الأخراويه بما يقوم مقام الإفصاح وتحصل المقصود من ذلك فى أربعة مواضع من هذه السورة على القرب والاتصال منها قوله تعالى : "من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت" قوله تعالى : "وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون" وقوله : "واشكروا له إليه ترجعون" وقوله : "ألم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده" ولم يتقدم فى السور الأخر على الاتصال مثل هذا فناسبه إحالتهم وتذكيرهم بالاستدلال بالبدأة على العودة فقال تعالى : "فانظروا كيف بدأ الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة" .

وأما آية الروم فقد تقدم قبلها قوله : "ولا تكونوا من المشركين" وقوله : "إذا فريق منهم بربهم يشركون" قوله : "أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون" قوله : "هل من

شركائهم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون " فلما تقدم ذكر من امتحن بالشرك وسوء عاقبتهم ولم يتقدم مثل هذا فى السور المتقدمة ناسبه ما أعقب به من قوله : "قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين " فجاء كل على ما يجب .

(175/227)

وأما ورود ما أعقبت به كل آية من هذه من المأمور بالنظر فيه والاعتبار به بالفاء من حروف العطف سوى آية الأنعام فذلك بين لأنهم أمروا أن يعقبوا سيرهم بالتدبر والاعتبار وحصر نظرهم واعتبارهم فى المعقب المذكور بعد الفاء ولم تقع إشارة إلى اعتبارهم بغير ذلك وأما آية الأنعام فإنها افتتحت بذكر خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور وإنما ذكر هذا من الخلق الأكبر ليعتبر بذلك فإنه أعظم معتبر وأوسعه قال تعالى : "لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس " فكأن الآية فى قوة أن لو قيل : سيروا فى الأرض فاعتبروا لخالقها ، وكيف دحاها لكم وذللها لسكانكم ، وجعل فيها رواسى أن تميد بكم وفجر فيها الأنهار إلى عجائب ما أودع فيها وكيف جعل السماء سقفا محفوظا بغير عماد وزينها بالنجوم لتهتدوا بها فى الظلمات وجعل الشمس والقمر حسبانا وضياء وزينا

للسماء الدنيا وكيف محا آية الليل لمصلحة العباد وجعل آية النهار مبصرة إلى ما لا يحصى من منافعها وعجائبها لمن منح الاعتبار قال تعالى : "إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين " ثم انظروا عاقبة من كذب ونبه فلم يعتبر فعطف هذا بثم المقتضية مهلة الزمان حيث يراد ذلك .

وتفخيم الأمر وتفاوت المنظور وتجريد الأمر لكل من الضربين مما قبلها وما بعدها فليس موضع تعقيب بالفاء إذا لم يرد أن يكون سيرهم لمجرد الاعتبار بمن كذب فأخذ تذيبه فقط بل الضربين مما ذكرناه ومهدناه وفى كل آية منهما أشفى دلالة وقصد فى الآى الأخر تذكيرهم واعتبارهم بأحد المكذبين وهو المعقب بالفاء فلما افترق القصدان عطف كل بما يناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 143.146 ﴾

(176/227)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . . . الآيات ﴾

هذه هي الموجة التالية في افتتاح السورة ؛ بعد الموجة الأولى ذات اللمسات العريضة . .

الموجة التي غمرت الكون كله بحقيقة الوجود الإلهي متجلية في خلق السماوات والأرض ، منشئة للظلمات والنور ؛ ثم في خلق الإنسان من مادة هذه الأرض ؛ وتقدير أجله الذي ينتهي بالموت ؛ والاحتفاظ بسر الأجل الآخر المضروب للبعث ؛ والإحاطة بسر الناس وجهرهم ، وما يكسبون في السر والجهر . .

هذا الوجود الإلهي الذي يتجلى في الآفاق والأنفس ، هو وجود متفرد متوحد ؛ ليس مثله وجود ؛ لأنه ما من خالق غير الله ؛ كما أنه وجود غامر باهر قاهر يبدو التكذيب في ظله والإعراض عن هذه الآيات الهائلة ، منكراً قبيحاً ، لا سند له ، ولا عذر لصاحبه . .

ومن ثم يعرض السياق موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الإسلامية في ظل هذا الوجود الغامر الباهر القاهر ؛ فيبدو هذا الموقف منكراً قبيحاً ، حتى في حس أصحابه الذين يواجههم هذا القرآن بهذه الحقيقة ! ويكسب القرآن المعركة في الجولة الأولى . يكسبها في أعماق فطرة الناس ، على الرغم من مكابرتهم ومن عنادهم الظاهرين !

وهو يعرض في هذه الموجة صورة العناد والمكابرة ؛ ويواجهها بالتهديد مرة ؛ وبتوجيه القلوب إلى مصارع المكذبين من قبل مرة ؛ ويحشد فيها عدة مؤثرات وموحيات . بعد الهزة الأولى التي مضت بها تلك الموجة العريضة :

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في

الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ . .

إنهم يتخذون موقف الإعراض عناداً واصراراً . فليس الذي ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية ، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة ، هي التي يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها . . ليس هذا هو الذي ينقصهم ، إنما تنقصهم الرغبة في الاستجابة ، ويمسك بهم العناد والإصرار ، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر :

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ . .

وحين يكون الأمر كذلك . حين يكون الإعراض متعمدا ومقصوداً – مع توافر الأدلة ، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق – فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد :

﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم . فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ . .

إنه الحق هذا الذي جاءهم من لدن خالق السماوات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وخالق الإنسان من طين ، والإله في السماوات وفي الأرض الذي يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون .

. إنه الحق وقد كذبوا به ، مصرين على التكذيب ، معرضين عن الآيات ، مستهزئين بالدعوة إلى الإيمان . . فليرتقبوا إذن أن يأتيهم الخبر اليقين عما كانوا به يستهزئون !

ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل ، الذي لا يعرفون نوعه ولا موعده . . يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول !

وفي موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم – وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف وثمود بالحجر ، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب وفي رحلة الصيف للشمال ، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث – فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب .

﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم . فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ . .

ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكنهم الله في الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق . . ثم ماذا ؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض ! فقد ورثها قوم آخرون ! فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر ! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً ! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء ؛ إنما عمرها جيل آخر ؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان ؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء !

وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ، ليبلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبودية له وحده ، والتلقي منه وحده – بما أنه هو صاحب الملك وهم مستخلفون فيه – أم يجعلون من أنفسهم

طواغيت ، تدعي حقوق الألوهية وخصائصها ؛ ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف .

(179/227)

إنها حقيقة ينساها البشر – إلا من عصم الله – وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف ؛ ويمضون على غير سنة الله ؛ ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف ، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون . . حتى يستوفي الكتاب أجله ؛ ويحق وعد الله . . ثم تختلف أشكال النهاية : مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال – بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام – ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام – ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض ؛ فيعذب بعضهم بعضاً ، ويدمر بعضهم بعضاً ، ويؤذي بعضهم بعضاً ، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً ؛ فتضعف شوكتهم في النهاية ؛ ويسلط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – يخضدون شوكتهم ، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه ؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم .

. وهكذا تمضي دورة السنة . . السعيد من وعى أنها السنة ، ومن وعى أنه الابتلاء ؛

فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة ، وظن أنه أوتيها بعلمه ، أو أوتيها بحيلته ، أو أوتيها جزافاً بلا تدبير !

وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد ، أو الملحد الكافر ، ممكناً له في الأرض ، غير مأخوذ من الله . . ولكن الناس إنما يستعجلون . . إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ؛ ولا يرون نهاية الطريق . . ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء ! لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث . . والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون – في حياتهم الفردية القصيرة – نهاية الطريق ؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق !

إن هذا النص في القرآن : ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ . . وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم . . إنما يقرر حقيقة ، ويقرر سنة ، ويقرر طرفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ . .

(180/227)

إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم ؛ وأن هذه سنة ماضية – ولو لم يرها فرد في عمره القصير ، أو جيل في أجله المحدود – ولكنها

سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب ؛ وحين تقوم حياتها على الذنوب . . كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ : فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال ؛ من عوامله ، فعل الذنوب في جسم الأمم ؛ وتأثيرها في إنشاء حالة تنتهي إلى الدمار ؛ إما بقارعة من الله عاجلة – كما كان يحدث في التاريخ القديم – وإما بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي ، الذي يسري في كيان الأمم – مع الزمن – وهي توغل في متاهة الذنوب ! وأمامنا في التاريخ القريب – نسبياً – الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي ، والدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة ، والترف والرخاوة ، والتلهي بالنعيم . . أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان – وقد أصبحوا أحاديث – وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله ، وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة ، كفرنسا وانجلترا كذلك – على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها . . ولكن هذا التفسير يضطر إلى مماحكات مضحكة في تفسير أحداث وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلاّ على أساس القاعدة الاعتقادية .

والتفسير الإسلامي – بشموله وجديته وصدقه وواقعيته – لا يغفل أثر العناصر المادية – التي يجعلها التفسير المادي هي كل شيء – ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة ؛ ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلاّ أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود . . يبرز قدر الله من وراء كل شيء ؛ ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ؛ ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي . . ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة . .

ثم يمضي السياق يصور طبيعة العناد ، التي ينبعث منها ذلك الإعراض ؛ فيرسم نموذجاً عجيباً من النفوس البشرية . . ولكنه نموذج مع ذلك مكرور ، يجده الإنسان في كل عصر وفي كل بيئة وفي كل جيل . . نموذج النفس المكابرة ، التي يخرق الحق عينها ولا تراه ! والتي تنكر ما لا يُنكر لأنه من الوضوح بحيث يخجل المخالف أن ينكره ! على الأقل من باب الحياء ! . . والقرآن يرسم هذا النموذج شاخصاً في كلمات قلائل على طريقة التعبير القرآني المبدعة المعجزة في التعبير والتصوير :

﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين ﴾ . .

إنه ليس الذي يجعلهم يعرضون عن أيات الله ، أن البرهان على صدقها ضعيف ، أو

غامض ، أو تختلف فيه العقول . إنما الذي يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق ! وهو الإصرار مبدئياً على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلاً ! ولو أن الله – سبحانه – نزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذا القرآن ، لا عن طريق الوحي الذي لا يرونه ؛ ولكن في ورقة منظورة ملموسة محسوسة ؛ ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم – لا سماعاً عن غيرهم ، ولا مجرد رؤية بعيونهم – ما سلموا بهذا الذي يرونه ويلمسونه ، ولقالوا جازمين مؤكدين :

﴿ إن هذا الا سحر مبين ﴾ .

(182/227)

وهي صورة صفيقة ، منكرة ، تثير الاشمئزاز ، وتستعدي من يراها عليها ! صورة تثير النفس لتتقدم فتصفعها ! حيث لا مجال مع هذه الجبلات لحجة أو جدل أو دليل !

وتصويرها على هذا النحو – وهي صورة تمثل حقيقة لنماذج مكرورة – يؤدي غرضين أو عدة أغراض : إنه يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن الكريه البغيض ؛ كالذي يرفع المرآة لصاحب الوجه الشائه والسحنة المنكرة ، ليرى نفسه في هذه المرآة ، ويخجل منها !

وهو في الوقت ذاته يستجيش ضمائر المؤمنين تجاه إعراض المشركين وإنكار المنكرين ؛ ويثبت قلوبهم على الحق ، فلا تتأثر بالجو المحيط من التكذيب والإنكار والفتنة والإيذاء .

كذلك هو يوحي بحلم الله الذي لا يعجل على هؤلاء المعارضين المكذبين ، وهم في مثل هذا العناد المنكر الصفيق .

وكلها أسلحة وحركة في المعركة التي كانت تخوضها الجماعة المسلمة بهذا القرآن في مواجهة المشركين .

بعد ذلك يحكي نموذجاً من اقتراحات المشركين ، التي يمليها التمحل والعناد ، كما يمليها الجهل وسوء التصور . . ذلك إذ يقترحون أن ينزل الله – سبحانه – على الرسول – صلى الله عليه وسلم – ملكاً يصاحبه في تبليغ الدعوة ؛ ويصدقه في أنه مرسل من عند الله . . ثم يبين لهم ما في هذا الاقتراح من جهل بطبيعة الملائكة ، وبسنة الله في إرسالهم ، كما يبين لهم رحمة الله بهم في أن لا يستجيب لهم فيما يقترحون :

﴿ وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ . .

وهذا الاقتراح الذي كان المشركون يقترحونه ؛ والذي اقترحه من قبلهم أقوام كثيرون على رسلهم – كما يحكي القرآن الكريم في قصصهم – والرد القرآني عليه في هذا الموضع . .

هذا وذاك يثيران جملة حقائق نلم بها هنا بقدر الإمكان :

الحقيقة الأولى : أن أولئك المشركين من العرب لم يكونوا يجحدون الله ؛ ولكنهم كانوا يريدون برهاناً على ان الرسول – صلى الله عليه وسلم – مرسل من عنده ؛ وأن هذا الكتاب الذي يتلوه عليهم منزل من عند الله حقاً . ويقترحون برهاناً معيناً : هو أن ينزل الله عليه ملكاً يصاحبه في الدعوة ويصدق دعواه . . ولم يكن هذا إلا اقتراحاً من اقتراحات كثيرة من مثله ، ورد ذكرها في القرآن في مواضع منه شتى . وذلك كالذي ورد في سورة الإسراء ، وهو يتضمن هذا الاقتراح ، واقتراحات من نوعه تدل كلها على التعنت الذي وصفته الآية السابقة ، كما تدل على الجهل بكثير من الحقائق الكونية وكثير من القيم الحقيقية : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل : سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم

الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولاً ؟ قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ (الإسراء : 89 -95) .

(184/227)

ومن مثل هذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة . . وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي يعرفونه جيداً بالخبرة الطويلة ؛ ما يدلهم على صدقة وأمانته وهم كانوا يلقبونه الأمين ، ويودعون لديه أماناتهم حتى وهم معه على أشد الخلاف ؛ وقد هاجر - صلى الله عليه وسلم - وترك ابن عمه علياً - رضي الله عنه - يرد إلى قريش ودائعهم التي كانت ما تزال عنده ؛ وهم معه على الخلاف الذي يدبرون معه قتله ! وكذلك كان صدقه عندهم مستيقناً كأمانته ؛ فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا - حين أمره ربه بذلك - وسألهم : إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبأ ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق .

. فلو كانوا يريدون أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان ، ولقد كانوا يعلمون : إنه لصادق . . وسيأتي في سياق السورة خبر الله الصادق لنبيه : أنهم لا يكذبونه ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ فهي

الرغبة في الإنكار والإعراض ؛ وهو العناد والاستكبار عن الحق . وليس أنهم يشكون في صدقه صلى الله عليه وسلم !

(185/227)

ثم لقد كان لهم في القرآن ذاته برهان أصدق من هذه البراهين المادية التي يطلبون . فإن هذا القرآن شاهد بذاته ، بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير ، على أنه من عند الله . . وهم لم يكونوا يجحدون الله . . وهم – على وجه التأكيد – كانوا يحسون ذلك ويعرفونه . . كانوا يعرفون بحسهم اللغوي الأدبي الفني مدى الطاقة البشرية ؛ ويعرفون أن هذا القرآن فوق هذا المدى – وهذا الإحساس يعرفه من يمارس فن القول ويتذوقه أكثر مما يعرفه من ليست له هذه الممارسة . وكل من مارس فن القول يدرك إدراكاً واضحاً أن هذا القرآن فوق ما يملك البشر أن يبلغوا ؛ لا ينكر هذا إلا معاند يجد الحق في نفسه ثم يخفيه ! كما أن المحتوى القرآني من التصور الاعتقادي والمنهج الذي يتخذه لتقرير هذا الاعتقاد في الإدراك البشري ، ونوع المؤثرات واللمسات الموحية . . كلها غير معهود في طبيعة التصورات البشرية والمناهج البشرية ، والطرائق البشرية في الأداء النفسي والتعبيري أيضاً . . والعرب لم يكن يخفى عليهم الشعور بهذا في قرارة نفوسهم . وأقوالهم ذاتها وأحوالهم تقرر أنهم ما كانوا يشكون

في أن هذا القرآن من عند الله . .

وهكذا يبدو أن هذه الاقتراحات لم تكن طلبا للبرهان ؛ إنما كانت وسيلة من وسائل الإعنات ؛ وأسلوباً من أساليب التعنت ؛ وخطة للمماحكة والمعاندة ؛ وأنهم كانوا كما قال الله سبحانه عنهم في الآية السابقة : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين ﴾ !

(186/227)

والحقيقة الثانية : أن العرب كانوا يعرفون الملائكة ؛ وكانوا يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكاً يدعو معه ويصدقه . . ولكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة هذا الخلق التي لا يعلمها إلا الله ؛ وكانوا يخبطون في التيه بلا دليل في تصور هذا الخلق ؛ وفي نوع علاقته بربه ؛ ونوع علاقته بالأرض وأهلها . . وقد حكى القرآن الكريم كثيراً من ضلالات العرب وأساطير الوثنية حول الملائكة ؛ وصححها كلها لهم ليستقيم تصور من يهتدي بهذا الدين منهم ؛ وتصح معرفتهم لهذا الكون وما يعمره من خلائق .

وكان الإسلام – من هذا الجانب – منهجاً لتقويم العقل والشعور ، كما كان منهجاً لتقويم القلب والضمير ، ومنهجاً لتقويم الأوضاع والأحوال سواء . .

وحكى القرآن الكريم من أضاليل العرب ومن جهالاتهم في جاهليتهم ، أنهم كانوا يظنون أن الملائكة بنات الله ! سبحانه وتعالى عما يصفون ! وأنهم – من ثم – لهم شفاعة عند الله لا ترد ! والراجح أن بعض كبار الأصنام كانت رموزاً للملائكة ! كما حكى قولهم هذا في طلبهم أن ينزل الله على رسوله ملكاً ليصدقه في دعواه . .

وقد صحح لهم القرآن ضلالتهم الأولى في مواضع منه شتى . كالذي جاء في سورة النجم : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ؟ ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى ؟ فلله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ كما صحح لهم ضلالتهم الثانية في تصورهم لطبيعة الملائكة في هاتين الآيتين في هذه السورة وفي مواضع أخرى كثيرة :

﴿ وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ . .

وهذا جانب من التعريف بهذا الخلق من عباد الله . . إنهم يقترحون أن ينزل الله ملكاً ، ولكن سنة الله أن ينزل الملائكة – حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم – أن ينزلوا للتدمير عليهم ، وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار . ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكاً ، لقضي الأمر ، وتم التدمير ، ولم يُنظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل ! فهل هذا ما يريدون وما يقترحون ؟ وهلا يستشعرون رحمة الله في عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين ؟ ! . . هكذا يقفهم السياق وجهاً لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم ؛ وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم ، وجهلهم بسنة الله في تنزيل الملائكة . . وهم بهذا الجهل الذي يكاد يدمر عليهم حياتهم ، يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ويتعنتون في طلب الدليل !

والجانب الثاني من التعريف بهذا الخلق من عباد الله تتضمنه الآية الثانية :

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ . .

إنهم يقترحون أن ينزل الله – سبحانه – ملكاً على رسوله – صلى الله عليه وسلم – يصدقه في دعواه . . ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني .

خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله . وهم – كما يقول الله عنهم ، ونحن لا علم لنا بهم إلا مما يقوله عنهم الذي خلقهم – لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض بهيئتهم التي خلقهم الله عليها ؛

لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب ؛ ولكن لهم – مع ذلك – من الخصائص ما يجعلهم يتخذون هيئة البشر حين يؤدون وظيفة من وظائفهم في حياة البشر ؛ كتبليغ الرسالة ؛ أو التدمير على من يريد الله أن يدمر عليهم من المكذبين ؛ أو تثبيت المؤمنين ، أو قتال أعدائهم وقتلهم . . إلى آخر الوظائف التي يقص القرآن الكريم أنهم يكلفون بها من ربهم ، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(188/227)

فلو شاء الله أن يرسل ملكاً يصدق رسوله ، لتبدى للناس في صورة رجل – لا في صورته الملائكية – وعندئذ يلتبس عليهم الأمر مرة أخرى ! وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ومحمد – صلى الله عليه وسلم – يقول لهم : أنا محمد الذي تعرفونه أرسلني الله إليكم لأنذركم وأبشركم . . فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك – في صورة رجل لا يعرفونه – يقول لهم : أنا ملك أرسلني الله لأصدق رسوله . . بينما هم يرونه رجلاً كأي منهم ؟ ! إنهم يلبسون الحقيقة البسيطة . فلو أرسل الله ملكاً لجعله رجلاً وللبس عليهم الحقيقة التي يلبسونها ؛ ولما اهتدوا قط إلى يقين !

وهكذا يكشف الله – سبحانه – جهلهم بطبيعة خلائقه ، كما كشف لهم جهلهم في معرفة

سنته . . وذلك بالإضافة إلى كشف تعنتهم وعنادهم بلا مبرر ، وبلا معرفة ، وبلا دليل !

والحقيقة الثالثة التي يثيرها النص القرآني في الفكر : هي طبيعة التصور الإسلامي ومقومات هذا التصور – ومن بينها تلك العوالم الظاهرة والمغيبة التي علم الإسلامُ المسلمَ أن يدركها أولاً ، وأن يتعامل معها أخيراً – ومن بين تلك العوالم المغيبة عالم الملائكة . . وقد جعل الإسلام الإيمان بها مقوماً من مقومات الإيمان ، لا يتم الإيمان إلا به . . الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . .

(189/227)

وقد سبق أن ذكرنا في هذه الظلال ونحن نتحدث عن مطلع سورة البقرة : ما ملخصه أن الإيمان بالغيب نقلة في حياة الإنسان ضخمة ؛ لأن خروجه من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيباً مجهولاً يمكن وجوده ويمكن تصوره ، هو – بلا شك – نقلة من دائرة الحس الحيواني إلى مجال الإدراك الإنساني . وأن إغلاق هذا المجال دون الإدراك الإنساني نكسة به إلى الوراء ؛ وهو ما تحاوله المذاهب المادية الحسية ؛ وتدعوه " تقدمية " !

وسنتحدث – إن شاء الله – بشيء من التفصيل عن " الغيب " عندما نواجه في هذه السورة قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ فنقصر الحديث هنا عن

الملائكة ، من عالم الغيب .

لقد تضمن التصور الإسلامي عن عالم الغيب ، أن هناك خلقاً من عباد الله اسمهم الملائكة . وأخبرنا القرآن الكريم عن قدر من صفاتهم ، يكفي لهذا التصور ويكفي للتعامل معهم في حدوده .

(190/227)

فهم خلق من خلق الله ، يدين لله بالعبودية ، وبالطاعة المطلقة ؛ وهم قريبون من الله – لا ندري كيف ولا ندري نوع القرب على وجه التحديد – : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ وهم يحملون عرش الرحمن ، ويحفون به يوم القيامة كذلك – لا ندري كيف فليس لنا من علم إلا بقدر ما كشف الله لنا في هذا الغيب – : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به . . . ﴾ ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق وقيل : الحمد لله رب العالمين ﴾ وهم خزنة الجنة وخزنة النار ،

يستقبلون أهل الجنة بالسلام والدعاء ، ويستقبلون أهل النار بالتأنيب والوعيد : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ! ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين : قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم ، طبتم فادخلوها خالدين ﴾ ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ وهم يتعاملون مع أهل الأرض في صور شتى :

(191/227)

فهم يقومون عليهم حفظة بأمر الله ؛ يتابعونهم ويسجلون عليهم كل ما يصدر عنهم ؛ ويتوفونهم إذا جاء أجلهم : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه . . من أمر الله . . ﴾ ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وهم يبلغون الوحي إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . . وقد أعلمنا الله – سبحانه – أن جبريل عليه السلام هو الذي يقوم منهم بهذه الوظيفة : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من

يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ . ووصفه – سبحانه بأنه ذو مرة (أي قوة) وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه على هيئته الملائكية مرتين اثنتين ، بينما جاءه في صور شتى في مرات الوحي التالية : ﴿ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى . . . ﴾

(192/227)

وهم يتنزلون على المؤمنين بالتثبيت والمدد والتأييد في معركتهم الكبرى مع الباطل والطاغوت : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ ﴿ إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا

يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . . ﴾ ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة : أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ وهم مشغولون بأمر المؤمنين ، يسبحون ربهم ، ويستغفرون للذين آمنوا من ذنوبهم ، ويدعون ربهم لهم دعاء المحب المشفق المشغول بشأن من يحب : ﴿ الذي يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ وهم كذلك يبشرون المؤمنين بالجنة عند قبض أرواحهم ، ويستقبلونهم بالبشرى في الآخرة ويسلمون عليهم في الجنة : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون : سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ ﴿ . . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار ﴾ وهم يستقبلون الكافرين في جهنم بالتأنيب والوعيد – كما سبق – ويقاتلونهم في معارك الحق كذلك . وكذلك هم

يستلون أرواحهم في تعذيب وتأنيب ومهانة : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم : أخرجوا

(193/227)

أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ! ﴾ ولقد كان لهم شأن مع البشر منذ نشأة أبيهم آدم ، كما أن هذه الصلة امتدت في طول الحياة وعرضها حتى مجال الحياة الباقية على النحو الذي أشرنا إليه في المقتطفات القرآنية السابقة . وشأن الملائكة مع النشأة الإنسانية يرد في مواضع شتى ، كالذي جاء في سورة البقرة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى

واستكبر وكان من الكافرين . . ﴾

فهذا المجال الفسيح الذي تتصل فيه حياة البشر بهذا الملأ الأعلى ، هو فسحة في التصور ، وفسحة في إدراك حقائق هذا الوجود ، وفسحة في الشعور ، وفسحة في الحركة النفسية والفكرية ، يتيحها التصور الإسلامي للمسلم ؛ والقرآن يعرض عليه هذا المجال الفسيح ، وعالم الغيب المتصل بما هو فيه من عالم الشهود .

(194/227)

والذين يريدون أن يغلقوا على " الإنسان " هذا المجال . . ومجال عالم الغيب كله . . إنما يريدون به أقبح الشر . . يريدون أن يغلقوا عالمه على مدى الحس القريب المحدود ؛ ويريدون بذلك أن يزجوا به في عالم البهائم ؛ وقد كرمه الله بقوة التصور ؛ التي يملك بها أن يدرك ما لا تدركه البهائم ؛ وأن يعيش في بحبوحة من المعرفة ، وبحبوحة من الشعور ! وأن ينطلق بعقله وقلبه إلى مثل هذا العالم ؛ وأن يتطهر وهو يرف بكيانه كله في مثل هذا النور ! والعرب في جاهليتهم – على كل ما في هذه الجاهلية من خطأ في التصور – كانوا (من هذا الجانب) أرقى من أهل الجاهلية (العلمية !) الحديثة ؛ الذين يسخرون من الغيب كله ! ويعدون الإيمان بمثل هذه العوالم الغيبية سذاجة غير علمية ! ويضعون " الغيبية " في كفة ،

و" العلمية " في الكفة الأخرى ! وسنناقش عند مواجهة قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ هذه الدعوى التي لا سند لها من العلم ، كما أنه لا سند لها من الدين . أما هنا فنكتفي بكلمة مختصرة عن شأن الملائكة .

ونسأل : ماذا عند أدعياء العقلية " العلمية " ، من علمهم ذاته ، يحتم عليهم نفي هذا الخلق المسمى بالملائكة ، وإبعاده عن دائرة التصور والتصديق ؟ ماذا لديهم من علم يوجب عليهم ذلك ؟

إن علمهم لا يملك أن ينفي وجود حياة من نوع آخر غير الحياة المعروفة في الأرض في أجرام أخرى ، يختلف تركيب جوها وتختلف طبيعتها وظروفها عن جو الأرض وظروفها . . فلماذا يجزمون بنفي هذه العوالم ، وهم لا يملكون دليلاً واحداً على نفي وجودها ؟

(195/227)

إننا لا نحاكمهم إلى عقيدتنا ، ولا إلى قول الله سبحانه ! إنما نحاكمهم إلى " علمهم " الذي يتخذونه إلهاً . . فلا نجد إلا أن المكابرة وحدها – من غير أي دليل من هذا العلم – هي التي تقودهم إلى هذا الإنكار " غير العلمي " ! أبمجرد أن هذه العوالم غيب ؟ لقد نرى حين نناقش هذه القضية أن الغيب الذي ينكرونه هو الحقيقة الوحيدة التي يجزم هذا " العلم "

اليوم بوجودها ؛ حتى في عالم الشهادة الذي تلمسه الأيدي وتراه العيون .

وتنتهي هذه الموجة بعرض ما وقع للمستهزئين بالرسل . ودعوة المكذبين إلى تدبر مصارع أسلافهم ، والسير في الأرض لرؤية هذه المصارع ؛ الناطقة بسنة الله في المستهزئين المكذبين :

﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون . قل : سيروا في الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ . .

إن هذه اللفتة – بعد ذكر إعراضهم عناداً وتعنتاً ؛ وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة ؛ وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم – لترمي إلى غرضين ظاهرين :

الأول : تسلية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والتسرية عنه ، مما يلقاه من عناد المعرضين ، وعنت المكذبين ؛ وتطمين قلبه – صلى الله عليه وسلم – إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل ؛ وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعاً في تاريخ الدعوة إلى الحق . فقد لقي مثله الرسل قبله ؛ وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب ، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف . .

والثاني : لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين : وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب . وقد أخذ الله – من قبلهم – قروناً كانت أشد منهم قوة وتمكيناً في الأرض ؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء ، كما قال لهم في مطلع هذه الموجة ؛ التي ترج القلوب رجاً بهذه اللفتات الواقعية المخيفة .

ومما يستدعي الانتباه ذلك التوجيه القرآني :

﴿ قل : سيروا في الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ . .

والسير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ؛ ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث ، والوقائع ؛ مسجلة في الآثار الشاخصة ، وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها . . السير على هذا النحو ، لمثل هذا الهدف ، وبمثل هذا الوعي . . أمور كلها كانت جديدة على العرب ؛ تصور مدى النقلة التي كان المنهج الإسلامي الرباني ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوى من الوعي والفكر والنظر والمعرفة .

لقد كانوا يسيرون في الأرض ، ويتنقلون في أرجائها للتجارة والعيش ، وما يتعلق بالعيش من صيد ورعي . . أما أن يسيروا وفق منهج معرفي تربوي . . فهذا كان جديداً عليهم . وكان

هذا المنهج الجديد يأخذهم به ؛ وهو يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية ، في الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة التي بلغوا إليها في النهاية .

ولقد كان تفسير التاريخ الإنساني وفق قواعد منهجية كهذه التي كان القرآن يوجه إليها العرب ؛ ووفق سنن مطردة تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها - بإذن الله - ويستطيع الناس ملاحظتها ؛ وبناء تصوراتهم للمقدمات والنتائج عليها ؛ ومعرفة مراحلها وأطوارها .

(197/227)

. كان هذا المنهج برمته في تفسير التاريخ شيئاً جديداً على العقل البشري كله في ذلك الزمان . إذ كان قصارى ما يروى من التاريخ وما يدون من الأخبار ، مجرد مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس ؛ لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدد الترابط بين الأحداث ، كما يحدد الترابط بين المقدمات والنتائج ، وبين المراحل والأطوار . . فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق ؛ ويشرع لهم منهج النظر في أحداث التاريخ الإنساني . وهذا المنهج ليس مرحلة في طرائق الفكر والمعرفة . إنما هو " المنهج " . . هو الذي يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنساني .

والذين يأخذهم الدهش والعجب للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية ، وهي فترة لا تكفي إطلاقاً لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية ، سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب ، لو أنهم حولوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية ؛ ليبحثوا عن السر في هذا المنهج الرباني الجديد ، الذي جاءهم به محمد – صلى الله عليه وسلم – من عند الله العليم الخبير . . ففي هذا المنهج تكمن المعجزة ، وفي هذا المنهج يكمن السر الذي يبحثون عنه طويلاً عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثاً . . إله الاقتصاد . .

وإلا فأين هو التحول الاقتصادي المفاجئ في الجزيرة العربية ؛ الذي ينشئ من التصورات الاعتقادية ونظام الحكم ، ومناهج الفكر ، وقيم الأخلاق ، وآماد المعرفة ، وأوضاع المجتمع ، كل هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان ؟ !

إن هذه اللفتة :

﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

إلى جانب اللفتة التي جاءت في صدر هذه الموجة من قوله تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ . .

إلى جانب أمثالها في هذه السورة وفي القرآن كله لتؤلف جانباً من منهج جديد جدة كاملة

على الفكر البشري . وهو منهج باق . ومنهج كذلك فريد . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1036.1046 ﴾

(198/227)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ثُمَّ " انْظُرُوا " : عطف على " سِيرُوا " ولم يجئ في القرآن العطف في مثل هذا الموضوع إلاَّ بالفاء ، وهنا جاء بـ " ثم " فيحتاج إلى فَرْقٍ .

فذكر الزمخشري الفرق وهو : أنْ جَعَل النَّظَرَ مُسَبَّباً عن السَّيْرِ في قوله : " فانْظُرُوا " كأنه قيل : سِيرُوا لأجْلِ النظرِ ، ولا تسيروا سَيْرَ الغافلين .

وهنا معناه إبَاحَةُ السَيَّرِ في الأرض للتجارة وغيرها من المَنَافِع ، وإيجاب النظر في آثار الهالكين ، ونبَّه عل ذلك بـ " ثمَّ " لِتَبَعُدِ ما بين الواجب والمباح .

قال أبو حيَّان – رضي الله عنه – : وما ذكر أوَّلاً مُتَنَاقض ؛ لأنه جعل النظر مُتَسَبِّباً عن السَّيْرِ ، فكان السَّيْرُ سبباً للنَّظَرِ ، ثم قال : فكأنه قيل : سيروا لأجْلِ النَّظَرِ ، فجعل السَّيْرَ مَعْلُولاً بالنَّظَرِ ، والنَّظَرِ ، سَبَبٌ له فتَنَاقَضَا ، ودعوى أن " الفاء " سببيةٌ دعوى لا دَلِيلَ

عليها وإنَّما مَعْنَاها التَّعْقِبُ فقط ، وأمَّا " زنَى ماعِز فَرُجم " فَفَهْمُ السببية من قَرِينَةٍ غيرها .

قال : " وعلى تقدير [تَسْلِيم] إفادتها السَّبَبَن فَلِمَ كان السيرُ هنا سَيْرَ إباحةٍ ، وفي غيره سَيْرَ إيجاب ؟ " .

وهذا اعترض صحيح إلاَّ قوله : " إنَّ " الفاء " لا تفيد السَّبَبِيَّةَ " فإنه غيرُ مُرْضٍ ، [ودليله في غير هذا الموضع] ومثُل هذا المكان في كون الزَّمَخْشَرِيّ جعل شيئاً عِلَّةً ، ثم جعله مَعْلولاً ، كما سيأتي إن شاء الله – تعالى – في أوَّلِ " الفتح " ويأتي هناك جوابه .

(199/227)

قوله : " كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ " كَيْفَ " خبرٌ مقدَّمٌ ، و " عاقبة " اسمها ، ولم يُؤَنَّثْ ، فعلُها ؛ لأنَّ تأنيثها غير حقيقي ؛ ولأنها بتأويل المآلِ والمُنْتَهَى ، فإنَّ العاقبة مَصْدَرٌ على وزن " فاعلة " وهو محفوظ في أَلْفَاظ تقدَّمَ ذِكْرُها وهي منتهى الشيء وما يَصيرُ إليه .

والعاقبةُ إذا أُطْلِقَتْ اختصت بالثواب قال تعالى : ﴿ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : 128] وبالإضافة قد تستعمل في العُقُوبةِ كقوله تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الذين أَسَاءُواْ السواءى ﴾ [الروم : 10] ، ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي النار خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

[الحشر : 17] فَصَحَّ أن تكون اسْتِعَارةً من ضدِّهِ كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] .

و"كَيْفَ" مُعَلِّقة للنظر ، فهي في مَحَلِّ نصبٍ على إسْقَاط الخافضح لأنَّ معناه هنا التَّفَكُّرُ والتدبُّرُ . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 43.44 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) ﴾

قُلْ دوخوا في الأرضِ ، وسيحوا في سيركم فيها من الطول والعَرْضِ ، ثم انظروا هل أَفْلَتَ من حكمنا أحدٌ ، وهل وجد من دونَ أمرنا مُلْتَحداً ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 463 ﴾

(200/227)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

يَعْدِلُونَ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ
(2) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3) وَمَا
تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ
فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (6) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ
فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ
أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا
يَلْبِسُونَ (9) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) ﴾

(201/227)

التفسير : عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " نزلت الأنعام جملة واحدة وتنزلت ، معها من الملائكة سبعون ألف ملك فملؤا ما بين الأخشبين " فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب فكتبوها من ليلتهم سوى آيات معدودات . وعن أنس أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لقد بعث إليّ بها جبريل مع خمسين ملكاً أو خمسين ألف ملك تحفها حتى أقروها في صدري كما يقرّ الماء في الحوض ولقد أعزني الله تعالى وإياكم بها عزاً لا يذلنا بعدها أبداً فيها دحض حجج المشركين ووعد من الله لا يخلفه " ولاشتمال هذه السورة على دلائل التوحيد والنبوّة والمعاد ولنزولها جملة ذهب علماء الكلام إلى أن علم الأصول مع جلالة قدره يجب تعلمه على الفور لا على التراخي بخلاف الأحكام فإنها نزلت كفاء المصالح وبحسب الحوادث والنوازل .

وأعلم أن قوله ﴿ الحمد لله ﴾ مذكور في أوائل سور خمس واختص كل منها بصفة ، لكن أعمها صدر فاتحة الكتاب ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : 1] فإن العالم كل موجود سوى الله سبحانه فكان سائر السور تفاصيل لهذه الجملة . أثنى الله سبحانه على نفسه بقوله ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ﴾ والثناء على النفس قبيح في الشاهد ففيه دليل على أنه لا يمكن قياس الحق على الخلق ، فكما أنه واحد في ذاته فهو واحد في صفاته وأفعاله لا اعتراض لأحد عليه . والتحقيق فيه أن استحقاق المدح بحسب الفضيلة والكمال ولا يوجد في الممكن صفة كمال إلا وهي مشوبة بالنقص والاختلال أدناه الأفول في أفق الإمكان بخلاف واجب الوجود فإنه لا غاية لكماله ولا نهاية لعظمته وجلاله . فلا ينبغي أن يمدح إلا هو ، ولا أن يثنى إلا عليه ، ولا أن يشكر ويحمد إلا له .

ثم الأوصاف الجارية عليه سبحانه إنما تذكر زيادة في المدح لا لأجل التوضيح والكشف . أساميا لم تزده معرفة . . . وإنما لذة ذكرناها

(202/227)

وقد تقدم في الأسماء أن معنى الخلق راجع إلى التقدير والتقدير عائد إلى العلم ، فالمراد أنه أوجد السموات والأرض على حسب علمه الأزلي . قال بعض العلماء : السماء كالدائرة والأرض كالمركز ، وحصول الدائرة يوجب تعين المركز ولا ينعكس لإمكان أن يحيط بالمركز الواحد دوائر لا نهاية لها فلهذا ذكر السماء قبل الأرض مع أن ظاهر التنزيل يدل على أن خلق لأرض مقدم على خلق السماء . وجمع السموات حقيقة وكذا إفراد الأرض ، وقد تجمع الأرض باعتبار الطبقات وسوف يجيء تقرير ذلك في قوله ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ [الطلاق : 12] والمقصود من هذا الوصف إلزام المشركين ، وأن تخصيص حجم الفلك بمقدار معين وتخصيص كل من أجزائه بحيز معين وتخصيص الفلك بالحركة والأرض بالسكون مع اشتراكهما في الطبيعة الجسمية ، وتخصيص كل حركة بحد معين من السرعة والبطء وبجهة معينة دلائل ظاهرة على وجود فاعل مختار واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله . وأيضاً إن لحركة كل فلك أوّلاً لأن حقيقة الحركة انتقال من حالة إلى حالة فتقتضي

المسبوقية بالغير ، وعدم الأولية ينافي المسبوقية بالغير والجمع بينهما محال . وإذا ثبت أن لكل حركة أوّلاً فاختصاص ابتداء حدوثة بوقت معين يدل على الفاعل المختار وكذا اتصاف بعض الأجسام بالفلكية وبعضها بالعنصرية مع تساوي الكل في تمام الماهية .

وأيضاً إن خارج العالم الجسماني خلاء لا نهاية له كما ثبت في الكلام ، فحصول هذا العالم في حيزه الذي حصل فيه دون سائر الأحياز أمر ممكن يحتاج إلى مرجح قادر مختار حكيم يفعل ما يشاء كما يشاء . هذا إذا نظرنا في ذوات هذه الأجرام ، أما إن اعتبرنا منافعها وكيفية تأثير الأثيريات وهي – الآباء – في العنصريات – وهي الأمهات – لتحصيل المواليد الثلاثة : المعادن والنباتات والحيوانات ، ارتقينا من ذلك أيضاً إلى وجود صانع قدير وحكيم خبير رتبته أعلى وأجل من رتب الممكنات . أما قوله ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ فمعناه

(203/227)

أحدث وأنشأ ، ولهذا اقتصر على مفعول واحد ، ولو كان بمعنى " صير " اقتضى مفعولين . وإنما لم يقل " وخلق " لأنه أراد التضمين أعني إنشاء شيء من شيء كقوله ﴿ وجعل منها زوجها ﴾ [النساء : 1] فالنور والظلمة لما تعاقبا صار كأن كل واحد منهما تولد

من الآخر . وقيل : لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، والنور من النار ، ولهذا جمع الظلمات إذ لكل حرم ظل والظل ظلمة . ووحد النور لأن النار واحد وهو منها ، والظلمة والنور ههنا هما الأمران المحسوسان بالبصر ، لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة والقرينة ذكر السموات والأرض . وعن ابن عباس أن الظلمة ظلمة الشرك والنفاق ، والنور نور الإسلام واليقين ، وعلى الأوّل فإنما جمع الظلمات ووحد النور لأن النور عبارة عن تلك الكيفية الكاملة القوية ، ثم إنها تقبل التناقص قليلاً وتلك المراتب كثيرة ، أو لأنه قصد بالنور الجنس .

(204/227)

وعلى الثاني فذلك لأن الحق واحد والباطل أكثر من أن يحصى . وإنما قدمت الظلمة على النور لأن عدم المحدثات سابق على وجودها ، والظلمة عدمية عند من يجعلها عدم النور أو شبيهة بالعدم عند من يجعلها هيئة مضادة للنور . وقد ورد في الأخبار أن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره . وقوله : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ معطوف على قوله : ﴿ الحمد لله ﴾ والمعنى أنه حقيق بالحمد على ما خلق ثم الذين كفروا يعدلون عن طريق الإنصاف فيكفرون بربهم ، أو على ﴿ خلق السموات ﴾ معناه

خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون أي يسوّون به ما لا يقدر على شيء من ذلك . فعلى المعنى الأول يعدلون من العدول ، وعلى الثاني هو من العدل . ومعنى " ثم " ههنا وفي قوله ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ تراخي الرتبة واستبعاد مضموني الجملتين أحدهما عن الآخر . ثم ذكر دليلاً آخر على إثبات الصانع وعلى صحة المعاد الجسماني فقال ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ أي من آدم لأنه مخلوق من الطين ، أو خلقكم من النطفة المتولدة من الأغذية المنتهية إلى العناصر ، ولا ريب أن خلق الأغذية المتنوعة من العناصر المتشابهة الأجزاء ، ثم توليد النطفة المتشابهة الأجزاء من تلك الأغذية المختلفة ، ثم تخليق الأعضاء المختلفة في الصفة والصور واللون والشكل كالقلب والدماغ والكبد والعظام والغضاريف والرباطات والأوتار وغيرها من المادة المتشابهة لا يمكن إلا بتقدير مقدر حكيم ومدبر رحيم . ثم إن تلك القدرة والحكمة باقية بعد موت الحيوان فيكون قادراً على إعادتها وإعادة الحياة فيها وذلك يدل على صحة القول بالمعاد . أما قوله ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ فاعلم أن لفظ القضاء قد يرد بمعنى الحكم والأمر ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : 23] وبمعنى الخبر والإعلام ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ [الإسراء : 4] وبمعنى صفة الفعل إذا تم ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ [فصلت : 12] ومنه قولك :

قضى فلان حاجة فلان . والأنسب ههنا هو الأول . والأجل في اللغة بمعنى الوقت المضروب لانقضاء الأمد . وأصله من التأخير ومنه الآجل نقيض العاجل . ثم إن صريح الآية يدل على حصول أجلين لكل إنسان . فقال أبو مسلم : الأول آجال الماضين لأنهم لما ماتوا صارت آجالهم معلومة ، والثاني آجال الباقين لأنها غير معلومة بعد وإنما هي مسماة عند الله تعالى . وقيل : الأول أجل الموت ، والثاني أجل القيامة لأنه لا آخر له ولا يعلم أحد كيفية الحال في هذا الأجل إلا الله تعالى . وقيل : الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت ، والثاني ما بين الموت والبعث وهو البرزخ . وقيل : الأول النوم ، والثاني الموت .

(206/227)

وقيل : الأول مقدار ما انقضى من عمل كل أحد ، والثاني ما بقي من عمره . وقال حكماء الإسلام : الأول الأجل الطبيعي الذي يمكن بالنسبة إلى المزاج الأول لكل شخص لو بقي مصوناً عن الآفات الخارجية ، والثاني الأجل الاخترامي الذي يحصل بسبب من الأسباب الخارجية كالغرق والحرق والقتل واللدغ وغيرها من الأمور المنفصلة . ومعنى ﴿ مسمى ﴾ أي مذكور اسمه في اللوح المحفوظ . ومعنى ﴿ عنده ﴾ أي في حكمه وعلمه كما تقول

: هذه المسألة عند الشافعي كذا وعند أبي حنيفة كذا . وارتفع ﴿ أجل ﴾ بالابتداء وجاز ذلك مع تنكيره لمكان وصفه فقارب المعرفة . وإنما لم يقل " وعنده أجل مسمى " تعظيماً لشأن هذا الأجل فكأنه قيل : وأي أجل مسمى عنده ؟ والمرية والامتراء الشك . ومعنى " ثم " تبعيد الامتراء عن مثل هذه الحجة الباهرة الموجبة للتيقن في أمر المبدأ والمعاد ، ثم قرر أنه سبحانه عالم بجميع المعلومات ردّاً على من زعم أنه غير عالم بالجزئيات فلا يمكنه تمييز المطيع من العاصي ولا تمييز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو فقال ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ وزعمت المجسمة بهذا وبنحو قوله ﴿ أم أمنتم من في السماء ﴾ [الملك : 17] أنه سبحانه مستقر في السماء قالوا : ويؤكده وقف بعض القراء على السموات والابتداء بقوله ﴿ وفي الأرض يعلم سركم ﴾ أي يعلم سرائركم الموجودة في الأرض . ولو سلم أن لا وقف فالإجماع حاصل على أنه ليس موجوداً في الأرض ، ولا يلزم من ترك العلم بأحد الظاهرين ترك العمل بالظاهر الآخر من دليل . ونوقض بأنه تعالى قال في مواضع ﴿ لله ما في السموات ﴾ [البقرة : 284] فلو كان هو في السماء لزم أن يكون مالكاً لنفسه ، ولا يخفى ضعف هذا النقض لأنه مخصوص بالقرينة كقوله ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : 20] وبأنه إما أن يراد كونه في سماء واحدة وهو ترك الظاهر ، أو في جميع السموات وهو يقتضي كونه ذا أجزاء أو حصول المتحيز الواحد في مكانين

وكلاهما محال . والحق أنه لا يلزم من استصحاب المكان الافتقار إليه ولا التجسيم والتجزئة وهو دقيق يفهمه من وفق له ، وبأنه لو كان موجوداً في السموات لكان محدوداً متناهياً فيكون قابلاً للزيادة والنقصان ، فيكون اختصاصه بمقدار معين لمخصص فيكون محدثاً . ويرد عليه أنه لم لا يجوز أن يكون في السموات وفوقها إلى ما لا يتناهى لا سيما عند من يقول إن وراء هذا العالم خلاء غير متناه ، وبأنه لو كان في السموات فإن لم يقدر عل عالم آخر فوقها لزم تعجيزه ، وإن قدر فلو فعل لحصل تحت ذلك العالم والقوم ينكرون كونه تحت العالم ، والاعتراض أنه لا يلزم من القدرة الإيجاد ، وقال غير المجسمة : المراد وهو الله في تدبير السموات والأرض كما يقال : فلان في أمر كذا أي في تدبيره وإصلاحه .

وعلى هذا يكون ﴿ في السموات ﴾ خبراً بعد خبر ، ويوقف على اسم الله ثم يبتدأ بما بعد ذلك ويكون المعنى أنه يعلم في السموات والأرض سرائر الملائكة والإنس والجن ، أو المراد وهو المعبود فيهما ، أو المعروف بالإلهية أو المتوحد بها ، أو هو الذي يقال له الله فيهما لا شريك له في هذا الإسم . والسر من صفات القلوب وهي الدواعي والصوارف ، والجهر من أعمال الجوارح ، ولأن الأول مقدم على الثاني طبعاً فلا جرم قدم عليه وضعاً . والجملة أعني قوله ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ مقررة لما قبلها أو خبر ثالث أو كلام مبتدأ . ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ الكسب أخص من الأعمال السرية والجهرية لأنه الفعل المفضي

إلى اجتلاب نفع أو اندفاع ضر ولهذا لا يوصف فعل الله تعالى بأنه كسب . وإفراد الأخص بالذكر بعد الأعم للتقرير والتأكيد ، أو لكونه أهم حسن لا يلزم منه عطف الشيء على نفسه . والمراد أنه عالم بما يستحقه الإنسان على أفعاله من ثواب أو عقاب .

(208/227)

ثم لما فرغ من دلائل التوحيد والمعاد شرع في النبوات فرتب أحوال الكفار مع الأنبياء في ثلاث مراتب : الأولى كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل وذلك قوله ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ﴾ " من " الأولى للاستغراق والثانية للتبعيض . والمراد وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاعتبار إلا وهم على حالة الإعراض لقلة تدبرهم وفرط غفلتهم . الثانية : كونهم مكذبين وهذه شر مما قبلها لأن الإعراض قد يكون للغفلة لا للتكذيب وإذا كذب فقد أعرض وزاد . قال علماء المعاني : ههنا حذف كأنه قيل : إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية وهو الحق . قال أنس : هو انشقاق القمر بمكة انفلق فلقتين فذهبت فلقة وبقيت فلقة . وقيل : هو القرآن الذي تحدّوا به فعجزوا عنه . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل شرعه . وقيل : وعده ووعيده وتبشيره وإنذاره . والأولى الحمل على الكل . المرتبة الثالثة : كونهم مستهزئين لأن

التكذيب إذا انضم معه الاستهزاء كان غاية في الغواية وذلك قوله ﴿ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا ﴾ أي أخبار الشيء الذي كانوا ﴿ به يستهزؤن ﴾ وهو القرآن وغيره من المعجزات . وليس المراد نفس الأنباء بل العذاب الذي أنبأ الله تعالى به كقوله ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ [ص : 88] والحكيم إذا توعد فربما قال : ستعرف نبأ هذا إذا نزل بك ما تحذره . وذلك أن الغرض من الخبر حصول العلم بالمخبر عنه وذلك إنما يتحقق بعد المعاينة . ومعنى الآية سيعلمون بأي شيء استهزؤا وأنه لم يكن موضع استهزاء وذلك عند نزول العقاب بهم في الدنيا كيوم بدر وغيره أو في الآخرة . ثم لما زجرهم عن الإعراض والتكذيب والاستهزاء وأوعدهم على ذلك عاد إلى الموعظة والنصيحة بتذكير أحوال الأمم الماضية والقرون الخالية .

(209/227)

والقرن القوم المقترنون في زمان من الدهر المفترقون بعد ذلك بالموت وذلك الزمان في الأغلب ستون سنة . وقيل : سبعون . وقيل : ثمانون . والأقرب أنه غير مقدر بزمان لا يقع فيه زيادة ولا نقصان ، ولكنه إذا انقضى الأكثر من أهل كل عصر فقد انقضى القرن . وليس المراد أن يصدّق الكفار محمداً في هذه الأخبار لانهم بصدد التكذيب فسيكذبونه فيها

أيضاً ، وإنما المراد أن ما يختص بالمتقدمين منهم مشهور بين الناس فيبعد أن يقال إنهم ما سمعوا تلك الحكايات ومجرّد سماعها يكفي في الاعتبار . ثم وصف تلك القرون بثلاثة أوصاف : الأول : تمكينهم في الأرض . مكن له في الأرض جعل له مكاناً ، ومكنه فيها أثبته ، وهما متقاربان ولهذا جمع بينهما في الآية . والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما آتينا عاداً وثمود وغيرهم من البسطة في الأجسام والسعة في الأموال وأسباب الدنيا . الثاني : إرسال السماء عليهم مدراراً يعني الغيث أو السحاب أو الخضراء ، لأن المطر ينزل من ذلك الصوب والمدرار كثير الدرّدرّ اللين إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير . ومدراراً نعت المطر ويقال أيضاً سحاب مدراراً إذا تتابع أمطاره . ومفعال من أبنية المبالغة يستوي فيه المذكر والمؤنث . الثالث ﴿ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴾ أي من تحت أمكنتهم والمراد أنهم أصحاب البساتين والقصور والمنتزهات . فإن قيل : الهلاك غير مختص بهم وإنما يجري ذلك على الأنبياء والمؤمنين أيضاً ، قلنا : لدفع هذا الإشكال كرر فقال ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ فإن الإهلاك بسبب المعاصي والآثام لا يكون إلا بالعذاب والإيلام . ثم نبه بقوله ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ على كمال عزته واستغنائه ونهاية قدرته واستعلائه كقوله ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ [فاطر : 16] فالبلاد بلاده والعباد عباده بيده التخريب والتعمير وإليه الإعدام والإيجاد . ثم ان الذين يتمردون عن قبول دعوة الأنبياء طوائف متعددة . منهم من بالغ في حب

(210/227)

الدنيا وطلب لذاتها وشهواتها على وفق هواه ومناه لا على قانون الخير والعدل فمنعه ذلك عن التزام التكاليف وهو المذكور في الآية ، وفيه أن لذات الدنيا ذاهبة وعذاب الكفر باقٍ ، وليس من العقل تحمل العقاب الدائم لأجل اللذات الفانية . ومنهم من حملته العصبية والعناد على تكذيب معجزات الأنبياء وجعلها من قبيل السحر الذي لا أصل له وهم الذين عنوا بقوله ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴾ والمعنى أنه لو نزل الكتاب جملة واحدة في صحيفة واحدة فرأوه ولمسوه وشاهدوه عياناً لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر . وههنا سؤال وهو أن نزول الكتاب من السماء جملة إن لم يكن باب المعجزات لم يكن إنكاره منكراً ، وإن كان من قبيل الإعجاز فالملك يقدر على إنزاله من السماء وقبل الإيمان بصدق الرسل لم تكن عصمة الملائكة معلومة ، وحينئذ يجوز أن يكون نزول ذلك من قبل بعض الجن والشياطين ، أو من بعض الملائكة الذين لم تثبت عصمتهم فلا يكون دليلاً على الصدق .

(211/227)

وأجيب بأن المقصود من الآية ليس بيان الإعجاز ، ولكن المراد أنهم إذا لمسوه بأيديهم يقوى الإدراك البصري بالإدراك اللمسي وبلغ الغاية في القوة والظهور . ثم إن هؤلاء يبقون شاكين في أن ذلك الذي رأوه ولمسوه هل هو موجود أم لا ، وذلك يدل على أنهم بلغوا في الجهالة إلى حد السفسطة . قال القاضي : في الآية دليل على وجوب اللطف لأنه بيَّن أنه إنما لم ينزل هذا الكتاب من حيث إنه لو أنزله لقالوا هذا القول فيفهم منه أنهم لو قبلوه وآمنوا به لأنزله لا محالة ، وزيف بأن المفهوم ليس بحجة ، ولو سلم فوقوع اللطف لا يدل على وجوبه . ومن الكفرة من قابل النبوات بإيراد الشبهات والاقتراحات . قال الكلبي : إن مشركي مكة قالوا : يا محمد والله لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله وذلك قوله ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ فأجاب الله تعالى عن مقترحهم بقوله ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ ومعنى القضاء الإتمام والإلزام كما مر . وتقرير الجواب أن إنزال الملك على البشرية آية باهرة وحينئذ ربما لم يؤمنوا فيجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، أو لعلهم إذا شاهدوا الملك زهقت أرواحهم . ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى جبرائيل على صورته الأصلية غشي عليه ؟ وأن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشرة كأضياف إبراهيم ولوط ، وكالذين تسوّروا المحراب ، وأن جبرائيل تمثل لمريم بشراً سوياً ؟ وفائدة ثمَّ أن عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر لأن مفاجاة الشدة أفظع من نفس الشدة . ثم إنهم

كانوا يطعنون في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى وهي أنه بشر مثلهم ويقولون : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ [الفرقان : 7] وتقرير الشبهة أن الرسل إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت علومهم أكثر وقدرتهم أشد ومهابتهم أعظم وامتيازهم عن الخلق أكمل والاشتباه في نبوتهم

(212/227)

ورسالتهم أقل ، والحكيم إذا أراد تحصيل مهم اختار ما هو أسرع إفضاء إلى المطلوب ، فأجاب الله تعالى عن شبهتهم بقوله ﴿ ولو جعلناه ﴾ أي الرسول ﴿ ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ لأن إنزال الملك آية ظاهرة جارية مجرى الإلجاء وإزالة الاختيار وذلك منافٍ لغرض التكليف ، ولأن الجنس إلى الجنس أميل ، ولأن البشر لا يطيق رؤية الملك ، ولأن طاعات الملك كثيرة فيحقرون طاعات البشر ويستعظمون إقدامهم على المعاصي فلا يصبرون معهم ، ولأن إنزال الملك يقوي الشبهة من وجه آخر وذلك أن أيّ معجزة ظهرت عليه قالوا هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك ، ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القدرة والقوة لفعلنا مثل ما فعلت .

ثم قال ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ لبست الأمر على القوم ألبسه لبساً إذا شبهته

عليهم وجعلته مشكلاً ومنه لبس الثوب لأنه يفيد الستر . والمعنى إذا جعلنا الملك في صورة البشر كان فعلنا نظيراً لفعلهم في التلبيس ، وإنما كان ذلك لبساً لأن الناس يظنونه ملكاً مع أنه ليس بملك ، أو يظنونه بشراً مع أنه ليس ببشر وإنما كان فعلهم لبساً لأنهم يخلطون على أنفسهم ويقولون إن البشر لا يصلح للرسالة فلا ينقطع السؤال أبداً ويبقى الأمر في حيز الاشتباه . وعلى هذا التفسير يكون قوله ﴿ ما يلبسون ﴾ مفعولاً مطلقاً . ويجوز أن يراد ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ فيكون مفعولاً به يعني أن القوم إذا رأوا الملك في صورة الإنسان اشتبه الأمر عليهم ، وإذ كنا قد فعلنا ذلك كان اللبس منسوباً إلينا .

(213/227)

ثم إنه سبحانه وتعالى سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلقى من قومه بقوله ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق ﴾ أي نزل . وقال الفراء : عاد عليهم والتركيب يدور على الإحاطة ومنه الحوق بالضم ما استدار بالكمرة ﴿ ما كانوا ﴾ أي الشيء الذي كانوا يستهزؤن به وهو الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، أسند الحق إليه حيث أهلكوا لأجل الاستهزاء به . ويحتمل أن يراد بلفظة " ما " العذاب الذي كان يخوفهم الرسول بنزوله وهم يستهزؤن بذلك ، ثم أمر رسوله بأن يقول لهم : لا تغتروا بما

وجدتم من زخارف الدنيا وسيروا في الأرض لتشاهدوا آثار الأمم السالفة الذين كذبوا رسلهم ونزل بهم ما نزل فإن الأسفار تورث الاعتبار وتفيد الاستبصار . واعلم أنه سبحانه قال ههنا ﴿ ثم انظروا ﴾ وفي موضع آخر ﴿ فانظروا ﴾ [آل عمران : 137] فالفاء لمجرد اعتبار ترتيب النظر على السير . وثم لتباعد ما بين المباح والواجب فإن السير مباح والنظر واجب . وأيضاً شتان بين السير الصوري بقدم الأشباح وبين السير المعنوي بقدم الأرواح والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 46 . 53 ﴾

(214/227)

قوله تعالى ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمرهم سبحانه بالسير ، سألهم هل يرون في سيرهم وتطوافهم وجولانهم واعتسافهم شيئاً لغير الله ؟ تذكيراً لهم بما رحمهم به من ذلك في إيجاده لهم أولاً وتيسير منافعه ودفع

مضاره ثانياً ، استعطافاً لهم إلى الإقبال عليه والإعراض عن الخضوع لما هو مثلهم أو أقل منهم ، وهو ملكه سبحانه وفي قبضته ، وتقبيحاً لأن يأكلوا خيره ويعبدوا غيره .

فقال مقرراً لهم على إثبات الصانع والنبوة والمعاد ، ومبكتاً بسفههم وشدة جهلهم وعمههم : ﴿ قل لمن ﴾ ونبه بتقديم المعمول على الاهتمام بالمعبود ﴿ ما في السماوات والأرض ﴾ .

ولما كانوا في مقام العناد حيث لم يبادروا إلى الإذعان بعد نهوض الأدلة وإزاحة كل علة ، أشار إلى ذلك بقوله معرضاً عن انتظار جوابهم توبيخاً لهم بعدم النصفة التي يدعونها : ﴿ قل الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة قدرة وعلماً ولا كفوء له ، لا لغيره ، وهم وإن كانوا معاندين فإنهم لا يمكنهم رد قولك ، لا سيما وجواب الإنسان عما سأله إنما يحسن أن يتعاطاه هو بنفسه إذا كان قد بلغ في الظهور إلى حد لا يقدر على إنكاره منكر ، وهو هنا كذلك لأن آثار الحدوث والإمكان ظاهرة على صفحات الأكوان ، فكان الإقرار بن ضروري ، لا خلاف فيه .

ولما كان أكثر ما في هذا الكون منافع مع كونها حسنة لذيذة طيبة شهية ، وما كان فيها من مضار فهي محجوبة ممنوعة عنهم ، يقل وصولها إليهم إلا بتسببهم فيها ، والكل مع ذلك دلائل ظاهرة على وحدانيته وتمام علمه وقدرته ، وكان ذلك أهلاً لأن يتعجب منه لعموم هذا الإحسان ، مع ما هم عليه من الإثم والعدوان ، وتأخير العذاب عنهم مع العناد والطغيان ،

قال دالاً على أن رحمته سبقت غضبه مستأنفاً : ﴿كتب﴾ أي وعد وعداً هو كالمكتوب الذي ختم ، وأكد غاية التأكيد ، أو كتب حيث أراد سبحانه .

(215/227)

ولما كانت النفس يعبر بها عن الذات على ما هي عليه قال : ﴿على نفسه الرحمة﴾ أي فلذلك أكرمكم هذا الإكرام بوجوه الإنعام ، وأخر عنكم الانتقام بالاستئصال ، ولو شاء هو لسلط عليكم المضار ، وجعل عيشكم من غير اللذيذ كالتراب وبعض القاذورات التي يعيش بها بعض الحيوانات .

ولما كان ذلك مطمعاً للظالم البطر ، ومعجباً محيراً مؤسفاً للمظلوم المنكسر ، قال محذراً مرحباً مبشراً ملتفتاً إلى مقام الخطاب لأنه أبلغ وأنص على المقصود دالاً على البعث بما مضى من إثبات أن الأكوان لله ، لأن كل ما فيها موصوف بصفات يجوز اتصافه بأضدادها ، فاختصاص كل جسم بصفته المعينة إنما يكون بتخصيص الفاعل المختار ، فيكون قادراً على الإعادة ، لأن التركيب الأول إنما كان لأن صانعه قادر على جميع الممكنات لكونه عالماً بجميع المعلومات ، والاتصاف بذلك لا يجوز انفكاكه عنه فهو ملك مطاع آمرناه مرسل من يبلغ عنه أوامره ونواهيه لإظهار ثمرة الملك من الثواب والعقاب في يوم الجمع :

﴿ ليجمعنكم ﴾ أي والله محشورين شيئاً فشيئاً ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ للعدل بين جميع العباد كائناً ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي بوجه من الوجوه ، وذلك الجمع لتخصيص الرحمة في ذلك اليوم بأوليائه والمقت والنقمة بأعدائه بعد أن كان عم بالرحمة الفريقين في يوم الدنيا ، وجعل الرحمة أظهر في حق الأعداء ، وبهذا الجمع تمت الرحمة من كثير من الخلق ، ولولاه ارتفع الضبط وكثر الخبط كما كان في الجاهلية .

(216/227)

ولما كان ذلك كذلك في عدم الريب لإخبار الله به على ألسنة رسله ولما عليه من الأدلة لما في هذا الخلق من بدائع الحكم مع خروج أكثر أفعال الحيوان عن العدل ، فصار من المعلوم لكل ذي وعي أن البعث محط الحكمة لإظهار التحلي بالصفات العلى لجميع الخلق : الشقي والسعيد القريب والبعيد ، كان كأنه قيل : فما لنا نرى أكثر الناس كافراً به ، فقال جواباً : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي بإهلاكهم إياها بتكذيبهم به لمخالفة الفطرة الأولى التي تهدي الأخرس ، وستر العقل السليم ﴿ فهم ﴾ أي بسبب خسارتهم لأنفسهم بإهمال العقل وإعمال الحواس والتقيد بالتقليد ﴿ لا يؤمنون ﴾ فصاروا كمن يلقي نفسه من شاهق ليموت لغرض من الأغراض الفاسدة ، لا بسبب خفاء في أمر القيامة ولا لبس بوقع ربنا ،

وصار المعنى : إن الذين لا يؤمنون في هذا اليوم هم المقضي بخسارتهم في ذلك اليوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 593 . 595 ﴾

(217/227)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ إني أمرت ﴾ بفتح ياء المتكلم : أبو جعفر ونافع ﴿ إني أخاف ﴾ بفتح الياء : هما وابن كثير وأبو عمرو . الباقون : بالسكون . ﴿ من يصرف ﴾ مبنياً للفاعل : سهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف وعاصم سوى حفص والمفضل . الباقون : مبنياً للمفعول ﴿ أئنكم ﴾ بهمزتين : عاصم وحمزة وعلي وخلف وابن عامر وهشام يدخل بينهما مدة ﴿ أينكم ﴾ بالياء بعد الهمزة : ابن كثير ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد ﴿ آينكم ﴾ بالمد والياء : أبو عمرو ويزيد . وقالون ﴿ بريء ﴾ بغير همز حيث كان : يزيد وحمزة في الوقف ﴿ يحشرهم ثم يقول ﴾ بياء الغيبة فيهما : يعقوب . الباقون : بالنون ﴿ ثم لم تكن ﴾ بتاء التأنيث : حمزة وعلي وحماد والمفضل وسهل ويعقوب الباقون : بالياء ﴿ فتنتهم ﴾ بالرفع : ابن كثير وابن عامر وحفص والمفضل . الباقون : بالنصب ﴿ والله ربنا

﴿ بالنصب على النداء : حمزة وعلي وخلف والمفضل . الباقون : بالجر على البدل أو البيان .

الوقوف : ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ قل لله ﴾ ط ﴿ الرحمة ﴾ ط لأن قوله ﴿ ليجمعنكم ﴾ جواب قسم محذوف . وقيل : لا وقف و ﴿ ليجمعنكم ﴾ جواب معنى القسم في ﴿ كتب ﴾ وفيه نظر لأن ﴿ كتب ﴾ وعد ناجز و ﴿ ليجمعنكم ﴾ وعد منتظر . ﴿ لا ريب فيه ﴾ ط بناء على أن الذين مبتدأ فيه معنى الشرط ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ﴿ والنهار ﴾ ط ﴿ العليم ﴾ ه ﴿ ولا يطعم ﴾ ط ﴿ من المشركين ﴾ ه ﴿ عظيم ﴾ ه ﴿ رحمه ﴾ ط ﴿ المبين ﴾ ه ﴿ إلا هو ﴾ ط ﴿ قدير ﴾ ه ﴿ عباده ﴾ ط ﴿ الخبير ﴾ ه ﴿ شهادة ﴾ ط ﴿ ومن بلغ ﴾ ط ﴿ أخرى ﴾ ط لانتهاء الاستخبار إلى الإخبار . ﴿ قل لا أشهد ﴾ ج لاتساق الكلام بلا عطف ﴿ يشركون ﴾ ه ﴿ أبناءهم ﴾ م لئلا يوهم أن ما بعده وصف ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ﴿ بآياته ﴾ ط ﴿ الظالمون ﴾ ه ﴿ يزعمون ﴾ ه ﴿ مشركين ﴾ ه ﴿ يفترون ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 54 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المقصود من تقرير هذه الآية تقرير إثبات الصانع ، وتقرير المعاد وتقرير النبوّة .

وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هذه الأجسام موصوفة بصفات كان يجوز عليها اتصافها بأضدادها ومقابلاتها ، ومتى كان كذلك ، فاختصاص كل جزء من الأجزاء الجسمانية بصفته المعينة لا بدّ وأن يكون لأجل أن الصانع الحكيم القادر المختار خصّه بتلك الصفة المعينة ، فهذا يدل على أن العالم مع كل ما فيه مملوك لله تعالى .

وإذا ثبت هذا ، ثبت كونه قادراً على الاعادة والحشر والنشر ، لأن التركيب الأول إنما حصل لكونه تعالى قادراً على كل الممكنات ، عالماً بكل المعلومات ، وهذه القدرة والعلم يمتنع زوالهما ، فوجب صحة الاعادة ثانياً .

وأيضاً ثبت أنه تعالى ملك مطاع ، والملك المطاع من له الأمر والنهي على عبيده ، ولا بد من مبلغ ، وذلك يدل على أن بعثة الأنبياء والرسل من الله تعالى إلى الخلق غير ممتنع .

فثبت أن هذه الآية وافية بإثبات هذه المطالب الثلاثة .

ولما سبق ذكر هذه المسائل الثلاثة ، ذكر الله بعدها هذه الآية لتكون مقررة لمجموع تلك المطالب من الوجه الذي شرحناه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 136 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى السموات والأرض ﴾ سؤال .

وقوله ﴿ قُل لِلَّهِ ﴾ جواب فقد أمره الله تعالى بالسؤال أولاً ثم بالجواب ثانياً .

وهذا ، إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر ، ولا يقدر على دفعه دافع .

ولما بينا أن آثار الحدوث والإمكان ظاهرة في ذوات جميع الأجسام وفي جميع صفاتها ، لا جرم كان الاعتراف بأنها بأسرها ملك لله تعالى وملك له ومحل تصرفه وقدرته لا جرم أمره بالسؤال أولاً ثم بالجواب ثانياً ، ليدل ذلك على أن الاقرار بهذا المعنى مما لا سبيل إلى دفعه ألبتة .

(219/227)

وأيضاً فالقوم كانوا معترفين بأن كل العالم ملك لله ، وملكه وتحت تصرفه وقهره وقدرته بهذا المعنى كما قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] ثم إنه تعالى لما بيّن بهذا الطريق كمال إلهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقات

بالكلية ، أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال : ﴿كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة﴾ فكأنه تعالى قال : إنه لم يرض من نفسه بأن لا ينعم ولا بأن يعد بالإنعام ، بل أبداً ينعم وأبداً يعد في المستقبل بالإنعام ومع ذلك فقد كتب على نفسه ذلك وأوجبه إيجاب الفضل والكرم .

واختلفوا في المراد بهذه الرحمة فقال بعضهم : تلك الرحمة هي أنه تعالى يمهلهم مدة عمرهم ويرفع عنهم عذاب الاستئصال ولا يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا .

وقيل إن المراد أنه كتب على نفسه الرحمة لمن ترك التكذيب بالرسل وتاب وأناب وصدقهم وقبل شريعتهم .

واعلم أنه جاءت الأخبار الكثيرة في سعة رحمة الله تعالى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لما فرغ الله من الخلق كتب كتاباً أن رحمتي سبقت غضبي " .

فإن قيل : الرحمة هي إرادة الخير ، والغضب هو إرادة الانتقام ، وظاهر هذا الخبر يقتضي كون إحدى الإرادتين سابقة على الأخرى ، والمسبوق بالغير محدث ، فهذا يقتضي كون إرادة الله تعالى محدثة .

قلنا : المراد بهذا السبق سبق الكثرة لا سبق الزمان .

وعن سلمان أنه تعالى لما خلق السماء والأرض خلق مائة رحمة ، كل رحمة ملء ما بين السماء والأرض ، فعنده تسع وتسعون رحمة ، وقسم رحمة واحدة بين الخلائق ، فبها

يتعاطفون ويتراحمون ، فإذا كان آخر الأمر قصرها على المتقين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 136.137 ﴾

(220/227)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أي أوجبها ربكم على نفسه ، وفيها أربعة أوجه :

أحدها : أنها تعريض خلقه لما أمرهم به من عبادته التي تفضي بهم إلى جنته .

والثاني : ما أراهم من الآيات الدالة على وجوب طاعته .

والثالث : إمهالهم عن معالجة العذاب واستئصالهم بالانتقام .

والرابع : قبوله توبة العاصي والعفو عن عقوبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قال بعض أهل التأويل : في الكلام حذف تقديره : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض ﴾ ؟ فإذا تحيروا ولم يجيبوا ، قل لله ، وقالت فرقة : المعنى أنه أمر بهذا السؤال فكأنهم لما لم

يجيبوا ولا تيقنوا سألوا فقيل له : قل لله ، والصحيح أن الله عز وجل أمر محمداً عليه السلام بقطعهم بهذه الحجة الساطعة والبرهان القطعي الذي لا مدافعة فيه عندهم ولا عند أحد ، ليعتقد هذا المعتقد الذي بينه وبينهم ثم يتركب احتجاجه عليه ، جاء ذلك بلفظ استفهام وتقرير في قوله : ﴿ لمن ما في السماوات والأرض ﴾ والوجه في الحجة ، كما تقول لمن تريد غلبته بآية تحتج بها عليه ، كيف قال الله في كذا ؟ ثم تسبقه أنت إلى الآية فتنصها عليه ، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : يا أيها الكافرون العادلون بربهم ﴿ لمن ما في السماوات والأرض ﴾ ؟ ثم سبقهم فقال : ﴿ لله ﴾ ، أي لا مدافعة في هذا عندكم ولا عند أحد ، ثم ابتدأ يخبر عنه تعالى : ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ معناه قضاها وأنفذها . وفي هذا المعنى أحاديث عن النبي عليه السلام تتمضن كتب الرحمة ، ومعلوم من غير ما موضع من الشريعة أن ذلك للمؤمنين في الآخرة ولجميع الناس في الدنيا ، منها أن الله تعالى خلق مائة رحمه فوضع منها واحدة في الأرض فيها تتعاطف البهائم وترفع الفرس رجلها لئلا تطأ ولدها . وبها تتعاطف الطير والحيتان ، وعنده تسع وتسعون رحمة ، فإذا كان يوم القيامة صير تلك الرحمة مع التسعة والتسعين وبثها في عباده .

(221/227)

قال القاضي أبو محمد : فما أشقى من لم تسعه هذه الرحمات تغمدنا الله بفضل منه ، ومنها حديث آخر أن الله عز وجل كتب عنده كتاباً فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي ، ويروى : نالت غضبي ، ومعناه سبقت ، وأنشد عليه ثابت بن قاسم :

أَبَني كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا . . . نالا الملوك وفكَّكا الأغلالا

ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالى بأنه كتب الرحمة تأنيس الكفار ونفي يأسهم من رحمة الله إذا تابوا ، وأن باب توبتهم مفتوح ، قال الزجاج : ﴿ الرحمة ﴾ هنا إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ﴾ هذا سؤال وجواب المعنى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين العادلين بربهم لمن ملك ما في السموات والأرض فإن أجابوك وإلا فأخبرهم أن ذلك لله الذي قهر كل شيء وملك كل شيء واستعبد كل شيء لا للأصنام التي تعبدونها أنتم فإنها موات لا تملك شيئاً ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً وإنما أمره بالجواب عقب السؤال ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجة ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه في سائر مخلوقاته أردفه بكمال رحمته وإحسانه إليهم فقال تعالى : ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ يعني أنه تعالى أوجب وقضى على نفسه الرحمة وهذا استعطاف منه للمتولين عنه الإقبال عليه وإخبار بأنه رحيم بعباده وأنه لا يعجل بالعقوبة بل يقبل التوبة

والإنابة ممن تاب وأناب (ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي " (1)

---

(1) أخرجه البخاري في التوحيد ، باب قوله تعالى "ويحذركم الله نفسه" : 13 / 384 وفي مواضع أخرى ، ومسلم في التوبة باب في سعة رحمة الله ، رقم (2751) : 4 / 2107 ، والبغوى في شرح السنة : 14 / 376 .

(222/227)

وفي البخاري : " أن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش " (1)

وفي رواية لهما أن الله لما خلق الخلق ، وعند مسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع عنده ، زاد البخاري على العرش ثم اتفقا " إن رحمتي تغلب غضبي " (ق) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " زاد البخاري في رواية له ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل

الذي عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب .

ولمسلم إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (م) عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة " (ق) عن عمر قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا لا والله وهي تقدر أن تطرحه فقال صلى الله عليه وسلم الله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

---

(1) أخرجه البخاري في التوحيد ، باب قول الله تعالى : "ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين" : 3 / 440 .

وقال ابن جزى :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السماوات والأرض قُل للَّهِ ﴾ القصد بالآية إقامة البرهان على صحة التوحيد وإبطال الشرك ، وجاء ذلك بصفة الاستفهام لإقامة الحجة على الكفار فسأل أولاً ، لمن ما في السموات والأرض ؟ ثم أجاب عن السؤال بقوله قل لله ، لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة ، فيثبت بذلك أن الإله الحق هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وإنما يحسن أن يكون السائل مجيباً عن سؤاله ، إذا علم أن خصمه لا يخالفه في الجواب الذي به يقيم الحجة عليه ﴿ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ أي قضاها ، وتفسير ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض ، وفيه " إن رحمتي سبقت غضبي " ، وفي رواية : تغلب غضبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 4 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السموات والأرض ﴾ خلقاً وملكاً ، وهو سؤال تبكيت . ﴿ قُل للَّهِ ﴾ تقريراً لهم وتنبيهاً على أنه المتعين للجواب بالإتفاق ، بحيث لا يمكنهم أن يذكروا غيره . ﴿ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ التزمها تفضلاً وإحساناً والمراد بالرحمة ما يعم الدارين ومن

ذلك الهداية إلى معرفته ، والعلم بتوحيده بنصب الأدلة ، وإنزال الكتب والإمهال على الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 394.395 ﴾

(224/227)

وقال السمرقندى :

﴿ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ فلا يعذبكم في الدنيا .

وروى عطاء عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا وَاحِدَةً فَقَسَمَهَا بَيْنَ الخَلائِقِ فِبها يَتَرَاحَمُونَ ، وَبِهَا تَعْطِفُ الوُحُوشُ عَلَى أَوْلادِها ، وَادَّخَرَ لِنَفْسِهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ويقال : كتب الرحمة حيث أمهلهم ، ولم يهلكهم ليرجعوا ويتوبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السماوات والأرض ﴾ هذا أيضاً احتجاج عليهم ؛ المعنى قل لهم يا محمد : ﴿ لِّمَن مَّا فِي السماوات والأرض ﴾ فإن قالوا لمن هو ؟ فقل هو ﴿ للَّهِ ﴾ ؛ المعنى : إذا ثبت أن له ما في السَّماوات والأرض ، وأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم ، فالله قادر على أن يُعاجلهم بالعقاب ، ويبعثهم بعد الموت ، ولكنه ﴿

كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ أي وعد بها فضلاً منه وكرماً ، فلذلك أمهل .

وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده ، وتأكيد وعده ، وارتفاع الوسائط دونه ؛ ومعنى الكلام الإستعطاف منه تعالى للمتولّين عنه إلى الإقبال إليه ، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة ، ويقبل منهم الإنابة والتوبة .

وفي صحيح مسلم عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تَغلب غضبي " أي لما أظهر قضاءه ، وأبرزه لمن شاء ، أظهر كتاباً في اللوح المحفوظ أو فيما شاءه مقتضاه خبر حق ووعد صدق " إنّ رحمتي تغلب غضبي " أي تسبقه وتزيد عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(225/227)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض ﴾ المعنى : فإن أجابوك ، وإلا ف ﴿ قل : لله ، كتب على نفسه الرحمة ﴾ قال ابن عباس : قضى لنفسه أنه أرحم الراحمين .

قال الزجاج : ومعنى كتب : أوجب ذلك إيجاباً مؤكداً ، وجائز أن يكون كتب في اللوح

المحفوظ ؛ وإنما خُوطِبَ الخلقُ بما يعقلون فهم يعقلون ، أن توكيد الشيء المؤخَّر أن يحفظ بالكتاب .

وقال غيره : رحمته عامة ؛ فمنها تأخير العذاب عن مستحقِّه ، وقبول توبة العاصي .

وقال أبو حيان :

﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل الله ﴾ لما ذكر تعالى تصريفه فيمن أهلكهم بذنوبهم ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بسؤالهم ذلك فإنه لا يمكنهم أن يقولوا إلا أن ذلك لله تعالى فيلزمهم بذلك أنه تعالى هو المالك المهلك لهم ، وهذا السؤال سؤال تبكيت وتقرير ثم أمره تعالى بنسبة ذلك لله تعالى ليكون أول من بادر إلى الاعتراف بذلك .

وقيل : في الكلام حذف تقديره فإذا لم يجيبوا ﴿ قل لله ﴾ وقال قوم : المعنى أنه أمر بالسؤال فكأنه لما لم يجيبوا سألوا فقيل لهم ﴿ قل لله ﴾ ولله خبر مبتدأ محذوف التقدير قل ذلك أو هو لله .

﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ لما ذكر تعالى أنه موجد العالم المتصرف فيهم بما يريد ، ودل ذلك على نفاذ قدرته أردفه بذكر رحمته وإحسانه إلى الخلق وظاهر كتب أنه بمعنى سطر وخط ، وقال به قوم هنا وأنه أريد حقيقة الكتب والمعنى أمر بالكتب في اللوح المحفوظ .

وقيل : ﴿ كتب ﴾ هنا بمعنى وعد بها فضلاً وكرماً .

وقيل : بمعنى أخبر .

وقيل : أوجب إيجاب فضل وكرم لا إيجاب لزوم .

وقيل : قضاها وأنفذها .

وقال الزمخشري : أي أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته ، ونصب الأدلة لكم على توحيد ما أنتم مقرون به من خلق السموات والأرض ، انتهى .

و﴿ الرحمة ﴾ هنا الظاهر أنها عامّة فتعم المحسن والمسيء في الدنيا ، وهي عبارة عن الاتصال إليهم والإحسان إليهم ولم يذكر متعلق الرحمة لمن هي فتعم كما ذكرنا .

وقيل : الألف واللام للعهد ، فيراد بها الرحمة الواحدة التي أنزلها الله تعالى من المائة ﴿ الرحمة ﴾ التي خلقها وأخر تسعة وتسعين يرحم بها عباده في الآخرة .

وقال الزجاج : ﴿ الرحمة ﴾ إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا ، فلم يعاجلهم على كفرهم .

وقيل : ﴿ الرحمة ﴾ لمن آمن وصدق الرسل .

وفي صحيح مسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه ، فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(226/227)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ على سبيل التقريع لهم والتوبيخ ﴿ لّمَن مَّا فِى السموات والأرض ﴾ من العقلاء وغيرهم أي لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لِلَّهِ ﴾ تقرير للجواب نيابة عنهم أو إلجاء لهم إلى الإقرار بأن الكل له سبحانه وتعالى وفيه إشارة إلى أن الجواب قد بلغ من الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر ولا على دفعه دافع فإن أمر السائل بالجواب إنما يحسن كما قال الإمام في موضع يكون فيه الجواب كذلك ، قيل : وفيه إشارة إلى أنهم تثاقلوا في الجواب مع تعينه لكونهم محجوجين ، وذكر عصام الملة أن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لّمَنِ ﴾ الخ معناه الأمر بطلب هذا المطلب والتوجه إلى تحصيله .

وقوله عز وجل : ﴿ قُل لِلَّهِ ﴾ معناه أنك إذا طلبت وأدى نظرك إلى الحق فاعترف به ولا تنكره .

وهذا إرشاد إلى طريق التوحيد في الأفعال بعد الإرشاد إلى التوحيد في الألوهية وهو الاحتراز عن حال المكذبين .

وفي هذا إشارة إلى وجه الربط وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما يعلم منه الوجه الوجيه لذلك ، والجار والمجرور خبر مبتدأ محذوف أي لله تعالى ذلك أو ذلك لله تعالى شأنه .

﴿ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر صادحة بشمول رحمته

عز وجل لجميع الخلق أثر بيان شمول ملكه وقدرته سبحانه وتعالى للكل المصحح لإنزال العقوبة بالمكذبين مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بالعباد لا يعجل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم التوبة وما سبق وما لحق من أحكام الغضب ليس إلا من سوء اختيار العباد لسوء استعدادهم الأزلي لا من مقتضيات ذاته جل وعلا ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 117 ، النمل : 33] ، ومعنى كتب الرحمة على نفسه جل شأنه إيجابها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة بالذات لا بتوسط شيء .

(227/227)

وقيل : هو ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي " وفي رواية الترمذي عنه مرفوعاً " لما خلق الله تعالى الخلق كتب كتاباً عنده بيده على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي " وفي رواية ابن مردويه عنه " إن الله تعالى كتب كتاباً بيده لنفسه قبل أن يخلق السموات والأرض فوضعه تحت عرشه فيه رحمتي سبقت غضبي " إلى غير ذلك من الأخبار ، ومعنى سبق الرحمة وغلبتها فيها أنها أقدم تعلقاً بالخلق وأكثر وصولاً إليهم مع أنها من مقتضيات الذات المفيضة للخير .

وفي "شرح مسلم" للإمام النووي : "قال العلماء : غضب الله تعالى ورضاه يرجعان إلى معنى الإرادة فإرادته الثواب للمطيع والمنفعة للعبد تسمى رضا ورحمة وإرادته عقاب العاصي وخذلانه تسمى غضباً وإرادته سبحانه وتعالى صفة له قديمة يريد بها (جميع المرادات) ، قالوا : والمراد بالسبق والغلبة هنا كثرة الرحمة وشمولها كما يقال غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا منه" انتهى ، وهو يرجع إلى ما قلنا .

وحاصل الكلام في ذلك أن السبق والغلبة في التعلقات في نفس الصفة الذاتية إذ لا يتصور تقدم صفة على صفة فيه تعالى لاستلزامه حدوث المسبوق ، وكذا لا يتصور الكثرة والقلة بين صفتين لاستلزام ذلك الحدوث وقد يراد بالرحمة ما يرحم به وهي بهذا المعنى تتصف بالتعدد والهبوط ونحو ذلك أيضاً ، وعليه يخرج ما أخرجه مسلم وابن مردويه عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السموات والأرض فجعل منها في الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة "

(228/227)

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن عبد الله بن عمرو قال : " إن لله تعالى مائة رحمة أهبط منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا يتراحم بها الجن والإنس وطائر السماء وحيتان الماء ودواب الأرض وهوامها وما بين الهواء واختزن عنده تسعاً وتسعين رحمة حتى إذا كان يوم القيامة اختلج الرحمة التي كان أهبطها إلى أهل الدنيا فحواها إلى ما عنده فجعلها في قلوب أهل الجنة وعلى أهل الجنة " والمراد بالرحمة في الآية ما يعم الدارين مع عموم متعلقها ، فما روي عن الكلبي من أن المعنى أوجب لنفسه الرحمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن لا يعذبهم عند التكذيب كما عذب من قبلهم من الأمم الخالية والقرون الماضية عند ذلك بل يؤخرهم إلى يوم القيامة لم يدع إليه إلا إظهار ما يناسب المقام من أفراد ذلك العام .

وفي التعبير عن الذات بالنفس رد على من زعم أن لفظ النفس لا يطلق على الله تعالى وإن أريد به الذات إلا مشاكلة .

واعتبار المشاكلة التقديرية غير ظاهر كما هو ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

جملة ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض ﴾ تكرير في مقام الاستدلال ، فإنّ هذا الاستدلال تضمّن استفهاماً تقريرياً ، والتقرير من مقتضيان التكرير ، لذلك لم تعطف الجملة .

ويجوز أن يجعل تصدير هذا الكلام بالأمر بأن يقوله مقصوداً به الاهتمام بما بعد فعل الأمر بالقول على الوجه الذي سنبيّنه عند قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ في هذه السورة [40] .

والاستفهام مستعمل مجازاً في التقرير .

والتقرير هنا مراد به لازم معناه ، وهو تبكيت المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال معتقدهم الشركَ ، فهو مستعمل في معناه الكنائي مع معناه الصريح ، والمقصود هو المعنى الكنائي .

(229/227)

ولكونه مراداً به الإلجاء إلى الإقرار كان الجواب عنه بما يريده السائل من إقرار المسؤول محقّقاً لا محيص عنه ، إذ لا سبيل إلى الجحد فيه أو المغالطة ، فلذلك لم ينتظر السائل جوابهم وبادرهم الجواب عنه بنفسه بقوله : لله ﴿ تبكيتاً لهم ، لأنّ الكلام مسوق مساق إبلاغ الحجّة مقدّرة فيه محاورة وليس هو محاورة حقيقية .

وهذا من أسلوب الكلام الصادر من متكلّم واحد .

فهؤلاء القوم المقدّر إلجاؤهم إلى الجواب سواء أنصفوا فأقرّوا حقّيّة الجواب أم أنكروا

وكابروا فقد حصل المقصود من دمغهم بالحجّة .

وهذا أسلوب متّبع في القرآن ، فتارة لا يذكر جواب منهم كما هنا ، وكما في قوله تعالى : ﴿ قل من ربّ السماوات والأرض قل الله ﴾ [الرعد : 16] ، وقوله : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى إلى قوله قل الله ﴾ [الأنعام : 91] ، وتارة يذكر ما سيجيبون به بعد ذكر السؤال منسوباً إليهم أنّهم يجيبون به ثم ينتقل إلى ما يترتّب عليه من توبيخ ونحوه ، كقوله تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكّرون إلى قوله قل فأنّى تسحرون ﴾ [المؤمنون : 84 89] .

وابتدىء بإبطال أعظم ضلالهم .

وهو ضلال الإشراك .

وأدمج معه ضلال إنكارهم البعث المبتدأ به السورة بعد أن انتقل من ذلك إلى الإنذار الناشىء عن تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك لمّا كان دليل الوحدانية السالف دالاً على خلق السماوات والأرض وأحوالها بالصراحة ، وعلى عبودية الموجودات التي تشملها بالالتزام ، ذكر في هذه الآية تلك العبودية بالصراحة فقال : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ﴾ .

وقوله : ﴿ لله ﴾ خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه ﴿ ما في السماوات ﴾ .

الخ .

ويقدّر المبتدأ مؤخّراً عن الخبر على وزان السؤال لأنّ المقصود إفادة الحصر .

(230/227)

واللام في قوله : ﴿ لله ﴾ للملك ؛ دلّت على عبودية الناس لله دون غيره ، وتستلزم أنّ العبد صائر إلى مالكه لا محالة ، وفي ذلك تقرير لدليل البعث السابق المبني على إثبات العبودية بحقّ الخلق .

ولا سبب للعبوديّة أحقّ وأعظم من الخالقية ، ويستتبع هذا الاستدلال الإنذار بغضبه على من أشرك معه .

وهذا استدلال على المشركين بأنّ غير الله ليس أهلاً للإلهيّة ، لأنّ غير الله لا يملك ما في السماوات وما في الأرض إذ ملك ذلك لخالق ذلك .

وهو تمهيد لقوله بعده ﴿ ليجمعنّكم إلى يوم القيامة ﴾ ، لأنّ مالك الأشياء لا يهمل محاسبتها .

وجملة : ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ معترضة ، وهي من المقول الذي أمر الرسول بأن يقوله .

وفي هذا الاعتراض معان:

أحدها : أنّ ما بعده لمّا كان مشعراً بإنذار بوعيد قُدّم له التذكير بأنّه رحيم بعبيده عساهم يتوبون ويقلعون عن عنادهم ، على نحو قوله تعالى : ﴿ كتب ربّكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنّه غفور رحيم ﴾ [الأنعام : 54] ، والشرك بالله أعظم سوءٍ وأشدّ تلبّساً بجهالة .

والثاني : أنّ الإخبار بأنّ لله ما في السماوات وما في الأرض يثير سؤال سائل عن عدم تعجيل أخذهم على شركهم بمن هم مِلكه .

فالكافر يقول : لو كان ما تقولون صدقاً لعجّل لنا العذاب ، والمؤمن يستبطىء تأخير عقابهم ، فكان قوله : ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ جواباً لكلا الفريقين بأنّه تفضّل بالرحمة ، فمنها رحمة كاملة : وهذه رحمته بعباده الصالحين ، ومنها رحمة موقّتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضّالّين .

والثالث : أنّ ما في قوله : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ﴾ من التمهيد لما في جملة ﴿ ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ من الوعيد والوعد .

ذُكرت رحمة الله تعريضاً ببشارة المؤمنين وبتهديد المشركين .

الرابع : أنّ فيه إيماء إلى أنّ الله قد نجّى أمّة الدعوة المحمدية من عذاب الاستئصال الذي عذّب به الأمم المكذّبةَ رسلها من قبل ، وذلك ببركة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ جعله رحمة للعالمين في سائر أحواله بحكم قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] ، وإذ أراد تكثير تابعيه فلذلك لم يقض على مكذّبيه قضاء عاجلاً بل أمهلهم وأملى لهم ليخرج منهم من يؤمن به ، كما رجا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك لمّا قالوا : ﴿ اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] قال الله تعالى ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : 33] .

وقد حصل ما رجاه رسول الله فلم يلبث من بقي من المشركين أن آمنوا بالله ورسوله بعد فتح مكة ودخلوا في دين الله أفواجاً ، وأيّد الله بهم بعد ذلك دينه ورسوله ونشروا كلمة الإسلام في آفاق الأرض .

وإذ قد قدّر الله تعالى أن يكون هذا الدين خاتمة الأديان كان من الحكمة إمهال المعاندين له والجاحدين ، لأنّ الله لو استأصلهم في أول ظهور الدين لأتى على من حوتْه مكة من مشرك ومسلم ، ثم يحشرون على نيّاتهم ، كما ورد في الحديث لمّا قالت أمّ سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

" أنهلك وفينا الصالحون ، قال : نعم ، إذا كثر الخبث ثم يحشرون على نيّاتهم " فلو كان ذلك في وقت ظهور الإسلام لارتفع بذلك هذا الدين فلم يحصل المقصود من جعله خاتمة الأديان .

وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا نزل عليه ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ فقال : ﴿ أعوذ بسبحات وجهك الكريم ﴾ .

ومعنى ﴿ كتب ﴾ تعلّقت إرادته ، بأن جعل رحمته الموصوف بها بالذات متعلّقة تعلّقاً عامّاً مطّرداً بالنسبة إلى المخلوقات وإن كان خاصّاً بالنسبة إلى الأزمان والجهات .

(232/227)

فلما كان ذلك مطّرداً شبّهت إرادته بالإلزام ، فاستعير لها فعل (كتب) الذي هو حقيقة في الإيجاب ، والقرينة هي مقام الإلهية ، أو جعَل ذلك على نفسه لأنّ أحداً لا يُلزم نفسه بشيء إلاّ اختياراً وإلاّ فإنّ غيره يُلزمه .

والمقصود أنّ ذلك لا يتخلّف كالأمر الواجب المكتوب ، فإنّهم كانوا إذا أرادوا تأكيد وعد أو عهد كتبوه ، كما قال الحارث بن حلّزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّم فيه العهود والكفلاء

حذر الجور والتطاخي وهل ينقض ما في المهارق الأهواء

فالرحمة هنا مصدر ، أي كتب على نفسه أن يرحم ، وليس المراد الصفة ، أي كتب على نفسه الاتّصاف بالرحمة ، أي بكونه رحيماً ، لأنّ الرحمة صفة ذاتية لله تعالى واجبة له ، والواجب العقلي لا تتعلّق به الإرادة ، إلاّ إذا جعلنا ﴿ كتب ﴾ مستعملاً في تمجّز آخر ، وهو تشبيه الوجوب الذاتي بالأمر المحتّم المفروض ، والقرينة هي هي إلاّ أنّ المعنى الأول أظهر في الامتنان ، وفي المقصود من شمول الرحمة للعبيد المعرضين عن حقّ شكره والمشركين له في ملكه غيره .

وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا قضى الله تعالى الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش " إنّ رحمتي سَبَقَتْ غضبي " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(233/227)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ قُل لّمَن مَّا فِى السموات والأرض ﴾

هذا احتجاج عليهم وتبكيت لهم ، والمعنى : قل لهم هذا القول فإن قالوا فقل لله ، وإذا ثبت أن له ما في السموات والأرض إما باعترافهم ، أو بقيام الحجة عليهم ، فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ، ولكنه كتب على نفسه الرحمة ، أي وعد بها فضلاً منه وتكرّماً ، وذكر النفس هنا عبارة عن تأكد وعده ، وارتفاع الوسائط دونه ، وفي الكلام ترغيب للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة ، وأنه يقبل منهم الإنابة والتوبة ، ومن رحمته لهم إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ونصب الأدلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

لطيفة

قال المهايمى :

كمال الرحمة فى الجزاء ؛ إذ بدونه تضيع مشاق المعارف الإلهية ، والأعمال الصالحة ، وتضيع المظالم ، ولا جزاء فى دار الدنيا ؛ لأنه فرع التكليف ، ودار التكليف لا تكون دار الجزاء ، لأن مشاهدته مانعة من التكليف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 4 صـ 327 ﴾

قوله تعالى ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن هذا الكلام مبتدأ أو متعلق بما قبله .

فقال بعضهم أنه كلام مبتدأ ، وذلك لأنه تعالى بيّن كمال إلهيته بقوله ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى السموات والارض قُل لِلَّهِ ﴾ ثم بيّن تعالى أنه يرحمهم في الدنيا بالإمهال ودفع عذاب الاستئصال ، وبيّن أنه يجمعهم إلى يوم القيامة ، فقوله ﴿ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ أنه يمهلهم وقوله ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ أنه لا يمهلهم بل يحشرهم ويحاسبهم على كل ما فعلوا . (1)

---

(1) من رحمته تعالى جمع الخلائق يوم القيامة ليدخل المؤمنين الجنة فضلا ويعذب الكافرين عدلا فكانت القيامة عين الرحمة بهذا المعنى . والله أعلم .

(234/227)

والقول الثاني : أنع متعلق بما قبله والتقدير : كتب ربكم على نفسه الرحمة .

وكتب ربكم على نفسه ليجمعنكم إلى يوم القيامة .

وقيل : أنه لما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ فكأنه قيل : وما تلك الرحمة ؟

فقيل : إنه تعالى ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ وذلك لأنه لولا خوف العذاب يوم الققيامة لحصل الهرج والمرج ولارتفع الضبط وكثر الخبط ، فصار التهديد بيوم القيامة من أعظم

أسباب الرحمة في الدنيا ، فكان قوله ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ كالتفسير لقوله ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 137 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ اللام لام القسم ، والنون نون التأكيد .

وقال الفرّاء وغيره : يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله : ﴿ الرحمة ﴾ ويكون ما بعده مستأنفاً على جهة التبيين ؛ فيكون معنى ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ ليُمهلنكم وليؤخرنّ جمعكم .

وقيل : المعنى ليجمعنكم أي في القبور إلى اليوم الذي أنكرتموه .

وقيل : "إلى" بمعنى في ، أي ليجمعنكم في يوم القيامة .

وقيل : يجوز أن يكون موضع ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ نصباً على البدل من الرحمة ؛ فتكون اللام بمعنى "أن" المعنى : كتب ربكم على نفسه ليجمعنكم ، أي أن يجمعكم ؛ وكذلك قال كثير من النحويين في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ [يوسف : 35] أي أن يسجنوه .

وقيل : موضعه نصب ب "كَتَبَ" ؛ كما تكون "أن" في قوله عزّ وجلّ ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سواءا بِجَهَالَةٍ ﴾ وذلك أنه مفسر للرحمة بالإمهال إلى يوم القيامة ؛ عن الزجاج .

﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة ﴾ اللام : لام القسم ، كأنه قال : والله ليجمعنكم إلى اليوم الذي أنكرتموه .

وذهب قوم إلى أن "إلى" بمعنى : "في" ثم اختلفوا ، فقال قوم : في يوم القيامة ، وقال آخرون : في قبوركم إلى يوم القيامة .

(235/227)

وقال أبو حيان :

﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ لما ذكر أنه تعالى رحم عباده ذكر الحشر وأن فيه المجازاة على الخير والشر ، وهذه الجملة مقسم عليها ولا تعلق لها بما قبلها من جهة الإعراب وإن كانت من حيث المعنى متعلقة بما قبلها كما ذكرناه .

وحكى المهدوي أن جماعة من النحويين قالوا : إنها تفسير للرحمة تقديره : أن يجمعكم ، فتكون الجملة في موضع نصب على البدل من ﴿ الرحمة ﴾ وهو مثل قوله ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه ﴾ المعنى أن يسجنوه ، وردّ ذلك ابن عطية بأن النون

الثقيلة تكون قد دخلت في الإيجاب قال : وإنما تدخل في الأمر والنهي وباختصاص من الواجب في القسم ، انتهى .

(236/227)

وهذا الذي ذكره لا يحصر مواضع دخول نون التوكيد ، ألا ترى دخولها في الشرط وليس واحداً مما ذكر نحو قوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك ﴾ وكذلك قوله : وباختصاص من الواجب في القسم بهذا ليس على إطلاقه بل له شروط ذكرت في علم النحو ولهم أن يقولوا صورة الجملة صورة المقسم عليه ، فلذلك لحقت النون وإن كان المعنى على خلاف القسم ويبطل ما ذكروه ، إن الجملة المقسم عليها لا موضع لها وحدها من الإعراب ، فإذا قلت والله لأضربنّ زيداً ، فلأضربنّ لا موضع له من الإعراب فإذا قلت زيد والله لأضربنه ، كانت جملة القسم والمقسم عليه في موضع رفع والجمع هنا قيل حقيقة أي ﴿ ليجمعنكم ﴾ في القبور إلى يوم القيامة ، والظاهر أن ﴿ إلى ﴾ للغاية والمعنى ليحشرنكم منتهين ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ وقيل : المعنى ﴿ ليجمعنكم ﴾ في الدنيا يخلقكم قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة وقد تكون ﴿ إلى ﴾ هنا بمعنى اللام أي ليوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ وأبعد من زعم أن ﴿ إلى ﴾ بمعنى في أي في يوم القيامة وأبعد

منه من ذهب إلى أنها صلة والتقدير ﴿ ليجمعنكم ﴾ يوم القيامة ، والظاهر أن الضمير في ﴿ فيه ﴾ عائد إلى يوم القيامة وفيه ردّ على من ارتاب في الحشر ويحتمل أن يعود على الجمع ، وهو المصدر المفهوم من قولهم ﴿ ليجمعنكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله سبحانه : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ جواب قسم محذوف وقع على ما قال أبو البقاء كتب موقعه .

والجملة استئناف نحوي مسوق للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر ، وقيل : بياني كأنه قيل : وما تلك الرحمة فقيل : إنه تعالى ليجمعنكم الخ وذلك لأنه لولا خوف القيامة والعذاب لحصل الهرج والمرج وارتفع الضبط وكثر الخبط .

وأورد عليه أنه إنما يظهر ما ذكر لو كانوا معترفين بالبعث وليس فليس .

(237/227)

وقال بعض المحققين أيضاً : إنه تكلف ولا يتوجه فيه الجواب إلا باعتبار ما يلزم التخويف من الامتناع عن المناهي المستلزم للرحمة ، وقيل : صلاحية ما في الآية للجواب باعتبار أن

المراد ليجمعنكم إلى يوم القيامة ولا يعاجلكم بالعقوبة الآن على تكذيبكم على ما أشار إليه الكلبي ، وقيل : إن القسم وجوابه في محل نصب على أنه بدل من ﴿ الرحمة ﴾ بدل البعض ، وقد ذكر النحاة أن الجملة تبدل من المفرد .

نعم لم يتعرضوا لأنواع البدل في ذلك والجار والمجرور قيل متعلق بمحذوف أي ليجمعنكم في القبور مبعوثين إلى يوم الخ على أن البعث بمعنى الإرسال وهو مما يتعدى بإلى ولا يحتاج إلى ارتكاب التضمين ، واعترض بأن البعث يكون إلى المكان لا إلى الزمان إلا أن يراد بيوم القيامة واقعتها في موقعها ؛ وقيل : هو متعلق بالفعل المذكور ، والمراد جمع فيه معنى السوق والاضطرار كأنه قيل ليبعثنكم ويسوقنكم ويضطرنكم إلى يوم القيامة أي إلى حسابه ، وقيل : إنه متعلق بالفعل وإلى بمعنى في كما في قوله

: لا تتركني بالوعيد كأنني . . .

إلى الناس مطلي به القار أجرب

ومنع بعضهم مجيء إلى بمعنى في في كلامهم ولو صح ذلك لجاز زيد إلى الكوفة بمعنى في الكوفة وتأول البيت بتضمين مضافاً أو مبغضاً أو مكرهاً ، وأجيب بأن ذلك إنما يرد إذا قيل : إن استعمال إلى بمعنى في قياس مطرد ولعل القائل بالاستعمال لا يقول بما ذكر ، وارتكاب التضمين خلاف الأصل ، وارتكاب القول بأن إلى بمعنى في وإن لم يكن مطرداً أهون منه ، وقيل : إنها بمعنى اللام ، وقيل : زائدة والخطاب للكافرين كما هو الظاهر من

السابق ، وقيل : عام لهم وللمؤمنين بعد أن كان خاصاً بالكافرين أي ليجمعنكم أيها الناس إلى يوم القيامة ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه لوضوح أدلته وسطوع براهينه التي تقدم بعض منها .

(238/227)

والجملة حال من اليوم والضمير المجرور له ، ويحتمل أن تكون صفة لمصدر محذوف والضمير له أي جمعاً لا ريب فيه ، وجوز أن تكون تأكيداً لما قبلها كما قالوا في قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 2] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ ليجمعنّكم إلى يوم القيامة ﴾ واقعة موقع النتيجة من الدليل والمسبّب من السبب ، فإنّه لمّا أبطلت أهلية أصنامهم للإلهية ومحّضت وحدانية الله بالإلهية بطلت إحالتهم البعث بشبهة تفرّق أجزاء الأجساد أو انعدامها .

ولام القسم ونون التوكيد أفادا تحقيق الوعيد .

والمراد بالجمع استقصاء متفرّق جميع الناس أفراداً وأجزاءاً متفرّقة .

وتعديته بـ ﴿ إلى ﴾ لتضمينه معنى السوق .

وقد تقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلاّ هو ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ في سورة [النساء 87] .

وضمير الخطاب في قوله : ليجمعنّكم ﴾ مراد به خصوص المحجوجين من المشركين ، لأنّهم المقصود من هذا القول من أوله ؛ فيكون نذارة لهم وتهديداً وجواباً عن أقلّ ما يحتمل من سؤال ينشأ عن قوله : ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ كما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

إن قوله ﴿ قُل لّمَن مَّا فِى السموات والأرض قُل لِلَّهِ ﴾ كلام ورد على لفظ الغيبة .

وقوله ﴿ لَيَجْمَعَنّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ كلام ورد على سبيل المخاطبة .

والمقصود منه التأكيد في التهديد ، كأنه قيل : لما علمتم أن كل ما في السموات والأرض لله وملكه ، وقد علمتم أن الملك الحكيم لا يهمل أمر رعيته ولا يجوز في حكمته أن يسوي بين المطيع والعاصي وبين المشتغل بالخدمة والمعرض عنها ، فهلا علمتم أنه يقيم القيامة ويحضر الخلائق ويحاسبهم في الكل ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 137 .

138 ﴾

قوله تعالى ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

في هذه الآية قولان :

الأول : أن قوله ﴿ الذين ﴾ موضعه نصب على البدل من الضمير في قوله ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ والمعنى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم وهو قول الأخفش .

والثاني : وهو قول الزجاج ، أن قوله ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ رفع بالابتداء ، وقوله ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ خبره ، لأن قوله ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ مشتمل على الكل ، على الذين خسروا أنفسهم وعلى غيرهم "والفاء" في قوله ﴿ فَهُمْ ﴾ يفيد معنى الشرط والجزاء ، كقولهم : الذي يكرمني فله درهم ، لأن الدرهم وجب بالاكرام فكان الإكرام شرطاً والدرهم جزاء .

فإن قيل : ظاهر اللفظ يدل على أن خسرانهم سبب لعدم إيمانهم ، والأمر على العكس .

قلنا : هذا يدل على أن سبق القضاء بالخسران والخذلان ، هو الذي حملهم على الامتناع

من الإيمان ، وذلك عين مذهب أهل السنّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 138 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي : بالشرك ، ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ لِما سبق فيهم من القضاء ، وقال ابن قتيبة : قوله : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ مردود إلى قوله : ﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ الذين خسروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾

اختلف في إعراب ﴿ الذين ﴾ فقال الأخفش : هو بدل من ضمير الخطاب في ﴿ ليجمعنكم ﴾ وردّه المبرد بأن البدل من ضمير الخطاب لا يجوز ، كما لا يجوز مررت بك زيد وردّ رد المبرد ابن عطية .

فقال : ما في الآية مخالف للمثال لأن الفائدة في البدل مترتبة من الثاني ، وإذا قلت مررت بك زيد فلا فائدة في الثاني ، وقوله : ﴿ ليجمعنكم ﴾ يصلح لمخاطبة الناس كافة فيفيدنا إبدال ﴿ الذين ﴾ من الضمير أنهم هم المختصون بالخطاب وخصوا على جهة الوعيد ، ويجيء هذا بدل البعض من الكل ، انتهى .

وما ذكره ابن عطية في هذا الردّ ليس بجيد ، لأنه إذا جعلنا ﴿ ليجمعنكم ﴾ يصلح لمخاطبة الناس كافة كان ﴿ الذين ﴾ بدل بعض من كل ، ويحتاج إذ ذاك إلى ضمير ويقدر ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ منهم وقوله فيفيدنا إبدال ﴿ الذين ﴾ من الضمير أنهم هم المختصون بالخطاب ، وخصوا على جهة الوعيد وهذا يقتضي أن يكون بدل كل من كل فتناقض أول كلامه مع آخره لأنه من حيث الصلاحية ، يكون بدل بعض من كل ومن حيث اختصاص الخطاب بهم يكون بدل كل من كل ، والمبدل منه متكلم أو مخاطب في جوازه خلاف مذهب الكوفيين والأخفش ، أنه يجوز ومذهب جمهور البصريين أنه لا يجوز ، وهذا إذا لم يكن البدل يفيد معنى التوكيد فإنه إذ ذاك يجوز ، وهذا كله مقرر في علم النحو . وقال الزجاج : ﴿ الذين ﴾ مرفوع على الابتداء والخبر قوله : ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ ودخلت الفاء لما تضمن المبتدأ من معنى الشرط كأنه قيل : من يخسر نفسه فهو لا يؤمن ، ومن ذهب إلى البدل جعل الفاء عاطفة جملة على جملة وأجاز الزمخشري أن يكون ﴿ الذين ﴾ منصوباً على الذمّ أي : أريد ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ ؛ انتهى وتقديره بأريد ليس بجيد إنما يقدر النحاة المنصوب على الذم بأذم وأبعد من ذهب إلى أن موضع ﴿ الذين

﴿ جر نعتاً للمكذبين أو بدلاً منهم .

وقال الزمخشري (فإن قلت) : كيف جعل عدم إيمانهم مسبباً عن خسرهم والأمر بالعكس ؟

(قلت) : معناه ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ في علم الله لاختيارهم الكفر ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ ؛ انتهى .

وفيه دسيسة الاعتزال بقوله : لاختيارهم الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ابتداء وخبر ، قاله الزجاج ، وهو أجود ما قيل فيه ؛ تقول : الذي يكرمني فله درهم ، فالفاء تتضمن معنى الشرط والجزاء .

(241/227)

وقال الأخفش : إن شئت كان "الذين" في موضع نصب على البدل من الكاف والميم في ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ أي ليجمعن المشركين الذي خسروا أنفسهم ؛ وأنكره المبرّد وزعم أنه خطأ ؛ لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطِب لا يُقال : مررت بك زيدٍ ولا مررت بي زيدٍ

لأن هذا لا يُشكل فيُبيَّن .

قال القُتَبِيّ : يجوز أن يكون "الذين" جزاء على البدل من "المكذّبين" الذين تقدّم ذكرهم . أو على النعت لهم .

وقيل : "الذين" نداء مفرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ أي بتضييع رأسِ مالهم وهو الفطرةُ الأصليةُ والعقلُ السليم والاستعدادُ القريبُ الحاصلُ من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستماعِ الوحْي وغيرِ ذلك من آثار الرحمة ، في موضع النصْب أو الرفعِ على الذم أي أعني الذين الخ ، أو هو مبتدأ والخبر قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ والفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط ، والإشعارُ بأن عدمَ إيمانهم بسبب خُسرانهم ، فإن إبطالَ العقل باتباع الحواسِّ والوهم والانهماك في التقليد ، وإغفالِ النظر أدّى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناعِ من الإيمان . والجملةُ تذييلٌ مَسوقٌ من جهته تعالى لتقبيح حالهم غيرُ داخلٍ تحت الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول صلى الله عليه وسلم واستماع الوحي

وغير ذلك من آثار الرحمة ، وموضع الموصول قيل : نصب على الذم أو رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي أنتم الذين وهو نعت مقطوع ولا يلزم أن يكون كل نعت مقطوع يصح اتباعه نعتاً بل يكفي فيه معنى الوصف ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الذى جَمَعَ مَالاً ﴾ [الهمزة : 1 ، 2] كيف قطع فيه ﴿ الذى ﴾ مع عدم صحة اتباعه نعتاً للنكرة فلا يرد أن القطع إنما يكون في النعت والضمير لا ينعت ، وقيل : هو بدل من الضمير بدل بعض من كل بتقدير ضمير أو هو خبر مبتدأ على القطع على البدلية أيضاً ولا اختصاص للقطع بالنعت ، ولعلهم إنما لم يجعلوه منصوباً بفعل مقدر أو خبراً لمبتدأ محذوف من غير حاجة لما ذكر لدعواهم أن مجرد التقدير لا يفيد الذم أو المدح إلا مع القطع .

واختار الأخفش البدلية ، وتعقب ذلك أبو البقاء بأنه بعيد لأن ضمير المتكلم والمخاطب لا يبدل منهما لوضوحهما غاية الوضوح وغيرهما دونهما في ذلك .

(242/227)

وقيل : هو مبتدأ خبره ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ والفاء للدلالة على أن عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر مسبب عن خسرانهم فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان ، وفي "الكشاف" "فإن قلت

: كيف يكون عدم إيمانهم مسبباً عن خسرانهم والأمر على العكس ؟ قلت : معناه الذين خسروا أنفسهم في علم الله تعالى لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون" .

وحاصل الكلام على هذا الذين حكم الله تعالى بخسرانهم لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون ، والحكم بالخسران سابق على عدم الإيمان لأنه مقارن للعلم باختيار الكفر لا لحصوله بالفعل فيصح ترتب عدم الإيمان عليه من هذا الوجه ، وأنت تعلم أن هذا السؤال يندفع بحمل الخسران على ما ذكرناه ، ولعله أولى مما في "الكشاف" لما فيه من الدغدغة ، والجملة كما قال غير واحد تذييل مسوق من جهته تعالى لتقبيح حالهم غير داخلة تحت الأمر .

وقيل : الظاهر على تقدير الابتداء عطف الجملة على ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ فيحتاج الفصل إلى تكلف تقدير سؤال كأنه قيل : فلم يرتاب الكافرون به ؟ فأجيب بأن خسرانهم أنفسهم صار سبباً لعدم الإيمان ، وجوز على ذلك التقدير كون الجملة حالية وهو كما ترى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ الأظهر عندي أنّها متفرّعة على جملة ﴿ ليجمعنّكم إلى يوم القيامة ﴾ وأنّ الفاء من قوله : ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ للتفريع والسببية .

وأصل التركيب : فأنتم لا تؤمنون لأنّكم خسرتم أنفسكم في يوم القيامة ؛ فعدل عن الضمير

إلى الموصول لإفادة الصلة أنّهم خسروا أنفسهم بسبب عدم إيمانهم .

وجعل ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ خبرَ مبتدأ محذوف .

والتقدير : أنتم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون .

(243/227)

ونظم الكلام على هذا الوجه أدعى لإسماعهم ، وبهذا التقدير يستغنى عن سؤال "الكشاف" عن صحّة ترتّب عدم الإيمان على خسران أنفسهم مع أنّ الأمر بالعكس .

وقيل : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ مبتدأ ، وجملة : ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ خبره ، وقرن بالفاء لأنّ الموصول تضمّن معنى الشرط على نحو قوله تعالى : ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنّ أربعة منكم ﴾ [النساء : 15] .

وأشرب الموصول معنى الشرط ليفيد شموله كلّ من اتّصف بمضمون الصلة ، ويفيد تعليق حصول مضمون جملة الخبر المنزّل منزلة جواب الشرط على حصول مضمون الصلة المنزّلة منزلة جملة الشرط ، فيفيد أنّ ذلك مستمرّ الارتباط والتعليل في جميع أزمنة المستقبل التي يتحقّق فيها معنى الصلة .

فقد حصل في هذه الجملة من الخصوصيات البلاغية ما لا يوجد مثله في غير الكلام

المعجز .

ومعنى : ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ أضاعوها كما يضيّع التاجر رأس ماله ، فالخسران مستعار لإضاعة ما شأنه أن يكون سبب نفع .

فمعنى ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ عدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به الناس من أنفسهم وهو العقل والتفكير ، فإنّه حركة النفس في المعقولات لمعرفة حقائق الأمور .

وذلك أنّهم لمّا أعرضوا عن التدبّر في صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فقد أضاعوا عن أنفسهم أنفع سبب للفوز في العاجل والآجل ، فكان ذلك سبب أن لا يؤمنوا بالله والرسول واليوم الآخر .

فعدم الإيمان مسبّب عن حرمانهم الانتفاع بأفضل نافع .

ويتسبّب عن عدم الإيمان خسران آخر ، وهو خسران الفوز في الدنيا بالسلامة من العذاب ، وفي الآخرة بالنجاة من النار ، وذلك يقال له خسران ولا يقال له خسران الأنفس .

وقد أشار إلى الخسرانين قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون لا جرم أنّهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ [هود : 21 ، 22] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : إذا علم العبد أن الخلق كلهم في قبضة الله ، وأمورهم كلها بيد الله ، أحاط بهم علمًا وسمعًا وبصرًا ، لم يبق له على أحد عتاب ، ولا ترتيبُ خطأ ولا صواب ، إلاَّ ما أمرت به الشريعةُ على ظاهر اللسان . بل شأنه أن ينظر إلى ما يفعل المالك في ملكه . فيتلقاه بالقبول والرضى ، وفي الحِكَم : " ما تَركَ من الجهل شيئًا مَن أراد أن يُظهر في الوقت غيرَ ما أظهره الله فيه " . هذا شأن أهل التوحيد ؛ يدورُون مع رياح الأقدار حيثما دارت ، غيرَ أنهم يتحنَّنون بقلوبهم إلى رحمة الكريم المنان ، وينهضون بهمتهم إلى مَظانّ السعادة والغفران ، ويرجون منه الجمع عليه في روح وريحان ، وجنة ورضوان ، بمحض فضل منه وإحسان . جعَلَنَا الله منهم بفضله وكرمه . آمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 103 ﴾

(245/227)

فصل

قال فى الميزان :

قوله تعالى : (قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله) شروع في البرهنة على المعاد ، ومحصله أن الله تعالى مالك ما في السماوات والأرض جميعا له أن يتصرف فيها كيف شاء وأراد ، وقد اتصف سبحانه بصفة الرحمة وهى رفع حاجة كل محتاج وإيصال كل شئ إلى ما يستحقه وإفاضته عليه وعدة من عباده ومنهم الإنسان صالحون لحياة خالدة مستعدون لأن يسعدوا فيها فهو بمقتضى ملكه ورحمته سيتصرف فيهم بحشرهم وإعطائهم ما يستحقونه البتة .

فقوله تعالى : (قل لمن ما في السماوات والأرض) الخ ، يتضمن إحدى مقدمات الحجة وقوله : (كتب على نفسه الرحمة) يتضمن مقدمة أخرى ، وقوله : (وله ما سكن في الليل والنهار) الخ ، مقدمة أخرى ثالثة بمنزلة الجزء من الحجة .

) فقوله تعالى : (قل لمن ما في السماوات والأرض) ألخ ، يأمر النبي صلى الله عليه واله أن يسألهم عمن يملك السماوات والأرض وله التصرف فيها بما شاء من غير مانع يمنعه ، وهو الله سبحانه من غير شك لأن غيره حتى الأصنام وأرباب الأصنام التى يدعوها المشركون هي كسائر الخلقة ينتهى خلقها وأمرها إليه تعالى فهو المالك لما في السماوات والأرض جميعا

.

ولكون المسئول عنه معلوما بينا عند السائل والمسئول جميعا والخصم معترف به لم يحتج إلى صدور الجواب عن الخصم واعترافه به بلسانه ، وأمر النبي صلى الله عليه واله أن يذكر هو الجواب ويتكفل ذلك لتتم الحجة من غير انتظار ما لجوابهم .

والسؤال عن الخصم ، ومباشرة السائل بنفسه الجواب كلاهما من السلائق البديعة الدائرة في سرد الحجج ، يقول المنعم لمن أنعم عليه فكفر بنعمته : من الذى أطعمك وسقاك وكساك ؟ أنا الذى فعل ذلك بك ومن بها عليك وأنت تجازيني بالكفر .

(246/227)

وبالجملة ثبت بهذا السؤال والجواب أن الله سبحانه هو المالك على الإطلاق فله التصرف فيها بما شاء من إحياء ورزق وإماتة وبعث بعد الموت من غير أن يمنعه من ذلك مانع كدقة في العمل وموت وغيبة واختلال وغير ذلك .

وبهذا تمت إحدى مقدمات الحجة فألحقها المقدمة الاخرى وهى قوله : كتب على نفسه الرحمة .

قوله تعالى : (كتب على نفسه الرحمة) الكتابة هو الإثبات والقضاء الحتم ، وإذ كانت الرحمة – وهى إفاضة النعمة على مستحقها وإيصال الشئ إلى سعادته التى تليق به –

من صفاته تعالى الفعلية صح أن ينسب إلى كتابته تعالى ، والمعنى : أوجب على نفسه الرحمة وإفاضة النعم وإنزال الخير لمن يستحقه .

ونظيره في نسبة الفعل إلى الكتابة ونحوها قوله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) (المجادلة : 21) وقوله : (فورب السماء والأرض إنه لحق) (الذاريات : 23) وأما صفات الذات كالحياة والعلم والقدرة فلا تصح نسبتها إلى الكتابة ونحوها ألبتة لا يقال : كتب على نفسه الحياة والعلم والقدرة .

ولازم كتابة الرحمة على نفسه - كما تقدم - أن يتم نعمته عليهم بجمعهم ليوم القيامة ليجزيهم بأقوالهم وأعمالهم فيفوز به المؤمنون ويخسر غيرهم .

ولذلك ذيل بقوله وهو كالنتيجة في الحجة : ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه فأكد المعنى بأبلغ التأكيد : لام القسم ونون التأكيد وقوله لا ريب فيه .

ثم أشار إلى أن الربح في هذا اليوم للمؤمنين والخسران على غيرهم فقال : (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) .

(247/227)

والحجة التى أقيمت في هذه الآية على المعاد غير ما أقيمت من الحجتين عليه في قوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) (ص : 28) فإن الآيتين تقيمان الحجة على المعاد من جهة أن فعله تعالى ليس بباطل بل له غاية ، ومن جهة أن التسوية بين المؤمن والكافر والمتقي والفاجر ظلم لا يليق به تعالى ، وهما في الدنيا لا يتميزان فلا بد من نشأة أخرى يتميزان فيها بالسعادة والشقاوة ، وهذا غير ما في هذه الآية من السلوك إلى المطلوب من طريق الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 25 . 27 ﴾

(248/227)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

الرَّحمة سبب واصل بين الله وبين عباده ، بها أَرسل إليهم رُسُله ، وأَنزل عليهم كُتُبه ، وبها هداهم ، وبها أَسكنهم دار ثوابِه ، وبها رزقهم وعافاهم .

وقد ورد الرّحمة فى القرآن على عشرين وجهاً :

الأَوّل: بمعنى منشور القرآن: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

الثانى: بمعنى سيّد الرُسُل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، وقال صلىَّ الله عليه وسلَّم: "إِنَّما أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاة" .

الثالث: بمعنى توفيق الطَّاعة والإِحسان: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ .

الرَّابع: بمعنى بنوّة المرسلين: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ .

الخامس: بمعنى الإِسلام والإِيمان: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ .

السّادس: بمعنى نعمة العِرفان: ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ أَى معرفة .

السّابع: بمعنى العصمة من العصيان: ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ .

الثامن: بمعنى أَرزاق الإِنسان والحيوان: ﴿ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ .

التاسع: بمعنى فَطَرَات ماءِ الغِيثان: ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ .

العاشر: بمعنى العافية من الابتلاءِ والامتحان: ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ .

الحادى عشر: بمعنى النجاة من عذاب النيران: ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ .

الثانى عشر: بمعنى النُصْرَة على أهل العدوان: ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ .

الثالث عشر: بمعنى اللأُلفة والموافقة بين أَهل الإِيمان: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ .

الرابع عشر: بمعنى الكتاب المنزل على موسى بن عمران: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً

وَرَحْمَةً ﴾ .

الخامس عشر: بمعنى الثناء على إبراهيم والولدان: ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .

(249/227)

السّادس عشر: بمعنى إجابة دعوة زكريا مبتهلا إلى الله المنّان: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ .

السّابع عشر: بمعنى العفو عن ذوى العصيان: ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .

الثامن عشر: بمعنى فتح أبواب الرَّوْحِ والرَّيحان: ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ .

التاسع عشر: بمعنى الجنَّةِ دار السّلام والأَمان: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

العشرون: بمعنى صفة الرّحيم الرحمن: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 55.58 ﴾

(250/227)

ومن فوائد الثعلبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المستهزئين ﴿ سِيرُواْ ﴾ سافروا في الأرض معتبرين ﴿ ثُمَّ انظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ﴾ أي آخر أمرهم وكيف أورثهم الكفر والكذب الهلاك والعذاب ، يخوّف كفار أهل مكة عذاب الأمم الماضية ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السماوات والأرض ﴾ فإن أجابوك وإلاّ ﴿ قُل للَّهِ ﴾ يقول يفتنكم بعدد الأيام لا [. . . . .] والأصنام ثم قال ﴿ كَتَبَ ﴾ ربكم أي قضى وأوجب فضلاً وكرماً ﴿ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ .

وذكر النفس ها هنا عبارة عن وجوده وتأكيد وحد وارتفاع الوسائط دونه وهذا استعطاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وإخبار بإنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم الإنابة والتوبة .

هشام بن منبه قال : حدثنا أبو عروة عن محمد رسول صلى الله عليه وسلم قال : " لما قضى اللّه الخلق كتب في كتاب وهو عنده فوق العرش " إن رحمتي سبقت غضبي " .

وقال عمر لكعب الأحبار : ما أول شيء ابتدأه اللّه من خلقه ؟ فقال كعب : كتب اللّه كتاباً لم يكتبه بقلم ولا مداد ولكنّه كتب بإصبعه يتلوها الزبرجد واللؤلؤ والياقوت : إني أنا

اللّه لا إله إلاّ أنا سبقت رحمتي غضبي .

وقال سلمان وعبد الله بن عمر : إن للّه تعالى مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض فاهبط منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا فيها يتراحم الإنس والجان وطير السماء وحيتان الماء وما بين الهواء والحيوان وذوات الأرض وعنده مائة وسبعين رحمة ، فإذا كان يوم القيامة أضاف تلك الرحمة إلى ما عنده .

ثم قال ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ اللام فهي لام القسم والنون نون التأكيد ، مجازه : واللّه ليجمعنكم ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ يعني في يوم القيامة إلى يعني في ، وقيل : معناه ليجمعنكم في [غيركم] إلى يوم القيامة ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ الذين خسروا ﴾ غلبوا على أنفسهم والتنوين في موضع نصب مردود على الكاف والنون من قوله ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ ويجوز أن يكون رفعاً بالإبتداء وخبره فهم لا يؤمنون ، فأخبر اللّه تعالى أن الجاحد للآخرة هالك خاسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(251/227)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

أي : خلقاً وملكاً ، وهو سؤال تبكيت وتقريع ﴿ قُلْ لِلَّهِ ﴾ تقرير للجواب ، نيابة عنهم . أي : هو الله ، لا خلاف بيني وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره . ففيه تنبيه على تعينه للجواب اتفاقاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ومن المقرر أن أمر السائل بالجواب إنما يحسن في موضع يكون فيه الجواب قد بلغ من الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر ، ولا على دفعه دافع ، كما هنا . قيل : وفيه إشارة إلى أنهم تثاقلوا في الجواب ، مع تعينه ، لكونهم محجوجين .

(252/227)

وقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر ، ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق ، شمول ملكه وقدرته للكل ، مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بعباده ، لا يعجل عليهم بالعقوبة ، ويقبل منهم التوبة والإنابة ، وأن ما سبق ذكره ، وما لحق من أحكام الغضب ، ليس من مقتضيات ذاته تعالى ، بل من جهة الخلق . كيف لا ؟ ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة ، وهداهم إلى معرفته وتوحيده ، بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى

موجبات رضوانه ، والتحذير عن مقتضيات سخطه . وقد بدلوا فطرة الله تبديلاً ، وأعرضوا عن الآيات بالمرة ، وكذبوا بالكتب ، واستهزؤوا بالرسل ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف : 76] . ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضاً مسلك الغابرين . ومعنى : [كتب الرحمة على نفسه] أنه تعالى أوجبها وقضاها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة ، بالذات ، لا بتوسط شيء أصلاً . وفي التعبير عن الذات بـ [النفس] حجة على من ادعى أن لفظ النفس لا يطلق على الله تعالى . وإن أُريد به الذات ، إلا مشاكلة لما ترى من انتفاء المشاكلة هاهنا –أفادة أبو السعود – .

وقوله تعالى : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ جواب قسم محذوف . والجملة استئناف مسوق للوعيد ، على إشراكهم وإغفالهم النظر ، لأنه لما بين كمال إلهيته ، بقوله : ﴿ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلَّهِ ﴾ . ثم أخبر بأنه يرحمهم في الدنيا بالإمهال ، ودفع عذاب الاستئصال ، أعلم أنه يجمعهم لذلك اليوم ، ويحاسبهم على كل ما فعلوا ، لأن الملك الحكيم لا يهمل أمر رعيته ، ولا يسوغ في حكمته أن يسوي بين المطيع والعاصي قيل : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ جواب لقوله : ﴿ كَتَبَ ﴾ ، لأنه يجري مجرى القسم .

(253/227)

وقيل : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ بدل من الرحمة ، بدل البعض . قال المهايمي : كمال الرحمة في الجزاء ، إذ بدونه تضيع مشاق المعارف الإلهية ، والأعمال الصالحة ، وتضيع المظالم ، ولا جزاء في دار الدنيا ، لأنه فرع التكليف ، ودار التكليف لا تكون دار الجزاء ، لأن مشاهدته مانعة من التكليف . انتهى .

وإلى بمعنى اللام ، كقوله : ﴿ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيه ﴾ [آل عِمْرَان : 9] ، أي : في اليوم ، أو في الجمع .

﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي : بتضييع رأس مالهم ، وهو الفطرة الأصلية , والعقل السليم ، والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستماع الوحي ، وغير ذلك من آثار الرحمة .

﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم .

قال أبو السعود : والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والإشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم ، فإن إبطال العقل باتباع الحواس ، والانهماك في التقليد ، وإغفال النظر ، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان . والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى ، لتقبيح حالهم ، غير داخل تحت الأمر .

تنبيه :

رُوي في معنى هذه الآية عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لما

خلق الله الخلق كتب في كتاب ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي > -رواه الشيخان -

وفي البخاريّ : إن كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي ، فهو مكتوب عنده ، فهو العرش .

وفي رواية لهما : أن الله لما خلق الخلق .

وعند مسلم : لما قضى الله الخلق ، كتب في كتاب كتبه على نفسه ، فهو موضوع عنده .

زاد البخاريّ : على العرش . ثم اتفقا : إن رحمتي تغلب غضبي .

(254/227)

وسنذكر ، إن شاء الله ، شذرة من أحاديث الرحمة عند آية : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ قريباً . قال أبو السعود : ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقاً بالخلق ، وأكثر وصولاً إليهم مع أنها من مقتضيات الذات المفيضة للخير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 326. 328 ﴾

(255/227)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

.

(256/227)

بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ الثَّلَاثَ الْأُولَى مِنْهَا قَدْ أَرْشَدَتْ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِمَا ، وَأَنَّ الثَّلَاثَ الَّتِي بَعْدَهَا أَرْشَدَتْ إِلَى سَبَبِ تَكْذِيبِ قُرَيْشٍ بِذَلِكَ وَهُوَ الْحَقُّ الْمُبَيَّنُ بِالدَّلِيلِ ، وَأَنْذَرَتْهُمْ عَاقِبَةَ هَذَا التَّكْذِيبِ ، وَهُوَ مَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَحُولُ دُونَهُ مَا هُمْ مَغْرُورُونَ بِهِ مِنْ قُوَّتِهِمْ وَضَعْفِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَمَكُّنِهِمْ فِي أَرْضِ مَكَّةَ وَهِيَ أُمُّ الْقُرَى وَأَهْلُهَا قُدْوَةُ الْعَرَبِ . وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ شُبُهَاتِ أُولَئِكَ الْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِينَ عَلَى الْوَحْيِ وَبِعْثَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَمَّ بِهَا بَيَانُ أَسْبَابِ جُحُودِهِمْ بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ كُلِّهَا كَمَا سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ . وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ

حَاتِمٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ مَا قَدْ يُعَدُّ سَبَبًا لِنُزُولِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ قَالَ : " دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَلَّمَهُمْ فَأَبْلَغَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَّلِبِ وَالنَّضِرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلَدَةَ وَعَبْدَةُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ

(257/227)

وَأُبَيُّ بْنُ خَلَفِ بْنِ وَهَبٍ وَالْعَاصُ بْنُ وَائِلِ بْنِ هِشَامٍ : لَوْ جُعِلَ مَعَكَ يَا مُحَمَّدُ مَلَكٌ يُحَدِّثُ عَنْكَ النَّاسَ وَيُرَى مَعَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ : (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) وَلَا تَصِحُّ هَذِهِ الرِّوَايَةُ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ ، وَقَدْ ذَكَرَهَا السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ وَلَمْ يَذْكُرْهَا فِي (بَابِ النُّقُولِ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ) وَاقْتِرَاحُ مُعَانِدِي الْمُشْرِكِينَ إِنْزَالَ الْمَلَكِ مَعَ الرَّسُولِ ذُكِرَ فِي الْفُرْقَانِ وَهُودٍ وَالْإِسْرَاءِ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ السُّوَرَ الثَّلَاثَ نَزَلَتْ قَبْلَ الْأَنْعَامِ ، وَالْأَنْعَامُ نَزَلَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهَا فَمَا فِيهَا مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِنَّمَا هُوَ رَدٌّ عَلَى شُبْهَةٍ سَبَقَتْ لَهُمْ وَحُكِيَتْ عَنْهُمْ ، وَكَذَلِكَ اقْتِرَاحُ إِنْزَالِ كِتَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً فَهُوَ فِي الْفُرْقَانِ .

(258/227)

كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَجَّبُ مِنْ كُفْرِ قَوْمِهِ بِهِ وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَعَ وُضُوحِ بُرْهَانِهِ وَظُهُورِ إِعْجَازِهِ ، وَكَانَ يَضِيقُ صَدْرُهُ لِذَلِكَ وَيَنَالُ مِنْهُ الْحُزْنُ وَالْأَسَفُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ : (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ) (11 : 12) وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَكَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُبَيِّنُ لَهُ أَسْبَابَ ذَلِكَ وَمَنَاشِئَهُ مِنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَاخْتِلَافِ اسْتِعْدَادِهِمْ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الْحُجَّةَ مَهْمَا تَكُنْ نَاهِضَةً ، وَالشُّبْهَةَ مَهْمَا تَكُنْ دَاحِضَةً ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَسْتَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِمَا قُدِّمَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَانْحَسَرَتْ عَنْهُ غُمَّةُ الشُّبْهَةِ ، إِلَّا فِي حَقِّ مَنْ كَانَ مُسْتَعِدًّا لَهُ ، وَزَالَتْ مَوَانِعُ الْكِبْرِ وَالْعِنَادِ أَوِ التَّقْلِيدِ عَنْهُ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) جَاءَ بَعْدَ تِلْكَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الْوَارِدَةِ بِأُسْلُوبِ الْحِكَايَةِ وَضَمَائِرِ الْغَيْبَةِ مُبَيِّنًا هَذَا الْمَعْنَى لِلرَّسُولِ بِأُسْلُوبِ الِالْتِفَاتِ إِلَى خِطَابِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ عِلَّةَ تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ إِنَّمَا هِيَ إِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْآيَاتِ ، وَمَا أَقْفَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَابِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، لَا خَفَاءُ الْآيَاتِ فِي نَفْسِهَا ، وَلَا قُوَّةُ الشُّبُهَاتِ الَّتِي تَحُولُ

حَوْلَهَا ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ آيَاتِ التَّوْحِيدِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ هِيَ أَظْهَرُ الْآيَاتِ وَأَكْثَرُهَا ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهَا مُبَالَغَةُ الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ فِي تَقْرِيرِهَا ، لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فِي قِرْطَاسٍ كَمَا اقْتَرَحُوا فَرَأَوْهُ نَازِلًا مِنْهَا بِأَعْيُنِهِمْ ، وَلَمَسُوهُ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَى الْأَرْضِ بِأَيْدِيهِمْ ، لَقَالَ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ كُفْرَ الْعِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ : مَا هَذَا الَّذِي رَأَيْنَا وَلَمَسْنَا إِلَّا سِحْرٌ بَيِّنٌ فِي نَفْسِهِ ، ثَابِتٌ فِي نَوْعِهِ ، وَإِنَّمَا خُيِّلَ إِلَيْنَا أَنَّا رَأَيْنَا كِتَابًا وَلَمَسْنَاهُ ، وَمَا ثَمَّ كِتَابٌ نُزِّلَ ، وَلَا قِرْطَاسٌ رُئِيَ وَلَا لُمِسَ ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَمْثَالُهُمْ فِي آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

(260/227)

الْكِتَابُ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ كَالْكِتَابَةِ ، وَيُسْتَعْمَلُ غَالِبًا بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ ، فَيُطْلَقُ عَلَى الصَّحِيفَةِ الْمَكْتُوبَةِ وَعَلَى مَجْمُوعَةِ الصُّحُفِ فِي مَقْصِدٍ وَاحِدٍ ، وَالْقِرْطَاسُ بِكَسْرِ الْقَافِ (وَتُفْتَحُ وَتُضَمُّ لُغَةٌ) الْوَرَقُ الَّذِي يُكْتَبُ فِيهِ ، وَقِيلَ : هُوَ مَخْصُوصٌ بِالْمَكْتُوبِ مِنْهُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (فِي قِرْطَاسٍ) صِفَةٌ لَهُ أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِهِ ، وَاللَّمْسُ كَالْمَسِّ . إِدْرَاكٌ بِظَاهِرِ الْبَشْرَةِ . كَمَا

قَالَ الرَّاغِبُ . وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الْمَسُّ بِالْيَدِ ، وَالصَّوَابُ أَنَّ الْأَصْلَ فِيهِ الْمَسُّ بِظَاهِرِ الْبَشْرَةِ وَلِذَلِكَ يُطْلَقُ بِمَعْنَى الْوِقَاعِ كَالْمُلَامَسَةِ ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ أَكْثَرُ اللَّمْسِ بِالْيَدِ وَقَلَّمَا يَقَعُ بِالْقَدَمِ ، أَوِ السَّاعِدِ مَثَلًا تَوَهَّمَ أَنَّهُ خَاصٌّ بِمَسِّ الْيَدِ ، وَتَقْيِيدُ اللَّمْسِ فِي الْآيَةِ بِالْأَيْدِي بِعَيْنِ الْمُرَادِ مِنْهُ بِدَفْعِ احْتِمَالِ التَّجَوُّزِ بِهِ ، إِذِ اللَّمْسُ يُسْتَعْمَلُ مَجَازًا بِمَعْنَى طَلَبِ الشَّيْءِ وَالْبَحْثِ عَنْهُ ، يُقَالُ : لَمَسَهُ وَالْتَمَسَهُ وَتَلَمَّسَهُ ، بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَمِنْهُ (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ) (72 : 8) وَيَسْتَلْزِمُ لَمْسُهُ بِالْأَيْدِي رُؤْيَتَهُ بِالْأَبْصَارِ ، قَالَ قَتَادَةُ : فَعَايَنُوهُ وَمَسُّوهُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : فَمَسُّوهُ وَنَظَرُوا إِلَيْهِ ، وَالرُّؤْيَةُ وَاللَّمْسُ أَقْوَى الْيَقِينِيَّاتِ الْحِسِّيَّةِ وَأَبْعَدُهَا عَنِ الْخِدَاعِ وَلَا سِيَّمَا إِذَا اجْتَمَعَا ، وَالثِّقَةُ بِاللَّمْسِ أَقْوَى لِأَنَّ الْبَصَرَ قَدْ يُخْدَعُ بِالتَّخَيُّلِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحِجْرِ : (وَلَوْ فَتَحْنَا

(261/227)

عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) (15 : 14 ، 15) وَلَكِنَّ مُكَابَرَةَ الْحِسِّ بَعْدَ اجْتِمَاعِ أَقْوَى إِدْرَاكَيْهِ وَهُمَا الرُّؤْيَةُ وَاللَّمْسُ وَتَقْوِيَةُ أَحَدِهِمَا الْآخَرَ قَلَّمَا يَقَعُ إِلَّا مِنْ جَاحِدٍ مُعَانِدٍ مُسْتَكْبِرٍ ، أَوْ مِنْ مُقَلِّدٍ أَعْمَى لَا تَتَوَجَّهُ نَفْسُهُ إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ يُخَالِفُ مَا تَقَلَّدَهُ مِنْ آبَائِهِ وَقَوْمِهِ . وَقَالَ ابْنُ الْمُنَيِّرِ :

الظَّاهِرُ أَنَّ فَائِدَةَ زِيَادَةِ لَمْسِهِ بِأَيْدِيهِمْ تَحْقِيقُ الْقِرَاءَةِ عَلَى قُرْبٍ ، أَيْ فَقَرَءُوهُ وَهُوَ بِأَيْدِيهِمْ لَا بَعِيدٌ عَنْهُمْ لِمَا آمَنُوا ، انْتَهَى وَالْأَوَّلُ هُوَ الظَّاهِرُ الْمُخْتَارُ .

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ السِّحْرَ خِدَاعٌ بَاطِلٌ ، وَتَخْيِيلٌ يَرَى مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي صُورَةِ الْحَقَائِقِ ، وَيَقُولُ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ : إنَّ السِّحْرَ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُ

(262/227)

وَبَيْنَ الْمُعْجِزَاتِ إنَّمَا هُوَ فِي اخْتِلَافِ حَالِ مَنْ تَصْدُرُ الْخَوَارِقُ عَلَى أَيْدِيهِمْ ، لَا فِي كَوْنِ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ حَقًّا وَكَوْنِ السِّحْرِ بَاطِلًا ، وَالْآيَةُ تُبْطِلُ هَذَا الْقَوْلَ وَلَا تَقُومُ الْحُجَّةُ بِهَا عَلَيْهِ ، إذْ يَكُونُ مَعْنَى دَفْعِ الْمُشْرِكِينَ حِينَئِذٍ : مَا هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي اقْتَرَحْنَا إلَّا خَارِقَةً مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ لَا رَيْبَ فِيهَا . وَلَكِنَّهَا صَدَرَتْ عَلَى يَدِ سَاحِرٍ ، فَهِيَ إذًا مِنَ السِّحْرِ ، لَا عَلَى يَدِ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ حَتَّى تُسَمَّى آيَةً أَوْ مُعْجِزَةً ، فَيَكُونُ حَاصِلُهُ الطَّعْنَ فِي شَخْصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْكَارَ ادِّعَائِهِ النُّبُوَّةَ ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُخَالِفٌ لِلْوَاقِعِ عَلَى كَوْنِ عِبَارَةِ الْآيَةِ تَتَبَرَّأُ مِنَ احْتِمَالِ دُنُوِّهِ مِنْهَا أَوْ دُخُولِهِ عَلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْأَبْوَابِ الثَّلَاثَةِ (الْحَقِيقَةِ ، وَالْمَجَازِ ، وَالْكِنَايَةِ) وَلَعَلَّهُ لَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ أَحَدٍ يَفْهَمُ الْعَرَبِيَّةَ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ

شِيعَةِ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ الَّذِي فَسَّرَ السِّحْرَ بِمَا ذَكَرَ خِلَافًا لِظَوَاهِرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَقَدْ نَصَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّ السِّحْرَ

(263/227)

تَخْيِيلٌ لِمَا لَيْسَ وَاقِعًا ، وَأَنَّهُ كَيْدٌ وَمَكْرٌ ، وَأَنَّهُ يُتَعَلَّمُ تَعَلُّمًا ، وَالْخَوَارِقُ لَا تَكُونُ بِالتَّعَلُّمِ ، وَقَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ كَلِيمِهِ مُوسَى : (مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ (10 : 81) وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ) (8 : 8) فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ السِّحْرُ بَاطِلًا لَا حَقًّا . (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ) اقْتَرَحَ كُفَّارُ مَكَّةَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَى الرَّسُولِ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا مُؤَيِّدًا لَهُ أَمَامَهُمْ ، إِذْ يَرَوْنَهُ وَيَسْمَعُونَ كَلَامَهُ ، كَمَا فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ (25 : 7) وَمَا هُنَا وَهُوَ حِكَايَةٌ لِمَا هُنَالِكَ ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ : " مَلَكٌ فَيَكُونَ نَذِيرًا " اكْتِفَاءً بِمَا سَبَقَ ، بَلِ اقْتَرَحُوا أَيْضًا أَنْ يَنْزِلَ الْمَلَكُ عَلَيْهِمْ بِالرِّسَالَةِ مِنْ رَبِّهِمْ ، بَلْ طَلَبُوا أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ ، طَلَبُوا أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ وَيُخَاطِبَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا يُرِيدُ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ . كَمَا فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ أَيْضًا (25 : 21) وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي هَؤُلَاءِ : (لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) (25 : 21) نَعَمْ إِنَّ هَذَا مُنْتَهَى الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُتُوِّ ، لِأَنَّهُ تَسَامٍ وَاسْتِشْرَافٌ مِنْ أَضَلِّ الْبَشَرِ وَأَسْفَلِهِمْ رُوحًا . إِلَى مَا لَمْ

يَصِلُ إِلَيْهِ أَعْلَاهُمْ مَقَامًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَأَمَّا اقْتِرَاحُهُمْ نُزُولَ الْمَلَكِ عَلَى الرَّسُولِ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى ضِدِّ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ

(264/227)

طَلَبُهُمْ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ أَوْ رُؤْيَةِ رَبِّهِمْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّ أَرْقَى الْبَشَرِ عَقْلًا وَأَخْلَاقًا وَآدَابًا وَهُمُ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَنْ يَكُونُوا رُسُلًا بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ؛ لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ هَذِهِ شُبْهَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْهُمْ وَالْمُتَأَخِّرِينَ : قَالَ تَعَالَى فِي هُودٍ وَقَوْمِهِ : (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) (23 : 33 ، 34) وَحَكَى تَعَالَى مِثْلَ هَذَا عَنْ غَيْرِهِمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ) وَفِي غَيْرِهَا .

(265/227)

وَمِثْلُ هَذَا التَّنَاقُضِ وَالتَّضَادِّ فِي حُكْمِ الْبَشَرِ لِأَنْفُسِهِمْ وَعَلَيْهَا مَعْهُودٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ مَكَانٍ ، فَهُمْ يَرْفَعُونَ أَنْفُسَهُمْ تَارَةً إلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ قَدْرِهَا بِمَا لَا يُحْصَى مِنَ الدَّرَجَاتِ وَالْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ السَّحِيقَةِ ، وَيَهْبِطُونَ بِهَا تَارَةً إلَى مَا هُوَ دُونَ اسْتِعْدَادِهَا بِمَا لَا يُعَدُّ مِنَ الدَّرَكَاتِ الْعَمِيقَةِ ، يَتَسَامَوْنَ تَارَةً لِلْبَحْثِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ مِنَ الْأَزَلِ الَّذِي لَا يَعْرِفُونَ أَوَّلَهُ ، إلَى الْأَبَدِ الَّذِي لَا يُدْرِكُونَ نِهَايَتَهُ ، وَلِلْكَلَامِ فِي كُنْهِ الْخَالِقِ ، وَفِي كَيْفِيَّةِ صُدُورِ الْوُجُودِ الْمُمْكِنِ عَنِ الْوُجُوبِ الْوَاجِبِ . وَيَعْتَرِفُونَ تَارَةً بِالْعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَةِ كُنْهِ أَنْفُسِهِمْ وَالْقُصُورِ عَنِ الْإِحَالَةِ بِأَنْوَاعِ الْجِنَّةِ الَّتِي تَعِيشُ فِي بِنْيَتِهِمْ وَتُؤَثِّرُ فِي جَمِيعِ مَوَادِّ مَعِيشَتِهِمْ مِنْ أَطْعِمَتِهِمْ وَأَشْرِبَتِهِمْ ، يَقُولُونَ تَارَةً إنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ سَيِّدُ الْأَكْوَانِ ، وَمِصْدَاقُ قَوْلِ الْغَزَالِيِّ : لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَبْدَعُ مِمَّا كَانَ ، وَيَقُولُونَ تَارَةً إنَّهُ مَظْهَرُ الظُّلْمِ وَالْخَلَلِ وَالْفَسَادِ وَإِنَّمَا يُعَظِّمُ أَحَدُهُمْ نَفْسَهُ أَوْ جِنْسَهُ فِي

(266/227)

مِرْآةِ نَفْسِهِ ، وَيُحَقِّرُ غَيْرَهُ أَوْ نَفْسَهُ مُتَمَثِّلَةً فِي مِرْآةِ جِنْسِهِ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ إنْكَارُ الْكُفَّارِ لِبِعْثَةِ الرُّسُلِ ، وَكَانُوا تَارَةً يَكْتَفُونَ بِجَعْلِ الْبَشَرِيَّةِ عِلَّةً لِلْإِنْكَارِ كَمَا تَرَى فِي سُورَةِ هُودٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَالْإِسْرَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَيس وَالْقَمَرِ وَالتَّغَابُنِ وَتَارَةً يُصَرِّحُونَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ

الْكِبْرِ وَاسْتِثْقَالِهِمْ تَفْضِيلَ الرُّسُلِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُمْ ، وَعَلَى هَذَا بَنَوُا اقْتِرَاحَ نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ مُبَاشَرَةً أَوْ عَلَى الرُّسُلِ مُؤَيِّدَةً لَهُمْ كَقَوْلِ قَوْمِ نُوحٍ : (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) (23 : 24) .

جَمَعَ مُشْرِكُو مَكَّةَ بَيْنَ الِاقْتِرَاحَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا اقْتِرَاحِ نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ ، وَاقْتِرَاحِ نُزُولِ مَلَكٍ عَلَى النَّبِيِّ يَرَوْنَهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَلَوْلَا قَيْدُ الرُّؤْيَةِ لَمْ يَكُنْ لِلِاقْتِرَاحِ فَائِدَةٌ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْمَلَكُ ، وَكَأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ مُسَاوَاتَهُمْ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْبَشَرِيَّةِ تَقْتَضِي مُسَاوَاتَهُ فِي الِاسْتِعْدَادِ لِرُؤْيَةِ الْمَلَائِكَةِ وَتَلَقِّي الْعِلْمِ عَنْهُمْ . وَهَذِهِ أَقْوَى شُبْهَةٍ لِلْكُفَّارِ عَلَى الْوَحْيِ ؛ فَإِنَّهُمْ لِغُرُورِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ يُنْكِرُونَ كُلَّ مَا لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْفُسِهِمْ .

وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الِاقْتِرَاحَيْنِ مِنْ وَجْهَيْنِ :

(267/227)

(أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَ مَلَكًا كَمَا اقْتَرَحُوا لَقُضِيَ الْأَمْرُ بِإِهْلَاكِهِمْ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ، أَيْ لَا يُؤَخَّرُونَ وَلَا يُمْهَلُونَ لِيُؤْمِنُوا ، بَلْ يَأْخُذُهُمُ الْعَذَابُ عَاجِلًا كَمَا مَضَتْ بِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : وَلَوْ أَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَتِهِ لَأَهْلَكْنَاهُمْ ثُمَّ لَا يُؤَخَّرُونَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ

يَقُولُ لَوْ أَنْزَلَ اللهُ مَلَكًا ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ، وَلَكِنْ قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : (لَقُضِيَ الْأَمْرُ) أَيْ لَقَامَتِ السَّاعَةُ وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ قَضَاءِ الْأَمْرِ هُنَا عِدَّةَ وُجُوهٍ :

(1) أَنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي أَقْوَامِ الرُّسُلِ الَّذِينَ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا اقْتَرَحُوا آيَةً وَأُعْطُوهَا وَلَمْ يُؤْمِنُوا يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِالْهَلَاكِ ، وَالِاسْتِئْصَالِ الَّذِي تَتَوَلَّى تَنْفِيذَهُ الْمَلَائِكَةُ ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يُرِيدُ أَنْ يَسْتَأْصِلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ الَّتِي بَعَثَ فِيهَا خَاتَمَ رُسُلِهِ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ ، فَالرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ تُنَافِي هَذَا الْعَذَابَ الْعَامَّ (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (21 : 107) .

(2) أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ لَوْ شَاهَدُوا الْمَلَكَ بِصُورَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ كَمَا يَطْلُبُونَ لَزَهَقَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ هَوْلِ مَا يُشَاهِدُونَ .

(268/227)

---

(3) أَنَّ رُؤْيَةَ الْمَلَكِ بِصُورَتِهِ آيَةٌ مُلْجِئَةٌ يَزُولُ بِهَا الِاخْتِيَارُ الَّذِي هُوَ قَاعِدَةُ التَّكْلِيفِ ، وَهَذَا عَلَى قَاعِدَةِ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَعِبَارَةُ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ تَعْلِيلَاتِ قَضَاءِ الْأَمْرِ ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ يَزُولُ الِاخْتِيَارُ الَّذِي هُوَ قَاعِدَةُ التَّكْلِيفِ عِنْدَ نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ فَيَجِبُ إِهْلَاكُهُمْ انْتَهَى وَهَذَا التَّفْرِيعُ غَيْرُ مُسَلَّمٍ .

(4) أَنَّهُمْ لَمَّا اقْتَرَحُوا مَا لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ إِذْ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْمُعْجِزِ مُطْلَقًا وَقَدْ حَصَلَ ،

لَا الْمُعْجِزِ الْخَاصِّ الَّذِي طَلَبُوهُ فَإِذَا أُعْطُوهُ كَانُوا عَلَى غَايَةِ الرُّسُوخِ فِي الْعِنَادِ الْمُنَاسِبِ لِلْإِهْلَاكِ وَعَدَمِ النَّظْرَةِ .

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ أَقْوَاهَا وَهُوَ الْمُخْتَارُ ، وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي

(269/227)

سُورَةِ الْحِجْرِ : (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إذًا مُنْظَرِينَ) (15 : 8) أَيْ مَا كَانَ شَأْنُنَا الَّذِي مَضَتْ بِهِ سُنَّتُنَا أَنْ نُنَزِّلَ الْمَلَائِكَةَ إلَّا بِالْأَمْرِ الْحَقِّ ، وَهُوَ الرِّسَالَةُ لِلرُّسُلِ أَوِ الْعَذَابِ لِلْأُمَمِ الَّذِينَ يُعَانِدُونَ الرُّسُلَ فَيَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ الْمَخْصُوصَةِ وَيُعَلِّقُونَ إيمَانَهُمْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ يُصِرُّونَ عَلَى جُحُودِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بَعْدَ أَنْ يُعْطَوْهَا ، فَلَوْ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا إذْ تَنْزِلُ إلَّا هَالِكِينَ لَا يُنْظَرُونَ ، أَيْ لَا يُمْهَلُونَ لِأَجَلِ أَنْ يُؤْمِنُوا . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُهْلِكَ هَذِهِ الْأُمَّةَ ، وَلَا مَنْ أَعْهَدُهُمْ لِلْهِدَايَةِ مِنْ قَوْمِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، بِإِجَابَةِ اقْتِرَاحَاتِ أُولَئِكَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمُعَانِدِينَ مِنْهُمْ ، وَهُمْ إنَّمَا يَقْتَرِحُونَ الْآيَاتِ لِأَجْلِ التَّعْجِيزِ دُونَ اسْتِبَانَةِ الْإِعْجَازِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ إنْ أُعْطَوْهَا مَا كَانُوا بِهَا مُؤْمِنِينَ ، وَبِذَلِكَ مَضَتِ السُّنَّةُ فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

وَمِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ مَا بَيَّنَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ مِنْ حِكْمَةِ الْعَطْفِ بِ (ثُمَّ) وَهِيَ إفَادَةُ مَا بَيْنَ قَضَاءِ

الْأَمْرِ وَعَدَمِ الْإِنْظَارِ مِنَ الْبُعْدِ : جَعْلُ عَدَمِ الْإِنْظَارِ أَشَدَّ مِنْ قَضَاءِ الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّ مُفَاجَأَةَ الشِّدَّةِ أَشَدُّ مِنْ نَفْسِ الشِّدَّةِ .

(270/227)

(الْوَجْهُ الثَّانِي) فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) أَيْ لَوْ جَعَلَ الرَّسُولَ مَلَكًا لَجَعَلَ الْمَلَكَ مُتَمَثِّلًا فِي صُورَةِ بَشَرٍ ، لِتَمْكِينِهِمْ مِنْ رُؤْيَتِهِ وَسَمَاعِ كَلَامِهِ الَّذِي يُبَلِّغُهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَوْ جَعَلَهُ مَلَكًا فِي صُورَةِ بَشَرٍ لَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ بَشَرٌ لِأَنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَ مِنْهُ إلَّا صُورَتَهُ وَصِفَاتِهِ الْبَشَرِيَّةَ الَّتِي تَمَثَّلَ بِهَا ، وَحِينَئِذٍ يَقَعُونَ فِي نَفْسِ اللَّبْسِ وَالِاشْتِبَاهِ الَّذِي يُلْبِسُونَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِاسْتِنْكَارِ جَعْلِ الرَّسُولِ بَشَرًا ، وَلَا يَنْفَكُّونَ يَقْتَرِحُونَ جَعْلَهُ مَلَكًا ، وَقَدْ كَانُوا فِي غِنًى عَنْ هَذَا ، وَإِنَّمَا شَأْنُهُمْ فِيهِ شَأْنُ أَكْثَرِ النَّاسِ حَتَّى الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ فِيمَا يُوقِعُونَ فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ ، وَمَا يَخْتَرِعُونَهُ مِنَ الشُّبَهَاتِ بِسُوءِ فَهْمِهِمْ ، ثُمَّ يَحَارُونَ فِي أَمْرِ الْمَخْرَجِ مِنْهَا . مَادَّةُ ل ب س تَدُلُّ عَلَى السَّتْرِ وَالتَّغْطِيَةِ : يُقَالُ : لَبِسَ الثَّوْبَ يَلْبَسُهُ (بِكَسْرِ الْبَاءِ فِي الْمَاضِي وَفَتْحِهَا فِي الْمُضَارِعِ) وَهُوَ مِنَ السَّتْرِ الْحِسِّيِّ . وَيُقَالُ : لَبَسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ يَلْبِسُهُ (بِفَتْحِ بَاءِ الْأَوَّلِ

وَكَسْرِ بَاءِ الثَّانِي) بِمَعْنَى سَتَرَهُ بِهِ ، أَيْ جَعَلَهُ مَكَانَهُ لِيَظُنَّ أَنَّهُ الْحَقُّ ، وَلَبَسْتُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ أَيْ جَعَلْتُهُ بِحَيْثُ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ فَلَا يَعْرِفُهُ وَهَذَا كُلُّهُ مِنَ السَّتْرِ الْمَعْنَوِيِّ .

(271/227)

وَقَدْ عَلَّلَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ جَعْلَ الْمَلَكِ بِصُورَةِ الْبَشَرِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِأَنَّ الْبَشَرَ لَا يُطِيقُونَ رُؤْيَةَ الْمَلَائِكَةِ فِي صُورَتِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ ، وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ قَوْلُ مَنْ عَلَّلَ بِذَلِكَ قَضَاءَ

الْأَمْرِ بِهَلَاكِهِمْ بِمُجَرَّدِ نُزُولِ الْمَلَكِ ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِتَمَثُّلِ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ بِصُورَةِ النَّاسِ ، وَتَمَثُّلِ جِبْرِيلَ لِمَرْيَمَ بَشَرًا سَوِيًّا ، وَظُهُورِهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ غَالِبًا ، وَبِصُورَةِ غَيْرِهِ أَحْيَانًا كَمَا فِي حَدِيثِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِ ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ رَآهُ فِي صُورَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ مَرَّتَيْنِ فَقَطْ .

وَقَدْ نَازَعَ آخَرُونَ فِي عَدِّ هَذَا خُصُوصِيَّةً لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ لَا يَثْبُتُ ذَلِكَ إِلَّا بِنَصٍّ ، وَلَا نَصَّ فِي الْمَسْأَلَةِ وَإِنَّمَا وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَحَدِيثِ عَائِشَةَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ " أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ " وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ مِنَ

الصَّحَابَةِ مَنْ رَأَى الْمَلَائِكَةَ فِي غَيْرِ صُورَةِ الْبَشَرِ كَرُؤْيَةِ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ لَهُمْ فِي مِثْلِ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ ، كَمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْهُ . وَلَكِنَّ هَذَا تَمْثِيلٌ أَيْضًا .

(272/227)

وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّ الْبَشَرَ فِي حَالَتِهِمُ الْعَادِيَّةِ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِرُؤْيَةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ فِي حَالَتِهِمُ الَّتِي خُلِقُوا عَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الشَّيْطَانِ : (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) (7 : 27) لَا لِأَنَّهُمْ لَا يُطِيقُونَهَا لِهَوْلِهَا ، بَلْ لِأَنَّ أَبْصَارَ الْبَشَرِ لَا تُدْرِكُ كُلَّ الْمَوْجُودَاتِ ، بَلْ تُدْرِكُ فِي عَالَمِهَا هَذَا بَعْضَ الْأَجْسَامِ كَالْمَاءِ وَمَا هُوَ أَكْثَفُ مِنْهُ مِنَ الْأَجْرَامِ الْمُلَوَّنَةِ دُونَ مَا هُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ كَالْهَوَاءِ ، وَمَا هُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ كَالْعَنَاصِرِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ ، وَالْمَلَائِكَةُ وَالْجِنُّ مِنْ عَالَمٍ آخَرَ غَيْبِيٍّ أَلْطَفُ مِمَّا ذُكِرَ ، وَهَذَا الْعَالَمُ مِمَّا يَعُدُّهُ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي الْفَلْسَفَةِ وَرَاءَ عَالَمِ الْمَادَّةِ ، وَلَيْسَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ عَالَمٌ غَيْرُ مَادِّيٍّ ، وَلِذَلِكَ يَعُدُّونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ مِنَ الْأَجْسَامِ اللَّطِيفَةِ ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى التَّشَكُّلِ فِي صُوَرِ الْأَجْسَامِ الْكَثِيفَةِ ، فَمَثَلُ تَشَكُّلِهِمْ كَمَثَلِ تَشَكُّلِ الْمَاءِ فِي صُورَةِ الْبُخَارِ اللَّطِيفِ وَالْبُخَارِ الْكَثِيفِ وَصُورَةِ الْمَائِعِ السَّيَّالِ وَصُورَةِ الثَّلْجِ وَالْجَلِيدِ ، وَلَكِنَّ الْمَاءَ يَتَشَكَّلُ بِمَا يَطْرَأُ عَلَيْهِ

مِنْ حَرٍّ وَبَرْدٍ بِغَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْهُ ، وَذَانِكَ يَتَشَكَّلَانِ بِاخْتِيَارِهِمَا ، إِذْ جَعَلَ اللهُ لَهُمَا سُلْطَانًا عَلَى الْعَنَاصِرِ الَّتِي تَتَرَكَّبُ مِنْهَا مَادَّةُ الْعَالَمِ أَقْوَى مِنْ سُلْطَانِ الْبَشَرِ الَّذِينَ يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا

(273/227)

بِأَيْدِيهِمْ لَا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَاهِيَّاتِهِمْ ، فَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى تَحْلِيلِ أَبْدَانِهِمْ وَتَرْكِيبِهَا مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْمَوَادِّ ، فَإِذَا تَمَثَّلَ الْمَلَكُ أَوِ الْجَانُّ فِي صُورَةٍ كَثِيفَةٍ كَصُورَةِ الْبَشَرِ أَوْ غَيْرِهِمْ أَمْكَنَ لِلْبَشَرِ أَنْ يَرَوْهُ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَرَوْنَهُ عَلَى صُورَتِهِ وَخِلْقَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ بِحَسَبِ الْعَادَةِ وَسُنَّةِ اللهِ فِي خَلْقِ عَالَمِهِ وَعَالَمِهَا ، فَإِذَا وَقَعَ ذَلِكَ

كَرُؤْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجِبْرِيلَ مَرَّتَيْنِ كَانَ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَالْخَوَارِقُ لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِنَصٍّ ؛ لِأَنَّهَا خِلَافُ الْأَصْلِ ، عَلَى أَنَّ رُؤْيَتَهُ بِصُورَتِهِ لَا يُنَافِي التَّشَكُّلَ ، إِذْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَادَّةُ صُورَتِهِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي لَا تُرَى قَدْ ظَهَرَتْ بِمَادَّةٍ كَثِيفَةٍ فَيَكُونُ التَّشَكُّلُ فِي هَذَا الْحَالَةِ بِمَادَّةٍ جَدِيدَةٍ مَعَ حِفْظِ الصُّورَةِ الْأَصْلِيَّةِ ، وَالتَّشَكُّلِ فِي غَيْرِهَا بِالْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ مَعًا ، عَلَى أَنَّ لِأَرْوَاحِ الْأَنْبِيَاءِ

مِنَ التَّنَاسُبِ مَعَ أَرْوَاحِ الْمَلَائِكَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهَا ، فَفِي الْحَالِ الَّتِي تَغْلِبُ بِهَا رُوحَانِيَّتُهُمْ عَلَى جُثْمَانِيَّتِهِمْ يَكُونُونَ كَالْمَلَائِكَةِ فَيَجُوزُ أَنْ يَرَوْهُمْ بِأَيِّ صُورَةٍ وَشَكْلٍ تَجَلَّوْا فِيهِ .

هَذَا وَأَنَّ مَا لَا يُرَى قَدْ يُدْرَكُ بِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ الْإِدْرَاكِ غَيْرَ الرُّؤْيَةِ ، فَإِذَا كَانَ الْمَلَكُ مَخْلُوقًا عَالِمًا ، وَكَانَ فِي لَطَافَتِهِ مِنْ قَبِيلِ الْأَرْوَاحِ الْمَوْجُودَةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ نَوْعٌ مِنَ الِاتِّصَالِ يَقْتَبِسُ بِهِ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ كَمَا يَقْتَبِسُ الْبَشَرُ بَعْضَ الْعِلْمِ الْبَشَرِيِّ مِنَ الْجَوِّ ، إذْ يَبُثُّ الْأَخْبَارَ فِيهِ بَعْضُهُمْ بِالْآلَاتِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ (الْمَعْرُوفَةِ بِالتِّلِغْرَافِ اللَّاسِلْكِيِّ أَوِ الْأَثِيرِيِّ وَالْهَوَائِيِّ) وَيَقْتَبِسُهَا آخَرُونَ ؟ بَلْ ثَبَتَ أَنَّ الْأَنْفُسَ الْبَشَرِيَّةَ يَقْتَبِسُ بَعْضُهَا الْعِلْمَ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ بَشَرًا كَانَتْ أَوْ غَيْرَ بَشَرٍ بِغَيْرِ وَسَاطَةِ الْحَوَاسِّ وَالِاسْتِنْبَاطِ الْعَقْلِيِّ كَمَا رَوَى بَعْضُ الْأَطِبَّاءِ الْمَادِّيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ مِثْلَ هَذَا عَنْ مَرِيضٍ كَانَ يُعَالِجُهُ فِي الْقَاهِرَةِ أَنَّهُ قَالَ : إنَّ فُلَانًا وَذَكَرَ قَرِيبًا لَهُ فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ يُرِيدُ أَنْ يُسَافِرَ الْآنَ إلَى مِصْرَ لِأَجْلِ عِيَادَتِي ، ثُمَّ إنَّهُ عَيَّنَ الْقِطَارَ الْحَدِيدِيَّ الَّذِي رَكِبَ فِيهِ ثُمَّ الْوَقْتَ الَّذِي وَصَلَ فِيهِ إلَى مَحَطَّةِ مِصْرَ ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ إلَّا مَسَافَةَ سَيْرِ الْمَرْكَبَةِ بَيْنَ الْمَحَطَّةِ وَدَارِ الْمَرِيضِ إلَّا وَقَدْ وَصَلَ هَذَا الْقَرِيبُ ، وَكَانَ يَنْتَظِرُهُ لِاسْتِبَانَةِ الْمُكَاشَفَةِ ذَلِكَ الطَّبِيبُ ، وَرَوَى عَنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ ، وَمِثْلُ هَذِهِ يَقَعُ كَثِيرًا فِي كُلِّ عَصْرٍ ، فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقْتَبِسُوهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْبَشَرِ وَمِنْ غَيْرِ الْبَشَرِ مِنَ الْأَشْيَاءِ

(275/227)

؟

نَقُولُ : إِنَّ هَذَا جَائِزٌ عَقْلًا مَرْوِيٌّ نَقْلًا ، وَلَكِنَّهُ كَغَيْرِهِ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْفَاعِلِ وَالْقَابِلِ ، فَإِذَا تَدَبَّرْنَا مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ خَبَرِ الْوَحْيِ وَالْإِلْهَامِ يَظْهَرُ لَنَا مِنْهُ

أَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ ، كَسُلْطَانِهِ عَلَى مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ أَنْ يُدْرِكَ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةَ وَيَقْتَبِسَ مِنْهُمُ الْعِلْمَ شَاءُوا أَمْ أَبَوْا ، وَلَكِنْ بَعْضُ الْأَرْوَاحِ الْبَشَرِيَّةِ قَدْ تَصِلُ بِطَهَارَتِهَا وَعُلُوِّ مَكَانَتِهَا إِلَى قَابِلِيَّةِ التَّلَقِّي مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْقُرْبِ وَالْمُنَاسَبَةِ ، وَهَذِهِ الْمُقَابَلَةُ نَوْعَانِ :

(276/227)

(أَحَدُهُمَا) مَا يَخْتَصُّ بِهِ اللهُ تَعَالَى أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ بِدُونِ سَعْيٍ مِنْهُمْ وَلَا كَسْبٍ ، فَيُؤَهِّلُهُمْ لِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ ، وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ، فَلَا الْقَابِلُ الَّذِي يَتَلَقَّى عَنِ الْمَلَكِ يَكُونُ لَهُ كَسْبٌ أَوِ اخْتِيَارٌ فِيمَا يُوحَى إِلَيْهِ ، وَلَا الْفَاعِلُ هُوَ الْمَلَكُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ يَكُونُ لَهُ

اخْتِيَارٌ فِيمَا يُوحِيهِ ، بَلْ يَفْعَلُ مَا يَأْمُرُهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْصِيَهُ ، وَلِكَمَالِ اسْتِعْدَادِ الْأَنْبِيَاءِ وَعُلُوِّ أَرْوَاحِهِمْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ فِي صُوَرِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ قَلِيلًا ، وَيَتَمَثَّلُ الْمَلَكُ لَهُمْ بِصُورَةِ الْبَشَرِ أَوْ يُلَابِسُهُمْ مُلَابَسَةً رُوحِيَّةً فَيُلْقِي فِي أَرْوَاحِهِمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُلْقِيَهُ وَهُوَ الْأَكْثَرُ ، وَهَذَا النَّوْعُ قَدْ خُتِمَ وَتَمَّ بِبَعْثِهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ ، وَمَا هُوَ مِنْ شُئُونِ الْبَشَرِ الْكَسْبِيَّةِ ، فَيَبْقَى بِبَقَائِهِمْ .

(277/227)

(النَّوْعُ الثَّانِي) مَا يَمْنَحُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ التَّثْبِيتِ فِي الْحَقِّ وَالْإِلْهَامِ لِمَنْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ خِيَارِ خَلْقِهِ الَّذِينَ سَلِمَتْ فِطْرَتُهُمْ ، وَصَفَتْ سَرِيرَتُهُمْ ، وَزَكَتْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَنْفُسُهُمْ ، حَتَّى غَلَبَتْ فِيهَا الصِّفَاتُ الْمَلَكِيَّةُ عَلَى النَّزَعَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَالنَّزَعَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، فَالْأَرْوَاحُ الْبَشَرِيَّةُ الْعَالِيَةُ قَدْ تُقَوِّي الْمُنَاسَبَةَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ فَتَسْتَفِيدَ مِنْ أَرْوَاحِ الْمَلَائِكَةِ قُوَّةً فِي الْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَثَبَاتًا عَلَى الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) (8 : 12) وَقَدْ تَسْتَفِيدُ مِنْهَا عِلْمًا بِالْحَقِّ وَبِشَارَةً بِالْخَيْرِ ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى التَّحْدِيثُ وَالْإِلْهَامُ ، وَمِنْهُ بِشَارَةُ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَمَثُّلُ جِبْرِيلَ لَهَا عِنْدَمَا أَرَادَ اللهُ أَنْ تَحْمِلَ بِنَفْخِهِ فِيهَا ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ

الْخَطَّابِ كَانَ مِنَ الْمُحَدَّثِينَ ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ مَلَكِ الْإِلْهَامِ بِأَنَّهُ " وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ " وَفِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ عِنْدَ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ ، وَيُوَضِّحُهُ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ " أَنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً ، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ،

(278/227)

وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى

فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ " رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ ، وَعَلَّمَ عَلَيْهِ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ بِالصِّحَّةِ .

وَقَدْ أَطَالَ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ فِي إِيضَاحِ هَذَا الْمَطْلَبِ فِي كِتَابِ شَرْحِ عَجَائِبِ الْقَلْبِ مِنَ الْإِحْيَاءِ وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ بَحْثٌ فِيهِ ، وَالْمَادِّيُّونَ الْمَحْجُوبُونَ يُنْكِرُونَ مِثْلَ هَذَا " وَمَنْ جَهِلَ شَيْئًا عَادَاهُ " وَلَوْ قِيلَ لِمَنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ قَبْلَ كَشْفِهِمْ عَنْ نَسَمَةِ هَذِهِ الْجِنَّةِ (الْمِيكْرُوبَاتِ) إِنَّ فِي الْعَالَمِ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرَاهَا أَحَدٌ بِعَيْنِهِ هِيَ سَبَبُ الْأَدْوَاءِ وَالْأَمْرَاضِ الَّتِي لَا تُحْصَى ، وَهِيَ سَبَبِ

التَّغَيُّرَاتِ وَالِاخْتِمَارَاتِ الَّتِي نَرَاهَا فِي الْمَائِعَاتِ وَالْفَوَاكِهِ وَغَيْرِهَا لَقَالُوا : إنَّمَا هَذِهِ خُرَافَةٌ مِنَ الْخُرَافَاتِ ، وَقَدْ كَانَ غَيْرُ الْمُسْلِمُونَ يَعُدُّونَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ حَدِيثَ أَبِي مُوسَى " الطَّاعُونُ وَخَزُ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَهُوَ لَكُمْ شَهَادَةٌ " رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، ثُمَّ صَارُوا بَعْدَ اكْتِشَافِ بَاشْلس الطَّاعُونَ يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ بِصِدْقِ كَلِمَةِ " الْجِنِّ " عَلَى مَيكْرُوبِ الطَّاعُونِ كَغَيْرِهِ ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْجِنَّ أَنْوَاعٌ مِنْهَا مَا هُوَ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَخَشَاشِ الْأَرْضِ .

وَقَدْ بَيَّنَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ النَّوْعَ الْأَوَّلَ فِي رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ أَكْمَلَ بَيَانٍ ، بِأَوْضَحِ بُرْهَانٍ ، وَاخْتَصَرَ فِي بَيَانِ النَّوْعِ الثَّانِي فَقَالَ :

(279/227)

" أَمَّا أَرْبَابُ النُّفُوسِ وَالْعُقُولِ السَّامِيَةِ مِنَ الْعُرَفَاءِ ، مِمَّنْ لَمْ تَدْنُ مَرَاتِبُهُمْ مِنْ مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَكِنَّهُمْ رَضُوا أَنْ يَكُونُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَعَلَى شَرْعِهِمْ وَدَعْوَتِهِ أُمَنَاءَ : فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ نَالَ حَظَّهُ مِنَ الْأُنْسِ ، بِمَا يُقَارِبُ تِلْكَ الْحَالَ فِي النَّوْعِ أَوِ الْجِنْسِ ، لَهُمْ مُشَارَفَةٌ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَلَهُمْ مَشَاهِدُ صَحِيحَةٌ فِي عَالَمِ الْمِثَالِ لَا تُنْكَرُ عَلَيْهِمْ لِتَحَقُّقِ حَقَائِقِهَا فِي الْوَاقِعِ ، فَهُمْ لِذَلِكَ لَا يَسْتَبْعِدُونَ شَيْئًا مِمَّا يُحَدِّثُ بِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ ذَاقَ عَرَفَ ، وَمَنْ حُرِمَ انْحَرَفَ ، وَدَلِيلُ صِحَّةِ مَا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ وَعَنْهُ : ظُهُورُ

الْأَثَرِ الصَّالِحِ مِنْهُمْ ، وَسَلَامَةُ أَعْمَالِهِمْ مِمَّا يُخَالِفُ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِمْ ، وَطَهَارَةُ فِطَرِهِمْ مِمَّا يُنْكِرُهُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ ، أَوْ يَمُجُّهُ الذَّوْقُ السَّلِيمُ ، وَانْدِفَاعُهُمْ بِبَاعِثٍ مِنَ الْحَقِّ النَّاطِقِ فِي سَرَائِرِهِمُ الْمُتَلَأْلِئِ فِي بَصَائِرِهِمْ ، إِلَى دَعْوَةِ مَنْ يَحُفُّ بِهِمْ فِي خَيْرِ الْعَامَّةِ ، وَتَرْوِيحِ قُلُوبِ الْخَاصَّةِ ، وَلَا يَخْلُو الْعَالَمُ مِنْ

(280/227)

مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ ، وَلَكِنْ مَا أَسْرَعَ مَا يَنْكَشِفُ حَالُهُمْ ، وَيَسُوءُ مَآلُهُمْ ، وَمَآلُ مَنْ غَرَّرُوا بِهِ ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ إِلَّا سُوءُ الْأَثَرِ فِي تَضْلِيلِ الْعُقُولِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ وَانْحِطَاطِ شَأْنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ رُزِئُوا بِهِمْ ، إِلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُمُ اللهُ بِلُطْفِهِ ، فَتَكُونُ كَلِمَتُهُمُ الْخَبِيثَةُ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَ الْمُنْكِرِينَ لِأَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَشَاهِدِهِمْ وَبَيْنَ الْإِقْرَارِ بِإِمْكَانِ مَا أَنْبَئُوا بِهِ بَلْ بِوُقُوعِهِ إِلَّا حِجَابٌ مِنَ الْعَادَةِ ، وَكَثِيرًا مَا حَجَبَ الْعُقُولَ حَتَّى عَنْ إِدْرَاكِ أُمُورٍ مُعْتَادَةٍ " .

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) .

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لِخَاتَمِ رُسُلِهِ سُنَّتَهُ فِي شُبَهَاتِ الْكُفَّارِ الْمُعَانِدِينَ عَلَى الرِّسَالَةِ ،

وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْجُمُودِ وَالتَّكْذِيبِ بَعْدَ إِعْطَائِهِمُ الْآيَاتِ الَّتِي كَانُوا يَقْتَرِحُونَهَا ، وَعِقَابَهُ تَعَالَى إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ بَيَّنَ لَهُ شَأْنًا آخَرَ مِنْ شُئُونِ أُولَئِكَ الْكُفَّارِ مَعَ رُسُلِهِمْ وَسُنَّتَهُ تَعَالَى عِقَابُهُمْ عَلَيْهِ فَقَالَ :

(281/227)

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) ظَاهِرُ كَلَامِ نَقَلَةِ اللُّغَةِ أَنَّ الْهُزْءَ (بِضَمَّتَيْنِ وَبِضَمٍّ فَسُكُونٍ) وَالِاسْتِهْزَاءُ بِمَعْنَى السُّخْرِيَةِ وَأَنَّ أَقْوَالَهُمْ : هَزِئَ بِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ مُرَادِفٌ لِقَوْلِهِمْ سَخِرَ مِنْهُ ، وَيُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ الْمُدَقِّقِينَ أَنَّ الْحَرْفَيْنِ مُتَقَارِبَا الْمَعْنَى وَلَكِنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا لَا يَمْنَعُ مِنِ اسْتِعْمَالِ كُلٍّ مِنْهَا حَيْثُ يُسْتَعْمَلُ الْآخَرُ كَثِيرًا ، قَالَ الرَّاغِبُ : الْهُزُؤُ مَزْحٌ فِي خُفْيَةٍ (كَذَا وَلَعَلَّ صَوَابَهُ فِي خِفَّةٍ) وَقَدْ يُقَالُ لِمَا هُوَ كَالْمَزْحِ ، فَمِمَّا قَصَدَ بِهِ الْمَزْحَ قَوْلُهُ : (اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا 5 : 58) (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا 45 : 9) (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا 25 : 41) وَالِاسْتِهْزَاءُ ارْتِيَادُ الْهُزُؤِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ تَعَاطِي الْهُزُؤِ ، كَالِاسْتِجَابَةِ فِي كَوْنِهَا ارْتِيَادًا لِلْإِجَابَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَجْرِي مَجْرَى الْإِجَابَةِ . . وَسَخِرْتُ مِنْهُ وَاسْتَسْخَرْتُهُ لِلْهُزُؤِ مِنْهُ انْتَهَى

مُلَخَّصًا .

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : الِاسْتِهْزَاءُ السُّخْرِيَةُ وَالِاسْتِخْفَافُ وَأَصْلُ الْبَابِ الْخِفَّةُ

(282/227)

مِنَ الْهُزْءِ وَهُوَ النَّقْلُ السَّرِيعُ ، وَنَاقَتُهُ تَهْزَأُ بِهِ أَيْ تُسْرِعُ وَتَخِفُّ انْتَهَى - وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِالشَّيْءِ الِاسْتِهَانَةُ بِهِ ، وَالِاسْتِهْزَاءُ بِالشَّخْصِ احْتِقَارُهُ وَعَدَمُ الِاهْتِمَامِ بِأَمْرِهِ ، وَكَثِيرًا مَا يَصْحَبُ ذَلِكَ السُّخْرِيَةُ مِنْهُ ، وَهِيَ الضَّحِكُ النَّاشِئُ عَنِ الِاسْتِخْفَافِ وَالِاحْتِقَارِ ، فَمَنْ حَاكَى امْرَءًا فِي قَوْلِهِ أَوْ عَمَلِهِ أَوْ زِيِّهِ أَوْ غَيْرِهَا مُحَاكَاةَ احْتِقَارٍ فَقَدْ سَخِرَ مِنْهُ ، فَالسُّخْرِيَةُ تَسْتَلْزِمُ الِاسْتِهْزَاءَ ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْأَشْخَاصِ دُونَ الْأَشْيَاءِ ، قَالَ تَعَالَى : (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ) (23 : 110) وَقَالَ فِي نُوحٍ : (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) (11 : 38) الْآيَةَ . وَحَاقَ الْمَكْرُوهُ يَحِيقُ حَيْقًا ، أَحَاطَ بِهِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ مُخْرِجٌ .

(283/227)

وَالْمَعْنَى : أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ رَسُولَهُ خَبَرًا مُؤَكَّدًا بِصِيغَةِ الْقَسَمِ أَنَّ الْكُفَّارَ قَدِ اسْتَهْزَءُوا بِرُسُلٍ كِرَامٍ مِنْ قَبْلِهِ فَتَنْكِيرُ " رُسُلٍ " لِلتَّعْظِيمِ ، وَهُوَ لَا يُنَافِي الْعُمُومَ فِي قَوْلِهِ : (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) (36 : 30) فَمَا يَرَاهُ مِنَ اسْتِهْزَاءِ طُغَاةِ قُرَيْشٍ لَيْسَ بِدَعًا مِنْهُمْ ، بَلْ جَرَوْا بِهِ عَلَى آثَارِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ قَبْلَهُمْ ، وَقَدْ حَاقَ بِأُولَئِكَ السَّاخِرِينَ الْعَذَابُ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ إِيَّاهُ أُولَئِكَ الرُّسُلُ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ جَزَاءً وِفَاقًا ، حَتَّى كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَاقَ بِهِمْ لِأَنَّهُ سَبَبَهُ وَجَاءَ عَلَى وَفْقِهِ . فَالْآيَةُ تَعْلِيمٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ اللهِ فِي الْأُمَمِ مَعَ رُسُلِهِمْ وَتَسْلِيَةٌ لَهُ عَنْ إِيذَاءِ قَوْمِهِ ، وَبِشَارَةٌ لَهُ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَمَا سَيَكُونُ لَهُ مِنْ إِدَالَةِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ كَانَ جَزَاءُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ عَذَابَ الْخِزْيِ بِالِاسْتِئْصَالِ ، وَلَكِنَّ اللهَ كَفَاهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ فَأَهْلَكَهُمْ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ سَبَبًا لِهَلَاكِ قَوْمِهِمْ ، وَامْتَنَّ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ إِذْ قَالَ : (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) (15 : 95) وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُمْ خَمْسَةٌ مِنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ هَلَكُوا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ .

(284/227)

وَلَمَّا كَانَ كَوْنُ أَمْرِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالرُّسُلِ يَئُولُ إِلَى الْهَلَاكِ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ الْمُطَّرِدَةِ فِيهِمْ مِمَّا يَرْتَابُ فِيهِ مُشْرِكُو مَكَّةَ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ التَّارِيخَ ، وَلَا يَأْخُذُونَ خَبَرَ الْآيَةِ فِيهِ بِالتَّسْلِيمِ أَمَرَ اللهُ

تَعَالَى رَسُولَهُ بِأَنْ يَدُلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي يُوصِلُهُمْ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ فَقَالَ :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِلْمُكَذِّبِينَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ قَالُوا " لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ " سِيرُوا فِي الْأَرْضِ كَشَأْنِكُمْ وَعَادَتِكُمْ ، وَتَنَقَّلُوا فِي دِيَارِ أُولَئِكَ الْقُرُونِ الَّذِينَ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ

وَمَكَّنَّا لَهُمْ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ، ثُمَّ انْظُرُوا فِي أَثْنَاءِ كُلِّ رِحْلَةٍ مِنْ رِحْلَاتِكُمْ آثَارَ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ ، وَتَأَمَّلُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ بِمَا تُشَاهِدُونَ مِنْ آثَارِهِمْ ، وَمَا تَسْمَعُونَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ ، وَإِنَّمَا قَالَ : (عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) وَلَمْ يَقُلْ " عَاقِبَةُ الْمُسْتَهْزِئِينَ " أَوِ السَّاخِرِينَ ، وَالْكَلَامُ الْأَخِيرُ فِي هَؤُلَاءِ لَا فِي جَمِيعِ الْمُكَذِّبِينَ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولَى جَمِيعَ الْمُكَذِّبِينَ ، وَإِنْ كَانَ السَّبَبُ

(285/227)

الْمُبَاشِرُ لِلْإِهْلَاكِ اقْتِرَاحَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْآيَاتِ الْخَاصَّةَ عَلَى الرُّسُلِ ، فَلَمَّا أُعْطَوْهَا كَذَّبَ بِهَا الْمُسْتَهْزِئُونَ الْمُقْتَرِحُونَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا مَشْغُولِينَ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ عَنْ مُشَارَكَةِ كُبَرَاءِ مُتْرَفِيهِمْ بِالِاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْمُكَذِّبُونَ : قَدِ اسْتَحَقُّوا الْهَلَاكَ وَإِنْ لَمْ يَسْتَهْزِئُوا وَلَمْ يَسْخَرُوا فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُسْتَهْزِئِينَ وَالسَّاخِرِينَ ؟ ! لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ

أَحَقُّ بِالْهَلَاكِ وَأَجْدَرُ ; وَلِذَلِكَ أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ مِنْ قَوْمِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَلَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى مَا اقْتَرَحُوهُ لِئَلَّا يَعُمَّ شُؤْمُهُمْ سَائِرَ الْمُكَذِّبِينَ مَعَهُمْ ، وَمِنْهُمُ الْمُسْتَعِدُّونَ لِلْإِيمَانِ الَّذِينَ اهْتَدَوْا مِنْ بَعْدُ .

(286/227)

وَمِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ فِي الْآيَةِ : أَنَّهُ قَالَ فِيهَا : (ثُمَّ انْظُرُوا) وَقَدْ وَرَدَ الْأَمْرُ بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى مِنْ عِدَّةِ سُوَرٍ ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ بِالنَّظَرِ بِالْفَاءِ (رَاجِعْ 99 مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ و42 مِنْ سُورَةِ الرُّومِ و109 مِنْ سُورَةِ يُوسُفَ و44 مِنْ سُورَةِ فَاطِرٍ إلَخْ) . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي نُكْتَةِ الْخِلَافِ بَيْنَ التَّعْبِيرَيْنِ : فَإِنْ قُلْتَ أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِهِ " فَانْظُرُوا " وَقَوْلِهِ " ثُمَّ انْظُرُوا " ؟ قُلْتُ : جُعِلَ النَّظَرُ مُسَبَّبًا عَنِ السَّيْرِ فِي قَوْلِهِ : " فَانْظُرُوا " فَكَأَنَّهُ قِيلَ : سِيرُوا لِأَجْلِ النَّظَرِ وَلَا تَسِيرُوا سَيْرَ الْغَافِلِينَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : (سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا) فَمَعْنَاهُ إبَاحَةُ السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِلتِّجَارَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَإِيجَابُ النَّظَرِ فِي آثَارِ الْهَالِكِينَ ، وَنَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ بِـ (ثُمَّ) لِتُبَاعِدَ مَا بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْمُبَاحِ اهـ .

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْمُنَيِّرِ فِي الِانْتِصَافِ ، وَأَظْهَرُ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ أَنْ يَجْعَلَ الْأَمْرَ فِي الْمَكَانَيْنِ وَاحِدًا لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي النَّظَرِ ، فَحَيْثُ دَخَلَتِ الْفَاءُ فَلِإِظْهَارِ السَّبَبِيَّةِ ، وَحَيْثُ

دَخَلَتْ ثُمَّ فَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ النَّظَرَ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ السَّيْرِ ، وَأَنَّ السَّيْرَ وَسِيلَةٌ إِلَيْهِ لَا غَيْرَ ، وَشَتَّانَ بَيْنَ الْمَقْصُودِ وَالْوَسِيلَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ اهـ .

وَفِي رُوحِ الْمَعَانِي عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ هُنَا : (ثُمَّ انْظُرُوا)

(287/227)

وَفِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ " فَانْظُرُوا " لِأَنَّ الْمَقَامَ هُنَا يَقْتَضِي " ثُمَّ " دُونَهُ فِي هَاتِيكَ الْمَوَاضِعِ ، وَذَلِكَ لِتَقَدُّمِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِيمَا نَحْنُ فِيهِ : (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ) مَعَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) وَالْأَوَّلُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْهَالِكِينَ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ وَالثَّانِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُنْشَأَ بَعْدَهُمْ أَيْضًا كَثِيرُونَ ، فَيَكُونُ أَمْرُهُمْ بِالسَّيْرِ دُعَاءً لَهُمْ إِلَى الْعِلْمِ بِذَلِكَ ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ اسْتِقْرَاءَ الْبِلَادِ وَمَنَازِلِ أَهْلِ الْفَسَادِ عَلَى كَثْرَتِهَا لِيَرَوُا الْآثَارَ فِي دِيَارٍ بَعْدَ دِيَارٍ ، وَهَذَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى زَمَانٍ وَمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ تَمْنَعُ مِنَ التَّعَقُّبِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْفَاءُ ، وَلَا كَذَلِكَ فِي الْمَوَاضِعِ الْأُخَرِ . انْتَهَى .

قَالَ الْآلُوسِيُّ بَعْدَ إِيرَادِهِ . وَلَا يَخْلُو عَنْ دَغْدَغَةٍ ، وَاخْتَارَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ السَّيْرَ مُتَّحِدٌ هُنَاكَ وَهُنَا ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ مُمْتَدٌّ بِعَطْفِ النَّظَرِ عَلَيْهِ بِالْفَاءِ تَارَةً ، نَظَرًا إِلَى آخِرِهِ ، وَبِثُمَّ أُخْرَى نَظَرًا

إِلَى أَوَّلِهِ . وَكَذَا شَأْنُ كُلِّ مُمْتَدٍّ انْتَهَى مَا أَوْرَدَهُ الْآلُوسِيُّ ، وَالظَّاهِرُ فِي الْأَخِيرِ أَنْ يَكُونَ الْعَطْفُ بِالْفَاءِ نَظَرًا إِلَى الْأَوَّلِ ، وَبِثُمَّ نَظَرًا إِلَى الْآخَرِ عَكْسَ مَا ذَكَرَهُ فَتَأَمَّلْ .

(288/227)

ثُمَّ أَقُولُ : وَلَعَلَّ مَنْ يَتَأَمَّلُ مَا وَجَّهْنَا بِهِ الْكَلَامَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، قَبْلَ النَّظَرِ فِي هَذِهِ النُّكَتِ كُلِّهَا يَرَى أَنَّهُ هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنَ النَّظْمِ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ ، وَأَنَّهُ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَنْبَطًا مِنْ مَجْمُوعِ تِلْكَ النُّكَتِ ، مَعَ زِيَادَةٍ عَلَيْهَا تَقْتَضِيهَا حَالُ الْمُخَاطَبِينَ بِالْأَمْرِ بِالسَّيْرِ هُنَا ، وَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ الْمُعَانِدُونَ الْكَثِيرُو الْأَسْفَارِ لِلتِّجَارَةِ الْغَافِلُونَ عَنْ شُئُونِ الْأُمَمِ وَالِاعْتِبَارِ بِعَاقِبَةِ الْمَاضِينَ وَأَحْوَالِ الْمُعَاصِرِينَ .

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي

(289/227)

أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) .

(290/227)

بَيَّنَ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أُصُولَ الدِّينِ وَمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا وَشُبُهَاتِ الْكُفَّارِ عَلَى الرِّسَالَةِ مَعَ مَا يُدْحِضُهَا ، وَهَدَى رَسُولَهُ إِلَى سُنَّتِهِ فِي الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ لِتَسْلِيَتِهِ وَتَثْبِيتِ قَلْبِهِ ، الْمُعِينُ لَهُ عَلَى الْمُضِيِّ فِي تَبْلِيغِ دَعْوَةِ رَبِّهِ ، ثُمَّ قَفَّى سُبْحَانَهُ عَلَى ذَلِكَ بِتَلْقِينِهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أُسْلُوبًا آخَرَ مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَهُوَ أُسْلُوبُ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ ، فِي مَوْضِعِ فَصْلِ الْخِطَابِ وَإِنْ كَانَ تَكْرَارٌ لِمَعْنًى سَبَقَ أَوِ اشْتَمَلَ عَلَى التَّكْرَارِ ، وَحِكْمَةُ ذَلِكَ أَنَّ التَّنْوِيعَ فِي الِاحْتِجَاجِ وَالتَّفَنُّنَ فِي أَسَالِيبِهِ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ وَإِلَى غَيْرِ الدِّينِ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْبَشَرِيَّةِ أَيْضًا لِأَنَّ الْتِزَامَ دَلِيلٍ وَاحِدٍ عَلَى الْمَطْلُوبِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْ تَكْرَارِ ذِكْرِهِ ، أَوْ

إِيرَادَ عِدَّةِ أَدِلَّةٍ بِأُسْلُوبٍ وَاحِدٍ قَدْ يُفْضِي إِلَى سَآمَةِ الدَّاعِي مِنَ التَّكْرَارِ عَلَى رَغْبَتِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَتَفَانِيهِ فِي نَشْرِهَا وَإِثْبَاتِهَا ، فَكَيْفَ يَكُونُ تَأْثِيرُهُ فِي الْمَدْعُوِّينَ الْكَارِهِينَ لَهُ وَلَهَا ، إِذَا لَمْ يَعْقِلُوا الدَّلِيلَ الْأَوَّلَ أَوْ لَمْ تَتَوَجَّهْ قُلُوبُهُمْ إِلَى تَدَبُّرِ الْأُسْلُوبِ الْوَاحِدِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى عِدَّةِ أَدِلَّةٍ ؟ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي مُنْتَهَى السَّآمَةِ وَالضَّجَرِ مِنْ سَمَاعِ ذَلِكَ وَفِي غَايَةِ النُّفُورِ مِنْهُ ، كَيْفَ وَقَدْ كَانَ الْمُعَانِدُونَ مِنْهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ عَلَى مَا امْتَازَ بِهِ فِي مَقَامِ التَّفَنُّنِ

(291/227)

وَالتَّنْوِيعِ وَالْبَلَاغَةِ الْمُعْجِزَةِ فِي كَثْرَةِ الْأَسَالِيبِ ؟ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(292/227)

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِقَوْمِكَ الْجَاحِدِينَ لِرِسَالَتِكَ الْمُعْرِضِينَ عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ : لِمَنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ عُلْوِيِّهِ وَسُفْلِيِّهِ ؟ السُّؤَالُ تَمْهِيدٌ لِحُجَّةٍ جَدِيدَةٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ

الْعَرَبَ كَانَتْ تُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّ كُلَّ مَا فِيهِمَا وَمَنْ فِيهِمَا مِلْكٌ وَعَبِيدٌ لَهُ وَلَفْظُ " مَا " يَشْمَلُ الْعُقَلَاءَ مَعَ غَيْرِهِمْ ، وَجَزَمَ فِي الْكَشَّافِ بِأَنَّ السُّؤَالَ لِلتَّبْكِيتِ وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (قُلْ لِلَّهِ) تَقْرِيرٌ لَهُمْ أَيْ هُوَ اللهُ لَا خِلَافَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فِي ذَلِكَ ، وَلَا تَقْدِرُونَ أَنْ تُضِيفُوا شَيْئًا مِنْهُ إلَى غَيْرِهِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : تَقْرِيرٌ لِلْجَوَابِ نِيَابَةً عَنْهُمْ ، أَوْ إلْجَاءً لَهُمْ إلَى الْإِقْرَارِ وَقَالَ الرَّازِيُّ : أَمَرَهُ بِالسُّؤَالِ أَوَّلًا ، ثُمَّ بِالْجَوَابِ ثَانِيًا ، وَهَذَا إنَّمَا يَحْسُنُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَكُونُ الْجَوَابُ فِيهِ قَدْ بَلَغَ فِي الظُّهُورِ إلَى حَيْثُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إنْكَارِهِ مُنْكِرٌ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَكُونُ الْجَوَابُ فِيهِ قَدْ بَلَغَ فِي الظُّهُورِ إلَى حَيْثُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إنْكَارِهِ مُنْكِرٌ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ دَافِعٌ ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ هَذَا مِنْ هَذَا ، وَاحْتَجَّ عَلَى أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لِلَّهِ بِمَا فِي الْعَالَمِ الْمَادِّيِّ مِنْ آثَارِ الْحُدُوثِ وَالْإِمْكَانِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الِاسْتِدْلَالِ .

(293/227)

وَنَقُولُ : إنَّ إتْيَانَ السَّائِلِ بِالْجَوَابِ يَحْسُنُ فِي غَيْرِ الْمَوْضِعِ الَّذِي حَصَرَ الرَّازِيُّ الْحَسَنَ فِيهِ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَا يَأْتِي بِهِ عَيْنُ مَا يَعْتَقِدُهُ الْمَسْئُولُ وَمَا يُجِيبُ بِهِ إنْ أَجَابَ وَإِنَّمَا يَسْبِقُهُ إلَيْهِ لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ شَيْئًا آخَرَ مِنْ لَوَازِمِهِ هُوَ مِمَّا يَجْهَلُهُ الْمَسْئُولُ أَوْ يَغْفُلُ عَنْهُ أَوْ يُنْكِرُهُ لِجَهْلِهِ أَوْ غَفْلَتِهِ عَنْ كَوْنِهِ لَازِمًا لِمَا يَعْرِفُهُ وَيَعْتَقِدُهُ . وَلَيْسَ الْمَسْئُولُ عَنْهُ هُنَا مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَى إنْكَارِهِ

مُنْكِرٌ ، وَلَا عَلَى دَفْعِهِ دَافِعٌ ، فَقَدْ أَنْكَرَهُ أَهْلُ الْإِلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ ، فَالظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ بِالْجَوَابِ وَأَنْ يَبْدَأَهُ بِمَا كَانُوا يُجِيبُونَ بِهِ كَمَا عَلِمَ مِنْ آيَاتٍ أُخْرَى لِيَبْنِيَ عَلَى قَوْلِهِ : (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ) وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي تُقِرُّونَ مَعِي بِأَنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ قَدْ أَوْجَبَ عَلَى ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ الرَّحْمَةَ بِخَلْقِهِ ، كَمَا يُعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ إِفَاضَةِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . وَمِنْ مُقْتَضَى هَذِهِ الرَّحْمَةِ أَنْ يَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَالَ كَوْنِهِ لَا رَيْبَ فِيهِ أَوْ جَمْعًا لَا رَيْبَ فِيهِ أَيْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَرْتَابَ فِيهِ مَنْ تَدَبَّرَ دَلَائِلَ

(294/227)

رَحْمَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ ، فَإِنَّ هَذَا الْجَمْعَ لِأَجْلِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ، فَهُوَ رَحْمَةٌ بِالْمُكَلَّفِينَ يُنَافِي الْفَوْضَى وَالْإِهْمَالَ وَاسْتِبَاحَةَ الظُّلْمِ . وَالْعِلْمُ بِهِ رَحْمَةٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُ وَازِعٌ نَفْسِيٌّ لَا يَتِمُّ تَهْذِيبُ النَّفْسِ بِدُونِهِ ، بَلِ الرَّحْمَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ، فَمِنْ رَحِمَتِهِ تَعَالَى بِالنَّاسِ مَا مَنَحَهُمْ مِنْ هِدَايَاتِ الْحَوَاسِّ وَالْوِجْدَانِ وَالْعَقْلِ وَهِدَايَةِ الدِّينِ الْمُقَاوِمَةِ لِمَا يَجْنُونَهُ عَلَى تِلْكَ الْهِدَايَاتِ بِاسْتِعْمَالِهَا فِيمَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَالْمُسَاعَدَةِ لَهُمْ عَلَى تَكْمِيلِ فِطْرَتِهِمْ وَتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ .

(295/227)

بَيَانُ ذَلِكَ : أَنَّ مِنْ أُصُولِ دِينِهِ الْقَوِيمِ الَّذِي هُوَ مَظْهَرُ رَحْمَتِهِ الْعُلْيَا الْمُوَافِقُ لِفِطْرَتِهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا أَنَّ لِأَعْمَالِ الْبَشَرِ جَزَاءً فِطْرِيًّا هُوَ أَثَرٌ لَازِمٌ لِلْعَمَلِ بِحَسَبِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي تَأْثِيرِ الْأَعْمَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ فِي إِصْلَاحِ الْأَنْفُسِ أَوْ إِفْسَادِهَا ، وَجَزَاءً آخَرَ وَضْعِيًّا أَوْ شَرْعِيًّا تَابِعًا لَهُ هُوَ إِنْشَاءُ فَضْلٍ أَوْ عَدْلٍ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَالْأَوَّلُ وَهُوَ الْأَصْلُ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى تَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِالْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْعُلُومِ الثَّابِتَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ ، الَّتِي تَطْبَعُهَا فِيهَا عِبَادَةُ اللهِ تَعَالَى وَحُسْنُ الْمُعَامَلَةِ مَعَ خَلْقِهِ مِنْ هَنَاءِ الْمَعِيشَةِ فِي الدُّنْيَا بِالْجَمْعِ بَيْنَ لَذَّةِ الْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ ، وَلَذَّةِ الْحَيَاةِ الْجَسَدِيَّةِ الْمُعْتَدِلَةِ ، وَهُوَ أَدْنَى الْجَزَاءَيْنِ وَأَقَلُّهُمَا وَغَيْرُ الْمُطَّرِدِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى تَدْسِيَةِ النَّفْسِ وَإِفْسَادِ فِطْرَتِهَا بِالْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ كَخُرَافَاتِ الْوَثَنِيَّةِ وَأَوْهَامِهَا وَسَفْسَافِ الْأَخْلَاقِ وَالْمَلَكَاتِ الرَّدِيئَةِ الَّتِي تَطْبَعُهَا فِيهَا تِلْكَ الْأَوْهَامُ السَّخِيفَةُ وَالْأَعْمَالُ الْقَبِيحَةُ وَالْعِبَادَاتُ الْوَثَنِيَّةُ مِنْ شَقَاءِ الْمَعِيشَةِ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مِنْ لَوَازِمِ تِلْكَ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ ، فَهِيَ كَالْأَعْمَالِ الضَّارَّةِ وَالْوَسَاوِسِ الْعَصَبِيَّةِ (الْهِسْتِيرِيَّةِ) الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الْأَمْرَاضُ الْمُعْضِلَةُ وَالْأَدْوَاءُ الْقَاتِلَةُ ،

(296/227)

كَمَا أَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مُقَابِلِهَا يُشْبِهُ الْأَعْمَالَ الْبَدَنِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ الَّتِي يَرْتَاضُ بِهَا الْبَدَنُ وَالْعَقْلُ حَتَّى يَبْلُغَ بِهِمَا الْمَرْءُ مِنَ الصِّحَّةِ وَالِاعْتِدَالِ مَا هُوَ مُقَدَّرٌ لَهُ مِنَ الْكَمَالِ ، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ هِدَايَةُ الدِّينِ لِلْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ وَالْعِبَادَاتِ ، وَزَجْرِهِ عَنِ الْوَثَنِيَّةِ وَالْخُرَافَاتِ وَالرَّذَائِلِ وَالشُّرُورِ كُلُّ ذَلِكَ كَبَثِّ الْوَصَايَا

الصَّحِيحَةِ وَالْعُلُومِ الطِّبِّيَّةِ فِي النَّاسِ؛ لِيَكُونَ لَهُمْ وَازِعٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتَّقُونَ بِهِ مَا يَضُرُّهُمْ وَيُقْبِلُونَ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ وَتِلْكَ رَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ بِهِمْ ، وَلَا يُنَافِي كَوْنَ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ مِنْ شَقَاءِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ جِنَايَةٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَمَثَلُهُمْ فِيهِ كَمَثَلِ الْمَرِيضِ يُخَالِفُ أَوَامِرَ الطَّبِيبِ

وَنَوَاهِيهِ الْخَاصَّةَ ، وَيُخَالِفُ الْوَصَايَا الصِّحِّيَّةَ الْعَامَّةَ ، فَيَزْدَادُ أَمْرَاضًا وَأَسْقَامًا ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ كَوْنُ تِلْكَ الْوَصَايَا رَحْمَةً بِالنَّاسِ وَنِعْمَةً عَلَيْهِمْ .

(297/227)

وَأَمَّا الْجَزَاءُ الثَّانِي الَّذِي هُوَ إِنْشَاءٌ مِنْ مُقْتَضَى الْفَضْلِ أَوِ الْعَدْلِ فَهُوَ مُتَرَتِّبٌ عَلَى الْجَزَاءِ الْأَوَّلِ وَتَابِعٌ لَهُ وَهُوَ قِسْمَانِ : (أَحَدُهُمَا) مَا يَزِيدُ اللَّهُ الْمُحْسِنِينَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ بِفَضْلِهِ عَلَى مَا اسْتَحَقُّوهُ بِإِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ بِحَسَبِ وَعْدِهِ ، وَلَمَّا كَانَتِ الرَّحْمَةُ أَعَمَّ

وَأَوْسَعَ وَأَعْظَمَ كَانَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْجَزَاءِ خَاصًّا بِالْمُحْسِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، فَهُوَ رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ . نَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ خِيَارِ أَهْلِهَا . (وَثَانِيهِمَا) الْقِصَاصُ فِي الْحُقُوقِ وَإِنْ قَلَّتَ ، وَمَا يَقْتَصُّ بِهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ لِلْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِحَسَبِ عَدْلِهِ . وَلَمَّا كَانَ مُقْتَضَى الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ ، أَعَمَّ وَأَسْبَقَ مِنْ مُقْتَضَى الْعَدْلِ ، كَانَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ الْمُسِيئِينَ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَالْجَزَاءُ عَلَى الْإِسَاءَةِ قَدْ يَنْقُصُ مِنْهُ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ ، وَلَكِنْ لَا يُزَادُ فِيهِ شَيْءٌ قَطُّ . وَإِنَّمَا الزِّيَادَةُ فِي الْجَزَاءِ عَلَى الْإِحْسَانِ : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا 6 : 160) (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ 10 : 26) (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا 4 : 173) وَبَيَانُ الدِّينِ لِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الْجَزَاءِ رَحْمَةٌ أَيْضًا فَهُوَ كَبَيَانِ

(298/227)

الْحُكُومَةِ الْعَادِلَةِ لِلْأُمَّةِ مَا تُؤَاخَذُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الضَّارَّةِ ، وَمَا يَدُلُّ الْمُحْسِنِينَ مِنَ الْأَمْنِ وَالْعِزِّ وَالتَّرَقِّي فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ ، رَوَى الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي

تَغْلِبُ غَضَبِي " وَفِي رِوَايَةٍ " إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي " وَإِنَّمَا السَّبْقُ وَالْغَلَبُ فِي أَثَرَيِ الرَّحْمَةِ وَالْغَضَبِ وَتَعَلُّقُهُمَا لَا فِي الصِّفَاتِ أَنْفُسِهَا ، وَسَنَزِيدُ هَذَا الْبَحْثَ بَيَانًا فِي تَفْسِيرِ : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) (7 : 156) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ إِنْ أَحْيَانَا اللَّهُ تَعَالَى .

أَمَّا تَعَلُّقُ جَمْعِ النَّاسِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِكِتَابَةِ الرَّحْمَةِ مِنْ جِهَةِ نَظْمِ الْكَلَامِ وَإِعْرَابِهِ فَقِيلَ : إِنَّ كِتَابَةَ الرَّحْمَةِ تَأْكِيدٌ لَهَا فِي مَعْنَى الْقَسَمِ ، وَجُمْلَةُ " لَيَجْمَعَنَّكُمْ " جَوَابٌ لِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ حَلَّ مَحَلَّهُ مَا فِي مَعْنَاهُ . وَقِيلَ : إِنَّ الْجُمْلَةَ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : وَمَا مُقْتَضَى هَذِهِ الرَّحْمَةِ ، وَمَا مَوْقِعُهَا مِنْ مَوْضُوعِ دَعْوَةِ الرِّسَالَةِ ؟ فَقِيلَ : إِنَّهُ تَعَالَى أَقْسَمَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ، إِذْ لَوْ لَمْ يَجْمَعْكُمْ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ لَظَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ مَغْبُونِينَ مَحْرُومِينَ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَظْلُومِينَ

(299/227)

مَهْضُومِينَ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الظَّالِمِينَ الْمُسِيئِينَ غَيْرَ مُؤَاخَذِينَ ، ذَلِكَ بِأَنَّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا مِنْ حُسْنِ الْأَثَرِ وَعَلَى الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ مِنْ قُبْحِ الْأَثَرِ ، لَيْسَ عَامًّا مُطَّرِدًا فِي جَمِيعِ الْأَفْرَادِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا ، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنَ الِاخْتِبَارِ وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ ، وَذَلِكَ يُنَافِي الرَّحْمَةَ ، كَمَا يُنَافِي الْعَدْلَ وَالْحِكْمَةَ ، فَمِنْ مُقْتَضَى كِتَابَتِهِ سُبْحَانَهُ الرَّحْمَةَ

عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَجْمَعَ النَّاسَ لِلْفَصْلِ بَيْنَهُمْ ، وَجَزَاءُ كُلٍّ مِنْهُمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْعَدْلُ فِي الْكُلِّ وَالْفَضْلُ فِي الْبَعْضِ . وَالْجَمْعُ بِمَعْنَى الْحَشْرِ وَيَتَعَدَّيَانِ بِإِلَى ، يُقَالُ : جَمَعَهُمْ إِلَيْهِ وَحَشَرَهُمْ إِلَيْهِ . وَجَمْعُ النَّاسِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَعْنَاهُ حَشْرُهُمْ إِلَى مَوْقِفِهِ أَوْ حِسَابِهِ ، أَوْ مَعْنَاهُ لَيَجْمَعَنَّكُمْ مُنْتَهِينَ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَقِيلَ : إِنَّ " إِلَى " صِلَةٌ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا بِمَعْنَى " فِي " وَكِلَاهُمَا ضَعِيفٌ .

(300/227)

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) فَمَعْنَاهُ أَخُصُّ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ يُجْمَعُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِالذِّكْرِ أَوِ التَّذْكِيرِ أَوْ بِالذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ فَإِنَّهُمْ لِخُسْرَانِهِمْ أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ . وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَؤُلَاءِ أَوْلَى بِأَنْ يُتَعَتَّعُوا بِالتَّذْكِيرِ ، أَوْ بِالذَّمِّ الْمُفْضِي إِلَى التَّفْكِيرِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنْتُمْ أَيُّهَا الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ . . . إِلَخْ . خَاطَبَهُمْ كَافَّةً ثُمَّ أَبْدَلَ مِنَ الْكُلِّ بَعْضَهُ الْأَجْدَرَ بِالْخِطَابِ الْأَحْوَجَ إِلَيْهِ أَوْ وَصَفَ أُولَئِكَ الْمُخَاطَبِينَ بِهَذَا الْوَصْفِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ مَنَاطُ الْإِنْذَارِ وَالْوَعِيدِ . وَقِيلَ : إِنَّ الْجُمْلَةَ مُسْتَقِلَّةٌ مَعْنَاهَا أَنَّ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْجَمْعِ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِخَبَرِهِ . وَالْأَوَّلُ أَقْوَى وَأَظْهَرُ . وَخَسَارَةُ الْأَنْفُسِ عِبَارَةٌ عَنْ إِفْسَادِ فِطْرَتِهَا وَعَدَمِ اهْتِدَائِهَا بِمَا

مَنَحَهَا اللهُ تَعَالَى مِنَ الْهِدَايَاتِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا آنِفًا ، فَالْمُقَلِّدُونَ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ اسْتِعْمَالِ أَشْرَفِ النِّعَمِ الْغَرِيزِيَّةِ وَهُوَ الْعَقْلُ ، وَحَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَفْضَلَ الْفَضَائِلِ الْكَسْبِيَّةِ وَهُوَ الْعِلْمُ وَالْفَهْمُ ، وَإِذَا كَانَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ قَدْ صَرَّحَ بِأَنَّ الْمُجْتَهِدَ الْمُخْطِئَ أَفْضَلُ مِنَ الْمُقَلِّدِ لِمُجْتَهِدٍ مُصِيبٍ ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الْمُقَلِّدِ فِي الشِّرْكِ .

(301/227)

وَالْكُفْرِ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى ؟ وَالْحِرْمَانُ مِنْ مَضَاءِ الْعَزِيمَةِ وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ خُسْرَانٌ لِلنَّفْسِ يُضَاهِي خُسْرَانَهَا بِفَقْدِ الْعِلْمِ الِاسْتِدْلَالِيِّ ، فَإِنَّ ضَعِيفَ الْإِرَادَةِ إِنْ أُوتِيَ حَظًّا مِنَ الْعِلْمِ لَا يَقُومُ بِحَقِّهِ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ كَمَا يَجِبُ . لِأَنَّ مَا يَهْدِي إِلَيْهِ الْعِلْمُ الصَّحِيحُ مِنْ وُجُوبِ نَصْرِ الْحَقِّ وَخَذْلِ الْبَاطِلِ

وَمُجَاهَدَةِ الْأَهْوَاءِ الرَّدِيئَةِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ كُلُّ ذَلِكَ لَا يَخْلُو مِنْ مَشَقَّةٍ لَا يَحْمِلُهَا إِلَّا ذُو الْعَزِيمَةِ الصَّادِقَةِ ، وَالْإِرَادَةِ الثَّابِتَةِ .

(302/227)

فَمَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ بِالتَّقْلِيدِ لَا يَنْظُرُ وَلَا يَسْتَدِلُّ حَتَّى يَهْتَدِيَ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ بِوَهْنِ الْإِرَادَةِ قَلَّمَا يَنْظُرُ وَيَسْتَدِلُّ أَيْضًا ، فَإِنْ هُوَ نَظَرَ وَظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ بِمَا قَامَ مِنَ الْبُرْهَانِ عَلَيْهِ قَعَدَ بَعْدَ ضَعْفِ الْإِرَادَةِ عَنِ احْتِمَالِ لَوْمِ اللَّائِمِينَ ، وَاحْتِقَارِ الْأَهْلِ وَالْمُعَاشِرِينَ ، لِمَنْ تَرَكَ دِينَ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ، وَصَبَا إِلَى حِزْبِ أَعْدَائِهِمْ وَأَعْدَائِهِ . هَذَا مَا يُقَالُ فِي مِثْلِ حَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي عَهْدِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ . وَإِنَّ ضَعْفَ الْإِرَادَةِ لَيَصُدُّ صَاحِبَهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ عَنِ الْوَاجِبَاتِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَا بُدَّ فِيهَا مِنَ احْتِمَالِ مَشَقَّةٍ بَدَنِيَّةٍ أَوْ نَفْسِيَّةٍ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ أَعْمَالِ الْإِيمَانِ وَمَصَالِحِ الْأُمَّةِ وَالْأَوْطَانِ ، وَلَوْ بَحَثْتَ عَنْ خُسْرَانِ الْأَفْرَادِ الْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْحُقُوقَ وَالْوَاجِبَاتِ لِكَرَامَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَخُسْرَانِ الْجَمَاعَاتِ وَالْأُمَمِ الَّتِي تُولِي زَعَامَتَهَا أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ الْأَفْرَادِ لِاسْتِقْلَالِهَا وَصَلَاحِ أَمْرِهَا لَرَأَيْتَ سَبَبَ هَذَا وَذَاكَ وَهَنَ الْعَزِيمَةِ وَذَبْذَبَةَ الْإِرَادَةِ ، فَالْفَوْزُ وَالْفَلَاحُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَزِيمَةِ الْحَافِزَةِ إِلَى الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ ، فَمَنْ خَسِرَ إِحْدَى الْفَضِيلَتَيْنِ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ خَسِرَ نَفْسَهُ سَوَاءً كَانَ فَرْدًا ، أَوْ أُمَّةً ، فَمَا بَالُ مَنْ خَسِرَهُمَا كِلْتَيْهِمَا وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَقَدْ لَمَّحَ الزَّمَخْشَرِيُّ إِلَى

(303/227)

خُسْرَانِ النَّفْسِ فِي الْآخِرَةِ فَأَوْرَدَ عَلَى الْآيَةِ إِشْكَالًا فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ . وَأَجَابَ عَنْهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ جَوَابًا فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ . قَالَ (فَإِنْ قُلْتَ) : كَيْفَ جَعَلَ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ مُسَبَّبًا عَنْ خُسْرَانِهِمْ وَالْأَمْرُ عَلَى الْعَكْسِ ؟ (قُلْتُ) : مَعْنَاهُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ لِاخْتِيَارِهِمُ الْكُفْرَ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 258 . 275 ﴾

(304/227)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ﴾

كأن الحق يعلِّم رسوله السؤال والجواب ؛ حتى يتعلم الناس من خلال ذلك أن كُلَّ المُلْك لله ؛ لأنهم مهما بحثوا عن مالك الكون فلن يجدوا إلا الله ، حتى المكذبين منهم قال الحق عنهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : 61] .

وعلى الرغم من شركهم بالله لا يقدرون إلا على الإقرار بأن الله هو خالق كل شيء ؛ لأن

الإنسان قد يغتر بما لذاته من اختيار ، لكن عندما ينظر لما يقع على ذاته من اضطرار فهو يعترف فوراً على الإيمان . وقد يختار الإنسان أشياء لكنَّ هناك أحداثاً تقع عليه لا اختيار له فيها وذلك لينبه الحق خلقه أنه فعال لما يريد وأنه يحكم هذا الكون وأن الاختيار ما كان إلاّ ليختبر الإنسان نفسه باتباع تكاليف الله .

والأحداث ثلاثة : حدث يقع عليك ، وحدث يقع فيك ، وحدث يقع منك . وما يقع عليك ليس لك فيه اختيار ، وما يقع فيك لا اختيار لك فيه ، ولا يبقى لك إلا ثلث الأحداث وهو ما يقع منك . وأنت محكوم في ذلك بقوسين لا اختيار لك فيهما : قوس الميلاد وقوس الموت ، إذن فالأمر كله لله .

ويطمئن الحق خلقه قائلاً : ﴿ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ وهو قول ليُطَمِّئَن به الحقُّ عباده حتى لا يظن الناس أن الله يعاقبهم دون حساب ؛ لأنه الحليم ذو الفضل وهو القائل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس : 58] .

(305/227)

ويعفو سبحانه عن الكثير ، وباب رحمته وفضله مفتوح ويفسح التوبة لكل عاصٍ . ومن فضل الله أنه جعل بعضاً من الكفار يقفون في بداية الإسلام ضد المسلمين ثم يكونون من بعد

ذلك سيوفاً للإسلام ، وسبحانه الرحيم الذي يجمعنا للحساب يوم القيامة الذي لا ريب فيه ولا شك ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم ويأتي الكافر على رغم أنفه ، والمؤمن يتيقن رحمة الله وفضله ويفرح بلقاء ربه .

والكافر – والعياذ بالله – قد خسر نفسه بعمله مصداقا لقوله الحق : ﴿ الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وخسران النفس مترتب على عدم الإيمان ؛ لأننا لو نظرنا إلى الغايات وإلى الوسائل لوجدنا أن الوسيلة تأتي قبل الغاية ، ولكن في التحضير العملي الغاية تتضح قبل الوسيلة ؛ فالذي يستذكر إنما يستحضر في ذهنه الغاية وهي النجاح ، فيبذل الجهد لينجح ؛ لأننا نعلم أن كل شرط هو واقع بين أمرين ، بين جواب دافع ، وجواب واقع ؛ فالنجاح دافع للمذاكرة ، والمذاكرة تجعل النجاح واقعاً ، ويقول ابن الرومي :

ألا مَنْ يُرِيني غايتي قَبْلَ مَذْهبي . . . ومِنْ أين والغايات بعد المذاهبِ ؟

وهذا القول منه غير سديد ؛ لأن الإنسان عليه أن يتنبه إلى الغاية وأن يتعرف على الوسيلة التي توصله إلى الغاية ، فإذا كانت الغاية أن يذهب الإنسان إلى الله ، والوسيلة هي المنهج ، فلماذا الحيرة إذن ؟ وهكذا نعلم أن الذين لم يؤمنوا قد خسروا أنفسهم لأنهم لم يميزوا الغاية الدافعة وهي الذهاب إلى الله والنزول على حكمه ، عن الغاية الواقعة وهي الوسيلة ، وسبحانه قد يسرها لعباده إذ قد أتى لهم بالمنهج الذي يسيرون عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سلمان في قوله ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ قال : إنا نجده في التوراة عطيفتين ، أن الله خلق السموات والأرض ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق فوضع بينهم واحدة وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، فيها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وبها يتباذلون ، وبها يتزاورون ، وبها تحن الناقة ، وبها تنتج البقرة ، وبها تيعر الشاة ، وبها تتابع الطير ، وبها تتابع الحيتان في البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده ، ورحمته أفضل وأوسع .

وأخرج أحمد ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، منها رحمة يتراحم بها الخلق وتسع وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة " .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر

وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي " .

وأخرج الترمذي وصححه وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما خلق الله الخلق كتب كتاباً بيده على نفسه : إن رحمتي تغلب غضبي " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش : إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلق كثير لم يعلموا خيراً : مكتوب بين أعينهم عتقاء الله " .

(307/227)

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن الله كتب كتاباً بيده لنفسه قبل أن يخلق السموات والأرض فوضعه تحت عرشه ، فيه : رحتمي سبقت غضبي " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن طاوس . أن الله لما خلق الخلق لم يعطف شيء منه على شيء حتى خلق مائة رحمة ، فوضع بينهم رحمة واحدة ، فعطف بعض الخلق على بعض .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة حسبته أسنده قال : إذا فرغ الله من القضاء بين خلقه ، أخرج كتاباً من تحت العرض فيه : إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين .

قال : فيخرج من النار مثل أهل الجنة ، أو قال مثلاً أهل الجنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمرو قال : إن لله مائة رحمة ، فاهبط منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا يتراحم بها الجن ، والإنس ، وطائر السماء ، وحيتان الماء ، ودواب الأرض وهوامها ، وما بين الهواء ، واختزن عنده تسعاً وتسعين رحمة ، حتى إذا كان يوم القيامة اختلج الرحمة التي كان أهبطها إلى أهل الدنيا ، فحواها إلى ما عنده فجعلها في قلوب أهل الجنة وعلى أهل الجنة .

وأخرج ابن جرير عن أبي المخارق زهير بن سالم قال : قال عمر لكعب : ما أول شيء ابتدأه الله من خلقه ؟ فقال كعب : كتب الله كتاباً لم يكتبه بقلم ولا مداد ، ولكن كتب بأصبعه يتلوها الزبرجد واللؤلؤ والياقوت : أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتي غضبي .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله عن أبي قتادة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله للملائكة : ألا أحدثكم عن عبدين من بني إسرائيل ؟ أما

أحدهما فيرى بنو إسرائيل أنه أفضلهما في الدين والعلم والخلق ، والآخر أنه مسرف على نفسه . فذكر عند صاحبه فقال : لن يغفر الله له . فقال ألم يعلم أني أرحم الراحمين ، ألم يعلم رحمتي سبقت غضبي وإني أوجبت لهذا العذاب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تألوا على الله " .

(308/227)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، فجعل في الأرض منها رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها ، والبهائم بعضها على بعض ، وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة رحمة " .

وأخرج مسلم وابن مردويه عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، كل رحمة طباق ما بين السموات والأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة ، فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) ﴾

هذه الموجة الجديدة ذات المد العالي والإيقاع الرهيب ، تجيء في أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء ؛ وما ختم به هذا الحديث وما تخلله من التهديد المخيف ؛ مع توجيه الأنظار والقلوب إلى الاعتبار بمصارع المكذبين المستهزئين . . كما أنها تجيء بعد موجة الافتتاح السابقة للحديث عن المكذبين ؛ والتي عرضت حقيقة الألوهية في المجال الكوني العريض ؛ وفي المجال الإنساني العميق . وهي كذلك تعرض حقيقة الألوهية في مجالات أخرى ، بإيقاعات جديدة ؛ ومع مؤثرات كذلك جديدة . . فيقع الحديث عن التكذيب بين موجة الافتتاح وهذه الموجة ؛ ويبدو أمره في غاية النكارة وفي غاية البشاعة !

ولقد عرضت الموجة الأولى حقيقة الألوهية ممثلة في خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وخلق الإنسان من طين ، وقضاء الأجل الأول لعمره ، وتسمية الأجل الثاني لبعثه . مقررة شمول ألوهية الله للسماوات وللأرض ، وإحاطة علمه بسر الناس وجهرهم وما يكسبونه في السر والجهر . . كل أولئك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي . ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق في الحياة الإنسانية . من إسلامها بجملتها لله وحده ، لا تعدل به أحداً ، ولا تمتري في هذه الوحدانية . ومن إقرارها بشمول الألوهية لشئون الكون ولشئون الحياة الإنسانية في السر والجهر . ومن ترتيب النتائج الطبيعية لهذه الحقائق في الاستسلام لحاكمية الله وحده في شؤون الحياة الأرضية كالاستسلام لهذه الحاكمية في الشؤون الكونية . .

فأما هذه الموجة الجديدة فتستهدف كذلك إبراز حقيقة الألوهية ، ممثلة في الملك والفاعلية ، وفي الرزق والكفالة ؛ وفي القدرة والقهر ؛ وفي النفع والضر . . كل ذلك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي . . ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه ؛ وتوحيد الاستسلام والعبودية . . واعتبار الولاية والتوجه مظهر الاستسلام والعبودية . فإذا أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يستنكر أن يتخذ

غير الله ولياً ؛ بين أن هذا الاستنكار قائم أولاً على أن الله يطعم ولا يطعم ؛ وقائم ثانياً على أن تولي غير الله نقض لما أُمر به من الإسلام وعدم الشرك أيضاً . .

(311/227)

ويصاحب عرض حقيقة الألوهية ، في هذه الصورة ولهذا الغرض ، جملة مؤثرات قوية تخلخل القلوب . تبدأ بعرض حقيقة الملكية لكل شيء . وحقيقة أن الله هو الذي يطعم ولا يطعم . وعرض العذاب الرعيب الذي يعد مجرد صرفه رحمة من الله وفوزاً عظيماً .

وعرض القدرة على الضر والخير . وعرض الاستعلاء والقهر . وعرض الحكمة والخبرة . .

ثم الإيقاع الرهيب المزلزل ، المتمثل في الأمر العلوي الهائل : قل . قل . قل :

فإذا تم هذا العرض بكل مؤثراته العميقة ، جاء الختام بالإيقاع العالي المجلجل . . إيقاع الإشهاد على التوحيد ، وإنكار الشرك ، والمفاصلة الحاسمة ؛ مصحوباً كذلك بالأمر العلوي في كل فاصلة : ﴿ قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ ﴾ .

. ﴿ قل : الله ﴾ . . ﴿ قل : لا أشهد ﴾ . . ﴿ قل : إنما هو إله واحد ﴾ . . مما يضفي على الجو كله رهبة غامرة ؛ ويضفي على الأمر كله طابع جد مرهوب !

﴿ قل : لمن ما في السماوات والأرض ؟ قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم إلى

يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن في الليل والنهار ، وهو السميع العليم ﴾ . .

إنه موقف المواجهة للبيان والتقرير ، ثم المفاصلة . . ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – لهذه المواجهة . مواجهة المشركين – الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق ؛ فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم – مواجهتهم بالسؤال عن الملكية – بعد الخلق – لكل ما في السماوات والأرض ، مسقصياً بهذا السؤال حدود الملكية في المكان :

﴿ ما في السماوات والأرض ﴾ . . مع تقرير الحقيقة التي لم يكونوا هم يجادولن فيها ؛ والتي حكى القرآن في مواضع إقرارهم الكامل بها :

﴿ قل : لمن ما في السماوات والأرض ؟ قل : لله ﴾ . .

(312/227)

ولقد كان العرب في جاهليتهم – على كل ما في هذه الجاهلية من ضلال في التصور ينشأ عنه انحطاط في الحياة – أرقى – في هذا الجانب – من الجاهلية " العلمية " الحديثة ، التي لا تعرف هذه الحقيقة ، والتي تغلق فطرتها وتعطلها دون رؤية هذه الحقيقة ! كانوا يعرفون

ويقررون أن لله ما في السماوات والأرض . ولكنهم ما كانوا يرتبون على هذه الحقيقة نتائجها المنطقية ؛ بإفراد الله سبحانه بالحاكمية فيما يملك ، وعدم التصرف فيه إلا بإذن الله وحده وشرعه . . وبهذا اعتبروا مشركين ، وسميت حياتهم بالجاهلية ! فكيف بمن يخرجون الحاكمية في أمرهم كله من اختصاص الله سبحانه ؛ ويزاولونها هم بأنفسهم ؟ ! بماذا يوصفون وبماذا توصف حياتهم ؟ لا بد من إعطائهم صفة أخرى غير الشرك . . فهو الكفر والظلم والفسق كما يقرر الله سبحانه . . أياً كانت دعواهم في الإسلام وأياً كانت الصفة التي تعطيها لهم شهادات الميلاد !

ونعود إلى الآية . لنجد السياق يلحق بهذا التقرير لملكية الله – سبحانه – لما في السماوات وما في الأرض ، أنه – سبحانه :

﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ . .

فهو سبحانه المالك ، لا ينازعه منازع ، ولكنه – فضلاً منه ومنة – كتب على نفسه الرحمة . كتبها بإرادته ومشيئته ؛ لا يوجبها عليه موجب ؛ ولا يقترحها عليه مقترح ؛ ولا يقتضيها منه مقتض – إلا إرادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة – وهي – الرحمة – قاعدة قضائه في خلقه ، وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة . . والاعتقاد إذن بهذه القاعدة يدخل في مقوّمات التصور الإسلامي ، فرحمة الله بعباده هي الأصل ، حتى في ابتلائه لهم أحياناً بالضراء . فهو يبتليهم ليعد طائفة منهم بهذا الابتلاء لحمل أمانته ، بعد الخلوص

والتجرد والمعرفة والوعي والاستعداد والتهيؤ عن طريق هذا الابتلاء ؛ وليميز الخبيث من الطيب في الصف ، وليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ؛ وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة .

. والرحمة في هذا كله ظاهرة . .

(313/227)

على أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال . فما من لحظة إلا وتغمر العباد فيها الرحمة . . إنما ذكرنا الرحمة في الابتلاء بالضراء ، لأن هذه هي التي قد تزيغ فيها القلوب والأبصار !

ولن نحاول نحن أن نتقصى مواضع الرحمة الإلهية أو مظاهرها – وإن كنا سنشير إشارة مجملة إلى شيء من ذلك فيما يلي – ولكننا سنحاول أن نقف قليلاً أمام هذا النص القرآني العجيب :

﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ .

وقد تكرر وروده في السورة في موضع آخر سيأتي : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ . .

إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضل الذي أشرنا من قبل إليه . . تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده . . تفضله – سبحانه – بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة . . مكتوبة عليه . . كتبها هو على نفسه ؛ وجعلها عهداً منه لعباده . . بمحض إرادته ومطلق مشيئته . . وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأملها وتذوق وقعها ؛ حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة . .

كذلك يستوقف النظر مرة أخرى ذلك التفضل الآخر الذي يتجلى في إخباره لعباده بما كتبه – سبحانه – على نفسه من رحمته . فإن العناية بإبلاغهم هذه الحقيقة هي تفضل آخر ، لا يقل عن ذلك التفضل الأول ! فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يبلغوا ما جرت به إرادة الله في الملأ الأعلى ؟ وأن يبلغوا بكلمات منه سبحانه يحملها إليهم رسوله ؟ من هم ؟ إلا أنه الفضل العميم ، الفائض من خلق الله الكريم ؟ !

إن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش ؛ كما يدعه في أنس وفي روْح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه !

ومثل هذه الحقائق ، وما تثيره في القلب من مشاعر ؛ ليس موكولاً إلى التعبير البشري ليبلغ شيئاً في تصويره ؛ وإن كان القلب البشري مهيأ لتذوقه ، لا لتعريفه !

(314/227)

وتمثل هذه الحقيقة في التصور الإسلامي يكوّن جانباً أساسياً من تصور حقيقة الألوهية ، وعلاقة العباد بها . . وهو تصوّر جميل مطمئن ودود لطيف . يعجب الإنسان معه لمناكيد الخلق الذين يتقولون على التصور الإسلامي في هذا الجانب ، لأنه لا يقول ببنوة أحد من عباد الله لله ! – على نحو ما تقول التصورات الكنسية المحرفة – فالتصور الإسلامي إذ يرتفع على هذه التصورات الصبيانية الطفولية ، يبلغ في الوقت ذاته من تصوير العلاقة الرحيمة بين الله وعباده هذا المستوى الذي يعجز التعبير البشري عن وصفه . والذي يترع القلب بحلاوة مذاقه ، كما يروعه بجلال إيقاعه . .

ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً ؛ وتسعهم جميعاً ؛ وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم .

وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات . فأما في حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها ؛ ولكننا نذكر منها لمحات في مجاليها الكبيرة :

إنها تتجلى ابتداء في وجود البشر ذاته . في نشأتهم من حيث لا يعلمون . وفي إعطائهم هذا الوجود الإنساني الكريم ؛ بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الإنسان على كثير من العالمين .

وتتجلى في تسخير ما قدر الله أن يسخره للإنسان ، من قوى الكون وطاقاته . وهذا هو الرزق في مضمونه الواسع الشامل . الذي يتقلب الإنسان في بحبوحة منه في كل لحظة من لحظات حياته .

وتتجلى في تعليم الله للإنسان ، بإعطائه ابتداء الاستعداد للمعرفة ؛ وتقدير التوافق بين استعداداته هذه وإيحاءات الكون ومعطياته . . هذا العلم الذي يتطاول به بعض المناكيد على الله ، وهو الذي علمهم إياه ! وهو من رزق الله بمعناه الواسع الشامل كذلك .

(315/227)

وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض ، بموالاة إرسال الرسل إليه بالهدى ، كلما نسي وضل ؛ وأخذه بالحلم كلما لج في الضلال ؛ ولم يسمع صوت النذير ، ولم يصغ للتحذير . وهو على الله هين . ولكن رحمة الله وحدها هي التي تمهله ، وحلم الله وحده هو الذي يسعه .

وتتجلى في تجاوز الله – سبحانه – عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب ، وبكتابة الرحمة على نفسه ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب .

وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها ، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها . والمضاعفة

بعد ذلك لمن يشاء . ومحو السيئة بالحسنة . . وكله من فضل الله . فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته . حتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما قال عن نفسه ، في معرفة كاملة بعجز البشر وفضل الله .

والإقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها ، وإعلان القصور والعيّ عنها ، هو أجدر وأولى . وإلا فما نحن ببالغين من ذلك شيئاً ! وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن ؛ فيتصل به ؛ ويعرفه ؛ ويطمئن إليه – سبحانه – ويأمن في كنفه ؛ ويستروح في ظله . . إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تمليها واستجلائها ، فضلاً على وصفها والتعبير عنها .

فلننظر كيف مثل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لهذه الرحمة بما يقرّبها للقلوب شيئاً ما :

أخرج الشيخان – بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " لما قضى الله الخلق – وعند مسلم : لما خلق الله الخلق – كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي . . وعند البخاري في رواية أخرى : إن رحمتي غلبت غضبي " .

(316/227)

" وأخرج الشيخان بإسناده عنه رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : جعل الله الرحمة مائة جزء . فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " .

وأخرج مسلم – بإسناده عن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – : " إن لله مائة رحمة . فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة " .

" وله في أخرى : إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة ، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض . فجعل منها في الأرض رحمة واحدة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض . فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة " .

وهذا التمثيل النبوي الموحي ، يقرب للإدراك البشري تصور رحمة الله تعالى . . ذلك إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها في الخلائق الحية ويتملاها ويعجب لها ، وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة ، والضعف والمرض ؛ وبالأقرباء والأوداء والأصحاب ؛ وبرحمة الطير والوحش بعضها على بعض – ومنها ما يدعو إلى الدهش والعجب – ثم يرى

أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمات الله سبحانه . . فهذا مما يقرب إلى إدراكه تصور هذه الرحمة الكبرى شيئاً ما !

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا ينى يعلم أصحابه ويذكرهم بهذه الرحمة الكبرى :

عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : " قدم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بسبي . فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها ، إذ وجدت صبياً في السبي ، فأخذته ، فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال – صلى الله عليه وسلم – : " أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ " قلنا : لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه . قال : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها " . (أخرجه الشيخان) .

(317/227)

وكيف لا . وهذه المرأة إنما ترحم ولدها ، من فيض رحمة واحدة من رحمات الله الواسعة ؟

ومن تعليم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية ، بهذا الأسلوب الموحي ، كان ينتقل بهم خطوة أخرى ؛ ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته ،

ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعاً ؛ ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها ، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل .

عن ابن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " الراحمون يرحمهم الله تعالى . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " . (أخرجه أبو داود والترمذي) .

وعن جرير – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا يرحم الله من لا يرحم الناس " . . (أخرجه الشيخان والترمذي) .

وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : قال – صلى الله عليه وسلم – : " لا تنزع الرحمة إلا من شقي " .

وعن أبي هريرة كذلك . قال : " قبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الحسن بن علي – رضي الله عنهما – وعنده الأقرع بن حابس . فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ! فنظر إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم قال : من لا يرحم لا يُرحم " . (أخرجه الشيخان) .

ولم يكن – صلى الله عليه وسلم – يقف في تعليمه لأصحابه – رضوان الله عليهم – عند حد الرحمة بالناس . وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شيء . وأن المؤمنين مأمورن أن

يتخلقوا بأخلاق الله ؛ وأن الإنسان لا يبلغ تمام إنسانيته إلا حين يرحم كل حي تخلقاً بخلق الله سبحانه ، وكان تعليمه لهم بالطريقة الموحية التي عهدناها :

(318/227)

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب . فشكر الله تعالى له فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ قال : في كل كبد رطبة أجر " . (أخرجه مالك والشيخان)

" وفي أخرى : إن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر ، قد أدلع (أي أخرج) لسانه من العطش فنزعت له موقها (أي خفها) فغفر لها به " .

" وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه – رضي الله عنه – قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر . فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها فأخذناهما . فجاءت الحمرة تعرّش (أو تفرش) – (أي ترخي جناحيها وتدنو من الأرض) فلما جاء رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - قال : " من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها " . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال : " من أحرق هذه ؟ " قلنا : نحن . قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار " . . (أخرجه أبو داود) . .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " قرصت نملة نبياً من الأنبياء . فأمر بقرية النمل فحرقت . فأوحى الله تعالى إليه : أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ؟ " . . (أخرجه الشيخان) .

وهكذا علم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحابه هدى القرآن . ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة . . أليس أنهم إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمات الله الكثيرة ؟ !

(319/227)

وبعد فإن استقرار هذه الحقيقة في تصور المسلم لينشىء في حسه وفي حياته وفي خلقه آثاراً عميقة ؛ يصعب كذلك تقصيها ؛ ولا بد من الاكتفاء بالإشارة السريعة إليها ، كي لا نخرج من نطاق الظلال القرآنية ، إلى قضية مستقلة !

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه - حتى

وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء ، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار – فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة ، وكل حالة ، وكل وضع ؛ وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه ، أو طرده من رحمته . فإن الله لا يطرد من رحمته أحداً يرجوها . إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها !

وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر ، وبالرجاء والأمل ، وبالهدوء والراحة . . فهو في كنف ودود ، يستروح ظلاله ، ما دام لا يُبعد عنه في الشرود !

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله . فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجرّىء على المعصية – كما يتوهم البعض – إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم . والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقية ! لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم ما يجري على ألسنة بعض المتصوفة من أنهم يلجون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم ، أو المغفرة ، أو الرحمة . . إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية !

كذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيراً قوياً في خلق المؤمن ، وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بأخلاق الله – سبحانه – وهو يرى نفسه مغموراً برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه – فيعلمه ذلك كله كيف يرحم ، وكيف يعفو ، وكيف يغفر . . كما رأينا في

تعليم الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه ؛ مستمداً تعليمه لهم من هذه الحقيقة الكبيرة . .

(320/227)

ومن مواضع رحمة الله التي تقررها الآية الكريمة : أن الله كتب ليجمعنهم إلى يوم القيامة :

﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض ؟ قل : لله . كتب على نفسه الرحمة . ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . . ﴾ . .

فمن هذه الرحمة المكتوبة ، ذلك الجمع الذي لا ريب فيه . . ذلك الجمع الذي يشي بما وراءه من عناية الله – سبحانه – بعباده من الناس ؛ فقد خلقهم لأمر ؛ واستخلفهم في هذه الأرض لغاية ، ولم يخلقهم عبثاً ، ولم يتركهم سدى .

ولكن يجمعهم إلى يوم القيامة – فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيئون إليه كما يفيء الراحل إلى وجهته – فيعطيهم جزاء كدحهم إليه ، وينقدهم أجر عملهم في دار الدنيا . فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر ؛ إنما يوفون أجورهم يوم القيامة . . وفي هذه العناية تتجلى الرحمة في مظهر من مظاهرها . . كما أن ما يتجلى من فضل الله في جزاء السيئة بمثلها ، والحسنة بعشرة أمثالها ، والإضعاف لمن يشاء ، والتجاوز عما يشاء لمن يشاء . . كل

أولئك من مظاهر الرحمة التي تتجلى في هذا الجمع أيضاً .

ولقد كان العرب في جاهليتهم – قبل أن يمن الله عليهم بهذا الدين ويرفعهم إلى مستواه الكريم – يكذبون بيوم القيامة – شأنهم في هذا شأن أهل الجاهلية " العلمية " الحديثة ! ! !

لذلك جاء التعبير في هذه الصيغة المؤكدة بشتى التوكيدات ، لمواجهة ذلك التكذيب :

﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ . .

ولن يخسر في هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا في الدنيا . . وهؤلاء لن يخسروا شيئاً ويكسبوا شيئاً . . هؤلاء خسروا كل شيء . . فقد خسروا أنفسهم كلها ، فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئاً . أليس أن الإنسان إنما يكسب لنفسه ؟ فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب ؟ ولمن يكسب ؟ !

﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ . .

(321/227)

لقد خسروا أنفسهم وفقدوها ؛ فلم تعد لهم نفس تؤمن ! . . هو تعبير دقيق عن حالة واقعة . . إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين – مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الإيمان ودلائله – هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم ! لا بد أن تكون أجهزة

الاستقبال والاستجابة الفطرية في كيانهم معطلة مخربة ؛ أو محجوبة مغلفة . فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها ، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية في كيانها ، ومن ثم فهم لا يؤمنون . . إذ أنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التي بها يؤمنون . . وهذا هو التفسير العميق لعدم إيمانهم مع توافر دلائل الإيمان وموحياته من حولهم . . وهذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم . وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم !

بعد ذلك يمضي السياق يستقصي الخلائق في الزمان – كما استقصاها في الآية السابقة في المكان – ليقرر تفرد الله – سبحانه – بملكيتها ؛ وعلمه – سبحانه – وسمعه المحيطين بها : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ، وهو السميع العليم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1047 . 1053 ﴾

(322/227)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" لِمَنْ " خَبَرٌ مقدَّمٌ واجبُ التقديم ، لاشْتِمَالِهِ على مَا لهُ صَدْرُ الكلام ، فإنَّ " مَنْ "

استفهامية [والمبتدأ " ما " وهي بمعنى " الذي "] ، والمعنى : لمن اسْتَقَرَّ الذي في السموات .

وقوله : " قُلْ للَّهِ " قيل : إنَّمَا أمَرَه أن يجيب ، وإن كان المقصود أن يُجِيبَ غيره ؛ ليكون أوَّل من بَادرَ بالاعتراف بذلك .

وقيل : لَمَّا سِأَلَهُمْ كأَنَّهم قالوا : لمن هو ؟ فقال اللَّهُ : قُلْ للَّهِ ، ذكره الجُرْجَانِيُّ فعلى هذا قوله : " قُلْ للّه " جوابٌ للسؤال المُضْمَرِ الصَّادِرِ من جهة الكُفَّارِ ، وهذا بَعِيدٌ ؛ لأنهم لم يكونوا يَشكُّون في أنَّهُ للَّهِ ، وإنما هذا سؤال تَبْكِيتٍ وتَوبِيخٍ ، ولو أجابوا لم يَسَعْهُمْ أن يُجيبوا إلاَّ بذلك .

وقال ابن الخَطيبِ : إنَّ اللَّهَ – تبارك وتعالى – أمَرَهُ بالسُّؤالِ أوَّلاً ، ثمَّ بالجواب ثانياً ، وهذا إنَّما يَحْسُنُ في المَوْضِعِ الذي يكونُ جوابُهُ قد بَلَغَ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره مُنْكِرٌ ، ولَمَّا كانت آثار الحدوث والإمْكان ظاهرة في ذَوَاتِ جميع الأجْسَامِ ، وفي جميع صفاتها ، ولا جَرَمَ كان الاعْتِرَافُ بأنها بأسرها للَّه تعالى ، ومِلْكٌ له ، ومَحَلُّ تَصَرُّفِهِ وقُدرَتِهِ ، لا جَرَمَ أمره بالسُّؤالِ أوّلاً ، ثم بالجواب ثانياً لِيَدُلَّ ذلك على الإقْرَارَ بهذا المعنى ممَّا لا سبيل إلى دفعه أَلْبَتَّةَ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] وقوله : " اللَّه " خبر مبتدأ محذوف أي : هو اللَّهُ .

قوله : " كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ " أي : قَضَى وأوْجَبَ إيجَابَ تَفَضُّلٍ ، لا تضمَّن من معنى القَسَمِ ،

وعلى هذا فلا توقُّف على قوله : " الرَّحْمَة " .

وقال الزجاج : إن الجملة في قوله : ليجمعنّكم " في محل نصب على أنها بَدَلٌ من الرحمةِ ؛ لأنه فسَّرَ قوله تعالى : " ليجمعنّكم " بأنه أمْهَلَكم وأمَدَّ لكم في العُمْرِ والرِّزْقِ مع كُفْركم ، فهو تفسيرٌ للرحمة .

وقد ذكر الفرَّاء هذين الوجهين : أعني أن الجملة تَمَّتْ عن قوله تعالى : " الرَّحْمَة " ، أو أنَّ " ليجمعنّكُمْ " بَدَلٌ منها ، فقال : إن شئت جعلت الرَّحْمَةَ غَايَة الكلام ، ثم اسْتَأْنَفْتَ بعدها " لَيَجْمَعَنّكُمْ " وإن شئت جَعَلْتَهَا في موضع نصبٍ كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ ﴾ [الأنعام : 54] قال شهابُ الدين – رحمه الله – : واسْتِشْهَادُهُ بهذه الآية الكريمة حَسَنٌ جداً .

(323/227)

ورَدَّ ابن عطيَّة هذا بأنه يَلْزَمُ دخول نون التوكيد [في الإيجاب قال : وإنما تدخل على الأمْر والنهي ، وجواب القَسَمِ ، ورد أبو حيان حصر ابن عطيَّة ورود نون التوكيد] فيما ذكر صحيحٌ ، وردّ كون " ليجمعنّكم " بدلاً من الرحمة بِوَجْهٍ آخر ، وهو أنَّ " ليجعنكم " جوابُ قَسَم ، وجملةُ الجوابِ وَحْدَهَا لا موضوع لها من الإعراب ، إنما يُحْكَمُ على مَوْضع جملتي

القَّسِمِ والجواب بمحلِّ الإعراب .

قال شهابُ الدين : وقد خلط مَكِّي المَذْهَبَيْنِ ، وجعلهما مذهباً واحداً ، فقال : " لَيَجْمَعَنَّكُمْ " في موضع نصبٍ على البَدَلِ من " الرحمة " واللام لام القَسَمِ ، فهي جواب " كَتَبَ " ؛ أنه بمعنى : أَوْجَبَ ذلك على نَفْسِهِ ، ففيه معنى القَسَم ، وقد يظهر جوابٌ عما أَوْرَدَهُ أبو حيَّانَ على غير مكي ، وذلك أنهم جَعَلُوا " لَيَجْمَعَنَّكُم " بَدَلاً من الرَّحْمَةِ – يعني هي وقَسِيمها المحذوف ، واستغنوا عن ذكر القَسَم ، لا سيما وهو غير مذكور .

وأمَّا مكِّي فلا يظهر هذا جواباً له ، لأَنَّه نَصَّ على أَنَّهُ جواب لـ " كتب " ، فمن حَيْثُ جَعَله جَوَاباً لـ " كَتَبَ " لا مَحَلَّ له ، ومن حَيْثُ جعله بَدَلاً كان مَحَلُّه النَّصْبَ ، فَتَنَافَيَا ، والذي ينبغي في هذه الآيةِ الكريمةِ أنْ يكون الوَقْفُ عند قوله : " الرحمة " .

وقوله : " ليجمعنّكم " جوابُ قَسَم محذوف أي : " واللَّهِ ليجمعنَّكُم " ، والجملة القَسِمِيَّةُ لا مَحَلَّ لها بما قبلها من حَيْثُ الإعْرَاب ، وإنْ تعلَّقت به من حَيْثُ المعنى .

و " إلى " على بابها ، أي : ليجمعنّكم منتهين إلى يوم القيامة .

وقيل : هي بمعنى " اللاَّم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾ [آل عمران : 9] وقيل : بمعنى " في " أي : لَيَجمعنَّكُمْ في يوم القيامة .

(324/227)

وقيل : هي زائدة ، أي : ليجمعنكم يوم القيامة ، وقد يشهد له قراءة من قرأ ﴿ تهوي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : 37] بفتح " الواو " إلاَّ أنه لا ضرورةَ هنا إلى ذلك .

وتقدَّمَ الكلامُ في ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى ﴾ في أول " البقرة " [البقرة : 2] والجملة حالٌ من " يوم " والضمير في " فيه " يَعُودُ على " اليوم " .

وقيل : يَعُودُ على الجَمْعِ المدلول عليه بالفَعْلِ ؛ لأنه رَدٌّ على منكري القيامة .

قوله : " الَّذِينَ خَسِرُوا " فيه ستَّة أوجه :

أحدهما : أنه مَنْصُوبٌ بإضمار " أذُمُّ " ن وقَدَّره الزَّمخشري بـ " أريد " ، وليس بظَاهرٍ .

الثاني : أنه مبتدأ أُخْبِرَ عنه بقوله : " فهم لا يُؤمِنُون " ، وزيدت الفاءُ في خبرهِ لِمَا تَضَمَّنَ من معنى الشَّرْطِ ، قاله الزجاج ، كأنه قيل : مَنْ يَخْسَرْ نَفْسَهُ فهو لا يؤمن .

الثالث : أنه مجرور على أنه نَعْتٌ للمكذِّبين .

الرابع : أنه بَدَلٌ منهم ، وهذان الوَجْهَانِ بعيدان .

الخامس : أنه مَنْصُوبٌ على البَدَلِ من ضمير المُخَاطب ، [وهذا] قد عرفت ما فيه غير مَرَّةٍ ، وهو أنه يُبْدَل من ضمير الحَاضِر بَدَل كُلٍّ من كل في غير إحاطة ولا شمول أم لا ؟

ومذهبُ الأخفشِ جوازه ، وقد تقدَّم دَلِيلُ الفَرِيقَيْنِ ، وردَّ المبردُ عليه مَذْهَبَهُ ، بأنَّ البَدَلَ من ضمير الخطابِ لا يجوز ، كما لا يجوز : " مررتُ بِكَ زيد " وهذا عجيب ؛ أنه اسْتِشْهَادٌ

بمحلِّ النزاع ، وهو " مَرَتُ بك زيدٍ " ، وردَّ ابن عطيَّة – رحمه الله تعالى – ردَّه فقال : " ما في الآية مُخَالِفُ للمثال ؛ لأنَّ الفائدة في البدل مُتَرتِّبَةٌ من الثاني ، فأمَّا في " مررتُ بك زيدٍ " فلا فائدة في الثاني .

وقوله : " لِيَجمَعَنَّكُمْ " يَصْلُحُ لِمُخَاطَبَةِ النَّاس كافَّةً ، فيفيدنا إبدال " الَّذينَ " من الضمير أنهم هم المختصُّون بالخِطَابِ ، وخُصُّوا على جهة الوَعيدِ ، ويجيءُ هذا إبْدال البعضِ من الكُلِّ " .

(325/227)

قال أبو حيَّان : " هذا الرَّدُ ليس بِجَيِّدٍ ؛ لأنه إذا جعلنا " لِيَجْمَعَنَّكُم " صالحاً لِخِطَابِ جميع النَّاس كان " الَّذين " بَدَلَ بعض ، ويحتاج إذا ذالك إلى ضميرٍ ، تقديره : خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِيْهُمْ وقوله : " فيفيدنا إبْدَال الذين من الضمير أنهم هم المُخْتَصُّون بالخَطَابِ ، وخُصُّوا على جِهَةِ الوعيدِ " وهذا يقتضي أن يكون بدل كلّ ، فتناقَضَ أوَّل كلامه مع آخره ؛ لأنه من حَيْثُ الصَّلاحِيَّةُ بدل بعض ، ومن حيث اخْتِصاص الخِطَابِ بهم يكون بدل كُلّ ، فَتَنَاقَضَا " .

قال شهابُ الدِّينِ : ما أَبْعَدَهُ عن التَّنَاقُضِ ، لأن بدل البعض من الكُلِّ من حملةِ الخصّصَات ، كالتخصيص بالصِّفةِ والغاية والشرط ، نصَّ العلماء – رضي الله عنهم – على ذلك فإذا

تقرَّرَ هذا ، فالمُبْدَلُ منه بالنسبة إلى اللَّفظِ في الظاهرِ عامٌّ ، وفي المعنى ليس المُرَادُ به إلاَّ ما أرَادَهُ المتكلِّم ، فإذا وردَ : " واقتلوا المُشركين بين فلان " مثلاً ، فالمشركون صالحٌ لكُلِّ مُشْرِكٍ من حيثُ اللَّفظِ ، ولكنَّ المُرادَ به بَنُو فلان ، فالعموم في اللفظ والخُصُوص في المعنى ، فكذا قَوْلُ أبي مُحَمَّدٍ لمُخَاطَبَةِ الناس ، معناه أنه يَعُمُّهُمْ لَفْظاً .

وقوله " فيفيدنا إبدال الضمير إلى آخره " هذا هو المُخَصِّص فلا يجيء تناقُضَ أَلْبَتَّة ، وهذا مقرر في " أصول الفقه " .

السادس : أنه مَرْفُوعٌ على الذَّمِّ ، قاله الزَّمخشري ، وعبارته فيه وفي الوجه الأول : " نَصْبٌ على الذم أو رَفْعٌ ، أي : أريد الذين خَسِرُوا أنفسهم ، أو أنتم الذين خَسِرُوا أنفسهم " انتهى .

(326/227)

قال شهابُ الدين – رحمه الله تعالى – : " إنما قَدَّر المبتدأ " أنتم " ليرتبط مع قوله : " ليجمعنَّكم " ، وقوله : " خسروا أنفسهم " من مُراعاةِ الموصول ، ولو قال : " أنتم الَّذين خسروا أنفسكم " مُراعَاةً للخطابِ لجَازَ ، تقول : أنت الذي قَعَدَ وإن شئت : قَعَدْتَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 44 . 51 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) ﴾

سَلْهُم هل في الدار ديار ؟ وهل للكوْنِ – في التحقيق – عند الحق مقدار ؟ فإنْ بقوا عن جوابٍ يَشْفِي ، فَقُلْ : الله في الربوبية يكفي .

قوله : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ : أخبرَ وحَكَمَ وأرادَ على حسب ما عَلِمَ ، فَمَنْ تَعلَّقَ بنجاته عِلْمُه سَبَقَ بدرجاته حُكْمُه ، ومَنْ عَلِمَهُ في آزاله أنه يَشْقَى فبقدر شقائه في البلاء يبقى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 463 ﴾

(327/227)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

مكية [إلا الآيات 20 و23 و91 و93 و114 و141 و151 و152 و153 فمدنية] وعن ابن عباس : غير ست آيات ، وآياتها 165 [نزلت بعد الحجر] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأنعام (6) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)

جَعَلَ يتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كقوله وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير ، كقوله وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً والفرق بين الخلق والجعل : أن الخلق فيه معنى التقدير «1» وفي الجعل معنى التضمين ، كإنشاء شيء من شيء ، أو تصيير شيء شيئا ، أو نقله من مكان إلى مكان . ومن ذلك وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها ، وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ : لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، والنور من النار وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً . فإن قلت : لم أفرد النور «2» ؟ قلت : للقصد إلى الجنس ،

---

(1) . قال محمود : «الفرق بين الجعل والخلق أن الخلق فيه معنى التقدير . . . الخ» قال أحمد : وقد وردت «جعل» و«خلق» موردا واحدا فورد وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وورد

وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها وذلك ظاهر في الترادف ، إلا أن للخاطر ميلا إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري . ويؤيده أن «جعل» لم يصحب السموات والأرض ، وإنما لزمتها «خلق» وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السموات والأرض ، والجعل إلى الظلمات والنور مصداق للمميز بينهما ، واللَّه أعلم .

(2) . عاد كلامه . قال : فإن قلت : لم أفرد النور ؟ قلت : للقصد . . . الخ» قال أحمد : وقد سبق للزمخشري الاستدلال بجمع الجنس على التكثير ، واعتقاد أنه أدل على الكثرة من الافراد . وقد قدمنا ما في ذلك من النظر ، وأسلفنا الاستدلال بقول حبر الأمة : كتابه أكثر من كتبه ، على خلاف ذلك» وهو رأى الامام أبى المعالي .

ولو قال الزمخشري . إن جمع الظلمات لاختلافها بحسب اختلاف ما ينشأ عنه من أجناس الأجرام ، وإفراد النور لاتحاد الجنس الذي ينشأ عنه وهو النار لكان أولى ، واللّه أعلم .

(328/227)

كقوله تعالى وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها أو لأن الظلمات كثيرة ، لأن ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل ، وظله هو الظلمة ، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار . فإن قلت : علام عطف قوله ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ «1» ؟ قلت : إما على قوله الْحَمْدُ

لِلَّهِ على معنى أن اللّه حقيق بالحمد على ما خلق ، لأنه ما خلقه إلا نعمة ، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكافرون نعمته وإما على قوله خَلَقَ السَّماواتِ على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه . فإن قلت : فما معنى ثم ؟ قلت : استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته ، وكذلك ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 2]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2)

ثُمَّ قَضى أَجَلًا أجل الموت وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ أجل القيامة . وقيل : الأجل الأوّل : ما بين أن يخلق إلى أن يموت . والثاني : ما بين الموت والبعث وهو البرزخ . وقيل : الأوّل النوم .

والثاني : الموت . فإن قلت : المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب تأخيره «2» فلم جاز تقديمه

---

(1) . عاد كلامه . قال : «فان قلت علام عطف ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . . . الخ» ؟ قال أحمد : وفي هذا الوجه الثاني نظر من حيث أن عطفه على الصلة يوجب دخوله في حكمها . ولو قال الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ لم يسند ، لخلو الجملة من العائد . ويمكن أن يقال : وضع الظاهر الذي هو بِرَبِّهِمْ موضع المضمر تفخيما

وتعظيما . وأصل الكلام : الذي يعدل به الذين كفروا ، أو الذي الذين كفروا يعدلون به ، باتساع وقوعها صلة ، رعاية لهذا الأصل ، فهذا نظر من حيث الإعراب . ونظيره قوله تعالى وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ فيمن جعل «ما» موصولة لا شرطية ، فان دخول جاءكم وما بعده في حكم الصلة يستدعى ضميراً عائداً إلى الموصول ، وهو مفقود لفظاً ، لأن الظاهر وضع فيه موضع المضمر . والأصل :

ثم جاءكم رسول مصدق له ، فاستقام عطفه ودخوله في حكم الصلة بهذه الطريقة ، لكن بقي في آية الأنعام هذه نظر في المعنى على الإعراب المذكور ، وهو أنه يصير التقدير : الحمد للّه الذي ، الذين كفروا يعدلون ، ووقوع هذا عقيب الحمد غير مناسب كما ترى . فالوجه – واللّه أعلم – عطفه على أول الكلام ، لا على الصلة ، واللّه الموفق . [. . . . .]

(2) . قال محمود : «إن قلت المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب . . . الخ» قال أحمد : وليس في إرادة هذا المعنى موجب للتقديم . وقد ورد وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ في سياق التعظيم لها ، وهو مع ذلك مؤخر عن الخبر في قبله وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فالظاهر – واللّه أعلم – أن التقديم إنما كان لأن الكلام منقول من كلام آخر ، وكان الأصل – واللّه أعلم – ثم قضى أجلا وأجل

مسمى عنده ، إذ كلاهما مقضي . فلما عدل بالكلام عن العطف الافرادى تمييزا بين الأجلين رفع الثاني بالابتداء وأقر بمكانه من التقديم والله أعلم .

(329/227)

في قوله وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ؟ قلت : لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة ، كقوله وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ . فإن قلت : الكلام السائر أن يقال : عندي ثوب جيد ، ولى عبد كيس ، وما أشبه ذلك ، فما أوجب التقديم ؟ قلت : أوجبه أن المعنى : وأى أجل مسمى عنده تعظيما لشأن الساعة ، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم .

[سورة الأنعام (6) : آية 3]

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (3)

فِي السَّماواتِ متعلق بمعنى اسم اللّه ، «1» ، كأنه قيل وهو المعبود فيما . ومنه قوله وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ أو هو المعروف بالإلهية أو المتوحد بالالهية فيها ، أو هو الذي «2» يقال له – اللّه – فيها لا يشرك به في هذا الاسم . ويجوز أن يكون اللَّهُ فِي السَّماواتِ خبراً بعد خبر ، على معنى : أنه اللّه – وأنه في السموات والأرض ، بمعنى : أنه عالم بما فيهما لا يخفى عليه منه شيء ، كأن ذاته فيهما . فإن قلت : كيف موقع قوله يَعْلَمُ

سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ؟ قلت : إن أردت المتوحد بالإلهية كان تقريراً له ، لأن الذي استوى في علمه السر والعلانية هو - اللّه - وحده ، وكذلك إذا جعلت في السموات خبراً بعد خبر ، وإلا فهو كلام مبتدأ بمعنى : هو يعلم سركم وجهركم . أو خبر ثالث وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ من الخير والشر ، ويثبت عليه ، ويعاقب .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 4 إلى 5]

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (5)

مِنْ فِي مِنْ آيَةٍ للاستغراق . وفي مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ للتبعيض . يعنى : وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار ، إلا كانوا عنه معرضين : تاركين للنظر لا يلتفتون إليه ولا يرفعون به رأساً ، لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب فَقَدْ كَذَّبُوا مردود على كلام محذوف ، كأنه قيل : إن كانوا معرضين عن الآيات ، فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها

---

(1) . قال محمود : «في السموات متعلق بمعنى اسم اللّه . . . الخ» قال أحمد : وما الآيتان الكريمتان إلا توأمتان ، فان التمدح في آية الزخرف وقع بما وقع التمدح به هاهنا ، من القدرة على الاعادة والاستئثار بعلم الساعة والتوحد في الألوهية ، وفي كونه تعالى المعبود في السموات والأرض .

(2) . عاد كلامه . قال : أو هو المعروف بالألوهية أو هو الذي يقال له – اللّه – فيهما . . . الخ» قال أحمد : وهذه الوجوه كلها كأن التعبير وقع فيها بالملزوم عن لوازمه المشهورة به ، كما وقع ذلك في قوله :

أنا أبو النجم وشعري شعري

أى المعروف المشهور ، لأنه بنى على أنه متى ذكر شعره فهم السامع عند ذكره خواصه من الجودة والبلاغة وسلامة النسج ، لاشتهاره بذلك ، فاقتصر على قوله «شعري» اتكالا على فهم السامع .

(330/227)

وهو الحق لَمَّا جاءَهُمْ يعني القرآن الذي تحدّوا به على تبالغهم في الفصاحة فعجزوا عنه فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ الشيء الذي كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ وهو القرآن ، أى أخباره وأحواله ، بمعنى :

سيعلمون بأى شيء استهزءوا . وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء ، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة ، أو عند ظهور الإسلام وعلوّ كلمته .

[سورة الأنعام (6) : آية 6]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6)

مكن له في الأرض : جعل له مكانا فيها . ونحوه : أرّض له . ومنه قوله إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وأمّا مكنته في الأرض فأثبته فيها . ومنه قوله وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ولتقارب المعنيين جمع بينهما في قوله مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم ، من البسطة في الأجسام ، والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا . والسماء المظلة ، لأن الماء ينزل منها إلى السحاب ، أو السحاب أو المطر . والمدرار : المغزار . فإن قلت : أى فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم ؟ قلت : الدلالة على أنه لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده منهم ؟ فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده ، كقوله تعالى : وَلا يَخافُ عُقْباها

[سورة الأنعام (6) : الآيات 7 إلى 9]

وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (9)

كِتاباً مكتوبا فِي قِرْطاسٍ في ورق فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ولم يقتصر بهم على الرؤية ، لئلا يقولوا

«1» سكرت أبصارنا ، ولا تبقى لهم علة . لقالوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ تعنتا وعناداً

---

(1) . قال محمود : «ولم يقتصر بهم على الرؤية لئلا . . . الخ» قال أحمد : والظاهر أن فائدة زيادة لمسهم له بأيديهم تحقيق القراءة على قرب ، أى فقرءوه وهو في أيديهم لا بعيدا عنهم لما آمنوا ، وإلا فالحظ لا يدرك باللمس حتى يجعل فائدة زيادته إدراكه بوجهين ، كما يفهم من كلام الزمخشري .

(331/227)

للحق بعد ظهوره لَقُضِيَ الْأَمْرُ لقضى أمر إهلاكهم ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ بعد نزوله طرفة عين «1» . إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في صورته «2» وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ، ثم لا يؤمنون كما قال : وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى لم يكن بدّ من إهلاكهم ، كما أهلك أصحاب المائدة . وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة «3» فيجب إهلاكهم . وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون . ومعنى ثُمَّ بعد ما بين الأمرين : «4» قضاء الأمر ، وعدم الإنظار . جعل عدم الإنظار أشدّ من قضاء الأمر ، لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا لأنهم

كانوا يقولون : لولا أنزل على محمد ملك . وتارة يقولون : ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ، لَجَعَلْناهُ رَجُلًا لأرسلناه في صورة رجل ، كما كان ينزل جبريل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في أعلم الأحوال في صورة دحية «5» لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ

---

(1) . قال محمود : «يعنى لا ينظرون بعد نزوله طرفة عين . . . الخ» قال أحمد : لا يحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك ، فانه ربما يفهم هذا الكلام أن الآيات التي لزمهم الايمان بها دون نزول الملك في الوضوح ، وليس الأمر كذلك . فالوجه – واللّه أعلم – أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك ، وعدم إيمانهم أنهم اقترحوا مالا يتوقف وجوب الايمان عليه ، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه ، المعجز من حيث كونه معجزاً ، لا المعجز الخاص . فإذا أجيبوا على وقف مقترحهم فلم ينجع فيهم ، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب لعدم النظرة ، واللّه أعلم .

(2) . متفق عليه من روآية مسروق عن عائشة : أن النبي صلى اللّه عليه وسلم رأى جبريل في صورته مرتين .

وفي روآية لها : رأى جبريل له ستمائة جناح .

(3) . عاد كلامه . قال : «وإما لأنه يزول الاختيار الذي قاعدة التكليف مبنية عليه عند نزول الملك فيجب إهلاكهم وإما لأنهم إذا شاهدوا الملك في صورته زهقت أرواحهم من

هول ما يشاهدون» قال أحمد : ويقوى هذا الوجه قوله : ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا .

قال ابن عباس : ليتمكنوا من رؤيته ولا يهلكوا من مشاهدة صورته .

(4) . عاد كلامه . قال : «و معنى – ثم – بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر . . . الخ» قال أحمد : وهذه النكتة من محاسن ، تنبيهاته .

(5) . متفق عليه من رواية أبى عثمان النهدي عن أسامة بن زيد قال «نبئت أن جبريل أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم وعنده أم سلمة ، فجعل يتحدث ، ثم قام فقال نبى اللّه لأم سلمة : من هذا ؟ فقالت : دحية الكلبي . . . الحديث» وللحاكم من رواية مسروق عن عائشة قالت : «لقد رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يناجى في حجري رجلا شبهته بدحية الكلبي . فقال لي : هذا جبريل ، وهو يقرئك السلام» وللطبراني من رواية قتادة عن أنس «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يقول : يأتينى جبريل على صورة دحية الكلبي» قال أنس «و كان دحية رجلا جسيما جميلا أبيض» وفي إسناده عفير بن سعد ان وهو ضعيف ولأبى نعيم في الدلائل من رواية صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «رأيت جبرئيل في خلقه الذي خلق عليه ، وكنت أراه قبل ذلك في صور مختلفة وأكثر ما كنت أراه في صورة دحية الكلبي» رجاله ثقات ، إلا أنه مرسل وروى ابن سعد من طريق يحيى بن يعمر عن ابن عمر «كان جبريل يأتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في صورة دحية الكلبي» .

ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ ، فإنهم يقولون . إذا رأوا الملك في صورة إنسان : هذا إنسان وليس بملك ، فإن قال لهم : الدليل على أني ملك أني جئت بالقرآن المعجز ، وهو ناطق بأني ملك لا بشر - كذبوه كما كذبوا محمداً صلى اللّه عليه وسلم ، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن ، فهو ليس اللّه عليهم . ويجوز أن يراد : وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات اللّه البينة : وقرأ ابن محيصن : ولبسنا عليهم ، بلام واحدة . وقرأ الزهري : وللبسنا عليهم ما يلبسون ، بالتشديد .

[سورة الأنعام (6) : آية 10]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عما كان يلقى من قومه فَحاقَ بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزؤن به وهو الحق ، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به

[سورة الأنعام (6) : آية 11]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)

فإن قلت : أى فرق بين قوله فَانْظُرُوا وبين قوله ثُمَّ انْظُرُوا «1» قلت : جعل النظر «2» مسبباً عن السير في قوله فَانْظُرُوا فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين . وأما قوله سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين . ونبه على ذلك بثم ، لتباعد ما بين الواجب والمباح.

[سورة الأنعام (6) : آية 12]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (12)

لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ سؤال تبكيت ، وقُلْ لِلَّهِ تقرير لهم ، أى هو – اللّه – لا خلاف بيني وبينكم ، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئا منه إلى غيره كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أى أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته ، ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرون

---

(1) . قال محمود : «إن قلت أى فرق بين قوله فانظروا وبين قوله ثم انظروا . . . الخ» قال أحمد : وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحداً ، ليكون ذلك سبباً في النظر ، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية ، وحيث دخلت «ثم» فللتنبيه على أن

النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير . وشتان بين المقصود والوسيلة والله أعلم .

(2) . قوله «النظر» لعله «بالنظر» . (ع)

(333/227)

به من خلق السموات والأرض ، ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ فيجازيكم على إشراككم . وقوله الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ نصب على الذم ، أو رفع : أى أريد الذين خسروا أنفسهم ، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم . فإن قلت : كيف جعل عدم إيمانهم مسبباً عن خسرانهم ، والأمر على العكس ؟ قلت :

معناه : الذين خسروا أنفسهم في علم الله : لاختيارهم الكفر . فهم لا يؤمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 3 . 9﴾

(334/227)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : حمد نفسه القديم الأزلي بكلامه القديم الأزلي على أن خلق سموات القلوب وأرض النفوس وجعل الظلمات . أي الصفات البهيمية والسبعية في النفوس والنور في القلوب وهو صفاتها الملكية والروحانية ، فخص الجعل بالمعاني التي هي من عالم الأمر والخلق بالأعيان لأنها من عالم الصورة ، ولهذا لما ذكر صورة آدم قال ﴿ إني خالق بشراً من طين ﴾ [ص : 71] وحيث أراد معناه قال ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] ثم بعد هذا الجعل والخلق مال نفوس الكفار بغلبات الظلمات إلى طاغوت الهوى فجعلوه عديلاً لربهم ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ للروح المفارق عن حضرته لأيام فراقه ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ وهو أجل الوصال بعد الفراق بجذبة ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر : 28] ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ يا أهل الوصال كما يمتري أهل الفراق وهذا محال ﴿ وهو الله ﴾ في سموات القلوب وفي أرض النفوس يعلم سر الخلافة الذي أودع فيكم ﴿ وجهركم ﴾ الذي يظهر عنكم ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ باستعمال الاستعداد السري والجهري في المأمورات والمنهيات في الخير أو الشر ﴿ من آية من آيات ربهم ﴾ في الآفاق وفي أنفسهم مكناهم في طلب الحق من قهر النفس وأسباب الخيرات والطاعات .

وأرسلنا مطر الواردات من سماء القلوب عليهم مدراراً متوالياً ، وجعلنا أنهار الحكمة

تجري من تحت نظرهم فأهلكنا مع هذه المقدمات أرواحهم بسموم ذنوب طلب الدنيا ما لها وجاهها ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ من الطلاب الصادقين التائبين المستقيمين ﴿ لجعلناه رجلاً ﴾ ليفهموا خطابه ويكون واقفاً على الأحوال البشرية فيعالجهم بما يرى فيه صلاح حالهم كما قال ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ [إبراهيم : 4] قل سيروا في أرض النفوس بقدم التقوى ومخالفة الهوى إلى أن تبلغوا سواحل بحار القلوب فتشاهدوا بأنوار الله المودعة فيها عاقبة من هلكوا في بوادي القطيعة إذ ساروا بقدم الطبيعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 53 ﴾

(335/227)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ أي سموات عالم الأرواح وأرض عالم الجسم ، ويقال : الروح سماء القلب لأن منها ينزل غيث الإلهام والقلب أرضها لأنه فيه ينبت زهر الحكمة ونور المعرفة ﴿ وَجَعَلَ الظلمات ﴾ أي وأنشأ في عالم الجسم ظلمات المراتب التي هي حجب ظلمانية للذات المقدس وأنشأ في عالم الأرواح نور العلم والإدراك ، ويقال : الظلمات الهواجس والخواطر الباطلة والنور الإلهام

وقال بعضهم : الظلمات أعمال البدن والنور أحوال القلب .

ثم بعد ظهور ذلك ﴿ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] غيره ويثبتون معه سبحانه وتعالى من يساويه في الوجود وهو الله الذي لا نظير له في سائر صفاته ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ﴾ وهو طين المادة الهيولانية ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾ أي حداً معيناً من الزمان إذا بلغه السالك إلى ربه سبحانه وتعالى فنى فيه عز شأنه ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ وهو البقاء بعد الفناء ، وقيل : الأجل الأول هو الذي يقتضيه الاستعداد طبعاً بحسب الهوية وهو المسمى أجلاً طبيعياً للشخص بالنظر إلى مزاجه الخاص وتركيبه المخصوص بلا اعتبار عارض من العوارض الزمانية .

ونكر لأنه من أحكام القضاء السابق الذي هو أم الكتاب وهي كلية منزهة عن التشخصات إذ محلها الروح الأول المقدس .

(336/227)

والأجل الثاني هو الأجل المقدر الزماني الذي يقع عند اجتماع الشرائط وارتفاع الموانع وهو مثبت في كتاب النفس الفلكية التي هي لوح القدر ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾ بعد ما علمتم ذلك ﴿ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : 2] وتشكون في تصرفه فيكم كما يشاء ﴿ وَهُوَ الله فِى السموات

وَفِى الأرض ﴾ أي سواء ألوهيته بالنسبة إلى العالم العلوي والسفلي ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ ﴾ في عالم الأرواح وهو عالم الغيب ﴿ وَجَهْرَكُمْ ﴾ في عالم الأجسام وهو عالم الشهادة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : 3] فيهما من العلوم والحركات والسكنات وغيرها فيجازيكم بحسبها ، وقيل : المعنى يعلم جولان أرواحكم في السماء لطلب معادن الأفراح وتقلب أشباحكم في الأرض لطلب الوسيلة إلى مشاهدته ويعلم ما تحصلونه بذلك ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءايات رَبِّهِمْ ﴾ الأنفسية والآفاقية ﴿ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [الأنعام : 4] لسوء اختيارهم وعمى أعينهم عن مشاهدة أنوار الله تعالى الساطعة على صفحات الوجود ﴿ وَقَالُواْ ﴾ لضعف يقينهم ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ فنراه لتزول شبهتنا ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِىَ الأمر ﴾ [الأنعام : 8] أي أمر هلاكهم لعدم قدرتهم على تحمل مشاهدته ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ [الأنعام : 9] ليمكنهم مشاهدته ﴿ قُل لّمَن مَّا فِى السموات والأرض ﴾ أي ما في العالمين ﴿ قُل لِلَّهِ ﴾ إيجاداً وإفناءً ﴿ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ .

(337/227)

قال سيدي الشيخ الأكبر قدس الله تعالى سره : إن رحمة الله تعالى عامة وهي نعمة الامتنان التي تنال من غير استحقاق ، وهي المرادة في قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : 951] وإليها الإشارة بالرحمن في البسملة وخاصة وهي الواجبة المرادة بقوله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 156] وإليها الإشارة بالرحيم فيها .

ويشير كلامه قدس الله تعالى سره في "الفتوحات" إلى أن ما في الآية هو الرحمة الخاصة ، ومقتضى السياق أنها الرحمة العامة .

وذكر قدس الله تعالى سره في أثناء الكلام على الرحمة وقول الله عز شأنه يوم القيامة (شفعت الملائكة وشفعت النبيون والمؤمنون وبقي أرحم الراحمين إن رحمة الله تعالى سبقت غضبه) كما في الخبر فهي أمام الغضب فلا يزال غضب الله تعالى يجري في شأواه بالانتقام من العباد حتى ينتهي إلى آخر مداه فيجد الرحمة قد سبقته فتتناول منه العبد المغضوب عليه فتبسط عليه ويرجع الحكم لها فيه ، والمدى الذي يقطعه الغضب ما بين ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ [الفاتحة : 1] الذي في البسملة وبين ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ [الفاتحة : 3] الذي بعد ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] .

(338/227)

فالحمد لله رب العالمين هو المدى وأوله وآخره ما قد علمت ، وإنما كان ذلك عين المدى لأن فيه يظهر السراء والضراء ، ولهذا كان فيه الحمد وهو الثناء ولم يقيد بسراء ولا ضراء فيعمهما ، ويقول الشرع في حمد السراء : الحمد لله المنعم المتفضل ، ويقول في حمد الضراء : الحمد لله على كل حال ، فالحمد لله قد جاء في السراء والضراء فلهذا كان عين المدى ، وما من أحد في الدار الآخرة إلا وهو يحمد الله تعالى ويرجو رحمته ويخاف عذابه واستمراره عليه فجعل الله تعالى عقيب ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فالعالم بينهما بما هو عليه من محمود ومذموم ، وهذا شبيه بما جاء في سورة ألم نشرح وهو تنبيه عجيب منه سبحانه وتعالى لعباده ليتقوى عندهم الرجاء والطمع في رحمة الله تعالى .

(339/227)

وأنت إذا التفت أدنى التفات تعلم أنه ما من أثر من آثار البطش إلا وهو مطرز برحمة الله تعالى بل ما من سعد ونحس إلا وقد خرج من مطالع أفلاك الرحمة التي أفاضت شآبيبها على القوابل حسب القابليات ؛ ومما يظهر سبق الرحمة أن كل شيء موجود مسبوق بتعلق

الإرادة بإيجاده وإخراجه من حيز العدم الذي هو معدن كل نقص ، ولا ريب في أن ذلك رحمة كما أنه لا ريب في سبقه ، نعم تنقسم الرحمة من بعض الحيثيات إلى قسمين ، رحمة محضة لا يشوبها شيء من النقمة كنعيم الجنة وهي الطالعة من بروح اسمه سبحانه الرحيم ولكونه صلى الله عليه وسلم يحب دخول أمته الجنة ويكره لهم النار سماه الحق عز اسمه الرحيم في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] ، ورحمة قد يشوبها نقمة كتأديب الولد بالضرب رحمة به وكشرب الدواء المر البشع وهي المشرقة من مطالع آفاق اسمه عز اسمه الرحمن ، ولعل هذه الرحمة العامة هي المرادة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ (الأنبياء : 107) ثم اعلم أن سبق الرحمة الغضب يقتضي ظاهراً سبق تجليات الجمال على تجليات الجلال لأن الرحمة من الجمال والغضب من الجلال .

وذكر مولانا الشيخ عبد الكريم الجيلي قدس سره أن الجلال أسبق من الجمال .

فقد ورد في الحديث " العظمة إزاري والكبرياء ردائي " ولا أقرب من ثوب الرداء والإزار إلى الشخص .

ثم قال : ولا يناقض هذا قوله جل شأنه : (سبقت رحمتي غضبي) فإن الرحمة السابقة إنما هي بشرط العموم والعموم من الجلال .

وادعى أن الصفة الواحدة الجمالية إذا استوفت كمالها في الظهور أو قاربت سميت جلالاً لقوة ظهور سلطان الجمال فمفهوم الرحمة من الجمال وعمومها وانتهاؤها جلال ، وأنت تعلم أنه إذا فسر السبق بالمعنى الذي نقله النووي عن العلماء سابقاً وهو الكثرة والشمول فهو مما لا ريب في تحققه في الرحمة إذ في كل غضب رحمة وليس في كل رحمة غضب كما لا يخفى على من حقق النظر .

وبالجملة في رحمته سبحانه مطمع أي مطمع حتى أن إبليس يرجوها يوم القيامة على ما يدل عليه بعض الآثار .

وأحظى الناس بها إن شاء الله تعالى هذه الأمة .

نسأل الله تعالى لنا ولكم الحظ الأوفر منها ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ الصغرى أو الكبرى ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ في نفس الأمر وإن لم يشعر به المحجوبون ﴿ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بإهلاكها في الشهوات واللذات الفانية فحجبوا عن الحقائق الباقية النورانية واستبدلوا بها المحسوسات الفانية الظلمانية ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 21] لذلك ، نسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(341/227)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والعشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/228)

الجزء الثامن والعشرون بعد المائتين

من الآية ﴿ 13 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من نفس السورة

(4/228)

قوله تعالى ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما استنارت الأدلة استنارة الشمس وانتصبت البراهين حتى لم يبق أصلاً نوع لبس ، عم بالخبر عما تقدم مما يشاهدونه وغيره ، فقال ذاكراً الزمان بعد المكان ، وقدمه لأنه أظهر ، والمعلم الكامل هو الذي يبدأ بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى ، فتم بذلك الخبر عن الزمان والزمانيات والمكان والمكانيات : ﴿ وله ﴾ أي وحده ﴿ ما سكن ﴾ أي حل وتحيز وحصل ﴿ في الليل والنهار ﴾ أي ما من شأنه أن يسكن فيهما وإن كان متحركاً ، ولكنه عبر بذلك دون التحرك لأنها دار الموت ، ودخل في ذلك النور والظلمة اللذان أشرك بهما من أشرك .

ولما دل ما مضى على القدرة التامة ، وانقسم إلى متحرك وساكن ، وكانت القدرة لا تتم إلا بالعلم ، دل عليه بقوله : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ السميع ﴾ أي البالغ السمع لكل متحرك ﴿ العليم ﴾ أي العام العلم بالبصر والسمع وغيرهما بكل متحرك وبكل ساكن من أقوالكم وأفعالكم وغيرهما ، فلا تطمعوا في أن يترك شيء من مجازاتكم ، والعليم هنا أبلغ من البصير ، وذلك مثل ما تقدم في قوله : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم ﴾ [المائدة : 76] وهو ترجمة قوله : ﴿ يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ [الأنعام : 3] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 595 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن أحسن ما قيل في نظم هذه الآية ما ذكره أبو مسلم رحمه الله تعالى فقال : ذكر في الآية الأولى السماوات والأرض ، إذ لا مكان سواهما .

وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار إذ لا زمان سواهما ، فالزمان والمكان ظرفان للمحدثات ، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات ، ومالك للزمان والزمانيات ، وهذا بيان في غاية الجلالة .

وأقول ههنا دقيقة أخرى ، وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات ، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات ، وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات ، لدقائق مذكورة في العقليات الصرفة ، والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى ، فهذا ما يتعلق بوجه النظم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 138 . 139 ﴾

فصل

قال الثعلبى :

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الليل والنهار ﴾ الآية .

قال الكلبي : إن كفار مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد إنا قد علمنا أنه ما يحملك على ما تدعونا إليه إلاّ الحاجة ، فنحن نجمع ذلك من أموالنا ما نغنيك حتى تكون من أغنانا فأنزل اللّه تعالى قوله ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾ يفيد الحصر والتقدير : هذه الأشياء له لا لغيره ،

وهذا هو الحق لأن كل موجود فهو إما واجب لذاته ، وإما ممكن لذاته ، فالواجب لذاته ليس إلا الواحد .

وما سوى ذلك الواحد ممكن .

والممكن لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته ، وكل ما حصل بإيجاده وتكوينه كان ملكاً له ، فثبت أن ما سوى ذلك الموجود الواجب لذاته فهو ملكه ومالكه فلهذا السبب قال ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 139 ﴾

فصل

قال الفخر :

في تفسير هذا السكون قولان :

الأول : أن المراد منه الشيء الذي سكن بعد أن تحرك ، فعلى هذا ، المراد كل ما استقر في الليل والنهار من الدواب ، وجملة الحيوانات في البر والبحر وعلى هذا التقدير : قالوا في الآية محذوف والتقدير : وله ما سكن وتحرك في الليل والنهار كقوله تعالى : ﴿ سَرَابِيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : 81] أراد الحر والبرد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر لأنه يعرف ذلك بالقرينة المذكورة ، كذلك هنا حذف ذكر الحركة ، لأن ذكر السكون يدل عليه .

والقول الثاني : أنه ليس المراد من هذا السكون ما هو ضد الحركة ، بل المراد منه السكون بمعنى الحلول .

كما يقال : فلان يسكن بلد كذا إذا كان محله فيه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ [إبراهيم : 45] وعلى هذا التقدير : كان المراد ، وله كل ما حصل في الليل والنهار .

والتقدير : كل ما حصل في الوقت والزمان سواء كان متحركاً أو ساكناً ، وهذا التفسير أولى وأكمل .

والسبب فيه أن كل ما دخل تحت الليل والنهار حصل في الزمان فقد صدق عليه أنه انقضى الماضي وسيجيء المستقبل ، وذلك مشعر بالتغير وهو الحدوث ، والحدوث ينافي الأزلية والدوام ، فكل ما مرّ به الوقت ودخل تحت الزمان فهو محدث وكل حادث فلا بدّ له من محدث ، وفاعل ذلك الفعل يجب أن يكون متقدماً عليه والمتقدم على الزمان فهو محدث وكل حادث فلا بدّ له من محدث ، وفاعل ذلك الفعل يجب أن يكون متقدماً عليه والمتقدم على الزمان يجب أن يكون مقدماً على الوقت والزمان فلا تجري عليه الأوقات ولا تمر به الساعات ولا يصدق عليه أنه كان وسيكون .

واعلم أنه تعالى لما بيّن فيما سبق أنه مالك للمكان وجملة المكانيات ومالك للزمان وجملة

الزمانيات ، بين أنه سميع عليم يسمع نداء المحتاجين ويعلم حاجات المضطرين .

والمقصود منه الرد على من يقول الإله تعالى موجب بالذات ، فنبّه على أنه وإن كان مالكاً لكل المحدثات لكنه فاعل مختار يسمع ويرى ويعلم السر وأخفى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 139 ﴾

وقال الثعلبى :

قال أبو روحى : إن من الخلق ما يستقر نهاراً وينتشر ليلاً ومنها ما يستقر ليلاً وينتشر نهاراً . وقال عبد العزيز بن يحيى ومحمد بن جرير : كلّ ما طلعت عليه الشمس وغيبت فهو من ساكن الليل والنهار والمراد جميع ما في الأرض لأنه لا شيء من خلق اللّه عز وجل إلاّ هو ساكن في الليل والنهار ، وقيل : معناه وله ما يمر عليه الليل والنهار .

وقال أهل المعاني : في الآية لغتان واختصار مجازها : وله ما سكن وشرك في الليل والنهار كقوله ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] والبرد وأراد في كل شيء ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لأصواتهم ﴿ العليم ﴾ بأسرارهم .

وقال الكلبي : يعني هو السميع لمقالة قريش العليم بمن يكسب رزقهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

فإن قيل : فلم قال ﴿ مَا سَكَنَ ﴾ ولم يقل ما تحرك ؟ قيل لأمرين :

أحدهما : أن ما يَعُمُّه السكون أكثر مما يَعُمُّه الحركة .

والثاني : لأن كل متحرك لا بد أن تنحل حركته سكوناً ، فصار كل متحرك ساكناً ، وقد

قال الكلبي : معناه وله ما استقر في الليل والنهار ، وهما الزمان كله ، لأنه لا زمان إلا ليل أو

نهار ، ولا فصل بينهما يخرج عن واحد منهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2

صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

فإن قيل : لم خص السكون بالذكر دون الحركة ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن السكون أعم وجوداً من الحركة .

والثاني : أن كل متحرك قد يسكن ، وليس كل ساكن يتحرك .

والثالث : أن في الآية إضماراً ، والمعنى : وله ما سكن وتحرك ؛ كقوله : ﴿ تقيكم الحر ﴾

[النحل : 82] أراد : والبرد ؛ فاختصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وله ما سكن ﴾ الآية ﴿ وله ﴾ عطف على قوله ﴿ لله ﴾ واللام للملك ، و﴿ ما ﴾ بمعنى الذي ، و﴿ سكن ﴾ هي من السكنى ونحوه أي ما ثبت وتقرر ، قاله السدي وغيره وقالت فرقة : هو من السكون ، وقال بعضهم : لأن الساكن من الأشياء أكثر من المتحرك إلى غير هذا من القول الذي هو تخليط ، والمقصد في الآية عموم كل شيء وذلك لا يترتب إلا أن يكون ﴿ سكن ﴾ بمعنى استقر وثبت وإلا فالمتحرك من الأشياء المخلوقات أكثر من السواكن ، ألا ترى إلى الفلك والشمس والقمر والنجوم والسابحة والملائكة وأنواع الحيوان والليل والنهار حاصران للزمان ﴿ وهو السميع العليم ﴾ هاتان صفتان تليقان بنمط الآية من قبل أن ما ذكر قبل من الأقوال الردية عن الكفرة العادلين هو سميع لهم عليم بمواقعها مجازٍ عليها ، ففي الضمير وعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾

لما ذكر تعالى أنه له ملك ما حوى المكان من السموات والأرض ، ذكر ما حواه الزمان من الليل والنهار وإن كان كل واحد من الزمان والمكان يستلزم الآخر ، لكن النص عليهما أبلغ في

الملكية وقدم المكان لأنه أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان وله قال الزمخشري وغيره ، هو معطوف على قوله ﴿ لِلَّهِ ﴾ والظاهر أنه استئناف إخبار وليس مندرجاً تحت قوله : قل ، و﴿ سكن ﴾ هنا قال السدّي وغيره : من السكنى أي ما ثبت وتقرر ، ولم يذكر الزمخشري غيره .

قال : وتعديه ب ﴿ في ﴾ كما في قوله : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ وقالت فرقة : هو من السكون المقابل للحركة واختلف هؤلاء .

فقيل : ثم معطوف محذوف أي وما تحرّك ، وحذف كما حذف في قوله : ﴿ تقيكم الحر ﴾ والبرد وقيل : لا محذوف هنا واقتصر على الساكن لأن كل متحرك قد يسكن وليس كل ما يسكن يتحرك .

(9/228)

وقيل : لأن السكون أكثر وجوداً من الحركة ، وقال في قوله : ﴿ والنهار ﴾ لأن من المخلوقات ما يسكن بالنهار وينتشر بالليل ، قاله مقاتل ، ورجح ابن عطية القول الأول .

قال : والمقصد في الآية عموم كل شيء وذلك لا يترتب إلا بأن يكون سكن بمعنى استقر وثبت ، وإلا فالمتحرك من الأشياء المخلوقات أكثر من السواكن ، ألا ترى أن الفلك

والشمس والقمر والنجوم السائحة والملائكة وأنواع الحيوان متحركة ، والليل والنهار حاصران للزمان ؛ انتهى .

وليس بجيد لأنه قال لا يترتب العموم إلا بأن يكون سكن بمعنى استقر وثبت ، ولا ينحصر فيما ذكر ، ألا ترى أنه يترتب العموم على قول من جعله من السكون وجعل في الكلام معطوفاً محذوفاً أي وما تحرك ، وعلى قول من ادعى أن كل ما يتحرك قد يسكن وليس كل ما يسكن يتحرك ، فكل واحد من هذين القولين يترتب معه العموم فلم ينحصر العموم فيما ذكر ابن عطية .

﴿ وهو السميع العليم ﴾ لما تقدم ذكر محاورات الكفار المكذبين وذكر الحشر الذي فيه الجزاء ، ناسب ذكر صفة السمع لما وقعت فيه المحاورة وصفة العلم لتضمنها معنى الجزاء ، إذ ذلك يدل على الوعيد والتهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾ يعني وله ما استقر وقيل ما سكن وما تحرك فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر وقيل إنما خص السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر وقال ابن جرير كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار فيكون المراد منه جميع ما حصل في الأرض من الدواب والحيوانات والطير وغير ذلك مما في البر والبحر وهذا يفيد الحصر والمعنى أن جميع الموجودات ملك لله تعالى لا لغيره ﴿ وهو

السميع ﴾ لأقوالهم وأصواتهم ﴿ العليم ﴾ بسرائرهم وأحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(10/228)

وقال القرطبى :

﴿ سَكَنَ ﴾ معناه هدأ واستقر ؛ والمراد ما سكن وما تحرك ، فحُذِف لعلم السامع .

وقيل : خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة .

وقيل : المعنى ما خلق ، فهو عام في جميع المخلوقات متحركها وساكنها ، فإنه يجري عليه الليل والنهار ؛ وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق ، وهذا أحسن ما قيل ؛ لأنه يجمع شتات الأقوال .

﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لأصواتهم ﴿ العليم ﴾ بأسرارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَهُ ﴾ أي لله عز وجل خاصةً ﴿ مَا سَكَنَ فِى اليل والنهار ﴾ نُزِّلَ الملوان منزلةَ المكان فعبّر عن نسبة الأشياء الزمانية إليهما بالسُكنى فيهما ، وتعديتُه بكلمة (في) كما

في قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مساكن الذين ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أو السكونِ مقابلَ الحركة ، والمرادُ ما سكن فيهما أو تحرّك فاكتفي بأحد الضدَّين عن الآخر ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ المبالغُ في سماع كلِّ مسموع ﴿ العليم ﴾ المبالغ في العلم بكلّ معلوم ، فلا يخفى عليه شيءٌ من الأقوال والأفعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(11/228)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَهُ ﴾ عطف على ﴿ لِلَّهِ ﴾ فهو داخل تحت ﴿ قُلْ ﴾ [الأنعام : 12] على أنه احتجاج ثان على المشركين وإليه ذهب غير واحد .

وقال أبو حيان : "الظاهر أنه استئناف إخبار وليس مندرجاً تحت الأمر" أي ولله سبحانه وتعالى خاصة .

﴿ مَا سَكَنَ فِى اليل والنهار ﴾ أي الوقتين المخصوصين .

و(ما) موصولة و﴿ سَكَنَ ﴾ إما من السكنى فيتناول الكلام المتحرك والساكن من غير تقدير ، وتعديتها بفي إلى الزمان مع أن حق استعمالها في المكان لتشبيه الاستقرار بالزمان بالاستقرار بالمكان ، وجوز أن يكون هناك مشاكلة تقديرية لأن معنى لله ما في السموات

والأرض ما سكن فيهما واستقر ، والمراد وله ما اشتملا عليه ، وإما من السكون ضد الحركة كما قيل ، وفي الكلام الاكتفاء بأحد الضدين كما في قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 18] والتقدير ما سكن فيهما وتحرك وإنما اكتفى بالسكون عن ضده دون العكس لأن السكون أكثر وجوداً وعاقبة كل متحرك السكون كما قيل

: إذا هبت رياحك فاغتنمها . . .

فإن لكل خافقة سكون

ولأن السكون في الغالب نعمة لكونه راحة ولا كذلك الحركة .

ورد بأنه لا وجه للاكتفاء بالسكون عن التحرك في مقام البسط والتقرير وإظهار كمال الملك والتصرف .

وأجيب بأن هذا المحذوف في قوة المذكور لسرعة انفهامه من ذكر ضده والمقام لا يستدعي الذكر وإنما يستدعي عموم التغيرات والتصرفات الواقعة في الليل والنهار ، ومتى التزم كون السكون مع ضده السريع الانفهام كناية عن جميع ذلك ناسب المقام .

(12/228)

وقيل : إن ما سكن يعم جميع المخلوقات إذ ليس شيء منها غير متصف بالسكون حتى المتحرك حال ما يرى متحركاً بناءً على ما حقق في موضعه من أن تفاوت الحركات بالسرعة والبطء لقلة السكنات المتخللة وكثرتها ، وفي معنى الحركة والسكون وبيان أقسام الحركة المشهورة كلام طويل يطلب من محله .

﴿ وَهُوَ السميع ﴾ أي المبالغ في سماع كل مسموع فيسمع هواجس كل ما يسكن في الملوين ﴿ العليم ﴾ أي المبالغ في العلم بكل معلوم من الأجناس المختلفة ؛ والجملة مسوقة لبيان إحاطة سمعه وعلمه سبحانه وتعالى بعد بيان إحاطة قدرته جل شأنه أو للوعيد على أقوالهم وأفعالهم ولذا خص السمع والعلم بالذكر ، وهي تحتمل أن تكون من مقول القول وأن تكون من مقول الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله : " ولَهُ مَا سَكَنَ " جملة معطوفة على ﴿ لله ﴾ من قوله : ﴿ قل لله ﴾ [الأنعام : 12] الذي هو في تقدير الجملة ، أي ما في السماوات والأرض لله ، وله ما سكن .

والسكون استقرار الجسم في مكان ، أي حيّز لا ينتقل عنه مدّة ، فهو ضدّ الحركة ، وهو من أسباب الاختفاء ، لأنّ المختفي يسكن ولا ينتشر .

والأحسن عندي أن يكون هنا كناية عن الخفاء مع إرادة المعنى الصريح .

ووجه كونه كناية أنّ الكلام مسوق للتذكير بعلم الله تعالى وأنّه لا يخفى عليه شيء من

أعمالكم ومحاسبكم عليها يوم يجمعكم إلى يوم القيامة ، فهو كقوله تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كلّ أنثى إلى أن قال ومن هو مستخف بالليل ﴾ [الرعد : 108] .

فالذي سكن بالليل والنهار بعض ما في السماوات والأرض ، فلمّا أعلمهم بأنّه يملك ما في السموات والأرض عطف عليه الإعلام بأنه يملك ما سكن من ذلك لأنّه بحيث يُغفل عن شمول ما في السماوات والأرض إيّاه ، لأنّ المتعارف بين الناس إذا أخبروا عن أشياء بحكم أن يريدوا الأشياء المعروفة المتداولة .

(13/228)

فهذا من ذكر الخاصّ بعد العامّ لتقرير عموم الملك لله تعالى بأنّ مِلكه شمل الظاهرات والخفيّات ، ففي هذا استدعاء ليوجّهوا النظر العقلي في الموجودات الخفيّة وما في إخفائها من دلالة على سعة القدرة وتصرّفات الحكمة الإلهية .

و﴿ في ﴾ للظرفية الزمانية ، وهي ظرف مستقرّ ، لأنّ فعل السكون لا يتعدّى إلى الزمان تعدية الظرف اللغو كما يتعدّى إلى المكان لو كان بمعنى حلّ واستقرّ وهو ما لا يناسب حمل معنى الآية عليه .

والكلام تمهيد لسعة العلم ، لأنّ شأن المالك أن يعلم مملوكاته .

وتخصيص الليل بالذكر لأنّ الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاء ، فهو كقوله : ﴿ ولا حَبَّةٍ في ظلمات الأرض ﴾ [الأنعام : 59] .

وعطف النهار عليه لقصد زيادة الشمول ، لأنّ الليل لمّا كان مظنّةً الاختفاء فيه قد يظنّ أنّ العالِم يقصد الاطّلاع على الساكنات فيه بأهميّة ولا يقصد إلى الاطّلاع على الساكنات في النهار ، فذكر النهار لتحقيق تمام الإحاطة بالمعلومات .

وتقديم المجرور للدلالة على الحصر ، وهو حصر الساكنات في كونها له لا لغيره ، أي في كون ملكها التامّ له ، كما تقدّم في قوله : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ﴾ [الأنعام : 12] .

وقد جاء قوله : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ كالنتيجة للمقدمة ، لأنّ المقصود من الإخبار بأنّ الله يملك الساكنات التمهيد لإثبات عموم علمه ، وإلاّ فإنّ مِلك المتحرّكات المتصرّفات أقوى من ملك الساكنات التي لا تبدي حَراكاً ، فظهر حسن وقع قوله : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ عقب هذا .

والسميع : العالم العظيم بالمسموعات أو بالمحسوسات .

والعليم : الشديد العلم بكلّ معلوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) ﴾

إن من عظمة الموجود الأعلى الواجب الوجود أنه يتكلم عن نفسه بضمير الغيب وهو سبحانه القائل في أول بعض الآيات : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ .

و" قل " هي أمر ، فكأن الحق حين يقول : " هو " فلا يمكن أن تطلق " هو " إلا على الله ولا تنصرف إلا الله . ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الليل والنهار ﴾ وكلمة " سكن " هي من مادة السين والكاف والنون ، وتأتي لمعان متعددة ؛ فتكون من السكنى أي الاستيطان ، وتكون من السكون الذي هو ضد الحركة . والمثال على الاستيطان هو قول الله لآدم : ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ ﴾ [البقرة : 35] .

إن الحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الليل والنهار ﴾ فكأن الليل والنهار ظرف ، وكل الوجود مظروف فيه . وظرفية الليل والنهار تأتي على ظرفية المكان وهو الأرض . وكل مكان في الأرض يأتي عليه الليل والنهار . فإن أردنا الاستيطان في السكن فهي موجودة ، وإن أردناها من السكون – وهو ضد الحركة – فهي موجودة ؛ ذلك أن كل متحرك يؤول إلى ساكن ، والإنسان سيد الحركة ثم يموت أو يسكن في الأرض . وهكذا

نرى أن الجنس الأعم الذي يشملهما معًا هو ﴿ مَا سَكَنَ ﴾ ولذلك قال الحق : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الليل والنهار وَهُوَ السميع العليم ﴾ [الأنعام : 13] .

وحينما يقول : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الليل والنهار ﴾ ، فهو يتكلم عن الزمان ، واحتوائية الزمان للزمانيات ، أي للأشياء التي تحدث في هذا الزمان . والإنسان كما نعلم حدث . وكل ما يطرأ عنه حدث ، وكل ما في الكون حدث ، وقد أحدثه الحق الواجب الوجود . وما دام الحدث قد وُجد فلا بد له من زمان ولا بد له من مكان . أما مكان الحدث فهو السماء والأرض ، وما بينهما . وأما زمان الحدث فهو الليل والنهار .

(15/228)

إذن فالحق قد تكلم عن خلق الزمان من بعد أن أعلن لنا أنه خالق المكان . ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السماوات والأرض قُل للَّهِ ﴾ [الأنعام : 12] .

وهكذا نعلم أن الزمان والمكان قد وُجِدا عندما شاء الله أن يحدث هذا الكون . ولا تقل أبداً أيها الإنسان : أين كان الله قبل أن يخلق الكون ؟ لأن " أين " هي بحث عن مكان ، و" متى " هي بحث عن زمان . و" أين " و" متى " إنما وجدتا بعد وجود الحدث في الكون . والكون هو ظرف قار أي شيء ثابت . والزمان هو ظرف غير قار ، لأنه يكون مرة ماضياً

، ومرة يكون حاضراً أو مستقبلاً .

والحق سبحانه عندما قال : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الليل والنهار ﴾ أي أن له الظرفين : القار وغير القار . . أي له – سبحانه – الساكن وكذلك له ما يتحرك في الكون ؛ لأن كل متحرك يؤول أمره إلى سكون .

أو أن قوله الحق : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الليل والنهار ﴾ أي ما حل في الليل والنهار ، أي له سبحانه ما حل في الليل والنهار متحركاً كان أو ساكناً .

والحق يذيل هذه الآية بقوله : ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ فالسمع متعلق بالمسموع أي الذي له حركة ، والعلم متعلق بالمسموع والمنظور والمشموم وكل شيء من آلات الإدراك ؛ لذا جاء قوله – سبحانه – : ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ ليشمل المتحرك والساكن ، فسبحانه لا يعزب ولا يغيب عنه شيء .

ونعلم أنه إذا أخبر الحق عن نفسه بصفة من صفات يوجد مثلها في البشر فنحن نأخذها في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . فأنت أيها الإنسان لك سمع فيقال عنك : سميع . ولك علم فيقال : عليم . ولك بصر فيقال : مبصر . ولك قدرة فيقال : قادر . وقد تكون ذا مال وفير فيقال : غني . ولك وجود فيقال : موجود . وأنت حي فيقال حي .

لكن أهذه الصفات التي فيك هي عين الصفات التي في الله ؟ لا ؛ لأن صفات الله إنما نأخذها في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . ونحن نشاهد ذلك في أنفسنا ؛ فالإنسان منا له حال حياة ، وحال موت . وفي حال الحياة له حالتان : حالة يقظة ، وحالة نوم . وفي حالة اليقظة نحن نرى بقانون البصر ، ولهذا البصر حدود ؛ فهو محكوم بقانون الضوء ، وكذلك السمع محكوم بقانون الصوت والموجة والذبذبة .

ومع ذلك فالإنسان ينام ويغمض عينيه ويرى رؤيا فيها ألوان حمراء وخضراء وغيرها ، فبأي شيء أدركت الألوان وعينك مغمضة ؟ إذن فما دام في البشر رؤيا بدون عين فلا تقل عن رؤيا الله لنا إن له عيوناً مثل عيوننا ، بل هو يرى في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . إنه سبحانه وتعالى قيوم يحكم عبادَه في الزمان والمكان في حالة يقظتهم وفي حالة نومهم .

ومثال من حياتنا اليومية ، نحن نجد الرجل وزوجه ينامان في فراش واحد ، وقد يرى الرجل في المنام أنه يواجه أعداءه ، وترى الزوجة نفسها محاطة بسعادة الأبناء والأحفاد ، ويستقيظ كل منهما ليحكي ما رأى في أكثر من ساعة ، على الرغم من أن مخ الإنسان لا يعمل في أثناء النوم إلا لسبع ثوان .

إذن ، ففي النوم تُلغى المعية وكذلك الزمن ، والمكان . فإذا كانت تلك هي القوانين التي تحكم الإنسان ، فعلينا أن نعرف أن خالق كل القوانين وهو الحق لا يمكن إدراك صفاته ،

وعلينا أن نأخذها في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(17/228)

فصل

قال صاحب الميزان :

قوله تعالى : (وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم) السكون في الليل والنهار هو الوقوع في ظرف هذا العالم الطبيعي الذى يدبر أمره بالليل والنهار ، ويجرى نظامه بغشيان النور الساكب من شمس مضيئة ، وعمل التحولات النورية فيه بالقرب والبعد والكثرة والقلة والحضور والغيبة والمسامتة وغيرها .

فالليل والنهار هما المهد العام يربى فيه العناصر الكلية ومواليدها تربيه تسوق كل جزء من أجزائها وكل شخص من أشخاصها إلى غايته التى قدرت له ، وتكملها روحا وجسما .

وكما أن للمسكن عاما وخاصا دخلا تاما في كينونة الساكن كالإنسان مثلا يسكن أرضا فيطوف بها في طلب الرزق ، ويرتزق مما يخرج منها من حب وفاكهة وما يتربى فيها من حيوان ، ويشرب من مائها ، ويستنشق من هوائها ، ويفعل وينفعل من كيفيات منطقتها ،

وينمو جميع أجزاء جسمه على حسب تقديرها كذلك الليل والنهار لهما الدخل التام في تكون عامة ما يتكون فيهما .

والإنسان من الأشياء الساكنة في الليل والنهار تكون بمشية الله من ائتلاف أجزاء بسيطة ومركبة على صورة خاصة يمتاز وجوده حدوثا وبقاءا بحياة تقوم على شعور فكرى وإرادة يتهيان له من قوى له باطنية عاطفية تأمره بجذب المنافع ودفع المضار ، وتدعوه إلى إيجاد مجتمع متشكل فيه ما نراه من تفاصيل التفاهم باللغات والتبانى على اتباع السنن والقوانين والعادات في المعاشرات والمعاملات ، واحترام الاراء والعقائد العامة في الحسن والقبح والعدل والظلم والطاعة والمعصية والثواب والعقاب والجزاء والعفو .

(18/228)

وإذا كان الله سبحانه هو الخالق لليل والنهار وما سكن فيهما المتفرد بإيجادها فله ما سكن في الليل والنهار ، وهو المالك الحق لجميع الليل والنهار وسكانهما وما يستعقب وجودها من الحوادث والأفعال والأقوال ، وله النظام الجارى فيها على عجيب سعته فهو السميع لأقوالنا من أصوات وإشارات ، والعليم بأعمالنا وأفعالنا بما لها من صفتي الحسن والقبح ، والعدل والظلم والاحسان والاساءة وما تكتسبه النفوس من سعادة وشقاء .

وكيف يمكنه الجهل بذلك وقد نشأ الجميع في ملكه وبإذنه ؟ ونحو وجود هذا النوع من الأمور أعنى الحسن والقبح والعدل والظلم والطاعة والمعصية ، وكذا اللغات الدالة على المعاني الذهنية كل ذلك أمور علمية لا تحقق لها في غير ظرف العلم ، ولذلك نرى أن الفعل لا يقع منا حسنا ولا قبيحا ولا طاعة ولا معصية ، والصوت المؤلف لا يسمى كلاما إلا إذا علمنا به وقصدنا وجهه .

وكيف يمكن أن يملك شئ علمي في نفسه من حيث كونه كذلك ثم يجهله مالكه ، ولا يعلم به ؟ (أجد التأمل فيه) .

والله سبحانه هو الذى أوجد هذا العالم على عجيب سعته في أجزائه البسيطة والعنصرية والمركبة على نظام يدهش اللب ، ثم خلقنا وأسكننا الليل والنهار ثم كثرنا وأجرى بيننا نظام الاجتماع الإنساني ثم هدانا إلى وضع اللغات ، واعتبار السنن ووضع الاعتبارات ، ولم يزل يصاحبنا ويصاحب سائر الأسباب خطوة خطوة ، ويجارينا وإياها في مسير الليل والنهار لحظة لحظة وساق حوادث لا نحصيها حادثة بعد حادثة .

(19/228)

حتى تكلم الواحد منا بكلام فوضع المعنى في قلبه بإلهامه ، وأجرى اللفظ في لسانه بتعريفه ، وأسمع الصوت لمخاطبة بإسماعه ، وسار بمعناه إلى ذهنه بحفظه ، وفهم المعنى لمفكرته بتعليمه ، ثم بعثه لموافقه ما ألقاه إليه المتكلم أو صده عن ذلك بإرادة باعثة له إليه أو كراهة دافعة له عنه ، وهو في جميع هذه المراحل التى تعجز عن الانعقاد عليها أنامل العد والاحصاء قائد وسائق وهاد وحفيظ ورقيب ! فكيف يسع لقائل إلا أن يقول : إنه تعالى سميع عليم ، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم .

وكذا إذا عمل الواحد منا بعمل حسنة كان أو سيئة فهو مولود من أب وأم يولدانه تحت مراقبه الاختيار والإرادة ، وقد انتقل إليهما بعد ما قطع طريقا بعيدا وأمدا مديدا في أصلاب أسباب فاعلة وأرحام علل أخرى منفعلة إلى أن ينتهى بما الله أعلم به ، ولم يزل سبحانه ينقله بإرادته من حجر إلى حجر ، والأرض قبضته والسموات بيمينه حتى نزل منزل الاختيار فصاحبه منزلا بعد منزل بإذنه حتى طلع من أفق العين ، وأخذ موضعه من مسكن الليل والنهار ثم لا يزال يجرى فيما يتأثر منه من أجزاء الكون كأحد الأسباب الجارية ، والله سبحانه عليه شهيد وبه محيط فكيف يمكن أن يغفل سبحانه عما هذا شأنه ؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

ومما تقدم يظهر أن قوله تعالى : (وهو السميع العليم) بمنزلد النتيجة لقوله : (وله ما سكن

في الليل والنهار) .

والسمع والعلم وإن كان معدودين من صفاته تعالى الذاتية التى هي عين الذات المتعالية من غير أن يتفرع على أمر غيرها لكن من العلم وكذا السمع والبصر ما هو صفة فعلية خارجة عن الذات وهى التى يتوقف ثبوتها على تحقق متعلق غير الذات المقدسة كالخلق والرزق والإحياء والإماتة المتوقفة على وجود مخلوق ومرزوق وحى وميت .

(20/228)

والأشياء لما كانت بأنفسها وأعيانها مملوكة محاطة له تعالى فهى إن كانت أصواتا سمع ومسموعة له تعالى ، وإن كانت أنوار ألوانا بصر ومبصرة له تعالى ، والجميع كائنة ما كانت علم ومعلومة له تعالى ، وهذا النوع من العلم من صفاته الفعلية التى تتحقق عند تحقق الفعل منه تعالى لا قبل ذلك ، ولا يلزم من ثبوتها بعد ما لم تكن تغير في ذاته تعالى وتقدس لانها لا تعدو مقام الفعل ، ولا يدخل في عالم الذات فالاية في استنتاجها العلم من الملك تريد إثبات العلم الفعلى ، فافهم ذلك .

والآية أعنى قوله : (وله ما سكن في الليل والنهار) الخ ، كإحدى مقدمات الحجة المبينة بالآية السابقة فإن الحجة على المعاد وإن تمت بقوله : (قل لمن ما في السموات والأرض قل

لله كتب على نفسه الرحمة) لكن النظر الابتدائي الساذج ربما غفل عن كون ملكه تعالى للاشياء مستلزما لعلمه بها وسمعه بما يسمع منها كالأصوات والأقوال .

ولذلك نبه عليه بتكرار ملك السموات والأرض ، وتفريع السمع والعلم عليه فقال : (وله ما سكن في الليل والنهار – وهو في معنى قوله : (له ما في السماوات والأرض – وهو السميع العليم) فكانت هذه الآية لذلك بمنزلة مقدمة متممة للحجة المسرودة في الآية السابقة .

والآية – على أنا لم نستوف حقها ولن يستوفى – من أرق الآيات القرآنية معنى وأدقها إشارة وحجة ، وأبلغها منطقا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 27. 30 ﴾

(21/228)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ولَهُ مَا سَكَنَ " : جملة من مُبْتَدَأ وخبر ، وفيها قولان :

أظهرهما : أنها اسْتِئْنَافُ إخبار بذلك .

والثاني : أنها في مَحَلّ نَصْبٍ نَسَقاً على قوله : " الله " ، أي : على الجملة المَحْكِيَّةِ بـ " قل " أي : قل : هو الله ، وقل : له ما سَكَنَ .

و" ما " موصولة بمعنى " الذي " ، ولا يجوز غَيْرُ ذلك .

و" سَكَنَ " قيل : معناه ثَبَتَ واسْتَقَرَّ ، ولم يذكر الزمخشري غيره .

كقولهم : فلان يسكنُ بَلْدَةَ كذا ، ومنه قوله تبارك وتعالى ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُم ﴾ [إبراهيم : 45] .

وقيل : هو مِنْ " سَكَنَ " مقابل " تَحَرَّكَ " ، فعلى الأوَّل لا حذف في الآية الكريمة .

قال الزمخشري : وتعدِّيه بـ " في " كما في قوله : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُم ﴾ [إبراهيم : 45] ، ورجَّح هذا التفسير ابن عطية .

وعلى الثَّاني اخْتَلَفُوا فمنهم من قال : لا بُدَّ من محذوفٍ لِفَهْمِ المعنى ، وقدَّر ذلك المحذوف معْطُوفاً ، فقال : تقديره : لوه ما سَكَنَ وما تحرك ، كقوله في موضع آخر : ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] أي : والبَرْد وحذف المعطوف فاشٍ في كلامهم ، وأنشد القائل في ذلك :

2116 - كَأَنَّ الحَصَى مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا . . .

وإذَا نَجَلَتْهُ رِجْلُهَا خَذْفُ أَعْسَرَا

وقال الآخر : [الطويل]

2117 - فَمَا كَانَ بَيْنَ الخَيْرِ لَوْ جَاءَ سَالِماً . . .

أَبُو حُجُرٍ إلاَّ لَيَالٍ قَلاَئِلُ

يريد : رِجْلَهَا ويدها ، وبين الخير وبيني .

ومنهم من قال : لا حَذْفَ ؛ لأنّ كُلَّ متحرك قد يسكن .

وقيل : لأنَّ المُتَحرّكَ أَقَلُّ ، والساكن أكثرُ ، فلذلك أوثِرَ بالذِّكْرِ .

وقيل : إنما خصَّ السُّكون بالذِّكْرِ ، لأن النعمة فيه أكثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 52.51 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) ﴾

الحادثاتُ للهِ مِلْكاً ، وباللهِ ظهوراً ، ومِنْ اللهِ بدءاً ، وإلى اللهِ رجوعاً . وهو ﴿ السَّمِيعُ ﴾ لأنين المشتاقين ، ﴿ العَلِيمُ ﴾ بحنين الواجدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 463 ﴾

(22/228)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نهض من الحجج ما لم يبق معه لذي بصيرة شك ، كان لسان الحال مقتضياً لأن ينادي بالإنكار عليهم في الالتفات عن جنابه والإعراض عن بابه فأبرز تعالى ذلك في قالب الأمر له صلى الله عليه وسلم بالإنكار على نفسه ، ليكون أدعى لهم وأرفق بهم ، ولأن ما تقدم منبئ عن غاية المخالفة ، منذر بما أنذر من سوء عاقبة المشاققة ، فكأنهم قالوا : فهل من سبيل إلى المواقة ؟ فقيل : لا إلا باتخاذكم إلهي ولياً ، وذلك لعمري سعادتكم في الدارين ، وبتطمعكم في اتخاذي أندادكم أولياء ، وهذا ما لا يكون أبداً ، وهو معنى قوله تعالى :

﴿ قل ﴾ أي مصرحاً لهم بإنكار أن تميل إلى أندادهم بوجه .

ولما كان الإنكار منصباً إلى كون الغير متخذاً ، لا إلى اتخاذ الولي ، أولى " غير " الهمزة فقال :

﴿ أغير الله ﴾ أي الذي لا شيء يدانيه في العظمة ﴿ أتخذ ﴾ أي أكلف نفسي إلى خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى والعقل المجرد عن الهوى كما فعلتم أنتم وآخذ ﴿ ولياً ﴾ أي أعبده لكونه يلي جميع أموري ، ثم وصفه بما يحقق ولايته ويصرف عن ولاية غيره فقال :

﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ أي خالقهما ابتداء على غير مثال سبق ﴿ وهو ﴾ أي والحال أن الله ﴿ يطعم ﴾ أي يرزق كل من سواه مما فيه روح .

ولما كان المنفي كونه سبحانه مفعولاً من الطعم ، لا كون ذلك من مطعم معين ، بني للمفعول قوله : ﴿ ولا يطعم ﴾ أي ولا يبلغ أحد بوجه من الوجوه أن يطعمه ، والمعنى أن المنافع من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع ، فامتنع في العقل اتخاذ غيره ولياً ، لأن غيره محتاج في ذاته وفي جميع صفاته إليه ، وهو سبحانه الغني على الإطلاق ، وهذا التفات إلى قوله تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ [المائدة : 75] وتعريض بكل ما عبد من دون الله ولا سيما الأصنام ، فإنهم كانوا يهدون لها الأطعمة فتأكلها الدواب والطيور ، فمعلوم أنها لا تطعم ولا تطعم روى الدارمي في أول مسنده بسند حسن عن الأعمش عن مجاهد قال : " حدثني مولاي أن أهله بعثوا معه بقدح فيه زبد ولبن إلى آلهتهم ، قال : فمنعني أن آكل الزبد مخافتها ، فجاء كلب فأكل الزبد وشرب اللبن ثم بال على الصنم " ومولاه كان شريك النبي صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام ، واختلف فيه فقيل : هو قيس بن السائب بن عويمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وقيل : قريبه السائب بن أبي السائب صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

(24/228)

وقيل : ابنه عبد الله بن السائب – والله أعلم ؛ وله عن أبي رجاء – هو العطاردي وهو مخضرم – قال : "كنا في الجاهلية إذا أصبنا حجراً حسناً عبدناه ، وإن لم نصب حجراً جمعنا كثبة من رمل ، ثم جئنا بالناقة الصفي فنفاج عليها فنحلبها على الكثبة حتى نرويها ، ثم نعبد تلك الكثبة ما أقمنا بذلك المكان " وفيه أيضاً إيماء إلى أنه كما خلقكم كلكم من طين على اختلافكم في المقادير والألوان والأخلاق وهو غني عنكم ، فكذلك خلق المطعومات على اختلاف أشكالها وطعومها ومنافعها وألوانها من طين ، وجعلها منافع لكم وهو غني عنها ، وسيأتي التصريح بذلك في قوله : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ [الأنعام : 99] المستوفي في مضماره ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ [الأنعام : 118] وفي الآية كلها التفات إلى قوله أول السورة ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [الأنعام : 1] وقوله في التي قبلها ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ﴾ [المائدة : 81] في أمثالها مما فيه تولي الكفار لغير خالقهم سبحانه وتعالى ، هذا لو لم يرد أمر من قبل الخالق كان النظر السديد كافياً في التنزه عنه ، كما كنت قبل النبوة لا ألتفت إلى أصنامكم ولا أعتبر للعبادة شيئاً من أنصابكم ، فكيف وقد أمرت بذلك ! وهو معنى ﴿ قل إني أمرت ﴾ أي من جهة من له الأمر ، ولا أمر إلا له وهو من تقدم أن له كل شيء ، وهو الله وحده ﴿ أن أكون ﴾ أي بقلبي وقالبي ﴿ أول من أسلم ﴾ في الرتبة مطلقاً ، وفي الزمان بالنسبة إلى الأمة .

ولما كان الأمر بالإسلام نهياً عن الشرك ، لم يكتف به ، بل صرح به جمعاً بين الأمر والنهي من هذا الرب الكريم الذي يدعو إحسانه وكرمه إلى ولايته ، وينهى تمام ملكه وجبروته عن شيء من عداوته ، في قوله عطفاً على ﴿ قل ﴾ على وجه التأكيد : ﴿ ولا تكونن ﴾ أي بوجه من الوجوه في وقت من الأوقات أصلاً ﴿ من المشركين ﴾ أي في عدادهم باتباعهم في شيء من أغراضهم ، وهذا التأكيد لقطع أطماعهم عنه صلى الله عليه وسلم في سؤالهم أن يطرد بعض أتباعه ليوالوه ، ونحو ذلك مما كانوا يرجون مقاربته منهم به ، إعلاماً بأن فعل شيء مما يريدون مصحح للنسبة إليهم والكون في عدادهم " من تشبه بقوم فهو منهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 596. 597 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه فرق بين أن يقال ﴿ أغير الله أتخذ ولياً ﴾ وبين أن يقال : أتخذ غير الله ولياً لأن الإنكار إنما حصل على اتخاذ غير الله ولياً ، لا على اتخاذ الولي ، وقد عرفت أنهم يقدمون الأهم فالأهم الذي هم بشأنه أعنى فكأن قوله ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً ﴾ أولى من العبارة

الثانية ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد ﴾ [الزمر : 64] وقوله تعالى : ﴿ الله أذن لكم ﴾ [يونس : 59] .

ثم قال ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾

وقرىء ﴿ فاطر السماوات ﴾ بالجر صفة الله وبالرفع على إضمار " هو " والنصب على المدح .

وقرأ الزهري ﴿ فطر السماوات ﴾ وعن ابن عباس : ما عرفت ﴿ فاطر السماوات ﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أي ابتدأتها وقال ابن الأنباري : أصل الفطر شق الشيء عند ابتدائه ، فقوله ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ يريد خالقهما ومنشئهما بالتركيب الذي سبيله أن يحصل فيه الشق والتأليف عند ضم الأشياء إلى بعض ، فلما كان الأصل الشق جاز أن يكون في حال شق إصلاح وفي حال أخرى شق إفساد .

ففاطر السماوات من الإصلاح لا غير .

وقوله ﴿ هل ترى من فطور ﴾ [الملك : 3] و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الإنفطار : 1] من الإفساد ، وأصلهما واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 139 . 140 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ رباً معبوداً وناصراً ومعيناً ﴿ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾ أي خالقها ومبدعها ومبدئها وأصل الفطر الشق ومنه فطر ناب الجمل إذا شقق وابتدأ بالخروج .

قال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني اعرابيان يختصمان في بعير . فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها ، أنا أحدثتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(26/228)

وقال أبو حيان :

﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ لما تقدّم أنه تعالى اخترع السموات والأرض ، وأنه مالك لما تضمنه المكان والزمان أمر تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك على سبيل التوبيخ لهم أي من هذه صفاته هو الذي يتخذ ولياً وناصراً ومعيناً لا الآلهة التي لكم ، إذ هي لا تنفع ولا تضر لأنها بين جماد أو حيوان مقهور ، ودخلت همزة الاستفهام على الاسم دون الفعل لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي كقولك لمن ضرب زيداً وهو ممن لا يستحق الضرب بل يستحق الإكرام أزيداً ضربت ، تنكر عليه أن كون مثل هذا يضرب

ونحو ، ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ ﴿ والله أذن لكم ﴾ وقال الطبري وغيره : أمر أن يقول هذه المقالة للكفرة الذين دعوه إلى عبادة أوثانهم ، فتجيء الآية على هذا جواباً لكلامهم ، انتهى .

وهذا يحتاج إلى سند في أن سبب نزول هذه الآية هو ما ذكره وانتصاب غير على أنها مفعول أول لاتخذ .

وقرأ الجمهور ﴿ فاطر ﴾ فوجهه ابن عطية والزمخشري ونقلها الحوفي على أنه نعت لله ، وخرجه أبو البقاء على أنه بدل وكأنه رأى أن الفصل بين المبدل منه والبدل أسهل من الفصل بين المنعوت والنعت ، إذ البدل على المشهور هو على تكرار العامل وقرأ ابن أبي عبلة برفع الراء على إضمار هو .

قال ابن عطية : أو على الابتداء ؛ انتهى .

ويحتاج إلى إضمار خبر ولا دليل على حذفه وقرىء شاذاً بنصب الراء وخرجه أبو البقاء على أنه صفة لولي على إرادة التنوين أو بدل منه أو حال ، والمعنى على هذا أأجعل ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ غير الله ، انتهى .

والأحسن نصبه على المدح .

وقرأ الزهري فطر جعله فعلاً ماضياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ للمشركين بعد توبيخهم بما سبق ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ إنكار لاتخاذ غير الله تعالى ولياً لا لاتخاذ الولي مطلقاً ولذا قدم المفعول الأول وأولى الهمزة ونحوه ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ ﴾ (الزمر ؛ 64) والمراد بالولي هنا المعبود لأنه رد لمن دعاه صلى الله عليه وسلم ، فقد قيل : إن أهل مكة قالوا له عليه الصلاة والسلام : يا محمد تركت ملة قومك وقد علمنا أنه لا يحملك على ذلك إلا الفقر فارجع فإنا نجمع لك من أموالنا حتى تكون من أغنانا فنزلت .

واعترض بأن المشرك لم يخص عبادته بغير الله تعالى فالرد عليه إنما يكون لو قيل : أأتخذ غير الله ولياً .

وأجيب بأن من أشرك بالله تعالى غيره لم يتخذ الله تعالى معبوداً لأنه لا يجتمع عبادته سبحانه مع عبادة غيره كما قيل

: إذا صافى صديقك من تعادى . . .

فقد عاداك وانقطع الكلام

وقيل : الولي بمعنى الناصر كما هو أحد معانيه المشهورة ، ويعلم من إنكار اتخاذ غير الله تعالى ناصراً أنه لا يتخذه معبوداً من باب الأولى ، ويحتمل الكلام على ما قيل أن يكون من الإخراج على خلاف مقتضى الظاهر قصداً إلى إمحاض النصح ليكون أعون على القبول كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : 22] .

﴿ فَاطِرَ السماوات والأرض ﴾ أي مبدعهما كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وأخرج أبو عبيدة وابن جرير وابن الأنباري عنه رضي الله تعالى عنه قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها يقول : أنا ابتدأتها ، وهو نعت للجلالة مؤكد للإنكار ، وصح وقوعه نعتاً للمعرفة لأنه بمعنى الماضي سواء كان كلاماً من الله تعالى ابتداءً أو محكياً عن الرسول صلى الله عليه وسلم إذ المعتبر زمان الحكم لا زمان التكلم ، ويدل على إرادة المضي أنه قرأ الزهري ﴿ فَطَرَ ﴾ ولا يضر الفصل بينهما بالجملة لأنها ليست بأجنبية إذ هي عاملة في عامل الموصوف ، وقيل : بدل من الاسم الجليل ، ورجحه أبو حيان بأن الفصل فيه أسهل ، وقرىء بالرفع والنصب على المدح أي هو فاطر أو امدح فاطر ، وجوز أن يكون النصب على البدلية من

﴿ وَلِيّاً ﴾ لا الوصفية لأنه معرفة ، نعم يجوز على قراءة الزهري أن تكون الجملة صفة له .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(29/228)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾

استئناف آخر ناشىء عن جملة : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ﴾ [الأنعام : 12] .

وأعيد الأمر بالقول اهتماماً بهذا المقول ، لأنّه غرض آخر غير الذي أمر فيه بالقول قبله ، فإنّه لمّا تقرّر بالقول ، السابق عبودية ما في السماوات والأرض لله وأنّ مصير كلّ ذلك إليه انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة ، لأنّ ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكاً لجميع ما احتوته السماوات والأرض ، فكان هذا التقرير جارياً على طريقة التعريض إذ أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالتبرّىء من أن يعبد غير الله .

والمقصود الإنكار على الذين عبدوا غيره واتّخذوهم أولياء ، كما يقول القائل بمحضر المجادل المكابر (لا أجحد الحقّ) لدلالة المقام على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لا

يصدر منه ذلك ، كيف وقد علموا أنّه دعاهم إلى توحيد الله من أول بعثته ، وهذه السورة ما نزلت إلاّ بعد البعثة بسنين كثيرة ، كما استخلصناه ممّا تقدّم في صدر السورة .

وقد ذكر ابن عطية عن بعض المفسّرين أنّ هذا القول أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم ليجيب المشركين الذين دعوه إلى عبادة أصنامهم ، أي هو مثل ما في قوله تعالى : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] ، وهو لعمري ممّا يشعر به أسلوب الكلام وإن قال ابن عطية : إنّ ظاهر الآية لا يتضمّنه كيف ولا بدّ للاستئناف من نكتة .

والاستفهام للإنكار .

وقدّم المفعول الأول ل ﴿ أتّخذ ﴾ على الفعل وفاعله ليكون موالياً للاستفهام لأنّه هو المقصود بالإنكار لا مطلق اتّخاذ الوليّ .

وشأن همزة الاستفهام بجميع استعمالاته أن يليها جزء الجملة المستفهم عنه كالمنكر هنا ، فالتقديم للاهتمام به ، وهو من جزئيات العناية التي قال فيها عبد القاهر أن لا بدّ من بيان وجه العناية ، وليس مفيداً للتخصيص في مثل هذا لظهور أنّ داعي التقديم هو تعيين المراد بالاستفهام فلا يتعيّن أن يكون لغرض غير ذلك .

(30/228)

فمن جعل التقديم هنا مفيداً للاختصاص ، أي انحصار إنكار اتّخاذ الولي في غير الله كما مال إليه بعض شرّاح "الكشاف" فقد تكلّف ما يشهد الاستعمال والذوق بخلافه ، وكلام "الكشاف" بريء منه بل الحقّ أنّ التقديم هنا ليس إلاّ للاهتمام بشأن المقدّم ليليَ أداة الاستفهام فيعلم أن محلّ الإنكار هو اتّخاذ غير الله وليّاً ، وأما مّا زاد على ذلك فلا التفات إليه من المتكلم .

ولعلّ الذي حداهم إلى ذلك أنّ المفعول في هذه الآية ونظائرها مثل ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد ﴾ [الزمر : 64] ﴿ أغير الله تدعون ﴾ [الأنعام : 40] هو كلمة ﴿ غير ﴾ المضافة إلى اسم الجلالة ، وهي عامّة في كلّ ما عدا الله ، فكان الله ملحوظاً من لفظ المفعول فكان إنكار اتّخاذ الله وليّاً لأنّ إنكار اتّخاذ غيره وليّاً مستلزماً عدم إنكار اتّخاذ الله وليّاً ، لأنّ إنكار اتّخاذ غير الله لا يبقى معه إلاّ اتّخاذ الله وليّاً ؛ فكان هذا التركيب مستلزماً معنى القصر وآئلاً إليه وليس هو بدالّ على القصر مطابقة ، ولا مفيداً لما يفيده القصر الإضافي من قلب اعتقاد أو إفراد أو تعيين ، ألا ترى أنّه لو كان المفعول خلاف كلمة (غير) لما صحّ اعتبار القصر ، كما لو قلت : أزيداً أتّخذ صديقاً ، لم يكن مفيداً إلاّ إنكار اتّخاذ زيد صديقاً من غير التفات إلى اتّخاذ غيره ، وإنّما ذلك لأنّك تراه ليس أهلاً للصداقة فلا فرق بينه وبين قولك : أتّخذ زيداً صديقاً ، إلاّ أنّك أردت توجّه الإنكار للمتّخذ لا

للاتّخاذ اهتماماً به .

والفرق بينهما دقيق فأجد فيه نظرك .

(31/228)

ثم إن كان المشركون قد سألوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتّخذ أصنامهم أولياء كان لتقديم المفعول نكتة اهتمام ثانية وهي كونه جواباً لكلام هو المقصود منه كما في قوله : ﴿ أفغير الله تَأْمُرُونِيَ أَعْبُدُ أيها الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] وقوله : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إلى قوله قال أغير الله أبغيكم إلهاً ﴾ [الأعراف : 12] .

وأشار صاحب "الكشاف" في قوله : ﴿ أغير الله أبغي ربّاً ﴾ الآتي في آخر السورة إلى أنّ تقديم ﴿ غير الله ﴾ على ﴿ أبغي ﴾ لكونه جواباً عن ندائهم له إلى عبادة آلهتهم .

قال الطيبي : لأنّ كل تقديم إمّا للاهتمام أو لجواب إنكار .

والوليّ : الناصر المدبّر ، ففيه معنى العلم والقدرة .

يقال : تولّى فلاناً ، أي اتّخذه ناصراً .

وسمّي الحليف وليّاً لأنّ المقصود من الحلف النصرة .

ولمّا كان الإله هو الذي يرجع إليه عابده سمّي وليّاً لذلك .

ومن أسمائه تعالى الولي .

والفاطر : المبدع والخالقُ .

وأصله من الفطر وهو الشقّ .

وعن ابن عباس : ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعرابيات في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتُها .

وإجراء هذا الوصف على اسم الجلالة دون وصف آخر استدلال على عدم جدارة غيره لأن يتّخذ وليّاً ، فهو ناظر إلى قوله : في أول السورة ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ [الأنعام : 1] .

وليس يغني عنه قوله قبله ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ﴾ [الأنعام : 12] لأنّ ذلك استدلال عليهم بالعبودية لله وهذا استدلال بالافتقار إلى الله في أسبَاب بقائهم إلى أجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(32/228)

قوله تعالى ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ أي وهو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد .

فإن قيل : كيف فسرت الإطعام بالرزق ؟ وقد قال تعالى : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ [الذاريات : 57] والعطف يوجب المغايرة .

قلنا لا شك في حصول المغايرة بينهما ، إلا أنه قد يحسن جعل أحدهما كناية عن الآخر لشدة ما بينهما من المقاربة والمقصود من الآية : أن المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع .

وقرئ ﴿ ولا يطعم ﴾ بفتح الياء ، وروى ابن المأمون عن يعقوب ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل ، وعلى هذا التقدير : فالضمير عائد إلى المذكور في قوله ﴿ أغير الله ﴾ وقرأ الأشهب ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ على بنائهما للفاعل .

وفسر بأن معناه : وهو يطعم ولا يستطعم .

وحكى الأزهري : أطعمت بمعنى استطعمت .

ويجوز أن يكون المعنى : وهو يطعم تارة لا يطعم أخرى على حسب المصالح كقوله : وهو يعطي ويمنع ، ويبسط ويقدر ، ويغني ويفقر .

واعلم أن المذكور في صدر الآية هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى ولياً .

واحتج عليه بأنه فاطر السماوات والأرض وبأنه يطعم ولا يطعم .

ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره ولياً .

أما بيان أنه فاطر السماوات والأرض ، فلأنا بينا أن ما سوى الواحد ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يقع موجوداً إلا بإيجاد غيره ، فنتج أن ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه .

فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكل ما سواه من الموجودات .

وأما بيان أنه يطعم ولا يطعم فظاهره لأن الإطعام عبارة عن إيصال المنافع ، وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع .

ولما كان هو المبديء تعالى وتقدس لكل ما سواه ، كان لا محالة هو المبديء لحصول جميع المنافع .

ولما كان واجباً لذاته كان لا محالة غنياً ومتعالياً عن الانتفاع بشيء آخر فثبت بالبرهان صحة أنه تعالى فاطر السماوات والأرض ، وصحة أنه يطعم ولا يطعم ، وإذا ثبت هذا امتنع في العقل اتخاذ غيره ولياً لأن ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده .

(33/228)

والحق سبحانه هو الغني لذاته الجواد لذاته ، وترك الغني الجواد ، والذهاب إلى الفقير المحتاج ممنوع عنه في صريح العقل .

وإذا عرفت هذا فنقول : قد سبق في هذا الكتاب بيان أن الولي معناه الأصلي في اللغة : هو القريب .

وقد ذكرنا وجوه الاشتقاقات فيه .

فقوله ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً ﴾ يمنع من القرب من غير الله تعالى .

فهذا يقتضي تنزيه القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى ، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 140 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ أي وهو يرزق ولا يرزق وإليه قوله عز وجل ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : 57] .

وقرأ عكرمة والأعمش : ولا يَطعم بفتح الياء أي وهو يرزق ولا يأكل .

وقرأ أشهب العقيلي : وهو يُطعِم ولا يُطعَم كلاهما بضم الياء ، وكسر العين .

قال الحسن بن الفضل : معناه هو القادر على الإطعام وترك الإطعام كقوله ﴿ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد : 26] .

وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا منصور الأزهري بهراة يقول : معناه وهو يطعم

ولا يستطعم ، يقول العرب : أطعمت غيري بمعنى استطعمت .

وأنشد :

إنّا لنطعم من في الصيف مطعماً . . . وفي الشتاء إذا لم يؤنس القرع

أي استطعمنا وقيل : معناه وهو يطعم يعني اللّه ولا يطعم يعني الولي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(34/228)

وقال أبو حيان :

﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ أي يرزق ولا يرزق كقوله : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ والمعنى أن المنافع كلها من عند الله ، وخص الإطعام من بين أنواع الانتفاعات لمس الحاجة إليه كما خص الربا بالأكل وإن كان المقصود الانتفاع بالربا .

وقرأ مجاهد وابن جبير والأعمش وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وأبو عمرو وفي رواية عنه ﴿ ولا يطعم ﴾ بفتح الياء والمعنى أنه تعالى منزه عن الأكل ولا يشبه المخلوقين .

وقرأ يمان العماني وابن أبي عبلة ﴿ ولا يطعم ﴾ بضم الياء وكسر العين مثل الأول فالضمير في ﴿ وهو يطعم ﴾ عائد على الله وفي ﴿ ولا يطعم ﴾ عائد على الولي .

وروى ابن المأمون عن يعقوب ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل والضمير لغير الله ، وقرأ الأشهب : ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ على بنائهما للفاعل وفسر بأن معناه وهو يطعم ولا يستطعم ، وحكى الأزهري أطعمت بمعنى استطعمت .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح ، كقولك هو يعطي ويمنع ويبسط ويقدر ويغني ويفقر ، وفي قراءة من قرأ باختلاف الفعلين تجنيس التشكيل وهو أن يكون الشكل فرقاً بين الكلمتين وسماه أسامة بن منقذ في بديعته تجنيس التحريف ، وهو بتجنيس التشكيل أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(35/228)

وقال القرطبى :

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ كذا قراءة العامة ، أي يَرزُق ولا يُرزَق ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : 57] .

وقرأ سعيد بن جُبَير ومجاهد والأعمش : وهو يُطْعِمُ وَلاَ يَطْعَمُ ، وهي قراءة حسنة ؛ أي أنه يرزق عباده ، وهو سبحانه غير محتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوقون من الغذاء .

وقُرِىء بضم الياء وكسر العين في الفِعلين ، أي إن الله يُطعِم عباده ويرزقهم والوليّ لا يُطعِم نفسه ولا من يتخذه .

وقُرِىء بفتح الياء والعين في الأوّل أي الوليّ "وَلاَ يُطْعِمُ" بضم الياء وكسر العين .

وخص الإطعام بالذكر دون غيره من ضروب الإنعام ؛ لأن الحاجة إليه أمسُّ لجميع الأنام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(36/228)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ أي يرزق ولا يرزق كما أخرجه ابن جرير وغيره عن السدي ، فالمراد من الطعم الرزق بمعناه اللغوي وهو كل ما ينتفع به بدليل وقوعه مقابلاً له في قوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : 57] وعبر بالخاص عن العام مجازاً لأنه أعظمه وأكثره لشدة الحاجة إليه ، ويحتمل أنه اكتفى بذكره عن ذكره لأنه يعلم من ذلك نفي ما سواه فهو حقيقة ، والجملة في محل نصب على الحالية ، وعن أبي عمرو والأعمش وعكرمة أنهم قرأوا ﴿ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ بفتح الياء والعين أي ولا يأكل والضمير لله تعالى ، ومثله قراءة أبي عبلة بفتح الياء وكسر العين ، وقرأ يعقوب بعكس القراءة الأولى

أعني بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل ، والضمير حينئذٍ في الفعلين لغير الله تعالى أي أتخذ من هو مرزوق غير رازق ولياً ، والكلام وإن كان مع عبدة الأصنام إلا أنه نظر إلى عموم غير الله تعالى وتغليب أولي العقول كعيسى عليه الصلاة والسلام لأن فيه إنكار أن يصلح الأصنام للألوهية من طريق الأولى ، وقد يقال : الكلام كناية عن كونه مخلوقاً غير خالق كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : 20 والفرقان : 3] ويحمل الفعل على معنى النفع لا يرد شيء رأساً ، وقرأ الأشهب ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ ببنائهما للفاعل ، ووجهت إما بأن أفعل بمعنى استفعل كما ذكره الأزهري أي وهو يطعم ولا يستطعم أي لا يطلب طعاماً ويأخذه من غيره أو بأن المعنى يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله سبحانه وتعالى ﴿ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ [البقرة : 245] والضميران لله تعالى ، ورجوع الضمير الثاني لغير الله تعالى تكلف يحتاج إلى التقدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(37/228)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وهو يُطعم ﴾ جملة في موضع الحال ، أي يُعطي الناس ما يأكلونه ممّا أخرج لهم من

الأرض : من حبوب وثمار وكلأ وصيد .

وهذا استدلال على المشركين بما هو مسلّم عندهم ، لأنّهم يعترفون بأنّ الرازق هو الله وهو خالق المخلوقات وإنّما جعلوا الآلهة الأخرى شركاء في استحقاق العبادة .

وقد كثر الاحتجاج على المشركين في القرآن بمثل هذا كقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ [الواقعة : 63 ،] 64 .

وأمّا قوله : ﴿ ولا يُطْعَمْ ﴾ بضم الياء وفتح العين فتكميل دالّ على الغنى المطلق كقوله تعالى : ﴿ وما أريد أن يطعِمونِ ﴾ [الذاريات : 57] .

ولا أثر له في الاستدلال إذ ليس في آلهة العرب ما كانوا يطعمونه الطعام .

ويجوز أن يراد التعريض بهم فيما يقدّمونه إلى أصنامهم من القرابين وما يهرقون عليها من الدماء ، إذ لا يخلو فعلهم من اعتقاد أنّ الأصنام تنعم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

سؤال : فإن قيل : كيف قال : ﴿ وهو يُطعم ولا يُطْعَمْ ﴾ ولم يقل : وهو ينعم ولا ينعم عليه ، وهذا أعم لتناوله الإطعام وغيره ؟

قلنا : لأن الحاجة إلى الرزق أمس فخُص بالذكر .

الثاني : أن كون المعبود آكلا متغوطا أقبح من كونه منعَما عليه ، فلذلك ذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الرازي صـ 133 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ .

يعني أنه تعالى هو الذي يرزق الخلائق ، وهو الغني المطلق فليس بمحتاج إلى رزق . وقد بين تعالى هذا بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ [الذاريات : 56-58] ، وقراءة الجمهور على أن الفعلين من الإطعام ، والأول مبني للفاعل ، والثاني مبني للمفعول ، كما بيناه ، وأوضحته الآية الأخرى . وقرأ سعيد بن جبير ومجاهد ، والأعمش . الفعل الأول كقراءة الجمهور ، والثاني بفتح الياء والعين مضارع طعم الثلاثي بكسر العين في الماضي ، أن أنه يرزق عباده ، ويطعمهم وهو جل وعلا ، لا يأكل ، لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق من الغذاء ، لأنه جل وعلا الغني لذاته ، الغني المطلق ، سبحانه وتعالى علواً كبيراً ، ﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد ﴾ [فاطر : 15] .

والقراءة التي ذكرنا عن سعيد ومجاهد ، والأعمش موافقة لأحد الأقوال في تفسير قوله

تعالى ﴿ اللهُ الصمد ﴾ [الإخلاص : 2] قال بعض العلماء ﴿ الصمد ﴾ السيد الذي يُلجأ إليه عند الشدائد والحوائج . وقال بعضهم : هو السيد الذي تكامل سؤدده وشرفه وعظمته ، وعلمه وحكمته ، وقال بعضهم ﴿ الصمد ﴾ هو الذي ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الاخلاص : 3-4] ، وعليه فما بعده تفسير له . وقال بعضهم : هو الباقي بعد فناء خلقه . وقال بعضهم ﴿ الصمد ﴾ هو الذي لا جوف له ، ولا يأكل الطعام ، وهو محل الشاهد ، وممن قال بهذا القول ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعبد الله بن بريدة ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ، وعطية العوفي ، والضحاك ، والسدي . كما نقله عنهم ابن كثير وابن جرير وغيرهما .

(39/228)

قال مقيده عفا الله عنه : من المعروف في كلام العرب ، إطلاق الصمد على السيد العظيم ، وعلى الشيء المصمت الذي لا جوف له ، فمن الأول قول الزبرقان :

سيروا جميعاً بنصف الليل واعتمدوا . . . ولا رهينة إلا سيد صمد

وقول الآخر :

علوته بحسام ثم قلت له . . . خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقول الآخر :

ألا بكر الناعي بخير بني أسد . . . بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

ومن الثاني قول الشاعر :

شهاب حروب لا تزال جياده . . . عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

فإذا علمت ذلك ، فالله تعالى هو السيد الذي هو وحده الملجأ عند الشدائد والحاجات ، وهو الذي تنزه وتقدس وتعالى عن صفات المخلوقين كأكل الطعام ونحوه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ الآية .

يعني أول من أسلم من هذه الأمة التي أُرسلت إليها ، وليس المراد أول من أسلم من جميع الناس كما بينه تعالى بآيات كثيرة تدل على وجود المسلمين . قبل وجوده صلى الله عليه وسلم ، ووجود أمته كقوله عن إبراهيم : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ﴾ [البقرة : 131] ، وقوله عن يوسف : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ [يوسف : 101] ، وقوله ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ ﴾ [المائدة : 44] وقوله عن لوط وأهله ، ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [الذاريات : 36] ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾

قال الفخر :

﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ والسبب أن النبي صلى الله عليه وسلم سابق أمته في الإسلام لقوله ﴿ وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : 163] ولقول موسى ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ [الأعراف : 143] .

ثم قال : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ ومعناه أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 140 . 141 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ يعني من أمته ، وفي إسلامه هذا ثلاثة أوجه :

أحدها : استسلامه لأمر الله ، ومثله قول الشاعر :

طال النهار على من لقاح له . . . إلا الهدّية أو ترك بإسلام

أي باستسلام .

والثاني : هو دخوله في سِلْمِ الله وخروجه من عداوته .

والثالث : دخوله في دين إبراهيم كقوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج : 78] ويكون المراد به أول من أَسْلَم من قريش ، وقيل : من أهل مكة .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يحتمل أن يكون هذا خطاباً من الله لنبيه يَنْهَاهُ به عن الشرك ، ويُحْتَمَل أن يكون المراد به جميع أمته ، وإن توجه الخطاب إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(41/228)

وقال أبو حيان :

﴿ قل إني أمرت أن أكون أوّل من أسلم ﴾

قال الزمخشري : لأن النبيّ سابق أمته في الإسلام كقوله ﴿ وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ وكقول موسى ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين ﴾ قال ابن عطية : المعنى أوّل من أسلم من هذه الأمّة وبهذه الشريعة ، ولا يتضمن الكلام إلا ذلك وهذا الذي قاله الزمخشري وابن عطية هو قول الحسن .

قال الحسن : معناه أول من أسلم من أمتي .

قيل : وفي هذا القول نظر لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصدر منه امتناع عن الحق وعدم انقياد إليه ، وإنما هذا على طريق التعريض على الإسلام كما يأمر الملك رعيته بأمر ثم يتبعه بقوله أنا أول من يفعل ذلك ليحملهم على فعل ذلك .

وقيل : أراد الأوّلية في الرتبة والفضيلة كما جاء نحن الآخرون الأوّلون وفي رواية السابقون .

وقيل : ﴿ أسلم ﴾ أخلص ولم يعدل بالله شيئاً .

وقيل : استسلم .

وقيل : أراد دخوله في دين إبراهيم عليه السلام كقوله : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ وقيل : أول من أسلم يوم الميثاق فيكون سابقاً على الخلق كلهم ، كما قال : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ ولا تكوننّ من المشركين ﴾ أي وقيل لي والمعنى أنه أمر بالإسلام ونهى عن الشرك ، هكذا خرجه الزمخشري وابن عطية على إضمار .

وقيل لي : لأنه لا ينتظم عطفه على لفظ ﴿ إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ فيكون مندرجاً تحت لفظ ﴿ قل ﴾ إذ لو كان كذلك لكان التركيب ولا أكون من المشركين .

وقيل : هو معطوف على معمول ﴿ قل ﴾ حملاً على المعنى ، والمعنى قل إني قيل لي كن أول من أسلم ، ﴿ ولا تكوننّ من المشركين ﴾ فهما جميعاً محمولان على القول لكن أتى الأول بغير لفظ القول ، وفيه معناه فحمل الثاني على المعنى وقيل هو معطوف على ﴿ قل ﴾ أمر بأن يقول كذا ونهى عن كذا .

وقيل : هو نهى عن موالاة المشركين .

وقيل : الخطاب له لفظاً والمراد أمته وهذا هو الظاهر لقوله ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك ﴾ والعصمة تنافي إمكان الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(42/228)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ بعد بيان أن اتخاذ غيره تعالى ولياً مما يقضي ببطلانه بديهة العقول ﴿ إِنِّى أُمِرْتُ ﴾ من جناب وليي جل شأنه ﴿ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ وجهه لله سبحانه وتعالى مخلصاً له لأن النبي عليه الصلاة والسلام مأمور بما شرعه إلا ما كان من خصائصه عليه الصلاة والسلام وهو إمام أمته ومقتداهم وينبغي لكل آمر أن يكون هو العامل أولاً بما أمر به ليكون أدعى للامتثال ، ومن ذلك ما حكى الله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ سبحانك تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنين ﴾ [الأعراف : 143] .

وقيل : إن ما ذكر للتحريض كما يأمر الملك رعيته بأمر ثم يقول وأنا أول : من يفعل ذلك ليحملهم على الامتثال وإلا فلم يصدر عنه صلى الله عليه وسلم امتناع عن ذلك حتى يؤمر به وفيه نظر .

﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ أي في أمر من أمور الدين ، وفي الكلام قول مقدر أي وقيل لي

: لا تكونن ، فالواو من الحكاية عاطفة للقول المقدر على ﴿ أُمِرْتُ ﴾ ، وحاصل المعنى إني أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك ، وقيل : إنه معطوف على مقول ﴿ قُلْ ﴾ على المعنى إذ هو في معنى قل إني قيل لي كن أول مسلم ولا تكونن فالواو من المحكي ، وقيل : إنه عطف على ﴿ قُلْ ﴾ على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أمر بأن يقول كذا ونهى عن كذا ، وتعقب بأن سلالة النظم تأبى عن فصل الخطابات التبليغية بعضها عن بعض بخطاب ليس منها ، وجوز أن يعطفه على ﴿ إِنِّى أُمِرْتُ ﴾ داخلاً في حيز ﴿ قُلْ ﴾ والخطاب لكل من المشركين ، ولا يخفى تكلفه وتعسفه ، وعدم صحة عطف على ﴿ أَكُونَ ﴾ ظاهر إذ لا وجه للالتفات ولا معنى لأن يقال أمرت أن لا تكونن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ .

استئناف مكرّر لأسلوب الاستئناف الذي قبله .

(43/228)

ومثار الاستئنافين واحد ولكن الغرض منهما مختلف ، لأنّ ما قبله يحوم حول الاستدلال بدلالة العقل على إبطال الشرك ، وهذا استدلال بدلالة الوحي الذي فيه الأمر باتّباع دين الإسلام وما بني عليه اسم الإسلام من صرف الوجه إلى الله ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ﴾ [آل عمران : 20] ، فهذا إبطال لطعنهم في الدين الذي جاء به المسمّى بالإسلام ، وشعاره كلمة التوحيد المبطلة للإشراك .

وبني فعل ﴿ أمرت ﴾ للمفعول ، لأنّ فاعل هذا الأمر معلوم بما تكرّر من إسناد الوحي إلى الله .

ومعنى ﴿ أوّل من أسلم ﴾ أنّه أول من يتّصف بالإسلام الذي بعثه الله به ، فهو الإسلام الخاصّ الذي جاء به القرآن ، وهو زائد على ما آمن به الرسل من قبل ، بما فيه من وضوح البيان والسماحة ، فلا ينافي أنّ بعض الرسل وصفوا بأنّهم مسلمون ، كما في قوله تعالى : حكاية عن إبراهيم ويعقوب ﴿ يا بنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ وقد تقدّم بيان ذلك عند ذكر تلك الآية في سورة [البقرة : 132] .

ويجوز أن يكون المراد أول من أسلم ممّن دعوا إلى الإسلام .

ويجوز أن يكون الأول كناية عن الأقوى والأمكن في الإسلام ، لأنّ الأول في كلّ عمل هو الأحرص عليه والأعلق به ، فالأوليّة تستلزم الحرص والقوة في العمل ، كما حكى الله تعالى عن موسى قوله : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ [الأعراف : 143] .

فإنّ كونه أوّلهم معلوم وإنّما أراد : أنّي الآن بعد الصعقة أقوى الناس إيماناً .

وفي الحديث : " نحن الآخرون الأولون يوم القيامة " وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ في سورة [البقرة : 41] .

والمقصود من هذا على جميع الوجوه تأييس المشركين من عوده إلى دينهم لأنّهم ربّما كانوا إذا رأوا منه رحمة بهم ولينا في القول طمعوا في رجوعه إلى دينهم وقالوا إنّه دين آبائه .

(44/228)

وقوله : ولا تكوننّ من المشركين ﴾ عطف على قوله : ﴿ قل ﴾ ، أي قل لهم ذلك ليئْأسوا .

والكلام نهي من الله لرسوله مقصود منه تأكيد الأمر بالإسلام ، لأنّ الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضدّه ، فذكر النهي عن الضدّ بعد ذلك تأكيد له ، وهذا التأكيد لتقطع جرثومة الشرك من هذا الدين .

و﴿ من ﴾ تبعيضية ، فمعنى ﴿ من المشركين ﴾ أي من جملة الذين يشركون ، ويحتمل أنّ النهي عن الانتماء إلى المشركين ، أي هو أمر بالبراءة منهم فتكون ﴿ من ﴾ اتّصالية ويكون ﴿ المشركين ﴾ بالمعنى اللقبي ، أي الذي اشتهروا بهذا الاسم ، أي لا يكن منك

شيء فيه صلة بالمشركين ، كقول النّابغة :

فإِنّي لَسْتُ منك ولست منّي

والتأييس على هذا الوجه أشدّ وأقوى .

وقد يؤخذ من هذه الآية استدلال للمأثور عن الأشعري : أنّ الإيمان بالله وحده ليس ممّا يجب بدليل العقل بل تتوقّف المؤاخذة به على بعثة الرسول ، لأنّ الله أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم أن ينكر أن يتّخذ غير الله وليّاً لأنّه فاطر السماوات والأرض ، ثم أمره أن يقول ﴿ إنّي أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ ثم أمره بما يدلّ على المؤاخذة بقوله : ﴿ إنّي أخاف إن عصيت ربّي إلى قوله فقد رحمه ﴾ [الأنعام : 15 ، 16] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(45/228)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾

والهمزة هنا في " أغير " يسمونها همزة الإنكار كقول قائل : أتسب أباك ؟ إنها ليست

استفهاماً بقدر ما هي توبيخ ولوم . وكذلك : ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ . أي أن الحق يأمر رسوله أن يستنكر اتخاذ ولي غير الله .

إن اتخاذ الله كولي هو أمر ضروري ؛ لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار ، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوي إلى من هو أشد منه قوة ولا يتغير . إن الولي – وهو الله – قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً ، وغناه لا يمكن أن ينقلب فقراً ، وعلمه لا يمكن أن يئول إلى جهل . إنه مُغيِّر ولا يتغير . ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه وليّاً لهم ، فهو صاحب الأغيار .

والحق سبحانه وتعالى يعلِّم خلقه أن يكونوا أهل حكمة ؛ يضعون الأمور في نصابها ويتوكلون عليه ، فهو الحي الذي لا يموت . ونلحظ أن الحق هنا يأمر رسوله بالبلاغ عنه . وتتجلى هنا دقة الأداء القرآني فيأتي البلاغ كما نزل من الحق حرفياً . مثال ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] .

ويبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالنص القرآني كما نزل عليه ، مبتدئاً بكلمة " قل " ويبلغه الرسول لنا بأمانة البلاغ عن ربه . وهو هنا يقول : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ .

وهو الإله الذي جاءت كمالاته في الآيات السابقة ؛ الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور وله ما سكن في الليل والنهار ، هذا الإله الحق هو الجدير بالعبادة .

ويريد الحق لرسوله أن يستخرج من الناس الإجابة ، لا أن يقول هو : لا أتخذ ولياً غير الله ، وسبحانه يأمر رسوله أن يسألهم : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ . وليكن السؤال مطروحاً منك يا رسول الله تبليغاً عن الله ، وتعطى لهم الحرية في الإجابة ، وسيكون الجواب كما تريد .

وعندما يسمع الإنسان مثل هذا السؤال لا بد أن يسأل نفسه ويدير عقله كي يجد جواباً . ولن يجد الإنسان جواباً سوى أن يقول : ليس لي وَلِيٌّ غير الله ؛ فالولي هو القريب الذي ينصر الإنسان في ضعفه ، وإن استصرخه جاء لينقذه .

ولا يستصرخ الإنسان أحداً إلا إذا انتابه حادث جلل ، فإذا ما جاء القوي ليغيث صاحبه الصرخة فهو يطمئن إلى أن من جاءه سيعينه ويخلصه . واتخاذ الولي أمر فطري في الكون ، والأمر المنكر أن يجعل الإنسان لنفسه ولياً غير الله . ونحن – المؤمنين – يتخذ بعضنا بعضاً أولياء في إطار الولاية لله مصداقاً لقوله الحق : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَيُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أولئك سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة : 71] .

ويتبادل المؤمنون والمؤمنات المحبة والنصرة طبقاً للتعاقد الإيماني بينهم وبين الحق سبحانه

وتعالى ، ويأمر بعضهم بعضاً بأوامر المنهج ، وينهى بعضهم بعضاً عن المحظورات التي حرمها الله ويتواصلون مع الحق بإقامة الصلاة . ويؤدون حق الله في مالهم بالزكاة ، ويطيعون الله ويمتثلون أوامر رسوله ، وهم بذلك ينالون وعد الله الحق بالرحمة ، وهو سبحانه القادر على رعايتهم ، وهو حكيم في صيانتهم ، عزيز لا يغلبه أحد .

(47/228)

إذن فأنت تطلب الولي لحظة الضعف ، ولحظة الشدة ، ولا يوجد إنسان استوت له كل زوايا الحياة فيصير قوياً لا يضعف أبداً ، أو يصير غنياً لا يفتقر أبداً . ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، فلم نر قوياً ثبتت له قوته ، ولا غنياً ثبت له ثراؤه ؛ فالإنسان ابن الأغيار ، وتأتي له حالات فوق قدرته ؛ لذلك فهو يسأل عمن يعينه ويساعده . والمؤمن يحب أيضاً أن يكون قوياً ليساعد غيره ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد وزع المواهب على خلقه في الكون ليضمن بقاء الولاية واستمراريتها ، فأنت في احتياج إلى عمل إنسان آخر ؛ لأنك ضعيف في ناحية وغيرك قوي فيها ، الطبيب يحتاج إلى المهندس ، والمهندس يحتاج إلى الطبيب ، والطبيب والمهندس يحتاجان إلى الفلاح ، والفلاح يحتاج إلى عمل المهندس والطبيب ، والطبيب والمهندس والفلاح يحتاجون إلى عمل المحامي .

هكذا وزع الله المواهب في الكون ، ولم يجعل من إنسان مجمعاً لكل المواهب . وذلك حتى يتساند المجتمع لا بالتفضيل والتكرم بل بتساند الحاجة . فكل إنسان هو سيد في زاوية ما من زوايا الحياة ، وبقية الزوايا يسودها غيره من البشر ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : 32] .

هذا هو الإعلان من الله سبحانه وتعالى بأنه وزع المواهب بين البشر ليتسادنوا ويُسخر بعضهم بعضاً في قضاء حوائج بعضهم بعضاً لتنتظم أمور الحياة . وفي هذا التقسيم رحمة من الحق بالخلق . فلو تساوى الناس في الذكاء ، وصاروا كلهم من العباقرة ، فمن هو الذي سيتولى أمور تنظيم الشوارع ؟ ومن الذي سيقوم بأعمال وصيانة المباني ورعاية وإطعام الحيوان والقيام على أمره ونحو ذلك من الأمور التي لا تنتظم الحياة إلا بها ؟

(48/228)

وكلنا يرى الرجل الذي ينزح آبار المجاري ويخرج في الصباح قائلاً : يا فتاح يا عليم ، يا رزاق كريم . ويطلب بئراً جديداً من المجاري لينزحه حتى يكسب قوت نفسه وعياله . وكل منا مضطر ومحتاج إلى غيره ، وهذا هو معنى : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [

الزخرف : 32] .

إذن فاتخاذ الولي هو أمر فطري . والإيمان بالله يعطينا ذكاء اختيار الولي . فالإنسان المؤمن عليه أن يختار الولي الذي يجده عندما يحتاج إليه ؛ لذلك فعليه أن يختار ولاية الله ، ولا يختار ولاية الأغيار . فيسخر الله للمؤمن حتى عدوه ليخدمه . لذلك يبلغنا الحق على لسان رسوله : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ والذين ينكرون علينا أن نتخذ الله ولياً ويريدون أن نتخذ غيره يرون في أنفسهم المثل .

. فقد يخيب رجاؤهم ، فالإنسان منهم قد يتخذ إنساناً مثله ولياً ، وساعة يحتاج إليه يجده مريضاً أو غائباً أو تغير قلبه عليه ، لكن المؤمن يختار الله وليه لأنه الذي لا يغيب ولا يتغير ، ولا يضعف . ولا ينكر القرآن أن يتخذ الإنسان له ولياً من البشر ، ولكن الحق يدلنا على أنه الولي الحق ، وأن المؤمن عليه أن يتخذ إخوته المؤمنين أولياء له ؛ لأنها ولاية من الله وفي الله .

(49/228)

وأنت أيها المسلم حين تختار الحق سبحانه وتعالى ولياً لك فهو الذي يُحْضر لك كل زوايا المواهب ويعدُّها ويهيئها لتكون في خدمتك ؛ لأنه سبحانه وتعالى : ﴿ فَاطِرِ السماوات

والأرض وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ وقد خلق السموات والأرض على غير مثال . وسبحانه قد أبدع هذا الكون دون نموذج مسبق . وحين أراد سيدنا عيسى عليه السلام أن يثبت لقومه معجزته جاء بالطين وجعله كهيئة الطير ، إذن فهناك مثال سبقه ووجده واتبعه . وعيسى إنسان من الخلق ، أما خالق كل الخلق فقد خلق السموات والأرض على غير مثال . وأنت أيها الإنسان قد لا تلتفت إلى مسألة خلق السموات والأرض لأنك تراهما كل لحظة بصورة رتيبة ، وقد تظن أنها مسألة سهلة ، ولكن الحق سبحانه يقول : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : 57] . وهو سبحانه يقسم أن خلق السموات والأرض مسألة أكبر وأدق من خلق الناس لكن أكثر الناس لا تعلم ذلك .

فسبحانه وتعالى يقول : ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47]

.

وفي قوله ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ إشارة إلى خلق هذا الكون المرئي وغير المرئي ؛ لأن هناك الكثير من الأجرام والمجموعات الشمسية ، وما وراء ذلك من اتساع ذلك الكون ما لا يدركه العقل ولا يمكنه تحديده ، وهذه السعة المذهلة هي من قدرة الله سبحانه وتعالى . ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ .

ونجد الحق يستخدم كلمة " فاطر " مرة في شيء مُصْلح ، وأخرى في شيء مفسد .

والمثال للشيء المصلح هو ما يقوله الحق هنا : ﴿ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾ أي أنه خالق السموات والأرض على غير مثال سابق وباقتدار محكم .

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] .

(50/228)

أي أن الحق ينبه هنا إلى يوم الهول والأعظم الذي تنشق فيه السماء وتتساقط فيه الكواكب فلا يؤدي أي شيء منها مهمته ؛ لأن الله – سبحانه – سلبها ما كانت به صالحة .

ويقول أيضاً : ﴿ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : 3] .

فالحق لا يعجز عن شيء ، وهو الخالق لسبه سموات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظر أي خلل في هذا الخلق ، وليُعد الإنسان النظر إلى السماء فلن يجد أي خلل من شقوق أو فروق .

و" فطور " هنا معناها شقوق . إذن فالحق – بتمام قدرته – يعطي الشيء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلِق له فلا يظنن ظان أنه خرج عن قدرة خالقه – سبحانه – وخلق السموات والأرض بتمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أن يفطرهما ويجعلهما غير

صالحتين في أي وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكَوَّر ، والنجوم تُطْمَس ، والجبال تنسف .

وقال عالم من العلماء : ما فهمت كلمة " فاطر " إلا حين جاء أعرابي ، وقال فلان ينازعني في بئر أنا فطرته . أي أن الأعرابي هو الذي بدأ حفر البئر . إذن فاطر السموات والأرض . أي الذي خلقهما على غير مثال . وسبحانه وتعالى القائل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : 30] .

وهذا القول الحكيم لم يصل إلى فهمه العميق من سبقونا ، لكن إنسان هذا العصر الذي نعيشه فهمها بعد أن توصل العلماء إلى أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة وفصلَهُما الحق بإرادته . وجعل من الماء حياة لكل كائن حي .

(51/228)

إذن هو سبحانه قادر على كل شيء ، ولا يخرج شيء عن نطاق قدرته . وهو سبحانه قبل أن يمتن علينا الحياة فهو يحذرنا أن يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، ولذلك قال : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العزيز الغفور ﴾ [الملك : 1-2] .

وكأنه ينبه الإنسان إلى أن يستقبل الحياة ، ليعرف أنه سبحانه أوجد ناقض الحياة وهو الموت ، فإياك أن تأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة برتابة وأبدية ؛ لأن هناك ناقض الحياة وهو الموت .

وها هو ذا سبحانه يقول في موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة : 58-61] .

والإنسان لا يرى الحيوانات المنوية المقذوفة منه في رحم زوجه ، ولا أحد يقدر على ذلك ويرعاه حتى يصير جنيناً ثم بشراً ، ولكن الحق هو المقدر والخالق ، إنّه القادر الذي أعطانا الحياو وقدّر علينا الموت ولا غالب له ، إنه يبدل صورنا حين يريد ، ويخلق غيرنا وينشئنا في صور لا نعرفها ، وهو الواهب للحياة ، وهو الذي ينزعها بالموت .

ويقول لنا : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [الواقعة : 63-64] .

هنا ينبهنا جل وعلا إلى أن الزرع الذي نأكله ، والثمار التي نجنيها من الأرض ليس لنا فيها إلا إلقاء البذور ، وهو سبحانه الذي أودع في البذرة عجائب مختزنة ، ففي البذرة ما يقتيها إلى أن يوجد لها جذير يمتص غذاءها من الأرض ، فتَنمو لها ساق ، ثم تقوى الجذور ، وتشتد الساق .

ولا عمل للإنسان إلا إلقاء البذرة وحرث الأرض . ومع ذلك احترم الحق عمل الإنسان فقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ [الواقعة : 63] .

وعن الماء يقول الحق : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة : 68-70] .

هذا الماء العذب الذي نشربه إنما أنزله الله من السحاب الممطر ، وعملية الإمطار هذه غاية في التعقيد . والماء الساري في الأنهار إنما جاء من المطر الذي تم إنزاله من السماء . فقد أرسل الحق أشعة الشمس لتبخر الماء من البحار ، وتتجمع في سحب ثم يجري الله عليها أمره من مرور تيارات هواء باردة فتسقط مطراً .

ونحن عندما نقطّر كوب ماء في معمل ، نأتي بموقد وإناء ووقود ، ونضع الماء المراد تقطيره فيتبخر ، ثم نكثف قطرات البخار بواسطة تيار من الهواء البارد . ومثل هذه العملية تكلفنا الكثير من العمل الذهني والمادي لبناء مثل هذا الجهاز حتى نقطر كوباً من الماء ، فما بالنا بالمطر الذي ينزل مدراراً وسيولاً .

إننا نجد ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من ماء ، إنه سبحانه – بسطه على رقعة واسعة ،

حتى يسهل البخر . وإذا ما نثرنا كوب ماء على سطح متسع في أبرد مكان فلسوف يتبخر . وهذا الانتشار المسطح للمياه هو الذي يسهل عملية البخر .

ويصعد البخار من مياه المحيطات والبحر إلى أعالي الجو ثم يتكثف في صورة قطرات صغيرة من الماء تتساقط كمطر يتفاوت من منطقة إلى أخرى . وسبحانه قد أعدّ لكل أمر عدته . وهو أيضاً القادر على أن يذهب صلاح هذا الماء .

ويقول لنا الحق : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المنشئون * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة : 71-73] .

(53/228)

ويذكرنا هنا سبحانه بأنه الذي خلق النار التي نشعلها ، وقد جاء بالمصدر الأول للوقود ، وهي الأخشاب التي كانت أشجاراً خضراء وبعد ذلك جفت وصارت أخشاباً نوقدها ونشعل فيها النار . وفي كل ذلك تتجلّى لنا قدرة الحق سبحانه وتعالى ، فنسبح باسمه العظيم : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] .

وننزهه سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك في أمور الخلق والكون .

إذن فعندما يقول الحق سبحانه مبلغاً رسوله : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السماوات

والأرض وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام: 14] .

هذا السؤال يجبرنا على أن ندير أمر اختيار الولي في رءوسنا وأن نُعْمِلَ أفكارنا ، وأن نعرف أن اتخاذ الولي أمر وارد على النفس البشرية ، ولكن من الذي يستحق أن نتخذه ولياً ؟

ونجد في تربية الحق لنا ما يعيننا على استنباط الفكرة السليمة والرأي الرشيد حين يقول لنا : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾

[الفرقان: 58] .

ونعلم أن الإنسان لو اتخذ ولياً من البشر فهذا عرضة للموت ، فتحس أيها الإنسان أنك وحيد في هذا الكون ، ولكنك عندما تتوكل على الله فهو حيّ لا يموت أبداً ، وهو سبحانه : ﴿ فَاطِرِ السماوات والأرض وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ وهو الذي خلق السموات والأرض على غير مثال ، وهو الذي يطعمنا من مطمور كنوز الأرض التي أرادها قوتاً لنا . ولماذا جاء الحق هنا بمسألة الطعام ؟ إن الطعام لون من الرزق ، والرزق – كما نعلم – رزق ينتفع به مباشرة ؛ ورزق يأتي لنا بما ننتفع به مباشرة . فلو إن إنساناً في صحراء ومعه جبل من الذهب الخالص ولم يجد كوب من ماء ولا رغيف خبز ، فجبل الذهب لا يساوي شيئاً .

إن جبل الذهب رزق ولكن لا ينتفع به مباشرة . والرزق الذي ننتفع به مباشرة هو الطعام والشراب والكسوة . ونحن نحتاج إلى الطعام والشراب كل يوم ، ونحتاج إلى ملابس جديدة مرة كل ستة أشهر في المتوسط . إذن فالرزق المباشر هو المقوّم الأساسي للحياة .

والولي الذي ينصر لا بد أن تتوافر فيه القدرة على الإطعام الذي يمدنا بالقدرة التي هي أساس الحياة إنها طاقة استمرار الإنسان على الأرض . فالأم تطعم طفلها وهي تَطْعَم أيضاً بما يأتيها زوجها من طعام . والحق سبحانه وتعالى وحده هو الذي يُطعم كل الخلق ولا يُطعمه أحد . . وحينما نسلسل كل عطاء في الدنيا نجده يئول إلى الله تعالى .

إذن فلا تجعل وليّك في الوسائط ، بل اجعله في الغايات ؛ لأن الوسائط كلها راجعة في الحقيقة إلى الله ، ويأتي الأمر من الحق لرسوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ .

وهذا الأمر يجيء من الآمر الأعلى وهو الله . فالرسول لم يقل : إن هذا الأمر منه ؛ لأنه بشر مثلنا ، وسبحانه أبلغ رسولنا أن يكون هو أول من أسلم ، وأن ينال شرف الالتزام بمبادئ الإسلام ، والمثال على ذلك أن كل قائد مسلم هو القدوة لغيره ، فها هو ذا طارق بن زياد الذي فتح الأندلس وهي مُلْك عريض ، ونزل من السفن وقال لجنوده : أنا لم آمركم أمراً عنه بنجوةٍ – أي أنا بعيد عنه – بل أنا معكم ، واعلموا أني عندما يلتقي الجمعان حامل بنفسي

على طاغية القوم " لزريق " فقاتِلُهُ إن شاء الله . إنه لم يأمر بأمر لم يطبقه على نفسه ، بل طبقه على نفسه أولاً ، وآفة الأوامر أن كل إنسان يأمر أمراً ولا يطبقه على نفسه .

ومن قبل ذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قد حكم نفسه أولاً فحكم الدنيا ، لقد جمع أقاربه أولاً وقال لهم : إني سأشرع للمسلمين ، والذي نفسي بيده من خالفني منكم إلى شيء فيه لأجعلنه نكالاً للمسلمين .

(55/228)

لقد أراد عمر – رضوان الله عليه – أن يَحْكم أقاربه أولاً ضارباً المثل لولي أي أمر ليحكم أقاربه أولاً ، وأن يحذرهم أن يستغلوا اسمه ، ليستقيم الأمر بين المسلمين ؛ لأن الآفة أننا نجد الكثير من الناس تتكلم في الإسلام ، ويريد كل إنسان من غيره أن يكونوا مسلمين بينما هو لا يطبق على نفسه مبادئ الإسلام . والحق سبحانه وتعالى أنزل لرسوله الأمر : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ .

ومعنى " أسلم " أي ألقى زمام حياته إلى من يثق في حكمته وعدله وهو الحق سبحانه وتعالى . وعندما كنا صغاراً كنا نلقي زمام أمورنا لمن يتولى تربيتنا ، ونرى الآباء والأمهات وهم يتعبون ويشقون ، نطيع أوامرهم إلى أن نصل إلى المراهقة فتنمو فينا الذاتية ، ونجد

المراهق وهو يرفض مثلاً ارتداء البنطلون القصير ويرتدي البنطلون الطويل . ويختار ألوان ملابسه في ضوء الأزياء الحديثة السائدة . وبعد ذلك يبدأ الشاب في إدارة أموره بنفسه . وآفة حياتنا أننا نهمل تربية الأبناء وهم صغار ، ثم نأتي لنقول : هيا لنربي الشباب متناسين أن الشباب مرحلة تمتلئ بطاقة يمكن أن يستغلها المجتمع ، والتربية السليمة زمانها الطفولة . ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ . وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل عن رب العزة ، ويخبرنا أنه صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ، وأنه تلقى الأمر بعدم الشرك بالله .

(56/228)

فإياكم أيها المسلمون أن تتعاظموا عل مثل هذا الأمر ؛ لأن المصطفى المختار هو أول من أمره الحق بذلك ، وإياك أيها المسلم أن تجد غضاضة في أن تتلقى أمراً من خالقك ؛ لأن الغضاضة قد تأتيك عندما يصدر إليك أمرٌ من مساوٍ لك ، لكن التوجيه الصادر من الحق لا بد أن يلزمك وترتضيه نَفْسُك ويطمئن به قلبك ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه عندما يقابل حادثة ليس فيها حكم الله ، ويأتي الرسول صلى الله عليه وسلم بحكم من عنده ، فإن كان الحكم صحيحاً فإن الحق ينزل من القرآن ما يؤكده ، وإن احتاج الحكم

إلى تعديل ، فإن الحق سبحانه ينزل التعديل اللازم للحكم ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديل الحق سبحانه وتعالى له ولا يجد غضاضة في ذلك ، بل يبلغنا ببشاشة وصدق وأمانة أنَّه البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى قد مَنَّ على رسوله صلى الله عليه وسلم عندما لم يعدل في الحكم احتراماً لاجتهاده صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ الذين صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الكاذبين ﴾ [التوبة : 43] .

لقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض المنافقين بالتخلف عن القتال قبل أن يتبين أمرهم ليعلم الصادق منهم – في عذره – من الكاذب . وجاء العفو من الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهد ببشريته وأبلغنا الرسول بما أنزله الله .

(57/228)

ونحن في حياتنا اليومية – ولله المثل الأعلى – نفتح كراسة الابن فنجد أن فيها شطباً بالقلم الأحمر ، فنسأل الابن : من الذي فعل ذلك ؟ فيقول الابن : صوب لي المدرس الأول هذا الموضوع . هو لم يتحدث عن تصويب المدرس ، ولكن عن تصويب من هو أعلى من المدرس . وهذا شرف للتلميذ . فما بالنا بالمصوِّب الأعلى سبحانه وتعالى . وها هو ذا

الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى عن الله : ﴿ قُلْ إِنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(58/228)

فصل

قال فى الميزان :

قوله تعالى : (قل أغير الله أخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم)

شروع في الاحتجاج على وحدانيته تعالى وأن لا شريك له .

والذى يتحصل من تاريخ الوثنية واتخاذ الأصنام والآلهة أنهم كانوا إنما دانوا بذلك وخضعوا للآلهة لأحد أمرين : إما أنهم وجدوا أنفسهم في حاجة إلى أسباب كثيرة في إبقاء الحياة كالتغذى بالطعام واللباس والمسكن والأزواج والأولاد والعشيرة ونحو ذلك ، وعمدتها الطعام الذى حاجة الإنسان إليه أشد من حاجته إلى غيره بحسب النظر الساذج ، وقد اعتقدوا أن لكل صنف من أصناف هذه الحوائج تعلقا بسبب هو الذى يجود لهم بالتمتع من وسيلة رفع تلك الحاجة كالسبب الذى يمطر السماء فينبت المرعى والكلاء لدوابهم ويمنع بالخصب لأنفسهم ، والسبب الذى يدبر أمر السهل والجبل أو يلقى بالمحبة

والألفة أو إليه أمر البحر والسفائن الجارية فيها .

ثم وجدوا أن قوتهم لا تفى بالتسلط على تلك الحاجة أو الحوائج الضرورية فاضطروا إلى الخضوع إلى السبب المربوط بحاجتهم واتخاذه إلها ثم عبادته .

وإما لأنهم وجدوا هذا الإنسان الأعزل غرضا لسهام الحوادث محصورا بمكاره وشرور عامة عظيمة لا يقاومها كالسيل والزلزلة والطوفان والقحط والوباء ، وببلايا ومحن أخرى جزئية لا يحصيها كالامراض والاوجاع والسقوط والفقر والعقم والعدو والحاسد والشانئ وغير ذلك ، ثم وضعوا لها أسبابا قاهرة هي المرسلة لها إليهم ، والقاصمة بها ظهورهم ، والمكدرة لصفوة عيشهم ، وهى مخلوقات علوية كأرباب الأنواع وأرواح الكواكب والأجرام العلوية فاتخذوها آلهة خوفا من سخطهم وعذابهم ، وعبدوها ليستميلوها بالعبادة ويرضوها بالخضوع والاستكانة فيخلصوا بذلك عن المكاره والرزايا ويأمنوا شرورها والمضار النازلة منها إليهم .

(59/228)

والآية أعنى قوله : (قل أغير الله أتخذ وليا) الخ ، والآيات التالية لها تحتج على المشركين بقلب حجتيهم بعينهما إليهم أي تسلم أصل الحجة وتعدها حقة لكن تبين أن لازمها أن

يعبد الله سبحانه وحده ، وينفى عنه كل شريك موضوع .

فقوله تعالى : (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم)

إشارة إلى الحجة من المسلك الأول ، وهو مسلك الرجاء أن يعبد الإله لأنه منعم فيكون عبادته شكرا لإنعامه سببا لمزيده .

أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه السلام أن يبين لهم في صورة الاستفهام والسؤال أن الله سبحانه وحده هو الولى للنعمة التى يتنعم بها الإنسان وغيره لأنه هو الرازق الذى لا يحتاج إلى أن يرزقه غيره يطعم ولا يطعم ، والدليل عليه أنه تعالى هو الذى فطر السموات والأرض وأخرجها من ظلمة العدم إلى نور الوجود ، وأنعم عليها بنعمة التحقق والثبوت ، ثم أفاض عليها بنعم لا يحصيها إلا هو لإبقاء وجودها ، ومنها الإطعام للإنسان وغيره فإن جميع هذه النعم المعدة لبقاء وجود الإنسان وغيره ، والأسباب التى تسوق تلك النعم إلى محال الاستحقاق كل ذلك ينتهى إلى فطره وإيجاده الأشياء والأسباب ومسبباتها جميعا من صنعه .

فإليه سبحانه يرجع الرزق الذى من أهم مظاهره عند الإنسان الاطعام فيجب أن يعبد الله وحده لأنه هو الذى يطعمنا من غير حاجة إلى إطعام من غيره .

فظهر بما بيناه أولا : أن التعبير عن العبودية والتأله باتخاذ الولى في قوله : (أغير الله أتخذ وليا) إنما هو لكون الحجة مسوقة من جهة إنعامه تعالى بالاطعام .

وثانيا : أن التعلق بقوله : (فاطر السماوات والأرض) إنما هو لبيان سبب انحصار الاطعام به تعالى كما تقدم تقريره ، وربما استفيد ذلك من التعريض الذى في قوله : (ولا يطعم) فإن فيه تعريضا بكون سائر من اتخذوهم آلهة محتاجين كعيسى وغيره إلى إطعام أو ما يجرى مجراه .

(60/228)

ومن الممكن أن يستفاد من ذكره في الحجة أنه أشارة إلى مسلك آخر في إقامة الحجة على توحيده تعالى هو أشرف من المسلكين جميعا ، ومحصله أن الله سبحانه هو الموجد لهذا العالم ، وإلى فطره ينتهى كل شئ فيجب الخضوع له .

ووجه كون هذا المسلك أشرف : هو أن المسلكين الاخرين وإن كانا أنتجا توحيد الاله من جهة أنه معبود لكنهما لا يخلوان مع ذلك من شئ ، وهو أنهما ينتجان وجوب عبادته طمعا في النعمة أو خوفا من النقمة فالمطلوب بالذات هو جلب النعمة أو الامن من النقمة دونه تعالى وتقدس ، وأما هذا المسلك فإنه ينتج وجوب عباده الله لأنه الله سبحانه .

وثالثا : أن اختصاص الاطعام من بين نعمه تعالى على كثرتها بالذكر إنما العناية فيه كون الاطعام بحسب النظر الساذج أوضح حوائج الحيوان العائش ومنه الإنسان .

ثم أمر سبحانه بعد تمام الحجة نبيه صلى الله عليه واله أن يذكر لهم ما يؤيد به هذه الحجة العقلية ، وهو أن الله أمره من طريق الوحى أن يجرى في اتخاذ الإله على الطريق الذى يهدى إليه العقل وهو التوحيد ، ونهاه صريحا أن يتخطاه إلى أن يلحق بالمشركين فقال : (قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) ثم قال : (ولا تكونن من المشركين) .

بقى هنا أمران :

أحدهما : أن قوله : (أول من أسلم) إن كان المراد أول من أسلم من بينكم فهو ظاهر فقد أسلم صلى الله عليه واله قبل امته ، وإن كان المراد به أول من أسلم من غير تقييد كما هو ظاهر الإطلاق كانت أوليته في ذلك بحسب الرتبه دون الزمان .

وثانيهما : أن نتيجة الحجة لما كانت هي العبودية وهى نوع خضوع وتسليم كان استعمال لفظة الإسلام في المقام أولى من لفظة الإيمان لما فيه من الدلالة على غرض العبادة ، وهو الخضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 5 صـ 30 . 33 ﴾

(61/228)

وقال صاحب الأمثل :

قوله تعالى : (قل أغير الله أخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم)

لا ملجأ غير الله !

من المفسّرين من يذكر أنّ سبب نزول الآية هو أنّه جاء جمع من أهل مكّة إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وقالوا : يا محمّد ، إنّك تركت دين قومك ، ولم يكن ذلك إلاّ بسبب فقرك ، فاقبل منّا نصف أموالنا تكن غنياً على أن تترك آلهتنا وشأنها وتعود إلى ديننا ، فنزلت هذه الآية ترد عليهم .

سبق أن قلنا : إنّ آيات هذه السورة نزلت مرّة واحدة في مكّة ، كما جاء في الأخبار المروية ، لذلك لا يمكن أن يكون لكل منها سبب نزول خاص ، غير أنّ أحاديث كانت قد جرت قبل نزول هذه السورة بين رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) والمشركين وبعض هذه الآيات تشير إلى تلك الأحاديث ، لذلك ليس ثمّة ما يمنع أن تكون أحاديث من هذا القبيل أيضاً قد جرت بين رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) والمشركين ، فيشير القرآن في هذه الآيات إلى أحاديثهم ويرد عليهم .

على كلّ حال ، الهدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد ومحاربة الشرك وعبادة الأصنام فالمشركون ، وإن اعتقدوا أنّ الله هو خالق العالم ، كانوا يتخذون من الأصنام ملجأً لأنفسهم ، ولربّما اتخذوا صنماً لكل حاجة معينة ، فلهم إله للمطر ، وإله للظلام ، وإله للحرب والسلم ، وإله للرزق ، وهذا هو تعدد الأرباب الذي ساد اليونان القديم .

ولكي يزيل القرآن هذا التفكير الخاطىء ، يأمر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أن

(قل أغير الله اتّخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) .

فإذا كان هو خالق عالم الوجود كله دون الإِستناد إِلى قدرة أُخرى ، وهو الذي يرزق مخلوقاته ، فما الذي يدعو الإِنسان إِلى أن يتخذ من دونه ولياً وربّاً ؟ وإنّ كل الأشياء غيره مخلوقات وهي بحاجة إليه في كل لحظات وجودها ، فكيف يمكن لها أن تقضي حاجة الآخرين ؟

(62/228)

هذه الآية تستعمل كلمة "فاطر" في حديثها عن خالق السموات والأرض ، وأصل "الفطر" و"الفطور" هو الشق ، يروى عن ابن عباس أنّه قال: ما عرفت معنى فاطر السموات والأرض إِلاّ عندما رأيت أعرابيين يتنازعان على بئر قال أحدهما : "أنا فطرتها" أي أنا أحدثتها وأوجدتها .

ولكننا اليوم أقدر من ابن عباس على معرفة معنى "فاطر" بالإِستعانة بالعلوم الحديثة ، أنّه تعبير ينسجم مع أدق النظريات العلمية الحديثة عن تكون العالم ، لقد أظهرت دراسات العلماء أنّ العالم الكبير (الكون) والعالم الصغير (المنظومة الشمسية) كانت كلها كتلة واحدة تشققت على أثر الإِنفجارات المتتالية ، وتكونت المجرات والمنظومات والكرات ، وفي الآية

(30) من سورة الأنبياء بيان أوضح لهذا الأمر: (أو لم ير الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) .

والنقطة الأُخرى التي ينبغي ألا نغفل عنها في هذه الآية هو أنّها تقتصر على توكيد إتصاف الله باطعام مخلوقاته ورزقهم ، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان في حياته المادية هي حاجته إلى "لقمة العيش" كما يقال ، وهذه اللقمة هي التي تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال والقوّة ، وقد يصل خضوعهم لأُولئك حدّ العبودية ، ففي هذا يقرر القرآن رزق الناس بيد الله لا بيد هؤلاء ولا بيد الأصنام ، فأصحاب المال والقوّة هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام ، وأنّ الله هو وحده الذي يطعم الناس ولا يحتاج إلى طعام .

وفي آيات أُخرى نرى القرآن يؤكّد مالكية الله ورازقيته بإنزال الأمطار وإنبات النباتات ، وذلك لكي يزيل من أذهان البشر كلياً فكرة اعتمادهم على مخلوقات مثلهم .

ثمّ للردّ على أُولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول الله إلى الإنضمام إليهم ، يؤكّد القرآن على ضرورة رفض دعوة هؤلاء إنطلاقاً من مبدأ نهي الوحي الإلهي عن ذلك ، إضافة إلى نهي العقل: (قل إنّي أُمرت أن أكون أوّل من أسلم ولا تكونن من المشركين) .

(63/228)

لا شك أنّ أنبياء الله والصالحين من أقوامهم سبقوا النّبي الخاتم في استسلامهم لأمر الله وعليه فإن قوله تعالى: (إِنّي أُمرت أن أكون أوّل من أسلم) يعني أوّل مسلم من أُمّة الرسالة الخاتمة.

كما أنّ هذا إِشارة إِلى أمر تربوي مهم أيضاً، وهو أنّ كل قائد ينبغي أن يكون في تطليق تعاليم دينه قدوة وطليعة، عليه أن يكون أوّل المؤمنين برسالته، وأوّل العاملين بها، وأكثر الناس اجتهاداً فيها، وأسرعهم إِلى التضحية في سبيلها.

الآية التّالية فيها توكيد أشدّ لهذا النهي الإِلهي عن إِتّباع المشركين: (قل إِني أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم).

أي يأمر الله رسوله أن يقول بأنّه ليس مستثنى من القوانين الإِلهية، وأنّه يخاف ـ إِن ركن إِلى المشركين ـ عذاب يوم القيامة.

ومن هذه الآية نفهم أيضاً أنّ شعور الأنبياء بالمسؤولية يفوق شعور الآخرين بها.

ولكي يتّضح أنّ النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يستطيع شيئاً بغير الاستناد إِلى لطف الله ورحمته، فكل شيء بيد الله وبأمره، وحتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه يترقب بعين الرجاء رحمة الله الواسعة، ومنه يطلب النجاة والفوز: (ومن يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين).

هذه الآيات تبيّن منتهي درجات التوحيد، وترد على الذين كانوا يرون للأنبياء سلطاناً

مستقلا عن إرادة الله ، كما فعل المسيحيون عندما جعلوا من المسيح (عليه السلام) المخلّص والمنقذ ، فتقول لهم: إنّ الأنبياء أنفسهم يحتاجون إلى رحمة الله مثلكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ 4 صـ 227.230 ﴾

(64/228)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

أَغَيْرَ اللَّهِ " مفعول أوّل لـ " أَتَّخِذُ " و " ليا " مفعولٌ ثانٍ ، وإنما قدّم المفعول الأوّل على فعله لمعنى ، وهو إنكار أن يُتَّخَذَ غَيْرَ اللَّهِ وليّاً لا اتّخاذ الوليّ ، ونحوه قولك لمن يُهِينُ زيداً وهو مستحقٌّ للإكرام : " أزيداً أهنْتَ " ؟ ! أنْكَرْتَ أن يكون مَثْلَهُ مُهَاناً .

وقد تقدّم هذا موضحاً في قوله : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] ، ومثله : ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً ﴾ [الأنعام : 164] ، ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمروني أَعْبُدُ ﴾ [الزمر : 64] ﴿ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ [يونس : 59] ﴿ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ ﴾ [الأنعام : 143] وهو كثيرٌ ، ويجوز أن يكُونَ " أتخذ " متعدّياً لواحدٍ ، فيكون " غير " مَنْصُوباً على الحال من " ولياً " ؛ لأنه في الأصل صِفَةٌ له ، ولا يجوز أن يكُونُ استثناءً أَلْبَتَّةَ ، كذا منعه أبو البقاء ، ولم

يُبَيِّنْ وجهه .

والذي يظهر أنَّ المَانِعَ تقدُّمه على المستثنى منه في المعنى ، وهو " وَلِياً " .

وأمَّا المعنى فلا يَأبى الاستثناء ؛ لأن الاستفهام لا يُرَادُ به حقيقته ، بل يُراد به الإنْكَار ، فكأنه قيل : لا أتَّخذُ وليًا غير اللَّه ، ولو قيل كذا لكان صحيحاً ، فظهر أنَّ المانع عنده إنما هو التَّقْدِيمُ على المستثنى منه ، لكن ذلك جائز وإن كان قليلاً ، ومنه : [الطويل]

2118 - ومَا لِي إلاَّ آلَ أحْمَدَ شِيعَةٌ . . .

وَمَا لِيَ إلاَّ مَشْعَبَ الحَقِّ مشْعَبُ

وقرأ الجمهور " فَاطِرِ " بالجر ، وفيها تخريجان :

أحدهما - وبه قال الزخشريّ والحوفيّ وابن عطيّة - : صفة للجلالة المجرورة بـ " غير " ، ولا يَضُرُّ الفَصْلُ بين الصِّفَةِ ، والموصوف بهذه الجملة الفعلية ومفعولها ؛ لأنها ليست بأجنبيةٍ ، إذ هي عاملةٌ في عامل الموصوف .

الثاني - وإليه نَحَا أبو البقاء - : أنه بَدَلٌ من اسم اللَّهِ ، وكأنه فَرَّ من الفَصْلِ بين الصِّفةِ وموصوفها .

(65/228)

فإن قيل : هذا لازمٌ له في البدل ، فإنه فَصَل بين التَّابع ومتبوعه أيضاً ، فيقال : إنَّ الفَصْلَ بين البدلِ والمبدل فيه أسهل ؛ لأن البَدَلَ على نِيَّةِ تَكْرَارِ العامل ، فهو أقربُ إلى الفَصْلِ ، وقد يُرجَح تخريجه بوَجْهِ آخر ، وهو أنَّ " فاطر " اسم فاعل ، والمعنى ليس على المُضِيِّ حتى تكون إضافته غير مَحْضَةٍ ، فيلزم وَصْفُ المعرفة بالنَّكرة ؛ لأنه في نيَّةِ الانفصال من الإضافة ، ولا يقال : اللَّهُ فَاطِرُ السموات والأرض فيما مضى ، فلا يُرَادُ حالٌ ولا استقبالٌ ؛ لأن كلام اللّهِ – تبارك وتعالى – قديمٌ متقدّمٌ على خَلْقِ السموات ، فيكون المراتد به الاسْتِقْبَال قطعاً ، ويَدُلُّ على جواز كونه في نيَّة التَّنْوين ما يأتي ذكره عن أبي البَقَاءِ قريباً .

وقرأ ابن عَبْلَةَ برفعه ، وتخريجه سَهْلٌ ، وهو انه خبر مبتدأ محذوف .

وخرَّجه ابن عطية على أنه مبتدأ ، فيحتاج إلى تقدير خَبَرٍ ، والدلالَةُ عليه خفيَّةٌ بخلاف تقدير المبتدأ ، فإنه ضمير الأول ، أي : " هو فاطر " .

وقرئ شاذاً بنصبه ، وخرَّجه أبو البقاء على وجهين :

أحدهما : أنه بَدَلٌ من " ولياً " قال : " والمعنى على هذا أَجْعَلُ فاطر السموات والأرض غير اللّهِ " ، كذا قدَّرَهُ ، وفيه نظر ، ؛ لأنه جعل المفعول الأول ، وهو " غير الله " مفعولاً ثانياً ، وجعل البدل من المفعول الثاني مفعولاً أوَّل ، فالتقدير عَكْسُ التركيب الأصلي .

والثاني : أنه صِفَةٌ لـ " ولياً " قال : ويجوز أن يكون صَفَةٌ لـ " وَلِيّاً " والتنوين مُرَادٌ .

قال شهاب الدين : يعني بقوله : " التنوين مُرَاد " أنَّ اسم الفاعل عاملٌ تقديراً ، فهو في نِيَّةِ

الانْفَصَالِ ، ولذلك وقع وَصْفاً للنكرة كقوله : ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : 24] .

(66/228)

وهذا الوجه لا يَكَادُ يَصِحُّ ، إذ يصير المعنى : أأَتَّخِذُ غير اللَّهِ وليّاً فاطر السموات الحال من الجلالةِ ، كما كان " فاطر " صفتها في قراءة الجمهور .

ويجوز على رأي أبي البقاءِ أن تكون صَفَةٌ لـ " وليّاً " ، ولا يجوز أن تكون صَفَةً للجلالة ؛ لأن الجملة نكرةٌ .

والفَطْرُ : الشَّقُّ مُطْلقاً ، وقيَّدَهُ الرَّاغب بالشَّقِّ طولاً ، وقيَّدَهُ الواحدي بشقِّ الشيء عند إبتدائه .

والفطرُ : إبداع وإيجاد شيء على غير مثال ، ومنه ﴿ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾ ، أي : أوجدها على غير مثال يُحْتَدى .

وعن ابن عبَّاس : ما كنتُ أدْرِي ما معنى فَطَر وفَاطِر ، حتَّى اختصم إليَّ أعْرَابيَّان في بِئْرٍ ، فقال أحدهما : " إنا فَطَرتُهَا " ، أي : أنْشَأْتُهَا وابتدأتها .

ويقال : فَطَرْتُ كذا فَطْراً وفَطَر هو فُطوراً ، وانْفَطَرَ إنْفطَاراً وفَطَرْتُ الشَّاة : حَلَبْتُهَا

بأصْبُعَيْنِ ، وفَطرْتُ العَجينَ : خبرْته في وَقْتِهِ .

قوله : ﴿ وَهُوَ يُطعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ القراءة المَشْهُورة ببناء الأوّل للفاعل ، والثَّاني للمعفول ، والضمير للّهِ تعالى ، والمعنى : وهو يَرْزَق ، وهو موافق لقوله تعالى : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : 57] .

وقرأ سعيد بن جبير ، ومجاهد بن حبر ، والأعمش ، وأبو حيوة ، وعمرو بن عبيد ، وأبو عمرو العلاء في رواية عنه : وَلاَ يَطْعَمُ " بفتح الياء والعين ، والضميرُ في ولا يُطْعِم للوِليّ .

وقرأ يعقوب في رواية أبي المأمون : " وهو يُطْعَمُ ولا يُطْعِم " ببناء الأوّل للمفعول ، والثَّاني للفاعل ، على عَكْسِ القراءة المشهورة ، والضمائر الثلاثة أعني هو والمستترين في الفعلين للولي فقط أي : وذلك الولي يُطعمه غيره ، ولا يُطْعِمُ هو أحداً لعَجْزِه .

وقرأ الأشْهَبُ : " وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعِم " ببنائهما للفاعل .

(67/228)

وذكر الزمخشري فيهما تخريجين ثانيهما لنفسه ، فإنه قال بعد أن حَكَى القراءة : وفُسِّر بأنَّ معناه وهو يُطْعِم ولا يسْتَطْعِم .

وحكى الأزهري : أطعمت بمعنى اسْتَطْعِمْتُ ، ونحوه : أفدْت ، ويجوز أن يكون المعنى :

هو يُعطْعِمُ ، تارةً ، ولا يُطْعم أخرى على حسب المَصَالِحِ ، كقولك : هو يعطي ويمنع ، ويَقْدر ويبسط ويغني ويُفْقر .

قال شهابُ الدين : هكذا ذكر أبو حيَّان هذه القراءات .

وقراءةُ الأشهب هي كقراءة ابن أبي عَبْلَةَ والعماني سواء لا تَخَالُفَ بينهما ، فكان ينبغي أن يذكر هذه القراءة لهؤلاء كُلِّهم ، وإلاَّ يوهم هذا أنهما قِرَاءتانِ مُتغَايرَتَانِ ، وليس كذلك .

وقُرِئَ شاذّاً : "يَطْعَمُ" بفتح الياء والعين ، "ولا يُطعم" بضم الياء وكسر العين ، أي : وهو يأكل ، ولا يطعم غيره ، ذكره هذه القراءة أبو البقاء قال : "والضميرُ راجع على الوَلِيّ الذي غَيْرُ اللّهِ" .

فهذه ست قراءات ، وفي بعضها – وهو تَخَالُفُ الفعلين – من صناعة البَديع تَجنيسُ التشكيل ، وهو أن يكون الشّكْلُ فارقاً بين الكلمتين ، وسمَّاهُ أسَامةُ بن منقذ تجنيس التَّحْريفِ ، وهو تَسْمِيَةٌ فَظِيعَةٌ ، فتسميتهُ بتجنيس التَّشْكيل أوْلَى .

قوله : ﴿ قُلْ إني أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ يعني من هذه الأمَّةِ ، والإسلامُ بمعنى الاسْتِسْلام لأمرِ اللّهِ تعالى .

وقيل : أسْلمَ أخْلَصَ ، و"مَنْ" يجوز أن تكون نكرة موصوفةً واقعةً موقع اسم جمع أي : أوّل فريق أسلم ، وأن تكون موصولةً أي : أوّل الفريق الذي أسْلَم ، وأفرد الضمير في "أسلم" إمَّا باعتبار "فريق" المُقَدَّر وإمَّا باعتبار لَفْظِ "مَنْ" ، وقد تقدَّم الكلام على "أول" وكيف

يُضَاف إلى مفرد بالتأويل المذكور في سورة البقرة .

قوله : " ولا تَكُونَنَّ " فيه تأويلان :

أحدهما : على إضمار القول ، أي : وقيل لي : لا تكونن .

(68/228)

قال أبو البقاء : " ولو كان مَعْطُوفاً على ما قبله لَفظاً لقال : وأنْ لا أكون " وإليه نَحَا الزمخشري فإنه قال : " ولا تَكُونَنَّ : وقيل لي لا تكونَنَّ ، ومعناه : وأُمرت بالإسْلامِ ، ونُهيت عن الشِّرْكِ " .

والثاني : أنه مَعْطُوفٌ على معلوم " قُلْ " حَمْلاً على المعنى ، والمعنى : قل إني قيل لي : كُنْ مَنْ أسلمٍ ، ولا تكونَنَّ من المشركين ، فهما جميعاً محمولان على القَوْلِ ، لكن أتى الأوَّل بغير لفظ القول ، وفيه معناه ، فَحُمِلَ الثاني على المعنى .

وقيل : هو عَطْفٌ على " قل " أُمِرَ بأن يقول كذا ، ونهي عن كذا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 52 ـ 57 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

أَبَعْدَ ما أكرمني بجميل ولايته أتولى غيره ؟ وبعد ما وَقَعَ عليَّ ضياءُ عنايته أنظرُ في الدارين إلى أحد ؟ إنَّ هذا محالٌ في الظنّ والتقدير .

قوله جلّ ركره : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ .

له نعتُ الكَرَمِ فلذلك يُطْعِمُ ، وله حقُّ القِدَمِ فلذلك لا يُطْعَمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 463 ﴾

(69/228)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان فعل المنهي قد لا يعذب عليه ، قال معلماً بأن المخالفة في هذا من أبلغ المخالفات ، فصاحبها مستحق لأعظم الانتقام ، وكل ذلك فطماً لهم عن الطمع فيه ، وأكده لذلك ولإنكارهم مضمونه : ﴿ قل إني ﴾ ولما كان المقام للخوف ، قدمه فقال : ﴿ أخاف إن عصيت ﴾ أي شيء مما تريدون مني أن أوافقكم فيه بما أمرت به أو نهيت عنه ﴿ ربي ﴾

أي المحسن إليّ ﴿ عذاب يوم ﴾ ولما كان عظم الظرف بعظم مظروفه قال : ﴿ عظيم ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 598 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى لما بيّن كون رسوله مأموراً بالإسلام ثم عقبه بكونه منهياً عن الشرك قال بعده ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ والمقصود أني إن خالفته في هذا الأمر والنهي صرت مستحقاً للعذاب العظيم .

فإن قيل : قوله : ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ يدل على أنه عليه السلام كان يخاف على نفسه من الكفر والعصيان ، ولولا أن ذلك جائز عليه لما كان خائفاً .

والجواب أن الآية لا تدل على أنه خاف على نفسه ، بل الآية تدل على أنه لو صدر عنه الكفر والمعصية فإنه يخاف .

وهذا القدر لا يدل على حصول الخوف ، ومثاله قولنا : إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين ، وهذا لا يدل على أن الخمسة زوج ولا على كونها منقسمة بمتساويين ، وهذا لا يدل على أن الخمسة زوج ولا على كونها منقسمة بمتساويين والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 141 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾

زعم بعض المفسرين أنه كان يجب عليه أن يخاف عاقبة الذنوب ، ثم نسخ ذلك بقوله : ﴿ ليغفر لكَ اللهُ ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 3] والصحيح أن الآيتين خبر ، والخبر لا يدخله النسخ ، وإنما هو معلق بشرط ، ومثله ﴿ لئن أشركت ليحبَطن عملك ﴾ [الزمر : 66] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ مبالغة أخرى في قطع أطماعهم ، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب ، والشرط معترض بين الفعل والمفعول به وجوابه محذوف دل عليه الجملة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 397 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ أي بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان كان فيدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي عذاب يوم القيامة وعظمه لعظم ما يقع فيه مفعول ﴿ أَخَافُ ﴾ والشرطية معترضة بينهما وجواب الشرط محذوف وجوباً .

وما تقدم على الأداة شبيه به فهو دليل عليه وليس إياه على الأصح خلافاً للكوفيين والمبرد ، والتقدير إن عصيت أخف أو أخاف عذاب الخ ، وقيل : صرت مستحقاً لعذاب ذلك اليوم .

وفي الكلام مبالغة أخرى بالنظر إلى ما يفهم مما تقدم في قطع أطماعهم وتعريض بأنهم عصاة مستحقون للعذاب حيث أسند إلى ضمير المتكلم ما هو معلوم الانتفاء .

وقرن بإن التي تفيد الشك وجىء بالماضي إبرازاً له في صورة الحاصل على سبيل الفرض .

ويؤول المعنى في الآخرة إلى تخويفهم على صدور ذلك الفعل منهم فليس في الكلام دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام يخاف على نفسه المقدسة الكفر والمعصية مع أنه ليس كذلك لعصمته صلى الله عليه وسلم .

وأورد بعضهم دلالة الآية على ما ذكر بحثاً ثم قال : وأجيب عنه بأن الخوف تعلق بالعصيان الممتنع الوقوع امتناعاً عادياً فلا تدل إلا على أنه عليه الصلاة والسلام يخاف لو صدر عنه

وحاشاه الكفر والمعصية وهذا لا يدل على حصول الخوف ، وأنت تعلم أن فيما قدمنا غنى عن ذلك .

ويفهم من كلام بعضهم أن خوف المعصوم من المعصية لا ينافي العصمة لعلمه أن الله سبحانه وتعالى فعال لما يريد وأنه لا يجب عليه شيء ، وفي بعض الآثار أنه عز شأنه قال لموسى عليه السلام : "يا موسى لا تأمن مكري حتى تجوز الصراط2 .

وجاء في غير ما خبر أنه صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح يصفر وجهه الشريف ويقول : أخاف أن تقوم الساعة مع أن الله تعالى أخبره أن بين يديها ظهور المهدي وعيسى عليهما السلام وخروج الدجال وطلوع الشمس من مغربها إلى غير ذلك من الأمارات التي لم توجد إذ ذاك ولم تحقق بعد .

وصح أنه صلى الله عليه وسلم اعتذر عن عدم خروجه عليه الصلاة والسلام لصلاة التراويح بعد أن صلاها أول رمضان وتكاثر الناس رغبة فيها بقوله : " خشيت أن تفرض عليكم " مع أن ما كان ليلة الإسراء إذ فرضت الصلوات يشعر بأنه تعالى لا يفرض زيادة عن الخمس وكل ذلك يدل على أن لله تعالى أن يفعل ما شاء وقصارى ما يلزم في أمثال ذلك لو فعل تغير تعلق الصفة وهو لا يستلزم تغير الصفة ليلزم الحدوث وقيام الحوادث به تعالى شأنه وهذا بحث طويل الذيل ولعل النوبة تفضي إلى تحقيقه إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

هذا استئناف مكرّر لما قبله ، وهو تدرّج في الغرض المشترك بينها من أنّ الشرك بالله متوعّد صاحبه بالعذاب وموعود تاركه بالرحمة .

(72/228)

فقوله : ﴿ أغير الله أتّخذ وليّاً ﴾ [الأنعام : 14] الآية رفض للشرك بالدليل العقلي ،

وقوله : ﴿ قل إنّي أمرت أن أكون أوّل من أسلم ﴾ [الأنعام : 14] الآية ، رفض للشرك امتثالاً لأمر الله وجلاله .

وقوله هنا : ﴿ قل إنّي أخاف ﴾ الآية تجنّب للشرك خوفاً من العقاب وطمعاً في الرحمة .

وقد جاءت مترتّبة على ترتيبها في نفس الأمر .

وفهم من قوله : ﴿ إن عصيت ربّي ﴾ أنّ الآمر له بأن يكون أول من أسلم والناهي عن كونه من المشركين هو الله تعالى .

وفي العدول عن اسم الجلالة إلى قوله : ﴿ ربّي ﴾ إيماء إلى أنّ عصيانه أمر قبيح لأنّه ربّه فكيف يعصيه .

وأضيف العذاب إلى ﴿ يوم عظيم ﴾ تهويلاً له لأنّ في معتاد العرب أن يطلق اليوم على يوم نصر فريق وانهزام فريق من المحاربين ، فيكون اليوم نكالاً على المنهزمين ، إذ يكثر فيهم القتل والأسر ويسام المغلوب سوء العذاب ، فذكر ﴿ يوم ﴾ يثير من الخيال مخاوف مألوفة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظّلّة إنّه كان عذاب يوم عظيم ﴾ [الشعراء : 189] ولم يقل عذاب الظّلّة أنّه كان عذاباً عظيماً .

وسيأتي بيان ذلك مفصّلاً عند قوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ في سورة التغابن (9) ، وبهذا الاعتبار حسَن جعل إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عظم ذلك العذاب ، لأنّ عظمة اليوم العظيم تستلزم عظم ما يقع فيه عرفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(73/228)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) ﴾

إنه الرسول المصطفى والمجتبى والمعصوم يعلن أنه يخاف الله ؛ لأن قدر الله لا يملكه أحد ، ولا يغير قدر الله إلا الله سبحانه وتعالى . وقد علق الخوف على شرط هو عصيان الله .

لكن ما دام لم يعص ربه فهو لا يخاف . ووجود " إن " يدل على تعليق على شرط ولا يتأتى ذلك من الرسول المعصوم لأنه لا يعصي الله .

وقد أراد الحق أن يبين لنا أن المعصوم لا يتأتى منه عصيان الله . لكن هذا القول يأتي على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لنعلم أن هناك عذاباً عظيماً توعد به الله من يعصيه . وهو عذاب يلح على العاصي حتى يأتي إليه . ولهذا العذاب خاصية أن تكون بينه وبين العاصي جاذبية كجاذبية المغناطيس لغيره من المواد . ونجاة الإنسان من العذاب تحتاج إلى من يصرف عنه هذا اللون القاسي من العذاب ، يقول الحق سبحانه عنه : ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(74/228)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ قُلْ إِنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ فعبدت غيره " عذاب يوم عظيم " أي عذاب يوم القيامة ، و" إنْ عصيت " شرط حُذف جوابه لدلالة ما قبله عليه ، ولذلك جيء بفعل الشرط ماضياً ، وهذه الجملة الشرطية فيها وجهان :

أحدهما : أنه معترضٌ بين الفِعْلِ ، وهو " أخاف " وبين مفعوله وهو " عذاب " .

والثاني : أنَّها في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحال .

قال أبو حيَّان : كأنه قيل : " إني أخافُ عَاصِياً ربِّي " ن وفيه نظر ؛ إذ المعنى يَأْبَاهُ .

و " أخَافُ " وما في حَيِّزِه خبر لـ " إنَّ " ، وإنَّ وما في حيِّزِهَا في مَحَلِّ نصب بـ " قل " وقرأ ابن كثيرٍ ، ونافع " إنِّيَ " بفتح الياء ، وقرأ أبو عمرو ، والباقون بالإرسال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 57 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) ﴾

أي إنِّي بعجزي متحقق ، ومن عذاب ربي مُشْفِق ، وبمتابعة أمره مُتَخَلِّقٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 464 ﴾

(75/228)

قوله تعالى ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان قد قدم من عموم رحمته ما أطمع الفاجر ثم أيأسه من ذلك بما أشير إليه من الخسارة ، صرح هنا بما اقتضاه ذلك المتقدم ، فقال واصفاً لذلك العذاب مبيناً أن الرحمة في ذلك اليوم على غير المعهود الآن ، فإنها خاصة لا عامة دائمة السبوغ على من نالته ، لا زائلة وكذا النعمة ، هكذا شأن ذلك اليوم ﴿ من يصرف عنه ﴾ أي ذلك العذاب ؛ ولما كان المراد دوام الصرف في جميع اليوم ، قال : ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم إذ يكون عذاب ذلك اليوم به ﴿ فقد رحمه ﴾ أي فعل به بالإنعام عليه فعل المرحوم ﴿ وذلك ﴾ أي لا غيره ﴿ الفوز ﴾ أي الظفر بالمطلوب ﴿ المبين ﴾ أي الظاهر جداً ، ومن لم يصرف عنه فقد أهانه ، وذلك هو العذاب العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 598 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه قرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي ﴿ يُصْرَفْ ﴾ بفتح الياء وكسر الراء . وفاعل الصرف على هذه القراءة والضمير العائد إلى ربي من قوله ﴿ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ [الأنعام : 15] والتقدير : من يصرف هو عنه يومئذ العذاب . وحجة هذه القراءة قوله ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ فلما كان هذا فعلاً مسنداً إلى ضمير اسم الله تعالى وجب أن يكون الأمر في تلك اللفظة الأخرى على هذا الوجه ليتفق الفعلان ، وعلى

هذا التقدير : صرف العذاب مسنداً إلى الله تعالى ، وتكون الرحمة بعد ذلك مسندة إلى الله تعالى ، وأما الباقون فإنهم قرؤا ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ على فعل ما لم يسم فاعله ، والتقدير من يصرف عنه عذاب يومئذ وإنما حسن ذلك لأنه تعالى أضاف الغذاب إلى اليوم في قوله ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الإنعام : 15] فلذلك أضاف الصرف إليه .

والتقدير : من يصرف عنه عذاب ذلك اليوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 141 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي من يصرف العذاب عنه فنائب الفاعل ضمير العذاب ، وضمير ﴿ عَنْهُ ﴾ يعود على ﴿ مِنْ ﴾ ، وجوز العكس أي من يصرف عن العذاب . و ﴿ مِنْ ﴾ على الوجهين مبتدأ خبره الشرط أو الجواب أو هما على الخلاف ، والظرف متعلق بالفعل أو بالعذاب أو بمحذوف وقع حالاً من الضمير .

وجوز أن يكون نائب الفاعل .

وهل يحتاج حينئذٍ إلى تقدير مضاف أي عذاب يومئذٍ أم لا ؟ فيه خلاف فقيل : لا بد منه لأن الظرف غير التام أي المقطوع عن الإضافة كقبل وبعد لا يقام مقام الفاعل إلا بتقدير مضاف و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ له حكمه .

وفي "الدر المصون" لا حاجة إليه لأن التنوين لكون عوضاً يجعل في قوة المذكور خلافاً

للأخفش .

وذكر الأجهوري أن التنوين هنا عوض عن جملة محذوفة يتضمنها الكلام السابق والأصل يوم إذ يكون الجزاء ونحو ذلك ، والجملة مستأنفة مؤكدة لتهويل العذاب ؛ وجوز أن تكون صفة ﴿ عَذَابِ ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم ﴿ مَّن يُصْرَفْ ﴾ على أن الضمير فيه لله تعالى .

(76/228)

وقرأ أبي ﴿ مَّن يُصْرَفْ الله ﴾ بإظهار الفاعل والمفعول به محذوف أي العذاب أو ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بحذف المضاف أو يجعل اليوم عبارة عما يقع فيه ، و ﴿ مِنْ ﴾ في هذه القراءة أيضاً مبتدأ .

وجوز أبو البقاء أن تجعل في موضع نصب بفعل محذوف تقديره من يكرم يصرف الله العذاب عنه فجعل يصرف تفسيراً للمحذوف ، وأن يجعل منصوباً بيصرف ويجعل ضمير ﴿ عَنْهُ ﴾ للعذاب أي أي إنسان يصرف الله تعالى عنه العذاب .

﴿ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ أي الرحمة العظمى وهي النجاة كقولك : إن أطعمت زيداً من جوعة

فقد أحسنت إليه تريد فقد أتممت الإحسان إليه ، وعلى هذا يكون الكلام من قبيل من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك و" من كانت هجرته إلى الله تعالى " الخبر ، ومن قبيل صرف المطلق إلى الكامل ، وقيل : المراد فقد أدخله الجنة فذكر الملزوم وأريد اللازم لأن إدخال الجنة من لوازم الرحمة إذ هي دار الثواب اللازم لترك العذاب .

ونقض بأصحاب الأعراف ، وأجيب بأن قوله تعالى : ﴿ وَذَلِكَ الفوز المبين ﴾ حال مقيدة لما قبله ، والفوز المبين إنما هو بدخول الجنة لقوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران ؛ 185) وأنت تعلم أنه إذا قلنا : إن الأعراف جبل في الجنة عليه خواص المؤمنين كما هو أحد الأقوال لا يرد النقض ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك ، وما ذكر من الجواب مبني على ما لا يخفى بعده ، والداعي إلى التأويل اتحاد الشرط والجزاء الممتنع عندهم .

وقال بعض الكاملين : إن ما في النظم الجليل نظير قوله صلى الله عليه وسلم : " لن يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه " يعني بالشراء المذكور ، وإن اختلاف العنوان يكفي في صحة الترتيب والتعقيب ، ولك أن تقول : إن الرحمة سبب للصرف سابق عليه على ما تلوح إليه صيغة الماضي والمستقبل والترتيب باعتبار الإخبار .

وتعقبه الشهاب بأنه تكلف لأن السبب والمسبب لا بد من تغايرهما معنى ، والحديث المذكور منهم من أخذ بظاهره ومنهم من أوله بأن المراد لا يجزيه أصلاً وهو دقيق لأنه تعليق بالمحال .

وأما كون الجواب ماضياً لفظاً ومعنى ففيه خلاف حتى منعه بعضهم في غير كان لعراقتها في المضي اه فليفهم .

والإشارة إما إلى الصرف الذي في ضمن ﴿ يُصْرَفْ ﴾ وإما إلى الرحمة ، وذكر لتأويل المصدر بأن والفعل .

ومنهم من اعتبر الرحم بضم فسكون أو بضمتين وهو على ما في "القاموس" بمعنى الرحمة .

ومعنى البعد للإيذان بعلو درجة ما أشير إليه ، والفوز الظفر بالبغية ، وأل لقصره على المسند إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ من يصرف عنه يومئذٍ فقد رحمه ﴾ جملة من شرط وجزاء وقعت موقع الصفة ل ﴿ عذاب ﴾ .

و ﴿ يصرف ﴾ مبني للمجهول في قراءة الأكثر ، على أنّه رافع لضمير العذاب أو لضمير ﴿ من ﴾ على النيابة عن الفاعل .

والضمير المجرور ب"عن" عائد إلى ﴿ مَن ﴾ أي يصرف العذاب عنه ، أو عائد إلى العذاب ، أي من يصرف هو عن العذاب ، وعلى عكس هذا العود يكون عود الضمير المستتر في قوله : ﴿ يصرف ﴾ .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، ويعقوب ، وخلف ﴿ يصرف ﴾ بالبناء للفاعل على أنّه رافع لضمير ﴿ ربّي ﴾ على الفاعلية .

أمّا الضمير المستتر في ﴿ رحمَهُ ﴾ فهو عائد إلى ﴿ ربّي ﴾ ، والمنصوب عائد إلى ﴿ مَن ﴾ على كلتا القراءتين .

ومعنى وصف العذاب بمضمون جملة الشرط والجزاء ، أي من وفّقه الله لتجنّب أسباب ذلك العذاب فهو قد قدّر الله له الرحمة ويسّر له أسبابها .

والمقصود من هذا الكلام إثبات مقابل قوله : ﴿ إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم ﴾ كأنّه قال : أرجو إن أطعته أن يرحمني ربّي ، لأنّ من صرف عنه العذاب ثبتت له الرحمة .

فجاء في إفادة هذا المعنى بطريقة المذهب الكلامي .

وهو ذكر الدليل ليعلم المدلول .

وهذا ضرب من الكناية وأسلوب بديع بحيث يدخل المحكوم له في الحكم بعنوان كونه فرداً من أفراد العموم الذين ثبت لهم الحكم .

ولذلك عقّبه بقوله : ﴿ وذلك الفوز المبين ﴾ .

والإشارة موجّهة إلى الصرف المأخوذ من قوله : ﴿ من يصرف عنه ﴾ أو إلى المذكور .

وإنّما كان الصرف عن العذاب فوزاً لأنّه إذا صرف عن العذاب في ذلك اليوم فقد دخل في النعيم في ذلك اليوم .

قال تعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنّة فقد فاز ﴾ [آل عمران : 185] .

و ﴿ المبين ﴾ اسم فاعل من أبان بمعنى بان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(78/228)

وقال السمرقندى :

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ سوء العذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ يعني : غفر له وعصمه .

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عامر وعاصم في رواية حفص ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ بضم الياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ مَّن يَصْرِفْ ﴾ بنصب الياء ومعناه : من يصرف الله عنه .

ولأنه سبق ذكر قوله : ﴿ ربّى ﴾ فانصرف إليه .

ثم قال : ﴿ وَذَلِكَ الفوز المبين ﴾ يعني : صرف العذاب : هو النجاة الوافرة .

وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لا يَنْجُو أَحَدٌ بِعَمَلِهِ " قالوا : يا رسول الله ولا أنت ؟ قال : " وَلا أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ " يعني : أن الخلق كلهم ينجون برحمة الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ﴾ قرأ حمزة وأبو بكر والكسائي ﴿ من يصرف ﴾ مبنياً للفاعل فمن مفعول مقدم والضمير في ﴿ يصرف ﴾ عائد على الله ويؤيده قراءة أبي ﴿ من يصرف ﴾ الله وفي ﴿ عنه ﴾ عائد على العذاب والضمير المستكن في ﴿ رحمه ﴾ عائد على الرب أي أيّ شخص يصرف الله عنه العذاب فقد رحمه الرحمة العظمى وهي النجاة من العذاب ، وإذا نجّى من العذاب دخل الجنة ويجوز أن يعرب ﴿ من ﴾ مبتدأ والضمير في ﴿ عنه ﴾ عائد عليه ، ومفعول ﴿ يصرف ﴾ محذوف اختصاراً إذ قد تقدّم في الآية قبل التقدير أي شخص يصرف الله العذاب عنه فقد رحمه ، وعلى هذا يجوز أن يكون من باب الاشتغال فيكون ﴿ من ﴾ منصوباً بإضمار فعل يفسره معنى ﴿

يصرف ﴾ ويجوز على إعراب ﴿ من ﴾ مبتدأ أن يكون المفعول مذكوراً ، وهو ﴿ يومئذ ﴾ على حذف أي هول يومئذ فينتصب ﴿ يومئذ ﴾ انتصاب المفعول به .

(79/228)

وقرأ باقي السبعة ﴿ من يصرف ﴾ مبنياً للمفعول ومعلوم أن الصارف هو الله تعالى ، فحذف للعلم به أو للإيجاز إذ قد تقدّم ذكر الرّب ويجوز في هذا الوجه أن يكون الضمير في ﴿ يصرف ﴾ عائداً على ﴿ من ﴾ وفي ﴿ عنه ﴾ عائداً على العذاب أي أيّ شخص يصرف عن العذاب ، ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ عنه ﴾ عائداً على ﴿ من ﴾ والضمير في ﴿ يصرف ﴾ عائداً على العذاب أيّ أيّ شخص يصرف العذاب عنه ، ويجوز أن يكون الضميران عائدين على ﴿ من ﴾ ومفعول ﴿ يصرف ﴾ ﴿ يومئذ ﴾ وهو مبني لإضافته إلى إذ فهو في موضع رفع بيصرف والتنوين في ﴿ يومئذ ﴾ تنوين عوض من جملة محذوفة يتضمنها الكلام السابق التقدير يوم ، إذ يكون الجزاء إذ لم يتقدّم جملة مصرّح بها يكون التنوين عوضاً عنها ، وتكلم المعربون في الترجيح بين القراءتين على عادتهم فاختار أبو عبيد وأبو حاتم وأشار أبو عليّ إلى تحسينه قراءة ﴿ يصرف ﴾ مبنياً للفاعل لتناسب ﴿ فقد رحمه ﴾ ولم يأت فقد رحم ويؤيده قراءة عبد الله وأبي ﴿ من يصرف

﴿ الله ورجح الطبري قراءة ﴿ يصرف ﴾ مبنياً للمفعول قال : لأنها أقل إضماراً .

قال ابن عطية : وأما مكي بن أبي طالب فتخبط في كتاب الهداية في ترجيح القراءة بفتح الياء ومثل في احتجاجه بأمثلة فاسدة .

قال ابن عطية : وهذا توجيه لفظي يشير إلى الترجيح تعلقه خفيف ، وأما المعنى فالقراءتان واحد ؛ انتهى .

وقد تقدّم لنا غير مرّة إنا لا نرجح بين القراءتين المتواترتين .

وحكى أبو عمرو الزاهد في كتاب اليواقيت أن أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلباً كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع .

وقال : قال ثعلب من كلام نفسه إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة ، لم أفضل إعراباً على إعراب في القرآن فإذا خرجت إلى الكلام كلام الناس فضلت الأقوى ونعم السلف لنا ، أحمد بن يحيى كان عالماً بالنحو واللغة متديناً ثقة .

(80/228)

﴿ وذلك الفوز المبين ﴾ الإشارة إلى المصدر المفهوم ﴿ من يصرف ﴾ أي وذلك الصرف هو الظفر والنجاة من الهلكة و ﴿ المبين ﴾ البين في نفسه أو المبين غيره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

ظاهر الآية يقتضي كون ذلك اليوم مصروفاً وذلك محال ، بل المراد عذاب ذلك اليوم ، وحسن هذا الحذف لكونه معلوماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 141 ﴾

فصل

قال الفخر :

دلّت الآية على أن الطاعة لا توجب الثواب ، والمعصية لا توجب العقاب لأنه تعالى قال : ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ أي كل من صرف الله عنه العذاب في ذلك اليوم فقد رحمه .

وهذا إنما يحسن لو كان ذلك الصرف واقعاً على سبيل التفضل أما لو كان واجباً مستحقاً لم يحسن أن يقال فيه إنه رحمه ألا ترى أن الذي يقبح منه أن يضرب العبد ، فإذا لم يضربه لا يقال إنه رحمه .

أما إذا حسن منه أن يضربه ولم يضربه فإنه يقال إنه رحمه ، فهذه الآية تدل على أن كل عقاب انصرف وكل ثواب حصل ، فهو ابتداء فضل وإحسان من الله تعالى وهو موافق لما يروى أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته " ووضع يده فوق رأسه ، وطول بها صوته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 141.142 ﴾

(81/228)

فصل

قال الفخر :

قال القاضي : الآية تدل على أن من لم يعاقب في الآخرة ممن يصرف عنه العقاب ، فلا بد من أن يثاب وذلك يبطل قول من يقول : إن فيمن يصرف عنه العقاب من المكلفين من لا يثاب ، لكنه يتفضل عليه .

فإن قيل : أليس من لم يعاقبه الله تعالى ويتفضل عليه فقد حصل له الفوز المبين وذلك يبطل دلالة الآية على قولكم ؟

قلنا : هذا الذي ذكرتموه مدفوع من وجوه : الأول : أن التفضل يكون كالابتداء من قبل الله تعالى ، وليس يكون ذلك مطلوباً من الفعل والفوز هو الظفر بالمطلوب ، فلا بدّ وأن يفيد أمراً مطلوباً .

والثاني : أن الفوز المبين لا يجوز حمله على التفضل بل يجب حمله على ما يقتضي مبالغة في عظم النعمة ، وذلك لا يكون إلا ثواباً .

والثالث : أن الآية معطوفة على قوله ﴿ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام : 15] والمقابل للعذاب هو الثواب ، فيجب حمل هذه الرحمة على الثواب .

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف جداً وضعفه ظاهر فلا حاجة فيه إلى الاستقصاء والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 142 ﴾

(82/228)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) ﴾

فكأن من لا يُصرف عنه هذا العذاب هو من ينجذب إلة قوة العذاب ؛ لأن لنار جهنم شهيقاً يجذب ويسحب إليه الذين قُدِّرَ عليهم العذاب ويقول سبحانه : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ﴾ [الملك : 6-7] .

والذين يكفرون بالله لهم العذاب الذي يبدأ بسماع شهيق جهنم في أثناء فورانها .

والشهيق كما تعلم هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر ، فما بالنا بقوة شهيق جهنم وهي تسحب وتجذب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب ؟

وهذه النار نفسها ترد على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : 30] .

إذن فقوة العذاب التي جعلها الله مهمة لجنهم هي التي تلح وتندفع لطلب المزيد من عقاب الكافرين . وسبحانه خلق كل شيء ليؤدي مهمة ، والنار مهمتها أن تتمثل لأمر الحق تبارك وتعالى عندما يأمرها بمباشرة مهمتها ؛ لذلك فهي تلح في طلب الذين سيتلقون العذاب ، ولا تخرج النار أبداً عن أمر الله وقدره ، فإن صَرَفَ الحق العذاب عن عبد من العباد فالنار تمتثل لذلك الأمر . ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ وسبحانه فعال لما يريد ، وهو إن حاسبنا بالعدل فكل منا يسميه شيء من عذاب جهنم ؛ ولكن رحمة الله هي التي تجعل النار لا تمس المؤمنين ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعفو عن كثير ؛ ولأن للنار شهيقاً ، فهي تستنشق المكتوب عليهم العذاب ، ونعلم أن الشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير . والشهيق في الحياة يكون للهواء .

والسبب ازدياد سرعة الشهيق عن الزفير أن في الشهيق مهمة استدامة الحياة الأولى وهي إمداد الجسم بالهواء ، والإنسان – كما نعلم – لا يصبر على الهواء إلا لأقل مدة ممكنة . ومن رحمة الله أنه لم يملِّك الهواء لأحد . وهذا الشهيق الذي يعطي الحياة في الأرض يوجد – أيضاً – في الآخرة وهو منسوب إلى النار ، إنها تشهق لتبتلع العصاة ، وهي بذلك تؤدي مهمتها الموكولة لها . ونعرف أيضاً أن النار تؤدي مهمتها بغيظ طبقاً لما قاله الحق سبحانه : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ [الملك : 8] .

فهل تؤدي النار مهمتها وهي غير راضية عنها ؟ وهل تختلف النار عن كل كائنات الحق التي تؤدي مهمتها بسعادة وانسجام ؟ إن النار تَمَيَّزُ من الغيظ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان ، وللنار مشاعر مثل بقية المخلوقات . وللكون كله مشاعر ؛ فالكون – على سبيل المثال – قد فرح بميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرحت بمقدم الرسول الكريم ؛ لأن كل هذه الكائنات مسخرة للإنسان وهي مسبحة لله وطائعة بطبيعتها ، مثلما يأتي البشير ليهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً ، فهي تفرح بمقدم هذا البشير .

ونعرف أن المكان يوجد به الإنسان ، هذا المكان يفرح إن كان الإنسان فيه طائعاً ، وهذا المكان نفسه يحزن إن كان الإنسان عاصياً ، ويضج المكان – أي مكان – بوجود أي عاص

فيه . ونرى ذلك واضحاً في قول الحق سبحانه وتعالى عن قوم فرعون : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : 25-29] .

(84/228)

والأرض التي كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر ، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التي ينعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس ، وهي تغضب وتسخط وتضج بوجود الكافرين بنعمة الله فيها ، ولذلك لا تبكي السماء والأرض على الخسف والتنكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين . بينما تبكي السماء والأرض إن فارقها مؤمن ، ولنا في قول الإمام علي - كرم الله وجهه - إيضاح لهذا ؛ فقد قال : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع في السماء ، وموضع في الأرض . أما موضعه في السماء فهو مصعد عمله الطيب ، وأما موضعه في الأرض فهو موضع مُصلاَّه .

وفي الحديث : " إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعد بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " .

إذن فموضع صعود عمل الإنسان في السماء يحزن ؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمر فيه ، وموضع صلاة الإنسان يفقد سجود إنسان خشوعاً لله ، ولكل الكائنات المخلوقة لله مشاعر ، وكل شيء في الكون يؤدي مهمته بقانون التسيير والتسخير لا قانون التخيير ، الإنسان – فقط – هو الذي يحيا بقانون التخيير في بعض أحواله ؛ لأنه قادر على الطاعة ، وقادر على المعصية . ولذلك فعندما نرى السجود لله في القرآن فإننا نسمع قول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : 18] .

(85/228)

إذن فكل الكائنات تسجد له ما عدا كل أفراد الإنسان ؛ فكثير منه يسجد لله وكثير منه يحق عليه العذاب لأنه لا يطيع الحق . ومن يعص منهج الله غير مؤمن به يطرده الله من رحمته ، ومن يهنه الله بذلك فليس له تكريم أبداً . وقد أجمع الكون على السجود لله ، إلا الإنسان فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله ، ويفرح به الكون ، ومنه يغضب منه الكون لأنه يعصي الله .

إن اللغة العربية توضح لنا ذلك ؛ فالعرب يقولون : فلان نَبَتْ به الأرض من النَّبْوَة وهي الجفوة والبعد والإعراض .

. أي أن الأرض تكره شخصاً بعينه ؛ لأنه لا انسجام للأرض مع كائن عاصٍ .

ويقول الحق عن الذين يصرف عنهم العذاب من فرط رحمته بعباده لأنهم أطاعوه وكانت معاصيهم تغلبهم في بعض الأحيان فيتوبون عنها . : رضي الله عنR> ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الفوز المبين ﴾ [الأنعام : 16] .

ونعلم أن هذا الفوز هو أرقى درجات الفوز ؛ ذلك أن الفوز درجات ؛ فالفوز في الدنيا كالنجاح أو المال أو غير ذلك هو فوز مُعرَّض لأن يضيع . وهو عُرضة لأن يترك الإنسان أو يتركه الإنسان ، لكن فوز الآخرة هو الفوز الدائم الذي لا ينتهي .

وهذا هو الفارق بين نعم الدنيا ونعم الآخرة ، والإنسان يتنعم في الدنيا على قدر تصوره للنعيم ، فنجد الريفي – مثلاً – يتصور النعيم أن تكون له مِصطبة أمام داره يجلس عليها ، وعدد من القلل التي تمتلئ بالماء النقي ، فإذا ما انتقل هذا الريفي إلى المدينة فهو يتصور النعيم في منزل متسع فيه أثاث فاخر وأدوات كهربائية من ثلاجة وغير ذلك ، إذن فإمكانات النعيم مختلفة على حسب تصور الإنسان ، أما نعيم الآخرة فهو نعيم لا يفوته الإنسان ولا يفوت الإنسان ؛ لأنه نعيم من صنع الخالق الواسع والعطاء . . إن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولذلك فالفوز بنعيم الآخرة هو الفوز

المبين .

والحق سبحانه وتعالى هو المحيط بكل شيء عِلْمًا واقتدارا : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(86/228)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وذلك الفوز المبين " وفى الجاثية : "ذلك هو الفوز المبين " بزيادة "هو " وسقوط واو العطف .

لما تقدم فى سورة الأنعام قوله تعالى : "قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم " ثم أعقب بقوله تعالى : "من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه " والمراد من يصرف عنه العذاب فى الآخرة فقد رحمه عطف عليه قوه : "وذلك الفوز " وكان الكلام فى قوة قوله فقد رحم وفاز كما فى قوله : " فمن زحزح عن النار وأدخل النار فقد فاز " والفاء هنا وفى قوله : "فقد رحمه " جواب الشرط والفوز مسبب عن الرحمة فاكتفى بذكره فى آية آل عمران وذكرا معا فى آية الأنعام فعطفه عليه بين ولم يتقدم من أول السورة إلى هنا ما يتوهمه العاقل فوزا فيحترز

منه بما يعطيه ضمير هو من المفهوم فلم يقع الضمير هنا .

أما آية الجاثية فقد ورد قبلها قوله تعالى مخبرا عن قول منكرى البعث : "ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر " فأفهم قوله "ما هى إلا حياتنا الدنيا " أن هذه الحياة هى الحاصلة لهم ولا حياة وراءها فمن تنعم فيها فذاك فوزه فأخبروا أن الأمر ليس كما ظنوه وذكر تعالى أمر الساعة وتفصيل الأحوال فيها وقال : "فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته " ثم قيل "ذلك هو الفوز المبين " لا الحياة التى هى لهو ولعب فكأن قد قيل : ذلك الفوز لا ما ظننتموه فوزا فأحرز مفهوم الضمير هذا المقصود ولم يتقدم فى آية الأنعام ما يستدعيه كما لم يتقدم فى آية الجاثية ما يستدعى العطف فجاء كل على ما يناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 146 ﴾

(87/228)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾

" مَنْ " شرطيةٌ ، ومَحَلُّها يحتمل الرَّفْع والنصب ، كما سيأتي بيانه .

وقرأ الأخوان ، وأبو بكر عن عاصم : "يَصْرف" بفتح الياء وكسر الراء على تسمية الفاعل .

والباقون بضمِّ الياء وفتح الراء على ما لم يُسَمَّ فاعله .

فأمَّا في القراءة الأولى ، ف "مَنْ" فيها تَحْتَمِلُ الرفع والنصب ، فالرفعُ من وجهٍ واحدٍ ، وهو الابتداء ، وخبرها فعل الشَّرطِ أو الجواب أو هما ن على حَسَبِ الخلاف ، وفي مفعول "يَصْرِفط حينئذ احتمالان :

أحدهما : أنه مَذْكُورٌ وهو "يومئذ" ، ولا بُدَّ من حَذْفِ مَضَافٍ ، أي : من يَصْرِفِ اللَّه عنه هَوْلَ يومئذ أو عذابَ يومئذ – فقد رحمه – فالضمير في "يَصْرِف" ن يعود على اللَّهِ تعالى ، ويدلُّ عليه قراءة أَبيِّ بن كعبٍ "مَنْ يَصْرِف اللَّهُ" بالتصريح به .

والضميران في "عنه" و "رحمه" لـ "مَنْ" .

والثاني : أنه محذوف لدلالة ما ذكر عليه قَبْلَ ذلك ، أي : مَنْ يَصْرف اللَّهُ عنه العذاب "يومئذ" منصوب على الظرف .

وقال مكيٌّ : "ولا يَحْسُنُ أن تُقَدَّر هاء ؛ لأنها إنما تُحْذَفُ من الصِّلاتِ" .

قال شهابُ الدين : يعني أنه لا يُقَدَّر المَفْعُولُ ضميراً عائداً على عذاب يوم ؛ لأن الجملة الشرطية عنده صِفَةٌ لـ "عَذَاب" ، والعائِدُ منها محذوف ، لكنَّ الحَذْفَ إنما يكون الجملة

الشرطية عنده صَفَةٌ لـ "عَذَاب" ، والعائِدُ منها محذوف ، لكنَّ الحَذْفَ إنما يكون من

الصِّلَةِ لا من الصِّفَةِ ، وهذا معنى قول الواحديّ أيضاً ، إلاَّ أنَّ قَوْلَ مَكي " إنما يُحْذَفُ من الصِّلاتِ " يريدُ في الأحسن ، وإلاَّ فيحذف من الصِّفاتِ والأخبار والأحوال ، ولكنَّه دون الصِّلة .

والنصبُ من وجهين :

أحدهما : أنَّه مفعول مُقَدَّمٌ لـ "يَصْرِف " والضمير في " عنه " لى هذا يتعيَّنُ عودهُ على العذابِ المتقدمّ ، والتقدير : أيَّ شخصٍ يصرفِ اللَّهُ عن العذاب .

والثاني : أنه مَنْصُوبٌ على الاشْتِغَال بفعل مُضْمَرٍ لا يبرز ، يفسره هذا الظَّاهِرُ من معناه لا من لَفْظِهِ ، والتقدير : مَنْ نُكْرِمْ أو مَنْ نُنَجِّ يَصْرَف اللَّه .

والضمير في " عنه " للشرطية .

وأمَّا مفعول "يَصْرِفْ " على هذا فَيَحْتَمِلُ الوجهين المُتقدَّمين ، أعني كونه مذكوراً ، وهو " يومئذٍ " على حَذْفِ مُضافٍ ، أو محذوفاً اختصاراً .

وأمَّا القراءة الثَّانية ف " مِنْ " تحتمل وجهين :

أحدهما : أنها في مَحَلّ رفع بالابتداء ، وخبره ما بعده على ما تقدَّم والفاعل المَحْذُوفُ هو اللَّهُ – تعالى يَدُلُّ عليه قراءةُ أُبَيٍّ المُتقدِّمةُ وفي القائم مقامه أربعة أوجه :

أحدهما : أنه ضمير العذاب ، والضمير في " عنهط يعود على " مَنْ " فقط ، والظرف فيه حينئذ ثلاثة أوجه :

أحدهما : أنه منصوب بـ " يصرف " .

والثاني : أنه منصوب بالعذاب ، أي : الذي قام ضميره مقام الفاعل ، قاله أبو البقاء – رضي الله عنه – : ويلزم منه إعْمَالُ المصدر مضمراً ، وقد يقال : يُغْتَفَرُ ذلك في الظروف .

الثالث : قال أبو البقاء : " إنه حالة من الضمير " – يعني الضمير الذي قامَ مقامَ الفاعل ، وجازَ وقوع الحال ظَرْفَ زمان ؛ معنًى لا عن جُثّة .

الثاني من الأوجه الأربعة : أن القَائِمَ مقام الفاعل ضميره " مَنْ " والضمير في " عنه " يعُود على العذاب ، والظَّرف منصوب ، إمَّا بـ " يُصْرف " وإمَّا على الحالِ من هاء " عنه " .

الثالث : أنَّ القائم مقام الفاعل " يومئذ " إمَّا على حذف مضاف أي : من يُصْرَف عنه فَزَعُ أو هَوْلُ يومئذ ، وإمَّا على قيام الظروف دون مضاف ، كقولك : " سير يوم الجمعة " ، وإنما بُنِيَ " يومئذٍ " على الفَتْح لإضافته إلى غير مُتَمَكِّنٍ ، ولو قُرِئَ بالرفع لكان جائزاً في الكلام ،

وقد قرئ: ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ [هود : 66] فتحاً وجراً بالاعتبارين ، وهما اعتباران مُتَغَايِرَان .

(89/228)

فإن قيل : يلزمُ على عدم تقدير حَذْفِ المضاف إقامةُ الظِّرْفِ غير التام مقام الفاعل ، وقد نصُّوا على أنَّ الظَّرْفِ المقطُوعَ عن الإضافة لا يُخبَرُ به ، ولا يقوم مقام فاعل ، ولو قلت : " ضُرب قبلُ " لم يَجُزْ ، والزرف هنا في حكم المقطوع عن الإضافة فلا يجوز هنا قيامه مقام الفاعل ، إلاَّ على حَذْفِ مضاف ، فالجواب أن هذا في قُوَّة الظَّرْفِ المضاف ؛ إذ التنوين عِوَضٌ عنه ، وهذا ينتهضُ على رَأي الجمهور أما الأخفش فلا ، لأنَّ التنوين عنده تَنْوِينُ صَرْفٍ والكَسْرُ كَسْرُ إعراب .

والرابع : أنَّ القائم مقامَهُ " عنه " ، والضميرُ في " عنه " يعودُ على " مَنْ " ، و " يومئذٍ " منصوب على الظَّرْفِ ، والعامل فيه " يُصْرَفْ " ، ولا يجوز الوجهان الأخيران ، أعني نَصْبَهُ على الحالِ ، لأن الضمير لجُثَّة والزَّمَان لا يقع حالاً عنهما ، كما لا يَقَعُ خبراً ، وأعني كونه مَعْمُولاً للعذاب ، إذ ليس هو قائماً مقام الفاعلِ .

والثاني من وَجْهي " مِنْ " في مَحَلِّ نصب بفعل مُضْمَرٍ يفسّره الظاهرُ بعده ، وهذا إذا جعلنا

" عنه " في مِحَلِّ نصب بأنْ يُجْعَلَ القائم مقامَ الفاعل : إمَّا ضميرَ العذاب ، وإمَّا " يومئذ " .

والتقدير : مَنْ يكرم اللَّهُ ، أو من يُنَجِّ يُصْرَفْ عنه العذابُ أو هولُ يومئذ ، ونظيره : " زيدٌ به مُرُور حسن " ، أقمت المصدر فبقي " عنه " منصوب المَحَلّ .

والتقدير : جاوزت زيداً مُرَّ به مُرُور حسن ، وأمَّا جُعل " عنه " قائماً مقام الفاعل تعيَّنَ رفعهُ بالابتداء .

وأعلم أنه متى قلت : مَنْصُوبٌ على الاشتغال ، فإنما يُقدَّر الفعل بعد " مِنْ " ؛ لأن لها صدر الكلام ، ولذلك لم أظْهِره إلاَّ مؤخّراً ، ولهذه العِلَّةِ منع بعضهم الاشتغال فيما له صَدْرُ الكلام كالاسْتِفهَامِ والشرط .

(90/228)

والتنوين في " يومئذٍ يكون الجزاء ، وإنَّما قلنا ذلك ؛ لأنه لم يتقدَّم في الكلام جملةٌ مُصَرَّحٌ بها يكون التنوين عَوَضاً منها ن وقد تقدَّم خلافُ الأخفش .

وهذه الجملة الشَّرطيَّة يجوز فيها وجهان : الاستئناف ، والوصف لـ " عذاب يوم " ، فحيثُ جعلنا فيها ضميراً يعود على عذاب يوم ، إمَّا مِنْ " يُصرَف " ، وإمَّا مِنْ " عنه " جاز أن تكون صفةٌ وهو الظَّاهر ، وأن تكون مُسْتأنفةً ، وحَيْثُ لم نجعل فيها ضميراً يعود عليه –

وقد عرفت كيفية ذلك – تعيَّنَ أن تكون مُسْتَأْنَفَةً ، ولا يجوز أن تكون صِفَةً لخلوّها من الضمير .

وَرجَّع بعضهم إحْدى القراءَتَيْنِ على الأخرى ، وذلك على عَادتِهِمْ ، فقال أبو عَلِيّ الفارسي : قراءة "يَصْرِف " يعني المبنيَّ للفاعل أحْسَنُ لمناسبة قوله : " رحمه " ، يعني : أنَّ كُلاًّ منهما مَبْنِيٌّ للفاعل ، ولم يقل : " فقد رُحِمَ " واختارها أبو حَاتِم ، وأبو عُبَيْد ، ورجَّعَ بعضهم قراءة المبنى للمفعول بإجماعهم على قراءة قوله : ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ [هود : 8] يعني في كونه أتى بصيغة اسم المَفْعُول المُسْنَدِ إلى ضمير العذاب المذكور أوّلاً .

ورجَّحَهَا محمد بن جرير بأنها أقَلُّ إضماراً ، ومكي – رحمه الله – تَلَعْثَم في كلامه في ترجيحه لقراءة الأخوين ، وأتى بأمثلةٍ فَاسِدَةٍ في كتاب " الهداية " له .

قال ابن عطية : " وقد تقدَّمَ أوَّلَ الكتاب عن ثَعْلب وغيره من العلماء أنَّ ترجيح إحدى القراءاتِ المتواترة على الأخرى بحيث تُضَعِّفُ الأخرى لا يجوز " .

والجملة من قوله : " فقد رحمه " في محلّ جَزْمٍ على جواب الشرط والفاء واجبة .

قوله : " وذلِكَ الفَوزُ " مبتدأ وخبر جيء بهذه الجُمْلَةِ مقرِّرةً لما تقدَّم من مضمون الجملة قبلها ، والإشارَةُ بـ " ذلك " إلى المَصْدَرِ المفهوم من قوله : " يُصْرف " ، أي : ذلك الصرف .

و " المبين " يحتمل أن يكون مُتَعَدّياً ، فيكون المفعول مَحْذُوفاً ، أي : المبين غيرَه ، وأن يكون قاصراً بمعنى يبين ، وقد تقدَّمَ أنَّ " أبان " ، يكون قاصراً بمعنى " ظَهَرَ " ، ومتعدّياً بمعنى " أظهر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 57 . 61 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) ﴾

من أدركه سابقُ عنايته صَرَفَ عنه لاحِقَ عقوبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 464 ﴾

(92/228)

قوله تعالى ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير : فإن يصرف عنك ذلك العذاب فقد قرت عينك ، عطف عليه دليلاً آخر لأنه لا يجوز في العقل أن يتخذ غيره ولياً ، فقال معمماً للحكم في ذلك العذاب وغيره مبيناً أنه لا مخلص لمن أوقع به : ﴿ وإن يمسسك الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ؛ ولما كان المقام للترهيب ، قدم قوله : ﴿ بضر ﴾ أي هنا أو هناك ﴿ فلا كاشف له ﴾ أصلاً بوجه من الوجوه ﴿ إلا هو ﴾ أي لأنه لا كفوء له ، فهو قادر على إيقاعه ، ولا يقدر غيره على دفاعه ، لأنه على كل شيء قدير ﴿ وإن يمسسك بخير ﴾ أي في أي وقت أراد .

ولما كان القياس على الأول موجباً لأن يكون الجزاء : فلا مانع له ، كان وصفه من صفة قوله ﴿ فهو على كل شيء ﴾ أي من ذلك وغيره ﴿ قدير ﴾ ولا يقدر غيره على منعه ، منبهاً على أن رحمته سبحانه سبقت غضبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 598 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا دليل آخر في بيان أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ غير الله ولياً ، وتقريره أن الضر اسم للألم والحزن والخوف وما يفضي إليها أو إلى أحدها .

والنفع اسم للذة والسرور وما يفضي إليهما أو إلى أحدهما .

والخير اسم للقدر المشترك بين دفع الضر وبين حصول النفع فإذا كان الأمر كذلك فقد ثبت الحصر في أن الإنسان إما أن يكون في الضر أو في الخير لأن زوال الضر خير سواء حصل فيه اللذة أو لم تحصل .

وإذا ثبت هذا الحصر فقد بيّن الله تعالى أن المضار قليلها وكثيرها لا يندفع إلا بالله ، والخيرات لا يحصل قليلها وكثيرها إلا بالله .

والدليل على أن الأمر كذلك ، أن الموجود إما واجب لذاته وإما ممكن لذاته أما الواجب لذاته فواحد فيكون كل ما سواه ممكناً لذاته والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته ، وكل ما سوى الحق فهو إنما حصل بإيجاد الحق وتكوينه فثبت أن اندفاع جميع المضار لا يحصل إلا به ، وحصول جميع الخيرات والمنافع لا يكون إلا به ، فثبت بهذا البرهان العقلي البين صحة ما دلّت الآية عليه .

فإن قيل : قد نرى أن الإنسان يدفع المضار عن نفسه بماله وبأعوانه وأنصاره ، وقد يحصل الخير له بكسب نفسه وبإعانة غيره ، وذلك يقدح في عموم الآية .

وأيضاً فرأس المضار هو الكفر فوجب أن يقال إنه لم يندفع إلا بإعانة الله تعالى .

ورأس الخيرات هو الإيمان ، فوجب أن يقال أنه لم يحصل إلا بإيجاد الله تعالى ، ولو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يستحق الإنسان بفعل الكفر عقاباً ولا بفعل الإيمان ثواباً .

وأيضاً فإنا نرى أن الإنسان ينتفع بأكل الدواء ويتضرر بتناول السموم ، وكل ذلك يقدح في ظاهر الآية .

والجواب عن الأول : أن كل فعل يصدر عن الإنسان فإنما يصدر عنه إذا دعاه الداعي إليه لأن الفعل بدون الداعي محال ، وحصول تلك الداعية ليس إلا من الله تعالى .

وعلى هذا التقدير فيكون الكل من الله تعالى وهكذا القول في كل ما ذكرتموه من السؤالات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 142 . 143 ﴾

(94/228)

وقال ابن عطية :

﴿ يمسسك ﴾ معناه يصبك وينلك ، وحقيقة المس هي بتلاقي جسمين فكأن الإنسان والضر يتماسان ، و" الضُّر " بضم الضاد سوء الحال في الجسم وغيره ، " والضَّر " بفتح الضاد ضد النفع ، وناب الضر في هذه الآية مناب الشر وإن كان الشر أعم منه مقابل الخير ، وهذا من الفصاحة عدول عن قانون التكلف والصنعة فإن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون الشيء مقترناً بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مضادة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ [طه

: 118 ، 119] فجعل الجوع مع العري وبابه أن يكون مع الظمأ ومنه قول امرىء القيس

: [الطويل]

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ . . . وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ . . . لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

وهذا كثير ، قال السدي " الضر " ها هنا المرض والخير العافية .

قال القاضي أبو محمد : وهذا مثال ومعنى الآية الإخبار عن أن الأشياء كلها بيد الله إن ضر فلا كاشف لضره غيره وإن أصاب بخير فكذلك أيضاً لا راد له ولا مانع منه ، هذا تقرير الكلام ، ولكن وضع بدل هذا المقدر لفظاً أعم منه يستوعبه وغيره ، وهو قوله : ﴿ على كل شيء قدير ﴾ ودل ظاهر الكلام على المقدر فيه ، وقوله : ﴿ على كل شيء قدير ﴾ عموم أي على كل شيء جائز يوصف الله تعالى بالقدرة عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(95/228)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ المسُّ والكشف من

صفات الأجسام ، وهو هنا مجاز وتَوسُّع ؛ والمعنى : إن تنزِل بك يا محمد شدّة من فقر أو مرض فلا رافع وصارِف له إلاّ هو ، وإن يصِبك بعافية ورخاءٍ ونعمة ﴿ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الخير والضر ؛ " روى ابن عباس قال : كنتُ رَدِيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : "يا غلام أو يا بنيّ أَلاَ أعلّمك كلماتٍ ينفعك الله بهنّ" ؟ فقلت : بلى ؛ فقال : "احفظ الله يَحفظْك احفظ الله تَجِدْه أمامك تَعرَّف إلى الله في الرَّخاءِ يَعْرِفْك في الشدّة إذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنت فاستعِنْ بالله فقد جَفَّ القلمُ بما هو كائنٌ فلو أنّ الخلق كلهم جميعا أرادوا أن يضروك بشيء لم يَقضِه الله لك لم يقدروا عليه واعمل لله بالشكر واليقين واعلم أنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً وأنّ النّصر مع الصّبر وأن الفرَجَ مع الكَرْب وأن مع العسر يسراً" " أخرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب في كتاب "الفصل والوصل" وهو حديث صحيح ؛ وقد خرجه الترمذيّ ، وهذا أتم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الثعالبى:

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ .

يَمْسَسْكَ : معناه يُصِبْكَ ، ويَنَلْكَ ، والضُّرُّ بضم الضاد : سوء الحَال في الجِسْم وغيره ، وبفتحها ضِدُّ النَّفْعِ ، ومعنى الآية : الإخْبَارُ أن الأَشْيَاءَ كلها بِيَدِ اللَّه ؛ إن ضَرَّ فلا كَاشِفَ لضره غَيْرُه ، وإن أصَابَ بِخَيْرٍ ، فكذلك أيضاً .

وعن ابن عَبَّاسٍ قال : كنت خَلْفَ النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : " يا غُلاَمُ إنّي أُعَلّمَكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّه ، وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، واعْلَم أنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بشَيْءٍ ، لم يَنْفَعُوكَ إلاَّ بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّه لَكَ ، وإن اجْتَمَعُوا عَلَى أن يَضُرُّوكَ بشَيْءٍ لم يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رفعت الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " رويناه في الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية غير الترمذي زيادة : " احْفَظِ اللَّه تَجِدْهُ أمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إلى اللَّهِ في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشّدَّةِ ، واعْلَمْ أن ما أَخْطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ . . . " وفي آخره : " واعلم أن النَّصْرَ مع الصَّبْرِ ، وأنّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ ، وأن مع العُسْرِ يُسْراً " . قال النووي : هذا حديث عَظِيمُ الموقع . انتهى من "الحِلْيَة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

يقول تعالى مخبرًا أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا مُعَقِّب لحكمه ، ولا رَادَّ لقضائه : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ الآية [فاطر : 2] وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : "اللهم لا مانع لما أَعْطَيْت ، ولا معطِيَ لما مَنَعْتَ ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ" (1) ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 244 ﴾

---

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم (844) ومسلم في صحيحه برقم (593) من حديث المغيرة بن شعبة ، رضي الله عنه .

(98/228)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ أي ببلية كمرض وحاجة ﴿ فَلاَ كَاشِفَ ﴾ أي لا مزيل ولا مفرج ﴿ لَهُ ﴾ عنك ﴿ إِلاَّ هُوَ ﴾ والمراد لا قادر على كشفه سواه سبحانه وتعالى من

الأصنام وغيرها ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ من صحة وغنى ﴿ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومن جملته ذلك فيقدر جل شأنه عليه فيمسك به ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه ورفعه أحد كقوله تعالى : ﴿ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : 107] ويظهر من هذا ارتباط الجزاء بالشرط .

وقيل : إن الجواب محذوف تقديره فلا راد له غيره تعالى ، والمذكور تأكيد للجوابين لأن قدرته تعالى على كل شيء من الخير والشر تؤكد أنه سبحانه وتعالى كاشف الضر وحافظ النعم ومديمها ، وزعم أنه لا تعلق له بالجواب الأول بل هو علة الجواب الثاني ظاهر البطلان إذ القدرة على كل شيء تؤكد كشف الضر بلا شبهة وإنكار ذلك مكابرة ، "وأصل المس كما قال أبو حيان تلاقى الجسمين ، والمراد به هنا الإصابة .

وجعل غير واحد الباء في بضر وفي بخير للتعدية وإن كان الفعل متعدياً كأنه قيل : وإن يمسسك الله الضر .

وفسروا الضر بالضم بسوء الحال في الجسم وغيره وبالفتح بضد النفع ، وعدل عن الشر المقابل للخير إلى الضر على ما في "البحر" لأن الشر أعم فأتى بلفظ الأخص مع الخير الذي هو عام رعاية لجهة الرحمة ، وقال ابن عطية : إن مقابلة الخير بالضر مع أن مقابله الشر وهو أخص منه من خفي الفصاحة للعدول عن قانون الضعة وطرح رداء التكلف وهو أن يقرن بأخص من ضده ونحوه لكون أوفق بالمعنى وألطق بالمقام كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ تَجُوعَ

فِيهَا وَلاَ تعرى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تضحى ﴾ [طه : 118 ، 119] فجيء بالجوع مع العري وبالظمأ مع الضحو وكان الظاهر خلافه .

ومنه قول امرىء القيس :

كأني لم أركب جواداً للذة . . .

ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل . . .

لخيلي كري كرة بعد إجفال

(99/228)

وإيضاحه أنه في الآية قرن الجوع الذي هو خلو الباطن بالعري الذي هو خلو الظاهر والظمأ الذي فيه حرارة الباطن بالضحى الذي فيه حرارة الظاهر .

وكذلك قرن امرىء القيس علوه على الجواد بعلوه على الكاعب لأنهما لذتان في الاستعلاء وبذل المال في شراء الراح ببذل الأنفس في الكفاح لأن في الأول : سرور الطرب وفي الثاني : سرور الظفر .

وكذا هنا أوثر الضر لمناسبته ما قبله من الترهيب" فإن انتقام العظيم عظيم .

ثم لما ذكر الإحسان أتى بما يعم أنواعه ، والآية من قبيل اللف والنشر فإن مس الضر ناظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَخَافُ ﴾ [الأنعام : 15] الخ ومس الخير ناظر إلى قوله سبحانه : ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 16] الخ .

وهي على ما قيل داخلة في حيز ﴿ قُلْ ﴾ [الأنعام : 51] والخطاب عام لكل من يقف عليه أو لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ولا نافية للجنس ، و ﴿ كاشف ﴾ اسمها و ﴿ لَهُ ﴾ خبرها والضمير المتفصل بدل من موضع ﴿ لا كاشف ﴾ أو من الضمير في الظرف ، ولا يجوز على ما قيل أبو البقاء أن يكون مرفوعاً بكاشف ولا بدلاً من الضمير فيه لأنك في الحالين تعمل اسم لا ومتى أعملته في ظاهر نونته .

وفي هذه الآية الكريمة رد على من رجا كشف الضر من غير سبحانه وتعالى وأمل أحداً سواه .

(100/228)

وفي "فتوح الغيب" للقطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني قدس الله تعالى سره من كلام طويل إن من أراد السلامة في الدنيا والآخرة فعليه بالصبر والرضا وترك الشكوى إلى خلقه وإنزال حوائجه بربه عز وجل ولزوم طاعته وانتظار الفرج منه سبحانه وتعالى

والانقطاع إليه فحرمانه عطاء وعقوبته نعماء وبلاؤه دواء ووعده حال ، وقوله فعل وكل أفعاله حسنة وحكمة ومصلحة غير أنه عز وجل طوى علم المصالح عن عباده وتفرد به فليس إلا الاشتغال بالعبودية من أداء الأوامر واجتناب النواهي والتسليم في القدر وترك الاشتغال بالربوبية والسكون عن لم وكيف ومتى ؟ وتستند هذه الجملة إلى حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : " بينما أنا رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : يا غلام احفظ الله تعالى يحفظك احفظ الله تعالى تجده أمامك وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله جف القلم بما هو كائن ولو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله سبحانه وتعالى لك لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله تعالى عليك لم يقدروا عليه فإن استطعت أن تعمل لله تعالى بالصدق في اليقين فاعمل فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا " فينبغي لكل مؤمن أن يجعل هذا الحديث مرآة قلبه وشعاره ودثاره وحديثه فيعمل به من جهة حركاته وسكناته حتى يسلم في الدنيا والآخرة ويجد العزة برحمة الله عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ ﴾

عطف على الجمل المفتتحة بفعل ﴿ قل ﴾ [الأنعام : 15] فالخطاب للنبيء صلى الله

عليه وسلم

وهذا مؤذن بأنّ المشركين خوّفوا النبي صلى الله عليه وسلم أو عرّضوا له بعزمهم على إصابته بشرّ وأذى فخاطبه الله بما يثبّت نفسه وما يؤيس أعداءه من أن يستزلّوه .

(101/228)

وهذا كما حكي عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنّكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً ﴾ [الأنعام : 81] ، ومن وراء ذلك إثبات أنّ المتصرّف المطلق في أحوال الموجودات هو الله تعالى بعد أن أثبت بالجمل السابقة أنّه محدث الموجودات كلّها في السماء والأرض ، فجُعل ذلك في أسلوب تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم على عدم الخشية من بأس المشركين وتهديدهم ووعيدهم ، ووعدُه بحصول الخير له من أثر رضى ربّه وحدَه عنه ، وتحدّي المشركين بأنّهم لا يستطيعون إضراره ولا يجلبون نفعه .

ويحصل منه ردّ على المشركين الذين كانوا إذا ذُكّروا بأنّ الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن أقرّوا بذلك ، ويزعمون أنّ آلهتهم تشفع عند الله وأنّها تجلب الخير وتدفع الشرّ ، فلمّا أبطلت الآيات السابقة استحقاق الأصنام الإلهية لأنّها لم تخلق شيئاً ، وأوجبت عبادة

المستحقّ الإلهية بحقّ ، أبطلت هذه الآية استحقاقهم العبادة لأنّهم لا يملكون للناس ضرّاً ولا نفعاً ، كما قال تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً ﴾ [المائدة : 76] وقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون ﴾ [الشعراء : 73] .

وقد هيّأت الجمل السابقة موقعاً لها تاه الجملة ، لأنّه إذا تقرّر أنّ خالق الموجودات هو الله وحده لزم من ذلك أنّه مقدّر أحوالِهم وأعمالِهم ، لأنّ كون ذلك في دائرة قدرته أولى وأحقّ بعد كون معروضات تلك العوارض مخلوقة له .

فالمعروضات العارضة للموجودات حاصلة بتقدير الله لأنّه تعالى مقدّر أسبابها ، واضع نظام حصولها وتحصيلها ، وخالق وسائل الدواعي النفسانية إليها أو الصوارف عنها .

والمسّ حقيقته وضع اليد على شيء .

وقد يكون مباشرة وقد يكون بآلة ، ويستعمل مجازاً في إيصال شيء إلى شيء فيستعار إلى معنى الإيصال فيكثر أن يذكر معه ما هو مستعار للآلة .

(102/228)

ويدخل عليه حرف الآلة وهو الباء كما هنا ، فتكون فيه استعارتان تبعيتان إحداهما في الفعل والأخرى في معنى الحرف ، كما في قوله : ﴿ ولا تمسّوها بسوء ﴾ [الأعراف : 73] .

فالمعنى : وإن يصبك الله بضرّ ، أو وإن ينلك من الله ضرّ .

والضُرّ بضم الضاد هو الحال الذي يؤلم الإنسان ، وهو من الشرّ ، وهو المنافر للإنسان .

ويقابله النفع ، وهو من الخير ، وهو الملائم .

والمعنى إن قدّر الله لك الضرّ فهلاّ يستطيع أحد كشفه عنك إلاّ هو إن شاء ذلك ، لأنّ مقدّراته مربوطة ومحوطة بنواميس ونظم لا تصل إلى تحويلها إلاّ قدرة خالقها .

وقابل قوله : ﴿ وإن يمسسك الله بضرّ ﴾ بقوله : ﴿ وإن يمسسك بخير ﴾ مقابلة بالأعمّ ، لأنّ الخير يشمل النفع وهو الملائم ويشمل السلامة من المنافر ، للإشارة إلى أنّ المراد من الضرّ ما هو أعمّ ، فكأنّه قيل : إن يمسسك بضرّ وشرّ وإن يمسسك بنفع وخير ، ففي الآية احتباك .

وقال ابن عطية : ناب الضرّ في هذه الآية مناب الشرّ والشرّ أعمّ وهو مقابل الخير .

وهو من الفصاحة عدول عن قانون التكلّف والصنعة ، فإنّ من باب التكلّف أن يكون الشيء مقترناً بالذي يختصّ به ونظّر هذا بقوله تعالى : ﴿ إنّ لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنّك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ [طه : 118 ، 119] . اه .

وقوله : ﴿ فهو على كلّ شيء قدير ﴾ جعل جواباً للشرط لأنّه علّة الجواب المحذوف والجوابِ المذكور قبله ، إذ التقدير : وإن يمسسك بخير فلا مانع له لأنّه على كلّ شيء قدير في الضرّ والنفع .

وقد جعل هذا العموم تمهيداً لقوله بعده ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ [الأنعام : 18] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر إمساس الضر وإمساس الخير ، إلا أنه ميّز الأول عن الثاني بوجهين :

الأول : أنه تعالى قدم ذكر إمساس الضر على ذكر إمساس الخير ، وذلك تنبيه على أن جميع المضار لا بدّ وأن يحصل عقبيها الخير والسلامة .

والثاني : أنه قال في إمساس الضر ﴿ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ وذكر في إمساس الخير ﴿ فَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فذكر في الخير كونه قادراً على جميع الأشياء وذلك يدل على أن إرادة الله تعالى لإيصال الخيرات غالبة على إرادته لإيصال المضار .

وهذه الشبهات بأسرها دالة على أن إرادة الله تعالى جانب الرحمة غالب ، كما قال : (سبقت رحمتي غضبي) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 143 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾

والضر هو ما يصيب الكائن الحي مما يخرجه عن استقامة حياته وحاله . فعندما يعيش الإنسان بغير شكوى أو مرض ويشعر بتمام العافية فهو يعرف أنه سليم الصحة ؛ لأنه لا يشعر بألم في عيونه أو ضيق في تنفسه أو غير ذلك ، لكن ساعة يؤلمه عضو من أعضاء جسمه فهو يضع يده عليه ويشكو ويفكر في الذهاب إلى الطبيب . إذن فاستقامة الصحة بالنسبة للإنسان هي رتابة عمل كل عضو فيه بصورة لا تلفته إلى شيء .

ويلفت الحق أصحاب النعم عندما يرون إنساناً من حولهم وقد فقد نعمة ما ، فساعة تسير في الشارع وترى إنساناً فقد ساقه فأنت تقول : " الحمد لله " لأنك سليم الساقين . كأنك لا تدرك نعمة الله في بعض منك إلا إن رأيتها مفقودة في سواك . وهكذا نعلم أن من الآلام والآفات منبهات للنعم . وأيضاً قد تصيب منغصات الحياة الإنسان ليعلم أنه لم يأخذ نعم الله كلها فيقول العبد لحظتها : يا مفرج الكروب يارب ، ولذلك تجد الإنسان يقول : " يارب " حينما تأتيه آفة في نفسه ويفزع إلى الله . وقد قالها الله عن الإنسان : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان

الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدا أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 12] .

(104/228)

فالإنسان عندما يحس ضعفه إذا ما أصابه مكروه لا يمل دعاء الله ، سواء أكان الإنسان مضطجعاً أم قاعداً أم قائماً ، وعندما يكشف الحق عنه الضر قد ينصرف عن جانب الله ، ويستأنف عصيان الله وكأنه لم يدع الله إلى كشف الضر ، وهذا هو سلوك المسرفين على أنفسهم بعصيان الله . والنفس أو الشيطان تزين للعاصي بعد انكشاف الضر أن يغوص أكثر وأكثر في آبار المعاصي وحمأة الرذيلة .

وقد ينسب الإنسان كشف الضر لغير الله ، فينسب انكشاف الضر إلى مهارة الطبيب الذي لجأ إليه ، ناسياً أن مهارة الطبيب هي من نعم الله . أو ينسب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه الله من علم أو مال ، ناسياً أن الله هو واهب كل شيءٍ ، كما فعل قارون الذي ظن أن ماله قد جاءه من تعبه وكده وعلمه ومهارته ، ناسياً أن الحق هو مسبب كل الأسباب ، ضُرّاً أو نفعا ، فسبحانه هو الذي يسبب الضر كما يسبب النفع .

ويلفت الضر الإنسان إلى نعم الحق سبحانه وتعالى في هذه الدنيا . وإذا ما رضي الإنسان

وصبر فإن الله يرفع عنه الضر ؛ لأن الضر لا يستمر على الإنسان إلا إذا قابله بالسخط وعدم الرضا بقدر الله . ولا يرفع الحق قضاء في الخلق إلا أن يرضى خلق الله بما أنزل الله ، والذي لا يقبل بالمصائب هو من تستمر معه المصائب ، أما الذي يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء .

(105/228)

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر ؛ فها هوذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد ، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديد القسوة ، فقد كان على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه ، وهذا ارتقاء في الابتلاء . ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذراً ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم يقل : إنها مجرد رؤيا وليست وحياً ولكنها حق ، وقد جاءه الأمر بأهون تكليف وهو الرؤيا ، وبأشق تكليف وهو ذبح الابن ، ونرى عظمة النبوة في استقبال أوامر الحق . ويلهمه الله أن يشرك ابنه اسماعيل في استقبال الثواب بالرضا بالقضاء : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي قَالَ يا بني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤْمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ [الصافات : 102] .

لقد بلغ إسماعيل عمر السعي في مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر في المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه ، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ولم ينشغل بالحقد على أبيه . ولم يقاوم ، ولم يدخل في معركة ، بل قال : ﴿ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ﴾ [الصافات : 102] .

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبولٍ ورضا ؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 103-107] .

(106/228)

لقد اشترك الاثنان في قبول قضاء الله ، وأسلم كل منهما للأمر ؛ أسلم إبراهيم كفاعل ، وأسلم إسماعيل كمنفعل ، وعلم الله صدقهما في استقبال أمر الله ، وهنا نادى الحق إبراهيم عليه السلام : لقد استجبت أنت وإسماعيل إلى القضاء ، وحسبكما هذا الامتثال ، ولذلك يجيء إليك وإلى ابنك اللطف ، وذلك برفع البلاء . وجاء الفداء بِذِبْحٍ عظيم القدر ، لأنه ذِبْحٌ جاء بأمر الله . ولم يكتف الحق بذلك ولكنَّ بشرَ إبراهيم بميلاد ابن آخر : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ﴾ [الصافات : 112] .

لقد رفع الله عن إبراهيم القدَر وأعطاه الخير وهو ولد آخر . إذن فنحن البشر نطيل على

أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له . لكن لو سقط على الإنسان أمر بدون أن يكون له سبب فيه واستقبله الإنسان من مُجريه وهو ربه بمقام الرضا ، فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء . فإذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا .

ونلحظ أن الحق هنا يقول : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الله سبحانه وتعالى يعلم أن أي عبد لا يتحمل أن يضره الحق ؛ فقوة الحق لا متناهية ولذلك يكون المس بالضر ، وكذلك بالخير ؛ فالإنسان في الدنيا لا ينال كل الخير ، إنما ينال مس الخير ؛ فكل الخير مدخر له في الآخرة .

ونعلم أن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يزول الإنسان عنه ، أما كل الخير فهو في الآخرة .

(107/228)

ومهما ارتقى الإنسان في الابتكار والاختراع فلن يصل إلى كل الخير الذي يوجد في الآخرة ، ذلك أن خير الدنيا يحتاج إلى تحضير وجهد من البشر ، أما الخير في الآخرة فهو على قدر المعطي الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى . إذن فكل خير الدنيا هو مجرد مس خير ؛ لأن الخير الذي يناسب جمال كمال الله لا يزول ولا يحول ولا يتغير ، وهو مدخر للآخرة . ولا

كاشف لضر إلا الله ؛ فالمريض لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبيب ، لكن الطبيب يعالج الموهوبة له من الله ، والذي يَشفي هو الله . ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] .

لأن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الداء ، وخلق الدواء ، وجعل الأطباء مجرد جسور من الداء إلى الدواء ثم إلى الشفاء ، والله يوجد الأسباب لِيُسرَّ ويُفْرِح بها عباده ، فيجعل المواهب كأسباب ، وإلا فالأمر في الحقيقة بيده – سبحانه وتعالى – . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تَدَاوَوْا عبادَ الله فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد : الهِرَم " .

ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً أن الشفاء جاء معه ، لا به . ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل الشفاء يأتي على ميعاد من علاجه . إذن فالحق هو كاشف الضر ، وهو القدير على أن يمنحك ويَمَسَّك بالخير . وقدرته لا حدود لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(108/228)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير " وفى سورة يونس : "وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم " ، فورد جواب الشرط الثانى فى الآية الأولى بقوله : "فهو على كل شئ قدير " وفى الثانية بقوله : "فلا راد لفضله " وقال فى الأولى : "وإن يمسسك " وفى آية يونس : "وإن يردك " وأعقبت آية يونس بقوله : "وهو الغفور الرحيم " فخص هاتين الصفتين العليتين من صفاته تعالى فهذه ثلاث أسئلة فللسائل أن يسأل عن توجيهها وموجب ما ورد عليه ما ذكر ؟

والجواب عن الأول والله أعلم أن مدار الأية الأولى وهى آية الأنعام على أنه سبحانه المنفرد بالخلق والاختراع والمتصرف فى عباده بما يشاء والقدير على كل شئ ونفى هذه الصفات عمن سواه سبحانه وتنزيل هذا عل ما افتتحت به السورة من قوله تعالى : "الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور " وقوله : "هو الذى خلقكم من طين " وقوله "وهو الله فى السماوات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم " وقوله فيمن أهلكه من القرون بكفرهم : "مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا . . . . "الآية وقوله : "قل لمن ما فى السماوات والأرض . . . "الآية وقوله : "قل

أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض . . . "الآية

فدارت هذه الآى كلها على التعريف بوحدانيته تعالى وانفراده بخلق الأشياء وملكها وقهرها ولم يقع فيها تعرض إلى أن أحدا من خلقه يمنع أو يدفع أو يتعاطى استبدادا بشئ وإن كان قد يفهم بعض ذلك من الجارى أثناء الكلام كقوله : "ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " وقوله : "قل أغير الله أتخذ وليا . . . "الآية

(109/228)

بل فى قوة الجارى فى هذه الآى أن المشار إليهم بمخالفة مقتضاها أخلدوا إلى ترك التغير واشبهوا البهائم فى البعد عن النظر وكأنهم يرون أن الأفعال وما يتجرد فى العالم من المدركات المشاهدات من الأجسام والأعراض على كثرة تنوعها واختلاف شياآتها وأشكالها زجدت بأنفسها لا عن فاعل تقدمها أوجدها بالقدرة والاختيار بل تكونت بأنفسها فقوبل مرتكبهم بالتعريف بقدرته تعالى على كل شئ وأنه الموجد لما فى العالم العلوى والسفلى وقيل له عليه السلام : "وإن يمسسك الله بضر . . "الآية

إعلاما بأن ما يكون من هذا فمنه تعالى لأنه المنفرد بالخلق والقدير على كل شئ فهذا حاصل ما تقتضيه آية الأنعام .

وأما آية يونس فقد ذكر قبلها حال من ظن أن غيره تعالى يضر أو ينفع قال تعالى : "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " فقد نسبوا لهم النفع بالشفاعة وقال تعالى : "ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم . . . "الآية

وقال تعالى : "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار . . . "الآية

وقال تعالى : "قل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده " وقال تعالى : "قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق " فدارت هذه الآيات على أنهم توهموا نفع ما اتخذوه معبودا من شركائهم فبطل توهمهم واضمحل باطلهم واتبع ما تقدم بقوله جل وتعالى لنبيه عليه السلام : "ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك " ثم بقوله تعالى : "وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله " وحصل من هذا أن كل ما عبد دونه سبحانه وتوهم أنه لا يضر أو ينفع ليس كما ظنوه قال تعالى : "وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه " فناسب ما تقدم من التنصيص على انفراده تعالى بالخلق والأمر .

(110/228)

والجواب عن السؤال الثانى والله أعلم : أن قوله تعالى هنا : "وإن يردك بخير " ولم يقل : "وإن يمسسك بخير "كما فى آية الأنعام أنه تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى : "إن الذين حقت كلمة ربك لا يؤمنون . . . "الآية

فهو إعلام منه سبحانه بجرى الخلائق على ما قدر لهم أزلا وسبق به حكمه تعالى ثم أعقب بقوله تعالى : "ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا " فهذا تأكيد للغرض المذكور من جرى العباد على ما قدر لهم وما شاءه سبحانه فيهم وإن ذلك لا يرده راد ولا يعارضه معارض فناسب هذا قوله تعالى : "وإن يردك بخير فلا راد لفضله " أتم مناسبة ثم وقع بعد هذا قوله تعالى : "يصيب به من يشاء من عباده " وإصابته سبحانه من يشاء بالخير هو المراد بقوله فى آية الأنعام : "وإن يمسسك بخير " فاجتمع فى آية يونس الأمران معا وكأن قد قيل : وإن يمسسك بخير ويردك به فلا راد لما أصابك به وأراده لك ففى هذه الآية من إمعان المقصود وتأكيده ما ليس فى آية الأنعام ليطابق هذا التأكيد والإمعان ما تقدم من قوله تعالى : "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون " وقوله : "ولو شاء ربك لأمن من فى الأرض كلهم جميعا " ولم يتقدم فى آية الأنعام مثل هذا فوقع الاكتفاء هناك بقوله : "وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير " فجاء كل على من هذا على أتم مناسبة وأوضح ملاءمة والله أعلم .

والجواب عن السؤال الثالث أنه لما تقدم هذه الآية من مؤثرات الخوف والجهل ومهيجات

الرهب والخشية ما اقتضاه الاخبار بغيبة للقدر وجهل للمشيئة فى قوله : "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك . . . "الآية

وقوله : "ولو شاء ربك لأمن من فى الأرض كلهم جميعا " وعظم موقع ذلك على المؤمنين وكان مع ذلك للوفاء بمزدلفات الأعمال مما لا يحصل بالآمال أنسهم سبحانه بذكر الصفتين العليتين فقال : "وهو الغفور الرحيم " فناسب ورود الوصفين ما تقدم والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 146 . 149 ﴾

(111/228)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" الباء " في قوله : " بِضُرٍّ " للتعدية ، وكذلك في " بخير " ، والمعنى : وإن يمسك اللَّهُ الضُّرَ ، أي : يجعلك ماسّاً له ، وإذا مست الضر فقد مَسَّك ، إلاَّ أن التَّعديَةَ بالباء في الفعل المُتَعَدِّي قليلةٌ جداً ، ومنه قولهم : " صَكَكْتُ أحَدَ الحجرين بالآخر " .

وقال أبو حيان : ومنها قوله تعالى ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : 251] .

وقال الواحدُّ : - رحمه الله - : " إن قيل : إن المَسَّ من صِفَةِ الأجَسْامِ فكيف قال : وإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ ؟

فالجواب " الباء " لتعدية ، والباء والألف يتعاقَبَانِ في التَّعديَةَ ، والمعنى : إن أَمَسَّك اللَّهُ ضُرّاً ، أي : جعله مَاسَّك ، فالفعلُ للضُّرِّ ، وإن كان في الظاهر قد أسند إلى اسمِ اللَّهِ تعالى ، كقولك : " ذهبَ زيدٌ بعمرو " ، وكان الذَّهابُ فِعْلاً لعمرو ، غير أن زيداً هو المُسَبِّبُ له والحاملُ عليه ، كذلك هنا الميسُّ للضُرِّ ، والله - تعالى - جعله مَاسّاً " .

قوله : " فلا كاشف له " : " له " " : خبر " لا " ، وثمَّ مَحْذُوفٌ تقديره : فلا كاشف له عنك ، وهذا المحذوف لي متعلِّقاً بـ " كاشف " ، إذ كان يلزمُ تنوينه وإعرابه ، بل يتعلَّق بمحذوف ، أي : أغني عنه .

و " إلاَّ هو " فيه وجهان :

أحدهما : أنه بدلٌ من مَحَلّ " كاشف " فإن مَحَلَّه الرفع على الابتداء .

(112/228)

والثاني : أنه بَدَلٌ من الضمير المُسْتَكِنّ في الخبر ، ولا يجوز أن يرتفع باسم الفاعل ، وهو " كاشف " ؛ لأنه مطوّلاً [ومتى كان مطوّلاً] أعْرِبَ نَصْباً ، وكذلك لا يجوز أن يكون بَدَلاً من

الضمير المُسْتَكِنّ في " الكاشف " للعلَّةِ المتقدّمة ؛ إذ يحلُّ مَحَلَّ مَحَلِّ المبدل فإن قيل : المقابل للخير هو الشَّر ، فكيف عدل عن لَفْظِ الشَّرّ ؟ والجواب أنه أراد تَغْلِيبَ الرحمة على ضِدّهَا ، فأتى في جانب الشَّرّ بأخَصَّ منه وهو الضُّرُّ ، وفي جانب الرَّحْمَةِ بالعام الذي هو الخَيْرُ تعليباً لهذا الجانب .

قال ابن عطية : نابَ الضُّرُ مَنَابَ الشّرّ ، وإن كان الشّرُّ أعَمَّ منه ، فقابل الخير .

وهذا من الفصاحةِ عُدُولٌ عن قانون التكليف والصيغة ، فإن باب التكليف وترصيع الكلام أن يكون الشيء مُتءترناً [بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مُضاهاة فمن ذلك] ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تضحى ﴾ [طه : 118 - 119] فجاءؤ بالجوع مع العُرْي ، وبابه أن يكون مع الظَّمَأ .

ومنه قوله امرئ القيس : [الطويل]

2119 - كَأَنِّي أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةِ . . .

وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَال

وَلَمْ أَسْبإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ . . .

لِخَيْلِي كُرِّي كرَّةً بَعْدَ إجْفَالِ

ولم يوضّح ابن عطيَّة ذلك ، وإيضاحه في آية " طه " اشْتَرَاكُ الجوع والعُرْي في شيء خاص وهو الخلُوُّ ، فالجوع خُلُوٌّ وفراغٌ من الباطن ، والعُرْيُ خُلُوٌّ وفراغٌ من الظَّاهرِ واشتراك الظَّمَأ

والضِّحَي في الاحتراق ، فالظَّمَأُ احتراق في الباطن ، ولذلك تقول : "بَرَّدَ الماءُ حَرارةَ كبدي وأوام عطشي " .

والضَّحَى : احْتِرَاقُ الظَّاهر .

(113/228)

وأمَّا البيتان ، فالجامعُ بين الرُّكوبِ للذَّةِ وهو الصيد وتبطُّن الكَاعِب اشتراكهما في لَذَّةِ الاسْتِعْلاءِ ، والقهر والاقْتِنَاصِ والظّفر بمثل هذا المركوب ، ألا ترى إلى تسميتهم هَنَ المرأة " رَكَباً " ، بفتح الراء والكاف ، وهو فَعَل بمعنى مَفْعُول كقوله : [الرجز]

2120 - إنَّ لَهَا لَرَكَباً إرْزَبَّا . . .

كَأَنَّهُ جِبْهَةُ ذَرَّي حَبَّا

وأمَّا البيت الثاني فالجامعُ بين سَبَأ الخمر ، والرُّجوع بعد الهزيمة اشتراكهما في البذْل ، فشراءُ الخَمْرِ بَذْلُ المال ، والرجوع بعد الانهزام بَذْلُ الروح .

وقدَّم تبارك وتعالى مَسَّ الضُّرِّ الخير لمناسبة اتّصالِ مسِّ الضُّر بما قبله من التَّرْهيبِ المدلول عليه بقوله تعالى : " إنّي أخَافُ " ، وجاء جواب الشَّرْط الأوَّل بالحَصْر إشارةً إلى اسْتِقلالِهِ بكشف الضُّرُ دون غيره ، وجاء الثاني بقوله تعالى ﴿ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ إشارةً

قدرته الباهرة ، فيندرج فيها المَسُّ بخير وغيره ، على أنَّه لو قيل : إنَّ جواب الثاني مَحْذُوفٌ لكان وَجْهاً أي : وإن يمسك بخيرٍ فلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، للتصريح بمثله في موضع آخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 61.63 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) ﴾

إنَّه مَنْ ينجيك من البلاء ، ومن يُلقيك في العناء . وإذ المتفرّد بالإبلاغ واحد فالأغيارُ كلُّهم أفعاله ؛ وإن الإيجاد لا يَصْلُحُ من الأفعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 464 ﴾

(114/228)

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت الجملتان من الاحتباك ، فأفادتا بما ذكر وما دل عليه المذكور مما حذف أنه تعالى غالب على أمره ، قال مصرحاً بذلك : ﴿ وهو القاهر ﴾ أي الذي يعمل مراده كله ويمنع غيره مراده إن شاء ، وصور قهره وحققه لتمكن الغلبة بقوله : ﴿ فوق عباده ﴾ وكل ما سواه عبد ؛ ولما كان في القهر ما يكون مذموماً ، نفاه بقوله : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الحكيم ﴾ فلا يوصل أثر القهر بإيقاع المكروه إلا لمستحق ، وأتم المعنى بقوله : ﴿ الخبير ﴾ أي بما يستحق كل شيء ، فتمت الأدلة على عظيم سلطانه وأنه لا فاعل غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 599 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن صفات الكمال محصورة في القدرة والعلم فإن قالوا : كيف أهملتم وجوب الوجود . قلنا : ذلك عين الذات لا صفة قائمة بالذات لأن الصفة القائمة بالذات مفتقرة إلى الذات والمفتقر إلى الذات مفتقر إلى الغير فيكون ممكناً لذاته واجباً بغيره فيلزم حصول وجوب قبل الوجوب وذلك محال فثبت أنه عين الذات ، وثبت أن الصفات التي هي الكمالات حقيقتها هي القدرة والعلم فقوله ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله ﴿ وَهُوَ الحكيم الخبير ﴾ إشارة إلى كمال العلم .

وقوله ﴿ وَهُوَ القاهر ﴾ يفيد الحصر ومعناه أنه لا موصوف بكمال القدرة وكمال العلم إلا

الحق سبحانه وعند هذا يظهر أنه لا كامل إلا هو ، وكل من سواه فهو ناقص .

إذا عرفت هذا فنقول : أما دلالة كونه قاهراً على القدرة فلأنا بينا أن ما عدا الحق سبحانه ممكن بالوجود لذاته ، والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه ولا عدمه على وجوده إلا بترجيحه وتكوينه وإيجاده وإبداعه فيكون في الحقيقة هو الذي قهر الممكنات تارة في طرف ترجيح الوجود على العدم ، وتارة في طرف ترجيح العدم على الوجود ويدخل في هذا الباب كونه قاهراً لهم بالموت والفقر والاذلال ويدخل فيه كل ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿ قُلِ اللهم مالك الملك ﴾ [آل عمران : 26] إلى آخر الآية .

(115/228)

وأما كونه حكيماً ، فلا يمكن حمله ههنا على العلم لأن الخبير إشارة إلى العلم فيلزم التكرار أنه لا يجوز ، فوجب حمله على كونه محكماً في أفعاله بمعنى أن أفعاله تكون محكمة متقنة آمنة من وجوه الخلل والفساد والخبير هو العالم بالشيء المروي .

قال الواحدي : وتأويله أنه العالم بما يصح أن يخبر به قال : والخبر علمك بالشيء تقول : لي به خبر أي علم وأصله من الخبر لأنه طريق من طرق العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 12 صـ 143 . 144 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَهُوَ القاهر ﴾ القادر الغالب ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ وفي القهر معنى زائد على القدرة وهو منع غيره عن بلوغ المراد .

﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ في أمره ﴿ الخبير ﴾ بما جاء من عباده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(116/228)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن معناه القاهر لعباده ، وفوق صلة زائدة .

والثاني : أنه بقهره لعباده مستعلٍ عليهم ، فكان قوله فوق مستعملاً على حقيقته كقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : 10] لأنها أعلى قوة .

ويحتمل ثالثاً : وهو القاهر فوق قهر عباده ، لأن قهره فوق كل قهر .

وفي هذا القهر وجهان :

أحدهما : أنه إيجاد المعدوم .

والثاني : أنه لا راد لأقداره ولا صَادَّ عن اختياره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وهو القاهر ﴾ الآية ، أي وهو عز وجل المستولي المقتدر ، و ﴿ فوق ﴾ نصب على الظرف لا في المكان بل في المعنى الذي تضمنه لفظ القاهر ، كما تقول زيد فوق عمرو في المنزلة ، وحقيقة فوق في الأماكن ، وهي في المعاني مستعارة شبه بها من هو رافع رتبة في معنى ما ، لما كانت في الأماكن تنبىء حقيقة عن الأرفع وحكى المهدوي : أنها بتقدير الحال ، كأنه قال : وهو القاهر غالباً .

قال القاضي أبو محمد : وهذا لا يسلم من الاعتراض أيضاً والأول عندي أصوب : و" العباد " بمعنى العبيد وهما جمعان للعبد أما أنا نجد ورود لفظة العباد في القرآن وغيره في مواضع تفخيم أو ترفيع أو كرامة ، وورود لفظ العبيد في تحقير أو استضعاف أو قصد ذم ، ألا ترى قول امرىء القيس : [السريع]

قولا لدودانَ عبيدِ العَصَا . . . ولا يستقيم أن يقال هنا عباد العصا وكذلك الذين سموا العباد لا يستقيم أن يقال لهم العبيد لأنهم أفخم من ذلك ، وكذلك قول حمزة رضي الله عنه وهل أنتم إلا عبيد لأبي ، لا يستقيم فيه عباد ، و ﴿ الحكيم ﴾ بمعنى المحكم ، و ﴿ الخبير ﴾ دالة على مبالغة العلم ، وهما وصفان مناسبان لنمط الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر

الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ القاهر : الغالب ، والقهر : الغلبة .

(117/228)

والمعنى : أنه قهر الخلق فصرّفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً ؛ فهو المستعلي عليهم ، وهم تحت التسخير والتذليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ لما ذكره تعالى انفراده بتصرفه بما يريده من ضر وخير وقدرته على الأشياء ذكر قهره وغلبته ، وأن العالم مقهورون ممنوعون من بلوغ مرادهم بل يفسرهم ويجبرهم على ما يريده هو تعالى و ﴿ فوق ﴾ حقيقة في المكان وأبعد من جعلها هنا زائدة ، وأن التقدير وهو القاهر لعباده وأبعد من هذا قول من ذهب إلى أنها هنا حقيقة في المكان ، وأنه تعالى حال في الجهة التي فوق العالم إذ يقتضي التجسيم وأما الجمهور فذكروا أن الفوقية هنا مجاز .

فقال بعضهم : هو فوقهم بالإيجاد والإعدام .

وقال بعضهم : هو على حذف مضاف معناه فوق قهر عباده بوقوع مراده دون مرادهم .

وقال الزمخشري : تصوير للقهر والعلو والغلبة والقدرة كقوله : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ انتهى .

والعرب تستعمل ﴿ فوق ﴾ إشارة لعلو المنزلة وشفوفها على غيره من الرتب ومنه قوله : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ وقوله : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ وقال النابغة الجعدي :

بلغنا السماء مجداً وجوداً وسؤددا . . .

وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

يريد علو الرتبة والمنزلة .

وقال أبو عبد الله الرازي : صفات الكمال محصورة في العلم والقدرة فقوله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ إشارة إلى كمال القدرة ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ إشارة إلى كمال العلم أما كونه قاهراً فلأن ما عداه تعالى ممكن الوجود لذاته ، والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه ولا عدمه على وجوده إلا بترجيحه تعالى وإيجاده ، فهو في الحقيقة الذي قهر الممكنات تارة في طرق ترجيح الوجود على العدم وتارة في طرق ترجيح العدم على الوجود ، ويدخل فيه كل ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ الآية .

(118/228)

والحكيم والمحكم أي أفعاله متقنة آمنة من وجوه الخلل والفساد لا بمعنى العالم ، لأن ﴿ الخبير ﴾ إشارة إلى العلم فيلزم التكرار ؛ انتهى ، وفيه بعض اختصار وتلخيص .

وقيل : ﴿ الحكيم ﴾ العالم والخبير ﴾ أيضاً العالم ذكره تأكيداً و ﴿ فوق ﴾ منصوب على الظرف إما معمولاً للقاهر أي المستعلي فوق عباده ، وإما في موضع رفع على أنه خبر ثان لهو أخبر عنه بشيئين أحدهما : أنه القاهر الثاني أنه فوق عباده بالرتبة والمنزلة والشرف لا بالجهة ، إذ هو الموجد لهم وللجهة غير المفتقر لشيء من مخلوقاته فالفوقية مستعارة للمعنى من فوقية المكان ، وحكى المهدوي أنه في موضع نصب على الحال كأنه قال : وهو القاهر غالباً فوق عباده وقاله أبو البقاء ، وقدره مستعلياً أو غالباً وأجاز أن يكون فوق عباده في موضع رفع بدلاً من القاهر .

قال ابن عطية : ما معناه ورود العباد في التفخيم والكرامة والعبيد في التحقير والاستضعاف والذم ، وذكر موارد من ذلك على زعمه وقد تقدم له هذا المعنى مبسوطاً مطولاً ورددنا عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ القهر الغلبة ، والقاهر الغالب ، وأُقهِر الرجل إذا صير بحال المقهور الذليل ؛ قال الشاعر :

تَمَنَّى حُصَيْنٌ أن يَسُودَ جذاعُه . . .

فأمسى حُصَيْنٌ قد أَذَلَّ وأَقْهَرا

وقُهر غُلب .

ومعنى ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم ؛ أي هم تحت تسخيره لا فوقية مكان ؛ كما تقول : السلطان فوق رعيته أي بالمنزلة والرفعة .

وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة ، وهو منع غيره عن بلوغ المراد .

﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ في أمره ﴿ الخبير ﴾ بأعمال عباده ، أي من اتصف بهذه الصفات يجب ألاَّ يُشرَكَ به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(119/228)

وقال ابن كثير :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أي : هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره

(3)

﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في جميع ما يفعله ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطي إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 244 ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ يعني وهو الغالب لعباده القاهر لهم وهم مقهورون تحت قدرته والقاهر والقهار معناه الذي يدبر خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ويذل خلقه فلا يستطيع أحد من خلقه رد تدبيره والخروج من تحت قهره وتقديره وهذا معنى القاهر في صفة الله تعالى لأنه القادر والقاهر الذي لا يعجزه شيء أراده ومعنى فوق عباده هنا أن قهره قد استعلى على خلقه فهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد على الخروج منه ولا ينفك عنه فكل من قهر شيئاً فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة .

وقال ابن جرير الطبري : معنى القاهر المتعبد خلقه العالي عليهم وإنما قال فوق عباده لأنه تعالى وصف نفسه بقهره إياهم ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه فمعنى الكلام إذاً والله الغالب عباده المذلل لهم العالي عليهم بتذليله إياهم فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه .

وقيل : فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله عز وجل : ﴿ وهو الحكيم ﴾

يعني في أمره وتدبير عباده ﴿ الخبير ﴾ يعني بأعمالهم وما يصلحهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(120/228)

وقال أبو السعود :

﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ تصويرٌ لقهره وعلوّه بالغَلَبة والقُدرة ﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ في كل ما يفعله ويأمر به ﴿ الخبير ﴾ بأحوال عبادِه وخفايا أمورِهم ، واللام في المواضع الثلاثة للقصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ القاهر ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ وإن يمسسك الله بضرّ ﴾ [الأنعام : 17] الآية ، والمناسبة بينهما أنّ مضمون كلتيهما يبطل استحقاق الأصنام العبادة . فالآية الأولى أبطلت ذلك بنفي أن يكون للأصنام تصرّف في أحوال المخلوقات ، وهذه الآية أبطلت أن يكون غير الله قاهراً على أحد أو خبيراً أو عالماً بإعطاء كل مخلوق ما يناسبه ، ولا جرم أنّ الإله تجب له القدرة والعلم ، وهما جماع صفات الكمال ، كما تجب له صفات الأفعال من نفع وضرّ وإحياء وإماتة ، وهي تعلّقات للقدرة أطلق عليها اسم الصفات عند

غير الأشعري نظراً للعرف ، وأدخلها الأشعري في صفة القدرة لأنّها تعلّقات لها ، وهو التحقيق .

ولذلك تتنزّل هذه الآية من التي قبلها منزلة التعميم بعد التخصيص لأنّ التي قبلها ذكرت كمال تصرّفه في

المخلوقات وجاءت به في قالب تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم كما قدّمنا ، وهذه الآية أوعت قدرته على كلّ شيء وعلمه بكلّ شيء ، وذلك أصل جميع الفعل والصنع .

(121/228)

والقاهر الغالب المُكرِه الذي لا ينفلت من قدرته من عُدّي إليه فعل القهر .

وقد أفاد تعريف الجزأين القصر ، أي لا قاهر إلاّ هو ، لأنّ قهر الله تعالى هو القهر الحقيقي الذي لا يجد المقهور منه ملاذاً ، لأنّه قهر بأسباب لا يستطيع أحد خلق ما يدافعها .

وممّا يشاهد منها دوماً النوم وكذلك الموتُ .

سبحان من قهر العباد بالموت .

و﴿ فوق ﴾ ظرف متعلّق بِ ﴿ القاهر ﴾ ، وهو استعارة تمثيلية لحالة القاهر بأنّه كالذي يأخذ المغلوب من أعلاه فلا يجد معالجة ولا حراكاً .

وهو تمثيل بديع ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ وإنّا فوقهم قاهرون ﴾ [الأعراف : 127] .

ولا يفهم من ذلك جهة هي في علوّ كما قد يتوهّم ، فلا تعدّ هذه الآية من المتشابهات .

والعباد : هم المخلوقون من العقلاء ، فلا يقال للدوابّ عباد الله ، وهو في الأصل جمع عبد لكن الاستعمال خصّه بالمخلوقات ، وخصّ العبيد بجمع عبد بمعنى المملوك .

ومعنى القهر فوق العباد أنّه خالق ما لا يدخل تحت قُدرهم بحيث يوجدُ ما لا يريدون وجوده كالموت ، ويمنع ما يريدون تحصيله كالولد للعقيم والجهل بكثير من الأشياء ، بحيث إنّ كلّ أحد يجد في نفسه أموراً يستطيع فعلها وأموراً لا يستطيع فعلها وأموراً يفعلها تارة ولا يستطيع فعلها تارة ، كالمشي لمن خَدِرت رجله ؛ فيعلم كلّ أحد أنّ الله هو خالق القُدر والاستطاعات لأنّه قد يمنعها ، ولأنّه يخلق ما يخرج عن مقدور البشر ، ثم يقيس العقل عوالم الغيب على عالم الشهادة .

وقد خلق الله العناصر والقوى وسلّط بعضها على بعض فلا يستطيع المدافعة إلاّ ما خوّلها الله .

والحكيم : المحكم المتقن للمصنوعات ، فعيل بمعنى مفعل ، وقد تقدّم في قوله : ﴿ فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم ﴾ في سورة [البقرة : 209] وفي مواضع كثيرة .

والخبير : مبالغة في اسم الفاعل من (خَبَر) المتعدّي ، بمعنى (علم) ، يقال : خبر الأمر ،

إذا علمه وجرّبه .

وقد قيل : إنّه مشتقّ من الخَبر لأنّ الشيء إذا علم أمكن الإخبار به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

(122/228)

قال الفخر :

المشبهة استدلوا بهذه الآية على أنه تعالى موجود في الجهة التي هي فوق العالم وهو مردود

ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه لو كان موجوداً فوق العالم لكان إما أن يكون في الصغر بحيث لا يتميز جانب منه من جانب وإما أن يكون ذاهباً في الأقطار متمدداً في الجهات .

والأول : يقتضي أن يكون في الصغر والحقارة كالجوهر الفرد فلو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكون إله العالم بعض الذرات المخلوطة بالهبات الواقعة في كوة البيت وذلك لا يقوله عاقل ، وإن كان الثاني كان متبعضاً متجزئاً ، وذلك على الله محال .

والثاني : أنه إما أن يكون غير متناه من كل الجوانب فيلزم كونه ذاته مخالطاً للقاذورات وهو

باطل أو يكون متناهياً من كل الجهات وحينئذ يصح عليه الزيادة والنقصان .

وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بمقداره المعين لتخصيص مخصص ، فيكون محدثاً أو يكون متناهياً من بعض الجوانب دون البعض ، فيكون الجانب الموصوف بكونه متناهياً غير الجانب الموصوف بكونه غير متناه وذلك يوجب القسمة والتجزئة .

والثالث : إما أن يفسر المكان بالسطح الحاوي أو بالبعد والخلاء .

فإن كان الأول : فنقول أجسام العالم متناهية فخارج العالم لا خلا ولا ملا ولا مكان ولا حيث ولا جهة ، فيمتنع حصول ذات الله تعالى فيه .

وإن كان الثاني فنقول الخلاء متساوي الأجزاء في حقيقته وإذا كان كذلك ، فلو صحّ حصول الله في جزء من أجزاء ذلك الخلاء لصح حصوله في سائر الأجزاء ، ولو كان كذلك لكان حصوله فيه بتخصيص مخصص ، وكل ما كان واقعاً بالفاعل المختار فهو محدث ، فحصول ذاته في الجزء محدث .

وذاته لا تنفك عن ذلك الحصول وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث ، فيلزم كون ذاته محدثة وهو محال .

والرابع أن البعد والخلاء أمر قابل للقسمة والتجزئة ، وكل ما كان كذلك فهو ممكن لذاته ومفتقر إلى الموجد ويكون موجده موجوداً قبله فيكون ذات الله تعالى قد كانت موجودة قبل وجود الخلاء والجهة والحيث والحيز .

وإذا ثبت هذا : فبعد الحيز والجهة والخلاء وجب أن تبقى ذات الله تعالى كما كانت وإلا فقد وقع التغيير في ذات الله تعالى وذلك محال .

وإذا ثبت هذا وجب القول بكونه منزهاً عن الأحياز والجهات في جميع الأوقات .

والخامس : أنه ثبت أن العالم كرة .

وإذا ثبت هذا فالذي يكون فوق رؤوس أهل الري يكون تحت أقدام قوم آخرين .

وإذا ثبت هذا ، فإما أن يقال : إنه تعالى فوق أقوام بأعيانهم .

أو يقال : إنه تعالى فوق الكل .

والأول : باطل ، لأن كونه فوقاً لبعضهم يوجب كونه تحتاً لآخرين ، وذلك باطل .

والثاني : يوجب كونه تعالى محيطاً بكرة الفلك فيصير حاصل الأمر إلى أن إله العالم هو فلك محيط بجميع الأفلاك وذلك لا يقوله مسلم .

والسادس : هو أن لفظ الفوقية في هذه الآية مسبوق بلفظ وملحوق بلفظ آخر .

أما أنها مسبوقة فلأنها مسبوقة بلفظ القاهر ، والقاهر مشعر بكمال القدرة وتمام المكنة .

وأما أنها ملحوقة بلفظ فلأنها ملحوقة بقوله ﴿ عِبَادِهِ ﴾ وهذا اللفظ مشعر بالمملوكية

والمقدورية ، فوجب حمل تلك الفوقية على فوقية القدرة لا على فوقية الجهة .

فإن قيل : ما ذكرتموه على الضد من قولكم إن قوله ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ دل على كمال القدرة .

فلو حملنا لفظ الفوق على فوقية القدرة لزم التكرار ، فوجب حمله على فوقية المكان والجهة .

قلنا : ليس الأمر كما ذكرتم لأنه قد تكون الذات موصوفة بكونها قاهرة للبعض دون البعض وقوله ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ دل على أن ذلك القهر والقدرة عام في حق الكل .

والسابع : وهو أنه تعالى لما ذكر هذه الآية رداً على من يتخذ غير الله ولياً ، والتقدير : كأنه قال إنه تعالى فوق كل عباده ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غير الله ولياً .

وهذه النتيجة إنما يحسن ترتيبها على تلك الفوقيات كان المراد من تلك الفوقية ، الفوقية بالقدرة والقوة .

(124/228)

أما لو كان المراد منها الفوقية بالجهة فإن ذلك لا يفيد هذا المقصود لأنه لا يلزم من مجرد كونه حاصلاً في جهة فوق أن يكون التعويل عليه في كل الأمور مفيداً وأن يكون الرجوع إليه في كل

المطالب لازماً .

أما إذا حملنا ذلك على فوقية القدرة حسن ترتيب هذه النتيجة عليه فظهر بمجموع ما ذكرنا أن المراد ما ذكرناه ، لا ما ذكره أهل التشبيه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 144 . 145 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ قيل هو استعارة تمثيلية وتصوير لقهره سبحانه وتعالى وعلوه عز شأنه بالغلبة والقدرة ، وجوز أن تكون الاستعارة في الظرف بأن شبه الغلبة بمكان محسوس ، وقيل : إنه كناية عن القهر والعلو بالغلبة والقدرة ، وقيل : إن ﴿ فَوْقَ ﴾ زائدة وصحح زيادتها وإن كانت اسماً كونها بمعنى على وهو كما ترى ، والداعي إلى التزام ذلك كله أن ظاهر الآية يقتضي القول بالجهة والله تعالى منزه عنها لأنها محدثة بإحداث العالم وإخراجه من العدم إلى الوجود ، ويلزم أيضاً من كونه سبحانه وتعالى في جهة مفاسد لا تخفى ، وأنت تعلم أن مذهب السلف إثبات الفوقية لله تعالى كما نص عليه الإمام الطحاوي وغيره ، واستدلوا لذلك بنحو ألف دليل ، وقد روى الإمام أحمد في حديث الأوعال عن العباس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " والعرش فوق ذلك والله تعالى فوق ذلك كله " وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي استشفع بالله تعالى عليه :

" ويحك أتدري ما الله تعالى ؟ إن الله تعالى فوق عرشه وعرشه فوق سماواته وقال بأصابعه مثل القبة وأنه ليئط به أطيط الرحل الجديد بالراكب " 2 .

(125/228)

وأخرج الأموي في "مغازيه" من حديث صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسعد يوم حكم في بني قريظة : " لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات " وروى ابن ماجه يرفعه قال : " بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا إليه رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال : يا أهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [ياس : 58] فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إل شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه " .

وصح أن عبد الله بن رواحة أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياته التي عرض بها عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته وهي :

شهدت بأن وعد الله حق . . .

وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف . . .

وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد . . .

ملائكة الإله مسومينا

فأقره عليه الصلاة والسلام على ما قال وضحك منه ، وكذا أنشد حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه قوله :

شهدت بإذن الله أن محمدا . . .

رسول الذي فوق السموات من عل

وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما . . .

له عمل من ربه متقبل وأن الذي

عادى اليهود ابن مريم . . .

رسول أتى من عند ذي العرش مرسل

وأن أخا الأحقاف إذ قام فيهم . . .

يقوم بذات الله فيهم ويعدل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وأنا أشهد .

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيمانهم وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ [الأعراف : 17] أنه

قال : لم يستطع أن يقول ومن فوقهم لأنه قد علم أن الله تعالى سبحانه من فوقهم ، والآيات والأخبار التي فيها التصريح بما يدل على الفوقية كقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ [الزمر : 1] .

(126/228)

و﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] و﴿ بَل رَّفَعَهُ الله ﴾ [النساء : 158] إليه .

و﴿ تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : 4] وقوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مسلم : " وأنت الظاهر فليس فوقك شيء " كثيرة جداً ، وكذا كلام السلف في ذلك فمنه ما روى شيخ الإسلام أبو إسمعيل الأنصاري في كتابه "الفاروق" بسنده إلى أبي مطيع البلخي أنه سأل أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه عمن قال : لا أعرف ربي سبحانه في السماء أم في الأرض فقال : قد كفر لأن الله تعالى يقول : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] وعرشه فوق سبع سموات فقال : قلت فإن قال إنه على العرش ولكن لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ؟ فقال رضي الله تعالى عنه هو كافر لأنه أنكر آية في السماء

ومن أنكر آية في السماء فقد كفر ، وزاد غيره لأن الله تعالى في أعلى عليين وهو يدعى من أعلى لا من أسفل .

(127/228)

وأيد القول بالفوقية أيضاً بأن الله تعالى لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى عن ذلك فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد فتعين أنه خلقهم خارجاً عن ذاته ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفاً بضد ذلك لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده وضد الفوقية السفول وهو مذموم على الإطلاق ، والقول بأنا لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها مدفوع بأنه سبحانه لو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها فمتى سلم بأنه جل شأنه ذات قائم بنفسه غير مخالط للعالم وأنه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنياً فقط بل وجوده خارج الأذهان قطعاً وقد علم كل العقلاء بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو إما داخل العالم وإما خارج عنه وإنكار ذلك إنكار ما هو أجلى البديهيات فلا يستدل بدليل على ذلك إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه وأوضح ، وإذا كان صفة الفوقية صفة كمال لا نقص فيها ولا يوجب

القول بها مخالفة كتاب ولا سنة ولا إجماع كان نفيها عين الباطل لا سيما والطباع مفطورة على قصد جهة العلو عند التضرع إلى الله تعالى .

(128/228)

وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس إمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول : كان الله تعالى ولا عرش وهو الآن على ما كان فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا فإنه ما قال عارف قط يا الله إلا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة فكيف تدفع هذه الضرورة عن أنفسنا قال : فلطم الإمام على رأسه ونزل وأظنه قال وبكى وقال حيرني الهمداني ، وبعضهم تكلف الجواب عن هذا بأن هذا التوجه إلى فوق إنما هو لكون السماء قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة ، ثم هو أيضاً منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه سبحانه ليس في جهة الأرض ، ولا يخفى أن هذا باطل ، أما أولاً : فلأن السماء قبلة للدعاء لم يقله أحد من سلف الأمة ولا أنزل الله تعالى به من سلطان والذي صح أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة فقد صرحوا بأنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة .

وقد استقبل النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة في دعائه في مواطن كثيرة فمن قال : إن

للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين .

وأما ثانياً : فلأن القبلة ما يستقبله الداعي بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة وما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه مثلاً لا يسمى قبلة أصلاً فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها ولم يثبت ذلك في شرع أصلاً ، وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل لا أن يميل إليه إذ هو تحته بل هذا لا يخطر في قلب ساجد .

نعم سمع عن بشر المريسي أنه يقول : سبحان ربي الأسفل تعالى الله سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علواً كبيراً .

وتأول بعضهم كل نص فيه نسبة الفوقية إليه تعالى بأن فوق فيه بمعنى خير وأفضل كما يقال : الأمير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم .

(129/228)

وأنت تعلم أن هذا مما تنفر منه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة فإن قول القائل ابتداء : الله تعالى خير من عباده أو خير من عرشه من جنس قوله الثلج بارد والنار حارة والشمس أضوأ من السراج والسماء أعلى من سقف الدار ونحو ذلك وليس في ذلك

أيضاً تمجيد ولا تعظيم لله تعالى بل هو من أرذل الكلام فكيف يليق حمل الكلام المجيد عليه وهو الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، على أن في ذلك تنقيضاً لله تعالى شأنه ففي "المثل السائر :

ألم تر أن السيف ينقص قدره . . .

إذا قيل إن السيف خير من العصا

نعم إذا كان المقام يقتضي ذلك بأن كان احتجاجاً على مبطل كما في قول يوسف الصديق عليه السلام ﴿ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار مَا ﴾ [يوسف : 39] وقوله تعالى : ﴿ الله خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 59] ﴿ والله خَيْرٌ وأبقى ﴾ [طه : 73] فهو أمر لا اعتراض عليه ولا توجه سهام الطعن إليه ، والفوقية بمعنى الفوقية في الفضل مما يثبتها السلف لله تعالى أيضاً وهي متحققة في ضمن الفوقية المطلقة ، وكذا يثبتون فوقية القهر والغلبة كما يثبتون فوقية الذات ويؤمنون بجميع ذلك على الوجه اللائق بجلال ذاته وكمال صفاته سبحانه وتعالى منزهين له سبحانه عما يلزم ذلك مما يستحيل عليه جل شأنه ولا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ولا يعدلون عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً لئلا يثبتوا معنى فاسداً أو ينفوا معنى صحيحاً فهم يثبتون الفوقية كما أثبتها الله تعالى لنفسه .

(130/228)

وأما لفظ الجهة فقد يراد به ما هو موجود وقد يراد به ما هو معدوم ؛ ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً والله تعالى لا يحصره شيء ولا يحيط به شيء من المخلوقات تعالى عن ذلك وإن أريد بالجهة أمر عدمي وهو ما فوق العالم فليس هناك إلا الله تعالى وحده فإذا قيل : إنه تعالى في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح عندهم ، ومعنى ذلك أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات ، ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلوم يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلها مخلوقة وأنه سبحانه كان قبل الجهات وأنه من قال : إنه تعالى في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم وأنه جل شأنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها .

وهذه الألفاظ ونحوها تنزل على أنه عز اسمه ليس في شيء من المخلوقات سواء سمي جهة أم لم يسم وهو كلام حق ولكن الجهة ليست أمراً وجودياً بل هي أمر اعتباري ولا محذور في ذلك ، وبالجملة يجب تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين وتفويض علم ما جاء من المتشابهات إليه عز شأنه والإيمان بها على الوجه الذي جاءت عليه .

والتأويل القريب إلى الذهن الشائع نظيره في كلام العرب مما لا بأس به عندي على أن بعض الآيات مما أجمع على تأويلها السلف والخلف والله تعالى أعلم بمراده .

﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ أي ذو الحكمة البالغة وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه والإتيان

بالأفعال على ما ينبغي أو المبالغ في الأحكام وهو اتقان التدبير وإحسان التقدير ﴿ الخبير ﴾ أي العالم بما دق من أحوال العباد وخفي من أمورهم .

واللام هنا وفيما تقدم للقصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(131/228)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18) ﴾

وقد رتب سبحانه وتعالى الكون والخلْق بأسباب ومسببات . وكل شيء موجود هو واسطة بين شيء وشيء ، فالأرض واسطة لاستقبال النبات ، والإنسان واسطة بين أبيه وابنه ، ولنفهم جميعاً أَنَّ الحقَ ، فوق عباده ، إنه غالب بقدرته ، يدير الكون بحكمة وإحاطة علم ، وهو خبير بكل ما خفي وعليهم بكل ما ظهر .

وهو القائل : ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : 65] .

سبحانه وتعالى له مطلق القدرة على أن يرسل العذاب من السماء أو من بطن الأرض ، أو أن يجعل بين العباد العداء ليكونوا متناحرين ليدفع بعضهم بعضا حتى لا تفسد الأرض ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين يملّك بعض الخلق أسباباً أنهم مالكو الأسباب فعلاً ، لا ؛ إن الحق سبحانه أراد بذلك ترتيب الأعمال في الكون . ولذلك ساعة نرى واحداً يظلم في الكون فإننا نجد ظالماً آخر هو الذي يؤدب الظالم الأول . ولا يؤدب الحق الشرير على يد رجل طيب ، إنما يؤدبه عن طريق شرير مثله : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : 129] .

(132/228)

لأنه سبحانه وتعالى يُجل المظلوم من أهل التقوى أن يكون له دور في تأديب الظالم ، إنما ينتقم الله من الظالم بظالم أو أقوى منه . وهذا ما نراه على مدار التاريخ القريب والبعيد ، فحين يتمكن العبد الصالح من الذين أساءوا إليه يقول ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة حيث قال : " يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء " .

أما إذا أراد الله الانتقام من شرير فهو يرسل عليه شريراً مثله يدق عنقه ، أو يجدع أنفه ، أو يذله حتى لا ينتشر ويستشري الفساد ؛ فسبحانه القاهر فوق عباده ، وهو قهر بحكمة وبعلم وليس قهر استعلاء وقهر جبروت وسيطرة . وحتى نوضح ذلك قد يجري الله على أحد عباده قَدَرًا بأن ينكسر ذراع ولده فيسوق الرجل ولده إلى طبيب غير مجرب ليقيم جبيرة لذراع الابن ، وتلتئم العظام على ضوء هذه الجبيرة في غير مكانها ، فيذهب الرجل بابنه إلى طبيب ماهر فيكسر يد الطفل مرة أخرى ليعيد وضع العظام في مكانها الصحيح .

إن هذا الكسر كان لحكمة وهي استواء العظام ووضعها الوضع السليم . ولا يغيظ عبد من العباد الخالق أبداً ، ولكن الحق ينتصف للمغيظ . ونعلم أن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر ، فإن كفر وعصى فليس له في الآخرة إلا العذاب ، إلا أن الله يجري عليه قَدَر المرض فلا يستطيع أن يتمرد عليه ؛ لأنه سبحانه قاهر فوق عباده بدليل أنه متحكم في أشياء لا خيار للعباد فيها . وما دام الإنسان منا محكوماً بقوسين ولا رأي له في ميلاده أو موته فلماذا – إذن – التمرد بالعصيان على أوامر الله ؟ ولنعلم أن الحق هو القاهر فوق عباده بقهر الحكمة وسبحانه يضع لكل أمر المجال الذي يناسبه وهو خبير بمواطن الداءات ، ويعالج عباده منها على وفق ما يراه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فصل

قال السعدى فى الآيات السابقة :

اعلم أن هذه السورة الكريمة ، قد اشتملت على تقرير التوحيد ، بكل دليل عقلي ونقلي ، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله .

فهذه الآيات ، ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى ، وينقمع به الشرك . فذكر أن ﴿ لَهُ ﴾ تعالى ﴿ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وذلك هو المخلوقات كلها ، من آدميها ، وجِنِّها ، وملائكتها ، وحيواناتها وجماداتها ، فالكل خلق مدبرون ، وعبيد مسخرون لربهم العظيم ، القاهر المالك ، فهل يصح في عقل ونقل ، أن يعبد مِن هؤلاء المماليك ، الذي لا نفع عنده ولا ضر ؟ ويترك الإخلاص للخالق ، المدبر المالك ، الضار النافع ؟ ! أم العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، تدعو إلى إخلاص العبادة ، والحب ، والخوف ، والرجاء لله رب العالمين ؟ ! .

﴿ السَّمِيعُ ﴾ لجميع الأصوات ، على اختلاف اللغات ، بتفنن الحاجات . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، المطلع على الظواهر والبواطن ؟ ! .

﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المشركين بالله: ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة

يتولاني ، وينصرني ؟ ! .

فلا أتخذ من دونه تعالى وليا ، لأنه فاطر السماوات والأرض ، أي: خالقهما ومدبرهما .

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ أي: وهو الرزاق لجميع الخلق ، من غير حاجة منه تعالى إليهم ، فكيف يليق أن أتخذ وليا غير الخالق الرزاق ، الغني الحميد ؟" ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ لله بالتوحيد ، وانقاد له بالطاعة ، لأني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: ونهيت أيضا ، عن أن أكون من المشركين ، لا في اعتقادهم ، ولا في مجالستهم ، ولا في الاجتماع بهم ، فهذا أفرض الفروض عليَّ ، وأوجب الواجبات .

(134/228)

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار ، وسخط الجبار . وذلك اليوم هو اليوم الذي يُخاف عذابه ، ويُحذر عقابه ؛ لأنه مَن صُرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم ، ومن نجا فيه فهو الفائز حقا ، كما أن من لم ينجمنه فهو الهالك الشقي .

ومن أدلة توحيده ، أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء ، وجلب الخير والسراء . ولهذا قال: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ من فقر ، أو مرض ، أو عسر ، أو غم ، أوهم أو نحوه . ﴿ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإذا كان وحده النافع الضار ، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ فلا يتصرف منهم متصرف ، ولا يتحرك متحرك ، ولا يسكن ساكن ، إلا بمشيئته ، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه ، بل هم مدبرون مقهورون ، فإذا كان هو القاهر وغيره مقهورا ، كان هو المستحق للعبادة .

﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فيما أمر به ونهى ، وأثاب ، وعاقب ، وفيما خلق وقدر . ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور ، وهذا كله من أدلة التوحيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 252 ﴾

(135/228)

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى

البَلاَغَة : 1 - ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ الصيغة تفيد القصر أي لا يستحق الحمد والثناء إلا الله

رب العالمين .

2 - ﴿ الظلمات والنور ﴾ فيه من المحسنات البديعية الطباق .

3 - ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ فيه استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته ووضع الرب ﴿ رَبِّهِم ﴾ موضع الضمير لزيادة التشنيع والتقبيح .

4 - ﴿ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ بينهما طباق .

5 - ﴿ مِّن قَرْنٍ ﴾ أي أهل قرن فهو مجاز مرسل .

6 - ﴿ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً ﴾ أي المطر عبَّر عنه بالسماء لأنه ينزل من السماء فهو مجاز أيضاً .

7 - ﴿ استهزىء بِرُسُلٍ ﴾ تنكير رسل للتفخيم والتكثير .

8 - ﴿ السميع العليم ﴾ من صيغ المبالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 382 ﴾

(136/228)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فوق " فيه أوجه :

أظهرها : أنه مَنْصُوبٌ باسم الفاعل قَبْلَهُ ، والفوقيَّةُ هنا عبارةٌ عن الاسْتِعْلاءِ والغَلَبَة .

أحدهما : أنه قاهرٌ .

والثاني : أنه فوق عباده بالغَلَبَةِ .

والثالث : أنه بَدَلٌ من الخبر .

والرابع : أنه منصوبٌ على الحال من الضمير في " القاهرة " كأنهُ قيل : وهو القاهرُ مُسْتَعْلِياً أو غالباً ، ذكره المهدوي وأبو البقاء .

الخامس : أنها زائدةٌ ، والتقديرُ : وهو القَاهِرُ عِبَادَهُ .

ومثله : ﴿ فاضربوا فَوْقَ الأعناق ﴾ [الأنفال : 12] وهذا مردود ؛ لأن الأسماء لا تزاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 63.64 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18) ﴾

عَلَتْ رُتبةُ الأحدية صفةَ البشرية ، فهذا لم يزل لم يكن فحصل . ومتى يكون بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التوحيد ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 464 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم بصفتي الحكمة والخبرة ، كان كأنه قيل : فلم لم يعلم أنا نكذبك بخبرته فيرسل معك بحكمته من يشهد لك – على ما يقول من أنه أمرك أن تكون أول من أسلم ، ونهاك عن الشرك لنصدقك – من ملك كما تقدم سؤالنا لك فيه أو كتاب في قرطاس أو غيرهما ؟ فقال : قد فعل ، ولم يرض لي إلا بشهادته المقدسة فقال – أو يقال : إنه لما أقام الأدلة على الوحدانية والقدرة ووصل إلى صفة القهر المؤذن بالانتقام ، لم يبق إلا الإشهاد عليهم إيذاناً بما يستحقونه من سوء العذاب وإنذاراً به لئلا يقولوا إذا حل بهم : إنه لم يأتنا نذير ، فقال : ﴿ قل ﴾ أي يا أيها الرسول لهم ﴿ أي شيء أكبر ﴾ أي أعظم وأجل ﴿ شهادة ﴾ فإن أنصفوا وقالوا : الله ! فقل : هو الذي يشهد لي ، كما قال في النساء " لكن الله يشهد بما أنزل

إليك " ولكنه قطع الكلام هنا إشارة إلى عنادهم أو سكوتهم ، أو إلى تنزيلهم منزلة المعاند ، أو العالم بالشيء العامل عمل الجاهل ، فقال آمراً له صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط علماً وقدرة أكبر شهادة .

(138/228)

ولما كانوا بمعرض أن يسلموا ذلك ويقولوا : إنه لَكذلك ، ولكن هلم شهادته ! قال : ﴿ شهيد ﴾ أي هو أبلغ شاهد يشهد ﴿ بيني وبينكم ﴾ أي بهذا القرآن الذي ثبت بعجزكم عنه أنه كلامه ، وبغيره من الآيات التي عجزتم عن معارضتها ؛ ولما قرر أنه أعظم شهيد ، وأشار إلى شهادته بالآيات كلها ، نبه على أعظمها ، لأن إظهاره تعالى للقرآن على لسانه صلى الله عليه وسلم على وفق دعواه شهادة من الله له بالصدق ، فقال ذاكراً لفائدته في سياق تهديد متكفل بغثبات الرسالة وإثبات الوحدانية ، وقدم الأول لأنه المقرر للثاني والمفهم له بغايته ، عاطفاً على جملة " شهيد " بانياً للمفعول ، تنبيهاً على أن الفاعل معروف للإعجاز ، وبني للفاعل في السواد : ﴿ وأوحي إلي ﴾ وحقق الموحى به وشخّصه بقوله : ﴿ هذا القرآن ﴾ ولما كان في سياق التهديد قال مقتصراً على ما يلائمه : ﴿ لأنذركم ﴾ أي أخوفكم وأحذركم من اعتقاد شائبة نقص في الإله لا سيما الشرك ﴿ به ومن ﴾ أي

وأنذر به كل من ﴿ بلغ ﴾ أي بلغه ، قال الفراء : والعرب تضمر الهاء في صلات " الذي " و" من " و" ما " .

وقال البخاري في آخر الصحيح : ﴿ لأنذركم به ﴾ يعني أهل مكة ، ومن بلغ هذا القرآن فهو له نذير علقه بصيغة الجزم عن ابن عباس ووصله إليه ابن أبي حاتم كما أفاده شيخنا في شرحه .

وقال عبد الرزاق في تفسيره : أخبرنا معمر عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله .

(139/228)

وقال الإمام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي في جواب سؤال ورد عليه سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة في أن النبي صلى الله عليه وسلم هل بعث إلى الجن – ومن خطه نقلتُ : الكتاب والسنة ناطقان بذلك ، والإجماع قائم عليه ، لا خلاف بين المسلمين فيه ؛ ثم أسند الإجماع إلى أبي طالب القضاعي وأبي عمر بن عبد البر في التمهيد وأبي محمد بن حزم في كتاب الفِصَل وغيرهم ثم قال : أما الكتاب فآيات إحداها ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ قال محمد بن كعب القرظي : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن

عباس – فذكره ، وقال السدي : من بلغ القرآن فهو له نذير ، وقال ابن زيد : من بلغه هذا القرآن فأنا نذيره .

وهذه كلها أقوال متفقة المعنى ، وقد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا الكلام وأن ينذر بالقرآن كل من بلغه ، ولم يخص إنساً ولا جناً من أهل التكليف ، ولا خلاف أن الجن مكلفون – انتهى .

وسيأتي مما ذكر من الآيات وغيرها ما يليق بالاستدلال على الإرسال إلى الملائكة عليهم السلام ، فالمعنى : فمن صدق هذا القرآن فقد أفلح ، ومن كذب فليأت بسورة من مثله ، ثم عجزه شاهد على نفسه بالكذب ، وهو شهادة الله لي بالصدق ، ولأجل أن الله هو الشاهد لم تنقض الشهادة بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، بل استمرت على مرّ الأيام وكرّ الأعوام لبقاء الشاهد وتعاليه عن شوائب النقص وسمات الحدث ، وإلى ذلك الإشارة بقول النبي صلى الله عليه وسلم " ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة " أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(140/228)

ولعل الاقتصار على الإنذار مع ما تقدم إشارة إلى أن أكثر الخلق هالك ، وقد ذكر في نزول هذه الآية أن أهل مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أما وجد الله رسولاً غيرك ؟ ما نرى أحداً يصدقك بما تقول ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس عندهم منك ذكر ، فأرنا من يشهد أنك رسول الله كما تزعم ، فأنزلها الله .

ولما لم يبق لمتعنت شبهة ، ساق فذلكة ذلك وقطب دائرته – وهو لزوم التوحيد الذي جعلت الرسالة مُرَقَّى إليه ، فإذا ثبت في قلب فاضت أنواره بحسب ثباته حتى أنها ربما ملأت الأكوان وعلت على كيوان – مساق استفهام على طريقة الإنكار والتعجيب تعظيماً لشأنه وتفخيماً لمقامه وتنبيهاً لهم على أن يعدوا عن الشرك فقال : أئنكم لتشهدون أن مع الله ﴿ أي الذي حاز جميع العظمة ﴿ آلهة ﴾ .

ولما كانوا لكثرة تعنتهم ربما أطلقوا على أسمائه سبحانه إله كما قالوا حين سمعوه صلى الله عليه وسلم يقول : " يا الله يا رحمن " كما سيأتي إن شاء الله تعالى آخر الحِجْر وآخر سبحان ، صرح بالمقصود على وجه لا يحتمل النزاع فقال : ﴿ أخرى ﴾ ولما كان كأنه قيل : إنهم ليقولون ذلك ، فماذا يقال لهم ؟ قال : ﴿ قل لا أشهد ﴾ أي معكم بشيء مما تقولونه لأنه باطل ، ولو كان حقاً لشهدت به .

ولما كان هذا غير قاطع لطمعهم فيه ، اجتثَّه من أصله وبرمته بقوله : ﴿ قل إنما هو ﴾ أي

الإله ﴿ إله واحد ﴾ وهو الله الذي لا يعجزه شيء وهو يعجز كل شيء ، لأنه واحد لا كفوء له ، فإنكم عجزتم عن الإتيان بسورة من مثل كلامه وأنتم أفصح الناس .

(141/228)

ولما كان معنى هذا البراءة من إنذارهم ، صرح به في قوله مؤكداً في جملة اسمية : ﴿ وإنني بريء مما تشركون ﴾ أي الآن وفي مستقبل الزمان إبعاداً من تطمعهم أن تكون الموافقة بينه وبينهم باتخاذه الأنداد أو شيئاً منها ولياً ، فثبت التوحيد بهذه الآية بأعظم طرق البيان وأبلغ وجوه التأكيد ، ولقد امتثل صلى الله عليه وسلم الأمر بإنذار من يمكن إبلاغه القرآن ، فلما استراح عن حرب قريش وكثير ممن حوله من العرب في عام الحديبية ، وهو سنة ست من الهجرة ، وأعلمه الله تعالى أن ذلك فتح مبين ، أرسل إلى من يليه من ملوك الأمصار في ذلك العام وما بعده ، وكان أكثر عند منصرفه من ذلك الاعتمار يدعوهم إلى جنات وأنهار في دار القرار ، وينذرهم دار البوار ، قال أهل السير : خرج صلى الله عليه وسلم – بعد رجوعه من عمرة الحديبية التي صد عنها – على أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين فقال : " أيها الناس ! إن الله بعثني رحمة وكافة ، وإني أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك الأعاجم " وقال ابن عبد الحكم في فتوح مصر عن عبد الرحمن بن عبد القادر أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قام ذات يوم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال : " أما بعد فإني أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك العجم ، فأدوا عني يرحمكم الله ، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون " وقال ابن عبد الحكم : بنو إسرائيل – على عيسى ابن مريم عليهما السلام ، فقال المهاجرون : يا رسول الله ! والله لا نختلف عليك في شيء أبداً ، فمرنا وابعثنا ، فسألوه : كيف اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام ؟ قال : دعاهم إلى الذي وفي رواية لمثل الذي – دعوتكم إليه ، وقال ابن عبد الحكم : إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام أن ابعث إلى مقدس الأرض ، فبعث الحواريون – فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم ، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل – قال ابن عبد الحكم : وقال : لا أحسن كلام من تبعثني

(142/228)

إليه – فشكا ذلك عيسى عليه السلام إلى الله عز وجل ، فأصبح كل رجل – وقال ابن عبد الحكم : فأوحى الله تعالى إليه أني سأكفيك ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم – يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها .

فقال عيسى عليه السلام : هذا أمر قد عزم الله عليه فامضوا له .

وقال الشيخ مجد الدين الفيروزآبادي في القاموس : إن المكان الذي جمع فيه عيسى عليه السلام الحواريين وأنفذهم إلى النواحي قرية بناحية طبرية تسمى الكرسي .

وقال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن أبي حبيب المصري أنه وجد كتاباً فيه ذكر من بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البلدان وملوك العرب والعجم وما قال لأصحابه حين بعثهم ، قال : فبعث به إلى محمد بن شهاب الزهري فعرفه – فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال :

قال ابن إسحاق : وكان من بعث عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم من الحواريين والأتباع الذين كانوا بعدهم في الأرض بطرس الحواري ومعه بولس – وكان بولس من الأتباع ولم يكن من الحواريين – إلى رومية ، وأندرائس ومنتا إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس ، وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق وقيبليس إلى قرطاجنة ، وهي إفريقية ، ويحنس إلى أقسوس قرية الفتية أصحاب الكهف ، ويعقوبس إلى أوراشلم وهي إيلياء قرية بيت المقدس ، وابن ثلما إلى الأعرابية ، وهي أرض الحجاز ، وسيمن إلى أرض البربر ، ويهودا ولم يكن من الحواريين ، جُعل مكان يودس – انتهى .

كذا رأيت في نسخة معتمدة مقابلة من تهذيب السيرة لابن هشام ، وكذا في مختصرها للإمام جمال الدين محمد بن المكرم الأنصاري عدد رسله وأسمائهم ، وفي آخرهم : قوله : مكان يودس ، ولم يتقدم ليودس ذكر ، والذي حررته أنا من الأناجيل التي بأيدي النصارى غير هذا ، ولعله أصح ، وقد جمعت ما تفرق من ألفاظها ،

قال في إنجيل متى ما نصه – ومعظم السياق له : ودعا يعني عيسى عليه السلام – تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على جميع الأرواح النجسة لكي يخرجوها ويشفوا كل الأمراض ؛ وفي أنجيل مرقس : وصعد إلى الجبل ودعا الذين أحبهم فأتوا إليه ، وانتخب اثني عشر ليكونوا معه ولكي يرسلهم ليكرزوا ، وأعطاهم سلطاناً على شفاء الأمراض وإخراج الشياطين ، وفي إنجيل لوقا : وكان في تلك الأيام خرج إلى الجبل يصلي ، وكان ساهراً في صلاة الله ، فلما كان النهار دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر ؛ وقال في موضع آخر : ودعا الاثني عشر الرسل وأعطاهم قوة وسلطاناً على جميع الشياطين وشفاء المرضى ، وأرسلهم يكرزون بملكوت الله ويشفون الأوجاع ؛ وهذه أسماء الاثني عشر الرسل : سمعان المسمى بطرس – ونسبه في موضع من إنجيل متى : ابن يونا – وأندراوس أخوه ، ويعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه قال في إنجيل مرقس : وسماهما باسمي بوانرجس اللذين ابنا الرعد – وفيلبس وبرثولوماوس ، وتوما ومتى الشعار ، ويعقوب بن حلفي ، ولباوس الذي يدعى تداوس ، وجعل في إنجيل مرقس بدل هذا : تدى ، وفي إنجيل لوقا بدلهما : يهوذا بن يعقوب ، ثم اتفقوا : وسمعان القاناني ، وقال في إنجيل لوقا : المدعو الغيور

، ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه – أي دل عليه في الليلة التي ادعى اليهود القبض عليه فيها – هؤلاء الاثنا عشر الرسل الذين أرسلهم يسوع – وفي إنجيل مرقس : ودعا الاثني عشر وجعل يرسلهم اثنين اثنين ، وأعطاهم السلطان على الأرواح النجسة – قائلاً : لا تسلكوا طريق الأمم ، ولا تدخلوا مدينة السامرة ، وانطلقوا خاصة إلى الخراف التي ضلت من بيت إسرائيل ، وإذا ذهبتم فاكرزوا وقولوا : قد اقتربت ملكوت السماوات ، اشفوا المرضى ، أقيموا الموتى ، طهروا البرص ، أخرجوا الشياطين ، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تكنزوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا هميانا ً في الطريق ولا ثوبين ولا حذاء ولا عصى ،

(144/228)

والفاعل مستحق طعامه ، وفي إنجيل مرقس : وأمرهم أن لا يأخذوا في الطريق غير عصى فقط ولا هميانا ً ولا خبزاً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقهم إلا نعالاً في أرجلهم ولا يلبسوا قميصين ؛ وفي إنجيل لوقا : وقال لهم : لا تحملوا في الطريق شيئاً ، لا عصى ولا هميانا ً ولا خبزاً ولا فضة ، ولا يكون لكم ثوبان ، وأي مدينة أو قرية دخلتموها فحصوا فيها عمن يستحقكم ، وكونوا هناك حتى تخرجوا ، فإذا دخلتم إلى البيت فسلموا عليه ، فإن كان

البيت مستحقاً لسلامكم فهو يحل عليه ، وإن كان لا يستحق فسلامكم راجع إليكم ، ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فإذا خرجتم من ذلك البيت وتلك القرية أو تلك المدينة انفضوا غبار أرجلكم ؛ وفي إنجيل مرقس : وقال لهم : أي بيت دخلتموه أقيموا فيه إلى أن تخرجوا منه ، وأي موضع لم يقبلكم ولم يسمع منكم فإذا خرجتم من هناك فانفضوا الغبار الذي تحت أرجلكم للشهادة عليهم ، الحق أقول لكم ! إن الأرض سدوم وعامورا راحة في يوم الدين أكثر من تلك المدينة ، هوذا أنا مرسلكم كالخراف بين الذئاب ، كونوا حكماء كالحية وودعاء كالحمام ، احذروا من الناس ، فإنهم يسلمونكم إلى المحافل ، وفي مجامعهم يضربونكم ، ويقدمونكم إلى القواد والملوك من أجلى شهادة لهم وللأمم – وفي إنجيل مرقس : شهادة عليهم وعلى كل الأمم ، ينبغي أولاً أن يكرزوا بالإنجيل – فإذا أسلموكم فلا تهتموا بما تقولون – وفي إنجيل مرقس : ولا ماذا تجيبون – فإنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به ، ولستم أنتم المتكلمين لكن روح أبيكم – وفي إنجيل مرقس : لكن روح القدس يتكلم فيم – وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ابنه ، ويقوم الأبناء على آبائهم فيقتلونهم ، وتكونون مبغوضين من الكل من أجل اسمي ، والذي يصبر إلى المنتهى يخلص ، فإذا طردوكم من هذه المدينة اهربوا إلى أخرى ، الحق الحق أقول لكم ! إنكم لا تكلمون مدائن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان ، ليس تلميذ أفضل من معلمه ، ولا

عبد أفضل من سيده ، وحسب التلميذ أن يكون مثل معلمه والعبد مثل سيده ، إن كانوا سموا رب البيت باعل زبول فكم بالحري أهل بيته ! فلا تخافوهم ، فليس خفي إلا سيظهر ولا مكتوم إلا سيعلم ، الذي أقول لكم في الظلمة قولوه أنتم في النور ، وما سمعتموه بآذانكم فاكرزوا به على السطوح ، ولا تخافوا ممن يقتل الجسد ولا يستطيع أن يقتل النفس ، خافوا ممن يقدر أن يهلك النفس والجسد جميعاً في جهنم ، أليس عصفوران يباعان بفلس ، وواحد منهما لا يسقط على الأرض دون إرادة أبيكم ، وأنتم فشعور رؤوسكم كلها محصاة ، فلا تخافوا ، فإنكم أفضل من عصافير كثيرة ، لا تظنوا أني جئت لألقي على الأرض سلامة ، لكن سيفاً ، أتيت لأفرق الإنسان من أبيه والابنة من أمها ، والعروس من حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته ، من أحب أباً أو أماً أكثر مني فما يستحقني ، ومن وجد نفسه فليهلكها ، ومن أهلك نفسه من أجلي وجدها ، ومن قبلكم فقد قبلني ، ومن قبلني فهو يقبل الذي أرسلني ، ومن يقبل نبياً باسم نبي فأجر نبي يأخذ ، ومن يأخذ صديقاً باسم صديق فأجر صديق يأخذ ، ومن سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ – الحق أقول لكم – إن أجره لا يضيع ، ولما أكمل يسوع أمره لتلاميذه الاثني عشر ، انتقل من هناك ليعلم ويكرز في مدنهم ؛ وفي إنجيل مرقس : فلما خرجوا – يعني الرسل – كرزوا بالتوبة وأخرجوا شياطين كثيرة ومرضى عديدة يدهنونهم بالزيت فيشفون ؛ وفي

إنجيل لوقا : ومن بعد هذا أيضاً ميز الرب سبعين آخرين ويرسلهم اثنين اثنين قدام وجهه إلى كل مدينة وموضع أزمَعَ أن يأتيه ، وقال لهم : إن الحصاد كثير والفعلة قليلون ، أطلبوا من رب الحصاد ليخرج فعلة لحصاده ؛ وفي إنجيل متى ما ظاهره أن هذا الكلام كان للاثني عشر ، فإنه قال قبل ذكر عددهم : فلما رأى الجمع تحنن عليهم لأنهم كانوا ضالين ومطرحين كالخراف التي ليس لها راع ، حينئذ قال لتلاميذه الاثني عشر – إلى آخر ما ذكرته عنه

(146/228)

أولاً ، فيجمع بأنه قاله للفريقين – رجع إلى السياق الأول : اذهبوا ، وهو ذا أرسلكم كالخراف بين الذئاب ، لا تحملوا هميانا ولا حذاء ولا مزوداً ولا تقبلوا أحداً في الطريق ، وأي بيت دخلتموه فقولوا أولاً : سلام لأهل هذا البيت ، فإن كان هناك ابن سلامكم فإن سلامكم يحل عليه ، وإلا فسلامكم راجع إليكم ، وكونوا في ذلك البيت ، كلوا واشربوا من عندهم ، فإن الفاعل مستحق أجرته ، ولا تنتقلوا من بيت إلى بيت ، وأي مدينة دخلتموها ويقبلكم أهلها فكلوا مما يقدم لكم ، واشفوا المرضى الذين فيها ، وقولوا لهم : قد قربت ملكوت الله ، وأي مدينة دخلتموها ولا يقبلكم أهلها فاخرجوا من شوارعها وقولوا لهم : نحن ننفض لكم الغبار الذي لصق بأرجلنا من مدينتكم ، لكن اعلموا أن ملكوت الله

قد قربت ، أقول لكم : إن سدوم في ذلك اليوم لها راحة أكثر من تلك المدينة ، الويل لك يا كورزين ! والويل لك يا بيت صيدا ! لأنه لو كان في صور وصيدا القوات التي كنّ فيكما جلسوا وتابوا بالمسوح والرماد ، وأما صور وصيدا فلهما راحة في الدينونة أكثر منكم ، وأنت يا كفرناحوم لو أنك ارتفعت إلى السماء سوف تهبطين إلى الجحيم ، من سمع منكم فقد سمع مني ، ومن جحدكم فقد جحدني ، ومن جحدني فقد شتم الذي أرسلني ؛ فرجع السبعون بفرح قائلين : يا رب ! الشياطين باسمك تخضع لنا يا رب فقال لهم : قد رأيت الشيطان سقط من السماء مثل البرق ، وهو ذا قد أعطيتكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ، ولا يضركم شيء ، ولكن لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم ، افرحوا لأن أسماءكم مكتوبة في السماوات ، وفي تلك الساعة تهلل يسوع بالروح ، والتفت إلى تلاميذه خاصة وقال : طوبى للأعين التي ترى ما رأيتم ! أقول لكم : إن أنبياء كثيرين وملوكاً اشتهوا أن ينظروا ما نظرتم فلم ينظروا ، ويسمعوا ما سمعتم فلم يسمعوا ؛ وفي إنجيل متى – بعد ما ادعى اليهود صلبه – أنه ظهر لتلاميذه الأحد عشر – وهم

من تقدم غير يهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه – في الجليل في الجبل الذي أمرهم به يسوع ، وكلمهم قائلاً : أعطيت كل سلطان في السماء وعلى الأرض ، فاذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم ؛ وفي آخر إنجيل مرقس أنه ظهر لهم وهم مجتمعون ، وكانوا في تلك الأيام يبكون وينوحون فبكّتهم لقلة إيمانهم وقسوة قلوبهم وقال لهم : امضوا إلى العالم أجمع ، واكرزوا بالإنجيل في الخليقة كلها ، فمن آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدان ، وهذه الآيات تتبع المؤمنين ، يخرجون الشياطين باسمي ويتكلمون بألسنة جديدة ، ويحملون بأيديهم الحيات ولا تؤذيهم .

(148/228)

ويشربون السم القاتل فلا يضرهم ، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون ، ومن بعد ما كلمهم يسوع ارتفع إلى السماء ، فخرج أولئك يكرزون في كل مكان ؛ وفي إنجيل لوقا : فلما خرجوا كانوا يطوفون في القرى ويبشرون ويشفون في كل موضع وفي آخره بعد أن ذكر تلامذته الأحد عشر وكلاماً كانوا يخوضون فيه بعد ادعاء اليهود لصلبه : وفيما هم يتكلمون وقف يسوع في وسطهم وقال لهم : السلام لكم ، أنا هو ! لا تخافوا ، فاضطربوا وظنوا أنهم ينظرون روحاً فقال : ما بالكم تضطربون ؟ ولِمَ تأتي الأفكار في قلوبكم ؟

انظروا يدي ورجلي فإني أنا هو ! جسّوني وانظروا ، إن الروح ليس له لحم ولا عظم كما ترون أنه لي ؛ ولما قال هذا أراهم يديه ورجليه ، وإذا هم غير مصدقين من الفرح ، قال لهم : أعندكم ههنا ما يؤكل ؟ فأعطوه جزءاً من حوت مشوي ومن شهد عسل ، فأخذ قدامهم وأكل ، وأخذ الباقي وأعطاهم ، وقال لهم : هذا الكلام الذي كلمتكم به إذ كنت معكم ، وأنه سوف يكمل كل شيء هو مكتوب في ناموس موسى والأنبياء والمزامير لأجلي ، وحينئذ فتح أذهانهم ليفهموا ، وقال لهم : اجلسوا أنتم في المدينة يروشليم حتى تتذرعوا لقوة من العلى ، ثم أخرجهم خارجاً إلى بيت عنيا ، فرفع يديه وباركهم ، وكان فيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد إلى السماء أمامهم ، فرجعوا إلى يروشليم بفرح عظيم ، وكانوا في كل حين يسبحون ويباركون الله – انتهى ما نقلته من الأناجيل .

(149/228)

وما كان فيه من لفظ يوهم نقصاً ما فقد تقدم في أول آل عمران أنه لا يجوز في شرعنا إطلاقه على الله تعالى وإن كان صح إطلاقه في شرعهم ، فهو مؤول وقد نسخ ؛ وقال الإمام محيي السنة البغوي في تفسير آل عمران فيما نقله عن وهب : فلما كان بعد سبعة أيام – أي من ادعاء اليهود لصلبه – قال الله تعالى لعيسى عليه السلام : اهبط على مريم المجدلانية في

جبلها ، فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها ، ولم يحزن عليك أحد حزنها ، ثم لتجمع لك الحواريين فتبثهم في الأرض دعاة إلى الله تعالى ، فأهبطه الله تعالى عليها فاشتعل الجبل حين هبط نوراً ، فجمعت له الحواريين فتبثهم في الأرض دعاة ، ثم رفعه الله إليه ، وتلك الليلة هي التي تدخن فيها النصارى ، فلما أصبح الحواريون حدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى عليه السلام إليهم ، فذلك قوله تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [آل عمران : 54] هذا ما ذكر من شأن رسل عيسى عليه السلام أنهم كانوا دعاة ، وأما رسل النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا مبلغين لكتبه صلى الله عليه وسلم ، فمن قبل ذلك كان حظه من الله ، ومن أبى كان جوابه السيف الماحق لدولته – كما ذكرته مستوفى في شرحي لنظمي للسيرة وهو مذكور في فتوح البلاد ؛ ولما بعث صلى الله عليه وسلم رسله اتخذ لأجل مكاتبة الملوك الخاتم ، أخرج أبو يعلى في مسنده عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر – وفي رواية : وأكيدر دومة وإلى كل جبار – يدعوهم إلى الله وأخرج الشيخان في صحيحهما – وهذا لفظ مسلم – عن أنس بن مالك أيضاً رضي الله عنه قال : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى الروم – وفي رواية : إلى العجم – قالوا : إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً ، فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضة كأني أنظر إلى بياضه في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم نقشه " محمد رسول الله " .

فبعث دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه إلى قيصر ملك الروم وأمره أن يوصل الكتاب إلى عظيم بصرى ليوصله إليه ، فعظم كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وقبله وقرأه ووضعه على وسادة وعلم صدقه صلى الله عليه وسلم وأنه سيغلب على ملكه ، فجمع الروم وأمرهم بالإسلام فأبوا ، فخافهم فقال : إنما أردت أن أجربكم ، ثم لم يقدر الله له الإسلام ، فأزال الله حكمه عن الشام وكثير من الروم على يدي أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، ثم عن كثير من الروم أيضاً على يد من بعدهم ، ومكن بها الإسلام ، لكن أثابه الله على تعظيم كتاب النبي صلى الله عليه وسلم بأن أبقى ملكه في أطراف بلاده إلى الآن ، وبلغني أن الكتاب محفوظ عندهم إلى هذا الزمان ؛ وبعث شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني – وقال القضاعي : المنذر بن أبي شمر عامل قيصر على تخوم الشام – ثم إلى جبلة بن الأيهم الغساني ، فأما الحارث أو المنذر فغضب من الكتاب وهمّ بالمسير إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليقاتله ، زعم فنهاه عن ذلك قيصر ، فأكرم شجاعاً ورده وأسلم حاجبه مري الرومي بما عرف من صفة النبي صلى الله عليه وسلم في الإنجيل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " باد ملك الحارث ،

وفاز مري " فقلّ ما لبث الحارث حتى مات ، وولي بعده في مكانه جبلة بن الأيهم الغساني ، وهو آخر ملوك غسان على نواحي الشام ، فرد إليه النبي صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب رضي الله عنه ، فرد على النبي صلى الله عليه وسلم رداً جميلاً ولم يسلم ، واستمر يتربص حتى أسلم في خلافة عمر رضي الله عنه لما رأى من ظهور نور الإسلام وخمود نار الشرك ، ثم إنه ارتد – ولحق ببلاد الروم – في لطمة أريد أن يقتص منه فيها ، فسبحان الفاعل لما يشاء ! وبعث عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه إلى كسرى ملك الفرس ، وأمره أن يدفع الكتاب إلى عظيم البحرين ليوصله إليه ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم بدأ

(151/228)

باسمه الشريف مزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه ، فرجع عبد الله ، فلما سكن غضب الخبيث التمسه فلم يجده فأرسل في طلبه فسبق الطلب ، فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن تمزيق الكتاب ، دعا على كسرى أن يمزق كل ممزق ، فأجاب الله دعوته فشتت شملهم وقطع وصلهم على يد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ثم قتل يزدجرد آخر ملوكهم في خلافة عثمان رضي الله عنه ، فأصبح ملك الأكاسرة كأمس الدابر ، وعم بلادهم

الإسلام وظهرت بها كلمة الإيمان ، بل تجاوز الإسلام ملكهم إلى ما وراء النهر وإلى بلاد الخطا .

وبعث حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية ، فعلم من صدق النبي صلى الله عليه وسلم ما علمه قيصر من الإنجيل ، فأكرم الرسول وأهدى للنبي صلى الله عليه وسلم ورد رداً جميلاً ولم يسلم ، فأباد الله ملكه على يد عمرو بن العاص أمير لعمر رضي الله عنهما .

وبعث عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه إلى النجاشي فآمن رضي الله عنه وقال : أشهد أنه النبي صلى الله عليه وسلم الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل عليهم السلام .

(152/228)

وأن العيان ليس بأشفى من الخبر ، وأهدى للنبي صلى الله عليه وسلم هدايا كثيرة ، وأرسل ابنه بإسلامه في سبعين من الحبشة ، وقال في كتابه : وإني لا أملك إلا نفسي ومن آمن بك من قومي ، وإن أحببت أن آتيك يا رسول الله فعلتُ ؛ فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على النجاشي واستغفر له ؛ وبعث العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه إلى

المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين وإلى أسيحت مرزبان هجر بكتاب يدعوهما فيه إلى الإسلام أو الجزية ، وأرض البحرين من بلاد العرب ، لكن كان الفرس قد غلبوا عليها ، وبها خلق كثير من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم فأسلم المنذر وأسيحت وجميع من هناك من العرب وبعض العجم ، فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على عمله ؛ وبعث سليط بن عمرو العامري رضي الله عنه إلى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة ، وكان عاملاً لقيصر على قومه ، فقرأ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ورد رداً دون رد ، فصادف أن قدم عليه راهب من دمشق ، فأخبره أنه لم يجب إلى الإسلام ، فقال : لم ؟ قال : ضننت بملكي ، قال الراهب : لو تبعته لأقرك والخير لك في اتباعه ، فإنه النبي صلى الله عليه وسلم ، بشر به عيسى عليه السلام ، قال هوذة للراهب : فما لك لا تتبعه ؟ فقال : أجدني أحسده وأحب الخمر ، فكتب هوذة كتاباً وبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم بهدية مكانه ذلك ، وشعر به قومه فأتوه فهددوه ، فرد الرسول واستمر على نصرانيته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع إليه سليط :

" باد هوذة وباد ما في يده " ! فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من فتح مكة جاءه جبرئيل عليه السلام بأن هوذة مات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ يقتل بعدي " ، فكان كذلك كما هو مشهور من أمر مسيلمة الكذاب ، وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي رضي الله عنه إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن ، فلما بلغه رسالة النبي صلى الله عليه وسلم قال الحارث : قد كان هذا النبي عرض نفسه عليّ فخطئت عنه ، وكان ذخراً لمن صار إليه ، وسأنظر ، وتباطأ به الحال إلى أن أسلم عند رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك سنة الوفود ، وكاتب النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ وبعث عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان ، فتوقفا واضطرب رأيهما ، ثم عزم الله لهما على الرشد فقال جيفر : إنه والله قد دلني على هذا النبي صلى الله عليه وسلم الأمي أنه لا يأمر بخير إلاّ كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يفجر ، وأنه يوفى بالعهد وينجز الوعد ، ولا يزال يطع على سر قوم يساوي فيه أهله ، وإني أشهد أنه رسول الله ، وأسلم أخوه أيضاً ، وكتبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامهما ، فقال خيراً وأثنى خيراً ، وكان في سير هؤلاء الرسل لعمري غير ما ذكر أحاديث عجائب وأقاصيص غرائب من دلائل النبوة وأعلام الرسالة ، خشيت من ذكرها الإطالة وأن تمل وإن لم يكن فيها ما يقتضي ملاله ، وقد شفيت في شرحي لنظمي للسيرة

باستيفائها القليل في ترتيب جميل ونظم أسلوبه لعمري جليل ، هؤلاء رسل البشر ، وأما الرسل من الجن فقد روى الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ [الجن : 29] قال : كانوا تسعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلاً إلى قومهم

(154/228)

قال الهيثمي : وفي سنده النضر أبو عمر وهو متروك ، ويؤيد عموم هذه الآية في تناولها الملائكة عليهم السلام قوله تعالى ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان : 1] وإذا تأملت سياق الآيات التي بعدها مع آخر السورة التي قبلها قطعت بذلك ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ [يس : 70] ، ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ [يس : 11] إذ هم من جملة العالمين وممن بلغه القرآن وممن هو حي وممن اتبع الذكر ، والخطاب بالإنذار وارد مورد التغليب ، إذ الإنس والجن أهل له ، فانتفى ما يقال : إن الملائكة في غاية الخوف من الله تعالى مع عصمتهم فليسوا ممن يخوف ، ويزيد ذلك وضوحاً قوله تعالى : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ [الأنبياء : 29] ولا إنذار أعظم من ذلك ، وإن عيسى عليه السلام من هذه الأمة وممن شملته الآيات الدالة على عموم الرسالة بغير شك ، وأن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده ! لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي " أخرجه الإمام أحمد والدارمي والبيهقي في الشعب عن جابر رضي الله عنه ، ومذهب أهل السنة أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة ، وقد ثبتت رسالته إلى الأفضل المعصوم بالفعل لعيسى ، وبالتعليق بالحياة بموسى عليه السلام ، وقد أخذ الله سبحانه ميثاق النبيين كلهم عليهم السلام إن أدركوه ليؤمنن به ، وقد خوطب النبي صلى الله عليه وسلم – وهو أشرف الخلق وأكملهم – بالإنذار في غير آية ، فمهما أول به ذلك في حقه صلى الله عليه وسلم قيل مثله في حقهم عليهم السلام ، ومما يرفع النزاع ويدفع تعلل المتعلل بالإنذار قوله تعالى ﴿ لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ [الأعراف : 2] فخذل مفعول " تنذر " دال على عموم رسالته ، وتعليق الذكرى بالمؤمنين مدخل لهم بلا ريب لأنهم من رؤوسهم – عليهم السلام ، وقوله تعالى ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ [مريم : 97] إلى غيرها من الآيات ، فيكون عموم رسالته لهم زيادة شرف له ، وهو واضح ،

(155/228)

وزيادة شرف لهم بحمل أنفسهم على طاعته والتقيد بما حده لهم من أعمال ملته طاعة لله تعالى زيادة في أجورهم ورفعة درجاتهم ، وذلك مثل ما قال أبو حيان في قوله تعالى ﴿ فخذ

ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ [الأعراف : 144] : إن في الأمر له بذلك مزيد تأكيد وحصول أجر بالامتثال ؛ وقال القاضي عياض في الفصل السابع من الباب الأول من القسم الأول من الشفا في قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ [آل عمران : 81] قال المفسرون : أخذ الله الميثاق بالوحي ، فلم يبعث نبياً إلا ذكر له محمداً ونعته وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به ، وبعضد ذلك ما قال في أول الباب الأول : وحكي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبرئيل عليه السلام : " هل أصابك من هذه الرحمة المذكورة في قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ شيء ؟ قال نعم ! كنت أخشى العاقبة فآمنت لثناء الله عز وجل عليّ بقوله ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ [التكوير : 20 ، 21] " وروى مسلم في كتاب الصلاة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون " وحمل من حمل الخلق على الناس – للرواية التي فيها " إلى الناس " تحكم ، بل العكس أولى لمطابقة الآيات ، وقد خرج من هذا العموم من لا يعقل بالدليل العقلي ، فبقي غيرهم داخلاً في اللفظ ، لا يحل لأحد أن يخرج منه أحداً منهم إلا بنص صريح ودلالة قاطعة ترفع النزاع ، وقال عياض في الباب الثالث من القسم الأول : وذكر البزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لما أراد

الله تعالى أن يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأذان – فذكر المعراج وسماع الأذان من وراء الحجاب ثم قال : ثم أخذ الملك بيد محمد صلى الله عليه وسلم فقدمه ، فأمّ

(156/228)

بأهل السماء فيهم آدم ونوح – انتهى .

وروى عبد الرزاق عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان الرجل بأرض قيّ فحانت الصلاة فليتوضأ ، فإن لم يجد الماء فليتيمم ، فإن أقام صلى معه ملكاه ، وإن أذن وأقام صلى خلفه من جنود الله ما لا يرى طرفاه " قال المنذري : القيّ – بكسر القاف وتشديد الياء ، وهي الأرض القفر .

وروى مالك والستة إلا الترمذي وأبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال الإمام ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فقولوا آمين " –وفي رواية إذا أمن الإمام فأمنوا – فإنه من وافق تأمينه – تأمين الملائكة – وفي رواية : من وافق قوله قول الملائكة – غفر له ما تقدم من ذنبه .

وفي رواية في الصحيح : " إذا قال أحدكم في الصلاة : آمين ، وقالت الملائكة في السماء : آمين ، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم له من ذنبه " وفي رواية لأبي يعلى : إذا قال

الإمام ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال الذين خلفه : آمين ، التقت من أهل السماء وأهل الأرض آمين ، غفر للعبد ما تقدم من ذنبه .

(157/228)

وللشيخين عن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا لك الحمد ، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه " ؛ وفي رواية : فإذا وافق قول أهل السماء قول أهل الأرض غفر له ما تقدم من ذنبه ؛ في أشكال ذلك مما يؤذن بائتمام الملائكة بأئمتنا ، وذلك ظاهر في التقيد بشرعنا ؛ وروى أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاكم – وجزم ابن معين والذهلي بصحته – عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة " وأدل من جميع ما مضى ما روى مالك والشيخان وأبو داود وابن خزيمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في

الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " ؛ وفي رواية : " فإذا قعد الإمام طويت الصحف " ؛ وفي رواية لأحمد عن أبي سعيد : فإذا أذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر طويت الصحف ودخلوا المسجد يستمعون الذكر .

(158/228)

فإن تركهم لكتابة الناس وإقبالهم على الاستماع دليل واضح على الائتمام ، بما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة : أنصت ، والإمام يخطب فقد لغوت " قال الحليمي في الرابع من شعب الإيمان في الجواب عما أورد على قوله : ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء : 87] من أن التخصيص بالإنس والجن لا يمنع قدرة الملائكة على المعارضة ما نصه : وأما الملائكة فلم يتحدوا على ذلك لأن الرسالة إذا لم تكن إليهم لم يكن القرآن حجة عليهم ، فسواء كانوا قادرين على مثله أو عاجزين ، وهم عندنا عاجزون ؛ وقال في الخامس عشر في أن من أنواع تعظيمه الصلاة عليه فأمر الله عباده أن يصلوا عليه ويسلموا ، وقدم قبل ذلك إخبارهم بأن ملائكته يصلون عليه ، فأمر الله عباده لنبيهم بذلك على ما في الصلاة عليه من الفضل إذا كانت الملائكة مع انفكاكهم

عن شريعته تتقرب إلى الله تعالى بالصلاة والتسليم عليه ، ليعلموا أنهم بالصلاة والتسليم عليه أول وأحق – هذا نصه في الموضعين ، ولم يذكر لذلك دليلاً ، ونسب الجلال المحلي في شرحه لجمع الجوامع مثل ذلك إلى البيهقي في الشعب فإنه قال : وصرح الحليمي والبيهقي في الباب الرابع من شعب الإيمان بأنه عليه الصلاة والسلام لم يرسل إلى الملائكة ، وفي الباب الخامس عشر بانفكاكهم من شرعه ، قال : وفي تفسير الإمام الرازي والبرهان النسفي حكاية الإجماع في تفسير الآية الثانية – أي ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان : 1] أنه لم يكن رسولاً إليهم – انتهى .

(159/228)

وهو شهادة نفي كما ترى ، لا ينهض بما ذكرته من النصوص على أن الحليمي لم يقل بذلك إلا لقوله بأن لملائكة أفضل من الأنبياء – كما نقله عنه الإمام فخر الدين في كتاب الأربعين والشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح المقاصد وغيرهما ، ولم يوافقه على ذلك أحد من أهل السنة إلا القاضي ابو بكر الباقلاني ، فكما لم يوافق على الأصل لا يوافق على الفرع ، وأما البيهقي فإنما نقله عن الحليمي وسكوته عليه لا يوجب القطع برضاه ، قال الزركشي في شرح جمع الجوامع : وهي مسألة وقع النزاع فيها بين فقهاء مصر مع فاضل درس عندهم

وقال لهم : الملائكة ما دخلت في دعوته ، فقاموا عليه ، وقد ذكر الإمام فخر الدين في تفسير سورة الفرقان الدخول محتجاً بقوله تعالى ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ : والملائكة داخلون في هذا العموم – انتهى .

(160/228)

وهذا يقدح فيما نقل عنه من نقل الإجماع ، وعلى تقدير صحته ففيه أمور ، أما أولاً فالإجماع لا يرجع إلا إلى أهل الاطلاع على المنقولات من حفاظ الآثار وأقاويل السلف فيه ، وأما ثانياً فإنه نقل يحتمل التصحيح والتضعيف ، لأنه بطرقه احتمال أن يكون نقل عمن لا يعتد به ، أو يكون أخذه عن أحد مذاكرة وأحسن الظن به ، أو حصل له سهو ، ونحو ذلك ، فلا وثوق إلا بعد معرفة المنقول عنه وسند النقل والاعتضاد بما يوجب الثقة ليقاوم هذه الظواهر الكثيرة ، وأما ثالثاً فإنه سيأتي عن الإمام تقي الدين السبكي أن بعض المفسرين قال بالإرسال إلى الملائكة ، وقال الإمام ولي الدين أبو زرعة أحمد ابن الحافظ زين الدين العراقي في شرحه لجمع الجوامع : وأما كونه مبعوثاً إلى الخلق أجمعين فالمراد المكلف منهم ، وهذا يتناول الإنس والجن والملائكة ، فأما الأولان فبالإجماع ، وأما الملائكة فمحل خلاف فأين الإجماع ! هذا على تقدير صحة هذا النقل وأنى لمدعي ذلك به فإني راجعت تفسير

الإمام للآية المذكورة فلم أجد فيه نقل الإجماع ، وإنما قال : ثم قالوا : هذه الآية تدل على أحكام : الأول أن العالم كل ما سوى الله ، فيتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة ، لكنا نبئنا أنه عليه السلام لم يكن رسولاً إلى الملائكة ، فوجب أن ينفى كونه رسولاً إلى الجن والإنس جميعاً ، وبطل قول من قال : إنه كان رسولاً إلى البعض دون البعض ، الثاني أن لفظ ﴿ العالمين ﴾ يتناول جميع المخلوقات ، فتدل الآية على أنه رسول إلى المكلفين إلى يوم القيامة ، فوجب أن يكون خاتم الأنبياء والرسل – هذا لفظه في أكثر النسخ ، وفي بعضها : لكنا أجمعنا – بدل : نبئنا – وهي غير صريحة في إجماع الأمة كما ترى ، ولم يعين الموضع الذي أحال عليه في النسخ الأخرى – فليطلب من مظانه ويتأمل ، وأما النسفي فمختصر له – والله الموفق ؛ ثم رأيت في خطبة كتاب الإصابة في أسماء الصحابة لشيخنا حافظ عصره أبي الفضل بن

(161/228)

حجر في تعريف الصحابي : وقد نقل الإمام فخر الدين في أسرار التنزيل الإجماع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن مرسلاً إلى الملائكة ، ونوزع في هذا النقل ، بل رجح الشيخ تقي الدين السبكي أنه كان مرسلاً إليهم واحتج بأشياء يطول شرحها – انتهى .

والعجب من الرازي في نقل هذا الذي لا يوجد لغيره مع أنه قال في أسرار التنزيل في أواخر الفصل الثاني من الباب الثالث في الاستدلال بخلق الآدمي على وجود الخالق : الوجه الرابع - أي في تكريم بني آدم - أنه جعل أباهم رسولاً إلى الملائكة حيث قال ﴿ أنبئهم بأسمائهم ﴾ [البقرة : 31] وقد تقرر أن كل كرامة كانت لنبي من الأنبياء فلنبينا صلى الله عليه وسلم مثلها أو أعظم منها ، وقال في تفسيره الكبير في ﴿ وعلم آدم الأسماء ﴾ [البقرة : 31] : ولا يبعد أيضاً أن يكون مبعوثاً إلى من يوجه التحذير إليهم من الملائكة ، لأن جميعهم وإن كانوا رسلاً فقد يجوز الإرسال إلى الرسول لبعثة إبراهيم إلى لوط عليهما السلام - انتهى .

(162/228)

وأنت خبير بأمر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء ، والحاصل أن رسالته صلى الله عليه وسلم إليهم صلوات الله عليهم - رتبة فاضلة ودرجة عالية كاملة جائزة له ، لائقة بمنصبه ، مطابقة لما ورد من القواطع لعموم رسالته وشمول دعوته ، وقد دلت على حيازته لها ظواهر الكتاب والسنة مع أنه لا يلزم من إثباتها له إشكال في الدين ولا محذور في الاعتقاد ، فليس لنا التجريء على نفيها إلا بقاطع كما قال إمامنا الشافعي رحمه الله في

كتاب الرسالة في آية الأنعام ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً ﴾ [الأنعام : 145] قال : فاحتملت معنيين : أحدهما أن لا يحرم على طاعم يطعمه أبداً إلا ما استثنى الله عز وجل ، وهذا المعنى الذي إذا وُجه رجل مخاطباً به كان الذي يسبق إليه أنه لا يحرم عليه غير ما سمى الله عز وجل محرماً ، وما كان هكذا فهو الذي يقال له أظهر المعاني وأعمها وأغلبها والذي لو احتملت الآية معاني سواه – كان هو المعنى الذي يلزم أهل العلم القول به إلا أن تأتي سنة للنبي صلى الله عليه وسلم – بأبي هو وأمي – تدل على معنى غيره مما تحتمله الآية ، فنقول : هذا معنى ما أراد الله عزّ وجلّ ، ولا يقال بخاص في كتاب الله ولا سنة إلا بدلالة فيهما أو في واحد منهما ، ولا يقال بخاص حتى تكون الآية تحتمل أن تكون أريد بها ذلك الخاص ، فأما ما لم تكن محتملة له فلا يقال فيها بما لا تحتمل الآية – انتهى .

وشرحه الإمام أبو محمد بن حزم في المحلى فقال : ولا يحل لأحد أن يقول في آية أو في خبر : هذا منسوخ أو مخصوص في بعض ما يقتضيه ظاهر لفظه ، ولا أن لهذا النص تأويلاً غير مقتضى ظاهر لفظه ، ولا أن هذا الحكم غير واجب علينا من حين وروده إلا بنص آخر وارد بأن هذا النص كما ذكر ، أو بإجماع متيقن بأنه كما ذكر ، أو بضرورة حس موجبة أنه كما ذكر ، برهانه :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ [النساء : 64] ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ [إبراهيم : 4] وقال ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ [النور : 63] ، ومن ادعى أن المراد بالنص بعض ما يقتضيه في اللغة العربية ، لا كل ما يقتضيه فقد أسقط بيان النص ، وأسقط وجوب الطاعة له بدعواه الكاذبة ، وليس بعض ما يقتضيه النص بأولى بالاقتصار عليه من سائر ما يقتضيه – انتهى .

وقال أهل الأصول : إن الظاهر ما دل على المعنى دلالة ظنية أي راجحة ، والتأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح ، فإن حمل عليه لدليل فصيح – أو لما نظن دليلاً وليس في الواقع بدليل – فاسد ، أو لا لشيء فلعب لا تأويل ،

قال الإمام الغزالي في كتاب المحبة من الإحياء في الكلام على أن رؤية الله تعالى في الآخرة هل هي بالعين أو بالقلب : والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ، ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلاّ لضرورة – انتهى ، وقال الإمام تقي الدين السبكي في جواب السؤال عن الرسالة إلى الجن الذي تقدم في أول الكلام على هذه الآية أني رأيته بخطه : الآية العاشرة : ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان : 1] قال المفسرون كلهم في تفسيرها : للجن والإنس ، وقال بعضهم : والملائكة .

الثانية عشرة ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ [سبأ : 28] قال المفسرون : معناها : إلا إرسالاً عاماً شاملاً لجميع الناس ، أي ليس بخاص ببعض الناس ، فمقصود الآية نفي الخصوص وإثبات العموم ، ولا مفهوم لها فيما وراء الناس ، بل قوتها في العموم يقتضي عدم الخصوصية فيهم وحينئذ يشمل الجن ، ولو كان مقصود الآية حصر رسالته في الناس لقال : وما أرسلناك إلا إلى الناس ، فإن كلمة " إلا " تدخل على ما يقصد الحصر فيه ، فلما أدخلها على ﴿ كافة ﴾ دل على أنه المقصود بالحصر ، ويبقى قوله ﴿ للناس ﴾ لا مفهوم له ، أما أولاً فلأنه مفهوم قلب وأما ثانياً فلأنه لا يقصد بالكلام ، أما ثالثاً فلأنه قد قيل : إن ﴿ الناس ﴾ يشمل الإنس والجن ، أي على القول بأنه مشتق من النوس ، وهو التحرك ، وهو على هذا شامل للملائكة أيضاً ، وممن صرح من أهل اللغة بأن ﴿ الناس ﴾ يكون من الإنس ومن الجن الإمام أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي في كتابه ديوان الأدب ،

قال السبكي : السابعة عشرة ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [ص : 87] الثامنة عشرة ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾ [يس : 11] ونحوهما كقوله ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ [يس : 70] وكذا قوله ﴿ هدى للمتقين ﴾ ، وأما السنة فأحاديث : الأول حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه " وأرسلت إلى الخلق كافة " ، " إلى الخلق " عام يشمل الجن بلا شك ، ولا يرد على هذا أنه ورد في روايات هذا الحديث من طرق أخرى في صحيح البخاري وغيره " الناس " موضع " الخلق " لأنا نقول : ذلك من رواية جابر ، وهذا من رواية أبي هريرة ؛ فلعلهما حديثان ، وفي رواية الخلق زيادة معنى على الناس ، فيجب الأخذ به إذ لا تعارض بينهما ، ثم جوز أن يكون من روى " الناس " روى بالمعنى فلم يوف به ، قال : وهذا الحديث يؤيد قول من قال : إنه مرسل إلى الملائكة ولا يستنكر هذا ، فقد يكون ليلة الإسراء يسمع من الله كلاماً فبلغه لهم في السماء أو لبعضهم ، وبذلك يصح أنه مرسل إليهم ، ولا يلزم من كونه مرسلاً إليهم من حيث الجملة أن يلزمهم جميعُ الفروع التي تضمنتها شريعته ، فقد يكون مرسلاً إليهم في بعض الأحكام أو في بعض الأشياء التي ليست بأحكام ، أو يكون يحصل لهم بسماع القرآن زيادةُ إيمان ، ولهذا جاء فيمن قرأ سورة الكهف : فنزلت عليه مثل الظلة ، ثم قال في أثناء كلام : بخلاف الملائكة ، لا يلتزم أن هذه التكاليف كلها ثابتة في حقهم إذا قيل بعموم الرسالة لهم ، بل يحتمل ذلك ويحتمل في شيء خاص كما أشرنا إليه فيما قبل – انتهى .

قلت : ولا ينكر اختصاص الأحكام ببعض المرسل إليهم دون بعض في شرع واحد في الأحرار والعبيد والنساء والرجال والحطّابين والرعاء بالنسبة إلى بعض أعمال الحج وغير ذلك مما يكثر تعداده – والله الموفق ؛ ومن تجرأ على نفي الرسالة إليهم من أهل زماننا بغير نص صريح يضطره إليه ، كان ضعيف العقل مضطرب الإيمان مزلزل اليقين سقيم الدين ، ولو كان حاكياً لما قيل على وجه الرضى به ، فما كل ما يُعلَم يقال ، وكفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع ، ولعمري ! إن الأمر لعلى ما قال صاحب البردة وتلقته الأمة بالقبول ، وطرب عليه في المحافل والجموع :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم . . .

واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 599. 618 ﴾

(166/228)

اللغة :

[لأنذركم] الإنذار : إخبار فيه تخويف

[فتنتهم] الفتنة الاختبار

[أكنة] جمع كنان وهو الغطاء

[وقرا] ثقلا، يقال: وقرت أذنه إذا ثقلت أو صمت

[أساطير] خرافات وأباطيل، جمع أسطورة، قال الجوهري: الأساطير: الأباطيل والترهات

[ينأون] يبعدون يقال: نأى عنه إذا ابتعد

[بغتة] فجأة يقال: بغته إذا فجأه

[فرطنا] فرط: قصر مع القدرة على ترك التقصير، قال ابو عبيدة: فط: ضيع

[أوزارهم] ذنوبهم جمع وزر

[يزرون] يحملون

[لهو] اللهو: صرف النفس عن الجد إلى الهزل، وكل ما شغلك فقد ألهاك. انتهى انتهى.

اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 1 صـ 382.383﴾

(167/228)

فصل

قال الفخر:

اعلم أن الآية تدل على أن أكبر الشهادات وأعظمها شهادة الله تعالى .

ثم بيّن أن شهادة الله حاصلة إلا أن الآية لم تدل على أن تلك الشهادة حصلت في إثبات أي المطالب فنقول : يمكن أن يكون المراد حصول شهادة الله في ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويمكن أن يكون المراد حصول هذه الشهادة في ثبوت وحدانية الله تعالى .

أما الاحتمال الأول : فقد روى ابن عباس أن رؤساء أهل مكة قالوا يا محمد ما وجد الله غيرك رسولاً وما نرى أحداً يصدقك وقد سألنا اليهود والنصارى عنك فزعموا أنه لا ذكر لك عندهم بالنبوة فأرنا من يشهد لك بالنبوة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال قل يا محمد أي شيء أكبر شهادة من الله حتى يعترفوا بالنبوة ، فإن أكبر الأشياء شهادة هو الله سبحانه وتعالى فإذا اعترفوا بذلك فقل إن الله شهيد لي بالنبوة لأنه أوحي إليّ هذا القرآن وهذا القرآن معجز ، لأنكم أنتم الفصحاء والبلغاء وقد عجزتم عن معارضته فإذا كان معجزاً ، كان إظهار الله إياه على وفق دعواي شهادة من الله على كوني صادقاً في دعواي .

(168/228)

والحاصل : أنهم طلبوا شاهداً مقبول القول يشهد على نبوته فبين تعالى أن أكبر الأشياء شهادة هو الله ، ثم بيّن أنه شهد له بالنبوة وهو المراد من قوله ﴿ وأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القُرءان

لأُنذِرَكُم بِهِ ومن بَلَغَ ﴾ فهذا تقرير واضح .

وأما الاحتمال الثاني : وهو أن يكون المراد حصول هذه الشهادة في وحدانية الله تعالى .

فاعلم أن هذا الكلام يجب أن يكون مسبوقاً بمقدمة ، وهي أنا نقول : المطالب على أقسام ثلاثة : منها ما يمتنع إثباته بالدلائل السمعية فإن كل ما يتوقف صحة السمع على صحته امتنع إثباته بالسمع ، وإلا لزم الدور .

ومنها ما يمتنع إثباته بالعقل وهو كل شيء يصح وجوده ويصح عدمه عقلاً ، فلا امتناع في أحد الطرفين أصلاً ، فالقطع على أحد الطرفين بعينه لا يمكن إلا بالدليل السمعي ، ومنها ما يمكن إثباته بالعقل والسمع معاً ، وهو كل أمر عقلي لا يتوقف على العلم به ، فلا جرم أمكن إثباته بالدلائل السمعية .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله ﴿ قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ في إثبات الوحدانية والبراءة عن الشركاء والاضداد والأنداد والأمثال والأشباه .

ثم قال : ﴿ وأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القُرءان لأُنذِرَكُم بِهِ ومن بَلَغَ ﴾ أي إن القول بالتوحيد هو الحق الواجب ، وأن القول بالشرك باطل مردود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 146.145 ﴾

(169/228)

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ الآية .

قال الكلبي : أتى أهل مكة رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما وجد اللّه رسولاً غيرك وما نرى أحداً يصدقك فيما تقول ولو سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر فأرنا من يشهد أنك رسول اللّه كما تزعم ، فأنزل اللّه ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ فإن أجابوك وإلاّ فقل ﴿ قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ على ما أقول ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ ﴾ وخوفكم يا أهل مكة ﴿ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ يعني ومن بلغه القرآن من العجم وغيرهم .

قال الفراء : والعرب تضمر الهاء في مصطلحات التشديد (من) و(ما) فيها وإن الذي أخذت مالك ، ومالي أخذته ، ومن أكرمت [أبرّ به] بمعنى أكرمته .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أيها الناس بلغوا عني ولو آية من كتاب اللّه فإن من بلغته آية من كتاب اللّه فقد بلغه أمر اللّه أخذه أو تركه " .

وقال الحسن بن صالح : سألت ليثاً : هل بقي أحد لم يبلغه الدعوة .

قال : كان مجاهد يقول حيثما يأتي القرآن فهو داع وهو نذير ، ثم قرأ هذه الآية .

فقال مقاتل : من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له .

وقال محمد بن كعب القرضي : من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً (عليه السلام) وسمع منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(170/228)

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ألا وجد الله رسولاً غيرك ؟ وما نرى أحداً من أهل الكتاب يصدقك بما تقول فأرنا من يشهد لك أنك رسوله ؟ فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ : لأهل مكة ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة ﴾ يعني : حجة وبرهاناً ويقال : من أكبر شهادة ؟ فإن أجابوك وإلا ف ﴿ قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ بأني رسول الله .

والشهيد في اللغة : هو المبين .

وإنما سمى الشاهد شاهداً لأنه يبيّن دعوى المدعي بأمر الله نبيه عليه السلام بأن يحتج عليهم بالله الواحد القهار الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وخلقهم أطواراً .

ثم قال : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ ﴾ يعني : لأخوفكم بالقرآن يا أهل مكة ﴿ وَمَن

بَلَغَ ﴾ يعني : ومن بلغه القرآن سواكم ، فأنا نذير وبشير من بلغه القرآن من الجن والإنس .

قال قتادة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى " ، فمن بلغه فكأنما عاين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه .

وقال محمد بن كعب القرظي : من بلغه القرآن فكأنما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ : ﴿ لأنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ وقال مجاهد : ﴿ لأنذِرَكُمْ بِهِ ﴾ يعني : أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ يعني : من العجم وغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

ومعنى الآية : قل لقريش : أيُّ شيء أعظم شهادة ؟ فإن أجابوك ، وإلا فقل : الله ، وهو شهيد بيني وبينكم على ما أقول .

(171/228)

وقال الزجاج : أمره الله أن يحتج عليهم بأن شهادة الله في نُبُوَّته أكبر شهادة ، وأن القرآن الذي أتى به ، يشهد له أنه رسول الله ، وهو قوله : ﴿ وأوحيَ إليَّ هذا القرآن لأُنذركم به ﴾ ففي

الإِنذار به دليل على نبوته ، لأنه لم يأت أحد بمثله ، ولا يأتي ، وفيه خبر ما كان وما يكون ، ووعد فيه بأشياء ، فكانت كما قال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(172/228)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾

انتقال من الاستدلال على إثبات ما يليق بالله من الصفات ، إلى إثبات صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإلى جعْلِ الله حكماً بينه وبين مكذّبيه ، فالجملة استئناف ابتدائي ، ومناسبة الانتقال ظاهرة .

روى الواحدي في "أسباب النزول" عن الكلبي : أنّ رؤساء مكّة قالوا : يا محمد ما نرى أحداً مصدّقَك بما تقول ، وقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس عندهم ذكرُك ولا صفتك فأرِنا من يشهد أنّك رسول الله .

فنزلت هذه الآية .

وقد ابتدئت المحاورة بأسلوب إلقاء استفهام مستعمل في التقرير على نحو ما بيّنته عند قوله تعالى : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : 12] ومثل هذا الأسلوب

لإعداد السامعين لتلقّي ما يرد بعد الاستفهام .

و(أي) اسم استفهام يطلب به بيان أحد المشتركات فيما أضيف إليه هذا الاستفهام ، والمضاف إليه هنا هو ﴿ شيء ﴾ المفسّر بأنَّه من نوع الشهادة .

و ﴿ شَيء ﴾ اسم عامّ من الأجناس العالية ذات العموم الكثير ، قيل : هو الموجود ، وقيل : هو ما يعلم ويصحّ وجوده .

والأظهر في تعريفه أنّه الأمر الذي يعلم .

ويجري عليه الإخبار سواء كان موجوداً أو صفة موجود أو معنى يتعقّل ويتحاور فيه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب أإذا متنا وكنّا تراباً ذلك رجْع بعيد ﴾ [ق : 2 ، 3] .

وقد تقدّم الكلام على مواقع حسن استعمال كلمة (شيء) ومواقع ضعفها عند قوله تعالى : ﴿ ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ﴾ في سورة [البقرة : 155] .

(﴿ وأكبَرُ ﴾ هنا بمعنى أقوى وأعدل في جنس الشهادات ، وهو من إطلاق ما مدلوله عظم الذات على عظم المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] وقوله : ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ وقد تقدّم في سورة [البقرة : 217] .

وقوة الشهادة بقوة اطمئنان النفس إليها وتصديق مضمونها .

وقوله : شهادة ﴾ تمييز لنسبة الأكبرية إلى الشيء فصار ما صُدق الشيء بهذا التمييز هو

الشهادة .

فالمعنى : أيّة شهادة هي أصدق الشهادات ، فالمستفهم عنه بـ ﴿ أي ﴾ فرد من أفراد الشهادات يطلب عِلم أنَّه أصدق أفراد جنسه .

والشهادة تقدّم بيانها عند قوله تعالى : ﴿ شهادة بينكم ﴾ في سورة [المائدة : 106] .

(173/228)

ولمّا كانت شهادة الله على صدق الرسول غير معلومة للمخاطبين المكذّبين بأنّه رسول الله ، صارت شهادة الله عليهم في معنى القسم على نحو قوله تعالى : ﴿ ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنّه لمن الكاذبين ﴾ [النور : 8] أي أن تُشهد الله على كذب الزوج ، أي أن تحلف على ذلك بسم الله ، فإنّ لفظ (أشهد الله) من صيغ القسم إلاّ أنّه إن لم يكن معه معنى الإشهاد يكون مجازاً مرسلاً ، وإن كان معه معنى الإشهاد كما هنا فهو كناية عن القسم مراد منه معنى إشهاد الله عليهم ، وبذلك يظهر موقع قوله : ﴿ الله شهيد بيني وبينكم ﴾ ، أي أشهده عليكم .

وقريب منه ما حكاه الله عن هود ﴿ قال إنّي أشهد الله ﴾ [هود : 54] .

وقوله : ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ جواب للسؤال ، ولذلك فصلت جملته المصدّرة بـ

﴿ قل ﴾ .

وهذا جواب أمر به المأمور بالسؤال على معنى أن يسأل ثم يبادر هو بالجواب لكون المراد بالسؤال التقرير وكون الجواب ممّا لا يسع المقرّر إنكاره ، على نحو ما بيّنّاه في قوله : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ﴾ [الأنعام : 12] ووقع قوله : ﴿ الله شهيد بيني وبينكم ﴾ جواباً على لسانهم لأنّه مرتّب على السؤال وهو المقصود منه فالتقدير : قل شهادة الله أكبر شهادة ، فالله شهيد بيني وبينكم ، فحذف المرتّب عليه لدلالة المرتّب إيجازاً كما هو مقتضى جزالة أسلوب الإلجاء والجدل .

والمعنى : أنّي أشهد الله الذي شهادته أعظم شهادة أنّني أبلغتكم أنّه لا يرضى بأن تشركوا به وأنذرتكم .

وفي هذه الآية ما يقتضي صحة إطلاق اسم (شيء) على الله تعالى لأنّ قوله : ﴿ الله شهيد ﴾ وقع جواباً عن قوله : ﴿ أي شيء ﴾ فاقتضى إطلاق اسم (شيء) خبراً عن الله تعالى وإن لم يدلّ صريحاً .

وعليه فلو أطلقه المؤمن على الله تعالى لما كان في إطلاقه تجاوز للأدب ولا إثم .

وهذا قول الأشعرية خلافاً لجهم بن صفوان وأصحابه .

ومعنى : ﴿ شهيد بيني وبينكم ﴾ أنّه لمّا لم تنفعهم الآيات والنذر فيرجعوا عن التكذيب والمكابرة لم يبق إلاّ أن يكلهم إلى حساب الله تعالى .

والمقصود : إنذارهم بعذاب الله في الدنيا والآخرة .

ووجه ذكر ﴿ بيني وبينكم ﴾ أنّ الله شهيد له ، كما هو مقتضى السياق .

فمعنى البيْن أنّ الله شهيد للرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق لردّ إنكارهم رسالته كما هو شأن الشاهد في الخصومات .

وقوله : ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن ﴾ عطف على جملة ﴿ الله شهيد بيني وبينكم ﴾ ، وهو الأهمّ فيما أقسم عليه من إثبات الرسالة .

وينطوي في ذلك جميع ما أبلغهم الرسول صلى الله عليه وسلم وما أقامه من الدلائل .

فعطف ﴿ وأوحي إلي هذا القرآن ﴾ من عطف الخاصّ على العامّ ، وحُذف فاعل الوحي وبني فعله للمجهول للعلم بالفاعل الذي أوحاه إليه وهو الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

نقل عن جهم أنه ينكر كونه تعالى شيئاً .

واعلم أنه لا ينازع في كونه تعالى ذاتاً موجوداً وحقيقة إلا أنه ينكر تسميته تعالى بكونه شيئاً ، فيكون هذا خلافاً في مجرد العبارة .

واحتج الجمهور على تسمية الله تعالى بالشيء بهذه الآية وتقريره أنه قال أي الأشياء أكبر شهادة ثم ذكر في الجواب عن هذا السؤال قوله ﴿ قُلِ الله ﴾ وهذا يوجب كونه تعالى شيئاً ، كما أنه لو قال : أي الناس أصدق ، فلو قيل : جبريل ، كان هذا الجواب خطأ لأن جبريل ليس من الناس فكذا ههنا .

فإن قيل : قوله ﴿ قُلِ الله شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ كلام تام مستقبل بنفسه لا تعلق له بما قبله لأن قوله ﴿ الله ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ خبره ، وهو جملة تامة مستقلة بنفسها لا تعلق لها بما قبلها .

قلنا الجواب في وجهين : الأول : أن نقول قوله ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شهادة ﴾ لا شك أنه سؤال ولا بدّ له من جواب : إما مذكور ، وإما محذوف .

(175/228)

فإن قلنا الجواب مذكور : كان الجواب هو قوله ﴿ قل الله ﴾ وههنا يتم الكلام .

فأما قوله ﴿ شهيد بيني وبينكم ﴾ فههنا يضمر مبتدأ ، والتقدير ، هو شهيد بيني وبينكم ،

وعند هذا يصح الاستدلال المذكور وأما إن قلنا : الجواب محذوف فنقول : هذا على خلاف الدليل ، وأيضاً فبتقدير أن يكون الجواب محذوفاً ، إلا أن ذلك المحذوف لا بدّ وأن يكون أمراً يدل المذكور عليه ويكون لائقاً بذلك الموضع .

والجواب اللائق بقوله ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة ﴾ هو أن يقال : هو الله ، ثم يقال بعده ﴿ اللهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ وعلى هذا التقدير فيصح الاستدلال بهذه الآية أيضاً على أنه تعالى يسمى باسم الشيء فهذا تمام تقرير هذا الدليل .

وفي المسألة دليل آخر وهو قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] والمراد بوجهه ذاته ، فهذا يدل على أنه تعالى استثنى ذات نفسه من قوله ﴿ كُلّ شَيْءٍ ﴾ والمستثنى يجب أن يكون داخلاً تحت المستثنى منه ، فهذا يدل على أنه تعالى يسمى باسم الشيء .

واحتج جهم على فساد هذا الاسم بوجوه : الأول : قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] والمراد ليس مثل مثله شيء وذات كل شيء مثل مثل نفسه فهذا تصريح بأن الله تعالى لا يسمى باسم الشيء ولا يقال الكاف زائدة ، والتقدير : ليس مثله شيء لأن جعل كلمة من كلمات القرآن عبثاً باطلاً لا يليق بأهل الدين المصير إليه إلا عند الضرورة الشديدة .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [الرعد : 16] ولو كان تعالى مسمى بالشيء لزم كونه خالقاً لنفسه وهو محال ، لا يقال : هذا عام دخله التخصيص لأنا نقول : إدخال التخصيص إنما يجوز في صورة نادرة شاذة لا يؤبه بها ولا يلتفت إليها ، فيجري وجودها مجرى عدمها ، فيطلق لفظ الكل على الأكثر تنبيهاً على أن البقية جارية مجرى العدم ومن المعلوم أن الباري تعالى لو كان مسمى باسم الشيء لكان هو تعالى أعظم الأشياء وأشرفها ، وإطلاق لفظ الكل مع أن يكون هذا القسم خارجاً عنه يكون محض كذب ولا يكون من باب التخصيص .

الثالث : التمسك بقوله ﴿ والله الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 180] والاسم إنما يحسن لحسن مسماه وهو أن يدل على صفة من صفات الكمال نعت من نعوت الجلال ولفظ الشيء أعم الأشياء فيكون مسماه حاصلاً في أحسن الأشياء وفي أرذلها ومتى كان كذلك لم يكن المسمى بهذا اللفظ صفة من صفات الكمال ولا نعتاً من نعوت الجلال فوجب أن لا يجوز دعوة الله تعالى بهذا الاسم لأن هذا الاسم لما لم يكن من الأسماء الحسنى والله تعالى أمر بأن يدعى بالأسماء الحسنى وجب أن لا يجوز دعاء الله تعالى بهذا الاسم وكل من منع من دعاء الله بهذا الاسم قال : إن هذا اللفظ ليس اسماً من أسماء الله تعالى ألبتة .

الرابع : أن اسم الشيء يتناول المعدوم ، فوجب أن لا يجوز إطلاقه على الله تعالى بيان الأول : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ [الكهف : 23] سمى الشيء الذي سيفعله غداً باسم الشيء في الحال والذي سيفعله غدا يكون معدوماً في الحال فدل ذلك على أن اسم الشيء يقع على المعدوم .

وإذا ثبت هذا فقولنا : إنه شيء لا يفيد امتياز ذاته عن سائر الذوات بصفة معلومة ولا بخاصة متميزة ولا يفيد كونه موجوداً فيكون هذا لفظاً لا يفيد فائدة في حق الله تعالى ألبتة ، فكان عبثاً مطلقاً ، فوجب أن لا يجوز إطلاقه على الله تعالى .

والجواب عن هذه الوجوه أن يقال : لما تعارضت الدلائل .

فنقول : لفظ الشيء أعم الألفاظ ، ومتى صدق الخاص صدق العام ، فمتى صدق فيه كونه ذاتاً وحقيقة وجب أن يصدق عليه كونه شيئاً وذلك هو المطلوب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 146 . 147 ﴾

(177/228)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 19] ، المراد بالآية شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته ، فإن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من يشهد لك على ما تقول ؟ فأنزل الله [تعالى] آيات شهادته له وشهادة ملائكته وشهادة علماءِ أهل الكتاب [له] ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : 43] ، أي ومن عنده علم الكتاب يشهد لي وشهادته مقبولة لأنها شهادة بعلم ، قال الله تعالى : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ [النساء : 166] ، وقال تعالى ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 19] ، فأخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه وكفى به شهيداً .

فإن قيل : وما شهادته [سبحانه] لرسوله ؟ قيل : هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه بعد العلم بها ضرورة ، فدلالتها على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق ، فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة وأعظمها وأدلها على ثبوت المشهود به ، فهذا وجه .

ووجه آخر : أنه صدقه بقوله وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه ، فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولاً لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر وصحت الشهادة له به قطعاً ، فهذا معنى الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ طريق الهجرتين صـ 338 ﴾

قوله تعالى ﴿ وأوحِيَ إليَّ هذا القُرءان لأُنذِرَكُم بِهِ ومن بَلَغَ ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد أنه تعالى أوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ، وهو خطاب لأهل مكة ، وقوله (ومن بلغ) عطف على المخاطبين من أهل مكة أي لأنذركم به ، وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم ، وقيل من الثقلين ، وقيل : من بلغه إلى يوم القيامة ، وعن سعيد بن جبير : من بلغه القرآن ، فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا التفسير فيحصل في الآية حذف ، والتقدير : وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ، ومن بلغه هذا القرآن إلا أن هذا العائد محذوف لدلالة الكلام عليه ، كما يقال الذي رأيت زيد ، والذي ضربت عمرو .

وفي تفسير قوله ﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ قول آخر ، وهو أن يكون قوله ﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ أي ومن احتلم وبلغ حد التكليف ، وعند هذا لا يحتاج إلى إضمار العائد إلا أن الجمهور على القول الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 147 . 148 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن ﴾ أي والقرآن شاهد بنبوّتي .

﴿ لأُنذِرَكُمْ بِهِ ﴾ يا أهل مكة .

﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ أي ومن بلغه القرآنُ .

فحذف "الهاء" لطول الكلام .

وقيل : ومن بلغ الحُلُم .

ودلّ بهذا على أن من لم يَبلغ الحُلُم ليس بمخاطَب ولا مُتعبَّد .

وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما ، كما أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتبليغهما ؛ فقال :

﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : 67] .

وفي صحيح البخاريّ عن عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "بَلِّغُوا عني ولو آية وحَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج ومن كَذَب عليّ متعمّداً فَلْيتبوأ مَقْعَده من النار "

وفي الخبر أيضاً ؛ من بَلَغته آية من كتاب الله فقد بَلَغه أمر الله أَخَذَ به أو تَرَكه .

وقال مُقاتل : من بَلَغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له .

وقال القُرَظيّ : من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً صلى الله عليه وسلم وسمعَ منه .

وقرأ أبو نَهِيك : "وَأُوْحَي إِلَيَّ هذا القرآن" مسمى الفاعل ؛ وهو معنى قراءة الجماعة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الثعالبى:

وقرأت فرقة : "وَأَوْحَى إِلَيَّ هذا القُرآن" على بناء الفعل للفاعل ، ونصب "القرآن" ، وفي "أوحى" ضمير يَعُودُ على اللَّه تعالى .

وقوله : ﴿ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ معناه على قول الجمهور : بلاغ القرآن ، أي : لأُنْذِرَكُمْ وأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ ، ففي "بلغ" ضمير محذوف ؛ لأنه في صلة "من" فحُذِفَ لِطُولِ الكلام .

وقالت فرقة : ومن بلغ الحُلُمَ .

وروي في معنى التأويل الأَوَّلِ أَحَادِيثُ . وظاهر الآية أنها في عَبَدَةِ الأصنام .

(180/228)

وذكر الطبري أنه قد وَرَدَ من وَجْهٍ لم تثبت صحته أنها في قَوْمٍ من اليهود ، قالوا : يا محمد ما تَعْلَمُ مع اللَّه إلهاً غيره ، فقال لهم : "لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ" فنزلت الآية . واللَّه أعلم .

وأمر اللَّه سبحانه نَبِيَّهُ عليه السلام أن يعلن بالتَّبَرِّي من شَهَادَةِ الكفرة ، والإعلان بالتوحيد للَّه عز وجل والتبرّي من إشراكهم .

قال الغزالي في "الإحياء" . وينبغي للتَّالِي أن يقدر أنه المقصود بكل خِطَابٍ في القرآن ، فإن

سمع أمراً أو نَهْياً قَدَّرَ المَنْهِيُّ ، والمأمور ، وكذا إن سَمِعَ وَعْداً أو وعيداً ، وكذا ما يَقِفُ عليه من القَصَصِ ، فالمقصود به الاعْتِبَارُ . قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] .

وقال تعالى : ﴿ هذا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 138] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(181/228)

وقال ابن عاشور :

والإشارة بـ ﴿ هذا القرآن ﴾ إلى ما هو في ذهن المتكلّم والسامع .

وعطف البيان بعد اسم الإشارة بيَّن المقصود بالإشارة .

واقتصر على جعل علّة نزول القرآن للنذارة دون ذكر البشارة لأنّ المخاطبين في حال مكابرتهم التي هي مقام الكلام لا يناسبهم إلاّ الإنذار ، فغاية القرآن بالنسبة إلى حالهم هي الإنذار ، ولذلك قال ﴿ لأنذركم به ﴾ مصرَّحاً بضمير المخاطبين .

ولم يقل : لأنذر به ، وهم المقصود ابتداء من هذا الخطاب وإن كان المعطوف على ضميرهم ينذر ويبشّر .

على أنّ لام العلّة لا تؤذن بانحصار العلّة في مدخولها إذ قد تكون للفعل المعدّى بها علل كثيرة .

﴿ ومن بلغ ﴾ عطف على ضمير المخاطبين ، أي ولأنذر به من بلغه القرآن وسمعه ولو لم أشافهه بالدعوة ، فحذف ضمير النصب الرابط للصلة لأنّ حذفه كثير حسن ، كما قال أبو علي الفارسي .

وعموم ﴿ مَن ﴾ وصلتها يشمل كلّ من يبلغه القرآن في جميع العصور . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ .

صرح في هذه الآية الكريمة بأنه صلى الله عليه وسلم منذر لكل من بلغه هذا القرآن العظيم كائناً من كان ، ويفهم من الآية أن الإنذار به عام لكل من بلغه ، وأن كل من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار ، وهو كذلك .

أما عموم إنذاره لكل من بلغه ، فقد دلت عليه آيات أخر أيضاً كقوله ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 158] ، وقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : 28] ، وقوله ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾

[الفرقان : 1] .

وأما دخول من لم يؤمن به النار ، فقد صرح به تعالى في قوله ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : 17] .

وأما من لم تبلغه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فله حكم أهل الفترة الذين لم يأتهم رسول ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(182/228)

قوله تعالى ﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإني بريء مما تشركون ﴾

فصل

قال الفخر :

هذا استفهام معناه الجحد والإنكار .

قال الفراء : ولم يقل آخر لأن الآلهة جمع والجمع يقع عليه التأنيث كما قال : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] وقال : ﴿ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾ [طه : 51] ولم يقل الأول ولا الأولين وكل ذلك صواب .

ثم قال تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِله واحد وَإِنَّنِى بَرِىء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

واعلم أن هذا الكلام دال على إيجاب التوحيد والبراءة عن الشرك من ثلاثة أوجه : أولها :

قوله ﴿ قُل لاَّ أَشْهَدُ ﴾ أي لا أشهد بما تذكرونه من إثبات الشركاء .

وثانيها : قوله ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِله واحد ﴾ وكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر ، ولفظ الواحد صريح في التوحيد ونفي الشركاء .

وثالثها : قوله ﴿ إِنَّنِى بَرِىء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ وفيه تصريح بالبراءة عن إثبات الشركاء فثبت دلالة هذه الآية على إجاب التوحيد بأعظم طرق البيان وأبلغ وجوه التأكيد .

قال العلماء : المستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين ويتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام .

ونص الشافعي رحمه الله على استحباب ضم التبري إلى الشهادة لقوله ﴿ وَإِنَّنِى بَرِىء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ عقيب التصريح بالتوحيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 148 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً أُخرى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِله واحد وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

جملة مستأنفة من جملة القول المأمور بأن يقوله لهم .

فهي استئناف بعد جملة ﴿ أيّ شيء أكبر شهادة ﴾ .

خصّ هذا بالذكر لأنّ نفي الشريك لله في الإلهية هو أصل الدعوة الإسلامية فبعد أن قرّرهم أنّ شهادة الله أكبر شهادة وأشهد الله على نفسه فيما بلّغ ، وعليهم فيما أعرضوا وكابروا ؛ استأنف استفهاماً على طريقة الإنكار استقصاء في الإعذار لهم فقال : أتشهدون أنتم على ما أصررتم عليه أنّ مع الله آلهة أخرى كما شهدت أنا على ما دعوتكم إليه ، والمقرّر عليه هنا أمر ينكرونه بدلالة المقام .

وإنّما جعل الاستفهام المستعمل في الإنكار عن الخبر المؤكّد بـ (إنّ) ولام الابتداء ليفيد أنّ شهادتهم هذه ممّا لا يكاد يصدّق السامعون أنّهم يشهدونها لاستبعاد صدورها من عقلاء ، فيحتاج المخبر عنهم بها إلى تأكيد خبره بمؤكّدين فيقول : إنّهم ليشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى ، فهنالك يحتاج مخاطبهم بالإنكار إلى إدخال أداة الاستفهام الإنكاري على الجملة التي من شأنها أن يحكى بها خبرهم ، فيفيد مثلُ هذا التركيب إنكارين : أحدهما صريح بأداة الإنكار ، والآخر كنائي بلازم تأكيد الإخبار لغرابة هذا الزعم بحيث يشكّ السامع في صدوره منهم .

ومعنى ﴿ لتشهدون ﴾ لتدّعونا دعوى تحقّقونها تحقيقاً يشبه الشهادة على أمر محقّق

الوقوع ، فإطلاق ﴿ تشهدون ﴾ مشاكلة لقوله ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ .

والآلهة جمع إله ، وأجري عليه الوصف بالتأنيث تنبيهاً على أنّها لا تعقل فإنّ جمع غير العاقل يكون وصفه كوصف الواحدة المؤنّثة .

وقوله : ﴿ قل لا أشهد ﴾ جواب للاستفهام الذي في قوله : ﴿ أإنّكم لتشهدون ﴾ لأنّه بتقدير : قل أإنّكم ، ووقعت المبادرة بالجواب بتبرّىء المتكلّم من أن يشهد بذلك لأنّ جواب المخاطبين عن هذا السؤال معلوم من حالهم أنّهم مقرّون به فأعرض عنهم بعد سؤالهم كأنّه يقول : دعْنا من شهادتكم وخذوا شهادتي فإنّي لا أشهد بذلك .

(184/228)

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ [الأنعام : 15] .

وجملة : ﴿ قل إنّما هو إله واحد ﴾ بيان لجملة ﴿ لا أشهد ﴾ فلذلك فصلت لأنّها بمنزلة عطف البيان ، لأنّ معنى لا أشهد بأنّ معه آلهة هو معنى أنّه إله واحد ، وأعيد فعل القول لتأكيد التبليغ .

وكلمة ﴿ إنّما ﴾ أفادت الحصر ، أي هو المخصوص بالوحدانية : ثم بالغ في إثبات ذلك بالتبرّىء من ضدّه بقوله : ﴿ وإنّني بريء ممّا تشركون ﴾ .

وفيه قطع للمجادلة معهم على طريقة المتاركة .

و(ما) في قوله : ﴿ ممّا تشركون ﴾ يجوز كونها مصدرية ، أي من إشراككم .

ويجوز كونها موصولة ، وهو الأظهر ، أي من أصنامكم التي تشركون بها ، وفيه حذف العائد المجرور لأنّ حرف الجرّ المحذوف مع العائد متعيّن تقديره بلا لبس ، وذلك هو ضابط جواز حذف العائد المجرور ، كقوله تعالى : ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ [الفرقان : 60] أي بتعظيمه ، وقوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ أي بالجهر به .

وظاهر كلام "التسهيل" أنّ هذا ممنوع ، وهو غفلة من مؤلّفه اغترّ بها بعض شرّاح كتبه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(185/228)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أي ﴾ استفهام ، وهي معربة مع إبهامها ، وإنما كان ذلك لأنها تلتزم الإضافة ولأنها تتضمن علم جزء من المستفهم عنه غير معين ، لأنك إذا قلت أي الرجلين جاءنا فقد كنت تعلم أن أحدهما جاء غير معين فأخرجها هذان الوجهان عن غمرة الإبهام فأعربت ،

وتتضمن هذه الآية أن الله عز وجل يقال عليه ﴿ شيء ﴾ كما يقال عليه موجود ، ولكن ليس كمثله تبارك وتعالى شيء ، و ﴿ شهادة ﴾ نصب على التمييز ويصح على المفعول بأن يحمل ﴿ أكبر ﴾ على لمتشبيه بالصفة المشبهة باسم الفاعل وهذه الآية مثل قوله تعالى ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ﴾ [الأنعام : 12] في أن استفهم على جهة التوقيف والتقدير ثم بادر إلى الجواب إذ لا تتصور فيه مدافعة ، وهذا كما تقول لمن تخاصمه وتتظلم منه من أقدر من في البلد ثم تبادر وتقول السلطان فهو يحول بيننا ، ونحو هذا من الأمثلة ، فتقدير الآية أنه قال لهم أي شيء أكبر شهادة الله أكبر شهادة ، فهو شهيد بيني وبينكم ، ف ﴿ الله ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر يدل عليه ظاهر الكلام كما قدرناه ، و ﴿ شهيد ﴾ خبر ابتداء مضمر .

(186/228)

وقال مجاهد المعنى أن الله تعالى قال لنبيه عليه السلام : قل لهم : أي شيء أكبر شهادة ؟ وقل لهم : الله شهيد بيني وبينكم لما عيوا عن الجواب ، ف ﴿ شهيد ﴾ على هذا التأويل خبر لله وليس في هذا التأويل مبادرة من السائل إلى الجواب المراد بقوله : ﴿ شهيد ، بيني وبينكم ﴾ أي في تبليغي ، وقرأت فرقة : " وأوحى إليّ هذا القرآن " على الفعل الماضي

ونصب القرآن وفي " أوحى " ضمير عائد على الله تعالى من قوله ﴿ قل الله ﴾ ، وقرأت فرقة " وأوحي " على بناء الفعل للمفعول " القرآن " رفعاً ، ﴿ لأنذركم ﴾ معناه لأخوفكم به العقاب والآخرة ، ﴿ ومن ﴾ عطف على الكاف والميم في قوله : ﴿ لأنذركم ﴾ و ﴿ بلغ ﴾ معناه على قول الجمهور بلاغ القرآن ، أي لأنذركم وأنذر من بلغه ، ففي بلغ ضمير محذوف لأنه في صلة من ، فحذف لطول الكلام ، وقالت فرقة ومن بلغ الحكم ، ففي ﴿ بلغ ﴾ على هذا التأويل ضمير مقدر راجع إلى ﴿ من ﴾ ، وروي في معنى التأويل الأول أحاديث ، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يا أيها الناس بلغوا عني ولو آية ، فإنه من بلغ آية من كتاب الله تعالى فقد بلغه أمر الله تعالى أخذه أو تركه " ، ونحو هذا من الأحاديث كقوله " من بلغه هذا القرآن فأنا نذيره " وقرأت فرقة " أأينكم " بزيادة ألف بين الهمزة الأولى والثانية المسهلة عاملة بعد التسهيل العاملة قبل التسهيل وقرأت فرقة " أينكم " بهمزتين الثانية مسهلة دون ألف بينهما ، وقرأت فرقة " أإنكم " استثقلت اجتماع الهمزتين فزادت ألفاً بين الهمزتين ، وقرأت فرقة " أنكم " بالإيجاب دون تقدير وهذه الاية مقصدها التوبيخ وتسفيه الرأي .

(187/228)

و ﴿ أخرى ﴾ صفة لآلهة وصفة جمع ما لا يعقل تجري في الإفراد مجرى الواحدة المؤنثة كقوله ﴿ مآرب أخرى ﴾ [طه : 18] وكذلك مخاطبته جمع ما لا يعقل كقوله : ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ ونحو هذا ، ولما كانت هذه الآلهة حجارة وعيداناً أجريت هذا المجرى ثم أمره الله تعالى أن يعلن بالتبري من شهادتهم ، والإعلان بالتوحيد لله عز وجل والتبري من إشراكهم ، ﴿ وإنني ﴾ إيجاب ألحقت فيه النون التي تلحق الفعل لتبقى حركته عند اتصال الضمير به في قوله ضربني ونحوه ، وظاهر الآية أنها في عبدة الأصنام وذكر الطبري أنه قد ورد من وجه لم يثبت صحته أنها نزلت في قوم من اليهود ، وأسند إلى ابن عباس قال : جاء النحام بن زيد وفردم بن كعب وبحري بن عمرو ، فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره ؟ فقال لهم : لا إله إلا الله بذلك أمرت ، فنزلت الآية فيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(188/228)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾

قال المفسرون : سألت قريش شاهداً على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا : أي دليل يشهد بأن الله يشهد لك ؟ فقال : هذا القرآن تحديتكم به فعجزتم عن الإتيان بمثله أو بمثل بعضه ، وقال الكلبي : قال رؤساء مكة : يا محمد ما نرى أحداً يصدقك فيما تقول في أمر الرسالة ولقد سألنا اليهود والنصارى عنك فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله كما تزعم فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : سأل المشركون لما نزل ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ الآية فقالوا : من يشهد لك على أن هذا القرآن منزل من عند الله عليك وأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله ؟ فقال الله وهذا القرآن المعجز و﴿ أي ﴾ استفهام والكلام على أقسام أي وعلة إعرابها مذكور في علم النحو و﴿ شيء ﴾ تقدّم الكلام عليه في أوّل سورة البقرة وذكر الخلاف في مدلوله الحقيقي .

وقال الزمخشري : الشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه فيقع على القديم والجوهر والعرض والمحال والمستقيم ، ولذلك صح أن يقال في الله عز وجل شيء لا كالأشياء كأنك قلت معلوم لا كسائر المعلومات ولا يصح جسم لا كالأجسام وأراد ﴿ أي شيء أكبر شهادة ﴾ فوضع شيئاً مكان ﴿ شهيد ﴾ ليبالغ في التعميم ؛ انتهى .

(189/228)

وقال ابن عطية : وتتضمن هذه الآية أن الله عز وجل يقال عليه شيء كما يقال عليه موجود ولكن ليس كمثله شيء ، وقال غيرهما هنا شيء يقع على القديم والمحدث والجوهر والعرض والمعدوم والموجود ولما كان هذا مقتضاه ، جاز إطلاقه على الله عز وجل واتفق الجمهور على ذلك وخالف الجهم وقال : لا يطلق على الله شيء ويجوز أن يسمى ذاتاً وموجوداً وإنما لم يطلق عليه شيء لقوله ﴿ خالق كل شيء ﴾ فيلزم من إطلاق شيء عليه أن يكون خالقاً لنفسه وهو محال ولقوله : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ والإسم إنما يحسن لحسن مسماه وهو أن يدل على صفة كمال ونعت جلال ولفظ الشيء أعم الأشياء فيكون حاصلاً في أخس الأشياء وأرذلها ، فلا يدل على صفة كمال ولا نعت جلال فوجب أن لا يجوز دعوة الله به لما لم يكن من الأسماء الحسنى ، ولتناوله المعدوم لقوله ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً ﴾ فلا يفيد إطلاق شيء عليه امتياز ذاته على سائر الذوات بصفة معلومة ولا بخاصة مميزة ، ولا يفيد كونه مطلقاً فوجب أن لا يجوز إطلاقه على الله تعالى ولقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وذات كل شيء مثل نفسه فهذا تصريح بأنه تعالى لا يسمى باسم الشيء ولا يقال الكاف زائدة لأن جعل كلمة من القرآن عبثاً باطلاً لا يليق ولا يصار إليه إلا عند الضرورة الشديدة .

وأجيب بأن لفظ شيء أعم الألفاظ ومتى صدق الخاص صدق العامّ فمتى صدق كونه ذاتاً حقيقة وجب أن يصدق كونه شيئاً واحتج الجمهور بهذه الآية وتقريره أن المعنى أي الأشياء أكبر شهادة ، ثم جاء في الجواب ﴿ قل الله ﴾ وهذا يوجب إطلاق شيء عليه واندراجه في لفظ شيء المراد به العموم ولو قلت أي الناس أفضل ؟ فقيل : جبريل لم يصح لأنه لم يندرج في لفظ الناس ، وبقوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ والمراد بوجهه ذاته والمستثنى يجب أن يكون داخلاً تحت المستثنى منه فدل على أنه يطلق عليه شيء ولجهم أن يقول : هذا استثناء منقطع ، والدليل الأول لم يصرح فيه بالجواب المطابق إذ قوله : ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ مبتدأ وخبر ذي جملة مستقلة بنفسها لا تعلق لها بما قبلها من جهة الصناعة الإعرابية بل قوله : ﴿ أي شيء أكبر شهادة ﴾ هو استفهام على جهة التقرير والتوقيف ، ثم أخبر بأن خالق الأشياء والشهود هو الشهيد بيني وبينكم وانتظم الكلام من حيث المعنى فالجملة ليست جواباً صناعياً وإنما يتم ما قالوه لو اقتصر على ﴿ قل الله ﴾ ، وقد ذهب إلى ذلك بعضهم فأعربه مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما تقدم عليه والتقدير قل الله أكبر شهادة ثم أضمر مبتدأ يكون ﴿ شهيد ﴾ خبراً له تقديره

هو ﴿ شهيد بيني وبينكم ﴾ ولا يتعين حمله على هذا ، بل هو مرجوح لكونه أضمر فيه آخراً وأولاً والوجه الذي قبله لا إضمار فيه مع صحة معناه فوجب حمل القرآن على الراجح لا على المرجوح.

وقال ابن عباس : قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهم أي شيء أكبر شهادة فإن أجابوك وإلا فقل لهم : ﴿ الله شهيد بيني وبينكم ﴾ .

وقال مجاهد : المعنى أن الله قال لنبيه : قل لهم : ﴿ أي شيء أكبر شهادة ﴾ وقل لهم الله شهيد بيني وبينكم ﴾ أي في تبليغي وكذبكم وكفركم.

(191/228)

وقال ابن عطية : هذه الآية مثل قوله : ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ﴾ في أن استفهم على جهة التوقيف والتقرير ، ثم بادر إلى الجواب إذ لا يتصوّر فيه مدافعة كما تقول لمن تخاصمه وتتظلم منه من أقدر في البلد ؟ ثم تبادر وتقول : السلطان فهو يحول بيننا ، فتقدير الآية : قل لهم أيّ شيء أكبر شهادة هو شهيد بيني وبينكم ، انتهى.

وليست هذه الآية نظير قوله : ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ﴾ لأن لله يتعين أن يكون جواباً وهنا لا يتعين إذ ينعقد من قوله : ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ مبتدأ

وخبر وهو الظاهر ، وأيضاً ففي هذه الآية لفظ شيء وقد تتوزع في إطلاقه على الله تعالى وفي تلك الآية لفظ من وهو يطلق على الله تعالى .

قيل : معنى ﴿ أكبر ﴾ أعظم وأصح ، لأنه لا يجري فيها الخطأ ولا السهو ولا الكذب .

وقيل : معناها أفضل لأن مراتب الشهادات في التفضيل تتفاوت بمراتب الشاهدين

وانتصب ﴿ شهادة ﴾ على التمييز .

قال ابن عطية : ويصح على المفعول بأن يحمل أكبر على التشبيه بالصفة المشبهة باسم الفاعل ؛ انتهى .

وهذا كلام عجيب لأنه لا يصح نصبه على المفعول ولأن أفعل من لا يتشبه بالصفة المشبهة باسم الفاعل ، ولا يجوز في أفعل من أن يكون من باب الصفة المشبهة باسم الفاعل لأن شرط الصفة المشبهة باسم الفاعل أن تؤنث وتثنى وتجمع ، وأفعل من لا يكون فيها ذلك وهذا منصوص عليه من النحاة فجعل ابن عطية المنصوب في هذا مفعولاً وجعل ﴿ أكبر ﴾ مشبهاً بالصفة المشبهة وجعل منصوبه مفعولاً وهذا تخليط فاحش ولعله يكون من الناسخ لا من المصنف ، ومعنى ﴿ بيني وبينكم ﴾ بيننا ولكنه لما أضيف إلى ياء المتكلم لم يكن بد من إعادة بين وهو نظير قوله فأيي ما وأيك كان شرًّا .

وكلاي وكلاك ذهب أن معناه فأينا وكلانا .

﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ وأوحي ﴾ مبنياً للمفعول و ﴿ القرآن ﴾ مرفوع به .

(192/228)

وقرأ عكرمة وأبو نهيك وابن السميقع والجحدري ﴿ وأوحى ﴾ مبنياً للفاعل و ﴿ القرآن ﴾ منصوب به ، والمعنى لأنذركم ولأبشركم فحذف المعطوف لدلالة المعنى عليه أو اقتصر على الإنذار لأنه في مقام تخويف لهؤلاء المكذبين بالرسالة المتخذين غير الله إلهاً ، والظاهر وهو قول الجمهور إن ﴿ من ﴾ في موضع نصب عطفاً على مفعول ﴿ لأنذركم ﴾ والعائد على ﴿ من ﴾ ضمير منصوب محذوف وفاعل ﴿ بلغ ﴾ ضمير يعود على ﴿ القرآن ﴾ ومن بلغه هو أي ﴿ القرآن ﴾ والخطاب في ﴿ لأنذركم به ﴾ لأهل مكة .

وقال مقاتل : ومن بلغه من العرب والعجم .

وقيل : من الثقلين .

وقيل : من بلغه إلى يوم القيامة ، وعن سعيد بن جبير من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث : " من بلغه هذا القرآن فأنا نذيره "

وقالت فرقة : الفاعل ب ﴿ بلغ ﴾ عائد على ﴿ من ﴾ لا على ﴿ القرآن ﴾ والمفعول

محذوف والتقدير ومن بلغ الحلم ، ويحتمل أن يكون ﴿ من ﴾ في موضع رفع عطفاً على الضمير المستكن في ﴿ لأنذركم به ﴾ وجاز ذلك للفصل بينه وبين الضمير بضمير المفعول وبالجار والمجرور أي ولينذر به من بلغه القرآن .

(193/228)

﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ﴾ قرئ ﴿ إنكم لتشهدون ﴾ بصورة الإيجاب فاحتمل أن يكون خبراً محضاً واحتمل الاستفهام على تقدير حذف أداته ويبين ذلك قراءة الاستفهام ، فقرئ بهمزتين محققتين وبإدخال ألف بينهما وبتسهيل الثانية وبإدخال ألف بين الهمزة الأولى والهمزة المسهلة ، روى هذه القراءة الأخيرة الأصمعي عن أبي عمرو ونافع ، وهذا الاستفهام معناه التقريع لهم والتوبيخ والإنكار عليهم فإن كان الخطاب لأهل مكة فالآلهة الأصنام فإنهم أصحاب أوثان ، وإن كان لجميع المشركين فالآلهة كل ما عبد غير الله تعالى من وثن أو كوكب أو نار أو آدمي وأخرى صفة لآلهة وصفة جمع ما لا يعقل كصفة الواحدة المؤنثة ، كقوله : ﴿ مآرب أخرى والأسماء الحسنى ﴾ ولما كانت الآلهة حجارة وخشباً أجريت هذا المجرى .

﴿ قل لا أشهد إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ أمره تعالى أن يخبرهم أنه لا

يشهد شهادتهم وأمره ثانياً أن يفرد الله تعالى بالإلهية ، وأن يتبرأ من إشراكهم وما أبدع هذا الترتيب أمر أولاً بأن يخبرهم بأنه لا يوافقهم في الشهادة ولا يلزم من ذلك إفراد الله بالألوهية فأمر به ثانياً ليجتمع مع انتفاء موافقتهم إثبات الوحدانية لله تعالى ، ثم أخبر ثالثاً بالتبرؤ من إشراكهم وهو كالتوكيد لما قبله ، ويحتمل أن لا يكون ذلك داخلاً تحت القول ويحتمل وهو الظاهر أن يكون داخلاً تحته فأمر بأن يقول الجملتين ، فظاهر الآية يقتضي أنها في عبدة الأصنام وذكر الطبري أنها نزلت في قوم من اليهود وأسند إلى ابن عباس قال جاء النحام بن زيد وقردم بن كعب ومجزئ بن عمرو فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره فقال : لا إله إلا الله بذلك أمرت فنزلت الآية فيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(194/228)

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ﴾ قال الكلبي أتى أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد أرنا من يشهد أنك رسول الله فإنا لا نرى أحداً يصدقك ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر فأنزل الله عز وجل قل يعني

يا محمد لهؤلاء المشركين الذي يكذبونك ويجحدون نبوتك من قومك أي شيء أكبر شهادة يعني أعظم شهادة فإن هم أجابوك وإلا ﴿ قل ﴾ أنت يا محمد ﴿ الله شهيد بيني وبينكم ﴾ قال مجاهد أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يسأل قريشاً أي شيء أكبر شهادة ثم أمره أن يخبرهم فيقول الله شهيد بيني وبينكم يعني يشهد لي بالحق وعليكم بالباطل الذي تقولونه والحاصل أنهم طلبوا شاهداً مقبول القول يشهد له بالنبوة فبيَّن الله تعالى بهذه الآية أن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى ثم بيَّن أنه يشهد له بالنبوة وهو المراد بقوله : ﴿ وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ﴾ يعني أن الله عز وجل يشهد لي بالنبوة لأنه أوحى إليّ هذا القرآن وهو معجزة لأنكم أنتم الفصحاء البلغاء وأصحاب اللسان وقد عجزتم عن معارضته فكان معجزاً وإذا كان معجزاً كان نزوله على شهادة من الله بأني رسوله وهو المراد بقوله لأنذركم به يعني أوحي إلى هذا القرآن لأخوفكم به وأحذركم مخالفة أمر الله عز وجل : ﴿ ومن بلغ ﴾ يعني وأنذر من بلغه القرآن ممن يأتي بعدي إلى يوم القيامة من العرب والعجم وغيرهم من سائر الأمم فكل من بلغ إليه القرآن وسمعه فالنبي صلى الله عليه وسلم نذير له قال محمد بن كعب القرظي من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه وقال أنس بن مالك لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار "

(195/228)

(شرح ما يتعلق بهذا الحديث)

فيه الأمر بإبلاغ ما جاء به النبي صلى الله عيله وسلم إلى من بعده من قرآن وسنة وقوله وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج الحرج الضيق والإثم ومعنى الحديث أنه مهما قلتم عن بني إسرائيل فإنهم كانوا في حال أكثر مما قلتم وأوسع وليس هذا فيه إباحة الكذب والإخبار عن بني إسرائيل لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على بعض البلاغ وإن لم يتحقق ذلك بنقل لأنه أمر قد تعذر لبعد المسافة وطول المدة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " نضر الله أمرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع " أخرجه الترمذي وله عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه " عن ابن عباس قال " تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منك " أخرجه أبو داود موقوفاً .

وقوله تعالى : ﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذي جحدوا نبوتك واتخذوا آلهة غيري إنكم أيها المشركون لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها وإنما قال أخرى لأن الجمع يلحقه التأنيث كما قال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ ولم يقل الأول ولا الأولين ﴿ قل لا أشهد ﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أشهد بما تشهدون به أن مع الله آلهة أخرى بل أجحد ذلك وأنكره ﴿ قل إنما هو إله واحد ﴾ يعني قل لهم إنما الله إله واحد ومعبود واحد لا شريك له وبذلك أشهد ﴿ وإنني بريء مما تشركون ﴾ يعني أنا بريء من كل شيء تعبدونه سوى الله وفي هذه الآية دليل على إثبات التوحيد لله عز وجل وإبطال كل معبود سواه لأن كلمة إنما تفيد الحصر ولفظة الواحد صريح في التوحيد ونفي الشريك فثبت بذلك إيجاب التوحيد وسلب كل شريك والتبرؤ من كل معبود سوى الله تعالى قال العلماء يستحب لكل من أسلم أن يأتي بالشهادتين ويبرأ من كل دين خالف الإسلام لقوله تعالى : ﴿ وإنني بريء مما تشركون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة ﴾ روى الكلبي أن كفار مكة قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا محمد أما وجد الله تعالى رسولاً غيرك ما نرى أحداً يصدقك فيما تقول ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر فأرنا من يشهد أنك رسول الله فنزلت .

وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : جاء النحام بن زيد وقردم بن كعب وبحري بن عمرو فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا إله إلا الله تعالى بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو " فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والأول : أوفق بأول الآية والثاني : بآخرها .

فأي مبتدأ و﴿ أَكْبَرَ ﴾ خبره و﴿ شَهَادَةً ﴾ تمييز .

والشيء في اللغة ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، فقد ذكر سيبويه في الباب المترجم بباب مجاري أواخر الكلم وإنما يخرج التأنيث من التذكير ألا ترى أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى والشيء مذكر انتهى .

وهل يطلق على الله تعالى أم لا ؟ فيه خلاف فمذهب الجمهور أنه يطلق عليه سبحانه فقال

: شيء لا كالأشياء واستدلوا على ذلك بالسؤال والجواب الواقعين في هذه الآية وبقوله سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] حيث إنه استثنى من كل شيء الوجه وهو بمعنى الذات عندهم وبأنه أعم الألفاظ فيشمل الواجب والممكن .

ونقل الإمام "أن جهماً أنكر صحة الإطلاق محتجاً بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] فقال : لا يطلق عليه سبحانه إلا ما يدل على صفة من صفات الكمال والشيء ليس كذلك" ، وفي "المواقف وشرحه" الشيء عند الأشاعرة يطلق على الموجود فقط فكل شيء عندهم موجود وكل موجود شيء ، ثم سيق فيهما مذاهب الناس فيه ثم قيل : والنزاع لفظي متعلق بلفظ الشيء وأنه على ماذا يطلق ، والحق ما ساعد عليه اللغة والنقل إذ لا مجال للعقل في إثبات اللغات .

والظاهر معنا فأهل اللغة في كل عصر يطلقون لفظ الشيء على الموجود حتى لو قيل عندهم الموجود شيء تلقوه بالقبول ، ولو قيل : ليس بيء تلقوه بالإنكار .

ونحو قوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ بنفي إطلاقه بطريق الحقيقة على المعدوم لأن الحقيقة لا يصح فيها انتهى .

وفي "شرح المقاصد" أن البحث في أن المعدوم شيء حقيقة أم لا لغوي يرجع فيه إلى النقل والاستعمال وقد وقع فيه اختلافات نظراً إلى الاستعمالات .

فعندنا هو اسم للموجود لما نجده شائع الاستعمال في هذا المعنى ولا نزاع في استعماله في المعدوم مجازاً ثم قال : وما نقل عن أبي العباس أنه اسم للقديم وعن الجهيمة أنه اسم للحادث ، وعن هشام أنه اسم للجسم فبعيد جداً من جهة أنه لا يقبله أهل اللغة انتهى .

وفي ذلك كله بحث فإن دعوى الأشاعرة التساوي بين الشيء والموجود لغة أو الترادف كما يفهم مما تقدم من الكليتين ليس لها دليل يعول عليه .

وقوله : إن أهل اللغة في كل عصر الخ إنما يدل على أن كل موجود شيء ، وأما أن كل ما يطلق عليه لفظ الشيء حقيقة لغوية موجود فلا دلالة فيه عليه إذ لا يلزم من أن يطلق على الموجود لفظ شيء دون لا شيء أن يختص الشيء لغة بالموجود لجواز أن يطلق الشيء على المعدوم والموجود حقيقة لغوية مع اختصاص الموجود بإطلاق الشيء دون اللاشيء .

وإنكار أهل اللغة على من يقول : الموجود ليس بشيء لكونه سلباً للأعم عن الأخص وهو لا يصح لا لكونهما مترادفين أو متساويين .

وقد أطلق على المعدوم الخارجي كتاباً وسنة فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 23 ، 24] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] .

وأخرج الطبراني عن أم سلمة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سأله رجل فقال : " إني لأحدث نفسي بالشيء لو تكلمت به لأحبطت أجري يقول : لا يلقى ذلك الكلام إلا مؤمن " ونحوه عن معاذ بن جبل والأصل في الإطلاق الحقيقة فلا يعدل عنها إلا إذا وجد صارف وشيوع الاستعمال لا يصلح أن يكون صارفاً بعد صحة النقل عن سيبويه . ولعل سبب ذلك الشيوع أن تعلق الغرض في المحاورات بأحوال الموجودات أكثر لا لاختصاص الشيء بالموجود لغة .

(199/228)

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 9] إنما يلزم منه نفي إطلاقه بطريق الحقيقة على المعدوم وهو يضرنا لو كان المدعى تخصيص إطلاق الشيء لغة بالمعدوم وليس كذلك ، فإن التحقيق عندنا أن الشيء بمعنى المشيء العلم به والإخبار عنه وهو مفهوم كلي يصدق على الموجود والمعدوم الواجب والممكن وتخصيص إطلاقه ببعض أفراده عند قيام قرينة لا ينافي شموله لجميع أفراده حقيقة لغوية عند انتفاء قرينة مخصصة وإلا لكان شموله للمعدوم والموجود معاً في قوله تعالى : ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : 16] جمعاً بين الحقيقة والمجاز وهي مسألة خلافية ولا خلاف في

الاستدلال على عموم تعلق علمه تعالى بالأشياء مطلقاً بهذه الآية فهو دليل على أن شموله للمعدوم والموجود معاً حقيقة لغوية ، وذكر بعض الأجلة بعد زعمه اختصاص الشيء بالموجود أنه في الأصل مصدر استعمل بمعنى شاء أو مشيء فإن كان بمعنى شاء صح إطلاقه عليه تعالى وإلا فلا وأنت تعلم أنه على ما ذكرنا من التحقيق لا مانع من إطلاق الشيء عليه تعالى من غير حاجة إلى هذا التفصيل لأنه بمعنى المشيء العلم به والإخبار عنه فيكون إطلاق الشيء بهذا المعنى عليه عز وجل كإطلاق المعلوم مثلاً ، ومعنى ﴿ أَكْبَرُ شهادة ﴾ أعظم وأصدق .

﴿ قُلِ الله ﴾ أمر له صلى الله عليه وسلم أن يتولى الجواب بنفسه هو عليه الصلاة والسلام لما مر قريباً .

والاسم الجليل مبتدأ محذوف الخبر أي الله أكبر شهادة ، وجوز العكس .

(200/228)

ومذهب سيبويه أنه إذا كانت النكرة اسم استفهام أو أفعل تفضيل تقع مبتدأ يخبر عنه بمعرفة ، وقوله سبحانه : ﴿ شَهِيدٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو سبحانه شهيد ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ فهو ابتداء كلام ، وجوز أن يكون خبر ﴿ الله ﴾ والمجموع على ما ذهب

إليه الزمخشري هو الجواب لدلالته على أن الله عز وجل إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم فأكبر شيء شهادة شهيد له ، ونقل في "الكشف" أنه إن جعل تمام الجواب عند قوله سبحانه : ﴿ الله ﴾ فهو للتسلق من إثبات التوحيد إلى إثبات النبوة بأن هذا الشاهد الذي لا أصدق منه شهد لي بإيحاء هذا القرآن .

وإن جعل الكلام بمجموعه الجواب فهو من الأسلوب الحكيم لأن الوهم لا يذهب إلى أن هذا الشاهد يحتمل أن يكون غيره تعالى بل الكلام في أنه يشهد لنبوته أولاً فليفهم .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ من قبله تعالى ﴿ هذا القرءان ﴾ العظيم الشاهد بصحة رسالتي ﴿ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ ﴾ بما فيه من الوعيد .

واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة لأنه المناسب للمقام ، وقيل : إن الكلام مع الكفار وليس فيهم من يبشر .

وفي "الدر المصون" أن الكلام على حد ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] ﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ عطف على ضمير المخاطبين أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه القرآن ووصل إليه من الأسود والأحمر أو من الثقلين أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة .

قال ابن جرير : من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو نعيم وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : " قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم من بلغه القرآن فكأنما شافهته " واستدل بالآية على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله ومن سيوجد بعد إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها .

واختلف في ذلك هو بطريق العبارة في الكل أو بالإجماع في غير الموجودين وفي غير المكلفين .

(201/228)

فذهب الحنابلة إلى الأول والحنفية إلى الثاني وتحقيقه في الأصول .

وعلى أن من لم يبلغه القرآن غير مؤاخذ بترك الأحكام الشرعية ، ويؤيده ما أخرجه أبو الشيخ عن أبي بن كعب قال : " أُتِي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسارى فقال لهم : هل دعيتم إلى الإسلام ؟ فقالوا : لا فخلى سبيلهم ثم قرأ ﴿ وَأُوحِيَ إِلى ﴾ الآية "

وهو مبني على القول بالمفهوم كما ذهب إليه الشافعية ، واعترض بأنه لا دلالة للآية على ذلك بوجه من الوجوه لأن مفهومها انتفاء الإنذار بالقرآن عمن لم يبلغه وذلك ليس عين انتفاء المؤاخذة وهو ظاهر ولا مستلزماً له خصوصاً عند القائلين بالحسن والقبح العقليين إلا أن يلاحظ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وفيه أن عدم استلزام انتفاء الإنذار بالقرآن لانتفاء المؤاخذة ممنوع ، والحسن والقبح العقليان قد

طوي بساط ردهما ، وجوز أن يكون ﴿ مِنْ ﴾ عطفاً على الفاعل المستتر في (أنذركم) للفصل بالمفعول أي لأنذركم أنا بالقرآن وينذركم به من بلغه القرآن أيضاً ، وروى الطبرسي ما يقتضيه عن العياشي عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما ولايخفى أنه خلاف المنساق إلى الذهن .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً أُخرى ﴾ جملة مستأنفة أو مندرجة في القول ، والاستفهام للتقرير أو للإنكار ، وقيل : لهما ، وفيه جمع بين المعاني المجازية و﴿ أخرى ﴾ صفة لآلهة .

وصفة جمع ما لا يعقل كما قال أبو حيان كصفة الواحدة المؤنثة نحو ﴿ مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 18] ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] ولما كانت الآلهة حجارة وخشباً مثلاً أجريت هذا المجرى تحقيراً لها ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لاَّ أَشْهَدُ ﴾ بذلك وإن شهدتم به فإنه باطل صرف .

﴿ قُلْ ﴾ تكرير للأمر للتأكيد ﴿ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ أي بل إنما أشهد أنه تعالى لا إله إلا هو .

و(ما) كافة .

وجوز أبو البقاء وزعم أنه الأليق بما قبله كونها موصولة ويبعده كونها موصولة وعليه يكون ﴿ واحد ﴾ خبراً وهو خلاف الظاهر .

﴿ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ من الأصنام أو من إشراككم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(202/228)

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ ﴾ لهم -لما بينا لهم الهدى ، وأوضحنا لهم المسالك-: ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ على هذا الأصل العظيم . ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أكبر شهادة ، فهو ﴿ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فلا أعظم منه شهادة ، ولا أكبر ، وهو يشهد لي بإقراره وفعله ، فيقرني على ما قلت لكم ، كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ فالله حكيم قدير فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذبا عليه زاعما أن الله أرسله ولم يرسله وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره وأن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ونساءهم وهو مع ذلك يصدقه بإقراره وبفعله فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة وينصره ويخذل من خالفه وعاداه فأي شهادة أكبر من هذه الشهادة ؟"

وقوله ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أي وأوحى الله إليَّ هذا القرآن

الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم لأنذركم به من العقاب الأليم والنذارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب والترهيب وببيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التي مَن قام بها فقد قبل النذارة فهذا القرآنفيه النذارة لكم أيها المخاطبون وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية .

لما بيّن تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده قال قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله والمكذبين لرسله ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ ﴾ أي إن شهدوا فلا تشهد معهم .

(203/228)

فوازِنْ بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم وفسدت آراؤهم وأخلاقهم وأضحكوا على أنفسهم العقلاء .

بل خالفوا بشهادة فطرهم وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى مع أنه لا يقوم على ما قالوه أدنى شبهة فضلا عن الحجج واختر لنفسك أي الشهادتين إن كنت تعقل ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه الذي أمرنا الله بالاقتداء به فقال ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ

وَاحِدٌ ﴾ أي منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير . ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ به من الأوثان والأنداد وكل ما أشرك به مع الله فهذا حقيقة التوحيد إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 252.253 ﴾

(204/228)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . . . الآية ﴾

لقد اختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع القوم المناوئين له . والاختلاف يتطلب حكماً وبينة . والشهود هم إحدى البينات ، فما بالنا والشاهد هو الله ؟ ! إنه الشاهد والحكم والمنفذ . وشهادة الله لا تحايل فيها ، وحكمه لا ظلم فيه ، وإرادته لا تظلم عبداً مثقال ذرة ، ولا شهادة – إذن – أكبر من شهادة الحق لرسوله بأنه رسول من الله . ولو شاء الحق لجعلكم كلكم مؤمنين ، لكنه أراد للإنسان الاختيار . وحنان الرسول صلى الله عليه وسلم على البشر هو الذي جعله يتمنى إيمانهم ، لكن الحق يقول للرسول صلى الله عليه

وسلم : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 3-4] .

أي أن الحق يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشفق على نفسه وألاّ يقتلها بالحزن عليهم لعنادهم وعدم إيمانهم . ولو أراد الحق لجعلهم جميعاً مؤمنين بآية منه ؛ فمهمة الرسول هي البلاغ فقط . ولو شاء الحق لقهر الخلق جميعاً على الإيمان به كما سخّر الكون ليخدم الإنسان وليسبح الكون بحمد الله . لكنه سبحانه ترك للخلق الاختيار حتى يأتي إيمانهم مثبتاً صفة المحبوبية لله ؛ لأن إيمان المختار هو الذي يثبت تلك المحبوبية . والرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو نذير وبشير بهذا القرآن المُنزَّل عليه بالوحي .

(205/228)

والنذارة تأتي هنا لأن المجال مجال شهادة ؛ لأن الشهادة إنما تكون على خلاف ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإيمان ، والمناوئون له يدعون إلى الكفر وإلى الشرك ، وشهادة الله أكبر من كل شهادة أخرى . لذلك يقرر الحق هنا بأن الرسول نذير بالقرآن . وهذا خطاب موجه لتبليغ المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولَمن وصله بعد ذلك أي شيء من القرآن ، فكأنه قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ووصله البلاغ عنه . فقد قال –

سبحانه – : ﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ أي لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من البشر جميعاً .

ويوجه الحق على لسان رسوله سؤالاً استنكارياً للمناوئين فيقول : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخرى ﴾ . إنه سؤال من سائل يثق أن من يسمع سؤاله لا بد أن ينفي وجود آلهة أخرى غير الله . إنه سؤال يستنبط الإقرار من سامعه . والمثال على هذا ما عرضه الحق على رسوله من أمر قد حدث في عام ميلاده فيقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] .

ونعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ما حدث في عام الفيل ؛ لأنه عام ميلاده ، ولكن حين يخبره الله بذلك فمعنى هذا أنه بلاغ عن الله ، والبلاغ عن الله يجعل الخبر القادم منه فوق الرؤية وأوثق وأكد منها .

وهنا يأتي السؤال الاستنكاري : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخرى ﴾ . وعندما أعجزهم هذا السؤال في بعض مراحل الدعوة قال بعضهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ﴾ [الزمر : 3] .

وكأنهم أخيراً يعترفون أن المتقرَّب إليه هو الله ، ولكن الحق يحسم أمر الشرك فيقول على لسان رسوله : ﴿ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِله وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يشهد بأي آلهة غير الله ، وألقى إليهم السؤال الاستنكاري لعلهم يديرون رءوسهم ليهتدوا إلى صحيح الإجابة التي يوجزها الحق في قوله للرسول : ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِله وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

إن الكلام هنا موجه إلى فئة من المناوئين لرسول الله من عبدة الأوثان ، وهم بعض من الكافرين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبعض الآخر هم بعض من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين تغافلوا عن الكتب المنزلة إليهم ، وغابت عنهم الخمائر الإيمانية التي كانت ترد العاصي عن معصيته ، فانتشر الفساد في الكون . لذلك أرسل الحق رسوله صلى الله عليه وسلم لأن العاصي لم يجد من يرده ، واختفت من المجتمع في ذلك الوقت النفس اللوامة ، وسادت فيه النفس الأمارة بالسوء .

إن الحق سبحانه لم يترك أمر الرسول غائباً عن البشر ، فقد كان الرسول في كل أمةٍ ينبئ ويخبر عن الرسول الذي يليه حتى يستعد الناس لاستقبال النذير والبشير ، ولذلك كانت كل الرسالات تتنبأ بالرسل القادمين حتى لا يظنوا أن مدّعيا اقتحم عليهم قداسة دينهم ، ولأن الإسلام جاء ديناً عاماً ، فلم يأت الخبر فقط بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة ، ولكن جاءت أوصافه وسماته أيضاً واضحة وبيّنه فيها .

إن الذين قرأوا هذه الأوصاف لو أخرجوا أنفسهم عن سلطتهم الزمنية لآمنوا على الفور برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كما فعل " عبد الله بن سلام " رضي الله عنه حين قال : لقد عرفته حين رأيته وعرفته كابني ، ومعرفتي لمحمد أشد ونسي هؤلاء أنهم هم الذين نُصروا برسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يدروا ؛ فقد كانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج ، وقالوا للأوس والخزرج : قَرُب مجيء نبي منكم سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . وأسرع الأوس والخزرج للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين :

لعل هذا هو النبي الذي توعدتنا به يهود ، هيا نسبق إليه .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتحم العالم بهذا الدين ، بل عَرَفَ نبأ مقدمه وبعثه وصورته ونعته كلُّ من له صلة بكتاب من كتب السماء . إنهم يعلمون أنه الرسول الخاتم الذي ختمت به أخبار السماء إلى الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فصل

قال فى الميزان :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (19) ﴾

احتجاج على الوحدانية من طريق الوحى فإن وحدة الإله وانتفاء الشريك عنه وإن كانت مما يناله العقل بوجوه من النيل فلا مانع من إثباته من طريق الوحى الصريح الذى لا مرية فيه ، فالمطلوب هو اليقين بأنه تعالى إله واحد لا شريك له ، وإذا فرض حصوله من طريق الوحى الذى لا يداخله ريب في كونه وحيا إلهيا كالقرآن المتكئ على التحدي فلا مانع من الاستناد إليه .

قوله تعالى : (قل أي شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم) أمر نبيه أن يسألهم عن أكبر الأشياء من حيث الشهادة ، والشهادة هي تحمل الخبر عن نوع من العيان كالابصار ونحوه ، وأداء ما تحمل كذلك بالاخبار والانباء ، وإذ كان التحمل والاداء – وخاصة التحمل – مما يختلف بحسب إدراك المتحملين وبحسب وضوح الخبر الذى تحمله المتحمل ، وبحسب قوة المؤدى بيانا وضعفه اختلافا فاحشا .

فليس المتحمل الذى يغلب على مزاجه السهو والنسيان أو الغفلة كالذى يحفظ ما يعيه

سمعه ويقع عليه بصره ، وليس الصاحى كالسكران ولا الخبير الاخصائى بأمر كالأجنبي الأعزل .

وإذا كان الأمر على ذلك فلا يقع ريب في أن الله سبحانه هو أكبر من كل شئ شهادة فإنه هو الذى أوجد كل ما دق وجل من الأشياء ، وإليه ينتهى كل أمر وخلق ، وهو المحيط بكل شئ ومع كل شئ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لا يضل ولا ينسى .

(209/228)

ولكون الأمر بينا لا يقع فيه شك لم يحتج إلى إيراد الجواب في اللفظ بأن يقال : قل الله أكبر شهادة ، كما قيل : (قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله) (الأنعام : 12) أو يقال : سيقولون الله ، كما قيل : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله) (المؤمنون : 85) .

على أن قوله : (قل الله شهيد بينى وبينكم) يدل عليه ويسد مسده ، وليس من البعيد أن يكون قوله (شهيد) خبرا لمبتدء محذوف هو الضمير العائد إلى الله ، والتقدير : (قل الله هو شهيد بينى وبينكم) فتشتمل الجملة على جواب السؤال وعلى ما استؤنف من الكلام

.

وقوله : (قل الله شهيد بيني وبينكم) على أنه يشتمل على إخباره صلى الله عليه واله بشهادة الله تعالى هو بنفسه شهادة لمكان قوله : (قل) إذ أمره بأن يخبرهم بشهادته تعالى بالنبوة لا ينفك عن الشهادة بذلك ، وعلى هذا فلا حاجة إلى التشبث بأنواع ما وقع في القرآن الكريم من شهادة الله تعالى على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم وعلى نزول القرآن من عنده كقوله تعالى : (والله يعلم إنك لرسوله) (: المنافقون : 1) أو قوله : (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه) (النساء : 166) وغير ذلك من الآيات الدالة على ذلك تصريحا أو تلويحا بلفظ الشهادة أو بغيره .

وتقيد شهادته تعالى بقوله (بيني وبينكم) يدل على توسط تعالى بين طرفين متخاصمين هما النبي صلى الله عليه وآله وقومه ، والنبي لم ينعزل عنهم ولم يتميز منهم في جانب إلا في دعوى النبوة والرسالة ودعوى نزول القرآن لكن نزول القرآن بالوحي قد ذكر بعد في قوله : (وأوحي إلى هذا القرآن) فالمراد بشهادته تعالى بينه وبينهم شهادته بنبوته ، ويؤيده أيضا قوله في الآية التالية : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) على ما سيجئ إن شاء الله .

قوله تعالى : (وأوحي إلى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) من مقول القول

وهو معطوف على قوله : (الله شهيد) الخ ، وجعل الإنذار غاية لنزول القرآن الكريم أخذ بمسلك الخوف في الدعوة النبوية ، وهو الأوقع في أفهام عامة الناس فإن مسلك الرجاء والوعد وإن كان أحد الطريقين في الدعوة ، وقد استعمله الكتاب العزيز في الجملة لكن رجاء الخير لا يبعث إلى طلبه بعثا الزاميا وانما يورث شوقا ورغبه بخلاف الخوف لوجوب دفع الضرر المحتمل عقلا .

ولأن دعوة الإسلام إنما هي إلى دين الفطرة ، وهو مخزون مكنوز في فطرة الناس وإنما حجبهم عنه ما ابتلوا به من الشرك والمعصية مما يوجب عليهم غلبه الشقوة ونزول السخط الإلهى فالاقرب إلى الحكمة والحزم في دعوتهم أن تبدأ بالإنذار ، ولهذا كله ربما حصر شأن النبي صلى الله عليه اله وفي الإنذار كما في قوله : (إن أنت إلا نذير) (الفاطر : 23) وقوله : (وإنما أنا نذير مبين) (العنكبوت : 50) .

هذا في عامة الناس وأما الخاصة من عباد الله ، وهم الذين يعبدونه حبا له لا خوفا من نار ولا طمعا في جنة فإنهم يتلقون من الدعوة بالخوف والرجاء أمرا آخر فإنهم يتلقون من النار أنها دار بعد وسخط فيخافونها لذلك ، ومن الجنة أنها ساحة قرب ورضوان فيشتاقون إليها لذلك .

وظاهر قوله : (لأنذركم به ومن بلغ) أنه خطاب لمشركي مكة أو لقريش وللعرب عامة إلا

أن التقابل بين ضمير الخطاب وبين من بلغ – والمراد بمن بلغ هو من لم يشافهه النبي صلى الله عليه وآله بالدعوة في زمن حياته أو بعده – يدل على أن المراد بالمخاطبين في قوله : (لانذركم به هم) الذين شافههم النبي صلى الله عليه واله بالدعوة ممن تقدم دعاءه على نزول الايه أو قارنه أو تأخر عنه .

(211/228)

فقوله : (وأوحى إلى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) يدل على عموم رسالته عليه السلام بالقرآن لكل من سمعه منه أو سمعه من غيره إلى يوم القيامة ، وإن شئت فقل : تدل الآية على كون القرآن الكريم حجة من الله وكتابا له ينطق بالحق على أهل الدنيا من لدن نزوله إلى يوم القيامة .

وقد قيل : (لأنذركم به) ولم يقل : لأنذركم بقراءته فالقرآن حجة على من سمع لفظه وعرف معناه واهتدى إلى مقاصده ، أو فسر له لفظه وقرع سمعه بمضامينه بل أن تقوم عليهم حجته وتشملهم مضامينه ، وقد دعا صلى الله عليه وآله بكتابه إلى مصر والحبشة والروم وإيران ولسانهم غير لسان القرآن ، وقد كان فيمن آمن به في حياته وقبل إيمانهم سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وعدة من اليهود ولسانهم عبرى هذا كله

مما لا ريب فيه .

قوله تعالى : (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد) إلى آخر الآية ، لما ذكر شهادة الله وهو أكبر شهادة على رسالته ولم يرسل إلا ليدعوهم إلى دين التوحيد ، وليس لأحد بعد شهادة الله سبحانه على أن لا شريك له في ألوهيته أن يشهد أن مع الله آلهة أمر نبيه أن يسألهم سؤال متعجب منكر : هل يشهدون بتعدد الالهة ، وهذا هو الذى يدل عليه تأكيد المسئول عنه بأن واللام ، كأن النفس لا تقبل أن يشهدوا به بعد أن سمعوا شهادة الله تعالى .

ثم أمره أن يخالفهم في الشهادة فينفي عن نفسه الشهادة بما شهدوا به فقال : (قل لا أشهد) أي بما شهدتم به بقرينة المقام ، ثم قال : (قل إنما هو إله واحد وإنني برئ مما تشركون) وهو شهادة على وحدانيته تعالى ، والبراءة مما يدعون له من شركاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الميزان حـ 5 صـ 37 . 40 ﴾

(212/228)

فصل نفيس فى (أَسْئِلَةٌ مِنْ طَرَابُلُس الشَّامِ) وَرَدَتْ عَلَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكى رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ بِالْقَاهِرَةِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةِ (الدَّلَالَةُ

عَلَى عُمُومِ الرِّسَالَةِ)

(السُّؤَالُ الْأَوَّلُ) فِيمَنْ ذَهَبَ مِنْ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ إلَى وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِكَوْنِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثًا إلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ كَافَّةً وَأَنَّ رِسَالَتَهُ شَامِلَةٌ لِلثَّقَلَيْنِ .

وَهُوَ سُؤَالٌ مَبْسُوطٌ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَرَى أَنْ أَذْكُرَ السُّؤَالَ كُلَّهُ مُسْتَوْفًى لَكِنْ أُقَطِّعُهُ فَأَذْكُرُ كُلَّ قِطْعَةٍ مِنْهُ وَجَوَابَهَا لِيَحْصُلَ بِذَلِكَ اسْتِيعَابُ كَلَامِ السَّائِلِ وَجَوَابِهِ .

فَأَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ : كَوْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثًا إلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ كَافَّةً وَأَنَّ رِسَالَتَهُ شَامِلَةٌ لِلثَّقَلَيْنِ فَلَا أَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا وَنَقَلَ جَمَاعَةٌ الْإِجْمَاعَ عَلَيْهِ .

وَكَوْنُ ذَلِكَ مِمَّا يَثْبُتُ بِالْإِجْمَاعِ وَكَوْنُهُ قَطْعِيًّا أَوْ ظَنِّيًّا سَيَأْتِي عِنْدَ ذِكْرِ السَّائِلِ لَهُ .

(213/228)

وَأَدِلَّةُ ذَلِكَ تَأْتِي قَرِيبًا عِنْدَ طَلَبِ السَّائِلِ الدَّلِيلَ ، وَأَمَّا وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ فَصَحِيحٌ بِمَعْنَى تَصْدِيقِ مَا جَاءَ بِالْأَخْبَارِ عَنْهُ مِنْ الْأَدِلَّةِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ بَعْدَ الْإِحَاطَةِ بِهَا ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَجِبُ وَيُشْتَرَطُ فِي الْإِيمَانِ اعْتِقَادُ ذَلِكَ وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا إلَّا بِهِ حَتَّى يَجِبَ عَلَيْهِ تَحْصِيلُ سَبَبِهِ فَإِنَّ الْعَامِّيَّ لَوْ أَقَامَ دَهْرَهُ لَا يَعْتَقِدُ ذَلِكَ وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ وَلَا عَرَفَ شَيْئًا مِنْ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ كَانَ مُؤْمِنًا

وَلَيْسَ بِعَاصٍ بِتَأْخِيرِ تَعَلُّمِهِ لِذَلِكَ أَوْ تَرْكِهِ إذَا قَامَ غَيْرُهُ بِهِ ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ مِنْ الْمُحَقِّقِينَ بِوُجُوبِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا قُلْنَاهُ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ كُلَّهَا وَجَمِيعَ مَا وَرَدَ فِيهَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ إجْمَالًا وَأَمَّا تَفْصِيلًا فَمِنْهُ مَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ مَا لَا يَصِيرُ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا إلَّا بِهِ وَمَا يَعُمُّ وُجُوبُهُ لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ كَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا ، وَمِنْهُ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ فَلَا يَجِبُ إلَّا عَلَى مَنْ احْتَاجَ إلَيْهِ أَوْ مَنْ عَلِمَ بِدَلِيلِهِ وَهَذَا مِنْهُ ، وَسَتَأْتِي زِيَادَةُ بَيَانٍ فِي ذَلِكَ .

(214/228)

قَالَ السَّائِلُ أَكْرَمَهُ اللَّهُ : مَا الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ ؟ أَقُولُ : الدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَبْلَ الْإِجْمَاعِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ : أَمَّا الْكِتَابُ فَآيَاتٌ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى دُخُولِ الْجِنِّ فِي ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ مَدْلُولُ لَفْظِهَا فَلَا يُخْرَجُ عَنْهُ إلَّا بِدَلِيلٍ ، وَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْمَلَائِكَةَ خَارِجُونَ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَضُرُّ ؛ لِأَنَّ الْعَامَّ الْمَخْصُوصَ حُجَّةٌ فِي الْبَاقِي وَالنَّذِيرُ هُوَ الْمُخْبِرُ بِمَا يَقْتَضِي الْخَوْفَ وَإِخْبَارُهُ إنَّمَا هُوَ عَنْ اللَّهِ وَذَلِكَ يَقْتَضِي كَوْنَهُ رَسُولًا إلَيْهِمْ عَنْهُ ، وَكَوْنُ الضَّمِيرِ فِي (لِيَكُونَ) لِلْفُرْقَانِ بَعِيدٌ بَلْ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِعَبْدِهِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ أَقْرَبُ وَالضَّمِيرُ لَا يَكُونُ لِغَيْرِ الْأَقْرَبِ إلَّا بِدَلِيلٍ .

وَالثَّانِي : أَنَّ وَصْفَهُ بِالنَّذِيرِ حَقِيقَةٌ وَوَصْفُ الْفُرْقَانِ بِهِ مَجَازٌ فَلَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْ الْحَقِيقَةِ

إلَى الْمَجَازِ بغَيْرِ دَلِيلٍ .

وَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ وَالْمُنْذِرُونَ هُمْ الْمُخَوِّفُونَ مِمَّا يَلْحَقُ بِمُخَالَفَتِهِ لَوْمٌ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إلَيْهِمْ لَمَا كَانَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَتَى بِهِ لَازِمًا لَهُمْ وَلَا خَوَّفُوا بِهِ .

وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ فِيهَا ﴿ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ فَأَمْرُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِإِجَابَتِهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ دَاعٍ لَهُمْ وَهُوَ مَعْنَى بَعْثِهِ إلَيْهِمْ .

وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ﴿ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ -

(215/228)

الْآيَةَ وَذَلِكَ يَقْتَضِي تَرْتِيبَ الْمَغْفِرَةِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِهِ شَرْطٌ فِيهَا وَإِنَّمَا يَكُونُ كَذَلِكَ إذَا تَعَلَّقَ حُكْمُ رِسَالَتِهِ بِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ مَبْعُوثًا إلَيْهِمْ .

وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ - الْآيَةَ فَعَدَمُ إعْجَازِهِمْ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَكَوْنُهُمْ فِي ضَلَالٍ مُرَتَّبٌ عَلَى عَدَمِ إجَابَتِهِ وَذَلِكَ أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَى بَعْثَتِهِ إلَيْهِمْ .

وَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ فَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَامِلٌ لَهُمْ وَارِدٌ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ اللَّهِ ، وَهُوَ يَقْتَضِي كَوْنَهُ مُرْسَلًا إلَيْهِمْ وَأَيُّ مَعْنًى

لِلرِّسَالَةِ غَيْرُ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ مُخَاطَبَتُهُمْ فِي بَقِيَّةِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا هَذِهِ السُّورَةُ .

وَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجِنِّ ﴿ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ فَإِنَّ قُوَّةَ هَذَا الْكَلَامِ تَقْتَضِي أَنَّهُمْ انْقَادُوا لَهُ وَآمَنُوا بَعْدَ شِرْكِهِمْ وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ فَهِمُوا أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ بِهِ ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي خَاطَبُوا بِهَا قَوْمَهُمْ .

وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ فِيهَا ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ﴾ وَكَذَا قَوْلُهُمْ ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ إلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

(216/228)

وَمِنْهَا قَوْله تَعَالَى ﴿ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ فَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْتَضِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذِرٌ بِالْقُرْآنِ كُلِّهِ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ جِنِّيًّا كَانَ أَوْ إنْسِيًّا ، وَهِيَ فِي الدَّلَالَةِ كَآيَةِ الْفُرْقَانِ أَوْ أَصْرَحُ فَإِنَّ احْتِمَالَ عَوْدِ الضَّمِيرِ عَلَى الْفُرْقَانِ غَيْرُ وَارِدٍ هُنَا ، فَهَذِهِ مَوَاضِعُ فِي الْفُرْقَانِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةً قَوِيَّةً أَقْوَاهَا آيَةُ الْأَنْعَامِ هَذِهِ وَتَلِيهَا آيَةُ الْفُرْقَانِ وَتَلِيهَا آيَاتُ الْأَحْقَافِ وَتَلِيهَا آيَاتُ الرَّحْمَنِ وَخِطَابُهَا فِي عِدَّةِ

الْآيَاتِ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وَتَلِيهَا سُورَةُ الْجِنِّ فَقَدْ جَاءَ تَرْتِيبُهَا فِي الدَّلَالَةِ وَالْقُوَّةِ كَتَرْتِيبِهَا فِي الْمُصْحَفِ .

(217/228)

وَفِي الْقُرْآنِ أَيْضًا مَا يَدُلُّ لِذَلِكَ ، وَلَكِنَّ دَلَالَةَ الْإِطْلَاقِ اعْتَمَدَهَا كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ فِي مَبَاحِثَ ، وَهُوَ اعْتِمَادٌ جَيِّدٌ وَهُوَ هُنَا أَجْوَدُ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِنْذَارِ ، الْمُطْلَقِ إذَا لَمْ يَتَقَيَّدْ بِقَيْدٍ يَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنِ الْمَأْمُورِ فِي الْإِتْيَانِ بِهِ فِي أَيِّ فَرْدٍ شَاءَ مِنْ أَفْرَادِهِ وَفِي كُلِّهَا وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَامِلُ الشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ وَالنَّصِيحَةِ لَهُمْ وَالدُّعَاءِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَمَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْ ذَلِكَ لَا يَتْرُكُهُ فِي شَخْصٍ مِنْ الْأَشْخَاصِ وَلَا فِي زَمَنٍ مِنْ الْأَزْمَانِ وَلَا فِي مَكَانٍ مِنْ الْأَمْكِنَةِ ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَالَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُعْلَمُ أَيْضًا مِنْ الشَّرِيعَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُرِدْ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ مُطْلَقَ الْإِنْذَارِ حَتَّى يُكْتَفَى بِإِنْذَارِ وَاحِدٍ لِشَخْصٍ وَاحِدٍ بَلْ أَرَادَ التَّشْمِيرَ وَالِاجْتِهَادَ فِي ذَلِكَ .

فَهَذِهِ الْقَرَائِنُ تُفِيدُ الْأَمْرَ بِالْإِنْذَارِ لِكُلِّ مَنْ يُفِيدُ فِيهِ الْإِنْذَارُ ، وَالْجِنُّ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ سُفَهَاءُ وَقَاسِطُونَ وَهُمْ مُكَلَّفُونَ فَإِذَا أُنْذِرُوا رَجَعُوا عَنْ ضَلَالِهِمْ فَلَا يَتْرُكُ النَّبِيُّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُعَاءَهُمْ .

وَالْآيَةُ بِالْقَرَائِنِ الْمَذْكُورَةِ مُفِيدَةٌ لِلْأَمْرِ بِذَلِكَ فَتَثْبُتُ الْبَعْثَةُ إلَيْهِمْ بِذَلِكَ .

(218/228)

وَمِنْهَا كُلُّ آيَةٍ فِيهَا لَفْظُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَفْظُ الْكَافِرِينَ مِمَّا فِيهِ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ صِفَتَانِ لِمَحْذُوفٍ وَالْمَوْصُوفُ الْمَحْذُوفُ لَا يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ بَلْ الْمُكَلَّفِينَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ

يَكُونُوا إنْسًا أَوْ جِنًّا .

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا أَمْكَنَ الِاسْتِدْلَالُ بِمَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى مِنْ الْآيَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فَالْجِنُّ الَّذِينَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ لَيْسُوا مُفْلِحِينَ وَإِنَّمَا يَكُونُ كَذَلِكَ ، وَإِذَا ثَبَتَتْ رِسَالَتُهُ فِي حَقِّهِمْ ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ وَكَقَوْلِهِ ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إنَّمَا تُنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ وَمِنْ الْجِنِّ كَذَلِكَ .

وَلَوْ تَتَبَّعْنَا الْآيَاتِ الَّتِي مِنْ هَذَا الْجِنْسِ جَاءَتْ كَثِيرَةً فَنَكْتَفِي بِالْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ عَاضِدَةً لَهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِتَكْثِيرِ الْأَدِلَّةِ أَنَّ الْآيَةَ الْوَاحِدَةَ وَالْآيَتَيْنِ قَدْ يُمْكِنُ تَأْوِيلُهَا وَيَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا الِاحْتِمَالُ فَإِذَا كَثُرَتْ قَدْ تَتَرَقَّى إِلَى حَدٍّ يَقْطَعُ بِإِرَادَةِ ظَاهِرِهَا وَيَنْفِي الِاحْتِمَالَ وَالتَّأْوِيلَ عَنْهَا .

(219/228)

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ الْعَلَاءِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ ﴾ وَهَذَا الْحَدِيثُ انْفَرَدَ مُسْلِمٌ بِإِخْرَاجِهِ عَنْ الْبُخَارِيِّ .

وَجَاءَنِي سُؤَالٌ مِنْ جِهَةِ هَذَا السَّائِلِ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَفِيهِ نِسْبَةُ هَذَا الْحَدِيثِ إلَى الْبُخَارِيِّ وَلَيْسَ كَذَلِكَ .

وَمَحِلُّ الِاسْتِدْلَالِ قَوْلُهُ ﴿ وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ﴾ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَحَمْلُهُ عَلَى الْإِنْسِ خَاصَّةً تَخْصِيصٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ فَلَا يَجُوزُ وَالْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ

عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَلْقِ النَّاسُ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أُعْطِيت خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي فَذَكَرَ مِنْ جُمْلَتِهَا وَأُرْسِلْت إلَى النَّاسِ كَافَّةً ﴾ .

قُلْنَا : لَوْ كَانَ هَذَا حَدِيثًا وَاحِدًا كُنَّا نَقُولُ : لَعَلَّ هَذَا اخْتِلَافٌ مِنْ الرُّوَاةِ وَلَكِنَّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ : إنَّهُمَا حَدِيثَانِ ؛ لِأَنَّ حَدِيثَ مُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَفِيهِ سِتُّ خِصَالٍ ، وَحَدِيثُ الْبُخَارِيِّ مِنْ رِوَايَةِ جَابِرٍ وَفِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ وَالظَّاهِرُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَهُمَا فِي وَقْتَيْنِ .

(220/228)

وَفِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ زِيَادَةٌ فِي عِدَّةِ الْخِصَالِ وَفِي سُنَنِ الْمُرْسَلِ إلَيْهِمْ فَيَجِبُ إثْبَاتُهَا زِيَادَةً عَلَى عَدَدِ الْخِصَالِ وَفِي سُنَنِ الْمُرْسَلِ إلَيْهِمْ فَيَجِبُ إثْبَاتُهَا زِيَادَةً عَلَى حَدِيثِ جَابِرٍ ، وَلَيْسَ بِنَا ضَرُورَةٌ إلَى حَمْلِ أَحَدِ الْحَدِيثَيْنِ عَلَى الْآخَرِ إذْ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا ، بَلْ هُمَا حَدِيثَانِ مُخْتَلِفَا الْمَخْرَجِ ، وَالْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ فِي أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ ، وَخَرَّجَ كُلٌّ مِنْ صَاحِبَيْ الصَّحِيحَيْنِ وَاحِدًا مِنْهُمَا وَلَمْ يَذْكُرْ الْآخَرَ .

وَذَكَرَ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ الْمَقْدِسِيُّ حَدِيثَ جَابِرٍ فِي الْعُمْدَةِ وَفِي لَفْظِهِ إلَى النَّاسِ ، وَقَدْ اشْتَرَطَ فِيهَا أَنْ يَكُونَ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْإِمَامَانِ .

وَهَذَا اللَّفْظُ فِي الْبُخَارِيِّ خَاصَّةً دُونَ مُسْلِمٍ وَإِنَّمَا فِي مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ ﴿ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ ﴾ وَعَبْدُ الْغَنِيِّ كَانَ حَافِظًا يَذْكُرُ الْمُتُونَ مِنْ حِفْظِهِ فَوَقَعَ لَهُ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يُنْتَقَدُ عَلَيْهِ وَالْحَامِلُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ حَدِيثَ جَابِرٍ بِأَكْثَرِ أَلْفَاظِهِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا انْفَرَدَ الْبُخَارِيُّ بِهَذِهِ اللَّفْظَةِ الْوَاحِدَةِ وَهِيَ أَشْهُرُ فَجَرَتْ عَلَى لِسَانِ عَبْدِ الْغَنِيِّ وَلَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ تَحْرِيرَ ذَلِكَ

؛ لِأَنَّهُ مُصَنَّفٌ فِي بَابِ التَّيَمُّمِ وَمَقْصُودُهُ مِنْهُ حَاصِلٌ بِغَيْرِهَا .

فَهَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنْ مُسْلِمٍ وَاسْتَدْلَلْنَا بِهِ أَصْرَحُ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الدَّالَّةِ عَلَى شُمُولِ الرِّسَالَةِ لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ .

(221/228)

وَرَوَى وَثِيمَةُ بْنُ مُوسَى مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ أُرْسِلْتُ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَإِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا وَطَهُورًا ﴾ وَذَكَرَ بَاقِيَ الْحَدِيثِ فِي خَصَائِصِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِ بَعْضُ طُولٍ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْرَحُ مِنْ حَدِيثِ مُسْلِمٍ لَكِنَّهُ لَيْسَ فِي الصِّحَّةِ مِثْلَهُ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أُعْطِيت خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْت إلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ وَنُصِرْت بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَأُعْطِيت الشَّفَاعَةَ ﴾ وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْغَرِيبِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ " أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ " فَقِيلَ : الْعَجَمُ وَالْعَرَبُ ، وَقِيلَ : الْجِنُّ وَالْإِنْسُ فَعَلَى هَذَا هُوَ صَرِيحٌ فِي الْمَقْصُودِ .

(222/228)

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ ﴿ : انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُبُ قَالُوا : مَا ذَاكَ إلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ وَهُوَ بِجَبَلِ عَامِدِينَ إلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ وَقَالُوا : هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَرَجَعُوا إلَى

قَوْمِهِمْ فَقَالُوا : إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ قُلْ أُوحِيَ إلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ ﴾ ﴾ .

(223/228)

زَادَ مُسْلِمٌ فِي أَوَّلِ هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ ثُمَّ اتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ عِنْدِ قَوْلِهِ : انْطَلَقَ ، وَلَيْسَتْ الزِّيَادَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْبُخَارِيِّ وَلَيْسَ مُرَادُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِهَا إنْكَارَ قِرَاءَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْجِنِّ أَوْ رُؤْيَتِهِ لَهُمْ مُطْلَقًا بَلْ فِي تِلْكَ الْمَرَّةِ الَّتِي حَكَاهَا فِي آخِرِ كَلَامِهِ ، وَلَوْ أَرَادَ ذَلِكَ لَعَارَضَهُ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي سَنَذْكُرُهُ ، وَيُقَدَّمُ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ ؛ لِأَنَّهُ إثْبَاتٌ .

وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ نَفْيٌ وَالْإِثْبَاتُ مُقَدَّمٌ عَلَى النَّفْيِ لَا سِيَّمَا وَقِصَّةُ الْجِنِّ كَانَتْ بِمَكَّةَ وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ إذْ ذَاكَ طِفْلًا أَوْ لَمْ يُولَدْ بِالْكُلِّيَّةِ فَهُوَ إنَّمَا يَرْوِيهَا عَنْ غَيْرِهِ وَابْنُ مَسْعُودٍ يَرْوِيهَا مُبَاشَرَةً عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَالْأَوْلَى أَنْ يُجْعَلَ كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ غَيْرَ مُعَارِضٍ لِكَلَامِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَنْ يَكُونَا مَرَّتَيْنِ .

إحْدَاهُمَا الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَهِيَ الَّتِي أَشَارَ إلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ وَفِي

سُورَةِ الْجِنِّ لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصَدَهُمْ وَلَا شَعَرَ بِهِمْ وَلَا رَآهُمْ وَلَا قَرَأَ عَلَيْهِمْ قَصْدًا بَلْ سَمِعُوا قِرَاءَتَهُ وَآمَنُوا بِهِ كَمَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ .

وَثُبُوتُهَا

مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ قَطْعِيٌّ .

(224/228)

وَأَهْلُ السِّيَرِ يَقُولُونَ : إنَّ ذَلِكَ ﴿ لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ وَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الطَّائِفِ وَمَعَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَذَلِكَ سَنَةَ عَشْرٍ مِنْ الْبَعْثَةِ فَأَقَامَ بِالطَّائِفِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ رَجَعَ إلَى مَكَّةَ فَلَمَّا نَزَلَ نَخْلَةَ قَامَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ فَصُرِفَ إلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴾ فِي هَذَا السِّيَاقِ مَا يُخَالِفُ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ فَلَعَلَّ اسْتِمَاعَهُمْ فِي الصَّلَاةِ حَصَلَ مَرَّتَيْنِ وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ لَا غَرَضَ فِيهِ ، وَالْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ قَدْ نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ وَهُوَ اسْتِمَاعُهُمْ لِقِرَاءَتِهِ وَإِيمَانُهُمْ بِهِ .

وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ زِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ رُجُوعُهُمْ إلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ وَقَوْلُهُمْ لَهُمْ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الدَّلَالَةِ فِي تَعَلُّقِ الشَّرِيعَةِ بِهِمْ فَلِذَلِكَ ذَكَرْنَا حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَتَعَلُّقُ السَّائِلِ بِهِ فِي ضِدِّ ذَلِكَ سَنُجِيبُ عَنْهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَلَوْ لَمْ يَثْبُتْ فِي قِصَّةِ الْجِنِّ إلَّا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ لَكَفَى لِإِسْمَاعِهِمْ الْقُرْآنَ كَافٍ فِي وُصُولِ الشَّرِيعَةِ إلَيْهِمْ ، وَقَدْ قَامَتْ الْأَدِلَّةُ عَلَى عُمُومِهَا مِنْ غَيْرِهِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاصِدٌ التَّبْلِيغَ لِكُلِّ مَنْ أُرْسِلَ إلَيْهِ فَمُجَرَّدُ وُصُولِ ذَلِكَ الْبَلَاغِ إلَيْهِ كَانَ شَعَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْ لَمْ يَشْعُرْ وَقَدْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ فَعُلِمَ حُصُولُ الْبَلَاغِ لَهُمْ ، وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ لِئَلَّا يَقُولَ قَائِلٌ : لَوْ كَانَ رَسُولًا إلَيْهِمْ لَقَصَدَ إبْلَاغَهُمْ .

فَجَوَابُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ وَأَنَّ الْبَلَاغَ قَدْ حَصَلَ بِإِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ وَهُوَ كَافٍ كَمَا يَحْصُلُ لِمَنْ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ مِنْ الْإِنْسِ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى قَالَ : حَدَّثَنِي عَبْدُ الْأَعْلَى

عَنْ دَاوُد عَنْ عَامِرٍ قَالَ : ﴿ سَأَلْت عَلْقَمَةَ هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ ؟ قَالَ : لَا وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ

فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ بِالْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ فَقُلْنَا : اسْتُطِيرَ أَوْ اغْتِيلَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءَ مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ طَلَبْنَاكَ فَفَقَدْنَاكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ ، فَقَالَ أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ قَالَ : فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عِنْدَ مُسْلِمٍ قَالَ الشَّعْبِيُّ وَكَانَ مِنْ جِنِّ الْجَزِيرَةِ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِ الشَّعْبِيِّ مُفَصَّلًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عِنْدَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : لَمْ أَكُنْ لَيْلَةَ الْجِنِّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَدِدْت أَنِّي كُنْت مَعَهُ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ وَدَّ لَوْ كَانَ مَعَهُ عِنْدَ ذَهَابِهِ إِلَيْهِمْ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ مُطْلَقًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ هُوَ وَالصَّحَابَةُ مَعَهُ .

(227/228)

وَجَمِيعُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ مُتَّفِقَةٌ عَلَى أَنَّ دَاعِيَهُمْ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ قَاصِدًا وَاجْتَمَعَ بِهِمْ وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ ، وَهِيَ وَاقِعَةٌ

أُخْرَى بِلَا شَكٍّ غَيْرُ الْوَاقِعَةِ الَّتِي رَوَاهَا ابْنُ عَبَّاسٍ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ .

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد ﴿ عَنْ

ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ لَيْلَةَ الْجِنِّ مَا فِي إدَاوَتِك قَالَ نَبِيذٌ قَالَ تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ ﴾ .

وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَبُو زُرْعَةَ وَغَيْرُهُ وَبَيَّنُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَهُوَ كَمَا قَالُوهُ فَلَا يُعَارِضُ مَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ .

وَفِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ ﴿ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ أَذِنَتْهُ ﴾ يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِمْ شَجَرَةٌ ، وَهَذَا كَأَنَّهُ إشَارَةٌ إلَى الْقِصَّةِ الَّتِي رَوَاهَا ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَلَمْ يُخْرِجْ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَّةِ الْجِنِّ إلَّا هَذِهِ الْقِطْعَةَ .

وَفِي الْبُخَارِيِّ وَحْدَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : وَأَنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ وَنِعْمَ الْجِنُّ فَسَأَلُونِي الزَّادَ فَدَعَوْت اللَّهَ لَهُمْ أَنْ لَا يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلَا رَوْثَةٍ إلَّا وَجَدُوا عَلَيْهَا طُعْمًا ﴾ .

وَهَذَا الْحَدِيثُ وَحْدَهُ لَا يَدُلُّ فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قِرَاءَتُهُ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ لِلِاتِّعَاظِ بِهِ وَسُؤَالُهُ لَهُمْ الزَّادَ ، وَجَوَابُهُمْ قَدْ بَيَّنَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ بِالدُّعَاءِ فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُبَاحًا لَهُمْ بِالْأَصْلِ أَوْ بِشَرِيعَةٍ أُخْرَى أَوْ لَا يَكُونُوا مُكَلَّفِينَ بِذَلِكَ الْفَرْعِ الْخَاصِّ فَدَعَا لَهُمْ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الزَّادُ لَهُمْ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَعَلُّقُ حُكْمٍ لَهُمْ لَكِنَّ الْأَدِلَّةَ الْمُتَقَدِّمَةَ تَكْفِي فِي تَعَلُّقِ الْأَحْكَامِ بِهِمْ فَيَحْتَمِلُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَإِطْلَاقُ الزَّادِ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ الْأَدِلَّةِ لَا يَدُلُّ بِمُفْرَدِهِ فَإِذَا انْضَمَّ إلَى غَيْرِهِ بَانَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ وَحَصَلَتْ الدَّلَالَةُ ، وَمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ .

وَرُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ أَوْ قُرِئَتْ عِنْدَهُ فَقَالَ : مَا لِي أَسْمَعُ الْجِنَّ أَحْسَنَ جَوَابًا

مِنْكُمْ ؛ قَالُوا : وَمَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلَّا قَالَتْ الْجِنُّ : لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّنَا نُكَذِّبُ ﴾ .

كَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ بِهَذَا اللَّفْظِ مِنْ حَدِيثِ إسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ

.

وَرَوَاهُ غَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ .

(229/228)

وَهَذَا الْجَوَابُ مِنْ الْجِنِّ إمَّا أَنْ يَكُونَ لَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْجِنِّ أَوْ غَيْرِهَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا حَاضِرِينَ عِنْدَهُ فِي مَجْلِسِهِ مَعَ الصَّحَابَةِ وَالصَّحَابَةُ لَا يَرَوْنَهُمْ فَإِنَّ فِي اللَّفْظِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنْ ابْنِ جَرِيرٍ مَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَظَاهِرُهُ أَنَّ الْخِطَابَ لَهُمْ وَلِلْإِنْسِ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَلِّغٌ لَهُمْ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ مَعْنَى الرِّسَالَةِ ، وَقَوْلُ الْفَرَّاءِ وَابْنِ الْأَنْبَارِيِّ إنَّ قَوْلَهُ (تُكَذِّبَانِ) مِنْ خِطَابِ الْوَاحِدِ بِخِطَابِ الِاثْنَيْنِ بَعِيدٌ وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى خِلَافِهِ وَأَنَّهُ خِطَابٌ لِلثَّقَلَيْنِ .

فَهَذَا مَا حَضَرَنِي مِنْ الْأَدِلَّةِ لِذَلِكَ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَوْ تَتَبَّعْت رُبَّمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ ، وَمِنْ الْأَدِلَّةِ أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَشَرِيعَتُهُ آخِرُ الشَّرَائِعِ وَنَاسِخَةٌ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ قَبْلَهَا وَلَا شَرِيعَةَ بَاقِيَةً الْآنَ غَيْرَ شَرِيعَتِهِ وَلِذَلِكَ إذَا نَزَلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْجِنُّ مُكَلَّفِينَ بِهَا لَكَانُوا إمَّا مُكَلَّفِينَ بِشَرِيعَةٍ غَيْرِهَا وَهُوَ خِلَافُ مَا تَقَرَّرَ وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونُوا مُكَلَّفِينَ أَصْلًا ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بِذَلِكَ وَلَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِهِ ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ طَافِحٌ بِتَكْلِيفِهِمْ .

(230/228)

قَالَ تَعَالَى ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ ، وَدُخُولُهُمْ النَّارَ دَلِيلُ تَكْلِيفِهِمْ ، وَهَذَا أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ فَإِنَّ تَكْلِيفَهُمْ مَعْلُومٌ مِنْ الشَّرْعِ بِالضَّرُورَةِ وَتَكْلِيفُهُمْ بِغَيْرِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ يَسْتَلْزِمُ بَقَاءَ شَرِيعَةٍ مَعَهَا فَثَبَتَ أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ كَالْإِنْسِ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي اخْتِصَاصِ رِسَالَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْإِنْسِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْت إلَى النَّاسِ عَامَّةً ﴾ وَاحْتِمَالُ غَيْرِ ذَلِكَ عُدُولٌ عَنْ الظَّاهِرِ .

(231/228)

أَقُولُ : دَعْوَى أَنَّ الْأَدِلَّةَ الْمَذْكُورَةَ ظَاهِرَةٌ فِي اخْتِصَاصِ رِسَالَتِهِ إلَى الْإِنْسِ مَمْنُوعَةٌ ، وَعَجَبٌ مِنْ السَّائِلِ الْفَاضِلِ دَعْوَاهُ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا إنَّمَا يُمْكِنُ تَمْشِيَتُهُ عَلَى مَذْهَبِ الدَّقَّاقِ الْقَائِلِ بِأَنَّ مَفْهُومَ اللَّقَبِ حُجَّةٌ ، وَالنَّاسُ مِنْ قَبِيلِ اللَّقَبِ فَإِنَّ الْمَسْأَلَةَ الْمُتَرْجَمَةَ فِي الْأُصُولِ بِمَفْهُومِ اللَّقَبِ لَا تَخْتَصُّ بِاللَّقَبِ بَلْ الْأَعْلَامُ كُلُّهَا وَأَسْمَاءُ الْأَجْنَاسِ كُلُّهَا كَذَلِكَ مَا لَمْ تَكُنْ

صِفَةً ، وَالنَّاسُ اسْمُ جِنْسٍ غَيْرُ صِفَةٍ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ فَقَوْلُهُ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ لَيْسَ فِيهِ أَصْلًا مَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ رَسُولًا إلَى غَيْرِهِمْ إلَّا عَلَى مَذْهَبِ الدَّقَّاقِ بَلْ أَقُولُ : عَلَى مَذْهَبِ الدَّقَّاقِ لَا يَتِمُّ التَّمَسُّكُ بِهَذَا الْمَفْهُومِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الدَّقَّاقَ إنَّمَا يَقُولُ بِهِ حَيْثُ لَمْ يَظْهَرْ غَرَضٌ آخَرُ سِوَاهُ فِي تَخْصِيصِ ذَلِكَ الِاسْمِ بِالذِّكْرِ وَحَيْثُ ظَهَرَ غَرَضٌ لَا يُقَالُ بِالْمَفْهُومِ بَلْ يُحْمَلُ التَّخْصِيصُ عَلَى ذَلِكَ الْغَرَضِ ، وَالْغَرَضُ فِي الْآيَةِ التَّعْمِيمُ فِي جَمِيعِ النَّاسِ وَعَدَمِ اخْتِصَاصِ الرِّسَالَةِ بِبَعْضِهِمْ فَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ نَفْيُ الرِّسَالَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ لَا عَلَى مَذْهَبِ الدَّقَّاقِ وَلَا عَلَى غَيْرِهِ وَإِنَّمَا خَاطَبَ النَّاسَ ؛ لِأَنَّهُمْ الَّذِينَ تَغْلِبُ رُؤْيَتُهُمْ وَالْخِطَابُ مَعَهُمْ وَمُجَادَلَتُهُمْ .

فَمَقْصُودُ الْآيَةِ خِطَابُ النَّاسِ وَالتَّعْمِيمُ فِيهِمْ لَا النَّفْيُ عَنْ غَيْرِهِمْ ، وَنَظِيرُ

(232/228)

ذَلِكَ قَوْلُنَا : اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، إنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى الْمَعْدُومِ وَالْمُمْكِنِ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِقَوْلِنَا : عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، التَّعْمِيمُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُمْكِنَةِ لَا قَصْرُ الْحُكْمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ كَذَلِكَ وَفِيهِ زِيَادَةٌ أُخْرَى وَهِيَ تَقْدِيمُ قَوْلِهِ "

كَافَّةً " عَلَى قَوْلِهِ " لِلنَّاسِ " فَإِنَّ ذَلِكَ أَفَادَ أَنَّهُ لَيْسَ الْمَقْصُودُ حَصْرَ الرِّسَالَةِ فِي النَّاسِ حَتَّى يَكُونَ التَّقْدِيرُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَى أَحَدٍ إلَّا لِلنَّاسِ .

هَذَا لَمْ تَنْطِقْ بِهِ الْآيَةُ وَلَا أَفْهَمَتْهُ بَلْ أَشَارَتْ إلَى خِلَافِهِ بِتَقْدِيمِ " كَافَّةً " وَبِالْعُدُولِ فِي " النَّاسِ " عَنْ " إلَى " إلَى اللَّامِ فَصَارَ مَقْصُودُ الْآيَةِ إثْبَاتَ عُمُومِ الرِّسَالَةِ وَنَفْيَ خُصُوصِهَا فَإِنَّ الرِّسَالَةَ أَنْوَاعٌ مِنْهَا خَاصٌّ وَمِنْهَا عَامٌّ فَصَارَ التَّقْدِيرُ : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ مِنْ الرِّسَالَاتِ إلَّا رِسَالَةً عَامَّةً كَافَّةً لِجَمِيعِ النَّاسِ فَلَا يَتَوَهَّمُ أَحَدٌ أَنَّهَا خَاصَّةٌ بِبَعْضِ النَّاسِ ، وَحِينَئِذٍ لَا تَعَرُّضَ فِيهَا لِلْجِنِّ أَلْبَتَّةَ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْت إلَى النَّاسِ عَامَّةً .

وَالْكَلَامُ فِيهِ كَمَا سَبَقَ حَرْفًا بِحَرْفٍ .

وَقَوْلُ السَّائِلِ : إنَّ احْتِمَالَ غَيْرِ ذَلِكَ عُدُولٌ عَنْ الظَّاهِرِ غَيْرُ الْعُدُولِ عَنْ الظَّاهِرِ .

(233/228)

هَذَا كُلُّهُ إذَا قُلْنَا : إنَّ النَّاسَ لَا يَشْمَلُ الْجِنَّ وَهُوَ الظَّاهِرُ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : إنَّ اسْمَ النَّاسِ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْجِنِّ فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْأَدِلَّةُ الْمَذْكُورَةُ لَنَا لَا لِلسَّائِلِ .

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الْحَدِيثَ الْمَذْكُورَ صَحَّ فِيهِ لَفْظَةُ الْخَلْقِ مَوْضِعَ النَّاسِ وَهِيَ أَعَمُّ وَأَنَّ

الْحَدِيثَيْنِ مَخْرَجُهُمَا مُخْتَلِفٌ وَأَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَالْآخَرُ عَامٌّ وَالْعَامُّ وَالْخَاصُّ إذَا كَانَا اثْنَيْنِ لَا يُقْضَى بِالْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ بَلْ يُقْضَى

بِالْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ وَيَكُونُ الْآخَرُ ذِكْرُ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعُمُومِ وَذِكْرُ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعُمُومِ لَا يَقْتَضِي تَخْصِيصَهُ عَلَى الْمَذْهَبِ الْمَنْصُورِ فِي الْأُصُولِ الَّذِي لَمْ يُخَالِفْ فِيهِ إلَّا الشُّذُوذُ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ : لَمْ يَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجِنَّ وَلَا تَلَا عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ .

(234/228)

أَقُولُ لَيْسَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهُوَ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا مِنْ مَعْنَاهُ وَمُسْلِمٌ رَوَاهُ صَدْرَ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَذَكَرَ عَقِيبَهُ قِصَّةَ الْجِنِّ وَاسْتِمَاعَهُمْ الْقُرْآنَ فَأَشْعَرَ بِمُرَادِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّفْيَ الْمُرَادَ بِهِ فِي تِلْكَ الْمَرَّةِ فَاقْتِطَاعُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَرِوَايَتُهَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ حَتَّى تُوهِمَ انْتِفَاءَ رُؤْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْجِنِّ مُطْلَقًا وَقِرَاءَتِهِ عَلَيْهِمْ لَيْسَ بِجَيِّدٍ ، وَرُبَّمَا يُوهِمُ بَعْضُ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَجْتَمِعْ بِهِمْ أَصْلًا وَقَدْ ثَبَتَ اجْتِمَاعُهُ بِهِمْ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَثَبَتَ بُلُوغُ الْقُرْآنِ لَهُمْ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمُوَافِقِ لِنَصِّ الْقُرْآنِ .

فَأَجَابَنِي السَّائِلُ مِنْ أَيْنَ يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْكَلَامِ وَقِصَّةُ الْجِنِّ أَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُحَدِّثُونَ وَأَهْلُ السِّيَرِ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِخْبَارِ إلَّا رَوَاهَا وَلَا مِنْ الْمُفَسِّرِينَ إلَّا ذَكَرَهَا ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي أَنَّهَا كَانَتْ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَأَنَا لَا أَشُكُّ فِي أَنَّهَا كَانَتْ مَرَّتَيْنِ بِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَإِنَّمَا أَشُكُّ فِي أَنَّهَا هَلْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَوْ مَرَّتَيْنِ خَاصَّةً .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : فَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ادَّعَى الرِّسَالَةَ إلَيْهِمْ زَالَ الْإِشْكَالُ وَوَجَبَ الْإِيمَانُ .

(235/228)

أَقُولُ : قَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ الَّذِي قَالَ فِيهِ ﴿ بُعِثْت إلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ﴾ وَالْعَامُّ حُجَّةٌ وَلَيْسَ مِنْ الثُّبُوتِ أَنْ يَكُونَ بِالصَّرِيحِ بَلْ قَدْ يَكُونُ بِالْعُمُومِ ، وَهُوَ حَاصِلٌ هُنَا ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مَا هُوَ صَرِيحٌ مِنْ طَرِيقِ وَثِيمَةَ بْنِ مُوسَى وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ ثُبُوتَهُ وَذَكَرْنَا قَوْلَهُ " الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ " وَاخْتِلَافَ النَّاسِ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَالْعُمْدَةُ حَدِيثُ مُسْلِمٍ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : إذْ لَا سَبِيلَ إلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ إلَّا مِنْ جِهَتِهِ .

أَقُولُ : كُلُّ خَبَرٍ لَا سَبِيلَ لَنَا إلَيْهِ إلَّا مِنْ جِهَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمَّا أَنْ يَكُونَ نَاصًّا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ وَارِدًا عَلَى لِسَانِهِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسْتَنْبَطًا مِنْ ذَلِكَ

فَإِنْ أَرَادَ السَّائِلُ لَا سَبِيلَ لَنَا إلَى ذَلِكَ إلَّا مِنْ جِهَتِهِ بِإِحْدَى هَذِهِ الطُّرُقِ فَنَقُولُ : هُوَ حَاصِلٌ بِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ الْآيَاتِ وَالِاسْتِنْبَاطِ وَالْحَدِيثِ الْعَامِّ وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِهَتِهِ نَصًّا صَرِيحًا عَلَى عَدَمِ دَعْوَاهُ الرِّسَالَةَ إلَيْهِمْ فَلَا يُشْتَرَطُ ذَلِكَ كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لَمْ يُنَصَّ عَلَيْهَا صَرِيحًا وَيُثْبَتُ بِالْقُرْآنِ أَوْ بِحَدِيثٍ عَامٍّ أَوْ بِاسْتِنْبَاطٍ مِنْ قَاعِدَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ جِهَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(236/228)

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ وَإِلَّا فَهَلْ يَجُوزُ التَّقْلِيدُ فِي ذَلِكَ أَمْ يَكْفِي الْإِيمَانُ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ مَا الْمَطْلُوبُ فِيهِ الْإِيمَانُ الْإِجْمَالِيُّ لَا التَّفْصِيلِيُّ .

أَقُولُ : قَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ ، وَنَقُولُ هُنَا : إنَّ النَّاسَ عَلَى أَقْسَامٍ مِنْهُمْ عَامِّيٌّ لَمْ تَخْطُرْ بِبَالِهِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ أَوْ خَطَرَتْ بِبَالِهِ وَمَا اعْتَقَدَ فِيهَا شَيْئًا لِجَهْلِهِ فَهَذَا لَا شَيْءَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُكَلَّفْ بِذَلِكَ لَكِنْ يُشْتَرَطُ أَنْ يُطْلِقَ بِشَهَادَتِهِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَلَا يُخَصِّصَهَا فَمَتَى خَصَّصَهَا فَقَالَ : إلَى الْإِنْسِ خَاصَّةً فَسَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ .

وَمِنْهُمْ عَامِّيٌّ اعْتَقَدَ فِيهَا خِلَافَ الْحَقِّ لِشُبْهَةٍ أَوْ تَقْلِيدِ جَاهِلٍ .

(237/228)

فَهَذَا : اعْتِقَادُهُ هَذَا خَطَأٌ يَجِبُ عَلَيْهِ النُّزُوعُ عَنْهُ وَأَنْ يَسْأَلَ أَوْ يَبْحَثَ لِيَظْهَرَ لَهُ الصَّوَابُ ، وَهَذَا بِإِصْرَارِهِ عَلَى هَذَا الِاعْتِقَادِ وَالْخَطَأُ عَاصٍ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الَّذِي لَا يُعْذَرُ بِالْخَطَأِ فِيهِ ، وَالْفَقِيهُ إذَا اعْتَقَدَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ خِلَافَ الْحَقِّ لِشُبْهَةٍ أَوْ تَقْلِيدٍ لِجَاهِلٍ عَاصٍ أَيْضًا كَالْعَامِّيِّ بَلْ هُوَ عَامِّيٌّ فِيهَا ، وَمَحِلُّ الْحُكْمِ فِيهَا بِالْعِصْيَانِ فَقَطْ ، وَصِحَّةُ الْإِيمَانِ إذَا أَطْلَقَا شَهَادَةَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ خَصَّصَا وَقَالَا : إلَى الْإِنْسِ فَقَطْ ، فَأَخْشَى عَلَيْهِمَا الْكُفْرَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي بَيَّنَهُ الشَّارِعُ بِالشَّهَادَةِ الْمُطْلَقَةِ لَا الْمُقَيَّدَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ اعْتَقَدَ الصَّوَابَ فِي ذَلِكَ مِنْ عَامِّيٍّ أَوْ فَقِيهٍ لَا عَنْ دَلِيلٍ بَلْ تَقْلِيدٍ مَحْضٍ فَيَكْفِيهِ ذَلِكَ وَلَيْسَ بِعَاصٍ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى إيجَابِ الْيَقِينِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَلَا هِيَ شَرْطٌ فِي الْإِيمَانِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلشَّخْصِ عِلْمٌ بِأَدِلَّةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَاقْتَصَرَ عَلَى التَّقْلِيدِ فِيهَا كَفَاهُ وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ اعْتِقَادُهُ عَلَى جِهَةِ التَّقْلِيدِ جَازِمًا أَوْ غَيْرَ جَازِمٍ فَإِنَّ التَّقْلِيدَ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الِاعْتِقَادِ الْجَازِمِ الْمُطَابِقِ لَا لِمُوجَبٍ وَبَيْنَ قَبُولِ قَوْلِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ سَوَاءٌ أَكَانَ مَعَ الْجَزْمِ بِهِ أَمْ لَا .

(238/228)

فَهَذَا الثَّانِي كَافٍ هُنَا وَلَا يَكْفِي فِيمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ مِنْ الْوَحْدَانِيَّةِ وَنَحْوِهَا ، وَالْأَوَّلُ يَكْفِي لِأَنَّ إيمَانَ الْمُقَلِّدِ صَحِيحٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ خِلَافًا لِأَبِي هَاشِمٍ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ .

وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَغْلَطُونَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ إيمَانَ الْمُقَلِّدِ لَا يَصِحُّ وَقَدْ ثَبَتَ هَذَا فِي فَتْوَى .

وَقُلْت : إنَّ النَّاسَ ثَلَاثُ طَبَقَاتٍ : عُلْيَا وَهُمْ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ التَّفْصِيلِيِّ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ وَأَهْلُ الِاسْتِدْلَالِ الْإِجْمَالِيِّ وَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ الْعَوَامِّ فَلَا خِلَافَ فِي صِحَّةِ إيمَانِهِمْ .

(239/228)

وَوُسْطَى وَهُمْ أَهْلُ الْعَقِيدَةِ الْمُصَمِّمُونَ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ وَلَمْ يَقُلْ بِكُفْرِهِمْ إلَّا أَبُو هَاشِمٍ ، وَدُنْيَا وَهُمْ الْمُقَلِّدُونَ بِغَيْرِ تَصْمِيمٍ وَلَمْ يَقُلْ بِصِحَّةِ إيمَانِهِمْ إلَّا شُذُوذٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ عَالِمًا وَقَدْ وَصَلَتْ إلَيْهِ هَذِهِ الْأَدِلَّةُ وَلَهُ تَمَكُّنٌ مِنْ النَّظَرِ فِيهَا فَهَذَا الْمَطْلُوبُ مِنْهُ الْعِلْمُ بِهَا وَيَجِبُ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِهِ قَطْعًا لِعِلْمِهِ بِأَدِلَّتِهَا وَصَارَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ سَمِعَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَجِبُ عَلَيْهِ تَصْدِيقُهُ فِيهِ قَطْعًا ، وَأَمَّا الْإِيمَانُ الْإِجْمَالِيُّ فَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا بُدَّ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَغَيْرِهَا أَوْ يُكْتَفَى بِهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ

بِالنِّسْبَةِ إلَى غَيْرِ الْعَالِمِ وَلَا يُكْتَفَى فِيهِ فِي حَقِّ الْعَالِمِ ، وَفَرْضُ ذَلِكَ عُسْرٌ ؛ لِأَنَّ الْعَالِمَ مَتَى أَحَاطَ عِلْمُهُ بِهَذِهِ الْأَدِلَّةِ وَوَجْهِ دَلَالَتِهَا حَصَلَ لَهُ الْعِلْمُ وَلَا يُمْكِنُ تَخَلُّفُ

(240/228)

الْعِلْمِ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ نَعَمْ لَوْ كَانَ الشَّخْصُ لَهُ قُوَّةٌ عَلَى النَّظَرِ وَتَمَكُّنٌ مِنْ الْأَدِلَّةِ وَالْوُقُوفِ عَلَيْهَا وَالنَّظَرِ وَلَمْ يَفْعَلْ بَلْ اقْتَصَرَ عَلَى مَحْضِ التَّقْلِيدِ فَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ لَا يَعْصِي بِذَلِكَ وَيَكْفِيهِ التَّقْلِيدُ ، وَأَمَّا إذَا لَمْ يُقَلِّدْ وَلَكِنْ تَوَقَّفَ فَلَمْ يَعْتَقِدْ فِيهَا شَيْئًا مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْ إدْرَاكِ ذَلِكَ فَهُوَ مَحَلُّ نَظَرٍ وَيَتَرَجَّحُ أَيْضًا أَنَّهُ غَيْرُ مَأْثُومٍ لِعَدَمِ قِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ بِخِلَافِ مَا إذَا اعْتَقَدَ غَيْرَ الْحَقِّ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ لِتَقْصِيرِهِ ، وَالْإِقْدَامُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ خَطَأٌ بِخِلَافِ التَّوَقُّفِ فِيمَا لَا يَجِبُ كَمَا أَتَى فِي الْفُرُوعِ .

نَقُولُ : مَنْ أَقْدَمَ عَلَى فِعْلٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ بِحُكْمِهِ يَكُونُ مَأْثُومًا وَمَنْ تَوَقَّفَ عَنْهُ لَا يَكُونُ مَأْثُومًا .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَهَلْ يَصِحُّ اسْتِدْلَالُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ - الْآيَةَ وَبِسُورَةِ الْجِنِّ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

قَالَ : وَالْجِنُّ يُسَمَّوْنَ نَاسًا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ وَأُرْسِلْت إلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ﴾ وَأَنَّهُ أَتَاهُ دَاعِي الْجِنِّ وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ وَأَنَّهُ تَحَدَّاهُمْ بِالْقُرْآنِ كَمَا تَحَدَّى الْإِنْسَ بِهِ وَأَنَّهُ أَحَلَّ لَهُمْ كُلَّ طَعَامٍ لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَحَرَّمَ الِاسْتِنْجَاءَ بِالْعَظْمِ وَالرَّوْثِ مِنْ أَجْلِهِمْ وَإِنَّ الرُّسُلَ إلَيْهِمْ لَمْ يَكُونُوا إلَّا مِنْ الْإِنْسِ .

فَإِذَا ثَبَتَ إرْسَالُ مَنْ تَقَدَّمَ إلَيْهِمْ فَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ أَوْلَى وَأَحْرَى وَأَنَّ الْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ عَلَى كَوْنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثًا إلَيْهِمْ ، وَمَا

ثَبَتَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَذَلِكَ مِمَّا خَفِيَ عَلَيْهِ كَمَا خَفِيَتْ أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ عَلَى آحَادِ الصَّحَابَةِ هَلْ يَنْتَهِضُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْمَطْلُوبِ .

أَقُولُ : أَمَّا اسْتِدْلَالُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ الْجِنِّ ﴿ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ فَاسْتِدْلَالٌ صَحِيحٌ وَقَدْ تَقَدَّمَ وَكَذَلِكَ سُورَةُ الْجِنِّ ، وَأَمَّا الِاسْتِدْلَالُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ فَمُحْتَمَلٌ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ ؛ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ أَعَمُّ مِنْ الرِّسَالَةِ وَقَدْ وَرَدَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ قَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَلْ نَالَكَ مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ شَيْءٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ﴾ .

وَالِاسْتِدْلَالُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ مِنْ أَصَحِّ مَا يَكُونُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الِاسْتِدْلَالُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وَأَنَّ الْجِنَّ يُسَمَّوْنَ نَاسًا وَقَدْ أَشَرْنَا إلَى ذَلِكَ فِيمَا سَبَقَ لَكِنَّ تَسْمِيَةَ الْجِنِّ نَاسًا مُخْتَلَفٌ فِيهِ وَالْخِلَافُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْخِلَافِ فِي اشْتِقَاقِ النَّاسِ هَلْ هُوَ مِنْ النَّوَسِ وَهُوَ الْحَرَكَةُ أَوْ مِنْ الْإِينَاسِ بِمَعْنَى الْإِبْصَارِ أَوْ مِنْ الْإِنْسِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْوَحْشَةِ وَمَنْ يَقُولُ بِتَسْمِيَتِهِمْ نَاسًا فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إنَّ ذَلِكَ ظَاهِرُ الْإِطْلَاقِ بَلْ قَدْ يَكُونُ كَذَلِكَ وَالْأَغْلَبُ خِلَافُهُ وَالْحَمْلُ عَلَى الْعُرْفِ الْأَغْلَبِ أَوْجَبُ وَالْجَوْهَرِيُّ ذَكَرَ بَابَ أَنِسَ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ ذَلِكَ وَذَكَرَ بَابَ نَوَسَ وَذَكَرَ فِيهِ أَنَّ النَّاسَ قَدْ يَكُونُ مِنْ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فَأَشَارَ إلَى أَنَّهُ مِنْ الشَّيْءِ الْقَلِيلِ وَبِإِدْخَالِهِ فِي هَذَا الْفَصْلِ إلَى أَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ النَّوَسِ وَقَالَ فِي بَابِ أَنِسَ إنَّ الْأُنَاسَ لُغَةٌ فِي النَّاسِ وَكَثِيرٌ مِنْ النُّحَاةِ يَقُولُونَ إنَّ النَّاسَ أَصْلُهُ الْأُنَاسُ وَأَنَّهُ مِمَّا حُذِفَتْ فِيهِ الْهَمْزَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْكِي فِي ذَلِكَ قَوْلَيْنِ

وَيَتَخَلَّصُ مِنْ مَجْمُوعِ كَلَامِهِمْ أَنَّ النَّاسَ لَفْظٌ وَاحِدٌ فِي الصُّورَةِ وَهُوَ فِي التَّقْدِيرِ لَفْظَانِ أَحَدُهُمَا أُنَاسٌ مَأْخُوذٌ مِنْ أَنِسَ إمَّا بِمَعْنَى أَبْصَرَ وَإِمَّا ضِدُّ أَوْحَشَ وَعَلَى كِلَا الْمَعْنَيَيْنِ لَا يُطْلَقُ عَلَى الْجِنِّ لِأَنَّا لَا نُبْصِرُهُمْ وَلَا نَأْنَسُ بِهِمْ وَالثَّانِي مَأْخُوذٌ مِنْ نَوَسَ بِمَعْنَى الْحَرَكَةِ وَعَلَى هَذَا يُطْلَقُ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ وَلَكِنَّ الِاسْتِعْمَالَ لَهُ فِي الْإِنْسِ أَغْلَبُ فَهُمَا لَفْظَانِ مُشْتَقَّانِ مِنْ أَصْلَيْنِ مُشْتَقٌّ مِنْهُمَا وَلَمَّا حَصَلَ الْحَذْفُ وَفِي أَحَدِ الْمُشْتَقَّيْنِ وَالْقَلْبُ فِي الْآخَرِ صَارَا عَلَى صُورَةِ لَفْظٍ وَاحِدٍ إذَا عَرَفْت هَذَا فَقَوْلُهُ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وَشَبَهُهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَأْخُوذًا مِنْ الْإِنْسِ فَلَا يُطْلَقُ عَلَى الْجِنِّ أَلْبَتَّةَ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَأْخُوذًا مِنْ النَّوَسِ فَيُطْلَقُ عَلَيْهِمْ قَلِيلًا فَدُخُولُ الْجِنِّ فِي الْآيَةِ إمَّا مُمْتَنِعٌ وَإِمَّا قَلِيلٌ فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ .

وَبِهَذَا بَانَ ضَعْفُ الِاسْتِدْلَالِ بِهَا لَكِنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ أَيْضًا لِمَا قَدَّمْنَاهُ ، وَمِنْ الْمَوَاضِعِ الَّتِي ادَّعَى بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ دُخُولَ الْجِنِّ فِي لَفْظِ النَّاسِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ وَتُجْعَلُ مِنْ " بَيَانًا لِلنَّاسِ وَالْمُوَسْوِسِ فِي صُدُورِهِمْ وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى خِلَافِهِ وَأَنَّهَا بَيَانٌ لِلْخَنَّاسِ .

(244/228)

وَاسْتِدْلَالُهُ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَأُرْسِلْت إلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ﴾ صَحِيحٌ قَوِيٌّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ وَأَنَّهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَاسْتِدْلَالُهُ بِأَنَّهُ أَتَاهُ دَاعِي الْجِنِّ وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي لِاحْتِمَالِ أَنَّهُمْ أَرَادُوا الْمَوْعِظَةَ وَلَكِنْ إذَا انْضَمَّ إلَى غَيْرِهِ قَرُبَ .

وَقَوْلُهُ : إنَّهُ حَكَمَ بَيْنَهُمْ إنْ أَرَادَ بِإِجَابَتِهِمْ فِي الزَّادِ وَالْعَظْمِ وَالرَّوْثِ فَصَحِيحٌ عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ مَعَ تَوَقُّفٍ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِهِ وَحْدَهُ ، وَإِنْ أَرَادَ الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ فِي دَعْوَى مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فَلَا أَسْتَحْضِرُهَا ، وَلَوْ اتَّفَقَ مِثْلُ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى عُمُومِ الرِّسَالَةِ إلَيْهِمْ .

وَقَدْ فَكَّرْت فِي حَدِيثِ ﴿ أَبِي هُرَيْرَةَ لَمَّا وَكَّلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ وَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ لِيَسْرِقَ مِنْهَا ، وَقَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ لَأَدْفَعَنَّكَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ لَمْ يَعْرِفْهُ إلَّا بَعْدَ أَنْ أَعْلَمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ ، وَلَمْ يَتَّفِقْ رَفْعُهُ حَتَّى نَعْلَمَ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَخْبَرَهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى بِإِمْسَاكِهِ وَرَفْعِهِ إلَيْهِ وَمُجَرَّدِ إمْسَاكِ أَبِي هُرَيْرَةَ لَهُ عَنْ السَّرِقَةِ مِنْ بَابِ دَفْعِ الصَّائِلِ وَهُوَ جَائِزٌ سَوَاءٌ تَعَلَّقَ بِهِ حُكْمٌ أَمْ لَا كَمَا يُدْفَعُ الصَّبِيُّ وَالْبَهِيمَةُ .

فَلِهَذَا لَمْ أَسْتَدِلَّ بِهَا .

(245/228)

وَلَوْ اتَّفَقَ رَفْعُهُ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحُكْمُهُ عَلَيْهِ لَمْ أَتَوَقَّفْ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِهِ .

وَلَيْسَ لِقَائِلٍ ذَلِكَ لِحُكْمِ الْحَاكِمِ عَلَى مُقْتَضَى اعْتِقَادِهِمْ وَإِنْ كَانَ الْخَصْمُ لَا يَعْتَقِدُهُ وَلَا يَلْزَمُهُ قَبْلَ الْحُكْمِ كَحُكْمِ الشَّافِعِيِّ عَلَى الْحَنَفِيِّ وَعَكْسِهِ لِأَنَّ تِلْكَ أُمُورٌ مَظْنُونَةٌ فَالشَّافِعِيُّ يَحْكُمُ عَلَى الْحَنَفِيِّ بِمُقْتَضَى ظَنِّهِ وَإِنْ كَانَ الْحَنَفِيُّ مُكَلَّفًا قَبْلَ الْحُكْمِ بِمُقْتَضَى ظَنِّهِ .

وَأَمَّا هُنَا فَالْأَمْرُ مَقْطُوعٌ بِهِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ وَلَا يَحْكُمُ عَلَى أَحَدٍ إلَّا بِحُكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ مَقْطُوعٌ بِهِ قَبْلَ الْحُكْمِ وَبَعْدَهُ فَلَوْ رُفِعَ إلَى نَبِيٍّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى زَمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ لَيْسَ مِنْ أُمَّتِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُرْسِلْهُ إلَيْهِ وَأَرْسَلَ إلَيْهِ غَيْرَهُ مِمَّنْ حُكْمُ ذَلِكَ الْفَرْعِ

(246/228)

الَّذِي رُفِعَ إلَيْهِ فِي شَرْعِهِ يُخَالِفُ حُكْمَهُ فِي شَرْعِ ذَلِكَ النَّبِيِّ الْمَرْفُوعِ إلَيْهِ فَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ ذَلِكَ النَّبِيَّ لَا يَحْكُمُ عَلَيْهِ بَلْ نَقُولُ : هَذَا حُكْمُ مَا فَعَلَ فَلَوْ حَكَمَ عَلَيْهِ ذَلِكَ النَّبِيُّ فِي ذَلِكَ الْفِعْلِ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ فِي حَقِّهِ إمَّا بِرِسَالَةِ ذَلِكَ النَّبِيِّ إلَيْهِ وَإِمَّا بِمُوَافَقَتِهِ لِشَرْعِ نَبِيِّهِ وَأَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِالْحُكْمِ بِهَا ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَحْكُمْ بِشَرِيعَةٍ

أُخْرَى لِنَسْخِ شَرِيعَتِهِ لِسَائِرِ الشَّرَائِعِ فَلَمْ يَبْقَ إلَّا أَنْ تَكُونَ شَرِيعَتُهُ وَأَنَّ حُكْمَهَا لَازِمٌ لَهُمْ ، وَالِاسْتِدْلَالُ بِأَنَّهُ تَحَدَّاهُمْ بِالْقُرْآنِ كَمَا تَحَدَّى الْإِنْسَ بِهِ قَدْ ذَكَرَهُ غَيْرُ هَذَا الْقَائِلِ مِمَّنْ صَنَّفَ فِي ذَلِكَ وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ هَذَا الِاسْتِدْلَالُ عِنْدِي لَيْسَ بِالْقَوِيِّ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ بِذَلِكَ تَحَدِّيَ الْإِنْسِ فَقَطْ وَالْمُبَالَغَةَ فِي تَعْجِيزِهِمْ بِعَجْزِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُمْ وَأَقْدَرُ وَأَذْكَى ، وَالِاسْتِدْلَالُ بِأَنَّهُ أَحَلَّ لَهُمْ كُلَّ طَعَامٍ لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إنْ ثَبَتَ هَذَا الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظِ كَانَ فِيهِ دَلِيلٌ ؛ لِأَنَّ الْإِحْلَالَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَحْكَامِ فَإِذَا أَحَلَّ لَهُمْ فَقَدْ تَعَلَّقَ بَعْضُ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ بِهِمْ ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ لَكِنَّ الَّذِي أَعْرِفُهُ فِي الصَّحِيحِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ قَالَ ﴿

(247/228)

لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ .

وَصِيغَتُهُ " لَكُمْ " لَيْسَتْ صَرِيحَةً فِي الْإِحْلَالِ فَقَدْ يَكُونُ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ بِدُعَائِهِ بَعْدَ ضِيقٍ ، الِاسْتِدْلَالُ بِتَحْرِيمِ الِاسْتِنْجَاءِ بِالرَّوْثِ وَالْعَظْمِ مِنْ أَجْلِهِمْ لَيْسَ بِجَيِّدٍ فَإِنَّ التَّحْرِيمَ مُتَعَلِّقٌ بِنَا لَا بِهِمْ ، وَالِاسْتِدْلَالُ بِأَنَّ الرُّسُلَ إلَيْهِمْ لَمْ يَكُونُوا إلَّا مِنْ الْإِنْسِ لَا أَرْتَضِيهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَحْسُنُ ؛ لِأَنَّ كَوْنَ الرُّسُلِ إلَيْهِمْ لَمْ يَكُونُوا إلَّا مِنْ الْإِنْسِ مُخْتَلَفٌ

فِيهِ وَمَا نَحْنُ فِيهِ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ وَلَا حَاجَةَ إلَى الِاسْتِدْلَالِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ بِالْمُخْتَلَفِ فِيهِ .

وَالْخِلَافُ الْمُشَارُ إلَيْهِ هُوَ قَوْلُ الضَّحَّاكِ الْمُفَسِّرِ إنَّ الرُّسُلَ إلَى الْجِنِّ مِنْهُمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ فَقَالَ الضَّحَّاكُ وَمَنْ تَبِعَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ .

وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ لَمْ تَكُنْ الرُّسُلُ إلَّا مِنْ الْإِنْسِ وَالْكَلَامُ فِي ذَلِكَ يَطُولُ وَلَيْسَ هَذَا مَحِلَّهُ .

(248/228)

وَلَمْ يَقُلْ الضَّحَّاكُ وَلَا أَحَدٌ غَيْرُهُ بِاسْتِمْرَارِ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ وَإِنَّمَا مَحَلُّ الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ فِي الْمِلَلِ الْمُتَقَدِّمَةِ خَاصَّةً وَأَمَّا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ فَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُرْسَلُ إلَيْهِمْ وَإِلَى غَيْرِهِمْ ، وَالِاسْتِدْلَالُ بِالْإِجْمَاعِ فِي ذَلِكَ صَحِيحٌ ، وَمِمَّنْ نَصَّ عَلَى الْإِجْمَاعِ فِي ذَلِكَ أَبُو طَالِبٍ عَقِيلُ بْنُ عَطِيَّةَ الْقُضَاعِيُّ ، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي التَّمْهِيدِ وَكَذَلِكَ فَعَلَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ فِي كِتَابِ الْفَصْلِ وَكَثِيرًا مَا يَذْكُرُ الْعُلَمَاءُ فِي مُصَنَّفَاتِهِمْ كَوْنَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثًا إلَى الثَّقَلَيْنِ ، وَرُبَّمَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي صُدُورِ تَوَالِيفِهِمْ .

قُلْت : وَقَالَ إمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي الْإِرْشَادِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْعِيسَوِيَّةِ وَقَدْ عَلِمْنَا ضَرُورَةً أَنَّهُ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ادَّعَى كَوْنَهُ مَبْعُوثًا إلَى الثَّقَلَيْنِ .

وَقَالَ إمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَيْضًا فِي الشَّامِلِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْعِيسَوِيَّةِ : فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَمَا دَلِيلُكُمْ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَبْعُوثًا إلَى كَافَّةِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ؟ قُلْنَا : مَنْ اعْتَرَفَ بِنُبُوَّتِهِ وَأَقَرَّ بِوُجُوبِ صِدْقِ لَهْجَتِهِ وَاسْتَسْلَمَ لِقَضِيَّةِ مُعْجِزَتِهِ فَثَبَتَ مَا تَرُومُهُ مِنْ

(249/228)

بَعْثَتِهِ إلَى الْكَافَّةِ يَثْبُتُ عَلَى الْفَوْرِ ، وَذَلِكَ أَنَّا نَعْلَمُ ضَرُورَةً وَبَدِيهَةً أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ تَعَلَّقَ دَعْوَتِهِ لِمَنْ عَلَى بَسِيطِ الْأَرْضِ وَلَا يُخَصِّصُهَا بِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ وَهَذَا مِمَّا نُقِلَ تَوَاتُرًا مِنْهُ كَمَا نُقِلَ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ .

وَأَبْطَالُ إمَامِ الْحَرَمَيْنِ فِي ذَلِكَ رَادًّا عَلَى الْعِيسَوِيَّةِ لَا ضَرُورَةَ بِنَا إلَى نَقْلِ بَقِيَّةِ كَلَامِهِ هُنَا .

وَقَوْلُ ذَلِكَ الْمُسْتَدِلِّ فِيمَا ثَبَتَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا خَفِيَ عَلَيْهِ لَا حَاجَةَ إلَيْهِ ؛ لِأَنَّا قَدْ حَمَلْنَا كَلَامَ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى مَحْمَلٍ صَحِيحٍ هُوَ أَنَّهُ أَرَادَ فِي تِلْكَ الْمَرَّةِ وَهَذَا أَوْلَى مِنْ أَنْ نَقُولَ : إنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِ ذَلِكَ .

وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ الْمَذْكُورُ فِي لَيْلَةِ الْجِنِّ أَتَرَى يَخْفَى عَلَيْهِ مَا فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ وَسُورَةِ الْجِنِّ مَا فِيهِمَا مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّمَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْفَى

عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ خَاصَّةً لَا حُكْمٌ مِنْ الْأَحْكَامِ حَتَّى يُشَبَّهَ بِالْأَحْكَامِ الَّتِي خَفِيَتْ عَنْ آحَادِ الصَّحَابَةِ ، وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ لَيْسَ فِيهِ حُكْمُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ صَرِيحًا بَلْ هُوَ فِي غَيْرِهِ أَظْهَرُ مِنْهُ كَمَا تَقَدَّمَتْ الْإِشَارَةُ إلَيْهِ فَيَجِبُ أَنْ لَا تُطْلَقَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ هَا هُنَا فَإِنَّهُ لَيْسَ مَحِلَّهَا وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ .

(250/228)

وَقَوْلُ السَّائِلِ : هَلْ يَنْهَضُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْمَطْلُوبِ ؟ جَوَابُهُ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ بَعْضَهُ يَنْهَضُ وَبَعْضَهُ لَا يَنْهَضُ وَقَدْ نَهَضَتْ الْأَدِلَّةُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ عَلَى ذَلِكَ

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : فَإِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ ﴿ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ يَرْجِعُ إلَى الْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَهُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ﴾ وَلَا شَكَّ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ ، وَبِتَقْدِيرِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ دَالٌّ عَلَى وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَمُطْلَقُ الْإِيمَانِ أَعَمُّ مِنْ الْإِيمَانِ بِكَوْنِهِ رَسُولًا إلَيْهِمْ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْأَعَمِّ ثُبُوتُ الْأَخَصِّ بَلْ وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَوُجُوبِ الْإِيمَانِ عَلَيْنَا بِمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

(251/228)

أَقُولُ : تَكَلَّمَ السَّائِلُ فِي الضَّمِيرِ فِي ﴿ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ فِي قَوْلِهِ ﴿ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ وَالِاسْتِدْلَالُ بِهِ أَوْضَحُ ، فَإِنْ كَانَ يَقُولُ : إنَّ الدَّاعِيَ هُوَ الْقُرْآنُ فَيُبْعِدُهُ أُمُورٌ : (أَحَدُهَا) أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقَالَ : أَجِيبُوهُ لِتَقَدُّمِهِ فِي قَوْلِهِمْ ﴿ كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إلَى الْحَقِّ ﴾ فَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ مُظْهَرًا وَمُضْمَرًا فَلَوْ أُرِيدَ بِهِ الْإِجَابَةُ لَقِيلَ : أَجِيبُوهُ وَوَضْعُ الظَّاهِرِ فِي مَوْضِعِ الْمُضْمَرِ فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى خِلَافِ الْأَوْلَى . (الثَّانِي) أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ تَثْبُتْ تَسْمِيَتُهُ دَاعِيًا فِي مَوْضِعٍ مِنْ الْمَوَاضِعِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَبَتَتْ تَسْمِيَتُهُ دَاعِيًا فِي مَوَاضِعَ : كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ وَلِحَدِيثٍ طَوِيلٍ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : ﴿ جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَائِمٌ ، وَفِيهِ فَقَالُوا : إنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا

(252/228)

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا : مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنْ الْمَأْدُبَةِ وَمَنْ لَمْ يُجِبْ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلْ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ الْمَأْدُبَةِ ، فَقَالُوا : أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهُهَا ، وَفِيهِ قَالُوا : فَالدَّارُ الْجَنَّةُ وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ ، وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ وَجَبَ حَمْلُ قَوْلِهِمْ ﴿ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي ثَبَتَتْ تَسْمِيَتُهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَأَيْضًا فِي سُورَةِ الْجِنِّ ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الدُّعَاءُ بِمَعْنًى آخَرَ .

وَقَدْ قِيلَ : إنَّ الَّذِي قَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ سُورَةُ الْجِنِّ وَقِيلَ : سُورَةُ الرَّحْمَنِ .

(الثَّالِثُ) أَنَّ إسْنَادَ الدُّعَاءِ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقِيقَةٌ وَإِلَى الْقُرْآنِ مَجَازٌ وَالْحَقِيقَةُ أَوْلَى .

فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْأَوْجُهِ الثَّلَاثَةِ أَنَّ دَاعِيَ اللَّهِ هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ كَفَى

.

ثُمَّ نَقُولُ : الضَّمِيرُ فِي ﴿ وَآمَنُوا بِهِ ﴾ عَائِدٌ إلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ الْكِتَابِ وَالْقُرْآنِ وَعَوْدُهُ فِي سُورَةِ الْجِنِّ عَلَيْهِ لِتَقَدُّمِهِ دُونَ غَيْرِهِ ، هَذِهِ الْعِلَّةُ مَفْقُودَةٌ هُنَا .

وَقَوْلُ السَّائِلِ وَلَا شَكَّ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ .

أَقُولُ : وَكَذَلِكَ لَا شَكَّ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ فَالْقُرْآنُ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلٌّ مِنْهُمَا تَجِبُ إجَابَتُهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَوُجُوبُ إجَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقْتَضِي تَعَلُّقَ شَرْعِهِ بِهِمْ ، وَوُجُوبُ إجَابَةِ الْقُرْآنِ تَقْتَضِي وُجُوبَ امْتِثَالِ مَا فِيهِ فَيَتَعَلَّقُ بِهِمْ

جَمِيعُ تَكَالِيفِهِ مِنْ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ فَقَصْرُ السَّائِلِ كَلَامَهُ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ لَيْسَ بِجَيِّدٍ وَهُمْ قَدْ أُمِرُوا بِالْإِيمَانِ وَالْإِجَابَةِ فَلَمْ تَزَلْ الْإِجَابَةُ وَتَكَلَّمَ فِي الْإِيمَانِ ، وَإِنْ قَالَ : الْمُرَادُ بِالْإِجَابَةِ الْإِيمَانُ مَنَعْنَاهُ فَإِنَّهُمَا أَمْرَانِ مُتَغَايِرَانِ .

وَقَوْلُهُ وَبِتَقْدِيرِ عَوْدِهِ إلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ دَالٌّ عَلَى وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ صَحِيحٌ .

وَقَوْلُهُ : وَمُطْلَقُ الْإِيمَانِ بِهِ أَعَمُّ مِنْ الْإِيمَانِ بِكَوْنِهِ رَسُولًا إلَيْهِمْ إلَى آخِرِهِ .

جَوَابُهُ أَنَّهُمْ أُمِرُوا بِإِجَابَتِهِ وَبِالْإِيمَانِ بِهِ عَلَى الْأَمْرِ بِالْإِجَابَةِ لَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يَرِدُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ وَالْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ بِهِ مَحْمُولٌ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ وَهُوَ كَوْنُهُ دَاعِيًا إلَى اللَّهِ تَجِبُ عَلَيْهِ إجَابَتُهُ وَذَلِكَ هُوَ الْإِيمَانُ بِكَوْنِهِ رَسُولًا إلَيْهِمْ .

وَأَمَّا وُجُوبُ الْإِيمَانِ عَلَيْنَا بِمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَمَعْنَاهُ أَنَّا نُؤْمِنُ بِأَنَّهُمَا نَبِيَّانِ رَسُولَانِ إلَى بَنِي إسْرَائِيلَ كَرِيمَانِ وَمَحِلُّهُمَا الْمَحِلُّ الَّذِي أَحَلَّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى وَذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَى الْجِنِّ وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَزِيَادَةُ الْإِيمَانِ بِأَنَّهُ دَاعٍ لَهُمْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ إجَابَتُهُ لِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ قَوْمُهُمْ كَإِيمَانِنَا بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَحَاصِلُهُ أَنَّ كُلَّ رَسُولِ دَاعٍ يَجِبُ عَلَى الْمَدْعُوِّ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ إلَيْهِ وَيَجِبُ عَلَى غَيْرِ الْمَدْعُوِّ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ فِي الْجُمْلَةِ وَالْجِنُّ مَدْعُوُّونَ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ كَلَامُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ إلَيْهِمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ الْأَخَصُّ بِخِلَافِ مَا قَالَ السَّائِلُ

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَكَوْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ رِسَالَتُهُ فَإِنَّ الرَّحْمَةَ أَعَمُّ مِنْ الرِّسَالَةِ صَحِيحٌ ، وَقَدْ حَصَلَ مِنْ الْأَدِلَّةِ مَا يُسْتَغْنَى بِهِ عَنْ الِاسْتِدْلَالِ بِذَلِكَ .

(فَصْلٌ) وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ يَجُوزُ عَوْدُهُ إلَى الْفُرْقَانِ وَبِتَقْدِيرِ عَوْدِهِ إلَيْهِ فَالنَّذِيرُ أَعَمُّ مِنْ الرَّسُولِ وَأَيْضًا فَهُوَ مَخْصُوصٌ .

أَقُولُ : كَوْنِ الضَّمِيرِ لِلْفُرْقَانِ يَرُدُّهُ كَوْنُهُ أَبْعَدَ وَكَوْنُ النَّذِيرِ أَعَمُّ مِنْ الرَّسُولِ إنْ أَرَادَ بِحَسَبِ الْوَضْعِ اللُّغَوِيِّ فَالنَّذِيرُ وَالرَّسُولُ كُلٌّ مِنْهُمَا أَعَمُّ مِنْ الْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ ؛ لِأَنَّ النَّذِيرَ هُوَ الْمُخْبِرُ بِمَا يُخَافُ مِنْهُ سَوَاءٌ أَكَانَ الْخَبَرُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ عَنْ غَيْرِهِ وَالرَّسُولُ هُوَ الْمُخْبِرُ عَنْ غَيْرِهِ سَوَاءٌ أَكَانَ بِمُخَوِّفٍ أَمْ بِغَيْرِهِ وَسُمِّيَ الرَّسُولُ عَنْ اللَّهِ نَذِيرًا ؛ لِأَنَّهُ يُخَوِّفُ النَّاسَ عَذَابَ اللَّهِ وَسُمِّيَ الْمُبَلِّغُونَ عَنْهُمْ نُذُرًا ؛ لِأَنَّهُمْ قَائِمُونَ مَقَامَهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَّوْا إلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ وَيُسَمَّوْنَ أَيْضًا رُسُلًا وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا رُسُلًا عَنْ اللَّهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إذْ أَرْسَلْنَا إلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إنَّا إلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ وَكَانُوا رُسُلَ عِيسَى عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَبِهَذَا قِيلَ : إنَّ الرُّسُلَ إلَى الْجِنِّ فِي الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَكَانُوا نُذُرًا مِنْ جِهَةِ رُسُلِ الْإِنْسِ فَسُمُّوا رُسُلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَاتِ فِيهَا .

إذَا عَرَفْت ذَلِكَ فَتَسْمِيَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ نَذِيرًا إنَّمَا كَانَ لِإِخْبَارِهِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْلِهِ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ فَإِذَا سَلِمَ أَنَّهُ مُخْبِرٌ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى لِلْجِنِّ وَأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ

عَلَيْهِ الْفُرْقَانَ كَذَلِكَ فَهَذَا هُوَ مَعْنَى الرَّسُولِ فَلَا مَعْنَى لِقَوْلِ السَّائِلِ هُنَا إنَّ النَّذِيرَ أَعَمُّ مِنْ الرَّسُولِ وَقَوْلُهُ وَأَيْضًا فَهُوَ مَخْصُوصٌ يُشِيرُ إلَى خُرُوجِ الْمَلَائِكَةِ مِنْهُ ، وَجَوَابُهُ إنَّ الْعَامَّ الْمَخْصُوصَ حُجَّةٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ وَالْأُصُولِيِّينَ ، وَلَوْ بَطَلَ الِاسْتِدْلَالُ بِالْعُمُومَاتِ الْمَخْصُوصَةِ لَبَطَلَ الِاسْتِدْلَالُ بِأَكْثَرِ الْأَدِلَّةِ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْعُمُومَاتِ مَخْصُوصَةٌ ، وَأَيْضًا فَلَوْ قِيلَ لِمُدَّعِي خُرُوجِ الْمَلَائِكَةِ مَنْ أَنْذَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمَّا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَإِمَّا غَيْرَهَا ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ الْإِنْذَارِ وَالرِّسَالَةِ إلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ خَاصٍّ أَنْ يَكُونَ بِالشَّرِيعَةِ كُلِّهَا .

وَالْقَوْلُ بِالْعُمُومِ فِي حَقِّهِمْ فِي مُطْلَقِ الْإِنْذَارِ لَا يَكَادُ يَقُومُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِهِ .

وَأَيْضًا مِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : إنَّ الْمَلَائِكَةَ هُمْ مُؤْمِنُو الْجِنِّ السَّمَاوِيَّةِ فَإِذَا رُكِّبَ هَذَا مَعَ الْقَوْلِ بِعُمُومِ الرِّسَالَةِ لِلْجِنِّ الَّذِي قَامَ الْإِجْمَاعُ عَلَيْهِ لَزِمَ عُمُومُ الرِّسَالَةِ لَهُمْ لَكِنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ مِنْ الْجِنِّ قَوْلٌ شَاذٌّ وَالصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ الْعَالَمِينَ ثَلَاثَةٌ : الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالْمَلَائِكَةُ أَضْعَافُ الثَّقَلَيْنِ وَإِنَّمَا أَرَدْنَا بِهَذَا عَدَمَ تَسَرُّعِ السَّائِلِ إلَى الْقَطْعِ بِالتَّخْصِيصِ .

(257/228)

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَتَسْمِيَتُهُ الْجِنَّ نَاسًا إنْ كَانَ حَقِيقَةً فَيَلْزَمُ الِاشْتِرَاكُ وَإِلَّا فَمَجَازٌ وَهُمَا عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ ثُمَّ حَيْثُ أَطْلَقَ النَّاسَ فَالْمُرَادُ وَلَدُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لِأَنَّهَا السَّابِقُ إلَى الْفَهْمِ وقَوْله تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ يَدُلُّ أَقُولُ قَوْلُهُ إنْ كَانَ حَقِيقَةً يَلْزَمُ الِاشْتِرَاكُ وَإِلَّا فَمَجَازٌ وَهُمَا عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ .

يَرِدُ عَلَيْهِ التَّوَاطُؤُ وَهُوَ الْحَقُّ إذَا قُلْنَا : يُطْلَقُ عَلَى الْجِنِّ نَاسٌ فَإِنَّ النَّاسَ جَسَدٌ مَأْخُوذٌ مِنْ النَّوَسِ وَهُوَ الْحَرَكَةُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهُوَ قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فَهُوَ مَوْضُوعٌ لِمَعْنًى عَامٍّ مُسْتَوْفًى فِي مُحَالِهِ وَهَذَا حَدُّ الْمُتَوَاطِئِ وَلَيْسَ بِمُشْتَرَكٍ وَلَا مَجَازٍ يَعُمُّ إطْلَاقُ الْمُتَوَاطِئِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ أَوْ مَجَازٌ ؟ فِيهِ بَحْثٌ طَوِيلٌ لِشُيُوخِنَا وَشُيُوخِ شُيُوخِنَا وَالْمُخْتَارُ أَنَّهُ مَجَازٌ ؛ لِأَنَّهُ مَوْضُوعٌ لِلْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ وَالْخُصُوصُ غَيْرُ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ فَإِذَا اُسْتُعْمِلَ فِي الْخُصُوصِ فَقَدْ اُسْتُعْمِلَ فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ فَيَكُونُ مَجَازًا ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : إنْ اُسْتُعْمِلَ فِيهِ بِحَسَبِ مَا فِيهِ مِنْ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ فَهُوَ حَقِيقَةٌ وَإِنْ اُسْتُعْمِلَ فِيهِ بِخُصُوصِهِ كَانَ مَجَازًا .

(258/228)

وَلَا تَحْقِيقَ فِي هَذَا التَّفْصِيلِ أَوْ هُوَ عَيْنُ التَّحْقِيقِ فَإِنَّ الِاسْتِعْمَالَ فِي الْخُصُوصِ إنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ الْخُصُوصِ أَمَّا إذَا أَرَدْتُ الْعُمُومَ فَلَا تَسْتَعْمِلْهُ فَلَا وَجْهَ لِلْخُصُوصِ فَلَا حَاجَةَ إلَى التَّفْصِيلِ وَإِنْ كَانَ حَقًّا .

وَتَفْصِيلُ السَّائِلِ التَّسْمِيَةَ إلَى حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ مُسْتَدْرَكٌ ؛ لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ لَا تُوصَفُ بِحَقِيقَةٍ وَلَا بِمَجَازٍ وَإِنَّمَا الْمَوْصُوفُ بِهِمَا اللَّفْظُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي مَوْضُوعِهِ وَفِي غَيْرِ مَوْضُوعِهِ .

وَتَحْرِيرُ الْعِبَارَةِ أَنْ يُقَالَ : اسْمُ النَّاسِ وَإِنْ كَانَ مَوْضُوعًا لِلْجِنِّ مَعَ كَوْنِهِ مَوْضُوعًا لِلْإِنْسِ لَزِمَ الِاشْتِرَاكُ وَإِنْ كَانَ مَوْضُوعًا لِلْإِنْسِ فَقَطْ وَأُطْلِقَ عَلَى الْجِنِّ لَزِمَ الْمَجَازُ .

وَإِذَا حَرَّرَ الْعِبَارَةَ هَكَذَا يَرُدُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ إنْ كَانَ مَقْصُودُهُ إنْكَارَ اسْتِعْمَالِ هَذَا الِاسْمِ فِي الْجِنِّ بِالْأَصَالَةِ لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ لِنَقْلِ أَهْلِ اللُّغَةِ ذَلِكَ فَكَوْنُهُ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ لَا يَضُرُّ بَلْ يَتَرَجَّحُ إنَّهُ مَجَازٌ ؛ لِأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ الِاشْتِرَاكِ ، أَوْ يَتَرَجَّحُ بِأَنَّهُ مُتَوَاطِئٌ ؛ لِأَنَّ الْمُتَوَاطِئَ خَيْرٌ مِنْهُمَا عَلَى مَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ يَلْزَمُ بِالتَّوَاطُؤِ أَنْ يَكُونَ مَجَازًا فِي كُلٍّ مِنْهُمَا .

وَجَوَابُهُ أَنَّهُ إنَّمَا يَلْزَمُ ذَلِكَ إذَا اُسْتُعْمِلَ فِيهِ بِخُصُوصِهِ وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إلَى الِاسْتِعْمَالِ فِيهِ بِخُصُوصِهِ ؛ لِأَنَّهُ يُكْتَفَى فِي الِاسْتِعْمَالِ بِالْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ .

(259/228)

وَإِنْ كَانَ مَقْصُودُ السَّائِلِ أَنَّهُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْجِنِّ وَلَكِنْ لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا فَهُوَ ظَاهِرُ الْفَسَادِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ لَفْظٍ مُسْتَعْمَلٍ لَا يَخْلُو عَنْ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ مُرَادَ السَّائِلِ إنْكَارُ اسْتِعْمَالِ لَفْظِ النَّاسِ فِي الْجِنِّ وَهُوَ مَرْدُودٌ بِقَوْلِ أَهْلِ اللُّغَةِ لَكِنَّهُ قَلِيلٌ وَكَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَكْتَفِيَ بِدَعْوَى الْقِلَّةِ فِيهِ وَاعْلَمْ أَنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ الْقِلَّةِ لَا يُنَافِي قَوْلَنَا : إنَّهُ مُتَوَاطِئٌ لِأَمْرَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْمُتَوَاطِئَ قَدْ يَغْلِبُ اسْتِعْمَالُهُ فِي بَعْضِ أَفْرَادِهِ دُونَ بَعْضٍ .

وَالثَّانِي : مَا أَشَرْنَا إلَيْهِ فِيمَا سَبَقَ أَنَّ لَفْظَ النَّاسِ صُورَتُهُ وَاحِدَةٌ وَهُوَ لَفْظَانِ فِي الْحَقِيقَةِ وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : أَصْلَانِ .

فَالنَّاسُ الْمَوْضُوعُ لِلْإِنْسِ فَقَطْ مَادَّتُهُ مِنْ هَمْزَةٍ وَنُونٍ وَسِينٍ ، وَالْأَلِفُ الَّتِي وَسَطُ زَائِدَةٌ فَوَزْنُهُ عَالٍ ، وَهُوَ غَيْرُ

(260/228)

النَّاسِ الْمُتَوَاطِئُ بَيْنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فَإِنَّ مَادَّتَهُ مِنْ نُونٍ وَوَاوٍ وَسِينٍ وَلَا حَذْفَ فِيهِ بَلْ قُلِبَتْ وَاوُهُ أَلِفًا فَوَزْنُهُ فَعَلَ ، وَلَوْلَا مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ التَّغَايُرِ لَكَانَ مُشْتَرَكًا ، وَثَمَّ أَلْفَاظٌ فِي اللُّغَةِ هَكَذَا

صُورَتُهَا وَاحِدَةٌ وَإِذَا نُظِرَ إِلَى تَصْرِيفِهَا وَاشْتِقَاقِهَا عُلِمَ تَغَايُرُهَا مِثْلُ " زَالَ " مَاضِي يَزَالُ وَ " زَالَ " مَاضِي يَزُولُ وَمِثْلُ " عَلَا " الَّتِي هِيَ فِعْلٌ ، وَ " عَلَى " الَّتِي هِيَ حَرْفٌ وَكَثِيرٌ مِنْ الْأَلْفَاظِ لَا نُطِيلُ بِذِكْرِهِ فَلَفْظُ النَّاسِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، هَذَا الَّذِي تَخْتَارُهُ فِيهِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ النُّحَاةِ يَنْقُلُ فِيهِ خِلَافًا .

وَقَوْلُ السَّائِلِ : إنَّهُ حَيْثُ أُطْلِقَ النَّاسُ فَالْمُرَادُ وَلَدُ آدَمَ هُوَ الظَّاهِرُ لَكِنَّا قَدَّمْنَا خِلَافًا فِي قَوْلِهِ ﴿ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ وَالْآيَتَانِ اللَّتَانِ ذَكَرَهُمَا الْمُرَادُ فِيهِمَا وَلَدُ آدَمَ لِقَرِينَةٍ فِيهِمَا ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ وَالْقَرِينَةُ الْمَذْكُورَةُ مُنْتَفِيَةٌ فِي قَوْلِهِ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَأُرْسِلْت إلَى الْخَلْقِ عَامَّةً ﴾ أَيْ رَحْمَةً .

(261/228)

أَقُولُ : هَذَا تَفْسِيرٌ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ فِيهِ خُرُوجًا عَنْ مَوْضُوعِ اللَّفْظِ بِلَا دَلِيلٍ ، وَمُخَالِفٌ لِمَقْصُودِ الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِ قَبْلَهُ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ فَتَفْسِيرُ الْإِرْسَالِ هُنَا بِالرَّحْمَةِ تَحْرِيفٌ وَهُوَ مِمَّا يَشْمَئِزُّ لَهُ الطَّبْعُ فَأُحَاشِي السَّائِلَ مِنْهُ وَلَا يُسْلَكُ مِثْلُ هَذِهِ

التَّأْوِيلَاتِ إلَّا حَيْثُ تَكُونُ أَدِلَّةٌ قَوِيَّةٌ تلجئُ إلَى ذَلِكَ وَهَا هُنَا بِالْعَكْسِ الْأَدِلَّةُ تُوَافِقُ الظَّاهِرَ فَأَيُّ ضَرُورَةٍ تَدْعُو إلَى هَذِهِ التَّعَسُّفَاتِ .

(فَصْلٌ) قَالَ : وَيَتَعَيَّنُ ذَلِكَ جَمْعًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وَلِكَوْنِ الْخَلْقِ فِيهِ مَنْ يَتَأَتَّى الْإِرْسَالُ إلَيْهِ .

أَقُولُ : أَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآيَةِ فَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا فَإِنَّ الْمَذْكُورَ فِي الْحَدِيثِ الْمُرْسَلُ إلَيْهِ وَالْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ الْعِلَّةُ الَّتِي هِيَ الرَّحْمَةُ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الرَّحْمَةَ عَامَّةٌ فَلَوْ عَكَسَ السَّائِلُ وَجَعَلَ الْعُمُومَ فِي الْمُرْسَلِ إلَيْهِ كَذَلِكَ كَانَ أَقْرَبَ إلَى الصَّوَابِ ، أَمَّا تَفْسِيرُ الْإِرْسَالِ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي هِيَ عِلَّتُهُ فَغَيْرُ مَرْضِيٍّ .

(262/228)

وَأَمَّا كَوْنُ الْخَلْقِ فِيهِ مَنْ يَتَأَتَّى الْإِرْسَالُ إلَيْهِ فَالْجِنُّ يَتَأَتَّى الْإِرْسَالُ إلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ وَلِقِيَامِ الْإِجْمَاعِ عَلَى تَكْلِيفِهِمْ فَإِنْ قَالَ : لَا يَتَأَتَّى الْإِرْسَالُ مِنْ الْإِنْسِ إلَيْهِمْ لِكَوْنِهِمْ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِمْ فَنَقُولُ : إنَّهُ يَتَأَتَّى فَإِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُخِّرَتْ لَهُ الْجِنُّ ؛ وَغَيْرُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَكِنْ إذَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ إلَيْهِمْ لَا بُدَّ أَنْ نَجْعَلَ لَهُ طَرِيقًا إلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ أَنْ يَحْصُلَ وُصُولُ ذَلِكَ الْكَلَامِ بِأَيِّ طَرِيقٍ كَانَ

وَقَدْ حَصَلَ هَذَا فِي اسْتِمَاعِ الْجِنِّ لِقِرَاءَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي ذَهَابِهِ إلَيْهِمْ وَقِرَاءَتِهِ عَلَيْهِمْ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَأَمَّا تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ وَتَحَدِّيهِمْ بِهِ ؛ فَلِاحْتِمَالِ أَنْ يُحَقِّقَ عَجْزَهُمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَيُثْبِتَ مُدَّعَاهُ إذْ لَا يَمْتَنِعُ اخْتِصَاصُ الرِّسَالَةِ بِقَوْمٍ وَتَحَدِّيهِمْ بِمُعْجِزَةٍ لَا يَقْدِرُونَ هُمْ وَلَا غَيْرُهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا ؛ وَإِذَا انْضَافَ إلَى عَجْزِ الْمُرْسَلِ إلَيْهِمْ عَجْزُ مَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ هُوَ أَقْوَى وَأَقْدَرُ مِنْهُمْ كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي الِانْقِيَادِ وَالِاسْتِجَابَةِ لَهُ .

(263/228)

أَقُولُ : أَمَّا تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ فَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ وَكَانَ ذَلِكَ لِيُعْلِمَهُمْ بِسُؤَالِهِمْ كَمَا تَبَيَّنَ مِنْ الْأَحَادِيثِ ، وَأَمَّا تَحَدِّيهِمْ بِهِ فَذَلِكَ الْمُسْتَدِلُّ أَطْلَقَ هَذِهِ الدَّعْوَى وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنْ بَعْضَ الْمُصَنِّفِينَ ذَكَرَهَا مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴾ - الْآيَةَ وَقُلْنَا : إنَّهُ لَا دَلِيلَ فِي ذَلِكَ إلَّا عَلَى التَّحَدِّي بِالْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْ الْخَلْقِ عَلَى مُعَارَضَتِهِ ، وَأَمَّا عُمُومُ الدَّعْوَةِ بِهِ أَوْ خُصُوصُهَا فَلَا تَعَرُّضَ فِي الْآيَةِ لِذَلِكَ وَلِذَلِكَ فَقَوْلُ السَّائِلِ أَمَّا تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ وَتَحَدِّيهِمْ بِهِ إنْ أَرَادَ أَنَّ تِلَاوَتَهُ عَلَيْهِمْ كَانَ لِقَصْدِ التَّحَدِّي .

فَهَذَا لَمْ يَثْبُتْ وَإِنَّمَا كَانَ لِلتَّعْلِيمِ ، وَالتَّحَدِّي فِي اللُّغَةِ هُوَ الْمُبَارَاةُ وَهُوَ اصْطِلَاحُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ دَعْوَى الرِّسَالَةِ وَالْإِتْيَانِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا مِنْ الْمُعْجِزَاتِ وَالْجِنُّ مِنْ حَيْثُ سَمِعُوا الْقُرْآنَ بِنَخْلَةٍ إذْ صَرَفَهُمْ اللَّهُ إلَيْهِ عَلِمُوا أَنَّهُ مُعْجِزٌ فَلَمْ يُبَارُوا فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَيْضًا فَالْجِنُّ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي جَاءَ الْقُرْآنُ عَلَى أَسَالِيبِهِ وَتَضَمَّنَ مِنْ نَظْمِ تِلْكَ الْأَسَالِيبِ وَالْجَزَالَةِ الْغَايَةَ الْقُصْوَى الَّذِي أَعْجَزَتْ الْخَلَائِقَ الَّذِينَ هُمْ فُصَحَاءُ ذَلِكَ اللِّسَانِ فَعَجْزُهُمْ عَنْ

(264/228)

مُعَارَضَتِهِ أُعْجِبُ مِنْ عَجْزِ الْجِنِّ وَإِنَّمَا ذُكِرَتْ الْجِنُّ فِي قَوْلِهِ ﴿ قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴾ تَعْظِيمًا لِإِعْجَازِهِ ؛ لِأَنَّ الْهَيْئَةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ لَهَا مِنْ الْقُوَّةِ مَا لَيْسَ لِلْأَفْرَادِ فَإِذَا فُرِضَ اجْتِمَاعُ جَمِيعِ الْإِنْسِ وَجَمِيعِ الْجِنِّ فَظَاهَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَعَجَزُوا عَنْ الْمُعَارَضَةِ كَانَ الْفَرِيقُ الْوَاحِدُ وَالطَّائِفَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْهُ وَكُلُّ شَخْصٍ مِنْهَا عَنْ الْمُعَارَضَةِ أَعْجَزَ ، فَمَقْصُودُ الْآيَةِ إثْبَاتُ عَجْزِهِمْ بِدَلِيلِ الْأُولَى سَوَاءٌ حَصَلَ هَذَا الِاجْتِمَاعُ أَمْ لَمْ يَحْصُلْ .

وَالسَّائِلُ مَعْذُورٌ فِي رَدِّهِ عَلَى الْمُسْتَدِلِّ بِذَلِكَ عَلَى عُمُومِ الْبَعْثَةِ لِلْجِنِّ وَنَحْنُ لَمْ نَسْتَدِلَّ بِذَلِكَ بَلْ بِغَيْرِهِ مِمَّا لَا مُعْتَرَضَ عَلَيْهِ وَلَا مَرَدَّ لَهُ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَأَمَّا مَا أُحِلَّ لَهُمْ فَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ تَكْلِيفٌ لَنَا وَمُتَعَلِّقٌ بِنَا وَإِنْ كَانَ مِنْ أَجْلِهِمْ كَمَا نَهَى عَنْ الْبَصْقِ عَنْ الْيَمِينِ مِنْ أَجْلِ الْمَلَكِ وَكَمَا حَرَّمَ اسْتِقْبَالَ الْقِبْلَةِ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ .

(265/228)

أَقُولُ : إنْ ثَبَتَ لَفْظُ الْإِحْلَالِ لَهُمْ لَمْ يَرِدْ هَذَا ؛ لِأَنَّ الْإِحْلَالَ لَهُمْ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ مُتَعَلِّقٌ بِهِمْ وَهُوَ إخْبَارٌ لَهُمْ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ مَعْنَى الرِّسَالَةِ وَالْبَعْثَةِ ، وَلَا يَنْبَغِي لِلسَّائِلِ أَنْ يَتَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ إنْ ثَبَتَ لَفْظُ الْإِحْلَالِ لَهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ إلَّا اللَّفْظُ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ فَهُوَ مُحْتَمِلٌ لِلْإِحْلَالِ وَلِغَيْرِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَهُوَ مَحَلُّ التَّوَقُّفِ وَإِذَا جُعِلَ التَّوَقُّفُ مِنْ هَذَا الدَّلِيلِ لَمْ يَحْصُلْ مِنْ غَيْرِهِ .

وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ الْبُصَاقِ لِأَجْلِ الْمَلَكِ وَتَحْرِيمُ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ فَنَظِيرُهُ تَحْرِيمُ الِاسْتِنْجَاءِ بِالْعَظْمِ مِنْ أَجْلِ الْجِنِّ وَذَلِكَ بِمُجَرَّدِهِ لَا يُسْتَدَلُّ بِهِ وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ بِالتَّحْلِيلِ لَهُمْ ، فَلْيَفْهَمْ

(266/228)

النَّاظِرُ الْفَرْقَ بَيْنَ التَّحْلِيلِ لَهُمْ وَالتَّحْرِيمِ عَلَيْنَا مِنْ أَجْلِهِمْ ، وَالْأَوَّلُ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ مُتَعَلِّقٌ بِهِمْ ، وَالثَّانِي مُتَعَلِّقٌ بِنَا لَا بِهِمْ ، وَلَيْسَ لَنَا إذَا وَرَدَ اللَّفْظُ الْأَوَّلُ أَنْ نَحْمِلَهُ عَلَى الثَّانِي ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا الْمُحَافَظَةُ عَلَى أَلْفَاظِ الشَّرِيعَةِ مَا أَمْكَنَ وَفَهْمُ مَعَانِيهَا وَتَوْفِيَتُهَا مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ الْأَحْكَامِ وَلَا نُهْمِلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا نَتَجَاوَزُهُ فَنَزِيدُ أَحْكَامًا لَمْ يُنْزِلْ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، وَلَا نَنْقُصُ مِنْهُ فَنَتْرُكُ حُكْمًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ فِي الْأَوَّلِ حَاكِمًا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَفِي الثَّانِي تَارِكًا لِلْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَكِلَاهُمَا مَذْمُومٌ لِقَوْلِهِ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ - الْآيَاتِ وَإِذَا تَوَعَّدَ عَلَى عَدَمِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَعَلَى الْحُكْمِ بِمَا لَمْ يُنْزِلْ اللَّهُ أَوْلَى نَسْأَلُ اللَّهَ الْعِصْمَةَ مِنْ الْأَمْرَيْنِ .

(267/228)

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَأَمَّا أَنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ إلَى الْجِنِّ إلَّا مِنْ الْإِنْسِ فَمُجَرَّدُ دَعْوَى وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ ظَاهِرٌ فِي كَوْنِ الرُّسُلِ إلَيْهِمْ مِنْهُمْ ، وَاحْتِمَالُ غَيْرِ ذَلِكَ عُدُولٌ عَنْ الظَّاهِرِ أَقُولُ : هَذِهِ مَسْأَلَةٌ خِلَافٌ ذَهَبَ الضَّحَّاكُ إلَى مَا

قَالَهُ السَّائِلُ وَلَا أَعْرِفُ ذَلِكَ نُقِلَ عَنْ أَحَدٍ مُعَيَّنٍ إلَّا عَنْهُ لَكِنَّ فِي كَلَامِ ابْنِ جَرِيرٍ مَا يَقْتَضِي أَنَّ غَيْرَهُ قَالَ بِقَوْلِهِ وَلَمْ يُعَيِّنْهُ وَإِنَّمَا نَقَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ صَرِيحًا عَنْهُ .

(268/228)

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ثنا ابْنُ حُمَيْدٍ ثنا يَحْيَى بْنُ وَاضِحٍ ثنا عُبَيْدُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ : سُئِلَ الضَّحَّاكُ عَنْ الْجِنِّ هَلْ كَانَ فِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ : أَلَمْ تَسْمَعْ إلَى قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ - الْآيَةَ يَعْنِي بِذَلِكَ رُسُلًا مِنْ الْإِنْسِ وَرُسُلًا مِنْ الْجِنِّ ؟ قَالُوا : بَلَى ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَمَّا الَّذِينَ قَالُوا بِقَوْلِ الضَّحَّاكِ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ مِنْ الْجِنِّ رُسُلًا أُرْسِلُوا إلَيْهِمْ ، قَالَ : وَلَوْ جَازَ أَنْ يَكُونَ خَبَرُهُ عَنْ رُسُلِ الْجِنِّ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ رُسُلُ الْإِنْسِ جَازَ أَنْ يَكُونَ خَبَرُهُ عَنْ رُسُلِ الْإِنْسِ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ رُسُلُ الْجِنِّ قَالُوا : وَفِي فَسَادِ هَذَا الْمَعْنَى مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخَبَرَيْنِ جَمِيعًا بِمَعْنَى الْخَبَرِ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي الْخِطَابِ دُونَ غَيْرِهِ .

هَذَا جُمْلَةُ مَا قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي مَذْهَبِ الضَّحَّاكِ ، وَالْأَكْثَرُونَ خَالَفُوا الضَّحَّاكَ وَقَالُوا : لَمْ يَكُنْ مِنْ الْجِنِّ قَطُّ رَسُولٌ وَلَمْ تَكُنْ رُسُلٌ إلَّا مِنْ الْإِنْسِ .

نُقِلَ مَعْنَى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جَرِيرٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْكَلْبِيِّ وَأَبِي عُبَيْدٍ وَالْوَاحِدِيِّ مَعَ قَوْلِهِ : إنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ لِلضَّحَّاكِ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ

(269/228)

يَتَأَوَّلُونَهَا ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهَا فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَأَبُو عُبَيْدٍ مَا مَعْنَاهُ : إنَّ رُسُلَ الْإِنْسِ رُسُلٌ مِنْ اللَّهِ إلَيْهِمْ وَرُسُلَ الْجِنِّ قَوْمٌ مِنْ الْجِنِّ لَيْسُوا رُسُلًا عَنْ اللَّهِ وَلَكِنْ بَثَّهُمْ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ فَسَمِعُوا كَلَامَ رُسُلِ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ وَجَاءُوا إلَى قَوْمِهِمْ مِنْ الْجِنِّ فَأَخْبَرُوهُمْ كَمَا اتَّفَقَ لِلَّذِينَ صَرَفَهُمْ اللَّهُ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ وَوَلَّوْا إلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ فَهُمْ رُسُلٌ عَنْ الرُّسُلِ لَا رُسُلٌ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى وَيُسَمَّوْنَ نُذُرًا وَيَجُوزُ تَسْمِيَتُهُمْ رُسُلًا لِتَسْمِيَةِ رُسُلِ عِيسَى رُسُلًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنَّا إلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ وَجَاءَ قَوْلُهُ ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ عَلَى ذَلِكَ فَالرُّسُلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ الْإِنْسِ وَهُمْ رُسُلُ اللَّهِ ، وَالنُّذُرُ مِنْ الْجِنِّ وَهُمْ رُسُلُ الرُّسُلِ وَيَجُوزُ تَسْمِيَتُهُمْ رُسُلًا هَذَا قَوْلُ هَؤُلَاءِ .

وَقَالَ طَائِفَةٌ وَالْكَلْبِيُّ : تَأْوِيلُ الْآيَةِ وَقَوْلِهِ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَخْرُجُ

مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ أَحَدِهِمَا ، وَرُبَّمَا نُقِلَ مَعْنَى هَذَا عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ أَيْضًا وَغَيْرِهِ .

(270/228)

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ كَانَتْ الرُّسُلُ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْعَثُونَ إلَى الْإِنْسِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يُرْسَلْ إلَيْهِمْ رَسُولٌ مِنْ الْإِنْسِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُهُ وَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ إلَّا نُذُرٌ يُخْبِرُونَهُمْ عَنْ الرُّسُلِ وَتَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَتَعَلَّقُ بِهِمْ التَّكْلِيفُ .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْكَلْبِيُّ مِنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلٌ إلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَمْ يُخَالِفْهُ فِيهِ أَحَدٌ وَالضَّحَّاكُ

إنَّمَا خَالَفَهُ فِي الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ كَمَا تُشِيرُ إلَيْهِ الرِّوَايَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مِنْ طَرِيقِ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ ، وَقَوْلُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ مِثْلُ الضَّحَّاكِ عَنْ الْجِنِّ هَلْ كَانَ فِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْظُرْ هَذَا التَّقْيِيدَ فَمَنْ نَقَلَ عَنْ الضَّحَّاكِ مُطْلَقًا أَنَّ رُسُلَ الْجِنِّ مِنْهُمْ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى هَذَا التَّقْيِيدِ وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ عَنْهُ أَنَّ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَإِنْ تَوَهَّمَ ذَلِكَ أَحَدٌ عَلَيْهِ فَقَدْ أَخْطَأَ وَيَجِبُ عَلَيْهِ النُّزُوعُ عَنْهُ وَعَدَمُ اعْتِقَادِهِ

، وَأَنْ لَا يَنْسِبَ إلَى رَجُلٍ عَالِمٍ مَا يُخَالِفُ الْإِجْمَاعَ فَيَكُونُ قَدْ جَنَى عَلَيْهِ جِنَايَةً يُطَالِبُهُ بِهَا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُ السَّائِلِ وَاحْتِمَالُ غَيْرِ ذَلِكَ عُدُولٌ عَنْ الظَّاهِرِ .

(271/228)

عِبَارَةٌ رَدِيئَةٌ فَإِنَّ الْعُدُولَ عَنْ الظَّاهِرِ هُوَ سُلُوكُ ذَلِكَ الِاحْتِمَالِ وَالْقَوْلُ بِهِ لَا نَفْسُ الِاحْتِمَالِ ، وَإِذَا صَحَّتْ الْعِبَارَةُ يُجَابُ بِأَنَّ الْعُدُولَ عَنْ الظَّاهِرِ جَائِزٌ بَلْ وَاجِبٌ إذَا دَلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ ، وَالَّذِينَ عَدَلُوا عَنْ الظَّاهِرِ فِي ذَلِكَ أَكَابِرُ الْأُمَّةِ ابْنُ عَبَّاسٍ فَمَنْ دُونَهُ وَأَيْنَ يَقَعُ الضَّحَّاكُ مِنْهُمْ أَوْ مَنْ وَافَقَهُ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : ثُمَّ إنَّ الْجِنَّ سَابِقُونَ عَلَى الْإِنْسِ فِي الْخَلْقِ وَالْوُجُودِ فَحَالُ وُجُودِهِمْ السَّابِقِ إمَّا أَنْ يَكُونَ أَرْسَلَ إلَيْهِمْ أَوْ لَا ، وَالْأَوَّلُ : يَلْزَمُ كَوْنَ الرُّسُلِ مِنْ غَيْرِ الْإِنْسِ ضَرُورَةَ تَقَدُّمِهِمْ عَلَيْهِمْ .

(272/228)

وَالثَّانِي : يَلْزَمُ عَلَيْهِ عَدَمُ تَكْلِيفِهِمْ وَعَدَمُ تَعْذِيبِهِمْ وَذَلِكَ عَلَى خِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أَقُولُ : عَطْفُ الْوُجُودِ عَلَى الْخَلْقِ لَا مَعْنَى لَهُ ؛ لِأَنَّهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ إلَّا أَنْ تَقُولَ : إنَّ الْخَلْقَ فِعْلٌ وَالْوُجُودَ انْفِعَالٌ ، وَالثَّانِي بَعْدَ الْأَوَّلِ فِي الذِّهْنِ وَإِنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْخَارِجِ فَهَذَا الْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا لَا يُعْتَمَدُ فِي مِثْلِ هَذَا ، وَقَوْلُهُ : إنَّهُمْ سَابِقُونَ عَلَى الْإِنْسِ إنْ اسْتَنَدَ فِي هَذَا إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إلَّا إبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ ﴾ فَالنَّاسُ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إنَّ الْجِنَّ اسْمٌ لِكُلِّ مَنْ اسْتَتَرَ عَنْ الْعُيُونِ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ وَيَنْقَسِمُ إلَى مُؤْمِنِينَ يُسَمَّوْنَ مَلَائِكَةً وَإِلَى كُفَّارٍ يُسَمَّوْنَ شَيَاطِينَ حَكَاهُ الْحَلِيمِيُّ وَقَدْ أَشَرْنَا إلَيْهِ فِيمَا سَبَقَ .

(273/228)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمَلَائِكَةُ جِنْسٌ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ الْجِنِّ وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي يَشْهَدُ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ؛ وَعَلَى هَذَا قُلْ : إنَّ إبْلِيسَ أَبُو الْجِنِّ كَآدَمَ أَبِي الْبَشَرِ فَعَلَى الْأَوَّلِ مُؤْمِنُو الْجِنِّ هُمْ الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ مُكَلَّفُونَ وَتَكْلِيفُهُمْ إمَّا بِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِمَّا بِخَلْقِ عِلْمٍ ضَرُورِيٍّ بِمَا يُؤْمَرُونَ بِهِ وَيُنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِمَّا بِأَنْ يُرْسَلَ بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ ، وَكُفَّارُ الْجِنِّ هُمْ الشَّيَاطِينُ وَلَعَلَّ أَوَّلَهُمْ إبْلِيسُ وَهُوَ مُكَلَّفٌ بِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَنْ بَعْدَهُ لَا يَلْزَمُ فِيهِ مَا قَالَهُ

السَّائِلُ : يَجُوزُ وُصُولُ رُسُلِ الْإِنْسِ إِلَيْهِ ، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي يَكُونُ الْجِنُّ مَوْجُودِينَ قَبْلَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَمْ يُنْقَلْ لَنَا كَيْفَ كَانَ تَكْلِيفُهُمْ هَلْ هُوَ بِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ بِعِلْمٍ ضَرُورِيٍّ وَاسْتِدْلَالِيٍّ ، وَالْكَلَامُ إنَّمَا هُوَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَفَرْضُ هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ التَّكْلِيفِ الَّذِي لَا حَاجَةَ إلَى الْكَلَامِ فِيهِ وَتَوْقِيفُ التَّكْلِيفِ عَلَى الرَّسُولِ إنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْأُمَمِ الَّتِي فِيهَا الرُّسُلُ وَإِلَّا فَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ رُسُلٌ كَجِبْرِيلَ مُكَلَّفُونَ .

وَنَقَلَ إمَامُ الْحَرَمَيْنِ عَنْ الْمُعْتَزِلَةِ إنْكَارَ وُجُودِ الْجِنِّ وَهُوَ عَجَبٌ كَيْفَ يُنْكِرُ مَنْ يُصَدِّقُ بِالْقُرْآنِ وُجُودَ الْجِنِّ .

(274/228)

وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذَا لِيَعْلَمَ السَّائِلُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَأْخُذُهَا مُسَلَّمَةً مِنْ نَفْسِهِ لَا يُسَلِّمُهَا إلَيْهِ غَيْرُهُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ - الْآيَةَ سِيَاقُ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فِي الْإِنْسِ فَإِنَّهُ قَالَ ﴿ وَكُلَّ إنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ - الْآيَةَ إلَى قَوْلِهِ ﴿ رَسُولًا ﴾ وَلَا خِلَافَ أَنَّ إبْلِيسَ مُكَلَّفٌ مُعَذَّبٌ لِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ رَسُولٌ لَا إنْسِيٌّ وَلَا جِنِّيٌّ فَالْآيَةُ مَخْصُوصَةٌ أَوْ أَنَّ الْعَقْلَ قَائِمٌ مَقَامَ الرَّسُولِ عِنْدَ مَنْ يُثْبِتُ الْأَحْكَامَ بِالْعَقْلِ أَوْ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ يَكُونُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ أَوْ أَنَّ التَّكْلِيفَ يَحْصُلُ بِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ خَلْقِ عِلْمٍ ،

وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَا خَلَقْت الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فَالظَّاهِرُ أَنَّ السَّائِلَ بَنَى كَلَامَهُ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهَا إلَّا لِأَمْرِهِمْ بِالْعِبَادَةِ وَهُوَ قَوْلٌ مِنْ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ فِيهَا وَالْمَشْهُورُ خِلَافُهُ ، وَفِيهَا بَحْثٌ كَبِيرٌ لَا يَحْتَمِلُهُ هَذَا الْمَوْضِعُ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَأَمَّا دَعْوَى الْإِجْمَاعِ فَهَلْ لَهُ مُسْتَنَدٌ وَهَلْ هُوَ قَطْعِيٌّ أَوْ ظَنِّيٌّ وَهَلْ الْمَطْلُوبُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْقَطْعُ أَوْ الظَّنُّ

وَهَلْ تَثْبُتُ دَعْوَى الْإِجْمَاعِ فِي الْأُصُولِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ .

(275/228)

أَقُولُ : أَمَّا مُسْتَنَدُ دَعْوَى الْإِجْمَاعِ فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ أَبِي طَالِبٍ عَقِيلِ بْنِ عَطِيَّةَ وَإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ بَلْ كَلَامُ إمَامِ الْحَرَمَيْنِ يَقْتَضِي أَنَّهُ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرَهُ إلَّا اسْتِطْرَادًا فِي الرَّدِّ عَلَى الْعِيسَوِيَّةِ وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ الْيَهُودِ مَنْسُوبُونَ إلَى رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ : أَبُو عِيسَى يَزْعُمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولٌ إلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً ، وَمَا قَالَهُ الْإِمَامُ صَحِيحٌ ؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ قَطْعًا بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ الْمُفِيدِ لِلضَّرُورَةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ادَّعَى الرِّسَالَةَ مُطْلَقَةً وَلَمْ يُقَيِّدْهَا بِقَبِيلَةٍ وَلَا طَائِفَةٍ وَلَا إنْسٍ وَلَا جِنٍّ فَهِيَ عَامَّةٌ لِكُلِّ مَنْ هُوَ عَلَى بَسِيطِ الْأَرْضِ ، وَسُكَّانُ الْأَرْضِ هُمْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ فَهُمْ كُلُّهُمْ فِي دَعْوَتِهِ وَعُمُومِ رِسَالَتِهِ .

(276/228)

وَقَوْلُ السَّائِلِ : قَطْعِيٌّ أَوْ ظَنِّيٌّ ، قَدْ عُلِمَ جَوَابُهُ وَأَنَّهُ قَطْعِيٌّ وَتَضَمَّنَ كَلَامُ إمَامِ الْحَرَمَيْنِ لِذَلِكَ وَهُوَ الْقُدْوَةُ لَكِنِّي أُنَبِّهُ هُنَا عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ أَنَّ الْمَعْلُومَ بِالضَّرُورَةِ مِنْ الشَّرْعِ قِسْمَانِ : أَحَدُهُمَا يَعْرِفُهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ ، وَالثَّانِي : قَدْ يَخْفَى عَلَى بَعْضِ الْعَوَامِّ ، وَلَا يُنَافِي هَذَا قَوْلَنَا : إنَّهُ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ مَنْ مَارَسَ الشَّرِيعَةَ وَعَلِمَ مِنْهَا مَا يَحْصُلُ بِهِ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ بِذَلِكَ وَهَذَا قَدْ يَحْصُلُ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ بِحَسَبِ الْمُمَارَسَةِ وَكَثْرَتِهَا أَوْ قِلَّتِهَا أَوْ عَدَمِهَا فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ مَنْ أَنْكَرَهُ الْعَوَامُّ أَوْ الْخَوَاصُّ فَقَدْ كَفَرَ ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَبَرِهِ .

وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ إنْكَارُ وُجُوبِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَنَحْوِهَا وَتَخْصِيصُ رِسَالَتِهِ بِبَعْضِ الْإِنْسِ .

فَمَنْ قَالَ ذَلِكَ فَلَا

(277/228)

شَكَّ فِي كُفْرِهِ وَإِنْ اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ رَسُولٌ إِلَيْهِ لِأَنَّ عُمُومَ رِسَالَتِهِ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ مِمَّا يَعْلَمُهُ الْخَوَاصُّ وَالْعَوَامُّ بِالضَّرُورَةِ مِنْ الدِّينِ ، وَالْقِسْمُ الثَّانِي مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ الْعَوَامِّ الَّذِينَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مِنْ مُمَارَسَتِهِ الشَّرْعَ مِمَّا يَحْصُلُ لَهُ بِهِ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ وَإِنْ كَانَتْ كَثْرَةُ الْمُمَارَسَةِ أَوْجَبَتْ لِلْعُلَمَاءِ الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ بِذَلِكَ ، وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ عُمُومُ رِسَالَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْجِنِّ فَإِنَّا نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ مُمَارَسَتِنَا لِأَدِلَّةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَخْبَارِ الْأُمَّةِ .

(278/228)

وَأَمَّا الْعَامِّيُّ الَّذِي لَمْ يَحْصُلْ لَهُ ذَلِكَ إذَا أَنْكَرَ ذَلِكَ فَإِنْ قَيَّدَ الشَّهَادَةَ بِالرِّسَالَةِ إلَى الْإِنْسِ خَاصَّةً خَشِيت عَلَيْهِ الْكُفْرَ كَمَا قَدَّمْته فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْفَتْوَى ، وَإِنْ أَطْلَقَ الشَّهَادَةَ بِأَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَلَمْ يَنْتَبِهْ ؛ لِأَنَّ إنْكَارَهُ لِعُمُومِ الدَّعْوَى لِلْجِنِّ يُخَالِفُ ذَلِكَ فَلَا أَرَى الْحُكْمَ بِكُفْرِهِ وَلَكِنْ يُؤَدَّبُ عَلَى كَلَامِهِ فِي الدِّينِ بِالْجَهْلِ وَيُؤْمَرُ بِأَنْ يَتَعَلَّمَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ لِتَزُولَ عَنْهُ الشُّبْهَةُ الَّتِي أَوْجَبَتْ الْإِنْكَارَ ، وَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ إنْكَارٌ وَلَا تَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ وَلَا خَطَرَ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِنْهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا يُؤْمَرُ بِتَعَلُّمِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فَرْضَ عَيْنٍ وَإِنْ خَطَرَ بِبَالِهِ ذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْهِ السُّؤَالُ وَاعْتِقَادُ الْحَقِّ أَوْ صَرْفُ نَفْسِهِ عَنْ اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ وَيَشْهَدُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرِّسَالَةِ مُطْلَقَةً .

وَقَوْلُ السَّائِلِ هُوَ الْمَطْلُوبُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْقَطْعُ أَوْ الظَّنُّ .

جَوَابُهُ يُؤْخَذُ مِمَّا قَدَّمْنَاهُ فَإِنَّ الْعَامِّيَّ لَا يُكَلَّفُ بِذَلِكَ قَطْعًا وَلَا ظَنًّا وَالْعَالِمُ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ الْقَطْعُ .

وَقَوْلُهُ وَهَلْ تَثْبُتُ دَعْوَى الْإِجْمَاعِ فِي الْأُصُولِ بِخَبَرِ

(279/228)

الْوَاحِدِ ؟ جَوَابُهُ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ قَدْ قُلْنَا : إنَّهَا قَطْعِيَّةٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنْ كَانَ الْقَطْعُ فِيهَا غَيْرَ لَازِمٍ لِلْعَامِّيِّ فَتَكُونُ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ كَمَسَائِلِ الْفُرُوعِ فَيُكْتَفَى فِيهَا بِالْإِجْمَاعِ الْمَنْقُولِ بِالْآحَادِ ، وَأَمَّا الْعَالِمُ فَهَذَا الْإِجْمَاعُ عِنْدَهُ مُتَوَاتِرٌ مَقْطُوعٌ بِهِ كَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الثَّابِتَةِ بِالتَّوَاتُرِ كَمَا تَضَمَّنَهُ كَلَامُ إمَامِ الْحَرَمَيْنِ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : ثُمَّ إنَّ الْقَاضِيَ لَمْ يَتَعَرَّضْ فِي كِتَابِهِ الشِّفَا لِذِكْرِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَعَ إطْنَابِهِ وَإِسْهَابِهِ فِي خَصَائِصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُعْجِزَاتِهِ .

أَقُولُ : هَذَا لَا تَعَلُّقَ فِيهِ وَلَيْسَ كِتَابٌ حَوَى الْعِلْمَ كُلَّهُ إلَّا كِتَابُ اللَّهِ وَخَصَائِصُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُعْجِزَاتُهُ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ وَلَوْ أَسْهَبَ الْخَلْقُ فِيهَا وَأَطْنَبُوا لَكَانَ مَا فَاتَهُمْ مِنْهَا أَكْثَرَ ، وَيَنْبَغِي تَجَنُّبُ لَفْظِ الْإِسْهَابِ وَالْإِطْنَابِ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمَا الْإِكْثَارُ وَالْمُبَالَغَةُ وَكُلُّ

مُتَكَلِّمٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنْ الْبَشَرِ مُقَصِّرٌ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ مُسْهِبٌ أَوْ مُطْنِبٌ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : لَا يَلْزَمُ مِنْ تَحَاكُمِهِمْ إلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إرْسَالُهُ إلَيْهِمْ مَا لَمْ يُنَصَّ عَلَى ذَلِكَ .

(280/228)

أَقُولُ قَدْ سَبَقَ بَعْضُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ وَالْحَقُّ أَنَّهُمْ مَتَى تَحَاكَمُوا إلَيْهِ وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْحُكْمُ حُكْمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إمَّا بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَيْهِمْ وَهُوَ الْمُدَّعَى وَإِمَّا بِمُوَافَقَةِ رِسَالَةِ غَيْرِهِ إلَيْهِمْ كَمَا يَدَّعِيهِ السَّائِلُ وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُوَافِقًا لِذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِمْ فَثَبَتَتْ الرِّسَالَةُ بِذَلِكَ إلَيْهِمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

وَرَوَى الْبَغَوِيّ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إنَّ الْجِنَّ تَدَارَأَتْ فِي قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَهُمْ فَتَحَاكَمُوا إلَيَّ فَقَضَيْت بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَأَمَّا خَبَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا خَفِيَ عَلَيْهِ فَبَعِيدٌ مَعَ جَزْمِهِ بِذَلِكَ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَقُولُهُ عَنْ اجْتِهَادٍ .

أَقُولُ : قَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ مُرَادِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِخِلَافِ مَا قَالَهُ السَّائِلُ وَالْمُسْتَدِلُّ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : ثُمَّ إذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثًا إلَى الْجِنِّ فَهَلْ هُمْ

مُمْتَازُونَ عَنَّا بِشَرِيعَةٍ وَعِبَادَاتٍ أَوْ الْوَاجِبُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ وَاحِدٌ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فَمَا الْحُكْمُ فِي إخْفَاءِ شَرِيعَتِهِمْ عَنْ الْأُمَّةِ وَقَدْ بَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْوَالَ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَأَذْكَارَهُمْ وَعِبَادَاتِهِمْ وَهُمْ أَشْرَفُ وَأَرْفَعُ مِنْهُمْ .

(281/228)

أَقُولُ الَّذِي يَظْهَرُ لَنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَمْتَازُوا بِشَرِيعَةٍ بَلْ الْوَاجِبُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ لِعُمُومِ أَدِلَّةِ الشَّرِيعَةِ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالطَّهَارَةُ كَمَا هِيَ وَاجِبَةٌ عَلَيْنَا لَا يَخْتَلِفُ حُكْمٌ مِنْ الْأَحْكَامِ فِي حَقِّهِمْ إلَّا أَنْ لَا يُوجَدَ فِيهِمْ شَبَهٌ أَوْ لَا يَعْلَمُوا أَنَّهُ هَذَا هُوَ الَّذِي نَخْتَارُهُ فِي ذَلِكَ تَمَسُّكًا بِإِطْلَاقِ النُّصُوصِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْإِمَامُ لِلْجَمِيعِ وَأَحْكَامُهُ جَارِيَةٌ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّ بَعْضَ الْفُرُوعِ لَا تَلْزَمُهُمْ وَأَنَّهُ يُكْتَفَى مِنْهُمْ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِقْرَارِ بِالرِّسَالَةِ وَالْمَعَادِ وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ مَاذَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ مِنْ الْأَشْكَالِ ، وَلَوْ فُرِضَ أَنَّهُمْ يَمْتَازُونَ بِبَعْضِ الْأَحْكَامِ يُخْتَصُّونَ بِهَا عَنْ الْإِنْسِ فَمَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ وَعَدَمُ إعْلَامِنَا بِذَلِكَ لِعَدَمِ حَاجَتِنَا إلَيْهِ وَلَا يُقَالُ فِي ذَلِكَ إخْفَاءٌ حَتَّى تَطْلُبَ لِحِكْمَةٍ فِيهِ وَبَيَانُ أَحْوَالِ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ أَشْرَفُ مِنْهُمْ كَيْفَ يَلْزَمُ مِنْهُ بَيَانُ أَحْوَالِ الْجِنِّ عَلَى أَنَّ أَحْوَالَ الْمَلَائِكَةِ لَمْ

تَتَبَيَّنْ كُلُّهَا وَإِنَّمَا بُيِّنَ بَعْضُهَا مِمَّا يَحْصُلُ بِبَيَانِهِ اعْتِبَارٌ وَفَائِدَةٌ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَمَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْت إلَى النَّاسِ عَامَّةً هَلْ التَّخْصِيصُ بِاعْتِبَارِ مَا بُعِثُوا بِهِ مِنْ الْفُرُوعِ الْمُخْتَصَّةِ بِأُمَّةٍ دُونَ أُخْرَى لِاتِّفَاقِهِمْ فِي أُصُولِ الدِّينِ أَمْ بِاعْتِبَارِ مَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ حَتَّى لَا يَكُونَ الرَّسُولُ إلَى طَائِفَةٍ خَاصَّةٍ مُبْدِيهِمَا سِوَاهُمْ وَلَا يَجِبُ عَلَى غَيْرِهِمْ الدُّخُولُ فِي دَعْوَتِهِ .

أَقُولُ : الَّذِي ظَهَرَ لَنَا بِاعْتِبَارِ مَا وَصَلَ بَحْثِي إلَيْهِ وَمَا فَهِمْته مِنْ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ - إنَّهُ بِاعْتِبَارِ مَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ ؛ لِأَنَّهُ ظَاهِرُ اللَّفْظِ وَلَا صَارِفَ لَهُ وَلِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي عُلُوِّ شَأْنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأَنَّهُ جَعَلَ الْمُقَابَلَةَ بَيْنَ بَعْثِهِ وَبَعْثِهِمْ لَا بَيْنَ شَرِيعَتِهِ وَشَرِيعَتِهِمْ ، وَالِاحْتِمَالُ فِي الثَّانِي لَا فِي الْأَوَّلِ وَلِأَنَّ النَّاسَ تَكَلَّمُوا فِي غَرَقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مَعَ كَوْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ شَرِيعَتُهُ لِبَنِي إسْرَائِيلَ وَأَجَابُوا بِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا كَانَ رَسُولًا إلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بِالْإِيمَانِ مَعَ اسْتِعْبَادِ بَنِي إسْرَائِيلَ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ ﴿ اذْهَبْ إلَى فِرْعَوْنَ ﴾ الْآيَتَيْنِ كَذَلِكَ ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّك مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ - الْآيَتَيْنِ .

وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ تَدُلُّ عَلَى دَعْوَةِ مُوسَى وَهَارُونَ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ بِالْأُصُولِ ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسْرَائِيلَ ﴾ لِأَنَّهُ كَانَ مُكَلَّفًا بِالْأُصُولِ وَبِهَذَا الْفَرْعِ كُلُّ ذَلِكَ بِمُقْتَضَى شَرِيعَةِ مُوسَى وَإِنْ كَانَ قَدْ كَانَ مُكَلَّفًا قَبْلَ ذَلِكَ أَيْضًا بِشَرِيعَةِ غَيْرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى كُفْرِهِ فِيمَا مَضَى وَتَقَدَّمَ تَكْلِيفُهُ .

وَلِهَذَا يُوجَدُ فِي

كَلَامِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مُوسَى رَسُولٌ إلَى بَنِي إسْرَائِيلَ وَإِلَى الْقِبْطِ وَكَذَا هُوَ ، وَتَتَعَلَّقُ شَرِيعَتُهُ أَيْضًا بِكُلِّ مَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي شَرِيعَتِهِ مِنْ غَيْرِ بَنِي إسْرَائِيلَ قَبْلَ بَعْثَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنُزُولِ التَّوْرَاةِ وَمَا فِيهَا مِنْ الْأَحْكَامِ لَمْ يَكُنْ إلَّا بَعْدَ غَرَقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِبَنِي إسْرَائِيلَ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ خَاصَّةً دُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فَلَمْ تَتَعَلَّقْ بِهِمْ وَهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَنْ مَاتَ مِنْ الْكُفَّارِ فِي أَوَّلِ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ تَجَدَّدَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ أَحْكَامٌ أُخْرَى نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأَنَّ النَّاسَ قَالُوا فِي الطُّوفَانِ : إنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إلَّا قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلِذَلِكَ عُوقِبُوا .

(284/228)

وَرُبَّمَا مَرَّ بِي مِنْ كَلَامِ بَعْضِ النَّاسِ فِي الِاعْتِذَارِ عَنْ غَرَقِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالطُّوفَانِ وَغَرَقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُكَلَّفِينَ بِالْإِيمَانِ بِدَعْوَةِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الرُّسُلِ لِاشْتِرَاكِ جَمِيعِ الرُّسُلِ فِي الدَّعْوَةِ إلَى الْإِيمَانِ وَإِنَّمَا التَّخْصِيصُ بِالْفَرْعِ وَهَذَا لَا حَاجَةَ إلَيْهِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ فِي الطُّوفَانِ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ إلَّا قَوْمُ نُوحٍ وَبِأَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ دَخَلُوا فِي دَعْوَةِ مُوسَى بِالْإِيمَانِ .

وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى مَذْهَبِنَا فِي أَنَّ الْأَحْكَامَ كُلَّهَا أُصُولَهَا وَفُرُوعَهَا لَا تَثْبُتُ إلَّا بِالشَّرْعِ ، وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّهَا تَثْبُتُ بِالْعَقْلِ فَيَكْتَفُونَ فِي إغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَنَحْوِهِ بِقِيَامِ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ عَلَيْهِ وَبِالْإِيمَانِ وَمُخَالَفَتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَرْضَ سَوَاءٌ قُلْنَا بِقَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ أَوْ بِمَا مَرَّ بِي مِنْ كَلَامِ بَعْضِ النَّاسِ أَوْ بِمَا قُلْنَاهُ ، وَلَا يَلْزَمُ أَنَّ دَعْوَةَ كُلِّ نَبِيٍّ بِالْإِيمَانِ وَأُصُولِ الدِّينِ كَانَتْ عَامَّةً لِدَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ اشْتِرَاكِ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الدَّعْوَةِ إلَى الْإِيمَانِ أَنَّ دَعْوَةَ كُلٍّ مِنْهُمْ عَامَّةٌ فِيهِ إلَى جَمِيعِ النَّاسِ ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ دَعَا قَوْمَهُ إلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ ﴾ - الْآيَةَ فَكُلُّ وَاحِدٍ دَاعٍ إلَى ذَلِكَ مَنْ أُرْسِلَ إلَيْهِ .

(285/228)

وَقَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِلَى عَادٍ ﴾ ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ وَقَالَ فِي التَّوْرَاةِ ﴿ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاك ﴾ وَلَمْ يُخَصِّصْ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْت إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ﴾ وَظَاهِرُهُ مَا قُلْنَاهُ فَالْعُدُولُ عَنْهُ لَا يَجُوزُ .

(فَصْلٌ) قَالَ السَّائِلُ : وَيُؤَيِّدُهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ الْآيَاتِ فَلَمْ يُنْكِرْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ فَلَا دَعَاهُمْ إلَى دِينِهِ .

أَقُولُ : أَمَّا كَوْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ فَلَا يُقْدَرُ عَلَى إثْبَاتِهِ وَلَعَلَّهُ قَدْ أُنْكِرَ ، وَأَمَّا كَوْنُهُ مَا دَعَاهُمْ إلَى التَّوْحِيدِ فَكَذَلِكَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ أُولَئِكَ الْقَوْمَ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيٍّ قَبْلَهُ فَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إلَى أُولَئِكَ الْقَوْمِ لَكِنَّهُ إذَا رَآهُمْ عَلَى جَهْلٍ وَخَطَأٍ لَا يَتْرُكُ إرْشَادَهُمْ .

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ تَأْيِيدُ ذَلِكَ الْمُدَّعَى بِهَذِهِ الْقِصَّةِ ضَعِيفٌ وَذَلِكَ الْمُدَّعَى مُتَأَيِّدٌ ثَابِتٌ بِغَيْرِهَا كَمَا سَبَقَ .

هَذَا مَا انْتَهَى نَظَرِي إلَيْهِ فِي الْجَوَابِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ .

وَقَدْ اسْتَوْفَيْت كَلَامَ السَّائِلِ فَلَمْ أَحْذِفْ مِنْهُ شَيْئًا وَهَذَا الْجَوَابُ يُصْلَحُ أَنْ يَكُونَ تَصْنِيفًا مُسْتَقِلًّا وَيُسَمَّى (الدَّلَالَةُ عَلَى عُمُومِ الرِّسَالَةِ) فَرَغْت مِنْهُ عِنْدَ أَذَانِ

الصُّبْحِ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ سَابِعَ عَشَرَ شَعْبَانَ سَنَةَ 738 . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكي حـ 4 صـ 594.625 ﴾

(286/228)

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19) ﴾

﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ، وهو السميع العليم ﴾ . .

وأقرب تأويل لقوله : ﴿ ما سكن ﴾ أنه من السكنى - كما ذكر الزمخشري في الكشاف - وهو بهذا يعني كل ما اتخذ الليل والنهار سكناً ؛ فهو يعني جميع الخلائق ؛ ويقرر ملكيتها لله وحده . كما قرر من قبل ملكية الخلائق كلها له سبحانه .

غير أنه في الآية الأولى : ﴿ قل : لمن ما في السماوات والأرض ؟ قل : لله ﴾ قد استقصى الخلائق من ناحية المكان . وفي هذه الآية الثانية : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾ . . قد استقصى الخلائق من ناحية الزمان . . ومثله معروف في التعبير القرآني حين يتجه إلى الاستقصاء . . وهذا هو التأويل الذي نطمئن إليه في الآيتين من بين شتى التأويلات .

(287/228)

والتعقيب بصفتي السمع والعلم يفيد الإحاطة بهذه الخلائق ، وبكل ما يقال عنها كذلك من مقولات المشركين الذي يواجههم هذا النص . . ولقد كانوا مع إقرارهم بوحدانية الخالق المالك ، يجعلون لأربابهم المزعومة جزءاً من الثمار ومن الأنعام ومن الأولاد - كما سيجيء في نهاية السورة - فهو يأخذ عليهم الإقرار هنا بملكية كل شيء ؛ ليواجههم بها فيما يجعلونه للشركاء بغير إذن من الله . كما أنه يمهد بتقرير هذه الملكية الخالصة لما سيلي في هذه الفقرة من ولاية لله وحده ، بما أنه هو المالك المتفرد بملكية كل شيء . في كل مكان وفي كل زمان ،

الذي يحيط سمعه وعلمه بكل شيء ، وبكل ما يقال عن كل شيء كذلك !

والآن ، وقد تقرر أن الله وحده هو الخالق ، وأن الله وحده هو المالك . . يجيء الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله ، والعبودية لغير الله ، والولاء لغير الله . ويتقرر أن هذا مناقض لحقيقة الإسلام لله ، وأنه هو الشرك الذي لا يجتمع مع الإسلام . وتذكر من صفات الله سبحانه : أنه فاطر السماوات والأرض ، وأنه الرازق المطعم ، وأنه الضار النافع ، وأنه القادر القاهر . كما يذكر العذاب المخوف المرهوب . . فتجلل الموقف كله ظلال الجلال والرهبة ، في إيقاع مدوٍّ عميق :

﴿ قل : أغير الله أتخذ ولياً ، فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ . .

(288/228)

إن هذه القضية . . قضية اتخاذ الله وحده ولياً . بكل معاني كلمة (الولي) . أي اتخاذه وحده رباً ومولى معبوداً يدين له العبد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده ؛ ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحده . واتخاذه وحده ناصراً يستنصر به ويعتمد عليه ، ويتوجه إليه في الملمات . . إن هذه القضية هي قضية العقيدة في صميمها . فإما إخلاص الولاء لله – بهذه المعاني كلها – فهو الإسلام . وإما إشراك غيره معه في أي منها ، فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام !

وفي هذه الآيات تقرر هذه الحقيقة بأقوى عبارة وأعمق إيقاع :

﴿ قل : أغير الله أتخذ ولياً ، فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين ﴾ .

إنه منطق الفطرة القوي العميق . . لمن يكون الولاء ولمن يتمحض ؟ لمن إن لم يكن لفاطر السماوات والأرض الذي خلقهما وأنشأهما ؟ لمن إن لم يكن لرازق من في السماوات والأرض الذي يطعم ولا يطلب طعاماً ؟

﴿ قل : أغير الله أتخذ ولياً ﴾ . . وهذه صفاته سبحانه . . أي منطق يسمح بأن يتخذ غير الله ولياً ؟ إن كان يتولاه لينصره ويعينه ، فالله هو فاطر السماوات والأرض ، فله السلطان في السماوات والأرض . وإن كان يتولاه ليرزقه ويطعمه ، فالله هو الرازق المطعم لمن في السماوات ومن في الأرض . ففيم الولاء لغير صاحب السلطان الرزاق ؟

ثم . . ﴿ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾ . . والإسلام وعدم الشرك معناهما المتعين ألا أتخذ غير الله ولياً . فاتخاذ غير الله ولياً – بأي معنى – هو الشرك . ولن يكون الشرك إسلاماً . .

(289/228)

قضية واحدة محددة ، لا تقبل ليناً ولا تميعاً . . إما إفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة ؛ والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمر من هذه الأمور ورفض إشراك غيره معه فيها ؛ وولاء القلب والعمل ، في الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك . . إما هذا كله فهو الإسلام . . وإما إشراك أحد من عباده معه في شيء من هذا كله فهو الشرك . الذي لا يجتمع في قلب واحد مع الإسلام .

لقد أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يعلن هذا الاستنكار في وجه المشركين الذين كانوا يدعونه إلى الملاينة والمداهنة ؛ ليجعل لآلهتهم مكاناً في دينه ، مقابل أن يدخلوا معه في هذا الدين . وليترك لهم بعض خصائص الألوهية يزاولونها إبقاء على مكانتهم وكبريائهم ومصالحهم ، . . وأولها تقاليد التحريم والتحليل . . في مقابل أن يكفوا عن معارضته ، وأن يجعلوه رئيساً فيهم ؛ ويجمعوا له من مالهم ، ويزوجوه أجمل بناتهم !

لقد كانوا يرفعون يداً للإيذاء والحرب والتنكيل ، ويمدون يداً بالإغراء والمصالحة واللين . .

وفي وجه هذه المحاولة المزدوجة أُمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يقذف بهذا الاستنكار العنيف ، وبهذا الحسم الصريح ، وبهذا التقرير الذي لا يدع مجالاً للتمييع .

وأمر كذلك أن يقذف في قلوبهم بالرعب والترويع ؛ في الوقت الذي يعلن فيه تصوره لجدية الأمر والتكليف ولخوفه هو من عذاب ربه ، إن عصاه فيما أمر به من الإسلام والتوحيد :

﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ﴾ . .

إنه تصوير لحقيقة مشاعر الرسول – صلى الله عليه وسلم – تجاه أمر ربه له ؛ وتجسيم لخوفه من عذابه . العذاب الذي يعتبر مجرد صرفه عن العبد رحمة من الله وفوزاً مبيناً .

ولكنه في الوقت ذاته حملة مزلزلة على قلوب المشركين في ذلك الزمان ، وقلوب المشركين بالله في كل زمان .

(290/228)

حملة مزلزلة تصور العذاب في ذلك اليوم العظيم ؛ يطلب الفريسة ، ويحلق عليها ، ويهجم ليأخذها . فلا تصرفه عنها إلا القدرة القادرة التي تأخذ بخطامه فتلويه عنها ! وإن أنفاس

القاريء لهذا التصوير لتحتبس – وهو يتمثل المشهد – في انتظار هذه اللقطة الأخيرة !

ثم إنه لماذا يتخذ غير الله ولياً ويعرض نفسه للشرك الذي نهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذي أمر به ، ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعيب ؟ . . ألعل ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضر في هذه الحياة الدنيا ؟ رجاء نصرة الناس له في الضراء ؛ ورجاء نفع الناس له بالسراء ؟ . . إن هذا كله بيد الله ؛ وله القدرة المطلقة في عالم الأسباب ؛ وله القهر كذلك على العباد ؛ وعنده الحكمة والخبرة في المنع والعطاء :

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ . .

إنه تتبع هواجس النفس ووساوس الصدر ؛ وتتبع مكامن الرغائب والمخافات ، ومطارح الظنون والشبهات وتجلية هذا كله بنور العقيدة ، وفرقان الإيمان ، ووضوح التصور ، وصدق المعرفة بحقيقة الألوهية . ذلك لخطورة القضية التي يعالجها السياق القرآني في هذا الموضع ، وفي جملة هذا القرآن :

وأخيراً تجيء قمة المد في هذه الموجة ؛ ويجيء الإيقاع المدوي العميق ؛ في موقف الإشهاد والإنذار والمفاصلة والتبرؤ من المشاركة في الشرك . . كل ذلك في رنة عالية ، وفي حسم رهيب :

﴿ قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله . شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إليَّ هذا القرآن

لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد ، قل : إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون ﴾ . .

إن تتابع المقاطع والإيقاعات في الآية الواحدة عجيب ؛ وإن هذا التتابع ليرسم الموقف لحظة لحظة ، ومشهداً مشهداً ، ويكاد ينطق بملامح الوجوه فيه وخلجات الصدور . .

(291/228)

فها هو ذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يؤمر من ربه هذا الأمر . . ثم ها هو ذا يواجه المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء ؛ يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع الله ؛ ويدعون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يقرهم على هذا الذي هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به ! كأن ذلك يمكن أن يكون ! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذي كانوا يتصورونه ؛ والذي لا يزال يتصوره ناس في هذا الزمان ، من أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلماً لله ؛ بينما هو يتلقى من غير الله في شؤون الحياة ؛ وبينما هو يخضع لغير الله ويستنصر بغير الله ، ويتولى غير الله !

ها هو ذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يواجه هؤلاء المشركين ، ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم ، وبين توحيده وشركهم ، وبين إسلامه وجاهليتهم .

وليقرر لهم : أنه لا موضع للقاء بينه وبينهم ، إلا أن يتخلصوا هم من دينهم ويدخلوا في دينه .

وأنه لا وجه للمصالحة في هذا الأمر ؛ لأنه يفترق معهم في أول الطريق !

وها هو ذا يبدأ معهم مشهد الإشهاد العلني المفتوح المكشوف :

﴿ قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ ﴾ . .

أيّ شاهد في هذا الوجود كله هو أكبر شهادة ؟ أي شاهد تعلو شهادته كل شهادة ؟ أي شاهد تحسم شهادته في القضية فلا يبقى بعد شهادته شهادة ؟

وللتعميم المطلق ، حتى لا يبقى في الوجود كله " شيء " لا يستقصى وزنه في مقام الشهادة : يكون السؤال : ﴿ أي شيء أكبر شهادة ؟ ﴾ .

وكما يؤمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالسؤال ، فهو يؤمر كذلك بالجواب . ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم . ولا جواب غيره في حقيقة الأمر والواقع :

﴿ قل : الله ﴾ . .

نعم ! فالله – سبحانه وتعالى – هو أكبر شهادة . . هو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين . . هو الذي لا شهادة بعد شهادته ، ولا قول بعد قوله . فإذا قال فقد انتهى القول ، وقد قضي الأمر .

فإذا أعلن هذه الحقيقة : حقيقة أن الله سبحانه هو أكبر شهادة ، أعلن لهم أنه – سبحانه – هو الشهيد بينه وبينهم في القضية :

﴿ شهيد بيني وبينكم ﴾ . .

على تقدير : هو شهيد بيني وبينكم ، فهذا التقطيع في العبارة هو الأنسب في جو المشهد : وهو أولى من الوصل على تقدير : ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ .

فإذا تقرر المبدأ : مبدأ تحكيم الله سبحانه في القضية ، أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه ، تضمنها هذا القرآن ، الذي أوحاه إليه لينذرهم به ؛ وينذر به كل من يبلغه في حياته صلى الله عليه وسلم – أو من بعد . فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم ؛ لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية ؛ التي تقوم عليها الدنيا والآخرة ، ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنساني ضمناً :

﴿ وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ . .

فكل من بلغه هذا القرآن من الناس ، بلغة يفهمها ، ويحصل منها محتواه ، فقد قامت عليه الحجة به ، وبلغه الإنذار ، وحق عليه العذاب ، إن كذب بعد البلاغ . . (فأما من يحول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمه لفحواه ، فلا تقوم عليه الحجة به ؛ ويبقى إثمه على أهل هذا الدين الذين لم يبلغوه بلغته التي يفهم بها مضمون هذا الشهادة . . هذا إذا كان مضمون القرآن

لم يترجم إلى لغته) . .

فإذا أعلن إليهم أن شهادة الله – سبحانه – متضمنة في هذا القرآن ، أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة في صورة التحدي والاستنكار لشهادتهم هم ، المختلفة في أساسها عن شهادة الله سبحانه .

وعالنهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها ؛ وأنه يعلن غيرها ويقرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة ؛ وأنه يفاصلهم على هذا عند مفرق الطريق ؛ وأنه يتبرأ من شركهم في صيغة التشديد والتوكيد :

﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد قل إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون ﴾ . .

(293/228)

والنصوص القرآنية بمقاطعها هذه ، وبإيقاعاتها هذه ، تهز القلوب بما لا يملك البيان البشري أن يفعل . فلا أريد أن أوقف تدفقها وانسكابها في القلب بأي تعليق .

ولكني أريد أن أتحدث عن القضية التي تضمنها هذا المقطع ، وجرت بها هذه الموجة . .

إن هذه القضية التي عرضها السياق القرآني في هذه الآيات . . قضية الولاء والتوحيد

والمفاصلة . . هي قضية هذه العقيدة ؛ وهي الحقيقية الكبرى فيها . وإن العصبة المؤمنة اليوم لخليقة بأن تقف أمام هذا الدرس الرباني فيها وقفة طويلة . .

إن هذه العصبة تواجه اليوم من الجاهلية الشاملة في الأرض ، نفس ما كانت تواجهه العصبة التي تنزلت عليها هذه الآيات ، لتحدد على ضوئها موقفها ، ولتسير على هذا الضوء في طريقها ؛ وتحتاج – من ثم – أن تقف وقفة طويلة أمام هذه الآيات ، لترسم طريقها على هداها .

(294/228)

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية ؛ وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم تنزل هذا القرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويوم جاءها الإسلام مبنياً على قاعدته الكبرى : " شهادة أن لا إله إلا الله " . . شهادة أن لا إله إلا الله بمعناها الذي عبر عنه ربعي بن عامر رسول قائد المسلمين إلى رستم قائد الفرس ، وهو يسأله : " ما الذي جاء بكم ؟ " فيقول : " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " . . وهو يعلم أن رستم وقومه لا يعبدون كسرى بوصفه إلهاً خالقاً للكون ؛

ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة ؛ ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع ، فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام وينفيه ؛ فأخبره أن الله ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التي يعبد العباد فيها العباد ، ويقرون لهم بخصائص الألوهية – وهي الحاكمية والتشريع والخضوع لهذه الحاكمية والطاعة لهذا التشريع – (وهي الأديان) . . إلى عبادة الله وحده وإلى عدل الإسلام .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله . فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد ، وإلى جور الأديان ؛ ونكصت عن لا إله إلا الله ، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن : " لا إله إلا الله " ؛ دون أن يدرك مدلولها ، ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها ، ودون أن يرفض شرعية " الحاكمية " التي يدعيها العباد لأنفسهم – وهي مرادف الألوهية – سواء ادعوها كأفراد ، أو كتشكيلات تشريعية ، أو كشعوب . فالأفراد ، كالتشكيلات ، كالشعوب ، ليست آلهة ، فليس لها إذن حق الحاكمية . . إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية ، وارتدت عن لا إله إلا الله . فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية . ولم تعد توحد الله ، وتخلص له الولاء . .

(295/228)

البشرية بجملتها ، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات : " لا إله إلا الله " بلا مدلول ولا واقع . . وهؤلاء أثقل إثماً وأشد عذاباً يوم القيامة ، لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد – من بعد ما تبين لهم الهدى – ومن بعد أن كانوا في دين الله !

فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلاً أمام هذه الآيات البينات !

ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء :

﴿ قل : أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين ﴾ . .

ذلك لتعلم أن اتخاذ غير الله ولياً – بكل معاني " الولي " . . وهي الخضوع والطاعة ، والاستنصار والاستعانة . . يتعارض مع الإسلام ، لأنه هو الشرك الذي جاء الإسلام ليخرج منه الناس . . ولتعلم أن أول ما يتمثل فيه الولاء لغير الله هو تقبل حاكمية غير الله في الضمير أو في الحياة . . الأمر الذي تزاوله البشرية كلها بدون استثناء . ولتعمل أنها تستهدف اليوم إخراج الناس جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ؛ وأنها تواجه جاهلية كالتي واجهها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والجماعة المسلمة حين تلقي هذه الآيات . .

وما أحوجها أن تستصحب في مواجهتها للجاهلية تلك الحقائق والمشاعر التي تسكبها في القلب المؤمن الآيات التالية :

﴿ قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ . .

(296/228)

فما أحوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها ، وبإعراضها وعنادها ، وبالتوائها وكيدها ، وبفسادها وانحلالها . . ما أحوج من يواجه هذا الشر كله ، أن يستصحب في قلبه هذه الحقائق وهذا المشاعر . . مخافة المعصية والولاء لغير الله . ومخافة العذاب الرعيب الذي يترقب العصاة . . واليقين بأن الضار والنافع هو الله . وأن الله هو القاهر فوق عباده فلا معقب على حكمه ولا راد لما قضاه . إن قلباً لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف " إنشاء " الإسلام من جديد في وجه الجاهلية الطاغية . . وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال !

ثم ما أحوج العصبة المؤمنة – بعد أن تستيقن حقيقة مهمتها في الأرض اليوم ؛ وبعد أن تستوضح حقيقة العقيدة التي تدعو إليها ومقتضياتها من إفراد الله سبحانه بالولاء بكل مدلولاته ؛ وبعد أن تستصحب معها في مهمتها الشاقة تلك الحقائق والمشاعر .

ما أحوجها بعد ذلك كله إلى موقف الإشهاد والقطع والمفاصلة والتبرؤ من الشرك الذي تزاوله الجاهلية البشرية اليوم كما كانت تزاوله جاهلية البشرية الأولى . وأن تقول ما أُمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يقوله ؛ وأن تقذف في وجه الجاهلية ، بما قذف به في وجهها الرسول الكريم ، تنفيذاً لأمر ربه العظيم :

﴿ قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله ، شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون ﴾ . .

(297/228)

إنه لا بد أن تقف العصبة المسلمة في الأرض ، من الجاهلية التي تغمر الأرض ، هذا الموقف . لا بد أن تقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية ، قاطعة فاصلة ، مزلزلة رهيبة . . ثم تتجه إلى الله تعلم أنه على كل شيء قدير ، وأنه هو القاهر فوق عباده . وأن هؤلاء العباد – بما فيهم الطواغيت المتجبرون – أضعف من الذباب ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ! وأنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن الله ؛ وليسوا بنافعين أحداً إلا بإذن الله ، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولا بد أن تستيقن العصبة المسلمة كذلك أنها لن تنصر ولن يتحقق لها وعد الله بالتمكين في الأرض ، قبل أن تفاصل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق . وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت ، وقبل أن تشهد على الجاهلية هذا الإشهاد ، وتنذرها هذه النذارة ، وتعلنها هذا الإعلان ، وتفاصلها هذه المفاصلة ، وتتبرأ منها هذه البراءة . .

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي ؛ إنما جاء منهجاً مطلقاً خارجاً عن قيود الزمان والمكان . منهجاً تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن . وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماماً ؛ وقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا القرآن لينشىء الإسلام في الأرض إنشاء . . فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين . والشعور الواضح بحقيقة قدرة الله وقهره . والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله . . لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة . . والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 2 صـ 1053 . 1059 ﴾

(298/228)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ ﴾ مبتدأ وخبرٌ ، وقد تقدَّمَ أن " أيًّا " بعض ما تضاف إليه ، فإذا كانت استفهامية اقتضى الظَّاهِرُ أن يكون مُسَمًّى باسم ما أضيف إليه .

قال أبو البقاء – رحمه الله – : " وهذا يُوجِبُ أن يُسَمّى اللَّهُ تعالى " شيئاً " ، فعلى هذا تكون الجلالةُ خبرَ مبتدأ محذوف [والتقدير : الله أكبر شَهَادَةً ، و" شهيد " على هذين القولين خَبَرُ مبتدأ محذوف] أي : ذلك الشيء هو الله تعالى ، ويجوز أن تكون الجلالة مبتدأ خبره محذوف أي : هو شهيدٌ بيني وبينكم ، والجملةُ من قوله : " قل اللَّه " على الوَجْهَيْنِ المتقدمين جواب لـ " أي " من حَيْثُ اللفظ والمعنى ، ويجوز أن تكون الجلالةُ مبتدأ ، و" شهيد " خبرها ، والجملة على هذا جواب لـ " أيّ " من حيث المعنى ، أي : إنها دالّةٌ على الجواب ، وليست به .

قوله : " شَهَادَةً " نَصْبٌ على التمييز ، وهذا هو الذي لا يَعْرَفُ النحاةُ غيره .

وقال ابن عطية – رضي الله عنه – : ويَصِحُّ على المفعول بأن يُحْمَلَ " أكثر " على التشبيه بالصفة المشبهة باسم الفاعل وهذا ساقط جدّاً ؛ إذ نصَّ النحويون على أن معنى شبهها باسم الفاعل في كونها تؤنّث وتُثَنَّى ، وتُجْمَعُ ، وأفعلُ مِنْ لا تُؤَنَّثُ ولا تُثَنَّى ولا تُجْمَعُ ، فلم يُشبه اسم الفاعل ، حتَّى إنَّ أبا حيَّان نَسَبَ هذا الخِبَاطَ إلى النَّاسخِ دون أبي محمد .

قوله : " بيني وبينكم " متعلِّقٌ بـ " شهيد " ، وكان الأصل : قل اللَّهُ شهيدٌ بيننا ، فكُرِّرت "

بين " توكيداً ، وهو نظير قوله : [الوافر]

2121 - فَأَيِّي ما وأُيُّكَ كَانَ شَرًّا . . .

(299/228)

فَسيقَ إلى المَقَامَةِ لا يَرَاهَا

وقوله : [الرجز]

2122 - يَا ربَّ مُوسَى أَظْلَمِي وأُظْلَمِي وأَظْلَمُه . . .

أرسل عليه مَلِكاً لا يَرْحَمُهْ

وقوله : [الكامل]

2133 - فَلَئِنْ لَقيتُكَ خَالِيَتْنِ لَتَعْلَمَنْ . . .

أَيِّي وَأُيُّك فَارِسُ الأَحْزَابِ

والجامع بينهما : أَنَّهُ لَمَّا أضاف إلى " الياء " وَحْدَها احتاج إلى تكرير ذلك المضاف .

ويجوز أبو البقاء أن يكون " بيني " متعلّقاً بمحذوف على أَنَّهُ صفة لـ " شهيد " ، فيكون في مَحَلّ رفع ، والظاهر خلافُهُ .

قوله : " وأُوْحِيَ " الجمهور على بِنَائِهِ للمفعول ، وحُذِف الفاعل للعمل به ، وهو الله تبارك

وتعالى .

و" القرآن " رفع به .

وقرأ أبو نهيك ، والجحدري ، وعكرمة ، وابن السَّمَيْفَع : " وأَوْحَى ببنائه للفاعل ، " القرآن " نَصْباً على المفعول به .

و" لأُنْذِرَكُمْ " متعلِّقٌ بـ " أوحي " .

قيل : وثمَّ مَعْطُوف حُذِفَ لدلالة الكلام عليه ، أي : لأنذركم به وأَبشِّركم به ، كقوله تعالى : ﴿ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] ، وتقدم فيه نظائرُ ، وقيل : لا حاجة إليه ، لأن المقام مَقَامُ تخويف .

قوله تعالى : " ومَنْ بَلَغَ " فيه ثلاثة أقوال :

أحدهما : أنه في مَحَلِّ نَصْبٍ عطفاً على المنصوب في " لأُنْذِرَكُمْ " ، وتكون " مَنْ " موصولةٌ ، والعائِدُ عليها من صِلَتِهَا مَحْذُوفٌ .

أعني : ولأنذر الذي بلغه القرآن الكريم من العَرَبِ والعَجَمِ .

وقيل : من الثَّقَلَيْنِ .

وقيل : من بَلَغَهُ [من القرآن الكريم] إلى يوم القيامةِ .

وعن سعيد بن جبير : " من بلغه من القرآن ، فكأنما رأى مُحَمَّداً عليه الصَّلاة والسَّلامُ " .

الثاني : أنَّ في " بَلَغَ " ضميراً مرفوعاً يَعُودُ على " مَنْ " ، ويكون المفعول محذوفاً ، وهو

منصوب المَحَلّ أيضاً نَسَقاً على مَفْعُول " لأنذركم " والتقدير : ولأنذر الذي بَلَغَ الحُلُمَ ، فالعَائِدُ هنا مُسْتَتِرٌ في الفعل .

(300/228)

الثالث : أنّ " مَنْ " مرفوعةُ المحلِّ نَسَقاً على الضَّميرِ المرفوعِ في " لأنذركم " ، وجاز ذلك ؛ لأنَّ الفصل بالمفعول والجارِّ والمجرور أغْنَى عن تأكيده ، والتقديرُ : لأنذركمن به ، ولينذركم الذي بَلَغَهُ القرآن .

قوله : " أَإِنَّكُمْ " الجمهور على القراءة بهمزتين : أولاهما للاستفهام ، وهو استفهامُ تَفْرِيعٍ وتوبيخ .

قال الفراء – رحمه الله تعالى – : ولم يَقُل آخر لأن الآلهة جمع ، والجمع يقع عليه التأنيث ، كقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الأسمآء الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] وقوله : ﴿ فَمَا بَالُ القرون الأولى ﴾ [طه : 51] [ولم يقل الأوّل ، ولا الأولينن وكل ذلك صوابٌ] وقد تقدَّم الكلامُ في قراءاتٍ مثل هذا .

قال أبو حيَّان : " وبِتَسْهيلِ الثانية ، وبإدخال ألف بين الهمزة الأولى والهمزة المُسَهَّلَة ، روى هذه الأخيرة الأصمعي عن أبي عمرو ، ونافع " انتهى .

وهذا الكلام يؤذن بأنها قراءةٌ مُسْتَغْرَبَةٌ ، وليس كذلك ، بل المَرْوِيُّ عن أبي عمرو – رضي الله عنه – المَدُّ بين الهَمْزَتَيْنِ ، ولم يُخْتَلَفْ عن قالون في ذلك .

وقرئ بهمزة واحدة وهي محتملةٌ للاستفهام ، وإنَّما حُذِفَتْ لفهم المعنى ، ودلالة القراءة الشهيرة عليها ، وتحتمل الخبر المَحْضَ .

ثم هذه الجملة الاستفهامية ، يحتمل أن تكون مَنْصُوبَةَ المَحَلّ لكونها في حَيِّزِ القول ، وهو الظَّاهر ، كأنه أُمِرَ أن يقول : أيُّ شيء أَكْبَرُ شَهَادَةً وأن يقول أإنكم لتشهدون .

ويحتمل أن تكون داخلَةً في حيِّزه فلا مَحَلّ لها حينئذٍ ، و" أخرى " صفةٌ لـ " آلهة " ؛ لأن ما لا يَعْقِل يُعَامَلُ جَمْعُهُ مُعاملةَ الوحداةِ المؤنّثة ، كقوله : ﴿ مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] ، و ﴿ وَلِلَّهِ الأسمآء الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] كما تقدَّم .

قوله : " إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ " [يجوز] في " ما " هذه وجهان :

(301/228)

أظهرهما : أنها كافَّةٌ لـ " إنَّ " عن عملها ، و" هو " مبتدأ ، و" إله " خبر ، و" واحد " صفته .

والثاني : أنها مَوْصُولَةٌ بمعنى " الذي " ، وهو مبتدأ ، و" إله " خبره ، وهذه الجملةُ صِلَةٌ

وعائد ، والموصول في مَحَلِّ نصب اسماً لـ " إن " و" واحد " خبرها .

والتقدير : إنَّ الذي هو إله واحد ، ذكره أبو البقاء ، وهو ضعيف ، ويَدُلُّ على صِحَّةِ الوجه الأوَّلِ تعيُّنُه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا اللهُ إله وَاحِدٌ ﴾ [النساء : 171] ، إذ لا يجوز فيه أن تكون مَوْصُولَةً لخلوِّ الجملة عن ضمير الموصول .

وقال أبو البقاء في هذا الوَجْهِ : وهو أَلْيَقُ مما قبله .

قال شهابُ الدِّين : - رضي الله عنه - : ولا أدري ما وجه ذلك ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 64 . 67 ﴾ . باختصار .

(302/228)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الشيء)

قيل : هو ما صحّ أَن يُعلم ويُخبر عنه .

وعند كثير من المتكلِّمين : اسم مشترك المعنى ؛ إذ استعمل فى الله وفى غيره ، ويقع على الموجود والمعدوم .

وعند بعضهم عبارة عن الموجود .

وأَصله مصدر شاءَ ، فإِذا وُصِف الله تعالى به فمعناه شاءٍ وإِذا وُصِف به غيره فمعناه المَشِيءُ .

على الثَّانى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فهذا على العموم بلا مَثْنَوِيّة ؛ إِذْ كان الشىء ههنا مصدرًا فى معنى المفعول .

وقوله : ﴿ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ هو بمعنى الفاعل .

والمشيئة عند أَكثر المتكلِّمين كالإِرادة سواء ، وعند بعضهم أَنَّ المشيئة فى الأَصل إِيجاز الشىء وإِصابته ، وإِن كان قد يستعمل فى التعارف موضع الإِرادة .

فالمشيئة من الله تعالى الإِيجاد ، ومن الناس الإِصابة .

والمشيئة من الله تقتضى وجود الشىء ، ولذلك قيل : ما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والإِرادة لا تقتضى وجود المراد لا محالة ؛ أَلا ترى أَنَّه قال : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ ، ومعلوم أَنَّه قد يحصل العسر والظلم فيما بين النَّاس .

قالوا : و[من] الفرق بينهما أَنَّ إِرادة الإِنسان قد تحصل من غير أَن تَتقدّم إِرادة الله ؛ فإِنَّ الإِنسان قد يريد أَلَّا يموت ويأبى الله ذلك ، ومشيئته لا تكون إِلَّا بعد مشيئته ، كقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ ﴾ .

وروُى أَنه لمَّا نزل قوله تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ قال الكفّار : الأَمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فأَنزل الله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ﴾ .

(303/228)

وقال بعضهم : لولا أَنَّ الأُمور كلّها موقوفة على مشيئة ما لله ، وأَن أَفعالنا متعلّقة بها ، وموقوفة عليها ، لما أَجمع النّاس على تعليق الاستثناءِ به فى جميع أَفعالنا ؛ نحو : ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ونحو من الآيات .

والشىء تصغيره شُيَيْءُ وشِيَيْء بكسر الشين .

لا تقل : شَوَيْء .

والجمع : أَشياء غير مصروفة .

قال الخليل : إنّما تُرك صرفها لأَنَّ أَصلها فَعْلاء [جمعت] على غير واحدها ؛ كما أَنَّ الشُّعَرَاءَ جمعت على غير واحدها ؛ لأَنَّ الفاعل لا يجمع على فُعَلاء ، ثمّ استثقلوا الهمزتين فى آخرها ، فنقلوا الأُولى إلى أَوّل الكلمة ، فقالوا : أَشياء ، كما قالوا : عُقاب بَعَنقاة ، وأَيْنُق ، وقِسِىّ ، فصار تقديرها : لَفْعاءَ .

يدل على صحّة ذلك أنها لا تُصرف ، وأنَّها تصغّر على أُشَيّاء ، وأنَّها تجمع على أَشَاوَى وأَصلها أَشاييءُ ، فقلبوا الهمزة ياء ، فاجتمعت ثلاث ياءَات ، فحذفت الوسطى ، وقلبت الأَخيرة أَلفا ، فأُبدلت من الأُولى كما قالوا : أَتيته أَتوةً .

وحكى الأَصمعىّ أَنَّه سَمع رجلا من فصحاءِ العرب يقول لخَلَف الأَحمر : إِنَّ عندك لأَشاوَى ، مثال الصّحارَى .

ويجمع أَيضًا على أَشايا وأَشْياوات .

قال الأَخفش : هى أَفعِلاءُ ، فلهذا لم تصرف ؛ لأَنَّ أَصلها أَشْيِئاء ، حذف الهمزة الَّتى بين الياءِ والأَلف للتخفيف .

قال له المازنىّ : كيف تصغّر العرب أَشْياءَ ؟ فقال : أُشَيّاء .

فقال له : تركت قولك ؛ لأَنَّ كلّ جمع كُسِّر على غير واحده وهو من أَبنية الجمع فإِنَّه يُردّ فى التصغير إِلى واحده ؛ كما قالوا : شويعرون فى تصغير الشُعَراءِ .

وهذا القول لا يلزم الخليل ؛ لأَنَّ فَعْلاءَ ليس من أَبنية الجمع .

وقال الكِسَائىّ : أَشياء أَفعال ؛ مثل فَرْخ وأَفراخ ، وإِنَّما تركوا صرفها ، لكثرة استعمالهم إِيّاها لأَنَّها شُبِّهت بفعلاء .

وهذا القول يدخُل عليه أَلاَّ يُصرف أَبناء وأَسماء .

(304/228)

وقال الفرّاءُ : أَصل شىء شَيْىءٌ مثل شَيّع ، فجمع على أَفعِلاءَ ؛ مثل هيّن وأَهوناءَ ، ولَيِّن وأَلْيِناء ، ثمّ خُفف فقيل شَىْء ، كما قالوا : هَيْن ولَيْن .

وقالوا : أَشْيَاء ، فحذفوا الهمزة الأُولى .

وهذا القول يدخل عليه أَلاَّ يجمع على أَشَاوَى .

والشّيئة : الإِرادة .

وكلّ شىء بشيئة الله ، مثال شِيعة ، أَى بمشيئته .

وقد شئت الشىءَ أَشاؤه .

وأَشاءَه : أَلجأه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 363.366 ﴾

(305/228)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . . . الآية ﴾

غلَبَتْ شهادة الحق – سبحانه – كلَّ شهادة ، فهم إذا أقبلوا يشهدون فلا تحيط بحقائِقِ

الشيء علومُهم ، والحقُّ – سبحانه – هو الذي لا يخفى عليه شيءٌ ، ثم أخبره – صلى الله عليه وسلم أنه مبعوثٌ إلى الكافة ومَنْ سيوجد إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 467 ﴾

(306/228)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أثبت شهادة الله تعالى له بالتصديق بأنه محق ، وكان ذلك ربما أوهم أن غير الله تعالى لا يعرف ذلك ، لا سيما وقد ادعى كفار قريش أنهم سألوا أهل الكتابين فادعوا أنهم لا يعرفونه ، أتبعه بقوله على طريق الاستئناف : ﴿ الذين آتيناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة من اليهود والنصارى ﴿ الكتاب ﴾ أي الجامع لخيري الدنيا والآخرة ، وهو التوراة والإنجيل ﴿ يعرفونه ﴾ أي الحق الذي كذبتم به لما جاءكم وحصل النزاع بيني وبينكم فيه لما عندهم في كتابهم من وصفي الذي لا يشكون فيه ، ولما هم بمثله آنسون مما أثبت به من المعجزات ،

ولما في هذا القرآن من التصديق لكتابهم والكشف لما أخفوا من أخبارهم ، ولأساليبه التي لا يرتابون في أنها خارجة من مشكاة كتابهم مع زيادتها بالإعجاز ، فهم يعرفون هذا الحق ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ أي من بين الصبيان بجُلاهم ونعوتهم معرفة لا يشكون فيها ، وقد وضعتموهم موضع الوثوق ، وأنزلتموهم منزلة الحكم بسؤالكم لهم عني غير مرة ، وقد آمن بي جماعة منهم وشهدوا لي ، فما لكم لا تتابعونهم ! لقد بان الهوى وانكشف عن ضلالكم الغطاء .

ولما كان أكثرهم يخفون ذلك ولا يشهدون به ، قال جواباً لمن يسأل عنهم : ﴿ الذين خسروا ﴾ أي منهم ، ولكنه حذفها للتعميم ﴿ أنفسهم فهم ﴾ أي بسبب ذلك ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي لما سبق لهم من القضاء بالشقاء الذي خسروا به أنفسهم بالعدول عما دعت إليه الفطرة السليمة والفكرة المستقيمة ، ومن خسر نفسه فهو لا يؤمن فكيف يشهد ! فقد بينت هذه الجملة أن من لا يشهد منهم فهو في الحقيقة ميت أو موات ، لأن من ماتت نفسه كذلك ، بل هم أشقى منه ، فلقد أداهم ذلك الشقاء إلى أن حرفوا كتابهم وأخفوا كثيراً مما يشهد لي بالنبوة ، فكانوا أظلم الخلق بالكذب في كتاب الله للتكذيب لرسل الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 618.619 ﴾

(307/228)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنا روينا في الآية الأولى أن الكفار سألوا اليهود والنصارى عن صفة محمد عليه الصلاة والسلام فأنكروا دلالة التوراة والإنجيل على نبوته ، فبيّن الله تعالى في الآية الأولى أن شهادة الله على صحة نبوته كافية في ثبوتها وتحققها ، ثم بيّن في هذه الآية أنهم كذبوا في قولهم أنا لا نعرف محمداً عليه الصلاة والسلام ، لأنهم يعرفونه بالنبوّة والرسالة كما يعرفون أبناءهم لما روي أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام : أنزل الله على نبيه هذه الآية فكيف هذه المعرفة ، فقال يا عمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد مني يا بني لأني لا أدري ما صنع النساء وأشهد أنه حق من الله تعالى .

(308/228)

واعلم أن ظاهر هذه الآية يقتضي أن يكون علمهم بنبوة محمد عليه السلام مثل علمهم بأبنائهم وفيه سؤال وهو أن يقال : المكتوب في التوراة والإنجيل مجرد أنه سيخرج نبي في آخر

الزمان يدعو الخلق إلى الدين الحق ، أو المكتوب فيه هذا المعنى مع تعين الزمان والمكان والنسب والصفة والحلية والشكل ، فإن كان الأول فذلك القدر لا يدل على أن ذلك الشخص هو محمد عليه السلام ، فكيف يصح أن يقال : علمهم بنوته مثل علمهم بنبوة أبنائهم ، وإن كان الثاني وجب أن يكون جميع اليهود والنصارى عالمين بالضرورة من التوراة والإنجيل بكون محمد عليه الصلاة والسلام نبياً من عند الله تعالى ، والكذب على الجمع العظيم لا يجوز لأنا نعلم بالضرورة أن التوراة والإنجيل ما كانا مشتملين على هذه التفاصيل التامة الكاملة ، لأن هذا التفصيل إما أن يقال : إنه كان باقياً في التوراة والإنجيل حال ظهور الرسول عليه الصلاة والسلام أو يقال : إنه ما بقيت هذه التفاصيل في التوراة والإنجيل في وقت ظهوره لأجل أن التحريف قد تطرق إليهما قبل ذلك ، والأول باطل لأن إخفاء مثل هذه التفاصيل التامة في كتاب وصل إلى أهل الشرق والغرب ممتنع ، والثاني أيضاً باطل ، لأن على هذا التقدير لم يكن يهود ذلك الزمان ، ونصارى ذلك الزمان عالمين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم علمهم بنبوة أبنائهم ، وحينئذٍ يسقط هذا الكلام .

والجواب عن الأول : أن يقال المراد ب ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ اليهود والنصارى ، وهم كانوا أهلاً للنظر والاستدلال ، وكانوا قد شاهدوا ظهور المعجزات على الرسول عليه الصلاة والسلام ، فعرفوا بواسطة تلك المعجزات كونه رسولاً من عند الله ، والمقصود من تشبيه إحدى المعرفتين بالمعرفة الثانية هذا القدر الذي ذكرناه .

أما قوله ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ففيه قولان : الأول : أن قوله دالذين ﴾ صفة للذين الأولى ، فيكون عاملهما واحداً ويكون المقصود وعيد المعاندين الذين يعرفون ويجحدون .

والثاني : أن قوله الذين خسروا أنفسهم ابتداء .

وقوله ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ خبره ، وفي قوله ﴿ الذين خَسِرُواْ ﴾ وجهان : الأول : أنهم خسروا أنفسهم بمعنى الهلاك الدائم الذي حصل لهم بسبب الكفر والثاني : جاء في التفسير أنه ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله منزلة في الجنة ، فمن كفر صارت منزلته إلى من أسلم فيكون قد خسر نفسه وأهله بأن ورث منزلة غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 148 . 149 ﴾

(309/228)

وقال الزمخشرى :

﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ يعني اليهود والنصارى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ ﴾ بجلاهم ونعوتهم لا يخفون عليهم ولا يلتبسون بغيرهم .

وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوّته .

ثم قال : ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ من المشركين من أهل الكتاب الجاحدين ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ به ، جمعوا بين أمرين متناقضين ، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة ، والبرهان الصحيح ، حيث قالوا : ﴿ لَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ ءَابَاؤُنَا ﴾ [الأنعام : 148] وقالوا : ﴿ والله أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : 28] وقالوا : ﴿ الملائكة بَنَاتُ الله ﴾ و ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب ، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات ، وسموها سحراً ، ولم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 11.12 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ ﴾ يعني : التوراة والإنجيل ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ ﴾ وقال عبد الله بن سلام : أنا أعرف بالنبي صلى الله عليه وسلم من ابني لأني أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أشهد لابني ، لأني لا أدري ما أحدثت النساء بعدي .

ثم قال : ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : كعب بن الأشرف ومن تابعه ممن طلبوا الرئاسة ، آثروا الدنيا على الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

﴿ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنهم خسروا بالكفر منازلهم وأزواجهم في الجنة ، لأنه ليس أحد من مؤمن ولا كافر إلا وله منازل وأزواج ، فإن أسلموا كانت لهم ، وإن كفروا كانت لمن آمن من أهلهم ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 11] ، قاله الفراء .

والثاني : معناه غبنوها فأهلكوها بالكفر والتكذيب ، ومنه قول الأعشى :

لا يأخذ الرِّشْوَةَ في حُكْمِهِ . . . ولا يُبالي خُسْرَ الخاسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ الذين ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿ يعرفونه ﴾ و ﴿ الكتاب ﴾ معناه التوراة والإنجيل وهو لفظ مفرد يدل على الجنس ، والضمير في ﴿ يعرفونه ﴾ عائد في بعض الأقوال على التوحيد لقرب قوله : ﴿ قل إنما هو إله واحد ﴾ [الأنعام : 19] وهذا استشهاد في ذلك على كفرة قريش والعرب بأهل الكتاب ، و ﴿ الذين خسروا ﴾ على هذا التأويل منقطع مرفوع بالابتداء وليس من صفة ﴿ الذين ﴾ الأولى ، لأنه لا يصح أن يستشهد بأهل

الكتاب ويذمون في آية واحدة .

قال القاضي أبو محمد : وقد يصح ذلك لاختلاف ما استشهد فيه بهم وما ذموا فيه ، وأن الذم والاستشهاد ليس من جهة واحدة ، وقال قتادة والسدي وابن جريج : الضمير عائد في ﴿ يعرفونه ﴾ على محمد عليه السلام ورسالته ، وذلك على ما في قوله : ﴿ وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم ﴾ [الأنعام : 19] فكأنه قال وأهل الكتاب يعرفون ذلك من إنذاري والوحي إليَّ ، وتأول هذا التأويل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يدل على ذلك قوله لعبد الله بن سلام إن الله أنزل على نبيه بمكة أنكم تعرفون أبناءكم فكيف هذه المعرفة فقال عبد الله بن سلام نعم أعرفه الصفة التي وصفه الله في التوراة فلا أشك فيه ، وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمه .

(311/228)

قال القاضي أبو محمد : وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه ، وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطىء الأب فيها ، وقالت فرقة : الضمير من ﴿ يعرفونه ﴾ عائد على القرآن المذكور قبل .

قال القاضي أبو محمد : ويصح أن تعيد الضمير على هذه كلها دون اختصاص ، كأنه

وصف أشياء كثيرة ، ثم قال : أهل الكتاب ﴿ يعرفونه ﴾ أي ما قلنا وما قصصنا وقوله تعالى : ﴿ الذين خسروا ﴾ الآية ، يصح أن يكون ﴿ الذين ﴾ نعتاً تابعاً ل ﴿ الذين قبله ﴾ ، والفاء من قوله ﴿ فهم ﴾ عاطفة جملة على جملة ، وهذا يحسن على تأويل من رأى في الآية قبلها أن أهل الكتاب متوعدون مذمومون لا مستشهد بهم ، ويصح أن يكون ﴿ الذين ﴾ رفعاً بالابتداء على استئناف الكلام ، وخبره ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ والفاء في هذا جواب ، ﴿ وخسروا ﴾ معناه غبنوها ، وقد تقدم ، وروي أن كل عبد له منزل في الحاجة ومنزل في النار ، فالمؤمنون ينزلون منازل أهل الكفر في الجنة والكافرون ينزلون منازل أهل الجنة في النار فها هنا هي الخسارة بينة والربح للآخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ المراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن كفّار مكة لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إنا سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر وأنكروا معرفته بين الله عز وجل أن شهادته له كافية على صحة نبوته وبين في هذه الآية أنهم يعرفونه وأنهم كذبوا في قولهم إنهم لا يعرفونه .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر بن الخطاب : إن الله عز وجل أنزل على نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بمكة ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم مني يا بني فقال عمر وكيف ذاك ؟ قال أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً ولا أدري ما يصنع النساء .

وقوله تعالى : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ يعني : أهلكوا أنفسهم وغبنوها وأوبقوها في نار جهنم بإنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وفي الذين خسروا أنفسهم قولان : أحدهما : أنه صفة الذين الأولى ويكون المقصود من ذلك وعيد المعاندين الذين يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ويجحدون نبوته وهم كفار أهل الكتابين ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ يعني به .

والقول الثاني : إنه كلام مبتدأ ولا تعلق له بالأول وهم كفار مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا في معنى الخسار وجهين : أحدهما : أنه الهلاك الدائم الذي حصل لهم بسبب كفرهم وإنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

والوجه الثاني : أنه جعل لكل واحد من بني آدم منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار فإذا كان يوم

القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التي في الجنة وجعل للكفار منازل المؤمنين التي في النار فذلك هو الخسران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(313/228)

وقال أبو حيان :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ تقدم شرح الجملة الأولى في البقرة وشرح الثانية في هذه السورة من قريب ، وقالوا هنا الضمير في ﴿ يعرفونه ﴾ عائد على الرسول قاله قتادة والسدي وابن جريج والجمهور ، ومنهم عمر بن الخطاب ، أو على التوحيد وذلك لقرب قوله : ﴿ قل إنما هو إله واحد ﴾ وفيه استشهاد على كفرة قريش والعرب بأهل الكتاب أو على القرآن قاله فرقة لقوله : ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن ﴾ .

وقيل يعود على جميع هذه الأشياء من التوحيد والرسول والقرآن ، كأنه ذكر أشياء ثم قال أهل الكتاب ﴿ يعرفونه ﴾ أي يعرفون ما قلنا وما قصصنا .

وقيل : يعود على كتابهم أي : يعرفون كتابهم وفيه ذكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : يعود على الدين والرسول فالمعنى يعرفون الإسلام أنه دين الله وأن محمد رسول الله

و ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ هنا لفظه عام ويراد به الخاص ، فإن هذا لا يعرفه ولا يقربه إلا من آمن منهم أو من أنصف و ﴿ الكتاب ﴾ التوراة والإنجيل ووحد رداً إلى الجنس .

وقيل : ﴿ الكتاب ﴾ هنا القرآن والضمير في ﴿ يعرفونه ﴾ عائد عليه ذكره الماوردي .

وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخصه : إن كان المكتوب في التوراة والإنجيل خروج نبي في آخر الزمان فقط ، فلا يتعين أن يكون هو محمداً صلى الله عليه وسلم أو معيناً زمانه ومكانه ونسبه وحليته وشكله ، فيكونون إذ ذاك عالمين به بالضرورة ولا يجوز الكذب على الجمع العظيم ولأنا نعلم بالضرورة أن كتابهم لم يشتمل على هذه التفاصيل التامة وعلى هذين التقديرين ، فكيف يصح أن يقال : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ ، وأجاب بأنهم كانوا أهلاً للنظر والاستدلال وكانوا شاهدوا ظهور المعجزات على يد الرسول فعرفوا بالمعجزات كونه رسولاً من عند الله ، فالمقصود تشبيه معرفته بمعرفة أبنائهم بهذا القدر الذي ذكرناه ؛ انتهى .

(314/228)

ولا يلزم ذلك التقسيم الذي ذكره لأنه لم يقل يعرفونه بالتوراة والإنجيل إنما ذكر ﴿ يعرفونه ﴾ فجاز أن تكون هذه المعرفة مسندة إلى التوراة والإنجيل من أخبار أنبيائهم ونصوصهم ،

فالتفاصيل عندهم من ذلك لا من التوراة والإنجيل فيكون معرفتهم إياه مفصلة واضحة بالأخبار لا بالنظر في المعجزات ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ وأيضاً فلا نسلم له حصر التقسيم فيما ذكره لأنه يحتمل قسماً آخر وهو أن يكون التوراة والإنجيل يدلان على خروج نبي في آخر الزمان ، وعلى بعض أوصافه لا على جميع الأوصاف التي ذكرت من تعيين زمان ومكان ونسب وحلية وشكل ، ويدل على هذا القسم حديث عمر مع عبد الله بن سلام وقوله له : إن الله أنزل على نبيه بمكة إنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : نعم أعرفه بالصفة التي وصفه الله بها في التوراة ؟ فلا أشك فيه وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمه ، ومما يدل أيضاً على أن معرفتهم إياه لا يتعين أن يكون مستندها التوراة والإنجيل فقط ، أسئلة عبد الله بن سلام حين اجتمع أول اجتماعه برسول الله صلى الله عليه وسلم ما أول ما يأكل أهل الجنة ؟ فحين أخبره بجواب تلك الأسئلة أسلم للوقت وعرف أنه الرسول الذي نبه عليه في التوراة ، وحديث زيد بن سعنة حين ذكر أنه عرف جميع أوصافه صلى الله عليه وسلم غير أنه لم يعرف أن حلمه يسبق غضبه فجرب ذلك منه ، فوجد هذه الصفة فأسلم وأعرب ﴿ الذين خسروا ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ والذين خسروا ﴾ على هذا أعم من أهل الكتاب الجاحدين ومن المشركين ، والخسران الغبن وروي أن لكل عبد منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار ، فالمؤمنون ينزلون منازل أهل الكفر في الجنة والكافرون ينزلون منازل أهل الجنة في النار ،

فالخسارة والربح هنا وجوزوا أن يكون ﴿ الذين خسروا ﴾ نعتاً لقوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ و ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ جملة معطوفة على جملة فيكون مساق الذين آتيناهم الكتاب ﴾

(315/228)

مساق الذم لا مقام الاستشهاد بهم على كفار قريش وغيرهم من العرب ، قالوا : لأنه لا يصح أن يستشهد بهم ويذموا في آية واحدة .

وقال ابن عطية : يصح ذلك لاختلاف ما استشهد فيه بهم وما ذموا فيه وأن الذم والاستشهاد من جهة واحدة ؛ انتهى .

ويكون ﴿ الذين خسروا ﴾ إذ ذاك ليس عاماً إذ التقدير الذين خسروا أنفسهم منهم أي من أهل الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ جواب عما سبق من قولهم لقد سألنا عنك اليهود والنصارى أُخِّر عن تعيين الشهيد مسارعةً إلى إلزامهم بالجواب عن تحكّمهم بقولهم : فأرنا من يشهد لك الخ ، والمرادُ بالموصول اليهودُ والنصارى ، وبالكتاب الجنسُ المنتظمُ للتوراة

والإنجيل ، وإيرادُهم بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بمدار ما أسند إليهم بقوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أي يعرفون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من جهة الكتابَيْن بحِلْيته ونُعوتِه المذكورة فيهما ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ ﴾ بحِلاهم بحيث لا يشكون في ذلك أصلاً . روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قال عمرُ رضي الله عنه لعبد اللَّه بن سلام : أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآيةَ وكيف هذه المعرفة ؟ فقال : يا عمر ، لقد عرفتُه فيكم حين رأيته كما أعرِف ابني ، ولأنا أشدُّ معرفةً بمحمدٍ مني بابني ، لأني لا أدري ما صنع النساء ، وأشهد أنه حقٌّ من الله تعالى .

(316/228)

﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ من أهل الكتابين والمشركين بأن ضيّعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الموجبةِ للإيمان بالكلية ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ لما أنهم مطبوعٌ على قلوبهم ، ومحل الموصول الرفعُ على الابتداء وخبرُه الجملة المصدرةُ بالفاءِ لِشَبَه الموصول بالشرط ، وقيل : على أنه خبرُ مبتدأ محذوف ، أي هم الذين خسروا الخ ، وقيل : على أنه نعتٌ للموصول الأول ، وقيل : النصبُ على الذم ، فقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ

﴿ على الوجوه الأخيرة عطفٌ على جملة ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(317/228)

وقال الآلوسى :

﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ جواب عما سبق في الرواية الأولى من قولهم : سألنا (عنك) اليهود والنصارى الخ أخر عن تعيين الشهيد مسارعة (إلزامهم بِ) (1) إلى الجواب عن تحكمهم بقولهم : أرنا من يشهد لك فالمراد من الموصول ما يعم الصنفين اليهود والنصارى ومن الكتاب جنسه الصادق على التوراة والإنجيل ، وإيرادهم بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بمدار ما أسند إليهم بقوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أي يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم (من جهة الكتابين) (1) بحليته ونعوته المذكورة فيهما ، وفيه التفات .

وقيل : الضمير للكتاب ، واختاره أبو البقاء .

والأول هو الذي تؤيده الأخبار كما ستعرفه .

﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ ﴾ بجلاهم بحيث لا يشكون في ذلك أصلاً .

(318/228)

روى أبو حمزة وغيره أنه لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال عمر رضي الله تعالى عنه لعبد الله بن سلام : إن الله تعالى أنزل على نبيه عليه الصلاة والسلام أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فكيف هذه المعرفة ؟ فقال ابن سلام : نعرف نبي الله صلى الله عليه وسلم بالنعت الذي نعته الله تعالى به إذا رأيناه فيكم عرفناه كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه بين الغلمان وأيم الله الذي يحلف به ابن سلام لأنا بمحمد أشد معرفة مني بابني لأني لا أدري ما أحدثت أمه فقال عمر رضي الله تعالى عنه قد وفقت وصدقت .

وزعم بعضهم أن المراد بالمعرفة هنا ما هو بالنظر والاستدلال لأن ما يتعلق بتفاصيل حليته صلى الله عليه وسلم إما أن يكون باقياً وقت نزول الآية أو لا بل محرفاً مغيراً والأول باطل ولا يتأتى لهم إخفاء ذلك لأن إخفاء ما شاع في الآفاق محال ؛ وكذا الثاني لأنهم لم يكونوا حينئذ عارفين حليته الشريفة عليه الصلاة والسلام كما يعرفون حلية أبنائهم .

وفيه أن الإخفاء مصرح به في القرآن كما في قوله تعالى : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قراطيس تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ [الأنعام : 91] وإخفاؤها ليس بإخفاء النصوص بل بتأويلها ، وبقولهم : إنه رجل آخر سيخرج وهو معنى قوله سبحانه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النحل : 14] ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ من أهل الكتابين والمشركين ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بما يجب الإيمان به ، وقد تقدم الكلام في هذا التركيب آنفاً . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ﴾

جملة مستأنفة انتقل بها أسلوب الكلام من مخاطبة الله المشركين على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إخبار عامّ كسائر أخبار القرآن .

(319/228)

أظهر الله دليلاً على صدق الرسول فيما جاء به بعد شهادة الله تعالى التي في قوله ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ [الأنعام : 19] ، فإنّه لمَّا جاء ذكر القرآن هنالك وقع هذا الانتقال للاستشهاد على صدق القرآن المتضمّن صدق من جاء به ، لأنّه هو الآية المعجزة العامَّة الدائمة .

وقد علمت آنفاً أنّ الواحدي ذكر أنّ رؤساء المشركين قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم قد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس عندهم ذكرك ولا صفتك إلى آخره ؛ فإذا كان كذلك كان التعرّض لأهل الكتاب هنا إبطالاً لما قالوه أنّه ليس عندهم ذكر النبي ولا صفته ، أي فهم وأنتم سواء في جحد الحقّ ، وإن لم تجعل الآية مشيرة إلى ما ذكر في أسباب

النزول تعيّن أن تجعل المراد بِ ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ بعض أهل الكتاب ، وهم المنصفون منهم مثل عبد الله بن سلام ومخيريق ، فقد كان المشركون يقدُرون أهل الكتاب ويثقون بعلمهم وربما اتّبع بعض المشركين دين أهل الكتاب وأقلعوا عن الشرك مثل ورقة بن نوفل ، فلذلك كانت شهادتهم في معرفة صحّة الدين موثوقاً بها عندهم إذا أدّوها ولم يكتموها .

وفيه تسجيل على أهل الكتاب بوجوب أداء هذه الشهادة إلى الناس .

فالضمير المنصوب في قوله : ﴿ يعرفونه ﴾ عائد إلى القرآن الذي في قوله : ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن ﴾ [الأنعام : 19] .

والمراد أنَّهم يعرفون أنّه من عند الله ويعرفون ما تضمّنه ممّا أخبرت به كتبهم ، ومن ذلك رسالة من جاء به ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم لما في كتبهم من البشارة به .

والمراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى كقوله تعالى : ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الرعد : 43] .

والتشبيه في قوله : ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ تشبيه المعرفة بالمعرفة .

(320/228)

فوجه الشبه هو التحقّق والجزم بأنّه هو الكتاب الموعود به ، وإنّما جعلت المعرفة المشبّه بها هي معرفة أبنائهم لأن المرء لا يضلّ عن معرفة شخص ابنه وذاته إذا لقيه وأنّه هو ابنه المعروف ، وذلك لكثرة ملازمة الأبناء آباءهم عرفاً .

وقيل : إنّ ضمير ﴿ يعرفونه ﴾ عائد إلى التوحيد المأخوذ من قوله : ﴿ إنّما هو إله واحد ﴾ [الأنعام : 19] وهذا بعيد .

وقيل : الضمير عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع أنّه لم يجر له ذكر فيما تقدّم صريحاً ولا تأويلاً .

ويقتضي أن يكون المخاطب غير الرسول صلى الله عليه وسلم وهو غير مناسب على أنّ في عوده إلى القرآن غنية عن ذلك مع زيادة إثباته بالحجَّة وهي القرآن .

وقوله : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ استئناف لزيادة إيضاح تصلّب المشركين وإصرارهم ، فهم المراد بالذين خسروا أنفسهم كما أريدوا بنظيره السابق الواقع بعد قوله ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ [النساء : 87] .

فهذا من التكرير للتسجيل وإقامة الحجَّة وقطع المعذرة ، وأنّهم مصرّون على الكفر حتى ولو شهد بصدق الرسول أهل الكتاب ، كقوله ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾ [الأحقاف : 10] .

وقيل : أريد بهم أهل الكتاب ، أي الذين كتموا الشهادة ، فيكون ﴿ الذين خسروا ﴾

بدلاً من ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ

﴾

(321/228)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

الظَّاهِرُ الْمُخْتَارُ أَنَّ هَذَا عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، أَيْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَاسْتَظْهَرَ أَبُو حَيَّانَ أَنَّهُ اسْتِئْنَافُ إِخْبَارٍ غَيْرُ مُنْدَرِجٍ تَحْتَ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ . وَسَكَنَ مِنْ سُكْنَى أَوْ مِنَ السُّكُونِ ضِدِّ الْحَرَكَةِ ، وَفِيهِ اكْتِفَاءٌ بِمَا ذَكَرَ عَمَّا يُقَابِلُهُ ، أَيْ لَهُ مَا سَكَنَ وَمَا تَحَرَّكَ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ : (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) (16 : 81) أَيْ وَالْبَرْدَ . وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ عَلَى مَذْهَبِ مَنْ يُجَوِّزُ ذَلِكَ فِي الْمُشْتَرَكِ بِمَا يَحْتَمِلُهُ الْمَقَامُ ، وَالْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ هَذَا الْمِلْكِ

(322/228)

الْخَاصِّ عَلَى دُخُولِهِ فِي عُمُومِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ التَّذْكِيرُ بِتَصَرُّفِهِ تَعَالَى بِهَذِهِ الْخَفَايَا ، فَإِنَّ السُّكْنَى وَالسُّكُونَ مِنْ دَوَاعِي خَفَاءِ السَّاكِنِ ، فَإِذَا كَانَ فِي اللَّيْلِ كَانَ أَشَدَّ خَفَاءً ; وَلِذَلِكَ قَدَّمَ ذِكْرَ اللَّيْلِ لِأَنَّ مَا يَسْكُنُ فِيهِ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ ، وَعَطْفُ النَّهَارِ عَلَيْهِ تَكْمِيلٌ ، وَلَمَّا ذَكَّرَنَا تَعَالَى بِأَنَّهُ الْمَالِكُ لِمَا ذَكَرَ ، الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ بِقُدْرَتِهِ بِمَا يَشَاءُ كَمَا هُوَ شَأْنُ الرُّبُوبِيَّةِ الْكَامِلَةِ ذَكَّرَنَا بِأَنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، أَيِ الْمُحِيطُ سَمْعُهُ بِكُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُسْمَعَ مَهْمَا يَكُنْ خَفِيًّا عَنْ غَيْرِهِ ، فَهُوَ يَسْمَعُ دَبِيبَ النَّمْلَةِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يُصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ وَيَصُمُّهُ كَبِيرُهَا وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ الْمُرْتَضَى كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : وَهُوَ الْمُحِيطُ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) (40 : 19) وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَدُقَّ عَنْ سَمْعِهِ دَعْوَةُ دَاعٍ أَوْ تَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ حَاجَةُ مُحْتَاجٍ ، حَتَّى يُخْبِرَهُ بِهَا الْأَوْلِيَاءُ ، أَوْ يُقْنِعَهُ بِهَا الشُّفَعَاءُ (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) (2 : 255) .

بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ رَاجَعْتُ التَّفْسِيرَ الْكَبِيرَ فَإِذَا فِيهِ مِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ فِي الْآيَةِ مَا نَقَلَهُ

الرَّازِيُّ عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيِّ وَقَالَ إِنَّهُ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي نَظْمِهَا وَهُوَ : ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِذْ لَا مَكَانَ سِوَاهُمَا ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِذْ لَا زَمَانَ سِوَاهُمَا ، فَالزَّمَانُ وَالْمَكَانُ ظَرْفَانِ لِلْمُحْدَثَاتِ . فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَالِكٌ لِلْمَكَانِ وَالْمَكَانِيَّاتِ ، وَالزَّمَانِ وَالزَّمَانِيَّاتِ . قَالَ الرَّازِيُّ : وَهَذَا بَيَانٌ فِي غَايَةِ الْجَلَالَةِ . وَأَقُولُ : هَهُنَا دَقِيقَةٌ أُخْرَى ، وَهُوَ أَنَّ الِابْتِدَاءَ وَقَعَ بِذِكْرِ الْمَكَانِ وَالْمَكَانِيَّاتِ ، ثُمَّ ذَكَرَ عَقِيبَهُ الزَّمَانَ وَالزَّمَانِيَّاتِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَكَانَ وَالْمَكَانِيَّاتِ ، أَقْرَبُ إلَى الْعُقُولِ وَالْأَفْكَارِ مِنَ الزَّمَانِ وَالزَّمَانِيَّاتِ ، لِدَقَائِقَ مَذْكُورَةٍ فِي الْعَقْلِيَّاتِ الصِّرْفَةِ . وَالتَّعْلِيمُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يُبْدَأُ فِيهِ بِالْأَظْهَرِ فَالْأَظْهَرُ مُتَرَقِّيًا إلَى الْأَخْفَى فَالْأَخْفَى اهـ .

(324/228)

بَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ لِلتَّذْكِيرِ بِأَنَّهُ الرَّبُّ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمُتَصَرِّفُ بِالْفِعْلِ وَالتَّدْبِيرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى دَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَالْأُمُورِ وَخَفَايَاهَا ، وَأَنَّ تَصَرُّفَهُ هَذَا عَنْ عِلْمٍ مُحِيطٍ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَلَا دَبِيبُ نَمْلَةٍ . أَمَرَهُ بِقَوْلٍ آخَرَ بَيَّنَ فِيهِ مَا يَسْتَلْزِمُهُ مَا

قَبْلَهُ مِنْ وُجُوبِ وِلَايَتِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ دُونَ سِوَاهُ فِي كُلِّ مَا هُوَ فَوْقَ كَسْبِ الْبَشَرِ ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَى تَوْفِيقِهِ فِيمَا هُوَ مِنْ كَسْبِهِمْ ، وَلَا يَتِمُّ بِهِ الْمُرَادُ بِمَحْضِ سَعْيِهِمْ ، فَقَالَ :

(325/228)

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) الْوَلِيُّ النَّاصِرُ وَمُتَوَلِّي الْأَمْرِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ ، وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِإِنْكَارِ اتِّخَاذِ غَيْرِ اللَّهِ وَلِيًّا ، لَا لِإِنْكَارِ الْوَلِيِّ مُطْلَقًا ، وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ : أَأَتَّخِذُ وَلِيًّا غَيْرَ اللَّهِ ، وَلَا : أَأَتَّخِذُ غَيْرَ اللَّهِ وَلِيًّا . وَمِثْلُهُ : (أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) (39 : 64) وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ اتِّخَاذُ غَيْرِ اللَّهِ وَلِيًّا فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهُوَ أَنْ يُطْلَبَ مِنْ غَيْرِهِ النَّصْرُ أَوْ غَيْرُ النَّصْرِ مِنْ ضُرُوبِ التَّصَرُّفِ فِي النَّفْعِ وَالضُّرِّ فِعْلًا وَمَنْعًا فِيمَا هُوَ فَوْقَ كَسْبِ ذَلِكَ الْغَيْرِ وَتَصَرُّفِهِ الَّذِي مَنَحَهُ اللَّهُ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ; وَلِذَلِكَ فُسِّرَ الْوَلِيُّ بِالْمَعْبُودِ فِي هَذَا الْمَقَامِ . وَأَمَّا تَنَاصُرُ الْمَخْلُوقِينَ وَتَوَلِّي بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِيمَا هُوَ مِنْ كَسْبِهِمُ الْعَادِيِّ فَلَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ اتِّخَاذِ اللَّهِ وَلِيًّا أَوِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . وَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ الْكُفَّارَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا مِنْ قَبْلُ ، وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْوَثَنِيِّينَ وَمَنْ طَرَأَ عَلَيْهِمُ الشِّرْكُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَتَّخِذُونَ

مَعْبُودَاتِهِمْ وَأَنْبِيَاءَهُمْ وَصُلَحَاءَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ بِنِدَائِهِمْ وَدُعَائِهِمْ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِمْ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِمْ مِنْ نَصْرٍ عَلَى

(326/228)

عَدُوٍّ وَشِفَاءٍ مِنْ مَرَضٍ وَسَعَةٍ فِي رِزْقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَكَانَ هَذَا عِبَادَةً مِنْهُمْ لَهُمْ وَجَعْلُهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ بِاعْتِقَادِ كَوْنِ حُصُولِ الْمَطْلُوبِ مِنْ غَيْرِ أَسْبَابِهِ الْعَادِيَّةِ الَّتِي مَضَتْ بِهَا السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ الْعَامَّةُ قَدْ كَانَ بِمَجْمُوعِ إِرَادَةِ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءِ وَإِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، فَمُقْتَضَى هَذَا الِاعْتِقَادِ أَنَّ إِرَادَةَ اللهِ تَعَالَى مَا تَعَلَّقَتْ بِفِعْلِ ذَلِكَ الْمَطْلَبِ إِلَّا بِالتَّبَعِ لِإِرَادَةِ الْوَلِيِّ الشَّافِعِ أَوِ الْمُتَّخَذِ وَلِيًّا شَفِيعًا ، وَالْحَقُّ أَنَّ إِرَادَةَ اللهِ تَعَالَى أَزَلِيَّةٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُؤَثِّرَ فِيهَا الْمُحْدَثَاتُ ، كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ مِرَارًا بِشَوَاهِدِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ . ثُمَّ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِمَا يُنَافِي اتِّخَاذَ غَيْرِهِ وَلِيًّا فَقَالَ :

(فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) مُبْدِعِهِمَا أَيْ مُبْدِئِهِمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : مَا عَرَفْتُ مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ مِنْ بِئْرٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : أَنَا فَطَرْتُهَا ، أَيِ ابْتَدَعْتُهَا ، وَأَصْلُ الْفَطْرِ الشَّقُّ ، وَمِنْهُ (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) (82 : 1) بِمَعْنَى إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَقِيلَ لِلْكَمْأَةِ فِطْرٌ ؛ لِأَنَّهَا تَفْطِرُ الْأَرْضَ

فَتَخْرُجُ مِنْهَا . وَإِيجَادُ الْبِئْرِ إِنَّمَا يُبْتَدَأُ بِشَقِّ الْأَرْضِ بِالْحَفْرِ ، وَقَدْ كَانَتِ الْمَادَّةُ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ مِنْهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كُتْلَةً وَاحِدَةً دُخَّانِيَّةً ، فَفَتَقَ رَتْقَهَا وَفَصَلَ مِنْهَا

(327/228)

أَجْرَامَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ الْفَطْرِ وَالشَّقِّ (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) الرُّؤْيَةُ هُنَا عِلْمِيَّةٌ .

(328/228)

وَصْفُ اللَّهِ تَعَالَى بِفَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ لَا نِزَاعَ فِيهِ يُؤَيِّدُ إِنْكَارَ اتِّخَاذِ غَيْرِهِ وَلِيًّا يُسْتَنْصَرُ وَيُسْتَعَانُ بِهِ ، أَوْ يُتَّخَذُ وَاسِطَةً لِلتَّأْثِيرِ فِي الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَإِنَّ مَنْ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَأْثِيرِ مُؤَثِّرٍ وَلَا شَفَاعَةِ شَافِعٍ يَجِبُ أَنْ يُتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ بِالدُّعَاءِ ، وَإِيَّاهُ يُسْتَعَانُ فِي كُلِّ مَا وَرَاءَ الْأَسْبَابِ ، وَأَكَّدَ هَذَا بِقَوْلِهِ : (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) أَيْ يَرْزُقُ النَّاسَ الطَّعَامَ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَرْزُقُهُ وَيُطْعِمُهُ لِأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ وَغَيْرِهِ ، غَنِيٌّ بِنَفْسِهِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ . وَقَرَأَ أَبُو عُمَرَ : " وَلَا يَطْعَمُ " بِفَتْحِ الْيَاءِ أَيْ لَا يَأْكُلُ

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ مُؤَيِّدَةٌ لِإِنْكَارِ اتِّخَاذِ وَلِيٍّ غَيْرِ اللهِ ، وَفِيهَا تَعْرِيضٌ بِمَنِ اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْبَشَرِ بِأَنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى الطَّعَامِ ، لَا حَيَاةَ لَهُمْ وَلَا بَقَاءَ إِلَى الْأَجَلِ الْمَحْدُودِ بِدُونِهِ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَهُمُ الطَّعَامَ ، فَهُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْبَقَاءِ بِدُونِهِ وَعَاجِزُونَ عَنْ خَلْقِهِ وَإِيجَادِهِ ، فَكَيْفَ يَتَّخِذُونَ أَوْلِيَاءَ مَعَ الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ ، الرَّزَّاقِ الْفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ ؟ كَمَا قَالَ فِي الِاحْتِجَاجِ عَلَى النَّصَارَى فِي عِبَادَةِ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) (5 :

(329/228)

---

75) وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ الْمُتَّخَذَةُ مِنْ غَيْرِ الْبَشَرِ كَالْأَصْنَامِ ، فَهِيَ أَضْعَفُ وَأَعْجَزُ مِنَ الْبَشَرِ ، لِاتِّفَاقِ عُقَلَاءِ الْأُمَمِ كُلِّهَا عَلَى تَفْضِيلِ الْحَيَوَانِ عَلَى الْجَمَادِ وَتَفْضِيلِ الْإِنْسَانِ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ .

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَعْدَ إِيرَادِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ عَلَى وُجُوبِ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَعَدَمِ اتِّخَاذِ غَيْرِهِ وَلِيًّا : إِنِّي أُمِرْتُ مِنْ لَدُنْ رَبِّي الْمَوْصُوفِ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الصِّفَاتِ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ إِلَيْهِ وَانْقَادَ لِدِينِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي بُعِثْتُ فِيهَا ،

فَلَسْتُ أَدْعُو إِلَى شَيْءٍ لَا آخُذُ بِهِ ، بَلْ أَنَا أَوَّلُ مُؤْمِنٍ وَعَامِلٌ بِهَذَا الدِّينِ ، (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أَيْ وَقِيلَ لِي بَعْدَ هَذَا الْأَمْرِ بِالسَّبْقِ إِلَى إِسْلَامِ الْوَجْهِ لَهُ :

لَا يَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، فَأَنَا أَتَبَرَّأُ مِنْ دِينِكُمْ وَمِنْكُمْ . وَحَاصِلُ الْمَعْنَى : أَنِّي أُمِرْتُ بِالْإِسْلَامِ وَنُهِيتُ عَنِ الشِّرْكِ . كَذَا قِيلَ وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ : إِنَّ

حَاصِلَهُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ .

(330/228)

وَبَعْدَ هَذَا الْقَوْلِ الْمُبَيِّنِ لِأَصْلِ الدَّعْوَةِ وَأَسَاسِ الدِّينِ ، وَكَوْنِ الدَّاعِي إِلَيْهِ مَأْمُورًا بِهِ كَغَيْرِهِ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِقَوْلٍ آخَرَ فِي بَيَانِ جَزَاءِ مَنْ خَالَفَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ آنِفًا ، وَأَنَّهُ عَامٌّ لَا هَوَادَةَ فِيهِ وَلَا شَفَاعَةَ تَحُولُ دُونَهُ فَقَالَ : (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) قَدَّمَ ذِكْرَ الْخَوْفِ عَلَى شَرْطِهِ الَّذِي شَأْنُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَهُ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَهَمُّ الْمَقْصُودُ بِالذِّكْرِ ، وَشَرْطُ " إِنْ " لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ ، فَالْمَعْنَى إِنْ فُرِضَ وُقُوعُ الْعِصْيَانِ مِنِّي لِرَبِّي فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُصِيبَنِي عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وُصِفَ بِالْعَظِيمِ لِعَظَمَةِ مَا يَكُونُ فِيهِ مِنْ تَجَلِّي الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَمُحَاسَبَتِهِ لِلنَّاسِ وَمَجَازَاتِهِ لَهُمْ . وَحِكْمَةُ هَذَا التَّعْبِيرِ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ

هَذَا الدِّينَ دِينُ اللهِ الْحَقُّ لَا مُحَابَاةَ فِيهِ لِأَحَدٍ ، مَهْمَا يَكُنْ قَدْرُهُ عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ . وَأَنَّ يَوْمَ الْجَزَاءِ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ بِالْمَعْنَى الْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا سُلْطَانَ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى فَيَتَّكِلُ عَلَيْهِ مَنْ يَعْصِيهِ ، ظَنًّا أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ أَوْ يُنْجِيَهُ (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) وَإِذَا كَانَ خَوْفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مُنْتَفِيًا لِانْتِفَائِهَا بِالْعِصْمَةِ فَخَوْفُ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ ثَابِتٌ لَهُ دَائِمًا .

(331/228)

(مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) أَيْ مَنْ يُصْرَفْ وَيُحَوَّلْ عَنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ حَتَّى يَكُونَ بِمَعْزِلٍ عَنْهُ ، أَوْ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ ذَلِكَ الْعَذَابُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَدْ رَحِمَهُ اللهُ بِإِنْجَائِهِ مِنَ الْهَوْلِ الْأَكْبَرِ ، وَبِمَا وَرَاءَ النَّجَاةِ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ لِأَنَّ مَنْ لَا يُعَذَّبُ يَوْمَئِذٍ يَكُونُ مُنَعَّمًا حَتْمًا ، وَذَلِكَ الْجَمْعُ بَيْنَ النَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّمَتُّعِ بِالنَّعِيمِ فِي دَارِ الْبَقَاءِ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ الظَّاهِرُ ، وَقَدْ حَقَّقْنَا فِي تَفْسِيرِ آخِرِ السُّورَةِ السَّابِقَةِ (الْمَائِدَةِ) أَنَّ الْفَوْزَ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ السَّلْبِيِّ وَالْإِيجَابِيِّ ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ مَا قِيلَ فِي أَهْلِ الْأَعْرَافِ عَلَى مَا يَأْتِي تَحْقِيقُهُ فِي سُورَتِهَا . وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ (مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ) بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ ، أَيْ مَنْ يَصْرِفُهُ اللهُ عَنْهُ أَيْ عَنِ الْعَذَابِ إِلَخْ . وَيُؤَيِّدُهَا قِرَاءَةُ أُبَيٍّ (مَنْ

يَصْرِفِ اللهُ) بِالظَّاهِرِ لِلْفَاعِلِ وَحَذْفِ الْمَفْعُولِ ، وَلَعَلَّهُ قَالَ ذَلِكَ بِقَصْدِ التَّفْسِيرِ وَلَا يَمْنَعُنَا مِنَ الْجَزْمِ بِذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَصِحَّ أَنَّهُ كَتَبَ اسْمَ الْجَلَالَةِ فِي مُصْحَفِهِ .

(332/228)

وَقَدِ اسْتَدَلَّتِ الْأَشْعَرِيَّةُ بِالْآيَةِ عَلَى أَنَّ الطَّاعَةَ لَا تُوجِبُ الثَّوَابَ وَالْمَعْصِيَةَ لَا تُوجِبُ الْعِقَابَ لِأَنَّهَا نَاطِقَةٌ بِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَفِعْلُ الْوَاجِبِ لَا يُسَمَّى رَحْمَةً ، وَضَرَبُوا لِذَلِكَ الْأَمْثَالَ فِي أَفْعَالِ الْبَشَرِ ، وَالْحَقُّ أَنَّ مِنْ أَفْعَالِ الرَّحْمَةِ الْبَشَرِيَّةِ مَا هُوَ وَاجِبٌ ، وَمِنَ الْوَاجِبِ عَلَى النَّاسِ مَا هُوَ رَحْمَةٌ أَيْ وَاجِبٌ لِأَنَّهُ رَحْمَةٌ ، وَأَمَّا الْخَالِقُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يُوجِبُ عَلَيْهِ أَحَدٌ شَيْئًا إِذْ لَا سُلْطَانَ فَوْقَ سُلْطَانِهِ ، وَلَهُ أَنْ يُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ مَا شَاءَ ، وَقَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، أَيْ أَوْجَبَهَا كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فِي هَذَا السِّيَاقِ . فَهَذِهِ كِتَابَةٌ مُطْلَقَةٌ ، وَسَيَأْتِي فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ كِتَابَتُهَا لِلْمُتَّقِينَ الْمُزَكِّينَ مِنْ مُؤْمِنِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَلَوْ لَمْ يَكْتُبِ الرَّبُّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَجَازَ أَلَّا يَرْحَمَ أَحَدًا وَأَلَّا يَكُونَ رَحِيمًا بِخَلْقِهِ وَأَجَازَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ هَذَا فَكِتَابُ اللهِ لَا يُجِيزُهُ ، وَلَمَّا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ صَرْفَ الْعَذَابِ وَالْفَوْزَ بِالنَّعِيمِ بَعْدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ فِي الْآخِرَةِ بَيَّنَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَّ التَّصَرُّفَ فِيهِ لِلَّهِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ وَحْدَهُ فَقَالَ :

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الْمَسُّ أَعَمُّ مِنَ اللَّمْسِ فِي الِاسْتِعْمَالِ . يُقَالُ : مَسَّهُ السُّوءُ وَالْكِبْرُ وَالْعَذَابُ وَالتَّعَبُ وَالضَّرَّاءُ وَالضُّرُّ وَالْخَيْرُ ، أَيْ أَصَابَهُ ذَلِكَ وَنَزَلَ بِهِ ، وَيُقَالُ : مَسَّهُ غَيْرُهُ بِذَلِكَ أَيْ أَصَابَهُ بِهِ . وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا فِي الْقُرْآنِ ، وَلَكِنَّ الْمَسَّ بِالْخَيْرِ ذُكِرَ هُنَا فِي مُقَابِلِ الْمَسِّ بِالضُّرِّ مُسْنَدًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَفِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ فِي مُقَابِلِ الْمَسِّ بِالشَّرِّ غَيْرَ مُسْنَدٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَالضُّرُّ بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ لُغَتَانِ : أَوِ الضَّرُّ بِالْفَتْحِ مَصْدَرٌ ، وَبِالضَّمِّ اسْمُ مَصْدَرٍ ، وَالِاسْتِعْمَالُ فِيهِ ، أَنْ يُضَمَّ إِذَا ذُكِرَ وَحْدَهُ وَيُفْتَحَ إِذَا ذُكِرَ مَعَ النَّفْعِ . وَهُوَ مَا يَسُوءُ الْإِنْسَانَ فِي نَفْسِهِ أَوْ بَدَنِهِ أَوْ عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُؤُونِهِ ، وَيُقَابِلُ النَّفْعَ . وَقَالَ الرَّازِيُّ : الضُّرُّ اسْمٌ لِلْأَلَمِ وَالْحُزْنِ وَالْخَوْفِ وَمَا يُفْضِي إِلَيْهَا أَوْ إِلَى أَحَدِهَا ، وَالنَّفْعُ اسْمٌ لِلَّذَّةِ وَالسُّرُورِ وَمَا يُفْضِي إِلَيْهِمَا أَوْ إِلَى أَحَدِهِمَا ، وَالْخَيْرُ اسْمٌ لِلْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ مِنْ دَفْعِ الضُّرِّ وَحُصُولِ الْخَيْرِ . وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْخَيْرُ مَا يَرْغَبُ فِيهِ الْكُلُّ ، كَالْعَقْلِ مَثَلًا وَالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالشَّيْءِ النَّافِعِ وَضِدُّهُ الشَّرُّ . وَأَقُولُ إِنَّ الْخَيْرَ مَا كَانَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ أَوْ مَصْلَحَةٌ حَاضِرَةٌ أَوْ مُسْتَقْبَلَةٌ ، فَمِنَ الضَّارِّ الْمَكْرُوهِ الَّذِي

(334/228)

يَسُوءُ مَا يَكُونُ خَيْرًا بِحُسْنِ أَثَرِهِ أَوْ عَاقِبَتِهِ ،

وَالشَّرُّ مَا لَا مَصْلَحَةَ وَلَا مَنْفَعَةَ فِيهِ الْبَتَّةَ ، أَوْ مَا كَانَ ضُرُّهُ أَكْبَرَ مِنْ نَفْعِهِ . قَالَ تَعَالَى : (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) (2 : 216) وَقَالَ فِي النِّسَاءِ : (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (4 : 19) وَقَالَ : (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) (24 : 11) وَالشَّرُّ لَا يُسْنَدُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَكِنَّهُ مِمَّا يَبْتَلِي بِهِ النَّاسَ وَيَخْتَبِرُهُمْ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) (10 : 11) لَيْسَ مِنْ هَذَا الْإِسْنَادِ فِي شَيْءٍ ، وَفِي الْحَدِيثِ " الْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " .

(335/228)

وَمِنْ دَقَائِقِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزَةِ تَحَرِّي الْحَقَائِقِ بِأَوْجَزِ الْعِبَارَاتِ وَأَجْمَعِهَا لِمَحَاسِنِ الْكَلَامِ مَعَ مُخَالَفَةِ بَعْضِهَا فِي بَادِي الرَّأْيِ لِمَا هُوَ الْأَصْلُ فِي التَّعْبِيرِ كَالْمُقَابَلَةِ هُنَا بَيْنَ الضُّرِّ وَالْخَيْرِ ، وَإِنَّمَا مُقَابِلُ الضُّرِّ النَّفْعُ ، وَمُقَابِلُ الْخَيْرِ الشَّرُّ ، فَنُكْتَةُ الْمُقَابَلَةِ أَنَّ الضُّرَّ مِنَ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ شَرًّا فِي الْحَقِيقَةِ ، بَلْ هُوَ تَرْبِيَةٌ وَاخْتِبَارٌ لِلْعَبْدِ يَسْتَفِيدُ بِهِ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلِاسْتِفَادَةِ أَخْلَاقًا وَآدَابًا وَعِلْمًا وَخِبْرَةً ، وَقَدْ بَدَأَ بِذِكْرِ الضُّرِّ لِأَنَّ كَشْفَهُ مُقَدَّمٌ عَلَى نَيْلِ مُقَابِلِهِ ، كَمَا أَنَّ صَرْفَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ مُقَدَّمٌ عَلَى النَّعِيمِ فِيهَا ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مُقَابِلَةٌ لِمَا قَبْلَهَا كَمَا تَقَدَّمَ . ثُمَّ ذَكَرَ الْخَيْرَ فِي

(336/228)

مُقَابِلِ الضُّرِّ دُونَ النَّفْعِ فَأَفَادَ أَنَّ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ مِنَ النِّعَمِ إِنَّمَا يَحْسُنُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ النَّفْعُ خَيْرًا لَهُمْ بِعَدَمِ تَرْتِيبِ شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ عَلَيْهِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِنْ أَصَابَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ضُرٌّ كَمَرَضٍ وَتَعَبٍ وَحَاجَةٍ وَحُزْنٍ وَذُلٍّ اقْتَضَتْهُ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى فَلَا كَاشِفَ لَهُ ، أَيْ لَا مُزِيلَ لَهُ وَلَا صَارِفَ يَصْرِفُهُ عَنْكَ إِلَّا هُوَ دُونَ الْأَوْلِيَاءِ يُتَّخَذُونَ مِنْ دُونِهِ وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمُ الْمُشْرِكُ لِكَشْفِهِ ، فَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكْشِفَهُ عَنْكَ بِتَوْفِيقِكَ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي تُزِيلُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَكْشِفَهُ بِغَيْرِ عَمَلٍ مِنْكَ وَلَا كَسْبٍ ، وَلُطْفُهُ الْخَفِيُّ لَا حَدَّ لَهُ فَلَهُ الْحَمْدُ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ، كَصِحَّةٍ وَغِنًى وَقُوَّةٍ

وَجَاهٍ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى حِفْظِهِ عَلَيْكَ كَمَا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعْطَائِكَ إِيَّاهُ؛ لِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَمَّا أُولَئِكَ الْأَوْلِيَاءُ الَّذِينَ اتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَسِّكَ بِخَيْرٍ وَلَا ضُرٍّ . فَالْآيَةُ كَمَا قَالَ الرَّازِيُّ دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَّخِذَ غَيْرَ اللَّهِ وَلِيًّا . وَقَدْ تَبَيَّنَ بِهَا وَبِمَا قَبْلَهَا أَنَّ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ كَشْفِ ضُرٍّ وَصَرْفِ عَذَابٍ أَوْ إِيجَادِ خَيْرٍ وَمَنْحِ ثَوَابٍ فَإِنَّمَا يُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، وَالطَّلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ : طَلَبٌ بِالْعَمَلِ

(337/228)

وَمُرَاعَاةُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا سُنَنُهُ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ، وَطَلَبٌ بِالتَّوَجُّهِ وَالدُّعَاءِ اللَّذَيْنِ نَدَبَتْ إِلَيْهِمَا آيَاتُهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَأَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ .

هَذَا مَا فَتَحَ اللَّهُ بِهِ ، وَبَعْدَ كِتَابَتِهِ رَاجَعْنَا كِتَابَ رُوحِ الْمَعَانِي فَوَجَدْنَا فِيهِ نَقْلًا فِي نُكْتَةِ الْبَلَاغَةِ فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الضُّرِّ وَالْخَيْرِ أَحْبَبْنَا نَقْلَهَا إِتْمَامًا لِلْفَائِدَةِ قَالَ :

" وَفَسَّرُوا الضُّرَّ بِالضَّمِّ بِسُوءِ الْحَالِ فِي الْجِسْمِ وَبِالْفَتْحِ بِضِدِّ النَّفْعِ وَعَدَلَ عَنِ الشَّرِّ الْمُقَابِلِ لِلْخَيْرِ إِلَى الضُّرِّ عَلَى مَا فِي الْبَحْرِ لِأَنَّ الشَّرَّ أَعَمُّ ، فَأَتَى بِلَفْظِ الْأَخَصِّ مَعَ الْخَيْرِ الَّذِي هُوَ عَامٌّ رِعَايَةً لِجِهَةِ الرَّحْمَةِ . وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : إِنَّ مُقَابَلَةَ الْخَيْرِ بِالضُّرِّ مَعَ أَنَّ مُقَابَلَةَ الشَّرِّ وَهُوَ

أَخَصُّ مِنْهُ مِنْ خَفِيِّ الْفَصَاحَةِ لِلْعُدُولِ عَنْ قَانُونِ الصَّنْعَةِ وَطَرْحِ رِدَاءِ التَّكَلُّفِ ، وَهُوَ أَنْ يُقْرَنَ بِأَخَصَّ مِنْ ضِدِّهِ وَنَحْوِهِ لِكَوْنِهِ أَوْفَقَ بِالْمَعْنَى وَأَلْصَقَ بِالْمَقَامِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) (20 : 118 ، 119) فَجِيءَ بِالْجُوعِ مَعَ الْعُرْيِ ، وَبِالظَّمَأِ مَعَ الضَّحْوِ ، وَكَانَ الظَّاهِرُ خِلَافَهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ . . . وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ .

وَلَمْ أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ . . . أَقُلْ لِخَيْلِي كَرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ .

(338/228)

وَإِيضَاحُهُ : أَنَّهُ فِي الْآيَةِ قَرَنَ الْجُوعَ الَّذِي هُوَ خُلُوُّ الْبَاطِنِ بِالْعُرْيِ الَّذِي هُوَ خُلُوُّ الظَّاهِرِ ، وَالظَّمَأُ الَّذِي فِيهِ حَرَارَةُ الْبَاطِنِ بِالضُّحَى الَّذِي فِيهِ حَرَارَةُ الظَّاهِرِ ، وَكَذَلِكَ قَرَنَ امْرُؤُ الْقَيْسِ عُلُوَّهُ عَلَى الْجَوَادِ بِعُلُوِّهِ عَلَى الْكَاعِبِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَذَّتَانِ فِي الِاسْتِعْلَاءِ وَبَذْلِ الْمَالِ فِي شِرَاءِ الرَّاحِ ، بِبَذْلِ الْأَنْفُسِ فِي الْكِفَاحِ ؛ لِأَنَّ فِي الْأَوَّلِ سُرُورَ الطَّرَبِ وَفِي الثَّانِي سُرُورَ الظَّفَرِ ، وَكَذَا هُنَا أُوثِرُ الضُّرَّ لِمُنَاسَبَتِهِ مَا قَبْلَهُ مِنَ التَّرْهِيبِ ، فَإِنَّ انْتِقَامَ الْعَظِيمِ عَظِيمٌ ، ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ الْإِحْسَانَ أَتَى بِمَا يَعُمُّ أَنْوَاعَهُ ، وَالْآيَةُ مِنْ قَبِيلِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ ، فَإِنَّ مَسَّ الضُّرِّ نَاظِرٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنِّي أَخَافُ) إِلَخْ . وَمَسَّ الْخَيْرِ نَاظِرٌ إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (مَنْ يُصْرَفْ

عَنْهُ) إلَخْ .

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) فَسَّرَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْقَهْرَ بِالْغَلَبَةِ وَالْأَخْذِ مِنْ فَوْقٍ وَبِالْإِذْلَالِ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْقَهْرُ الْغَلَبَةُ وَالتَّذْلِيلُ مَعًا وَيُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا . وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ إثْبَاتِ كَمَالِ الْقُدْرَةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِيمَا قَبْلَهَا

(339/228)

تُثْبِتُ لَهُ جَلَّ وَعَلَا كَمَالَ السُّلْطَانِ وَالتَّسْخِيرِ لِجَمِيعِ عِبَادِهِ وَالِاسْتِعْلَاءِ عَلَيْهِمْ مَعَ كَمَالِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ الْمُحِيطِ بِخَفَايَا الْأُمُورِ ، لِيُرْشِدَنَا إلَى أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ مِنْهُمْ وَلِيًّا مِنْ دُونِهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا لِإِشْرَاكِهِ وَمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الرَّبِّ الْقَاهِرِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ ، وَبَيْنَ الْعَبْدِ الْمَرْبُوبِ الْمَقْهُورِ الْمُذَلَّلِ الْمُسَخَّرِ الَّذِي لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ . فَإِذَا كَانَ هَكَذَا شَأْنُ الرَّبِّ وَهَذِهِ صِفَاتُهُ فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ بِهِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلِيًّا مِنْ عِبَادِهِ الْمَقْهُورِينَ تَحْتَ سُلْطَانِ عِزَّتِهِ ، الْمُذَلَّلِينَ لِسُنَنِهِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ وَعِلْمُهُ بِتَدْبِيرِ الْأَمْرِ فِي خَلْقِهِ ، لِأَنَّ أَفْضَلَ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَكْمَلَهُمْ مُسَاوُونَ لِغَيْرِهِمْ فِي الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَالذُّلِّ لَهُ ، وَكَوْنِهِمْ لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَلَمْ يَجْعَلْ مِنْ خَصَائِصِ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُشَارِكَهُ فِي التَّصَرُّفِ فِي خَلْقِهِ وَلَا فِي كَوْنِهِ يُدْعَى مَعَهُ وَلَا وَحْدَهُ لِكَشْفِ ضُرٍّ وَلَا جَلْبِ نَفْعٍ (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)

(72 : 18) (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ) (6 : 41) (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) (17 : 56) إِلَخْ .

(340/228)

وَقَدْ فَسَّرَ ابْنُ جَرِيرٍ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ : وَاللَّهُ الْغَالِبُ عِبَادَهُ الْمُذِلُّ لَهُمُ الْعَالِي عَلَيْهِمْ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ وَخَلْقِهِ إِيَّاهُمْ فَهُوَ فَوْقَهُمْ بِقَهْرِهِ إِيَّاهُمْ وَهُمْ دُونَهُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي عُلُوِّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَقَهْرِهِ إِيَّاهُمْ بِقُدْرَتِهِ وَسَائِرِ تَدْبِيرِهِ ، الْخَبِيرُ بِمَصَالِحِ الْأَشْيَاءِ وَمَضَارِّهَا ، الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ عَوَاقِبُ الْأُمُورِ وَبَوَادِيهَا ، وَلَا يَقَعُ فِي تَدْبِيرِهِ خَلَلٌ ، وَلَا يَدْخُلُ حِكْمَتَهُ دَخَلٌ اهـ .

(341/228)

وَذَهَبَتِ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْأَشَاعِرَةُ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (فَوْقَ عِبَادِهِ) تَصْوِيرٌ لِقَهْرِهِ وَعُلُوِّهِ بِالْغَلَبَةِ وَالْقَهْرِ . صَرَّحَ بِذَلِكَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَتَبِعَهُ بَعْضُ الْأَشَاعِرَةِ ، كَالْبَيْضَاوِيِّ بِنَقْلِ عِبَارَتِهِ بِنَصِّهَا ، وَبَعْضُهُمْ ، كَالرَّازِيِّ ، بِنَقْلِهَا وَإِطَالَةِ الدَّلَائِلِ النَّظَرِيَّةِ بِإِثْبَاتِ مَضْمُونِهَا ، وَمَنْعِ إِرَادَةِ فَوْقِيَّةِ الذَّاتِ وَإِطْلَاقِ صِفَةِ الْعُلُوِّ عَلَى اللَّهِ ، إِذْ جَعَلَ ذَلِكَ قَوْلًا بِتَحَيُّزِ الْبَارِي فِي جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ ،

وَأَطَالَ فِي سَرْدِ الدَّلَائِلِ النَّظَرِيَّةِ عَلَى اسْتِحَالَةِ ذَلِكَ ، وَلَفْظُ الْآيَةِ لَا يَأْبَى مَا فَسَّرَهُ بِهِ الزَّمَخْشَرِيُّ وَأَمْثَالُهُ ، لِأَنَّ لَهُ نَظِيرًا ذَكَرُوهُ فِي تَفْسِيرِهَا وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ (وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ 7 : 127) وَبَدِيهِيٌّ أَنَّهُ يَعْنِي فَوْقِيَّةَ الْمَكَانَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ لَا الْمَكَانَ ، وَلَوِ اكْتَفَوْا بِهَذَا لَكَانَ حَسَنًا لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى مَا نُقِلَ عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ كَابْنِ جَرِيرٍ ، وَلَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ شَنَّعَ عَلَى السَّلَفِ الصَّالِحِينَ وَسَمَّاهُمْ حَشْوِيَّةً لِعَدَمِ تَأْوِيلِهِمُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ النَّاطِقَةَ بِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْعُلُوِّ الْمُطْلَقِ لِلَّهِ تَعَالَى ،

(342/228)

فَسَلَفُ الْأُمَّةِ يُمِرُّونَ هَذِهِ الْآيَاتِ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ وَيَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ وَفَوْقَ الْعَالَمِ كُلِّهِ لَا فَوْقَ كُلِّ شَخْصٍ وَحْدَهُ ، وَهُوَ بِهَذَا بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ ، وَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، فَلَيْسَ بِمُحَاوِدٍ وَلَا مَحْصُورٍ وَلَا مُتَحَيِّزٍ ، فَهَذِهِ اللَّوَازِمُ الَّتِي يَبْنِي عَلَيْهَا الْجَهْمِيَّةُ وَتَلَامِيذُهُمْ تَأْوِيلَ صِفَةِ الْعُلُوِّ مَبْنِيَّةٌ كُلُّهَا عَلَى قِيَاسِ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ جَمِيعَ مَا أُطْلِقَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ حَتَّى الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ فَإِنَّمَا وُضِعَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ لِصِفَاتِ الْبَشَرِ وَهِيَ مُبَايِنَةٌ لِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلِمَاذَا يَخُصُّونَ بَعْضَهَا بِالتَّأْوِيلِ دُونَ بَعْضٍ ؟ فَالْحَقُّ الَّذِي مَضَى عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وُصِفَ

بِكُلِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّ جَمِيعَ تِلْكَ الصِّفَاتِ تُطْلَقُ عَلَيْهِ مَعَ تَنْزِيهِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ مَنْ تُطْلَقُ عَلَيْهِمْ أَلْفَاظُهَا مِنَ الْخَلْقِ ، فَعِلْمُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ وَكَلَامُهُ وَعُلُوُّهُ وَسَائِرُ صِفَاتِهِ شُئُونٌ تَلِيقُ بِهِ لَا تُشْبِهُ عِلْمَ الْمَخْلُوقِينَ وَقُدْرَتَهُمْ وَكَلَامَهُمْ وَعُلُوَّ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ . وَقَدِ انْتَهَى سُخْفُ بَعْضِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي التَّأْوِيلِ إِلَى جَعْلِ صِفَاتِ الْبَارِي تَعَالَى سَلْبِيَّةً ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ ، وَسَنَعُودُ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

(343/228)

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأَقْوَالَ أَوِ الْأَوَامِرَ الْقَوْلِيَّةَ الْمُبَيِّنَةَ لِحَقِيقَةِ الدِّينِ وَدَلَائِلِهِ بِشَهَادَتِهِ لِرَسُولِهِ وَشَهَادَةِ رَسُولِهِ لَهُ فَقَالَ :

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ أَوْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " جَاءَ النَّحَّامُ بْنُ زَيْدٍ وَقَرْدَمُ بْنُ كَعْبٍ وَبَحْرِيُّ بْنُ عَمْرٍو مِنَ الْيَهُودِ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ مَا نَعْلَمُ مَعَ اللهِ إِلَهًا غَيْرَهُ . فَقَالَ : " لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ بِذَلِكَ بُعِثْتُ وَإِلَى ذَلِكَ أَدْعُو " فَأَنْزَلَ اللهُ فِي قَوْلِهِمْ : (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً) الْآيَةَ كَذَا فِي لُبَابِ النُّقُولِ . وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ لَا تَصِحُّ ، فَفِي سَنَدِهَا مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ مَوْلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ الْحَافِظُ فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ : مَدَنِيٌّ مَجْهُولٌ تَفَرَّدَ عَنْهُ ابْنُ إِسْحَاقَ اهـ . وَابْنُ جَرِيرٍ رَوَاهُ

مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ دُفْعَةً وَاحِدَةً إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْهُ .

وَأَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ فَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْأَلَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ : أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً وَأَعْظَمُهَا وَأَجْدَرُ بِأَنْ تَكُونَ أَصَحَّهَا وَأَصْدَقَهَا ؟ ثُمَّ أَمَرَهُ بِأَنْ يُجِيبَ هُوَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ بِأَنَّ أَكْبَرَ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِي

(344/228)

شَهَادَتِهِ كَذِبٌ وَلَا زُورٌ وَلَا خَطَأٌ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ لَدُنْهُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ عِقَابَهُ عَلَى تَكْذِيبِي بِمَا جِئْتُ بِهِ مُؤَيَّدًا بِشَهَادَتِهِ سُبْحَانَهُ ، وَأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ هَذَا الْقُرْآنُ إِذْ كُلُّ مَنْ بَلَغَهُ فَهُوَ مَدْعُوٌّ إِلَى اتِّبَاعِهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ .

شَهَادَةُ الشَّيْءِ حُضُورُهُ وَمُشَاهَدَتُهُ ، وَالشَّهَادَةُ بِهِ الْإِخْبَارُ بِهِ عَنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَاعْتِقَادٍ مَبْنِيٍّ عَلَى الْمُشَاهَدَةِ بِالْبَصَرِ أَوِ الْبَصِيرَةِ ، أَيِ الْعَقْلِ وَالْوِجْدَانِ ، وَمِنْهُ الشَّهَادَةُ بِالتَّوْحِيدِ وَإِثْبَاتُ الشَّيْءِ بِالدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ شَهَادَةٌ بِهِ ، وَشَهَادَةُ اللَّهِ بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ قَوْمِهِ قِسْمَانِ : شَهَادَتُهُ سُبْحَانَهُ بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَهَادَتُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ . وَشَهَادَتُهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرِسَالَةِ رَسُولِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ :

(345/228)

(النَّوْعُ الْأَوَّلُ) إخْبَارُهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ 48 : 29) (إنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ جَمِيعًا 7 : 158) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا 34 : 28) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ 21 : 107) فَهَذِهِ شَهَادَاتٌ وَرَدَتْ بِغَيْرِ لَفْظِ الشَّهَادَةِ وَهُوَ غَيْرُ شَرْطٍ فِي صِحَّتِهَا خِلَافًا لِبَعْضِ الْفُقَهَاءِ ، وَلَا يَقْتَضِي التَّلَفُّظُ بِهِ حَقِيقَتَهَا ، فَقَدْ حَكَى اللَّهُ عَنْ إخْوَةِ يُوسُفَ أَنَّهُمْ : (قَالُوا يَا أَبَانَا إنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إلَّا بِمَا عَلِمْنَا 12 : 81) وَهُمْ لَمْ يَقُولُوا : نَشْهَدُ أَنَّ ابْنَكَ سَرَقَ . وَقَدْ سَمَّوْا قَوْلَهُمْ شَهَادَةً لِأَنَّهُ عَنْ عِلْمٍ بِمَا ثَبَتَ عَلَيْهِ عِنْدَ عَزِيزِ مِصْرَ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْإِثْبَاتُ مَصْنُوعًا ، وَقَالَ تَعَالَى : (إذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ 63 : 1) فَإِنَّهُمْ صَرَّحُوا بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ ، وَلَمَّا كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِهَا شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى بِكَذِبِهِمْ فِيهَا ، وَقَالَ تَعَالَى قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ 13 : 43) وَهِيَ بِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا .

(346/228)

(النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ شَهَادَةِ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ) تَأْيِيدُهُ بِالْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ وَأَعْظَمُهَا الْقُرْآنُ وَهُوَ الْآيَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْعَقْلِيَّةُ الدَّائِمَةُ بِمَا ثَبَتَ بِالْفِعْلِ مِنْ عَجْزِ الْبَشَرِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَبِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ كَأَخْبَارِ الْغَيْبِ وَوَعْدِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِهِ تَعَالَى لَهُمْ وَإِظْهَارِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ثَبَتَ بِالْفِعْلِ عِنْدَ أَهْلِ عَصْرِهِ وَنُقِلَ إِلَيْنَا بِالتَّوَاتُرِ وَمِنْهَا غَيْرُ الْقُرْآنِ مِنَ الْآيَاتِ الْحِسِّيَّةِ وَالْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ

بِالْغَيْبِ الَّتِي ظَهَرَ بَعْضُهَا فِي زَمَنِهِ وَبَعْضُهَا بَعْدَ زَمَنِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، كَقَوْلِهِ فِي سِبْطِهِ الْحَسَنِ وَهُوَ طِفْلٌ "

ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللهَ يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " وَقَوْلُهُ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ " تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ " وَقَوْلُهُ " صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا بَعْدُ . قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مَائِلَاتٌ مُمِيلَاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ " الْحَدِيثَ وَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ .

(347/228)

(النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنْ شَهَادَتِهِ لِرَسُولِهِ) شَهَادَةُ كُتُبِهِ السَّابِقَةِ لَهُ وَبِشَارَةُ الرُّسُلِ الْأَوَّلِينَ بِهِ ، وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الشَّهَادَاتُ وَالْبَشَائِرُ ظَاهِرَةً فِيمَا بَقِيَ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ وَتَوَارِيخِ أُولَئِكَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى مَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنَ التَّحْرِيفِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ السُّورَةِ السَّابِقَةِ وَلَا سِيَّمَا الْمَائِدَةُ ، وَلَا تَنْسَ هُنَا أَخْذَهُ تَعَالَى الْعَهْدَ عَلَى الرُّسُلِ وَقَوْلَهُ لَهُمْ : (أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (3 : 81) [رَاجِعْ ص 290 ج 3 ط الْهَيْئَةِ] .

وَأَمَّا شَهَادَتُهُ تَعَالَى لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَهُوَ مَا كَانُوا يُنْكِرُونَهُ دُونَ الْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ وَالْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ فَهُوَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ :

(أَحَدُهَا) شَهَادَةُ كِتَابِهِ مُعْجِزَةِ الْخَلْقِ بِذَلِكَ كَقَوْلِهِ : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ 3 : 18 ، 19) وَقَوْلِهِ : (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ 64 : 7) .

(ثَانِيهَا) مَا أَقَامَهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَاتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَفِي بَيَانِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا .

(ثَالِثُهَا) مَا أَوْدَعَهُ جَلَّ شَأْنُهُ فِي الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الْإِيمَانِ الْفِطْرِيِّ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَبَقَاءِ النَّفْسِ ، وَمَا هَدَى إِلَيْهِ الْعُقُولَ السَّلِيمَةَ مِنْ تَأْيِيدِ هَذَا الشُّعُورِ الْفِطْرِيِّ بِالدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ وَلَعَلَّنَا نَشْرَحُ مَعْنَى الْإِيمَانِ الْفِطْرِيِّ الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ بَيَانًا مُوجَزًا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْعَهْدِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى بَنِي آدَمَ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ 7 : 172) الْآيَةَ .

عُلِمَ مِمَّا بَيَّنَّاهُ أَنَّ شَهَادَتَهُ تَعَالَى هِيَ شَهَادَةُ آيَاتِهِ فِي الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ فِي الْأَكْوَانِ ، وَآيَاتِهِ فِي الْعَقْلِ وَالْوِجْدَانِ اللَّذَيْنِ أَوْدَعَهُمَا فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ قَدْ بَيَّنَهَا الْقُرْآنُ وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا فَهُوَ الدَّعْوَى وَالْبَيِّنَةُ ، وَالشَّاهِدُ الْمَشْهُودُ لَهُ ، وَكَفَى بِهِ ظُهُورًا بِالْحَقِّ وَإِظْهَارًا لَهُ أَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَهَادَةِ غَيْرِهِ لَهُ . عَلَى أَنَّ الشُّهُودَ وَالْأَدِلَّةَ عَلَى حَقِيقَتِهِ كَثِيرَةٌ ، وَجُمْلَةُ " وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ " مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ " اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ " مُصَدَّرَةً بِالْفِعْلِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ .

لِأَنَّ الْمُرَادَ بِنَصِّهَا بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ مَوْضُوعُ الدَّعْوَةِ وَالرِّسَالَةِ الْمَقْصُودُ مِنْهَا بِالذَّاتِ ، وَتَدُلُّ بِمَوْضِعِهَا دَلَالَةَ إِيمَاءٍ عَلَى أَنَّهُ أَعْظَمُ شَهَادَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) نَصٌّ عَلَى عُمُومِ بَعْثَةِ خَاتَمِ الرُّسُلِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، أَيْ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ يَا أَهْلَ مَكَّةَ أَوْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوِ الْعَرَبِ وَجَمِيعَ مَنْ بَلَغَهُ وَوَصَلَتْ إِلَيْهِ دَعْوَتُهُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ تَعُمُّ الْمَوْجُودِينَ وَقْتَ نُزُولِهِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ وَأَنَّهُ لَا يُؤَاخَذُ بِهَا مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ اهـ . يَعْنِي أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ بِالْقُرْآنِ ، فَمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ الْقُرْآنُ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ ، وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ مُخَاطَبًا بِهَذَا الدِّينِ ، وَمَفْهُومُهُ أَنَّ الْحُجَّةَ لَا تَقُومُ بِتَبْلِيغِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ بِالْقَوَاعِدِ الْكَلَامِيَّةِ وَالدَّلَائِلِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا ذَلِكَ الْعِلْمُ ، أَيْ إِلَّا أَنْ يَنُصَّ فِيهَا عَلَى أُصُولِهِ وَأَحْكَامِهِ ، وَإِنَّنَا نَرَى الْمُسْلِمِينَ قَدْ تَرَكُوا دَعْوَةَ الْقُرْآنِ وَتَبْلِيغَهُ بَعْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَتَرَكُوا الْعِلْمَ بِهِ ، وَبِمَا بَيَّنَهُ مِنَ السُّنَّةِ إِلَى تَقْلِيدِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ وَإِنْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ غَيْرَ أَهْلٍ لِلْحُجَّةِ .

(350/228)

وَمِمَّا رُوِيَ فِي الْآيَةِ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَأَبُو نُعَيْمٍ وَالْخَطِيبُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا قَالَ " مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَكَأَنَّمَا شَافَهْتُهُ بِهِ ثُمَّ قَرَأَ (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) وَذَلِكَ

أَنَّ الْقُرْآنَ لَمَّا كَانَ مُتَوَاتِرًا بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ كَانَ مَنْ بَلَغَهُ بَعْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَنْ سَمِعَهُ مِنْهُ وَإِنْ كَثُرَتِ الْوَسَائِطُ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي بَلَّغَهُ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ . وَلَيْسَ لِلْأَحَادِيثِ الْمَرْوِيِّ كَثِيرُهَا بِالْمَعْنَى هَذِهِ الْمَزِيَّةُ فَهِيَ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ . وَأَخْرَجَ أَبْنَاءُ أَبِي شَيْبَةَ وَالضُّرَيْسُ وَجَرِيرٌ وَالْمُنْذِرُ وَأَبُو حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ فِي الْآيَةِ قَالَ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَكَأَنَّمَا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي لَفْظٍ : مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ حَتَّى يَفْهَمَهُ وَيَعْقِلَهُ كَانَ كَمَنْ عَايَنَ

النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَلَّمَهُ . وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأُسَارَى فَقَالَ لَهُمْ : " هَلْ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ؟ " قَالُوا : لَا . فَخَلَّى سَبِيلَهُمْ ثُمَّ قَرَأَ (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) ثُمَّ قَالَ " خَلُّوا سَبِيلَهُمْ حَتَّى يَأْتُوا مَأْمَنَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُدْعَوْا " .

(351/228)

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالشَّهَادَةِ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ الَّتِي جَحَدَهَا الْمُشْرِكُونَ وَبِالْبَرَاءَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ بِالشِّرْكِ فَقَالَ (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) قَالُوا : إِنَّ الِاسْتِفْهَامَ هُنَا

لِلتَّقْرِيرِ مَعَ الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِبْعَادِ ، وَقَدْ أَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يُجِيبَ بِأَنَّهُ لَا يَشْهَدُ كَمَا يَشْهَدُونَ ثُمَّ أَمَرَهُ أَمْرًا آخَرَ بِأَنْ يَشْهَدَ بِنَقِيضِ مَا يَزْعُمُونَ وَيَتَبَرَّأُ مِنْهُ وَهُوَ أَنْ يُصَرِّحَ بِأَنَّ الْإِلَهَ لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِدًا ، وَيَتَبَرَّأَ مِمَّا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا أَوْ مِنْ إِشْرَاكِهِمْ مَهْمَا يَكُنْ مَوْضُوعُهُ ، وَإِنَّمَا قَالَ : (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) فَأَعَادَ الْأَمْرَ وَلَمْ يَعْطِفِ الْمَأْمُورَ بِهِ عَلَى مَا قَبْلَهُ لِإِفَادَةِ أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ مَقْصُودٌ بِذَاتِهِ لَا يُغْنِي عَنْهُ نَفْيُ الشَّهَادَةِ بِالشِّرْكِ .

(352/228)

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

رُوِيَ أَنَّ قُرَيْشًا أَرْسَلَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ مَنْ سَأَلَ الْيَهُودَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ فَزَعَمُوا أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لَيْسَ لَهُ عِنْدَنَا ذِكْرٌ ، فَلَمَّا صَارَ لَهُمْ عَهْدٌ بِالْيَهُودِ كَانَ مِمَّا

(353/228)

رَدَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْحُجَجِ : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) أَيْ يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ لِأَنَّ نَعْتَهُ فِي كُتُبِهِمْ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَصُّ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَآيَاتٍ أُخْرَى فِي مَعْنَاهَا وَبَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا مَا يُؤَيِّدُهَا مِنْ شَوَاهِدِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ . ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى عِلَّةَ إِنْكَارِ الْمُكَابِرِينَ مِنْهُمْ لِمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَمْرِ نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) قِيلَ : إِنَّ " الَّذِينَ " هُنَا بَيَانٌ لِلَّذِينِ الْأُولَى أَوْ بَدَلٌ مِنْهَا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً ، أَيِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ بَلْ يَكْفُرُونَ كِبْرًا وَعِنَادًا فَهُمْ لِذَلِكَ يُنْكِرُونَ مَا يَعْرِفُونَ . وَقَدْ بَيَّنَّا قَرِيبًا مَعْنَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ إِذْ وَرَدَتْ بِنَصِّهَا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (ص 327) وَمَوْقِعُهَا هُنَا أَنَّ عِلَّةَ إِنْكَارِ مَنْ أَنْكَرَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ كَعِلَّةِ إِنْكَارِ مَنْ أَنْكَرَهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ ظُهُورِ آيَاتِهَا وَأَنْكَرَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا وَأَظْهَرُ وَهُوَ وَحْدَانِيَّةُ اللهِ تَعَالَى ، وَهِيَ أَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ يُؤْثِرُونَ مَا لَهُمْ مِنَ الْجَاهِ وَالْمَكَانَةِ

(354/228)

وَالرِّيَاسَةِ فِي قَوْمِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ ، لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ هَذَا الْإِيمَانَ يَسْلُبُهُمْ تِلْكَ الرِّيَاسَةَ وَيَجْعَلُهُمْ مُسَاوِينَ لِسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ بَعْضُ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ يَعِزُّ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ فَيَكُونَ مَرْءُوسًا وَتَابِعًا (لِيَتِيمِ أَبِي طَالِبٍ) فَكَيْفَ وَهُوَ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ مُسَاوِيًا لِبِلَالٍ الْحَبَشِيِّ وَصُهَيْبٍ الرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَخُسْرَانُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ لِأَنْفُسِهِمْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ ضَعْفِ الْإِرَادَةِ لَا مِنْ نَوْعِ فَقْدِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُمْ عَلَى مَعْرِفَةٍ صَحِيحَةٍ فِي هَذَا الْبَابِ . وَرُوِيَ أَنَّ خُسْرَانَ النَّفْسِ هُنَا عِبَارَةٌ عَنْ خُسْرَانِهَا فِي الْآخِرَةِ فَقَطْ بِخُسْرَانِ أَمْكِنَتِهِمُ الَّتِي كَانَتْ مُعَدَّةً لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا بِالرَّسُولِ وَإِعْطَائِهَا لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْخُسْرَانُ أَعْظَمَ ظُلْمٍ ظَلَمَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ أَنْفُسَهُمْ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 7 صـ 275.282 ﴾

(355/228)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) ﴾

إذن فرسول الله معلوم مقدماً من أهل الكتاب كمعرفتهم لأبنائهم ، ولكنّ بعضاً منهم فضل السلطة الزمنية على الإيمان برسول الله فخسروا أنفسهم ؛ لأن الخسارة – كما نعرف – هي ضياع لرأس المال أو نقصانه . وهم خسروا أنفسهم لأن تلك النفوس كان يجب أن تحرص على مصلحة الأرواح التي جاء محمد صلى الله عليه وسلم لإصلاحها . إنهم بذلك قد منعوا الخير عن أنفسهم بتفضيل سلطان الدنيا الزائل على الإيمان بالله ، وفي ذلك خيبة كبرى .

الله يعلمنا أن الإيمان إنما هو كسب للنفس ، فإياك أيها المؤمن أن تظن أن قولك : " لا إله إلا الله " هو سند لعرش الله . لا ، إنها سند لك أنت ؛ لأنه لا إله إلا هو خَلَق الكون والخَلْقَ بصفات الكمال والقدرة والعلم والحكمة ، واعتراف الخلق بألوهية الله وحده لا تزيد من كمال الله ولكنها تفيد العباد الذين آمنوا فيحسنون استقبال الأمر بعمارة الكون ، لتسير حركة الحياة في ضوء منهج الله فينسجموا مع الكون كله المسبح لله .

وحين يقول الحق : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 20] .

(356/228)

فهو يخبر أهل مكة أن الصيحة الإيمانية التي صاح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في آذانهم لم تكن صيحة مفاجئة للكون ، ولكنها صيحة بُشِّر بها على لسان كل رسول ، وإذا كان أهل مكة قد بعدت صلتهم بالرسل والأنبياء وكانوا على فترة من الرسل ، فهم بجوارهم لأهل كتاب في المدينة يعلمون هذه الحقيقة التي جاء بها رسلهم مؤكدين للعهد الذي أخذه الله عليهم ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق واستعمرهم في الأرض أرادهم موهوبين من قدرته سبحانه قُدْرَةً ، ومن غناه سبحانه غِنىً ، ومن علمه الكامل علماً ، ومن حكمته المطلقة حكمةً ، ومن رحمته الكاملة رحمةً ، ومن قاهرية الله قهراً ؛ لأن الكون لا يمكن أن يستقيم إلا إن وُجدت فيه هذه المتكاملات وإن كانت متناقضة ؛ لأن لكل صفة مجالها الذي تعمل فيه .

وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – نجد الإنسان منا حين يرحم ولده دائماً يفسد الولد وإن لم يقس عليه مرة فأبوته ناقصة ، إذن ، فلا يمكن أن يكون المهيمن على الخلق

رحيماً فقط ، وإنما يجب أن يكون قاهراً أيضاً ؛ لأن الموقف قد يتطلب القهر . ولا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يطبع خلقه على خلق واحد ، ولكنه سبحانه يريد أن يجعلهم ينفعلون للمواقف المختلفة ؛ فالموقف الذي يتطلب رحمة ، يكونون فيه رحماء ، والموقف الذي يتطلب قسوة وشدة يكونون فيه قساة ، ولذلك يقول الحق في المؤمنين : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً ﴾

[الفتح : 29] .

(357/228)

إن الحق يحدثنا عن خلق المؤمنين . إنه سبحانه لم يطبعهم على الشدة ؛ لأن المواقف قد تتطلب رحمة ، ولكن الشدة مطلوبة لمواجهة أهل الباطل . ولم يطبعهم الحق على اللين ، لكن اللين مطلوب فيما بينهم ؛ لأن كلاً منهم يرجو رحمة الله وفضله ؛ ففي الموقف الذي يتطلب رحمة ؛ هم رحماء . وفي المواقف الذي يتطلب شدة هم أشداء ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [المائدة : 54] .

ولم يجعل الحق المؤمن ذليلاً على إطلاقه ، ولا عزيزاً على إطلاقه ، ولكنه جعله ذليلاً على أخيه المؤمن ، لين الجانب رحب الأخلاق . وجعله عزيزاً على الكافرين المتأبين على الله .

إذن ، فسبحانه يريد من خَلْقه أن يكونوا على خُلُقِ الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عمار بن ياسر رضي الله عنه : " حُسْن الخلق خُلُق الله الأعظم " ورُوِي : " تخلقوا بأخلاق الله "

إن لله سبحانه وتعالى قدرة حكيمة ، فخذوا أيها المؤمنون قدرته واستعملوها بحكمة ، ولله علم فحاولوا أن تكونوا عالمين ، ولله رحمة فحاولوا أن تكونوا رحماء ، والله جبار فإذا تطلب الموقف منكم أن تكونوا جبارين فافعلوا ، لأن سياسة الأرض وسياسة المجتمع قد لا تصلح إلا بهذا .

وما دام الحق قد أراد من الخلق أن يعمروا هذا الكون فلا بد أن يضمن لهم منهجاً سليماً يرتكز على " افعل " ولا " تفعل " ، فإن نحن أخذنا منهج الله فنحن نأخذ ما يمكن أن نسميه بالعرف الحاضر : " قانون الصيانة " فلنفعل ما قال الله افعلوا ، ولنترك ما قال الله في شأنه لا تفعلوا حتى تؤدي الآلة الإنسانية مهمتها كما يريد الله لها أن تكون .

(358/228)

إن الفساد إنما ينشأ من أنك أيها الإنسان تنقل الأعمال من نطاق " افعل " إلى نطاق " لا تفعل " ، والأعمال التي يجعلها الله في نطاق " لا تفعل " تجعلها أنت في نطاق " افعل " . فإن طلب الله أن نقيم الصلاة ب " افعل " فكيف نجعلها في نطاق " لا تفعل " بعدم الصلاة ؟ ، وإن طلب الله منا ألا نشرب الخمر فكيف نشربها إذن ؟ .

إن الخلل الإيماني الذي يحدث في الكون إنما ينشأ من نقل متعلقات " افعل " إلى " لا تفعل " ، ومن نقل متعلقات " لا تفعل " إلى " فعل " ، أما ما لم يَرِد فيه " افعل " و " لا تفعل " فقد ترك الله لاختيارك إباحة أن تفعله أو لا تفعله ، لأن الكون لا يفسد بشيء منها .

وإذا نظرت إلى منهج الله في " افعل " و " لا تفعل " فأنت تجد أن الحق سبحانه لم يقض على حريتك ولم يقض على اختيارك ، وإنما ضبطك ضبطاً محكماً فيما ينشأ فيه فساد الكون ، أما الذي لا ينشأ منه فساد فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه .

(359/228)

وزود الحق كل البشر بهذا المنهج من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . وأخذ سبحانه على نفسه الوعد بعدم تعذيب أمة لم يبعث لها رسولاً ، ولذلك توالى الموكب الرسالي . لماذا ؟ لأن الغفلة تتمكن من الإنسان ؛ فقد يتناسى الإنسان مرة الشيء الذي يحد حركته ويتكرر

التناسي إلى أن يصير نسياناً ، فيشاء الحق أن يرسل رسولاً لكل فترة لينبه إلى قانون صيانة الإنسان ، إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمن الله أمةَ محمد أن تكون هي المبلغة بمنهج الله إلى أن تقوم الساعة . ولذلك أخذ سبحانه من النبيين ميثاقاً للبلاغ عن رسالة النبي الخاتم : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين ﴾ [آل عمران : 81] .

إذن فقد أخذ الله العهد على كل نبي أن يبلغ قومه أن يؤمنوا برسالة الرسول الذي توافق دعوته دعوتهم ، وأخذ الحق الإقرار من كل نبي على ذلك ، وشهد الأنبياء على أنفسهم وشهد الله عليهم ، وبلغوا ذلك إلى أقوامهم . إذن فنصرة النبي الخاتم موجودة في كل رسالة سابقة على الإسلام ، وكان على كل رسول أن يعطي إيضاحاً بذلك العهد لقومه ، وأن يأخذ عليهم العهد بنصرة الرسول القادم إليهم ، ويبلغهم أن من تمام الإيمان أن يؤيِّدوا ذلك الرسول إن هم عاصروه .

(360/228)

ويخصص الحق هنا أهل الكتاب الذين نزلت إليهم التوارة والإنجيل وهما أصحاب الديانتين العظيمتين اللتين سبقتا الإسلام : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ أي أنهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم بالبشارة به ، وبالإخبار عنه ، وبالنعت لشكله وصورته ، فإذا كان كفار قريش على فترة من الرسل فليسألوا أهل الكتاب . وقد سمع الأوس والخزرج من أهل الكتاب أن هناك نبياً قادماً سيؤمنون به ويتبعونه ويقتلون به العرب قتل عاد وإرم . إذن فالصيحة الإيمانية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة للكون ، وإن كتمها الذين كفروا من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾ [البقرة : 89] .

لقد انتابت الآفة التي تنكر هذا البلاغ عن الله بعضاً من أهل الكتاب ، فقد أخذوا ، وهم المبلغون عن الله ، السلطة الزمنية ورأوا فيها الحظ والجاه والنعيم ، فمنهم القضاة وإليهم يلجأ الناس لمعرفة الحكم في الدماء ، وكذلك يأخذون الصدقات .

وألفوا حياة السيادة والنعيم . وها هي ذي دعوة جديدة جاءت لتسلب منهم هذه السيادة ، وبالرغم من أنهم كانوا المبشرين بها من قبل ، إلا أن الدعوة عندما جاءت تزلزت بها سلطتهم الزمنية ، ولذلك بدأوا العداء .

(361/228)

إذن فالآفة هي أخذ سلطة زمنية من باطن سلطة الله ثم يدعي أنها سلطة الله . وعندما ننظر إلى التاريخ الديانى في العالم نجد أن السلطة الزمنية في الأديان التي سبقت الإسلام هي التي أرهقت الكون ؛ لأن الحق سبحانه حينما خلق الكون طمر فيه أسراراً تعمل في خدمة الإنسان وإن لم يدر بها الإنسان . وطموحات الإنسان العلمية هي التي تجعله يهتدي إلى هذه الأسرار ويكتشف القوانين التي تعمل بها ؛ مثال ذلك قانون الجاذبية وقانون السالب والموجب ، كل هذه قوانين موجودة في الكون ، تماماً كما خلق الله الأرض كروية وكما جعل الشمس هي مصدر الحرارة والدفء والنور والإشراق .

ويأخذ العلماء من تلك المقدمات ليصلوا إلى اكتشاف قوانين هذه الأجرام وقوانين هذا الكون . وحين يصل الذكي إلى اكتشاف قانون ما فإنه يقول : لقد اكتشفت كذا ، وهذا تعبير فطري دقيق ، ولا يقول أبداً : لقد ابتكرت كذا ؛ لأنه يعلم أن ما اكتشفه كان موجوداً في الكون ولكن لا يعرفه . وعدم معرفة الإنسان بقانون موجود في الكون لا يمنع الفائدة من الوصول إلى الإنسان ، وإن كانت المعرفة بالقانون تزيد من إمكان الإفادة منه .

(362/228)

فالإنسان يتمتع بوجود الشمس قبل معرفة ما بها من طاقة ، ولكن عندما تخصص العلماء في دراسة الشمس عرفوا أن الإنسان يمكن أن يستفيد بهذه الطاقة أكثر من فائدته التقليدية بها ، ولذلك صارت هناك بعض المدن تنير شوارعها بالطاقة الشمسية ، وصارت هناك بعض المباني تدفيء حجراتها بالطاقة الشمسية وتسخّن المياه أيضاً بهذه الطاقة . ولم يمنع هذا الاكتشاف أن يستفيد الأمي أو البدوي في الصحراء من نور الشمس . وكذلك الكهرباء ، والأدوات الكهربائية والمنزلية التي يمكن للجاهل الاستفادة منها ، مثل استفادة الخبير بها ، صحيح أن الأمي لا يعرف كيف تدور المصانع التي تنتج أجهزة التليفزيون ولكنه يستفيد برؤية التليفزيون . والتليفزيون ليس إلا ترجمة مادية لمجموعة من القوانين العلمية اكتشفها الإنسان ووضعها موضع التطبيق لصناعة هذه الآلة التي يستفيد بها الإنسان . ولكل سر ميلاد تماماً كميلاد الإنسان . وإذا جاء ميعاد ميلاد السر ولم يكن هناك من يبحث عنه ، فسبحانه يكشفه لأي بشر بالمصادفة ، وكثيراً ما نسمع أن عالماً كان يبحث في مجال ولكنه اكتشف سراً غير الذي كان يبحث عنه . ولذلك يقول الحق في آية الكرسي : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : 255] .

فأنت أيها الإنسان لا تحيط علماً بأسرار الكون إلا إذا أذن الله ، وهناك عشرات الآلاف من الأمثلة على ذلك بداية من قاعدة أرشميدس التي تسير عليها البواخر والغواصات ، إلى

قانون الجاذبية الأرضية الذي اكتشفه نيوتن عندما وقعت تفاحة أمامه بالمصادفة ، إلى اكتشاف البنسلين ، إلى غير ذلك من أسرار هذا الكون .

(363/228)

وإذا كانت هناك علوم لها مقدمات ، فهناك أيضاً علوم ليس لها مقدمات ؛ إن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ [الجن : 26-27] .

فسبحانه وتعالى عالم الغيب فلا يظهر غيبه لأحد إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ، ويحميه الله ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يُبَلِّغ ما أوحىَ به إليه وحين يريد الحق أمراً محكماً لا اختيار لأحد فيه فإنه ينزل به رسولاً إلى الخلق ليهديهم ب " افعل " و" لا تفعل " . وهذه مسألة غير متروكة للبحث فيها ، ولكنها تأتي بإذن من الله حتى تتعارض أهؤاونا ؛ فسبحانه علم أن الأهواء بين البشر قد تتعارض ولا تتساند فيرسل الرسل من عنده سبحانه بالمنهج ليستقيم أمر البشر .

إن النشاطات الذهنية التي يصل بها البشر إلى أسرار فيها رفاهية الحياة ، هي أسرار بنت

التجربة والمعمل ، والمعمل لا يجامل ، فلا توجد كيمياء روسية وأخرى أمريكية ، إنما كل قوانين المادة تستنبط في المعمل . . ولذلك نرى الدول تتسابق كلٌّ يحاول أن يسرق ما عند الآخر بواسطة الجواسيس . أما في مجال الحركة الاجتماعية فالدول تقيم سدوداً بينها وبين المبادئ ؛ فالغرب لا يسمح بدخول نظريات اجتماعية من الشرق ، والشرق لا يسمح بذلك أيضاً . ويختلف هذا الأمر في البحث العلمي ؛ فقوانين البحث العلمي عن أسرار الكون يحاول كل طرف امتلاكها . وإن لم يستطع حاول أن ينقلها عن غيره .

ويعلمنا الحق أن نبحث في كل آيات الكون ولا نعرض عنها ، فيقول لنا : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : 105] .

(364/228)

فسبحانه يلفتنا إلى أن كل آية وكل ظاهرة من الظواهر تتطلب منا أن ننظر فيها بحكمة وإمعان ؛ لأننا قد نستنبط منها أشياء تريحنا . ومثال ذلك قوة البخار ، اكتشفها رجل وطورها آخر حتى صارت تلك القوة البخارية في خدمة البشرية كلها وكذلك الذي اخترع العجلة أفاد البشرية في نقل عشرات الأوزان عليها واختصار زمن الرحلات ، كل ذلك إنما جاء من تأمل آيات الله في الكون بإمعان وتدبر . لقد جعل الحق البحث في آيات الكون

مشاعاً للمؤمنين والكفار ، وهو حق لمن يبحث في أسراره . وهذه هي قضية العلم . أما قضية الدّين فأمرها مختلف ؛ لأن الخبر في قضية الدين يأتي من الله بواسطة رسول . أما البحث في الكون وأسراره العلمية فالحق يقول فيه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

[فاطر : 27-28] .

إن الحق يلفتك أيها الإنسان إلى أنه أنزل من السماء ماء فأنبت وأخرج به من الأرض النباتات التي تحمل ثماراً مختلفة الألوان ومختلفة الطعم . وجعل الجبال مختلفة الأشكال والألوان ، وبعضها ضعيف وبعضها قوي . ويختلف لون الجبل عن الآخر بما فيه من مواد مطمورة . وهذه الجبال كلها من أصل واحد ولكن فروعها متباينة لخدمة الإنسان .

(365/228)

لقد خلق الحق سبحانه الأنعام مختلفة الألوان والأشكال والأحجام ، وكذلك الناس مختلفون في اللون والشكل . والعلماء هم الذين يتدبرون ذلك فيخشون الله الصانع العليم .

إذن فأمر الدين محسوم من الحق . والرسل مبلغون عن الله ، وكذلك أهل العلم بالدين ، وأهل العلم بالدين مبلغون عن الله لا متكلمون بلسان الله ؛ لأن بعض البشر قد يخلطون أهواءهم مع كلمات الله ويقولون : إن هذا هو كلام الله ، وهذا خطأ فاحش وذنب كبير .

إن ما حدث في القرون الوسطى – على سبيل المثال – كان خلطاً بين البحث العلمي وما ينزل الحق من منهج ؛ فعندما جاء عالم مثل " جاليليو " ليبحث في طبيعة الكواكب أرادوا أن يحرقوه ، وعندما أراد عالم آخر أن يتكلم في طبيعة الأرض حبسوا حريته . وعندما حكمت الكنيسة العالم الغربي بهذا الأسلوب تأخر العالم كله وعاش في عصور من الظلام ، وعندما اتصل هؤلاء القوم بالمسلمين تحرروا من خزعبلات تلك القرون الوسطى وتعلموا حرية البحث العلمي من العرب وارتقت أوروبا بذلك الأسلوب العلمي الذي طرحه الإسلام وأثبته علماء المسلمين .

إن السبب في تأخر أوروبا وجهلها هم أهل الكهنوت والدين ، بل إن نفور الأوروبيين من الدين كان بسبب معرفتهم أن رجال الدين عندهم يمقتون الحياة والتقدم الحضاري – حماية لنفوذهم وسلطتهم الزمنية والروحية – وأراد بعض من أهل أوروبا أن يأخذوا كل الأديان بجريرة رجال الكهنوت عندهم . ونسي الذين حملوا على الدين – كل الدين – أن رجال الكهنوت افتأتوا وادعوا ذلك على النصرانية ، ونسبوه إليها ؛ فالمسيح لم يقل لهم ذلك ،

ولكنهم كرجال كهنوت أفسدوا الحياة بالسلطة الزمنية التي كانت لهم وكانت النتيجة أن أخذ البعض من فساد سلطة الكنيسة حجة على فساد الدين .

(366/228)

ولهؤلاء نقول : إن الدين لا يتدخل في أي أمر من أمور الحياة العلمية ولا يفسدها أبداً ، بل نجد أن الحق قد أمرنا بالبحث في آياته وأن نزيد من البحث . وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نبحث عن شئون الدنيا على ضوء التجربة . وأراد الله أن يفصل بين أمور العلم التجريبي وأمور الدين ، وأراد أن يحمي دينه من تدخل أي فئة تدعي أنها تملك كلام الله فتخلط بين أهوائها والبلاغ عن الله سبحانه .

مثال ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر تلقيح النخيل . ونعرف أن تلقيح النخيل يتم حين نأخذ طلع الذكورة ونلقح به الأنوثة من النخيل فيخرج التمر ناضجاً ، وإن لم يحدث ذلك فالنخيل تنتج ثماراً غير ناضجة . والسر في إنتاج النخيل لثمار غير ناضجة أن التلقيح قد تم بواسطة الريح التي تنقل القليل من حبوب اللقاح ، ولكن التلقيح اليدوي للنخيل هو الذي يزيد من جودة الثمار ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم مرة للصحابة ما يمكن أن يفهم منه ألا يقوموا بتلقيح النخيل وحدث نتيجة ذلك أن النخيل لم يثمر الثمار المرجوة بل

أثمر شيصاً أي ثماراً غير مكتملة النضج ، واستند الرسول في ذلك إلى قول الحق : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 22] .

وهذا قول صحيح صادق حكيم نجد آثاره في السحاب الذي يتحول إلى مطر نتيجة اتصال الموجب بالسالب ، ونجده في معظم النباتات من قمح وفاكهة وذرة وغير ذلك . فطلع الذكر ينتقل بواسطة الريح إلى عناصر الأنوثة في النباتات القريبة فتلقحها وتنقل الرياح كذلك اللقاح الخفيف . واللقاح عندما يكون ثقيل الوزن يحتاج في بعض الأحيان إلى جهد من الإنسان لينقل خلايا الذكورة إلى خلايا الأنوثة ، ومثال ذلك النخيل . ولذلك عندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلة إنتاج النخيل في العام الذي لم يلقح فيه بعض الصحابة نخيلهم . . قال صلى الله عليه وسلم لهم : " أنتم أعلم بأمر دنياكم " .

(367/228)

وبهذا حسم الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر ولم يعد لرجال الدين أن يتدخلوا في أي أمر لا تستقيم به الحياة إلا بناء على التجربة المعملية . ولذلك يقال عن الإسلام : إنه دين العلم ؛ لأنه أتاح لرجال العلم أن ينطلقوا في تأمل آيات الله في هذا الكون ، بل دعاهم وأمرهم أن يستنبطوا أسرار هذا الكون . أما في أمور السلوك البشري وحركة المجتمع فقد أنزل الحق

من المنهج ما يكفي لعدم استعلاء أحد على أحد ، وأن نضبط السلوك الإنساني بتعاليم المنهج الإيماني .

لقد جاء المنهج الإيماني في كل الرسالات ، وكانت الرسالة الخاتمة هي رسالة محمد ابن عبد الله ، وكانت البشارة به موجودة في التوراة والإنجيل . ويقول الحق : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ فهل عمل أهل الكتاب بمقتضى هذه المعرفة ؟ لا ؛ ذلك أن بعضاً منهم خافوا أن تؤخذ منهم سلطتهم الزمنية ، وأكبر مثال على ذلك هو عبد الله بن أُبي الذي كان رأس النفاق في الإسلام والذي كان يستعد لتولي مُلْك المدينة قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . وكان هناك من أهل الكتاب من عمل بهذه النبوءة ، مثال ذلك : عبد الله بن سلام رضي الله عنه .

ولم يظلم القرآن أحداً ، بل قال عن بعض أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ [المائدة : 83] .

إذن لم يظلم الحق الذين آمنوا من أهل الكتاب عندما وجدوا أن منهج الإسلام مطابق لما جاء إليهم . لكن بعض أهل الكتاب كفر وعادَى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً على السلطة الزمنية التي كانت لهم .

وعندما ننظر إلى التاريخ نجد أن السلطة الزمنية كانت في وقت من الأوقات لرجال الدين مثلما حدث في أوروبا ، ولكن حدث استغلال من جانب رجال الدين للناس ، وأفسد رجال الكهنوت في الأرض ، فتمرد عليهم البشر وخرجوا عن طاعتهم ليقننوا لأنفسهم القوانين . ولأنهم كانوا يحكمون بالأهواء لا بالشرع فقد كان الحكم يتذبذب عند رجال الكهنوت في الأمر الواحد حسب شخصية من يرتكب هذا الأمر ، فمن يدفع لهم ينال العفو ، ومن لم يدفع ينال العقاب ! لقد أخذوا متاع الدنيا القليل ولم ينفذوا ما أمرهم به الله فخرج الناس على سلطانهم .

ومن هنا لم يعترف بعض من البشر برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاءت البشارة به وعرفوه بالإيضاح والنعت ولكنهم أنكروه لأنه يسلبهم ما حصلوا عليه من الانتفاع بالمال والسلطة فخسروا أنفسهم وظلوا على الكفر ؛ لقد قال فيهم الحق : ﴿ الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ . لقد خسروا أنفسهم ؛ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . وخسارة النفس تفوق خسارة المال ؛ لأن خسارة المال مردودة ويمكن أن تتدارك فيكسب الإنسان بعد خسارة ، ولكن خسارة النفس أمرها كبير . ونعلم أن الصفقة الإيمانية لا تعزل عمل الدنيا عن حساب الآخرة . والمؤمن الحق هو من يربط الدنيا بالآخرة

. لكنَّ بعضاً من أهل الكتاب أحبوا الدنيا على الآخرة وفصلوا بين الاثنتين فأخذوا حظاً قليلاً من الحياة الدنيا وخسروا الآخرة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(369/228)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ﴾ الموصول مبتدأ ، و"يَعْرِفُونه" خبره ، والضميرُ المَنْصُوبُ يجوز عَوْدُهُ على الرسول صلى اله عليه الصَّلاة والسَّلام ، وعلى القرآن لتقدُّمِهِ قوله : " وأوحِيَ إليَّ هذا القُرآنُ لأنذركُمْ بِهِ " أو على التوحيد لدلالة قوله : ﴿ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ [الأنعام : 19] أو على كتابهم ، أو على جميع ذلك ، وأفرد الضمير باعتبار المَعْنَى ، كأَنَّهُ قيل : يعرفون ما ذكرنا وقَصَصْنَا .

وقد تقدَّم إعْرَابُ هذه الجملة في " البقرة " .

قوله : " الَّذينَ خَسِرُوا " في مَحَلّه أربعة أوجه :

أظهرها : أنه مبتدأ ، وخبره الجملة من قوله : ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ودخلت " الفاء " لما تقدَّم من شهب الموْصُولِ بالشرط .

الثاني : أنه نَعْت للذين آتيناهم الكتاب .

قاله الزَّجَّاج .

الثالث : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم الذين خسروا .

الرابع : أنه منصوبٌ على الذَّمِّ ، وهذان الوجهان فَرْعَانِ على النعت ؛ لأنهما مقطوعان عنه ، وعلى الأقوال الثلاثة الأخيرة يكون ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ من باب عطف جملة اسمية على مَثْلَهَا ، ويجوز أن يكون عَطْفاً على " خَسِرُوا " وفيه نَظَرٌ من حيث إنه يؤدِّي إلى ترتُّب عدم الإيمان على خسرانهم ، والظاهر أنَّ الخُسْرَانَ هو المترتب على عدم الإيمان وعلى الوجه الأول يكون " الذين خسروا " أعمُّ من أهل الكتاب الجاحدين والمشركين ، وعلى غيره يكون خَاصّاً بأهل الكتاب ، والتقدير : الذين خسروا أنفسهم منهم ، أي : من أهْلِ الكتاب .

واسْتُشْكِلَ على كونه نَعْتاً الاستشهادُ بهم على كُفَّار قريش وغيرهم من العرب ، يعني كيف يُسْتَشْهَدُ بهم ، ويُذَمُّون في آيةٍ واحدة ؟

فقيل : إنَّ هذا سيق للذَّم لا للاستشهاد .

وقيل : بل سِيقَ للاستشهاد ، وإن كان في بعض الكلام ذَمٌّ لهم ، لأنَّ ذلك بوجهين واعتبارين .

قال ابن عطية : فصَحَّ ذلك لاختلاف ما استشهد بهم فيه ، وما ذُمُوا فيه ، وأنَّ الذَّمَّ والاستشهاد ليسا من جِهةٍ واحدةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 68 . 69 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) ﴾

أحاط علمُهم بصدقِ المصطفى – صلى الله عليه وسلم – في نُبوَّته ، ولكن أدركتهم الشقاوة الأزلية فعقدت ألسنتهم عن الإقرار به ؛ فجحدوه جهراً ، وعلموا صِدْقَه سِرًّا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 467 ﴾

(371/228)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والعشرون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والعشرون بعد المائتين

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : خسروا ففاتهم الإيمان ، لأنهم ظلموا بكتمان الشهادة ، فكان الظلم سبب خسرانهم ، فمن أظلم منهم ! عطف عليه ما يؤذن بأنهم بدلوا كتابهم ، أو نسبوا إليه ما ليس فيه ، فقال واضعاً للظاهر موضع ضميرهم لذلك : ﴿ ومن أظلم ممن افترى ﴾ أي تعمد ﴿ على الله كذباً ﴾ كهؤلاء الذين حرفوا كتابهم ونسبوا إلى الله ما لم يقله ، زيادة كتبوها بأيديهم لا أصل ها ، إضلالاً منهم لعباده ﴿ أو كذب بآياته ﴾ أي الآتي بها الرسل كالقرآن وغيره من المعجزات كالمشركين ، لا أحد أظلم منهم فهم لا يفلحون ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي فكيف بالأظلمين ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 619 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حكم على أولئك المنكرين بالخسران في الآية الأولى بيّن في هذه الآية سبب ذلك الخسران ، وهو أمران : أحدهما : أن يفترى على الله كذباً ،

وهذا الافتراء يحتمل وجوهاً :

الأول : أن كفار مكة كانوا يقولون هذه الأصنام شركاء الله ، والله سبحانه وتعالى أمرهم بعبادتها والتقرب إليها ، وكانوا أيضاً يقولون الملائكة بنات الله ، ثم نسبوا إلى الله تحريم البحائر والسوائب .

(5/229)

وثانيها : أن اليهود والنصارى كانوا يقولون : حصل في التوراة والإنجيل أن هاتين الشريعتين لا يتطرق إليهما النسخ والتغيير ، وأنهما لا يجيء بعدهما نبي ، وثالثها : ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فاحشة قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءنَا والله أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : 28] ورابعها : أن اليهود كانوا يقولون ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : 18] وكانوا يقولون ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : 80] وخامسها : أن بعض الجهال منهم كان يقول : إن الله فقير ونحن أغنياء ، وأمثال هذه الأباطيل التي كانوا ينسبونها ألى الله كثيرة ، وكلها افتراء منهم على الله .

والنوع الثاني : من أسباب خسرانهم تكذيبهم بآيات الله ، والمراد منه قدحهم في معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم فيها وإنكارهم كون القرآن معجزة قاهرة بينة ، ثم إنه

تعالى لما حكى عنهم هذين الأمرين قال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ أي لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا وفي الآخرة بل يبقون في الحرمان والخذلان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 149.150 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أكفر .

قال الحسن : فلا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ افترى ﴾ اختلق ﴿ عَلَى الله كَذِباً ﴾ فأشرك به غيره ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ يعني القرآن .

قال الحسن : كل ما في القرآن بآياتنا وآياته يعني به الدين بما فيه ﴿ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ الكافرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ يعني : ممن اختلق على الله كذباً باتخاذ الآلهة وقوله الشرك ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ﴾ يعني : بالقرآن أنه ليس من عند الله ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ يعني : أنه لا يأمن الكافرون من عذابه .

قال في اللغة : ﴿ أَنَّهُ ﴾ : مرة تكون للإشارة مثل قوله : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربى إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ [يوسف : 98] ومرة تكون للعماد مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ

اللهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾ [المؤمنون : 117] ﴿ وَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(6/229)

وقال الطبرى :

قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) ﴾

يقول تعالى ذكره : ومن أشدُّ اعتداءً ، وأخطأ فعلا وأخطأ قولا "ممن افترى على الله كذبًا " ، يعني : ممن اختلق على الله قيلَ باطل ، واخترق من نفسه عليه كذبًا ، فزعم أن له شريكًا من خلقه ، وإلهًا يعبد من دونه - كما قاله المشركون من عبدة الأوثان - أو ادعى له ولدًا أو صاحبةً ، كما قالته النصارى " أو كذب بآياته " ، يقول : أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم ، كذّبت بها اليهود " إنه لا يفلح الظالمون " ، يقول : إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل ، ولا يدركون البقاءَ في الجنان ، والمفترون عليه الكذب ، والجاحدون بنبوة أنبيائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 10 صـ 296 ﴾

(7/229)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ﴾ الآية ﴿ من ﴾ استفهام مضمنه التوقيف والتقرير ، أي لا أحد أظلم ممن افترى ، و ﴿ افترى ﴾ معناه اختلق ، والمكذب بالآيات مفتري كذب ، ولكنهما منحيان من الكفر ، فلذلك نصا مفسرين ، و" الآيات " العلامات والمعجزات ونحو ذلك ، ثم أوجب ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ والفلاح بلوغ الأمل والإرادة والنجاح ، ومنه قول عبيد : [الراجز]

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ تَبْلُغُ بالضْ . . . ضعْفِ وقد يُخْدَعُ الأَرِيبُ

قالت فرقة : ﴿ لا يفلح الظالمون ﴾ [الأنعام : 21] كلام تام معناه لا يفلحون جملة ، ثم استأنف فقال : واذكر يوم نحشرهم ، وقال الطبري المعنى لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون ﴾

تقدم الكلام على ﴿ ومن أظلم ﴾ والافتراء الاختلاف ، والمعنى لا أحد أظلم ممن كذب على الله أو كذب بآيات الله .

قال الزمخشري : جمعوا بين أمرين متناقضين فكذبوا على الله بما لا حجة عليه ، وكذبوا بما

ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح حيث قالوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، وقالوا : والله أمرنا بها ، وقالوا : الملائكة بنات الله وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ونسبوا إليه تحريم السوائب والبحائر وكذبوا القرآن والمعجزات وسموها سحراً ولم يؤمنوا بالرسول ؛ انتهى .

(8/229)

وفيه دسيسة الاعتزال بقوله : حيث قالوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا .

وقال ابن عطية : ﴿ ممن افترى ﴾ اختلق والمكذب بالآيات مفتري كذب ولكنهما من الكفر فلذلك نصا مفسرين ؛ انتهى .

ومعنى ﴿ لا يفلح الظالمون ﴾ لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا والآخرة ، بل يبقون في الحرمان والخذلان ونفي الفلاح عن الظالم فدخل فيه الأظلم والظالم غير الأظلم وإذا كان هذا لا يفلح فكيف يفلح الأظلم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ يعني ومن أشد عناداً وأخطأ فعلاً وأعظم كفراً ممن اختلق على الله كذباً فزعم أن له شريكاً من خلقه وإلهاً يعبد من دونه كما قال المشركون من عبدة الأصنام ، أو ادعى أن له صاحبه وولداً كما قلت النصارى ﴿ أو

كذب بآياته ﴾ يعني كذب بحجته وأعلام أدلته التي أعطاها رسله كما كذبت اليهود بمعجزات الأنبياء وقيل معناه أو كذب بآيات القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ يعني أنه لا ينجح القائلون على الله الكذب والمفترون على الله الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(9/229)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ بوصفهم النبيَّ الموعودَ في الكتابين بخلاف أوصافِه عليه الصلاة والسلام فإنه افتراءٌ على الله سبحانه وبقولهم : الملائكةُ بناتُ الله ، وقولِهم : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ ، ونحو ذلك ، وهو إنكارٌ واستبعادٌ لأن يكونَ أحدٌ أظلمَ ممن فعل ذلك أو مساوياً له ، وإن كان سبكُ التركيب غيرَ متعرِّض لإنكار المساواة ونفيُها يشهد به العُرف الفاشي ، والاستعمالُ المطَّرد ، فإنه إذا قيل : من أكرمُ من فلانٍ أو لا أفضلَ من فلان فالمرادُ به حتماً أنه أكرمُ من كل كريم ، وأفضلُ من كل فاضل ، ألا يُرى إلى قوله عز وجل : ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ الخ ، والسرُّ في ذلك أن النسبةَ بين الشيئين إنما

تُتصوَّر غالباً لا سيما في باب المغالبة بالتفاوُت زيادةً ونُقصاناً ، فإذا لم يكن أحدُهما أزيدَ يتحقق النُقصانُ لا محالة ﴿ أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ كأن كذّبوا بالقرآن الذي من جملته الآيةُ الناطقةُ بأنهم يعرِفونه عليه الصلاة والسلام كما يعرِفون أبناءهم ، وبالمُعجزات وسمَّوْها سحراً ، وحرفوا التوراة وغيّروا نُعوته عليه الصلاة والسلام ، فإن ذلك تكذيبٌ بآياته تعالى ، وكلمةُ (أو) للإيذان بأن كلٌّ من الافتراء والتكذيب وحدَه بالغٌ غايةَ الإفراط في الظلم ، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ونفَوْا ما أثبته ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

(10/229)

﴿ إِنَّهُ ﴾ الضمير للشأن ، ومدارُ وضعه موضعَه ادّعاءُ شهرته المُغْنية عن ذكره ، وفائدةُ تصديرِ الجملة به الإيذانُ بفَخامة مضمونِها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن فإن الضمير لا يُفهم منه من أول الأمر إلا شأنٌ مُبهمٌ له خطرٌ فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبُه فيتمكّن عند وروده له فضلُ تمكُّنٍ فكأنه قيل : إن الشأن الخطيرَ هذا هو ﴿ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ أي لا ينجُون من مكروهٍ ولا يفوزون بمطلوب ، وإذا كان حالُ الظالمين هذا فما ظنُّك بمن في الغاية القاصيةِ من الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ بادعائه أن له جل شأنه شريكاً وبقوله الملائكة بنات الله ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله .

وعد من ذلك وصف النبي عليه الصلاة والسلام الموعود في الكتابين بخلاف أوصافه .

والاستفهام للاستعظام الادعائي .

والمشهور أن المراد إنكار أن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساوياً له ، والتركيب وإن لم يدل على إنكار المساواة وضعاً كما قال العلامة الثاني في "شرح المقاصد وحواشي الكشاف" يدل عليه استعمالاً فإذا قلت : لا أفضل في البلد من زيد فمعناه أنه أفضل من الكل بحسب العرف ، والسر في ذلك أن النسبة بين الشيئين إنما تتصور غالباً لا سيما في باب المغالبة بالتفاوت زيادة ونقصاناً فإذا لم يكن أحدهما أزيد يتحقق النقصان لا محالة .

وادعى بعض المتأخرين أنه سنح له في توجيه ذلك نكتة حسنة ودقيقة مستحسنة وهي أن المتساويين بل المتقاربين في نفس الأمر لا يسلم كل واحد منهما أن يفضل عليه صاحبه فإن كل أحد لا يقدر على أن يقدر كل شيء حق قدره وكل إنسان لا يقوى على أن يعرف كل

أمر على ما هو عليه فإن الأفهام في مقابلة الأوهام متفاوتة والعقول في مدافعة الشكوك متباينة ، فإذا حكم بعض الناس مثلاً بالمساواة بين المتساويين في نفس الأمر فقد يحكم البعض الآخر برجحان ذلك على حسب منتهى أفهامهم ومبلغ عقولهم ومدرك إدراكهم فكل ما يوجد من يساويه في نفس الأمر يوجد من يفضل عليه بحسب اعتقاد الناس بل كلما يوجد من يقاربه فيه يوجد من يفوقه في ظنون العامة وينعكس بعكس النقيض إلى قولنا كلما لا يوجد من يفضل عليه لا يوجد من يساويه بل من يقاربه أيضاً وهو المطلوب ، وبالجملة إن إثبات المساوي يستلزم إثبات الراجح الفاضل فنفي الفاضل يستلزم نفي المساوي لأن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم كما أن إثبات الملزوم يستلزم إثبات اللازم وفيه تأمل .

وادعى بعض المحققين أن دلالة التركيب على نفي المساواة وضعية لأن غير الأفضل إما مساو أو أنقص فاستعمل في أحد فرديه .

(12/229)

قال ابن الصائغ في مسألة الكحل : إن ما رأيت رجلاً أحسن في عينه الكحل منه في عين زيد وإن كان نصاً في نفي الزيادة وهي تصدق بالزيادة والنقصان إلا أن المراد الأخير وهو من قصر الشيء على بعض أفراده كالدابة انتهى .

وأنت تعلم أن هذا مشعر باعتبار العرف أيضاً .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ﴾ كأن كذب بالقرآن الذي من جملته الآية الناطقة بأن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أو بسائر المعجزات التي أيد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن سماها سحراً ، وعد من ذلك تحريف الكتاب وتغيير نعوته صلى الله عليه وسلم الذي ذكرها الله تعالى فيه ، وإنما ذكر ﴿ أَوْ ﴾ وهم جمعوا بين الأمرين إيذاناً بأن كلا منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس ، وقيل : نبه بكلمة ﴿ أَوْ ﴾ على أنهم جمعوا بين أمرين متناقضين يعني أنهم أثبتوا المنفي ونفوا الثابت ، والمراد بالمتناقضين أمران من شأنهما أن لا يجمع بينهما عرفا أو يقال : إن من نفي الثابت بالبرهان يكون بنفي ما لم يثبت به أولى ، كذلك في الطرف الآخر فالجمع بينهما جميع بين المتناقضين من هذا الوجه . وادعى بعضهم أن وجه التناقض المشعر به هذا العطف أن الافتراء على الله تعالى دعوى وجوب القبول بلا حجة ما ينسب إليه تعالى وتكذيب الآيات دعوى أنه يجب أن لا يقبل ما ينسب إليه تعالى ولو أقيم عليه بينة ويجب أن ينكر التنبيه ويرتكب المكابرة بناء على أن الرسول يجب أن يكون ملكاً .

ولا يخفى أن في دعوى التناقض خفاء ، وهذه التوجيهات لا ترفعه .

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الشأن ، والمراد أن الشأن الخطير هذا وهو ﴿ لاَيُفْلِحُ ﴾ أي لا يفوز بمطلوب ولا ينجو من مكروه ﴿ الظالمون ﴾ من حيث إنهم ظالمون فكيف يفلح الأظلم من

حيث إنه أظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾

عطف على جملة ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ [الأنعام : 20] .

(13/229)

فالمراد بهم المشركون مثل قوله : ﴿ ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾

وقد تقدَّم نظيره في سورة البقرة (114) .

والمراد بافترائهم عقيدة الشرك في الجاهلية بما فيها من تكاذيب ، وبتكذيبهم الآيات

تكذيبهم القرآن بعد البعثة .

وقد جعل الآتي بواحدة من هاتين الخصلتين أظلم الناس فكيف بمن جمعوا بينهما .

وجملة : إنّه لا يفلح الظالمون ﴾ تذييل ، فلذلك فصلت ، أي إذا تحقّق أنّهم لا أظلم منهم فهم

غير مفلحين ، لأنّه لا يفلح الظالمون فكيف بمن بلغ ظلمه النهاية ، فاستغنى بذكر العلّة عن

ذكر المعلول .

وموقع (إنّ) في هذا المقام يفيد معنى التعليل للجملة المحذوفة ، كما تقرّر في كلام عبد

القاهر .

وموقع ضمير الشأن معها أفاد الاهتمام بهذا الخبر اهتمام تحقيق لتقع الجملة الواقعة تفسيراً له في نفس السامع موقع الرسوخ .

والافتراء الكذب المتعمّد .

وقوله : ﴿ كذباً ﴾ مصدر مؤكّد له ، وهو أعمّ من الافتراء .

والتأكيد يحصل بالأعم ، كما قدّمناه في قوله تعالى : ﴿ ولكنّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة المائدة (103) ، وقد نفى فلاحهم فعمّ كلّ فلاح في الدنيا والآخرة ، فإنّ الفلاح المعتدّ به في نظر الدين في الدنيا هو الإيمان والعمل ، وهو سبب فلاح الآخرة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(14/229)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) ﴾

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك : نسوا حظاً مما ذكروا به ، وكتموا بعضاً من الكتب المنزلة إليهم ، وحرفوا الآيات المنزلة إليهم ، وجاءوا بأقوال من عندهم ونسبوها إلى

الله . ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عنهم : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة : 79] .

إن الحق يتوعدهم بالعذاب لأنهم باعوا الدين لقاء ثمن قليل في الدنيا ، وادعوا على الله الكذب فنسبوا إليه ما لم ينزله ، ولذلك فالويل كل الويل لهم ؛ لإنهم انحطوا إلى أخس دركات الظلم وكذبوا الكذب المتعمد في كلية ملزمة وهي الإيمان بالله وبالكتب المنزلة والرسل . والافتراء هو الكذب المتعمد بغرض نسبة شيء إلى الله لم يقله ، وهم قد فعلوا ذلك ، ولهذا لا يفلح الظالمون سواء ظلموا الناس بأخذ أموالهم أو الإساءة إليهم ، أو ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وهو أعظم الظلم ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(15/229)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون " وقال

فيما بعد من هذه السورة : قوله تعالى : "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شئ " وفى سورة الأعراف : قوله تعالى : "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون " وفى سورة العنكبوت : قوله تعالى : "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه " وفى سورة الصف : قوله تعالى : "ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام " وفى هذه الآيات سؤالان :

أحدهما وجه ورود الآيات فى هذه المواضع بهذا النص من قوله "فمن أظلم ممن افترى على كذبا " وتعقيب كل آية منها بما اتصل بها والسؤال الثانى : تعريف الكذب فى سورة الصف وتنكيره فيما عداها .

والجواب عن الأول : أن الأولى تقدمها قوله : "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا يستهزئون " ثم قال تعالى بعد : "ولو أنزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين " فحصل من هذا افتراؤهم وفى قولهم : إنه سحر .

وتكذيبهم قال تعالى : "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم " وجعلهم مع الله آلهة سواه فجمعوا بين الشرك والتكذيب فناسب هذا ورود قوله تعالى : "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا " على طريقة التعجب من مرتكبهم وسوء حالهم أى : من أظلم يا محمد من هؤلاء الجامعين بين الافتراء والشرك والتكذيب مع وضوح الشواهد وكثرة الدلائل الواردة أثناء هذه الآى مما

لا يتوقف فيه معتبر فقد وضح تناسب هذا كله وحق لمرتكبه الوصف بالظلم الذى لا يفلح المتصف به وهو ظلم الافتراء على الله والشرك والتكذيب .

(16/229)

وأما الآية الثانية من سورة الأنعام فإن قبلها ذكر الرسل عليهم السلام وتعقيب ذكرهم بقوله : "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " ثم قال تعالى : "وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ " فأعظم تعالى مرتكبهم فى هذا وفى تعاميهم عن التوراة وما تضمنته من الهدى والنور ثم أعقب ذلك بقوله تنزيها للرسل عليهم السلام عن الافتراء على الله سبحانه وادعاء الوحى فصار الكلام بجملته فى قوة أن لو قيل : ألا ترون ما تضمن كتاب موسى من الهدى والنور والبراهين الواضحة وهل يمكن أحد أعظم افتراء من هذا ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه بشئ " فهذا أوضح شئ ولما لم يتقدم فى الآية الأولى ذكر الأنبياء والوحى إليهم كما فى هذه لم يناسبها ما ورد هنا فجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم .

وأما آية الأعراف فتقدمها وعيد من كذب بآيات الرسل واستكبر عنها وأنهم أهل الخلود

فى النار فناسب هذا قوله تعالى : "فمن أظلم ممن افترى على كذبا أو كذب بآياته . . "الآية .

(17/229)

وأما آية يونس فتقدم قبلها قوله تعالى : "وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله " إلى آخر الآية ولا أظلم ممن قال من فصحاء العرب العالمين بمقاطع الكلام وجليل النظم وعلى البلاغة : "ائت بقرآن غير هذا " أو بدله مع علمهم بعلى فصاحته واعترافهم بالعجز عنه فجمعوا بين إنكار ما علموا صدقه ممن عرفوا على حاله وجليل منصبه فإخباره تعالى عنهم بقوله : "فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " فجمعوا بين الانكار وبين وقولهم فى إنكارهم "أو بدله " فلا أظلم من هؤلاء ثم فى إنكارهم وقولهم "أو بدله " أعظم إقدام وأوضح إجرام لأنه كفر على علم فلهذا أعقبت الأية هنا بقوله : "إنه لا يفلح المجرمون " ولم يقع قبل التى فى سورة الأنعام وقبل آية الأعراف مثل هذا الاقدام على مثل هذه الجريمة فى القول وإنما تقدم عداوتهم زظلمهم أنفسهم فى مرتكباتهم وتعاميهم فناسبه قوله : "إنه لا يفلح الظالمون " وأما آية العنكبوت وآية الصف فجوابهما بين مما تقدم .

وجواب ثان : وهو أنه قد تقدم مما به الاعتبار فى الأولى من آيتى الانعام وآية يونس ما فيه كفاء وإن تنوع فقد جنعه جامع الاعتبار وفى كل شفاء لمن وفق للاعتبار به فمن عدل عنه فظالم إلا أن الاجترام يبنى على أشد من الظلم وإن كان قد أجرى مع الظلم عدم الفلاح إلا أن الجرم أنبأ بالشدة وأخص بالاشعار بشناعة المرتكب وتقدم أن ترتيب السور والآى مراعى وعظيم الموقع وأنه لا يعارضه ترتيب النزول فإذا تقرر هذا فنقول : قدم وصفهم بالظلم ثم تكرر ذلك ممن افترى أو كذب وقد وصف أولا بالظلم فوصف ثانيا بالاجترام ترقيا فى الشر كما يترقى فى الخير وأيضا ليناسب ما وقع فى يونس متقدما من قوله : "وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين " .

(18/229)

والجواب عن السؤال الثانى أن آية الصف قد انفردت عن كل ما تقدم من هذه الآى بذكر تعيين المفترى فيه الكذب منطوقا به من غير الإجمال الوارد فى الآى الأخر بل ورد على التفصيل والتعيين وذلك بين من قوله تعالى : "وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله اليكم لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد " ثم قال : "فلما جاءهم بالبينات " أى فلما جاءهم الرسول الذى سماه لهم عيسى بالبينات والدلائل

القاطعة والتصديق لما بين يديه من التوراة قالوا هذا سحر مبين فافتروا الكذب وارتكبوا البهت فيما لا توقف فيه ولا اشكال فقيل متعجبا من حالهم على الجارى فى لسان العرب : "ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب " معرفا بأداة العهد ليقوم مقام الوصف حتى كأن قد قيل هذا الكذب الذى لا امتراء فيه ولا توقف ولما لم يرد فى الآى الأخر ما تقدم هنا كان الوجه أن يرد منكرا كما ثبت فورد على ما يناسب ويجب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 149. 151 ﴾

(19/229)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) ﴾

شؤم الخذلان بلغ بالنكاية فيهم ما جرَّهم إلى الإصرار على الكذب على الله تعالى ، ثم لم يستحيوا من اطلاعه ، ولم يخشوا من عذابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 467 ﴾

(20/229)

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان معنى هذا أنهم أكذب الناس ، دل عليه بكذبهم يوم الحشر بعد انكشاف الغطاء فقال : ﴿ ويوم ﴾ أي اذكر كذبهم على الله وتكذيبهم في هذه الدار ، واذكر أعجب من ذلك ، وهو كذبهم في عالم الشهادة عند كشف الغطاء وارتفاع الحجب يوم ﴿ نحشرهم ﴾ أي نجمعهم بما لنا من العظمة وهم كارهون صاغرون ﴿ جميعاً ﴾ أي أهل الكتاب والمشركين وغيرهم ومعبوداتهم ، وأشار إلى عظمة ذلك اليوم وطوله ومشقته وهوله بقوله بأداة التراخي : ﴿ ثم نقول ﴾ أى بما لنا من العظمة التي انكشفت لهم أستارها وتبدت لهم بحورها وأغوارها توبيخاً وتنديماً ﴿ للذين أشركوا ﴾ أي سموا شيئاً من دوننا إلهاً وعبدوه بالفعل من الأصنام أو عزير أو المسيح أو الظلمة أو النور أو غير ذلك ، أو بالرضى بالشرك ، فإن الرضى بالشيء فعل له لا سيما إن انضم إليه تكذيب المحق والشهادة للمبطل بأن دينه خير ﴿ أين شركاؤكم ﴾ أضافهم إلى ضميرهم لتسميتهم لهم بذلك ﴿ الذين كنتم تزعمون ﴾ أي أنهم شركاؤنا بالعبادة أو الشهادة بما يؤدي إليها ، ادعوهم اليوم لينقصوكم مما

نريد من ضركم ، أو يرفعوكم مما نريد من وضعكم ، وسؤالهم هذا يجوز أن يكون مع غيبة الشركاء عنهم وأن يكون عند إحضارهم لهم ، فيكون الاستفهام عما كانوا يظنون من نفعهم ، فكأن غيبته غيبتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 620 ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾

ففي ناصب قوله ﴿ وَيَوْمَ ﴾ أقوال :

الأول : أنه محذوف وتقديره ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ كان كيت وكيت ، فترك ليبقى على الابهام الذي هو أدخل في التخويف ، والثاني : التقدير اذكر يوم نحشرهم ، والثالث : أنه معطوف على محذوف كأنه قيل لا يفلح الظالمون أبداً ويوم نحشرهم .

(21/229)

وأما قوله ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فالمقصود منه التقريع والتبكيت لا السؤال ، ويحتمل أن يكون معناه أين نفس الشركاء ، ويحتمل أن يكون المراد أين شفاعتهم لكم وانتفاعكم بهم ، وعلى كلا الوجهين : لا يكون الكلام إلا توبيخاً

وتقريعاً وتقريراً في نفوسهم أن الذي كانوا يظنونه مأيوس عنه ، وصار ذلك تنبيهاً لهم في دار الدنيا على فساد هذه الطريقة ، والعائد على الموصول من قوله ﴿ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ محذوف ، والتقدير : الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاء ، فحذف مفعول الزعم لدلالة السؤال عليه ، قال ابن عباس : وكل زعم في كتاب الله كذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 150 ﴾

وقال الطبرى :

قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ﴾

يقول تعالى ذكره : إن هؤلاء المفترين على الله كذبًا ، والمكذبين بآياته ، لا يفلحون اليومَ في الدنيا ، ولا يوم نحشرهم جميعًا - يعني : ولا في الآخرة .

ففي الكلام محذوف قد استغني بذكر ما ظَهر عما حذف .

وتأويل الكلام : إنه لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا ، " ويوم نحشرهم جميعًا " ، فقوله : " ويوم نحشرهم " ، مردود على المراد في الكلام . لأنه وإن كان محذوفًا منه ، فكأنه فيه ، لمعرفة السامعين بمعناه " ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم " ، يقول : ثم نقول ، إذا حشرنا هؤلاء المفترين على الله الكذب ، بادّعائهم له في سلطانه شريكًا ، والمكذّبين بآياته ورسله ، فجمعنا جميعهم يوم القيامة " أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون " ، أنهم لكم آلهة من دون

الله ، افتراء وكذبًا ، وتدعونهم من دونه أربابًا ؟ فأتوا بهم إن كنتم صادقين ! . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 10 صـ 297 ﴾

(22/229)

وقال أبو حيان :

﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ قيل :

﴿ يوم ﴾ معمول لا ذكر محذوفة على أنه مفعول به قاله ابن عطية وأبو البقاء .

وقيل : لمحذوف متأخر تقديره ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ كان كيت وكيت فترك ليبقى على

الإبهام الذي هو أدخل في التخويف قاله الزمخشري .

وقيل : العامل انظر كيف كذبوا يوم نحشرهم .

وقيل : هو مفعول به لمحذوف تقديره وليحذروا يوم نحشرهم .

وقيل : هو معطوف على ظرف محذوف ، والعامل فيه العامل في ذلك الظرف والتقدير أنه

لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا ويوم نحشرهم قاله الطبري .

وقرأ الجمهور ﴿ نحشرهم ﴾ ﴿ ثم نقول ﴾ بالنون فيهما .

وقرأ حميد ويعقوب فيهما بالياء .

وقرأ أبو هريرة ﴿ نحشرهم ﴾ عائد على الذين افتروا على الله الكذب ، أو كذبوا بآياته وجاء ﴿ ثم نقول للذين أشركوا ﴾ بمعنى ثم نقول لهم ولكنه نبه على الوصف المترتب عليه توبيخهم ويحتمل أن يعود على الناس كلهم وهم مندرجون في هذا العموم ثم تفرد بالتوبيخ المشركون .

(23/229)

وقيل : الضمير عائد على المشركين وأصنامهم ألا ترى إلى قولهم ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ وعطف ب ﴿ بثم ﴾ للتراخي الحاصل بين مقامات يوم القيامة في المواقف ، فإن فيه مواقف بين كل موقف وموقف تراخ على حسب طول ذلك اليوم ، و ﴿ أين شركاؤكم ﴾ سؤال توبيخ وتقريع وظاهر مدلول ﴿ أين شركاؤكم ﴾ غيبة الشركاء عنهم أي تلك الأصنام قد اضمحلت فلا وجود لها .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يشاهدوهم إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة فكأنهم غيب عنهم وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها فيروا مكان خزيهم وحسرتهم ، انتهى .

والمعنى أين آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ؟ وأضيف الشركاء إليهم لأنه لا شركة في

الحقيقة بين الأصنام وبين شيء ، وإنما أوقع عليها اسم الشريك بمجرد تسمية الكفرة فأضيفت إليهم بهذه النسبة والزعم القول الأميل إلى الباطل والكذب في أكثر الكلام ، ولذلك قال ابن عباس : كل زعم في القرآن فهو بمعنى الكذب وإنما خص القرآن لأنه ينطلق على مجرد الذكر والقول ومنه قول الشاعر :

تقول هلكنا وإن هلكت وإنما . . .

على الله أرزاق العباد كما زعم

وقال ابن عطية : وعلى هذا الحد يقول سيبوية : زعم الخليل ولكن ذلك يستعمل في الشيء الغريب الذي تبقى عهدته على قائله ؛ انتهى .

وحذف مفعولاً ﴿ يزعمون ﴾ اختصاراً إذ دل ما قبله على حذفهما والتقدير تزعمونهم شركاء ، ويحسن أن يكون التقدير كما قال بعضهم : ﴿ أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ أنها تشفع لكم عند الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(24/229)

وقال القرطبى :

﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ﴾ سؤال إفضاح لا إفصاح .

﴿ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي في أنهم شفعاء لكم عند الله بزعمكم ، وأنها تُقرّبكم منه زُلفَى ؛ وهذا توبيخ لهم .

قال ابن عباس : كل زعم في القرآن فهو كذبٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ منصوبٌ على الظرفية بمُضمر مؤخَّرٍ قد حُذف إيذاناً بضيق العبارة عن شرحه وبيانه ، وإيماءً إلى عدم استطاعة السامعين لسماعِه لكمال فظاعةِ ما يقع فيه من الطامة والداهية التامة ، كأنه قيل : ويوم نحشرهم جميعاً ﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ لهم ما نقول كانَ من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرةُ المقال ، وتقديرُ صيغةِ الماضي للدلالة على التحقّق ولحُسنِ موقعِ عطفِ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ ﴾ الخ عليه ، وقيل : منصوب على المفعولية بمضمر مقدّم ، أي واذكر لهم للتخويف والتحذير يوم نحشرهم الخ ، وقيل : وليتقوا أو ليحذروا يوم نحشرهم الخ ، والضمير للكل ، وجميعاً حال منه وقرىء (يَحشرُهم جميعاً ثم يقول) بالياء فيهما ﴿ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ أي نقول لهم خاصة للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ﴾ أي آلهتُكم التي جعلتموها شركاءَ لله سبحانه ، وإضافتُها إليهم لما أن شِركَتَها ليست إلا بتسميتهم وتقوُّلهم الكاذب كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تزعُمونها شركاءَ ، فحُذِف المفعولان معاً ، وهذا

السؤالُ المُنبِئُ عن غَيْبة الشركاءِ مع عموم الحشر لها لقوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله ﴾ وغيرِ ذلك من النصوص إنما يقع بعد ما جرى بينها وبينهم من التبرُّؤ من الجانبين ، وتقطُّع ما بينهم من الأسباب والعلائقِ حسبما يحكيه من قوله تعالى : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ الخ ، ونحوُ ذلك من الآيات الكريمة ، إما بعدم حضورِها حينئذٍ في الحقيقة بإبعادها من ذلك الموقف ، وإما بتنزيل عدمِ حضورها بعُنوان الشِرْكة والشفاعة منزلةَ عدم حضورها في الحقيقة ، إذ ليس السؤالُ عنها من حيث ذواتُها ، بل إنما هو من حيث إنها شركاءُ كما يُعرب عنه الوصفُ بالموصول ، ولا ريب في أن عدم الوصفِ يوجب عدمَ

(25/229)

الموصوف من حيث هو موصوف ، فهي من حيث هي شركاءُ غائبةٌ لا محالة وإن كانت حاضرةً من حيث ذواتُها أصناماً كانت أو غيرها ، وأما ما يقال من أنه يُحال بينها وبينهم في وقت التوبيخ ليفقِدوهم في الساعة التي علّقوا بها الرجاءَ فيها فيرَوْا مكان خِزْيهم وحسرتهم فربما يُشعِر بعدم شعورِهم بحقيقة الحال وعدمِ انقطاع حبالِ رجائهم عنها بعدُ . وقد عرفت أنهم شاهدوها قبل ذلك ، وانصرمت عُروةُ أطماعهم عنها بالكلية ، على

أنها معلومة لهم من حين الموت والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ ، وإنما الذي يحصُل يوم الحشر الانكشافُ الجليُّ واليقين القويُّ ، المترتبُ على المحاضَرة والمحاوَرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(26/229)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ منصوب على الظرفية بمضمر يقدر مؤخراً وضمير ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ للكل أو للعابدين للآلهة الباطلة مع معبوداتهم و ﴿ جَمِيعاً ﴾ حال منه أي ويوم نحشر كل الخلق أو الكفار وآلهتهم جميعاً ثم نقول لهم ما نقول كان كيت وكيت .

وترك هذا الفعل من الكلام ليبقى على الإبهام الذي هو أدخل في التخويف والتهويل .

وقدر ماضياً ليدل على التحقيق ويحسن عطف ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ ﴾ [الأنعام : 23] الخ عليه ، وجوز نصبه على المفعولية بمضمر مقدر أي واذكر لهم للتخويف والتحذير يوم نحشرهم واختاره أبو البقاء ، وقيل : التقدير ليتقوا أو ليحذروا يوم نحشرهم الخ .

﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد ﴿ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ بالله تعالى ما لم ينزل به سلطاناً : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله عز اسمه

فالإضافة لأدنى ملابسة و﴿ أَيْنَ ﴾ للسؤال عن غير الحاضر ، وظاهر قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات : 22] وغيره من الآيات يقتضي حضورهم معهم في المحشر فأما أن يقال : إن هذا السؤال حين يحال بينهم بعد ما شاهدوهم ليشاهدوا خيبتهم كما قيل

: كما أبرقت قوما عطاشا غمامة . . .

فلما رأوها أقشعت وتجلت

وإما أن يقال : إنه حال مشاهدتهم لهم لكنهم لما لم ينفعوهم نزلوا منزلة الغيب كما تقول لمن جعل أحداً ظهيراً يعينه في الشدائد إذا لم يعنه وقد وقع في ورطة بحضرته أين زيد ؟ فتجعله لعدم نفعه وإن كان حاضراً كالغائب أو الكلام على تقدير مضاف أي أين نفعهم وجدواهم ؟ ، والتزم بعضهم القول بأنهم غيب لظاهر السؤال ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الذين ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : 94] .

وأجيب أن يكون ذلك في موطن آخر جمعا بين الآيات أو المعنى وما نرى شفاعة شفعائكم .

وقال شيخ الإسلام : "إن هذا السؤال المنبىء عن غيبة الشركاء مع عموم الحشر لها للآيات الدالة على ذلك إنما يقع بعد ما جرى بينها وبينهم من التبري من الجانبين وتقطع ما بينهم من الأسباب حسبما يحكيه قوله سبحانه : ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : 28] الخ ونحوه اما لعدم حضورها حينئذ في الحقيقة بابعادها من ذلك الموقف ، وإما بتنزيل عدم حضورها بعنوان الشركة والشفاعة منزلة عدم حضورها في الحقيقة إذ ليس السؤال عنها من حيث (ذواتها بل وإنما هو من حيث) هي شركاء كما يعرب عنه الوصف بالموصول ، ولا ريب في أن عدم الوصف يوجب عدم الموصوف من حيث هو موصوف فهي من حيث هي شركاء غائبة لا محالة وإن كانت حاضرة من حيث ذواتها أصناماً كانت أو لا .

وأما ما يقال من أنه يحال بينها وبينهم وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بها الرجاء (فيها) فيروا مكان خزيهم وحسرتهم فربما يشعر بعدم شعورهم بحقيقة الحال وعدم انقطاع حبال رجائهم عنها بعد .

وقد عرفت أنهم شاهدوها قبل ذلك وانصرمت عروة أطماعهم عنها بالكلية على أنها معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب في البرزخ .

وإنما الذي يحصل في الحشر الانكشاف الجلي واليقين القوي المترتب على المحاضرة والمحاورة" اه .

وتعقبه مولانا الشهاب بأنه تخيل لا أصل له لأن التوبيخ مراد في الوجوه كلها ، ولا يتصور حينئذ التوبيخ إلا بعد تحقق خلافه ، مع أن كون هذا واقعاً بعد التبري في موقف آخر ليس في النظم ما يدل عليه ومثله لا يجزم به من غير نقل لاحتمال أن يكون هذا في موقف التبري والإشعار المذكور لا يتأتى مع أنه توبيخ .

وأما العلاوة التي زيل بها كلامه فواردة عليه أيضاً مع أنها غير مسلمة لأن عذاب البرزخ لا يقتضي أن يشفع لهم بعد ذلك فكم من معذب في قبره يشفع له اه .

(28/229)

وأنت تعلم أن عذابهم البرزخي إن كان بسبب اعتقادهم النفع فيهم ورجاء شفاعتهم وعلم أولئك المعذبون أن عذابهم لذلك فقوله : لأن عذاب البرزخ لا يقتضي الخ ليس في محله ، وكذا قوله : فكم من معذب في قبره يشفع له إن أراد به فكم من معذب لمعصية من المعاصي في قبره يشفع له من يشفع فمسلم لكن لا يفيد .

وإن أراد فكم من معذب في قبره بسبب عبادة شيء يشفع له ذلك الشيء فمنعه ظاهر كما لا يخفى فتدبر .

وقرأ يعقوب ﴿ يَحْشُرُهُمْ ثُمَّ يَقُولُ ﴾ بالياء فيهما والضمير فيهما لله تعالى .

وقوله سبحانه للمشركين : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ إما بالواسطة أو بغير واسطة .

والتكليم المنفي في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ﴾ [البقرة : 174 ، آل عمران : 77] الخ تكليم تشريف ونفع لا مطلقا فقد كلم إبليس عليه اللعنة بما كلم .

والزعم يستعمل في الحق كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " زعم جبريل عليه السلام " وفي حديث ضمام بن ثعلبة رضي الله تعالى عنه "زعم رسولك" وقول سيبويه في أشياء يرتضيها : زعم الخليل ، ويستعمل في الباطل والكذب كما في هذه الآية .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كل زعم في القرآن فهو بمعنى الكذب .

وكثيراً ما يستعمل في الشيء الغريب الذي تبقى عهدته على قائله وهو هنا متعد لمفعولين وحذفا لانفهامهما من المقام أي تزعمونهم شركاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾

عطف على جملة : ﴿ ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ﴾ [الأنعام : 21] ، أو على جملة ﴿ إنّه لا يفلح الظالمون ﴾ [الأنعام : 21] ، فإنّ مضمون هذه الجمل المعطوفة له مناسبة بمضمون جملة ﴿ ومن أظلم ﴾ ومضمون جملة ﴿ إنّه لا يفلح الظالمون ﴾ ، لأنّ

مضمون هذه من آثار الظلم وآثار عدم الفلاح ، ولأنّ مضمون الآية جامع للتهديد على الشرك والتكذيب ولإثبات الحشر ولإبطال الشرك .

(29/229)

وانتصب ﴿ يومَ ﴾ على الظرفية ، وعامله محذوف ، والأظهر أنّه يقدّر ممّا تدلّ عليه المعطوفات وهي : نقول ، أو قالوا ، أو كذّبوا ، أو ضلّ ، وكلّها صالحة للدلالة على تقدير المحذوف ، وليست تلك الأفعال متعلّقاً بها الظرف بل هي دلالة على المتعلّق المحذوف ، لأنّ المقصود تهويل ما يحصل لهم يوم الحشر من الفتنة والاضطراب الناشئين عن قول الله تعالى لهم : ﴿ أين شركاؤكم ﴾ ، وتصوير تلك الحالة المهولة .

وقدّر في "الكشاف" الجواب ممّا دلّ عليه مجموع الحكاية .

وتقديره : كان ما كان ، وأنّ حذفه مقصود به الإبهام الذي هو داخل في التخويف .

وقد سلك في هذا ما اعتاده أئمّة البلاغة في تقدير المحذوفات من الأجوبة والمتعلّقات .

والأحسن عندي أنّه إنّما يصار إلى ذلك عند عدم الدليل في الكلام على تعيين المحذوف وإلاّ فقد يكون التخويف والتهويل بالتفصيل أشدّ منه بالإبهام إذا كان كلّ جزء من التفصيل حاصلاً به تخويف .

وقدّر بعض المفسّرين : اذكر يوم نحشرهم .

ولا نكتة فيه .

وهنالك تقديرات أخرى لبعضهم لا ينبغي أن يعرّج عليها .

والضمير المنصوب في ﴿ نحشرهم ﴾ يعود إلى ﴿ من افترى على الله كذباً ﴾ [الأنعام : 21] أو إلى ﴿ الظالمون ﴾ [الأنعام : 21] إذ المقصود بذلك المشركون ، فيؤذن بمشركين ومشركٍ بهم .

وللتنبيه على أنّ الضمير عائد إلى المشركين وأصنامهم جيء بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ ليدلَّ على قصد الشمول ، فإنَّ شمول الضمير لجميع المشركين لا يتردّد فيه السامع حتى يحتاج إلى تأكيده باسم الإحاطة والشمول ، فتعيّن أنّ ذكر ﴿ جميعاً ﴾ قصد منه التنبيه .

على أنّ الضمير عائد إلى المشركين وأصنامهم ، فيكون نظير قوله : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ [يونس : 28] وقوله : ﴿ ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله ﴾ [الفرقان : 17] وانتصب ﴿ جميعاً ﴾ هنا على الحال من الضمير .

(30/229)

والمقصود من حشر أصنامهم معهم أن تظهر مذلّة الأصنام وعدم جدواها كما يحشر الغالب أسرى قبيلة ومعهم من كانوا ينتصرون به ، لأنّهم لو كانوا غائبين لظنّوا أنّهم لو حصروا لشفعوا ، أو أنّهم شغلوا عنهم بما هم فيه من الجلالة والنعيم ، فإنّ الأسرى كانوا قد يأملون حضور شفائعهم أو من يفاديهم .

قال النابغة :

يأملْن رحلة نصر وابن سيّار

وعطف ﴿ نقولُ ﴾ بِ ﴿ ثم ﴾ لأنّ القول متأخّر عن زمن حشرهم بمهلة لأنّ حصّة انتظار المجرم ما سيحلّ به أشدّ عليه ، ولأنّ في إهمال الاشتغال بهم تحقيراً لهم .

وتفيد ﴿ ثم ﴾ مع ذلك الترتيب الرتبي .

وصرّح بِ ﴿ الذين أشركوا ﴾ لأنّهم بعض ما شمله الضمير ، أي ثم نقول للذين أشركوا من بين ذلك الجمع .

وأصل السؤال بـ ﴿ أين ﴾ أنَّه استفهام عن المكان الذي يحلّ فيه المسند إليه ، نحو : أين بيتك ، وأين تذهبون .

وقد يسأل بها عن الشيء الذي لا مكان له ، فيراد الاستفهام عن سبب عدمه ، كقول أبي سعيد الخدري لمروان بن الحكم حين خرج يوم العيد فقصد المنبر قبل الصلاة ﴿ أين تقديم الصلاة ﴾ .

وقد يسأل بـ ﴿ أين ﴾ عن عمل أحد كان مرجوّاً منه ، فإذا حضر وقته ولم يحصل منه يسأل عنه بِـ ﴿ أين ﴾ ، كأنّ السائل يبحث عن مكانه تنزيلاً له منزلة الغائب المجهول مكانه ؛ فالسؤال بـ ﴿ أين ﴾ هنا عن الشركاء المزعومين وهم حاضرون كما دلّت عليه آيات أخرى .

قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ [الصافات : 22] .

والاستفهام توبيخي عمّا كان المشركون يزعمونه من أنّها تشفع لهم عند الله ، أو أنّها تنصرهم عند الحاجة ، فلمّا رأوها لا غناء لها قيل لهم : أين شركاؤكم ، أي أين عملهم فكأنّهم غُيِّب عنهم .

وأضيف الشركاء إلى ضمير المخاطبين إضافة اختصاص لأنّهم الذين زعموا لهم الشركة مع الله في الإلهية فلم يكونوا شركاء إلاّ في اعتقاد المشركين ، فلذلك قيل ﴿ شركاؤكم ﴾ . وهذا كقول أحد أبطال العرب لعَمرو بن معد يكرب لمّا حدّث عمرو في جمع أنّه قتله ، وكان هو حاضراً في ذلك الجمع ، فقال له : "مَهْلاً أبا ثور قتيلك يسمع" ، أي المزعوم أنّه قتيلك .

ووصفوا بـ ﴿ الذين كنتم تزعمون ﴾ تكذيباً لهم ؛ وحذف المفعول الثاني لـ ﴿ تزعمون ﴾ ليعمّ كلّ ما كانوا يزعمونه لهم من الإلهية والنصر والشفاعة ؛ أمّا المفعول الأول فحذف على طريقة حذف عائد الصلة المنصوب .

والزعم : ظنّ يميل إلى الكذب أو الخطأ أو لغرابته يتّهم صاحبه ، فيقال : زعم ، بمعنى أنّ عهدة الخبر عليه لا على الناقل ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون ﴾ الآية في سورة [النساء : 60] .

وتأتي زيادة بيان لمعنى الزعم عند قوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ﴾ في سورة [التغابن : 7] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(31/229)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدهما : أنه منصوبٌ بفعل مُضْمَر بعده ، وهو على ظرفيَّتِهِ ، أي : يوم نحشرهم كان كيت وكيت ، وحُذِف ليكون أبْلَغَ في التَّخْويفِ .

والثاني : أنه معطوفق على ظرفٍ محذُوفٍ ، ذلك الظرف معمول لقوله : ﴿ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [الأنعام : 21] والتقدير : أنه لا يفلح الظَّالمونَ اليوم في الدنيا ، ويوم نحشرهم ،

قاله محمد ابن جَرِيرٍ .

الثالث : أنه منصوبٌ بقوله : ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ ﴾ [الأنعام : 24] وفيه بُعْدٌ لِبُعْدِهِ من عامله بكثرة الفواصِلِ .

الرابع : أنه مفعولٌ به بـ " اذكر " مقدَّراً .

الخامس : أنه مفعولٌ به أيضاً ، ونَاصِبُهُ : احذروا أو اتَّقُوا يوم نحشرهم ، كقوله : ﴿ واخشوا يَوْماً ﴾ [لقمان : 33] وهو كالذي قبله فلا يُعَدُّ خامساً .

وقرأ الجمهور " نَحْشرهم " بنون العظمة ، وكذا " ثم نقول " ، وقرآ حميد ، ويعقوب بياء الغَيْبَةِ فيهما ، وهو أنه تبارك وتعالى .

(32/229)

والجمهور على ضم الشين من " نَحْشُرهم " ، وأبو هريرة بكسرها ، وهما لغتان في المُضَارع .

والضمير المنصوب في " نحشرهم " يعود على المفترين الكَذِبَ .

وقيل : على النَّاس كلهم ، فيندرج هؤلاء فيهم ، والتَّوْبيخُ مختصٌّ بهم .

وقيل : يعود على المشركين وأصنَامِهِمْ ، ويدلُّ عليه قوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ

وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات : 22] .

و" جَمِيعاً " حالٌ من مفعول " نحشُرهم " ن ويجوز أن يكون توكيداً عند من أَثْبَتَهُ من النحويين كـ " أجمعين " .

وعطف هنا بـ " ثُمَّ " للتراخي الحاصل بين الحَشْر والقَوْلِ .

ومفعولا " تزعمون " محذوفان للعلم بهما ، أي : تزعمونهم شركاء ، أو تزعمون أنهما شُفَعَاؤكم .

وقوله : " ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ " إن جعلنا الضمير في " نَحْشُرهم " عائداً على المفترين الكذبَ ، كان ذلك من باب إقامةِ الظَّاهرِ مقامَ المُضْمَرَ ، إذ الأصل : ثم نقول لهم ، وإنما أَظْهِرَ تنبيهاً على قُبْحِ الشرك .

وقوله : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ ﴾ ؟ سؤال تَقْرِيع وتوبيخ وتَبْكيتٍ .

قال ابن عبَّاس – رضي الله عنهما – : " كُلُّ زَعْمٍ في كتاب الله فالمُرادُ به الكذبُ " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 71.72 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ﴾

يجمعهم ليوم الحشر والنشر ، لكنه يفرقهم في الحكم والأمر ، فالبعث يجمعهم ولكن الحكم يفرقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 467 ﴾

(33/229)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إخبارهم بغير الواقع في ذلك اليوم مستبعداً بعد رفع الحجاب عن الأهوال وإظهار الزلازل والأوجال .

أشار إليه بأداة البعد فقال : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ أي عاقبة مخالطتنا لهم بهذا السؤال وأمثاله من البلايا التي من شأنها أن يميل ما خالطته فتحيله – ولو أنه جبل – عن حاله بما ناله من قوارعه وزلزاله إلاّ كذبهم في ذلك الجمع ، وهو معنى قوله : ﴿ إلاّ أن قالوا ﴾ ثباتاً منهم فيما هم عريقون فيه من وصف الكذب : ﴿ والله ﴾ فذكروا الاسم الأعظم الذي تندك لعظمته الجبال الشم ، وتنطق بأمره الأحجار الصم ، الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى التي ظهر لهم كثير منها في ذلك اليوم ، وأكدوا ذلك بذكر الوصف المذكر بتربيتهم

ودوام الإحسان إليهم فقالوا : ﴿ ربنا ﴾ فلم يقنعوا بمجرد الكذب حتى أقسموا ، ولا بمجرد القسم حتى ذكروا الاسم الجامع والوصف المحسن ﴿ ما كنا مشركين ﴾ أي إن تكذيبهم لك أوصلهم إلى حد يكذبون فيه في ذلك اليوم بعد كشف الغطاء تطمعاً بما لا ينفعهم ، كما ترى الحائر المدهوش في الدنيا يفعل مثل ذلك فهو إيئاس من فلاح الجميع : المشركين وأهل الكتاب ، أو يكون المعنى تنديماً لهم وتأسيفاً : أنه لم يكن عاقبة كفرهم الذي افتتنوا به في لزومه والافتخار به والقتال عليه – لكونه دين الآباء – إلاّ جحوده والبراءة منه والحلف على الانتفاء من التدين به ، والمعنى على قراءتي النصب والرفع في " فتنة " على جعلها خبراً أو اسماً واحداً ، فمعنى قراء النصب : لم يكن شيء إلاّ قولهم – أي غير قولهم الكذب – فتنتهم ، أي لم يكن شيء فتنتهم إلاّ هذا القول ، فهذا القول وحده فتنتهم ، فنفى عن فتنتهم وسلب عنها كل شيء غير قولهم هذا ، فالفتنة مقصورة على قولهم الكذب ، والكذب قد يكون ثابتاً لغيرها ، أي إنهم يكذبون من غير فتنة ، بل في حال الرخاء ، وهذا بعينه معنى قراءة ابن كثير وابن عامر وحفص برفع فتنة ، أي لم تكن فتنتهم شيئاً غير كذبهم ، فقد نفيت فتنتهم عن كل شيء غير الكذب ، فانحصرت فيه ، ويجوز أن يكون ثابتاً في حال غيرها – على ما مر ، وهذا التقدير نفيس

(34/229)

عزيز الوجود دقيق المسلك – يأتي إن شاء الله تعالى عند ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت ﴾ [الأنفال : 35] في الأنفال ما ينفع هنا فراجعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 620. 621 ﴾

" فائدة "

قال الماوردى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ . . . ﴾ الآية . في الفتنة هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني معذرتهم ، فسماها فتنة لحدوثها عن الفتنة ، قاله قتادة .

والثاني : عاقبة فتنتهم وهو شركهم .

والثالث : يعني بِلِيَّتُهم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة ، قاله أبو عبيد القاسم بن سلام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال السمرقندى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ وأصل الفتنة في اللغة : هو الاختبار .

ويقال : فتنت الذهب في النار إذا أدخلته لتعلم جودته وإنما سمي جوابهم فتنة لأنهم حين سئلوا ، اختبروا بما عندهم بالسؤال فلم يكن الجواب من ذلك الاختبار فتنة إلا هذا القول .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ أصل معنى الفتنة على ما حققه الراغب من الفتن وهو إدخال الذهب النار لتعلم جودته من رداءته ثم استعمل في معان كالعذاب والاختبار والبلية والمصيبة والكفر والإثم والضلال والمعذرة ، واختلف في المراد هنا فقيل : الشرك ، واختار هذا القول الزجاج ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وكأن التعبير عن الشرك بالفتنة أنها ما تفتتن به ويعجبك وهم كانوا معجبين بكفرهم مفتخرين به .

والكلام حينئذ إما على حذف مضاف كما يقتضيه ظاهر كلام البعض ، وإما على جعل عاقبة الشيء عينه ادعاء وهو أحلى مذاقاً وأبعد مغزى والحصر إضافي بالنسبة إلى جنس الأقوال أو ادعائي .

(35/229)

وقوله تعالى : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ كناية عن التبري عن الشرك وانتفاء التدين به أي ثم لم يكن عاقبة شركهم شيئاً إلا تبرئهم منه ، ونص الزجاج أن مثل ما في الآية أن ترى

إنساناً يحب غاوياً فإذا وقع في مهلكة تبرأ منه فيقال له : ما كان محبتك لفلان إلا أن تبرأت منه وليس ذلك من قبيل عتابك السيف ولا من تقدير المضاف وإن صح ذلك فيه وهو معنى حسن لطيف لا يعرفه إلا من عرف كلام العرب ، وقيل : المراد بها العذر واستعملت فيه لأنها على ما تقدم التخليص من الغش والعذر يخلص من الذنب فاستعيرت له .

وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً وأبي عبد الله وقتادة ومحمد بن كعب رضي الله تعالى عنهم ، وقيل : الجواب بما هو كذب .

ووجه الإطلاق أنه سبب الفتنة فتجوز بها عنه إطلاقاً للمسبب على السبب ، ويحتمل أن يكون هناك إستعارة لأن الجواب مخلص لهم أيضاً كالمعذرة .

قيل : والحصر على هذين القولين حقيقي والجملة القسمية على ظاهرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ عطف على جملة ﴿ ثم نقول ﴾ و(ثم) للترتيب الرتبي وهو الانتقال من خبر إلى خبر أعظم منه .

والفتنة أصلها الاختبار ، من قولهم : فتنَ الذهَب إذا اختبر خلوصه من الغلْث .

وتطلق على اضطراب الرأي من حصول خوف لا يصبر على مثله ، لأنّ مثل ذلك يدلّ على مقدار ثبات من يناله ، فقد يكون ذلك في حالة العيش ؛ وقد يكون في البغض والحبّ ؛ وقد

يكون في الاعتقاد والتفكير وارتباك الأمور .

وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ إنّما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ في سورة [البقرة : 102] .

﴿ وفتنتهم ﴾ هنا استثني منها ﴿ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ ، فذلك القول إمّا أن يكون من نوع ما استثني هو منه المحذوف في تفريغ الاستثناء ، فيكون المستثنى منه من الأقوال الموصوفة بأنّها فتنة .

(36/229)

فالتقدير : لم يكن لهم قول هو فتنة لهم إلاّ قولهم ﴿ والله ربّنا ما كنا مشركين ﴾ .

وإمّا أن يكون القول المستثنى دالاً على فتنتهم ، أي على أنّهم في فتنة حين قالوه .

وأيّاً ما كان فقولهم : ﴿ والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ متضمّن أنّهم مفتونون حينئذٍ .

وعلى ذلك تحتمل الفتنة أن تكون بمعنى اضطراب الرأي والحيرة في الأمر ، ويكون في الكلام إيجاز .

والتقدير : فافتتنوا في ماذا يجيبون ، فكان جوابهم أن قالوا : ﴿ والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ فعدل عن المقدّر إلى هذا التركيب لأنّه قد علم أنّ جوابهم ذلك هو فتنتهم لأنّه أثرها

ومظهرها .

ويحتمل أن يراد بالفتنة جوابهم الكاذب لأنّه يفضي إلى فتنة صاحبه ، أي تجريب حالة نفسه .

ويحتمل أن تكون أطلقت على معناها الأصلي وهو الاختبار .

والمراد به السؤال لأنّ السؤال اختبار عمّا عند المسؤول من العلم ، أو من الصدق وضدّه ، ويتعيّن حينئذٍ تقدير مضاف ، أي لم يكن جواب فتنتهم ، أي سؤالهم عن حال إشراكهم إلاّ أن قالوا : ﴿ والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ بالتاء المنقطة من فوق وفتنتهم بالرفع ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنِ ﴾ بالياء وفتنتهم بالنصب ، وأما القراءة بالتاء المنقطة من فوق ونصب الفتنة ، فههنا قوله أن قالوا : في محل الرفع لسكونه اسم تكن ، وإنما أنث لتأنيث الخبر كقوله من كانت أمك أو لأن ما قالوا : فتنة في المعنى ، ويجوز تأويل إلا أن قالوا لا مقالتهم وأما القراءة بالياء المنقطة من تحت ، ونصب فتنتهم ، فههنا قوله أن قالوا : في محل الرفع لكونه اسم يكن ، وفتنتهم هو الخبر .

قال الواحدي : الاختيار قراءة من جعل أن قالوا الاسم دون الخبر لأن أن إذا وصلت بالفعل لم توصف فأشبهت بامتناع وصفها المضمر ، فكما أن المظهر والمضمر ، إذا اجتمعا كان جعل المضمر اسماً أولى من جعله خبراً ، فكذا ههنا تقول كنت القائم ، فجعلت المضمر اسماً والمظهر خبراً فكذا ههنا ، وتقول قراءة حمزة والكسائي : والله ربنا بنصب قوله ربنا لوجيهن : أحدهما : بإضمار أعني وأذكر ، والثاني : على النداء ، أي والله يا ربنا ، والباقون بكسر الباء على أنه صفة لله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 150 . 151 ﴾

وقال الآلوسى :

و ﴿ تَكُنْ ﴾ بالتاء الفوقانية ، و ﴿ فِتْنَتُهُمْ ﴾ بالرفع قراءة ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ يَكُنِ ﴾ بالياء التحتانية و ﴿ فِتْنَتُهُمْ ﴾ بالنصب ، وكذا قرأ ﴿ رَبَّنَا ﴾ بالنصب على النداء أو المدح .

وقرىء في الشواذ ﴿ رَبَّنَا ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وهو توطئة لنفي إشراكهم

وفائدته رفع توهم أن يكون نفي الإشراك بنفي الإلهية عنه تقدس وتعالى .

وقرأ الباقون بالتاء من فوق ونصب ﴿ فِتْنَتُهُمْ ﴾ أيضاً ، وخرجوا قراءة الأولين على أن ﴿ فِتْنَتُهُمْ ﴾ اسم ﴿ تَكُنْ ﴾ وتأنيث الفعل لإسناده إلى مؤنث و ﴿ أَن قَالُواْ ﴾ خبره .

وقرأ حمزة والكسائي على أن ﴿ أَن قَالُواْ ﴾ هو الاسم ولم يؤنث الفعل لإسناده إلى مذكر و ﴿ فِتْنَتُهُمْ ﴾ هو الخبر .

وقراءة الباقين على نحو هذا خلا أن التأنيث فيها بناء على مذهب الكوفيين فإنهم يجيزون في سعة الكلام تأنيث اسم كان إذا كان مصدراً مذكراً وكان الخبر مؤنثاً مقدماً كقوله : وقد خاب من كانت سريرته العذر . . .

(38/229)

ويستشهدون على ذلك بهذه القراءة ، وذهب البصريون إلى أن ذلك ضرورة ، وقيل : إن التأنيث على معنى المقالة وهو من قبيل جاءته كتابي أي رسالتي ولا يخفى أن هذا قليل في كلامهم ، وقال الزمخشري ونقل بعينه عن أبي علي : "إن ذلك من قبيل من كانت أمك" ؟ ونوقش بما لا طائل فيه ، وزعم بعضهم أن القراءتين الأخيرتين أفصح من القراءة الأولى لأن فيها جعل الأعرف خبرا وغير الأعرف اسماً لأن ﴿ أَن قَالُواْ ﴾ يشبه المضمر والمضمر

أعرف المعارف وهو خلاف الشائع المعروف دونهما وفيه نظر إذ لا يلزم من مشابهة شيء لشيء في حكم مشابهته له في جميع الأحكام ، والجملة على سائر القراءات عطف على الفعل المقدر العامل في ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ [الأنعام : 22] الخ على ما مرت الإشارة إليه .

وجعلها غير واحد عطفاً على الجملة قبلها .

و ﴿ ثُمَّ ﴾ إما على ظاهرها بناء على القول الأول وإما للتراخي في الرتبة بناء على القولين الأخيرين لأن معذرتهم أو جوابهم هذا أعظم من التوبيخ السابق .

وأنت تعلم أنه لا ضرورة للعدول عن الظاهر لجواز أن يكون هناك تراخ في الزمان بناء على أن الموقف عظيم فيمكن أن يقال : إنهم لما عاينوا هول ذلك اليوم وتجلى الملك الجبار جل جلاله عليهم بصفة الجلال كما ينبىء عنه الجملة السابقة حاروا ودهشوا فلم يستطيعوا الجواب إلا بعد زمان .

ومما ينبىء على دهشتهم وحيرتهم أنهم كذبوا وحلفوا في كلامهم هذا ولو لم يكونوا حيارى مدهوشين لما قالوا الذي قالوا لأن الحقائق تنكشف يوم القيامة فإذا اطلع أهلها عليها وعلى أنها لا تخفى عليه سبحانه وأنه لا منفعة لهم في مثل ذلك استحال صدوره عنهم .

وللغفلة عن بناء الأمر عن الدهشة والحيرة منع الجبائي والقاضي ومن وافقهما جواز الكذب على أهل القيامة مستدلين بما ذكرنا .

وأجابوا عن الآية بأن المعنى ما كنا مشركين في اعتقادنا وظنوننا وذلك لأنهم كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم موحدون متباعدون عن الشرك .

(39/229)

واعترضوا على أنفسهم بأنهم على هذا التقدير يكونون صادقين فيما أخبروا . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقرأ الجمهور ﴿ لم تكن ﴾ بتاء تأنيث حرف المضارعة .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، ويعقوب بياء المضارعة للغائبة باعتبار أنّ ﴿ قالوا ﴾ هو اسم (كان) .

وقرأ الجمهور ﴿ فتنتهم ﴾ بالنصب على أنّه خبر (كان) ، فتكون (كان) ناقصة واسمها ﴿ إلاّ أن قالوا ﴾ وإنّما أخّر عن الخبر لأنّه محصور .

وقرأه ابن كثير ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم بالرفع على أنّه اسم (كان) و ﴿ أنْ قالوا ﴾ خبر (كان) ، فتجعل (كان) تامّة .

والمعنى لم توجد فتنة لهم إلاّ قولهم : ﴿ والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ ، أي لم تقع فتنتهم إلاّ

أن نفوْا أنّهم أشركوا .

ووجه اتّصال الفعل بعلامة مضارعة للمؤنّث على قراءة نصب ﴿ فتنتهم ﴾ هو أنّ فاعله مؤنَّث تقديراً ، لأنّ القول المنسبك من (أن) وصلتها من جملة الفتنة على أحد التأويلين .

قال أبو علي الفارسي : وذلك نظير التأنيث في اسم العدد في قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] ، لأنّ الأمثال لمّا كانت في معنى الحسنات أنّث اسم عددها .

وقرأ الجمهور ﴿ ربّنا ﴾ بالجرّ على الصفة لاسم الجلالة .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف بالنصب على النداء بحذف حرفه .

وذكرُهم الربّ بالإضافة إلى ضميرهم مبالغة في التنصّل من الشرك ، أي لا ربّ لنا غيره .

وقد كذّبوا وحلفوا على الكذب جرياً على سننهم الذي كانوا عليه في الحياة ، لأنّ المرء يحشر على ما عاش عليه ، ولأنّ الحيرة والدهش الذي أصابهم خيّل إليهم أنّهم يموّهون على الله تعالى فيتخلّصون من العقاب .

ولا مانع من صدور الكذب مع ظهور الحقيقة يومئذٍ ، لأنّ الحقائق تظهر لهم وهم يحسبون أنّ غيرهم لا تظهر له ، ولأنّ هذا إخبار منهم عن أمر غائب عن ذلك اليوم فإنّهم أخبروا عن أمورهم في الدنيا .

وفي "صحيح البخاري" : أنّ رجلاً قال لابن عباس : إنِّي أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ ، فذكر منها قوله : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ [النساء : 42] وقوله : ﴿ والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ .

فقد كتموا في هذه الآية .

فقال ابن عباس : إنّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فيقول المشركون تعالوا نقل : ما كنّا مشركين ، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم ، فعند ذلك عرفوا أنّ الله لا يُكتم حديثاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام وتصرف العرب في ذلك ، وذلك أن الله تعالى بيّن كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين على حبه ، فاعلم في هذه الآية أنه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه ، إلا أن تبرؤا منه وتباعدوا عنه ، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين : ومثاله أن ترى إنساناً يحب عارياً مذموم الطريقة فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له ما كانت محبتك لفلان ، إلا أن انتفيت منه فالمراد بالفتنة ههنا افتتانهم بالأوثان ، ويتأكد هذا الوجه بما روى عطاء عن ابن عباس : أنه قال

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ معناه شركهم في الدنيا ، وهذا القول راجع إلى حذف المضاف لأن المعنى ثم لم تكن عاقبة فتنتهم إلا البراءة ، ومثله قولك ما كانت محبتك لفلان ، إلا أن فررت منه وتركته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 151 ﴾

(41/229)

سؤال : فإن قيل : كيف يجحدونه وقد قال الله ولا يكتمون الله حديثاً ؟ فالجواب أن ذلك يختلف باختلاف طوائف الناس واختلاف المواطن ، فيكتم قوم ويقر آخرون ، ويكتمون في موطن ويقرون في موطن آخر ، لأن يوم القيامة طويل وقد قال ابن عباس لما سئل عن هذا السؤال : إنهم جحدوا طمعاً في النجاة ، فختم الله على أفواههم ، وتكلمت جوارحهم فلا يكتمون الله حديثاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 5 ﴾

(42/229)

فصل

قال الفخر :

ظاهر الآية يقتضي : أنهم حلفوا في القيامة على أنهم ما كانوا مشركين ، وهذا يقتضي إقدامهم على الكذب يوم القيامة ، وللناس فيه قولان : الأول : وهو قول أبي علي الجبائي ، والقاضي : أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب واحتجا عليه بوجوه : الأول : أن أهل القيامة يرعفون الله تعالى بالاضطرار ، إذ لو يعرفون بالاستدلال لصار موقف القيامة دار التكليف ، وذلك باطل ، وإذا كانوا عارفين بالله على سبيل الاضطرار ، وجب أن يكونوا ملجئين إلى أن لا يفعلوا القبيح بمعنى أنهم يعلمون أنهم لو راموا فعل القبيح لمنعهم الله منه لأن مع زوال التكليف لو لم يحصل هذا المعنى لكان ذلك إطلاقهم في فعل القبيح ، وأنه لا يجوز ، فثبت أن أهل القيامة يعلمون الله بالاضطرار ، وثبت أنه متى كان كذلك كانوا ملجئين إلى ترك القبيح ، وذلك يقتضي أنه لا يقدم أحد من أهل القيامة على فعل القبيح .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إنه لا يجوز منهم فعل القبيح ، إذا كانوا عقلاء إلا أنا نقول : لم لا يجوز أن يقال : إنه وقع منهم هذا الكذب لأنهم لما عاينوا أهوال القيامة اضطربت عقولهم ، فقالوا : هذا القول الكذب عند اختلال عقولهم ، أو يقال : إنهم نسوا كونهم مشركين في الدنيا .

والجواب عن الأول : أنه تعالى لا يجوز أن يحشرهم : ويورد عليهم التوبيخ بقوله ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ ﴾ [الأنعام : 22] ثم يحكي عنهم ما يجري مجرى الاعتذار مع أنهم غير عقلاء

، لأن هذا لا يليق بحكمة الله تعالى ، وأيضاً فالمكلفون لا بدّ وأن يكونوا عقلاء يوم القيامة ، ليعلموا أنهم بما يعاملهم الله به غير مظلومين .

(43/229)

والجواب عن الثاني : أن النسيان : لما كانوا عليه في دار الدنيا مع كمال العقل بعيد لأن العاقل لا يجوز أن ينسى مثل هذه الأحوال ، وإن بعد العهد ، وإنما يجوز أن ينسى اليسير من الأمور ولولا أن الأمر كذلك لجوزنا أن يكون العاقل قد مارس الولايات العظيمة دهراً طويلاً ، ومع ذلك فقد نسيه ، ومعلوم أن تجويزه يوجب السفسطة .

الحجة الثانية : أن القوم الذين أقدموا على ذلك الكذب إما أن يقال : إنهم ما كانوا عقلاء أو كانوا عقلاء ، فإن قلنا إنهم ما كانوا عقلاء فهذا باطل لأنه لا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي كلام المجانين في معرض تمهيد العذر ، وإن قلنا إنهم كانوا عقلاء فهم يعلمون أن لله تعالى عالم بأحوالهم ، مطلع على أفعالهم ويعلمون أن تجويز الكذب على الله محال ، وأنهم لا يستفيدون بذلك الكذب إلا زيادة المقت والغضب وإذا كان الأمر كذلك امتنع إقدامهم في مثل هذه الحالة على الكذب .

الحجة الثالثة : أنهم لو كذبوا في موقف القيامة ثم حلفوا على ذلك الكذب لكانوا قد أقدموا

على هذين النوعين من القبح والذنب وذلك يوجب العقاب ، فتصير الدار الآخرة دار التكليف ، وقد أجمعوا على أنه ليس الأمر كذلك ، وأما إن قيل إنهم لا يستحقون على ذلك الكذب ، وعلى ذلك الحلف الكاذب عقاباً وذماً ، فهذا يقتضي حصول الإذن من الله تعالى في ارتكاب القبائح والذنوب ، وأنه باطل ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز إقدام أهل القيامة على القبيح والكذب .

وإذا ثبت هذا : فعند ذلك قالوا يحمل قوله ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ أي ما كنا مشركين في اعتقادنا وظنوننا ، وذلك لأن القوم كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم كانوا موحدين متباعدين من الشرك .

(44/229)

فإن قيل : فعلى هذا التقدير : يكونون صادقين فيما أخبروا عنه لأنهم أخبروا بأنهم كانوا غير مشركين عد أنفسهم ، فلماذا قال الله تعالى ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ ولنا أنه ليس تحت قوله ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ أنهم كذبوا فيما تقدم ذكره من قوله ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ حتى يلزمنا هذا السؤال بل يجوز أن يكون المراد انظر كيف كذبوا على أنفسهم في دار الدنيا في أمور كانوا يخبرون عنها كقولهم : إنهم على صواب وإن

ما هم عليه ليس بشرك والكذب يصح عليهم في دار الدنيا ، وإنما ينفى ذلك عنهم في الآخرة ، والحاصل أن المقصود من قوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ اختلاف الحالين ، وأنهم في دار الدنيا كانوا يكذبون ولا يحترزون عنه وأنهم في الآخرة يحترزون عن الكذب ولكن حيث لا ينفعهم الصدق فلتعلق أحد الأمرين بالآخر أظهر الله تعالى للرسول ذلك وبين أن القوم لأجل شركهم كيف يكون حالهم في الآخرة عند الاعتذار مع أنهم كانوا في دار الدنيا يكذبون على أنفسهم ويزعمون أنهم على صواب .

هذا جملة كلام القاضي في تقرير القول الذي اختاره أبو علي الجبائي .

والقول الثاني : وهو قول جمهور المفسرين أن الكفار يكذبون في هذا القول قالوا : والدليل على أن الكفار قد يكذبون في القيامة وجوه :

الأول : أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظالمون ﴾ [المؤمنون : 107] مع أنه تعالى أخبر عنهم بقوله ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] والثاني : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَىْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ [المجادلة : 18] بعد قوله ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب ﴾ [المجادلة : 14] فشبّه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا .

والثالث : قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : 19] وكل ذلك يدل على إقدامهم في بعض الأوقات على الكذب .

والرابع : قوله حكاية عنهم ﴿ وَنَادَوْاْ يا مالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : 77] وقد علموا أنه تعالى لا يقضي عليهم بالخلاص .

والخامس : أنه تعالى في هذه الآية حكى عنهم أَنَّهُمْ قَالُواْ ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وحمل هذا على أن المراد ما كنا مشركين في ظنوننا وعقائدنا مخالفة للظاهر .

ثم حمل قوله بعد ذلك ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ على أنهم كذبوا في الدنيا يوجب فك نظم الآية ، وصرف أول الآية إلى أحوال القيامة وصرف آخرها إلى أحوال الدنيا وهو في غاية البعد .

أما قوله إما أن يكونوا قد كذبوا حال كمال العقل أو حال نقصان العقل فنقول : لا يبعد أن يقال إنهم حال ما عاينوا أهوال القيامة ، وشاهدوا موجبات الخوف الشديد اختلت عقولهم فذكروا هذا الكلام في ذلك الوقت وقوله : كيف يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عنهم ما ذكروه في حال اضطراب العقول ، فهذا يوجب الخوف الشديد عند سماع هذا الكلام حال كونهم في الدنيا ولا مقصود من تنزيل هذه الآيات إلا ذلك .

وأما قوله ثانياً المكلفون لا بدّ أن يكونوا عقلاء يوم القيامة فنقول : اختلال عقولهم ساعة

واحدة حال ما يتكلمون بهذا الكلام لا يمنع من كمال عقولهم في سائر الأوقات .

فهذا تمام الكلام في هذه المسألة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 153.151 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ تبدأوا بذلك من شركهم ، فإن قيل : كيف كذبوا في الآخرة بجحود الشرك ولا يصح منهم الكذب في الآخرة لأمرين :

أحدهما : أنه لا ينفعهم .

(46/229)

والثاني : أنهم مصروفون عن القبائح ملجؤون إلى تركها لإِزالة التكليف عنهم ، ولو لم يلجؤوا إلى ترك القبيح ويصرفوا عنه مع كما عقولهم وجب تكليفهم ليقلعوا به عن القبيح ، وفي عدم تكليفهم دليل على إلجائهم إلى تركه .

قيل : عن ذلك جوابان .

أحدهما : أن قولهم ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ أي في الدنيا عند أنفسنا لاعتقادنا فيها أننا على صواب ، وإن ظهر لنا خطؤه الآن ، فلم يكن ذلك منهم كذباً ، قاله قطرب .

والثاني : أن الآخرة مواطن ، فموطن لا يعلمون ذلك فيه ولا يضطرون إليه ، وموطن يعلمون ذلك فيه ويضطرون إليه ، فقالوا ذلك في الموطن الأول ، قاله بعض متأخري المتكلمين .

وهذا ليس بصحيح لأنه يقتضي أن يكونوا في الموطن الأول مكلفين لعدم الإِلجاء والاضطرار ، وفي الموطن الثاني غير مكلفين .

وقد يعتل الجواب الأول بقوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ فأخبر عنهم بالكذب ، وهم على الجواب الأول غير كاذبين .

وقد أُجِيب عن هذا الاعتراض بجواب ثالث ، وهو أنهم أنكروا بألسنتهم ، فلما نطقت جوارحهم أقروا ، وفي هذا الجواب دخل لأنه قد كذبوا نُطْقَ الجوارح .

﴿ وَضَلَّ عَنهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بسوء كذبهم وجحودهم .

والثاني : فضلت عنهم أوثانهم التي افتروا على الله بعبادتها ، والافتراء : تحسين الكذب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(47/229)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

والفَتْن : الفَنّ ، والحال ، والإحراق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ .

والمفتون والفِتْنة : الخِبْرة ، مصدر كالمعقول والمجلود .

ومنه قوله تعالى : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ .

والفِتْنَة أَيضاً : إعجابك بالشىءِ ، فَتَنَهُ يفتِنه فَتْنًا وفُتُونًا ، وأَفتنه .

وأَصل الفتنة إدخال الذَّهب النارَ ليُختَبَر جودته ، والجمع : فِتَن ، قال :

*وفيك لنا فِتَنٌ أَرْبعٌ * تسُلّ علينا سيوف الخوارج*

لِحاظُ الظِّباء وطوق الحمام * ومشىُ القِباجِ وزىُّ التَّدارج*

وقد / ورد فى القرآن على اثنى عشر وجهاً :

(1) بمعنى العذاب : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ .

(2) وبمعنى الشّرك : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ .

(3) وبمعنى الكفر : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ ﴾ ، ﴿ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ ، ﴿ وَلَاكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَى كفرتم .

(4) وبمعنى الإِثم ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أَى إِثم ،

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ فى الإِثم .

(5) وبمعنى العذاب : ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ أَى عُذّبوا .

(6) وبمعنى البلاءِ والمِحْنَة : ﴿ أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ أَى يُبْتَلُونَ ، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ : امتحنَّاهُمْ ، ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ أَى بلوناك .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ أَى ابتليناهم .

(7) وبمعنى التعذيب والحُرقة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَى عذَّبوهم ، ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ : حُرَقكم .

(8) وبمعنى القتل والهلاك : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَى يقتلكم ، ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ أَى يقتلهم .

(48/229)

---

(9) وبمعنى الصدّ عن الصراط المستقيم : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ ، ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾ أَى يصدّوكَ .

وقيل : يوقعوك فى بليّة وشدّة فى صرفهم إيّاك عمّا أُوحى إليك .

(10) وبمعنى الحَيرة والضَّلال : ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴾ أَى بضالّين ، ﴿ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ

فِتْنَتَهُ ﴾ أَى ضلالته .

(11) وبمعنى العُذْر وَالعِلّة : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ أَى عذرهم .

(12) وبمعنى الجنون والغفلة : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ أَى الجنون .

وقيل التقدير : أَيكم المفتون والباء زائدة كقوله : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ ﴾

والفتنة والبلاءُ يستعملان فيما يُدفع إليه الإِنسان من شدّة ورخاء .

وهما فى الشدّة أَظهر معنى وأَكثر استعمالاً .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ ﴾ إِشارة إِلى ما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ .

والفتنة من الأَفعال التى تكون من الله تعالى ، ومن العبد ؛ كالبليّة والمصيبة ،

والقتل ، والعذاب ونحوه من الأَفعال المكروهة .

ومتى كان من الله إِنَّما يكون على وجه الحكمة ، ومتى كان من الإِنسان بغير أَمر الله يكون

ضدّ ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 166 . 169 ﴾

(49/229)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم "ثم لم تكن" بالتاء "فتنتُهم" بالرفع .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر ، عن عاصم : "تكن" بالتاء أيضا "فتنتَهم" بالنصب ؛ وقد رُويت عن ابن كثير ايضاً .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، "يكن" بالياء ، "فتنتَهم" بالنصب .

وفي "الفتنة" أربعة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى : الكلام والقول .

قال ابن عباس ، والضحاك ، لم يكن كلامُهُم .

والثاني : أنها المعذرة ، قال قتادة ، وابن زيد : لم تكن معذرتهم .

قال ابن الأنباري : فالمعنى : اعتذروا بما هو مُهْلِكٌ لهم ، وسبب لفضيحتهم .

والثالث : أنها بمعنى : البلية .

قال عطاء الخراساني : لم تكن بليتهم وقال ابو عبيد : لم تكن بليتهم التي ألزمتهم الحجة ، وزادتهم لائمة .

والرابع : أنها بمعنى الافتتان .

والمعنى : لم تكن عاقبة فتنتهم .

قال الزجاج : لم يكن افتتانهم بشركهم ، وإقامتهم عليه ، إلا أن تبرؤوا منه .

ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنسانا يحب غاوياً ، فاذا وقع في هَلَكَةٍ تبرأ منه ؛ فيقول ما كانت محبتك لفلانٍ إلا أن انتفيت منه .

قال : وهذا تأويل لطيف ، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام ، وتصرُّفَ العربِ في ذلك .

وقال ابن الأنباري : المعنى : أنهم افتتنوا بقولهم هذا ، إذا كذبوا فيه ، ونفوَا عن أنفسهم ما كانوا معروفين به في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إلا أن قالوا واللهِ ربِّنا ما كنا مشركين ﴾ .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : "واللهِ ربِّنا" بكسر الباء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، بنصب الراء .

وفي هؤلاء القوم الذين هذا وصفهم قولان .

أحدهما : أنهم المشركون ، والثاني : المنافقون .

ومتى يحلفون ؟ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مسلماً ، قالوا : تعالوا نكابر عن شركنا ، فحلفوا ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم إذا دخلوا النار ، ورأوا أهل التوحيد يخرجون ، حلفوا [واعتذروا] ، قاله

سعيد بن جبير ، ومجاهد .

والثالث : أنهم إذا سئلوا : أين شركاؤكم ؟ تبرؤوا ، وحلفوا : ما كنا مشركين ، قاله مقاتل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(50/229)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ الفتنة الاختبار أي لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال ، ورأوا الحقائق ، وارتفعت الدواعي ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ تبرءوا من الشّرك وانتفَوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين .

قال ابن عباس : يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم ، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره ، فإذا رأى المشركون ذلك ؛ قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشّرك فتعالَوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين ؛ فقال الله تعالى : أما إذْ كتموا الشّرك فاختموا على أفواهِهم ، فيختم على أَفواهِهم ، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يُكتَم حديثاً ؛ فذلك قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ

تسوى بِهِمُ الأرض وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] .

وقال أبو إسحاق الزجاج : تأويل هذه الآية لطيف جداً ، أخبر الله عزّ وجلّ بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم ، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلاَّ أن انتفوا من الشِّرك ، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنساناً يُحبُّ غاوياً فإذا وقع في هَلَكة تبرأ منه ، فيقال : ما كانت محبتك إياه إلاَّ أن تبرأت منه .

وقال الحسن : هذا خاص بالمنافقين جروا على عادتهم في الدنيا ، ومعنى "فِتْنَتُهُمْ" عاقبة فتنتهم أي كفرهم .

وقال قَتَادة : معناه معذرتهم .

(51/229)

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هُريرة قال : " فيلقى العبدَ فيقول أي فُلْ ألم أُكرمْك وأُسودْك وأُزوّجْك وأُسخر لك الخيلَ والإبل وأَذرْكَ تَرْأَس وتَرْبَع فيقول بلى أي رب فيقول أفظننت أنك مُلاقِيّ فيقول لا فيقول إني أنساك كما نَسِيتني ثم يلقى الثاني فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصَلَّيتُ وصُمتُ وتَصدقتُ ويُثني بخير ما استطاع قال فيقال ها هنا إذاً ثم يقال

له الآن نَبعثُ شاهداً عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيُختَم على فِيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذُه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي سخط الله عليه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(52/229)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) ﴾

ونعرف أن الفتنة هي الاختبار . وللفتنة وسائل متعددة ؛ فأنت تختبر الشيء لتعرف الرديء من الجيد ، والحقيقي من المزيف . ونحن نختبر الذهب ونفتنه على النار وكذلك الفضة . وهكذا نرى أن الفتنة في ذاتها غير مذمومة ، لكن المذموم والممدوح هو النتيجة التي نحصل عليها من الفتنة ؛ فالامتحانات التي نضعها لأبنائنا هي فتنة ، ومن ينجح في هذا الامتحان يفرح ومن يرسب يحزن . إذن فالنتيجة هي التي يفرح بها الإنسان أو التي يحزن من أجلها الإنسان ، وبذلك تكون الفتنة أمراً مطلوباً فيمن له اختيار . وأحياناً تطلق الفتنة

على الشيء الذي يستولي على الإنسان بباطل .

إن الحق يحشر المشركين مع آلهتهم التي أشركوا بها ويسألهم عن هذه الآلهة فيقولون : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . وهم في ظاهر الأمر يدافعون عن أنفسهم ، وفي باطن الأمر يعرفون الحقيقة الكاملة وهي أن المُلْك كله الله ، ففي اليوم الآخر لا شركاء لله ؛ ذلك أنه لا اختيار للإنسان في اليوم الآخر . ولكن عندما كان للإنسان اختيار في الدنيا فقد كان أمامه أن يؤمن أو يكفر . وإيمان الدنيا الناتج عن الاختيار هو الذي يقام عليه حساب اليوم الآخر ، أما إيمان الاضطرار في اليوم الآخر فلا جزاء عليه إلا جهنم لمن كفر أو أشرك بالله في الدنيا . ولو أراد الله لنا جميعاً إيمان الاضطرار في الدنيا لأرغمنا على طاعته مثلما فعل مع الملائكة ومع سائر خلقه .

لقد قهر الحق سبحانه كل أجناس الوجود ما عدا الإنسان ، وكان القهر للأجناس لإثبات القدرة ، ولكن التكريم للإنسان جاء بالاختيار ليذهب إلى الله بالمحبة .

(53/229)

والمشركون بالله يفاجئهم الحق يوم القيامة بأنه لا إله إلا هو ، ويحاولون الكذب لمحاولة الإفلات من العقوبة فيقولون : ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . وهم قد كذبوا بالله في الحياة فعلاً

ويريدون الكذب على الله في اليوم الآخر قولاً ، ولكن الله عليهم بخفايا الصدور وما كان من السلوك في الحياة الدنيا ، ويوضح لهم في الآخرة أعمالهم ويعاقبهم العقاب الأليم .

وحين يسألهم الحق : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾ ؟ ففي هذا القول استفهام من الله ، والاستفهام من العليم لا يقصد منه العلم ، وإنما يقصد به الإقرار مِن المسئول . وفي حياتنا اليومية يمكننا أن نرى السؤال من التلميذ لأستاذه ؛ ليعلم التلميذ ما يجهل . ونرى السؤال يرد مرة بعد أخرى من الاستاذ لتلميذه لا ليعلم ما لم يعلم ، ولكن ليقرر التلميذ بما يعلمه وبما تعلمه من أستاذه . فإذا سأل الحق خلقه سؤالاً ، أيسألهم سبحانه ليعلم ؟ حاشا لله أن يكون الأمر كذلك . وإنما يسأل الحق عباده ليكون سؤال إقرار . والإقرار هنا فيه تبكيت أيضاً ؛ لأنه سؤال لا جواب له ، فمعاذ الله أن يوجد له شركاء . وعندما يقول الحق لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾ ؟ فمعنى ذلك هو الاستبعاد أن يوجد له سبحانه شركاء .

وبذلك يوبخهم ويبكتهم الحق على أنهم أشركوا بالله ما لا وجود له .

لقد أشركوا بالله في الدنيا لمجرد التخلص من موجبات الإيمان . وها هم أولاء في المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم في الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك في موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول في حق مثل هؤلاء :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 34-36] .

(54/229)

إنهم في يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا ، وهم لا ينطقون بأي قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعذاراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذي ينتظرهم ، وهم يقعون في الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب في اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق في بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [النور : 39] .

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله في الدنيا

بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد في الآخرة . وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذي يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما أن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوي شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة . ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه . وهذا الإنكار لون من الكذب .

(55/229)

إن المشركين يكذبون ، ويقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ [المجادلة : 18] . وحين يبعثهم الحق يوم القيامة يقسمون له أنهم كانوا مؤمنين كما كانوا يقسمون في الدنيا ، لكن الله يصفهم بالكذب ، لقد كان بإمكانهم أن يدلسوا على البشر بالحلف الكاذب في الدنيا ، ولكن ماذا عن الله الذي لا يمكن أن يدلس عليه أحد .

وهكذا نرى أن فتنة هؤلاء هي فتنة كبرى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ حمزة والكسائي : "يَكُنْ" بالياء من تحت ، " فتنتهم " نَصْباً .

وابن كثير ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : " تَكُنْ " بالتاء من فوق ، " فَتْنَتُهُمْ " رفعاً .

والباقون بالتاء من فوق أيضاً ، " فِتنتَهم " نصباً .

فأمَّا قراءة الأخوَيْنِ فهي أفْصَحُ هذه القراءات لإجرائِهَا على القواعد من غير تأويل ، وَوَجْهُهَا أنَّ " فتنتهم " خبر مقدَّمٌ ، وإن قالوا بتاويل اسم مؤخر .

والتقدير : " ثم لم تكن فِتْنَتُهُمْ إلاَّ قولُهم " .

وإنما كانت أفصحٍ ؛ لأنه إذا اجتمع اسْمَانِ : أحدهما أعرفُ ، فالأحْسَنُ جعله اسماً مُحَدَّثاً عنه ، والآخر خَبَراً حديثاً عنه .

و " أن قالوا " يشبه المضمر ، والمضمر أعرف المعارف ، وهذه القراءة جُعِلَ الأعرفُ فيها اسْماً لـ " كان " وغير الأعرافِ خبرها ، ولم يؤنّث الفعل لإسناده إلى مذكر .

قال الواحدي : والاختبارُ قراءة من جعل " أن قالوا " اسم ذوي الخبر ؛ لأنه إذا وصلت

بالفعل لم تُوصَفْ ، فأشبهت بامتناع وَصْفِهَا المُضْمَرِ ، فكما أنَّ المُضْمَرَ ، والمظهر إذا اجتمعا كان جَعْلُ المضمر اسماً أَوْلَى من جعله خبراً ، تقول : كنت القائم .

وأما قراءة ابن كثير ومن معه فى " فتنتهم " اسْمُهَا ، ولذلك أُنِّثَ الفِعلُ لإسناده إلى مؤنَّثٍ ، و " إلاَّ أَنْ قالوا " خَبَرُهَا ، وفيه أنك جعلت غير الأعرف اسماً ن والأعرف خبراً ، فليست في قُوَّةِ الأولَى .

وأمَّا قراءةُ الباقين فى " فتنتهم " خبر مقدمٌ و " إلاَّ أن قالوا " اسم مؤخَّرٌ ، وهذه القراءةُ وإن كان فيها جَعْلُ الأعْرَفِ اسْماً - كالقراءة الأولى ، إلا أنَّ فيها لِحَاقُ علامَةِ تأنيث في الفعل مع تذكير الفاعل ، ولكنه بتأويل .

فقيل : لأنه قوله : " إلاَّ أَنْ قالوا " في قوة مقالتهم .

وقيل : لأنه هو الفِتْنَةُ في المعنى ، وإذا أخبر عن الشَّيءِ بمؤنَّثٍ اكتسب تأنيثاً ، فعومل مُعامَلتهُ .

وجعل أبو علي منه ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] لَمَّا كانت الأمْثَالُ هي الحَسَنَاتُ في المعنى عُومِلَ مُعَامَلَةَ المُؤَنَّثِ ، فسقطت " التاء " من عَدَدِهِ ، ومثلُ الآية قوله : [الطويل]

2124 - أَلَمْ يَكُ غَدْراً مَا فَعَلْتُمْ بِسَمْعَلٍ . . .

وَقَدْ خَابَ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتَه الغَدْرُ

ف "كانت" مُسْند إلى "الغَدْرِ" وهو مذكَّر، لكن لما أخبر عنه بمؤنث أَنَّث فِعلَه.

ومثله قول لَبيدٍ: [الكامل]

(57/229)

2125 - فَمَضَ وَقَدَّمِهَا وَكَانَتْ عَادَةً...

مِنْهُ إذَا هِيَ عَرَّدَتْ إقْدَامُهَا

قال أبو عَلِيّ: فأَنَّث الإقدام لما كان كالعادة في المعنى قال: وقد جاء في الكلام: "ما جاءَتْ حَاجَتُكَ" فأَنّث ضمير "ما" حيث كانت كالحاجة في المَعْنَى، ولذلك نصب "حاجتك".

وقال الزمخشري: "وإنما أَنَّث" [أن] قالوا "لوُقُوعِ الخبر مؤنّثاً كقولهم: من كانت أمّك".

قال أبو حيَّان: وكلام الزَّمخشري ملفقٌ من كلام أبي عَلِيّ، وأمَّا "من كانت أمك" فإنه حَمَلَ اسمَ "كان" على معنى "مَنْ" ن فإنَّ لها لَفْظاً مُفرداً مذكّراً، ولها معنى بحسب ما تريد من إفراد وتَثنيةٍ وجَمْعٍ وتذكيرٍ وتأنيثٍ، وليس الحَمْلُ على المعنى لِمُرعَاةِ الخَبَرِ، ألا ترى أنه يجيء حيث لا خبر، كقوله:

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ [يونس: 42].

وقوله : [الطويل]

2126 . . . . . .

تكُنْ مَثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ . . .

قال شهاب الدين – رحمه الله تعالى – : ليت شِعْري ، ولأي معنى خصَّ الزمخشري بهذا الاعتراض ، فإنه وَارِدٌ على أبي عَلِيّ أيضاً ؟ إذ لقائل أن يقول : التأنيثُ في " جَاءَتْ " لحمل على معنى " ما " وإنْ لها هي أيضاً لفظاً ومعنى مَثْل " مَنْ " ن على أنه يقال : للتأنيث عِلَّتانِ ، فذكر [إحداهما ، ورجَّح] أبو عُبيدة قراءة الأخويْن بقراءة أُبَيّ ، وابن مسعود : " وما كان فتنتهم إلاَّ أن قالوا " فلم يُلْحِق الفعل علامة تأنيثٍ ، ورجَّحها غيره بإجماعهم على نَصْبِ " حُجَّتَهم " من قوله تبارك وتعالى : ﴿ كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [الجاثية : 25] .

وقرئ شاذاً " ثم لم يكن فتنتهم إلا أنه قالوا " بتذكير " يكنْ " ، ورفع " فتنتهم " .

(58/229)

ووجه شُذُوذِهَا سقوط علامةِ التأنيث ، والفاعل مؤنّث لَفْظاً ، وإن كان غير حَقيقيّ ، وجَعْلُ غير الأعْرَفِ اسماً ، والأعرف خبراً ، فهي خبراً ، فهي عَكْسُ القراءة الأولى ، من

الطَّرَفَيْنِ ، و" أن قالوا "مما يجب تأخيرهِ لحصْرِهِ سواء أجُعِلَ اسماً أم خبراً .

قوله : " واللَّهِ رَبَّنَا " قرأ الأخوان : " ربَّنا " نَصْباً ، والباقون جراً .

ونصبه : إمَّا على النِّداء ، وإمَّا على النِّداء ، وإمَّا على المَدْح ، قاله ابن عطيَّة – رحمه الله – وإمَّا على إضْمَار " أعني " ، قاله أبو البقاء ، والتقدير : يا ربنا .

وعلى كُلِّ تقدير فالجملة مُعْتَرِضَةٌ بين القسم وجوابه ، وهو قوله ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

وخفضه من ثلاثة أوجه : النعت ، والبدل ، وعطف البَيان .

وقرأ عكرمة ، وسلام بن مسكين : " واللَّهُ رَبُّنا " برفعهما على المبتدأ والخبر .

قال ابن عطية : " وهذا على تَقدِيمٍ وتأخيرٍ ، كأنهم قالوا : واللَّهِ ما كُنَّا مشركين واللَّهُ رَبُّنَا " يعني : أن ثَمَّ قَسَماً مُضْمَراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 72 .

75 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) ﴾

هذا الذي أخبر عنهم غايةُ التمرد ؛ حيث جحدوا ما كَذَبُوا فيه وأقسموا عليه ، ولو كان لهم بالله عِلمٌ بأنه يعلم سِرَّهم ونجواهم ، ولا يخفى عليه شيءٌ من أُولاَهم وعُقباهم ، لكن

الجهل الغالب عليهم استنطقهم بما فيه فضائحهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 467 ﴾

(59/229)

قوله تعالى ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا من أعجب العجب ، أشار إليه بقوله : ﴿ انظر ﴾ وبالاستفهام في قوله : ﴿ كيف كذبوا ﴾ وبالإشارة إلى أنهم فعلوه مع علمهم بما انكشف لهم من الغطاء أنه لا يجديهم بقوله : ﴿ على أنفسهم ﴾ وهو نحو قوله ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ [المجادلة : 18] - الآية .

ولما كان قولهم هذا مرشداً إلى أن شركاءهم غابوا عنهم ، فلم ينفعوهم بنافعة ، وكان الإعلام بفوات ما أنهم مقبل عليه فرح به ، ساراً لخصمه جالباً لغمه ، صرح به في قوله : ﴿ وضل ﴾ أي غاب ﴿ عنهم ﴾ إما حقيقة أو مجازاً ، أو هما بالنظر إلى وقتين ، ليكون إنكاراً ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي يتعمدون الكذب في ادعاء شركته عناداً لما على ضده

من الدلائل الواضحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 621 ﴾

فصل

قال السمرقندى :

﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : كيف صار وبال تكذيبهم على أنفسهم .

ويقال : يقول الله تعالى للملائكة : انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعني : انظر إليهم كيف يكذبون على أنفسهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ يعني : ذهب عنهم .

ويقال : اشتغل عنهم الآلهة بأنفسها ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ على الله من الكذب في الدنيا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ فالمراد إنكارهم كونهم مشركين ، وقوله ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ عطف على قوله ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ تقديره : وكيف ضل عنهم ما كانوا يفترون بعبادته من الأصنام فلم تغن عنهم شيئاً وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 153 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ كذب المشركين قولُهم : إن عبادة الأصنام تُقرِّبنا إلى الله زُلْفَى ، بل ظَنُّوا ذلك وظَنُّهُمْ الخطأ لا يُعذِرهم ولا يزيل اسم الكذب عنهم ، وكذب المنافقين باعتذارهم بالباطل ، وجحدهم نفاقهم .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي فانظر كيف ضلّ عنهم افتراؤهم أي تَلاَشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم .

وقيل : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئاً ؛ عن الحسن .

وقيل : المعنى عَزَب عنهم افتراؤهم لدَهشهم ، وذهول عقولهم .

والنظر في قوله : "انظر" يراد به نظر الاعتبار ؛ ثم قيل ؛ "كَذَبُوا" بمعنى يكذِبون ، فعبّر عن المستقبل بالماضي ؛ وجاز أن يكذِبوا في الآخرة لأنه موضع دَهَش وحَيْرة وذهول عقل .

وقيل : لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة ؛ لأنها دار جزاء على ما كان في الدنيا وعلى ذلك أكثر أهل النظر وإنما ذلك في الدنيا ؛ فمعنى ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ على هذا : ما كنا مشركين عند أنفسنا ؛ وعلى جواز أن يكذِبوا في الآخرة يعارضه قوله : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] ؛ ولا معارضة ولا تناقض ؛ لا يَكتمون الله حديثاً في بعض المواطن إذا شهدت عليه ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بعملهم ، ويكذبون على

أنفسهم في بعض المواطن قبل شهادة الجوارح على ما تقدّم.

والله أعلم.

(61/229)

وقال سعيد بن جُبَير في قوله تعالى: ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ قال: اعتذروا وحَلَفوا؛ وكذلك قال ابن أبي نَجِيح وقَتَادة: وروي عن مجاهد أنه قال: لما رأُوا أن الذنوب تغفر إلا الشرك بالله والناسَ يخرجون من النار قالوا: ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقيل: ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ أي علمنا أن الأحجار لا تضر ولا تنفع، وهذا وإن كان صحيحاً من القول فقد صَدَقوا ولم يكتموا، ولكن لا يُعذَرون بهذا؛ فإن المعاند كافر غير معذور.

ثم قيل في قوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ خمس قراءات: قرأ حمزة والكِسائيّ "يكن" بالياء "فِتْنَتُهُمْ" بالنصب خبر "يكن" "إِلاَّ أَن قَالُواْ" اسمها أي إلا قولُهم؛ فهذه قراءة بيّنة.

وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو "تكن" بالتاء "فِتْنَتُهُمْ" بالنصب "إِلاَّ أَن قَالُواْ" أي إلا مقالتُهم.

وقرأ أُبيّ وابن مسعود "وما كان بدل قوله "ثُمَّ لَمْ تَكُنْ" "فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ".

وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية حفص، والأعمش من رواية المفضّل، والحسن وقَتَادة

وغيرهم ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ ﴾ بالتاء "فِتْنَتُهُمْ" بالرفع اسم "تكن" والخبر "إِلاَّ أَن قَالُواْ" فهذه أربع قراءات.

الخامسة "ثُمَّ لَمْ تَكُنْ" بالياء "فِتْنَتُهُمْ"؛ رفع ويذكّر الفتنة لأنها بمعنى الفتون، ومثله ﴿ فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فانتهى ﴾ [البقرة: 275].

"واللَّهِ" الواو واو القسم "رَبِّنَا" نعت لله عز وجل، أو بدل.

ومن نصب فعلى النداء أي يا ربَّنا وهي قراءة حسنة؛ لأن فيها معنى الاستكانة والتضرع، إلا أنه فَصَل بين القسم وجوابه بالمنادى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(62/229)

وقال الخازن:

﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ يعني انظر يا محمد بعين البصيرة والتأمل إلى حال هؤلاء المشركين كيف كذبوا على أنفسهم يعني اعتذارهم بالباطل وتبرؤهم من الأصنام والشرك الذي كانوا عليه واستعمالهم الكذب مثل ما كانوا عليه في دار الدنيا وذلك لا ينفعهم وهو قوله: ﴿ وضل عنهم ﴾ يعني زال عنهم وذهب ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ يعني

ما كانوا يكذبون وهو قولهم إن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك كله في ذلك اليوم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ ﴾ أي في قولهم ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] وأجابوا بأنه ليس المراد أنهم كذبوا في الآخرة بل المراد : أنظر كيف كذبوا ﴿ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ في الدنيا .

ورد بان الآية لا تدل على هذا المعنى بوجه ولا تنطبق عليه لأنها في شأن خسرهم وأمرهم في الآخرة لا في الدنيا بل تنبو عنه أشد نبو لأن أول النظم الكريم وآخره في ذلك فتخلل بيان حالهم في الدنيا تفكيك له وتعسف جداً .

ويؤيد ما ذهب إليه الجمهور أيضاً قوله تعالص : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَىْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ﴾ [المجادة : 18] بعد قوله سبحانه : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المجادلة : 14] حيث شبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا ، ويشير إلى هذا التشبيه أيضاً الأمر بالنظر كما لا يخفى على من نظر .

وذكر ابن المنير "أن في الآية دليلاً بينا على أن الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به كذب وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره لمخبره ألا تراه سبحانه جعل إخبارهم وتبرأهم كذباً مع أنه

جل شأنه أخبر عنهم بقوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي سلبوا علمه حينئذ دهشا وحيرة فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم" ، وأنت تعلم أن تفسير هذه الجملة بما ذكر غير ظاهر .

(63/229)

والمروي عن الحسن أن ﴿ مَا ﴾ موصولة والمراد بها الأصنام التي كانوا يعبدونها ويقولون فيها : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] أو نحو ذلك .

وإيقاع الافتراء عليها مع أنه في الحقيقة واقع على أحوالها للمبالغة في أمرها كأنها نفس المفتري أي زالت وذهبت عنهم أوثانهم التي يفترون فيها ما يفترون فلم تغن عنهم من الله شيئاً ، وقيل : إن ﴿ مَا ﴾ مصدرية أي ضل افترائهم كقوله سبحانه : ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ [الكهف : 104] أي لم ينفعهم ذلك .

والجملة قيل : مستأنفة ، وقيل : واختاره شيخ الإسلام إنها عطف على ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ داخل معه في حكم التعجب إذ الاستفهام السابق المعلق لأنظر لذلك .

وجعل المعنى على احتمال الموصول والمصدرية أنظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة المغلظة على أنفسهم بإنكار صدور ما صدر عنهم وكيف ضل عنهم أي زال وذهب افتراؤهم أو

ما كانوا يفترونه من الإشراك حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية وتبرؤوا (منه) بالمرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ جعل حالهم المتحدّث عنه بمنزلة المشاهد ، لصدوره عمّن لا خلاف في أخباره ، فلذلك أمر سامعه أو أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يدلّ على النظر إليه كأنّه مشاهد حاضر .

والأظهر أنّ ﴿ كيف ﴾ لمجرّد الحال غير دالّ على الاستفهام .

والنظر إلى الحالة هو النظر إلى أصحابها حين تكيّفهم بها .

وقد تقدّمت له نظائر منها قوله تعالى : ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة [النساء : 50] .

وجعل كثير من المفسّرين النظر هنا نظراً قلبياً فإنّه يجيء كما يجيء فعل الرؤية فيكون معلّقاً عن العمل بالاستفهام ، أي تأمّل جواب قول القائل : كيف يفترون على الله الكذب تجده جواباً واضحاً بيّناً .

ولأجل هذا التحقّق من خبر حشرهم عبّر عن كذبهم الذي يحصل يوم الحشر بصيغة الماضي في قوله : كذبوا على أنفسهم ﴾ .

وكذلك قوله ﴿ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

وفعل (كذب) يعدّى بحرف (على) إلى من يخبّر عنه الكاذب كذباً مثل تعديته في هذه الآية ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ من كذب عليّ معتمداً فليتبوّأ مقعده من النار ﴾ ، وأمّا تعديته إلى من يخبره الكاذب خبراً كذباً فبنفسه ، يقال : كذبك ، إذا أخبرك بكذب .

وضلّ بمعنى غاب كقوله تعالى : ﴿ ضَلَلْنا في الأرض ﴾ [السجدة : 10] ، أي غيّبنا فيها بالدفن .

و ﴿ ما ﴾ موصولة و ﴿ يفترون ﴾ صلتها ، والعائد محذوف ، أي يختلقونه وما صُدق ذلك هو شركاؤهم .

والمراد : غيبة شفاعتهم ونصرهم لأنّ ذلك هو المأمول منهم فلمّا لم يظهر شيء من ذلك نُزّل حضورهم منزلة الغيبة ، كما يقال : أُخِذتَ وغاب نصيرك ، وهو حاضر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(64/229)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾

أي : بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب ، بحضرة من لا ينحصر من الشهود : ﴿ وَضَلَّ ﴾ أي : وكيف ضاع وغاب : ﴿ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : من الشركاء ، فلم تغن عنهم شيئاً ، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم ، كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ [الأعراف : 37] . فـ (ما) موصولة ، كناية عن الشركاء . وإيقاع الافتراء عليها ، مع أنه في الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية ، والشركة والشفاعة ونحوها – للمبالغة في أمرها ، كأنها نفس المفتري .

تنبيهات :

الأول –ما ذكرناه من أنه عبر عن جوابهم بالفتنة هو الأظهر . فالمراد : الجواب بما هو كذب ، لأنه سبب الفتنة ، فتجوّز بها إطلاقاً للمسبب على السبب ، أو هو استعارة . وقيل : الفتنة بمعنى العذر ، لأنها التخليص من الغش لغة ، والعذر يخلّص من الذنب ، فاستُعيرت له . وقيل : بمعنى الكفر ، لأن الفتنة ما تفتتن به ويعجبك ، وهم كانوا معجبين بكفرهم مفتخرين به ، ويظنونه شيئاً ، فلم تكن عاقبته إلا الخسران ، والتبرؤ منه ، وليس هذا على تقدير مضاف ، بل جعل عاقبة الشيء عينه ، ادّعاءً .

قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن في اللغة ، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام ، وتصرف العرب في ذلك . وذلك أن الله تعالى بيّن كوْنَ المشركين مفتونين بشركهم ، متهالكين

على حبه ، فأعلم في هذه الآية ، أنه لم يكن افتتانهم بشركهم ، وإقامتهم عليه ، إلا أن تبرؤوا منه وتباعدوا عنه ، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين . ومثاله : أن ترى إنساناً يحب غاوياً مذموم الطريقة ، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال : له ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه .

(65/229)

قال الخفاجي – بعد نقله ما ذكر – : وليس هذا من قبيل عتابك السيف ، ولا من تقدير المضاف ، وإن صح فاحفظه ، فإنه من البدائع الروائع . الثاني – ما بيّنّاه من أن (ما) في قوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ موصولة ، كناية عن الشركاء ، بمعنى عدم إغنائها عنهم – هو الموافق للآية الثانية التي سقناها . وجوز كونها مصدرية . أي : انظر كيف ذهب وزال عنهم افتراؤهم من الإشراك ، حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية ، وتبرؤوا منه بالمرة .

هذا ، وجعل الناصر في " الانتصاف " : ﴿ ضَلَّ ﴾ بمعنى سُلِبُوا علمه ، فكأنهم نسوه وذهلوه دهشاً . هو بعيد لعدم ملاقاته للآية أخرى . والتنزيل يفسر بعضه بعضاً .

وعبارته : في الآية دليل بيّن على أن الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به ، كذب ، وإن لم

يعلم المخبر مخالفة خبره بمخبره . ألا تراه جعل إخبارهم وتبريهم كذباً ، مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون . أي : سلبوا علمه حينئذ دهشاً وحيرةً . فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم . انتهى .

الثالث –قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور ، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ .

قلت : الممتحَن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه ، من غير تمييز بينهما ، حيرةً ودهشاً ، ألا تراهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون : 107] ؟ وقد أيقنو بالخلود ، ولم يشكوا فيه ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : 77] . وقد علموا أنه لا يقضي عليهم .

(66/229)

وأما قول من يقول : معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا ، وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا ، وحمل قوله : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني في الدنيا – فتمحلٌ وتعسف وتحريف لأفصح الكلام ، إلى ما هو عيّ وإفحام . لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ، ليس هذا الكلام بمترجم عنه ، ولا منطبق عليه ، وهو ناب عنه أشد النبوّ . وما أدري ما يصنع ، من

ذلك تفسيره ، بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة : 18] . بعد قوله تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا . انتهى .

والقول المذكور ، والحمل الذي ناقش فيه ، أصله لأبي عليّ الجبائيّ والقاضي . فإنهما ذهبا إلى أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب ، واعتلا بوجوه واهية ساقها الرازي . فلتنظر ثَمَّت ، فإنا لا نسوّد وجوه صحائفنا بما فيه تحكيم العقل على النقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 338 . 340 ﴾

(67/229)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) ﴾

ويلفت الحق نظر رسوله صلى الله عليه وسلم بدقة إلى عملية سوف تحدث يوم القيامة ، وساعة يخبر الله بأمر فلنصدق أنه صار واقعاً وكأننا نراه أمامنا حقيقة لا جدال فيها .

وسبحانه يقرر أنهم كذبوا على أنفسهم . ونعرف أن كل الأفعال تتجرد من زمانيتها حين تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ، فليس عند الله فعل ماض أو حاضر أو مستقبل .

والمثال على ذلك قوله الحق : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 1] .

وليس لقائل أن يقول : كيف يقول الحق إن أمره قد أتى وذلك فعل ماضٍ ، ثم ينهى العباد عن استعجاله ، والإنسان لا يتعجل إلا شيئاً لم يحدث ، ليس لقائل أن يقول ذلك ؛ لأن المتكلم هو القوة الأعلى ولا شيء يعوق الحق أن يفعل ما يريد . أما نحن العباد فلا نجرؤ أن نقول على فعل سوف نفعله غداً إننا فعلناه ، ذلك أن غداً قد لا يأتي أبداً ، أو قد يأتي الغد ولا نستطيع أن نفعل شيئاً مما وعدنا به ، أو قد تتغير بنا الأسباب . وعلى فرض أن كل الظروف قد صارت ميسرة فأي قوة للعبد منا أن يفعل شيئاً دون أن يشاء الله ؟ . ونحن – المؤمنون – نعرف ذلك وعلينا أن نقول كما علمنا الله : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ [الكهف : 23-24] .

(68/229)

وهكذا يضمن الإنسان منا أنه قد خرج من دائرة الكذب . وحينما يقول الله لرسول : " انظر " ويكون ذلك على أمر لم يأت زمان النظر فيه ؛ فرسول الله يصدق ربه وكأنه قد رأى هذا الأمر . إن الحق يصف هؤلاء الناس بأنهم : ﴿ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ أي أن كذبهم الذي سوف يحدث يوم القيامة هو أمر واقع بالفعل . وقد يكذب الإنسان لصالحه في الدنيا . لكن الكذب أمام الله يكون على حساب الإنسان لا له .

ويتابع الحق : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ ومعنى هذا أنهم يبحثون في اليوم الآخر عن الشركاء ولكنّهم لا يقدرون على تحديد هؤلاء الشركاء لأنهم قالوا أمام الله : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وغياب الشركاء عنهم أمام الله هو ما يوضحه ويبيّنه قول الله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ ف " ضل " هنا معناها " غاب " .

ألم يقولوا من قبل : ﴿ وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ [السجدة : 10] .

أنهم كمنكرين للبعث يتساءل باندهاش : أإذا غابوا في الأرض واختلطوا بعناصرها يمكن أن يبعثهم ربهم من جديد ؟ . فهم لا يصدقون أن الذي أنشأهم أول مرة بقادر على أن يعيدهم مرة أخرى . ونعرف أن كلمة " ضل " لها معانٍ متعددة .

لكن معناها هنا " غاب " ، وحين يسألهم الله : أين شركاؤكم ؟ ، ينكرون كذباً أنهم أشركوا ، لقد ضل عنهم – أي غاب عنهم – هؤلاء الشركاء . والإنسان يعبد الإله الذي

ينفعه يوم الحشر ، وعندما يغيب الآلهة عن يوم الحشر فهذا ما يبرز ضلال تلك الآلهة وغيابها وقت الحاجة إليها ، ولا يبقى إلا وجه الله الذي يحاسب من أشركوا به .

(69/229)

و " ضل " يقابلها " اهتدى " ، و " ضل " أي لم يذهب إلى السبيل الموصلة للغاية ، و " اهتدى " أي ذهب إلى السبيل الموصلة إلى الغاية . ومن لا يعرف السبيل الموصلة إلى الغاية ، يكون قد ضل أيضا ، ولكن هناك من يضل وهو يعلم السبيل الموصلة إلى الغاية وهذا هو الكفر . وعندما يتكلم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلوا ضلالاً بعيداً ؛ لأن الطريق إلى الهداية كان أمامهم ولم يسلكوه ، وهذا هو ضلال القمة . وقد يكون الإنسان مؤمناً لكن مقومات الإيمان ضعيفة في نفسه فيعصي ربه .

ويقول الحق عن مثل هذا الإنسان : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب : 36] .

إنه ضلال دون ضلال وكفر دون كفر القمة . لكن ماذا عن الذي يضل لأنه لا يعرف طريق الهدى ؟ إن ذلك هو ما يظهر لنا من قصة سيدنا موسى عليه السلام ، فحين قال الحق لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين * أَنْ أَرْسِلْ

مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 16-17] .

أصدر الحق الأمر إلى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون ليرسل معهما بني إسرائيل ، فماذا عن موقف فرعون ؟ . ماذا قال فرعون ؟ : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ [الشعراء : 18-19] .

(70/229)

هنا يريد فرعون أن يمتن على موسى عليه السلام ، ويذكره بأنه رباه في قصره إلى أن كبر ومع ذلك لم يرع موسى وقتل رجلاً من قوم فرعون ، وكان ذلك في نظر فرعون لوناً من الجحود بنعمته ، وها هوذا يعتدي مرة أخرى على ألوهية فرعون بدعوته للإيمان بالإله الحق الذي لا يتخيله الفرعون ، ويلتقط موسى الخطأ الجوهري في سلوكه في ذلك الوقت . إن الخطأ لم يكن الكفر بفرعون ، ولكن الخطأ كان هو القتل فيقول : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] .

وهكذا نعرف أن موسى لحظة قَتْلِه رجلا من عدوه لم يكن عنده طريق الهدى ، بل كان ضلاله حاصلا من عدم معرفته أن هناك طريقاً آخر إلى الهدى . وها هوذا الحق سبحانه

وتعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فهدى ﴾ [الضحى : 7] .

أي لم يكن عندك يا رسول الله طريق واضح إلى الهدى قبل الرسالة ، فليس معنى الضلال هنا الانحراف ، ولكن معناه أنه قبل نزول الوحي لم يكن يعرف أي طريق يسلك .

وقد يكون الضلال نسياناً ، وما دام الإنسان قد نسي الحقيقة فهو ضال ، والمثال قول الحق : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى ﴾ [البقرة : 282] .

هنا يقرر الحق أن شهادة المرأة تحتاج إلى ضمان وذلك بتأكيدها بشهادة امرأة أخرى ؛ لأن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضع أنفها في كل تفاصيل ما تراه ، بل هي تسمع سمعاً سطحياً ، ولذلك لا تكتمل الصورة عندها ، وعندما تجتمع مع شهادة المرأة شهادة امرأة أخرى ، فكل منهما تذكر الأخرى بتفاصيل قد تكون في منطقة النسيان ؛ لأن نفسية المرأة وطبيعة تكوينها مبنية على الصيانة والتحرز من أن توجد في مجتمع فيه شقاق .

(71/229)

وعندما يصف الحق هؤلاء المشركين في يوم القيامة فهو يقول : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي غاب عنهم ما كانوا يكذبون ويدعون أنهم شركاء لله ، والمشركون هم

المؤاخذون والمحاسبون على اتخاذ الشركاء ، فقد يكون بعضهم قد اتخذ شريكاً لله لا ذنب له في تلك المسألة ، كاتخاذ بعضهم عيسى عليه السلام شريكاً لله . وعيسى عليه السلام منزه عن أن يشرك بالله أو يشرك نفسه في الألوهية . والحق قد قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ [المائدة : 116] .

بل إن الأصنام نفسها التي اتخذها المشركون أرباباً تقول : عبدونا ونحن أعبد الله من القائمين بالأسحار .

إذن فالخطأ يكون ممن أشركوا بالله لا من الأحجار العابدة لله المسبحة له لأنها مسخرة وميسرة لما خلقت له . لقد تخيل أحد الشعراء حواراً دار بين غار ثور وغار حراء ، يقول غار ثَوْر :

كم حسدنا حراء حين ثوى الرو . . . ح أميناً يغزوك بالأنوار

وعندما أذن الحق بالهجرة اختبأ النبي بغار ثَوْر ، فقالت بقية الأحجار :

فحراءٌ وثورُ صَارا سواءً . . . بهما أشفع لدولة الأحجار

عبدونا ونحن أَعْبَدُ لِلّهِ . . . من القائمين بالأسحار

تخذوا صمتنا علينا دليلا . . . فغدونا لهم وقود النار

قد تَجَنّوْا جهلاً كما قد تجنَّ . . . وهُ على ابْنِ مريم والحواري

للمُغالِي جزاؤُه والمغالي . . . فيه تُنْجيه رحمةً الغفارِ

(72/229)

إذن ، فها هي ذي الحجارة تقول : إنها بريئة من الشرك بالله وهي أعبد لله من القائمين بالأسحار ، وصمت الحجارة الظاهر اتخذه البعض دليلاً على أن الحجارة رضيت بأن يعبدوها ، لكن الحجارة تصير هي أحجار جهنم المعدة لمن كفر بالله ، وكان التجني من العباد على الأحجار مثل التجني على عيسى ابن مريم . والذين غالوا في عبادة الأحجار أو البشر لهم عقاب ، أما الأحجار والبشر الذين لا ذنب لهم في ذلك فهم طامعون في مغفرة الله ورحمته .

إذن فالضلال هنا يكون ضلال الذين اتخذوا شريكاً لله . ولكن الشريك المُتَّخَذ لا يقال له : ضل إلا على معنى أنه غاب عنهم في يوم كان أملهم أن يكون معهم ليحميهم من عذاب الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(73/229)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ ﴾ "كيف " مَنْصُوبٌ على حدّ نصبها في قوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله ﴾ [البقرة : 28] وقد تقدَّم .

و "كيف " وما بعدها في محل نصب بـ " انظر " ؛ لأنها معلقةٌ لها عن العملِ ، و "كَذَبُوا " وإن كان معناه مُسْتَقْبلاً ، لأنه في يوم القيامة ، فهو لتحَقُّقِهِ أبرزه في صورة الماضي .

وقوله : " وضَلَّ " يجوز أن يكون نَسَقاً على "كذبوا " ، فيكون داخلاً في حيِّز النَّظَرِ ، ويجوز أن يكون اسْتِئْنَافَ إخبارٍ ، فلا يندرج في حيِّز المنظور إليه .

قوله : ما كانُوا " يجوز في " ما " أن تكون مصدريةً ، أي : وضَلَّ عنهم افتراؤهم ، وهو قول ابن عطية ويجوز أن تكون موصولة اسمية أي : وضل عنهم الذي كانوا يفترونه ، فعلى الأول يحتاج إلى ضمير عائدٍ على " ما " عند الجمهور ، وعلى الثاني لا بُدَّ من ضمير عند الجميع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 77 . 78 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) ﴾

هذه كلمة تعجب ؛ يعني إنَّ قصتهم منها ما هو محلُّ التعجب لأمثالكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 468 ﴾

(74/229)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا

تُشْرِكُونَ (19) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) ﴾

(75/229)

التفسير : إنه سبحانه لما برهن على إثبات الصانع وتحقيق النبوّات وتقرير المعاد ، وانجر الكلام إلى الأمر باعتبار أحوال الغابرين ، عاد إلى إثبات هذه المطالب بطريق الإلزام وأخذ الاعتراف ، وذلك أن آثار الحدوث وسمات الإمكان لائحة على صفحات السمويات والأرضيات حتى بلغ في ظهوره إلى حيث لا يقدر منكر على إنكاره ، فكان في السؤال تبكيت وإفحام ، وفي الجواب تقرير وإلزام ، أي هو لله بلا مراء وشقاق ولن يتم الملك إلا إذا كان قادراً على الإعادة كما هو قادر على الإبداء ، ولن تحصل حكمة الإعادة إلا بثواب المطيعين وعقاب العاصين ، ولن يحسن

(76/229)

إيصال الثواب والعقاب إلا بعد نصب الدلائل وإرسال الرسل فلأجل ذلك قال ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ أي بنصب الأدلة وإزاحة العلة إيجاب الفضل والكرم . وقيل : هذه الرحمة هي أنه يمهلهم مدّة عمرهم ولا يعاجلهم بالاستئصال ، أو فرض على نفسه الرحمة لمن ترك التكذيب بالرسل وتاب وأناب وصدّقهم وقبل شريعتهم ، أو تلك الرحمة هي أنه يجمعهم إلى يوم القيامة فإنه لولا هذا التهديد لحصل الهرج والمرج وارتفع الضبط وكثر الخبط كأنه قيل : لما علمتم أن كل ما في السموات والأرض لله تعالى ، وأنه مالك الكل فاعلموا أن الله الملك الحكيم لا يهمل أمور عبيده ، ولا يجوز في حكمته التسوية بين المطيع والعاصي والعامل والساهي .

(77/229)

ومعنى ﴿ ليجمعنكم ﴾ ليضمنكم . وقيل : فيه حذف أي ليجمعنكم إلى المحشر في يوم القيامة فإن الجمع يكون إلى المكان لا إلى الزمان . وقيل : ليجمعنكم في الدنيا بخلقكم قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة . قال الأخفش : ﴿ الذين خسروا ﴾ بدل من ضمير المخاطبين في ﴿ ليجمعنكم ﴾ . وقال الزجاج : إنه مبتأ خبره ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ وذلك لتضمنه

معنى الشرط فكأنه قيل : ما للمشركين مع وضوح الدلائل الباهرة لا يؤمنون ؟ فأجيب ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي في علم الله وسابق قضائه فهم لا يؤمنون في طرف الأبد ، فكان امتناعهم الآن عن الإيمان مسبباً عن سبق القضاء عليهم بالخسران والخذلان .

وقال في الكشاف ﴿ الذين خسروا ﴾ نصب أو رفع على الذم بمعنى أريد الذين ، أو أنتم الذين . ثم لما بيّن أن له المكان والمكانيات ارتقى في البيان كما هو شأن الترتيب التعليمي إلى ما هو أخفى من ذلك عند الحس وهو الزمان والزمانيات فقال ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾ عن ابن عباس أن كفار مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعونا إليه الحاجة فنحن نجعل لك نصيباً من أموالنا حتى تكون من أغنانا رجلاً وترجع عما أنت عليه فنزل ﴿ وله ما سكن ﴾ الآية .

قيل : اشتقاقه من السكون والتقدير كل ما سكن وتحرك كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : 81] أي تقيكم الحر والبرد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر للقرينة .

والأصوب أن يقال : اشتقاقه من السكنى كما يقال : فلان سكن ببلد كذا أي حل فيه . والمراد كل ما حل في الوقت والزمان سواء كان متحركاً أو ساكناً ، وذلك أن الدخول تحت الزمان يستلزم التغير والحدوث فلا بد له من محدث يتقدم عليه وعلى نفس الزمان ﴿ وهو السميع العليم ﴾ الذي يسمع نداء المحتاجين ويعلم حاجات المضطرين فيوصل كل ممكن إلى كمال يليق به ويستعدّ له .

(78/229)

ثم لما كان لزاعم أن يزعم أن الذي يتعالى عن المكان وعن الزمان قد يكون ممكناً في نفسه كالمفارقات التي يثبتها الفلاسفة فلا جرم قال ﴿ قل أغير الله أتخذ ﴾ منكر الاتخاذ غير الله ﴿ ولياً ﴾ ولذلك قدم المفعول لكونه أهم ، ولو كان حرف الاستفهام داخلاً على الفعل توجه الإنكار أوّلاً إلى نفس اتخاذ الولي وأنه غير مهم ﴿ فاطر السموات ﴾ عطف بيان من ﴿ الله ﴾ أو بدل . وقرىء بالرفع على إضمار هو ، وبالنصب على المدح . وعن ابن عباس : ما عرفت معنى الفاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أي ابتدأتها .

(79/229)

وقال ابن الأنباري : أصل الفطر الشق وقد يكون شق إصلاح كقوله ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ [فاطر : 1] أي خالقهما ومنشئهما بالتركيب الذي سبيله أن يحصل فيه الشق والتأليف عند ضمه بعض الأشياء إلى بعض . وقد يكون شق إفساد ومنه قوله

تعالى ﴿ هل ترى من فطور ﴾ [الملك : 3] ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ أي هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد . والرزق والإطعام وإن كانا متغايرين وإلا لم يحسن العطف في قوله ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ [الذاريات : 57] إلا أنهما متقاربان فحسن جعل أحدهما كناية عن الآخر .

وقرىء ﴿ وهو يطعم ﴾ مبنياً للمفعول على أن الضمير لغير الله وقرىء ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ كلاهما للفاعل . والمعنى هو يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله ﴿ وإنه يقبض ويبسط ﴾ [البقرة : 245] أو الثاني بمعنى لا يستطعم . وحاصل الآية أنه يجب شغل القلب كله بالله وقطع العلائق بالكلية عما سواه لأنه الجواد المطلق الذي يهب لا لعوضٍ ولا انتفاع . ثم بيّن أن النبي أيضاً داخل في تكليف المعرفة بل هو أسبق قدماً في ذلك فقال ﴿ قل إني أمرت أن أكون أوّل من أسلم ﴾ وقيل لي ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ وفيه أن الواعظ يجب أن يتعظ أوّلاً بما يقوله ، فالمريض لا يتصور منه العلاج . ثم ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم مع جلالة قدره بصدد المؤاخذه على تقدير المخالفة فقال ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ ولا يلزم من هذا جواز المعصية عنه لأن الفرض قد يتعلق بالمستحيل كقولك : إن كانت الخمسة زوجاً فهي منقسمة بمتساويين .

من قرأ ﴿ من يصرف ﴾ مبنياً للفاعل فالضمير فيه عائد إلى الله والمفعول وهو العذاب محذوف لكونه معلوماً أو مذكوراً قبله . قال في الكشاف : ويجوز أن تنصب يومئذ على أنه

مفعول به ل ﴿ يصرف ﴾ أي من يصرف الله عنه ذلك اليوم أي هو له ، ومن قرأ على بناء المعفول فهو مسند إلى ضمير العذاب ، ولم

(80/229)

يسم الفاعل وهو الله تعالى للعلم به ﴿ فقد رحمه ﴾ أي الله الرحمة العظمى كقولك : إن أطعمت زيداً من جوعه فقد أحسنت إليه يعني كمال الإحسان . أو المراد فقد أدخله الجنة فإن من لم يعذب لم يكن له بد من الثواب تفضلاً أو استيجاباً . قالت الأشاعرة : في الآية دلالة على أن إيصال الثواب على الطاعة غير واجب وإنما هو ابتداء فضل وإحسان وإلا لم يحسن ذكر الرحمة ههنا ، ألا ترى أن الذي يقبح منه أن يضرب زيداً فإذا لم يضربه لا يقال أنه رحمه ؟ ﴿ وذلك ﴾ أي صرف العذاب وإيصال الثواب على سبيل التفضل أو الاستيجاب ﴿ الفوز المبين ﴾ لأنه المطلب الأعلى والمقصد الأسنى لكل مكلف .

(81/229)

ثم أكد المعنى المذكور وهو أنه لا يجوز للعاقل أن يرغب في اتخاذ ولي غير الله بقوله ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من البليات ﴿ فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير ﴾ من غنى أو صحة ﴿ فهو على كل شيء قدير ﴾ عمم الحكم لندرج تحته كل خير والحاصل أن اندفاع جميع المضار بقدرته ، وكذا حصول جميع الخيرات لأن كل ما عداه فإنما هو تحت قهره وتسخيره وقد حصل بإيجاده وتكوينه ، فإن الممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته ، ورأس المضارّ هو الكفر ، وسنام الخيرات هو الإيمان ، ولن يحصل نفرة الكفر وداعية الإيمان إلا بتوفيقه تعالى . وكل ما يتصور أنه قد نفع أو ضر من الجمادات أو المختارات فإن ذلك ينتهي إلى تخليق الله وجعله ذلك الشيء واسطة لذلك النفع أو الضر ، فلا ضارّ ولا نافع بالحقيقة إلا هو سبحانه . ثم زاد لهذا المعنى بياناً فقال ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ وهو إشارة إلى كمال القدرة ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ وإنه إشارة إلى كمال العلم . فالحكمة أعم من العلم لأنها عمل وعلم ، وكونه خبيراً أخص من العلم لأنه العلم ببواطن الأمور وخباياها ، فإذا اجتمعت هذه المعاني حصل العلم بكماله وغايته ، وقد استدل بظاهر الآية من أثبت الفوقية لله تعالى وعورض بوجوه منها : أنه لو كان فوق العالم فإن كان في الصغر بحيث لا يتميز منه جانب من جانب كالجوهر الفرد مثلاً فذلك لا يقوله عاقل ، وإن كان ذاهباً في الأقطار كلها كان متجزئاً . والجواب أنه لم لا يجوز أن يكون نوراً قائماً بذاته غير متناه لا متجزئاً ولا متبعضاً

قاهراً لجميع الأنوار غالباً على جميع الأشياء . فلا غاية لجوده ولا نهاية لوجوده . وأما إنه كيف يتصور نور بلا نهاية مع أنه لا ينقسم يتبعض فمجرد استبعاد فلا يصلح حجة وإدراك شيء من هذا النور محتاج إلى النور ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [النور : 40] ومنها أنه لو كان غير متناه من كل الجهات لزم

(82/229)

اختلاطه بالقاذورات . والجواب أن هذا كلام مخيل فلا يستعمل في البرهان . ومنها أنه لو لم يكن خارج العالم خلاء ولا ملاء لم يمكن حصول ذات الله تعالى فيه ، وإن كان خلاء فحصوله في جزء من أجزاء ذلك الخلاء دون سائر أجزائه محتاج إلى مخصص ، فيكون الواجب مفتقراً فيكون محدثاً هذا خلف . والجواب أنا ذكرنا أن نور الأنوار لا يتناهى وأنه وراء ما لا يتناهى بما لا يتناهى فيسقط هذا الاعتراض . ومنها أنه سبحانه موجود قبل الخلاء والحيز والجهة ، فلا يكون بعد حصول هذه الأشياء موجوداً فيها وإلا لزم التغير في ذاته . والجواب بالفرق بين المعية وبين الافتقار .

(83/229)

ومنها أن العالم كرة فإما أن يكون الله تعالى فوق أقوام بأعيانهم وحينئذ يلزم أن يكون تحت أقدام من يقابلهم وإما أن يكون فوق الكل فيكون فلكاً محيطاً بسائر الأفلاك وهذا لا يقوله مسلم . والجواب الإلزامي بعد تسليم كون العالم كرة أنا نختار القسم الأول ، ولا يلزم التحتية لأن التحت من جميع الجوانب هو ما يلي المركز ، والفوق ما يلي السماء . أو القسم الثاني ولا يلزم من إحاطته بجميع الأشياء كونه فلكاً كسائر الأفلاك ، وأما التحقيق فقد مر .

ومنها أن لفظ الفوق في الآية مسبوق بالقهر ويراد به القدرة والمكنة وملحوق بلفظ عباده ، وأنه مشعر بالمملوكية والمقدورية . فالمناسب أن يراد بالفوق أيضاً فوقية القدرة ولا يلزم التكرار لأن المراد أن القهر والقدرة عام في حق الكل . والجواب أن حمل الوسط على الطرفين أولى من العكس ، بل لا نزاع في مفهوم العباد وإنما النزاع في مفهومي القاهرية والفوقية ، وليس حمل أحدهما على الآخر أولى من غيره ، ومنها أن الآية سيقت رداً على من اتخذ غير الله ولياً وهذا إنما يحسن لو كان المراد بالفوقية القدرة لا الجهة . والجواب أن الفوقية بالوجه الذي قررناه في جواب الاعتراض الأول يفيد الاستعلاء المطلق وذلك يوجب أن يكون التعويل عليه في كل الأمور إذ لا وجود ولا ظهور لشيء من الأشياء إلا بفيضه ونوره .

وقد يلوح للمتأمل في هذه الأجوبة بعد التنزية عن التشبيه والتجسيم والحلول والاتحاد أسرار غامضة شريفة إن كان أهلاً لها " وكل ميسر لما خلق له " قال الكلبي : إن رؤساء

مكة قالوا : يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة . ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم فنزلت ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ﴾ الآية . قال العلماء : إنها دلت على أن أكبر الشهادات وأعظمها شهادة الله . ثم بيَّن أن شهادة الله حاصلة إلا أنها لم تدل على أن تلك الشهادة

(84/229)

لإثبات أيّ المطالب فقيل : إنها لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لما ذكرنا من سبب النزول . والمعنى قل يا محمد أي شيء أكبر شهادة حتى يعترفوا بأن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى ، فإذا اعترفوا بذلك فقل إن الله شهد لي بالنبوة بأن أظهر على وفق دعواي معجزاً هو القرآن الذي عجزتم معاشر الفصحاء والبلغاء عن معارضته . وقيل : إن حصول هذه الشهادة في وحدانية الله تعالى وذلك أن الوحدانية ليست مما يتوقف صحته على صحة السمع فلا يمتنع إثباتها بالسمع والمعنى ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ في إثبات الوحدانية والبراءة عن الأضداد والأنداد والأمثال والأشباه ﴿ وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ﴾ وأبلغكم أن الدين هو التوحيد والشرك مردود .

واستدل الجمهور بالآية على أنه يصح إطلاق الشيء على الله تعالى وخالف جهم محتجاً بقوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [الأنعام : 102] إذ لا يمكن دعوى التخصيص فيه ، فإن التخصيص إنما يجوز في صورة شاذة لا يلتفت إليها لقلة اعتبارها فيطلق لفظ الكل على الأكثر تنبيهاً على أن البقية جارية مجرى العدم . فلو كان الباري تعالى شيئاً لكان أعظم الأشياء وأشرفها فيكون إخراجه من هذا العموم محض الكذب . وأيضاً احتج بأن الشيء يطلق على المعدوم لقوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ [الكهف : 23] والشيء الذي سيفعله غداً معدوم في الحال ، فالشيء لا يفيد صفة مدح فلا يطلق عليه . والجواب عن الأول أن إخراج الأكثر من العموم جائز عندنا . ولو سلم فإنه تعالى واحد من الأشياء ، والمخرج بهذا الاعتبار أقل عدداً من الباقي . وعن الثاني أن لفظ الشيء أعم الألفاظ ، ومتى صدق الخاص كالذات ، والحقيقة صدق العلم بالضرورة . قال جهم ﴿ قل الله شهيد ﴾ جملة مستقلة بنفسها لا تعلق لها بما قبلها فلا يصح استدلالكم . قلنا ﴿ قل أي شيء ﴾ سؤال ولا بد له من جواب . وهو إما مذكور رأي قل الله أكبر الأشياء شهادة ثم ابتدىء فقيل شهيد أي وهو

شهيد بيني وبينكم ، أو محذوف والمعنى قل هو الله والله شهيد بيني وبينكم . وحسن الحذف لأنه إذا سأل عن أكبر الأشياء شهادة وذكر بعد ذلك أن الله شهيد علم جزماً أن أكبر الأشياء شهادة هو الله أما قوله ﴿ ومن بلغ ﴾ فمعطوف على ضمير المخاطبين والعائد إلى من محذوف أي لأنذركم يا أهل مكة وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم . وقيل : من الثقلين . وقيل : من بلغه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبير من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ومن بلغ أي من احتلم وبلغ أوان التكليف ، وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار العائد .

(86/229)

ثم استفهم مبكتاً فقال ﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ﴾ وصف الجمع بصفة الواحدة كما يقال : الرجال فعلت . ثم دل على إيجاب التوحيد بثلاث جمل : أولاها ﴿ قل لا أشهد ﴾ أي بما تذكرونه من إثبات الشركاء ، وثانيتها ﴿ قل إنما هو إله واحد ﴾ وكلمة " إنما " تفيد الحصر . وثالثتها ﴿ وإنني بريء مما تشركون ﴾ ومن هنا قالت العلماء : المستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين ويضم إليهما التبري عن كل دين سوى دين الإسلام . ولما زعم مشركو مكة أنهم سألوا اليهود والنصارى عن نعت محمد صلى الله

عليه وآله فقالوا : ليس عندنا ذكره كذّبهم الله تعالى بقوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ﴾ أي يعرفون رسول الله بنعوته وحلاه الثابتة في الكتابين ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ بالنعوت والحلي لا يخفون عليهم ولا يشتبهون بغير أبنائهم .

(87/229)

﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ إما بدل أو بيان من " الذين " الأولى ، ويكون المقصود وعيد المعاندين منهم والجاحدين . وإما مبتدأ والكلام جملة مستأنفة شاملة لجميع الجاحدين من أهل الكتاب ومن المشركين . والمراد بخسران النفس الهلاك الذي يحصل لهم بسبب الكفر . وقيل : ما من أحد إلا وله منزلة في الجنة إلا أن من كفر صارت منزلته إلى من أسلم فيكون قد خسر نفسه وأهله بأن ورّث منزلته غيره . ثم بيَّن سبب خسرانهم مستفهماً على سبيل الإنكار فقال ﴿ ومن أظلم ﴾ وذلك أنهم جمعوا بين أمرين متنافيين : إثبات الباطل وهو الافتراء على الله ، وجحد الحق وهو التكذيب بآيات الله ، فمن الأول أن المشركين كانوا يقولون للأصنام إنهم شركاء الله والله أمرهم بذلك ، وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ، واليهود والنصارى كانوا يزعمون أن التوراة والإنجيل ناطقان بعدم النسخ . وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة إلى غير ذلك

من مفترياتهم . ومن الثاني قدحهم في القرآن وفي صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ الذين وضعوا الشيء في غير موضعه الباطل مكان الحق والحق بإزاء الباطل . ثم كشف عن حالهم يوم القيامة فقال ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ وناصبه محذوف أي ويوم كذا كان كيت وكيت فترك ليبقى على الإبهام الذي هو أدخل في الوعيد . ويحتمل أن يكون مفعول " واذكر " أو معطوفاً على محذوف أي لا يفلح الظالمون في الدنيا ويوم الحشر . ﴿ أين شركاؤكم ﴾ آلهتكم التي جعلتموهم شركاء ﴿ الذين كنتم تزعمون ﴾ هم شركاء فحذف المفعولان . والمقصود من هذا الاستفهام التقريع والتبكيت ، ويجوز أن يشاهدوهم إلا أنهم حيث لم ينفعوهم فكأنهم غيب عنهم ، ويجوز أن يحال بينهم وبين آلهتهم وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها فتزداد حسرتهم ، ويحتمل أن يقال : أين شفاعتهم لكم وانتفاعكم بهم ؟ والغرض من جميع

(88/229)

الوجوه أن يتقرر في نفوسهم أن الذي يظنونه مأيوس منه فيصير ذلك تنبيهاً لهم في الدنيا على فساد هذه الطريقة ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ من قرأ بالرفع على أنه اسم كان فالخبر ﴿ إلا أن قالوا ﴾ والتقدير شيئاً إلا أن قالوا ومن قرأ بالنصب مع تذكير يكن فبعكس ما قلنا .

والتقدير شيء إلا أن قالوا . وأما مع تأنيث يكن فلوقوع الخبر مؤنثاً كقولهم : من كانت أمك . أو بتأويل مقالتهم . قال الواحدي : الاختيار قراءة من قرأ بالنصب لأن " أن " إذا وصلت بالفعل لم توصف فأشبهت بامتناع وصفها المضمر . وكما أن المضمر والمظهر إذا اجتمعا كقولك : إن كنت القائم . كان جعل المضمر اسماً أولى من جعله خبراً فكذلك ههنا . قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه إلا من وقف على معاني كلام العرب ، وذلك أنه تعالى بين كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين في حبه ، فذكر أن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه وافتخروا به وقالوا إنه دين آبائنا لم تكن إلا الجحود والتبرؤ منه والحلف على عدم التدين به .

(89/229)

ومثاله أن ترى إنساناً يحب شخصاً مذموم الطريقة فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه فيقال له : ما كانت محبتك أي عاقبة محبتك لفلان إلا أن تبرأت منه وتركته . فعلى هذا فتنتهم في شركهم في الدنيا كما فسرها ابن عباس . ولكن لا بد من تقدير مضاف وهو العاقبة ، ويجوز أن يراد : ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا : فسمي فتنة لأنه كذب ، قال القاضيان : الجبائي وأبو بكر : إن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب لأنهم يعرفون الله تعالى

بالاضطرار فيكونون ملجئين إلى ترك القبيح وكيف لا وإنهم يعلمون أن ذلك لا يروج منهم حينئذ ولا يستفيدون بذلك إلا زيادة المقت والغضب من الله تعالى عليهم ؟ ولا يجوز أن يقال : إنهم لما عاينوا القيامة اختلت عقولهم واضطربت فلهذا قالوا الكذب ، أو أنهم نسوا كونهم مشركين في الدنيا لأنه لا يليق بحكمته تعالى أن يوبخهم ثم يحكى عنهم ما يجري مجرى الاعتذار عند اختلال عقولهم . ولأن تجويز نسيان أمر كان عليه الشخص مدة عمره نوع من السفسطة . وأيضاً إنهم لو كذبوا في موقف القيامة ثم حلفوا على ذلك الكذب لكانوا قد أقدموا على نوعين من القبيح فإن عوقبوا على ذلك صارت الآخرة دار التكليف وإن لم يعاقبوا كان إذناً من الله تعالى في ارتكاب الذنوب وكلاهما محال . فإذا الوجه في الآية أن يقال : إن القوم كانوا يعتقدون في أنفسهم وظنونهم أنهم موحدون فأجابوا بقولهم ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ أي في اعتقادنا وظنوننا ، وعلى هذا فيكونون صادقين فيما أخبروا عنه لأنهم كانوا غير مشركين عند أنفسهم فيجيب تأويل قوله تعالى ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ بأن المراد كذبهم في دار الدنيا كقولهم إنهم على صواب وإن ما هم عليه ليس بشرك وإن آلهتهم شفعاؤهم عند الله فلهذا قال ﴿ وضل عنهم ﴾ أي وانظر كيف غاب عنهم في الآخرة ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي يفتعلون إلهيته وشفاعته . والحاصل أن الآية سيقت لبيان تضاد حاليهم في الدنيا وفي الآخرة بالكذب

وبالصدق ولكن حيث لا ينفعهم الصدق لأن الصدق في الآخرة إنما يعتبر إذا كان مقروناً بالصدق في الدنيا ، هذا جملة كلام القاضيين . قال جمهور المفسرين : إن قول القائل المراد ما كنا مشركين في اعتقادنا ، وكيف كذبوا على أنفسهم في الدنيا مخالفة الظاهر وإن الكفار قد يكذبون في القيامة لقوله تعالى ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون ﴾ [المجادلة : 18] إلى قوله ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾

[المجادلة : 18] ولو سلم أنهم لا يكذبون تعمداً إلا أن الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه حيرة ودهشاً ، ألا تراهم يقولون ﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ [المؤمنون : 107] وقد أيقنوا بالخلود ؟ ﴿ وقالوا يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ [الزخرف : 77] وقد علموا أنه لا يقضى عليهم . واختلال عقولهم حال ما يتكلمون بهذا الكلام لا يمنع كمال عقلهم في سائر الأوقات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 55.62 ﴾

(91/229)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ما في الكون سوى الله ، لا داع ولا مجيب فلهذا يسأل ويجيب ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل لله ﴾ وله ما سكن في ليل البشرية إلى التمتعات الحيوانية ، وفي نهار الروحانية إلى المواهب الربانية ، ﴿ وهو السميع ﴾ أنين من سكن إليه ﴿ العليم ﴾ بحنين من اشتاق إليه ﴿ قل أغير الله أتخذ ﴾ اليوم ﴿ ولياً ﴾ وقد اتخذني الله في الأزل حبيباً ﴿ فاطر ﴾ سموات القلوب على محبته وفاطر أرض النفوس على عبوديته ﴿ وهو يطعم ﴾ أرواح العارفين طعام المشاهدات ويسقيهم كؤوس المكاشفات ﴿ ولا يطعم ﴾ لأنه لا يحتاج إلى قبول الفيض من غيره فالأنوار عنده كالذرّات ﴿ أول من أسلم ﴾ لأني خلصت من حبس الوجود بالكلية وحدي ولهذا يقول الأنبياء نفسي نفسي وأقول : أمتي أمتي ﴿ إن عصيت ربي ﴾ برؤية الغير يوم قدّر الشرك لاقوام والتوحيد لاقوام ﴿ وإن يمسسك الله بضر ﴾ إن دائرة أزليته متصلة بدائرة أبديته ، وكل نقطة من الدائرة تصلح للبداية والنهاية ، فكل ما صدر منه فلن ينتهي إلا به ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ قهر الكفار بموت القلوب فضلوا في ظلمات الطبيعة ، وقهر نفوس المؤمنين بأنوار الشريعة فخرجوا من ظلمات الطبيعة ، وقهر قلوب المحبين بلذعات الأشواق إلى يوم التلاق ، وقهر أرواح الصديقين بسطوات الجلال في أوقات الوصال . ﴿ وهو الحكيم ﴾ فيما يقهره فلا يخلو من حكمة ﴿ الخبير ﴾ بمن يتسأهل كل صنف من قهره فيقهره به ﴿ الله أكبر شهادة ﴾ لأنه محيط بحقائق الأشياء ولا يحيط به شيء من الأشياء ﴿ ومن بلغ ﴾ القرآن

ووقف على حقائقه . ويقول للمشركين ﴿ أئنكم لتشهدون ﴾ ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ يعني العلماء بالقرآن يعرفون الله أو النبي . وفيه إشارة إلى أن الآباء قد تحقق عندهم أنهم مصادر الأبناء ، فكذلك أهل المعرفة قد تحقق عندهم أن الله مصدر جميع الأشياء ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ بإفساد الاستعداد الفطري ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ﴾ يعني أهل المعرفة والنكرة ﴿ أين شركاؤكم ﴾

من الهوى والدنيا ﴿ كذبوا على أنفسهم ﴾ في القيامة لأنهم كذبوا في الدنيا ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 62 . 63 ﴾

(92/229)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم أن هذه الآيات قد ترابطت حتى كانت آية واحدة ، وختم بأن مضمون قوله ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ﴾ [الأنعام : 5] - الآية ، قد صار وصفاً لهم ثابتاً حتى ظهر في يوم الجمع ، قسم الموسومين بما كانت تلك الآية سبباً له ، وهو الإعراض عن الآيات المذكور في قوله ﴿ إلاّ كانوا عنها معرضين ﴾ [الأنعام : 4] ، فكان كأنه قيل : فمنهم من أعرض بكليته ، فعطف عليه قوله : ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ أي يصغي بجهده كما في السيرة عن أبي جهل بن هشام وأبي سفيان بن حرب والأخنس بن شريق أن كلاًّ منهم جلس عند بيت النبي صلى الله عليه وسلم في الليل يستمع القرآن .

(93/229)

لا يعلم أحد منهم بمجلس صاحبه ، فلما طلع الفجر انصرفوا فضمهم الطريق فتلاوموا وقالوا : لو رآكم ضعفاؤكم لسارعوا إليه ، وتعاهدوا على أن لا يعودوا ، ثم عادوا تمام ثلاث ليال ، ثم سأل الأخنس أبا سفيان عما سمع فقال : سمعت أشياء عرفتها وعرفت المراد منها ، وأشياء لم أعرفها ولم أعرف المراد منها ، فقال : وأنا كذلك ، ثم سأل أبا جهل فأجاب بما يعرف منه أنه علم صدقه وترك تصديقه حسداً وعناداً ، وذلك هو المراد من قوله : ﴿ وجعلنا ﴾ أي والحال أنا قد جعلنا ﴿ على قلوبهم أكنة ﴾ أي أغطية ، جمع

كنان أي غطاء ﴿ أن ﴾ أي كراهة أن ﴿ يفقهوه ﴾ أي القرآن ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي ثقلاً يمنع من سمعه حق السمع ، لأنه يمنع من وعيه الذي هو غاية السماع ، فهم لا يؤمنون بما يسمع منك لذلك .

ولما ذكر ما يتعلق بالسمع ، ذكر ما يظهر للعين ، معبراً بما يعم السمع وغيره من أسباب العلم فقال : ﴿ وإن يروا ﴾ أي بالبصر أو البصيرة ﴿ كل آية ﴾ أي من آياتنا سواه ﴿ لا يؤمنوا بها ﴾ لما عندهم من العناد والنخوة في تقليد الآباء والأجداد ﴿ حتى ﴾ كانت غايتهم في هذا الطبع على قلوبهم أنهم مع عدم فقههم ﴿ إذا جاءوك يجادلونك ﴾ أي بالفعل أو بالقوة ، والغاية داخلة ، وكأنه قيل تعجباً : ماذا يقولون في جدالهم ؟ فقال مظهراً للوصف الذي أداهم إلى ذلك : ﴿ يقول الذين كفروا ﴾ أي غطوا لما هو ظاهر لعقولهم وهو معنى الطبع ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي الذي وصل إلينا ﴿ إلا أساطير ﴾ جمع سطور وأسطر جمع سطر وهي أيضاً جمع إسطار وإسطير بكسرهما وأسطور ، وبالهاء في الكل ﴿ الأولين ﴾ وقد قال ذلك النضر بن الحارث ، فصدق قوله إخبار هذه الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 621.622 ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾

عطف جملة ابتدائية على الجمل الابتدائية التي قبلها من قوله : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ [الأنعام : 20] .

(94/229)

والضمير المجرور بـ ﴿ من ﴾ التبعيضية عائد إلى المشركين الذين الحديث معهم وعنهم ابتداء من قوله : ﴿ ثم الذين كفروا بربِّهم يعدلون ﴾ [الأنعام : 1] ، أي ومن المشركين من يستمع إليك .

وقد انتقل الكلام إلى أحوالِ خاصّة عقلائهم الذين يربأون بأنفسهم عن أن يقابلوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل ما يقابله به سفهاؤهم من الإعراض التامّ ، وقولِهم : ﴿ قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] .

ولكن هؤلاء العقلاء يتظاهرون بالحلم والأناة والإنصاف ويخيّلون للدهماء أنّهم قادرون على مجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام وإبطال حججه ثم ينهون الناس عن الإيمان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ ولا نكذب ونكون ﴾ بالنصب فيهما : حمزة وحفص ويعقوب وافق ابن عامر في ﴿ ونكون ﴾ الباقون : بالرفع ﴿ ولدار الآخرة ﴾ بالإضافة : ابن عامر بتأويل الساعة الآخرة ، الباقون : بتعريف الدار ورفع الآخرة على الوصفية . ﴿ تعقلون ﴾ بتاء الخطاب : أبو جعفر ونافع وابن ذكوان وسهل ويعقوب وحفص وكذلك في الأعراف ﴿ يكذبونك ﴾ بالتخفيف من أكذبه إذا وجده كاذباً : علي ونافع والأعشى في اختياره . الباقون : بالتشديد من كذبه إذا نسبه إلى الكذب . ﴿ أن ينزل ﴾ بالتخفيف : ابن كثير .

(95/229)

الوقوف : ﴿ وقرأ ﴾ ط ﴿ بها ﴾ ط ﴿ الأولين ﴾ ه ﴿ وينأون عنه ﴾ ج لابتداء النفي مع واو العطف ﴿ وما يشعرون ﴾ ه ﴿ من المؤمنين ﴾ ه ﴿ من قبل ﴾ ط ﴿ لكاذبون ﴾ ه ﴿ بمبعوثين ﴾ ه ﴿ ربهم ﴾ ط ﴿ بالحق ﴾ ط ﴿ وربنا ﴾ ط ﴿ تكفرون ﴾ ه ﴿ بلقاء الله ﴾ ط لأن "حتى" للابتداء فيها لا لأن الواو للحال ﴿ على ظهورهم ﴾ ط ﴿ يزرون ﴾ ه ﴿ ولهو ﴾ ط ﴿ يتقون ﴾ ه ﴿ تعقلون ﴾ ه ﴿ يجحدون ﴾ ه ﴿ نصرنا ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتحاد المقصود لكلمات الله كذلك . ﴿

المرسلين ﴾ ه ﴿ بآية ﴾ ط ﴿ من الجاهلين ﴾ ه ﴿ يسمعون ﴾ ه ﴿ يرجعون ﴾ ه ﴿ من ربه ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 63 ـ 64 ﴾.

فصل

قال الفخر :

قال ابن عباس حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وعقبة وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُمية وأبي ابنا خلف والحرث بن عامر وأبو جهل واستمعوا إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالوا للنضر ما يقول محمد فقال : لا أدري ما يقول لكني أراه يحرك شفتيه ويتكلم بأساطير الأولين كالذي كنت أحدثكم به عن أخبار القرون الأولى وقال أبو سفيان إني لا أرى بعض ما يقول حقاً فقال أبو جهل كلا فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ والأكنة جمع كنان وهو ما وقى شيئاً وستره ، مثل عنان وأعنة ، والفعل منه كننت وأكننت .

وأما قوله ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ فقال الزجاج : موضع ﴿ أن ﴾ نصب على أنه مفعول له والمعنى وجعلنا على قلوبهم أكنة لكراهة أن يفقهوه فلما حذفت (اللام) نصبت الكراهة ، ولما حذفت الكراهة انتقل نصبها إلى (أن) وقوله ﴿ وفي آذانهم وَقْراً ﴾ قال ابن السكيت :

الوقر الثقل في الأذن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 153 . 154 ﴾

وقال ابن عاشور :

(96/229)

روى الواحدي عن ابن عبّاس أنّه سمّى من هؤلاء أبا سفيان بن حرب ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا جهل ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، وأمية وأبيّا ابني خلف ، اجتمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن فلمّا سمعوه قالوا للنضر : ما يقول محمد فقال : والذي جعلها بيته (يعني الكعبة) ما أدري ما يقول إلاّ أنِّي أرى تحرّك شفتيه فما يقول إلاّ أساطير الأولين مثل ما كنت أحدّثكم عن القرون الماضية .

يعني أنّه قال ذلك مكابرة منه للحقّ وحسداً للرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى .

وكان يحدّث قريشاً عن أقاصيص العجم ، مثل قصة (رستم) و(إسفنديار) فيستملحون حديثه ، وكان صاحب أسفار إلى بلاد الفرس ، وكان النضر شديد البغضاء للرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي أهدر الرسول عليه الصلاة والسلام دمه فقتل يوم فتح مكّة .

وروي أنّ أبا سفيان قال لهم : إنِّي لأراه حقّاً .

فقال له أبو جهل : كلاّ .

فوصف الله حالهم بهذه الآية .

وقد نفع الله أبا سفيان بن حرب بكلمته هذه ، فأسلم هو دونهم ليلة فتح مكّة وثبتت له فضيلة الصحبة وصهر النبي صلى الله عليه وسلم ولزوجه هند بنت عتبة بن ربيعة .

و﴿ الأكنّة ﴾ جمع كنان بكسر الكاف و(أفعلة) يتعيّن في (فِعال) المكسور الفاء إذا كان عينه ولامه مثلين .

والكنان : الغطاء ، لأنّه يكنّ الشيء ، أي يستره .

وهي هنا تخييل لأنّه شبّهت قلوبهم في عدم خلوص الحقّ إليها بأشياء محجوبة عن شيء .

وأثبتت لها الأكنّة تخييلاً ، وليس في قلب أحدهم شيء يشبه الكنان .

(97/229)

وأسند جعل تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى لأنّه خلقهم على هذه الخصلة الذميمة والتعقّل المنحرف ، فهم لهم عقول وإدراك لأنّهم كسائر البشر ، ولكن أهواءهم تخيّر لهم المنع من اتِّباع الحقّ ، فلذلك كانوا مخاطبين بالإيمان مع أنّ الله يعلم أنّهم لا يؤمنون إذ كانوا على

تلك الصفة ، على أنّ خطاب التكليف عامّ لا تعيين فيه لأناس ولا استثناء فيه لأناس .

فالجعل بمعنى الخلق وليس للتحويل من حال إلى حال .

وقد مات المسمّون كلّهم على الشرك عدا أبا سفيان فإنّه شهد حينئذٍ بأنّ ما سمعه حقّ ، فدلّت شهادته على سلامة قلبه من الكنان .

والضمير المنصوب في ﴿ أن يفقهوه ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من قوله ﴿ يستمع إليك ﴾ .

وحذف حرف الجرّ .

والتقدير : من أن يفقهوه ، ويتعلّق بـ ﴿ أكنّة ﴾ لما فيه من معنى المنع ، أي أكنّة تمنع من أن يفهموا القرآن .

والوَقر بفتح الواو الصمم الشديد وفعله كوعد ووجد يستعمل قاصراً ، يقال : وقرت أذنه ، ومتعدّياً يقال : وقر الله أذنه فوقرت .

والوقر مصدر غير قياسي لـ (وقرت) أذنه ، لأنّ قياس مصدره تحريك القاف ، وهو قياسي لـ (وقر) المتعدّي ، وهو مستعار لعدم فهم المسموعات .

جعل عدم الفهم بمنزلة الصمم ولم يذكر للوقر متعلّق يدلّ على الممنوع بوقر آذانهم لظهور أنّه من أن يسمعوه ، لأنّ الوقر مؤذن بذلك ، ولأنّ المراد السمع المجازي وهو العلم بما تضمّنه المسموع .

وقوله : ﴿ على قلوبهم ﴾ ، وقوله : ﴿ في آذانهم ﴾ يتعلّقان بِ ﴿ جعلنا ﴾ .

وقدّم كلّ منهما على مفْعول ﴿ جعلنا ﴾ للتنبيه على تعلّقه به من أول الأمر . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يصرف عن الإيمان ، ويمنع منه ويحول بين الرجل وبينه ، وذلك لأن هذه الآية تدل على أنه جعل القلب في الكنان الذي يمنعه عن الإيمان ، وذلك هو المطلوب .

(98/229)

قالت المعتزلة : لا يمكن إجراء هذه الآية على ظاهرها ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه تعالى إنما أنزل القرآن ليكون حجة للرسول على الكفار لا ليكون حجة للكفار على الرسول ، ولو كان المراد من هذه الآية أنه تعالى منع الكفار عن الإيمان لكان لهم أن يقولوا للرسول لما حكم الله تعالى بأنه منعنا من الإيمان فلم يذمنا على ترك الإيمان ، ولم يدعونا إلى فعل الإيمان ؟

الثاني : أنه تعالى لو منعهم من الإيمان ثم دعاهم إليه لكان ذلك تكليفاً للعاجز وهو منفي بصريح العقل وبقوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286]

الثالث : أنه تعالى حكى صريح هذا الكلام عن الكفار في معرض الذم فقال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ ﴾ [فصلت : 5] وقال في آية أخرى ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة : 88] وإذا كان قد حكى الله تعالى هذا المذهب عنهم في معرض الذم لهم امتنع أن يذكره هاهنا في معرض التقريع والتوبيخ ، وإلا لزم التناقض .

والرابع : أنه لا نزاع أن القوم كانوا يفهمون ويسمعون ويعقلون .

والخامس أن هذه الآية وردت في معرض الذم لهم على ترك الإيمان ولو كان هذا الصد والمنع من قبل الله تعالى لما كانوا مذمومين بل كانوا معذورين .

(99/229)

والسادس : أن قوله ﴿ حتى إذا جاءُوك يجادلونك ﴾ يدل على أنهم كانوا يفقهون ويميزون الحق من الباطل ، وعند هذا قالوا لا بد من التأويل وهو من وجوه : الأول : قال الجبائي إن القوم كانوا يستمعون لقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ليتوسلوا بسماع قراءته إلى معرفة

مكانه بالليل فيقصدوا قتله وإيذاءه فعند ذلك كان الله سبحانه وتعالى يلقي على قلوبهم النوم ، وهو المراد من الأكنة ، ويثقل أسماعهم عن استماع تلك القراءة بسبب ذلك النوم ، وهو المراد من قوله ﴿ وفي آذانهم وَقْراً ﴾ والثاني : أن الإنسان الذي علم الله منه أنه لا يؤمن وأنه يموت على الكفر فإنه تعالى يسم قلبه بعلامة مخصوصة يستدل الملائكة برؤيتها على أنه لا يؤمن ، فصارت تلك العلامة دلالة على أنهم لا يؤمنون .

وإذا ثبت هذا فنقول : لا يبعد تسمية تلك العلامة بالكنان والغطاء المانع ، مع أن تلك العلامة في نفسها ليست مانعة عن الإيمان .

والتأويل الثالث : أنهم لما أصروا على الكفر وعاندوا وصمموا عليه ، فصار عدولهم عن الإيمان والحالة هذه كالكنان المانع عن الإيمان ، فذكر الله تعالى الكنان كناية عن هذا المعنى .

والتأويل الرابع : أنه تعالى لما منعهم الالطاف التي إنما تصلح أن تفعل بمن قد اهتدى فأخلاهم منها ، وفوض أمرهم إلى أنفسهم لسوء صنيعهم لم يبعد أن يضيف ذلك إلى نفسه فيقول ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ .

والتأويل الخامس : أن يكون هذا الكلام ورد حكاية لما كانوا يذكرونه من قولهم ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ ﴾ [فصلت : 5] .

والجواب عن الوجوه التي تمسكوا بها في بيان أنه لا يمكن حمل الكنان والوقر على أن الله تعالى منعهم عن الإيمان ، وهو أن نقول : بل البرهان العقلي الساطع قائم على صحة هذا المعنى ، وذلك لأن العبد الذي أتى بالكفر إن لم يقدر على الإتيان بالإيمان ، فقد صح قولنا إنه تعالى هو الذي حمله على الكفر وصده عن الإيمان .

وأما إن قلنا : إن القادر على الكفر كان قادراً على الإيمان فنقول : يمتنع صيرورة تلك القدرة مصدراً للكفر دون الإيمان ، إلا عند انضمام تلك الداعية ، وقد عرفت في هذا الكتاب أن مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل ، فيكون الكفر على هذا التقدير من الله تعالى ، وتكون تلك الداعية الجارة إلى الكفر كناناً للقلب عن الإيمان ، ووقراً للسمع عن استماع دلائل الإيمان ، فثبت بما ذكرنا أن البرهان العقلي مطابق لما دل عليه ظاهر هذه الآية .

وإذا ثبت بالدليل العقلي صحة ما دل عليه ظاهر هذه الآية ، وجب حمل هذه الآية عليه عملاً بالبرهان وبظاهر القرآن ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 155.154 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنه تعالى قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ فذكره بصيغة الإفراد ثم قال : ﴿ على قُلُوبِهِمْ ﴾ فذكره بصيغة الجمع .

وإنما حسن ذلك لأن صيغة (من) واحد في اللفظ جمع في المعنى .

(101/229)

وأما قوله تعالى : ﴿ وإن يرواْ كل ءاية لاّ يُؤمنواْ بها ﴾ قال ابن عباس : وإن يروا كل دليل وحجة لا يؤمنوا بها لأجل أن الله تعالى جعل على قلوبهم أكنة ، وهذه الآية تدل على فساد التأويل الأول الذي نقلناه عن الجبائي ، ولأنه لو كان المراد من قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ إلقاء النوم على قلوب الكفار لئلا يمكنهم التوسل بسماع صوته على وجدان مكانه لما كان قوله ﴿ وإن يرواْ كل ءاية لاّ يُؤمنواْ بها ﴾ لائقاً بهذا الكلام ، وأيضاً لو كان المراد ما ذكره الجبائي لكان يجب أن يقال : وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يسمعوه ، لأن المقصود الذي ذكره الجبائي إنما يحصل بالمنع من سماع صوت الرسول عليه السلام أما المنع من نفس كلامه ومن فهم مقصوده ، فلا تعلق له بما ذكره الجبائي فظهر سقوط قوله . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 155 ﴾

سؤال : فإن قلت : هل تكون هاته الآية حجّة للذين قالوا من علمائنا : إنّ إعجاز القرآن

بالصَّرْفة ، أي أعجز الله المشركين عن معارضته بأن صرفهم عن محاولة المعارضة لتقوم الحجّة عليهم ، فتكون الصرفة من جملة الأكنّة التي جعل الله على قلوبهم .

قلت : لم يحتجّ بهذه الآية أصحاب تلك المقالة لأنّك قد علمت أنّ الأكنّة تخييل وأنّ الوقر استعارة وأنّ قول النضر (ما أدري ما أقول) ، بُهتان ومكابرة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها ﴾ .

وكلمة ﴿ كلّ ﴾ هنا مستعملة في الكثرة مجازاً لتعذّر الحقيقة سواء كان التعذّر عقلاً كما في هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فلا تميلوا كلّ الميل ﴾ [النساء : 129] ، وذلك أنّ الآيات تنحصر أفرادها لأنّها أفراد مقدّرة تظهر عند تكوينها إذ هي من جنس عامّ ؛ أم كان التعذّر عادة كقول النابغة :

بها كلّ ذيّال وخنساء ترعوي

إلى كلّ رَجّاف من الرّمل فارد . . .

فإنّ العادة تحيل اجتماع جميع بقر الوحش في هذا الموضع .

(102/229)

فيتعذّر أن يرى القوم كلّ أفراد ما يصحّ أن يكون آية ، فلذلك كان المراد بـ ﴿ كلّ ﴾ معنى الكثرة الكثيرة ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ﴾ في سورة [البقرة : 145] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ حتى إِذَا جاءُوك يجادلونك ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا الكلام جملة أخرى مرتبة على ما قبلها و ﴿ حتى ﴾ في هذا الموضع هي التي يقع بعدها الجمل ، والجملة هي قوله ﴿ إِذَا جاءُوك يجادلونك ﴾ يقول الذين كفروا ، ويجادلونك في موضع الحال وقوله ﴿ يَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ تفسير لقوله ﴿ يجادلونك ﴾ والمعنى أنه بلغ بتكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك ، وفسّر مجادلتهم بأنهم يقولون ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الأولين ﴾

قال الواحدي : وأصل الأساطير من السطر ، وهو أن يجعل شيئاً ممتداً مؤلفاً ومنه سطر الكتاب وسطر من شجر مغروس .

قال ابن السكيت : يقال سطر وسطر ، فمن قال سطر فجمعه في القليل أسطر والكثير سطور ، ومن قال سطر فجمعه أسطار ، والأساطير جمع الجمع ، وقال الجبائي : واحد الأساطير أسطور وأسطورة وأسطير وأسطيرة ، وقال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة

مثل أحاديث وأحدوثة .

وقال أبو زيد : الأساطير من الجمع الذي لا واحد له مثل عباديد ثم قال الجمهور : أساطير الأولين ما سطره الأولون .

قال ابن عباس : معناه أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها أي يكتبونها .

فأما قول من فسر الأساطير بالترهات ، فهو معنى وليس مفسراً .

ولما كانت أساطير الأولين مثل حديث رستم واسفنديار كلاماً لا فائدة فيه لا جرم فسرت أساطير الأولين بالترهات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 155 ﴾

وقال ابن عاشور :

و﴿ حتى ﴾ حرف موضوع لإفادة الغاية ، أي أنّ ما بعدها غاية لما قبلها .

وأصل ﴿ حتى ﴾ أن يكون حرف جرّ مثل (إلى) فيقع بعده اسم مفرد مدلوله غاية لما قبل (حتّى) .

(103/229)

وقد يعدل عن ذلك ويقع بعد (حتّى) جملة فتكون (حتّى) ابتدائية ، أي تؤذن بابتداء كلام مضمونه غاية لكلام قبل (حتى) .

ولذلك قال ابن الحاجب في "الكافية" : إنّها تفيد السببية ، فليس المعنى أنّ استماعهم يمتدّ إلى وقت مجيئهم ولا أنّ جعل الأكنّة على قلوبهم والوقر في آذانهم يمتدّ إلى وقت مجيئهم ، بل المعنى أن يتسبّب على استماعهم بدون فهم .

وجعل الوقر على آذانهم والأكنّة على قلوبهم أنّهم إذا جاءوك جادلوك .

وسمّيت ﴿ حتى ﴾ ابتدائية لأنّ ما بعدها في حكم كلام مستأنف استئنافاً ابتدائياً .

ويأتي قريب من هذا عند قوله : ﴿ قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله حتّى إذا جاءتهم الساعة بغتة ﴾ في هذه السورة [31] ، وزيادة تحقيق لمعنى (حتّى) الابتدائية عند قوله تعالى : ﴿ فمن أظلم من افترى على الله كذباً إلى قوله حتى إذا جاءتهم رسلنا ﴾ الخ في سورة [الأعراف : 37] .

﴿ وإذا ﴾ شرطية ظرفية .

و﴿ جاءوك ﴾ شرطها ، وهو العامل فيها .

وجملة ﴿ يجادلونك ﴾ حال مقدّرة من ضمير ﴿ جاءوك ﴾ أي جاءوك مجادلين ، أي مقدّرين المجادلة معك يظهرون لقومهم أنّهم أكفّاء لهذه المجادلة .

وجملة ﴿ يقول ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ ، وعدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله : ﴿ يقول الذين كفروا ﴾ لزيادة التسجيل عليهم بالكفر ، وأنّهم ما جاءوا طالبين الحقّ كما يدّعون ولكنّهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به فيقولون ﴿ إن هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ ، فهم قد

عدلوا عن الجدل إلى المباهتة والمكابرة .

والأساطير جمع أسطورة بضم الهمزة وسكون السين وهي القصّة والخبر عن الماضين .

والأظهر أنّ الأسطورة لفظ معرّب عن الرومية : أصله إسطوريَا بكسر الهمزة وهو القصّة .

ويدلّ لذلك اختلاف العرب فيه ، فقالوا : أسطورة وأسطيرة وأسطور وأسطير ، كلّها بضم الهمزة وإسطارة وإسطار بكسر الهمزة .

والاختلاف في حركات الكلمة الواحدة من جملة أمارات التعريب .

ومن أقوالهم : "أعجميّ فالعب به ما شئْت" .

(104/229)

وأحسن الألفاظ لها أسطُورة لأنّها تصادف صيغة تفيد معنى المفعول ، أي القصّة المسطورة .

وتفيد الشهرة في مدلول مادّتها مثل الأعجوبة والأحدوثة والأكرومة .

وقيل : الأساطير اسم جمع لا واحد له مثل أبابيل وعباديد وشَمَاطيط .

وكان العرب يطلقونه على ما يتسامر الناس به من القصص والأخبار على اختلاف أحوالها من صدق وكذب .

وقد كانوا لا يميّزون بين التواريخ والقصص والخرافات فجميع ذلك مرمي بالكذب والمبالغة .

فقولهم : ﴿ إن هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ .

يحتمل أنّهم أرادوا نسبة أخبار القرآن إلى الكذب على ما تعارفوه من اعتقادهم في الأساطير .

ويشتمل أنّهم أرادوا أنّ القرآن لا يخرج عن كونه مجموع قصص وأساطير ، يعنون أنّه لا يستحقّ أن يكون من عند الله لأنّهم لقصور أفهامهم أو لتجاهلهم يعرضون عن الاعتبار المقصود من تلك القصص ويأخذونها بمنزلة الخرافات التي يتسامر الناس بها لتقصير الوقت .

وسيأتي في سورة الأنفال أنّ من قال ذلك النضر بن الحارث ، وأنّه كان يمثّل القرآن بأخبار (رستم) و(اسفنديار) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه كان مقصود القوم من ذكر قولهم ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ القدح في كون القرآن معجزاً فكأنهم قالوا : إن هذا الكلام من جنس سائر الحكايات المكتوبة ، والقصص المذكورة للأولين ، وإذا كان هذا من جنس تلك الكتب المشتملة على حكايات الأولين

وأقاصيص الأقدمين لم يكن معجزاً خارقاً للعادة .

وأجاب القاضي عنه بأن قال : هذا السؤال مدفوع لأنه يلزم أن يقال لو كان في مقدوركم معارضته لوجب أن تأتوا بتلك المعارضة وحيث لم يقدروا عليها ظهر أنها معجزة .

ولقائل أن يقول : كان للقوم أن يقولوا نحن وإن كنا أرباب هذا اللسان العربي إلا أنا لا نعرف كيفية تصنيف الكتب وتأليفها ولسنا أهلاً لذلك .

ولا يلزم من عجزنا عن التصنيف كون القرآن معجزاً لأنا بينا أنه من جنس سائر الكتب المشتملة على أخبار الأولين وأقاصيص الأقدمين .

واعلم أن الجواب عن هذا السؤال سيأتي في الآية المذكورة بعد ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 155.156 ﴾

(105/229)

سؤال : فإن قيل : لم عابوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، وقد سطر الأولون ما فيه علم وحكمة ، وما لا عيب على قائله ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنهم نسبوه إلى أنه ليس بوحي من الله .

والثاني : أنهم عابوه بالإِشكال والغموض ، استراحة منهم إلى البهت والباطل .

فعلى الجواب الأول تكون "أساطير" من التسطير ، وعلى الثاني تكون بمعنى الترهات ، وقد شرحنا معنى التُّرَّهات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(106/229)

لطيفة

قال فى البحر المديد :

اعلم أن القلب تحجبه عن تدبر كلام الله والتمتع بحلاوته أربعةُ حُجُب :

الأول : حجاب الكفر والشرك ويندفع بالإيمان والإسلام .

والثاني : حجاب المعاصي والذنوب ، وينخرق بالتوبة والانقلاع .

والثالث : حجاب الانهماك في الحظوظ والشهوات واتباع الهوى ، وينخرق بالزهد والورع والتعفف ونوع من الرياضة .

والرابع : حجاب الغفلة والخوض فيما لا يعني ، والاشتغال بالبطالة ، وينخرق باليقظة والتوجه إلى الحق ، والانقطاع إلى الله بكليته ، فإذا انخرقت هذه الحجب عن القلب ، تمتع بحلاوة القرآن ومناجاة الحق على نعت القرب والمراقبة .

وبقي حجابان آخران ، إذا خرقهما العبد أفضى إلى مشاهدة المتكلم دون واسطة ،

أولهما : حجاب حلاوة الطاعة والمعاملة الظاهرة ، والوقوف مع المقامات أو الكرامات ، فإنها عند العارفين سموم قاتلة . وثانيهما : حجاب الوهم والوقوف مع ظاهر الحس ، دون الوصول إلى باطنه ، فيقف مع الأواني دون شهود المعاني ،

وقد قال التستري :

لاَ تَنظرُ إلَى الأوانِي . . . وَخُضْ بَحْرَ الْمعَانِي

لعلَّك تَرَانِي . . .

وقال الغزالي : الموانع التي تحجب القلب عن الفهم أربعة : الأول : جعل الفهم مقصورًا على تحقيق الحروف ؛ بإخراجها من مخارجها ، فهذا يتولى حفظه شيطان وكُلِّ بالقراء ، يصرفهم عن معاني كلام الله تعالى . والثاني : أن يكون مقلدًا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه ، من غير وصول إليه ببصيرة .

الثالث : أن يكون مصرًا على ذنب ، أو متصفًا بكبر ، أو مبتلى بهوى في الدنيا مطاع ، فإن ذلك سبب ظلمة القلب ، وهو كالخبءِ على المرآة ، فيمنع جلية الحق فيه ، وهو أعظم حجب القلب ، وبه حُجب الأكثرون ،

الرابع : أن يكون قد قرأ تفسيرًا ظاهرًا ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلاَّ ما يتأوّل عن ابن عباس ، ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي منهي عنه ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة ، فإن القرآن بحرٌ لا ساحل له ، وهو مبذول لمن يغرف منه إلى يوم القيامة ، كل على قدر سعته وصفاء قلبه . انتهى انتهى . ا هـ بالمعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 109 ﴾

(108/229)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . . . "الآية وفى سورة يونس : "ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كلنوا لا يعقلون ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون " فورد الفعل فى الأولى مسندا إلى ضمير المفرد وفى الثانية إلى ضمير جماعة مع استوائهم فى الجمعية ومع اتفاق الغايتين فى أن استماعهم مع قصدهم إياه لا يجب عليهم فللسائل أن يسأل فيقول : لم ورد فى الأولى "ومنهم منيستمع إليك " وفى الثانية "ومنهم من

يستمعون إليك " مع اتفاق الآيتين فيما ذكر ؟

والجواب والله أعلم : أن نقول "من " لفظ مفرد ويصلح للاثنين والجميع .

(109/229)

على هذا وضعه فإذا ورد فى تكيب كلامهم فأول ما يحمل على السابق من حكمه اللفظى من الافراد فلهذا ترد صلته إن كان موصولا أو صفته إن كان موصوفا أو خبره إن كان شرطا أو استفهاما كصلة "الذى " . . .الواقع على المفرد فتقول فى الصلة والصفة : من الناس من يفعل كذا وتقول فى الاستفهام : من يفعل ذلك ؟ فيرفع الفعل ضميرا مفردا وسواء كان المراد فى المعنى واحدا أو أكثر قم قد يكون فيما اتصل بالكلام بعد ضمير أو غيره يراعى فيه معنى من حيث يراد أكثر من واحد فيأتون بع على معنى "من " لا على لفظها كقولك : "من الناس من يفعل كذا ويخطئون فى ذلك ومنهم من يفعل كذا مستمرين على فعلهم يبين ضمير الجمع فى قولك : وهم يخطئون والحال فى قوله : مستمرين على فعلهم أن المراد أكثر من واحد وعلى هذا كلام العرب فى الكثير المطرد وعيه جاء القرآن قال تعالى : "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر " ثم قال : "وما هم بمؤمنين " فعاد الضمير مجموعا فى قوله "وما هم " بعد عودته مفردا وهذا كثير وقال تعالى : "ومن يؤمن

بالله ويعمل صالحا ندخله جنات تجرى من تحتها الأنهار " فعاد الضمير من ندخلع مفردا على لفظ "من " ثم قال "خالدين " وهو حال من الضمير فتبين بهذا الجمع أن المراد جميع ، وقد يجرى الكلام على أوله فى الإفراد كقوله تعالى : "ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا . . . "الآيات ، فورد فيها ضمائر ثمانية كلها عائدة على لفظ "من " ولم يرجع منها شئ على معنى "من " مع أن المعنى على الكثرة ثم أعلم بعد أن المراد بما يبينه ما يأتى بعد الضمير المفرد المحمول على لفظ "من " إنما هو أعنى المبين كثرة أو وحدة أما إبهام التعيين فمقصود لا يرتفع فإن إبهام الصلة أو الخبر فى هذا أبلغ فى تكميل فائدة الكلام وإحرازها ألا ترى أن قول الملك لخاصته : إن منكم من يفعل كذا أهيج لنفوس السامعين وأبلغ فى التحريض على الشئ أو الزجر عنه بحسب

(110/229)

المرتكب فإن كان مما يحبه الملك تشوقت نفوس المخاطبين إليه وإن كان على الضد من ذلك اشتد خوف جنيعهم وحذرهم وهذا يستدعى طولا قد يخرجنا عن مقصودنا والوارد من هذا فى الكتاب العزيز كثير .

ونرجع إلى مقصودنا فنقول : إن آية الأنعام وردت على الأكثر المطرد وقد ورد فيما انتظم

بالآية بيان كون المستمعين جماعة وذلك قوله : "وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا " فبين أن المراد جماعة وارتفع الاحتمال ولما لم يرد فيها انتظم مع آية سورة يونس ضمير ولا غير ذلك مما يبين المستمعين جماعة وكان بيان ذلك مرادا مقصودا أتى الضمير أولا ضمير جمع حملا على معنى "من " ولم يحمل على لفظها فيفرد لئلا يوهم أن المستمع واحد وذلك غير مقصود فقيل : "ومنهم من يستمعون إليك " إذ ليس فى الكلام بعد ما يبين ذلك .

فإن قيل فإن "من " قد تقرر حكمها أنها يراد بها الكثير وإن كانت مفردة اللفظ وصالحة له وإذا كانت فى الأكثر من كلامهم مراد بها الكثير فذلك يرفع إيهام إرادة واحد ؟ فالجواب أن إرادة الواحد بها – وإن كان الأقل – مبق حكم الايهام قال تعالى : "ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا . . . "الآيات إلى قوله "ولبئس المهاد " نزلت هذه الآى فى الأخنس بن شريق وقد تكرر الضمير فيها ثمانى مرات ضمير مفرد وتأكد بذلك أن المعنى بها واحد كما قال المفسرون وقال تعالى : "منهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى " نزلت فى الجد بن قيس لما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جهاد الروم وقال : هل لك فى جلاد بنى الأصفر وقصته مشهورة وقال تعالى : "ومنهم من عاهد الله . . . "الآية نزلت فى ثعلبة بن حاطب إلى غير هذا من المواضع وقد تقدم أيضا أنها تصلح للاثنين وأنشد سيبويه رحمه الله .

[الفرزدق]

تعال فإن عاهدتنى لا تخوننى نكن مثل من ياذيب يصطحبان

(111/229)

فإذا ثبت أن "من " تصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث وقد ذكر المفسرون وأهل السير أن المعترضين لسماع القرآن منه صلى الله عليه وسلم كانوا جماعة سماهم المفسرون فتحرير المراد فى الآية محرز للمعنى المقصود ومتأكد إذ ليس فيما بعد مما فى المنتظم مع الآية ما يبين المراد كما فى غيرها فوجب رعى ذلك فقيل : "ومنهم من يستمعون " ولزم ذلك ليرتفع الإيهام .

فإن قيل : فإن قوله تعالى فى آية يونس "أفأنت تسمع الصم " يبين ذلك كما يبينه فى آية الأنعام قوله تعالى : "وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه " وما بعد إذ الارتباط حاصل فى الآيتين ونظام الكلام ملتئم ؟ فالجواب أن ارتباط قوله تعالى : "أفأنت تسمع الصم " بما قبله صحيح كارتباط قوله تعالى "وجعلنا على قلوبهم أكنة " بما قبله إلا أن قوله تعالى "وجعلنا على قلوبهم أكنة " مبين أن ما وقعت عليه "من " جماعة وكأن الكلام فى قوة أن لو قيل : وجعلنا على قلوب السامعين إذ لا يراد بالضمير غير ما وقعت عليه أما قوله تعالى : "أفأنت

تسمع الصم " فليس كذلك بل المراد بلفظ الصم جنس الصم ، والمستمعون بعض ذلك فحصل الارتباط بهذا الوجه لا أن الصم يراد بهم من وقعت عليه "من " فقط وهذا كقولهم : زيد نعم الرجل فإن الرجل لم يرد به زيد وحده إنما أريد به جنس الرجال وإنما زيد واحد منهم فحصل الارتباط بهذا الوجه فليس كقوله "وجعلنا على قلوبهم " وبهذا يتم المعنى المقصود من تسلية نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكأن قد قيل له عليه السلام : إن الصم الذين لا يعقلون لم تكلف أسماعهم وهؤلاء منهم فلا درك عليه فيهمن صلى الله عليه وسلم فانفصلت آية يونس من آية الأنعام وورد كل على ما يجب .

(112/229)

فإن قيل إذا كان الأكثر فى "من " وقوعها على الكثير فقد وردت آية يونس على ما هو قليل فى كلامهم وفى هذا ما يسأل عنه ؟ قلت ذلك كله فصيح ومعروف من كلامهم ولا يلزم من كون الوارد أقل أن يكون دون الكثير فى الفصاحة بل كل فصيح ، وقد بوب سيبويه رحمه الله على حال "من " فى وقوعها على من ذكر فقال فى كتابه : "هذا باب إجرائهم صلة من وخبرها إذا عنيت اثنين كصلة اللذين وإذا أرادت جماعة كصلة الذين ثم ذكر الآية : ومنهم منيستمع إليك " وأنشد بيت الفرزدق وقد تقدم .

تعال فإن عاهدتنى لا تخوننى . . . . . البيت

وقد تقدم ذكر ما أجريت فيه مجرى التى كقول العرب : ومن كانت أمك وأيهن كانت أمك ، وأورد عن [بياض] قراءة من قرأ : "ومن تقنت منكن لله ورسوله " فقد ذكر سيبويه رحمه الله أن هذا كله من كلام العرب ودل قوله فى الترجمة : هذا باب إجرائهم بالاضافة إلى ضمير الجمع وإنما يريد العرب وهذا مشير إلى أن العرب تتكلم به كثيرا وأنه ليس فى كلام بعضهم دون بعض ووضح من جملة هذا أن قوله تعالى فى آية يونس "ومنهم من يستمعون " بضمير الجماعة لا يلائم الموضع سواه إذ ليس بعده ما يبين أن المراد جمع أما آية الأنعام فقد ورد فى المنتظم بها مما بعد ما يبين المراد فجاء كل على ما يجب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 151.154 ﴾

(113/229)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

الضمير في قوله ﴿ ومنهم ﴾ عائد على الكفار الذين تضمنهم قبل قوله ﴿ يوم نحشرهم جميعاً ﴾ [الأنعام : 22] وأفرد ﴿ يستمع ﴾ وهو فعل جماعة حملاً على لفظ ﴿ من

﴾ و ﴿ أكنة ﴾ جمع كنان وهو الغطاء الجامع ، ومنه كنانة السهام والكنّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بيض مكنون ﴾ [الصافات : 49] ومنه قول الشاعر : [الطويل]

إذا ما انتَضَوْها في الوغى مِنْ أَكِنَّةً . . . حَسِبْتَ بُروقَ الغَيْثِ هَاجَتْ غُيُومُها

وفعال وأفعله مهيع في كلامهم و ﴿ أن يفقهوه ﴾ نصب على المفعول من أجله أي كراهية أن يفهموه ، وقيل المعنى أن لا يفقهوه ، ويلزم هذا القول إضمار حرف النفي ، و ﴿ يفقهوه ﴾ معناه يفقهوه ، ويقال فقِه الرجل بكسر القاف إذا فهم الشيء وفقُه بضمها : إذا صار فقيهاً له ملكة ، وفقه إذا غلب في الفقه غيره ، والوقر : الثقل في السمع ، يقال وقرت أذنه ووقِرت بكسر القاف وفتحها ، ومنه قول الشاعر : [الرمل]

وكلام سيّء وَقَرَتْ . . . أُذُنِي وما بي مِنْ صَمَمْ

وقد سمع أذن موقورة فالفعل على هذا وقرت ، وقرأ طلحة بن مصرف : " وِقراً " بكسر الواو كأنه ذهب إلى أن آذانهم وقرت بالصمم كما توقر الدابة من الحمل وهي قراءة شاذة ، وهذا عبارة عما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلط والبعد عن قبول الخير لا أنهم لم يكونوا سامعين لأقواله ، وقوله تعالى : ﴿ وإن يروا كل آية ﴾ الآية ، الرؤية هنا الرؤية العين يريد كانشقاق القمر وشبهه .

قال القاضي أبو محمد : ومقصد هذه الآية أنهم في أعجز درجة وحاولوا رد الحق بالدعوى المجردة والواو في قوله ﴿ وجعلنا ﴾ واو الحال والباب أن يصرح معها بقد ، وقد تجيء أحياناً مقدرة ، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال ومن هؤلاء الكفرة من يستمعك وهو من الغباوة في حد قلبه في كنان وأذنه صماء وهو يرى الآيات فلا يؤمن بها لكنه مع بلوغه الغاية من هذه القصور إذا جاء للمجادلة قابل بدعوى مجردة ، والمجادلة المقابلة في الاحتجاج مأخوذ من الجدل ، و﴿ هذا ﴾ في قولهم إشارة إلى القرآن ، والأساطير جمع أسطار كأقوال وأقاويل ونحوه ، وأسطار جمع سطر وسطر ، وقيل الأساطير جمع أسطارة وهي النزهات ، وقيل جمع أسطورة كأعجوبة وأضحوكة ، وقيل هم اسم جمع لا واحد من لفظه كعبابيد وشماميط والمعنى أخبار الأولين وقصصهم وأحاديثهم التي تسطر وتحكى ولا تحقق كالتواريخ وإنما شبهها الكفار بأحاديث النضر بن الحارث وأبي عبد الله بن أبي أمية عن رستم والسندباد ، ومجادلة الكفار كانت مرادّتهم نور الله بأفواههم المبطلة ، وقد ذكر الطبري عن ابن عباس أنه مثل من ذلك قولهم : إنكم أيها المتبعون محمداً تأكلون ما قتلتم بذبحكم ولا تأكلون ما قتل الله ، ونحو هذا من التخليط الذي لا تتركب منه حجة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا جدال في حكم ، والذي في الآية إنما هو جدال في مدافعة

القرآن ، فلا تتفسر الآية عندي بأمر الذبح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(115/229)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ .

روى أبو صالح عن ابن عباس أن أبا سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأمية وأبياً استمعوا للرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد فقال : ما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما أحدثكم عن القرون الماضية ، وكان صاحب أشعار جمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم واسفنديار فكان يحدث قريشاً فيستمعون له فقال أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقول حقاً .

فقال أبو جهل : كلا لا تقر بشيء من هذا وقال الموت أهون من هذا ، فنزلت والضمير في ﴿ ومنهم ﴾ عائد على الذين أشركوا ، ووحد الضمير في ﴿ يستمع ﴾ حملاً على لفظ ﴿ من ﴾ وجمعه في ﴿ على قلوبهم ﴾ حملاً على معناها والجملة من قوله : ﴿ وجعلنا

﴿ معطوفة على الجملة قبلها عطف فعلية على اسمية فيكون إخباراً من الله تعالى أنه جعل كذا .

وقيل : الواو واو الحال أي وقد جعلنا أي ننصت إلى سماعك وهم من الغباوة ، في حد من قلبه في كنان وأذنه صماء وجعل هنا يحتمل أن تكون بمعنى ألقى ، فتتعلق على بها وبمعنى صير فتتعلق بمحذوف إذ هي في موضع المفعول الثاني ويجوز أن تكون بمعنى خلق ، فيكون في موضع الحال لأنها في موضع نعت لو تأخرت ، فلما تقدّمت صارت حالاً والأكنة جمع كنان كعنان وأعنة والكنان الغطاء الجامع .

قال الشاعر :

إذا ما انتضوها في الوغى من أكنة . . .

حسبت بروق الغيث هاجت غيومها

و ﴿ أن يفقهوه ﴾ في موضع المفعول من أجله تقديره عندهم كراهة أن يفقهوه .

وقيل : المعنى أن ﴿ لا يفقهوه ﴾ وتقدّم نظير هذين التقديرين .

(116/229)

وقرأ طلحة بن مصرّف ﴿ وقرأ ﴾ بكسر الواو كأنه ذهب إلى أن ﴿ آذانهم ﴾ وقرت بالصمم كما توقر الدابة من الحمل ، والظاهر أن الغطاء والصمم هنا ليسا حقيقة بل ذلك من باب استعارة المحسوس للمعقول حتى يستقر في النفس ، استعار الأكنة لصرف قلوبهم عن تدبر آيات الله ، والثقل في الأذن لتركهم الإصغاء إلى سماعه ألا تراهم قالوا : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ فلما لم يتدبروا ولم يصغوا كانوا بمنزلة من على قلبه غطاء وفي أذنه وقر .

وقال قوم : ذلك حقيقة وهو لا يشعر به كمداخلة الشيطان باطن الإنسان وهو لا يشعر به ، ونحا الجبائي في فهم هذه الأية منحى آخر غير هذا فقال : كانوا يستمعون القراءة ليتوصلوا بسماعها إلى معرفة مكان الرسول بالليل فيقصدوا قتله وإيذاءه ، فعند ذلك كان الله يلقي على قلوبهم النوم وهو المراد من الأكنة وتثقل أسماعهم عن استماع تلك القراءة بسبب ذلك النوم وهو المراد بقوله : ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ .

وقيل : إن الإنسان الذي علم الله منه أنه لا يؤمن وأنه يموت على الكفر يسم الله قلبه بعلامة مخصوصة تستدل الملائكة برؤيتها على أنهم لا يؤمنون ، وإذا ثبت هذا فلا يبعد تسمية تلك العلامة بالكنان .

وقيل : لما أصرُّوا على الكفر صار عدولهم عن الإيمان كالكنان المانع عن الإيمان فذكر تعالى ذلك كناية عن هذا المعنى .

وقيل : لما منعهم الإلطاف التي إنما تصلح أن يفعل بمن قد اهتدى فأخلاهم وفوّضهم إلى أنفسهم ليسوء صنيعهم لم يبعد أن يضيف ذلك إلى نفسه ، فيقول : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ .

(117/229)

وقيل : يكون هذا الكلام ورد حكاية لما كانوا يذكرونه من قولهم وقالوا : قلوبنا في أكنة وهذه الأقوال كلها تعزى إلى الجبائي وهي كلها فرار من نسبة الجعل إلى الله حقيقة فتأوّلوا ذلك على هذه المجازات البعيدة ، وقد نحا الزمخشري منحى بعض هذه الأقوال فقال : الأكنة على القلوب والوقر في الآذان تمثيل نبوّ قلوبهم ومسامعهم عن قبوله واعتقاد صحته ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله : ﴿ وجعلنا ﴾ للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه ، أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم ﴿ وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ انتهى .

وهو جار على مذهب أصحابه المعتزلة ، وأما عند أهل السنة فنسبة الجعل إلى الله حقيقة لا مجاز وهي مسألة خلق الأعمال يبحث فيها في أصول الدّين .

قال ابن عطية : وهذه عبارة عن ما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلظ والبعد عن

قبول الخير كأنهم لم يكونوا سامعين لأقواله .

﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ لما ذكر عدم انتفاعهم بعقولهم حتى كأن على محالها أكنة ولا بسماعهم حتى كأن ﴿ في آذانهم وقراً ﴾ انتقل إلى الحاسة التي هي أبلغ من حاسة السماع ، فنفى ما يترتب على إدراكها وهو الإيمان والرؤية هنا بصرية والآية كانشقاق القمر ونبع الماء من أصابعه ، وحنين الجذع وانقلاب العصا سيفاً والماء الملح عذباً وتصيير الطعام القليل كثيراً وما أشبه ذلك .

وقال ابن عباس : ﴿ كل آية ﴾ كل دليل وحجة لا يؤمنوا بها لأجل ما جعل على قلوبهم أكنة ؛ انتهى .

ومقصود هذه الجملة الشرطية الإخبار عن المبالغة التامّة والعناد المفرط في عدم إيمانهم حتى إن الشيء المرئي الدال على صدق الرسول حقيقة لا يرتبون عليه مقتضاه ، بل يرتبون عليه ضد مقتضاه .

(118/229)

﴿ حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأوّلين ﴾ ﴿ يجادلونك ﴾ أي يخاصمونك في الاحتجاج وبلغ تكذيبهم في الآيات إلى المجادلة ، وهذا

إشارة إلى القرآن وجعلهم إياه من ﴿ أساطير الأولين ﴾ قدح في أنه كلام الله .

قيل : كان النضر يعارض القرآن بإخبار اسفنديار ورستم .

وقال ابن عباس : مجادلتهم قولهم : تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ؛ انتهى .

وهذا فيه بعد وظاهر المجادلة أنه في المسموع الذي هم يستمعون إلى الرسول بسببه وهو القرآن ، والمعنى أنهم في الاحتجاج ؛ انتهى .

أمرهم إلى المجادلة والافتراء دون دليل ، ومجيء الجملة الشرطية ب ﴿ إذا ﴾ بعد ﴿ حتى ﴾ كثير جداً في القرآن ، وأوّل ما وقعت فيه قوله : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ وهي حرف ابتداء وليست هنا جارة لإذا ولا جملة الشرط جملة الجزاء في موضع جر وليس من شرط ﴿ حتى ﴾ التي هي حرف ابتداء أن يكون بعدها المبتدأ ، بل تكون تصلح أن يقع بعدها المبتدأ ألا ترى أنهم يقولون في نحو ضربت القوم حتى زيداً ضربته أن حتى فيه حرف ابتداء وإن كان ما بعدها منصوباً و ﴿ حتى ﴾ إذا وقعت بعدها ﴿ إذا ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى الفاء ويحتمل أن تكون بمعنى إلى أن فيكون التقدير فإذا ﴿ جاؤوك يجادلونك ﴾ يقول أو يكون التقدير ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ أي منعناهم من فهم القرآن وتدبره ؟ إلى أن يقولوا : ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ في وقت مجيئهم مجادليك لأن الغاية لا تؤخذ إلا من جواب الشرط لا من الشرط ، وعلى هذين المعنيين يتخرج جميع ما جاء في القرآن من قوله تعالى ﴿ حتى إذا

﴿ وتركيب ﴿ حتى إذا ﴾ لا بد أن يتقدمه كلام ظاهر نحو هذه الآية ونحو قوله : فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال : أقتلت ، أو كلام مقدر يدل عليه سياق الكلام ، نحو قوله :

(119/229)

﴿ آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً ﴾ التقدير فأتوه بها ووضعها بين الصدقين ﴿ حتى إذا ﴾ ساوى بينهما قال : انفخوا فنفخه ﴿ حتى إذا جعله ناراً ﴾ بأمره وإذنه قال آتوني أفرغ ولهذا قال الفراء ﴿ حتى إذا ﴾ لا بد أن يتقدمها كلام لفظاً أو تقديراً ، وقد ذكرنا في كتاب التكميل أحكام حتى مستوفاة ودخولها على الشرط ، ومذهب الفراء والكسائي في ذلك ومذهب غيرهما .

وقال الزمخشري : هنا هي ﴿ حتى ﴾ التي تقع بعدها الجمل والجملة قوله : ﴿ إذا جاؤوك ﴾ ﴿ يقول الذين كفروا ﴾ و ﴿ يجادلونك ﴾ في موضع الحال ؛ انتهى .

وهذا موافق لما ذكرناه ، ثم قال : ويجوز أن تكون الجارة ويكون ﴿ إذا جاؤوك ﴾ في محل الجرّ بمعنى حتى وقت مجيئهم و ﴿ يجادلونك ﴾ حال وقوله : ﴿ يقول الذين كفروا ﴾ تفسير والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات ، إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون : ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث خرافات

وأكاذيب وهي الغاية في التكذيب ؛ انتهى .

وما جوّزه الزمخشري في ﴿ إذا ﴾ بعد ﴿ حتى ﴾ من كونها مجرورة أوجبه ابن مالك في التسهيل ، فزعم أن ﴿ إذا ﴾ تجر بـ ﴿ حتى ﴾ .

قال في التسهيل : وقد تفارقها ، يعني ﴿ إذا ﴾ الظرفية مفعولاً بها ومجرورة بـ ﴿ حتى ﴾ أو مبتدأ وما ذهب إليه الزمخشري في تجويزه أن تكون ﴿ إذا ﴾ مجرورة ب ﴿ حتى ﴾ ، وابن مالك في إيجاب ذلك ولم يذكر قولاً غيره خطأ وقد بينا ذلك في كتاب التذييل في شرح التسهيل ، وقد وفق الحوفي وأبو البقاء وغيرهما من المعربين للصواب في ذلك فقال هنا أبو البقاء ﴿ حتى إذا ﴾ في موضع نصب لجوابها وهو ﴿ يقول ﴾ وليس لحتى ها هنا عمل وإنما أفادت معنى الغاية ، كما لا تعمل في الجمل و ﴿ يجادلونك ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿ جاؤوك ﴾ وهو العامل في الحال ، يقول جواب ﴿ إذا ﴾ وهو العامل في إذا ؛ انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(120/229)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ كلامٌ مبتدأ مَسوقٌ لحكاية ما صدر في الدنيا عن بعض المشركين من أحكام الكفر ، ثم بيانِ ما سيصدُر عنهم يوم الحشر تقريراً لما قبله وتحقيقاً لمضمونه ، والضميرُ للذين أشركوا ، ومحلُ الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي وجمعٌ منا الخ و(من) موصولة أو موصوفة محلُها الرفع على الخبرية ، والمعنى وبعضهم أو وبعضٌ منهم الذي يستمع إليك أو فريق يستمع إليك على أن مناطَ الإفادة اتصافُهم بما في حيز الصلة أو الصفة لا كونُهم ذواتِ أولئك المذكورين وقد مر في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَقُولُ ﴾ الخ .

رُوي أنه اجتمع أبو سفيانَ والوليدُ والنضْرُ وعُتبةُ وشيبةُ وأبو جهلٍ وأضرابُهم يستمعون تلاوةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر وكان صاحبَ أخبارٍ : ياأبا قتيلة ما يقول محمد ؟ فقال : والذي جعلها بيتَه ما أدري ما يقول إلا أنه يحرِّك لسانه ويقول أساطيرَ الأولين مثلَ ما حدثتُكم من القرون الماضية ، فقال أبو سفيان : إني لأراه حقاً ، فقال أبو جهل : كلا فنزلت .

﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ من الجَعْل بمعنى الإنشاء و(على) متعلقةٌ به وضمير قلوبهم راجعٌ إلى (مَنْ) وجمعيتُه بالنظر إلى معناها كما أن إفراد ضميرِ يستمعُ بالنظر إلى لفظها وقد رُوعيَ جانب المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ الآية ، والأكنة جمع كِنان وهو ما يُستر به الشيءُ ، وتنوينُها للتفخيم ، والجملة إما مستأنفةٌ للإخبار بما تضمنه من الخَتْم أو حال من فاعل يستمع بإضمار قد عند من يقدّرها قبل الماضي الواقعِ حالاً أي يستمعون إليك وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة لا يقادر قدرُها خارجةً عما يتعارفه الناس ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي كراهةَ أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن المدلولِ عليه بذكر الاستماع ، ويجوز أن يكونَ مفعولاً لما يُنبىء عنه الكلامُ أي منعناهم أن يفقهوه ﴿ وَفِي آذَانِهِم وَقْراً ﴾ صَمماً وثِقَلاً مانعاً من سماعه ، والكلام فيه كما في قوله تعالى : ﴿ على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ وهذا تمثيلٌ مُعربٌ عن كمال جهلهم بشؤون النبي عليه الصلاة والسلام وفرطِ نُبُوَّة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومجِّ أسماعِهم له ، وقد مر تحقيقه في أو سورة البقرة وقيل : هو حكاية لما قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ ﴾ الآية ، وأنت خبير بأن مرادهم بذلك الإخبارُ بما اعتقدوه في حق القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام جهلاً وكفراً من اتصافهما بأوصافٍ مانعة من التصديق والإيمان ، ككون القرآن سِحراً وشعراً وأساطيرَ الأولين ، وقسْ على ما تخيلوه في حق النبي صلى الله عليه وسلم ، لا الإخبارُ بأن هناك أمراً وراء ذلك قد حال بينهم وبين إدراكه حائلٌ من قِبَلِهم حتى يُمكِنَ

حملُ النظم الكريم على ذلك ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ﴾ من الآيات القرآنية أي يشاهدوها بسماعها ﴿ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ على عموم النفي لا على

(122/229)

نفي العموم أي كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم إياها كما هي لما مر من حالهم ﴿ حتى إِذَا جَاءوكَ يجادلونك ﴾ هي حتى التي تقع بعدها الجمل ، والجملة هي قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءوكَ ﴾ ﴿ يَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وما بينهما حال من فاعل جاءوا وإنما وضع الموصولُ موضعَ الضمير ذماً لهم بما في حيّز الصلة وإشعاراً بعِلة الحكم ، أي بلَغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين لك لا يكتفون بمجرد عدم الإيمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما هذا ﴿ إِلاَّ أساطير الاولين ﴾ فإنّ عَدَّ أحسنِ الحديث وأصدقِه الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه من قبيل الأباطيلِ والخرافاتِ رتبةٌ من الكفر لا غاية وراءها ، ويجوز أن تكون (حتى) جارّةً و(إذا) ظرفيةً بمعنى وقتِ مجيئهم ، ويجادلونك حال كما سبق وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ الخ ، تفسيرٌ للمجادلة والأساطيرُ جمع أُسطورة أو أسطارة أو جمع أسطار وهو

جمع سَطَر بالتحريك وأصل الكل السَّطْر بمعنى الخط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(123/229)

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ كلام (مبتدأ) مسوق لحكاية ما صدر في الدنيا عن بعض المشركين من أحكام الكفر ثم بيان ما سيصدر عنهم يوم الحشر تقريراً لما قبله وتحقيقاً لمضمونه .

وضمير ﴿ مِنْهُمْ ﴾ للذين أشركوا .

والاستماع بمعنى الإصغاء وهو لازم يعدى باللام وإلى كما صرح به أهل اللغة ، وقيل : إنه مضمن معنى الإصغاء ومفعوله مقدر وهو القرآن .

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في رواية أبي صالح : إن أبا سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبيا بن خلف استمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد ؟

فقال : والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول إلا أني أرى تحرك شفتيه يتكلم بشيء فما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية .

وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى وكان يحدث قريشاً فيستملحون حديثه فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وأفرد ضمير ﴿ مِنْ ﴾ في ﴿ يَسْتَمِعِ ﴾ وجمعه في قوله سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ نظراً إلى لفظه ومعناه وعن الكرخي إنما قيل : هنا ﴿ يَسْتَمِعِ ﴾ وفي يونس (42) ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ لأن ما هنا في قوم قليلين فنزلوا منزلة الواحد وما هناك في جميع الكفار فناسب الجمع ، وإنما لم يجمع ثم في قوله سبحانه : ﴿ وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 43] لأن المراد النظر المستتبع لمعاينة أدلة الصدق وأعلام النبوة والناظرون كذلك أقل من المستمعين للقرآن .

والجعل بمعنى الإنشاء .

والأكنة جمع كنان كغطاء وأغطية لفظاً ومعنى لأن فعالاً بفتح الفاء وكسرها يجمع في القلة على أفعلة كأحمرة وأقذلة ، وفي الكثرة على فعل كحمر إلا أن يكون مضاعفاً أو معتل اللام فيلزم جمعه على أفعلة كأكنة وأخبية إلا نادراً .

وفعل الكن ثلاثي ومزيد يقال : كنه وأكنه كما قاله الطبرسي وغيره وفرق بينهما الراغب فقال : أكننت يستعمل لما يستر في النفس والثلاثي لغيره والتنوين للتفخيم .

والواو للعطف والجملة معطوفة على الجملة قبلها عطف الفعلية على الاسمية ، وقيل : الواو للحال أي وقد جعلنا .

و ﴿ على قُلُوبِهِمْ ﴾ متعلق بالفعل قبله .

وزعم أبو حيان أنه "إن كان بمعنى ألقى فالظرف متعلق به وإن كان بمعنى صير فمتعلق بمحذوف إذ هو في موضع المفعول الثاني" .

والمعنى على ما ذكرنا وأنشأنا على قلوبهم أغطية كثيرة لا يقادر قدرها .

﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي كراهة أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن المدلول عليه بذكر الاستماع فالكلام على تقدير مضاف ومنهم من قدر لا دونه أي أن لا يفقهوه وكذلك يفعلون في أمثاله ، وجوز أن يكون مفعولاً به لما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي منعناهم أن يفقهوه أو لما دل عليه ﴿ أَكِنَّةً ﴾ وحده من ذلك ﴿ وَفِى ءاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي صمماً وثقلاً في السمع يمنع من استماعه على ما هو حقه .

والكلام عند غير واحد تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم وفرط نبوة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم أصمها الله تعالى ، وجوز أن يكون

هناك استعارة تصريحية أو مكنية أو مشاكلة .

وقد مر لك في البقرة ما ينفعك هنا فتذكره .

وقرأ طلحة ﴿ وِقْراً ﴾ بالكسر وهو على ما نص عليه الزجاج حمل البغل ونحوه ، ونصبه على القراءتين بالعطف على ﴿ أَكِنَّةً ﴾ كما قال أبو البقاء .

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ﴾ أي يشاهدوا ويبصروا ﴿ كُلَّ ءَايَةٍ ﴾ أي معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم على ما نقل عن الزجاج وهو الذي يقتضيه كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة وتكثير القليل من الطعام وما أشبه ذلك ﴿ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم .

(125/229)

والكلام من باب عموم النفي ككل ذلك لم يكن لا من باب نفي العموم .

والمراد ذمهم بعدم الانتفاع بحاسة البصر بعد أن ذكر سبحانه عدم انتفاعهم بعقولهم وأسماعهم ، ونقل عن بعضهم أنه لا بد من تخصيص الآية في الآية بغير الملجئة دفعاً للمخالفة بين هذا وقوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السماء ءَايَةً فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ [الشعراء : 4] .

واكتفى بعضهم بحمل الإيمان على الإيمان بالاختيار وفرق بينه وبين خضوع الأعناق فليفهم .

وخص شيخ الإسلام الآية "بما كان من الآيات القرآنية أي وإن يروا شيئاً من ذلك بأن يشاهدوه بسماعه لا يؤمنوا به" ، ولعل ما قدمناه أحلى لدى الذوق السليم .

﴿ حتى إِذَا جَاءوكَ يجادلونك ﴾ أي يخاصمونك وينازعونك .

و﴿ حتى ﴾ هي التي تقع بعدها الجمل ويقال لها : حتى الابتدائية ولا محل للجملة الواقعة بعدها خلافاً للزجاج وابن درستويه زعماً أنها في محل جر بحتى .

ويرده أن حروف الجر لا تعلق عن العمل وإنما تدخل على المفرد أو ما في تأويله .

والجملة هنا قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءوكَ ﴾ مع جواب الشرط أعني قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وما بينهما حال من فاعل جاؤوا .

وإنما وضع الموصول موضع الضمير ذماً لهم بما في حيز الصلة وإشعاراً بعلة الحكم .

و﴿ إِذَا ﴾ منصوبة المحل على الظرفية بالشرط أو الجواب على الخلاف الشهير في ذلك ، واعترض بأن جعل ﴿ يجادلونك ﴾ في موضع الحال و﴿ يَقُولُ الذين ﴾ جواباً مفض إلى جعل الكلام لغواً لأن المجادلة نفس هذا القول إلا أن تؤول المجادلة بقصدها .

ولا يخفى ما فيه ، فإن المجادلة مطلق المنازعة .

وسميت بذلك لما فيها من الشدة أو لأن كل واحد من المتجادلين يريد أن يلقى صاحبه على الجدالة أي الأرض .

(126/229)

والقول المذكور فرد منها فالكلام مفيد أبلغ فائدة كقولك إذا أهانك زيد شتمك ، وذكر بعض النحويين أن حتى إذا وقع بعدها إذا يحتمل أن تكون بمعنى الفاء وأن تكون بمعنى إلى والغاية معتبرة في الوجهين أي بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاؤوك مجادلين لك لا يكتفون بمجرد عدم الإيمان (بما سمعوا من الآيات الكريمة) بل يقولون :

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما هذا ﴿ إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ أي أحاديثهم المسطورة التي لا يعول عليها ، وقال قتادة : كذبهم وباطلهم .

وحاصل ما ذكر أن تكذيبهم بلغ النهاية بما ذكر لأنه الفرد الكامل منه .

ونظير ذلك مات الناس حتى الأنبياء وجوز أن تكون ﴿ حتى ﴾ هي الجارة و ﴿ إِذَا جَاءوكَ ﴾ في موضع الجر وهو قول الأخفش وتبعه ابن مالك في "التسهيل" .

ورده أبو حيان في شرحه .

وعليه فإذا خارجة عن الظرفية كما صرحوا به وعن الشرطية أيضاً فلا جواب لها فيقول

حينئذ : تفسير ليجادلونك وهو في موضع الحال أيضاً ، والأساطير عند الأخفش جمع لا مفرد له كأبابيل ومذاكير ، وقال بعضهم : له مفرد .

وفي "القاموس" "إنه جمع إسطار وإسطير بكسرهما وأُسطور وبالهاء في الكل" ، وقيل : جمع أسطار بفتح الهمزة جمع سطر بفتحتين كسبب وأسباب فهو جمع جمع .

وأصل السطر بمعنى الخط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(127/229)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾

إن من هؤلاء من يستمع إلى القرآن لا بهدف التفهم والهداية ، ولكن بهدف تلمس أي سبيل للطعن في القرآن ، فكأن قلوبهم مغلقة عن القدرة على الفهم وحسن الاستنباط وصولاً إلى الهداية ، وهم يجادلون بهدف تأكيد كفرهم لا بنية صافية لاستبانة آفاق آيات الحق والوصول إلى الطريق القويم .

ونعلم أن السورة كلها جاءت لتواجه قضية الأصنام والوثنية والشرك بالله ، ونعلم أن

المعجزة التي جاءت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي القرآن ، وهو معجزة كلامية ، تختلف عن المعجزات المرئية التي شاهدها المعاصرون لموسى عليه السلام : كشق البحر أو رؤية العصا وهي تصير حية تلقف كل ما ألقاه السحرة ، أو معجزة عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص ، فهذه كلها معجزات مرئية ومحددة بوقت ، أما معجزة رسول الله فهي معجزة مسموعة ودائمة .

إن السمع هو أول أدوات الإدراك للنفس البشرية . إنه أول آلة إدراك تنبه الإنسان ، إنه آلة الإدراك الوحيدة التي تُستصحب وقت النوم وتؤدي مهمتها ؛ لأن تصميمها يضم إمكانات مواصلة مهمتها وقت النوم . ونعلم أن الحق حينما أراد أن يقيم أهل الكهف مدة ثلاثمائة وتسع سنين ضرب على آذانهم حتى يكون نومهم سباتاً عميقاً ، فهم في كهف في جبل ، والجبل في صحارى تهب عليها الرياح والزوابع والأعاصير ، فلو أن آذانهم على طبيعتها لما استراحوا في النوم الذي أراده الله لهم ، ولذلك ضرب الله على آذانهم وقال سبحانه : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً ﴾ [الكهف : 11] .

(128/229)

ومعجزة رسول الله – إذن – جاءت سمعية وأيضاً يمكن قراءتها . وحين يتلقى الإنسان بلاغاً فهو يتلقاه بسمعه ، ويستطيع من بعد ذلك أن يقرأ هذا البلاغ ويتفقه فيه ، ولا أحد يعرف القراءة إلا إذا سمع أصوات الحروف أولاً ثم رآها من بعد ذلك ، لقد تميزت معجزته صلى الله عليه وسلم بسيد الأدلة في وسائل الإدراك الإنساني ، وهو السمع ، والحق يقول :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ .

إن هناك فارقا بين " يسمع " و" يستمع " ، فالذي يسمع هو الذي يسمع عرضاً ، أما الذي " يستمع " فهو الذي يسمع عمداً . والسامع دون عمد ليس له خيارا ًألاّ يسمع ، إلا إذا سد أذنيه . أما الذي يستمع فهو الذي يقصد السمع . وهم كانوا يستمعون للقرآن لا بغرض اكتشاف آفاق الهداية ولكن بغرض الإصرار على الكفر وذلك بقصد تصيد المطاعن على القرآن .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ و" الأكنة " جمع "كنان " وهي الغطاء أو الغلاف . ويتابع الحق : ﴿ وفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ أي جعلنا في آذانهم صمماً ، كأنهم باختيارهم الكفر قد منعهم الله أن يفهموا القرآن ، ونعلم أن جميع المعاصرين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمعوا لرسول الله ومنهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر .

ونعرف أن لكل فعل مستقبلاً . ويمكن للمستقبل أن يؤمن وبذلك يكون الفعل قد أتى ثمرته ،

وقد يكون المُستقبل مصراً على موقفه السابق فلا يؤمن ، وهنا يكون الفعل لم يؤت ثمرته ، والفاعل واحد ، لكن القابل مختلف . وكان بعض الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمان : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد : 16] .

(129/229)

إنهم ككفار يستمعون للقرآن ، ثم ينصرفون ليقولوا في استهزاء للمؤمنين الذين علموا وآمنوا : أي كلام هذا الذي يقوله محمد ؟ هؤلاء المستهزئون هم الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر ، وانصرفوا عن الهداية إلى الضلال . والمتكلم بكلام الله هو رسول الله مبلغاً عن الله ، والسامع مختلف ؛ فهناك سامع مؤمن يتأثر بما يسمع ، وهناك سامع كافر لا تستطيع أذنه أن تنقل الوعي والإدراك بما سمع . لكن القرآن للذين آمنوا هدى وشفاء ، أما الذين لا يؤمنون به فآذانهم تصم عن الفهم وأعماقهم بلا بصيرة فلذلك لا يفهمون عن الله ، وتجد نفس المؤمن تستشرف لأن تعلم ماذا في القرآن . أما الذي يريد أن يكون جباراً في الأرض فهو لا يريد أن يلزم نفسه بالمنهج .

وحتى نعرف الفارق بين هذين اللونين من البشر ، نجد المؤمن ينظر إلى الكون ويتأمله فيدرك

أن له صانعاً حكيماً ، أما الكافر فبصيرته في عماء عن رؤية ذلك . وحين يستمع المؤمن إلى بلاغ من خالق الكون فهو يرهف السمع ، أما الكافر فهو ينصرف عن ذلك .

وكان صناديد قريش أمثال أبي جهل وأبي سفيان ، والنضر بن الحارث ، والوليد ابن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وحرب بن أمية ، كل هؤلاء من صناديد قريس يجتمعون ويسأل الواحد منهم النضر قائلاً : يا نضر ما حكاية الكلام الذي يقوله محمد ؟

وكان النضر راوية للقصص التي يجمعها من أنحاء البلاد ، فهو قد سافر إلى بلاد فارس والروم وجاب الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، فقال : والله ما أدري ما يقول محمد إلا أنه أساطير الأولين .

(130/229)

ويتجادل النضر وأبو سفيان وأبو جهل مع رسول الله ، وهذا الجدال دليل عدم فهم لما جاء من آيات القرآن . ولم يجعل الله الوقر على آذانهم قهراً عنهم ، بل بسبب كفرهم أولاً ، فطبع الله على قلوبهم بكفرهم ، واستقر مرض الكفر في قلوبهم وفضلوه على الإيمان فزادهم الله مرضاً ، وقال فيهم الحق سبحانه : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حتى إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الذين كفروا إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [الأنعام : 25] .

والأساطير هي جمع أسطورة ، والأسطورة شيء يسطر ليتحدث به من العجائب والأحداث الوهمية .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يكشفهم أمام أنفسهم وهو يحاولون أن يجدوا ثغرة في القرآن فلا يجدون . وقال الله عنهم قولاً فصلاً : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

فهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين ؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم فهم أمة بلاغة ، ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم . كما أنهم أرادوا أن يظلوا في السيادة والجبروت والقهر للغير ، والقرآن إنما جاء ليساوي بين البشر جميعاً أمام الحق الواحد الأحد .

لقد جاءت حوادث قسرية بإرادة الله لتكون سبباً للإيمان ، مثلما حدث مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما علم أن أخته قد أسلمت فذهب إليها وضربها حتى أسال منها الدم . وإسالة الدم حركت فيه عاطفة الأخوة فأزالت صلف العناد ، فأراد أن يقرأ الصحيفة التي بها بعض من آيات القرآن ، وتلقى الأمر من أخته بأن يتطهر فتطهر وجلس يستمع ، وبزوال صلفه وعناده وبتطهره صار ذهنه مستعداً لفهم ما جاء بالقرآن ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته الخاتمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْك ﴾

راعى لفظ " مَنْ " فأفرد ، ولو رَاعَى المعنى لجمع ، كقوله في موضع آخر : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ ﴾ [يونس : 42] .

وقوله : ﴿ على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ إلى آخره ، حمل على معناها قوله : " وَجَعَلْنَا " " جعل " هنا يحتمل أن يكون للتَّصْيِيرِ ، فيتعدّى لاثنين ، أوَّلُهُمَا : " أكنَّه " والثاني : الجار قبله ، فيتعلّق بمحذوف ، أي : صيَّرنا الأَكِنَّة مستقرّة على قلوبهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى " خلق " ، فيتعدى لواحد ، ويكنون الجار قبله حالاً فيتعلق بمحذوف ؛ لأنه لو تأخر لوقع صفة لـ " أَكِنَّة " .

ويحتمل أن يكون بمعنى " ألقى " فتتعلّق " على " بها ن كقولك : " ألقيتُ على زيد كذا " ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] .

وهذه الجملة تحتمل وجهين :

أظهرهما : أنها مُسْتَأْنَفَةٌ سيقت للإخبار بما تضمَّنَتْهُ من الخَتْمِ على قلوبهم وسمعهم .

حال كونه مَجْعُولاً على قلبه كنانٌ ، وفي أذنه وقرٌ ، فعلى الأول يكون قد عطف جملة فعلية على اسمية ، وعلى الثاني : تكون الواو للحال ، و" قد " مضمرة بعدها عند مَنْ يُقَدِّرَها قبل الماضي الواقع حالاً .

والأَكِنَّةُ : جمع "كِنَان" ، وهو الوعَاءُ الجامع .

قال الشاعر :

2127 - إذَا ما انْتَضَوْهَا فِي الوَغَى مِن أَكِنَّةٍ . . .

حَسِبْتَ بُرُوقَ الغَيْثِ تَأْتِي غُيُومُهَا

وقال بعضهم : " الكِنُّ " - بالكَسْرِ - ما يُحْفَظُ فيه الشَّيء ، وبالفتح المصدر .

يقال : كَنَنْتُهُ كِنّاً ، أي : جعلته في كِنٍّ ، وجُمِعَ على " أكنان " قال تبارك وتعالى : ﴿ مِّنَ الجبال أَكْنَاناً ﴾ [النحل : 81] .

(132/229)

والكِنَانُ : الغِطَاءُ السَّاتِرُ ، والفعل من هذه المادة يُسْتعمل ثلاثياً ورُبَاعيَّاً ، يقال : كَنَنْتُ الشَّيء ، وأَكْنَنْتُه كنّا وإكناناً ، إلاَّ أن الراغب فَرَّق بين " فَعَلَ " و " أفْعل " ، فقال : " وخُصَّ

كننت بما يستُر من بيت ، أو ثوب ، أو غير ذلك من الأجسام " ، قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصفات : 49] وأكننت بما يستر في النفس ، قال تعالى : ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة : 235] .

ويشهد لما قال قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : 77 – 78]

وقوله تعالى : ﴿ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ [القصص : 69] .

و" كِنَان " يُجمع على " أَكِنَّة " في القِلَّةِ والكَثْرَةِ لتضعيفه ، وذلك أن فَعالاً وفِعالاً بفتح الفاء وكسرها يُجْمَعُ في القِلَّةِ على " أفْعِلة " كـ " أحمرة " و" أقْذِلَة " ، وفي الكَثْرَةِ على فُعُل كـ " حُمُر " ، و" قُذُل " ، إلاَّ أن يكون مُضاعفاً كـ " بَتَات " وكِنَان " ، أو معتل اللام كـ " خباء و" قباء " ، فيلتزم جمعه على " أفْعِلَة " ، ولا يجوز على " فُعل " إلاَّ في قليلٍ من الكلام كقولهم : " غُنُن " ، و" حُجُج " في جمع " عِنان " و" حجاج " .

قال القرطبي : والأَكِنَّةُ : الأغْطِية مثل : الأسنَّة والسَّنَان ، والأعنَّة والعِنَان ، كَنَنْتُ الشيء في كِنَّةٍ إذا صُنْتَهُ فيه ، وأكْنَنْت الشَّيء أخْفَيْتُهُ ، والكِنَانَةُ معروفة ، والكَنَّة – بفتح الكاف والنون – امرأة أبيك ، ويقال : امرأة الابن أو الأخ لأنها في كنة .

قوله : " أنْ يَفْقَهُوهُ " في مَحَلِّ نَصْبٍ على المفعول من أجْلِهِ ، وفيه تأويلان سَبَقَا .

أحدهما : كَرَاهَةَ أن يفقهوه ، وهو رأيُ البصريين .

والثاني : حَذْفُ " لا " ، أي : أن لا يَفْقَهُوهُ ، وهو رأيُ الكوفيين .

قوله : " وَقْراً " عطفٌ على " أَكِنَّة " فَيَنْتَسِبُ انْتِصَابَهُ ، أي : وجعلنا في آذانهم وقراً و" في آذانهم " كقوله : " عَلَى قُلُوبِهِمْ " .

وقد تقدَّمَ أنَّ " جَعَل " يحتمل معاني ثلاثة ، فيكون هذا الجار مبنيّاً عليها من كونه مفعولاً ثانياً قُدِّمَ ، أو متعلّقاً بها نفسها أو حالاً .

والجمهور على فتح الواو من " وَقراً " .

وقرأ طَلحةُ بن مُصَرِفٍ بكسرها ، والفرق بين " الوَقْر " و" الوِقْر " أنَّ المفتوح هو الثِّقَلُ في الأُذُنِ ، يُقال منه : وَقَرتْ أذنه يفتح القاف وكسرها ، والمُضارع تَقِرُ وتَوْقَر ، بحسب الفعلين كـ" تعد " و" تَوْجَل " .

وحكى أبو زيد : أُذُنٌ مَوْقُورة ، وهو جَارٍ على القياس ، ويكون فيه دليلٌ على أنَّ " وَقَرَ " الثلاثي يكون متعدياً ، وسُمِع " أُذُنٌ مَوْقُورةٌ " والفعل على هذا " أَوْقَرْتُ " رباعياً كـ" أكرم " .

و" الوِقْر " - بالكسر - الحِمْلُ للحمار والبَغْلِ ونحوهما ، كالوَسْق للبعير .

قال تعالى : ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ [الذاريات : 2] فعلى هذا قراءة الجموهور واضحةٌ

، أي : وجعلنا في آذانهم ، ثِقَلاً ، أي : صَمَاً .

وأمَّا قراءة طَلْحَةَ ، فكأنه جعل آذانهم وقَرَتْ من الصمم كما تُوقَرُ الدَّابَّةُ بالحِمْلِ ، والحاصلُ أنَّ المادة تَدُلُّ على الثِّقَلِ والرَّرانة ، ومنه الوَقَارُ للتُّؤدَةِ ، والسَّكينة ، وقوله تعالى : ﴿ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ فيه الفَصْلُ بين حَرْفِ العَطْفِ وما عطفه بالجار مع كون العاطف [على حرف واحد] وهي مسألة خلاف تقدَّم تَحْقِيقُهَا في قوله : ﴿ أَن تُؤدُّواْ الأمانات إلى أَهْلِهَا ﴾ [النساء : 58] .

والظاهِرُ : أن هذه الآية ونظرئها مثل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً ﴾ [البقرة : 201] ليس مما فُصِلَ فيه بين العاطف ومعطوفه كما تقدَّم .

(134/229)

قوله : " حَتَّى إذَا جَاءُوكَ " قد تقدَّم الكلامُ في " حتَّى " الداخلة على " إذا " في أول " النساء " .

وقال : أبو البقاء – رحمه الله تعالى – : هنا " إذا " في موضع نَصْبٍ بجوابها ، وهو " يقول " وليس لـ " حتَّى " غايةٌ و " يجادلونك " حال ، و " يقول " جواب " إذا " ، وهو العامل في " إذا " .

وقال الزمخشري : [وهي] " حتى " التي تقع بعدها الجُمَلُ ، والجملة قوله : " إذا جَاءُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ " ، و" يُجَادِلُونَكَ " في موضع الحَالِ ، ويجوزُ أن تكون الجارةَ ، فيكون " إذا جاءوك " في مَحَلِّ الجر ، بمعنى " حتَّى " وقت مجيئهم ، و" يجادلونك " حالٌ ، .

وقوله : ﴿ يَقُولُ الذين كَفَرُوا ﴾ تفسيرٌ له ، والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويُنَاكِرُونَكَ .

وفسَّرَ مُجَادَلَتَهُمْ بأنهم يقولون : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ قال أبو حيَّان : " وقد وُفِّقَ الحوفي ، وأبو البقاء ، وغيرهما للصواب في ذلك " ثمَّ ذكر عِبَارَةَ أبي البقاء والحوفي ، وقال أيضاً : و" حتى " إذا وقع بعدهما " إذا " ، يُحْتمل أن تكون بمعنى " الفاء " ، ويحتمل أن تكون بمعنى " إلى أن " ، فيكون التقديرُ : فإذا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يقول ، أو يكون التقدير : وجعلنا على قلوبهم أكنَّة ، وكذا إلى أن قالوا : إن هذا إلاَّ أساطير الأوَّلين ، وقد تقدَّم أن " يُجَادِلُونك " حالٌ من فاعل " جَاءُوكَ " ، و" يقول " : إمَّا جواب : " إذا " وإمَّا مفسِّرةٌ للمجيء ، كما تقدَّم تقريره .

و" أساطير " فيه أقوال :

أحدهما : أنه جمع لواحد مُقَدَّرٍ ، واخْتُلِفَ في ذلك المُقَدَّرِ ، فقيل : أسْطُورة ، وقيل : أسْطَارة ، وقيل أسْطُور ، وقيل : أسْطَار ، وقيل إسْطِيرة وقال بعضهم : بل لُفِظَ بهذه المفردات .

والثاني : أنه جَمْعٍ ف "أساطير" جمع "أسْطار" ، و"أسطار" جمع "سَطَر" بفتح الطاء ، وأمَّا "سَطْر" بسكونها فَجَمْعُهُ في القِلَّةِ على "أسْطُر" ، وفي الكثرة على "سطور" كـ "فَلْس" و"أفْلُس" و"فُلُوس" .

والثالث : أنه جَمْعُ الجَمْعِ ف "أساطير" جمع "أسْطَار" ، و"أسطار" جمع "أسْطُر" ، و"سَطْر" جمع "سَطر" وهذا مرويٌّ عن الزَّجَّاج ، وليس بشيء فإنَّ "أسْطَار" ليس جمع "أسْطر" ، بل هما مِثَالاً جَمْع قلَّة .

الرابع : أنه اسم جمع .

قال : ابن عطية : "هو اسمُ جمع لا واحد له من لفظه" وهذا ليس بشيء ؛ لأنَّ النحويين قد نَصُّوا على أنه كان على صيغةٍ تَخُصُّ الجُمُوع لم يُسمُّوه اسم جمع ، بل يقولون : هو جمع كـ "عَبَاديد" و"شَمَاطِيط" ، فظاهر كلام الرَّاغب - رحمه الله تعالى - : أن "أساطير" جمع "سَطَر" بفتح الطاء ، فإنه قال : وجمع "سَطَر" - يعني بالفتح - "أسطار" و"أساطير" .

وقال المُبَرِّد - رحمه الله تعالى - : هي جمع "أسْطُورة" نحو : "أرْجُوحَة" و"أراجيح" و"

أحْدُوثَة " و" أحاديث " .

ومعنى " الأساطير " : الأحاديث الباطلة والرُّهَات مِمَّا لا حَقِيقَةَ له .

وقال الواحدي – رحمه الله تعالى : – أصلُ " الأسَاطير " من " السَّطْر " وهو أن يجعل شيئاً ممتداً مُؤَلَّفاً ، ومنه سَطْرُ الكتاب ، وسطر من شجر مفروش .

قال ابن السكيت : يقال سَطْرٌ وسِطْرٌ ، فمن قال : " سَطْر " فجمعه في القليل " أسْطُر " ، والتكثير " سْطُور " ، ومن قال : " سِطْر " فجمعه " أسْطَار " ، و" الأساطير " جمع الجمع .

وقال الجبائي – رحمه الله تعالى – : واحدُ الأساطير " أسْطُور " و" أسطورة " و" إسطيرة " .

قال جمهور المفسرين : أساطير الأولين ما سَطَّرَهُ الأوَّلون .

وقال ابن عباس : معناه أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها ، أي : يَكْتُبُونَهَا . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 78 . 84 ﴾ . باختصار .

(136/229)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ .

بيَّنَ أن السمعَ – في الحقيقة – سمعُ القبول ، وذلك عن عين اليقين يصدر ، فأما سَمْعُ الظاهر فلا عِبْرَةَ به .

ويقال مَنْ ابتلاه الحقُّ بقلبٍ مطبق ، ووضع فوق بصيرته غطاءَ التلبيس لم يزدْه ذلك إلا نفرة على نفرة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ .

يعني مَنْ أَقصَته القسمة الأزلية لم تنعشه الحيلة الأبدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 468 ﴾

(137/229)

قوله تعالى ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ وهم ﴾ حال من فاعل ﴿ يستمع ﴾ أي يستمعون إليك والحال أنهم ﴿ ينهون عنه ﴾ أي عن الاستماع أو عن اتباع القرآن ﴿ وينأون ﴾ أي يبعدون ﴿ عنه ﴾ أي كما وقع لأبي جهل وصاحبيه في المعاهدة على ترك المعاودة للسماع وما يتبعه ﴿ وإن ﴾ أي وما ﴿ يهلكون ﴾ أي بعبادتهم ومكابدتهم ﴿ إلاّ أنفسهم ﴾ أي وما هم بضاريك ولا بضاري أحد من أتباعك فيما يقدح في المقصود من إرسالك من إظهار الدين ومحو الشرك وإذلال المفسدين ﴿ وما يشعرون ﴾ أي وما لهم نوع شعور بما يؤديهم إليه الحال ، بل هم كالبهائم ، بل هي أصلح حالاً منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 622 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بيّن أنهم طعنوا في كون القرآن معجزاً بأن قالوا : إنه من جنس أساطير الأولين وأقاصيص الأقدمين ؛ بين في هذه الآية أنهم ينهون عنه وينأون عنه ، وقد سبق ذكر القرآن وذكر محمد عليه السلام ، فالضمير في قوله ﴿ عَنْهُ ﴾ محتمل أن يكون عائداً إلى القرآن وأن يكون عائداً إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، فلهذا السبب اختلف المفسرون فقال بعضهم : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي عن القرآن وتدبره والاستماع له .

وقال آخرون : بل المراد ينهون عن الرسول .

واعلم أن النهي عن الرسول عليه السلام محال بل لا بدّ وأن يكون المراد النهي عن فعل يتعلق

به عليه الصلاة والسلام ، وهو غير مذكور فلا جرم حصل فيه قولان : منهم من قال المراد أنهم ينهون عن التصديق بنبوّته والإقرار برسالته .

وقال عطاء ومقاتل : نزلت في أبي طالب كان ينهى قريشاً عن إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم يتباعد عنه ولا يتبعه على دينه .

والقول الأول : أشبه لوجهين : الأول : أن جميع الآيات المتقدمة على هذه الآية تقتضي ذم طريقتهم ، فكذلك قوله ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ ينبغي أن يكون محمولاً على أمر مذموم ، فلو حملناه على أن أبا طالب كان ينى عن إيذائه ، لما حصل هذا النظم .

والثاني : أنه تعالى قال بعد ذلك ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني به ما تقدم ذكره .

ولا يليق ذلك بأن يكون المراد من قوله ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ النهي عن أذيته ، لأن ذلك حسن لا يوجب الهلاك .

فإن قيل : إن قوله ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ يرجع إلى قوله ﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ لا إلى قوله ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ لأن المراد بذلك أنهم يبعدون عنه بمفارقة دينه ، وترك الموافقة له وذلك ذم فلا يصح ما رجحتم به هذا القول .

قلنا : إن ظاهر قوله ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ يرجع إلى كل ما تقدم ذكره لأنه بمنزلة أن يقال : إن فلاناً يبعد عن الشيء الفلاني وينفر عنه ولا يضر بذلك إلا نفسه ، فلا يكون هذا الضرر متعلقاً بأحد الأمرين دون الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 157.156 ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وهم ينهون عنه ﴾ يعني ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وينأون عنه ﴾ يعني ويتباعدون عنه بأنفسهم نزلت في كفار مكة كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن الاجتماع به وينهون عن استماع القرآن وكانوا هم كذلك .

وقال ابن عباس : نزلت في أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهى المشركين عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم ويمنعه منهم وينأى هو بنفسه عن الإيمان به بمعنى يبعد حتى روي أنه اجتمع إليه رؤوس المشركين وقالوا له خذ شاباً من أصبحنا وجهاً وادفع إلينا محمد .

فقال : ما أنصفتموني أدفع إليكم ابني محمداً لتقتلوه ، وأربي لكم ابنكم وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا أبا طالب إلى الإيمان فقال لولا أن تعيرني قريش لأقررت بها عينك ولكن أذب عنك ما حييت وقال في ذلك أبياتاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2

صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ الضمير المرفوع (للمشركين) والمجرور للقرآن أي لا يقنعون بما ذكر من تكذيبه وعده حديث خرافة بل ينهون الناس عن استماعه لئلا يقفوا على حقيته فيؤمنوا به ﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم عنه وتأكيداً لنهيهم (عنه) فإن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات النهي ، ولعل ذلك كما قال شيخ الإسلام هو السر في تأخير النأي عن النهي .

(139/229)

وهذا هو التفسير الذي أخرجه ابن أبي شيبة وابن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن مجاهد رحمة الله تعالى عليه ، وقيل : الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم على معنى ينهون الناس عن الإيمان به عليه الصلاة والسلام ويتباعدون عنه .

وهو التفسير الذي أخرجه أبناء جرير والمنذر وأبى حاتم ومردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وأخرجه أيضاً ابن جرير من طريق العوفي .

وروي ذلك عن محمد بن الحنفية والسدي والضحاك ، وقيل : الضمير المرفوع لأبي طالب

وأتباعه أو أضرابه والمجرور للنبي صلى الله عليه وسلم على معنى ينهون عن أذيته عليه الصلاة والسلام ولا يؤمنون به .

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن هلال أنه قال : إن الآية نزلت في عمومة النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا عشرة وكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه عليه الصلاة والسلام في السر ، وقيل : ضمير الجمع لأبي طالب وحده وجمع استعظاماً لفعله حتى كأنه مما لا يستقل به واحد ، وقيل : إنه نزل منزلة أفعال متعددة فيكون كقوله : قفا عند المازني ، ولا يخفى بعده .

وروى هذا القول جماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً .

وروي عن مقاتل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام فاجتمعت قريش إليه يريدون سوءاً بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال منشداً :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم . . .

حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة . . .

وأبشر وقر بذاك منك عيونا

ودعوتني وزعمت أنك ناصح . . .

ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

وعرضت دينا لا محالة أنه . . .

من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذاري سبة . . .

لوجدتني سمحا بذاك مبينا

فنزلت هذه الآية .

وفيها على هذا القول والذي قبله التفات ، ورد الإمام القول الأخير "بأن جميع الآيات المتقدمة في ذم فعل المشركين فلا يناسبه ذكر النهي عن أذيته عليه الصلاة والسلام وهو غير مذموم" .

(140/229)

ونظر فيه بأن الذم بالمجموع من حيث هو مجموع .

وبهذه الآية على هذه الرواية استدل بعض من ادعى أن أبا طالب لم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق هذا المطلب في موضعه .

والنأي لازم يتعدى بعن كما في الآية .

ونقل عن الواحدي أنه سمع تعديته بنفسه عن المبرد وأنشد :

أعاذل إن يصبح صدى بقفرة . . .

بعيدة نآني زائري وقريبي

وخرجه البعض على الحذف والإيصال ولا يخفى ما في ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ و ﴿ ينأون ﴾ من التجنيس البديع .

وقرىء "وينون عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾

عطف على جملة ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ ، والضميران المجروران عائدان إلى القرآن المشار إليه باسم الإشارة في قولهم : ﴿ إن هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : 25] .

ومعنى النهي عنه النهي عن استماعه .

فهو من تعليق الحكم بالذات .

والمراد حالة من أحوالها يعيّنها المقام .

وكذلك الناي عنه معناه النأي عن استماعه ، أي هم ينهون الناس عن استماعه ويتباعدون عن استماعه .

قال النابغة :

لقد نَهَيتُ بني ذبيانَ عن أُقُر

وعن تربّعهم في كلّ أصفار . . .

يعني نهيتهم عن الرعي في ذي أقر ، وهو حمى الملك النعمان بن الحارث الغسّاني .

وبين قوله : ﴿ ينهون وينأون ﴾ الجناس القريب من التمام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

اعلم أن أولئك الكفار كانوا يعاملون رسول الله صلى الله عليه وسلم بنوعين من القبيح .

الأول : إنهم كانوا ينهون الناس عن قبول دينه والاقرار بنبوته .

والثاني : كانوا ينأون عنه ، والنأي البعد يقال : نأى ينأى إذا بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 157 ﴾

(141/229)

فائدة

قال الطبرى :

وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ، قولُ من قال : تأويلُه : " وهم ينهون عنه " ، عن إتباع محمد

صلى الله عليه وسلم مَنْ سواهم من الناس ، وينأون عن اتباعه .

وذلك أن الآيات قبلَها جرت بذكر جماعة المشركين العادِلين به ، والخبرِ عن تكذيبهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، والإعراض عما جاءهم به من تنزيل الله ووحيه ، فالواجب أن يكون قوله : " وهم ينهون عنه " ، خبرًا عنهم ، إذ لم يأتنا ما يدُلُّ على انصراف الخبر عنهم إلى غيرهم . بل ما قبل هذه الآية وما بعدها ، يدلّ على صحة ما قلنا ، من أن ذلك خبر عن جماعة مشركي قوم رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، دون أن يكون خبرًا عن خاصٍّ منهم

.

وإذ كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : وإن يرَ هؤلاء المشركون ، يا محمد ، كلَّ آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقولون : " إن هذا الذي جئتنا به إلا أحاديث الأوّلين وأخبارهم " ! وهم ينهون عن استماع التنزيل ، وينأون عنك فيبعدون منك ومن اتباعك " وإن يهلكون إلا أنفسهم " ، يقول : وما يهلكونَ بصدّهم عن سبيل الله ، وإعراضهم عن تنزيله ، وكفرهم بربهم – إلا أنفسهم لا غيرها ، وذلك أنهم يكسِبُونها بفعلهم ذلك ، سخط الله وأليم عقابه ، وما لا قِبَل لها به " وما يشعرون " ، يقول : وما يدرون ما هُمْ مكسبوها من الهلاك والعطب بفعلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 10 صـ 315 .

﴿316

قوله تعالى ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

قال الفخر :

قال ابن عباس ، أي وما يهلكون إلا أنفسهم بسبب تماديهم في الكفر وغلوهم فيه وما يشعرون أنهم يهلكون أنفسهم ويذهبونها إلى النار بما يرتكبون من الكفر والمعصية ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 157 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ ﴾ أي وما يهلكون بذلك ﴿ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ ﴾ بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه وهو عذاب الضلال والإضلال .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ حال من ضمير ﴿ يُهْلِكُونَ ﴾ أي يقصرون الإهلاك على أنفسهم والحال أنهم غير شاعرين (أي) لا بإهلاكهم أنفسهم ولا باقتصار ذلك عليها من غير أن يضروا بذلك شيئاً من القرآن أو النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما عبر عنه بالإهلاك مع أن المنفي عن غيرهم مطلق الضرر للإيذان بأن ما يحيق بهم هو الهلاك لا الضرر المطلق .

على أن مقصدهم لم يكن مطلق الممانعة فيما (ذكروا) بل كانوا يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو نظام عقد لآلىء الآيات القرآنية .

وجوز أن يكون الإهلاك معتبراً بالنسبة إلى الذين يضلونهم بالنهي فقصْره على أنفسهم حينئذ مع شموله للفريقين مبني على تنزيل عذاب الضلال عند عذاب الإضلال منزلة العدم .

"ونفي الشعور على ما في "البحر" أبلغ من نفي العلم" كأنه قيل : وما يدركون ذلك أصلاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والقصر في قوله : ﴿ وإنْ يهْلِكُون إلاّ أنْفسهم ﴾ قصر إضافي يفيد قلب اعتقادهم لأنّهم يظنّون بالنهي والنأي عن القرآن أنّهم يضرّون النبي صلى الله عليه وسلم لئلاّ يتّبعوه ولا يتّبعه الناس ، وهم إنّما يُهلكون أنفسهم بدوامهم على الضلال وبتضليل الناس ، فيحملون أوزارهم وأوزار الناس ، وفي هذه الجملة تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام وأنّ ما أرادوا به نكايته إنّما يضرّون به أنفسهم .

وأصل الهلاك الموت .

ويطلق على المضرّة الشديدة لأنّ الشائع بين الناس أنّ الموت أشدّ الضرّ .

فالمراد بالهلاك هنا ما يلقونه في الدنيا من القتل والمذلّة عند نصر الإسلام وفي الآخرة من العذاب .

والنأي : البعد .

وهو قاصر لا يتعدّى إلى مفعول إلاّ بحرف جرّ ، وما ورد متعدّياً بنفسه فذلك على طريق الحذف والإيصال في الضرورة .

وعقّب قوله : ﴿ وإن يهلكون إلاّ أنفسهم ﴾ بقوله : ﴿ وما يشعرون ﴾ زيادة في تحقيق الخطأ في اعتقادهم ، وإظهاراً لضعف عقولهم مع أنّهم كانوا يعدّون أنفسهم قادة للناس ، ولذلك فالوجه أن تكون الواو في قوله : ﴿ وما يشعرون ﴾ للعطف لا للحال ليفيد ذلك كون ما بعدها مقصوداً به الإخبار المستقلّ لأنّ الناس يعُدّونهم أعظم عقلائهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(143/229)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ النَّهي الزجر ، والنأيُ البعد ، وهو عام في جميع الكفار أي ينهون عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وينأون عنه ؛ عن ابن عباس والحسن .

وقيل : هو خاص بأبي طالب ينهى الكفار عن إذاية محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتباعد

عن الإيمان به ؛ عن ابن عباس أيضاً .

وروى أهلُ السِّير قال : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قد خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يصلي ، فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل لعنه الله : من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته .

فقام ابن الزِّبَعْرَى فأخذ فَرَثا ودماً فَلَطَّخَ به وجه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فانفتل النبيّ صلى الله عليه وسلم من صلاته ، ثم أتى أبا طالب عَمَّه فقال : "يا عمّ ألا ترى إلى ما فُعِل بي" فقال أبو طالب : من فعل هذا بك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عبد الله بن الزِّبَعْرَى ؛ فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم ؛ فلما رأُوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون ؛ فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لَجَلَّلْتُهُ بسيفي فقعدوا حتى دنا إليهم ، فقال ؛ يا بنيّ من الفاعل بك هذا ؟ فقال : "عبد الله بن الزِّبَعْرَي" فأخذ أبو طالب فَرْثاً ودماً فلطَّخَ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول ؛ فنزلت هذه الآية ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "يا عمّ نزلت فيك آية" قال : وما هي ؟ قال : "تمنع قريشاً أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بي" " فقال أبو طالب :

واللَّهِ لن يَصلُوا إليك بجمعهم . . .

حتّى أُوسَّدَ في التُّراب دَفِينَا

فاصدع بأمرك ما عليكَ غضاضةٌ . . .

وابْشرْ بذاك وقَرَّ منك عُيونَا

ودَعوتَني وزعمت أنك ناصحِي . . .

فلقد صَدَقتَ وكنتَ قبل أَمينَا

وَعَرضتَ دِيناً قد عرفتُ بأنّهُ . . .

(144/229)

مِن خَيرِ أَديانِ البرِيَّةِ دِينَا

لولا الملامةُ أو حِذارُ مَسَبَّةٍ . . .

لوجَدْتَنِي سَمْحاً بذاكَ بَقِيناً

" فقالوا : يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصرته ؟ قال : "نعم دفع عنه بذاك الغُلّ ولم يُقْرَن مع الشياطين ولم يَدخل في جُبّ الحيّات والعقارب إنما عذابه في نعلين من نار في رجليه يغلي منهما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذاباً" .

وأنزل الله على رسوله ""فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزمِ مِنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] "

وفي صحيح مسلم عن أبي هُريرة قال .

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : "قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة" قال : لولا تُعيّرني قريش يقولون : إنما حمله على ذلك الجزَع لأقررتُ بها عينك ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : 56] "

كذا الرواية المشهورة "الجَزَع" بالجيم والزاي ومعناه الخوف .

وقال أبو عُبيد : "الخرَع" بالخاء المنقوطة والراء المهملة .

قال يعني الضّعف والخَوَر ، وفي صحيح مسلم أيضاً عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه " وأما عبد الله بن الزِّبَعْري فإنه أسلم عام الفتح وحَسُن إسلامه ، واعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل عذره ؛ وكان شاعراً مجيداً ؛ فقال يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وله في مدحه أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى في كفره ؛ منها قوله :

مَنع الرُّقادَ بَلابلٌ وهُمومُ . . .

واللَّيل مُعْتَلِجُ الرِّواق بَهِيمُ

مِمّا أَتاتي أَنّ أحمد لامَنِي . . .

فيه فبِتّ كأَنّني مَحْمُومُ

يا خيرَ من حَمَلْت على أَوْصَالِهَا . . .

عَيْرَانةٌ سُرُحُ اليدينِ غَشُومُ

إِنّي لمعتذرٌ إليكَ من الَّذي . . .

أسْدَيْت إذْ أنَا في الضَّلال أَهِيمُ

أيامَ تأمُرني بأَغْوَى خُطَّةٍ . . .

(145/229)

سَهْمٌ وتأمُرني بها مَخْزُومُ

وَأَمَدُّ أسبابَ الرَّدَى ويَقودُني . . .

أَمرُ الغُواةِ وأَمْرُهم مَشْئُومُ

فاليومَ آمنَ بالنبيّ مُحمَّدٍ . . .

قَلْبِي ومُخْطِىءُ هذه مَحْرُومُ

مَضَتِ العداوةُ فانقضتْ أسبابُها . . .

وأَتتْ أَواصِر بيننا وحُلُومُ

فاغفرْ فِدًى لكَ والِدايَ كِلاهُمَا . . .

زَلِّلي فإنّكَ راحمٌ مَرْحومُ

وعليكَ من سِمَةِ المليكِ عَلاَمَةٌ . . .

نُورٌ أغرُّ وخاتم مَخْتومُ

أَعطاكَ بعدَ مَحبَّةٍ بُرْهانَهُ . . .

شَرَفاً وبُرْهَانُ الإلهِ عَظيمُ

ولقد شَهِدتُ بأنّ دينكَ صادقٌ . . .

حَقّاً وأَنَّكَ في العباد جَسِيمُ

واللَّهُ يشهدُ أنّ أحمدَ مُصْطفًى . . .

مُستقبَلٌ في الصّالحين كَرِيمُ

قَرْمٌ علاَ بنيانُه من هاشمٍ . . .

فَرْعٌ تَمكَّنَ في الذُّرَى وأَرُومُ

وقيل : المعنى "يَنْهَوْنَ عَنْهُ" أي هؤلاء الذين يستمعون ينهون عن القرآن "وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ" .

عن قَتَادة ؛ فالهاء على القولين الأوّلين في "عنه" للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى قول قَتَادة للقرآن .

﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ "إن" نافية أي وما يهلكون إلاَّ أنفسهم بإصرارهم على الكفر ، وحملهم أوزار الذين يَصدُّونهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) ﴾

والكافر من هؤلاء إنما ينأى عن مطلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يريد أن يهتدي ، ويمعن في طغيانه فينهى غيره عن الإيمان ، فكأنه ارتكب جريمتين : جريمة كفره ، وجريمة نهي غيره عن الإيمان .

لقد كانت قريش على ثقة من أن الذي يسمع القرآن يهتدي به ، لذلك أوصى بعضهم بعضاً ألا يسمعوا القرآن ، وإن سمعوه فعليهم أن يحرفوا فيه أو أن يصنعوا ضجيجاً يحول بين السامع للقرآن وتدبره . ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : 26] .

إنهم واثقون من أن القرآن يقهرهم بالحجة ويفحمهم بالبينات ، وأنهم لو استمعوا إليه لوجدوا فيه حلاوة وطلاوة تستل من قلوبهم الجحود والنكران . وكأنهم بذلك يشهدون أن للقرآن أثراً في الفطرة الطبيعية للإنسان ، وهم أصحاب الملكة في البلاغة العربية . ومع ذلك ظل الكافرون على عنادهم بالرغم من عشقهم للأسلوب والبيان والأداء . ولم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل أرادوا إضلال غيرهم ، فكأنهم يحملون بذلك أوزارهم وأوزار من يضلونهم ،

ولم يؤثر ذلك على مجرى الدعوة ولا على البلاغ الإيماني من محمد عليه الصلاة والسلام ؛ ذلك أن الحق ينصره على الرغم من كل هذا ؛ فهو سبحانه وتعالى القائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : 26] .

(147/229)

نعرف أن المقصود بذلك القول هم المعارضون لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عارضوها لأنها ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو ، وجبروت ، واستخدام للضعفاء .

وذلك ما جعلهم يقفون من الدعوة موقف النكران لها والكفران بها .

وما داموا قد وقفوا من الدعوة هذا الموقف ، فلم يكن من حظهم الإيمان ، ولأنهم نأوا وبعدوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خسروا ، أما غيرهم فلم ينأى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل إنه أوى إلى الله فآواه الله .

إنّ هؤلاء الجاحدين المنكرين لدعوة رسول الله وقفوا أمام دعوته وصدوا الناس عنها

ونهوهم عن اتباعها ؛ لأن هذه الدعوة ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو وجبروت واستخدام الضعفاء وتسخيرهم في خدمتهم وبسط سلطاتهم عليهم . هذا – أولاً – هو الذي دفعهم إلى منع غيرهم ونهيهم عن اتباع الإسلام ، ثم هم – ثانياً – ينأون ويبتعدون عن اتباع الرسول ، – إذن – فمن مصلحتهم – أولاً – أن ينهوا غيرهم قبل أن ينأوا هم ؛ لأنه لو آمن الناس برسول الله وبقوا هم وحدهم على الكفر أيستفيدون من هذه العملية ؟ لا يستفيدون – إذن – فحرصهم – أولاً – كان على ألا يؤمن أحد برسول الله لتبقى لهم سلطتهم .

وجاء الأداء القرآني معبراً عن أدق تفاصيل هذه الحالة فقال : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ فالبداية كانت نهي الآخرين عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك ابتعادهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار حظهم أن يظلوا على كفرهم فكان الخسران من نصيبهم ، بينما آمن غيرهم من الناس .

(148/229)

وهكذا نرى أن الأداء القرآني جاء معبراً دائماً عن الحالة النفسية أصدق تعبير ، فقول الحق : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قول منطقي يعبر عن موقف المعارضين لرسول الله أما قوله

الحق : ﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ فهذا تصوير لما فعلوه في أنفسهم بعد أن منعوا غيرهم من اتباع الدعوة المحمدية والرسالة الخاتمى . فهم بذلك ارتكبوا ذنبين : الأول : إضلال الغير ، والثاني : ضلال نفوسهم . وبذلك ينطبق عليهم قول الحق سبحانه : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ ﴾ [النحل : 25] .

ولا يقولن أحد : إن هذه الآية تناقض قول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ [الإسراء : 15] .

ذلك لأن الوزرَيْن : وزرهم ، ووزر إضلالهم لغيرهم من فعلهم .

ويتابع الحق : ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ونرى أن الذي يقف أمام دعوة الحق والخير لينكرها ويبطلها ويعارضها ويحاربها إنما يقصد من ذلك خير نفسه وكسب الدنيا وأخذها لجانبه ، ولكنهم أيضاً لن يصلوا إلى ذلك ، لماذا ؟

لأن الله غالب على أمره : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] .

والحق سبحانه وتعالى لا يهزم جندَه أبداً ، ولا بد أن يهلك أعداء دعوته بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله فهم في الحقيقة هم الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم . وسيظل أمر الدعوة الإيمانية الإسلامية في صعود . وسيرون أرض الكفر تنتقص من حولهم يوماً بعد يوم

. ولذلك يقول الحق في آية أخرى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد : 41] .

(149/229)

أي أن أرض الكفر تنقص وتنقص والله يحكم لا معقب لحكمه ، ولذلك يشرح القرآن في آخر ترتيبه النزولي هذه القضية شرحاً وافياً . ويعلمنا أن نقطع كل علاقة لنا مع الكافرين ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 2-5] . وهكذا نرى أن قطع العلاقات أمر مطلوب بين فريقين : فريق يرى أنه على حق ، وفريق ثانٍ أنه على باطل ، وقد يكون قطع العلاقات أمراً موقوتاً . وقد تضغط الظروف والأحداث إلى أن نعيد العلاقات الدنيوية ثانية ، ولكن قطع العلاقات لا بد أن يكون مؤيداً في شأن العقيدة ولا مداهنة في هذا ، ولذلك قالها الحق مرتين : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 1-5] .

فالمؤمن يرى الحاضر والمستقبل ، ويعلم استحالة أن يعبد ما يعبده الكافرون ، واستحالة

أن يعبد الكافرون ما يعبد .

وقد يقول قائل : إن القرآن في ترتيبه النزولي لا بد ألا يتعارض مع واقعه ، ولكننا نرى في قوله تعالى : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ وكررها مرتين ، إنه بذلك يكون قد أغلق الباب أمام الكافرين فلا يؤمنون مع أن بعضهم قد دخل في دين الله . نقول : نعم إنه لا يتعارض ؛ لأن الحق لم يغلق الباب أمام الكافرين الذين أراد الله أن يؤمنوا ، بدليل أنه قال جل وعلا : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح * وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ [النصر : 1-3] .

(150/229)

إذن فالمسألة لن تجمد عند ذلك ؛ فمعسكر الإيمان سيتوسع ، وسيواجه معسكر الكافرين وسيدخل الناس في دين الله أفواجاً . ولكن هناك من قضى الله عليهم ألا يؤمنوا ليظلوا على كفرهم ويدخلوا النار ، فقال سبحانه من بعد ذلك : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامرأته حَمَّالَةَ الحطب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : 1-5] .

إذن فأبو لهب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل في دين الله أبداً .

ويجيء قول الحق : ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ [النصر : 2] .

هذا القول يفتح باب الأمل ، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل إلى الإسلام . ومجيء سورة المسد من بعد سورة النصر في الترتيب المصحفي كما أراد الله ، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبي لهب وزوجه .

وتأتي من بعدها سورة الإخلاص : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1-4] .

إنه لا إله مع الله ينقض ما حكم به الله ، ولن يعقب أحد على حكم الله . إذن فمن كفر وأشرك بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(151/229)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ في الضميرين - أعني " هم " وهاء " عنه " - أوجه :

أحدهما : أن المرفوع يعود على الكُفَّارِ ، والمجرور يعود على القرآن الكريم ، وهو أيضاً الذي

عَادَ عليه الضَّميرُ المَنْصُوب من "يَفْقَهُوه" ، والمُشَارُ إليه بقولهم : "إنْ هَذَا" .

والثاني : أنَّ "هم" يعود على من تَقدَّمَ ذكرهم من الكُفَّار ، وفي "عنه" يعود على الرسول ، وعلى هذا ففيه الْتَفَاتٌ من الخطاب إلى الغَيْبَةِ ، فإن قوله : ﴿ جَاءُوكَ يُجَادلونك ﴾ خطابٌ للرسول عليه الصَّلاةُ والسَّلام ، فخرج من هذا الخطاب إلى الغَيْبَةَ .

وقيل : يعود المرفوع على أبي طالب وأتْبَاعِهِ .

وفي قوله : "يَنْهَوْنَ" و "يَنْأَوْنَ" تَجْنِيسُ التصريف ، وهو عِبَارةٌ عن انفراد كل كلمة عن الأخرى بحرف ف "ينهون" انفردت بالهاء ، و "يَنْأَوْن" بالهمزة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ [الكهف : 104] ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُون ﴾ [غافر : 75] .

(152/229)

وقوله عليه الصلاة والسلام : "الخَيْلُ مَعْقُودٌ في نَوَاصِيْهَا الخَيْرُ" ، وبعضهم يسميه "تجنيس التَّحْرِيف" وهو الفرق بين كلمتين بحرف وأنشدوا في ذلك قول القائل : [الكامل]

2128 - إنْ لَمْ أَشُنَّ عَلَى ابْنِ حَرْبٍ غَارَةً . . .

لَمْ تَخْلُ يَوْماً مِنْ نِهابِ نُفُسِ

وذكر غيره أن " تجنيس التحريف " هو أن يكون الشَّكْلُ ، فرقاً بين كلمتين ، وجعل منه " اللُّهِى تفتح اللَّهى " وقد تقدَّم تحقيقه .

وقرأ الحسن و" يَنَوْن " بإلقاء حركة الهمزة على النونه وحذفها ، وهو تخفيف قياسي .

و" النَّأيُ " : البُعْدُ ، قال : [الطويل]

2129 - إذَا غَيَّرَ النَّأيُ المُحِبِّينَ لَمْ يَزَل . . .

رَسِيسُ الهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يبْرَحُ

وقال الآخر في ذلك ، فأجَادَ ، [الطويل]

2130 - ألاَ حَبَّذا هِنْد وأرْضٌ بِهَا هِنْدُ . . .

وهِنْدٌ أتَى مِنْ دُونِهَا النَّايُ والبُعْدُ

عطف الشيء على نفسه للمُغَايَرَةَ اللَّفْظيَّة يقال : نَأي زيد يَنْأى نَأياً ، ويتعدَّى بالهمزة ، فيقال : أنْأيْتُهُ ، ولا يُعَدّى بالتضعيف ، وكذا كل ما كان عينه همزةً .

ونقل الواحدي أنه يقال : نَأيْنُهُ بمعنى نَأيْتُ عنهُ .

وأنشد المُبَرِّدُ : [الطويل]

2131 - أعَاذِلُ إنْ يُصْبِحْ صَدَاي بِقَفْرَةٍ . . .

بَعيداً نَآنِي صَاحِبِي وقَرِيبِى

أي : نَأى عَنِّي .

وحكى اللَّيْثُ : " نَأَيْتُ الشيء " ، أي : أَبْعَدْتُهُ ، وأنشد : [الطويل]

2132 - إذَا مَا الْتَقَينا سَالض مِنْ عَبَرَاتِنَا . . .

شَآبيبُ يُنْأى سِيْلُهَا بالأصَابِعِ

فَبَنَاهُ للمفعول ، أي : يُنَحّى ويُبْعَدُ .

والحاصل أَنَّ هذه المادة تَدُلُّ على البُعْدِ ، ومنه أَتَنَأى أي : أَفْعَلُ التَّأيَ .

والمَنْأى : الموضع البعيدُ .

قال النابغة : [الطويل]

2133 - فَإِنَّكَ كالمَوْتِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكي . . .

وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأى عَنْكَ وَاسِعُ

(153/229)

و " تَنَاءَى " أي : تباعد ، ومنه النُّؤيُ للحُفَيْرَةِ التي حول الخِبَاءِ لتبعد عنه الماء .

وقُرِئ : ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ [فصلت : 51] وهو مَقْلُوبٌ من " نأى " ، ويَدُلُّ على ذلك أَنَّ الأصل هو المَصْدَرُ وهو " النَّأيُ " بتقديم الهمزة على حرف العِلّة .

قوله : " وإن يهلكون " " إنْ " نافية كالتي في قوله : ﴿ إِنْ هَاذَآ ﴾ [الأنعام : 25] و"

أنفسهم " مفعولٌ ، وهو استثناءُ مُفرَّغٌ ، ومفعول "يَشْعرون " محذوف : إمَّا اقتصاراً ، وإمّا اختصاراً ، أي : وما يشعرون أنهم يهلكون أنفسهم بتماديهم في الكُفْرِ وغُلُوِّهِمْ فيه ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 84.88 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) ﴾

في هذه الآية إشارة صعبة (لمن) يدعو إلى الحق جهراً ثم لا يأتي بذلك سراً .

ويقال خالَفَتْ أحوالُهم قضايا أقوالهم ، وجرى إجرامُهم مجرى مَنْ ألقوا حِبالَهم على غاربهم ، وكذلك من أبعده عن القسمة لم يقربه فعلُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 468 ﴾

(154/229)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما جعل عدم إيمانهم في هذه بشيء من الآيات موصلاً لهم إلى غاية من الجهل عظيمة موئسة من ادعائهم في هذه الدار ، وهي مجادلتهم له صلى الله عليه وسلم ، وختم الآية بما رأيت من عظيم التهديد استشرفت النفس إلى معرفة حالهم عند ردهم إلى الله تعالى والكشف لهم عما هددوا به ، فأعلم نبيهم صلى الله عليه وسلم أن حالهم إذ ذاك الإيمان ، حيث يسر غاية السرور تصديقهم له ، وتمنيهم متابعته لما يركبهم من الذل ويحيط بهم من الصغار ، ولا يزيدهم ذلك إلاّ ضرراً وعمى وندماً وحسرة ، فكأنه قيل : فلو رأيت حالهم عند كشف الغطاء – وهو المطلع – لرأيتهم يؤمنون : ﴿ ولو ترى إذ ﴾ أي حين ﴿ وقفوا ﴾ في الحشر ، وبني للمجهول لأن المنكىّ الإيقاف ، لا كونه من معين ﴿ على النار ﴾ أي عندها ليدخلوها مشرفين على كل ما فيها من أنواع النكال ، وذلك أعظم في النكاية أو على الجسر وهو على الصراط وهي تحتهم ، أو عرفوا حقيقتها ومقدار عذابها من قولك : أوقفته على كذا – إذا عرفته إياه ﴿ فقالوا ﴾ تمنياً للمحال ﴿ يا ليتنا نرد ﴾ أي إلى الدنيا .

ولما كان التقدير بشهادة قراءة من نصب الفعلين – جواباً للتمني – أو أحدهما : فنطيع ، عطف على الجملة قوله : ﴿ ولا ﴾ أي والحال أنا لا ، أو ونحن لا ﴿ نكذب ﴾ إن رددنا ﴿ بآيات ربنا ﴾ أي المحسن إلينا ﴿ ونكون من المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان ،

والتقدير عند ابن عامر في نصب الثالث : ليتنا نرد ، وليتنا لا نكذب فنسعد وأن نكون ، وعلى قراءة حمزة والكسائي وحفص بنصب الفعلين : ليتنا نرد فنسعد ، وأن لا نكذب وأن نكون ، والمعنى : لو رأيت إيقافهم ووقوفهم في ذلك الذل والانكسار والخزي والعار وسؤالهم وجوابهم لرأيت أمراً هائلاً فظيعاً ومنظراً كريهاً شنيعاً ، ولكنه حذف تفخيماً له لتذهب النفس فيه كل مذهب ، وجاز حذفه للعلم به في الجملة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 622. 623 ﴾

وقال الفخر :

(155/229)

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفة من ينهى عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وينأى عن طاعته بأنهم يهلكون أنفسهم شرح كيفية ذلك الهلاك بهذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 157 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يقتضي الله جواباً وقد حذف تفخيماً للأمر وتظيماً للشأن ، وجاز

حذفه لعلم المخاطب به وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر .

ولو قدرت الجواب ، كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم أو لرأيت سوء حالهم وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ، ألا ترى : أنك لو قلت لغلامك ، والله لئن قمت إليك وسكت عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه ، من الضرب ، والقتل ، والكسر ، وعظم الخوف ولم يدر أي الأقسام تبغي .

ولو قلت : والله لئن قمت إليك لأضربنك فأتيت بالجواب ، لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب ولا يخطر بباله نوع من المكروه سواه ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف .

ومنهم من قال جواب ﴿ لَوْ ﴾ مذكور من بعض الوجوه والتقدير ولو ترى إذ وقفوا على النار ينوحون ويقولون يا ليتنا نرد ولا نكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 157 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ قال الكلبي : يعني : حبسوا على النار .

وقال مقاتل يعني : عرضوا على النار .

وقال الضحاك : يعني : جمعوا على أبوابها .

ويقال : وقفوا على متن جهنم والنار تحتهم .

وروي في الخبر : أن الناس كلهم وقفوا على متن جهنم كأنها متن الأهالة ، ثم نادى مناد خذي أصحابك ، ودعي أصحابي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار ﴾ شروع في حكاية ما سيصدر عنهم يوم القيامة من القول المناقض لما صدر عنهم في الدنيا من القبائح المحكية مع كونه كاذباً في نفسه .

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من له أهلية ذلك قصداً إلى بيان سوء حالهم وبلوغها من الشناعة إلى حيث لا يختص استغرابها دون راء .

(156/229)

و ﴿ لَوْ ﴾ شرطية على أصلها وجوابها محذوف لتذهب نفس السامع كل مذهب فيكون أدخل في التهويل ، ونظير ذلك قوله امرىء القيس

: وجدك لو شيء أتانا رسوله . . .

سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً

وقولهم لو ذات سوار لطمتني .

و ﴿ تَرَى ﴾ بصرية وحذف مفعولها لدلالة ما في حيز الظرف عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام لأنّ في الخبر الواقع بعده تسلية له عمّا تضمّنه قوله : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾ [الأنعام : 26] فإنّه ابتدأ فعقّبه بقوله : ﴿ وإن يهلكون إلاّ أنفسهم ﴾ [الأنعام : 26] ثم أردفه بتمثيل حالهم يوم القيامة .

ويشترك مع الرسول في هذا الخطاب كلّ من يسمع هذا الخبر .

و﴿ لو ﴾ شرطية ، أي لو ترى الآن ، و﴿ إذ ﴾ ظرفية ، ومفعول ﴿ ترى ﴾ محذوف دلّ عليه ضمير ﴿ وقفوا ﴾ ، أي لو تراهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ وُقِفُواْ ﴾ يقال وقفته وقفاً ، ووقفته وقوفاً كما يقال رجعته رجوعاً .

قال الزجاج : ومعنى ﴿ وُقِفُواْ عَلَى النار ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه : الأول : يجوز أن يكون قد وقفوا عندها وهم يعاينونها فهم موقوفون على أن يدخلوا النار .

والثاني : يجوز أن يكونوا وقفوا عليها وهي تحتهم ، بمعنى أنهم وقفوا فوق النار على الصراط ، وهو جسر فوق جهنم .

والثالث : معناه عرفوا حقيقتها تعريفاً من قولك وقفت فلاناً على كلام فلان ؛ أي علمته معناه وعرفته ، وفيه وجه رابع : وهم أنهم يكونون في جوف النار ، وتكون النار محيطة بهم ، ويكونون غائصين فيها وعلى هذا التقدير فقد أقيم (على) مقام (في) وإنما صح على هذا التقدير ، أن يقال : وقفوا على النار ، لأن النار دركات وطبقات ، وبعضها فوق بعض فيصح هناك معنى الاستعلاء .

فإن قيل : فلماذا قال ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ ؟ وذلك يؤذن بالاستقبال ثم قال بعده إذ وقفوا وكلمة ﴿ إِذْ ﴾ للماضي ثم قال بعده ، فقالوا وهو يدل على الماضي .

(157/229)

قلنا : أن كلمة (إذ تقام مقام (إذا) إذا أراد المتكلم المبالغة في التكرير والتوكيد ، وإزالة الشبهة لأن الماضي قد وقع واستقر ، فالتعبير عن المستقبل باللفظ الموضوع للماضي ، يفيد المبالغة من هذا الاعتبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 157 .

158 ﴾

وقال الآلوسى :

والإيقاف إما من الوقوف المعروف أو من الوقوف بمعنى المعرفة كما يقال : أوقفته على كذا

إذا فهمته وعرفته واختاره الزجاج أي : ولو ترى حالهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها أو يرفعوا على جسرها وهي تحتهم فينظرونها أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها لرأيت ما لا يحيط به نطاق التعبير .

وصيغة الماضي للدلالة على التحقيق .

وقيل : إن لو بمعنى إن .

وجوزوا أن تكون ترى علمية وهو كما ترى .

وقرىء ﴿ وُقِفُواْ ﴾ بالبناء للفاعل من وقف عليه اللازم ومصدره غالباً الوقوف ، ويستعمل وقف متعدياً أيضاً ومصدره الوقف وسمع فيه أوقف لغة قليلة .

وقيل : إنه بطريق القياس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

و ﴿ وقفوا ﴾ ماض لفظاً والمعنيّ به الاستقبال ، أي إذ يوقفون .

وجيء فيه بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه لصدوره عمّن لا خلاف في خبره .

ومعنى : ﴿ وقفوا على النار ﴾ أبلغوا إليها بعد سير إليها ، وهو يتعدى بـ ﴿ على ﴾ .

والاستعلاء المستفاد بـ ﴿ على ﴾ مجازي معناه قوّة الاتّصال بالمكان ، فلا تدلّ (على) على أنّ وقوفهم على النار كان من أعلى النار .

وقد قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربّهم ﴾ [الأنعام : 30] ، وأصله من قول

العرب : وقفت راحلتي على زيد ، أي بلغت إليه فحبسْت ناقتي عن السير .

قال ذو الرمّة :

وقفتُ على ربع لميّة ناقتي

فما زلتُ أبكي عنده وأخاطبه . . .

فحذفوا مفعول (وقفت) لكثرة الاستعمال .

ويقال : وقفه فوقف ، ولا يقال : أوقفه بالهمزة .

(158/229)

وعطف عليه ﴿ فقالوا ﴾ بالفاء المفيدة للتعقيب ، لأنّ ما شاهدوه من الهول قد علموا أنّه جزاء تكذيبهم بإلهام أوقعه الله في قلوبهم أو بإخبار ملائكة العذاب ، فعجّلوا فتمنّوا أن يرجعوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال الزجاج : الإمالة في النار حسنة جيدة ، لأن ما بعد الألف مكسور وهو حرف الراء ، كأنه تكرر في اللسان فصارت الكسرة فيه كالكسرتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح

الغيب حـ 12 صـ 158 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَقَالُواْ يا ليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بئايات رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يا ليتنا نُرَدُّ ﴾ يدل على أنهم قد تمنوا أن يردوا إلى الدنيا .

فأما قوله ﴿ وَلاَ نُكَذِّبَ بئايات رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ ففيه قولان : أحدهما : أنه داخل في التمني والتقدير أنهم تمنوا أن يردوا إلى الدنيا ولا يكونوا مكذبين وأن يكونوا مؤمنين .

فإن قالوا هذا باطل لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم كاذبين بقوله في آخر الآية ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ والمتمني لا يوصف بكونه كاذباً .

قلنا : لا نسلم أن المتمني لا يوصف بكونه كاذباً لأن من أظهر التمني ، فقد أخبر ضمناً كونه مريداً لذلك الشيء فلم يبعد تكذيبه فيه ، ومثاله أن يقول الرجل : ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك ، فهذا تمن في حكم الوعد ، فلو رزق مالاً ولم يحسن إلى صاحبه لقيل إنه كذب في وعده .

القول الثاني : أن التمني تمّ عند قوله ﴿ ياليتنا نُرَدُّ ﴾ وأما قوله ﴿ وَلاَ نُكَذِّبَ بئايات رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ فهذا الكلام مبتدأ وقوله تعالى في آخر الآية ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ عائد إليه وتقدير الكلام يا ليتنا نرد ، ثم قالوا ولو رددنا لم نكذب بالدين وكنا من المؤمنين ، ثم

إنه تعالى كذبهم وبيّن أنهم لو ردوا لكذبوا ولأعرضوا عن الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 158 ﴾

وقال الآلوسى :

(159/229)

﴿ فَقَالُواْ ﴾ لعظم أمر ما تحققوه ﴿ يا ليتنا نُرَدُّ ﴾ أي إلى الدنيا .

و ﴿ يا ﴾ للتنبيه أو للنداء والمنادى محذوف أي يا قومنا مثلاً ﴿ نُرَدُّ وَلاَ نُكَذّبَ بآيات رَبّنَا ﴾ أي القرآن كما كنا نكذب من قبل ونقول : أساطير الأولين .

وفسر بعضهم الآيات بما يشمل ذلك والمعجزات ، وقال شيخ الإسلام : يحتمل أن يراد بها الآيات الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها بناء على أنها التي تخطر حينئذ ببالهم ويتحسرون على ما فرطوا في حقها .

ويحتمل أن يراد بها جميع الآيات المنتظمة لتلك الآيات انتظاماً أولياً .

﴿ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ بها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل كما لم ير ذلك المؤمنون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وحرف النداء في قولهم : ﴿ يا ليتنا نردّ ﴾ مستعمل في التحسّر ، لأنّ النداء يقتضي بُعد المنادى ، فاستعمل في التحسّر لأنّ المتمنّى صار بعيداً عنهم ، أي غير مفيد لهم ، كقوله تعالى : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله ﴾ [الزمر : 56] .

ومعنى ﴿ نردّ ﴾ نرجع إلى الدنيا ؛ وعطف عليه ﴿ ولا نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين ﴾ برفع الفعلين بعد (لا) النافية في قراءة الجمهور عطفاً على ﴿ نُردّ ﴾ ، فيكون من جملة ما تمنّوه ، ولذلك لم ينصب في جواب التمنِّي إذ ليس المقصود الجزاء ، ولأنّ اعتبار الجزاء مع الواو غير مشهور ، بخلافه مع الفاء لأنّ الفاء متأصّلة في السببية .

والردّ غير مقصود لذاته وإنّما تمنّوه لما يقع معه من الإيمان وترك التكذيب .

وإنّما قدّم في الذكر ترك التكذيب على الإيمان لأنّه الأصل في تحصيل المتمنّى على اعتبار الواو للمعية واقعة موقع فاء السببية في جواب التمنّي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر نرد ونكذب بالرفع فيهما ونكون بالنصب ، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم نرد بالرفع ، ونكذب ونكون بالنصب فيهما ، في الثلاثة ، فحصل من هذا أنهم اتفقوا على الرفع في قوله ﴿ نُرَدُّ ﴾ وذلك لأنه داخلة في التمني لا محالة ، فأما الذين رفعوا قوله ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ وَنَكُونَ ﴾ ففيه وجهان : الأول : أن يكون معطوفاً على قوله ﴿ نُرَدُّ ﴾ فتكون الثلاثة داخل في التمني ، فعلى هذا قد تمنوا الرد وأن لا يكذبوا وأن يكونوا من المؤمنين .

والوجه الثاني : أن يقطع ولا نكذب وما بعده عن الأول ، فيكون التقدير : يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، فهم ضمنوا أنهم لا يكذبون بتقدير حصول الرد .

والمعنى يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب بآيات ربنا رددنا أو لم نرد أي قد عاينا وشاهدنا ما لا نكذب معه أبداً .

قال سيبويه : وهو مثل قولك دعني ولا أعود ، فههنا المطلوب بالسؤال تركه .

فأما أنه لا يعود فغير داخل في الطلب ، فكذا هنا قوله ﴿ يا ليتنا نُرَدُّ ﴾ الداخل في هذا التمني الرد ، فأما ترك التكذيب وفعل الإيمان فغير داخل في التمني ، بل هو حاصل سواء حصل الرد أو لم يحصل ، وهذان الوجهان ذكرهما الزجاج والنحويون قالوا : الوجه الثاني أقوى ، وهو أن يكون الرد داخلاً في التمني ، ويكون ما بعده إخباراً محضاً .

واحتجوا عليه بأن الله كذبهم في الآية الثانية فقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ والمتمني لا يجوز تكذيبه ، وهذا اختيار أبي عمرو .

وقد احتج على صحة قوله بهذه الحجة ، إلا أنا قد أجبنا عن هذه الحجة ، وذكرنا أنها ليست قوية ، وأما من قرأ ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ وَنَكُونَ ﴾ بالنصب ففيه وجوه : الأول : بإضمار (أن) على جواب التمني ، والتقدير : يا ليتنا نرد وأن لا نكذب .

(161/229)

والثاني : أن تكون الواو مبدلة من الفاء ، والتقدير : يا ليتنا نرد فلا نكذب ، فتكون الواو ههنا بمنزلة الفاء في قوله ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر : 58] ويتأكد هذا الوجه بما روي أن ابن مسعود كان يقرأ ﴿ فَلَا نُكَذِّبَ ﴾ بالفاء على النصب ، والثالث : أن يكون معناه الحال ، والتقدير : يا ليتنا نرد غير مكذبين ، كما تقول العرب لا تأكل السمك وتشرب اللبن أي لا تأكل السمك شارباً للبن .

واعلم أن على هذه القراءة تكون الأمور الثلاثة داخلة في التمني .

وأما أن المتمن كيف يجوز تكذيبه فقد سبق تقريره .

وأما قراءة ابن عامر وهي أنه كان يرفع ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ ﴾ وينصب ﴿ وَنَكُونَ ﴾ فالتقدير : أنه يجعل قوله ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ ﴾ داخلاً في التمني ، بمعنى أنا إن رددنا غير مكذبين نكن من المؤمنين والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 158 . 159 ﴾

وقال الآلوسى :

ونصب الفعلين على ما قال الزمخشري وسبقه إليه كما قال الحلبي الزجاج بإضمار أن على جواب التمني ، والمعنى أن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين .

ورده أبو حيان "بأن نصب الفعل بعد الواو ليس على الجوابية لأنها لا تقع في جواب الشرط فلا ينعقد مما قبلها وما بعدها شرط وجواب وإنما هي واو الجمع تعطف ما بعدها على المصدر المتوهم قبلها وهي عاطفة يتعين من النصب أحد محاملها الثلاث وهي المعية ويميزها عن الفاء (صحة حلول مع محلها) أو الحال وشبهة من قال : إنها جواب أنها تنصب في المواضع التي تنصب فيها الفاء فتوهم أنها جواب" .

ويوضح لك أنها ليست به انفراد الفاء دونها بأنها إذا حذفت انجزم الفعل بعدها بما قبلها لما تضمنه من معنى الشرط ، وأجيب بأن الواو أجريت هنا مجرى الفاء .

وجعلها ابن الأنباري مبدلة منها .

ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود وابن إسحق ﴿ فَلا نُكَذّبَ ﴾ ، واعترض أيضاً ما ذكره الزمخشري من معنى الجزائية بأن ردهم لا يكون سبباً لعدم تكذيبهم .

(162/229)

وأجيب بأن السببية يكفي فيها كونها في زعمهم .

ورد بأن مجرد الرد لا يصلح لذلك فلا بد من العناية بأن يراد الرد الكائن بعد ما ألجأهم إلى ذلك إذ قد انكشفت لهم حقائق الأشياء .

ولهذه الدغدغة اختار من اختار العطف على مصدر متوهم قبل كأنه قيل : ليت لنا رداً وانتفاء تكذيب وكونا من المؤمنين ، وقرأ نافع وابن كثير والكسائي برفع الفعلين ، وخرج على أن ذلك ابتداء كلام منهم غير معطوف على ما قبله والواو كالزائدة كقول المذنب لمن يؤذيه على ما صدر منه : دعني ولا أعود يريد لا أعود تركتني أو لم تتركني .

ومن ذلك على ما قاله الإمام عبد القاهر قوله

: اليوم يومان مذ غيبت عن نظري . . .

نفسي فداؤك ما ذنبي فاعتذر

وكأن المقتضي لنظمه في هذا السلك إفادة المبالغة المناسبة لمقام المغازلة ، واختار بعضهم كونه ابتداء كلام بمعنى كونه مقطوعاً عما في حيز التمني معطوفاً عليه عطف إخبار على إنشاء ، ومن النحاة من جوزه مطلقاً ، ونقله أبو حيان عن سيبويه ، وجوز أن يكون داخلاً في حكم التمني على أنه عطف على ﴿ نُرَدُّ ﴾ أو حال من الضمير فيه ، فالمعنى كما قال الشهاب على تمني مجموع الأمرين الرد وعدم التكذيب أي التصديق الحاصل بعد الرد إلى الدنيا لأن الرد ليس مقصوداً بالذات هنا ، وكونه متمنى ظاهر لعدم حصوله حال التمني

وإن كان التمني منصباً على الإيمان والتصديق فتمنيه لأن الحاصل الآن لا ينفعهم لأنهم ليسوا في دار تكليف فتمنوا إيماناً ينفعهم وهو إنما يكون بعد الرد المحال والمتوقف على المحال محال .

وقرأ ابن عامر برفع الأول ونصب الثاني على ما علمت آنفاً ، والجوابية إما بالنظر إلى المجموع أو بالنظر إلى الثاني وعدم التكذيب بالآيات مغاير للإيمان والتصديق فلا اتحاد .

وقرىء شاذاً بعكس هذه القراءة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

(163/229)

قوله ﴿ فَقَالُواْ يا ليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذّبَ ﴾ لا شبهة في أن المراد تمني ردهم إلى حالة التكليف لأن لفظ الرد إذا استعمل في المستقبل من حال إلى حال ، فالمفهوم منه الرد إلى الحالة الأولى .

والظاهر أن من صدر منه تقصير ثم عاين الشدائد والأحوال بسبب ذلك التقصير أنه يتمنى الرد إلى الحالة الأولى ، ليسعى في إزالة جميع وجوه التقصيرات .

ومعلوم أن الكفار قصروا في دار الدنيا فهم يتمنون العود إلى الدنيا لتدارك تلك التقصيرات ،

وذلك التدارك لا يحصل بالعود إلى الدينا فقط ، ولا بترك التكذيب ، ولا بعمل الإيمان بل إنما يحصل التدارك بمجموع هذه الأمور الثلاثة فوجب إدخال هذه الثلاثة تحت التمني .

فإن قيل : كيف يحسن منهم تمني الرد مع أنهم يعلمون أن الرد يحصل لا ألبتة .

والجواب من وجوه : الأول : لعلّهم لم يعلموا أن الرد لا يحصل .

والثاني : أنهم وإن علموا أن ذلك لا يحصل ؛ إلا أن هذا العلم لا يمنع من حصول إرادة الرد كقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار ﴾ [المائدة : 37] وكقوله ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ [الأعراف : 50] فلما صح أن يريدوا هذه الأشياء مع العلم بأنها لا تحصل ، فبأن يتمنوه أقرب ، لأن باب التمني أوسع ، لأنه يصح أن يتمنى ما لا يصح أن يريد من الأمور الثلاثة الماضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 159 ﴾

(164/229)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ الآية المخاطبة فيه لمحمد صلى الله عليه

وسلم ، وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف ، تقديره في آخر هذه الآية لرأيت هولاً أو مشقات أو نحو هذا ، وحذف جوابها في مثل هذا أبلغ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله ، ووقعت ﴿ إذ ﴾ في موضع إذا التي هي لما يستقبل وجاز ذلك لأن الأمر المتيقن وقوعه يعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع ، و ﴿ وقفوا ﴾ معناه : حبسوا ، ولفظ هذا الفعل متعدياً وغير متعد سواء ، تقول : وقفت أنا ووقفت غيري ، وقال الزهراوي : وقد فرق بينهما بالمصدر ففي المتعدي وقفته وقفاً وفي غير المتعدي وقفت وقوفاً ، قال أبو عمرو بن العلاء : لم أسمع في شيء من كلام العرب أوقفت فلاناً إلا أني لو لقيت رجلاً واقفاً فقلت له ما أوقفك ها هنا لكان عندي حسناً ، ويحتمل قوله : ﴿ وقفوا على النار ﴾ أن يكون دخلوها ، فكان وقوفهم عليها أي فيها ، قاله الطبري ، ويحتمل أن يكون أشرفوا عليها وعاينوها ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر : " ولا نكذبُ " و " نكونُ " بالرفع في كلها ، وذلك على نية الاستئناف والقطع في قوله " ولا نكذب ونكون " أي يا ليتنا نرد ونحن على كل حال لا نكذب ونكون ، فأخبروا أنفسهم بهذا ولهذا الإخبار صح تكذيبهم بعد هذا ، ورجح هذا سيبويه ومثله بقولك دعني ولا أعود أي وأنا لا أعود على كل حال ، ويخرج ذلك على قول آخر وهو أن يكون " ولا نكذب ونكون " داخلاً في التمني على حد ما دخلت في نرد ، كأنهم قالوا : يا ليتنا نرد وليتنا نكذب وليتنا نكون ، ويعترض هذا التأويل بأن من تمنى شيئاً يقال إنه كاذب وإنما يكذب من أخبر .

قال القاضي أبو محمد : وينفصل عن هذا الاعتراض بأن يكون قوله ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ [الأنعام : 28] حكاية عن حالهم في الدنيا كلاماً مقطوعاً مما قبله وبوجه آخر وهو أن المتمني إذا كانت سجيته وطريقته مخالفة لما تمنى بعيدة منه يصح أن يقال له كذبت على تجوز ، وذلك أن من تمنى شيئاً فتمنيه يتضمن إخباراً أن تلك الأمنية تصلح له ويصلح لها فيقع التكذيب في ذلك الإخبار الذي يتضمنه التمني ، ومثال ذلك أن يقول رجل شرير ليتني أحج وأجاهد وأقوم الليل فجائز أن يقال لهذا على تجوز كذبت أي أنت لا تصلح لهذا ولا يصلح لك ، وروي عن أبي عمرو : أنه أدغم باء نكذب في الباء التي بعدها ، وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص " ولا نكذبَ ونكونَ " بنصب الفعلين ، وذلك كما تنصب الفاء في جواب التمني ، فالواو في ذلك والفاء بمنزلة ، وهذا تقدير ذكر مصدر الفعل الأول كأنهم قالوا يا ليتنا كان لنا رد وعدم تكذيب وكون من المؤمنين ، وقرأ ابن عامر في رواية هشام بن عمار عن أصحابه عن ابن عامر " ولا نكذبُ " بالرفع " ونكونَ " بالنصب ، ويتوجه ذلك على ما تقدم في مصحف عبد الله بن مسعود " يا ليتنا نرد فلا نكذب بآيات ربنا ونكون " بالفاء ، وفي قراءة أبي بن كعب " يا ليتنا نرد فلا نكذب بآياتنا أبداً ونكون " ،

وحكي أبو عمرو أن في قراءة أبي " بآيات ربنا ونحن نكون " ، وقوله ﴿ نرد ﴾ في هذه الأقوال كلها معناه : إلى الدنيا ، وحكى الطبري تأويلاً آخر وهو يا ليتنا نرد إلى الآخرة أي نبعث ونوقف على النار التي وقفنا عليها مكذبين ليت ذلك ونحن في حالة لا نكذب ونكون ، فالمعنى يا ليتنا نوقف هذا الوقوف غير مكذبين بآيات ربنا كائنين من المؤمنين .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل يضعف من غير وجه ويبطله قوله تعالى : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] ولا يصح أيضاً التكذيب في هذا التمني لأنه تمني ما قد مضى . وإنما يصح التكذيب الذي ذكرناه قل هذا على تجوز في تمني المستقبلات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(166/229)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ ﴾ أي إذ وُقفوا غداً ، و"إذْ" قد تستعمل في موضع "إذا" و"إذا" في موضع "إذْ" وما سيكون فكأنه كان ؛ لأن خبر الله تعالى حقّ وصدق ، فلهذا عَبَّر بالماضي .

ومعنى "إذْ وُقِفُوا" حبسوا يُقال : وَقَفته وَقْفاً فوَقَف وُقوفاً .

وقرأ ابن السَّمَيْقع "إذْ وَقَفُوا" بفتح الواو والقاف من الوقوف .

﴿ عَلَى النار ﴾ أي هم فوقها على الصراط وهي تحتهم .

وقيل : "على" بمعنى الباء ؛ أي وَقَفوا بقربها وهم يُعاينونها .

وقال الضّحاك : جُمعوا ؛ يعني على أبوابها .

ويُقال : وُقفوا على مَتْن جهنم والنار تحتهم .

وفي الخبر : أن الناس كلهم يُوقفون على مَتْن جهنم كأنها مَتْن إهَالَة ، ثم يُنادِي منادٍ خُذي أصحابك ودَعِي أصحابي .

وقيل : "وقفوا" دخلوها أعاذنا الله منها فعلى بمعنى "في" أي وقفوا في النار .

وجواب "لو" محذوف ليذهب الوهم إلى كل شيء فيكون أبلغ في التخويف ؛ والمعنى : لو تراهم في تلك الحال لرأيت أسوأ حال ، أو لرأيت منظَراً هائلاً ، أو لرأيت أمراً عجباً وما كان مثل هذا التقدير .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ يالَيتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ بالرفع في الأفعال الثلاثة عطفاً قراءة أهل المدينة والكسائيّ ؛ وأبو عمرو أبو بكر عن عاصم بالضم . ابن عامر على رفع "نكذّبُ" ونصب "ونكونَ" وكله داخل في معنى التمني ؛ أي تَمَنُّوا الردّ وَأَلاّ يُكذبوا وأن يكونوا من المؤمنين .

واختار سيبويه القطع في "وَلا نكذّبُ" فيكون غير داخل في التمني ؛ المعنى : ونحن لا نُكذّبُ على معنى الثبات على ترك التكذيب ؛ أي لا نكذبُ رُدِدنا أو لم نُردّ ؛ قال سيبويه : وهو مثل قوله دعني ولا أعود أي لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني .

(167/229)

واستدل أبو عمرو على خروجه من التمني بقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لأن الكذب لا يكون في التمني إنما يكون في الخبر .

وقال من جعله داخلاً في التمني : المعنى وإنهم لكاذبون في الدنيا في إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسل .

وقرأ حمزة وحفص بنصب ﴿ نُكَذِّبَ ﴾ و ﴿ وَنَكُونَ ﴾ جواباً للتمني ؛ لأنه غير واجب ، وهما داخلان في التمني على معنى أنهم تمنّوا الرد وترك التكذيب والكون مع المؤمنين .

قال أبو إسحاق : معنى ﴿ وَلاَ نُكَذِّبَ ﴾ أي إن رُدِدنا لم نكذب .

والنصب في "نكذب" و"نكون" بإضمار "أَنْ" كما ينصب في جواب الاستفهام والأمر والنهي والعَرْض ؛ لأن جميعه غير واجب ولا واقع بعد ، فينصب الجواب مع الواو كأنه عطف على مصدر الأوّل ؛ كأنهم قالوا : يا ليتنا يكون لنا رَدٌّ ، وانتفاءٌ من الكذِب ، وكَونٌ

من المؤمنين ؛ فحملا على مصدر ﴿ نُرَدُّ ﴾ لانقلاب المعنى إلى الرفع ، ولم يكن بدّ من إضمار "أَنْ" فيه يتم النصب في الفعلين .

وقرأ ابن عامر "وَنَكُونَ" بالنصب على جواب التمني كقولك : ليتك تصير إلينا ونكرمك ، أي ليت مصيرك يقع وإكرامنا يقع ، وأدخل الفعلين الأوّلين في التمني ، أو أراد : ونحن لا نكرمك على القطع على ما تقدّم ؛ يحتمل .

وقرأ أبيّ "وَلاَ نكذب بِآيَاتِ ربنا أبداً" .

وعنه وابن مسعود ﴿ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ ﴾ بالفاء والنصب ، والفاء ينصب بها في الجواب كما ينصب بالواو ؛ عن الزجاج .

وأكثر البصريين لا يجيزون الجواب إلاَّ بالفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(168/229)

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ لما ذكر تعالى حديث البعث في قوله ﴿ ويوم نحشرهم

﴾ واستطرد من ذلك إلى شيء من أوصافهم الذميمة في الدنيا ، عاد إلى الأول وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف لدلالة المعنى عليه وتقديره لرأيت أمراً شنيعاً وهولاً عظيماً وحذف جواب ﴿ لو ﴾ لدلالة الكلام عليه جائز فصيح ومنه ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ الآية .

وقول الشاعر :

وجدّك لو شيء أتانا رسوله . . .

سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أي لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه و ﴿ ترى ﴾ مضارع معناه الماضي أي : ولو رأيت فإذ باقية على كونها ظرفاً ماضياً معمولاً لترى وأبرز هذا في صورة المضي وإن كان لم يقع بعد إجراء للمحقق المنتظر مجرى الواقع الماضي ، والظاهر أن الرؤية هنا بصرية وجوزوا أن تكون من رؤية القلب والمعنى ولو صرفت فكرك الصحيح إلى تدبر حالهم لازددت يقيناً أنهم يكونون يوم القيامة على أسوإ حال ، فيجتمع للمخاطب في هذه الحالة الخبر الصدق الصريح والنظر الصحيح وهما مدركان من مدارك العلم اليقين والمخاطب ب ﴿ ترى ﴾ الرسول أو السامع ، ومعمول ﴿ ترى ﴾ محذوف تقديره ﴿ ولو ترى ﴾ حالهم ﴿ إذ ﴾ وقفوا .

وقيل : ﴿ ترى ﴾ باقية على الاستقبال و ﴿ إذ ﴾ معناه إذا فهو ظرف مستقبل فتكون

﴿ لو ﴾ هنا استعملت استعمال أن الشرطية ، وألجأ من ذهب إلى هذا أن هذا الأمر لم يقع بعد .

وقرأ الجمهور وقفوا مبنياً للمفعول ومعناه عند الجمهور حبسوا على النار .

(169/229)

وقال ابن السائب : معناه أجلسوا عليها و ﴿ على ﴾ بمعنى في أو تكون على بابها ومعنى جلوسهم ، أن جهنم طبقات فإذا كانوا في طبقة كانت النار تحتهم في الطبقة الأخرى .

وقال مقاتل : عرضوا عليها ومن عرض على شيء فقد وقف عليه .

وقيل : عاينوها ومن عاين شيئاً وقف عليه .

وقيل : عرفوا مقدار عذابها كقولهم : وقفت على ما عند فلان أي فهمته وتبينته واختاره الزجاج .

وقيل : جعلوا وقفاً عليها كالوقوف المؤبدة على سبلها ذكره الماوردي .

وقيل : وقفوا بقربها وفي الحديث : " أن الناس يوقفون على متن جهنم " .

وقال الطبري : أدخلوها ووقف في هذه القراءة متعدية .

وقرأ ابن السميقع وزيد بن علي ﴿ وقفوا ﴾ مبنياً للفاعل من وقف اللازمة ومصدر هذه

الوقوف ومصدر تلك الوقف ، وقد سمع في المتعدية أوقف وهي لغة قليلة ولم يحفظها أبو عمرو بن العلاء قال : لم سمع في شيء من كلام العرب أوقفت فلاناً إلا أني لو لقيت رجلاً واقفاً فقلت له : ما أوقفك ها هنا لكان عندي حسناً ؛ انتهى .

وإنما ذهب أبو عمرو إلى حسن هذا لأنه مقيس في كل فعل لازم أن يعدى بالهمزة ، نحو ضحك زيد وأضحكته .

(170/229)

﴿ فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ﴿ ولا نكذب ﴾ ﴿ ونكون ﴾ بالنصب فيهما وهذا النصب عند جمهور البصريين هو بإضمار أن بعد الواو فهو ينسبك من أن المضمرة ، والفعل بعدها مصدر مرفوع معطوف على مصدر متوهم مقدر من الجملة السابقة والتقدير ﴿ يا ليتنا ﴾ يكون لنا رد وانتفاء تكذيب وكون ﴿ من المؤمنين ﴾ وكثيراً ما يوجد في كتب النحو أن هذه الواو المنصوب بعدها هو على جواب التمني كما قال الزمخشري ﴿ ولا نكذب ونكون ﴾ بالنصب بإضمار أن على جواب التمني ومعناه إن رددنا لم نكذب ونكن ﴿ من المؤمنين ﴾ انتهى ، وليس كما ذكر فإن نصب الفعل بعد الواو ليس على جهة الجواب ، لأن الواو لا

تقع في جواب الشرط فلا ينعقد مما قبلها ولا مما بعدها شرط وجواب وإنما هي واو الجمع يعطف ما بعدها على المصدر المتوهم قبلها وهي واو العطف يتعين مع النصب أحد محاملها الثلاثة وهي المعية ، ويميزها من الفاء ، تقدير شرط قبلها أو حال مكانها وشبهة من قال : إنها جواب أنها تنصب في المواضع التي تنصب فيها الفاء فتوهم أنها جواب .

وقال سيبويه : والواو تنصب ما بعدها في غير الواجب من حيث انتصب ما بعد الفاء والواو ومعناها ومعنى الفاء مختلفان ألا ترى .

لا تنه عن خلق وتأتي مثله .

لو أدخلت الفاء هنا لأفسدت المعنى ، وإنما أراد لا يجتمع النهي والإتيان وتقول : لا تأكل السمك وتشرب اللبن لو أدخلت الفاء فسد المعنى انتهى كلام سيبويه ملخصاً .

وبلفظه ويوضح لك أنها ليست بجواب انفراد الفاء دونها بأنها إذا حذفت انجزم الفعل بعدها بما قبلها لما فيه من معنى الشرط ، إلا إذا نصبت بعد النفي وسقطت الفاء فلا ينجزم وإذا تقرر هذا فالأفعال الثلاثة من حيث المعنى متمناة على سبيل الجمع بينها لا أن كل واحد متمني وحده إذ التقدير كما قلنا يا ليتنا يكون لنا رد مع انتفاء التكذيب وكون من المؤمنين .

قال ابن عطية : وقرأ ابن عامر في رواية هشام بن عمار عن أصحابه عن ابن عامر ﴿ ولا نكذب ﴾ بالرفع ﴿ ونكون ﴾ بالنصب ويتوجه ذلك على ما تقدم ؛ انتهى .

وكان قد قدم أن رفع ﴿ ولا نكذب ونكون ﴾ في قراءة باقي السبعة على وجهين أحدهما : العطف على ﴿ نرد ﴾ فيكونان داخلين في التمني .

والثاني الاستئناف والقطع ، فهذان الوجهان يسوغان في رفع ﴿ ولا نكذب ﴾ على هذه القراءة وفي مصحف عبد الله فلا نكذب بالفاء وفي قراءة أبي فلا ﴿ نكذب بآيات ربنا أبداً ونكون ﴾ .

وحكى أبو عمرو أن في قراءة أبي ونحن ﴿ نكون من المؤمنين ﴾ وجوزوا في رفع ﴿ ولا نكذب ونكون ﴾ أن يكون في موضع نصب على الحال فتلخص في الرّفع ثلاثة أوجه .

أحدها : أن يكون معطوفاً على ﴿ نرد ﴾ فيكون انتفاء التكذيب والكون من المؤمنين داخلين في التمني أي وليتنا لا نكذب ، وليتنا نكون من المؤمنين ، ويكون هذا الرفع مساوياً في هذا الوجه للنصب لأن في كليهما العطف وإن اختلفت جهتاه ، ففي النصب على مصدر من الرد متوهم وفي الرّفع على نفس الفعل .

(فإن قلت) : التمني إنشاء والإنشاء لا يدخله الصدق والكذب فكيف جاء قوله ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ وظاهره أن الله أكذبهم في تمنيهم فالجواب من وجهين : أحدهما أن يكون

قوله ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ إخباراً من الله أن سجية هؤلاء الكفار هي الكذب ، فيكون ذلك حكاية وإخباراً عن حالهم في الدّنيا لا تعلق به بمتعلق التمني .

(172/229)

والوجه الثاني : أن هذا التمني قد تضمن معنى الخبر والعدة فإذا كانت سجية الإنسان شيئاً ثم تمنى ما يخالف السجية وما هو بعيد أن يقع منها ، صح أن يكذب على تجوز نحو ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك ، فهذا متمن في معنى الواعد والمخبر فإذا رزقه الله مالاً ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب وكان تمنيه في حكم من قال : إن رزقني الله مالاً كافأتك على إحسانك ، ونحو قول رجل شرير بعيد من أفعال الطاعات : ليتني أحج وأجاهد وأقوم الليل ، فيجوز أن يقال لهذا على تجوز كذبت أي أنت لا تصلح لفعل الخير ولا يصلح لك .

والثاني من وجوه الرّفع أن يكون رفع ﴿ ولا نكذب ونكون ﴾ على الاستئناف فأخبروا عن أنفسهم بهذا فيكون مندرجاً تحت القول أي قالوا : يا ليتنا نرد وقالوا : نحن لا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين فأخبروا أنهم يصدر عنهم ذلك على كل حال .

فيصح على هذا تكذيبهم في هذا الإخبار ورجح سيبويه هذا الوجه وشبهه بقوله : دعني

ولا أعود ، بمعنى وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني .

والثالث من وجوه الرّفع : أن يكون ﴿ ولا نكذب ونكون ﴾ في موضع نصب على الحال ، التقدير يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين ، فيكون داخلاً قيداً في الرد المتمني وصاحب الحال هو الضمير المستكن في نرد ويجاب عن قوله ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ بالوجهين اللذين ذكرا في إعراب ﴿ ولا نكذب ونكون ﴾ إذا كانا معطوفين على نرد .

وحكي أن بعض القراء قرأ ﴿ ولا نكذب ﴾ بالنصب ﴿ ونكون ﴾ بالرفع فالنصب عطف على مصدر متوهم والرفع في ﴿ ونكون ﴾ عطف على ﴿ نرد ﴾ أو على الاستئناف أي ونحن نكون وتضعف فيه الحال لأنه مضارع مثبت فلا يكون حالاً بالواو إلا على تأويل مبتدأ محذوف نحو نجوت ، وأرهنهم مالكاً وأنا أرهنهم مالكاً والظاهر أنهم تمنوا الرّد من الآخرة إلى الدنيا .

(173/229)

وحكى الطبري تأويلاً في الرّد وهو أنهم تمنوا أن يردوا من عذاب النار إلى الوقوف على النار التي وقفوا عليها فالمعنى : يا ليتنا نوقف هذا الوقوف غير مكذبين بآيات ربنا كائنين من المؤمنين ، قال : ويضعف هذا التأويل من غير وجه ويبطله ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه

ولا يصح أيضاً التكذيب في هذا التمني لأنه تمني ما قد مضى ، وإنما يصح التكذيب الذي ذكرناه قبل هذا على تجوز في تمني المستقبلات ؛ انتهى .

وأورد بعضهم هنا سؤالاً فقال : فإن قيل كيف يتمنون الرّد مع علمهم بتعذر حصوله ، وأجاب بقوله : قلنا لعلهم لم يعلموا أن الرد لا يحصل ، والثاني : أن العلم بعدم الرد لا يمنع من الإرادة كقوله : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار ﴾ ﴿ وأن أفيضوا علينا من الماء ﴾ انتهى .

ولا يرد هذا السؤال لأن التمني يكون في الممكن والممتنع بخلاف الترجّي فإنه لا يكون إلا في الممكن ، فورد التمني هنا على الممتنع وهو أحد قسمي ما يكون التمني له في لسان العرب ، والأصح أن ﴿ يا ﴾ في قوله ﴿ يا ليت ﴾ حرف تنبيه لا حرف نداء والمنادى محذوف لأنّ في هذا حذف جملة النداء وحذف متعلقة رأساً وذلك إجحاف كثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(174/229)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ في معنى "وقفوا" ستة أقوال .

أحدها : حُبِسُوا عليها ، قاله ابن السائب .

والثاني : عُرِضُوا عليها ، قاله مقاتل .

والثالث : عاينوها .

والرابع : وقفوا عليها وهي تحتهم .

والخامس : دخلوا إليها فعرفوا مقدار عذابها ، تقول : وقفت على ما عند فلان ، أي : فهمته وتبيَّنته ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة الزجاج ، واختار الأخير .

وقال ابن جرير : "على" هاهنا بمعنى "في" .

والسادس : جعلوا عليها وقفا ، كالوقوف المؤبَّدة على سبلها ، ذكره الماوردي .

والخطاب بهذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم ، والوعيد للكفار ، وجواب "لو" محذوف ، ومعناه : لو رأيتهم في تلك الحال ، لرأيت عجباً .

قوله تعالى : ﴿ ولا نكذبَ بآيات ربِّنا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر ، عن عاصم برفع الباء من "نكذبُ" والنون من "نكونُ" .

قال الزجاج : والمعنى أنهم تمنَّوا الرد ، وضمنوا أنهم لا يكذِّبون .

والمعنى : يا ليتنا نُرَدُّ ، ونحن لا نكذب بآيات ربِّنا ، رُدِدْنا أو لم نُردَّ ، ونكون من المؤمنين ، لأنا قد عاينا ما لا نكذب معه أبداً .

قال : ويجوز الرفع على وجه آخر ، على معنى "يا ليتنا نرد" يا ليتنا لا نكذب ، كأنهم تمنوا الرد والتوفيق للتصديق .

وقال الأخفش : إذا رفعت جعلته على مثل اليمين ، كأنهم قالوا : ولا نكذب والله بآيات ربِّنا ، ونكون والله من المؤمنين .

وقرأ حمزة إلا العجليَّ ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب : بنصب الباء من "نكذبَ" والنون من "نكونَ" .

قال مكي بن أبي طالب : وهذا النصب على جواب التمني ، وذلك بإضمار "أن" حملاً على مصدر "نرد" فأضمرت "أن" لتكون مع الفعل مصدراً ، فعطف بالواو مصدراً على مصدر .

وتقديره : يا ليت لنا رداً ، وانتفاءاً من التكذيب ، وكوناً من المؤمنين .

وقرأ ابن عامر برفع الباء من "نُكذبُ" ونصب النون من "نكونَ" ، فالرفع قد بيَّنا علته ، والنصب على جواب التمني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(175/229)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) ﴾

عندما ننظر إلى قول الحق : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار ﴾ ، هنا لا نجد جواباً ، مثل ما تجده في قولك : لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته . إن في كلٍّ من هاتين الجملتين جواباً ، لكن في هذا القول الكريم لا نجد جواباً ، وهذا من عظمة الأداء القرآني ، فهناك أحداث لا تقوى العبارات على أدائها ، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع في المعنى مذاهبه التي يراها .

وفي حياتنا نجد مجرماً في بلد من البلاد يستشري فساده وإجرامه في سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة واعتداءات ، ولا أحد يقدر عليه أبداً ، ثم يمكن الله لرجال الأمن أن يقبضوا عليه ، فنرى هذا القاتل المفسد يتحول من بعد الجبروت إلى جبان رعديد يكاد يقبل يد الشرطي حتى لا يضع القيود في يديه . ويرى إنسان ذلك المشهد فيصفه للآخرين قائلاً : آه لو رأيتم لحظة قبضت الشرطة على هذا المجرم ، وهذه العبارة تؤدي كل معاني الذلة التي يتخيلها السامع ، إذن فحذف الجواب دائماً ترتيب لفائدة الجواب ، ليذهب كل سامع في تصور الذلة إلى ما يذهب . لأن المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتفصيل لحظة

القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الذلة والمهانة في إطار ما رأى هو ، ويحجب بذلك تخيّل وتصوّر السامعين .

(176/229)

أما اكتفاء المشاهد بقوله : آه لو رأيتم لحظة قبض الشرطي على هذا المجرم . . فهذا القول يعمم ما يُرى حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور . وهكذا أراد القرآن أن يصور هول الوقوف على النار فأطلق الحق " لو " بلا جواب حين قال : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار فَقَالُواْ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنعام : 27] .

وقد أراد البعض أن يتصيد لأساليب القرآن ، ومنهم من قال : كيف تقولون إن القرآن عالي البيان ، فصيح الأسلوب ، معجزة الأداء ، وهو يقول ما يقول عن شجرة الزقوم ؟

إن القرآن الكريم يقول عن هذه الشجرة : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين ﴾ [الصافات : 62-65] .

إن كل شجرة تحتاج إلى ماء وهواء ، وفيها حياة تظهر باخضرار الأوراق ، فكيف تخرج

هذه الشجرة من النار ، أليس في ذلك شذوذ ؟ ثم تتمادى الصورة . . صورة الشجرة ، فيصف الحق ثمارها بقوله الحق : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ [الصافات : 65-66] .

نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نر رأس الشيطان . ويَسْخَرُ الذين يتصيدون للقرآن في أقوالهم : بما أن أحداً من البشر لم يشهد رأس الشيطان ، وكذلك شجرة الزقوم ، فكيف يشبه الله المجهول بمجهول ، وتساءلوا بطنطنة : ماذا يستفيد السامع من تشبيه مجهول بمجهول ؟ ونقول رداً عليهم : إن غباء قلوبكم وفقدان طبعكم لملكة اللغة العربية هو الذي يجعلكم لا تفهمون ما في هذا القول من بلاغة .

(177/229)

وحين نقرب المثل نقول : هب أن إنساناً أقام مسابقة بين رسامي " الكاريكاتير " في العالم ليرسم كل منهم صورة للشيطان ، ويوم تحديد الفائز ستوجد أكثر من صورة للشيطان ، وستفوز أكثر الصور بشاعة ، ذلك أن الفوز هنا ليس في الجمال ، ولكن الفوز هما في مهارة تصوير القبح . وهكذا تتعدد أمامنا صور القبح ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وقد أراد إطلاق الخيال لتصور شجرة الزقوم ، وكذلك تصور رأس الشيطان ؟ أراد الحق بهذا

الأسلوب البليغ إشاعة الفائدة من إظهار بشاعة صورة الشجرة التي يأكل منها أهل الكفر .

وكذلك هنا قوله الحق : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار ﴾ والذي يحدث لهؤلاء الوقوف على النار لا يأتي خبره هنا ، بل يكتفي الحق بأن يعبر لنا عن أننا نراهم في مثل هذا الموقف ؛ لأن اليوم الاخر هو يوم الجزآء ؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار . والجنة – كما نعلم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم – إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ونعلم أن رؤية العين محدودة ، ورقعة السمع أكثر اتساعاً ، ذلك أن الأذن تسمع ما تراه أنت وما رآه غيرك ، لكن عينيك لا تريان إلا ما رأيته أنت بمفردك ، ولا يكتفي الحق بذلك بل يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أن في الجنة ما لا يخطر على قلب بشر ، أي أن في الجنة أشياء لا تستطيع اللغة أن تعبر عنها ؛ لأن اللغة تعبر عن متصورات الناس في الأشياء . والمعنى يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ المعبر عنه .

وهكذا نعلم أن ما في الجنة من نعيم لا توجد ألفاظ تؤدي كل ما تحمله للمؤمن من معان ، وكذلك نعلم أيضاً أن في النار عذاباً لم توضع له ألفاظ لتعبر عنه . ولو أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار ﴾ لرأينا أمراً مفزعاً مخيفاً مذلاً إلى آخر تلك الألفاظ الدالة على عمق العذاب لما أعطي ذلك الأثر نفسه الذي جاء به حذف الجواب .

وعندما نقرأ " وُقِفوا " نعرف أن فيه بناء وكيانا موجوداً ، وأن هناك من أوقفهم على النار ، وهم كانوا مكذبين في الدنيا بالنار ، ثم وجدوا أنفسهم يوم القيامة ضمن من وقفهم الله على النار ليروا العذاب الذي ينتظرهم ، ويطلعوا على النار اطلاع الواقف على الشيء ، كذلك يوقفهم الحق على النار التي أنكروها في الدنيا ؛ فقد جاءهم الخبر في الدنيا ، فمن صدق وعلم أن من أخبره صادق ، فذلك علم يقين ، وإن تجاوز الإنسان مرحلة العلم ورأى صورة محسة للخبر ، فهذا عين يقين ، والمؤمن بإخبار ربه وصل إلى الأشياء بعلم اليقين من الله ، لأنه يصدق ربه ، ولذلك فالإمام علي – كرم الله وجهه – يقول : " لو انكشف عني الحجاب ما ازددت يقيناً " ؛ لأنه مصدق بلاغي به .

لكن ماذا عن المكذبين ؟ إن الإنسان يرى علم اليقين في اليوم الآخر وهو عين يقين ، ويشترك في ذلك المؤمن والكافر . ولكن الكافر يرى النار عين اليقين ويدخلها ليحترق بها فيحس بها وهذا هو " حق اليقين " .

هكذا نعلم أن النار " عين اليقين " يراها المؤمن والكافر ، والنار ك " حق اليقين " يعانيها ويعذب بها الكافر فقط ، أما المؤمن في الجنة فيحس " حق اليقين " لأنه يعيش ويسعد بنعيمها . ويصور سبحانه ذلك في قوله : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ [التكاثر : 5-7] .

وجاء حق اليقين في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة : 88-95] .

(179/229)

وماذا يصنعون وهم المكذبون عندما يرون النار عين اليقين ؟ لا بد أنهم يخافون أن يعانوا منها عندما تصبح حق اليقين ، لذلك يقولون : ﴿ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنعام : 27] .

إنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليستأنفوا الإيمان . والتمني في بعض صوره هو طلب المستحيل غير الممكن للإشعار بأن طالبه يحب أن يكون ، كقول القائل :

ألا ليت الشباب يعود يوماً . . . فأخبره بما فعل المشيب

أو قول القائل :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها . . . عقود مدحٍ فما أرضى لكم كلمى

وهم قالوا : ﴿ ياليتنا نُرَدُّ ﴾ فإن كانوا قالوا هذا تمنياً فهو طلب مستحيل ويتضمن أيضاً

وعداً بعد التكذيب بآيات الله ، فهل هم قادرون على ذلك ؟

لا ؛ لأن القرآن الكريم قد قال في الآية التالية : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(180/229)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الواو)

وهى ترد فى القرآن وفى اللغة على وجوه كثيرة :

1 – حرفٌ من حُروف الهجاءِ شَفَوِيّ يحصلُ من انْطِباق الشَّفَتَين جوارَ مَخْرج الفاءِ .

[و] النّسبة [إليه] واوِيٌّ ، والفِعْل منه واوَيْتُ واواً حَسَناً وحَسَنةً ، والأَصل وَوَّوْتُ ، لكن لَمَّا اجتمعت أَربعُ واوات متوالية استثقلوه فقلبوا الواو الثانية أَلفاً والرابعة ياءً فصارت ، وَاوَيْتُ وجمعه : واواتٌ .

2 – الواوُ فى حِساب الجُمَّل اسمٌ لعددِ السِتَّة .

3 – الواوُ المكرّرة فى نحو : سَوَّلْتُ وسَوَّيت .

4 – الواوُ الأَصليّ كما فى : وَعْد ، ورَوْح ، ونَحْو .

5 – واوُ الإِعراب كما فى الأِسماءِ الستَّة .

6 – واو الحالِ ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ أَى فى تلك الحالة .

ومنه أَتَيْتُه والشَّمْسُ طالِعَةٌ .

7 – واوُ الاستِئْناف : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ ﴾ .

8 – الواوُ المقُحمة : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ ﴾ .

9 – الواوُ الزائِدَة فى ثانى الاسم ، نحو كَوْثَر ، وكَوْكَب ، أَو فى ثالثه نحو : عَجُوز ، وعَرُوس ، أَو فى رابعه ، نحو : تَرْقُوَة وعَرْقُوَة ، أَو فى خامسه ، نحو : قَلَنْسُوَة .

10 – الواو المُبْدَلَة من الهمزةِ إذا كان ما قبلها مَضْمُوناً نحو : رأَيتُ وَباك ، أَو من الأَلف نحو ضَوارِب .

11 – واوُ الثمانية : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ ، ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً . . .

﴿ إلى قوله ﴿ وفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ .

﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

12 – بمعنى أَوْ : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ .

13 - بمعنى إذْ ، نحو : لَقِيتُكَ وأَنْتَ شابٌّ ، أَي إذْ أَنت .

﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ ﴾ أَي إذْ طائفةٌ .

(181/229)

---

14 - بمعنى مع : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ .

15 - بمعنى رُبّ ، فى مثل قول رؤبة :

وقاتِمِ الأَعْماقِ خَاوِى المُخْتَرَق

16 - واوُ القَسَم : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ ﴾ .

17 - واوُ التَفْصِيل : ﴿ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ ، ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ .

18 - واوُ التأْكيد والتَقْرير : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ .

19 - واوُ التّكْرار : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى ﴾ .

20 - واوُ صِلَةٌ : ﴿ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ .

21 - واوُ العَطْفِ ، وتكون لمُطْلَق الجَمْع ، فتعطِفُ الشىءَ على مُصاحِبه نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ وعلى لاحقه نَحْو : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً

وَإِبْرَاهِيمَ﴾ ، وعلى سابِقه ، نحو قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ .

وإذا قيل قامَ زَيْدٌ وعَمْرو احتمل ثلاثةَ معانٍ ، وكونُها لِلْمَعِيَّة راجحٌ ، وللتَّرْتيب كثير ، ولعَكْسِه قليل .

ويجوز أَن يكون بين مُتعاطِفَيها تقارُبٌ أَو تَراخٍ نحو : ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

وقد تخرج الواوُ عن إِفادة مُطْلَقِ الجَمْع وذلك على أَوجه :

أَحدها [تكون] : بمعنى أَوْ ، وذلك على ثلاثة أَوْجُه :

أَحدها تكون بمعناها فى التَقْسِيم نحو : الكلمة اسمٌ ، وفعلٌ ، وحرف ؛ وبمعناها فى الإِباحَة ، نحو جالِسِ الحَسَنَ وابْنَ سِيرِين ، أَى أَحدَهُما ؛ وبمعناها فى التَخْيير نحو :

وقالُوا نَأَتْ فاخْتَر لها الصَّبْر والبُكَا

والثانى : بمعنى باءِ الجَرّ نحو : أَنت أَعْلَمُ ومالَكَ وبعتُ الشَّاة شاةً ودِرْهماً .

(182/229)

الثالث : بمعنى لامِ التَّعْليل ، نحو : ﴿ يا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ ﴾ قاله الخَارْزَنْجِيّ .

الرّابع : واوُ الاستئناف نحو : لا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَتَشْرَبُ اللَّبَنَ ، فيمن رفع .

الخامس : واوُ المفعول معه ، كسِرْتُ والنّيلَ .

السّادس : واوُ القَسَم .

ولا تَدْخُل إلاَّ على مُظْهَرٍ ، ولا تتعلقَ إلا بمَحْذوف ، نحو : ﴿ والقُرْآنِ الحَكِيمِ ﴾ فإن تَلَتْها واوٌ أُخرَى فالثانية للعطف ، وإلاَّ لاحتاج كلٌّ إلى جواب ، نحو : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ .

(السابع) : واو ربّ ، ولا تدخل إلاَّ على مُنَكَّر .

(الثامن) الزائدة : ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ .

وقد تقدم .

(التاسع) : واو ضمير الذكور ، نحو : الرّجال قاموا ، وهو اسمٌ (و) عند الأَخْفَش والمازنى حَرْفٌ .

(العاشر) : واو علامة المُذَكَّرين فى لغة طَيّئ أَو أَزْدِ شَنُوءَةَ أَو بَلْحارث .

ومنه قوله صلَّى الله عليه وسلم : "يَتَعاقَبُونَ فِيكم مَلائكةٌ باللَّيْل ومَلائكةٌ بالنَّهار" .

(الحادى عشر) : واو الإنكار ، نحو : الرَّجُلُوه بعد قَوْل القائل : قامَ الرَّجُلُ .

(الثانى عشر) : الواو المُبْدَلة من هَمْزة الاستِفْهام المَضْموم ما قَبْلها كقراءَة قُنْبُل : ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ * أَأَمِنتُمْ ﴾ ونحو : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ ﴾ .

(الثالث عشر) : واو التَّذَكُّر .

(الرابع عشر) : واو القوافى .

(الخامس عشر) : واوُ الإِشْباع كالبُرْقُوع .

(السادس عشر) : واوُ مدّ الاسم بالنّداءِ .

(السابع عشر) : الواو المتحوّلة نحو : طُوبَى ، أَصلها طُيْبَى .

(الثامن عشر) : واوات الأَبنِيَة كالجَوْرَبِ والتَوْرَب .

(التاسع عشر) : واوُ الوَقْت ، وتَقْرُب من واوِ الحال : اعْمَلْ وأَنْتَ صحيحٌ .

(العشرون) : واو النسبة كأَخَوِيٍّ فى النِسْبة إلى أَخ .

(الحادى والعشرون) : واوُ عَمْرٍو لتَفْرِق بينه وبين عُمَر .

(183/229)

(الثانى والعشرون) : الواوُ الفارِقةُ كواو أُولئك وأُولَى لئلاَّ يشتَبه بإِلَيْكَ وإِلَى .

(الثالث والعشرون) واوُ الهمزة فى الخَطّ كهَذِهِ نساؤُكَ وشاؤُك ، [و] فى اللَّفْظِ كحَمْراوان وسَوْداوان .

(الرابع والعشرون) : واوُ النِّداءِ والنُّدْبَةِ .

(الخامس والعشرون) : واوُ الصّرْفِ

وهو أَنْ تَأْتِيَ الواوُ معطوفةً على كلامٍ فى أَوّله حادِثَةٌ لا تَسْتَقِيم إِعادتُها على ما عُطِفَ عليه

نحو :

*لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَه * عارٌ عَلَيْكَ إِذا فَعَلْتَ عَظِيمُ*

فإِنَّه لا يجوز إِعادةُ [لا] على وتأْتى مثله ، [فلذلك] سمّى صرفاً إِذْ كان معطوفاً ولم يَسْتَقِمْ أَنْ يُعادَ فيه الحادثُ الَّذى فيما قبله .

(السادس والعشرون) : الواو اللغوىّ ، قال الخليل : [الواو] عنْدَهم .

البعير الفالِج ، قال الشاعر :

*وكَمْ مُجْتَد أَغْنَيْتُه بعد فَقْرِه * فآبَ بواوٍ جَمَّة وسَوام* انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 145.152 ﴾

(184/229)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار ﴾ ، وجواب " لو " محذوف لفهم المعنى ، والتقدير : "

لرأيت شيئاً عظيماً وَهَوْلاً مُفْظَعاً " .

وحذف الجواب كثر في التَّنْزِيلِ ، وفي النظم كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً ﴾ [الرعد : 31] .

وقول الآخر [في ذلك :] [الطويل]

2135 - وَجَدّكَ لَوْ شَيءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ . . .

سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعاَ

وقوله : [الطويل]

2136 . . . - فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَة

وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا . . .

وقله الآخر فأجاد : [الكامل]

2137 - كَذَبَ العَوَاذِلُ لَوْ رَأَيْنَ مُنَاخَا . . .

بِحَرْيزِ رَامَهض والمَطِيُّ سَوَامِي

وحذفُ الجواب أَبْلَغُ [قالوا :] لأن السَّامِعَ تذهب نَفْسُهُ كل مذهب ، ولو صرَّح له بالجواب وطَّنَ نفسه عليه فلم يحسن منه كثيراً ، ولذلك قال كثير في ذلك : [الطويل]

2138 - فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ . . .

إذَا وطِّنَتْ يَوْماً لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتِ

وقوله : " ترى " يجوز أن تكون بصريسةً ، ومفعولها محذوف ، أي : ولو ترى حالهم ، ويجوز أن تكون القَلْبِيَّةَ ، [والمعنى :] ولو صرفتع فكرك الصحيح لأنْ تَتَدَبَّرَ حَالَهُمْ لازْدَدْتَ يقيناً .

وفي " لو " [هذه] وجهان :

أظهرهما : أنها الامتناعية ، فينصرف المُضَارِعُ بعدها للمُضِيِّ ، ف " إذا " باقيةٌ على أصلها من دلالتها على الزَّمِنِ الماضي ، وهذا وإن كان لم يقع بعدُ ؛ لأنه سيأتي يوم القيامة ، إلاَّ أنه أبرز في صورة الماضي لتحقُّقِ الوَعْدِ .

والثاني : أنها بمعنى " أنْ " الشَّرطيَّة ، و " إنْ " هنا تكون بمعنى " إذا " ، والذي حمل [هذا] القائل على ذلك كَوْنُهُ لم يقع بعد وقد تقدَّمَ تأويله .

وقرأ الجمهور – رضي الله عنهم : – " وُقِفُوا " مبنيًا للمفعول من " وقف " ثلاثياً [و " على " يحتمل أن تكون على بابها وهو الظاهر أي : حبسوا عليها ، أو عرضوا عليها ، وقيل : يجوز] أن تكون بمعنى " في " ، أي في النَّار ، كقوله : " " عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ " ، أى : في ملك سليمان .

وقرأ ابن السَّمَيْفَعِ ، وزيد بن علي : " وَقَفُوا " مبيناً للفاعل .

و " وَقَفَ " يتعدَّى ولا يتعدَّى ن وفرَّقَتِ العَرَبُ بينهما بالمَصْدَرِ ، فمصدر اللازم على " فُعُول " ، ومصدر المُتعدِّي على " فَعْل " ولا يقال : أَوْقَفْتُ .

قال أبو عمرو بن العلاء : " لم أسْمَعْ شيئاً في كلام العرب : " أوقفت فُلاناً " ، إلاَّ أنِّي لو رأيت رَجُلاً واقفاً فقلت له : " ما أوقفك هاهنا " لكان عندي حَسَناً " وإنما قال كذلك ؛ لأنَّ تعدِّي الفِعْل بالهمزة مقيسٌ نحو : ضحك زيدٌ وأضحكته أنا ، ولكن سَمِعَ غيره في " وقف " المتعدي أوقفته .

قال الراغب : " ومنه – يعني من لفظِ وقفتُ القوم – اسْتُعِيرَ وقفت الدَّابَّة إذا سَبلْتَهَا " فجعل الوقف حقيقةٌ في مَنْع المشي ، وفي التَسْبِيل مَجَازاً على سبيل الاسْتِعَارَةِ ، وذلك أن الشَّيْءَ المُسْبَل كأنه ممنوعٌ من الحركة : والوقف لفظٌ مشترك بين ما تقدَّمَ وبين سوارٍ من عاجٍ ، ومنه : حمار مُوقَّفٌ بأرْسَاغِهِ مِثْلُ الوقْفِ من البَيَاضِ .

قوله : " يا لَيْتنا " قد تقدَّم الكلام في " يا " المُبَاشرة للحرف والفعل .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، والكسائي " ولا نكَذِّبُ " و " نكون " برفعهما وبنَصْبهمَا حمزة ، وحفصُ عن عاصم ، وبرفع الأول ونصب الثاني ابن عامر ، وأبو بكر .

ونقل أبو حيَّان عن ابن عامرٍ أنَّهُ نصب الفعلين ، ثم قال بعد كلام طويل : عن ابن عامر : " ولا نكذِّب " بالرفع ، و " نكون " بالنصب ، فأمَّا قراءة الرفع فيهما ، ففيها ثلاثة أُوجه :

أحدهما : أن الرفع فيهما على العَطْفِ على الفِعْلِ قبلهما ، وهو " نُرَدُّ " ، ويكونون قد تَمَنَّوا ثلاثة أشياء : الرَّدّ إلى دار الدنيا ، وعدم تكذيبهم بآيات ربهم ، وكونهم من المؤمنين .

والثاني : أن " الواو " واو الحال ، والمضارع خبر مبتدأ مُضْمَرٍ ، والجُمْلَةُ الاسمية في مَحَلِّ نصب على الحال من مرفوع " نُرَدُّ " .

والتقدير : يا ليتنا نُرَدُّ غيرَ مكذِّبين وكائنين [من المؤمنين فيكون تمني الرد مقيداً بهاتين الحالين ، فيكون الفعلان] أيضاً داخلين في التمنّي .

(186/229)

وقد اسْتَشْكَلَ الناسُ هذين الوجهين ، بأن التَّمَنّي إنشاءن والإنْشَاءُ لا يدخله الصّدْقُ ولا الكذب ، وإنما يدخلان في الأخبار ، وهذا قد دَخَلَهُ الكَذِبُ لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] وقد أجابوا عن ذلك بثلاثة أوجه :

أحدهما : ذكره الزمخشري – قال : هذا تَمَنّ تضمَّنَ معنى العِدَة ، فجاز أن يدخله التَّكْذِيبُ كما يقول الرَّجُلُ : " ليت اللَّه يرزقني مالاً فأحْسِن إليك ، وأُكَافِئَكَ على صَنيعِكَ " فهذا مُتَمَنٍّ في معنى الواعد ، فلو رُزِقَ مالاً ولم يُحْسِنَ إلى صاحبه ، ولم يكافئه كذب ، وصَحَّ أن يقال له كاذب ، كأنه قال : إن رزقني اللَّهُ مالاً أحسنتُ إليك .

والثاني : أن قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] ليس متعلّقاً بالمتمني ، بل هو مَحْضُ إخبار من الله تبارك وتعالى ، بأنهم دِيْدَنهم الكَذِبُ وهجيراهم ذلك ، فلم يَدْخُلِ الكذبُ في التمنّي ، وهذان الجوابان واضحان ، وثانيهما أوضح .

والثالث : أنَّا لا نُسَلِّمُ أنَّ التمنّي لا يدخله الصِّدْقُ ولا الكذب ، بل يدخلانه ، وعُزِيَ ذلك إلى عيسى بن عُمَرَ ، واحتج على ذلك بقول الشاعر [حيث قال] : [الطويل]

2139 - مُنَى إنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أحْسنَ المُنَى . . .

وإلاَّ فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنا رَغْدَا

قال : " وإذا جاز أن تُوصَفَ المُنَى بكونها حَقّاً جاز أن تُوصَفَ بكونها باطلاً وكذباً " .

وهذا الجواب سَاقِطٌ جداً ، فإن الذي وُصِفَ بالحَقّ إنما هو المُنَى ، و" المنى " : جمع " مُنْيَة " و" المُنْيَةُ " تُوصَفُ بالصّدقِ والكذب مجازاً ، لأنها كأنها تَعِدُ النَّفْسَ بوقوعها ، فيقال لما وقع منها : صَادِق ، ولِمَا يَقَعْ منها : كاذب ، فالصِّدْق والكذب إنما دَخَلا في المُنْيَةِ لا في التمني .

(187/229)

والثالث من الأوجه المتقدمة : أن قوله : " ولا نُكَذِّبُ " خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة اسْتِئْنَافِيَّةٌ لا تعلُّقَ لها بما قبلها ، وإنما عطفت هاتان الجملتان الفعليتان على الجملة المُشْتملة على أدَاةِ التمني وما في حيِّزِهَا ، فليستْ داخلةً في التَّمَنِّي أصلاً ، وإنما أخبرَ الله - تبارك وتعالى - عنهم أنهم أخْبَرُوا عن أنفسهم بأنهم لا يكذبون بآيات ربِّهم ، وأَنَّهُمْ يكونون من المُؤمنينَ ، فتكون هذه الجملة وما عُطِفَ عليها في مَحَلِّ نصبٍ بالقول ، كأنَّ التقدير : فقالوا : يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وقالُوا : نحن لا نُكَذِّب ونكُون من المؤمنين .

واخترا سيبويه هذا الوجه وشبَّهَهُ بقولهم : " دَعْنِي ولا أعُودُ " ، أي : وأنا لا أعود تَرَكْتَنِي أو لم تتركني ، أي : لا أعود على كُلِّ حالٍ ، كذلك معنى الآية : أخْبروا أنهم لا يُكَذِّبُون بآيات ربهم ، وأنهم يَكُونُون من المؤمنين على كل حالٍ ، رُدُّوا أوة لم يُرَدُّوا .

وهذا الوجهُ وإن كان النَّاسُ قد ذكروه ورجَّحتوه ، وأختار سيبويه - رحمه الله - كما مَرَّ ، فإن بعضهم اسْتَشْكَلَ عليه إشْكَالاً ، وهو : أنَّ الكَذِبِ لا يَقَعُ في الآخرة ، فكيف وُصِفُوا بأنهم كاذبون في الآخرة في قولهم " ولا نُكَذِّب ونكون " ؟

وقد أجيب عنه بوجهين :

أحدهما : أن قوله ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون ﴾ [الأنعام : 28] اسْتِيثَاقٌ لذَمِّهِمْ بالكذب ، وأن ذلك شأنهم كما تقدَّمَ ذلك آنفاً .

والثاني : أنهم صَمَّوا في تلك الحَالِ على أنهم لو رُدُّوا لما عادوا إلى الكُفْرِ لما شَاهَدُوا من

الأَهْوالِ والعقوبات ، فأخبر اللَّهُ – تعالى – أنَّ قولهم في تلك الحَالِ : " ولا نكذِّبُ " وإن كان عن اعتقاد وتصميم يتغير على تقدير الرَّدِّ ، ووقوع العَوْدِ ، فيصير قولهم : " ولا نكذّب " كذباً ، كما يقول اللِّصُّ عند ألم العقوبة : " لا أعود " ويعتقد ذلك ويصمم عليه ، فإذا خُلِّصَ وعاد كاذباً .

(188/229)

وقد أجاب مَكّي أيضاً بجوابين :

أحدهما [قريب] مما تقدَّم ، والثاني لغيره ، فقال – أي لكاذبون في الدُّنْيَا في تكذيبهم الرُّسُلَ ، فإنكارهم البَعْثَ للحال [التي] كانوا عليها في الدُّنْيَا ، وقد أجاز أبو عمرو وغيره وُقُوعَ التكذيب في الآخرة ، لأنهم ادَّعَوْا أنهم لو رُدُّوا لم يُكَذَّبوا بآيات الله ، فعلم الله ما لا يكون لو كان كيف يكون ، وأنهم لو رُدُّوا لم يؤمنوا ولكذبوا بآيات اللّهِ ، فأكذبهم اللَّهُ في دَعْوَاهُمْ .

(189/229)

وأمَّا نَصْبُهُمَا فبإضمار "أنْ" بعد الواو التي بمعنى "مع"، كقولك: "ليت لي مالاً وأُنْفِقَ منه" فالفعل منصوب بإضمار "أن"، و"أنْ" مصدرية ينسبكُ منها ومن الفعل بعدها مَصْدرٌ، و"الواو" حرف عَطْفٍ، فيستدعي معطوفاً عليه، وليس قبلها في الآية إلاَّ فعل، فكيف يُعْطَفُ اسْمٌ على فعل؟ فلا جَرَمَ أنْ نقدّر مصدراً متوهّماً يُعْطَفُ هذا المصدر المُنْسَبكُ من "أنْ" وما بعدها عليه، والتقديرُ: يا ليتنا لنا رَدٌّ، وانتفاء تكذيب بآيات ربنا وكَوْنُ من المؤمنين أي: ليتنا لنا ردٌّ مع هذين الشيئين، فيكون عدم التكذيب والكَوْنُ من المؤمنين مُتَمَنَّيْيْنَ أيضاً، فهذه ثلاثة أشياء أعني الرَّدَّ وعدم التكذيب، والكون من المؤمنين مُتَمَنَّاةٌ بقيد الاجماع، لا أنَّ كُلَّ واحدٍ مُتَمَنَّي وَحْدَهُ؛ لما تقدَّم من أنَّ هذه "الواو" شرط إضمار "أنْ" بعدها: أن تصلح "مع" في مكانها، فالنصبُ يُعَيِّنُ أحد مُحْتَمَلاتِهَا في قولك: "لا تأكل السَّمَكَ وتشرب اللبن" وشبهه، والإشكال المتقدّم وهو إدخال التكذيب على التمين ورادٌ هنا، وقد تقدم جوابه إلاَّ أن بَعْضَهُ يُتَعذَّر هنا، وهو كون "لا نكذّبُ، ونكونُ" مُسْتَأنَفَيْنِ سِيْقا لمجرد الإخبار، فبقي: إمَّا لكون المتني دَخَلَهُ معنى الوَعْدِ، وإمَّا أن قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون ﴾ [الأنعام: 28] ليس راجعاً إلى تَمَنّيهِمْ، وإمَّا لأنَّ التمّني يدخله التكذيب، وقد تقدَّم فسادُهُ.

وقال ابن الأنباري – رحمه الله –: "أكْذَبَهم في معننى التَّمَنّي، لأن تَمَنّيهم راجعٌ إلى معنى:

" نحنث لا نكذِّب إذا رُدِدْنا " فَغَلَّب عزَّ وجلَّ الكلام فأكذَبَهُمْ ، ولم يستعمل لفز التَّمنِّي " .

وهذا الذي قاله ابن الأنباري – رحمه الله تعالى – تقدَّم معناه بأوضح من هذا .

(190/229)

قال أبو حيَّان : وكثيراً ما يوجد في كتب النحو أن هذه " الواو " المنصوب بعدها هو على جواب التَّمَنِّي ، كما قال الزمخشري : وقرئ : " ولا نكذِّبَ ، ونكون " بالنصب بإضمار " أنْ " على جواب التمين ، ومعناه إنْ رُدِدْنا لم نُكَذِّبْ ، ونكن من المؤمنين .

قال : وليس كما ذَكَرَ ، فإن نَصْبَ الفعل بعد " الواو " ليس على جهة الجواب ؛ لأن " الواو " لا تقعُ جواب الشَّرْط ، فلا يَنْعَقِدُ مِمَّا قبلها ، ولا مِمَّا بعدها شَرْطٌ وجواب ، وإنما هي واو " مع " يُعْطَفُ ما بعدها على المَصْدَرِ المُتَوَهَّمِ قبلها ، وهي واو العطف يتعيَّنُ مع النَّصْبِ أحدُ مَحَامِلِهَا الثلاثة : وهي المعيَّةُ ويميِّزها من " الفاء " تقديرُ " مع " موضعها ، كما أنَّ فاء الجواب إذا كان بعدها فِعْلٌ منصوبٌ ميَّزَهَا تقديرُ شرْط قبلها أو حَالٌ مكانها وشُبْهَةُ من قال : إنها جواب أنها تنصب في المواضع التي تنصب فيها " الفاء " ، فتوهَّم أنها جواب .

وقال سيبويه – رحمه الله تعالى – : والواو تنصب ما بعدها في غير الواجب من حيث انْتَصَبَ ما بعد " الفاء " ، والواو والفاء معناهما مختلفان ، ألا ترى قوله : [الكامل]

2140 - لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأتِيَ مِثْلَهُ . . . . . .

لو دخلت " الفاء " هنا لأفسدت المعنى ، وإنما أراد : لا تجمع النَّهْيَ والإتيان وتقول : " لا تأكل السِّمَكَ وتشرب اللبن " لو أدخلت الفاء هنا لفسد المعنى .

قال أبو حيَّان : ويوضِّح لك أنها ليست بجواب أنْفِرَادُ " الفاء " دونها ، فإنها إذا حذفت انْجَرَمَ الفعل بعدها بما قبلها لما تَضَمَّنَهُ من معنى الشَّرْطِ إلاَّ في النفي ، فإن ذلك لا يجوز .

قال شهاب الدين - رحمه الله تعالى - : قد سبق الزمخشري إلى هذه العبارة أبو إسحاق الزَّجَّاج ، قال أبو إسحاق : نصب على الجواب بالواو في التَّمَنِّي كما تقول : " ليتك تَصِيرُ إلَيْنَا ونُكْرِمَكَ " .

(191/229)

المعنى : ليت مصيرك يقع وإكرامنا ، ويكون المعنى : " ليت رَدَّنَا وقع وأن لا نكذِّب " .

وأمَّا كون " الواو " ليست بمعنى " الفاء " فَصَحِيحٌ ، على ذلك جُمْهُورُ النحاة ، إلاَّ أنِّي رأيتُ أبا بكر بن الأَنْبَارِيِّ خَرَّجَ النَّصْبَ على وجهين :

أحدهما : أنَّ " الواو " بمعنى " الفاء " ، والتقدير : يا ليتنا نُردُّ فلا نكذِّبَ ونكونَ ، فتكون " الواو " هنا بمنزلة " الفاء " في قوله : ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ

المحسنين ﴾ [الزمر : 58] .

يؤكد هذا قراءةُ ابن مسعود ، وابن أبي اسحاق " يا ليتنا نُرَدُّ فلا نكذبَ " بالفاء [منصوباً] .

والوجه الآخر : النَّصْبُ على الصرف ، ومعناه الحال ، أي : يا ليتنا نُردُّ غي مكذِّبين .

أمَّا قراءة ابن عامر – برفع الأوَّل ونصب الثاني – فظاهرةٌ بما تقدَّم ؛ لأن الأول يرتفع على حَدِّ ما تقدم من التأويلات ، وكذلك نصب الثاني يتخرج على ما تقدم ويكون قد أدخل عدم التكذيب في التَّمَنِّي أو إسْتَأْنَفَهُ ، إلاَّ أنَّ المنصوبَ يحتمل أن يكون من تَمَام قوله : " نُرَدُّ " أي : تَمنَّوا الرَّدَّ مع كونهم من المؤمنين ، وهذا ظَاهِرٌ إذا جعلنا : " ولا نكذب " مَعْطُوفاً على " نُرَدّ " أو حالاً منه .

وأمَّا إذا جعلنا " ولا نكِّب " مستأنفاً ، فيجوز ذلك أيضاً ، ولكن على سبيل الاعتراضِ ، ويحتمل أن يكون من تمامِ " ولا نكذِّب " أي : لا يكونُ منّا تكذيب مع كوننا من المؤمنين في التمني ، أو أستأنفه ويكون قوله : " ولا نكذب " حينئذٍ على حَالِهِ ، أعني من احتماله العَطْفَ على " نُرَدُّ " أو الحاليّة ، أو الاستئناف ، ولا يخفى حينئذٍ دخول كونهم مع المؤمنين في التَّمَنِّي وخروجه منه بما تقدَّم تقريره .

وقُرِئ شاذاً عكس قراءة ابن عامرٍ ، بِنَصْبِ "نكذبَ" ، ورفع "نكون" ، وتخريجها على ما تقدَّمَ إلاّ أنها يضعف فيها جَعْلُ "ونكونُ من المؤمنين" حالاً لكونه مُضَارعاً مثبتاً إلا بتأويل بَعِيدٍ ، كقوله : [المتقارب]

2141 - . . . . . .

نَجَوْتُ وَأَرْهَنُهُمْ مَالِكَا

أي : وأنا أرْهَنُهُمْ ، وقولهم : "قمت وأصكُّ عَيْنَهُ" ، ويدلُّ على حذف هذا المبتدأ قراءةُ أبيِّ : "ونحن نكونُ من المؤمنين" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 88 . 95 ﴾ . باختصار .

(193/229)

قوله تعالى ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبرنا – في قراءة الرفع – عن أنفسهم بما تمنوا لأجله الرد ، وتضمنت قراءة النصب الوعد ، فإنه كما لو قال قائل : ليت الله يرزقني مالاً فأكافئك على صنيعك ، فإنه ينجر إلى : إن رزقني الله مالاً كافأتك ، فصار لذلك مما يقبل التكذيب ، أضرب عنه سبحانه تكذيباً لهم بقوله : ﴿ بل ﴾ أي ليس الأمر كما قالوا ، لأن هذا التمني ليس عن حقيقة ثابتة في أنفسهم من محبة مضمونه وثمرته ، بل ﴿ بدا ﴾ أي ظهر ﴿ لهم ﴾ من العذاب الذي لا طاقة لهم به ﴿ ما كانوا يخفون ﴾ أي من أحوال الآخرة ومرائهم على باطل ! ولما كان إخفاؤهم ذلك في بعض الزمان قال : ﴿ من قبل ﴾ أي يدعون أنه خفي ، بل لا حقيقة له ، ويسترون ما تبديه الرسل من دلائله عناداً منهم مع أنه أوضح من شمس النهار بما يلبسون من الهيبة فلذلك تمنوا ما ذكروا ﴿ ولو ردوا ﴾ أي إلى الدنيا ﴿ لعادوا لما نهوا عنه ﴾ أي من الكفر والفضائح التي كانوا عليها وستر ما اتضح لعقولهم من الدلائل ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أي فيما أخبروا به عن أنفسهم من مضمون تمنيهم أنهم يفعلونه لو ردوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 623 ﴾

فصل

قال الفخر :

معنى ﴿ بَلْ ﴾ ههنا رد كلامهم ، والتقدير : أنهم ما تمنوا العود إلى الدنيا ، وترك التكذيب ، وتحصيل الإيمان لأجل كونهم راغبين في الإيمان ، بل لأجل خوفهم من العقاب الذي

شاهدوه وعاينوه .

وهذا يدل على أن الرغبة في الإيمان والطاعة لا تنفع إلا إذا كانت تلك الرغبة رغبة فيه ، لكونه إيماناً وطاعة ، فأما الرغبة فيه لطلب الثواب ، والخوف من العقاب فغير مفيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 159.160 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ ﴾ يعني : ظهر لهم ﴿ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ بألسنتهم . لأن الجوارح تشهد عليهم بالشرك ، فحينئذٍ يتمنون الرجعة ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ ﴾ إلى الدنيا ﴿ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ يعني : رجعوا إلى كفرهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ في قولهم : ﴿ وَلاَ نُكَذّبَ بئايات رَبّنَا ﴾ لأنهم قد علموا في الدنيا وعاينوه .

وقد عاين إبليس وشاهد ومع ذلك كفر وكذلك هاهنا لو رجعوا لكفروا كما كفروا من قبل ، لأنك ترى في الدنيا إنساناً أصابه مرض أو حبس في السجن ، أخلص بالتوبة لله تعالى أن لا يرجع إلى الفسق ، فإذا برأ من مرضه أو أطلق من الحبس رجع إلى الحال الأول . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ بل إضراب عن تَمنّيهم وادّعائهم الإيمان لو رُدّوا .

واختلفوا في معنى ﴿ بَدَا لَهُمْ ﴾ على أقوال بعد تعيين مَن المراد ؛ فقيل : المراد المنافقون لأن اسم الكفر مشتمل عليهم ، فعاد الضمير على بعض المذكورين ؛ قال النحاس : وهذا من الكلام العَذْب الفصيح .

وقيل : المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبيّ صلى الله عليه وسلم خافوا وأخفوا ذلك الخوف لئلا يَفْطَن بهم ضعفاؤهم ، فيظهر يوم القيامة ؛ ولهذا قال الحسن : "بَدَا لَهُمْ" أي بدا لبعضهم ما كان يُخفيه عن بعض .

وقيل : بل ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشِّرك فيقولون : "وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ" فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك حين "بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ" . قاله أبو رَوْق .

وقيل : "بَدَا لَهُمْ" ما كانوا يكتمونه من الكفر ؛ أي بدت أعمالهم السيئة كما قال : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : 47] .

قال المبرّد : بدا لَهُم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه .

وقيل : المعنى بل ظهر للذين اتبعوا الغُواة ما كان الغُواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة ؛

لأن بعده ﴿ وقالوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(195/229)

وقال الآلوسى :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ إضراب عما يؤذن به تمنيهم من الوعد بتصديق الآيات والإيمان بها أي ليس ذلك عن عزم صحيح ناشىء عن رغبة في الإيمان وشوق إلى تحصيله والاتصاف به بل لأنه بدا وظهر لهم في وقوفهم ذلك ما كانوا يخفونه في الدنيا من ثالثة الأثافي والداهية الدهياء فلشدة هول ذلك ومزيد ضجرهم منه قالوا ما قالوا ، فالمراد من الموصول النار على ما يقتضيه السوق ومن إخفائها ستر أمرها وذلك بإنكار تحققها وعدم الإيمان بثبوتها أصلاً فكأنه قيل : بل بدا لهم ما كانوا يكذبون به في الدنيا وينكرون تحققه . وإنما لم يصرح سبحانه بالتكذيب كما في قوله عز شأنه : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذّبُ بِهَا المجرمون ﴾ [الرحمن : 43] وقوله عز من قائل : ﴿ هذه النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذّبُونَ ﴾ [الطور : 41] مع أن ذلك أنسب بما قبل من قولهم : ﴿ وَلاَ نُكَذّبَ بآيات رَبّنَا ﴾ [الأنعام : 27] مراعاة لما في مقابله من البدو في الجملة مع ما في ذلك من الرمز الخفي إلى أن

تكذيبهم هذا لم يكن في محله رأساً لقوة الدليل ، وقيل : المراد بما كانوا يخفونه قبائحهم من غير الشرك التي كانوا يكتمونها عن الناس فتظهر في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم ، وقيل : المراد به الشرك الذي أنكروه في بعض مواقف القيامة بقولهم : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ، وقيل : المراد به أمر البعث والنشور ، والضمير المرفوع لرؤساء الكفار والمجرور لأتباعهم أي ظهر للتابعين ما كان الرؤساء المتبوعون يخفونه في الدنيا عنهم من أمر البعث والنشور ، ونسب إلى الحسن واختاره الزجاج .

وقيل : الآية في المنافقين ، والضمير المرفوع لهم ، والمجرور للمؤمنين ، والمراد بالموصول الكفر أي بل ظهر للمؤمنين ما كان المنافقون يخفونه من الكفر ويكتمونه عنهم في الدنيا ، وقيل : هي في أهل الكتاب مطلقاً أو علمائهم ، والذي أخفوه نبوة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، والضميران المرفوع والمجرور لهم وللمؤمنين أو للخواص والعوام .

(196/229)

وتعقب كل ذلك بأنه بعد الإغضاء عما فيه من الاعتساف لا سبيل إليه هنا لأن سوق النظم الجليل لتهويل أمر النار وتفظيع حال أهلها ، وقد ذكر وقوفهم عليها وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة ما لا يحيط به الوصف ، ورتب

عليهم تمنيهم المذكور بالفاء القاضية بسببية ما قبلها لما بعدها فإسقاط النار بعد ذلك من السببية وهي في نفسها أدهى الدواهي وأزجر الزواجر إلى ما دونها في ذلك مع عدم جريان ذكره ثمة أمر ينبغي تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله ، ونقل عن المبرد أن الكلام على حذف مضاف أي بدا لهم وبال ما كانوا يخفون ولا يخفى ما فيه أيضاً فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قوله : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ إضراب عن قولهم ﴿ ولا نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين ﴾ .

والمعنى بل لأنّهم لم يبق لهم مطمع في الخلاص .

وبدا الشيء ظهر .

ويقال : بدا له الشيء إذا ظهر له عياناً .

وهو هنا مجاز في زوال الشكّ في الشيء ، كقول زهير :

بدا ليَ أنّي لستُ مدرك ما مضى

ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً . . .

ولمّا قوبل ﴿ بدا لهم ﴾ في هذه الآية بقوله : ﴿ ما كانوا يخفون ﴾ علمنا أنّ البَداء هو ظهور أمر في أنفسهم كانوا يخفونه في الدنيا ، أي خطر لهم حينئذٍ ذلك الخاطر الذي كانوا

يخفونه ، أي الذي كان يبدو لهم ، أي يخطر ببالهم وقوعه فلا يُعلنون به فبدا لهم الآن فأعلنوا به وصرّحوا مُعترفين به .

ففي الكلام احتباك ، وتقديره : بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه .

(197/229)

وذلك أنّهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدّهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم ، وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم ، كما ذكرناه عند قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي ﴾ في هذه السورة [52] ، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ في سورة [الحجر : 2] .

وهذا التفسير يغني عن الاحتمالات التي تحيّر فيها المفسّرون وهي لا تلائم نظم الآية ، فبعضها يساعده صدرُها وبعضها يساعدُه عجزها وليس فيها ما يساعده جميعها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد من الآية : أنه ظهر لهم في الآخرة ما أخفوه في الدنيا .

وقد اختلفوا في ذلك الذي أخفوه على وجوه : الأول : قال أبو روق : إن المشركين في بعض مواقف القيامة يجحدون الشرك فيقولون ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر ، فذلك حين بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل .

قال الواحدي : وعلى هذا القول أهل التفسير .

الثاني : قال المبرد : بدا لهم وبال عقائدهم وأعمالهم وسوء عاقبتها ، وذلك لأن كفرهم ما كان بادياً ظاهراً لهم ، لأن مضار كفرهم كانت خفية ، فلما ظهرت يوم القيامة لا جرم قال الله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ الثالث : قال الزجاج : بدا للأتباع ما أخفاه الرؤساء عنهم من أمر البعث والنشور .

قال والدليل على صحة هذا القول أنه تعالى ذكر عقيبه ﴿ وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين ﴾ [الأنعام : 29] وهذا قول الحسن .

الرابع : قال بعضهم : هذه الآية في المنافقين ، وقد كانوا يسرون الكفر ويظهرون الإسلام ، وبدا لهم يوم القيامة ، وظهر بأن عرف غيرهم أنهم كانوا من قبل منافقين .

الخامس : قيل بدا لهم ما كان علماؤهم يخفون من جحد نبوّة الرسول ونعته وصفته في الكتب والبشارة به ، وما كانوا يحرفونه من التوراة مما يدل على ذلك .

واعلم أن اللفظ محتمل لوجوه كثيرة .

والمقصود منها بأسرها أنه ظهرت فضيحتهم في الآخرة وانهتكت أستارهم .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ [الطارق : 9] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 160 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾

فصل

قال الفخر :

المعنى أنه تعالى لو ردهم لم يحصل منهم ترك التكذيب وفعل الإيمان ، بل كانوا يستمرون على طريقتهم الأولى في الكفر التكذيب .

فإن قيل : إن أهل القيامة قد عرفوا الله بالضرورة ، وشاهدوا أنواع العقاب والعذاب فلو ردهم الله تعالى إلى الدنيا فمع هذه الأحوال كيف يمكن أن يقال : إنهم يعودون إلى الكفر بالله وإلى معصية الله .

قلنا : قال القاضي : تقرير الآية ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ ﴾ إلى حالة التكليف ، وإنما يحصل الرد إلى

هذه الحالة لو لم يحصل في القيامة معرفة الله بالضرورة ، ولم يحصل هناك مشاهدة الأهوال وعذاب جهنم ، فهذا الشرط يكون مضمراً لا محالة في الآية إلا أنا نقول هذا الجواب ضعيف ، لأن المقصود من الآية بيان غلوهم في الاصرار على الكفر وعدم الرغبة في الإيمان ، ولو قدرنا عدم معرفة الله تعالى في القيامة ، وعدم مشاهدة أهوال القيامة لم يكن في إصرار القوم على كفرهم الأول مزيد تعجب ، لأن إصرارهم على الكفر يجري مجرى إصرار سائر الكفار على الكفر في الدنيا ، فعلمنا أن الشرط الذي ذكره القاضي لا يمكن اعتباره ألبتة .

إذا عرفت هذا فنقول : قال الواحدي : هذه الآية من الأدلة الظاهرة على فساد قول المعتزلة ، وذلك لأن الله تعالى أخبر عن قوم جرى عليهم قضاؤه في الأزل بالشرك .

(199/229)

ثم إنه تعالى بين أنهم لو شاهدوا النار والعذاب ، ثم سألوا الرجعة ورُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى الشرك ، وذلك القضاء السابق فيهم ، وإلا فالعاقل لا يرتاب فيما شاهد ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ وفيه سؤال وهو أن يقال : إنه لم يتقدم ذكر خبر حتى يصرف هذا التكذيب إليه .

والجواب : أنا بينا أن منهم من قال الداخل في التمني هو مجرد قوله ﴿ يا ليتنا نُرَدُّ ﴾ أما

الباقي فهو إخبار ، ومنهم من قال بل الكل داخل في التمني ، لأن إدخال التكذيب في التمني أيضاً جائز ، لأن التمني يدل على الاخبار على سبيل الضمن والصيرورة ، كقول القائل ليت زيداً جاءنا فكنا نأكل ونشرب ونتحدث فكذا ههنا .

والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 160 . 161 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ رُدُّواْ ﴾ من موقفهم ذلك إلى الدنيا ﴿ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ من الكفر والتكذيب أو من الأعم من ذلك ويدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ولا يخفى حسنه ، ووجه اللزوم في هذه الشرطية سبق قضاء الله تعالى عليهم بذلك التابع لخبث طينتهم ونجاسة جبلتهم وسوء استعدادهم ولهذا لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوه ، وقيل : إن المراد أنهم لو ردوا إلى حالهم الأولى من عدم العلم والمشاهدة لعادوا ، ولا يخفى أنه لا يناسب مقام ذمهم بغلوهم في الكفر والإصرار وكون هذا جواباً لما مر من تمنيهم .

وذكر بعض الناس في توجيه عدم نفع المشاهدة في الآخرة لأهوالها المترتبة على المعاصي بعد الرد إلى الدنيا أنها حينئذٍ كخبر النبي صلى الله عليه وسلم المؤيد بالمعجزات الباهرة فحيث لم ينتفعوا به وصدهم ما صدهم لا ينتفعون بما هو مثله ويصدهم أيضاً ما يصدهم .

وأنت تعلم أن هذا بعد تسليم كون المشاهدة بعد الرد كخبر الصادق يرجع في الآخرة إلى ما

أشرنا إليه من سبق القضاء وسوء الاستعداد ، ومن خلق للشقاء والعياذ بالله سبحانه وتعالى للشقاء يكون .

(200/229)

﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي لقوم كاذبون فيما تضمنه تمنيهم من الخبر بأن ذلك مراد لهم ، ويحتمل أن يكون هذا ابتداء إخبار منه تعالى بأن ديدن هؤلاء وهجيراهم الكذب .

وليس الكذب على الاحتمالين متوجهاً إلى التمني نفسه لأنه إنشاء والإنشاء لا يحتمل الصدق والكذب .

وقال الربعي : لا بأس بتوجه الكذب إلى التمني لأنه يحتمل الصدق والكذب بنفسه واحتج على ذلك بقوله

: منى أن تكن حقاً تكن أحسن المنى . . .

وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

لأن الحق بمعنى الصدق وهو ضد الباطل والكذب ، ولا يخفى ما فيه مع أنه لو سلم فهو مجاز أيضاً .

وقيل : الخبر الضمني هنا هو الوعد بالإيمان وعدم التكذيب .

واعترض بأن الوعد كالوعيد من قبيل الإنشاء كما حقق في موضعه فلا يتوجه إليه الكذب والصدق كما لا يتوجهان إلى الإنشاء .

وأجيب بأن ذلك أحد قولين في المسألة ، ثانيهما أن الوعد والوعيد من قبيل الخبر لا الإنشاء ، وهذا القيل مبني عليه على أنه يحتمل أن المراد بالكذب المتوجه إلى الوعد عدم الوفاء به لا عدم مطابقته للواقع كما ذكره الراغب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ ارتقاء في إبطال قولهم حتى يكون بمنزلة التسليم الجدلي في المناظرة ، أي لو أجيبت أمنيتهم وردّوا إلى الدنيا لعادوا للأمر الذي كان النبي ينهاهم عنه ، وهو التكذيب وإنكار البعث ، وذلك لأنّ نفوسهم التي كذّبت فيما مضى تكذيب مكابرة بعد إتيان الآيات البيّنات ، هي النفوس التي أرجعت إليهم يوم البعث فالعقل العقل والتفكير التفكير ، وإنّما تمنّوا ما تمنّوا من شدّة الهول فتوهّموا التخلّص منه بهذا التمنِّي فلو تحقّق تمنّيهم وردّوا واستراحوا من ذلك الهول لغلبت أهواؤهم رشدَهم فنسوا ما حلّ بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة .

(201/229)

وفي هذا دليل على أنّ الخواطر الناشئة عن عوامل الحسّ دون النظر والدليل لا قرار لها في النفس ولا تسير على مقتضاها إلاّ ريثما يدوم ذلك الإحساس فإذا زال زال أثره ، فالانفعال به يشبه انفعال العجماوات من الزّجر والسّوط ونحوهما .

ويزول بزواله حتّى يعاوده مثلُه .

وقوله : ﴿ وإنّهم لكاذبون ﴾ تذييل لما قبله .

جيء بالجملة الاسمية الدالّة على الدوام والثبات ، أي أنّ الكذب سجيّة لهم قد تطبّعوا عليها من الدنيا فلا عجب أن يتمنّوا الرجوع ليؤمنوا فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه فإنّ الكذب سجيّتهم .

وقد تضمّن تمنِّيهم وعدا ، فلذلك صحّ إدخاله في حكم كذبهم دخول الخاصّ في العامّ ، لأنّ التذييل يؤذن بشمول ما ذيّل به وزيادة .

فليس وصفهم بالكذب بعائد إلى التمنّي بل إلى ما تضمّنه من الوعد بالإيمان وعدم التكذيب بآيات الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(202/229)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) ﴾

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها لا تشفى عليلا ولا تروى غليلا ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولم يتفطنوا لوجه الاضراب ببل ولا للأمر الذى بدا لهم وكانوا يخفونه وطنوا أن الذى بدا لهم العذاب فلما لم يروا ذلك ملتئما مع قوله ما كانوا يخفون من قبل قدروا مضافا محذوفا وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا ان القوم فى بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذى أخفوه قال الواحدى وعلى هذا أهل التفسير ولم يصنع أرباب هذا القول شيئا فإن السياق والاضراب ببل والاخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقولهم والله ربنا ما كنا مشركين لا يلتئم بهذا الذى ذكروه فتأمله

وقالت طائفة منهم الزجاج بل بدا للاتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير وفيه من التكلف ما ليس بخاف واجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال كأن كفرهم لم يكن باديا لهم اذ خفيت عليهم مضرته ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفيا عنهم لم تظهر لهم حقيقته فلما عاينو العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره قال وهذا كما تقول لمن كنت حدثته فى أمر قبل وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك وقد كان ظاهرا له قبل هذا ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذى كانوا ينادون به على رءوس الاشهاد ويدعون اليه كل حاضر وباد بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعى فى الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه

فمعنى الآية والله أعلم بما أراد من كلامه أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها تمنوا أنهم يردون الى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك وأنهم ليس فى طبائعهم وسجاياهم الايمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الاضراب ببل وتبين معنى الذى بدا لهم والذى كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا فالقوم كانوا يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والايمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل وأن الرسل على الحق فعاينوا ذلك عيانا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالايمان ولعادوا الى الكفر والتكذيب فإنهم لم يتمنوا الايمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل وانما تمنوا لما عاينوا العذاب الذى لا طاقة لهم باحتماله وهذا كمن كان يخفى محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد فى عدوله عنه فقيل له ان اطلع عليه وليه عاقبك وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول بل محبته ومعاشرته هى الصواب فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاوده بعد معاينة العقوبة بل بعد أن

مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه ولو رد لعاد لما نهى عنه

وتأمل مطابقة الاضراب لهذا المعنى وهو نفى قولهم انا لو رددنا لآمنا وصدقنا لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق أى ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه فلم يظهر لكم شئ لتكونوا عالمين به لتعذروا بل ظهر لكم ما كان معلوما وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه والله أعلم

ولا تستطل هذا الفضل المعترض فى أثناء هذه المسألة فلعله أهم منها وأنفع وبالله التوفيق .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ عدة الصابرين صـ 185 . 187 ﴾

(205/229)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ إضرابٌ عما يُنْبِئُ عنه التمني من الوعد بتصديق الآيات والإيمان بها أي ليس ذلك عن عزيمة صادقةٍ ناشئة عن رغبةٍ في الإيمان وسَوْقٍ إلى تحصيله والاتصافِ به بل لأنه ظهرَ لهم في موقفهم ذلك ما كانوا يخفونه في الدنيا من الداهيةِ

الدهياء وظنوا أنهم مُواقِعوها فلِخَوْفها وهول مطلعها قالوا ما قالوا والمراد بها النارُ التي وُقفوا عليها إذ هي التي سيق الكلامُ لتهويل أمرها والتعجبِ من فظاعة حالِ الموقوفين عليها وبإخفائها تكذيبُهم بها ، فإن التكذيبَ بالشيء كفر به وإخفاءٌ له لا محالة وإيثاره على صريح التكذيب الوارد في قوله عز وجل : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هذه النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ مع كونه أنسبَ بما قبله من قولهم : ﴿ وَلاَ نُكَذِّبَ بئايات رَبِّنَا ﴾ لمراعاة ما في مقابلته من البُدُوّ ، هذا هو الذي تستدعيه جزالةُ النظم الكريم ، وأما ما قيل من أن المراد بما يُخفون كفرُهم ومعاصيهم أو قبائحُهم وفضائحُهم التي كانوا يكتُمونها من الناس فتظهرُ في صُحُفهم وبشهادة جوارحِهم عليهم أو شركِهم الذي يجحدون به في بعض مواقف القيامة بقولهم : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ثم يظهر بما ذُكر من شهادة الجوارحِ عليهم أو ما أخفاه رؤساءُ الكفرة عن أتباعهم من أمر البعث والنشور أو ما كتمه علماءُ أهل الكتابين من صحة نبوةِ النبي عليه الصلاة والسلام ونُعوته الشريفة عن عوامِّهم ، على أن الضميرَ المجرورَ للعوام والمرفوعَ للخواص ، أو كفرُهم الذي أخفَوْه عن المؤمنين والضميرُ المجرور للمؤمنين والمرفوعُ للمنافقين ، فبعدَ الإغضاءِ عما في كلٍ منها من الاعتساف والاختلال لا سبيل إلى شيء من ذلك أصلاً لما عرفت من أن سَوْق النظم الشريف لتهويل أمر النار وتفظيعِ حال أهلها وقد ذُكر وقوفُهم عليها وأُشير إلى أنه اعتراهم

عند ذلك من الخوف والخشية والحَيْرة والدهشة ما لا يُحيط به الوصفُ ، ورُتّب عليه تمنّيهم المذكورُ بالفاء القاضيةِ بسببية ما قبلها لما بعدها ، فإسقاطُ النار بعد ذلك من تلك السببية وهي في نفسها أدهى الدواهي وأزجرُ الزواجر ، وإسنادُها إلى شيء من الأمور المذكورة التي دونها في الهول والزجر مع عدم جَرَيانِ ذكرها ثَمةَ أمرٌ يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيل عن أمثاله ، وأما ما قيل من أن المراد جزاءُ ما كانوا يُخفون فمن قبيل دخولِ البيوت من ظهورِها وأبوابُها مفتوحة فتأمل .

﴿ وَلَوْ رُدُّواْ ﴾ أي من موقفهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنَّوْه وغاب عنهم ما شاهدوه من الأهوال ﴿ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ من فنون القبائح التي من جملتها التكذيبُ المذكورُ ونسُوا ما عاينوه بالكلية لاقتصار أنظارِهم على الشاهدِ دون الغائب ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ أي لقومٌ ديدَنُهم الكذِبُ في كل ما يأتون وما يذرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾

إنهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا لينفذوا الوعد في طلبهم المستحيل ؛ لأنهم سيفعلون مثلما فعلوا من قبل ، كفراً ونكراناً وجحوداً . إنهم لجأوا إلى هذا القول من فرط الخوف مما أعده الله لهم . بعد أن ظهر لهم كل ما كانوا يفعلونه في الدنيا من كفر وجحود . ويقال عن يوم القيامة " يوم الفاضحة " ؛ لأن كل إنسان سيجد كتابه في عنقه ، ويقال له : ﴿ اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] .

فإذا كنا في الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا ؟ ويرى الإنسان مَكْرَه يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيراه بطريقة لا يمكن معها أن ينكره ، وكأن الحق يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أن تحاسب نفسك . ويفاجأ الإنسان أن جوارحه تنطق لتشهد عليه : الأيدي تنطق بما فعل ، واللسان ينطق بما قال ، والقدم تحكي إلى أين ذهب بها صاحبها ، فهذه الجوارح التي كانت تنفعل لمراد صاحبها في الدنيا ، يختلف موقفها في الآخرة ولا تنفذ في اليوم الآخر مراد الإنسان بل مراد من أعطى الإنسان المراد . ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

مثال ذلك – ولله المثل الأعلى – نجد السرية أو الكتيبة المقاتلة لها قائد يحكم الجنود ، فإن

أعطاهم أوامر خاطئة فهم ينفذونها ، وبعد انتهاء المعركة يسألهم القائد الأعلى ، فيقولون سلسلة الأوامر الخاطئة التي أصدرها قائدهم المباشر .

(208/229)

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن أبعاضك مؤتمرة بقدرتك عليها دائما ، إن سيطرتك عليها أمر منحك الله إياه ، ويسلبه منك متى شاء في الدنيا . ويأتي يوم القيامة لتنتهي سيطرتك على الأبعاض . وأنت ترى في الدنيا بعضاً من صور سلب السيطرة على الأبعاض لتتذكر قدرة الواهب الأعلى ؛ فأنت ترى من لا يرى ، وترى من فقد السيطرة على جارحة أو أكثر من جوارحه ، وذلك تنبيه من الله على أن سيطرة الإنسان على الجوارح إنما هي أمر موهوب من الله . وقول الحق سبحانه عن الكافرين : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ يفضح تدليسهم في الحياة الدنيا ، ثم يجيب الله على تمنيهم السابق المليء بالذلة والمسكنة ، التمني بالعودة إلى الدنيا ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

فهم كاذبون في الوعد بأن يؤمنوا لو عادوا إلى الدنيا ، يوضح ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وقالوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" بل " هنا للانْتِقَال من قِصَّةٍ إلى أخرى ، وليست للإبطال ، وعبارةُ بعضهم تُوهمُ أنَّ فيها إبْطالاً لكلام الكَفَرةِ ، فإنه قال : " بل " رَدٌّ لما تمنَّوْهُ أي : ليس الأمْرُ على ما قالوه ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك رَغْبَةً منهم في الإيمان ، بل قالوه إشْفَاقاً من العذابِ وطَمَعاً في الرَّحْمَةِ .

قال أبو حيَّان : " ولا أدْرِي ما هذا الكلام " .

قال شهاب الدِّين : ولا أدري ما وَجْهُ عدم الدِّرَايَةِ منه ؟ وهو كلامٌ صحيح في نفسهن فإنهم لَمَّا قالوا : ياليتنا كأنهم قالوا تَمَنَّيْنَا ، ولكن هذا التمني ليس بصحيحٍ ، لأنهم إنما قالوه تَقِيَّةً ، فق يتمنى الإنسانُ شَيْئاً بلسانه ، وقَلْبُهُ فَارِغٌ منه .

وقال الزجاج – رحمه الله تعالى – : " بل " هنا استدارك وإيجابُ نَفْيٍ ، كقولهم : " ما قام زيد بل قام عمرو " .

وقال أبو حيَّان : " ولا أدري ما النَّفْيُ الذي سَبَقَ حتى توجبه بل " ؟ قال شهابُ الدين – رحمه الله تعالى – : الظَّاهِرُ أن النفي الذي أراده الزَّجَّاج هو الذي في قوله : " ولا نكذِّبُ

بآيات ربنا " إذا جعلناه مُسْتَأنفاً على تقدير : ونحنُ لا نُكَذِّبُ ، والمعنى : بل إنهم مُكَذِّبُون .

وفاعلُ " بَدَا " قوله : " ما كانوا " ، و" ما " يجوز أ ، تكون مَوْصُلةً اسميةً وهو الظَّاهرُ ، أي : ظهر لهم الذي كانوا يُخْفُونَهُن والعائدُ محذوف ، ويجوز أن تكون مصْدريَّةً ، أي : ظهر لهم إخْفَاؤهُمْ ، أي : عاقبته ، أو أطْلِق المَصْدَرُ على اسم المفعول ، وهو بَعِيدٌ ، والظَّاهرُ أن الضميرين : أعني المجرور والمرفوع في قوله : ﴿ بَدَا لَهُمْ ما كَانُوا يُخْفُونَ ﴾ عائدان على شيء واحدٍ وهم الكُفَّار أو اليهود والنصارى خاصة .

وقيل : المجرور للأتْبَاعِ والمرفوعُ للرُّؤسَاءِ ، أي : بل بدا للأتْبَاعِ ما كان الوُجَهَاءُ المتبوعون يُخْفُونَهُ .

فتشهد عليهم بالكُفْرِ ، فذلك حين بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل .

قال الواحديّ : وعلى هذا القول أهل التفسير .

وقال المُبَرِّدُ : بَدَا لَهُمْ وبَالُ عقائدهم وأعمالهم وسُوءُ عاقبتها .

وقال الزجاج : بَدَا للأتْبَاعِ ما أخْفَاهُ الرؤساء عنهم من أمْرِ البعث والنشور ، قال : ويدلُّ [على ذلك] أنه – تبارك وتعالى0 ذكر عَقِيبَهُ : وقالوا ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : 37] وهذا قول الحَسَنِ .

وقال بعضهم : هذا في المُنَافِقِينَ كانوا يُسِرُّون الكُفْرَ ، ويظهرون الإسلام ، وبدا لهم يوم

القيامة ، وهو ما كانوا يخفون من قبل .

وقيل : بَدَا لَهُمْ ما كان علماؤهم يخفون من جَحْد نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ونعته والبِشَارةِ به ، وما كانوا يُحَرِّفُونَ من التوراة .

قوله : " ولو رُدُّوا " قرأ الجمهور بضم الراء خالصاً .

(210/229)

وقرأ الأعمش ، ويحيى بن وثاب ، وإبراهيم : " رِدُّوا " بكسرها خالصاً .

وقد مَرَّ أن الفَعْلَ المُضَاعَفَ العين واللام يجوز في فائه إذا بُنِيَ للمفعول ثلاثة الأوجه المذكورة في " فاء " الثلاثي المُعْتَلِّ العين إذا بُنِيَ للمفعول ، نحو : قِيلَ وبِيعَ ، وقد تقدَّم [ذلك] .

وقال الشاعرُ : [الطويل]

2142 - وَمَا حِلَّ جَهْلٍ حُبَا حُلَمَائِنَا . . .

وَلاَ قَائِلُ المَعْرُوفِ فِينَا يُعَنَّفُ

بكسر الحاء .

قوله : " وإنهم لكاذبون " تقدمَ الكلامُ على هذه الجملة : هل هي مُسْتَأْنَفَةٌ أو راجعة إلى قوله : " يا ليتنا نُرَدُّ " ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 96 . 97 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) ﴾

غداً يوم تنتهك الأستار ، وتظهر الأسرار – فكم من مُجَلَّل بثوب تقواه ، ويَحْكُم له معارفُه بأنه زاهدٌ في دنياه ، راغب في عقباه ، محبٌ لمولاه ، مُفَارِقٌ لهواه ، فَيُكْشَفُ الأمر على خلاف ما فهموه ، ويفتضح عندهم بغير ما ظنوه .

وكم من متهتك ستر بما أظهر عليه ! ظنَّ الكلُّ أنه خليع العذار هيِّن الأعلال ، مشوش الأسرار ، فظهر لذوي البصائر جوهره ، وبدت عن خفايا الستر حقيقته .

ثم قال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أخبر عما علم أنه لا يكون أنه لو كان كيف كان يكون ؛ فقال لو رُدَّ أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم ، وكذلك لو رُدَّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى حسن أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 469 ﴾

(211/229)

قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

أكد طبعهم على الكفر بقوله عطفاً على قوله ﴿ لعادوا ﴾ : ﴿ وقالوا ﴾ أي بعد الرد ما كانوا يقولونه قبل الموت في إنكار البعث ﴿ إن هي أي ما هذه الحياة التي نحن ملابسوها ﴿ إلاّ حياتنا الدنيا ﴾ أي التي كنا عليها قبل ذلك ﴿ وما نحن ﴾ وأغرقوا في النفي فقالوا : ﴿ بمبعوثين ﴾ أي بعد أن نموت ، وما رؤيتنا لما رأينا قبل هذا من البعث إلاّ سحر لا حقيقة له ، ولم ينفعهم مشاهدة البعث بل ضرتهم ، هذا محتمل وظاهر ، ولكن الأنسب لسياق الآيات قبل وبعد أن يكون هذا حكاية لقولهم له صلى الله عليه وسلم في هذه الدار عطفاً على قوله ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] على الوجه الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 623.624 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه حصل في الآية قولان :

الأول : أنه تعالى ذكر في الآية الأولى ، أنه بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل فبين في هذه الآية أن ذلك الذي يخفونه هو أمر المعاد والحشر والنشر ، وذلك لأنهم كانوا ينكرونه ويخفون صحته

ويقولون ما لنا إلا هذه الحياة الدنيوية ، وليس بعد هذه الحياة لا ثواب ولا عقاب .

والثاني : أن تقدير الآية ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ولأنكروا الحشر والنشر ، وقالوا : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 161 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ عطف على (عادوا) كما عليه الجمهور .

واعترضه ابن الكمال بأن حق ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ [الأنعام : 28] حينئذٍ أن يؤخر عن المعطوف أو يقدم على المعطوف عليه .

وأجيب بأن توسيطه لأنه اعتراض مسوق لتقرير ما أفادته الشرطية من كذبهم المخصوص ولو أخر لأوهم أن المراد تكذيبهم في إنكارهم البعث .

وجوز أن يكون عطفاً على ﴿ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ أو على خبر إن أو على ﴿ نُهُواْ ﴾ [الأنعام : 28] والعائد محذوف أي قالوه ، وأن يكون استئنافاً بذكر ما قالوا في الدنيا .

(212/229)

﴿ إِنْ هِيَ ﴾ أي ما هي ﴿ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ والضمير للحياة المذكورة بعده كما في قول المتنبي

: هو الجد حتى تفضل العين أختها . . .

وحتى يكون اليوم لليوم سيداً

وقد نصوا على صحة عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة في مواضع ، منها ما إذا كان خبر الضمير مفسراً له كما هنا .

وجعله بعضهم ضمير الشأن .

ولا يتأتى على مذهب الجمهور لأنهم اشترطوا في خبره أن يكون جملة .

وخالفهم في ذلك الكوفيون فقد حكي عنهم جواز كون خبره مفرداً إما مطلقاً أو بشرط كون المفرد عاملاً عمل الفعل كاسم الفاعل نحو إنه قائم زيد بناءً على أنه حينئذٍ يسد مسد الجملة .

وقيل وفيه بعد : يحتمل أن يكون الضمير المذكور عبارة عما في الذهن وهو الحياة والمعنى إن الحياة إلا حياتنا التي نحن فيها .

وهو المراد بقولهم : الدنيا لا القريبة الزوال أو الدنيئة أو المتقدمة على الآخرة كما يقول المؤمنون إذ كل ذلك خلاف الظاهر لا سيما الأخير .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أي إذا فارقتنا هذه الحياة أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح

المعانى حـ 7 صـ ﴿

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ يجوز أن يكون عطفاً على قوله ﴿ لعادوا لما نُهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] فيكون جواب ﴿ لوْ ﴾ ، أي لو ردّوا لكذّبوا بالقرآن أيضاً ، ولكذّبوا بالبعث كما كانوا مدّة الحياة الأولى .

ويجوز أن تكون الجملة عطفت على جملة ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : 25] ، ويكون ما بين الجملتين اعتراضاً يتعلّق بالتكذيب للقرآن .

وقوله ﴿ إنْ هي ﴾ (إن) نافية للجنس ، والضمير بعدها مبهم يفسّره ما بعد الاستثناء المفرّغ .

(213/229)

قصد من إبهامه الإيجاز اعتماداً على مفسّره ، والضمير لمّا كان مفسّراً بنكرة فهو في حكم النكرة ، وليس هو ضمير قصّة وشأن ، لأنّه لا يستقيم معه معنى الاستثناء ، والمعنى إنْ الحياةُ لنا إلاّ حياتُنا الدنيا ، أي انحصر جنس حياتنا في حياتنا الدنيا فلا حياة لنا غيرها فبطلت حياة بعد الموت ، فالاسم الواقع بعد ﴿ إلاّ ﴾ في حكم البدل من الضمير .

وجملة : ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ نفي للبعث ، وهو يستلزم تأكيد نفي الحياة غير حياة الدنيا ، لأنّ البعث لا يكون إلاّ مع حياة .

وإنّما عطفت ولم تفصل فتكونَ موكّدة للجملة قبلها لأنّ قصدهم إبطال قول الرّسول صلى الله عليه وسلم أنّهم يحْيون حياة ثانية ، وقولَه تارة أنّهم مبعوثون بعد الموت ، فقصدوا إبطال كلّ باستقلاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(214/229)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين " وفى سورة المؤمنون : "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين " وفى الجاثية : "وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نمتت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . "الآية .

للسائل أن يسأل فيقول : إن هذه الآى الثلاث قد اتحد محصولها من إنكارهم البعث الأخراوى أن لا حياة بعد هذه الحياة الدنياويه ولم يرد فيها عدول عن هذا من قولهم فما وجه الاقتصار فى آية الأنعام ؟ وزيادة نموت ونحيا فى الأخريين ؟ وانفراد آية الجاثية

بقولهم : "وما يهلكنا إلا الدهر " عوض قولهم فى الأولين "وما نحن بمبعوثين " ؟

فالجواب عن ذلك والله أعلم : أن آية الأنعام لم يرد فيما تقدمها زيادة على ما أخبروا به من حالهم فى إنكارهم البعث ألا ترى أن بنيت الآية على ما تقدمها من قوله تعالى : "ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد . . . "الآية فكأن قد قيل لهم : إنكم كنتم تنكرون البعث ووجود هذه الحياة الأخراوية ولم يرد أثناء هذا ما يستدعى زائدا .

أما آية المؤمنين فترتب الوارد فيها من قولهم "نموت ونحيا " على ما تقدم من دعاء الرسل إياهم ، وقد ذكر الامداد فى دنياهم الحامل على عتوهم وقولهم فى المرسل إليهم : "ما هذا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون " فلما طال هذا الكلام بما أغروا به سفهاءهم ناسب هذا الطول ما زيد هنا من قوله "نموت ونحيا " أى طائفة تموت وطائفة توجد .

وشأن ما يرد فى الكتاب العزيز مما ظاهره التكرر زيادة فائدة أو تتميم معنى أو لبناء غيره من الكلام عليه حتى لا يكون تكرارا عند من وفق لاعتباره .

(215/229)

وأما آية الجاثية فهى المفصحة بمرتكبهم الشنيع من إنكارهم فاعلا مختارا حين قالوا : "وما يهلكنا إلا الدهر " فزادوا إلى إنكارهم البعث الأخراوى إنكارهم توقف الموت على آجال محدودة للخلائق ووقوعه بإرادة وتقدير من الموحد سبحانه ثم أتبعوا شنيع مرتكبهم هذا بقولهم للرسل تحكيما لإنكارهم البعث : "فأتوا بآيآتنا إن كنتم صادقين " أى إن كنتم صادقين فى أنا نحيى بعد الموت فأرونا دليلا على ذلك بإحياء من مات من آبائنا وبما ورد هنا من هذه الزيادة حصل التعريف بجملة مقالهم الشنيع واستوفته هذه الآية ما لا يتأتى فى غير هذا مما يتكرر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 154. 155 ﴾

(216/229)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) ﴾

إنهم لم يأخذوا في أثناء حياتهم الإيمان كإيمان استدلال بكوْن منظم مرتب محكم التكوين ، إنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا النظام أو الإحكام والترتيب موجود في علاقات البشر بعضهم ببعض سواء أكانوا مؤمنين أم ملاحدة ، ونعلم أن هناك صفات يشترك في كراهتها كل الناس

مؤمنهم وملحدهم ؛ فالملحد إن سرق من زميله ، ألا يعاقب ؟ إنه يتلقى العقاب من مجتمعه ، وفي كل المجتمعات هناك ثواب وعقاب ، بل هناك جزاء بإحسان . والإيمان لا يمنع أن يصطلح الناس على شيء من الإحسان ، والمحرومون من الإيمان تلجئهم الأحداث أن يضعوا القانون لينظموا الثواب والعقاب .

إننا نجد أن تجريم المخالف للخير والجمال وإصلاح الكون هو أمر فطري وضروري للإنسان ؛ فهم يجرمون أفعال السوء بعد أن تعضهم الأحداث ولا يلتفتون إلى أن المنهج السماوي جاء بالثواب والعقاب على كل فعل يحمي كرامة الإنسان . ويوم القيامة يقفون في صَغار وفي اضطرار ليروا ما فعلوا : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : 28] .

فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار فسيفعلون مثلما فعلوا ، ولم يقولوا مثل هذا القول في اليوم الآخر إلا أنهم مقهورون . وكانوا من قبل يقولون : ﴿ وقالوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : 29] .

ففي دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هي الدنيا . ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يحيا في الدنيا على قدر قوته ، وويل للضعيف من القوي . والقوي إنما يخاف من قانون يعاقبه ، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب مهما أخفاه ، ولذلك نجد القاضي المؤمن يقول دائماً : لئن عمَّيتم على قضاء الأرض ، فلا تعمّوا على قضاء السماء .

ومن غباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض " الحياة الدنيا " وهي في حقيقتها دنيا ، وما داموا قد حكموا وعرفوا أنها " دنيا " فلا بد أن يقابلها حياة عليا . إنّ كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار ، والنار جند من جنود الجبار ، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(218/229)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وقالوا ﴾ هل هذه الجملة مَعْطُوفة على جواب " لو " والتقدير ولو رُدُّوا لعادوا [ولقالوا] ، أو هي مُسْتَأْنَفَةٌ ليس دَاخِلَةٌ في خبر ، أو هي معطوفة على قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون ﴾ [الأنعام : 28] ثلاثة أوجه :

ذكر الزمخشري الوجهين الأوّل والأخير ، فإنه قال : " وقالوا " عطف على " لعادوا " ، أي لو رُدُّوا لكفروا ، ولقالوا : إن هي إلاَّ حياتنا الدنيا ، كما كانوا يقولون قبل مُعايَنةِ القيامة ، ويجوز أن يُعْطَفَ على قوله : " وإنهم لكاذبون " [على معنى : وإنهم لَقَوْمٌ كاذبون] في كل شيء .

والوجه الأول منقول عن ابن زيد ، إلاَّ أن ابن عَطِيَّة ردَّهُ فقال : وتوقِيفُ الله – تعالى – لهم في الآية بَعدها فيه دلالةٌ على البَعْثِ والإشارة إليه بقوله : " أليس هذا بالحقّ " يردُّ على هذا التأويل ، وقد يُجَابُ عن هذا باختلاف حالين : فإنَّ إقرارهم بالبعث حقيقة ، إنما هو في الآخرة ، وإنكارهم ذلك إنما هو في الدنيا بتقدير عَوْدهمْ إلى الدنيا ، فاعرافهم به في الدار الأخرة غَيْرُ مُنَافٍ لإنكارهم إيَّاهُ في الدنيا .

قوله : ﴿ إنْ هيَ إلا حَيَاتُنَا ﴾ " إن " نافية ، و" هي " مبتدأ و" حَيَاتُنَا " خبرها ، ولم يكتفوا بمجرد الإخبار بذلك حتى أبرزوها محصورةً في نفي وإثباتٍ ، و" هي " ضمير مُبْهَمٌ يفسّره خبره ، أي : ولا نعلم ما يُرَادُ به إلاَّ بذكر خبره ، وهو من الضمائر التي يفسّرها ما بعدها لفظاً ورتبة وقد تقدم ذلك عند قوله : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ [البقرة : 29] وكون هذا مما يفسره ما بعده لفظاً ورتبةً فيه نظر ، إذ لقائل أن يقول : " هي " تعود على شيء دلَّ على سياقِ الكلام ، كأنهم قالوا : إنَّ العادة المستمرة ، أو إن حَالَتَنَا وما عَهِدْنَا إلاّ حياتنا الدنيا ، واستند هذا القائل إلى قول الزَّمخشري : " هذا ضميرٌ لا يُعْلَمُ ما

يُرَادُ به إلاَّ بذكر ما بعده " .

ومثَّل الزمخشري بقول العرب " هِيَ النَّفْسُ تَتَحَمَّلُ ما حُمِّلَتْ " و " هي العرب تقول ما شاءت " .

وليس فيما قاله الزمخشري دَلِيلٌ على أن الخبر مُفَسِّرٌ للضمير .

(219/229)

ويجوز أن يكون المعنى : إن الحَيَاة إلا حياتنا الدُّنْيَا ، فقوله " إلا حياتنا الدنيا " دالٌّ على ما يُفَسِّرُ الضمير ، وهو الحَيَاةُ مُطْلقاً ، فصدق عليه أنه لا يعلم ما يُرَادُ ما يعود عليه الضمير إلاَّ بذكر ما بعده من هذه الحَيْثِيَة لا من حيثيَّة التفسير ، ويَدُلُّ على ما قلنا قول أبي البقاء – رحمه الله تعالى – : هي كِنَايَةٌ عن الحياة ، ويجوز أن يكون ضمير القِصَّة .

قال شهاب الدين – رحمه الله تعالى – : أمَّا أوَّل كلامه فصحيح ، وأمَّا آخره وهو قوله : " إن هي ضمير القصّة " فليس بشيء ؛ لأن ضمير القصّة لا يفسَّرُ إلاَّ بجملةٍ مُصَرَّحٍ بجزْأيْهَا .

فإن قيل : الكوفي يجوزُ تفسيره بالمفرد ، فيكون نَحَا نَحْوهُمْ ؟

فالجواب أنَّ الكوفيَّ إنما يُجَوِّزُهُ بمفرد عامل عمل الفعل ، نحو : " إنه قائم زيد " و " ظَنَنْتُهُ قائماً زيدٌ " لأنه في صورة الجملة إذ في الكلام مُسْنَدٌ ومُسْنَدٌ إليه .

أما نحو " هو زيد " فلا يجيزه أحدٌ ، على أن يكون " هو " ضمير شأن لا قصّة ، والدنيا صفة الحياة ، وليست صِفَةً مزيلةً اشتراكاً عارضاً ، يعني : أن ثَمَّ حياةً غير دنيا يُقرُّون بها ؛ لأنها لا يعرفون إلاَّ هذه ، فيه صَفَةٌ لمجرد التوكيد ، كذا قيل ، ويعنون بذلك أنها لا مَفْهُومَ لها ، وإلاَّ فحقيقةُ التوكيد غَيْرُ ظاهرةٍ بخلاف ﴿ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [الحاقة : 13] .

و" الباء " في قوله : " بمبعوثين " زائدةٌ لتأكيد الخبر المفني ، ويحتمل مجرورها أن يكون مَنْصُوبَ المَحَلِّ على أنَّ " ما " هاهنا حجازيةٌ ، أو مرفوعةٌ على أنها تميمية . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 98 . 99 ﴾

(220/229)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/230)

الجزء الثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 30 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 32 ﴾ من نفس السورة

(4/230)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (30) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

وقوله : ﴿ ولو ترى ﴾ متصل بذلك ، أي قالوا هذا القول لما أخبرتهم بالبعث ، فساءك ذلك من قولهم والحال أنك لو رأيت اعترافهم به إذا سألهم خالقهم لسرك ذلك من ذلهم وما يؤول إليه أمرهم ، وعبر بالمضارع تصويراً لحالهم ذلك ، وقولُه : ﴿ إذ وقفوا على ربهم ﴾ مجازاً عن الحبس في مقام من مقامات الجلال بما اقتضاه إضافة الرب إليهم ، أي الذي طال إحسانه إليهم وحلمه عنهم ، فأظهر لهم ما أظهر في ذلك المقام من تبكيتهم وتوبيخهم وتقريعهم ، وأطلعهم بما يقتضيه أداة الاستعلاء – على ما له سبحانه من صفات العظمة من الكبرياء والانتقام من التربية إذ لم يشكروا إحسانه في تربيتهم ، وسياق الآية يقتضي أن يكون الجواب : لرأيتهم قد منعتهم الهيبة وعدم الناصر وشدة الوجل من الكلام ، فكأن سائلاً قال : المقام يرشد إلى ذلك حتى كأنه مشاهد فهل يكلمهم الله لما يشعر به التعبير بوصف الربوبية ؛ قيل : نعم ، لكن كلام إنكار وإخزاء وإذلال ﴿ قال أليس هذا ﴾ أي الذي أتاكم به رسولي من أمر البعث وغيره مما ترونه الآن من دلائل كبريائي ﴿ بالحق ﴾ أي الأمر الثابت الكامل في الحقية الذي لا خيال فيه ولا سحر ﴿ قالوا ﴾ أي حين إيقافهم عليه ، فكان ما أراد : ﴿ بلى ﴾ ، وزادوا على ما أمروا به في الدنيا القسم فقالوا : ﴿ وربنا ﴾ أي الذي أحسن إلينا بأنواع الإحسان ، وكأن كلامهم هذا منزل على حالات تنكشف لهم

فيها أمور بعد أخرى ، كل أمر أهول مما قبله ، ويوم القيامة – كما قال ابن عباس رضي الله عنهما – ذو ألوان : تارة لا يكلمهم الله ، وتارة يكلمهم فيكذبون ، وتارة يسألهم عن شيء فينكرون ، فتشهد جوارحهم ، وتارة يصدقون كهذا الموقف ويحلفون على الصدق .

(5/230)

ولما أقروا قهراً بعد كشف الغطاء وفوات الإيمان بالغيب بما كانوا به يكذبون ، تسبب عنه إهانتهم ، فلذا قال مستأنفاً : ﴿ قال ﴾ أي الله مسبباً عن اعترافهم حيث لا ينفع ، وتركهم في الدنيا حيث كان ينفع ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ أي الذي كنتم به توعدون ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ أي بسبب دوامكم على ستر ما دلتكم عليه عقولكم من صدق رسولكم ، ولا شك أن الكلام – وإن كان على هذه الصورة – فيه نوع إحسان ، لأنه أهون من التعذيب مع الإعراض في مقام ﴿ اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : 108] ولذلك كان ذلك آخر المقامات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 624 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم في الآية الأولى إنكارهم للحشر والنشر والبعث والقيامة بيّن

في هذه الآية كيفية حالهم في القيامة ، فقال ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ واعلم أن جماعة من المشبهة تمسكوا بهذه الآية ، وقالوا ظاهر هذه الآية يدل على أن أهل القيامة يقفون عند الله وبالقرب منه ، وذلك يدل على كونه تعالى بحيث يحضر في مكان تارة ويغيب عنه تارة أخرى .

واعلم أن هذا خطأ وذلك لأن ظاهر الآية ، يدل على كونهم واقفين على الله تعالى ، كما يقف أحدنا على الأرض ، وذلك يدل على كونه مستعلياً على ذات الله تعالى وأنه بالاتفاق باطل ، فوجب المصير إلى التأويل وهو من وجوه :

التأويل الأول : هو أن يكون المراد ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ﴾ ما وعدهم ربهم من عذاب الكافرين وثواب المؤمنين وعلى ما أخبرهم به من أمر الآخر .

التأويل الثاني : أن المراد من هذا الوقوف المعرفة ، كما يقول الرجل لغيره وقفت على كلامك أي عرفته .

التأويل الثالث : أن يكون المراد أنهم وقفوا لأجل السؤال فخرج الكلام مخرج ما جرت به العادة ، من وقوف العبد بين يدي سيده والمقصود منه التعبير عن المقصود بالألفاظ الفصيحة البليغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 161 . 162 ﴾

(6/230)

فصل

قال الفخر :

المقصود من هذه الآية أنه تعالى حكى عنهم في الآية الأولى ، أنهم ينكرون القيامة والبعث في الدنيا ، ثم بيّن أنهم في الآخرة يقرون به فيكون المعنى أن حالهم في هذا الإنكار سيؤل إلى الإقرار وذلك لأنهم شاهدوا القيامة والثواب والعقاب ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ .

فإن قيل : هذا الكلام يدل على أنه تعالى يقول لهم أليس هذا بالحق ؟ وهو كالمناقض لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله ﴾ [البقرة : 174] والجواب أن يحمل قوله ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ﴾ أي لا يكلمهم بالكلام الطيب النافع ، وعلى هذا التقدير يزول التناقض ثم إنه تعالى بيّن أنه إذا قال لهم أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا المقصود أنهم يعترفون بكونه حقاً مع القسم واليمين .

ثم إنه تعالى يقول لهم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وخص لفظ الذوق لأنهم في كل حال يجدونه وجدان الذائق في قوة الاحساس وقوله ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفركم .

واعلم أنه تعالى ما ذكر هذا الكلام احتجاجاً على صحة القول بالحشر والنشر لأن ذلك الدليل قد تقدم ذكره في أول السورة في قوله ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾ [

الأنعام : 2] على ما قررناه وفسرناه ، بل المقصود من هذه الآية الردع والزجر عن هذا المذهب والقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 162 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا ﴾ جواب ﴿ لو ﴾ محذوف كما حذف في قوله ﴿ ولو ترى ﴾ أولاً وذلك مجاز عن الحبس والتوبيخ والسؤال كما توقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاقبه وقد تعلق بعض المشبهة بهذه الآية ، وقال : ظاهرها يدل على أن الله في حيز ومكان لأن أهل القيامة يقفون عنده وبالقرب منه ، وذلك يدل على كونه بحيث يحضر في مكان تارة ويغيب عنه أخرى .

(7/230)

قال أبو عبد الله الرازي : وهذا خطأ لأن ظاهر الآية يدل على كونهم واقفين على الله كما يقف أحدنا على الأرض ، وذلك يدل على كونه مستعلياً على ذات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً وأنه باطل بالاتفاق فوجب المصير إلى التأويل ، فيكون المراد وقفوا على ما وعدهم ربهم من عذاب الكافرين وثواب المؤمنين وعلى ما أخبر به من أمر الآخرة ، أو يكون المراد وقوف المعرفة ؛ انتهى .

وهذان التأويلان ذكرهما الزمخشري .

وقال ابن عطية : على حكمه وأمره ؛ انتهى .

وقيل : على مسألة ربهم إياهم عن أعمالهم .

وقيل : المسألة ملائكة ربهم .

وقيل : على حساب ربهم قال : ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ الظاهر أن الفاعل بقال هو الله فيكون السؤال منه تعالى لهم .

وقيل : السؤال من الملائكة ، فكأنه عائد على من وقفهم على الله من الملائكة أي قال : ومن وقفهم من الملائكة .

وقال الزمخشري قال : مردود على من قول قائل قال ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه ؟ فقيل : ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ وهذا تعيير من الله لهم على التكذيب وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء ما هو بحق وما هو إلا باطل ؛ انتهى .

ويحتمل عندي أن تكون الجملة حالية التقدير ﴿ إذ وقفوا على ربهم ﴾ قائلاً لهم ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ والإشارة بهذا إلى البعث ومتعلقاته .

وقال أبو الفرج بن الجوزي : أليس هذا العذاب بالحق وكأنه لاحظ قوله قال : ﴿ فذوقوا العذاب ﴾ ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ تقدم الكلام على ﴿ بلى ﴾ وأكدوا جوابهم باليمين في قولهم ﴿ وربنا ﴾ وهو إقرار بالإيمان حيث لا ينفع وناسب التوكيد بقولهم ﴿ وربنا ﴾

صدر الآية في ﴿ وقفوا على ربهم ﴾ وفي ذكر الرب تذكار لهم في أنه كان يربيهم ويصلح حالهم ، إذا كان سيدهم وهم عبيده ، لكنهم عصوه وخالفوا أمره .

﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي بكفركم بالعذاب والباء سببية فقيل متعلق الكفر البعث أي بكفركم بالبعث .

وقيل : متعلقه العذاب أي بكفركم بالعذاب والذوق في العذاب استعارة بليغة والمعنى باشروه مباشرة الذائق إذ هي أشد المباشرات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(8/230)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ وُقِفُواْ ﴾ أي حُبِسوا ﴿ على رَبِّهِمْ ﴾ أي على ما يكون من أمر الله فيهم .

وقيل : "على" بمعنى "عند" أي عند ملائكته وجزائه ؛ وحيث لا سلطان فيه لغير الله عزّ وجلّ ؛ تقول : وقفت على فلان أي عنده ؛ وجواب "لو" محذوف لعظم شأن الوقوف .

﴿ قَالَ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ تقرير وتوبيخ أي أليس هذا البعث كائناً موجوداً ؟ ! ﴿ قَالُواْ

بلى ﴾ ويؤكدون اعترافهم بالقسَم بقولهم : ﴿ وَرَبِّنَا ﴾ .

وقيل : إن الملائكة تقول لهم بأمر الله أليس هذا البعث وهذا العذاب حقاً ؟ فيقولون : ﴿ بلى وَرَبِّنَا ﴾ إنه حق .

﴿ قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(9/230)

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ يعني على حكم ربهم وقضائه ومسألته وقال مقاتل عرضوا على ربهم ﴿ قال أليس هذا بالحق ﴾ أي يقول الله يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذي كنتم تنكرونه في الدنيا وتكذبون به وتقولون لا بعث ولا نشور حقاً ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ يعني أنهم اعترفوا بما كانوا ينكرونه فأجابوا وقالوا بلى والله إنه لَحق .

وقيل : تقول لهم خزنة النار بأمر الله أليس هذا بالحق يعني البعث حقاً فأجابوا بقولهم بلى وربنا قال ابن عباس : للقيامة مواقف ففي موقف ينكرون ويقولون والله ربنا ما كنا

مشركين وفي موقف يعترفون بما كانوا ينكرونه في الدنيا ﴿ قال فذوقوا العذاب ﴾ أي يقول الله لهم ذلك أو الخزنة تقول لهم ذلك بأمر الله تعالى .

وإنما خص لفظ الذوق ، لأنهم في كل حال يجدون ألم العذاب وجدان الذائق في شدة الإحساس ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ يعني هذا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(10/230)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبِّهِمْ ﴾ الكلام فيه كالذي مر في نظيره ، خلا أن الوقوفَ ها هنا مجازٌ عن الجنس للتوبيخ والسؤال كما يوقَفُ العبدُ الجاني بين يدَيْ سيده للعقاب وقيل : عرَفوا ربَّهم حقَّ التعريف ، وقيل : وُقفوا على جزاءِ ربهم ، وقولُه تعالى : ﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل : فماذا قال لهم ربهم إذ ذاك ؟ فقيل : قال : ﴿ أَلَيْسَ هذا ﴾ مشيراً إلى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه من الأمور العظام ﴿ بالحق ﴾ تقريعاً لهم على تكذيبهم لذلك وقولِهم عند سماعِ ما يتعلق به ما هو بحقَ وما هو إلا باطلٌ ﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف كما سبق ﴿ بلى وَرَبِّنَا ﴾ أكّدوا اعترافهم

باليمين إظهاراً لكمال يقينهم بحقِّيته وإيذاناً بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط طمعاً في نفعه .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما مر ﴿ فَذُوقُواْ العذاب ﴾ الذي عاينتموه ، والفاءُ لترتيب التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به في الدنيا لكن لا على أن مدارَ التعذيب هو اعترافُهم بذلك بل هو كفرُهم السابقُ بما اعترفوا بحقيته الآن كما نطق به قوله عز وجل : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفركم في الدنيا بذلك أو بكل ما يجب الإيمانُ به فيدخل كفرُهم به دخولاً أولياً ، ولعل هذا التوبيخَ والتقريع إنما يقع بعد ما وُقفوا على النار فقالوا ما قالوا إذِ الظاهرُ أنه لا يبقى بعد هذا الأمر إلا العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(11/230)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبِّهِمْ ﴾

تمثيل لحبسهم للسؤال والتوبيخ أو كناية عنه عند من لم يشترط فيها إمكان الحقيقة وجوز اعتبار التجوز في المفرد إلا أن الأرجح عندهم اعتباره في الجملة ، وقيل : الوقوف بمعنى

الاطلاع المتعدي بعلى أيضاً وفي الكلام مضاف مقدر أي وقفوا على قضاء ربهم أو جزائه ، ولا حاجة إلى التضمين وجعله من القلب كما توهم ، وقيل : هو بمعنى الاطلاع من غير حاجة إلى تقدير مضاف على معنى عرفوه سبحانه وتعالى حق التعريف ولا يلزم من حق التعريف حق المعرفة ليقال كيف هذا وقد قيل : ما عرفناك حق معرفتك ، واستدل بعض الظاهرية بالآية على أن أهل القيامة يقفون بالقرب من الله تعالى في موقف الحساب ولا يخفى ما فيه .

﴿ قَالَ ﴾ استئناف نشأ من الكلام السابق كأنه قيل : فماذا قال لهم ربهم سبحانه وتعالى إذ ذاك ؟ فقيل : قال : الخ .

وجوز أن يكون في موضع الحال أي قائلاً ﴿ أَلَيْسَ هذا ﴾ أي البعث وما يتبعه ﴿ بالحق ﴾ أي حقاً لا باطلاً كما زعمتم ، وقيل : الإشارة إلى العقاب وحده وليس بشيء ، ولا دلالة في ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ عند أرباب الذوق على ذلك ، والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف كما سبق ﴿ بلى ﴾ هو حق ﴿ وَرَبِّنَا ﴾ أكدوا اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال تيقنهم بحقيته وإيذاناً بصدور ذلك عنهم برغبة ونشاط طمعاً بأن ينفعهم وهيهات ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ العذاب ﴾ الذي كفرتم به من قبل وأنكرتموه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفركم المستمر أو ببدله أو بمقابلته أو بالذي كنتم تكفرون به ، فما إما مصدرية أو موصولة والأول أولى ، ولعل هذا التوبيخ والتقريع كما قيل "إنما يقع بعد ما وقفوا

على النار فقالوا ما قالوا إذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر إلا العذاب" ، ويحتمل العكس وأمر الأمر سهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على ربِّهِمْ ﴾

(12/230)

لمّا ذكر إنكارهم البعث أعقبه بوصف حالهم حين يحشرون إلى الله ، وهن حال البعث الذي أنكروه .

والقول في الخطاب وفي معنى ﴿ وقفوا ﴾ وفي جواب ﴿ لو ﴾ تقدّم في نظريتها آنفاً .

وتعليق ﴿ على ربّهم ﴾ بِ ﴿ وقفوا ﴾ تمثيل لحضورهم المحشر عند البعث .

شبّهت حالهم في الحضور للحساب بحال عبد جنى فقُبض عليه فوُقف بين يدي ربّه .

وبذلك تظهر مزية التعبير بلفظ ﴿ ربّهم ﴾ دون اسم الجلالة .

وجملة : ﴿ قال أليس هذا بالحقّ ﴾ استئناف بياني ، لأنّ قوله : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا ﴾ قد آذن بمشهد عظيم مهول فكان من حقّ السامع أن يسأل : ماذا لقوا من ربّهم ، فيجاب : ﴿ قال أليس هذا بالحقّ ﴾ الآية .

والإشارة إلى البعث الذي عاينوه وشاهدوه .

والاستفهام تقريري دخل على نفي الأمر المقرّر به لاختبار مقدار إقرار المسؤول ، فلذلك يُسأل عن نفي ما هو واقع لأنّه إن كان له مطمع في الإنكار تذرّع إليه بالنفي الواقع في سؤال المقرِّر .

والمقصود : أهذا حقّ ، فإنّهم كانوا يزعمونه باطلاً .

ولذلك أجابوا بالحرف الموضوع لإبطال ما قبله وهو ﴿ بَلَى ﴾ فهو يُبطل النفي فهو إقرار بوقوع المنى ، أي بلى هو حقّ ، وأكّدوا ذلك بالقسم تحقيقاً لاعترافهم للمعترف به لأنّه معلوم لله تعالى ، أي نِقِرّ ولا نشكّ فيه فلذلك نقسم عليه .

وهذا من استعمال القسم لتأكيد لازم فائدة الخبر .

وفُصل ﴿ قال فذوقوا العذاب ﴾ على طريقة فصل المحاورات .

والفاء للتفريع عن كلامهم ، أو فاء فصيحة ، أي إذ كان هذا الحقّ فذوقوا العذاب على كفركم ، أي بالبعث .

والباء سببية ، و"ما" مصدرية ، أي بسبب كفركم ، أي بهذا .

وذوْق العذاب استعارة لإحساسه ، لأنّ الذوق أقوى الحواسّ المباشرة للجسم ، فشبّه به إحساس الجلد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾

هم – إذن – قد خافوا وارتبكوا وطلبوا العودة للحياة الدنيا ؛ لأن ما شاهدوه هول كبير ، فما بالك إذا وقفوا على الله ؟ إنه موقف مرعب . وإذا كان الحق قد حذف من قبل الجواب عندما أوقفهم على النار ؛ فالأولى هنا أن يحذف الجواب ، حتى يترك للخيال أن يذهب مذاهب شتى . . إنه ارتقاء في الهول .

وهكذا نرى التبكيت لهم في قول الحق : ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ إنهم يفاجأون بوجود إله يقول لهم بعد أن يشهدوا البعث ويقفوا على النار : ﴿ أَلَيْسَ هذا بالحق ﴾ ؟ وسبحانه وتعالى لا يستفهم منهم ولكنه يقرر ، وقد شاء أن يكون الإقرار منهم ، فيقولون : " بلى " لأن الأمر لا يحتاج – إذن – إلى مكابرة . و" بلى " حرف يجعل النفي إثباتاً .

ويطرح الحق هذه المسألة بالنفي حتى لا يظن ظان أن هناك تلقيناً للجواب . ويصدر حكم الحق : ﴿ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وهكذا يذوقون العذاب الذي كانوا به يكذبون . وذوْق العذاب ليس من صفة القهر والجبروت ؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ولكن بسبب أنهم قدموا ما يوجب أن يعذبوا عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

بلى في القرآن في اثنين وعشرين موضعا وهي ثلاثة أقسام

الأول ما لا يجوز الوقف عليها إجماعا لتعليق ما بعدها بما قبلها وهو سبعة مواضع

في الأنعام بلى وربنا

في النحل بلى وعدا عليه حقا

في سبأ قل بلى وربي لتأتينكم

في الزمر بلى قد جاءتك

في الأحقاف بلى وربنا

في التغابن قل بلى وربي

في القيامة بلى قادرين

الثاني ما فيه خلاف والاختيار المنع وذلك خمسة مواضع

في البقرة بلى ولكن ليطمئن قلبي

في الزمر بلى ولكن حقت

في الزخرف بلى ورسلنا

في الحديد قالوا بلى

في تبارك قالوا بلى قد جاءنا

الثالث ما الاختيار جواز الوقف عليها وهو العشرة الباقية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الإتقان حـ 3 صـ 236. 237﴾

(15/230)

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي

آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) ﴾

(16/230)

هذه الجولة – أو هذه الموجة – عودة إلى مواجهة المشركين المكذبين بالقرآن الكريم ، المكذبين بالبعث والآخرة . . ولكنها لا تواجههم بتصوير تعنتهم وعنادهم ؛ ولا تواجههم بمصارع الغابرين من المكذبين من أسلافهم – كما سبق في سياق السورة – إنما تواجههم بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به ؛ وبجزائهم في الآخرة التي ينكرونها . . تواجههم بهذا الجزاء وبذلك المصير في مشاهد حية شاخصة . . تواجههم به وهم محشورون جميعاً ، مسؤولون سؤال التبكيت والتأنيب ، وسؤال التشهير والتعجيب : ﴿ أين شركاؤكم

الذين كنتم تزعمون ؟ ﴾ وهم في رعب وفزع ، وفي تضعضع وذهول يقسمون بالله ويعترفون له وحده بالربوبية : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ! . . وتواجههم به وهم موقوفون على النار ، محبوسون عليها ، وهم في رعب وفزع ، وفي ندم وحسرة يقولون : ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ ! . . وتواجههم به وهم موقوفون على ربهم ، وهم يتذاوبون من الخجل والندم ، ومن الروع والهول ؛ وهو – جل جلاله – يسألهم سبحانه : ﴿ أليس هذا بالحق ؟ ﴾ فيجيبون في استخذاء وتذاوب : ﴿ بلى وربنا ﴾ . فلا يجديهم هذا الاعتراف شيئاً : ﴿ قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ . . ويواجهون به وهم قد خسروا أنفسهم وخسروا كل شيء إذن ؛ وجاءوا يحملون أوزارهم على ظهورهم ؛ وهم يجأرون بالحسرة على تفريطهم في الآخرة ، وأخذهم للصفقة الخاسرة !

مشهد وراء مشهد ، وكل مشهد يزلزل القلوب ، ويخلخل المفاصل ، ويهز الكيان ، ويفتح العين والقلب – عند من يشاء الله أن يفتح عينه وقلبه – على الحق الذي يواجههم به رسول الله صلى الله عليه وسلم – والكتاب الذي يكذبون به ؛ بينما الذين أوتوا الكتاب من قبلهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم !

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ . .

لقد تكرر في القرآن الكريم ذكر معرفة أهل الكتاب – وهم اليهود والنصارى – لهذا القرآن ؛ أو لصحة رساله محمد – صلى الله عليه وسلم – وتنزيل هذا القرآن عليه من عند الله . . تكرر ذكر هذه الحقيقة سواء في مواجهة أهل الكتاب أنفسهم ، عندما كانوا يقفون من النبي – صلى الله عليه وسلم – ومن هذا الدين وقفة المعارضة والإنكار والحرب والعداء (وكان هذا غالباً في المدينة) أو في مواجهة المشركين من العرب ؛ لتعريفهم أن أهل الكتاب ، الذين يعرفون طبيعة الوحي والكتب السماوية ، يعرفون هذا القرآن ، ويعرفون صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في أنه وحي أوحى به ربه إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله .

وهذا الآية – كما رجحنا – مكية . وذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو – إذن – يفيد أنها كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي ينكرونه ، يعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم ؛ وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به فذلك لأنهم خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون .

شأنهم في هذا شأن المشركين ، الذين خسروا أنفسهم ، فلم يدخلوا في هذا الدين !

والسياق قبل هذه الآية وبعدها كله عن المشركين . مما يرجح مكيتها كما قلنا من قبل في

التعريف بالسورة . .

وقد جرى المفسرون على تفسير مثل هذا التقرير : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . .

على أنهم يعرفون أنه منزل من عند الله حقاً ؛ أو على أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رسول من عند الله حقاً ، يوحى إليه بهذا القرآن . .

وهذا جانب من مدلول النص فعلاً ، ولكنا نلمح – باستصحاب الواقع التاريخي وموقف أهل الكتاب من هذا الدين فيه – أن هناك جانباً آخر من مدلول النص ؛ لعل الله – سبحانه – أراد أن يعلمه للجماعة المسلمة ، ليستقر في وعيها على مدار التاريخ ، وهي تواجه أهل الكتاب بهذا الدين . .

(18/230)

إن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله ؛ ويعرفون – من ثم – ما فيه من سلطان وقوة ؛ ومن خير وصلاح ؛ ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها ؛ وبالأخلاق التي تنبثق منها ؛ وبالنظام الذي يقوم عليها . ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله ؛ ويعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين ! . . إنهم يعرفون ما فيه من

حق ، ويعرفون ما هم فيه من باطل . . ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها ، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم ، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين ، أو يبقي عليها . . وأنها – من ثم – معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض ، ويستعلي هذا الدين ، ويكون الدين كله لله . . أي أن يكون السلطان في الأرض كله لله ؛ وأن يطارد المعتدون على سلطان الله في الأرض كلها . وبذلك وحده يكون الدين كله لله . .

إن أهل الكتاب يعلمون جيداً هذه الحقيقة في هذا الدين . . ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم . . وهم جيلاً بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة ؛ وينقبون عن أسرار قوته ؛ وعن مداخله إلى النفوس ومساربه فيها ؛ ويبحثون بجد : كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين ؟ كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهله ؟ كيف يحرفون الكلم فيه عن مواضعه ؟ كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقي به ؟ كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله في الأرض وتطارد المعتدين على هذا السلطان ، وتجعل الدين كله لله . . إلى حركة ثقافية باردة ، وإلى بحوث نظرية ميتة ، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ ؟ كيف يفرغون مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه مدمرة له ، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة ؟ ! كيف في النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى ، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة ؟ !

(19/230)

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة ؛ لا لأنهم يبحثون عن الحقيقية – كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين ! – ولا لينصفوا هذا الدين وأصله – كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافاً من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين ! – كلا ! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة ، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين ! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها ! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها ! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها !

وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم !

ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك .

. وأن نعرف معه أننا نحن الأَوْلى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا !

(20/230)

إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرناً ينطق بحقيقة واحدة . . هي هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم في هذه الآية : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . . ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلى بصورة خاصة . . إن البحوث التي تكتب عن الإسلام في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع ؛ بلغة من اللغات الأجنبية . . وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه ، ومصادر قوته ، ووسائل مقاومته ، وطرق إفساد توجيهه ! ومعظمهم - بطبيعة الحال - لا يفصح عن نيته هذه ؛ فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة ؛ وأن الحركات التي قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين - الممثل في الاستعمار - إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية ؛ وأن استمرار الهجوم على الإسلام - ولو في الصورة الفكرية - سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة ! لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث . . يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين ، حتى ينوم المشاعر المتوفزة ، ويخدر الحماسة المتحفزة ، وينال ثقة القارىء واطمئنانه . . ثم يضع السم في الكأس ويقدمها مترعة . . هذا الدين نعم عظيم . . ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته ليجاري الحضارة " الإنسانية " الحديثة ! وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت في أوضاع المجتمع ، وفي أشكال الحكم ، وفي قيم الأخلاق ! وينبغي - في النهاية - أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب ،

ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة "الإنسانية" الحديثة!

ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب.. وبذلك يظل ديناً عظيماً..!!!

(21/230)

وفي أثناء عرض مواضع القوة والعمق في هذا الدين - وهي ظاهرياً تبدو في صورة الإنصاف الخادع والثناء المخدر - يقصد المؤلف قومه من أهل الكتاب؛ لينبههم إلى خطورة هذا الدين، وإلى أسرار قوته؛ ويسير أمام الأجهزة المدمرة بهذا الضوء الكشاف، ليسددوا ضرباتهم على الهدف.

وليعرفوا هذا الدين كما يعرفون أبناءهم!

إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه؛ جديدة دائماً؛ كلما عاشوا في ظلاله؛ وهم يخوضون معركة العقيدة؛ ويتدبرون بوعي أحداث التاريخ؛ ويطالعون بوعي أحداث الحاضر. ويرون بنور الله. الذي يكشف الحق، وينير الطريق..

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته؟ إنه لا يفلح الظالمون. ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن

قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

(22/230)

هذا استطراد في مواجهة المشركين بحقيقة ما يزاولونه ، ووصف موقفهم وعملهم في تقدير الله سبحانه . . مواجهة تبدأ باستفهام تقريري لظلمهم بافتراء الكذب على الله ؛ وذلك فيما كانوا يدعونه من أنهم على دينه الذي جاء به إبراهيم عليه السلام ؛ ومن زعمهم أن ما يحلونه وما يحرمونه من الأنعام والمطاعم والشعائر – كالذي سيجيء في آخر السورة مشفوعاً بقوله تعالى : ﴿ بزعمهم ﴾ – هو من أمر الله . . وليس من أمره . وذلك كالذي يزعمه بعض من يدعون اليوم أنهم على دين الله الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – ويقولون عن أنفسهم إنهم " مسلمون " ! وهو من الكذب المفترى على الله . ذلك أنهم يصدرون أحكاماً وينشئون أوضاعاً ، ويبتدعون قيماً من عند أنفسهم يغتصبون فيها سلطان الله ويدعونه لأنفسهم ، ويزعمون أنها هي دين الله ؛ ويزعم لهم بعض من باعوا دينهم ليشتروا به مثوى في دركات الجحيم ، أنه هو دين الله ! . . وباستنكار تكذيبهم كذلك بآيات الله ، التي جاءهم بها النبي – صلى الله عليه وسلم – فردوها وعارضوها

وجحدوها . وقالوا : إنها ليست من عند الله . بينما هم يزعمون أن ما يزاولونه في جاهليتهم هو الذي من عند الله ! وذلك كالذي يحدث من أهل الجاهلية اليوم . . حذوك النعل بالنعل . .

يواجههم باستنكار هذا كله ؛ ووصفه بأنه أظلم الظلم :

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ! ﴾ . .

والظلم هنا كناية عن الشرك . في صورة التفظيع له والتقبيح . وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك . وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه . ذلك أن الشرك ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس . هو اعتداء على حق الله – سبحانه – في أن يوحد ويعبد بلا شريك . واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار . واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق ، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء .

(23/230)

ومن ثم فالشرك ظلم عظيم ، كما يقول عنه رب العالمين . ولن يفلح الشرك ولا المشركون :

﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ . .

والله – سبحانه – يقرر الحقيقة الكلية ؛ ويصف الحصيلة النهائية للشرك والمشركين – أو للظلم والظالمين – فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر ، في الأمد القريب ، فلاحاً ونجاحاً . . فهذا هو الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبوار . . ومن أصدق من الله حديثاً ؟ . .

وهنا يصور من عدم فلاحهم موقفهم يوم الحشر والحساب ، في هذا المشهد الحي الشاخص الموحي :

﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

إن الشرك ألوان ، والشركاء ألوان ، والمشركين ألوان . . وليست الصورة الساذجة التي تتراءى للناس اليوم حين يسمعون كلمة الشرك وكلمة الشركاء وكلمة المشركين : من أن هناك ناساً كانوا يعبدون أصناماً أو أحجاراً ، أو أشجاراً ، أو نجوماً ، أو ناراً . . الخ . . هي الصورة الوحيدة للشرك !

إن الشرك في صميمه هو الاعتراف لغير الله – سبحانه – بإحدى خصائص الألوهية . . سواء كانت هي الاعتقاد بتسيير إرادته للأحداث ومقادير الكائنات . أو كانت هي التقدم لغير الله بالشعائر التعبدية والنذور وما إليها . أو كانت هي تلقي الشرائع من غير الله لتنظيم

أوضاع الحياة . . كلها ألوان من الشرك ، يزاولها ألوان من المشركين ، يتخذون ألواناً من الشركاء !

والقرآن الكريم يعبر عن هذا كله بالشرك ؛ ويعرض مشاهد يوم القيامة تمثل هذه الألوان من الشرك والمشركين والشركاء ؛ ولا يقتصر على لون منها ، ولا يقصر وصف الشرك على واحد منها ؛ ولا يفرق في المصير والجزاء بين ألوان المشركين في الدنيا وفي الآخرة سواء . . ولقد كان العرب يزاولون هذه الألوان من الشرك جميعاً :

(24/230)

كانوا يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله ، لها مشاركة – عن طريق الشفاعة الملزمة عند الله – في تسيير الأحداث والأقدار . كالملائكة . أو عن طريق قدرتها على الأذى – كالجن بذواتهم أو باستخدام الكهان والسحرة لهم – أو عن طريق هذه وتلك – كأرواح الآباء والأجداد – وكل أولئك كانوا يرمزون له بالأصنام التي تعمرها أرواح هذه الكائنات ؛ ويستنطقها الكهان ؛ فتحل لهم ما تحل ، وتحرم عليهم ما تحرم . . وإنما هم الكهان في الحقيقة . . هم الشركاء !

وكانوا يزاولون الشرك في تقديم الشعائر لهذه الأصنام ؛ وتقديم القربان لها والنذور – وفي

الحقيقة للكهان – كما أن بعضهم – نقلاً عن الفرس – كانوا يعتقدون في الكواكب ومشاركتها في تسيير الأحداث – عن طريق المشاركة لله – ويتقدمون لها كذلك بالشعائر (ومن هنا علاقة الحلقة المذكورة في هذه السورة من قصة إبراهيم عليه السلام بموضوع السورة كما سيأتي) .

.

وكذلك كانوا يزاولون اللون الثالث من الشرك بإقامتهم لأنفسهم – عن طريق الكهان والشيوخ – شرائع وقيماً وتقاليد ، لم يأذن بها الله . . وكانوا يدعون ما يدعيه بعض الناس اليوم من أن هذا هو شريعة الله !

وفي هذا المشهد – مشهد الحشر والمواجهة – يواجه المشركين – كل أنواع المشركين بكل ألوان الشرك – بسؤالهم عن الشركاء – كل أصناف الشركاء – أين هم ؟ فإنه لا يبدو لهم أثر ؛ ولا يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب :

﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ﴾ . .

والمشهد شاخص ، والحشر واقع ، والمشركون مسؤولون ذلك السؤال العظيم . . الأليم :

﴿ أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ﴾ . .

وهنا يفعل الهول فعله . . هنا تتعرى الفطرة من الركام الذي ران عليها في الدنيا . . هنا ينعدم من الفطرة ومن الذاكرة – كما هو منعدم في الواقع والحقيقة – وجود الشركاء ؛ فيشعرون أنه لم يكن شرك ، ولم يكن شركاء . . لم يكن لهذا كله من وجود لا في حقيقة ولا واقع . . هنا " يفتنون " فيذهب الخبث ، ويسقط الركام – من فتنة الذهب بالنار ليخلص من الخبث والزبد – :

﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ . .

إن الحقيقة التي تجلت عنها الفتنة ، أو التي تبلورت فيها الفتنة ، هي تخليهم عن ماضيهم كله وإقرارهم بربوبية الله وحده ؛ وتعريهم من الشرك الذي زاولوه في حياتهم الدنيا . . ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق والتعري من الباطل . . فهو إذن بلاء هذا الذي تمثله قولتهم وليس بالنجاة . . لقد فات الأوان . . فاليوم للجزاء لا للعمل . . واليوم لتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان . .

لذلك يقرر الله سبحانه ، معجباً رسوله – صلى الله عليه وسلم – من أمر القوم ، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء ، حيث لا وجود لشركتهم مع الله في الحقيقة . وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه ، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء :

﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

فالكذب منهم كان على أنفسهم ؛ فهم كذبوها وخدعوها يوم اتخذوا مع الله شريكاً ، وافتروا على الله هذا الافتراء . وقد ضل عنهم ما كانوا يفترون وغاب ، في يوم الحشر والحساب !

(26/230)

هذا هو التأويل الذي أستريح إليه في حلفهم بالله يوم القيامة وهم في حضرته : أنهم ما كانوا مشركين . وفي تأويل كذبهم على أنفسهم كذلك . فهم لا يجرؤون يوم القيامة أن يكذبوا على الله ، وأن يحلفوا أنهم ما كانوا مشركين عامدين بالكذب على الله – كما تقول بعض التفاسير – فهم يوم القيامة لا يكتمون الله حديثاً . . إنما هو تعري الفطرة عن الشرك أمام الهول الرعيب ؛ وأنمحاء هذا الباطل الكاذب حتى لا أثر له في حسهم يومذاك .

ثم تعجيب الله – سبحانه – من كذبهم الذي كذبوه على أنفسهم في الدنيا ؛ والذي لا ظل له في حسهم ولا في الواقع يوم القيامة !

. . والله أعلم بمراده على كل حال . . إنما هو احتمال . .

ويمضي السياق يصور حال فريق من المشركين ؛ ويقرر مصيرهم في مشهد من مشاهد

القيامة . . يصور حالهم وهم يستمعون القرآن معطلي الإدراك ، مطموسي الفطرة ، معاندين مكابرين ، يجادلون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم على هذا النحو من الاستغلاق والعناد ، ويدعون على هذا القرآن الكريم أنه أساطير الأولين ؛ وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضاً . . يصور حالهم هكذا في الدنيا في صفحة ، وفي الصفحة الأخرى يرسم لهم مشهداً كئيباً مكروباً ؛ وهم موقوفون على النار محبوسون عليها ، وهي تواجههم بهول المصير الرعيب ؛ وهم يتهافتون متخاذلين ؛ ويتهاوون متحسرين ؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف ، الذي انتهى بهم إلى هذا المصير . فيردون عن هذا التمني بالتصغير والتحقير :

(27/230)

﴿ ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاءوك يجادلونك ، يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون ﴾ . .

إنهما صفحتان متقابلتان : صفحة في الدنيا يرتسم فيها العناد والإعراض ؛ وصفحة في الآخرة يرتسم فيها الندم والحسرة . . يرسمها السياق القرآني ، ويعرضهما هذا العرض المؤثر الموحي ؛ ويخاطب بهما الفطر الجاسية ؛ ويهز بها هذه الفطر هزاً ، لعل الركام الذي ران عليها يتساقط ، ولعل مغاليقها الصلدة تتفتح ، ولعلها تفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان .

﴿ ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ . .

والأكنة : الأغلفة التي تحول دون أن تتفتح هذه القلوب فتفقه ؛ والوقر : الصمم الذي يحول دون هذه الآذان أن تؤدي وظيفتها فتسمع . .

وهذه النماذج البشرية التي تستمع ؛ ولكنها لا تفقه ، كأن ليس لها قلوب تدرك ؛ وكأن ليس لها آذان تسمع . . نماذج مكرورة في البشرية في كل جيل وفي كل قبيل ، في كل زمان وفي كل مكان . . إنهم أناسي من بني آدم . . ولكنهم يسمعون القول وكأنهم لا يسمعونه . كأن آذانهم صماء لا تؤدي وظيفتها . وكأن إدراكهم في غلاف لا تنفذ إليه مدلولات ما سمعته الآذان !

﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . حتى إذا جاءوك يجادلونك . يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

.

فأعينهم ترى كذلك . ولكن كأنها لا تبصر . أو كأن ما تبصره لا يصل إلى قلوبهم وعقولهم !

(28/230)

فما الذي أصاب القوم يا ترى ؟ ما الذي يحول بينهم وبين التلقي والاستجابة . بينما لهم آذان ولهم عيون ولهم عقول ؟ يقول الله – سبحانه – :

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ . .

وهذا يعبر عن قضاء الله فيهم بألا يتلقى إدراكهم هذا الحق ولا يفقهه ؛ وبألا تؤدي أسماعهم وظيفتها فتنقل إلى إدراكهم ما تسمع من هذا الحق فتستجيب له ، مهما يروا من دلائل الهدى وموحيات الإيمان .

(29/230)

غير أنه يبقى أن نلتمس سنة الله في هذا القضاء . . إنه سبحانه يقول : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ ويقول : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ . فشأن الله – سبحانه – أن يهدي من يجاهد ليبلغ الهدى ؛ وأن يفلح من يزكي نفسه ويطهرها . . فأما هؤلاء فلم يتجهوا إلى الهدى ليهديهم الله ؛ ولم يحاولوا أن يستخدموا أجهزة الاستقبال الفطرية في كيانهم ، فييسر الله لهم الاستجابة . . هؤلاء عطلوا أجهزتهم الفطرية ابتداء ؛ فجعل الله بينهم وبين الهدى حجاباً ؛ وجرى قضاؤه فيهم بهذا الذي جرى جزاء على فعلهم الأول ونيتهم الأولى . . وكل شيء إنما يكون بأمر الله . ومن أمر الله أن يهدي من يجاهد ، وأن يفلح من يتزكى . ومن أمر الله أن يجعل على قلوب المعرضين أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . . والذين يحيلون ضلالهم وشركهم وخطاياهم على إرادة الله بهم ، وعلى قضائه فيهم ، إنما يغالطون في هذه الإحالة . والله سبحانه يجبههم بالحق ، وهو يحكي أقوالهم في هذا الشأن ويسفهها : ﴿ وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم . فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ؟ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين

﴾ . فدل هذا على إنكار الله عليهم قولهم ؛ وعلى أن الضلالة إنما حقت عليهم – بعد النذارة – بفعلهم . .

(30/230)

والذين أثاروا قضايا القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، وإرادة العبد وكسبه . . ليجعلوا منها مباحث لاهوتية ، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات ، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها الواقعية التقريرية البسيطة ؛ التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله ؛ وأن اتجاه الإنسان على هذا النحو أو ذاك داخل في حدود فطرته التي خلقه الله عليها ، والتي جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه ؛ وأن اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وآثار في الدنيا والآخرة يجري بها قدر الله أيضاً ، فتكون .

. وبهذا يكون مرجع الأمر كله إلى قدر الله . . ولكن على النحو الذي يرتب على إرادة الإنسان الموهوبة له ما يوقعه قدر الله به . . وليس وراء هذا التقرير إلا الجدل الذي ينتهي إلى المراء !

والمشركون كانت معروضة عليهم أمارات الهدى ودلائل الحق وموحيات الإيمان ، في هذا

القرآن ، الذي يلفتهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق ؛ وهي وحدها كانت كفيلة – لو اتجهت إليها قلوبهم – أن توقع على أوتار هذه القلوب ، وأن تهز فيها المدارك الغافية فتوقظها وتحييها ، لتتلقى وتستجيب . . إلا أنهم هم لم يجاهدوا ليهتدوا ؛ بل عطلوا فطرتهم وحوافزها ؛ فجعل الله بينهم وبين موحيات الهدى حجاباً ؛ وصاروا حين يجيئون إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يجيئون مفتوحي الأعين والآذان والقلوب ؛ ليتدبروا ما يقوله لهم تدبر الباحث عن الحق ؛ ولكن ليجادلوا ويتلمسوا أسباب الرد والتكذيب :

﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ . . والأساطير جمع أسطورة . وكانوا يطلقونها على الحكايات التي تتضمن الخوارق المتعلقة بالألهة والأبطال في قصص الوثنيات . وأقربها إليهم كانت الوثنية الفارسية وأساطيرها .

(31/230)

وهم كانوا يعلمون جيداً أن هذا القرآن ليس بأساطير الأولين . ولكنهم إنما كانوا يجادلون ؛ ويبحثون عن أسباب الرد والتكذيب ؛ ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة . . وكانوا يجدون فيما يتلى عليهم من القرآن قصصاً عن الرسل وأقوامهم ؛ وعن مصارع الغابرين من

المكذبين . فمن باب التمحل والتماس أوهى الأسباب ، قالوا عن هذا القصص وعن القرآن كله : ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ !

وإمعاناً في صرف الناس عن الاستماع لهذا القرآن ، وتثبيت هذه الفرية . . فرية أن هذا القرآن إن هو إلا أساطير الأولين . . كان مالك بن النضر ، وهو يحفظ أساطير فارسية عن رستم واسفنديار من أبطال الفرس الأسطوريين ، يجلس مجلساً قريباً من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يتلو القرآن . فيقول للناس : إن كان محمد يقص عليكم أساطير الأولين ، فعندي أحسن منها ! ثم يروح يقص عليهم مما عنده من الأساطير ، ليصرفهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم !

ولقد كانوا كذلك ينهون الناس عن الاستماع إليه – وهم كبراؤهم – وينأون هم عن الاستماع خشية التأثر والاستجابة :

﴿ وهم ينهون عنه ، وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ . .

لقد كانوا على يقين من أنه ليس أساطير الأولين . وأن مواجهته بأساطير الأولين لا تجدي لو ترك الناس يسمعون ! وكان كبراء قريش يخافون على أنفسهم من تأثير هذا القرآن فيها كما يخافون على أتباعهم . فلم يكن يكفي إذن في المعركة بين الحق النفاذ بسلطانه القوي ، والباطل الواهن المتداعي ، أن يجلس النضر بن الحارث يروي للناس أساطير الأولين ! ومن ثم كانوا ينهون أتباعهم أن يستمعوا لهذا القرآن ؛ كما كانوا هم أنفسهم ينأون بأنفسهم –

خوفاً عليها أن تتأثر وتستجيب - وحكاية الأخنس بن شريق ، وأبي سفيان بن حرب ، وعمرو بن هشام وهم يقاومون جاذبية القرآن التي تشدهم شداً إلى التسمع في خفية لهذا القرآن حكاية مشهورة في السيرة .

(32/230)

وهذا الجهد كله الذي كانوا يبذلونه ليمنعوا أنفسهم ويمنعوا غيرهم من الاستماع لهذا القرآن ؛ ومن التأثر به والاستجابة له . . هذا الجهد كله إنما كانوا يبذلونه في الحقيقة لإهلاك أنفسهم - كما يقرر الله - سبحانه - :

﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ !

وهل يهلك إلا نفسه من يجاهد نفسه ويجاهد غيره دون الهدى والصلاح والنجاة ، في الدنيا والآخرة ؟

إنهم مساكين أولئك الذين يجعلون همهم كله في الحيلولة بين أنفسهم والناس معهم وبين هدى الله ! مساكين ! ولو تبدوا في ثياب الجبابرة وزي الطواغيت ! مساكين فهم لا يهلكون إلا أنفسهم في الدنيا والآخرة . وإن بدا لهم حيناً من الدهر وبدا للمخدوعين بالزبد أنهم رابحون مفلحون .

ومن شاء أن يرى فلينظر في الصفحة الأخرى المواجهة لهذه الصفحة الأولى :

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : يا ليتنا نرد ، ولا نكذب بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين ﴾ !

إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا . . مشهد الاستخذاء والندامة والخزي والحسرة .

في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهي والنأي والادعاء العريض !

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ . .

لو ترى ذلك المشهد ! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولي ! ولا يملكون الجدل والمغالطة !

لو ترى لرأيت ما يهول ! ولرأيتهم يقولون :

﴿ يا ليتنا نرد ، ولا نكذب بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين ﴾ . .

فهم يعلمون الآن أنها كانت " آيات ربنا " ! وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا . وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب بهذه الآيات ، وعندئذ سيكونون من المؤمنين !

ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون !

(33/230)

على أنهم إنما يجهلون جبلتهم . فهي جبلة لا تؤمن . وقولهم هذا عن أنفسهم : إنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين ، إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل ! وإنهم ما يقولون قولتهم هذه ، إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون ، وأنهم ناجون ، وأنهم مفلحون .

﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه . وإنهم لكاذبون ﴾ . .

إن الله يعلم طبيعتهم ؛ ويعلم إصرارهم على باطلهم ؛ ويعلم أن رجفة الموقف الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود . . ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ . .

ويدعهم السياق في هذا المشهد البائس ، وهذا الرد يصفع وجوههم بالمهانة والتكذيب !

يدعهم ليفتح صفحتين جديدتين متقابلتين كذلك ؛ ويرسم لهما مشهدين متقابلين :

أحدهما في الدنيا وهم يجزمون بأن لا بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء .

وثانيهما في الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه : ﴿ أليس هذا بالحق ؟ ﴾ . . السؤال الذي يزلزل ويذيب . . فيجيبون إجابة المهين الذليل : ﴿ بلى ! وربنا ﴾ . . فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون . . ثم يمضي السياق يرسم مشهدهم والساعة تأخذهم بغتة ، بعد ما كذبوا بلقاء الله ، فتنتابهم الحسرة ؛ وهم يحملون

أوزارهم على ظهورهم ! وفي النهاية يقرر حقيقة وزن الدنيا والآخرة في ميزان الله الصحيح :

﴿ وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون . وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟ ﴾

(34/230)

وقضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية ، التي جاء بها الإسلام ؛ والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية . والتي لا يقوم هذا الدين – عقيدة وتصوراً ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً – إلا عليها . . وبها . . إن هذا الدين الذي أكمله الله ، وأتم به نعمته على المؤمنين به ، ورضيه لهم ديناً – كما قال لهم في كتابه الكريم – هو منهج للحياة كامل في حقيقته ، متكامل متناسق في تكوينه . . " يتكامل " ويتناسق فيه تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية ، مع شرائعه التنظيمية . . وتقوم

كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيه وحقيقة الحياة الآخرة .

فالحياة – في التصور الإسلامي – ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد ؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة في – التصور الإسلامي – تمتد طولاً في الزمان ، وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد عمقاً في العوالم ، وتمتد تنوعاً في الحقيقة . . عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة – في التصور الإسلامي – تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المشهودة – فترة الحياة الدنيا – وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله ؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار !

وتمتد في المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر ؛ داراً أخرى : جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد في العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبرنا به الله .

وجود يبدأ من لحظة الموت ، وينتهي في الدار الآخرة . وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنساني في صور لا يعلمها إلا الله .

وتمتد الحياة في حقيقتها ؛ فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا ، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى . . في الجنة وفي النار سواء . . وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا . . ولا تساوي الدنيا – بالقياس إليها – جناح بعوضة !

والشخصية الإنسانية – في التصور الإسلامي – يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان ، وفي هذه الآفاق من المكان ، وفي هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات . . ويتسع تصورها للوجود كله ؛ وتصورها للوجود الإنساني ؛ ويتعمق تذوقها للحياة ؛ وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها ، بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات . . بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يتضاءل تصورهم للوجود الكوني ، وتصورهم للوجود الإنساني ؛ وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم في ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا !

ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم ، ويبدأ الاختلاف في النظم . . ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق ؛ وتتبين قيمة الحياة الآخرة في

بنائه : تصوراً واعتقاداً ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً . .

إن إنساناً يعيش في هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات ، غير إنسان يعيش في ذلك الجحر الضيق ، ويصارع الآخرين عليه ، بلا انتظار لعوض عما يفوته ، ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به . . إلا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس !

(36/230)

إن اتساع التصور وعمقه وتنوعه ينشئ سعة في النفس وكبراً في الاهتمامات ورفعة في المشاعر ! ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك ، غير خلق الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم ! فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه ، طبيعة هذا التصور ، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة ، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته ؛ استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله ، وأنه مناط العوض والجزاء ؛ وصلح خلق الفرد واستقام سلوكه – متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الإسلامي – وصلحت الأوضاع والأنظمة ، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف ، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها ؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة ، فيخسرون الدنيا والآخرة !

والذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون : إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا ؛ وإلى إهمال هذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها ؛ وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعاً إلى نعيم الآخرة . . الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة – كما هي في التصورات الكنسية المنحرفة – وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم .

. فالدنيا – في التصور الإسلامي – هي مزرعة الآخرة . والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ورفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعاً . . كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى . .

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ، أو تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف في الصلاح والعمران . . وهم يرجون الآخرة ، وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟

(37/230)

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين ؛ ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا – مع ادعائهم الإسلام – فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف ! لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين ؛ ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة . فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة ، وهو يعي حقيقة هذا الدين ، ثم يعيش في هذه الحياة سلبياً ، أو متخلفاً ، أو راضياً بالشر والفساد والطغيان .

إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى . ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقواها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافح الشر والفساد والظلم محتملاً الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة . .

إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ؛ وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا ؛ وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى . .

وكل جزئية في النظام الإسلامي منظور فيها إلى حقيقية الحياة الآخرة ؛ وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع ؛ وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق وتحرج وتقوى ؛ وما تنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم .

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة . ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة . .

(38/230)

وكان العرب في جاهليتهم – وبسبب من هذه الجاهلية – لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ؛ ولا في عالم آخر غير هذا العالم الحاضر : ولا في امتداد الذات الإنسانية إلى آماد وآفاق وأعماق غير هذه الآماد المحسوسة . . مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصوراته .

شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة . . "العلمية" كما يصر أهلها على تسميتها !

﴿ وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ . .

وكان الله – سبحانه – يعلم أن الاعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة . . هذه الآفاق الضيقة في الشعور والتصور ، التي تلصق الإنسان بالأرض ، وتلصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة . . وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ، التي تطلق السعار في النفس ، والتكالب على المتاع المحدود ، والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح ، ولا هدنة ، ولا أمل

في عوض ، إن لم تقض هذه الشهوات الهابطة الصغيرة ، التي لا تكاد تبلغ نزوات البهيمة ! . . وهذه الأنظمة والأوضاع ، التي تنشأ في الأرض منظوراً فيها إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ؛ بلا عدل ولا رحمة ، ولا قسط ولا ميزان . . إلا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضاً ، وتصارع الطبقات بعضها بعضاً ، وتصارع الأجناس بعضها بعضاً . . وينطلق الكل في الغابة انطلاقاً لا يرتفع كثيراً على انطلاق الوحوش والغيلان ! كما نشهد اليوم في عالم " الحضارة " . . في كل مكان . .

(39/230)

كان الله – سبحانه – يعلم هذا كله ؛ ويعلم أن الأمة التي قدر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية ، وقيادتها إلى القمة السامقة التي يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية في صورة واقعية . . أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد الواسعة . . من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . .

ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة . . أولاً لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانياً لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان : تصوراً واعتقاداً ، وخلقاً وسلوكاً ،

وشريعة ونظاماً .

ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في هذه الموجة من نهر السورة المتدفق . . الإيقاعات التي يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف ؛ فتتفتح نوافذها ، وتستيقظ أجهزة الاستقبال فيها ، وتتحرك وتحيا ، وتتأهب للتلقي والاستجابة . . ذلك كله فضلاً على أنها تمثل الحقيقة :

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم . قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ . .

هذا مصير الذين قالوا : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ . . وهذا هو مشهدهم البائس المخزي المهين ؛ وهم موقوفون في حضرة ربهم الذي كذبوا بلقائه ، لا يبرحون الموقف . وكأنما أُخذ بأعناقهم حتى وقفوا في هذا المشهد الجليل الرهيب :

﴿ قال : أليس هذا بالحق ؟ ﴾ . .

وهو سؤال يخزي ويذيب !

﴿ قالوا : بلى وربنا ﴾ . .

الآن . وهم موقوفون على ربهم . في الموقف الذي نفوا على سبيل التوكيد أن يكون !

وفي اختصار يناسب جلال الموقف ، ورهبة المشهد ، وهول المصير ، يجيء الأمر العلوي

بالقضاء الأخير :

﴿ قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

(40/230)

وهو مصير يتفق مع الخلائق التي أبت على نفسها سعة التصور الإنساني وآثرت عليه جحر التصور الحسي ! والتي أبت أن ترتفع إلى الأفق الإنساني الكريم ، وأخلدت إلى الأرض ، وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل ! لقد ارتكست هذه الخلائق حتى أهلت نفسها لهذا العذاب ؛ الذي يناسب طبائع الكافرين بالآخرة ؛ الذين عاشوا ذلك المستوى الهابط من الحياة ! بذلك التصور الهابط الهزيل ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 2 صـ 1060 . 1071 ﴾

(41/230)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " قال : أَلَيْسَ " في هذه الجملة وجهان :

أحدهما : أنها اسْتِفْهَامية أي : جواب سؤال مُقدَّر ، قال الزمخشري : " قال " مَرْدُودٌ على قولِ قائلٍ .

قال : ماذا قال لهم ربُّهُمْ إذْ أوقفُوا عليه ؟ فقيل : قال لهم : أليس هذا بالحقِّ .

والثاني : أن تكون الجملة حَالِيَّةً ، وصاحب الحال " ربُّهم " كأنه قيل : وُقِفوا عليه قَائِلاً : أليس هذا بالحقِّ ؟ والمُشَارُ إليه قيل : هو ما كانوا يكذبون به من البَعْثِ .

وقيل : هو العَذَابُ يَدُلُّ عليه " فذوقوا العذاب " .

وقوله : " بما كنتم " يجوز أن تكون " ما " مَوْصُولةً أسمية ، والتقدير : تَكْفُرُونَهُ ، والأصل : تكفرون به ، فاتَّصَلَ الضمير بالفعل بعد حذف الواسطة ، ولا جائز أن يُحذف ، وهو مجرورٌ بحاله ، وإن كان مجروراً بحرف جُرَّ بمثله الموصول لاختلافِ المتعلِّق ، وقد تقدَّم إيضاحه .

والأوْلى أن تُجْعَلَ " ما " مصدريَّة ، ويكون متعلَّق الكُفْرِ محذوفاً ، والتقدير : بما كنتم تكفرون بالبَعْثِ ، أو بالعذاب ، أي : بكفرهم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 100 . 101 ﴾

(42/230)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) ﴾

يا حسرة عليهم من موقف الخجل ، محل مقاساة الوَجَل ، وتذكر تقصير العمل !

فهم واقفون على أقدام الحسرة ، يقرعون أسنان النجز حين لا ندم ينفعهم ، ولا شكوى تُسْمَعُ منهم ، ولا رحمة تنزل عليهم .

وحين يقول لهم : أليس هذا بالحق ؟ يُقِرُّونَ كارهين ، ويصرخون بالتبري عن كل غَيْر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 468 ﴾

(43/230)

قوله تعالى ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أنتج هذا ما تقدم الإخبار به عن خسرانهم لأنفسهم في القيامة توقع السامع ذكره ، فقال تحقيقاً لذلك ، وزاده الحمل فإنه من ذوق العذاب : ﴿ قد خسر ﴾ وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتنبيهاً على ما أوجب لهم ذلك فقال : ﴿ الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله ، ولا أمر لأحد معه ، قد خسروا كل شيء يمكن إحرازه من الثواب العظيم واستمر تكذيبهم ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة ﴾ أي الحقيقة ، وكذا الموت الذي هو مبدأها فإن من مات جاءت ساعته ، وحذرهم منها بقوله : ﴿ بغتة ﴾ أي باغتة ، أو ذات بغتة ، أو بغتتهم بإتيانها على حين غفلة ، لا يمكن أن يشعروا بعين الوقت الذي تجيء فيه نوعاً من الشعور ﴿ قالوا يا حسرتنا ﴾ أي تعالى احضرينا أيها الحسرة اللائقة بنا في هذا المقام ! فإنه لا نديم لنا سواك ، وهو كناية عن عظمة الحسرة وتنبيه عليه ، لينتهي الإنسان عن أسبابها ﴿ على ما فرطنا ﴾ أي قصرنا ﴿ فيها ﴾ أي بسبب الساعة ،

(44/230)

ففاتنا ما يسعد فيها من تهذيب الأخلاق المهيئة للسباق بترك اتباع الرسل ، وذلك أن الله خلق المكلف وبعث له النفس الناطقة القدسية منزلاً لها إلى العالم السفلي ، وأفاض عليه نعماً ظاهرة وهي الحواس الظاهرة المدركة والأعضاء والآلات الجثمانية ، ونعماً باطنة وهي العقل والفكر وغيرهما ، ليتوسل باستعمال هذه القوى والآلات إلى تحصيل المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة التي تعظم منافعها بعد الموت ، وبعث الأنبياء عليهم السلام للهداية وأظهر عليهم المعجزات ليصدقوا ، فأعرضوا عما دعوا إليه من تزكية النفس ، وأقبلوا على استعمال الآلات والقوى في اللذات والشهوات الفانية ففاتت الآلات البدنية التي هي رأس المال ، وما ظنوه من اللذات التي عدوها أرباحاً فات ففقدوا الزاد ، ولم يهيئوا النفوس للاهتداء ، فلا رأس مال ولا ربح ، فصاروا في غاية الانقطاع والغربة ، ولا خسران أعظم من هذا .

(45/230)

ولما كان هذا أمراً مفظعاً ، زاد في تفظيعه بالإخبار في جملة حالية بشدة تعبهم في ذلك الموقف ووهن ظهورهم بذنوبهم ، حتى كأن عليهم أحمالاً ثقالاً فقال : ﴿ وهم ﴾ أي وقالوا ذلك والحال أنهم ﴿ يحملون أوزارهم ﴾ أي أحمال ذنوبهم التي من شأنها أن يثقل ،

وحقق الأمر وصوره بقوله : ﴿ على ظهورهم ﴾ لاعتقاد الحمل عليه ، كما يقال : ثقل عليك كلام فلان ، ويجوز أن يجسد أعمالهم أجساداً ثقالاً ، فيكلفوا حملها ؛ ولما كان ذلك الحمل أمراً لا يبلغ الوصف الذي يحتمله عقولنا كل حقيقة ما هو عليه من البشاعة والثقل ، أشار إلى ذلك بقوله جامعاً للمذام : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 625. 626 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المقصود من هذه الآية شرح حالة أخرى من أحوال منكري البعث والقيامة وهي أمران : أحدهما : حصول الخسران .

والثاني : حمل الأوزار العظيمة .

أما النوع الأول : وهو حصول الخسران فتقريره أنه تعالى بعث جوهر النفس الناطقة القدسية الجسماني وأعطاه هذه الآلات الجسمانية والأدوات الجسدانية وأعطاه العقل والتفكر أجلى أن يتوصل باستعمال هذه الآلات والأدوات إلى تحصيل المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة التي يعظم منافعها بعد الموت فإذا استعمل الإنسان هذه الآلات والأدوات والقوة العقلية والقوة الفكرية في تحصيل هذه اللذات الدائرة والسعادات المنقطعة ثم انتهى الإنسان إلى آخر عمره فقد خسر خسراناً مبيناً لأن رأس المال قد فنى والربح

الذي ظن أنه هو المطلوب فنى أيضاً وانقطع فلم يبق في يده لا من رأس المال أثر ولا من الربح شيء .

فكان هذا هو الخسران المبين .

وهذا الخسران إنما يحصل لمن كان منكراً للبعث والقيامة وكان يعتقد أن منتهى السعادات ونهاية الكمالات هو هذه السعادات العاجلة الفانية .

(46/230)

أما من كان مؤمناً بالبعث والقيامة فإنه لا يغتر بهذه السعادات الجسمانية ولا يكتفي بهذه الخيرات العاجلة بل يسعى في إعداد الزاد ليوم المعاد فلم يحصل له الخسران فثبت بما ذكرنا أن الذين كذبوا بلقاء الله وأنكروا البعث والقيامة قد خسروا خسراناً مبيناً وأنهم عند الوصول إلى موقف القيامة يتحسرون على تفريطهم في تحصيل الزاد ليوم المعاد .

والنوع الثاني من وجوه : خسرانهم أنهم يحملون أوزارهم على ظهورهم .

وتقرير الكلام فيه أن كمال السعادة في الاقبال على الله تعالى والاشتغال بعبوديته والاجتهاد في حبه وخدمته وأيضاً في الانقطاع عن الدنيا وترك محبتها وفي قطع العلاقة بين القلب وبينها ، فمن كان منكراً للبعث والقيامة ، فإنه لا يسعى في إعداد الزاد لموقف القيامة ، ولا يسعى

في قطع العلاقة بين القلب وبين الدنيا ، فإذا مات بقي كالغريب في عالم الروحانيات ، وكالمنقطع عن أحبابه وأقاربه الذين كانوا في عالم الجسمانيات فيحصل له الحسرات العظيمة بسبب فقدان الزاد وعدم الاهتداء إلى المخالطة بأهل ذلك العالم ويحصل له الآلام العظيمة بسبب الانقطاع عن لذات هذا العالم والامتناع عن الاستسعاد بخيرات هذا العالم.

فالأول : هو المراد من قوله ﴿ قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ والثاني : هو المراد من قوله ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ فهذا تقرير المقصود من هذه الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 162. 163 ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد من الخسران فوت الثواب العظيم وحصول العقاب العظيم ﴿ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ المراد منه الذين أنكروا البعث والقيامة ، وقد بالغنا في شرح هذه الكلمة عند قوله ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 46] وإنما حسنت هذه الكناية أن موقف القيامة موقف لا حكم فيه لأحد إلا لله تعالى ، ولا قدرة لأحد على النفع والضر والرفع والخفض إلا لله .

وقوله ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ اعلم أن كلمة (حتى) غاية لقوله ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ لا لقوله ﴿ قَدْ خَسِرَ ﴾ لأن خسرانهم لا غاية له ومعنى (حتى) ههنا أن منتهى تكذيبهم الحسرة يوم القيامة ، والمعنى أنهم كذبوا إلى أن ظهرت الساعة بغتة .

فإن قيل : إنما يتحسرون عند موتهم .

قلنا : لما كان الموت وقوعاً في أحوال الآخرة ومقدماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها ولذلك قال عليه السلام : " من مات فقد قامت قيامته " والمراد بالساعة القيامة ، وفي تسمية يوم القيامة بهذا الاسم وجوه : الأول : أن يوم القيامة يسمى الساعة لسرعة الحساب فيه كأنه قيل : ما هي إلا ساعة الحساب .

الثاني : الساعة هي الوقت الذي تقوم القيامة سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تعالى .

ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ بَغْتَةً ﴾ والبغت والبغتة هو الفجأة والمعنى : أن الساعة لا تجيء إلا دفعة لأنه لا يعلم أحد متى يكون مجيئها ، وفي أي وقت يكون حدوثها وقوله ﴿ بَغْتَةً ﴾ انتصابه على الحال بمعنى : باغتة أو على المصدر كأنه قيل : بغتتهم الساعة بغتة .

ثم قال تعالى : ﴿ قَالُواْ يا حَسْرَتَنَا ﴾ قال الزجاج : معنى دعاء الحسرة تنبيه للناس على ما سيحصل لهم من الحسرة والعرب تعبر عن تعظيم أمثال هذه الأمور بهذه اللفظة كقوله تعالى

: ﴿ يا حسرة عَلَى العباد ﴾ [يس : 30] و ﴿ يا حسرتى على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] ﴿ يا ويلتى ءَأَلِدُ ﴾ [هود : 72] وهذا أبلغ من أن يقال : الحسرة علينا في تفريطنا ومثله ﴿ يا أسفي على يُوسُفَ ﴾ [يوسف : 84] تأويله يا أيها الناس تنبهوا على ما وقع بي من الأسف فوقع النداء على غير المنادى في الحقيقة .

وقال سيبويه : إنك إذا قلت يا عجباه فكأنك قلت يا عجب احضر وتعال فإن هذا زمانك .

إذا عرفت هذا فنقول : حصل للنداء ههنا تأويلان : أحدهما : أن النداء للحسرة ، والمراد منه تنبيه المخاطبين وهو قول الزجاج .

(48/230)

والثاني : أن المنادى هو نفس الحسرة على معنى : أن هذا وقتك فاحضري وهو قول سيبويه وقوله ﴿ على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ فيه بحثان .

البحث الأول : قال أبو عبيدة يقال : فرطت في الشيء أي ضيعته فقوله ﴿ فَرَّطْنَا ﴾ أي تركنا وضيعنا وقال الزجاج : فرطنا أي قدمنا العجز جعله من قولهم فرط فلان إذا سبق وتقدم ، وفرط الشيء إذا قدمه .

قال الواحدي : فالتفريط عنده تقديم التقصير .

والبحث الثاني : أن الضمير في قوله ﴿ فِيهَا ﴾ إلى ماذا يعود فيه وجوه : الأول : قال ابن عباس في الدنيا والسؤال عليه أنه لم يجر للدنيا ذكر فكيف يمكن عود هذا الضمير إليها .

وجوابه : أن العقل دل على أن موضع التقصير ليس إلا الدنيا ، فحسن عود الضمير إليها لهذا المعنى .

الثاني : قال الحسن المراد يا حسرتنا على ما فرطنا في الساعة ، والمعنى : على ما فرطنا في إعداد الزاد للساعة وتحصيل الأهبة لها .

والثالث : أن تعود الكناية إلى معنى ما في قوله ﴿ مَّا فَرَّطْنَا ﴾ أي حسرتنا على الأعمال والطاعات التي فرطنا فيها .

والرابع : قال محمد بن جرير الطبري : الكناية تعود إلى الصفقة لأنه تعالى لما ذكر الخسران دل ذلك على حصول الصفقة والمبايعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 164.163 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله ﴾ قيل : بالبعث بعد الموت وبالجزاء ؛ دليله قوله عليه السَّلام : " مَن حَلَف على يمين كاذبة ليقتَطعَ بها مال امرىء مسلم لقي اللَّهَ وهو عليه غضبان " أي لقي جزاءه ؛ لأن من غضب عليه لا يرى الله عند مثبتي الرؤية ،

ذهب إلى هذا القَفَّال وغيره ؛ قال القُشَيْريّ : وهذا ليس بشيء ؛ لأن حمل اللقاء في موضع على الجزاء لدليلٍ قائم لا يوجب هذا التأويل في كل موضع ، فليحمل اللقاء على ظاهره في هذه الآية ؛ والكفار كانوا ينكرون الصانع ، ومنكر الرؤية منكر للوجود ! .

(49/230)

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها .

ومعنى "بغتة" فجأة ؛ يقال : بَغَتهم الأمرُ يَبْغَتُهُمْ بَغْتاً وبَغْتَةً .

وهي نصب على الحال ، وهي عند سيبويه مصدر في موضع الحال ، كما تقول : قتلته صَبْراً .

وأنشد :

فَلأَيَاً بِلأْيٍ ما حَمَلْنَا وَلِيدَنَا . . .

على ظَهْرِ مَحْبوكٍ ظِمَاءٍ مَفَاصِلهُ

ولا يجيز سيبويه أن يقاس عليه ؛ لا يقال : جاء فلان سُرْعةً .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ياحسرتنا ﴾ وقع النداء على الحسرة وليست بمنادى في الحقيقة ،

ولكنه يدل على كثرة التّحسر ، ومثله يا للعجب ويا للرخاء وليسا بمنادين في الحقيقة ، ولكنه يدل على كثرة التعجب والرخاء ؛ قال سيبويه : كأنه قال يا عجبُ تَعالَ فهذا زمن إتيانك ؛ وكذلك قولك يا حسرتي أي يا حسرتا تعالي فهذا وقتك ؛ وكذلك ما لا يصح نداؤه يجري هذا المجرى ، فهذا أبلغ من قولك تعجبت .

ومنه قول الشاعر :

فيا عجباً من رَحْلِها المتحمَّلِ . . .

وقيل : هو تنبيه للناس على عظيم ما يحلّ بهم من الحسرة ؛ أي يا أيها الناس تنَبَّهوا على عظيم ما بي من الحسرة .

فوقع النداء على غير المنادى حقيقة ؛ كقولك : لا أَرينّك ها هنا .

فيقع النهي على غير المنهي في الحقيقة .

قوله تعالى : ﴿ على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أي في الساعة ، أي في التقدمة لها ؛ عن الحسن .

و"فَرَّطْنَا" معناه ضيعنا وأصله التقدّم يقال : "فَرَط فلان أي تقدّم وسبق إلى الماء ، ومنه : "أنا فَرَطكم على الحوض" .

ومنه الفَارِط أي المتقدّم للماء ، ومنه في الدعاء للصبي اللهم اجعله فَرَطا لأبويه ؛ فقولهم : "فَرَّطْنَا" أي قدمناه العجز .

وقيل : "فَرَّطْنَا" أي جعلناه غيرنا الفارِط السابق لنا إلى طاعة الله وتَخَلَّفنا .

"فيها" أي في الدنيا بترك العمل للساعة .

(50/230)

وقال الطَّبري : (الهاء) راجعة إلى الصَّفْقة ، وذلك أنهم لما تَبيّن لهم خسران صَفْقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر ، والآخرة بالدنيا .

﴿ قَالُواْ يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أي في الصَّفْقة ، وترك ذكرها لدلالة الكلام عليها ؛ لأن الخسران لا يكون إلا في صفْقة بيع ؛ دليله قوله : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ ﴾ [البقرة : 16] .

وقال السُّدي : على ما ضيَّعنا أي من عمل الجنة .

وفي الخبر عن أبي سعيد الخُدْري عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال : " يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون : "يَا حَسْرَتَنَا" " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(51/230)

وقال أبو حيان :

﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾

هذا استئناف إخبار من الله تعالى عن أحوال منكري لبعث وخسرانهم أنهم استعاضوا الكفر عن الإيمان فصار ذلك شبيهاً بحالة البائع الذي أخذ وأعطى وكان ما أخذ من الكفر سبباً لهلاكه وما أعطاه من الإيمان سبباً لنجاته ، فأشبه الخاسر في صفقته العادم الربح ورأس ماله ، ومعنى ﴿ بلقاء الله ﴾ بلوغ الآخرة وما يكون فيها من الجزاء ورجوعهم إلى أحكام الله فيها و﴿ حتى ﴾ غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم ، لأن الخسران لا غاية له والتكذيب مغيا بالحسرة لأنه لا يزال بهم التكذيب إلى قولهم ﴿ يا حسرتنا ﴾ وقت مجيء الساعة ، وتقدم الكلام على ﴿ حتى إذا ﴾ في قوله : ﴿ حتى إذا جاؤوك يجادلونك ﴾ ومعنى ﴿ بلقاء الله ﴾ بلقاء جزائه والإضافة تفخيم وتعظيم لشأن الجزاء وهو نظير " لقي الله وهو عليه غضبان " ، أي لقي جزاءه ومن أثبت أن الله تعالى في جهة استدل بهذا ، وقال : اللقاء حقيقة و﴿ الساعة ﴾ يوم القيامة سمّى ساعة لسرعة انقضاء الحساب فيها للجزاء لقوله : ﴿ أسرع الحاسبين ﴾ قال ابن عطية : وأدخل عليها تعريف العهد دون تقدم ذكرك لشهرتها واستقرارها في النفوس وذياع ذكرها ، وأيضاً فقد

تضمنها قوله ﴿ بلقاء الله ﴾ انتهى .

ثم غلب استعمال ﴿ الساعة ﴾ على يوم القيامة فصارت الألف واللام فيها للغلبة كهي في البيت للكعبة والنجم للثريا .

وقال الزمخشري (فإن قلت) : إنما يتحسرون عند موتهم (قلت) : لما كان الموت وقوعاً في أحوال الآخرة ومقدماتها ، جعل من جنس الساعة وسمّي باسمها ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات فقد قامت قيامته " .

وجعل في مجيء الساعة بعد الموت لسرعته فالواقع بغير فتره ؛ انتهى .

(52/230)

وإطلاق ﴿ الساعة ﴾ على وقت الموت مجاز ، ويمكن حمل الساعة على الحقيقة وهو يوم القيامة ولا يلزم من تحسرهم وقت الموت أنهم لا يتحسرون يوم القيامة ، بل الظاهر ذلك لقوله : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ إذ هذا حال من قولهم : ﴿ قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾ وهي حال مقارنة ، وإذا حملنا الساعة على وقت الموت كانت حالاً مقدرة ومجيء القدرة بالنسبة إلى المقارنة قليل ، فيكون التكذيب متصلاً بهم مغياً بالحسرة إلى يوم القيامة إذ مكثهم في البرزخ على اعتقاد أمثلهم طريقة يوم واحد ، كما قال

تعالى : ﴿ إن لبثتم إلا يوماً ﴾ فلما جاءتهم الساعة زال التكذيب وشاهدوا ما أخبرتهم به الرسل عياناً فقالوا ﴿ يا حسرتنا ﴾

وجوزوا في انتصاب ﴿ بغتة ﴾ أن يكون مصدراً في موضع الحال من ﴿ الساعة ﴾ أي باغتة أو من مفعول جاءتهم أي مبغوتين أو مصدراً لجاء من غير لفظه كأنه قيل حتى إذا بغتتهم الساعة بغتة ، أو مصدر الفعل محذوف أي تبغتهم بغتة ونادوا الحسرة وإن كانت لا تجيب على طريق التعظيم .

قال سيبويه : وكان الذي ينادي الحسرة أو العجب أو السرور أو الويل يقول : اقربي أو احضري فهذا أوانك وزمنك وفي ذلك تعظيم للأمر على نفس المتكلم وعلى سامعه إن كان ثم سامع وهذا التعظيم على النفس والسامع هو المقصود أيضاً في نداء الجمادات كقولك يا دار يا ربع وفي نداء ما لا يعقل كقولهم : يا جمل ، و ﴿ فرطنا ﴾ قصرنا والتفريط التقصير مع القدرة على تركه ، والضمير في ﴿ فيها ﴾ عائد على ﴿ الساعة ﴾ أي في التقدمة لها قاله الحسن ، أو الصفقة التي تضمنها ذكر الخسارة قاله الطبري .

وقال الزمخشري : الضمير للحياة الدنيا جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة ، أو الساعة على معنى قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها كما تقول : فرطت في فلان ومنه ﴿ فرطت في جنب الله ﴾ انتهى .

وكونه عائداً على الدنيا وهو قول ابن عباس ، ودل العقل على أن موضع التقصير ليس إلا الدنيا فحسن عوده عليها لهذا المعنى وأورد ابن عطية هذا القول احتمالاً فقال : يحتمل أن يعود الضمير على الدنيا ، إذ المعنى يقتضيها وتجيء الظرفية أمكن بمنزلة زيد في الدار ؛ انتهى ، وعوده على ﴿ الساعة ﴾ قول الحسن والمعنى في إعداد الزاد والأهبة لها .

وقيل : يعود الضمير على ﴿ ما ﴾ وهي موصول وعاد على لمعنى أي ﴿ يا حسرتنا ﴾ على الأعمال والطاعات التي فرطنا فيها ، وما في الأوجه التي سبقت مصدرية التقدير على تفريطنا في الدنيا أو في الساعة أو في الصفقة على التقدير الذي تقدم ، والظاهر عوده على الساعة وأبعد من ذهب إلى أنه عائد إلى منازلهم في الجنة إذا رأوا منازلهم فيها لو كانوا آمنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(54/230)

وقال الثعلبى :

﴿ قَدْ خَسِرَ ﴾ وكس وهلك ﴿ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة ﴾ القيامة ، ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ قَالُواْ ياحسرتنا ﴾ ندامتنا ﴿

على مَا فَرَّطْنَا ﴾ قصرّنا ﴿ فِيهَا ﴾ في الطامة ، وقيل : تركنا في الدنيا من عمل الآخرة .

وقال محمد بن جرير : الهاء راجعة إلى الصفقة ، وذلك إنه لما تبين لهم خسران صفقتهم بيعهم الإيمان بالكفر والدنيا بالآخرة ، قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، أي في الصفقة فترك ذكر الصفقة كما يقول ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله ﴾ لأن الخسران لا يكون إلاّ في صفقة بيع .

قال السدي : يعني على ما ضيعنا من عمل الجنة ، يدل عليه ما روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال : " يرى أهل النار منازلهم من الجنة فيقولون : يا حسرتنا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ يعني : غبن الذين جحدوا بالله ، وبالبعث حين اختاروا العقوبة على الثواب ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ يعني : فجأة ومعناه : أنهم جحدوا وثبتوا على جحودهم حتى إذا جاءتهم القيامة ﴿ قَالُواْ يا حسرتنا ﴾ يعني : يا ندامتنا وخزينا والعرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم تقع فيه جعلته نداء كقوله : ﴿ يا حسرتنا ﴾ و ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مالِ هذا الْكِتَابِ لاَ يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا

﴿ [الكهف : 49] ويا ندامتنا ﴿ قَالُواْ يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا ﴾ يعني : ضيعنا وتركنا العمل ﴿ فِيهَا ﴾ يعني : في الدنيا من عمل الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(55/230)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذَّبوا بلقاء الله ﴾ إنما وُصِفُوا بالخسران ، لأنهم باعوا الإيمان بالكفر ، فعظم خسرانهم .

والمراد بلقاء الله : البعث والجزاء ؛ والساعة : القيامة ؛ والبغتة : الفجأة .

قال الزجاج : كلُّ ما أتى فجأة فقد بغت ، يقال قد بغته الأمر يَبْغَتُه بَغْتاً وبغتةً : إذا أتاه فجأة .

قال الشاعر :

وَلَكِنَّهم بانُوا وَلَمْ أَخْشَ بَغْتَةً . . .
وَأَفْظَعُ شيءٍ حِينَ يَفْجَؤُكَ البَغْتُ

قوله تعالى : ﴿ يا حسرتنا ﴾ الحسرة : التلهف على الشيء الفائت ، وأهل التفسير

يقولون : يا ندامتنا .

فإن قيل : ما معنى دعاء الحسرة ، وهي لا تعقِلُ ؟

فالجواب : أن العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقع فيه ، جعلته نداءً ، فتدخِلُ عليه "يا" للتنبيه ، والمراد تنبيه الناس ، لا تنبيه المنادي .

ومثله قولهم : لا أرينَّك ها هنا ، لفظه لفظ الناهي لنفسه ، والمعنى للمنهي ؛ ومن هذا قولهم : يا خَيْلَ الله اركبي ، يراد : يا فرسان خيل الله .

وقال سيبويه : إذا قلتَ يا عجباه ، فكأنك قلت : احضر وتعال يا عَجَبُ ، فهذا زمانك .

فأما التفريط فهو : التضييع .

وقال الزجاج : التفريط في اللغة : تقدمه العجز .

وفي المكني عنه بقوله : "فيها" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الدنيا ، فالمعنى على ما ضيعنا في الدنيا من عمل الآخرة ، قاله مقاتل .

والثاني : أنها الصَّفقة ، لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة ، وَترك ذكرها اكتفاءً بذكر الخسران ؛ قاله ابن جرير .

والثالث : أنها الطاعة ، ذكره بعض المفسرين .

فأما الأوزار ، فقال ابن قتيبة : هي الآثام ، وأصل الوزر : الحمل على الظهر .

وقال ابن فارس : الوزر : الثقل .

وهل هذا الحمل حقيقة فيه قولان .

أحدهما : أنه على حقيقته .

(56/230)

قال عمير بن هانىء : يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح ، كلمَّا كان هَوْلٌ عظَّمه عليه ، وزاده خوفاً ، فيقول : بئس الجليس أنت ، مالي ولك ؟ فيقول : أنا عملك ، طالما ركبتني في الدنيا ، فلأركبنك اليوم حتى أُخزيَك على رؤوس الناس ، فيركبُه ويتخطى به الناس حتى يقف بين يدي ربه ، فذلك قوله : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ يعني خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم بالمصير إلى الله تعالى وبالبعث بعد الموت وهذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم وحصول العذاب الأليم ، في دركات الجحيم ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ﴾ يعني جاءتهم القيامة فجأة وسميت القيامة ساعة : لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تبارك وتعالى .

وقيل : سميت ساعة لسرعة الحساب فيها لأن حساب الخلائق يوم القيامة يكون في ساعة أو أقل من ذلك ﴿ قالوا ﴾ يعني منكري البعث وهم كفار قريش ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد ﴿ يا حسرتنا ﴾ يعني : يا ندامتنا والحسرة التلهف على الشيء الفائت وذكرت على وجه النداء للمبالغة والمراد تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة ﴿ على ما فرطنا ﴾ يعني قصرنا ﴿ فيها ﴾ يعني في الدنيا لأنها موضع التفريط في الأعمال الصالحة والمعنى يا حسرتنا على الأعمال الصالحة التي فرطنا فيها في دار الدنيا .

وقال محمد بن جرير الطبري : الهاء والألف في قوله فيها تعود إلى الصفقة ولكن اكتفى بدلالة قوله قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله عليها من ذكرها إذ كان معلوماً أن الخسران لا يكون إلا في صفقة بيع قد جرى ومعنى الآية قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به رضوان الله وجنته بالكفر الذي يستوجبون به سخط الله وعقوبته وهم لا يشعرون بذلك حتى تقوم الساعة .

(57/230)

فإذا جاءتهم الساعة بغتة ورأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم قالوا حينئذ : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وروى الطبرى بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه

وسلم في قوله يا حسرتنا ، قال : " يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون يا حسرتنا " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ هم الذين حُكِيت أحوالُهم ، لكنْ وْضع الموصولُ موضعَ الضمير للإيذان بسبب خسرانهم بما في حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى بقيام الساعة وما يترتب عليه من البعث وأحكامه المتفرعةِ عليه واستمرارِهم على ذلك ، فإن كلمةَ (حتى) في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمُ الساعة ﴾ غايةٌ لتكذيبهم لا لخُسرانهم فإنه أبديٌّ لا حدَّ له ﴿ بَغْتَةً ﴾ البغْتُ والبغتةُ مفاجأةُ الشيءِ بسرعة من غير شعور به يقال : بغَته بغْتاً وبغتةً أي فجأةً ، وانتصابُها إما على أنها مصدرٌ واقع موقعَ الحال من فاعل جاءتهم أي مباغتةً أو من مفعوله أي مبغوتين وإما على أنها مصدرٌ مؤكّدٌ على غير الصدر فإنّ (جاءتهم) في معنى بغتتهم كقولهم : أتيته ركضاً أو مصدرٌ مؤكِّد لفعل محذوف وقع حالاً من فاعل (جاءتهم) أي جاءتهم الساعة تبغتهم بغتة .

(58/230)

﴿ قَالُواْ ﴾ جواب إذا ﴿ يا حسرتنا ﴾ تعالَيْ فهذا أوانُك ، والحسرةُ شدة الندم ، وهذا التحسرُ وإن كان يعتريهم عند الموت لكنْ لما كان ذلك من مبادي الساعة سُمِّيَ باسمها ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : " من مات فقد قامت قيامتُه " أو جُعل مجيءُ الساعة بعد الموت كالواقع بغير فترةٍ لسرعته ﴿ على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أي على تفريطنا في شأن الساعة وتقصيرنا في مراعاة حقها والاستعداد لها بالإيمان بها واكتسابِ الأعمالِ الصالحة كما في قوله تعالى : ﴿ على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ وقيل : الضميرُ للحياة الدنيا وإن لم يجْرِ لها ذكرٌ لكونها معلومة ، والتفريطُ التقصيرُ في الشيء مع القدرة على فعله وقيل : هو التضييعُ وقيل : الفَرَط السبق ومنه الفارط أي السابق ومعنى فرَّط : خلَّى السبْقَ لغيره فالتضعيف فيه للسلب كما في جلّدتُ البعير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(59/230)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ هم الذين تقدّم ذكرهم .

والمراد من تكذيبهم بلقاء الله تكذيبهم بالبعث ، وقيل تكذيبهم بالجزاء .

والأوّل أولى ، لأنهم الذين قالوا قريباً : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : 29] ﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ أي القيامة ، وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها .

ومعنى بغتة : فجأة ، يقال بغتهم الأمر يبغتهم بغتاً وبغتة .

قال سيبويه : وهي مصدر في موضع الحال ، قال : ولا يجوز أن يقاس عليه ، فلا يقال : جاء فلان سرعة ، و" حتى ﴾ غاية للتكذيب لا للخسران ، فإنه لا غاية له ﴿ قَالُواْ يا حسرتنا ﴾ هذا جواب ﴿ إذا جاءتهم ﴾ أوقعوا النداء على الحسرة ، وليست بمنادى في الحقيقة ليدلّ ذلك على كثرة تحسرهم .

والمعنى : يا حسرتنا احضري ، فهذا أوانك ، كذا قال سيبويه في هذا النداء وأمثاله ، كقولهم يا للعجب ويا للرجل .

وقيل : هو تنبيه للناس على عظم ما يحلّ بهم من الحسرة ، كأنهم قالوا : يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة ، والحسرة : الندم الشديد ﴿ على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أي على تفريطنا في الساعة ، أي في الاعتداد لها ، والاحتفال بشأنها ، والتصديق بها .

ومعنى فرّطنا ضيعنا ، وأصله التقدّم ، يقال فرط فلان : أي تقدّم وسبق إلى الماء ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " وأنا فرطكم على الحوض " ، ومنه الفارط : أي المتقدم فكأنهم أرادوا بقولهم : ﴿ على مَا فَرَّطْنَا ﴾ أي على ما قدّمنا من عجزنا عن التصديق بالساعة والاعتداد لها ، وقال ابن جرير الطبري : إن الضمير في ﴿ فرّطنا فيها ﴾ يرجع إلى الصفقة ، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر ، والدنيا بالآخرة ﴿ قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ في صفقتنا ، وإن لم تذكر في الكلام ، فهو دالّ عليها ؛ لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة .

وقيل الضمير راجع إلى الحياة : أي على ما فرّطنا في حياتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(61/230)

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾ هم الكفار الذين حكيت أحوالهم لكن وضع الموصول موضع الضمير للإيذان بتسبب خسرانهم عما في حيز الصلة من التكذيب بلقاء الله تعالى والاستمرار عليه ، والمراد به لقاء ما وعد سبحانه وتعالى على ما روي عن ابن

عباس والحسن رضي الله تعالى عنهم ، وصرح بعضهم بتقدير المضاف أي لقاء جزاء بالله تعالى ، وصرح آخرون بأن لقاء الله تعالى استعارة تمثيلية عن البعث وما يتبعه .

﴿ حتى إِذَا جَاءتْهُمُ الساعة ﴾ أي الوقت المخصوص وهو يوم القيامة ، وأصل الساعة القطعة من الزمان وغلبت على الوقت المعلوم كالنجم للثريا ، وسمي ساعة لقلته بالنسبة لما بعده من الخلود أو بسرعة الحساب فيه على الباري عز اسمه .

وفسرها بعضهم هنا بوقت الموت ، والغاية المذكورة للتكذيب .

وجوز أن تكون غاية للخسران لكن بالمعنى المتعارف والكلام حينئذٍ على حد قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إلى يَوْمِ الدين ﴾ [ص : 78] أي إنك مذموم مدعو عليك باللعنة إلى ذلك اليوم فإذا جاء اليوم لقيت ما تنسى اللعن معه فكأنه قيل : خسر المكذبون إلى قيام الساعة بأنواع المحن والبلاء فإذا قامت الساعة يقعون فيما ينسون معه هذا الخسران وذلك هو الخسران المبين ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة وبغتة بالتحريك مثلها ، وبغته كمنعه فجأه أي هجم عليه من غير شعور ، وانتصابها على أنها مصدر واقع موقع الحال من فاعل ﴿ جَاءتْهُمْ ﴾ أي مباغتة أو من مفعوله أي مبغوتين ، وجوز أن تكون منصوبة على أنها مفعول مطلق لجاءتهم على حد رجع القهقرى أو لفعل مقدر من اللفظ أو من غيره .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُواْ ﴾ جواب ﴿ إِذَا ﴾ ﴿ يَا حَسْرَتَنَا ﴾ نداء للحسرة وهي شدة الندم كأنه قيل : يا حسرتنا تعالى فهذا أوانك ، قيل : وهذا التحسر وإن كان

يعتريهم عند الموت لكن لما كان الموت من مقدمات الآخرة جعل من جنس الساعة وسمي باسمها ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : " من مات فقد قامت قيامته " أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة ، وقال أبو البقاء : التقدير يا حسرة احضري هذا أوانك ، وهو نداء مجازي ومعناه تنبيه أنفسهم لتذكير أسباب الحسرة لأن الحسرة نفسها لا تطلب ولا يتأتى إقبالها وإنما المعنى على المبالغة في ذلك حتى كأنهم ذهلوا فنادوها ، ومثل ذلك نداء الويل ونحوه ولا يخفى حسنه .

﴿ قَالُواْ يَاحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا ﴾ أي على تفريطنا ، فما مصدرية فالتفريط التقصير فيما قدر على فعله ، وقال أبو عبيدة : معناه التضييع ، وقال ابن بحر : معناه السبق ومنه الفارط للسابق .

(62/230)

ومعنى فرط خلا السبق لغيره فالتضعيف فيه للسلب كجلدات البعير أزلت جلده وسلبته ﴿ فِيهَا ﴾ أي الحياة الدنيا كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أو في الساعة كما روي عن الحسن ، والمراد من التفريط في الساعة التقصير في مراعاة حقها والاستعداد لها بالإيمان والأعمال الصالحة .

وقيل : الضمير للجنة أي على ما فرطنا في طلبها ونسب إلى السدي ولا يخفى بعده ، وقول الطبرسي : "ويدل عليه ما رواه الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : " يرى أهل النار منازلهم من الجنة فيقولون : يا حسرتنا " الخ لا يخلو عن نظر لقيام الاحتمال بعد وهو يبطل الاستدلال ، وعن محمد بن جرير أن الهاء يعود إلى الصفقة لدلالة الخسران عليها وهو بعيد أيضاً ، ومثل ذلك ما قيل : إن ما موصولة بمعنى التي ، والمراد بها الأعمال والضمير عائد إليها كأنه قيل يا حسرتنا على الأعمال الصالحة التي قصرنا فيها ، نعم مرجع الضمير على هذا مذكور في كلامهم دونه على الأقوال السابقة فإنه غير مذكور فيه بل ولا في كلامه تعالى في قص حال هؤلاء القائلين على القول الأول عند بعض فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾

استئناف للتعجيب من حالهم حين يقعون يوم القيامة في العذاب على ما استداموه من الكفر الذي جرّأهم على استدامته اعتقادهم نفي البعث فذاقوا العذاب لذلك ، فتلك حالة يستحقّون بها أن يقال فيهم : قد خسِروا وخابوا .

والخسران تقدّم القول فيه عند قوله تعالى : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ في

هذه السورة [12] .

والخسارة هنا حرمان خيرات الآخرة لا الدنيا .

(63/230)

والذين كذّبوا بلقاء الله هم الذين حكي عنهم بقوله : ﴿ وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدنيا ﴾ فكان مقتضى الظاهر الإضمار تبعاً لقوله ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ [الأنعام : 27] وما بعده ، بأن يقال : قد خسروا ، لكن عُدل إلى الإظهار ليكون الكلام مستقلاً وليبنى عليه ما في الصلة من تفصيل بقوله : ﴿ حتّى إذا جاءتهم الساعة بغتة ﴾ الخ .

ولقاء الله هو ظهور آثار رضاه وغضبه دون تأخير ولا إمهال ولا وقاية بأسباب عادية من نظام الحياة الدنيا ، فلمّا كان العالم الأخروي وهو ما بعد البعث عالم ظهور الحقائق بآثارها دون موانع ، وتلك الحقائق هي مراد الله الأعلى الذي جعله عالم كمال الحقائق ، جعل المصير إليه مماثلاً للقاء صاحب الحق بعد الغيبة والاستقلال عنه زماناً طويلاً ، فلذلك سمّي البعث ملاقاة الله ، ولقاء الله ومصيراً إلى الله ، ومجيئاً إليه ، في كثير من الآيات والألفاظ النبوية ، وإلاّ فإنّ الناس في الدنيا هم في قبضة تصرّف الله لو شاء لقبضهم إليه ولعجّل إليهم جزاءهم .

قال تعالى : ﴿ ولو يعجِّل الله للنّاس الشرّ استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم ﴾ [يونس : 11] .

ولكنّه لمّا أمهلهم واستدرجهم في هذا العالم الدنيوي ورغّب ورهّب ووعَد وتوعّد كان حال الناس فيه كحال العبيد يأتيهم الأمر من مولاهم الغائب عنهم ويرغّبهم ويحذّرهم ، فمنهم من يمتثل ومنهم من يعصي ، وهم لا يلقون حينئذٍ جزاء عن طاعة ولا عقاباً عن معصية لأنّه يملي لهم ويؤخّرهم ، فإذا طوي هذا العالم وجاءت الحياة الثانية صار الناس في نظام آخر ، وهو نظام ظهور الآثار دون ريث ، قال تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ [الكهف : 49] ، فكانوا كعبيد لقُوا ربّهم بعد أن غابوا وأمهلوا .

فاللقاء استعارة تمثيلية : شبّهت حالة الخلق عند المصير إلى تنفيذ وعد الله ووعيده بحالة العبيد عند حضور سيِّدهم بعد غيبة ليجزيهم على ما فعلوا في مدّة المغيب .

(64/230)

وشاع هذا التمثيل في القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال : " من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه " ، وفي القرآن ﴿ لِيُنْذِر يوْمَ التَّلاقِي ﴾ [غافر : 15] .

وقوله : ﴿ حتّى إذا جاءتهم الساعة بغتة ﴾ (حتّى) ابتدائية ، وهي لا تفيد الغاية وإنّما

تفيد السببية ، كما صرّح به ابن الحاجب ، أي فإذا جاءتهم الساعة بغتة .

ومن المفسّرين من جعل مجيء الساعة غاية للخسران ، وهو فاسد لأنّ الخسران المقصود هنا هو خسرانهم يوم القيامة ، فأمّا في الدنيا ففيهم مَن لم يخسر شيئاً .

وقد تقدّم كلام على (حتّى) الابتدائية عند قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك ﴾ في هذه السورة [25] .

وسيجيء لمعنى (حتى) زيادة بيان عند قوله تعالى : فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته إلى قوله ﴿ حتّى إذا جاءتهم رسلنا ﴾ في سورة [الأعراف : 37] .

والساعة : علَم بالغلبة على ساعة البعث والحشر .

والبغتة فعلة من البَغْت ، وهو مصدر بغتَه الأمر إذا نزل به فجأة من غير ترقّب ولا إعلام ولا ظهور شبح أو نحوه .

ففي البغت معنى المجيء عن غير إشعار .

وهو منتصب على الحال ، فإنّ المصدر يجيء حالاً إذا كان ظاهراً تأويلُه باسم الفاعل ، وهو يرجع إلى الإخبار بالمصدر لقصد المبالغة .

وقوله : قالوا ﴾ جواب (إذا) .

و﴿ يا حسرتنا ﴾ نداء مقصود به التعجّب والتندّم ، وهو في أصل الوضع نداء للحسرة بتنزيلها منزلة شخص يسمع ويُنادي ليحضُر كأنّه يقول : يا حسرة احضري فهذا أوان

حضورك .

ومنه قولهم : يا ليتني فعلت كذا ، ويا أسفي أو يا أسفاً ، كما تقدّم آنفاً .

وأضافوا الحسرة إلى أنفسهم ليكون تحسّرهم لأجل أنفسهم ، فهم المتحسّرون والمتحسَّر عليهم ، بخلاف قول القائل : يا حسرة ، فإنّه في الغالب تحسّر لأجل غيره فهو يتحسّر لحال غيره .

(65/230)

ولذلك تجيء معه (على) التي تدخل على الشيء المتحسّر من أجله داخلة على ما يدلّ على غير التحسّر ، كقوله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد فأمّا مع (يا حسرتي ، أو يا حسرتا) فإنّما تجيء (على) داخلة على الأمر الذي كان سبباً في التحسّر كما هنا على ما فرطنا فيها ﴾ .

ومثل ذلك قولهم : يا ويلي ويا ويلِتي ، قال تعالى : ﴿ ويقولون يا ويلتنا ﴾ [الكهف : 49] ، فإذا أراد المتكلّم أنّ الويل لغيره قال : ويْلك ، قال تعالى : ﴿ ويلك آمنْ ﴾ [الأحقاف : 17] ويقولون : ويل لك .

والحسرة : الندم الشديد ، وهو التلهّف ، وهي فَعْلة من حِسر يحْسَر حَسْراً ، من باب فرح

، ويقال : تحسّر تحسّراً .

والعرب يعاملون اسم المرّة معاملة مطلق المصدر غير ملاحظين فيه معنى المرّة ، ولكنّهم يلاحظون المصدر في ضمن فرد ، كمدلول لام الحقيقة ، ولذلك يحسن هذا الاعتبار في مقام النداء لأنّ المصدر اسم للحاصل بالفعل بخلاف اسم المرّة فهو اسم لفرد من أفراد المصدر فيقوم مقام الماهية .

و﴿ فَرّطنَا ﴾ أضعنا .

يقال : فرّط في الأمر إذا تهاون بشيء ولم يحفظه ، أو في اكتسابه حتى فاته وأفلت منه .

وهو يتعدّى إلى المفعول بنفسه ، كما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام : 38] .

والأكثر أن يتعدّى بحرف (في) فيقال فرّط في ماله ، إذا أضاعه .

و﴿ مَا ﴾ موصولة ماصْدَقُها الأعمال الصالحة .

ومفعول ﴿ فرّطنا ﴾ محذوف يعود إلى ﴿ مَا ﴾ .

تقديره : ما فرّطناه وهم عامّ مثل معاده ، أي ندمنا على إضاعة كلّ ما من شأنه أن ينفعنا ففرّطناه ، وضمير ﴿ فيها ﴾ عائد إلى الساعة .

و"في" تعليلية ، أي ما فوّتناه من الأعمال النافعة لأجل نفع هذه الساعة ، ويجوز أن يكون ﴿ في ﴾ للتعدية بتقدير مضاف إلى الضمير ، أي في خيراتها .

والمعنى على ما فرّطنا في الساعة ، يَعْنُونَ ما شاهدوه من نجاة ونعيم أهل الفلاح .

ويجوز أن يعود ضمير ﴿ فيها ﴾ على الحياة الدنيا ، فيكون "في" للظرفية الحقيقية . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(66/230)

قوله تعالى ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المراد من قولهم يا حسرتنا على ما فرطنا فيها إشارة إلى أنهم لم يحصلوا لأنفسهم ما به يستحقون الثواب ، وقوله ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ إشارة إلى أنهم حصلوا لأنفسهم ما به استحقوا العذاب العظيم ، ولا شك أن ذلك نهاية الخسران .

قال ابن عباس : الأوزار الآثام والخطايا قال أهل اللغة الوزر الثقل وأصله من الحمل يقال وزرت الشيء أي حملته أزره وزرا ، ثم قيل للذنوب أوزار لأنها تثقل ظهر من عملها ، وقوله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [فاطر : 18] أي لا تحمل نفس حاملة .

قال أبو عبيدة : يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع أحمل وزرك وأوزار الحرب

أثقالها من السلاح ووزير السلطان الذي يزر عنه أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية أي يحمل .

قال الزجاج : وهم يحملون أوزارهم أي يحملون ثقل ذنوبهم ، واختلفوا في كيفية حملهم الأوزار فقال المفسرون : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله شيء هو أحسن الأشياء صورة وأطيبها ريحاً ويقول : أنا عملك الصالح طالما ركبتك في الدنيا فاركبني أنت اليوم فذلك قوله ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ [مريم : 85] قالوا ركباناً وأن الكافر إذا خرج من قبره استقبله شيء هو أقبح الأشياء صورة وأخبثها ريحاً فيقول : أنا عملك الفاسد طالما ركبتني في الدنيا فأنا أركبك اليوم فذلك قوله ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ وهذا قول قتادة والسدي .

وقال الزجاج : الثقل كما يذكر في المنقول ، فقد يذكر أيضاً في الحال والصفة يقال : ثقل على خطاب فلان ، والمعنى كرهته فالمعنى أنهم يقاسون عذاب ذنوبهم مقاساة ثقل ذلك عليهم .

(67/230)

وقال آخرون : معنى قوله ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أي لا تزايلهم أوزارهم كما تقول شخصك نصب عيني أي ذكرك ملازم لي .

ثم قال تعالى : ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ والمعنى بئس الشيء الذي يزرونه أي يحملونه والاستقصاء في تفسير هذا اللفظ مذكور في سورة النساء في قوله ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [سورة النساء : 22] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 164 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ الأوزار الخطايا والآثام قاله ابن عباس ، والظاهر أن هذا الحمل حقيقة وهو قول عمير بن هانئ وعمرو بن قيس الملائي والسدي واختاره الطبري ، وما ذكره محصوله أن عمله يمثل في صورة رجل قبيح الوجه والصورة خبيث الريح فيسأله فيقول : أنا عملك طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك فيركبه ويتخطى به رقاب الناس ويسوقه حتى يدخله النار ، ورواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى واللفظ مختلف .

وقيل : هو مجاز عبر بحل الوزر عن ما يجده من المشقة والآلام بسبب ذنوبه ، والمعنى أنهم يقاسون عقاب ذنوبهم مقاساة تثقل عليهم وهذا القول بدأ به ابن عطية ولم يذكر الزمخشري غيره قال كقوله : ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور كما ألف الكسب بالأيدي والواو في ﴿ وهم ﴾ واو الحال وأتت الجملة مصدرة بالضمير لأنه أبلغ في

النسبة إذ صار ذو الحال مذكوراً مرتين من حيث المعنى وخص الظهر لأنه غالباً موضع اعتياد الحمل ولأنه يشعر بالمبالغة في ثقل المحمول إذ يطيق من الحمل الثقيل ما لا تطيقه الرأس ولا الكاهل ، كما قال ﴿ فلمسوه بأيديهم ﴾ لأن اللمس أغلب ما يكون باليد ولأنها أقوى في الإدراك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(68/230)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أي ذنوبهم جمع وِزر .

﴿ على ظُهُورِهِمْ ﴾ مجاز وتوسّع وتشبيه بمن يحمل ثِقْلاً ؛ يقال منه : وَزَرَ يَزِر ، ووَزِرَ يُوزَر فهو وازر ومَوْزور ؛ وأصله من الوَزَر وهو الجبل .

ومنه الحديث في النساء اللواتي خرجن في جنازة : " ارجعن مَوْزوراتٍ غيرَ مأجورات "

قال أبو عبيد : والعامة تقول : "مأزورات" كأنه لا وجه له عنده ؛ لأنه من الوِزر .

قال أبو عبيد : ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع احمل وِزْرك أي ثِقْلك .

ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يُسنَد إليه من تدبير الولاية : والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها .

﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي ما أسوأ الشيء الذي يحملونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

(69/230)

وقال الثعلبى :

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ آثامهم وأفعالهم .

قال أبو عبيد : يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع : احمل وزرك ووزرتك واشتقاقه من الوزر الذي يعتصم به ولهذا قيل : وزر لأنّه كأنّه الذي يعتصم به الملك أو النبي ومنه قوله تعالى ﴿ واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي ﴾ [طه : 29-30] ﴿ على ظُهُورِهِمْ ﴾ .

قال السدي وعمرو بن قيس الملائي : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيب ريحاً ، يقول : هل تعرفني ؟ يقول : لا ، إلاّ أن اللّه عز وجل قد طيب ريحك وحسّن صورتك ، فيقول : كذلك كنت في الدنيا أنا عملك الصالح طال ما ركبتك في الدنيا فاركبني اليوم أنت .

وقرأ ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ [مريم : 85] أي ركباناً ، فإن الكافر

تستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحاً فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا إلاّ أن اللّه عز وجل قد قبح صورتك وأنتن ريحك ، فيقول : لما كان عملك في الدنيا ، أنا عملك السيء طالما ركبتني في المساء فأنا أركبك اليوم وذلك قوله ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ .

قال الزجاج : لا يزر إليهم أوزارهم ، كما يقول الضحّاك : نصب عيني وذكرك محيي قلبي ﴿ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي يحملون ويعملون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ يعني : آثامهم ﴿ على ظُهُورِهِمْ ﴾ يعني : إنهم يحملون آثامهم .

وروى أسباط عن السدي قال : ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا آتاه ملك قبيح الوجه ، أسود اللون ، منتن الريح ، عليه ثياب دنسة ، فإذا رآه قال : ما أقبح وجهك فيقول : كذلك كان عملك قبيحاً .

فيقول ما أنتن ريحك فيقول : كذلك كان عملك منتناً .

فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك .

فيكون معه في قبره .

فإذا بعث يوم القيامة قال له : إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات ، فأنت اليوم تحملني .

فيركب على ظهره حتى يدخله النار .

قال : وذلك قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ وذلك على سبيل المجاز يعني : يحملون وبال ذلك على ظهورهم وعقوبته .

ويقال : وقرت ظهورهم من الآثام .

ثقلت وحملت ، وأصل الوزر في اللغة : هو الثقل ثم قال : ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ يعني : يحملون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ وهم يحملون أوزارهم ﴾ الآية ، الواو واو الحال ، والأوزار جمع وزر بكسر الواو وهو الثقل من الذنوب ، تقول منه وزر يزر إذا حمل ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : 164] وتقول وزر الرجل فهو موزور ، قال أبو عبيد والعامة مازور ،

وأما إذا اقترن ذلك بما جوز فإن العرب تقول مأزور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنساء لقيهن مقبلات من المقابر : " ارجعن مأزورات غير مأجورات " قال أبو علي وغيره فهذا للإتباع اللفظي ، والوزر هنا تجوز وتشبيه بثقل الأحمال ، وقوى التشبيه بأن جعله على الظهور إذ هو في العادة موضع حمل الأثقال ، ومن قال إنه من الوزر وهو الجبل الذي يلجأ إليه ومنه الوزير وهو المعين فهي مقالة غير بينة ، وقال الطبري وغيره هذا على جهة الحقيقة ورووا في ذلك خبراً أن المؤمن يلقاه عمله في أحسن صورة وأفوحها فيسلم عليه ويقول له طال ما ركبتك في الدنيا وأجهدتك فاركبني اليوم ، قال فيحمله تمثال العمل ، وأن الكافر يلقاه عمله في أقبح صورة وأنتنها فيشتمه ويقول أنا عملك الخبيث طال ما ركبتني في الدنيا بشهواتك فأنا أركبك اليوم ، قال فيحمل تمثال عمله وأوزاره على ظهره ، وقوله تعالى : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ إخبار عن سوء ما يأثمون مضمن التعظيم لذلك والإشادة به ، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، وقوله ألا هل بلغت ، فإنما أراد الإشادة والتشهير وهذا كله يتضمنه ﴿ ألا ﴾ ، وأما ﴿ ساء ما يزرون ﴾ فهو خبر مجرد كقول الشاعر : [البسيط]

رَضِيت خِطَّةَ خَسْفٍ غَيْرَ طَائِلَةٍ . . . فَسَاءَ هَذا رِضى يا قَيْس غيلانَا

و﴿ ساء ﴾ فعل ماضٍ و﴿ ما ﴾ فاعلة به كما تقول ساءني أمر كذا ، ويحتمل أن تجري ﴿ ساء ﴾ هنا مجرى بئس ، ويقدر ما يقدر ل " بئس " إذ قد جاء في كتاب الله ﴿ ساء مثلاً القوم ﴾ [الأعراف : 177] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(72/230)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ حال من فاعل (قالوا) فائدتُه الإيذان بأن عذابَهم ليس مقصوراً على ما ذُكِر من الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون مع ذلك تحمُّلَ الأوزار الثِقال ، والإيماءُ إلى أن تلك الحسرةَ من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات . والسرُّ في ذلك أن العذابَ الروحانيَّ أشدُّ من الجُسمانيِّ نعوذُ برحمة الله عز وجل منهما ، والوِزر في الأصل الحِملُ الثقيل سُمِّي به الإثمُ والذنبُ لغايةِ ثِقَلِه على صاحبه ، وذكرُ الظهور كذكر الأيدي في قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ فإن المعتاد حملُ الأثقالِ على الظهور كما أن المألوفَ هو الكسبُ بالأيدي ، والمعنى أنهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات ، والحال أنهم يحمِلون

أوزارَ ما عملوا من السيئات ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لما قبله وتكملةٌ له أي بئس شيئاً يَزِرُونه وِزْرُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(73/230)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿ قَالُواْ ﴾ وهي حال مقارنة أو مقدرة .

والوزر في الأصل الثقل ويقال للذنب وهو المراد هنا أي يحملون ذنوبهم وخطاياهم كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وذكر الظهور لأن المعتاد الأغلب الحمل عليها كما في ﴿ كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] فإن الكسب في الأكثر بالأيدي .

وفي ذلك أيضاً إشارة إلى مزيد ثقل المحمول ، وجعل الذنوب والآثام محمولة على الظهر من باب الاستعارة التمثيلية ، والمراد بيان سوء حالهم وشدة ما يجدونه من المشقة والآلام والعقوبات العظيمة بسبب الذنوب ، وقيل : حملها على الظهر حقيقة وإنها تجسم ، فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنه قال : "ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره

إلا جاءه رجل قبيح الوجه أسود اللون منتن الريح عليه ثياب دنسة حتى يدخل معه قبره فإذا رآه قال ما أقبح وجهك ؟ قال كذلك كان عملك قبيحاً قال : ما أنتن ريحك ؟ قال : كذلك كان عملك منتناً قال : ما أدنس ثيابك فيقول : إن عملك كان دنساً قال من أنت ؟ قال : أنا عملك فيكون معه في قبره فإذا بعث يوم القيامة قال له إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات فأنت اليوم تحملني فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار"

وأخرجا عن عمرو بن قيس قال : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن شيء صورة وأطيبه ريحاً فيقول له : هل تعرفني ؟ فيقول : لا إلا أن الله تعالى قد طيب ريحك وحسن صورتك فيقول : كذلك كنت في الدنيا أنا عملك الصالح طالما ركبتك في الدنيا فاركبني أنت اليوم وتلا

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ [مريم : 58] وإن كان الكافر يستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحاً فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا إلا أن الله تعالى قد قبح صورتك ونتن ريحك فيقول : كذلك كنت في الدنيا أنا عملك السيء طالما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك وتلا ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ ﴾ الآية .

وبعضهم يجعل كل ما ورد في هذا الباب مما ذكر تمثيلاً أيضاً ، ولا مانع من الحمل على الحقيقة وإجراء الكلام على ظاهره ، وقد قال كثير من أهل السنة بتجسيم الأعمال في تلك الدار وهو الذي يقتضيه ظاهر الوزن .

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ تذييل مقرر لما قبله وتكملة له ، و﴿ سَاءَ ﴾ تحتمل كما قيل هنا ثلاثة أوجه ، أحدها : أن تكون المتعدية المتصرفة وزنها فعل بفتح العين ، والمعنى ألا ساءهم ما يزرون ؛ و(ما) موصولة أو مصدرية أو نكرة موصوفة فاعل لها والكلام خبر ، وثانيها : أنها حولت إلى فعل اللازم بضم العين واشربت معنى التعجب ، والمعنى ما أسوأ الذي يزرونه أو ما أسوأ وزرهم .

وثالثها : أنها حولت أيضاً للمبالغة في الذم فتساوي بئس في المعنى والأحكام . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ قالوا ﴾ ، أي قالوا ذلك في حال أنّهم يحملون أوزارهم فهُم بين تلهّف على التفريط في الأعمال الصالحة والإيمان وبين مقاساة العذاب على الأوزار التي اقترفوها ، أي لم يكونوا محرومين من خير ذلك اليوم فحسب بل كانوا مع ذلك متعبين مثقلين بالعذاب .

والأوزار جمع وِزر بكسر الواو ، وهو الحمل الثقيل ، وفعله وزَرَ يَزِرُ إذا حمل .

ومنه قوله هنا ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ .

وقوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : 164] .

وأطلق الوزر على الذنب والجناية لثقل عاقبتها على جانيها .

وقوله : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ تمثيل لهيئة عنتهم من جرّاء ذنوبهم بحال من يحمل حملاً ثقيلاً .

وذكْر ﴿ على ظهورهم ﴾ هنا مبالغة في تمثيل الحالة ، كقوله تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : 30] .

فذكر الأيدي لأنّ الكسب يكون باليد ، فهو يشبه تخييل الاستعارة ولكنّه لا يتأتّى التخييل في التمثيلية لأنّ ما يذكر فيها صالح لاعتباره من جملة الهيئة ، فإنّ الحمل على الظهر مؤذن بنهاية ثقل المحمول على الحامل .

ومن لطائف التوجيه وضع لفظ الأوزار في هذا التمثيل ؛ فإنّه مشترك بين الأحمال الثقيلة وبين الذنوب ، وهم إنَّما وقعوا في هذه الشدّة من جرّاء ذنوبهم فكأنّهم يحملونها لأنّهم يعانون شدّة آلامها .

وجملة : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ تذييل .

و(ألا) حرف استفتاح يفيد التنبيه للعناية بالخبر .

و ﴿ ساء ما يزرون ﴾ إنشاء ذمّ .

و﴿ يزرون ﴾ بمعنى ﴿ يحملون ﴾ ، أي ساء ما يمثّل من حالهم بالحمْل .

و﴿ ما يزرون ﴾ فاعل ﴿ ساء ﴾ .

والمخصوص بالذمّ محذوف ، تقديره : حَمْلُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(75/230)

" فائدة "

قال النسفى :

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ آثامهم ﴿ على ظُهُورِهِمْ ﴾ خص الظهر لأن المعهود حمل الأثقال على الظهور كما عهد الكسب بالأيدي ، وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 9 ﴾

لطيفة

قال الثعالبى :

قال عَبد الحق في "العَاقِبَةِ" : لا يَعْرِفُ مِقْدَارَ الحياة إلا الموتى ؛ لأنهم قد ظَهَرَتْ لهم الأمور ، وانكشفت لهم الحَقَائِقُ ، وتَبَدَّتْ لهم المَنَازِلُ ، وعلموا مِقْدَارَ الأعمال الصَّالِحَةِ ، ولما

اسْتَبَانَ لهم ذلك ، وعلموا مِقْدَارَ ما ضيعوا ، وقيمة ما فيه فَرَّطُوا ، نَدِمُوا وَأَسِفُوا ، وودُّوا أنهم إلى الدنيا رَجَعُوا ، فالذي عمل صالحًا ودَّ أن لو رَجَعَ إلى الدنيا لِيَزْدَادَ من عَمَلِهِ الصالح ، ويكثر من تَجْرِهِ الرابح ، والمُقَصِّرُ يَوَدُّ أنه لو رُدَّ ليستدرك ما فيه فَرَّطَ ، وقد قال عليه السَّلَامُ : " ما مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إلاَّ نَدِمَ " قَالُوا : وَمَا نَدَامَتُهُ يا رسول اللَّه ؟ قال : " إنْ كَانَ مُحْسِنا نَدِمَ ألاَّ يكون ازْدَادَ ، وإن كَانَ مُسِيئاً نَدِمَ ألا يَكُونَ نَزَعَ " خرجه الترمذي . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(76/230)

وقال الشيخ محمد أبو زهرة :

قوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله ﴾

الكلام موصول فى الكفر باليوم الآخر وأثره النفسى والاعتقادى ، وما يترتب على الكفر باليوم الآخر جحود النبوات ، ولقد ابتدأ سبحانه بما يتصل بما قبله ، فقال تعالى : (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها .

بين الله سبحانه وتعالى فى هذا النص أن الذين يكذبون باليوم الآخر تصيبهم خسارة ،

وخسرانهم أولا لأنهم يفقدون العزاء الروحى الذى يصيب كل إنسان مما يعانى فى الحياة ، فلو كانت الحياة الدنيا لا حياة بعدها يكون الشقاء النفسى المقيم لكل من يصيبه ألم فيها ، أو يقع فى نفسه أنه فى شقاء لأنها فيها السعادة فى زعمه ، ولأنه بفقد معانى الإنسانية ، إذ يكون كالحيوان الذى يأكل ليعيش ، ويعيش ليأكل فيفقد كل المعنويات العالية ، ولأنه ثالثا ، يرتع فى الشهوات الموبقة ، ولأنه رابعا يكون فى تناحر مستمر ، إذ لا يخشى الله ولا يرهب عقابه ، وأخيرا يخسر بتلقى العذاب الذى يقع عليه يوم تقوم القيامة ، وعبر عن قيام القيامة واليوم الآخر بلقاء الله تعالى تشريفا لذلك اليوم ، ولأنه له الولاية الحق فى ذلك ، فلا ولاية ولو ظاهرية لغيره ولا ملك لغيره ولو كان ظاهريا ، وفيه ترغيب فى الإيمان باللقاء ، وترهيب من تكذيبه ، وإنهم إذ يكذبون يستمرون فى ضلالهم حتى تجيئهم الساعة بغتة أو فجأة من غير أن يكونوا على أهبة لها ، وهنا يرد للنظر أمور .

أولها – ما معنى (حتى تأتيهم الساعة) ، أى ما مقام (حتى) أهى للغاية أم للتفريع ؟ وإذا كان للغاية فمن أين الابتداء ؟ يقول الزمخشرى : إنها متعلقة ب (يكذبون) أى أنهم يستمرون فى تكذيبهم وغلوائهم حتى تجىء إليهم الساعة وهم فى غيهم يعمهون .

ثانيها – ما المراد بالساعة ؟ واضح أنها القيامة فذلك تعبير قرآنى عنها ، ومن

ذلك قوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفسى ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت . . . لقمان ، وسميت القيامة ساعة ؟ لأنها تحمل أشد الأهوال ، ولأنها فاصلة بين نوعين

من الحياة ، حياة فانية وأخرى باقية ، حياة عمل ، وحياة جزاء .

الثالثة – الساعة تجىء من غير علم بوقتها للجميع فكيف تكون بغتة للذين كذبوا بلقاء الله دون غيرهم ،

والجواب عن ذلك أن الذين آمنوا بلقاء الله تعالى يتوقعونها ، وإن لم يعلموا وقتها ، أما الذين كذبوا فهم يكفرون بها فيفاجأون بها ، وإن الذين آمنوا يرجون لقاء ربهم ، ويرجون رحمته ، وأما الذين كفروا بلقاء الله تعالى فلا رجاء عندهم .

أولئك الذين تجيئهم القيامة ولقاء ربهم بغتة ويرون العذاب ، تصيبهم حسرة ، أى غم شديد ، وقد قال الأصفهانى فى تفسير الحسرة ما نصه : (الحسرة الغم على ما قاله والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه ، وانحسرت قواه إذا انحسرت قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه) .

والتفريط هو الإهمال وعدم العناية والغفلة عما يجب للأمر .

والضمير فى قوله تعالى (فيها) هو يعود إلى الحياة عند بعض العلماء ولكن

ليس لها مذكور سابق إلا أن يكون ما ذكروه من قبل ، وقولهم : (. . . إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) الأنعام ، ، والحق فى نظرى أنه يعود إلى الساعة وتفريطهم فيها هو عدم التفاتهم لها ، وغفلتهم عن ذكرها ، فكانوا يعملون مخير مرتقبين لها ، بل غافلين عنها .

ونادوا الحسرة مضافة إليهم قائلين (يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) ؟ لبيان أنهم فى حال غم وحزن ، وينادون حسرتهم التى تلازمهم كأن هذا وقتها ولا وقت ألزم وأنسب لها من هذا الوقت .

(وهم يحملون أوزارهم علىٰ ظهورهم ألا ساء ما يزرون) .

الوزر الحمل الثقيل ، وسمى به الإثم والذنب ؟ لأنه أثقل الأحمال النفسية

(78/230)

التى تنوء به القوة ، والجملة استعارة تمثيلية لما يثقلون به يوم القيامة من أثقال الآثام ، فقد شبهت حال من يحمل الآثام الثقال الكثيرة بحال من يحمل الأحمال الثقال على ظهره وينوء بها ؟ لأن كليهما ثقيل ، الآثام لوباءتها وعذابها ، وقد رشح سبحانه للمشبه به فى قوله تعالى : (ألاساء ما يزرون) فإن هذا بيان لسوء ما يحملون ،

وقد ابتدأ بـ (ألا) الدالة على التنبيه ، ثم التعجب من شدة ما يحملون ، وساء وأساء :

تستعمل للتعجب ، فمعنى (ساء ما يزرون) ما أسوأ ما يزرون وما يحملون لسوء عاقبته ، وما وراءه من عذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 2480.2482 ﴾

(79/230)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) .

أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا كَزَعْمِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا ، أَوْ أَنَّ غَيْرَهُ يُدْعَى مَعَهُ أَوْ مِنْ دُونِهِ وَيُتَّخَذُ وَلِيًّا لَهُ يُقَرِّبُ النَّاسَ إِلَيْهِ زُلْفَى وَيَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَهُ ، أَوْ زَادَ فِي دِينِهِ

مَا لَيْسَ مِنْهُ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ كَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، أَوْ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ أَوِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا رُسُلَهُ ، وَإِذَا كَانَ كُلٌّ مِنْ هَذَا التَّكْذِيبِ وَذَلِكَ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ يُعَدُّ وَحْدَهُ غَايَةً فِي الظُّلْمِ وَيُطْلَقُ عَلَى صَاحِبِهِ اسْمُ التَّفْضِيلِ فِيهِ فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَكَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُثْبِتَةِ لِلتَّوْحِيدِ وَالْمُثْبِتَةِ لِلرِّسَالَةِ ؟

ثُمَّ بَيَّنَ سُوءَ عَاقِبَةِ الظَّالِمِينَ فَقَالَ : (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) هَذَا اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ وَقَعَ مَوْقِعَ

جَوَابِ السُّؤَالِ ، أَيِ الْحَالُ وَالشَّأْنُ أَنَّ الظَّالِمِينَ عَامَّةً لَا يَفُوزُونَ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ بِالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى ، وَلَا بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ مَهْمَا يَكُنْ نَوْعُ ظُلْمِهِمْ فَكَيْفَ تَكُونُ عَاقِبَةُ مَنْ وُصِفَ بِأَنَّهُ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ لِافْتِرَائِهِ عَلَى اللهِ تَعَالَى أَوْ لِتَكْذِيبِهِ بِآيَاتِهِ أَوْ عَاقِبَةُ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فَكَانَ أَظْلَمَ الظَّالِمِينَ ؟

(80/230)

الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْكَافِرِينَ ، فَلِهَذَا يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْ صِدْقِهَا عَلَى مَنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَهُوَ يُسَمِّي نَفْسَهُ أَوْ يُسَمِّيهِ النَّاسُ مُؤْمِنًا أَوْ مُسْلِمًا ، كَأَنْ يَقُولَ بِقَوْلِ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ فَيَتَّخِذَ غَيْرَ اللهِ وَلِيًّا وَيَدْعُوهُ لِيَشْفَعَ عِنْدَهُ ، أَوْ يَزِيدَ فِي دِينِ اللهِ بِرَأْيِهِ فَيَقُولُ : هَذَا وَاجِبٌ وَهَذَا حَلَالٌ ، وَهَذَا حَرَامٌ فِيمَا لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ بِهِ وَحْيًا وَلَا كَانَ مِمَّا بَلَّغَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دِينِهِ

.

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى مَا فِي نَفْيِ الْفَلَاحِ مِنَ الْإِجْمَالِ فَقَالَ : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) أَيْ وَاذْكُرْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ فِي ظُلْمِ أَنْفُسِهِمْ بِأَنْوَاعِهِ وَظُلْمِ غَيْرِهَا بِأَنْوَاعِهِ ، ثُمَّ نَقُولُ

(81/230)

لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مِنْهُمْ وَهُمْ أَشَدُّهُمْ ظُلْمًا أَيْنَ الشُّرَكَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يُضَافُونَ إِلَيْكُمْ لا تَتَّخِذُكُمْ إِيَّاهُمْ أَوْلِيَاءَ فِيكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ يُدْعَوْنَ وَيُسْتَعَانُونَ كَمَا يُدْعَى وَيُسْتَعَانُ ، وَأَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَكُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى وَيَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَهُ ؟ فَأَيْنَ ضَلُّوا عَنْكُمْ فَلَا يُرَوْنَ مَعَكُمْ ؟ كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ 6 : 94) وَقَدْ قَرَأَ يَعْقُوبُ (يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ) بِالْيَاءِ وَالْمَعْنَى ظَاهِرٌ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالِاحْتِجَاجِ . . (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ

عَامِرٍ وَحَفْصٌ " لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ " بِالتَّاءِ وَالرَّفْعِ ، وَنَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبُو بَكْرٍ عَنْهُ بِالتَّاءِ وَالنَّصْبِ وَالْبَاقُونَ " لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ " بِالتَّاءِ وَالرَّفْعِ ، وَنَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبُو بَكْرٍ عَنْهُ بِالتَّاءِ وَالنُّصْبِ وَالْبَاقُونَ " لَمْ يَكُنْ فِتْنَتَهُمْ " بِالْيَاءِ وَالنَّصْبِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ فِي الْمَعْنَى ، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُقَدِّمُ اسْمَ تَكُنْ عَلَيْهَا وَبَعْضَهَا يُؤَخِّرُهُ ، وَبَعْضُهُمْ يُذَكِّرُ الْفِعْلَ وَبَعْضُهُمْ يُؤَنِّثُهُ ، وَكُلُّ ذَلِكَ جَائِزٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ . وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ " رَبَّنَا " بِالْفَتْحِ عَلَى النِّدَاءِ أَيْ يَا

رَبِّنَا . وَالْبَاقُونَ بِالْجَرِّ عَلَى الصِّفَةِ . وَالْفِتْنَةُ الِاخْتِبَارُ ، وَفُسِّرَتْ هُنَا بِالْقَوْلَةِ وَالْكَلَامِ وَالْجَوَابِ وَبِالشِّرْكِ وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ مُضَافًا مَحْذُوفًا فَقَالَ : إِنَّ الْمَعْنَى ثُمَّ لَمْ تَكُنْ عَاقِبَةُ هَذَا الِاخْتِبَارِ أَوِ الشِّرْكِ إِلَّا إِقْسَامَهُمْ بِاللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ مَا كَانُوا مُشْرِكِينَ .

(83/230)

ظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِ الْحَشْرِ شِرْكَهُمْ بِاللَّهِ تَوَهُّمًا مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِهِ فِي بَعْضِهَا كَمَا يُعْلَمُ مِنْ آيَاتٍ أُخْرَى ، وَاسْتَشْكَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ هَذَا الْمَعْنَى ، وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ الْإِنْكَارَ فِي الْقِيَامَةِ مُتَعَذِّرٌ ، وَبِأَنَّ اعْتِرَافَهُمْ بِالشِّرْكِ ثَابِتٌ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ : (هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ) (16 : 86) وَقَوْلِهِ : (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) (4 : 42) وَرُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنِ الْآيَةِ وَعَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) فَقَالَ : أَمَّا قَوْلُهُ : (وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) فَخَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ (وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ فِي اعْتِقَادِنَا لِأَنَّنَا مَا كُنَّا نَدْعُو غَيْرَكَ اسْتِقْلَالًا بَلْ تَوَسُّلًا إِلَيْكَ ، لِيَكُونَ مَنْ نَدْعُوهُمْ شُفَعَاءَ لَنَا عِنْدَكَ يُقَرِّبُونَنَا إِلَيْكَ زُلْفَى ، لِأَنَّنَا كُنَّا نَسْتَصْغِرُ أَنْفُسَنَا أَنْ نَتَسَامَى إِلَى دُعَائِكَ كِفَاحًا بِلَا وَاسِطَةٍ وَمَا هَذَا إِلَّا تَعْظِيمٌ لَكَ . وَقَدْ أَوْرَدَ عَلَى هَذَا

التَّفْسِيرِ أَنَّهُ لَا يَلْتَئِمُ مَعَ قَوْلِهِ بَعْدَ هَذِهِ الْحِكَايَةِ عَنْهُمْ : (انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) وَأُجِيبُ عَنِ الْإِيرَادِ بِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِزَعْمِهِمْ أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا

(84/230)

شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنَّ هَذَا تَعْظِيمٌ لِلَّهِ لَا كُفْرٌ بِهِ ، وَيَرُدُّ هَذَا الْقَوْلَ تَصْرِيحُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ بِأَنَّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ شِرْكٌ وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ لِأَنَّهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، وَهَؤُلَاءِ كَجَبْرِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ أَنْكَرَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الشُّبْهَةَ فِي قَوْلِهِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) (148) إلَخْ . نَعَمْ إنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ مُسْلِمِينَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى فِي حَالِ الشِّدَّةِ وَالضِّيقِ الَّتِي كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يُخْلِصُونَ فِيهَا الدُّعَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَ هَذَا شِرْكًا كَمَا كَانَ يُسَمِّيهِ الْمُشْرِكُونَ ، بَلْ يُسَمُّونَهُ تَوَسُّلًا أَوِ اسْتِشْفَاعًا أَوْ وَسَاطَةً .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا : (انْظُرْ) مِنَ النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ ، وَكَذِبُ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ ثَابِتٌ بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ 58 : 18) .

قَالَ الزَّجَّاجُ : تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ حَسَنٌ فِي اللُّغَةِ لَا يَعْرِفُهُ إلَّا مَنْ وَقَفَ عَلَى مَعَانِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ كَوْنَ الْمُشْرِكِينَ مَفْتُونِينَ بِشِرْكِهِمْ مُتَهَالِكِينَ فِي حُبِّهِ ، فَذَكَرَ أَنَّ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمُ الَّذِي لَزِمُوهُ أَعْمَارَهُمْ وَقَاتَلُوا عَلَيْهِ وَافْتَخَرُوا بِهِ وَقَالُوا إنَّهُ دِينُ آبَائِنَا لَمْ تَكُنْ إلَّا الْجُحُودَ وَالتَّبَرُّؤَ مِنْهُ وَالْحَلِفَ عَلَى عَدَمِ التَّدَيُّنِ بِهِ ، وَمِثَالُهُ أَنْ نَرَى إنْسَانًا يُحِبُّ شَخْصًا مَذْمُومَ الطَّرِيقَةِ فَإِذَا وَقَعَ فِي مِحْنَةٍ بِسَبَبِهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، فَيُقَالُ لَهُ : مَا كَانَتْ مَحَبَّتُكَ أَيْ عَاقِبَةُ مَحَبَّتِكَ لِفُلَانٍ إلَّا أَنْ تَبَرَّأْتَ مِنْهُ وَتَرَكْتَهُ . فَعَلَى هَذَا تَكُونُ فِتْنَتُهُمْ هِيَ شِرْكُهُمْ فِي الدُّنْيَا كَمَا فَسَّرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ وَهُوَ الْعَاقِبَةُ .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) .

كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَصْنَافًا مُتَفَاوِتِينَ فِي الْفَهْمِ وَالْعَقْلِ وَفِي الْكُفْرِ وَأَسْبَابِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ أَحْوَالَ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ فِي كِتَابِهِ فَمِنْهُمْ أَصْحَابُ الذَّكَاءِ وَاللَّوْذَعِيَّةِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْمَعُونَ هَذَا الْقُرْآنَ وَيَعْقِلُونَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا هُوَ بِالَّذِي يَسْتَطِيعُ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ فِي نَظْمِهِ وَفَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ ، وَلَا فِي عُلُومِهِ وَحِكَمِهِ وَمَعَارِفِهِ إذْ لَوْ كَانَ مِثْلُهُ

(87/230)

مِمَّا تَصِلُ إلَيْهِ قُدْرَتُهُ لَظَهَرَ عَلَى لِسَانِهِ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِهِ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ فِيمَا مَضَى مِنْ حَيَاتِهِ وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً وَنَيِّفٌ وَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُقِيمَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْحُجَّةَ بِقَوْلِهِ : (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (10 : 16) وَمَا كَانَ كُفْرُ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ إلَّا عَنْ كِبْرٍ وَعِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ لِلْحَقِّ . وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُعْرِضُ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ خَشْيَةَ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي قَلْبِهِ ، وَيَنْزِعَهُ مِنَ الدِّينِ الَّذِي أَلِفَهُ طُولَ عُمُرِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُصْغِي سَمْعَهُ إلَى الْقُرْآنِ بِقَصْدِ الِاكْتِشَافِ وَالِاخْتِبَارِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعْقِلُ الْمُرَادَ مِنْهُ وَلَا يَفْقَهُ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ ، إمَّا لِعَدَمِ تَوَجُّهِ ذِهْنِهِ إلَى ذَلِكَ لِعَرَاقَتِهِ فِي التَّقْلِيدِ وَالْأُنْسِ بِمَا دَرَجَ عَلَيْهِ الْآبَاءُ وَهُوَ الْأَكْثَرُ ، وَإِمَّا لِلْبَلَادَةِ وَانْحِطَاطِ الْكُفْرِ عَنِ التَّسَامِي إلَى هَذِهِ الْمَعَارِفِ الْعَالِيَةِ فِيهِ ، وَكَانَ هَذَا قَلِيلًا فِي الْعَرَبِ وَلَا سِيَّمَا

أَهْلُ مَكَّةَ وَهُمْ أَفْصَحُ قُرَيْشٍ الَّتِي هِيَ أَفْصَحُ الْعَرَبِ . وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ هَذَا الْفَرِيقِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ حَظُّهُ مِنَ الِاسْتِمَاعِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا كَحَظِّ النَّعَمِ مِنْ سَمَاعِ أَصْوَاتِ الْبَشَرِ فَقَالَ : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) أَيُّهَا الرَّسُولُ إِذَا تَلَوْتَ الْقُرْآنَ دَاعِيًا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ مُنْذِرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) أَيْ

(88/230)

وَجَعَلْنَا عَلَى آلَةِ الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهِيَ قَلْبُ الْإِنْسَانِ وَلُبِّهِ أَغْطِيَةً حَائِلَةً دُونَ فِقْهِهِ وَنُفُوذِ الْأَفْهَامِ إِلَى أَعْمَاقِ عَمَلِهِ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا أَيْ ثِقَلًا أَوْ صَمَمًا حَائِلًا دُونَ سَمَاعِهِ بِقَصْدِ التَّدَبُّرِ وَاسْتِبَانَةِ الْحَقِّ . وَمَعْنَى هَذَا الْجَعْلِ مَا مَضَتْ بِهِ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنْ كَوْنِ التَّقْلِيدِ الَّذِي يَخْتَارُهُ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ يَكُونُ مَانِعًا لَهُ بِاخْتِيَارِهِ مِنَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَالْبَحْثِ عَنِ الْحَقَائِقِ ، فَهُوَ لَا يَسْتَمِعُ إِلَى مُتَكَلِّمٍ وَلَا دَاعٍ لِأَجْلِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى سَمْعِهِ قَوْلٌ مُخَالِفٌ لِمَا هُوَ دِينٌ لَهُ أَوْ عَادَةٌ لَا يَتَدَبَّرُهُ وَلَا يَرَاهُ جَدِيرًا بِأَنْ يَكُونَ مَوْضُوعَ الْمُقَابَلَةِ وَالتَّنْظِيرِ مَعَ مَا عِنْدَهُ مِنْ عَقِيدَةٍ أَوْ رَأْيٍ أَوْ عَادَةٍ ، وَجَعْلُ الْأَكِنَّةِ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْوَقْرِ فِي الْآذَانِ فِي الْآيَةِ مِنْ تَشْبِيهِ الْحُجُبِ وَالْمَوَانِعِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، بِالْحُجُبِ وَالْمَوَانِعِ الْحِسِّيَّةِ ، فَإِنَّ الْقَلْبَ الَّذِي لَا يَفْقَهُ الْحَدِيثَ وَلَا يَتَدَبَّرُهُ كَالْوِعَاءِ الَّذِي وُضِعَ عَلَيْهِ

الْكِنُّ أَوِ الْكِنَانُ وَهُوَ الْغِطَاءُ حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهِ شَيْءٌ ، وَالْآذَانُ الَّتِي لَا تَسْمَعُ الْكَلَامَ سَمَاعَ فَهْمٍ وَتَدَبُّرٍ كَالْآذَانِ

(89/230)

الْمُصَابَةِ بِالثِّقَلِ أَوِ الصَّمَمِ لِأَنَّ سَمْعَهَا وَعَدَمَهُ سَوَاءٌ ، وَالْأَكِنَّةُ جَمْعُ كِنَانٍ كَالْأَسِنَّةِ جَمْعُ سِنَانٍ ، وَالْوَقْرُ بِالْفَتْحِ الثِّقَلُ فِي السَّمْعِ وَالصَّمَمُ وَبِالْكَسْرِ الْحَمْلُ ، يُقَالُ : وَقَرَ سَمْعُهُ يَقِرُ فَهُوَ مَوْقُورٌ ، إذَا كَانَ لَا يَسْمَعُ ، وَأَوْقَرَ الدَّابَّةَ فَهِيَ مُوَقَّرَةٌ .

(وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا) يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ مَا يَتْلُو عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ وَلَا يَفْقَهُونَ كُنْهَ مَا يَدْعُو إلَيْهِ : وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِك وَصِدْقِ دَعْوَتِك وَحَقِيقَةِ مَا تَدْعُو إلَيْهِ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، لِأَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَهَا وَلَا يُدْرِكُونَ كُنْهَ الْمُرَادِ مِنْهَا ، لِعَدَمِ التَّوَجُّهِ أَوْ لِوُقُوفِ أَسْمَاعِهِمْ عِنْدَ ظَوَاهِرِ الْأَلْفَاظِ .

(90/230)

(حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ) أَيْ حَتَّى إِذْ صَارُوا إِلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ مُجَادِلِينَ لَكَ فِي دَعْوَتِكَ (يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أَيْ يَقُولُونَ لِإِصْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَانْتِقَاءِ فِقْهِهِمْ : مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْأُمَمِ ، أَيْ قِصَصُهُمْ وَخُرَافَاتُهُمْ ، يَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ فِي قَصَصِ الْأُمَمِ مَعَ رُسُلِهِمْ إِلَّا أَنَّهَا حِكَايَاتٌ وَخُرَافَاتٌ تُسَطَّرُ وَتُكْتَبُ كَغَيْرِهَا ، فَلَا عِلْمَ فِيهَا وَلَا فَائِدَةَ مِنْهَا ، وَرُبَّمَا جَعَلُوا الْقُرْآنَ كُلَّهُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قِيَاسًا لِمَا لَمْ يَسْمَعُوا عَلَى مَا سَمِعُوا ، أَوْ لِغَيْرِ الْقَصَصِ عَلَى الْقَصَصِ .

وَهَكَذَا شَأْنُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ نَظَرًا سَطْحِيًّا لَا لِيَسْتَنْبِطَ مِنْهُ عِلْمًا وَلَا بُرْهَانًا ، وَمَنْ يَسْمَعُ الْكَلَامَ جَرْسًا لَفْظِيًّا لَا يَتَدَبَّرُهُ وَلَا يَفْقَهُ أَسْرَارَهُ ، فَمَثَلُ هَذَا وَذَاكَ كَمَثَلِ الطِّفْلِ الَّذِي يُشَاهِدُ أَلْعَابَ الصُّوَرِ الْمُتَحَرِّكَةِ يُدِيرُهَا قَوْمٌ لَا يَعْرِفُ لُغَتَهُمْ ، فَكُلٌّ حَظُّهُ مِمَّا يَرَى مِنَ الْمَنَاظِرِ وَمِنَ الْمَكْتُوبَاتِ الْمُفَسِّرَةِ لَهَا لَا يَعْدُو التَّسْلِيَةَ . وَلَوْ عَقَلَ هَؤُلَاءِ الْمُقَلِّدُونَ الْغَافِلُونَ قَصَصَ الْقُرْآنِ وَتَدَبَّرُوا مَعَانِيَهَا لَكَانَ لَهُمْ مِنْهَا آيَاتٌ بَيِّنَةٌ عَلَى صِدْقِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنُذُرٌ عَظِيمَةٌ مِمَّا فِيهَا مِنْ بَيَانِ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ ، وَعَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ مَعَ الرُّسُلِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ

(91/230)

الْحِكَمِ وَالْعِبَرِ .

وَإِنَّ فِي أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ مَنْ لَا يَكْفُرُ فِي إِتْيَانِ الْأُمِّيِّ النَّاشِئِ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ بِخُلَاصَةِ أَخْبَارِ أَشْهَرِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ لِأَنَّهُ يَرَى أَوْ يَسْمَعُ أَنَّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ يُشْبِهُ مَا فِي غَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَكُتُبِ التَّارِيخِ ، وَلَا يَرَى فِي هَذَا مَا يَبْعَثُهُ إِلَى الْبَحْثِ فِي الْفُرُوقِ بَيْنَ مَا فِي الْقُرْآنِ وَمَا فِي غَيْرِهِ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ سَبَقَ بَيَانُهَا فِي بَحْثِ الْإِعْجَازِ [رَاجِعْ ص 169 181 ج 1 ط الْهَيْئَةِ] وَأَهَمُّهَا فِي بَابِ إِثْبَاتِ نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَوْنُهُ ظَهَرَ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ أُمِّيٍّ لَمْ يَقْرَأْ وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الدِّينِ وَلَا كُتُبِ التَّارِيخِ ، وَقَدِ احْتَجَّ بِهَذَا عَلَى قَوْمِهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِمَّنِ انْتَصَبُوا لِعَدَاوَتِهِ أَنْ يَرْفَعَ فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ رَأْسًا أَوْ يَنْبِسَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ بِكَلِمَةٍ : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) (11 : 49) .

(92/230)

فَإِذَا كَانَ فِي أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ مَنْ لَا يُفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْبَيِّنَةِ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ خَاصَّةٌ بِقَصَصِ الْقُرْآنِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ السَّبَبِ ، وَمَنْ لَا يُفَكِّرُ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ بِبَلَاغَتِهِ بَعْدَ أَنْ عَاشَ النَّبِيُّ ثُلُثَيْ عُمُرِهِ قَبْلَهُ وَلَمْ يَكُنْ فِي كَلَامِهِ مَا هُوَ مُعْجِزٌ ، فَإِنَّ

كُفَّارَ قُرَيْشٍ لَمْ يَكُونُوا يَسْتَطِيعُونَ إنْكَارَ كَوْنِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أُمِّيًّا مِثْلَهُمْ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ ، وَلَا كَانَ مُمْتَازًا بِالْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ فِيهِمْ ، وَلَكِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَجْهَلُ مَا يَعْرِفُهُ أَهْلُ هَذَا الْعَصْرِ مِنْ كَوْنِ تِلْكَ الْقَصَصِ كَانَتْ صَحِيحَةً لَا مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ وَأَوْضَاعِهِمُ الْخُرَافِيَّةِ الَّتِي لَا يَثْبُتُ لَهَا أَصْلٌ وَلِأَجْلِ هَذَا سَأَلَ بَعْضُهُمُ الْيَهُودَ عَنْهَا . كَمَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَجْهَلُ مَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْعِبَرِ لِعَدَمِ تَدَبُّرِهَا .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى :

الْأُسْطَارَةُ لُغَةً : الْخُرَافَاتُ وَالتُّرَّهَاتُ وَهِيَ الَّتِي تُجْمَعُ عَلَى أَسَاطِيرَ ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ : وَاحِدُ الْأَسَاطِيرِ أُسْطُورَةٌ .

(93/230)

(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) ضَمِيرُ " وَهُمْ " عَائِدٌ إلَى الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجَاحِدِينَ لِنُبُوَّتِهِ الَّذِينَ وَرَدَ هَذَا السِّيَاقُ بِطُولِهِ فِيهِ . لَا إلَى الْفَرِيقِ الَّذِي ذَكَرَ أَخِيرًا فِي قَوْلِهِ : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ) وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْأَوْنَ أَيْ يَبْعُدُونَ عَنْهُ لِيَكُونُوا نَاهِينَ مُنْتَهِينَ . وَالنَّأْيُ عَنْهُ يَشْمَلُ الْإِعْرَاضَ عَنْ سَمَاعِهِ وَالْإِعْرَاضَ عَنْ هِدَايَتِهِ . وَقِيلَ : إنَّ الْمَعْنَى يَنْهَوْنَ عَنِ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ يَنْهَوْنَ الْعَرَبَ عَنْ حِمَايَتِهِ وَمَنْعِهِ وَعَنِ اتِّبَاعِهِ وَالسَّمَاعِ لَهُ جَمِيعًا ، وَيَبْعُدُونَ عَنْهُ بَعْدَ جَفَاءٍ وَعَدَاوَةٍ (وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) أَيْ وَمَا يُهْلِكُونَ بِذَلِكَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ ، بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَقْضُونَ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . وَهَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ وَإِخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ فَقَدْ هَلَكَ جَمِيعُ الَّذِينَ أَصَرُّوا عَلَى عَدَاوَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُهُمْ بِالنِّقَمِ الْخَاصَّةِ ، وَبَعْضُهُمْ فِي بَدْرٍ ، ثُمَّ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْغَزَوَاتِ ، وَيَلِي هَذَا الْهَلَاكَ الدُّنْيَوِيَّ هَلَاكُ الْآخِرَةِ ، وَلَفْظُ الْآيَةِ يَشْمَلُهَا وَهُوَ فِي هَلَاكِ الدُّنْيَا أَظْهَرُ .

(94/230)

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَنَا فِي الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ هَاتَيْنِ حَالَ مَنْ فَقَدُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلْإِيمَانِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَخَصَّ بِالذِّكْرِ طَائِفَةً مِنْهُمْ وَهِيَ الَّتِي تُلْقِي السَّمْعَ مُصْغِيَةً لِلْقُرْآنِ وَلَا يَدْخُلُ مِنْ بَابِ سَمْعِهَا إِلَى بَيْتِ قَلْبِهَا شَيْءٌ مِنْهُ ، لِمَا عَلَى الْقَلْبِ مِنْ أَكِنَّةِ التَّقْلِيدِ ، وَالِاطْمِئْنَانِ بِالشِّرْكِ التَّلِيدِ ، وَالِاسْتِنْكَارِ لِكُلِّ شَيْءٍ جَدِيدٍ ، فَهُمْ يَسْتَمِعُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ ،

وَلَا يَكْتَفُونَ بِذَلِكَ بَلْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ وَهُمْ نَاءُونَ مُنْتَهُونَ وَمَا يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ، ثُمَّ بَيَّنَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بَعْضَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَأَمْرِ أَمْثَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَفَّى عَلَيْهِ بِبَيَانِ كُنْهِ حَالِهِمْ فِي فَقْدِ الِاسْتِعْدَادِ لِلْإِيمَانِ ، وَأَنَّهُ بَلَغَ مَبْلَغًا لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ كَشْفُ الْغِطَاءِ وَرُؤْيَةُ الْعِيَانِ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) " لَوْ " شَرْطِيَّةٌ حُذِفَ جَوَابُهَا لِتَذْهَبَ النَّفْسُ فِي تَصَوُّرِهِ

(95/230)

كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ ذِكْرِهِ ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ " لَوْ غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي " وَ " وُقِفُوا " بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَيْ وَقَّفَهُمْ غَيْرُهُمْ ، يُقَالُ : وَقَفَ الرَّجُلُ عَلَى الْأَرْضِ وُقُوفًا . وَوَقَفَ عَلَى الْأَطْلَالِ أَيْ عِنْدَهَا مُشْرِفًا عَلَيْهَا ، أَوْ قَاصِرًا هَمَّهُ عَلَيْهَا وَعَلَى الشَّيْءِ عَرَفَهُ وَتَبَيَّنَهُ ، وَوَقَفَ نَفْسَهُ عَلَى كَذَا وَقْفًا : حَبَسَهَا كَوَقْفِ الْعَقَارِ عَلَى الْفُقَرَاءِ ، وَوَقَفَ الدَّابَّةَ وَقْفًا جَعَلَهَا تَقِفُ ، وَالْمَعْنَى وَلَوْ تَرَى أَيُّهَا الرَّسُولُ أَوْ أَيُّهَا السَّامِعُ بِعَيْنَيْكَ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ الْمُكَذِّبِينَ إِذْ تَقِفُهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ عَلَى النَّارِ فَيَقِفُونَ عِنْدَهَا مُشْرِفِينَ عَلَيْهَا مِنْ أَرْضِ الْمَوْقِفِ وَهِيَ هَاوِيَةٌ سَحِيقَةٌ أَوْ مَقْصُورِينَ عَلَيْهَا لَا يَتَعَاوَنُهَا ، أَوْ يَقِفُونَ فَوْقَهَا عَلَى الصِّرَاطِ ، أَوْ لَوْ تَرَى إِذْ يَدْخُلُونَهَا فَيَقِفُونَ عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ بِذَوْقِهِمْ إِيَّاهُ وَ " مَنْ ذَاقَ عَرَفَ " أَيْ لَوْ تَرَى

مَا يَحِلُّ بِهِمْ حِينَئِذٍ وَمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمِنْ نَدَمِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَمِنْ حَسْرَتِهِمْ وَتَمَنِّيهِمْ مَا لَا يُنَالُ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا لَا تُدْرِكُهُ الْعِبَادَةُ وَلَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ .

(96/230)

وَقَدْ ذُكِرَ مَا يَكُونُ مِنْ وَقْفِهِمْ عَلَى النَّارِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِمْ بِصِيغَةِ الْمَاضِي الْوَاقِعِ فِي حَيِّزِ الشَّرْطِ الْمُسْتَقْبَلِ لِلْإِعْلَامِ بِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ ، عَلَى الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ فِي مِثْلِهِ ، وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي تَعْلِيلِهِ : إِنَّ كَلِمَةَ " إِذْ " تُقَامُ مَقَامَ " إِذَا " إِذَا أَرَادَ الْمُتَكَلِّمُ الْمُبَالَغَةَ فِي التَّكْرِيرِ وَالتَّوْكِيدِ وَإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ لِأَنَّ الْمَاضِيَ قَدْ وَقَعَ وَاسْتَقَرَّ ، فَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِاللَّفْظِ الْمَوْضُوعِ لِلْمَاضِي يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ مِنْ هَذَا الِاعْتِبَارِ .

(97/230)

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فَقَدْ عَطَفَ بِالْفَاءِ لِلدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ يَقَعُ حِينَئِذٍ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَيَسْبِقُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، هُوَ النَّدَمُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ ، وَتَمَنِّي الرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيَا لِيُؤْمِنُوا اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي إِعْرَابِ "

نُكَذِّبَ وَنَكُونَ " فَرَفَعَهُمَا الْجُمْهُورُ وَنَصَبَهُمَا حَمْزَةُ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ ، وَنَصَبَ ابْنُ عَامِرٍ " نَكُونَ " فَقَطْ ، فَقُرَّاءُ الْجُمْهُورِ بِالْعَطْفِ عَلَى " نُرَدُّ " تُفِيدُ أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا أَنْ يُرَدُّوا إلَى الدُّنْيَا ، وَأَلَّا يُكَذِّبُوا بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ إلَيْهَا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ كَمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ، وَأَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، أَيْ تَمَنَّوْا هَذِهِ الثَّلَاثَةَ ، وَقِيلَ : بَلْ تَمَنَّوْا الْأَوَّلَ فَقَطْ ، وَقَوْلُهُ : (وَلَا نُكَذِّبَ " إلَخْ مَعْنَاهُ وَنَحْنُ لَا نُكَذِّبُ إلَخْ . وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْإِيمَانُ وَعَدَمُ التَّكْذِيبِ غَيْرَ دَاخِلَيْنِ فِي التَّمَنِّي ، وَشَبَّهَهُ سِيبَوَيْهِ بِقَوْلِهِمْ : دَعْنِي وَلَا أَعُودُ ، وَهُوَ طَلَبٌ لِلتَّرْكِ فَقَطْ ، وَالْوَعْدُ بِعَدَمِ الْعَوْدِ مُسْتَأْنَفٌ مَقْطُوعٌ عَمَّا قَبْلَهُ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَأَنَا لَا أَعُودُ تَرَكْتَنِي أَمْ لَمْ تَتْرُكْنِي ، وَفِيهِ وَجْهٌ ثَالِثٌ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ : (وَلَا نُكَذِّبَ) جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ : قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : عَلَى مَعْنَى غَيْرِ مُكَذِّبِينَ وَكَائِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَدْخُلُ فِي حِكَمِ التَّمَنِّي اهـ . وَقَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّ دُخُولَهُ فِي

(98/230)

حُكْمِ التَّمَنِّي يَجْعَلُهُ بِمَعْنَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّ مَعْنَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ الرَّدَّ وَعَدَمَ التَّكْذِيبِ وَالْإِيمَانَ عَلَى سَوَاءٍ ، وَمَعْنَى الثَّانِي أَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ الرَّدَّ فَقَطْ وَيَعِدُونَ بِالْإِيمَانِ وَعَدَمِ التَّكْذِيبِ

وَعْدًا خَبَرِيًّا مُؤَكَّدًا غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِإِجَابَتِهِمْ إِلَى مَا يَتَمَنَّوْنَ ، وَأَمَّا إِذَا جَعَلْنَا " وَلَا نُكَذِّبَ " إِلَخْ جُمْلَةً حَالِيَّةً وَهُوَ الْوَجْهُ الثَّالِثُ فَإِنَّهَا تَصْدُقُ بِحُصُولِ كُلٍّ

(99/230)

مِنْ عَدَمِ التَّكْذِيبِ وَالْإِيمَانِ قَبْلَ الرَّدِّ إِلَى الدُّنْيَا . فَلَا يَكُونُ التَّمَنِّي مُتَعَلِّقًا بِهِمَا لِذَاتِهِمَا لِأَنَّهُمَا حَاصِلَانِ وَالْحَاصِلُ لَا يُتَمَنَّى وَإِنَّمَا يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِالرَّدِّ الْمُصَاحِبِ لَهُمَا ، الَّذِي تَمَنَّى وُقُوعَهُ بَعْدَ وُقُوعِهِمَا ، وَذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ خَبَرِيٍّ وَلَا إِنْشَائِيٍّ بِهِمَا ؛ لِأَنَّ الْحَاصِلَ لَا يُوعَدُ بِهِ كَمَا أَنَّهُ لَا يُتَمَنَّى . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) (4 : 43) - الْآيَةَ - الْفَرْقَ بَيْنَ الْحَالِ الْمُفْرَدَةِ وَالْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ وَأَنَّ الْأَصْلَ فِي مَضْمُونِ الْحَالِيَّةِ أَنْ يَكُونَ سَابِقًا لِلْفِعْلِ الْعَامِلِ فِي الْحَالِ . وَهَؤُلَاءِ رَجَعُوا عَنِ التَّكْذِيبِ عِنْدَ وَقْفِهِمْ عَلَى النَّارِ وَحَصَلَ لَهُمُ الْإِيمَانُ الْقَاطِعُ بِصِدْقِ الرَّسُولِ فَتَمَنَّوْا أَنْ يَعُودُوا إِلَى الدُّنْيَا مُصَاحِبِينَ لِذَلِكَ ، فَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِي الْجُمْلَةِ إِنَّ عَدَمَ التَّكْذِيبِ وَالْإِيمَانَ دَاخِلَانِ تَحْتَ حُكْمِ التَّمَنِّي مِنْ حَيْثُ اشْتِرَاطِهِمَا فِيهِ ، لَا أَنَّهُمَا مُتَمَنَّيَانِ كَالرَّدِّ سَوَاءٌ .

(100/230)

وَأَمَّا قِرَاءَةُ حَمْزَةَ وَحَفْصٍ بِنَصْبِ الْفِعْلَيْنِ فَقِيلَ : إنَّهُ عَلَى جَوَابِ التَّمَنِّي ، وَقِيلَ : إنَّ الْوَاوَ لِلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَتَشْرَبَ اللَّبَنَ . وَقِيلَ : إنَّهَا أُجْرِيَتْ مَجْرَى فَاءِ السَّبَبِيَّةِ أَوْ أُبْدِلَتْ مِنْهَا وَأَيَّدُوهُ بِقِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ " فَلَا نُكَذِّبَ " وَقِيلَ : إنَّ الْعَطْفَ عَلَى مَصْدَرٍ مُتَوَهَّمٍ ، أَيْ يَا لَيْتَ لَنَا رَدًّا وَانْتِفَاءَ تَكْذِيبٍ وَكَوْنًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَعَلَى التَّوْجِيهَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ لِهَذِهِ الْقِرَاءَةِ يَدْخُلُ مَا ذُكِرَ فِي حُكْمِ التَّمَنِّي عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي وَجَّهْنَا بِهِ جَعْلَ الْجُمْلَةِ حَالِيَّةً فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ ، وَظَاهِرُ التَّوْجِيهِ الثَّالِثِ تَعَلُّقُ التَّمَنِّي بِالْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ عَلَى سَوَاءٍ ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ تَوْجِيهِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ تَوْجِيهُ قِرَاءَةِ ابْنِ عَامِرٍ أَيْضًا .

(101/230)

وَلَعَلَّ حِكْمَةَ اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ بَيَانُ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ فِي تَمَنِّيهِمْ : بِأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ مَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يُرَدَّ إلَى الدُّنْيَا وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا غَيْرَ مُكَذِّبٍ بِآيَاتِ اللَّهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْمُنَزَّلَةِ وَأَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَمَنَّى الرَّدَّ مُصَاحِبًا لِمَا حَدَثَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ النَّدَمِ عَلَى التَّكْذِيبِ وَمِنَ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، إذْ لَا تَلَازُمَ بَيْنَ الرَّدِّ وَبَقَاءِ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْحَادِثِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَمَنَّاهُ لِيَكُونَ سَبَبًا لِلْإِيمَانِ وَعَدَمِ التَّكْذِيبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعِدُ بِذَلِكَ

وَعْدًا ، وَهَذَا الِاخْتِلَافُ فِي كَيْفِيَّاتِ ذَلِكَ التَّمَنِّي أَقْرَبُ إِلَى الْحُصُولِ مِنَ اتِّفَاقِ أُولَئِكَ الْكُفَّارِ الْكَثِيرِينَ عَلَى كَيْفِيَّةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ اخْتِلَافُ الْقِرَاءَاتِ ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَعْهُودُ مِنَ الْبَشَرِ . وَلَعَلَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ ذَلِكَ جَاهِلِينَ أَنَّهُ مُحَالٌ ، عَلَى أَنَّ النَّاسَ يَتَمَنَّوْنَ الْمُحَالَ وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّحَسُّرِ .

قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا كُنْهَ حَالِهِمْ وَمَا يَظْهَرُ لَهُمْ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ وَمَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا لَوْ رُدُّوا إِلَيْهَا : (بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ) قَالُوا : إِنَّ الْإِضْرَابَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِضْرَابٌ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَمَنِّيهِمْ مِنْ إِدْرَاكِهِمْ لِقُبْحِ الْكُفْرِ وَسُوءِ مَغَبَّتِهِ ، وَلِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ ،

(102/230)

وَحُسْنِ عَاقِبَتِهِ ، وَعَزْمِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَتَرْكِ التَّكْذِيبِ لَوْ أُعْطَوْا مَا تَمَنَّوْا مِنَ الرَّدِّ إِلَى الدُّنْيَا ، وَوَعْدِهِمْ بِذَلِكَ نَصًّا أَوْ ضِمْنًا ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يُوهِمُهُ كَلَامُهُمْ فِي التَّمَنِّي ، بَلْ ظَهَرَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَفِيهِ أَقْوَالٌ :

(1) أَنَّهُ أَعْمَالُهُمُ السَّيِّئَةُ وَقَبَائِحُهُمُ الشَّائِنَةُ ظَهَرَتْ فِي صَحَائِفِهِمْ ، وَشَهِدَتْ بِهَا عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ .

(2) أَنَّهُ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَغْتَرُّونَ بِهَا ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ سَعَادَتَهُمْ فِيهَا إِذْ يَجْعَلُهَا اللَّهُ تَعَالَى هَبَاءً

مَنْثُورًا .

(3) أَنَّهُ كُفْرُهُمْ وَتَكْذِيبُهُمُ الَّذِي أَخْفَوْهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوقَفُوا عَلَى النَّارِ كَمَا تَقَدَّمَ حِكَايَتُهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ 23)

(4) أَنَّهُ الْحَقُّ أَوِ الْإِيمَانُ الَّذِي كَانُوا يُسِرُّونَهُ وَيُخْفُونَهُ بِإِظْهَارِ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ عِنَادًا لِلرَّسُولِ وَاسْتِكْبَارًا عَنِ الْحَقِّ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَنْطَبِقُ عَلَى أَشَدِّ النَّاسِ كُفْرًا مِنَ الْمُعَانِدِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ الَّذِينَ قَالَ فِي بَعْضِهِمْ : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (27 : 14) .

(103/230)

---

(5) أَنَّهُ مَا كَانَ يُخْفِيهِ الرُّؤَسَاءُ عَنْ أَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ بَدَا لِلْأَتْبَاعِ الَّذِينَ كَانُوا مُقَلِّدِينَ لَهُمْ . وَمِنْهُ كِتْمَانُ بَعْضِ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَاتِهِ وَبِشَارَةِ أَنْبِيَائِهِمْ بِهِ .

(6) أَنَّهُ مَا كَانَ يُخْفِيهِ الْمُنَافِقُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ إِسْرَارِ الْكُفْرِ وَإِظْهَارِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ .

(7) أَنَّهُ الْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ وَمِنْهُ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَأَنَّ إِخْفَاءَهُمْ لَهُ عِبَارَةٌ عَنْ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ ، وَهُوَ الْمَعْنَى الْأَصْلِيُّ لِمَادَّةِ الْكُفْرِ .

(8) أَنَّ فِي الْكَلَامِ مُضَافًا مَحْذُوفًا ، أَيْ بَدَا لَهُمْ وَبَالُ مَا كَانُوا يُخْفُونَهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَنَزَلَ بِهِمْ عِقَابُهُ فَتَبَرَّمُوا وَتَضَجَّرُوا ، وَتَمَنَّوْا التَّقَصِّي مِنْهُ بِالرَّدِّ إِلَى الدُّنْيَا وَتَرْكِ مَا أَفْضَى إِلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ بِالْآيَاتِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ ، كَمَا يَتَمَنَّى الْمَوْتَ مَنْ أَمَضَّهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ لِأَنَّهُ يُنْقِذُهُ مِنَ الْآلَامِ لَا لِأَنَّهُ مَحْبُوبٌ فِي نَفْسِهِ .

وَنَحْنُ لَا نَرَى رُجْحَانَ قَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ ، بَلِ الصَّوَابُ عِنْدَنَا قَوْلٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنَّهُ يَظْهَرُ يَوْمَئِذٍ لِكُلٍّ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ وَرَدَ الْكَلَامُ فِيهِمْ وَلِأَشْبَاهِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ مَا كَانَ يُخْفِيهِ فِي الدُّنْيَا مِمَّا هُوَ قَبِيحٌ فِي نَظَرِهِ أَوْ نَظَرِ مَنْ يُخْفِيهِ عَنْهُمْ ، فَالَّذِينَ

(104/230)

كَفَرُوا عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا كَالرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ ظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ كَانُوا يُخْفُونَ ذَلِكَ الْحَقَّ وَمِنْهُمْ بَعْضُ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ جُبْنًا وَضَعْفًا أَوْ مَكْرًا وَكَيْدًا كَانُوا يُخْفُونَ الْكُفْرَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَصْحَابُ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ يُخْفُونَهَا عَمَّنْ لَا يَقْتَرِفُهَا مَعَهُمْ وَالَّذِينَ يَعْتَذِرُونَ عَنْ تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ بِالْأَعْذَارِ الْكَاذِبَةِ يُخْفُونَ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ عَمَّنْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِمْ ، وَالْمُقَلِّدُونَ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا يَلُوحُ فِيهَا أَحْيَانًا مِنْ بَرْقِ الدَّلِيلِ الْمُظْهِرِ لِمَا كَمَنَ فِي أَعْمَاقِ الْفِطْرَةِ مِنَ الْحَقِّ ، سَوَاءٌ أَوْمَضَ ذَلِكَ الْبَرْقُ مِنْ آيَاتِ

اللهِ فِي الْآفَاقِ ، وَأَلْسِنَةِ حَمَلَةِ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، أَوْ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، قَبْلَ أَنْ تُحِيطَ بِهِمْ

خَطِيئَتُهُمْ وَيُخْتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ الْمُقَلِّدُونَ الْعُمْيَانُ هُمُ الَّذِينَ بَيَّنَتِ الْآيَاتُ حَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا جَعَلْنَا مَا تَلَا ذَلِكَ مِنْ بَيَانِ حَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ عَامًّا لِكُلِّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ لِتَسَاوِيهِمْ فِيهِ وَعَدَمِ اسْتِفَادَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ مِنَ اسْتِعْدَادِهِ لِلْإِيمَانِ ، لِعَدَمِ اسْتِعْمَالِهِمْ لِذَلِكَ الِاسْتِعْدَادِ .

(105/230)

وَقَدْ يَعُمُّ الْإِخْفَاءُ لِلشَّيْءِ مَا كَانَ مِنْهُ بِالْقَصْدِ إِلَيْهِ وَالْإِرَادَةِ لَهُ فِي ذَاتِهِ ، وَمَا كَانَ ظَاهِرًا فِي نَفْسِهِ وَخَفِيَ عَنْ أَهْلِهِ بِأَعْمَالٍ وَتَقَالِيدَ لَهُمْ عَدْوًا بِهَا مُخْفِينَ لَهُ ، كَالْعَقَائِدِ وَالْفَضَائِلِ الَّتِي أُودِعَتْ فِي الْفِطْرَةِ ، وَدَلَّتْ عَلَيْهَا آيَاتُ اللهِ الْبَيِّنَةُ ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا الضَّالُّونَ وَالْتَزَمُوا مَا يُضَادُّهَا فَأَخْفَوْهَا بِذَلِكَ حَتَّى عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ اللهِ الَّذِي تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ ، وَتَنْكَشِفُ جَمِيعُ الْحَقَائِقِ ، وَتَشْهَدُ عَلَى النَّاسِ الْأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ ، إِذْ تُنْشَرُ كُتُبُ الْأَعْمَالِ الَّتِي كَانَتْ مَطْوِيَّةً فِي زَوَايَا الْأَرْوَاحِ ، فَتَتَمَثَّلُ لِكُلِّ فَرْدٍ أَعْمَالُهُ النَّفْسِيَّةُ وَالْبَدَنِيَّةُ كُلُّهَا ، فِي كِتَابِهِ الَّذِي لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، كَمَا تَتَمَثَّلُ الْوَقَائِعُ الْمُصَوَّرَةُ ، فِي

الْمَنْظَرَةِ الَّتِي يُعْرَضُ فِيهَا مَا يُعْرَفُ الْآنَ بِالصُّوَرِ الْمُتَحَرِّكَةِ ، فَإِنَّ حِفْظَ أَلْوَاحِ الْأَنْفُسِ الْمُدْرِكَةِ لِمَا تَرْسُمُهُ وَتُطِيعُهُ الْعَقَائِدُ وَالْأَعْمَالُ فِيهَا أَقْوَى وَأَثْبَتُ مِنْ حِفْظِ أَلْوَاحِ الزُّجَاجِ الْحَسَّاسَةِ لِمَا يَرْسُمُهُ وَيَطْبَعُهُ نُورُ الشَّمْسِ عَلَيْهَا ، وَعَرْضُ الصُّوَرِ الشَّمْسِيَّةِ فِي الدُّنْيَا دُونَ عَرْضِ الصُّوَرِ النَّفْسِيَّةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَبِهَذَا الْبَيَانِ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظْهَرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ كُلُّ مَا كَانَ خَفِيًّا عَنْهُ مِنْ خَيْرِ نَفْسِهِ وَشَرِّهَا (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) (69 : 18) أَيْ لَا تَخْفَى عَلَى أَنْفُسِكُمْ ،

(106/230)

فَضْلًا عَنْ خَفَائِهَا عَلَى رَبِّكُمْ ، وَقَدْ خَصَّ بِالذِّكْرِ هُنَا بُدُوَّ مَا كَانَ يُخْفِيهِ الْكُفَّارُ ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ .

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَنَا أَنَّ تَمَنِّي أُولَئِكَ الْكُفَّارِ لِمَا تَمَنَّوْا لَا يَدُلُّ عَلَى تَبَدُّلِ حَقِيقَتِهِمْ ، بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانَ خَفِيًّا عَنْهُمْ مِنْهَا ، بِإِخْفَائِهِمْ إِيَّاهُ عَنِ النَّاسِ أَوْ عَنْهَا : (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) (39 : 47 ، 48) فَتَمَنَّوُا الْخُرُوجَ مِمَّا حَاقَ بِهِمْ وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ لَا تَتَغَيَّرُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ لَهَا أَطْوَارٌ ، تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْطَارِ .

(107/230)

(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ وَالْكَيْدِ وَالْمَكْرِ وَالْمَعَاصِي ، لِأَنَّ مُقْتَضَى ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ثَابِتٌ فِيهَا ، وَمَا دَامَتِ الْعِلَّةُ ثَابِتَةً فَإِنَّ أَثَرَهَا وَهُوَ الْمَعْلُولُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فِيمَا تَضَمَّنَهُ تَمَنِّيهِمْ مِنَ الْوَعْدِ بِتَرْكِ التَّكْذِيبِ بِآيَاتِ اللهِ ، وَبِالْكَوْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ سَوَاءً عَلِمُوا حِينَ تَمَنَّوْا وَوَعَدُوا أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذَا الْوَعْدِ أَمْ لَمْ يَعْلَمُوا ، فَلَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا لَرُدَّ الْمُعَانِدُ الْمُسْتَكْبِرُ مِنْهُمْ مُشْتَمِلًا بِكِبْرِهِ وَعِنَادِهِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْمَاكِرِ وَالْمُنَافِقِ مُرْتَدِيًا بِمَكْرِهِ وَنِفَاقِهِ ، وَالْمُقَلِّدُ مُقَيَّدًا بِتَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ وَعَدَمِ ثِقَتِهِ بِفَهْمِهِ وَعِلْمِهِ ، وَالشَّهْوَانِيُّ مُلَوَّثًا بِشَهَوَاتِهِ الْمَالِكَةِ لِرِقِّهِ .

(108/230)

وَأَمَّا مَا ظَهَرَ لَهُمْ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ مِنْ حَقِيقَةِ مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ ، فَإِنَّمَا مَثَلُهُ كَمَثَلِ مَا كَانَ يَلُوحُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْعِبَرِ ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ يُكَابِرُونَ فِيهَا أَنْفُسَهُمْ وَيُغَالِطُونَ عَقْلَهُمْ وَوِجْدَانَهُمْ ، وَيُمَارُونَ مُنَاظِرِيهِمْ وَأَخْدَانَهُمْ ؟ يَشْرَبُ الْفَاسِقُ الْخَمْرَ فَيُصَدَّعُ ، أَوْ يَلْعَبُ

الْقِمَارَ فَيَخْسَرُ ، وَيَأْكُلُ الْمَرِيضُ أَوْ ضَعِيفُ الْبِنْيَةِ الطَّعَامَ الشَّهِيَّ أَوْ يُكْثِرُ مِنْهُ فَيَتَضَرَّرُ وَيُرْوَى غَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُخَالِفِينَ لِشَرْعِ اللهِ الْمُنَزَّلِ بِالْحَقِّ ، أَوْ لِسُنَنِهِ الثَّابِتَةِ الَّتِي أَقَامَ بِهَا نِظَامَ الْخَلْقِ ، مَا حَلَّ مِنَ الشَّقَاءِ بِغَيْرِهِ مِمَّنْ سَبَقَهُ إِلَى مِثْلِ عَمَلِهِ فَيَنْدَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِمَّنْ ذَكَرْنَا ، وَيَتُوبُ وَيَعْزِمُ عَلَى أَلَّا يَعُودَ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا عِنْدَ فَقْدِ دَاعِيَةِ الْعَمَلِ ، وَوُجُودِ دَاعِيَةِ التَّرْكِ ، فَإِذَا عَادَتِ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْعَمَلِ عَادَ إِلَيْهِ خُضُوعًا لِمَا اعْتَادَ وَأَلِفَ ، وَتَرْجِيحًا لِمَا يَلَذُّ عَلَى مَا يَنْفَعُ .

وَمِنْ وَقَائِعِ الْعِبَرِ فِي ذَلِكَ مَا حَدَثَ لِأَخٍ لِي عُمِلَتْ لَهُ عَمَلِيَّةً جِرَاحِيَّةً خُدِّرَ قَبْلَهَا بِالْبَنْجِ (كُلُورُفُورْمْ) فَكَانَ مِنْ تَأْثِيرِهِ فِيهِ أَنَّهُ شَعَرَ بِأَنَّ رُوحَهُ تُسَلُّ مِنْ بَدَنِهِ وَأَنَّهُ قَادِمٌ عَلَى رَبِّهِ وَقَدْ طَالَ الْأَمَدُ عَلَى انْدِمَالِ جُرْحِهِ ، وَكَانَ قَبْلَ ظُهُورِ أَمَارَاتِ الشِّفَاءِ مِنْهُ يَخَافُ أَنْ يَذْهَبَ بِنَفْسِهِ فَيَنْدَمُ عَلَى مَا فَاتَ وَيَتَحَسَّرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنَ التَّفْرِيطِ وَالتَّقْصِيرِ فِي

الْوَاجِبَاتِ وَإِضَاعَةِ الْأَوْقَاتِ الطَّوِيلَةِ فِي الْبَطَالَةِ وَاللَّهْوِ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُبَاحَاتِ وَعَزَمَ عَلَى الْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ ، إِنْ عَافَاهُ اللهُ مِنْ مَرَضِهِ ، حَتَّى عَزَمَ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ عَلَى تَرْكِ شُرْبِ الدُّخَّانِ ، الَّذِي مَنَعَهُ الطَّبِيبُ مِنْهُ فِي أَثْنَاءِ أَخْذِهِ بِالْعِلَاجِ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا عَادَ

إِلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الصِّحَّةِ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ سَابِغَةً عَادَ كَذَلِكَ لِجَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَعَادَاتِهِ السَّابِقَةِ ، عَلَى أَنَّهُ تَذَكَّرَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ هَذِهِ الْآيَةَ (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) وَعَدَّ مَا وَقَعَ لَهُ شَاهِدًا لَهَا وَمِثَالًا تُعْرَفُ بِهِ حَقِيقَةُ تَفْسِيرِهَا .

(110/230)

وَيُسْتَنْبَطُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى لِإِقَامَةِ النَّاسِ عَلَى صِرَاطِ الْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ إِنَّمَا هِيَ حَمْلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِالْعَمَلِ وَالتَّعْوِيدِ ، مَعَ التَّعْلِيمِ وَحُسْنِ التَّلْقِينِ ، كَمَا يُرَبَّى الْأَطْفَالُ فِي الصِّغَرِ ، وَكَمَا يُمَرَّنُ الرِّجَالُ عَلَى أَعْمَالِ الْعَسْكَرِ ، وَأَنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْخَطَأِ أَنْ يُسْمَحَ لِلْأَحْدَاثِ بِطَاعَةِ شَهَوَاتِهِمْ ، وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ ، بِشُبْهَةِ تَرْبِيَتِهِمْ عَلَى الْحُرِّيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ ، الَّذِي يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ بِمَا يُفِيدُهُمُ الْعِلْمُ فِي سِنِّ الرُّشْدِ مِنَ الِاقْتِنَاعِ بِطُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ ، أَقُولُ : إِنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْخَطَأِ وَأَنَا عَالِمٌ بِفَضْلِ التَّرْبِيَةِ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ وَمِنَ الدُّعَاةِ إِلَيْهَا لِأَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي النَّاسِ مَنْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَشَهَوَاتِهِ فِي الصِّغَرِ ثُمَّ يَرْجِعُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي الْكِبَرِ ، بَعْدَ أَنْ يَصِيرَ مَلَكَةً وَعَادَةً لَهُ ، لِقِيَامِ الدَّلِيلِ عِنْدَهُ عَلَى أَنَّهُ يُنَافِي الْحَقَّ أَوِ الْعَدْلَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ مِثْلُ هَذَا مِنْ أَفْرَادٍ مِنَ النَّاسِ خُلِقُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلْحِكْمَةِ ، بِمَا أُوتُوا مِنْ سَلَامَةِ الْفِطْرَةِ وَقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ ، أَوْ مِنَ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ فِي زَمَنِ الْبَعْثَةِ ، وَأَكْثَرُ الْبَشَرِ مُسَخَّرُونَ لِعَادَتِهِمْ ، مُنْقَادُونَ

(111/230)

لِمَا أَلِفُوا فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ ، لَا يُخَالِفُونَ ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلًا ، يَتَكَلَّفُونَ الْمُخَالَفَةَ تَكَلُّفًا عِنْدَ عُرُوضِ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ ، فَإِذَا زَالَ الْمُقْتَضَى عَادُوا إِلَى عَادَتِهِمْ وَشِنْشِنَتِهِمْ ، وَعَمِلُوا عَلَى سَابِقِ شَاكِلَتِهِمْ وَإِنَّمَا تَرْبِيَةُ الصِّغَارِ عَلَى مَا عُرِفَ مِنَ الْحَقِّ ، وَتَقَرَّرَ مِنْ أُصُولِ الْفَضِيلَةِ وَالْأَدَبِ ، كَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَى النَّظَافَةِ وَمُرَاعَاةِ قَوَانِينِ الصِّحَّةِ ، لَا يُشْتَرَطُ فِيهَا أَنْ يَعْرِفُوا مِنْ أَوَّلِ النَّشْأَةِ فَائِدَةَ ذَلِكَ بِالدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ ، وَتَأْخِيرِ تَلْقِينِهِمْ هَذِهِ الْفَائِدَةَ إِلَى وَقْتِ الِاسْتِعْدَادِ لَهَا فِي الْكِبَرِ لَا يُنَافِي تَرْبِيَةَ الِاسْتِقْلَالِ ، وَأَوْضَحُ الشَّوَاهِدِ وَالْأَمْثِلَةِ الْمَعْرُوفَةِ عَلَى مَا قُلْنَا فُشُوُّ السُّكْرِ فِي أُمَمِ الْإِفْرِنْجِ وَمُقَلِّدَتِهِمْ مِنَ الشَّرْقِيِّينَ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ضَارٌّ قَبِيحٌ ، وَلَا يَكَادُ يُوجَدُ فِي مِائَةِ الْأَلْفِ مِنْهُمْ وَاحِدٌ يَتْرُكُهُ بَعْدَ أَنِ اعْتَادَهُ وَأَدْمَنَهُ لِاقْتِنَاعِهِ بِضَرَرِهِ مِمَّا ثَبَتَ مِنَ الدَّلَائِلِ الطِّبِّيَّةِ وَالتَّجَارِبِ الْقَطْعِيَّةِ .

(112/230)

(وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ شَأْنًا آخَرَ مِنْ شُئُونِ الْكُفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ غُرُورُهُمْ بِهَا ، وَافْتِتَانُهُمْ بِمَتَاعِهَا ، وَإِنْكَارُهُمُ الْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ ، وَمَا يُقَابِلُهُ مِنْ حَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ يَوْمَ يُكْشَفُ الْغِطَاءُ ، وَهُوَ مَا يَكُونُ مِنْ حَسْرَتِهِمْ وَنَدَمِهِمْ عَلَى تَفْرِيطِهِمُ السَّابِقِ ، وَغُرُورِهِمْ بِذَلِكَ الْمَتَاعِ الزَّائِلِ ، وَقَفَّى عَلَيْهِ بِبَيَانِ حَقِيقَةِ الدُّنْيَا وَالْمُقَابَلَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْآخِرَةِ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ :

(وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَتِمَّةٌ لِمَا سَبَقَهَا ، وَإِنَّ " قَالُوا " فِيهَا مَعْطُوفٌ عَلَى " عَادُوا " فِيمَا قَبْلَهَا ، أَيْ لَوْ رُدَّ أُولَئِكَ إِلَى الدُّنْيَا لَعَادُوا

(113/230)

لِمَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَسَيِّءِ الْأَعْمَالِ ، وَصَرَّحُوا ثَانِيَةً بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَالظَّاهِرُ الْمُخْتَارُ مَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا فَالْعَطْفُ فِيهِ عَطْفُ جُمَلٍ مُسْتَأْنَفٌ ، وَ (إِنْ) فِي ابْتِدَاءِ مَقُولِ الْقَوْلِ نَافِيَةٌ بِمَعْنَى " مَا " أَيْ وَقَالَ أُولَئِكَ الْمُشْرِكُونَ : مَا الْحَيَاةُ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا لَا حَيَاةَ بَعْدَهَا ، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَسَنَذْكُرُ مَا يَسْتَلْزِمُهُ هَذَا الِاعْتِقَادُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ .

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ) تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ قَرِيبًا ، وَوَقْفُهُمْ

(114/230)

عَلَى رَبِّهِمْ عِبَارَةٌ عَنْ وَقْفِ الْمَلَائِكَةِ إِيَّاهُمْ فِي الْمَوْقِفِ الَّذِي حَاسَبَهُمْ فِيهِ رَبُّهُمْ ، وَإِمْسَاكُهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَحْكُمَ بِمَا شَاءَ فِيهِمْ ، فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ أَيْ يَقِفُونَ مَطِيَّهُمْ عِنْدِي وُقُوفًا ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي هَذَا أَنْ يَكُونُوا فِي مَكَانٍ أَعْلَى مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . أَوِ الْمَعْنَى يَحْبِسُونَهَا عَلَيَّ بِإِمْسَاكِهَا عِنْدِي . وَإِنَّمَا عَدَّى الْوَقْفَ وَالْوُقُوفَ الَّذِي بِهَذَا الْمَعْنَى بِعَلَيَّ وَكَذَا الْحَبْسُ وَالْإِمْسَاكُ الَّذِي فُسِّرَ بِهِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى مَعْنَى الْقَصْرِ ، قَالَ تَعَالَى : (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ) (5 : 4) أَيْ مِمَّا أَمْسَكَتْهُ الْجَوَارِحُ مَقْصُورًا عَلَيْهِ فَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهُ لِأَجْلِكُمْ ، وَكَذَلِكَ حَبْسُ الْعَقَارِ وَوَقْفُهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَسَائِرِ وُجُوهِ الْبِرِّ فِيهِ مَعْنَى

قَصْرِهِ عَلَى ذَلِكَ . وَالَّذِينَ تَقِفُهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَتَحْبِسُهُمْ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ : (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (37 : 24) يَكُونُونَ مَقْصُورِينَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ يَكُونُ أَمْرُهُمْ مَقْصُورًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ غَيْرُهُ (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (82 : 19) وَإِنَّمَا أَطَلْتُ فِي بَيَانِ كَوْنِ اسْتِعْمَالِ " وَقَفَ " هُنَا مُتَعَدِّيًا بِعَلَى بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقِفُوا عَلَى النَّارِ) (27 : 6) لِأَنَّ الْمُفَسِّرِينَ اضْطَرَبُوا فِي التَّعْدِيَةِ هُنَا فَحَمَلَ الْكَلَامَ بَعْضُهُمْ عَلَى

(115/230)

التَّمْثِيلِ ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى الْكِنَايَةِ ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى مَجَازِ الْحَذْفِ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَجَازِ ، وَجَعَلَهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى الشَّيْءِ مَعْرِفَةً وَعِلْمًا وَجَاءَ بَعْضُهُمْ بِتَأْوِيلَاتٍ أُخْرَى لَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِهَا .

بَيَّنَّا آنِفًا فِي تَفْسِيرِ (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) أَنَّ جَوَابَ " لَوْ " حُذِفَ لِتَذْهَبَ النَّفْسُ فِي تَصَوُّرِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ ، وَلِلْإِيذَانِ بِأَنَّهُ لَا يُحِيطُ بِهِ نِطَاقُ الْكَلَامِ ، وَمِنْ شَأْنِ السَّامِعِ لِمِثْلِ هَذَا أَنْ يَنْتَظِرَ بَيَانًا لِمَا يَقَعُ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، فَإِنْ لَمْ يُوَافِهِ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ تَوَجَّهَتْ نَفْسُهُ إِلَى السُّؤَالِ عَنْهُ ، فَلِهَذَا جَاءَ الْبَيَانُ جَوَابًا لِسُؤَالٍ مُقَدَّرٍ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَالَ أَلَيْسَ

هَذَا بِالْحَقِّ) إِدْخَالُ الْبَاءِ عَلَى الْحَقِّ يُفِيدُ تَأْكِيدَ الْمَعْنَى ، أَيْ قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْبَعْثِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ ؟ (قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا) أَيْ بَلَى هَذَا الْحَقُّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا بَاطِلَ يَحُومُ حَوْلَهُ ، اعْتَرَفُوا وَأَكَّدُوا اعْتِرَافَهُمْ بِالْيَمِينِ ، فَشَهِدُوا بِذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ، فَبِمَاذَا أَجَابَهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ (قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

(116/230)

تَكْفُرُونَ) أَيْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ، بِسَبَبِ كُفْرِكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ عَلَيْهِ دَائِمُونَ . ثُمَّ قَفَّى عَلَى ذِكْرِ مَا رَبِحُوا مِنَ الشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ ، بِبَيَانِ مَا خَسِرُوا مِنَ السَّعَادَةِ وَالثَّوَابِ وَإِنَّمَا هُوَ خَسْرٌ عَلَى خَسْرٍ فَقَالَ :

(117/230)

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ) أَيْ خَسِرَ أُولَئِكَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى كُلَّ مَا رَبِحَهُ وَفَازَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ بِلِقَائِهِ مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَمُنَاجَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ،

كَالْقَنَاعَةِ وَالْإِيثَارِ وَالرِّضَاءِ مِنَ اللهِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَالشُّكْرِ لَهُ عِنْدَ النِّعْمَةِ وَالصَّبْرِ وَالْعَزَاءِ وَالطُّمَأْنِينَةِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَزَايَا الَّتِي تَصْغُرُ مَعَهَا الْمَصَائِبُ وَالشَّدَائِدُ ، وَيَكْبُرُ قَدْرُ النِّعَمِ وَالْمَوَاهِبِ . وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْحِسَابِ الْيَسِيرِ ، وَالثَّوَابِ الْكَبِيرِ وَالرِّضْوَانِ الْأَكْبَرِ ، وَهُوَ " مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ " كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَخْسَرُهُ الْمُكَذِّبُونَ بِلِقَاءِ اللهِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ يَخْسَرُونَ فِي الْحَقِيقَةِ أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنَّمَا حَذَفَ مَفْعُولَ " خَسِرَ " لِلدَّلَالَةِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَجَعَلَ فَاعِلَهُ مَوْصُولًا لِدَلَالَةِ صِلَتِهِ عَلَى سَبَبِ الْخُسْرَانِ ، لِأَنَّ التَّكْذِيبَ بِلِقَاءِ اللهِ تَعَالَى يَسْتَلْزِمُ مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي تُفْسِدُ النَّفْسَ ، وَمَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ بِفَسَادِهَا خَسِرَ كُلَّ شَيْءٍ .

(118/230)

(حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) أَيْ كَذَّبُوا إِلَى أَنْ جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ مُبَاغِتَةً مُفَاجِئَةً ، وَقِيلَ : إِنَّ الْغَايَةَ لِلْخُسْرَانِ بِقَصْرِهِ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا . وَالسَّاعَةُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الزَّمَنُ الْقَصِيرُ الْمُعَيَّنُ بِعَمَلٍ يَقَعُ فِيهِ ، يُقَالُ : جَلَسْتُ إِلَيْهِ سَاعَةً ، وَغَابَ عَنِّي سَاعَةً ، وَأُطْلِقَ فِي كُتُبِ الدِّينِ عَلَى الْوَقْتِ الَّذِي يَنْقَضِي بِهِ أَجَلُ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَيَخْرَبُ هَذَا الْعَالَمُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ

ذَلِكَ فِي زَمَنٍ قَصِيرٍ . وَعَلَى مَا يَلِي ذَلِكَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . فَإِنْ كَانَ إِطْلَاقُهُ عَلَيْهِ بِالتَّبَعِ لِإِطْلَاقِهِ عَلَى سَاعَةِ خَرَابِ الْعَالَمِ فَذَاكَ ، وَإِلَّا كَانَ وَجْهُ تَسْمِيَتِهِ سَاعَةً بِاعْتِبَارِ سُرْعَةِ الْحِسَابِ فِيهِ [رَاجِعْ ص 190 ج 2 ط الْهَيْئَةِ] أَوْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا بَعْدَهُ قَوْلَانِ : وَهَذِهِ السَّاعَةُ سَاعَةُ هَذَا الْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَمِنْ دُونِهَا سَاعَةُ كُلِّ فَرْدٍ وَقِيَامَتِهِ ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَمُوتُ فِيهِ وَيَقْدَمُ عَلَى ذَلِكَ

(119/230)

الْعَالَمِ ، وَكَذَا سَاعَةُ الْأُمَّةِ أَوِ الْجِيلِ ; وَلِذَلِكَ قَالُوا : إِنَّ الْقِيَامَةَ ثَلَاثٌ : كُبْرَى وَوُسْطَى وَصُغْرَى ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْبَحْثُ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ التَّفْسِيرِ [رَاجِعْ ص 174 ج 5 ط الْهَيْئَةِ] وَفَسَّرَ الرَّاغِبُ السَّاعَةَ هُنَا بِالْقِيَامَةِ الصُّغْرَى ، إِذْ هُوَ الَّذِي يَنْطَبِقُ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَاتُ ، وَالْقِيَامَةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا تَقُومُ عَلَى آخِرِ مَنْ يَكُونُ مِنَ الْخَلْقِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ . وَالْجُمْهُورُ يُفَسِّرُونَهَا بِالْقِيَامَةِ الْكُبْرَى وَهِيَ بِاعْتِبَارِ غَايَتِهَا - وَهُوَ يَوْمٌ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ - تَصْدُقُ عَلَى مَنْ نَزَلَتِ الْآيَةُ : فِيهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ ، وَبِاعْتِبَارِ بِدَايَتِهَا تَصْدُقُ عَلَى آخِرِ مَنْ يَعِيشُ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ . وَيَرَوْنَ أَنَّ الْبَغْتَةَ لَا تَظْهَرُ فِي مَوْتِ الْأَفْرَادِ لِمَا

يَكُونُ لَهُ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا وَقْتُهُ فِي الْجُمْلَةِ ، وَقَدْ ذَكَرَ مَجِيءَ السَّاعَةِ

(120/230)

بَغْتَةً فِي عِدَّةِ آيَاتٍ غَيْرِ هَذِهِ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى الْعَامَّةَ ، وَهِيَ الَّتِي وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخْفَى عِلْمَهَا عَنْ كُلِّ أَحَدٍ حَتَّى الرُّسُلِ وَالْمَلَائِكَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) (31 : 34) فَلَا يَدُلُّ عَلَى مَجِيءِ الْمَوْتِ بَغْتَةً ، وَلَا عَلَى جَهْلِ كُلِّ أَحَدٍ بِوَقْتِهِ ، فَقَدْ يُعْرَفُ بِأَسْبَابِهِ كَالْأَمْرَاضِ وَالْجُرُوحِ وَقَدْ يُقَالُ : إنَّ الْمَرَضَ وَنَحْوَهُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْمَوْتِ مَهْمَا يَكُنْ شَدِيدًا ، فَكَمْ مِنْ مَرِيضٍ جَزَمَ الْأَطِبَّاءُ بِأَنَّهُ لَا يَعِيشُ إلَّا أَيَّامًا أَوْ سَاعَاتٍ قَدْ شُفِيَ مِنْ مَرَضِهِ ذَاكَ وَعَاشَ بَعْدَهُ عِدَّةَ أَعْوَامٍ ، عَلَى أَنَّ الْمَرِيضَ لَا يَيْئَسُ مِنَ الْحَيَاةِ مَا دَامَ فِيهِ رَمَقٌ ، فَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِيهِ - إنْ مَاتَ فِي مَرَضِهِ - : أَنَّ الْمَوْتَ جَاءَهُ بَغْتَةً ، وَإِنْ كَانَ هَذَا لَا يُعَدُّ فِي الْعُرْفِ مِنْ مَوْتِ الْفَجْأَةِ ، وَمَنْ لَمْ يَجِئْهُ الْمَوْتُ فَجْأَةً جَاءَهُ الْمَرَضُ الَّذِي يَعْقُبُهُ الْمَوْتُ فَجْأَةً ، وَلَاتَ حِينَ اسْتِعْدَادٍ ، وَلَا رُجُوعٍ عَنْ شِرْكٍ وَإِلْحَادٍ ، بَلْ يَمُوتُ الْمَرْءُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ ، وَيَنْدُرُ أَنْ يَظْهَرَ لِأَحَدٍ فِي مَرَضِ مَمَاتِهِ ضَلَالُهُ الَّذِي عَاشَ عَلَيْهِ طُولَ حَيَاتِهِ ، وَلَا يَنْكَشِفُ الْغِطَاءُ

عَنِ الْإِنْسَانِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ فَارَقَ هَذِهِ الْحَيَاةَ إِلَى الْعَالَمِ الْآخَرِ إِلَّا عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ مِنْ بَدَنِهِ ، حِينَئِذٍ يَتَحَسَّرُ الْمُفَرِّطُونَ ،

(121/230)

وَيَنْدَمُ الْمُجْرِمُونَ ، ثُمَّ تَتَجَدَّدُ الْحَسْرَةُ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ ، وَتَتَضَاعَفُ عِنْدَ حُلُولِ الْعَذَابِ .

(قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) هَذَا جَوَابُ " إِذَا " أَيْ : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَأَصَرُّوا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ مَنِيَّتُهُمْ وَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ مَبْدَأُ السَّاعَةِ الْعَامَّةِ وَالْمَرْحَلَةُ الْأُولَى مِنْ مُقَدِّمَاتِ الْقِيَامَةِ ، مُفَاجِئَةً لَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَكُونُوا يَنْتَظِرُونَهَا ، وَلَا يَحْسِبُونَ حِسَابًا وَلَا يُعِدُّونَ عُدَّةً لِمَجِيئِهَا ، قَالُوا : يَا حَسْرَتَنَا عَلَى تَفْرِيطِنَا ! .

هَذَا أَوَانُكِ فَاحْضُرِي وَبَرِّحِي . . . بِالْأَنْفُسِ مَا شِئْتِ أَنْ تُبَرِّحِي

(122/230)

وَالْحَسْرَةُ - كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ - الْغَمُّ عَلَى مَا فَاتَ وَالنَّدَمُ عَلَيْهِ ، كَأَنَّ الْمُتَحَسِّرَ قَدِ انْحَسَرَ (أَيْ زَالَ وَانْكَشَفَ) عَنْهُ الْجَهْلُ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى مَا ارْتَكَبَهُ ، أَوِ انْحَسَرَتْ عَنْهُ قُوَاهُ مِنْ فَرْطِ الْغَمِّ ، أَوْ أَدْرَكَهُ إِعْيَاءٌ عَنْ تَدَارُكِ مَا فَرَطَ مِنْهُ ، وَنِدَاءُ الْحَسْرَةِ فَسَّرَهُ سِيبَوَيْهِ بِالْمَعْنَى الَّذِي بَيَّنَّاهُ آنِفًا ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ : إِنَّ مَعْنَى حَرْفِ النِّدَاءِ تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِينَ ، وَقِيلَ : بَلِ الْمُرَادُ بِهِ تَنْبِيهُ الْمُتَكَلِّمِ لِنَفْسِهِ ، وَتَذْكِيرُهَا بِسَبَبِ مَا حَلَّ بِهِ . وَالتَّفْرِيطُ التَّقْصِيرُ مِمَّنْ قَدَرَ عَلَى الْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ . وَهُوَ مِنَ الْفَرْطِ بِمَعْنَى السَّبْقِ وَمِنْهُ الْفَارِطُ وَالْفَرَطُ : الَّذِي يَسْبِقُ الْمُسَافِرِينَ لِإِعْدَادِ الْمَاءِ لَهُمْ . وَالتَّضْعِيفُ فِيهِ لِلسَّلْبِ وَالْإِزَالَةِ كَجَلَّدْتُ الْبَعِيرَ إِذَا سَلَخْتَ جِلْدَهُ وَأَزَلْتَهُ عَنْهُ . فَيَكُونُ مَعْنَى التَّفْرِيطِ الْحَقِيقِيِّ عَدَمَ الِاسْتِعْدَادِ لِمَا يَنْفَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَتَقْدِيمِ الْفَرْطِ ، أَيْ يَا حَسْرَتَنَا وَغَمَّنَا وَنَدَمَنَا عَلَى مَا كَانَ مِنْ تَفْرِيطِنَا فِيهَا ، أَيْ فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا الَّتِي كُنَّا نَزْعُمُ أَنْ لَا حَيَاةَ لَنَا بَعْدَهَا ، أَوْ فِي السَّاعَةِ أَوْ مَا هِيَ مِفْتَاحٌ لَهُ مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَهِيَ تَشْمَلُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَقَدْ جَعَلَهُمَا بَعْضُهُمْ مَرْجِعَيْنِ مُسْتَقِلَّيْنِ ، أَيْ عَلَى تَفْرِيطِنَا

(123/230)

فِي شَأْنِهَا بِعَدَمِ الِاسْتِعْدَادِ لَهَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَقِيلَ : إنَّ الضَّمِيرَ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ كَلِمَةِ " فَرَّطْنَا " لِأَنَّ التَّقْصِيرَ إنَّمَا يَكُونُ فِي الْعَمَلِ ، وَقِيلَ : لِلصَّفْقَةِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ كَلِمَةِ " خَسِرَ " وَهِيَ بَيْعُهُمُ الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا ، وَهَذَا أَضْعَفُ الْأَقْوَالِ ، وَأَقْوَاهَا أَوَّلُهَا ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَمِنْ غَرَائِبِ غَفَلَاتِ الْمُفَسِّرِينَ مَا نَقَلَهُ بَعْضُ أَذْكِيَائِهِمْ عَنْ بَعْضٍ مِنْ دَعْوَى أَنَّ مَرْجِعَ الضَّمِيرِ فِي هَذَا الْقَوْلِ غَيْرُ مَذْكُورٍ فِي كَلَامِهِمْ ، عَلَى كَوْنِهِ هُوَ الْمَذْكُورَ فِيهِ دُونَ سِوَاهُ مِنَ الْمَرَاجِعِ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَى ، وَلَكِنَّهُمْ ذَهَلُوا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ : (وَقَالُوا إنْ هِيَ إلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) إلَخْ ، وَعَنْ كَوْنِ مَا بَعْدَهُ بَيَانًا لِعَاقِبَتِهِ وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ لَا سِيَاقًا جَدِيدًا مُسْتَقِلًّا ، وَأَمَّا السَّاعَةُ فَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِيمَا حَكَاهُ اللَّهُ مِنْ شَأْنِهِمْ لَا عَنْهُمْ ، فَكَانَ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَيْهَا فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْقُوَّةِ .

(وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ) الْأَوْزَارُ : جَمْعُ وِزْرٍ ، وَهُوَ بِالْكَسْرِ الْحِمْلُ

(124/230)

الثَّقِيلُ ، وَوَزَرَهُ (بِوَزْنِ وَعَدَهُ) حَمَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، وَيُطْلَقُ الْوِزْرُ عَلَى الْإِثْمِ وَالذَّنْبِ ؛ لِأَنَّ ثِقَلَهُ عَلَى النَّفْسِ كَثِقَلِ الْحِمْلِ عَلَى الظَّهْرِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ ، وَجَعْلُ الذُّنُوبِ مَحْمُولَةً عَلَى الظُّهُورِ مَجَازٌ مِنْ بَابِ التَّمْثِيلِ بِالِاسْتِعَارَةِ ؛ لِأَنَّ حَالَةَ النَّفْسِ فِيمَا تُقَاسِيهِ مِنْ سُوءِ تَأْثِيرِ

الذُّنُوبِ فِيهَا وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ التَّعَبِ وَالشَّقَاءِ وَالْآلَامِ يُشْبِهُ هَيْئَةَ الْأَبْدَانِ فِي حَالِ نَوْئِهَا بِالْأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ ، وَمَا تُقَاسِيهِ فِي ذَلِكَ مِنَ التَّعَبِ وَالْجَهْدِ وَالزَّحِيرِ ، أَوْ هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْقَوْلِ بِتَجَسُّمِ الْمَعَانِي وَالْأَعْمَالِ فِي الْآخِرَةِ ، وَتَمَثُّلِهَا هِيَ وَمَادَّتِهَا بِصُوَرٍ تُنَاسِبُهَا فِي الْحُسْنِ أَوِ الْقُبْحِ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْغُلُولِ وَالْمَالِ الَّذِي لَا تُؤَدَّى زَكَاتُهُ ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ وَعَمْرِو بْنِ قَيْسٍ الْمُلَائِيِّ أَنَّ الْأَعْمَالَ الْقَبِيحَةَ تَتَمَثَّلُ بِصُورَةِ رَجُلٍ حَسَنٍ أَوْ صُورَةٍ حَسَنَةٍ تَحْمِلُ صَاحِبَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ قَبِيلِ التَّمْثِيلِ أَيْضًا . وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يُنَادُونَ الْحَسْرَةَ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِمْ أَسْبَابُهَا وَهُمْ فِي أَسْوَأِ حَالٍ بِمَا يَحْمِلُونَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى سُوءَ تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي تَلَابَسُهُمْ عِنْدَ اللَّهَجِ بِذَلِكَ الْمَقَالِ بِقَوْلِهِ : (أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) فَبَدَأَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ بِأَلَا الِافْتِتَاحِيَّةِ الَّتِي يُرَادُ بِهَا الْعِنَايَةُ بِمَا

(125/230)

بَعْدَهَا وَتَوْجِيهُ ذِهْنِ السَّامِعِ إِلَيْهِ ، يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ فِي تَقْرِيرِهِ وَتَأْكِيدِ مَضْمُونِهِ وَوُجُوبِ الِاهْتِمَامِ بِالِاعْتِبَارِ بِهِ وَ (سَاءَ) فِعْلُ ذَمٍّ أُشْرِبَ مَعْنَى التَّعَجُّبِ أَوِ التَّعْجِيبِ ، أَيْ : مَا أَسْوَأَ حِمْلَهُمْ ذَاكَ ! أَوْ : مَا أَسْوَأَ تِلْكَ الْأَثْقَالَ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا ، وَقِيلَ : إِنَّ (سَاءَ) هُنَا الْفِعْلُ

الْمُتَعَدِّي ، أَيْ سَاءَهُمْ وَأَحْزَنَهُمْ حَمْلُهُمْ لِتِلْكَ الْأَوْزَارِ ، أَوْ سَاءَتْهُمْ تِلْكَ الْأَوْزَارُ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا . وَالْأَوَّلُ أَبْلَغُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 287.302 ﴾

(126/230)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾

إن كل رأس مال يحتاج إلى عمل يزيده ، لكن أن يكون العمل قد أضاع المال ، فهذا يعني الخسارة مرتين : مرة لأن رأس المال لم يبق عند حده بل إنه قد فنى وذهب وضاع ، وثانية لأن هناك جهداً من الإنسان قد ضاع وأضاع معه رأس المال .

إذن فقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر . وكل إنسان منا يريد أن يثمّر عمله ويحاول أن يعطي قليلاً ليأخذ كثيراً .

وعلى سبيل المثال نجد الفلاح يقتطع مقدار كيلتين من أرادب القمح التي في مخزنه ليبذرها في الأرض بعد أن تُحرث . وهذا يعني النقص القليل في مخزن هذا الفلاح ، ولكنه نقص لزيادة قادمة ؛ فعندما وضع البذور في الأرض المحروثة نجد الحق سبحانه وتعالى ينبتها له

أضعافاً مضاعفة . والفلاح بذلك يبيع العاجل القليل من أجل أن يأخذ الآجل الكبير . وهذه أصول حركة العاقل الذي يزن خطواته ، فإن أراد أن يزيد الثمار من حركته ، فعليه أن يبذل الجهد . أما إن كانت الحركة لا تأتي له إلا بالقليل فلن يتحرك . ولأن العاقل لا يحب الخسارة نجده يوازن دائماً ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذي سيأتي إليه . أما الذين كفروا بلقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم ، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين : حياة مظنونة ، وحياة متيقنة ؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة .

(127/230)

إننا لا نعرف كم ستحيا فيها ؛ فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عاماً على سبيل المثال ، ولكن أحداً لا يعرف كم عمره في الدنيا بالضبط ، وله أجل محدود . إنه فان وذاهب وميّت ، ولكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها ، إنها دائمة ، ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه ، أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية ؛ لأنهم لم يتاجروا مع الله . ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام : 31] .

ونعلم أن " حتى " هي جسر بين أمرين ؛ فالأمر الذي نريد أن نصل إليه هو غاية ، كقول إنسان ما : " سرت حتى وصلت المنزل " ، والمنزل هنا هو غاية السير .

والذين كفروا ، كان كفرهم وتكذيبهم موصلاً إلى الخسران ، فمجيء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف ، ولكنه وصول إلى أول الخسران ؛ لأن خسرانهم لا ينتهي من فور مجيء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم . فهم يفاجأون بوقوع ما كانوا يكذبون به . ويعلمون جيداً أن ما صنعوه في الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

وهنا تبدأ الحسرة التي لا يقدرون على كتمانها ، ولذلك يقولون : ﴿ يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ . أي على تفريطنا وإسرافنا في أمرنا وذلك في أثناء وجودنا في الدنيا .

وبذلك نعرف أن عدم التفريط في الدنيا والأخذ بالأسباب فيها أمر غير مذموم ، ولكن التفريط في أثناء الحياة الدنيا هو الأمر المذموم ؛ لأنه إضاعة للوقت وإفساد في الأرض .

(128/230)

إنني أقول ذلك حتى لا يفهم أحد أن الاستمتاع في الدنيا أمر مذموم في حد ذاته ، وحتى لا يفهم أحد أن الآخرة هي موضوع الدين ؛ لأن الدنيا هي موضوع الدين أيضاً ، والجزاء في الآخرة إنما يكون على ألوان السلوك المختلفة في الدنيا ؛ فمن يحسن السلوك في الدنيا ينال

ثواب الآخرة ومن يسيء ينال عقاب الآخرة . ولذلك لا يصح على الإطلاق أن نقارن الدين بالدنيا .

إن علينا أن نعلم خطأ الذين يقولون : " دين ودنيا " فالدين ليس مقابلاً للدنيا . بل الدنيا هي موضوع الدين . أقول ذلك رداً على من يظنون أن سبب ارتقاء بعض البلاد في زماننا هو أن أصحابها أهملوا الدين وفتنوا بما في الدنيا من لذة ومتعة فعملوا على بناء الحضارات .

نقول : إن الإقبال على الدين بروح من الفهم هو الذي يبني الحضارات ويُثاب المصلح في الدنيا يوم الجزاء ، ولنا أن نعرف أن المقابل للدنيا هو الآخرة ، والدين يشملهما معاً ؛ يشمل الدنيا موضوعاً ، والآخرة جزاءً . والذين يفتنون بالدنيا ولا يؤمنون بالآخرة هم الذين يقولون يوم القيامة : ﴿ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ .

والأوزار المعنوية في الدنيا – وهي الذنوب – ستتجسم بحسيات وذلك حتى تكون الفضيحة علنية ؛ فمن سرق غنمه يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على ظهره ، ومن سرق بقرة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على كتفه وهي تخور ، وكذلك من سرق طنا من حديد عمارة سيُبعث يوم القيامة وهو يحمله على ظهره ، وكذلك يفضحه الله يوم القيامة .

(129/230)

وهذا يكون موقف أهل النار ؛ لذلك يقول : ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ونعلم أنهم لا يحملون أوزاراً فقط بل يحملون من أوزار الذين اتخذهم قدوة له ، فهذا وزر الإضلال ويعرفون – جميعاً أن حمل الوزر يتجسد في الإحساس بعبئه ؛ فقد قادتهم هذه الأوزار إلى الجحيم ، ونعلم أن نتيجة كل عمل هي الهدف منه ، فمن عمل صالحاً سيجد صلاح عمله ، ومن أساء فسيجد عمله السيء .

إننا نرى الأمثلة العملية لذلك في حياتنا اليومية ؛ فهذان شقيقان يعملان بالزراعة ، وكل منهما يملك فدانين من الأرض مثلاً : الأول منهما يقوم مع طلوع الفجر ليعتني بأرضه ويحرثها ويحمل إليها السباخ ويعتني بمواقيت الري ويسعى إلى يوم الحصاد بجد واهتمام . والاخر يسهر الليل أمام شاشة التليفزيون ، ولا يقوم من النوم إلا في منتصف النهار ، ولا يخدم أرضه إلا بأقل القليل من الجهد .

ثم يأتي يوم الحصاد فينال الأول ناتج تعبه من محصول وفير ، وينال الآخر محصولاً قليلاً بالإضافة إلى الحسرة التي يتجرعها بسبب إهماله وكسله . إذن فالعاقل هو من يدرس ما تعطيه حركته في الحياة . ويختار نوعية الحركة في الحياة بما يضمن له سعادة الدنيا والآخرة ، واطمئنان النفس في الدنيا والآخرة .

إن من ينام ولا يذهب إلى عمله هو إنسان يحب نفسه ، ومن قام في بكرة الفجر إلى عمله

يحب نفسه أيضاً ، ولكنّ هناك فارقاً بين حب أحمق عقباه الندم ، وحب أعمق لمعنى الحياة وعقباه الجزاء الوافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(130/230)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَة ﴾ في نصب " بَغْتَةً " أربعة أوجه :

أحدهما : أنها مصدرٌ في موضع الحال من فاعل " جاءَتهم " بَغَتَتْهُمْ بغتة ، فهو كقولهم : " أتيته رَكْضاً " .

الثالث : أنَّها منصوبةٌ بفعل محذوف من لفظها ، أي : تبغتهم بَغْتَة .

الرابع : بفعل [من غير لفظها ، أي : أتتهم بغتة ، والبغت والبغتة مفاجأة الشيء بسرعة من] غير اعتدادٍ به ، ولا جَعْلِ بالٍ منه حتَّى لو استشعر الإنسانُ به ، ثم جاء بسرعة من غير اعتدادٍ به لا يُقَالُ فيه : بَغْتَة ، وكذلك قول الشاعر في ذلك : [الطويل]

2144 - إِذَا بَغَتَتْ أَشْيَاءُ قَدْ كَانَ قَبْلَهَا . . .

قَدِيماً فَلاَ تَعْتَدَّهَا بَغَتَاتِ

والألف واللام في " السَّاعة " للغَلَبة كالنَّجْم والثُّرَيَّا ؛ لأنها غلبت على يوم القيامة ، وسِمَّيتِ القيامَةُ سَاعةً لسرعة الحِسَابِ فيها على الباري تبارك وتعالى .

وقيل : لأنَّ السَّاعة من الوَقْتِ الذي تقوم فيه القيامة ؛ لأنها تَفْجأ الناس في ساعة لا يعلمها [أحدٌ] إلاَّ اللَّهُ تعالى .

وقوله : " قالوا " هو جواب " إذا " .

(131/230)

قوله : "يَا حَسْرَتَنَا " هذا مجازٌ ؛ لأن الحَسْرَةَ لا يتأتى منها الإقْبَالُ ، وإنَّما المعنى على المُبَالغَةِ في شِدَّةِ التَّحَسُّرِ ، وكأنهم نادوت التحسُّر ، وقالوا : إن كان لك وَقْتٌ ، فهذا أوانُ حضورك .

ومثله : " يا ويلتا " والمقصودُ التنبيهُ على خطأ المنادي ، حيث ترك ما أحْوَجَهُ تركه إلى نداء هذه الأشياء .

قال سيبويه – رحمه الله – : فيكون المنادي هو نفس الحَسْرَةِ ، والمُرَادُ بالحَسْرَةِ النَّدَامَةُ .

قال الزَّجَّاج – رحمه الله تعالى – : هذا النِّدَاءُ ينبِّهُ الناس على ما سيحصل لهم من الحَسْرَةِ ، والعربُ تعبر عن تعظيم أمثال هذه الأمور باللَّفظَةِ كقوله تبارك وتعالى : ﴿ يا حسرة عَلَى

العباد ﴾ [يس : 30] ﴿ يا حسرتى على مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] ﴿ يا ويلتى أَأَلِدُ ﴾ [هود : 72] و﴿ يا أسفى ﴾ [يوسف : 84] والمعنى : يا أيها النَّاس تَنَبَّهُوا على ما وَقَعَ من الأَسَفِ ، فوقع النداءُ على غير المنادى في الحقيقة .

قوله : " عَلَى مَا فَرَّطْنَا " متعلّق بالحسرة و" ما " مَصْدريَّةٌ ، أي : على تفريطنا ، والضمير في " فيها " يجوز أن يعود على السَّاعِةِ ، ولا بد من مضاف ، أي في شأنها والإيمان بها ، وأن يعود على الصّفقَةِ المتضمّنة في قوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذين ﴾ ، قاله الحسن ، أو يعود على الحياة الدينا ، وإن لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ لكونها مَعْلُومَةَ ، قاله الزمخشري – رحمه الله تعالى – .

وقيل : يعود على مَنَازِلِهم في الجنَّةِ إذا رأوها ، وهو بَعِيدٌ .

والتفريطُ : التقصير في الشيء مع القُدْرَةِ على فعله .

وقال أبو عُبَيْدِ هو التَّضْييعُ .

وقال ابن بَحْرِ : وهو السَّبْقُ ومنه الفارط ، أي : السَّبق للقوم ، فمعنى فَرَّط بالتشديد خَلَّى السَّبْقَ لغيره ، فالتضعيف فيه للسَّلْبِ ، كـ" جلَّدت البعير " ومنه ﴿ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : 79] .

(132/230)

قوله : " وَهُمْ يَحْمِلُونَ " " الواو " للحال ، وصَاحِبُ الحال " الواو " في " قالوا " أي : قالوا : يا حَسْرَتَنَا في حالةِ حَمْلِهِمْ أَوْزَارَهُمْ .

وصُدِّرت هذه الجملة بضمير مبتدأ ؛ ليكون ذِكْرُهُ مَرَّتين فهو أَبْلَغُ .

والحَمْلُ هنا قيل : مجازٌ عن مُقَاسَاتِهِمُ العذابَ الذي سَبَبُهُ الأَوْزَارُ .

[قال الزَّجَّاجُ : كما يُقَال : " ثقل عليّ كلام فلان "] والمعنى : كرهته .

وقيل : هو حقيقة وفي الحديث : " إِنَّهُ يُمَثَّلُ لَهُ عَمَلُهُ بِصُورَةِ قَبِيْحَةٍ مُنْتِنَةِ الرِّيحِ فَيَحمِلُها " وهو قول قتادَةَ ، والسُّدي ، وخُصَّ الظَّهْرُ ، لأنه يُطيق [من الحَمْل] ما لا يُطِيقُهُ غيره من الأَعْضَاءِ كالرأس والكَاهِل ، وهذا كما تقدم في قوله : ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : 7] ، ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران : 187] لأن اليد أقوى في الإدراك اللَّمْسِيِّ من غيرها .

والأَوزَارُ : جمع " وِزْر " كـ " حِمْل " وعِدْل وأَعْدَال .

والوِزْر في الأصل الثقل ، ومنه ، : وَزَرْتُهُ ، أي : حَمَّلته شَيْئاً قليلاً ووزير الملك من هذا ؛ لأنه يَتَحَمَّلُ أَعْبَاء ما قَلَّدَهُ المَلِكُ من مؤنة رعيَّته وحَشَمَتِه ومنه أَوْزَارُ الحرب لسلاحها وآلاتها ، قال [القائل في ذلك] : [المتقارب]

2145 - وأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا . . .

رِمَاحاً طِوَالاً وخِيْلاً ذُكُورَا

وقيل : الأصل في ذلك الوَزَرُ بفتح الواو والزاي ، وهو المَلْجأ الذي يُلْتَجَأُ إليه من الجَبَلَ ، قال تعالى : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ [القيامة : 11] ثمَّ قيل للثقل : وَزْرٌ تَشْبيهاً بالجَبَلِ ، ثم اسْتُعِيرَ الوِزْرُ إلى الذَّنْبِ تشْبيهاً به في مُلاقَاةِ المَشَقَّةِ ، والحاصل أنَّ هذه المادة تَدُلُّ على الرَّزَانَةِ والعَظَمَةِ .

قوله : ﴿ ألا سَاءَ ما يزِرُونَ ﴾ " ساء " هنا تحتمل أوجهاً ثلاثة :

(133/230)

أحدهما : أنها " ساء " المُتَصَرِّفَةُ المتعدِّيَةُ ، ووزنها حينئذٍ " فَعَل " بفتح العين ، ومفعولها حينئذٍ محذوفٌ ، وفاعلها " ما " .

و" ما " تحتمل ثلاثة أوجه :

أن تكون موصولةً اسمية ، أو حرفية ، أو نكرة موصوفة ، وهو بعيد ، [وعلى جعلها اسمية أو نكرة موصوفة تقدّر] لها عائداً ، والحرفية غير محتاجة إليه عند الجمهور .

والتقدير : ألا سَاءَ هُمُ الذي يَزِرُونَهُ ، أو شيء يزرونه ، أو وزْرُهُمْ [وبدأ ابن عطية بهذا الوجه ؛ قال : كما تقول : ساءني هذا الأمر ، والكلام خبر مجرد كقوله : [البسيط]

2146 - رَضيتَ خِطَّةَ خَسْفٍ غَيْرَ طَائِلَةٍ . . .

فَسَاءَ هَذَا رِضًى يا قَيْسَ عَبْلانَا

قال أبو حيان : ولا يتعين أن تكون " ما " في البيت خبراً مجرداً ، بل تحتمل الأوجه الثلاثة] وهو ظاهر .

الثاني : أن يكون للتعجُّب ، فتنتقل من " فَعَل " بفتح العين [إلى] " فعُل " بضمها ، فتعطى حكم فعل التَّعَجُّب من عدم التصرف ، والخروج من الخبر المَحْضِ إلى الإنشاء إن قلنا : إن التعجُّب إنشاء ، وهو الصحيح ، والمعنى : ما أسْوَأَ ، أي : أقبح الذي يزرونه ، أو شيئاً يزرونه ، أو وِزْرُهم .

الثالث : أنها بمعنى " بئس " فتكون للمُبَالَغَةِ في الذَّمِّ فتعطى أحكامها أيضاً ، ويجري الخِلافُ في " ما " الواقِعة بعدها حَسْبَما ذكر في ﴿ بِئْسَمَا اشتروا بِهِ ﴾ [البقرة : 90] وقد ظهر الفَرقُ بين الأوجه الثلاثة ، فإنها في الأوَّل متعدّية متصرّفة ، والكلام معها خَبَرٌ مَحْضٌ ، وفي الأخيرين قَاصِرَةٌ جامدة إنشائية .

والفرق بين الوجهين الأخيرين أنَّ التعجبيَّة لا يُشْتَرَطُ في فاعلها ما يشترط في فاعل " بئس " .

(134/230)

وقال أبو حيَّان : والفَرْقُ بين هذا الوجه يعني كونها بمعنى " بئس " ، والوجه الذي قبله – يعني كونها تعجبيَّةً – أنه لا يُشْتَرَطُ فيه ما يشترط في فاعل " بئس " من الأحكام ، ولا هو جملةٌ منعدةٌ من مبتدأ وخبر ، [إنما هو منعقد من فعل أو فاعل انتهى ، وظاهره لا يظهر إلاَّ بتأويل ، وهو أن الذم لا بد فيه مَن مَخْصوص بالذَّمِّ ، وهو مبتدأ ، والجملة الفعلية قبله خبره فانعقده من هذه الجملة مبتدأ وخبر] .

إلا أنَّ لقائلٍ أن يقول : إنما يَتَأَتَّى هذا على أحَدِ الأعَارِيبِ في [المخصوص] وعلى تقدير التَّسْليم ، فلا مَدْخَلَ للمخصوص بالذَّمِّ في جملة الذَّمِّ بالنسبة إلى كونها فَعْلِيَّة ، فحينئذٍ لا يظهر فَرْقٌ بينها وبين التَّعجبية في أنَّ كُلاًّ منهما منعقدةٌ من فَعلٍ وفاعل .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : بِئْسَ الحِمْلُ حَمَلُوا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 101.105 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31) ﴾

خسران وأي خسران ! لم يخسروا مالاً ، ولا مقاماً ولا حالاً ، ولكن كما قيل :

لعمري لئن أنزفتُ دمعي فإنه . . . لفرقه مَنْ أفنيتُ في ذكره عمري

المصيبة لهم والحسرة على غيرهم ، ومَنْ لم يَعْرِفْ جَلالَ قدره متى تأسَّف على ما يفوته من حديثه وأمره ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 468 ﴾

(135/230)

قوله تعالى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فلما تأكد أمر البعث غاية التأكد ، ولم يبق فيه لذي لب وقفة ، صرح بما اقتضاه الحال من أمر هذه الدار ، فقال منبهاً على خساستها معجباً منهم في قوة رغبتهم في إيثار لذاذتها ، معلماً بأنه قد كشف الحال عن أن ما ركنوا إليه خيال ، وما كذبوا به حقيقة ثابتة ليس لها زوال ، عكس ما كانوا يقولون : ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾ .

ولما كان السياق للخسارة ، وكانت أكثر ما تكون من اللعب – وهو فعل ما يزيد سرور النفس على وجه غير مشروع ، ويسرع انقضاؤه – قدمه فقال : ﴿ إلا لعب ولهو ﴾ أي للأشقياء ، وللحياة الدنيا شر للذين يلعبون ، واللهو ما من شأنه أن يعجب النفس كالغناء

والزينة من المال والنساء على وجه لم يؤذن فيه ، فيكون سبباً للغفلة عما ينفع ، فتأخيره إشارة إلى أن الجهلة كلما فتروا في اللعب وهو اشتغال بالأمور السافلة والشواغل الباطلة بعلو النفوس أثاروا الشهوات بالملاهي ، والمعنى أنه تحقق من هذه الآيات زوال الدنيا ، فتحققت سرعته ، لأن كل آتٍ قريب ، فحينئذ ما هي إلا ساعة لعب ، يندم الإنسان على ما فرط فيها ، كما يندم اللاعب – إن كان له عقل – على تفويت الأرباح إذا رأى ما حصل أولو الجد وأرباب العزائم .

ولما كان التقدير بما أرشد إليه المعنى : وما الدار الآخرة إلا جد وحضور وبقاء للأتقياء ، أتبعه قوله مؤكداً : ﴿ وللدار الآخرة خير ﴾ ولما كان الكل مآلهم إلى الآخرة ، خصص فقال : ﴿ للذين يتقون ﴾ أي يوجدون التقوى ، وهي الخوف من الله الذي يحمل على فعل الطاعات وترك المعاصي ، ليكون ذلك وقاية لهم من غضب الله ، فذكر حال الدنيا وحذف نتيجتها لأهلها لدلالة ثمرة الآخرة عليه وحذف ذكر حال الآخرة لدلالة ذكر حال الدنيا عليه ، فهو احتباك ؛ ولما كان من شأن العقلاء الإقبال على الخير وترك غيره ، تسبب عن إقبالهم على الفاني وتركهم الباقي قوله منكراً : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 626 ﴾

(136/230)

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم في الدنيا وتحصيل لذاتها ، فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيهاً على خساستها وركاكتها .

واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها لأن هذه الحياة العاجلة لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها ، فلهذا السبب حصل في تفسير هذه الآية قولان :

القول الأول : أن المراد منه حياة الكافر .

قال ابن عباس : يريد حياة أهل الشرك والنفاق ، والسبب في وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة أن حياة المؤمن يحصل فيها أعمال صالحة فلا تكون لعباً ولهواً .

والقول الثاني : أَن هذا عام في حياة المؤمن والكافر ، والمراد منه اللذات الحاصلة في هذه الحياة والطيبات المطلوبة في هذه الحياة ، وإنما سماها باللعب واللهو ، لأن الإنسان حال اشتغاله باللعب واللهو يلتذ به ، ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة ، فكذلك هذه الحياة لا يبقى عند انقراضها إلا الحسرة والندامة .

واعلم أن تسمية هذه الحياة باللعب واللهو فيه وجوه : الأول : أن مدة اللهو واللعب قليلة سريعة الإنقضاء والزوال ، ومدة هذه الحياة كذلك .

الثاني : أن اللعب واللهو لا بدّ وأن ينساقا في أكثر الأمر إلى شيء من المكاره ولذات الدنيا كذلك .

الثالث : أن اللعب واللهو ، إنما يحصل عند الاغترار بظواهر الأمور ، وأما عند التأمل التام والكشف عن حقائق الأمور ، لا يبقى اللعب واللهو أصلاً ، وكذلك اللهو واللعب ، فإنهما لا يصلحان إلا للصبيان والجهال المغفلين ، أما العقلاء والحصفاء ، فقلما يحصل لهم خوض في اللعب واللهو ، فكذلك الالتذاذ بطيبات الدنيا والانتفاع بخيراتها لا يحصل ، إلا للمغفلين الجاهلين بحقائق الأمور ، وأما الحكماء المحققون ، فإنهم يعلمون أن كل هذه الخيرات غرور ، وليس لها في نفس الأمر حقيقة معتبرة .

الرابع : أن اللعب واللهو ليس لهما عاقبة محمودة ، فثبت بمجموع هذه الوجوه أن اللذات والأحوال الدنيوية لعب ولهو وليس لهما حقيقة معتبرة .

(137/230)

ولما بين تعالى ذلك قال بعده ﴿ وَلَلدَّارُ الاخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ وصف الآخرة بكونها خيراً ، ويدل على أن الأمر كذلك حصول التفات بين أحوال الدنيا وأحوال الآخرة في أمور أحدها : أن خيرات الدنيا خسيسة وخيرات الآخرة شريفة بيان أن الأمر كذلك وجوه :

الأول : أن خيرات الدنيا ليست إلا قضاء الشهوتين ، وهو في نهاية الخساسة ، بدليل أن الحيوانات الخسيسة تشارك الإنسان فيه ، بل ربما كان أمر تلك الحيوانات فيها أكمل من أمر الإنسان ، فإن الجمل أكثر أكلاً ، والديك والعصفور أكثر وقاعاً ، والذئب أقوى على الفساد والتمزيق ، والعقرب أقوى على الإيلام ، ومما يدل على خساستها أنها لو كانت شريفة لكان الإكثار منها يوجب زيادة الشرف ، فكان يجب أن يكون الإنسان الذي وقف كل عمره على الأكل والوقاع أشرف الناس ، وأعلاهم درجة ، ومعلوم بالبديهة أنه ليس الأمر كذلك بل مثل هذا الإنسان يكون ممقوتاً مستقذراً مستحقراً يوصف بأنه بهيمة أو كلب أو أخس ، ومما يدل على ذلك أن الناس لا يفتخرون بهذه الأحوال بل يخفونها ، ولذلك كان العقلاء عند الاشتغال بالوقاع يختفون ولا يقدمون على هذه الأفعال بمحضر من الناس وذلك يدل على أن هذه الأفعال لا توجب الشرف بل النقص ، ومما يدل على ذلك أيضاً أن الناس إذا شتم بعضهم بعضاً لا يذكرون فيه إلا الألفاظ الدالة على الوقاع ، ولولا أن تلك اللذة من جنس النقصانات ، وإلا لما كان الأمر كذلك ، ومما يدل عليه أن هذه اللذات ترجع حقيقتها إلى دفع الآلام ، ولذلك فإن كل من كان أشد جوعاً وأقوى حاجة كان التذاذه بهذه الأشياء أكمل له وأقوى ، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه لا حقيقة لهذه اللذات في نفس الأمر .

ومما يدل عليه أيضاً أن هذه اللذات سريعة الاستحالة سريعة الزوال سريعة الانقضاء .

فثبت بهذه الوجوه الكثيرة خساسة هذه اللذات .

(138/230)

وأما السعادات الروحانية فإنها سعادات شريفة عالية باقية مقدسة ، ولذلك فإن جميع الخلق إذا تخيلوا في الإنسان كثرة العلم وشدة الانقباض عن اللذات الجسمانية ، فإنهم بالطبع يعظمونه ويخدمونه ويعدون أنفسهم عبيداً لذلك الإنسان وأشقياء بالنسبة إليه ، وذلك يدل على شهادة الفطرة الأصلية بخساسة اللذات الجسمانية ، وكمال مرتبة اللذات الروحانية .

الوجه الثاني : في بيان أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا ، وهو أن نقول : هب أن هذين النوعين تشاركا في الفضل والمنقبة ، إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد القيامة معلوم قطعاً .

وأما الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد الدنيا فغير معلوم بل ولا مظنون ، فكم من سلطان قاهر في بكرة اليوم صار تحت التراب في آخر ذلك اليوم ، وكم من أمير كبير أصبح في الملك والإمارة ، ثم أمسى أسيراً حقيراً ، وهذا التفاوت أيضاً يوجب المباينة بين النوعين .

الوجه الثالث : هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يوماً آخر في الدنيا ، إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا ؟ أما كل ما جمعه من موجبات السعادات ، فإنه يعلم قطعاً أنه ينتفع به في الدار الآخرة .

الوجه الرابع : هب أنه ينتفع بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يكون خالياً عن شوائب المكروهات ، وممازجة المحرمات المخوفات .

ولذلك قيل : من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق .

فقيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : " سرور يوم بتمامه " .

الوجه الخامس : هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات في الغد ، إلا أن تلك المنافع منقرضة ذاهبة باطلة ، وكلما كانت تلك المنافع أقوى وألذ وأكمل وأفضل كانت الأحزان الحاصلة عند انقراضها وانقضائها أقوى وأكمل كما قال الشاعر المتنبي :

أشد الغم عندي في سرور . . تيقن عنه صاحبه انتقالا

فثبت بما ذكرنا أن سعادات الدنيا وخيراتها موصوفة بهذه العيوب العظيمة ، والنقصانات الكاملة وسعادات الآخرة مبرأة عنها ، فوجب القطع بأن الآخرة أكمل وأفضل وأبقى وأتقى وأحرى وأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 165 . 167 ﴾

(139/230)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : وما أمر الدنيا والعمل لها إلا لعب ولهو ، فأما عمل الصالحات فيها فهو من عمل الآخرة ، فخرج من أن يكون لعباً ولهواً .

والثاني : وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو لاشتغالهم بها عما هو أولى منها ، قاله الحسن .

والثالث : أنهم كأهل اللعب واللهو لانقطاع لذاتهم وقصور مدتهم ، وأهل الآخرة بخلافهم لبقاء مدتهم واتصال لذتهم ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَلدَّارُ الأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ .

وذكر بعض الخاطرية قولاً رابعاً : أنها لعب لمن جمعها ، لهو لمن يرثها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ أي باطل وغرور لا بقاء لها وهذا فيه رد على منكري البعث في قولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ فقال الله

رداً عليهم وكذباً لهم ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ وهل المراد بهذه الحياة حياة المؤمن أو الكافر قولان : أحدهما : إن المراد بها حياة الكافر لأن المؤمن لا يزداد بحياته في الدنيا إلا خيراً لأنه يحصل في أيام حياته من الأعمال الصالحة والطاعة ، ما يكون سبباً لحصول السعادة في الآخرة ؛ وأما الكافر فإن كل حياته في الدنيا وبال عليه قال ابن عباس يريد حياة أهل الشرك والنفاق .

والقول الثاني : إن هذا عام في حياة المؤمن والكافر لأن الإنسان يلتذ باللعب واللهو ثم عند انقضائه تحصل له الحسرة والندامة لأن الذي كان فيه من اللعب واللهو سريع الزوال لا بقاء له فبان بهذا التقرير أن المراد بهذه الحياة حياة المؤمن والكافر وأنه عام فيهما .

وإنما شبه الحياة الدنيا باللعب واللهو لسرعة زوالها وقصر عمرها كالشيء الذي يُلعب به .

(140/230)

وقيل : معناه إن أمر الدنيا والعمل لها لعب ولهو فأما فعل الخير والعمل الصالح فهو من فعل الآخرة وإن كان وقوعه في الدنيا وقيل معناه وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو لأنه لا يجدي شيئاً ولاشتغالهم عما أمروا به ونسبوا إلى اللعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي لقصر مدّتها كما قال :

أَلاَ إنما الدُّنْيَا كأَحلامِ نائم . . .

وما خيرُ عيشٍ لا يكونُ بدائم

تَأَمَّلْ إذا ما نلتَ بالأمس لَذَّةً . . .

فأَفنيتَها هل أَنت إلاّ كحالمِ

وقال آخر :

فاعمل على مَهلٍ فإنك مَيِّت . . .

واكدح لنفسك أَيها الإنسانُ

فكأَنّ ما قد كان لم يكُ إذ مَضَى . . .

وكأَنّ ما هو كائنٌ قد كانا

(141/230)

وقيل : المعنى متاعُ الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ ؛ أي الذي يشتهونه في الدنيا لا عاقبة له ، فهو بمنزلة اللعب واللهو .

ونظر سليمان بن عبد الملك في المرآة فقال : أنا الملك الشاب ؛ فقالت له جارية له :

أنتَ نِعْمَ المتاع لو كنتَ تَبْقَى . . .

غير أَنْ لا بقاءَ للإنسانِ

ليس فيما بَدَا لنا منكَ عيبٌ . . .

كان في النّاس غير أَنّك فَاني

وقيل : معنى ﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ باطل وغرور ، كما قال : ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ مَتَاعُ الغرور ﴾ [آل عمران : 185] فالمقصد بالآية تكذيب الكفّار في قولهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ .

واللعب معروف ، والتَّلْعابة الكثير اللعب ، والمَلْعَب مكان اللعب ؛ يقال : لَعِب يَلْعَب .

واللّهو أيضاً معروف ، وكل ما شَغَلك فقد ألهَاك ، ولَهَوت من اللهو ، وقيل : أصله الصّرف عن الشيء ؛ من قولهم : لَهَيتُ عنه ؛ قال المهدوي : وفيه بُعدٌ ؛ لأن الذي معناه الصّرف لامه ياء بدليل قولهم : لهْيَانُ ، ولام الأول واو .

" فصل "

ليس من اللّهو واللّعب ما كان من أمور الآخرة .

فإن حقيقة اللّعب ما لا ينتفع به واللّهو ما يُلتهى به ، وما كان مراداً للآخرة خارج عنهما ؛

وذمّ رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال علي : الدنيا دار صدق لمن صَدَقها ، ودار نجاة لمن فهِم عنها ، ودار غِنىً لمن تزود منها .

وقال محمود الورّاق :

لا تُتبِع الدُّنيا وأيامَها . . .

ذماً وإنْ دارتْ بك الدائرهْ

من شرفِ الدُّنيا ومن فضلِها . . .

أَن بها تُستدركُ الآخِرهْ

وروى أبو عمر بن عبد البر عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ما كان فيها من ذكر الله أَو أَدَّى إلى ذكر الله والعالم والمتعلم شريكان في الأجر وسائر الناسَ هَمَجٌ لا خير فيه " وأخرجه التّرمذي عن أبي هُريرة وقال : حديث حسن غريب .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من هَوَان الدُّنيا على الله أَلاَ يُعصَى إلا فيها ولا يُنالُ ما عنده إلا بتركها " وروى التَّرمذي عن سَهْل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تَعدِل عند الله جناحَ بَعوضة ما سَقَى كافِراً منها شَرْبَةَ

ماء "

وقال الشاعر :

تَسمَّعْ من الأَيام إن كنتَ حازما . . .

فإنّك منها بين ناهٍ وآمِرِ

إذا أَبقت الدنيا على المرء دِينه . . .

فما فات من شيء فليس بضائر

ولن تَعدَل الدنيا جناحَ بَعوضةٍ . . .

ولا وَزْن زِفٍّ من جناحٍ لطائر

فما رِضى الدنيا ثواباً لمؤمنٍ . . .

ولا رِضى الدنيا جزاءً لكافر

وقال ابن عباس : هذه حياة الكافر لأنه يُزَجّيها في غرور وباطل ، فأما حياة المؤمن فتنطوي على أعمال صالحة ، فلا تكون لهواً ولعباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

(143/230)

وقال أبو حيان :

﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ لما ذكر قولهم وقالوا : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ ذكر مصيرها وإن منتهى أمرها أنها فانية منقضية عن قريب ، فصارت شبيهة باللهو واللعب إذ هما لا يدومان ولا طائل لهما كما أنها لا طائل لها ، فاللهو واللعب اشتغال بما لا غنى به ولا منفعة كذلك هي الدنيا بخلاف الاشتغال بأعمال الآخرة فإنها التي تعقب المنافع والخيرات .

وقال الحسن : في الكلام حذف التقدير وما أهل الحياة إلا أهل لعب ولهو .

وقيل : التقدير وما أعمال الحياة .

وقال ابن عباس : هذه حياة الكافر لأنه يزجيها في غرور وباطل ، وأما حياة المؤمن فتطوى على أعمال صالحة فلا تكون لعباً ولهواً وفي الحديث : " ما أنا من الدد ولا الدد مني " والدد اللعب واللعب واللهو قيل : هما بمعنى واحد وكرر تأكيداً لذم الدنيا .

وقال الرماني : اللعب عمل يشغل عما ينتفع به إلى ما لا ينتفع به ، واللهو صرف النفس عن الجدّ إلى الهزل يقال : لهيت عنه أي صرفت نفسي عنه ورد عليه المهدوي ، فقال هذا : فيه ضعف وبعد لأن الذي معناه الصرف لامه ياء بدليل قولهم : لهيان ولام الأول واو ؛ انتهى .

وهذا التضعيف ليس بشيء لأن فعل من ذوات الواو تنقلب فيه الواو ياء كما تقول : شقي

فلان وهو من الشقوة فكذلك لهي ، أصله لهو من ذوات الواو فانقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها فقالوا : لهي كما قالوا : حلى بعيني وهو من الحلو وأما استدلاله بقولهم في التثنية لهيان ففاسد لأن التثنية هي كالفعل تنقلب فيه الواو ياء لأن مبناها على المفرد وهي تنقلب في المفرد في قولهم : له اسم فاعل من لهي كما قالوا : شج وهو من الشجو ، وقالوا في تثنيته : شجيان بالياء وقد تقدم ذكر شيء من هذا في المفردات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(144/230)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ لما حقق سبحانه وتعالى فيما سبق أن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يلقون فيها من الخطوب ما يلقون ، بيَّن جل شأنه حال تينك الحياتين في أنفسهما ، وجعله بعضهم جواباً لقولهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ [الأنعام : 29] وفيه بعد ، وكيفما كان فالمراد وما أعمال الحياة الدنيا المختصة بها إلا كاللعب واللهو في عدم النفع والثبات ، وبهذا التقدير خرج كما قال غير واحد ما فيها من الأعمال الصالحة كالعبادة وما كان لضرورة المعاش ، والكلام من التشبيه البليغ ولو لم يقدر مضاف ، وجعلت

الدنيا نفسها لعباً ولهواً مبالغة كما في قوله

: وإنما هي إقبال وإدبار . . .

صح ، واللهو واللعب على ما في "درة التنزيل" يشتركان في أنهما الاشتغال بما لا يعني العاقل ويهمه من هوى وطرب سواء كان حراماً أو لا ؛ وفرق بينهما بأن اللعب ما قصد به تعجيل المسرة والاسترواح به واللهو كل ما شغل من هوى وطرب وإن لم يقصد به ذلك ، وإذا أطلق اللهو فهو على ما قيل اجتلاب المسرة بالنساء كما في قوله

: ألا زعمت بسباسة اليوم أنني . . .

كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

(145/230)

وقال قتادة : اللهو في لغة اليمن المرأة ، وقيل : اللعب طلب المسرة والفرح بما لا يحسن أن يطلب به واللهو صرف الهم بما لا يصلح أن يصرف به ، وقيل : إن كل شغل أقبل عليه لزم الإعراض عن كل ما سواه لأن من لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى فإذا أقبل على الباطل لزم الإعراض عن الحق فالإقبال على الباطل لعب والإعراض عن الحق لهو ، وقيل : العاقل المشتغل بشيء لا بد له من ترجيحه وتقديمه على غيره فإن قدمه من غير ترك للآخر

فلعب وإن تركه ونسيه به فهو لهو ، وقد بين صاحب "الدرة" بعد أن سرد هذه الأقوال سر تقديم اللعب على اللهو حيث جمعا كما هنا وتأخيره عنه كما في العنكبوت بأنه لما كان هذا الكلام مسوقاً للرد على الكفرة فيما يزعمونه من إنكار الآخرة والحصر السابق وليس في اعتقادهم لجهلهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية قدم اللعب الدال على ذلك وتمم باللهو أو لما طلبوا الفرح بها وكان مطمح نظرهم وصرف الهم لازم وتابع له قدم ما قدم أو لما أقبلوا على الباطل في أكثر أقوالهم وأفعالهم قدم ما يدل على ذلك أو لما كان التقديم مقدماً على الترك والنسيان قدم اللعب على اللهو رعاية للترتيب الخارجي ، وأما في العنكبوت فالمقام لذكر قصر مدة الحياة الدنيا بالقياس إلى الآخرة وتحقيرها بالنسبة إليها ولذا ذكر اسم الإشارة المشعر بالتحقير وعقب ذلك بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إن الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان ﴾ [العنكبوت : 46] والاشتغال باللهو مما يقصر به الزمان وهو أدخل من اللعب فيه ، وأيام السرور فصار كما قال

: وليلة إحدى الليالي الزهر . . .

لم تك غير شفق وفجر

وينزل على هذا الوجوه في الفرق ، وتفصيله في "الدرة" قاله مولانا شهاب الدين فليفهم .

﴿ وَلَلدَّارُ الآخرة ﴾ التي هي محل الحياة الأخرى ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والمعاصي لخلوص منافعها عن المضار والآلام وسلامة لذاتها عن الانصرام ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان ، والفاء للعطف على محذوف أي أتغفلون (أو ألا تتفكرون فلا تعقلون) ، وكان الظاهر أن يقال كما قال الطيبي وما الدار الآخرة إلا جد وحق لمكان ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ إلا أنه وضع ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ موضع ذلك إقامة للمسبب مقام السبب ، وقال في "الكشف" : إن في ذلك دليلاً على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو لأنه لما جعل الدار الآخرة في مقابلة الحياة الدنيا وحكم على الأعمال المقابل بأنها لعب ولهو علم تقابل العملين حسب تقابل ما أضيفا إليه أعني الدنيا والآخرة فإذا خص الخيرية بالمتقين لزم منه أن ما عدا أعمالهم ليس من أعمال الآخرة في شيء فهو لعب ولهو لا يعقب منفعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(147/230)

وقال السعدى :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ .

هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو ، لعب في الأبدان ولهو في القلوب ، فالقلوب لها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، والهموم فيها متعلقة ، والاشتغال بها كلعب الصبيان .

وأما الآخرة ، فإنها ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ في ذاتها وصفاتها ، وبقائها ودوامها ، وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من نعيم القلوب والأرواح ، وكثرة السرور والأفراح ، ولكنها ليست لكل أحد ، وإنما هي للمتقين الذين يفعلون أوامر الله ، ويتركون نواهيه وزواجره ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول ، بها تدركون ، أيّ الدارين أحق بالإيثار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 254 ﴾

(148/230)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

لمّا جرى ذكر الساعة وما يلحق المشركين فيها من الحسرة على ما فرّطوا ناسب أن يذكّر

الناس بأنّ الحياة الدنيا زائلة وأنّ عليهم أن يستعدّوا للحياة الآخرة .

فيحتمل أن يكون جواباً لقول المشركين : ﴿ إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [الأنعام : 29] .

فتكون الواو للحال ، أي تقولون إن هي إلاّ حياتنا الدنيا ولو نظرتم حقّ النظر لوجدتم الحياة الدنيا لعباً ولهواً وليس فيها شيء باق ، فلعلمتم أنّ وراءها حياة أخرى فيها من الخيرات ما هو أعظم ممّا في الدنيا وإنّما يناله المتّقون ، أي المؤمنون ، فتكون الآية إعادة لدعوتهم إلى الإيمان والتقوى ، ويكون الخطاب في قوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ التفاتاً من الحديث عنهم بالغيبة إلى خطابهم بالدعوة .

ويحتمل أنَّه اعتراض بالتذييل لحكاية حالهم في الآخرة ، فإنَّه لما حكى قولهم : ﴿ يا حسرتنا على ما فرّطنا فيها ﴾ [الأنعام : 31] علم السامع أنَّهم فرّطوا في الأمور النافعة لهم في الآخرة بسبب الانهماك في زخارف الدنيا ، فذُيّل ذلك بخطاب المؤمنين تعريفاً بقيمة زخارف الدنيا وتبشيراً لهم بأنّ الآخرة هي دار الخير للمؤمنين ، فتكون الواو عطفت جملة البشارة على حكاية النذارة .

والمناسبة هي التضادّد .

وأيضاً في هذا نداء على سخافة عقولهم إذ غرّتهم في الدنيا فسوّل لهم الاستخفاف بدعوة الله إلى الحق .

فيجعل قوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ خطاباً مستأنفاً للمؤمنين تحذيراً لهم من أن تغرّهم زخارف الدنيا فتلهيهم عن العمل للآخرة .

وهذا الحكم عامّ على جنس الحياة الدنيا ، فالتعريف في الحياة تعريف الجنس ، أي الحياة التي يحياها كلّ أحد المعروفة بالدنيا ، أي الأولى والقريبة من الناس ، وأطلقت الحياة الدنيا على أحوالها ، أو على مدّتها .

واللعب : عمل أو قول في خفّة وسرعة وطيش ليست له غاية مفيدة بل غايته إراحة البال وتقصير الوقت واستجلاب العقول في حالة ضعفها كعقل الصغير وعقل المتعب ، وأكثره أعمال الصبيان .

قالوا ولذلك فهو مشتقّ من اللّعاب ، وهو ريق الصبي السائل .

وضدّ اللعب الجِدّ .

واللهو : ما يشتغل به الإنسان ممّا ترتاح إليه نفسه ولا يتعب في الاشتغال به عقله .

فلا يطلق إلاّ على ما فيه استمتاع ولذّة وملائمة للشهوة .

وبين اللهو واللعب العموم والخصوص الوجهي .

فهما يجتمعان في العمل الذي فيه ملاءمة ويقارنه شيء من الخفّة والطيش كالطرب واللهو بالنساء .

وينفرد اللعب في لعب الصبيان .

وينفرد اللهو في نحو الميسر والصيد .

وقد أفادت صيغة ﴿ وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو ﴾ قصَر الحياة على اللعب واللهو ، وهو قصر موصوف على صفة .

(149/230)

والمراد بالحياة الأعمال التي يحبّ الإنسان الحياة لأجلها ، لأنّ الحياة مدّة وزمن لا يقبل الوصف بغير أوصاف الأزمان من طول أو قصر ، وتحديد أو ضدّه ، فتعيّن أنّ المراد بالحياة الأعمال المظروفة فيها .

واللعب واللهو في قوة الوصف ، لأنّهما مصدران أريد بهما الوصف للمبالغة ، كقول الخنساء :

فإنّما هي إقبال وإدبار

وهذا القصر ادّعائي يقصد به المبالغة ، لأنّ الأعمال الحاصلة في الحياة كثيرة ، منها اللهو واللعب ، ومنها غيرهما ، قال تعالى : ﴿ إنّما الحياة الدنيا لعب ولَهْو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ [الحديد : 20] .

فالحياة تشتمل على أحوال كثيرة منها الملائم كالأكل واللذات ، ومنها المؤلم كالأمراض

والأحزان ، فأمّا المؤلمات فلا اعتداد بها هنا ولا التفات إليها لأنّها ليست ممّا يرغب فيه الراغبون ، لأنّ المقصود من ذكر الحياة هنا ما يحصل فيها ممّا يحبّها الناس لأجله ، وهو الملائمات .

وأمّا الملائمات فهي كثيرة ، ومنها ما ليس بلعب ولهو ، كالطعام والشراب والتدفّىء في الشتاء والتبرّد في الصيف وجمع المال عند المولع به وقرى الضيف ونكاية العدوّ وبذل الخير للمحتاج ، إلاّ أنّ هذه لمّا كان معظمها يستدعي صرف همّة وعمل كانت مشتملة على شيء من التعب وهو منافر .

فكان معظم ما يحبّ الناس الحياة لأجله هو اللهو واللعب ، لأنّه الأغلب على أعمال الناس في أول العمر والغالبُ عليهم فيما بعد ذلك .

فمن اللعب المزاح ومغازلة النساء ، ومن اللهو الخمر والميسر والمغاني والأسمار وركوب الخيل والصيد .

فأمّا أعمالهم في القربات كالحجّ والعمرة والنذر والطواف بالأصنام والعتيرة ونحوها فلأنّها لمّا كانت لا اعتداد بها بدون الإيمان كانت ملحقة باللعب ، كما قال تعالى : ﴿ وما كان صلاتُهم عند البيت إلاّ مكاء وتصدية ﴾ [الأنفال : 35] ، وقال : ﴿ الذين اتّخذوا دينهم لَهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا ﴾ [الأعراف : 51] .

فلا جرم كان الأغلب على المشركين والغالب على الناس اللعب واللهو إلاّ من آمن وعمل صالحاً .

فلذلك وقع القصر الادّعائي في قوله : ﴿ وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو ﴾ .

وعقّب بقوله : ﴿ وللدّار الآخرة خير للذين يتّقون ﴾ ، فعلم منه أنّ أعمال المتّقين في الدنيا هي ضدّ اللعب واللهو ، لأنّهم جعلت لهم دار أخرى هي خير ، وقد علم أنّ الفوز فيها لا يكون إلاّ بعمل في الدنيا فأنتج أنّ عملهم في الدنيا ليس اللهو واللعب وأنّ حياة غيرهم هي المقصورة على اللهو واللعب .

والدار محلّ إقامة الناس ، وهي الأرض التي فيها بيوت الناس من بناء أو خيام أو قباب .

والآخرة مؤنّثُ وصف الآخِر بكسر الخاء وهو ضدّ الأول ، أي مقرّ الناس الأخير الذي لا تحوّل بعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ بإضافة الدار إلى الآخرة ، والباقون ﴿ وَلَلدَّارُ الآخرة ﴾ على جعل الآخرة نعتاً للدار .

أما وجه قراءة ابن عامر فهو أن الصفة في الحقيقة مغايرة للموصوف فصحت الإضافة من

هذا الوجه ، ونظيره قولهم بارحة الأولى ، ويوم الخميس وحق اليقين ، وعند البصريين لا تجوز هذه الإضافة ، قالوا لأن الصفة نفس الموصوف ، وإضافة الشيء إلى نفسه ممتنعة .

واعلم أن هذا بناء على أن الصفة نفس الموصوف وهو مشكل لأنه يعقل تصور الموصوف منفكاً عن الصفة ، ولو كان الموصوف عين الصفة لكان ذلك محالاً ، ولقولهم وجه دقيق يمكن تقريره ، إلا أنه لا يليق بهذا المكان ، ثم إن البصريين ذكروا في تصحيح قراءة ابن عامر وجهاً آخر ، فقالوا لم يجعل الآخرة صفة للدار ، لكنه جعلها صفة للساعة ، فكأنه قال : ولدار الساعة الآخرة .

فإن قيل : فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم تكون قد أقيمت الآخرة التي هي الصفة مقام الموصوف الذي هو الساعة وذلك قبيح .

(151/230)

قلنا لا يقبح ذلك إذا كانت الصفة قد استعملت استعمال الأسماء ولفظ الآخرة قد استعمل الأسماء ، والدليل عليه : قوله ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ [الضحى : 4] وأما قراءة العامة فهي ظاهرة لأنها تقتضي جعل الآخرة صفة للدار وذلك هو الحقيقة ومتى أمكن إجراء الكلام على حقيقته فلا حاجة إلى العدول عنه والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 167 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَدَّارُ الآخرة ﴾ قرأتها العامة رفعاً على نعت الواو ، وإضافة أهل الشام لاختلاف اللفظين كقوله : ربيع الأول ، ومسجد الجامع ﴿ وَحَبَّ الحصيد ﴾ [ق : 9] سميت الدنيا لدنوّها ، وقيل : لدناءتها وسميت الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ من الشرك ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي الآخرة أفضل من الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وقرأ ابن عامر ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ بالإضافة وهي من إضافة الصفة إلى الموصوف وقد جوزها الكوفيون ، ومن لم يجوز ذلك تأوله بتقدير ولدار النشأة الآخرة أو إجراء الصفة مجرى الاسم ، وقرأ ابن كثير وغيره ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ بالياء والضمير للكفار القائلين ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ [الأنعام : 29] ، وقيل : للمتقين والاستفهام للتنبيه والحث على التأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقرأ جمهور العشرة ﴿ وللدار ﴾ بلامين لام الابتداء ولام التعريف ، وقرأوا ﴿ الآخرة ﴾ بالرفع .

وقرأ ابن عامر ﴿ ولَدارُ الآخرة ﴾ بلام الابتداء فقط وبإضافة دار منكّرة إلى الآخرة فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، كقولهم : مسجد الجامع ، أو هو على تقدير مضاف تكون ﴿ الآخرة ﴾ وصفاً له .

والتقدير : دار الحياة الآخرة .

و ﴿ خَيْر ﴾ تفضيل على الدنيا باعتبار ما في الدنيا من نعيم عاجل زائل يلحق معظمة مؤاخذةٌ وعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في المراد بالدار الآخرة على وجوه .

قال ابن عباس : هي الجنة ، وإنها خير لمن اتقى الكفر والمعاصي .

وقال الحسن : المراد نفس الآخرة خير .

وقال الأصم : التمسك بعمل الآخرة خير .

وقال آخرون : نعيم الآخرة من نعيم الدنيا ، من حيث إنها باقية دائمة مصونة عن الشوائب آمنة من الانقضاء والانقراض .

ثم قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فبيّن أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان من المتقين من المعاصي والكبائر .

فأما الكافر والفاسق فلا لأن الدنيا بالنسبة إليه خير من الآخرة على ما قال عليه السلام : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " .

ثم قال : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء ههنا وفي سورة الأعراف ويوسف ويس .

وقرأ حفص عن عاصم في ﴿ يس ﴾ بالياء والباقي بالتاء .

وقرأ عاصم في رواية يحيى في يوسف بالتاء والباقي بالياء .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية الأعشى والبرجمي جميع ذلك بالياء .

قال الواحدي : من قرأ بالياء معناه : أفلا يعقلون الذين يتقون أن الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار ؟ فيعملون لما ينالون به الدرجة الرفيعة والنعيم الدائم فلا يفترون في طلب ما يوصل إلى ذلك ، ومن قرأ بالتاء ، فالمعنى : قل لهم أفلا تعقلون أيها المخاطبون أن ذلك خير ؟ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 167 ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ للذين يتّقون ﴾ تعريض بالمشركين بأنّهم صائرون إلى الآخرة لكنّها ليست لهم بخير ممّا كانوا في الدنيا .

والمراد بـ ﴿ الذين يتّقون ﴾ المؤمنون التابعون لما أمر الله به ، كقوله تعالى : ﴿ هدى للمتّقين ﴾ [البقرة : 2] ، فإنّ الآخرة لهؤلاء خير محض .

وأمّا من تلحقهم مؤاخذة على أعمالهم السيئة من المؤمنين فلمّا كان مصيرهم بعدُ إلى الجنّة كانت الآخرة خيراً لهم من الدنيا .

وقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ عطف بالفاء على جملة : ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾ إلى آخرها لأنّه يتفرّع عليه مضمون الجملة المعطوفة .

والاستفهام عن عدم عقلهم مستعمل في التوبيخ إن كان خطاباً للمشركين ، أو في التحذير إن كان خطاباً للمؤمنين .

على أنَّه لمّا كان استعماله في أحد هذين على وجه الكناية صحّ أن يراد منه الأمران باعتبار كلا الفريقين ، لأنّ المدلولات الكنائية تتعدّد ولا يلزم من تعدّدها الاشتراك ، لأنّ دلالتها التزامية ، على أنّنا نلتزم استعمال المشترك في معنييه .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص ، وأبو جعفر ، ويعقوب ، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بتاء الخطاب على طريقة الإلتفات .

وقرأه الباقون بياء تحتية ، فهو على هذه القراءة عائد لما عاد إليه ضمائر الغيبة قبله ،

والاستفهام حينئذٍ للتعجيب من حالهم .

وفي قوله : ﴿ للذين يتّقون ﴾ تأييس للمشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(153/230)

فائدة

قال الثعالبى:

قال عبد الحق في "العاقبة" : اعلم رحمك اللَّه أن حُبَّ الدُّنْيَا هو سَبَبُ طُولِ الأَمَلِ ، والإِكْبَابُ عليها يَمْنَعُ من الفِكْرَةِ في الخروج عنها ، والجهل بغَوَائِلِهَا يحمل على الإرادة لها ، والازدياد منها ؛ لأن من أَحَبَّ شَيْئاً أَحَبَّ الكَوْنَ معه ، والازدياد منه ، ومن كان مَشْغُوفاً بالدنيا مُحِبًّا لها قد خَدَعَتْهُ بزُخْرُفِهَا وَأَمَالَتْهُ برَوْنَقِهَا كيف يحبُّ مفارقتها ، أو يحب مُزَايَلَتَهَا ، هذا أمر لم تَجْرِ العادة به ، ولا حُدِّثْنَا عنه ، بَلْ نجد مَنْ كَانَ على هذه الصفة أَعْمَى عَنْ طريق الخَيْرِ ، أصم عن دَاعِي الرشد ، أَفِنَ الرأي ، سَيِّىءَ النظر ، ضَعِيفَ الإيمان ، لم تترك له الدُّنْيَا ما يَسْمَعُ به ، ولا ما يرى ، إنما دِينُهُ وشغله وحديثه دُنْيَاهُ ، لها ينظر ، ولها يَسْمَعُ ، قد ملأت عينه وقلبه ، ثم قال : واعلم أن أَهْلَ القُبُورِ إنما يَنْدَمُونَ على ما

يتركون ، ويفرحون بما يُقَدِّمُونَ ، فما عليه أهل القُبُورِ يندمون ، أَهْلُ الدنيا عليه يَقْتَتِلُون .

انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(154/230)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

(155/230)

قوله تعالى : " وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو " وهذه الآية الأولى مغفلة وفى هذه السورة أيضا " وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت " وفى الأعراف : " قالوا إن الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا " وفى سورة العنكبوت : " وما هذا الحياة الدنيا إلا لهو ولعب " وفى سورة القتال : " إنما الحياة الدنيا لعب ولهو " وفى سورة الحديد : " اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو " ففى آيتى الأنعام وسورة القتال وسورة الحديد تقديم اللعب على وعطف

اللهو علي عليه وثبت فى الأعراف والعنكبوت بالعكس فقدم فيهما اللهو على اللعب والواو وان كانت لا ترتب فانه لا يتقدم اللفظ فى الكتاب العزيز ذكرا أو يتأخر الا لموجب فوجه تقديم اللعب فى الأنعام أنه المتقدم فى الوجود الدنياوى على اللهو ولأن أول ابتداء تعقل الإنسان وميزه حاله حال اللعب وهو المطابق لسن الابتداء فإذا استمر ألهى عن التدبر والاعتبار وشغل تمادية عن التفكر فيما به النجاة والفوز وقد ينضاف إلى اللعب شاغل غيره أو يعاقبه فيحصل بالمجموع الغفلة عن النظر فى الآيات فيعقب الهلاك ، قال تعالى : "ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس . . . . "الآية فلما لم يبرح هؤلاء عن الجرى على مهيع الصم والبكم الذين لا يعقلون جرى الإخبار عنهم فى الآية الثانية من الانعام بمقتضى أحوالهم فى أعمارهم التى لم تخرج عن أحوال البهائم فأول أعمارهم لعب وعقب ذلك لهو فورد الاخبار على حسب جرى الأعمار وانهم اعتمدوا البقاء مع مقتضى الطبع الانسانى إذ لم يصغ المكلف إلى داع ولا تكلف الخروج عن مقتضى هواه ولا جنح إلى مفارقة مألوف الطباع قال تعالى : "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه " فأمر تعالى نبيه عليه السلام بالاعراض عنهم فقال : "وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا " على مقتضى الهوى والطبع وهذه الحال هى التى نبه سبحانه عباده

المؤمنين على

أنها حال الحياة الدنيا وصفتها التى تمتاز بها فأعلم بذلك ليجتنبوها ويحذروا غرورها فقال تعالى فى الآية الأولى من هذه السورة : "وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو " وقال فى سورة القتال : "إنما الحياة الدنيا لعب ولهو " ألا ترى أن الخطاب قبل هذه الآية خطاب للمؤمنين بالأمر بالطاعة لله ورسوله ووصية لهم وإعلام بحال عدوهم من الكفار وذلك قوله تعالى : "يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . . . "الآية ، وفى سورة الحديد : "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو " فعرف عباده المؤمنين منها بالصفة التى هى فضلها وبها امتيازها على الترتيب الذى وجودها عليه من تقديم اللعب فى هذه الآى الأربع .

أما آية الأعراف فإنها قول المؤمنين أهل الجنة إخبارا عن حال الكافرين الموجبة لتعذيبهم فقدموا فى الذكر اللهو الشاغل عن الاستجابة الجارى مع سن التكليف والمساوق له الثانى عن اللعب إذ وجود اللعب أولى فى السن التى معظمها غير سن التكليف وجرى الأقلام بالتزام الطاعة واجتناب المخالفة فقصدوا أن يخصوا موجب التعذيب من الأعمال فذكروا مساوقه ومظنته وهو معاقب اللعب والذى اتخذه الكافر بالقصد والاختيار عوضا عن شاق التكاليف ، ولم يذكر اللعب أولا لأنه جار فى البداءة وحين لا تكليف فكأن الكلام فى

قوة أن لو قيل : ان الله محرم نعيم الجنة على من تأبط الكفر واعتمده واتبع اللعب واللهو من كفره فلم يبرح عن ملازمة الطبع والهوى .

وأما آية العنكبوت فإنها تقدم قبلها قوله تعالى : "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله " ، ولا يسأل عن هذا ويجيب الا من جاوز سن اللعب وبلغ سن التى فيها ينعلق التكايف بالمخاطب ويصح خطابه وعتابه على تفريطه .

(157/230)

فناسب ذلك من ذكر الحياة الدنيا تقديم ما يساوق تلك السن فقدم ذكر اللهو والتلى اللعب ليناسب وايحصل ذكر مانعهم من الاستجابة وتكميل النظر المخلص لهم وآخر ذكر اللعب الذى لا يساوق مع أنه متبوع اللهو لزوما لمن لم تسبق له سابقة سعادة فهذا وجه التقديم والتأخير فيما ذكر ولو ورد على العكس لما كان ليناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 155 . 157 ﴾

(158/230)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ ﴾

أي : هزل ، وعمل لا يجدي نفعاً : ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ أي : اشتغال بهوى وطرب ، وما لا تقتضيه الحكمة ، وما يشغل الْإِنْسَانْ عما يهمه مما يلتذ به ثم ينقضي .

﴿ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ لدوامها ، وخلوص منافعها ولذاتها عن المضار والآلام .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي ، ولا تؤثرون الأدنى الفاني ، على الأعلى الباقي . وههنا .

لطائف :

الأولى : قال الرازي : اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم في الدنيا ، وتحصيل لذاتها . فذكر الله هذه الآية تنبيهاً على خساستها وركاكتها . واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها . لأن هذه الحياة العاجلة ، لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها .

فلهذا السبب حصل في تفسير هذه الآية قولان :

الأول –أن المراد منه حياة الكافر . قال ابن عباس : يريد حياة أهل الشرك والنفاق .

والسبب في وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة ، أن حياة المؤمن يحصل فيها أعمال صالحة ، فلا تكون لعباً ولهواً .

(159/230)

والقول الثاني – إن هذا عام في حياة المؤمن والكافر . والمراد منه : اللذات الحاصلة في هذه الحياة ، والطيبات المطلوبة في هذه الحياة ، وإنما سماها (اللَّعبِ وَاللَّهْوِ) لأن الإنسان ، حال اشتغاله باللعب واللهو ، يلتذ به . ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة . فذلك هذه الحياة ، لا يبقي عند انقراضها إلا الحسرة والندامة . الثانية : قال الخفاجي : جمع اللهو واللعب في آيات . فتارة يقدم اللعب ، كما هنا . وتارة قدم اللهو كما في العنكبوت . ولهذا التفنن نكتة مذكورة في " درة التأويل " ملخصاً : أن الفرق بين اللهو واللعب ، مع اشتراكهما في أنهما الاشتغال بما لا يعني العاقل ويهمه من هوى أو طرب ، سواء كان حراماً أم لا ، أن اللهو أعم من اللعب ، فكل لعب لهو ، ولا عكس . فاستماع الملاهي لهو ، وليس بلعب . وقد فرقوا بينهما أيضاً بأن اللعب ما قصد به تعجيل المسرة ، والاسترواح به ، واللهو كل ما شغل من هوى وطرب ، وإن لم يقصد به ذلك ، كما نقل عن أهل اللغة ، قالوا : واللهو ، إذا أطلق ، فهو اجتلاب المسرة بالنساء ، كما قال امرؤ القيس :

~ألا زعمت بَسْبَاسَةُ اليومَ أنني كَبِرْتُ وأن لا يحسنُ اللهوَ أمثالي

وقال قتادة : اللهو ، في لغة اليمن (المرأة) . وقيل : اللعب طلب : المسرة والفرح بما لا يحسن أن يطلب به . واللهو : صرف الهم بما لا يصلح أن يصرف به .

ولما كانت الآية ردّاً على الكفرة في إنكار الآخرة ، وحصر الحياة في الحياة الدنيا ، وليس في اعتقادهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية – قدم اللعب الدال على ذلك ، وتمم باللهو . وأما في العنكبوت فالمقام لذكر قصر مدة الحياة وتحقيرها ، بالقياس إلى الآخرة . ولذا ذكر باسم الإشارة المشعر بالتحقير . والاشتغالُ باللهو ، مما يقصر به الزمان ، وهو أدخل من اللعب فيه . وأيام السرور قصار ، كما قال :

~وليلةٍ إحدى الليالي الزُّهْرِ لم تك غير شَفَقَ وفجر

الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين ، لعب ولهو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 349 . 351 ﴾

(160/230)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

هكذا تكون الحياة بالنسبة لمن يقف عند وصفها على أساس أنها " الحياة الدنيا " إنها لا تزيد على كونها لهواً ولعباً . واللعب – كما نعلم – هو مزاولة حدث ونقضه في آن واحد ، والمثال على ذلك الطفل على شاطئ البحر قد يقيم بيتاً من الرمال ثم يهدمه ، إنه لم يقم ببناء بيت من الرمال إلا ليهدمه . واللعب عملية يُقصد بها قتل وقت في عمل قد يُنقض ، فالبناء والنقض في هذه الحالة لعب ولا يشغل اللعبُ الإنسان عن الواجب . أما اللهو فهو قتل الوقت في عمل قد ينقض ويشغل الإنسان عن الواجب أيضاً .

والطفل الصغير – على سبيل المثال – يتلقى من والديه بعض اللعب ليقضي وقته معها وقد يخربها ويهدمها وقد يعيد بناءها . ولعب الطفل هو لهو في الوقت نفسه ؛ لأن الطفل غير مكلف بواجب . وما أن يدخل إلى المدرسة وتصير له بعض من المسئوليات نجد الأسرة تعلمه أن يفرق بين وقت أداء مسئولياته ووقت اللعب ؛ لأنه إن لعب في وقت أداء المسئوليات صار لعبه لهواً ؛ لأنه شَغَله عن أداء مسئولية مطلوبة منه .

وكذلك الحياة الدنيا مجردة من منهج الله الذي خلقها وخلق الإنسان فيها هي لهو ولعب ، إما إن أخذ الإنسان الحياة بمواصفات من خلقها فهي حياة منتجة للخير في الدنيا وفي الآخرة . والذي خق الحياة الدنيا جعلها بالنسبة لنا مزرعة للأخرة . والمؤمن – إذن – له

حياتان : حياة صلاح في الدنيا ، وحياة نعيم في الآخرة ؛ لأنه يعيش الحياة الدنيا على مراد من خلقه .

(161/230)

ومن العجيب أن من خلقنا لم يكلفنا إلا بعد أن يصل الإنسان منا إلى البلوغ ، أي أن يكون الإنسان صالحاً لإنجاب إنسان مثله إن تزوج . ويأتي التكليف متناسباً مع النضج وعند تمام العقل . وسمح الحق لنا أن نلعب في سنوات ما قبل النضج ، ولكن لا بد أن يكون مثل هذا اللعب تحت إشراف من الكبار حتى يمكن للعب أن يتحول إلى دُرْبة تفيدنا في مجالات الحياة ، ويجعلنا نعرف كيف وصلنا في العصر الحديث إلى درجة من التقدم في صناعة اللعب التي يتعلم منها الطفل ، ويمكن أن يقوم بتفكيكها وإعادة تركيبها ، وحتى الكبار نجدهم في زماننا يتعلمون قيادة السيارات في حجرات مغلقة وأمامهم شاشة تليفزيون ، وكأنهم في طريق حقيقي وفي شارع مزدحم بالسيارات ، ومن يتقن هذا التدريب العملي يخرج إلى قيادة السيارة .

وهكذا نجد أن التدريب مفيد للإنسان ، يعلم الصغار اللعب الذي ينفعهم عندما يكبرون ، وكذلك يفيد التدريب الكبار أيضاً .

وعندما أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعلم أبناءنا ركوب الخيل والسباحة والرماية ، كانت الخيل – في زمن الرسالة – هي إحدى الأسلحة المهمة ليركبها الداعون إلى الله المجاهدون في سبيله .

وحين طلب منا أن نعلم الأبناء السباحة فهذا بناء للجسم والقوة يفيد الشاب ويعلمه مواجهة الصعاب ، وحين طلب منا أن نعلم الأبناء الرماية فذلك لأن تحديد الهدف مادياً أو معنوياً ومعرفة الوصول إليه أمر مطلوب من كل شاب . وكل هذه ألعاب ولكنها ليست لهواً ، إنها ألعاب ممتعة ويمكن أن تستمر مع الإنسان بعد أن يكلف . قال عليه الصلاة والسلام : " علموا أبناءكم السباحة والرماية " . فماذا عن ألعاب عصرنا وزماننا ؟

(162/230)

إننا نجد أن لعبة كرة القدم قد أخذت اهتمام الرجال والنساء والكبار والصغار ، وهي لعبة لا تعلم أحداً شيئاً ، لأنها لعبة لذات اللعب ، وهي لعبة تعتدي على وقت معظم الناس ، وأخذت تلك اللعبة كل قوانين الأمور الجادّة . فهي تبدأ في زمان محدد ، ويذهب المشاهدون إليها قبل الموعد بساعتين ، وتجند لها الدولة من قوات الأمن أعداداً كافية للمحافظة على النظام مع أنها من اللهو ولا فائدة منها للمشاهد . وقد تمنع وتحول وتُعَطِّل

البعض عن عمله والبعض الآخر عن صلاته . يحدث كل ذلك بينما نجد أن بعضاً من ميادين الجد بلا قانون .

وأقول ذلك حتى يُفيق الناس ويعرفوا أن هذه اللعبة لن تفيدهم في شيء ما . وأقول هذا الرأي وأطلب من كل رب أسرة أن يُحكم السيطرة على أهله ، وينصحهم بهدوء ووعي حتى ينتبه كل فرد في الأسرة إلى مسئولياته ولنعرف أنها لون من اللهو ، ونأخذ الكثير من وقت العمل وواجبات ومسئوليات الحياة ، حتى لا نشكو ونتعب من قلة الإنتاج .

إن على الدولة أن تلتفت إلى مثل هذه المسائل ، ولنأخذ كل أمر بقدره ، فلا يصح أن ننقل الجد إلى قوانين اللعب ، ولكن ليكن للجد قانونه ، وللعب وقته وألا ننقل اللعب إلى دائرة اللهو ؛ لأن معنى اللهو هو أن ننصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه . وإن نظرنا إلى الحياة مجردة من منهج الله فهي لعب ولهو .

(163/230)

ونلتفت هنا إلى دقة الحق حين جاء باللعب أولاً ثم اللهو من بعد ذلك ، ثم يقول : ﴿ وَلَلدَّارُ الآخرة ﴾ وفي هذا لفت واضح إلى أن الإنسان حين ينعزل عن منهج الحق في الحياة تفاجئه الأحداث بالانتقال المفاجيء إلى جد واضح ؛ لذلك فلنأخذ الحياة في ضوء منهج الله ؛

لأنه سبحانه حين أبلغنا أنه خلق الإنسان من طين ، وصوره ونفخ فيه من روحه فقد أعطاه الحق بذلك حياة أولى ، يشترك فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي وكل إنسان إلى الغاية منها وهي الحياة الثانية وهي الدار الآخرة فإنها الحياة الكاملة الباقية ، ونسمع قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] .

إن الحق سبحانه وتعالى يقدم لنا حياة عالية دائمة تخلف الحياة التي تنتهي .

والذي يتوقف عن أخذ منهج الله في حياته يكتفي بمثل ما يَأخذ الحيوان من الحياة وهي النفخ في الروح ، لكن الذي يأخذ بمنهج الله يأخذ الحياة العالية . . حياة الخير والجمال والإصْلاح والإحسان . ونعلم أن الجمال في الحياة هو الجمال الذي لا يورث قبحاً . والخير الحقيقي هو الذي يعمم خير الله على العباد ، فلا يأخذ الإنسان الخير لنفسه ويترك شروره للآخرين ؛ لذلك أقول : لا تأخذ أيها المسلم الخير لنفسك على حساب الشر للآخرين ؛ لأنك لا تحب أن يحقق الآخرون الخير على حسابك ، والذي يحب أن ينطلق بشروره في الناس فليستقبل الشر من غيره . ومن يحب أن يأخذ الخير من الناس فليعطهم من خيره حتى يبقى الوجود جميلاً . إذن فالحياة بدون منهج الله تكون قبيحة ؛ لأن القوي يعيث فيها فساداً بقوته وينزوي الضعيف إلى الإحساس بالذلة والضياع .

لكن الحق سبحانه أراد الحياة للمؤمنين في ضوء منهجه ، وعندما يطبقون تكاليفه ب " افعل " و" لا تفعل " فهم يصونون الحياة من الفساد حسب أوامر الخالق الأعلى للحياة ، فهو سبحانه الذي أوجدنا ووضع لنا قوانين صيانة الحياة . وحين منع مؤمنا واحداً من الشر ، فهو قد منع وحرم على كل إنسان مؤمن من أن يصنع شراً لأخيه ، وبذلك حمى الإنسان من الشر . وإنما خص الله المؤمنين بالنداء والدعاء ؛ لأنهم أهل الاستجابة والطاعة ؛ أما ما عداهم من أهل الكفر والشرك فقد تأبوا على الله وعصوه ولم يؤمنوا به . وحين يأمر الله المؤمن بالخير ، فهو يأمر المؤمنين جميعاً بأن يصنعوا الخير لهم ولغيرهم . وبذلك يكسبون حياة مطمئنة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

فالذين لا يستجيبون لله ولا لرسوله حين يدعوهم لما يحييهم يظلون في الحياة الدنيا غارقين في اللهو واللعب ، إنهم كالموتى . وحتى نعرف أن الحق سبحانه أراد لنا – نحن المؤمنين – الحياة العالية ؛ إنه – سبحانه – قد سمى المنهج الذي يرسم لنا الأوامر والنواهي بالروح : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ . وسمى الحق سبحانه وتعالى بهذا المَلَكَ الذي نزل بالوحي : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] .

إذن فالحياة التي تعطي الإنسان الحس والحركة هي الحياة الأولى التي يلعب ويلهو من خلالها

، وليست هي الحياة المرادة لله ؛ لأن الحياة المرادة لله هي الحياة الإيمانية ولذلك سماها الحق سبحانه الحيوان أي الحياة الكاملة وسمى المنهج روحاً . ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : 32] .

(165/230)

إن مجرد التعقل يعطي الإنسان الخير ، والتعقل هو محاولة فهم نواميس الكون من الأسباب والمسببات ، ونحن نرى نور الشمس يعمّ النهار ويشيع الضوء والدفء ، وغياب الشمس وظهور القمر يحقق صفاء السكون ويهدي الناس في ظلمات البر والبحر ، وجَريان الماء يروي الإنسان والزرع ، وحركة الرياح تحرك السحب وتقود السفن وتساعد في حركة الملاحة في الجو والبحر وتلقح النبات ، وكل ذلك أسباب أرادها الله حتى يتحقق التوازن في الكون .

والإنسان يأخذ حظه من الحياة بالأسباب التي عمل فيها ولا يأخذ الإنسان من أسباب غيره .

صحيح أن هناك أناساً يعيشون بلا أسباب ويأخذون تعب غيرهم ، ولكن عليهم أن يحذروا الله ، فإياك أيها المسلم أن تبني لحمك ولحم أولادك من استغلالك لغيرك ؛ ذلك أن

أغيار الحياة ستمر عليك وقد تصير قوتك إلى ضعف ، وتأمين الإنسان لضعفه إنما يكون بإخراج الزكاة للضعيف ، ومساعدته ومعاونته في كل ما يحتاج إليه ، ونجد غير المؤمنين وقد أخذوا فكرة التأمين من الزكاة ، فأنت تدفع للفقير زكاتك لتؤمن نفسك كمؤمن ، وهم أخذوا هذه الفكرة ليحولوها إلى تأمين على الحياة ، ولذلك تدخلوا في قدر الله .

لكن الحق أراد بالزكاة أن يطمئن المجتمع كله لا أن يطمئن من يؤمن على نفسه فقط . ونعلم أن الذي يخيف الإنسان ويجعله يكدس المال ويجمعه ويكنزه هو الخوف من الضعف ، لكن لو أعطى الغني بعضاً من المال للفقير لأشاع الاطمئنان في نفسه ونفوس الضعفاء .

والذي يجعل الناس تلهث في الحياة للادخار لأبنائها هو عدم اقتناعهم بالتكافل الاجتماعي الذي شرعه الإسلام . وهم يرون اليتيم وهو يضيع في المجتمع ، لكن لو آمن الناس في المجتمع بالتكافل الاجتماعي لوجد كل يتيم أبوة المجتمع كله له .

والإنسان الذي يلهث وراء الكسب من أجل أن يؤمن مستقبل أولاده قد يحول أولاده إلى يتامى لأنه مشغول عن تربيتهم ، ولذلك يقول أمير الشعراء شوقي رحمة الله عليه :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من . . . هم الحياة وخلفاه ذليلا

إن اليتيم هو الذي تلقى له . . . أمّاً تخلت أو أباً مشغولا

إن على المجتمع أن يأخذ قضية الخير من قول الحق سبحانه : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ . فكما أحيا الحق الأجسام بالروح التي نفخها في القالب الطيني فصار لها حس وحركة ، فهو قد أنزل المنهج أيضاً روحاً من عنده لترتقي به روح الحس والحركة ، حتى لا يصير الإنسان كالأنعام أو أضل سبيلاً : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : 32] .

والدار الآخرة خير ؛ لأن الدنيا مهما طالت فهي منتهية ، لكن الحياة الآخرة خلود أبداً ، ونعيمنا في الدنيا نأخذه بالأسباب ، ولكن نعيم الآخرة نأخذه على قدر سعة ورحابة قدرة الله . وآفة الدنيا حتى بالنسبة لأهل النعيم والقوة والثراء هي الخوف من الفقر أو الموت ، لكن في الآخرة لا يفوت أهل الجنة النعيم ولا يفوتون النعيم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(167/230)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون " وفى سورة الأعراف : "والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون " وفى سورة يوسف : "ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون " فى هذه الآى ثلاثة أؤولة والآية الأولى من مغفلات صاحب كتاب الدرة أحدها قوله فى الأنعام "وللدار "باللام الموطية للقسم ، وفى الأعراف "والدار " بغير تلك اللام والثانى جرى الأخرة على الدار نعتا لها فى السورتين وفى سورة يوسف "ولدار الآخرة " على الإضافة والثالث قوله فى السورتين "للذين يتقون " وفى سورة يوسف "للذين اتقوا " .

والجواب عن الأول : أن آية الأنعام تقدمها قوله تعالى معرفا بحال الدنيا "وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو " ومعنى التأكيد فى هذا حاصل من جرى الكلام وسياقه لأنك إذا قلت : ما المال إلا الإبل فكأنك نفيت عن غير الإبل أن يكون مالا وأثبت ذلك لها ثباتا مؤكدا وانها المال حقيقة وكأن ما سواها ليس بمال وعلى هذا يجرى ما دخلته الا بعد ما النافية من مثل هذا ومثل هذا هو المعنى الحاصل من لفظ القسم الصريح فناسبه هذا مجئ اللام الموطية للقسم داخلة على المبتدأ فى الآية المعرفة لحال الدار الأخرى فى قوله : "وللدار الآخرة " وكأنه نص قولك والله للدار الآخرة خير ، وتناسب هذا مع ما تقدم قبله من تقدير القسم

المؤكد كما تبين ، وليس فى آية الأعراف ما يقتضى هذا لأنها مناطة بقوله تعالى : "فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى " ثم قال : "والدار الآخرة خير " ، على هذا نظم هذا الكلام وليس فيه ما يقتضى قسما فلم تدخله تلك اللام .

(168/230)

والجواب عن السؤال الثانى : أن جرى النعت بلفظ الآخرة على الدار فى الآيتين وجهه مطابقة ما تقدم قبل كل واحدة من الآيتين أما فى آية الأنعام فقوله تعالى مخبرا عنهم : "وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا " فطابق هذا قوله تعالى : "وللدار الآخرة خير " وأما آية الأعراف فقوله تعالى : "فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى " المراد به الدار الدنيا فقوبل بقوله : "والدار الآخرة خير " وهذا بين ولما لم يتقدم مثل ذلك قبل آية يوسف ورد لفظ الدار مضافا بغير الألف واللام فيه فقيل : "ولدار الآخرة خير " وجاء كل على ما يجب ويناسب ، والله أعلم .

والجواب عن السؤال الثالث : ان قوله تعالى فى سورة يوسف : "ولدار الآخرة خير للذين اتقوا " قد تقدم قبله قوله تعالى : "أولم يسيروا فى الأرض . . . "الآية ، والحاصل منه انهم ظلموا أنفسهم فأهلكوا ولو اتقوا لنجوا فناسب هذا المعنى المقدر ورود الماضى فى قوله

تعالى : "للذين اتقوا " أوضح مناسبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 157 . 158 ﴾

(169/230)

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله . حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ! ﴾ . . فهي الخسارة المحققة المطلقة . . خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها في ذلك المستوى الأدنى . . وخسارة الآخرة على النحو الذي رأينا . . والمفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حساباً :

﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ! ﴾ . .

ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال :

﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ . .

بل الدواب أحسن حالاً . فهي تحمل أوزاراً من الأثقال . ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام ! والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح . وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى

الجحيم . مشيعين بالتأثيم :

﴿ ألا ساء ما يزرون ! ﴾ . .

وفي ظلال هذا المشهد الناطق بالخسارة والضياع ، بعد ذلك المشهد الناطق بالهول والرهبة . . يجيء الإيقاع الأخير في هذا المقطع ؛ بحقيقة وزن الدنيا ووزن الآخرة في ميزان الله ؛ وقيمة هذه الدنيا وقيمة الآخرة في هذا الميزان الصحيح :

﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟ ﴾ . .

هذه هي القيمة المطلقة الأخيرة في ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة . . وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار ، على هذا الكوكب الصغير ، إلا على هذا النحو ، حين توازن بذلك الأبد الأبيد في ذلك الملك العريض . وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه العبادة إلا لعباً ولهواً حين تقاس إلى الجد الرزين في ذلك العالم الآخر العظيم . .

(170/230)

هذا تقييم مطلق . . ولكنه في التصور الإسلامي لا ينشئ – كما قلنا – إهمالاً للحياة الدنيا ولا سلبية فيها ولا انعزالاً عنها . . وليس ما وقع من هذا الإهمال والسلبية والانعزال وبخاصة في بعض حركات " التصوف " " والزهد " بنابع من التصور الإسلامي أصلاً . إنما

هو عدوى من التصورات الكنسية الرهبانية ؛ ومن التصورات الفارسية ، ومن بعض التصورات الإشراقية الإغريقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الإسلامي !

والنماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكمل صورة ، لم تكن سلبية ولا انعزالية . .

فهذا جيل الصحابة كله ؛ الذين قهروا الشيطان في نفوسهم ، كما قهروه في الأنظمة الجاهلية السائدة من حولهم في الأرض ؛ حيث كانت الحاكمية للعباد في الإمبراطوريات .

هذا الجيل الذي كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله ، هو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الإيجابية الضخمة في واقع الحياة ، وهو الذي زاول الحياة بحيوية ضخمة ، وطاقة فائضة ، في كل جانب من جوانبها الحية الكثيرة .

إنما أفادهم هذا التقييم الرباني للحياة الدنيا وللدار الآخرة ، أنهم لم يصبحوا عبيداً للدنيا . لقد ركبوها ولم تركبهم ! وعبدوها فذللوها لله ولسلطانه ولم تستعبدهم ! ولقد قاموا بالخلافة عن الله فيها بكل ما تقتضيه الخلافة عن الله من تعمير وإصلاح ، ولكنهم كانوا يبتغون في هذه الخلافة وجه الله ، ويرجون الدار الآخرة . فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا ، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة !

والآخرة غيب . فالأيمان بها سعة في التصور . وارتقاء في العقل . والعمل لها خير للمتقين يعرفه الذين يعقلون :

﴿ وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ . .

والذين ينكرون الآخرة اليوم لأنها " غيب " إنما هم الجهال الذين يدعون العلم . . فالعلم علم الناس - (كما سنذكر فيما بعد) لم يعد لديه اليوم حقيقة واحدة مستيقنة له إلا حقيقة الغيب وحقيقة المجهول ! ! ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1072 .

﴿ 1073

(171/230)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ لَعِب ﴾ يجوز أن يكون من المُبَالَغَةِ جَعْلُ الحَيَاةِ نَفْسَ اللَّعِبِ واللَّهوِ كقول [القائل] : [البسيط]

2147 - . . . . . .

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وإِدْبَارُ

وهذا أحسن ، ويجوز أن يكون في الكلام حَذْفٌ ، أي : وما أعمال ﴿ وما أَهْلُ الحياة الدنيا إلاَّ أهل لَعِب ﴾ فقدَّر شيئين محذوفين .

واللَّهْوُ : صَرْفُ النَّفْسِ عن الجِدِّ إلى الهَزَلِ ، ومنه لَهَا يَلْهُو .

وأمَّا لَهِيَ عن كذا فمعناه صَرَفَ نَفْسَهُ ، والمَادَّةُ واحد انقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها ، نحو : شَقِيَ ورَضِيَ .

وقال المهدوي : " الذي معناه الصَّرْفُ لامُه ياء ، بدليل قولهم : " لَهْيَان " ، ولام الأول واو " .

قال أبو حيَّان : " وليس بشيء ؛ لأن " الواو " في التثنية انْقَلَبَتْ ياءً ، فيس أصلها الياء ألا ترى تثنية " شَجٍ " : " شجيان " وهو من الشَّجْوِ " انتهى .

يعني : أنهم يقولون في اسم فاعله : " لهٍ " كـ " شَجٍ " والتثنية مَبْنِيَّةٌ على المفرد ، وقد انقلبت في المُفْرَدِ فلتنقلب في المثنى .

(172/230)

قال شهابُ الدين : فلنا فيه بحث حَسَنٌ أَوْدَعْنَاهُ " التفسير الكبير " ولله الحمد [قال : وبهذا] يظهر فَسَادُ ردّ المهدوي على الرُّمَّاني ، فإنَّ الرُّمَّاني قال : " اللَّعِبُ عَمَلٌ يُشْغِلُ النفس عما تنفعُ به ، واللَّهْوُ صَرْفُ النفس من الجدِّ إلى الهَزَل ، يقال : لَهَيْتُ عنه ، أي صَرَفْتُ نفسي عنه " .

قال المهدوي – رحمه الله – : " وفيه ضَعْفٌ وبُعْدٌ ، لأنَّ الذي فيه معنى الصَرفِ لامه ياء ، بدليل قولهم في التَّثْنية لَهْيَان " انتهى .

وقد تقدَّم فَسَادُ هذا الرَّدّ .

وقال الراغب : " اللَّهْوُ ما يَشْغَلُ الإنسانَ عما يَعْنيهِ ويَهُمُّهُ ، يقال : لَهَوْتُ بكذا أَوْ لَهَيْتُ عن كذا : استغْلْتُ عنه بلَهْوٍ " .

وهذا الذي ذكره الراغب هو الذي حمل المهدوي على التَّفْرِقَةِ بين المَادَّتَيْنِ .

قوله : " وللدَّارُ الآخرةُ " قرأ الجمهور بلامين ، الأولى لام الابتداء ، والثانية للتعريف ، وقرأوا " الآخرةُ " رفعاً على أنها صَفَةٌ لـ " الدار " و " خَيْرٌ " خبرها .

وقرأ ابن عامر : " ولَدَارُ " بلامٍ واحدة هي لام الابتداء ، و " الآخرةِ " جرٌّ بالإضافة ، وفي هذا القراءة تأويلان :

أحدهما : قول البصريين ، وهو [أنه] من باب حَذْفِ الموصوف ، وإقامة الصفة مُقَامَهُ ، والتقدير : ولَدَارُ السَّاعةِ الآخرة ، أو لَدَارُ الحياة الآخرة ، يدُلُّ عليه ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ومثله قولهم : جَبَّةُ البَقْلَةِ الحَمْقَاءِ ، ومَسْجِدُ المَكَانِ الجَامِعِ ، وصلاةُ السَّاعَةِ الأولَى ، ومكانُ الجَانِبِ الغَرْبِيّ] .

وحَسَّن ذلك أيضا في الآية الكريمة كونُ هذه الصفة جَرَتْ مجرى الجوامد في إيلائها العوامل كثيراً ، وكذلك كلُّ ما جاء مما تُوُهِّمَ فيه إضَافَةُ الموصوف إلى صفته ، وإنما احتاجوا إلى ذلك [كثيرا لئلا يلزم] إضافة الشيء إلى نفسه وهو ممتنعٌ ؛ لأن الإضافة إمَّا للتعريف ، أو للتخصيص ، والشيء [لا يعرف نفسه] ولا يُخَصِّصُهَا ، وهذا مَبْنِيٌّ على أنَّ الصِّفَةَ نفس الموصوف ، وهو مشكلن لأنه لا يعقل تصور المصوصوف وصَفَتُهُ جازت إضافته إليها ، وأوردوا ما قدَّمْتُهُ من الأمثلة .

قال الفرَّاء : هي إضافة الشيء إلى نفسه ، كقولك : "بَارِحَةُ الأولى " و" يوم الخميس " و" حَقُّ اليقين " ، وإنما يجوز عند اختلاف اللَّفظَيْنِ وقراءة ابن عامر موافقة لمُصْحَفِهِ ، فإنها رسمت في مصاحق الشَّاميين بلامٍ واحدة .

واختراها بضعهم لموافقتها لما أُجْمَعَ عليه في "يوسف " ﴿ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ ﴾ [يوسف : 109] ، وفي مَصَاحِفِ غيرهم بلامين .

و" خَيْرٌ " يجوز أن يكون للتفضيل ، وحُذِفَ المُفَضَّلُ عليهِ لِلْعِلْم به ، أي : خَيْرٌ من الحياة الدنيا ، ويجوز أن يكونِ لمُجَرَّدِ الوَصْفِ بالخيرية كقوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ [الفرقان : 24] و" للذين يتَّقون " متعلّق بمحذوف ؛ لأنه صَفَةٌ لـ" خير " والذي ينبغي – [أو يتعيَّن] – أن تكون " اللام " للبيان ، أي : أعني للذين ، وكذا كُلُّ ما جاء من نَحْوِهِ ، نحو : ﴿ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ [الضحى : 4] .

قوله : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُون ﴾ قد تقدَّم الكلامُ في مِثْلِ هذه الهمزة الداخلة على " الفاء " وأختها " الواو " و" ثم " .

وقرأ ابن عامر – رضي الله عنه – ونافع وحفص عن عاصم : " تَعْقِلُون " خطاباً لمن كان بحضرته – عليه السَّلام – وفي زمانه .

(174/230)

والباقون بياء الغَيْبَةِ ردّاً على ما تقدَّمَ من الأسماء الغائبة ، وحُذِفَ مفعول " تعقلون " للْعِلمِ به ، أي : فلا تعقلون أنَّ الأمر كما ذكر فتَزهَدُوا في الدنيا ، أو أنها خَيْرٌ من الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 105.110 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

وقوله : ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ : ما كان للنفس فيه حظ ونصيب اليوم فهو من الدنيا ، وما كان من الدنيا فإنه – لا محالة – يُلهيك عن مولاك ، وما يشغلك عن الحق ركونُه فغيرُ مباركٍ قُرْبُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 468 ﴾

(175/230)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32) ﴾

(176/230)

التفسير : لما بيّن أحوال الكفار في الآخرة أتبعه بعض أسباب ذلك فقال ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ قال ابن عباس : حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبي ابنا خلف واستمعوا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر : ما تقول في محمد ؟ فقال : ما أدري ما يقول إلا أني أرى تحريك . شفتيه يتكلم بشيء وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية . وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى ، وكان يحدث قريشاً فيستملحون حديثه فنزلت الآية . والأكنة جمع كنان وهو كل ما وقى شيئاً وستره من الأغطية والقفل ، ومنه أكننت وكننت . وأن يفقهوه مفعول لأجله أي كراهة فقههم . والوقر الثقل في الآذان . والتركيب يدور على الثقل ومنه الوِقر بالكسر الحمل ، والوقار الحلم . وفي الآية دلالة على أن الله تعالى هو الذي يصرف عن الإيمان ويحول بين المرء وبين قلبه . وقالت المعتزلة : لا يمكن أجراؤها على ظاهرها وإلا كأن فيها حجة الكفار ، ولأنه يكون تكليفاً للعاجز . ولم يتوجه ذمهم في قولهم ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ [البقرة : 88] فلا بد من التأويل وذلك من وجوه الأول : قال الجبائي : إن القوم كانوا يسمعون لقراءة الرسول ليتوسلوا بسماع قراءته إلى مكانه بالليل فيقصدوا قتله وإيذاءه ، فكان الله تعالى يلقي على قلوبهم النوم والغفلة ، وعلى آذانهم الثقل . وزيف بأن المراد لو كان ذلك لقيل " أن يسمعوه " بدل " أن يفقوه " .

وبأن قوله ﴿ وأن يروا كل آية ﴾ أي كل دليل وحجة ﴿ لا يؤمنوا بها ﴾ لا يناسبه .

الثاني : أن المكلف الذي علم الله تعالى أنه لا يؤمن وأنه يموت على الكفر يسم قلبه بعلامة مخصوصة لتستدل الملائكة برؤيتها فلا يبعد تسمية تلك العلامة بالكنان مع انها في نفسها ليست بمانعة عن الإيمان . الثالث : يقال : إنه جبل على كذا إذا كان مصّراً عليه وذلك على جهة التمثيل . الرابع : لما منعهم الألطاف التي تصلح أن تفعل بالمهتدين وفوّض أمورهم إلى أنفسهم لم يبعد أن يضيف ذلك إلى نفسه . الخامس : أن هذا حكاية قولهم ﴿ في اذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] وعورضت هذه الأدلة بالعلم والداعي ، وذلك أن الله تعالى علم من الكافر أنه لا يؤمن وخلاف علمه محال ، وأنه سبحانه هو الذي خلق فيهم داعية الكفر ومع وجود تلك الداعية يستحيل الإيمان فهو المعنى بالكنان .

وتحقيق المسألة تقدم في أول سورة البقرة في قوله ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ [البقرة : 7] والإفراد في ﴿ يستمع ﴾ والجمع في ﴿ قلوبهم ﴾ اعتبار اللفظ من تارة ولمعناه أخرى ﴿ حتى إذا جاؤك ﴾ هي حتى المبتدأة التي يقع بعدها الجمل كقوله : حتى ماء دجلة أشكل

.

والجملة ههنا مجموع الشرط والجزاء أعني قوله ﴿ إذا جاؤك ﴾ يقول : ﴿ ويجادلونك ﴾ في موضع الحال . ويجوز أن تكون حتى جارّة أي حتى وقت مجيئهم ﴿ ويجادلونك ﴾ حال بحاله ﴿ ويقول ﴾ تفسير له . والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى حالة المجادلة . ثم فسر الجدل بأنهم يقولون ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ وأصل السطر هو أن يجعل شيئاً ممتداً مؤلفاً في صف ومنه سطر الكتاب وسطر من نخيل وجمعه أسطار وجمع الجمع أساطير . وقال الزجاج : واحد الأساطير أسطورة كأحاديث وأحدوثة . وقال أبو زيد : لا واحد له كعباديد . قال ابن عباس : معناه أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها أي يكتبونها . ومن فسر الأساطير بالخرافات والترهات نظر . إلى أن الإغلب هو أن لا يكون فيها فائدة معتبرة كحديث رستم وغيره فذلك معنى وليس بتفسير . ثم إن غرض القوم من هذا القول هو القدح في كون القرآن معجزاً كما الكتب المشتملة على الأخبار والقصص ليست بمعجزة ، والجواب أن هذا مقرون بالتحدي وقد عجزوا عن آخرهم دون تلك فظهر الفرق . ثم أكد طعنهم في القرآن بقوله ﴿ وهم ينهون عنه ﴾ قال محمد بن الحنفية وابن عباس في رواية والسدي والضحاك : عن القرآن وتدبره والاستماع له ﴿ وينأون عنه

﴿ والنأي البعد . نأيته ونأيت عنه وناء الرجل إذا بعد لغة في " نأى " وحملوه على القلب لأن المصدر لم يجيء إلا على النأي . وقيل : الضمير للرسول والمراد النهي عن اتباعه والتصديق بنبوّته ، جمعوا بين قبيحين : النأي والنهي فضلوا وأضلوا . وعن عطاء ومقاتل عن ابن عباس أنها نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتباعد عما جاء به .

روي أن قريشاً اجتمعوا إلى أبي طالب يريدون سوءاً بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو طالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم . . . حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة . . . وأبشر وقر بذلك منك عيونا

(179/230)

وعرضت ديناً لا محالة أنه . . . من خير أديان البرية دينا

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي . . . ولقد صدقت وكنت ثم أمينا

لولا الملامة أو حذاري سبة . . . لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وضعفت هذه الرواية بقوله ﴿ إن يهلكون إلا أنفسهم ﴾ يعني بما تقدم ذكره ، ولكن النهي

عن أذيته حسن لا يوجب الهلاك . ويمكن أن يجاب بأن الذم توجه على الهيئة الاجتماعية الحاصلة من النهي مع النأي كقوله ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ [البقرة : 44] ولو سلم فلم لا يجوز أن يرجع الذم إلى القسم الأخير فقط .

(180/230)

ثم بيَّن أنه كيف يعود الضرر إليهم فقال ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ وجواب " لو " محذوف أي لرأيت سوء منقلبهم ونحو ذلك . وجاز حذفه للعلم به ولما في الحذف من تفخيم الشأن وهو ذهاب الوهم كل مذهب كما لو قلت لغلامك : والله لئن قمت إليك وسكت عن الجواب . ذهب فكره إلى أنواع المكاره من الضرب والقتل وغيرهما بخلاف ما لو قلت : لأضربنك . ولمثل هذا من إرادة المبالغة قال ﴿ وقفوا ﴾ بلفظ الماضي مع " إذا " الدال على المضي كأن هذا الأمر وقع وتحقق فكان من حقه أن يخبر عنه بلفظ الماضي أي وقفوا على أن يدخلوا النار وهم يعاينونها ، أو وقفوا عليها وهي تحتهم ، أو هو من قولهم : وقفت على المسألة الفلانية وقوفاً أي عرفوا حقيقتها تعريفاً أو المراد أنهم في جوف النار غائصين فيها فتكون " على " بمعنى " في " وجاز لأن النار دركات بعضها فوق بعض فلا يخلو من معنى الاستعلاء ﴿ يا ليتنا نردّ ﴾ هو داخل في حكم التمني . أما قوله ﴿ ولا

نكذب ونكون ﴾ فمن قرأ بالنصب فيهما فبإضمار " أن " على جواب التمني والمعنى إن رددنا إلى دار التكليف لم نكذب ونكن من المؤمنين . ومن قرأ بالرفع فيهما فوجهان : أحدهما أن التمني يتم عند قوله ﴿ نرد ﴾ ثم ابتدؤا ﴿ ولا نكذب ونكون ﴾ أي ونحن لا نكذب ونكون كأنهم ضمنوا أن لا يكذبوا ويكونوا من المؤمنين سواء حصل الرد أو لم يحصل . وشبهه سيبويه بقولهم : دعني ولا أعود بمعنى دعني وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني . وثانيهما أن يكونا معطوفين على ﴿ نرد ﴾ أو حالين على معنى يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين فيدخل المجموع تحت حكم التمني . وأورد على هذا الوجه أن المتمني لا يكون كاذباً وقد قال تعالى ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ وأجيب بأن هذا التمني قد تضمن معنى الوعد فجاز أن يتعلق به التكذيب كقول القائل : ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك فهذا متمن في حكم الواعد فلو رزق مالاً ولم يحسن إلى صاحبه كذب لأنه كأنه قال : إن

رزقني الله مالاً أحسنت إليك .

وأما قراءة ابن عامر فمعناه إن رددنا غير مكذبين نكن من المؤمنين ثم رد الله تعالى عليهم بأنهم ما تمنوا العود إلى الدنيا وترك التكذيب وتحصيل الإيمان لأجل كونهم راغبين في الإيمان بل لأجل خوفهم من العذاب الذي شاهدوه وعاينوه فقال ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ وما الذي كانوا يخفونه في الدنيا . قال أكثر المفسرين : إن المشركين في بعض مواقف القيامة يجحدون الشرك فيقولون ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] فينطق الله تعالى جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك معنى ﴿ بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ وقال المبرد : بدا لهم وبال عقائدهم وأعمالهم وسوء عاقبتها ، وذلك أن كفرهم ما كان ظاهراً لهم وإنما ظهر لهم يوم القيامة . وقال الزجاج : بدا للأتباع ما أخفاه الرؤساء منهم من أمر البعث والنشور بدليل قوله بعد ذلك ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ وهذا قول الحسن . وقيل : إنها في المنافقين كانوا يسرون الكفر فيظهر نفاقهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة . وقيل : هو في أهل الكتاب يظهر لهم ما كانوا يكتمونه من صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . والأولى حمل الآية على الكل لأنه يوم تبلى السرائر فلا جرم تظهر الفضائح والقبائح وتنكشف الأسرار وتنهتك الأستار اللهم كفر عنا سيآتنا في ذلك اليوم . ثم قال ﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ قيل كيف يتصوّر هذا وإنهم قد عرفوا الله تعالى حينئذ بالضرورة وشاهدوا الأحوال والأهوال ؟ وأجاب القاضي بأن

المراد ولو ردّوا إلى حالة التكليف . وعلى هذا التقدير لا تبقى المعرفة ضرورية فلا يمتنع صدور الكفر عنهم . وضعف بأن المقصود من إيراد هذا الكلام المبالغة في غيهم وتماديهم وإصرارهم على الكفر . وإذا فرض عودهم إلى حالة التكليف زال التعجب كما هو الأن فإذن لا تنحل العقدة إلا بأن يقال : المراد توكيد جريان القضاء السابق فيهم بحيث لو شاهدوا العذاب والعقاب ثم سألوا

(183/230)

الرجعة فردوا إلى الدنيا لعادوا إلى الشرك ولم ينجع ذلك فيهم ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فيما وعدوا في ضمن التمني أو في كل شيء ولهذا قالوا ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ "إن" نافية والضمير عائد إلى حقيقة الحياة التي هي أقرب إلينا ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ بعدها . وقيل : إن تقدير الآية ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ولأنكروا البعث ولقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا .

ثم لما قرر إنكارهم كشف عن حالهم يوم القيامة فقال ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ تمسك بعض المشبهة بهذا على أنه تعالى يحضر تارة ويغيب أخرى ، ورد بأن استعلاء شيء على ذات الله تعالى محال بالاتفاق فوجب تأويل الأية بأنه مجاز عن الحبس للتوبيخ

والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي مولاه للعتاب ، أو لمضاف محذوف أي على جزاء ربهم أو وعده أو إخباره بثواب المؤمنين وعقاب الكافرين ، أوهو من قولك : وقفته على كذا أي أطلعته عليه .

(184/230)

ثم كان لسائل أن يقول : ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه ؟ فأجيب ﴿ قال أليس هذا ﴾ الذي عاينتموه من حديث البعث والجزاء ﴿ بالحق ﴾ الذي حدثتموه ؟ ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ وفيه دليل على أن حالهم في الإنكار سيؤل إلى الإقرار ، ثم كأنه سئل ماذا قيل لهم بعد الإقرار ؟ فأجيب ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي بسبب كفركم وذلك ليعلم أن الإقرار في غير دار التكليف لا ينفع ، وذلك أن جوهر النفس اللطيفة القدسية بعث إلى هذا العالم الجسماني الكثيف وأعطى الآلات الجسمانية لتحصيل المعارف اليقينية والأخلاق الفاضلة التي تعظم منافعها بعد الموت . فإذا استعملها الإنسان بناء على اعتقاد عدم المعاد في تحصيل اللذات الفانية والسعادات المنقطعة إلى أن ينقضي أجله فقد ضاع رأس المال ولا ربح وذلك قوله ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ أي ببلوغ الآخرة وثوابها وعقابها . عبر عن ذلك بلقاء الله لأنه لا حكم لأحد هناك إلا

لله بخلاف الدنيا فإنه قد يظن أن للإنسان تصرفاً واختياراً وملكاً وملكاً . وحمل اللقاء على الرؤية أيضاً غير بعيد عند أهل السنة . و" حتى " غاية ل ﴿ كذبوا ﴾ لا ل ﴿ خسر ﴾ لأن خسرانهم لا غاية له أي لم يزل بهم التكذيب إلى تحسرهم وقت مجيء الساعة بل وقت موتهم ، فإن أمارات السعادة والشقاوة تلوح على صفحات أحوال المكلف من وقتئذ وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم " من مات فقد قامت قيامته " وسمى يوم القيامة الساعة لسرعة الحساب فيه كأنه قيل : ما هو إلا ساعة الحساب ، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة لا يعلمها إلا الله تعالى ولهذا قال ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة . وانتصابها على الحال أي باغتة من بغته إذا فاجأه ، أو على المصدر العام أي بغتتهم الساعة بغتة أو الخاص لأن البغت نوع من المجيء ﴿ قالوا ﴾ عامل " إذ " ﴿ يا حسرتنا ﴾ مثل ﴿ يا ويلتي ﴾ [الفرقان : 28] وقد مر مثله في سورة المائدة أي احضري فهذا وقتك ﴿ على ما فرّطنا ﴾ أصله يدل على

الترك والهمزة في الإفراط لإزالة ذلك . وقولهم فرطت القوم أي سبقتهم إلى الماء ، معناه تركتهم من ورائي حتى حصل لي التقدم . أما الضمير في ﴿ فيها ﴾ فقال ابن عباس : أي

في الدنيا وإن لم يجر لها ذكر في الآية بدلالة العقل لأن موضع التقصير هو الدنيا .

وقال الحسن : أي في وقت الساعة على معنى قصرنا في شأنها والإيمان بها وإعداد الزاد وتحصيل الأهبة لها . وقال محمد بن جرير الطبري : يعود إلى الصفقة والمبايعة بدلالة ذكر الخسران . وقيل : إلى ما فيما فرطنا أي يا حسرتنا على الأعمال والطاعات التي تركناها وقصرنا فيها . ثم بين تضاعف خسرانهم بأنهم لم يحصلوا لأنفسهم مواجب الثواب ولكن حصلوا مواجب العقاب فقال ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ هي الآثام والخطايا . وأصل الوزر الثقل ومنه الوزير لأنه يحمل ثقل صاحبه . والوزر الملجأ لأنه يدفع عنه ما أصابه فكأنه حمله . أما كيفية حملهم الأوزار فقال في الكشاف : إنه مجاز عن حصولها لهم كقوله ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : 30] لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور كما ألف الكسب بالأيدي . وقال الزجاج : الثقل قد يذكر في الحال والصفة . ثقل عليّ خطاب فلان أي كرهته ، فالمعنى أنهم يقاسون عذاب ذنوبهم مقاساة ثقل ذلك عليهم . وقيل : هو كقولك : شخصك نصب عيني أي ذكرك ملازم لي . وقال جمع من المفسرين : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله شيء هو أحسن الأشياء صورة وأطيبها ريحاً فيقول : أنا عملك الصالح طالما ركبتك في الدنيا فاركبني أنت اليوم فذلك قوله ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ [مريم : 85] قالوا ركباناً وإن الكافر إذا خرج من قبره استقبله شيء هو أقبح الأشياء صورة وأخبثها ريحاً فيقول : أنا عملك الفاسد طالما

ركبتني في الدنيا فأنا أركبك اليوم قاله قتادة السدي . ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ بئس شيئاً يزرون وزرهم .

(186/230)

ثم رغب في الحياة الباقية وزهد في الحياة العاجلة فقال ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ قال ابن عباس : يريد حياة أهل الشرك والنفاق لأن حياة المؤمن تحصل فيها أعمال صالحة فلا تكون لعباً ولهواً . وقال آخرون : هو عام في حياة المؤمن والكافر وذلك أن مدة اللهو واللعب وكل شيء يلهيك ويشغلك مما لا أصل له قليلة سريعة الانقضاء والزوال ، ومدة هذه الحياة كذلك . وأيضاً اللعب واللهو لا بد أن يتناهيا في أكثر الأمر إلى شيء من المكاره ولذات الدنيا كذلك ، ولهذا رفضها العلماء المحققون والحكماء المتألهون . ﴿ وللدار الآخرة ﴾ قال ابن عباس : هي الجنة وإنها خير لمن اتقى الكفر والمعاصي . وقال الأصم : التمسك بعمل الآخرة خير . وقال الآخرون : نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا من حيث إنها دائمة باقية مصونة عن شوائب الآفات والمخافات ، آمنة من نقص الانقضاء والانقراض ﴿ للذين يتقون ﴾ فيه أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن اتقى الكفر والمعاصي ، وأما الكافر والفاسق فالدنيا بالنسبة إليهما خير كما قال صلى الله عليه وسلم : " الدنيا

سجن المؤمن وجنة الكافر " ﴿ أفلا تعقلون ﴾ قال الواحدي : من قرأ بتاء الخطاب فالمعنى قل لهم أفلا تعقلون أيها المخاطبون ، ومن قرأ بالياء فمعناه أفلا يعقل الذين يتقون أن الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار ؟ وذلك أن خيرات الدنيا ليست إلا قضاء الشهوات التي يشارك فيها سائر الحيوانات ، بل ربما كان أمر تلك الحيوانات فيها أكمل ، فالجمل أكثر أكلاً ، والديك والعصفور أكثر وقاعاً ، والذئب والنمر والحيات أقوى غضباً وقهراً ، وكل من وقف عمره على هذه المطالب لم يكن له عند العقلاء وزن ولا عند الحكماء والعلماء قدر ، وكل من صرف عمره في تحصيل الكمالات الدائمات والسعادات الباقيات كان له في العيون مهابة وفي القلوب قبول ، وذلك دليل على شهادة الفطرة الأصلية بخساسة اللذات الجسمانية وعلو مرتبة الكمالات الروحانية .

(187/230)

وهب أن النوعين تشاركا في الفضل والمنقبة أليس المعلوم أفضل من المظنون وأن خيرات الآخرة معلومة قطعاً والوصول إلى خيرات الدنيا في الغد غير معلوم ولا مظنون ؟ فكم من سلطان قاهر بكرة صار تحت التراب عشية ، وكم من متمول متغلب أصبح أميراً كبيراً ثم أمسى فقيراً حقيراً . وهب أنه وجد بعد هذا اليوم يوماً آخر فلن يمكنه الانتفاع بكل ما جمع

من الأسباب ، ولو انتفع فقلما يخلص من شوائب المكاره والآفات كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال " من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : سرور يوم بتمامه " وهب أن الدست له قد تم ، أليس مآل كل ذلك إلى الزوال والانقراض ؟ وكفى بذلك نقصاً وكدراً كما قال :

كمال الغم عندي في سرور . . . تيقن عنه صاحبه انتقالا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 70.64 ﴾

(188/230)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/231)

الجزء الحادى والثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 33 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 41 ﴾ من نفس السورة

(4/231)

قوله تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كرر في هذه السورة أمره بمقاولتهم ، وأطال في الحث على مجادلتهم ، وختم بما يقتضي سلبهم العقل مع تكرير الإخبار بأن المقضي بخسارته منهم لا يؤمنون لآية من الآيات ، وكان من المعلوم أنهم حال إسماعهم ما أمر به لا يسكتون لما عندهم من عظيم النخوة وشماخة الكبر وقوة الجرأة ، وأنه لا جواب لهم إلا التبعة والبذاءة كما هو دأب المعاند المغلوب ، وأن ذلك يحزنه صلى الله عليه وسلم لما جبل عليه من الحياء والشهامة والصيانة والنزاهة ، كان الحال محتاجاً إلى التسلية فقال تعالى : ﴿ قد نعلم ﴾ والمراد بالمضارع وجود العلم من غير نظر إلى زمان ، وعدل عن الماضي لئلا يظن الاختصاص به ، فالمراد تحقق التجدد لتعلق العلم بتجدد الأقوال ﴿ إنه ليحزنك ﴾ أي يوقع على سبيل التجديد والاستمرار لك الحزن على ما فاتك من حالات الصفاء التي كدرها ﴿ الذي يقولون ﴾ أي من تكذيبك ، فقد علمنا امتثالك لأوامرنا في إسماعهم ما يكرهون من تنزيهنا ، وعلمنا ردهم عليك بما لا يرضيك ، وعلمنا أنه يبلغ منك ، فلا تحزن لأن من علم أن ربه يرضي المطيع له ويجزي عاصيه ، وهو عالم بما ينال المطيع في طاعته لا ينبغي أن يحزن بل يسر ، وهو كقوله تعالى في سورة يس ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ [يس : 76] ولا شك أن الحزن عند وقوع ما يسوء من طبع البشر الذي لا يقدر على الانفكاك عنه ، فالنهي عنه إنما هو نهي عما ينشأ عنه من الاسترسال المؤدي إلى الجزع المؤدي إلى عدم الصبر ونسيان ما

يعزي ، فهو من النهي عن السبب للمبالغة في النهي عن المسبب ، وما أنسب ذكر ما يحزن بعد تقرير أن الدنيا لأهلها لعب ولهو وأن الآخرة خير للمتقين ، ومن المعلوم أنهما ضدان ، فلا تنال إحداهما إلاّ بضد ما للأخرى ، فلا تنال الآخرة إلا بضد ما لأهل الدنيا من اللعب واللهو ، وذلك هو الحزن الناشئ عن التقوى الحامل عليها الخوف كما روي في حديث قدسي " أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي " .

(5/231)

ولما أخبره سبحانه بعلمه بذلك ، سبب عنه قوله : ﴿ فإنهم ﴾ أي فلا يحزنك ذلك فإنهم ﴿ لا يكذبونك ﴾ بل أنت عندهم الأمين ، وليكن علمنا بما تلقى منهم سبباً لزوال حزنك ، وكذا إخبارنا لك بعدم تكذيبهم لك ، بل أنت عندهم في نفس الأمر أمين غير متهم ولكنهم لشدة عنادهم ووقوفهم مع الحظوظ وعجزهم عن جواب يبرد غللهم ويشفي عللهم ينكرون آيات الله مع علمهم بحقيتها ، فليخفف حزنك لنفسك ما انتهكوه من حرمة من أرسلك ، والآية من الاحتباك : حذف من الجملة الأولى – إظهاراً لشرف النبي صلى الله عليه وسلم وأدباً معه – سبب الحزن ، وهو التكذيب لدلالة الثانية عليه ، ومن الثاني النهي عن المسبب لدلالة الأولى عليه ؛ روى الطبري في تفسيره عن السدي أنه لما كان يوم

بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة إن محمداً ابن أختكم ، وأنتم أحق من كف عنه ، فإنه إن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم ، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته ، قفوا ها هنا حتى ألقى أبا الحكم ، فإن غَلِب محمد رجعتم سالمين ، وإن غَلَب محمد فإن قومكم لن يصنعوا بكم شيئاً ، فيومئذ سمي " الأخنس " ، وكان اسمه " أبي " ، فالتقى الأخنس وأبو جهل ، فخلا الأخنس به فقال : يا أبا الحكم ! أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس ها هنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا ، فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ! وعن ناجية قال قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما نتهمك ولكن نتهم الذي جئت به ، فأنزل الله الآية وعلى ذلك يدل قوله تعالى : ﴿ ولكن ﴾ ، وقال : ﴿ الظالمين ﴾ في موضع الضمير تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ، اي الذين كانوا في مثل الظلام ﴿ بآيات ﴾ أي بسبب آيات ﴿ الله ﴾ أي الملك الأكبر الذي له الكمال كله ﴿ يجحدون ﴾ قال أبو علي الفارسي في أول كتاب الحجة : أي يجحدون ما عرفوه من صدقك

وأمانتك ، وعلق باء الجر بالظالمين كما هي في قوله ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ [الإسراء : 59] ونحوها ، وقال ابن القطاع في كتاب الأفعال : جحد الشيء جحداً وجحوداً : أنكره وهو عالم به .

هذا قصدهم غير أنه لا طريق لهم إلا إنكار الآيات إلا بالتكذيب ، أو ما يؤول إليه ، وأنت تعلم أن الذي أرسلك على كل شيء قدير ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، فاقتضت قدرته وقهره وانتصاره لأهل ولايته وجبره أن يحل بأعدائهم سطوة تجل عن الوصف ، واقتضت حكمته عدم المعاجلة بها تشريفاً لك وتكثيراً لأمتك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 626.628 ﴾

(6/231)

فصل

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ﴾ .

في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أن رجلا من قريش يقال له : الحارث بن عامر ، قال : والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتَّهِمَك اليوم ، ولكنا إن نتَّبعْك نُتَخَطَّفْ من أرضنا ، فنزلت هذه الآية رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وقال مقاتل : كان الحارث بن عامر يكذِّب النبي في العلانية ، فاذا خلا مع أهل بيته ، قال :

ما محمد من أهل الكذب ، فنزلت فيه هذه الآية .

والثاني : أن المشركين كانوا إذا رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ، قالوا فيما بينهم : إنه لَنبي ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح .

والثالث : أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ، ولكن نُكذب الذي جئت به ، فنزلت هذه الآية ، قاله ناجية بن كعب .

وقال أبو يزيد المدني : لقي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل فصافحه أبو جهل ، فقيل له : أتصافح هذا الصابئ ؟ فقال : والله إني لأعلم أنه نبي ، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف ؟ فأنزل الله هذه الآية .

والرابع : أن الأخنس بن شريق لقي أبا جهل ، فقال الأخنس : يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فليس ها هنا من يسمع كلامك غيري .

فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء ، والسقاية ، والحجابة ، والنُّبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله السدي .

فأما الذي يقولون ، فهو التكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والكفر بالله .

وفي الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتعزية عما يواجهون به . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن طوائف الكفار كانوا فرقاً كثيرين ، فمنهم من ينكر نبوته لأنه كان ينكر رسالة البشر ويقول يجب أن يكون رسول الله من جنس الملائكة وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة شبهة هؤلاء وأجاب عنها .

ومنهم من يقول : إن محمداً يخبرنا بالحشر والنشر بعد الموت وذلك محال .

وكانوا يستدلون بامتناع الحشر والنشر على الطعن في رسالته .

وقد ذكر الله تعالى ذلك وأجاب عنه بالوجوه الكثيرة التي تقدم ذكرها ومنهم من كان يشافهه بالسفاهة وذكر ما لا ينبغي من القول وهو الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية .

واختلفوا في أن ذلك المحزن ما هو ؟ فقيل كانوا يقولن إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون وهو قول الحسن .

وقيل : إنهم كانوا يصرحون بأنهم لا يؤمنون به ولا يقبلون دينه وشريعته .

وقيل : كانوا ينسبونه إلى الكذب والافتعال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12

وقال أبو حيان :

﴿ قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ وقال النقاش : نزلت في الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف فإنه كان يكذب في العلانية ويصدق في السرّ ويقول : نخاف أن تتخطفنا العرب ونحن أكلة رأس ، وقال غيره : روي أن الأخنس بن شريف قال لأبي جهل .

(8/231)

يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له : والله أن محمداً لصادق وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فنزلت .

﴿ قد ﴾ حرف توقع إذا دخلت على مستقبل الزمان كان التوقع من المتكلم كقولك : قد ينزل المطر في شهر كذا وإذا كان ماضياً أو فعل حال بمعنى المضي فالتوقع كان عند السامع ، وأما المتكلم فهو موجب ما أخبر به وعبر هنا بالمضارع إذ المراد الاتصاف بالعلم واستمراره ولم يلحظ فيه الزمان ؛ كقولهم : هو يعطي ويمنع .

وقال الزمخشري والتبريزي : قد نعلم بمعنى ربما الذي تجيء لزيادة الفعل وكثرته نحو قوله :

ولكنه قد يهلك المال نائله ؛ انتهى .

وما ذكره من أن قد تأتي للتكثير في الفعل والزيادة قول غير مشهور للنحاة وإن كان قد قال بعضهم مستدلاً بقول الشاعر :

قد أترك القرن مصفرًّا أنامله . . .

كأنَّ أثوابه مُجَّتْ بفرصاد

وبقوله :

أخي ثقةٍ لا يتلف الخمر ماله . . .

ولكنه قد يهلك المال نائله

والذي نقوله : إن التكثير لم يفهم من ﴿ قَد ﴾ وإنما يفهم من سياق الكلام لأنه لا يحصل الفخر والمدح بقتل قرن واحد ولا بالكرم مرّة واحدة ، وإنما يحصلان بكثرة وقوع ذلك وعلى تقدير أن قد تكون للتكثير في الفعل وزيادته لا يتصور ذلك ، في قوله : ﴿ قد نعلم ﴾ لأن علمه تعالى لا يمكن فيه الزيادة والتكثير ، وقوله : بمعنى ربما التي تجيء لزيادة الفعل وكثرته ، والمشهور أن ربّ للتقليل لا للتكثير وما الداخلة عليها هي مهيئة لأن يليها الفعل وما المهيئة لا تزيل الكلمة عن مدلولها ، ألا ترى أنها في كأنما يقوم زيد ولعلما يخرج بكر لم تزل كأنّ عن التشبيه ولا لعل عن الترجّي .

قال بعض أصحابنا : فذكر بما في التقليل والصرف إلى معنى المضيّ يعني إذا دخلت على المضارع قال : هذا ظاهر قول سيبويه ، فإن خلت من معنى التقليل خلت غالباً من الصرف إلى معنى المضيّ وتكون حينئذ للتحقيق والتوكيد نحو قوله ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك ﴾ وقوله ﴿ لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ وقول الشاعر :

وقد تدرك الإنسان رحمة ربِّه . . .

ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

وقد تخلو من التقليل وهي صارفة لمعنى المضي نحو قول :

﴿ قد نرى تقلب وجهك ﴾ انتهى .

وقال مكي : ﴿ قد ﴾ هنا وشبهه تأتي لتأكيد الشيء وإيجابه وتصديقه و ﴿ نعلم ﴾ بمعنى علمنا .

وقال ابن أبي الفضل في ري الظمآن : كلمة ﴿ قَد ﴾ تأتي للتوقع وتأتي للتقريب من الحال وتأتي للتقليل ؛ انتهى ، نحو قولهم : إن الكذوب قد يصدق وإن الجبان قد يشجع والضمير في ﴿ إنه ﴾ ضمير الشأن ، والجملة بعده مفسرة له في موضع خبر إن ولا يقع هنا اسم

الفاعل على تقدير رفعه ما بعده على الفاعلية موقع المضارع لما يلزم من وقوع خبر ضمير الشأن مفرداً وذلك لا يجوز عند البصريين ، وتقدم الكلام على قراءة من قرأ يحزنك رباعياً وثلاثياً في آخر سورة آل عمران وتوجيه ذلك فاغني عن إعادته هنا و ﴿ الذي يقولون ﴾ معناه مما ينافي ما أنت عليه .

قال الحسن : كانوا يقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون .

وقيل : كانوا يصرحون بأنهم لا يؤمنون به ولا يقبلون دينه .

وقيل : كانوا ينسبونه إلى الكذب والافتعال .

وقيل : كان بعض كفار قريش يقول له : رئي من الجن يخبره بما يخبر به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(10/231)

وقال أبو السعود :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذى يَقُولُونَ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذي يعتريه مما حُكي عن الكفرة من الإصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانةٍ من الله عز وجل وأن ما يفعلون في حقه

فهو راجعٌ إليه تعالى في الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشدَّ انتقام ، وكلمةُ (قد) لتأكيد العلم بما ذكر المفيدِ لتأكيد الوعيدِ كما في قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المعوقين ﴾ ونحوِهما بإخراجها إلى معنى التكثير حسبما يُخْرِجُ إليه ربما في مثل قوله :

وإنْ تُمْسِ مهجورَ الفِناء فربما . . . أقام به بعد الوفود وفودُ

جرياً على سَنَنِ العرب عند قصد الإفراط في التكثير تقول لبعض قُوادِ العساكر : كم عندك من الفرسان ؟ فيقول : رُبَّ فارسٍ عندي ، وعنده مقانبُ جَمةٌ يريد بذلك التماديَ في تكثير فُرسانه ولكنه يروم إظهارَ براءته عن التزيُّد وإبرازَ أنه ممن يقلل كثيرَ ما عنده فضلاً عن تكثير القليل وعليه قوله عز وجل : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ وهذه طريقة إنما تُسلك عند كون الأمر من الوضوح بحيث لا تحوم حوله شائبةُ ريبٍ حقيقةً ، كما في الآيات الكريمة المذكورة ، أو ادعاءً كما في البيت وقولِه :

قد أترك القِرْنَ مُصفرّاً أناملُهُ . . . وقولِه

ولكنه قد يُهلك المالَ نائِلُهْ . . . والمراد بكثرة علمه تعالى كثرةُ تعلقِه وهو متعدَ إلى اثنين وما بعده سادٌّ مسدَّها واسمُ (إن) ضمير الشأن وخبرُها الجملة المفسرة له والموصولُ فاعل (يحزنك) وعائدُه محذوف أي الذي يقولونه وهو ما حُكي عنهم من قولهم : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ

أساطير الاولين ﴾ ونحوُ ذلك وقرىء (لَيُحزِنُك) من أحزن المنقول من حزِن اللازم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(11/231)

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذى يَقُولُونَ ﴾ استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذي يعتريه عليه الصلاة والسلام مما حكى عن الكفرة من الإصرار على التكذيب والمبالغة ، وكلمة قد للتكثير وهو كما قال الحلبي راداً به اعتراض أبي حيان راجع إلى متعلقات العلم لا العلم نفسه إذ صفة القديم لا تقبل الزيادة والتكثير وإلا لزم حدوثها المستلزم لحدوث من قامت به سبحانه وتعالى ، وقال السفاقسي : قد تصح الكثرة باعتبار المعلومات وما في حيز العلم هنا كثير بناءً على أن الفعل المذكور دال على الاستمرار التجددي ، وأنشدوا على إفادتها ذلك بقول الهذلي

: قد أترك القِرْن مصفراً أنامله . . .

كأن أثوابه مُجَّت بِفِرْصَاد

وادعى أبو حيان أن إفادتها للتكثير قول غير مشهور للنحاة وإن قال به بعضهم ، وكلام

سيبويه حيث قال : وتكون قد بمنزلة ربما ليس نصاً في ذلك ؛ وما استشهدوا به على دعواهم إنما فهم التكثير فيه من سياق الكلام ومنه البيت فإن التكثير إنما فهم فيه لأن الفخر إنما يحصل بكثرة وقوع المفتخر به .

وذكر بعض المحققين أن الحق ما قاله ابن مالك أن إطلاق سيبويه أنها بمنزلة ربما يوجب التسوية بينهما في التقليل والصرف إلى المضي والبيت دليل عليه فإن الفخر يقع بترك الشجاع قرنه وقد صبغت أثوابه بدمائه في بعض الأحيان .

وقول أبي حيان أن الفخر إنما يحصل بكثرة الخ غير مسلم على إطلاقه بل هو فيما يكثر وقوعه وأما ما يندر فيفتخر بوقوعه نادراً لأن قرن الشجاع لو غلبه كثيراً لم يكن قرناً له لأن القرن بكسر القاف وسكون الراء المقاوم المساوي .

(12/231)

وفي "القاموس" القِرن (بالكسر) كفؤك في الشجاعة أو أعم ، فلفظه يقتضي بحسب دقيق النظر أنه لا يغلبه إلا قليلاً وإلا لم يكن قرناً ويتناقض أول الكلام وآخره ، وادعى الطيبي أن لفظ قد للتقليل ، وقد يراد به في بعض المواضع ضده ، وهو من باب استعارة أحد الضدين للآخر ، والنكتة ههنا تصبير رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذى قومه وتكذيبهم ،

يعني من حقك وأنت سيد أولي العزم أن لا تكثر الشكوى من أذى قومك وأن لا يعلم الله تعالى من إظهارك الشكوى إلا قليلاً وأن يكون تهكماً بالمكذبين وتوبيخاً لهم .

ونص بعضهم على أن قد هنا للتقليل على معنى أن ما هم فيه أقل معلوماته تعالى ، وضمير ﴿ إِنَّهُ ﴾ للشأن وهو اسم إن وخبرها الجملة المفسرة له ، والموصول فاعل يحزنك وعائده محذوف أي الذي يقوله ، وهو ما حكي عنهم من قولهم : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الاولين ﴾ [الأنعام : 25] أو هو وما يعمه وغيره من هذيانهم وجملة ﴿ أَنَّهُ ﴾ الخ سادة مسد مفعولي ﴿ نَعْلَمَ ﴾ .

وقرأ نافع ﴿ لَيَحْزُنُكَ ﴾ من أحزن المنقول من حزن اللازم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾

استئناف ابتدائي قصدت به تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وأمره بالصبر ، ووعده بالنصر ، وتأييسه من إيمان المتغالين في الكفر ، ووعده بإيمان فرق منهم بقوله : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى إلى قوله يسمعون ﴾ .

وقد تهيّأ المقام لهذا الغرض بعد الفراغ من محاجّة المشركين في إبطال شركهم وإبطال إنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والفراغ من وعيدهم وفضيحة مكابرتهم

ابتداء من قوله : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم ﴾ [الأنعام : 4] إلى هنا .

و ﴿ قد ﴾ تحقيق للخبر الفعلي ، فهو في تحقيق الجملة الفعلية بمنزلة (إنّ) في تحقيق الجملة الاسمية .

(13/231)

فحرف ﴿ قد ﴾ مختصّ بالدخول على الأفعال المتصرّفة الخبرية المثبتة المجرّدة من ناصب وجازم وحرف تنفيس ، ومعنى التحقيق ملازم له .

والأصحّ أنّه كذلك سواء كان مدخولها ماضياً أو مضارعاً ، ولا يختلف معنى ﴿ قد ﴾ بالنسبة للفعلين .

وقد شاع عند كثير من النحويّين أنّ ﴿ قد ﴾ إذا دخل على المضارع أفاد تقليل حصول الفعل .

وقال بعضهم : إنّه مأخوذ من كلام سيبويه ، ومن ظاهر كلام "الكشاف" في هذه الآية .

والتحقيق أنّ كلام سيبويه لا يدلّ إلاّ على أنّ ﴿ قد ﴾ يستعمل في الدلالة على التقليل لكن بالقرينة وليست بدلالة أصلية .

وهذا هو الذي استخلصتُه من كلامهم وهو المعوّل عليه عندي .

ولذلك فلا فرق بين دخول ﴿ قد ﴾ على فعل المضي ودخوله على الفعل المضارع في إفادة تحقيق الحصول ، كما صرّح به الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ في سورة النور (64) .

فالتحقيق يعتبر في الزمن الماضي إن كان الفعل الذي بعد قد ﴾ فعلَ مُضيّ ، وفي زمن الحال أو الاستقبال إن كان الفعل بعد (قد) فعلاً مضارعاً مع ما يضمّ إلى التحقيق من دلالة المقام ، مثلِ تقريب زمن الماضي من الحال في نحو : قد قامت الصلاة .

وهو كناية تنشأ عن التعرّض لتحقيق فعل ليس من شأنه أن يشكّ السامع في أنّه يقع ، ومثلِ إفادة التكثير مع المضارع تبعاً لما يقتضيه المضارع من الدلالة على التجدّد ، كالبيت الذي نسبه سيبويه للهذلي ، وحقّق ابن بري أنّه لعبيد بن الأبرص ، وهو:

قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرّا أَنَامِلُه . . .

كأنّ أَثْوَابَه مُجَّتْ بِفِرْصَاد

وبيت زهير:

أخا ثقة لا تُهلك الخمرُ مالَه . . .

ولكنّه قد يهلك المالَ نائلُه

وإفادة استحضار الصورة ، كقول كعب:

لَقد أَقُومُ مَقَاما لو يقوم به . . .

أرى وأسمعُ ما لو يسمَعَ الفِيلُ

لَظلّ يُرعَد إلاّ أن يكون له . . .

من الرسول بإذن الله تَنْويل

(14/231)

أراد تحقيق حضوره لدى الرسول صلى الله عليه وسلم مع استحضار تلك الحالة العجيبة من الوجل المشوب بالرجاء .

والتحقيق أنّ كلام سيبويه بريء ممّا حَمَّلوه ، وما نشأ اضطراب كلام النحاة فيه إلاّ من فهم ابن مالك لكلام سيبويه .

وقد ردّه عليه أبو حيّان ردّاً وجيهاً .

فمعنى الآية علمنا بأنّ الذي يقولونه يُحزنك محقّقاً فتصبّر .

وقد تقدّم لي كلام في هذه المسألة عند قوله تعالى : ﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السماء ﴾ في سورة البقرة (144) ، فكان فيه إجمال وأحَلْت على تفسير آية سورة الأنعام ، فهذا الذي استقرّ عليه رأيي .

وفعل نعلم ﴾ معلّق عن العمل في مفعولين بوجود اللام .

والمراد بـ ﴿ الذي يقولون ﴾ أقوالهم الدّالة على عدم تصديقهم الرسول صلى الله عليه وسلم كما دلّ عليه قوله بعده ﴿ ولقد كُذِّبَتْ رسل ﴾ [الأنعام : 34] ، فعدل عن ذكر اسم التكذيب ونحوه إلى اسم الموصول وصلته تنزيهاً للرسول عليه الصلاة والسلام عن ذكر هذا اللفظ الشنيع في جانبه تلطّفاً معه .

وقرأ نافع ، وأبو جعفر ﴿ لَيُحْزنك ﴾ بضم الياء وكسر الزاي .

وقرأه الباقون بفتح الياء وضمّ الزاي يُقال : أحزنت الرجل بهمزة تعدية لفعل حَزن ، ويقال : حَزَنْتُه أيضاً .

وعن الخليل : أنّ حزنته ، معناه جعلت فيه حُزناً كما يقال : دَهنته .

وأمّا التعدية فليست إلاّ بالهمزة .

قال أبو علي الفارسي : حَزَنْت الرجل ، أكثر استعمالاً ، وأحزنته ، أقيس .

و ﴿ الذي يقولون ﴾ هو قولهم ساحر ، مجنون ، كاذب ، شاعر .

فعدل عن تفصيل قولهم إلى إجماله إيجازاً أو تحاشياً عن التصريح به في جانب المنزّه عنه .

والضمير المجعول اسم (إنّ) ضمير الشأن ، واللام لام القسم ، وفعل ﴿ يحزنك ﴾ فعل القسم ، و ﴿ الذي يقولون ﴾ فاعله ، واللام في ﴿ ليحزنك ﴾ لام الابتداء ، وجملة ﴿ يحزنك ﴾ خبر إنّ ، وضمائر الغيبة راجعة إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ في قوله "ثم الذين كفروا بربِّهم يعدلون" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع والكسائي ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ خفيفة والباقون يكذبونك مشددة وفي هاتين القراءتين قولان : الأول : أن بينهما فرقاً ظاهراً ثم ذكروا في تقرير الفرق وجهين : أحدهما : كان الكسائي يقرأ بالتخفيف ، ويحتج بأن العرب تقول كذبت الرجل إذا نسبته إلى الكذب وإلى صنعه الأباطيل من القول وأكذبته إذا أخبرت أن الذي يحدث به كذب وإن لم يكن ذلك بافتعاله وصنعه .

قال الزجاج : معنى كذبته قلت له كذبت ومعنى أكذبته أن الذي أتى به كذب في نفسه من غير ادعاء أن ذلك القائل تكلف ذلك الكذب وأتى به على سبيل الافتعال والقصد فكأن القوم كانوا يعتقدون أن محمداً عليه السلام ما ذكر ذلك على سبيل الافتعال والترويج بل تخيل صحة تلك النبوة وتلك الرسالة ، إلا أن ذلك الذي تخيله فهو في نفسه باطل .

والفرق الثاني قال أبو علي : يجوز أن يكون معنى ﴿ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ أي لا يصادفونك كاذباً لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة كما يقال أحمدت الرجل إذا أصبته محموداً فأحببته

وأحسنت محمدته إذا صادفته على هذه الأحوال .

والقول الثاني : أنه لا فرق بين هاتين القراءتين : قال أبو علي : يجوز أن يكون معنى القراءتين واحداً لأن معنى التفعيل النسبة إلى الكذب بأن يقول له كذبت كما تقول ذنبته وفسقته وخطأته أي قلت له فعلت هذه الأشياء وسقيته ورعيته أي قلت له سقاك الله ورعاك وقد جاء في هذا المعنى أفعلته قالوا أسقيته أي قلت له سقاك الله .

قال ذو الرمة :

وأسقيه حتى كاد مما أبثه . . تكلمني أحجاره وملاعبه

أي أنسبه إلى السقيا بأن أقول سقاك الله فعلى هذا التقدير يكون معنى القراءتين واحداً ، إلا إن فعلت إذا أرادوا أن ينسبوه إلى أمر أكثر من أفعلت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 12 صـ 168 . 169 ﴾

(16/231)

وقال أبو حيان :

وقرأ علي ونافع والكسائي بتخفيف ﴿ يكذبونك ﴾ .

وقرأ باقي السبعة وابن عباس بالتشديد .

فقيل : هما بمعنى واحد نحو كثر وأكثر .

وقيل : بينهما فرق حكى الكسائي أن العرب تقول : كذبت الرجل إذ نسبت إليه الكذب وأكذبته إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دون أن تنسبه إليه وتقول العرب أيضاً : أكذبت الرجل إذا وجدته كذاباً كما تقول : أحمدت الرجل إذا وجدته محموداً فعلى القول بالفرق يكون معنى التخفيف لا يجدونك كاذباً أو لا ينسبون الكذب إليك ، وعلى معنى التشديد يكون إما خبراً محضاً عن عدم تكذيبهم إياه ويكون من نسبة ذلك إلى كلهم على سبيل المجاز والمراد به بعضهم لأنه معلوم قطعاً أن بعضهم كان يكذبه ، ويكذب ما جاء به وإما أن يكون نفي التكذيب لانتفاء ما يترتب عليه من المضار فكأنه قيل ﴿ لا يكذبونك ﴾ تكذيباً يضرك لأنك لست بكاذب فتكذيبهم كلا تكذيب .

وقال في المنتخب : لا يراد بقوله : ﴿ لا يكذبونك ﴾ خصوصية تكذيبه هو ، بل المعنى أنهم ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقاً فالمعنى ﴿ لا يكذبونك ﴾ على التعيين بل يكذبون جميع الأنبياء والرسل .

وقال قتادة والسدي : ﴿ لا يكذبونك ﴾ بحجة وإنما هو تكذيب عناد وبهت .

وقال ناجية بن كعب : لا يقولون إنك كاذب لعلمهم بصدقك ولكن يكذبون ما جئت به .

وقال ابن السائب ومقاتل : ﴿ لا يكذبونك ﴾ في السر ، ولكن يكذبونك في العلانية عداوة .

وقال : لا يقدرون على أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتبهم كذبت ذكره الزجاج ورجح قراءة على بالتخفيف بعضهم ، ولا ترجيح بين المتواترين .

(17/231)

قال الزمخشري : والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى الله تعالى لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته فانته عن حزنك لنفسك وإنهم كذبوك وأنت صادق ، وليشغلك عن ذلك ما هو أهم وهو استعظامك لجحود آيات الله والاستهانة بكتابه ونحوه قول السيد لغلامه إذا أهانه بعض الناس إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني وفي هذه الطريقة قوله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ وعن ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون ، فكان أبو جهل يقول : ما نكذبك وإنك عندنا لمصدق وإنما نكذب ما جئتنا به ؛ انتهى .

وفي الكلام حذف تقديره : فلا تحزن فإنهم لا يكذبونك ، وأقيم الظاهر مقام المضمر تنبيهاً على أنّ علة الجحود هي الظلم وهي مجاوزة الحدّ في الاعتداء ، أي ولكنهم بآيات الله يجحدون .

وآياته قال السدّي : محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن السائب : محمد والقرآن .

وقال مقاتل : القرآن .

(18/231)

وقال ابن عطية : آيات الله علاماته وشواهد نبيه صلى الله عليه وسلم والجحود إنكار الشيء بعد معرفته وهو ضد الإقرار ، فإن كانت نزلت في الكافرين مطلقاً فيكون في الجحود تجوز إذ كلهم ليس كفره بعد معرفة ولكنهم لما أنكروا نبوّته وراموا تكذيبه بالدعوى الباطلة عبر عن إنكارهم بأقبح وجوه الإنكار وهو الجحد تغليظاً عليهم وتقبيحاً لفعلهم ، إذ معجزاته وآياته نيرة يلزم كل مفطور أن يقربها ويعلمها وإن كانت نزلت في المعاندين ترتب الجحود حقيقة وكفر العناد يدل عليه ظواهر القرآن وهو واقع أيضاً كقصة أبي جهل مع الأخنس بن شريق وقصة أمية بن أبي الصلت ، وقوله : ما كنت لأومن بنبي لم يكن من ثقيف ، ومنع بعض المتكلمين جواز كفر العناد ، لأن المعرفة تقتضي الإيمان والجحد يقتضي الكفر ، فامتنع اجتماعهما ، وتأولوا ظواهر القرآن فقالوا : في قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ أنها في أحكام التوراة التي بدلوها كآية الرجم ونحوها .

قال ابن عطية : وكفر العناد من العارف بالله وبالنبوة بعيد ؛ انتهى .

والتأويلات في نفي التكذيب إنما هو عن اعتقاداتهم إما بالنسبة إلى أقوالهم فأقوالهم مكذبة إما له وإما لما جاء به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(19/231)

وقال الماوردى :

﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : فإنهم لا يكذبونك بحجة ، وإنما هو تكذيب بهت وعناد ، فلا يحزنك ، فإنه لا يضرك ، قاله أبو صالح ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : فإنهم لا يكذبون قولك لعلمهم بصدقك ، ولكن يكذبون ما جئت به ، قاله ناجية بن كعب .

والثالث : لا يكذبونك في السر لعلمهم بصدقك ، ولكنهم يكذبونك في العلانية لعداوتهم لك ، قاله الكلبي .

والرابع : معناه أن تكذيبهم لقولك ليس بتكذيب لك ، لأنك رسول مُبَلِّغ ، وإنما هو تكذيب لآياتي الدالة على صدقك والموجبة لقبول قولك ، وقد بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ

الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي يكذبون .

وقرأ نافع والكسائي : ﴿ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ وهي قراءة عن النبي صلى الله عليه وسلم وتأويلها : لا يجدونك كاذباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ﴾ قرأ نافع ، والكسائي ، "يُكْذِبُونَك" بالتخفيف وتسكين الكاف .

وفي معناها قولان .

أحدهما : لا يُلْفُونَك كاذباً ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : لا يكذِّبون الشيء الذي جئت به ، إنما يجحدون آياتِ الله ، ويتعرَّضون لعقوباته .

قال ابن الأنباري : وكان الكسائي يحتج لهذه القراءة بأن العرب تقول : كذبْتُ الرجل إذا نسبْتَه إلى الكذب وصنعة الأباطيل من القول ؛ وأكذبتُه : إذا أخبرتَ أن الذي يحدث به كذب ، ليس هو الصانع له .

قال : وقال غير الكسائي : يقال : أكذبتُ الرجل : إذا أدخلتَه في جملة الكذابين ، ونسبتَه إلى صفتهم ، كما يقال : أبخلتُ الرجل : إذا نسبتَه إلى البخل ، وأجبنتُه : إذا وجدتَه جبانا ، قال الشاعر :

فَطَائِفَةٌ قَدْ أَكْفَرُونِي بِحُبِّكُمْ . . .

وَطَائِفَةٌ قالوا مُسِيءٌ وَمُذْنِبُ

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، وابن عامر : "يكَذِّبونك" بالتشديد وفتح الكاف ؛ وفي معناها خمسة أقوال .

(20/231)

أحدها : لا يكذِّبونك بحجة ، وإنما هو تكذيب عِناد وبَهْتٍ ، قاله قتادة ، والسدي .

والثاني : لا يقولون لك : إنك كاذب ، لعلمهم بصدقك ، ولكن يكذِّبون ما جئت به ، قاله ناجية بن كعب .

والثالث : لا يكذِّبونك في السر ، ولكن يكذِّبونك في العلانية ، عداوةً لك ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والرابع : لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتبهم : كذبت .

والخامس : لا يكذِّبونك بقلوبهم ، لأنهم يعلمون أنك صادق ، ذكر القولين الزجاج .

وقال أبو علي : يجوز أن يكون معنى القراءتين واحداً وإن اختلفت اللفظتان ، إلا أن "فعّلتُ" : إذا أرادوا أن ينسبوه إلى أمر أكثر من "أفعلتُ" .

ويؤكد أنَّ القراءتين بمعنىً ، ما حكاه سيبويه .

أنهم قالوا : قلَّلتُ ، وأقللت ، وكثَّرتُ ، وأكثرت ، بمعنىً .

قال أبو علي : ومعنى "لا يكذِّبونك" ، لا يقدرون أن ينسبوك إلى الكذب فيما أخبرتَ به مما جاء في كتبهم ، ويجوز أن يكون معنى الحقيقة : لا يصادفونك كاذباً ، كما يقال : أحمدتُ الرجل : إذا أصبتَه محموداً ، لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة ، ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ بألسنتهم ما يعلمونه يقيناً ، لعنادهم .

وفي "آيات الله" ها هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله السدي .

والثاني : محمد والقرآن ، قاله ابن السائب .

والثالث : القرآن ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(21/231)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ تعليل لما يُشعِر به الكلامُ السابق من النهي عن الاعتداد بما قالوا لكن لا بطريق التشاغل عنه وعدِّه هيناً والإقبالِ التام على ما هو أهمُّ منه من استعظام جحودهم بآيات الله عز وجل كما قيل فإنه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية

مما يوهم كونَ حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه بل بطريق التسلّي بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام في جلالة القَدْرِ ورِفعة المحل والزُلفى من الله عز وجل إلى حيث لا غاية وراءَه حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ بل نفى تكذيبَهم عنه عليه الصلاة والسلام وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ يُبَايِعُونَ الله ﴾ إيذاناً بكمال القرب واضمحلال شؤونه عليه الصلاة والسلام في شأن الله عز وجل . نعمْ فيه استعظامٌ لجنايتهم مُنْبىءٌ عن عظم عقوبتهم كأنه قيل : لا تعتدَّ به وكِلْه إلى الله تعالى فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذبونك في الحقيقة .

(22/231)

﴿ ولكن الظالمين بئايات الله يَجْحَدُونَ ﴾ أي ولكنهم بآياته تعالى يكذّبون فوضعَ المُظهرَ موضعَ المُضمر تسجيلاً عليهم بالرسوخ في الظلم الذي يُعتبر جحودُهم هذا فناً من فنونه ، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالى ، وإيرادُ الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياتِه تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كلُّ أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارةٌ عن الإنكار مع العلم

بخلافه كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ وهو المعنيُّ بقول من قال : إنه نفْيُ ما في القلب إثباتُه ، أو إثباتُ ما في القلب نفيُه ، والباء متعلقة بيجحدون ويقال : جحد حقَّه وبحقِّه إذا أنكره وهو يعلمه ، وقيل : هو لتضمين الجحود معنى التكذيب ، وأياً ما كان فتقديمُ الجارِّ والمجرور للقَصْر وقيل : المعنى فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم ، ويعضُده ما رُوي من أن الأخْنَسَ بنَ شُرَيْقٍ قال لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادقٌ هو أم كاذب ؟ فإنه ليس عندنا أحدٌ غيرُنا فقال له : والله إن محمداً لصادقٌ وما كذَب قطُّ ولكن إذا ذهب بنو قُصيَ باللواءِ والسِّقاية والحِجابة والنبوّة فماذا يكونُ لسائر قريش ؟ فنزلت .

(23/231)

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمَّى الأمينَ فعرَفوا أنه لا يكذِب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون وقيل : فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادقُ الموسومُ بالصدق ، ولكنهم يجحدون بآيات الله كما يروى أن أبا جهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما نُكذِّبُك ، وإنك عندنا لصادقٌ ولكنا نكذِّبُ ما جئْتنا به فنزلت . وكأن صدقَ المُخبِرِ عند الخبيث بمطابقةِ خبرِه لاعتقادِه ، والأولُ هو

الذي تستدعيه الجزالة التنزيلية ، وقرىء لا يُكْذِبونك من الإكذاب فقيل : كلاهما بمعنى واحدٍ كأكثرَ وكثُر وأنزلَ ونزَل وهو الأظهر وقيل : معنى أكذبه وجده كاذباً ، ونُقل عن الكسائيِّ أن العربَ تقول : كذبتُ الرجلَ أي نسبتُ الكذب إليه وأكذبته أي نسبت الكذب إلى ما جاء به لا إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(24/231)

وقال الآلوسى :

قرأ نافع والكسائي والأعمش عن أبي بكر ﴿ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ من الإكذاب وهي قراءة علي كرم الله تعالى وجهه ، ورويت أيضاً عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه ، فقال الجمهور : كلاهما بمعنى كأكثر وكثر وأنزل ونزل ؛ وقيل : معنى أكذبته وجدته كاذباً كأحمدته بمعنى وجدته محموداً ، ونقل أحمد بن يحيى عن الكسائي أن العرب تقول . كذبت بالتشديد إذا نسبت الكذب إليه وأكذبته إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقرأ نافع ، والكسائي ، وأبو جعفر ﴿ لا يكْذبونك ﴾ ، بسكون الكاف وتخفيف الذال .

وقرأه الجمهور بفتح الكاف وتشديد الذال .

وقد قال بعض أئمة اللغة إنّ أكذب وكذّب بمعنى واحد ، أي نسبه إلى الكذب .

وقال بعضهم : أكذبه ، وجده كاذباً ، كما يقال : أحمدَه ، وجده محموداً .

وأمّا كذّب بالتشديد فهو لنسبة المفعول إلى الكذب .

وعن الكسائي : أنّ أكذبه هو بمعنى كَذّب ما جاء به ولم ينْسُب المفعول إلى الكذب ، وأنّ كذّبه هو نسبه إلى الكذب .

وهو معنى ما نقل عن الزجّاج معنى كذبتهُ ، قلت له : كذبتَ ، ومعنى أكذبتُه ، أريتُه أنّ ما أتى به كَذب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر هذه الآية يقتضي أنهم لا يكذبون محمداً صلى الله عليه وسلم ولكنهم يجحدون بآيات الله واختلفوا في كيفية الجمع بين هذين الأمرين على وجوه :

الوجه الأول : أن القوم ما كانوا يكذبونه في السر ولكنهم كانوا يكذبونه في العلانية ويجحدون القرآن والنبوة .

ثم ذكروا لتصحيح هذا الوجه روايات : إحداها : أن الحرث بن عامر من قريش قال يا محمد والله ما كذبتنا قط ولكنا إن اتبعناك نتخطف من أرضنا فنحن لا نؤمن بك لهذا

السبب .

وثانيها : روي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا ، فقال له والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ؟ ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش فنزلت هذه الآية .

إذا عرفت هذا فنقول : معنى الآية على هذا التقدير أن القوم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون نبوتك بألسنتهم وظاهر قولهم وهذا غير مستبعد ونظيره قوله تعالى في قصة موسى ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] .

(25/231)

الوجه الثاني : في تأويل الآية أنهم لا يقولون إنك أنت كذاب لأنهم جربوك الدهر الطويل والزمان المديد وما وجدوا منك كذباً ألبتة وسموك بالأمين فلا يقولون فيك إنك كاذب ولكن جحدوا صحة نبوتك ورسالتك إما لأنهم اعتقدوا أن محمداً عرض له نوع خبل ونقصان فلأجله تخيل من نفسه كونه رسولاً من عند الله ، وبهذا التقدير : لا ينسبونه إلى الكذب أو لأنهم قالوا : إنه ما كذب في سائر الأمور ، بل هو أمين في كلها إلا في هذا الوجه الواحد .

الوجه الثالث : في التأويل : أنه لما ظهرت المعجزات القاهرة على وفق دعواه ، ثم إن القوم أصروا على التكذيب فالله تعالى قال له إن القوم ما كذبوك ، وإنما كذبوني ، ونظيره أن رجلاً إذا أهان عبداً لرجل آخر ، فقال هذا الآخر : أيها العبد إنه ما أهانك ، وإنما أهانني : وليس المقصود منه نفي الإهانة عنه بل المقصود تعظيم الأمر وتفخيم الشأن .

وتقريره : أن إهانة ذلك العبد جارية مجرى إهانته ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ [الفتح : 10] .

والوجه الرابع : في التأويل وهو كلام خطر بالبال ، هو أن يقال المراد من قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ أي لا يخصونك بهذا التكذيب بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقاً ، وهو المراد من قوله ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يَجْحَدُونَ ﴾ والمراد أنهم يقولون في كل معجزة إنها سحر وينكرون دلالة المعجزة على الصدق على الإطلاق فكان التقدير : إنهم لا يكذبونك على التعيين بل القوم يكذبون جميع الأنبياء والرسل ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 169 ﴾

(26/231)

وقال الآلوسى :

وقوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ تعليل لما يشعر به الكلام السابق من النهي عن الاعتداد بما قالوا بطريق التسلي بما يفيده من بلوغه صلى الله عليه وسلم في جلالة القدر ورفعة الشأن غاية ليس وراءها غاية حيث نفى تكذيبهم قاتلهم الله تعالى عنه صلى الله عليه وسلم وأثبته لآياته تعالى على طريقة قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ [الفتح : 10] إيذاناً بكمال القرب واضمحلال شؤونه صلى الله عليه وسلم في شأن الله عز وجل .

وفيه أيضاً استعظام لجنايتهم منبىء عن عظم عقوبتهم كأنه قيل : لا تعتد به وكله إلى الله تعالى فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذبونك في الحقيقة .

﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يَجْحَدُونَ ﴾ أي ولكنهم بآياته تعالى يكذبون ، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالرسوخ في الظلم الذي جحودهم هذا فن من فنونه ، وقيل : إن كان المراد من الظلم مطلقه فالوضع للإشارة إلى أن ذلك دأبهم وديدنهم وإنه علة الجحود لأن التعليق بالمشتق يفيد علية المأخذ ، وإن أريد به الظلم المخصوص فهو عين الجحد وواقع به نحو ﴿ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ باتخاذكم العجل ﴾ [البقرة : 54] فيكون المبتدأ مشيراً إلى وجه بناء الخبر كقوله

: إن الذي سمك السماء بنى لنا . . .

بيتاً دعائمه أعز وأطول

وقيل : إن أل في ﴿ الظالمين ﴾ إن كانت موصولة واسم الفاعل بمعنى الحدوث أفاد الكلام سببية الجحد للظلم ، وإن كانت حرف تعريف واسم الفاعل بمعنى الثبوت أفاد سببية الظلم للجحد ولا يخفى ما فيه ، والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظاماً لما قدموا عليه ، وإيراد الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياته سبحانه من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود وهو كالجحد نفي ما في القلب ثباته أو إثبات ما في القلب نفيه .

(27/231)

والباء متعلق بيجحدون والجحد يتعدى بنفسه وبالباء فيقال جحده حقه وبحقه وهو الذي يقتضيه ظاهر كلام الجوهري والراغب ، وقيل : إنه إنما يتعدى بنفسه والباء ههنا لتضمينه معنى التكذيب ، وأياً ما كان فتقديم الجار والمجرور مراعاة لرؤوس الآي أو للقصر .

ونقل الطبرسي عن أبي علي أن الجار متعلق بالظالمين وفيه خفاء .

وما ذكر من أن الفاء لتعليل ما يشعر به الكلام هو الذي قرره بعض المحققين ، وقيل : إنها

تعليل لقوله سبحانه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ ﴾ الخ بناءً على أن معناه لا تحزن كما يقال في مقام المنع والزجر : نعلم ما تفعل فكأنه قيل : لا تحزن مما يقولون فإن التكذيب في الحقيقة لي وأنا الحليم الصبور فتخلق بأخلاقي ، ويحتمل أن يكون المعنى إنه يحزنك قولهم لأنه تكذيب لي فأنت لم تحزن لنفسك بل لما هو أهم وأعظم ، ولا يخفى أن هذا خلاف المتبادر ، وقيل معنى الآية فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم وروي ذلك عن قتادة وغيره ويؤيده ما رواه السدي أنه التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل فقال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد صلى الله عليه وسلم أصادق هو أم كاذب فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيري ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمداً صلى الله عليه وسلم لصادق وما كذب محمد عليه الصلاة والسلام قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(28/231)

وكذا ما أخرجه الواحدي عند مقاتل قال : كان الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي بن كلاب يكذب النبي صلى الله عليه وسلم في العلانية فإذا خلا مع أهل بيته قال : ما محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكذب ولا أحسبه إلا صادقاً فأنزل الله تعالى الآية ،

وقيل : المعنى أنهم ليس قصدهم تكذيبك لأنك عندهم موسوم بالصدق وإنما يقصدون تكذيبي والجحود بآياتي ، ونسب هذا إلى الكسائي ، وأيد بما أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه عن علي كرم الله تعالى وجهه أن أبا جهل كان يقول للنبي صلى الله عليه وسلم ما نكذبك وإنك عندنا لصادق ولكنا نكذب ما جئتنا به فنزلت .

وكذا أخرج الواحدي عن أبي ميسرة .

واعترض الرضي هذا القول بأنه لا يجوز أن يصدقوه صلى الله عليه وسلم في نفسه ويكذبوا ما أتى به لأن من المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان يشهد بصحة ما أتى به وصدقه وأنه الدين القيم والحق الذي لا يجوز العدول عنه فكيف يجوز أن يكون صادقاً في خبره ويكون الذي أتى به فاسداً بل إن كان صادقاً فالذي أتى به صحيح وإن كان الذي أتى به فاسداً فلا بد أن يكون كاذباً فيه ، وقال مولانا سنان : إن حاصل المعنى أنهم لا يكذبونك في نفس الأمر لأنهم يقولون إنك صادق ولكن يتوهمون أنه اعترى عقلك وحاشاك نوع خلل فخيل إليك أنك نبي وليس الأمر بذاك وما جئت به ليس بحق ؛ وقال الطيبي : مرادهم إنك لا تكذب لأنك الصادق الأمين ولكن ما جئت به سحر ، ويعلم من هذا الجواب عن اعتراض الرضي فتدبر ، وقيل : معنى الآية أنهم لا يكذبونك فيما وافق كتبهم وإن كذبوك في غيره ، وقيل : المعنى لا يكذبك جميعهم وإن كذبك بعضهم وهم الظالمون المذكورون في هذه الآية ،

وعلى هذا لا يكون ذكر الظالمين من وضع المظهر موضع المضمر ، وقيل : غير ذلك ولا يخفى ما هو الأليق بجزالة التنزيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(29/231)

وقال ابن عاشور :

والفاء في قوله : ﴿ فإنّهم ﴾ يجوز أن تكون للتعليل ، والمعلّل محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ قد نعلم ﴾ ، أي فلا تحزنْ فإنّهم لا يُكذبونك ، أي لأنّهم لا يكذبونك .

ويجوز كونها للفصيحة ، والتقدير : فإن كان يحزنك ذلك لأجل التكذيب فإنّهم لا يكذبونك ، فالله قد سلّى رسوله عليه الصلاة والسلام بأن أخبره بأنّ المشركين لا يكذبونه ولكنّهم أهل جحود ومكابرة .

وكفى بذلك تسلية .

ويجوز أن تكون للتفريع على ﴿ قد نعلم ﴾ ، أي فعلمنا بذلك يتفرّع عليه أنّا نثبّت فؤادك ونشرح صدرك بإعلامك أنّهم لا يكذبونك ، وإن نذكّرك بسنة الرسل من قبلك ، ونذكّرك بأنّ العاقبة هي نصرك كما سبق في علم الله .

وقوله : ﴿ ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ استدراك لدفع أن يتوهّم من قوله : ﴿ لا

يكذبونك ﴾ على قراءة نافع ومن وافقه أنّهم صدّقوا وآمنوا ، وعلى قراءة البقية ﴿ لا يكذّبونك ﴾ أنّهم لم يصدر منهم أصل التكذيب مع أنّ الواقع خلاف ذلك ، فاستدرك عليه بأنّهم يجحدون بآيات الله فيظهر حالهم كحال من ينسب الآتيَ بالآيات إلى الكذب وما هم بمكذّبين في نفوسهم .

والجحد والجحود ، الإنكار للأمر المعروف ، أي الإنكار مع العلم بوقوع ما ينكر ، فهو نفي ما يَعلم النافي ثبوته ، فهو إنكار مكابرة .

وعُدل عن الإضمار إلى قوله ﴿ ولكنّ الظّالمين ﴾ ذمّاً لهم وإعلاماً بأنّ شأن الظالم الجحد بالحجّة ، وتسجيلاً عليهم بأنّ الظلم سجيّتهم .

وعدّي ﴿ يجحدون ﴾ بالباء كما عدّي في قوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النحل : 14] لتأكيد تعلّق الجحد بالمجحود ، كالباء في قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] ، وفي قوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذّب بها الأولون ﴾ [الإسراء : 59] ، وقول النابغة:

لك الخير إن وارتْ بك الأرض واحداً . . .

وأصبح جَدّ الناس يظلع عاثراً

ثم إنّ الجحد بآيات الله أريد به الجحد بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات .

وجحْدها إنكار أنّها من آيات الله ، أي تكذيب الآتي بها في قوله : إنّها من عند الله ، فآل ذلك إلى أنّهم يكذّبون الرسول عليه الصلاة والسلام فكيف يجمع هذا مع قوله ﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ﴾ على قراءة الجمهور .

والذي يستخلص من سياق الآية أنّ المراد فإنّهم لا يعتقدون أنّك كاذب لأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام معروف عندهم بالصدق وكان يلقّب بينهم بالأمين .

وقد قال النضر بن الحارث لمّا تشاورت قريش في شأن الرسول : "يا معشر قريش قد كان محمد فيكم غلاماً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً حتّى إذا رأيتم الشيب في صدغيه قلتم ساحر وقلتم كاهن وقلتم شاعر وقلتم مجنون ووالله ما هُو بأولئكم" .

ولأنّ الآيات التي جاء بها لا يمتري أحد في أنّها من عند الله ، ولأنّ دلائل صدقه بيّنة واضحة ولكنّكم ظالمون .

والظالم هو الذي يجري على خلاف الحقّ بدون شبهة .

فهم ينكرون الحق مع علمهم بأنّه الحق ، وذلك هو الجحود .

وقد أخبر الله عنهم بذلك وهو أعلم بسرائرهم .

ونظيرها قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلُوّاً ﴾ [النمل : 14] فيكون في الآية احتباك .

والتقدير : فإنّهم لا يكذّبونك ولا يكذّبون الآيات ولكنّهم يجحدون بالآيات ويجحدون بصدقك ، فحذف من كلٍ لدلالة الآخر .

وأخرج الترمذي عن ناجية بن كعب التابعي أنّ أبا جهل قال للنبيء صلى الله عليه وسلم لا نكذّبك ولكن نكذّب ما جئت به .

فأنزل الله ﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

ولا أحسب هذا هو سبب نزول الآية .

لأنّ أبا جهل إن كان قد قال ذلك فقد أراد الاستهزاء ، كما قال ابن العربي في "العارضة" : ذلك أنّه التكذيب بما جاء به تكذيب له لا محالة ، فقوله : لا نكذّبك ، استهزاء بإطماع التصديق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

(31/231)

فصل

قال صاحب الميزان :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) ﴾

تسلية للنبى صلى الله عليه وآله عن هفوات المشركين في أمر دعوته ، وتطييب لنفسه بوعد النصر الحتمى ، وبيان أن الدعوة الدينية إنما ظرفها الاختيار الإنساني فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فالقدرة والمشية الإلهية الحاتمتان لا تداخلان ذلك حتى تجبراهم على القبول ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى .

قوله تعالى : (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) إلى آخر الآية ، (قد) حرف تحقيق في الماضي ، وتفيد في المضارع التقليل وربما استعملت فيه أيضا للتحقيق ، وهو المراد في الآية ، وحزنه كذا وأحزنه بمعنى واحد ، وقد قرئ بكلا الوجهين .

وقوله : (فإنهم لا يكذبونك) قرئ بالتشديد من باب التفعيل ، وبالتخفيف ، والظاهر أن الفاء في قوله : (فإنهم) للتفريع وكأن المعنى قد نعلم إن قولهم ليحزنك لكن لا ينبغى أن يحزنك ذلك فإنه ليس يعود تكذيبهم إليك لانك لا تدعو إلا إلينا ، وليس لك فيه إلا الرساهة بل هم يظلمون بذلك آياتنا ويجحدونها .

فما في هذه الآية مع قوله في آخر الآيات : (ثم إليه يرجعون) في معنى قوله تعالى : (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور) (لقمان : 23) وقوله : (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) (يس : 76) وغير ذلك من الآيات النازلة في تسليته صلى الله عليه له وصلم ، هذا على قراءة التشديد .

وأما على قراءة التخفيف فالمعنى : لا تحزن فإنهم لا يظهرون عليك بإثبات كذبك فيما تدعو إليه ، ولا يبطلون حجتك بحجة وإنما يظلمون آيات الله بجحدها وإليه مرجعهم .

(32/231)

وقوله : (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) كان ظاهر السياق أن يقال : ولكنهم ، فالعدول إلى الظاهر للدلالة على أن الجحد منهم إنما هو عن ظلم منهم لا عن قصور وجهل وغير ذلك فليس إلا عتوا وبغيا وطغيانا وسيبعثهم الله ثم إليه يرجعون .

ولذلك وقع الالتفات في الكلام من التكلم إلى الغيبة : (فقيل بآيات الله) ولم يقل : بآياتنا ، للدلالة على أن ذلك منهم معارضة مع مقام الألوهية واستعلاء عليه وهو المقام الذى لا يقوم له شئ .

وقد قيل في تفسير معنى الآية وجوه أخرى : أحدها : ما عن الأكثر أن المعنى : لا يكذبونك بقلوبهم اعتقادا ، وإنما يظهرون التكذيب بأفواههم عنادا .

وثانيها : أنهم لا يكذبونك وإنما يكذبوننى فإن تكذيبك راجع إلى ولست مختصا به ، وهذا الوجه غير ما قدمناه من الوجه وإن كان قريبا منه ، والوجهان جميعا على قراءة التشديد .

وثالثها : أنهم لا يصادفونك كاذبا تقول العرب : قاتلناهم فما أجبناهم أي ما صادفناهم جبناء ، والوجه ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 61.63 ﴾

(33/231)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ الآية .

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة ، بأنه يعلم أن رسوله صلى الله عليه وسلم يحزنه ما يقوله الكفار من تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، وقد نهاه تعالى عن هذا الحزن المفرط في مواضع أخر كقوله : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : 8] الآية ، وقوله : ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ﴾ [المائدة : 68] ، وقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] ، وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] الباخع : هو المهلك نفسه ، ومنه قول غيلان بن عقبة .

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه . . . لشيء نحته عن يديه المقادر

وقوله ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ في الآيتين يراد به النهي عن ذلك ، ونظيره ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ [هود : 12] أي لا تهلك نفسك حزناً عليهم في الأول ، ولا تترك بعض ما يوحى إليك في الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(34/231)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قد نعلم ﴾ الآية ، ﴿ قد ﴾ الملازم للفعل حرف يجيء مع التوقع إما عند المتكلم وإما عند السامع أو مقدراً عنده فإذا كان الفعل خالصاً للاستقبال كان التوقع من المتكلم ، كقولك قد يقوم زيد وقد ينزل المطر في شهر كذا إذا كان الفعل ماضياً أو فعل حال بمعنى المضي مثل آيتنا هذه ، فإن التوقع ليس من المتكلم بل المتكلم موجب ما أخبر به ، وإنما كان التوقع عند السامع فيخبره المتكلم بأحد المتوقعين ، و ﴿ نعلم ﴾ تتضمن إذا كانت من الله تعالى استمرار العلم وقدمه ، فهي تعم المضي والحال والاستقبال ، ودخلت " إن " للمبالغة في التأكيد ، وقرأ نافع وحده " ليُحزنك " من أحزن ، وقرأ الباقون " ليَحزنك " من حزن الرجل ، وقرأ أبو رجاء " لِيحزِنْك " بكسر اللام والزاي وجزم النون ، وقرأ الأعمش أنه بفتح

الهمزة " يحزنك " بغير لام ، قال أبو علي الفارسي تقول العرب حزن الرجل بكسر الزاي يحزن حزناً وحزناً وحزنته أنا ، وحكي عن الخليل أن قولهم حزنته ليس هو تغيير حزن على نحو دخل وأدخلته ، ولكنه بمعنى جعلت فيه حزناً كما تقول كحلته ودهنته ، قال الخليل ولو أردت تغيير حزن لقلت أحزنته ، وحكى أبو زيد الأنصاري في كتاب خباة العرب أحزنت الرجل ، قال أبو علي وحزنت الرجل أكثر استعمالاً عندهم من أحزنته ، فمن قرأ " ليُحزنك " بضم الياء فهو على القياس في التغيير ، ومن قرأ " ليَحزنُك " بفتح الياء وضم الزاي فهو على كثرة الاستعمال ، و ﴿ الذي يقولون ﴾ لفظ يعم جميع أقوالهم التي تتضمن الرد على النبي صلى الله عليه وسلم والدفع في رئيَ من الجن ونحو هذا وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمر وعاصم وحمزة ﴿ لا يكذبونك ﴾ بتشديد الدال وفتح الكاف ، وقرأها ابن عباس وردها على قارىء عليه "يُكذبونك " بضم الياء ، وقال : إنهم كانوا يسمونه الأمين ، وقرأ نافع والكسائي بسكون الكاف وتخفيف الذال ، وقرأها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهما قراءتان مشهورتان صحيحتان ، اختلف

المتأولون في معناهما فقالت فرقة : هما بمعنى واحد كما تقول :

سقيت وأسقيت وقللت وأقللت وكثرت وأكثرت ، حكى الكسائي أن العرب تقول

كذبت الرجل إذا نسبت الكذب إليه وأكذبته إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دون أن

تنسبه إليه ، وتقول العرب ايضاً أكذبت الرجل إذا وجدته كذاباً كما تقول أحمدية إذا

وجدته محموداً ، فالمعنى على قراءة من قرأ " يكذّبونك " بتشديد الذال أي لا تحزن " فإنهم

لا يكذبونك " تكذيباً على جهة الإخبار عنهم أنهم لا يكذبون وأنهم يعلمون صدقه ونبوته

ولكنهم يجحدون عناداً منهم وظلماً ، والآية على هذا لا تتناول جميع الكفار بل تخص

الطائفة التي حكى عنها أنها كانت تقول : إنا لنعلم أن محمداً صادقاً ولكن إذا آمنا به

فضلتنا بنو هاشم بالنبوة فنحن لا نؤمن به أبداً ، رويت هذه المقالة عن أبي جهل ومن جرى

مجراه ، وحكى النقاش أن الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف ، فإنه كان

يكذب في العلانية ويصدق في السر ويقول نخاف أن تتخطفنا العرب ونحن أكلة رأس

والمعنى على قراءة من قرأ " يكذبونك " بتخفيف الذال يحتمل ما ذكرناه أولاً في " يكذبونك

" أي لا يجدونك كاذباً في حقيقتك ويحتمل هذين الوجهين اللذين ذكرت في " يكذّبونك "

بشد الذال ، وآيات الله علاماته وشواهد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، و ﴿

يجحدون ﴾ حقيقته في كلام العرب الإنكار بعد معرفة وهو ضد الإقرار ، ومعناه على

تأويل من رأى الآية في المعاندين مترتب على حقيقته وهو قول قتادة والسدي وغيرهما ،

وعلى قول من رأى أن الآية في الكفار قاطبة دون تخصيص أهل العناد يكون في اللفظة تجوز وذلك أنهم لما أنكروا نبوته وراموا تكذيبه بالدعوى التي لا تعضدها حجة عبر عن إنكارهم بأقبح وجوه الإنكار وهو الجحد تغليظاً عليهم وتقبيحاً لفعلهم ، إذ معجزاته وآياته نيرة يلزم كل مفطور أن يعلمها ويقربها .

(36/231)

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وجميع ما في هذه التأويلات من نفي التكذيب إنما هو عن اعتقادهم ، وأما أقوال جميعهم فمكذبة ، إما له وإما للذي جاء به .

قال القاضي أبو محمد : وكفر العناد جائز الوقوع بمقتضى النظر وظواهر القرآن تعطيه ، كقوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل : 14] وغيرها ، وذهب بعض المتكلمين إلى المنع من جوازه ، وذهبوا إلى أن المعرفة تقتضي الإيمان والجحد يقتضي الكفر ، ولا سبيل إلى اجتماعهما ، وتأولوا ظواهر القرآن فقالوا في قوله تعالى :

﴿ وجحدوا بها ﴾ [النمل : 14] إنها في أحكام التوراة التي بدلوها كآية الرجم وغيرها .

(37/231)

قال القاضي أبو محمد : ودفع ما يتصور العقل ويعقل من جواز كفر العناد على هذه الطريقة صعب أما أن كفر العناد من العارف بالله وبالنبوة بعيد لأنه لا داعية إلى كفر العناد إلا الحسد ومن عرف الله والنبوة وأن محمداً يجيئه ملك من السماء فلا سبيل إلى بقاء الحسد مع ذلك ، أما أنه جائز فقد رأى أبو جهل على رأس النبي صلى الله عليه وسلم فحلاً عظيماً من الإبل قد همَّ بأبي جهل ولكنه كفر مع ذلك ، وأسند الطبري أن جبريل عليه السلام وجد النبي عليه السلام حزيناً فسأله ، فقال : كذبني هؤلاء ، فقال : " إنهم لا يكذبونك " بل يعلمون أنك صادق ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ، والذي عندي في كفر حيي بن أخطب ومن جرى مجراه أنهم كانوا يرون صفات النبي صلى الله عليه وسلم ويعرفونها أو أكثرها ثم يرون من آياته زائداً على ما عندهم فيتعلقون في مغالطة أنفسهم بكل شبهة بأضعف سبب ، وتتخالج ظنونهم فيقولون مرة هو ذلك ومرة عساه ليسه ، ثم ينضاف إلى هذا حسدهم وفقدهم الرياسة ، فيتزايد ويتمكن إعراضهم وكفرهم وهم على هذا ، وإن عرفوا أشياء وعاندوا فيها فقد قطعوا في ذلك بأنفسهم عن الوصول إلى غاية المعرفة وبقوا في ظلمة الجهل فهم جاهلون بأشياء معاندون في أشياء غيرها وأنا أستبعد العناد مع المعرفة التامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾

لقد شرح الحق حال الكفار وموقفهم في الآخرة حين يقفون على النار ، ويقفون أمام الله ، ومن بعد ذلك يوجه الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الذي تقع عليه مشقة البلاغ من الله لهؤلاء الكفار ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حزيناً لأن قومه لا يذوقون حلاوة الإيمان ، وهو الرسول الذي قال عنه الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] .

وكان صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يكون كل الناس مؤمنين ، ويتألم لمقاومة بعض الناس دعوة الإيمان ، إنه صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على الكافر ليؤمن على الرغم من أن مهمة الرسول هي البلاغ فقط ، ولو شاء الحق أن يجعل الناس كلهم مؤمنين لأنزل عليهم

آية تجعلهم جميعاً مؤمنين : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 3-4] .

(39/231)

لكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد خضوع أعناق ، وإنما يريد خضوع قلوب . إنه – سبحانه – يريد أن يأتي الناس طواعية واختياراً ليثبتوا الحب للخالق ؛ لذلك يقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ وساعة نسمع : " قد " فلنعرف أن ما يأتي بعدها هو أمر محقق ، ويأتي ذلك إذا دخلت على الفعل الماضي فهي في هذه الحالة تأتي لتسبق أمراً تحقق ، ومرة تأتي للتقليل أو للتكثير إذا دخلت على الفعل المضارع الذي يدل على الحال أو الاستقبال ، فإذا كان العامل والمعمول بينهما ارتباط سبب . . فهذا للتكثير ، وإذا كان ظاهر الأمر غير مرتبط ارتباطاً واضحاً . . فهذا للتقليل . والمثال على الارتباط الذي يدل على التكثير هو قول القائل : قد ينجح المُجدّ ؛ لأن المجدَّ والنجاح مرتبطان ارتباط سببية ، ولكن قد يكون هناك حادث مفاجئ لأحد المجدين فلا يستطيع النجاح ، كأن يمرض يوم الامتحان ، ولكن احتمال الصحة أكثر من احتمال المرض فكانت للتكثير .

والمثال على مجيء " قد " للتقليل هو قول القائل : قد ينجح الكسول ، أي أن الكسول قد ينجح بالمصادفة وبدون أسباب منطقية ، كأن يقرأ عدداً من الدروس ليلة الامتحان فيأتي فيها الامتحان فينجح ، إذن ق " قد " إذا دخلت على الماضي تكون للتحقيق ، وإن دخلت على المضارع فهي للتكثير إن كانت منطقية الأسباب ، وهي للتقليل إن كانت غير منطقية الأسباب . ولكن كلنا يعلم أن علم الله هو علم أزلي ، ولا قوة ولا أمر يخرجان عن معلوم الله . إذن ف " قد " هنا للتحقيق وهي داخلة على الفعل المضارع ، فالحق أراد أن يبلغنا أنه علم أزلاً بما حدث وجاء ب " قد " لنستحضر صورة الفعل :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ .

(40/231)

والحزن هو خروج النفس من سياق انبساطها ؛ فالإنسان يكون في غاية الاستقامة والسرور عندما يكون كل جهاز من أجهزته يؤدي مهمته ، فإن حدث شيء يخل بعمل أحد الأجهزة فذلك يورث الحزن . أو يكون الحزن انفعالا لمجيء وحصول أمر غير مطلوب للنفس .

لقد كان مطلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤمن كل الذين استمعوا إلى البلاغ عنه ،

لكن البعض قاوم الإيمان ، والبعض اتهم الرسول بالسحر أو الجنون أو قول الشعر ، وها هوذا الحق يسلي رسوله فيقول : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ أي إنك يا محمد لا بد لك أن تعلم أن أقوالهم هذه ليست متعلقة بك ؛ لأنك – بإجماع الآراء عندهم – أنت الصادق الأمين . وهم إنما يكذِّبون بآياتي التي أرسلتها معك إليهم ؛ لأن ماضيك معهم هو الصدق والأمانة ، بدليل أن الكافر منهم كان لا يأمن أحداً على شيء من أمواله ونفائسه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإنسان لا يغش نفسه فيما يخصه . فكأن الله يريد أن يتحمل عن رسوله ؛ لأن من يوجه إهانة للرسول إنما يوجهها للمرسِل له وهو الله جلت قدرته .

ولذلك يقول الحق : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وسبحانه يبين لنا أن رسوله صلى الله عليه وسلم كان حريصاً أشد ما يكون الحرص على أن تستجيب أمته لداعي الحق ، حتى يتأكد لدى المؤمنين قول الحق سبحانه وتعالى في رسوله : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] .

ولا معنى للحرص إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب إلا يفلت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل أمر الدين اختيارياً حتى يعلم من يجيء له طواعية ويقدر ألا يجيء ، ومن لا يجيء وهو قادر أن يجيء .

إن الحق سبحانه وتعالى له سنن كونية في الكون يجريها على كل الخلق . وقد يتساءل قائل : وما الذي يجعل الحق سبحانه وتعالى يترك للكفر به مجالاً في دنياه ؟ ولماذا يجعل الحق سبحانه وتعالى للشر مجالاً في دنياه ألا يحكمها بهندسة حكيمة ؟ ونقول : لو لم يوجد للشر مضار تُفْزِّع الناسَ لما عرفوا للحق حلاوة . إذن فوجود الشر ، ووجود الكفر ، وآثار الكفر في الناس جبروتاً وقهراً واستذلالاً ينادي في الناس أنه لا بد من الإيمان ، وأنه لا بد من وجود الخير . فلو لم يكن للشر مكان في الكون فما الذي يلفت الناس إلى الخير ؟ ولذلك تجد أن هبات الإيمان عند المؤمنين لا تأخذ فتوتها إلا حين تجد قوماً من خصوم الإيمان يهيجون المؤمنين ويؤذونهم ويستفزونهم .

أما إذا صارت الدنيا إلى رتابة فربما فتر أمر الإسلام في نفوس المسلمين . ولذلك نجد المؤمنين بالله في غيرة دائمة ؛ لأن هناك من يكفر بالله . فيقول لرسوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ وكأنه سبحانه يبلغنا أنه أراد كونه ليكون فيه المؤمن والكافر .

لذلك إن تساءلت – أيها المسلم – كيف يكون في الأرض كافرون ؟ فلك أن تعلم أنهم من خلق الله أرادهم الحق أن يختاروا الكفر فلم يختاروا الكفر قهرا عنه – سبحانه – وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحزن لأن هناك أناساً لم يؤمنوا ، فيسليه الحق سبحانه وتعالى ، بأنه يعلم أنه يحزنه الذي يقولون من الكفر ومن اتهامات لرسول الله . ألم يقولوا إنه ساحر ؟ ألم يقولوا إنه مجنون ؟ ألم يقولوا إنه كاذب ؟ ألم يقولوا إنه كاهن ؟ ألم يقولوا إنه شاعر ؟ وسبحانه وتعالى يعلم ما قالوا ويعلم أن هذه الأقوال تحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويريد الحق سبحانه أن يرفع ويدفع هذا الحزن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبلغه أنهم لا يكذبونك يا رسول الله ؛ فأنت تعرف منزلتك عندهم وهي منزلة الصادق الأمين ، ولا يجرؤ أحد على تكذيبك ولكنهم يجحدون بآيات الله . وهل هناك تسلية أكثر من ذلك . لا يمكن أن توجد تسلية أكثر من ذلك .

ونعلم أن ما قاله أهل الشرك عن رسول الله هو قول مردود ، فهم أمة البلاغة والفصاحة والبيان ، فكيف يقولون إن القرآن شعر وهم أصحاب الدراية بالأساليب مرسلها ، ومسجوعها ، ونظمها ، ونثرها ؟

أمن المعقول أن يلتبس عليهم أسلوب القرآن بالشعر ؟ ومن المؤكد أن هذا غير ممكن . ولقد قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم : إنه ساحر ، فكيف سحر الذين آمنوا به ولم يسحر الباقين ؟ ولو كان ساحراً لسحرهم أيضاً ، وبقاؤهم على الكفر ينقض هذا . وقالوا كاذب

، فهم بقولهم هذا يكذِّبون أنفسهم لأنهم يعرفون عنه أنه الصادق الأمين ، وها هوذا الحوار بين الأخنس بن شريق وأبي جهل .

(43/231)

قال الأخنس : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال أبو جهل : ماذا سمعت ! وهنا نسمع قول الغيرة والحسد والبغض ، نسمع عن تلك الأمور البعيدة عن موضوع الرسالة النورانية المحمدية فيقول أبو جهل : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوْا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذا ! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه . فقام الأخنس وتركه . إذن هي مسألة غيرة غاضبة على مناصب وسلطة زمنية ، ولذلك يرد الله عليهم قائلاً : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[الزخرف : 32] .

وها هوذا الحق يسلي رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ

الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : 33] .

إنهم ظالمون ، لأن الظلم نقل حق إلى غير مستحقه . وأبشع أنواع الظلم هو الشرك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو المستحق وحده للعبادة ، والظلم الأخف وطأة هو أن ينقل الإنسان حقاً مكتسباً أو موهوباً إلى غير صاحبه وهذا ظلم موجود بين الناس . وقد نقل المشركون حق الذات الإلهية إلى غير مستحقها من أوثان وأصنام ، أما المؤمنون فهم الذين اعترفوا بحق الذات الإلهية في العبادة .

(44/231)

وهناك نوع آخر من الظلم أريد أن أتحدث عنه ، وهو أن يظلم الإنسان اسمه ، كأن يكون والده قد سماه " مهدياً " ولكنه يملأ الدنيا فساداً بإيذاء نفسه وبإيذاء الآخرين . نقول لمثل هذا الإنسان : إن الواجب يقتضي منك أن تحترم أمل والدك فيك ، فلا تظلم اسمك " مهدياً " ولتكن هناك عدالة بين الاسم والمسمى وذلك بأن يكون سلوكك متوافقاً مع الاسم الذي سماك به أبوك .

أما إن كان أبوه قد سماه " مهدياً " ولم يلقنه أي شيء من تعاليم الهدى والدين ، ثم خرج الشاب إلى الدنيا ليملأها بالشقاء لنفسه ولغيره ثم اهتدى من بعد ذلك فهذا شاب

استطاع أن يتعلم الهداية فصار اسمه على مسماه .

وقد كنا في الثلاثينيات من هذا القرن نسمع التحذيرات ونحن نزور القاهرة : " إياكم أن تطأوا بأقدامكم شارع عماد الدين لأن كل الموبقات في هذا الشارع " . وتعجبت أن يكون اسم الشارع " عماد الدين " ويكون مكاناً للموبقات فقلت في ذلك :

وأقبح الظلم بعد الشرك منزلة . . . أن يَظْلم اسماً مُسمّىً ضده جُبِلا

فشارع كعماد الدين تسميةً . . . لكنه لعناد الدين قد جُعلا

وفي الحياة كثير من حالات الأسماء يظلمها أصحابها . ولكن أكبر وأقبح درجات الظلم هو الشرك بالله ﴿ ولكن الظالمين بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ والجحد هو إباء اللسان وترفعه وعدم رضاه بأن ينطق بكلمة الحق ، فلو أن المشركين خلوْا إلى أنفسهم واستعرضوا مسائل محمد ومسائل الرسالة لوجدوا أن قلوبهم مقتنعة بأنه صادق وأنه رسول وأن المنهج إنما جاء للهداية . لكن ألسنتهم غير قادرة على الاعتراف بذلك .

(45/231)

ولذلك يأمر المنهج الإيماني أن على الواحد منا إن أراد أن يناقش قضية أهي حق أم باطل فلا يصح أن نناقشها في حشد من الناس ، ولكن فلنناقشها أولاً في نفوسنا لنتبين الحق فيها

من الضلال ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ : 46] .

كأن الحق يهدينا إلى كيفية التمييز ، فإما أن نناقش أنفسنا ، وإما أن يتناقش اثنان حتى يمكن أن يقتنع أحدهما برأي الآخر دون أن يشهد ثالث هزيمته فيكابر ويجادل .

وقد نصح الحق بذلك هؤلاء الذين اتهموا رسول الله أن به – والعياذ بالله – مسّاً من الجنون ؛ فالجنون هو أن تحدث الأفعال بلا مقدمات وبدون تدبر أو نظر في آثارها وتكون خالية من حكمة فاعلها . أما العاقل فهو الذي يرتب الأفعال بحكمة ويوازن ويدرس وينتهي به عقله وحكمته إلى حسن ما يفعل ويعامل الناس بانسجام وسوية خلقية عالية ، فهل أحد من المشركين أخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أي سلوك يمكن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

ولذلك يقول الحق : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 1-4] .

(46/231)

إن الخُلق العظيم يتنافى مع الجنون ، وكذلك فعل كل قوم مع رسولهم ، إنَّهم رمَوْه بالسفه والجنون . فكلما جاء رسول لقومه بمنهج حق ليطمس معالم الباطل قابله قومه بمثل تلك المقابلة . ونعرف أن السماء لا تتدخل بالنبوات والمعجزات إلا حين يطم الفساد وتنطمس النفس المؤمنة . فالمؤمن فيه خميرة الخير فيندفع إلى فعل الخير . وإن حدثته نفسه بفعل معصية وفَعَلَها ، فإن نفسه اللوامة تؤنبه على ذلك ، لكن إن انطمست نفسه ولم تعد تلوم ، صارت نفسه الأمارة بالسوء هي المسيطرة وإن لم يجد من يقول له في المجتمع : لا تفعل ذلك . . فالمجتمع كله يكون قد فسد . ﴿ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ .

إذن السماء لا تتدخل برسالة أو معجزة أو منهج إلا حين يطم الفساد . وما دام قد طم الفساد فهناك من يستفيد من هذا الفساد . وحين يأتي الرسول من أجل أن يمنع الفساد فهذا الرسول يمنع عن المفسدين استغلال الناس ويحول بينهم وبين الاستفادة من الفساد . ولذلك كان لكل رسول مقاومة من المفسدين وكانوا يقولون : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي ﴾ [هود : 27] .

وأتباع كل رسول هم المظلومون الذين يحتاجون إلى منقذ . أما الجبابرة فهم يخاصمون الرسول ويقاومونه ، ويستقبله هؤلاء الجبابرة بإيذاء يتناسب مع مهمته . فإن كانت مهمته لقبيلة فالإيذاء يأتيه من هذه القبيلة . وإن كانت مهمته أوسع من ذلك فإنه يلقى من صنوف العذاب ألواناً .

وما دام محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الناس كافة فعليه أن يجد المتاعب الكثيرة ويتحملها . وقد أعده الله وهيأه لذلك ، وقد أخذ الرسل السابقون من الإيذاء على قدر دعوتهم . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو للناس كافة ، ولا رسالة من بعده ، لذلك يتجمع ضد هذا الرسول وهذه الرسالة أقوام كثيرون .

ولذلك يقول له الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(47/231)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾

" قد " هنا حرف تَحْقِيقٍ .

وقال الزمخشري والتبريزي : " قد نعلم " بمعنى رُبَّمَا التي تجيء لزيادة الفِعْلِ وكثرته ، نحو قوله : [الطويل]

2148 - . . . . . .

[وَلَكِنَّهُ] قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهْ

قال أبو حيَّان : وهذا القول غَيْرُ مَشْهورٍ للنحاة ، وإن قال به بعضهم مُسْتَدِلاً بقول [القائل] : [البسيط]

2149 - قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ . . .

كَأَنَّ أَثْوَابَهُ مُجَّتْ بِفِرْصَادٍ

وقال الآخر في ذلك : [الطويل]

2150 - أَخِي ثِقَةٍ لا تُتْلِفُ الخَمْرُ مَالَهُ . . .

ولَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهْ

والذي يظهر أن التكثير لا يفهم من " قد " ، وإنما فهم من سياق الكلام ؛ إذ التمدُّح بقتل قرن واحد غيرُ طائل ، وعلى تقدير ذلك فو متعذّر في الآية ؛ لأن علمه - تبارك وتعالى - لا يَقْبَلُ التكثير .

قال شهابُ الدين : قَدْ يُجابُ عنه بأن التكثير في متعلّقات العِلْمِ لا في العِلْمِ ، [ثم قال] : وقوله بمعنى " رُبَّمَا " التي تجيء لزيادة الفعل وكثرته المشهور أنَّ " رُبَّ " للتقليل لا للتَّكْثير ، وزيادةُ " ما " عليها لا يخرجها عن ذلك بل هي مُهيِّئةٌ لدخولها على الفِعل ، و" ما " المهيِّئةُ لا تزيل الكَلِمَة عن معناها الأصلي ، كما لا تزيل " لَعَلَّ " ، عن الترجي ، ولا " كأنَّ " عن التشبيه ، ولا " ليت " عن التمني .

وقال ابن مالك : " قد "كـ" رُبَّمَا " في التقليل والصَّرفِ إلى معنى المضيّ ، وتكون في حينئذٍ للتَّحقيق والتوكيد ، نحو ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ﴾ [الأنعام : 33] ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ ﴾ [الصف : 5] .

وقوله : [الطويل]

2151 - وَقَدْ تُدْرِكُ الإِنْسَانَ رَحْمَةُ رَبِّهِ . . .

وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الأَرْضِ سِبْعِينَ وَادِيَا

(48/231)

وقد تخلو من التَّقليل ، وهي صَارِفَةٌ لمعنى المُضِيِّ ، نحو قوله : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ [البقرة : 144] .

وقال مكي : و" قد " هنا وشبهه تأتي لتأكيد الشيء ، وإيجابه ، وتصديقه ، و" نَعْلَمُ " بمعنى عَلِمْنَا .

وقد تقدم الكلام في هذه الحروف وأنها مُتَرَدِّدَةٌ بين الحَرْفيَّةِ والاسميَّةِ .

وقال أبو حيَّان : هُنَا " قَدْ " حرف تَوَقُّع إذا دخلت على مُسْتَقْبَلِ الزمان كان التوقُّعُ من المتكلّم ؛ كقولك : قد ينزل المَطَرُ شَهْر كذا ، وإذا كان مَاضِياً وفِعْل حَالٍ بِمَعْنَى المضيّ كان

التوقع عند السَّامِعِ .

وأمَّا المتكلّم فهو مُوجب ما أخبر به ، وعبَّر هنا بالمُضَارع إذ المُرادُ الاتِّصَافُ بالعِلْمِ واسْتِمْرَارُهُ ، ولم يُلْحَظْ فيه الزمانُ كقولهم : " هو يُعْطِي ويَمْنَعُ " .

" ليحزنك " سَادٌّ مَسَدّ المفعولين ، فإنها معلَّقَةٌ عن العمَل ، وكُسِرَتْ لدخول " اللام " في حَيِّزِهَا ، وتقدَّم الكلامُ في " ليحزنك " ، وأنه قُرِئَ بفتح الياءِ وضَمِّهَا من " حَزَنَهُ " و " أحْزَنَهُ " في آل عمران .

و " الَّذي يَقُولُون " فاعِلٌ ، وعائدُهُ محذوفٌ ، أي : الذي يَقُولونَهُ من نِسْبَتِهِمْ له إلى ما لا يَليقُ به ، والضَّميرُ في " إنه " ضمير الشَّأن والحديث والجُمْلَةُ بعدهُ خَبَرُهُ مُفَسِّرةٌ له ، ولا يجوزُ في هذا المُضَارع أن يقدر باسم فاعلٍ لفاعلٍ كما يُقَدَّرُ في قولك : " إن زيداً يقوم أبوه " لئلاَّ يلزمُ تفسيرُ ضمير الشأن بمفردٍ .

وقد تقدَّمَ أنه مَمْنوعٌ عند البصريّينَ .

قوله : " فإنهم لا يكذبُونَكَ " .

قرأ نافع ، والكسائي " لا يكذبونك " مُخَفَّفاً من " أكْذَب " .

والباقون مثقَّلاً من " كذَّبَ " وهي قراءة عَلِيٍّ ، وابن عبَّاسٍ .

واختلف الناسُ في ذلك ، فقيل : هُمَا بمعنَى واحدٍ ، مثل : أكثر وكَثَّرَ وأنْزَلَ ونزَّلَ ، وقيل : بينهما فَرْقٌ .

قال الكسائي : العَرَبُ تقول : كَذّبت الرجل بالتَّشْديدي إذا نُسِبَ الكذب إليه ، وأكذبته إذا نِسَبْتَ الكذب إلى ما جَاءَ دُونَ أن تَنْسِبَهُ إليه ، ويقولون أيضاً : أكذبت الرَّجُلَ إذا وجدته كَاذِباً ، كـ " أحْمَدْتُهُ " إذا وجدته محمُوداً ، فَمَعْنِى لا يُكذبونك مُخَفَّفاً : لا يَنْسِبُون الكَذِبَ إلَيْكَ ولا يجدونك كاذباً وهو واضحٌ .

وأمَّا التَّشديد فيكون خبراً مَحْضاً عن عدم تكذيبهم ضَرْورَةً .

قوله : " بآيات اللَّهِ " يجوز في هذا الجَارّ وجهان :

أحدهما : أنه مُتَعَلّقٌ بـ " يجحدونَ " وهو الظّاهر ، وجوَّز أبو البقاء أن يتعلق بـ " الظَّالمين " قال : كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [الإسراء : 59] وهذا الذي قال لي يجيّدٍ لأن " الباء " هناك سَبَبِيَّةٌ ، أي : ظلموا بسببها ، و " الباء " هنا معناها التعدية ، وهنا شيء يتعلَّق به تعلُّقاً واضحاً ، فلا ضَرُورَةَ تَدْعُوا إلى الخروج عَنْهُ ، وفي هذه الآية إقامةُ الظاهر مُقَامَ المضمر ، إذا الأصل : " ولكنهم يَجْدُونَ بآياتِ الله " ، ولكنَّهُ نَبَّهَ على أن الظلم هو الحامل لهم على الجُحُودِ .

والجحود والجَحْدُ نفي ما في القَلْبِ ثَبَاهُ ، وأو إثْبَاتُ ما في القلبِ نَفْيُهُ .

وقيل : الجَحْدُ إنْكَارُ المعرفةِ ، فليس مُرَادفاً للنفي من كُلِّ وجهٍ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 110.114 ﴾ . باختصار .

(50/231)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ : هذه تعزية للرسول – صلى الله عليه وسلم – وتسلية . أي قد نعلم ما قالوا فيك وهم إنما قالوا ذلك بسَبَبِنَا ولأَجْلِنا . ولقد كُنْتَ عظيمَ الجاه فيهم قبل أن أوقعنا عليكَ هذا الرقم ؛ وكانوا يسمونك محمداً الأمين ، فإنْ أصابَكَ ما يصيبك فَلأَجْلِ حديثنا ، وغيرُ ضائعٍ لك هذا عندنا ، وحالُكَ فينا كما قيل :

أشاعوا لنا في الحيِّ أشنع قصةٍ . . . وكانوا لنا سِلْما فصاروا لنا حَربا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 468.469 ﴾

(51/231)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما سلاه بوعده النصرة المسببة عن علم المرسل القادر ، وبأن تكذيبهم إنما هو له سبحانه ، وهو مع ذلك يصبر عليهم ويحلم عنهم ، بل ويحسن إليهم بالرزق والمنافع ، زاده أن ذلك سنة في إخوانه من الرسل فقال : ﴿ ولقد ﴾ ولما كان المنكي هو التكذيب لا كونه من معين ، بني للمفعول قوله : ﴿ كذبت رسل ﴾ .

ولما كان تكذيبهم لم يستغرق الزمان ، وكان الاشتراك في شيء يهوّنه ، وكلما قرب الزمان كان أجدر بذلك أدخل الجار فقال : ﴿ من قبلك ﴾ بأن جحد قومهم ما يعرفون من صدقهم وأمانتهم كما فعل بك ﴿ فصبروا ﴾ أي فتسبب عن تكذيب قومهم لهم أنهم صبروا ﴿ على ما كذبوا وأوذوا ﴾ أي فصبروا أيضاً على ما أوذوا ، ثم أشار إلى الوعد بالنصر بشرط الصبر فقال : ﴿ حتى ﴾ أي وامتد صبرهم حتى ﴿ آتاهم نصرنا ﴾ أي فليكن لك بهم أسوة ، وفيهم مسلاة ، فاصبر حتى يأتيك النصر كما أتاهم ، فقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون في قولنا ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ [

المائدة : 56] ﴿ ولا مبدل لكلمات الله ﴾ أي لأن له جميع العظمة فلا كفوء له ، ودل سبحانه على صعوبة مقام الصبر جداً بالتأكيد فقال : ﴿ ولقد جاءك ﴾ ودل على عظيم ما تحملوا بقوله : ﴿ من نبإى المرسلين ﴾ أي خبرهم العظيم في صبرهم واحتمالهم وطاعتهم وامتثالهم ورفقهم بمن أرسلوا إليهم ونصرنا لهم على من بغى عليهم ، ومجيء نبأهم تقدم إجمالاً وتفصيلاً ، أما إجمالاً ففي مثل قوله ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ﴾ [آل عمران : 146] ، ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم ﴾ [البقرة : 87] وأما تفصيلاً ففي ذكر موسى وعيسى وغيرهما ؛ وفي قوله ﴿ فصبروا ﴾ أدل دليل على ما تقدم من أن النهي عن الحزن نهي عن تابعه المؤدي إلى عدم الصبر ، والتعبير بمن التبعيضية تهويل لما لقوا ، فهو أبلغ في التعزية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 629.628 ﴾

(52/231)

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى أزال الحزن عن قلب رسوله في الآية الأولى بأن بين أن تكذيبه يجري مجرى

تكذيب الله تعالى فذكر في هذه الآية طريقاً آخر في إزالة الحزن عن قلبه وذلك بأن بين أن سائر الأمم عاملوا أنبياءهم بمثل هذه المعاملة ، وأن أولئك الأنبياء صبروا على تكذيبهم وإيذائهم حتى أتاهم النصر والفتح والظفر فأنت أولى بالتزام هذه الطريقة لأنك مبعوث إلى جميع العالمين ، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا .

ثم أكد وقوى تعالى هذا الوعد بقوله ولا مبدل لكلمات الله يعني أن وعد الله إياك بالنصر حق وصدق ، ولا يمكن تطرق الخلف والتبديل إليه ونظيره قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين ﴾ [الصافات : 171] وقوله ﴿ كَتَبَ الله لاَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [المجادلة : 21] وبالجملة فالخلف في كلام الله تعالى محال وقوله ﴿ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِىْ المرسلين ﴾ أي خبرهم في القرآن كيف أنجيناهم ودمرنا قومهم .

قال الأخفش : ﴿ مِنْ ﴾ ههنا صلة ، كما تقول أصابنا من مطر .

وقال غيره : لا يجوز ذلك لأنها لا تزاد في الواجب ، وإنما تزاد مع النفي كما تقول : ما أتاني من أحد ، وهي ههنا للتبعيض ، فإن الواصل إلى الرسول عليه السلام قصص بعض الأنبياء لا قصص كلهم كما قال تعالى : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : 78] وفاعل : (جاء) مضمر أضمر لدلالة المذكور عليه ، وتقديره : ولقد جاءك نبأ من نبأ المرسلين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 170 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ قال الضحاك وابن جريج : عزى الله تعالى نبيه بهذه الآية فعلى قولهما يكون هو صلى الله عليه وسلم قد كذب وهو مناف لقوله : فإنهم لا يكذبونك وزوال المنافاة بما تقدم من التأويلات كقول الزمخشري وغيره أن قوله : ﴿ لا يكذبونك ﴾ ليس هو من نفي تكذيبه حقيقة .

(53/231)

قال : وإنما هو من باب قولك لغلامك : ما أهانوك ولكن أهانوني وجاء قوله : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك ﴾ تسلية له صلى الله عليه وسلم ولما سلاه تعالى بأنهم بتكذيبك إنما كذبوا الله تعالى سلاه ثانياً بأن عادة أتباع الرسل قبلك تكذيب رسلهم ، وأن الرسل صبروا فتأسَّ بهم في الصبر ، وما في قوله : ﴿ ما كذبوا ﴾ مصدرية أي فصبروا على تكذيبهم والمعنى فتأسّ بهم في الصبر على التكذيب والأذى حتى يأتيك النصر والظفر كما أتاهم .

قال ابن عباس : ﴿ فصبروا على ما كذبوا ﴾ رجاء ثوابي وأوذوا حتى نشروا بالمناشير وحرقوا بالنار ، حتى أتاهم نصرنا بتعذيب من يكذبهم ؛ انتهى .

ويحتمل ﴿ وأوذوا ﴾ أن يكون معطوفاً على قوله : ﴿ كذبت ﴾ ويحتمل أن يكون

معطوفاً على قوله ﴿ فصبروا ﴾ ويبعد أن يكون معطوفاً على ﴿ كذبوا ﴾ ويكون التقدير فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم ، وروي عن ابن عامر أنه قرأ وأذوا بغير واو بعد الهمزة جعله ثلاثياً لا رباعياً من أذيت فلاناً لا من آذيت ، وفي قوله : ﴿ نصرنا ﴾ التفات إذ قبله بآيات الله وبلاغة هذا الالتفات أنه أضاف النصر إلى الضمير المشعر بالعظمة المتنزل فيه الواحد منزلة الجمع والنصر مصدر أضيف إلى الفاعل والمفعول محذوف أي نصرنا إياهم على مكذبيهم ومؤذيهم ، والظاهر أن الغاية هنا الصبر والإيذاء لظاهر عطف ﴿ وأوذوا ﴾ على ﴿ فصبروا ﴾ وإن كان معطوفاً على ﴿ كذبوا ﴾ فتكون الغاية للصبر أو معطوفاً على ﴿ كذبت ﴾ فغاية له وللتكذيب أو للإيذاء فقط .

﴿ ولا مبدل لكلمات الله ﴾ قال ابن عباس : أي لمواعيد الله ولم يذكر الزمخشري غيره قال : لمواعيده من قوله ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ﴾ وقال الزجاج لما أخبر به وما أمر به والإخبار والأوامر من كلمات الله ، واقتصر ابن عطية على بعض ما قال الزجاج فقال : ولا رادّ لأوامره .

وقيل : المعنى لحكوماته وأقضيته ، كقوله ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي وجب ما قضاه عليهم .

وقيل : المعنى لا يقدر أحد على تبديل كلمات الله وإن زخرف واجتهد ، لأنه تعالى صانه برصين اللفظ وقويم المعنى أن يخلط بكلام أهل الزيغ .

وقيل : اللفظ خبر والمعنى على النهي أي لا يبدل أحد كلمات الله ، فهو كقوله ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا يرتابون فيه على أحد الأقوال .

﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ هذا فيه تأكيد تثبيت لما تقدم الإخبار به من تكذيب أتباع الرسل للرّسل وإيذائهم وصبرهم إلى أن جاء النصر لهم عليهم والفاعل بجاء .

قال الفارسي : هو من نبأ ومن زائدة أي ولقد جاءك نبأ المرسلين ، ويضعف هذا لزيادة من في الواجب .

وقيل : معرفة وهذا لا يجوز إلا على مذهب الأخفش ، ولأن المعنى ليس على العموم بل إنما جاء بعض نبأهم لا أنباؤهم ، لقوله ﴿ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ وقال الرماني : فاعل جاءك مضمر تقديره : ولقد جاءك نبأ .

وقال ابن عطية : الصواب عندي أن يقدر جلاء أو بيان ، وتمام هذا القول والذي قبله أن التقدير : ولقد جاء هو من نبإ المرسلين أي نبأ أو بيان ، فيكون الفاعل مضمراً يفسر بنبإ أو بيان لا محذوفاً لأن الفاعل لا يحذف والذي يظهر لي أن الفاعل مضمر تقديره هو ، ويدلّ

على ما دلّ عليه المعنى من الجملة السابقة أي ولقد جاءك هذا الخبر من تكذيب أتباع الرسل للرسل والصبر والإيذاء إلى أن نصروا ، وأن هذا الإخبار هو بعض نبإ المرسلين الذين يتأسى بهم و﴿ من نبإ ﴾ في موضع الحال ، وذو الحال ذلك المضمر والعامل فيها وفيه ﴿ جاءك ﴾ فلا يكون المعنى على هذا ولقد جاءك نبأ أو بيان إلا أن يراد بالنبإ والبيان هذا النبأ السابق أو البيان السابق ، وأما الزمخشري فلم يتعرض لفاعل جاء بل قال : ﴿ لقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ بعض أنبائهم وقصصهم ، وهو تفسير معنى لا تفسير إعراب لأن من لا تكون فاعلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(55/231)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ افتنانٌ في تسليته عليه الصلاة والسلام فإن عمومَ البلية ربما يهوِّنُ أمرَها بعضَ تهوين ، وإرشادٌ له عليه الصلاة والسلام إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام في الصبر على ما أصابهم من أممهم من فنون الأَذِيَّة ، وعِدةٌ ضِمْنية له عليه الصلاة والسلام بمثل ما مُنِحوه من النصر . وتصديرُ الكلام بالقسم لتأكيد التسلية وتنوينُ (رسلٌ) للتفخيم والتكثير ، و(من) إما متعلقةٌ بكُذِّبت أو

بمحذوفٍ وقع صفةً (لرسلٌ) أي وبالله لقد كذّبت من قبل تكذيبك رسلٌ أولو شأنٍ خطير وذوُو عددٍ كثير أو كُذبت رسل كانوا من زمان قبلَ زمانك ﴿ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ ﴾ ما مصدرية وقوله تعالى ﴿ وَأُوذُواْ ﴾ عطف على (كُذبوا) داخلٌ في حكمه فأنسبك منهما مصدران من المبنيِّ للمفعول أي فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم فتأسَّ بهم واصطبِرْ على ما نالك من قومك ، والمرادُ بإيذائهم إما عينُ تكذيبهم وإما ما يقارنه من فنون الإيذاء لم يُصرَّحْ به ثقةً باستلزام التكذيب إياه غالباً ، وأياً ما كان ففيه تأكيدٌ للتسلية ، وقيل : عطفٌ على صبروا وقيل : على كذبت ، وقيل : هو استئناف وقوله تعالى : ﴿ حتى أتاهم نَصْرُنَا ﴾ غايةٌ للصبر ، وفيه إيذانٌ بأن نَصره تعالى إياهم أمرٌ مقرَّر لا مرد له وأنه متوجه إليهم لا بد من إتيانه ألبتةَ ، والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز الاعتناء بشأن النصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(56/231)

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية إثر تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن عموم البلوى ربما يهونها بعض تهوين وفيه إرشاد له عليه الصلاة والسلام إلى

الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام في الصبر على الأذى وعدة ضمنية بمثل ما منحوه من النصر ، وتصدير الكلام بالقسم لتأكيد التسلية ، وتنوين ﴿ رُسُلُ ﴾ للتفخيم والتكثير ، و(من) متعلقة بكذبت ، وجوز أن تتعلق بمحذوف وقع صفة لرسل ، ورده أبو البقاء بأن الجثة لا توصف بالزمان ، وفيه منع ظاهر ، والمعنى تالله لقد كذبت من قبل تكذيبك رسل أولو شأن خطير وعدد كثير أو كذبت رسل كانوا من زمان قبل زمانك .

﴿ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ ﴾ (ما) مصدرية وقوله : ﴿ وَأُوذُواْ ﴾ عطف على ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ داخل في حكمه ، ومصدر كذب التكذيب ، "وآذى أذى وأذاة وأذية" كما في "القاموس" وإيذاء كما أثبته الراغب وغيره ، وقول صاحب "القاموس" : "ولا تقل إيذاء" خطأ ، والذي غرَّه ترك الجوهري وغيره له ، وهو وسائر أهل اللغة لا يذكرون المصادر القياسية لعدم الاحتياج إلى ذكرها ، والمصدران هنا من المبني للمفعول وهو ظاهر أي فصبروا على تكذيب قومهم لهم وإيذائهم إياهم فتأس بهم واصبر على ما نالك من قومك ، والمراد بإيذائهم إما عين تكذيبهم أو ما يقارنه من فنون الإيذاء ، واختاره الطبرسي ولم يصرح به ثقة باستلزام التكذيب إياه غالباً ، وفيه تأكيد للتسلية ، وجوز العطف على ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ أو على ﴿ صَبَرُواْ ﴾ وجوز أبو البقاء أن يكون هذا استئنافاً ثم رجح الأول .

وقوله سبحانه : ﴿ حتى أتاهم نَصْرُنَا ﴾ غاية للصبر ، وفيه إيماء إلى وعد النصر

للصابرين ، وجوز أن يكون غاية للإيذاء وهو مبني على احتمال الاستئناف ، والالتفات إلى نون العظمة للإشارة إلى الاعتناء بشأن النصر .

(57/231)

وَلا مُبَدِّلَ لكلَمَات الله ﴾ تقرير لمضمون ما قبله من إتيان نصره سبحانه إياهم ، والمراد بكلماته تعالى كما قال الكلبي وقتادة الآيات التي وعد فيها نصر أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الدالة على نصر النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً كقوله تعالى ﴿ ﴾ تقرير لمضمون ما قبله من إتيان نصره سبحانه إياهم ، والمراد بكلماته تعالى كما قال الكلبي وقتادة الآيات التي وعد فيها نصر أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الدالة على نصر النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً كقوله تعالى ﴿ كَتَبَ الله لاَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [المجادلة : 21] وقوله عز شأنه : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 172 ، 173] وجوز أن يراد بها جميع كلماته سبحانه التي من جملتها الآيات المتضمنة للمواعيد الكريمة ويدخل فيها المواعيد الواردة في حقه صلى الله عليه وسلم دخولاً أولياً ، والالتفات إلى الاسم الجليل كما قيل للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية من موجبات أن لا يغالبه سبحانه أحد في فعل من الأفعال ولا يقع منه جل شأنه خلف في قول من الأقوال ، وظاهر الآية أن

أحداً غيره تعالى لا يستطيع أن يبدل كلمات الله عز وجل بمعنى أن يفعل خلاف ما دلت عليه ويحول بين الله عز اسمه وبين تحقيق ذلك وأما أنه تعالى لا يبدل فلا تدل عليه الآية ، والذي دلت عليه النصوص أنه سبحانه ربما يبدل الوعيد ولا يبدل الوعد .

﴿ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ المرسلين ﴾ تقرير أي تقرير لما منحوا من النصر وتأكيد لما أشعر به الكلام من الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو تقرير لجميع ما ذكر من تكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام وإيذائهم ونصرهم ، والنبأ كالقصص لفظاً ومعنى .

(58/231)

وفي "القاموس" "النبأ محركة الخبر جمعه أنباء" وقيده بعضهم ، وقد مرت الإشارة إليه بما له شأن ، وهو عند الأخفش المجوز زيادة من في الإثبات وقبل المعرفة مخالفاً في ذلك لسيبويه فاعل (جاء) ، وصحح أن الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي النبأ أو البيان ، والجار متعلق بمحذوف وقع حالاً منه ، وقيل وإليه يشير كلام الرماني إنه محذوف والجار والمجرور صفته أي ولقد جاءك نبأ كائن من نبأ المرسلين ، وفيه أن الفاعل لا يجوز حذفه هنا ، وقال أبو حيان : الذي يظهر لي أن الفاعل ضمير عائد على ما دل عليه المعنى من الجملة السابقة أي ولقد جاءك هذا الخبر من التكذيب وما يتبعه .

وقيل وربما يشعر به كلام "الكشاف" : إن من هي الفاعل ، والمراد بعض أنبائهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

عطف على جملة ﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ﴾ [الأنعام : 33] أو على جملة ﴿ ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ [الأنعام : 33] .

ويجوز أن تكون الواو واو الحال من الكلام المحذوف قبل الفاء ، أي فلا تحزن ، أو إن أحزنك ذلك فإنّهم لا يكذّبونك والحال قد كذّبت رسل من قبلك .

والكلام على كلّ تقدير تسلية وتهوين وتكريم بأنّ إساءة أهل الشرك لمحمد عليه الصلاة والسلام هي دون ما أساء الأقوام إلى الرسل من قبله ؛ فإنّهم كذّبوا بالقول والاعتقاد وأمّا قومه فكذّبوا بالقول فقط .

وفي الكلام أيضاً تأسَ للرسول بمن قبله من الرسل .

ولام القسم لتأكيد الخبر بتنزيل الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة من ذهل طويلاً عن تكذيب الرسل لأنّه لمّا أحزنه قول قومه فيه كان كمن بعُد علمه بذلك .

و﴿ من قبلك ﴾ وصف كاشف لِ ﴿ رُسل ﴾ جيء به لتقرير معنى التأسّي بأنّ ذلك سنّة الرسل .

وفي موقع هذه الآية بعد التي قبلها إيماء لرجاحة عقول العرب على عقول من سبقهم من الأمم ، فإنّ الأمم كذّبت رسلها باعتقاد ونطق ألسنتها ، والعرب كذّبوا باللسان وأيقنوا بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام بعقولهم التي لا يروج عندها الزيف .

و(ما) مصدرية ، أي صبروا على التكذيب ، فيجوز أن يكون قوله ﴿ وأوذوا ﴾ عطفاً على ﴿ كذّبوا ﴾ وتكون جملة ﴿ فصبروا ﴾ معترضة .

والتقدير : ولقد كذّبت وأوذيَت رسل فصبروا .

فلا يعتبر الوقف عند قوله ﴿ على ما كذّبوا ﴾ بل يوصل الكلام إلى قوله ﴿ نَصْرُنَا ﴾ ، وأن يكون عطفاً على ﴿ كُذّبت رسل ﴾ ، أي كذّبت وأوذوا .

ويفهم الصبر على الأذى من الصبر على التكذيب لأنّ التكذيب أذى فيحسن الوقف عند قوله : ﴿ على ما كذّبوا ﴾ .

وقرن فعل ﴿ كذّبت ﴾ بعلامة التأنيث لأنّ فاعل الفعل إذا كان جمع تكسير يرجّح اِتّصال الفعل بعلامة التأنيث على التأويل بالجماعة .

ومن ثمّ جاء فعلا ﴿ فصبروا ﴾ و ﴿ كذّبوا ﴾ مقترنين بواو الجمع ، لأنّ فاعليهما

ضميران مستتران فرجح اعتبار التذكير .

وعطف ﴿ وأوذوا ﴾ على ﴿ كذّبت ﴾ عطف الأعمّ على الأخصّ ، والأذى أعمّ من التكذيب ، لأنّ الأذى هو ما يسوء ولو إساءة مّا ، قال تعالى : ﴿ لن يضرّوكم إلاّ أذى ﴾ [آل عمران : 111] ويطلق على الشديد منه .

فالأذى اسم اشتقّ منه آذى إذا جعل له أذى وألحقه به .

فالهمزة به للجعل أو للتصيير .

ومصادر هذا الفعل أذى وأذَاة وأذّيَة .

وكلّها أسماء مصادر وليست مصادر .

وقياس مصدره الإيذاء لكنّه لم يسمع في كلام العرب .

فلذلك قال صاحب "القاموس" : لا يقال : إيذاء .

وقال الراغب : يقال : إيذاء .

ولعلّ الخلاف مبني على الخلاف في أنّ القياسي يصحّ إطلاقه ولو لم يسمع في كلامهم أو يتوقّف إطلاقه على سماع نوعه من مادّته .

ومن أنكر على صاحب "القاموس" فقد ظلمه .

وأيّاً ما كان فالإيذاء لفظ غير فصيح لغرابته .

ولقد يعدّ على صاحب "الكشاف" استعماله هنا وهو ما هو في علم البلاغة .

و﴿ حتَّى ﴾ ابتدائية أفادت غاية ما قبلها ، وهو التكذيب والأذى والصبر عليهما ، فإنّ النصر كان بإهلاك المكذّبين المؤذين ، فكان غاية للتكذيب والأذى ، وكان غاية للصبر الخاصّ ، وهو الصبر على التكذيب والأذى ، وبقي صبر الرسل على أشياء ممّا أمر بالصبر عليه .

والإتيان في قوله : ﴿ أتاهم نصرنا ﴾ مجاز في وقوع النصر بعد انتظاره ، فشبِّه وقوعه بالمجيء من مكان بعيد كما يجيء المنادى المنتظر .

وتقدّم بيان هذا عند قوله تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين ﴾ في هذه السورة [4] .

وجملة ﴿ ولا مبدّل ﴾ عطف على جملة : ﴿ أتاهم نصرنا ﴾ .

وكلمات الله وحيه للرسل الدّالّ على وعده إيّاهم بالنصر ، كما دلّت عليه إضافة النصر إلى ضمير الجلالة .

فالمراد كلمات من نوع خاصّ ، فلا يرد أنّ بعض كلمات الله في التشريع قد تبدّل بالنسخ ؛ على أنّ التبديل المنفي مجاز في النقض ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ فمَن بدّله بعد ما سَمعَه ﴾ في سورة [البقرة : 181] .

وسيأتي تحقيق لهذا المعنى عند قوله تعالى : وتمّت كلمات ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته في هذه السورة [115] .

وهذا تطمين للنبيء بأنّ الله ينصره كما نصر من قبله من الرسل ، ويجوز أن تكون كلمات الله ما كتبه في أزله وقدره من سننه في الأمم ، أي أنّ إهلاك المكذّبين يقع كما وقع إهلاك من قبلهم .

ونفي المُبدّل كناية عن نفي التبذيل ، أي لا تبديل ، لأنّ التبديل لا يكون إلاّ من مبدّل .

ومعناه : أنّ غير الله عاجز عن أن يبدّل مراد الله ، وأن الله أراد أن لا يبدّل كلماته في هذا الشأن .

وقوله : ولقد جاءك من نبإ المرسلين ﴾ عطف على جملة : ﴿ ولا مبدّل لكلمات الله ﴾ ، وهو كلام جامع لتفاصيل ما حلّ بالمكذّبين ، وبكيف كان نصر الله رسله .

وذلك في تضاعيف ما نزل من القرآن في ذلك .

(61/231)

والقول في ﴿ جاءك ﴾ كالقول في ﴿ أتاهم نصرُنا ﴾ ، فهو مجاز في بلوغ ذلك وإعلام النبي صلى الله عليه وسلم به .

و(مِنْ) في قوله : ﴿ مِنْ نبأ ﴾ إمّا اسم بمعنى (بعض) فتكون فاعلاً مضافة إلى النبأ ، وهو ناظر إلى قوله تعالى : ﴿ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ [غافر : 78] .

والأحسن أن تجعل صفة لموصوف محذوف تقديره : لقد جاءك نَبَأ من نَبَأ المرسلين .

والنبأ الخبر عن أمر عظيم ، قال تعالى : ﴿ عمّ يتساءلون عن النّبأ العظيم ﴾ [النبأ : 1 ، 2] ، وقال : ﴿ قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ﴾ [ص : 67 ، 68] ، وقال في هذه السورة [67] ﴿ لكلّ نبإ مُسْتَقَرّ وسوف تعلمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ ولا مبدل لكلمات الله ﴾ يدل على قولنا في خلق الأفعال لأن كل ما أخبر الله عن وقوعه ، فذلك الخبر ممتنع التغير ، وإذا امتنع تطرق التغير إلى ذلك الخبر امتنع تطرق التغير إلى المخبر عنه .

فإذا أخبر الله عن بعضهم بأنه يموت على الكفر كان ترك الكفر منه محالاً .

فكان تكليفه بالإيمان تكليفاً بما لا يطاق . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 170 ﴾

فائدة

قال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ يحتمل أربعة تأويلات :

أحدها : معناه لا مُبطِل لحُجَّتِهِ ولا دافع لبرهانه .

والثاني : معناه لا رَادَّ لأمره فيما قضاه من نصر أوليائه ، وأوجبه من هلاك أعدائه .

والثالث : معناه لا تكذيب لخبره فيما حكاه من نصر مَنْ نُصِرَ وهلاك مَنْ أُهْلِكَ .

والرابع : معناه لا يشتبه ما تخرّصه الكاذبون عليه بما بلَّغه الأنبياء عنه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا مبدل لكلمات الله ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : لا خُلْفَ لمواعيده ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا مبدِّل لما أخبر به وما أمر به ، قاله الزجاج .

والثالث : لا مبدل لحكوماته ، وأقضيته النافذة في عباده ، فعبَّرت الكلمات عن هذا المعنى

، كقوله : ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ [الزمر : 71] أي : وجب ما قضي عليهم .

فعلى هذا القول ، والذي قبله ، يكون المعنى : لا مبدل لحكم كلمات الله ، ولا ناقض لما حكم به ، وقد حكم بنصر أنبيائه بقوله : ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] .

والرابع : أن معنى الكلام معنى النهي ، وإن كان ظاهره الإخبار ، فالمعنى : لا يُبدِّلَن أحد كلمات الله ، فهو كقوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] .

والخامس : أن المعنى : لا يقدر أحد على تبديل كلام الله ، وإن زخرف واجتهد ، لأن الله تعالى صانه برصين اللفظ ، وقويم الحكم ، أن يختلط بألفاظ أهل الزيغ ، ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(63/231)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

افتنان في تسليته عليه الصلاة والسلام ,فإن عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين .

وإرشاده صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام ، في الصبر على ما أصابهم من أممهم ، من فنون الأذية . وعِدَة ضمينة له صلى الله عليه وسلم بمثل ما مُنِحُوه من النصر . وتصديرُ الكلام بالقسم ، لتأكيد التسلية . وتنوين (رسل) للتفخيم والتكثير –أفاده أبو السعود – .

قال الزمخشري : في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ ﴾ دليل على أن قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ ليس بنفي لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لغلامك : ما أهانوك ، ولكنهم أهانوني ! انتهى .

وناقشه الناصر في " الانتصاف " بأنه لا دلالة فيه ، لأنه مؤتلف مع نفي التكذيب أيضاً ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين . أي : هؤلاء لم يكذبوك ، فحقك أن تصبر عليهم ، ولا يحزنك أمرهم . وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم ، فصبروا عليهم ، وأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر . فقد ائتلف ، كما ترى ، بالتفسيرين جميعاً . ولكنه من غير الوجه الذي استدل به ، فيه تقريب لما اختاره ، وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحاً بها في نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ فسلاّه عن تكذيبهم له ، بتكذيب غيرهم من الأمم لأنبيائهم . وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع ، مؤيد بالظاهر –والله أعلم – .

﴿ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا ﴾ أي : على تكذيبهم وإيذائهم ، فتأسّ بهم : ﴿ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : لمواعيده ، من قوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ [الصافات : 171 - 172] ، وقوله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : 21] .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : من خبرهم في مصابرة الكافرين ، وما منحوه من النصر ، فلا بد أن نزيل حزنك بإهلاكهم ، وليس إمهالهم لإهمالهم ، بل لجريان سنته تعالى بتحقق صبر الرسل وشكرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 352 . 353 ﴾

(65/231)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾

فإذا كان الرسل الذين سبقوك قد كُذِّبوا وصبروا على ذلك ، وهم رسل لقومهم أو لأمة

خاصة ، ولزمان خاص ، فماذا عنك يا خاتم الرسل وأنت للناس كافة وللأزمان عامة ؟

إن عليك أن تتحمل هذا ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد اختارك لهذه المهمة وهو العليم أنك أهل لها . والحق كفيل بنصر رسله فلا يتأتى أن يترك الشر أو الباطل ليغلب الرسل ، وما دام سبحانه وتعالى قد بعث الرسول فلا بد أن ينصره . فهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] .

وما دامت قد سبقت كلمة الله للرسل فلا مبدل لكلمات الله ، ولا أحد بقادر على أن يعدّل في المبادئ التي وضعها الله بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ المرسلين ﴾ [الأنعام : 34] .

وقد قص الحق سبحانه على رسوله قصص المرسلين ، ولم يكتف بالقول لرسوله أن الرسل السابقين عليه قد كذبتهم أقوامهم ، ولكن أورد الحق لرسوله ما حدث لكل رسول ممن جاء ذكرهم بالقرآن الكريم وماذا حدث للرسول – أي رسول – من ثبات أمام الأعداء ، ثم بيّن أن كلمة الحق قد انتصرت دائماً . وقد روى الحق بعضاً من قصص الرسل فقال : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : 78] . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " من قبلك " متعلّق بـ " كَذَّبت " .

ومنع أبو البقاء يكون صفة لـ " رسل " ؛ لأنه زَمَانٌ ، والزَّمَانُ لا تُوصَفُ به الجُثَثُ ، وقد تقدَّم البَحْثُ في ذلك في " البقرة " ، وهنا عند قوله : ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً ﴾ [الأنعام : 6] .

قوله : " وأوذُوا " يجوز فيه أربعة أوجه :

أظهرها : أنه عَطْفٌ على قوله : " كُذِّبَتْ " أي : كُذِّبت الرُّسُولُ ، فصربروا على ذلك .

والثاني : أنه مَعْطُوفٌ على " صَبَرُوا " أي : فَصَبَرُوا وأوذوا .

والثالث ، وهو بَعِيدٌ : أن يكون مَعْطُوفاً على " كُذِّبوا " ، فيكون دَاخِلاً في صلة الحرف المَصْدَرِيّ ، والتَّقْدِير فيه : فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم .

والرابع : أن يكون مُسْتَأنفاً .

قال أبو البقاء : " ويجوز أن كون الوَقْفُ ثَمَّ على قوله : " كُذِّبوا " ، ثم استأنف فقال : وأوذُوا " .

وقرأ الجُمْهُور : " وأوذُوا " بواو بعد الهمزة ؛ [من " آذى " " يؤذي " رباعياً .

وقرأ ابن عامر في رواية شاذّةٍ : " وأذُوا " من غير واو بعد الهمزة] وهو من " أذْيَتُ " الرجل ثلاثياً لا من " آذيت " رباعياً .

قوله : ﴿ حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ الظَّاهر أن هذه الغايةَ متعلقةٌ بقوله : " فصبروا " ، أي : كان غَايَةُ صَبْرِهِمْ نَصْرَ الله إياهم ، وإن جَعَلْنَا " وأوذُوا " عَطْفاً عليه غَايَةٌ لهما ؛ وهو أوضح وإن جعلناه مُسْتَأنَفاً كانت غَايَةً له فقط ، وإن جعلناه معطوفاً على " كَذَّبت " فتكون الغايةُ للثلاثة ، و " النصر " مُضَافاً لفاعله ومفعوله مَحْذُوفٌ ، أي : نَصْرُنَا أَتَاهم ، وفيه الِتفَاتٌ من ضمير الغَيْبَةِ إلى ضمير المتكلِّم ، إذ قَبْله " بآيات الله " ، فلو جاء على ذلك لقيل " نصره " .

وفائدة الالِتفَاتِ إسْنَادُ النصر إلى ضمير المتكلّم المشعر بالعظمة .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ المرسلين ﴾ أي : خبرهم في القرآن كيف أنجيناهم ودمَّرنا قومهم .

وفي فاعل " جاء " وجهان :

أحدهما : هو مُضْمرٌ ، واختلفوا فيما يَعُودُ عليه هذا الضمير ، فقال ابن عطية الصَّوابُ عندي أن يقدر " جلاء " أو بيان " .

وقال الرُّمَّاني : تقديره : " نبأ " .

وقال أبو حيَّان : " الذي يظهر لي أنَّهُ يعود على ما دلَّ عليه المعنى من الجملة السَّابقة ، أي : ولقد جاءك هذا الخَبَرُ من تكذيب أتْبَاع الرُّسُلِ للرُّسُلِ ، والصَّبْر والإيذاء إلى أن نُصِرُوا " .

(67/231)

وعلى هذه الأقوال يكون " من نبأ المرسلين " في مَحَلِّ نصب على الحال وعاملها هو " جاء " ؛ لأنه عامل في صاحبها .

والثاني : أنَّ " من نبأ " هو الفاعل .

ذكر الفارسي ، وهذا إنما يَتمشَّى له على أري الأخفش ؛ لأنه لا يشترط في زيادتها شيئاً ، وهذا – كما رأيت – كلامٌ مُوجبٌ ، والمجرور بـ " مِنْ " معرفةٌ .

وضُعفَ أيضاً من جهة المعنى بأنه لم يَجئه كُلُّ نبأ للمرسلين ؛ لقوله : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : 78] ، وزيادة " مِنْ " تؤدِّي إلى أنه جاءه جميع الأنبياء ؛ لأنه اسم جنس مُضَاف ، والأمْرُ بخلافه .

ولم يتعرّض الزمخشري للفاعل إلاَّ أنه قال : " ولقد جاءك من نبأ المرسلين بعضُ أنبائهم وقصصهمْ " وهذا تفسير معنى لا تفسير إعراب ؛ إذ " مِنْ " لا تكون فاعله ، ولا يجوز أن يكون " من نبأ " صِفَةً لمحذوف هو الفاعل ، أي : ولقد جاءكَ نبأ من نبأ المرسلين ؛ لأن

الفاعل لا يُحْذَفُ بحالٍ إلاَّ في مواضعَ ذُكِرَت ، كذا قالوا .

قال أبو البقاء : " ولا يجوز عند الجميع أن تكون " من " صفة لمحذوف ، لأن الفاعل لا يُحْذَفُ ، وحرف الجر إذا لم يكون زائداً لم يصحَّ أن يكون فاعلاً ؛ لأن حرف الجر يُعَدّي كل فعل يعمل في الفاعل من غير تعدٍّ " .

يعني بقوله : " لم يصح أن يكون فاعلاً " لم يصح أن يكون المجرور بذلك الحرف ، وإلاَّ فالحرفُ لا يكونُ فاعلاً أَلْبَتَّةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 114.116 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) ﴾

يعني إنَّ مَنْ سَلَكَ سبيلَنا صبر على ما أصابه من حديثنا ، فلا خَسِرَتْ فينا صفقتُه ، ولا خَفِيَتْ علينا حالتُه ، وما قَابَلَ حُكْمَنَا مَنْ عَرَفَنَا إلا بالمُهج ، وما حملوا ما لقوا فينا إلا على الحدق :

إنَّ الأُلى ماتوا على دين الهوى . . . وجدوا المنيةَ منهلاً معسولا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 469 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما سلاه بما هو في غاية الكفاية في التسلية ، أخبره بأنه لا حيلة له غير الصبر ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فتسلّ واصبر كما صبروا ، وليصغر عندك ما تلاقي منهم في جنب الله : ﴿ وإن كان كبر ﴾ أي عظم جداً ﴿ عليك إعراضهم ﴾ أي عما يأتيهم به من الآيات الذي قدمنا الإخبار عنه بقولنا ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ [الأنعام : 4] وأردت أن تنتقل – في إخبارنا لك بأنه لا ينفعهم الآيات المقترحات – من علم اليقين إلى عين اليقين ﴿ فإن استطعت أن تبتغي ﴾ أي تطلب بجهدك وغاية طاقتك ﴿ نفقاً ﴾ أي منفذاً ﴿ في الأرض ﴾ تنفذ فيه إلى ما عساك تقدر على الانتهاء إليه ﴿ أو سلماً في السماء ﴾ أي جهة العلو لترتقي فيه إلى ما تقدر عليه

﴿ فتأتيهم بآية ﴾ أي ما اقترحوا عليك فافعل لتشاهد أنهم لا يزدادون عند إتيانك بها إلا إعراضاً كما أخبرناك ، لأن الله قد شاء ضلال بعضهم ، والمراد بهذا بيان شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هدايتهم بأنه لو قدر على أن يتكلف النزول إلى تحت الأرض أو فوق السماء فيأتيهم بما يؤمنون به لفعل .

(69/231)

ولما كان هذا السياق ربما أوهم شيئاً في القدرة ، نفاه إرشاداً إلى تقدير ما قدرته فقال : ﴿ ولو شاء الله ﴾ أي الذي له العظمة الباهرة والقدرة الكاملة القاهرة ﴿ لجمعهم على الهدى ﴾ أي لأن قدرته شاملة ، وإيمانهم في حد ذاته ممكن ، ولكنه قد شاء افتراقهم بإضلال بعضهم ؛ ولما كان صلى الله عليه وسلم – بعد إعلام الله له بما أعلم من حكمه بأن الآيات لا تنفع من حتم بكفره – حريصاً على إجابتهم إلى ما يقترحونه رجاء جمعهم على الهدى لما طبع عليه من مزيد الشفقة على الغريب فضلاً عن القريب ، مع ما أوصاه الله به ليلة الإسراء من غير واسطة – كما أفاده الحرالي – من إدامة الشفقة على عباده والرحمة لهم والإحسان إليهم واللين لهم وإدخال السرور عليهم ، فتظافر على ذلك الطبع والإيصاء حتى كان لا يكف عنه إلا لأمر جازم أو نهي مؤكد صارم ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فلا

تكونن ﴾ فأكد الكلام سبحانه ليعلم صلى الله عليه وسلم أنه قد حتم بافتراقهم ، فيسكن إلى ذلك ويخالف ما جبل عليه من شدة الشفقة عليهم ﴿ من الجاهلين ﴾ أي إنك أعلم الناس مطلقاً ولك الفراسة التامة والبصر النافذ والفكرة الصافية بمن لم تعاشره ، فكيف بمن بلوتهم ناشئاً وكهلاً ويافعاً ! فلا تعمل بحجة ما أوصاك الله به من الصبر والصفح ، وجبلك عليه من الأناة والحلم في ابتغاء إيمانهم بخلاف ما يعلم من خسرانهم ، فلا تطمع نفسك فيما لا مطمع فيه ، فإن ما شاءه لا يكون غيره ، فهذه الآية وأمثالها -مما في ظاهره غلظة- من الدلالة على عظيم رتبته صلى الله عليه وسلم ومن لطيف أمداح القرآن له - كما يبين إن شاء الله تعالى في سورة التوبة عند قوله تعالى ﴿ عفا الله عنك ﴾ [التوبة : 43] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 629.630 ﴾

(70/231)

فصل

قال الفخر :

المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش ، فقالوا : يا محمد ائتنا من عند الله كما كانت

الأنبياء تفعل فإنا نصدق بك فأبى الله أن يأتيهم بها فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه ، فنزلت هذه الآية ، والمعنى ، وإن كان كبر عليك إعراضهم عن الإيمان بك ، وصحة القرآن ، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فافعل .

فالجواب محذوف وحسن هذا الحذف لأنه معلوم في النفوس . (1)

والنفق سرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر ، ومنه نافقاء اليربوع لأن اليربوع ينقب الأرض إلى القعر ، ثم يصعد من ذلك القعر إلى وجه الأرض من جانب آخر ، فكأنه ينفق الأرض نفقاً ، أي يجعل له منفذاً من جانب آخر .

ومنه أيضاً سمي المنافق منافقاً لأنه يضمر غير ما يظهر كالنافقاء الذي يتخذه اليربوع وأما السلم فهو مشتق من السلامة ، وهو الشيء الذي يسلمك إلى مصعدك ، والمقصود من هذا الكلام أن يقطع الرسول طمعه عن إيمانهم ، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان وإقبالهم على الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 171 ﴾

---

(1) تأمل فى مبالغة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشدة حرصه على هداية القوم لدرجة أنه لو تمكن من فعل هذه الأمور (شبه المستحيلة) لبادر إلى فعلها طمعا فى هداية قومه ، وتأمل قوله تعالى فى سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67) ﴾

عندها تتحق أن الآية التى نحن بصددها من أسمى آيات المدح وأرفعه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأن الله تعالى يقول له : لقد بلغت واجتهدت فى النصح وما توانيت وما تركت مسلكا لهدايتهم إلا سلكته ، وبالغت فى دعوتهم إلى الحق ، فلم يهتدوا ، ولم يبق إلا المحال ، فإن استطعت الوصول إليه فافعل . والله أعلم .

(71/231)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي عظم عليك إعراضهم وتوليهم عن الإيمان .

﴿ فَإِن استطعت ﴾ قدرت ﴿ أَن تَبْتَغِيَ ﴾ تطلب ﴿ نَفَقاً فِي الأرض ﴾ أي سَرَباً تخلص منه إلى مكان آخر ، ومنه النافِقاء لجحر الْيَرْبُوع ، وقد تقدّم في "البقرة" بيانه ، ومنه المنافق وقد تقدم .

﴿ أَوْ سُلَّماً ﴾ معطوف عليه ، أي سبباً إلى السماء ؛ وهذا تمثيل لأن السّلم الذي يُرْتقى عليه سبب إلى الموضع ، وهو مذكّر ، ولا يُعرف ما حكاه الفرّاء من تأنيث السّلم .

قال قَتَادة : السلم الدَّرَج .

الزجاج : وهو مشتق من السلامة كأنه يسلِمك إلى الموضع الذي تريد .

﴿ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ عطف عليه أي ليؤمنوا فافعل ؛ فأُضمِر الجواب لعلم السامع .

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يشتدّ حزنه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون ؛ كما أنه لا يستطيع هداهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ﴾ ﴿ كبر ﴾ أي عظم وشق إعراضهم عن الإيمان والتصديق بما جئت به ، وهو صلى الله عليه وسلم قد كبر عليه إعراضهم لكن جاء الشرط معتبراً فيه التبيين والظهور ، وهو مستقبل ، وعطف عليه الشرط الذي لم يقع ، وهو قوله : ﴿ فإن استطعت ﴾ وليس مقصوداً وحده بالجواب فمجموع الشرطين بتأويل الأول لم يقع بل المجموع مستقبل ، وإن كان ظاهر أحدهما بانفراده واقع ونظيره ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ ﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ ومعلوم أنه قد وقع أحدهما ، لكن المعنى أن يتبين ويظهر كونه قدّ من كذا وكذا يتأول ما يجيء من دخول أن الشرطية على صيغة كان على مذهب جمهور النحاة خلافاً لأبي العباس المبرد فإنه زعم إن أن إذا دخلت على كان بقيت على مضيها بلا تأويل والنفق السرب في داخل الأرض الذي يتوارى فيه .

وقرأ نبيح الغنوي أن تبتغي نافقاً في الأرض والنافقاء ممدود وهو أحد مخارج جحر اليربوع

وذلك أن اليربوع يخرج من باطن الأرض إلى وجهها ويرق ما واجه الأرض ويجعل للحجر بابين أحدهما النافقاء والآخر القاصعاء ، فإذا رابه أمر من أحدهما دفع ذلك الوجه الذي أرقه من أحدهما وخرج منه .

وقيل : لجحره ثلاثة أبواب ، قال السدي : السلم المصعد .

وقال قتادة : الدرج .

وقال أبو عبيدة : السبب والمرقاة ، تقول العرب : اتخذني سلماً لحاجتك أي سبباً .

ومنه قول كعب بن زهير :

ولا لكما منجى من الأرض فابغيا . . .

به نفقاً أو في السموات سلّما

وقال الزجاج : السلم من السلامة وهو الشيء الذي يسلمك إلى مصعدك ، والسلم الذي يصعد عليه ويرتقى وهو مذكر .

(72/231)

وحكى الفراء فيه التأنيث ، قال بعضهم : تأنيثه على معنى المرقاة لا بالوضع كما أنث ، الصوت بمعنى الصيحة والاستغاثة في قوله : سائل بني أسد ما هذه الصوت .

ومعنى الآية قال الزمخشري يعني أنك لا تستطيع ذلك ، والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه ، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتي بها رجاء إيمانهم .

وقيل : كانوا يقترحون الآيات فكان يود أن يجابوا إليها لتمادي حرصه على إيمانهم ، فقيل له : إن استطعت كذا فافعل دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا لعلهم يؤمنون ؛ انتهى .

والظاهر من قوله ﴿ فتأتيهم بآية ﴾ أن الآية هي غير ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء ، وأن المعنى : أن تبتغي نفقاً في الأرض فتدخل فيه أو سلّماً في السماء فتصعد عليه إليها ﴿ فتأتيهم بآية ﴾ غير الدخول في السرب والصعود إلى السماء مما يرجى إيمانهم بسببها أو مما اقترحوه رجاء إيمانهم ، وتلك الآية من إحدى الجهتين .

وقال ابن عطية : وقوله تعالى : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ﴾ إلزام الحجة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتقسيم الأحوال عليهم حتى يتبين أن لا وجه إلا الصبر والمضيّ لأمر الله تعالى ، والمعنى إن كنت تعظم تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتلتزم الحزن عليه فإن كنت تقدر على دخول سرب في أعماق الأرض أو على ارتقاء سلم في السماء ، فدونك وشأنك به أي إنك لا تقدر على شيء من هذا ، ولا بد من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها الله للناظرين المتأملين إذ هو لا إله إلا هو لم يرد أن يجمعهم

على الهدى ، وإنما أراد أن ينصب من الآيات ما يهتدى بالنظر فيه قوم بحق ملكه ﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ أي في أن تأسف وتحزن على أمر أراده الله وأمضاه وعلم المصلحة فيه ؛ انتهى .

وأجاز الزمخشري وابن عطية أن تكون الآية التي يأتي بها هي نفس الفعل .

(73/231)

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو الإتيان بالآية كأنه قيل : لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الترقي في السماء لعلّ ذلك يكون آية لك يؤمنون بها .

وقال ابن عطية : ﴿ فتأتيهم بآية ﴾ بعلامة ويريد : إما في فعلك ذلك أي تكون الآية نفس دخولك في الأرض وارتقائك في السماء وإما في أن تأتيهم بالآية من إحدى الجهتين ؛ انتهى .

وما جوزاه من ذلك لا يظهر من دلالة اللفظ إذ لو كان ذلك كما جوزاه لكان التركيب فتأتيهم بذلك آية وأيضاً فأي آية في دخول سرب في الأرض ، وأما الرقي في السماء فيكون آية .

وقيل قوله ﴿ أن تبتغي نفقاً في الأرض ﴾ إشارة إلى قولهم ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ وقوله : ﴿ أو سلّماً في السماء ﴾ إشارة إلى قولهم : ﴿ أو

ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك ﴾ وكان فيها ضمير الشأن ، والجملة المصدرة بكبر عليك إعراضهم في موضع خبر كان وفي ذلك دليل على أن خبر كان وأخواتها يكون ماضياً ولا يحتاج فيه إلى تقدير قد ، لكثرة ما ورد من ذلك في القرآن وكلام العرب خلافاً لمن زعم أنه لا بدّ فيه من قد ظاهرة أو مقدرة وخلافاً لمن حصر ذلك بكان دون أخواتها ، وجوزوا أن يكون اسمها إعراضهم فلا يكون مرفوعاً بكبر كما في القول الأول وكبر فيه ضمير يعود على الإعراض وهو في موضع الخبر وهي مسألة خلاف ، وجواب الشرط محذوف لدلالة المعنى عليه وتقديره فافعل كما تقول : إن شئت تقوم بنا إلى فلان نزوره ، أي فافعل ولذلك جاء فعل الشرط بصيغة الماضي أو المضارع المنفيّ بلم لأنه ماض ، ولا يكون بصيغة المضارع إلا في الشعر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(74/231)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لتأكيد إيجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أنه أمرٌ لا محيدَ عنه أصلاً أي إن كان عظُم عليك وشقّ إعراضُهم عن الإيمان بما جئت به من القرآن الكريم

حسبما يُفصح عنه ما حُكي عنهم من تسميتهم له أساطيرَ الأولين وتنائيهم عنه ونهْيِهمُ الناسَ عنه ، وقيل : إن الحارثَ بنَ عامرِ بنِ نوفلَ بنِ عبدِ منافٍ أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في محضر من قريش ، فقال : يا محمدُ ائتنا بآيةٍ من عند الله كما كانت الأنبياءُ تفعل وأنا أصدقك فأبى الله أن يأتي بآية مما اقترحوا ، فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه لما أنه عليه الصلاة والسلام كان شديدَ الحِرْص على إيمان قومه ، فكان إذا سألوا آيةً يودّ أن يُنزِلها الله تعالى طمعاً في إيمانهم فنزلت ، فقوله تعالى : ﴿ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ مرتفعٌ بكبُرَ وتقديم الجار والمجرور عليه لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخَّر ، والجملة في محل النصب على أنها خبر لكان مفسرة لاسمها الذي هو ضميرُ الشأن ولا حاجة إلى تقدير قد ، وقيل : اسم كان إعراضُهم وكبر جملة فعلية في محل النصب على أنها خبر لها مقدم على اسمها لأنه فعلٌ رافع لضميرٍ مستتر كما هو المشهور وعلى التقديرين فقوله تعالى :

(75/231)

﴿ فَإِن استطعت ﴾ الخ ، شرطيةٌ أخرى محذوفةُ الجواب وقعتْ جواباً للشرط الأول ، والمعنى إن شق عليك إعراضُهم عن الإيمان بما جئت به من البينات وعدمُ عدِّهم لها من

قبيل الآيات وأحببتَ أن تجيبهم إلى ما سألوه اقتراحاً فإن استطعت ﴿ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً ﴾ أي سَرَباً ومنفَذاً ﴿ فِى الأرض ﴾ تنفُذ فيه إلى جَوفها ﴿ أَوْ سُلَّماً ﴾ أي مصعداً ﴿ فِى السماء ﴾ تعرج به فيها ﴿ فَتَأْتِيَهُمْ ﴾ منهما ﴿ بِئَايَةٍ ﴾ مما اقترحوه فافعلْ وقد جُوِّز أن يكون ابتغاؤهما نفسَ الإتيان بالآية فالفاء في (فتأتيَهم) حينئذ تفسيرية وتنوينُ (آية) للتفخيم أي فإن استطعت أن تبتغيَهما فتجعلَ ذلك آيةً لهم فافعل، والظرفان متعلقان بمحذوفين هما نعتان (لنفقاً وسلماً) والأول لمجرد التأكيد إذ النفقُ لا يكون إلا في الأرض، أو بتبتغي، وقد جُوِّز تعلقُهما بمحذوف وقع حالاً من فاعل تبتغي أي أن تبتغي نفقاً كائناً أنت في الأرض أو سلماً كائناً في السماء، وفيه من الدلالة على تبالُغِ حِرْصِه عليه الصلاة والسلام على إسلام قومه وترامية إلى حيث لو قدَر على أن يأتيَ بآيةٍ من تحت الأرض أو من فوق السماء لفعل رجاءً لإيمانهم ما لا يخفى، وإيثار الابتغاءِ على الاتخاذ ونحوه للإيذان بأن ما ذُكر من النفق والسُّلم مما لا يُستطاع ابتغاؤه فكيف باتخاذه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(76/231)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ ﴾ أي شق وعظم وأتى بكان على ما قيل ليبقى الشرط على المضي ولا ينقلب مستقبلاً لأن كان لقوة دلالته على المضي لا تقلبه إن للاستقبال بخلاف سائر الأفعال وهو مذهب المبرد ، والنحويون يؤولون ذلك بنحو وإن تبين وظهر أنه كبر ﴿ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي الكفار عن الايمان بك وبما جئت به من القرآن المجيد حسبما يفصح عنه قولهم فيه أساطير الأولين وينبىء عنه فعلهم من النأي والنهي ، ولعل التعبير بالإعراض دون التكذيب مع أن التسلية على ما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [الأنعام : 34] كانت عنه لتهويل أمر التكذيب وهو فاعل ﴿ كَبُرَ ﴾ ، وتقديم الجار والمجرور لما مر مراراً .

والجملة خبر ﴿ كَانَ ﴾ مفسرة لاسمها الذي هو ضمير الشأن .

ولا حاجة إلى تقدير قد ، وقيل : اسم كان ﴿ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ ، و ﴿ كَبُرَ ﴾ مع فاعله المستتر الراجع إلى الاسم خبر لها مقدم على اسمها ، والكلام استئناف مسوق لتأكيد إيجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أن ذلك أمر لا محيد عنه أصلاً .

(77/231)

وفي بعض الآثار أن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في محضر من قريش فقالوا : يا محمد ائتنا بآية من عند الله تعالى كما كانت الأنبياء تفعل وإنا نصدقك فأبى الله تعالى أن يأتيهم بآية مما اقترحوا فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه عليه الصلاة والسلام لما أنه كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمان قومه فكان إذا سألوه آية يود أن ينزلها الله تعالى طمعاً في إيمانهم فنزلت : ﴿ فَإِن استطعت ﴾ أي إن قدرت وتهيأ لك ﴿ أَن تَبْتَغِىَ ﴾ أي تطلب ﴿ نَفَقَاً فِى الأرض ﴾ "هو السَّرَب فيها له مخلص إلى مكان" كما في "القاموس" ، وأصل معناه جحر اليربوع ، ومنه "النافقاء لأحد منافذه ، ويقال لها النُفَقَة كهُمَزَة وهي التي يكتمها ويظهر غيرها فإذا أُتِيَ من القاصِعَاء ضربها برأسه فانتفق" ومنه أخذ النفاق ، والجار متعلق بمحذوف وقع صفة ﴿ نَفَقَاً ﴾ والكلام على التجريد في رأي ، وجوز تعلقه بتبتغي وبمحذوف وقع حالاً من ضميره المستتر أي نفقاً كائناً في الأرض أو تبتغي في الأرض أو تبتغي أنت حال كونك في الأرض ﴿ أَوْ سُلَّماً فِى السماء ﴾ أي مرقاة فيها أخذاً من السلامة ، قال الزجاج : لأنه الذي يسلمك إلى مصعدك ، وهو كما قال الفراء : مذكر واستشهدوا لتذكيره بقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ [الطور : 38] ثم قال : وأنشدت في تأنيثه بيتاً أنسيته انتهى .

قال الغضايري : البيت الذي أنسيه الفراء بيت أوس وهو : لنا سلم في المجد لا

يرتقونها . . .

وليس لهم في سورة المجد سلم

وأنشدوا أيضاً في تذكيره

: الشعر صعب وطويل سلمه . . .

إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه يريد أن يعربه فيعجمه

و﴿ فِى السماء ﴾ نظير ما في الجار قبله من الاحتمالات .

﴿ فَتَأْتِيَهُمْ ﴾ أي منهما ﴿ بِئَايَةٍ ﴾ مما اقترحوه من الآيات .

والفاء في صدر هذه الشرطية جوابية وجواب الشرط فيها محذوف .

(78/231)

ولك تقديره أتيت بصيغة الخبر أو فافعل فعل أمر ؛ والجملة جواب للشرط الأول ، والمعنى إن شق عليك إعراضهم عن الإيمان وأحببت أن تجيبهم عما سألوه اقتراحاً ليؤمنوا فإن استطعت كذا فتأتيهم بآية فافعل ، وفيه إشارة إلى مزيد حرصه صلى الله عليه وسلم على إيمان قومه وتحصيل مطلوبهم واقتراحهم مع الإيماء إلى توبيخ القوم أو المعنى أن شق عليك إعراضهم فلو قدرت أن تأتي بالمحال أتيت به ، والمقصود بيان أنه صلى الله عليه وسلم بلغ

في الحرص على إيمانهم إلى هذه الغاية ، وفيه إشعار ببعد إسلامهم عن دائرة الوجود كما لا يخفى على المتدبر ، وإيثار الابتغاء على الاتخاذ ونحوه للإيذان بأن ما ذكر من النفق والسلم مما لا يستطيع ابتغاءه فكيف باتخاذه .

وجوز أن يكون ابتغاء ذينك الأمرين أعني نفس النفوذ في الأرض والصعود إلى السماء آية ، فالفاء في ﴿ فَتَأْتِيَهُمْ ﴾ حينئذ تفسيرية وتنوين ﴿ ءايَةً ﴾ للتفخيم ، والمعنى عليه فإن استطعت ابتغاءهما فتجعل ذلك آية لهم فعلت .

ورده أبو حيان بأن هذا لا يظهر من ظاهر اللفظ إذ لو كان كذلك لكان التركيب فتأتيهم بذلك آية أي أية ، وأيضاً فأي آية في دخول سرب في الأرض وإن صح أن يكون الرقي إلى السماء آية ، وما ذكرناه من أن إيتاء الآية منهما هو الظاهر المتبادر إلى الأذهان .

ورواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في "الأسماء والصفات" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : إن المراد فتأتيهم بآية من السماء وابتغاء النفق للهرب ، وأيد بما أخرجه الطستي عن نافع بن الأزرق أنه قال لابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ استطعت أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الأرض ﴾ فقال رضي الله تعالى عنه سرباً في الأرض فتذهب هرباً وفيه بعد ، وخبر ابن الأزرق قد قيل فيه ما قيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾

عطف على جملة : ﴿ قد نعلم إنّه لَيُحْزنك الذي يقولون ﴾ [الأنعام : 33] ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحزنه ما يقولونه فيه من التكذيب به وبالقرآن حَزَناً على جهل قومه بقدر النصيحة وإنكارهم فضيلة صاحبها ، وحزناً من جرّاء الأسف عليهم من دوام ضلالهم شفقة عليهم ، وقد سلاّه الله تعالى عن الحزن الأول بقوله ﴿ فإنّهم لا يكذبونك ﴾ [الأنعام : 33] وسلاّه عن الثاني بقوله : ﴿ وإن كانَ كَبُر عليك إعراضهم ﴾ الآية .

و﴿ كَبُر ﴾ ككرم ، كِبراً كعنب : عظمت جثّته .

ومعنى ﴿ كَبُر ﴾ هنا شقّ عليك .

وأصله عظم الجثّة ، ثم استعمل مجازاً في الأمور العظيمة الثقيلة لأنّ عظم الجثّة يستلزم الثقل ، ثم استعمل مجازاً في معنى (شقّ) لأنّ الثقيل يشق جمله .

فهو مجاز مرسل بلزومين .

وجيء في هذا الشرط بحرف (إنْ) الذي يكثر وروده في الشرط الذي لا يظنّ حصوله للإشارة إلى أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام ليس بمظنّة ذلك ولكنّه على سبيل الفرض .

وزيدت (كان) بعد (إنْ) الشرطية بينها وبين ما هو فعل الشرط في المعنى ليبقى فعل

الشرط على معنى المضي فلا تُخلّصه (إن) الشرطيّة إلى الاستقبال، كما هو شأن أفعال الشروط بعد (إن)، فإنّ (كان) لقوّة دلالته على المضي لا تقلبه أداة الشرط إلى الاستقبال.

والإعراض المعرّف بالإضافة هو الذي مضى ذكره في قوله تعالى: ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين ﴾ [الأنعام: 4].

وهو حالة أخرى غير حالة التكذيب، وكلتاهما من أسباب استمرار كفرهم.

وقوله: ﴿ فإن استطعت ﴾ جوابُ ﴿ إن كان كبر ﴾، وهو شرط ثان وقع جواباً للشرط الأول.

والاستطاعة: القدرة.

والسين والتاء فيها للمبالغة في طاع، أي انقاد.

والابتغاء: الطلب.

(80/231)

وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿ أفغير دين الله تبغون ﴾ في سورة [آل عمران: 83]، أي أن تَطْلُبَ نَفَقاً أو سُلّماً لتبلغ إلى خبايا الأرض وعجائبها وإلى خبايا السماء.

ومعنى الطلب هنا : البحث .

وانتصب نفقاً ﴾ و﴿ سُلّما ﴾ على المفعولين ل ﴿ تبتغي ﴾ .

والنفق : سرب في الأرض عميق .

والسّلَّم بضمّ ففتح مع تشديد اللاّم آلة للارتقاء تتّخذ من حبلين غليظين متوازيين تصل بينهما أعواد أو حبال أخرى متفرّقة في عرض الفضاء الذي بين الحبلين من مساحة ما بين كلّ من تلك الأعواد بمقدار ما يرفع المرتقي إحدَى رجليه إلى العود الذي فوق ذلك ، وتسمّى تلك الأعواد دَرَجَات .

ويجعلُ طول الحبلين بمقدار الارتفاع الذي يراد الارتقاء إليه .

ويسمَّى السلّم مِرْقاة ومِدْرَجة .

وقد سمّوا الغرز الذي يرتقي به الراكب على رحل ناقته سُلّما .

وكانوا يرتقون بالسلّم إلى النخيل للجذاذ .

وربما كانت السلاليم في الدور تتّخذ من العود فتسمّى المرقاة .

فأمّا الدرج المبنيّة في العَلالي فإنّها تُسَمَّى سُلّماً وتسمّى الدّرَجة كما ورد في حديث مقتل أبي رافع قول عبد الله بن عتيك في إحدى الروايات

" حتّى انتهيت إلى دَرَجة له " ، وفي رواية " حتّى أتيت السلّم أريد أن أنزل فأسْقُطُ منه "

وقوله ﴿ في الأرض ﴾ صفة ﴿ نفقاً ﴾ أي متغلغلاً ، أي عميقاً .

فذكر هذا المجرور لإفادة المبالغة في العمق مع استحضار الحالة وتصوير حالة الاستطاعة إذ من المعلوم أنّ النفق لا يكون إلاّ في الأرض .

وأمّا قوله : ﴿ في السماء ﴾ فوصف به ﴿ سُلّما ﴾ ، أي كائناً في السماء ، أي واصلاً إلى السماء .

والمعنى تبلغ به إلى السماء .

كقول الأعشى

ورُقّيتَ أسبَاب السّمَاء بسُلّم . . .

والمعنى : فإن استطعت أن تطلب آية من جميع الجهات للكائنات .

(81/231)

ولعلّ اختيار الابتغاء في الأرض والسماء أنّ المشركين سألوا الرسول عليه والصلاة والسلام آيات من جنس ما في الأرض ، كقولهم ﴿ حتّى تُفجّر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] ، ومن جنس ما في السماء ، كقولهم : ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ [الإسراء : 93] .

وقوله : ﴿ بآية ﴾ أي بآية يسلّمون بها ، فهنالك وصف محذوف دلّ عليه قوله : ﴿

إعراضهم ﴾ ، أي عن الآيات التي جئتهم بها .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه فعل الشرط ، وهو ﴿ استطعت ﴾ .

والشرط وجوابه مستعملان مجازاً في التأييس من إيمانهم وإقناعهم ، لأنّ الله جعل على قلوبهم أكنّة وفي آذانهم وقراً وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها .

ويتعيّن تقدير جواب الشرط ممّا دلّ عليه الكلام السابق ، أي فأتهم بآية فإنّهم لا يؤمنون بها ، كما يقول القائل للراغب في إرضاء مُلحّ .

إن استطعت أن تجلب ما في بيتك ، أي فهو لا يرضى بما تقصر عنه الاستطاعة بلْهَ ما في الاستطاعة .

وهو استعمال شائع ، وليس فيه شيء من اللوم ولا من التوبيخ ، كما توهّمه كثير من المفسّرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(82/231)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى ﴾ تقديره : ولو شاء الله هداهم لجمعهم على الهدى وحيثما جمعهم على الهدى ، وجب أن يقال : إنه ما شاء هداهم ، وذلك يدل على أنه تعالى لا يريد الإيمان من الكافر بل يريد إبقاءه على الكفر ، والذي يقرب هذا الظاهر أن قدرة الكافر على الكفر إما أن تكون صالحة للإيمان ، أو غير صالحة له ، فإن لم تكن صالحة له فالقدرة على الكفر مستلزمة للكفر ، وغير صالحة للإيمان ، فخالق هذه القدرة يكون قد أراد هذا الكفر منه لا محالة ، وأما إن كانت هذه القدرة ، كما أنها صلحت للكفر فهي أيضاً صالحة للإيمان ، فلما استوت نسبة القدرة إلى الطرفين امتنع رجحان أحد الطرفين على الآخر ، إلا لداعية مرجحة ، وحصول تلك الداعية ليس من العبد ، وإلا وقع التسلسل ، فثبت أن خالق تلك الداعية هو الله تعالى ، وثبت أن مجموع القدرة مع الداعية الحاصلة موجب للفعل ، فثبت أن خالق مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية المستلزمة لذلك الكفر مريد لذلك الكفر ، وغير مريد لذلك الإيمان .

فهذا البرهان اليقيني قوي ظاهر بهذه الآية ، ولا بيان أقوى من أن يتطابق البرهان مع ظاهر القرآن .

قالت المعتزلة : المراد ولو شاء الله أن يلجئهم إلى الإيمان لجمعهم عليه .

قال القاضي : والالجاء هو أن يعلمهم أنهم لو حاولوا غير الإيمان لمنعهم منه ، وحينئذٍ يمتنعون من فعل شيء غير الإيمان .

ومثاله : أن أحدنا لو حصل بحضرة السلطان وحضر هناك من حشمه الجمع العظيم ، وهذا الرجل علم أنه لو هم بقتل ذلك السلطان لقتلوه في الحال ، فإن هذا العلم يصير مانعاً له من قصد قتلك ذلك السلطان ، ويكون ذلك سبباً لكونه ملجأ إلى ترك ذلك الفعل فكذا ههنا .

(83/231)

إذا عرفت الالجاء فنقول : إنه تعالى إنما ترك فعل هذا الالجاء لأن ذلك يزيل تكليفهم فيكون ما يقع منهم كأن لم يقع ، وإنما أراد تعالى أن ينتفعوا بما يختارونه من قبل أنفسهم من جهة الوصلة إلى الثواب ، وذلك لا يكون إلا اختياراً .

والجواب : أنه تعالى أراد منهم الاقدام على الإيمان حال كون الداعي إلى الإيمان وإلى الكفر على السوية أو حال حصول هذا الرجحان .

والأول : تكليف ما لا يطاق ، لأن الأمر بتحصيل الرجحان حال حصول الاستواء ، تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال ، وإن كان الثاني : فالطرف الراجح يكون واجب الوقوع ، والطرف المرجوح يكون ممتنع الوقوع ، وكل هذه الأقسام تنافي ما ذكروه من المكنة والاختيار ، فسقط قولهم بالكلية . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ

12 صـ 171.172 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى ﴾ أي لو شاء الله تعالى جمعهم على ما أنتم عليه من الهدى لجمعهم عليه بأن يوفقهم للإيمان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ ذلك سبحانه لسوء اختيارهم حسبما علمه الله تعالى منهم في أزل الآزال ، وقالت المعتزلة : المراد لو شاء سبحانه جمعهم على الهدى لفعل بأن يأتيهم بآية ملجئة إليه لكنه جل شأنه لم يفعل ذلك لخروجه عن الحكمة ، والحق ما عليه أهل السنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ شرط امتناعي دلّ على أنّ الله لم يشأ ذلك ، أي لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم عليه ؛ فمفعول المشيئة محذوف لقصد البيان بعد الإبهام على الطريقة المسلوكة في فعل المشيئة إذا كان تعلّقه بمفعوله غير غريب وكان شرطاً لإحدى أدوات الشرط كما هنا ، وكقوله : ﴿ إن يشأ يُذهبكم ﴾ [النساء : 133] .

ومعنى : ﴿ لجمعهم على الهدى ﴾ لهداهم أجمعين .

فوقع تفنّن في أسلوب التعبير فصار تركيباً خاصّيّاً عدل به على التركيب المشهور في نحو قوله تعالى : ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [الأنعام : 149] للإشارة إلى تمييز الذين آمنوا من أهل مكّة على من بقي فيها من المشركين ، أي لو شاء لجمعهم مع المؤمنين على ما هدى إليه المؤمنين من قومهم .

والمعنى : لو شاء الله أن يخلقهم بعقول قابلة للحقّ لخلقهم بها فلَقَبِلُوا الهدى ، ولكنّه خلقهم على ما وصف في قوله : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ [الأنعام : 25] الآية ، كما تقدّم بيانه .

وقد قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربّك لجعل الناس أمّة واحدة ﴾ [هود : 118] ، وبذلك تعلم أنّ هذه مشيئة كلّية تكوينيّة ، فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى في آخر هذه السورة [148] ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ الآية .

فهذا من المشيئة المتعلّقة بالخلق والتكوين لا من المشيئة المتعلّقة بالأمر والتشريع .

وبينهما بَوْن ، سقط في مهواته من لم يقدّر له صون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى في آخر الآية ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ نهي له عن هذه الحالة ، وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة كما أن قوله ﴿ وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 48] لا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أطاعهم وقبل دينهم ، والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم ، ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل ، والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 172 ﴾

(85/231)

وقال ابن عطية :

﴿ من الجاهلين ﴾ يحتمل في أن لا يعلم أن الله ﴿ لو شاء لجمعهم ﴾ ويحتمل في أن تهتم بوجود كفرهم الذي قدره وأراده ، وتذهب به لنفسك إلى ما لم يقدر الله به ، يظهر تباين ما بين قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ وبين قوله لنوح عليه السلام ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ [هود : 46] وقد تقرر أن محمداً

صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء ، قال مكي والمهدي : والخطاب بقوله ﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ للنبي عليه السلام والمراد به أمته ، وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ ، وقال قوم : وقر نوح لسنه وشيبته ، وقال قوم : جاء الحمل أشد على محمد صلى الله عليه وسلم لقربه من الله تعالى ومكانته عنده كما يحمل العاقب على قريبه أكثر من حمله على الأجانب .

قال القاضي أبو محمد : والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجيء بحسب النبيين وإنما جاء بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما وبين أن الأمر الذي نهى عنه محمد صلى الله عليه وسلم أكبر قدراً وأخطر مواقعة من الأمر الذي واقعه نوح صلى الله عليه وسلم . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

وقال مَكّي ، والمَهْدوي : الخِطَابُ بقوله : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم والمُرَادُ أمته ، وهذا ضَعِيفٌ لا يقتضيه اللفظ . قلت وما قاله *ع* : فيه عندي نَظَرٌ ؛ لأن هذا شَأْنُ التأويل إخراج اللَّفْظِ عن ظاهره لموجب ، عَلَى أن أَبَا محمد مَكِّيًّا رحمه اللَّه نَقَلَ هذا القول عن غيره نَقْلاً ، ولفظه : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ أي : ممن لا يعلم أن اللَّه لو شَاءَ لَجَمَعَ على الهُدَى جميع خَلْقِهِ .

وقيل : معنى الخطاب لأُمَّةِ النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى : فلا تكونوا من الجاهلين ،

ومثله في القرآن كثير . انتهى من "الهِدَايَةِ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

قد يجاب عن ذلك بأن شدة حرص رسول (صلى الله عليه وسلم) على هداية قومه ونجاتهم من النار كانت أكثر من حرص نوح - عليه السلام - على نجاة ابنه يدل على ذلك قوله تعالى فى سورة الكهف ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) ﴾ وقوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) ﴾ والمعنى والله أعلم : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنا لعدم إيمان القوم .

وفى صعيد القيامة لا يذكر أحد أحداً وجميع الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) بما فيهم نوح - عليه السلام - يقول كل واحد منهم : نفسى نفسى ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : أمتى أمتى .

لذا كان الفرق بين خطاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ وخطاب نوح - عليه السلام - بقوله تعالى فى سورة هود ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) ﴾ والله أعلم .

(86/231)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ نهيٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان عليه من الحرص الشديدِ على إسلامهم والميل إلى إتيان ما يقترحونه من الآيات طمعاً في إيمانهم ، مرتَّبٌ على بيان عدمِ تعلّق مشيئته تعالى بهدايتهم ، والمعنى وإذا عرفت أنه تعالى لم يشأ هدايتهم وإيمانهم بأحد الوجهين فلا تكونَنَّ بالحرص الشديدِ على إسلامهم أو الميلِ إلى نزول مقترحاتِهم من الجاهلين بدقائق شؤونِه تعالى التي من جملتها ما ذُكر من عدم تعلُّق مشيئتِه تعالى بإيمانهم ، أما اختياراً فلعدم توجُّههم إليه ، وأما اضطراراً فلخُروجه عن الحكمة التشريعيةِ المؤسسةِ على الاختيار ، ويجوز أن يُرادَ بالجاهلين على الوجه الثاني المقترِحون ، ويُراد بالنهْي منعُه عليه الصلاة والسلام من المساعدة على اقتراحهم ، وإيرادُهم بعُنوان الجهل دون الكفر ونحوِه لتحقيق مَناطِ النهْي الذي هو الوصفُ الجامع بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(87/231)

وقال القرطبى :

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ أي من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد ، وإلى ما لا يَحِل ؛ أي لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين .

وقيل : الخطاب له والمراد الأمة ؛ فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذايتهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ تقدم قول ابن عطية في أن تأسف وتحزن على أمر أراده الله تعالى ، وأمضاه ، وعلم المصلحة فيه .

وقال أيضاً : و﴿ من الجاهلين ﴾ يحتمل في أن لا تعلم أن الله ﴿ لو شاء لجمعهم على الهدى ﴾ ويحتمل في أن تهتم بوجود كفرهم الذي قدره الله وأراده ، وتذهب بك نفسك إلى ما لم يقدر الله ، انتهى .

وضعف الاحتمال الأول بأنّه صلى الله عليه وسلم مع كمال ذاته وتوفر معلوماته وعظيم اطّلاعه على ما يليق بقدرة الحقّ جلّ جلاله ، واستيلائه على جميع مقدوراته ، لا ينبغي أن يوصف بأنه جاهل بأنه تعالى لو شاء لجمعهم على الهدى ، لأن هذا من قبيل الدين والعقائد ، فلا يجوز أن يكون جاهلاً بها ، وكأن الزمخشري قد فسر قوله : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ بأن تأتيهم آية ملجئة ، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة فقال في قوله :

﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه .

وأشار بذلك إلى الإتيان بالآية الملجئة إلى الإيمان وتقدم الكلام في الإلجاء .

وقيل : لا تجهل أنه يؤمن بك بعضهم ويكفر بعضهم ، وضعف بأن هذا ليس مما يجهله صلى الله عليه وسلم .

وقيل لا تكونن ممن لا صبر له لأن قلة الصبر من أخلاق الجاهلين ، وضعف بأنه تعالى قد أمره بالصبر في آيات كثيرة ومع أمر الله له بالصبر وبيان أنه خير يبعد أن يوصف بعد صبره بقلة الصبر .

(88/231)

وقيل : لا يشتد حزنك لأجل كفرهم فتقارب حال الجاهل بأحكام الله وقدره ، وقد صرح بهذا في قوله : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وقال قوم : جاز هذا الخطاب لأنه لقربه من الله ومكانته عنده كان ذلك حملاً عليه كما يحمل العاقل على قريبه فوق ما يحمله على الأجانب ، خشية عليه من تخصيص الإذلال .

وقال مكي والمهدوي : الخطاب له والمراد به أمته ، وتمم هذا القول بأنه كان يحزنه إصرار بعضهم على الكفر وحرمانهم ثمرات الإيمان .

قال ابن عطية : وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ ؛ انتهى .

وقيل : الرسول معصوم من الجهل والشك بلا خلاف ، ولكن العصمة لا تمنع الامتحان بالأمر والنهي ، أو لأن ضيق صدره وكثرة حزنه من الجبلات البشرية ، وهي لا ترفعها العصمة بدليل : " اللهم إني بشر وإني أغضب كما يغضب البشر " الحديث .

وقوله : " إنما أنا بشر فإذا نسيت فذكروني " انتهى .

والذي أختاره أن هذا الخطاب ليس للرسول ، وذلك أنه تعالى قال : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ فهذا إخبار وعقد كلّي أنه لا يقع في الوجود إلا ما شاء وقوعه ، ولا يختص هذا الإخبار بهذا الخطاب بالرسول بل الرسول عالم بمضمون هذا الإخبار ، فإنما ذلك للسامع فالخطاب والنهي في ﴿ فلا تكونن ﴾ للسامع دون الرسول فكأنه قيل : ولو شاء الله أيها السامع الذي لا يعلم أن ما وقع في الوجود بمشيئة الله جمعهم على الهدى لجمعهم عليه ، فلا تكونن أيها السامع من الجاهلين بأن ما شاء الله إيقاعه وقع ، وأن الكائنات معذوقة بإرادته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(89/231)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ أي إذا عرفت أنه سبحانه لم يشأ هدايتهم وإيمانهم فلا تكن بالحرص الشديد على إسلامهم أو الميل إلى نزول مقترحاتهم من قوم ينسبون إلى الجهل بدقائق شؤونه تعالى ، وجوز أن يراد بالجاهلين على ما نقل عن المعتزلة المقترحون ، ويراد بالنهي منعه صلى الله عليه وسلم من المساعدة على اقتراحهم ، وإيرادهم بعنوان الجهل دون الكفر لتحقق مناط النهي .

وقال الجبائي : المراد لا تجزع في مواطن الصبر فيقارب حالك حال الجاهلين بأن تسلك سبيلهم والأول أولى ، وفي خطابه سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب دون خطابه بما خوطب به نوح عليه السلام من قوله سبحانه : ﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 46] إشارة إلى مزيد شفقته صلى الله عليه وسلم واشتباب حرصه عليه الصلاة والسلام فافهم هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فلا تكوّنن من الجاهلين ﴾ تذييل مفرّع على ما سبق .

والمراد بـ ﴿ الجاهلين ﴾ يجوز أن يكون من الجهل الذي هو ضدّ العلم ، كما في قوله تعالى خطاباً لنوح ﴿ إنّي أعظُك أن تكون من الجاهلين ﴾ [هود : 46] ، وهو ما حمل عليه المفسّرون هنا .

ويجوز أن يكون من الجهل ضدّ الحلم ، أي لا تضق صدراً بإعراضهم .

وهو أنسب بقوله : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ﴾ .

وإرادة كلا المعنيين ينتظم مع مفاد الجملتين : جملة : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ﴾

وجملة ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ .

ومع كون هذه الجملة تذييلاً للكلام السابق فالمعنى : فلا يَكْبُرْ عليك إعراضهم ولا تضق به صدراً ، وأيضاً فكن عالماً بأنّ الله لو شاء لجمعهم على الهدى .

وهذا إنباء من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأمر من علم الحقيقة يختصّ بحالة خاصّة فلا يطّرد في غير ذلك من مواقف التشريع .

وإنّما عدل على الأمر بالعلم لأنّ النّهي عن الجهل يتضمّنه فيتقرّر في الذهن مرتين ، ولأنّ في النهي عن الجهل بذلك تحريضاً على استحضار العلم به ، كما يقال للمتعلّم : لا تنسى هذه المسألة .

وليس في الكلام نهي عن شيء تلبّس به الرسول صلى الله عليه وسلم كما توهّمه جمع من المفسّرين ، وذهبوا فيه مذاهب لا تستبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ

﴾

وقال الشوكانى :

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ فإن شدّة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ، ولست منهم ، فدع الأمور مفوّضة إلى عالم الغيب والشهادة ، فهو أعلم بما فيه المصلحة ، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التي لو بدا لهم بعضها ، لكان إيمانهم بها اضطراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

فائدة

قال فى البحر المديد :

قال في نوادر الأصول : إن الخطاب به تربية له ، وترقيةُ من حال إلى حال ، كما يُربَّى أهل التقريب ويُنقلُون من ترك الاختيار ، فيما ظاهرُه برٌّ وقربة . أ هـ

قلت : تشديد الخطاب على قدر علو المقام ، كما هو معلوم من الأب الشفيق أو الشيخ الناصح ، وقد قال لنوح عليه السلام : ﴿ إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هُود : 46] . وهذا الخطاب أشد لعلو مقامه صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 113.114 ﴾

وقال فى روح البيان :

وفي الآية تربية وتأديب للنبي عليه السلام من الله تعالى كما قال عليه السلام : "إن الله أدبني

فأحسن تأديبي" لئلا يبالغ في الشفقة على غير أهلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 35 ﴾

وقال الشيخ محمد أبو زهرة :

(ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) .

إن النبى كان حريصا على أن يؤمن كل الذين يدعوهم إلى دعوته ، ويظن أن الحجة وحدها كافية لاستجابتهم ، فبين سبحانه وتعالى أن حكمته اقتضت أن يكون فى الوجود أشرار وأخيار من الناس ، حتى يبتلى الأخيار بالأشرار ، وأن سنته فى خلقه اقتضت أن يكون فى الخلق إبليس يوسوس فى صدور الناس ويكون الكفاح بينهم ، وأن يبلوهم بالشر والخير فتنة . ولو شاء سبحانه أن يكونوا جميعا مهديين لجمعهم على الهدى والتقوى ، ولكنه لم يشأ ، كما قال تعالى فى آية أخرى : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يونس ، .

(91/231)

وما دامت إرادة الله تعالى لا بد أن يكون فى عباده أخيار يصدقون ويؤمنون ، ومعرضون جاحدون ، فادع إلى سبيل الله وانتظر أن يكون المناوئ والمجيب ، ولا تكونن من الجاهلين

بحكمة الله تعالى ، وليس الجهل بأمر شرعى حتى لا يكون محلا للنهى ، إنما هو تنبيه إلى أمر تكوينى ، كان التنبيه للنبى (صلى الله عليه وسلم) مؤكدا ، وهو تنبيه لغيره بالأولى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 2487 ﴾

(92/231)

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾

خاطب النبي صلى الله عليه وسلم وأراد به قومه فقال : إن عظم عليك إعراضهم عن الإيمان ، ولا تصبر على تكذيبهم إياك ﴿ فَإِنِ استطعت أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الأرض ﴾ يعني : إن قدرت أن تطلب سِرْباً في الأرض والنافقاء إحدى جحري اليربوع ﴿ أَوْ سُلَّماً فِى السماء ﴾ يعني : مصعداً إلى السماء ﴿ وَإِن كَانَ ﴾ فافعل ذلك على وجه الإضمار . وهذا كما قال في آية أخرى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ الله فِى الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآء ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : 15] الآية .

وروى محمد بن المنكدر : أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله أمر السماء أن

تطيعك ، وأمر الأرض أن تطيعك ، وأمر الجبال أن تطيعك ، فإن أحببت أن ينزل عذاباً عليهم قال : " يا جبريل أؤخر عن أمتي لعل الله أن يتوب عليهم "

ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَاء لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى ﴾ يعني : لهداهم إلى الإيمان .

ويقال : ولو شاء لاضطرهم إلى الهدى كما قال في آية أخرى ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء ءَايَةً فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ [الشعراء : 4] ومعناه : ولو شاء الله لجمعهم على الهدى قهراً وجبراً ، ولكن ما فعل وكلفهم وتركهم فاختيارهم .

ثم قال : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ يعني : بأنه لو شاء لهداهم .

وقال الضحاك : يعني : القدر خيره وشره من الله تعالى ، فلا تجهل معرفة ذلك بعد البيان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(93/231)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ ﴾ أي : شق وثقل ﴿ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أي : عن الإيمان بما جئت به من القرآن ، ونأيهم عنه ، ونهيهم الناس عنه ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ ﴾

أي : سَرَبًا ومنفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض ، حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ ﴾ أي : مصعداً تعرج به فيها ﴿ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أي : مما اقترحوه فافعل .

وحَسُنَ حذف الجواب لعلم السامع به . أي : لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة ، إذ يصير الإيمان ضرورياً غير نافع .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ أي : ولكنه شاء بمقتضى جلاله وجماله ، إظهار غاير قهره ، وغاية لطفه ﴿ فَلا تَكُونَنَّ ﴾ أي : بالحرص على إيمانهم ، أو الميل إلى نزول مقترحهم : ﴿ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : بما تقتضيه شؤونه تعالى ، التي من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم . إما اختياراً ، فلعدم توجههم إليه . وإما اضطراراً ، فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختبار .

تنبيهات :

الأول – في هذه الآية ما لا يخفى من الدلالة على المبالغة في حرصه صلى الله عليه وسلم على إسلام قومه . وترامية عليه ، إلى حيث لو قَدَرَ أن يأتيهم بآية من تحت الأرض ، أو من فوق السماء ، لأتى بها . رجاءَ إيمانهم ، وشفقة عليهم .

(94/231)

الثاني – قال الناصر في " الانتصاف " : هذه الآية كافلة بالرد على القدرية في زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن . ألا ترى أن الجملة مصدرة بـ (لو) ، ومقتضاها امتناع جوابها ، لامتناع الواقع بعدها . فامتناع اجتماعهم علي الهدى ، إذاً إنما كان لامتناع المشيئة . فمن ثم ترى الزمخشريّ يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة ، لا يكون الإيمان معها اختياراً ، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وأن مشيئته اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ، ثابتة غير ممتنعة ، ولكن لم يقع متعلقها . وهذه من خباياه ومكامنه فاحذرها –والله الموفق – .

الثالث –لم يقل (لاَ تَكُنْ جَاهِلاً) بل من قوم ينسبون إلى الجهل ، تعظيماً لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن لم يُسْند الجهل إليه ، للمبالغة في نفيه عنه . وما فيه من شدة الخطاب ، سره تبعيد جنابه الكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزعُ في مواطن الصبر ، مما لا يليق إلا بالجاهلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 354 . 355 ﴾

(95/231)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَقِيقَةَ مَا يَغُرُّ النَّاسَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُوَ التَّمَتُّعُ الْخَاصُّ بِهَا ، وَالْمُقَابَلَةُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ حَظِّ الْمُتَّقِينَ لِلَّهِ فِيهَا مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ ، إِثْرَ بَيَانِ مَا يَلْقَاهُ أُولَئِكَ الْمَفْتُونُونَ بِالْأُولَى عِنْدَمَا يَصِيرُونَ إِلَى الثَّانِيَةِ الَّتِي كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهَا فَقَالَ :

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ) اللَّعِبُ : هُوَ الْفِعْلُ الَّذِي لَا يَقْصِدُ بِهِ فَاعِلُهُ مَقْصِدًا صَحِيحًا مِنْ تَحْصِيلِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ ، كَأَفْعَالِ الْأَوْلَادِ الصِّغَارِ الَّتِي يَتَلَذَّذُونَ بِهَا لِذَاتِهَا ، فَمَا يُعَالِجُونَهُ مِنْ كَسْرِ حَبَّةِ بَقْلٍ أَوْ إِزَالَةِ غِشَاءٍ عَنْ قِطْعَةِ حَلْوَى

(96/231)

لِأَجْلِ أَكْلِهَا لَا يُسَمَّى لَعِبًا ، وَاللَّهْوُ : مَا يَشْغَلُ الْإِنْسَانَ عَمَّا يَعْنِيهِ وَيُهِمُّهُ ، وَيُعَبِّرُ عَنْ كُلِّ مَا بِهِ اسْتِمْتَاعٌ بِاللَّهْوِ ، كَذَا قَالَ الرَّاغِبُ ، وَفِي اللِّسَانِ : اللَّهْوُ مَا لَهَوْتَ بِهِ ، وَلَعِبْتَ بِهِ ، وَشَغَلَكَ مِنْ هَوًى وَطَرَبٍ وَنَحْوِهَا ، ثُمَّ قَالَ : يُقَالُ لَهَوْتُ بِالشَّيْءِ أَلْهُو بِهِ لَهْوًا وَتَلَهَّيْتُ بِهِ - إِذَا لَعِبْتَ بِهِ وَتَشَاغَلْتَ وَغَفَلْتَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ . وَأَقُولُ : إِنَّ الْأَصْلَ فِي اللَّهْوِ إِذَا أُطْلِقَ يُرَادُ بِهِ مَا يَشْغَلُ الْإِنْسَانَ مِنْ لَعِبٍ وَطَرَبٍ وَدَوَاعِي سُرُورٍ ، وَارْتِيَاحٍ عَمَّا يُتْعِبُهُ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ مِنَ الْجِدِّ أَوْ يُحْزِنُهُ أَوْ يَسُوءُهُ مِنْ خُطُوبِ الدُّنْيَا وَنَكَبَاتِهَا . ثُمَّ تُوُسِّعَ بِهِ فَصَارَ يُطْلَقُ أَحْيَانًا عَلَى مَا يَسُرُّ

وَيَلَذُّ وَإِنْ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ التَّشَاغُلُ عَنْ أُمُورِ الْجِدِّ ، كَمُغَازَلَةِ النِّسَاءِ وَالِاسْتِمْتَاعِ بِهِنَّ ، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

أَلَا زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ الْيَوْمَ أَنَّنِي . . . كَبِرْتُ وَأَلَّا يُحْسِنَ اللَّهْوَ أَمْثَالِي .

(97/231)

وَقَدْ يُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى جِدٍّ يُتَشَاغَلُ بِهِ عَنْ جِدٍّ آخَرَ ، وَلَكِنَّ الَّذِي عُرِفَ اسْتِعْمَالُهُ فِي ذَلِكَ الْفِعْلِ لَا الْمَصْدَرُ ، فَلَا يُقَالُ : إنَّ هَذَا الْفِعْلَ لَهْوٌ ، بَلْ يُقَالُ لَهَوْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا ، أَوْ تَلَهَّيْتُ أَوِ الْتَهَيْتُ بِهِ عَنْهُ . وَمِنْهُ (فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) (80 : 10) وَإِنَّمَا تَشَاغَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الْأَعْمَى بِالتَّصَدِّي لِدَعْوَةِ كُبَرَاءِ قُرَيْشٍ إلَى الْإِسْلَامِ لَا بِشَيْءٍ فِيهِ طَرَبٌ وَلَا سُرُورٌ نَفْسِيٌّ يُسَمَّى لَهْوًا بِإِطْلَاقٍ .

وَالْمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا الَّتِي قَالَ الْكُفَّارُ : إنَّهُ لَا حَيَاةَ غَيْرُهَا - وَهِيَ مَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنَ اللَّذَّاتِ الْمَقْصُودَةِ عِنْدَهُمْ لِذَاتِهَا ، أَوِ الْمُلْهِيَةِ لَهُمْ عَنْ هُمُومِهَا وَأَكْدَارِهَا - لَيْسَتْ إلَّا لَعِبًا وَلَهْوًا أَوْ كَاللَّعِبِ وَاللَّهْوِ فِي عَدَمِ اسْتِتْبَاعِهَا لِشَيْءٍ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَنَافِعِ يَكُونُ فِي حَيَاةٍ بَعْدَهَا ، أَوْ هِيَ دَائِرَةٌ بَيْنَ عَمَلٍ لَا يُفِيدُ فِي الْعَاقِبَةِ - فَهُوَ كَلَعِبِ الْأَطْفَالِ - وَبَيْنَ عَمَلٍ لَهُ فَائِدَةٌ عَاجِلَةٌ سَلْبِيَّةٌ ، كَفَائِدَةِ اللَّهْوِ هُوَ دَفْعُ الْهُمُومِ وَالْآلَامِ ، وَيُوَضِّحُ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ

: إِنَّ جَمِيعَ لَذَّاتِ الدُّنْيَا سَلْبِيَّةٌ ؛ إِذْ هِيَ إِزَالَةُ الْآلَامِ ، فَلَذَّةُ الطَّعَامِ مُزِيلَةٌ لِأَلَمِ الْجُوعِ وَبِقَدْرِ هَذَا الْأَلَمِ تَعْظُمُ اللَّذَّةُ فِي إِزَالَتِهِ ، وَلَذَّةُ شُرْبِ الْمَاءِ مُزِيلَةٌ لِأَلَمِ الْعَطَشِ كَذَلِكَ .

(98/231)

وَأَمَّا شُرْبُ الْمُنَبِّهَاتِ وَالْمُخَدِّرَاتِ ؛ كَالْخَمْرِ وَالْحَشِيشِ وَالدُّخَانِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَوَّلًا بِالتَّكَلُّفِ وَاحْتِمَالِ الْمَكْرُوهِ وَالْأَلَمِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا مَكْرُوهَةٌ بِالطَّبْعِ كَمَا أَخْبَرَ الْمُجَرِّبُونَ ، وَإِنَّمَا يَتَكَلَّفُونَهُ طَلَبًا لِلَذَّةٍ مُتَوَهَّمَةٍ يُقَلِّدُ بِهَا الشَّارِبُ غَيْرَهُ ، ثُمَّ يَصِيرُ الْمُؤْلِمُ بِالتَّعَوُّدِ مُلَائِمًا بِإِزَالَتِهِ لِلْأَلَمِ الْمُتَوَلِّدِ مِنْهُ

إِزَالَةً مُؤَقَّتَةً . ذَلِكَ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ سُمُومٌ مَكْرُوهَةٌ

فِي نَفْسِهَا ، وَمَتَى أَثَّرَ سُمُّهَا فِي الْأَعْصَابِ بِالتَّنْبِيهِ الزَّائِدِ وَغَيْرِهِ أَعْقَبَ ذَلِكَ ضِدُّهُ مِنَ الْفُتُورِ وَالْأَلَمِ ، وَهُمَا يُطَارَدَانِ بِالْعَوْدِ إِلَى الشُّرْبِ ، كَمَا قَالَ أَشْعَرُ السِّكِّيرِينَ وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى تَمْثِيلِ تَأْثِيرِ السُّكْرِ

وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وَقَالَ :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ . . . وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

(99/231)

وَهَذِهِ اللَّذَّةُ الْأُولَى الَّتِي ذَكَرَهَا وَهْمِيَّةٌ كَمَا قُلْنَا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَاقَهَا بَلْ تَوَهَّمَهَا ، وَقَلَّدَ بِهَا الْمَفْتُونِينَ بِالسُّكْرِ . وَقَدْ يَقْصِدُ بِالسُّكْرِ إزَالَةَ آلَامٍ أُخْرَى غَيْرِ أَلَمِ سُمِّ الْخَمْرِ كَالْهُمُومِ وَالْأَكْدَارِ ، فَإِنَّ السَّكْرَانَ يَغِيبُ عَنْ عَقْلِهِ وَوِجْدَانِهِ فَلَا يَشْعُرُ بِآلَامِهَا فِي تِلْكَ الْحَالِ ، وَقَدْ يَتَضَاعَفُ عَلَيْهِ أَلَمُ الشُّعُورِ وَالْوِجْدَانِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ فِي آلَامٍ أُخْرَى بَدَنِيَّةٍ كَالصُّدَاعِ وَالْغَثَيَانِ ، أَوْ نَفْسِيَّةٍ كَالَّتِي فَرَّ مِنْهَا ، أَوْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا ، وَيَصْدُقُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ :

إذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ . . . فَأَقْتَلُ مَا أَعَلَّكَ مَا شَفَاكَا .

(100/231)

وَقَدْ قِيلَ : إنَّ سَمَاعَ الْغِنَاءِ وَآلَاتِ الطَّرَبِ لَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ؛ لِأَنَّهَا لَذَّةٌ رُوحِيَّةٌ لَا تُعَدُّ دَاعِيَتُهَا مِنَ الْآلَامِ ، وَمَنْ دَقَّقَ النَّظَرَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَلِمَ أَنَّ السَّمَاعَ لَيْسَ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ الشَّخْصِيَّةِ وَلَا النَّوْعِيَّةِ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ دَاعِيَتُهُ ضَعِيفَةً لَيْسَتْ كَدَاعِيَةِ

الْغِنَاءِ وَالْوِقَاعِ ، فَكَانَ فَقْدُهُ غَيْرَ مُؤْلِمٍ إلَّا لِمَنِ اشْتَدَّ وُلُوعُهُ بِهِ ، وَهَذَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْقَاعِدَةِ . وَلَذَّةُ السَّمَاعِ عِنْدَ غَيْرِهِ - وَهُمُ الْجُمْهُورُ - ضَعِيفَةٌ بِقَدْرِ ضَعْفِ الدَّاعِيَةِ ، فَالسَّمَاعُ لَا يُعَدُّ مِنْ أَرْكَانِ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَلَا مِنْ مَقَاصِدِهَا الذَّاتِيَّةِ لِلنَّاسِ ، وَإِنَّمَا يَسْتَرْوِحُ إلَيْهِ أَكْثَرُ أَهْلِهِ لِتَرْوِيحِ النَّفْسِ مِنْ آلَامِ الْحَيَاةِ لَا مِنْ أَلَمِ الدَّاعِيَةِ إلَيْهِ ، وَإِنَّمَا غَلَبَ اسْمُ " اللَّهْوِ " عَلَيْهِ وَاسْمُ " الْمَلَاهِي " عَلَى آلَاتِهِ ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْصُودٍ لِذَاتِهِ .

وَفِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرُ يَصِحُّ جَمْعُهُ مَعَ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ أَنَّ مَتَاعَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْخَاصَّ بِهَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، أَجَلُهُ قَصِيرٌ ، لَا يَصِحُّ أَنْ يَغْتَرَّ بِهِ الْعَاقِلُ الرَّاشِدُ ، فَهُوَ لَيْسَ إلَّا كَلَعِبِ الْأَطْفَالِ فِي قِصَرِ مُدَّتِهِ مِنْ حَيْثُ إنَّ الطِّفْلَ يُسْرِعُ إلَيْهِ الْمَلَلُ مِنْ كُلِّ لُعْبَةٍ ، أَوْ مِنْ حَيْثُ إنَّ زَمَنَ الطُّفُولَةِ قَصِيرٌ ، كُلُّهُ غَفْلَةٌ ، أَوْ كَلَهْوِ الْمَهْمُومِ فِي قِصَرِ مُدَّتِهِ ، عَلَى كَوْنِهِ غَيْرَ مَطْلُوبٍ لِذَاتِهِ .

(101/231)

(وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) هَذَا خَبَرٌ مُؤَكَّدٌ بِلَامِ الْقَسَمِ ، يُفِيدُ بِمُقَابَلَتِهِ أَنَّ نَعِيمَ الْآخِرَةِ لَيْسَ كَنَعِيمِ الدُّنْيَا لَعِبًا وَلَهْوًا يَعْبَثُ بِهِ الْعَابِثُونَ ، أَوْ يَتَشَاغَلُونَ وَيَتَسَلَّوْنَ بِهِ عَنِ الْأَكْدَارِ وَالْهُمُومِ ، بَلْ هُوَ مِمَّا يَقْصِدُهُ الْعَاقِلُ لِفَوَائِدِهِ وَمَنَافِعِهِ الثَّابِتَةِ الدَّائِمَةِ - وَأَنَّ تِلْكَ الدَّارَ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الشِّرْكَ وَالشُّرُورَ الْمُحَرَّمَةَ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ لِلْمُشْرِكِينَ

الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ الَّذِينَ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنْ حَيَاتِهِمْ إِلَّا التَّمَتُّعَ الَّذِي هُوَ مِنَ اللَّعِبِ فِي قِصَرِ مُدَّتِهِ ، وَعَدَمِ فَائِدَتِهِ ،

أَوْ مِنْ قَبِيلِ اللَّهْوِ فِي كَوْنِهِ دَفْعًا لِأَلَمِ الْهَمِّ وَالْكَدَرِ ، أَوْ ضَجَرِ الشَّقَاءِ وَالتَّعَبِ ، دَعْ مَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْمَعَاصِي الْمُفْضِيَةِ إِلَى عَذَابِ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ نَعِيمَ الْآخِرَةِ الْبَدَنِيَّ أَعْلَى وَأَكْمَلُ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا فِي ذَاتِهِ ، وَفِي دَوَامِهِ وَثَبَاتِهِ ، وَفِي كَوْنِهِ إِيجَابِيًّا لَا سَلْبِيًّا ، وَفِي كَوْنِهِ غَيْرَ مَشُوبٍ وَلَا مُنَغَّصٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْآلَامِ ، وَفِي كَوْنِهِ لَا يَعْقُبُهُ ثِقْلٌ ، وَلَا مَرَضٌ ، وَلَا إِزَالَةُ أَقْذَارٍ ، فَمَا الْقَوْلُ بِنَعِيمِهَا الرُّوحَانِيِّ مِنْ لِقَاءِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَكَمَالِ مَعْرِفَتِهِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ بِرُؤْيَتِهِ ؟ أَيْ أَتُغْفِلُونَ فَلَا تَعْقِلُونَ هَذَا الْفَرْقَ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ بِالْآخِرَةِ ؟ أَمَا لَوْ عَقَلْتُمْ لَآمَنْتُمْ .

(102/231)

قَالَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلَاهُمَا . . . لَا تُبْعَثُ الْأَمْوَاتُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا

إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ . . . أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا .

قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ) بِإِضَافَةِ الصِّفَةِ لِلْمَوْصُوفِ لِمُغَايَرَتِهَا لَهُ ، وَلَا نِزَاعَ بَيْنَ النُّحَاةِ فِي وُقُوعِ مِثْلِ هَذَا فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ ، وَحَسْبُكَ وُرُودُهُ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ الْكُوفِيُّونَ وَالْبَصْرِيُّونَ فِي اطِّرَادِهِ وَطَرِيقَةِ إِعْرَابِهِ ، فَالْأَوَّلُونَ يُعْرِبُونَهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ ، وَالْآخَرُونَ

يَرَوْنَ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ إِلَّا بِمُسَوِّغٍ ، وَهُوَ هُنَا اسْتِعْمَالُ " الْآخِرَةِ " اسْتِعْمَالَ الْأَسْمَاءِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى) (93 : 4) أَوْ مُرَاعَاةُ مُضَافٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ : وَلَدَارُ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَصِحُّ تَقْدِيرُ النَّشْأَةِ أَيْضًا ، وَقَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ " يَعْقِلُونَ " بِالْيَاءِ التَّحْتِيَّةِ مُرَاعَاةً لِلْغَيْبَةِ ، وَبَعْضُهُمْ بِالتَّاءِ الْفَوْقِيَّةِ لِلْخِطَابِ .

(103/231)

وَمِنْ مَبَاحِثِ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ : أَنَّهُ وَرَدَ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي " سُورَةِ مُحَمَّدٍ " : (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) (47 : 36) وَقَوْلُهُ فِي " سُورَةِ الْحَدِيدِ " : (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) (57 : 20) وَقَدْ قَدَّمَ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ اللَّعِبَ عَلَى اللَّهْوِ ، وَقَالَ تَعَالَى فِي " سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ " : (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (29 : 64) وَقَدْ قَدَّمَ فِي هَذِهِ ذِكْرَ اللَّهْوِ عَلَى اللَّعِبِ ، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ لَا يُعْنَوْنَ بِبَيَانِ نُكْتَةٍ لِذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ بِالْوَاوِ لَا يُفِيدُ تَرْتِيبًا ، بَلْ مُطْلَقَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يَقَعُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا لِفَائِدَةٍ ، وَقَدْ نَقَلَ السَّيِّدُ الْأَلُوسِيُّ فِي " رُوحِ الْمَعَانِي " كَلَامًا رَكِيكًا

فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الِاسْتِعْمَالَيْنِ عَزَاهُ إلَى الدُّرَّةِ ، وَقَالَ فِي آخِرِهِ : قَالَهُ مَوْلَانَا شِهَابُ الدِّينِ فَلْيُفْهَمْ ، وَهُوَ أَمْرٌ بِمَا لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ فَهْمِ ذَلِكَ الْكَلَامِ الْمُضْطَرِبِ الْمُبْهَمِ .

(104/231)

وَالَّذِي يَظْهَرُ لَنَا فِي نُكْتَةِ ذَلِكَ أَنَّ تَقْدِيمَ اللَّعِبِ عَلَى اللَّهْوِ لَا يَحْتَاجُ إلَى تَعْلِيلٍ ؛ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الْمُقَدَّمُ فِي الْوُجُودِ ، وَقَدْ فَصَّلَتْ آيَةُ الْحَدِيدِ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْفِطْرَةُ الْبَشَرِيَّةُ ، فَقَدَّمَ فِيهَا اللَّعِبَ لِأَنَّ أَوَّلَ عَمَلٍ لِلطِّفْلِ يَلَذُّ لَهُ هُوَ اللَّعِبُ الْمَقْصُودُ عِنْدَهُ لِذَاتِهِ ،

(105/231)

وَذَكَرَ بَعْدَهُ اللَّهْوَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْقَصْدِ الَّذِي لَا يَأْتِي مِنَ الطِّفْلِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ إلَّا لِذِي الْفِكْرِ وَبَعْدَهُ الزِّينَةَ الَّتِي هِيَ شَأْنُ سِنِّ الصِّبَا ، وَبَعْدَهُ التَّفَاخُرَ الَّذِي هُوَ شَأْنُ الشُّبَّانِ ، وَبَعْدَهُ التَّكَاثُرَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ الَّذِي هُوَ شَأْنُ الْكُهُولِ وَالشُّيُوخِ ، فَالنُّكْتَةُ يَنْبَغِي أَنْ تُلْتَمَسَ فِي آيَةِ الْعَنْكَبُوتِ لَا فِي آيَتَيْ مُحَمَّدٍ وَالْأَنْعَامِ ، وَهِيَ قَدْ وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ إقَامَةِ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ

عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، فَذَكَرَ فِيهَا اللَّهْوَ قَبْلَ اللَّعِبِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّدَلِّي الْمُؤْذِنِ بِالِانْتِقَالِ مِنَ الشَّيْءِ إِلَى مَا هُوَ دُونَهُ فِي نَظَرِ الْعُقَلَاءِ ، فَإِنَّ اللَّعِبَ مِنَ الْعَاقِلِ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِهِ الْعَبَثُ أَقْبَحُ مِنَ اللَّهْوِ ؛ إِذِ اللَّهْوُ تُقْصَدُ بِهِ فَائِدَةٌ وَلَوْ سَلْبِيَّةً ، وَاللَّعِبُ هُوَ الْعَبَثُ الَّذِي لَا تُقْصَدُ بِهِ فَائِدَةٌ أَلْبَتَّةَ ، فَهُوَ شَأْنُ الْأَطْفَالِ لَا الْعُقَلَاءِ الْعَالِمِينَ بِالْمَصَالِحِ ، الَّذِينَ يَقْصِدُونَ بِكُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، إِمَّا دَفْعَ بَعْضِ الْمَضَارِّ ، وَإِمَّا تَحْصِيلَ بَعْضِ الْمَنَافِعِ ; وَلِذَلِكَ بَيَّنَ جَهْلَهُمْ بِقَوْلِهِ : (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (29 : 64) وَقَالَ فِي الْحُجَّةِ الَّتِي قَبْلَهَا (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (29 : 63) وَلَا حَاجَةَ إِلَى مِثْلِ هَذَا التَّدَلِّي فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ، فَإِنَّهَا لَمْ تَرِدْ فِي سِيَاقِ حُجَجِ الْإِيمَانِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي يُرَادُ بِهَا بَيَانُ ضَعْفِ نَظَرِ الْمُشْرِكِينَ وَجَهْلِهِمْ ،

(106/231)

وَإِنْ ذُيِّلَتْ بِالتَّوْبِيخِ عَلَى عَدَمِ عَقْلِ مَا قَرَّرَ فِيهَا وَفِي هَذَا التَّذْيِيلِ ، بَلْ وَرَدَتْ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الدُّنْيَا بَعْدَ الْإِعْلَامِ بِمَا يُصِيبُ الْمَفْتُونِينَ بِهَا فِي الْآخِرَةِ بِحَصْرِ هَمِّهِمْ فِي لَذَّاتِهَا ، وَتَلَاهُ بَيَانُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَهُمْ

وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ فِيهَا ، فَفِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ - كَآيَةِ " سُورَةِ مُحَمَّدٍ " - يَحْسُنُ التَّرْتِيبُ الْوُجُودِيُّ ، بِتَقْدِيمِ اللَّعِبِ عَلَى اللَّهْوِ الَّذِي هُوَ طَرِيقُ التَّرَقِّي ; لِأَنَّهُ انْتِقَالٌ مِنْ

عَبَثٍ لَيْسَ لَهُ عَاقِبَةٌ نَافِعَةٌ إلَى لَهْوٍ فَائِدَتُهُ سَلْبِيَّةٌ عَاجِلَةٌ ; وَلِذَلِكَ بَيَّنَ بَعْدَهُ أَنَّ عَمَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ فِيهَا - وَمِنْهُ تَمَتُّعُهُمْ بِلَذَّاتِهَا - يُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَأَنَّهَا بِسَبَبِ اعْتِصَامِهِمْ فِيهَا بِالتَّقْوَى ، خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الْعَاجِلَةِ الدُّنْيَا .

(107/231)

هَذَا وَإِنَّنِي عِنْدَ بُلُوغِي هَذَا الْبَحْثَ ظَفِرْتُ بِكِتَابِ (دُرَّةِ التَّنْزِيلِ وَغُرَّةِ التَّأْوِيلِ) لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخَطِيبِ الْإِسْكَافِيِّ ، فَرَاجَعْتُهُ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ فَهْمِي عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي نَقَلَ الْأَلُوسِيُّ عَنِ الشِّهَابِ عَنْهُ مَا لَا يَكَادُ يُفْهَمُ . وَمَا ذَلِكَ إلَّا لِلنَّقْلِ بِالْمَعْنَى دُونَ النَّصِّ ، الَّذِي يَكْثُرُ بِسَبَبِهِ الْخَطَأُ فِي النَّقْلِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْإِسْكَافِيُّ هَذَا الْبَحْثَ عِنْدَ ذِكْرِ الْآيَةِ الثَّامِنَةِ مِمَّا أَوْرَدَهُ مِنْ " سُورَةِ الْأَنْعَامِ " (وَهِيَ الْآيَةُ ال70) الْوَارِدَةُ فِي اتِّخَاذِ الْكُفَّارِ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا - مَعَ مَا يُقَابِلُهَا فِي " سُورَةِ الْأَعْرَافِ " (7 : 51) مِنِ اتِّخَاذِهِمْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا . وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ ذَكَرَ آيَتَيِ الْحَدِيدِ وَالْعَنْكَبُوتِ اللَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا مِثْلُ هَذَا الِاخْتِلَافِ ، وَنَسِيَ ذِكْرَ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا . وَسَيَأْتِي ذِكْرُ اتِّخَاذِ الدِّينِ لَعِبًا وَلَهْوًا فِي مَحَلِّهِ . وَقَدِ اعْتَمَدَ الْخَطِيبُ فِي تَفْسِيرِ اللَّهْوِ فِي الْآيَاتِ أَنَّهُ اجْتِلَابُ الْمَسَرَّةِ بِمُخَالَطَةِ النِّسَاءِ وَهُوَ مُخْطِئٌ فِي ذَلِكَ . وَقَالَ فِي تَعْلِيلِ تَقْدِيمِ اللَّعِبِ عَلَى اللَّهْوِ فِي " سُورَةِ

الْحَدِيدِ " : إِنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِمَنِ اشْتَغَلَ بِهَا وَلَمْ يَتْعَبْ لِغَيْرِهَا مَقْسُومَةٌ مِنَ الصِّبَا وَهُوَ وَقْتُ اللَّعِبِ ، وَبَعْدَهُ اللَّهْوُ وَهُوَ التَّرْوِيحُ عَنِ النَّفْسِ

(108/231)

بِمُلَاعَبَةِ النِّسَاءِ ، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ أَخْذُ الزِّينَةِ لَهُنَّ وَلِغَيْرِهِنَّ . وَمِنْ أَجْلِ الزِّينَةِ نَشَأَتْ مُبَاهَاةُ الْأَكْفَاءِ ، وَمُفَاخِرَةُ الْأَشْكَالِ وَالنُّظَرَاءِ ، ثُمَّ بَعْدَهُ الْمُكَاثَرَةُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، فَتَرَتَّبَتِ الْحَيَاةُ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، فَوَجَبَ تَقْدِيمُ حَالِ اللَّعِبِ عَلَى اللَّهْوِ . اهـ . ثُمَّ قَالَ فِي آيَةِ الْعَنْكَبُوتِ : إِنَّهُ لَا يُرَادُ بِهَا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . إِلَخْ ثُمَّ قَالَ مَا نَصُّهُ :

" بَلِ الْمُرَادُ الْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِ قِصَرِ مُدَّةِ الدُّنْيَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى مُدَّةِ الْأُخْرَى ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : مَا أَمَدُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَّا كَأَمَدِ أَزْمِنَةِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ ، وَهِيَ أَزْمِنَةٌ تَسْتَقْصِرُ لِشُغْلِ النَّفْسِ بِحَلَاوَةِ مَا يُسْتَعْجَلُ ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا . . . بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَارِ .

وَقَالَ الْمُتَأَخِّرُ :

وَلَيْلَةٍ إِحْدَى اللَّيَالِي الْغُرِّ . . . لَمْ تَكُ غَيْرَ شَفَقٍ وَفَجْرِ .

(109/231)

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مَا ذَكَرْتُ قَبْلُ : مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ بَعْدُ مِنْ قَوْلِهِ : (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) (29 : 64) أَيْ إِنَّ حَيَاتَهَا تَبْقَى أَبَدًا ، وَلَا تُعْرَفُ أَبَدًا ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ اللَّهْوَ هُنَا عَلَى اللَّعِبِ لِأَنَّ الْأَزْمِنَةَ الَّتِي يُقَصِّرُهَا اللَّهْوُ أَكْثَرُ مِنَ الْأَزْمِنَةِ الَّتِي يُقَصِّرُهَا اللَّعِبُ ؛ لِأَنَّ التَّشَاغُلَ بِهِ أَكْثَرُ . فَلَمَّا كَانَتْ مُعْظَمَ مَا يَسْتَقْصِرُ وَجَبَ تَقْدِيمُ مَا يَكْثُرُ عَلَى مَا هُوَ دُونَهُ فِي الْكَثْرَةِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ آخَذُ بِالشَّبَهِ ، وَأَبْلَغُ فِي وَصْفِ الْمُشَبَّهِ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ النَّاسَ أَزْمِنَتُهُمُ الْمَشْغُولَةُ بِاللَّهْوِ أَكْثَرُ مِنْ أَزْمِنَتِهِمُ الْمَشْغُولَةِ بِاللَّعِبِ ، وَأَنَّ طِيبَهَا لَهُمْ يُخَيِّلُ قِصَرَهَا إِلَيْهِمْ ، وَيَتَفَاوَتُ طِيبُهَا عَلَى حَسَبِ تَفَاوُتِ مَيْلِ النَّفْسِ إِلَى مَحْبُوبِهَا ، فَمُعْظَمُ مَا تَرَى الزَّمَانَ الطَّوِيلَ قَصِيرًا زَمَانُ اللَّهْوِ بِالنِّسَاءِ ، وَهُوَ الَّذِي نَشَأَتْ مِنْهُ فِتْنَةُ الرِّجَالِ وَهَلَاكُ أَهْلِ الْحُبِّ " . اهـ . وَمَا قُلْنَاهُ أَقْرَبُ مِنَ اللَّفْظِ نَسَبًا ، وَأَشَدُّ ارْتِبَاطًا بِالْمَعْنَى وَأَقْوَى سَبَبًا .

هَذَا وَإِنَّنَا قَدْ وَعَدْنَا بِأَنْ نُبَيِّنَ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ مِنْ فَسَادِ الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُفْضِي إِلَى الشُّرُورِ الْكَثِيرَةِ ، فَنَقُولُ :

(110/231)

إِنَّ الْكُفْرَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَاعْتِقَادَ أَنَّهُ لَا حَيَاةَ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ يَجْعَلُ هَمَّ الْكَافِرِ مَحْصُورًا فِي الِاسْتِمْتَاعِ بِلَذَّاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا الْبَدَنِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ ؛ كَالْجَاهِ وَالرِّيَاسَةِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ وَلَوْ بِالْبَاطِلِ وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ الشَّرَفَ ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ يَكُونُ فِي اتِّبَاعِ هَوَاهُ وَلَذَّاتِهِ الشَّهْوَانِيَّةِ أَسْفَلَ مِنَ الْبَهَائِمِ كَالْبَقَرِ وَالْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ ، وَفِي اتِّبَاعِهِ لِهَوَاهُ فِي لَذَّاتِهِ الْغَضَبِيَّةِ أَضْرَى وَأَشَدَّ أَذًى مِنَ الْوُحُوشِ الضَّارِيَةِ الْمُفْتَرِسَةِ كَالذِّئَابِ وَالنُّمُورِ ، وَفِي اتِّبَاعِهِ لِهَوَاهُ وَلَذَّتِهِ النَّفْسِيَّةِ شَرًّا

مِنَ الشَّيَاطِينِ يَكِيدُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَيَفْتَرِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لَا يَصُدُّهُمْ عَنْ بَاطِلٍ وَلَا شَرٍّ يَهْوَوْنَهُ إِلَّا الْعَجْزَ ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى حُكْمٍ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ إِلَّا الْقُوَّةَ الَّتِي جَعَلُوهَا فَوْقَ الْحَقِّ . وَطَالَمَا غَشُّوا أَنْفُسَهُمْ وَفَتَنُوا غَيْرَهُمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِمَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ

(111/231)

التَّوَازُنِ فِي الْقُوَى مِنْ مَنْعِ كَثِيرٍ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ الَّذِي كَانَ يَصُولُ بِهِ قَوِيُّ الْأُمَمِ عَلَى ضَعِيفِهَا ، وَالْحُكُومَاتُ الْجَائِرَةُ عَلَى رَعِيَّتِهَا ، فَزَعَمُوا أَنَّ الْحَضَارَةَ الْمَادِّيَّةَ وَالْعُلُومَ وَالْفُنُونَ الْبَشَرِيَّةَ هِيَ الَّتِي تُفِيضُ رُوحَ الْكَمَالِ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَلَا بِالْإِلَهِ الدَّيَّانِ ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ أُمَمُهُمْ وَدُوَلُهُمْ مِنْ ذَمِّ الْحَرْبِ ، وَالتَّفَاخُرِ

بِبِنَاءِ سِيَاسَتِهِمْ عَلَى أَمْتَنِ قَوَاعِدِ السِّلْمِ ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْبَاعِثَ عَلَى ذَلِكَ حُبُّ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَالرَّغْبَةُ فِي الْعُرُوجِ بِجَمِيعِ الْبَشَرِ إِلَى قُنَّةِ السَّعَادَةِ الْمَدَنِيَّةِ .

(112/231)

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا بَالُكُمْ تُسَابِقُونَ إِلَى اسْتِذْلَالِ الْأُمَمِ الضَّعِيفَةِ فِي الشَّرْقِ وَتُسَخِّرُونَهَا لِمَنَافِعِكُمْ وَتَوْفِيرِ ثَرْوَتِكُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ؟ قَالُوا : كَلَّا إِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نُخْرِجَهَا مِنْ ظُلُمَاتِ الْهَمَجِيَّةِ وَالْجَهْلِ لِتُشَارِكَنَا فِيمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ نُورِ الْحَضَارَةِ وَالْعِلْمِ . فَإِنْ قِيلَ : فَمَا بَالُنَا نَرَاهَا لَمْ تَنَلْ مِنْ عُلُومِكُمْ إِلَّا بَعْضَ الْقُشُورِ ، وَلَمْ تَسْتَفِدْ مِنْ مَدَنِيَّتِكُمْ إِلَّا الْفِسْقَ وَالْفُجُورَ ، قَالُوا : إِنَّمَا ذَلِكَ لِضَعْفِ الِاسْتِعْدَادِ ، وَمَا تَمَكَّنَ فِي نُفُوسِ هَذِهِ الشُّعُوبِ مِنَ الْفَسَادِ ، عَلَى أَنَّنَا خَيْرٌ لَهَا مِنْ حُكَّامِهَا الْأَوَّلِينَ بِمَا قُمْنَا بِهِ مِنْ حِفْظِ الْأَمْنِ وَتَوْفِيرِ أَسْبَابِ النَّعِيمِ لِلْعَامِلِينَ ! ذَلِكَ شَأْنُهُمْ ، لَا تُقَامُ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ إِلَّا يُقَابِلُونَهَا بِشُبْهَةٍ تُؤَيِّدُهَا الْقُوَّةُ ، وَقَدْ قَوَّضَتِ الْحَرْبُ الْمُشْتَعِلَةُ نَارُهَا فِي أُورُبَّا هَذِهِ الْأَعْوَامَ ، جَمِيعَ مَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الشُّبُهَاتُ مِنَ الْمَزَاعِمِ وَالْأَوْهَامِ ، إِذْ رَأَيْنَا فِيهَا أَرْقَى أَهْلِ الْأَرْضِ فِي الْحَضَارَةِ وَالْعُلُومِ وَالْفَلْسَفَةِ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَيُقَوِّضُونَ صُرُوحَ مَدَنِيَّتِهِمْ بِمَدَافِعِهِمْ ، وَيَسْتَعِينُونَ بِكُلِّ مَا ارْتَقَوْا إِلَيْهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ وَالْحِكْمَةِ

وَالنِّظَامِ ، لِإِهْلَاكِ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ وَتَخْرِيبِ الْعُمْرَانِ ، بِمُنْتَهَى الْقَسْوَةِ وَالشِّدَّةِ ، الَّتِي لَا تَشُوبُهَا عَاطِفَةُ رَأْفَةٍ وَلَا رَحْمَةٍ ، وَلَوْ كَانَ مَنْ بِأَيْدِيهِمْ أَزِمَّةُ الْأُمُورِ مِنْهُمْ

(113/231)

يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ بِالْحَقِّ ، لَمَا انْتَهَوْا فِي الطُّغْيَانِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ ، نَعَمْ ، إِنَّ هَذِهِ الشُّعُوبَ كَانَتْ تَتَقَابَلُ لِنَصْرِ الْمَذْهَبِ أَوِ الدِّينِ فِي الْقُرُونِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ بِاسْمِ الدِّينِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَصِلْ فِي التَّقْتِيلِ وَالتَّخْرِيبِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَى عُشْرِ مِعْشَارِ مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ ، وَإِنْ كَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا الْعَصْرَ عَصْرَ النُّورِ وَتِلْكَ الْعُصُورَ بِعُصُورِ الظُّلُمَاتِ ، عَلَى أَنَّ الرُّؤَسَاءَ كَانُوا يَتَّخِذُونَ اسْمَ الدِّينِ وَتَأْوِيلَ نُصُوصِهِ وَسِيلَةً لِأَهْوَائِهِمُ الَّتِي لَيْسَتْ مِنَ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ، كَمَا يَعْلَمُ جَمِيعُ عُلَمَاءِ هَذَا الْعَصْرِ .

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ أَقْسَى أَهْلِ هَذِهِ الْحَرْبِ وَأَشَدَّهُمْ تَخْرِيبًا وَتَدْمِيرًا هُمُ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَأَنَّ اللهَ مَعَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَإِنَّمَا الْحَرْبُ الدِّينِيَّةُ الصَّحِيحَةُ حَرْبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، وَمَنْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ سِيرَتِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ الصَّالِحِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَحِلُّ فِيهَا فِي عَصْرِ الْإِسْلَامِ مَا يُسْتَحَلُّ الْآنَ مِنَ الْقَسْوَةِ وَالتَّخْرِيبِ وَلَا مَا نُقِلَ عَنْ أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكٍ

(114/231)

بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا فِي الْمَنَارِ الْقَوْلَ فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْحَرْبِ الْمَدَنِيَّةِ وَحُرُوبِ الْمُسْلِمِينَ الدِّينِيَّةِ ، الَّتِي كَانَتْ دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ وَتَقْرِيرًا لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَالْمُسَاوَاةِ فِي الْحُقُوقِ بَيْنَ أَصْنَافِ الْخَلْقِ ، يَسِيرُونَ فِيهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَادِلَةِ فِي الضَّرُورَاتِ كَكَوْنِهَا تُبِيحُ مَا ضَرَرُهُ دُونَ ضَرَرِهَا وَكَوْنِهَا تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا ، وَتُرَاعَى فِيهَا الرَّحْمَةُ لَا الْعَدْلُ وَحْدَهُ ، وَقَدْ شَهِدَ بِذَلِكَ لِسَلَفِنَا أَعْلَمُ حُكَمَاءِ الْإِفْرِنْجِ بِتَارِيخِنَا (غُوسْتَافْ لُوبُونْ) فَقَالَ كَلِمَةَ حَقٍّ حَقِيقَةٌ بِأَنْ تُكْتَبَ بِمَاءِ الذَّهَبِ ، وَهِيَ : " مَا عَرَفَ التَّارِيخُ فَاتِحًا أَعْدَلَ وَلَا أَرْحَمَ مِنَ الْعَرَبِ " .

(115/231)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ شُبُهَاتِ الْمَفْتُونِينَ بِالْمَدَنِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ قَدْ دُحِضَتْ بِهَذِهِ الْحَرْبِ السَّاحِقَةِ الْمَاحِقَةِ وَقَوِيَتْ بِهَا حُجَّةُ أَهْلِ الدِّينِ عَلَيْهِمْ ، بَلْ تَنَبَّهَ بِهَا الشُّعُورُ الدِّينِيُّ فِي الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِنَ الْأُورُبِّيِّينَ حَتَّى الْفَرَنْسِيسُ مِنْهُمْ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا قَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَآثَرُوا عَلَيْهِ الشَّهَوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الْحَقِيرَةِ ، حَتَّى ضَاقَتْ بِهِمُ الْمَعَابِدُ الَّتِي كَانَتْ مَهْجُورَةً قَلَّمَا تُفْتَحُ أَبْوَابُهَا ، وَقَلَّمَا يُلِمُّ بِهَا أَحَدٌ إِنْ فُتِحَتْ . وَذَلِكَ شَأْنُ الْمُسْرِفِينَ فِي أَمْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ ، لَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى

خَالِقِهِمْ إِلَّا عِنْدَ الشِّدَّةِ وَالْبَأْسِ (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (10 : 12) .

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ

مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

(116/231)

لَا تَنْسَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي دَعْوَةِ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَمُحَاجَّتِهِمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْبَعْثِ ، وَأَنَّهَا تَكْثُرُ فِيهَا حِكَايَةُ أَقْوَالِهِمْ فِي ذَلِكَ بِلَفْظِ (وَقَالُوا . وَقَالُوا) وَتَلْقِينِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْحُجَجَ بِلَفْظِ (قُلْ . . . قُلْ . . .) حَتَّى إِنَّ الْأَمْرَ بِالْقَوْلِ تَكَرَّرَ فِيهَا عَشَرَاتٍ مِنَ الْمِرَارِ ، وَقَدْ سَبَقَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي فَسَّرْنَاهَا مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) (8) (وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) (29) وَأَمَرَهُ تَعَالَى بِالرَّدِّ عَلَى كُلٍّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ وَإِقَامَةِ الْحُجَجِ فِي مَوْضُوعِهِمَا بِمَا فِيهِ بَيَانُ فَقْدِ بَعْضِهِمُ الِاسْتِعْدَادَ لِلْإِيمَانِ - بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَأْثِيرَ كُفْرِهِمْ فِي نَفْسِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحُزْنَهُ مِمَّا يَقُولُونَ فِي نُبُوَّتِهِ ، وَسَلَاهُ عَنْ ذَلِكَ بِبَيَانِ سُنَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ وَإِيئَاسِهِ مِنْ إِيمَانِ الْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِينَ مِنْهُمْ - وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا الْمَعْنَى فِي السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ - فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(117/231)

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) الْحُزْنُ أَلَمٌ يُلِمُّ بِالنَّفْسِ عِنْدَ فَقْدِ مَحْبُوبٍ أَوِ امْتِنَاعِ مَرْغُوبٍ ، أَوْ حُدُوثِ مَكْرُوهٍ ، وَتَجِبُ مُعَالَجَتُهُ بِالتَّسَلِّي وَالتَّأَسِّي وَإِنْ كَانَ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ كَحُزْنِ الْكَامِلِينَ عَلَى إِصْرَارِ الْكَافِرِينَ عَلَى الْكُفْرِ ، وَقَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ هَذَا الْحُزْنَ إِثْبَاتًا مُؤَكَّدًا بِتَعَلُّقِ عِلْمِهِ التَّنْجِيزِيِّ بِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، أَيْ عَنْ مَا كَانَ يَعْرِضُ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَبِأَنَّ مَعَ ضَمِيرِ الشَّأْنِ وَبِاللَّامِ ، فَكَلِمَةُ " قَدْ " عَلَى أَصْلِهَا لِلتَّقْلِيلِ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا هُنَا لِلتَّكْثِيرِ ، وَإِنَّمَا الْقِلَّةُ وَالْكَثْرَةُ فِي مُتَعَلَّقَاتِ الْعِلْمِ لَا الْعِلْمِ نَفْسِهِ ، وَقَدْ نَهَاهُ تَعَالَى عَنْ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْحُزْنِ بِقَوْلِهِ فِي " سُورَةِ يُونُسَ " :

(وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (10 : 65) وَفِي "سُورَةِ يس" : (فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) (36 : 76) كَمَا نَهَاهُ عَنِ الْحُزْنِ عَلَيْهِمْ لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ فِي "سُورَةِ الْحِجْرِ" (15 : 88) وَالنَّحْلِ (16 : 127) وَالنَّمْلِ (27 : 70) وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْحُزْنِ وَالْمُرَادُ بِالنَّهْيِ عَنْهُ ، وَأَنَّ لُغَةَ قُرَيْشٍ فِيهِ أَنَّ الثُّلَاثِيَّ مِنْهُ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ فَيُقَالُ : حَزَنَهُ الْأَمْرُ ، وَتَمِيمٌ تَقُولُ : أَحْزَنَهُ وَمِنْهَا قِرَاءَةُ نَافِعٍ (لَيُحْزِنُكَ) بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الزَّايِ .

(118/231)

وَالْمُرَادُ بِالْقَوْلِ الَّذِي يُحْزِنُهُ مِنْهُمْ هُوَ مَا كَانُوا يَقُولُونَ فِيهِ وَفِي دَعْوَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ مِنْ تَكْذِيبٍ وَطَعْنٍ وَتَنْفِيرٍ لِلْعَرَبِ ، وَمِنْهُ بِالْأَوْلَى مَا حَكَاهُ عَنْهُمْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَسَيَأْتِي تَوْضِيحُهُ . وَرُوِيَ عَنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَنَّ سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ أَقْوَالٌ خَاصَّةٌ مِنْ بَعْضِ رُؤَسَائِهِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ تَنْطَبِقُ عَلَى قَوْلِهِ فِي تَتِمَّةِ الْآيَةِ : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) أَيْ : فَإِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَكَ كَاذِبًا وَلَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّكَ كَذَبْتَ عَلَى اللَّهِ فِيمَا جِئْتَ بِهِ وَهُمْ لَمْ يُجَرِّبُوا عَلَيْكَ كَذِبًا عَلَى أَحَدٍ ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بِالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِكَ بِإِنْكَارِهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ فَقَطْ ، كَمَا جَحَدَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ لِأَخِيكَ مُوسَى :

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (27 : 14) .

فَالْجُحُودُ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ : نَفْيُ مَا فِي الْقَلْبِ إثْبَاتُهُ وَإِثْبَاتُ مَا فِي الْقَلْبِ نَفْيُهُ . يُقَالُ : جَحَدَ جُحُودًا وَجَحْدًا . اهـ . وَعِبَارَةُ اللِّسَانِ الْجَحْدُ ، وَالْجُحُودُ ضِدُّ الْإِقْرَارِ كَالْإِنْكَارِ ، ثُمَّ نَقَلَ قَوْلَ الْجَوْهَرِيِّ فِيهِ أَنَّهُ الْإِنْكَارُ مَعَ الْعِلْمِ ، وَيَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِالْبَاءِ فَيُقَالُ : جَحَدَهُ وَجَحَدَ بِهِ .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ :

(119/231)

"يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ : (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) أَيْ وَقَدْ أَحَطْنَا عِلْمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ وَحُزْنِكَ وَتَأَسُّفِكَ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ : (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) (35 : 8) كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (26 : 3) - (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (18 : 6) وَقَوْلُهُ : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) أَيْ : لَا يَتَّهِمُونَكَ بِالْكَذِبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ

يَجْحَدُونَ ، أَيْ : وَلَكِنَّهُمْ يُعَانِدُونَ الْحَقَّ وَيَدْفَعُونَهُ بِصُدُورِهِمْ ، كَمَا قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ نَاجِيَةَ بْنِ كَعْبٍ ، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّا لَا نُكَذِّبُكَ وَلَكِنْ نُكَذِّبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ إِسْرَائِيلَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، ثُمَّ قَالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْوَزِيرِ الْوَاسِطِيُّ بِمَكَّةَ ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُبَشِّرِ الْوَاسِطِيُّ ، عَنْ سَلَّامِ بْنِ مِسْكِينٍ ، عَنْ أَبِي يَزِيدَ الْمَدَنِيِّ ، أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَقِيَ أَبَا جَهْلٍ فَصَافَحَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : أَلَا أَرَاكَ تُصَافِحُ هَذَا الصَّابِئَ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَنَبِيٌّ ، وَلَكِنْ مَتَى كُنَّا لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ تَبَعًا ؟ وَتَلَا أَبُو يَزِيدَ : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ : يَعْلَمُونَ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَيَجْحَدُونَ . وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ فِي قِصَّةِ أَبِي جَهْلٍ حِينَ جَاءَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ اللَّيْلِ هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ ، وَلَا يَشْعُرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْآخَرِ : فَاسْتَمَعُوهَا إِلَى الصَّبَاحِ ، فَلَمَّا هَجَمَ الصُّبْحُ

تَفَرَّقُوا ، فَجَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ ، فَقَالَ كُلٌّ مِنْهُمْ لِلْآخَرِ مَا جَاءَ بِهِ ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا ؛ لِمَا يَخَافُونَ مِنْ عِلْمِ شُبَّانِ قُرَيْشٍ بِهِمْ لِئَلَّا يُفْتَنُوا بِمَجِيئِهِمْ ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ جَاءَ كُلٌّ مِنْهُمْ ظَنًّا أَنَّ صَاحِبَيْهِ

لَا يَجِيآنِ لِمَا سَبَقَ مِنَ الْعُهُودِ ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَمَعَتْهُمُ الطَّرِيقُ فَتَلَاوَمُوا ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ جَاءُوا أَيْضًا ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَعَاهَدُوا أَلَّا يَعُودُوا لِمِثْلِهَا ثُمَّ تَفَرَّقُوا . فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ أَخَذَ عَصَاهُ ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ فِي بَيْتِهِ فَقَالَ : أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ . قَالَ : يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ ، وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا ، وَسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا عَرَفْتُ مَعْنَاهَا وَلَا مَا يُرَادُ بِهَا . قَالَ الْأَخْنَسُ : وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتَ بِهِ . ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا الْحَكَمِ ، مَا رَأْيُكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ : مَاذَا سَمِعْتَ ؟ قَالَ : تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ ، أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا ، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا ، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا ، حَتَّى إِذَا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرُّكَبِ وَكُنَّا كَفَرَسَيْ

رِهَانٍ ، قَالُوا : مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَمَتَى نُدْرِكُ هَذِهِ ؟ وَاللهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ . قَالَ : فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ وَتَرَكَهُ .

(123/231)

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ أَسْبَاطٍ ، عَنِ السُّدِّيِّ فِي قَوْلِهِ : (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ لِبَنِي زُهْرَةَ : يَا بَنِي زُهْرَةَ ، إِنَّ مُحَمَّدًا ابْنُ أُخْتِكُمْ ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ مَنْ ذَبَّ عَنِ ابْنِ أُخْتِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ نَبِيًّا لَمْ تُقَاتِلُونَهُ الْيَوْمَ ؟ وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَأَنْتُمْ أَحَقُّ مَنْ كَفَّ عَنِ ابْنِ أُخْتِهِ ، قِفُوا هَاهُنَا حَتَّى أَلْقَى أَبَا الْحَكَمِ ، فَإِنْ غَلَبَ مُحَمَّدٌ رَجَعْتُمْ سَالِمِينَ ، وَإِنْ غُلِبَ مُحَمَّدٌ فَإِنَّ قَوْمَكُمْ لَا يَصْنَعُونَ بِكُمْ شَيْئًا ، فَيَوْمَئِذٍ سُمِّيَ الْأَخْنَسُ ، وَكَانَ اسْمُهُ أُبَيًّا ، فَالْتَقَى الْأَخْنَسُ وَأَبُو جَهْلٍ ، فَخَلَا الْأَخْنَسُ بِأَبِي جَهْلٍ فَقَالَ : يَا أَبَا الْحَكَمِ أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ ، أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا مِنْ قُرَيْشٍ غَيْرِي وَغَيْرُكَ يَسْتَمِعُ كَلَامَنَا ؟ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَيْحَكَ ، وَاللهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ وَمَا كَذَبَ مُحَمَّدٌ قَطُّ ، وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَتْ بَنُو قُصَيٍّ بِاللِّوَاءِ وَالسِّقَايَةِ وَالْحِجَابَةِ وَالنُّبُوَّةِ ، فَمَاذَا يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ ؟ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : (فَإِنَّهُمْ

لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) فَآيَاتُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - انْتَهَى بِنَصِّهِ . وَمَا ذُكِرَ سَبَبًا لِنُزُولِ الْآيَةِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِنُزُولِهَا فِي ضِمْنِ السُّورَةِ ، وَلَا يَصِحُّ نَصٌّ فِي نُزُولِهَا مُنْفَرِدَةً

(124/231)

وَإِلَّا فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّفْسِيرِ ، كَخَبَرِ الْأَخْنَسِ مَعَ أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذَلِكَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ قَطْعًا ، وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ قَطْعًا ، وَلَمْ يَسْتَثْنِ أَحَدٌ هَذِهِ الْآيَةَ فِيمَا يُسْتَثْنَى .

ثُمَّ نَقُولُ : إنَّ فِي (يُكَذِّبُونَكَ) قِرَاءَتَيْنِ : قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَالْكِسَائِيِّ بِضَمِّ الْيَاءِ وَتَخْفِيفِ الذَّالِ مِنْ أَكْذَبَهُ ، أَيْ : وَجَدَهُ كَاذِبًا أَوْ نَسَبَهُ إلَى رِوَايَةِ الْكَذِبِ بِأَنْ قَالَ : إنَّ مَا جَاءَ بِهِ كَذِبٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ الَّذِي افْتَرَاهُ بِأَنْ كَانَ نَاقِلًا لَهُ مُصَدِّقًا بِهِ . وَقِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ بِتَشْدِيدِ الذَّالِ ، مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَهُوَ الرَّمْيُ بِالْكَذِبِ ، بِمَعْنَى إنْشَائِهِ وَابْتِدَائِهِ ، وَبِمَعْنَى نَقْلِهِ وَرِوَايَتِهِ .

وَبِهَذَا نَجْمَعُ بَيْنَ قَوْلِ مَنْ قَالَ : إنَّ الصِّيغَتَيْنِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، وَمَنْ قَالَ : إنَّ مَعْنَاهُمَا مُخْتَلِفٌ ، قَالَ ثَعْلَبٌ : أَكْذَبَهُ وَكَذَّبَهُ بِمَعْنًى ، وَقَدْ يَكُونُ "أَكْذَبَهُ" بِمَعْنَى بَيَّنَ كَذِبَهُ أَوْ حَمَلَهُ عَلَى الْكَذِبِ ، وَبِمَعْنَى وَجَدَهُ كَاذِبًا . اهـ . قَالَ فِي اللِّسَانِ : وَكَانَ الْكِسَائِيُّ يَحْتَجُّ لِهَذِهِ

(125/231)

الْقِرَاءَةِ (أَيْ قِرَاءَتِهِ) بِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ : كَذَبْتُ الرَّجُلَ ، إذَا نَسَبْتُهُ إلَى الْكَذِبِ ، وَأَكْذَبْتُهُ ، إذَا أَخْبَرْتُ أَنَّ الَّذِي يُحَدِّثُ بِهِ كَذِبٌ ، قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ " فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ " عَلَى مَعْنَى : لَا يَجِدُونَكَ كَذَّابًا عِنْدَ الْبَحْثِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّفْتِيشِ . اهـ . فَعُلِمَ مِنْ هَذِهِ النُّقُولِ أَنَّ الْإِكْذَابَ يَشْتَرِكُ مَعَ التَّكْذِيبِ فِي مَعْنَى رِوَايَةِ الْكَذِبِ ، وَيَنْفَرِدُ التَّكْذِيبُ بِمَعْنَى الرَّمْيِ بِافْتِرَاءِ الْكَذِبِ ، إمَّا مُخَاطَبَةً كَأَنْ يَقُولَ لَهُ : كَذَبْتَ فِيمَا قُلْتَ ، وَإِمَّا بِإِسْنَادِهِ إلَيْهِ فِي غَيْبَتِهِ كَأَنْ يَقُولَ : كَذَبَ فُلَانٌ وَافْتَرَى ، وَيَنْفَرِدُ الْإِكْذَابُ بِمَعْنَى وِجْدَانِ الْمُحَدِّثِ كَاذِبًا فِيمَا قَالَهُ ، بِمَعْنَى أَنَّ خَبَرَهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ ، لَا بِمَعْنَى أَنَّهُ افْتَرَاهُ ، وَبِمَعْنَى الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ ، أَيْ بِعَدَمِ مُطَابَقَةِ الْخَبَرِ لِلْوَاقِعِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ مَجْمُوعِ الْقِرَاءَتَيْنِ أَنَّ أُولَئِكَ الْكُفَّارَ لَا يَنْسُبُونَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَى افْتِرَاءِ الْكَذِبِ وَلَا يَجِدُونَهُ كَاذِبًا فِي خَبَرٍ يُخْبِرُ بِهِ بِأَنْ يَتَبَيَّنَ أَنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ مَا يُخْبِرُ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْتَقْبَلِ كَنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ ، وَخَذْلِ أَعْدَائِهِ وَقَهْرِهِمْ سَيَكُونُ كَمَا أَخْبَرَ وَكَذَلِكَ كَانَ . وَإِنَّمَا يَدَّعُونَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ - وَأَهَمُّهَا الْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ - كَذِبٌ غَيْرُ مُطَابِقٍ

لِلْوَاقِعِ . وَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي افْتَرَاهُ ، فَإِنَّ التَّكْذِيبَ قَدْ يَكُونُ لِكَلَامٍ دُونَ الْمُتَكَلِّمِ النَّاقِلِ ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّفْيَ يَصْدُقُ عَلَى بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ لَا عَلَى جَمِيعِهِمْ كَمَا يَأْتِي .

وَذَكَرَ الرَّازِيُّ فِي نَفْيِ التَّكْذِيبِ وَالْإِكْذَابِ مَعَ إِثْبَاتِ الْجُحُودِ أَرْبَعَةَ أَوْجُهٍ :

(1) أَنَّهُمْ مَا كَانُوا يُكَذِّبُونَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي السِّرِّ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَهُ فِي الْعَلَانِيَةِ وَيَجْحَدُونَ الْقُرْآنَ وَالنُّبُوَّةَ .

(2) أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ لَهُ : إِنَّكَ كَذَّابٌ ؛ لِأَنَّهُمْ جَرَّبُوهُ الدَّهْرَ الطَّوِيلَ فَلَمْ يَكْذِبْ فِيهِ قَطُّ ، وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوا صِحَّةَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ تَخَيَّلَ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَصَدَّقَ مَا تَخَيَّلَهُ فَدَعَا إِلَيْهِ .

(3) أَنَّهُمْ لَمَّا أَصَرُّوا عَلَى التَّكْذِيبِ مَعَ ظُهُورِ الْمُعْجِزَاتِ الْقَاهِرَةِ عَلَى وَفْقِ دَعْوَاهُ – كَانَ تَكْذِيبُهُمْ تَكْذِيبًا لِآيَاتِ اللهِ الْمُؤَيِّدَةِ لَهُ أَوْ تَكْذِيبًا لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (قَالَ) : فَاللهُ تَعَالَى قَالَ لَهُ : إِنَّ الْقَوْمَ مَا كَذَّبُوكَ وَلَكِنْ كَذَّبُونِي ، أَيْ عَلَى مَعْنَى أَنَّ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ كَتَكْذِيبِ الْمُرْسِلِ الْمُصَدِّقِ لَهُ بِتَأْيِيدِهِ . وَذَكَرَ أَنَّهُ عَلَى حَدِّ (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) (48 : 10) وَمِثْلُهُ (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى) (8 : 17) .

(4) قَالَ – وَهُوَ كَلَامٌ خَطَرَ بِالْبَالِ – : إِنَّ الْمُرَادَ

(127/231)

أَنَّهُمْ لَا يَخُصُّونَكَ بِهَذَا التَّكْذِيبِ ، بَلْ يُنْكِرُونَ دَلَالَةَ الْمُعْجِزَةِ عَلَى الصِّدْقِ مُطْلَقًا ، وَيَقُولُونَ فِي كُلِّ مُعْجِزَةٍ : إنَّهَا سِحْرٌ ، فَكَانَ التَّقْدِيرُ أَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ عَلَى التَّعْيِينِ ، وَلَكِنْ يُكَذِّبُونَ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ " انْتَهَى مُلَخَّصًا بِالْمَعْنَى غَالِبًا وَفِيهِ قُصُورٌ . وَسَكَتَ عَنْ أَقْوَالٍ أُخْرَى قَدِيمَةٍ (مِنْهَا) قَوْلُ بَعْضِهِمْ : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ فِيمَا وَافَقَ كُتُبَهُمْ ، وَإِنْ كَذَّبُوكَ فِي غَيْرِهِنَّ ، وَهُوَ أَضْعَفُ مَا قِيلَ ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ وَلَا كُتُبَ عِنْدَهُمْ (وَمِنْهَا) قَوْلُ بَعْضِهِمْ : فَإِنَّهُمْ لَا يَتَّفِقُونَ عَلَى تَكْذِيبِكَ ، وَلَكِنْ يُكَذِّبُكَ الظَّالِمُونَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ (وَمِنْهَا) أَنَّ الْمَعْنَى : فَإِنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ كَذِبَكَ ، وَلَا يَتَّهِمُونَكَ بِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بِالْآيَاتِ لِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَهَذَا أَقْوَاهَا كَمَا تَرَى .

(128/231)

تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُخْتَارَ عِنْدَنَا هُوَ أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا بِمَا يُحْزِنُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ قَوْلِهِمْ مَا تَقَدَّمَ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ : (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) وَمَا فِي

مَعْنَاهُ ، وَيُوَضِّحُهُ مَا رُوِيَ فِي مَوْضُوعِ الْآيَةِ وَنُزُولِهَا ، وَهُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنَ النَّظْمِ الْكَرِيمِ - فَالْكَلَامُ إِذًا فِي طَائِفَةِ الْجَاحِدِينَ كِبْرًا وَعِنَادًا كَأَبِي جَهْلٍ وَالْأَخْنَسِ وَأَضْرَابِهِمَا ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ كَذِبَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَجِدُوهُ كَاذِبًا فِي خَبَرٍ يُخْبِرُهُمْ بِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوهُ كَاذِبًا فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ الْمَاضِيَةِ ، بَلْ عِصْمَتُهُ مِنَ الْكَذِبِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَظْهَرُ وَأَوْلَى ، وَلَكِنَّهُمْ - لِظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ بِالْكِبْرِ وَالِاسْتِعْلَاءِ - يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ بِمِثْلِ زَعْمِهِمْ أَنَّ الْقُرْآنَ نَفْسَهُ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ صَدَّ الْعَرَبِ عَنْهُ ، وَأَمَّا إِذَا جُعِلَتِ الْآيَةُ عَامَّةً وَأُرِيدَ بِمَا يُحْزِنُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا كَانَ يَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ ضُرُوبِ الْأَقْوَالِ فِي إِنْكَارِ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَالنُّبُوَّةِ وَسَائِرِ مَسَائِلِ الدِّينِ ، فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَظْهَرُ اتِّجَاهُ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَالِ الْمَنْقُولَةِ بِصِدْقِ بَعْضِهَا عَلَى أُنَاسٍ وَبَعْضِهَا عَلَى آخَرِينَ ، فَإِنَّ نَفْيَ التَّكْذِيبِ

(129/231)

إِنَّمَا يَصْدُقُ عَلَى بَعْضِهِمْ كَالْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِينَ دُونَ جُمْهُورِ الضَّالِّينَ الْجَاهِلِينَ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْجُحُودُ مِنَ الرُّؤَسَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ ظُلْمًا وَعِنَادًا عَلَى عِلْمٍ وَمِنَ الْمُقَلِّدِينَ جَهْلًا وَاحْتِقَارًا

مِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِتَرْكِ النَّظَرِ وَغُلُوًّا فِي ثِقَتِهِمْ بِكُبَرَائِهِمْ وَآبَائِهِمْ وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ بَعْضَ الْمُشْرِكِينَ كَانَ يُكَذِّبُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَكْذِيبَ الِافْتِرَاءِ عَنِ اعْتِقَادٍ أَوْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ .

قَالَ تَعَالَى فِي " سُورَةِ الْفُرْقَانِ " : (كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ) (25 : 5) إِلَى قَوْلِهِ : (بُكْرَةً وَأَصِيلًا) وَلَمْ تَكُنْ كُلُّ الْعَرَبِ تَعْرِفُ مِنْ سِيرَتِهِ وَصِدْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

مَا كَانَ يَعْرِفُهُ مُعَاشِرُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ . وَسَيَأْتِي التَّصْرِيحُ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ فِي جُمَلٍ شَرْطِيَّةٍ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا كَالشَّوَاهِدِ الَّتِي تَرَاهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ التَّالِيَةِ :

(130/231)

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا) أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِصِيغَةِ الْقَسَمِ أَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا قَبْلَهُ قَدْ كَذَّبَتْهُمْ أَقْوَامُهُمْ فَصَبَرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ لَهُمْ إِلَى أَنْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ، أَيْ : فَإِنْ كُذِّبْتَ فَلَكَ أُسْوَةٌ بِمَنْ قَبْلَكَ ، فَلَسْتَ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِالشَّرْطِيَّةِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي " سُورَةِ الْحَجِّ " : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) (22 : 42) إِلَخْ .

وَقَوْلِهِ فِي " سُورَةِ فَاطِرٍ " : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) (35 : 4) إِلَخْ .

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (35 : 25) إِلَخْ . وَالْآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَ تَسْلِيَةٍ ، وَإِرْشَادٌ لَهُ إِلَى سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي الرُّسُلِ وَالْأُمَمِ أَوْ هِيَ تَذْكِيرٌ بِهَذِهِ السُّنَّةِ ، وَمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ حُسْنِ الْأُسْوَةِ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْآيَةُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَقَدْ صَرَّحَ بِوُجُوبِ هَذَا الصَّبْرِ عَلَيْهِ تَأَسِّيًا فِي قَوْلِهِ : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) (46 : 35) وَاسْتِقْلَالًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا مَا نَزَلَ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي " سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ " : (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) (73 : 10) وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّجَارِبِ أَنَّ التَّأَسِّيَ يُهَوِّنُ الْمُصَابَ وَيُفِيدُ شَيْئًا مِنَ

(131/231)

السَّلْوَةِ ، قَالَتِ الْخَنْسَاءُ :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي . . . عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ . . . أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي .

وَلَوْلَا أَنَّ دَفْعَ الْأَسَى بِالْأَسَى مِنْ مُقْتَضَى الطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ لَمَا ظَهَرَتْ حِكْمَةُ تَكْرَارِ التَّسْلِيَةِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَتْلُو الْقُرْآنَ فِي الصَّلَاةِ وَلَا سِيَّمَا صَلَاةُ اللَّيْلِ ، فَرُبَّمَا يَقْرَأُ السُّورَةَ وَلَا يَعُودُ إِلَيْهَا بَعْدَ أَيَّامٍ يَفْرَغُ فِيهَا مِنْ قِرَاءَةِ مَا نَزَلَ مِنْ سَائِرِ

السُّوَرِ ، فَاحْتِيجَ إلَى تَكْرَارِ تَسْلِيَتِهِ وَأَمْرِهِ بِالصَّبْرِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ؛ لِأَنَّ الْحُزْنَ وَالْأَسَفَ اللَّذَيْنِ كَانَا يَعْرِضَانِ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ شَأْنِهِمَا أَنْ يَتَكَرَّرَا بِتَكَرُّرِ سَبَبِهِمَا وَبِتَذَكُّرِهِ حَتَّى

عِنْدَ تِلَاوَةِ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي بَيَانِ حَالِ الْكُفَّارِ وَمُحَاجَّتِهِمْ وَإِنْذَارِهِمْ .

وَ" مَا " فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (عَلَى مَا كُذِّبُوا) مَصْدَرِيَّةٌ (وَأُوذُوا) عَطْفٌ عَلَى (كُذِّبُوا) أَيْ فَصَبَرُوا عَلَى تَكْذِيبِ أَقْوَامِهِمْ لَهُمْ وَإِيذَائِهِمْ إيَّاهُمْ . وَالْإِيذَاءُ فِعْلُ الْأَذَى ، وَهُوَ مَا يُؤْلِمُ النَّفْسَ أَوِ الْبَدَنَ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، وَقَدْ أُوذِيَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِضُرُوبٍ مِنَ الْإِيذَاءِ كَمَا أُوذِيَ الرُّسُلُ قَبْلَهُ ، آذَاهُ الْمُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، وَالْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ فِي الْمَدِينَةِ بِقَدْرِ اسْتِطَاعَتِهِمْ .

(132/231)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) غَايَةٌ لِلصَّبْرِ ، أَيْ : صَبَرُوا عَلَى التَّكْذِيبِ وَمَا قَارَنَهُ مِنَ الْإِيذَاءِ إلَى أَنْ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا الْعَظِيمُ بِالِانْتِقَامِ مِنْ أَقْوَامِهِمْ ، وَإِنْجَائِنَا إيَّاهُمْ هُمْ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُمْ مِنْ أَذَاهُمْ وَكَيْدِهِمْ . وَفِيهِ بِشَارَةٌ لِلرَّسُولِ مُؤَكَّدَةٌ لِلتَّسْلِيَةِ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَعَلَى كُلِّ مَنْ يُكَذِّبُهُ وَيُؤْذِيهِ مِنْ أُمَّةِ الْبَعْثَةِ ، وَإِيمَاءٌ إلَى حُسْنِ عَاقِبَةِ

الصَّبْرِ ، فَمَنْ كَانَ أَصْبَرَ كَانَ أَجْدَرَ بِالنَّصْرِ إِذَا تَسَاوَتْ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ سَائِرُ أَسْبَابِ الْغَلَبِ وَالْقَهْرِ . وَإِضَافَةُ النَّصْرِ إِلَى ضَمِيرِ الْعَظَمَةِ الْعَائِدِ عَلَى الْعَزِيزِ الْقَدِيرِ تُشْعِرُ بِعَظَمَةِ شَأْنِهِ . وَتُشِيرُ إِلَى كَوْنِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُؤَيِّدَةِ لِرُسُلِهِ .

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ الَّتِي مِنْهَا وَعْدُهُ لِلرُّسُلِ بِالنَّصْرِ ،

(133/231)

وَتَوَعُّدُهُ لِأَعْدَائِهِمْ بِالْغَلَبِ وَالْخِذْلَانِ . وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالسُّنَنِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا الْحِكْمَةُ ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ هُنَا قَوْلُهُ فِي " سُورَةِ الصَّافَّاتِ " : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) (37 : 171 - 173) اقْرَأِ الْآيَاتِ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَنَفْيُ جِنْسِ الْمُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ مُثْبِتٌ لِكَلِمَتِهِ فِي نَصْرِ الْمُرْسَلِينَ بِالدَّلِيلِ - أَيْ إِنَّ ذَلِكَ النَّصْرَ قَدْ سَبَقَتْ بِهِ كَلِمَةُ اللَّهِ وَكَلِمَاتُ اللَّهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُبَدِّلَهَا مُبَدِّلٌ ، فَنَصْرُ الرُّسُلِ حَتْمٌ لَا بُدَّ مِنْهُ . وَكَلِمَاتُ اللَّهِ جِنْسٌ يَشْمَلُ كَلِمَاتِ الْأَخْبَارِ وَإِنْشَاءِ الْأَحْكَامِ كَمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) (115) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ . وَإِضَافَةُ الْكَلِمَاتِ هُنَا إِلَى الِاسْمِ الْأَجَلِّ الْأَعْظَمِ تُشْعِرُ بِعِلَّةِ الْقَطْعِ بِأَنَّهُ لَا مُبَدِّلَ لَهَا ؛ لِأَنَّ الْمُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ غَيْرِهِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قُدْرَتُهُ فَوْقَ قُدْرَتِهِ ،

وَسُلْطَانُهُ أَعْلَى مِنْ سُلْطَانِهِ . وَالتَّبْدِيلُ عِبَارَةٌ عَنْ جَعْلِ شَيْءٍ بَدَلًا مِنْ شَيْءٍ آخَرَ وَتَبْدِيلُ الْأَقْوَالِ وَالْكَلِمَاتِ نَوْعَانِ : تَبْدِيلُ ذَاتِهَا بِجَعْلِ قَوْلٍ مَكَانَ قَوْلٍ ، وَكَلِمَةٍ

(134/231)

مَكَانَ كَلِمَةٍ . وَمِنْهُ (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) (2 : 59) وَتَبْدِيلُ مَدْلُولِهَا وَمَضْمُونِهَا كَمَنْعِ نُفُوذِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ أَوْ وُقُوعِهِ عَلَى خِلَافِ الْقَوْلِ الَّذِي سَبَقَ .

وَالْمُتَكَلِّمُونَ الَّذِينَ يُجَوِّزُونَ إخْلَافَ الْوَعِيدِ يَقُولُونَ : إنَّ لِلَّهِ أَنْ يُبَدِّلَ مَا شَاءَ مِنْ كَلِمَاتِهِ ، وَإِنَّمَا يَسْتَحِيلُ ذَلِكَ عَلَى غَيْرِهِ ، وَتَبْدِيلُهُ إيَّاهَا لَا يَشْمَلُهُ النَّفْيُ فِي الْآيَةِ ، فَإِنْ قِيلَ لَهُمْ : قَدْ يَشْمَلُهُ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي " سُورَةِ ق " : (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) (50 : 29) قَالُوا : إنَّ النُّصُوصَ الْوَارِدَةَ فِي الْعَفْوِ تُخَصِّصُ الْعَامَّ مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ ، أَوْ : لَا نُسَلِّمُ أَنَّ الْعَفْوَ عَنْ بَعْضِ الْمُذْنِبِينَ مِنْ قَبِيلِ التَّبْدِيلِ ، وَسَيَأْتِي بَسْطُ هَذَا الْبَحْثِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ .

(135/231)

(وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ) هَذَا تَقْرِيرٌ وَتَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ ، أَيْ : وَلَقَدْ جَاءَكَ بَعْضُ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ فِي ذَلِكَ ، أَوْ : وَلَقَدْ جَاءَكَ مَا ذُكِرَ أَوْ ذَلِكَ الَّذِي أُشِيرُ إِلَيْهِ مِنْ خَبَرِ التَّكْذِيبِ وَالصَّبْرِ وَالنَّصْرِ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَالنَّبَأُ الْخَبَرُ أَوْ ذُو الشَّأْنِ مِنَ الْأَخْبَارِ لَا كُلَّ خَبَرٍ . وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْأَنْعَامَ نَزَلَتْ بَعْدَ الشُّعَرَاءِ وَالنَّمْلِ وَالْقَصَصِ وَهُودٍ وَالْحِجْرِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ بِالتَّفْصِيلِ . وَكَلِمَةُ " نَبَأٍ " رُسِمَتْ فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ بِيَاءٍ هَكَذَا (نبإي) وَالْيَاءُ كُرْسِيٌّ لِلْهَمْزَةِ الْمَحْذُوفَةِ كَالنُّقَطِ ، فَيَنْطِقُ بِالْهَمْزَةِ دُونَهَا كَمَا تُرْسَمُ فِي وَسَطِ الْكَلِمَةِ فِي مِثْلِ " نَبِّئْهُمْ " . وَكَانَ يَنْطِقُ بِهَا مَنْ لَا يَهْمِزُ .

(136/231)

وَمِنَ الْعِبْرَةِ فِي الْآيَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ مَا وَعَدَ الْمُرْسَلِينَ مِنَ النَّصْرِ ، فَقَالَ : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (40 : 51) وَقَالَ : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (30 : 47) وَهِيَ نَصٌّ فِي تَعْلِيلِ النَّصْرِ بِالْإِيمَانِ . وَلَكِنَّنَا نَرَى كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ فِي هَذِهِ الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ غَيْرَ مَنْصُورِينَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ غَيْرَ صَادِقِينَ ، أَوْ يَكُونُوا ظَالِمِينَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ ، وَلِأَهْوَائِهِمْ لَا لِلَّهِ نَاصِرِينَ ، وَلِسُنَنِهِ

فِي أَسْبَابِ النَّصْرِ غَيْرَ مُتَّبَعِينَ ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ وَلَا يُبْطِلُ سُنَنَهُ ، وَإِنَّمَا يَنْصُرُ الْمُؤْمِنَ الصَّادِقَ وَهُوَ مَنْ يَقْصِدُ نَصْرَ اللهِ وَإِعْلَاءَ كَلِمَتِهِ ، وَيَتَحَرَّى الْحَقَّ وَالْعَدْلَ فِي حَرْبِهِ لَا الظَّالِمَ الْبَاغِي عَلَى ذِي الْحَقِّ وَالْعَدْلِ مِنْ خَلْقِهِ ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي شَرْعِ الْقِتَالِ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ " سُورَةِ الْحَجِّ " : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) إِلَى قَوْلِهِ : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (22 : 39 ، 40) فَأَمَّا الرُّسُلُ الَّذِينَ نَصَرَهُمُ اللهُ وَمَنْ مَعَهُمْ فَقَدْ كَانُوا كُلُّهُمْ مَظْلُومِينَ ، وَبِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ مُعْتَصِمِينَ ، وَلِلَّهِ نَاصِرِينَ . وَقَدِ اشْتَرَطَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي نَصْرِ

(137/231)

سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ فِي " سُورَةِ الْقِتَالِ " : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (47 : 7) وَالْإِيمَانُ سَبَبٌ حَقِيقِيٌّ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، يَكُونُ مُرَجِّحًا بَيْنَ مَنْ تَسَاوَتْ أَسْبَابُهُمُ الْأُخْرَى ، فَلَيْسَ النَّصْرُ بِهِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ . وَأَمَّا تَأْيِيدُ اللهِ تَعَالَى لِلرُّسُلِ

بِإِهْلَاكِ أَقْوَامِهِمُ الْمُعَانِدِينَ فَهُوَ أَمْرٌ آخَرُ زَائِدٌ عَلَى تَأْثِيرِ الْإِيمَانِ فِي الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ ، وَالِاتِّكَالِ عَلَى اللهِ تَعَالَى عِنْدَ اشْتِدَادِ الْبَأْسِ وَعُرُوضِ أَسْبَابِ الْيَأْسِ . وَمَنْ كَانَ حَظُّهُ مِنْ صِفَاتِ

الْإِيمَانِ وَلَوَازِمِهِ أَكْبَرَ كَانَ إِلَى نَيْلِ النَّصْرِ أَقْرَبَ إِذَا كَانَ مُسَاوِيًا لِخَصْمِهِ فِي سَائِرِ أَسْبَابِ الْقِتَالِ وَلَا سِيَّمَا حُسْنُ النِّظَامِ وَجَوْدَةُ السِّلَاحِ ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا كَلَامٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ (رَاجِعْ كَلِمَةَ " نَصْرٍ " مِنْ فَهَارِسِ أَجْزَاءِ التَّفْسِيرِ وَمُجَلَّدَاتِ الْمَنَارِ) .

(وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ) مِمَّا اقْتَرَحُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ لِيُؤْمِنُوا فَافْعَلْ أَوْ فَأْتِهِمْ بِهَا ، يُقَالُ كَبُرَ عَلَى فُلَانٍ الْأَمْرُ ، أَيْ عَظُمَ عِنْدَهُ وَشَقَّ عَلَيْهِ وَقْعُهُ . وَالْإِعْرَاضُ : التَّوَلِّي

(138/231)

وَالِانْصِرَافُ عَنِ الشَّيْءِ رَغْبَةً عَنْهُ أَوِ احْتِقَارًا لَهُ ، وَهُوَ مِنْ إِبْدَاءِ الْمَرْءِ عَرْضَ بَدَنِهِ عِنْدَ تَوَلِّيهِ عَنِ الشَّيْءِ وَاسْتِدْبَارِهِ لَهُ ، وَاسْتَطَعْتَ الشَّيْءَ : صَارَ فِي طَوْعِكَ مُنْقَادًا لَكَ بِاسْتِيفَاءِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُمَكِّنُكَ مِنْ فِعْلِهِ ، وَالِابْتِغَاءُ : طَلَبُ مَا فِي طَلَبِهِ كُلْفَةٌ وَمَشَقَّةٌ أَوْ تَجَاوُزٌ لِلْمُعْتَادِ أَوْ لِلِاعْتِدَالِ ، أَوْ طَلَبُ غَايَاتِ الْأُمُورِ وَأَعَالِيهَا ، لِأَنَّهُ افْتِعَالٌ مِنَ الْبَغْيِ وَهُوَ تَجَاوُزُ الْحَدِّ فِي الطَّلَبِ أَوِ الْحَقِّ . وَيَكُونُ فِي الْخَيْرِ كَابْتِغَاءِ رِضْوَانِ اللهِ وَهُوَ غَايَةُ الْكَمَالِ ، وَفِي الشَّرِّ كَابْتِغَاءِ الْفِتْنَةِ وَهُوَ غَايَةُ الضَّلَالِ ، وَالنَّفَقُ : السَّرَبُ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ حُفْرَةٌ نَافِذَةٌ

لَهَا مَدْخَلٌ وَمَخْرَجٌ ، كَنَافِقَاءِ الْيَرْبُوعِ ، وَهُوَ جُحْرُهُ يَجْعَلُ لَهُ مَنَافِذَ يَهْرُبُ مِنْ بَعْضِهَا إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِ مَا يَخَافُهُ . وَالسُّلَّمُ : الْمِرْقَاةُ ، مُشْتَقٌّ مِنَ السَّلَامَةِ . قَالَ الزَّجَّاجُ : لِأَنَّهُ الَّذِي يُسَلِّمُكَ إِلَى مِصْعَدِكَ . وَتَذْكِيرُهُ أَفْصَحُ مِنْ تَأْنِيثِهِ ، وَإِنَّمَا يُؤَنَّثُ بِمَعْنَى الْآلَةِ ، وَأَتَى بِـ " كَانَ " فِعْلًا لِلشَّرْطِ ؛ لِيَبْقَى الشَّرْطُ عَلَى الْمُضِيِّ وَلَا يَنْقَلِبَ مُسْتَقْبَلًا كَمَا قَالُوا ، فَإِنَّ " إِنَّ " لَا تَقْلِبُ " كَانَ " مُسْتَقْبَلًا لِقُوَّةِ دَلَالَتِهِ عَلَى الْمُضِيِّ . وَالنَّحْوِيُّ يُؤَوِّلُ مِثْلَ هَذَا التَّرْكِيبِ بِنَحْوِ : وَإِنْ تَبَيَّنَ وَظَهَرَ أَنَّهُ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ بِهِ ، تَقْدِيرُهُ : فَافْعَلْ كَمَا تَقَدَّمَ .

(139/231)

تَقَدَّمَ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِحُونَ الْآيَاتِ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَأَنَّهُ كَانَ يَتَمَنَّى لَوْ آتَاهُ اللَّهُ بَعْضَ مَا طَلَبُوا حِرْصًا عَلَى هِدَايَتِهِمْ ، وَأَسَفًا وَحُزْنًا عَلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى غَوَايَتِهِمْ ، وَتَأَلُّمًا مِنْ كُفْرِهِمْ وَأَذِيَّتِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ أُولَئِكَ الْمُقْتَرِحِينَ الْجَاحِدِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِنْ رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ مَا يَطْلُبُونَ وَفَوْقَ مَا يَطْلُبُونَ ، كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي تَفْسِيرِ أَوَائِلِ السُّورَةِ [رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ السَّابِعَةِ وَمَا بَعْدَهَا ص 258 ج 7 ط الْهَيْئَةِ] وَقَدْ أَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُؤَكِّدَ لِرَسُولِهِ مَا يَجِبُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ وَأَذَاهُمْ

الدَّالِّ عَلَيْهِ مَا قَبْلُهُ ، وَأَنْ يُرِيحَ قَلْبَهُ الرَّءُوفَ الرَّحِيمَ مِنْ إِجَابَتِهِمْ إِلَى مَا اقْتَرَحُوا مِنَ الْآيَاتِ ؛ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ : وَإِنْ كَانَ شَأْنُكَ مَعَهُمْ أَنَّهُ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَعَنِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ – وَمِنْهَا مَا سَبَقَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ – وَظَنَنْتَ أَنَّ إِتْيَانَهُمْ بِآيَةٍ مِمَّا اقْتَرَحُوا

يَدْحَضُ حُجَّتَهُمْ ، وَيَكْشِفُ شُبْهَتَهُمْ ، فَيَعْتَصِمُونَ بِعُرْوَةِ الْإِيمَانِ ، عَنْ بَيِّنَةٍ مُلْزِمَةٍ وَبُرْهَانٍ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ لِنَفْسِكَ نَفَقًا كَائِنًا فِي الْأَرْضِ – أَوْ مَعْنَاهُ : تَطْلُبُهُ فِي الْأَرْضِ – فَتَذْهَبَ فِي أَعْمَاقِهَا ، أَوْ سُلَّمًا فِي جَوِّ السَّمَاءِ

(140/231)

تَرْتَقِيَ عَلَيْهِ إِلَى مَا فَوْقَهَا ، فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ مِمَّا اقْتَرَحُوهُ عَلَيْكَ مِنْهُمَا فَائْتِ بِمَا يَدْخُلُ فِي طَوْعِ قُدْرَتِكَ مِنْ ذَلِكَ ، كَتَفْجِيرِ يَنْبُوعٍ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، أَوْ تَنْزِيلِ كِتَابٍ تَحْمِلُهُ لَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَقَدْ كَانُوا طَلَبُوا أَحَدَ النَّوْعَيْنِ كَمَا حَكَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ فِي " سُورَةِ الْإِسْرَاءِ " : (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) إِلَى قَوْلِهِ : (أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ) (17 : 90 – 93) وَقَدْ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عَقِبَ هَذَا : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) أَيْ وَلَيْسَ

ذَلِكَ فِي قُدْرَةِ الْبَشَرِ وَإِنْ كَانَ رَسُولًا ؛ لِأَنَّ الرِّسَالَةَ لَا تُخْرِجُ الرَّسُولَ عَنْ طَوْرِ الْبَشَرُ فِي صِفَاتِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ كَالْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِيجَادَ شَيْءٍ مِمَّا يَعْجِزُ عَنْهُ الْبَشَرُ فِي صِفَاتِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ كَالْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ ، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِيجَادَ شَيْءٍ مِمَّا يَعْجِزُ عَنْهُ الْبَشَرُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُ الْخَالِقِ تَعَالَى . وَالْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْإِتْيَانَ بِشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ وَلَا ابْتِغَاءَ السُّبُلِ إِلَيْهَا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا اقْتَضَتْ مَشِيئَةُ رَبِّكَ أَنْ يُؤْتِيَكَ ذَلِكَ ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَكُونُ سَبَبًا لِمَا تُحِبُّ مِنْ هِدَايَتِهِمْ ؛ وَلِأَنَّ مِنْ سَنَّتِهِ أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَى

(141/231)

الْجُحُودِ بَعْدَهُ إِنْزَالُ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ السَّادِسَةِ وَالسَّابِعَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(142/231)

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أَيْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى جَمْعَهُمْ عَلَى مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى لَجَمَعَهُمْ عَلَيْهِ بِجَعْلِ الْإِيمَانِ ضَرُورِيًّا لَهُمْ كَالْمَلَائِكَةِ ، أَوْ بِخَلْقِهِمْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ وَاحِدٍ لِلْخَيْرِ وَالْحَقِّ فَقَطْ ، لَا مُتَفَاوِتِي الِاسْتِعْدَادِ مُخْتَلِفِي الِاخْتِيَارِ بِاخْتِلَافِ الْعُلُومِ وَالْأَفْكَارِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ ، كَمَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ فِي خَلْقِ النَّاسِ ، وَلَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَ الْبَشَرَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَاوُتِ فِي الِاسْتِعْدَادِ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ اخْتِلَافِ أَسْبَابِ الِاخْتِيَارِ ، فَإِذَا عَرَفْتَ سُنَّتَهُ هَذِهِ فِي خَلْقِ هَذَا النَّوْعِ ، وَأَنَّهُ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْجَاهِلِينَ بِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ الَّذِينَ يَتَمَنَّوْنَ مَا يَرَوْنَهُ حَسَنًا وَنَافِعًا ، وَإِنْ كَانَ حُصُولُهُ مُمْتَنِعًا ، لِكَوْنِهِ مُخَالِفًا لِتِلْكَ السُّنَنِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ . فَالْجَهْلُ هُنَا ضِدُّ الْعِلْمِ لَا ضِدُّ الْحِلْمِ ، وَلَيْسَ كُلُّ جَهْلٍ بِهَذَا الْمَعْنَى عَيْبًا ؛ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَإِنَّمَا يُذَمُّ الْإِنْسَانُ بِجَهْلِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ بِجَهْلِ مَا يَنْبَغِي لَهُ وَيُعَدُّ كَمَالًا فِي حَقِّهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعْذُورًا فِي جَهْلِهِ . قَالَ تَعَالَى فِي الْفُقَرَاءِ الْمُتَعَفِّفِينَ : (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) (2 : 273) فَوَصْفُ الْجَاهِلِ

هُنَا غَيْرُ ذَمٍّ ، وَكَانَ عَدَمُ عِلْمِ خَاتَمِ الرُّسُلِ بِالْكِتَابَةِ مِنْ أَرْكَانِ آيَاتِهِ ، وَعَدَمُ عِلْمِهِ بِالشِّعْرِ مِنْ أَدِلَّةِ الْوَحْيِ وَبَيِّنَاتِهِ ، وَكُلُّ مَا يَتَوَقَّفُ عِلْمُهُ عَلَى الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ لَا يَكُونُ جَهْلُ الرَّسُولِ إِيَّاهُ قَبْلَ نُزُولِهِ عَلَيْهِ عَيْبًا يُذَمُّ بِهِ ؛ إِذْ لَا يُذَمُّ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِمَا يُقَصِّرُ فِي تَحْصِيلِهِ وَكَسْبِهِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِأَنْ يَسْأَلَهُ

(144/231)

زِيَادَةَ الْعِلْمِ ، وَكَانَ يَزِيدُهُ كُلَّ يَوْمٍ عِلْمًا وَكَمَالًا بِتَنْزِيلِ الْقُرْآنِ وَبِفَهْمِهِ ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ الذَّمَّ قَبْلَ هَذِهِ الزِّيَادَةِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُذَمُّ مُطْلَقًا هُوَ الْجَهْلُ الْمُرَادِفُ لِلسَّفَهِ وَهُوَ ضِدُّ الْحِلْمِ .

وَيُشْبِهُ مَا هُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى لِنُوحٍ حِينَ طَلَبَ نَجَاةَ ابْنِهِ الْكَافِرِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِهِ الَّذِينَ وَعَدَهُ اللَّهُ بِإِنْجَائِهِمْ مَعَهُ : (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (11 : 46) أَيْ بِإِدْخَالِ وَلَدِكَ الْكَافِرِ فِي عُمُومِ أَهْلِكَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا اقْتَرَنَ النَّهْيُ هُنَا بِالْوَعْظِ لِأَنَّ عَاطِفَةَ الرَّحْمَةِ الْوَالِدِيَّةِ حَمَلَتْهُ عَلَى سُؤَالِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ اعْتِمَادًا عَلَى اسْتِنْبَاطٍ اجْتِهَادِيٍّ غَيْرِ صَحِيحٍ ، وَرَحْمَةُ خَاتَمِ الرُّسُلِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَتْ أَعَمَّ وَأَشْمَلَ ، وَغَايَةُ مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ الْآيَةُ أَنَّهُ تَمَنَّى

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْ ، وَلَوْ سَأَلَ لَسَأَلَ آيَةً يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ مِنْ قَوْمِهِ ، لَا نَجَاةَ الْكَافِرِ مِنْ أَهْلِهِ ، فَاكْتَفَى فِي إِرْشَادِهِ بِالنَّهْيِ وَحَسُنَ فِي إِرْشَادِ نُوحٍ التَّصْرِيحُ بِالْوَعْظِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 302. 320 ﴾

(145/231)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾

إنك يا محمد رسول من عند الله ، ومعك منهج هو معجزتك الدالة على صدق ما جئت به ، فإن كبر عليك إعراضهم وعظم عليك أن يتولوا ويعرضوا عنك فإن استطعت أن تصنع لنفسك نفقاً في الأرض لتأتيهم بآية أو أن تبني سلماً لتصعد به إلى السماء طلباً لهذه الآية فافعل ، ولكنك لن تستطيع ذلك لأن ذلك فوق حدود قدرتك وسيلقى المشركون والمنافقون العذاب لأنك جئت يا رسول الله تبدد من صولجان سلطتهم الزمنية وتقيم العدل الإيماني . ولذلك حاولوا السخرية منك وإيذاءك .

وقد طلب الكافرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل إلى الأرض ليفجر لهم منها ينبوعاً ، وطلبوا إليه أن يصعد إلى السماء وأن يجعلها تسقط عليهم كسفاً وقطعاً لتهلكهم . وهذه أشياء لم تكن في مكنة واستطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقول له الحق سبحانه وتعالى ما يقفل عليه أبواب الحزن ويقضي على أسباب الأسى والأسف عنده بسبب إعراضهم ، وأن يعرف أن السخرية والمقاومة هي مسألة طبيعية بالنسبة لكل رسول من الرسل ، وأنت يا رسول الله أولى بهذا لأن مهمتك أضخم من كل الرسل . ونلحظ أن الحق سبحانه يحذف هنا جواب " إن " فهو يقول : ﴿ فَإِنِ استطعت أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأرض أَوْ سُلَّماً فِي السمآء فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ [الأنعام : 35] .

(146/231)

ولم يقل الحق : فافعل ذلك ، كأن المسألة هي تهدئة للرسول ؛ لأن الجواب في مثل هذه الحالة معلوم ؛ فالرسول لا يجبر أحداً على الإيمان . وإعراض هؤلاء القوم أمر مقصود لواجب الوجود حتى يختبرهم ولو أراد قهرهم لفعل ، فلا أحد يتأبى على الله ، فالكون كله مطيع لله ، الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والهواء ، والماء ، والجبال ، والأرض ، وكل ما في الكون مطيع لله بما في ذلك الحيوان المسخر لخدمة الإنسان . ولكنه – سبحانه – أعطى الاختيار

للإنسان ليأتي إلى الله محباً .

ونعلم أن الحق قد ترك بعضاً من المسخرات غير مذللة ليثبت للإنسان إنه لم يذلل الأشياء بحيلته ، ولكنه – جل شأنه – هو الذي خلقها وذللها له ؛ لذلك نرى الجمل الضخم يجره طفل صغير ، ونرى أي رجل مهما تكن قوته يأخذ الحذر والاحتياط من ثعبان صغير .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 71-72] .

ولو لم يذللها الله فلن يستطيع أحد أن يقترب منها . وأضرب هذا المثل دائماً ، عندما قال قائل : لماذا خلق الله الذباب ، فقال رجل من أهل الإشراق : ليذل به الجبابرة ؛ فسلطانهم لا يمتد إلى هذه الحشرات . لقد أعطى الحق الإنسان عزَّة السيادة ، وعلمه أيضاً أن يتواضع للخالق .

ويبلغ الحق سبحانه وتعالى رسوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ [الأنعام : 35] .

أي أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم مؤمنين . وقد يقول قائل : كيف يخاطب الله رسوله فيقول له : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ ؟ ونقول : إن الحق حين يقول لرسوله ذلك فهو يقولها لا من مظنة أن يفعلها الرسول ؛ فالرسول معصوم من الجهل ، ولكن هو قول فيه

تنزيه للرسول عن أن يكون في مثل هذا الصنف من الجاهلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(147/231)

وقال صاحب الميزان :

قوله تعالى : (وإن كان كبر عليك إعراضهم – إلى قوله – فتأتيهم بآية) قال الراغب : النفق الطريق النافذ والسرب في الأرض النافذ فيه قال : فإن استطعت أن تبتغى نفقا في الأرض ، ومنه نافقاء اليربوع ، وقد نافق اليربوع ونفق ، ومنه النفاق وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب ، وعلى ذلك نبه بقوله : إن المنافقين هم الفاسقون أي الخارجون من الشرع ، وجعل الله المنافقين شرا من الكافرين فقال : إن المنافقين في الدرك الاسفل من النار ، ونيفق السراويل معروف ، انتهى .

وقال : السلم ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسما لكل ما يتوصل به إلى شئ رفيع كالسبب ، قال تعالى : أم لهم سلم يستمعون به ، وقال : أو سلما في السماء ، وقال الشاعر : ولو نال أسباب السماء بسلم ، انتهى .

وجواب الشرط في الآية محذوف للعلم به ، والتقدير كما قيل : وإن استطعت أن تبتغى كذا

وكذا فافعل .

والمراد بالآية في قوله تعالى : (فتأتيهم بأية) الآية التى تضطرهم إلى الإيمان فإن الخطاب أعنى قوله : (وإن كان كبر عليك إعراضهم) الخ ، إنما ألقى إلى النبي صلى الله عليه وآله من طريق القرآن الذى هو أفضل آية إلهية تدل على حقية دعوته ، ويقرب إعجازه من فهمهم وهم بلغاء عقلاء فالمراد أنه لا ينبغى أن يكبر ويشق عليك إعراضهم فإن الدار دار الاختيار ، والدعوة إلى الحق وقبولها جاريان على مجرى الاختيار ، وإنك لا تقدر على الحصول على آية توجب عليهم الإيمان وتلزمهم على ذلك فإن الله سبحانه لم يرد منهم الإيمان إلا على اختيار منهم فلم يخلق آية تجبر الناس على الإيمان والطاعة ، ولو شاء الله لامن الناس جميعا فالتحق هؤلاء الكافرون بالمؤمنين بك فلا تبتئس ولا تجزع بإعراضهم فتكون من الجاهلين بالمعارف الإلهية .

وأما ما احتمله بعضهم : أن المراد فتأتيهم بآية هي أفضل من الآية التى أرسلناك

(148/231)

بها أي القرآن فلا تلائمه سياق الآية وخاصة قوله (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) فإنه ظاهر في الاضطرار .

ومن هنا يظهر أن المراد بالمشية أن يشاء الله منهم الاهتداء إلى الإيمان فيضطروا إلى القبول فيبطل بذلك اختيارهم هذا ما يقتضيه ظاهر السياق من الآية الشريفة .

لكنه سبحانه فيما يشابه الآية من كلامه لم يبن عدم مشيئته ذلك على لزوم الاضطرار كقوله تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين) (السجدة : 13) يشير تعالى بذلك إلى نحو قوله : (قال فالحق والحق أقول لأملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) (ص : 85) فبين تعالى أن عدم تحقق مشيته لهداهم جميعا إنما هو لقضائه ما قضى تجاه ما أقسم عليه إبليس أنه سيغويهم أجمعين إلا عباده منهم المخلصين .

وقد أسند القضاء في موضع آخر إلى غوايتهم قال تعالى في قصة آدم وإبليس : (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط على مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين) (الحجر : 43) وقد نسب ذلك إليهم إبليس أيضا فيما حكى الله سبحانه من كلامه لهم يوم القيامة : (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم – إلى أن قال – إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) (إبراهيم : 22) .

فالآيات تبين أن المعاصي ومنها الشرك تنتهى إلى غواية الإنسان والغواية تنتهى إلى نفس

الإنسان ، ولا ينافي ذلك ما يظهر من آيات أخر أن الإنسان ليس له أن يشاء إلا أن يشاء الله منه المشيئة كقوله تعالى : (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله) (الإنسان : 30) ، وقال تعالى : (إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) (التكوير : 29) .

(149/231)

فمشية الإنسان في تحققها وإن توقفت على مشيئة الله سبحانه إلا أن الله سبحانه لا يشاء منه المشيئة إلا إذا استعد لذلك بحسن سريرته ، وتعرض منه لرحمته ، قال تعالى : (ويهدى إليه من أناب) (الرعد : 27) أي انعطف ورجع إليه ، وأما الفاسق الزائغ قلبه المخلد إلى الأرض المائل إلى الغواية فإن الله لا يشاء هدايته ولا يغشاه برحمته كما قال : (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين) (البقرة : 26) وقال : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (الصف : 5) وقال : (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) (الاعراف : 176) .

وبالجملة فالدعوة الدينية لا تسلك إلا سبيل الاختيار ، والآيات الإلهية لا تنزل الا مع مراعاة الاختيار ، ولا يهدى الله سبحانه إليه إلا من تعرض لرحمته واستعد لهدايته من طريق

الاختيار .

وبهذا تنحل شبهة أخرى لا تخلو عن إعضال ، وهى أنا سلمنا أن إنزاله تعالى آية تجبرهم على الإيمان وتضطرهم إلى قبول الدعوة الدينيه ينافى أساس الاختيار الذى تبتنى عليه بنية الدعوة الدينية لكن لم لا يجوز أن يشاء الله إيمان الناس جميعا على حد مشيئته إيمان من آمن منهم بأن يشاء من الجميع أن يشاءوا كما شاء من المؤمنين خاصه أن يشاءوا ثم ينزل آية تسوقهم إلى الهدى ، وتلبسهم الإيمان من غير أن يبطل بذلك اختيارهم وحريتهم في العمل .

(150/231)

وذلك أنه وإن أمكن ذلك بالنظر إلى نفسه لكنه ينافى الناموس العام في عالم الأسباب ، ونظام الاستعداد والإفاضة فالهدى إنما يفاض على من اتقى الله وزكى نفسه وقد أفلح من زكاها ، ولا يصيب الضلال إلا من أعرض من ذكر ربه ودسى نفسه وقد خاب من دساها ، وإصابة الضلال هو أن يمنع الإنسان الهدى قال تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا ، كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) (الاسراء : 20) أي ممنوعا فالله سبحانه يمد

كل نفس من عطائه بما يستحقه فإن أراد الخير أوتيه وإن أراد الشر أوتيه أي منع من الخير ، ولو شاء الله لكل نفس صالحة أو طالحة أن تشاء الخير وتنكب على الإيمان والتقوى من طريق الاختيار كان في ذلك إبطال النظام العام وإفساد أمر الأسباب .

وتؤيد ما ذكر الآية التالية أعنى قوله تعالى : (إنما يستجيب الذين يسمعون) . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 64.66 ﴾

(151/231)

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى

البَلاَغة : 1 - ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ فيه تشبيه يسمى " المرسل المجمل " .

2 - ﴿ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تزعمونهم شركاء .

3 - ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ ﴾ الصيغة للتعجيب من كذبهم الغريب .

4 - ﴿ آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ عبَّر بالأكنة في القلوب والوقر في الآذان وهو تمثيل بطريق الاستعارة لإعراضهم عن القرآن .

5 - ﴿ يَقُولُ الذين كفروا ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل الكفر عليهم .

7 - ﴿ يَنْهَوْنَ . . . وَيَنْأَوْنَ ﴾ وردت الصيغة مؤكدة بمؤكدين " إنَّ " و" اللام " للتنبيه على أن الكذب طبيعتهم .

8 - ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تشبيه بليغ حيث جعلت الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كقول الخنساء : " فإنما هي إقبال وإدبار " .

9 - ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ الاستفهام للتوبيخ .

10 - ﴿ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ﴾ تنوين رسل للتفخيم والتكثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 387.388 ﴾

(152/231)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ ﴾ : هذا شَرْطٌ ، جوابه " الفاء " الداخلة على الشرط الثَّاني ، وجواب الثَّاني محذوف ، تقديره : فإن استطعت أن تبتغي فافعل ، ثم جُعِلَ الشَّرْطُ الثاني وجوابه جَوَاباً للشَّرْط الأوَّل ، وقد تقدَّم مِثْلُ ذلك في قوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ ﴾ [البقرة : 38] إلاَّ أن جوابَ الثاني هناك مُظْهَرٌ .

و"كان" في اسمها وجهان:

أحدهما: أنه "إعراضهم"، و"كَبُرَ" جملةٌ فعلية في محل نصب خبراً مقدَّماً على الاسم، وهي مسألة خلاف: هل يجوز تقديمُ خبر "كان" على اسمها إذا كان فِعْلاً رافعاً لضمير مستتر أم لا؟

وأمَّا إذا كان خبراً للمبتدأ، فلا يجوز أَلْبَتَّةَ لئلاَّ يَلْتَبِسَ بباب الفاعل، والَّبْسُ هنا مَأْمُونٌ.

ووَجْهُ المنع اسْتِصْحَابُ الأصل، و"كَبُرَ" إذا قيل: إنه خبر "كان"، فهل يحتاج إلى إضمار "قَدْ" أم لا؟

والظاهر أنه لا يَحْتَاجُ؛ لأنه كَثُرَ وُقُوعُ الماضي خبراً لها من غير "قد" نَظْماً ونَثْراً، وبعضهم يخص ذلك بـ "كان" ويمنعه في غيرها من أخوتها إلا بـ "قد" ظَاهِرَةً أو مُضْمَرَةً، ومن مجيء ذلك في خبر أخواتها قَوْلُ النابغة: [البسيط]

2125 - أَمْسَتْ خَلاءً وأَمْسَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا . . .

أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبَدِ

والثاني : أن يكون اسمها ضمير الأمر والشأن ، والجملة الفعلية مُفَسِّرٌ له في مَحَلِّ نصب على الخبر ، فإعراضُهُمْ مرفوعٌ بـ "كَبُر" ، وفي الوجه الأول بـ "كان" ، ولا ضمير في "كَبُرَ" على الثاني ، وفيه ضمير على الأول ، ومثل ذلك في جواز هذين الوجهين قوله تعالى : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ [الأعراف : 137] ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ [الجن : 4] ، ف "فرعون" يحتمل أن يكون اسْماً ، وأن يكون فاعلاً ، وكذلك "سَفِيهُنَا" ، ومثله أيضاً قول امرئ القيس : [الطويل]

2153 - وإنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ . . .

فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ

ف "خليقة" يحتمل الأمرين ، وإظهار "قد" هنا يُرَجِّحُ قول من يشترطها ، وهل يجوز في مثل هذا التركيب التَّنَازُعُ ، وذلك أن كُلاًّ من "كان" وما بعدهام من الأفعال المذكورة في هذه الأمثلة يطلب المَرْفُوعَ من جهة المعنى ، وشروط الإعمال موجودة .

قال شهاب الدين : وكنت قديماً سألت الشيخ - يعني أبا حيَّان - عن ذلك ، فأجاب بالمَنْعِ مُحْتَجّاً بأن شَرْطَ الإعمال ألاَّ يكون أحَدُ المُتنازِعَينِ مُفْتَقِراً إلى الآخر ، وألاَّ يكون من تمام معناه و"كان" مُفْتَقِرةٌ إلى خبرها ، وهو من تمام معناها ، وهذا الذي ذكره من المَنْعِ ، وترجيحه ظَاهِرٌ ، إلاَّ أن النحويين لم يذكروه في شروطِ الإعمال .

وقوله : "وإن كان كَبُرَ" مُؤوَّلٌ بالاسْتِقْبَالِ ، وهو التَّبَيُّنُ والظهور فهو كقوله : ﴿ إِن كَانَ

قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ [يوسف : 26] أي : إن تَبَيَّنَ وَظَهَر ، وإلاَّ فهذه الأفعال قَدْ وَقَعَتْ وانقضت فكيف تَقَعُ شرطاً ؟

وقد تقدَّم أنَّ المُبَرِّدَ يُبْقي "كان" خَاصَّةً على مُضِيِّهَا في المعنى مع أدوات الشَّرْطِ ، وليس بشيء .

(154/231)

وأمَّا : " فإن استطعت " فهو مستقبل معنى ؛ لأنه لم يَقَعْ ، بخلاف كونه "كَبُرَ عليه إعراضهم " ، وقدّ القَمِيص ، و" أن تبتغي " مفعول الاسْتِطَاعَةِ .

و" نفقاً " مفعول الأبْتِغَاءِ .

والنَّفَقُ : السَّرَبُ النَّافِذُ في الأرض ، وأصله من جحرة اليَرْبُوع ، ومنه : النَّافِقَاءُ ، والقَاصِعَاءُ ، وذلك أن اليربوع يَحْفُرُ في الأرض سَرَباً ويجعل له بَابَيْنِ ، وقيل : ثلاثة : النَّافِقَاءُ ، والقَاصِعَاءُ والدَّبَقَاءُ ، ثم يَرِقُّ بالحفر ما تقارب وجه الأرض ، فإذا نَابَهُ أَمْرٌ دفع تلك القِشْرَةُ الرقيقة وخرج ، وقد تقدَّم اسْتِيفَاءُ هذه المادَّةِ عند قوله : ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : 3] ، و﴿ المنافقين ﴾ [النساء : 61] .

وقوله " في الأرض " ظاهرة أنه متعلقٌ بالفعل قَبْلَهُ ، ويجوز أن يكون صِفَةً لـ " نَفَقاً " فيتعلق

بمحذوفٍ وهُوَ صِفَةٌ لمجرَّد التوكيد ، إذ النَّفَق لا يكون إلاَّ في الأرض .

وجوَّز أبو البقاء مع هذين الوجهين أن يكون حالاً من فاعل " تبتغي " ، أي : وأنت في الأرض .

قال وكذلك في السماء .

ويعني من جواز الأوجه الثلاثة ، وهذا الوَجْهُ الثالث ينبغي ألاَّ يجوز لخُلُوِّه عن الفائدة .

والسُّلَّمُ : قيل المِصْعَدُ ، وقيل : الدَّرَجُ ، وقيل : السَّبَبُ تقول العرب : أَتَّخِذْني سُلَّماً لحاجتك ، أي : سبباً .

قال كعب بن زهير : [الطويل]

2154 - وَلاَ لَكُمَا مَنْجًى مِن الأَرْضِ فَابْغِيَا . . .

بِهَا نَفَقاً أَوْ السَّمواتِ سُلَّما

وهو مُشْتَقٌّ من السَّلامة ، قالوا : لأنه يسلم به إلى المصعد والسُّلَّم مُذَكَّرٍ ، وحكى الفرَّاء تأنيثه .

قال بعضهم : ليس ذلك بالوَضْعِ ، بل لأنه بمعنى المَرْقَاة ، كما أَنَّث بعضهم الصوت في قوله : [البسيط]

2155 - . . . . . .

سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هَذِهِ الصَّوْتُ

لَمَّا كان في معنى الصَّرْخة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 117 . 119 ﴾ . باختصار .

(155/231)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) ﴾

لفرط شفقته – صلى الله عليه وسلم – استقصى في التماس الرحمة من الله لهم ، وحمل على قلبه العزيز بسبب ما عَلِمَ من سوء أحوالهم ما أَثَّر فيه من فنون الأحزان . فعرَّفه أنهم مُبْعَدُون عن التقريب ، منكوبون بسالف القسمة .

ولو أراد الحقُّ – سبحانه – لَخَفَّفَ عنهم ، ولو شاء أن يهديَهم لكان لهم مقيل في الصدور ، ومثوى على النشاط ، ولكن مَنْ كَبَسَتْهُ العِزَّةُ لم تُنْعِشْه الحيلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 469 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اليل والنهار ﴾ يحتمل أن يكون الليل والنهار إشارة إلى قلب الكافر وقلب المؤمن وما سكن فيهما الكفر والإيمان ومعنى كون ذلك له سبحانه أنه من آثار جلاله وجماله ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى قلب العارف في حالتي القبض والبسط فكأنه قيل : وله ما سكن في قلوب العارفين المنقبضة والمنبسطة من آثار التجليات فلا تلتفت في الحالتين إلى سواه عز شأنه ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ [الأنعام : 13] فيسمع خواطرها السيئة والحسنة ويعلم شرها وخيرها أو فيسمع أنينها في شوقه ويعلم انسها به أو نحو ذلك .

(156/231)

﴿ قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ أي ناصراً ومعيناً ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما فهي ملكه سبحانه ونسبة المملوك إلى المالك نسبة اللاشيء إلى الشيء ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ فهو الغني المطلق وغيره جل شأنه محتاج بحت وطلب المحتاج من المحتاج سفه في رأيه وضلة من عقله ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ نفسه لربه عز شأنه ، والمراد بالأمر بذلك الأمر الكوني أي : قل إني قيل لي : كن أول من أسلم فكنت ، وذلك

قبل ظهور هذه التعينات وإليه الإشارة بما شاع من قوله صلى الله عليه وسلم : "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين " فأول روح ركضت في ميدان الخضوع والانقياد والمحبة روح نبينا صلى الله عليه وسلم وقد أسلم نفسه لمولاه بلا واسطة وكل إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما أسلموا نفوسهم بواسطته عليه الصلاة والسلام ، فهو صلى الله عليه وسلم المرسل إلى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام في عالم الأرواح وكلهم أمته وهم نوابه في عالم الشهادة ، ولا ينافي ذلك أمره عليه الصلاة والسلام باتباع بعضهم في النشأة الجسمانية لأن ذلك لمحض استجلاب المعتقدين بأولئك البعض على أحسن وجه ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [الأنعام : 14] أي وقيل لي : لا تكونن ممن أشرك مع الله تعالى أحداً بشيء من الأشياء .

(157/231)

﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ بإفنائهم والتصرف بهم كيف شاء ﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ أي الذي يفعل ما يفعل في عباده بالحكمة ﴿ الخبير ﴾ [الأنعام : 18] الذي يطلع على خفايا الأحوال ومراتب الاستحقاق ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 19] بإظهار المعجزات ، وأعظم من ذلك عند العارفين ظهور أنوار الله تعالى

في مرآة وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ ﴾ [الأنعام : 20] وذلك بالصفات التي وجدوها في كتابهم لا بالنور المتلألىء على صفحات ذلك الوجه الكريم ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ بإثبات وجود غيره تعالى أو كذب بآياته فأظهر صفات نفسه ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [الأنعام : 21] لاحتجابهم بما وضعوه في موضع ذات الله تعالى وصفاته جل وعلا ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ وهو يوم القيامة الكبرى وعين الجمع ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ بإثبات الغير ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعم : 22] أنهم شركاء ولهم وجود ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي نهاية شركهم عند ظهور الأمر وبروز الكل لله الواحد القهار ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] لامتناع وجود شيء نشركه ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ بنفي الشرك عنها مع رسوخ ذلك الاعتقاد فيها ﴿ وَضَلَّ ﴾ أي ضاع ﴿ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : 24] فلم يجدوه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ من حيث أنت ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ حسبما اقتضاه استعدادهم ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ وهي ظلمات النفس الأمارة ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ وهو وقر الضلالة ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ

وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأنعام : 25] لأن على أبصارهم غشاوة العجب والجهل ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار ﴾ وهي نار الحرمان ﴿ فَقَالُواْ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذّبَ بآيات رَبّنَا ﴾ من تجليات صفاته ﴿ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنعام : 72] أي الموحدين ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ في أنفسهم من الملكات الرديئة والهيئات المظلمة والصفات المهلكة ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ لرسوخ ذلك فيهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ [الأنعام : 28] في الدنيا والآخرة لأن الكذب عن ملكة فيهم ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبّهِمْ ﴾ [الأنعام : 30] الآية قال بعض أهل التأويل : هذا تصوير لحالهم في الاحتجاب والبعد وإن كانوا في عين الجمع المطلق ، والوقوف على الشيء غير الوقوف معه فإن الأول : لا يكون إلا كرهاً والثاني : يكون طوعاً ورغبة ، فالواقف مع الله سبحانه بالتوحيد لا يوقف للحساب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف : 28] ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : 52] ويثاب هذا بأنواع النعيم في الجنان كلها .

ومن وقف مع الغير بالشرك وقف على الرب تعالى وعذب بأنواع العذاب لأن الشرك ظلم عظيم .

ومن وقف مع الناسوت بمحبة الشهوات وقف على الملكوت وعذب بنيران الحرمان

وسلط عليه زبانية الهيئات المظلمة وقرن بشياطين الأهواء المردية ، ومن وقف مع الأفعال وقف على الجبروت وعذب بنار الطمع والرجاء ورد إلى مقام الملكوت ، ومن وقف مع الصفات وقف على الذات وعذب بنار الشوق والهجران .

وليس هذا هو الوقوف عل الرب لأن فيه حجاب الأنية وفي الوقوف على الذات معرفة الرب الموصوف بصفات اللطف .

(159/231)

والمشرك موقوف أولاً على الرب فيحجب بالرد والطرد ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] ثم على الجبروت فيطرد بالسخط واللعن ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [آل عمران : 77] ثم على الملكوت فيزجر بالغضب واللعن ﴿ قِيلَ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ [الزمر : 72] ثم على النار يسجرون فيعذب بأنواع النيران أبداً فيكون وقفه على النار متأخراً عن وقفه على الرب تعالى معلولاً له كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : 70] وأما الواقف مع الناسوت فيوقف للحساب على الملكوت ثم على النار .

وقد ينجو لعدم السخط وقد لا ينجو لوجوده .

والواقف مع الأفعال لا يوقف على النار أصلاً بل يحاسب ويدخل الجنة .

وأما الواقف مع الصفات فهو من الذين رضي الله تعالى عنهم ورضوا عنه انتهى .

فتأمل فيه ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَاء الله حتى إِذَا جَاءتْهُمُ الساعة بَغْتَةً ﴾ وهي القيامة الصغرى أعني الموت .

(160/231)

حكي عن بعض الكبار أنه قيل له : إن فلاناً مات فجأة فقال : لا عجب إذ من لم يمت فجأة مرض فجأة فمات ﴿ قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أي في حق تلك الساعة بترك العمل النافع ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : 31] تصوير لحالهم ﴿ وَمَا الحياة الدنيا ﴾ أي الحياة الحسية فإن المحسوس أدنى وأقرب من المعقول ﴿ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ لا أصل له ولا حقيقة سريع الفناء والانقضاء وللدار الآخرة ﴿ أي عالم الروحانيات ﴾ ﴿ أي عالم الروحانيات ﴾ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : 32] وهم المتجردون عن ملابس الصفات البشرية واللذات البدنية ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ﴾ لمقتضى البشرية ﴿ الذى يَقُولُونَ ﴾ ما يقولون ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ في الحقيقة ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله ﴾ التي تجلى بها ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : 33] فهو سبحانه

ينتقم منهم ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حتى أتاهم نَصْرُنَا ﴾ فتأس بهم وانتظر الغاية ﴿ وَلاَ مُبَدّلَ لكلمات الله ﴾ [الأنعام : 34] التي يتجلى بها لعباده فليطمئن قلبك ولا تكونن من الجاهلين الذين لا يطلعون على حكمة تفاوت الاستعدادات فتتأسف على احتجاب من احتجب وتكذيب من كذب .

والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(161/231)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أفهم هذا القضاء الحتم أنه قد صار حالهم حال من حتم بالموت ، فلا يمكن إسماعه إلا الله ، ولا يمكن أن يستجيب عادة ، قال : ﴿ إنما يستجيب ﴾ أي في مجاري عاداتكم ﴿ الذين يسمعون ﴾ أي فيهم قابلية السمع لأنهم أحياء فيتدبرون حينئذ ما يلقى إليهم فينتفعون به ، وهؤلاء قد ساووا الموتى في عدم قابلية السماع للختم على مشاعرهم ﴿ والموتى ﴾ أي كلهم حساً ومعنى ﴿ يبعثهم الله ﴾ أي الملك المحيط علماً وقدرة ، فهو

قادر على بعثهم بإفاضة الإيمان على الكافر وإعادة الروح إلى الهالك فيسمعون حينئذ ، فالآية من الاحتباك : حذف من الأول الحياة لدلالة ﴿ الموتى ﴾ عليها ، ومن الثاني السماع لدلالة ﴿ يسمعون ﴾ عليه .

ولما قرر أن من لا يؤمن كالميت ، حثاً على الإيمان وترغيباً فيه ، وقدر قدرته على البعث ، خوَّفَ من سطواته بقوله : ﴿ ثم إليه ﴾ أي وحده ﴿ يرجعون ﴾ أي معنى في الدنيا فإنه قادر على كل ما يشاء منهم ، لا يخرج شيء من أحوالهم عن مراده أصلاً وحساً بعد الموت ، فيساقون قهراً إلى موقف يفصل فيه بين كل مظلوم وظالمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 630 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى بيّن السبب في كونهم بحيث لا يقبلون الإيمان ولا يتركون الكفر فقال : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ يعني أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ، وإنما يستجيب من يسمع ، كقوله ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ [النمل : 80] قال علي بن عيسى : الفرق بين يستجيب ويجيب ، أن يستجيب في قبوله لما دعيَ إليه ، وليس كذلك يجيب لأنه قد يجيب بالمخالفة كقول القائل : أتوافق في هذا المذهب أم تخالف ؟ فيقول المجيب : أخالف .

وأما قوله ﴿ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ ففيه قولان : الأول : أنه مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة والمراد : أنه تعالى هو القادر على أن يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ثم إليه يرجعون للجزاء ، فكذلك ههنا أنه تعالى هو القادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان وأنت لا تقدر عليه .

والقول الثاني : أن المعنى : وهؤلاء الموتى يعني الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ، فحينئذ يسمعون وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استمعاهم ، وقريء ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بفتح الياء .

وأقول : لا شك أن الجسد الخالي عن الروح يظهر منه النتن والصديد والقيح وأنواع العفونات ، وأصلح أحواله أن يدفن تحت التراب ، وأيضاً الروح الخالية عن العقل يكون صاحبها مجنوناً يستوجب القيد والحبس والعقل بالنسبة إلى الروح كالروح بالنسبة إلى الجسد ، وأيضاً العقل بدون معرفة الله تعالى وصفاته وطاعته كالضائع الباطل ، فنسبة التوحيد والمعرفة إلى العقل كنسبة العقل إلى الروح ، ونسبة الروح إلى الجسد فمعرفة الله ومحبته روح روح الروح فالنفس الخالية عن هذه المعرفة تكون بصفة الأموات ، فلهذا السبب وصف

الله تعالى أولئك الكفار المصرين بأنهم الموتى . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 172 ﴾

(163/231)

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ يعني : يطيعك ، ويصدقك الذين يسمعون منك كلام الهدى والمواعظ .

قال الزجاج يعني : يسمع سماع قابل .

فالذي لا يقبل كأنه أصم .

كما قال القائل : أصم عما ساءه سميع .

ويقال : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ بأنه يؤمن بك بعضهم ، ولن يؤمن بك البعض .

وإنما يؤمن بك الذي وفقه الله للهدى وهو أهل لذلك .

وقال : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ يعني : يعقلون الموعظة .

ثم قال : ﴿ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ أي : كفار مكة سماهم الله موتى ، لأنه لا منفعة لهم في حياتهم ﴿ يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ يعني يحييهم بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يعني الكفار في

الآخرة فينبئهم ، فهذا تهديد لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ الاستجابة هي القبول ، والفرق بينها وبين الجواب : أن الجواب قد يكون قبولاً وغير قبول .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني الذين يعقلون ، قاله الكلبي .

والثاني : الذين يسمعون طلباً للحق ، لأن الاستجابة قد تكون من الذين يسمعون طلباً للحق ، فأما من لا يسمع ، أو يسمع لكن لا بقصد طلب الحق ، فلا يكون منه استجابة .

﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن المراد بالموتى هنا الكفار ، قاله الحسن ، وقتادة ومجاهد .

ويكون معنى الكلام : إنما يستجيب المؤمنون الذين يسمعون ، والكفار لا يسمعون إلا عند معاينة الحق اضطراراً حين لا ينفعهم حتى يبعثم الله كفاراً ثم يحشرون كفاراً .

والقول الثاني : أنهم الموتى الذين فقدوا الحياة ، وهو مثل ضربه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ويكون معنى الكلام : كما أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله فكذلك الذين لا يسمعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾

هذا من النمط المتقدم في التسلية أي لا تحفل بمن أعرض فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول ، فعبر عن ذلك كله ب ﴿ يسمعون ﴾ إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات المعجزة ، وهذه لفظة تستعملها الصوفية إذا بلغت الموعظة من أحد مبلغاً شافياً قالوا سمع ، ثم قال تعالى : ﴿ والموتى ﴾ يريد الكفار ، فعبر ، عنهم بضد ما عبر عن المؤمنين وبالصفة التي تشبه حالهم في العمى عن نور الله تعالى والصمم عن وعي كلماته ، قاله مجاهد وقتادة والحسن ، و ﴿ يبعثهم الله ﴾ يحتمل معنيين قال الحسن معناه " يبعثهم الله " بأن يؤمنوا حين يوقفهم .

قال القاضي أبو محمد : فتجيء الاستعارة في هذا التأويل ، في الوجهين في تسميتهم موتى وفي تسمية إيمانهم وهدايتهم بعثاً ، والواو على هذا مشركة في العامل عطفت ﴿ الموتى ﴾ على ﴿ الذين ﴾ ، و ﴿ يبعثهم الله ﴾ في موضع الحال ، وكأن معنى الآية إنما يستجيب الذين يرشدون حين يسمعون فيؤمنون والكفار حين يرشدهم الله بمشيئته ، فلا تتأسف أنت ولا تستعجل ما لم يقدر ، وقرأ الحسن " ثم إليه يرجعون " فتناسبت الآية ، وقال مجاهد وقتادة : ﴿ والموتى ﴾ يريد الكفار ، أي هم بمثابة الموتى حين لا يرون هدى

ولا يسمعون فيعون ، و﴿ يبعثهم الله ﴾ أي : يحشرهم يوم القيامة ﴿ ثم إليه ﴾ أي إلى سطوته وعقابه ﴿ يرجعون ﴾ وقرأت هذه الطائفة يرجعون بياء والواو على هذا عاطفة جملة كلام على جملة ، ﴿ الموتى ﴾ مبتدأ و﴿ يبعثهم الله ﴾ خبره ، فكأن معنى الآية إنما يستجيب الذين يسمعون فيعون والكفار سيبعثهم الله ويردهم إلى عقابه ، فالآية على هذا متضمنة الوعيد للكفار ، والعائد على ﴿ الذين ﴾ هو الضمير في ﴿ يسمعون ﴾ ، والضمير في ﴿ قالوا ﴾ عائد على الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(165/231)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ تقريرٌ لما مر من أن على قلوبهم أكنةً مانعة من الفقه ، وفي آذانهم وَقراً حاجزاً من السماع ، وتحقيقٌ لكونهم بذلك من قبيل الموتى لا يُتصور منهم الإيمانُ ألبتةَ ، والاستجابةُ الإجابةُ المقارنة للقَبول ، أي إنما يَقبلُ دعوتَك إلى الإيمان الذين يسمعون ما يلقى إليهم سماعَ تفهمٍ وتدبُّر دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾

وقوله تعالى : ﴿ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ تمثيلٌ لاختصاصه تعالى بالقدرة على توفيقهم للإيمان باختصاصه تعالى بالقدرة على بعث الموتى من القبور ، وقيل : بيانٌ لاستمرارهم على الكفر وعدمِ إقلاعهم عنه أصلاً على أن الموتى من القبور .

وقيل : بيان مستعارٌ للكفرة بناءً على تشبيه جهلهم بموتهم ، أي وهؤلاء الكفرة يبعثهم الله تعالى من قبورهم ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء ، فحينئذ يستجيبون وأما قبل ذلك فلا سبيل إليه وقرىء (يَرْجِعون) على البناء للفاعل من رجَع رُجوعاً والمشهورُ أوفى بحق المقام لإنبائه عن كون مرجِعِهم إليه تعالى بطريق الاضطرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(166/231)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ أي سماع إصغاء وتفهُّم وإرادة الحق ، وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون ؛ قال معناه الحسن ومجاهد ، وتمّ الكلام .

ثم قال : ﴿ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ وهم الكفار ؛ عن الحسن ومجاهد ؛ أي هم بمنزلة الموتى

في أنهم لا يقبلون ولا يصغون إلى حجة .

وقيل : الموتى كل من مات .

﴿ يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ أي للحساب ؛ وعلى الأول بَعْثِهم هِدَايتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم .

وعن الحسن : هو بعثهم من شِركهم حتى يؤمنوا بك يا محمد يعني عند حضور الموت في حال الإلجاء في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء كما قال : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ويستجيب بمعنى يجيب .

وفرّق الرماني بين أجاب واستجاب بأن استجاب فيه قبول لما دعي إليه .

قال : ﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ وليس كذلك أجاب لأنه قد يجيب بالمخالفة .

قال الزمخشري يعني أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ، وإنما يستجيب من يسمع كقوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ وقال ابن عطية هذا من النمط المتقدم في التسلية ، أي لا تحفل بمن أعرض فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يفهمون

الآيات ويتلقون البراهين بالقبول فعبر عن ذلك كله بيسمعون .

إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات المعجزة .

وهذه لفظة تستعملها الصوفية إذا بلغت الموعظة من أحد مبلغاً شافياً قالوا استمع ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ الظاهر أن هذه جملة مستقلة من مبتدأ وخبر ، والظاهر أن الموت هنا والبعث حقيقة وذلك إخبار من الله تعالى أن الموتى على العموم من مستجيب وغير مستجيب ، يبعثهم الله فيجازيهم على أعمالهم وجاء لفظ الموتى عاماً لإشعار ما قبله بالعموم في قوله ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ إذ الحصر يشعر بالقسم الآخر وهو أن من لا يسمع سماع قبول ، لا يستجيب للإيمان وهم الكفار .

وصار في الإخبار عن الجميع بالبعث والرجوع إلى جزاء الله تعالى ، تهديد ووعيد شديد لمن لم يستجب وتظافرت أقوال المفسرين أن قوله والموتى يراد به الكفار .

سموا بالموتى كما سموا بالصمِّ والبكم والعمي وتشبيه الكافر بالميت من حيث إنّ الميت جسده خالٍ عن الروح ، فيظهر منه النتن والصديد والقبح وأنواع العفونات .

وأصلح أحواله دفنه تحت التراب .

(167/231)

والكافر روحه خالية عن العقل فيظهر منه جهله بالله تعالى ومخالفاته لأمره وعدم قبوله لمعجزات الرسل ، وإذا كانت روحه خالية من العقل كان مجنوناً فأحسن أحواله أن يقيَّد ويحبس .

فالعقل بالنسبة إلى الرّوح كالروح بالنسبة إلى الجسد .

وإذا كان المراد بالموتى هنا الكفار فقيل البعث يراد به حقيقته من الحشر يوم القيامة والرجوع هو رجوعهم إلى سطوته وعقابه ، قاله مجاهد وقتادة .

وعلى هذا تكون هذه الجملة متضمنة الوعيد للكفار .

وقيل الموت والبعث حقيقة والجملة مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ﴿ ثم إليه يرجعون ﴾ للجزاء ، فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان وأنت لا تقدر على ذلك قاله الزمخشري .

وقيل الموت والبعث مجازان استعير الموت للكفر والبعث للإيمان .

فقيل الجملة من قوله ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ مبتدأ وخبر أي والموتى بالكفر يحييهم الله بالإيمان .

وقيل ليس جملة بل ﴿ الموتى ﴾ معطوف على ﴿ الذين يسمعون ﴾ ، و﴿ يبعثهم ﴾ الله جملة حالية .

والمعنى إنما يستجيب الذين يسمعون سماع قبول ، فيؤمنون بأول وهلة والكفار حتى

يرشدهم الله تعالى ويوفقهم للإيمان ، فلا تتأسف أنت ولا تستعجل ما لم يقدر .

وقرىء ثم إليه يرجعون بفتح الياء من رجع اللازم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ تقرير لما يفهمه الكلام السابق من أنهم لا يؤمنون .

والاستجابة بمعنى الإجابة ، وكثيراً ما أجرى استفعل مجرى أفعل كاستخلص بمعنى أخلص واستوقد بمعنى أوقد إلى غير ذلك .

ومنه قول الغنوي

: وداع دعا يا من يجيب إلى الندا . . .

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

(168/231)

ويدل على ذلك أنه قال مجيب ولم يقل مستجيب ، ومنهم من فرق بين استجاب وأجاب بأن استجاب يدل على قبول ، والمراد بالسماع الفرد الكامل وهو سماع الفهم والتدبر بجعل ما عداه كلا سماع أي إنما يجيب دعوتك إلى الإيمان الذين يسمعون ما يلقى إليهم سماع فهم

وتدبر دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى .

﴾ [النمل : 80] ﴿ والموتى ﴾ أي الكفار كما قال الحسن ، ورواه عنه غير واحد ﴿ يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ من قبورهم إلى المحشر ، وقيل : بعثهم هدايتهم إلى الايمان وليس بشيء ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء فحينئذ يسمعون ، وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى سماعهم لما أن على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً ، وفي إطلاق الموتى على الكفار استعارة تبعية مبنية على تشبيه كفرهم وجهلهم بالموت كما قيل

: لا يعجبن الجهول بزيه . . .

فذاك ميت ثيابه كفن

وقيل : الموتى على حقيقته ، والكلام تمثيل لاختصاصه تعالى بالقدرة على توفيق أولئك الكفار للإيمان باختصاصه سبحانه بالقدرة على بعث الموتى الذين رمت عظامهم من القبور ، وفيه إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم لا يقدر على هدايتهم لأنها كبعث الموتى . وتعقب بأنه على هذا ليس لقوله سبحانه ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ كبير دخل في التمثيل إلا أن يراد أنه إشارة إلى ما يترتب على الايمان من الآثار ، وفي إعراب (الموتى) وجهان ، أحدهما : أنه مرفوع على الابتداء ، والثاني : أنه منصوب بفعل محذوف يفسره ما بعده واختاره أبو البقاء ، ويفهم من كلام مجاهد أنه مرفوع بالعطف على الموصول ، والجملة بعده في موضع الحال والظاهر خلافه .

وقرىء ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ على البناء للفاعل من رجع رجوعاً .

والمتواترة أوفى بحق المقام لإنبائها عن كون مرجعهم إليه تعالى بطريق الاضطرار . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(169/231)

وقال ابن جزى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ المعنى إنما يستجيب لك الذين يسمعون فيفهمون ويعقلون ﴿ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ فيه ثلاث تأويلات : أحدهما : أن الموتى عبارة عن الكفار بموت قلوبهم ، والبعث يراد به الحشر يوم القيامة ، فالمعنى أن الكفار في الدنيا كالموتى في قلة سمعهم وعدم فهمهم ، فيبعثهم الله في الآخرة ، وحينئذ يسمعون ، والآخر أن الموتى عبارة عن الكفار ، والبعث عبارة عن هدايتهم للفهم والسمع والثالث : أن الموتى على حقيقته ، والبعث على حقيقته فهو إخبار عن بعث الموتى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 8 ﴾

(170/231)

وقال الشوكانى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ أي إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول وتوجبه الأفهام ، وهؤلاء ليسوا كذلك ، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة ، وفي آذانهم من الوقر ، ولهذا قال ﴿ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعاً لا يفهمون الصواب ، ولا يعقلون الحق ، أي أن هؤلاء لا يلجئهم الله إلى الإيمان وإن كان قادراً على ذلك ، كما يقدر على بعثة الموتى للحساب ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ إلى الجزاء فيجازى كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

وقال السعدى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ﴾ لدعوتك ، ويلبي رسالتك ، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ بقلوبهم ما ينفعهم ، وهم أولو الألباب والأسماع .

والمراد بالسماع هنا : سماع القلب والاستجابة ، وإلا فمجرد سماع الأذن ، يشترك فيه البر والفاجر . فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى ، باستماع آياته ، فلم يبق لهم عذر ، في عدم القبول .

﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يحتمل أن المعنى ، مقابل للمعنى المذكور . أي:

إنما يستجيب لك أحياء القلوب ، وأما أموات القلوب ، الذين لا يشعرون بسعادتهم ، ولا يحسون بما ينجيهم ، فإنهم لا يستجيبون لك ، ولا ينقادون ، وموعدهم القيامة ، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ، ويحتمل أن المراد بالآية ، على ظاهرها ، وأن الله تعالى يقرر المعاد ، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون .

ويكون هذا ، متضمنا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله ، والترهيب من عدم ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 255 ﴾

(171/231)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾

تعليل لما أفاده قوله : ﴿ وإنْ كان كَبُر عليك إعراضهم إلى قوله فلا تكونَنّ من الجاهلين ﴾ [الأنعام : 35] من تأييس من ولوج الدعوة إلى أنفسهم ، أي لا يستجيب الذين يسمعون دون هؤلاء الذين حرمهم فائدة السمع وفهم المسموع .

ومفهوم الحصر مؤذن بإعمال منطوقه الذي يؤمىء إلى إرجاء بعد تأييس بأنّ الله جعل لقوم آخرين قلوباً يفقهون بها وآذاناً يسمعون بها فأولئك يستجيبون .

وقوله : ﴿ يستجيب ﴾ بمعنى يجيب ، فالسين والتاء زائدان للتأكيد ؛ وقد تقدّم الكلام على هذا الفعل عند قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربّهم ﴾ في سورة [آل عمران : 195] .

وحذف متعلّق يستجيب ﴾ لظهوره من المقام لأنّ المقام مقام الدعوة إلى التوحيد وتصديق الرسول .

ومعنى ﴿ يسمعون ﴾ ، أنّهم يفقهون ما يلقى إليهم من الإرشاد لأنّ الضالّين كمن لا يسمع . فالمقصود سمع خاصّ وهو سمع الاعتبار .

أمّا قوله : ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ فالوجه أنّه مقابل لِ ﴿ الذين يسمعون ﴾ .

ولذلك حسن عطف هذه الجملة على جملة : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ .

فمعنى الكلام : وأمّا المعرضون عنك فهم مثل الموتى فلا يستجيبون ، كقوله : ﴿ إنّك لا تسمع الموتى ﴾ [النمل : 80] .

فحذف من الكلام ما دلّ عليه السياق ، فإنّ الذي لا يسمع قد يكون فقدان سمعه من علّة كالصمم ، وقد يكون من عدم الحياة ، كما قال عبد الرحمان بن الحكم الثقفي :

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً

ولكن لا حياة لمنْ تنادي . . .

فتضمّن عطف ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ تعريضاً بأنّ هؤلاء كالأموات لا ترجى منهم

استجابة .

وتخلّص إلى وعيدهم بأنّه يبعثهم بعد موتهم ، أي لا يرجى منهم رجوع إلى الحقّ إلى أن يبعثوا ، وحينئذٍ يلاقون جزاء كفرهم .

﴿ والموتى ﴾ استعارة لمن لا ينتفعون بعقولهم ومواهبهم في أهمّ الأشياء ، وهو ما يُرضي الله تعالى .

(172/231)

و ﴿ يبعثهم ﴾ على هذا حقيقة ، وهو ترشيح للاستعارة ، لأنّ البعث من ملائمات المشبّه به في العرف وإن كان الحي يخبر عنه بأنه يبعث ، أي بعد موته ، ولكن العرف لا يذكر البعث إلاّ باعتبار وصف المبعوث بأنّه ميّت .

ويجوز أن يكون البعث استعارة أيضاً للهداية بعد الضلال تبعاً لاستعارة الموت لعدم قبول الهدى على الوجهين المعروفين في الترشيح في فن البيان من كونه تارة يبقى على حقيقته لا يقصد منه إلاّ تقوية الاستعارة ، وتارة يستعار من ملائم المشبّه به إلى شبهه من ملائم المشبّه ، كقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ [آل عمران : 103] .

فيكون على هذا الوجه في الكلام وعد للرسول صلى الله عليه وسلم بأنّ بعض هؤلاء

الضالّين المكذّبين سيهديهم الله تعالى إلى الإسلام ، وهم من لم يسبق في علمه حرمانهم من الإيمان .

فعلى الوجه الأول يكون قوله ﴿ ثم إليه يُرْجعون ﴾ زيادة في التهديد والوعيد .

وعلى الوجه الثاني يكون تحريضاً لهم على الإيمان ليلقوا جزاءه حين يُرجعون إلى الله .

ويجوز أن يكون الوقف عند قوله تعالى : ﴿ يبعثهم الله ﴾ .

وتمّ التمثيل هنالك .

ويكون قوله : ﴿ ثم إليه يرجعون ﴾ استطراداً تُخلّص به إلى قرع أسماعهم بإثبات الحشر الذي يقع بعد البعث الحقيقي ، فيكون البعث في قوله : ﴿ يبعثهم الله ﴾ مستعملاً في حقيقته ومجازه .

وقريب منه في التخلّص قوله تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ﴾ في سورة [البقرة : 73] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فائدة

قال محمد بن أبى بكر الرازى :

فإن قيل : إذا بعث الله الموتى من قبورهم فقد رجعوا إليه بالحياة بعد الموت فما فائدة قوله ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) ﴾ ؟

قلنا : المراد به وقوفهم بين يديه للحساب والجزاء وذلك غير البعث وهو إحياؤهم بعد الموت ، فلا تكرار فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الرازى صـ 135 ﴾

(173/231)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾

و" يستجيب " معناها أنهم يطيعون أمر الآمر ونهي الناهي . وهناك فارق بين " الاستجابة " و" الإجابة " ؛ ف " الاستجابة " هي : أن يجيبك من طلبت منه إلى ما طلبت ويحققه لك ، و" الإجابة " هي : أن يجيبك من سألت ولو بالرفض لما تقول ، وقد يكون الجواب ضد مطلوب ما سألت . ويقول الحق : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ أي أن الذين يستجيبون لنداء الحق هم الذين يسمعون بآذانهم وقلوبهم مصدقة ؛ لأن هناك فارقاً بين سماع ظاهره سماع وباطنه انصراف ، وبين سماع ظاهره طاعة وباطنه محبة لهذه الطاعة . ونعلم أن استقبال المسموع شيء ، وانفعال الإنسان بالمسموع شيء آخر . وعندما يتحد حسن الاستماع مع انفعال الحب لتنفيذ ما سمعه الإنسان فهذا ما يطلبه

الإيمان . والمؤمنون هم الذين يستمعون لكلمات الله بانفعال الحب ، وهم يختلفون عن هؤلاء الذين يسمعون الكلام من أذن ويخرجونه من الأذن الأخرى ، ويتركون الكلمات بلا تطبيق ، ولا يبقى في النفس الواعية من آثار الكلام شيء .

وهكذا نرى أن الله قد صنع وخلق في الإنسان من الحواس ما تهديه وترشده إلى الإيمان أو إلى الكفر ؛ فالأذن عند المؤمن تسمع ، والقلب يصدق ، والعقل يمحص ويؤمن . أما الكافر فأذنه تسمع وقلبه يعارض ، وعقله يبحث في أسباب الكفر رغبة فيه وسعيًا إليه ، ولذلك لا تؤدي حواسه مهامها بانسجام ، وكأن الذين يسمعون ولا يستجيبون هم من الموتى .

فالأمر – إذن ليس مقصوراً على السمع بل المطلوب أن يكون هناك سماع انفعال بالمسموع وانصياع له ، ولا تظن أن الله يعجز عن أن يجعل الذي لا يسمع سماع طاعة يهتدي ويستقيم ، فلا شيء ولا كائن يتأبى على الله ؛ لأنه سبحانه يحيي الموتى .

(174/231)

وما دام هو سبحانه يحيي الموتى فهو لا يتطلب إيمانا جبرياً . إنما يطلب إيمان الاختيار والاقتناع ، وهو سبحانه لو شاء لأنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وسبحانه يطلب قلوباً لا قوالب . إذن فالذين يستجيبون لداعي الإيمان هم الأحياء حقاً ،

أما الذين لا يستجيبون فهم في حكم الأموات ، وهم من بعد موتهم وانتهاء حياتهم سيبعثهم الله ليسألهم عن أفعالهم في الحياة الدنيا . وعندما يرجعون إلى الله سوف يجدون الحساب . ونعلم أن المرجع أخيراً ودائماً إلى الله . ومن يرجع إلى الله وعمله طيب يتعجل الجزاء الطيب ويتشوق ويتشوف إليه ، أما من يرجعه الله قَهْراً فهو يخشى الجزاء الأليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(175/231)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنها جملة من مبتدأ وخبر سِيقَتْ للإخبار بقُدْرتِهِ ، وأنَّ من قدرَ على بَعْثِ الموتى يقدر على إحياء قلوب الكَفَرةِ بالإيمان ، فلا تَتَأَسَّفْ على من كفر .

والثاني : أن المَوْتى مَنْصُوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ يُفَسِّرُهُ الظَّاهر بعده ، ورجح هذا الوجه على الرَّفع بالابتداء لعطف جملة الاشتغال على جملة فعلية قبلها ، فهو نظير : ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الإنسان : 31] بعد قوله : ﴿ يُدْخِلُ ﴾ [الإنسان : 31] .

والثالث : أَنَّهُ مرفوع على الموصول قبله ، والمراد بـ " الموتى " الكفَّار أي : إما يستجيب المؤمنون السَّامِعُون من أوَّل وَهْلَةٍ ، والكافرون الذين يجيبهم الله – تعالى – بالإيمان ويوفقهم له ، فالكافرون يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ، وحينئذٍ يسمعون ، وأمّا قبل ذلك فلا يسمعون أَلْبَتَّةَ ، وعلى هذا فتكون الجملة من قوله : ﴿ يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحال ، إلاّ أنْ هذا القول يبعده قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ، إلا أن يكون من ترشيح المجاز ، وقد تقدَّم له نظائرُ .

وقرئ "يَرْجِعُونَ" من " رجع " الأَزم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 121.120 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) ﴾

مَنْ فقد الاستماع في سرائره عَدِمَ توفيقَ الاتِّباعِ بظاهره ، والاختيارُ السابقُ في معلومه – سبحانه – غالبٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 470 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) ﴾

وَلَهُ عطف على اللّه ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ من السكنى وتعديه بفي كما في قوله وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم ، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 14 إلى 16]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16)

أَوَلِ غَيْرَ اللَّهِ همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو أَتَّخِذُ لأنّ الإنكار في اتخاذ غير اللّه وليا ، لا في اتخاذ الولي ، فكان أولى بالتقديم . ونحوه أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ . وقرئ فاطِرِ السَّماواتِ بالجرّ صفة للّه ، وبالرفع على المدح . وقرأ الزهري : فطر . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : ما عرفت ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان في بئر

فقال أحدهما : أنا فطرتها «1» أى ابتدعتها وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ وهو يرزق ولا يرزق ، كقوله ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ والمعنى : أن المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع . وقرئ : ولا يطعم ، بفتح الياء . وروى ابن المأمون عن يعقوب : وهو يطعم ولا يطعم ، على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل ، والضمير لغير اللّه .

وقرأ الأشهب . وهو يطعم ولا يطعم ، على بنائهما للفاعل . وفسر بأن معناه : وهو يطعم ، ولا يستطعم . وحكى الأزهرى : أطعمت ، بمعنى استطعمت . ونحوه : أفدت . ويجوز أن يكون

(1) . أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ، وفي فضائل القرآن بإسناد حسن ، ليس فيه إلا إبراهيم بن مهاجر وسيأتى في تفسير فاطر .

المعنى : وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح ، كقولك : وهو يعطى ويمنع ، ويبسط ويقدر ، ويغنى ويفقر أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ لأنّ النبي سابق أمته في الإسلام ، كقوله وَبِذلِكَ

أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ وكقول موسى سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ وَلا تَكُونَنَّ وقيل لي لا تكونن مِنَ الْمُشْرِكِينَ ومعناه : أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك . ومَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ العذاب يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ اللّه الرحمة العظمى وهي النجاة ، «1» كقولك : إن أطعمت زيداً من جوعه فقد أحسنت إليه ؟ تريد : فقد أتممت الإحسان إليه أو ، فقد أدخله الجنة ، لأن من لم يعذب لم يكن له بدّ من الثواب . وقرئ : من يصرف عنه ، على البناء للفاعل ، والمعنى : من يصرف اللّه عنه في ذلك اليوم فقد رحمه ، بمعنى : من يدفع اللّه عنه .

ويحفظه ، وقد علم من المدفوع عنه . وترك ذكر المصروف ، لكونه معلوما أو مذكورا قبله وهو العذاب . ويجوز أن ينتصب يومئذ بيصرف انتصاب المفعول به ، أى من يصرف اللّه عنه ذلك اليوم : أى هوله ، فقد رحمه . وينصر هذه القراءة قراءة أبىّ رضى اللّه عنه : من يصرف اللّه عنه ،

[سورة الأنعام (6) : آية 17]

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه ، فلا قادر على كشفه إلا هو وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ من غنى أو صحة فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فكان قادراً على ادامته أو

إزالته .

[سورة الأنعام (6) : آية 18]

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)

فَوْقَ عِبادِهِ تصوير للقهر والعلوّ بالغلبة والقدرة ، كقوله وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ الشي ء

---

(1) . قال محمود : «المراد الرحمة العظمى وهي النجاة من النار . . . الخ» قال أحمد : وإنما يلجئ إلى تخصيص الرحمة ، إما بكونها العظمى ، وإما برحمة الثواب أنه لو بقيت على إطلاقها ، لما زاد الجزاء على الشرط إذ من المعلوم ضرورة أن صرف العذاب رحمة ما . والعجب أن الزمخشري يصحح تخصيصها برحمة الثواب بأن صرف العذاب يستلزم الثواب ولا بد ، وغيره يصحح هذا التخصيص بأنه لا يلزم من صرف العذاب حصول الثواب ، لجواز أن يصرف عنه العذاب ولا يثاب ، فأفاد الجزاء إذاً فائدة لم تفهم من الشرط . هكذا صححه القونوى . ولعمري إن قاعدة المعتزلة تلجئ إلى ما ذهب إليه الزمخشري ، لانقسام المكلفين عندهم إلى مستوجب للجنة فالثواب قطعا ، وإلى مستوجب للنار فالعذاب قطعا ، ويسندون ذلك إلى العقل لا إلى السمع .

أعم العام «1» لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم . ولذلك صحّ أن يقال في اللّه عزّ وجلّ : شيء لا كالأشياء ، كأنك قلت : معلوم لا كسائر المعلومات ، ولا يصح : جسم لا كالأجسام

[سورة الأنعام (6) : آية 19]

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)

وأراد : أى شهيد أَكْبَرُ شَهادَةً فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ في التعميم قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله قُلِ اللَّهُ بمعنى اللّه أكبر شهادة ، ثم ابتدئ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أى هو شهيد بيني وبينكم ، وأن يكون اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ هو الجواب ، لدلالته على أنّ اللّه عزّ وجلّ إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم ، فأكبر شيء شهادة شهيد له وَمَنْ بَلَغَ عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة . أى : لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم . وقيل : من الثقلين . وقيل : من بلغه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبير : من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى اللّه عليه وسلم أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد قُلْ لا أَشْهَدُ شهادتكم

[سورة الأنعام (6) : الآيات 20 إلى 21]

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يعنى اليهود والنصارى يعرفون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ بحلاهم ونعوتهم لا يخفون

---

(1) . قال محمود : «الشيء أعم العام ، لوقوعه على كل ما يصح . . . الخ» قال أحمد وتفسيره الشيء يخالف الفريقين الأشعرية ، فإنهم فسروه بالموجود ليس إلا ، والمعتزلة فإنهم قالوا : والمعلوم الذي يصح وجوده ، فاتفقوا على خروج المستحيل . وعلى الجملة فهذه المسألة معدودة من علم الكلام باعتبار ما . وأما هذا البحث فلغوى والتحاكم فيه لأهل اللغة ، وظاهر قولهم غضبت من لا شيء ، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلا - أن الشيء لا ينطلق إلا على الموجود إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم عدما كان أو وجوداً أو ممكنا أو مستحيلا ، لما صدق على أمر ما أنه ليس بشيء والأمر في ذلك قريب .

[. . . . .]

عليهم ولا يلتبسون بغيرهم . وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوّته . ثم قال الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ به ، جمعوا بين أمرين متناقضين ، فكذبوا على اللّه بما لا حجة عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح ، حيث قالوا : لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا . وقالوا : وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها وقالوا : الملائكة بنات اللّه وهؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب ، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات ، وسموها سحراً ، ولم يؤمنوا بالرسول صلى اللّه عليه وسلم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 22 إلى 24]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24)

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ناصبه محذوف تقديره : ويوم نحشرهم كان كيت وكيت ، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ أى آلهتكم التي جعلتموها شركاء للّه . وقوله : الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ معناه تزعمونهم شركاء ، فحذف المفعولان . وقرئ : يحشرهم ثم يقول ، بالياء فيهما . وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ ، ويجوز أن يشاهدوهم ، إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة . فكأنهم غيب عنهم ، وأن يحال

بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها ، فيروا مكان خزيهم وحسرتهم فِتْنَتُهُمْ كفرهم . والمعنى : ثم لم تكن عاقبة كفرهم «1» - الذي لزموه أعمارهم ، وقاتلوا عليه وافتخروا به ، وقالوا دين آبائنا - إلا جحوده والتبرؤ منه ، والحلف على الانتفاء من التدين به . ويجوز أن يراد : ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا فسمى فتنة ، لأنه كذب . وقرئ : تكن ، بالتاء وفتنتهم ، بالنصب . وإنما أنث أَنْ قالُوا لوقوع الخبر مؤنثاً ، كقولك : من كانت أمّك ؟

وقرئ بالياء ونصب الفتنة . وبالياء والتاء مع رفع الفتنة . وقرئ : ربنا ، بالنصب على النداء

---

(1) . قال محمود : «فتنتهم كفرهم ، والمعنى ثم لم تكن عاقبة كفرهم . . . الخ» قال أحمد : وفي الآية دليل بين على أن الاخبار بالشيء على خلاف ما هو به كذب ، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره لمخبره . ألا تراه جعل إخبارهم وتبريهم كذبا مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون ، أى سلبوا علمه حينئذ دهشا وحيرة ، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم .

وَضَلَّ عَنْهُمْ وغاب عنهم ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى يفترون إلهيته وشفاعته. فإن قلت: كيف يصحّ أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ قلت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً: ألا تراهم يقولون رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه، وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ وقد علموا أنه لا يقضى عليهم. وأما قول من يقول: معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا، وحملُ قوله انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ يعنى في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عىّ وإقحام، لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمترجم عنه ولا منطبق عليه، وهو ناب عنه أشدّ النبوّ. وما أدرى ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ بعد قوله وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

[سورة الأنعام (6): الآيات 25 إلى 26]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (26)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حين تتلوا القرآن. روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة

وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ، ما يقول محمد ؟ فقال : والذي جعلها بيته - يعنى الكعبة - ما أدرى ما يقول ، إلا أنه يحرّك لسانه ويقول أساطير الأوّلين ، مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية . فقال أبو سفيان :

إنى لأراه حقا . فقال أبو جهل : كلا ، فنزلت . والأكنة على القلوب ، والوقر في الآذان : مثل في نبوّ قلوبهم ومسامعهم عن قبوله « 1 » واعتقاد صحته . ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله

---

(1) . قال محمود : «الأكنة على القلوب والوقر في الآذان ، مثل في نبو قلوبهم ومسامعهم عن قبوله . . . الخ» قال أحمد رحمه اللّه : وهذه الآية حسبنا في رد معتقد القدرية الذين يزعمون أن اللّه تعالى أراد من هؤلاء المستمعين أن يعوا القرآن ويفقهوه ، وأنه لم يمنعهم من ذلك ، ومحال على زعمهم أن يمنعهم من ذلك ويريد أن لا يفقهوه ، لأن ذلك عندهم قبيح . فانظر كيف تكافحهم هذه الآية بالرد وتنادى عليهم بالخطإ ، إذ قوله أَنْ يَفْقَهُوهُ معناه كراهة أن يفقهوه ، وبين الارادة على زعمهم ، والكراهة على ما أنبأت عنه الآية . بون بعيد ، واللّه الموفق .

وَجَعَلْنا للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم ، كأنهم مجبولون عليه . أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم وَفِي آذانِنا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ وقرأ طلحة : وقرا بكسر الواو حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ هي حتى التي تقع بعدها الجمل . والجملة قوله إِذا جاؤُكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ويُجادِلُونَكَ موضع الحال . ويجوز أن تكون الجارة ويكون إذا جاؤك في محل الجرّ بمعنى حتى وقت مجيئهم ، ويجادلونك حال ، وقوله : يقول الذين كفروا . تفسير له . والمعنى : أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك . وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ فيجعلون كلام اللّه وأصدق الحديث ، خرافات وأكاذيب ، وهي الغاية في التكذيب وَهُمْ يَنْهَوْنَ الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه ، ويثبطونهم عن الإيمان به وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ بأنفسهم فيضلون ويضلون وَإِنْ يُهْلِكُونَ بذلك إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم ، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وقيل : هو أبو طالب لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وينأى عنه ولا يؤمن به .

وروى أنهم اجتمعوا إلى أبى طالب وأرادوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سوءاً . فقال : «1» :

وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِم حَتَّي أُوَسَّدَ فِى التُّرَابِ دَفِينَا

فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ وَأَبْشِرْ بِذَاكَ وَقَرَّ مِنْهُ عُيُونَا

وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا

وَعَرَضْتَ دِيناً لَا مَحَالَةَ أَنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارِي سُبَّةٌ لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينَا «2»

فنزلت.

---

(1). أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق حدثني يعقوب بن عتيبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث أن قريشا قالت لأبى طالب هذه المقالة فذكر القصة» قال ابن إسحاق: ثم قال: فذكر هذا الشعر.

(2). لأبى طالب، لما اجتمع عنده قريش وأرادوا قتل النبي صلى اللّه عليه وسلم.

«فاصدع» أى اجهر بأمرك حتى تؤثر في القلوب، كصدع الزجاج، أى شقه وكسره.

وغض منه يغض - بالضم - غضاضة: وضع ونقص من قدره. وغضغضت الماء وتغضغض هو: نقصته وانتقص. أى ما عليك مذلة ومنقصة من أمرك. وبشر يبشر - بالضم - سر وفرح. وأبشر إبشارا: سر واستبشر. وبشرته وأبشرته أفرحته. أى: افرح وانسر بذلك.

وقرت عينه. بردت سرورا، أى افرح بذلك وانسر. فهو توكيد لأبشر، إلا أنه بطريق الكناية المفيدة للمبالغة.

وعيونا تمييز محول عن الفاعل ، أى لتقر عيونك . والمراد بالجمع ما فوق الواحد ، أو المبالغة ، أو عيونه هو أو عيونه هو والمؤمنين . ويروى «منه» أى من ذلك الأمر . و«لن» حرف لتوكيد النفي كما تشهد به مواضع الاستعمال .

ونفى الوصول : كناية عن نفى المضرة على وجه أبلغ . والباء للملابسة . و«حتى أوسد» غاية مفيدة للتوكيد والتأييد والتوسيد : كناية عن الموت ، فيجعل له وسادة تحت رأسه في رمسه . و«دفينا» أى مدفونا حال . ومجيء المضارع المنفي بلن جوابا للقسم لا يجوز إلا في الضرورة كما هنا . وزعمت : أى قلت عند من لا يصدقك ، ولقد صدقت في دعواك أنك ناصح للناس ، و«كنت ثم» أى عند قولك «أمينا» فيما ادعيت وعرضت علينا دينا صادقا أنه من خير أديان البرية دينا ، أى من جهة الديانة ، أو من جهة الجزاء . وقيل : قد يراد من التمييز مجرد التوكيد وهذا منه لا محالة في ذلك ، فقوله «لا محالة» جملة اعتراضية للتوكيد . والحذار : مصدر بمعنى الحذر من مسبتهم لي . ويروى أو حذارى سبة .

والسب أبلغ من اللوم «لوجدتني» يا محمد راضياً بذاك الدين ، مظهراً له . وسمح سماحة فهو سمح ، كضخم ضخامة فهو ضخم : إذا جاد ولم يبخل .

(183/231)

[سورة الأنعام (6) : الآيات 27 إلى 28]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (28)

وَلَوْ تَرى جوابه محذوف تقديره. ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً وُقِفُوا عَلَى النَّارِ أروها حتى يعاينوها. أو اطلعوا عليها اطلاعا هي تحتهم، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها من قولك: وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته، وقرئ: وقفوا، على البناء للفاعل، من وقف عليه وقوفا يا لَيْتَنا نُرَدُّ تم تمنيهم. ثم ابتدءوا وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ واعدين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات. وشبهه سيبويه بقولهم: دعني ولا أعود، بمعنى دعني وأنا لا أعود، تركتني أو لم تتركني. ويجوز أن يكون معطوفا على نردّ، أو حالا على معنى: يا ليتنا نردّ غير مكذبين وكائنين من المؤمنين، فيدخل تحت حكم التمني.

فإن قلت: يدفع ذلك قوله وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ لأنّ المتمنى لا يكون كاذبا. قلت: هذا تمنّ قد تضمن معنى العدة، فجاز أن يتعلق به التكذيب، كما يقول الرجل: ليت اللّه يرزقني مالا فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك، فهذا متمنّ في معنى الواعد، فلو رزق مالا ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب، كأنه قال: إن رزقني اللّه مالا كافأتك على الإحسان. وقرئ: ولا نكذب ونكون، بالنصب بإضمار أن على جواب التمني «1»

ومعناه : إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم ، فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً ، لا أنهم عازمون على أنهم لو ردّوا لآمنوا . وقيل : هو

---

(1) . قال محمود : «و قرئ ولا نكذب ونكون بالنصب بإضمار أن على جواب التمني . . . الخ» قال أحمد :

وكثيراً ما تتناوب صيغة التمني والخبر . ألا ترى : إلى قوله تعالى وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ في قوله : وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ إلى قوله وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ وهذه المعاهدة إنما كانت تمنيا بصيغة الخبر ، والله أعلم . وأبين من ذلك قوله تعالى في آية أخرى وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ فهذا هو التمني بعينه ، ولكن بصيغة الوعد والخبر الصريحة ، والله الموفق .

(184/231)

في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه . وقيل : هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلَوْ رُدُّوا إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ من الكفر والمعاصي وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما وعدوا من

أنفسهم لا يفون به .

[سورة الأنعام (6) : آية 29]

وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)

وَقالُوا عطف على لعادوا . أى ولو ردّوا لكفروا ولقالوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة . ويجوز أن يعطف على قوله : وإنهم لكاذبون ، على معنى : وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء ، وهم الذين قالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا . وكفى به دليلا على كذبهم

[سورة الأنعام (6) : الآيات 30 إلى 31]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (31)

وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال ، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه . وقيل : وقفوا على جزاء ربهم . وقيل عرفوه حق التعريف قال مردود على قول قائل قال : ما ذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه فقيل : قال أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ وهذا تعيين من اللّه تعالى لهم على التكذيب . وقولهم - لما كانوا يسماعون من حديث البعث والجزاء - :

ما هو بحق وما هو إلا باطل بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ بكفركم بلقاء اللّه ببلوغ الآخرة وما يتصل بها . وقد حقق الكلام فيه في مواضع أخر . وحَتَّى غاية لكذبوا لا لخسر ، لأن خسرانهم لا غاية له . أى ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة . فإن قلت : أما يتحسرون عند موتهم ؟ قلت : لما كان الموت وقوعا في أحوال الآخرة ومقدّماتها ، جعل من جنس الساعة وسمى باسمها ، ولذلك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من مات فقد قامت قيامته «1»» . أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة بَغْتَةً فجأة وانتصابها على الحال بمعنى باغتة ، أو على المصدر

(1) . أخرجه أبو شجاع الديلمي في الفردوس عن أنس بلفظ «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته» للطبري من حديث زياد من علاقة عن المغيرة بن شعبة قال «يقولون القيامة القيامة ، وإنما قيامة الرجل موته» ومن رواية سفيان عن أبى قيس قال «شهدت جنازة فيها علقمة . فما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته .

كأنه قيل : بغتتهم الساعة بغتة فَرَّطْنا فِيها الضمير للحياة الدنيا ، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة ، أو للساعة على معنى : قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها ، كما تقول

: فرّطت في فلان . ومنه فرّطت في جنب اللّه يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ كقوله فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور ، كما ألف الكسب بالأيدى ساءَ ما يَزِرُونَ بئس شيئا يزرون وزرهم ، كقوله ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ .

[سورة الأنعام (6) : آية 32]

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (32)

جعل أعمال الدنيا لعباً ولهواً واشتغالا بما لا يعنى ولا يعقب منفعة ، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة . وقوله لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو . وقرأ ابن عباس رضى اللّه عنه : ولدار الآخرة . وقرئ : تعقلون بالتاء والياء .

[سورة الأنعام (6) : آية 33]

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33)

قَدْ في قَدْ نَعْلَمُ بمعنى «ربما» الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته «1» ، كقوله :

أَخُو ثِقَةٍ لَا تُهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهْ «2»

---

(1) . قال محمود : «قد في قد نعلم بمعنى ربما الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله : ولكنه قد يهلك المال نائله» قال أحمد : ومثلها في قوله وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فانه يكثر علمهم برسالته ويؤكده بظهور آياته ، حتى يقيم عليهم الحجة في جمعهم بين متناقضين :

أذيته ، ورسوخ علمهم برسالته ، والله أعلم . ومنه أيضا قوله :

قد أترك القرن مصفراً أنامله

والغرض التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه ، تنبيها على أنه بلغ الآية التي ما بعدها إلا الرجوع إلى الضد . وذلك من لطائف لغة العرب وغرائبها .

(2) أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله

فمن مثل حصن في الحروب ومثله لانكار ضيم أو لخصم يحاوله

لزهير بن أبى سلمي يمدح حصن بن أبى حذيفة . والثقة من وثق ، كالعدة من وعد . وإن كان الفعل الأول مكسورا والثاني مفتوحا ، فأصلها «وثق» حذفت الواو وخلفتا التاء ، والمراد بها ما يتوثق به ، أو المصدر هو التوثق ، أى هو ملازم لما يتوثق به من مكارم الأخلاف ، لا ينفك عنه كأنه أخوه أو ملازم للتوثق به . وإسناد الإهلاك إلى الخمر مجاز عقلى ، لأنه سببه ، وكذلك إسناده إلى النائل ، أى العطاء . و«قد» هنا للتكثير ، وإلا لم يكن مدحا ، (2 – كشاف – 2) تراه متهللا مستبشر الوجه إذا جئته سائلا ، فكأنك تعطيه المال الذي أنت طالبه منه . وبالغ في وصفه بالكرم حتى أنه يجود بروحه إن لم يملك غيرها ، وبنى على ذلك أمر سائله بالتقوى من الله ، لئلا يأخذ روحه فيميته .

فسائله الأول مضاف لمفعوله الثاني . والثاني مضاف للأول . وقوله «فمن» استفهام إنكارى ، أى ما مثله أحد في الحروب ، وما مثله أحد معد لانكار الظلم وإبائه والمحاولة والمعالجة والطلب . وضمير يحاوله للضيم ، أو لحصن ، أو لمن . ويروى الشعر برواية أخرى ، على أنه وصف لمعن بن زائدة وهي :

يقولون معن لا زكاة لماله وكيف يزكى المال من هو باذله

إذا حال حول لم تجد في دياره من المال إلا ذكره وجمائله

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت نائله

تعود بسط الكف حتى لو انه أراد انقباضا لم تطعه أنامله

فلو لم يكن . . . . . البيت

ورفع جمائله ، ذهابا إلى المعنى ، لأن المعنى لم يبق إلا جمائله ونائله : آخذه منه . وبسط الكف : كناية عن كثرة الكرم . وأنامله : أجزاء أصابعه .

(186/231)

والهاء في إِنَّهُ ضمير الشأن لَيَحْزُنُكَ قرئ بفتح الياء وضمها . والَّذِي يَقُولُونَ هو قولهم ساحر كذاب لا يُكَذِّبُونَكَ قرئ بالتشديد والتخفيف ، من كذبه إذا جعله كاذبا في زعمه «1» وأكذبه إذا وجده كاذبا . والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى اللّه ، لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون اللّه بجحود آياته ، فاله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق ، وليشغلك عن ذلك ما هو أهمّ وهو استعظامك بجحود آيات اللّه تعالى والاستهانة بكتابه . ونحوه قول السيد لغلامه - إذا أهانه بعض الناس - : إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني . وفي هذه الطريقة قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ وقيل : فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ، ولكنهم يجحدون بألسنتهم . وقيل : فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ، ولكنهم يجحدون بآيات اللّه . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه :

كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسمى الأمين «2» فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ، ولكنهم كانوا يجحدون . وكان أبو جهل يقول : ما نكذبك لأنك عندنا صادق ، وإنما نكذب ما جئتنا به . وروى أنّ الأخنس بن شريق قال لأبى جهل : يا أبا الحكم ، أخبرنى عن محمد ، أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : واللّه إن محمداً لصادق

---

(1) . عاد كلامه . قال : «و قرئ يكذبونك بالتشديد والتخفيف من كذبه إلى قوله وَلكِنَّ

الظَّالِمِينَ . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا النوع من إقامة الظاهر مقام المضمر فنان من نكت البيان ، إحداهما : الإسهاب في ذمهم وهذه النكتة يستقل بها الظاهر من حيث كونه ظاهرا ، حتى لو كان لقبا جامدا ، والأخرى زيادة منه تؤكد ذمهم ، تفهم من اشتقاق الظاهر .

(2) . لم أجده عنه وفي الطبقات من حديث يعلى بن أمية قال «بلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خمسا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين» ورواه أيضا من حديث على ابن أبى طالب نحوه .

(187/231)

وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصىّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوّة ، فما ذا يكون لسائر قريش ، فنزلت ، وقوله وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ من إقامة الظاهر مقام المضمر ، للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 34]

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34)

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «1» وهذا دليل على أن قوله فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لغلامك: ما أهانوك ولكنهم أهانونى عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا على تكذيبهم وإيذائهم وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ لمواعيده من قوله وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين.

[سورة الأنعام (6): الآيات 35 إلى 36]

وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35) إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)

كان يكبر على النبي صلى اللّه عليه وسلم كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ، إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ منها بِآيَةٍ فافعل. يعنى أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم. وقيل: كانوا يقترحون الآيات فكان يورّ أن يجابوا

---

(1). عاد كلامه. قال: «و قوله ولقد كذبت رسل من قبلك تسلية . . . الخ» قال أحمد

: ولا دلالة فيه لأنه مؤتلف مع نفى التكذيب أيضا ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين ، أى هؤلاء لم يكذبوك فحقك أن تصبر عليهم ولا يحزنك أمرهم ، وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم فصبروا عليهم ، فأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبره فقد ائتلف كما ترى بالتفسيرين جميعا ، ولكنه من غير الوجه الذي استدل به فيه تقريب لما اختاره : وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحا بها في نحو قوله وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فسلاه عن تكذيبهم له بتكذيب غيرهم من الأمم لأنبيائهم وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع مؤيد بالنظائر ، والله أعلم .

(188/231)

إليها لتمادى حرصه على إيمانهم . فقيل له : إن استطعت ذلك فافعل ، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون .

ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو الإتيان بالآيات ، كأنه قيل : لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقى إلى السماء لفعلت ، لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها .

وحذف جواب «أن» كما تقول : إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان نزوره وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ

عَلَى الْهُدى بأن يأتيهم بآية ملجئة ، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه «1» إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ يعنى أن الذين تحرص على أن يصدّقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسماعون ، وإنما يستجيب من يسمع ، كقوله إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ للجزاء فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان . وأنت لا تقدر على ذلك . وقيل معناه : وهؤلاء الموتى - يعنى الكفرة - يبعثهم اللّه . ثم إليه يرجعون ، فحينئذ يسماعون . وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم «2» وقرئ : يرجعون ، بفتح الياء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 20.9 ﴾

---

(1) . قال محمود : «بأن يأتيهم بآية ملجئة ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه» قال أحمد : وهذه الآية أيضا كافلة بالرد على القدرية في زعمهم أن اللّه تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن . ألا ترى أن الجملة مصدرة بلو ، ومقتضاها امتناع جوابها لامتناع الواقع بعدها ، فامتناع اجتماعهم على الهدى إذاً إنما كان لامتناع المشيئة ، فمن ثم ترى الزمخشري يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة لا يكون الايمان معها اختيارا ، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وإن مشيئة اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ثابتة

غير ممتنعة ولكن لم يقع متعلقها ، وهذه من خباياه ومكامنه فاحذرها ، والله الموفق .

(2) . قوله «إلى استماعهم» لعله : إسماعهم . (ع)

(189/231)

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما سلاه صلى الله عليه وسلم فيما أخبرته من أقوالهم بما شرح صدره وسر خاطره ، وأعلمه تخفيفاً عليه أن أمرهم إنما هو بيده ، ذكَّره بعضَ كلامهم الآئل إلى التكذيب عقب إخباره بالحشر الذي يجازي فيه كلاًّ بما يفعل ، فقال عطفاً على قوله ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [الأنعام : 29] وقوله ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] يعجب منه تعجيباً آخر : ﴿ وقالوا ﴾ أي مغالطة أو عناداً أو مكابرة ﴿ لولا ﴾ أي هلا ﴿ نزل ﴾ أي بالتدريج ﴿ عليه ﴾ أي خاصة ﴿ آية ﴾ أي واحدة تكون ثابتة بالتدريج لا تنقطع ، وهذا منهم إشارة إلى أنهم لا يعدون القرآن آية ولا شيئاً مما رأوه منه صلى الله عليه

وسلم من غير ذلك نحو انشقاق القمر ﴿ من ربه ﴾ أي المحسن إليه على حس ما يدعيه لنستدل بها على ما يقول من التوحيد والبعث .

(190/231)

ولما كان في هذا - كما تقدم - إشارة منهم إلى أنه لم يأت بآية على هذه الصفة إما مكابرة وإما مغالطة ، أمره بالجواب بقوله : ﴿ قل إن الله ﴾ أي الذي له جميع الأمر ﴿ قادر على أن ﴾ وأشار بتشديد الفعل إلى آية القرآن المتكررة عليهم كل حين تدعوهم إلى المبارزة وتتحداهم بالمبالغة والمعاجزة فقال : ﴿ ينزل ﴾ وقراءة ابن كثير بالتخفيف مشيرة إلى أنهم بلغوا في الوقاحة الغاية ، وأنهم لو قالوا : لولا أنزل ، أي مرة واحدة ، لكان أخف في الوقاحة ، أو إلى أنه أنزل عليهم أيّ آية ، كانت تلجئهم وتضطرهم إليه في آن واحد كما قال تعالى ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [الشعراء : 4] ولكنه لا يسأل ذلك إلا بالتدريج كما يشير إليه صيغة التفعيل في قراءة غيره المذكرة بأن آية القرآن لا تنقضي ، بل كلما سمعها أحد منهم أو من غيرهم طول الدهر كانت منزلة عليه لكونها واصلة إليه ، فهو أبلغ من مطلوبهم آية ينزل عليه وحده ، والحاصل أنهم طلبوا آية باقية محضة ، فلوح لهم إلى آية هي - مع كونها خاصة به فيما حصل له من الشرف - عامة

لكل من بلغته ، باقية طول المدى ﴿ آية ﴾ أي مما اقترحوه ومن غيره ، لا يعجزه شيء ، وفي كل شيء له من الآيات ما يعجز الوصف ، وكفى بالقرآن العظيم مثالاً لذلك ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي ليس فيهم قابلية العلم ، فهم لا يتفكرون في شيء من ذلك الذي يحدثه من مصنوعاته ليدلهم على أنه على كل شيء قدير ، فلا فائدة لهم في إنزال ما طلبوه ، وأما غير الأكثر فهو سبحانه يردهم بآية القرآن أو غيرها مما لم يقترحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 630 . 631 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا النوع الرابع من شبهات منكري نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنهم قالوا : لو كان رسولاً من عند الله فهلا أنزل عليه آية قاهرة ومعجزة باهرة !

(191/231)

ويروى أن بعض الملحدة طعن فقال : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد أتى بآية معجزة لما صح أن يقول أولئك الكفار ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ ﴾ ولما قال : ﴿ إن الله قادِرٌ على أن يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ .

والجواب عنه : أن القرآن معجزة قاهرة وبينة باهرة ، بدليل أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم به فعجزوا عن معارضته ، وذلك يدل على كونه معجزاً .

بقي أن يقال : فإذا كان الأمر كذلك فكيف قالوا ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ .

فنقول : الجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : لعلّ القوم طعنوا في كون القرآن معجزاً على سبيل اللجاج والعناد ، وقالوا : إنه من جنس الكتب ، والكتاب لا يكون من جنس المعجزات ، كما في التوراة والزبور والإنجيل ، ولأجل هذه الشبهة طلبوا المعجزة .

والوجه الثاني : أنهم طلبوا معجزات قاهرة من جنس معجزات سائر الأنبياء مثل فلق البحر واظلال الجبل وإحياء الموتى .

والوجه الثالث : أنهم طلبوا مزيد الآيات والمعجزات على سبيل التعنت واللجاج مثل إنزال الملائكة وإسقاط السماء كسفاً وسائر ما حكاه عن الكافرين .

والوجه الرابع : أن يكون المراد ما حكاه الله تعالى عن بعضهم في قوله ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] فكل هذه الوجوه مما يحتملها لفظ الآية .

ثم إنه تعالى أجاب عن سؤالهم ﴿ قُلْ إِنَّ الله قَادِرٌ على أَن يُنَزِّلَ ءايَةً ﴾ يعني أنه تعالى قادر

على إيجاد ما طلبتموه وتحصيل ما اقترحتموه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ واختلفوا في تفسير هذه الكلمة على وجوه :

(192/231)

الوجه الأول : أن يكون المراد أنه تعالى لما أنزل آية باهرة ومعجزة قاهرة وهي القرآن كان طلب الزيادة جارياً مجرى التحكم والتعنت الباطل ، والله سبحانه له الحكم والأمر فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، فإن فاعليته لا تكون إلا بحسب محض المشيئة على قول أهل السنة أو على وفق المصلحة على قول المعتزلة ، وعلى التقديرين : فإنها لا تكون على وفق اقتراحات الناس ومطالباتهم ، فإن شاء أجابهم إليها ، وإن شاء لم يجبهم إليها .

والوجه الثاني : هو أنه لما ظهرت المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة الكافية لم يبق لهم عذر ولا علة ، فبعد ذلك لو أجابهم الله تعالى في ذلك الاقتراح فلعلّهم يقترحون اقتراحاً ثانياً ، وثالثاً ، ورابعاً ، وهكذا إلى ما لا غاية له ، وذلك يفضي إلى أن لا يستقر الدليل ولا تتم الحجة ، فوجب في أول الأمر سد هذا الباب والاكتفاء بما سبق من المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة .

والوجه الثالث : أنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من المعجزات القاهرة ، فلو لم يؤمنوا عند

ظهورها لاستحقوا عذاب الاستئصال ، فاقتضت رحمة الله صونهم عن هذا البلاء فما أعطاهم هذا المطلوب رحمة منه تعالى عليهم ، وإن كان لا يعلمون كيفية هذه الرحمة ، فلهذا المعنى قال : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

والوجه الرابع : أنه تعالى علم منهم أنهم إنما يطلبون هذه المعجزات لا لطلب الفائدة بل لأجل العناد والتعصب وعلم أنه تعالى لو أعطاهم مطلوبهم فهم لا يؤمنون ، فلهذا السبب ما أعطاهم مطلوبهم لعلمه تعالى أنه لا فائدة في ذلك ، فالمراد من قوله ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ هو أن القوم لا يعلمون أنهم لما طلبوا ذلك على سبيل التعنت والتعصب فإن الله تعالى لا يعطيهم مطلوبهم ولو كانوا عالمين عاقلين لطلبوا ذلك على سبيل طلب الفائدة ، وحينئذ كان الله تعالى يعطيهم ذلك المطلوب على أكمل الوجوه . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 173 ـ 174 ﴾

(193/231)

وقال أبو حيان :

﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ قال ابن عباس نزلت في رؤساء قريش سألوا الرسول آية تعنتاً منهم ، وإلا فقد جاءهم بآيات كثيرة فيها مقنع انتهى .

والضمير في ﴿ وقالوا ﴾ عائد على الكفار ، ولولا تحضيض بمعنى هلا .

﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ أي مهما سألتموه من إنزال آية الله قادر على ذلك .

كما أنزل الآيات السابقة فلا فرق في تعلق القدرة بالآيات المقترحة على سبيل التعنت والآيات التي لم تقترح وقد اقترحتم آيات كانشقاق القمر فلم تجد عليكم ولا أثرت فيكم ، وقلتم هذا سحر مستمر ولم تعتدوا بما أنزل مع كثرته حتى كأنه لم ينزل شيء من الآيات ، لأن دأبكم العناد في آيات الله .

وقال الزمخشري على أن ينزل آية يضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل على بني إسرائيل أو آية أن يجحدوها جاءهم العذاب .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية وإن صارفاً من الحكمة صرفه عن إنزالها .

وقال ابن عطية ﴿ لا يعلمون ﴾ أنها لو أنزلت ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعذاب ، ويحتمل لا يعلمون أن الله تعالى إنما جعل المصلحة في آيات معرضة للنظر والتأمل ليهتدي قوم ويضل آخرون انتهى .

والذي يظهر ﴿ لا يعلمون ﴾ نفى عنهم العلم حيث فرقوا بين تعلق القدرة بالآيات التي نزلت وبين تعلقها بالآيات المقترحة وتعلق القدرة بهما سواء لاجتماع المقترح وغير المقترح في

الإمكان ، فمن فرق بين المتماثلات ولم يقنع بما ورد منها فهو لا شك جاهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(194/231)

وقال ابن جزى :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ الضمير في قالوا للكفار ، ولولا : عرض ، والمعنى : أنهم طلبوا أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بآية على نبوّته ، فإن قيل : فقد أتى به ، وكأنه لم يأت بشيء عندهم لعنادهم وجحدهم ، والآخر : أنهم إنما طلبوا آية تضطرهم إلى الإيمان من غير نظر ولا تفكر ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ على أَن يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ جواب على قولهم ، وقد حكى هذا القول عنهم في مواضع من القرآن وأجيب عليه بأجوبة مختلفة ، منها ما يقتضي الردّ عليهم في طلبهم الآيات فإنه قد أتاهم بآيات وتحصيل الحاصل لا ينبغي كقوله : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيات ﴾ [البقرة : 118] ، وكقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت : 51] ، ومنها ما يقتضي الإعراض عنهم ، لأن الخصم إذا تبين عناده سقطت مكالمته ، ويحتمل أن يكون من هذا قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ على أَن يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ ، ويحتمل أيضاً أن يكون معناه قادر على أن ينزل آية تضطرهم إلى الإيمان ﴿

ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ حذف مفعول يعلمون ، وهو يحتمل وجهين : أحدهما لا يعلمون أن الله قادر ، والآخر لا يعلمون أن الله إنما منع الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان لمصالح العباد ، فإنهم لو رأوها ولم يؤمنوا لعوقبوا بالعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 8 ﴾

وقال السعدى :

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي: المكذبون بالرسول ، تعنتا وعنادا : ﴿ لَوْلا نزل عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح ، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة .

(195/231)

كقولهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا ﴾ الآيات

﴿ قُلْ ﴾ مجيبا لقولهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنزل آيَةً ﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك كيف وجميع الأشياء منقادة لعزته مذعنة لسلطانه ؟

ولكن أكثر الناس لا يعلمون فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها لعوجلوا بالعقاب كما هي سنة الله التي لا تبديل لها ومع هذا فإن كان

قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق وتوضح السبيل فقد أتى محمد صلى الله عليه وسلم بكل آية قاطعة وحجة ساطعة دالة على ما جاء به من الحق بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية بحيث لا تبقي في القلوب أدنى شك وارتياب فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير السعدى صـ 255 ﴾

(196/231)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ على أَن يُنَزِّلَ آيَةً ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ذكر في هذه الآية الكريمة : أنه قادر على تنزيل الآية التي اقترحها الكفار على رسوله ، وأشار لحكمة عدم إنزالها بقوله : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وبين في موضع آخر أن حكمة عدم إنزالها أنها لو أنزلت ولم يؤمنوا بها ، لنزل بهم العذاب العاجل كما وقع بقوم صالح لما اقترحوا عليه إخراج ناقة عشراء ، وبراء ، جوفاء ، من صخرة صماء ، فأخرجها الله

لهم منها بقدرته ومشيئته ، فعقروها ﴿ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ [الأعراف : 77] فأهلكهم الله دفعة واحدة بعذاب استئصال ، وذلك في قوله ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بالآيات إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾ [الإسراء : 59] وبين في مواضع أخر أنه لا داعي إلى ما اقترحوا من الآيات ، لأنه أنزل عليهم آية أعظم من جميع الآيات التي اقترحوها وغيرها ، وتلك الآية هي هذا القرآن العظيم . وذلك في قوله ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت : 51] فأنكاره جل وعلا عليهم عدم الاكتفاء بهذا الكتاب عن الآيات المقترحة يدل على أنه أعظم وأفخم من كل آية ، وهو كذلك ألا ترى أنه آية واضحة ، ومعجزة باهرة ، أعجزت جميع أهل الأرض ، وهي باقية تتردد في آذان الخلق غضة طرية حتى يأتي أمر الله . بخلاف غيره من معجزات الرسل صلوات الله عليهم وسلامه فإنها كلها مضت وانقضت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(197/231)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ حكايةٌ لبعضٍ آخَرَ من أباطيلهم بعد حكايةِ ما قالوا

في حق القرآن الكريم وبيانِ ما يتعلّق به والقائلون رؤساءُ قريشٍ وقيل : الحارثُ بنُ عامر بنِ نَوْفلَ وأصحابُه ، ولقد بلغت بهم الضلالةُ والطغيان إلى حيث لم يقتنعوا بما شاهدوه من البينات التي تخِرُّ لها صمُّ الجبال حتى اجترأوا على ادّعاء أنها ليست من قبيل الآياتِ وإنما هي ما اقترحوه من الخوارقِ الملجئةِ أو المُعْقِبة للعذاب كما قالوا : ﴿ اللهم إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء ﴾ الآية ، والتنزيل بمعنى الإنزال كما ينبىء عنه القراءة بالتخفيف فيما سيأتي ، وما يفيده التعرّض لعنوان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من الإشعار بالعلّية إنما هو بطريق التعريض بالتهكّم من جهتهم ، وإطلاق الآية في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الله قَادِرٌ على أَن يُنَزّلِ ءايَةً ﴾ مع أن المرادَ بها ما هو من الخوارق المذكورةِ لا آيةٌ ما من الآيات ، لفساد المعنى مجاراةً معهم على زعمهم ، ويجوز أن يرادَ بها آيةٌ مُوجبةٌ لهلاكهم كإنزال ملائكةِ العذاب ونحوه على أن تنوينها للتفخيم والتهويل كما أن إظهارَ الاسمِ الجليل لتربية المهابةِ مع ما فيه من الإشعار بعِلّة القُدرة الباهرةِ ، والاقتصار في الجواب على بيان قدرته تعالى على تنزيلِها مع أنها ليست في حيز الإنكار للإيذان بأن عدمَ تنزيله إياها مع قدرته عليه لحكمةٍ بالغة يجب معرفتها وهم عنها غافلون ، كما ينبىء عنه الاستدراكُ بقوله تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي ليسوا من أهل العلم على أن المفعول مطروحٌ بالكلية ، أو لا يعلمون شيئاً على أنه محذوفٌ مدلولٌ عليه بقرينةِ المقام . والمعنى أنه تعالى قادر على أن ينزل آيةً من ذلك أو آيةً أيَّ آية ولكن أكثرهم لا

يعلمون فلا يدرون أن عدمَ تنزيلِها مع ظهور

قدرتِه عليه لما أن في تنزيلها قلْعاً لأساسِ التكليف المبنيِّ على قاعدة الاختيار ، أو

استئصالاً لهم بالكلية فيقترحونها جهلاً ويتخذون عدم تنزيلها ذريعةً إلى التكذيب ،

وتخصيصُ عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضَهم واقفون على حقيقة الحال وإنما يفعلون مكابرةً

وعناداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(198/231)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي رؤساء قريش الذين بلغ بهم الجهل والضلال إلى حيث لم يقنعوا بما

شاهدوه من الآيات التي تخر لها صم الجبال ولم يعتدوا به ﴿ لَوْلاَ ﴾ أي هلا ﴿ نَزَّلَ ﴾ أي

أنزل ﴿ عَلَيْهِ ءايَةٌ مّن رَّبِهِ ﴾ ملجئة للإيمان ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّ الله قَادِرٌ على أَن

يُنَزّلِ ءايَةً ﴾ من الآيات الملجئة ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فلا يدرون أن عدم تنزيلها

مع ظهور قدرته سبحانه وتعالى عليه لما أن في تنزيلها قلعاً لأساس التكليف المبني على

قاعدة الاختيار أو استئصالاً لهم بالكلية إذ ذلك من لوازم جحد الآية الملجئة وجوز أن لا

يكونوا قد طلبوا الملجيء ولا يلزم من عدم الاعتداد بالمشاهد طلبه بل يجوز أن يكونوا قد

طلبوا غير الحاصل مما لا يلجىء لجاجاً وعناداً ، ويكون الجواب بالملجىء حينئذ من أسلوب الحكيم أو يكون جواباً بما يستلزم مطلوبهم بطريق أقوى وهو أبلغ .

و(من) لابتداء الغاية .

والجار والمجرور يجوز أن يكون متعلقاً بنزل ، وأن يكون متعلقاً بمحذوف وقع صفة لآية .

وما يفيده التعرض لعنوان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من الإشعار بالعلية إنما هو بطريق التعريض بالتهكم من جهتهم .

والاقتصار في الجواب على بيان قدرته سبحانه وتعالى على التنزيل مع أنها ليست في حيز الإنكار للإيذان بأن عدم تنزيله تعالى للآية مع قدرته عليه بحكمة بالغة يجب معرفتها وهم عنها غافلون كما ينبىء عنه الاستدراك ، وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة مع الإشعار بالعلية ، ومفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ إما مطروح بالكلية على معنى أنهم ليسوا من أهل العلم أو محذوف مدلول عليه بقرينة المقام أي لا يعلمون شيئاً .

وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعناداً .

وقرأ ابن كثير ﴿ يُنَزِّلِ ﴾ بالتخفيف ، والمعنى هنا كما قيل واحد لأنه لم ينظر إلى التدريج وعدمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

عطف على جملة : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ﴾ [الأنعام : 35] الآيات ، وهذا عود إلى ما جاء في أول السورة [4] من ذكر إعراضهم عن آيات الله بقوله ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين ﴾ ثم ذكر ما تفنّنوا به من المعاذير من قولهم : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] وقوله : ﴿ وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها ﴾ [الأنعام : 25] أي وقالوا : لولا أنزل عليه آية ، أي على وفق مقترحهم ، وقد اقترحوا آيات مختلفة في مجادلات عديدة .

ولذلك أجملها الله تعالى هنا اعتماداً على علمها عند الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، فقال : ﴿ وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربّه ﴾ .

فجملة : ﴿ وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربِه ﴾ وقع عطفها معترضاً بين جملة ﴿ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ [الأنعام : 36] وجملة ﴿ وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] الخ .

وفي الإتيان بفعل النزول ما يدلّ على أنّ الآية المسؤولة من قبيل ما يأتي من السماء ، مثل قولهم ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] وقولهم : ﴿ ولن نُؤمن لِرُقيّك حتى تنزّل

علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء : 93] وشبه ذلك .

وجرّد ﴿ نزّل ﴾ من علامة التأنيث لأنّ المؤنّث الذي تأنيثه لفظي بحت يجوز تجريد فعله من علامة التأنيث ؛ فإذا وقع بين الفعل ومرفوعه فاصل اجتمع مسوّغان لتجريد الفعل من علامة التأنيث ، فإنّ الفصل بوحده مسوّغ لتجريد الفعل من العلامة .

وقد صرّح في "الكشاف" بأنّ تجريد الفعل عن علامة التأنيث حينئذٍ حسن .

و﴿ لولا ﴾ حرف تحضيض بمعنى (هلاّ) .

والتحضيض هنا لقطع الخصم وتعجيزه ، كما تقدّم في قوله تعالى آنفاً ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] .

(200/231)

وتقدّم الكلام على اشتقاق ﴿ آية ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ﴾ في سورة [البقرة : 39] .

وفصل فعل ﴿ قل ﴾ فلم يعطف لأنَّه وقع موقع المحاورة فجاء على طريقة الفصل التي بيّنّاها في مواضع كثيرة ، أولها : قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة [البقرة : 30] .

وأمَر الله رسوله أن يجيبهم بما يُعلم منه أنّ الله لو شاء لأنزل آية على وفق مقترحهم تقوم عليهم بها الحجّة في تصديق الرسول ، ولكنّ الله لم يرد ذلك لحكمة يعلمها ؛ فعبّر عن هذا المعنى بقوله : إنّ الله قادر على أنّ ينزّل آية ﴾ وهم لا ينكرون أنّ الله قادر ، ولذلك سألوا الآية ، ولكنّهم يزعمون أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام لا يَثبُت صدقه إلاّ إذا أيّده الله بآية على وفق مقترحهم .

فقوله : ﴿ إنّ الله قادر على أن ينزّل آية ﴾ مستعمل في معناه الكنائي ، وهو انتفاء أن يريد الله تعالى إجابة مقترحهم ، لأَنّه لمّا أرسل رسوله بآيات بيّنات حصل المقصود من إقامة الحجّة على الذين كفروا ، فلو شاء لزادهم من الآيات لأنّه قادر .

ففي هذه الطريقة من الجواب إثبات للردّ بالدليل ، وبهذا يظهر موقع الاستدراك في قوله : ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ فإنّه راجع إلى المدلول الالتزامي ، أي ولكن أكثر المعاندين لا يعلمون أنّ ذلك لو شاء الله لفعله ، ويحسبون أنّ عدم الإجابة إلى مقترحهم يدلّ على عدم صدق الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك من ظلمة عقولهم ، فلقد جاءهم من الآيات ما فيه مزدجر .

فيكون المعنى الذي أفاده هذا الردّ غير المعنى الذي أفاده قوله ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ [الأنعام : 8] فإنّ ذلك نبّهوا فيه على أنّ عدم إجابتهم فيه فائدة لهم وهو استبقاؤهم ، وهذا نبّهوا فيه على سوء نظرهم في استدلالهم .

وبيان ذلك أنّ الله تعالى نصب الآيات دلائل مناسبة للغرض المستدلّ عليه كما يقول المنطقيّون : إنّ المقدّمات والنتيجة تدلّ عقلاً على المطلوب المستدلّ عليه ، وإنّ النتيجة هي عين المطلوب في الواقع وإن كانت غيره في الاعتبار ؛ فلذلك نجد القرآن يذكر الحجج على عظيم قدرة الله على خلق الأمور العظيمة ، كإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي في سياق الاستدلال على وقوع البعث والحشر .

ويسمّى تلك الحجج آيات كقوله ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقَرّ ومستودع قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ [الأنعام : 98] ، وكما سيجيء في أول سورة [الرعد : 2] ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد قرونها ﴾ وذكر في خلال ذلك تفصيل الآيات إلى قوله : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنّا تراباً إنّا لفي خلق جديد ﴾ [الرعد : 5] .

وكذلك ذكر الدلائل على وحدانية الله باستقلاله بالخلق ، كقوله : ﴿ وخلق كلّ شيء وهو بكلّ شيء عليم ذلكم الله ربّكم لا إله إلاّ هو خالق كلّ شيء فاعبدوه إلى قوله وكذلك نفصّل الآيات وليقولوا دَرَست ﴾ [الأنعام : 101 105] الخ ، وكقوله في الاستدلال

على انفراده بأنواع الهداية ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

ولمّا كان نزول القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام حجّة على صدقه في إخباره أنّه مُنزل من عند الله لمَا اشتمل عليه من العلوم وتفاصيل المواعظ وأحوال الأنبياء والأمم وشرع الأحكام مع كون الذي جاء به معلوم الأمية بينهم قد قضى شبابه بين ظهرانيهم ، جعَله آية على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فيما أخبر به عن الله تعالى ، فسمّاه آيات في قوله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ، بيّنات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ [الحج : 72] فلم يشأ الله أن يجعل الدلائل على الأشياء من غير ما يناسبها .

(202/231)

أمّا الجهلة والضّالون فهم يرومون آيات من عجائب التصاريف الخارقة لنظام العالم ، يريدون أن تكون علامة بينهم وبين الله على حسب اقتراحهم بأن يحييهم إليها إشارة منه إلى أنّه صدّق الرسول فيما بلّغ عنه ، فهذا ليس من قبيل الاستدلال ولكنّه من قبيل المخاطرة ليزعموا أنّ عدم إجابتهم لما اقترحوه علامة على أنّ الله لم يصدّق الرسول صلى الله عليه

وسلم في دعوى الرسالة .

ومن أين لهم أنّ الله يرضى بالنزول معهم إلى هذا المجال ، ولذلك قال تعالى : ﴿ قل إنّ الله قادر على أن ينزّل آية ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ ، أي لا يعلمون ما وجه الارتباط بين دلالة الآية ومدلولها .

ولذلك قال في الردّ عليهم في سورة [الرعد : 7] ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربّه إنّما أنت منذر فهم جعلوا إيمانهم موقوفاً على أن تنزّل آية من السماء .

وهم يعنون أنّ تنزيل آية من السماء جملة واحدة .

فقد قالوا : لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] وقالوا : ﴿ ولن نؤمن لرقّيك حتّى تُنَزّل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء : 93] .

فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ إنّما أنت منذر ﴾ [الرعد : 7] ، أي لا علاقة بين الإنذار وبين اشتراط كون الإنذار في كتاب ينزّل من السماء ، لأنّ الإنذار حاصل بكونه إنذاراً مفصّلاً بليغاً دالاّ على أنّ المنذِر به ما اخترعه من تلقاء نفسه ، ولذلك ردّ عليهم بما يبيّن هذا في قوله : ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذَنْ لارْتَابَ المُبطلون إلى قوله وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربّه قل إنَّما الآيات عند الله وإنّما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم ﴾ [العنكبوت : 48 51] ، أي فما فائدة كونه ينزل في قرطاس من السماء مع أنّ المضمون واحد .

وقال في ردّ قولهم : ﴿ حتّى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء : 93] ﴿ قل سبحان ربِّي هل كنت إلاّ بشراً رسولا ﴾ [الإسراء : 93] .

نعم إنّ الله قد يقيم آيات من هذا القبيل من تلقاء اختياره بدون اقتراح عليه ، وهو ما يسمّى بالمعجزة مثل ما سمّى بعض ذلك بالآيات في قوله : ﴿ في تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾ [النمل : 12] ، فذلك أمر أنف من عند الله لم يقترحه عليه أحد .

وقد أعطى نبيّنا محمداً صلى الله عليه وسلم من ذلك كثيراً في غير مقام اقتراحٍ من المعرضين ، مثل انشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل ، ونبع الماء من الأرض بسهم رشقه في الأرض .

هذا هو البيان الذي وعدتُ به عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملَك ﴾ في هذه السورة [8] .

ومن المفسِّرين من جعل معنى قوله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ أنّهم لا يعلمون أنّ إنزال الآية على وفق مقترحهم يعقبها الاستئصال إن لم يؤمنوا ، وهم لعنادهم لا يؤمنون .

إلاّ أنّ ما فسّرتها به أولى لئلاّ يكون معناها إعادة لمعنى الآية التي سبقتها ، وبه يندفع التوقّف

في وجه مطابقة الجواب لمقتضى السؤال حسبما توقّف فيه التفتازاني في تقرير كلام "الكشاف" .

وقوله : ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ تنبيه على أنّ فيهم من يعلم ذلك ولكنّه يكابر ويُظهر أنّه لا يتمّ عنده الاستدلال إلاّ على نحو ما اقترحوه .

وإعادة لفظ ﴿ آية ﴾ بالتنكير في قوله ﴿ أن يُنزّل آية ﴾ من إعادة النكرة نكرة وهي عين الأولى .

وهذا يبطل القاعدة المتداولة بين المعربين من أنّ اللفظ المنكّر إذا أعيد في الكلام منكّراً كان الثاني غير الأول .

وقد ذكرها ابن هشام في "مغني اللبيب" في الباب السادس ونقضها .

وممّا مثّل به لإعادة النكرة نكرة وهي عين الأولى لا غيرها قوله تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ﴾ [الروم : 54] .

وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصّالحا بينهما صلحاً والصلح خير ﴾ في سورة [النساء : 128] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

سؤال : فإن قيل : فهذه الآية لا تدل على أن الله لم ينزل عليهم آية تقودهم إلى التصديق فلم يلزمهم الإِيمان ، قيل : هذا خطأ ، لأن ما أظهره الله من الآيات الدالة على صدق رسوله وصحة نبوته ، أظهر من أن يُخْفَى ، وأكثر من أن ينكر ، وأن القرآن مع عجز من تحداهم الله من الآيات بمثله ، وما تضمنه من أخبار الغيوب وصدق خبره عما كان ويكون أبلغ الآيات وأظهر المعجزات .

وإنما اقترحوا آية سألوها إعناتاً ، فلم يجابوا مع قدرة الله تعالى على إنزالها ، لأنه لو أجابهم إليها لاقترحوا غيرها إلى ما لا نهاية له ، حتى ينقطع الرسول بإظهار الآيات عن تبليغ الرسالة .

وإنما يلزمه إظهار الآيات في موضعين :

أحدهما : عند بعثه رسولاً ليكون مع استدعائه لهم دليل على صدقه .

والثاني : أن يسألها من يعلم الله منه أنه إن أظهرها له آمن به ، وليس يلزمه إظهارها في غير هذين الموضعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(205/231)

لطيفة

قال فى روح البيان :

اعلم أن الناس في الأديان على أربعة أقسام : سعيد بالنفس والروح في لباس السعادة وهم الأنبياء وأهل الطاعة ، والثاني : شقي بالنفس في لباس الشقاوة وهم الكفار والمصرّون على الكبائر ، والثالث : شقي بالنفس في لباس السعادة مثل بلعم بن باعورا وبرصيصا وإبليس ، والرابع سعيد بالنفس في لباس الشقاوة كبلال وصهيب وسلمان في أوائل أمرهم ثم بدل لباسهم بلباس التقوى والهداية .

فإن قلت ما الحكمة في أن الله تعالى خلق الخلق سعيداً وشقياً وقال : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ (الأنعام : 35) ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (النحل : 9) .

(206/231)

قلنا : قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : إن الله تعالى علم في الأزل أن فلاناً في خلقه يعصي لعدم سبق استعداده للسعادة فجعله شقياً لسبق القضاء عليه بمقتضى استعداده في الأعيان الثابتة ، ومظهرية استعداده لشؤون الجلال كأنه سأل بلسان الاستعداد كونه شقياً يسأله من في السموات والأرض بلسان القال والحال والاستعداد كل يوم هو في شأن

يفيض ويعطي كل شيء ما يستعد من السعادة والشقاوة على حسب الاستعدادات في الأعيان الثابتة الغيبية العلمية وعلم سبحانه وتعالى أن عبده يطيع فجعله سعيداً ، أي : بمقتضى استعداده للسعادة الإجمالي والقابلية المودعة في النشأة الإنسانية بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ (الأعراف : 172) فتلك الإجابة منهم تدل على الاستعداد السعادي الأزلي فلو لم يكن ذلك لما صح عليهم التكليف والخطاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب فإذا عرفت أن الإنسان سعيد وشقي فاستعداد السعيد لا يعطي إلا الأقوال المرضية والأفعال الحسنة والأخلاق الحميدة التي تورث الانبساط واستعداد الشقي لا يعطي إلا التي تورث الانقباض فلذا أمر الله تعالى حبيبه بالصبر وتحمل الإيذاء من أهل الشقاوة والقهر والجلال والابتلاء في الدنيا سبب للغفران وتكميل الدرجات التي لا تنال في الجنان إلا على قدر البلاء وفي الخبر "إن في الجنة مقامات معلقة في الهواء يأوي إليها أهل البلاء كالطير إلى وكره ولا ينالها غيرهم" .

وإن الرجل يبتلى على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي وما عليه خطيئة والبلاء سوط الله على عباده كيلا يركنوا إلى الدنيا ولا يشغلوا بها ويفروا إلى الله من ضرب سوطه كما يفر الخيل إلى مستقره والآخرة هي دار القرار .

وبالجملة : فمن ابتلي بشيء من المصائب والبلايا فالعاقبة حميدة في الصبر وبالصبر يكون

من الأمة المرحومة حقيقة ويدخل في أثر النبي عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 36 . 37 ﴾

(207/231)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه " وفى سورة العنكبوت : "وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه " فى قراءة نافع وأبى عمرو وحفص ولمك يختلف فى توحيد لفظ آية فى الأنعام والمقصود واحد ؟

ووجه ذلك والله أعلم أن لولا فى الآيتين تحضيض وإنما يجرى فى كلامهم عند ما يراه المتكلم به أولى أو أهم فى مقصود ما أو أتم فى مطلب ما إلى أشباه هذا مما يستدعى التحضيض ولما تقدم قبل آية الأنعام ذكر دلائل من خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور بحال من كذب وعاند إلى ما تبع ذلك من الآيات التى يحتاج فيها إلى النظر وإعمال الفكر والاعتبار وكان مظنه لتغبيط الجاحد ، فطلبوا آية تبهر ولا يحتاج معها إلى كبير نظر كناقة صالح عليه السلام أو شبه ذلك فافتتحوا فيما ذكره سبحانه عنهم بأداة لولا التحضيضية

حرصا على ما طلبوه ، وأتوا بالفعل مضعفا لما أرادوه من التأكيد فقالوا : نزل وأفردوا آية لما قصدوه من أنه عليه السلام جاءهم بآية واحدة من الضرب الذى طلبوه ، وهذا مناسب وقد صرحوا بما طلبوه من هذا الضرب بالذى ذكرنا فى قولهم : "لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب . . . "الآية ، وفى قولهم : "لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا " إلى ما أشبه هذا فقال تعالى : قل لهم يا محمد إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون أى لا يعلمون ما كان يعقبهم ذلك لو وقع على وفق اقتراحهم من تعجيل أخذهم وهلاكهم كما جرى لغيرهم من الأمم كقوم صالح عليه السلام وغيرهم وقد قدم لهؤلاء التنبيه على ذلك فى قوله تعالى : "ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون " وأيضا ففى ذلك من الحكمة ما سبق فى علمه تعالى من هداية من شاء واضلال من شاء وليرفع بالعلم والنظر من هداه إليه ووفقه فلو ورد هذا الفعل غير مضعف ولم تفرد آية لما أحرز هذا المعنى .

(208/231)

أما آية العنكبوت فقد تقدم قبلها قوله تعالى : "بل هو آيات بينات فى صدرو الذين أوتوا العلم " ثم قال تعالى : "وما يجحد بآياتنا " وتأخر بعدها قوله تعالى : "قل إنما الآيات عند

الله " فلم يكن ليناسب بعد اكتناف هذه الجموع توحيد آية ثم ان هذه الآية لم يتقدمها من التهديد وشديد الوعيد ما تقدم آية الأنعام فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعف وجاء ذلك كله على ما يجب ولم يكن عكس الوارد ليناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 158.159 ﴾

(209/231)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾

إن الله سبحانه يوضح مواصلتهم للجدل ، وطلبهم لآية ما . والآية هي الأمر العجيب الذي يبعثه الله على يد نبي ليثبت صدقه في تبليغه عن الله . وكأنهم لا يريدون أن يعترفوا أن القرآن آيات بينات على الرغم من اعترافهم بعظمة القرآن ، فقد قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

ولكنهم لم يعترفوا بالقرآن كآية معجزة ؛ لأنهم عرفوا أن الرسل السابقين قد نزل كل منهم بآية معجزة منفصلة عن المنهج الذي جاء به ، فموسى عليه السلام معجزته العصا ، ويده التي

أخرجها من جيبه فكانت بيضاء من غير سوء ، وشق البحر ، ومنهجه التوارة ، وعيسى عليه السلام كانت معجزته التكلم في المهد بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وجاء الإنجيل مكملاً بالروحانيات تلك الماديات التي ملأت نفس اليهود . وبعد أن قالوا عن رسول الله إنه يفتري الكذب تحداهم الحق أن يأتوا بمثل القرآن ثم نزل بهم إلى أن يأتوا بعشر سور من مثله ثم إلى أن يأتوا بمثل سورة واحدة من أقصر سوره . إذن ، فالافتراء وارد عليكم أيضا ، فكما أن محمداً افترى فيمكن أن تفتروا أنتم كذلك فيما نبغتم وتفوقتم فيه من أساليب البلاغة . إن القرآن قد تحداهم وما دام قد تحداهم فإنه معجزة ؛ لأن الأصل في المعجزة التحدي ، ويتحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن فلا يستطيعون ، إنه يتحداهم في أمر اللغة ، وهم سادة اللغة وهم النابغون فيها .

(210/231)

جاء القرآن ليتحداهم في مجال نبوغهم ، ولكنّ بعضاً من العرب طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية كونية يرونها . وأعماهم الحمق عن معرفة أن المعرفة الحسية موقوتة التأثير ، من يراها يقول إنها معجزة ، ومن لم يرها قد يصدق وقد يكذب . ونحن – المسلمين – لا نصدق المعجزات الحسية إلا أن القرآن أوردها ؛ ولأن القرآن قد جاء للناس

كافة ؛ لذلك لم يكن من المعقول أن يكون المنهج الخاتم منفصلاً عن معجزة النبي الذي جاء به

.

جاء القرآن – إذن – معجزة لرسول الله وهو آية معنوية دائمة أبداً بما فيه من أحكام ونظم ، وآيات كونية وقضايا علمية ، وإذا كان الخلق يختلفون في اللغات فما تضمنه القرآن من معجزات لن تنقضي عجائبه إلى يوم القيامة . وكل يوم نستنبط من آيات الله معجزات جديدة تُخرس كل مكذب ، لأنها معجزات كونية ، ومن العجيب أن بعض الذين يستنبطونها ليسوا من المسلمين ، ولا هم من المؤمنين بالقرآن .

ولكنّ بعضاً من المشركين لم يكتف بالقرآن على أنه آية ومعجزة دالة على صدق الرسول ، وطالبوا بمعجزة حسية . فهل كان ذلك الطلب للآية حقيقيا يرجون من ورائه معرفة الحق والإيمان له أو كان مجرد سبب يختفون وراءه حتى لا يؤمنوا ؟ إن كان طلب الآية هو أمرًا نابعًا من قلوبهم فإننا نأخذ بأيديهم ونرشدهم ونهديهم ونقول لهم : إن الرسل التي جاءت بمعجزات غير كتاب المنهج كانوا رسلاً إلى أمم مخصوصة وفي زمان محدود ، فجاءت معهم آيات كونية تُرَى مرة واحدة وتنتهي ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لعموم الزمان ، ولعموم المكان ، ولذلك لا تصلح أن تكون آيته ومعجزته حسية ؛ حتى لا تنحصر في الزمان والمكان المحددين ، وشاء الحق أن تكون معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المنهج الدائم .

وكنز القرآن أظهر وكشف من من الآيات الكونية ما تحقق من علم ورآه البشر ، وما سيظل يكتشفه البشر إلى أن تقوم الساعة . ولذلك قال الحق : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت : 53] .

أي أن البشر سيريهم الله وسيكتشف لهم من آياته حتى يظهر ويستبين لهم وجه الحق ، وإن كنتم تقترحون آية لمجرد التمحك والتلكؤ في إعلان الإيمان ، فلتعلموا أن أقواماً غيركم اقترحت الآيات وأنزل الحق هذه الآيات ومع ذلك كفروا : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ [الإسراء : 59] .

مثلما طلب قوم صالح الناقة ، فجاءهم بالناقة ، فكذبوا بتلك الآية وعقروا الناقة : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ . إذن فمسألة طلب الآيات قد سبقت في أمم سابقة ، وسبحانه قادر على إنزال الآيات ، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون . وسيقولون مثلما قال الذين تكلم فيهم الحق سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ [الإسراء : 59] .

ولقد أنزل الحق سبحانه القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه آيات كثيرة عظمت

وجلت عن أن تحصى وتحصر ، ولو أنهم اقترحوا آية وحققها الله لهم ولم يؤمنوا لكان حقاً على الله أن يبيدهم جميعاً . ولقد أعطى الله رسوله صلى الله عليه وسلم وعداً بألا يهلكهم وهو صلى الله عليه وسلم فيهم : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ .

إذن فعدم استجابة الله لإنزال آية لهم هو نوع من الحرص عليهم ، ذلك أن منهم من سيؤمن ، ومنهم من سيكون من نسله مؤمنون يحملون المنهج ويقومون به إلى أن تقوم الساعة لأنهم أتباع وحملة الرسالة الخاتمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(212/231)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " من ربِّه " فيها وجهان :

أحدهما : أنها متعلّقة بـ " نُزِّل " .

والثاني : أنها متعلِّقٌ بمحذوف ؛ لأنها صِفَةٌ لـ " آية " ، أي : آية [كائنة] من ربِّه .

وتقدَّم الكلامُ على " لَوْلاَ " وأنَّها تَحْضِيضيَّةٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 122 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) ﴾

استزادوا من المعجزات وقد حصل من ذلك ما يذبح العذر ، ولم يعلموا أن الله المانع لهم فلولا ما (. . .) من بصائرهم لما تواهموا من عدم دلائلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 470 ﴾

(213/231)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ

عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) ﴾

(214/231)

ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ﴿ قد نعلم ﴾ والمراد كثرة العلم والمبالغة كما مر في قوله ﴿ قد نرى تقلب وجهك ﴾ [البقرة : 144] والهاء في ﴿ إنه ﴾ ضمير الشأن وكسرت بعد العلم لمكان لام الابتداء في ﴿ ليحزنك ﴾ وما ذلك الحزن ؟ قال الحسن : هو قولهم ساحر شاعر كاهن مجنون : وقيل : تصريحهم بأنهم لا يؤمنون به ولا يقبلون دينه . وقيل : نسبتهم إياه إلى الكذب ﴿ فإنهم لا يكذبونك ﴾ قال أبو علي وثعب : أكذبه وكذبه بمعنى . وقيل : أكذبت الرجل ألفيته كاذباً ، وكذبته إذا قلت له كذبت . وقال الكسائي : أكذبته إذا أخبرت أنه جاء بالكذب ورواه وكذبته إذا أخبرت أنه كاذب . وقال الزجاج : معنى كذبته قلت له كذبت ، ومعنى أكذبته أن الذي أتى به كذب في نفسه من غير ادعاء أن ذلك القائل تكلف ذلك الكذب وأتى به على سبيل الافتعال والقصد . فمن قرأ بالتخفيف نظر إلى أن القوم كانوا يعتقدون أن محمداً صلى الله عليه

وسلم ما ذكر ذلك على سبيل الافتعال والترويج بل تخيل صحة ذلك وأنه نبي إلا أن تخيله باطل . ثم إن ظاهر الآية يقتضي أنهم لا يكذبون محمداً صلى الله عليه وسلم ولكنهم يجحدون بآيات الله ، وفي الجمع بين الأمرين وجوه : الأول أن القوم ما كانوا يكذبونه في السر ولكنهم كانوا يكذبونه في العلانية ويجحدون القرآن ونبوته ويؤكده رواية السدي أن الأخنس بن شريق وأبا جهل بن هشام التقيا فقال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامك غيري .

(215/231)

فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فنزلت . وقال أبو ميسرة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بأبي جهل وأصحابه فقالوا يا محمد إنا والله ما نكذبك إنك عندنا لصادق ولكن نكذب ما جئت به فنزلت . وقال مقاتل : نزلت في الحرث بن عامر بن نوفل كان يكذب النبي صلى الله عليه وسلم في العلانية ، فإذا خلا مع أهل بيته قال : ما محمد من أهل الكذب ولا أحسبه إلا صادقاً فإذن هذه الآية نظير قوله تعالى في قصة موسى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ [النمل : 14] فانظر .

الثاني في تأويل الآية أنهم لا يقولون إنك كذاب لأنهم جربوك الدهر الطويل وما وجدوا منك كذباً وسموك الصادق الأمين فلا يقولون بعد إنك كاذب ، ولكن حجدوا صحة نبوتك ورسالتك إما لأنهم اعتقدوا أن محمداً عرض له نوع خبل ونقصان فلأجل ذلك تخيل أنه رسول لا أنه كذب في نفسه ، أو لأنهم زعموا أنه أمين في كل الأمور إلا في هذا الواحد .

الثالث أنه لما ظهرت المعجزات على يده ثم إن القوم أصروا على التكذيب فقال له إن القوم ما كذبوك وإنما كذبوني ، ونحوه قول السيد لغلامه إذا أهانه بعض الناس : إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني ومثله قوله سبحانه ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ [الفتح : 10] فكأنه قيل له : إله عن حزنك لنفسك وليشغلك عن ذلك ما هو أهم وهو استعظامك لجحود آيات الله والاستهانة بكتابه . الرابع : قيل في التفسير الكبير : أي لا يخصونك بهذا التكذيب بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقاً ويكذبون جميع الأنبياء والرسل .

وقوله ﴿ ولكنّ الظالمين ﴾ من إقامة المظهر مقام المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم في جحودهم ، لأن من وضع التكذيب مقام التصديق فقد ظلم . ثم صبر رسوله على أذية القوم فقال ﴿ ولقد كذبت رسل ﴾ وأيّ رسل ﴾ من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى

أتاهم نصرنا ﴾ فأنت أولى بهذه السيرة لأنك مبعوث إلى كافة الخلائق فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا . ﴿ ولا مبدّل لكلمات الله ﴾ أي لمواعيده في نحو قوله ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] وقوله ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون ﴾ [الصافات : 171] ﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ قال الأخفش " من " زائدة والأصح أنها للتبعيض لقلة مجيء زيادة " من " في الإثبات ، ولأن الواصل إليه بعض قصص الأنبياء لقوله

(217/231)

﴿ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ [غافر : 78] فالتقدير : ولقد جاءك بعض أنبائهم . وكان يكبر على النبي صلى الله عليه وسلم كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزلت ﴿ وإن كان كبر ﴾ أي شق ﴿ عليك إعراضهم ﴾ عن الإيمان وصحة القرآن ﴿ وإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ﴾ فافعل . يعني أنك لا تستطيع ذلك والجواب محذوف وحسن للعلم به . والنفق سرب في الأرض له مخلص إلى مكان ومنه اشتقاق المنافق . والسلم واحد السلاليم التي يرتقي عليها وأصله

من السلامة كأنه يسلمك إلى مصعدك . والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وأنه لو استطاع أن يأتي بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها وبكل ما اقترحوه رجاء إيمانهم ، ويجوز أن يكون ابتغاء النفق أو السلم هو الآية كأنه قيل : لو استطعت ذلك لفعلت كل ذلك ليكون لك آية يؤمنون عندها ، ثم قال ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ قال أهل السنة : فهو دليل على أنه تعالى لا يريد الإيمان من الكافر . وقالت المعتزلة : المراد مشيئة الإلجاء المنافي للتكليف . والإلجاء هو أن يعلمهم أنهم لو حاولوا غير الإيمان لمنعهم منه فيضطرون إلى الإيمان . مثاله : أن يحصل شخص بحضرة السلطان وهناك خدمه وحشمه فيعلم أنه لو هم بقتل ذلك السلطان لقتلوه في الحال فيصير هذا العلم مانعاً له من القتل . وعورض بالعلم والداعي كما مر مراراً . أما قوله ﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ أي من الذين يرومون خلاف مأمور الله . فهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة ولكنه يفيد التغليظ وتأكيد الامتناع عن الجزع والإضراب عن الحزن والأسف على إيمان من لم يشأ الله إيمانه .

(218/231)

ثم بيَّن السبب في كونهم بحيث لا يقبلون الإيمان فقال ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ﴾ مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة . والمراد أنه تعالى هو الذي يقدر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان وأنت لا تقدر على ذلك ، يعني أن الذين تحرص على حصول إيمانهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون كقوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ [النمل : 80] أو المعنى أن هؤلاء الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون فحينئذ يسمعون ، وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى إسماعهم . أما وجه تشبيه الكفرة بالموتى فلأن حياة الروح بالعلم ومعرفة الصانع كما أن حياة الجسد بالروح . ثم ذكر شبهة أخرى للطاعنين في نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وهو أنه ما جاء بآية قاهرة ومعجزة باهرة فكأنهم طعنوا في كون هذا القرآن معجزاً على سبيل العناد أو قياساً على سائر الكتب السماوية ، أو طلبوا معجزات تقرب من حد الإلجاء كشق الجبل وفلق البحر ، فإن معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم من تسبيح الحصا وانشقاق القمر وغير ذلك ليست بأقل منها .

(219/231)

أو اقترحوا مزيد الآيات بطريقة التعنت واللجاج كقولهم ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 32] فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿ قل إن

الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن فاعليته ليست إلا بحسب محض المشيئة عند أهل السنة ، أو على وفق المصلحة عند المعتزلة ، لا على موجب اقتراحات الناس ومطالباتهم . أو أنه لما ظهرت المعجزة الباهرة والدلالة الكافية من القرآن وغيره لم يبق لهم عذر ولا علة ، فلو أجابهم إلى مقترحهم فلعلهم يقترحون اقتراحاً ثانياً وثالثاً وهلم جر أو ذلك يفضي إلى أن لا يستقر الدليل ولا تتم الحجة وهذا خلاف المقصود ، أو لا يعلمون أنه لو أعطاهم سؤلهم ثم لم يؤمنوا لاستوجبوا الاستئصال ، أو لا يعلمون أنهم لما طلبوا ذلك على سبيل العناد لا لأجل الفائدة – وقد علم الله ذلك – لم يعطهم مطلوبهم ولو كان غرضهم طلب الحق ونيله لأعطاهم مطلوبهم على أكمل الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 70.72 ﴾

(220/231)

قوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما عجب منهم في قولهم هذا الذي يقتضي أنهم لم يروا له آية قط بعد ما جاءهم من الآيات الخاصة به ما ملأ الأقطار ، ورد إلى الصم الأسماع ، وأنار من العمى الأبصار ؛ ذكرهم بآية غير آية القرآن تشتمل على آيات مستكثرة كافية لصلاحهم ، رتبها سبحانه قبل سؤالهم تفضلاً منه عليهم دالة على باهر قدرته على البعث وغيره من الآيات التي طلبوها وغيرها وعلى تفرده بجميع الأمر ، إذا تأملوها حق تأملها كفتهم في جميع ما يراد منهم فقال تعالى : ﴿ وما ﴾ أي قالوا ذلك والحال أنه ما ، وهي ناظرة أتم نظر إلى قوله ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ [الأنعام : 2] أي فعل ذلك بكم وما ﴿ من دابة في الأرض ﴾ أي تدب أي تنتقل برجل وغير رجل ﴿ ولا طائر يطير ﴾ وقرر الحقيقة بقوله : ﴿ بجناحيه ﴾ وشمل ذلك جميع الحيوان حتى ما في البحر ، لأن سيرها في الماء إما أن يكون دبيباً أو طيراناً مجازاً .

(221/231)

ولما كان المراد بالدابة والطائر الاستغراق قال : ﴿ إلا أمم ﴾ أي يقصد منها في نفسه ، ويقصد هو نوعه وينضم إلى شكله ﴿ أمثالكم ﴾ أي في ذلك وفي أنا خلقناكم ولم يكونوا شيئاً وحفظنا جميع أحوالهم ، وقدرنا كل أرزاقهم وآجالهم ، وجعلنا لكم فيهم أحكاماً جددناها لكم ، وجعلنا لكل منهم أجلاً للموت لا يتعداه بعد أن فاوتنا بينهم في الحياة ،

وللكل أجل في علمنا في البرزخ مثبت قبل أن نخلقهم ، لا ينقص ذرة ولا يزيد خردلة ، وجعلنا في هذه الحيوانات ما هو أقوى منكم وما هو أضعف ، وجعلناكم أقوى من الجميع بالعقل ، ولو شئنا لجعلنا له بين قوة البدن والعقل ، وربما سلطنا الأضعف عليكم كالجراد والفأر والدود بما تعجز عنه عقولكم ، ولو شئنا لسلطنا عليكم من أضعفها خلقاً – البعوض – ما أخذ بأنفاسكم ومنعكم القرار وأخرجكم عن حركات الاختيار إلى أن أهلككم جميعاً هلاك نفس واحدة – إلى غير ذلك من أمور تكل عنها العقول وتقف دونها نوافذ الفكر ، وهذا كله معنى قوله : ﴿ ما فرطنا ﴾ أي تركنا وأغفلنا لما لنا من القدرة الكاملة والعلم الشامل ﴿ في الكتاب ﴾ أي اللوح المحفوظ والقرآن ، وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من شيء ﴾ أي ليذهب ذكره كما يذهب العقد الذي ينقطع سلكه فيتفرط ، بل ذكرنا جميع أحوال خلقنا من الجن والإنس والملائكة وغيرهم من كل ناطق وصامت ، فصارت في غاية الضبط حتى أن الحفظة يعرضون ما يحدث من عمل المكلفين وغيره آخر النهار على ما كان مثبتاً في أم الكتاب فيجدونه كما هو ، لا يزيد شيئاً ولا ينقص ، فيزدادون إيماناً ، وأثبتنا في هذا القرآن مجامع الأمور ، فهو تبيان لكل شيء من الأحكام الأصلية والفرعية والدلالات على كل ذلك وأخبار الأولين والآخرين وكل علم يمكن أن يحتاجه المخلوق ، فمن أراد الهداية هداه بدقيق أسراره ، ومن أعرض أوقعه في الردى ، وعمي حتى عن

واضح أنواره ، والآية كما قال تعالى ﴿ إن في خلق السماوات والأرض ﴾ إلى أن قال :

﴿ وبث فيها من كل دابة

(222/231)

- لآيات لقوم يعقلون ﴾ [البقرة : 164] .

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

أفلا يكون لكم في ذلك آيات تغنيكم عن إرسال الرسل فضلاً عن أن تتوقفوا بعد إرسالهم

ولا ترضوا منهم من خوارق العادات إلا بما تقترحونه .

ولما أشار إلى ما شارك فيه سائر الحيوان للآدميين من أحوال الحياة وغيرها ، نص على

الحشر الذي هو محط الحكمة فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد طول الحياة والإقامة في البرزخ ﴿ إلى

ربهم ﴾ أي خاصة ، وبني للمفعول على طريق كلام القادرين قوله : ﴿ يحشرون ﴾ أي

يجمعون كرهاً بعد أن يعيدهم كلهم كما بدأهم ، وينصف كل مظلوم منهم من ظالمه ، كل

ذلك عليه هيّن ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان : 28] والكل

محفوظون في كتاب مبين على اختلاف أنواعهم وتباين حقائقهم وأشخاصهم وزيادتهم في

الجد على أن يوجه نحوهم العد – سبحان من أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، إن ذلك على الله يسير ، وهو على كل شيء قدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 632. 633 ﴾

فصل

قال الفخر :

في تقرير وجه النظم ، فنقول فيه وجهان : الأول : أنه تعالى بيّن في الآية الأولى أنه لو كان إنزال سائر المعجزات مصلحة لهم لفعلها ولأظهرها إلا أنه لما لم يكن إظهارها مصلحة للمكلفين ، لا جرم ما أظهرها .

(223/231)

وهذا الجواب إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى يراعي مصالح المكلفين ويتفضل عليهم بذلك فبيّن أن الأمر كذلك ، وقرره بأن قال : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ في وصول فضل الله وعنايته ورحمته وإحسانه إليهم ، وذلك كالأمر المشاهد المحسوس فإذا كانت آثار عنايته واصلة إلى جميع الحيوانات ؛ فلو كان في إظهار هذه المعجزات القاهرة مصلحة للمكلفين لفعلها ولأظهرها ولامتنع أن يبخل بها مع ما ظهر أنه لم

يبخل على شيء من الحيوانات بمصالحها ومنافعها وذلك يدل على أنه تعالى إنما لم يظهر تلك المعجزات ، لأن إظهارها يخل بمصالح المكلفين .

فهذا هو وجه النظم والمناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها والله أعلم .

الوجه الثاني في كيفية النظم : قال القاضي : إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار وبين أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون بين أيضاً بعده بقوله ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ في أنهم يحشرون ، والمقصود : بيان أن الحشر والبعث كما هو حاصل في حق الناس فهو أيضاً حاصل في حق البهائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 174.175 ﴾

فصل

قال الفخر :

الحيوان إما أن يكون بحيث يدب أو يكون بحيث يطير فجميع ما خلق الله تعالى من الحيوانات ، فإنه لا يخلو عن هاتين الصفتين ، إما أن يدب ، وإما أن يطير .

وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : من الحيوان ما لا يدخل في هذين القسمين مثل حيتان البحر ، وسائر ما يسبح في الماء ويعيش فيه .

والجواب : لا يبعد أن يوصف بأنها دابة من حيث إنها تدب في الماء أو هي كالطير ، لأنها

تسبح في الماء ، كما أن الطير يسبح في الهواء ، إلا أن وصفها بالدبيب أقرب إلى اللغة من وصفها بالطيران .

السؤال الثاني : ما الفائدة في تقييد الدابة بكونها في الأرض ؟

(224/231)

والجواب من وجهين : الأول : أنه خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء احتجاجاً بالأظهر لأن ما في السماء وإن كان مخلوقاً مثلنا فغير ظاهر ، والثاني : أن المقصود من ذكر هذا الكلام أن عناية الله تعالى لما كانت حاصلة في هذه الحيوانات فلو كان إظهار المعجزات القاهرة مصلحة لما منع الله من إظهارها .

وهذا المقصود إنما يتم بذكر من كان أدون مرتبة من الإنسان لا بذكر من كان أعلى حالاً منه ، فلهذا المعنى قيد الدابة بكونها في الأرض .

السؤال الثالث : ما الفائدة في قوله ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ؟ مع أن كل طائر إنما يطير بجناحيه .

والجواب فيه من وجوه : الأول : أن هذا الوصف إنما ذكر للتأكيد كقوله نعجة أنثى وكما يقال : كلمته بفي ومشيت إليه برجلي .

الثاني : أنه قد يقول الرجل لعبده طِرْ في حاجتي والمراد الإسراع وعلى هذا التقدير : فقد يحصل الطيران لا بالجناح.

قال الحماسي :

طاروا إليه زرافات ووحدانا . . فذكر الجناح ليتمحض هذا الكلام في الطير .

والثالث : أنه تعالى قال في صفة الملائكة ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مثنى وثلاث ورباع ﴾ [فاطر : 1] فذكر ههنا قوله ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ ليخرج عنه الملائكة فإنا بينا أن المقصود من هذا الكلام إنما يتم بذكر من كان أدون حالاً من الإنسان لا بذكر من كان أعلى حالاً منه .

السؤال الرابع : كيف قال : ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ ﴾ مع إفراد الدابة والطائر ؟

والجواب : لما كان قوله ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ وَلاَ طَائِرٍ ﴾ دالاً على معنى الاستغراق ومغنياً عن أن يقول : وما من دواب ولا طيور لا جرم حمل قوله ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ ﴾ على المعنى .

السؤال الخامس : قوله ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ قال الفرّاء : يقال إن كل صنف من البهائم أمة وجاء في الحديث : " لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها " فجعل الكلاب أمة .

إذا ثبت هذا فنقول : الآية دلت على أن هذه الدواب والطيور أمثالنا ، وليس فيها ما يدل على أن هذه المماثلة في أي المعاني حصلت ولا يمكن أن يقال : المراد حصول المماثلة من كل الوجوه وإلا لكان يجب كونها أمثالاً لنا في الصورة والصفة والخلقة وذلك باطل فظهر أنه لا دلالة في الآية على أن تلك المماثلة حصلت في أي الأحوال والأمور فبينوا ذلك .

والجواب : اختلف الناس في تعيين الأمر الذي حكم الله تعالى فيه بالمماثلة بين البشر وبين الدواب والطيور وذكروا فيه أقوالاً :

القول الأول : نقل الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يريد ، يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني .

وإلى هذا القول ذهب طائفة عظيمة من المفسرين وقالوا : إن هذه الحيوانات تعرف الله وتحمده وتوحده وتسبحه واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] وبقوله في صفة الحيوانات ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] وبما أنه تعالى خاطب النمل وخاطب الهدهد ، وقد استقصينا في تقرير هذا القول وتحقيقه في هذه الآيات .

وعن أبي الدرداء أنه قال : أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء : معرفة الإله ، وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأنثى ، وتهيوء كل واحد منهما لصاحبه .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعج

إلى الله يقول يا رب إن هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني آكل من خشاش الأرض " .

والقول الثاني : المراد إلا أمم أمثالكم في كونها أمماً وجماعات وكونها مخلوقة بحيث يشبه بعضها بعضاً ، ويأنس بعضها ببعض ، ويتوالد بعضها من بعض كالإنس إلا أن للسائل أن يقول حمل الآية على هذا الوجه لا يفيد فائدة معتبرة لأن كون الحيوانات بهذه الصفة أمر معلوم لكل أحد فلا فائدة في الاخبار عنها .

(226/231)

القول الثالث : المراد أنها أمثالنا في أن دبرها الله تعالى وخلقها وتكفل برزقها وهذا يقرب من القول الثاني في أنه يجري مجرى الاخبار عما علم حصوله بالضرورة .

القول الرابع : المراد أنه تعالى كما أحصى في الكتاب كل ما يتعلق بأحوال البشر ، من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة فكذلك أحصى في الكتاب جميع هذه الأحوال في كل الحيوانات .

قالوا : والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيءٍ ﴾ وليس لذكر هذا الكلام عقيب قوله ﴿ إلا أممٌ أمثالُكُمْ ﴾ فائدةً إلا ما ذكرناه .

القول الخامس : أراد تعالى أنها أمثالنا في أنها تحشر يوم القيامة يوصل إليها حقوقها ، كما

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقص للجماء من القرناء " .

القول السادس : ما اخترناه في نظم الآية ، وهو أن الكفار طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم الإتيان بالمعجزات القاهرة الظاهرة ، فبين تعالى أن عنايته وصلت إلى جميع الحيوانات كما وصلت إلى الإنسان .

ومن بلغت رحمته وفضله إلى حيث لا يبخل به على البهائم كان بأن لا يبخل به على الإنسان أولى ، فدل منع الله من إظهار تلك المعجزات القاهرة على أنه لا مصلحة لأولئك السائلين في إظهارها ، وأن إظهارها على وفق سؤالهم واقتراحهم يوجب عود الضرر العظيم إليهم .

القول السابع : ما رواه أبو سليمان الخطابي عن سفيان بن عيينة ، أنه لما قرأ هذه الآية قال : ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم ، فمنهم من يقدم إقدام الأسد ، ومنهم من يعدو عدو الذئب ، ومنهم من ينبح نباح الكلب ، ومنهم من يتطوس كفعل الطاوس ، ومنهم من يشبه الخنزير فإنه لو ألقي إليه الطعام الطيب تركه وإذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه .

فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها ، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها ، ولم يجلس مجلساً إلا رواه عنه .

(227/231)

ثم قال : فاعلم يا أخي إنك إنما تعاشر البهائم والسباع ، فبالغ في الحذار والاحتراز ، فهذا جملة ما قيل في هذا الموضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 175 .

177 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذهب القائلون بالتناسخ إلى أن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى موصوفة بالمعارف الحقة وبالأخلاق الطاهرة ، فإنها بعد موتها تنقل إلى أبدان الملوك ، وربما قالوا إنها تنقل إلى مخالطة عالم الملائكة ، وأما إن كانت شقية جاهلة عاصية فإنها تنقل إلى أبدان الحيوانات ، وكلما كانت تلك الأرواح أكثر شقاوة واستحقاقاً للعذاب نقلت إلى بدن حيوان أخس وأكثر شقاء وتعباً ، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فقالوا : صريح هذه الآية يدل على أنه لا دابة ولا طائر إلا وهي أمثالنا ، ولفظ المماثلة يقتضي حصول المساواة في جميع الصفات الذاتية أما الصفات العرضية المفارقة ، فالمساواة فيها غير معتبرة في حصول المماثلة .

ثم إن القائلين بهذا القول زادوا عليه ، وقالوا : قد ثبت بهذا أن أرواح جميع الحيوانات عارفة بربها وعارفة بما يحصل لها من السعادة والشقاوة ، وأن الله تعالى أرسل إلى كل جنس منها رسولاً من جنسها ، واحتجوا عليه بأنه ثبت بهذه الآية أن الدواب والطيور أمم .

ثم إنه تعالى قال : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] وذلك تصريح بأن لكل طائفة من هذه الحيوانات رسولاً أرسله الله إليها .

ثم أكدوا ذلك بقصة الهدهد ، وقصة النمل ، وسائر القصص المذكورة في القرآن .

واعلم أن القول بالتناسخ قد أبطلناه بالدلائل الجيدة في علم الأصول ، وأما هذه الآية فقد ذكرنا ما يكفي في صدق حصول المماثلة في بعض الأمور المذكورة ، فلا حاجة إلى إثبات ما ذكره أهل التناسخ . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 177 ﴾

(228/231)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأرض ﴾ الخ ، كلامٌ مستأنفٌ مَسوق لبيان كمال قدرتِه عز وجل وشمول علمه وسعةِ تدبيرِه ليكون كالدليل على أنه تعالى قادرٌ على تنزيل الآية ، وإنما لا يُنزِّلُها محافظةً على الحِكَم البالغةِ ، وزيادةُ (من) لتأكيد الاستغراق وهي متعلقةٌ بمحذوفٍ هو وصفٌ لدابة مفيد لزيادة التعميم ، كأنه قيل : وما فردٌ من أفراد الدوابِّ يستقرّ في قُطر من أقطار الأرض وكذا زيادةُ الوصف في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ

بِجَنَاحَيْهِ ﴾ مع ما فيه من زيادة التقرير أي ولا طائرٍ من الطيور يطير في ناحية من نواحي الجو بجناحيه كما هو المشاهَدُ المعتاد ، وقرىء ولا طائرٌ بالرفع عطفاً على محل الجار والمجرور كأنه قيل : وما دابة ولا طائر ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ ﴾ أي طوائفُ متخالفةٌ ، والجمع باعتبار المعنى كأنه قيل : وما مِنْ دوابَّ ولا طيرٍ إلا أممِ ﴿ أمثالكم ﴾ أي كلُّ أمة منها مثلُكم في أن أحوالها محفوظةٌ وأمورَها مقنَّنة ومصالحَها مرعيةٌ جاريةٌ على سَنن السَّداد ، ومنتظمةٌ في سلك التقديرات الإلهية والتدبيراتِ الربانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(229/231)

قوله تعالى ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾

فصل

قال الفخر :

في المراد بالكتاب قولان :

القول الأول : المراد منه الكتاب المحفوظ في العرش وعالم السموات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام ، كما قال عليه السلام : " جف القلم بما هو كائن إلى

يوم القيامة" .

والقول الثاني : أن المراد منه القرآن ، وهذا أظهر لأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق ، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن ، فوجب أن يكون المراد من الكتاب في هذه الآية القرآن .

إذا ثبت هذا فلقائل أن يقول : كيف قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ مع أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب وتفاصيل علم الحساب ، ولا تفاصيل كثير من المباحث والعلوم ، وليس فيه أيضاً تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم في علم الأصول والفروع ؟

والجواب : أن قوله ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التي يجب معرفتها ، والإحاطة بها وبيانه من وجهين : الأول : أن لفظ التفريط لا يستعمل نفياً وإثباتاً إلا فيما يجب أن يبين لأن أحداً لا ينسب إلى التفريط والتقصير في أن لا يفعل ما لا حاجة إليه ، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه .

الثاني : أن جميع آيات القرآن أو الكثير منها دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين ومعرفة الله ومعرفة أحكام الله ، وإذا كان هذا التقييد معلوماً من كل القرآن كان المطلق ههنا محمولاً على ذلك المقيد .

أما قوله إن هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع .

فنقول : أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه : فأما روايات المذاهب وتفاصيل الأقاويل ، فلا حاجة إليها ، وأما تفاصيل علم الفروع فنقول : للعلماء ههنا قولان : الأول : أنهم قالوا أن القرآن دل على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة في الشريعة فكل ما دل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة ، كان ذلك في الحقيقة موجوداً في القرآن ، وذكر الواحدي رحمه الله لهذا المعنى أمثلة ثلاثة :

المثال الأول : روي أن ابن مسعود كان يقول : مالي لا ألعن من لعنه الله في كتابه يعني الواشمة ، والمستوشمة ، والواصلة ، والمستوصلة ، وروي أن أمرأة قرأت جميع القرآن ، ثم أتته فقالت : يا ابن أم عبد ، تلوت البارحة ما بين الدفتين ، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة ، فقال : لو تلوتيه لوجدتيه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : 7] وإن مما أتانا به رسول الله أنه قال : " لعن الله الواشمة والمستوشمة " وأقول : يمكن وجدان هذا المعنى في كتاب الله بطريق أوضح من ذلك لأنه تعالى قال في سورة النساء : ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شيطانا مَّرِيداً لَّعَنَهُ الله ﴾ [النساء : 117 ، 118] فحكم عليه باللعن ، ثم عدد بعده قبائح أفعاله وذكر من جملتها قوله ﴿ وَلآمُرَنَّهُمْ فليغيرن خَلَقَ الله ﴾ [النساء : 119] وظاهر هذه الآية يقتضي أن تغيير الخلق يوجب اللعن .

المثال الثاني : ذكر أن الشافعي رحمه الله كان جالساً في المسجد الحرام فقال : "لا تسألوني عن شيء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى" فقال رجل : ما تقول في المحرم إذا قتل الزنبور ؟ فقال : "لا شيء عليه" فقال : أين هذا في كتاب الله ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ ﴾ ثم ذكر إسناداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي " ثم ذكر إسناداً إلى عمر رضي الله عنه أنه قال : للمحرم قتل الزنبور .

قال الواحدي : فأجابه من كتاب الله مستنبطاً بثلاث درجات ، وأقول : ههنا طريق آخر أقرب منه ، وهو أن الأصل في أموال المسلمين العصمة .

قال تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت ﴾ [البقرة : 286] وقال : ﴿ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أموالكم ﴾ [محمد : 36] وقال : ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ أموالكم بَيْنَكُمْ بالباطل إِلاَّ أَن تَكُونَ تجارة عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء : 29] فنهى عن أكل أموال الناس إلا بطريق التجارة فعند عدم التجارة وجب أن يبقى على أصل الحرمة ، وهذه العمومات تقتضي أن لا يجب على المحرم الذي قتل الزنبور شيء ، وذلك لأن التمسك بهذه العمومات يوجب

الحكم بمرتبة واحدة .

وأما الطريق الذي ذكره الشافعي : فهو تمسك بالعموم على أربع درجات : أولها : التمسك بعموم قوله ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : 7] وأحد الأمور الداخلة تحت هذا أمر النبي عليه السلام بمتابعة الخلفاء الراشدين ، وثانيها : التمسك بعموم قوله عليه الصلاة والسلام : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي " وثالثها : بيان أن عمر رضي الله عنه كان من الخلفاء الراشدين ، ورابعها : الرواية عن عمر أنه لم يوجب في هذه المسألة شيئاً ، فثبت أن الطريق الذي ذكرناه أقرب .

(232/231)

المثال الثالث : قال الواحدي : روي في حديث العسيف الزاني أن أباه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : اقض بيننا بكتاب الله فقال عليه السلام : " والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله " ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف ، وبالرجم على المرأة إن اعترفت .

قال الواحدي : وليس للجلد والتغريب ذكر في نص الكتاب ، وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو عين كتاب الله .

وأقول : هذا المثال حق ، لأنه تعالى قال : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] وكل ما بينه الرسول عليه السلام كان داخلاً تحت هذه الآية ، فثبت بهذه الأمثلة أن القرآن لما دل على أن الإجماع حجة ، وأن خبر الواحد حجة ، وأن القياس حجة ، فكل حكم ثبت بطريق من هذه الطرق الثلاثة ، كان في الحقيقة ثابتاً بالقرآن ، فعند هذا يصح قوله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ هذا تقرير هذا القول ، وهو الذي ذهب إلى نصرته جمهور الفقهاء .

(233/231)

ولقائل أن يقول : حاصل هذه الوجه أن القرآن لما دل على خبر الواحد والقياس حجة ، فكل حكم ثبت بأحد هذين الأصلين كان في الحقيقة قد ثبت بالقرآن إلا أنا نقول : حمل قوله ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ على هذا الوجه لا يجوز لأن قوله ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ ذكر في معرض تعظيم هذا الكتاب والمبالغة في مدحه والثناء عليه ، ولو حملنا هذه الآية على هذا المعنى لم يحصل منه ما يوجب التعظيم ، وذلك لأنا لو فرضنا أن الله تعالى قال : اعملوا بالإجماع وخبر الواحد والقياس ، كان المعنى الذي ذكروه حاصلاً من هذا اللفظ والمعنى الذي يمكن تحصيله من هذا اللفظ القليل لا يمكن جعله

واجباً لمدح القرآن والثناء عليه لسبب اشتمال القرآن عليه ، لأن هذا إنما يوجب المدح العظيم والثناء التام لو لم يمكن تحصيله بطريق آخر أشد اختصاراً منه ، فأما لما بينا أن هذا القسم المقصود يمكن حمله وتحصيله باللفظ المختصر الذي ذكرناه علمنا أنه لا يمكن ذكره في تعظيم القرآن ، فثبت أن هذه الآية مذكورة في معرض تعظيم القرآن ، وثبت أن المعنى الذي ذكروه لا يفيد تعظيم القرآن ، فوجب أن يقال ، إنه لا يجوز حمل هذه الآية على هذا المعنى ، فهذا أقصى ما يمكن أن يقال في تقرير هذا القول .

والقول الثاني : في تفسير هذه الآية قول من يقول : القرآن وافٍ ببيان جميع الأحكام وتقريره أن الأصل براءة الذمة في حق جميع التكليف ، وشغل الذمة لا بدّ فيه من دليل منفصل والتنصيص على أقسام ما لم يرد فيه التكليف ممتنع ، لأن الأقسام التي لم يرد التكليف فيها غير متناهية ، والتنصيص على ما لا نهاية له محال بل التنصيص إنما يمكن على المتناهي مثلاً لله تعالى ألف تكليف على العباد وذكره في القرآن وأمر محمداً عليه السلام بتبليغ ذلك الألف إلى العباد .

(234/231)

ثم قال بعده ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيءٍ ﴾ فكان معناه أنه ليس لله على الخلق بعد ذلك الألف تكليف آخر ، ثم أكد هذه الآية بقوله ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] وبقوله : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ [الإنعام : 59] فهذا تقرير مذهب هؤلاء ، والاستقصاء فيه إنما يليق بأصول الفقه ، والله أعلم .

ولنرجع الآن إلى التفسير ، فنقول : قوله ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ قال الواحدي ﴿ مِنْ ﴾ زائدة كقوله : ما جاء لي من أحد .

وتقريره ما تركنا في الكتاب شيئاً لم نبينه .

وأقول : كلمة ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض فكان المعنى ما فرطنا في الكتاب بعض شيء يحتاج المكلف إليه ، وهذا هو نهاية المبالغة في أنه تعالى ما ترك شيئاً مما يحتاج المكلف إلى معرفته في هذا الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 177 . 180 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ يقال : فرَّط في الشيء أي ضيَّعه وتركه ، قال ساعدة بن حُوَيَة :

معه سِقاءٌ لا يُفرِّط حملَه . . . أي لا يتركه ولا يفارقه ويقال : فرّط في الشيء أي أهمل ما ينبغي أن يكون فيه وأغفله فقوله تعالى : ﴿ فِى الكتاب ﴾ أي في القرآن على الأول ظرفُ لغوٍ ، وقوله تعالى : ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ مفعولٌ لفرّطنا و(من) مزيدة للاستغراق أي ما تركنا

في القرآن شيئاً من الأشياء المُهمّة التي من جملتها بيانُ أنه تعالى مراعٍ لمصالحِ جميعِ مخلوقاته على ما ينبغي ، وعلى الثاني مفعول للفعل ومن شيء في موضع المصدر ، أي ما جعلنا الكتاب مفرّطاً فيه شيئاً من التفريط بل ذكرنا فيه كلَّ ما لا بد من ذكره . وأياً ما كان فالجملةُ اعتراضٌ مقرّرٌ لمضمون ما قبلها ، وقيل : الكتابُ اللوْح ، فالمراد بالاعتراضِ الإشارة إلى أن أحوالَ الأمم مستقصاةٌ في اللوح المحفوظ غيرُ مقصورة على هذا القدر المُجمل ، وقرىء فَرَطنا بالتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(235/231)

فائدة

قال ابن القيم :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

(236/231)

وقد اختلف في الكتاب ههنا هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ على قولين فقالت طائفة المراد به القرآن وهذا من العام المراد به الخاص أي ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه كقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ويجوز أن يكون من العام المراد به عمومه والمراد أن كل شيء ذكر فيه مجملا ومفصلا كما قال ابن مسعود: "وقد لعن الواصلة والمستوصلة ما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه فقالت امرأة لقد قرأت القرآن فما وجدته فقال إن كنت قرأتيه فقد وجدته قال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواصلة والمستوصلة" وقال الشافعي ما نزل بأحد من المسلمين نازلة إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها وقالت طائفة المراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء وهذا إحدى الروايتين عن ابن عباس وكان هذا القول أظهر في الآية والسياق يدل عليه فإنه قال: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول وأنها لم تخلق سدى بل هي معبدة مذللة قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها ثم قال إلى ربهم يحشرون فذكر مبدأها ونهايتها وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول ، ولمن نصر القول الأول أن يجيب عن هذا بأن

في ذكر القرآن ههنا الإخبار عن تضمنه لذكر ذلك والإخبار به فلم نفرط فيه من شيء بل أخبرناكم بكل ما كان وما هو كائن إجمالا وتفصيلا ويرجحه أمر آخر وهو أن هذا ذكر عقيب قوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ

(237/231)

مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فنبههم على أعظم الآيات وأدلها على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الكتاب الذي يتضمن بيان كل شيء ولم يفرط فيه من شيء ثم نبههم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السماوات والأرض وهذا يتضمن التعريف بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه وسعة ملكه وكثرة جنوده والأمم التي يحصيها غيره وهذا يتضمن أنه لا إله غيره ولا رب سواه وأنه رب العالمين فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره وإنزال الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه فهذا استدلال بأمره وذاك بخلقه: ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وشهد لهذا أيضا قوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ولمن نصر إن المراد بالكتاب اللوح

المحفوظ أن يقول لما سألوا آية أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك فإنه قادر على ذلك وإنما لم ينزلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم أذلوا أنزلها على وفق اقتراحهم لعوجلوا بالعقوبة أن لم يؤمنوا ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة التي لا يحصي عددها إلا هو فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها كيف يعجز عن إنزال آية ثم أخبر عن كمال قدرته وعلمه بأن هؤلاء الأمم قد أحصاهم وكتبهم وقدر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم في كتاب لم يفرط فيه من شيء ثم يميتهم ثم يحشرهم إليه والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات عن النظر والاعتبار الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته ووحدانيته وصدق

(238/231)

رسله ثم أخبر أن الآيات لا تستقل بالهدى ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر بل الأمر كله له من يشأ يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم فهو أظهر القولين والله أعلم .

أهـ ﴿ شفاء العليل صـ 40. 41 ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ فالمعنى أنه تعالى يحشر الدواب والطيور يوم القيامة .

ويتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 5] وبما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقتص للجماء من القرناء " وللعقلاء فيه قولان :

القول الأول : أنه تعالى يحشر البهائم والطيور لإيصال الأعواض إليها وهو قول المعتزلة .

وذلك لأن إيصال الآلام إليها من سبق جناية لا يحسن إلا للعوض ، ولما كان إيصال العوض إليها واجباً ، فالله تعالى يحشرها ليوصل تلك الأعواض إليها .

والقول الثاني : قول أصحابنا أن الإيجاب على الله محال ، بل الله تعالى يحشرها بمجرد الإرادة والمشيئة ومقتضى الإلهية .

(239/231)

واحتجوا على أن القول بوجوب العوض على الله تعالى محال باطل بأمور :

الحجة الأولى : أن الوجوب عبارة عن كونه مستلزماً للذم عند الترك وكونه تعالى مستلزماً للذم محال ، لأنه تعالى كامل لذاته والكامل لذاته لا يعقل كونه مستلزماً للذم بسبب أمر منفصل ، لأن ما بالذات لا يبطل عند عروض أمر من الخارج .

والحجة الثانية : أنه تعالى مالك لكل المحدثات ، والمالك يحسن تصرفه في ملك نفسه من غير حاجة إلى العوض .

والحجة الثالثة : أنه لو حسن إيصال الضرر إلى الغير لأجل العوض ، لوجب أن يحسن منا إيصال المضار إلى الغير لأجل التزام العوض من غير رضاه وذلك باطل ، فثبت أن القول بالعوض باطل . والله أعلم .

إذا عرفت هذا : فلنذكر بعض التفاريع التي ذكرها القاضي في هذا الكتاب .

الفرع الأول : قال القاضي : كل حيوان استحق العوض على الله تعالى بما لحقه من الآلام ، وكان ذلك العوض لم يصل إليه في الدنيا ، فإنه يجب على الله حشره عقلاً في الآخرة ليوفر عليه ذلك العوض والذي لا يكون كذلك فإنه لا يجب حشره عقلاً ، إلا أنه تعالى أخبر أنه يحشر الكل ، فمن حيث السمع يقطع بذلك .

وإنما قلنا أن في الحيوانات من لا يستحق العوض ألبتة ، لأنها ربما بقيت مدة حياتها مصونة عن الآلام ثم إنه تعالى يميتها من غير إيلام أصلاً .

فإنه لم يثبت بالدليل أن الموت لا بدّ وأن يحصل معه شيء من الإيلام ، وعلى هذا التقدير فإنه لا يستحق العوض ألبتة .

الفرع الثاني : كل حيوان أذن الله تعالى في ذبحه فالعوض على الله .

وهي أقسام : منها ما أذن في ذبحها لأجل الأكل ومنها ما أذن في ذبحها لأجل كونها مؤذية ،

مثل السباع العادية والحشرات المؤذية ، ومنها آلمها بالأمراض ، ومنها ما أذن الله في حمل الأحمال الثقيلة عليها واستعمالها في الأفعال الشاقة وأما إذا ظلمها الناس فذلك العوض على ذلك الظالم وإذا ظلم بعضها بعضاً فذلك العوض على ذلك الظالم .

فإن قيل : إذا ذبح ما لا يؤكل لحمه على وجه التذكية فعلى من العوض ؟

(240/231)

أجاب بأن ذلك ظلم والعوض على الذابح ، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذبح الحيوان إلا لمأكلة .

الفرع الثالث : المراد من العوض منافع عظيمة بلغت في الجلالة والرفعة إلى حيث لو كانت هذه البهيمة عاقلة وعلمت أنه لا سبيل لها إلى تحصيل تلك المنفعة إلا بواسطة تحمل ذلك الذبح فإنها كانت ترضى به ، فهذا هو العوض الذي لأجله يحسن الإيلام والأضرار .

الفرع الرابع : مذهب القاضي وأكثر معتزلة البصرة أن العوض منقطع .

قال القاضي : وهو قول أكثر المفسرين ، لأنهم قالوا إنه تعالى بعد توفير العوض عليها يجعلها تراباً ، وعند هذا يقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً .

قال أبو القاسم البخلي : يجب أن يكون العوض دائماً واحتج القاضي على قوله بأنه يحسن

من الواحد منا أن يلتزم عملاً شاقاً والأجرة منقطعة ، فعلمنا أن إيصال الألم إلى الغير غير مشروط بدوام الأجرة .

واحتج البلخي على قوله ، بأن قال : إنه لا يمكن قطع ذلك العوض إلا بإماتة تلك البهيمة ، وإماتتها توجب الألم وذلك الألم يوجب عوضاً آخر ، وهكذا إلى ما لا آخر له .

والجواب عنه : أنه لم يثبت بالدليل أن الإماتة لا يمكن تحصيلها إلا مع الإيلام .

والله أعلم .

الفرع الخامس : أن البهيمة إذا استحقت على بهيمة أخرى عوضاً ، فإن كانت البهيمة الظالمة قد استحقت عوضاً على الله تعالى فإنه تعالى ينقل ذلك العوض إلى المظلوم .

وإن لم يكن الأمر كذلك فالله تعالى يكمل ذلك العوض ، فهذا مختصر من أحكام الأعواض على قول المعتزلة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 180 . 181 ﴾

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ بيانٌ لأحوال الأمم المذكورة في الآخرة بعد بيان أحوالها في الدنيا . وإيرادُ ضميرها على صيغة جمع العقلاء لإجرائها مُجراهم ، والتعبير عنها بالأمم أي إلى مالك أمورهم يحشرون يوم القيامة كدأبكم لا إلى غيره فيجازيهم فيُنصِفُ بعضَهم من بعض حتى يبلُغ من عدله أن يأخذ للجّماءِ من القَرْناء . وقيل :

حشرُها موتها . ويأباه مقامُ تهويلِ الخطب وتفظيعِ الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(241/231)

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ فذكر الجناحين للتأكيد لأنه يقال : طار في الأمر إذا أسرع فيه ، فإذا ذكر الجناحين صار تأكيداً له .

وقرأ بعضهم ﴿ وَلاَ طَائِرٌ ﴾ بالضم لأن معناه : وما دابةٌ في الأرض ولا طائرٌ لأن ﴿ مِنْ ﴾ زيادة ، فيكون الطائر عطفاً ورفعاً وهي قراءة شاذة .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ في الخلق ، والموت ، والبعث ، تعرف بأسمائهم ﴿ مَّا فَرَّطْنَا ﴾ يقول : ما تركنا ﴿ فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ يعني : في اللوح المحفوظ مما يحتاج إليه الخلق إلا قد بيّناه .

ويقال : في القرآن قد بيّن كل شيء يحتاج إليه ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ يعني : الدواب والطير ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾ ثم يصيرون تراباً .

وروى جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال : يَحْشُرُ الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة والبهائم والدواب والطيور وكل شيء ، فيبلغ من عدله أن يأخذ للجمَّاء من القرناء ، ثم يقول : كوني تراباً .

وعن أبي ذر قال : انتطحت شاتان عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أَبَا ذَرَ هَلْ تَدْرِي فِيمَا انْتَطَحَتَا " ؟ قلت : لا قال : " لكن الله تَعَالَى يَدْرِي فَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا " وقال بعضهم : هذا على وجه المثل لأنه لا يجري عليهم القلم فلا يجوز أن يؤاخذوا به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا من دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ ﴾ دابة بمعنى ما يدب على الأرض من حيوان كله .

﴿ وَلاَ طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ يعني في الهواء ، جميع بين ما هو على الأرض وفيها وما ارتفع عنها .

﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ في الأمم تأويلان :

أحدهما : أنها الجماعات .

والثاني : أنها الأجناس ، قاله الفراء .

وليس يريد بقوله : ﴿ أَمْثَالُكُم ﴾ في التكليف كما جعل قوم اشتبه الظاهر عليهم وتعلقوا مع اشتباه الظاهر برواية أبي ذر ، قال : انتطحت شاتان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا أبا ذر أتدري فيم انتطحتا ؟ قلت : لا ، قال : " لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا " قال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكّرنا منه علماً ، لأنه إذا كان العقل سبباً للتكليف كان عدمه لارتفاع التكليف .

والمراد بقوله : ﴿ أَمْثَالُكُم ﴾ وجهان :

أحدهما : أنها أجناس وتتميز في الصور والأسماء .

والثاني : أنها مخلوقة لا تُظْلَم ، ومرزوقة لا تُحْرَم .

ثم قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : ما تركنا خلقاً إلا أوجبنا له أجلاً ، والكتاب هنا هو إيجاب الأجل كما قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38] قاله ابن بحر وأنشد لنابغة بني جعدة :

بلغوا الملوك وأدركوا ال . . . كتاب وانتهى الأجل

والتأويل الثاني : وهو قول الجمهور : أن الكتاب هو القرآن الكريم الذي أنزله ، ما أخل فيه

بشيء من أمور الدين ، إما مُفَصَّلاً يَسْتَغْنِي عن التفسير ، أو مجْمَلاً جعل إلى تفسيره سبيلاً .

يحتمل تأويلاً ثالثاً : ما فرطنا فيه بدخول خلل عليه ، أو وجود نقص فيه ، فكتاب الله سليم من النقص والخلل .

﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن المراد بالحشر الموت ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن الحشر الجمع لبعث الساعة .

(243/231)

فإن قيل : فإذا كانت غير مُكَلَّفَةٍ فلماذا تبعث يوم القيامة ؟ قيل : ليس التكليف علة البعث ، لأن الأطفال والمجانين يبعثون وإن كانوا في الدنيا غير مكلفين ، وإنما يبعثها ليعوض ما استحق العوض منها بإيلام أو ظلم ، ثم يجعل ما يشاء منها تراباً ، وما شاء من دواب الجنة يتمتع المؤمنون بركوبه ورؤيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الثعلبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ على التأكيد ، كما يقال : أخذت بيدي ، مشيت برجلي ونظرت بعيني .

﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ يعني بعضهم من بعض والناس أمة والطير أمة والسباع أمة والدواب أمة ، وقيل : إلاّ أمم أمثالكم جماعات أمثالكم .

وقال عطاء : أمثالكم في التوحيد [ومعرفة اللّه] وقيل : إلاّ أمم أمثالكم في التصور والتشخيص ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس ، والضحّاك : حشرها : موتها .

وقال أبو هريرة : في هذه الآية يحشر اللّه الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عذاب اللّه يومئذ أن يأخذ الجماء من القرناء ثم يقول : كوني تراباً فعند ذلك ﴿ وَيَقُولُ الكافر يا ليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ [النبأ : 40] .

وقال عطاء : فإذا رأوا بني آدم وما فيه من الجزية ، قلت الحمد للّه الذي لم يجعلنا مثلكم فلا جنة نرجو ولا ناراً نخاف ، فيقول اللّه عز وجل لهم كونوا تراباً فحينئذ يتمنى الكافر أن يكون تراباً .

وعن أبي ذر قال : " بينا أنا عند رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذ انتطحت عنزان فقال

النبي صلى الله عليه وسلم " أتدرون فيما إنتطحا " قالوا : لا ندري ، قال : لكن اللّه يدري ويقضي بينهما " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(244/231)

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وما من دابَّة في الأرض ﴾ قال ابن عباس : يريد كل ما دبَّ على الأرض .

قال الزجاج : وذكر الجناحين توكيد ، وجميع ما خُلق لا يخلو إما أن يدبَّ وإما أن يطير .

قوله تعالى : ﴿ إلا أُمم أمثالكم ﴾ قال مجاهد : أصناف مصنفة .

وقال أبو عبيدة : أجناس يعرفون الله ويعبدونه .

وفي معنى "أمثالكم" أربعة أقوال .

أحدها : أمثالكم في كون بعضها يفقه عن بعض ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : في معرفة الله ، قاله عطاء .

والثالث : أمثالكم في الخلق والموت والبعث ، قاله الزجاج .

والرابع : أمثالكم في كونها تطلب الغذاء ، وتبتغي الرزق ، وتتوقَّى المهالك ، قاله ابن قتيبة .

قال ابن الانباري : وموضع الاحتجاج من هذه الآية أن الله تعالى ركَّب في المشركين عقولاً ، وجعل لهم أفهاما ألزمهم بها أن يتدبَّروا أمر النبي صلى الله عليه وسلم ويتمسكوا بطاعته ، كما جعل للطير أفهاما يعرف بها بعضها إشارة بعض ، وهدى الذَّكَرَ منها لإتيان الأنثى ، وفي كل ذلك دليل على نفاذ قدرة المركب ذلك فيها .

قوله تعالى : ﴿ ما فرَّطنا في الكتاب من شيء ﴾ في الكتاب قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ .

روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس : ما تركنا شيئًا إلا وقد كتبناه في أم الكتاب ، وإلى هذا المعنى ذهب قتادة ، وابن زيد .

والثاني : أنه القرآن ، روى عطاء عن ابن عباس : ما تركنا من شيء إلا وقد بيناه لكم .

فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص ، فيكون المعنى : ما فرطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا وبيناه في الكتاب ، إما نصاً ، وإما مجملاً ، وإما دلالة ، كقوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تِبياناً لكل شيء ﴾ [النحل : 89] أي : لكل شيء يحتاج إليه في أمر الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(245/231)

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأرض ﴾ تدب على وجهها . ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ في الهواء ، وصفه به قطعاً لمجاز السرعة ونحوها . وقرىء "ولا طائر" بالرفع على المحل . ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها وآجالها ، والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية . وجمع الأمم للحمل على المعنى . ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ ، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من الجليل والدقيق لم يهمل فيه أمر ، حيوان ولا جماد . أو القرآن فإنه قد دون فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً ، ومن مزيدة وشيء في موضع المصدر لا بالمفعول به ، فإن فرط لا يتعدى بنفسه وقد عدي بفي إلى الكتاب . وقرىء ﴿ مَّا فَرَّطْنَا ﴾ بالتخفيف . ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ يعني الأمم كلها فينصف بعضها من بعض كما روي : أنه يأخذ للجماء من القرناء . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : حشرها موتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 407.406 ﴾

ومن فوائد النسفى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ هي اسم لما يدب وتقع على المذكر والمؤنث ﴿ فِي الأرض ﴾ في موضع جر صفة ل ﴿ دَآبَّةٍ ﴾ ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ قيد الطيران بالجناحين لنفي المجاز لأن غير الطائر قد يقال فيه طار إذا أسرع ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ في الخلق والموت والبعث والاحتياج إلى مدبر يدبر أمرها ﴿ مَّا فَرَّطْنَا ﴾ ما تركنا ﴿ فِي الكتاب ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت ، أو الكتاب القرآن .

(246/231)

وقوله ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من شيء يحتاجون إليه فهو مشتمل على ما تعبدنا به عبارة وإشارة ودلالة واقتضاء ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ يعني الأمم كلها من الدواب والطيور فينصف بعضها من بعض كما رُوي أنه يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول : كوني تراباً .

وإنما قال ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ ﴾ مع إفراد الدابة والطائر لمعنى الاستغراق فيهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 11 ﴾

ومن فوائد ابن جزى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ تأكيد وبيان وإزالة للاستعارة المتعاهدة في هذه اللفظة ، فقد يقال : طائر للسعد والنحس ﴿ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي في الخلق والرزق ، والحياة والموت ، وغير ذلك ، ومناسبة ذكر هذا لما قبله من وجهين : أحدهما أنه تنبيه على مخلوقات الله تعالى ، فكأنه يقول : تفكروا في مخلوقاته ، ولا تطلبوا غير ذلك من الآيات ، والآخر : تنبيه على البعث ، كأنه يقول : جميع الدواب والطير يحشر يوم القيامة كما تحشرون أنتم ، وهو أظهر لقوله بعده : ثم إلى ربهم يحشرون ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ ﴾ أي ما غفلنا ، والكتاب هنا هو اللوح المحفوظ ، والكلام على هذا عام ، وقيل : هو القرآن والكلام على هذا خاص : أي ما فرطنا فيه من شيء فيه هدايتكم ، والبيان لكم ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أي تبعث الدواب والطيور يوم القيامة للجزاء والفصل بينها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 8 ﴾

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ الدابة من دبّ يدبّ فهو داب : إذا مشى مشياً فيه تقارب خطو .

وقد تقدّم بيان ذلك في البقرة ﴿ وَلاَ طَائِرٍ ﴾ معطوف على ﴿ دَابَّةٍ ﴾ مجرور في قراءة الجمهور .

وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق " وَلاَ طَائِرٍ " بالرفع عطفاً على موضع من دابة على تقدير زيادة من ، و﴿ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ لدفع الإبهام ؛ لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير ، كقولهم : طر في حاجتي : أي أسرع .

وقيل : إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران ، ومع عدم الاعتدال يميل ، فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين .

وقيل : ذكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينيه .

والجناح : أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء ، وأصله : الميل إلى ناحية من النواحي .

والمعنى : ما من دابة من الدواب التي تدبّ في أيّ مكان من أمكنة الأرض ، ولا طائر يطير في أيّ ناحية من نواحيها ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ أي جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم ، ورزقهم كما رزقكم داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء .

وقيل : أمثالنا في ذكر الله والدلالة عليه .

وقيل : أمثالنا في كونهم محشورين ، روى ذلك عن أبي هريرة .

وقال سفيان بن عيينة : أي ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه ، فمنهم من يعدو كالأسد ، ومنهم من يشره كالخنزير ، ومنهم من يعوي كالكلب ، ومنهم من يزهو كالطاوس .

وقيل : أمثالكم في أن لها أسماء تعرف بها ، وقال الزجاج أمثالكم في الخلق والرزق ، والموت ، والبعث ، والاقتصاص .

والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائناً ما كان .

قوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ أي : ما أغفلنا عنه ولا ضيعنا فيه من شيء .

والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، فإن الله أثبت فيه جميع الحوادث .

(248/231)

وقيل إن المراد به القرآن ، أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين إما تفصيلاً أو إجمالاً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَانًا لّكُلّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : 89] ، وقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] ، ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله : ﴿ مَا آتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7

] فأمر في هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكل حكم سنه الرسول لأمته قد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز ، بهذه الآية وبنحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتبعونى ﴾ [آل عمران : 31] وبقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] ، "ومن" في ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ مزيدة للإستغراق .

قوله : ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ يعني : الأمم المذكورة ، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم ، وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء ، ومنهم أبو ذرّ ، وأبو هريرة ، والحسن ، وغيرهم .

وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها ، وبه قال الضحاك .

والأوّل أرجح للآية ، ولما صح في السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ، ولقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 5] : وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر المذكور في الآية حشر الكفار ، وما تخلل كلام معترض .

قالوا : وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص .

واستدلوا أيضاً بأن في هذا الحديث خارج الصحيح عن بعض الرواة زيادة ، ولفظه "حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء ، وللحجر لم ركب على الحجر ؟ والعود لم خدش العود ؟"

قالوا : والجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(249/231)

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ وما من دابة ﴾ الآية ، المعنى في هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته ، أي قل لهم إن الله قادر على أن ينزل آية إلا أنكم لا تعلمون وجه الحكمة في أن لا ينزل آية مجهزة وإنما يحيل على الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب والطير التي قد حصرت جميع الحيوان ، وهي أمم أي جماعات مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر ، ويحتمل أن يريد بالمماثلة أنها في كونها أمماً لا غير كما تريد بقولك مررت برجل مثلك أي في رجل ، ويصح في غير ذلك من الأوصاف إلا أن الفائدة في هذه الآية ، إنما تقع بأن تكون المماثلة في أوصاف غير كونها أمماً ، قال الطبري وغيره : والمماثلة في أنها يهتبل بأعمالها وتحاسب ويقتص لبعضها من بعض ما روي في الأحاديث ، أي : فإذا كان يفعل هذا بالبهائم فأنتم أحرى إذ أنتم مكلفون عقلاء وروى أبو ذر أنه انتطحت عنزان بحضرة

النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أتعلمون فيم انتطحتا ؟ قلنا لا : قال : فإن الله يعلم وسيقضي بينهما ، وقد قال مكي في المماثلة في أنها تعرف الله تعلى وتعبده ، وهذا قول خلف و﴿ دابة ﴾ وزنها فاعلة وهي صفة وضعت موضع الاسم كما قالوا الأعرج والأبرق ، وأزيل منه معنى الصفة وليست بالصفة الغالبة في قولنا العباس والحارث لأن معنى الصفة باق في الصفة الغالبة ، وقرأت طائفة " ولا طائرِ " عطفاً على اللفظ وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة " ولا طائرٌ " بالرفع عطفاً على المعنى ، وقرأت فرقة " ولا طير " وهو جمع " طائر " وقوله : ﴿ بجناحيه ﴾ تأكيد وبيان وإزالة للاستعارة المتعاهدة في هذه اللفظة فقد يقال " طائر " السعد والنحس .

(250/231)

وقوله تعالى : ﴿ ألزمناه طائره في عنقه ﴾ أي عمله ، ويقال : " طار لفلان طائر " كذا أي سهمه في المقتسمات ، فقوله تعالى ﴿ بجناحيه ﴾ إخراج للطائر عن هذا كله ، وقرأ علقمة وابن هرمز " فرَطنا في الكتاب " بتخفيف الراء والمعنى واحد ، وقال النقاش معنى " فرطنا " مخففة أخرنا كما قالوا فرط الله عنك المرض أي أزاله ، والأول أصوب ، والتفريط التقصير في الشيء مع القدرة على ترك التقصير والكتاب القرآن وهو الذي يقتضيه نظام

المعنى في هذه الآيات ، وقيل اللوح المحفوظ ، ومن شيء على هذا القول عام في جميع الأشياء ، وعلى القول بأنه قرآن خاص في الأشياء التي فيها منافع للمخاطبين وطرائق هدايتهم ، و﴿ يحشرون ﴾ قالت فرقة حشر البهائم موتها ، وقالت فرقة حشرها بعثها ، واحتجوا بالأحاديث المضمنة أن الله تعالى يقتص للجماء من القرناء ، إنما هي كناية عن العدل وليست بحقيقة فهو قول مردود ينحو إلى القول بالرموز ونحوها .

كأنه قال وما من دابة ولا طائر ولا شيء إلا فيه آية منصوبة على وحدانية الله تعالى ، ولكن الذين كذبوا صم وبكم لا يتلقون ذلك ولا يقبلونه ، وظاهر الآية أنها تعم كل مكذب ، وقال النقاش نزلت في بني عبد الدار .

قال القاضي أبو محمد : ثم انسحبت على سواهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(251/231)

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض ﴾ تقدّم معنى الدابة والقول فيه في "البقرة" وأصله

الصفة ؛ من دَبّ يَدِبّ فهو دابّ إذا مشى مشياً فيه تَقَارُب خَطْو .

﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ بخفض "طائرٍ" عطفاً على اللفظ .

وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق "وَلاَ طَائِرٌ" بالرفع عطفاً على الموضع ، و"مِن" زائدة التقدير : وما دابةٌ .

"بِجَنَاحَيْهِ" تأكيد وإزالة للإبهام ؛ فإن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر ، تقول للرجل : طِرْ في حاجتي ؛ أي أَسرِعْ ؛ فذَكَر "بجناحيه" ليتمحض القول في الطير ، وهو في غيره مجاز .

وقيل : إن اعتدال جَسَد الطائر بين الجناحين يعِينه على الطيران ، ولو كان غير معتدل لكان يميل ؛ فأعلمنا أن الطيران بالجناحين و﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله ﴾ [النحل : 79] .

والجناح أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء ، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي ؛ ومنه جَنَحت السفينة إذا مالت إلى ناحية الأرض لاصقة بها فوقفت .

وطائر الإنسان عمله ؛ وفي التنزيل ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] .

﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي هم جماعات مثلكم في أن الله عز وجل خلقهم ، وتَكفّل بأرزاقهم ، وعدَل عليهم ، فلا ينبغي أن تظلموهم ، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به .

و"دابة" تقع على جميع ما دبّ ؛ وخص بالذكر ما في الأرض دون السماء لأنه الذي يعرفونه ويعاينونه .

وقيل : هي أمثال لنا في التسبيح والدلالة ؛ والمعنى : وما من دابة ولا طائِرٍ إلا وهو يسبّح الله تعالى ، ويدل على وحدانيته لو تأمل الكفار .

وقال أبو هُريرة : هي أمثال لنا على معنى أنه يحشر البهائم غداً ويقتص للجّماء من القَرْنَاء ثم يقول الله لها : كوني تراباً .

وهذا اختيار الزجاج فإنه قال : ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص ، وقد دخل فيه معنى القول الأول أيضاً .

وقال سُفيان بن عُيْينة : أي ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه ؛ فمنهم من يعدو كالأسد ، ومنهم من يَشْرَه كالخنزير ، ومنهم من يعوي كالكلب ، ومنهم من يزهو كالطاوس ؛ فهذا معنى المماثلة .

(252/231)

واستحسن الخَطَّابي هذا وقال : فإنك تعاشر البهائم والسباع فخذ حِذْرك .

وقال مجاهد في قوله عز وجل : ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ قال : أصناف لهن أسماء تُعرف بها كما تُعرَفون .

وقيل غير هذا مما لا يصح من أنها مثلنا في المعرفة ، وأنها تُحشر وتنعم في الجنة ، وتعوّض من

الآلام التي حلت بها في الدنيا وأن أهل الجنة يستأنسون بصورهم ؛ والصحيح ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ في كونها مخلوقة دالة على الصانع محتاجة إليه مرزوقة من جهته ، كما أن رزقكم على الله .

وقول سفيان أيضاً حسن ؛ فإنه تشبيه واقع في الوجود .

قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ أي في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث .

وقيل : أي في القرآن أي ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دَلَلْنَا عليه في القرآن ؛ إما دلالة مبينة مشروحة ، وإما مجملة يُتَلَقّى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو من الإجماع ، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] وقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] وقال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] فأجمل في هذه الآية وآية "النحل" ما لم ينص عليه مما لم يذكره ، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره إما تفصيلاً وإما تأصيلاً ؛ وقال : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] .

(253/231)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أي للجزاء ، كما سبق في خبر أبي هُريرة ، وفي صحيح مسلم عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القَرْناء " ودَلّ بهذا على أن البهائم تحشر يوم القيامة ؛ وهذا قول أبي ذر وأبي هريرة والحسن وغيرهم ، ورُوي عن ابن عباس ؛ قال ابن عباس في رواية : حشْرُ الدوابّ والطيْر موتُها ؛ وقاله الضحاك ؛ والأول أصح لظاهر الآية والخبر الصحيح ، وفي التنزيل ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 5] وقول أبي هُريرة فيما روى جعفر بن بِرقان عن يزيد بن الأصم عنه : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم والدواب والطير وكل شيء ؛ فيبلغ من عدل الله تعالى يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول : "كُونِي تُرَاباً" فذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ [النبأ : 40] .

وقال عطاء : فإذا رأوا بني آدم وما هم عليه من الجَزَع قلن : الحمد لله الذي لم يجعلنا مثلكم ، فلا جنة نرجو ولا نار نخاف ؛ فيقول الله تعالى لهن : "كُنَّ تُرَاباً" فحينئذٍ يتمنى الكافر أن يكون تُراباً .

وقالت جماعة : هذا الحشر الذي في الآية يرجع إلى الكفار وما تَخلّل كلامٌ معتَرضٌ وإقامة حُجج ؛ وأما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه ، وأنه لا محيص له عنه ؛ وعضدوا هذا بما في الحديث في غير الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فقال : حتى يُقاد للشاة الجَلْحاء من القَرْناء ، وللحجر لما رَكِب على الحجر ، وللعود لما خدَش العود : قالوا : فظهر من هذا أن المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل ، لأن الجمادات لا يُعقَل خطابها ولا ثوابُها ولا عقابُها ، ولم يصر إليه أحد من العقلاء ، ومتخيلة من جملة المعتوهين الأغبياء ؛ قالوا : ولأن القلم لا يجري عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا .

قلت : الصحيح القول الأوّل لما ذكرناه من حديث أبي هريرة ، وإن كان القلم لا يجرى عليهم في الأحكام ولكن فيما بينهم يؤاخذون به ؛ وروي عن أبي ذر قال : " انتطحت شاتان عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا أبا ذرٍّ هل تدري فيما انتطحتا" ؟ قلت : لا .

قال : "لكن الله تعالى يدري وسيقضي بينهما" " وهذا نص ، وقد زدناه بياناً في كتاب "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾

قال ابن الأنباري وموضع الاحتجاج من هذه الآية أن الله ركب في المشركين عقولاً وجعل لهم أفهاماً ألزمهم بها أن يتدبروا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما جعل للدّواب والطير أفهاماً يعرف بها بعضها إشارة بعض ، وهدى الذَّكر منها لإتيان الأنثى ، وفي ذلك دليل على نفاذ قدرة المركب ذلك فيها .

وقال ابن عطية : المعنى في هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته .

(255/231)

وقال الزمخشري : فإن قلت : فما الغرض في ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف ، وهو لما لها وما عليها مهيمنٌ على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ليسوا مخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان انتهى .

والذي يظهر أنه تعالى لما حكى عن هؤلاء قولهم ﴿ لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ ولم يعتبروا ما نزل من الآيات وأجيبوا بأن القدرة صالحة لإنزال آية وهي التي اقترحتموها ونبهوا على

جهلهم حيث فرقوا بين آية وآية أخبروا أنهم أنفسهم وجميع الحيوان غيرهم متماثلون في تعلق القدرة الإلهية بالجميع ، فلا فرق بين خلق من كُلِّف وما لم يكلَّف في تعلق القدرة بهما وإبرازهما من صرف العدم إلى صرف الوجود ، فكأنه قيل القدرة تعلقت بالآيات كلها مقترحها وغير مقترحها كما تعلقت بخلقكم وخلق سائر الحيوان ، فالإمكان هو الجامع بين كل ذلك ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ يعني في تعلق القدرة بإيجادها كتعلقها بإيجادكم .

وكذلك الآيات .

وفي ذلك إشارة إلى أن الآيات الواردة على أيدي الأنبياء عليهم السلام قد تكون باختراع أعيان ، كالماء الذي نبع من بين الأصابع والطعام الذي تكثر من قليل ، كما أن المخلوقات هي أعيان مخترعة لله تعالى ، وكأن النسبة بمماثلة الحيوان للإنسان دون ذكر الجماد ودون ذكر ما يعمها من حيث قسوة المماثلة في الشعور بالأشياء والاهتداء إلى كثير من المصالح بخلاف الجماد ، وإن كانت القدرة متعلقة بجميع المخلوقات ودابة تقدّم شرحها ، وهي هنا في سياق النفي مصحوبة بمن التي تفيد استغراق الجنس ، فهي عامّة تشمل كل ما يدبّ فيندرج فيها الطائر ، فذِكْرُ الطائر بعد ذكر الدابة تخصيص بعد تعميم وذكْرُ بعضٍ من كلٍّ وصار من باب التجريد كقوله : ﴿ وجبريل وميكال ﴾ بعد ذكر الملائكة .

وإنما جرد الطائر لأن تصرفه في الوجود دون غيره من الحيوان أبلغ في القدرة وأدل على عظمها من تصرف غيره من الحيوان في الأرض ، إذ الأرض جسم كثيف يمكن تصرف الأجرام عليها ، والهواء جسم لطيف لا يمكن عادة تصرف الأجرام الكثيفة فيها إلا بباهر القدرة الإلهية ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهنّ إلا الله ﴾ وجاء قوله في الأرض إشارة إلى تعميم جميع الأماكن لما كان لفظ ﴿ من دابة ﴾ وهو المتصرف أتى بالمتصرف فيه عاماً وهو الأرض ، ويشمل الأرض البر والبحر ، ويطير بجناحيه تأكيد لقوله ﴿ ولا طائر ﴾ لأنه لا طائر إلا يطير بجناحيه ، وليرفع المجاز الذي كان يحتمله قوله ﴿ ولا طائر ﴾ لو اقتصر عليه ، ألا ترى إلى استعارة الطائر للعمل في قوله : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ وقولهم : "طار لفلان كذا في القسمة" أي سهمه ، و"طائر السعد والنحس" وفيه تنبيه على تصور هيئته على حالة الطيران واستحضار لمشاهدة هذا الفعل الغريب .

وجاء الوصف بلفظ "يطير" لأنه مشعر بالديمومة والغلبة ، لأن أكثر أحوال الطائر كونه يطير ، وقلَّ ما يسكن ، حتى إن المحبوس منها يكثر وُلُوعه بالطيران في المكان الذي حبس فيه من قفص وغيره .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ ولا طائر ﴾ بالرفع ، عطفاً على موضع ﴿ دابة ﴾ .

وجوزوا أن يكون ﴿ في الأرض ﴾ في موضع رفع صفة على موضع ﴿ دابة ﴾ ، وكذلك يقتضي أن يكون ﴿ يطير ﴾ ويتعين ذلك في قراءة ابن أبي عبلة ، والباء في ﴿ بجناحيه ﴾ للاستعانة كقوله : ﴿ كتبت بالقلم ﴾ و ﴿ إلا أممٍ ﴾ هو خبر المبتدأ الذي هو ﴿ من دابة ﴾ ﴿ ولا طائر ﴾ وجمع الخبر وإن كان المبتدأ مفرداً حملاً على المعنى لأن المفرد هنا للاستغراق والمثلية هنا .

قال الزمخشري أمثالكم مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم انتهى .

وقال ابن عطية مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر .

(257/231)

وقال الطبري وغيره وهو مرويٌّ عن أبي هريرة واختيار الزجاج المماثلة في أنها تجازى بأعمالها وتحاسب ويقتص لبعضها من بعض ، على ما روي في الأحاديث .

وقال مكيّ في أنها تعرف الله تعالى وتعبده .

وهذا قول أبي عبيدة ، قال معناه إلا أجناس يعرفون الله ويعبدونه .

ونقله الواحدي عن ابن عباس أن المماثلة حصلت من حيث إنهم يعرفون الله ويوحدونه

ويحمدونه ويسبحونه .

وإليه ذهبت طائفة من المفسرين محتجين بقوله : ﴿ وإن من شيء لا يسبح بحمده ﴾ وبقوله في صفة الحيوان ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ وبما به خاطب النمل وخاطب الهدهد .

قال ابن عطية في قول مكي وهذا قول خلف انتهى .

وقال ابن عطية ويحتمل أن تكون المماثلة في كونها أمماً لا غير .

كما تريد بقولك : مررت برجل مثلك أي أي انه رجل .

ويصح في غير ذلك من الأوصاف إلا أن الفائدة في هذه أن تكون المماثلة في أوصاف غير كونها أمماً .

وقال مجاهد إلا أصناف مصنفة .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : المماثلة وقعت بينها وبين بني آدم من قبل أن بعضهم يفقه عن بعض .

وقال ابن عيسى أمثالكم في الحاجة إلى مدبر يدبرهم فيما يحتاجون إليه من قوت يقوتهم وإلى لباس يسترهم ، وإلى كنٍّ يواريهم .

وروي عن أبي الدرداء أنه قال : أبهمت عقول البهم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء : الإله سبحانه وتعالى وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأنثى ، وتهيؤ كل واحد منهما

لصاحبه .

وقيل المماثلة في كونها جماعات مخلوقة يشبه بعضها بعضاً ، ويأنس بعضها ببعض وتتوالد كالإنس .

وروى أبو سليمان الخطابي عن سفيان بن عيينة أنه قرأ هذه الآية وقال ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم ، فمنهم من يقدم إقدام الأسد ومنهم من يعدو عَدْوَ الذئب ، ومنهم من ينبح نباح الكلاب ، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس ، ومنهم من يشره شره الخنزير .

وفي رواية منهم من يشبه الخنزير إذا ألقي إليه الطعام الطيب تركه وإذا قام الرجل من رجيعه ولغ فيه .

(258/231)

وكذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ منها واحدة .

فإن أخطأت واحدة حفظها ولم يجلس مجلساً رواها عنك ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي ما تركنا وما أغفلنا والكتاب اللوح المحفوظ .

والمعنى وما أغفلنا فيه من شيء لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت ، قاله الزمخشري ولم

يذكر غيره ، أو القرآن وهو الذي يقتضيه سياق الآية والمعنى .

وبدأ به عن ابن عطية وذكر اللوح المحفوظ ، فعلي هذا يكون قوله : من شيء على عمومه ، وعلى القول الأول يكون من العام الذي يراد به الخاص فالمعنى من شيء يدعو إلى معرفة الله وتكاليفه ، وكثيراً ما يستدل بعض الظاهرية بقوله : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ يشير إلى أن الكتاب تضمن الأحكام التكليفية كلها ، والتفريط التقصير فحقه أن يتعدى بفي كقوله ﴿ على ما فرطت في جنب الله ﴾ وإذا كان كذلك فيكون قد ضمن ما أغفلنا وما تركنا ويكون ﴿ من شيء ﴾ في موضع المفعول به و﴿ من ﴾ زائدة ، والمعنى : ما تركنا وما أغفلنا في الكتاب شيئاً يحتاج إليه من دلائل الإلهية والتكاليف ، ويبعد جعل ﴿ من ﴾ هنا تبعيضية وأن يكون التقدير ما فرطنا في الكتاب بعض شيء يحتاج إليه المكلف ، وإن قاله بعضهم .

وجعل أبو البقاء هنا ﴿ من شيء ﴾ واقعاً موقع المصدر ، أي تفريطاً .

قال : وعلى هذا التأويل لا يبقى في الآية حجة لمن ظن أنّ الكتاب يحتوي على ذكر كل شيء تصريحاً ونظير ذلك لا يضركم كيدهم شيئاً أي ضرراً انتهى .

وما ذكره من أنه لا يبقى على هذا التأويل حجة لمن ذكر ليس كما ذكر لأنه إذا تسلط النفي على المصدر منفياً على جهة العموم ، ويلزم من نفي هذا العموم نفي أنواع المصدر ونوع مشخصاته ، ونظير ذلك لا قيام فهذا نفي عام فينتفي منه جميع أنواع القيام ومشخصاته

كقيام زيد وقيام عمرو وما أشبه ذلك فإذا نفى التفريط على طريقة العموم كان ذلك نفياً لجميع أنواع التفريط ومشخصاته ومتعلقاته ، فيلزم من ذلك أن الكتاب يحتوي على ذكر كل شيء .

(259/231)

وقرأ الأعرج وعلقمة ﴿ ما فرطنا ﴾ بتخفيف الراء والمعنى واحد .

وقال النقاش : معنى ﴿ فرطنا ﴾ مخففة ، أخرنا كما قالوا : فرط الله عنك المرض أي أزاله .

﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ الظاهر في الضمير أنه عائد على ما تقدم وهو الأمم كلها من الطير والدواب .

وقال قوم : هو عائد على الكفار لا على أمم وما تخلل بينهما كلام معترض وإقامة وحجج ويرجح هذا القول كونه جاء بهم وبالواو التي هي للعقلاء ، ولو كان عائداً على أمم الطير والدواب لكان التركيب ثم إلى ربها تحشر ويجاب عن هذا بأنها لما كانت ممتثلة ما أراد الله منها ، أجريت مجرى العقلاء وأصل الحشر الجمع ومنه فحشر فنادى والظاهر أنه يراد به البعث يوم القيامة وهو قول الجمهور ، فتحشر البهائم والدواب والطير وفي ذلك حديث

يرويه يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله عز وجل يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول : كوني تراباً فذلك قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ وقال ابن عباس والحسن في آخرين : حشر الدواب موتها لأن الدواب لا تكليف عليها ولا ترجو ثواباً ولا تخاف عقاباً ولا تفهم خطاباً ؛ انتهى .

ومن ذهب هذا المذهب تأول حديث أبي هريرة على معنى التمثيل في الحساب والقصاص حتى يفهم كل مكلف أنه لا بد له منه ولا محيص وأنه العدل المحض .

قال ابن عطية : والقول في الأحاديث المتضمنة أن الله يقتص للجماء من القرناء ، أنها كناية عن العدل وليست بحقيقة قول مرذول ينحو إلى القول بالرموز ونحوها ؛ انتهى .

وقال ابن فورك : القول بحشرها مع بني آدم أظهر ؛ انتهى .

(260/231)

وعلى القول بحشر البهائم مع الناس اختلفوا في المعنى الذي تحشر لأجله ، فذهب أهل السنة أنها لإظهار القدرة على الإعادة وفي ذلك تخجيل لمن أنكر ذلك فقال : ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ وقالت المعتزلة : يحشر الله البهائم والطير لإيصال الإعواض إليها

وكذلك قال الزمخشري ، فيعوضها وينصف بعضها من بعض كما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء ؛ انتهى .

وطول المعتزلة في إيصال التعويض عن آلام البهائم وضررها وأن ذلك واجب على الله تعالى .

وفرعوا فروعاً واختلفوا في العوض أهو منقطع أم دائم ؟ فذهب القاضي وأكثر معتزلة البصرة إلى أنه منقطع فبعد توفية العوض يجعلها تراباً ، وقال أبو القاسم البلخي : يجب كون العوض دائماً .

وقيل : تدخل البهائم الجنة وتعوض عن ما نالها من الآلام وكل ما قالته المعتزلة مبناه على أن الله تعالى يجب عليه إيصال الاعواض إلى البهائم عن الآلام التي حصلت لها في الدّنيا ، ومذهب أهل السنة أن الإيجاب على الله تعالى محال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرض ﴾ كلام مستأنف مسوق كما قال الطبرسي وغيره لبيان كمال قدرته عز وجل وحسن تدبيره وحكمته وشمول علمه سبحانه وتعالى فهو كالدليل على أنه تعالى قادر على الإنزال وإنما لا ينزل محافظة على الحكم الباهرة ، وقيل :

إنه دليل على أنه سبحانه وتعالى قادر على البعث والحشر ، والأول أنسب ، وزيدت ﴿ مِنْ ﴾ تنصيصاً على الاستغراق .

(261/231)

والدابة ما يدب من الحيوان ، وأصله من دب يَدِب (دبّاً و) دبيباً إذا مشى مشياً فيه تقارب خطو ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف أو مجرور أو مرفوع وقع صفة لدابة ، ووصفت بذلك لزيادة التعميم كأنه قيل : وما من فرد من أفراد الدواب يستقر في قطر من أقطار الأرض وجهها أو جوفها ، وكذا الوصف في قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ لزيادة التعميم أيضاً أي ولا فرد من أفراد الطير يطير في ناحية من نواحي الجو بجناحيه ، وقيل : إنه لقطع مجاز السرعة فقد استعمل الطيران في ذلك كقوله

: قوم إذ الشر أبدى ناجذيه لهم . . .

طاروا إليه زرافات ووحدانا

وكذا استعمل الطائر في العمل والنصيب مجازاً كما في قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إنسان ألزمناه طَٰئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] .

واحتمال التجوز مع ذلك بجعله ترشيحاً للمجاز بعيد لا يلتفت إليه بدون قرينة ، واختار بعض المتأخرين أن وجه الوصف تصوير تلك الهيئة الغريبة الدالة على كمال القوة والقدرة .

(262/231)

وأورد على الوجهين السابقين أنه لو قيل : ولا طائر في السماء لكان أخصر وفي إفادة ذينك الأمرين أظهر مع ما فيه من رعاية المناسبة بين القرينتين بذكر جهة العلو في إحداهما وجهة السفل في الأخرى ، ورد كما قال الشهاب بأنه لو قيل : في السماء يطير بجناحيه لم يشمل أكثر الطيور لعدم استقرارها في السماء ، ثم إن قصد التصوير لا ينافي قطع المجاز إذ لا مانع من إرادتهما جميعاً كما لا يخفى ، ثم لما كان المقصود من ذكر هذين الأمرين الدلالة على كمال قدرته جل وعلا ببيان ما يعرفونه ويشاهدونه من هذين الجنسين وشمول قدرته وعلمه سبحانه لهما كان غيرهما غير مقصود بالبيان ، فالاعتراض بأن أمثال حيتان البحر خارجة عنهما ، والجواب بأنها داخلة في القسم الأول لأن الأرض فيه بمعنى جهة السفل مما لا يلتفت إليه ، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ وَلاَ طَائِرٍ ﴾ بالرفع عطف على محل الجار والمجرور كأنه قيل : وما دابة ولا طائر .

﴿ إِلاَّ أُمَمٌ ﴾ أي طوائف متخالفة ﴿ أمثالكم ﴾ في أن أحوالها محفوظة وأمورها (

معنية) ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد منتظمة في سلك التقديرات الإلهية والتدبيرات الربانية ، وجمع الأمم باعتبار الحمل على معنى الجمعية المستفاد من العموم كما اختاره غير واحد ، وهو يقتضي جواز أن يقال : لا رجل قائمون ، والقياس كما قيل لا يأباه إلا أنه لم يرد إلا مع الفصل .

(263/231)

وصرح السيد السند بأن النكرة ههنا محمولة على المجموع من حيث هو مجموع ، وجعل مراده أن النكرة المذكورة من حيث الإخبار عنها محمولة على المجموع لا أنه مراد منها ، فلا يرد أن الحكم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِلَّا أُمَمٌ ﴾ يأبى أن يكون التنكير فيما سبق على ما أشير إليه للفردية لأن الفرد ليس بجماعة ، وكذا يأبى أن يكون للنوعية أيضاً لأن الفرد ليس بجماعات وهو ظاهر ، وأما ما قيل : إن النوع يشتمل على أصناف وكل صنف أمة أو الأمة كل جماعة في زمان فيدفعه توصيف أمم بأمثالكم إذ الخطاب بكم لأفراد نوع الإنسان فالمناسب تشبيه النوع بالنوع في كونهما محفوظي الأحوال لا تشبيه الصنف بالنوع أو تشبيه جماعة في وقت بالنوع ، نعم قال السكاكي في "المفتاح" : إن ذكر ﴿ فِى الأَرض ﴾ مع دابة و ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ مع طائر لبيان أن القصد من لفظ دابة ولفظ طائر إنما هو إلى

الجنسين وإلى تقريرهما ، وعليه لا إشكال في صحة الحمل لاشتمال كل من الجنسين على أنواع كثيرة كل منها أمة كالأنسان فكأنه قيل : ما من جنس من هذين الجنسين إلا أمم الخ ، وهذا كما يقال : ما من رجل من هذين الرجلين إلا كذا ، ومراده أن لفظ دابة وطائر حامل لمعنى الجنس والوحدة فلبيان أن القصد من كل منهما إلى الجنس من حيث هو دون الوحدة والكثرة وصف بصفة لازمة للجنس من حيث هو أي بلا شرط شيء منهما والاستغراق المستفاد من كلمة (من) بالنظر إلى الجنسين ، وبهذا يندفع القول بوجوب تأويل كلام السكاكي وإرجاعه إلى ما ذكره الزمخشري في هذا المقام ، وعليه لا يتصور كون الوصف مفيداً لزيادة التعميم والإحاطة لأن الجنس من حيث هو أي لا بشرط شيء مفهوم واحد كما لا يخفى .

واعترض أيضاً القول بالعموم بأنه كيف يصح مع وجوب خروج المشبه به عنه .

(264/231)

وأجيب بأن القصد أولاً : إلى العام والمشبه به في حكم المستثنى بقرينة التشبيه كأنه قيل : ما من واحد من أفراد هذين الجنسين بعمومهما سواكم إلا أمم أمثالكم ، ولك أن تدعي دخول كل فرد من أفراد المخاطبين بالتزام أن له اعتبارين اعتبار أنه مشبه واعتبار أنه

مشبه به فتأمل جميع ذلك .

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ التفريط التقصير ، وأصله أن يتعدى بفي وقد ضمن هنا معنى أغفلنا وتركنا ، فمن شيء في موضع المفعول به ومن زائدة لاستغراق ، ويبعد جعلها تبعيضية أي ما فرطنا في الكتاب بعض شيء وإن جوزه بعضهم ، والمراد من الكتاب القرآن واختاره البلخي وجماعة فإنه ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا بل وغير ذلك إما مفصلاً وإما مجملاً ، فعن الشافعي عليه الرحمة ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله تعالى الهدي فيها .

وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : "لعن الله تعالى الواشمات والمتوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى فقالت له امرأة في ذلك فقال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله تعالى فقالت له : قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول قال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] قالت : بلى قال : فإنه عليه الصلاة والسلام قد نهى عنه" وقال الشافعي رحمه الله تعالى مرة بمكة : سلوني عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله تعالى فقيل له : ما تقول في المحرم يقتل الزنبور ؟ فأجاب بأنه يقتله واستدل عليه بنحو استدلال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنه قال : أنزل في هذا القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن .

(265/231)

وأخرج أبو الشيخ في كتاب "العظمة" عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله سبحانه وتعالى لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة " وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ، وقال المرسي : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر الله تعالى به ، وقد سمعت من بعضهم والعهدة عليه أن الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي قدس الله تعالى سره وقع يوماً عن حماره فرضت رجله فجاؤوا ليحملوه فقال : امهلوني فأمهلوه يسيراً ثم أذن لهم فحملوه فقيل له في ذلك فقال : راجعت كتاب الله تعالى فوجدت خبر هذه الحادثة قد ذكر في الفاتحة ، وهذا أمر لا تصله عقولنا .

(266/231)

ومثله استخراج بعضهم من الفاتحة أيضاً أسماء سلاطين آل عثمان وأحوالهم ومدة سلطنتهم إلى ما شاء الله تعالى من الزمان ، ولا بدع فهي أم الكتاب وتلد كل أمر عجيب ، وعلى هذا لا حاجة إلى القول بتخصيص الشيء بما يحتاج إليه من دلائل التوحيد والتكاليف ، وقال أبو البقاء : إن شيئاً هنا واقع موقع المصدر أي تفريطاً ، ولا يجوز أن يكون مفعولاً به لأن ﴿ فَرَّطْنَا ﴾ لا تتعدى بنفسها بل بحرف الجر وقد عديت بفي إلى الكتاب فلا تتعدى بحرف آخر وتبعه في ذلك غير واحد ، وجعلوا ما يفهم من "القاموس" من تعدي هذا الفعل بنفسه حيث قال : "فَرَّط الشيء وفَرَّط فيه تفريطاً ضيَّعه وقدم العجز فيه وقَصَّر "مما تفرد به في مقابلة من هو أطول باعاً منه مع أنه يحتمل أن تعديته المذكورة فيه ليست وضيعة بل مجازية أو بطريق التضمين الذي أشير إليه سابقاً ، وعلى هذا لا يبقى كما قال أبو البقاء في الآية حجة لمن ظن أن الكتاب يحتوي على ذكر كل شيء ، والكلام حينئذٍ نظير قوله تعالى : ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : 120] أي ضيراً .

(267/231)

وأورد عليه أنه ليس كما ذكر لأنه إذا تسلط النفي على المصدر كان منفياً على جهة العموم ويلزمه نفي أنواع المصدر وهو يستلزم نفي جميع أفراده وليس بشيء لأنه يريد أن المعنى حينئذٍ أن جميع أنواع التفريط منفية عن القرآن وهو مما لا شبهة فيه ولا يلزمه أن يذكر فيه كل شيء كما لزم على الوجه الآخر ، وأياً ما كان فالجملة إعتراضية مقررة لمضمون ما قبلها فإن من جملة الأشياء أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي ، وعن الحسن وقتادة أن المراد بالكتاب الكتاب الذي عند الله تعالى وهو مشتمل على ما كان ويكون وهو اللوح المحفوظ ، والمراد بالاعتراض حينئذٍ الإشارة إلى أن أحوال الأمم مستقصاة هناك غير مقصورة على هذا القدر المجمل ، وعن أبي مسلم أن المراد منه الأجل أي ما من شيء إلا وقد جعلنا له أجلاً هو بالغه ولا يخفى بعده .

وقرأ علقمة ﴿ مَّا فَرَّطْنَا ﴾ بالتخفيف وهو والمشدد بمعنى .

وقال أبو العباس : معنى فرطنا المخفف أخرنا كما قالوا فرط الله تعالى عنك المرض أي أزاله .

﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ الضمير للأمم المذكورة في (الكريم) ، وصيغة جمع العقلاء لإجرائها مجراهم والتعبير عنها بالأمم ، وقيل : هو للأمم مطلقاً وتكون صيغة الجمع للتغليب أي إلى مالك أمورهم لا إلى غيره يحشرون يوم القيامة فيجازيهم وينصف بعضهم من بعض

حتى أنه سبحانه وتعالى يبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء كما جاء في حديث صحيح رواه الشيخان .

(268/231)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن حشر الحيوانات موتها ، ومراده رضي الله تعالى عنه على ما قيل إن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ مجموعه مستعار على سبيل التمثيل للموت كما ورد في الحديث " من مات فقد قامت قيامته " فلا يرد عليه أن الحشر بعث من مكان إلى آخر ، وتعديته بإلى تنصيص على أنه لم يرد به الموت مع أن في الموت أيضاً نقلاً من الدنيا إلى الآخرة ، نعم ما ذكره الجماعة أوفق بمقام تهويل الخطب وتفظيع الحال ، هذا وفي "رسالة المعاد" لأبي علي : قال المعترفون بالشريعة من أهل التناسخ : إن هذه الآية دليل عليه لأنه سبحانه قال : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ الخ ، وفيه الحكم بأن الحيوانات الغير الناطقة أمثالنا وليسوا أمثالنا بالفعل فيتعين كونهم أمثالنا بالقوة لضرورة صدق هذا الحكم وعدم الواسطة بين الفعل والقوة ، وحينئذٍ لا بد من القول بحلول النفس الإنسانية في شيء من تلك الحيوانات وهو التناسخ المطلوب .

ولا يخفى أنه دليل كاسد على مذهب فاسد ، ومن الناس من جعلها دليلاً على أن للحيوانات بأسرها نفوساً ناطقة كما لأفراد الإنسان ، وإليه ذهب الصوفية وبعض الحكماء الإسلاميين .

وأورد الشعراني في "الجواهر والدرر" لذلك أدلة غير ما ذكر ، منها أنه صلى الله عليه وسلم لما هاجر وتعرض كل من الأنصار لزمام ناقته قال عليه الصلاة والسلام : " دعوها فإنها مأمورة " ووجه الاستدلال بذلك أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن الناقة مأمورة ولا يعقل الأمر إلا من له نفس ناطقة ، وإذا ثبت أن للناقة نفساً كذلك ثبت للغير إذ لا قائل بالفرق ، ومنها ما يشاهد في النحل وصنعتها أقراص الشمع والعناكب واحتيالها لصيد الذباب والنمل وادخاره لقوته على وجه لا يفسد معه ما ادخره .

(269/231)

وأورد بعضهم دليلاً لذلك أيضاً النملة التي كلمت سليمان عليه الصلاة والسلام بما قص الله تعالى لنا عنها مما لا يهتدي إلى ما فيه إلا العالمون ؛ وخوف الشاة من ذئب لم تشاهد فعله قبل فإن ذلك لا يكون إلا عن استدلال وهو شأن ذوي النفوس الناطقة ، وعدم افتراس الأسد المعلم مثلاً صاحبه فإن ذلك دليل على اعتقاده النفع ومعرفة الحسن وهو من شأن ذوي

النفوس .

وأغرب من هذا دعوى الصوفية .

ونقله الشعراني عن شيخه عليّ الخواص قدس الله تعالى سره أن الحيوانات مخاطبة مكلفة من عند الله تعالى من حيث لا يشعر المحجوبون ثم قال : ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] حيث نكر سبحانه وتعالى الأمة والنذير وهم من جملة الأمم .

ونقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان يقول : جميع ما في الأمم فينا حتى إن فيهم ابن عباس مثلي .

وذكر في "الأجوبة المرضية" أن فيهم أنبياء .

وفي "الجواهر" أنه يجوز أن يكون النذير من أنفسهم وأن يكون خارجاً عنهم من جنسهم .

وحكى شيخه عن بعضهم أنه قال : إن تشبيه الله تعالى من ضل من عباده بالأنعام في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنعام ﴾ [الفرقان : 44] ليس لنقص فيها وإنما هو لبيان كمال مرتبتها في العلم بالله تعالى حتى حارت فيه فالتشبيه في الحقيقة واقع في الحيرة لا في المحار فيه فلا أشد حيرة من العلماء بالله تعالى فاعلى ما يصل إليه العلماء بربهم سبحانه وتعالى هو مبتدأ البهائم الذي لم تنتقل عنه أي عن أصله وإن كانت منتقلة في شؤونه بتنقل الشؤون الإلهية لأنها لا تثبت على حال .

ولذلك كان من وصفهم الله عز وجل من هؤلاء القوم أضل سبيلاً من الأنعام لأنهم يريدون الخروج من الحيرة من طريق فكرهم ونظرهم ولا يمكن ذلك لهم والبهائم علمت ذلك ووقفت عنده ولم تطلب الخروج عنه وذلك لشدة علمها بالله تعالى اه .

(270/231)

ونقل الشهاب عن ابن المنير أن من ذهب إلى أن البهائم والهوام مكلفة لها رسل من جنسها فهو من الملاحدة الذين لا يعول عليهم كالجاحظ وغيره ، وعلى إكفار القائل بذلك نص كثير من الفقهاء والجزاء الذي يكون يوم القيامة للحيوانات عندهم ليس جزاء تكليف ، على أن بعضهم ذهب إلى أن الحيوانات لا تحشر يوم القيامة وأول الظواهر الدالة على ذلك .

وما نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا أصل له .

والمثلية في الآية لا تدل على شيء مما ذكر .

وأغرب الغريب عند أهل الظاهر أن الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم جعلوا كل شيء في الوجود حياً دراكاً يفهم الخطاب ويتألم كما يتألم الحيوان وما يزيد الحيوان على الجماد إلا بالشهوة ، ويستندون في ذلك إلى الشهود .

وربما يستدلون بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء ؛ 44) وبنحو ذلك من الآيات والأخبار .

والذي ذهب إليه الأكثرون من العلماء أن التسبيح حالي لا قالي (1)

---

(1) هذا الكلام فيه نظر والراجح والله أعلم أن تسبيح الجمادات بلسان المقال لا الحال فقط بدليل قوله تعالى " ولكن لا تفقهون تسبيحهم " وإن أرجح أن تسبيحهم بلسان الحال والمقال معا . وسيأتى توضيح المسألة إن شاء الله تعالى فى سورة الإسراء عند قوله تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44) ﴾ . والله أعلم .

، ونظير ذلك

: شكى إلي جملي طول السرى . . .

و : امتلأ الحوض وقال قطني

(271/231)

وما يصدر عن بعض الجمادات من تسبيح قالي كتسبيح الحصى في كفه الشريف صلى الله عليه وسلم مثلاً إنما هو عن خلق إدراك إذ ذاك ، وما يشاهد من الصنائع العجيبة لبعض الحيوانات ليس كما قال الشيخ الرئيس مما يصدر عن استنباط وقياس بل عن إلهام وتسخير

، ولذلك لا تختلف ولا تتنوع ، والنقض بالحركة الفلكية لا يرد بناءً على قواعدنا .

وعدم افتراس الأسد المعلم مثلاً صاحبه ليس عن اعتقاد بل هناك هيئة أخرى نفسانية وهي أن كل حيوان يحب بالطبع ما يلذه والشخص الذي يطعمه محبوب عنده فيصير ذلك مانعاً عن افتراسه .

وربما يقع هذا العارض عن إلهام إلهي مثل حب كل حيوان ولده .

وعلى هذا الطرز يخرج الخوف مثلاً الذي يعتري بعض الحيوانات .

وقد أطالوا الكلام في هذا المقام ، وأنا لا أرى مانعاً من القول بأن للحيوانات نفوساً ناطقة وهي متفاوتة الإدراك حسب تفاوتها في أفراد الإنسان وهي مع ذلك كيفما كانت لا تصل في إدراكها وتصرفها إلى غاية يصلها الإنسان والشواهد على هذا كثيرة وليس في مقابلتها قطعي يجب تأويلها لأجله .

وقد صرح غير واحد أنها عارفة بربها جل شأنه ، وأما إن لها رسلاً من جنسها فلا أقول به ولا أفتي بكفر من قال به .

وأما أن الجمادات حية مدركة فأمر وراء طور عقلي ، والله تعالى على كل شيء قدير وهو العليم الخبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(272/231)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾

أي : مستقرة فيها ، لا ترتفع عنها : ﴿ وَلَا طَائِرٍ ﴾ يرتفع عنها إذ : ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي : أصناف مصنفة في ضبط أحوالها ، وعدم إهمال شيء منها ، وتدبير شؤونها ، وتقدير أرزاقها .

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ ﴾ أي : ما تركنا ، وما أغفلنا ، في لوح القضاء المحفوظ ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي : جليل أو دقيق ، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم ، لم يهمل فيه أمر شيء : والمعنى : أن الجميع علمهم عند الله ، لا ينسى واحداً منها من رزقه وتدبيره . كقوله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : 6] . أي : مفصح بأسمائها أعدادها ومظانّها ، وحاصر لحركاتها وسكناتها ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ يعني : الأمم كلها ، من الدواب والطير ، فينصف بعضهم من بعض ، حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجمّاء من القرناء . وإيراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء . لإجرائها مجراهم .

تنبيهات :

الأول – قال الزمخشري : إن قلت : فما الغرض في ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان .

وقال الرازي : المقصود أن عناية الله حاصلة لهذه الحيوانات ، فلو كان إظهار آية ملجئة مصلحة ، لأظهرها ، فيكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آية .

وقال القاضي : إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار ، وبيّن أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون ، بيّن بعده بقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ . . الخ ، أن البعث حاصل في حق البهائم أيضاً .

الثاني – زيادة (مِنْ) في قوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ ﴾ لتأكيد الاستغراق . و (في) متعلقة بمحذوف هو وصف لـ : ﴿ دَآبَّةٍ ﴾ مفيد لزيادة التعميم . كأنه قيل : وما فرد من أفراد الدواب يستقر في قطر من أقطار الأرض . وكذا زيادة الوصف في قوله : ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ .

قال في " الانتصاف " : في وجه زيادة التعميم ، أن موقع قوله : ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ و : ﴿

يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ موقع الوصف العام – وصفة العام عامة – ضرورة المطابقة ، فكأنه مع زيادة الصفة ، تضافرت صفتان عامتان .

الثالث – قال الزمخشري : إن قلت : كيف قيل (الأمم) مع إفراد الدابة والطائر ؟ قلت : لما كان قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ ﴾ دالاً على معنى الاستغراق ، ومغنياً عن أن يقال : وما من دوابّ ولا طير ، حمل قوله : ﴿ إِلاَّ أُمَمٌ ﴾ على المعنى .

الرابع – دلت الآية على أن كل صنف من البهائم أمة ، وجاء في الحديث : < لولا أن الكلاب أمة من الأمم ، لأمرت بقتلها > –رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه .

(274/231)

الخامس – ما ذكرناه في معنى مماثلة الأمم لنا ، من تدبيره تعالى لأمورها ، وتكفله برزقها ، وعدم إغفال شيء منها مما يبين شمول القدرة ، وسعة العلم – هو الأظهر . موافقة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْ ﴾ [هود : 6] الآية –والقرآن يفسر بعضه بعضاً . ونقل الواحديّ عن ابن عباس أن المماثلة هي في معرفته تعالى ، وتوحيده وتسبيحه وتحميده . كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [

الإسراء : 44] ، وقوله : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : 41] .

وعن أبي الدرداء قال : أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء : معرفة الإله ، وطلب الرزق ، ومعرفة الذكر والأنثى ، وتهيؤ كل واحد منهم لصاحبه .

وقيل : المماثلة في أنها تحشر يوم القيامة كالناس .

أقول : لا شك في صحة الوجهين بذاتهما ، وصدق المثلية فيهما ، ولكن الحمل عليهما يُبعده عدم ملاقاته للآية الأخرى . فالأمسّ ، تأييداً للنظائر ، ما ذكرناه أولاً –والله أعلم– .

السادس – ما بيناه في معنى (الكتاب) من أنه اللوح المحفوظ في العرش ، وعالم السماوات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام – هو الأظهر ، لملاقاته للآية التي ذكرناها تأييداً للنظائر القرآنية . ولم يذكر الإمام ابن كثير سواه ، على توسعه .

وقيل : المراد منه القرآن كقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : 89] . قال الخفاجيّ : قيل : حمله على القرآن لا يلائم ما قبله وما بعده . ويدفع بأن المعنى لم نترك شيئاً من الحجج وغيرها إلا ذكرناه ، فكيف يحتاج إلى آية أخرى مما اقترحوه ، ويكذب بآياتنا ؟ فالكلام بعضه آخذ بحجز بعض بلا شبهة .

(275/231)

وقال أبو السعود : أي : ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التي من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته .

قال الشهاب في قول البيضاوي (فإنه قد دوّن فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً) : يشير إلى أن ما ثبت بالأدلة الثلاثة ثابت بالقرآن ، لإشارته بنحو قوله : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : 2] . إلى القياس . وقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : 7] ، إلى السنّة . بل قيل : إنه بهذه الطريقة يمكن استنباط جميع الأشياء منه . كما سأل بعض الملحدين بعضهم عن طبخ الحلوى ، أين ذكر في القرآن ؟ فقال : في قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] . انتهى .

واستظهر الرازي أن المراد (بالكتاب) القرآن . واحتج بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد ، انصرف إلى المعهود السابق ، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن . فوجب أن يكون المراد من (الكتاب) في هذه الآية القرآن . إذا ثبت هذا ، فلقائل أن يقول : كيف قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ مع أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب ، وتفاصيل علم الحساب ، ولا تفاصيل كثير من المباحث والعلوم . وليس فيه أيضاً تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم في علم الأصول والفروع ؟

والجواب : أن قوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التي يجب معرفتها ، والإحاطة بها ، وبيانه من وجهين :

الأول – أن لفظ (التفريط) لا يستعل نفياً ولا إثباتاً ، إلا فيما يجب أن يبين ، لأن أحداً لا ينسب إلى التفريط والتقصير في أن لا يفعل ما لا حاجة إليه ، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه .

(276/231)

الثاني – أن جميع آيات القرآن ، أو الكثير منها ، دالة بالمطابقة أو التضمين أو الالتزام على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين ، ومعرفة الله ، ومعرفة أحكام الله . وإذا كان هذا التقييد معلوماً من كل القرآن ، كان المطلق ههنا محمولاً على ذلك المقيّد . أما قوله : إن هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع ، فنقول : أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه ، لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه . فأما روايات المذاهب ، وتفاصيل الأقاويل ، فلا حاجة إليها . وأما تفاصيل علم الفروع ، فقال العلماء : إن القرآن دل على أن الإجماع ، وخبر الواحد ، والقياس ، حجة في الشريعة . فكل ما دل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة ، كان ذلك في الحقيقة موجوداً في القرآن .

وذكر الواحديّ رحمه الله لهذا المعنى أمثلة ثلاثة :

المثال الأول – روي أن ابن مسعود كان يقول : ما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه ؟ يعني : الواشمة والمستوشمة ؛ والواصلة والمستوصلة .

وروي أن امرأة قرأت القرآن ، ثم أتته ، فقالت : يا ابن أم عبد ! تلوت البارحة ما بين الدفتين ، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة ! فقال . لو تلوتيه لوجدتيه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ وإن مما آتانا به رسول الله أنه قال : لعن الله الواشمة والمستوشمة .

قال الرازي : وأقول : يمكن وجدان هذا المعنى في كتاب الله بطريق أوضح من ذلك ، لأنه تعالى قال في سورة النساء : ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ [النساء : 117 – 118] . فحكم عليه باللعن ، ثم عدّد بعده قبائح أفعاله ، وذكر من جملتها قوله : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء : 119] . وظاهر هذه الآية يقتضي أن تغيير الخلق يوجب اللعن . انتهى .

(277/231)

قلت : وتتمة الحديث تؤيد ذلك أيضاً . ولفظه : لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله – رواه الإمام أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن ابن مسعود – .

ثم قال الرازي :

المثال الثاني – ذكر أن الشافعي رحمه الله كانَ جَالساً في المسجد الحرام فقال : لا تسألوني عن شيء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى . فقال رجل : ما تقول في المحرم إذا قتل الزنبور ؟ فقال لا شيء عليه ، فقال : أين هذا في كتاب الله ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ ثم ذكر إسناداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي . ثم ذكر إسناداً إلى عمر رضي الله عنه أنه قال : للمحرم قتل الزنبور . قال الواحديّ : فأجابه من كتاب الله مستنبطاً بثلاث درجات .

(278/231)

وأقول ها هنا طريق آخر أقرب منه ، وهو أن الأصل في أموال المسلمين العصمة . قال تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : 286] . وقال : ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ [محمد : 36] . وقال : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ

تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 29] . فنهى عن أكل أموال الناس . إلا بطريق التجارة ، فعند عدم التجارة وجب أن يبقى على أصل الحرمة . وهذه العمومات تقتضي أن لا يجب على المحرم الذي قتل الزنبور شيء ، وذلك لأن التمسك بهذه العمومات يوجب الحكم بمرتبة واحدة . المثال الثالث – قال الواحديّ : روي في حديث العسيف الزاني أن أباه قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اقض بيننا بكتاب الله . فقال عليه السلام : والذي نفسي بيده ! لأقضين بينكما بكتاب الله . ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف ، وبالرجم على المرأة إن اعترفت . قال الواحدي : وليس للجلد والتغريب ذكر في نص الكتاب . وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو عين كتاب الله . قال الرازي : وهذا حق ، لأنه تعالى قال : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، وكل ما بينه الرسول الله صلى الله عليه وسلم كان داخلاً تحت هذه الآية . انتهى .

وبالجملة ، فالقرآن الكريم كلية الشريعة ، والمجموع فيه أمور كليات ، لأن الشريعة تمت بتمام نزوله ، فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها ، وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال . وقد جوّد البحث في هذه المسألة المهمة ، العلامة الشاطبيُّ في " الموافقات " في الطرف الثاني ، في الأدلة على التفصيل . فارجع إليه .

وقد نقلنا شذرة منه في مقدمة هذا التفسير . فتذكر ! .

السابع – قال أبو البقاء : ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ زائدة . و (شيء) هنا واقع موقع المصدر . أي : تفريطاً . وعلى هذا التأويل لا يبقى في الآية حجة لمن ظن أن الكتاب يحتوي على ذكر كل شيء صريحاً . ونظير ذلك : ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عِمْرَان : 120] أي : ضرراً . وقد ذكرنا له نظائر . ولا يجوز أن يكون : ﴿ شَيْئاً ﴾ مفعولاً به ، لأن : ﴿ فَرَّطْنَا ﴾ تتعدى بنفسها ، بل بحرف الجر ، وقد عديت بـ (في) إلى : ﴿ الكِتَابِ ﴾ ، فلا تتعدى بحرف آخر ، ولا يصح أن يكون المعنى : ما تركنا في الكتاب من شيء ، لأن المعنى على خلافه ، فبان أن التأويل ما ذكرنا . انتهى .

وقال الخفاجي : التفريط التقصير . وأصله أن يتعدى بـ (في) وقد ضمن هنا معنى (أَغْفَلْنَا وَتَرَكْنَا) . فـ : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ في موضع المفعول به ، و : ﴿ مِن ﴾ زائدة . والمعنى : ما تركنا في الكتاب شيئاً يحتاج إليه من دلائله الألوهية والتكاليف .

(280/231)

هذا ما ارتضاه أبو حيان والزمخشريّ ، وعدل عنه البيضاوي . لأنه لا يتعدى . فجعل التقدير (تفريطاً) فحذف المصدر ، وأقيم : ﴿ شَيْئاً ﴾ مقامه ، وتبع فيه أبا البقاء ، إذ

اختار هذا ، وأورد عليه في " الملتقط " أنه ليس كما ذكرنا ، لأنه إذا تسلط النفي على المصدر ، كان منفياً على جهة العموم ، ويلزمه نفي أنواع المصدر ، ونفي جميع أفراده ، وليس بشيءٍ ، لأنه يريد أن المعنى حينئذ : أن جميع أنواع التفريط منفية عن القرآن ، وهو مما لا شبهة فيه ، ولا يلزمه أن يذكر فيه كل شيء كما لزم على الوجه الآخر ، حتى يحتاج إلى التأويل . كما أن نفي تعديه لا يضر من قال إنه مفعول به على التضمين ، كما مر ، وأما ما قيل : إن (فرط) يتعدى بنفسه ، لما وقع في القاموس (فرط الشيء ، وفرط فيه تفريطاً ضيعه وقدم العجز فيه وقصر) فلا نسلم أنه يتعدى بنفسه ، وتفردُ صاحب القاموس بأمر ، لا يسمع في مقابلة الزمخشري وغيره . مع أنه يحتمل أن تعديته المذكورة فيه ليست وضعية ، بل مجازية ، أو بطريق التضمين – انتهى كلام الشهاب – .

أقول : ما للمجد في القاموس ، ليس من تفرداته وعندياته ، إذ اللغة مرجعها السماع ، لا الاجتهاد . وموازنته بين الزمخشريّ وغيره ، من باب معرفة الحق بالرجال ، الذي الصواب عكسه ، على أنه ليس في " الكشاف "

ما يقتضي ما زعمه . وقد استشهد شارح القاموس ، الزبيديّ شاهداً على تعديته بنفسه ، تأييداً لكلام المجد ، قول صخر الغي :

~ذلك بَزِّي فلن أُفَرِّطَهُ أخاف أن يُنجزوا الذي وعدوا

قال ابن سيده : يقول . لا أضيعه ، وقوله : بزي ، أراد سلاحي . ثم قال الزبيديّ : وقال

أبو عَمْرو : فرطتك في كذا وكذا ، أي : تركتك . وبه فسر أيضاً قول صخر . انتهى .

وأنشد أبو السعود قول ساعدة جُؤَيَّة :

~معه سِقاءٌ لا يفرِّط حمله

(281/231)

أي : لا يتركه . وبه يعلم سقوط ما لأبي البقاء ، وسقوط دعوى أن أصله أن يتعدى بـ (في) ودعوى التضمين السابقة ، وتكليف كون : ﴿ شَيْءٍ ﴾ واقعاً موقع المصدر .

هذا وقُرِئ : ﴿ فَرَّطْنَا ﴾ بالتخفيف ، وهو بمعنى المشدّد ، وإنما توسعنا فيما روي على القول الثاني في معنى الكتاب ، لشهرة الآية في هذا المعنى ، وإن كان الأظهر الأول ، لما ذكرناه ، ولأن السورة مكية ، والأحكام فيها لم تتم –والله أعلم– .

الثامن – دلت الآية على حشر الدوابّ والبهائم والطير كلها ، أي : بعثها يوم القيامة . كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 5] .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه < أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأي شاتين تنتطحان ، فقال : يا أبا ذر ! هل تدري فيم تنتطحان ؟ قال : لا . قال : لكن الله يدري ، وسيقضي بينهما > . ورواه عبد الرزاق وابن جرير ، وزاد : ولقد تركنا رسولُ

الله صلى الله عليه وسلم ، وما يقلّب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً .

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه عن عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < إن الجماء لتُقَصُّ من القرناء يوم القيامة > .

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة في هذه الآية قال : < يحشر الخلق كلهم يوم القيامة : الدوابّ والبهائم والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني تراباً ! فلذلك يقول الكافر : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً ﴾ > . وقد روي هذا مرفوعاً في حديث الصور . أفاده ابن كثير .

قلت : روى الإمام أحمد ، والبخاري في " الأدب المفرد " ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء ، من الشاة القرناء ، تنطحها > .

(282/231)

وروى ابن أبي حاتم عن عِكْرِمَة عن ابن عباس في الآية قال : حشرها الموت . وروي عن مجاهد والضحاك مثله . والأول أظهر .

التاسع - " في الإكليل " : استدل بهذه الآية على مسألة أخرى ، أخرجه أبو الشيخ عن

أنس أنه سئل : من يقبض أرواح البهائم ؟ قال : ملك الموت . فبلغ الحسن فقال صدق ! وإن ذلك في كتاب الله . ثم تلا هذه الآية ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 3663.356 ﴾

(283/231)

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ .

أي: جميع الحيوانات ، الأرضية والهوائية ، من البهائم والوحوش والطيور ، كلها أمم أمثالكم خلقناها . كما خلقناكم ، ورزقناها كما رزقناكم ، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا ، كما كانت نافذة فيكم .

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا ، في اللوح المحفوظ شيئا من الأشياء ، بل جميع الأشياء ، صغيرها وكبيرها ، مثبتة في اللوح المحفوظ ، على ما هي عليه ، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم .

وفي هذه الآية ، دليل على أن الكتاب الأول ، قد حوى جميع الكائنات ، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر ، فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الموجودات ، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء ، وخلقه لجميع المخلوقات ، حتى أفعال العباد .

ويحتمل أن المراد بالكتاب ، هذا القرآن ، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

وقوله ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة ، في ذلك الموقف العظيم الهائل ، فيجازيهم بعدله وإحسانه ، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمده عليه الأولون والآخرون ، أهل السماء وأهل الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 255.256 ﴾

(284/231)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾

معنى هذه الآية غامض بدءاً .

ونهايتها أشدّ غموضاً ، وموقعها في هذا السياق خفي المناسبة .

فاعلَم أنّ معنى قوله : ﴿ وما من دابّة في الأرض إلى قوله إلاّ أمم أمثالكم ﴾ أنّ لها خصائص لكلّ جنس ونوع منها كما لأمم البشر خصائصها ، أي جعل الله لكلّ نوع ما به قوامه وألهمه اتّباع نظامه وأنّ لها حياة مؤجّلة لا محالة .

فمعنى ﴿ أمثالكم ﴾ المماثلة في الحياة الحيوانية وفي اختصاصها بنظامها .

وأمّا معنى قوله : ﴿ ثم إلى ربّهم يحشرون ﴾ أنّها صائرة إلى الموت .

ويعضّده ما روي عن ابن عباس : حشر البهائم موتها ، أي فالحشر مستعمل في مجاز قريب إلى حقيقته اللغوية التي في نحو قوله تعالى : ﴿ وحشر لسليمان جنوده ﴾ [النمل : 17] .

فموقع هذه الآية عند بعض المفسّرين أنّها بمنزلة الدليل على مضمون قوله تعالى : ﴿ قل إنّ الله قادر على أن ينزّل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [الأنعام : 37] ، فيجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ إنّ الله قادر على أن ينزّل آية ﴾ [الأنعام : 37] على أنّها من جملة ما أمر النبي بأن يقوله لهم ؛ ويجوز أن تكون معطوفة على جملة : ﴿ قُل إنّ الله قادر ﴾ [الأنعام : 37] على أنّها من خطاب الله لهم .

أي أنّ الذي خلق أنواع الأحياء كلّها وجعلها كالأمم ذات خصائص جامعة لأفراد كلّ نوع

منها فكان خلقها آية على عظيم قدرته لا يعجزه أن يأتي بآية حسب مقترحكم ولكنّكم لا تعلمون الحكمة في عدم إجابتكم لما سألتم .

ويكون تعقيبه بقوله تعالى : ﴿ والّذين كذّبوا بآياتنا صمّ وبُكْم ﴾ [الأنعام : 39] الآية واضح المناسبة ، أي لا يهتدون إلى ما في عوالم الدواب والطير من الدلائل على وحدانية الله .

وأمّا قوله : ﴿ ثمّ إلى ربّهم يحشرون ﴾ فإن نظرنا إليه مستقلاً بنصّه غير ملتفتين إلى ما نيط به من آثار مروية في تفسيره ؛ فأول ما يبدو للناظر أنّ ضميري ﴿ ربّهم ﴾ و ﴿ يحشرون ﴾ عائدان إلى ﴿ دابّة ﴾ و ﴿ طائر ﴾ باعتبار دلالتهما على جماعات الدّواب والطير لوقوعهما في حيّز حرف (مِنْ) المفيدة للعموم في سياق النفي ، فيتساءل الناظر عن ذلك وهما ضميران موضوعان للعقلاء .

وقد تأولوا لوقوع الضميرين على غير العقلاء بوجهين : أحدهما أنّه بناءٌ على التغليب إذ جاء بعده ﴿ إلاّ أمم أمثالكم ﴾ .

(285/231)

الوجه الثاني أنّهما عائدان إلى ﴿ أمم أمثالكم ﴾ ، أي أنّ الأمم كلّها محشورة إلى الله تعالى .

وأحسن من ذلك تأويلاً أن يكون الضميران عائدَيْن إلى ما عادت إليه ضمائر الغيبة في هذه الآيات التي آخرها ضمير ﴿ وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربّه ﴾ ، فيكون موقع جملة ﴿ ثم إلى ربّهم يحشرون ﴾ موقع الإدماج والاستطراد مجابهة للمشركين بأنّهم محشورون إلى الله لا محالة وإن أنكروا ذلك .

فإذا وقع الإلتفات إلى ما روي من الآثار المتعلّقة بالآية كان الأمر مُشكلاً .

فقد روى مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لتُؤَدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتّى يقاد للشّاة الجلحاء (التي لا قرن لها ، وفي رواية غيره : الجَماء) من الشاة القرناء " وروى أحمد بن حنبل وأبو داوود الطيالسي في "مسنديهما" عن أبي ذرّ قال : انتطحت شاتان أو عنزان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا ذر أتدري فيم انتطحتا ، قلت : لا ، قال : لكن الله يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة .

فهذا مقتض إثبات حشر الدوابّ ليوم الحساب ، فكان معناه خفي الحكمة إذ من المحقّق انتفاء تكليف الدوابّ والطير تبعاً لانتفاء العقل عنها .

وكان موقعها جلي المناسبة بما قاله الفخر نقلاً عن عبد الجبّار بأنّه لمّا قدّم الله أنّ الكفّار

يُرجعون إليه ويحشرون بيّن بعده أنّ الدوابّ والطير أمم أمثالهم في أنّهم يحشرون .

والمقصود بيان أنّ الحشر والبعث كما هو حاصل في الناس حاصل في البهائم .

(286/231)

وهذا ظاهر قوله : ﴿ يحشرون ﴾ لأنّ غالب إطلاق الحشر في القرآن على الحشر للحساب ، فيناسب أن تكون جملة : ﴿ وما من دابّة في الأرض ﴾ الآية عطفاً على جملة : ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ ، فإنّ المشركين ينكرون البعث ويجعلون إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام به من أسباب تهمته فيما جاء به ، فلمّا توعّدهم الله بالآية السابقة بأنّهم إليه يرجعون زاد أن سجّل عليهم جهلهم فأخبرهم بما هو أعجب ممّا أنكروه ، وهو إعلامهم بأنّ الحشر ليس يختصّ بالبشر بل يعمّ كلّ ما فيه حياة من الدّوابّ والطير .

فالمقصود من هذا الخبر هو قوله : ﴿ ثم إلى ربّهم يحشرون ﴾ .

وأمّا ما قبله فهو بمنزلة المقدمة له والاستدلال عليه ، أي فالدّوابّ والطير تبعث مثل البشر وتحضر أفرادها كلّها يوم الحشر ، وذلك يقتضي لا محالة أن يقتصّ لها ، فقد تكون حكمة حشرها تابعة لإلقاء الأرض وما فيها وإعادة أجزاء الحيوان .

وإذا كان المراد من هذين الحديثين ظاهرهما فإنّ هذا مظهر من مظاهر الحق يوم القيامة

لإصلاح ما فرط في عالم الفناء من رواج الباطل وحكم القوة على العدالة ، ويكون القصاص بتمكين المظلوم من الدوابّ من ردّ فعل ظالمه كيلا يستقرّ بالباطل .

فهو من قبيل ترتّب المسبّبات على أسبابها شبيه بخطاب الوضع ، وليس في ذلك ثواب ولا عقاب لانتفاء التكليف ثم تصير الدواب يومئذٍ تراباً ، كما ورد في رواية عن أبي هريرة في قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ [النبأ : 40] .

قال المازري في المُعَلِم : واضطرب العلماء في بعث البهائم .

وأقوى ما تعلّق به من يقول ببعثها قوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ .

وقد قيل : إنّ هذا كلّه تمثيل للعدل .

ونسبه المازري إلى بعض شيوخه قال : هو ضرب مَثل إعلاماً للخلق بأن لا يبقى حقّ عند أحد .

والدابّة مشتقّة من دبّ إذا مشى على الأرض ، وهي اسم لكلّ ما يدبّ على الأرض .

(287/231)

وقوله : ﴿ في الأرض ﴾ صفة قصد منها إفادة التعميم والشمول بذكر اسم المكان الذي يحوي جميع الدوابّ وهو الأرض ، وكذلك وصف ﴿ طائر ﴾ بقوله ﴿ يطير بجناحيه

﴿ قصد به الشمول والإحاطة ، لأنّه وصف آيل إلى معنى التوكيد ، لأنّ مفاد ﴿ يطير بجناحيه ﴾ أنَّه طائر ، كأنَّه قيل : ولا طائر ولا طائر .

والتوكيد هنا يؤكّد معنى الشمول الذي دلّت عليه (من) الزائدة في سياق النفي ؛ فحصل من هذين الوصفين تقرير معنى الشمول الحاصل من نفي اسمي الجنسين .

ونكتة التوكيد أنّ الخبر لغرابته عندهم وكونه مظنّة إنكارهم أنَّه حقيق بأن يؤكّد .

ووقع في "المفتاح" في بحث إتباع المسند إليه بالبيان أنّ هذين الوصفين في هذه الآية للدلالة على أنّ القصد من اللفظين الجنس لا بعض الأفراد وهو غير ما في "الكشاف" ، وكيف يتوهَّم أنّ المقصود بعض الأفراد ووجود (مِن) في النفي نصّ على نفي الجنس دون الوحدة .

وبهذا تعلم أن ليس وصف ﴿ يطير بجناحيه ﴾ وارداً لرفع احتمال المجاز في ﴿ طائر ﴾ كما جنح إليه كثير من المفسِّرين وإن كان رفع احتمال المجاز من جملة نكت التوكيد اللفظي إلاّ أنّه غير مطّرد ، ولأنّ اعتبار تأكيد العموم أولى ، بخلاف نحو قولهم:

نظرته بعيني وسمعته بأذني .

وقول صخْر :

شر واتّخذت من شَعَر صدارها

إذ من المعلوم أنّ الصّدار لا يكون إلاّ من شَعَر .

و﴿ أمم ﴾ جمع أمّة .

والأمّة أصلها الجماعة من الناس المتماثلة في صفات ذاتية من نسب أو لغة أو عادة أو جنس أو نوع .

قيل : سمّيت أمة لأنّ أفرادها تؤمّ أمَماً واحداً وهو ما يجمع مقوّماتها .

وأحسب أنّ لفظ أمّة خاصّ بالجماعة العظيمة من البشر ، فلا يقال في اللغة أمّة الملائكة ولا أمّة السباع .

فأمّا إطلاق الأمم على الدّوابّ والطير في هذه الآية فهو مجاز ، أي مثل الأمم لأنّ كلّ نوع منها تجتمع أفراده في صفات متّحدة بينها أمماً واحدة ، وهو ما يجمعها وأحسب أنّها خاصّة بالبشر .

(288/231)

و﴿ دابّة ﴾ و﴿ طائر ﴾ في سياق النفي يُراد بهما جميع أفراد النوعين كما هو شأن الاستغراق ، فالإخبار عنهما بلفظ ﴿ أمم ﴾ وهو جمع على تأويله بجماعاتها ، أي إلاّ جماعاتها أمم ، أو إلاّ أفراد أمم .

وتشمل الأرض البحر لأنَّه من الأرض ولأنّ مخلوقاته يطلق عليها لفظ الدابّة ، كما ورد في

حديث سرية سِيف البحر قول جابر بن عبد الله : فألقى لنا البحر دابّة يقال لها العنبر .

والمماثلة في قوله : ﴿ أمثالكم ﴾ التشابه في فصول الحقائق والخاصّات التي تميّز كلّ نوع من غيره ، وهي النظم الفطرية التي فطر الله عليها أنواع المخلوقات .

فالدّواب والطير تُماثل الأناسي في أنّها خلقت على طبيعة تشترك فيها أفراد أنواعها وأنّها مخلوقة لله معطاة حياة مقدّرة مع تقدير أرزاقها وولادتها وشبابها وهرمها ، ولها نظم لا تستطيع تبديلها .

وليست المماثلة براجعة إلى جميع الصفات فإنّها لا تماثل الإنسان في التفكير والحضارة المكتسبة من الفكر الذي اختصّ به الإنسان .

ولذلك لا يصحّ أن يكون لغير الإنسان نظام دولة ولا شرائع ولا رسل ترسل إليهن لانعدام عقل التكليف فيهنّ ، وكذلك لا يصحّ أن توصف بمعرفة الله تعالى .

وأما قوله تعالى : ﴿ وإنْ من شيء إلاّ يُسبّح بحمده ﴾ [الإسراء : 44] فذلك بلسان الحال في العجماوات حين نراها بَهِجَة عند حصول ما يلائمها فنراها مرحة فرحة .

وإنّما ذلك بما ساق الله إليها من النعمة وهي لا تفقه أصلها ولكنّها تحسّ بأثرها فتبتهج ، ولأنّ في كل نوع منها خصائص لها دلالة على عظيم قدرة الله وعلمه تختلف عن بقية الأنواع من جنسه والمقصد من هذا صرف الأفهام إلى الاعتبار بنظام الخلق الذي أودعه الله في كلّ نوع ، والخطاب في قوله : ﴿ أمثالكم ﴾ موجّه إلى المشركين .

وجملة : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ معترضة لبيان سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته .

(289/231)

فالكتاب هنا بمعنى المكتوب ، وهو المكنّى عنه بالقلم المراد به ما سبق في علم الله وإرادته الجارية على ، وفْقِه كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ [الأنعام : 12] .

وقيل الكتاب القرآن .

وهذا بعيد إذ لا مناسبة بالغرض على هذا التفسير ، فقد أورد كيف يشتمل القرآن على كلّ شيء .

وقد بسط فخر الدين بيان ذلك لاختيار هذا القول وكذلك أبو إسحاق الشاطبي في "الموافقات" .

والتفريط : الترك والإهمال ، وتقدّم بيانه آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ قالوا يا حسرتنا على ما فرّطنا فيها ﴾ [الأنعام : 31] .

والشيء هو الموجود .

والمراد به هنا أحوال المخلوقات كما يدلّ عليه السياق فشمل أحوال الدّواب والطير فإنّها معلومة لله تعالى مقدّرة عنده بما أودع فيها من حكمة خلقه تعالى .

وقوله ﴿ ثم إلى ربِّهم يحشرون ﴾ تقدّم تفسيره آنفاً في أوّل تفسير هذه الآية .

وفي الآية تنبيه للمسلمين على الرفق بالحيوان فإنّ الإخبار بأنّها أمم أمثالنا تنبيه على المشاركة في المخلوقية وصفات الحيوانية كلّها .

وفي قوله : ﴿ ثم إلى ربِّهم يحشرون ﴾ إلقاء للحذر من الاعتداء عليها بما نهى الشرع عنه من تعذيبها وإذا كان يقتصّ لبعضها من بعض وهي غير مكلّفة ، فالاقتصاص من الإنسان لها أولى بالعدل .

وقد ثبت في الحديث الصحيح : أنّ الله شكر للذي سقى الكلب العطشان ، وأنّ الله أدخل امرأة النار في هرّة حبستها فماتت جوعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(290/231)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾

إنه سبحانه يوضح لنا : أنا أعطي الآيات التي أعلم أن الفطرة السليمة تستقبلها كآية وتؤمن بها . وأنزلت لكم القرآن لتؤمنوا بالرسول الذي يحمله منهجا يُصلح حياتكم . وقد جعلتكم سادة للكون ؛ تخدمكم كل الكائنات ، لأنكم بنو آدم . وكان الأجدر بكم أن تنتبهوا إلى أن الحيوان في خدمتكم ، والنبات في خدمة الحيوان وخدمة الإنسان ، وكل كائنات الوجود تصب جهدها المسخر لخدمتكم . فإذا كنتُ قد جئتُ للأجناس كلها وجعلتُها دونكم وأعطيتها ما يصلحها ويقيمها ووضعت لها نظاماً ، وأعطيتها من الغرائز ما يكفي لصلاح أمرها حتى تؤدي مهمتها معكم على صورة تريحكم فإذا كان هذا هو شأننا وعملنا مع من يخدمكم فكيف يكون الحال معكم ؟ إنني أنزلت المنهج الذي يصلح حياة من استخلفته سيداً في الأرض . ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : 38]

.

(291/231)

وكل الدواب دون الإنسان أعطاها الإله الإيمان بالفطرة ، وهداها إلى الرزق بالغريزة .

وميز الإنسان فوق كل الكائنات بالعقل ، ولكن الإنسان يستخدم عقله مرة استخداما سليما صحيحا فيصل إلى الإيمان ، ويستخدمه مرة استخداما سيئا فيضل عن الإيمان .

وكان على الإنسان أن يعلم أنه تعلم محاكاة ما دونه من الكائنات ؛ فقابيل تعلم من الغراب كيف يواري سوأة أخيه . ومصمم الطائرات تعلم صناعة الطيران من دراسة الطيور .

إذن كان يجب أن يتعلم الإنسان أن له خالقاً جعل له من الأجناس ما تخدمه ليطور من حياته ومن رعاية كرامته بعد الموت . والمثال ما قالته نملة لبقية النمل : ﴿ حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِ النمل قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ [النمل : 18] .

إن النمل أمة لها حرس ، قالت حارسة منهم هذا القول تحذيراً لبقية النمل .

والله سبحانه يقول : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

إذن فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التي خلقها الله في الكون تسبح بحمده ، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم . وأعلمنا الله أنه علم سيدنا سليمان لغات كل الأقوام وكل الأمم المخلوقة لله ، ولذلك عندما سمع سيدنا سليمان ما قالته النملة : تبسم ﴿ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾ .

وهكذا علمنا أن الله قد أعطى إذن سليمان عليه السلام ما جعلها تمتلك حاسية التقاط الذبذبة الصادرة من صوت النملة وتفهم ما تعطيه وتؤديه تلك الذبذبة ، لذلك تبسم سليمان عليه السلام من قولها ؛ لأن الله علمه منطق تلك الكائنات . ولو علمنا الله منطق هذه الكائنات لفقهنا تسبيحهم لله ، ونحن لا نفقه تسبيحهم لأننا لم نتعلم لغتهم . ومثال ذلك – والله المثل الأعلى – قد يسافر إنسان عربي إلى بلاد تتحدث الإنجليزية وهو يجهل تلك اللغة ، فلا يفهم مما يقال شيئاً .

(292/231)

إذن لو علمك الله منطق الطير ، ومنطق الجماد ، ومنطق النبات ؛ لعلمت لغاتهم .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ [الأنبياء : 79] .

إن الجماد – الجبال – تسبح مع داود . وكذلك الطير ؛ فها هوذا الهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وحز في نفسه أنه رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ﴾ [النمل : 24] .

إذن فالهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وعرف أن السجود إنما يكون لله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض ﴾ [النمل : 25] .

إذن كل الكائنات هي أمم أمثالنا . وقد يقول قائل : ولكن هناك كائنات ليست في السماء ولا في الأرض ، مثل الأسماك التي في البحار ؟ ونقول : إن الماء ثلاثة أرباع الأرض والسمك يسبح في جزء من الماء الذي هو جزء من الأرض . فهو يسبح في جزء من الأرض ، فسبحانه الذي خلق الدواب في الأرض ، وخلق الطيور ، وخلق الأدنى من هذه الأمم وهداها إلى مصلحتها ومصدر حياتها : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ .

ونرى العلماء يحاولون الآن اكتشاف لغة الأسماك ، واكتشاف كل أسرار مملكة النحل ونظامها ، وكيف تصير أعشاش النمل مخازن في الصيف لقوت الشتاء . ودرسوا سلوك النمل مع حبة القمح ، وكيف تخلع النملة خلايا الإنبات من بذرة القمح ، لأن خلايا الإنبات إن دخلت مع حبة القمح إلى مخزن غذاء النمل قد تنبت وتدمر جحر النمل . وهكذا نرى صدق الحق الأعلى . ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 2-3] .

(293/231)

وقرون الاستشعار في النملة تثير العلماء ؛ لأن النملة الواحدة ترى على سبيل المثال قطعة السكر ، فلا تقربها ولكنها تذهب لاستدعاء جيش من النمل قادر على تحريك قطعة السكر ، ووجد العلماء أن وزن الشيء الذي يتغذى به النمل إن زاد على قدرة نملة ، فهي تستدعي أعداداً من النمل ليؤدوا المهمة .

وتساءل العلماء : من أين للنمل إذن هذه القدرة على تحديد الكتلة والحجم والوزن ؟ إن تحديد العدد الذي يحمل حجماً محدداً يثير الغرابة والعجب ، فكيف يمكن أن نتصور أن النمل يفرق بين شيئين يتحد حجمهما ويختلف وزنهما ككتلة من حديد وأخرى تماثلها في الحجم من الأسفنج ؟ إن النمل يستدعي لكتلة الحديد أضعاف ما يستدعيه لحمل كتلة الأسفنج مع اتحادهما في الحجم ؛ إنها من قدرة الحق الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى

.

ثم إنك تلتفت إلى الحيوان فتجد الذكر والأنثى ، وتجد أن الجمال كله في ذكور الحيوان ، بينما لا يكون الأمر كذلك في إناث الحيوان ، والكثرة الغالبة هي من الإناث والقلة من الذكور ، ولا يقرب الذكر أنثاه إلا في موسم معين ، وإلى أن يأتي موسم التلقيح تنصرف الأنثى إلى إعداد العش وتهيئته لما عساه أن يوجد من نتاج ، وهذه العملية لحكمة عالية ربما تكون لبقاء نوع الحيوان حتى يعين الإنسان في إعمار الأرض .

وفي عالم الطير نجد الطيور تبني العش بفن جميل لاستقبال الفرخ الذي خرج من البيض وتفرش له العش بأنعم الأشياء ، إنها تفعل ذلك بإتقان جيد وبصورة ربما يعجز البشر أن يعمل مثلها . ثم نجد في دنيا الحيوان والطير أن الكائن ما إن يبلغ القدرة على الاعتماد على نفسه فلا تعرف الأم ابنها من ابن غيرها . إذن فكل المخلوقات أمم أمثالنا أرزاقاً وآجالاً ، وأعمالاً ، فصدق الله إذ يقول : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ .

(294/231)

وقد يكون المراد من الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ ، ولكننا نقول : إنه القرآن ، وكل شيء موجود ومذكور أو مطمور في القرآن الكريم . وذكر القرآن أن هذه الأمم تعرف التوحيد ، وأنهم يسبحون لله . والعمل المعاصر يكتشف في كل دقيقة حقائق هذا الكون المنظم . ونجد العقل يهدينا إلى أن نوجد أشياء لصالح حياتنا ، ولكن عندما نتبع الهوى فإننا نفسد هذا الكون . إن الله – سبحانه – جعل للخادم من دواب الأرض نطاقاً للعمل والرزق والأجل بحكم الغريزة ، وكذلك جعل للطير ، ولكل الكائنات :

ويقول الحق سبحانه وتعالى في محكم آياته الكريمة : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : 38] .

إذن كل شيء يحشر يوم القيامة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : " لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء " .

أي أن الحق سبحانه يقتص من الشاة ذات القرون التي نطحت الشاة التي بلا قرون ويعوضها عن الألم الذي أصابها . وبعد أن يأخذ كل كائن من غير الإنس والجن حَقَّه يصير إلى تراب . أما الذين يسمعون ولا يستجيبون فهم المكذبون بالآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(295/231)

فائدة

قال فى الميزان :

قوله تعالى : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) إلى آخر الآية ، الدابة كل حيوان يدب على الأرض وقد كثر استعماله في الفرس ، والدب بالفتح والدبيب هو المشى الخفيف .

والطائر ما يسبح في الهواء بجناحيه ، وجمعه الطير كالراكب والركب ، والامة هي الجماعة

من الناس يجمعهم مقصد واحد يقصدونه كدين واحد أو سنة واحدة أو زمان واحد أو مكان واحد ، والأصل في معناها ، القصد يقال : أم يؤم إذا قصد ، والحشر جمع الناس بإزعاج إلى الحرب أو جلاء ونحوه من الامور الاجتماعية .

والظاهر أن توصيف الطائر بقوله : (يطير بجناحيه) محاذاة لتوصيف الدابة بقوله : (في الأرض) فهو بمنزلة قولنا : ما من حيوان إرضى ولا هوائي ، مع ما في هذا التوصيف من نفى شبهة التجوز فإن الطيران كثيرا ما يستعمل بمعنى سرعة الحركة كما أن الدبيب هو الحركة الخفيفة فكان من المحتمل أن يراد بالطيران حيث ذكر مع الدبيب الحركة السريعة فدفع ذلك بقوله : (يطير بجناحيه) .

(كلام في المجتمعات الحيوانية)

(296/231)

والخطاب في الآية للناس ، وقد ذكر فيها أن الحيوانات أرضيه كانت أو هوائية هي أمم مثال الناس ، وليس المراد بذلك كونها جماعات ذوات كثرة وعدد فإن الامة لا تطلق على مجرد العدد الكثير بل إذا جمع ذلك الكثير جامع واحد من مقصد اضطرارى أو اختياري يقصده أفراده ، ولا أن المراد مجرد كونها أنواعا شتى كل نوع منها يشترك أفراده في نوع خاص

من الحياة والرزق والسفاد والنسل والمأوى وسائر الشئون الحيوية فإن هذا المقدار من الاشتراك وإن صحح الحكم بمماثلتها الإنسان لكن قوله في ذيل الآية : (ثم إلى ربهم يحشرون) يدل على أن المراد بالمماثلة ليس مجرد التشابه في الغذاء السفاد والاواء بل هناك جهة اشتراك أخرى تجعلها كالانسان في ملاك الحشر إلى الله ، وليس ملاك الحشر إلى الله في الإنسان إلا نوعا من الحياة الشعورية التى تخد للإنسان خدا إلى سعادته وشقائه ، فإن الفرد من الإنسان يمكن أن ينال في الدنيا ألذ الغذاء وأوفق النكاح وأنضر المسكن ولا يكون مع ذلك سعيدا في حياته لما ينكب عليه من الظلم والفجور أو أن يحيط به جماع المحن والشدائد والبلايا وهو سعيد في حياته مبتهج بكمال الإنسانية ونور العبودية .

بل حياة الإنسان الشعورية وإن شئت فقل : الفطرة الإنسانية وما يؤيدها من دعوة النبوة تسن للإنسان سنة مشروعة من الاعتقاد والعمل إن أخذ بها وجرى عليها ووافقه المجتمع عليه سعد في الحياتين : الدنيا والاخرة ، وإن استن بها وحده سعد بها في الاخرة أو في الدنيا والاخرة معا ، وإن لم يعمل بها وتخلف عن الاخذ ببعضها أو كلها كان في ذلك شقاؤه في الدنيا والاخرة .

(297/231)

وهذه السنة المكتوبة له تجمعها كلمتان : البعث إلى الخير والطاعة ، والزجر عن الشر والمعصية ، وإن شئت قلت : الدعوة إلى العدل والاستقامة ، والنهى عن الظلم والانحراف عن الحق فإن الإنسان بفطرته السليمة يستحسن امورا هي العدل في نفسه أو غيره ، ويستقبح امورا هي الظلم على نفسه أو غيره ثم الدين الإلهى يؤيدها ويشرح له تفاصيلها .

وهذا محصل ما تبين لنا في كثير من الابحاث السابقة وكثير من الآيات القرآنية تفيد ذلك وتؤيده كقوله تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) (الشمس : 10) ، وقوله تعالى : (كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) (البقره : 213) .

والإمعان في التفكر في أطوار الحيوانات العجم التى تزامل الإنسان في كثير من شئون الحياة ، وأحوال نوع منها في مسير حياتها وتعيشها يدلنا على أن لها كالانسان عقائد وآراء فردية واجتماعية تبنى عليها حركاتها وسكناتها في ابتغاء البقاء نظيرة ما يبنى الإنسان تقلباته في أطوار الحياة الدنيا على سلسلة من العقائد والاراء .

فالواحد منا يشتهى الغذاء والنكاح أو الولد أو غير ذلك ، أو يكره الضيم أو الفقر أو غير

ذلك فيلوح له من الرأى أن من الواجب أن يطلب الغذاء أو يأكله أو يدخره في ملكه ، وأن يتزوج وأن ينسل وهكذا ، وأن من الممنوع المحرم عليه أن يصبر على ضيم أو يتحمل مصيبة الفقر وهكذا فيتحرك ويسكن على طبق ما اتخذ له هذه الاراء اللائحة لنفسه من الطريق .

(298/231)

كذلك الواحد من الحيوان – على ما نشاهده – يأتي في مبتغيات حياته من الحركات المنظمة التى يحتال بها إلى رفع حوائج نفسه في الغذاء والسفاد والمأوى بما لا نشك به في أن له شعورا بحوائجه وما يرتفع به حاجته ، وآراء وعقائد ينبعث بها إلى جلب المنافع ودفع المضار كما في الإنسان ، وربما عثرنا فيها من أنواع الحيل والمكائد للحصول على الصيد والنجاة من العدو من الطرق الاجتماعية والفردية ما لم يتنبه إليه الإنسان إلا بعد طى قرون وأحقاب من عمره النوعى .

وقد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان في كثير من أنواعه ، كالنمل والنحل والأرضة على عجائب من آثار المدنية والاجتماع ، ودقائق من الصنعة ولطائف من السنن والسياسات لا تكاد توجد نظائرها إلا في الأمم ذوى الحضارة والمدنية من الإنسان .

وقد حث القرآن الكريم على معرفة الحيوان والتفكر في خلقها وأعمالها عامة كقوله تعالى : (وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) (جاثيه : 4) ودعا إلى الاعتبار بأمر كثير منها كالأنعام والطير والنحل والنمل .

وهذه الآراء والعقائد التى نرى أن الحيوان على اختلاف أنواعها في شئون الحياة ومقاصدها تبنى عليها أعمالها إذا لم تخل عن الأحكام الباعثة والزاجرة لم تخل عن استحسان امور واستقباح أمور ، ولم تخل عن معنى العدل أو الظلم .

وهو الذى يؤيده ما نشاهده من بعض الاختلاف في أفراد أي نوع من الحيوان في أخلاقها ، فكم بين الفرس والفرس وبين الكبش والكبش وبين الديك والديك مثلا من الفرق الواضح في حدة الخلق أو سهولة الجانب ولين العريكة .

(299/231)

وكذا يؤيده جزئيات أخرى من حب وبغض وعطوفة ورحمة أو قسوة أو تعد وغير ذلك مما نجدها بين الافراد من نوع وقد وجدنا نظائرها بين أفراد الإنسان ، ووجدناها مؤثرة في الاعتقاد بالحسن والقبح في الأفعال ، والعدل والظلم في الأعمال ثم إنها مؤثرة أيضا في حياة الإنسان الأخروية ، وملاكا لحشره ومحاسبة أعماله والجزاء عليها بنعمة أو نقمة اخروية .

وببلوغ البحث هذا المبلغ ربما لاح لنا أن للحيوان حشرا كما ان للإنسان حشرا فإن الله سبحانه يعد انطباق العدل والظلم والتقوى والفجور على أعمال الإنسان ملاكا للحشر ويستدل به عليه كما في قوله تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) (ص : 28) بل يعد بطلان الحشر في ما خلقه من السماء والأرض وما بينهما بطلانا لفعله وصيرورته لعبا أو جزافا كما في الآية السابقة على هذه الآية : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) (ص : 27) .

فهل للحيوان غير الإنسان حشر إلى الله سبحانه كما أن للإنسان حشرا إليه ؟ ثم إذا كان له حشر فهل يماثل حشره حشر الإنسان فيحاسب على أعماله وتوزن وينعم بعد ذلك في جنة أو نار على حسب ما له من التكليف في الدنيا ؟ وهل استقرار التكليف الدنيوي عليه ببعث الرسل وإنزال الإحكام ؟ وهل الرسول المبعوث إلى الحيوان من نوع نفسه أو أنه إنسان ؟ .

هذه وجوه من السؤال تسبق إلى ذهن الباحث في هذا الموقف : أما السؤال لاول (هل للحيوان غير الانسان حشر ؟) فقوله تعالى في الآية : (ثم إلى ربهم يحشرون) يتكفل الجواب عنه ، ويقرب منه قوله تعالى : (وإذا الوحوش حشرت) (كورت : 5) .

بل هناك آيات كثيرة جدا دالة على إعادة السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجن والحجارة والأصنام وسائر الشركاء المعبودين من دون الله ، والذهب والفضة حيث يحمى عليهما في نار جهنم فتكوى بها جباه مانعي الزكاة وجنوبهم إلى غير ذلك في آيات كثيرة لا حاجة إلى إيرادها ، والروايات في هذه المعاني لا تحصى كثرة .

وأما السؤال الثاني ، وهو أنه هل يماثل حشره حشر الإنسان فيبعث وتحضر أعماله ويحاسب عليها فينعم أو يعذب بها فجوابه أن ذلك لازم الحشر بمعنى الجمع بين الأفراد وسوقهم إلى أمر بالازعاج ، وأما مثل السماء والأرض وما يشابههما من شمس وقمر وحجارة وغيرها فلم يطلق في موردها لفظ الحشر كما في قوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار) (ابراهيم : 48) وقوله : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه) (الزمر : 67) وقوله : (وجمع الشمس والقمر) (القيامة : 9) وقوله : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) (الانبياء : 99) .

على أن الملاك الذى يعطيه كلامه تعالى في حشر الناس هو القضاء الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه من الحق قال تعالى : (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) (السجدة : 25) وقوله : (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) (آل

عمران : 55) وغير ذلك من الآيات .

ومرجع الجميع إلى إنعام المحسن والانتقام من الظالم بظلمه كما ذكره في قوله : (إنا من المجرمين منتقمون) (السجدة : 22) وقوله : (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار) (ابراهيم : 48) وهذان الوصفان أعني الاحسان والظلم موجودان في أعمال الحيوانات في الجملة .

(301/231)

ويؤيده ظاهر قوله تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) (النحل : 61) فإن ظاهره أن ظلم الناس لو استوجب المؤاخذة الإلهية كان ذلك لأنه ظلم والظلم شائع بين كل ما يسمى دابة : الإنسان وسائر الحيوانات فكان ذلك مستعقبا لأن يهلك الله تعالى كل دابة على ظهرها هذا وإن ذكر بعضهم : أن المراد بالدابة في الآية خصوص الإنسان .

ولا يلزم من شمول الأخذ والانتقام يوم القيامة لسائر الحيوان أن يساوى الإنسان في الشعور والإرادة ويرقى الحيوان العجم إلى درجة الإنسان في نفسياته وروحياته ، والضرورة تدفع ذلك ، والاثار البارزة منها ومن الإنسان تبطله .

وذلك أن مجرد الاشتراك في الأخذ والانتقام والحساب والاجر بين الإنسان وغيره لا يقضى بالمعادلة والمساواة من جميع الجهات كما لا يقتضى الاشتراك في ما هو أقرب من ذلك بين أفراد الإنسان أنفسهم أن يجرى حساب أعمالهم من حيث المداقة والمناقشة مجرى واحدا فيوقف العاقل والسفيه والرشيد والمستضعف في موقف واحد .

(302/231)

على أنه تعالى ذكر من بعض الحيوان من لطائف الفهم ودقائق النباهة ما ليس بكل البعيد من مستوى الإنسان المتوسط الحال في الفقه والتعقل كالذى حكى عن نملة سليمان بقوله : (حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) (النمل : 18) وما حكاه من قول هدهد له عليه السلام في قصة غيبته عنه : (فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) إلى آخر الآيات (النمل : 24) فإن الباحث النبيه إذا تدبر هذا الآيات بما يظهر منها من آثار الفهم والشعور لها ثم قدر زنته لم يشك في أن تحقق هذا المقدار من الفهم والشعور يتوقف

على معارف جمة وإدراكات متنوعة كثيرة من بساط المعاني ومركباتها .

وربما أيد ذلك ما حصله أصحاب معرفة الحيوان بعميق مطالعاتهم وتربياتهم لانواع الحيوان المختلفة من عجائب الأحوال التى لا تكاد تظهر إلا من موجود ذى إرادة لطيفة وفكر عميق وشعور حاد .

وأما السؤال الثالث والرابع أعنى أنه : هل الحيوان يتلقى تكليفه في الدنيا برسول يبعث إليه ووحى ينزل عليه ؟ وهل هذا الرسول المبعوث إلى نوع من أنواع الحيوان من أفراد ذلك النوع بعينه ؟ فعالم الحيوان إلى هذا الحين مجهول لنا مضروب دونه بحجاب فالاشتغال بهذا النوع من البحث مما لا فائدة فيه ولا نتيجة له إلا الرجم بالغيب ، والكلام الإلهى على ما يظهر لنا من ظواهره غير متعرض لبيان شئ من ذلك ، ولا يوجد في الروايات المأثورة عن النبي والائمة من أهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم ما يعتمد عليه في ذلك .

(303/231)

فقد تحصل أن المجتمعات الحيوانية كالمجتمع الإنساني فيها مادة الدين الإلهى ترتضع من فطرتها نحو ما يرتضع الدين من الفطرة الإنسانية ويمهدها للحشر إلى الله سبحانه كما يمهد دين الفطرة الإنسان للحشر والجزاء ، وإن كان المشاهد من حال الحيوان بالقياس إلى

الإنسان – وتؤيده الآيات القرآنية الناطقة بتسخير الأشياء للإنسان وأفضليته من عامة الحيوان – أن الحيوان لم يؤت تفاصيل المعارف الإنسانية ولا كلف بدقائق التكاليف الإلهية التى كلف بها الإنسان .

ولنرجع إلى متن الآية فقوله تعالى : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) يدل على أن المجتمعات الحيوانية التى توجد بين كل نوع من أنواع الحيوان إنما تأسست على مقاصد نوعيه شعورية يقصدها كل نوع من الحيوان على اختلافها بالشعور والإرادة كالانسان .

وليس ذلك مقصورا على المقاصد الطبيعية أعنى مقاصد التغذى والنمو وتوليد المثل المحدودة بهذه الحياة الدنيا بل ينبسط ذيله على ما بعد الموت ويتهيأ به إلى حياة أخرى ترتبط بالسعادة والشقاوة المرتضعتين من ثدى الشعور والإرادة .

وربما اعترض عليه أن القوم تسلموا أن غير الإنسان من أنواع الحيوان محروم من موهبة الاختيار .

ولذلك يعد أفعال الحيوان كافعال النبات طبيعية غير اختيارية لما يشاهد من حالها أنها لا تملك نفسها من الاقدام على الفعل إذا صادف ما فيه نفعها المطلوب كالهرة إذا رأت فأرة أو الاسد إذا رأى فريسته ، والهرب إذا صادف ما يخافه من عدو غالب كالفأرة إذا رأت هرة

أو الغزالة إذا شاهدت أسدا فلا معنى للسعادة والشقاوة الاختياريتين في الحيوان غير الإنسان .

(304/231)

لكن التأمل في معنى الاختيار والحالات النفسية التى يتوسل بها الإنسان إلى إتيان أفعاله الاختيارية يدفع هذه الشبهة وذلك أن الشعور والإرادة الذين يتم بهما فعل الإنسان الاختياري بالحقيقة إنما أودعا في الإنسان مثلا لأنه نوع شعوري يتصرف في المادة الخارجية للانتفاع بها في بقاء وجوده بتمييز ما ينفعه مما يضره ، ولذلك جهزته العناية الإلهية بالشعور والإرادة فهو يميز بشعوره الحى ما يضره مما ينفعه فإذا تحقق النفع أراد ففعل فما كان من الأمور بين النفع ولا يحتاج في الحكم بكونه مما ينتفع به إلى ازيد من وجدانه وحصول العلم به أراده من فوره وفعله وتصرف فيه من غير توقف كما في موارد الملكات الراسخة غالبا مثل التنفس ، وأما ما كان من الامور غير بين النفع موسوما بنقص من الأسباب أو محفوفا بشئ من الموانع الخارجية أو الاعتقادية لم يكف مجرد العلم بتحققه في إرادته وفعله لعدم الجزم بالانتفاع به .

فهذه الامور هي التى يتوقف الانبعاث إليها إلى التفكر مثلا فيها من جة ما معها من النواقص

والموانع والتروى فيها ليميز بذلك أنما هل هي من قبيل النافع أو الضار ؟ فإن أنتج التروي كونها نافعة ظهرت الإرادة متعلقة بها وفعلت كما لو كانت بينه النفع غير محتاجة إلى التروي فيها ، وذلك كالانسان الجائع إذا وجد غذاء يمكنه أن يسد به خلة الجوع فربما شك في أمره أنه هل هو غذاء طيب صالح لأن يتغذى به أو أنه غير صالح فاسد أومسموم أو مشتمل على مواد مضرة ؟ وأنه هل هو ماله نفسه ولا مانع من التصرف فيه كاحتياج مبرم مستقبل أو صوم ونحوه أو مال غيره ولا يجوز التصرف فيه ؟ وحينئذ يتوقف عن المبادرة إلى التصرف فيه ، ولا يزال يتروى حتى يقطع بأحد الطرفين فإن حكم بالجواز كان مصداقا لما ينتفع فلا يتوقع بعد ذلك دون أن يريد فيتصرف فيه .

(305/231)

وإن لم يشك في أمره وكان بينا عنده من أول الأمر أنه طيب صالح للتغذي أراده إذا علم بوجوده من غير ترو أو تفكر ، ولم ينفك العلم به عن إرادة التصرف فيه قطعا .

فمحصل حديث الاختيار أن الإنسان إذا لم يتميز عنده بعض الامور التى يتصرف فيها أنها نافعة أو ضارة ميز ذلك بالتروى والتفكر فاختار أحد الجانبين أو الجوانب وأما لو تميز من أول الأمر أراده ففعله من غير مهل ولم يحتج إلى ترو أصلا فالانسان يختار ما يرى نفعه بترو أو

من غير ترو ولا تروى إلا لرفع الموانع عن الحكم .

ثم إنك إذا تأملت حال أفراد الإنسان المختارين في أفعالهم وجدتهم ذوى اختلاف شديد في مبادى اختيارهم أعنى الصفات الروحيةوالأحوال الباطنية من شجاعة وجبن وعفة وشره ونشاط وكسل ووقار وخفة ، وكذا في قوة التعقل وضعفه وإصابة النظر وخطائه فكثيرا ما يرى الشره نفسه مضطرة مسلوبة الاختيار في موارد يشتهى الانهماك فيها لا يعبأ بأمرها العفيف المتطهر ، وربما يرى الجبان أدنى أذى يصيبه في مهمة أو مقتلة عذرا لنفسه ينفى عنه الاختيار ، ولا يرى الشجاع الباسل الابى عن الضيم الموت الاحمر وأى زجر بدنى أمرا فوق الطاقة ، ولا يرى لاى مصيبة هائلة في سبيل مقاصده من بأس ، وربما اختار السفيه خفيف العقل بأدنى تصور واه ، ولا يرى العاقل اللبيب ترجيح الفعل بإمثال تلك المرجحات إلا تلهيا ولعبا ، وأفعال الصبيان غير المميزين اختيارية معها بعض التروي ولا يعبأ بها وبأمرها البالغ الرشيد ، وكثيرا ما نعد في محاوراتنا فعلا من أفعالنا اضطراريا أو إجباريا إذا قارن إعذارا اجتماعية غير ملزمة بحسب الحقيقة كشارب الدخان يعتذر بالعادة ، والنومة يعتذر بالكسل والسارق أو الخائن يعتذر بالفقر .

(306/231)

وهذا الاختلاف الفاحش في مبادى الاختيار وأسبابه والعرض العريض في مستوى الأفعال الاختيارية هو الذى بعث الدين وسائر السنن الاجتماعية أن يحدوا الفعل الاختياري بما يراه المتوسط من أفراد المجتمع الإنساني اختياريا ، ويبنوا على ذلك صحة تعلق الأمر والنهى والعقاب والثواب ونفوذ التصرف وغير ذلك ، ويعذورا من لم يتحقق فيه ما يتحقق في الفعل الاختياري الذى يأتي به الإنسان المتوسط من المبادى والاسباب ، وهو المتوسط من الاستطاعة والفهم .

فهذا الوسط المعدود اختيارا النافي لاختيارية ما دونه إنما هو كذلك بحسب الحكم الدينى أو الاجتماعي المراعى فيه مصلحة الدين أو الاجتماع وإن كان الأمر بحسب النظر التكويني أوسع من ذلك .

والإمعان فيما تقدم يعطى أن يجزم بأن الحيوان غير الإنسان غير محروم من موهبة الاختيار في الجملة وإن كان أضعف مما نجده في المتوسط من الناس من معنى الاختيار

وذلك لما نشاهده في كثير من الحيوانات وخاصة الحيوانات الاهلية من آثار التردد في بعض الموارد المقرونة بالموانع من الفعل وكذا الكف عن الفعل بزجر أو إخافه أو تربية ، فجميع ذلك يدل على أن في نفوسها صلاحية الحكم بلزوم الفعل والترك ، وهو الملاك في أصل الاختيار وإن كان التروي ضعيفا فيها جدا غير بالغ حد ما نجده في الإنسان المتوسط .

وإذا صح أن الحيوان غير الإنسان لا يخلو عن معنى الاختيار في الجملة وإن كان ضعيفا فمن

الجائز أن يجعل الله سبحانه المتوسط من مراتب الاختيار الموجودة فيها ملاكا لتكاليف مناسبة لها خاصة بها لا نحيط بها ، أو يعاملها بما لها من موهبة الاختيار بنحو آخر لا معرفة لنا به إلا أنه فيها بنحو يصحح الأنعام عليها عند الموافقة ، ومؤاخذتها والانتقام منها عند المخالفة بما الله سبحانه أعلم به .

(307/231)

وقوله تعالى : (ما فرطنا في الكتاب من شئ) جملة معترضة ، وظاهرها أن المفرط فيه هو الكتاب ، لفظ (من شئ) بيان للفرط الذى يقع التفريط به ، والمعنى لا يوجد شئ تجب رعاية حاله والقيام بواجب حقه وبيان نعته في الكتاب إلا وقد فعل من غير تفريط ، فالكتاب تام كامل .

والمراد بالكتاب إن كان هو اللوح المحفوظ الذى يسميه الله سبحانه في موارد من كلامه كتابا مكتوبا فيه كل شئ مما كان وما يكون وما هو كائن ، كان المعنى أن هذه النظامات الامية المماثلة لنظام الإنسانية كان من الواجب في عناية الله سبحانه أن يبنى عليها خلقه الانواع الحيوانية فلا يعود خلقها عبثا ولا يذهب وجودها سدى ، ولا تكون هذه الانواع بمقدار ما لها من لياقة القبول ممنوعة من موهبة الكمال .

فالاية على هذا تفيد بنحو الخصوص ما يفيده بنحو العموم ، قوله تعالى : (وما كان عطاء ربك محظورا) (الاسراء : 20) ، وقوله : (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) (هود : 56) .

وإن كان هو القرآن الكريم وقد سما الله كتابا في مواضع من كلامه ، كان المعنى أن القرآن المجيد لما كان كتاب هداية يهدى إلى صراط مستقيم على أساس بيان حقائق المعارف التى لا غنى عن بيانها في الارشاد إلى صريح الحق ومحض الحقيقة لم يفرط فيه في بيان كل ما يتوقف على معرفته سعاده الناس في دنياهم وآخرتهم كما قال تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ) (النحل : 89) .

(308/231)

ومما يجب أن يعرفه الناس في سبيل تفقه إمر المعاد أن يتبينوا كيفية ارتباط الحشر وهو البعث يوم القيامة على نهج الاجتماع بالتشكل الامى في الدنيا ، وأن ذلك هو الذى يجدونه بين أنفسهم ويجدونه بين سائر الأنواع الحيوانية ، ويترتب عليه دون ذلك فوائد أخرى كالتبصر في توحيد الله تعالى ولطيف قدرته وعنايته بأمر الخليقة والنظام العام الجارى في العالم ، ومن أهم فوائده معرفة أن الموجود آخذ في سلسلته من النقص إلى الكمال ، وبعض

قطعاتها المشتملة على حلقات الحيوان الشامل للإنسان وما دونه مراتب مختلفة مترتبة آخذة من المراتب القاطنة في أفق النبات إلى المراتب المجاورة لمرتبة الإنسان ثم الإنسان .

وقد ندب الله سبحانه الناس إلى معرفة الحيوان والنظر في الآيات المودعة في وجوده أبلغ الندب ، وعد ذلك موصلا إلى أفضل النتائج العلمية الملازمة للسعادة الإنسانية وهو اليقين بالله سبحانه حيث قال : (وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) (الجاثيه : 4) ، والآيات في الحث على النظر في أمر الحيوان كثيرة في القرآن الكريم .

ومن الممكن أن يشار في الآية إلى كلا المعنيين فيراد في الكتاب مطلق الكتاب ، ويكون المعنى أن الله سبحانه لا يفرط فيما يكتب من شئ ، أما في كتاب التكوين فإنه يقضى ويقدر لكل نوع ما في استحقاقه أن يناله من كمال الوجود كالانواع الحيوانية هيأ لكل منها من سعادة الحياة الاممية الاجتماعية ما هيأه للإنسان لما رأى من صلوحها لذلك فلم يفرط في أمرها ، وأما في كتابه الذى هو كلامه الموحى إلى الناس فإنه يبين فيه ما في معرفته خير الناس وسعادة عاجلهم وآجلهم ولا يفرط في ذلك ، ومن ذلك أنه لم يفرط في أمر الأمم الحيوانية ، ويبين في هذه الآية حقيقة ما وهبه لها من نوع السعادة الوجودية التى جعلتهم امما حية سائرة بوجودها إلى الله سبحانه محشورة إليه كالانسان .

(309/231)

وقوله تعالى : (ثم إلى ربهم يحشرون) بيان لعموم الحشر لهم وأن حياتهم الموهوبة نوع حياة تستتبع الحشر إلى الله كما أن الحياة الإنسانية كذلك ، ولذلك أرجع الضمير المستعمل في أولى الشعور والعقل ، فقال : (إلى ربهم يحشرون) إشارة إلى أن أصل الملاك وهو المر الذى يدور عليه الرضا والسخط والإثابة والمؤاخذة موجود فيهم .

وقد وقع في الآية التفات من الغيبة إلى الغيبة بالنسبة إليه تعالى ، والتدبر فيها يعطى أن الصل في السياق الغيبة وإنما تحول السياق في قوله : (ما فرطنا في الكتاب من شئ) إلى التكلم مع الغير لكون المعترضة خطابا خاصا بالنبى صلى الله عليه وآله فلما فرغ منه رجع إلى أصل السياق .

ومن عجيب ما قيل في الآية استدل بعضهم بها على التناسخ وهو أن تتعلق نفس النسان بعد مفارقتها البدن بالموت ببدن واحد من الحيوان يناسبها في الخلق الرذيل الذى رسخ فيها كأن تتعلق نفس المكار ببدن ثعلب ، ونفس المفسد الحقود ببدن الذئب ، ونفس من يتبع سقطات الناس ولا تزال تنتقل من بدن وتعذيب بذلك هذا إن كانت شقية ذات أخلاق رذيلة ، وإن كانت سعيدة تعلقت الموت ببدن سعيد منعم بسعادته من أفاضل أفراد الإنسان ومعنى الآية على هذه : ما من حيوان من حيوان من الحيوانات إلا أمم إنسانية أمثالكم انتقلت بعد الموت إلى صور الحيوانات .

وقد ظهر مما تقدم أن الآية في معزل من هذا المعنى ، على أن ذيل الآية : (ثم إلى ربهم يحشرون) لا يلائم هذا المعنى ، على أن أمثال هذه الأقاويل من وضوح الفساد بحيث لا طائل في التعرض لها والبحث عن صحتها وسقمها .

ومن عجيب ما قيل فيها أيضا : أن المراد بحشر الحيوان موتها فلا بعث بعد ذلك أو مجموع الموت والبعث .

أما الأول فينفيه ظاهر قوله : (إلى ربهم) إذ لا معنى للموت إلى الله ، وأما الثاني فهو من الالتزام بما لا يلزم إذ لا موجب لضم الموت إلى البعث في المعنى ، ولا أن في الآية ما يستوجبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 5 صـ 72 . 83 ﴾

(310/231)

وقال صاحب الأمثل:

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) ﴾

التّفسير

لاتساع البحث حول هذه الآية ، سنبدأ بشرح ألفاظها ، ثمّ نفسّرها بصورة إجمالية ، ثمّ

نتناول سائر جوانبها بالبحث .

"الدّابة" من "دبّ" والدبيب المشي الخفيف ، ويستعمل ذلك في الحيوان والحشرات أكثر ، وقد ورد في الحديث "لا يدخل الجنّة ديبوب" وهو النمام الذي يمشي بين الناس بالنميمة .

"الطائر" كل ذي جناح يسبح في الهواء ، وقد يوصف بها بعض الأُمور المعنوية التي تتقدم بسرعة واندفاع ، والآية تقصد الطائر الذي يطير بجناحيه .

"أُمم" جمع أُمّة ، وهي كل جماعة يجمعهم أمر ما ، كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد .

"يحشرون" من "حشر" بمعنى "الجمع" ، والمعنى الوارد في القرآن يقصد به يوم القيامة ، وخاصة لأنّه يقول: (إِلى ربّهم) .

هذه الآية تستأنف ما جاء في الآيات السابقة من الكلام مع المشركين وتحذيرهم من مصيرهم يوم القيامة ، فتتحدث عن "الحشر" وبعث عام يشمل جميع الكائنات الحية والحيوانات ، فتقول أولا: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إِلاّ أُمم أمثالكم) .

يتّضح من هذا أنّ فصائل الحيوان والطيور أُمم مثل البشر ، غير أنّ للمفسّرين أقوالا مختلفة بشأن وجه الشبه في هذا التمثيل .

بعض يقول: إِنّ التشابه يختص بأسرار خلقتها العجيبة التي تدل على عظمة الخالق سبحانه .

وبعض آخر يرى التشابه في حاجاتها الحياتية المختلفة وفي طرق سد تلك الحاجات وإشباعها .

(311/231)

ومنهم من يعتقد أنّ التشابه كائن في تشابه الإدراك والفهم والمشاعر ، أي أنّ للحيوان والطير أيضاً ـ إدراكه ومشاعره في عالمه الخاص ، ويعرف الله ويسبح له ويقدسه بحسب طاقته ، وإن تكن قوّة إدراكه أدنى ممّا في الإنسان ، ثمّ إنّ ذيل هذه الآية ـ كما سيأتي بيانه ـ يؤيد هذا الرأي الأخير .

ثمّ تقول الآية: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) .

لعل المقصود بالكتاب هو القرآن الذي يضم كل شيء (ممّا يتعلق بتربية الإنسان وهدايته وتكامله) يبيّنه مرّة بياناً عاماً ، كالحث على طلب العلم مطلقاً ، ومرّة بياناً تفصيلياً كالكثير من الأحكام الإسلامية والقضايا الأخلاقية .

ثمّة إحتمال آخر يقول: إنّ المقصود بالكتاب هو "عالم الوجود" إذ أنّ عالم الخليقة مثل الكتاب الضخم ، يضم كلّ شيء ولا ينسى شيئاً .

ليس ثمّة ما يمنع من أن تشمل الآية كلا التّفسيرين ، فالقرآن لم يترك شيئاً تربوياً إلاّ وذكره بين

دفتيه ، كما أنّ عالم الخليقة يخلو من كل نقص وعوز .

وتختم الآية بالقول: (ثمّ إلى ربّهم يحشرون) .

يظهر أنّ ضمير (هم) يعود إلى الدواب والطير على اختلاف أنواعها وأصنافها ، أي أنّ لها ـ أيضاً ـ بعثاً ونشوراً ، وثواباً وعقاباً ، وهذا ما يقول به معظم المفسّرين ، إلاّ أنّ بعض المفسّرين ينكرون هذا ، ويفسّرون هذه الآية والآيات المشابهة تفسيراً آخر ، كقولهم: إنّ معنى "الحشر إلى الله" هو الموت والرجوع إلى نهاية الحياة (1) .

ظاهر الآية يشير ـ كما قلنا ـ إلى البعث والحشر يوم القيامة .

من هنا تنذر الآية المشركين وتقول لهم: إنّ الله الذي خلق جميع الحيوانات ووفر لها ما تحتاجه ، ورعى كل أفعالها ، وجعل لها حشراً ونشوراً ، قد أوجد لكم دون شك بعثاً وقيامة ، وليس الأمر كما تقول تلك الفئة من المشركين من أنّه ليس ثمّة شيء سوى الحياة الدنيا والممات .

---

1 ـ نقل هذا الاحتمال صاحب المنار عن ابن عباس .

ملاحظات :

1 ـ هل هناك بعث للحيوانات ؟

ما من شك أنّ الشّرط الأوّل للمحاسبة والجزاء هو "العقل والإدراك" ويستتبعهما (التكليف والمسؤولية" .

يقول أصحاب هذا الرأي: إنّ لديهم ما يثبت أن للحيوانات إدراكاً وفهماً بمقدار ما تطيق ، ومن ذلك أن حياة كثير من الحيوانات تجري وفق نظام دقيق ومثير للعجب ، ويدلّ على إرتفاع مستوى إدراكها وفهمها ، فمن ذا الذي لم يسمع بالنمل والنحل وتمدّنها العجيب ونظامها المحير في بناء بيوتها وخلاياها ، ولم يستحسن فهمها وإدراكها ؟ فعلى الرغم من أنّ بعضهم يعزوا ذلك كله إلى نوع من الإلهام الغريزي ، فليس ثمّة دليل على أنّ هذه الأعمال تجري بصورة غريزية لا عقلية .

ما الدليل على أنّ هذه الأعمال ـ حسبما يدل ظاهرها ـ ليست ناشئة عن تعقل وإدراك ؟ كثيراً ما يحدث أنّ الحيوان يبتكر ـ إستجابة لظرف من الظروف ـ شيئاً لم يسبق له أن مرّ به وجربه ، فالشاة التي لم يسبق لها أن رأت ذئباً في حياتها تفزع منه أوّل ما تراه وتدرك خطره عليها ، وتتوسل بكل حيلة لدرء خطره عنها .

إن العلاقة التي تتكون بين الحيوان وصاحبه تدريجياً دليل آخر على هذا الأمر ، فكثير من الكلاب المفترسة الخطرة تعامل أصحابها ـ بل وحتى أطفالهم ـ كما يعاملهم الخادم

العطوف .

ويحكى الكثير عن وفاء الحيوانات وعن تقديمها كثيراً من الخدمات الإنسانية ولا شك أنّ هذه أُمور ليس من السهل اعتبارها ناشئة بدافع الغريزة ، إذ إنّ الغريزة تنشأ عنها أعمال رتيبة من طراز واحد باستمرار ، أمّا الأعمال التي تقع في ظروف خاصّة كردود فعل لحوادث طارئة غير متوقعة ، فهذه تكون إلى التعقل والإدراك أقرب منها إلى الغريزة .

(313/231)

نشاهد اليوم أنّ حيوانات مختلفة يجري تدريبها لأغراض متنوعة ، فالكلاب البوليسية تدرب للقبض على المجرمين ، والحمام الزاجل لنقل الرسائل ، وحيوانات أُخرى ترسل لابتياع بعض الحوائج من السوق ، وحيوانات أُخرى للصيد ، وهي كلها تؤدي مهماتها بكل دقة وإتقان (حتى أنّهم افتتحوا مؤخراً مدارس خاصّة لتعليم مختلف الحيوانات) !

فضلا عن ذلك كلّه ، فإنّ هناك بعض الآيات التي تدل ـ بوضوح ـ على أنّ للحيوانات فهماً وإدراكاً ، من ذلك حكاية هروب النمل من أمام جيش سليمان ، وحكاية ذهاب الهدهد إلى منطقة سبأ باليمن ورجوعه بأخبار مثيرة لسليمان .

ثمّة أحاديث إسلامية كثيرة حول بعث الحيوانات ، من ذلك ما روي عن أبي ذر قال: بيّنا أنا

عند رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إذ انتطحت عنزان ، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) "أتدرون فيما انتطحتا ؟" فقالوا : لا ندري ، قال: "ولكن الله يدري وسيقضي بينهما"(1) .

وفي رواية بطرق أهل السنة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في تفسير هذه الآية أنّه قال: "إنّه يحشر هذه الأُمم يوم القيامة ويقتص من بعضها لبعض حتى يقتص للجماء من القرناء"(2) .

وفي الآية (5) من سورة التكوير يقول سبحانه: (وإذا الوحوش حشرت) وهي دليل آخر على ذلك .

2 ـ الحشر والتكليف:

تطرح هنا مسألة يتوقف فهم الآية عليها ، وهي هل أن مقولة تكليف الحيوانات معقولة ، مع أنّ من شروط التكليف العقل ، ولهذا لا يكون الطفل والمجنون مكلّفين ؟ فهل للحيوانات ذلك العقل الذي يؤهلها للتكليف ؟ وهل يمكن أن نعتبر الحيوان أكثر عقلا وإدراكاً من الصبي غير البالغ ومن الجنون ؟ فإذا لم يكن له مثل هذا العقل والإدراك ، فكيف يجوز أن يكلّف ، وبأي تكليف ؟

---

1 ـ تفسير مجمع البيان ، ونور الثقلين في تفسير الآية المذكورة .

2 ـ تفسير المنار ، ذيل الآية ، والجماء عكس القرناء : الحيوان الفاقد للقرن .

للجواب على هذه السؤال نقول: إنّ للتكليف مراحل ودرجات ، وكل مرحلة تناسب درجة معينة من العقل والإدراك ، وانّ التكاليف الكثيرة المفروضة في القوانين الإسلامية على الإنسان تتطلب مستوى رفيعاً من العقل والإدراك لإنجازها ، ولا يمكن أن نفرض مثل تلك التكاليف على الحيوانات طبعاً ، لأنّ الشرط المطلوب لإنجازها غير متوفر في الحيوانات ، إلاّ أنّ مرحلة من التكاليف البسيطة التي يكفي لها ما يناسبها من الفهم والإدراك يمكن تصورها وقبولها في الحيوان ولا يمكن إنكارها ، بل من الصعب أن نرفض كل تكليف بشأن الأطفال والمجانين القادرين على فهم بعض المسائل ، فالصبي الذي لم يبلغ سن الرشد ـ كأن يكون عمره 14 سنة مثلا ـ لو ارتكب جريمة قتل ، وهو عالم بكل أضرار هذا العمل ، فلا يمكن اعتباره بريئاً ، والقوانين الجزائية في العالم تضع عقوبات على بعض جرائم الأطفال غير البالغين ، وإن كانت العقوبات أخف طبعاً .

وعليه ، فإنّ البلوغ واكتمال العقل من شروط التكليف في المراحل العليا المتكاملة ، أمّا في المراحل الأدنى ، أي في الذنوب التي لا يخفى قبحها حتى على من هم أدنى مرتبة ، فان البلوغ والتكامل العقلي ليسا شرطاً لازماً .

فإذا أخذنا اختلاف مراحل التكليف واختلاف مراتب العقل بنظر الاعتبار ، يمكن حل قضية الحيوانات أيضاً بهذا الشأن .

3 ـ هل تدل هذه الآية على التناسخ ؟

من العجيب أن بعض مؤيدي فكرة "التناسخ" الخرافية يتخذون من هذه الآية دليلا على صحة فكرتهم ، ويقولون: يفهم من الآية أنّ الحيوانات أُمم مثلكم ، مع أنّنا نعلم أنّها ذاتياً ليست مثلنا ، فيمكن إذن القول بأن أرواح البشر التي تفارق أبدانها تحل في أبدان الحيوانات ، وبهذا الشكل تنال الأرواح المذنبة العقاب .

(315/231)

ولكن على الرغم من أنّ فكرة التناسخ تناقض "قانون التكامل" ولا تتفق مع منطق العقل ، وتستوجب إنكار "المعاد" (كما سبق شرحه في موضعه) ، فانّ هذه الآية لا تدل على التناسخ مطلقاً ، إذ إنّ المجتمعات الحيوانية ـ كما قلنا ـ تشبه المجتمعات البشرية ، وهو شبه بالفعل لا بالقوّة ، لأن للحيوانات نصيبها من الفهم والإدراك ، ونصيبها من المسؤولية أيضاً ، ومن ثمّ نصيبها من البعث والحساب ، أنّها تشبه الإنسان في هذه الحالات .

ينبغي أن نعرف أنّ التكاليف والمسؤوليات الملقاة على الحيوانات في مرحلة خاصّة لا تعني

أنّ لها إماماً وقائداً وشريعة وديناً كما ذهب اليه بعض أصحاب التصوف ، فهي لا يقودها سوى إدراكها الباطني ، أي أنّها تدرك بعض الأُمور ، فتكون مسؤولة عنها بقدر إدراكها لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 4 صـ 270.276 ﴾

(316/231)

كلام نفيس للإمام ابن القيم في الهدى والضلال ومراتبهما والمقدور منهما للخلق وغير المقدور لهم

قال عليه الرحمة :

هذا المذهب هو قلب أبواب القدر ومسائله فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال وكل نعمة دون نعمة الهدى وكل مصيبة دون مصيبة الضلال وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأن الهدى والإضلال بيده لا بيد العبد وأن العبد هو الضال أو المهتدي فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه ولا بد قبل الخوض في تقرير ذلك من ذكر مراتب الهدى والضلال في القرآن فأما مراتب الهدى

فأربعة:إحداها : الهدى العام وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها وهذا أعم مراتبه ، المرتبة الثانية: الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وهذا خاص بالمكلفين وهذه المرتبة أخص من المرتبة الأولى وأعم من الثالثة ، المرتبة الثالثة: الهداية المستلزمة للاهتداء وهي هداية التوفيق ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى وإرادته والقدرة عليه للعبد وهذه الهداية التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، المرتبة الرابعة: الهداية يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار .

فصل: فأما المرتبة الأولى فقد قال سبحانه: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ فذكر سبحانه أربعة أمور عامة الخلق والتسوية والتقدير والهداية وجعل التسوية من تمام الخلق والهداية من تمام التقدير قال عطاء "خلق فسوى أحسن ما خلقه وشاهده قوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل

(317/231)

بالتناسب والاعتدال فالخلق الإيجاد والتسوية إتقانه وإحسان خلقه" وقال الكلبي "خلق كل ذي روح فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين" وقال مقاتل" خلق لكل دابة ما

يصلح لها من الخلق" وقال أبو إسحاق "خلق الإنسان مستويا" وهذا تمثيل وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ وقال: ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته: ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير فتأمل ذلك فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية كما أن الجهل والصمم والعمى والخرس والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها وتمام هذا يأتي إن شاء الله في باب دخول الشر في القضاء عند قول النبي صلى الله عليه وسلم: "والشر ليس إليك" والمقصود أن كل

مخلوق فقد سواه خالقه سبحانه في مرتبة خلقه وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له

(318/231)

فصل: وأما التقدير والهداية فقال مقاتل "قدر خلق الذكر والأنثى فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها" وقال ابن عباس والكلبي وكذلك قال عطاء "قدر من النسل ما أراد ثم هدى الذكر

للأنثى" واختار هذا القول صاحب النظم فقال: "معنى هدى هداية الذكر لإتيان الأنثى كيف يأتيها" لأن إتيان ذكران الحيوان لإناثه مختلف لاختلاف الصور والخلق والهيآت فلولا أنه سبحانه جبل كل ذكر على معرفة كيف يأتي أنثى جنسه لما اهتدى لذلك وقال مقاتل أيضا: "هداه لمعيشته ومرعاه" وقال السدي: "قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج" وقال مجاهد: "هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة" وقال الفراء: "التقدير فهدى وأضل فاكتفى من ذكر أحدهما بالآخر" قلت: الآية أعم من هذا كله وأضعف الأقوال فيها قول الفراء إذا المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان في معاشه ليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيئته وهو نظير قوله: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه وما ذكر مجاهد فهو تمثيل منه لا تفسير مطابق للآية فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله ناطقه وبهيمه طيره ودوابه فصيحه وأعجمه وكذلك قول من قال أنه هداية الذكر لإتيان الأنثى تمثيل أيضا وهو فرد واحد من أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله وكذلك قول من قال هداه للمرعى فإن ذلك من الهداية فإن الهداية إلى التقام الثدي عند خروجه من بطن أمه والهداية إلى معرفته أمه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبت والهداية إلى قصد ما ينفعه من المرعى دون ما يضره منه وهداية الطير والوحش والدواب إلى

الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان كهداية النحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها ثم عودها إلى

(319/231)

بيوتها من الشجر والجبال وما يغرس بنو آدم وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميرا ومدبرا وهو اليعسوب وهو أكبر جسما من جميع النحل وأحسن لونا وشكلا وإناث النحل تلد في إقبال الربيع وأكثر أولادها يكن إناثا وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها بل إما أن تطرده وإما أن تقتله إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك وذلك أن الذكر منها لا تعمل شيئا ولا تكسب ثم تجمع الأمهات وفراخها عند الملك فيخرج بها إلى المرعى من المزوج والرياض والبساتين والمراتع في أقصد الطرق وأقربها فيجتني منها كفايتها فيرجع بها الملك فإذا انتهوا إلى الخلايا وقف على بابها ولم يدع ذكرا ولا نحلة غريبة تدخلها فإذا تكامل دخولها دخل بعدها وتواجدت النحل على مقاعدها وأماكنها فيبتدئ الملك بالعمل كأنه يعلمها إياه فيأخذ النحل في العمل ويتسارع إليه ويترك الملك العمل ويجلس ناحية بحيث يشاهد النحل فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار ثم تقتسم النحل فرقا فمنها فرقة تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب وهم حاشية الملك من

الذكورة ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه والشمع هو ثفل العسل وفيه حلاوة كحلاوة التين وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل فينظفه النحل ويصفيه ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها وفرقة تبني البيوت وفرقة تسقي الماء وتحمله على متونها وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعها وقتلها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال وتعديهن ببطالتها ومهانتها وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته فيبنى له بيتا مربعا يشبه السرير والتخت فيجلس عليه ويستدير حوله

(320/231)

طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنه ويجعل النحل بين يديه شيئا يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعاما للملك وخواصه ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال وتبنى بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع كأنها قرأت كتاب أقليدس حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلا مستديرا كاستدارة الرحى ولا يبقى فيه فروج ولا خلل ويشد بعضه بعضا حتى يصير طبقا واحدا محكما لا

يدخل بين بيوته رؤوس الإبر فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين إحداهما : أن لا يكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلا الثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعا ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها بل يبقى فيما بينها فروج خاليه ضائعة وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين فهداها سبحانه على بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطر ولا آلة ولا مثال يحتذى عليه وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها وتأتها ذللا لا تستعصي عليها ولا تضل عنها وأن تجتني أطيب ما في المرعى وألطفه وأن تعود إلى بيوتها الخالية فتصب فيها شرابا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصا تسيح سهلا وجبلا فأكلت من الحلاوات المرتفعة

(321/231)

على رؤوس الأزهار وورق الأشجار فترجع بطانا وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جنته فتعيده حلاوة ونضجا ثم تمجه في البيوت حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفى فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتا وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى فإذا برد الهوى وأخلف المرعى وحيل بينها وبين الكسب لزمت بيوتها واغتذت بما ادخرته من العسل وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة وتسيح في المراتع وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل فإذا أمست رجعت إلى بيوتها وإذا كان وقت رجوعها وقف على باب الخلية بواب منها ومعه أعوان فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقدها فإن وجد منها رائحة منكرة أو رأى بها لطخة من قذر منعها من الدخول وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول فيتفقدهن ويكشف أحوالهن مرة ثانية فمن وجده قد وقع على شيء منتن أو نجس قده نصفين ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية هذا دأب البواب كل عشية وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرا إذا اشتهى التنزه فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ثم يعود إلى مكانه ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها ويتبعه جميع النحل وتبقى الخلية خالية

فإذا رأى صاحبها ذلك وخاف أن يأخذ النحل ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل فيعرفه

(322/231)

باجتماع النحل إليه فإنها لا تفارقه وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودا وهو إذا خرج غضبا جلس على مكان مرتفع من الشجرة وطافت به النحل وانضمت إليه حتى يصير كالكرة فيأخذ صاحب النحل رمحا أو قصبة طويلة ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف ويدنيه إلى محل الملك ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب فيحركه وقد أدنى إليه ذلك الحشيش فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع على الضغث وتبعه خدمه وسائر النحل فيحمله صاحبه إلى الخلية فينزل ويدخلها هو وجنوده ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة ولا تدين لطاعتها والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا وإذا فعلت ذلك جاد العسل وتجتهد أن تقتل ما تريد قتلها خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم وبينها وبين العسالة حرب فهي

تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها وتقصد هلاكها والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها فإذا هجمت عليها في بيوتها حاولتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل فلا تقدر على الطيران ولا يفلت منها الآكل طويل العمر فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى فحملتها وألقتها خارج الخلية وقد ذكرنا ان الملك لا يخرج إلا في الأحايين وإذا خرج خرج في جموع من الفراخ والشبان وإذا عزم على الخروج ظل قبل ذلك اليوم أو يومين يعلم الفراخ وينزلها منازلها ويرتبها فيخرج ويخرجن معه على ترتيب ونظام قد دبره معهن لا يخرجن عنه وإذا تولدت عنده ذكران عرف أنهن يتطلبن الملك فيجعل كل واحد منهم على طائفة من الفراخ ولا يقتل ملك منها ملكا آخر لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية وخاف من تفرق النحل بسببهم احتال

(323/231)

عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحدا ويحبس الباقي عنده في إناء ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم حتى إذا حدث بالملك المنصوب حدث مرض أو موت أو كان مفسدا فقتلته النحل أخذ من هؤلاء المحبوسين واحدا وجعله مكانه لئلا يبقى النحل بلا ملك فيتشتت أمرها ومن عجيب أمرها أن الملك إذا خرج متنزها ومعه الأمراء والجنود ربما لحقه إعياء فتحمله

الفراخ وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة فالكرام دائما تطردها وتنفيها عن الخلية ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير وتكره النتن والروائح الخبيثة وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادا من الكبار وأقل لسعا وأجود عسلا ولسعها إذا لسعت أقل ضررا من لسع الكبار ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه قد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته لما لم يشركها فيه غيرها وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان أعداء وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة وهذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم

فصل: وهذه النمل من أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب شيء فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها لطريق فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان

(324/231)

فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوما ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته إليها ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ثم أتت بالاسم المبهم ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك وهذا من أعجب الهداية وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ودل على أن ذلك الوادي معروفا بالنمل كوادي السباع ونحوه ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم ثم قالت لا يحطمنكم سليمان وجنوده فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها ثم قالت وهم لا يشعرون

فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم ولذلك تبسم نبي الله ضاحكا من قولها وأنه لموضع تعجب وتبسم وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه

(325/231)

وسلم: "نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد" وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نزل بني من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة" وذكر هشام بن حسان: "أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد ثم قال لتنتهن أو ليحرقن عليكن ونفعل ونفعل قال فذهبن" وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال قال أبو موسى الأشعري: "إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: "خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فأذاهم بنملة

رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم" ولهذا الأثر عدة طرق ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره وقال الإمام أحمد حدثنا قال: "خرج سليمان بن داؤد يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنا عن سقياك ورزقك فأما أن تسقينا وترزقنا وإما أن تهلكنا فقال ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم" ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها قال فرفعت ذلك من الأرض فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها قال فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعته فطافت فلم تجده فانصرفوا قال فعلت ذلك مرارا فلما كان في المرة الأخرى استدار

(326/231)

النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوا عضوا قال شيخنا وقد حكيت له هذه الحكاية فقال هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل

سنة قالت ثلاث حبات من الحنطة فأمر بإلقائها في قارورة وسد فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعد ما قالت ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة فقال أين زعمك أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات فقالت: نعم ولكن لما رأيتك مشغولا بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي فعجب سليمان من شدة حرصها وهذا من أعجب الهداية والعطية ومن حرصها أنها تكد طوال الصيف وتجمع للشتاء علما منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره فتحلمه وتذهب به وإن كان أكبر منها فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى حجرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضا حتى يتساعدوا على حمله ونقله وهي تأتي إلى السنبلة

فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها وإن وجدتها شعيرا فلا ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف

(327/231)

وزنها وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائدا يطلب الرزق فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئا لنفسها دون صواحباتها ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرا ويملأه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقي نفسها عليه وجربنا نحن ذلك وأحمى صانع مرة طوقا بالنار ورماه على الأرض ليبرد واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق وكان ذلك مركزا له وهو أبعد مكان من المحيط .

فصل: وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاءه

بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال أحطت بما لم تحط به وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن فلذلك قال وجئتك من سبأ بنبأ يقين والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت

(328/231)

قلب المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفا مؤكدا بأدلة التأكيد فقال إني وجدت امرأة تملكهم ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجل الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه وأنه عرش عظيم ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم

حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض قال صاحب الكشاف "وفي إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض جلت قدرته ولطف علمه ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله فما عمل آدمي عملا إلا ألقى الله عليه رداء عمله" .

فصل: وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية حتى قال الشافعي: "أعقل الطير الحمام" وبرد الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب ربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره لأنه يذهب

(329/231)

ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيما فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السفاد وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها والإناث عن ذكورها ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها ويتعرفون صحة طرقها ومحلها لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكرا من عرض الحمام فتعتريها الهجنة والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حماما ساقطا لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها ويقولون هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه وهو أشد متنا وأقوى بدنا وأحسن اهتداء وطائفة منهم يختار لذلك الإناث ويقولون الذكر إذا سافر وبعد عهده حن إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها فيترك المسير ومال إلى قضاء وطره منها وهدايته على قدر التعليم والتوطين والحمام موصوف باليمن والألف للناس ويحب الناس ويحبونه ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه ويعود إليه من مسافات بعيدة وربما صد فترك وطنه عشر حجج وهو ثابت على الوفاء حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه والحمام إذا

أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف فيبدأ بنشر ذنبه وإرخاء جناحه ثم يدنو من الأنثى فيهدر لها ويقبلها ويزفها وينتفش

(330/231)

ويرفع صدره ثم يعتريه ضرب من الوله والأنثى في ذلك مرسلة جناحها وكتفها على الأرض فإذا قضى حاجته منها ركبته الأنثى وليس ذلك في شيء من الحيوان سواه وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد يقدم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان فيعملان منه أفحوصة وينسجانها نسجا متداخلا في الوضع الذي يكون بقدر حيمان الحمامة ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة لئلا يتدحرج عنها البيض ويكون حصنا للحاضن ثم يتعاودان ذلك المكان ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه ويطيبانه وينفيان طباعه الأول ويحدثان فيه طبعا آخر مشتقا ومستخرجا من طباع أبدانهما ورائحتهما لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان ووضعت فيه البيض فإن أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تسقط من الفزع فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحضن حتى إذا

بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه انصدع عن الفرخ فأعاناه على خروجه فيبدآن أولا بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حوصلته علما منهما بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء فتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفتق بعد ارتقاقها ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئا فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء وفيه قوى الطعم ثم يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية لتكون لها بعض المتانة فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو ويزقانه الفرخ ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ وهو يطلب ذلك منهما حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط ويعتاده وإذا علما أن رئته في قويت ونمت وأنهما إن فطماه فطما تاما قوي على اللقط وتبلغ

(331/231)

لنفسه ضرباه إذا سألهما الزق ومنعاه ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما وينسيان ذلك التعطف المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بنفسه والتكسب ثم يبتدآن العمل ابتداء على ذلك النظام والحمام يشاكل الناس في أكثر طباعه ومذاهبه فإن من إناثه أنثى لا تريد إلا زوجها وفيه أخرى لا تريد لامس وأخرى لا تنال إلا بعد الطلب الحثيث وأخرى تركب

من أول وهلة وأول طلب وأخرى لها ذكر معروف بها وهي تمكن ذكرا آخر منها إذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها وأخرى تمكن من يغنيها عن زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره وأخرى تعمط الذكر وتدعوه إلى نفسها وأنثى تركب أنثى وتساحقها وذكر يركب ذكرا ويعسفه وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام وفيها من لا تبيض وإن باضت أفسدت البيضة كالمرأة التي لا تريد الولد كيلا يشغلها عن شأنها وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر أي ذكر كان أسرعت هاربة ولا تواتي غير زوجها البتة بمنزلة المرأة الحرة ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها ثم ينتقل عنها إلى غيرها وكذلك الأنثى توافق ذكرا آخر عن زوجها وتنتقل عنه وإن كانوا جميعا في برج واحد ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر فتعايرهم كلهم حتى إذا غلب واحد منهم لرفيقه وقهره مالت إليه وأعرضت عن المغلوب وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم: "رأى حمامة تتبع حمامة فقال شيطان يتبع شيطانه" ومنها ما يزق فراخه خاصة ومنا ما فيه شفقة ورحمة بالغة يزق فراخه وغيرها ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس لئلا يعرض لها من

(332/231)

يصدها ولا يرد مياههم بل يرد المياه التي لا يردها الناس ومن هدايتها أيضا أنه إذا رأى الناس في الهواء عرف أي صنف يريده وأي نوع من الأنواع ضده فيخالف فعله ليسلم منه ومن هدايته أنه في أول نهوضه يغفل ويمر بين النسر والعقاب وبين الرخم والبازي وبين الغراب والصقر فيعرف من يقصده ومن لا يقصده وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب والحمار عند مشاهدة الأسد ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى وجلب القوت والزق على الذكر فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم والأم هي التي تحبل وتلد وترضع ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ أن رجلا كان له زوج حمام مقصوص وزوج طيار وللطيار فرخان قال ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما قال فحبسني السلطان فجأة فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام ولم أشك في موتهما لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة وليس عندهما ما يأكلان ويشربان قال فلما خلى سبيلي لم يكن لي هم غيرهما ففتحت البيت فوجدت الفراخ قد كبرت ووجدت المقصوص على أحسن حال فعجبت فما لبث أن جاء الزوج الطيار فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهم فانظر إلى هذه الهداية فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفراخ للأبوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش فعلا كفعل الفرخين فأدركتهما رحمة الطيارين فزقاهما كما يزقان فرخيهما ونظير

ذلك ما ذكره الجاحظ وغيره قال الجاحظ: "وهو أمر مشهور عندنا بالبصرة أنه لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق منهم أحد فعمدوا إلى باب الدار فسدوه وكان قد بقي صبي صغير يرضع ولم يفطنوا له فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم ففتح الباب فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراء

(333/231)

كلبة قد كانت لأهل الدار فراعه ذلك فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار فلما رآها الصبي حبا إليها فأمكنته من أطبائها فمصها وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه ورأى جراء الكلبة يرتضعون من أطباء الكلبة حبا إليها فعطفت عليه فلما سقته مرة أدامت له ذلك وأدام هو الطلب ولا يستبعد هذا" وما هو أعجب منه فإن الذي هدى المولود إلى مص إبهامه ساعة يولد ثم هداه إلى التقام حلمة ثدي لم يتقدم له به عادة كأنه قد قيل له هذه خزانة طعامك وشرابك التي كأنك لم تزل بها عارفا وفي هدايته للحيوان إلى مصالحة ما هو أعجب من ذلك ومن ذلك أن الديك الشاب إذا لقي حبا لم يأكله حتى يفرقه فإذا هرم وشاخ أكله من غير تفريق كما قال المدائني "إن إياس بن معاوية مر بديك ينقر حبا ولا يفرقه

فقال ينبغي أن يكون هرما فإن الديك الشاب يفرق الحب ليجتمع الدجاج حوله فتصيب منه والهرم قد فنيت رغبته فليس له همة إلا نفسه قال إياس: والديك يأخذ الحبة فهو يريها الدجاجة حتى يلقيها من فيه والهرم يبتلعها ولا يلقيها للدجاجة" وذكر ابن الأعرابي قال: "أكلت حبة بيض مكاء فجعل المكاء يصوت ويطير على رأسها ويدنو منها حتى إذا فتحت فاها وهمت به ألقى حسكة فأخذت بحلقها حتى ماتت" وأنشد أبو عمرو الشيباني في ذلك قول الأسدي:

إن كنت أبصرتني عيلا ومصطلما فربما قتل المكاء ثعبانا

وهداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر حدث عنه ولا حرج ومن عجيب هدايتها أن الثعلب إذا

(334/231)

امتلأ من البراغيث أخذ صوفة بفمه ثم عمد إلى ماء رقيق فنزل فيه قليلا قليلا حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة فيلقيها في الماء ويخرج ومن عجيب أمره أن ذئبا أكل أولاده وكان للذئب أولاد وهناك زبية فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها وحفر فيها سردابا يخرج منه ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم وجلس ناحية ينتظر الذئب فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب

قدامه وهو يتبعه فألقى نفسه في الزبية ثم خرج من السرداب فألقى الذئب نفسه وراءه فلم يجده ولم يطق الخروج فقتله أهل الناحية ومن عجيب أمره أن رجلا كان معه دجاجتان فاختفى له وخطف إحداهما وفر ثم أعمل فكرة في أخذ الأخرى فترأى لصاحبها من بعيد وفي فمه شيء شبيه بالطائر وأطمعه في استعادتها بأن تركه وفر فظن الرجل أنها الدجاجة فأسرع نحوها وخالفه الثعلب إلى أختها فأخذها وذهب ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيها طير فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئا فلم يطق فذهب وجاء بضغث من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير ففزع منه فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى أماكنها فعاد لذلك مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى تواظب الطير على ذلك وألفته فعمد إلى جرزة أكبر من ذلك فدخل فيها وعبر إلى الطير فلم يشك الطير أنه من جنس ما قبله فلم تنفر منه فوثب على طائر منها وعدا به ومن عجيب أمر الذئب أنه عرض لإنسان يريد قتله فرأى معه قوسا وسهما فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه وأقبل نحو الرجل فجعل الرجل كلما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم حتى أعجزه وعاين نفاذ سهمه فصادف من استعان به على طرد الذئب ومن عجيب أمر القرد ما ذكره البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: "رأيت في الجاهلية قردا وقردة زنيا فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا" فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم وهذه البقر يضرب

ببلادتها المثل وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: "أن رجلا بينا هو يسوق بقرة إذ ركبها فقالت لم أخلق

(335/231)

لهذا فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم فقال فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم قال وبينا رجل يرعى غنما له إذ عدا الذئب على شاة منها فاستنقذها منه فقال الذئب هذه استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري فقال الناس سبحان الله ذئب يتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم" ومن هداية الحمار الذي هو من أبلد الحيوان أن الرجل يسير به ويأتي به منزله من البعد في ليلة مظلمة فيعرف المنزل فإذا خلى جاء إليه ويفرق بين الصوت الذي يستوقف به والصوت الذي يحث به على السير ، ومن عجيب أمر الفأر أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلا الجرة فنقص وعز عليها الوصول إليه ذهبت وحملت في أفواهها ماء وصبته في الجرة حتى يرتفع الزيت فتشربه والأطباء تزعم أن الحقنة أخذت من طائر طويل المنقار إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح وأخذ بمنقاره منه واحتقن به فيخرج الذرق بسرعة وهذا الثعلب إذا اشتد به الجوع انتفخ ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة فتتداوله الطير فلا

يظهر حركة ولا نفسا فلا تشك أنه ميت حتى إذا نقر بمنقاره وثب عليها فضمها ضمة الموت وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكلا الأفاعي والحيات عمدا إلى الصتر النهري فأكلاه كالترياق لذلك ومن عجيب أمر الثعلب أنه إذا أصاب القنفذ قلبه لظهره لأجل شوكه فيجتمع القنفذ حتى يصير كبة شوك فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه فإذا أصابه البول اعتراه الأسر فانبسط فيسلخه الثعلب من بطنه ويأكل مسلوخه وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أمورا تنفعه في معاشه وأخلاقه

(336/231)

وصناعته وحربه وحزمه وصبره وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ قال أبو جعفر الباقر والله ما اقتصر على تشبههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منها فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياما تهرب به من الذر والنمل لأنها تضعه كقطعة من لحم فهي تخاف عليه الذر والنمل فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد وقال ابن الأعرابي: "قيل لشيخ من قريش من علمك هذا كله وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب قال: علمني الله ما علم الحمامة تقلب بيضها

حتى تعطي الوجهين جميعا نصيبهما من حضانتها ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد " وقيل لآخر: "من علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها قال: من علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط ثم تصعد ثم تسقط مرارا عديدة حتى تستمر صاعدة" وقيل لآخر: "من علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به قال من علم الطير تغدو خماصا كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها لا تسأم ذلك ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض" وقيل لآخر: "من علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته فقال الذي علم السهر أن ترصد جحر الفأرة فلا تتحرك ولا تتلوى ولا تختلج كأنها ميتة حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد " وقيل لآخر: "من علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون قال من علم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة والمشي والتعب وغلظة الجمال وضربه فالثقل والكل على ظهره ومرارة الجوع والعطش في كبده وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه ولا يعدل به ذلك عن الصبر" وقيل لآخر: "من علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل قال من علم الديك يصادف الحبة في

(337/231)

الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلبا حثيثا حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به وإذا وضع له الحب الكثير فرقه هاهنا وهاهنا وإن لم يكن هناك دجاج لأن طبعه قد ألف البذل والجود فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام" وقيل لآخر: "من علمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله قال من علم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها وهي أكثر من أن تذكر" ومن علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب عفى أثر مشيته بذنبه ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه فينفخ في منخريه لأن اللبؤة تضعه جروا كالميت فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع ومن علم الأسد أن يخضع للبر ويذل له إذا اجتمعا حتى ينال منه له ومن عجيب أمره أنه إذا استعصى عليه شيء من السباع دعا الأسد فأجابه إجابة المملوك لمالكه ثم أمره فربض بين يديه فيبول في أذنيه فإذا أراد السباع ذلك أذعنت له بالطاعة والخضوع ومن علم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقي على ظهره ويختلس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ فيظن الظان أنه ميتة فيقع عليه فيثب على من انقضى عمره منها ومن علمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم ومن علم الدب إذا أصابه كلم أن

يأتي إلى نبت قد عرفه وجهله صاحب الحشائش فيتداوى به فيبرأ ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه لأنها دون

(338/231)

الحيوانات لا تلد إلا قائمة لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان وهي عالية فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق فتأتي ما وسطها تضعه فيه فيكون كالفراش اللين والوطاء الناعم ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر ومن علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره والذكر من الأنثى فيقصد الذكر مع علمه بأن عدوه أشد وأبعد وثبة ويدع الأنثى على نقصان عدوها لأنه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطا أو شوطين حقن ببوله وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو فيقل عدوه فيدركه كالكلب وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج فيدوم عدوها ومن علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف فيعلم أن تحته جحر الأرنب فينبشه ويصطادها علما منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوبا بين عينيه فينام بإحداهما حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة حتى

قال بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

(339/231)

ومن علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمة وحركة حتى يطير معهم قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط فأومئ بيدي كأني أرميه فلا يطير وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئًا فلا يتحرك فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي ومن علم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش وأن يقيما له حروفا تشبه الحائط ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى ثم يقلبان البيض في الأيام ومن قسم بينهما الحضانة والكد فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى وأكثر ساعات جلب القوت على الأب وإذا خرج الفرخ علما ضيق حوصلته عن الطعام فنفخا فيه نفخا متداركا حتى تتسع حوصلته ثم يزقانه اللعاب أو شيئًا قبل الطعام وهو كاللبا للطفل ثم يعلمانه احتياج الحوصلة إلى دباغ فيزقانه من أصل الحيطان من شيء بين الملح والتراب تندبغ به الحوصلة فإذا اندبغت زقاه الحب فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزق

على التدريج فإذا تكاملت قوته وسألهما الكفالة ضرباه ومن علمهما إذا أراد السفاد أن يبتدئ الذكر بالدعاء فتتطارد له الأنثى قليلا لتذيقه حلاوة المواصلة ثم تطيعه في نفسها ثم تمتنع بعض التمنع ليشتد طلبه وحبه ثم تتهادى وتتكسل وتريه معاطفها وتعرض محاسنها ثم يحدث بينهما من التغزل والعشق والتقبيل والرشف ما هو مشاهد بالعيان ومن علم المرسلة منها إذا سافرت ليلا أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلت فإذا عرفت الطريق مرت كالريح ومن علم اللبب وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض ويجمع نفسه فيرى الذبابة أنه لاه عنها ثم يثب عليها وثوب الفهد ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة وتجعل في أعلاها خيطا ثم تتعلق به فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها ومن

(340/231)

علم الظبي أنه لا يدخل كناسة إلا مستدبرا ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخشفه ومن علم السنور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود ثم يشير إليها بالرجوع وإنما يريد أن يدهشها فتزلق فتسقط ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي

حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبوابا عديدة ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزا رقيقا فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضل عنه ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن ثم يظهر ومن علم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى لأن سلاحه قد ذهب فيسمن لذلك فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح وأكثر من الحركة ليشتد لحمه ويزول السمن المانع له من العدو وهذا باب واسع جدا ويكفي فيه قوله سبحانه: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها" وهذا يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون إخبارا عن أمر غير ممكن فعله وهو أن الكلاب أمة لا يمكن إفناؤها لكثرتها في الأرض فلو أمكن إعدامها من الأرض لأمرت بقتلها والثاني: أن يكون مثل قوله: "أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح" فهي أمة مخلوقة بحكمة ومصلحة فإعدامها وإفناؤها يناقض ما خلقت لأجله والله أعلم بما أراد رسوله قال ابن عباس في رواية عطاء: ": ﴿ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ يريد يعرفونني

ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني" مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ومثل قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابّ ﴾ وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ ويدل عليه قوله: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ وقوله: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ﴾ وقول سليمان: ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ وقال مجاهد: "أمم أمثالكم أصناف مصنفة تعرف بأسمائها" وقال الزجاج: "أمم أمثالكم في أنها تبعث" وقال ابن قتيبة: "أمم أمثالكم في طلب الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك" وقال سفيان بن عيينة: "ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم" فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد ومنهم من يعدو عدو الذئب ومنهم من ينبح نباح الكلب ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام عافته فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمه لم يحفظ واحدة منها وإن أخطأ رجل ترواه وحفظه قال الخطابي: "ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة" وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعا لظاهره وجب المصير إلى باطنه وقد

أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة وعدم من جهة النطق والمعرفة فوجب أن يكون منصرفا إلى المماثلة في الطباع والأخلاق وإذا كان الأمر كذلك فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع

(342/231)

فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك انتهى كلامه والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوبا محتالا وبعضها متوكلا غير محتال وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقا مضمونا وأمرا مقطوعا وبعضها يدخر وبعضها لا تكسب له وبعض الذكورة يعول ولده وبعضها لا يعرف ولده البتة وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه

(343/231)

وجعل بعض الحيوانات يتمها من قبل أمهاتها وبعضها يتمها من قبل آبائها وبعضها لا يلتمس الولد وبعضها يستفرغ الهم في طلبه وبعضها يعرف الإحسان ويشكره وبعضها ليس ذلك عنده شيئا وبعضها يؤثر على نفسه وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحدا يدنو منه وبعضها يحب السفاد ويكثر منه وبعضها لا يفعله في السنة إلا مرة وبعضها يقتصر على أنثاه وبعضها لا يقف على أنثى ولو كانت أمه أو أخته وبعضها لا تمكن غير زوجها من نفسها وبعضها لا ترد يد لامس وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النفار وبعضها لا يأكل إلا الطيب وبعضها لا يأكل إلا الخبائث وبعضها يجمع بين الأمرين وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها وبعضها يؤذي من لا يؤذيها وبعضها حقود لا تنسى الإساءة وبعضها لا يذكرها البتة وبعضها لا يغضب وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يسترضى حتى يرضى وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك البتة وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده وبعضها يقبل التعليم بسرعة وبعضها مع الطول وبعضها لا يقبل ذلك بحال وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه وعلى إتقان صنعه وعجيب تدبيره ولطيف حكمته فإن فيما أودعها من غرائب المعارف وغوامض الحيل وحسن التدبير والتأني لما تريده ما يستنطق الأفواه بالتسبيح ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثا ولم يترك سدى وأن له سبحانه في كل مخلوق

حكمة باهرة وآية ظاهرة وبرهانا قاطعا يدل على أنه رب كل شيء ومليكه وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ شفاء العليل صـ 65. 78 ﴾

(344/231)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ : " من " زائدة لوجود الشرطين ، وهي مبتدأ ، و" إلاَّ أمم " خَبَرُهَا مع ما عطف عليها .

وقوله : " في الأرض " صفة لـ " دابة " ، فيجوز لك أن تجعلها في مَحَلِّ جرّ باعتبار اللفظ ، وأ ، تجعلها في محل رفع باعتبار الموضع .

قوله : " ولا طائر " الجمهور على جرِّه نَسَقاً على لفظ " دابةٍ " .

وقرأ ابن أبي عَبْلَةَ برفعها نَسَقاً على موضعها .

وقرأ ابن عبَّاس " ولا طيرٍ " من غير ألف ، وقد تقدَّم الكلام فيه ، هل هو جَمْعٌ أو اسم جمع ؟

وقوله : " يطير " في قراءة الجمهور يَحْتَمِلُ أن يكون في مَحَلِّ جرّ باعتبار لَفْظِهِ ، ويحتمل أن يكون في مَحَلِّ رفع باعتبار موضعه .

وأمّا على قراءة ابن أبي عَبْلَةَ ، ففي مَحَلِّ رفع ليس إلاّ .

وفي قوله : " وَلاَ طَائِر " ذكر خاصّ بعد عامّ ؛ لأن الدَّابَّةَ تشتمل على كُلِّ ما دَبَّ من طائرٍ وغيره ، فهو كقوله : ﴿ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة : 98] وفيه نظر إذ المُقَابَلَةُ هنا تنفي أن تكون الدَّابة تشمل الطائر .

قوله : " بِجَنَاحَيْهِ " فيه قولان :

أحدهما : أن " الباء " متعلّقة بـ " يطير " ، وتكون " الباء " للاسْتِعَانَةِ .

والثاني : أن تتعلَّق بمحذوف على أنها حالٌ ، وهي حالٌ مؤكّدة كما يقال : " نظرت عيني " ، وفيها رفع مجازٍ يُتَوَهَّمُ ؛ لأن الطَّيرانَ يُسْتَعَارُ في السرعة قال : [البسيط]

2156 - قَوْمٌ إذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ . . .

طَارُوا إلَيْهِ زَرَافَاتٍ ووُحْدَانَا

ويطلق الطَّيْرُ على العمل ، قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] .

وقوله : " إلاّ أمم " خَبَرُ المبتدأ ، وجُمِعَ وإن لم يتقدَّمهُ إلاَّ شيئان ؛ لأن المراد بهما الجِنْسُ .

و " أمثالكم " صفة لـ " أمم " ، يعني في الأرزاقِ والآجالِ ، والموت والحياة ، والحشر والنشر

والاقتصاص لمظلومها من ظالمها .

قوله : " من شيءٍ " فيه ثلاثة أُوجه :

أحدهما : أن " مِنْ " زائدة في المفعول به ، والتقدير : ما فرَّطْنا شَيْئاً ، وتضمن " فرطنا " معنى تركنا وأغفَلْنَا ، والمعنى ما أغفلنا ، ولا تركنا شيئاً .

والثاني : أن " مِنْ " تَبْعيضيَّةٌ ، أي : ما تركنا ولا أغْفَلْنَا في الكتاب بعض شيء يحتاج إليه المُكَلِّفُ .

(345/231)

الثالث : أن " من شيء " في مَحَلِّ نصب على المصدرِ ، و" من " زائدة فيه أيضاً .

ولم يُجزْ أبو البقاء غيره ، فإنه قال : " من " زائدة ، و" شيء " هنا واقع موقع المصدرِ ، أي تفريطاً .

وعلى هذا التَّأويل لا يبقى في الآية حُجَّةٌ لمن ظنَّ أن الكتاب يحتوي على ذِكْرِ كل شيء صَريحاً ، ونظير ذلك : ﴿ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : 120] .

ولا يجوز أن يكون بـ " في " ، فلا يتعدَّى بحرف آخر ، ولا يَصِحُّ أن يكون المعنى : ما تركنا في الكتاب من شيء ؛ لأن المَعْنَى على خلافه ، فبان أن التأويل ما ذكرنا .

انتهى .

قوله : " يحتوي على ذِكْرِ كل شيء صريحاً " لم يقل به أحدٌ ؛ لأنه مُكَابرةٌ في الضروريات .

وقرأ الأعرج وعلقمة : " فَرَطْنَا " مُخَفَّفاً ، فقيل : هما بِمَعْنَى وعن النقاش : فَرَطنا : أخَّرْنا ، كما قالوا : " فرط الله عنك المرض " أي : أزاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 122 . 129 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) ﴾

يعني تساوت المخلوقات ، وتماثلت المصنوعات في الحاجة إلى المُنْشِئ : في حال الإبداع ثم في حال البقاء ، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت عن الإيجاد والاختيار ، فما من شيء من عينٍ وأثر ، ورسم وطلل . . إلا وهو على وحدانيته شاهِدٌ ، وعلى كون أنه مخلوق . . دليلٌ ظاهرٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 470 ﴾

(346/231)

من آيات الله في الآفاق

صور من دلائل الهداية الربانية للكائنات الحية

ا.د./ناصر أحمد سنه

كاتب وأكاديمي في جامعة القاهرة.

"قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"(طه:50) .

(هَدَى) فلاناً: هُدىً، وهدياً، وهدايةً: أرشده ودلّه، و(هَدَى) فلاناً الطريق، وله، وإليه: عرّفه وبيَّنه له، و(اهتدى): استرشد، (استَهدَى) فلان: طلب الهُدَي، و(الهُدَى): الرشاد، و(الهادي): من أسماء الله الحسنى، و(الهادي):الدليل(1) . ولقد وردت مادة(هَدَى) ومشتقاتها في القرآن الكريم نحو ثلاثمائة وسبعة عشر (317) مرة(2) .

في كتاب الله تعالي المقروء، والمتعبد بتلاوته، ورد سؤال فرعون: "قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى"(طه:49) فجاء رد نبي الله "موسى" عليه السلام: "قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"(طه:50) . والمتأمل في الكون . . "كتاب الله تعالي المنظور" يجد كماً هائلاً من المشاهد تدل ـ ليس فقط ـ علي نعمة الإيجاد من عدم (الخلق) لما يزيد عن (مليون) نوع من الكائنات الحية، متنوعة الصفات والخصائص والوظائف والتراكيب

والأشكال والألوان الخ. بل أيضاً علي (هداية) الله تعالي لها كي تؤدي دورها ووظيفتها في الحياة علي الوجه الأنسب والأفضل دوماً. إنك. بتأملك هذا. لابد واجداً لكل أمر غاية، ولكل شيء أجلاً، ولكل حادث موعداً، ولكل قدر حكمة: "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (القمر: 49). لقد أفاض كثيرون، وتعددت وتنوعت الدراسات في هذا الشأن، والسطور التالية إنما هي غيض من فيض تلك الصور الدالة علي بديع الهداية الربانية للكائنات الحية.

صور من عالم الأسماك

(347/231)

22- تظل هجرة الأسماك، ثاني كبار المهاجرين بعد الطيور، وهداية الله تعالي لها حين عودتها أو عودة صغارها فيما بعد إلي مواطنها الأصلية مثار دهشة بالغة من المختصين من العلماء. فأسماك الأنقليس أو الحنكليس (رتبة Myxinoided) تقطع بين شهري يناير ومارس من كل عام آلاف الأميال. مهاجرة من مختلف الأنهار والبحيرات العذبة عبر العالم. إلي أعماق المحيط الأطلسي (350-450 متراً) لتضع بيضها وتموت. بيد أن صغارها التي لا تعرف شيئاً عن موطن أمهاتها، تعود أدراجها إليها قاطعة نحو 5000 كم

في رحلة طويلة وعجيبة ورائعة ولم يحدث قط أن ضلت الأنواع الأوربية إلي المياه الأمريكية أو العكس (3)، فمن غير الله تعالي قد "هداها" سبلها ؟ .

صورة لسمك الحنكليس

- هناك الهجرة الشهيرة. من البحار في المياه العذبة. لأسماك السلمون البالغة لوضع البيوض (رتبة Salmoni formes)، والتي تطالعنا بها الصور التلفازية بقفزاتها . تصل إلي 3-4 متر. بالغة الرشاقة والروعة والمرونة . تراها باذلة الجهد الكبير ضد مساقط المياه العاتية، وضد مشاكل سوء التغذية لا يصدها صاد عن غايتها واستمرار نسلها . ذلك النسل من السلمون الصغير الذي يعود ببطء، وفي اتجاه تيار الماء، نزولا إلي البحر في رحلة قد تستمر أربع سنوات . لكنه بعد بلوغه يعود ثانية لنبع النهر العذب الذي فقس فيه سابقاً ليعيد دورة حياة جديدة . فمن غير الله تعالي قد "ألهمها" ذلك ؟ .

- سمكة "أبو شوكة" (طولها 5-6 سم)، لها تصرفات "غريبة"، فهو من بين قيل من الأسماك التي تصنع "عشاً" لها . فللذكر براعة فائقة في بناء عش جحر من الرمل والحشائش والنباتات في المياه الضحلة للبيض الذي تضعه الأنثى (300 بيضة) . كما "لاصطياد" الضحية بطريقة "مبتكرة" "هدي الله تعالي بعض الأسماك لتكوين "أعضاء

ضوئية" تتألق في الظلام وتبرز منها "أشعة ضوئية" تظهر فوق خطمها ، فيجتذب الأسماك الصغيرة نحو فكين فاغرين مستعدين لالتهامها .

(348/231)

صور من عالم البرمائيات والزواحف

- الضفدع "الحداد" ، بل "صانع الفخار" في (أمريكا الجنوبية) ، يصنع إناء من الطين (3010Xسم) علي مدي 2-3 ليالي، لينادي بعدها علي أنثاه لتضع البيض في آمان داخله .

- من الساحل البرازيلي تهاجر سلاحف البحر الخضراء البرازيلية (Chelonia mydas) للتكاثر قاطعة مسافة 2500 كم عابرة المحيط الأطلسي نحو السواحل الإفريقية، وعند جزيرة Ascension تضع بيضها ومن ثم تعود إلي موطنها دون أن تضل طريقها . ويحار العلماء في تفسير تلك الرحلة العجيبة، فهل تترك السلحفاة رائحة معينة تهتدي بها حال عودتها ، أم تسترشد بالتضاريس البحرية، أم بزاوية معينة للشمس بالنسبة للأرض، أم ببوصلة مغناطيسية ؟ ، أم هو "طريق آمن" ؟(4) . من غير الله تعالي هداها سبلها ؟ .

صور للسلحفاة البرازيلية الخضراء

- للحرباء مهارة فائقة في التنكر والتخفي وتغيير لونها (لتصبح بلون صخرة أو جذع شجرة الخ)، ورزقها الله تعالي عينين تتحركان مستقلتين عن بعضهما البعض.

صور من عالم الحشرات

- الحشرات من أكثر الأحياء انتشارا علي سطح الأرض فقد ألهمها الله تعالي مقدرة علي البقاء والتأقلم والتكوين البنيوي والتكاثر ومنازلة الخصوم الخ. ينخر "الزنبور" بإبرته السامة في المركز العصبي "للجندب النطاط" بحيث "يخدره"، ويُفقده وعيه، فلا يستطيع الفرار، كما لا يسبب هلاكه، فيبقي لحما محفوظا تبيض عليه الأنثى، ومن ثم تغطي الحفرة وتموت. بعد أن تكون قد وفرت الغذاء لصغارها قبل أن يولدوا، وهكذا الحال مع كل الزنابير منذ أن خلقهم الله تعالي (5)، فأعظم به من خالق سبحانه وتعالي.

- تماماً في 24 مايو من بلوغه السنة السابعة عشر من عمره، تري ذلك الجراد البالغ - في ولاية "نيو انجلاند" - عادة ما يغادر شقوقه المظلمة تحت الأرض، فيظهر بالملايين في ذلك التوقيت (6).

(349/231)

- حشرة" أبي دقيق" عادة لا تتغذي علي أوراق الكرنب، بل تختاره. دون غيره. لتضع عليه بيضها، ومن ثم تخرج الديدان الصغيرة وتأكل من تلك الأوراق المناسبة لها (7)، فمن أودع في تلك الحشرة "مهارة" حسن اختيار الغذاء المناسب لديدانها ؟ .

- من الذي "هدي" البعوضة لقوانين "ارشميدس" في الطفو، فنجدها تزود كل بيضة من بيوضها بكيسين من الهواء كي تطفو بهما علي سطح الماء ؟ (8) .

- للنحل والنمل في بناء بيوته المعقدة الإنشاء، البالغة الدقة، ذات الغرف والدهاليز والمخازن والبدرومات، "هداية ربانية" لقوانين الهندسة المعمارية . فضلا عن نظام العمل الاجتماعي التعاوني المدهش في تلك الخلايا . فلسبعة أمتار قد يصل ارتفاع عش النمل الأبيض، ونحو 30 ألف بيضة في اليوم من "الملكة"، وما سيتتبعه من بناء غرف جديدة لتسع هؤلاء القادمين الجدد من النمل، فأي هداية وأي جهد وعمل دؤوب مبذول ؟ .

وهذه حشرة "الترميت" الإفريقية تبني بيوتا كالقباب والتلال والمسلات وتزودها بقنوات وفتحات خاصة كي يرتفع الهواء الساخن لأعلي ليحل بدلا منه الهواء البارد من أسفل . إنه بين رائع من حيث تكييف الهواء Air conditioning (9) .

صورة للخلايا التي يصنعها النحل وتظهر الهندسة السداسية العجيبة فتبارك الله أحسن

الخالقين

- العناكب ليست حشرات لكونها تمتلك ثمانية أرجل، وللحشرات ستة فقط، وجسم العناكب مكون من قسمين وليس ثلاثة، لكن لا يغيب عن البال النسق البارع "لشبكة" خيوط بيت العنكبوت "أقوي من الفولاذ، ولزجة تلتصق بها الفرائس من الحشرات" . تلك الخيوط تخرج من عضو "المغزال" في مؤخرة الجسم . بيد أن بيت العنكبوت كبيت من أتخذ من دون الله أولياء "واهن واهن": "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"(العنكبوت: 41) .

(350/231)

- "لا يورث غذاء، بل سلاحا"، فجراد الصحراء الذي يعيش في سورية والشرق الأدنى يتغذي علي نبات Calotrpus procers الذي تحتوي أوراقه علي مادتين سامتين يريدهما الجراد (دون سائر سميات النبات) للدفاع عن نفسه ضد أعدائه . وهو يترك منهما مخزونا بجانب بيضه حتى تفقس حشراته الصغيرة

صورة لخرسنة القطب الشمالي ويظهر في الصورة السفلية مسار الهجرة السنوية من الشمال

إلى الجنوب

فتجد "أسلحة" التي تدافع بهما عن نفسها (10) .

صور من عالم الطيور

- يوجد ما يزيد عن (8000) نوع من الطيور، فهل تعلم أفراخها الطيران أم إن هذه الخاصية "هداية" من الله تعالي ؟ . أجري باحثون ألمان تجربة للإجابة عن مثل هذا السؤال، حيث وضعوا صغار الحمام حديث الفقس في أنابيب ضيق بحيث لا تستطيع تحريك أجنحتها، وعند بلوغها سنا معينة قاموا بإطلاقها فطارت علي الفور(11) . بيد أن سباع الطير ومن يصطاد في الهواء، تساعد صغارها "وتدربهم" - عبر إلقاء قطع الطعام في الهواء - كي "يكتسبون" مهارة إتقان فن القنص في الهواء .

- عبر فصول العام . . مازالت هجرة الطيور، أكبر المهاجرين في الكائنات الحية، إلي حيث الدفء والغذاء، ووضع الأعشاش، وهداية الله تعالي لها حين عودتها أو عودة صغارها بمفردهم فيما بعد إلي موطنهم الأصلي، مثار اهتمام ودهشة بالغين من العلماء والمختصين (12) . فعلي سبيل المثال خرسَنة القطب الشمالي Sterna paradisaea تتكاثر في أقصي شمال أوربا وأمريكا وتهاجر في الخريف جنوبا إلي استراليا وأفريقيا، حيث تبقي حتى فبراير - أبريل، ومن ثم تعود إلي أرض تكاثرها في الشمال، في رحلة فريدة عجيبة لا تصدق، وتبلغ نحو 35.500 كم في السنة الواحدة . فيما يلي جدول يوضح

بعض أنواع الطيور المهاجرة، وأطوال أجسامها (سم)، والمسافات التقريبية التي تقطعها في هجرتها (الكم)(13):

(351/231)

لقد تعددت تفاسير العلماء "لحواس التوجه"، ومدي الدقة في تحديد الاتجاه وأماكن الهجرة، ومن ثم العودة للموطن الأصلي، وصولا للقول بوجود مادة تعمل "كمغناطيس طبيعي" يتوافق مع المجال المغناطيسي للأرض. . ذهاباً وإياباً . إنها ـ من قبل ومن بعد ـ هداية الله لمخلوقاته.

– كانت قد أجريت تجربة للتفريخ الاصطناعي لبيض الدجاج، عبر إحاطته من جميع جوانبه بالحرارة المناسبة ولكن دون تقليب، كما هدي الله تعالي الدجاجة لذلك. لكن مضي موعد الفقس دون خروج الفراريج، وفشلت التجربة. ليعلم فيما بعد أن الدجاجة إنما تقلب بيضها منعاً من ترسب المكونات الأولية للفرخ في الأجزاء السفلي منه، ولذا فهي لا تقوم بتقليب البيض في اليوم الأول وكذا الأخير من فترة الحضانة، فمن هداها لذلك؟ .

– وإذا تركنا الدجاجة وهدايتها في تقليب البيض، فمن الذي هدي الفروج ـ عند موعد فقسه ـ كي يكسر بيضته عند أضعف أجزائها، ومن الذي هدي "العقاب المصري" كي

يلتقط الحصى بمنقاره، ومن ثم يرتفع عاليا كي يسقطها بذكاء، وبخاصية من حدة بصر فائقة علي بيض النعام العصي علي الكسر(14) .

- يقف الطائر المسمي " مالك الحزين " لوقت طويل في الماء، ساكناً هائما لا يأتي بحركات، ليقتنص ببراعة فريسته . ولأهمية الريش (كما المناقير

صورة لحيوان الوطواط

والأقدام) بالنسبة للطائر نري كثيراً من الطيور تستحم في الماء أو (تُدحرج) نفسها فوق التراب، ومن ثم تبدأ في عملية ترتيب وتمشيط ريشها ليبقي في حالة جيدة علي الدوام (15) . فمن علمها ذلك ؟ . أما الطائر الخياط (الهند)، وطيور الأكوام/ الديوك البرية(استراليا)، وطيور السنونو، والخطاف، والرفراف وغيرهم فهم بناءون عجيبون (16)، بارعون في بناء وإنشاء الأعشاش والمساكن بمواصفات و"أمان وتأمين" وحرفية، فمن علمهم تلك الحرفة المدهشة ؟ .

صور من عالم الثدييات

(352/231)

- ضمن مجموعة تصل إلي حوالي (2000) نوع من الوطاويط، الحيوانات الثديية الوحيدة التي تطير، وهي تنشط ليلا وتنام نهاراً، يوجد لدي الخفافيش آكلة الحشرات (Microchiropter) آذان كبيرة نسبياً، وعيون صغيرة جداً، وطيات جلدية معقدة، وناميات علي أنوفها، يري المختصون أنها أساسية لاهتدائها للطيران والتغذية في ظلمة الكهوف العاتية، وذلك عبر رجع الصدى للموجات فوق الصوتية (السونار) . ولقد هداه الله تعالي لتحدد ـ كذلك بسمعها ـ ما إذا كانت هناك من حشرات تقف فوق الأغصان وأسلاك البرق لتصطادها، متفادية العوائق في ذلك الظلام الدامس (17) . كما يتميز "الدلفين" أيضا بحدة سمعه فهو يستطيع أن يعين موضع فريسته بواسطة تريد الصوت الذي "هداه" الله تعالي لاستعماله .

- "القندس" . . "مهندس المملكة الحيوانية" فهو بنّاء عجيب مدهش، هداه الله تعالي لإنشاء السدود والحفر والمساكن . يصل ارتفاع السدود إلي أربعة أمتار ويزيد طولها عن 600 متر، وتشكل المياه خلفه بركة كبيرة .

صورة لقندس يقوم بحمل غصن شجرة لبناء سده، وفي الأسفل سد صناعي أنشأه حيوان القندس الذي هو أقدم بناء للسدود عبر التاريخ

-ترحل الحيتان لمسافات طويلة وهداه الله تعالي لسماع الأصوات تحت سطح الماء لمسافة

3 أميال، فيتعرف أفراد السرب علي بعضه البعض، وعلي الظروف المحيطة (18) .

– فصيلة القطط والكلاب لها من "هداية" الله تعالي نصيب وافر، ففي "حواسها" المختلفة في التعرف على البيئة المحيطة، واستكشافها، ومعرفة مخارجها وأماكن الهروب منها، وبخاصة عندما تدخلها للمرة الأولى. فهي "مُعلِم ماهرٌ" في فنون الصيد والقنص فلديها براعة فائقة في مهاراته، وجسد رشيق، وأطراف مستدقه، وعضلات قوية. .لتجعل من "الفهد الصياد" Acinonyx jubatus أسرع مخلوقات الأرض (نحو 120 كم/ساعة) دون منازع.

(353/231)

– وللكلاب "هداية"، تنعكس في تعدد خدماتها ووفائها للإنسان: حراسة الماشية والمنازل والحدود والأفراد، وإنقاذ المفقودين والمسافرين، وقيادة فاقدي البصر، وفى إغلاق مصابيح الإنارة والغسالات والأبواب وخدمة توصيل بعض الأغراض للمقعدين وذوي الاحتياجات الخاصة، ووسيلة للجر والنقل، ووسيلة للاتصال أيام الحروب والأزمات، ومهمة استكشاف المخدرات والمواد المحظورة، واستكشاف المناجم كأبرع جيولوجي، وفوائد جليلة للبحث العلمي والطبي والجراحي والدوائي كحيوانات للتجارب

(وإن كان ذلك يلقى معارضة كبيرة من جمعيات الرفق بالحيوان) . وأضف إلى ذلك احدث وظيفة تم تدريب الكلاب عليها وهي عملها "كجرس إنذار" يتنبأ بقدوم نوبات الصرع Epilepsy من خلال نبرات وتعبيرات وجوه مخدوميها ، ومن ثم تقفز وتنبح وترقد عند أقدامهم مما يعمل على إيقاظهم وتنبيههم، كما أن بعضها قد تضرب عن الطعام إذا ما مرض صاحبها ، وقد تضحي بحياتها في سبيل إنقاذه من أزماته، فمن الذي "هداها" لتفعل كل هذه الخدمات للإنسان ؟ .

- القطط الأليفة. تلك الحيوانات ذات "الشخصية المستقلة" والتي نادرا ما يسودها "النظام الأبوي" أو "نظام القطيع" ، غالباً ما تعيش منفردة، مستقلة، هانئة بتأملاتها الذاتية، محتفظة ببعض صفاتها البرية، لا تبدى مشاعرها كثير، فهي تمثل نموذجا يحتذي في النظافة العامة وفى التجمل، فهي تقضى ساعات طوال في تنظيف نفسها ، والعناية بشعرها . فمن الذي هداها لمعرفة فلسفة الجمال والقبح ؟ ؟ (19) فنراها لا تترك فضلاتها إلا وقد أهالت عليها التراب، ودفنتها سواء كان ذلك في الطريق أو داخل البيوت حيث موضعها وأطباقها المُعدة لذلك الغرض .

(354/231)

-"الْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (صحيح البخاري، برقم: 2637)، هكذا يُخبر رسولنا صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم عن الخيل، لما لها وظائف متعددة يكللها "هداية" الله تعالي لها في "ذكائها"، وفي "بنيانها" الجسدي. :"والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق النفس إن ربكم لرءوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوا وزينة ويخلق ما لا تعلمون" النحل: 8.5. وجدير بالذكر أن للخيل شأناً رفيعاً في التراث العربي والإسلامي، يذكر الجاحظ: "لم تكن أمة قط أشد عجباً بالخيل، ولا أعلم بها من العرب".

- وللإبل - أيضاً - مكانتها في التراث العربي الإسلامي، وتكفي إشارة القرآن الكريم للنظر وتأمل خلقة الله تعالي لها: "أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت" (الغاشية: 17) وفي هذا الشأن سودت كثير من الدراسات والمقالات. بيد أنه تجدر الإشارة هنا إلي "هداية" الله تعالي لها في أنواعها وسلوكياتها، واقتصادياتها، وكيفية تأقلمها مع بيئتها وظروف معيشتها، وذاكرتها القوية التي تعرف خط السير حتى ولو مضت فيه منذ سنين، فضلاً عن مقاومتها للأمراض، وخصائص ونوعية لحومها، وكمية ومكونات وفوائد ألبانها وأبوالها. كما إن بإمكان المرء أن يتعلم الكثير من "صفاتها وطباعها" مثل: التحمل والصبر والعمل

الدءوب والقناعة والاقتصاد في المأكل والمؤونة، والادخار لما هو قادم، والعطاء حتى في اقسي الظروف.

- مجموعة الحيوانات الرئيسة (الجيبون، والأورانغ أوتان، والغوريلا، والشمبانزي الخ)، وهبها الله تعالي مقدرة "عقلية"، ومستويات مرتفعة من "الذكاء"، و"الذاكرة الجيدة"، واستعداد كبير "للتعلم والدربة"، ومقدرة رائعة علي "التقليد والمحاكاة".

(355/231)

- لعل المجال هنا لا يتسع لعرض الصور العديدة والمتنوعة لهداية الله تعالي للإنسان، . . ماديا ومعنويا، جسداً وروحاً، وكيف لا وهو "خليفة" الله تعالي في أرضه، والمكرم علي كثير من مخلوقاته ـ جلت قدرته ـ: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء: 70). لكن تكفي الإشارة السريعة إلي قوله تعالي: "الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ" (الشعراء: 78)، وقوله تعالي: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" (البلد: 10)، وقوله تعالي: "إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا" (الكهف: 24). ثم تكرار الدعاء في الصلاة: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"

(الفاتحة:6) . يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالي: "لقد وهب الله تعالى الوجود لكل موجود علي الصورة التي أوجده عليها ثم هدي شئ إلي وظيفته التي خلقه لها ، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها ، فكل مخلوق معها لاهتداء الطبيعي الفطري لوظيفته، فالخلق والاهتداء للوظيفة متزامنتان، بيد أن هداية كل شيء لوظيفته مرتبة أعلي من خلقه غفلاً . .إنها أكمل آثار وهبات الألوهية الخالقة المدبرة للوجود . . هبة الخلق علي تلك الصور البديعة، وهبة الهداية لوظيفة المخلوق، كبيراً أو صغيراً، من أضخم الأجسام إلي أصغرها ، ومن أرقي أشكال الحياة في الإنسان إلي الخلية الواحدة"(20) .

وأخيرا وليس آخرا: الغشاء الخلوي . . غشاء "عاقل"

(356/231)

الحيوانات الأوالي: وحيدات الخلية والتي يوجد منها ماينوف علي ثلاثين ألف (30000) نوع . .غشائها الخلوي (كما في خلايا أكبر الكائنات حجماً) به "هداية" لوظائفه الحيوية . .حركة وتغذية وانقساماً ، ويبدو كما لو كان غشاء "عاقلا"(21) . يقول د . زغلول النجار: "لا ريب أن السنن الحاكمة للكون، ولجميع ما فيه ومَن فيه، هي من أمر الله- تعالي-وضمن هدايته، تأكيداً علي حقيقة الخلق، وعلي ربوبية الخالق . فالله-جلت

حكمته. هو رب كل شئ ومليكه وهاديه"(22) .

خلاصة القول

إنهما صفتي "الخلق والهداية" . فالكائنات الحية من الأكثر رقياً .في الأسماك والبرمائيات والزواحف والحشرات والطيور والثدييات. إلي الحيوانات وحيدة الخلية نجدها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت والمكان الصواب، وبالطريقة والنسق الصواب في دلالة واضحة. ليس كما يذهب البعض بدافع من سنن وقوانين وغريزة طبيعية. بل بهداية ربانية: "قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى"(طه:50) .

يمكن التواصل مع المؤلف على الإيميل التالي:

nasenna62@hotmail.com

بقلم: أ.د./ناصر أحمد سنه. . كاتب وأكاديمي في جامعة القاهرة.

ت: 4605542202، محمول: 0101106863

الرقم البريدي: 13411 شبرا الخيمة.

الهوامش والمراجع

1-أنظر: المعجم الوجيز، الصادر عن مجمع اللغة العربية، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، 2005م، مادة"هدي، ص: 647 .

2-راجع: المعجم المفهرس للفاظ القرآن الكريم، وضعه: "محمد فؤاد عبد الباقي"،

دارالحديث،القاهرة،ط3، 1991م.

3-سعيد حوي::"الله جل جلاله"، مكتبة وهبة، ص:54، وأنظر ايضاً د. صبري القباني:"غرائب في مملكة الحيوان"، د.ت، ص 141-147.

4-د. صبري القباني، مرجع سابق، ص:180-181.

5-د. مصطفي محمود: "رأيت الله"، دار المعارف، ط3، 1977م، ص:8، وكذلك سعيد حوي، مرجع سابق، ص:54.

6-سعيد حوي، مرجع سابق، ص:54.

(357/231)

7-د. مصطفي محمود: "لغز الحياة"، دار النهضة العربية،، 1973م، ص:43.

8-المرجع السابق، ص:44.

9-موسوعة كومبي العربية المصورة، دار العالم العربي للطباعة، القاهرة، وكذلك: The Encyclopedia Americana, Vol. 30: pp: 770

10-د. صبري القباني، مرجع سابق، ص: 222-223.

11-المرجع السابق: ص: 297

12- Yuri Dmitriyev: "Animal on a pedestal", Raduga publishers, (1989), pp :161-196.

وأنظر أيضا: "لغز الحياة"، و"غرائب في مملكة الحيوان"، مراجع سابقة.

13- أسرار جسم الإنسان: ترجمة هاشم أحمد محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1999م.

14- لغز الحياة، مرجع سابق :ص:7، وغرائب في مملكة الحيوان، مرجع سابق ص:301.

15- الموسوعة العلمية للناشئة، العدد:8، منشورات دار الجنوب للطباعة، بيروت، ترجمة اسماعيل اليوسف عن الموسوعة الإنجليزية: Children's Encyclopedia

16- أيجور اكيموشكين: "بناؤون عجيبون"، دار ماليش ومكتبة دار الشرق، موسكو، 1978م، ص: 4-10.

17- الموسوعة العلمية للناشئة، مرجع سابق العدد:7.

18- أسرار جسم الإنسان، مرجع سابق، ص:63-71.

19- "رأيت الله" مرجع سابق، ص:6-7، وأنظر: "Animal on a pedestal" مرجع سابق، ص: 294-313.

20-بتصرف من سيد قطب: "في ظلال القرآن"، مجلد، 4، ط 17، 1992م، دار الشروق، مصر، ص 2338 .

21-مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد: 455، رجب 1424هـ، ص: 61-63، وانظر: سعيد حوي، مرجع سابق، ص:44-46 .

22- بتصرف من د . زغلول النجار: "في نور القرآن الكريم . . تأملات في كتاب الله"، الدار المصرية اللبنانية،القاهرة، طبعة 1، 2008م، ص:182 .

0-علمتني الأشواك النباتية الرحمة الإلهية

بقلم الأستاذ الدكتور نظمي خليل أبو العطا موسى

أستاذ علوم النبات في جامعة عين شمس-القاهرة

مدير مركز ابن النفيس للدراسات-البحرين

(358/231)

أخذت الجاروف الصغير وذهبت إلى نبات الصبار الاسطواني Opuntia bigelovii الجميل لأقلب الأرض أسفل منه،انتهيت من المهمة وذهبت لأغسل يدي، وفجأة شعرت بوخز إبري شديد في أصابعي وظهر راحة يدي، نظرت إلى مكان الوخز فرأيت العجب العجاب عشرات الإبر النباتية قد غرست في أصابعي وظهر راحة يدي , أحضرت العدسة المكبرة لأجد غابة من السهام قد رشقت في يدي، أخذت أعالج الأمر مدة ساعات، وأحمرت راحة يدي وزاد الألم، قررت أن أنقل هذا النبات بعيدا عن أماكن وجودي . وفكرت في الأمر كثيرا ، لماذا خلق الله تعالى هذا الشوك المؤذي في هذا النبات ؟ وتمنيت أن يكون هذا النبات خاليا من الأشواك .

صورة لنبات الصبار الأسطواني

مرت الأيام وفي كل يوم كنت أرى نبات الرجلة Portulaca الأملس الناعم وقد قطعت سيقانه وأوراقه بطريقة حادة ومهلكة، ظننت الطيور قد فعلت ذلك، وذات ليلة مررت بجوار نبات الصبار الاسطواني الشوكي Opuntia الذي آذاني فوجدت أعدادا من الفئران تلعب حول النبات , فاستنتجت أن الفئران هي التي أكلت نبات الرجلة الأملس بالليل وأهلكته، ولكنها لم تستطع الإقتراب من نبات الصبار الشوكي، لحظتها علمت حكمة الخالق سبحانه وتعالى في خلق الأشواك لهذا النبات البري الصحراوي، خلقها الله

تعالى حماية له من الأكل والرعي الجائر والهلاك بالقوارض كالفئران والأرانب وباقي الحيوانات الآكلة للنبات ومن عبث الإنسان، من هذا علمت أن كل شيء في الوجود خلق لغاية مقدرة، وبحكمة بالغة، نظرت في الأزهار الجميلة المتباينة الأشكال والألوان والرائحة فعلمت أن الله سبحانه وتعالى خلقها جميلة برائحة طيبة ليستفيد منها الإنسان في الزينة والتعطر والدراسة والغذاء لمعرفة عظمة الله سبحانه وتعالى في الخلق .

(359/231)

نظرت لنبات القرع العسلي أو اليقطين Cucurbita، هذا النبات العشبي الضعيف الساق والمدّاد لأرى تلك الثمرة الضخمة لليقطين وقد رقدت على الأرض وهي متصلة بأمها بحبل سري نباتي تستمد منه الغذاء، ولو كانت هذه الساق قائمة لوجدت الساق صعوبة بالغة في حمل هذه الثمرة الضخمة لأعلى، ولو كانت ساق هذا النبات قائمة خشبية وحملت تلك الثمرة الضخمة لأعلى لوجد الإنسان مشقة في حصادها وقطفها وكانت هناك فرصة لسقوطها على الأرض وتهشمها أو السقوط على رأس الإنسان وإيذاءه . تذكرت نخلة جوز الهند العالية وثمرتها الضخمة، قارنت بين النباتين ودرست وعلمت أن ثمرة جوز الهند ثمرة خفيفة الوزن , لها جدار خشبي سميك يمنع تهشمها إذا

سقطت على الأرض , ولها غلاف ليفي خفيف إسفنجي يحول دون إيذاء رأس الإنسان والحيوان إن سقطت عليه، علمت وتعلمت أن كل شيء في هذا الوجود خلق بحكمة بالغة وبتقدير محكم وبرحمة واسعة .

صورة لنبات القرع

شاهدت شجرة التوت Morus alba وقد نفضت أوراقها في الشتاء لحماية النبات من الطقس البارد القاسي في الشتاء ، وعندما حان موعد خروج الأوراق من براعمها (خروج العين) ، وظهور الأوراق الغضة الرقيقة حان في الوقت نفسه فقس بيض دود القز (دودة الحرير) الدقيقة الصغيرة التي تتغذى على أوراق نبات التوت الغضة الصغيرة، ولو تقدم فقس البيض عن موعده المحدد والمقدر لهلكت الديدان جوعا لعدم وجود أوراق نبات التوت الذي تتغذى عليه، ولو تأخر الفقس لشاخت أوراق نبات التوت وتجلدت وتدعمت وأصبحت عسرة القضم والهضم على الدودة ، ولكن الأوراق والديدان يكبران سويا وتقوى الديدان على قضم تلك الأوراق وهضمها .

صورة لنبات التوت

شاهدت أوراق نبات الكازوارينا Casuarina المستخدم في عمل مصدات الرياح حول المزارع، وجدت ورقته ورقة حرشفية ضامرة حتى لا تؤثر فيها الرياح والحرارة، ووجدت سيقانها الإبرية قد إخضرت وتولت القيام بعملية البناء الضوئي بدلا من تلك الأوراق الحرشفية التي فقدت وظيفتها البنائية الضوئية لغياب اليخضور من أنسجتها ، شاهدت ورقة نبات الكافور Eucalyptus الجلدية الشريطية الموجودة في البيئة الحارة وقد تجلدت أوراقها , وهي أوراق متساقطة بالتناوب لتسقط القديمة التي شاخت وأدت وظيفتها وتحل محلها الأوراق الفتية الشابة لتجابه ظروف الحياة الخارجية القاسية وبفحص قطاع عمودي في أوراق نبات الكافور وجدت الله سبحانه وتعالى قد حمى النسيج الوسطي للورقة بطبقات من الخلايا العمادية الطويلة الملاصقة للبشرة تماما حتى تتقبل صدمة الضوء الساقط وتمتصه وتقلل من حدته على الخلايا الداخلية، وفي المقابل وجدت أوراق نباتات الظل وقد تفلطحت لإقتناص أي كمية من الضوء تسقط عليها ، وقد اختفت الطبقات العمادية المعوقة لوصول الضوء إلى النسيج الوسطي ليتمكن النبات من القيام بعملية البناء الضوئي، ووجدت سيقان نبات العاقول Alhagi أصبحت إبرية قوية شوكية، وسيقان نباتات الظل غضة طرية مفلطحة لتتلائم مع البيئة الظليلة التي توجد فيها ، ووجدت سيقان نباتات العُليق Convolvulus والعنب Vitis والقرع

Cucurbita قد خلق الله سبحانه وتعالى لها معاليق خيطية تستطيع بواسطتها الإلتفاف على الدعامات وتسلقها ، ووجدت ورقة نبات القلقاس Colocacia وقد تفلطحت وكبرت لزيادة مساحة السطح المنتج للمواد النشوية الكربوهيدراتية التي ترسلها إلى السيقان الكورمية تحت الأرض ليأخذها الإنسان ويتغذى عليها .

صورة لورق الكازوارينا

صورة لورق نبات الكافور

صورة لورق نبات القلقاس

(361/231)

وهناك نبات قصب الرمال Ammophila وقد التفت أوراقه كما يلف أوراق نبات الدخان في السيجار لحماية النبات والثغور من البيئة الخارجية القاسية من ناحية الحرارة وشح المياه، وهناك النباتات الصحراوية ذات التراكيب والتحورات المجابهة للبيئة

الصحراوية الجافة الحارة، وفي البيئة الصحراوية نفسها توجد نباتات من دون تحورات لمجابهة تلك العوامل البيئية القاسية، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل هذه النباتات ذات دورة حياة قصيرة بحيث تنبت بذورها وحبوبها وتنمو وتزهر وتثمر قبل حلول فصل الجفاف والحرارة الشديدة , وبذلك هربت تلك النباتات بسيقانها وجذورها وأوراقها وأزهارها الغضة الضعيفة، واستعمرت الأرض ببذورها وحبوبها ذات الجدر والخصائص التركيبية والوظائفية والحيوية المتحملة للظروف البيئية الحارة والجافة والقاسية وقت الجفاف وارتفاع درجة الحرارة، ونشاط الرياح المحملة بالأتربة والرمال .

وعلمتني الأبصال والبصيلات كيف تتخلص من أنصال أوراقها الخضراء بعدما تخزن الغذاء في قواعد تلك الأوراق لتكون مفيدة للإنسان والحيوان والنبات نفسه عند إعادة الأنبات والنمو وإستئناف دورة الحياة النشطة .

وعلمتني أوراق النبات بحوافها المتباينة، وبنصولها المختلفة ، وقواعدها المعجزة وقممها العجيبة، علمتني تلك الأوراق الإبداع في الخلق، مع الجمال وروعة الخلق والتنوع والتباين وكل ما يدل على القدرة الإلهية المعجزة (أنظر موضوعنا الأوراق النباتية من كبرى المعجزات الإلهية في كتابنا معجزات حيوية) حيث الروعة والطلاقة في الخلق، وتعلمت من الأزهار والنورات، والمبايض الزهرية وأغلفتها ، أن الله على كل شيء قدير .

وهكذا علمني نبات الصبار الاسطواني bigelovii Opuntia في هذا الأصيص

الصغير بأشواكه الحادة والقاسية والدامية كيف أرى رحمة الله في الخلق، وروعته في الصنع

فتبارك الله أحسن الخالقين .

أ . د . نظمي خليل أبوالعطا موسى

www.nazme.net

مقالات ذات صلة :

(362/231)

? آية من آيات الله في النحل

? مناقير الطيور آية من آيات الله

? الخلايا البشري آية دالة على الله

? تصرفات الجنين داخل الرحم . . . . . .عالم من الأسرار

للحصول على كامل مقالات الدكتور نظمي خليل أبو العطا في موقعنا أضغط هنا

0-الحشرات جند من أجناد الله

وتستطيع الخنفساء أن تسحب ثقلا يعادل ثقل جسمها 120 مرة

بقلم الدكتور عبد الوهاب عبد المقصود إبراهيم

حقق الإنسان في القرن الأخير تقدما علميا باهرا وتفوقا تكنولوجيا ظاهرا، مكنه من بسط سلطانه وفرض سيطرته على كافة أرجاء المعمورة واستخراج ثرواتها الظاهرة والكامنة ثم استغلالها لتحقيق أمنه ورفاهيته، فها هو ذا يرسل السفن الفضائية والأقمار الاصطناعية، التى تجوب الكون، تسبر أغواره، وتستكشف أسراره، ها هو ذا يجلس متكئا على أريكته في قعر بيته، وبلمسة من أصبعه على جهاز التحكم عن بعد يرى ما يشاء، ويسمع ويتحدث ويتواصل مع من يشاء، وينعم بالدفء في البرد القارص وينعم بالنسيم البارد في الحر القائظ، ويغسل ثيابه ويفتح أبوابه . . . . وعلى الرغم من نجاح الإنسان الباهر في ترويض الوحوش الكاسرة والقضاء على الكثير من الأمراض الفتاكة، على الرغم من كل ذلك وقف هذا الإنسان بلا حول ولا قوة أمام الحشرات . كائنات صغيرة الحجم، لا تعرف الكسل ولا يصيبها الملل أو الوهن، تجوب العالم، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، دون أن تعترف بحدود إقليمية ولا تعبأ بموانع أو سدود أو جنسيات، منها ما يقطن الفيافي والقفار ومنها ما يمخر عباب عذب الأنهار وأجاج البحار .

(363/231)

ومنها ما يمتطي ظهر الريح متى شاء وأنى شاء، ومنها ما يدب على سطح الأرض، ومنها ما يلج في باطنها، تجدها في السهول المنبسطة وعلى قمم الجبال الشاهقة وفى باطن الكهوف المظلمة، منها ما يسكن الحدائق الغناء بين الورود والرياحين ومنها ما يعيش في القبور المظلمة يقتات على جيف الإنسان والحيوان، ومنها ما يعيش في أنفاق داخل النباتات والأشجار ومنها ما يستطيع العيش في المناطق الشديدة البرودة، فقد وجد العلماء أكثر من 300 نوع منها في القطب الشمالي، ومنها ما يعيش في صحراء قاحلة مثل بعض مناطق الصحراء الليبية التي قد تجاوز درجة الحرارة فيها 60 درجة مئوية، كما وجد العديد من أنواعها في عيون المياه الحارة، بل وبرك النفط ! ! بل ووجدت منها بعض الأنواع التي تعيش بصفة دائمة على سطح الماء في المحيطات .

(364/231)

لقد فاقت تلك الكائنات جميع المخلوقات في عدد أنواعها، إذ فاقت أنواعها المليون، وهي تمثل 76% من المجموع الكلي للملكة الحيوانية و 51% من جميع أنواع الكائنات الحية .

توشك أن تنظر إلى السماء وتخاطب الماء الذي في السحاب قائلة له: شرق أو غرب فإن

لي من الخير الذي تفيض به نصيب . ولاشك أن هذا النجاح الساحق لهذه المجموعة من الكائنات وانتشارها الكبير له أسباب عديدة، فهي صغيرة الحجم، قليل من الغذاء يكفيها وشق صغير في الأرض يأويها ، لها هيكل أقوى من العظام وعضلات مفتولة تستطيع بها أن تحمل أو تجر عشرات أضعاف وزنها ، فهى بلا جدال بطلة العالم في حمل الأثقال وجر الأحمال، وتقفز للأعلى والأمام عشرات بل مئات أضعاف طولها ، فهي بلا غرو بطلة العالم في الوثب العالي والطويل . فإذا كان بطل العالم في الوثب العالي يقفز لارتفاع لا يتجاوز مثلي طوله، فإن البرغوث الذي يبلغ طول رجله 1.3 مم يقفز لارتفاع قد يصل إلى 21 سم ولمسافة قد تصل إلى 34 سم، وإذا أراد الإنسان أن يجارى هذا البرغوث في البطولة فعليه أن يقفز لارتفاع 450 قدم ولمسافة 700 قدم، وأنى له أن يفعل . وتستطيع الخنفساء أن تسحب ثقلا يعادل ثقل جسمها 120 مرة، ولكي يبلغ إنسانا يزن 75 كيلوجرام شأوها فعليه أن يسحب ثقلا يبلغ 9 أطنان، وأنى له ذلك . لقد وهب الله هذه الكائنات قدرة فائقة على التكاثر وتحمل المشاق والصعاب . . . . وللكثير منها القدرة على الطيران الذي يساعدها في البحث عن الغذاء والهرب من الأعداء ، ويمكنها من الوصول إلى الجنس الآخر في الوقت والمكان المناسب لإتمام التزاوج كما يساعدها في إيجاد المكان المناسب لوضع البيض . وتتميز هذه الكائنات بعناد شديد يمكنها دائما من الحصول على

ما تريد وقتما تريد ، والذباب خير مثال على ذلك، فقد اشتق اسمه من كونه إذا ذب عن الشئ آب .

(365/231)

وللحشرات قدرة كبيرة على التخفي والمحاكاة، فبعضها يتلون بلون البيئة التي يعيش فيها ، فلا يمكن للأعداء تمييزه عنها ، وبعضها يتلون بألوان بعض الحشرات السامة، فيفزع منها الأعداء ويرهبون جنابها .

صورة لحشرة فرس النبي وهي تتخفى داخل بعض الأعشاب اليابسة مقلدة لون الأعشاب الصفراء

صورة لدودة تعيش على الأشجار متخفية بتقليد لون لحاء الشجرة

صورة لحشرة تموه نفسها بتقليد لون الورق الأخضر

وتمر الحشرات خلال حياتها بتغير كبير في الشكل، يسمى التحول، فمن يصدق أن الفراشات الرقيقة ذات الألوان البديعة، التي تكتفي بقليل من رحيق الأزهار كانت يوما بيوضا صغيرة لاتكاد تدركها العين ثم أصبحت ديدان شرهة تجول بين أوراق الأشجار فتقضي عليها، ثم تصبح عذارى لا تأكل ولا تتحرك يحسبها الرائي جمادا لا حياة فيه وهي تموج أثناء تحولها بتغيرات رهيبة فيتحول فمها من فم قارض إلى خرطوم لامتصاص رحيق الأزهار، ويتكون لها أجنحة وأعضاء تناسل، والعديد من التغيرات في الشكل والتركيب، ومن يصدق أن البعوض الذي يمتص الدماء ويطير في الهواء كان يوما دودة تسبح في الماء، ومن يصدق أن الذباب الذي لا يتغذي إلا على حلو الشراب وتعشق الضوء كان يوما ديدانا صغيرة تأكل القمامة والروث ولا تطيق أن ترى بصيص النور .

صورة لرأس ذبابة التسي سي الاستوائية

(366/231)

عجبا لهذه الكائنات التى صارعت الإنسان وناوءته على مر الزمان، كم سببت من أضرار، وكم دمرت من مساكن، وكم أتلفت من أثاث، وكم قضت على حضارات . إنها

تهاجم الزرع، تأكل جذوره وتنخر بذوره وتحفر سوقه و تقرض أوراقه، وتمتص عصاراته و تعيث فسادا في ثماره، إنها لا تكتفي باتخاذ الزرع غذاء ومأوى لها ولصغارها بل تضع فيه وعليه بيوضها وتنقل إليه الكثير من الأمراض البكتيرية والفيروسية والفطرية المهلكة.

تلك الكائنات الصغيرة تحمل في جعبتها وعلى ضآلة شأنها الدمار الماحق للإنسان وحيواناته الأليفة، فبعض الحشرات تنقل مسببات العديد من الأمراض الفتاكة التى عاقت وما تزال تعوق تقدم الجنس البشرى في مناطق شاسعة من العالم.

هذه ذبابة التسي تسي، إنها ليست أكثر من ذبابة ولكن اسمها يوحى لأكثر من نصف سكان إفريقيا بكابوس ثقيل يهدد حياتهم ويقضي على ماشيتهم بما تحمله من كائنات مجهرية تسبب مرض النوم القاتل، ففي مناطق السافانا المنتشرة في جنوب الصحراء الكبرى تهدد التسي تسي حياة أكثر من خمسين مليون أفريقى ينتمون لثماني وثلاثون دولة بالإضافة إلى مئات الملايين من الأبقار والأغنام والخيول. ويقال إن هذه الذبابة وقفت منذ حوالى ألف عام عائقا أمام المد الإسلامي في إفريقيا بعد أن قتلت الكثير من الدواب التى يمتطيها الدعاة ومعلمي الناس الخير عند وصولهم لتخوم المناطق الموبؤة.

(367/231)

وهذه البعوضة، مخلوق صغير الحجم، عظيم القدر، بالغ الضر على من سلطها الله عليه من العباد، ورغم صغر حجمها وضآلة شأنها فإن الدنيا كلها لا تساوي عند الله جناحها، ولو كانت الدنيا تساوى عند الله جناحها ما سقى الكافر منها شربة ماء ولذلك ضرب الله بها المثل في كتابه الحكيم قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقرة: 26) .

صورة لبعوضة وهي تمتص الدم

(368/231)

إن البعوض ليس إلا كتيبة من الجنود التي زودت إناثها بالأسلحة والمعدات وأجهزة الاستشعار عن بعد ومناظير الرؤية الليلية التي تمكنها من الاهتداء لعائلها ومص دمائه دون خلل أو فشل . إن أنثى البعوضة وفي الظلام الدامس تهتدي لهدفها بواسطة درجة الحرارة المنبعثة من بدنه وشم رائحة جسده وأنفاسه المميزة ثم تتخير مكان من الجلد غني بالأوردة الدموية، ثم وبخفة ومهارة ودقة بالغة تقوم بثقب الجلد بواسطة عدد من الإبر

المسننة، ثم تقوم بإفراز مواد لعابية تحمل إنزيمات تمنع تخثر الدم وتعمل على سيولته وتزيد من تواردہ لمكان الثقب، وهنا تبدأ عملية مص الدماء . ولا تقتصر المشكلة على ما يسببه لدغ البعوض من حكة أو سلب دماء ولكن وأثناء صب اللعاب المانع لتخثر الدم، تنتقل العديد من مسببات الأمراض المهلكة للإنسان مثل الملاريا والفلاريا وحمى الوادي المتصدع وحمى الضنك وحمى غرب النيل والحمى الصفراء . وهناك جيوش أخرى من مصاصي الدماء مثل البراغيث التي تنقل مرض الطاعون والقمل الذي ينقل مرض التيفوس وذباب الرمل الذي ينقل مرض اللشمانيا . ألم تر كيف سلط الله بعض الحشرات لتصب العذاب على بعض المعرضين من عباده، ألم تر إلى النمروذ الذى حاج نبى الله إبراهيم عليه السلام في ربه وادعى أنه يحى ويميت فسلط الله عليه حشرة صغيرة فدلفت إلى رأسه تسومه سوء العذاب، فكان أكرم الناس عليه من يضربه بالنعال على رأسه . قال تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (المدثر: 31) .

(369/231)

وها هو الجراد، يزحف بجيوشه إلى من شاء الله من خلق الله في أسراب وحشود منظمة تثير الرعب والفزع والذعر في قلوب المزارعين والمختصين، إنها تطير في تنظيم عجيب

وسرب مهيب وتحط على كل أخضر خصيب فتحيله إلى صعيد ، إن الجراد يطير لمسافات بعيدة، وبلا توقف فها هي أسرابه تعبر البحر الأحمر بانتظام (حوالي 300 كم) وقد تقطع الجرادة الواحدة 500 كيلومتر في اليوم الواحد ، دون أن تحتاج للتوقف لملأ خزانات وقودها ، وذلك بما لديها من قدرة عضلية تمكنها من الرفرفة بالجناحين لمدة تصل إلى ستة عشر ساعة في اليوم، فمن الذي أمدها بكل هذه الطاقة اللازمة لبذل هذا الجهد بلا توقف، إن جيوش الجراد الجرارة وغير العاقلة تتصرف بطريقة دقيقة في التجمع والتوجيه والحل والترحال، وكيف لا وهي من جيوش الحق وجنود الملك سبحانه وتعالى وصدق الله العظيم القائل: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (الأعراف: 133) .

صورة لسرب من الجراد وهو يهاجم أحد الدول الأفريقية

(370/231)

إن الجرادة الصغيرة غير الناضجة تأكل قدر وزنها من النباتات الخضراء فإذا كانت هذه الحشرة تزن جرامين وإذا كانت جموع الجراد في بعض الأسراب تصل إلى 8 مليار جرادة،

تزن حوالى 16000 طن فإنها تأكل في اليوم الواحد مايطعم 2.4 مليون رجل (من إحصائيات منظمة الأغذية والزراعه المسماة اختصارا باسم الفاو) . وقد يتبادر إلى ذهن البعض أن استخدام القوة المفرطة من الرش بالمبيدات واستخدام الطائرات قادر على صد جيوش الجراد الجرارة، ولكن أنى له ذلك والجراد دائما يختار وقت ومكان المعركة ودون سابق إنذار، ثم إن ما يسلطه الإنسان على الجراد من مبيدات يرتد إليه في صورة ملوثات تهلكه وتفسد زرعة وضرعه . وإذا أردت أن تعرف الأثر المدمر لبعض تلك الكائنات فانظر إلى حشرات الحبوب المخزونة التي تأكل مايقرب من ثلث إنتاج العالم من الحبوب في الوقت الذي لا يجد فيه الملايين من البشر، وفى عصر التصحر والجفاف ما يسد رمقهم . وانظر إلى الأرضة (دابة الأرض)، أو ما يطلق عليه البعض النمل الأبيض، التي تحيل البيوت العامرة إلى أطلال خربة .

(371/231)

وكما أن هناك جنودا من الحشرات تفتك بمن شاء الله من العباد، هناك من الجنود ما يحمل الخير، كل الخير لبني الإنسان . لقد لخص الأمام على كرم الله وجهه حقيقة هذه الدنيا عندما قال محقرا من شأنها (خير طعام بن آدم من رجيع نحلة (يقصد العسل) وخير لباسه

من لعاب دودة (يقصد الحرير الذي تصنعه دودة القز)، أليس من العجب أن يكون أفخر لباس يزهو به بني آدم وأعظم طعام ودواء لبني آدم من صنع الحشرات. لقد أوحى الله إلى النحل فلبى أمر ربه فبنى بيوتا يضرب بها المثل في دقة التصميم وسرعة التنفيذ وسلك سبل ربه فأخرج شرابا فيه شفاء للناس، وقد ظن البعض أن خير النحل مقصور على ما يصنعه من العسل وأغفلوا الفوائد الجمة لما ينتجه النحل من غذاء ملكي، وسم، وعكبر وما يجمعه من حبوب اللقاح. والعجيب أن كل هذا الخير لا يقارن بالمكاسب الضخمة التي يجنيها المزارعون من تلقيح النحل لزروعهم ورفع انتاجها من الثمار أَضعاف المرات.

(372/231)

ومنذ قديم الأزل وعى الإنسان أخطار هذه الحشرات ومضارها، فلم يهادنها، بل حاربها بكل ما تفتق عنه الذهن من وسائل وأنشأ من أجل ذلك المعاهد العلمية ومراكز الأبحاث، عله يفلح في القضاء عليها أو الحد من أخطارها، ولكنه ويا للحسرة لم يفرق في حربه لها بين العدو منها والصديق، بين من يقدم له الغذاء ومن يدمر له الغذاء، بين من يلقح له النبات ومن يدمر له النبات، بين من يقدم له الشفاء والدواء ومن يصيبه بالداء، من يقدم له الحرير وهو أجمل وأنعم أنواع الكساء ومن يدمر له الرياش والكساء. فكان أن ارتدت أسلحة الإنسان

إلى نحره وأصبح تدبيره تدميره فوقف حائرا مقهورا ، فبعد أن أنفق المليارات من الدولارات وأفنى الوقت والجهد والعتاد في الحرب مع الحشرات بعد أن صور له خياله المريض ونهمه الجشع أنه سينعم بالسعادة والرفاهية إن هو أفناها ، فأسرف في استخدام المبيدات ثم أفاق ولكن متى أفاق ؟ لقد أفاق بعد أن غزت سموم المبيدات كبده وكليتيه وقلبه وسائر بدنه وأفسدت زرعه وأهلكت ضرعه، وزاد من حسرته أن الحشرات خرجت من هذه المعركة ظافرة، وفى كل مرة بعد ما ينقشع غبار مبيداته، تلملم شتاتها وتنظم صفوفها ثم تهز قرون استشعارها وتمضى في سبيلها تنتظر ما يفعل الله بها ، أليست خلقا من مخلوقاته وجندا من أجناده .

المصدر:

نقلا عن موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن بتصرف

/http://nooran.org

0-طائر بلا جناح

د/ مروة عزمي جنينة

صورة لطائر الكيوي

قسم الحيوان الزراعي – كلية الزراعة

جامعة المنصورة

marwaaz2002@yahoo.com

قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿يونس/101﴾ .

(373/231)

اليوم اصطحبكم معي إلى رحلة طويلة ولكنها غاية في المتعة والإبهار، ستشاهدون فيها آيات قدرة الله وعظمته المتمثلة في جمال الطبيعة الخلابة وجمال المخلوقات الحيوانية والنباتية. ترى إلى أين ستكون رحلتنا ؟؟ سنطير معنا إلى جزر نيوزلندا . . . التي تقع في أقصى الكرة الأرضية الجنوبي، وبالتحديد جنوب القارة الاسترالية، حيث تحيط بها مياه المحيط الهادي ودرجات الحرارة تصل شتاء إلى 13 درجة تحت الصفر خاصة في المناطق الجنوبية منها . . ووسط هذه الحياة المتفردة بكل المقاييس، نجد مجموعة من الحيوانات والطيور والنباتات التي لا توجد في أى منطقة أخرى من العالم سوى في تلك الجزر

الطبيعية التي أبدع صنعها الخالق الوهاب المنعم العظيم سبحانه وتعالى .

وفي جنة الله على الأرض هذه . . يعيش طائر بلا أجنحة ! ! . . يغطى جسمه الشعر ! !

ذو منقار طويل جداً وحاد وقوي . . ليلي النشاط . . سريعة العدو . . محارب

ومقاتل . .

ما اسم هذا الطائر ؟ وما أهم أنواعه ؟ وكيف نميز بين الذكور والإناث ؟ وما دورة

حياته ؟ وكيف يختار غذاؤه ؟ وماذا يأكل ؟ ومن يأكله ؟ وأين يبنى عشه ؟ وما شكل

العش وأين يوجد ؟ هل يقتل بعضه البعض، ولماذا .

طائر الكيوي

Kiwi bird

هو نوع من الطيور التي لا تنتشر إلا في جزر نيوزلندا الشمالية والجنوبية، وهى طيور تنتمي

إلى فصيلة الطيور عديمة الأجنحة: (Family: Apterygidae)، وتتبع جنس:

Apteryx . ويوجد من هذا الجنس خمسة أنواع. وتتميز طيور الكيوى بأنها، تحمل

على جسمها ريشًا يشبه شعر الثدييات، فهو ريش قصير جدًا وغزير، وهو من الطيور غير

المجنحة، ويحمل في قاعدته مجموعة من التراكيب تشبها لخياشيم تسمى(nostrils)،

كما يحمل المنقار في قاعدته زوج من الشعرات الطويلة .

ما أهم أنواعه؟

1- الكيوى المنقط الكبير: Great spotted kiwi

(374/231)

وينتشر على السواحل الجنوبية وخاصة على الجبال والمرتفعات، وهو أكبر أنواع طيور الكيوي، ارتفاع الطائر 45سم، ويصل وزن الأنثى إلى حوالي 3.5 كجم، بينما الذكر 2.5كجم. لون الريش رمادي داكن، مع بقع لونها أبيض أو كريمي. ويوجد منه حوالي 20.000 فرد.

2- الكيوي المنقط الصغير: Small spotted kiwi

وينتشر في المناطق الجنوبية البعيدة عن الساحل، ويعد من أصغر أنواع طيور الكيوى، وهو مهدد بالانقراض لصغر حجمه، فالأنثى تزن حوالي 1.3كجم، بينما الذكور أقل من 1كجم. لون الريش مثل النوع السابق. يوجد منه حوالي 1.350 فردًا.

3- الكيوي البُنّي: Brown kiwi

وهو ينتشر في المناطق الشمالية، ولون الريش بنى داكن وبدون بقع أو تنقيط. وهو أكثر الأنواع انتشارًا، ويصل أعداد أفراده إلى 35.000فرد. ويصل ارتفاع الإناث إلى

40سم، وتزن حوالي 2.8كجم، بينما تزن الذكور حوالي 2.2كجم.

الخندق.. والطائر المحارب!!

لا تقوم هذه الطيور بإقامة عشها فوق الأشجار كسائر الطيور، بل تقوم الذكور بإعداد وتجهيز خندق تحت الأرض، وأحيانًا أسفل الأشجار الكبيرة، وهذا الخندق يمثل عشًا له، يعده قبل البحث عن وليفته، ويظلا معًا فيه طيلة حياتهما، ويقوما بتغير مكانه من وقت لآخر إذا أصبح معروفاً لدى أعدائهما من الثدييات الأخرى التي تقوم بافتراس البيض والصغار.

أما شكل الخندق فيختلف حسب النوع فنجده في طائر الكيوي المنقط الكبير عبارة عن أنفاق كثيرة، كل نفق له فتحة دخول وخروج. أما طائر الكيوي المنقط الصغير فالخندق عبارة عن نفق واحد فقط وله فتحة واحدة للدخول والخروج..

صورة لطائر الكيوي داخل عشه وهو يرعى البيض حتى تفقس

لماذا الخندق وليس العش؟! الله لا يخلق شيئًا عبثًا!..

بالطبع إن الله عز وجل لا يخلق شيئًا عبثًا فسبحانه القائل في كتابه الحكيم: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ هود: 56 ﴾.

نعم . . الله الخالق البارئ المصور جلّ في علاه علَّم هذا الطائر الضعيف أن يحمى نفسه من أعدائه من الثدييات الأخرى والأكبر حجمًا بأن يحتمي في تلك الخنادق والأنفاق أسفل سطح الأرض نهارًا ويخرج للبحث عن غذائه ليلاً . .

الصوت يميز بين الذكور والإناث . . وحياته تمتد إلى ثلاثين عامًا . .

التميز بين الذكور والإناث يكون من خلال الحجم والصوت، فالإناث أكبر حجمًا من الذكور، كما أن صوتها قصير وأجش، بينما الذكور صوتها طويل وحاد .

دورة حياته:

(376/231)

يبدأ موسم التزاوج بين الذكور والإناث خلال شهر مارس حتى يونيو، وفى تلك الشهور تقوم الذكور بإعداد العش، ثم تخرج الإناث الصغيرة من أعشاشها للبحث عن وليفها ويبدأ الذكور بإصدار أصوات عالية، وعن طريق تلك الأصوات تختار الأنثى وليفها ، وعندما توافق عليه تصدر صوتها إليه، ويعيشا معاً طيلة حياتهما والتى تصل إلى ثلاثين عامًا . ثم يحدث التزاوج داخل الخندق، وبعدها تضع الأنثى من بيضة إلى بيضتان خلال 10 : 30

يومًا ، إلا إن ثلث البيض معرض للافتراس، ويعد حجم البيضة كبيرًا جدًا بالنسبة لحجم الأنثى، فهو يمثل 20% من حجم الأنثى، بالمقارنة ببيض النعام الذى يمثل 2% فقط من حجم النعامة . والذكر هو الذى يقوم بحضانة البيض حتى يفقس، ويخرج ليلاً للبحث عن الغذاء وتقوم الإناث بحراسة البيض فى تلك الفترة، بأن تقف على فتحة النفق لحمايته من أى عدو . يفقس البيض بعد حوالى من 72:80 يومًا ، ويظل الذكر والأنثى يحرسان الصغير ويقومان على تغذيته حتى يصل إلى أسبوعين ثم يبدأ فى الخروج ليلاً والبحث عن الغذاء ، ويظل الصغار من الذكور مع الآباء داخل نفس الخندق حتى تصل الذكور إلى عمر ثلاثة أشهر ، وهو سن البلوغ فتترك خندق الآباء وتبدأ فى بناء خندق جديد ليكون بيتًا لوليفه حياته . . أما الإناث فتظل مع الأبوين حتى يبدأ موسم التزاوج وقدوم الربيع، فتخرج من خندقها للبحث عن وليفها و تنتقل معه إلى خندقها الجديد . . ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ﴿ الروم/17 ﴾ ،مَنْ علم هذا الطائر كل هذا ، مَنْ علمه أن الذكور بعد نضجها وبلوغها تعتمد على نفسها وتبدأ فى تجهيز بيتها والاستعداد للزواج وتكوين الأسرة ؟ . .

(377/231)

ومن علم الآباء الحفاظ على الإناث الصغيرة، فلا تخرج من خندق الآباء إلا فى فصل الربيع للبحث عن وليفها وتبدأ حياتها معه ؟ ! إنه الله القدير العليم الخالق البارئ المصور ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ لقمان/11 ﴾

كيف يأكل ؟ وماذا يأكل ؟

يعتمد الكيوي اعتمادا كليًا على حاسة الشم في البحث عن غذاؤه رغم وجود زوج من الأعين، ولكن حاسة الإبصار ضعيفة بالمقارنة بحاسة الشم التي تفوق أي طائر آخر، حيث وهبه الرزاق الوهاب سبحانه وتعالى تراكيب تشبه الخياشيم تسمى (Nostrils) موجودة عند قاعدة منقاره الطويل، والتي يشم ويتعرف بواسطتها على نوع غذائه ثم يلتقطه ويأخذه إلى خندقه، كما أن لهذه التراكيب وظيفة أخرى وهى مساعدته على التنفس أثناء وجوده داخل الخندق، الذي تقل فيه نسبة الأوكسجين .

وهو يتغذى على الديدان الأرضية والحشرات والعناكب وبعض ثمار الفاكهة المتساقطة على سطح التربة .

من يأكله ؟

يتعرض طائر الكيوي للافتراس من قبل القطط والكلاب والخنازير والطيور الجارحة، حيث تهاجم الصغار والبيض داخل الأنفاق، وخاصة الأنواع الصغيرة منها ، مما أدى إلى

تعرضها للانقراض .

﴿ وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ العنكبوت/60 ﴾

الطائر المحارب يموت دفاعًا عن أرضه . .

(378/231)

كل نوع من أنواع طيور الكيوي تعيش في منقطة معينة خاصة بها ، وهى تمثل بيئتها وموطنها الذى تدافع عنه ضد أي نوع آخر من طيور الكيوي، لهذا فمن يحاول أن يقترب من موطنها أو يغزوه فإن ذلك يكون إيذانًا بدق طبول الحرب والدخول معه معارك كبيرة بالمناقير الحادة تؤدى إلى موت بعضها دفاعًا عن أرضه وموطنه . . (((سبحانك يا الله حتى الطيور تعرض حياتها للموت دفاعا عن أرضها وموطنها الأصلي الذي تعيش فيه . . . . . ولا تستسلم للعدو الغازي وتترك له أرضها وخيراتها له ! ! ! !)))

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

﴿ فصلت/53 ﴾

المصدر:

المقال سبق نشره فى مجلة الرسالة الثقافية عدد (اكتوبر – ديسمبر) 2007 تم إعادة نشرها في موقعنا بطلب من المؤلفة.

مصدر الصور موقع الويكي بيديا http://en.wikipedia.org

0–التوازن المعجز أثناء نشأة الكون

قال تعالى: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام:14).

قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) (الرحمن:7).

يقول باول ديفز أستاذ الفيزياء النظرية(رافقت قوة انفجار الكون العشوائية دقة في طاقة جاذبيته الثقالية لا يمكن تخيلها، والانفجار الكبير لم تكن واضحة.. فهي ضربة قديمة..إلا أن مقادير انفجارها كانت مرتبة بعناية فائقة مختارة)[1].

(379/231)

يقدر العلماء أنه يوجد أكثر من ثلاثمائة بليون مجرة في كل الكون، ولتلك المجرات عدد من الأشكال المختلفة (الحلزون، الإهليلجية . . الخ)، ولك واحد تحتوي من النجوم بقدر ما يحتوي الكون كله من المجرات، وأحد تلك النجوم هو الشمس ولها تسعة كواكب أساسية تدور حولها في توافق عظيم، وكل منا يعيش على الكوكب الثالث من تلك الكواكب الثالث من تلك الكواكب المعدودة بدءاً من الشمس .

انظر حولك: هل أن ما تقع عليه عينك يتسم بالفوضى والعشوائية أم بالانتظام والدقة ؟ لكن كيف يمكن للمادة أن تكون قد شكلت مجرات منظمة إذا كانت تبعثرت عشوائياً ؟ لماذا تجمعت وتراكمت المادة عند نقاط معينة وشكلت النجوم ؟ كيف أمكن لتوازن الدقيق المرهف لمجموعتنا الشمسية أن انبثق من انفجار عنيف . تلك الأسئلة هامة جداً لأنها تقودنا إلى السؤال الحقيقي الذي هو: كيف تركب الكون بعد الانفجار الكبير ؟ .

إذا كان الانفجار الكبير في الحقيقة هو انفجار هائل وعظيم فمن المعقول أن المادة تبعثرت في كل مكان بشكل عشوائي، لكنها حالياً ليست كذلك وبدلاً من ذلك نراها منظمة في كواكب ونجوم ومجرات وعناقيد مجرية، ومجرات فوق عنقودية، وعناقيد عملاقة، وكأن ذلك يماثل انفجار قنبلة في مخزن قمح، وأدى

صورة لفريد هويل

لسقوط كل حبات القمح على شبكة ذات أكياس مرتبة ملساء ومرزومة بشكل بالات ومحمولة على ظهور عربات نقل وجاهزة للتسليم بدلاً من تناثرها كالمطر بشكل قطرات في كل اتجاه، ولقد عبر (فريد هويل) الذي يعتبر معارضاً شرساً لنظرية الانفجار الكبير لعدة سنوات عن دهشته الشديدة لهذا التركيب فقال:

" تقتضي نظرية الانفجار الكبير أن الكون بدأ بانفجار واحد، وحالياً كما نشاهد فإن أي انفجار يلقي المادة ويفرقها كلياً، بينما الانفجار الكبير أنتج بشكل غامض وسري تأثيراً معاكساً فجعل المادة تتجمع وتتراكم مع بعضها البعض في شكل مجرات " [2]

(380/231)

الشكل التالي يوضح نشوء الكون بما يعرف اصطلاحا الضربة الكونية أو الانفجار العظيم الذي فيه شيء من الخطأ كاسم فالانفجار كما هو معروف ينشأ عنه فوضا وليس نظام أما القرآن الكريم فيسمي هذه العملية بالفتق (ففتق الثوب لا يكون إلا بشكل دقيق وموجه ومن قبل خياط ماهر وليس بشكل عشوائي)

قُدر للمادة التي نتجت من الانفجار الكبير أن تكون أشكالاً منظمة مرتبة وهذا في الحقيقة شيء غريب وغير متوقع، وحدوث مثل تلك التوافقية والانسجام بين أجزاء الكون كله

يقودنا إلى حقيقة هي أن الكون كله كان نتيجة الخلق الكامل من قبل الله، وفي هذا البحث سوف ندرس هذا الكمال المدهش والرائع ونفصل فيه القول .

سرعة الانفجار:

الناس الذين سمعوا عن الانفجار الكبير لم يهتموا بالموضوع بتفاصيل تام ولم يفكروا في هدفه هذا الانفجار والغاية منه وما يختفي خلفه، ذلك بأن فكرة الانفجار لا توحي لمعظم الناس بوجود أي توافق أو خطة أو تنظيم بين مكونات الانفجار لكن الأمر في هذا الانفجار الكبير مختلف لوجود عدد من المظاهر المحيرة جداً في الترتيب المعقد الذي نتج عن هذه الظاهرة .

أحد تلك الأمور المحيرة والمربكة تلك التي تتعلق بالتسارع الناتج عن قوة الانفجار، فعندما حدث الانفجار بدأت المادة تتحرك بسرعة هائلة في كل الاتجاهات، وتوجد هنا نقطة أخرى هامة يجب أن نلفت الانتباه إليها ، وهي وجوب وجود قوة تجاذب كبيرة جداً منذ اللحظة الأولى للانفجار، أي القوة الجاذبة كانت من الكبر بشكل يكفي لتجمع كل الكون في نقطة واحدة .

(381/231)

وهكذا كان هناك قوتان مختلفتان تعملان متعاكستين، الأولى قوة الانفجار وهي تدفع المادة بعيداً ونحو الخارج بينما قوة التجاذب والتي تحاول أن تقاوم الأولى تجذب كل شيء إلى الخلف، وهما تعملان معاً في كل أرجاء الكون وفي كل لحظة، وقد ظهر الكون إلى الوجود بسبب عمل هاتين القوتين اللتين كانتا في حالة توازن، لأنه إذا كانت قوة التجاذب أكبر منها للانفجار فالكون سوف ينهار داخلياً، على نفسه، أما إذا كانت قوة الانفجار الخارجية المعاكسة أكبر، فالمادة سوف تتناثر في كل اتجاه بطريقة لا اتحاد إطلاقاً .

إذن كم هي عظيمة حساسية ذلك التوازن ؟

وكم هو دقيق عامل الارتخاء (تخفيف السرعة) والموجود بين هاتين القوتين ؟

أجرى عالم الفيزياء الرياضي (باول ديفز) الأستاذ في جامعة (إديليارد) في استراليا حسابات مطولة للشروط والظروف التي ربما وجدت لحظة الانفجار الكبير، وتوصل إلى نتيجة على الأقل يمكن وصفها بأنها مذهلة، فوفق حسابات (ديفز) إذا اختلفت معدل التمدد بأكثر من (10-18 من الثانية) (واحد من كوينتليون من الثانية) فيجب ألا يكون هناك كون .

ووصف (ديفز) استنتاجه كما يلي:

أوصلت القياسات الدقيقة معدل التمدد لقيمة حدية قريبة جداً للقيمة التي عندها سيهرب الكون من جاذبيته الخاصة ويبقى يتمدد إلى الأبد . أما لو أبطأ قليلاً وكان معدل

تمدده أقل من القيمة الحدية له فسوف ينهار الكون على نفسه، ولو كان أكثر سرعة بقليل فإن مادة الكون ستكون قد اختفت كليلاً ومنذ زمن بعيد .

(382/231)

من المثير أن نسأل بدقة كيف هي رقة ورهافة معدل التمدد هذا ؟ وكيف أمكن ضبطه وتنظيمه ليقع على خط التقسيم الضيق الفاصل بين الحدثين الأخيرين ؟ فتقول أنه إذا أسسنا نموذجاً زمنياً للانفجار وبشكل صارم فبعد ثانية واحدة يكون معدل التمدد قد تغير عن قيمته الحدية بما يزيد عن 10 –18 وهذا كاف لأن يلقي بالتوازن الدقيق (المرهف) بعيداً ، وهنا تكتشف أن قوة الانفجار للكون تلاءمت وتوافقت بدقة لا معقولة مع قوة جاذبيته الثقالية، والانفجار الكبير هو بالتأكيد ليس انفجاراً عبثياً إنما كان انفجاراً منظماً ومقدراً بعناية فائقة وإتقان[3] .

وقد نشرت مجلة العلم (Science) المشهورة مقالاً عن النظام المدهش الذي تكون مع بداية وجود الكون جاء فيه: إذا كانت كثافة الكون أكثر بجزء صغير جداً مما هي عليه ففي تلك الحالة ووفق نظرية (اينشتاين) في النسبية فالكون سوف لن يتمدد بسبب قوة التجاذب الهائلة للجسيمات الذرية وبدلاً من ذلك فإنه يتقلص وأخيراً ينتهي ويزول في

نقطة .

أما إذا كانت الكثافة الابتدائية أقل بجزء ضئيل صغير فالكون سوف يتمدد فجأة، لكن في هذه الحالة لا تتجاذب الجسيمات الذرية مع بعضها وبالتالي لا تتشكل إطلاقاً أية نجوم أو مجرات، وبالنتيجة لن يظهر الإنسان في هذا الكون أبداً، ووفق الحسابات في الفرق بين الكثافة الحقيقية الابتدائية للكون وكثافته الحدية والتي لا يحتمل حدوثها هي أقل من واحد بالمائة من (الكوادر ليون) فهذا يشبه وضع قلم رصاص في وضعية يقف فيها على طرفه الحاد لمدة تزيد عن بليون سنة، والأكثر من ذلك وطالما أن الكون يتمدد فإن ذلك التوازن سوف يصبح أكثر دقة [4]

صورة لعالم الفلك الأمريكي ستيفن هويكنز

(383/231)

العالم (ستيفن هاوكنغ) الذي حاول بشدة أن يحيد في تفسير الخالق للكون واعتبر أن ذلك الخلق ليس سوى سلسلة من المصادفات في كتابه "مختصر تاريخ الزمن" A Brief History of Time اعترف بالتوازن العجيب في معدل التمدد وقال: "إذا كان

معدل التمدد بعد ثانية واحدة من الانفجار الكبير أصغر بمقدار حتى جزء واحد من مائة ألف مليون بليون، فالكون سينهار ثانية على نفسه قبل أن يصل إلى حجمه الحالي. [5]

والسؤال الآن هو: على ماذا يدل مثل هذا التوازن الدقيق المميز كما تبين لنا من قبل ؟ . .

والجواب المقنع الوحيد على هذا السؤال هو أن تلك الدقة تبرهن على وجود تصميم مدرك، وأنه لا يمكن أن يكون ذلك مصادفة، ورغم أن الدكتور " ديفز " مادي ومتحمس لماديته إلا أنه يعترف بهذه الحقيقة قائلاً: " من الصعب أن نقاوم تركيب الكون الحالي، إذا يبدو أنه حساس جداً لتبديلات الأعداد، فهي تميل لأن تكون مدروسة بحذر شديد، وعلى ما يبدو فإن الطبيعة اختارت لثوابتها الأساسية قيماً عددية بتوافق إعجازي معها، بحيث تبقى الدليل الأكثر قوة في جوهر التصميم الكوني [6]

كتاب مختصر تاريخ الزمن

القوى الأربعة:

تعتبر سرعة الانفجار الكبير واحدة من الحالات المعتبرة للتوازن الدقيق منذ اللحظة الابتدائية للخلق، وفور وقوع الانفجار كانت القوى التي تشكل الكون الذي نعيش فيه مضبوطة عددياً بشكل صحيح تماماً، لأنه لو وجد أي خلاف عن ذلك فلن يكون هناك كون.

ميّزت الفيزياء الحديثة وجود أربع قوى أساسية تعمل في الكون، وكل تركيب وحركة في الكون تخضع لحكم تلك القوى وسيطرتها ، وهذه القوى تعرف على أنه قوى الجاذبية الثقالية والقوة الضعيفة والقوة النووية القوية والقوة الكهرطيسية فهما محكومتان بتراكم الذرات، أي بكلمة أخرى محكومتان بالمادة، وهذه القوى الأربع كانت في حالة عمل فوري عقب الانفجار الكبير، وهي نتجت ورافقت خلق الذرات والمادة .

(384/231)

إن الهدف من مقارنة قيم هذه القوى هو تنوير دورها ومدى فعاليتها وبيان لقيمها والاختلافات المذهلة من واحدة لأخرى، ويعطي الجدول التالي تلك القيم بوحدات القياس العالمية:

قوة نووية قوية 15

قوة نووية ضعيفة 7.03×10^{-3}

قوة كهرطيسية 3.05×10^{-12}

قوة تجاذب ثقالية 5.90×10^{-39}

لاحظ كم أن الفروق كبيرة في قوة تلك القوى الأساسية الأربع، وأن الفرق بين أقواها (القوى

النووية القوية) وأضعفها (قوة التجاذب الثقالية) هو حوالي 52 متبوعة بـ 83 صفراً .

فلماذا هذا الفرق ؟

عالم الأحياء الجزيئية (مايكل دينتون) ذكر نقطة هامة في كتابه " قدر الطبيعة وهي: لقد خلق الكون ونظّم بشكل يهدف إلى الحفاظ على حياة الإنسان "

عالم الأحياء البيولوجية (ميشل دينتون) Michael John Denton طرح هذا السؤال في كتابه " قدر الطبيعة " قائلاً:

" مثلاً إذا كانت قوة الجاذبية الثقالية أقوى بتريليون مرة فالكون سيكون غاية في الصغر وتاريخ حياته قصير جداً ، فمن أجل نجم متوسط كتلته أقل بتريليون مرة منها للشمس فسوف لن تمتد حياته لحوالي سنة ومن ناحية أخرى إذا كانت الجاذبية الثقالية أقل طاقة فلن تتشكل نجوم ولا مجرات إطلاقاً ، وكذلك فإن العلاقات الأخرى والقيم ليست أقل حدية من ذلك، فإذا ضعفت القوة القوية بمقدار قليل جداً فسيكون العنصر الوحيد المستقر هو غاز الهيدروجين ولن توجد ذرات لعناصر أخرى في هذه الحالة، وإذا كانت أقوى بقليل بعلاقتها مع الكهراطيسية عندئذ تحتوي نواة الذرة على بروتونين وسيكون ذلك مظهراً لاستقرار الكون عندئذ وأنه لن يحتوي على غاز الهيدروجين، وإذا تطورت نجوم أو مجرات فيه فسوف تكون تماماً عن طبيعتها الحالية . واضح أنه إذا لم يكن لتلك القوى

المختلفة وثوابتها القيم التي أخذتها بالضبط فسوف لن يكون هناك نجوم ولا مستعرات ولا كواكب ولا ذرات ولا حياة "[7] .

علق (باول ديفز) على كيفية تقديم قوانين الفيزياء شروطاً مثالية لحياة الناس:

(385/231)

بول ديفز: " ثمة أدلة قوية جداً تبين أن هناك تصميماً في الكون"

ماذا لو اختارت الطبيعة وآثرت مجموعة أعداد تختلف قليلاً عما هي عليه فعلاً ؟ . . الجواب هو: أن العالم سيكون مكاناً مختلفاً تماماً ، ونحن سوف لن نكون هنا لنراه، والاكتشافات الحالية المتعلقة بالكون البدائي يجبرنا على قبول أنه قد تم ضبط الحركة في الكون المتمدد بنظام ودقة مدهشة . [8]

كان العالمان (Arno Allan Penzias و Robert Woodrow Wilson) يعملان معاً اكتشفا الإشعاع الخلفي للكون (Cosmic microwave background radiation) وقد نالا على هذا الاكتشاف جائزة نوبل في عام 1965 وعلى ضوء اكتشافهما بوجود إشعاع خلفي للكون علق (بنزياس) على التصميم الجميل للكون بقوله:

" يقودنا علم الفلك إلى حادثة فريدة ووحيدة لكون خلق وانبثق من لا شيء . . . و مصحوب بتوازن دقيق كان ضرورياً ليقدم الظروف المناسبة والتي تسمح بالحياة بالضبط . . . . . فكان هذا الكون الذي نعيش فيه والذي صمم وفق مخطط خارق كما يقول البعض " [9]

العلماء الذي اقتبسنا بعضاً من أقوالهم للتو توصلوا إلى استنتاجات هامة من مشاهداتهم، فبالفحص والتفكير حول التوازنات اللامعقولة وكذلك ترتيبها الجميل في التصميم الدقيق والصارم للكون يقود الشخص إلى الحقيقة التالية وهي: يوجد في الكون تصميم أسمى وتناسق كامل، وبدون تردد فالمؤلف والمنفذ لهذا التصميم والتناسق هو الله، هو الذي خلق كل شيء بدون أي خلل، ولقد لفت الله انتباهنا في إحدى آياته إلى الترتيب والتخطيط و الحساب في تفصيل في خلق الكون: قال تعالى: (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) (الفرقان:2) .

الحسابات الرياضية في الاحتمال تدحض الصدفة:

يوضح كل ما قيل سابقاً التوازنات الغريبة بين القوى التي جعلت حياة الإنسان ممكنة في هذا الكون، فسرعة انفجار الكبير وقيم القوى الأربعة الأساسية وكل المتحولات الأخرى التي سوف نتناولها بالدراسة في الفصول القادمة والتي هي حيوية للبقاء تم ترتيبها وفق دقة عالية غير عادية . والآن دعنا نصنع استطراداً مختصراً ونهتم بنظرية الصدفة التي تبنتها النظرية المادية:

الصدفة هي تعبير رياضي يمكن استخدامه في دراسة إمكانية وقوع حدث ما . و من الممكن حسابها باستخدام علم الرياضيات في فرع الاحتمال، ودعنا نفعل ذلك: لنأخذ في الحسبان المتغيرات الفيزيائية، ونتساءل عن الاحتمال القوي للكون الذي أعطانا الحياة والذي أتى إلى الوجود مع الصدفة ؟ فهل هو واحد في بليونا تت البليونات ؟ أو في تريليونات التريليونات ؟ أم أكثر من ذلك ؟ ؟

(روجر بنروز Roger Penrose) وهو رياضي إنكليزي وصديق مقرب لـ (ستيفن هاوكنغ) تساءل حول هذا الموضوع وحاول حساب الاحتمال لمثل تلك الصدفة وضمنه كل ما اعتبره متحولات ضرورية لبقاء الكائنات البشرية وحياتها على سطح كوكب مثل كوكبنا .

صورة لعالم الفيزياء روجر بنروز

وطبق حسابات بنروز كانت الأرجحية ضد وقوع مثل ذلك الاحتمال هو من رتبة (10 10 123) إلى واحد ! ! وهذا لا يمكن حتى تخيله لما يعني ذلك العدد من غرابة، ففي الرياضيات القيمة (10 123) تعني واحداً متبوعاً بـ مئة وثلاثة وعشرين صفراً .

(وهذا على سبيل المثال أكثر من العدد الكلي للذرات ومقدراها 10 78 والتي يعتقد أنها موجودة في كل الكون لكن جواب (بنروز) كان أكبر من ذلك بكثير فهو يتطلب رقماً واحداً متبوعاً بـ 10 123 صفراً .

(387/231)

إذا اعتبرنا أن 10 3 هي ألف، و (10 10 123) هو رقم يعني واحد و متبوعاً بألف صفر، وفي حال وجود ستة أصفار فقط نسمي العدد مليون، وإذا كان عددها تسعة نسميه بليون، وإذا كان أثنا عشر صفراً سمي تريليون . . و هكذا . ولا يوجد حتى اسم إطلاقه على رقم متبوع بـ 10 123 صفراً .

وباستخدام تعابير تطبيقية في الرياضيات فاحتمال قيمته واحد في 10 50 يعني احتمالاً يساوي الصفر، وعدد (بنروز) هو أكثر من تريليون ترليون تريليون مرة أقل من الصفر، وباختصار يخبرنا عدد (بنروز) أن الخلق صدفة أو بصدفة اعتمدت على حدوث نوع من

التوافق في الزمان والمكان في كوننا مستحيل تماماً .

و بالتركيز على هذا العدد الآن عن مدى دقة الهدف الذي ينشده الخالق أي يبين لنا مدى تلك الدقة التي يجب أن يكون عليها الكون كي ينبثق، و تعني تلك الدقة اسمياً جزءاً واحداً في (10 10 123)، وهذا عدد غير طبيعي، والشخص لا يمكنه حتى كتابة هذا العدد بشكله الكامل بطريقة التدوين العشري فهو واحداً متبوعاً ب 10 123 صفراً متتابعاً فإذا فرضنا أننا كتبنا صفراً على كل بروتون منفصل وكذلك على نيوتون منفصل وفي كل الكون و أن نوزع بباقي الأصفار على الجسيمات الأخرى ذات المقياس الجيد، فسوف نفشل و نعجز تماماً عن كتابة هذا العدد من الأصفار لعدم توفر العدد اللازم من دقائق الكون كله من البروتونات والنترونات . .ألخ[10]

يحدثنا (روجر بنروز) عن هذا الموضوع بقوله: " يخبرنا هذا العدد عن مدى دقة هدف الخالق والتي يجب أن يكون عليها هذا الهدف (الكون) " .

(388/231)

وقد صرح (بنروز) بهذا الأمر قائلاً: أن الأعداد التي تحدد التصميم والتنفيذ لتوازن الكون تلعب دوراً حاسماً في وجوده، وهي من الغرابة بحيث تتجاوز الفهم والإدراك، وتبرهن

تلك الأعداد على أن الكون لا يمكن بأية حال أن يكون ناتجاً عن صدفة في الزمان والمكان وتبين تلك الأعداد مدى دقة هدف الخالق والتي يجب أن يكون عليها ذلك الهدف (الكون) لكي ينبثق ويبقى قائماً في هذا الوجود .

في الحقيقة لكي نميز أن الكون ليس ناتجاً من الصدفة فالشخص حقيقة لا يحتاج إلى أي من تلك الحسابات إطلاقاً ، وببساطة إذا نظر الإنسان حوله فإنه يستطيع بسهولة أن يعي ويدرك حقيقة الخلق أو حتى في اصغر التفاصيل لما يراه، وكيف يمكن لكون مثل هذا . . كامل في أنظمته (الشمس والأرض والناس والبيوت والسيارات والأشجار والأزهار والحشرات، وكل الأشياء الأخرى فيه) أن تأتي إلى الوجود نتيجة لتساقط الذرات مع بعضها بالصدفة بعد الانفجار وتصنع كوناً .

كل شيء يقع أمام أعيننا هو دليل على قدرة الله وعظمته، فقط أولئك الذين يفكرون هم وحدهم الذي يفهمون تلك الإشارات .

قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة:164) .

رؤية الحقيقة الواضحة:

أتت علوم القرن العشرين بدليل مطلق وهو أن الكون خلق من قبل الله، ويوضح مبدأ الأنتبروبي الذي ذكرناه من قبل كل تفصيل للكون والذي تم تصميمه كي يعيش فيه البشر والذي لا وجود للصدفة فيه .

(389/231)

الشيء المثير للانتباه هو أن الأشخاص الذي اكتشفوا كل لذلك وتوصلوا إلى الاستنتاج وهو أن الكون لا يمكن أن يكون قد أتى إلى الوجود بالصدفة هم نفس الأشخاص الذي دافعوا قديماً عن الفلسفة المادية وحموها ، ومن هؤلاء العلماء (باول ديفز وأرنوبنزاياس وفريد هويل وروجر بنروز) فهم لم يكونوا أتقياء ورعين وبالتأكيد لم يكن ليدهم نية برهان وجود الله أثناء متابعتهم أعمالهم، ويستطيع الشخص أن يتخيل المفاجأة التي واجهتهم عندما توصلوا إلى استنتاجاتهم حول تصميم الكون من قبل قدرة سامية بغير قصد منهم .

كتاب الكون التكافلي

وقد اعترف الفلكي الأمريكي جورج غرنشتاين (George Greenstein)في كتابه الكون التكافلي(The symbiotic universe: Life and mind

in the cosmos) كيف من الممكن لقوانين الفيزياء أن تتشكل من نفسها وتتماثل مع الحياة ومع كل دليل تتم معاينته فإنه تتجلى بإلحاح فكرة وجود قوة خارقة للطبيعة . إنه من الممكن وبشكل مفاجيء أن نثبت علمياً وجود الكائن الخارق ؟ فهل هو الله من تدخل وبشك متعمد خلق وأبدع الكون لمنفعتنا .

رغم أن الملحد (غرنيشتاين) يتجاهل تلك الحقيقة البسيطة ومع ذلك فهو لا يستطيع إلا أن يفكر ويتعجب، ومن ناحية أخرى فهناك علماء آخرون أقل إنكاراً وغروراً ومع ذلك فهم مستعدون للإقرار أن الكون قد صمم خصيصاً لحياة الجنس البشري فيه، أما لفلكي الأمريكي (هيوج روس Dr. Hugh Ross, Ph.D) فقد أنهى مقالة:" تصميم ومبدأ الأنتروبي Design and the Anthropic Principle" بالكلمات التالي .

" لابد أن هناك خالقاً عبقرياً متعالياً فائقاً ووراء نطاق الخبرة البشرية هو الذي أتى بالكون إلى الوجود، وهو الخالق الذي خلق الكون وهو الخالق المبدع المتعال الذي خلق كوكب الأرض وهو الذي خلق الحياة فيها "

(390/231)

وهكذا فإن العلم يدلل على حقيقة الخلق، وبالتأكيد يوجد إله خلق كل شيء حولنا المرئي منه واللامرئي . هو الخالق الوحيد الذي أقام هذا التوازن البارع اللاطبيعي، وصمم خصيصاً ليمكن المخلوقات الإنسانية من الحياة والعيش فيها ، وقد وضح العالم ديفز في كتابه (النسخة الكونية The Cosmic Blueprint) هذه

كتاب النسخة الكونية

الحقيقة، في الفقرة الأخيرة وتحت عنوان: " بصمة التصميم غامرة " [11]فقال:

" بدون شك إن تصميم الكون هو دليل على قدرة الإله في الخلق، والموازين الدقيقة، وكل الكائنات البشرية والمخلوقات الأخرى هي دليل على الإله ذي القدرة الأسمى وقوة الخلق " ، تلك النتيجة اكتشفت من قبل علوم حديثة وهي بالضبط تجديد لحقيقة تم الإعلان عنها قبل أربعة عشر قرناً في القرآن الكريم:

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (الأعراف:54) .

المصدر: مقالة من كتاب خلق الكون تأليف الكاتب التركي هارون يحيى بتصرف .

قام بتدقيق المعلومات وتحقيقها من مصادرها الأصلية فراس نور الحق مدير موقع موسوعة

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

[1] Paul Davies,Superforce: The Search for aGrand Unified Theoy of nature,1984,p.185

[2] Fred Hoyle,The intelligent universe,London,1984,p.184-185

[3] Paul Davies,Superforce:The Search for agrand unified Theory of nature.1984.p.189

[4] Bilim ve Teknik (scinence and technics) .201.p.16

[5] Stephen Hawking ,A brief History of time , .Bantame press ,london:1988.p.121-125

]

(391/231)

[6 Paul davies.God and the new physics.New .york:simon and schuster.1983.p.189

[7] Michael Denton.nature,s Destiny:Hom the laws of Biology Purpose in the universe The new .york:The free press.1998.p.12-13

[8] Paul Davies. The accidental universe cambridge:cambridge University press.1982.foreword

[9] Hugh Ross.The Creator and the .Cosmos.p.122-22

[10] Roger Penrose.The amperors new Mind.1989.michael Denton natures .desting.Thenew york:the free press 1988.p.9

[11] Paul davies.the cosmic blueprint.london:penguin books 1987.p.203

0-الهدهد آية من آيات الخالق

صورة لطائر الهدهد المصدر agnacvacances.com

بقلم الأستاذ حسن يوسف شهاب الدين

أستاذ فيزياء

آيات الله سبحانه وتعالى تتجلى في مخلوقاته التي سخرها للإنسان لتلبي حاجاته ومتطلباته ولتكون له عوناً ونصيراً على أعداءه, فلو تأملنا اهتمام القرآن الكريم بالطيور وتطرقنا تحديداً إلى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان عليه السلام, لوجدنا إعجازاً واضحاً وجلياً وخصوصاً استخدام هذا المخلوق في مجال الاستخبارات العسكرية والاتصالات السلمية, لسرعته وذكاءه وطريقته المذهلة في تنقلاته .

وفي قصة سيدنا سليمان مع استخباراته المتمثلة بطائر الهدهد .

(392/231)

قال الله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ

الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) . ﴾ ، (النمل) .

الهدهد (Hoopoe)

يعد الهدهد من الطيور النادرة، له عرف مميز على رأسه، اللون بني فاتح وعرفه البني مرقط من أطرافه بالريش الأسود ونصفه الأسفل أسود مرقط بالريش الأبيض في نظم جميل، له طريقة مميزة في الطيران، ويتغذى على الحشرات ويشاهد أفراداً في المناطق الزراعية، وهو من أصدقاء الفلاحين فهو ينظف الأرض من الديدان واليرقات والآفات .

(393/231)

يعد وجوده ومشاهدته علامة على نقاء البيئة من المبيدات الحشرية, ويمنع صيد الهدهد كما هو الحال بالنسبة لأبو قردان وأبو فصادة، حيث أنه لا يؤكل .

أما بالنسبة لترتيبه ضمن المملكة الحيوانية فهو يعتبر من شعبة الحبليات، صنف الطيور، رتبة كوراسييفورميس (Coraciiformes)، فصيلة أو عائلة آبا بايدا Upupidae، جنس Upupa، نوع U. epops، واسمه الثنائي هو Upupa epops. وهو من نفس رتبة الطيور آكلة النحل (bee-eaters) وملتقطة السمك (the kingfishers) والطيور المعروفة بـ (rollers).

تنتشر الهداهد في آسيا وأوروبا وشمال أفريقيا وفي الصحراء الكبرى الأفريقية وفي مدغشقر، وهي تهاجر لتبحث عن الشتاء المداري والاستوائي كما في الشكل (2).

وتفضل هذه الطيور المناطق العشبية إذ تبحث فيها عن الحشرات والديدان، وتسكن في الجحور الصخرية وبين ثقوب وفراغات الأشجار، وتتميز أعشاشها بوفرة الروائح الكريهة كروائح البراز كأحد وسائل الدفاع عن النوع ضد الضواري والدخلاء. وهناك قصص لتلك الطيور في الثقافت البشرية مثل الثقافة اليونانية القديمة والثقافة الصينية والثقافة العربية. أما في الأديان فإن العهد القديم يعتبر الهدهد من الطيور النجسة بينما له قصة فريدة عند المسلمين في القرآن الكريم مع نبي الله سليمان عليه السلام (2).

يسكن هذا الطائر في جحور الأشجار أو الجحور الصخرية الضيقة وحتى في المباني القديمة. وتجلس الأنثى 12-15 يوماً على بيضها كفترة حضانة حتى تفقس. الذكر يطعم الأنثى أثناء فترة الحضانة ويطعم الصغار بعد الفقس. وعادة ما يحتضن صغيرين كل

عام بحيث يغادرون العش بعد 26-32 يوماً من التفقيس، وله قابلية عجيبة في طلب الماء والكشف عن تواجده تحت الأرض.

(394/231)

يتميز بسرعته الفائقة في الطيران والعدو، ومن صفاته المميزة أيضاً أنه يتمكن أن يبعد أي حيوان ضار أو مفترس عن عشه وصغاره عن طريق رش رذاذ أسود زيتي برائحة كريهة من غدة بقاعدة الذيل تبعد أي متطفل، بل وحتى الصغار يستطيعون ذلك إن أحسوا بالخطر(3).

يتميز هذا الطائر برشاقته وحسن مظهره وخصوصاً مع تلك النتوءات الريشية أو القزعة الموجودة في مؤخرة رأسه. طوله حوالي 31 سم وألوانه تختلف حسب المناطق، فمنها الدارسينية -نسبة للقرفة أو الدارسين وهو نوع من البهارات البنية الداكنة- ومنها الكستنائي مع أجنحة مخططة أو ملونة بالأبيض والأسود.

منقاره معقوف طويل وقوي وأجنحته دائرية تقريباً، أرجله قصيرة وذيله مربع، والريش الجميلة في مؤخرة رأسه قد تتحول لشكل مروحي عندما يستثار، ويعمل على نفخ ريش رقبته عند المناداة. وعند الخطر يومض برأسه.

يتناول الأعشاب من البراري المفتوحة ويفضل الحشرات كالديدان ويرقاتها اللينة التي يلتقطها من الترب وفتحات الصخور الضيقة باستخدام منقاره الطويل، كما ويأكل الحيوانات الصغيرة كالسحالي والعضايا . وقد يأكل بمفرده أو مع زوجه خلال فترة تربية الصغار خصوصاً في فترات الربيع والصيف، وبقية الأوقات قد يتغذى بشكل جماعي(4) .

والهدهد في العادة نوع من الطير في رائحته نتن، وفوق رأسه قزعة سوداء، وهو أسود البراثن، أصفر الأجفان، يقتات الحبوب والدود، ويرى الماء من بعد ويحس به في باطن الأرض فإذا رفرف على موضع علم أن فيه ماء،

وقال الجاحظ : زعموا أنه هو الذي كان يدل سليمان على مواضع الماء في قعر الأرض)، وقد ذكروا في سبب نتن رائحته أن ذلك عائد إلى أنه يبني بيته من الزِّبل، أو إلى تلك الجيفة المنتنة في رأسه، وقيل : بل هو منتن من نفسه من غير عرضٍ عرَضَ له، شأنه في ذلك شأن التيوس والحيات وغيرها .

(395/231)

والعرب يضربون المثل بقوة إبصار الهدهد فيقولون : أبصر من هدهد ، كما يقولون: أبصر من غراب وأبصر من عقاب وأبصر من فرس(5) .

ليس هناك اتفاق بين العلماء بعدد أنواع فصائل هذا الطائر، لكن عموماً هناك جنس واحد منه وخمسه فصائل ثانوية (one genus (Upupa) and five subspecies) ، ، لكن كل من العلماء كليمنتس (Climents) وسيبلي (Sibley) ومونروي (Monroe) عام 1991 قسموا هذا الطائر إلى صنفين رئيسين هما الصنف الأوراسي (Eurasian) وهو ما يطلق عليه علمياً باليو –إي بوب الذي ينتقل بين أسيا وأوروبا وشمال أفريقيا U. epops; ranging across Eurasia and in northwest Africa) ، ، وكذلك الصنف الأفريقي المتوفر في الصحراء الأفريقية ومدغشقر(U. africana; ranges through much of sub–Saharan Africa and Madagascar) كما مبين في الشكل (3– ب) . بينما اعتبر العلماء فراي، كيث، واوربان (Fry، Keith & Urban)عام 1988م بأنهما صنف واحد باعتبار تقارب الصفات والسلوك وفروق الريش ليست كبيرة بينهما رغم اختلاف أصواتهما بشكل واضح .

ولو اتبعنا ما ذهب له هؤلاء العلماء فإن هناك 3 أصناف من الهدهد الأوراسي (Eurasian) والأفريقي (African) والمدغشقري (Madagascar

Hoopoe U. marginata)، وهذا ما أثبت مؤخراً من قبل عدة باحثين أمثال موريس وهاوكنز (Hawkins &Morris) عام 1998م. وقد تم تبيان أهم الفوارق بين تلك الأصناف كما في الشكل (3- ب)، ولعل أبرزها اختلاف الألوان واختلاف الأصوات، فالنوع الأوراسي أقل تنوعاً بالألوان من نوع الطير المدغشقري,
(Upupa epops) كما يبين الشكل (3- ب) الذي يتميز كذلك بوضوح صوته أكثر من هدهد أسيا وأوربا .

(396/231)

يصف ويثربي وباحثون آخرون (Witherby et al's) بعض تصرفات طائر الهدهد في بحوث نشرت عام 1943م، بأنه ، يمشي بهدوء ويركض أحياناً بتلازم حركي بين الرجل والرأس، وهو مغرم بالاستحمام بالرمل . يأكل أساساً من الأرض وغذاءه الرئيس في المناطق العشبية على الديدان واليرقات والحشرات، ويقوم برفع ريش الطوق الرأسي المميز له عند الانفعال والخوف والنشاط بينما يخفضه عند الراحة،
وله صفة التملص من المطاردين الرئيسين له كالباز والصقر والبوم وغيرهم بواسطة الطيران السريع والمتميز فراراً منهم أو بواسطة عمل تمويه أرضي بواسطة عمل حمّام الرمل له

ليتخفى منهم، ويعيش في الأشجار والمباني القديمة والجدران والجحور الصخرية. (6, 7, 8, 9, 10, 11, 12, 13).

أثبت الباحثين ديفيد ليجون (J. DAVID LIGON) وساندرا ليجون (SANDRA H. LIGON) من قسم البايولوجيا في جامعة نيوميكسيكو بأن الهدهد من أكثر الطيور تعاوناً ومحبة للمساعدة خصوصاً لأفراخ من أعشاش أخرى تابعة لأبناء جنسه، وأثبتوا خلال تجاربهم على الهدهد الأخضر (the green wood-hoopoe (Phoeniculus purpureus)) أن تلك الخاصية من أهم خصائصه الاستراتيجية التي يؤديها وكأنه يؤدي مصلحة ذاتية لنفسه مما يبعد الاعتقاد القديم السائد أن الحيوانات ومنها الطيور تمتلك فقط صفات عدائية تجاه غيرها (14).

الشكل (2): أماكن تواجد الهدهد بأصنافه الثلاث على الخارطة العالمية حسب آخر البحوث العلمية. . عن ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

الشكل (3-أ): طائر الهدهد والصفات النقلية والاتصالاتية والاستخباراتية المميزة - عن موسوعة إنكارتا 2003م والشبكة العالمية-

الشكل (3- ب) : أنواع الهدهد الثلاثة الأوراسي(U. epops)الأيمن، والأفريقي (U. africana) الأيسر، والمدغشقري (U. marginata) الأسفل المعروف علمياً بالـ(Upupa epops) وهو الأكثر تنوعاً بالألوان وجمالاً في الصوت .

(397/231)

وعلى هذا الأساس فإن طائر الهدهد يتميز بسرعته الكبيرة في العدو والطيران ومطاولته وطول تحمله لمطاردة الطيور والحيوانات المفترسة بسبب امتلاكه أسلحة دفاعية متميزة مثل التمويه بالرمل والتراب فضلاً عن استخدام رش الروائح الكريهة في المكان كي يبعد كل من يقترب، كما يتميز بحب مساعدته لأبناء جنسه وبقية الطيور القريبة من تصنيفه، هذا فضلاً عن تساويه مع الحمام في قابلية تحديد الوجهة الصحيحة بفضل الحقل المغناطيسي لكوكب الأرض حواسه المميزة التي يستطيع من خلالها رسم خرائط (سمعية وبصرية وشمية) للموقع الذي يمر به, فضلا على امتلاكه حبيبات مغناطيسية في منقاره حاله في هذا الشأن حال الحمام الزاجل وأغلبية الطيور المهاجرة .

بمعنى آخر إن إمكانية بقاءه على قيد الحياة في مهمة استطلاعية محفوفة بالمخاطر كتلك

التي كلف بها من قبل سيدنا سليمان عليه السلام ستكون كبيرة ولأن مهمته ببساطة هي مهمة أخطر بكثير من مجرد نقل الرسائل وإيصالها .

الهدهد في قصة سيدنا سليمان عليه السلام

لعل ما ذكرناه من الآيات الكريمة من سورة النمل تحكي لنا قصة هدهد سليمان عليه السلام، وتروي لنا العجيب من خبره مع هذا النبي العظيم . وابتداء لا بد أن ندرك أن هذا الهدهد لم يكن هدهداً من عامة الهداهد وإنما هو هدهد معين خاص، وقد دل على ذلك أن الله قال: ﴿ مالي لا أرى الهدهد ﴾ (ولم يقل : مالي لا أرى هدهداً من عرض الهداهد ، فلم يوقع قوله على الهداهد جملة، ولا على واحد منها غير مقصود إليه ،ولم يذهب إلى الجنس عامة، ولكنه جلّ في علاه قال: ﴿ الهدهد ﴾ فأدخل في الاسم الألف واللام، فجعله معرفة فدل بذلك القصد على أنه ذلك الهدهد بعينه، وكذلك غراب نوح، وحمار عزير، فقد كان لله فيه وفيها تدبير، وليجعل ذلك آية لأنبيائه، وبرهانا لرسله) .

دعونا ندخل في تفاسير هذه الآيات الكريمات:

(398/231)

في قوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾ .

- ﴿ وتفقد الطير ﴾ أي وتعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ أم منقطعة كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولا يراه لساتر أو غيره فقال : ما لي لا أراه ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له .

وفي قوله سبحانه: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (22) ﴾ .

- ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ زمانا غير مديد , يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفا منه وقرأ عاصم بفتح الكاف ﴿ فقال أحطت بما لم تحط به ﴾ يعني حال سبأ وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علما بما لم يحط به ليتصاغر لديه علمه .

- وروي أنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام بها ما شاء ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكة صباحا فوافى صنعاء ظهيرة فأعجبته نزاهة أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء - وكان الهدهد رائده لأنه يحسن طلب الماء - فتفقده لذلك فلم يجده إذ حلق حين نزل سليمان فرأى هدهدا واقعا فانحط إليه فتواصفا وطار

معه لينظر ما وصف له ثم رجع بعد العصر وحكى ما حكى ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها .

﴿ قالت ﴾ أي بعد ما ألقى إليها ﴿ يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ﴾ لكرم مضمونه أو مرسله أو لأنه كان مختوما أو لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به(15) .

- وقوله تعالى: ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ أي الهدهد واجتمع الجمهور من القراء على ضم الكاف وقرأ عاصم وحده بفتحها ومعناه في القراءتين أقام,

(399/231)

قال سيبويه : مكث يمكث مكوثا كما قالوا قعد يقعد قعودا قال : ومكث مثل ظرف قال غيره: والفتح أحسن لقوله تعالى : ﴿ ماكثين ﴾ [الكهف : 3] إذ هو من مكث يقال : مكث يمكث فهو ماكث ومكث يمكث مثل عظيم يعظم فهو مكيث مثل عظيم ومكث يمكث فهو ماكث مثل حمض يحمض فهو حامض والضمير في (مكث) يحتمل أن يكون لسليمان عليه السلام والمعنى : بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت

طويل ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر فجاء .

وفي قوله(عزّوجلّ) : ﴿ فقال أحطت بما لم تحط به ﴾ وهي: أي علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان في هذا رد على من قال: إن الأنبياء تعلم الغيب وحكى الفراء (أحط) يدغم التاء في الطاء وحكى (أحت) بقلب الطاء تاء وتدغم .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وجئتك من سبإ بنبإ يقين ﴾ ، أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه ودفع عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح وقرأ الجمهور: (سبأ) بالصرف وابن كثير وأبو عمر: (سبأ) بفتح الهمزة وترك الصرف فالأول على أنه اسم رجل نسب إليه قوم . وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل وقرأ: (سبأ) اسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينهما وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام . وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه (16) .

- أنظر إلى قول الهدهد : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ ، قال الشوكاني:(والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته) ويقول الطاهر بن عاشور : (والإحاطة : الاشتمال على الشيء وجعله في حوزة المحيط، وهي هنا مستعارة لاستعياب العلم بالمعلومات) . فالهدهد لم يقنع بأخذ طرف من الأخبار، وإنما مازال ببلقيس وقومها حتى (أحاط) بأخبارهم، وفي هذا من الدقة والضبط ما لا يخفى على أحد .

والواجب علينا دائما ألا نبادر إلى الحكم على الشيء حتى نحيط به، ونلم بجوانبه . قال ابن القيم : (إن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذابا شديدا، أو يذبحه إنما نجا منه بالعلم، وأقدم عليه في خطابه له بقوله: ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ خبرا، وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان عليه السلام مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم .

وقال النسفي رحمه الله حول قوله تعالى: ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ : (ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفا من سليمان) . إذن فقد كان الهدهد يهاب سليمان ويحترمه ويقدره، ومع أنه كان في مهمة دعوية عظيمة الشأن إلا أنه مع ذلك حاول إنجازها بأسرع وقت لأنه تذكر أنه خرج في الأصل بغير استئذان ! . ويتجلى هذا الاحترام والتقدير أيضاً في عرض الهدهد القضية لسيدنا سليمان دون أن يدلي فيها برأي آمر، وإنما عرض ولمح كما سبق بيانه . وهكذا ارتفع الهدهد بالعلم، والعلم دائما يرفع صاحبه، ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ . ولهذا قال الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبة له ! وقال وهب بن منبه: يتشعب من العلم الشرف وإن كان صاحبه دنيئاً والعز وإن كان مهينا ، والقرب وإن كان قصيا ، والغنى وإن كان فقيرا ، والمهابة وإن كان وضيعاً (7) .

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) ﴾ .

ومن هذا فإن تفاسير الآيات تركز على ما جرى من حديث بين سيدنا سليمان عليه السلام وبين الهدهد الذي كان بمثابة وكالة انباء ناقلة لأخبار الأمم والشعوب والملوك في ذلك الزمان وهي إحدى أهم الأسباب المادية التي امتلكها سيدنا سليمان عليه السلام، ولعل في ذلك تنبيه للأمة من خطورة الإعلام والصحافة والاستخبارات .

(401/231)

ورغم أننا نعلم أن تسخير الطير والجن لسيدنا سليمان عليه السلام هو معجزة ربانية ولكننا هنا نحاول تفهم ذلك السبق القرآني في مجال اختيار هذا الطائر دون غيره وما السر في ذلك ؟ .

لو أردنا أن نعرف الطائر الأسرع في الجو فهو بكل تأكيد الباز أو الشاهين القناص الغواص المعروف بالفالكون (Peregrine Falcons) إذ تبلغ سرعته أكثر من 100 ميل بالساعة في حالة غوصه لاصطياد فرائسه(19) . ولكن هذا الطائر لا يصلح للمراقبة لأنه يجلب له الأنظار بسبب خوف الناس منه، لذلك فاختياره كمراقب وناقل قد لا يصلح

رغم سرعته وقوة ملاحظته .

وأما الحمام فرغم كونها كفوءة ملاحياً في نقل الرسائل كما اعتادت على ذلك الحضارات القديمة فهي قد لا تصلح في نقل الأخبار لمسافات بعيدة جداً كتلك التي بين القدس وسبأ لأنها لا تملك خاصية دفاع عن نفسها في حال مهاجمتها كما يفعل الهدهد كما وأنها بطيئة على الأرض ولا تتحمل الجوع لفترات طويلة وضعيفة أمام مغريات إطعامها .

ولقد بينت الدراسات الحديثة أن الهدهد أكفأ من الحمام في استخدامات النقل والاتصال، فهو أسرع طيراناً ولا يحتاج للجماعة في طيرانه وقوة دفاعه عن نفسه أكفأ وتحمله للجوع والعطش أكثر فضلاً عن ذكاءه ومكره المشهور بهما .

لذلك والله أعلم كان الاختيار الأفضل للهدهد من بين بقية الطيور فهو يحمل خصائص فريدة من نوعها .

الخصائص التي تميز الهدهد عن غيره لتجعله رسولاً متميزاً :

1 . طائر غير جارح وغير مخيف .

2 . سريع جداً في الطيران والعدو .

3 . يتحمل الظروف الصعبة .

4 . ذكي ومراوغ .

5 . قابلية تخفي ودفاع عن النفس بشكل رائع وسلمي وباستخدام عدة طرق مثل أخذ

حمام رملي ومن ثم الطيران قرب الأرض كي لا يميزه الناظر عن شكل الأرض فلا يعرف اتجاهه أو باستخدام تقنية رش رذاذ أسود زيتي برائحة كريهة من غدة بقاعدة الذيل تبعد أي متطفل كما بينا آنفاً .

(402/231)

---

6 . لا يحتاج للجماعة في طيرانه وهجرته مما يجعله صعب المراقبة في معرفة الاتجاه .

7 . له قابلية ملاحية متميزة في معرفة الاتجاهات لا تقل عن الحمام .

8 . له قابلية عجيبة في طلب الماء والكشف عن تواجده تحت الأرض .

ولعل تلك المميزات هي التي أهلته ليكون بتلك المنزلة والثقة التي أوليت له من قبل سيدنا سليمان عليه السلام، على أن ذلك قد يوحي بأن ذلك الهدهد كان من نوع خاص وتم تربيته وتدريبه بعناية فائقة، والله تعالى أعلم .

فمن أين لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتلك الحقائق العلمية التي اكتشفت حديثاً خصوصاً وأن تلك الحقيقة لم ترد في الكتب السماوية السابقة أو ما وصلنا منها بعد تحريفها ؟ ! . . إنه الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر(17) .

هذا والله أعلم .

أرجو الدعاء لوالديّ.

يمكن التواصل مع المؤلف على الإيميل التالي:

Shehab2hasan@yahoo.com

المصادر

1. القرءان الكريم

2. عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا (Wikipedia free Encyclopedia).

3. موسوعة إنكارتا 2003م، النسخة الإلكترونية، (Microsoft® Encarta® Reference Library 2003. © 1993-2002 Microsoft Corporation.)، الهدهد.

4. مقال في صحبة الهدهد عن صيد الفوائد، عادل باناعمة.

5. HOOPOES Upupidae.. http://montereybay.com/creagrus/hoopoes.html.. Clements, J. F. 1991.

6. Birds of the World: A Check-List. 4th ed. Ibis Publishing, Vista, CA. Dau, C. P., and J. Paniyak. 1977.

7. Hoopoe, a first record for North America. Auk

94: 601. Fry, C. H., S. Keith, and E. K. Urban.
.1988
The Birds of Africa. Vol. 3. Academic Press, .8
.London. Morris, P., and F. Hawkins. 1998
Birds of Madagascar: A Photographic Guide. .9
Yale Univ. Press, New Haven, CT. Sharrock, J. T.
.R. 1974

(403/231)

Scarce Migrant Birds in Britain and Ireland. .10
A.D. Poyser, Berkhamsted, U.K. Sibley, C. G., &.T
.and B. L. Monroe, Jr. 1990
Distribution and Taxonomy of Birds of the .11
World. Yale Univ. Press, New Haven, CT.
Witherby, H. F., F. C. R. Jourdain, N. F.
.Ticehurst, and B. W. Tucker. 1943

12. The Handbook of British Birds. Rev. ed. Vol. 2: Warblers to Owls. H. F & G. Witherby, Ltd., London.

13. Communal breeding in green woodhoopoes as a case for reciprocity, J. DAVID LIGON & SANDRA H. LIGON, Department of Biology, The University of New Mexico, Nature 276, 496 – 498 (30 November 1978); doi:10.1038/276496a0.

14. تفسير البيضاوي (جزء 1 – صفحة 263 – 265) . . عن برنامج المكتبة الشاملة، قرص مدمج / الإصدار الأول، برنامج يحوي كتب التفاسير، المتون، المعاجم، الفقه، الشروح، وكل ما يحتاجه الباحث في أمور الشريعة/ كتب التفسير.

15. تفسير القرطبي (جزء 13 – صفحة 163) . . عن برنامج المكتبة الشاملة، قرص مدمج / الإصدار الأول، برنامج يحوي كتب التفاسير، المتون، المعاجم، الفقه، الشروح، وكل ما يحتاجه الباحث في أمور الشريعة/ كتب التفسير.

16. عن موقع موسوعة الطيور العالمي:

(http://birding.about.com/library/weekly/aa041297.)

htm)

17 – عن كتاب الدكتور خالد العبيدي (هندسة النقل والاتصالات في القرآن والسنة) ضمن سلسلة كتب (المدرسة الهندسية في القرآن والسنة النبوية) الذي يصدر عن جائزة دبي للقرآن الكريم) .

18 – مساعدة طيبة وغزيرة من الدكتور المهندس: خالد صديق العبيدي .

0–أسرار الخَلْق

في جامعة ليسستر ببريطانيا University of Leicester يقوم بعض الباحثين بطرح العديد من التساؤلات عن أسرار الخلق، كيف نشأ الكون وكيف نشأ الإنسان ؟ ويخرجون دائماً بنتائج تقول لهم لا بد من وجود خالق ومنظم ومبدع لهذا الكون !

(404/231)

فهذا هو الدكتور أندريو Dr Andrew Fry's team من قسم الكيمياء الحيوية يبحث في الآلية الهندسية التي تجعل الخلايا تنقسم، إنه أمر محير حقاً : مَن الذي يجعل الخلية

تتكاثر وتنقسم مشكلة أعظم سر من أسرار الخلق ؟

هذه صورة حقيقية لخلية إنسان ونرى المعلومات الوراثية بداخلها باللون الأزرق، أما اللون الأحمر فيمثل المادة المحيطة بها وهي تستعد للانقسام إلى خليتين، إن العلماء اليوم يرون هذه العملية بكل وضوح، إنه سر عظيم من أسرار الحياة، هل سيصل العلماء إلى اكتشافه ؟ المصدر University of Leicester

ويتابع باحث آخر هو البروفسور مارتن Martin Barstowمن قسم الفيزياء الفلكية بنفس الجامعة، فيطرح تساؤلات: من أين جاء الكون ؟ وكيف تطور ؟ وإلى أين يمضي ؟ ولكنه اكتشف وجود بصمة لكل جزء من أجزاء الكون، فلا يوجد جزئين من الكون متشابهين، بل لكل جزء بصمته الخاصة !

إنه يدرس الآن أحد السدم وهو عبارة عن غاز وغبار قذف من نجم في مرحلة القزم الأبيض إن المشهد يشبه بصمة الإصبع، وعند دراسة هذا السديم الذي يشبه الخلية في شكله، تبين أن هذا السديم يوجد منه المليارات في الكون، وعلى الرغم من ذلك لا يوجد اثنين متشابهين !

صورة حقيقية ملتقطة بواسطة مرصد هابل الفضائي لسديم لولبي يشبه خلية الإنسان،

ففي داخله النواة ويحيط بها الغاز والغبار الكوني، تماماً مثل الخلية التي تحوي بداخلها النواة وتحيط بها المادة الحية. ويقول العلماء: إنه لا توجد خليتين متشابهتين على الأرض، وكذلك لا يوجد سديمين متشابهين في الكون؟ المصدر University of Leicester

(405/231)

أخي القارئ . . . أختي القارئة! كم من آية نمر عليها ولا نتفكر فيها ونحن ندعي الإيمان! هؤلاء علماء لا يدعون الإسلام ولكنهم عكفوا وفرغوا حياتهم وأموالهم لتأمل الكون ودراسة آياته ومعجزاته، فياليتنا نفعل مثلهم! يقول تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) [يوسف: 105].

إن هؤلاء العلماء يدّعون أنهم أول من بدأ مسيرة التفكر في بداية الخلق، ولكن القرآن سبقهم إلى هذا الأمر بأربعة عشر قرناً، فقد أمرنا سبحانه أن نسير في الأرض وننظر كيف بدأ الخلق وكيف نشأ الكون وكيف كانت بدايات الحياة، لنستيقن بأن الله الذي خلق كل شيء من العدم قادر على إعادة الخلق يوم القيامة، يقول تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ

يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [العنكبوت: 19-20] .

وتأملوا معي كيف يرى العلماء اليوم انقسام الخلايا وموتها وإعادة خلقها وكيف تبدأ هذه الخلايا بالنمو، إنهم يرونها بأجهزتهم في القرن الحادي والعشرين والله تعالى يحدثهم بما يرون منذ مئات السنين بقوله: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) ! فهل تكون هذه الآيات وسيلة نزداد بها إيماناً بالله تعالى وصدق كتابه وصدق رسالته ؟

المرجع

Cosmic fingerprinting, Cell Creation, University of Leicester, www.le.ac.uk

---

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

0-سفاح القصور

وقعت وقائع هذه القصة منذ أكثر من قرن من الزمان , وكان مسرحها قصور الملوك والأمراء والنبلاء في دول أوروبا . (1)

لقد كانت هذه القصور مسرحاً لاقامة الحفلات الراقصة على أنغام الموسيقى التي كانت تنساب بين صالاتها , ومع انسيابها ينساب سفاح غريب , ولم تمر ليلة من ليالي الشتاء إلا ولهذا السفاح ضحايا .

وردت الأنباء والتقارير من الجهات المسؤوله عن حدوث حالات تسمم غريبه , وأحيط الأمر بالكتمان حتى يتمكن المحققون من التوصل إلى المجرم الحقيقي والقبض عليه .

ونشط رجال الأمن ودخلوا القصور متنكرين علهم يميطون اللثام عن سر رهيب عاشت فيه قصور الشتاء وسفاح عجيب يوقع ضحاياه في مخالبه , وشددت الحراسة على القصور , وتم التأكد من الشخصيات العظيمة التي تدخلها والخدم والطباخون الذين يعلمون فيها , ورغم ذلك كان التسمم الزرنيخي يحدث .

بدأت الأقاويل تنتشر , والاشاعات تروج , فمرة يتهمون صاحب قصر من القصور , ولكن السفاح يدخل كل القصور , ومرة يتهمون الأطباء , ووصل الأمر إلى اتهام رجال الأمن , والخدم , وهجرت القصور في فصل الشتاء .

وفي يوم من الأيام دعا أحد النبلاء عالماً من العلماء , وكان له أنف عالم ونظرة باحث ,

اقترب العالم من أحد الصور الزيتية الجميلة ونظر إليها فوجد شيئاً أشبه بالعثه , فمد يده خلسة وأخذ جزءاً من الصورة الزيتية الجميلة , وأسرع إلى بيته وفحص العينه جيداً , فإذا الذي بين يديه خيوط من نسيج تكاد تتمزق من اللمس , شمها فإذا رائحة غريبة تنبعث منها , أخذ خيطاً منها ووضعه تحت المجهر , ونظر إليها نظرة باحث فهاله ما رآى وانتفض قائما , وأخذ يجري بحقيبته في يده إلى البيت النبيل , ودق الأبواب بعنف فخرج إليه الحراس فاستأذن في الدخول وأسرع إلى القاعة وهو يصرخ : افتحوا الأبواب والنوافذ , افتحوا الأبواب والنوافذ , افتحوا الأبواب والنوافذ أيها الأمراء والنبلاء , أسرع النبيل يستوضح الأمر .

فقال العالم : لقد عرفت المجرم الذي ينفث فيكم سمومه ؟ !

(407/231)

وتوجه العالم فوراً إلى الصورة الزيتية قائلا: إن السفاح الحقيقي يكمن في هذه الصورة . ويمد يده إلى جزء من الصورة ويضغط عليها بإصبعه فيتهاوى هذا الجزء ونادى عليهم قائلا : تعالوا وضعوا أنوفكم على هذه الصورة 000 رائحة الزرنيخ وأسرع الجميع لفتح النوافذ . وتكلم العالم ليقول : هذه الصور الزيتية التي تزين الجدران تدهن بدهانات يدخل في تركيبها

أكاسيد الزرنيخ .

وهذه الصورة تعتبر طعاماً شهياً لبعض الفطريات رغم احتوائها على كميات مركزة من الزرنيخ .

وإذا كان السفاح يدخل القصور في الشتاء فذلك يعود إلى غلق النوافذ والأبواب , وتجمع بخار الماء على الحوائط والصور والدهانات , فتلعب الفطريات بمركبات الزرنيخ بإنزيماتها المحلله القوية , وتحولها إلى صورة أخرى ينطلق منها غازات سامة تتراكم في البيئة الداخلية المغلقة , وهكذا يحدث التسمم البطئ .

وصاح بعض الأمراء : كيف يتحمل هذا الفطر الحقير الحياة على هذا الزرنيخ السام القاتل , ونحن الأشداء الأقوياء المصارعون نترنح ونسقط من الاعياء من رائحة يطلقها ؟ ! .

نقول : الفطريات أحد الكائنات الحية الدقيقة التابعة لمملكة الفطريات Kingdom Fungi وهبها الله سبحانه وتعالى أقوى جهاز إنزيمي في العالم تحلل به كل شيء , وهي منتشرة في كل البيئات الأرضية تقريباً , وتتحكم في بيئتنا بالاصلاح مرات والافساد مرات أخرى , وهي من جنود الله الخفية التي سخرها لخدمة البشرية , وتخليصها من بقايا الكائنات الحية , وإنتاج المواد الغذائية المفيدة كما حدثناكم سابقاً (2) في الفطريات البازيدية Basidiomycota والفطريات الزقية Ascomycota والأعفان Moulds وهي مخلوقة بحكمة مقدره بأمر الله سبحانه وتعالى .

ولو أعطى الله سبحانه وتعالى الأمر لهذه الفطريات أن تخرج عن قوانينه الحالية التي أعطاها لها إلى حالات العشوائية والصدفة والطفره لهاجمت الفطريات المحاصيل الزراعية, والحدائق المنزلية , وأثاث البيت , وأكلت الأحذية والجلود , والملابس والصوف, والسجاد والموكيت, والكتب والمكتبات وكل شيء حولنا , ولكن سبحان من خلق فسوى, وقدر فهدى .

من هنا وجب علينا تهوية البيوت والقاعات والفصول والمكاتب خاصة في الأجواء الرطبة الدافئة , وتنظيف المكيفات التي تعشش فيها ملايين البكتيريا والفطريات الممرضة والخطيرة .

وعلينا بالنظافة العامة وعدم ترك المخلفات في المنازل والشوارع وتعليم التلاميذ كيف يحافظون على البيئة , ويتعاملون مع المخلفات بكل علمية وعقل سليم .

وعلينا الانتباه إلى دهانات الحوائط التي تحمل المركبات السامة التي تحللها الفطريات والبكتيريا , وأن نبتعد عن استعمالها في دهان الجدران خاصة في دورات المياه , وعلينا عدم استخدام حشاوي البلاستيك حول الأحواض والحوائط لأنها من المواد الغذائية

المفضلة للفطريات ونحن نرى بعضها على هيئة عفن أسود حول الأحواض والجدران .

علينا باستخدام الأسمنت الأبيض بدلاً من هذه المواد المغذية للأعفان وعلينا بالثقافة العلمية في حياتنا اليومية لنتعلم عن هذه الكائنات الحية ما يجب علينا تعلمه .

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا موسى

http://nazme.net

(1)- انظر كتاب الفطريات والحياة - عبد المحسن صالح , المكتبة الثقافية (346), الهيئة المصرية العامة للكتاب (1977م)(ص3) .

(2)- انظر كتابنا الأعفان في خدمة الانسان , وموضوعاتنا الفطريات البازيدية في خدمة البشرية , والفطريات الزقية والمن على البشرية .

0-الأممية في الحيوانات أمم أمثالكم

بقلم الأستاذ محمد محمد معافى علي المهدلي

تمهيد :

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونسترشده ونؤمن به ونتوكل عليه ونصلي ونسلم على سيد الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

فإننا في عصر العلم وزمن التقدم والسبق الفكري وللأسف أن الأمة الإسلامية تعيش بعيدا عن هذا العصر القائم على العلم والتجربة العلمية والتفكر والتأمل والاستنتاج وهذه المنهجة ـ في الحقيقة ـ منهجية إسلامية محضة سبقنا إليها الغرب المادي وإنه لأجدر بهذه الأمة أن تعود إلى دينها الدين الحق الذي يدعوا إلى التفكر والتدبر وهو دعوة للناس جميعا إلى التفكر والتدبر في الخلق والمخلوقات كما قال تعالى : (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)[1][2] .

وقال تعالى:(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ)2 .

ولقد لفت القرءان العظيم الأنظار والعقول من أول يوم للرسالة إلى التأمل والتفكر في شأن

المخلوقات لاسيما في الأنعام والحيوانات كونها ألصق بالعرب وبحياتهم ولا يعرفون إلا هي كما قال تعالى :

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . . .)3وإحياء المنهج التفكر في المخلوقات الذي دعانا إليه الإسلام أقدم هذا البحث الذي أسأل الله أن ينفع به المسلمين وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لقاه .

وقد جعلت قوله تعالى :

)

(410/231)

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)4 وهو عنوان هذا البحث .

وقد واجهتني كثيرا من الصعاب من أهمها ندرة المراجع العلمية وضيق الوقت وكثرة الشواغل ولكن كان المعين لي بعد الله تعالى وتوفيقه مركز بحوث جامعة الإيمان الذي أمدني بكثير من المراجع المتعلقة بالموضوع بالإضافة إلى مكتبة الجامعة فلا أنسى أن أسجل هنا كلمة شكر وتقدير وعرفان لجامعة الإيمان ـ حماها الله ـ ومركزها ، هذا وكانت خطتي في

البحث على النحو التالي :

وقد قسمت هذه الدراسة إلى أربعة مباحث وهي :

المبحث الأول ويشتمل على خمسة مباحث هي :

أقوال اللغويين في الآية .

أقوال المفسرين والعلماء في الآية .

المراد بالمثلية في الآية .

لأممية لدى الحيوانات .

العبودية لدى الكائنات

المبحث الثاني :الجوانب العلمية التي أكتشفها العلم الحديث في التماثل بين الإنسان وسائر الكائنات على وجه الأرض (السلوكيات والأخلاق) :

ويشتمل على ستة مطالب وهي :

البيت الزوجي لدى الحيوانات .

الجنس لدى الحيوانات .

من أعاجيب الحيوانات في حياتها الجنسية

أثر الرائحة العطرة في ثوران الغريزة الجنسية لدى الحيوانات .

تنظيم العملية الجنسية لدى الحيوانات .

الغيرة لدى بعض الحيوانات "البط "

المبحث الثالث :من أخلاقيات الحيوان ويشتمل على ستة مباحث وهي :

الوفاء والأمانة الزوجية لدى الحيوان .

التعاون والمحبة في عالم الحيوان "النحل "

هداية الحمام وعجائب صنع الله فيه .

الهداية الإلهية للحيوان في البحث عن معاشه .

المبحث الرابع غرائب الحيوان ويشتمل على المطالب التالية :

الإنسان يتعلم من الحيوان .

بعض الطيور تقلد أصوات البشر

بعض الحيوانات تسبق الإنسان في معرفة بعض الأحداث والمعلومات .

(411/231)

اللغة السرية لدى الحيوانات "الأفيال والحيتان "في التخاطب فيما بينها المطلب الخامس

:الهجرة كذلك في عالم الحيوان .

كيف تهاجم الحيوانات فرائسها ؟

تبادل الأفكار لدى الحيوانات .

الخداع والمكر لدى الحيوانات .

النحل اجتماعي جدا .

هل تنام الحيوانات ؟ .

هل تحب الحيوانات الجمال أيضا ؟ .

عيون الطيور تشبه عيون البشر .

الوطنية في عالم الحيوان .

جوانب من تفوق الحيوان على الإنسان .

النمل يربي المواشي ويفلح الأرض .

الحيوانات تقيم الحدود الإسلامية .

الحيوانات أيضا تستخدم الدواء وتتطبب كذلك .

كما أشتمل البحث على الخاتمة والفهرس والمراجع . فإلى المبحث الأول:

المبحث الأول تأصيل الجانب الشرعي حول الآية : ويشتمل على المطالب التالية :

أقوال اللغويين في الآية .

أقوال المفسرين والعلماء في الآية .

المراد بالمثلية في الآية .

الأممية لدى الحيوانات .

العبودية لدى الكائنات

مقدمة

القرءان العظيم وهو يخاطب البيئة العربية البدوية التي تعرف الناقة والجمل والخيل والبغال والطير و الغنم والشاء وغيرها من المخلوقات يلفت الأنظار إلى قدرة الباري سبحانه في خلقها وتكوينها وبديع صنعه فيها وهذا ما يعلل سر ذلك الحشد الهائل من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأنعام فلا تكاد تجد سورة من القرءان إلا و فيها حديث أو إشارة إلى آيات الله وبديع صنعه في الأنعام بل لقد سميت بعض سور القرءان بأسماء بعض الأنعام نحو النمل والنحل والفيل والعنكبوت والبقرة والأنعام والعاديات أي الخيل وهكذا .

(412/231)

وفي هذا استنهاض للعقول والأفئدة للتفكر في بديع صنع الله فيها وقدرته تعالى كما قال عز وجل(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) *5 . ومن ضمن الآيات القرآنية التي تحمل الإعجاز والتحدي للبشرية آية من كلام الله تعالى مهما كتب فيها الكاتبون وصنف فيها المصنفون فلن يحصوا ما فيها من علم إلهي إذ تعجز الأقلام عن

الخوض في لججها المتلاطمة(قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)6

إنها قوله تعالى :(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) 7 .

ومن أجل أن تتضح الآية لابد من أن نعرج على أقوال علماء اللغة وأئمة التفسير حول الآية .

أقوال علماء اللغة في معنى الآية

معنى الأمة لغة :

قال في مختار الصحاح للإمام الرازي "والأمة الجماعة "

وقال في لسان الميزان "الأمة الجيل والجنس من كل حي "

وقال الأصفهاني في كتابه مفردات ألفاظ القرءان "والأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا ومنه قوله تعالى(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم)أي كل نوع منها على طريقة قد سخره الله عليها بالطبع فهي ما بين ناسجة كالعنكبوت وبانية كالسرفة.وهي دويبة غبراء تبني بيتا حسنا تكون فيه وهي التي يضرب بها المثل فيقال أصنع من سرفة. ومنها المدخرة كالنمل ومعتمدة على قوته كالعصفور والحمام وغير ذلك من الطبائع التي

تخصص بها كل نوع"

أقوال المفسرين والعلماء في معنى الآية :

(413/231)

قال الإمام القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرءان "إلا أمم أمثالكم "أي هم جماعات مثلكم في أن الله خلقهم وتكفل بأرزاقهم وعدل عليهم فلا ينبغي أن تظلموهم ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به "

وقال الزجاج "إلا أمم أمثالكم " قال في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص وقال مجاهد أصناف لهن أسماء تعرف بها كما تعرفون . وقال سفيان ابن عيينة أي ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه فمنهم من يعدوا كالأسد ومنهم من يشره كالخنزير ومنهم من يعوي كالكلب ومنهم من يزهوا كالطاووس فهذا معنى المماثلة .واستحسن الخطابي هذا وقال فإنك تعاشر البهائم والسباع فخذ حذرك . ثم عقب الإمام القرطبي على هذه الأقوال وغيرها بقوله "وقيل غير هذا مما لا يصح والصحيح -إلا أمم أمثالكم- في كونها مخلوقة دالة على الصانع محتاجة إليه مرزوقة من جهته كما أن رزقكم على الله "وقول سفيان أيضا حسن فإنه تشبيه في واقع الوجود "أ . ه كلام الإمام القرطبي ثم

قال قوله تعالى "بجناحيه "مع أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه فذكرهما ليتمحض القول في الطير . "وقال الإمام جلال الدين السيوطي في تفسيره الدر المنثور في التفسير بالمأثور "أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله عز وجل "إلا أمم أمثالكم "قال خلق مثلكم " .

وقال في تفسير الجلالين للإمام السيوطي "إلا أمم أمثالكم "-في تدبير خلقها ورزقها وأحوالهم"أه

وقال الإمام الطبري في هذه الآية في تفسيره جامع البيان عن تأويل القرءان "جعلها أجناسا مجنسة وأصنافا مصنفة تعرف كما تعرفون وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها ومثبت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب "

(414/231)

وقال الإمام الشوكاني في الفتح "(بجناحيه) لدفع الإبهام ،لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير كقولهم طر في حاجتي أي أسرع وقيل إن إعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ومع عدم الاعتدال يميل فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين وقيل ذكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينيه ونحو ذلك والمعنى :ما من دابة من الدواب التي تدب في أي مكان من أمكنة الأرض ،ولا طائر يطير في أي ناحية من نواحيها (إلا أمم

أمثالكم)أي جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم ورزقهم كما رزقكم ،داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء .

ثم سرد ـ رحمه الله ـ أقوال المفسرين في الآية ثم قال والأولى أن تحل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائنا ما كان " .أه

(415/231)

وقال الإمام ابن القيم "وقال الخطابي ما أحسن ما تأول سفيان ـ يعني ابن عيينة ـ هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعا لظاهره وجب المصير إلى باطنه وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة وعدم من جهة النطق والمعرفة فوجب أن يكون منصرفا إلى المماثلة في الطباع والأخلاق . ثم علق ابن القيم قائلا والله سبحان قد جعل بعض الدواب كسوبا محتالا وبعضها متوكلا غير محتال وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقا مضمونا وأمر مقطوعا وبعضها لا يعرف ولده البتة وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه وبعضها تضيع ولدها وتكفل ولد غيرها وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها وبعضها يدخر وبعضها لا تكسب له وبعض

الذكور يعول ولده وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه . وجعل بعض الحيوانات يتمها من قبل أمهاتها وبعضها يتمها من قبل آبائها وبعضها لا يلتمس الولد وبعضها يستفرغ الهم في طلبه وبعضها يعرف الإحسان ويشكره وبعضها ليس ذلك عنده شيئًا وبعضها يؤثر على نفسه وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحدا يدنوا منه وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النفار منه وبعضها لا يأكل إلا الطيب وبعضها لا يأكل ألا الخبائث وبعضها يجمع بين الأمرين وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها وبعضها يؤذي من لا يؤذيها وبعضهم حقود لا ينس الإساءة وبعضها لا يذكرها البتة وبعضها لا يغضب وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يسترضى حتى يرضى وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك البتة وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده وبعضها يقبل التعليم بسرعة وبعضها مع الطول وبعضها لا يقبل ذلك بحال "أه كلام ابن القيم .]

(416/231)

3] وقال أيضا الإمام ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام "والأمة الجماعة المتساوية في الخلقة والزمان قال تعالى (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا

فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)[4] .

وقال أيضا في الجواب الكافي حيث أورد كلام سفيان ابن عيينة في الآية "قال منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير ومنهم من يتطوس في ثيابه لحما كتطوس الطاوس في ريشه ومنهم من يكون بليدا كالحمار ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ومنهم يألف ويؤلف كالحمام ومنهم الحقود كالجمل ومنهم الذي خير كله كالغنم ومنهم أشبه الذئاب ومنهم أشباه الثعالب التي يروغ كروغانها . وقد شبه الله أهل الجهل والغي بالحمر تارة وبالكلب تارة وبالأنعام تارة وتقوى هذه المشابهة باطنا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهورا خفيا يراه المتفرسون ويظهر في الأعمال ظهورا يراه كل أحد ولا يزال يقوى حتى تعلوا الصورة فتنقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام . فيقلب الله الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم ويفعل بقوم من هذه الأمة ويمسخهم قردة وخنازير "أه[5] وقال أيضا ابن القيم في شفاء العليل (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم) قال "وهذا يتضمن أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والتقدير الأول وأنها لم تخلق سدى "[6]

(417/231)

ويقول سيد قطب في ظلاله حول هذه الآية "إنه ما من دابة تدب على الأرض وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة وغير ذلك من الكائنات الطائرة، ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة ذات خصائص واحدة وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك شأنها في هذا شأن أمة الناس ما ترك الله شيئا من خلقه بدون تدبير يشمله وعلم يحصيه، وفي النهاية تحشر الخلائق إلى ربها فيقضي بأمرها ما يشاء "أه [7]

وبعد أن سردنا أقوال علماء اللغة وعلماء التفسير نشرع في بيان معنى المثلية في الآية .

يمكننا مما سبق من كلام علماء اللغة والتفسير في المراد بالتماثل في قوله تعالى (إلا أمم أمثالكم) وبجمع أقوالهم في الآية يتبين لنا أن المراد بالتماثل بين الدواب والإنسان إنما هو في بعض الجوانب وليس المراد هو التماثل التام من كل وجه إذ لو وقع هذا لكان الإنسان حيوانا كسائر الحيوانات وهو محال عقلا وشرعا .

أما عقلا فمعلوم وأما شرعا فإن الله عز وجل قد كرم بني آدم على سائر الكائنات وفضلهم على كثير من خلقه كما قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) [8] .

ولو قلنا بالتماثل من كل وجه لقلنا برفع التكليف عن بني آدم شأنهم في ذلك شأن البهائم

والدواب وهو محال شرعا وإنما المراد ـ والله أعلم ـ هو التماثل والتشابه السلوكي والخلقي والطبعي كما قال الإمام الخطابي والشوكاني والقرطبي وغيرهم ـ كما سبق بيانه . .

(418/231)

ويدل على صحة هذا القول الحديث الصحيح "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فا قتلوا منها الأسود البهيم [9]" فسمى النبي صلى الله عليه وسلم الكلاب أمة من الأمم أي في الخلق والتدبير والأفعال والأعمال والسلوكيات ومحال تماثل الكلب لكل الأمم من كل الوجوه .

أقرأ المزيد

الأممية في الحيوانات – أمم أمثالكم

الأممية عند الحيوانات – بعض الأمثلة

الأممية عند الحيوانات – من أخلاقيات الحيوان

الأممية عند الحيوان – لإنسان يتعلم من الحيوان

الأممية عند الحيوانات – الرحمة والعطف

[1] الأعراف 185 2 يونس 1 . 1 3 الغاشية 17 4 الأنعام 38 5 النحل 8 6 الكهف

1.9 7 الأنعام 38 [3] شفاء العليل لإبن القيم ص77 [4] جلاء الأفهام ج1ص151 [5] الجواب الكافي ج1ص 83 [6] شفاء العليل ج1 ص4 . [7] ظلال القرآن ج2 ص1.8 . [8] الإسراء 7 . [9] وحسنه السيوطي في الجامع الصغير والهيثمي في مجمع الزوائد وقال رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط والكبير . قلت ورواه الترمذي و أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم .

0-وحيد في المعمل

بقلم محمود عادل الداعور

مصر القاهرة

ma_d_ma@hotmail.com

(419/231)

دخلت متوتراً معمل الكلية المتواضع ووضعت أوراقي في المكان المخصص لي، أخذت بالتظاهر في ترتيب أجهزتي المعملية لعل هذا يخفف من اضطرابي فهذه أول مرة سأختبر فيها عمليا لمادة الكيمياء الفيزيائية، قاطعني صوت المشرف " الزمن ساعتان الرجاء

كتابة الاسم بخط واضح على ورقة الرسم البيانى" . خلال خمس دقائق تحول المعمل إلى خلية نحل، الكل يعمل ويكتب ويسجل، أخذت ماصتي لأستخرج 5 مللي من هذا الحمض . . كانت هذه الماصة بدائية(وهي شبيهة بالقلم الزجاجي الفارغ) فنحن نضع هذه الماصة داخل زجاجة الكيماويات ثم نقوم بالسحب من هذه الزجاجة بالفم، كنت أريد أن املء هذه الماصة ب 5مللي من الحمض فوضعت فوهتها داخل زجاجة الحمض وقمت بالسحب بفمي فلم يمتلئ إلا 2 مللي، أخذت نفساً عميقاً ثم قمت بالسحب مرة أخرى . . . ولكن هذه المرة كان السحب قوياً جداً . . كان أكثر مما أريد ، وساعد على ذلك دخول فقاعة هواء حتى دخل الحمض إلى فمي . . هرولت مسرعاً إلى حوض الماء فقذفت ما في فمي من الحمض في الحوض الذي أمامي وتمضمضت بالماء لكي أزيل أكثر هذا الحمض . . ولكن أنا قرأت عن هذا الحمض في أول الدراسة . . على ما أعتقد كان ساماً . . فتحت أوراقي لأقرأ سريعاً الخواص الكيميائية لهذا الحمض فوجدت الآتي " الحمض شديد السمية يكفي الجرعة الصغيرة منه للقضاء على حيوان بحجم الفيل في خمس ثواني" .

لم أتمالك نفسي عندما قرأت هذه العبارة فانثنيت كأن أحداً ضربني في بطني، ولكن لم ألبث قليلاً حتى تهاويت إلى الأرض جالساً ، الآن سأموت وخلال ثواني . . لا أستطيع الحركة . . لا أستطيع الكلام . . بعد قليل سوف أموت في المعمل ولن يدري بي أحد . .

وددت لو كنت عالماً أو باحثاً ولكن ضاعت كل أحلامي ومت مجهولاً في معمل الكلية الصغير .

(420/231)

زملائي مشغولون ويعلوا وجوههم العبس . لا يفكرون إلا في الاختبار فقط . إنهم حتى لم يهتموا بوجودي جالساً على الأرض وأنا أنتظر الموت . . هؤلاء أصدقائي الذين كانوا يضحكون معي في الخارج . . الآن هم أهملوني أنتظر الموت وحدي . . يالا قسوة الإنسان الكل يجيء ويذهب في رتابة وكأنهم قطع متحركة بلا مشاعر ولا قلوب . . .

وددت لو أصرخ فيهم ولكن لا وقت للصراخ أو البكاء فما هي إلا ثواني معدودة وألقى نهايتي المحتومة متأثراً بهذا الحمض السام .

انكببت على نفسي أفكر في حياتي فلن ينفعني أحد من الناس الآن . . أخذت أتذكر لحظات الطفولة . . حنان أبواي لي . .

عراكي مع أصدقائي في المدرسة . . دراستي في الفترة الثانوية لقطات متباعدة .

متداخلة . . سريعة . . كل حياتي تمر أمام عيني وكأني أستنشق رائحة الدنيا قبل أن أفارقها .

أخذت أفكر أين سأذهب بعد قليل ؟ هل سأحيا سعيداً كما كنت في الدنيا مع أبوي وأصدقائي ؟ أين كنت قبل خمسين عاماً ؟

أسئلة كثيرة طرأت على ذهني في هذا الوقت، قلت وكأني أجيب على نفسي محاولاً طمأنتها " لم تكن شريراً وكنت تساعد الناس فستكون حياتك في الآخرة سعيداً بإذن الله وستدخل الجنة " .

قاطعني فجأة صوت كالفحيح . . لا أدري صوت من هذا . . هذه ليست نفسي . . هل هو شيطان ؟ أم خواطر سيئة " لا يوجد جنة ولا نار " .

رددت عليه محتداً " هذا مخالف لكل ما جاء به الأنبياء ومخالف لما جاء به محمد عليه السلام خاتم الرسل والأنبياء " .

بنفس الصوت القبيح قال: " ومن قال لك أن محمداً رسول ؟ لما لا يكون دَّعياً ؟ " .

قلت برصانة " ألم يبعث الله موسى عليه السلام بمعجزات منها العصى منها العصى التي تحولت إلى ثعبان وسجد بعد ذلك السحرة كلهم لما تيقنوا أن معجزة موسى من عند الله وليست سحراً ؟ ألم يبعث الله عيسى عليه السلام بمعجزات منها إحياء الموتى ومولده بغير أب وكلامه عند المهد فلما رأي المؤمنون ذلك أتبعوه وعرفوا أنه مبعوث من قبل الله ؟

والرسول محمد عليه السلام ليس مختلفاً عن باقي الرسل فلقد بعثه الله ومعه معجزة دالة على رسالته " .

القرآن الكريم:

فلقد أنزل الله تعالى إلى رسوله محمد القرآن وهو كلام الله فهو يختلف عن كلام البشر ، فهو معجز وآية بينة لكل من قرأه وتدبر معانيه (1) ، وقبل أن أكمل باقي أوصاف القرآن أتاني الصوت قائلاً " بل هو من تأليف محمد وقبل أنه كلام الشياطين " .

" أولاً هل الشياطين تأمر بالرحمة وبر الوالدين و بالأخلاق النبيلة ؟ الإجابة لا . .

الشياطين تأمر بالفحشاء والمنكر وهذا معروف للعامة فإذا قرأت القرآن تجد آياته تحث على عبادة الله وصلة الأرحام وبر الوالدين وجميع الأخلاق الحميدة كما أنها تنهى عن جميع أنواع الفواحش من كذب وسرقة وربا وزنا ، فهل يعقل أن كل هذه الفضائل تصدر من شيطان ؟ بل هو كلام الله وهو شيء واضح وجلي لكل من يقرأ القرآن ويحاول فهم معانيه وتدبر آياته .

وثانياً كيف يؤلف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كتاباً معجزاً كهذا عجز البشر عن الإتيان بمثله وهو أمي يجهل القراءة والكتابة ولم يكن يجلس عند الكهان أو رجال الأديان السابقة " .

أتى الصوت مرة أخرى ولكن هذه المرة قال بصوت ضعيف " ولكن يوجد كتب كثيرة فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمصلحين كثيرين في العالم فلما لا تكون هذه الكتب أيضاً من عند الله " .

(422/231)

"كما قلت من قبل القرآن كلام الله وباقي الكتب هو من كلام البشر وهل يستوي كلام الله وكلام المخلوق ؟ الفرق واضح وجلي لكل من يقرأ القرآن ويتدبر معانيه . . فمثلاً لو جئنا بسيارتان BMW أحداهما بلاستيكية مصغرة للأطفال والأخرى حقيقية كبيرة . . الإثنان يصح أطلاق اسم السيارة عليهما فعند مقارنة الأثنان ببعضهما ستقول إن إطار السيارة الحقيقية أكبر من الإطار في اللعبة والكشاف الأمامي للسيارة أكبر منه في اللعبة والوسادة هنا إسفنجية مريحة وهنا بلاستيكية صماء ، ولله المثل الأعلى فعند مقارنتك للقرآن بكلام البشر من المشهورين تجد الفرق كبير بين هذا وذاك من جميع الزوايا " .

المعجزات العلمية:

حتى لغير الناطقين باللغة العربية يستطيعوا التأكد وبقليل من البحث أن هذا القرآن الذي بلغه محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله وليس من تأليف بشر ، فقد أخبر الله تعالى

عن بعض المعلومات العلمية الدقيقة في القرآن منذ أكثر من أربعة عشرة قرناً والتي لم تكن معروفة في وقت بعثة الرسول، بل كان من المستحيل التواصل إلى هذه الحقائق آنذاك وهي في مجالات عديدة مثل الطب والفلك والجيولوجيا والنباتات .

عصر ما قبل الميكروسكوب:

هل من الممكن أن تصف لي مراحل نمو الجنين في بطن أمه بدون الحاجة إلى استخدام كاميرات أو معدات حديثة ؟ هل ممكن أن تتخيل عملية التخصيب بدون فحص الحوينات المنوية أو البويضات مجهرياً . هذا بالطبع مستحيل .

الرسم الذى وضعه هارتوسوكر للحوين المنوى

فكيف تعرف ما يحدث في رحم المرأة من إخصاب ونمو الجنين وهذا كله غير مرئي إلا باستخدام التقنيات الحديثة كأجهزة السونار وغيرها .

بالرغم من ذلك نجد القرآن يصف لنا الكثير من الحقائق العلمية والتي كان يستحيل كشفها قبل 1400 سنة .

تكون الجنين من ماء الرجل وماء المرأة:

لم تكن هذه الحقيقة معروفة فحتى القرن السادس عشر كان يعتقد أن الجنين يتولد من دم الحيض ! ! إلى أن جاء العالم هارتوسوكر سنة 1694 ميلادية (2) .

بعد إكتشاف الميكروسكوب ليرسم الحوين المنوي محتوياً على قزم ليعبر عن الفكرة السائدة التي كانت عندهم بان الإنسان يكون مخلوقاً خلقاً تاماً في الحوين خلقاً تاماً في الحوين المنوي وهم لم يعرفوا بعد أن خلق الإنسان في رحم أمه يكون في أطوار مختلفة وقال آخرون إن الإنسان يتخلق تخلقاً تاماً في بويضة المرأة، وبينما كان الجدل العلمي قائماً بين علماء الغرب في السؤال الذي حيرهم . . مما يتخلق الجنين ؟ هل من الحوين المنوي ؟ أم من بيضة المرأة ؟ كانت الحقيقة القرآنية واضحة في ذلك الشأنوهي أن عملية التخلق مشتركة بين الذكر والأنثى .

قال الله تعالى : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى " سورة الحجرات الآية13 .

مر يهودي برسول الله وهو يحدث أصحابه فقالت قريش : يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي فقال لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي . قال فجاء حتى جلس ثم قال : يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال رسول الله " يا يهودي من كل يخلق من نطفة الرجل ونطفة المرأة " .

طور العلقة والدودة :

بعد عملية تخصيب الحوين المنوي للبويضة يكون شكلهما دائري كقطرة الماء التي يسمى

الزيجوت ثم تواصل نموها فتنقسم إلى خلايا أصغر فأصغر تدعى القسيمات الجرثومية Blastomeres ثم تتحول هذه القطرة إلى كتلة حمراء Blastocyst وتلتصق بجدار رحم الأم للتغذى من دمها فالجنين في هذه المرحلة شبيهاً بالدودة التي تمص دم الكائنات الحية في الماء، وبهذا التشبيه صرحت به هيئة الإذاعة البريطانية BBC في فيلمها العلمي التسجيلي " هيومان بودي "(Human Body"(3) .

صورة لحشرة العلقة التي شبه الله تعالى بها أحد أطوار خلق الإنسان

(424/231)

وصف لنا القرآن أطوار نمو الجنين بالتالي : " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين " سورة المؤمنون (14.12) .

وفي موضع آخر " أقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق " سورة العلق (1. 2) .

نلاحظ وصف القرآن للجنين في هذه المرحلة بالعلق والعلق في اللغة العربية هو الدم الغليظ . . والقطعة منه علقة والعلقة أيضاً دودة في الماء تمتص الدم .

(تفسير أبي بكر الرازي في مختار الصحاح باب العين) .

انظر إلى دقة الوصف القرآني لهذه المرحلة الدقيقة من النمو . . فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم إما كان يكون طبيباً متخصصاً في علم الأجنة وذو إمكانية معملية غاية في الدقة والتطور أو أن يكون خالق هذه العلقة هو الذي أخبره عن أسرارها . . ولكن من المعروف أن النبي كان أمياً ولم يكن عالماً متخصصاً في الأجنة ولم يكن لأحد على وجه الكرة الأرضية الإمكانات العلمية الحديثة لاختراق رحم المرأة أو تصوير ودراسة الأجنة المتناهية في الصغر بل وصفها وتصنيفها بهذه الدقة وقت ذاك، فمحمد رسول الله (4)، والقرآن هو كلام الله خالق الإنسان وخالق كل شيء .

د . موريس بوكاي (Maurice bucaille):

على الرغم من إرتياحي من ذهاب هذا الصوت اللعين الذي كان يأتيني إلا أنني لم أنته بعد من وصف أطوار الجنين فلم أتكلم عن المضغة ولم أتكلم عن كسو العظام لحماً . . إنني وددت لو قلت له بعض الأوصاف العلمية الدقيقة في القرآن لتكون الجبال والأمطار وفي عالم الفلك والبحار ولكنه لم يمهلني (5) وتركني أتفكر في قول الدكتور الفرنسي صاحب كتاب " التوراة والإنجيل والقرآن والعلم " د . موريس بوكاي" .

صورة للدكتور موريس بوكاي

)

(425/231)

شعرت بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التي لم أكن أعرفها ، ذلك حتى أكون قادراً على التقدم في دراسة هذا الدين الذي يجهله الكثيرون ولقد أذهلني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي، لقد أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات، والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد عليه الصلاة والسلام أن يكون عنها أدنى فكرة . . " .

ليس هناك أي مجال للشك، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلاً نفس النص الأول . ما التعليل ؟ إذ ليس هناك سبب خاص يدعوا للإعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية في العصر الذي كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات بحوالي عشرة قرون !) .

فتحت عيناي ببطء . . إني لا أزال على قيد الحياة . . لم أمت بعد . . مازلت جالساً

على الأرض في المعمل . . بدأت أحرك في أصابعي . . لا أشعر بأي شيء غريب . . قمت من مكاني متثاقلاً . . لا أشعر بأي أعراض تسمم . . نظرت في الساعة . . لقد جلست قرابة الثلاث دقائق والحمض يقتل خلال ثواني ! لعلي تمضمضت جيداً . . لا أدري . . ذهبت إلى مشرف المعمل وقصصت له ما حدث فقال " لا تبالي الحمض مخفف جداً وأنت لم يدخل جوفك شيء فلا تقلق . . ثم أردفت بصوت عالي سأقوم بجمع الأوراق في الوقت المحدد ولا عذر لأحد . . عندها أسرعت لكي أتم الأختبار العلمي وكلي عزم على أن أبلغ وأبين رسالة الله قبل أن أموت وحيداً في المعمل "

ملاحظة هامة :

يمكن مشاهدة لقطة مترجمة من فلم للبى بى سى يصف العالم اليهودى طور العلقة بالدودة بالضغط هنا

بقلم محمود عادل الداعور

المراجع:

-1 ستجد فى هذا الموقع العديد من تراجم لمعانى القران

http://www.islamhouse.com/dc/b_quran.html

(Hartsoeker, N. (1694 . "Essay de Dioptrique" .

Paris -2

3- يمكنك قراءة ملخص للفيلم على

(426/231)

---

http://www.dvd.net.au/review.cgi?review_id=831

http://www.bbcshop.com أو يمكنك شراؤه من الموقع

4- ستجد الكثير عن حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على تلك الروابط

http://www.islamhouse.com/file/rasool و

http://www.pbuh.us

5- العديد من الكتب والأفلام الوثائقية للتحميل مجانا تتكلم عن الإعجاز العلمى

فى القران وعن مخلوقات الله وغيره من مواضيع شيقة

www.harunyahya.com

0-لفتات حول اللغة الربانية التي كتبت بها المعلومات الوراثية

د نصر الله ابو طالب

رسم يوضح تركيب القواعد الكيميائية الأربعة في جزيء ال DNA

استشاري أول بأمراض وزراعة الكلى

باحث في قضايا الكتاب المقدس وتاريخ اليهود

(427/231)

ها هنا استعرض مع القارئ بعض سمات المجلد الكبير الصغير الذي احتوى على خصائصنا الوراثية . . كبير إذ نحتاج الى ما يزيد على احد عشرة سنة لقراءة صفحاته المحتويه على ثلاثة بليون حرف هذا اذا قراءناه بسرعة عشرة أحرف بالثانية . . وهو مجلد صغير قد تضاءل حتى استحالت رؤيته . . كثيرة هي طبعاته، ففي كل مخلوق منه طبعة، ومن كل طبعة جاءت نسخ لاتحصى تعجز لغة الأرقام عن عدها ، حتى احتوت كل خلية من خلايا الجسم منه – عدا الكريات الحمراء – على نسخة . . طبعاتهُ على كثرتها التي لا يحصيها الا خالقها مميزةُ لا تتكرر (إلا بالتوائم المتناظرة) ! ومع هذا التنوع لا تختلف أي طبعة عن الأخرى بين أي فردين من الجنس البشري بغض النظر عن لونهما وأصلهما البشري الا في 0,1% أوفي حرف من كل ألف حرف . . وكفى بذلك الاختلاف الطفيف أن يكون مسئولا عن كل الفوارق الخلقية (فسيولوجية أو مرضية) بين كل أبناء آدم . . وأن

يُثبت في نفس الوقت للبيض والسود أنهم جميعاً أبناء أب واحد ولا فرق . . كتبت المادة الوراثية (يُرمز لها بحض DNA) مثنى مثنى . . نسختان متقابلتان لكل فقرة (نسميها عاملاً أو جيناً وراثياً) من فقراتها ، واحدة من الأب والأخرى من الأم . . وكل المادة الوراثية موزعة على 23 زوجاً متشابها من المجموعات المتقابلة نسمي كل فرد منها كروموسوما . . ورثنا 23 كروموسوما منها من كل واحد من أبوينا . . الحروف المستعملة هي أربع "قواعد" كيميائية رُمز لها الباحثون بالاحرف A C T G التي هي يتكون حمض DNA من سلسلتين متقابلتين من القواعد الأربع تنفكان عند نشاط الحمض لصناعة البروتين أو لطبع نسخ جديدة من الحمض نفسه

(428/231)

مختصر لأسماء القواعد الأربع أدينين Adenine ب(A) ، وجوانين Guanine ب (G) ، وثيامين Thymine ب(T) ، وسيتوسين Cytosine ب (C) تشترك كل ثلاثة منها (فكأنها أحرف) في كتابة كلمة . . فكلّ كلمات الكتاب أربعة وستون كلمة فقط . . كل كلمة ترمز لحمض أميني أو لأحد الأوامر الأساسية المتعلقة بنسخ المادة الوراثية أو طبعها . . و تنتظم الكلمات بالمئات الى الآلاف أو الملايين في كل فقرة (جين) من

فقرات الكتاب الكثيرة التي لا نعرف لأكثرها وظيفة . . تنتظم في سلاسل طويلة من المادة الوراثية التي يرمز لها بحمض DNA لو تخيلتها قد فُردت خيطاً رفيعا من الكتان لبلغ طوله ذلك الخيط مصنوعاً من كل خلية 100 كم !

لمّا كانت البروتينات (وهي سلاسل مختلفة الترتيب من الأحماض الأمينية) هي أساس بناء أجسام الأحياء وأساس تنظيم عملها وتنظيم بقية مواد الجسم الأخرى من الدهون والأملاح فإنّ المادة الوراثية حُصرت في تشفير البروتينات، سواء منها البروتينات المستخدمة في البناء أو تلك المستخدمة في تنظيم التفاعلات الكيميائية بالجسم . وعلى هذا جاءت الأحماض الامينية ممثلة بالكلمات الثلاثية الأحرف، واصبح ترتيب كلمات المادة الوراثية مُحدِدا لترتيب الأحماض الأمينية ونوعية البروتين الذي سيتم تصنيعه من تلك الفقرة (الجين) . .

وتحتوي المادة الوراثية بالانسان على ضخامتها على حوالي ثلاثين ألف عامل (جين) وراثي فقط . . مسئولة عن صنع ما يزيد على المائة ألف نوع من البروتينات . . فيصنع كل جين عددا من البروتينات . . ويتم تعدد البروتينات الناتجة عن طبع كل جين (فقرة من الـ DNA) عن طريق اختزال أجزاء من النسخة المطبوعة mRNA عنه والتي تم نقلها الى

خارج نواة الخلية حيث تتم صناعة البروتينات . . وتسمى فواصل الجينات التي لا تترجم الى أحماض أمينية بالانتونات Introns ، بينما تسمى الفواصل التي تترجم الى احماض أمينية ولو في أحد البروتينات الناشئة عن الجين بالاكونات Exons .

(429/231)

ويشارك في تنظيم عملية ترجمة الجينات الى بروتينات عدد ضخم من الجينات والبروتينات الناشئة عنها . . يتم من خلال ذلك تمييز الخلايا والأنسجة المختلفة وتحديد اختصاصاتها الوظيفية بشكل آني دقيق . .

تركيب الجين حيث يبدأ وينتهي بقطع تنظم عمل الجين، ويا تي بعدها القطعة المسئولة عن بدء ترجمة الجين أو طبعه Promoter وتتخلل الجين قطع منظمة اضافة الى الاكسونات والانترونات . الرسم عن موقع Student Consult

هذه مقدمة مبسطة جداً عن كم هائل من المعلومات التي توفرت للباحثين، والتي هي مع ذلك ما زالت قاصرة جدا عن السماح باستيعاب بناء وعمل المادة الوراثية . . ولا مجال للحديث هنا عما عرف التفاصيل العلمية الدقيقة لتركيب المادة الوراثية وكيفية عملها ،

والذي يعنيني هنا هو التذكير بأنّ هذا خلق متقن دقيق ومحبوك . . ولا يكاد يستطيع الباحث لملمة شيء من الأدلة الوفيرة التي لا تحصر على كمال الخلق ودقة الصنع . . وذلك لا يتنافى مع خلق الانسان ضعيفا . . فضعفه أمرٌ مقصود في حد ذاته . . لا يحدث كظواهر سلبية، بل تحكم هذا الضعف وترتب له جينات وراثية وسلسلة هائلة من العمليات الدقيقة الهادفة . . إنه الإحكام و DNA صرحه الأساسي . . فليس هنالك مكان للحديث عن نواقص أو عيوب بلغة الخلق المتمثلة أمامنا في حمض DNA . . بل هي الحكمة البالغة في ايجاد هذا الخلق يتعاقب على الأرض في دورة الموت والحياة ليعقبها الحساب والجزاء . .

ومن هنا فلا يصح أن يتبادر لذهن القارئ أننا نتحدث عن مواضع ضعف بلغة الوراثة، وأين النقص منها وقد أتقن الله كل خلقه وهدى . . وانما استعرض ظواهر وخواطر متعلقة بها . .

يتم لف سلسلتي حمض DNA بطريقة معجزة بحيث ينتهي طوله الفعلي من عدة أمتار الى أجزاء ضئيلة من الميكرون الذي واحد من المليون من المتر، ومع هذا يتم الوصول الى أي جزء منه آنياً رغم تعقيد اللفة وطولها وارتباط عملها بعدد ضخم من الجينات المرتبطة وظيفيا أو المنظمة

الصورة مأخوذة من كتاب

Textbook of Genetics 3E by Jorde et al

منزلة من موقع Student Consult

فمن هذه الظواهر:

– من المحير للباحثين أن معظم المادة الوراثية تبدو وكأنّها عاطلة عن العمل، ولا يساهم من المادة الوراثية كجينات وراثية أو جينات منظمة لعمل المادة الوراثية سوى نسبة لا تصل الى خمسة بالمائة من مجموع المادة الوراثية . .

فعجيب هو سر تلك الفقرات الطويلة الهائلة من المادة الوراثية التي لا يعرف لوجودها تعليل ولا وظيفة حتى تجرأ بع الباحثين بتسميتها بالسكراب والصحارئ والخرابات . . ويعلم العقلاء منهم والمؤمنون بأنّ لها حكمة خفية نجهلها ,,

هنالك أيضا عدد من الظواهر البارزة، منها:

- ظاهرة غياب التصنيف: لو أنّ أحدنا أراد أن يؤلف كتابا عن أي موضوع لصنف ما يكتب الى فصول يجمع الى كل فصل جوانبه المشتركة (كالجينات) وظيفيا أو على الأقل المتقاربة تركيبا . . كل ذلك ليسهل على القارئ البشري لملمة الموضوع والاحاطة النسبيه به . . لكنّ اللغة الربانية التي سُطرت بها المادة الوراثية لم تُنظم على هذا الأساس . . والأمثلة لا تكاد أن تحصر هاهنا . . فجزئ الليف الرابع (الكولاجين الرابع) يتكون من ستة جزيئات، كل منها يصنعه جين وراثي هو أبعد ما يكون موقعاً عن الآخر . . المسافات التي بينها تعتبر بحق هائلة عندما تقاس بقياسات ذلك العالم المتناهي في الدقة . . وحتى يستوعب القارئ ذلك أذكر له تشبيه الباحثين لعملية العثور على جين بعملية اكتشاف موقع كورة قدم مخفية في أحد الطوابق الأرضية في عمارة ما بالولايات المتحدة الأمريكية . . وعلى القارئ أن يتخيل أن أحدنا لا يستطيع أن يحافظ على لفة خيط من عدة أمتار يفتحها ويلفها، إذ سرعان ما "تتشعبط" عليه، فكيف بمائة كم من خيط الخياطة الرفيع تلف وتفك ملايين المرات باليوم ضمن نواة الخلية التي لن يزيد حجمها عن دولاب صغير . . وتتناغم فقرات منه متباعدة في عمل مشترك يصل في بعض البروتينات كبروتينات الهموجلوبين الى طبع عشرات الترليونات أو آلاف البلايين من الجزيئات البروتينية بالثانية الواحدة . . أعظم أيها القارئ بملك الله وقدرته !

رسم يوضح تركيب القواعد الكيميائية في جزيء ال DNA

فما الذي إذاً يجعل هذه الجينات المتخصصة في بناء جزئ بروتيني محدد أن تتداعى آنياً من مواقعها المتباعدة من كروموسومات مختلفة لصناعة ذلك الجزيء البروتيني . . وكيف يتم استيعاب الأعداد الهائلة من المجموعات المتشتتة من الجينات استيعابها زماناً ومكانا لتنطلق فريقا واحدا متآزرا . .

(432/231)

إنّ التصنيف والتبويب أساس في كل انشاءات البشر لمساعدة العقول البشرية على الألمام والأستيعاب وتجنب أخطاء السهو والنسيان . . لكن الخالق أغنى مَن يكون عن التذكير أو الحاجة الى وسائلة بما فيها من تصنيف أو تبويب . . وللخالق في توزيع المادة الوراثية على ما هي عليه حكمةٌ لا شك في وجودها وإن جهلها البشر وعجزوا عن اكتشافها . . ويجد القارئ للقرآن الكريم عرضاً لقضايا عديدة في مواضع متعددة من المصحف . . في كل موضع به طرح متجدد بلون أو تفصيل اضافي . . تتجدد فيه روح القارئ ووجدانه اثناء التلاوة، فالهدف ليس حشواً لمعلومات بل تربية لوجدان وروح وقلب . . لم يتم في عرض قضاياه كآيات الجهاد أو الأحكام مثلا الحرص على جمعها الى مواضع واحدة من

المصحف، بل توزعت آيات الكتاب في مجموعات جميلة (السور) مؤثرة، لكل واحدة حلاوة تميزها، تحكم توزيعها عوامل لا نعلمها يبدو من بينها وحدة النسق والنظم والموضوع أحيانا . .

(433/231)

- ظاهرة التكرار: حيث تشكل نسبة المادة الوراثية DNA المتواجدة مرة واحدة Single-copy DNA أو في عدد محدود من المرات (النسخ) نسبة 45% فقط من مجموع المادة الوراثية DNA، بينما تأتي بقية المادة الوراثية 55% بشكل مجموعات متكررة إما ضمن مجموعات (تشكل 10% من المادة الوراثية) أو بشكل موزّع على كل الكروموسومات (تشكل 45% من مجموع المادة الوراثية) يصل تكرار بعضها الى عدة آلاف من المرات . . وطويلة أحيانا وقصيرة أحيانا أخرى . . لكنها متكررة في نسق يعجز الانسان عن قراءته أو فهمه . . ما أظنها إلا تسابيح متكررة . . فالتكرار بل الأصح عند القراءة والذكر والتلاوة استخدام لفظ الترداد الذي هو قلب الذكر والعبادة والتسبيح . . فهؤلاء المؤمنون على مر الزمن وتلك الملائكة لا تسأم تردد عبارات الذكر ليلا ونهارا . . تلك العبادة ذكرا ودعاء طبيعتها الترداد . . ولا يردد ولا يكرر ذكر ولا دعاء الا لرب

العالمين . . ولا يشك من لديه ذرة من عقل أنّ ثمة هنالك حكمة بالغة من مثل هذا التكرار الكبير في الخطة الوراثية المكتوبة مكررة داخل كل خلية من خلايا الجسم . .

وقديما ضربو المثل بمطبعة محتوية على قوالب حروف كثيرة، هل يمكنها بسبب هزات أرضية أو غيرها مهما تكررت أن تترتب في قصيدة أو قصة ذات موضوع أو مغزى محدد . . فإذا رفض العقل انتظام عدة مئات من الحروف صدفةً فأنّى له أن يقبل بانتظام ثلاثة بلايين حرف لترسم مراحل وتفاصيل خلق الفرد البشري . . ولاشك بأنّ الأجزاء المتكررة تكررت لحكمة بالغة لم يتشرف الانسان بعد بفهمها . .

(434/231)

يبقى هنا مرة اخرى الاشارة الى بروز ظاهرة التكرار باللغة الربانية بالقرآن : " الله أنزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربَّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فماله من هاد " ، بل انّها ظاهرة أشد بروزا بالتوراة والكتاب المقدس، فعلى الرغم من ثبات التحريف الشديد به إلا أنّ به أجزاء يبدو أنّها أصيلة ومن الوحي الرباني، وقد ظهر التكرار بالتوراة حتى سُمِّي أحد أسفارها الخمسة بالتثنية لتكراره وتثنيته الأحكام والآيات مرة أخرى، ونسب

الى الأنبياء تعاليم وذكر هو في الواقع تأكيد وتكرار لتعاليم وذكر من سبقهم . . فالدعوة واحدة والمحتوى واضح وبسيط لكن النفوس البشرية تحتاج الذكر مكرراً . .

- ظاهرة النسخ مع الإبقاء على الفقرات المنسوخة، فتُقرأ مجيئاً وذهابا في كل مرة يتم فيها طبع نسخة جديدة من حمض DNA، فيرى الباحثون عدداً من الجينات الوراثية منسوخاً، ويلحقون باسمائها الإضافة المعتادة Psuedo- التي تعني غير صحيح أو جينا منسوخاً، فهي جينات يقوم بعملها جينات أخرى . . والجينات المنسوخة محتفظ بها ضمن السلسلة الوراثية وتسنسخ كغيرها من الجينات في كل عملية انقسام خلوي بالجسم . .

- ظاهرة المحكم والمتشابه: فهناك أجزاء من المادة الوارثية تم التعرف على وظائفها وعواقب اختلالها، وهنالك أجزاء كثيرة لم يتم بعد التعرف على وظائفها الا أنّ الأمر لا يبدو أنّه سيكون متعسراً، لكنّ الأجزاء الأكبر من المادة الوراثية تبدو عسيرة الفهم، غامضة الوظيفة والغاية، متشابهة التركيب . . ولا يتوقع أن يفهم كنهها البشر . . لكن العقلاء يؤمنون بأن حكمة بالغة تقف خلف صنعها . . وفي القرآن المحكم واضح الدلالة والمعنى والمتشابه . .

قال الله تعالى:

)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (سورة آل عمران) .

- ظاهرة التباين في حجم الجينات: هنالك تباين شديد بين الجينات من حيث تركيبها وأطوالها .

- ظاهرة الافتتاح والاختتام: تتفتح الجينات بسلاسل محدودة من القواعد مهمتها تنظيم عمل الجين وتيسير البدء بترجمته أو طبعه . .

- ظاهرة وحدة اللغة والخلق والخالق: وهي متجلية بشكل بارز في أن هذه القواعد بنفس شفرتها موجودة في كل الكائنات الحية نباتية وحيوانية، وإن كانت الشفرة المستخدمة في جسيمات الكائنات بما فيها الانسان مختلفة بعض الشئ . . والأكثر من ذلك أن معظم هذه الجينات مشتركة بين المخلوقات المختلفة بنسب متفاوتة . . وفي ذلك دلالة بينة على وحدة الصانع والمدبر . . ولو شاء الله لأنشاء بكل كائن شفرة، ولجعل الجينات تختلف بين

مخلوقاته حتى عند قيامها بنفس المهمة . . لقد كانت وحدة الخلق على مر الزمان دليل الوحدانية حتى جاء داروين فاستنتج منها التطور . . ولا تطور بنّاء إلا بإرادة، ولا إرادة في الخلق إلا للخالق . . وذلك شأن لا يعلمه إلا هو إن كان قد أنشأ المخلوقات بعضها من بعض، لكننا في شأن الإنسان نؤمن بخلقه المباشر فبذلك جاء الوحي المؤيد بالدليل والمعجزة . .

(436/231)

هذا المقال هو عرض لمجرد خواطر مبدئية بنيت على معلومات عامة عن المادة الوراثية، ولم يكن بها محاولة قراءة مباشرة لتسلسل القواعد وترتيباتها ضمن الجينات أو ضمن السلسلة الوراثية عامة وأرجعوا أن تجد بين علماء الوراثة المسلمين من يبني عليه محاولات قراءة ايمانية لقواعد المادة الوراثية والجينات التي تشكلها لعلنا نطلع على آفاق وآيات ربانية جديدة ونفهم به ظواهر الشبه بآيات الكتاب الحكيم .

نرجو إرسال تعليقاتكم على المقالة على الإيميل التالي:

د نصر الله ابو طالب

abutaleb_k@hotmail.com

0-الأدلة العقلية للقرآن الكريم في إثبات الخلق والتوحيد والبعث

معجزة خلق الإنسان هي من أعظم المعجزات الدالة على وجود خالق عليم قادر على بعث الناس وخلقهم من جديد يوم القيامة

أ د/مصطفي عبد المنعم

الأستاذ بكلية الطب – جامعة طيبة المدينة المنورة

لا شك أنه قد بذلت جهود حثيثة على مدار التاريخ الإسلامي في الرد على أهل الكتاب وإثبات فساد عقيدتهم والتحريف الذي في كتبهم ،كان منها جهود العلامة ابن حزم في كتابه الرائع (الفصل في الملل والنحل) وكتاب العلامة رحمة الله هندي (إظهار الحق) وكتاب العلامة الشيخ أبو زهرة (محاضرات في النصرانية) ثم الجهود المباركة التي أحياها الشيخ أحمد ديدات ومن بعده خليفته الرائع الدكتور ذاكر نايك والذي هو ظاهرة فذة قلما تتكرر في الزمان ومع ذلك فيكاد يكون غير معروف في العالم العربي المسلم .

هذا غيض من فيض من جهود المسلمين الحثيثة في مخاطبة وجدال أهل الكتاب كما أمر الله تعالى:

(وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (العنكبوت/46)

(437/231)

ولكن في المقابل لا نجد هناك جهوداً مشابهة قد توجهت لخطاب الكفار من الملحدين الذين ينكرون الخلق والبعث والحساب واللأدريين الذين يشكون في الأمر ولا يوجد لديهم . . حسب زعمهم . . دليل يحسم مسألة الإيمان والكفر . ولعل السبب في ذلك أن بعض المسلمين قد ظنوا أن هذا النوع من الكفر كان ممثلاً في كفار قريش ولم يعد له وجود في هذا الزمان . . ولكن الحقيقة أنهم مازالوا موجودين بل يقدر عددهم . . ويا للعجب . . بنحو نصف سكان الأرض . . بعضهم ملحدين (Atheists) وبعضهم شاكين أو لا أدريين (Agnostics) والتقدير المتداول لعددهم في دولة مثل الولايات المتحدة يبلغ نحو 10% من السكان علماً بأن بعض من ينتسبون بحسب ولادتهم إلا عائلات مسيحية أو يهودية هم في الحقيقة من أحد هذين النوعين وهم لا يخجلون من ذكر عقيدتهم إذا سئلوا عنها إعمالاً لحرية الفكر والعقيدة التي نشئوا عليها كما يزعمون . والدارس للشبهات الواهية لكلتا الطائفتين (الملحدين واللأدريين) يجد أن هناك ملاحظات تتعلق بعقيدتهم والجدال معهم

نذكرها فيما يأتي:

1- أنه لا فرق بين الشبهات التي أثاروها والشبهات التي كان يثيرها كفار مكة.

2- أنهم ليس لهم كتاب لتوضح لهم فساده ولا يؤمنون بكتابك لتستدل عليهم به. فليس هناك بديل عن محاججتهم بالأدلة العقلية.

3- أن القرآن الكريم قد ذكر عموم حججهم مع الرد العقلي عليها فهو خير معين على جدالهم بالأدلة الدامغة.

ولا شك أن العقيدة السليمة هي أساس الدين. وأن اعتماد القرآن الكريم للأدلة العقلية في محاججتهم وعدم اكتفائه بتقرير الحق والإعراض عما هم عليه من الباطل لهو منهج جدير بالدراسة واستخلاص العبر والدروس. ونورد هنا الأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم للرد على ثلاثة مسائل هي في الحقيقة جوهر العقيدة ألا وهي مسائل الخلق والوحدانية والبعث. ونورد فيه المباحث الآتية:

أولاً: أدلة الخلق

ينكر الملحدين أن هناك خالقاً قد خلقهم، ويتوقف اللأدريين في المسألة ويدعون أن الأمر محتمل ولكن لايوجد دليل يحسم المسألة، والله تعالى يرد على هؤلاء وأولئك بقوله تعالى في آية جامعة معجزة:

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ)

(الطور/35-36)

ثلاث حجج عقلية يواجه بها القرآن الكريم كلتا الطائفتين فيخيرهم بينها جميعا :

1- هل خُلقتم من لا شيء، وهل يمكن إعطاء مثال على شيء في الوجود وجد من لا شيء . إن هذا أصلاً بخلاف قوانين الكون التي نحيا عليه .

2- هل أنتم خالقون لأنفسكم .

3- هل أنتم الذين خلقتم السموات والأرض .

إن العقل السليم لا يستطيع بحال أن يجيب بإجابة تخالف النفي (لا) على الأسئلة الثلاثة .

فإن لم تكن خُلقت من لا شيء، ولا أنت الذي خلقت نفسك، ولا أنت الذي خلق السموات والأرض، فإن هناك خالقاً لهذا الكون، أظهر لنا في جميل صنعته كمال قدرته، وخلق الكون على بناءٍ واحد ليقر بوحدانيته، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لنعرفه بأسمائه وصفاته، وتودد إلينا وهو الغني عنا ، وأخبرنا بفرحه بنا إن عصينا فتبنا فأنبنا ، فهل نرغب عن هذا الرب الخالق البارئ المصور ونحيا في أوهام الخيالات لنصحو على الحسرة والندم .

ثانياً: أدلة وحدانية الله تعالى

إن الخالق الكريم الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد قد رد في كتابه العظيم رداً حاسماً ينير العقول ويأخذ بالألباب على من أدعى أن هناك آلهة غير الله تعالى لها في الكون نصيب وفي تدبيره منزلة، وذلك من وجهين:

الأول: أن من يدعي ذلك عليه أن يأتي بالدليل، وهيهات قال تعالى:

)

(439/231)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلا غُرُورًا) (فاطر/40)

فهي دعوى بلا برهان، وطلب البرهان من المخالف هي قاعدة قرآنية مضطردة يجب إتباعها مع أصحاب الدعاوى.

والثاني: هو دعوة أصحاب العقول السليمة إلى تصور نتيجة هذا الزعم الفاسد:

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (الأنبياء/22)

ولك أن تقلب الأمر على كل وجه في هذا الكون لترى ببصيرتك صور هذا الفساد لو ادعينا جدلاً حدوث هذا الفرض المستحيل .

والجميل، أنه كلما تقدم الإنسان في العلم، ظهرت دلائل جديدة للوحدانية، وكأن لهذه الصفة الجليلة طابعاً يطبع كل ذرات الكون وكل خلايا المخلوقات الحية بخاتم التوحيد .

ألسنا نرى الوحدانية في قوانين علوم الحياة سواء في قوانين الخلية أو قوانين المادة الوراثية كذلك في قوانين الفيزياء من الذرة إلى المجرة .

ففي قوانين علم الحياة: بنيت جميع الكائنات الحية على قاعدة الخلية وبنيت جميع المادة الوراثية من أربعة أحرف حتى بات العلماء ينقلون الجينات من نبات إلى آخر أو حتى من نبات إلى حيوان ؟ وما ذلك إلا لأن الخالق واحد .

وفي قوانين الفيزياء : كل ذرات الكون قد بنيت على نسق واحد . من أبسط الذرات التي يدور فيها إليكترون واحد حول بروتون واحد إلى أثقل الذرات المعروفة وكل قوانين الفيزياء ثابتة على امتداد الكون حتى بات من الممكن حساب كل مسألة في الكون بنفس القوانين .

(440/231)

ويزداد الأمر وضوحاً حين يضرب الله تعالى المثل (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (الزمر/29)

ماذا لو كان إله الشمس غير إله الأرض، وحاشا لله، فأقام لها قوانين لا نفهمها أو بدل اليوم لها قانون غير قانون الأمس، ألم تكن الحياة على الأرض لتضطرب ثم تنعدم، وهل يترك خالق الأرض خالق الشمس يعبث بأهل الأرض أم يتقاتل الجبابرة فيهلك الخلق مثل خرافات وأساطير آلهة اليونان في القديم. وكيف كان لخالق الأرض أن يقول في كتابه لأهل الأرض (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) (الرحمن/5) إن لم يكن له الخلق والأمر وليس معه في الكون شريك ولا نصير. ولذلك فقد نفى الله تعالى كل شبهه في هذه الآية المعجزة: رب الأرض يطالب بعبادتك له بحق أنه خلقك ورزقك وسخر لك ما في الأرض جميعاً، ورب الشمس يطلب منك عبادته أكثر من رب الأرض لأنه لو حرمك ضوء الشمس لهلكت. أرأيت نعمة التوحيد ونعمة أن الله واحد لا شريك له في خلقه ولا في ملكه (الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (العنكبوت/63)

إن الأمر في ذاته مع أنه دليل على الوحدانية فإنه نعمة تستحق الشكر، لأن الله تعالى ليس له ولد ولا شريك ولا ولي من الذل، وأنظر إلى هذا القيد المبهر (من الذل) ليخرج منه أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على

الكافرين . أليس هذا الإله بمستحق للتفرد بالعبادة والتودد بالحب .

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) (الإسراء/111)

(441/231)

وقد تكررت آيات القرآن الكريم التي تقرر الوحدانية في النفوس وتنزع أدني شبهة قد تطرأ على ذهن أحد من البشر بدلالة تفرد الله تعالى بالخلق والأمر وعدم إدعاء أحد أنه خلق في هذا الكون شيئاً :

فقد رد الله تعالى علي كل من ادعي وجود الشريك بما لا يستطيعون له جواباً ويستحقون علي فعله عقاباً ، قال تعالى:

فنعتهم بالظلم ووصف حالهم بأنهم ليس لهم برهان ولا دليل على ما يفترون .

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

(الرعد/16)

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأحقاف/4)

(إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) (النجم/23)

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(المؤمنون/117)

ثالثا :أدلة البعث في القرآن الكريم

(442/231)

لا شك أن التكذيب بالبعث كان من أكثر الشبهات لدى الكافرين ومن أشد العقبات التي واجهها الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة الإسلامية . . وكان للكفار مواقف متباينة من هذا الأمر العظيم حالت بينهم وبين الإسلام، ولهذا فقد أطال القرآن الكريم في الرد عليهم وإثبات حتمية القيامة . . وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم لإقامة الحجة على المخالفين . . فإذا استحضرنا ما سبق ذكره من أن أكثر من نصف سكان الأرض الآن لا يؤمنون ببعث ولا حساب، علمنا مدى أهمية دراسة منهج القرآن الكريم في إثبات حتمية

البعث ومحاولة تدبر هذه الآيات الكريمة لنقيم عليهم الحجة، ولعل الله تعالى أن يهدي بنا رجلاً واحداً فنفوز في الدنيا والآخرة. ولأن القرآن الكريم قد أطال في بيان هذه المسألة، فسنتناولها بشيء من التفصيل، وسنبدأ بإذن الله ببيان موقف الكفار من قضية البعث وأسبابه ثم نوضح الدلائل التي ساقها القرآن الكريم لحسم هذه القضية من الناحية العقلية.

أولاً: مواقف الكافرين من البعث منذ زمن التنزيل:

موقف الكافرين من البعث كان دائما هو الإنكار والتعجب والتكذيب.

(قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيد) (ق/ 1- 3).

ثانياً: أسباب موقف الكافرين

أسباب ذلك الموقف فقد عددها القرآن الكريم.

1- الشهوة وحب التنعم بملذات الدنيا بلا رقيب ولا حسيب:

(وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (الأنعام/29)

(إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (المؤمنون/ 37)

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ). (الجاثية/24)

كانت الشهوة وحب التنعم بملذات الدنيا بلا رقيب ولا حسيب هي قائدهم في هذا الاعتقاد الفاسد . . . فالقيامة معناها الحساب على أعمال الدنيا والتقيد بالقوانين التي سيضعها من سيحاسبك، وهم قطعا لا يحبون من ذلك شيء . ولذلك فالله تعالى الذي خلق الإنسان وركب فيه الشهوة لم يحرمه منها بإطلاق وإنما هداه لما يصلح هذه الشهوة لما ينفعه في الدنيا والآخرة وربط ذلك بعبادة الله تعالى قال سبحانه:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الأعراف/32) فنبه الله تعالى الكافرين أن إيمانهم لا يحرمهم من التمتع بالدنيا بل هو الذي سيضع لهم القوانين التي تجعلهم يتمتعون بها من غير ضرر في الدنيا ثم في الآخرة نعيم مقيم وجنات تجري من تحتها الأنهار وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

2- الشك:

(وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) (الجاثية/ 32) .

إن أمور العقيدة لا تبنى إلا على يقين . . وادعاؤهم (الشك) في أمر يقيني لم يكن ليغني عنهم شيئاً .

ويرد الله تعالى عليهم بدعوة للتأمل في ملكوت السموات والأرض ليحدث اليقين بطلاقة قدرة الله تعالى في الخلق والبعث، قال تعالى (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (إبراهيم/10)

(444/231)

3- الإعراض عن دلائل قدرة الله المطلقة في الكون وأنه على كل شيء قدير:

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس/78)

أي من يستطيع ذلك، إعراضاً منهم عن دلائل قدرة الله تعالى، وقياسهم قوة الله على قوتهم بجهلهم وعدم إذعانهم لحقائق الكون . وقد عرض الله تعالى في الآية سبب هذا الزعم الفاسد وهو عدم التفاتهم إلى عظيم صنعة الله في خلقه لهم (وَنَسِيَ خَلْقَهُ) وهذا النسيان إنما هو إعراضاً منهم عن تلك القدرة في الخلق التي تدحض شبهتهم في قدرة الله تعالى على إعادتهم وبعثهم بعد الموت .

وقد عرض القرآن الكريم شبهة جهلهم بقدرة الله في موضع آخر لافتاً نظرهم إلى قدرة الله الظاهرة في الكون والتي تدل على طلاقة قدرته القاهرة والقادرة على بعثهم بعد الموت، قال

تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) (سبأ / 7- 9) .

إن هذا الخلق العظيم يحمل دلالة طلاقة قدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شيئ في الأرض ولا في السماء .

(445/231)

بل هون الله عليهم الأمر فقال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (غافر/ 57) فكيف نشاهد الآيات العظيمة في هذا الكون المشاهد ، والذي تتجلى لنا في كل يوم في زمن العلم المزيد من دلائل عظمة خلقه، ثم نشك في آية أقل منها وهي الخلق أو البعث .

4- التقليد الأعمى للأمم الكافرة التي سبقتهم:

قال تعالى: (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ

وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) (المؤمنون: آية 81- 83) .

إنه التقليد المذموم من كل وجه، والذي قام على غير دليل ولا برهان ولا كتابٍ مبين .

5- الجدال باستحالة جمع أجزاء الإنسان بعد تحللها وتشتتها في باطن الأرض:

يدعي المجادلون أن الأجسام بعد موتها تتحلل إلى مكوناتها الأساسية التي قد تغيب في باطن الأرض أو تدخل في تركيب نبات يعود ليأكله حيوان . . إلى آخر تلك السلسلة الجدلية التي قد يفترضها المعاندون المكذبون فيستحيل جمع ذلك المتناثر من عهد آدم إلى قيام الساعة في زعمهم

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (الرعد/ 5)

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (سبأ/ 7)

(وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

(السجدة/10)

أي إذا تحللت أجسامنا وتاهت دقائقها في غيابات الأرض، فيكف تجمع لنبعث من جديد ؟

والله تعالى يرد عليهم بدليل علمه المحيط سبحانه فيقول تعالى:

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) (ق/4)

والحقيقة أن هذه الآية هي من فيض كرم الله تعالى علينا في كتابه الكريم، حيث يأخذنا في رحلة في ملكوت السموات والأرض نستصحب فيها طلاقة قدرة الله المعجزة التي تحفظ على الإنسان بعد موته مواضع غيابات دقائق جسمه مهما طال العهد ومهما تعقد الأمر.

ومن رحمة الله بنا أنه لم يفصل لنا أكثر من ذلك لأن عقل الإنسان قد يقضى الساعات الطوال وهو يتأمل هذه الآية الكريمة التي لا تنقضي عجائبها، فكيف لو زاد التفصيل بما لا تحتمله عقولنا ؟

ثالثاً: أدلة القرآن الكريم على البعث:

1- دليل عدم عبثية الخلق:

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون/ 115).

انظر إلى المخ البشري كيف خلق الله فيه مائة وعشرين مليار خلية عصبية ترتبط كل خلية في المتوسط بنحو عشرة آلاف خلية أخرى في ترابط معجز

(447/231)

هذا دليل عقلي . . إن هذا الخلق العظيم لا يمكن أن يكون عبث . . فكيف تكون نهايته إلى تراب . . فيتساوى الصالح والطالح . . القتيل والقاتل . . الظالم والمظلوم . . فيكون الأمر عبث . . بل ويكون مدعاة للفساد في الأرض . . إن عدم العبثية في الخلق تستوجب أن تكون هناك قيامة يحاسب فيها الناس على أعمالهم . أنظر إلى أي جهاز من أجهزة الجسم لتجده ليس بعبث، انظر إلى المخ البشري كيف خلق الله فيه مائة وعشرين مليار خلية عصبية ترتبط كل خلية في المتوسط بنحو عشرة آلاف خلية أخرى في ترابط معجز ليتم الشعور بالإبصار والسمع والشم واللمس وكذلك لتكون هناك قدرة على الكلام والحركة والتفكير والإدراك وتخزين ملايين الكلمات والصور والأسماء والأماكن والروائح والقدرة على تذكرها فور رؤيتها ولو بعد سنين، ومن الناس من يُسَخِرَ ذلك العطاء المبهر في الطاعة ومنهم من يسخره في المعاصي . . منهم الأنبياء والصديقين والشهداء وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي . . ومنهم هتلر وقارون وهامان . . ثم بعد ذلك يموت الإنسان ،

وينتهي الأمر، فيتساوي الأخيار والفجار ! ؟ أليس هذا عبث ؟ لقد شنع الله تعالى على من هذا ظنه

قال تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (الجاثية آية 31)

وقال تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ) (غافر آية 58)

وقال تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ) (السجدة آية 18) .

وقال تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) (القيامة / 36) .

(448/231)

أي يترك هملاً وهو الذي خلقه الله تعالى بعنايته منذ كان نطفة فعلقة ثم سواه الله تعالى فجعل منه الذكر والأنثى، فإذا كان منذ بداية حياته في عناية الله ورعايته، فكيف يهمل في آخرها ؟

وعقب الله تعالى على هذه الآيه الكريمة ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون / 115) .

بهذا التعقيب الرائع في قوله سبحانه (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (المؤمنون / 116) .

لقد نزه الله تعالى نفسه في أول الآية بقوله سبحانه (فتعالى) فباعد بينه وبين ما يدعون بالباطل، ثم دعانا لاستحضار اسمين من أسمائه الحسنى (الملك الحق) فالملك هو الذي يضع القوانين لا أنتم والحق منزه عن باطلكم وعما تصفون .

2- دليل الخلق الأول:

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم/27)

إن الذي يخلق شيئاً أول مرة يقدر على إعادته . . بل هو على إعادته أقدر . وكلٌ عليه هين سبحانه . .

وقال تعالى في الرد على المكذب المعاند :

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس/78)

أي لم يعتبر بخلق الله تعالى له على قدرته على إعادته بعد موته

وقال تعالى في سورة الحج في رد واضح صريح على من ينكر البعث:

)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) . (الحج / 5- 7) .

(450/231)

لقد استحضر القرآن الكريم سؤال من يشك في البعث (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ) وجعل الإجابة هو الواقع الذي لا يملك أحد إنكاره من مراحل الخلق المعجز في الأرحام (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) وتبعها بمراحل حياة الإنسان في هذه الأرض (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) ويختم الآية بهذا التقرير الحاسم (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) . فلا حجة لمعاند أن يتبرأ من دليل يحمله في نفسه من يوم خُلق إلى يوم يموت يشهد لله بأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير .

ويعاود القرآن الكريم التذكير بهذه الحقيقة الدامغة مرة بعد مرة فيقول تعالى:

(وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) (مريم/66- 67)

فلماذا ينسى الإنسان خلقه هو مع علمه أنه خلق من شيء لا يذكر .

(451/231)

وقال تعالى: (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ، أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً) (الإسراء/ 49- 51) .

إن الإنسان قد يغفل عن شيئ غائب عنه، ولكن كيف يغفل عن دليل يحمله بين جنبيه طوال حياته .

إن التعقيد في خلق الإنسان لهو من أعظم الأدلة على وجود إله مبدع عليم يستحق العبادة

3- دليل قدرة الله تعالى في خلق الإنسان:

قال تعالى: (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَه بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة/3-4)

إن الناظر في عجيب صنعة الله في كل جزء من أجزاء الجسم البشري، لا بد وأن يقر لله تعالى بكمال القدرة وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير.

4- دليل إخراج الحي من الميت والميت من الحي:

قال تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (الروم/ 19)

في الآية دليلان، نتعامل أولاً مع الأول منهما وهو إخراج الحي من الميت والميت من الحي: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ). كإخراج الجنين الحي من داخل القشرة الصماء الميتة لبيض الكثير من الكائنات، وإخراج الأشجار والأزهار من حبة صماء لا يبدو عليها أثر الحياة. فهذه الأمور العجيبة تظهر طلاقة القدرة الإلهية وهي دليل عقلي للمتأمل على البعث بعد الموت ولذلك قال تعالى في نهاية الآية الكريمة (وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)

قال الله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)

5- دليل إحياء الأرض الميتة بعد موتها:

قال تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (الروم/ 19)

قد يعتبر البعض أن الآية تحمل دليلاً واحداً ولكنهما تحمل دليلان إذ الواو في قوله تعالى (وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) للمغايرة بين ما قبلها وما بعدها، وهذه الآية المبهرة، وهي إحياء الأرض بعد موتها، ساقها القران الكريم مرة بعد مرة للدليل على البعث بعد الموت، فكما كان التعقيب في نهاية هذه الآية بقوله تعالى (وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) فقد عرض الله تعالى هذا الدليل في قوله تعالى في سورة الحج:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ

السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) . (الحج / 5- 7) .

6- دليل خلق السموات والأرض:

(453/231)

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً) (الإسراء / 97- 99) .

وقال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (غافر/57)

وقال تعالى: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (يس/81-83)

لما أخبرنا الله تعالى أن خلق السموات والأرض أكبر من خلقنا ، فلا عجب أن يقدر على أن يخلق مثلهم أو يعيد خلقنا أو أن يفعل في ملكه ما يشاء .

إن خلق السماوات والأرض لهو من أعظم الأدلة على وجود خالق قادر على بعث الناس

يوم القيامة

7- دليل التاريخ في قصص القرآن الكريم عمن أماتهم الله ثم أحياهم في هذه الدنيا :

وهي خمس قصص كلها في سورة البقرة:

1- عقاب الله تعالى لبني إسرائيل على طلبهم رؤية ذاته تعالى بالموت ثم بعثهم بعد ذلك :

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة/ 54-55) .

2- قصة البقرة التي أحيا الله لهم ببعضها القتيل بعد موته:

)

(454/231)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ، قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ، قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا

شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) (البقرة/ 68-71)

3- قصة الملأ من بني اسرائيل الذين خرجوا من ديارهم مخافة الموت فأماتهم الله تعالى ثم بعثهم بعد ذلك:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) (البقرة/ 243)

4- قصة عزير الذي مر بالقرية وتساءل كيف يحييها الله تعالى:

)

(455/231)

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة/ 359) .

5- قصة طير إبراهيم:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة: آية 360)

رابعاً: دروس مستفادة من أدلة البعث في القرآن الكريم:

(456/231)

1- المتأمل في الأدلة التي ساقها القرآن الكريم في قضية البعث يجد أن واحد منها فقط . . وهو الخاص بالقصص القرآني . . هو الذي يمكن أن يرفضها الملحد، لأنه لا يؤمن ابتداءً بالقرآن الكريم فكيف يؤمن بما جاء فيه من أخبار عن أقوام سابقين هي من أنباء الغيب قال تعالى (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود /49) . ولهذا فالمؤمنون بالكتاب العزيز هم فقط الذين ينتفعون بهذا القصص القرآني فيكون إيمانهم بالغيب سبباً في انتفاعهم بهداية القرآن الكريم قال تعالى: (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (البقرة/1-3)

2- عموم الأدلة التي ساقها القرآن الكريم . هي أدلة عقلية . . وليست نصوصاً أو

أخباراً . بل هي من باب الجمع بين الشيء ولازمه .

o فلازم عدم عبثية الخلق وجوب القيامة، وقوله تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون/115) أسلوب استنكار على من يظن غير ذلك .

o ولازم أن الله هو الذي خلقنا أول مرة أنه قادر على إعادتنا ، فإقرار الناس لا يختلف على أن إعادة صنع الشيء أهون على الصانع من صنعه أول مرة، فكيف بالله أحسن الخالقين .

o ولازم أن الله تعالى خلقنا في هذه الصنعة المبهرة هو قدرته على إعادة خلقنا متى شاءْ وكيف شاء .

o ولازم أن الله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي قدرته تعالى على إخراجنا أحياء من الأرض الميتة .

(457/231)

---

o ولازم أن الله تعالى يخلق النبات الحي في الأرض الميتة إذا نزل عليها الماء، هو قدرته سبحانه على أن يخرج الإنسان حيا من باطن الأرض الميتة، بل ويحمل مع هذا صورة تقريبية عن (كيفية) هذا الإخراج بدليل قوله تعالى (وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) .

o ولازم أن الله تعالى خلق ما هو أعظم من خلق الإنسان وهو السموات والأرض، هو

قدرته سبحانه على أن يتصرف بمن هو أقل من ذلك شأناً في الخلق – وهو الإنسان – مختلف أنواع التصرف من الخلق والإماتة والبعث .

3- تنوعت أساليب القرآن الكريم بسطاً لأنوار أدلته لتناسب حالات الظلمة المتنوعة التي يحياها المكذبين بالبعث . . فما زال الناس – على تقدم حضارتهم المادية – على حال المكذبين في زمن التنزيل . فمنهم المؤمن بخلق الله له ولكن لا يؤمن بالبعث والحساب، ومنهم المكذب بالخلق والبعث جميعاً ، ومنهم الشاك الذي لا ينكر إمكان الخلق والبعث ولكنه لا يرى – حسب فهمه – دليلاً قاطعاً على ذلك فيريح عن نفسه تبعة التكاليف . فتنوعت الأساليب في القرآن الكريم مثلما تنوعت الأدلة:

o فأحياناً يعرض القرآن الكريم مسألة ثم يعقب عليها للتنبيه أنها دليل على البعث كقوله تعالى (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) (القيامة/40) .

o وأحياناً يعرض القضية ابتداءً ثم يجيب عليها بعرض الأدلة كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ) . (الحج/ 5)

o وأحياناً ينكر على المعرضين عن الدلائل المبهرة لحقائق الكون وظنهم المريض بعدم البعث (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون/115) .

o وأحياناً يُذكر بسخريتهم من البعث (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (ص/16) .

---

o وأحياناً يتعجب من قولهم (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (الرعد/ 5) .

o وأحياناً يهدد ويتوحد عسى أن يفيق الغافل وينتبه المُعرض (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) (يس/63-64) .

4- احتلت حقائق الخلق في علم الأجنة وجسم الإنسان والكون واسطة العقد في الدلائل التي ساقها القرآن الكريم على البعث . . ففي علم الأجنة يقول تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس/ 77- 79) .

وفي بديع خلقه في دقائق جسمه يقول تعالى (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَه بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة/ 3-4) وفي عظيم خلق الله تعالى في كونه يقول تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً) (الإسراء / 97- 99) .

5- استحالة العبثية في خلق الكون هو أحد الأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم دليلاً على حتمية البعث . ولاستكمال إيضاح منهج العبثية عند الملحدين واللأدريين في هذا العصر، فإنهم جميعاً مجتمعين على اتخاذ نظرية التطور حقيقة علمية، فهي دينهم الذي لا يتخلون عنه . ورغم الشبهات التي في هذه النظرية فهي عندهم أرسخ دليلا من حقائق دلائل الخلق والوحدانية والبعث التي تحيط بنا في كل ناحية من نواحي الحياة وفي كل لحظة من لحظات العمر . وما ذلك إلا لأن تلك النظرية عندهم تعني أن وجود الكائنات الحية هو صورة من صور العبث، وأنها قد أتت في أول الأمر بطريق الصدفة وتطورت إلى ما هي عليه بلا عقل يوجهها ولا هدف تسعى إليه وبذلك فلا فضل لأحد عليهم في وجودهم ولا هم مدينون لأحد فيستحق أن يحاسبهم على أعمالهم، ورغم اعترافهم بإبهار تركيب الجسم الإنساني، إلا أنهم يعتبرون ذلك قد تم بلا قصد ، حتى يقول كبير الملحدين في هذا العصر البروفسير ريتشارد داوكنز الأستاذ الحالي بجامعة أكسفور ما حاصله أن الإنسان قد تم تكوينه عن غير قصد بفعل الطبيعة التي أنتجته وكأنها صانع ساعات أعمى (Blind watchmaker) فالأمر عندهم ليس فيه قصد ولا تقدير بل هو عبث، والآيه الكريمة (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون/115)

تنفي العبثية وتثبت ما يستتبع ذلك من وضع القانون الحق في الدنيا والبعث الحتمي بعد الموت للحساب وفق هذا القانون، تعالى الله عما يصفون.

(460/231)

6- إن الغرور بالباطل في مجال العلم والعقل هي سمة لأولئك المعاندين، كما أن الجدال هو سمتهم الملازم، لذلك، فمع أهمية القيام بواجب الدعوة، إلا أنه يجب ألا يتصدى لهم إلا الراسخون في العلم، حيث سيرمونه بوابل من الشبهات التي لا تنتهي إلا أن يشاء الله.

وحبذا لو كان هذا التصدي من جانب هيئات فإن كان ولا بد، فأفراد ممن عاشوا معهم وخالطوهم وعلموا حقيقتهم الخاوية. (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال/42).

ونكتفي بهذا القدر المختصر في هذه المسألة، رغم أنه في كتاب ربنا وسنة نبينا وكتاب كوننا ما فيه المزيد من الأدلة التي لا تجعل لملحد مطعناً ولا لشاك موطنا، كما تجنبنا نقل جهود علمائنا قديماً وحديثاً في شرح هذه الآيات خشية الإطالة من جانب ولشدة وضوح الآيات في هذا الباب من جانب آخر. والهدف هو فتح الباب لمزيد التأمل في منهج القرآن في هذه المسائل التي هي أصل الإسلام وجوهر العقيدة ثم الانتفاع بهذا المنهج في دعوة

الملحدين واللأدريين رغم شدة جدالهم بالباطل وانتقالهم من الغرور بباطلهم إلي التهكم على ديننا وذلك من باب إبراء الذمة والإعذار إلى الله تعالى (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (الأعراف/ 164) . ونختم بقوله تعالى (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (النمل/ 93) وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

يمكن إرسال آرائكم واقتراحاتكم حول المقالة على العنوان التالي:

moustmon@yahoo.com

مقالات لها علاقة :

? العصرانيون والصحابة

(461/231)

? لرد على العلمانيين المشككين . . . في شهادة المرأة في القرآن الكريم

? شبهة أن القرآن الكريم من اختراع سيدنا محمد

? رد الشبهات حول علم الأجنة في القرآن والسنة

? صور من دلائل الهداية الربانية للكائنات الحية

0-هذا خلق الله سمكة ذات رأس شفاف

بقلم وديعة عمراني

باحثة إسلامية. كلية العلوم

يقول الحق تعالى ((هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) لقمان الآية 11

في متابعة لآخر المستجدات والاكتشافات العلمية، طالعتنا مؤخرا العديد من المواقع العلمية الغربية باكتشاف عظيم وعجيب من قلب عالم المحيطات، والأمر يتعلق باكتشاف نوع غريب من السمك ذا رأس شفاف، وعينان على شكل خوذات خضراء يتواجدان في قلب هذا الرأس (انظر الصورة)، والسمكة المكتشفة يطلق عليها علميا اسم Macropinna microstoma .

سمكة Macropinna microstoma المكتشفة مؤخرا

المكتشفة مؤخرا

فلقد كان الفريق العلمي المتخصص في اكتشاف هذا العالم – عالم أعماق المحيطات – Abysses – في متابعة دائمة وشغف علمي كبير لمعرفة المزيد من أسراره، ومؤخرا قام معهد البحوث المائية في خليج مونتري بكاليفورنيا، تحت إشراف العالمان والباحثان (B. Robison et K. Reisenbichler)، باكتشاف المزيد من أسرار هذه النوع من الكائنات، وذلك حين استطاعوا تصوير هذه السمكة وتتبع طريقة عيشها وكيف تستطيع الرؤية في عمق 700 متر داخل أعماق المحيطات .

(462/231)

ففصيلة هذا الحيوان كانت قد عرفت لأول مرة سنة 1939، ولكن العلماء كانوا يظنون لفترة طويلة أن عيني هذه السمكة ثابتتان لا تسمحان لها بالنظر إلا لأعلى، ولا توفر أي زاوية رؤيا جيدة، ولا سيما أنها تعيش في أعماق المحيطات المظلم، والأدهى من ذلك كان العلماء يستغربون كيف يمكن لهذه السمكة اصطياد فريستها وطعامها وعيناها بتلك الطريقة التي لا ترى إلا لأعلى !؟ وفمها صغير الحجم بشكل لا يسمح لها بأي وسيلة أخرى !؟

دامت هذه الحيرة فترة طوية حتى اكتشف الفريق العلمي (B. Robison et K.

Reisenbichler) ، واستطاع تصوير هذه السمكة الغريبة المنتمية إلى ذلك العالم، فالتصوير كان دقيقا (انظر شريط الفيديو)- Video of Macropinna microstoma -، سمح لهم بمعرفة واكتشاف أسرار مبهرة في تكوين هذه السمكة، فلقد اكتشفوا أولا أن لها رأس شفاف(نوع من القبة الشفافة في الجزء العلوي من الجمجمة) تستطيع من خلاله الرؤيا ، كما أن عيناها لم تكونا ثابتتين كما كان يظن العلماء ، بل متحركان وعلى شكل خوذات خضراء ، تستطيع أن تنظر بهم من كل الجهات من خلال تلك القبة الشفافة، التي تمتلئ بسائل أخضر غريب وشفاف أيضا !

السمكة الغريبة Macropinna microstoma ويظهر في الصورة تلك القبة الخضراء الشفافة والعينين داخلها على شكل خوذات بلون أخضر ، أما مراكز الشم فهي تلك النقطتين فوق منطقة الفم مباشرة

وكخلاصة:

يعلق العلماء أن هذه السمكة وهذا الاكتشاف يعد ظاهرة من الظواهر العلمية والبيئية الغريبة والنادرة، فهي من المخلوقات التي استطاعت أن تتكيف مع بيئتها بشكل كبير ومدهش .

ونحن نقول ويستوقفنا قول الحق تعالى في كتابه الكريم- يقول الحق تعالى ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)) طه الآية 50

(463/231)

ويقول رب العزة تعالى ((هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) لقمان الآية 11

فهذه سمكة زودها الحق تعالى بكل ما تحتاجه من وظائف التي تتلاءم وشكلها ومكان عيشها ، لكي تستطيع التعايش والعيش في قلب تلك المحيطات، والتقاط رزقها ، والدود عن نفسها في ساحة البقاء وباقي المخلوقات

فهذا خلق الله العظيم، الخالق و المدبر كل شيء ، الله جل حلاله، فلله الكبرياء وله مراجع الأمور في الخلق والحياة والموت والقيامة والرجوع .

يقول الشاعر العباسي أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يعصى الإله . . . . أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كل شيء له آية . . . . . تدل على أنه واحد !

والحمد لله تعالى

شاهد شريط فيديو السمكة الغريبة

Video of Macropinna microstoma

يمنكم التواصل مع الباحثة وديعة عمراني

على البريد الالكتروني

fajrealimane@yahoo.fr

مقالات لها علاقة:

التكافل عند الحيوانات ?

صورة سمكة مكتوب عليها اسم الجلالة واسم محمد ?

المراجع العلمية

http://recherchecoronique.blogspot.com/2009/02/blog-post_27.html0-links

http://www.pourlascience.fr/ewb_pages/a/actualite-un-poisson-venu-d-ailleurs-20338.php

http://www.mbari.org/news/news_releases/2009/barreleye/barreleye.html

http://www.futura-sciences.com/fr/news/t/zoologie/d/en-video-le-poisson-au-crane-transparent-pour-regarder-a-

/travers_18431

0-عقوبة النحلة السكرانة آية من آيات الله في النحل

إعداد المهندس عبد الدائم الكحيل

مهندس وباحث سوري

أحبتي في الله ! في كل يوم يزداد إيماننا بكتاب ربنا ، ويزداد حبُّنا لهذا الدين الحنيف، والسبب في ذلك هو كثرة الحقائق العلمية التي يزخر بها هذا القرآن، والتي يكتشفها العلماء في كل يوم، وهذا يجعلنا نفتخر بانتمائنا للإسلام – الرسالة الخاتمة .

(464/231)

ومن عجائب النحل ظاهرة يسميها العلماء ظاهرة السُّكر عند النحل، فبعض النحل يتناول أثناء رحلاته بعض المواد المخدرة مثل الإيثانول ethanol وهي مادة تنتج بعد تخمّر بعض الثمار الناضجة في الطبيعة، فتأتي النحلة لتلعق بلسانها قسماً من هذه المواد فتصبح "سكرى" تماماً مثل البشر، ويمكن أن يستمر تأثير هذه المادة لمدة 48 ساعة .

إن الأعراض التي تحدث عند النحل بعد تعاطيه لهذه "المسكرات" تشبه الأعراض التي تحدث للإنسان بعد تعاطيه المسكرات، ويقول العلماء إن هذه النحلات السكرى تصبح عدوانية، ومؤذية لأنها تفسد العسل وتفرغ فيه هذه المواد المخدرة مما يؤدي إلى تسممه، ولكن الله تعالى يصف العسل بأنه (شفاء) في قوله تعالى: (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) [النحل: 69] . فماذا هيَّأ الله لهذا العسل ليبقى سليماً ولا يتعرض لأي مواد سامة ؟

طبعاً من رحمة الله تعالى بنا ولأنه جعل في العسل شفاء، فمن الطبيعي أن يهيئ الله وسائل للنحل للدفاع عن العسل وبقائه صالحاً للاستخدام. وهذا ما دفع العلماء لدراسة هذه الظاهرة ومتابعتها خلال 30 عاماً، وكان لابد من مراقبة سلوك النحل.

بعد المراقبة الطويلة لاحظوا أن في كل خلية نحل هناك نحلات زودها الله بما يشبه "أجهزة الإنذار"، تستطيع تحسس رائحة النحل السكران وتقاتله وتبعده عن الخلية ! ! وتأملوا معي الحكمة التي يتمتع بها عالم النحل، حتى النحلة التي تسكر مرفوضة وتطرد بل و"تُجلد" من قبل بقية النحلات المدافعات، أليس النحل أعقل من بعض البشر ؟ !

إن النحلات التي تتعاطى هذه المسكرات تصبح سيئة السمعة، ولكن إذا ما أفاقت هذه النحلة من سكرتها سُمح لها بالدخول إلى الخلية مباشرة وذلك بعد أن تتأكد النحلات أن التأثير السام لها قد زال نهائياً .

حتى إن النحلات تضع من أجل مراقبة هذه الظاهرة وتطهر الخلية من أمثال هؤلاء النحلات تضع ما يسمى "bee bouncers" وهي النحلات التي تقف مدافعة وحارسة للخلية، وهي تراقب جيداً النحلة التي تتعاطى المسكرات وتعمل على طردها، وإذا ما عاودت الكرة فإن "الحراس" سيكسرون أرجلها لكي يمنعوها من إعادة تعاطي المسكرات ! ! !

لقد زود الله تبارك وتعالى النحل "بتجهيزات" يعرف من خلالها تلك النحلة التي تعاطت مادة مسكرة (ثمار متخمرة) فتميزها على الفور وتطردها وتبعدها من الخلية لكي لا تُفسد العسل الذي تصنعه، وتضع هذه النحلات قوانين صارمة تعاقب بموجبها تلك النحلة التي تسكر (تشرب الخمر)، تبدأ هذه العقوبات من الطرد والإبعاد وتنتهي بكسر الأرجل، فسبحان الله، حتى النحل يرفض الخمر ! ! ! المصدر: الموسوعة الحرة.

ويخطر ببالنا السؤال التقليدي الذي نطرحه عندما نرى مثل هذه الظاهرة: مَن الذي علَّم

النحل هذا السلوك ؟ قال الله تعالى: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: 50] .

وهنا يعجب الإنسان من هذا النظام الفائق الدقة ! ربما نجد فيه إجابة لهؤلاء المعترضين على القوانين التي جاء بها الإسلام عندما حرَّم تعاطي المسكرات وأمر بجلد شارب الخمر، فإذا كان النحل يطبق هذا النظام بكل دقة، أليس الأجدر بنا نحن البشر أن نقتدي بالنحل ؟ !

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

مقالات لها علاقة:

? آية من آيات الله في النحل

? آيات الله في عالم النحل

? الدفاع الحراري عند النحل

? جانب من الإعجاز العلمي فى سورة النحل

? بطون الأنعام وبطون النحل

? وحي الله إلى النحل آية قرآنية وحقيقة علمية

مصدر المعلومة:

(466/231)

1- The Development of an Ethanol Model Using Social Insects I: Behavior Studies of the Honey Bee (Apis mellifera L.): Neurobiological, Psychosocial, and Developmental Correlates of Drinking, Charles I. Abramson, Sherril M. Stone, Richard A. Ortez, Alessandra Luccardi, Kyla L. Vann, Kate D. Hanig, Justin Rice, Alcoholism: Experimental Research. 24(8):1153–1166, August 2000.

2- Bees and toxic chemicals, www.wikipedia.org

0-التصميم الإلهي الرائع يشهد على قدرة الخالق

اختراع الطائرات اعتمد على تقليد الطيور

إعداد المهندس عبد الدائم الكحيل

مهندس ميكانيك وكاتب إسلامي

"محاكاة الطبيعة" تفتح آفاقاً تقنية جديدة

الطبيعة هي المعلم الأول للإنسان، ومعظم الاختراعات هي في أصلها تقليداً لها . واليوم يعود العلماء لاستلهامها في ابتكاراتهم بعد عقود من العزوف عنها . فما تقدمه الطبيعة من طرق وحلول يمكن استثماره لتحسين المخترعات الحالية .

فقد تعوّد الإنسان على استلهام اختراعاته من الطبيعة . فالملابس مثلا بدأت باتخاذ جلود الحيوانات وفروها نموذجاً لها حتى تطورت لتصل إلى صورتها الحالية . وربما نسي الإنسان ما تعلمه من الطبيعة وأصبح يعتمد على الاختراعات في صورتها الحالية، إلا أن الباحثين عادوا في الآونة الأخيرة إلى الاهتمام بالطبيعة، إذ وجدوا فيها قدرات قد تفيدهم كثيراً في ابتكار تقنيات حديثة . والـ "بيوميميتيك biomimetic" أو علم "محاكاة الطبيعة" أصبح في بؤرة اهتمام عدد كبير من العلماء اليوم، حيث يسعون من خلال هذه التقنية إلى فهم التركيبات الطبيعية لاستخدامها في تطبيقات مفيدة .

ندوة في ألمانيا حول تقليد الطبيعة

أقيمت مؤخراً ندوة في مركز أبحاث النسيج في مدينة دينكندورف في منطقة جنوب ألمانيا حول البيوميتيك وتطبيقاتها الممكنة . وأشهر تطبيقات هذه التقنية هو شريط اللصق (المعروف بفيلكرو Velcro) والذي يستخدم على سبيل المثال في صناعة الأحذية . فكرة هذا الاختراع البسيط استغرقت من العالم السويسري جورج دي ميسترال ثماني سنوات حتى تمكن من تطبيقها . فكثيراً ما شاهد بذور النباتات الشائكة وهي تلتصق بفرو الكلاب أو بألياف بعض الملابس بمجرد سقوطها من الشجر على السائرين أسفلها . وبعد فترة من التأمل استطاع العالم أن يحول هذه الظاهرة إلى تطبيق علمي نستخدمه في حياتنا اليومية . وقد سهلت هذه الشرائط ذاتية اللصق، التي يمكن لصقها وفكها بسهولة وبسرعة الكثير من الأعمال .

لكن فهم ما طورته وحسنته الطبيعة (تصحيح: إن الله تعالى هو الذي خلق وطور هذه الكائنات من حولنا) خلال ملايين السنين ليس بالأمر السهل كما يؤكد البروفسور توماس شبيك، مدير حديقة النباتات بجامعة فرايبورج والمتحدث عن شبكة المختصين في تقنية "بيوميمتيك" أو محاكاة الطبيعة . ويضيف: إن "البيوميميتك ليس نقلاً كربونياً عن

الطبيعة، ولكنه ابتكار جديد مستوحى من أمثلة طبيعية، فهو يمر بعدة مراحل قبل أن يصل إلى المنتج النهائي . "

(468/231)

لكل نبات مميزاته التي يمكن التعلم منها تقوم الطبيعة بتطوير ابتكاراتها بطريقة لعبة "الليغو" التي يمارسها الأطفال . عدد قليل من المواد الأولية ينتج عدداً هائلاً من المركبات . بياض البيض مثلاً مكون من عدد قليل من الجزيئات، 20 حمض أميني على وجه التقريب، ولكن يَنتج عبر تنويعاتها المختلفة عدداً ضخماً من المواد . المنسوجات تُصنع بصورة مشابهة: فالخيوط تصنع من الألياف، ومن الخيوط تنتج الأقمشة . وبمشاهدة الطبيعة يجد الإنسان أن الأمر لا يتوقف على سيقان النبات المكونة من الألياف، إذ أن العظام أيضا مكونة من الألياف، وتحليل هذه التركيبات الطبيعية للمواد المختلفة، ثم نقلها وتحويلها لتقنية جديدة يفتح مجالاً كبيراً من التطبيقات .

محاكاة الطبيعة في نقل المياه

يمكن توظيف البيوميميتيك لتوفير استهلاك المياه: في الوقت الحالي يتعلم الباحثون من الطبيعة كيف تصلح نفسها ، كما هو الحال عندما يقطع الشخص إصبعه خطأ أو ينكسر

عود النبات . وهو ما أمكن تقليده في المعمل، فأمكن إصلاح ثقوب في أنسجة تصل إلى 5 ملليمترات باستخدام الوسيلة نفسها التي تستخدمها الطبيعة . ويمكن القول إن تقنيات البيوميمتك لن تبدل التقنية المتعارف عليها حالياً ، لكنها ستكملها ، وستفتح مجالات جديدة تماماً . فقد يمكن نقل السوائل إلى أعلى بلا مضخات على مثال نبات الليانا المتسلق الذي ينقل المياه حتى مسافة 1 كيلومتر .

(469/231)

قد يساعد تطبيق هذه التقنية في الزراعة على الاقتصاد في المياه المطلوبة ومنع تبديد كميات هائلة منها . وهو ما يؤكده الدكتور توماس شتيجماير من معهد دينكندورف قائلاً: "من الابتكارات المدهشة أنظمة نقل المياه . وهي تمثل تحدياً تقنياً كبيراً ، أن نحول هذه الأنظمة القادرة على نقل المياه على ارتفاع 10 متر حتى الآن إلى أنظمة قادرة على نقل المياه على ارتفاع يصل إلى مئة متر، على مثال الطبيعة" . هذه الأنظمة ستقلل تبديد المياه وتوفر الطاقة المستخدمة في المضخات .

الله خالق كل شيء !

من خلال هذه الدراسات وغيرها يمكن أن نؤكد أن الإنسان يأخذ اختراعاته من الطبيعة،

وأهم مثال على ذلك الطائرة، فلولا وجود الطيور ربما لم يفكر الإنسان بالطيران أصلاً، ولولا وجود قوانين فيزيائية سخرها الله لم يتمكن الإنسان من استغلال طاقة الهواء لحمل الطائرة، إذاً كل ما نراه من حولنا مسخَّر لخدمتنا، ولذلك يقول تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الجاثية: 13]. فهل نتفكر في هذه المعجزات العظيمة؟!

ولو تأملنا الآية الكريمة (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [الرعد: 16]، نرى فيها إشارة إلى أن كل ما نراه من حولنا هو مخلوق من مخلوقات الله، حتى الطائرة مثلاً هي مخلوق من مخلوقات الله، فالمادة الأولية التي صُنعت منها الطائرة خلقها الله بلا شك، والوقود الذي يسير الطائرة هو من صنع الله، والهواء الذي يحمل الطائرة من صنع الله الذي أتقن كل شيء، وحتى تصميم الطائرة أخذه الإنسان من الطيور وهي مخلوقات في الطبيعة من صنع الله عز وجل، وحتى الإنسان الذي يقود الطائرة هو من صنع الله، إذاً مَن الذي خلق الطائرة الله أم الإنسان؟!

(470/231)

وهنا يتجلى قول الحق تبارك وتعالى: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [النحل: 8] . فالخيل والبغال وغيرها لا يشك أحد أنها من صنع الله، وقوله تعالى: (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) يدل على أن الله هو الذي خلق كل شيء لأن الإنسان حتى هذه اللحظة لم يتمكن من خلق ذرة من العدم !

والآن أترككم مع روائع التصميم الإلهي في الطبيعة لنرى دقة وجمال صنع الله في مخلوقاته:

صورة لزهرة يظهر من خلالها التداخل الرائع للألوان، إن كل اللوحات التي رسمها الإنسان، وكل الأشكال التي اخترعها هي في الأصل مستوحاة من الطبيعة . يقول عز من قائل: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) [النحل: 13] .

نجمة البحر، انظروا إلى التصميم المحكم لها، وكيف تتناسق الألوان فلا نشعر بأي تناقض أو تشويه، بل نجد اللون الأحمر والأصفر والبرتقالي وحتى الأخضر الداكن من حولها كل ذلك في تناسق بديع يشهد بأن الخالق هو الله وليس الطبيعة الصماء كما يعتقدون !

ربما لا تصدقوا أن هذا الشكل السداسي الرائع هو جزيئة ثلج ! ! ! هكذا تتوضع جزيئات الثلج بنظام بديع ولو درسنا نتف الثلج نلاحظ أنها تأخذ أشكالاً هندسية رائعة . . . من

أين جاء هذا التصميم؟ ألا يشهد بأن هناك صانعاً مدبراً حكيماً عليماً؟ يقول تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [البقرة: 117].

(471/231)

مَن الذي علَّم هذا العنكبوت صنع هذه الشبكة بنظام هندسي متقن؟ وكيف اهتدى لصناعة هذه الخيوط التي تعتبر أقوى من الفولاذ بكثير، انظروا كيف وضع فوق الشبكة شكلاً متعرجاً ليخيف الحشرات الكبيرة من الاقتراب منه!! نريد ممن يعتقدون أن الطبيعة هي التي تطور هذه المخلوقات أن يعرّفوا لنا ما هي الطبيعة التي يتحدثون عنها وأين توجد؟

حتى في تراب الأرض نرى الهندسة الرائعة! فهذه صورة لأرض جافة أخذت هذا الشكل الهندسي، تأملوا هذه الخطوط وتداخلاتها وكأنها لوحة فسيفساء رسمها فنان مبدع! ولكن الله تعالى أودع في الطبيعة أشياء نرى من خلالها قدرة الخالق ليدلنا على أنه خالق كل شيء، فهل ندرك عظمة هذا الخالق الرحيم؟

هذه ليست تلالاً أو وديانا ، إنها سطح جليدي شكلته قدرة الخالق (وليس الطبيعة) ، فعندما يتجمد الماء في الشتاء البارد يشكل مثل هذه التلال والوديان بعد تكبير الصورة، وهنا يتجلى قول الحق تبارك وتعالى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) [النمل: 88] .

هذه ليست دعاية للشوكولاتة ! ! إنها ظاهرة طبيعية نراها من حولنا ، إنها عبارة عن طين تشكل بهذه الأشكال الهندسية بعد طوفان في إحدى المناطق، لقد رسم لوحة إلهية رائعة تشهد على إتقان ودقة هذه الصناعة، يقول تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) [النحل: 17] .

هذه ليست لوحة زيتية وليست صورة بالفوتوشوب، إنها لوحة إلهية تشهد على قدرة الله جل جلاله، إنها جزء من زعنفة سمكة تزينها هذه البقع البرتقالية، تأملوا تداخل الألوان وتناسبها مع بعضها وتدرجاتها ، أين أنتم أيها الملحدون من هذا التصميم الرائع ؟ كل هذه المشاهد نراها من حولنا ثم نرى إنساناً ضعيفاً ينكر وجود الخالق، فلا نملك إلا أن نقول: (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) [النمل: 60] .

والآن لنطرح هذه الأسئلة على كل ملحد لا يؤمن بكتاب الله أو صدق نبيه عليه الصلاة والسلام:

1- هل لديكم تفسير علمي لوجود التصميم الرائع في الطبيعة؟ اسمعوا الجواب: يقول تعالى: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آَللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) [النمل: 59].

2- هل يمكنكم أن تخبرونا من الذي خلق الكون ومن الذي خلق الماء الذي هو سر الحياة، ومن الذي خلق النباتات من حولنا؟ اسمعوا الجواب في الآية التالية: يقول تعالى (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) [النمل: 60].

3- هل تفسرون لنا سر الجاذبية الأرضية، وكيف جاءت مناسبة تماماً لحياة المخلوقات على ظهرها؟ ومن الذي ثبت الأرض بالجبال فكانت مثل الرواسي للقشرة الأرضية ولولاها لاضطربت هذه القشرة الضعيفة والرقيقة؟ ومن الذي قدّر هذا النظام المائي الرائع على ظهر الكوكب، ومن الذي خلق لنا هذه المياه العذبة وميّزها عن المياه المالحة ولولا ذلك لانعدمت الحياة؟ اسمعوا الجواب، يقول تعالى: (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ) [النمل: 61].

4- من الذي أعطاك القدرة أيها الملحد لتحكم العالم وتسيطر على مقدرات الطبيعة ومن الذي سخر لك هذه الأرض لتعيش فيها وتستمتع بها، ومن الذي أعطاكم كل هذه النعم، إنه الله القائل: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) [النمل: 62].

(473/231)

5- هل سألتم أنفسكم كيف تهتدون في ظلمات الليل؟ من الذي سخر لكم المجال المغنطيسي للأرض لتهتدوا به، ومن الذي سخر لكم النجوم لتهتدوا بها، ومن الذي خلق لكم هذه الرياح التي لولاها لما نزلت قطرة مطر، أليس هو القائل: (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [النمل: 63].

6- وأخيراً هناك سؤال لن تجدوا الإجابة عنه إلا بالرجوع إلى خالقكم، فمن الذي خلق الكون وخلق المجرات وخلق الأرض والشمس والقمر، ومن الذي جعل النباتات تثمر وجعل السماء تمطر وجعل في كل شيء دورة مقدرة للماء والصخور والتراب وأنتم ترون

كيف يتكرر الخلق ويُعاد أمامكم، فقطرة الماء هي ذاتها تسقط من الغيمة ثم تتبخر ثم تعود للغيوم لتسقط من جديد ، إنها إعادة مستمرة للخلق تحدث أمام أعينكم، من الذي قدّر هذه العملية المحكمة ؟ اسمعوا : (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)]النمل: 64] .

بعد كل هذه الحقائق، هل ندرك أن كل ما نراه من حولنا هو من صنع الله تعالى ؟ إذاً تأملوا معي هذا النص القرآني الرائع: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [لقمان: 10-11] .

مقالات ذات صلة :

? الاختراعات الحديثة تقليد لخلق الله

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

مصدر المعلومة

http://www.dw-world.de/dw/article/0,2144,2037315,00.html

مصدر الصور

/http://www.nationalgeographic.com

0-المجاميع البيئية للفطريات والتقدير الإلهي في الخلق

بقلم الأستاذ الدكتور نظمي خليل أبو العطا

صور لفطريات متنوعة

أستاذ علوم النبات جامعة عين شمس القاهرة. مصر

مدير مركز ابن النفيس للخدمات العلمية في مملكة البحرين

من يدرس المجاميع البيئية للفطريات Ecological Groups of Fungi يجد التقدير الإلهي في الخلق واضحا جليا , حيث تقسم الفطريات عادة إلى عدة مجاميع فطرية بحسب البيئة التي تنشأ وتنمو فيها , وبحسب العائل التي تعيش عليه، ونوع التغذية التي

تتغذى بها وأحد هذه التصانيف هي:

- فطريات التربة (Soil Fungi):

تلعب الفطريات مع رفيقاتها من الكائنات الحية الدقيقة كالبكتيريا والفيروسات وبعض الحيوانات والنباتات دورا مهما ورئيسا في خصوبة التربة،وبالمقارنة بين الفطريات ورفيقاتها في التربة نجد أن الفطريات لا تكون الجزء الأكبر من محتوى التربة من الكائنات الحية إلا أنها تكون جزءا كبيرا من الكتلة الحية الموجودة في كثير من الأراضي الزراعية الجيدة التهوية وترجع القلة النسبية لعددها وفي نفس الوقت تمثيلها لجزء أكبر من الكتلة الحية إلى غزارة نموها على صورة خيوط فطرية سميكة ومتماسكة ومتشابكة وإنتاجها لبعض التراكيب الثمرية الكبيرة كما هو الحال في الفقع أو الكمأة Tuber maganatum أو (Trufles) حيث تنتج الفطريات كيلوجرامات عديدة من الأجسام الثمرية الأرضية.

وتسود الفطريات بقية الكائنات الحية في المخلفات النباتية بالأراضي الغنية بالمواد العضوية، حيث تعتبر الفطريات مهمة والعامل الأول والرئيس المسئول عن تحلل المواد العضوية في الأوساط الحامضية بما وهبها الله سبحانه وتعالى من قوة إنزيمية قادرة على تحلل المواد العضوية في التربة.

صور لفطر الكمأة

ولكل نبات من النباتات النامية والحية مجموعة من الكائنات الحية الدقيقة – وخاصة الفطريات – تعيش في محيطه الجذري في منطقة تسمى الجذر محيطية أو المحيط الجذري (Rhizosphere) أو توجد على سطح الجذر وتسمى (Rhizoplane) وهي المسئولة عن العديد من الأمراض الفطرية التي تصيب النباتات الزهرية، ومسئولة أيضا عن خصوبة التربة والإنتاج النباتي المرتفع لبعض النباتات .

وتقسم الفطريات في التربية بحسب تقسيم برجي (Burges) سنة 1958م إلى:

– المتطفلات الإجبارية (Oblig ate parasites): وهي تتطفل إجباريا على النباتات والحيوانات في التربة، وتعمل على موت النبات والحيوان وتحللهما ، وإضافة محتواهما العضوي إلى التربة وزيادة خصوبتها .

– المتطفلات الإختيارية: (Facultative parasites): وهي الفطريات التي تتطفل على عائلها في وجوده وتتحول إلى التغذية الرمية في غيابه .

– فطريات التربة الحقيقية (True soil fungi): وهي تقوم بدور مهم في التربة من حيث هدم أجسام الحيوان والنبات ومخلفاتهما في التربة، وإتمام العديد من الدورات الحيوية

فيها ، وقد فصلنا ذلك في موضوع (وما تحت الثرى) في كتابنا (آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم النبات) .

(476/231)

- الفطريات المرتبطة بالجذور : (Root–inhabiting fungi) : وهي فطريات تتعايش مع الجذور سواء على سطحها أو في محيطها الموجود حولها (Rhizosphere) وبعضها يتعايش مع جذور النباتات البذرية مكونا الفطر – جذريات (ميكورايزا) (mycorrhiza) ومنها الميكورايزا الداخلية، والميكورايزا الخارجية . وتلعب هذه الفطريات دورا مهما في حيوية النبات، وتحلل المواد السامة المتعايشة معها ، مع العلم أن لكل نبات فلورا (Flora) خاصة به من الفطريات سواء في محيطه الجذري أو في الميكورايزا المرتبطه به أم على سطحه كما سبق . والميكورايزا تتكافل مع بعض الأشجار الضخمة وتقوم مقام الشعيرات الجذرية في إمداد النبات بالماء ،ويقوم النبات بإمداد الفطر بالغذاء الجاهز، كما يقوم الفطر بتحليل المواد السامة في التربة وحماية النبات منها .

- الفطريات العائشة على اللجنين (Lignicolous Fungi) : كما نعلم فإن اللجنين

مادة كيماوية معقدة التركيب، تستعصي على العديد من الفطريات والبكتيريا والنمل الأبيض، ولكن يوجد بعض أنواع من الفطريات تستطيع أن تحلل الليجنين وتعيش عليه بما وهبها الله سبحانه وتعالى من إنزيمات محللة له وهذا النوع من الفطريات يسبب تعفن جذور الأشجار وتحللها بعد موتها في الحقول والغابات، وتأتي العدوى للخشب (بضم الخاء والشين) بهذه الفطريات عن طريق الجراثيم المحمولة بالهواء أو عن طريق أجزاء من الخيوط الفطرية (الغزل الفطري) التي تنتقل مع التربة عندما تسقط عليها الأشجار .

- الفطريات المحللة للسليلوز (Cellulose Decomposing Fungi):

السليلوز (Cellulose) كما نعلم عبارة عن كربوهيدرات معقدة، يتركب من وحدات عديدة من الجلوكوز مرتبط بعضها ببعض في سلسلة طويلة معقدة ترتبط برابطة جليكوسيدية (1-4) في الوضع بيتا .

(477/231)

ويوجد العديد من الفطريات في البيئة تحلل السليلوز وتعيش عليه، مثل سليلوز أوراق النبات وألياف القطن والكتان والتيل، وهذه الفطريات تخترق الجدر السليلوزية وتحطم الملابس والمقتنيات السليلوزية كالبرديات والكتب والمستندات الورقية، وللحماية من فعل

هذه الفطريات المدمر للوثائق والمخطوطات النادرة يلزم معاملة هذه الوثائق والمخطوطات بمركبات النحاس والزئبق والكبريت المقاومة للفطريات .

- الفطريات المحللة للكرياتين (Keratinophilice fungi) : هذه المجموعة من الفطريات يمكنها أن تعيش على الكرياتين كالشعر والأظفار وأظلاف الحيوان، وتحللها وتستخدمها كمصدر نيتروجيني، وهذه الفطريات تتلف الشعر والجلد في الإنسان الحيوان وتسمى (Dermatophytes) وهي المسئولة عن تحلل أظفار وشعر الموتي .

صور لذبابة مصابة بالفطر

- الفطريات المرتبطة بالحشرات(Entomogenouns Fungi) : وهي فطريات تعيش على الحشرات وتتطفل عليها تطفلا إجباريا وهي تدمر الحشرة تدميرا كاملا، وبعضها يتطفل إختياريا على الحشرات، و تتغذى على جسم الحشرة من دون هلاكها ومن أشهر هذه الفطريات فطرة الأتوموفثرا Entomophthora muscae التي تعيش على الذبابة المنزلية Musca domestica وتستغل هذه الفطريات في المقاومة الحيوية للحشرات، حيث تتم العدوى الصناعية للحشرات المراد مقاومتها بجراثيم (الفطرة) التي تتطفل عليها فتنمو على الحشرة وتنتقل العدوى منها إلى

حشرة أخرى وقت التزاوج فتعدي الحشرات إلى أن يقضي عليها حيويا من دون إستخدام المبيدات الحشرية المضرة بالبيئة وبالإتزان البيئي الحيوي .

(478/231)

- فطريات الروث والغائط (Coporphilous Fungi) : روث الحيوانات وغائط (براز) الإنسان يكونان مادة غذائية للعديد من الفطريات لأنهما يحتويان على العديد من المواد الغذائية التي لم يتم هضمها أو امتصاصها في القناة الهضمية، ويحتويان على المواد النيتروجينية اللازمة لنمو العديد من الكائنات الحية الدقيقة، كما أنهما يحتويان على بقايا الكرات الدموية المتحللة، وأصباغ الصفراء وجدر القناة الهضمية المتحللة، وهذه المواد تمد الكائنات الحية الدقيقة بالعديد من عوامل النمو اللازمة لها .

وبدراسة الفطريات التي تظهر على الروث وجد أن هناك تتابعا منظما لظهور هذه الفطريات على الروث، ففي البداية تنمو على الروث الفطريات التابعة لرتبة الميوكرات Order mucorales ومنها عفن الخبز Rhizopus sp وفطر الميوكر Mucor sp وهي من الفطريات التزاوجية (zogomucota) يتبعها بعد ذلك أفراد الفطريات الزقية (Ascomycota) وأخيرا تظهر الفطريات البازيدية

(Basidiomycota) وهذا التتابع الفطري على الروث يبين التقدير الإلهي في الخلق ,

وأنه لا مكان للمصادفة والعشوائية، ففي البداية يحتوى الروث على السكريات

والهيميسليلوز (Hemicellulose) والنيتروجين وهذا ينشط وجود أفراد رتبة

الميوكورات order mucorales من الفطريات التزاوجية (zygomycota) .

ثم بعد ذلك يسود السليلوز، وهذا يؤدي إلى ظهور الفطريات الزقية

(Ascomycota) وفي النهاية يتبقى الليجنين وهذا يؤدي إلى نمو الفطريات البازيدية

(Basidiomycota) فهل رأيتم إعجازاً ونظاماً أعظم من هذين الإعجاز والنظام

في الخلق ؟

(479/231)

- الفطريات المائية (Aquatic Fungi) : الفطريات عامة كائنات حية دقيقة أرضية

, ولكن توجد منها الأنواع المائية , ويتبع معظمها الفطريات البيضية (Oomycota)

وهي موجودة في المياه العذبة والمالحة والمختلطة ومعظمها يعيش على بيض الكائنات الحية

البحرية وأجسادها وأجنتها وتسبب الأمراض للعديد من هذه الكائنات الحية .

والسؤال الآن: من نظم لهذه الكائنات الحية الدقيقة حياتها بهذها النظام العلمي البديع ؟

أجاب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عن هذا السؤال إجابة علمية معجزة شافية عندما سأله فرعون: " قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿ 49 ﴾ " (طه/49) " قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿ 50 ﴾ " (طه/50) أي أعطاه خصائصه النافعة لحياته ثم هداه إلى هذه النعم ليستغلها أعظم استغلال بما يعود عليه وعلى البيئة المحيطة به بالنفع والإصلاح.

فسبحان الخالق البارئ المصور الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا , وكذب الداروينيون أصحاب نظرية العشوائية في الخلق , والطفرة والانتخاب الطبيعي في الكائنات الحية , تلك النظرية التي تكذبها تلك التتابعات الفطرية على المخلفات الحيوانية والإنسانية , وهذا التقسيم والتنوع والتشابه والحكمة في الخلق .

أ . د . نظمي خليل أبوالعطا موسى

www.nazme.net

يستقبل الدكتور نظمي خليل أبو العطا ملاحظاتكم وتعليقاتكم على المقالة على الإيميل التالي:

phy_tech@hotmail.com

مقالات للمؤلف:

? النخل في القرآن الكريم والعلم الحديث

? ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى

? نظرية التطور بين المؤيدين والمعارضين

? من حقوق النبات في الإسلام

? الأعفان في خدمة الإنسان معجزة حيوية

0-الأسرار الخفية في أصغر طائرة جرثومية

صورة لطائرة مقاتلة

بقلم الأستاذ الدكتور نظمي خليل أبو العطا

أستاذ علوم النبات في جامعة عين شمس

(480/231)

دُعيَ خبير الطيران العالمي لمشاهدة أصغر طائرة جرثومية في العالم، فاندهش عندما شاهدها تقلع وتطير وتحلق وتناور وتهبط وتقلع ببراعة عجيبة في غرفة صغيره لا يزيد طولها عن المترين وعرضها المتر الواحد .

اقترب الخبير العالمي مندهشاً من الطائرة حتى أصبحت على بعد نصف متر منه، أخذ

يدقق فيها فلم يتمكن من رؤية تراكيبها الخارجية بوضوح لدقتها وصغر حجمها ، رآها تطير في خفة عجيبة وفي هدوء أعجب، حاول المختصون إسقاطها ولكنها ناورت وفلتت من قذائفهم وظلت تحلق في الجو في رشاقة عجيبة متحدية الرادارات والقذائف الموجهة .

قال الخبير العالمي: ما أعجب دقة هذه الطائرة ! ! ، وما أبدع صانعها ! ! , إذ كيف استطاع صناعة هذين الجناحين الدقيقين الرقيقين ؟ ! , وكيف يتحركان ويمتدان, ويطويان فوق ظهر الطائرة بآلية وانسيابية عجيبة ؟ ! ! .

قالوا له: إن لها خزان وقود دقيق يوزع الوقود على جميع أجزاء الاحتراق الداخلية بشبكة توزيع دقيقة وعجيبة، ولها أجهزة استشعار أدق ركبت بعناية بالغة على جسمها الدقيق النحيل الذي لايزيد طوله عن مليمترات قليلة .

أخبروه أن تركيب هذه الطائرة الدقيقة أعجب من دقتها . فهي ذات جسم إنسيابي مفصلي مكون من ثلاث درجات، الأولى الدرجة الأمامية وبها الأجهزة الحساسة ففيه كشافا رؤيه وفيها أيضاً ثلاث عُيينات وبها خرطوماً ممتداً للخارج للتموين بالطاقة، علاوة على عُقد الإحساس الدقيقة التركيب، يليها الدرجة الثانية يعلوها جناحان كبيران رقيقان، وآخران صغيران دقيقان مهمتهما حفظ اتزان الطائرة (ويسميان بدبوسيْ الاتزان) ، وأسفل هذا الجزء يوجد ست عجلات قوية لأن هذه الطائرة أرضية، وهناك أنواع

أخرى مائية وأنواع برمائية ثم يليها القسم الثالث بمحتوياته الداخلية المعقدة والدقيقة .

ويكيف جسم الطائرة جهاز تكيف دقيق ذاتِ كفاءة عالية جداً ينتشر في كل جزء من أجزاء الطائرة .

(481/231)

هذه الطائرة عندها صلاحية عالية للتحميل بآلاف القنابل الجرثومية الفتاكة المعبأة بجراثيم: شلل الأطفال، وبكتيريا الكوليرا ، والجذام، والتدرن الرئوي (السل) ، والتيفوئيد ، والباراتيفوئيد ، وجراثيم الاسهال، والرمد الصديدي .

ومن العجيب أن جسم هذه الطائرة يحمل قنابل مضادة لمفعول الجراثيم السابقة، حيث يحمل قنابل الفيروس ملتقم البكتيريا (البكتيريوفاج) الذي يخترق جسم البكتيريا ، ويتكاثر بالتضاعف داخلها ثم يفجرها ويحطمها ويقضي عليهما .

ويستطيع المصنع أن يصنع من هذه الطائرة الدقيقة الصنع الآلاف، يمكن نشرها بسهولة في الشوارع والبيوت والمدارس والمصانع والمطارات، وهي تستطيع التسلل إلى المعسكرات والقواعد العسكرية والمطارات الحربية دون أن يرصدها الرادار وأجهزة الإنذار المبكر، وعندها المقدرة على الذهاب والإياب بسرعة عجيبة .

سأل الخبير العالمي عن الاسم العلمي لهذه الطائرة العجيبة فقالوا له: إنها الذبابة المنزلية Musca domestica vicina أكفأ طائرة جرثومية في العالم وهناك أنواع أخرى من طائفتها أصغر منها تنقل جراثيم الملاريا ومرض النوم، ولكن هذه الطائرة أشهرها , وأوسعها انتشاراً خاصة في دول العالم الثالث .

صورة لذبابة منزلية وهي في حالة تطيران

هذه الطائرة معجزة حاولت روسيا قديماً صنعها بكل قواها العلمية ففشلت، وكذلك يتحدى الله كل مصانع العالم، وخاصة المصانع الأمريكية والأوروبية أن يصنعوا مثلها .

هذه الطائرة مكتوب عنها في كتاب رب العالمين المعجز: (يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) الحج 73-74 .

قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين في تفسير الآيتين السابقتين من سورة الحج:

(482/231)

حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل ويتدبره حق تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه .

وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن يقدروا خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف بما هو أكبر منه، بل لا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئًا مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنفذوه منه، فلاهم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه .

صورة لرأس ذبابة منزلية تظهر العينين الكبيرتين والفم فتبارك الله أحسن الخالقين

فلا أعجز من هذه الآلهه، ولا أضعف منها ، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله .

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه وتعالى في بطلان الشرك، وتجهيل أهله، وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الآلهة التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والغنى عن جميع المخلوقات، وأن يصمد الرب في جميع الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفان، وإجابة الدعوات، فأعطوها لصور وتماثيل يمتنع عليها القدرة

على أقل مخلوقات الإله الحق، وأذلها وأصغرها وأحقرها . ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه .

وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء آلهتهم، أن هذا الخلق الأقل الأذل والعاجز والضعيف لو اختطف منهم شيئاً واستلبه فاجتمعوا أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا عليه .

ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله (ضعف الطالب والمطلوب) .

قيل: الطالب: العابد ، والمطلوب: المعبود فهو عاجز متعلق بعاجز .

وقيل هي تسوية بين السالب والمسلوب منه وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز .

وعلى هذا فقيل: الطالب الإِله الباطل، والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه .

(483/231)

وقيل: الطالب الذباب، والمطلوب الإله فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه .

والصحيح: أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود والمستسلب .

فمن جعل هذا إلهاً مع القوي العزيز، فما قدر الله حق قدره، ولا عرفه حق معرفته ولا

عظمه حق عظمته .

عندما شاهد أحد العقلاء أحد أنواع تلك الطائرات الدقيقة قال:

يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقه في نحره والمخ من تلك العروق النحل

ويرى خرير الدم في أوصاله متنقلاً من مفصل في مفصل

ويرى ويسمع حس ما هو دونها في قاع بحر مظلم متهول

هذا الشاعر العربي المؤمن يرى بنور الله، بنور العلم والبصيره، أما العلمانيون الدنيويون فيرون في ذكر هذه الحشرات في السنة النبوية المطهرة والقرآن الكريم فتنه ومجالا للارجاف والتشكيك في قدرة الله وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد شاء الله أن يتحدى عقول العلمانيين والمرجفين خاصة في الديار الإسلامية بالذباب، ويختبر عقولهم وعلمهم ونفسيتهم، فأورد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث النبوي الصحيح الذي رواه البخاري عن الداء في جناح الذبابة والدواء في الجناح الآخر وهنا انقسم الناس إلى فرق منها :

العَلماني المتربص بدين الله وجدها فرصته لضرب السنة والبخاري فحاول التشكيك في هذا الحديث، ولا يترك مناسبة إلا ويتحدث عنه بتشكيك وإرجاف عجيب .

وهناك من سلَم بالحديث بعد تأكده من صحته وورودة في أصح الكتب بعد القرآن الكريم

عند أهل السنة والجماعة والذي تلقته الأمه بالقبول طوال الفترة السابقة .

وهناك من قام بالتحقق العلمي من صحة الحديث عملياً ، وأثبت أن الذباب يحمل الداء كما قلنا سابقا , ويحمل الفيروس الملتقم للبكتيريا الممرضة على جسم الذبابة وأجنحتها .

ومع كل ذلك ستظل الذبابة من أعظم وأصغر الطائرات الجرثومية التي عرفتها البشرية .

(484/231)

وسيظل حديث الذبابة في البخاري يشهد على علمية هذا الدين وسبقه الحضاري والعلمي ولا يفهم هذا الأمر إلا من تخصص في مجال الكائنات الحية الدقيقة، وأجرى التجارب العلمية على البكتيريا والفيروس ملتقم البكتيريا (البكتيريوفاج) ، وكا قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)البقرة26 .

فالفاسقون: عندما يسمعون هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لايرون ما فيها من قدره وعظمه ويرونها مخلوقات تافهة بعقولهم القاصرة فيضلوا عن سبيل الله .

والعالمون: عندما يسمعون هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يتدبرونها ويدرسونها

فيرون ما فيها من قدرة وعظمة فيعلمون إنها مخلوقات عظيمه، فيهتدون إلى الصراط المستقيم.

فهي آيات للهداية للعالمين، وللضلال للفاسقين

يستقبل الدكتور نظمي خليل أبو العطا ملاحظاتكم على المقالة على إيميله الشخصي:

phy_tech@hotmail.com

يمكن مطالعة المزيد من المقالات على موقع الدكتور:

http://www.nazme.net

0-مَن الذي يهدي هذه السلحفاة البحرية

من عجائب عالم البحار ما لاحظه العلماء مؤخراً من دقة فائقة لدى بعض الكائنات البحرية مثل أسماك السلمون والسلاحف البحرية، وذلك في تحديدها للمكان الذي وُلدت فيه، فتجدها تعود إليه بعد سنوات دون أن تضلّ الطريق! ويحتار العلماء كيف يمكنهم تفسير هذه الظاهرة، وما هي القوة التي تهدي هذه المخلوقات إلى سبيلها.

(485/231)

وأحدث نظرية تقول إن هذه المخلوقات تستخدم المجال المغنطيسي للأرض، فكل بقعة في اليابسة أو في البحر تتميز "ببصمة مغنطيسية" محددة، ويوجد في أدمغة هذه الكائنات خلايا خاصة وبرامج معقدة تتحسس لمثل هذا المجال المغنطيسي ويتم تخزينه ثم التعرف عليه لاحقاً، ويطلق على العلم الذي يدرس حركة الكائنات المنظمة movement ecology ولا يزال العلماء مندهشين في تفسيرهم لهذه الظاهرة العجيبة.

صورة لسلحفاة بحرية وهي تسبح نحو موطنها الأصلي

ولكننا كمسلمين ولله الحمد لا نعاني من هذه الحيرة في تفسير مثل هذه الظاهرة وغيرها، لأن الله تعالى حدثنا عنها وأشار إلى أنه عزّ وجلّ هو من أعطى هذه المخلوقات شكلها وهو من سخَّر لها أسباب الهداية، يقول عز وجل: (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: 50]. وانظروا معي إلى رحمة الله الواسعة، حتى هذه المخلوقات لم ينسها من رحمته فسخَّر لها المجال المغنطيسي للأرض لكي تستخدمه في تحديد الاتجاهات ولتتمكن من العيش بأمان، حيث تعتمد في هجرتها وتوجهها على هذا المجال المغنطيسي.

صورة لسمك السلمون وهي تسبح نحو موطنها الأصلي

كذلك من رحمة الله تعالى أنه زودها ببرامج محكمة في أدمغتها (وبخاصة في منطقة الناصية) تستطيع من خلالها التوجه والتحكم وقيادة نفسها ، مع العلم أننا نجد إشارة قرآنية رائعة لمثل هذه الحقيقة في قوله تعالى: (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [هود: 56] . فيارب خُذ بنواصينا إلى كل خير، واهدنا إلى أحب الأعمال إليك . . .

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

مصدر المعلومة

New Field Could Explain How Salmon, Turtles, Find Home,

http://news.nationalgeographic.com/news/2008/12/081204-movement-ecology.html

0-وفي أنفسكم أفلا تبصرون

صورة لعين بشرية فتبارك الله أحسن الخالقين

إعداد أحمد فتحي شعبان

مدرس أحياء و جيولوجيا

يقول الحق تبارك وتعالى (وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) (سورة الأنعام: من الآية 61) و يقول سبحانه أيضا " (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) (سورة الطارق: 4) " سورة الطارق:آية(4) وإذا نظرنا لتفسير المفسرين القدامى منهم لوجدناه كالتالي:

إن كلّ نفس لَعَليها حافظ من ربها ، يحفظ عملها ، ويَحْصِي عليها ما تكسب من خير أو شرّ . وبنحو ذلك ورد في تفاسير مختلفة ما نصه:

عن ابن عباس، قوله: "إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ" قال: كلّ نفس عليها حفظة من الملائكة .

عن قتادة، قوله: "إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ": حفظة يحفظون عملك ورزقك وأجلك إذا توفيته يا بن آدم قبضت إلى ربك .

وقوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات كما قال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى

بعملها المحفوظ عليها .

قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .

وجواب القسم "إِنْ كُلُّ نَفْسٍ" . و"إن" بمعنى "ما" . و(لَمَّا) : بالتشديد بمعنى إلا، وبالتخفيف "ما" فيه زائدة، وإنْ هي المخففة من الثقيلة؛ أي إن كل نفس لَعَليها حافظ . و(حافظ) مبتدأ، و(عليها) : الخبر . ويجوز أنْ يرتفِعَ حافظ بالظَّرْف .

و إذا نظرنا للحفظ كذلك من منظور علمي لوجدنا أن النفس عليها حفظة و ليس حافظا واحدا حيث زودها الله عز وجل بالعديد من الوسائل التي تحميها من غيرها كعوامل بيئية و كائنات أخرى مرئية أو مجهرية و على سبيل المثال لا الحصر نجد :

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9)

(487/231)

الجلد : الذي يغطي الجسم وسيلة حفظ لسوائل الجسم فلا يصيبه الجفاف – انظر عفاك الله إلى ذوي الحروق القوية – كذلك عليه طبقة قرنية من الخلايا الميتة التي تعيق دخول الميكروبات المرضية إلى داخل الأنسجة ، كذلك به الخلايا و الحلمات الحسية التي تشعر

الشخص بما حوله من تغيرات بيئية – حرارة ، برودة، أشياء و مؤثرات ضارة – فيحفظ نفسه و يحميها من المخاطر بإذن الله , كذلك الجلد به الغدد العرقية التي تفرز العرق و هو مادة شديدة الملوحة كافية لقتل الميكروبات أو على الأقل وقف نشاطها و الحد منه كما أن هذا العرق يحمي الجسم من الارتفاع في درجة الحرارة فهو يلطف من حرارة الجسم .

العين: إذا نظرنا إليها وما فيها من حفظ لوجدنا أن الله زودها الرموش لحمايتها من الأتربة والرياح ، كذلك وجود الجفون التي تغلق العين ليغض الإنسان بصره فلا يتولد لديه الشهوة وعدم الرضا بما قسمه الله من زوجة إذا ما أطلق بصره يجول هنا وهناك في المحرمات , كما أن هذه الجفون تغلق و تفتح بسرعة من أن لآخر حتي تتسنى لمادة الأوبسين أن تتحد مع مادة الريتينين لتكون مادة الردوبسين التي تتحلل عند دخول الضوء للعين إلى المادتين اللتين كوناها فتتمكن العين من الرؤية, كذلك توجد العين فيما يعرف بالتجويف الحجاجي داخل الجمجمة ليحميها من الإصابات الخارجية و الصدمات , كذلك تفرز العين إنزيم خاص – مادة كيميائية هو الليزوزوم – عند دخول البكتريا أو الميكروبات إليها فتحللها بإذن الله و تفتك بها .

الأنف: والذي ينتج المادة المخاطية من خلال النسيج المخاطي الذي يتميز بكميائية قلوية تعمل على: –قتل الميكروبات – تجميع المواد الضارة و الأتربة التي تدخل للجسم – يعمل على ترطيب و تبريد الهواء الساخن قبل دخوله للرئتين – كذلك به الأوعية الدموية التي

تعمل على تدفئة الهواء البارد قبل دخوله الرئتين حتى لا يصاب الإنسان بالأذى – كذلك توجد شعيرات عادية لحجز الغبار والأتربة .

(488/231)

صورة لمعدة بشرية فتبارك الله أحسن الخالقين

الفم: وبه اللعاب الذي له من الفوائد العظيمة أقلها أنه قلوي لقتل الميكروبات الداخلة مع الطعام، كذلك يعمل على حفظ الأسنان من التآكل لو تعرضت للهواء، كذلك به مادة مخاطية تسهل مرور الطعام وانزلاقه للمعدة خلال المريء حفاظا على الإنسان من الاختناق إذا توقف الطعام بالمريء فينشأ عنه عدم مرور الهواء بالقصبة الهوائية .

المعدة: ويوجد بها حامض الهيدروكلوريك HCL ذو التركيز العالي – PH:1.5 2.5 و هذا يكفي لقتل معظم الميكروبات التي تصل للمعدة و بهذا يحفظ الجسم من الأضرار و الأهم من ذلك وجود بطانة مخاطية من مواد سكرية لجدار المعدة لتحميها من أثر الحمض و ذلك لأن هذه المادة لأتتأثر بالحمض المعدي .

بكتريا الأمعاء الغليظة: والتي تحلل المواد التي يتناولها الإنسان و لايملك انزيمات لهضمها و منها السليلوز (الألياف النباتية) – أتدري ما وسيلة حفظها ؟ – إنها تحفظه من الإمساك

والإسهال فسبحان الله .

داخل الخلية الواحدة من جسم الإنسان يحدث ما يقرب من 5000 طفرة يوميا (الطفرة تغير مفاجىء في تركيب الجين (DNA) وهو المسئول عن الصفات الوراثية فينبغي أن ينشأ عن هذه التغيرات أمراض ناتجة عن الخلل الوراثي إلا أن ذلك لايتم بسبب ما يعرف بإنزيمات الربط التي تُحدث إصلاح لأي خلل في المادة الوراثية .

وفي المرات القادمة إن شاء الله نستكمل بقية وسائل حفظ الله للإنسان والسلام عليكم و رحمة الله وبركاته .

أعدها وكتبها / أحمد فتحي شعبان

مدرس أحياء وجيولوجيا aboanasshaban@yahoo.com

0-الصلاة بين أنابيب الاختبار

د . سامر سقا أميني

طبيب وأديب سوريا

اعتاد الأطباء على متابعة الأخبار المتجددة في ميادين الطب المتنوعة، سواءً على مستوى الأمراض أو على مستوى الأدوية والعلاجات المقترحة .

ولم أكن أتوقع أن تدخل أبحاث روحية كالصلاة والدعاء إلى مخابر الأبحاث العالمية، فأمثال هذه المواضيع صعب الدراسة لصعوبة فهم أسرار القوة المعنوية، وما تؤدي إليه من نتائج مادية محسوسة قابلة للتقييم .

إن العلماء الغربيين لايقتنعون بتفسيرات الغيب وأقوال الوحي، بل يريدون مواد محسوسة توضع في أنابيب الاختبار، أو تحت عدسة المجهر، كي يصلوا إلى نتائج تطمئن إليها قلوبهم . وهم لم يهتموا بأبحاث الصلاة والدعاء إلا لإدراكهم أن هناك نتائج إيجابية ملفتة للنظر لهذه الممارسات على التطور المرضي لكثير من الأمراض .

وها هم يبدؤون حيث انتهينا وتعلمنا منذ مئات السنين، فنحن من قواعدنا في ديننا :

o قول الله عز وجل(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

o قول الرسول صلى الله عليه وسلم (ماجلس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)

o قول الرسول صلى الله عليه وسلم(دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند

رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به:آمين،ولك بمثل)

ولنستعرض الآن بعضاً من الأبحاث العالمية في هذا المجال:

أولاً : الصلاة

اتفق الباحثون أن الصلاة لها تأثيرات إيجابية على الصحة، وأن هذه التأثيرات قابلة للقياس نسبياً ،وإن كنا لا نعرف تماما آليات التأثير .

وقد أكدت الدراسات المختلفة هذه العلاقة الوثيقة بين الالتزام العملي الديني والصحة، مما دعا إلى إطلاق اسم "EPIDEMIOLOGIE DE LA RELIGION

"على الفرع من الطب الذي يدرس العلاقة بين الدين والصحة .

تخوض الأبحاث الغربية في محاولة وضع عدة تعاريف لمصطلحات معنوية :

الصلاة،الروحانية،التدين،التأمل، . . . . . .

(490/231)

ويجب أن نعلم أن الدراسات المجراة في الغرب أجريت على عدة طوائف وأديان،وبالتالي فإن أمثال تلك التعاريف ليست واضحة ذلك الوضوح الذي نتصوره نحن في ديننا .

وقد اتخذ التدين هو الأساس في الدراسات وعرف أنه الالتزام بالجانبين الاعتقادي والعملي

لدين محدد . ومعظم الأبحاث تدرس العلاقة بين الصحة والالتزام العملي الديني (عدد مرات الصلاة، المشاركة في الشعائر العامة، . . . .) لأن هذه الناحية من الدين هي أكثر قابلية للقياس من غيرها من النشاطات الروحية، والدراسات المخبرية تحتاج إلى قيم تقبل القياس .

وقد تبين في دراسة إحصائية أمريكية أن:

82% من الناس يعتقدون بالمزايا العلاجية للصلاة .

73% من الناس يعتقدون أن الصلاة من أجل الآخرين (الدعاء) يمكن أن تملك مفعولا شافيا .

64% من الناس يعتقدون أن الأطباء يجب أن يصلُوا من أجل المرضى الذين يطلبون منهم الدعاء .

45% من الناس يلجؤون إلى الصلاة عند مواجهة صعوبات صحية وذلك في سنة 2002 مقارنة مع 35% سنة 1997 ،ومع 25% سنة 1991 .

45% من الناس يقولون إن الدين يؤثر في قرارهم الطبي في الأمراض الخطيرة .

49% من الناس يرون ضرورة أن يناقش الأطباء المعتقدات الدينية مع مرضاهم خاصة المصابين منهم بأمراض خطرة .

ولنذكر بعض الدراسات:

دراسة الدكتور LARRY DOSSEY: وهو من أشهر الباحثين في هذا الموضوع،وقام بدراسته على أربعة آلاف شخص خلال فترة ست سنوات وكانت النتائج: إن التدين له تأثير ممتاز على الصحة بشكل عام، وعلى أمراض معينة بشكل خاص (الأمراض القلبية، ارتفاع التوتر الشرياني، السرطانات، الأمراض الهضمية، . . .)

دراسة HARRIS: على 990 مريضاً تم قبولهم في وحدة العناية الاكليلية في أحد المشافي الأمريكية . وقد طلب إلى مجموعة من الناس أن يصلوا من أجل نصف هؤلاء المرضى كل يوم خلال أربعة أسابيع وذلك ضمن الشرطين الآتيين:

(491/231)

---

o الناس الذين يقومون بالدعاء والصلاة لايعرفون المرضى الذين يدعون لهم، وقد أعطوا فقط اسمهم الأول .

o المرضى لايعرفون إن كان يدعى لهم أم لا .

وأظهرت الدراسة أن القسم من المرضى الذي حصل على الدعاء كانت الاختلاطات التالية للعمل الجراحي لديهم أقل ب 10% من القسم الآخر الذي لم يحصل على نصيب من الدعاء والصلاة .

دراسة أخرى : أجريت على 393 مريضا في العناية المشددة وفي ظروف مماثلة لدراسة HARRIS وتبين بالنتيجة أن المرضى الذين حصلوا على الدعاء بالغيب احتاجوا إلى دعم تنفسي وصادات "مضادات حيوية" ومدرات بنسبة أقل من الباقين، وكذلك تعرضوا إلى نسبة أقل من الاختلاطات .

دراسة في مجلة PSYCHOMATIC MEDECIN: أجريت الدراسة على 78 مريضا أسود البشرة، و 77 مريضا أبيض البشرة،أعمارهم تتراوح بين 25 إلى 45 سنة . وسبب اعتماد لون البشرة للاعتقاد أن الامريكيين السود يعطون أهمية أكثر للإيمان بالله وممارسة الصلاة من البيض .

خضع المرضى لمراقبة دورية للضغط إضافة إلى دراسة مفصلة للمعتقد الديني ومقدار الالتزام بالشعائر الدينية خاصة الصلاة .

وقد وجد أن ممارسة الصلاة تؤدي إلى خفض الضغط الشرياني عند السود(والذين هم عادة معرضون أكثر من البيض للإصابة بهذه الآفة) بشكل واضح . أما عند البيض فلم تكن النتائج واضحة لقلة ممارسة الشعائر الدينية .

دراسة على موقع NATURAL PHARMACIST: أجريت الدراسة على أربعين مصابا بمرض الإيدز وفي مرحلة متقدمة منه، حيث قسم المرضى إلى قسمين كما في الدراسات السابقة، وضمن نفس شروط الدعاء السابقة . فقد تم توقيت جلسات

للدعاء والصلاة لقسم من المرضى بمعدل ستة أيام في الأسبوع خلال عشرة أسابيع، وتمت مراقبة المرضى خلال ستة أشهر . وقد تبين بشكل واضح التحسن عند مجموعة الدعاء .

(492/231)

النتيجة: يجمع الباحثون في هذه المجالات أنه على الرغم من صعوبة الدراسات والاستنتاجات في المجالات الروحية، فإن التدين والصلاة يعتبران من وسائل المحافظة على صحة طيبة تماما كالتغذية الجيدة وممارسة الرياضة .

وهم يؤكدون أن المواظبين على الصلاة والدعاء هم أقل عرضة للإصابات الجسمية والنفسية وكذلك هم أكثر تحملا للألم،وأقل استعدادا للإصابة بالقلق والكآبة،وهم عادة بصحة جيدة،يتعافون بسرعة بعد العمليات الجراحية .

ومن التوصيات الحديثة ضرورة أن يطرح الطبيب أسئلة حول المعتقد الديني لمريضه وأن يأخذ ذلك في الحسبان عند تقييم الحالة المرضية .

ولا شك أن هناك أطباء ينتقدون أمثال هذه الدراسات (وهذا ليس غريبا في عالم الطب) ويعتبرون أن الشخص المتدين يكون عادة صاحب معنويات عالية،لذا فهو يشفى أسرع

دون أن يكون للصلاة دورا معالجا بالمعنى الطبي الحرفي للكلمة، وهناك من يعطي للصلاة دورا كالدواء الموهم(البلاسيبو) وذلك بتأثير موهم نفسي رافع للمعنويات، ويجيبهم آخرون وماذا بشأن الدعاء في ظهر الغيب ؟

الدكتور DALE MATTHEWS أجرى دراسات مشابهة لدراسات HARRIS وختم نتائجه بقوله:

" إن التحسن الطارئ على المرضى الذين دعي لهم بالغيب لا يمكن تفسيره فقط بالعلم الطبي

التقليدي، والحقيقة لا يوجد تفسير طبي لذلك . وإن تحسن هؤلاء المرضى لايمكن أن نفسره إلا بوجود قوة فوق طبيعيةSURNATURELLE، أو إلى نوع من الطاقة لا يمكن معرفة طبيعته حاليا .

التعليق: كما ترون – زملائي – فإنهم يحومون حول الحمى، ولا يمنعهم من التصريح باسم الله إلا هروبا من الاعتراف بحقيقة يهمهم تجاهلها . ونحن بفضل من الله نعيش هذه الأحاسيس التي يقف أمامها العلماء مذهولين لأنها فطرة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الدعاء بظهر الغيب من أساسيات ديننا والناس اعتادت أن توصي بعضها بالدعاء، فهو أدعى للإجابة ولاينقص ذلك من أجور الداعي شيئاً .

ثانياً: علم النفس العصبي المناعي: وهو فرع جديد من الطب يدرس العلاقة بين النفس والجسم، والوسيط المهم في هذه العلاقة هو الحال المناعية للجسم.

إن السيطرة على الشدة STRESS وتأثيراتها النفسية يحسن الكثير من مناعة الجسم.

وقد بحث العلماء في هذا الفرع أيضا موضوع الدعاء في ظهر الغيب وتأثيراته، وقالوا إن هذا الأمر يثبت أن البشر مترابطون مع بعضهم، ومسؤولون عن بعضهم أكثر مما نعتقد (ما رأيكم بوصف الحديث الشريف للعلاقة بين المؤمنين بأنها كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

ويتساءل العلماء عن مصدر هذه العلاقة المعنوية بين بني البشر: أهي الله، أم الضمير، أم مشاعر الحب، أم علاقات الكترونية، أم هي الطاقة، أم مجموع

ذلك؟؟؟

وحيدات النوى والتي تتهم في إحداث اضطراب في الصفيحات الدموية مما يؤدي إلى اشتداد الاضطرابات الأكليلية . وكانت النتائج عكس ذلك عند أصحاب النفس المرتاحة .

o دراسة على ?4?شخصا مصابين بمرض الايدز، وقد لوحظ أن الأشخاص الذين خضعوا لجلسات جماعية من الدعم النفسي والروحي كانوا أكثر استقرارا من المجموعات الأخرى .

o دراسة على عدد كبير من الطلاب خلال فترات الامتحانات . وقد لوحظ أن الطلاب الذين يتمتعون بقدرة على الاسترخاء والسمو الروحي هم أقل تعرضا من غيرهم لانخفاض المناعة الذي يحدث في هذه الأوقات .

ماهي تأثيرات الشدة في الجسم ؟

إن التأثير الأساس للشدة يأتي عن طريق التدخل في إفراز عدة مواد (هرمونات، بروتينات، وسائط كيميائية) مما يؤثر على عدد كبير من وظائف الجسم .

(494/231)

مثال: إن الشدة والتفكير السلبي يحرضان على إفراز CYTOKINES وهي بروتينات تفرز من الكريات البيض وتكون مسؤولة عن تنظيم الارتكاس المناعي واتصالات الخلايا مع بعضها .

فإذا كانت الشدة حادة أو مزمنة يحدث مبالغة في إفراز هذه البروتينات مما يؤدي إلى تضخم التفاعل الالتهابي الأمر الذي يهيئ لعدد كبير من الأمراض(قلبية وعائية، ترقق العظام، التهاب مفاصل، سكري من النموذج 2، سرطانات، مرض الزهايمر، ضعف المناعة عند المسنين، أمراض اللثة، آفات استحالية)

الدراسات الحديثة بينت أن التربية الروحية وتمارين الاسترخاء لها تأثيرات إيجابية على النظام المناعي، لأن الأفكار الإيجابية والمعتقدات الدينية تؤثر في النظام الغدي (الدرق وجاراتها ، الغدة النخامية، الكظر) الذي يقدم للجسم عدة هرمونات أساسية،مما يجعله يتدخل في تنظيم عدة وظائف أساسية: حرارة الجسم،الجوع والعطش،النوم، النشاط الجنسي، المشاعر . . . . .

إن الهرمونات تلعب دور الوسيط بين الجهازين العصبي المركزي والمناعي .

ماهي الوسيلة التي يجب أن نلجأ إليها للتخفيف من تأثيرات الشدة النفسية ؟

الغربيون– وحسب معتقداتهم– يقترحون عليك نماذج مختلفة من التمارين (يوغا ،أساليب معينة في الاسترخاء ،تمارين من نوع تاجي كوان، . . . . .) .

أما المؤمن الذي يتقن فن الاتصال مع الله فإنه- ودون أي شك- يصل إلى حال من الطمأنينة والشعور الداخلي بالسكينة أمام أية شدة تواجهه، وبشكل أقوى وأدوم من الطرق السابقة، لأنه يسلك الطريق الذي يناسب الفطرة .

أما غير المؤمنين بالله فإنهم مضطرون للتسول هنا وهناك، وفي تراث الشعوب الآسيوية خاصة للوصول إلى شعور مسكن يريحهم قليلا، لتعودهم آلام الاغتراب عن الفطرة من جديد .

ثالثاً: الاسترخاء: هناك مجموعة من الدراسات بينت أن الصلاة تعطي شعورا بالاسترخاء مما ينبه الوظائف العصبية، والغدية،والمناعية،والقلبية الوعائية .

(495/231)

الطبيب HERBERT BENSON من جامعة HARVARD أكد أن تكرار حركات، أصوات، كلمات أو جمل، يؤدي إلى مجموعة من الارتكاسات الاستقلابية والانفعالية (تنبيه بعض المناطق من الدماغ، تباطؤ في النظم القلبي، انخفاض في التوتر الشرياني، هدوء عام، . . . . .) وقد سمى هذه الارتكاسات (جواب الاسترخاء) وذلك بالمقابل ل (جواب الشدة)

الذي يتميز ب : تسرع في القلب، زيادة في الأدرينالين، زيادة في التوتر العضلي . . . . . .

. . . . . .

وهذا – حسب رأيه– ما يشرح فائدة الصلاة للصحة .

إن جواب الاسترخاء يعمل على إعادة الجسم إلى حالته الاستقلابية الطبيعية بعد جهد بدني أو نفسي . إنها الحالة التي يجب أن يعود إليها الجسم لتتوفر له الوقاية من المعاناة المزمنة، وما يمكن أن تحمله من أمراض جسمية ونفسية .

هناك عدة طرق للاسترخاء ،وكلها تحاول إعادة الجسم إلى حال قريبة من الطبيعية . وقد لحظ الباحثون أن الكثير من الممارسات الدينية توصل ممارسيها إلى حال الاسترخاء المطلوبة .

ولاشك أن لقراءة القرآن ولمجالس الذكر وللدعاء وللسجود بين يدي الله تأثير واضح في الوصول إلى جواب الاسترخاء المطلوب .

رابعاً : دراسة في مجلة Archives of internal medicine ب De l' American medical association سنة 2001

النقاط الرئيسية في هذه الدراسة:

o يجب أن يعترف الطب بوجود قوة تقف وراء هذا الكون عندما نجري أبحاثا علمية على الصلاة .

o هذه القوة التي لايمكن إدراكها يجب أن لاننشغل بإجراء دراسات عليها ، لذا يجب على العلم أن ينسحب من محاولة إجراء أبحاث على هذه القوة العظيمة .

o يجب على العلم والطب أن يعترفا بأهمية الدين والتألق الروحي على الحياة الصحية، وإن كانت الوسائل العلمية تجد صعوبة في دراسة أمثال هذه الأمور .

خامساً : الدعاء والخشوع: من النقاط الهامة في هذا الموضوع:

* عدد من الباحثين ومنهم PLACIDE GABOURY يؤكدون أنك حتى

تنتعش روحيا يفضل أن لايكون لك هدف محدد من دعائك . وقصده أن الدعاء المنعش للروح

هو ذاك الذي يخرج من قلبك بدافع الحب لله دون أن يكون بسبب حاجة طارئة ألزمتك رفع يديك إلى السماء .

طبعا نحن في ديننا يعتبر الدعاء وسيلة للعبادة بشكل أساسي، أي أننا نرفع أيدينا إلى السماء تذللا لله وشكرا على نعمه وطلبا لرحمته . فالدعاء هو بحد ذاته عبادة مجردة لأنه السبيل الأرقى لإبقاء خط الاتصال مع السماء مفتوحا .

المؤمن يرفع يديه إلى السماء في كل آن وليس فقط في أوقات الشدائد والأزمات، وقد قالت حكمة عطائية" لايكن طلبك تسببا إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه .

وليكن طلبك لإظهار العبودية وقياما بحق الربوبية . "

وقال أبو الحسن الشاذلي رحمه الله" لايكن حظك من الدعاء الفرح بقضاء حاجتك دون الفرح بمناجاة مولاك فتكون من المحجوبين"

* الخشوع والتألق الروحي نصل إليه عن طريق التحرر من الأفكار المؤذية والمحدثة للشدة

.

لاشك أن التفكير عملية أساسية للمسير في هذه الحياة ومتابعة شؤونها ، ولكنه يصبح أحيانا عملية إلحاحية تسيطر علينا سواءً أكان ذلك في محله أم لا .

هذه الأفكار الملحة تمنعنا من الاسترخاء ، وقد تحدث ارتكاسات سلبية في مشاعرنا (ذكريات قديمة سيئة، توقع لمصائب في المستقبل، أفكار تشاؤمية، . . .) الأمر الذي يحدث حالا من الشدة الداخلية ذات التأثيرات السلبية النفسية والجسمية .

* وللوصول إلى الخشوع إليك بعض النصائح التي يقدمها لك أصحاب الأبحاث:

أ تدرب أن تركز انتباهك بشكل أن تمنع الأفكار من السيطرة عليك . ركز على شيئ مهم يمنعك من ملاحقة الأفكار المختلفة، ومن المقترحات لذلك:

- صوت: كلمة مقدسة أو مقطع أو جملة لها تأثير إيجابي . حاول أن ترددها ذهنيا أو

همسا أوبصوت عال .

(مارأيك مثلا بترديد " سبحان الله" أو " الحمد لله " . . .)

– صورة معينة تثير انطباعا جيدا لديك،

(شروق الشمس أو غروبها ، غيوم تركض في السماء)

– صورة ذهنية إيجابية .

(497/231)

– ولاتنس التنفس بهدوء وعمق .

خلال هذه الجلسات اجعل الأفكار تسير عبر رأسك وتنطلق كالغيوم أو قطعان الخيل، ولا تسمح لها بالاستقرار .

ب هناك من الباحثين من ينصحك اتخاذ وضعيات معينة تحافظ عليها خلال تمارين الاسترخاء . فما رأيكم بوضعية الدعاء أو وضعية السجود .

ج الجميع يؤكدون ضرورة المثابرة على هذه الجلسات الروحية للوصول إلى الفوائد في حدها الأقصى .

إن الدعاء والخشوع والتربية الروحية تساعد في مجالين:

?-فهي معالجة جيدة في : هجمات الهلع، القلق، الصدف،ادمان المخدرات،القرحات الهضمية،التهاب الكولون، سوء وظيفة الغدة التيمية، الآلام المزمنة .

?-معالجة مساعدة في : ارتفاع التوتر الشرياني، الوقاية من تصلب الشرايين، الوقاية من الهجمات القلبية، التهاب المفاصل، الآلام العضلية، السرطانات، الأرق، الشقيقة .

وقد لوحظت تأثيرات ممتازة عند الأطفال في القلق وفرط النشاط .

* وكذلك يؤكد الباحثون على أهمية الجلسات الجماعية في تقوية العوامل الروحية والنفسية . ونحن لن نتطرق إلى الطرق المقترحة للوصول إلى

ذلك لأننا لن نخوض في مبادئ الهندوسية والبوذية وتعاليم اليوغا وغيرها ، طالما لدينا نظام إلهي يعلم السر وأخفى، وهو النظام الوحيد المثالي - بالنسبة للمؤمنين- لتأمين الاسترخاء والراحة النفسية والاستقرار المناعي والغدي إن أحسن تطبيقه .

ولاننسى كم اهتم ديننا بالجلسات الجماعية للذكر والصلاة(صلوات الجماعة، صلاة الجمعة، الطواف، . . . . . .)

سادساً : علم ANTHROPOSOPHIQUE والاسم مشتق من مقطعين من أصل يوناني إنساني ANTHROPOS الحكمة SOPHIA وهو علم يهتم بدراسة الإنسان ببعديه المادي والروحي، وهو اختصاص طبي حديث .

هؤلاء الاختصاصيون لاينظرون إلى المريض كجسد فقط، بل يهتمون بأبعاده الأخرى:

الانفعالات،المشاعر، الروح،الطباع،السوابق الشخصية والعائلية،الخواص الجسمية، التربية،الوسط، العقائد، . . . . . ولاشك أن الدين الذي يهتم بصحة الجسد والروح والنفس، والذي يتعامل مع الإنسان بعنصريه الروحي والمادي، قد أوجد الكثير من الحلول لمشاكل الإنسان بأشكالها المختلفة.

فالدين هو قانون الخالق لعيش رغيد وبناء لمن أراد الاتباع.

هذا غيض من فيض من الدراسات العلمية في شؤون الصلاة والدعاء والتربية الروحية.

وكان دوري مقتصرا في هذا البحث على نقل المعلومات والتعليق عليها من وقت لآخر.

أرجو أن أكون قد وفقت في إيصال الفكرة وأترك لكم التدبر والتفكر. فالتامل الذي يدعو إليه الكثيرون هو فرض في ديننا الذي يدعو إلى السير في الأرض والتفكر في مخلوقات الله، وقد قال عز من قائل(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) صدق الله العظيم.

المقالات في معظمها مأخوذة عن موقع

www.passeportsante.net/Fr/Accueil/Accueil/Accueil.aspx

يمكن إرسال تعليقاتكم على المقال على الإيميل التالي:

ssaka@scs-net.org

0-هل لهذا الكون من إله ؟

الدكتور الصيدلاني أحمد زهيراتي

دكتور أخصائي في الكيمياء الحيوية السريرية

هل الكون أزلي ؟أم يوجد خالق لهذا الكون ؟وإذا كان للكون خالق فما هي صفاته ؟

هل يوجد تعارض بين الدين و العلم الحديث أم أن العلم الحديث جاء ليؤكد ما في الدين ؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة لابد أن نتطرق لواحد من أهم العلوم التطبيقية ألا وهو علم الترموديناميك العلم الذي يدرس الظواهر الفيزيائية و الكيميائية و التي تعد مبادئه أساس لبقية العلوم إذ كل الظواهر في الكون هي إما فيزيائية أو كيميائية .

القانون الأول في الترموديناميك: THE FIRST LAW OF THERMODYNAMIC:

الطاقة و قانون حفظ الطاقة: ENERGY AND THE LAW OF CONSERVATION:

الكون كما هو معروف مؤلف من أجسام مادية متحركة و بقصد بالحركة هنا أشكالها من حركة الكواكب و الطائرات إلى حركة جزيئات المادة و الإلكترونات و الجسيمات الأولية الأخرى المتشكلة في نواة الذرة حركات انتقالية أو اهتزازية أو دورانية . . . . . إلخ.

الطاقة لا تخلق من العدم و لا تفنى بل تتحول من شكل إلى أخر، كما أن كتلة المادة تعتبر جزء من أنواع الطاقة يمكن أن تتحول إلى أشكال الطاقة الأخرى (حرارية_ ضوئية _ ميكانيكية . . . . . إلخ)

كما يحدث في التفاعلات النووية حيث يتحول جزء من كتلة المادة إلى طاقة .

العمليات التلقائية وغير التلقائية: SPONTANEOUS AND NONSPONTANEOUS PROCESSES:

القانون الأول في الترموديناميك وهو قانون حفظ الطاقة عاجز عن تفسير كثير من الأمور الحيوية فهو لا يستطيع مثلا تأكيد إمكانية حصول عملية ما أو نفيها أو تحديد اتجاهها الذي يجب أن تسير فيه .

الجملة: يمكن اعتبار أي شئ و مجموعة أشياء جملة فمثلا جزيئات الهواء في الغرفة تعد جملة و الكرسي جملة و الطاولة جملة ويمكن اعتبار الكرة الأرضية كلها جملة أو الكون

بأكمله جملة .

الجملة المعزولة (ISOLATED SYSTEM) :هي الجملة التي لا تتبادل المادة والطاقة مع الوسط المحيط .

العملية التلقائية: هي العمليات التي تتم دون تأثير خارجي على الجملة .

مثال:(انتقال الحرارة من الجسم الساخن إلى أخر بارد _ أو تحول العمل إلى حرارة بالاحتكاك _ أو امتزاج غازين ببعضهما _ أو انفجار غاز قابل للاحتراق . . . . . .) .

العملية غير التلقائية: هي العمليات التي تتم بتأثير خارجي على الجملة .

مثال: 1)انتقال الحرارة من جسم بارد إلى أخر ساخن كالبراد و الفريزر الذي يتم فيه نقل الحرارة من داخل البراد (الجزء البارد)إلى خارج البراد (الجزء الساخن) فهذه العملية لا تتم تلقائيا بل يلزمها مؤثر خارجي (طاقة كهربائية) .

2)فصل غازين عن بعضهما البعض فهو لا يتم تلقائيا لا بد من تطبيق طاقة كالضغط .

(500/231)

3)انتقال الماء من مستوى منخفض إلى أخر مرتفع يحتاج إلى طاقة كالضخ بواسطة المضخة .

الأنتروبية :ENTROPY:

وهو مقدار يعبر عن عشوائية الجملة، فكلما ازدادت العشوائية ازدادت الأنتروبية .

مثال: 1)عند امتزاج غازين تزداد عشوائية حركة الغازين و بالتالي تزداد الأنتروبية .

2)جزيئات نقطة الحبر عند انتشارها في الماء تصبح حرة الحركة أكثر و بالتالي تزداد الأنتروبية .

-إن أنتروبية الجملة المعزولة ثابت و تزداد في العمليات التلقائية عند حصول عملية ما تلقائيا في جملة معزولة تزداد الأنتروبية تستمر هذه الزيادة حتى تصل الأنتروبية إلى قيمتها الأعظمية الممكنة وعندما تتوقف قيمة الأنتروبية عن الازدياد تستقر الجملة وتصبح في حالة توازن، أي أن في حالة التوازن تكون الأنتروبية أعظم ما يمكن فمثلا نقطة الحبر تنتشر تلقائيا داخل الماء وهذا يؤدي إلى زيادة الأنتروبية للجملة وعندما تنتشر نقطة الحبر في كامل الماء تصل الأنتروبية إلى قيمتها العظمى ويحصل توازن للجملة،إذ لا يمكن لنقطة الحبر أن تنتشر أكثر من ذلك .

و كذلك عند انتقال الحرارة من الجسم الساخن إلى الجسم البارد يستمر انتقال الحرارة من الجسم الساخن إلى الجسم البارد مترافقاً مع ازدياد الأنتروبية حتى يصبح للجسمين نفس

درجة الحرارة ويحصل توازن للجملة وتكون الأنتروبية أعظم ما يمكن للجملة .

إن " مبدأ الأنتروبي " أي العشوائية والذي يقول" بأن جميع الأنظمة في الكون إذا تركت للظروف الطبيعية فإنها مع الزمن سوف تدخل في حالة من الفوضى وعدم الانتظام" الصور فوق تبين بعض مظاهر الإنتروبي

إن وجود الكون إما أن يكون أزليا بلا موجد أو أن يكون مخلوقا من قبل خالق،ولا يمكن أن يكون أوجد فجأة بلا خالق ،أي انتقل من العدم إلى الوجود دون تأثير خارجي لأن هذا مخالف لمبدأ الترموديناميك الأول(إن الطاقة لا تفنى و لا تخلق من العدم) .

(501/231)

لنفرض جدلا أن الكون أزلي ولا يؤثر عليه أي قوى خارجية فهو في هذه الحالة يعتبر جملة معزولة وجميع العمليات والأفعال الكائنة على هذا الكون تكون تلقائية وبالتالي تؤدي إلى ازدياد الأنتروبية حتى وصولها إلى حدها الأعظم وحصول حالة توازن وبالتالي انعدام كافة الأفعال التلقائية وحصول سكون أنتروبي .

فلو كان الكون أزليا وهو موجود منذ اللانهاية لكنا الآن في سكون أنتروبي وهذا مخالف

للواقع فلا بد لهذا الكون من خالق هو الله وهذا الخالق يختلف بصفاته عن صفات هذا الكون إذ لو أنه يخضع لقوانين هذا الكون لكان هو بدوره وصل إلى السكون الأنتروبي و لانعدمت كل الحوادث التلقائية .

فسبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع العليم وصفات الخالق مختلفة عن صفات الكون المخلوق

فالله القوي القادر الذي يمتلك الطاقات اللامحدودة و اللامتناهية، القادر على الخلق من العدم سبحانه

لا إله إلا هو .

فهو الأول ليس قبله شئ وقدرته لا تنتهي ولا تفنى ،وهو الآخر ليس بعده شئ سبحان الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكون له كفواً أحد .

و لا يجوز لنا أن ننسب الألوهية سوى لله فالله يرُدُ على من ينسب الألوهية لعيسى عليه السلام بقوله:

"مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ" .

أي أن طاقة عيسى عليه السلام ليست ذاتية ولو عزلناه عن الوسط المحيط لوصل إلى السكون الأنتروبي لذلك كان يأكل الطعام ليستمد طاقته منه شأنه في ذلك شأن باقي البشر

فهو لا يصلح لأن يكون إله لأن الإله طاقته ذاتية نابعة منه لا تأتيه من غيره وطاقته لا تفنى أبداً .

اللهم هديت عقلي فاهدِ قلبي واهدِ جوارحي آمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(502/231)

الدكتور الصيدلاني أحمد زهيراتي

دكتور أخصائي في الكيمياء الحيوية السريرية

ahmadzherati@hotmail.com

روابط ذات صلة:

? أسرار الخَلْق

? قانون الطاقة المتاحة وحتمية الخلق

? نظام العناصر الدورية وحتمية الخالق

0-الضفادع والزلزال

إنه زلزال الصين ! زلزال دمر مناطق شاسعة من الأرض وأباد مئة ألف إنسان وشرد مئات الآلاف، إنه إنذار من الله ونوع من أنواع العذاب الأدنى الذي قال الله فيه: (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [السجدة: 21] . طبعاً هذا الإنذار لا يخص أهل الصين فقط بل هو إنذار للناس جميعاً ليرجعوا إلى خالقهم ورازقهم سبحانه وتعالى، ويتوبوا عن معاصيهم وذنوبهم .

ولكن الظاهرة الغريبة التي حيرت العلماء هي نزوح عدد هائل من الضفادع قبل الزلزال بيومين وتجمعهم في مكان آمن ! وقد لاحظ سكان المدينة المنكوبة هذه الظاهرة ولم يعيروا لها أي انتباه، ولكن تبين فيما بعد أن الله تعالى زوّد هذه المخلوقات بأجهزة إنذار تتحسس الترددات المنخفضة جداً التي تصدر عن الأرض قبل الزلزال ولا يسمعها البشر، إنما تسمعها الضفادع وتأخذ حذرها وتبتعد عن مكان الخطر ! !

إن هذه الظاهرة لا يمكن أن يمر عليها المؤمن دون أن يتذكر قدرة الله تعالى وأنه لم يخلق أي كائن حي عبثاً ، بل كل مخلوق له عمل ومهمة وهدف بل ويمكن الاستفادة منه، وبالفعل يعكف العلماء اليوم في مختبراتهم لاستكشاف سر هذه الضفادع، ويحاولون الاستفادة منها في التنبؤ بالزلازل والكوارث .

لقد عرف العلماء أن بعض الحيوانات تتحسس الترددات الصوتية المنخفضة التي تطلقها الأرض كمؤشر على اقتراب الزلزال، ولكن أجهزة العلماء وعلى الرغم من التطور التقني الكبير تبقى عاجزة عن تحليل هذه الترددات والتنبؤ بالزلزال . ولذلك فإن هذه المخلوقات مسخرة للإنسان أيضاً ، ليتعلم منها ، وهنا يتجلى قول الحق تبارك وتعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الجاثية: 13] . ويقول العلماء إن معظم الحيوانات مثل الطيور والفيلة والحيتان والأسماك وغيرها لديها القدرة على التنبؤ بالزلازل والأعاصير والكوارث الطبيعية !

صغار الضفادع تهرع وتتجمع في مناطق آمنة بعيداً عن مكان الزلزال الذي ضرب الإقليم بيومين، إن هذه الضفادع التي نحسبها لا تعقل زودها الله بقدرة على تمييز الترددات المنخفضة الخاصة بالزلازل، هذه الترددات لا يمكن للبشر أن يحسوا بها ، ولكن الضفادع تميزها ، فتأملوا قدرة الله في هذه المخلوقات الضعيفة !

فهل نتفكر وندرك رحمة الله ونعمته علينا ، ونسارع لفعل الخيرات حتى ينجينا الله من هذه

الكوارث التي تعصف بالأرض اليوم؟ إذاً علينا أن نجتهد بالدعاء لأن الله تعالى يقول: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف: 55-56].

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

0-بناء الجسور عند النمل مثال رائع للتضحية والتعاون

(504/231)

كلما حاول المشككون الاستهزاء بهذا القرآن وقدموا مثالاً على ذلك، سخر الله لهذا القرآن من يكشف معجزاته وعجائبه التي ترد على الملحدين قولهم، وقد استهزأ الكفار ومنذ نزول القرآن بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) يذكر في كتابه الحشرات ومنها النمل! وسبحان الله! يأتي اليوم بعض المشككين ليرددوا نفس الكلام ويقولون إن القرآن مليء بالأساطير ويضربون مثالاً على ذلك أن محمداً يسمي السور بأسماء الحشرات. ولكن الله

تعالى يقول: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) [النساء: 141]. ولذلك فإن الذي يتأمل اكتشافات العلماء يلاحظ أنهم في حيرة من أمرهم، بل يقفون مندهشين أمام هذا المخلوق الصغير ألا وهو النمل.

يقول العلماء إن وزن دماغ النملة هو جزء من مئة من الغرام، وإن دماغ الحوت الكبير أكبر بمئة ألف مرة من دماغ النملة، وعلى الرغم من ذلك فإن النملة تقوم بمهام وأعمال ذكية تتفوق بها على هذا الحوت! وهذا ما يثير تعجب العلماء وحيرتهم، ولكنهم لو فكروا قليلاً واطلعوا على كتاب الله تعالى، لوجدوا أن الله هو من خلق هذا النمل وهو من علَّمه وهداه إلى الطريق الصحيح، وهو القائل عن نفسه: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) [الأنعام: 101-103].

(505/231)

في كل يوم يصرح العلماء بأن عالم الحشرات وبخاصة النمل هو من الأمور المعقدة جداً، ومن غير المنطقي أن تكون النملة قد طورت نفسها بنفسها، لأن دماغ النملة المحدود لا يكفي

لمعالجة هذا الكم الهائل من المعلومات التي تستخدمه النملة أثناء أداء مهامها . نرى في الصورة رأس نملة وبداخله الدماغ الصغير لها والذي يحوي بحدود 300000 خلية عصبية، إن دماغ الإنسان يحوي أكثر من تريليون خلية أي أكثر من خلايا دماغ النملة بمئات الآلاف من المرات، وعلى الرغم من هذا الدماغ الصغير نجده يتمكن من معالجة كل المعلومات التي تحتاجها النملة، بشكل يدل على وجود برنامج مسبق في هذا الدماغ .

راقب العلماء عالم النمل طويلاً وظنوا في البداية أنه عالم محدود لا يفكر ولا يعقل ولا يتكلم ! ولكن تبين أخيراً أن النمل هي أمة مثلنا تماماً ، له قوانينه وحياته وذكاؤه، وتبين أن هندسة البناء عند النمل أقدم بكثير من البشر ، حيث يقوم النمل منذ ملايين السنين ببناء المساكن وحديثاً كشف العلماء طريقة بناء الجسور عند النمل .

فقد جاء في دراسة جديدة (حسب موقع رويترز) أن الطريقة التي يعتمد عليها النمل لعبور الحُفر هي بناء الجسور بالأجساد ! فقد ذكر باحثان بريطانيان أن أسراب النمل حين يعتريها السأم من الحفر في مسارها تضحي بالبعض منها في سبيل الباقين حيث يعمد بعضها إلى التمدد داخل النقاط غير المستوية لصنع مسار أكثر انسيابية لباقي السرب .

وتوصل الباحثان إلى أن نوعاً من أنواع النمل يعيش في أمريكا الوسطى والجنوبية يختار أفراداً من السرب يناسب حجم أجسادها حجم الحفرة المراد سدها . وذكرا في تقرير نشرته مجلة السلوك الحيواني أنه ربما تكاتف عدد من أعضاء السرب لملء الحفرة الأكبر !

تأملوا معي هذا الجسر الحي وكيف قامت بعض النملات بالتضحية في سبيل الآخرين، ويقول العلماء إن النملات التي تصنع من أجسادها هذا الجسر تتألم كثيراً أثناء مرور النمل فوقها، ولكنها تصبر وتتحمل وتبقى متماسكة كالجسر الحقيقي حتى تمر آخر نملة!

ودرس سكوت باول ونايجل فرانكس من جامعة بريستول نوعاً من النمل يسمى ايسيتون بيرتشيلي يسير عبر غابات أمريكا الوسطى والجنوبية في أسراب تضم ما يصل الى 200 ألف نملة!

ودائما ما يبقى السرب على صلة بالمستعمرة من خلال طابور طويل من النمل. لكن هذا الطابور الطويل من النمل الحي قد يضطرب بشدة حين يمر أفراده فوق أوراق الشجر والأغصان المتناثرة على أرض الغابات.

نرى في هذه الصورة كيف يتمسك النمل بعضه ببعض ليبني جسراً متيناً، هذا الجسر يستخدم لعبور النملات عليه من ضفة لأخرى، ويؤكد العلماء الذين درسوا هذه الظاهرة أن النمل يختار بعناية فائقة الأحجام المناسبة للنملات التي ستضحي بنفسها وتصنع هذا

الجسر !

يقوم عدد قليل من النمل بملء الفجوات ليصنع مساراً سلساً . ويقول العلماء : إن النمل له طريقته التي يعتمد فيها على نفسه لإصلاح الطرق، وأضاف باول: عندما يعبر السرب تتسلق النملات التي ملأت الفجوات إلى خارج تلك الحفر وتتبع زملاءها عائدة إلى المستعمرة . بصفة عامة يظهر بحثنا أن سلوكاً بسيطاً تؤديه بكثير من الإتقان قلة من شغالات النمل يمكن أن يحسن من أداء الأغلبية بما يؤدي إلى فائدة تعم المستعمرة ككل .

يقول الباحث James Traniello بعد أبحاث أجراها في جامعة بوسطن حول علم أعصاب النمل: إن هذا السلوك المعقد للنمل مبرمج، فكل نملة تعرف مسبقاً ما يجب عليها القيام به، فالنملة الصغيرة لها مهام محدودة تناسب حجمها ، ولكن النملة الشابة والقوية تقوم بمهام الدفاع عن المستعمرة وجمع الطعام وغير ذلك من المهام الصعبة، أما النملة كبيرة السن فتُعزل وتحظى بالرعاية والاهتمام !

(507/231)

لقد أجرى فرانكس وباول تجارب في المختبر لإظهار هذا السلوك . وقال فرانكس وضعنا ألواحاً خشبية مليئة بثقوب من أحجام مختلفة في مسارات النمل لنرى كيف ستتوافق

أحجام النمل المختلفة مع أحجام الثقوب المختلفة . في الحقيقة تصرف النمل بصورة رائعة . فقد كان النمل يختار الطريقة الأنسب لبناء الجسر بشكل يحير العلماء ويجعلهم يتساءلون: كيف تعلمت النملة هذه التقنية في البناء ، في حين نجد أن البشر ليبنوا جسراً مماثلاً فإن ذلك يتطلب حسابات هندسية معقدة .

يقول الدكتور Scott Powell عندما يصادف النمل حفرة لا يستطيع عبورها فإنه يختار مجموعة من النملات ذوات الحجم المناسب للحفرة، وتضحي بنفسها وتتحمل أعباء ومشقة بناء الجسر الحي من أجسادها ، لتعبر عليه بقية النملات ! وتقوم النملات بعدة تجارب قبل بناء الجسر حتى تجد أفضل النملات المناسبة من حيث حجمها وقوتها لتحمّل أوزان النمل الذي سيعبر على ظهورها !

ويقول العلماء الذين أجروا هذا البحث إن النمل يضحي بعدد قليل من النملات لبناء الجسر ولكنه يجني فوائد عظيمة في تأمين المرور اللازم لآلاف النملات، وهذا النظام الاجتماعي تقوم به النملة بكل طواعية وسرور، بل إن كل نملة تسارع لتجرب حجمها إذا كان مناسباً لبناء هذا الجسر الحي !

وسبحان الله ! إن هذا التكافل والتراحم موجود في عالم النمل، فكيف بنا نحن البشر ؟ !

لقد صوَّر لنا النبي الأعظم عليه الصلاة والسلام حالة المؤمن عندما أكد أن المؤمنين أشبه

بالبنيان المرصوص في تعاونهم وتضحيتهم، فإذا كان النمل يتعاون ويضحي من أجل معيشته، أليس الأجدر بنا أن نتعاون ونضحي من أجل الله تبارك وتعالى ؟ !

(508/231)

إن هندسة بناء الجسور عند النمل تعتبر تقنية متطورة جداً وبدون تكاليف، فقط بقليل من التضحية والتعاون، والذي يستغربه العلماء هذه الطاقة الكبيرة التي يقدمها النمل أثناء صنعه للجسر الحي، ويعجبون من صبره وبذله لهذا الجهد الكبير والمبرمج، ولذلك يؤكدون أن النملة تتمتع بذكاء عالٍ وحب لأخواتها النملات، وهنا أتوقف قليلاً وأتذكر قول الحبيب الأعظم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) انظروا كيف تطبق النملات قول هذا النبي الأمي عليه الصلاة والسلام، فماذا عنا نحن المؤمنين الذين ندعي محبة هذا النبي الرحيم وأننا نطبق أوامره ؟

وهنا نتذكر دائماً البيان الإلهي الذي أكد أن النمل وغيره من المخلوقات الحية هو أممٌ أمثالنا ، يقول تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) [الأنعام: 38] .

وأخيراً نتمنى من أي ملحد يطلع على هذه الاكتشافات أن يفسر لنا سر عالم النمل ومَن

الذي علَّمه وهداه إلى هذه التقنيات الرائعة، ونقول له الجواب مسبقاً: إنه الله تعالى القائل على لسان نبيه موسى عليه السلام في حواره مع فرعون: (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: 49-50].

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

http://news.bbc.co.uk/1/hi/sci/tech/6692853.stm

http://www.myrmecos.net/antbehavior.html

http://www.physorg.com/news11060.html

http://news.bbc.co.uk/1/hi/technology/4378162.stm

http://www.bu.edu/research/spotlight/magazine/06/adapt/traniello.html

http://www.kk.org/thetechnium/archives/2004/11/brains_of_white.php

0-وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة

الدكتور منصور العبادي

جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية

(509/231)

إن أكبر ما يدحض فرية أن الصدفة هي المسؤولة عن عملية خلق الكائنات الحية من التراب هو وجود كائنات حية تسمع وتبصر وتعقل . إن الذي يخلق كائنات يمكنها أن تسمع لا بد وأن يكون سميعا وكائنات يمكنها أن تبصر لا بد أن يكون بصيرا وكائنات يمكنها أن تعقل لا بد أن يكون عاقلا . فكيف يمكن للصدفة التي لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل أن يخطر في بالها ، إن كان لها بال، أن تصنع كائنات من التراب يمكنها أن تسمع وترى التراب الذي صنعت منه ويفكر بعضها ليس في التراب فحسب بل بما وراء التراب ؟ !

إن في تركيب نظامي السمع والبصر من التعقيد بحيث لا يمكن لهما أن يعملا إلا بتوفر جميع مكوناتها مما يعني أن الصدفة لا يمكن لها أن تصنع أحد أجزاء نظام البصر ثم تبقيه من خلال تخزين طريقة تصنيعه على الشريط الوراثي ومن ثم تنتظر الصدف لتصنع جزءاً آخر وهكذا إلى أن يكتمل تصنيع جميع أجزاء نظام البصر .

إن البشر الذين هم أعقل من على الأرض لا يعرف أكثرهم مما يتكون نظامي السمع والبصر

ولا يعرفون القوانين الفيزيائية التي بنيت على أساسها هذه الأنظمة . ولولا أن البشر قد ولدوا وهم يسمعون ويبصرون ويعقلون لما خطر على بالهم أن هنالك كائنات يمكنها أن تسمع وتبصر وتعقل .

وإذا كان البشر على ما في رؤوسهم من عقول كانوا يجهلون متطلبات بناء هذه الأنظمة وهي موجودة في أجسامهم وأجسام كثير من الحيوانات حولهم فكيف يمكن للصدفة أن تهتدي إلى معرفة مكونات هذا النظام ثم تقوم ببنائه على أكمل وجه لملايين الأنواع من الكائنات الحية ؟ ! وسنشرح في هذه المقالة مكونات نظام الإبصار عند الإنسان ونؤجل شرح نظام السمع وتركيب الدماغ إلى مقالات لاحقة .

مم تتركب العين ؟

تتكون العين البشرية من كرة لحمية مملوءة بسائل هلامي شفاف ويبلغ متوسط قطرها سنتيمترين وخمس السنتيمتر ووزنها ثمانية غرامات فقط .

(510/231)

يتكون جدار كرة العين الذي لا يتجاوز سمكه المليمترين من ثلاث طبقات وهي الصلبة والتي تعطي العين لونها الأبيض والمشيمية وهي شبكة العروق التي تمد العين بالدم اللازم

لتغذيتها والشبكية وهي الغلاف الداخلي الحساس للضوء والذي ترتسم عليه صورة الأجسام.

أما الملتحمة فهي الغشاء الخفيف الذى يغطى الصُلبة (الجزء الأبيض فى العين) ويبطن الجفون من الداخل ووظيفتها ترطيب العين من الداخل بإفراز مواد مخاطية يتم مزجها مع الدموع. ولكي يتم إدخال الضوء إلى غرفة العين ورسم صور الأشياء على الشبكية فقد تم استبدال طبقات جدار العين الثلاث عند مقدمتها بثلاثة مكونات وهي القرنية التي هي امتداد للصلبة ولكنها شفافة للضوء ولها قطر تحدب أصغر من ذلك الذي للصلبة والقزحية والتي هي امتداد للمشيمة وهي التي تعطي العين ألوانها المختلفة كالبني والأزرق والأخضر ويوجد في مركزها فتحة دائرية تسمى الحدقة أو البؤبؤ تسمح للضوء المنكسر من القرنية بالدخول إلى العين. ويتم التحكم بمقدار فتحة البؤبؤ بعضلات موجود في القزحية بعضها دائري وبعضها شعاعي وذلك للحد من شدة الضوء الداخل إلى العين لكي لا يدمر الشبكية ويتراوح قطر الحدقة بين ملليمترين عند الضوء الشديد وثمانية مليمترات عند الضوء الخافت. إن عملية التحكم بفتحة الحدقة تتم بطريقة آلية (أوتوماتيكية) فبمجرد أن تتغير شدة الضوء الساقط على الشبكية يقوم مركز الإبصار في الدماغ بقياس شدته وإرسال إشارات تحكم إلى عضلات القزحية لتحدد مقادر فتحة الحدقة بما يتناسب مع شدة الضوء وتتم هذه العملية بسرعة بالغة حتى لا يتم تدمير الشبكية من الضوء الشديد.

(511/231)

أما العدسة فهي امتداد للشبكية وهي محاطة بسبع عضلات تسمى الجسم الهدبي وهو يتحكم في مقدار تحدب العدسة وذلك لكي تقع الصورة المكونة على الشبكية تماما حيث تكون صورة الأجسام المرئية أوضح ما يكون فهي ترتخي عند رؤية الأجسام البعيدة وتتقلص عند رؤية الأجسام القريبة . ويقوم مركز الإبصار أيضا بالتحكم بطريقة آلية بدرجة تحدب العدسة فبمجرد أن ينظر الشخص إلى مشهد ما فإن الدماغ يقوم على الفور بتحديد درجة التحدب المطلوبة لتظهر صورة المشهد في أوضح أشكالها .

(512/231)

ولكي تحافظ العين على شكلها الكروي وبالأبعاد المطلوبة تم ملئ الفراغ الداخلي الذي يقع خلف العدسة بمادة هلامية شفافة تشبه زلال البيضة يسمى الجسم الهلامي . أما الفراغ الذي يقع أمام العدسة فقد تم ملؤه بمحلول مائي يسمى الخلط المائي وهذا الفراغ مكون من غرفتين الغرفة الأمامية وتقع ما بين القرنية والقزحية والغرفة الخلفية وتقع ما بين عدسة العين

والقزحية . وفى الزاوية بين القرنية والقزحية فى الغرفة الأمامية توجد قناة شليم ووظيفتها تصريف محلول الخلط المائى من الغرفتين وإرساله إلى الجسم إذا ما زاد ضغطه عن حد معين حيث أن ارتفاع ضغط العين عن هذا الحد يؤثر على عمل العين ويسبب ما يسمى بالماء الأزرق أو الجلوكوما . ولكي تعمل العين بالشكل المطلوب لا بد من ضمان شفافية المكونات التي يمر من خلالها الضوء إلى داخل العين وهي القرنية والعدسة والسائل الهلامي الذي يملأ حجرة العين . إن المواد الشفافة للضوء الموجودة في الطبيعة قليلة جدا وهي الزجاج والكوارتز والماس والماء ولكن بما أن جميع أجسام الكائنات الحية تبني من مواد عضوية كان لزاما أن يتم تصنيع مكونات العين الشفافة من مواد عضوية بحيث يتكون معظم سيتوبلازم خلاياها من بروتينات شفافة للضوء . ويلزم لضمان شفافية القرنية والعدسة أن تكون خالية من الأوعية الدموية التي تمد خلاياها بالغذاء والأكسجين ولذلك فقد تم تصميم جدرانها بحيث تحصل على احتياجاتها من الغذاء والأكسجين بشكل مباشر عن طريق الترشيح من الخلط المائى الذى يملأ الغرفة الأمامية والغرفة الخلفية .

(513/231)

وتستقر العين داخل جزء من تجويف الجمجمة يسمى المحجر وهذا المكان يؤمن الحماية للعين من جميع الجهات عدا الجهة الأمامية حيث تقوم الجفون بحماية العين أثناء النوم من خلال إغلاقها وكذلك منع وصول الضوء إلى الشبكية لكي تريحها بعد يوم طويل من العمل المتواصل . كذلك تقوم الجفون بترطيب وتنظيف العين وخاصة القرنية من الغبار الذي يقع عليها وذلك من خلال نشر الدموع فى العين والتى تحتوى على مواد تقتل البكتيريا والفيروسات . وتستجيب الجفون بشكل تلقائي لأى جسم قد يهدد العين مثل تحرك الأشياء بسرعة كبيرة في اتجاهها أو مفاجئتها بضوء ساطع وتكون هذه الاستجابة من خلال إغلاق العين كليا أو جزئيا بالجفن .

أما الرموش فإنها إلى جانب الناحية الجمالية فإنها تقوم بحماية العين من دخول الجسيمات الدقيقة وأما الحاجب وهو الشعر الذى يوجد فوق جفن العين على حافة المحجر العليا فوظيفته تحويل اتجاه المواد السائلة من العرق أو الماء بعيداً عن العين . وتقوم الغدد الدمعية التي تقع فى الجزء العلوى الأمامى لمحجر العين بصب الدموع عبر قنوات دمعية على ملتحمة العين ثم تنتقل الدموع إلى زاوية العين الداخلية لتصل إلى القُنيات الدمعية ثم إلى الكيس الدمعى المسئول عن عدم نزول الدموع دفعة واحدة لتجويف الأنف ثم تنتقل إلى القناة الدمعية الأنفية لتصب الدموع فى تجويف الأنف . ويتم التحكم بحركة كرة العين داخل المحجر باستخدام ستة عضلات قادرة على تحريك العين في المستوى الأفقي إلى اليمين

والشمال وفي المستوى الرأسي إلى الأعلى والأسفل ويتم تحريك عضلات كل من العينين بشكل متزامن بحيث تتحرك إحدى العينين بنفس الاتجاه التي تتحرك به العين الأخرى .

(514/231)

إن من عنده أدنى معرفة في علم البصريات يعلم أنه لكي تقوم العين بوظيفتها على الوجه الأكمل يجب أن يتم تحديد أبعاد ومواصفات مكوناتها بشكل بالغ الدقة وإن خلللا بسيطا في مواصفات أو أبعاد أحد هذه المكونات قد يؤدي إلى فشل عملية الرؤيا . إن المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه عملية رؤية الأشياء يكمن في قدرة العدسة على رسم صورة للأشياء التي يسقط الضوء المنعكس عنها عند بؤرتها . ويوجد في العين البشرية عدستان تعملان على ضمان وقوع الصورة على شبكية العين أولهما القرنية وهي عدسة محدبة ـ مقعرة لها أبعاد ثابتة كما هو مبين في الصورة المبينة أعلاه وهي مسؤولة تقريبا عن ثمانين بالمائة من عملية رسم الصورة على الشبكية . أما العدسة الثانية والتي يطلق عليها اسم العدسة البلورية فهي عدسة محدبة الوجهين ولكن درجة تحدبهما غير ثابتة بل يمكن التحكم بهما من خلال العضلات المحيطة بالعدسة وذلك لكي يتم ضمان وقوع صور الأشياء القريبة والبعيدة بشكل واضح على الشبكية . ويبلغ قطر العدسة تسعة

ملليمترات وسمكها عند منتصفها خمسة مليمترات في حالة الإرتخاء . إن وجود عدسة ثابتة التحدب كالقرنية أمام العدسة الداخلية متغيرة التحدب كان ضروريا لتحقيق هدفين أولهما تصغير حجم العدسة الداخلية وذلك لكي يتم التحكم بدرجة تحدبها بعضلات صغيرة وبالتالي تصغير حجم العين وثانيهما لتركيز الضوء الداخل إلى العين من خلال القرنية لكي يمر من خلال حدقة العين الضيقة الواقعة أمام العدسة الداخلية والتي يمكنها التحكم بكمية الضوء الداخل إلى شبكية العين . وكما هو معروف من معادلات العدسات فإن العدسة لن تقوم بعملها إذا كان معامل إنكسار المادة المحيطة بها يساوي معامل إنكسارها فعدسة القرنية التي يبلغ معامل إنكسارها 1.376 محاطة من الخارج بالهواء بمعامل إنكسار يساوي واحد ومحاطة من الداخل بماء العين بمعامل إنكسار يبلغ 1 .

(515/231)

---

336 مما يعني أن الوجه المحدب الخارجي للقرنية يلعب الدور الأكبر في عملية إنكسار الضوء وذلك للفارق الكبير بين معاملي الإنكسار . ويتجلى مدى علم مصمم هذه العين القائل عن نفسه سبحانه وتعالى "وخلق كل شئ فقدره تقديرا" في طريقة تصميم العدسة الداخلية حيث أنها موجودة في وسط مادة هلامية شفافة ذات معامل إنكسار قيمته

1.336 وهو يزيد قليلا عن معامل إنكسار الماء البالغ 1.333 فكان لابد لكي تعمل العدسة أن يتم رفع معامل إنكسارها إلى 1.406 عند مركزها . وبما أن هذا الفارق بين معاملي الإنكسار لا زال قليلا فقد استخدم سبحانه وتعالى تقنية بديعة لزيادة قوة تكبير العدسة وهي ما يسمى بالعدسة ذات معامل الإنكسار المتدرج Graded Index lens (GRIN)) فكما هو واضح من الصورة فإن معامل إنكسار العدسة عند وسطها يبلغ 1.406 وعند أطرافها 1.386 . ويستخدم البشر اليوم مثل هذه العدسات المتدرجة في كثير من التطبيقات الحديثة مع العلم أن تصنيع مثل هذه العدسات يحتاج إلى معدات بالغة التعقيد . ونشاهد في الصورة كذلك أن نصفي قطر وجهي العدسة البلورية مختلفان في القيمة مما يعطي درجة إضافية من الحرية لضبط مقدار البعد البؤري لها على الرغم من أن تصنيع مثل هذه العدسة غير المتماثلة أصعب بكثير من العدسة المتماثلة . إن من عنده معرفة بأنظمة التصوير يعلم أن تحديد مكان تكون الصورة في نظام تصوير بعدسة واحدة فقط محاطة بالهواء من جانبيها عملية ليست بالسهلة ويزداد الأمر تعقيدا في حالة نظام تصوير بعدستين أو أكثر . أما نظام التصوير في العين فإن فيه من التعقيد ما يصعب حتى على أذكى المختصين من تحديد مكان الصورة الأمثل فهذا النظام كما شرحنا سابقا مكون من عدستين أحدهما ثابتة بمعامل إنكسار 1.376 وبوجهين

الخارجي منها محدب بنصف قطر يبلغ 7.259 ملم ومحاط بالهواء والداخلي مقعر بنصف قطر 5.585 ملم ومحاطة بماء العين بمعامل إنكسار 1.336 .

(516/231)

أما العدسة الثانية فتقع على بعد 2.794 ملم من العدسة الأولى وهي عدسة محدبة الوجهين بدرجة تحدب متغيرة حيث يبلغ نصف قطر الوجه الأمامي عند الإرتخاء 8.672 ملم والخلفي 6.328 ملم وهما محاطين بماء العين والجسم الهلامي بمعامل إنكسار 1.336 إضافة إلى ذلك فإن معامل إنكسار هذه العدسة متدرج يبلغ عند منتصفها 1.406 وعند أطرافها 1.386 .

لقد حدد الله سبحانه وتعالى موقع الشبكية الأمثل على بعد أربعة وعشرين ملليمتر من القرنية وهنا أناشد المختصين في علم العدسات أن يقوموا بحساب هذا البعد ونشر نتائج حساباتهم إن أمكن . والأعجب من كل هذا أن أبعاد مكونات هذه العين رغم أنها مصنوعة من الماء وقليل من المواد العضوية تبقى ثابتة لا تتغير عند كثير من الناس إلى ما يقرب من قرن من الزمن والعين هي العضو الوحيد من بين أعضاء جسم الإنسان التي لا

يختلف حجمها من إنسان إلى إنسان إلا بقدر بالغ الضآلة ولا يزيد حجمها مع زيادة حجم الجسم .

(517/231)

إن قيام عدسات العين برسم صورة لما حولها من أجسام على جدار العين الداخلي لا يعني شيئًا للكائن الحي إذا لم يتم إرسال هذه الصور إلى الدماغ لكي يدركها . إن أول خطوة من خطوات الإدراك هو تحويل شدة الضوء وكذلك لونه لكل نقطة من نقاط الصورة المكونة إلى إشارات كهربائية يتم نقلها بطريقة ما إلى الدماغ . إن الجهاز الذي يقوم بعملية التحويل هذه هي شبكية العين التي تغطي ما مساحته أحد عشر سنتيمتر مربع أو ألف ومائة مليمتر مربع من الجدار الداخلي للعين في الجزء الخلفي منها والمقابل للعدسة أي ما يعادل 72 % من مساحة جدار العين الداخلي . وتتكون الشبكية من نوعين من الخلايا الحساسة للضوء وهي العصيات التي تستجيب لشدة الضوء فقط بغض النظر عن لونه وهي شديدة الحساسية للضوء الخافت وكذلك لحركة الأجسام ويبلغ عددها مائة وثلاثون مليون خلية تقريبا . أما النوع الثاني فهي المخاريط والتي تستجيب للضوء الشديد أي أنها منخفضة الحساسية ولكنها في المقابل قادرة على تمييز الألوان حيث يوجد منها ثلاثة أنواع تستجيب

للألوان الرئيسية الثلاث وهي الأحمر والأخضر والأزرق ويبلغ عددها سبعة ملايين خلية تقريبا موزعة بنسبة 64 ٪ للحمراء و 32٪ للخضراء و 4٪ للزرقاء . وتتوزع الخلايا الضوئية بكثافة غير منتظمة على سطح الشبكية حيث تصل كثافتها إلى ما يقرب من مائة وستون ألف في المليمتر المربع الواحد عند مركزها ثم تقل تدريجيا عند الأطراف . وعلى الرغم من أن عدد المخاريط أقل بكثير من العصي إلا أن معظمها موجود في المقلة التي لا يتجاوز قطرها ثلاثة مليمترات وفي مركز المقلة توجد منطقة لا يتجاوز قطرها ملليمتر ونصف تسمى النقرة فيها أكبر كثافة للمخاريط والتي تم تصغير قطرها بالنسبة للمخاريط الأخرى وذلك للحصول على أكبر كثافة ممكنة وفي مركز النقرة توجد منطقة تخلو تماما من العصي .

(518/231)

إن منطقة المقلة تقع تماما أمام العدسة البلورية وهي المسؤولة عن الرؤية المركزية فجميع الأجسام التي تقع ضمن زاوية رؤيا تبلغ سبعة عشر درجة ترتسم صورها على هذه المنطقة التي لا يتجاوز قطرها الثلاث مليمترات . فعلى سبيل المثال فإن صورة الشمس أو القمر ليلة البدر تحتل مساحة على النقرة لا يتجاوز قطرها السدس ملليمتر ولهذا السبب

فإنه يلزم تحريك العين بإتجاه الشئ المراد رؤيته للحصول على صورة بأكبر قدر ممن من الوضوح. إن المسافة الفاصلة بين مخروطين متجاورين في النقرة لا يتجاوز ميكرومتر ونصف وهذا الرقم لا يزيد كثيرا عن طول موجة الضوء الأحمر البالغ سبعة أعشار الميكرومتر علما بأنه لايمكن بأي حال من الأحوال تمييز الأبعاد التي يقل طولها عن طول الموجة المستخدمة لرؤيتها . ولتوضيح ضخامة هذا العدد من الخلايا الحساسة للضوء نذكر أن عدد الحبيبات الفوسفورية بألوانها الثلاث الموجودة على شاشات التلفزيونات الملونة لا يتجاوز المليون حبيبة وموزعة على مساحة قد تصل لنصف متر مربع . ولا زال المهندسون يعملون جاهدين على تصنيع تلفزيونات بقدرة تمييز تضاهي قدرة تمييز العين البشرية بما يسمى التلفزيونات عالية الوضوح. أما المناظر التي تقع خارج نطاق الرؤيا المركزية والتي قد تصل زاوية الرؤيا فيها إلى ما يقرب من مائتي درجة فإنها ترتسم على بقية الشبكة ولكن بقدرة تمييز أقل بكثير من تلك التي في المقلة .

صورة مجهرية تبين المخاريط والعصي

مقطع عرضي في العصر والمخاريط

إن مهمة العصي والمخاريط كخلايا حساسة للضوء كما ذكرنا سابقا هو تحويل شدة الضوء وكذلك لونه إلى إشارات كهربائية يتم إرسالها من خلال العصب البصري إلى الدماغ ليقوم برسم صورة الشيء المرئي في خلاياه العصبية . إن عملية التحويل هذه عملية بالغة التعقيد تمكن العلماء من كشف بعض أسرارها ولا زالوا يجهلون كثيرا من آليات عملها ومما كشفه العلماء هو أنه يوجد في هذه الخلايا نوع من البروتينات يسمى الرودبسن له أربعة أشكال فالشكل الأول موجود في العصي ويستجيب لجميع ترددات الطيف المرئي والذي يمتد من 400 نانومتر إلى 700 نانومتر . أما الأشكال الثلاثة الباقية فهي موجودة في أنواع المخاريط الثلاثة بحيث يوجد شكل واحد فقط لكل نوع من هذه الأنواع فالبروتين الموجود في المخاريط الحمراء يستجيب لترددات المنطقة الحمراء من الطيف المرئي وكذلك هو الحال للبروتينات الموجودة في المخاريط الخضراء والزرقاء . وعندما يسقط فوتون من الضوء على أحد العصي أو المخاريط وله تردد يقع ضمن نطاق استجابته فإنه يقوم بتفكيك أحد روابط البروتين الحساس للضوء مما يجبره على تغيير شكله ثم يقوم هذا البروتين المعدل بقدح سلسلة طويلة ومعقدة من التفاعلات الكيميائية تنتهي بإنتاج نبضة كهربائية تذهب باتجاه العصبونات المرتبطة بهذه الخلية الحساسة للضوء كما هو مبين في الشكل أعلاه . وتتكون خلايا العصي والمخاريط من جزء أمامي يحتوي على رزمة كبيرة

من الأقراص التي تحتوي على البروتين الحساس للضوء وجزء خلفي يحتوي على النواة وعلى المكونات التي تنتج النبضات الكهربائة وعلى أطراف عصبية ترتبط بالخلايا العصبية المتصلة بها .

(520/231)

أما المرحلة التالية من عملية الإبصار فهي إرسال النبضات الكهربائية التي تنتجها الخلايا الحساسة الضوء إلى مركز الإبصار في الدماغ . وبما أن عدد خلايا العصي والمخاريط في الشبكية يصل إلى ما يقرب من مائة وسبعة وثلاثين مليون فإن ربط هذا العدد الهائل من الخلايا بمركز الإبصار باستخدام ليف بصري واحد لكل خلية يتطلب أن يكون قطر العصب البصري خمسة أضعاف مما هو عليه الآن وهذا سيحتل حيزا كبيرا من حجم الدماغ وكذلك من مساحة الشبكية . ولذلك فقد تم تقليص عدد ألياف العصب البصري إلى ما يزيد قليلا عن مليون ليف مما تطلب إنشاء شبكة معقدة وذكية من الخلايا العصبية داخل الشبكية تقوم بربط مخارج مائة وثلاثون مليون من العصي وسبعة ملايين من المخاريط بمداخل مليون ليف عصبي . ويوجد في شبكة التحويل هذه أربعة أنواع من الخلايا العصبية تقوم بوظائف متعددة ومحددة ومعقدة لازال العلماء يعملون جاهدين

لكشف تركيبها وفهم وظائفها وآليات عملها . إن أول طبقة من الخلايا العصبية التي تلي الخلايا الحساسة للضوء تحتوي على نوعين من الخلايا النوع الأول هو الخلايا ثنائية القطبية وهي تقوم بعدة وظائف أهمها تجميع مخارج عدة خلايا ضوئية لتنتج مخرجا واحدا فقط وذلك لتقليص عدد الألياف الذاهبة للدماغ وكذلك التحكم بعدد النبضات التي تمرر من خلالها بإتجاه الدماغ. ويوجد أحد عشر نوعا من الخلايا ثنائية القطبية منها نوع واحد يرتبط بالعصي أما العشرة الباقية فترتبط بالمخاريط وقد يصل عدد العصي المرتبطة بخلية عصبية ثنائية القطبية إلى ما يزيد عن مائة عند أطراف الشبكية وينزل إلى عدة عصي عند مركزها . وبما أن المخاريط الموجودة في مركز الشبكية هي المسؤولة عن الرؤية المركزية وكذلك عن تحديد اللون فإنه يتم في الغالب ربط مخروط واحد فقط بخلية عصبية واحدة وقد يزيد إلى عدة مخاريط عند الأطراف .

(521/231)

وربما يسأل سائل عن الفائدة من وجود هذا العدد الكبير من العصي وينتهي الأمر بربط مائة منها بخلية عصبية واحدة والجواب على هذا هو لزيادة مدي رؤية العين من خلال زيادة مساحة الشبكية وكذلك زيادة حساسيتها للضوء الخافت جدا حيث أن احتمالية

إلتقاط عدد قليل من الفوتونات الضوئية يزداد مع زيادة عدد العصي وغالبا ما يتم هذا خارج منطقة الرؤيا المركزية حيث لا يلزم درجة تمييز عالية . أما النوع الثاني من الخلايا العصبية فهي ما يسمى بالخلايا الأفقية وهي ترتبط من خلال أطرافها بالوصلات التي تربط العصي والمخاريط بالخلايا ثنائية القطبية وهي تعمل على تنسيق وتنظيم معدلات مرور النبضات الكهربائية الخارجة من الخلايا ثنائية القطبية فقد يوقف بعضها تماما أو يقلل معدلات بعضها ولا زال العلماء يجهلون كثيرا من وظائفها وآليات عملها . أما النوع الثالث فهي ما يسمى بخلايا الجينجليون وهي ترتبط من طرف بالخلايا ثنائية القطبية حيث تستقبل منها النبضات الكهربائية وبالألياف العصبية من الطرف الآخر حيث تمرر النبضات الكهربائية من خلاله إلى خلايا الدماغ في مركز الإبصار . وقد ترتبط كل خلية من هذه الخلايا بعدد من الخلايا ثنائية القطبية وذلك للحصول على مزيد من التقليص في عدد الألياف اللازمة لنقل الصور إلى الدماغ والقيام بالمعالجة التي تتعلق بألوان الصور . أما النوع الرابع من الخلايا العصبية فهي خلايا أمسراين وهي كالخلايا الأفقية تعمل على تنسيق عمل خلايا الجينجليون المتجاورة من خلال تنظيم معدلات مرور النبضات الكهربائية .

الشكل يبين آلية تحرر البروتينات من العصي والمخاريط وتشكل النبضات الكهربائية

تتوزع هذه الخلايا العصبية على جميع سطح الشبكية ولذلك فإن جميع الألياف العصبية الخارجة منها تسير بشكل شعاعي باتجاه مركز الشبكية وتتجمع في منطقة صغيرة تسمى القرص البصري تقع على بعد خمسة ملليمترات من مركز الشبكية لتخرج هذه الألياف من جدار العين على شكل كيبل يسمى العصب البصري الذي يبلغ قطره عند الشبكية مليمتر ونصف . وتخلو منطقة العصب البصري عند الشبكية تماما من الخلايا الحساسة للضوء ولذلك فإن أي صورة ترتسم عليها لا يمكن رؤيتها أبدا ولذلك سميت هذه المنطقة بالبقعة العمياء . ولكن وبسبب أن مركز الإبصار يبني الصورة النهائية من صورتين مأخوذتين من عينين فإنه من النادر أن تظهر البقعة العمياء في المشاهد التي نراها . وقد يتساءل بعض القراء عن سبب خلو القرص البصري من العصي والمخاريط وقد يكون الجواب مفاجئ لبعضهم إذا ما علموا أن الخلايا الحساسة للضوء لا تقع على سطح الشبكية المواجه للضوء القادم من العدسة بل تقع خلف شبكة معقدة جدا من الخلايا العصبية والألياف العصبية والأوردة والشرايين وعلى الضوء أن يخترق عدة طبقات من الشبكية حتى يصل للخلايا الحساسة للضوء .

مقطع في الشبكية يظهر فيه توزع المخاريط والعصي وترابطها مع الخلايا العصبية البصرية

ومما يبعث على السخرية أن يقول أحد العلماء الملحدين أن وضع الشبكية بهذا الشكل المقلوب دليل على أن الصدفة هي التي صممت وصنعت هذه العين فمثل هذا الخطأ في التصميم لا يمكن أن يقع فيه عاقل وهذا يعني على حسب استنتاجه أنه لا وجود للإله الذي يؤمن به بعض البشر والذي يقولون عنه أنه لا حدود لعلمه وقدرته . ونقول لهذا المعتوه هل يمكن لمن قام بتصميم جميع أجزاء العين البالغة التعقيد على أكمل وجه كما شرحنا سابقا يعجز عن إدراك حقيقة أن الخلايا الحساسة للضوء يجب أن توجه باتجاه مصدر الضوء . ولو أن الصدفة هي التي صممت العين كما يدعي لكان لزاما أن تكون هذه الخلايا موجه باتجاه الضوء فالصدفة لا تفكر ولا تصمم بل تترك الأشياء تتصرف وفق قوانين الطبيعة . بل إن هذه الشبكية المقلوبة لهي أكبر دليل على أن الذي قام بتصميمها إله لا حدود لعلمه وقدرته فلو أننا طلبنا من جميع مهندسي العالم تصميم كميرة تلفزيونية يقع فلمها الحساس للضوء خلف شبكة معقدة من الأسلاك ومن ثم تقوم بوظيفتها على أكمل وجه لفشلوا فشلا ذريعا في عمل ذلك . وفي المقابل نجد أنه على الرغم من وجود الخلايا الحساسة للضوء في العين خلف هذه الشبكة المعقدة من الخلايا والألياف العصبية والأوردة

والشرايين إلا أنها تقوم بوظيفتها على أكمل وجه بحيث يستطيع الإنسان قراءة الأحرف الكتابية الصغيرة على ضوء شمعة أو حتى على ضوء القمر . وفي هذه الشبكية المقلوبة يتحدى الله البشر لا ليصنعوا أجهزة بصرية مثلها بل فقط ليقوموا بحل لغز قدرة الخلايا الحساسة للضوء على إلتقاط الضوء رغم وجود عدة طبقات من الخلايا العصبية والشرايين أمامها .

(524/231)

ونقول لهذا المدعي العلم إن العلماء قد تمكنوا أخيرا من كشف سر وجود الخلايا الضوئية بهذا الشكل المعكوس فقد وجدوا أن هذه الخلايا تستهلك كميات كبيرة من البروتينات والأنزيمات لإتمام عملية تحويل الضوء إلى نبضات كهربائية وتتخلص كذلك من كميات كبيرة من نواتج التفاعلات الكيميائية فكان الحل في وضعها ملاصقة لجدار المشيمة لإمدادها بما يلزمها من مواد بشكل متواصل . وكذلك فإن عدم سقوط الضوء بشكل مباشر على الخلايا قد يحميها من التلف فكلنا يعلم أن النظر إلى الشمس وهي مكسوفة يسبب العمى وذلك لتعرضها للضوء فوق البنفسجي الذي يسبب التلف لمعظم خلايا الكائنات الحية . ولهذه الأسباب تطلب الأمر وضع الخلايا والألياف العصبية أمامها ولكن بتوزيع بالغ الإتقان

بحيث يمكن للضوء المرئي أن ينفذ من خلال هذه الشبكة المعقدة بكل سهولة ويسر بينما يتم امتصاص الضوء فوق البنفسجي الضار وأكبر دليل على نجاح هذا التصميم البارع أن العين تعمل على أكمل وجه ونرى الصور بمنتهى الوضوح حتى في أخفت الأضواء . ونقول أخيرا لهذا الجاهل ولأمثاله من الملحدين هل ترى من عيب في عمل العين رغم هذا الذي تقول أنه خطأ في تصميم الشبكية وصدق الله العظيم القائل في محكم تنزيله "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ" تبارك 3-4 .

شكل يوضح مقطع لشبكية العين حيث يظهر فيه الخلايا العصبية التي تنقل السيالة الكهربائية إلى مركز الرؤية في المخ

(525/231)

يتكون العصب البصري من مليون ومائتي ألف ليف بصري بقطر لا يتجاوز الميكرومترين لكل منها وقد تم لفها بإحكام داخل كيبل لا يتجاوز قطره المليمتر والنصف عند خروجه من الشبكية ولكنه يزداد ليصل إلى عدة مليمترات بعد خروجه من محجر العين . ويسير

العصب البصري لكل عين باتجاه قاعدة المخ ليتلقيا في مكان محدد وعنده يتم تقسيم الألياف البصرية في كل عصب إلى نصفين نصف يذهب إلى مركز الإبصار المخصص لتلك العين أما النصف الثاني فيذهب إلى مركز الإبصار المخصص للعين الأخرى . وهذا يعني أن نصف الصورة المرسومة على الشبكية لكل عين يتم إظهاره في مركز إبصار العين الأخرى والنصفان اللذان يتم تبادلهما هما الصورتان المرسومتان على نصفي الشبكية المجاورتين للأنف . إن مثل هذا التبادل ضروري لإظهار صورة واحدة فقط من خلال دمج الصورتين اللتين التقطتهما العينين مع التأكيد على أن المنطقة الوسطى من الصورة التي تقع أمام الأنف يتم إلتقاطها من كلا العينين . إن عملية إظهار صورة واحدة من خلال دمج صورتين مأخوذتين من عينين أو كميرتين عملية بالغة التعقيد فإزاحة مهما صغرت بين الصورتين المتراكبتين سينتج عنها صورة مشوشة ولكن مركز الإبصار في الدماغ يقوم بمعالجة بالغة التعقيد للصورتين ليظهر صورة أكثر وضوحا من الصورتين كل على انفراد . لا يذهب العصب البصري مباشرة إلى مركز الإبصار الذي يقع في مؤخرة الدماغ بل يمر على منطقة في قاع الدماغ يسمى الثالموس والذي يتكون من ستة طبقات ترتبط الألياف البصرية بالخلايا العصبية الموجودة في الطبقة الأولى بينما تخرج من خلايا الطبقة الأخيرة ألياف بصرية تنقل الإشارات المعالجة مبدئيا إلى مركز

صورة لشبكية العين يظهر فيها البقعة العمياء والأعصاب البصرية

(526/231)

الإبصار . يتكون مركز الإبصار بدوره من خمسة طبقات تحتوي على ما يزيد عن ثلاثمائة مليون خلية عصبية ترتبط ببعضها البعض بطريقة محددة ومعقدة . وقد وجد العلماء أن كل طبقة تقوم بمعالجة محددة لإشارات الصور القادمة إليها فبعضها للتعرف على الأشياء وبعضها للتعرف على الحركة وبعضها لرسم صورة ثلاثية الأبعاد وبعضها للتحكم بحركة العين والعدسة والحدقة والجفون . إن ربط مليون ومائتي ألف ليف بصري بخلايا المركز البصري بحيث تكون هذه الخلايا مرتبة مكانيا حسب ترتيب الخلايا الحساسة للضوء الموجودة في الشبكية معجزة من معجزات النظام البصري . وللتدليل على مدى تعقيد هذه العملية نذكر أن مهندسي الاتصالات يواجهون صعوبة بالغة عند ربط المقاسم الهاتفية بكبلات تحتوي على عدة مئات من الأسلاك فيقومون بتلوين وترقيم هذه الأسلاك لكي لا تختلط الإشارات المنقولة عليها وتذهب في غير اتجاهاتها . إن التعقيد الموجود في تركيب العين البشرية لا يكاد يذكر مع تركيب مركز الإبصار والبرمجيات الموجودة فيه بحيث يمكن

للبشر وغيرهم من الكائنات من رؤية الأشياء . إن الصور ترتسم في مركز الإبصار على شكل إشارات عصبية تتحرك بشكل متواصل بين ملايين الخلايا العصبية ولكن العلماء لا زالوا عاجزين تماما عن إيجاد تفسير مقنع للطريقة التي يدرك بها الإنسان الصور . لقد بدأ العلماء حديثا بكشف بعض طرق معالجة الإشارات الكهربائية القادمة من الشبكية عبر العصب البصري والتي يقدر العلماء معدل نقلها بعشرة ملايين نبضة في الثانية وتبين لهم مدى ضخامة المعالجة التي يقوم بها الدماغ للصور والتي لا يمكن أن تقوم بها آلاف الحواسيب الجبارة . إن الصور التي ترتسم على الشبكية في كلا العينين هي صور ثنائية الأبعاد وعلى مركز الإبصار أن يعالج الصورتين لينتج منهما صورة ثلاثية الأبعاد ومتحركة .

(527/231)

ومن معجزات نظام الإبصار هو قدرته على التعرف على الأشياء الموجودة في الصور الملتقطة وقد يظن غير العارف أن هذه عملية سهلة ولكنه سيغير رأيه إذا ما علم أن العلماء قد كتبوا برامج بالغة التعقيد في حواسيب جبارة لكي تتعرف هذه الحواسيب على أشكال بسيطة موجودة في صور إلتقطتها الكميرات . أما العملية الأعقد من عملية التعرف على الشكل الثابت هي عملية إكتشاف الأشياء المتحركة في الصور المتتابعة ولقد

أجرى العلماء عدد لا يحصى من الأبحاث لكشف سر الطريقة التي يعمل به الدماغ لإجراء مثل هذه العملية . أما عملية تخزين ملايين البلايين من المشاهد التي تلتقطها عيني الإنسان على مدى عمره في هذه الذاكرة المحدودة فلا زال العلماء يخمنون تخمينا كيف تنجز وفي أي مكان تتم .

(528/231)

إن كل ما شرحناه من تعقيد في تركيب مكونات العين ومركز الإبصار يتضاءل تماما عندما نعلم كيف أن هذه العين بكامل مكوناتها يبدأ تصنيعها من خلية واحدة فقط فبعد أن تنقسم هذه الخلية إلى عدد كاف من الخلايا تتولى واحدة منها فقط تصنيع الصلبة (بياض العين) وعندما تصل إلى امتدادها وهي منطقة القرنية تبدأ بإنتاج خلايا شفافة للضوء وبتحدب يختلف عن ذلك الذي للصلبة . وتتولى خلية أخرى تصنيع المشيمة وما فيها من ملايين الشعيرات الدموية وعندما تصل إلى المقدمة تبدأ بتصنيع القزحية وما فيها من عضلات ترتبط بأعصاب تصل إلى الدماغ . وتتولى خلية أخرى تصنيع الشبكية وما تحويه من مئات الملايين من العصي والمخاريط ومئات الملايين من الخلايا العصبية كل في مكانها الصحيح ثم تقوم بربط هذه الخلايا بطريقة لا مجال للخطأ فيها وإلا فشلت العين بالقيام

بوظيفتها . وتتولى خلية تصنيع العدسة البلورية بأبعاد محددة بحيث لا تجد أي فرق يذكر في أبعاد عدسات جميع أفراد البشر وتقوم كذلك بتحديد معامل الإنكسار في كل جزء من أجزائها طبقا لحسابات بالغة الدقة . وهكذا الحال لبقية مكونات العين من جفون ورموش وألياف بصرية وغدد دمعية . والأعجب من كل هذا أن تقوم خلية واحدة بتصنيع مركز الإبصار في مؤخرة الدماغ ومن ثم يتم ربطه بمليون ومائتي ألف ليف بصري مرتبطة بالخلايا العصبية الموجودة في الشبكية على مسافة ليست بالقليلة . إن العقل يكاد أن يتصدع عندما تفكر كيف أن خلية لا ترى ولا تسمع تقوم من تلقاء نفسها بتصنيع عدسة بمقاسات بالغة الدقة وعندما تنتهي من تصنيعها بالأبعاد المطلوبة تتوقف عن الانقسام وهكذا الحال مع باقي المكونات .

(529/231)

بل إن العقل ليجفل والجلد ليقشعر عندما يفكر المرء كيف أن هذه الخلايا تنقسم في أماكن متباعدة من العين ثم يكون الناتج أن المسافة بين مركز الشبكية ومنتصف القرنية أربعة وعشرون ملليمتر بنسبة خطأ لا تكاد تذكر عند بلايين البلايين من البشر وكذالك الحال مع أعين بقية الكائنات الحية والتي لا يعلم عدد أنواعها وأعداد كل نوع منها إلا الله سبحانه

وتعالى !

الشكل يوضح آلية الرؤية والإبصار

(530/231)

إن في تصميم النظام البصري من التعقيد ما يحتاج شرحه من قبل مختصين مئات بل آلاف الكتب ولكن في هذا الشرح ما يكفي لإقناع القارئ بأن منتهى الجهل أن يصدق إنسان عاقل أن الصدفة بإمكانها أن تهتدي لطريقة تصنيع هذه الأجهزة المعقدة . فلكي تتمكن الصدفة من اختراع نظام البصر للكائنات عليها أن تعرف أولا أن هنالك مصدرا للضوء وهو الشمس يصل ضوؤها إلى الأرض التي تعيش عليها هذه الكائنات . وعليها أن تعرف ثانيا أن هذا الضوء عندما يسقط على الأشياء ينعكس عنها بدرجات متفاوتة وعليها أن تستفيد من هذه الضوء المنعكس لترسم صورة عن الأشياء في دماغ هذه الكائنات . ولكي تتمكن الصدفة من رسم صورة للأشياء عليها أن تعرف أن هذا لا يمكن أن يتم إلا بوجود جهاز عجيب وهو العدسة التي يسقط الضوء المنعكس عليها من جهة فتبني صورة للشيء على الجهة الأخرى . إن من عنده أدنى علم بنظام العدسات لا بد أن يتساءل عن

الطريقة التي تمكنت بها الصدفة من كتابة برامج لتصنيع عدسات الأعين بالمقاسات الصحيحة لملايين الكائنات الحية والطريقة التي تمكنت بها من تحديد البعد بين العدسة والشبكية لتكون الصورة المتكونة عليها أوضح ما يمكن . وكذلك الطريقة التي تمكنت بها من تصنيع الخلايا الحساسة للطيف المرئي من ضوء الشمس والطريقة التي حددت بها أعداد هذه الخلايا على شبكيات هذه الكائنات . ومما يثير العجب أن الصدفة قد أدركت أن العدسة الثابتة الأبعاد لا تساعد الكائن على رؤية الأشياء القريبة والبعيدة بنفس الوضوح فاخترعت لذلك نظام تحكم بالغ الإتقان يستطيع أن يغير أبعاد العدسة بطريقة تلقائية حسب بعد المنظر عن العين . ولكي يدرك القارئ مدى صعوبة تغيير أبعاد العدسة في الأعين نذكره بأنه على الرغم من التفوق التقني الذي أحرزه البشر في هذا العصر إلا أنهم لا زالوا يستخدمون العدسات الثابتة في كميراتهم ويضطرون لتحريك العدسة لتوضيح الصور الملتقطة .

(531/231)

إن تكون صورة للشيء على سطح ما لا يعني أيّ شيء للكائن إذا لم يتم نقل هذه الصورة إلى دماغه ولذلك فعلى الصدفة أن تخترع خلايا حساسة لشدة الضوء يتم ترصيع السطح

الذي تكونت عليه الصورة بعدد كاف منها ومن ثم تقوم بربط كل خلية من هذه الخلايا الحساسة بخلايا عصبية في الدماغ باستخدام عدد مماثل من الخيوط العصبية . إن جميع هذه الاختراعات العجيبة والمعقدة لا تكاد تذكر في تعقيدها مع الطريقة التي سيبني بها الدماغ صورة للأشياء التي يمكن للكائن الحي أن يحس بها ولا زال علماء البشر يضربون أخماسا بأسداس وهم يحاولون فهم الآلية التي يستخدمها الدماغ للإحساس بصور الأشياء . إن الحواسيب التي تقوم بتخزين الصور الثابتة والمتحركة التي تلتقطها الكاميرات الموصولة بها لا يمكنها أن تدرك هذه الصور كما تدركها أدمغة الحيوانات بما فيها الإنسان . أما أعجب ما عملته الصدفة كما يدعي الملحدون في نظام الإبصار فهو رؤية الأشياء بألوانها الطبيعية وكان على الصدفة لتحقيق هذا الهدف أن تكتشف حقيقة فيزيائية بالغة الأهمية في مجال الضوء وهي أنه بالإمكان الحصول على أيّ لون من خلال دمج ثلاثة ألوان أساسية بنسب متفاوتة . وبناء على ذلك فقد تم تصنيع شبكية العين بحيث تتكون من أربعة أنواع من الخلايا الحساسة للضوء واحدة منها تستجيب لشدة الضوء بينما تستجيب الثلاثة المتبقية للألوان الأساسية الثلاثة وهي الأحمر والأخضر والأزرق . وعلى الرغم من كل هذه المعجزات في تركيب العين إلا أن بعض علماء البشر ممن يعرفون هذا الحقائق لا زالوا يصرون على أن الصدفة هي التي قامت بتصميم هذه العين العجيبة وصدق الله العظيم القائل فيهم "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " الحج 46 .

وأخيرا فإن نظام الإبصار يتكون من عدد كبير من المكونات وفي كل مكون منها من تعقيد التركيب ما عجز العلماء من كشف كثير من أسراره حتى الآن ولهذا فإن خللا في أحد هذه المكونات كفيل بتعطيل كامل هذا النظام. إن احتمالية حدوث عطل في أحد مكونات هذا النظام المعقد كبيرة جدا حيث تزداد هذه الاحتمالية مع زيادة عدد مكوناته وزيادة عمره التشغيلي. فمن السهل جدا لولا تقدير الله وحفظه أن تفقد القرنية أو العدسة أو ماء العين شفافيتها أو تتعطل عضلات العين أو القزحية أو عضلات العدسة أو أن تدمر الشبكية من الضوء الزائد أو تتلف الألياف العصبية أو أن ينقص إمداد الخلايا الحساسة للضوء من البروتينات اللازمة لعملها أو إلى آلاف الأعطال الممكنة وصدق الله العظيم القائل "قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ" الملك 23 والقائل سبحانه "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ" الأنعام 46.

للتواصل مع الكاتب:

mabbadi@just.edu.jo

المراجع

1- .القرآن الكريم

2- معجزة خلق الإنسان، هارون يحيى، موقع هارون يحيى على الانترنت .

3- http://hyperphysics.phy-

astr.gsu.edu/hbase/vision/rodcone.html0-c3

4- http://4colorvision.com/document.htm

5- /http://webvision.med.utah.edu

6- /http://www.intelligentdesign.org

0-من نطفة خلقه فقدره

الدكتور المهندس منصور أبوشريعة العبادي

دكتوراه في الهندسة الكهربائية-الولايات المتحدة الأمريكية

أستاذ دكتور الهندسة الكهربائية-جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية

(533/231)

هذا الجنين بدأت عملية خلقه من خلية واحدة فقط وكذلك هو الحال مع جميع أنواع الكائنات الحية إن عملية تحول خلية واحدة فقط إلى كائنات حية بمختلف الأشكال والألوان والأحجام تحدث أمام أعين البشر كل يوم تطلع فيه الشمس ولكن قل من يلقي لها بالا أو أن يتساءل عمن يقف وراء عملية التحول هذه وصدق الله العظيم القائل "وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف 105 .

(534/231)

فكم من بلايين البلايين من البذور تنبت كل يوم لتخرج شتى أنواع الأعشاب والأزهار والزروع والأشجار يصعب حتى على المختصين حصر عدد أنواعها ؟ وكم من البيوض التي لا يعلم عددها إلا الله تفقس كل يوم لتنتج حشرات وزواحف وأسماك وطيور لا يعلم إلا الله عدد أنواعها ؟ وكم من ملايين الحيوانات الثديية تلد إناثها كل يوم مواليد بمختلف الأشكال والأحجام ؟ إن عملية التحول هذه تتجلى في أوضح صورها في تحول بيوض الحشرات والزواحف والأسماك والطيور إلى كائنات بالغة التعقيد في ساعات أو أيام معدودة . فالبذور تتحول إلى نباتات وهي مغروسة في الأرض والنطف تتحول إلى حيوانات وهي مزروعة في أرحام أمهاتها ولذا فقد يظن البعض أن الأرض أو الأرحام هي

المسؤولة عن عملية التحول هذه . أما البيوض فلا ترتبط بأي مصدر خارجي قد يظن أنه يلعب دورا في إجراء عملية التحول هذ ولهذا فلا مجال للشك بأن هذه البيضة التي هي عبارة عن خلية واحدة قد تحولت من تلقاء نفسها إلى كائن حي . إن الذي يشاهد بيضة الدجاجة وهي تتحول في ثلاثة أسابيع من مادة شبه متجانسة لا حياة فيها إلى صوص يبدأ بالمشي بمجرد خروجه من البيضة لا بد وأن تصيبه الدهشة ويعترف بأن هنالك معجزة في عملية التحول هذه . ولا بد لهذا الإنسان من أن يتساءل عن الكيفية التي تمكنت بها هذه الخلية التي لا عقل لها من أن تعطي أوامر في غاية الذكاء لبقية الخلايا التي انقسمت منها لكي تقوم بالمهمة المنوطة بها في الزمان والمكان المناسبين ! فأعضاء الطائر المختلفة تتطلب أنواعا مختلفة من الخلايا التي تحتاج لأن تغير من خصائصها أثناء الانقسام لتنتج الخلايا التي يبنى منها هيكل الطائر العظمي وعضلاته وجلده وقلبه وكبده ورئته ومعدته وريشه وغير ذلك من الأعضاء .

(535/231)

ومما يثير العجب أن كمية المادة الخام التي يحتاجها تصنيع الطائر قد تم حسابها بشكل بالغ الدقة بحيث تتحول بكاملها إلى مكونات الطائر المختلفة فصوص الدجاج يحتاج لتصنيعه لما

يقرب من خمسين غرام من المواد العضوية الخام وصوص العصافير يحتاج لتصنيعه أقل من عشرة غرامات من المادة بينما تحتاج الأسماك والحشرات لإنتاج صغارها بيوض بأوزان أقل من ذلك بكثير .

(536/231)

إن الطريقة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لتصنيع الكائنات الحية فيها من التعقيد والإبداع والإتقان بحيث لا يمكن لإنسان عاقل أن ينسبها للصدفة بل لا يمكن لها أن تنجز إلا من قبل صانع لا حدود لعلمه وقدرته كما سنبين ذلك فيما بعد . فهذه الطريقة في تصنيع الأشياء ما كانت لتخطر على بال البشر ابتداء ولا يمكنهم بأي حال من الأحوال أن يقلدوها لتصنيع ما يحتاجون من أشياء حتى لو عرفوا كامل تفصيلاتها . فالبشر إذا ما أرادوا تصنيع شيء ما فإنهم يقومون بالبحث عن المواد الخام المتوفرة في تراب الأرض فيستخرجونها ويعالجونها ويشكلونها على شكل قطع وهياكل يستخدمونها في تصنيع مختلف أنواع الأدوات والأجهزة والمعدات . ومن الواضح أن طريقة التصنيع البشرية هذه تتطلب وجود إنسان له عقل يستخدمه ليتخيل ما سيكون عليه شكل الشيء المصنوع وأيدي وأعين يمكنه من خلالها تصنيع ووضع القطع المختلفة في الأماكن المخصصة لها في

جسم ذلك الشيء . أما الطريقة الربانية في التصنيع فإنها تختلف تمام الاختلاف عن الطريقة البشرية حيث أن السر الأعظم فيها هو في قدرة الأشياء المصنوعة على إنتاج نسخ طبق الأصل عن نفسها بنفسها وذلك دون تدخل أيّ قوة خارجية . فقد اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يصنع نسخة واحدة فقط من كل نوع من أنواع الكائنات الحية والتي تعد بعشرات الملايين وقد تم برمجة كل نسخة بحيث يمكنها القيام بتصنيع نسخ عنها بطريقة تلقائية ودون توقف . وبما أن هذه الكائنات الحية تحتاج للطاقة لكي تعمل فقد تم برمجتها بحيث يمكنها من تلقاء نفسها توفير الطاقة اللازمة لتشغيل أجسامها من المحيط الذي تعيش فيه سواء كانت هذه الكائنات نباتات لا يمكنها الحركة إطلاقا أو حيوانات تتحرك بكل حرية في البر والبحر والجو .

(537/231)

إن مجرد اختيار هذه الطريقة الذكية لتصنيع الأشياء يدحض بشكل قطعي أيّ دور للصدفة في تصنيع الكائنات الحية فأقصى ما يمكن أن تفعله الصدفة هو أن تجمع مكونات شيء ما في حيز واحد ثم تبدأ هذه المكونات بالتراكب مع بعضها بطريقة عشوائية وقد تنجح بعد محاولات كثيرة في تصنيع بعض الأشياء البسيطة . أما أن تقوم الصدفة بالعمل

على اختراع طريقة يمكن من خلالها إنتاج نسخ جديدة عن النسخة التي أنتجتها أول مرة وبالصدفة فهذا ما لا يقبله أي عقل سليم . فالصدفة لا وعي لها ولا عقل لها وليس لها مصلحة في أن تخترع طريقة تضمن إنتاج نسخ جديدة عن الشيء الذي سبق أن صنعته . إن الصدفة أعجز من أن تجمع مكونات أبسط الأشياء تركيبا كتصنيع كرسي في غابة مليئة بالأشجار أو مسمار في منجم للحديد فكيف يمكن لها أن تجمع مكونات كائنات حية لها أجسام بالغة التعقيد عجز العلماء عن فهم كثير من أسرارها . ولولا أن طريقة التصنيع الذاتية هذه تحدث أمام أعين البشر كل يوم لما ترددوا في تكذيب فكرة أن يقوم شيء ما بإنتاج نسخة عن نفسه من تلقاء نفسه ولقالوا أن ذلك ضرب من الخيال !

(538/231)

إن طريقة التصنيع الربانية هذه تحتاج لوضع خطة محكمة لخطوات التصنيع لكي تعمل على الوجه الأكمل ولفترات طويلة من الزمن كما نشاهد ذلك في الكائنات الحية التي ظهرت قبل بلايين السنين ولا زالت تنتج نسخا طبق الأصل عن نفسها . وبما أن البشر في هذا العصر على دراية بطرق تصنيع الأشياء على خطوط الانتاج تحت سيطرة الحواسيب فليس من الصعب عليهم أن يحددوا ولو بشكل نظري الخطوات الرئيسية التي تلزم لتصنيع الكائنات

الحية باستخدام هذه الطريقة التلقائية . فعملية التصنيع هذه تحتاج أولا تحديد مواصفات الشيء المراد تصنيعه ومن ثم يتم تخزين هذه المواصفات في ذاكرة ما كما يفعل البشر عندما يقومون بتخزين مواصفات الأشياء التي يصنعونها إما في عقولهم أو على الورق أو في ذاكرات الحواسيب . أما الخطوة التالية فهي كتابة برنامج كامل يحدد الخطوات التي يجب أن يتم اتباعها لتصنيع الشيء المراد تصنيعه طبقا للمواصفات المخزنة في الذاكرة . أما الخطوة الثالثة فهي تنفيذ برنامج التصنيع بطريقة ما بحيث يتم تصنيع هذا الشيء باستخدام المواد الخام اللازمة إلى جانب توفير الطاقة اللازمة لعملية التصنيع . وهذا ما تم اكتشافه تماما من قبل العلماء فقد كتب الله سبحانه وتعالى مواصفات أجسام جميع أنواع الكائنات الحية بطريقة رقمية على أشرطة طويلة ودقيقة من الحامض النووي أودعها سبحانه داخل الخلايا الحية . وبمجرد وضع هذه الخلايا في الوسط المناسب فإن شريط الحامض النووي يقوم بتنفيذ برنامج التصنيع المخزن عليه ليصنع كائن حي كامل ابتداء من هذه الخلية . ولم يكتف سبحانه وتعالى ببرمجة الخلية الحية بحيث يمكنها إنتاج كائن حي بكامل تفاصيله لمرة واحدة فقط بل قام ببرمجة خلايا الكائن الحي الناتج بحيث يمكنه إنتاج خلية حية تكاثرية تقوم بتصنيع كائن جديد يقوم بدوره بإنتاج خلية جديدة وهكذا دواليك .

(539/231)

وبما أن هنالك ملايين الأنواع من الكائنات الحية تعيش على سطح الأرض وتعتمد على بعضها البعض في توفير أسباب عيشها وضمان بقائها فإنه من الضروري وجود توازن بين أعداد هذه الكائنات بحيث لا يتعرض بعضها للانقراض وهذا يتطلب كتابة البرامج المتعلقة بأعمار ومعدلات تكاثر وأنواع طعام ملايين الأنواع من الكائنات بشكل بالغ الدقة . وتتم عملية تكاثر الكائنات الحية بشتى أنواعها بطريقة غريزية بحيث يقتصر دور الكائنات الحية بما فيها الإنسان على التزاوج بدافع الشهوة وكذلك رعاية بعض أنواع الكائنات حديثة الولادة لفترة قصيرة من الزمن . وباستثناء التزاوج والرعاية فإن جميع الكائنات الحية لا تتدخل أبدا في عملية التصنيع هذه، فالإنسان وهو الوحيد بين الكائنات الحية القادر على تصنيع الأشياء يقف مكتوف الأيدي إذا ما فشل جسمه أو جسم زوجه في إنتاج خلايا التكاثر التي تنتج كائنا جديدا منهما .

(540/231)

ولقد شرحنا في مقالة سابقة تحت عنوان قوله تعالى "ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ" تركيب شريط الحامض النووي وذكرنا أنه هو المسؤول عن تصنيع أجسام جميع أنواع

الكائنات ابتداء من خلية واحدة . فكامل مواصفات جسم الكائن الحي وكذلك برنامج تصنيعه قد تمت كتابتها بطريقة رقمية وبكثافة تخزين تصل إلى ثلاثين مليون حرف على كل سنتيميتر من طول الشريط . وقد تم لف هذا الشريط الذي يبلغ عرضه نانومترين اثنين فقط وقد يصل طوله إلى المترين بطريقة بالغة الاتقان على اسطوانات بروتينية يصل قطر الواحدة منها ثلاثين نانومتر ولا يتجاوز طولها الميكرومتر الواحد لكي يتم وضعه في خلايا لا يتجاوز قطرها عدة ميكرومترات . وقد تم كتابة برنامج التصنيع باستخدام أربعة أحرف وشيفرات يبلغ طول الواحدة منها ثلاثة أحرف مما يعني أن عدد الشيفرات يبلغ أربع وستون شيفرة كما هو مبين في الشكل . إن المسافة بين حروف الشيفرة الوراثية لا يتجاوز ثلث نانومتر ولذلك فإنه من المستحيل رؤيتها إلا باستخدام الميكرسكوبات الإلكترونية . وفي مقابل ذلك نجد أن هذا الشريط يقوم من خلال بعض مكونات الخلية من قراءة كل حرف من حروفه وبنسبة خطأ لا تكاد تذكر . إن كتابة المعلومات الوراثية بهذه الطريقة الرقمية وبهذه الكثافة العالية تعتبر معجزة من معجزات الحياة ولكن هذه المعجزات لا تقارن أبدا بالمعجزات الموجودة في الآليات التي يستخدمها هذا الشريط لتصنيع أجسام الكائنات . وبما أن برنامج التصنيع هذا مكتوب بطريقة رقمية فإن أول ما تبادر لذهن العلماء حول الكيفية التي يتم بها تنفيذ هذا البرنامج هو الطريقة التي ينفذ بها الحاسوب الرقمي برامجه .

فالحاسوب يقوم بتنفيذ البرنامج من خلال تخزينه في الذاكرة وبمجرد إعطاء إشارة البدء لتنفيذ البرنامج من قبل الإنسان فإن وحدة المعالجة المركزية تتولى تنفيذ البرنامج من خلال جلب الأوامر والبيانات من الذاكرة إليها ثم تقوم بمعالجتها وإصدار التعليمات للوحدات الطرفية لإظهار النتائج . ولقد خاب ظن العلماء عندما وجدوا أن الخلية الحية لا تحتوي على وحدة معالجة مركزية تقوم بتنفيذ التعليمات المخزنة على الشريط الوراثي بل وجدوا أن هذا الشريط يقوم بكامل مهام الحاسوب فهو يعمل كوحدة معالجة مركزية ويعمل كذاكرة لتخزين المعلومات في نفس الوقت . إن الشريط الوراثي أشبه ما يكون بالشريط المغناطيسي الذي كانت تستخدمه الأنواع الأولى من الحواسيب حيث أن البرامج والمعلومات مكتوبة بشكل متسلسل على طول الشريط . وفي الحواسيب القديمة تقوم وحدة المعالجة المركزية بالتحكم في حركة البكرات التي تحمل الشريط وذلك للوصول إلى مكان الأوامر والبيانات المخزنة عليه ولكن الشريط الوراثي يرقد ساكنا في داخل نواة الخلية إلا أنه يقوم بتنفيذ برامج رقمية يفوق تعقيدها ملايين المرات التعقيد الموجود في برامج الحاسوب .

لقد انصبت جهود علماء الأحياء على كشف أربعة أسرار رئيسية في هذه الطريقة الربانية لتصنيع الأشياء فالسر الأول يتعلق بالطريقة التي يتمكن بها الشريط الوراثي أحادي البعد لتصنيع البروتينات وهي جزيئات ثلاثية الأبعاد تستخدم كلبنات لبناء مكونات الخلية وكأنزيمات للتحكم في العمليات الحيوية ولقراءة المعلومات الوراثية . أما السر الثاني فيتعلق بالطريقة التي يتم بها بناء مكونات الخلية البالغة الصغر والبالغة التعقيد من هذه البروتينات في غياب أي قوة خارجية تقوم بوضعها في الأماكن المخصصة لها في جسم المكون . أما السر الثالث فيتعلق بالطريقة التي تنقسم بها الخلية إلى خليتين متماثلتين وكذلك الشريط الوراثي إلى شريطين . أما السر الرابع فيتعلق بالطريقة التي تصطف بها الخلايا المنقسمة لتصنع كل جزء من أجزاء جسم الكائن الحي وذلك ابتداء من خلية واحدة . ولقد تمكن علماء الأحياء من كشف بعض الآليات التي يستخدمها الشريط الوراثي لتنفيذ البرامج المخزنة عليه ووجدوا أن فيها من التعقيد ومن الإتقان ما يجعل الإنسان العاقل يسلم بأن الذي صممها لا حدود لعلمه وقدرته سبحانه وتعالى . إن كل آلية من هذه الآليات يحتاج شرحها مقالة كاملة ولكن لكي لا تطول هذه المقالة سنكتفي بشرح الخطوط الرئيسية لكل آلية من هذه الآليات .

أما الآلية الأولى في طريقة التصنيع الذاتية فهي أن كل كلمة من كلمات الشريط الوراثي هي عبارة عن شيفرة لأحد الأحماض الأمينية العشرين التي تبنى منها البروتينات والتي تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية ترتبط ببعضها البعض وفق ترتيبات محددة . وقد اكتشف العلماء أن الجينات الموجودة على الكروموسومات ما هي إلا برامج تحدد ترتيب الأحماض الأمينية لكل بروتين ويتراوح عدد الجينات في الكائنات الحية بين عدة جينات في الفيروسات وعشرات الآلاف من الجينات في الإنسان . ويتم تصنيع البروتينات في الرايبوسومات الموجودة في سيتوبلازم الخلية بعد أن يتم تزويدها بالأحماض الأمينية ونسخة من التعليمات التي تبين ترتيبها . وبما أن هذه التعليمات مخزنة على الشريط الوراثي الموجود في نواة الخلية والذي لا يمكنه مغادرتها بسبب كبر حجمه النسبي فقد تمكن العلماء من اكتشاف شريط حامض نووي أحادي السلسلة يسمى الشريط المراسل يقوم بأخذ نسخة عن ترتيب الأحماض الأمينية وينقلها إلى الرايبوسومات . وقد ذهل العلماء عند اكتشافهم تركيب الرايبوسومات حيث وجدوا أنها تستخدم أحدث طرق التصنيع الحديثة والتي تستخدم الحواسيب للتحكم في عمليات التصنيع . وتبدأ عملية تصنيع البروتين بقيام

الشريط الوراثي بإصدار الأمر لأخذ نسخة عن التعليمات التي تحدد ترتيب الأحماض الأمينية لهذا البروتين فيبادر إنزيم خاص بفتح سلسلتي الشريط الرئيسي في مكان الجين المنشود ثم يقوم الشريط المراسل بأخذ نسخة عنها ويغادر نواة الخلية صوب الرايبسوم . وعند وصوله يقوم الرايبوسوم بتمرير الشريط المراسل في تجويف خاص كما تمرر الأشرطة المغناطيسية في المسجلات السمعية والمرئية أمام رؤوس القراءة ويبدأ بقراءة الشيفرات التي يحملها بشكل متسلسل .

(544/231)

وتتم عملية تصنيع البروتين من خلال قيام الرايبوسوم بالوقوف على كل شيفرة من الشيفرات التي يحملها الشريط المراسل وذلك لحين وصول الأشرطة الناقلة المكلفة بنقل الأحماض الأمينية الموزعة في سيتوبلازم الخلية إلى موقع الرايبوسوم . والشريط الناقل هو شريط حامض نووي قصير يحمل على أحد جنبيه شيفرة أحد الأحماض الأمينية وعلى الجنب الآخر الحامض الأميني نفسه وبهذا يوجد لكل حامض أميني من الأحماض الأمينية العشرين شريط ناقل خاص به . وعندما يصطف الشريط الناقل بجانب تجويف الرايبوسوم يتم مقارنة الشيفرتين فإن تطابقت يقوم الرايبوسوم بالإمساك بالحامض الأميني وإن لم تتطابق

فإنه سيهملها ويقوم بفحص بقية الأشرطة الناقلة التي تحيط به إلى أن يعثر على الحامض الأميني المطلوب . وبعد إمساك الرايبوسوم بالحامض الأميني يقوم بإدخال شيفرة جديدة من الشريط المراسل ويعيد عملية البحث عن الحامض الأميني التالي فإن أمسك به وضعه بجانب الحامض الأميني السابق ويقوم بربطه به . وتتكرر هذه العملية إلى أن ينتهي الرايبوسوم من ربط جميع الأحماض الأمينية حسب الترتيب الموجود على الشريط المراسل . ومن ثم يقوم الرايبسوم بتحرير سلسلة الأحماض الأمينية التي قام بربطها والتي تبدأ بالالتفاف حول نفسها لتنتج البروتين المطلوب . ومما حير العلماء أنه في داخل الخلية الواحدة التي لا يتجاوز قطرها عدة ميكرومترات يتم إنتاج آلاف الأنواع من البروتينات في نفس الوقت وبكميات كبيرة ولكنها محسوبة بشكل بالغ الدقة . وللقارئ أن يتخيل منظر آلاف الأنزيمات وهي تفتح الشريط الرئيسي في مواقع مختلفة عليه ومنظر الأشرطة المراسلة وهي تقوم بنسخ تعليمات التصنيع من هذه المواقع ثم تتجه صوب الرايبسومات لتسلمها هذه التعليمات ومنظر الأشرطة الناقلة وهي تتجمع حول الرايبسوم لتزودها بالأحماض الأمينية اللازمة لها .

(545/231)

وعلى الرغم من هذا التشابك المعقد الناتج عن حركة ملايين الجزيئات من الأشرطة المراسلة والناقلة والرايبوسومات ومزودات الطاقة في داخل الخلية التي لا ترى بالعين المجردة إلا أنها تتم بشكل بالغ الانتظام بحيث لا يمكن لأي جزئ أن يخطأ الهدف الذي صنع من أجله فسبحان القائل "قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" طه 50 .

(546/231)

أما الآلية الثانية فهي أن السلاسل البروتينية أحادية البعد التي يصنعها الرايبسوم تلتف على نفسها بطريقة فريدة لتنتج جزيئات ثلاثية الأبعاد بأشكال وأحجام وخصائص فيزيائية وكيميائية محددة وذلك لكي تقوم بوظيفة محددة في جسم الكائن الحي . ولا زال علماء الأحياء في حيرة من أمرهم حول الآلية التي يتبعها البروتين للالتفاف على نفسه حيث وجدوا أنه بمجرد أن ينتهي الرايبسوم من تصنيع سلسلة البروتين فإنه يقوم بالالتفاف على نفسه لينتج الشكل المطلوب في زمن لا يتجاوز جزء من ألف جزء من الثانية . وقد قام أحد العلماء بحساب الزمن اللازم لالتفاف سلسلة بروتينية بطول مائة حامض أميني فيما لو تمت بطريقة المحاولة والخطأ فوجده يساوي مائة بليون بليون بليون سنة ! أما في داخل الخلية الحية فيوجد سلالسل بروتينية يصل طولها إلى عدة آلاف من الأحماض الأمينية ولكنها

تلتف على نفسها في جزء لا يذكر من الثانية . ولا زال علماء الأحياء يجهلون سر طريقة الإلتفاف هذه رغم آلاف الأبحاث العلمية التي أجريت لحل هذه المشكلة ورغم استخدامهم لأضخم الحواسيب العملاقة لمحاكاة هذه العملية ولذلك أطلقوا عليها اسم "مشكلة طي البروتين" . إن شكل البروتين الناتج عن التفاف السلسلة البروتينية يتحدد بشكل رئيسي من أعداد الأحماض الأمينية على هذه السلسلة وطريقة ترتيبها ولذلك فإن اختيار طول السلسلة البروتينية وكذلك طريقة ترتيب الأحماض الأمينية عليها لإنتاج بروتين يقوم بوظيفة معينة لا يمكن أن يتم إلا من قبل صانع لا حدود لعلمه وقدرته .

(547/231)

فكيف يمكن لصانع محدود العلم كالإنسان أن يحدد تسلسل الأحماض الأمينية التي تنتج بروتينات شفافة للضوء وأخرى حساسة لترددات محددة في الطيف الضوئي لاستخدامها في عيون الكائنات أو إلى غير ذلك من البروتينات التي يصل عدد أنواعها في الكائنات الحية إلى مئات الآلاف ! ولقد وجد العلماء أن كثيرا من الأمراض التي تصيب الكائنات الحية مردها إلى فشل بعض البروتينات من الالتفاف على نفسها وذلك بسبب حصول خطأ واحد فقط في أحدى الشيفرات الوراثية التي أنتجتها .

أما الآلية الثالثة فهي قدرة بعض البروتينات للعمل كأنزيمات تعمل كمحفزات للتفاعلات الكيميائية التي تجري في داخل الخلايا الحية وفي هذه السر تكمن أسرار كثيرة لا يمكن لطريقة التصنيع الذاتية أن تنجح بدونها . أما أولها فهي أن التفاعلات الكيميائية تتم بين الجزيئات العضوية المختلفة عند درجات حرارة عادية بوجود هذه الأنزيمات أما في غيابها فلا يمكن لمثل هذه التفاعلات أن تتم إلا عند درجات عالية جداً . وبهذه الخاصية الفريدة للأنزيمات تم تقليل الطاقة اللازمة لإتمام التفاعلات الكيمائية في أجسام الكائنات الحية وبالتالي تقليل كمية الطاقة التي تحتاجها الكائنات الحية لكي تعيش . أما ثانيها فهو إمكانية التحكم بأنواع التفاعلات الكيمائية التي تجري في داخل الخلية الحية حيث تبين للعلماء أن لكل تفاعل كيميائي هنالك إنزيم واحد فقط يمكنه تحفيز مثل هذا التفاعل . وبهذه الخاصية يمكن لآلاف الأنواع من الجزيئات أن تجتمع في نفس الحيز داخل الخلية الحية ولا تتفاعل في ما بينها إلا بوجود الأنزيمات فعندما يصل إنزيم معين لهذا الخليط من الجزيئات فإن التفاعل يتم بين جزيئات معينة وتبقى بقية أنواع الجزيئات على حالها بدون تفاعل . إن إحدى الآليات المقترحة لتنفيذ البرامج المخزنة على الشريط الوراثي هو في قيام أنزيم محدد

بفتح الشريط لقراءة الجين الذي يحدد بداية هذا البرنامج ثم يقوم هذا الجين بإعطاء الأمر لتصنيع إنزيم يقوم بفتح الشريط في مكان آخر حسب الخطوات المحددة في البرنامج وهكذا تتوالى عمليات تصنيع البروتينات وتحفيز الجينات بالإنزيمات في داخل الخلايا إلى أن ينتهي تنفيذ كامل البرنامج .

(549/231)

وإذا ما علمنا أن الشريط الوراثي للإنسان يحتوي على ما يقرب من مائة ألف جين فإن عملية الوصول للمعلومات المخزنة عليه تحتاج لتحديد مواصفات عشرات الآلاف من الإنزيمات بحيث لا يمكن لأي إنزيم أن يخطئ أبدا في الوصول لمكان الجين الخاص به على الشريط علما بأن طول الجينات الموجودة على الشريط لا يتجاوز خمسين نانومتر .

(550/231)

أما الآلية الرابعة فهي أن مكونات الخلية المختلفة يتم تصنيعها من خلال إنتاج جميع البروتينات اللازمة لبنائها ومن ثم تقوم هذه البروتينات بالتراكب مع بعضها البعض بشكل

تلقائي وبتسلسل محدد وذلك بمجرد التقائها في حيز واحد . ولا يمكن لهذه العملية أن تنجح إلا إذا تم تصنيع كل بروتين من البروتينات التي تدخل في تركيب هذا المكون بشكل فريد ومميز بحيث لا يمكنه الارتباط بجسم المكون أثناء عملية تصنيعه إلا في مكان محدد . ولتوضيح ذلك فإن عملية تصنيع المكون تبدأ بارتباط بروتينين لإنتاج شكل محدد لا يسمح إلا لبروتين ثالث محدد الشكل بالارتباط بهما لينتج شكلا جديدا لا يسمح بدوره إلا لبروتين محدد آخر للارتباط به وهكذا تستمر عملية البناء من خلال تسلسل محدد لعملية اتخاذ البروتينات لمواقعها المحددة في جسم المكون . وبعد أن تنتهي عملية تصنيع المكون بالشكل المطلوب لا يسمح لأي بروتين مهما كان نوعه بالارتباط بجسم المكون وإلا لتغير شكله ولفشل في القيام بوظيفته . إن هذه الطريقة في تصنيع مكونات الخلية أشبه ما تكون بالطريقة التي يبني بها الأطفال مكعبات الليغو أو الرسومات المبعثرة على قطع الكرتون أو ما يسميه العلماء طريقة المفتاح والقفل . ولولا أن العلماء يرون بأم أعينهم الخلايا وهي تصنع جميع مكوناتها بكل سهولة ويسر ولا تكاد تخطئ في إنتاج هذه المكونات بأشكالها المطلوبة مهما تكررت عملية التصنيع لظن بعضهم أن عملية تصنيع المكونات هذه هي ضرب من الخيال . إن المبدأ التي تقوم عليه طريقة التصنيع الذاتية لمكونات الخلية هو نفس المبدأ الذي تقوم عليه عملية تصنيع البروتينات من الأحماض الأمينية فبعد أن يتم ربط هذه الأحماض ببعضها البعض على شكل سلسلة تبدأ هذه السلسلة الأحادية البعد بالالتفاف على

بعضها البعض من خلال تجاذب هذه الأحماض في المواقع المختلفة على طول السلسلة لتنتج جسما ثلاثي الأبعاد له شكل مميز وفريد للبروتين المطلوب .

(551/231)

أما الآلية الخامسة فهي أن الخلايا الحية تقوم بتوفير الطاقة اللازمة لعملية التصنيع إما بأخذها من الشمس مباشرة أو من مواد عضوية تحتوي على الطاقة التي سبق لبعض أنواع الخلايا أن قامت بأخذها من الشمس . ففي كل خلية من خلايا النباتات والطحالب توجد البلاستيدات الخضراء التي تعتبر أكبر مصنع لإنتاج المواد العضوية على وجه هذه الأرض حيث يقوم هذا المصنع الذي لا تتجاوز أبعاده عدة ميكرومترات بتزويد جميع الكائنات الحية بالمواد العضوية اللازمة لبناء أجسامها والطاقة اللازمة لإجراء عملياتها الحيوية من خلال عملية التركيب الضوئي . إن اختيار الطاقة الشمسية لتكون مصدرا للطاقة التي تحتاجها الكائنات الحية لا يمكن أن يتم إلا من قبل عليم خبير قادر على تصنيع المكونات التي تقوم بتحويل الطاقة الضوئية إلى طاقة كيميائية يتم تخزينها في الروابط الكيميائية بين عناصر المواد العضوية وقادر كذلك على تصنيع المكونات التي تقوم باستغلال هذه الطاقة الكيميائية لإجراء مختلف أنواع التفاعلات الكيميائية والحيوية في الخلايا . إن تركيب

البلاستيدات والآليات التي تستخدمها لإتمام عملية التركيب الضوئي من التعقيد البالغ بحيث لا زال العلماء يجهلون كثيرا من أسرارها ويعتبرها العلماء الحد الفاصل بين عالم الموت وعالم الحياة . ويوجد في جميع خلايا الكائنات الحية مكون آخر يسمى الميتوكندريون يقوم بتحرير الطاقة من المواد العضوية بوجود الأوكسجين واستخدامها في العمليات الحيوية التي تجري في الخلية . إن عملية حرق السكر في الميتوكندريون تتم بشكل منظم وبارع حيث يتم تفكيك الروابط بين ذرات الكربون والهيدروجين ومن ثم يتم تحرير الطاقة الموجودة فيها وإيداعها في روابط كيميائية جديدة في جزيء صغير يسمى ثلاثي فوسفات الأدينوسين .

(552/231)

وقد وجد العلماء أن الجزيء الواحد من سكر الجلوكوز ينتج عند تحليله ما يقرب من خمس وثلاثين جزيئًا من هذا الجزيء وبكفاءة تحويل تصل إلى ما يقرب من أربعين بالمائة وهي كفاءة تحويل عالية إذا ما قارناها مع كفاءات التحويل في المحركات الميكانيكية . إن التعقيد الموجود في تركيب الميتوكندريون لا يقل عن التعقيد الموجود في تركيب البلاستيدة الخضراء وتحتاج عملية حرق السكر إلى عدد كبير من الأنزيمات لا يقل عن تلك التي تحتاجها عملية التركيب الضوئي .

أما الآلية السادسة فتكمن في قدرة الخلية الحية على إنتاج نسخة عن نفسها بنفسها دون تدخل أيّ قوة خارجية وذلك بمجرد صدور الأمر لها ببدء هذه العملية من قبل شريط الحامض النووي. وتعتبر الخلية الحية وحدة البناء الأساسية لأجسام جميع الكائنات الحية وقد أصيب علماء الأحياء بالدهشة من تعقيد تركيبها على الرغم من صغر حجمها حيث لا يمكن رؤية معظم أنواع الخلايا بالعين المجردة. وقد اكتشف العلماء في الخلية الحية من التراكيب الداخلية ما لا يوجد في أعقد الأجهزة والمعدات الحديثة بحيث لا زال العلماء يجهلون كثيرا من أسرار تركيبها وطرق عملها. إن أحد أهم مكونات الخلية هو شريط الحامض النووي الذي يقوم بالتحكم بكامل العمليات الحيوية التي تجري في داخلها ويحتوي كذلك على جميع التعليمات التي يتم على أساسها تصنيع كل جزء من أجزاء الكائن الحي. ولذلك فإن أحد أهم الخطوات التي تتطلبها عملية انقسام الخلية هي الخطوة التي يتم فيها إنتاج نسخة طبق الأصل عن شريط الحامض النووي لكي يودعها لإحدى الخليتين الناتجتين عن الانقسام. وهذا يتطلب أن يعطي هذا الشريط أمر إنتاج نسخة عن نفسه من تلقاء نفسه وفي هذه الخاصية يكمن سر الحياة الأعظم الذي حول تراب الأرض الميت إلى هذا التنوع الهائل في أشكال الحياة.

(553/231)

وتقوم الخلية عند انقسامها بتوزيع محتوياتها الداخلية بعد إنتاج عدد كاف منها إلى مجموعتين ثم تقوم بوضع جدار فاصل بين هاتين المجموعتين لتنتج خليتين كل واحدة منهما نسخة طبق الأصل عن الخلية الأم التي أنتجتهما . وعلى الرغم من أن الخليتين الناتجتين قد تبدوان متماثلتين من حيث الشكل إلا أن البرامج المخزنة على أشرطتهما الوراثية والتي ستقومان بتنفيذها لاحقا ليس من الضروري أن تكون متماثلة وإلا لنتج عن عملية الانقسام المتكررة لهذه الخلايا كتلة من الخلايا المتشابهة وغير المتخصصة .

(554/231)

وعلى الرغم من إكتشاف العلماء لهذه الآليات التي ينفذ بها الشريط الوراثي برامجه عند تصنيعه الكائنات الحية إلا أن عملية تحول خلية واحدة من تلقاء نفسها إلى كائن حي يحتوي جسمه على بلايين الخلايا تبقى معجزة المعجزات التي ستصدع رؤوس العلماء في محاولاتهم لكشف أسرارها . إن تصنيع أجسام الكائنات الحية يحتاج إلى مئات الآلاف من التصاميم والرسومات الهندسية التي تبين الأشكال والأبعاد الثلاثية والتراكيب الداخلية لكل عضو من أعضاء الكائن الحي إلى جانب تحديد مختلف أنواع التفاعلات الكيميائية

التي ستجري في داخلها . إن الطريقة التي يخزن بها الشريط الوراثي أشكال وأبعاد مكونات جسم الكائن لا بد وأن تكون نفس الطريقة الرقمية التي يتم بها تخزين رسوم ثلاثية الأبعاد في أجهزة الحاسوب مع فارق كبير جدا وهو أن الشريط الوراثي يحدد موقع كل خلية في داخل هذا الشكل الثلاثي الأبعاد بينما يكتفي الحاسوب بتحديد الشكل الخارجي لهذا الشكل . ويتطلب من برنامج التصنيع المخزن في الخلية الأم وضع كل خلية من الخلايا في المكان المخصص لها في جسم الكائن وهي مهمة في غاية الصعوبة حتى لو تم تصنيع الجسم من نوع واحد فقط من الخلايا . وبما أنه لا يوجد قوة خارجية تقوم بحمل الخلايا ووضعها في الأماكن المخصصة لها في جسم الكائن كما يفعل البشر عندما تصنيع أشيائهم فإن هذه المهمة تقع على عاتق الخلية الأم وما تنتجه من خلايا أثناء عملية الانقسام المتكررة . ويقع على عاتق الخلية الأولى تحديد عدد الانقسامات التي ستلزم لإنتاج جميع الخلايا التي يحتاجها بناء جسم الكائن وبما أنها ستختفي بمجرد انقسامها إلى خليتين جديدتين فإن عدد الانقسامات التي ستجريها كل من هاتين الخليتين يجب أن يكون مسجل في داخلها ومع تكرار عمليات الانقسام يجب أن يوجد مؤشر في داخل كل خلية من الخلايا الناتجة يحدد عدد الانقسامات التي ستجريها في المستقبل .

(555/231)

وعلى عاتق الخلية الأولى كذلك قبل أن تنقسم أن تحدد المهام التي ستقوم بها الخليتان الناتجتان عنها وهاتان بدورهما يجب أن تقوما بتحديد مهام الخلايا الأربع التي ستنتج عن انقسامهما وهكذا يتم توزيع المهام على بقية الخلايا التي ستنتج عن الانقسام المتكرر للخلية الأولى . ومن الواضح أنه بعد حدوث عدد معين من الانقسامات تبدأ الخلايا بتنفيذ مهامها المختلفة فخلية واحدة فقط ستتولى تصنيع الهيكل العظمي وثانية للجهاز العضلي وثالثة للجهاز العصبي وكذلك هو الحال مع بقية أجهزة الجسم كالجهاز الدوري والهضمي والجلدي والبصري والسمعي والتناسلي . وبما أن هذه الخلايا تتلقى أوامر انقسامها من شريط الحامض النووي الذي في داخلها فهذا يستلزم أن تقوم كل خلية من هذه الخلايا بتنفيذ جزء محدد من برنامج تصنيع الكائن المخزن في الشريط الوراثي الكلي . إن برنامج التصنيع الكلي مكون من عدد كبير من البرامج الأصغر حجماً يتكفل كل واحد منها بتصنيع جزء معين من جسم الكائن وهذه البرامج الصغيرة بدورها مكونة من عدة برامج أصغر مسؤولة عن تصنيع مكونات هذه الأجزاء . أما المشكلة العويصة في عملية التصنيع هذه فهي في طريقة ترتيب هذه البرامج في داخل البرنامج الرئيسي بحيث يتم تنفيذ هذه البرامج وفقاً للخطة التي سيتم بها تصنيع جسم الكائن وبحيث تضع أجزاء الجسم المختلفة في الأماكن المخصصة لها أولا بأول . ومما يزيد من صعوبة ترتيب وتنفيذ هذه البرامج التداخل الكبير

بين الأجهزة المختلفة لجسم الكائن فبعض مكونات الجهاز الدوري والعصبي تمتد إلى داخل مكونات الأجهزة الأخرى والجهاز البصري والسمعي موجودة في داخل تجاويف الهيكل العظمي والجهاز العضلي يرتبط ارتباطا كبيرا بالهيكل العظمي . وهذا يتطلب ممن يقوم بكتابة برامج تصنيع الأجهزة المختلفة أن يراعي هذا التداخل الشديد بين هذه الأجهزة ويضمن توافق أحجامها ووظائفها عند تصنيع جسم الكائن .

(556/231)

فعلى سبيل المثال فإن خطأ بسيطا في برنامج التصنيع قد يجعل من حجم العين أو المخ أو الأسنان أكبر من التجويف المخصص لها في داخل الجمجمة . وبما أن كل خلية من خلايا الجسم المراد تصنيعه تقوم بتنفيذ جزء البرنامج الخاص بها حسب موقعها من الجسم وبشكل مستقل عن بقية الخلايا فإن هذا يتطلب أن تكون الأوامر الصادرة عنها في كل لحظة من لحظات تصنيع الكائن على درجة عالية من التنسيق والتزامن ليظهر الكائن الحي بالشكل المطلوب . وبما أنه لا يوجد أيّ نظام تحكم مركزي يعمل على التنسيق بين الخلايا أثناء انقسامها لتصنيع الكائن فإن عملية التنسيق هذه تتم بشكل غير مباشر بين الخلايا من خلال الأوامر التي تصدرها أشرطتها الوراثية بشكل مستقل ولكن بتزامن منقطع النظير .

لقد أنكر القرآن الكريم على الإنسان الذي يرى هذه الطريقة العجيبة في تصنيع الكائنات الحية ابتداء من خلية واحدة تنقسم بلايين المرات إلى أن تنتهي بكائنات حية في أجسامها من تعقيد التركيب ما لا زال البشر يجهلون كثيرا من أسرارها ثم ينسب ذلك للصدفة فقال عز من قائل "قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ" عبس 17-19 . وإن كان هناك من عذر لكفر الجاهل بتفصيلات هذه المعجزة في خلق الكائنات، فإن العلماء الذين يعلمون أسرار طريقة الخلق هذه ثم ينسبونها للصدفة هم أشد الناس كفرا لأنهم موقنون في قرارة أنفسهم بأن الصدفة أعجز من أن ترتب أحرف جملة مفيدة فأنى لها أن تكتب بطريقة رقمية الأشرطة الوراثية لملايين الأنواع من الكائنات الحية ولذلك فإنه يصدق قول الله فيهم "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" النمل 14 . ولكي يتأكد الإنسان من وجود معجزة في هذه الطريقة الربانية في الخلق فقد أشار القرآن الكريم إلى تفاصيل هذه الرحلة المعقدة والعجيبة للخلية الحية وهي تتحول إلى إنسان كامل أو إلى غير ذلك من ملايين الأنواع من الكائنات الحية وذلك في قوله تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا

النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" المؤمنون 12-14 .

نرجو إرسال أقتراحاتكم وآراءكم إلى المؤلف:

mabbadi@just.edu.jo

المراجع

1 . بداية الخلق في القرآن الكريم، د . منصور العبادي، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، طبعة 2006م .

(558/231)

---

2 . طبيعة الحياة، تأليف فرانسيس كريك، ترجمة أحمد مستجير، عالم المعرفة، أيار 1988م، الكويت .

3 . هذا هو علم البيولوجيا ، تأليف إرنست ماير، ترجمة عفيفي محمود عفيفي، عالم المعرفة، كانون ثاني 2002م، الكويت .

4 . الجينوم (السيرة الذاتية للنوع البشري)، تأليف مات ريدلي، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، تشرين ثاني 2001م، الكويت .

5 . مشكلة طي البروتين، فريدرك ريتشارد، مجلة العلوم الأمريكية، كانون ثاني 1991م.

0–نجمة موت حقيقية قد تصطدم بالأرض

نشر موقع (CNN) الإخباري خبراً أحببنا إيراده للفائدة:

(CNN) –– يقول العلماء إن جرماً سماوياً، على بعد ملايين السنوات الضوئية، قد يدمر الأرض بأشعة الموت ذات يوم.

بعكس "نجمة الموت"، التي ورد ذكرها في فيلم "حرب النجوم" التي تحتاج إلى الاقتراب من الكواكب لكي تدمرها، هذا الجرم الشبيه بعجلة النار، وهي ضرب من الألعاب النارية، يستطيع أن يحرق العوالم على بعد آلاف السنين الضوئية.

قال الباحث بيتر توتهيل، عالم الفلك في جامعة سيدني: "كنت أقدر الجرم الحلزوني بسبب شكله الجميل، ولكنني الآن لا أستطيع إلا أن أشعر بوخز (عندما أراه) لأنه، وعلى نحو غير مريح، يشبه من ينظر في فوهة البندقية."

يحتوي الجرم الناري في داخله على نجمين الحارقة المضيئة ارتبطا معاً في مدار واحد وأصبحا يحومان حول بعضهما.

وبينما يدور النجمان حول بعضهما ، في حين ترتطم شذرات من الغاز المتدفق المدفوع من سطح النجمين، في الفضاء الموجود بينهما .

كان الجرم السماوي، المسمى WR 104 ، قد اكتشف قبل ثماني سنوات في برج القوس، وفقاً لما ذكره موقع "سبيس دوت كوم" على الإنترنت .

وأوضح توتهيل إنه يدور في دائرة مكتملة مرة كل ثمانية أشهر، محافظاً على دقة الوقت كالجوهرة في ساعة كونية .

وقال العالم الفلكي إن النجمين سينفجران يوماً ما لينجم عن انفجارهما "نجم عظيم" يعرف باسم "سوبرنوفا ."

(559/231)

على أن أحد النجمين، وهو نجم غير متوازن، يعرف باسم "ولف- رايت" ، يمر بآخر مرحلة مستقرة في حياة النجوم الكبيرة قبل بلوغ مرحلة "النجم الأعظم ."

وأضح توتهيل قائلاً: "يعتبر علماء الفلك نجوم 'ولف-رايت' قنابل موقوتة" ، وقتيل هذا النجم "قصير جداً - بالنسبة لعالم الفلك - وقد ينفجر في أي وقت خلال السنوات المائة ألف القادمة ."

وقال توتهيل إنه عندما يصبح نجم "ولف-رايت" نجماً عظيماً فإنه "قد يبعث حزمة قوية من أشعة غاما إلى مسار الأرض ومدارها، وأضاف قائلاً إنه إذا حصل انفجار مثل وانبعاث أشعة غاما، "فإننا لا نريد أن تكون الأرض في طريقها ."

بما أن الانفجار الأصلي سينتقل بسرعة الضوء، فإنه لن يكون هناك تحذير من وصوله .

ومع أن الجرم السماوي لا يستطيع تدمير الأرض كما فعلت "نجمة الموت" في فيلم حرب النجوم – على الأقل ليس عن بعد 8000 سنة ضوئية – إلا أنه يستطيع التسبب بانقراض بشري كبير أو حتى يهدد الحياة كما نعرفها على كوكبنا .

وانبعاث "أشعة غاما" لن يخترق الغلاف الجوي للأرض بما فيه الكفاية لتحرق الأرض، ولكنها ستغير التركيبة الكيمائية للطبقة الوسطى من الغلاف الجوي – الستراتوسفير .

يقدر الفيزيائي الفلكي آدريان ميلوت، بجامعة كنساس، أنه لو اصطدم بنا جرم WR 104 مع حدوث انفجار لمدة 10 ثوان أو بهذا الحدود، قد تستنفد أشعة غاما 25 في المائة من طبقة الأوزون، التي تحمينا من الإشعاعات فوق البنفسجية الضارة .

وأوضح أنه في المقابل لم تشكل نسبة تقلص طبقة الأوزون الناجم عن نشاطات الإنسان سوى 3 إلى 4 في المائة، وبالتالي يمكن للمرء أن يدرك حجم الضرر الذي سيلحقه تقلص نسبة الأوزون بنسبة 25 في المائة .

التعليق:

هذه الإشارات والتحذيرات الربانية سواء تحققت أو لم تتحقق تدل على أننا في قبضة الله سبحانه وتعالى وهو قادر في أي لحظة أن يذهب بالدنيا وما عليها ، فيجب علينا أن نحذر من غضب الله وعقابه وأن لا نأمن من بطشه، وأن نراقبه بالسر والعلانية وأن نتبع أوامره .

وصدق الله سبحانه وتعالى لما قال في كتابه العزيز: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (سورة تبارك) .

وقال الله سبحانه وتعالى:

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)(سورة الأعراف) .

المصدر:

موقع CNN الإخباري

http://arabic.cnn.com/2008/scitech/3/11/death.sta

r_earth/index.html

0-الحاسة التي لا تنام

صورة لأذن بشرية

عندما ينام الإنسان فإن الحاسة الوحيدة التي يمكن أن توقظه هي حاسة السمع ولذلك فإن أي إنسان يستطيع أن يتجول بجوار الشخص النائم كما يشاء دون أن يوقظه أو ينبهه إلا إذا صدر منه صوت فإنه يكون كفيلا أن يوقظ النائم . وفي سوره الكهف يخبرنا جل جلاله بأن سبب نوم الفتية هذه السنين الطويلة هو أنه تعالى ضرب على آذانهم . . فأصبح النهار كالليل بلا ضجيج . . . قال تعالى:

)

فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً) الآيه 11 سورة الكهف .

(561/231)

والأذن هى أول حاسة تعمل منذ الولادة وهى أداة الاستدعاء عند البعث . حتى أن الجنين عمر ثلاثة أشهر يملك حاسة سمع كاملة . وقد أثبتت الأبحاث أن الطفل فى بطن أمه يستطيع أن يميز الأصوات كما أنه يتأثر بالأصوات الخارجية حتى أن سرعة دقات قلبه تتغير حسب نوع الصوت وشدته . وبذلك يولد الطفل بحاسة سمع كاملة على عكس حاسة النظر الذى يولد بها الطفل ناقصة حتى أن الطفل لمدة عدة أيام لا يرى ثم يبدأ فى الرؤية بدون ألوان (أي أبيض وأسود) ثم يتطور بعد ذلك . (1)

وتنام كل الحواس ماعدا الأذن , فإذا قربت يدك من شخص نائم فانه لا يستيقظ وإذا ملأت الغرفة عطرا أو حتى غازا ساما فانه يستنشقه و يموت دون أن يستيقظ, ولكن إذا أحدثت صوتا عاليا فانه يقوم من النوم .

و الأذن هي الحاسة الوحيدة التي لا تستطيع أن تعطلها بإرادتك . . فأنت تستطيع أن تغمض عينيك أو تشيح بوجهك بعيدا إذا لم ترد رؤية شخص معين . . وتستطيع أن لا تأكل . . . . فلا تتذوق . . . و أن تغلق أنفك عن رائحة معينه . . . أو لا تلمس شيئا معينا لا ترغب بلمسه . . . ولكن الأذن لا تستطيع تعطيلها حتى لو وضعت يديك عليها . . . حتماً فسيصلك الصوت (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) الروم52

(افأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان في ضلال مبين) الزخرف40

هنا شبه الله الذين لا ينصاعون لأمره بالموتى والصم . . ولله في خلقه شؤون(2)

ولما كانت الأذن الداخلية هي الحاسة الوحيدة المكتملة لدي المولود ، فهذا يفسر لماذا توجهنا السنة الى أن نؤذن في أذن المولود ؟

وهناك سؤال يطرح نفسه لماذا لم يوجهنا الرسول صلي الله عليه وسلم الى أن نؤذن في المكان الذي يوجد فيه المولود وليس في أذنه مباشرةً طالما أن الأذن تكون مكتملة تشريحيا ووظيفياً ؟

(562/231)

والجواب أنه من المعروف وجود السائل الأمنيوسى amniotic fluid عند الولادة والذى يملأ تجاويف الجنين ومنها الأذن الخارجية والوسطي ومن ثم يحدث ضعف في السمع من 20 إلي 40 ديسيبل فربما لو أذن في المكان لا يسمع المولود . (3)

عندما يولد الطفل فاقدا لحاسة النظر، فإنها لا تؤثر على باقي الحواس على عكس حاسة السمع . فعندما يولد الطفل فاقدا لحاسة السمع ، أو إذا افتقدها فى سنوات عمرة الأولى فإن الطفل يكبر دون أن يستطيع الكلام أي أن اللغة لا تتكون بدون حاسة سمع سليمة .

و بالفعل فكم سمعنا عن أدباء و فلاسفة فاقدين لحاسة البصر مثل الشاعر أبو العلاء

المعري والأديب طه حسين و غيرهم كثيرون . . . . لكن العلماء و الأدباء الصم أقل بكثير من العلماء الضريرين . . . صحيح أن الموسيقار الكبير بيتهوفن أشتهر بأنه كان أصم هذا صحيح ولكنه لم يكن أصم منذ الولادة .

يستطيع أي إنسان أن يمنع نفسه أو غيره من الإبصار بمجرد إغماض العين، بينما لا يستطيع أحد أن يلغى حاسة السمع نهائيا حتى لو ربط على الأذن وحتى لو ثقبت طبلة الأذن فإن الإنسان يستمر في السمع ولكن بقوة أقل .

كل إنسان يستطيع أن يراقب ما حوله عن طريق حاسة السمع من جميع الاتجاهات حتى وإن كانت خارج مجال رؤيته بينما لا يستطيع أن يرى غير ما هو واقع أمامه .

لا تعمل حاسة النظر إلا في وجود درجة معقولة من الإضاءة على عكس حاسة السمع ، فلا حاجة إلى وضع خارجي معين كي تعمل . (4)

فيا أخي المسلم كرم هذه الحاسة بترك سمع المعاصي . . . فهناك أناس محرومون من هذه الحاسة ويتمنون لو يستطيعوا أن يسمعوا ولو ليوم واحد ، فاحفظ سمعك يا أخي المؤمن واستخدمه في ما يرضي الله وليس السمع فقط .

" رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه" سورة الأحقاف "15"

مع تحيات

الدكتور محمد السقا عيد

ماجستير وأخصائى جراحة العيون

عضو الجمعية الرمدية المصرية

dr_mohamed_60@hotmail.com

الهوامش:

)

(563/231)

---

1)مقال (السمع . . والبصر فى كتاب الله) للدكتور صلاح خفاجى

(2 (http://quran.maktoob.com/vb/quran27026/

http://www.allteb.com/vb/showthread.php?t=1117

(3 (2

(4)

http://www.alwasatparty.com/modules.php?name=News&file=article&sid=246

0-نقطة من البحر المحيط

بقلم الإعلامي مصطفى محمود

في ساعات الصفاء حينما تنقشع الغواشي عن القلب وتنجلي البصيرة، وأرى كل شيء أمامي بوضوح، تبدو لي الدنيا بحجمها الحقيقي وبقيمتها الحقيقية، فإذا هي مجرد رسم كروكي أو ديكور مؤقت من ورق الكرتون، أو بروفة توزع فيها الأدوار لاختيار قدرات الممثلين، أو مجرد ضرب مثال لتقريب معنى بعيد ومجرد وهي في جميع الأحوال مجرد عبور ومزار ومنظر من شباك في قطار .

وهي الغربة وليست الوطن .

وهي السفر وليست المقر .

أعجب تماما وأدهش من ناس يجمعون ويكنزون ويبنون ويرفعون البناء وينفقون على أبهة السكن ورفاهية المقام . . وكأنما هو مقام أبدي . . وأقول لنفسي أنسوا أنهم في مرور ؟ .

ألم يذكر أحدهم أنه حمل نعش أبيه وغدا يحمل ابنه نعشه إلى حفرة يستوي فيها الكل ؟ . .

وهل يحتاج المسافر لأكثر من سرير سفري وهل يحتاج الجوال لأكثر من خيمة متنقلة ؟ .

ولم هذه الأبهة الفارغة ولمن ؟ .

ولم الترف ونحن عنه راحلون ؟ .

هل نحن أغبياء إلى هذه الدرجة ؟ . أم هي غواشي الغرور والغفلة والطمع وعمى الشهوات وسعار الرغبات وسباق الأوهام ؟ . وكل ما نفوز به في هذه الدنيا وهمي، وكل ما نمسك به ينفلت مع الريح .

والذين يتقاتلون ليسبق الواحد منهم الآخر أكثر عمى، فالشارع سد عند نهايته وكل العربات تتحطم ويستوي فيها السابق باللاحق، ولا يكسب أحد منهم إلا وزر قتل أخيه . . بل إن أكثر الناس أحمالا وأوزارا في هذه الدنيا هم الأكثر كنوزا والأكثر ثراء، فكم ظلموا أنفسهم ليجمعوا، وكم ظلموا غيرهم ليرتفعوا على أكتافهم .

(564/231)

ولعلنا سمعنا مثل هذا الكلام ونحن نلهث متسابقين على الطريق . . فهو كلام قديم قدم التاريخ رددته جميع الأسفار وقاله جميع الحكماء ولكنا لم نلق له بالا ولم يتجاوز شحمة الأذن .

ومازلنا نسمع ولا نسمع برغم تطور أدوات الاستماع وكثرة الميكروفونات ومكبرات الصوت، ولاقطات الهمس الإلكترونية من فوق الفضاء ومن تحت الثرى .

ومازلنا نزداد صمما عن إدراك هذه الحقيقة البسيطة الواضحة وكأنها طلسم مطلسم

ولغز عصي على الأفهام .

هل نحن مخدرون ؟ .

أم هناك ما هو أقوى أثرا وأكثر شراسة من الخمور والمخدرات، هي مادية العصر التي طبعت الناس بذلك الشعار المسكر ؟ غامر واكسب . . وانهب واهرب . . وسارع إلى اللذة قبل أن تفوتك . . وعش لحظتك بملئها طولا وعرضا ولا تفكر ماذا بعد فقد لا يكون هناك بعد .

نعم تلك هي الخدعة التي يستدرج إليها الكل . . إنه لا شيء سوى ما نرى ونسمع ونذوق ونلمس من ماديات، وأنه ليس وراء هذه الدنيا شيء ونفوسنا الأمارة استراحت إلى هذه الفلسفة لأنها تشبع لها رغائبها وتحقق لها مشتهياتها ، والحيوان في داخلنا اختارها لأنها تشبع غرائزه .

وتلك النفس هي الفتنة والحجاب وهي التي أفرزت هذه الحضارة المادية وروجتها .

ألم يسأل داوود ربه: يا رب كيف أصل إليك . فقال له ربه . . اترك نفسك وتعال . . أن يترك هذه النفس لأنها العقبة . . ((فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة)) (11 – 13 البلد)

لا انفكاك من هذه العقبة إلا بالانفكاك من طمعك . . فتفك الرقبة وتطعم المسكين وتؤثر غيرك على نفسك . ولذلك لم يطلب الإسلام من المسلم نبذ الدنيا وإنما طلب منه قمع

النفس وكبحها وشكمها . . لأن النفس هي الأصل . . والدنيا مجرد أداة لتلك النفس لتختال وتزهو وتتلذذ وتستمتع .

(565/231)

إن النفس هي الموضوع وهي ميدان المعركة ومحل الابتلاء ، والدنيا ورقة امتحانها ، ومطلوب الدين هو الإرتقاء بهذه النفس والارتفاع بها من شهوات البطن والفرج ومن شهوات الجمع والاكتناز ، ومن حمى الاستعراض والكبر والتفاخر ليكون لها معشوق أرقى هو القيم والكمالات ، ومعبود واحد هو جامع هذه الكمالات كلها . .

وإنما تدور المعركة في داخل النفس وفي شارع الدنيا حيث يتفاضل الناس بمواقفهم من الغوايات والمغريات وما تعرض عليهم شياطينهم من خواطر السوء ومن فرص اللذة كل لحظة .

ولم يطلب الإسلام من المسلم أن ينبذ الدنيا ، بل طلب منه أن يخوضها مسلحا بهذه المعرفة ، فالدنيا هي مزرعته وهي مجلى أفعاله وصحيفة أعماله .

وقدم له فلسفة أخرى في مواجهة الفلسفة المادية . . قدم له فلسفة استمرار وبقاء فهو لن يموت ويمضي إلى عدم . . بل إلى حياة أخرى سوف تتعدد فصولا وتمضي به كدحا

وجهادا حتى يلقى ربه: ((يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه)) (6 – الانشقاق) .

الحضارة المادية لم تقدم للإنسان إلا الموت وحياة تمضي سدا وتنتهي عبثا . . أما الإسلام فقدم للإنسان الخلود وحياة تمضي لحكمة وتنتقل من طور إلى طور وفقا لنواميس ثابتة من العدل الإلهي، حيث لا يذهب أي عمل سدى ولو كان مثقال ذرة من خير أو شر . . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

واليوم تصل الحضارة المادية إلى ذروة من القوة والعلم وتكتمل لها أدوات الفعل والتأثير من إذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح وكتب ومجلات، وهي سواء كانت أمريكية أو غيرها ، فهي لا تفتأ تغتال العقل والروح وتتحالف على الإنسان بخيلها ورجلها ، ولكنها برغم كل شيء ضعيفة متهافتة واهية لأنها تغتال نفسها ضمن ما تغتال وتأكل كيانها ، وسوف تقتتل مع بعضها البعض وتتحارب بالمخلب والناب وبالقنابل الذرية والقذائف النووية فالطمع والجشع حياتها وموتها .

(566/231)

وعلى رقعة صغيرة من الأرض يقف الإسلام كمنارة في بحر لجي مظلم متلاطم الموج يعج بالبوارج والغواصات وحاملات الصواريخ وحاملات الرءوس النووية .

وما أكثر المسلمين ممن هم في البطاقة مسلمون، ولكنهم في الحقيقة ماديون اغتالتهم الحضارة المادية بأفكارها وسكنتهم حتى الأحشاء والنخاع، فهم يقتل بعضهم البعض ويعيشون لليوم واللحظة ويجمعون ويكنزون ويتفاخرون ولا يرون من الغد أبعد من لذة ساعة، ويتكلمون بلغة روسية أو لغة أمريكية ولا يعرفون لهم هوية . .

وقد نجد من يصلي منهم إلى القبلة خمس مرات في اليوم ولكن حقيقة قبلته هي فاترينة البضائع الاستهلاكية .

ولا يبقى بعد ذلك إلا قليل أو أقل القليل ممن عرف ربه .

ولو بقي مؤمن واحد مرابط على الحق في الأربعة آلاف مليون فهو وحده أمة ترجحهم جميعا عند الله يوم تنكشف الحقائق وينهدم مسرح العرائس ويتمزق ديكور الخيش والخرق الملونة، وتنهار علب الكرتون التي ظنناها ناطحات سحاب وتنتهي الدنيا .

وحينئذ وعندما تهتك الأستار وتقام الموازين، سوف نعرف ما الدنيا وماذا تساوي . .

وماذا يساوي كل الزمن حينما نضع أقدامنا في الأبد .

وحينئذ سوف نتذكر الدنيا كما نتذكر رسما كروكيا ، أو مسرح خيال الظل، أو نموذج مثال مصنوع من الصلصال لتقريب معنى بعيد بعيد ومجرد . .

وسوف نعلم أنها ما كانت سوى النقطة التي فيها كل أملاح البحر المحيط، ولكنها لم تكن أبدا البحر المحيط . .

0-تجليات رحمة الله لعباده في رحمة الأم برضيعها

صورة لطفل صغير

بقلم شهيدة لخواجة

الحمد لله على نعمة التفكير والتدبير في شؤون خلقه، الحمد لله على نعمة العقل وعلى نعم كثيرة تعددت واختلفت، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

(567/231)

إن من أوائل أسماء الله الحسنى وصفاته صفة " الرحمة " فوصف الله جلّ وعلا نفسه بالرحمن والرحيم، كما خصّ إحدى سور كتابه العزيز وهي عروس القرآن باسم " الرحمن " لتبتدئ بقوله سبحانه: (الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان)(1) وفي آية

أخرى يقول عزّ وجلّ: (هو الله الذي لا اله إلا هو، عالم الغيب والشهادة،هو الرحمان الرحيم) (2)

وإذا وصف الله نفسه سبحانه بصفة "الرحمة" فلأن هذه الصفة لها معاني جليلة رفيعة فهي تعني عند بني البشر الانفعال الخاص الذي يعرض على القلب عند مشاهدة النقص أو الحاجة، فيندفع المتصف بهذه الصفة اندفاعا نحو رفع ذلك النقص أو الحاجة . وإذا أطلقت هذه الكلمة على الله سبحانه أريد بها العطاء والإفاضة لرفع الحاجة .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن صفة "الرحمن" هو ذو الرحمة الشاملة والتي عمّ بها المولى سبحانه المؤمنين والكافرين والمحسنين والمسيئين، وكل موجود في هذه الحياة الدنيا ، بينما صفة " الرحيم" هو ذو الرحمة الدائمة، وذلك ما يختص بالمؤمنين وحدهم . ومن هنا قسّموا الرحمة إلى رحمة "رحمانية" تعم الجميع ورحمة "رحيمية" تختص بالمؤمنين فقط .

ولعلنا نجد في بعض الآيات تلميحا إلى هذه الحقيقة عند قوله تعالى: (وكان بالمؤمنين رحيما)(3) وقوله جلّ وعلا (إنّه بهم رؤوف رحيم)(4) وقوله تعالى في موضع آخر:(قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدّا)(5) وقوله (الرحمن على العرش استوى) (6)

(568/231)

وما نود تسليط الضوء عليه في هذا البحث هو إقامة مقاربة بينة أقامها صلى الله عليه وسلم في باب الرحمة يظهر بها مقدارية وعلو وسمو هذه الصفة عند الله اتجاه عباده وذلك حين قدم على النبي (صلى الله عليه وسلم) بسبي، فإذا في السبي امرأة تطوف وهي في حالة ذهول، تبحث عن فلذة كبدها تبحث عن رضيعها ، وكان هذا التطواف منها بمرأى النبي (صلى الله عليه وسلم) وبعض من صحابته، فما هو إلا أن وجدت ولدها ذاك فلتزمته، وألصقته بصدرها ، وألقمته ثديها تطعمه وتضمه، فنظر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى عاطفة الأمومة ورحمة الأم وتعجب الصحابة من ذلك فسألهم: أترون هذه المرأة ملقية ولدها في النار ؟ قالوا : لا يا رسول الله، فقال: "الله أرحم بعباده من هذه بولدها"(7) .

فهذا الحديث يصور لنا مشهدا في غاية الرقة والرحمة والحنان بين أم فاقدة لرضيع لها وهي في حالة ذعر وحزن تبحث وما إن وجدت ولدها بين السبي إلا وتحولت كلها حنان ورحمة وشفقة ودموع تنهمر على الخدود ، والصحابة ونبي الرحمة ينظرون إليها وقد رقّت مشاعرهم أمام هذا المشهد حينها اخبرهم البشير عليه الصلاة والسلام أن الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من رحمة هذه الأم برضيعها .

فالأمومة هي عاطفة ركزت في الأنثى السوية تدفعها إلى بذل المزيد من الرحمة والشفقة والعطف والحنان، لذلك أوصى القرآن الكريم والنبي العظيم بالأم لفضلها ومكانتها التي

ميّزتها عن الأب بالحمل والرضاع والرعاية .

صورة لأنثى البط وحولها فراخها

قال الشاعر أبو القاسم الشابي عن الأم:

الأمُّ تلثم طفلها وتضمُّهُ حَرَمٌ سماويّ الجمالِ مُقدَّسُ

(569/231)

وإذا ما فتحنا وجه المقارنة والمقاربة بين رحمة الله التي تجاوزت كل حد وتسامت وبين رحمة الأم برضيعها ، هذه المقاربة التي أقامها رسول الله في حديثه مع الصحابة، لا يسعنا إلا أن نتوسع ونغوص في تجليات هذه المقارنة/المقاربة التي نعيشها بيننا كلما وقعت أعيننا على أم ترضع طفلها وحين يهفو فؤادها توجعا وهي تسمع صراخ مولودها .

ولتجليات هذه الرحمة الأرضية المعاشة أوجه عديدة كان أنبلها وأصدقها وأسماها رحمة الأم، لكن هل هذه الرحمة دائمة وشاملة ؟

هذا السؤال نطرحه حين نتذكر حالات استثنائية لأمهات لم يرغبن في الإنجاب وسعين جاهدات لإجهاض ما في أرحامهن من أجنة، أو لحالات من الأمهات اضطررن إلى التخلي

عن فلذات أكبادهن بدور الأيتام أو على الطرقات إن كان أمر الاحتفاظ بأولادهن يقتضي تهديدا صريحا لحياتهن أو لسمعتهن .

لكن أين وجه الرحمة في هذه الحالات ؟

إذا عدنا إلى الصورة التشبيهية التي طرحها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبحثنا عن أوجه الاقتراب بين رحمة الله ورحمة الأم سنجد الصورة لا تحمل تناقضات فالأم المنعوت بها هنا هي أم مرضعة، ومقدار الرحمة عند الأم يسمو ويزداد في حالة الرضاع، فالأم في هذه المرحلة تكون في أكثر حالات الإشفاق والرحمة وتخرج عن إحساسات وقدرات الأم العادية وعن طبيعة المرأة .

تكون الأم المرضعة في استعداد فطري جبله الله في قلبها بقيمة مضافة ترتفع عن القدر العادي، إذ تستجيب تلقائيا مثلا لصراخ الرضيع ويتجلى هذا المشهد من كمية ذر الحليب التي يتزايد تلقائيا عند سماع صراخ الوليد ليصل في بعض الأحيان إلى الاندفاع والخروج من الحلمة قبل أن يضع الرضيع فمه على الثدي، فلا يكون للأم مدخلة في ذر الحليب اللهم ذاك الإحساس الدفين والسلوك الطبيعي التي زرعه الله فيها نحو رضيعها .

(570/231)

لنقدم صورة شاهدة نراها على الدوام تتمثل في أم تحتضن طفلها وهو في حالة الصراخ الناتج عن الجوع، نلاحظ أن الأم المرضعة تسارع وبكل لهفة وحنان كي تخرج ثديها وتمد الحلمة نحو فم رضيعها وكثيرا ما نلاحظ تدفق الحليب بدفعات قوية قبل عملية الإرضاع. أليست هذه صورة حقيقية تمثل أبهى وأسمى آيات الرحمة المتجلية بين الأم ورضيعها ؟

هناك صورة أخرى أكثر تجلي وشرح وتقريب لصورة الرحمة التي أبى رسول الله إلا أن يضرب بها مثل المقاربة /المقارنة، تتمثل في بدايات مرحلة الرضاع عند الأم ونحن نعلم جميعا أن الأم في أيامها الأولى بعد الوضع وفي الساعات الأولى لتكوُنِ الحليب تعاني الأم آلاما شديدة في الرحم والثدي ما يجعل أمر الإرضاع صعب ومؤلم، غير أن هذه الآلام لا تثني المرضعة عن إرضاع وليدها بل وتجدها تتحمل الألم بمرارة، غير أن دافع الرحمة المدفون في قلبها يكون لها المحرك والدافع وراء هذا العطاء وبجرعات زائدة في قلبها فنراها تمد حلمة ثديها إلى فم رضيعها وتصطبر على الألم الذي يزداد بعد عملية مص الرضيع للحلمة إلى درجة أن الأم تتصبب عرقا ويجف حلقها .

وأوج درجات الرحمة تكون وتتمثل حين يطلب من الأم بعد ذلك الألم والمعاناة أن تبعد رضيعها عنها أو أن تزيل عنه الثدي أو ما شابه ذلك . أليس هذا التجلي يمثل قمة الرحمة على وجه الأرض ؟

وقد قدم لنا القرآن صورة فريدة ومتميزة عن رحمة الأم المرضعة بوليدها وردت في سورة القصص عن قصة أم موسى حين أوحى إليها ربها أن تلقي رضيعها في اليم يقول تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني، إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين)(8) وقوله سبحانه في نفس السورة : (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ، إن كادت لتبدي به لولا أن ربّطنا على قلبها لتكون من المؤمنين)(9) انظروا إلى هذه الآية واحتوائها على التصوير الصحيح والحقيقي لما تحس به الأم اتجاه رضيعها وفيه أيضا تتمثل رحمة الأم بولدها تلك الرحمة التي تمثل جزءا يسيرا من رحمة الله بعباده لكنها – رحمة الأم– تظل هي قمة وأكبر مقدار للرحمة على وجه البسيطة . وفي نفس السورة يقص علينا ربنا أمر أم موسى فيقول: (وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أنّ وعد الله حقٌّ ولكن أكثرهم لا يعلمون .)10

كما ورد في الأحاديث النبوية قصة سردها رسول الله على صحابته كانت لهم مدرسة عظة وإرشاد غير أنها تمثل بالنسبة لنا وفي موضعنا هنا إثباتا كبيرا على طرحنا لفرضية أن رحمة الأم برضيعها هي امثل وأعلى مقدار للرحمة الأرضية إنها قصة ماشطة بنت فرعون والتي ثبتت على وحدانية الله وعلى إيمانها في وجه فرعون رغم تنكيله بها وزج

أبنائها الخمسة في زيت مقلي كما أوردت الروايات وأمام ناظريها لكن المثير في الحكاية هي معجزة إنطاق الله سبحانه لرضيعها الذي تكلم ليقول :(يا أماه اصبري فانك على الحق) .

(572/231)

وان تساءلنا عن سبب إنطاق الله تعالى لهذا الرضيع سنجد ولا محالة من أجل تثبيت فؤاد الأم الذي استطاعت الصبر والثبات أمام رؤيتها لأطفالها الأربعة يلقون في الزيت المقلي أمام أعينها لكن وبسبب إحساس يفوق قدرتها يعلم الله ما زرع مقدرا للرحمة بداخل قلبها لم تستطع الأم الاصطبار على الرضيع وربما كانت ستهفو وتضعف لذلك ثبت فؤادها بنطق وليدها قبل الأوان وكي لا يحمّلها ما لا طاقة لها به ومن اجل إثبات معجزاته الكونية أمام أنظار فرعون . إنها والله لصورة حقة تثبت مدى رحمة الأم برضيعها وتذكرنا بأن رحمة الله أعظم وأكبر وأسمى من هذا المقدار .

فما أعظم رحمة الله يغمرنا بها أحياء وأموات على الأرض وتحت الأرض ويوم العرض مذنبين كنا أو تائبين فما أجدر بنا أمام هذا الرحيم الرحمن الذي ثبّت رحمته على المؤمنين دون شك أو نقصان من أن نستغفره ونثوب إليه عن طواعية ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: قال الله تبارك وتعالى: (يا ابن

آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) . (11) .

سبحانك اللهم يا رحيم ارحمنا برحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك .

مع تحيات شهيدة لخواجة

يمكن التواصل على الإيميل

chamss50_5@hotmail.com

الفهرس

(1) سورة الرحمن

(2)سورة الحشر الآية 22

(3) سورة الأحزاب الآية 43

(4) سورة التوبة الآية 117

(5) سورة مريم الآية 75

(6)سورة طه الآية 5

(7) رواه البخاري (5999) ومسلم (2754)

(8) سورة القصص الآية 7

(9) نفس السورة الآية 10

10 نفس السورة الآية 12- 13

(11) رواه الترمذي من بين أصحاب الكتب الستة، وصححه ابن القيم، وحسنه الشيخ الألباني.

0-النور البارد التوهج الحيوي

(573/231)

دكتورة / شادية السيد عبد العزيز

أستاذ الحشرات في المركز القومي للبحوث. جمهورية مصر العربية

مقدمة

تختلف معجزة القرآن عن معجزات الرسل السابقين في كثير من زوايا الإعجاز . . فالقرآن الكريم(لا تنقضي عجائبه ولا يخلق علي كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء) كما جاء في الحديث النبوي الشريف، فإعجازه متواصل علي مر الدهور وكر العصور، شريطة إعمال العقل ومدارسة الفكر والتدبر والتفكير(أفلا يتدبرون القرآن)فأعجازه لا

يتوقف ولا ينتهي مهما طال الزمن وتقدم العصر، فالقرآن الكريم مشكاة كل عصر وأوان وصالح لكل زمان ومكان.

وعطاؤه يناسب كل جيل من الأجيال وكل أمه من الأمم، لأنه كتاب خاتم الرسل والرسالات (اليوم أكملت لكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) لذلك فإن القرآن الكريم قائم وموجود إلي أن تقوم الساعة اى للدنيا كلها . . لا يقتصر على أمة بعينها . . وإنما هو الدين الكامل لكل البشر، ومن هنا فانه يجب ان يكون له عطاء لكل جيل . . وإلا لو أفرغ القرآن عطاءه الاعجازي في قرن من الزمان مثلا لاستقبل القرون الأخرى بلا عطاء .

فمات وماتت الرسالة وضل الناس من جديد .

لقد خلق الله النار (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا انتم منه توقدون) فاستخدمها الإنسان في الإضاءة (. . . . كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله . . . .) كما استخدمها في توليد الطاقة من الماء والنار وولدهما البخار، ثم أختر الإنسان الكهرباء من الماء المنهمر .

وعندما ندير مفتاح الإضاءة الكهربائية نحصل على قدر معلوم من الضوء، ولكن تطلق في الوقت نفسه طاقة ميكانيكية تتسبب في فقد وتبديد قدر كبير من الطاقة ما بين 85% – 90% من الطاقة الكهربائية بتحولها إلى طاقة حرارية . بينما يلزمنا نسبة صغيرة 10 –

15 ٪ لتحقيق الإضاءة، ونخلص بذلك إلي أن إنتاج الضوء الصناعي ينتج عنه فقد وتبديد كمية كبيرة في الطاقة التي لا تستغل .

(574/231)

لذلك يمكننا – توفيرا لهذه الطاقة – إنتاج الضوء البارد أو بمعنى آخر إنتاج الضوء من مصدر تستغل كل طاقته الكهربية لكي تتحول إلى ضوء دون وجود عادم يتحول إلى حرارة مفقودة وغير مستغلة وضائعة .

من أجل ذلك يحاول العلماء و خبراء التكنولوجيا العثور على حل لهذه المشكلة المعقدة عن طريق استغلال بعض الكائنات الحية التي تنتج ضوءا بطريقة عجيبة و مثيرة من عند الله، لمواجهة هذه المشكلة عن طريق إنتاج الضوء البارد ، وتلك هي مشكلة البحث التي نريد إثباتها .

و لاشك أن هذه الكائنات الحية لم تمتلك الأجهزة الجسمية التي تولد الضوء متعدد الأغراض من تلقاء نفسها ، ومن المستحيل أن تكون ذلك مصادفة، لأنها من خلق الله – سبحانه وتعالي – (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) واستكمالا للمعجزة الإلهية أن هذا الضوء وتلك الطاقة لا تتسبب في أي أضرار لتلك المخلوقات (وكل شيء خلقناه بقدر) فهذه

الكائنات الحية دليل على قدرة الله تعالى في الخلق، فهو الله الخالق البارئ المصور الذي خلق الخلق وأودع فيها آيات تخاطب العقول وتسحر الألباب وتملك القلوب .

نبذه تاريخية

الكائنات المنتجة للضوء تم ملاحظاتها منذ قرون بعيدة أيام الحضارة اليونانية . وقد لاحظه كريستوفر كولمبس اثناء رحلته الشهيرة حول المحيط الاطلنطى عام (897 هـ= 1492م) حيث لاحظ هو والبحارة أنوار (توهج حيوي) في المياه حول سفينتهم (Floyd , 1997) لم يتم معرفة سبب هذا الضوء البارد إلي أن تم اكتشاف الميكروسكوب وفي عصر العلم الحديث، فقد كان البحارة – قديما – يلاحظون توهج المياه وكانوا يفسرون ذلك بخرافة وجود وحش في الأعماق يضيء .

(575/231)

وكانت أول محاولة علمية جادة لفهم أو تفسير سبب الضوء البارد في الكائنات في منتصف عام 1600م, ولم يعرف السبب الحقيقي ولكن كان تفسيرهم أن الضوء البارد الصادر من الأسماك والفطريات يعتمد على الهواء (Harvey 1952) . وكان Dubois أول من عزل الضوء المنتج كيماويا بواسطة أم الخلول(Clams). (Harvey

1920) مما مهد الطريق لتحديد الطاقة الميكانيكية الكيماوية و الفسيولوجية التي تسبب هذا الضوء البارد النظيف .

وقد لوحظ وجود التوهج الضوئي في كثير من الكائنات الحية و التي تشمل: البكتريا , الفطريات، الحشرات و الحيوانات البحرية، فقد خلق الله – عز و جل – بعض الكائنات على سطح الأرض و في أعماق البحار تتميز بقدرتها على إنتاج الضوء الذي يساعدها في حياتها ، و لكن لوحظ أن الضوء الذي تقوم هذه الكائنات الحية بإنتاجه هو ضوء بارد ينتج عن تفاعل كيمائي داخلها أثناء عملية التنفس .

ومن أهم المواد التي تدخل في هذا التفاعل الكيماوي مادة اللوسيفيرين Luciferin و هي ذات تركيب خاص، لكل نوع من أنواع الكائنات الحية . بمعنى أن جزيئات اللوسيفرين في حالة كلا من Bacteria & Fireflies, Dinoflagellates تختلف اختلافا كليا في كل نوع على حده (شكل3) ولكنهم جميعا يؤدوا نفس التفاعل و التأثير وهو إنتاج الضوء البارد .

(يفرز الوسيفرين بواسطة الخلايا المولدة للضوء (photocytes) وهو عبارة عن مركب ذو وزن جزيئى منخفض من الممكن ان يكون الدهيد أو بوليببتيد أو بروتين(وتختلف الكائنات الحية في تركيب جزيء اللوسيفيرين فبعضها يتكون من سلسلة طويلة من الذرات، و بعضها له سلسلة منحنية، و البعض الأخر له شكل جزيئات ذات شكل

كروي مثل الكلوروفيل و لكنهم جميعا يؤدون نفس التفاعل و التأثير مع وجود الأكسجين و هو إنتاج الضوء البارد و تلك معجزة تدل على وحدانية الله .

* أنواع الكائنات التي تقوم بإنتاج الضوء البارد هي:

(576/231)

---

1 – البكتريا Bacteria ، و من الأسماك الحبار Squid ، الفطريات Fungi ، السمك الهلامى Gelly Fish ، القشريات Crustaceans ، البروتوزوا Protozoa ، و الإسفنج Spongs ، أم أربع و أربعين Centipedes ، الدودة ألفية الأرجل Millipedes ، الطحالب Alga و الحلزون Snail . تقع الغالبية العظمى منها للضوء البارد في أعماق البحار والمحيطات .

2 – أما على سطح الأرض يوجد بعض أنواع من الطحالب alga والفطريات fungi والبكتريا bacteria و النيماتودا nematodes والحشرات insects و الحشرات التي تنتج الضوء البارد في الرتب الحشرية التالية :

1 كولومبولا Collembola .

2 ثنائية الأجنحة Diptera .

3 متشابهة الأجنحة Homoptera .

4 غمدية الأجنحة Coleoptera و تضم رتبة غمدية الأجنحة أكبر عدد من الحشرات المتوهجة بالضوء البارد حيث تضم مئات من الأنواع التي توجد بها أعضاء نامية نموا جيدا ، و من أشهر العائلات بهذه الرتبة: Elateridae, Lampyride, Phengodidae .

وبعض الفطريات تستطيع إنتاج الضوء ، حيث نجد أن الفطر المضيء مثل Armillaria mellea و Mycena spp . ينتجان ضوءا مستمرا (أزرق مخضر) في أجسامهم الثمرية و الميسليوم، والفطر المضيء يستخدم ضوءه في جذب الذباب الصغير و أنواع أخرى من الحشرات التى سوف تقوم بنشر جراثيم الفطر و تسهم في عملية تكاثر هذه الأنواع من الفطريات، كما تتغذى الحشرات على هذه الفطريات .

كذلك بعض النيماتودا تضيء نتيجة لوجود البكتريا المتواجدة معها (معيشة تكافلية) (Symbiotic bacteria) فنجد نيماتودا من التى تتبع الأجناس التالية Neoaplactana, Steinernema , and Hetrorhabditis تتعايش معيشة تكافلية مع البكتريا المنتجة للضوء مثل النوع Xenorhadus luminescens .

شكل(3): الحبار المضيء

شكل(4): سمكة جمبري مضيء

شكل(5): جيلي فيش مضيء

شكل(6): بكتريا مضيئة

شكل(7): فطريات مضيئة

(577/231)

كما توجد مجموعة أخرى بالإضافة إلى البكتريا و الحيوانات في البحر تنتمي إلى Protista و هي مملكة تقع بين البكتريا و النباتات الأرضية الحقيقية True Land Plants و هي تضم:

1- Dinoflagellates

صورة لظاهرة المد الأحمر حدثت في عام 2005 في أحد شواطئ كاليفورنيا قامت الكائنات (Dinoflagellates) بالتوهج الحيوي

2- Radiotarians وكلها تنتج الضوء البارد .

و على الجانب الآخر نجد أن هناك كائنات حية لا تقوم بإنتاج هذا الضوء البارد وهى: الثدييات Mammals، الزواحف Reptiles، والطيور Birds، البرمائيات Amphibians، و العناكب Spiders، العقارب Scorpions و النباتات المزهرة.

يكمن فيما سبق عدة معجزات هي:

1 - الإعجاز الأول:

ففي أعماق البحار و المحيطات يوجد ظلام كامل عند عمق 200 متر فأكثر ، أما على مسافة ألف متر فلا يوجد ضوء البتة .

قال الله تعالى في كتابه العظيم " أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ " سورة النور (40) .

و قد تسنى للبشرية اليوم أن تعرف الكثير عن البيئة العامة للبحار و خصائص الكائنات

الحية فيها و نسبة ملوحة مياهها و كميات المياه الموجودة فيها ، فالغواصات التي تطورت بفضل التقنيات الحديثة خولت للعلماء الحصول على مثل هذه المعلومات . و من المعروف إن اى إنسان لا يستطيع أن يغوص في عمق البحر أكثر من أربعين مترا دون وجود معدات خاصة تساعد على ذلك ، ولا يمكن للإنسان أن يبقى على قيد الحياة فى المناطق العميقة والمظلمة التي تصل إلى 200 مترا و ما دونها دون هذه المعدات .

شكل(8) : يوضح مياه المحيط ودرجات ألوان الضوء

(578/231)

وغياب المعدات التقنية في السابق كان السبب في تأخر العلماء في اكتشاف هذه التفاصيل عن البحار، و هذا ما يثبت أن الآية 40" ظلمات في بحر لجى " التي وردت في سورة النور منذ 1426 عاما – وكون القرآن يعطى معلومات صحيحة عن البحار في وقت لم تكن فيه معدات توفر أو تسهل للإنسان الغوص في الأعماق ليسا إلا وجهه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم .

أن الإنسان لم يعرف تلك المعلومات عن الكائنات البحرية التي تعطى ضوءا باردا تكونه

بنفسها لتضيء لنفسها الأعماق المظلمة ومن وجود ظلام في أعماق البحار والمحيطات يصعب أن يرى الإنسان يده إلا من أعطاه الله نورا . إلا بهذه المعدات ذات التقنيات الحديثة، ويعد ذلك تأكيدا وتصديقا لما ورد في سورة النور (الآية 40) من 1425 عام وهذا الضوء يعتبر وسيلة من وسائل الاتصالات بين أفراد النوع الواحد للتجمع أو التزاوج أو عند القتال أو تستخدم كمصيدة لصيد الفريسة أو لشل حركتها .

توزيع الكائنات البحرية في البحار والمحيطات :

يتميز النظام البيئي للمحيط بأنه عموديا مما أدى لتقسيم بيئة المحيط إلى ثلاث مناطق متميزة كما في شكل (9) وهى:

شكل(9) : يبين توزيع الكائنات البحرية في البحار والمحيطات تبعا لكثافة الضوء

ا – المنطقة السطحية الأوقيانوسية Epipelagic Zone : وهى من سطح المحيط حتى 200 متر إن الكائنات في هذه المنطقة تحدد بحدود Photic Zone (المنطقة التي يخترقها ضوء الشمس) حيث يكون ضوء النهار كاف لإتمام عملية التمثيل الضوئي Photosynthesis .

2 – المنطقة الوسطية الأوقيانوسية Mesopelagic Zone: وحدودها من (200 – 1000 متر) نجد انه في هذه المنطقة أن الضوء الآتي من السطح يكون باهت

جدا (ضعيف) أي مازال من الممكن الرؤية ولكن بصعوبة بالغة وذلك حينما يكون ماء المحيط صافى جدا .

3 – المنطقة العميقة الأوقيانوسية Bathypelagic Zone: وحدودها من (1000 – 6000 متر) ضوء النهار لا يصل إلى هذه المنطقة .

(579/231)

والحدود بين العوالم الحية في كل منطقة من المناطق الثلاثة السابقة مرتبط بدرجة كبيرة بالمستويات البيئية المختلفة لكثافة الضوء فى ماء المحيط الصافي .

– وتحت حدود 6000 متر من المنطقة الثالثة (المنطقة العميقة الأوقيانوسية) تحتوى هذه المنطقة على تواجد كبير لأعماق المحيط المنبسطة ولكن يستثنى الخنادق العميقة التي توجد على عمق من 6000 متر إلى أعمق الأعماق، وتوزيع هذه الخنادق قليل نسبيا حيث تمثل أقل من 2 % من البيئة للمحيط المفتوح ويعطى تعبير البحر العميق (deep sea) للكائنات التي تعيش تحت المنطقة السطحية الأوقيانوسية .

ويتم تقسيم المجاميع البيولوجية لهذه الممالك المائية إلى: –

1 – Plankton:: وتضم النباتات و الحيوانات التي تنجرف في وسط الماء أو التي لا

تستطيع السباحة ضد التيار

2 – Nekton: وتضم الحيوانات البحرية الكبيرة التي تعيش في وسط الماء مثل السمك، الجبار، الجمبري والتي تستطيع السباحة بقوة.

3 – وبجانب القسمين السابقين، يوجد كل الأحياء من الحيوانات والنباتات التي تعيش في أو على قاع البحار.

2 – الإعجاز الثاني:

يوجد أنواع من الأسماك تنتج النور الأحمر وهى تعيش على عمق 600 متر، بينما الضوء الأحمر يتم امتصاصه على عمق من 10 – 15 متر (ولهذا السبب اذا جرح الغطاس تحت الماء، فلن يتمكن من رؤية نزف الدم من جرحه).

ما هي ألوان النور الحيوي المنتج بواسطة الكائنات البحرية ؟

تنتج كل الكائنات البحرية نورا لونه أزرق لسببين أساسيين:

1 – إن النور الأزرق المخضر (طول الموجة له حوالي nm470) ينفذ في الماء.

2 – إن معظم الكائنات تكون حساسة فقط للنور الأزرق حيث تفتقر هذه الكائنات إلى الصبغات الخاصة بالرؤية (والتي تمكن الكائن أن يستطيع امتصاص أطول للونين (الأصفر، الأحمر) أو أقصر للنور فوق البنفسجي المزرق(indigo ultraviolet).

ولكن هناك حالة منفردة تخرج عن القاعدة السابقة، توجد في عائلة 'Malacosteidae" للأسماك – وهي نوع من الأسماك يسمى(Loose jaws) وهى التي تنتج نورا أحمر، وهى الوحيدة القادرة على رؤية هذا النور الأحمر، بينما الكائنات الأخرى غير قادرة على رؤية هذا النور، وتعيش على عمق 600 متر. وهذا النور الأحمر ينتج بواسطة أنواع مثل Malacosteus, Aristostomias & Pachystomias ولها طول موجة طويل، يقرب من الأشعة تحت الحمراء inferared، ونادرا ما يمكن رؤية هذا النور بواسطة عين الإنسان . بالإضافة إلى أنهم يستطيعوا إنتاج نور أزرق مخضر من أعضاء منفصلة.

لماذا يتم إنتاج النور الأحمر ؟

إن إنتاج النور الأحمر يعطى لهذه العائلة Malacosteidae ميزة إضافية في البحر العميق، على الرغم من ان النور لا يسافر لمسافة بعيدة ولكنه يمكن هذه الأسماك من رؤية الفريسة دون أن تشعر أو تحس الفرائس بهذا النور، ولذلك فان هذه السمكة تنتج ضوءا أحمر (إشارات لونها أحمر) معناها خاص بهذه السمكة فقط دون غيرها . بينما

الإشارات الأزرق المخضر فإنها غالبا تستخدم لتنبيه الأسماك الأخرى من نفس النوع بوجود أعداء، فهذه السمكة تنتج نورا أحمر هي الوحيدة التي تراه.

معروف أن ضوء الشمس يتكون من سبعة ألوان هي: البنفسجي، النيلي، الأزرق، الأخضر، الأصفر، البرتقالي، والأحمر، علما بأن ماء البحر الصافي يملك خاصية امتصاص الألوان بشكل إنتقائي.

فيمتص اللون الأحمر في مسافة تبلغ من(10 -15) متر لذلك لا يري الغطاس جرحه في هذه المسافة تحت الماء ولا يتمكن من رؤية نزف الدم من جرحه – ومع ذلك نرى إعجاز الله في وجود كائنات بحرية تتبع عائلة Malacosteidae تعيش على عمق 600 متر تنتج الضوء الأحمر، وهى الوحيدة القادرة على رؤيته، فسبحان الله الخالق المبدع.

(581/231)

يليه اللون البرتقالي يمتص عند مسافة 30 – 50 متر، ثم يليه الأصفر يمتص عند مسافة 50 – 100 متر، ثم يليه الأخضر يمتص من 100 – 200 متر، و يليه الأزرق يمتص حتى 200 متر.

(نرى إعجاز الله في كائنات تعيش في البحار و المحيطات العميقة على عمق أكثر من 200

متر تقوم بإنتاج الضوء الأزرق المخضر و أكثر من 200 متر يمتص اللونين البنفسجي و النيلي) Elder et al. 1991 . إن الله عز و جل في خلق الشيء و نقيضه .

والماء يعمل على تشتيت الضوء بشكل كبير وفي جميع الاتجاهات، مما يؤدي إلى خفض مستوى التباين الضوئي واللوني إلى حد كبير مما يزيد من صعوبة التعرف على المواضع تحت الماء .

الإعجاز الثالث: إنتاج النور البارد

و كمثال لإنتاج الضوء البارد من الحشرات حشرة الدودة المضيئة (شكل10) .

شكل(10) : الدودة المضيئة

تبدو عظمة الله الخالق حيث نجد إن الدودة المضيئة تنتج الضوء نتيجة للتنفس، علما بأن الحشرات تتنفس عن طريق قنوات هوائية دقيقة تعرف بالقصيبات tracheae توجد لها فتحات خارجية على الصدر والبطن، ويجب أن نتذكر إن الدم الحشري يختلف عنه في الفقاريات التي يحمل الدم فيها الأكسجين الى جميع أجزاء الجسم .

في الحشرات تحمل القصيبات الدم مباشرة إلى الأنسجة، حيث تتفرع القصبات إلى قصيبات بين العضلات و الأعضاء الداخلية، و تفتح القصيبات في الدودة المضيئة و الحشرات الأخرى للخارج بواسطة الثغور التنفسية spiracles حيث يتم التحكم في

انبعاث الضوء عن طريق تنظيم دخول الأكسجين إلى الخلايا المولدة للضوء photocytes و هذه الميكانيكية تعمل بواسطة جدول تنظيمي علي عدة مستويات لاندفاع تيار الأكسجين بواسطة القصيبات الهوائية لإمداد الخلايا المولدة للضوء بالأكسجين .

و صدق الله تعالى في كتابه العظيم " قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) " سورة طه .

(582/231)

ان الله سبحانه و تعالى قد خلق هذه الحشرة بتركيب خاص، فنجد أن الجدار الخارجي للجزء الخلفي من البطن يتكون من عدد من الخلايا تغذيها شبكة كثيفة من القصبات الهوائية، تؤمن أمدادا غزيرا من الأكسجين للخلايا المولدة للضوء PHOTOCYTES، أنظر الشكل(11) .

وهذه الخلايا مشبعة بمادة دهنية تعرف بالليوسيفرين luciferin عندما يصل الأكسجين الى الخلايا المولدة للضوء من خلال القصيبات الهوائية يتحد مع الليوسيفرين و يساعد في هذا التفاعل مادة عضوية أخرى(إنزيم) يسمى ليوسيفراز LUCIFERASE، و هو

عامل مساعد catalyst والعامل المساعد مادة لها القدرة على التعجيل بانهاء تفاعل كيمائي حيث يتم إنتاج الضوء بواسطة عملية أكسدة اليوسيفرين في وجود إنزيم اليوسيفريز ويقوم ATP بتنشيط اليوسيفرين مع وجود الماغنسيوم لتكون adenylluciferin الذي يتم أكسدته لإعطاء اوكسى ليوسيفرين وخلال إتمام عملية الأكسدة الإنزيمية يتم انبعاث كمية كبيرة من الطاقة توازى 40-80 Kcal.per mole يتم اطلاقها بخطوة واحدة ، ولايحدث اى تأثير ضار للحشرة نتيجة لانبعاث هذه الطاقة .

ويتحول الليوسيفرين المؤكسد إلى أوكسى ليوسيفرين(Timmins et al.) 2001 أنظر (شكل12) .

يتحول بعد ذلك أوكسى ليوسيفرين oxyluciferin إلى transformed back الى ليوسيفرين وبالتالى نجد ان هذا التفاعل من الممكن ان يتكرر . ومن الخطاء ان نطلق على ضوء الحشرات المتوهجة " الفسفرة " لأنها عملية فيزيائية مختلفة .

والأوكسى ليوسيفرين مادة متوهجة luminescent أى أنها تولد ضوءا ويتم انبعاث كمية كبيرة من الطاقة توازى 40-80 Kcal per mole يتم إطلاقها بخطوة واحدة ونتيجة لانعكاس كل هذه الطاقة بواسطة الخلايا العاكسة لذلك فان الحشرة لا تحترق .

شكل(11): القصبات الهوائية للدودة المضيئة يوضح الخلايا المولدة للضوء

(583/231)

إلا أن هذا ليس الموضوع بأكمله فنحن نجد أن المصباح الأمامي للسيارة يعطى الضوء للأمام بواسطة عاكس معدني مركب خلف المصباح وفي الدودة المضيئة توجد آلية مشابهة تقوم بهذه العملية نفسها . حيث نجد أنه عند عمل قطاع في عقل البطن الخلفية نجد أن خلف الطبقة المولدة للضوء توجد طبقة أخرى عاكسة – مكونة من خلايا مشبعة بالبولينا UREA ومواد كيماوية أخرى ذات لون أصفر (Xanthein) وتقوم هذه الطبقة مقام المرآة فتقوم بعكس بعض الضوء الناتج من الخلايا المولدة للضوء وكما نرى فمصباح الدودة المضيئة ذو اللون الأخضر المصفر الجميل، لا تميزه فقط الكفاءة العالية التي يعمل بها، وأنما أيضا طريقة التركيب .

وتلك عظمة الله الخالق المبدع – حيث قال تعالى "انا كلّ شيء خلقناه بقدر "(49) سورة القمر، بمعنى إن كل الأشياء في الدنيا من (سماء وأرض) خلقه الله بقدر مقدور اقتضته حكمة الله، حيث أن هذه الحشرة تنجز ميكانيكية متكاملة . فسبحان الخلاق

العليم .

اختلاف ألوان الضوء البارد في الحشرات

في معظم الحشرات المنتجة للضوء يكون الضوء أصفر مخضر مثل حشرة Photinus وحشرة Lampyris من رتبة غمدية الأجنحة، بينما نجد في اليرقة و الحشرة الكاملة لـ railroad أن أعضاء الضوء التى توجد على الصدر و البطن تنتج درجات من اللون الأخضر إلى البرتقالي، بينما أعضاء اللون في الرأس تنتج لون أحمر . وفى حشرات أخرى تنتج ضوءا أخضر مزرق، وبعضها ينتج ضوءا أبيض، إن لون الضوء المنبعث يختلف بين الأنواع الحشرية وذلك راجع إلى العوامل البيئية أو نتيجة لاختلاف تركيب اللوسيفرين .

شكل (12) : التفاعل الكيميائي لإنتاج النور البارد

ويؤدى فحصنا للدودة المضيئة إلى الحقائق الآتية

إن عملية النور الحيوي في الدودة المضيئة والكائنات البحرية الشبيهة عبارة عن عملية تحول بطيء في الطاقة الكيميائية بواسطة الأكسدة تنتج منها الطاقة المضيئة و الضوء الناتج " بارد " بصفة قاطعة

لأنه لا يستخدم أي جزء من الطاقة لإنتاج الحرارة، أو أي مادة آخري .

ويحدث الضوء بهذه الطريقة 100 %، حيث إن الحشرة تنجز عملية ميكانيكية متكاملة التي تكرس كل ما لديها من طاقة في عمل نافع (ويعنى العمل هنا ، الحركة، الضوء ، الحرارة) ويقف الإنسان في هذا المجال بعيدا إلى الوراء ، فان أكثر الطرق تقدما في الإضاءة الصناعية، هي مصابيح الفلوريسنت ذات الضغط المنخفض التي تعطى ناتجا حراريا بين 30-50 % .

وفي تفسير قوله تعالى " إنا كل شيء خلقناه بقدر "(القمر: 49)

ذكر ابن كثير يرحمه الله في تفسير قوله تعالى(إنا كل شيء خلقناه بقدر) كقوله (وخلق كل شيء فقدره تقديرا" (الفرقان:2) – وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل برئها .

ففي تفسير الطبري "فقدره تقديرا " يقول فسوى كل ما خلق وهيأه لما يصلح له فلا خلل فيه ولا تفاوت، وجاء في الجلالين . . (إنا كل شيء) منصوب بفعل يفسره (خلقناه بقدر) بتقدير حال من (كل) أي مقدرا وقرىء (كل) بالرفع مبتدأ خبره (خلقناه) .

أما صاحب الظلال فبعد أن استعرض عددا من جوانب الاتزان في بناء السماء وفي

الأرض، وفى كل ما يحيط بنا و في أجساد كل من الإنسان و الحيوان و النبات خلص إلى أن حركة هذا الكون كلها بجميع أحداثها ، ووقائعها و تياراتها مقدرة و مدبرة تقديرا دقيقا ، و تدبيرا محكما صغيرها و كبيرها ، و أضاف . . . . .إن قدر الله وراء طرف الخيط البعيد لكل حادث، ولكل نشأة و لكل مصير، ووراء كل نقطة، وكل خطوة، وكل تبديل أو تغيير . انه قدر الله النافذ الشامل الدقيق العميق .

والله يعلم الإنسان في هذا القرآن إن كل شيء بقدر ليسلموا الأمر، لله سبحانه وتعال، وتطمئن قلوبهم و تستريح، ويسيروا مع قدر الله فى توافق و فى تناسق .

(585/231)

الاستخدامات المختلفة بواسطة الكائنات الحية للضوء البارد الذي تنتجه تتمثل في الآتي:

1 – إشارات للتزاوج

معروف أن الضوء يعمل كإشارات للتزاوج في حالة firefly ففي بعض الأنواع نجد ان الضوء البارد (التوهج الحيوي bioluminescence) يجذب الأفراد من نفس النوع بغرض التجمع و كطريقة غير مباشرة لتحسين فرص التزاوج، ففي بعض الأنواع من عائلة Lampyridae) نجد إن الأنثى غير مجنحة و لذلك كان إنتاج الأنثى للضوء عامل هام

لجذب الذكور المجنحة، وتختلف أشكال الضوء فى هذه الحشرات بين الأنواع و بين الجنسين .

بعض الأنواع في الليالي الباردة تنتظر حوالي 5.5 ثانية ثم تبدأ في إرسال ومضة قصيرة، وأنواع أخرى ربما تنتظر دقيقة ثم ترسل وميض يظل ثانية كاملة، وبعض الأنواع الاستوائية تتجمع بأعداد كبيرة و تومض معا في انسجام تام .

2 – أمثلة للافتراس

المثال المتفرد للضوء الذي يعمل كمصيدة للفريسة يوجد فى نيوزيلندا للدودة المضيئة Arachnocampa luminosa حيث تطير الأنثى لوضع البيض على سقف الكهف المظلم و بمجرد فقس البيض فان اليرقات الفاقسة تتعلق لأسفل بواسطة خيط لاصق ينتج ضوءا و في الظلام نجد مدخل الكهف يضيء بهذا الضوء و يجذب حشرات من أنواع أخرى، وهذه الحشرات المنجذبة تدخل إلى داخل الخيط اللاصق و يتم افتراسها بواسطة يرقات الدودة المضيئة، وهذه الكهوف تشتهر باسم الكهوف المضيئة Luminous caves) (وهى مشهورة في نيوزيلندا ويتوافد السياح من جميع أنحاء العالم لمشاهدة هذه الحشرات المضيئة فى الكهوف المظلمة .

3 – أمثلة للدفاع

في ديدان railroad يكون الوميض مستمرا لمنطقة الرأس وعندما تمشى اليرقات اى تقوم

بوظيفة ضوئية دفاعية حيث تصدر ومضات فجائية تعمل على طرد المفترسات، ومن الممكن أن يستخدم الضوء بواسطة الأنثى عند وضع البيض ليسهل عليها اختيار مكان وضع البيض البعيد عن الازدحام أو الذى يوجد عليه تنافس لمصادر الأطعمة .

(586/231)

استخدامات فكرة الضوء البارد

قام العلماء باقتباس فكرة الضوء البارد في كثير من التجارب البيولوجية مثل:

1- أبحاث الفضاء Space research :

نجد أن نظام Luciferin & Luciferase من الممكن أن يستعمل في مركبات الفضاء التي يتم إرسالها إلى كوكب المريخ و الكواكب الأخرى ، واكتشاف وجود أشكال للحياة على هذه الكواكب أم لا ، الفكرة تتلخص فيما يلي : -

يتم بواسطة جهاز الكتروني خاص Special electronic device أخذ عينات من التربة الموجودة على سطح الكوكب ثم يقوم بخلطها بالماء و الأكسجين، و اللوسيفيرين و اللوسيفيريز بعد ذلك إذا عاد وميض ضوئي إلى الأجهزة على الأرض، يستنتج العلماء من ذلك أن ATP (و هو العامل الخامس اللازم لإنتاج الضوء البارد)

يوجد على هذا الكوكب مما يدل على وجود نوع من الحياة يشبه إلى حد ما أشكال الحياة على كوكب الأرض .

2- استخدامه في الأبحاث الطبية Medical Research

وجود ATP في كل الكائنات الحية يتم استغلاله في الأبحاث الطبية أيضا ، حيث يتم حقن اللوسيفيرين و اللوسيفيريز فتظهر تفاعلات مختلفة فى الخلايا الطبيعية و الخلايا المسرطنة مما يمكننا و يساعد في تحديد المشاكل داخل خلايا الإنسان وهذا التكنيك يستخدم حاليا لدراسة الأمراض القلبية المزمنة و urological & muscular dystiophy problems وغيرها .

3- مكافحة الآفات Pest Management

إن التوهج الحيوي يستخدم كأداة في تحديد خرائط توزيع الكائنات الحية، ففي عام 2001 قام العلماء في أمريكا بعمل تعديلات في المادة الوراثية لدودة اللوز القرنفلية (وهى آفة من آفات القطن حيث تصيب اللوز و تؤدى إلى خسائر اقتصادية فادحة في المحصول) بواسطة مادة متوهجة وهى (protein GFP Green fluorescent) مستخلصة من السمك الهلامى Jelly fish فأصبحت يرقات الدودة القرنفلية المعدلة وراثيا لونها أخضر قوى .

4- كذلك نجد أن الكثير من الناس حاولت ان تستفيد من هذه الميزة التي تتميز بها هذه الكائنات و التي خلقها الله عز وجل في إتقان كامل . وعلى سبيل المثال نجد أن السكان الأصليون في أمريكا الوسطى و غرب الأنديز يصطادون عمالقة الدودة المضيئة، و يحتفظون بها فى الأقفاص، وتستخدم كمصابيح رائعة واقتصادية في نفس الوقت .

أوجه الإعجاز

1 - الإعجاز الأول:

إنتاج النور البارد بواسطة بعض الكائنات البحرية، وبعض الكائنات على سطح الأرض، وعمل التحورات اللازمة في الخلايا لإنتاج هذا النور الحيوي، و كذلك طريقة تنظيم اندفاع الأكسجين للخلايا المولدة للضوء للتحكم فى كمية الضوء المنبعثة من الكائن الحي على حسب الوظيفة التي سوف يقوم بها (اى لا يحدث فقد في الطاقة الضوئية المنبعثة والمنعكسة في شكل نور) قال تعالى" انا كل شىء خلقناه بقدر " (القمر: 49) و صدق الله تعالى في كتابه العظيم " قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) " سورة طه .

2 - الإعجاز الثاني:

في أعماق البحار و المحيطات يوجد ظلام كامل عند عمق 200 متر فأكثر، أما على

مسافة ألف متر فلا يوجد ضوء البتة .

قال الله تعالى في كتابه العظيم " أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ " سورة النور (40) .

3 – الإعجاز الثالث:

وجود أنواع من الأسماك تنتج النور الأحمر وهى تعيش على عمق 600 متر، بينما الضوء الأحمر يتم امتصاصه على عمق من 10 – 15 متر . إن الله عز و جل يخلق الشيء و نقيضه

(588/231)

---

1 – إن عملية الإنارة الحيوية في الدودة المضيئة و الكائنات البحرية الشبيهة عبارة عن تحول بطيء في الطاقة الكيميائية بواسطة الأكسدة إلى طاقة مضيئة (منيرة) و الضوء الناتج بارد، حيث إن الحشرة أو الكائنات المختلفة تنجز ميكانيكية متكاملة، و الاعجاز المتكامل لله الخالق المبدع في تركيب جسم الكائنات المنتجة للنور .

حيث يتم التحكم فى انبعاث الضوء عن طريق تنظيم دخول الأكسجين بواسطة

القصيبات الهوائية أثناء عملية التنفس إلى الخلايا المولدة للضوء photocytes، وهذه الميكانيكية تعمل بواسطة القصيبات الهوائية لإمداد الخلايا المولدة للضوء بالأكسجين الذي يدخل في التفاعل الكيميائي باتحاده مع اللوسيفرين و اللوسيفيريز و ATP و الماغنسيوم فينتج الضوء الذي يتم عكسه بواسطة طبقة الخلايا المشبعة باليوريا و مواد كيماوية أخرى ذات لون اصفر (اى تعمل كمرآة) و تعكس النور للخارج.

إن أكثر الطرق تقدما فى الاضاءة الصناعية هي مصابيح الفلورسنت ذات الضغط المنخفض تعطى حرارة تصل الى 30-50 % .

قال الله تعالى في كتابه العظيم" هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " يونس (5) .

الدلالة العلمية للآية الكريمة

أولا: فى التفريق بين كل من الضياء و النور:

الضوء (الضياء) هو الجزء المرئي من الطاقة الكهرومغناطيسية (الكهربية / المغناطيسية) والتى تتكون من سلسلة متصلة من موجات الفوتونات التي لا تختلف عن بعضها البعض إلا في طول موجة كل منها ومعدل ترددها .

وتتفاوت موجات الطيف الكهرومغناطيسي في أطوالها بين جزء من مليون مليون جزء من المتر بالنسبة الى أقصرها و هى أشعة " جاما " وبين عدة كيلومترات بالنسبة إلى أطوالها وهى موجات الراديو (المذياع أو الموجات اللاسلكية) و يأتي بين هذين الحدين عدد من الموجات التى تترتب حسب تزايد طول الموجة من أقصرها إلى أطولها : الأشعة السينية، و الأشعة فوق البنفسجية، والضوء المرئى، والأشعة تحت الحمراء

و الضوء الأبيض هو عبارة عن خليط من موجات ذات أطوال محددة عديدة ومتراكبة على بعضها البعض، ويمكن تحليلها بإمرارها في منشور زجاجي أو غير ذلك من أجهزة التحليل الطيفي، وقد أمكن التعرف على سبع من تلك الموجات أقصرها هو الطيف البنفسجي (ويقترب طول موجته من 4000 انجستروم) و أطولها هو الطيف الأحمر (ويقترب طول موجته من 7000 أنجستروم) وبينهما البرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق وغير ذلك من الألوان المتدرجة في التغير فيما بين تلك الألوان السبع، وان كانت عين الإنسان لا تستطيع أن تميز منها سوى هذه الألوان السبعة .

والطيف المرئي من مجموعة أطياف الطاقة الكهرومغناطيسية المنطلقة من الشمس هو المعروف باسم ضوء الشمس، وعلى ذلك فالضوء عبارة عن تيار من الفوتونات المنطلقة من جسم مشتعل، ملتهب، متوقد بذاته سواء كان ذلك بفعل عملية الاندماج النووي كما

هو حادث في داخل الشمس، وفى داخل غيرها من نجوم السماء، أو من جسم مادي يستثار فيه الاليكترونات بعملية التسخين الكهربائي أو الحراري، فيقفز الاليكترون من مستوى عال في الطاقة إلى مستوى أقل، والفارق بين المستويين هو كمية الطاقة المنبعثة (Quantum Energy) على هيئة ضوء و حرارة، وتكون سرعة تردد موجات الضوء الناشئ مساوية لسرعة تحرك الشحنات المتذبذبة بين مستويات الذرة المختلفة من مثل الالكترونات .

(590/231)

وعلى ذلك فان مصادر الضوء هي أجسام مادية لها حشد هائل من الجسيمات الأولية المستثارة بواسطة رفع درجة الحرارة من مثل الالكترونات و غيرها من اللبنات الأولية للمادة، و أهم مصادر الضوء بالنسبة لنا (أهل الأرض) هي الشمس ووقودها هو عملية الاندماج النووي .

كذلك يتعرض ضوء الشمس للعديد من عمليات التشتت والانعكاس عندما يسقط على سطح القمر المكسو بالعديد من الطبقات الزجاجية الرقيقة و الناتجة عن ارتطام النيازك بهذا السطح، والانصهار الجزئي للصخور على سطح القمر بفعل ذلك الارتطام . فالقمر (

و غيره من أجرام مجموعتنا الشمسية) هي أجسام معتمة باردة لا ضوء لها و لكنها يمكن أن ترى لقدرتها على عكس أشعة الشمس فيبدو منيرا ، و هذا هو الفرق بين ضوء الشمس ونور القمر ، فنور القمر ناتج عن تشتييت ضوء الشمس على سطحه بواسطة القوى التي يبذلها الحقل الكهرومغناطيسي على الشحنات الكهربية التي تحتويها كل صور المادة .

القرآن الكريم يفرق بين الضياء و النور

انطلاقا من هذه الحقائق العلمية التي تمايز بين الضوء الصادر من جسم مشتعل ، ملتهب ، مضيء بذاته في درجات حرارة عالية (قد تصل إلى ملايين الدرجات المئوية كما هو الحال في قلب الشمس) وبين الشعاع المنعكس من جسم بارد يتلقى شعاع الضوء فيعكسه نورا ، ركز القرآن الكريم على التمييز الدقيق بين ضياء الشمس و نور القمر ، وبين كون الشمس سراجا و كون القمر نورا فقال تعالى:

* " هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " (يونس: 5) .

* " وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا " (نوح: 16) .

* ووصف الشمس بأنها سراج و بأنها سراج وهاج – فقال تعالى " وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا " (النبأ: 13) .

تبدو عظمة الله الخالق حيث نجد أن الدودة المضيئة تنتج الضوء نتيجة للتنفس و الحشرات تتنفس عن طريق قنوات هوائية دقيقة تعرف بالقصيبات الهوائية التي تنظم دخول الأكسجين إلى الخلايا المولدة للضوء عن طريق جدول تنظيمي لعدة مستويات لاندفاع تيار الأكسجين الذي يدخل في التفاعل الكيماوي لإنتاج الضوء . قال الله تعالى في كتابه العظيم " قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) " سورة طه .

تفسير المفسرين

1- تفسير الجلالين (قال ربنا الذي أعطى كل شيء) من الخلق (خلقه) الذي هو عليه متميز به عن غيره (ثم هدى) الحيوان منه .

2- تفسير ابن كثير

وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد أعطى كل شيء صورته وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : سوى خلق كل دابة، وقال بعض المفسرين أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كقوله تعالى (الذي قدر فهدى) أي قدر قدرا وهدى الخلائق إليه أي كتب الأعمال والآجال والأرزاق ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه يقول

ربنا الذي خلق الخلق وقدر القدر وجبل الخليقة على ما أراد (لا يضل ربي ولا ينسى) أي لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئا يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط وأنه لا ينسى شيئا تبارك وتعالى وتقدس وتنزه فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان أحدهما عدم الإحاطة بالشيء والآخر نسيانه بعد علمه فنزه نفسه عن ذلك .

كذلك الآية رقم 40 من سورة النور قال سبحانه وتعالي فيها :

"أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ " صد الله العظيم

قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية:

(592/231)

قال تعالى (أو كظلمات في بحر لجي) قال قتادة (لجي) هو العميق (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدري أين يذهب بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب قال معهم قيل فإلى أين يذهبون قال لا أدري وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما (يغشاه موج) الآية تعني

بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر وهي كقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) الآية وكقوله (أفرأيت من إتخذ هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) الآية وقال أبي بن كعب في قوله تعالى (ظلمات بعضها فوق بعض) فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضا وقوله تعالى (ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور) أي من لم يهده الله فهو هالك

جاهل حائر بائر كافر كقوله تعالى (من يضلل الله فلا هادي له) وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين (يهدي الله لنوره من يشاء) فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورا وعن أيماننا نورا وعن شمائلنا نورا وأن يعظم لنا نورا .

قال القرطبي في تفسيره الآية(40) من سورة النور التي تقول:

(أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) صدق الله العظيم)

(593/231)

السحاب المراد بهذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليل وظلمة البحر؛ فلا يبصر من كان في هذه الظلمات شيئا ولا كوكبا . وقيل: المراد بالظلمات الشدائد؛ أي شدائد بعضها فوق بعض . وقيل: أراد بالظلمات أعمال الكافر، وبالبحر اللجي قلبه، وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب الرين والختم والطبع على قلبه . روي معناه عن ابن عباس وغيره؛ أي لا يبصر بقلبه نور الإيمان، كما أن صاحب الظلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها . وقال أبيّ ابن كعب: الكافر يتقلب في خمس من الظلمات: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير .)

إن عملية الإنارة الحيوية في الدودة المضيئة و الكائنات البحرية الشبيهة عبارة عن تحول بطيء في الطاقة الكيميائية بواسطة الأكسدة أثناء عملية التنفس، فتتحول إلى طاقة مضيئة يتم عكسها إلى نور بواسطة الطبقة العاكسة التي تقع خلف الطبقة المولدة للضوء (تقوم مقام المرآة) هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب مشتعل، مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسه نورا من سطحه لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف و أربعمائة وثمانية وعشرون سنة، إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيق لم يدركه العلماء الا فى القرنين الماضيين .

يمكن التواصل مع المؤلفة على الإيميل التالي:

shadia_abdelaziz2009@hotmail.com

المراجع العلمية

1- Abd El-Aziz,Shadia,E. (2003) : Electron Microscopy shows the - Holly Phrase Of Allah in living cells .

Pak.. J. Biol.Sci.,6 (23), 1976 - 1978 .

2- Biron , K (2003) Fireflies , dead fish and a glowing bunny : a primer on bioluminescence. BioTeach J. ,Vol(1), 19-25

3- Campbell , AK ; P.J. Herring (1987) : A noval red fluorescent protein from the deep sea luminous fish Malacosteus niger , 86, 411 -417 .

Chalfie ,M.; Tu,Y.; Euskirchen ,G.; -4
(Ward,W.W.and Presher,D.C. (1994
Green flurescent protein as a marker for gene
. expression. Science, 263 , 802-805
(Chapman ,R.F.(1998 -5
The insects: structure and function. Cambridge
.Univ. Press
: (Douglas ,R.H. and J.C. Partridge (1997 -6
On the visual pigments of deep-sea fish . J.Fish
.Biology ,50, 68-85
Elder, Danny; and John Pernetta, 1991 -7
Oceans, London, Mitchell Beazley , Publishers, p.
27
Floyd, E R. Bermuda Triangle continues to -8
.mystify. The Augusta Chronicle Online . 1997
>
http://www.augustachronicle.com/stories/030297/f

<ea_floyd.html

(Harvey,E.N.(1920 -9

The nature of animal light. Philadelphia :

. J.P.Lippircott Company

(Harvy, E.N.(1952 -10

. Bioluminescence. New York ; Academic Press

(Lioyd , J.E.(1971 -11

.Bioluminescent communication in insects

.Ann. Rev. Entomol.vol,16, pp.97-122

(O Day ,W.T. and H.R. Fernandez (1974 -12

Aristostomias scintillans (Malacosteidae) : a

deep- sea fish with visual pigments apparently

. adapted to its own bioluminescence

. Vision Res. , 14, 545 - 550

Timmins, S.G.; Robb,J.F.; Wilmot,M.C.; -13

. (Jackson,K.S. and Swartz, M.H. (2001

The Journal of Experimental Biology 204, 2795-

(2001) 2801)

* - " معجزة القرآن " للشيخ محمد متولى الشعراوى (1981) - مؤسسة الأخبار (كتاب اليوم) .

- تفسير ابن كثير ، ط . دار الكتب العلمية .

· " من أسرار القرآن " للدكتور زغلول النجار - جريدة الأهرام (26/ 8/2002) .

(595/231)

· " تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان " تأليف العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى - 1307 هـ - 1376 م .

0-هل تعمل الحواس الخمس عند الجنين

دكتور محمد السقا عيد

ماجستير وأخصائى جراحة العيون

عضو الجمعية الرمدية المصرية

قال الله تعالى في كتابه العزيز: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [الذاريات] .

لقد اكتشف حديثاً أن الحواس الخمس تعمل عند الجنين، وبشكل مبكر:

1 . فحاسة اللمس: هي أول حاسة تظهر عند الجنين .

تبدأ هذه الحاسة في الأسبوع السابع أو الثامن ابتداءً من الوجه ثم تنتشر بعد ذلك في باقي الأعضاء لتصل إليها كلها في الأسابيع العشرة التالية .

أول التجارب الحسية تكون تلك الخاصة باليدين والقدمين في لمس جدار الرحم .

2 . حاستي الشم والذوق

تظهران في منتصف الشهر الثالث من الحمل .

تبدأ حاسة الشم العمل في الأسبوع رقم 9، لكنها لا تصل إلى كامل قدرتها إلا في الأسبوع رقم 15 .

يبدأ الجنين داخل الرحم في تكوين " ذاكرة شمية " تساعده في تصنيف الروائح التي تصله من الغذاء أو من البيئة المحيطة به . .

وحاسة الشم ذات أهمية كبيرة فيما يخص ردود الفعل، معرفة الاتجاهات، والتعرف على الآخرين .

بعد الولادة مباشرة يكون الطفل قادراً على التعرف على أمه عن طريق رائحة بشرتها .

وليس صحيحاً أن حاسة التذوق تبدأ بعد الولادة مع عمليات الارضاع الأولى .

فابتداءً بالأسبوع الثاني عشر تظهر على لسان الجنين مسام التذوق والتي تسمح بالتمييز بين المر والحلو وبين الحامض والمالح . . وعن طريق السائل الأمينوسي سيكون بامكان الطفل التعرف على الثقافة الغذائية الخاصة بالأم .

(596/231)

من الأمور التي تمت ملاحظتها أن الطفل – ابتداء من الفترة داخل الرحم – يفضل الطعم الحلو، واذا تم حقن السكرين في السائل الأمينوسي فإن الكمية التي يتم استقبالها من قبل الجنين تتضاعف (الكمية الطبيعية هي 15 – 40 ملليتر في الساعة) .

3 . حاسة السمع

تظهر عند منتصف الشهر الخامس من الحمل، حيث وجد أن الجنين يجيب بعد هذا العمر من الحمل على أي منبه سمعي بإغلاق جفنيه، واللذين يكونان عادة مفتوحين، وهكذا فإن الجنين يسمع أمه ويشعر بدقات قلبها . وفي حوالي الشهر السابع، يبدأ الجنين قدرته على سماع الأصوات الحادة وتمييزها ، ويبدأ بتخزين الصوت الأكثر تكراراً وهو صوت أبيه، ولذلك عند مولده، يتعرف بسهولة على صوت أبيه والذي كان قد اختزنه في ذاكرته أثناء

الحياة الجنينية لتكراره .

ومع وجود الجنين في بيئة معزولة تقريباً بفضل السائل الأمينوسي المحيط به إلا إنه وبحلول الشهر الرابع يكون قادراً على تمييز أصوات عديدة . . وبشكل خاص أصوات مصدرها أعضاء جسم الأم كنبضات القلب والأصوات المصاحبة لعملية الهضم .

للأصوات المختلفة تأثيرات مباشرة على الجنين، فأصوات الأشخاص القريبين منه – خصوصاً صوت الأم – تساعده على الاسترخاء والراحة . .

الموسيقى – وصوت الأم اذا كانت تغني له مثلاً – يؤدي إلى النمو المتوازن لجهازه العصبي .

وجد أن الجنين الذي يتعرض بعد الشهر الخامس من الحياة الرحمية (حيث يبدأ السمع) الى أصوات صاخبة وضجيج متعال، يبدأ بالارتكاس والتململ معلناً احتجاجه وانزعاجه، فتزداد حركاته وتقلباته داخل الرحم، حيث تشعر الأم الحامل بهذه الحركات الغير اعتيادية والزائدة عن المألوف، ونتيجة لذلك وجد أن هؤلاء الأجنة يتعرضون بعد ولادتهم الى اضطرابات في النوم، وعليه فإن الأم الحامل عليها أن تعيش فترة حملها وسط جو هادئ وبعيد عن الصخب والضوضاء . (1)

4 . حاسة البصر

أول حاسة تتكون عند الجنين هي حاسة البصر حيث تبدأ بالتشكل في الأسبوع الخامس . يتكون العصب البصري في الاسبوع السابع، وبعد ذلك تنشأ خلايا شبكية العين . . تبقى الجفون مغلقة حتى الأسبوع السابع والعشرين إلا أن حاسة البصر تكون موجودة . حيث أن تسليط ضوء قوي وساطع على بطن الأم يؤدي بالجنين إلى تحريك رأسه بالاتجاه المعاكس .

كذلك لوحظ أثناء عملية فحص السائل الأمنيوسي والتي تتم في الأسبوع 15 أو 16 فإن الجنين يحاول امساك الإبرة التي يتم استخدامها لاستخراج كمية صغيرة من السائل .

وقد وجد أن الأم التي تعيش حملها في قلق نفسي مستمر واضطراب عاطفي متواصل، تنقل هذه المشاعر الى جنينها ، فيصاب بعد ولادته باضطرابات نفسية تختلف درجتها حسب اختلاف خطورة الاضطراب الذي كانت تعانيه الأم أثناء حملها ، ومن هنا أيضاً توصى الأم الحامل أن تعيش في وسط أسري هادئ ومفعم بالود والحب والوئام بعيداً عن الاضطرابات العائلية والمشاكل الحياتية والتقلبات النفسية والعاطفية . وهنا يبرز دور الزوج أولا ثم الاسرة من أم أو أخت ثانياً في رعاية الحامل أثناء هذه الفترة العصيبة والتي سماها القرآن الكريم فترة الوهن أي الضعف، فلا أبلغ في وصف هذه الفترة من هذا الوصف الرباني المعجز: (. . . حملته أمه وهناً على وهن . . . لقمان 14) وفي سورة

أخرى: (. . حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً . . . الأحقاف 15) .

تبرز هنا أيضاً قضية هامة للغاية، وهي ضرورة مناغاة الطفل ومناجاته، بل ومحادثته . . . وذلك عبر جدار البطن من قبل الأم وأيضاً الأب، فما دامت كل أحاسيس الجنين موجودة ومتفاعلة، فلابد أن لذلك تأثير حسن في نفسيته وأعصابه، وتهذيب طباعه وسلوكه، وطمأنة نفسه وروحه، ودراسات عديدة تعكف حالياً لدراسة تأثير مثل هذه الاتصالات المبكرة مع الجنين على مستقبله النفسي والعاطفي وحتى الصحي . (2) . انتهى انتهى ا هـ

﴿ من آيات الله فى الآفاق ﴾

(598/231)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان التقدير بعد التذكير بهذه الآية التي تنوعت فيها الآيات وتكررت وتكثرت فيها الدلالات : فالذين آمنوا أحياء سامعون لأقوالنا ، ناطقون بمحامدنا راؤون لأفعالنا ،

عطف عليه قوله : ﴿ والذين كذبوا ﴾ أي أوقعوا التكذيب ﴿ بآياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة المقتضية لإضافتها إلينا ، مرئية كانت أو مسموعة ، تكذيباً متكرراً على عدد الآيات بالفعل أو بالقوة ولو بالإعراض عنها ﴿ صم ﴾ أي أموات فهم لا يسمعون ﴿ وبكم ﴾ لا ينطقون ﴿ في الظلمات ﴾ أي عمي لا يبصرون ، فلذلك لا يزالون خابطين خبط العشواء ساعين غاية السعي إلى الردى ، لأن ذلك شأن من في الظلمة ، فكيف بمن هو في جميع الظلمات ! ولعله جمعها إشارة إلى أن المكذب لا ينتفع ببصر ولا ببصيرة ، وذلك أنهم لما لم ينتفعوا بحياتهم ولا بأسماعهم ولا نطقهم ولا أبصارهم ولا عقولهم كان كل ذلك منهم عدماً .

ولما بين أن الأصم الأبكم الأعمى لا يتمكن هدايته ، بين أن ذلك إنما هو بالنسبة لغيره سبحانه فطماً عن طلب إجابتهم إلى ما يقترحون من الآيات وأما هو سبحانه ففعال لما يريد ، فقال في جواب من كأنه قال : إنما تمكن هدايتهم : ﴿ من يشإ الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه إضلاله ﴿ يضلله ومن يشأ ﴾ هدايته ﴿ يجعله ﴾ وأشار إلى تمكينه بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ على صراط مستقيم ﴾ بأن يخلق الهداية في قلبه – ومن يهد الله فما له من مضل ومن يضلل الله فما له من هاد ، مع أن الكل عباده وخلقه ، متقلبون في نعمه ، غادون رائحون في بره وكرمه – إن في ذلك على وحدانيته وتمام قدرته لآيات بينات لقوم يعقلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 633.634 ﴾

وقال الفخر :

في وجه النظم قولان : الأول : أنه تعالى بين من حال الكفار أنهم بلغوا في الكفر إلى حيث كأن قلوبهم قد صارت ميتة عن قبول الإيمان بقوله ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ [الأنعام : 36] فذكر هذه الآية تقريراً لذلك المعنى الثاني أنه تعالى لما ذكر في قوله ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ [الأنعام : 38] في كونها دالة على كونها تحت تدبير مدبر قديم وتحت تقدير مقدر حكيم ، وفي أن عناية الله محيطة بهم ، ورحمته واصلة إليهم ، قال بعده والمكذبون لهذه الدلائل والمنكرون لهذه العجائب صم لا يسمعون كلاماً ألبتة ، بكم لا ينطقون بالحق ، خائضون في ظلمات الكفر ، غافلون عن تأمل هذه الدلائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 181 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهدى والضلال ليس إلا من الله تعالى .

وتقريره أنه تعالى وصفهم بكونهم صماً وبكماً وبكونهم في الظلمات وهو إشارة إلى كونهم

عمياً فهو بعينه نظير قوله في سورة البقرة ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : 18] .

ثم قال تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو صريح في أن الهدى والضلال ليسا إلا من الله تعالى .

قالت المعتزلة : الجواب عن هذا من وجوه :

الوجه الأول : قال الجبائي معناه أنه تعالى يجعلهم صماً وبكماً يوم القيامة عند الحشر . ويكونون كذلك في الحقيقة بأن يجعلهم في الآخرة صماً وبكماً في الظلمات ، ويضلهم بذلك عن الجنة وعن طريقها ويصيرهم إلى النار ، وأكد القاضي هذا القول بأنه تعالى بين في سائر الآيات أنه يحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم .

(600/231)

والوجه الثاني : قال الجبائي أيضاً ويحتمل أنهم كذلك في الدنيا ، فيكون توسعاً من حيث جعلوا بتكذيبهم بآيات الله تعالى في الظلمات لا يهتدون إلى منافع الدين ، كالصم والبكم الذين لا يهتدون إلى منافع الدنيا .

فشبههم من هذا الوجه بهم ، وأجرى عليهم مثل صفاتهم على سبيل التشبيه .

والوجه الثالث : قال الكعبي قوله ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ ﴾ محمول على الشتم والإهانة ، لا على

أنهم كانوا كذلك في الحقيقة .

وأما قوله تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ﴾ فقال الكعبي : ليس هذا على سبيل المجاز لأنه تعالى وإن أجمل القول فيه ها هنا ، فقد فصله في سائر الآيات وهو قوله ﴿ ويُضِلُّ الله الظالمين ﴾ [إبراهيم : 27] وقوله ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين ﴾ [البقرة : 26] وقوله ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] وقوله ﴿ يَهْدِى بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ ﴾ [المائدة : 16] وقوله ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين ءامَنُواْ بالقول الثابت ﴾ [إبراهيم : 27] وقوله ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سبلنا ﴾ [العنكبوت : 69] فثبت بهذه الآيات أن مشيئة الهدى والضلال وإن كانت مجملة في هذه الآية ، إلا أنها مخصصة مفصلة في سائر الآيات ، فيجب حمل هذا المجمل على تلك المفصلات ، ثم إن المعتزلة ذكروا تأويل هذه الآية على سبيل التفصيل من وجوه : الأول : أن المراد من قوله ﴿ الظلمات مَن يَشَإِ الله يُضْلِلْهُ ﴾ محمول على منع الألطاف فصاروا عندها كالصم والبكم .

والثاني : ﴿ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ﴾ يوم القيامة عن طريق الجنة وعن وجدان الثواب ، ومن يشأ أن يهديه إلى الجنة يجعله على صراط مستقيم ، وهو الصراط الذي يسلكه المؤمنون إلى الجنة .

وقد ثبت بالدليل أنه تعالى لا يشاء هذا الإضلال إلا لمن يستحق عقوبة كما لا يشاء الهدى إلا للمؤمنين .

واعلم أن هذه الوجوه التي تكلفها هؤلاء الأقوام إنما يحسن المصير إليها لو ثبت في العقل أنه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره .

وأما لما ثبت بالدليل العقلي القاطع أنه لا يمكن حمل هذا الكلام إلا على ظاهره كان العدول إلى هذه الوجوه المتكلفة بعيداً جداً ، وقد دللنا على أن الفعل لا يحصل إلا عند حصول الداعي ، وبينا أن خالق ذلك الداعي هو الله ، وبينا أن عند حصوله يجب الفعل ، فهذه المقدمات الثلاثة توجب القطع بأن الكفر والإيمان من الله ، وبتخليقه وتقديره وتكوينه ، ومتى ثبت بهذا البرهان القاطع صحة هذا الظاهر ، كان الذهاب إلى هذه التكلفات فاسداً قطعاً ، وأيضاً فقد تتبعنا هذه الوجوه بالابطال والنقض في تفسير قوله ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] وفي سائر الآيات ، فلا حاجة إلى الإعادة ، وأقربها أن هذا الإضلال والهداية معلقان بالمشيئة ، وعلى ما قالوه : فهو أمر واجب على الله تعالى يجب عليه أن يفعله شاء أم أبى والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 183.182 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بئاياتنا ﴾ اختلفوا في المراد بتلك الآيات ، فمنهم من قال : القرآن ومحمد ، ومنهم من قال : يتناول جميع الدلائل والحجج ، وهذا هو الأصح . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 183 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ ﴾ ابتداء وخبر ، أي عدِموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم ؛ فكل أُمة من الدواب وغيرها تهتدي لمصالحها والكفار لا يهتدون ؛ وقد تقدّم في "البقرة" .

﴿ فِي الظلمات ﴾ أي ظلمات الكفر .

وقال أبو علي : يجوز أن يكون المعنى "صم وبكم" في الآخرة ؛ فيكون حقيقة دون مجاز اللغة .

(602/231)

﴿ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ﴾ دلّ على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله ؛ ألا ترى أنه قال : ﴿ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي على دين الإسلام لينفذ فيه

فضله .

وفيه إبطال لمذهب القَدَرية .

والمشيئة راجعة إلى الذين كذبوا ، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا صمّ وبكم في الظلمات ﴾ قال النقاش : نزلت في بني عبد الدار ثم انسحبت على سواهم ؛ انتهى .

ومناسبة هذه لما قبلها أنه لما تقدم قوله : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ أخبر أن المكذبين بالآيات صم لا يسمعون من ينبههم ، فلا يستجيب أحد منهم ولما كان قوله : ﴿ وما من دابة ﴾ الآية منبهاً على عظيم قدرة الله تعالى ولطيف صنعه وبديع خلقه ، ذكر أن المكذب بآياته هو أصم عن سماع الحق أبكم عن النطق به ، والآيات هنا القرآن أو ما ظهر على يدي الرسول من المعجزات أو الدلائل والحجج ثلاثة أقوال والإخبار عنهم بقوله : ﴿ صم وبكم في الظلمات ﴾ الظاهر أنه استعارة عن عدم الانتفاع الذهني بهذه الحواس لا أنهم ﴿ صم وبكم في الظلمات ﴾ حقيقة وجاء قوله : ﴿ في الظلمات ﴾ كناية عن عمي البصيرة ، فهو ينظر كقوله : ﴿ صم بكم عمي ﴾ لكن قوله : ﴿ في الظلمات ﴾ أبلغ من قوله : ﴿ عمي ﴾ إذ جعلت ظرفاً لهم وجمعت لاختلاف جهات الكفر ، كما قيل في

قوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ على أحد الأقوال وفي قوله : ﴿ يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ وقال الجبائي : الإخبار عنهم بأنهم ﴿ صم وبكم في الظلمات ﴾ حقيقة وذلك يوم القيامة يجعلهم صماً وبكماً في الظلمات يضلهم بذلك عن الجنة ويصيرهم إلى النار ، ويعضد هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم ﴾ الآية .

وقال الكعبيّ : ﴿ صم وبكم ﴾ محمول على الشتم والإهانة على أنهم كانوا كذلك في الحقيقة ؛ انتهى .

(603/231)

﴿ والظلمات ﴾ ظلمات الكفر أو حجب تضرب على القلب فيظلم وتحول بينه وبين نور الإيمان ، أو ظلمات يوم القيامة ومنه قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً أو الشدائد لأن العرب كانت تعبر عن الشدة بالظلمة يقولون يوم مظلمة إذا لقوا فيه شدة ومنه قوله :

بني أسد هل تعلمون بلاءنا . . .

إذا كان يوم ذو كواكب مظلم

أربعة أقوال : رابعها قاله الليث .

﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ مفعول ﴿ يشأ ﴾ محذوف تقديره من يشأ الله إضلاله ﴿ يضلله ﴾ ومن يشأ هدايته ﴿ يجعله ﴾ ولا يجوز في ﴿ من ﴾ فيهما أن يكون مفعولاً بيشأ للتعاند الحاصل بين المشيئتين ، (فإن قلت) : يكون مفعولاً بيشأ على حذف مضاف تقديره إضلال من يشاء الله وهداية من يشاء الله ، فحذف وأقيم من مقامه ودل فعل الجواب على هذا المفعول .

فالجواب : أن ذلك لا يجوز لأن أبا الحسن الأخفش حكى عن العرب أن اسم الشرط غير الظرف والمضاف إلى اسم الشرط لا بد أن يكون في الجواب ضمير يعود على اسم الشرط أو المضاف إليه ، والضمير في ﴿ يضلله ﴾ إما أن يكون عائداً على إضلال المحذوف أو على من لا جائز أن يعود على إضلال فيكون كقوله ﴿ يغشاه موج من فوقه ﴾ إذ الهاء تعود على ذي المحذوفة من قوله : أو كظلمات إذ التقدير أو كذي ظلمات لأنه يصير التقدير إضلال ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ أي يضلل الإضلال وهذا لا يصحّ ولا جائز أن يعود على من الشرطية لأنه إذ ذاك تخلوا الجملة الجزائية من ضمير يعود على المضاف إلى اسم الشرط وذلك لا يجوز .

(فإن قلت) : يكون التقدير من يشأ الله بالإضلال فيكون على هذا مفعولاً مقدماً لأن شاء بمعنى أراد ويقال أراده الله بكذا .

قال الشاعر :

أرادت عرار بالهوان ومن يرد . . .

عرار العمرى بالهوان فقد ظلم

(604/231)

فالجواب : أنه لا يحفظ من كلام العرب تعدية شاء بالباء لا يحفظ شاء الله بكذا ولا يلزم من كون الشيء في معنى الشيء أن يعدى تعديته ، بل قد يختلف تعدية اللفظ الواحد باختلاف متعلقه ألا ترى أنك تقول : دخلت الدار ودخلت في غمار الناس ، ولا يجوز دخلت غمار الناس فإذا كان هذا وارداً في الفعل الواحد فلأن يكون في الفعلين أحرى ، وإذا تقرّر هذا فإعراب من يحتمل وجهين أحدهما وهو الأولى أن يكون مبتدأ جملة الشرط خبره والثاني أن يكون مفعولاً بفعل محذوف متأخر عنه يفسره فعل الشرط من حيث المعنى ، وتكون المسألة من باب الاشتغال التقدير من يشق الله يشأ إضلاله ومن يسعد يشأ هدايته ﴿ يجعله على صراط مستقيم ﴾ وظاهر الآية يدل على مذهب أهل السنة في أن الله تعالى هو الهاديّ وهو المضل ، وأن ذلك معذوق بمشيئته لا يسأل عما يفعل وقد تأولت المعتزلة هذه الآية كما تأولوا غيرها فقالوا : معنى ﴿ يضلله ﴾ يخذله ويخبله وضلاله لم يلطف به لأنه ليس من أهل اللطف ، ومعنى ﴿ يجعله على صراط مستقيم ﴾ يلطف به

لأن اللطف يجري عليه وهذا على قول الزمخشري .

وقال غيره : يضلله عن طريق الجنة و ﴿ يجعله على صراط مستقيم ﴾ هو الصراط الذي يسلكه المؤمنون إلى الجنة ، قالوا : وقد ثبت بالدليل أنه تعالى لا يشاء هذا الضلال إلا لمن يستحق العقوبة كما لا يشاء الهدى إلا للمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(605/231)

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ والموصول عبارةٌ عن المعهودِين في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ * الآيات ﴾ ومحلُه الرفعُ على الابتداء خبرُه ما بعده أي أوردنا في القرآن جميعَ الأمور المهمة وأزَحْنا به العِللَ والأعذارَ والذين كذبوا بآياتنا التي هي منه ﴿ صُمٌّ ﴾ لا يسمعونها سمعَ تدبرٍ وفهمٍ فلذلك يسمّونها أساطيرَ الأولين ولا يعدّونها من الآيات ويقترحون غيرها ﴿ وَبُكْمٌ ﴾ لا يقدِرون على أن ينطِقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون دعوتك بها وقوله تعالى : ﴿ فِى الظلمات ﴾ إما متعلقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من المستكنّ في الخبر كأنه قيل : ضالون

كائنين في الظلمات أو صفةً لبكْم أي بُكم كائنون في الظلمات ، والمراد به بيانُ كمالِ عراقتهم في الجهل وسوء الحال فإن الأصمَّ الأبكمَ إذا كان بصيراً ربما يَفهم شيئاً بإشارةِ غيرِه وإن لم يفهَمْه بعبارته ، وكذا يُشعِرُ غيرَه بما في ضميره بالإشارة وإن كان معزولاً عن العبارة ، وأما إذا كان مع ذلك أعمى أو كان في الظلمات فينسدّ عليه بابُ الفهم والتفهيم بالكلية ، وقوله تعالى : ﴿ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ﴾ تحقيقٌ للحق وتقريرٌ لما سبقَ من حالهم ببيانِ أنهم من أهل الطبْعِ لا يتأتَّى منهم الإيمانُ أصلاً ، فمَنْ مبتدأ خبرُه ما بعده ومفعولُ المشيئة محذوفٌ على القاعدة المستمرَّة من وقوعها شرطاً وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء وانتفاءِ الغرابة في تعلقها به أي من يشأ الله إضلالَه أي أن يخلُق فيه الضلالَ يضلِلْه أي يخلُقه فيه ولكن لا ابتداءً بطريق الجبر من غير أن يكون له دخلٌ ما في ذلك بل عند صَرْفِ اختياره إلى كَسْبه وتحصيلِه وقِسْ عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على * صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضِلُّ من ذهب إليه ولا يزِلُّ من ثبَت قدمُه عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(606/231)

وقال الشوكاني :

قوله : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا صُمٌّ وبُكْمٌ ﴾ أي لا يسمعون بأسماعهم ولا ينطقون بألسنتهم ، نزلهم منزلة من لا يسمع ولا ينطق ، لعدم قبولهم لما ينبغي قوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة .

وقال أبو علي : يجوز أن يكون صممهم وبكمهم في الآخرة .

قوله : ﴿ فِى الظلمات ﴾ أي في ظلمات الكفر ، والجهل والحيرة ، لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم .

والمعنى : كائنين في الظلمات التي تمنع من إبصار المبصرات ، وضموا إلى الصمم ، والبكم ، عدم الانتفاع بالأبصار لتراكم الظلمة عليهم ، فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا ينتفع بها بحال ، وقد تقدّم في البقرة تحقيق المقام بما يغني عن الإعادة ، ثم بين سبحانه أن الأمر بيده ما شاء يفعل ، من شاء تعالى أن يضله أضله ، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم ، لا يذهب به إلى غير الحق ، ولا يمشي فيه إلا إلى صوب الاستقامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(607/231)

وقال الآلوسى :

﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ أي القرآن أو سائر الحجج ويدخل دخولاً أولياً ، والموصول عبارة عن المعهودين في قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [الأنعام : 25] الخ أو الأعم من أولئك ، والكلام متعلق بقوله سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا ﴾ [الأنعام : 38] الخ أو بقوله جل شأنه ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام : 36] والواو للاستئناف وما بعدها مبتدأ خبره ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ ﴾ وجوز أن يكون هذا خبر مبتدأ محذوف أي بعضهم صم وبعضهم بكم .

والجملة خبر المبتدأ والأول أولى ، وهو من التشبيه البليغ على القول الأصح في أمثاله أي أنهم كالصم وكالبكم فلا يسمعون الآيات سماعاً تتأثر منه نفوسهم ولا يقدرون على أن ينطقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون ويقولون في الآيات ما يقولون .

وقوله سبحانه : ﴿ فِى الظلمات ﴾ أي في ظلمات الكفر وأنواعه أو في ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد في الباطل إما خبر بعد خبر للموصول على أنه واقع موقع (عمي ﴾) كما في قوله تعالى : ﴿ ﴾) كما في قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ [البقرة : 18 ، 171] ووجه ترك العطف فيه دون ما تقدمه الإيماء إلى أنه وحده كاف في الذم والإعراض عن الحق ، واختير العطف فيما تقدم للتلازم ، وقد يترك رعاية لنكتة أخرى وإما متعلق بمحذوف وقع حالاً من المستكن في الخبر كأنه قيل : ضالون خابطين أو كائنين

في الظلمات .

ورجحت الحالية بأنها أبلغ إذ يفهم حينئذٍ أن صممهم وبكمهم مقيد بحال كونهم في ظلمات الكفر أو الجهل وأخويه حتى لو أخرجوا منها لسمعوا ونطقوا ، وعليها لا يحتاج إلى بيان وجه ترك العطف .

(608/231)

وجوز أبو البقاء أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هم في الظلمات ؛ وأن يكون صفة لبكم أو ظرفاً له أو لصم أو لما ينوب عنهما من الفعل ، وعن أبي علي الجبائي أن المراد بالظلمات ظلمات الآخرة على الحقيقة أي أنهم كذلك يوم القيامة عقاباً لهم على كفرهم في الدنيا .

والكلام عليه متعلق بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : 38] على أن الضمير للأمم على الإطلاق وفيه بعد .

وقوله سبحانه :

﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ ﴾ تحقيق للحق وتقرير لما سبق من حالهم ببيان أنهم من أهل الطبع لا يتأتى منهم الإيمان أصلاً فمن مبتدأ خبره ما بعده ومفعول (يشأ) محذوف أي إضلاله .

ولا يجوز أن يكون (من) مفعولاً مقدماً له لفساد المعنى ، والمراد من يرد سبحانه أن يخلق

فيه الضلال عن الحق يخلقه فيه حسب اختياره الناشىء عن استعداده ، وجوز بعضهم أن يكون ﴿ مِنْ ﴾ في موضع نصب بفعل مقدر بعده يفسره ما بعده أي من يشق أو يعذب يشأ إضلاله .

﴿ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ عطف على ما تقدم ، والكلام فيه كالكلام فيه ، والآية دليل لأهل السنة على أن الكفر والإيمان بإرادته سبحانه وأن الإرادة لا تتخلف عن المراد .

والزمخشري لما رأى تخرق عقيدته الفاسدة رام رقعها كما هو دأبه فقال : "معنى ﴿ يُضْلِلْهُ ﴾ يخذله ولم يلطف به و ﴿ يَجْعَلُهُ ﴾ الخ يلطف به" ، وقال غيره : المراد من يشأ إضلاله يوم القيامة عن طريق الجنة يضلله ومن يشأ يجعله على الصراط الذي يسلكه المؤمنون إلى الجنة وهو كما ترى .

وكان الظاهر على ما قيل : أن يقال ومن يشأ يهده إلا أنه عدل عنه لأن هدايته تعالى وهي إرشاده إلى الهدى غير مختصة ببعض دون بعض .

ولهذا قيل في تفسير ﴿ يَجْعَلُهُ ﴾ الخ أي يرشده إلى الهدى ويحمله عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(609/231)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾

يجوز أن تكون الواو للعطف ، والمعطوف عليه جملة : ﴿ إنّما يستجيب الذين يسمعون ﴾ .

والمعنى : والذين كذّبوا بآياتنا ولم يستمعوا لها ، أي لا يستجيبون بمنزلة صمّ وبكم في ظلمات لا يهتدون .

ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة والواو استئنافية ، أي عاطفة كلاماً مبتدأ ليس مرتبطاً بجملة معيّنة من الكلام السابق ولكنّه ناشيء عن جميع الكلام المتقدّم .

فإنّ الله لمّا ذكر من مخلوقاته وآثار قدرته ما شأنه أن يعرّف الناس بوحدانيته ويدلّهم على آياته وصدق رسوله أعقبه ببيان أنّ المكذّبين في ضلال مبين عن الاهتداء لذلك ، وعن التأمّل والتفكير فيه ، وعلى الوجهين فمناسبة وقوع هذه الجملة عقب جملة : ﴿ وما من دابة في الأرض ﴾ [الأنعام : 38] الآية قد تعرّضنا إليها آنفاً .

والمراد بالذين كذّبوا المشركون الذين مضى الكلام على أحوالهم عموماً وخصوصاً .

وقوله : ﴿ صمّ وبكم في الظلمات ﴾ تمثيل لحالهم في ضلال عقائدهم والابتعاد عن الاهتداء بحال قوم صمّ وبُكم في ظلام .

فالصّمم يمنعهم من تلقِّي هدى من يهديهم ، والبكَم يمنعهم من الاسترشاد ممّن يمرّ بهم ، والظلام يمنعهم من التبصّر في الطريق أو المنفذ المخرج لهم من مأزقهم .

وإنَّما قيل في ﴿ الظلمات ﴾ ولم يوصفوا بأنَّهم عُمّي كما في قوله : ﴿ عُميا وبُكما وصمّا ﴾ [الإسراء : 97] ليكون لبعض أجزاء الهيئة المشبَّهة بها ما يصلح لشبه بعض أجزاء الهيئة المشبَّهة ، فإنّ الكفر الذي هم فيه والذي أصارهم إلى استمرار الضلال يشبه الظلمات في الحيلولة بين الداخل فيه وبين الاهتداء إلى طريق النجاة .

وفي الحديث : " الظلم ظلمات يوم القيامة " فهذا التمثيل جاء على أتمّ شروط التمثيل .

وهو قبوله لتفكيك أجزاء الهيئتين إلى تشبيهات مفردة ، كقول بشّار :

كأنّ مُثَار النّقع فوقَ رؤوسنا

وأسيافنا ليل تَهادَى كواكبُه . . .

وجمع الظلمات جار على الفصيح من عدم استعمال الظلمة مفرداً .

(610/231)

وقد تقدّم في صدر السورة ، وقيل : للإشارة إلى ظلمة الكفر ، وظلمة الجهل ، وظلمة العناد .

وقوله : ﴿ صمّ وبكم ﴾ خبر ومعطوف عليه .

وقوله : ﴿ في الظلمات ﴾ خبر ثالث لأنّه يجوز في الأخبار المتعددة ما يجوز في النعوت المتعدّدة من العطف وتركه .

وقوله : ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ استئناف بياني لأنّ حالهم العجيبة تثير سؤالاً وهو أن يقول قائل ما بالهم لا يهتدون مع وضوح هذه الدلائل البيّنات ، فأجيب بأنّ الله أضلّهم فلا يهتدون ، وأنّ الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء ، فدلّ قوله : ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ على أنّ هؤلاء المكذّبين الضالّين هم ممَّن شاء الله إضلالهم على طريقة الإيجاز بالحذف لظهور المحذوف ، وهذا مرتبط بما تقدّم من قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ [الأنعام : 35] .

ومعنى إضلال الله تقديره الضلال ؛ بأن يخلق الضّالّ بعقل قابل للضلال مُصرّ على ضلاله عنيد عليه فإذا أخذ في مبادىء الضلال كما يعرض لكثير من الناس فوعظه واعظ أو خطر له في نفسه خاطر أنَّه على ضلال منعه إصراره من الإقلاع عنه فلا يزال يهوي به في مهاوي الضلالة حتَّى يبلغ به إلى غاية التخلّق بالضلال فلا ينكفّ عنه .

وهذا ممّا أشار إليه قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : 4 ، 5] ، ودلّ عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم " إنّ الرجل

لَيَصْدُق حتَّى يكون صدّيقاً وإنّ الرجل ليكذب حتَّى يُكتب عند الله كذّاباً " وكلّ هذا من تصرّف الله تعالى بالتكوين والخلق وهو تصرّف القدر .

(611/231)

وله اتِّصال بناموس التسلسل في تطوّر أحوال البشر في تصرّفات بعقولهم وعوائدهم ، وهي سلسلة بعيدة المدى اقتضتها حكمة الله تعالى في تدبير نظام هذا العالم ، ولا يعلم كنهها إلاّ الله تعالى ، وليس هذا الإضلال بالأمر بالضلال فإنّ الله لا يأمر بالفحشاء ولا بتلقينه والحثّ عليه وتسهيله فإنّ ذلك من فعل الشيطان ، كما أنّ الله قد حرم من أراد إضلاله من انتشاله واللطف به لأنّ ذلك فضل مَن هو أعلم بأهله .

ومفعول ﴿ يشأ ﴾ محذوف لدلالة جواب الشرط عليه ، كما هو الشائع في مفعول فعل المشيئة الواقع شرطاً .

والصراط هو الطريق البيّن .

ومعنى المستقيم أنّه لا اعوجاج فيه ، لأنّ السّير في الطريق المستقيم أيسر على السائر وأقرب وصولاً إلى المقصود .

ومعنى (على) الاستعلاء ، وهو استعلاء السائر على الطريق .

فالكلام تمثيل لحال الذي خلقه الله فمَنّ عليه بعقل يرعوي من غيّه ويُصغي إلى النصيحة فلا يقع في الفساد فاتّبع الدين الحقّ ، بحال السائر في طريق واضحة لا يتحيَّر ولا يخطىء القصد ، ومستقيمة لا تطوح به في طول السير .

وهذا التمثيل أيضاً صالح لتشبيه كلّ جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبّه بها ، كما تقدّم في نظيره .

وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] .

فالدين يشبه الصراط الموصّل بغير عناء ، والهدي إليه شبيه الجعل على الصراط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(612/231)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .

بَيّنَ لَنَا تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَجَمَعَ النَّاسَ عَلَى الْهُدَى وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَجْعَلَ الْبَشَرَ مَفْطُورِينَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا أَنْ يُلْجِئَهُمْ إلَيْهِ إلْجَاءً بِالْآيَاتِ الْقَاسِرَةِ ، بَلِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَمَضَتْ سُنَّتُهُ فِي الْبَشَرِ بِأَنْ يَكُونُوا مُتَفَاوِتِينَ فِي الِاسْتِعْدَادِ ، عَامِلِينَ بِالِاخْتِيَارِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْتَارُ الْهُدَى عَلَى الضَّلَالِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحِبُّ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، ثُمَّ بَيَّنَ لَنَا فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَنَّ الْأَوَّلِينَ هُمُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي الْآيَاتِ ، وَيَعْقِلُونَ مَا يَسْمَعُونَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَنَّ الْآخِرِينَ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَنْظُرُونَ حَتَّى كَأَنَّهُمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ) يُقَالُ : أَجَابَ الدَّعْوَةَ إذَا أَتَى مَا دُعِيَ إلَيْهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَأَجَابَ الدَّاعِيَ إذَا لَبَّاهُ وَقَامَ بِمَا دَعَاهُ إلَيْهِ ، وَيُقَالُ : اسْتَجَابَ لَهُ ، وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ ، وَاسْتَجَابَ دُعَاءَهُ وَكَذَا اسْتَجَابَهُ . نَعْرِفُ مِنْهُ قَوْلَ كَعْبِ بْنِ مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ :

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إلَى النَّدَى . . . فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ .

(613/231)

قَالُوا : إنَّ الِاسْتِجَابَةَ بِمَعْنَى الْإِجَابَةِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ : فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ مُجِيبٌ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : وَالِاسْتِجَابَةُ قِيلَ : هِيَ الْإِجَابَةُ ، وَحَقِيقَتُهَا هِيَ التَّحَرِّي لِلْجَوَابِ وَالتَّهَيُّؤُ لَهُ لَكِنْ عَبَّرَ بِهِ عَنِ الْإِجَابَةِ لِقِلَّةِ انْفِكَاكِهَا مِنْهَا . انْتَهَى . وَهَذَا مِنْ دَقَائِقِ تَحْدِيدِهِ لِلْمَعَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ،

وَلَكِنَّهُ لَمْ يُحِطْ بِهِ ، وَحَقِيقَةُ الْجَوَابِ وَالْإِجَابَةِ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ – قَطَعَ الصَّوْتَ أَوِ الشَّخْصَ الْجَوْبَ أَوِ الْجَوْبَةَ وَهِيَ الْمَسَافَةُ بَيْنَ الْبُيُوتِ أَوِ الْحُفْرَةُ ، وَوُصُولُهُ إِلَى الدَّاعِي أَيْ : وُصُولُ مَا سَأَلَهُ إِلَيْهِ بِالْفِعْلِ ، وَأَمَّا الِاسْتِجَابَةُ فَهِيَ التَّهَيُّؤُ لِلْجَوَابِ أَوْ لِلْإِجَابَةِ أَيِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلشُّرُوعِ وَالْمُضِيِّ فِيهَا عِنْدَ الْإِمْكَانِ ، وَغَايَتُهُ الْإِجَابَةُ التَّامَّةُ عِنْدَ عَدَمِ الْمَانِعِ ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ عَلَى مَعْنَاهُمَا ، وَمَنْ دَقَّقَ النَّظَرَ فِي اسْتِعْمَالِ الصِّيغَتَيْنِ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ يَظْهَرُ لَهُ أَنَّ أَفْعَالَ الْإِجَابَةِ كُلَّهَا قَدْ ذُكِرَتْ فِي الْمَوَاضِعِ الْمُفِيدَةِ لِحُصُولِ السُّؤَالِ كُلِّهِ بِالْفِعْلِ حَقِيقَةً أَوِ ادِّعَاءً دُفْعَةً وَاحِدَةً ، وَمِنْهُ الْإِجَابَةُ بِالْقَوْلِ كَقَوْلِكَ : نَعَمْ ، وَبَلَى ، وَلَبَّيْكَ ، وَلَكَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ الِاسْتِجَابَةَ قَدْ ذُكِرَتْ فِي الْمَوَاضِعِ الْمُفِيدَةِ لِحُصُولِ السُّؤَالِ بِالْقُوَّةِ أَوِ التَّهَيُّؤِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) (3 : 172) فَهُوَ قَدْ نَزَلَ فِي

(614/231)

تَهَيُّؤِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْقِتَالِ فِي حَمْرَاءِ الْأَسَدِ بَعْدَ أُحُدٍ ، أَوْ بِالْفِعْلِ التَّدْرِيجِيِّ ، كَاسْتِجَابَةِ دَعْوَةِ الدِّينِ الَّتِي تَبْدَأُ بِالْقَبُولِ وَالشَّهَادَتَيْنِ ، ثُمَّ تَكُونُ سَائِرُ الْأَعْمَالِ بِالتَّدْرِيجِ وَشَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ ، وَالِاسْتِجَابَةُ مِنَ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِنَّمَا يُعَبَّرُ بِهَا فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ،

وَيَكُونُ الشَّأْنُ فِيهَا أَنْ تَقَعَ بِالتَّدْرِيجِ كَاسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ بِالْوِقَايَةِ مِنَ النَّارِ ، وَبِالْمَغْفِرَةِ وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَإِيتَاءِ مَا وَعَدَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ ، قَالَ تَعَالَى بَعْدَ حِكَايَةِ هَذَا الدُّعَاءِ بِذَلِكَ عَنْ أُولِي الْأَلْبَابِ : (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ) (3 : 195) إِلَخْ . وَكَاسْتِجَابَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرٍ بِإِمْدَادِهِمْ بِالْمَلَائِكَةِ تُثَبِّتُهُمْ كَمَا فِي " سُورَةِ الْأَنْفَالِ " (8 : 9 - 12) وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِجَابَتُهُ لِأَيُّوبَ وَذِي النُّونِ وَزَكَرِيَّا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَمَا فِي " سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ " (21 : 83 ، 90) كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَقَعُ بِالتَّدْرِيجِ فِي الِاسْتِقْبَالِ ،

(615/231)

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ حِينَ دَعَوْا عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ : (قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا) (10 : 89) فَهُوَ تَبْشِيرٌ لَهُمَا بِأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ قَبِلَهَا بِالْفِعْلِ . وَهَذَا مِنَ الْإِجَابَةِ الْقَوْلِيَّةِ جَاءَتْ بِصِيغَةِ الْمَاضِي لِلْإِيذَانِ بِتَحَقُّقِ مَضْمُونِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ حَتَّى كَأَنَّهَا أُجِيبَتْ وَانْتَهَى أَمْرُهَا ، وَهَذَا الْمَعْنَى تُؤَدِّيهِ مَادَّةُ الْإِجَابَةِ دُونَ مَادَّةِ الِاسْتِجَابَةِ ، وَلَوْ ذُكِرَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ بِصِيغَةِ الْحِكَايَةِ لَعَبَّرَ عَنْ إِعْطَائِهِمَا مَا سَأَلَا بِلَفْظِ الِاسْتِجَابَةِ كَمَا قَالَ فِي شَأْنِ كُلٍّ مِنْ أَيُّوبَ وَذِي النُّونِ وَزَكَرِيَّا (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ) فَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ مِنْ هَذِهِ الدِّقَّةِ وَالْبَلَاغَةِ فِي هَذَا الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ الْمُعْجِزِ لِلْبَشَرِ حَتَّى فِي وَضْعِ مُفْرَدَاتِهِ فِي مَوَاضِعِهَا ، دَعْ بَلَاغَةَ أَسَالِيبِهِ ، وَجُمَلِهِ ، وَعُلُومِهِ

، وَحِكَمِهِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ . هَذَا تَحْقِيقُ مَعْنَى الِاسْتِجَابَةِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِجَابَةِ وَالِاسْتِجَابَةِ هُوَ أَنَّ الِاسْتِجَابَةَ تَدُلُّ عَلَى الْقَبُولِ وَلَا يُعْرَفُ لَهُ أَصْلٌ مَنْقُولٌ وَلَا مَعْقُولٌ .

(616/231)

وَالسَّمْعُ وَالسَّمَاعُ يُطْلَقُ بِمَعْنَى إِدْرَاكِ الصَّوْتِ ، وَبِمَعْنَى فَهْمِ مَا يُسْمَعُ مِنَ الْكَلَامِ وَهُوَ ثَمَرَةُ السَّمَاعِ ، وَبِمَعْنَى قَبُولِ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ وَالِاعْتِبَارِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِمُوجِبِهِ ، وَهَذِهِ ثَمَرَةُ الثَّمَرَةِ ، فَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الْكَامِلَةُ الْعُلْيَا مِنْ مَرَاتِبِ السَّمَاعِ ، فَمَنْ سَمِعَ وَلَمْ يَفْهَمْ ، كَانَ كَمَنْ لَمْ يَسْمَعْ ، وَمَنْ فَهِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ كَانَ كَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَأَبْعَدُ عَنْ قَصْدِ الْمُبَالَغَةِ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لِمَكْرُمَةٍ . . . فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا .

رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ . . . فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا .

ذَلِكَ بِأَنَّ لِلْخَلْقِ وَالرِّزْقِ ثَمَرَاتٍ وَغَايَاتٍ غَيْرَ الْمَكَارِمِ وَسَمَاحِ الْيَدِ ، وَأَمَّا سَمَاعُ الْكَلَامِ فَلَا فَائِدَةَ لَهُ إِلَّا فَهْمَهُ ، وَفَهْمُهُ لَا فَائِدَةَ لَهُ إِلَّا الِانْتِفَاعَ بِهِ ، وَلِأَجْلِ هَذَا أَطْلَقَ الْقُرْآنُ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ سَمَاعِ الْآيَاتِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ لَفْظَ الصُّمِّ وَلَفْظَ الْمَوْتَى فِي آيَاتٍ مِنْهَا قَوْلُهُ فِيهِمَا

مَعًا : (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) (27 : 80) وَالْآيَةُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ .

(617/231)

فَمَعْنَى صَدْرِ الْآيَةِ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ - أَوْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ - الَّذِينَ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ الدَّاعِي إِلَيْهِ بِآيَاتِهِ سَمَاعَ فَهْمٍ وَتَدَبُّرٍ ، فَيَعْقِلُونَ الْآيَاتِ ، وَيُذْعِنُونَ لِمَا عَرَفُوا بِهَا مِنَ الْحَقِّ ; لِسَلَامَةِ فِطْرَتِهِمْ وَاسْتِقْلَالِ عُقُولِهِمْ ، دُونَ الَّذِينَ قَالُوا : سَمِعْنَا

وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ كَالْمُقَلِّدِينَ الْجَامِدِينَ ، وَدُونَ الَّذِينَ قَالُوا : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْجَاحِدِينَ . فَكُلُّ أُولَئِكَ مِنْ مَوْتَى الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ عَنِ الِانْتِفَاعِ مِنْ مَوْتَى الْجُسُومِ وَالْأَبْدَانِ .

(وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) أَيْ وَمَوْتَى الْقُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ هَذَا السَّمَاعَ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قُبُورِهِمْ وَيُرْسِلُهُمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ ، ثُمَّ تُرْجِعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ إِلَيْهِ فَيَنَالُونَ مَا اسْتَحَقُّوهُ مِنَ الْجَزَاءِ ، فَأَصْلُ الْبَعْثِ فِي اللُّغَةِ : إِثَارَةُ الشَّيْءِ وَتَوْجِيهُهُ ، كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ : يُقَالُ : بَعَثْتُ بِالْبَعِيرِ أَيْ : أَثَرْتُهُ مِنْ مَبْرَكِهِ وَسَيَّرْتُهُ إِلَى الْمَرْعَى وَنَحْوِهِ ، وَ (يُرْجَعُونَ) مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ مِنَ الرَّجْعِ ، وَ " رَجَعَ " جَاءَ لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا ، يُقَالُ : رَجَعَ فُلَانٌ

رُجُوعًا ، أَيِ انْصَرَفَ وَرَجَعْتُهُ رَجْعًا ، وَمِنْهُ (قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا) (23 : 99 ، 100) وَ "أَرْجَعْتُهُ" لُغَةُ هُذَيْلٍ .

(618/231)

فَالظَّاهِرُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَوْتَى هُنَا : الْكُفَّارُ الرَّاسِخُونَ فِي الْكُفْرِ ، الْمَطْبُوعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، الْمَيْئُوسُ مِنْ سَمَاعِهِمْ سَمَاعَ فَهْمٍ وَاعْتِبَارٍ تَتْبَعُهُ الِاسْتِجَابَةُ لِدَاعِي الْإِيمَانِ ، أَيْ : وَالَّذِينَ لَا تُرْجَى اسْتِجَابَتُهُمْ لِأَنَّهُمْ كَالْمَوْتَى لَا يَسْمَعُونَ السَّمَاعَ النَّافِعَ - يُتْرَكُ أَمْرُهُمْ إلَى اللَّهِ فَهُوَ يَبْعَثُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إلَيْهِ فَيُجَازِيهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَلَا يَضُرُّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ كُفْرُهُمْ ، وَلَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِكَ هِدَايَتُهُمْ ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُفَوِّضَ إلَى اللَّهِ أَمْرَهُمْ ، وَقِيلَ : إنَّ لَفْظَ الْمَوْتَى

عَلَى حَقِيقَتِهِ ، وَأَنَّ الْكَلَامَ تَمْثِيلٌ وَتَعْرِيضٌ بِالْإِيمَاءِ إلَى عَدَمِ قُدْرَةِ الرَّسُولِ عَلَى هِدَايَتِهِمْ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إحْيَاءِ الْمَوْتَى . وَهُوَ بَعِيدٌ وَفِيهِ مَا لَا يَخْفَى مِنَ التَّكْلِيفِ .

(619/231)

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) أَيْ : وَقَالَ أُولَئِكَ الظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَيُعَانِدُونَ رَسُولَهُ إِلَيْهِمْ : هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ - أَيِ الرَّسُولِ - آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِسُنَنِهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ، مِمَّا اقْتَرَحْنَا عَلَيْهِ ، وَجَعَلْنَاهُ شَرْطًا لِإِيمَانِنَا بِهِ ؟ وَقِيلَ : إِنَّ مُرَادَهُمْ آيَةٌ مُلْجِئَةٌ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَالْإِلْجَاءُ اضْطِرَارٌ لَا اخْتِيَارٌ ، فَلَا يُوَجَّهُ إِلَيْهِ الطَّلَبُ وَلَا يُعْتَدُّ بِهِ إِنْ حَصَلَ (قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أَيْ : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

(620/231)

قَادِرٌ عَلَى تَنْزِيلِ آيَةٍ مِمَّا اقْتَرَحُوا ، وَإِنَّمَا يُنَزِّلُهَا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ تَنْزِيلَهَا ، لَا إِذَا تَعَلَّقَتْ شَهْوَتُهُمْ بِتَعْجِيزِ الرَّسُولِ بِطَلَبِهَا ، فَإِنَّ إِجَابَةَ الْمُعَانِدِينَ إِلَى الْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ لَمْ يَكُنْ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ سَبَبًا لِلْهِدَايَةِ ، وَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي الْأَقْوَامِ ، بِأَنْ يُعَاقِبَ الْمُعَجِّزِينَ لِلرُّسُلِ بِذَلِكَ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ ، فَتَنْزِيلُ آيَةٍ مُقْتَرَحَةٍ لَا يَكُونُ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ حِكَمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَفْعَالِهِ ، وَلَا مِنْ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَلَا أَنَّكَ أُرْسِلْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، فَلَا يَأْتِي عَلَى يَدَيْكَ سَبَبُ اسْتِئْصَالِ أُمَّتِكَ بِإِجَابَةِ الْمُعَانِدِينَ مِنْهَا إِلَى مَا اقْتَرَحُوا عَلَيْكَ لِإِظْهَارِ عَجْزِكَ ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَيْضًا أَنَّ إِجَابَةَ اقْتِرَاحٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي إِلَى

اقْتِرَاحَاتٍ كَثِيرَةٍ لَا حَدَّ لَهَا ، وَلَا فَائِدَةَ مِنْهَا . وَقَدْ يَعْلَمُ أَفْرَادٌ مِنْهُمْ بَعْضَ ذَلِكَ عِلْمًا نَاقِصًا لَا يَهْدِي إِلَى الِاعْتِبَارِ ، وَلَا يَصُدُّ صَاحِبَهُ عَنْ مِثْلِ هَذَا الِاقْتِرَاحِ ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّهُمُ اقْتَرَحُوا آيَةً مُلْجِئَةً يَقُولُ : وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ تَنْزِيلَهَا يُزِيلُ الِاخْتِيَارَ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ التَّكْلِيفِ فَلَا يَبْقَى لِدَعْوَةِ الرِّسَالَةِ فَائِدَةٌ .

(621/231)

قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ (يُنْزَلَ) بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الْإِنْزَالِ ، وَالْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّنْزِيلِ الدَّالِّ بِصِيغَتِهِ عَلَى التَّدْرِيجِ أَوِ التَّكْثِيرِ ، وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ : إِنَّ مَعْنَاهُمَا هَاهُنَا وَاحِدٌ ، وَالَّذِي نَرَاهُ هُوَ أَنَّ كُلَّ صِيغَةٍ مِنْهُمَا عَلَى أَصْلِ مَعْنَاهَا ، وَأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا لِبَيَانِ أَنَّ بَعْضَهُمُ اقْتَرَحَ آيَةً وَاحِدَةً تَنْزِلُ دُفْعَةً وَاحِدَةً كَنُزُولِ مَلَكٍ مِنَ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ أَوْ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقِرَاءَةِ ابْنِ كَثِيرٍ ، وَبَعْضُهُمُ اقْتَرَحَ عِدَّةَ آيَاتٍ مِنْهَا مَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّدْرِيجِ وَهِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا بِقِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ ، وَلَا يُنَافِي إِفْرَادُ الْآيَةِ هُنَا طَلَبَ بَعْضِهِمْ لِعِدَّةِ آيَاتٍ ; إِذِ الْمُرَادُ بِهَا آيَةٌ مِمَّا اقْتَرَحُوا ، وَقَدْ صَرَّحَ لَفْظُ الْجَمْعِ فِي آيَةِ الْعَنْكَبُوتِ الْوَارِدَةِ بِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ ، وَسَيَأْتِي نَصُّهَا قَرِيبًا .

هَذَا وَإِنَّ بَعْضَ الْكُفَّارِ وَبَعْضَ الشَّاكِّينَ وَالْمُشَكِّكِينَ فِي الْإِسْلَامِ يَقُولُونَ : لَوْ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُوتِيَ آيَةً بَيِّنَةً وَمُعْجِزَةً وَاضِحَةً تَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ لَمَا طَلَبَ

قَوْمُهُ الْآيَةَ ، وَإِنَّ هَذَا الْجَوَابَ بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَى تَنْزِيلِ الْآيَةِ وَنَفْيِ الْعِلْمِ عَنْ أَكْثَرِهِمْ لَا تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمُ الْمُبَطَّلَةُ لِحَقِّيَّةِ طَلَبِهِمْ ، وَإِلَيْكَ الْجَوَابُ عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ :

(622/231)

إِنَّ الْآيَةَ الْكُبْرَى لِخَاتَمِ الرُّسُلِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى نُبُوَّتِهِ هِيَ الْقُرْآنُ ، وَإِنَّهَا لَآيَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ، وَقَدِ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهِ وَتَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فَعَجَزُوا ، وَاحْتَجَّ

(623/231)

عَلَيْهِمْ أَيْضًا بِبَعْضِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ كَأَخْبَارِ الْغَيْبِ . وَمِمَّا نَزَلَ فِي ذَلِكَ قَبْلُ " سُورَةِ الْأَنْعَامِ " فَاكْتَفَى فِيهَا بِالْإِحَالَةِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي " سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ " : (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ

الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (29 : 47 - 51) فَالْقُرْآنُ فِي جُمْلَتِهِ آيَةٌ عِلْمِيَّةٌ ، وَفِي تَفْصِيلِهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ عَقْلِيَّةٌ وَكَوْنِيَّةٌ ، وَهِيَ دَائِمَةٌ لَا تَزُولُ كَمَا زَالَتِ الْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ كَعَصَا مُوسَى مَثَلًا ، عَامَّةٌ لَا تَخْتَصُّ بِبَعْضِ مَنْ كَانَ فِي عَصْرِ الرَّسُولِ كَمَا كَانَتْ آيَةُ مُوسَى الْكُبْرَى خَاصَّةً بِمَنْ رَآهَا فِي عَصْرِهِ ، وَهِيَ أَدَلُّ عَلَى الرِّسَالَةِ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ ; لِأَنَّ مَوْضُوعَ الرِّسَالَةِ عِلْمِيٌّ ، فَهُوَ عِلْمٌ مُوحًى بِهِ غَيْرُ مَكْسُوبٍ يُقْصَدُ بِهِ هِدَايَةُ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ ، فَظُهُورُ عُلُومِ الْهِدَايَةِ عَلَى لِسَانِ أُمِّيٍّ كَانَ هُوَ وَقَوْمُهُ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْ كُلِّ عِلْمٍ بِعِبَارَةٍ

(624/231)

أَعْجَزَتْ بِبَلَاغَتِهَا قَوْمَهُ كَمَا أَعْجَزَتْ غَيْرَهُمْ - عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ مَعْدُودًا مِنْ بُلَغَائِهِمْ - أَدَلُّ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ مُوحًى بِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَصَا مُوسَى عَلَى كَوْنِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّوْرَاةِ مُوحًى بِهِ مِنْهُ تَعَالَى ، وَهِيَ غَيْرُ مُعْجِزَةٍ فِي نَفْسِهَا ، وَقَدْ نَشَأَ مَنْ جَاءَ بِهَا فِي دَارِ مَلِكٍ أَرْبَى عَلَى سَائِرِ مَمَالِكِ الْأَرْضِ بِالْعُلُومِ وَالشَّرَائِعِ .

فَالْآيَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْقَطْعِيَّةُ لَا يُمْكِنُ الْمِرَاءُ فِيهَا كَالْمِرَاءِ فِي الْآيَةِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَمْرٌ غَرِيبٌ غَيْرُ مُعْتَادٍ يَشْتَبِهُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ النَّادِرَةِ الَّتِي لَهَا أَسْبَابٌ خُفْيَةٌ كَالسِّحْرِ وَغَيْرِهِ ; وَلِذَلِكَ

اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْمَعْقُولِ فِي دَلَالَةِ الْمُعْجِزَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ ، هَلْ هِيَ عَقْلِيَّةٌ أَوْ عَادِيَّةٌ أَوْ وَضْعِيَّةٌ ؟ وَقَدْ جَاءَ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ تَثْنِيَةِ الِاشْتِرَاعِ أَنَّ مَنْ أَتَى بِآيَةٍ أَوْ أُعْجُوبَةٍ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ حَالِمٍ وَأَمَرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُسْمَعُ لَهُ ، بَلْ يَجِبُ قَتْلُهُ ؛ لِأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِالزَّيْغِ .

فَالْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ إِذًا لَا تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ كُلِّ مَنْ تَظْهَرُ عَلَى يَدَيْهِ ، بَلْ تَخْتَلِفُ دَلَالَتُهَا بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ مَنْ تَظْهَرُ عَلَى أَيْدِيهِمْ ، وَبِذَلِكَ يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ .

وَأَمَّا طَلَبُهُمْ لِلْآيَةِ وَالْآيَاتِ مَعَ وُجُودِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، فَسَبَبُهُ مُحَاوَلَةُ تَعْجِيزِ

(625/231)

الرَّسُولِ لَا كَوْنُهُ هُوَ الدَّلِيلُ الَّذِي يَرَوْنَهُ مُوَصِّلًا إِلَى الْمَدْلُولِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) (7) وَقَالَ فِي أَوَّلِ " سُورَةِ الْقَمَرِ " : (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) (54 : 2)

وَأَكْثَرُهُمْ يَقُولُ مِثْلَ هَذَا فِي كُلِّ آيَةٍ كَوْنِيَّةٍ عَنِ اعْتِقَادٍ ، وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِهِمْ : إِنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ يُؤْثَرُ فَقَدْ كَانَ عَنْ تَضْلِيلٍ وَعِنَادٍ ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَيَّدَ رَسُولَهُ بِآيَاتٍ أُخْرَى غَيْرِ الْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحَهَا الْجَاحِدُونَ الْمُعَانِدُونَ ازْدَادَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا ، وَالْجَاحِدُونَ عِنَادًا وَطُغْيَانًا ،

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا بَحْثٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ قَبْلُ وَسَيَجِيءُ مَا يَقْتَضِي الْعَوْدَةَ إِلَيْهَا بَعْدُ .

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

(626/231)

إِنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مُؤَيِّدَتَانِ لِمَا قَبْلَهُمَا وَمُتَمِّمَتَانِ لَهُ ، فَإِنَّهُ بَيَّنَ فِي الْآيَاتِ قَبْلَهُمَا أَنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ جَحَدُوا بِآيَاتِ اللَّهِ جُحُودَ عِنَادٍ لَا تَكْذِيبٍ ، وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَهْتَدُوا بِمَا أُوتُوا مِنَ الْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةِ وَلَا غَيْرِهَا ، بَعْدَ هَذَا بَيَّنَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَنْوَاعًا مِنْ آيَاتِهِ تَعَالَى فِي أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، وَأَنَّ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَمْ يَهْتَدُوا بِهَا ، بَلْ ظَلُّوا فِي ظُلُمَاتِ جَهْلِهِمْ حَتَّى كَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهَا وَلَمْ يَسْمَعُوا بِهَا .

وَذَكَرَ الرَّازِيُّ فِي وَجْهِ النَّظْمِ وَمُنَاسَبَةِ الْآيَةِ الْأُولَى لِمَا قَبْلَهَا وَجْهَيْنِ : (الْأَوَّلُ) أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِنْزَالُ سَائِرِ الْمُعْجِزَاتِ مَصْلَحَةً لَفَعَلَهَا وَلَأَظْهَرَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ إِظْهَارُهَا مَصْلَحَةً لِلْمُكَلَّفِينَ لَا جَرَمَ مَا أَظْهَرَهَا ، وَهَذَا الْجَوَابُ إِنَّمَا يَتِمُّ إِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى

يُرَاعِي مَصَالِحَ الْمُكَلَّفِينَ ، وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ ، وَقَرَّرَهُ بِأَنْ قَالَ : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)

(627/231)

فِي وُصُولِ فَضْلِ اللَّهِ وَعِنَايَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ كَالْأَمْرِ الْمُشَاهَدِ الْمَحْسُوسِ ، فَإِذَا كَانَتْ آثَارُ عِنَايَتِهِ وَاصِلَةً إِلَى جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ ، فَلَوْ كَانَ فِي إِظْهَارِ هَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ الْقَاهِرَةِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُكَلَّفِينَ لَفَعَلَهَا وَلَأَظْهَرَهَا ، وَلَامْتَنَعَ أَنْ يَبْخَلَ بِهَا ، مَعَ مَا ظَهَرَ أَنَّهُ لَمْ يَبْخَلْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ بِمَهَا وَمَنَافِعِهَا ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا لَمْ يُظْهِرْ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ ;

لِأَنَّ إِظْهَارَهَا يُخِلُّ بِمَصَالِحِ الْمُكَلَّفِينَ ، فَهَذَا هُوَ وَجْهُ النَّظْمِ وَالْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(الْوَجْهُ الثَّانِي فِي كَيْفِيَّةِ النَّظْمِ) : قَالَ الْقَاضِي : إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَدَّمَ ذِكْرَ الْكُفَّارِ وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ وَيُحْشَرُونَ ، بَيَّنَ أَيْضًا بَعْدَهُ بِقَوْلِهِ : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ . . .) فِي أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ وَالْمَقْصُودُ بَيَانُ أَنَّ الْحَشْرَ وَالْبَعْثَ كَمَا هُوَ حَاصِلٌ فِي حَقِّ النَّاسِ فَهُوَ أَيْضًا حَاصِلٌ فِي حَقِّ الْبَهَائِمِ . انْتَهَى بِنَصِّهِ .

وَالْقَارِئُ يَرَى أَنَّ الْوَجْهَ الثَّانِيَ الَّذِي اعْتَمَدَهُ الْقَاضِي مِنْ كِبَارِ مُفَسِّرِي الْمُعْتَزِلَةِ لَيْسَ مَبْنِيًّا عَلَى مَسْأَلَةٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ ، وَأَمَّا الْوَجْهُ الْأَوَّلُ الَّذِي اعْتَمَدَهُ الرَّازِيُّ مِنْ كِبَارِ مُفَسِّرِي الْأَشْعَرِيَّةِ وَمُتَكَلِّمِيهِمْ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ وَفَرِيقٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ دُونَ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي رِعَايَةِ مَصْلَحَةِ الْمُكَلَّفِينَ فِي أَحْكَامِ الْبَارِي تَعَالَى وَأَفْعَالِهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِشُؤُونِهِمْ ، وَالْإِمَامُ الرَّازِيُّ قَدْ أَثْبَتَ الْمَصْلَحَةَ هُنَا وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى ، وَلَكِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَرُدُّهَا أَوْ يَرُدُّ مَا بُنِيَ عَلَيْهَا ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ أَنَّ مَسْأَلَةَ الصَّلَاحِ وَالْأَصْلَحِ ثَابِتَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ الْخَطَأَ وَالضَّلَالَ إِنَّمَا هُوَ فِي قَوْلِهِمْ : إِنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا نَقْلٌ صَحِيحٌ صَرِيحٌ عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ فِي ذَلِكَ ، وَنَقْلُ الْمُخَالِفِ لَا يُعْتَدُّ بِهِ كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي كُلِّ مَا ثَبَتَ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَمَا تَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُطَّرِدَةِ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ لَهُ عَلَيْهِ ; لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْأَعْلَى ، فَلَا يَعْلُوا عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ ، وَمَذْهَبُ الْأَشْعَرِيَّةِ أَنَّ مُرَاعَاةَ الْمَصْلَحَةِ لَيْسَ مِنَ الْكَمَالِ الْوَاجِبِ لَهُ تَعَالَى ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَمْرَاضِ الْأَطْفَالِ وَالْبَهَائِمِ ، وَفِي هَذِهِ الْحُجَّةِ بَحْثٌ لَا مَحَلَّ لَهُ هُنَا ، وَقَدْ أَشَارَ الرَّازِيُّ بِقَوْلِهِ : " وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ "

إِلَى أَنَّ مُرَاعَاةَ الْمُصْلِحَةِ تَفَضُّلٌ لَا يَجِبُ اطِّرَادُهُ ، فَهُوَ مِمَّا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ لَا مِمَّا يَجِبُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى .

وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ : كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ مَسُوقٌ لِبَيَانِ كَمَالِ قُدْرَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَشُمُولِ عِلْمِهِ وَسَعَةِ تَدْبِيرِهِ لِيَكُونَ كَالدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى تَنْزِيلِ الْآيَةِ ، وَإِنَّمَا لَا يُنْزِلُهَا مُحَافَظَةً عَلَى الْحِكَمِ الْبَالِغَةِ . انْتَهَى . وَنَقَلَ الْأُلُوسِيُّ مِثْلَهُ عَنِ الطَّبَرْسِيِّ ، وَقَدْ أَخَذَهُ أَبُو السُّعُودِ مِنَ الْبَيْضَاوِيِّ .

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) (الدَّابَّةُ) مَا يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَالدَّبُّ وَالدَّبِيبُ الْمَشْيُ الْخَفِيفُ - زَادَ بَعْضُهُمْ - مَعَ تَقَارُبِ الْخَطْوِ ، وَ(الطَّائِرُ) كُلُّ ذِي جَنَاحٍ يَسْبَحُ فِي الْهَوَاءِ وَجَمْعُهُ طَيْرٌ ، كَرَاكِبٍ وَرَكْبٌ وَ(الْأُمَمُ) جَمْعُ أُمَّةٍ ، وَهِيَ الْجِيلُ أَوِ الْجِنْسُ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، وَهَذَا أَحَدُ مَعَانِي اللَّفْظِ . وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْأُمَّةُ كُلُّ جَمَاعَةٍ يَجْمَعُهُمْ أَمْرٌ مَا ؛ إِمَّا دِينٌ وَاحِدٌ أَوْ زَمَانٌ وَاحِدٌ أَوْ مَكَانٌ وَاحِدٌ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ الْجَامِعُ تَسْخِيرًا أَوِ اخْتِيَارًا ، وَجَمْعُهَا أُمَمٌ . انْتَهَى . وَذَكَرَ بَعْدَهُ الْآيَةَ وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَزِيدَ : أَوْ صِفَاتٍ وَأَفْعَالٍ وَاحِدَةٍ .

وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ نَوْعٌ مَا مِنْ أَنْوَاعِ الْأَحْيَاءِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ وَلَا مِنْ أَنْوَاعِ الطَّيْرِ الَّتِي تَسْبَحُ فِي الْهَوَاءِ إِلَّا وَهِيَ أُمَمٌ مُمَاثِلَةٌ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ، كَمَا يَقُولُ الْعَالِمُ بِالنَّبَاتِ : مَا مِنْ شَجَرَةٍ قَامَتْ عَلَى سَاقِهَا وَتَشَعَّبَتْ فِي الْهَوَاءِ أَغْصَانُهَا ، وَلَا نَجْمٌ نَبَتَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَّا فَصَائِلُ لَهَا صِفَاتٌ وَخَوَاصُّ مُشْتَرَكَةٌ يَمْتَازُ بِهَا بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ ، فَالدَّابَّةُ وَالطَّائِرُ هُنَا مُفْرَدٌ اللَّفْظَ مُرَادٌ بِهِ الْجِنْسُ اللُّغَوِيُّ ; تَقُولُ : طَائِرُ الْحَمَامِ وَطَائِرُ النَّحْلِ ، وَدَابَّةُ الْحَمِيرِ وَدَابَّةُ الْأَرْضِ ، كَمَا تَقُولُ : شَجَرَةُ التِّينِ وَشَجَرَةُ الزَّقُّومِ ، وَنَاهِيكَ بِوَصْفِ الدَّابَّةِ بِكَوْنِهَا فِي الْأَرْضِ ، وَوَصْفِ الطَّائِرِ بِكَوْنِهِ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ فَهُوَ يَشْعُرُ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانَ فِي وَصْفِ الطَّائِرِ بِمَا ذَكَرَ تَنْصِيصٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَسَدٌّ لِطَرِيقِ الْمَجَازِ ، فَقَدْ تَجَوَّزُوا بِالطَّيَرَانِ عَنِ السُّرْعَةِ ، كَمَا قَالَ الْحَمَاسِيُّ :

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ . . . طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانَا .

(631/231)

وَلِاحْتِمَالِ التَّجَوُّزِ بِدُونِ الْقَيْدِ الْمَذْكُورِ مُنَاسِبَةٌ قَوِيَّةٌ وَهِيَ عَطْفُ الطَّائِرِ عَلَى الدَّابَّةِ إِذْ هِيَ مِنَ الدَّبِّ الَّذِي هُوَ الْمَشْيُ الْخَفِيفُ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَيُقَابِلُهُ السَّرِيعُ الَّذِي يُشَبَّهُ بِالطَّيَرَانِ ، وَذَكَرَ

بَعْضُهُمْ لِوَصْفِ الطَّائِرِ بِمَا ذَكَرَ نُكْتَةً أُخْرَى وَهِيَ تَصْوِيرُ هَيْئَةِ الطَّيَرَانِ الْغَرِيبَةِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَةِ الْبَارِي وَحِكْمَتِهِ لِذِهْنِ السَّامِعِ وَالْقَارِئِ ، وَهُوَ حَسَنٌ لَا يُنَافِي مَا تَقَدَّمَ ، وَلَا تَزَاحُمَ بَيْنَ النُّكَتِ الْمُتَّفِقَةِ ، وَلَا بَيْنَ الْحِكَمِ الْمُؤْتَلِفَةِ ، وَيَرَى الْكَثِيرُونَ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ جَعْلِ كَلِمَتَيْ دَابَّةٍ وَطَائِرٍ عَلَى أَصْلِ مَعْنَاهُمَا وَهُوَ

الدَّلَالَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ عَلَى اسْتِغْرَاقِ الْأَفْرَادِ ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْهَا بِالْأُمَمِ بِاعْتِبَارِ الْحَمْلِ عَلَى مَعْنَى الْجَمْعِيَّةِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْعُمُومِ .

(632/231)

وَأَمَّا السَّمَكُ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الطَّيْرِ مِنْهُ إِلَى الدَّوَابِّ ، وَلَهُ أَجْنِحَةٌ قَدْ تُسَمَّى الزَّعَانِفُ أَكْثَرُهَا صَغِيرٌ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ كَبِيرٌ كَجَنَاحِ الْخُفَّاشِ ، وَهُوَ يَطِيرُ فِي الْمَاءِ غَالِبًا وَعَلَى سَطْحِهِ أَحْيَانًا ، وَقَدْ يُسِفُّ إِلَى قَاعِهِ فَيُلَاصِقُ أَرْضَهُ فِي سَيْرِهِ فَيَكُونُ أَشْبَهَ بِالزَّاحِفِ مِنْهُ بِالطَّائِرِ ، وَلَعَلَّ حِكْمَةَ تَرْكِ التَّصْرِيحِ بِهِ قِلَّةُ مَنْ كَانَ يَرَاهُ مِمَّنْ نَزَلَتِ السُّورَةُ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ قَبْلَ كُلِّ أَحَدٍ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِقَامَةِ الدَّلَائِلِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُشْرِكُو مَكَّةَ ، وَلِمِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى خَصَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي يَرَاهَا الْمُخَاطَبُونَ عَامَّةً ، وَيُدْرِكُونَ فِيهَا مَعْنَى الْمُمَاثَلَةِ دُونَ دَوَابِّ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ ، الْقَابِلَةِ لِلْحَيَاةِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، الَّتِي أَعْلَمَنَا بِوُجُودِهَا فِي قَوْلِهِ

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) (42 : 29) فَهِيَ قَدْ ذُكِرَتْ هُنَا بِالتَّبَعِ لِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَكَانَ الْإِعْلَامُ بِهَا نَافِلَةً وَفَائِدَةً زَائِدَةً عَلَى مَا يَقُومُ بِهِ دَلِيلُ الْآيَةِ ، وَهِيَ مِنْ أَخْبَارِ عَالَمِ الْغَيْبِ وَرَدَتْ بِعِبَارَةٍ

(633/231)

تُشْعِرُ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا مِنَ الْقِيَاسِ عَلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، وَإِنَّمَا تَظْهَرُ صِحَّةُ هَذَا الْقِيَاسِ حَتَّى لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ الْبَحْثِ وَسِعَةِ الْعِلْمِ بِالْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَهْلُ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ (كَالْمَرِّيخِ) فِيهِ مَاءٌ وَنَبَاتٌ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْحَيَوَانِ ، بَلْ فِيهِ أَمَارَاتٌ عَلَى وُجُودِ عَالَمٍ اجْتِمَاعِيٍّ صِنَاعِيٍّ كَالْإِنْسَانِ ، مِنْهَا مَا يُرَى عَلَى سَطْحِهِ بِالْمِرْآةِ الْمُقَرَّبَةِ (الْمَرْقَبُ – التِّلِسْكُوبُ) مِنَ الْجَدَاوِلِ الْمُنَظَّمَةِ وَالْخُلْجَانِ ، فَالْآيَةُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا تُرْشِدُنَا بِهَذَا وَبِوَصْفِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ بِأَنَّهَا أُمَمٌ أَمْثَالُنَا إِلَى الْبَحْثِ فِي طَبَائِعِ الْأَحْيَاءِ لِنَزْدَادَ عِلْمًا بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى وَأَسْرَارِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَنَزْدَادَ بِآيَاتِهِ فِيهَا إِيمَانًا وَحِكْمَةً وَحَضَارَةً وَكَمَالًا ، وَنَعْتَبِرَ بِحَالِ الْمُكَذِّبِينَ بِهَا الَّذِينَ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِمَّا فَضَّلَهُمُ اللهُ بِهِ عَلَى الْحَيَوَانِ شَيْئًا فَكَانُوا أَضَلَّ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ الَّتِي لَا تَجْنِي عَلَى نَفْسِهَا مَا يَجْنِيهِ الْكَافِرُ عَلَى

نَفْسِهِ .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي وَجْهِ الْمُمَاثَلَةِ بَيْنَ الدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ ، فَفِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) قَالَ : أَصْنَافًا مُصَنَّفَةً تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا ، وَعَنْ قَتَادَةَ : الطَّيْرُ أُمَّةٌ وَالْإِنْسُ أُمَّةٌ وَالْجِنُّ أُمَّةٌ ، وَعَنِ السُّدِّيِّ : خَلْقٌ

(634/231)

أَمْثَالُكُمْ ، فَالْأَوَّلَانِ عَلَى أَنَّ الْمُمَاثَلَةَ بِالصِّفَاتِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا بَعْضُ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ عَنْ بَعْضٍ ، وَهِيَ الَّتِي نُسَمِّيهَا الْمُقَوِّمَاتِ وَالْمُشَخِّصَاتِ ، وَالثَّالِثُ : عَلَى أَنَّ الْمُمَاثَلَةَ فِي أَصْلِ الْخَلْقِ ، أَيْ كَوْنِهَا مَخْلُوقَةً مِثْلَنَا ، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ مَا يُلَازِمُهُ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ وَتَدْبِيرِهِ فِينَا وَفِيهَا ، وَنَقَلَ الْوَاحِدِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُمَاثَلَةِ أَنَّهَا تَعْرِفُ اللهَ وَتُوَحِّدُهُ وَتُسَبِّحُهُ وَتَحْمَدُهُ كَمَا يَفْعَلُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَّا ، وَتَوَسَّعَ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ فِي هَذَا وَمَا قَبْلَهُ ، فَقَالُوا : إِنَّهَا عَاقِلَةٌ وَمُكَلَّفَةٌ ، وَأَنَّ لَهَا رُسُلًا مِنْهَا ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُمَاثَلَةَ إِحْصَاءُ الْكِتَابِ لِجَمِيعِ الْأَحْوَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَيَاتِهَا وَمَوْتِهَا كَالْبَشَرِ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا بِحَشْرِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهَا كَمَا يَحْشُرُنَا ، وَحِسَابِهِ لَهَا كَمَا يُحَاسِبُنَا ، وَاخْتَارَ الرَّازِيُّ أَنَّهَا بِعِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحِمَتِهِ بِهَا وَفَضْلِهِ عَلَيْهَا ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي وَجْهِ النَّظْرِ وَمُنَاسَبَةِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا . وَنُقِلَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ

عُيَيْنَةَ أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ الْآيَةَ قَالَ : مَا فِي الْأَرْضِ آدَمِيٌّ إلَّا وَفِيهِ شِبْهٌ مِنْ بَعْضِ الْبَهَائِمِ فَمِنْهُمْ مَنْ يُقْدِمُ إقْدَامَ الْأَسَدِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوَ الذِّئْبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْبَحُ نُبَاحَ الْكَلْبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَطَوَّسُ (أَيْ يَتَزَيَّنَ) كَفِعْلِ الطَّاوُوسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُشْبِهُ الْخِنْزِيرَ ؛ فَإِنَّهُ لَوْ أُلْقِيَ إلَيْهِ

(635/231)

الطَّعَامُ الطَّيِّبُ تَرَكَهُ ، وَإِذَا قَامَ الرَّجُلُ عَنْ رَجِيعِهِ وَلَغَ فِيهِ ، فَكَذَلِكَ نَجِدُ مِنَ الْآدَمِيِّينَ مَنْ لَوْ سَمِعَ خَمْسِينَ حِكْمَةً لَمْ يَحْفَظْ وَاحِدَةً مِنْهَا ، فَإِنْ أَخْطَأَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً حَفِظَهَا وَلَمْ يَجْلِسْ مَجْلِسًا إلَّا رَوَاهُ عَنْك - ثُمَّ قَالَ - فَاعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّك إنَّمَا تُعَاشِرُ الْبَهَائِمَ وَالسِّبَاعَ ، فَبَالِغْ فِي الْحِذَارِ وَالِاحْتِرَازِ . انْتَهَى . وَهَذَا الْقَوْلُ - إذَا صَحَّ دُخُولُهُ فِي ضِمْنِ الصِّفَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ - لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ ، وَإِنْ جُعِلَ الْخِطَابُ بِهَا لِلْمُشْرِكِينَ خَاصَّةً ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ هُنَا لَيْسَ لِتُحَذِّرَهُمْ شَرَّ النَّاسِ بَلْ لِبَيَانِ عَدَمِ اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ وَحَوَاسِّهِمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ : (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (7 : 179) وَقَوْلُهُ : (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (25 : 44) .

(636/231)

وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْشَدَنَا إِلَى أَنَّ أَنْوَاعَ الْحَيَوَانِ أُمَمٌ أَمْثَالُ النَّاسِ ، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا وَجْهَ الْمُمَاثَلَةِ بَيْنَهُمَا ؛ لِأَجْلِ أَنْ نَسْتَعْمِلَ حَوَاسَّنَا وَعُقُولَنَا فِي الْبَحْثِ الْمُوَصِّلِ إِلَى ذَلِكَ كَمَا قُلْنَا آنِفًا ، وَلِلْمَاثَلَةِ وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ اهْتَدَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى بَعْضِهَا ، وَيَجُوزُ أَنْ يَهْتَدِيَ غَيْرُهُمْ إِلَى غَيْرِ مَا اهْتَدَوْا إِلَيْهِ ، وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ الْأَخِصَّائِيُّونَ فِي

(637/231)

كُلِّ عِلْمٍ وَفَنٍّ وَتَيَسَّرَتْ فِيهِ أَسْبَابُ الْبَحْثِ ، إِذْ يُوجَدُ فِي بِلَادِ الْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ بَسَاتِينُ لِتَرْبِيَةِ أَنْوَاعِ السِّبَاعِ وَالْحَشَرَاتِ وَالْبَهَائِمِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْآنِسَةِ وَالطَّيْرِ وَالسَّمَكِ ، فَالْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يُعْنُونَ بِتَرْبِيَتِهَا وَدَرْسِ غَرَائِزِهَا وَطِبَاعِهَا وَأَعْمَالِهَا فِي تِلْكَ الْبَسَاتِينِ وَفِي غَيْرِهَا قَدْ وَصَلُوا إِلَى عِلْمٍ جَمٍّ ، وَوَقَفُوا عَلَى أَسْرَارٍ غَرِيبَةٍ ، وَمِمَّا ثَبَتَ مِنْ مُشَابَهَةِ النَّمْلِ لِلنَّاسِ أَنَّهُ يَغْزُو بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَأَنَّ الْمُنْتَصِرَ يَسْتَرِقُّ الْمُنْكَسِرَ ، وَيُسَخِّرُهُ فِي حَمْلِ قُوتِهِ وَبِنَاءِ قُرَاهُ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَقَدْ صَارَتْ أُمَمُ الْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ تَحْرِصُ عَلَى بَقَاءِ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، فَإِذَا رَأَتْ بَعْضَ مَا يُصَادُ مِنَ الطَّيْرِ وَغَيْرِهَا قَلَّ فِي بِلَادِهَا وَخُشِيَ انْقِرَاضُهُ مِنْهَا تُحَرِّمُ عَلَى النَّاسِ صَيْدَهُ ، وَلِهَذَا الْعَمَلِ أَصْلٌ فِي السُّنَّةِ عِنْدَنَا ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - كَانَ أَحَبَّ أَنْ تُقْتَلَ الْكِلَابُ فِي الْمَدِينَةِ لِمِثْلِ السَّبَبِ الَّذِي تَقْتُلُ بِهِ حُكُومَةُ مِصْرَ وَغَيْرُهَا الْكِلَابَ الضَّالَّةَ ، بَلْ كَانَ أَمَرَ بِذَلِكَ ثُمَّ نَهَى عَنْهُ وَقَالَ : " لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا كُلِّهَا ، فَاقْتُلُوا مِنْهَا الْأَسْوَدَ الْبَهِيمَ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ ، وَعَلَّلَ قَتْلَ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ الْبَهِيمِ فِي حَدِيثٍ آخَرَ عِنْدَ أَحْمَدَ وَمُسْلِمٍ بِأَنَّهُ

(638/231)

شَيْطَانٌ ، أَيْ ضَارٌّ مُؤْذٍ ، فَإِنَّ اسْمَ الشَّيْطَانِ يُطْلَقُ لُغَةً عَلَى الْعَارِمِ الْخَبِيثِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْحَيَوَانِ ، وَقَدْ سَأَلَ الْمَنْصُورُ الْعَبَّاسِيُّ عَمْرَو بْنَ عُبَيْدٍ عَنْ سَبَبِ هَذَا الْحَدِيثِ فَلَمْ يَعْرِفْ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : لِأَنَّهُ يَنْبَحُ الضَّيْفَ ، وَيُرَوِّعُ السَّائِلَ .

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) التَّفْرِيطُ فِي الْأَمْرِ التَّقْصِيرُ فِيهِ وَتَضْيِيعِهِ حَتَّى يَفُوتَ - كَمَا فِي الصِّحَاحِ - وَيُقَالُ : فَرَطَهُ وَفَرَّطَ فِيهِ كَمَا فِي الْقَامُوسِ وَلِسَانِ الْعَرَبِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ صَخْرِ الْغَيِّ :

وَذَلِكَ بَزِّي فَلَنْ أَفْرُطَهُ الْبَزُّ هُنَا السِّلَاحُ

، وَيُقَالُ : فَرَطَ فُلَانًا - إِذَا تَرَكَهُ وَتَقَدَّمَهُ ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرُ الْكِتَابِ هُنَا بِأُمِّ

الْكِتَابِ ، وَفَسَّرُوا أُمَّ الْكِتَابِ بِأَنَّهُ أَصْلُهُ وَجُمْلَتُهُ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ، وَهُوَ خَلْقٌ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ أَثْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ بِحَسَبِ النِّظَامِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُفَسِّرُ الْكِتَابَ هُنَا - وَكَذَا أُمُّ الْكِتَابِ فِي آيَتَيِ الرَّعْدِ وَالزُّخْرُفِ - بِالْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، شُبِّهَ بِالْكِتَابِ بِكَوْنِهِ ثَابِتًا لَا يُنْسَى ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ هُنَا الْقُرْآنُ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ أُمَّ الْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ أُمَّ الْكِتَابِ شَامِلٌ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ مَقَادِيرِ خَلْقِهِ .

(639/231)

قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ الْقُرْآنِ فِي أَوَّلِ الزُّخْرُفِ : (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (43 : 4) .

(640/231)

وَمَعْنَى الْجُمْلَةِ : مَا تَرَكْنَا فِي الْكِتَابِ شَيْئًا لَمْ نُثْبِتْهُ فِيهِ تَقْصِيرًا وَإِهْمَالًا ، بَلْ أَحْصَيْنَا فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ أَوْ جَعَلْنَاهُ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا أُرِيدَ بِالْكِتَابِ الْعِلْمُ الْإِلَهِيُّ أَوِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ

فَالِاسْتِغْرَاقُ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَإِذَا أُرِيدَ بِهِ الْقُرْآنُ فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (مِنْ شَيْءٍ) – الدَّالِّ عَلَى الْعُمُومِ – الشَّيْءُ الَّذِي هُوَ مِنْ مَوْضُوعِ الدِّينِ الَّذِي يُرْسِلُ بِهِ الرُّسُلَ وَيُنْزِلُ بِهِ الْكُتُبَ وَهُوَ الْهِدَايَةُ ؛ لِأَنَّ الْعُمُومَ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحَسْبِهِ ، أَيْ مَا تَرَكْنَا فِي الْكِتَابِ شَيْئًا ، مَا مِنْ ضُرُوبِ الْهِدَايَةِ الَّتِي تُرْسَلُ الرُّسُلُ لِأَجْلِهَا إلَّا وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِيهِ ، وَهِيَ أُصُولُ الدِّينِ وَقَوَاعِدُهُ وَأَحْكَامُهُ وَحُكْمُهَا ، وَالْإِرْشَادُ إلَى اسْتِعْمَالِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ فِي الِاسْتِفَادَةِ مِنْ تَسْخِيرِ اللَّهِ كُلَّ شَيْءٍ لِلْإِنْسَانِ ، وَمُرَاعَاةُ سُنَنِهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا الْكَمَالُ الْمَدَنِيُّ وَالْعَقْلِيُّ ، فَالْقُرْآنُ قَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالنَّصِّ أَوِ الْفَحْوَى ، وَمِنْهُ مَا أَرْشَدَ إلَيْهِ هُنَا فِي عِلْمِ الْحَيَوَانِ الَّذِي يَهْدِي إلَى كَمَالِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِيمَانِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ اشْتِمَالِ الْكِتَابِ عَلَى جَمِيعِ أَمْرِ الدِّينِ فِي تَفْسِيرِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (5 : 101) مِنْ هَذَا الْجُزْءِ ، وَتَفْسِيرِ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (5 : 3) مِنْ تَفْسِيرِ الْجُزْءِ السَّادِسِ ، وَتَفْسِيرِ (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

(641/231)

الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (4 : 59) مِنْ تَفْسِيرِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ فَلْيَرْجِعْ إلَيْهَا مَنْ شَاءَ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ : إنَّ الْقُرْآنَ قَدْ حَوَى عُلُومَ الْأَكْوَانِ كُلَّهَا ، وَأَنَّ الشَّيْخَ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ

الْعَرَبِيِّ وَقَعَ عَنْ حِمَارِهِ فَرَضَّتْ رِجْلُهُ فَلَمْ يَأْذَنْ لِلنَّاسِ بِحَمْلِهِ إلَّا بَعْدَ أَنِ اسْتَخْرَجَ حَادِثَةَ وُقُوعِهِ وَرَضِّ رِجْلِهِ مِنْ " سُورَةِ الْفَاتِحَةِ " ، وَهَذَا الْقَوْلُ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَلَا عُلَمَاءُ التَّابِعِينَ ، وَلَا غَيْرَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، وَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إلَّا مَنْ يَرَوْنَ أَنَّ كُلَّ مَا كَتَبَهُ الْمَيِّتُونَ فِي كُتُبِهِمْ حُقٌّ وَإِنْ كَانَ لَا يَقْبَلُهُ عَقْلٌ ، وَلَا يَهْدِي إلَيْهِ نَقْلٌ ، وَلَا تَدُلُّ عَلَيْهِ اللُّغَةُ ، بَلْ قَالَ أَئِمَّةُ السَّلَفِ : إنَّ الْقُرْآنَ لَا يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ فُرُوعِ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ الضَّرُورِيَّةِ بِدَلَالَةِ النَّصِّ وَلَا الْفَحْوَى ، وَإِنَّمَا أَثْبَتَ وُجُوبَ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ فَصَارَ دَالًّا عَلَى كُلِّ مَا ثَبَتَ فِي السُّنَّةِ ، وَأَثْبَتَ قَوَاعِدَ الْقِيَاسِ الصَّحِيحِ وَقَوَاعِدَ أُخْرَى ، فَصَارَ مُشْتَمِلًا عَلَى جَمِيعِ فُرُوعِهَا وَجُزْئِيَّاتِهَا ، وَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنَ الدِّينِ عَنْهَا ، وَأَنَّ قَبُولَ النَّاسِ لِلْخُرَافَةِ الْمَرْوِيَّةِ عَنِ ابْنِ الْعَرَبِيِّ هِيَ الَّتِي جَرَّأَتْ مِثْلَ مَسِيحِ الْهِنْدِ أَحْمَدَ الْقَادِيَانِيِّ عَلَى

(642/231)

ذَلِكَ التَّفْسِيرِ الَّذِي فَسَّرَ بِهِ الْفَاتِحَةَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُعْجِزَتُهُ الدَّالَّةُ عَلَى كَوْنِهِ هُوَ الْمَسِيحَ الْمُنْتَظَرَ ، وَكُلُّهُ لَغْوٌ وَهَذَيَانٌ ، وَمِنْ أَغْرَبِهِ زَعْمُهُ أَنَّ اسْمَ الرَّحْمَنِ فِي الْفَاتِحَةِ دَلِيلٌ عَلَى بَعْثَةِ خَاتَمِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاسْمُ الرَّحِيمِ دَلِيلٌ عَلَى بَعْثَتِهِ هُوَ

(643/231)

(ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) أَيْ ثُمَّ يُبْعَثُ أُولَئِكَ الْأُمَمُ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُسَاقُونَ مُجْتَمِعِينَ إِلَى رَبِّهِمُ الْمَالِكِ لِأَمْرِهِمْ لَا إِلَى غَيْرِهِ ، فَيُحَاسِبُ كُلًّا عَلَى مَا فَعَلَ ، وَيَقْتَصُّ لِلْمَظْلُومِ مِمَّنْ ظَلَمَ ، وَإِنَّمَا حَسُنَ عَوْدُ ضَمِيرَيِ الْغَيْبَةِ فِي رَبِّهِمْ وَفِي يُحْشَرُونَ إِلَى الدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ وَالنَّاسِ جَمِيعًا ؛ لِأَنَّهُ خَبَرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عُطِفَ عَلَى خِطَابِ النَّاسِ وَغَلَبَ فِيهِ ضَمِيرُ الْأَشْرَفِ ، وَإِذَا جُعِلَ مِنْ جُمْلَةِ الْخِطَابِ تَعَيَّنَ رُجُوعُ الضَّمِيرَيْنِ إِلَى الدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ ، وَنُكْتَةُ جَعْلِهِمَا مِنْ ضَمَائِرِ الْعُقَلَاءِ حِينَئِذٍ تَشْبِيهُ أُمَمِهِمَا بِأُمَمِ الْبَشَرِ ، وَذَلِكَ إِجْرَاءٌ لَهُمَا مَجْرَى الْعُقَلَاءِ وَيُؤَيِّدُ حَشْرَ تِلْكَ الْأُمَمِ كُلِّهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) (81 : 5) وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ عِنْدَ أَحْمَدَ وَعَبْدِ الرَّزَّاقِ وَابْنِ جَرِيرٍ " أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَى عَنْزَيْنِ يَنْتَطِحَانِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا " وَفِي رِوَايَةٍ " أَتَدْرُونَ فِيمَ انْتَطَحَا ؟ قُلْنَا : لَا " وَزَادَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ : وَلَقَدْ تَرَكَنَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا يَقْلِبُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا ، وَالْحَدِيثُ مَرْوِيٌّ مِنْ طَرِيقِ مُنْذِرٍ الثَّوْرِيِّ وَهُوَ ثِقَةٌ ، وَلَكِنْ رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ شُيُوخٍ لَمْ يَسْمَعُوا ، وَفِيهِ

حُجَّةٌ عَلَى كَوْنِ عِلْمِ الْحَيَوَانِ مِنْ عِلْمِ الْهِدَايَةِ الْمَشْرُوعَةِ فِي الْإِسْلَامِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ فَائِدَتِهِ آنِفًا .

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ وَالْخَطِيبُ فِي تَالِي التَّلْخِيصِ وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ أَبِي زِيَادَةَ الْبَكْرِيِّ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى ابْنَيْ بِشْرٍ الْمَازِنِيَّيْنِ صَاحِبَيْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقُلْتُ : يَرْحَمُكُمَا اللهُ ، الرَّجُلُ مِنَّا يَرْكَبُ الدَّابَّةَ فَيَضْرِبُهَا بِالسَّوْطِ أَوْ يَكْبَحُهَا بِاللِّجَامِ ، فَهَلْ سَمِعْتُمَا مِنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي ذَلِكَ شَيْئًا ؟ فَقَالَا : لَا ، قَالَ عُبَيْدُ اللهِ : فَنَادَتْنِي امْرَأَةٌ مِنَ الدَّاخِلِ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ . . .) الْآيَةَ . فَقَالَا هَذِهِ أُخْتُنَا ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنَّا ، وَقَدْ أَدْرَكَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَهَذِهِ الصَّحَابِيَّةُ اسْتَدَلَّتْ بِالْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ الرِّفْقِ وَالرَّحْمَةِ بِالدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يُحَاسِبُ النَّاسَ عَلَى ظُلْمِهِمْ لَهَا يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا .

(645/231)

وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ كَحَدِيثِ " مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَقْتُلُ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إِلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " وَذَكَرَ أَنَّ حَقَّهَا أَكْلُهَا ، رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، وَفِي مَعْنَاهُ حَدِيثٌ آخَرُ عِنْدَ النَّسَائِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ ، وَحَدِيثُ " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ مَرْفُوعًا ، وَأَخْرَجَ رُوَاةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ " إِنَّ اللَّهَ يَحْشُرُ هَذِهِ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ حَتَّى يَقْتَصَّ لِلْجَلْحَاءِ

(646/231)

مِنْ ذَاتِ الْقَرْنِ " وَفِي رِوَايَةٍ " لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ " وَغَلِطَ الْأَلُوسِيُّ فَعَزَاهُ إِلَى حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ وَلَكِنْ رَوَى مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْهُ مَرْفُوعًا " لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ " . وَنُقِلَ عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّ الْعَقْلَ يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ إِعَادَةِ الْحَيَوَانِ كَالْإِنْسَانِ لِلتَّعْوِيضِ عَلَى كُلٍّ ، لَا لِمَحْضِ الْعِقَابِ عَلَى الْجِنَايَةِ ، فَكُلُّ حَيٍّ

أَصَابَهُ أَلَمٌ يَجِبُ أَنْ يَنَالَ عِوَضًا عَنْهُ ، فَإِذَا كَانَ الْأَلَمُ بِفِعْلِ اللَّهِ أَوْ بِشَرْعِهِ كَالَّذِي يُذْبَحُ لِيُؤْكَلَ أَوْ يُقْتَلُ اتِّقَاءَ ضَرَرِهِ فَاللَّهُ يُعَوِّضُهُ عَنْ ذَلِكَ .

(647/231)

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) قَالَ : مَوْتُ الْبَهَائِمِ حَشْرُهَا . وَفِي لَفْظٍ قَالَ : يَعْنِي بِالْحَشْرِ الْمَوْتَ . قَالَ السَّيِّدُ الْأُلُوسِيُّ : وَمُرَادُهُ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - عَلَى مَا قِيلَ إِنَّ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ : (ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) : مَجْمُوعُهُ مُسْتَعَارٌ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ لِلْمَوْتِ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ " مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ " فَلَا يَرِدُ عَلَيْهِ أَنَّ الْحَشْرَ بَعْثٌ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ ، وَتَعْدِيَتُهُ بِإِلَى تَنْصِيصٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الْمَوْتَ مَعَ أَنَّ الْمَوْتَ أَيْضًا نَقْلٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ . انْتَهَى .

وَصَوَّبَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ الْحَشْرَانِ جَمِيعًا حَشْرُ الْمَوْتِ وَحَشْرُ الْبَعْثِ ، وَعَلَّلَهُ بِأَنَّ الْحَشْرَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْجَمْعُ ، وَهُوَ يَشْمَلُهُمَا ، وَلَا مَرْجِعَ لِأَحَدِهِمَا مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ، هَذَا مُحَصَّلُ قَوْلِهِ ، وَالصَّوَابُ أَنَّ الْحَشْرَ جَمْعٌ وَبَعْثٌ ، أَوْ كَمَا قَالَ

الرَّاغِبُ : إِخْرَاجُ الْجَمَاعَةِ عَنْ مَقَرِّهِمْ وَإِزْعَاجُهُمْ إِلَى الْحَرْبِ وَنَحْوِهَا ، فَفِيهِ مَعْنَى الْجَمْعِ

؛ لِأَنَّهُ لَا يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ . وَمَعْنَى الْحَشْرِ بِالْمَوْتِ : سَوْقُ الْأَحْيَاءِ إِلَيْهِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ غَايَتَهُمْ .

(648/231)

وَأَحْسَنُ مَا قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ بَيَانُ وَجْهِ الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ فِيهَا ، قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُعْرِضِينَ عَنْكَ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ : أَيُّهَا الْقَوْمُ ، لَا تَحْسَبُنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا تَعْمَلُونَ ، أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ مُجَازِيكُمْ عَلَى مَا تَكْسِبُونَ ، وَكَيْفَ يَغْفُلُ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَوْ يَتْرُكُ مُجَازَاتَكُمْ ، وَهُوَ غَيْرُ غَافِلٍ عَنْ عَمَلِ شَيْءٍ دَبَّ عَلَى الْأَرْضِ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، وَلَا عَمَلَ طَائِرٍ طَارَ بِجَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ ، بَلْ جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ أَجْنَاسًا مُجَنَّسَةً ، وَأَصْنَافًا مُصَنَّفَةً ، تَعْرِفُ كَمَا تَعْرِفُونَ ، وَتَتَصَرَّفُ فِيمَا سُخِّرَتْ لَهُ كَمَا تَتَصَرَّفُونَ ، وَمَحْفُوظٌ عَلَيْهَا مَا عَمِلَتْ مِنْ عَمَلٍ لَهَا وَعَلَيْهَا ، وَمُثْبَتٌ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ ، ثُمَّ إِنَّهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - مُمِيتُهَا ، ثُمَّ مُنْشِرُهَا وَمُجَازِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءَ أَعْمَالِهَا . يَقُولُ : فَالرَّبُّ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ حِفْظَ الْبَهَائِمِ وَالدَّوَابِّ فِي الْأَرْضِ ، وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ حَتَّى حَفِظَ عَلَيْهَا حَرَكَاتِهَا

(649/231)

وَأَفْعَالَهَا ، وَأَثْبَتَ ذَلِكَ مِنْهَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ ، وَحَشَرَهَا ثُمَّ جَازَاهَا عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهَا فِي دَارِ الْبَلَاءِ ، أَحْرَى أَلَّا يُضِيعَ أَعْمَالَكُمْ وَلَا يُفَرِّطَ فِي حِفْظِ أَفْعَالِكُمُ الَّتِي تَجْتَرِحُونَهَا أَيُّهَا النَّاسُ حَتَّى يَحْشُرَكُمْ فَيُجَازِيَكُمْ عَلَى جَمِيعِهَا ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ خَصَّكُمْ مِنْ نِعَمِهِ ، وَبَسَطَ عَلَيْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ مَا لَا يَعُمُّ غَيْرَكُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَكُنْتُمْ بِشُكْرِهِ أَحَقَّ وَبِمَعْرِفَةِ وَاجِبِهِ عَلَيْكُمْ أَوْلَى ، لِمَا أَعْطَاكُمْ مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي بِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ تُمَيِّزُونَ ، وَالْفَهْمِ الَّذِي لَمْ يُعْطَهُ الْبَهَائِمُ وَالطَّيْرُ الَّذِي بِهِ بَيْنَ مَصَالِحِكُمْ وَمَضَارِّكُمْ تُفَرِّقُونَ . اهـ .

(مَسَائِلُ مُسْتَنْبَطَةٌ مِنَ الْآيَةِ مَنْقُولَةٌ عَنْ " رُوحِ الْمَعَانِي " وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ بَعْضِهَا) .

الِاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى التَّنَاسُخِ :

قَالَ الْأَلُوسِيُّ بَعْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ : هَذَا وَرِسَالَةٌ فِي الْمَعَادِ لِأَبِي عَلِيٍّ : قَالَ الْمُعْتَرِفُونَ بِالشَّرِيعَةِ مِنْ أَهْلِ التَّنَاسُخِ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلِيلٌ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ) إِلَخْ . وَفِيهِ الْحُكْمُ بِأَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الْغَيْرَ النَّاطِقَةِ أَمْثَالُنَا وَلَيْسُوا أَمْثَالَنَا بِالْفِعْلِ ، فَيَتَعَيَّنُ كَوْنُهُمْ أَمْثَالَنَا بِالْقُوَّةِ ضَرُورَةُ صِدْقِ هَذَا الْحُكْمِ وَعَدَمُ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْقُوَّةِ ،

وَحِينَئِذٍ لَا بُدَّ مِنَ الْقَوْلِ بِحُلُولِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ وَهُوَ التَّنَاسُخُ الْمَطْلُوبُ ، وَلَا يَخْفَى أَنَّهُ دَلِيلٌ كَاسِدٌ عَلَى مَذْهَبٍ فَاسِدٍ .

هَلْ لِلْبَهَائِمِ نُفُوسٌ نَاطِقَةٌ ؟ :

(651/231)

(قَالَ) : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ جَعَلَهَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ لِلْحَيَوَانَاتِ بِأَسْرِهَا نُفُوسًا نَاطِقَةً كَمَا لِأَفْرَادِ الْإِنْسَانِ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الصُّوفِيَّةُ وَبَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْإِسْلَامِيِّينَ ، وَأَوْرَدَ الشَّعْرَانِيُّ فِي (الْجَوَاهِرِ وَالدُّرَرِ) لِذَلِكَ أَدِلَّةً غَيْرَ مَا ذُكِرَ (مِنْهَا) أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا هَاجَرَ وَتَعَرَّضَ كُلٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ لِزِمَامِ نَاقَتِهِ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : " دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ " وَوَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ بِذَلِكَ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْبَرَ أَنَّ النَّاقَةَ مَأْمُورَةٌ ، وَلَا يَعْقِلُ الْأَمْرَ إِلَّا مَنْ لَهُ نَفْسٌ نَاطِقَةٌ ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ لِلنَّاقَةِ نَفْسًا كَذَلِكَ ثَبَتَ لِلْغَيْرِ ، إِذْ لَا قَائِلَ بِالْفَرْقِ .

(وَمِنْهَا) مَا يُشَاهَدُ فِي النَّحْلِ وَصَنْعَتِهَا أَقْرَاصَ الشَّمْعِ ، وَالْعَنَاكِبِ وَاحْتِيَالِهَا لِصَيْدِ الذُّبَابِ ، وَالنَّمْلِ وَادِّخَارِهِ لِقُوتِهِ عَلَى وَجْهٍ لَا يَفْسُدُ مَعَهُ مَا ادَّخَرَهُ ، وَأَوْرَدَ بَعْضُهُمْ دَلِيلًا لِذَلِكَ أَيْضًا : النَّمْلَةُ الَّتِي كَلَّمَتْ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِمَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا عَنْهَا مِمَّا لَا يَهْتَدِي إِلَى مَا فِيهِ إِلَّا الْعَالِمُونَ ، وَخَوْفُ الشَّاةِ مِنْ ذِئْبٍ لَمْ تُشَاهِدْ فِعْلَهُ قَبْلُ ، فَإِنَّ

ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ اسْتِدْلَالٍ ، وَهُوَ شَأْنُ ذَوِي النُّفُوسِ النَّاطِقَةِ ، وَعَدَمُ افْتِرَاسِ الْأَسَدِ الْمُعَلَّمِ مَثَلًا صَاحِبَهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى اعْتِقَادِ النَّفْعِ وَمَعْرِفَةِ الْحَسَنِ وَهُوَ مِنْ شَأْنِ ذَوِي النُّفُوسِ .

(652/231)

الْقَوْلُ بِتَكْلِيفِ الْبَهَائِمِ :

(قَالَ) : وَأَغْرَبُ مِنْ هَذَا دَعْوَى الصُّوفِيَّةِ وَنَقَلَهُ الشَّعْرَانِيُّ عَنْ شَيْخِهِ عَلِيٍّ الْخَوَّاصِّ - قَدَّسَ اللَّهُ تَعَالَى سِرَّهُ - أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ مُخَاطَبَةٌ مُكَلَّفَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ الْمَحْجُوبُونَ ، ثُمَّ قَالَ : وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (35 : 24) حَيْثُ نَكَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْأُمَّةَ وَالنَّذِيرَ وَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْأُمَمِ ، وَنَقَلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : جَمِيعُ مَا فِي الْأُمَمِ فِينَا ؟ حَتَّى أَنَّ فِيهِمُ ابْنَ عَبَّاسٍ مِثْلِي ، وَذَكَرَ فِي " الْأَجْوِبَةِ الْمَرْضِيَّةِ " أَنَّ فِيهِمْ أَنْبِيَاءَ ، وَفِي " الْجَوَاهِرِ " أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ النَّذِيرُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَنْ يَكُونَ خَارِجًا عَنْهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ ، وَحَكَى شَيْخُهُ عَنْ

(653/231)

بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : إنَّ تَشْبِيهَ اللَّهِ تَعَالَى مَنْ ضَلَّ مِنْ عِبَادِهِ بِالْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (إنْ هُمْ إلَّا كَالْأَنْعَامِ) لَيْسَ لِنَقْصٍ فِيهَا وَإِنَّمَا هُوَ لِبَيَانِ كَمَالِ مَرْتَبَتِهَا فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى حَتَّى حَارَتْ فِيهِ ، فَالتَّشْبِيهُ فِي الْحَقِيقَةِ وَاقِعٌ فِي الْحَيْرَةِ لَا فِي الْمُحَارِ فِيهِ ، فَلَا أَشَدَّ حَيْرَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَأَعْلَى مَا يَصِلُ إلَيْهِ الْعُلَمَاءُ بِرَبِّهِمْ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هُوَ مُبْتَدَأُ الْبَهَائِمِ الَّذِي لَمْ تَنْتَقِلْ عَنْهُ - أَيْ عَنْ أَصْلِهِ - وَإِنْ كَانَتْ مُتَنَقِّلَةً فِي شُؤُونِهِ بِتَنَقُّلِ الشُّؤُونِ الْإِلَهِيَّةِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَثْبُتُ عَلَى حَالٍ ; وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَضَلَّ سَبِيلًا مِنَ الْأَنْعَامِ ؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِنَ الْحَيْرَةِ مِنْ طَرِيقِ فِكْرِهِمْ وَنَظَرِهِمْ وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ لَهُمْ ، وَالْبَهَائِمُ عَلِمَتْ ذَلِكَ ، وَوَقَفَتْ عِنْدَهُ ، وَلَمْ تَطْلُبِ الْخُرُوجَ عَنْهُ ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ عِلْمِهَا بِاللَّهِ تَعَالَى . انْتَهَى .

(654/231)

(قَالَ) : وَنَقَلَ الشِّهَابُ عَنِ ابْنِ الْمُنِيرِ أَنَّ مَنْ ذَهَبَ إلَى أَنَّ الْبَهَائِمَ الْهَوَامَّ مُكَلَّفَةٌ لَهَا رُسُلٌ مِنْ جِنْسِهَا فَهُوَ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِمْ كَالْجَاحِظِ وَغَيْرِهِ ، وَعَلَى إكْفَارِ الْقَائِلِ بِذَلِكَ نَصَّ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، وَالْجَزَاءُ الَّذِي يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحَيَوَانَاتِ عِنْدَهُمْ لَيْسَ جَزَاءَ

تَكْلِيفٍ ، عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ لَا تُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلَ الظَّوَاهِرَ الدَّالَّةَ عَلَى ذَلِكَ وَمَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - مَا لَا أَصْلَ لَهُ وَالْمِثْلِيَّةُ فِي الْآيَةِ لَا تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ .

الْقَوْلُ بِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ حَيٌّ :

(قَالَ) : وَأَغْرَبُ الْغَرِيبِ عِنْدَ أَهْلِ الظَّاهِرِ أَنَّ الصُّوفِيَّةَ - قَدَّسَ اللَّهُ تَعَالَى أَسْرَارَهُمْ - جَعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ حَيًّا دَرَّاكًا يَفْهَمُ الْخِطَابَ ، وَيَتَأَلَّمُ كَمَا يَتَأَلَّمُ الْحَيَوَانُ ، وَمَا يَزِيدُ الْحَيَوَانُ عَلَى الْجَمَادِ إِلَّا بِالشَّهْوَةِ ، وَيَسْتَنِدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الشُّهُودِ ، وَرُبَّمَا يَسْتَدِلُّونَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (17 : 44) وَبِنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ .

وَالَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ التَّسْبِيحَ حَالِيٌّ لَا قَالِيٌّ وَنَظِيرُ ذَلِكَ :

"

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى

"وَ"

امْتَلَأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي

" وَمَا يَصْدُرُ عَنْ بَعْضِ الْجَمَادَاتِ مِنْ تَسْبِيحٍ قَوْلِيٍّ كَتَسْبِيحِ الْحَصَى فِي كَفِّهِ الشَّرِيفِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَثَلًا

إِنَّمَا هُوَ عَنْ خَلْقِ إِدْرَاكٍ إِذْ ذَاكَ ، وَمَا يُشَاهَدُ مِنَ الصَّنَائِعِ الْعَجِيبَةِ لِبَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ لَيْسَ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ الرَّئِيسُ مِمَّا يَصْدُرُ عَنِ اسْتِنْبَاطٍ وَقِيَاسٍ ، بَلْ عَنْ إِلْهَامٍ وَتَسْخِيرٍ ; وَلِذَلِكَ لَا تَخْتَلِفُ وَلَا تَتَنَوَّعُ ، وَالنَّقْضُ بِالْحَرَكَةِ الْفَلَكِيَّةِ لَا يَرِدُ بِنَاءً عَلَى قَوَاعِدِنَا ، وَعَدَمُ افْتِرَاسِ الْأَسَدِ الْمُعَلَّمِ مَثَلًا صَاحِبَهُ لَيْسَ عَنِ اعْتِقَادٍ ، بَلْ هُنَاكَ هَشَّةٌ أُخْرَى نَفْسَانِيَّةٌ ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ يُحِبُّ بِالطَّبْعِ مَا يُلَذُّهُ ، وَالشَّخْصُ الَّذِي يُطْعِمُهُ مَحْبُوبٌ عِنْدَهُ فَيَصِيرُ ذَلِكَ مَانِعًا عَنِ افْتِرَاسِهِ ، وَرُبَّمَا يَقَعُ هَذَا الْعَارِضُ عَنْ إِلْهَامٍ إِلَهِيٍّ مِثْلِ حُبِّ كُلِّ حَيَوَانٍ وَلَدَهُ . وَعَلَى هَذَا الطِّرَازِ يَخْرُجُ الْخَوْفُ مَثَلًا الَّذِي يَعْتَرِي بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ .

(قَالَ) : وَقَدْ أَطَالُوا الْكَلَامَ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَأَنَا لَا أَرَى مَانِعًا مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّ لِلْحَيَوَانَاتِ نُفُوسًا نَاطِقَةً ، وَهِيَ مُتَفَاوِتَةُ الْإِدْرَاكِ حَسَبَ تَفَاوُتِهَا فِي أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَيْفَمَا كَانَتْ لَا تَصِلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَصَرُّفِهَا إِلَى غَايَةٍ يَصِلُهَا الْإِنْسَانُ وَالشَّوَاهِدُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَلَيْسَ فِي مُقَابَلَتِهَا قَطْعِيٌّ يَجِبُ تَأْوِيلُهَا لِأَجْلِهِ ، وَقَدْ صَرَّحَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهَا عَارِفَةٌ بِرَبِّهَا جَلَّ شَأْنُهُ .

(قَالَ) : وَأَمَّا أَنَّ لَهَا رُسُلًا مِنْ جِنْسِهَا فَلَا أَقُولُ بِهِ وَلَا أُفْتِي بِكُفْرِ مَنْ قَالَ بِهِ . وَأَمَّا أَنَّ الْجَمَادَاتِ حَيَّةٌ مُدْرِكَةٌ فَأَمْرٌ وَرَاءَ طَوْرِ عَقْلِي ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ . اهـ .

نَقُولُ : أَمَّا مَذْهَبُ التَّنَاسُخِ ، فَهُوَ مِنَ الْأَسَاطِيرِ الْخُرَافِيَّةِ ، الَّتِي وَلَّدَتْهَا الْخَيَالَاتُ الشِّعْرِيَّةُ ، فَلَا نُضَيِّعُ الْوَقْتَ بِالْخَوْضِ فِي بَيَانِ بُطْلَانِهَا .

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ لِلْحَيَوَانَاتِ أَنْفُسًا نَاطِقَةً ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّهَا كَنَفْسِ الْإِنْسَانِ فَتَحْقِيقُهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ كُنْهِ هَذِهِ النَّفْسِ . وَأَيْنَ مَنْ يَدَّعِي هَذَا وَيُثْبِتُ دَعْوَاهُ ؟ وَلَا يُنْكِرُ مَنْ لَهُ أَدْنَى إِلْمَامٍ بِعِلْمِ الْحَيَوَانِ مَا أُوتِيَهُ بَعْضُ أَنْوَاعِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِدْرَاكِ الَّذِي يَفُوقُ بِبَعْضِهِ إِدْرَاكَاتِ النَّاسِ ، وَلَكِنَّهَا تَنْحَصِرُ فِي مَنَاطِقَ ضَيِّقَةٍ جِدًّا ؛ لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِحِفْظِ حَيَاتِهِ الْفَرْدِيَّةِ وَالنَّوْعِيَّةِ ، وَهِيَ مَحْدُودَةٌ ضَيِّقَةٌ . وَلَعَلَّنَا نُفَصِّلُ الْقَوْلَ فِيهَا فِي تَفْسِيرِ آيَةٍ أُخْرَى . وَإِدْرَاكُ الْبَشَرِ لَا تَنْحَصِرُ أَنْوَاعُهُ وَلَا أَفْرَادُهُ ، وَإِنَّمَا كَانَ اسْتِعْدَادُهُ الْعِلْمِيُّ غَيْرَ مَحْدُودٍ بِحَدٍّ ؛ لِأَنَّهُ خُلِقَ لِحَيَاةٍ غَيْرِ مَحْدُودَةٍ بِحَدٍّ ، وَهِيَ حَيَاةُ الْآخِرَةِ ، وَدَعْوَى تَكْلِيفِ الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ

وَبِعْثَةِ رُسُلٍ مِنْهُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ مِنْ أُمَمِهِ
لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا عَقْلٌ وَلَا نَقْلٌ ، وَقَوْلُهُ

(657/231)

تَعَالَى : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (35 : 24) نَزَلَ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنِ الْبَشَرِ .
وَأَمَّا الْقَوْلُ بِحَيَاةِ الْجَمَادِ فَهُوَ مَنْقُولٌ عَنْ بَعْضِ الْفَلَاسِفَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ ، وَعَنْ بَعْضِ الطَّبِيعِيِّينَ وَالْكِيمَاوِيِّينَ ، وَلَهُمْ عَلَيْهِ دَلَائِلُ عِلْمِيَّةٌ وَنَظَرِيَّةٌ ، وَيَتَوَقَّفُ بَيَانُ ذَلِكَ عَلَى تَعْرِيفِ الْحَيَاةِ وَمَظَاهِرِهَا وَخَوَاصِّهَا كَالتَّغَذِّي وَالنُّمُوِّ وَالتَّوَلُّدِ وَالْمَوْتِ ، وَفِي تِلْكَ الْجَمَادَاتِ وَلَا سِيَّمَا الْأَجْسَامَ الْمُتَبَلْوِرَةِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . وَكَانَ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْحَيَاةَ مُنْبَثَّةٌ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَلَعَلَّنَا نَعُودُ إِلَى هَذَا الْبَحْثِ بَعْدُ .

(658/231)

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ) أَيْ وَالْكُفَّارُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْمُنَزَّلَةِ وَمَا أَرْشَدْنَا إِلَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا وَصِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُنَا تَكْذِيبَ جُحُودٍ

وَاسْتِكْبَارٍ ، أَوْ تَكْذِيبَ جُمُودٍ عَلَى تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَطَاعَةِ الْكُبَرَاءِ صُمٌّ لَا يَسْمَعُونَ دَعْوَةَ الْحَقِّ وَالْهُدَى سَمَاعَ فَهْمٍ وَقَبُولٍ ، وَبُكْمٌ لَا يَنْطِقُونَ بِمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يُقِرُّونَ بِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ، مُتَسَكِّعُونَ أَوْ حَالَ كَوْنِهِمْ مُتَسَكِّعِينَ خَابِطِينَ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ الْحَالِكَةِ ظُلْمَةِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ ، وَظُلْمَةِ تَقَالِيدِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَظُلْمَةِ كِبْرِيَاءِ الْعَصَبِيَّةِ ، وَظُلْمَةِ الْجَهْلِ وَالْأُمِّيَّةِ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، لَا يَنْفُذُ مِنْهَا إِلَيْهِمْ مِنْ نُورِ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ ، فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ صِرَاطَهَا ، وَلَا يَرَوْنَ مِنْهَاجَهَا ، وَذَلِكَ مَا جَنَوْهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِسُوءِ اخْتِيَارِ الْأَفْرَادِ وَفَسَادِ تَرْبِيَةِ الْمَجْمُوعِ ، وَلِكُلِّ سِيرَةٍ غَايَةٌ تَنْتَهِي إِلَيْهَا بِحَسَبِ سُنَنِ اللهِ الَّتِي قَضَتْ بِهَا حِكْمَتُهُ ، وَنَفَذَتْ بِهَا مَشِيئَتُهُ .

(659/231)

(مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ) أَيْ مَنْ تَعَلَّقَتْ مَشِيئَةُ اللهِ بِإِضْلَالِهِ يُضْلِلْهُ كَمَا أَضَلَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، فَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا أَسْمَاعَهُمْ وَلَا أَفْوَاهَهُمْ وَلَا عُقُولَهُمْ فِي آيَاتِ اللهِ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى حَقِّيَّةِ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَإِنَّمَا إِضْلَالُهُ إِيَّاهُمُ اقْتِضَاءُ سُنَنِهِ فِي عُقُولِ الْبَشَرِ وَغَرَائِزِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ أَنْ يُعْرِضَ الْمُسْتَكْبِرُ عَنْ دَعْوَةِ مَنْ يَرَاهُ دُونَهُ ، وَاتِّبَاعِ مَنْ يَرَاهُ مِثْلَهُ ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ ، وَأَنْ يُعْرِضَ الْمُقَلِّدُ عَنِ النَّظَرِ فِي

الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ الَّتِي تَنْصَبُّ لِبَيَانِ بُطْلَانِ تَقَالِيدِهِ وَإِثْبَاتِ خِلَافِهَا ، مَا دَامَ مَغْرُورًا بِهَا مُكَبِّرًا لِمَنْ جَرَى مِنَ الْآبَاءِ وَالْكُبَرَاءِ عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ تَعَالَى الضَّلَالَ لِمَنْ شَاءَ إِضْلَالَهُ خَلْقًا وَيَجْعَلَهُ لَهُ غَرِيزَةً وَطَبْعًا ، وَلَا أَنْ يُلْجِئَهُ إِلَيْهِ إِلْجَاءً ، وَيُكْرِهَهُ عَلَيْهِ إِكْرَاهًا ، فَيَكُونُ إِعْرَاضُهُ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَإِقْبَالُهُ عَلَى الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ كَحَرَكَةِ

(660/231)

الدَّمِ فِي الْجَسَدِ ، وَعَمَلِ الْمَعِدَةِ فِي الْهَضْمِ (وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أَيْ وَمَنْ يَشَأْ هِدَايَتَهُ وَاسْتِقَامَتَهُ يَجْعَلْهُ عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَهُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَضِلُّ سَالِكُهُ ، وَلَا يَنْجُو تَارِكُهُ ، بِأَنْ يُوَفِّقَهُ لِاسْتِعْمَالِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعَقْلِهِ فِي آيَاتِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ وَآيَاتِهِ الْمُكَوَّنَةِ ، اسْتِعْمَالًا يَعْرِفُ بِهِ الْحَقَّ وَيَعْتَرِفُ

بِهِ ، وَيَعْرِفُ بِهِ الْخَيْرَ وَيَعْمَلُ بِهِ بِحَسَبِ سُنَنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الِارْتِبَاطِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْعَقَائِدِ وَالْوِجْدَانَاتِ النَّفْسِيَّةِ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ يَخْلُقَ لَهُ الْهِدَايَةَ خَلْقًا كَمَا خَلَقَ رُوحَهُ وَبَدَنَهُ ، وَلَا أَنَّهُ يُجْبِرُهُ عَلَيْهَا فَيُلْصِقُ بِهِ كَارِهًا غَيْرَ مُخْتَارٍ ، وَفِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَشِيئَةَ الْإِضْلَالِ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِأَصْحَابِ الْأَعْمَالِ الْكَسْبِيَّةِ الَّتِي هِيَ الضَّلَالُ أَوْ سَبَبُ الضَّلَالِ ، وَمَشِيئَةُ الْهِدَايَةِ تَتَعَلَّقُ بِمَا يُقَابِلُ ذَلِكَ .

قَالَ تَعَالَى : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ 7 : 179) وَقَالَ تَعَالَى : (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ 14 : 27) وَقَالَ : (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ 2 : 26) كَمَا قَالَ : (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ 5 : 16) فَالْجَمْعُ بَيْنَ الْآيَاتِ هُوَ الْمُوَافِقُ لِفِطَرِ الْبَشَرِ وَعُقُولِهِمْ وَإِنْ خَالَفَ بَعْضَ نَظَرِيَّاتِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَبْرِيَّةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ ، فَلَيْسَ الْإِنْسَانُ خَالِقًا لِأَفْعَالِ نَفْسِهِ ، مُسْتَقِلًّا بِهَا دُونَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَلَمْ يَجْعَلِ الرَّبُّ مَا يَصْدُرُ عَنِ النَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنْ قَبِيلِ مَا خَلَقَهُ لَهُمْ مِنْ حَرَكَاتِ دِمَائِهِمْ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَعْمَالِ مَعِدِهِمْ وَأَمْعَائِهِمْ ، وَلَا مِنْ قَبِيلِ حَرَكَاتِ الْمُرْتَعِشِ مِنْهُمْ ، فَلَا نَغْلُو فِي التَّنْزِيهِ وَالْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ غُلُوًّا نَجْعَلُ بِهِ ضَلَالَ مَنْ ضَلَّ وَاقِعًا بِغَيْرِ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى مُقَدِّرِ الْمَقَادِيرِ ، وَوَاضِعِ السُّنَنِ الْحَكِيمَةِ فِي الْخَلْقِ كُلِّهِ ، وَلَا نَغْلُو فِي الْمَشِيئَةِ فَنَجْعَلَهَا مُنَافِيَةً لِلْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ سَالِبَةً لِمَا عُلِمَ مِنْ فِطْرَةِ اللَّهِ بِالضَّرُورَةِ .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّ الْآيَةَ فِي بَيَانِ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ الْكَافِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا 17 : 97) قَالَ : وَإِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِضْلَالِ إِضْلَالُهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْجَنَّةِ جَزَاءً لَهُمْ ، وَيُقَابِلُهُ جَعْلُ الْمُتَّقِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُوصِّلٍ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَيَرُدُّ هَذَا التَّأْوِيلَ وُرُودُ الْآيَةِ فِي وَصْفِ حَالِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللهِ فِي سِيَاقِ إِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ ، وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرٌ لِلْآخِرَةِ وَلَا هِيَ وَارِدَةٌ فِي سِيَاقِ الْجَزَاءِ ، وَإِسْنَادُ الْإِضْلَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَا يَقْتَضِي إِخْرَاجَهَا عَنْ ظَاهِرِهَا ، فَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ .

وَمِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ فِي الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ) فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي " سُورَةِ الْبَقَرَةِ " : (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ 2 : 18 ، 171) فَلِمَاذَا سُرِدَتِ الصِّفَاتُ الثَّلَاثُ

(663/231)

فِي الْبَقَرَةِ مَفْصُولَةً وَوُصِلَتْ كُلُّهَا بِالْعَطْفِ فِي آيَةِ الْإِسْرَاءِ (17 : 97) الَّتِي ذُكِرَتْ آنِفًا ، وَعَطْفُ الثَّانِيَةِ عَلَى الْأُولَى هُنَا دُونَ قَوْلِهِ : (فِي الظُّلُمَاتِ) الَّذِي هُوَ فِي مَعْنَى الثَّالِثَةِ ؟ لَمْ أَرَ لِأَحَدٍ كَلَامًا فِي الْفَرْقِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَلَكِنْ ذَكَرَ فِي " رُوحِ الْمَعَانِي " أَنَّ الْعَطْفَ بَيْنَ

الصُّمِّ وَالْبُكْمِ لِتَلَازُمِهِمَا ، وَتَرْكَهُ فِيمَا بَعْدَهُمَا لِلْإِيمَاءِ إِلَى أَنَّهُ كَافٍ لِلْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ ، وَالَّذِي يَظْهَرُ لَنَا فِي الْمُقَابَلَةِ أَنَّ تَرْكَ الْعَطْفِ فِي آيَتَيِ الْبَقَرَةِ لِبَيَانِ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَاصِقَةٌ بِالْمَوْصُوفِينَ بِهَا مُجْتَمِعَةٌ فِي آنٍ وَاحِدٍ ، وَالْأُولَى مِنْهُمَا فِي الْمَخْتُومِ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْمَيْئُوسِ مِنْ إِيمَانِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ ، وَالثَّانِيَةُ فِي الْمُقَلِّدِينَ الْجَامِدِينَ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا لَا يَسْتَمِعُ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ وَلَا يَسْأَلُ الرَّسُولَ وَلَا غَيْرَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا يَحُوكُ فِي قَلْبِهِ وَيَجُولُ فِي ذِهْنِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّكِّ ، وَلَا يَنْطِقُ بِمَا عَسَاهُ يَعْرِفُ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَسْتَدِلُّ بِآيَاتِ اللهِ الْمَرْئِيَّةِ فِي نَفْسِهِ وَلَا فِي الْآفَاقِ ، فَكَأَنَّهُ أَصَمُّ أَبْكَمُ أَعْمَى فِي آنٍ وَاحِدٍ ، وَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا فَهِيَ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ ، وَلَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ مِنَ الْمَخْتُومِ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْمَيْئُوسِ مِنْ إِيمَانِهِمْ ، وَلَا مِنَ الْمُقَلِّدِينَ الْجَامِدِينَ الَّذِينَ لَا يَنْظُرُونَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ وَالْمُكَوَّنَةِ

(664/231)

، بَلْ كَانَ مِنْهُمُ الْجَامِدُ عَلَى التَّقْلِيدِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ حَتَّى كَأَنَّهُ أَصَمُّ (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا 31 : 7) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ وَيَعْلَمُ أَنَّهَا الْحَقُّ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَنْطِقُ بِمَا يَعْلَمُ عِنَادًا ، فَهَذَانِ فَرِيقَانِ مُنْفَصِلَانِ ، عَطَفَ

أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ لِبَيَانِ هَذَا الِانْفِصَالِ . وَقَوْلُهُ : (فِي الظُّلُمَاتِ) إمَّا حَالٌ مِنْهُمَا لِبَيَانِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا خَابِطٌ فِي الظُّلُمَاتِ الْمُشْتَرِكَةِ كَظُلْمَتَيِ الشِّرْكِ وَالْجَهْلِ ، أَوِ الْخَاصَّةِ بِفَرِيقٍ دُونَ آخَرَ كَظُلْمَتَيِ التَّقْلِيدِ وَالْكِبْرِ ، فَبَعْضُ الْمُقَلِّدِينَ غَيْرُ مُسْتَكْبِرِينَ وَهُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَبَعْضُ الْمُسْتَكْبِرِينَ غَيْرُ جَامِدِينَ عَلَى تَقْلِيدِ الْآبَاءِ ، وَإِمَّا صِفَةٌ لِبُكْمٍ فَيَكُونُ الْمُكَذِّبُونَ الْمَحْكِيُّ عَنْهُمْ قِسْمَيْنِ

(665/231)

كُلٌّ مِنْهُمَا فَرِيقَانِ (الْأَوَّلُ) الَّذِينَ شُبِّهُوا بِالصُّمِّ ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ مُطْلَقًا اسْتِغْنَاءً عَنْ هِدَايَتِهِ بِضَلَالِهِمْ وَمُشَاغَبَةً لِلدَّاعِي إلَيْهِ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ 41 : 26) وَالَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ سَمَاعَ فَهْمٍ وَتَأَمُّلٍ ، لِتَوَهُّمِهِمْ عَدَمَ الْحَاجَةِ إلَى دِينٍ غَيْرِ دِينِ آبَائِهِمْ ، أَوْ لِأَنَّ رُؤَسَاءَهُمْ يَنْهَوْنَهُمْ وَيَصُدُّونَهُمْ عَنْهُ ، وَلَمْ يُوصَفْ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ – عَلَى هَذَا الْوَجْهِ – لِأَنَّ سَمَاعَهُمْ مَرْجُوٌّ وَهِدَايَتَهُمْ مَأْمُولَةٌ عِنْدَ زَوَالِ الْمَانِعِ . (الثَّانِي) الَّذِينَ شُبِّهُوا بِالْبُكْمِ وَهُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَاسْتَيْقَنُوا صِدْقَ الرَّسُولِ بِالْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَكْتُمُونَهَا أَوْ يَجْحَدُونَ بِهَا كِبْرًا وَعِنَادًا لَا تَكْذِيبًا لَهُ وَلَا إكْذَابًا ، كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا

(666/231)

فِي الْآيَةِ (39) ، وَالَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَسْأَلُوا وَلَمْ يَبْحَثُوا فَهُمْ كَالْبُكْمِ لِعَدَمِ اسْتِفَادَتِهِمْ مِنَ الْكَلَامِ . وَوَصَفَ هَذَا الْفَرِيقَ مِنَ الْبُكْمِ - وَهُمُ الْجَاهِلُونَ - بِأَنَّهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ لِأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ فِي دَلَالَةِ الْآيَاتِ الْمَرْئِيَّةِ ، وَوَصَفَ بِذَلِكَ الْفَرِيقَ الْأَوَّلَ أَيْضًا - وَهُمُ الْمُسْتَكْبِرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا تُؤَثِّرُ فِي قُلُوبِهِمْ رُؤْيَةُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصِفَاتُهُ الْقُدْسِيَّةُ ، وَقَدْ كَانَتْ شَمَائِلُهُ الشَّرِيفَةُ الْمَرْضِيَّةُ وَرُوحَانِيَّتُهُ الَّتِي هِيَ أَقْوَى مِنَ الْكَهْرَبَائِيَّةِ تُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ الْمُسْتَعِدَّةِ فَتَجْذِبُهَا إلَى الْإِيمَانِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إلَى إقَامَةِ حُجَّةٍ وَلَا تَأْلِيفِ بُرْهَانٍ ، وَقَدْ كَانَ يَجِيئُهُ الْأَعْرَابِيُّ السَّلِيمُ الْفِطْرَةُ مُمْتَحِنًا أَوْ مُعَادِيًا ، فَإِذَا رَآهُ آمَنَ وَقَالَ : مَا هَذَا وَجْهُ كَذَّابٍ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَأَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ مَهَابَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " هَوِّنْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلَا جَبَّارٍ ، إنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ " فَنَطَقَ الرَّجُلُ بِحَاجَتِهِ . رَوَاهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ ، وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ .

(667/231)

وَمِنَ الشَّوَاهِدِ الْمُؤَيِّدَةِ لِمَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّقْسِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي " سُورَةِ يُونُسَ " : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ 10 : 42 ، 43) وَأَمَّا آيَةُ الْإِسْرَاءِ فَلَا يَظْهَرُ فِيهَا هَذَا التَّقْسِيمُ وَلَا مَعْنَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَتَا الْبَقَرَةِ مِنْ إِرَادَةِ اجْتِمَاعِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الثَّلَاثِ الْحَائِلَةِ دُونَ جَمِيعِ طُرُقِ الْهِدَايَةِ ، وَإِنَّمَا تُفِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْعِلَلَ تَعْرِضُ لَهُمْ فِي حَالَاتٍ وَأَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ يَوْمِ الْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ ، فَيَكُونُونَ عُمْيًا هَائِمِينَ فِي الظُّلُمَاتِ عَلَى وُجُوهِهِمْ (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ 57 : 12) فَلَا يَرَوْنَ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَ إِلَى الْجَنَّةِ عِنْدَمَا يُسَاقُ أَهْلُهَا إِلَيْهَا وَيَكُونُونَ بُكْمًا (هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ 77 : 35 ، 36) وَذَلِكَ فِي بَعْضِ

(668/231)

مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ وَأَحْوَالِهَا ، ، وَيَكُونُونَ صُمًّا لَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا يَسُرُّهُمْ عِنْدَمَا يَسْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ بُشْرَى الْمَغْفِرَةِ مِنْ رَبِّهِمْ . وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّفْسِيرَ مَجْمُوعُ مَا وَرَدَ فِي الْآيَاتِ وَالرِّوَايَاتِ مِنْ بَيَانِ حَالِ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ ، وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَظَهَرَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آيَتَيِ الْبَقَرَةِ الْمُرَادُ بِهَا اجْتِمَاعُ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْعَمَى فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ

وَوَقْتٍ وَاحِدٍ ، كَأَنَّهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلَوْ حَصَلَ بَعْضُهَا دُونَ بَعْضٍ لَمَا أَفَادَتْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ بَدَأَ بِذِكْرِ الصُّمِّ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنْ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَبَيَانِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ قَبُولِهَا ، وَبَدَأَ بِذِكْرِ الْعَمَى فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنِ الْحَشْرِ ، فَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ مِنْ دَقَائِقِ بَلَاغَةِ هَذَا الْقُرْآنِ الَّتِي أَعْجَزَتِ الْبَشَرَ ، وَكُلَّمَا غَاصَ غَائِصٌ فِي بِحَارِهَا اسْتَفَادَ شَيْئًا جَدِيدًا مِنْ فَوَائِدِ الدُّرَرِ ، فَلَا تَنْفَدُ عَجَائِبُ إِعْجَازِ مَبَانِيهِ ، وَلَا تَنْتَهِي عَجَائِبُ إِعْجَازِ مَعَانِيهِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 320. 339 ﴾

(669/231)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾

والصمم آفة تصيب الأذن فلا تسمع . والبكم آفة تصيب اللسان فلا ينطق . والبكم مرتبط بالصمم ؛ لأن الإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ فالإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع .

إن البشر ينشأون في بيئات مختلفة اللغة ولا يتكلمون إلا باللغة التي نشأوا في بيئتها ؛ لأن اللغة ليست دماً ولا جنساً . بل اللغة سماع . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ولا يقرأ الإنسان إلا إذا سمع وعرف ارتباط ما يسمع بما يرى ؛ لذلك نعرف أن السمع هو المنفذ الأول للإدراك ، ولهذا كان الصمم قبل البكم .

ولكن هل الإدراك مرتبط بالصمم والبكم فقط ؟ لا ، إن الإنسان يسمع أولاً ، ثم يرى ، ثم يتذوق ، ثم يشم ، ثم يلمس ، ثم تأتي له المعلومات العقلية . والمثال على ذلك أن كل إنسان يعرف أن النار محرقة ، وهو لم يعرف هذا إلا لأنه وجدها قد لمست كائناً وأحرقته . ومثال آخر : يتفق الناس على أن صوت العندليب جميل ، وهذا الاتفاق جاء من سماع الناس لصوت العندليب . إذن فالمعلومات العقلية تأتي نتيجة للمعلومات الحسية .

﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظلمات ﴾ إنهم بلا قدرة أيضاً على إبصار الهداية من أي ناحية ؛ صم لا يسمعون لكلمة الحق ، وبكم لا ينطقون ، وفي ظلمات لا يهتدون إلى إدراكات الأشياء ولا إلى الإيمان . وكل ذلك مردود إلى المشيئة : ﴿ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لكن هل اقتحمت المشيئة على الناس وقهرتهم ؟ لا ؛ لأن الحق قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : 28] .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿ والله لا يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ إذن ، فبتقديمهم الظلم ، والفسق ، والكفر ، وقد فعلوا ذلك اختياراً فصار المرض واستقر في قلوبهم وزادهم الله مرضاً ، وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك به ، فمن أشرك مع الله شيئاً فهو له . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(671/231)

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

﴿

في هذه الموجة من موجات السياق المتدفق في السورة ، يتجه الحديث إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يطيب الله – سبحانه – خاطره في أوله ، مما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وهو الصادق الأمين ، فإنهم لا يظنون به الكذب ، إنما هم مصرون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان ، لأمر آخر غير ظنهم به الكذب ! كما يواسيه بما وقع لإخوانه الرسل قبله من

(672/231)

التكذيب والأذى ، وما وقع منهم من الصبر والاحتمال ، ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهم . وفق سنته التي لا تتبدل . . حتى إذا انتهى من المواساة والتسرية والتطمين ، التفت إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرر له الحقيقية الكبرى في شأن هذه الدعوة . . إنها تجري بقدر الله وفق سنته ، وليس للداعية فيها إلا التبليغ والبيان . . إن الله هو الذي

يتصرف في الأمر كله ، فليس على الداعية إلا أن يمضي وفق هذا الأمر ، لا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئاً . حتى ولو كان هو النبي الرسول ! ولا يستمع إلى مقترحات المكذبين – ولا الناس عامة – في منهج الدعوة ، ولا في اقتراح براهين وآيات معينة عليه . . والأحياء الذين يسمعون سيستجيبون ، أما موتى القلوب فهم موتى لا يستجيبون ، والأمر إلى الله إن شاء أحياهم وإن شاء أبقاهم موتى حتى يرجعوا إليه يوم القيامة .

وهم يطلبون آية خارقة على نحو ما كان يقع للأقوام من قبلهم ، والله قادر على أن ينزل آية . ولكنه سبحانه لا يريد – لحكمة يراها – فإذا كبر على الرسول إعراضهم فليحاول هو إذن بجهده البشري أن يأتيهم بآية ! . . إن الله – سبحانه – هو خالق الخلائق جميعاً ، وعنده أسرار خلقهم ، وحكمة اختلاف خصائصهم وطباعهم . وهو يترك المكذبين من البشر صماً وبكماً في الظلمات ، ويضل من يشاء ويهدي من يشاء وفق ما يعلمه من حكمة الخلق والتنويع . .

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ . .

(673/231)

إن مشركي العرب في جاهليتهم – وخاصة تلك الطبقة التي كانت تتصدى للدعوة من قريش – لم يكونوا يشكون في صدق محمد – صلى الله عليه وسلم – فلقد عرفوه صادقاً أميناً ، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة ، كذلك لم تكن تلك الطبقة التي تتزعم المعارضة لدعوته تشك في صدق رسالته ، وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر ، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله . .

ولكنهم – على الرغم من ذلك – كانوا يرفضون إظهار التصديق ، ويرفضون الدخول في الدين الجديد ! إنهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبي – صلى الله عليه وسلم – ولكن لأن في دعوته خطراً على نفوذهم ومكانتهم .

. وهذا هو السبب الذي من أجله قرروا الجحود بآيات الله ، والبقاء على الشرك الذي كانوا فيه . .

والأخبار التي تقرر الأسباب الحقيقية لموقف قريش هذا وحقيقة ظنهم بهذا القرآن كثيرة :

(674/231)

قال ابن اسحاق : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري : أنه حُدِّث ، أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني

زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه . وكل لا يعلم بمكان صاحبة . فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الصبح تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائهم لأوقعتم في نفسه شيئاً . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك . . ثم تفرقوا . . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه في بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . . أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا

كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! قال : فقام عنه الأخنس وتركه . .

(675/231)

وروى ابن جرير – من طريق أسباط عن السدي – في قوله : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ . . لما كان يوم بدر ، قال الأخنس بن شريق لبني زهرة : يا بني زهرة إن محمداً ابن أختكم ، فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته ، فإن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم ، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته . قفوا حتى ألقى أبا الحكم ، فإن غَلب محمد رجعتم سالمين ، وإن غُلب محمد فإن قومكم لن يصنعوا بكم شيئاً – فيومئذ سمي الأخنس وكان اسمه أُبي – فالتقى الأخنس بأبي جهل ، فخلا به ، فقال : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد : أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا ! فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

.

ونلاحظ : أن السورة مكية ، وهذه الآية مكية لا شك في ذلك ؛ بينما الحادثة المذكورة كانت في المدينة يوم بدر . . ولكن إذا عرفنا أنهم كانوا يقولون أحياناً عن آية ما : " فذلك قوله : كذا . . " ويقرنون إليها حادثاً ما لا للنص على أنها نزلت بسبب الحادث الذي يذكرونه ؛ ولكن بسبب انطباق مدلولها على الحادث ، بغض النظر عما إذا كان سابقاً أو لاحقاً . . فإننا لا نستغرب هذه الرواية . .

(676/231)

وقال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن زياد ، " عن محمد بن كعب القرظي ، قال : حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة – وكان سيداً – قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ – وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يزيدون ويكثرون – فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا ابن أخي . إنك منا حيث علمت من البسطة في

العشيرة ، والمكان في النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " قل : يا أبا الوليد أسمع " قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . . أو كما قال . . حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستمع منه – قال : " أفرغت يا أبا الوليد ؟ " قال : نعم . قال : " فاستمع مني " . قال : أفعل . قال : " بسم الله الرحمن الرحيم : حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . . " ثم مضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى

(677/231)

يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما ، يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى السجدة منها فسجد . ثم قال : " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك " . . فقام عتبة إلى أصحابه "

فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ! فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي . . خلوا بين الرجل وما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم !

وقد روى البغوي في تفسيره حديثاً – بإسناده – " عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مضى في قراءته إلى قوله : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . ﴾ فأمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم . . إلى آخره . . ثم لما حدثوه في هذا قال : فأمسكت بفيه ، وناشدته الرحم أن يكف . وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخشيت أن ينزل بكم العذاب " .

وقال ابن اسحاق : إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش – وكان ذا سن فيهم – وقد حضر الموسم . فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فاجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به ، قال : بل أنتم فقولوا : أسمع . قالوا : نقول : كاهن ! قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ! قالوا : فنقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ! قالوا : فنقول : شاعر ! قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ! قالوا : فنقول : ساحر ! قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ! قالوا : فما نقول يا أبا عبد الشمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ! وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين

المرء وعشيرته .

. فتفرقوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس – حين قدموا الموسم – لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره !

(679/231)

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثورة ، عن معمر ، عن عبادة بن منصور ، عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام . فأتاه فقال له : أي عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ! قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله ! (يريد الخبيث أن يثير كبرياءه من الناحية التي يعرف أنه أشد بها اعتزازاً !) قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالاً ! قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له ! قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا . والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته . وإنه ليعلو وما يعلى . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . . قال : فدعني حتى أفكر فيه . . فلما فكر قال : إن

هذا إلا سحر يؤثر . يؤثره عن غيره . فنزلت : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً . . ﴾ حتى بلغ : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ وفي رواية أخرى أن قريشاً قالت : لئن صبأ الوليد لتصبون قريش كلها ! فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه . . وأنه قال – بعد التفكير الطويل – إنه سحر يؤثر . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه .

(680/231)

فهذه الروايات كلها تبين أن هؤلاء المكذبين لم يكونوا يعتقدون أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يكذبهم فيما يبلغه لهم . وإنما هم كانوا مصرين على شركهم لمثل هذه الأسباب التي وردت بها الروايات ، وما وراءها من السبب الرئيسي ، وهو ما يتوقعونه من وراء هذه الدعوة من سلب السلطان المغتصب ، الذي يزاولونه ، وهو سلطان الله وحده . كما هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله التي يقوم عليها الإسلام . وهم كانوا يعرفون جيداً مدلولات لغتهم ؛ وكانوا لا يريدون أن يسلموا بمدلول هذه الشهادة .

وهو إنما يمثل ثورة كاملة على كل سلطان غير سلطان الله في حياة العباد . . وصدق الله العظيم :

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله

يجحدون ﴾ . .

والظالمون في هذا الموضع هم المشركون . كما يغلب في التعبير القرآني الكريم .

ويستطرد من تطييب خاطر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبيان الأسباب الحقيقية لموقف المكذبين منه ومن دعوته ، ومن آيات الله الناطقة بصدقه وصدق ما جاء به . .

يستطرد من هذا إلى تذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله – وقد جاءه من أخبارهم في هذا القرآن – ثم ما كان منهم من الصبر والمضي في الطريق ، حتى جاءهم نصر الله . ليقرر أن هذه هي سنة الدعوات التي لا تتبدل ، ولا يغير منها اقتراحات المقترحين ، كما أنها لا تستعجل مهما ينزل بالدعاة من الأذى والتكذيب والضيق :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ . .

(681/231)

إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم ، ضارب في شعاب الزمن ، ماض في الطريق اللاحب ، ماض في الخط الواصب . . مستقيم الخطى ، ثابت الأقدام . يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب

من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء . . والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد . . والعاقبة هي العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق . . إن نصر الله دائماً في نهاية الطريق :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ . .

كلمات يقولها الله – سبحانه – لرسوله – صلى الله عليه وسلم – . . كلمات للذكرى ، وللتسرية وللمواساة ، والتأسية . . وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – طريقهم واضحاً ، ودورهم محدداً ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق . . .

إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة . كما أنها كذلك وحدة . وحدة لا تتجزأ . . دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب ، وتتلقى أصحابها بالأذى . . وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى . . وسنة تجري بالنصر في النهاية . . ولكنها تجيء في موعدها . لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب ، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين ! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حباً في هدايتهم ، ويأسى على ما هم فيه من ضلال

وشقوة ، وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والأخرة .

. لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله . فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه . ولا مبدل لكلماته . سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم ، أم تعلقت بالأجل المرسوم .

(682/231)

إنه الجد الصارم ، والحسم الجازم ، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية . .

ثم يبلغ الجد الصارم مداه ، في مواجهة ما عساه يعتمل في نفس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الرغبة البشرية ، المشتاقة إلى هداية قومه ، المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبونه من آية لعلهم يهتدون . وهي الرغبة التي كانت تجيش في صدور بعض المسلمين في ذلك الحين ، والتي تشير إليها آيات أخرى في السورة آتية في السياق . وهي رغبة بشرية طبيعية .

ولكن في صدد الحسم في طبيعة هذه الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها ، ودور الناس أجمعين ، تجيء تلك المواجهة الشديدة في القرآن الكريم :

﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض ، أو سلماً في السماء ، فتأتيهم بآية ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون ﴾ . .

وإنه للهول الهائل ينسكب من خلال الكلمات الجليلة . . وما يملك الإنسان أن يدرك حقيقة هذا الأمر ، إلا حين يستحضر في كيانه كله : أن هذه الكلمات موجهة من رب العالمين إلى نبيه الكريم . . النبي الصابر من أولي العزم من الرسل . . الذي لقي ما لقي من قومه صابراً محتسباً ، لم يدع عليهم دعوة نوح – عليه السلام – وقد لقي منهم سنوات طويلة ، ما يذهب بحلم الحليم !

. . . تلك سنتنا – يا محمد – فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم ، وكنت ترغب في إتيانهم بآية . . إذن . . فإن استطعت فابتغ لك نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء ، فأتهم بآية !

(683/231)

. . . إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية . فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول . . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى : إما بتكوين فطرتهم من الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى – كالملائكة – وإما بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه . وإما بإظهار خارقة تلوي أعناقهم جميعاً . وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها .

ولكنه سبحانه – لحكمته العليا الشاملة في الوجود كله – خلق هذا الخلق المسمى بالإنسان ، لوظيفة معينة ، تقتضي – في تدبيره العلوي الشامل – أن تكون له استعدادات معينة غير استعدادات الملائكة . من بينها التنوع في الاستعدادات ، والتنوع في استقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، والتنوع في الاستجابة لهذه الدلائل والموحيات . في حدود من القدرة على الاتجاه ، بالقدر الذي يكون عدلاً معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال . . لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكويني من عنده ، ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية ، وتلقي الجزاء العادل في نهاية المطاف .

. فاعلم ذلك ولا تكن مما يجهلونه .

﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . فلا تكونن من الجاهلين ﴾ .

يا لهول الكلمة ! ويا لحسم التوجيه ! ولكنه المقام الذي يقتضي هول الكلمة وحسم التوجيه . .

وبعد ذلك بيان للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ولمواقفهم المختلفة في مواجهة الهدى ، الذي لا تنقصه البينة ولا ينقصه الدليل :

﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون ﴾ . .

إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان :

فريق حي ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية ، عاملة ، مفتوحة . . وهؤلاء يستجيبون

للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه ، فتستجيب له :

﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ . .

(684/231)

وفريق ميت ، معطل الفطرة ، لا يسمع ولا يستقبل ، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب . . ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله – فدليله كامن فيه ، ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه ، فاستجابت إليه حتماً – إنما الذي ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي ! وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول ، ولا مجال معهم للبرهان . إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله . إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم ، وإن شاء لم يبعثهم في هذه الحياة الدنيا ، وبقوا أمواتاً بالحياة حتى يرجعوا إليه في الآخرة .

﴿ والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون ﴾ . .

هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة ! تكشف حقيقة الموقف كله ، وتحدد واجب الرسول وعمله ، وتترك الأمر كله لصاحب الأمر يقضي فيه بما يريد .

ومن خطاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بهذه الحقيقة ، ينتقل السياق إلى حكاية ما يطلبه المشركون من إنزال خارقة ، وإلى بيان ما في هذا الطلب من الجهالة بسنة الله ، ومن سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الاقتراح الذي في أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليه ! ويعرض جانباً من دقة التدبير الإلهي وإحاطته بالأحياء جميعاً ، يوحي بحكمة السنة الشاملة للأحياء جميعاً . وينتهي بتقرير ما وراء الهدى والضلال من أسرار وسنن تجري بها مشيئة الله طليقة .

﴿ وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله قادر على أن ينزل آية ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون . والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات . من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ . .

(685/231)

لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التي صاحبت الرسالات السابقة ، ولا يقنعون بآية القرآن الباقية ، التي تخاطب الإدراك البشري الراشد ، وتعلن عهد الرشد الإنساني ، وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقي ؛ والتي لا تنتهي بانتهاء الجيل الذي يرى

الخارقة المادية ؛ بل تظل باقية تواجه الإدراك البشري بإعجازها إلى يوم القيامة .

.

وكانوا يطلبون خارقة ، ولا يفطنون إلى سنة الله في أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجيء الخارقة ، وإهلاكهم في الدنيا . ولا يدركون حكمة الله في عدم مجيئهم بهذه الخارقة ، وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها – كما وقع في الأقوام قبلهم – فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن . فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة . ولا يشكرون نعمة الله عليهم في إمهالهم ، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم ، الذي لا يعلمون جرائره !

والقرآن يذكر اقتراحهم هذا ، ويعقب عليه بأن أكثرهم لا يعلمون ما وراءه ولا يعلمون حكمة الله في عدم الاستجابة ، ويقرر قدرة الله على تنزيل الآية ، ولكن حكمته هي التي تقتضي ، ورحمته التي كتبها على نفسه هي التي تمنع البلاء :

﴿ وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله قادر على أن ينزل آية . ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

ويأخذ السياق القرآني طريقه إلى قلوبهم من مدخل آخر لطيف . ويوقظ فيها قوى الملاحظة والتدبر لما في الوجود حولهم من دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، لو تدبروه وعقلوه :

﴿ وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ . .

إن الناس ليسوا وحدهم في هذا الكون ، حتى يكون وجودهم مصادفة ، وحتى تكون حياتهم سدى ! إن حولهم أحياء أخرى ، كلها ذات أمر منتظم ، يوحي بالقصد والتدبير والحكمة ، ويوحي كذلك بوحدة الخالق ، ووحدة التدبير الذي يأخذ به خلقه كله . .

(686/231)

إنه ما من دابة تدب على الأرض – وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات – وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء – وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة غير ذلك من الكائنات الطائرة . . ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة ، ذات خصائص واحدة ، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك . . شأنها في هذا شأن أمة الناس . . ما ترك الله شيئاً من خلقه بدون تدبير يشمله ، وعلم يحصيه . . وفي النهاية تحشر الخلائق إلى ربها . . فيقضي في أمرها بما يشاء . .

إن هذه الآية القصيرة – فوق تقريرها الحاسم في حقيقة الحياة والأحياء – لتهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل ، والتدبير الواسع ، والعلم المحيط ، والقدرة القادرة ، لله

ذي الجلال . . وكل جانب من هذه الجوانب لا نملك التوسع في الحديث عنه حتى لا نخرج عن منهج الظلال ، فنجاوزه إذن لنتمشى مع السياق .

. إذ المقصود الأول هنا هو توجيه القلوب والعقول ، إلى أن وجود هذه الخلائق بهذا النظام ، وشمولها بهذا التدبير ، وإحصاءها في علم الله ، ثم حشرها إلى ربها في نهاية المطاف . . توجيه القلوب والعقول إلى ما في هذه الحقيقة الهائلة الدائمة من دلائل وأمارات ، أكبر من الآيات والخوارق التي يراها جيل واحد من الناس !

وتختم هذه الجولة – أو هذه الموجة – بتقرير ما وراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسنته ، وما يدلان عليه من فطرة الناس في حالات الهدى وحالات الضلال :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات . من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ . .

(687/231)

وهو إعادة لتقرير الحقيقة التي مضت في هذه الجولة عن استجابة الذين يسمعون ، وموت الذين لا يستجيبون . ولكن في صورة أخرى ومشهد آخر . . إن الذين كذبوا بآيات الله هذه المبثوثة في صفحات الوجود ، وآياته الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن ، إنما كذبوا

لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطلة . . إنهم صم لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون ، غارقون في الظلمات لا يبصرون ! إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي . فإن لهم عيوناً وآذاناً وأفواهاً . . ولكن إدراكهم معطل ، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل ! . . وإنه لكذلك فهذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها ، لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك ! وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته ، فلم يعد صالحاً لحياة الهدى ، ولم يعد أهلاً لذلك المستوى الراقي من الحياة .

ووراء ذلك كله مشيئة الله . . المشيئة الطليقة التي قضت أن يكون هذا الخلق المسمى بالإنسان على هذا الاستعداد المزدوج للهدى والضلال ، عن اختيار وحكمة ، لا عن اقتضاء أو إلزام . . وكذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم . بمشيئته تلك ، التي تعين من يجاهد ، وتضل من يعاند . ولا تظلم أحداً من العباد . .

إن اتجاه الإنسان إلى طلب الهدى ، أو اتجاهه إلى الضلال ، كلاهما ينشأ من خلقته التي فطره الله عليها بمشيئته . فهذا الاتجاه وذاك مخلوق ابتداء بمشيئة الله . والنتائج التي تترتب على هذا الاتجاه وذاك من الاهتداء والضلال إنما ينشئها الله بمشيئته كذلك . فالمشيئة فاعلة ومطلقة . والحساب والجزاء إنما يقومان على اتجاه الإنسان . الذي يملكه ، وإن كان الاستعداد للاتجاه المزدوج هو في الأصل من مشيئة الله . .

والآن بعد الانتهاء من استعراض هذه الموجة من السياق ، نقف وقفة قصيرة لاستخلاص عبرة التوجيه فيها لكافة أصحاب الدعوة إلى هذا الدين في كل جيل ، فإن مدى التوجيه فيها يتجاوز المناسبة التاريخية الخاصة ، وينسحب على جميع الأجيال ، وجميع الدعاة ، ويرسم منهجاً للدعوة إلى هذا الدين ، لا يتقيد بالزمان والمكان . ونحن لا نملك هنا أن نفصل كل جوانب هذا المنهج ، فنقف منه إذن عند معالم الطريق :

إن طريق الدعوة إلى الله شاق ، محفوف بالمكاره ، ومع أن نصر الله للحق آت لا ريب فيه ، إلا أن هذا النصر إنما يأتي في موعده الذي يقدره الله ، وفق علمه وحكمته ، وهو غيب لا يعلم موعده أحد – حتى ولا الرسول – والمشقة في هذا الطريق تنشأ من عاملين أساسيين : من التكذيب والإعراض اللذين تقابل بهما الدعوة في أول الأمر ، والحرب والأذى اللذين يعلنان على الدعاة .

. ثم من الرغبة البشرية في نفس الداعية في هداية الناس إلى الحق الذي تذوقه ، وعرف طعمه ، والحماسة للحق والرغبة في استعلانه ! وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والإعراض والحرب والأذى . فكلها من دواعي مشقة الطريق !

والتوجيه القرآني في هذه الموجة من السياق يعالج هذه المشقة من جانبيها . . ذلك حين يقرر أن الذين يكذبون بهذا الدين أو يحاربون دعوته ، يعلمون علم اليقين أن ما يدعون إليه هو الحق ، وأن الرسول الذي جاء به من عند الله صادق . ولكنهم مع هذا العلم لا يستجيبون ، ويستمرون في جحودهم عناداً وإصراراً ، لأن لهم هوى في الإعراض والتكذيب ! وأن هذا الحق يحمل معه دليل صدقه ، وهو يخاطب الفطرة فتستجيب له ، متى كانت هذه الفطرة حية ، وأجهزة الاستقبال فيها صالحة : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ . . فأما الذين يجحدون فإن قلوبهم ميتة وهم موتى وهو صم وبكم في الظلمات . والرسول لا يسمع الموتى ولا يسمع الصم الدعاء . والداعية ليس عليه أن يبعث الموتى . فذلك من شأن الله . . هذا كله من جانب ، ومن الجانب الآخر ، فإن نصر الله آت لا ريب فيه . . كل ما هنالك أنه يجري وفق سنة الله وبقدر الله ، وكما أن سنة الله لا تستعجل ، وكلماته لا تتبدل ، من ناحية مجيء النصر في النهاية ، فكذلك هي لا تتبدل ولا تستعجل من ناحية الموعد المرسوم . . والله لا يعجل لأن الأذى والتكذيب يلحق بالدعاة – ولو كانوا هم الرسل – فإن استسلام صاحب الدعوة نفسه لقدر الله بلا عجلة ، وصبره على الأذى بلا تململ ، ويقينه في العاقبة بلا شك . . كلها مطلوبة من وراء تأجيل النصر إلى موعده المرسوم .

(690/231)

ويحدد هذا التوجيه القرآني دور الرسول في هذا الدين – ودور الدعاة بعده في كل جيل – إنه التبليغ ، والمضي في الطريق ، والصبر على مشاق الطريق . . أما هدى الناس أو ضلالهم فهو خارج عن حدود واجبه وطاقته . . والهدى والضلال إنما يتبعان سنة إلهية لا تتبدل ، ولا يغير منها رغبة الرسول في هداية من يحب ، كما لا يغير منها ضيقه ببعض من يعاند ويحارب . . إن شخصه لا اعتبار له في هذه القضية ، وحسابه ليس على عدد المهتدين ، إنما حسابه على ما أدى وما صبر وما التزم ، وما استقام كما أمر . . وأمر الناس بعد ذلك إلى رب الناس .

. ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ . . ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ . .

﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ وقد بينا من قبل علاقة مشيئة الله الطليقة في الهدى والضلال باتجاه الناس وجهادهم . بما فيه الكفاية .

(691/231)

من هنا لا ينبغي لصاحب الدعوة إلى هذا الدين ، أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجه إليهم الدعوة ، في تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية ؛ ولا أن يحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم . . ولقد كان المشركون يطلبون الخوارق – وفق مألوف زمانهم ومستوى مداركهم كما حكى عنهم القرآن في مواضع منه شتى ، منها في هذه السورة ﴿ وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ﴾ ﴿ وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ . . ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ وفي السور الأخرى ما هو أشد إثارة للعجب من هذه الاقتراحات . ذلك كالذي حكاه عنهم في سورة الإسراء : ﴿ وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء – كما زعمت – علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ! ﴾ . وكالذي حكاه عنهم في سورة الفرقان : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك ، فيكون معه نذيراً . أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ! ﴾ والتوجيه القرآني المباشر في هذه الموجة من السورة نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين أن يرغبوا في إتيانهم بآية – أية آية – مما يطلبون . وقيل للرسول – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ،

ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون ﴾ . . وقيل للمؤمنين الذين رغبت نفوسهم في الاستجابة للمشركين في طلبهم آية عندما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ! قيل لهم : ﴿ قل : إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت

(692/231)

لا يؤمنون . ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ . ليعلموا أولاً أن الذي ينقص المكذبين ليس هو الآية والدليل على الحق ، ولكن الذي ينقصهم أنهم لا يسمعون ، وأنهم موتى ، وأن الله لم يقسم لهم الهدى – وفق سنة الله في الهدى والضلال كما أسلفنا – ثم ليعلموا كذلك أن هذا الدين يجري وفق سنة لا تتبدل ، وأنه أعز من أن يصبح تحت رغبات المقترحين وأهوائهم !

وهذا يقودنا إلى المجال الأشمل لهذا التوجيه القرآني .

. إنه ليس خاصاً بزمن ، ولا محصوراً في حادث ، ولا مقيداً باقتراح معين . فالزمن يتغير ، وأهواء الناس تتمثل في اقتراحات أخرى . وأصحاب الدعوة إلى دين الله ينبغي ألا تستخفهم أهواء البشر . . إن الرغبة في الاستجابة لمقترحات المقترحين هي التي تقود

بعض أصحاب الدعوة الإسلامية اليوم إلى محاولة بلورة العقيدة الإسلامية في صورة " نظرية مذهبية " على الورق كالذي يجدونه في النظريات المذهبية الأرضية الصغيرة ، التي يصوغها البشر لفترة من الفترات ؛ ثم يمضي الزمن فإذا كلها عورات وشطحات ومتناقضات ! . . وهي التي تقود بعض أصحاب هذه الدعوة إلى محاولة بلورة النظام الإسلامي في صورة مشروع نظام – على الورق – أو صورة تشريعات مفصلة – على الورق أيضاً – تواجه ما عليه أهل الجاهلية الحاضرة من أوضاع لا علاقة لها بالإسلام (لأن أهل هذه الجاهلية يقولون : إن الإسلام عقيدة ولا علاقة له بالنظام العام الواقعي للحياة !) وتنظم لهم هذه الأوضاع ؛ بينما هم باقون على جاهليتهم يتحاكمون إلى الطاغوت ، ولا يحكمون أو يتحاكمون إلى شريعة الله . . وكلها محاولات ذليلة ، لا يجوز للمسلم أن يحاولها استجابة لأزياء التفكير البشري المتقلبة ، التي لا تثبت على حال . باسم تطور وسائل الدعوة إلى الله !

(693/231)

وأذل من هذه المحاولة محاولة من يضعون على الإسلام أقنعة أخرى ، ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات . . كالاشتراكية . . والديمقراطية . . وما

إليها . . ظانين أنهم إنما يخدمون الإسلام بهذه التقدمة الذليلة ! . . إن " الاشتراكية " مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر ؛ قابل للصواب والخطأ . وإن " الديمقراطية " نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك ، يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ أيضاً . . والإسلام منهج حياة يشمل التصور الاعتقادي ، والنظام الاجتماعي الاقتصادي ، والنظام التنفيذي والتشكيلي . . وهو من صنع الله المبرأ من النقص والعيب . . فأين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لمنهج الله – سبحانه – عند البشر بوصفه بصفة من أعمال البشر ؟ بل أين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لله – سبحانه – عند العبيد بقول من أقوال هؤلاء العبيد ؟ ! . .

لقد كان كل شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه . . يتخذونهم أولياء :

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . . ﴾ فهذا هو الشرك ! فما الوصف الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده ، ولكنهم – ويا للنكر والبشاعة ! – يستشفعون لله – سبحانه – عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم ؟ !

إن الإسلام هو الإسلام . والاشتراكية هي الاشتراكية . والديمقراطية هي الديمقراطية . . ذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة إلا العنوان الذي جعله الله له ، والصفة التي وصفه

بها . . وهذه وتلك من مناهج البشر .

ومن تجارب البشر . . وإذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس . . ولا ينبغي لصاحب الدعوة إلى دين الله ، أن يستجيب لإغراء الزي الرائج من أزياء الهوى البشري المتقلب . وهو يحسب أنه يحسن إلى دين الله !

(694/231)

على أننا نسأل هؤلاء الذين هان عليهم دينهم ، ولم يقدروا الله حق قدره . . إذا كنتم تقدمون الإسلام اليوم للناس باسم الاشتراكية ، وباسم الديمقراطية ، لأن هذين زيان من أزياء الاتجاهات المعاصرة . . فلقد كانت الرأسمالية في فترة من الفترات هي الزي المحبوب عند الناس وهم يخرجون بها من النظام الإقطاعي ! كما كان الحكم المطلق في فترة من الفترات هو الزي المطلوب في فترة التجميع القومي للولايات المتناثرة كما في ألمانيا وإيطاليا أيام بسمرك وما تزيني مثلاً ! وغدا من يدري ماذا يكون الزي الشائع من الأنظمة الاجتماعية الأرضية وأنظمة الحكم التي يضعها العبيد للعبيد ، فكيف يا ترى ستقولون غداً عن الإسلام ؟ لتقدموه للناس في الثوب الذي يحبه الناس ؟ !

إن التوجيه القرآني في هذه الموجة التي نحن بصددها – وفي غيرها كذلك – يشمل هذا

كله . . إنه يريد أن يستعلي صاحب الدعوة بدينه ؛ فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين ؛ ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه ؛ ولا مخاطبة الناس به بغير منهجه ووسيلته . . إن الله غني عن العالمين . ومن لم يستجب لدينه عبودية له ، وانسلاخاً من العبودية لسواه ، فلا حاجة لهذا الدين به ، كما أنه لا حاجة لله – سبحانه – بأحد من الطائعين أو العصاة .

ثم إنه إذا كان لهذا الدين أصالته من ناحية مقوماته وخصائصه ، التي يريد الله أن تسود البشرية . فإن له كذلك أصالته في منهجه في العمل ، وفي أسلوبه في خطاب الفطرة البشرية . . إن الذي نزل هذا الدين بمقوماته وخصائصه ، وبمنهجه الحركي وأسلوبه ، هو – سبحانه – الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما توسوس به نفسه . .

(695/231)

وفي هذه الموجة من السورة نموذج من مخاطبته للفطرة الإنسانية . . نموذج من نماذج متنوعة شتى . . فهو يربط الفطرة البشرية بالوجود الكوني ، ويدع الإيقاعات الكونية تواجه الفطرة البشرية ، ويثير انتباه الكينونة البشرية لتلقي هذه الإيقاعات . . وهو يعلم أنها تستجيب لها متى بلغتها بعمقها وقوتها : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ . .

والنموذج الذي يواجهنا في هذه الموجة هو :

﴿ وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله قادر على أن ينزل آية . ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ . .

وفي هذه الآية يحكي قول الذين يكذبون ويعارضون ويطلبون خارقة يراها جيلهم وتنتهي . . ثم يلمس قلوبهم بما يكمن وراء هذا الاقتراح لو أجيب ! إنه الأخذ والتدمير ! والله قادر على أن ينزل الآية . . ولكن رحمته هي التي اقتضت ألا ينزلها ، وحكمته هي التي اقتضت ألا يستجيب لهم فيها . .

وفجأة ينقلهم من هذا الركن الضيق في التصور والتفكير ، إلى الكون الواسع .

إلى الآيات الكبرى من حولهم . الآيات التي تتضاءل دونها تلك الآية التي يطلبونها . الآيات الباقية في صلب الكون للأجيال كلها من قبلهم ومن بعدهم تراها :

﴿ وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . ما فرطنا في الكتاب من شيء . ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ . .

وهي حقيقة هائلة . . هي حقيقة تستطيع ملاحظتهم وحدها حينذاك – حيث لم يكن لهم علم منظم – أن تشهد بها . . حقيقة تجمع الحيوان والطير والحشرات من حولهم في أمم . . لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها كذلك . . وهي الحقيقة التي تتسع مساحة رؤيتها كلما تقدم علم البشر ، ولكن علمهم لا يزيد شيئاً على أصلها ! وإلى جانبها الحقيقة

الغيبية الموصولة بها ، وهي إحاطة علم الله اللدني بكل شيء ، وتدبير الله لكل شيء . .

وهي الحقيقة التي تشهد بها تلك الحقيقة المشهودة . .

(696/231)

فأين تذهب الخارقة المادية التي كانوا يطلبون ، أمام الخارقة الكبرى التي يرونها حيثما امتدت أبصارهم وملاحظتهم وقلوبهم فيما كان وفيما سيكون ؟

إن المنهج القرآني – في هذا النموذج – لا يزيد على أن يربط الفطرة بالوجود ، وأن يفتح النوافذ بين الوجود والفطرة ، وأن يدع هذا الوجود الهائل العجيب يوقع إيقاعاته الهائلة العميقة في الكيان الإنساني . .

إنه لا يقدم للفطرة جدلاً لاهوتياً ذهنياً نظرياً . ولا يقدم لها جدلاً كلامياً (كعلم التوحيد) الغريب على المنهج الإسلامي . ولا يقدم لها فلسفة عقلية أو حسية ، إنما يقدم لها هذا الوجود الواقعي – بعالميه عالم الغيب وعالم الشهادة – ويدعها تتفاعل معه وتتجاوب ، وتتلقى عنه وتستجيب ، ولكن في ظل منهج ضابط لا يدعها – وهي تتلقى من الوجود – تضل في المتاهات والدروب .

ثم يختم الفقرة بالتعقيب على موقف المكذبين بهذه الآيات الكبرى :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات . من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ . .

فيقرر حقيقة حالة المكذبين وطبيعتهم . . إنهم صم وبكم في الظلمات . . ويقرر سنة الله في الهدى والضلال . . إنها تعلق مشيئة الله بهذا أو ذاك ، وفق الفطرة التي فطر الله عليها العباد .

بذلك تلتئم جوانب التصور الإسلامي للأمر كله . إلى جانب وضوح المنهج في الدعوة ، وتقرير موقف صاحب الدعوة ، وهو يتحرك بهذه العقيدة ، ويواجه النفوس البشرية في كل حال وفي كل جيل . .

ولعل هذه اللمسات – إلى جانب ما تقدم في مقدمة السورة – عن المنهج يكون فيها ما ينير الطريق . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1073 . 1085 ﴾

(697/231)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ مبتدأ ، وما بعده الخبر .

ويجوز أن يكون " صمٌّ " خبر مبتدأ محذوف ، والجملة خَبَرُ الأوَّل ، والتقدير : والذين كذَّبوا بعضهم صُمٌّ ، وبعضهم بُكْمٌ .

وقال أبو البقاء : " صُمٌّ وبُكْمٌ " الخبر مثل : " حُلْوٌ حَامِضٌ " ، والواو لا تمنع من ذلك " .

وهذا الذي قاله لا يجوز من وجهين :

أحدهما : أن ذلك إنما يكون إذا كان الخبرانِ في معنى خبر واحد ، لأنهما في معنى : " مُزٌّ " ، وهو " أعْسَرُ يَسَرٌ " بمعنى " أضْبَط " ، وأمَّا هذان الخبرانِ فكل منهما مستقلٌّ بالفائدة .

والثاني : أن " الواو " لا تجوز في مثل هذا غلا عند أبي عَلِيَّ الفارسي وهو وجه ضعيف .

والمراد بالآيات ، قيل : جميع الدَّلائل والحججِ .

وقيل : القرآن ومحمد عليه السلام .

قوله : " في الظلمات " فيه أوجه :

أحدهما : أن يكون خبراً ثانياً لقوله : " والذين كَذَّبُوا " ويكون ذلك عبارة عن العَمَى ويصير نظير الآية الأخرى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : 18] فَعَبَّر عن العَمَى بلازمه ، والمراد بذلك عَمَى البَصِيرَةِ .

الثاني : أنه متعلِّق بمحذوف على أنه حالٌ من الضمير المُسْتَكِنّ في الخبر ، تقديره : ضالون حَالَ كونهم مُسْتقرِّين في الظلمات .

الثالث : أنه صَفَةٌ لـ " بكم " ، فيتعلَّق أيضاً بمحذوف ، أي : بكم كائنون في الظلمات .

الرابع : أن يكون ظَرْفاً على حقيقته ، وهو ظَرْفٌ لـ " صم " ، أو لـ " بكم " .

قال أبو البقاء : أو لما ينوب عنهما من الفَعِل ، أي : لأن الصفتين في قوة التصريح بالفعل .

قوله : ﴿ مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ﴾ في مَنْ " وجهان :

أحدهما : أنها مبتدأ ، وخبرها ما بعدها ، وقد عُرِفَ غير مَرَّةٍ .

ومفعول " يشأ " محذوف ، أي : من يشأ الله إضلاله .

والثاني : أنه مَنْصُوبٌ بفعل مُضْمَرٍ يفسِّرُهُ ما بعده من حيث المعنى ، ويقدّر ذلك الفعل متأخّراً عن امس الشَّرْطِ لئلا يلزم خروجه عن الصَّدر .

وقد تقدَّمَ التَّنْبيهُ على ذلك ، وأن فيه خلافاً ، والتقدير : من يُشْقِ اللَّهُ يَشَأ إضلاله ، ومن يُسْعِدْ يَشَأ هدايتَهُ .

فإن قيل : هل يجوز أن تكون " من " مفعولاً مُقدّماً لـ " يشاء " ؟

(698/231)

فالجواب : أن الأَخْفَشَ حكى عن العربِ أنَّ اسم الشَّرْطِ غير الظرف ، والمضاف إلى اسم الشرط لا بد أن يكون في الجَزَاءِ ضَمِيرٌ يعود عليه ، أو على أضيف إليهن فالضَّمير في " يضلله " و " يجعله " : إمّا أن يعود على المُضافِ المحذوف ، ويكون كقوله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ

فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ ﴾ [النور : 40] .

فالهاء في " يغشاه " تعود على المُضاف ، أي : كَذي ظلمات يَغْشَاهُ .

وإمَّا أن يعود على اسم الشرط [والأول ممتنع ؛ إذ يصير التقدير : إضلالُ من يشأ الله يضلله ، أي : يضلّ الإضلال ، وهو فاسد .

والثاني أيضاً مُمْتَنِعٌ لخلو الجواب من ضَمِيرٍ يعود على المضاف إلى اسم الشرط] .

فإن قيل : يجوز أن يكون المعنى : من يشأ الله بالإضلالِ ، وتكون " من " مفعولاً مقدّماً ؛ لأن " شاء " بمعنى " أراد " ، و" أراد " يتعدّى بالباء .

قال الشاعر : [الطويل]

2157 - أرَادَتْ عَرَارًا بالهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ . . .

عَرَارًا لَعَمْرِي بالهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ

قيل : لا يلزم من كَوْنِ " شاء " بمعنى " أراد " أن يتعدّى تعديته ، ولذلك نَجِدُ اللفظ الوحدَ تختلف تعديتُهُ باختلاف متعلّقة ، تقول : دخلت الدَّارَ ، ودخلت في الأمْرِ ، ولا تقول : دخلت الأمر ، فإذا كان في اللَّفظِ الواحد فَمَا بَالُكَ بلفظين ؟ ولم يُحْفَظْ عن العَربِ تعديَةُ " شاء " بالباء ، وإن كانت في معنى أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 132.129 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39) ﴾

الذين فاتتهم العناية الأزلية سَدَّ الحرمانُ أسماعَهم ، وغَشَّى الخِذلان أبصارَهم . والإرادة لا تُعارَض ، والمشيئةُ لا تزَاحَم ، والحقُّ - سبحانه - في جميع الأحوالِ غالبٌ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 470. 471 ﴾

(699/231)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman

Bin Mohammed

AL-QAMMASH

12